موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

تأليف
أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف
د. سليمان الدريع

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

موسوعة محاسن الإسلام

ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب

ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد الأول

المقدمة وبطلان ألوهية المسيح

دار إيلاف الدولية

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام

ورد شبهات اللئام

١

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم
للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

فريق العمل
أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

أبو محمد صالح حسون	محمود عبد الحكيم
سيد سيد عبد العال	إيهاب عبد الواحد
عبد الرحمن إسماعيل	محمد عوض صالح
أبو حسام الطرفاوي	سليمان دويدار
أحمد ناجي	عبد الله الغندور
مصطفى أبو الغيط	محمد غنيم
محمد عبد العزيز	مدحت عبد العظيم
أحمد بنداري	وليد دويدار

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد

فقد عرف أعداء الإسلام أن مصدر عزة هذا الدين وعزة أهله، وسر تجدده في نفوس المسلمين هو تمسكهم بهذا القرآن العظيم وسنة نبيهم الأمين، هذا القرآن الذي لا يخلق من كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يمله القارئ والسامع ولا يزداد به المؤمن إلا يقينا بدينه وتعلقا به، وهو المعجزة الخالدة، والآية الباقية ما بقي الليل والنهار، وهو المحفوظ بوعد الله كما قال: {**إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [الحجر:٩] .

وقد اجتهد أعداء الدين في الطعن في هذا القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة؛ حتى يسلخوا المسلمين عن دينهم، فيصبحوا صيدًا سهلًا وغنيمة باردة.

وحرب أعداء الدين هذه شاملة لكل أساسيات هذا الدين وقواعده؛ فلم يتركوا بابًا يشوهون فيه صورة الإسلام إلا اتبعوه ولا سبيلًا إلا سلكوه، فهم يعلمون أن المسلمين لو تعرفوا على دينهم الصحيح بنقائه لدعاهم ذلك إلى العزة بهذا الدين ونبذ كل منهج وطريق يخالف شريعة سيد المرسلين

أسباب جمع هذه الموسوعة المباركة

زادت الحاجة لإخراج عمل موسوعي يتناول كل ما يثار حول الإسلام من تشكيك وتلبيس وكذب وافتراء على الملة الغراء، ولقلة الحياء وذهاب المروءة عن أهل الضلال استباحوا أن يكذبوا على المسلمين ويدسوا على المساكين ما يروج من المشكلات والضغن المبين، فكان لزامًا على أهل العلم والغيورين أن يثوروا على هؤلاء الآثمين بدحض شبهاتهم وكشف زيغهم وبهتانهم وفضح مخططاهم {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ} [الأنفال: ٤٢]

وأجمل الاسباب الداعية لهذا العمل أيضا في التالي:

١- كثرة المطاعن في هذا الزمن على الإسلام، واتهامه بالتناقض، سواء من

المستشرقين، أو من أعداء الدين، أو ممن ينتسبون للإسلام.

٢- تأثر بعض المسلمين بهذه الشبه التي تثار، فكان لزاما على طلبة العلم وأهله كشف هذه الشبه، وبيان فسادها للناس أجمعين.

٣- إثبات إعجاز القرآن، وأنه من عند الله، وأن الله تكفل بحفظه حقا. وإثبات أن السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام محفوظة أيضا من الزيف والافتراء وهذا يدل على حفظ الله ورعايته للوحيين الكريمين

٤- كشف شبه الطاعنين وأكاذيبهم، وبيان أنها ترديد لما أورده الطاعنون السابقون.

٥- كشف المنافقين المندسين بين المسلمين للطعن في هذا الدين.

٦- جهاد أعداء الله بالكلمة وهو أحد أنواع الجهاد، وقد كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالدفاع عنه وهجاء المشركين ففي صحيح مسلم (٢٤٩٠) عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهﷺ، قَالَ: «اهْجُوا قُرَيْشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ» فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ: «اهْجُهُمْ» فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ حَسَّانُ: قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَعْجَلْ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا، حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي» فَأَتَاهُ حَسَّانُ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ لَخَّصَ لِي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ لِحَسَّانَ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ»، وَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى»

قَالَ حَسَّانُ:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا ... رَسُولَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
ثَكِلْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَدَاءِ
يُبَارِينَ الْأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ .... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِنْ أَعْرَضْتُمُو عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ .... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ: قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا ... يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ
وَقَالَ اللهُ: قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ .... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ
وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

قال ابن القيم: الْجِهَادُ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ: جِهَادُ النَّفْسِ، وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ.

فَجِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ أَيْضًا:

إِحْدَاهَا: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ.

وَأَمَّا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَأَرْبَعُ مَرَاتِبَ: بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْمَالِ، وَالنَّفْسِ، وَجِهَادُ

الْكُفَّارِ أَخَصُّ بِالْيَدِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَخَصُّ بِاللِّسَانِ. (١)

٧ – أن هذا الباب لم يُخدم بما يستحقه مع اشتداد الحاجة إليه فلم يخرج عمل موسوعي شامل يدحض شبهات القوم ويبين للمسلمين نقاء الدين ونفي التبديل عنه والتحريف.

٨– خطورة الطعن في القرآن والسنة ؛ حيث إنه من نواقض العهد مع أهل الذمة، بل من نواقض الإسلام.

ولما كان الأمر على ما ذكرت فقد دفعني ذلك إلى المساهمة بجهد في إخراج موسوعة علمية فيها رد على أهم ما يثار حول الإسلام من شبهات والرد عليها بطريقة علمية بعيدة عن المهاترات والأغاليط وبذاءة الألفاظ لتكون مثالاً على سمو الإسلام وحسن أخلاق أتباعه في المناظرة والرد على المخالف مهما تطاولوا علينا ، فكان أن تم التعاقد مع الأخ الشيخ / **أحمد بن سليمان** على التعاون في إخراج هذا العمل في مقر عمله بمكتبه في مصر ورأيت أننا اشتركنا في نفس الأهداف والغايات لخروج مثل هذا العمل العظيم للمسلمين ليعم النفع به.

وبدأت مسيرة العمل في مصر وكانوا يرسلون لي العمل تباعا وكانت لي ملاحظات استشرت فيها بعض أهل العلم وأرسلتها لهم ودارت بيننا مناقشات حول بعض القضايا حتى انتهى العمل بعد قرابة خمس سنوات من العمل الدؤب وكان الإخوة في مصر يبدون كل الاستعداد لتعديل أي ملاحظة أو تغيير أي كلمة ليخرج العمل سالما من الخلل والخطأ بقدر الإمكان، والكمال عزيز ولكن التسديد والإتقان لا بد منه ، وكانت المحصلة كتابة ثمانية عشر مجلدا تضمنت شبهات عن الكتاب والسنة النبوية وما يتعلق بهما من فقه وعقيدة وحديث والكلام حول الصحابة وما أثير حولهم وغير ذلك مما هو مدون بتفاصيله في الموسوعة.

وقد ألمح لي بعض أهل العلم أن الكتاب لو اختصر قليلا وضم بعضه إلى بعض بحذف ما يتكرر واختصار ما يمكن اختصاره ليقل حجم الكتاب، فطلبت ذلك من الشيخ أحمد حفظه الله وما كان منه إلا أن وافق على هذه الرغبة حرصًا على عموم نفع

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٩)

الكتاب وتيسير اقتنائه، فتمت مراجعة الكتاب بكامله والنظر في المواضع التي يمكن اختصارها أو تلخيص ما يمكن تلخيصه من غير إخلال أو سقوط ما لابد منه فخرج الكتاب في صورته الأخيرة في اثني عشر مجلدًا بفهارسه الموضوعية وهو بهذا يسد ثغرة في التراث الإسلامي ويساعد على التعرف على الإسلام تعرفًا صحيحًا خاليًا من الزيف والتحريف ومدافعًا عن ما أثير حول هذا الدين بأسلوب عصري سهل متين

والحمد لله على توفيقه وتسديده لنا وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

كتبه
د/ سليمان بن دريع العازمي

مقدمة العمل

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ (النساء: ١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب ٧١: ٧٠)

أما بعد، فإن الإسلام أضخم حقيقة وأصلب عودًا وأعمق جذورًا من أن يجتثه الأعداء من على وجه الأرض.

ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾ (الصف: ٨).

ظهر في ذاته كدين، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته، فأما الديانات الوثنية فليست في شيء من هذا.

وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمها والناسخ لها والمهمين عليها.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ (الصف: ٩)

ولقد أدرك الغربيون هذه الحقيقة فبعد أن فشلت حملاتهم الصليبية ركّزوا جهودهم على الغزو الفكري.

يقول المستشرق جاردنر: إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا.

ويقول أحد المبشرين: إن القوة الكامنة في الإسلام هي التي وقفت سدًا منيعًا في وجه انتشار المسيحية.

وإن أعظم ما يواجه المسلمون اليوم هو الغزو الفكري الرهيب الذي استولى على عقول بعض النفوس فأفسدها حتى التبس عليهم الحق بالباطل، والخطأ بالصواب وراجت عليهم الأباطيل والمنكرات. وقد رأينا هجمة علمية وغارة فكرية من بعض القساوسة ورهبان الكنائس على الإسلام وذلك في مواعظهم وكتاباتهم وقنواتهم الإعلامية، وتطاولوا فيها على الإسلام وثوابته ورموزه ونبيه ﷺ، وهذا أمر مستعجب إذ أنهم يعلمون أن ما في أيديهم من الدين محرف والتناقض فيه مخوف وأسفاره فيها عبارات وضعها كل مزيف، وليتهم يسكتون حتى لا نفضحهم ولكنهم يعلنون الحرب على الدين الإسلامي وأهله، مع أن البون بيننا وبينهم شاسع والحق واضح وتميزنا عليهم أمر ظاهر باهر عند من له مسكة من عقل زاجر.

"كَيْفَ لَا يُمَيِّزُ مَنْ لَهُ أَدْنَى عَقْلٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ بَيْنَ دِينٍ قَامَ أَسَاسُهُ وَارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ عَلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مَعَ الْإِخْلَاصِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ، وَمُعَامَلَةِ خَلْقِهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، مَعَ إِيثَارِ طَاعَتِهِ عَلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَبَيْنَ دِينٍ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِصَاحِبِهِ فِي النَّارِ، أُسِّسَ عَلَى عِبَادَةِ النِّيرَانِ، وَعَقْدِ الشَّرِكَةِ بَيْنَ الرَّحْمَنِ وَالشَّيْطَانِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَوْثَانِ، أَوْ دِينٍ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى عِبَادَةِ الصُّلْبَانِ وَالصُّوَرِ الْمَدْهُونَةِ فِي السُّقُوفِ وَالْحِيطَانِ، وَأَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ عَنْ كُرْسِيِّ عَظَمَتِهِ فَالْتَحَمَ بِبَطْنِ أُنْثَى، وَأَقَامَ هُنَاكَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، بَيْنَ دَمِ الطَّمْثِ فِي ظُلُمَاتِ الْأَحْشَاءِ تَحْتَ مُلْتَقَى الْأَعْكَانِ، ثُمَّ خَرَجَ صَبِيًّا رَضِيعًا شَبَّ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَبْكِي وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَبُولُ وَيَنَامُ وَيَتَقَلَّبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، ثُمَّ أُودِعَ فِي الْمُكْتَبِ بَيْنَ صِبْيَانِ الْيَهُودِ يَتَعَلَّمُ مَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ، هَذَا وَقَدْ قُطِعَتْ مِنْهُ الْقُلْفَةُ حِينَ الْخِتَانِ. ثُمَّ جَعَلَ الْيَهُودُ يَطْرُدُونَهُ وَيُشَرِّدُونَهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، ثُمَّ قَبَضُوا عَلَيْهِ وَأَحَلُّوهُ أَصْنَافَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، فَعَقَدُوا عَلَى رَأْسِهِ مِنَ الشَّوْكِ تَاجًا مِنْ أَقْبَحِ التِّيجَانِ، وَأَرْكَبُوهُ قَصَبَةً لَيْسَ لَهَا لِجَامٌ وَلَا عِنَانٌ، ثُمَّ سَاقُوهُ إِلَى خَشَبَةِ الصَّلْبِ مَصْفُوعًا مَبْصُوقًا عَلَى وَجْهِهِ، وَهُمْ خَلْفَهُ وَأَمَامَهُ وَعَنْ شَمَائِلِهِ وَعَنِ الْأَيْمَانِ. ثُمَّ أَرْكَبُوهُ ذَلِكَ الْمَرْكَبَ الَّذِي تَقْشَعِرُّ

مِنْهُ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَبْدَانِ، ثُمَّ شُدَّتْ بِالْحِبَالِ يَدَاهُ وَالرِّجْلَانِ، ثُمَّ خَالَطَهَا تِلْكَ الْمَسَامِيرُ الَّتِي تَكْسِرُ الْعِظَامَ وَتُمَزِّقُ اللُّحْمَانَ، وَهُوَ يَسْتَغِيثُ: يَا قَوْمِ ارْحَمُونِي! فَلَا يَرْحَمُهُ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ.

هَذَا وَهُوَ مُدَبِّرُ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ الَّذِي يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. ثُمَّ مَاتَ وَدُفِنَ فِي التُّرَابِ تَحْتَ صُمِّ الْجَنَادِلِ وَالصَّوَّانِ، ثُمَّ قَامَ مِنَ الْقَبْرِ وَصَعِدَ إِلَى عَرْشِهِ وَمُلْكِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا كَانَ.

فَمَا ظَنُّكَ بِفُرُوعِ هَذَا أَصْلُهَا الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ الْبُنْيَانُ، أَوْ دِينٍ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى عِبَادَةِ الْإِلَهِ الْمَنْحُوتِ بِالْأَيْدِي بَعْدَ نَحْتِ الْأَفْكَارِ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ وَالْأَلْوَانِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ وَالتَّذَلُّلِ وَالْخُرُورِ سُجُودًا عَلَى الْأَذْقَانِ، لَا يُؤْمِنُ مَنْ يَدِينُ بِهِ بِاللهِ وَلَا مَلَائِكَتِهِ وَلَا كُتُبِهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا لِقَائِهِ يَوْمَ يَجْزِي الْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ وَالْمُحْسِنَ بِالْإِحْسَانِ. أَوْ دِينِ الْأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ الَّذِينَ انْسَلَخُوا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ كَانْسِلَاخِ الْحَيَّةِ مِنْ قِشْرِهَا، وَبَاءُوا بِالْغَضَبِ وَالْخِزْيِ وَالْهَوَانِ، وَفَارَقُوا أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ وَنَبَذُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَاشْتَرَوْا بِهَا الْقَلِيلَ مِنَ الْإِيمَانِ، فَتَرَحَّلَ عَنْهُمُ التَّوْفِيقُ وَقَارَنَهُمُ الْخِذْلَانُ، وَاسْتَبْدَلُوا بِوِلَايَةِ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وِلَايَةَ الشَّيْطَانِ[1].

أما وقد تمادوا في غيِّهم وضلالهم فليندموا على ما قدموا وليحزنوا على ما اقترفوا وشككوا؛ لأن الله تعالى قد حفظ هذا الدين وسد على الزائغين طرق التشكيك والتلبيس على المسلمين، ونصب في كل فترة من ينبري لصد عدوان الصائلين، وقد أمرنا نبينا أن نرد على الحاقدين والمارقين.

لما قال أبو سفيان يوم أحد: أفيكم محمد؟ أفيكم أبو بكر، أفيكم ابن الخطاب؟ قال لأصحابه: «لا تجيبوه». تهاونًا به وتحقيرًا لشأنه، فلما قال: أُعل هبل، قال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجل». ولما قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال لهم: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

---

(١) هداية الحيارى لابن القيم ١/ ٢١٨-٢٢٠.

وليت من تكلم الهذيان تنكب عن ميدان الفرسان، ليسلم من أسنة ألسنتهم عرضه، وينطوي من بساط المشاجرة طوله وعرضه، ولم يسمع ما يضيق به صدره، ولم ينتهك بين أفاضل الأمة ستره، وإذا أبى إلا المهارشة والمناقشة، والمواحشة والمفاحشة، فليصبر على حزّ الحلاقم، ونكز الأراقم، ونهش الضراغم، والبلاء المتراكم المتلاطم، ومتون الصوارم.

فوالذي نفسي بيده؛ ما بارز أهل الحق قط قرن إلا كسروا قرنه، فقرع من ندم سنه، ولا ناحرهم خصم إلا بشّروه بسوء منقلبه، وسدّوا عليه طريق مذهبه لمهربه، ولا فاصحهم أحد -ولو كان مثل خطباء إياد- إلا فصحوه وفضحوه، ولا كافحهم مقاتل -ولو كان من بقية قوم عاد- إلا كبُّوه على وجهه وبطحوه، هذا فعلهم مع الكماة الذين وردوا المنايا تبرعًا، وشربوا كؤوسها تطوعًا، وسعوا إلى الموت الزؤام سعيًا، وحسبوا طعم الحمام أريًا، والكفاة الذين استحقروا الأقران فلم يهلهم أمر مخوف، وجالوا في ميادين المناضلة واخترقوا الصفوف، وتجالدوا لدى المجادلة بقواطع السيوف [1].

فكان لزامًا على كل منابر الدعوة إلى الله أن تتصدى لهذه الحملات التي تسعى بكل طاقاتها إلى إطفاء نور الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الصف: ٨).

وها نحن ومن هذا المنطلق قد انبرينا وشمَّرنا وجاهدنا للصد عن حياض هذا الدين العظيم. ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، فوحَّدنا الجهود والطاقات، وضننَّا بالأنفاس واللحظات؛ لجمع موسوعة هي بحق منتهى الغايات، جمعت بين دفتيها أقوى ما يدعيه المخالفون من المتشابهات والمتناقضات والأغلوطات فيما أعلم، والرد عليها من كل الوجوه التي وقفنا عليها بشتى المسكتات: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنعام: ٤٥).

والله تعالى من حكمته يقيض في كل حقبة من الزمان حراسا لشريعته يذبون عنها كل باطل ودخيل،فلم يخل زمن من المجرمين ويسلط الله عليهم المؤمنين، فلما قام المبتدعة

---

(١) انظر: ما كتبه العلامة محمود شكري الآلوسي في مقدمة كتابه غاية الأماني في الرد على النبهاني.

وكذبوا على الناس في حديث رسول الله ﷺ قام علماء الحديث فبينوا كذبهم وافتراءهم.

عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ، فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ[(١)].

وقِيلَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ: هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْمَصْنُوعَةُ؟ قَالَ: «يَعِيشُ لَهَا الْجَهَابِذَةُ»[(٢)]

منشأ الشبهات:

لقد حاول أعداء الإسلام إلصاق التهم به، وإشاعة التناقض فيه، وإظهار محاسنه في صورة تشمئز منها النفوس ،ولو تتبعنا ما يقولونه فإنه لا يخرج عن عدة نقاط.

١) أنهم اعتمدوا على أقوال الحاقدين على الإسلام من المستشرقين والمنافقين والكُتَّاب العرب المعاندين للدين.

٢) المرويات الضعيفة والمكذوبة؛ فقد أتوا بها ليعارضوا بها الصحيح ولم يبينوا أن الضعيف لا حجة فيه.

٣) وبعضهم نقل أقوالًا مبتورة ليتغير المعنى على حسب ما يريد ثم ذاع الكلام المبتور على أنه تمام لا بتر فيه.

٤) وبعضهم أتى بأقوال شاذة أو مرجوحة ذكرها العلماء في مصنفاتهم وردوا عليها، فأتى هؤلاء وعرضوا على الناس هذه الأقوال على أنها معتمدة عند قائلها ليروجوا تلبيساتهم على عوام المسلمين.

٥) سوء الفهم لنصوص الكتاب والسنة، فهو لا يرجع إلى شروح العلماء الراسخين؛ وإنما يفسر النص على قدر فهمه وغالبهم جهلة بلسان العرب فأنَّى لمثل هؤلاء أن يفهموا أفصح الكلام الذي هو كلام الله عز وجل.

٦) الاستعانة بشبهات وأقوال الفرق الضالة والتي خالفت منهج أهل السنة والجماعة كشبهات الرافضة، والخوارج، والجهمية، وغلاة الصوفية وغيرهم.

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة.

(٢) الكفاية للخطيب (١/ ٣٦).

منهج الرد على الشبهات

لا شك أن الأعمال الموسوعية تحتاج إلى نفس طويل، وصبر من حديد، وقد استغرق العمل في هذه الموسوعة حوالي خمس سنوات.

ولقد سار العمل في هذه الفترة على مراحل:

المرحلة الأولى: الجمع: لقد تتبعنا الشبهات المثارة حول الإسلام من مصادرها؛ من خلال المؤلفات والمجلات العلمية، والمراجع المعنية بهذا الأمر، ثم تتبعنا ذلك على مواقع الإنترنت.

ثم قمنا بعد ذلك بصياغتها بأسلوب فصيح مؤدب، إذ من عادة القوم السب والشتم بما لا يليق ذكره. وحاولنا جاهدين الاستقصاء في جمع كل ما تفوهوا به؛ غير أنا وجدنا بعض هذه الشبه لا تستحق الذكر فما هي إلا نوع من السباب والشتم ونحن ننزه موسوعتنا عن ذكرها، كذلك بعضهم لا يجيد قراءة العربية فقرأ النص خطأ ثم بنى الشبهة عليه فلا فائدة من الرد عليه فأمره ظاهر مكشوف.

ثم قمنا بتقسيمها تقسيمًا موضوعيًا على الأبواب ليسهل عرضها وتناولها.

المرحلة الثانية: الرد: في كل شبهة مثارة كنا نجمع فريق العمل لنتشاور في محاور الرد وبيان الوجوه المعتمدة في بيان زيف الشبهة، وكنا نجد عونًا من الله، وفتحا مبينًا للرد عليهم بمنطقهم فغايتنا بيان الحق ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

فكان العمل على هذا النحو:

أولًا: تم الرد على الشبهات على صورة وجوه- في الغالب- الوجه الواحد هو رد دامغ في نفسه لكننا لم نكتف بالوجه الواحد فأردنا الاستقصاء في الرد من كل الوجوه النقلية والعقلية والعلمية.

ثانيًا: تضمن الرد- في أكثر الشبهات- وجهًا هامًّا وهو الرد على المخالفين من مصنفاتهم التي يعتمدون عليها. غالبها من كتابهم المقدس بعهديه القديم والجديد.

ثالثًا: توجد بعض الشبهات ربما ألقى بها رجل يُحسب على الإسلام إلا أنه من دعاة

الضلالة وهذا لا يحتج به علينا. أو يلزمنا بحديث ضعيفٍ أو مكذوبٍ ولا حجة في هذا، أو بقول شاذ خلاف قول الجماهير. فأردنا أن نعلن ما نعتقده وندين به ونلتزم ونُلزِم به المخالفين وما سواه فلا حجة علينا به.

رابعًا: قد تحتوي الشبهة الواحدة الأساسية على عدة شبهات فرعية فنقوم بالرد على كل هذه الشبهات. لذا ننصح القارئ بالصبر والمثابرة عند قراءته للرد خاصة في الشبهات التي تم الاستطراد في الرد عليها.

خامسًا: حاولنا في ردنا أن نُعَلِّم القارئ المعنى الصحيح من الآية أو الحديث لتتم الفائدة، ونحن نعتقد أن هذا من أولى الأولويات، فالجاهل إن طالع كتابنا سيتعلم ولابد، أما المعاند والجاحد – فنسأل الله له الهداية – فلن يصح في ذهنه شيء منها إلا أن يشاء الله، فنهار الشريعة بادٍ لكل ذي عين ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

سادسًا: استفدنا من جهود السابقين لنا في هذا المضمار؛ فحاولنا أن نؤلف بين وجوه الرد ونختار منها ما وافق الحق، وندع ما تكلف فيه صاحبه في وجوه الرد.

سابعًا: عزونا الآيات والأحاديث والأقوال إلى مصادرها إبراءً للذمة، وتحقيقًا للقول، ومنفعة لمن أراد المزيد.

ثامنًا: إن كان أصل الشبهة يدور على آية من القرآن استقصينا في بيان تفسيرها ووجوه الرد من أقوال المفسرين.

وإن كان مدارها على حديث فإن كان ضعيفًا اجتهدنا قدر الطاقة في بيان ضعفه، وإن كان في الصحيحين اكتفينا بالعزو لهما في بيان اللفظ الصحيح، وإن كان في غيره توسعنا في تخريجه بقدر الحاجة والمصلحة.

تاسعًا: استفدنا من بعض مواقع (الإنترنت) في معرفة بعض الشبهات والرد عليها وقد عزونا لهذه المواقع.

عاشرًا: تضمنت بعض الردود ردودًا عامة، وردودًا خاصة؛ فنبدأ ببيان الرد العام

والذي يبين منهج الإسلام أو اعتقاد المسلمين في المسألة، ثم تفصيل الرد بعد ذلك حسب الشبهة الملقاة.

الحادي عشر: جعلنا آخر الردود الرد على النصارى من مصنفاتهم التي يعتمدون عليها لبيان ما عندهم من التناقض والتحريف والتبديل بما لا يخفى على أدنى منصف من العقلاء، فهم معنا كمن قال: رمتني بدائها وانسلت.

فهم يرموننا بما هو فيهم، ولو كان هناك حياء ما اجترؤوا على ما قدموا ولكن عزاؤنا في ذلك قول النبي ﷺ:

« **إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ** » [1].

وربما سأل سائل لم الحمل على أهل الكتاب خاصة ؟ والجواب: أنهم الطائفة التي يعود أصلها إلى كتاب سماوي حق، ولكن وقع عليه قلم التحريف، أما الطوائف الأخرى كالعلمانية والملاحدة ومن سار على دربهم فهم ليسوا بشيء ولا على شيء ، ثم إن الجميع يتناقلون نفس الاعتراضات والترهات فما يقوله النصراني من شبهة يلوكها العلماني والملحد والليبرالي وغيرهم .

الثاني عشر: قسمنا الموسوعة إلى عدة أقسام:

١-قسم شبهات العقيدة.

٢- القرآن وعلومه القرآن، ورتبناه على ترتيب المصحف.

٣- السنة وعلومها.

٤-الأنبياء والنبي

٥- زوجات النبي ﷺ.

٦- الصحابة.

٧- الفقه.

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٨٤).

٨- المرأة.

٩- اللغة.

١٠- وأخيرًا: شبهات الإعجاز العلمي.

الثالث عشر: وقبل أن نشرع في هذه الردود فقد قدمنا بمقدمة لابد منها تناولنا فيها: الصراع بين الحق والباطل، والمناظرة وآدابها، وعن حال العالم قبل الإسلام، ثم التعريف بالإسلام، وخصائصه، وسماحته، وعن وسطيته، وعن الحقوق الإسلامية، وماذا قال الغرب عن الإسلام، وأيضًا التعريف بنبي الإسلام ﷺ؛ فضائله، وأخلاقه، وشمائله، وعن صحابته، وماذا قالوا عنه ﷺ؟.

المرحلة الثالثة: المراجعة: وفي هذه المرحلة كان التركيز على الضبط العام للكتاب من قواعد الإملاء، واللغة، ثم نظرة أخيرة عامة على وجوه الرد؛ فربما زدنا وجها غاب عنا، أو حذفنا آخرًا ليس في بابه.

جهود العلماء في الرد على الشبهات: لم يُقصر علماء المسلمين في القيام بواجبهم في الرد على هذه الشبهات والتي أثارها النصارى على الخصوص وتلوكها الألسنة من كل المشارب على العموم ، فقاموا رحمهم الله كلٌ بطريقته الخاصة تولى الرد عليهم بما يدحض شبهتهم ويخيب رجاءهم، من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح». وتلميذه ابن القيم في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى». والقرطبي في «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام». والقرافي في « الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على الملة الكافرة» والآلوسي- ابن المفسر- في «الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح» وابن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ومن المعاصرين الشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي « إظهار الحق» والزرقاني في «مناهل العرفان في علوم القرآن» والدكتور محمد أبو شهبة في « الدفاع عن السنة» والشيخ أحمد ديدات في كتبه ومناظراته الشهيرة. والدكتور

عمر بن إبراهيم رضوان في «آراء المستشرقين حول القرآن الكريم». والدكتور إبراهيم عوض في كتبه. واللواء أحمد عبد الوهاب في كتبه... وغيرهم كثير لكنها ردود فردية فكان عملنا هذا تجميع ردود هؤلاء السابقين تحت منهج واحد بخطة شاملة والله المستعان.

فريق العمل: إن هذا الجهد المبارك كان نتاج جهود متضافرة من طلاب نابهين غيورين على دينهم فدفعهم حماسهم، وحميتهم إلى جمع الهمم على هذا العمل المبارك، وكان اشتراطنا في العمل أن لا يقتحم فيه إلا من شعر بأهمية هذا العمل العظيم ليستشعر أنه على ثغر لابد من المجاهدة عليه، وكان يجمعنا مجمع التوحيد الإسلامي بمحلة بلبيس شرقية من جمهورية مصر العربية فنلتقي في مجالس راتبة، نجمع الشبهات، ونتداول الردود، ونجمع المصنفات، ونناقش الوجوه، ولكل دوره المناط به،

ولابد في مثل هذه الأعمال إعطاء كل ذي حق حقه، فحقهم علينا أن نذكر كل من شارك معنا في هذه الموسوعة المباركة.

وها هو بيان بأسماء المشاركين في العمل:

١ - **أبو محمد صالح حسون**: وقد قام بجهد كبير في العمل، وكان مسئولًا عن توزيع الأعمال على الباحثين، ومتابعتهم، وقد شارك أيضًا بجهده في مقدمة الكتاب مع شبهات القرآن، والفقه، وغير ذلك. ثم كان هو القائم على الضبط الفني للكتاب والمراجعة الأخيرة له فجزاه الله خيرًا.

٢- **أبو عبد الرحمن محمود عبد الحكيم**: وشارك معنا في المقدمة، وفي إثبات تحريف التوراة والإنجيل، وبعض شبهات القرآن، وغيرها.

٣- **أبو عمر سيد عبد العال**: وشارك في ملفات العقيدة، والصحابة، والمرأة، وغيرها.

٤ - **إيهاب عبد الواحد**: شارك معنا في ملفات علوم القرآن، والإعجاز العلمي.

٥ - **عبد الرحمن إسماعيل**: شارك في علوم القرآن، وملفات القرآن، والسنة.

٦ - **محمد عوض**: شارك في المقدمة، وملفات علوم القرآن، والقرآن، والأنبياء.

٧- **أبو حسام الطرفاوي**: شارك في ملفات العقيدة.

٨- **سليمان دويدار**: شارك في شبهات الحدود.

٩، ١٠ - **عبد الله الغندور وأحمد ناجي**: شاركا في الشبهات اللغوية.

١١ - **مصطفى أبو الغيط**: شارك في ملفات شبهات المرأة، وانتشار الإسلام بالسيف.

١٢ - **محمد غنيم**: شارك في شبهة الفداء والصلب.

١٣ - **محمد عبد العزيز السيد**: شارك في ملفات علوم السنة، ومراجعة شبهات الفقه.

١٤ - **مدحت عبد العظيم**: شارك في ملفات علوم القرآن.

١٥ - **أحمد بنداري**: شارك في ملفات القرآن، والسنة.

١٦ـ **وليد دويدار** وهو الذي قام بجمع الشبهات في بادئ العمل وكذلك جمع المصادر المتعلقة بالردود ثم انقطع عن الإتمام نظرا لظروف خاصة به.

هذا؛ وقد جمع العبد الفقير إلى الله/ **أحمد بن سليمان** طلبة العلم والباحثين، ووضعت الخطة لهم وحددت عناصر الرد على كل شبهة بما يقتضيه المقام من توسع في موضع وبذل الجهد في تتبع المسألة لقطع اللجاج فيها واختصار في آخر بحسب المقام والحال في الشبهة، وناقشتهم في وجوه الرد، ثم راجعت العمل كاملًا أربع مرات، فزدت بعض الوجوه، وحذفت ما لا يصلح في الرد، أو كان فيه تعسف، أو مخالفة للمنهج الصائب عند السلف في الرد كما بينا سابقًا.

وقد كان د/ سليمان بن دريع العازمي صاحب فكرة الموسوعة والمشرف العام عليه فجزاه الله خيرا ،وكانت له ملاحظات أخذناها بعين الجد والاجتهاد وأثبتنا منها ما كان في الإمكان، وكان آخر ذلك أن العمل خرج بعد سنوات عدة في ثمانية عشر مجلدًا فأشار علي جزاه الله خيرًا باختصار العمل وضم ما يمكن ضمه وحذف مالا يخل بنظمه فوافق ذلك رغبة عندي فراجعنا العمل مرة أخرى على منهج يختصر العمل قليلًا ولا يخل بأصله ومحتواه فكانت المحصلة أن خرج في اثني عشر مجلدًا ولعل هذا أيسر للقارئ.

وقد أرسلت نسخة من العمل لأخي الشيخ أبي حسين خالد الرباط للنظر فيها من الناحية الفنية وذلك بمكتبه في دار الفلاح بالفيوم فجزاه الله خيرًا على ما قدم.

فها هو بين يديك سفرٌ نفيس، وجمع سهلٌ محقق لطيف، جمعنا فيه المتفرقات، واستوعبنا في الرد الوجوه المتآلفات حسب ما وصل إليه علمنا، فأثمر ردًّا على ما يربو على ستمائة شبهة أساسية وفي ثناياها شبهات فرعية فوفقنا الله لدحضها.

فنسأل الله أن يتقبله عنده، وأن يكتب لنا به الأجر يوم الدين، ونسأل الله أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه، وأن يجعله زادًا لحسن المصير إليه وعتادًا ليوم القدوم عليه إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل. وما كان من توفيق فمن الله وحده وما كان من زلل أو نسيان فمنا ومن الشيطان والله ورسوله منه براء.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

كتبه
أبو عبد الرحمن/ أحمد بن سليمان أيوب
في الثاني عشر من شعبان لعام ١٤٣٥هـ
بمنزله الكائن بمدينة بلبيس
جمهورية مصر العربية

المقدمة

وتشتمل هذه المقدمة على ما يلي:

الفصل الأول.

الصراع بين الحق والباطل.

الفصل الثاني.

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: حالة العالم قبل الإسلام.

المبحث الثاني: المناظرة وآدابها.

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: تمهيد.

المطلب الثاني: المحاور التي يتم على أساسها تقييم أي حضارة سابقة أو لاحقة.

المبحث الثاني: الإسلام وبيان معناه.

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: معنى الإسلام.

المطلب الثاني: الإسلام هو دين الفطرة.

المطلب الثالث: التوحيد وأقسامه.

المبحث الثالث: مراتب الدين.

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: أركان الإسلام.

المطلب الثاني: أركان الإيمان.

المطلب الثالث: الإحسان.

المبحث الرابع: بيان بعض مزايا الشريعة الإسلامية.

المبحث الخامس: الإسلام بين الوسطية والغلو.

المبحث السادس: الحقوق الإسلامية.

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: مقدمة عامة عن الحقوق ومزايا هذا الدين الإسلامي.

المطلب الثاني: ذكر بعض هذه الحقوق بشيء من التفصيل.

المبحث السابع: قالوا عن الإسلام.

الفصل الثالث: **رسول البشرية محمد** ﷺ.

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: التعريف بالنبي ﷺ.

المبحث الثاني: بعض فضائل النبي ﷺ.

المبحث الثالث: أخلاق النبي ﷺ.

المبحث الرابع: صحابة النبي ﷺ.

المبحث الخامس: قالوا عن النبي ﷺ.

*　*　*

الفصل الأول

المبحث الأول: الصراع بين الحق والباطل

إن الصراع بين الحق والباطل سنة ربانية جارية كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ (الفرقان: ٣١).

فالأنبياء وهم أكرم الخلق وأعدل الخلق وُجدَ لهم أعداء ومضادون، يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق.

وقد أمر الله المؤمنين بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، وتضعف شوكة الباطل وتنكسر، وحتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ (النساء: ٧٦). ففي هذه الآية وآية سورة الفرقان التي ذكرناها قبل إشارة إلى ضعف الباطل وأهله إذا قام أهل الحق بواجبهم في مدافعتهم وقتالهم، لأن الله مع الذين اتقوا. فقوله في الآية الأولى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وفي الآية الثانية: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إشارة إلى ضعف كيد الشيطان الذي يتولاه الكفار والمشركون، فإذا كان وليهم ضعيفًا فهم أضعف وأذل، وهذا يعطي المؤمن قوة على العمل بما أوجبه الله عليه من مدافعة الباطل وأهله، كما يعطيه ثقة في نصر الله له، ومن ثم يعتز بدينه ويتمسك به، وهذا هو الذي قام به الصحابة ﷺ في العهد المكي، فقد وقع عليهم الاضطهاد الشديد من المشركين في مكة، ولم يكن بمقدورهم المواجهة العسكرية ولم يؤمروا بالجهاد بعد، وإنما أمروا بالصبر والتحمل، فصبروا ﷺ وتحملوا تلك المرحلة، ولكن مع الصبر والتحمل كانوا يسعون لإزالة هذا الواقع وعدم استمراره، فجاءت الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم ذهابه ﷺ إلى الطائف، ثم العرض على القبائل في المواسم، كلها بحث عن مخرج من ذلك الواقع حتى قيض الله طائفة من الأوس والخزرج لقبول دعوة الحق، ثم المبايعة على النصرة ليلة العقبة، وأعقب ذلك الهجرة إلى

المدينة، فخرج المسلمون من الاضطهاد ونصرهم الله بإخوانهم في المدينة عندما قاموا بالأسباب الموجبة لذلك. والملاحظ أن الصحابة تحملوا مرحلة الاضطهاد وواجهوها بالصبر ولكن مع عدم الاستكانة والرضى بالواقع، فأخذوا يعملون لإزالة ذلك الواقع حتى تمكنوا من رفعه (١).

فيعلم كل مسلم أن أهل الكفر والضلال ضد أهل الإسلام في كل زمان ومكان وذكر الله في أول سورة البقرة الناس وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: مؤمنون وكفار ومنافقون فلا بد من العداوة بين أهل الإسلام وبين أعداء الله وإن لم تحصل العداوة فالأمر خطير.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (البقرة: ١٠٩). ولا شك أن عداوة الكفار للمسلمين ليست لأجل دنيا بل هي لأجل الدين قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠).

فالصراع بين الحق والباطل قائم إلي يوم القيامة؛ ولكن مآل الباطل الزهوق والذهاب، والحق مآله الانتصار والغلبة إن شاء الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ (الإسراء: ٨١).

وقال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٨).

---

(١) مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها. مسائل في منهج دراسة السيرة النبوية د/ محمد بن صامل السلمي العدد ٢٤. ربيع الأول ١٤٢٣هـ/ مايو (آيار) ٢٠٠٢م.

وهذه السنة أيضًا من أهم السنن الربانية التي يجب الوقوف عندها، وعدم نسيانها أو الغفلة عنها؛ لأن الصراع والمدافعة بين الحق والباطل وُجِدا منذ أن أهبط آدم عليه الصلاة والسلام على هذه الأرض ومعه إبليس - الملعون - أعاذنا الله منه. واقتضت حكمة الله ﷻ أن يستمر هذا الصراع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بين حزب الله ﷻ وحزب الشيطان. وليس بالضرورة أن تكون المدافعة أو أن يكون الصراع بالقتال والسلاح. بل إنه يكون بغير ذلك، وما القتال إلا مرحلة من مراحل هذا الصراع؛ فإقامة الحجة على الباطل وأهله مدافعة، وإزالة الشبه عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعة، والصبر على ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة والثبات على الدين مدافعة وصراع. ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله ﷻ على رأس وذروة هذه المدافعة والصراع، فيقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وما دام هناك حق وباطل فالصراع موجود والمدافعة حتمية. وهذا الصراع لصالح البشرية وخيرها، ولو كان فيه من العناء والشدة والمكاره؛ فإن هذه المشقات كلها تهون وتصغر عند المفاسد العظيمة التي تنشأ فيما لو لم يكن هناك دفع للفساد وصراع مع الباطل. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وهذا يفرض على أهل الحق السير على هذه السنة، وبذل الجهد الجهيد في مدافعة الباطل وأهله، وإحقاق الحق وتمكين أهله، ورد البشرية الشاردة إلى عبودية الله ﷻ وتوحيده، وإنقاذها من الشرك ومفاسده؛ فإن الصراع بين الحق والباطل قديم، فيحاول أهل الباطل اتهام أهل الحق، وتشكيكهم به، حتى يتركوه قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ (البقرة: ٢١٧)، وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر؛ وعلى فتنة المسلمين عن دينهم؛ بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم. وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل. إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته

غيظ ورعب لأعداء هذا الدين؛ ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم. فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويرهبه كل باغ، ويكرهه كل مفسد. إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج، ومن منهج قويم، ومن نظام سليم. إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد. ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون. ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه، ويردوهم كفارًا في صورة من صور الكفر الكثيرة.

ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين، وتتبع هذا المنهج، وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل ثابتًا، على أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا. وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحًا غيره، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها. والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام، وينبهها إلى الخطر؛ ويدعوها إلى الصبر على الكيد، والصبر على الحرب، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة؛ والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر: قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ (البقرة: ٢١٧)

ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وعرفه؛ تحت مطارق الأذى والفتنة - مهما بلغت - هذا مصيره الذي قرره الله له حبوط العمل في الدنيا والآخرة. ثم ملازمة العذاب في النار خلودًا [(١)].

وعندما ظهر الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، لم يتوقف سيل الشبهات التي يثيرها المشككون من خصوم هذا الدين، تشكيكًا في مصادره، أو في نبيه، أو في مبادئه وتعاليمه. ولا تزال الشبهات القديمة تظهر حتى اليوم في أثواب جديدة يحاول مروجوها أن يضيفوا عليها طابعًا علميًا زائفًا.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٢٧-٢٢٨.

ومن المفارقات الغريبة في هذا الصدد، أن يكون الإسلام - قد اختص من بين كل الديانات التي عرفها الإنسان سماوية كانت أم أرضية بأكبر قدر من الهجوم وإثارة الشبهات حوله.

ووجه الغرابة في ذلك يتمثل في أن الإسلام في الوقت الذي جاء فيه يعلن للناس الكلمة الأخيرة لدين الله لم ينكر أيًّا من أنبياء الله السابقين ولا ما أنزل عليهم من كتب سماوية، ولم يجبر أحدًا من أتباع الديانات السماوية السابقة على اعتناق الإسلام. ولم يقتصر الأمر على عدم الإنكار، وإنما جعل الإسلام الإيمان بأنبياء الله جميعًا وما أنزل عليهم من كتب عنصرًا أساسيًا من عقيدة كل مسلم، بحيث لا تصح هذه العقيدة بدونه.

ومن شأن هذا الموقف المتسامح للإسلام إزاء الديانات السابقة أن يقابل بتسامح مماثل؛ وأن يقلل من عدد المناهضين للإسلام، ولكن الذي حدث كان على العكس من ذلك تمامًا. فقد وجدنا الإسلام - على مدى تاريخه - يتعرض لحملات ضارية من كل اتجاه. وليس هناك في عالم اليوم دين من الأديان يتعرض لمثل ما يتعرض له الإسلام في الإعلام الدولي من ظلم فادح وافتراءات كاذبة.

وهذا يبين لنا أن هناك جهلًا فاضحًا بالإسلام، وسوء فهم لتعاليمه، سواء كان ذلك بوعي أو بغير وعي، وأن هناك خلطًا واضحًا بين الإسلام كدين وبعض التصرفات الحمقاء التي تصدر من بعض أبناء المسلمين باسم الدين وهو منها براء[1].

إن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب؛ ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب؛ إنما كانوا يحاربونها أولًا في عقيدتها. كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك، ونثر الشبهات وتدبير المناورات!

كانوا يعمدون أولًا إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها، ومنها قام وجودها، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين. ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تمامًا - أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا تهزم إلا إذا

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين صـ ٥-٦.

هزمت روحها، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئًا وهي ممسكة بعروة الإيمان، مرتكنة إلى ركنه، سائرة على نهجه، حاملة لرايته، ممثلة لحزبه، منتسبة إليه، معتزة بهذا النسب وحده، ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها الإيمانية، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة.

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة. وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئًا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها. ومواجهة ذلك تكون ببذل جهود علمية مضاعفة من أجل توضيح الصورة الحقيقة للإسلام، ونشر ذلك على أوسع نطاق.

المبحث الثاني: المناظرة وآدابها.

وقبل أن نشرع في مادة هذه الموسوعة نذكر طرفا مختصر جامعًا للمناظرة وآدابها

ينشأ الاختلاف الفكري من اختلاف الطبائع والعقول البشرية[١].

وحيث كان كل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا وأحكامًا يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول[٢].

والحديث عن ذلك من خلال هذه النقاط:

أولًا: تعريف المناظرة والجدال.

المناظرة لغة: من النظير، أو من النظر بالبصيرة[٣].

المناظرة اصطلاحًا: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه.[١]

---

(١) فقه الائتلاف لمحمود الخزندار (صـ٢١).

(٢) المقدمة لابن خلدون (صـ٣٢١).

(٣) التعريفات للجرجاني (صـ٢٩٨).

وهي: المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منها تصحيح قوله وإبطال قول الآخر؛ مع رغبة كل منهما في ظهور الحق[٢].

الجدل لغة: مقابلة الحجة بالحجة والمجادلة المناظرة والمخاصمة[٣].

الجدل اصطلاحًا: مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها[٤].

الجدال لا يبعد أن يقال أن علم الجدل هو علم المناظرة[٥].

ثانيًا: مشروعية المناظرة. [٦]

والأصل في مشروعيتها:

قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الفرقان: ٣٣).

فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه؛ ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين[٧].

ومن حق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان. اهـ[٨].

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٢١٧).

(٢) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي صـ٣من القسم الثاني.

(٣) لسان العرب لابن منظور (١١/ ١٠٥).

(٤) التعريفات للجرجاني (صـ١٠١).

(٥) كشف الظنون لحاجي خليفة (١/ ٥٧٩).

(٦) انظر بالتفصيل كتاب درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية (٣/ ٣٧٧-٣٨٧).

(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/ ١٦٤-١٦٥).

(٨) هداية الحيارى لابن القيم ١/ ١٠.

ثالثا: أنواع المناظرة.

المجادلة [المناظرة] نوعان:

الأولى: مجادلة المماراة، يماري بذلك السفهاء ويجادل الفقهاء ويريد أن ينتصر قوله فهذه مذمومة.

وهي الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة، واستمالة وجوه الناس، وهذه منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله.

وهي يتنزل عليها كلام السلف في ذم الجدل والمجادلة.

الثانية: لإثبات الحق وإن كان عليه فهي محمودة مأمور بها. (١)

رابعًا: آداب المناظرة.

للمناظرة آداب يجب مراعاتها وهي:

أولًا: آداب خاصة بالمناظرين.

١) إخلاص النية لله ﷻ(٢).

٢) تقديم تقوى الله عند المناظرة(٣).

٣) يرغب المناظر إلى الله ﷻ لتوفيقه لطلب الحق(٤).

٤) التحلي بالأخلاق الإسلامية(٥).

٥) عدم إعجاب المناظر بكلام نفسه لأنه مدعاة للتعصب وضياع الحق(١).

---

(١) انظر: الرد على المخالف من أصول الإسلام لبكر أبو زيد (صـ٧٠)، شرح حلية طلب العلم لابن عثيمين (١٨١)، الإحياء للغزالي (١/ ٧٧)، فتاوى ابن تيمية (٢٤/ ١٧١-١٧٦).

(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٤٨)، فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ٢٣٥).

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٤٧).

(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥١).

(٥) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥١)، تفسير ابن كثير (طه: ٤٤)، أصول الدعوة لبدير محمد بدير (٤٧٨)، ووسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

٦) الإنصاف وترك التعصب وقبول الحق من أي شخص كان[٢].

٧) المواظبة على مطالعة الكتب والتمرس على المناظرة والحوار وقت فراغه[٣].

٨) الإصلاح من اللغة وتجنب اللحن في الكلام[٤].

٩) ألا يتصدر للمناظرة قبل أوانه أو ما يسمى: الأهلية للمناظرة[٥].

١٠) تجنب المناظرة مع من هو من أهل المهابة العظمية والاحترام العظيم كيلا يدهشه جلالة خصمه عن القيام بحجته كما ينبغي[٦].

١١) الامتناع عن مناظرة من يريد الجدال فقط وليس إظهار الحق[٧].

١٢) الامتناع عن مناظرة الجهال وكل لجوج[٨].

ثانيًا: آداب خاصة بقواعد المناظرة.

١) أن يكون هدف المناظرة النصيحة والإفادة وإظهار الحق لا الجدال والمراء[٩].

٢) تحديد موضوع الجدال أو المناظرة والأطراف المشتركة فيه[١٠].

٣) تحديد المنهج والضوابط التي يرجع إليها عند الاختلاف[١١].

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥٧).

(٢) فقه الائتلاف لمحمود الخزندار (٤٩، ٥١، ٧٥، ٩٨).

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥٦).

(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٥٤).

(٥) درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية (٣/ ٣٨١)، أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد (٧٧)، فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٢١)، معالم السنن للخطابي (٤/ ١٤٩).

(٦) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٩١)، ووسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٢).

(٧) أخلاق العلماء للآجري (٩٣٤) بتصرف.

(٨) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٤٦).

(٩) فتاوى ابن تيمية (٢٤/ ١٧٣)، الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٤٩)، أخلاق العلماء للآجري (٩٣٣)، الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٠٣)، أدب الدنيا والدين للماوردي (١٠٨).

(١٠) وسائل الدعوة، عبد الرحيم المغذوي (٩٣).

(١١) وسائل الدعوة، عبد الرحيم المغذوي (٩٣).

٤) مراعاة الظروف المحيطة بالمناظرة كالأشخاص والموضوع والزمان والمكان[١].

ثالثا: آداب الحديث بين المتناظرين.

١) الجلوس في وقار وسكينة[٢].

٢) ينظر كل طرف للآخر مع حسن الاستماع[٣].

٣) اختيار أحسن الألفاظ وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر[٤].

٤) تجنب غريب الألفاظ ومجملها ومناسبة الكلام لموضوع المناظرة[٥].

٥) إعطاء المناظر فرصة لذكر أدلته دون مداخلة أو إظهار التعجب من كلامه[٦].

٦) عدم سخرية أحدهما من الآخر[٧].

٧) يتجنب المناظر رفع صوته في الكلام بما يؤذي ولا يخفض بها لا يسمع[٨].

٨) ستر عيوب المناظر والعفو عن سوء خلقه أثناء المناظرة وعدم تصيد أخطاؤه[٩].

٩) التركيز أثناء المناظرة على نقاط الالتقاء ومواضع الاتفاق[١٠].

١٠) لا يتحدث إذا كان في مكان المناظرة من يشهد للخصم بالزور والباطل[١١].

١١) لا يجيب عن الأسئلة الموجهة لغيره[١].

---

(١) وسائل الدعوة، عبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥١).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٢)، آداب البحث للشنقيطي (٢/ ٩١).

(٤) الفقيه والمتفقه (٢/ ٧٠)، أصول الدعوة لبدير محمد بدير (١٥٦-١٥٧).

(٥) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٩١).

(٦) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٧)، الإحياء للغزالي (١/ ٧٦)، آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٩١).

(٧) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٩١).

(٨) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٤).

(٩) فتاوى ابن تيمية (٢٧/ ٣٠١)، الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٨، ٥٢)، فقه الائتلاف لمحمود الخزندار (١٠٣).

(١٠) أصول الدعوة لبدير محمد بدير (١٥١-١٥٣).

(١١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٣).

رابعًا: آداب طرح الأسئلة أثناء المناظرة.

١) الإيجاز في السؤال وتوضيح معاني الكلام[٢].

٢) الإنصات عند طرح الأسئلة ولعل فيها ما يرد حجة المناظر[٣].

خامسًا: آداب الرد على أسئلة المناظر الآخر.

١) ألا يتعجل في إصدار الأحكام على كلام الخصم حتى يفهم مراده تمامًا[٤].

٢) الإجابة على قدر السؤال[٥].

٣) الإقناع بالدليل وتجنب القول بالهوى والعصبية[٦].

٤) تقديم النقل ونصوصه على العقل وظنونه في الاحتجاج على الخصم[٧].

٥) تقديم الأقوى والأهم من الأدلة[٨].

٦) مراعاة عدم التعارض بين الأدلة[٩].

٧) توثيق الأدلة المستمدة من كتب المخالفين[١٠].

٨) إذا هم برد فتبين له خطؤه فلم يذكره، فليحمد الله ﷻ الذي عصمه من الخطأ[١١].

سادسًا: آداب إنهاء المناظرة.

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٧).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٣، ٦٣)، آداب البحث والمناظرة (٢/ ٩١)، وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٢).

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٤٨)، الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٩).

(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٥).

(٦) أصول الرد على المخالف، بكر أبو زيد (٩٠)، فقه الائتلاف لمحمود الخزندار (١٤٩).

(٧) وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٨) أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد (٩٠)، وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٩) وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(١٠) أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد (٨٠).

(١١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٦٨).

١) إعلان التسليم بالقضايا المتفق عليها وقبول نتائج المناظرة[١].

٢) التوقف عن المناظرة إذا تبين الحق وأصر المناظر على باطله[٢].

٣) التوقف عن المجادلة أو المناظرة إذا كانت تؤدي إلى مفسدة تلحق بالدعوة[٣].

خامسًا: نماذج للمناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن.

١) مجادلة إبراهيم عليه السلام للنمرود حينما ادعى الربوبية على قومه ودارت بينهما مناظرة ومجادلة انتهت بنصر إبراهيم عليه السلام وبهت عدوه. يقول تعالى في ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة: ٢٥٨). [٤]

٢) مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه ولأبيه في إثبات عقيدة التوحيد والملة الحنفية السمحة، وإظهار بطلان ما يعبد من دون الله وأنها لا تنفع ولا تضر وكل ذلك بالأسلوب المقنع والمنطق المهذب الاستنتاج السليم والحجة الظاهرة. يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا

---

(١) وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٢) أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد (٤٧٨).

(٣) وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي (٩٩).

(٤) وسائل الدعوة د/ عبد الرحيم المغذوي (١٠٠-١٠١)، ودرء تعارض النقل لابن تيمية (٣/ ٣٨٢).

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنعام: ٧٤-٨٣).

* * *

الفصل الثاني

المبحث الأول: حالة العالم قبل الإسلام

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: تمهيد.

المطلب الثاني: المحاور التي يتم على أساسها تقييم أي حضارة سابقة أو لاحقة.

المطلب الأول: تمهيد.

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح عليه السلام من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي، فقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكأنَّ الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم أو بقيت، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلًا عن البيوت فضلًا عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فرارًا بدينهم من الفتن وضنًّا بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفرارًا من تكاليف الحياة وجدها، أو فشلًا في كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل. . . على حساب الضعفاء والمحكومين. ومن ناحية الأديان فقد أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة الثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام، وعسف الحكام، وشغلت بنفسها، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشرعًا

صافيًا من الدين السماوي، ولا نظامًا ثابتًا من الحكم البشري.[١]

المطلب الثاني: المحاور التي يتم على أساسها تقييم أي حضارة سابقة أو لاحقة

وسنحاول أن نستعرض واقع العالم المعروف في هذا الوقت، سواء كان محليًّا -في الجزيرة العربية- أو عالميًّا، في العالم المتحضر المعروف آنذاك. ونحن نتكلم عن العصر بعد حوالي ستمائة سنة من مولد السيد المسيح عليه السلام. كيف كان واقع العالم في ذلك الوقت؟ وكيف تغير ذلك الواقع؟ وهل يمكن للتاريخ أن يعيد نفسه؟ وهل هناك وجه تشابه بين الواقع الحالي وهذا الواقع قبل ألف وأربعمائة سنة؟

هذه أسئلة نعتقد أن الإجابة عليها سوف تعني الكثير للبشرية الحائرة التي تتخبط بين ماديات عصرية طاغية، وأحلام إنسانية لحياة أفضل، حياة مثالية تحمل الخير والعدل والرحمة للناس أجمعين.

وفي الواقع ما أشبه اليوم بالأمس، فعندما نستعرض ما كان عليه الحال قبل ألف وأربعمائة سنة قبل الرسالة؛ ستجد كثيرًا من التشابه مع ما تعيشه الإنسانية الآن سواء محليًا حيث مهد الرسالة، أو عالميًا من خلال العالم الذي يدعي التحضر اليوم. وسنقوم باستعراض سريع لواقع العالم في ذلك الزمان وفي تلك الأماكن التي كانت معروفة في ذلك الوقت، وسنعرض لمحة سريعة على التغيير الذي حدث في تلك العوالم؛ أي التأثير الذي أحدثه محمد ﷺ في زمانه ومكانه والأزمنة التي تلته والأماكن الأخرى من العالم وذلك من خلال محورين رئيسيين هما:

١- الوضع السياسي.

٢- الوضع الأخلاقي الديني والاجتماعي.

ونرى أن هذه المحاور هي أسس تقييم أي حضارة سابقة أو لاحقة.

المحور الأول: الوضع السياسي.

كان العصر الجاهلي مسرحًا للحكم المستبد، فقد كانت السياسة في هذا العصر ملكية

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صـ ٤٠ – ٤١.

مطلقة، قد تقوم على تقديس البيوتات الخاصة، كما كان في فارس، فقد كان آل ساسان يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله، وقد عملوا كل ما في استطاعتهم للتأثير في رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكي المقدس وصارت لهم عقيدة يدينون بها. وقد تقوم على تقديس الملوك مطلقًا، فكان الصينيون يسمون ملكهم الإمبراطور ابن السماء، ويعتقدون أن السماء ذكر، والأرض أنثى، وقد ولدا الكائنات، وكان الإمبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين، وكان الإمبراطور يعتبر كالأب الوحيد للأمة، له أن يفعل ما يشاء، وكانوا يقولون له: أنت أبو الأمة وأمها، ولما مات الإمبراطور "لي يان" أو "تاي تسونغ" لبست الصين ثوب الحداد، وحزنت الأمة حزنًا شديدًا، فمنها من أثخن وجهه بالإبر، ومن قطع شعره، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش.

وقد تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان في المملكة الرومية، فكان المبدأ الأساسي هو تقديس الوطن الرومي، والشعب الرومي. ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروقًا يجري منها الدم إلى مركزها، فكانت الدولة تستهين في ذلك بكل حق ومبدأ، وتدوس كل شرف وكرامة، وتستحل كل ظلم وشنيعة، ولا يمنع بلادًا من هذا الحيف والظلم اشتراك في دين وعقيدة ولا إخلاص ووفاء للملكة، ولا يعترف لها في زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها في أرضها إنما هي ناقة ركوب في بعض الأحيان، حلوب في بعضها، لا يقدم لها العلف إلا ما يقيم صلبها ويدر ضرعها. وهذه بعض الأمثلة:

الدولة الرومانية. وعن حال الحكم الروماني في مصر والشام. فيقول الدكتور الفرد. ج. بتلر عن الحكم الروماني في مصر: إن حكومة مصر الرومية لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا

يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم. (١)

ويقول مؤرخ عربي شامي عن الحكم الروماني في الشام: كانت معاملة الرومان للشاميين بادئ ذي بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب. ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، ولم تضف رُومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضًا رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيرًا ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام. (٢)

الدولة الفارسية: ولم يكن النظام المالي والسياسة المالية في إيران عادلة مستقرة بل كانت جائرة مضطربة في كثير من الأحوال، تابعة لأخلاق الجباة العاملين وأهوائهم والأحوال السياسية والحربية.

يقول مؤلف إيران في عهد الساسانيين: كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال، ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجها مقدرين مضبوطين، وقد كانت الحرب تنشب في بعض الأحيان وليست عند الدولة أموال تنفقها على الحرب، فكان يلجئها ذلك إلى ضرائب جديدة، وكانت المقاطعات الغربية الغنية- وخاصة بابل- هدف هذه الضرائب دائمًا. (٣)

الجزيرة العربية: وأما في الجزيرة العربية لم تكن هناك دولة مركزية، ولكن قبائل متفرقة يغير بعضها على بعض، والبقاء للأقوى. وكانت الحروب والسلب والنهب متفشية بين هذه القبائل، لا أمان ولا عهود ولا مواثيق تحكم علاقة هذه القبائل بعضها ببعض، ولكن منطق القوة والغلبة؛ مما تولد عنه واقع العبودية وانتشارها وكثرة العبيد الذين هم أسرى هذه الحروب أو نتاج هذه المعاملة اللاإنسانية للضعفاء من البشر في هذا الزمان.

---

(١) فتح العرب لمصر للدكتور / ألفرد. ج. بتلر، تعريب: محمد فريد أبو حديد.

(٢) ماذا خسر العالم لأبي الحسن علي الحسني الندوي (ص ٩٨ – ٩٩).

(٣) إيران في عهد الساسانيين (ص ١٦١).

ولك أن تقارن هذا الواقع قبل الرسالة وبعد ثلاثة وعشرين سنة بعد الرسالة كانت هذه الجزيرة أمة واحدة تحت لواء حاكم واحد وهو خليفة رسول الله ﷺ. وأصبحت هذه القبائل المتناحرة المتقاتلة من أجل المصالح الشخصية هي نفسها التي تحارب لنشر عدل ورحمة الإسلام في بقاع الأرض واختفت هذه الحروب القبلية البغيضة وحل محلها الجهاد في سبيل الله لإخراج الشعوب المضطهدة من ظلم الواقع إلى عدالة الإسلام ومن العبادة للعباد إلى عبادة رب العباد.

المحور الثاني: الوضع الديني والأخلاقي والاجتماعي.

كما سبق وأن ذكرنا في التمهيد أن الأديان أصبحت فريسة للعابثين والمتلاعبين، ولعبة للمحرفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، وسنحاول في هذا المحور أن نلقي نظرة على حالة بعض الملل قديمًا.

أولًا: اليهودية: وكانت في أوربا وآسيا وإفريقيا أمة هي أغنى أمم الأرض مادة في الدين، وأقربها فهمًا لمصطلحاته ومعانيه، أولئك هم اليهود، ولكن لم يكونوا عاملًا من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر في غيرهم، بل قُضي عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء، والعذاب والبلاء، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع، والإذلال، والجشع وشهوة المال وتعاطي الربا، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعارًا على تعاقب الأعصار والأجيال، منها الخنوع عند الضعف، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله. وقد وصفهم القرآن الكريم وصفًا دقيقًا عميقًا يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خلقي، وانحطاط نفسي، وفساد اجتماعي، عزلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم.

ثانيًا: المسيحية: لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان بحيث تقوم عليه حضارة، أو تسير في ضوئه دولة، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط، فجاء بولس فطمس نورها، وطعّمها

بخرافات الجاهلية التي انتقل منها، والوثنية التي نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية، حتى أصبحت النصرانية مزيجًا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، اضمحلت في جنبها تعليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة من اليم، وعادت نسيجًا خشبيًا من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة، ولا تحل معضلات الحياة، ولا تنير السبيل، بل أصبحت بزيادات المحرفين، وتأويل الجاهلين، تحول بين الإنسان والعلم والفكر، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية، يقول (Sale) مترجم القرآن إلى الانكليزية عن نصارى القرن السادس الميلادي: وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر، وثارت حول الديانة في هذه الفترة حرب أهلية بين رعايا النصرانية، وانقسموا إلى فريقين الملكانية والمنوفيسية؛ أو نصارى الشام والدولة الرومية وبين نصارى مصر، فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن المسيح له طبيعة واحدة، وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية، كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له، وقد اشتد الخلاف بين الفريقين، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى، كل طائفة تقول للأخرى: إنها ليست على شيء [(١)].

وأما الحال الاجتماعي والاقتصادي فقد بلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية والشرقية، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات، وتضاعفت الضرائب. حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات. ويمقتونها مقتًا شديدًا، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية. وذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية. وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع. وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع.

يقول جيبون: وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر

---

(١) ماذا خسر العالم (ص ٤٢ – ٤٣) بتصرف.

نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولًا.

ويقول مؤلفو تاريخ العالم للمؤرخين: إن المدن العظيمة التي أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبدًا، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد من الانحطاط الهائل الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران في البلدان. (١)

ثالثا: حالة الفرس: أما فارس فكانت تقاسم مملكة الروم حكم العالم المتمدن، ولكن كانت الحالة الأخلاقية متدهورة إلى حد بعيد، وقد انتشرت عندهم عادة نكاح المحارم وغيرها من الفعال القبيحة.

يقول البروفسور أرتهر كرستن سين أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة كوبنهاجن بالدنمارك المتخصص في تاريخ إيران في كتابه إيران في عهد الساسانيين: إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساساني مثل جاتهياس وغيره، يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرمات، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج، فقد تزوج بهرام جوبين وتزوج جشتسب قبل أن يتنصر بالمحرمات(٢)، ولم يكن يعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين، بل كان عملًا صالحًا يتقربون به إلى الله، ولعل الرحالة الصيني هوئن سوئنج أشار إلى هذا الزواج بقوله: إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء. (٣)

وظهر " ماني " في القرن الثالث المسيحي، ودعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الشر والفساد من العالم؛ فحرم النكاح استعجالًا للفناء وانتصارًا للنور على الظلمة بقطع النسل.

ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم ماني المجحفة، وتقمصت دعوة مزدك الذي ولد ٤٨٧م فأعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم، فينبغوا أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم.

---

(١) نقلا عن: ماذا خسر العالم (ص ٤٦).

(٢) إيران في عهد الساسانيين: ترجمة الدكتور محمد إقبال (ص ٤٣٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٣٠).

قال الشهرستاني: كان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ.[١]

وكان عندهم تقديس الأكاسرة، ملوك فارس حيث كانوا يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئا علويا مقدسا فكانوا يكفرون لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون وفوق الاعتقاد وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم؛ ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتقدون أن لهم حقًا على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق، وليس للناس قِبلهم إلا السمع والطاعة، وخصصوا بيتًا معينًا - وهو البيت الكياني فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج، وهذا الحق ينتقل فيهم كابرًا عن كابر وأبًا عن جد لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ولا ينافسهم إلا دعي نذل، فكانوا يدينون بالملك والوراثة في البيت المالك لا يبغون به بدلًا ولا يريدون عنه محيصًا، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيرًا ملكوا عليهم طفلًا، وإذا لم يجدوا رجلًا ملكوا عليهم امرأة فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أزدشير وهو ابن سبع سنين وملك فرُّخ زاد خسروا ابن كسرى أبرويز وهو طفل، وملكوا بوران بنت كسرى، وملكت كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها أزرمي دخت ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائدًا كبيرًا أو رئيسًا من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكي.[٢]

رابعًا: الصين: وكانت تسود الصين في هذا القرن ثلاث ديانات؛ ديانة لا وتسو، وديانة كونفوشيوس، والبوذية.

أما الأولى: ففضلًا عن أنها تحولت وثنية في عهد قريب فهي تُعني بالنظريات أكثر منها

---

(١) الملل والنحل (١/ ٢٤٨).

(٢) ما ذا خسر العالم (ص ٥٨ – ٥٩).

بالعمليات، وكان أتباعها متقشفين زاهدين، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالًا، فلم يكن لها أن تكون أُسًّا لحياة سديدة أو حكومة رشيدة، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره.

أما كونفوشيوس فقد كان يعني بالعمليات أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية، وقد كان أتباعه لا يعتقدون - في بعض الأزمنة - بعبادة إله معين، فيعبدون ما يشاءون من الأشجار والأنهار، وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوي، وإنما هو حكمة حكيم وتجارب خبير، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء.

أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت. وتبني الهياكل. وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت. وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية.

يقول الأستاذ إيشوراتوبا أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند: لقد قامت في ظل البوذية دولة تعني بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيطا لرابطات الأخوية البوذية، وظهرت فيها البدع.

ولاحظ ذلك أيضًا أحد الكتاب العصريين وكبار السياسيين في الهند فقال: جعلت البرهمية بوذا مظهرًا للآلهة، وقلدتها في ذلك البوذية نفسها، وأصبحت الرابطة الأخوية البوذية تملك ثروة هائلة، وأصبحت مركزًا لمصالح جماعات خاصة، وفقدت النظام وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام، وبدأت الديانة تتقهقر وتنحط بعدما سادت في الهند وازدهرت ألف سنة.[1]

خامسًا: أمم آسيا الوسطى: أما الأمم الأخرى في آسيا الوسطى وفي الشرق، كالمغول والترك واليابانيين، فقد كانت بين بوذية فاسدة، ووثنية همجية، لا تملك ثروة علمية، ولا

(١) ماذا خسر العالم (ص ٦٦).

نظامًا سياسيًا راقيًا، إنما كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة، ومنها شعوب لا تزال في طور البداوة والطفولة العقلية.

سادسًا: الهند: أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها على أن أَحَط أدوارها ديانة وخلقًا واجتماعًا ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، قد ساهمت الهند جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، الذي شمل الكرة الأرضية في هذه الحقبة من الزمن وأخذت نصيبًا غير منقوص من هذا الظلام الذي مد رواقه على المعمورة، وامتازت عنها في ظواهر وخلال، يمكن أن نلخصها في ثلاث:

(١) كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة.

(٢) الشهوة الجنسية الجامحة.

(٣) التفاوت الطبقي المجحف والامتياز الاجتماعي الجائر.

أولًا: كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة - الوثنية المتطرفة -: قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس، فقد كان عدد الآلهة في "ويد" ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليون، وقد أصبح كل شيء رائع وكل شيء جذاب وكل مرفق من مرافق الحياة إلهًا يعبد، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصر وأربت على العد، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله-زعموا- في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس "مهاديو" الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجًا من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

ثانيًا: الشهوة الجنسية الجامحة: وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم، فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل في صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت

في صميم الديانة الهندية، وقد تناقلت الكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوت الشريفة تستك منها المسامع، ويتندى لها الجبين حياء، وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح، زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر"مهاديو "، وتصويرها في صورة بشعة، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات، زد إليه كذلك ما يحدث به بعض المؤرخين أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة، وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيته، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين فما ظن القارئ ببلاط الملوك وقصور الأغنياء؟! فقد تنافس فيها رجالها في إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة فتوارى الأدب وتبرقع الحياء. . . هكذا أخذت البلاد موجة طاغية من الشهوات الجنسية والخلاعة، وأسفّت أخلاق الجنسين إسفافًا كبيرًا.

ثالثا: التفاوت الطبقي المجحف والامتياز الاجتماعي الجائر: ووضع لهم " منو " أيضا نظام الطبقات الجائر حيث يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهي:

(١) البراهمة، طبقة الكهنة ورجال الدين.

(٢) شتري رجال الحرب.

(٣) ويش رجال الزراعة والتجارة.

(٤) شودر رجال الخدمة.

ويقول منو مؤلف هذا القانون:

إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه، وشتري من سواعده، وويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات، وعلى الشتري حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة ويد والعزوف عن الشهوات، وعلى ويش رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث. (١)

وأما المرأة في المجتمع الهندي فقد نزلت في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفاديًا من عذاب الحياة وشقاء الدنيا. وهكذا صارت هذه البلاد المخصبة أرضًا وعقولًا، وهذه الأمة- التي وصفها بعض مؤرخي العرب بكونها معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة؛ لبعد عهدها عن الدين الصحيح وضياع مصادره وتحريف رجال الدين وإمعان الناس في القياس والتخمين واتباع هوى النفوس ونزعات الشهوات. أصبحت هذه البلاد مسرحًا للجهل الفاضح والوثنية الوضيعة والقسوة الهمجية والجور الاجتماعي الذي ليس له مثيل في الأمم ولا نظير في التاريخ. (٢)

سابعًا: العرب: أما العرب فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقِدْح المعلَّى، كالفصاحة، وقوة البيان، وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة، والصراحة في القول، وجودة الحفظ، وقوة الذاكرة، وحب المساواة، وقوة الإرادة، والوفاء والأمانة. ولكن ابتلوا في العصر

---

(١) ماذا خسر العالم صـ ٧٢ – ٧٣.

(٢) ماذا خسر العالم (٧٥ – ٧٦).

الأخير- لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء وانحصارهم في شبه جزيرتهم وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليد أمتهم- بانحطاط ديني شديد ووثنية سخيفة قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة، وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق، فاسدة المجتمع متضعضعة الكيان حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية وبعيدة عن محاسن الأديان.

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة، كانوا يعتقدون في الله أنه إله أعظم خالق الأكوان ومدبر السماوات والأرض، بيده ملكوت كل شيء فلئن سئلوا: من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي تسع توحيد الأنبياء في خلوصه وصفائه وسموه، وما كانت أذهانهم البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تسيغ أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السموات العلى ويحظي عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة، قياسًا على هذا العالم القاصر وعاداته، وأوضاع الملوكية الفاسدة، ومجاري الأمور فيها، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء، وقاموا نحوهم ببعض العبادات ورسخت في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحولت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر. ثم ترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون، وقدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والإعطاء والمنع، فإذا كانوا الأولون يعترفون لله بالألوهية والربوبية الكبرى، ويكتفون بالشفعاء والأولياء كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضر والإيجاد والإفناء مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب. [1]
وانتشر في جزيرة العرب عبادة الأصنام بأبشع أشكالها، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي.

قال الكلبي: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم

---

(١) بيئة النبي ﷺ من القرآن، للأستاذ محمد عزت دروزة.

السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضًا. [١]

واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتًا، ومنهم من اتخذ صنمًا، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرًا أمام الحرم، وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب.

وكان في جوف الكعبة- البيت الذي بني لعبادة الله وحده- وفي فنائها ثلاث مائة وستون صنمًا، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة، فعن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به[٢].
وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه[٣].

وانتشرت اليهودية والنصرانية في بلاد العرب، ولم تستفد منها العرب كثيرًا من المعاني الدينية، وكانتا نسختين من اليهودية في الشام، والنصرانية في بلاد الروم والشام قد طرأ عليها من التحريف والزيغ والوهن ما شرحناه من قبل.

الأدواء الخلقية والاجتماعية عند العرب: أما من جهة الأخلاق، فكانت فيهم أدواء وأمراض متأصلة، وأسبابها فاشية، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وشغلت جانبًا كبيرًا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسمائها وصفاتها في لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب[٤]، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائمًا، يرفرف عليها علم يسمى

---

(١) كتاب الأصنام لهشام بن محمد الكلبي صـ٦.

(٢) البخاري (٤١١٧).

(٣) الأصنام لابن الكلبي (صـ٣٣).

(٤) انظر: المخصص لابن سيده (١١/ ٨٢ – ١٠١).

غاية، وكان أهل الحجاز، العرب واليهود، يتعاطون الربا، وكان فاشيًا فيهم، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة.

ولم يكن الزنى نادرًا وكان غير مستنكر استنكارًا شديدًا، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد، وكانوا قد يُكرهون بعض النساء على الزنى.

عن عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِي ﷺ قالت: النِّكَاح في الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أرسلي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ. وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا، وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الذي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً في نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاِسْتِبْضَاعِ، وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا. فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا ليالي بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الذي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ. تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ. وَنِكَاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بالذي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ، إِلاَّ نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ. (١)

المرأة في المجتمع الجاهلي: وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، وتؤكل حقوقها وتُبتز أموالها وتُحرم إرثها وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجًا ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة. وقال السُّدّي: إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق

---

(١) البخاري (٥١٢٧).

بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو يُنكحها فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهي أحق بنفسها، وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها، يؤخذ مما تؤتي من مهر وتمسك ضرارًا للاعتداء، وتلاقي من بعلها نشوزًا أو إعراضًا وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد.

وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبكيات، وقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق.

العصبية القبلية والدموية في العرب: كانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة. وكانت في المجتمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلًا على غيرها، وامتيازًا، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج، فلا تقف بعرفات وتتقدم على الناس في الإفاضة والإجازة، وتنسأ الأشهر الحرم، وكان النفوذ والمناصب العليا والنسيء متوارثًا، يتوارثه الأبناء عن الآباء، وكانت طبقات مسخرة وطبقات سُوقة وعوام، فكان التفاوت الطبقي من مسلمات المجتمع العربي.

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء، وكان النور الضعيف الذي يتراءى في هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة والكنائس أشبه بالحباحب الذي يضيء في ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام، ولا ينير السبيل، وكان الذي يخرج في ارتياد العلم الصحيح، وانتجاع الدين الحق يهيم على وجهه في البلاد، ترفعه أرض وتخفضه أخرى، حتى يأوي إلى رجال شواذ في الأمم والبلاد، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مكسرة، هشمها الطوفان، يدل على ندرتهم خبر سلمان الفارسي أكبر الرواد الدينيين في

القرن السادس الذي شرق وغرب في الفحص عنهم، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل، ومن الموصل إلى نُصيبين، ومن نصيبين إلى عمورية، ويوصي به بعضهم إلى بعض، حتى أتى على آخرهم فلم يجد لهم خامسًا، وأدركه الإسلام في هذا الظلام.

قال سلمان ﷺ: قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة.

ثم جاءوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس، أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه، قال: فأحببته حبا لم أحبه من قبله، فأقمت معه زمانا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟، قال: أي بني والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به.

قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا

فلان، إن فلانا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا بنصيبين، وهو فلان، فالحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فو الله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر، قلت له: يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما نعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. . . . . . . ". [1]

---

(١) حسن. أخرجه أحمد (٥/ ٤٤١). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٩٤)، وانظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص ٧٦ – ٩٢).

المبحث الثاني: الإسلام وبيان معناه.

ويشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: معنى الإسلام.

لقد عُرف الإسلام بتعريفات عديدة ووصف بأوصاف كثيرة.

فمن مُعرِّف ببيان أركانه وذكر ما يحتويه. ومن معرف للإسلام بذكر صفة المسلم الذي ينطبق عليه صفات الإسلام، وغير ذلك من التعريفات.

ومن أشهرها تعريف النبي ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام ما الإسلام قال ﷺ: "**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**"(١). وعرف أيضًا الإسلام بأنه هو: الإيمان والطاعة(٢).

وقيل: الإسلام: هو الاستسلام لله وحده وهو أصل عبادته وحده وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له.

وهذا المعنى الذي خلق الله له الخلق هو أمر وجودي من باب المأمور به(٣).

فالإسلام: هو استسلام وطاعة؛ استسلام لله وللمنهج الذي وصفه وارتضاه للناس كافة، وطاعة لله ولرسوله؛ طاعة لله بالاستسلام لأوامر، وطاعة لرسوله باتباعه وعدم مخالفته.

والإسلام: مصدر أسلم وهو يأتي بمعنى خضع واستسلم، وبمعنى أدى؛ يقال أسلمت الشيء إلى فلان إذ أديته إليه، وبمعنى دخل في السلم وهو بالفتح والكسر بمعنى الصلح والسلامة وبالتحريك الخالص من الشيء.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩). فهو دين الحق.

فالمسلم الحقيقي ما كان خالصًا من شوائب الشرك بالرحمن، مخلصًا في أعماله مع الإيمان.

ذلك لأن الله شرع الدين لأمرين أصليين:

---

(١) مسلم (٨).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٤٦).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/ ١١٦).

أحدهما: تصفية الأرواح، وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بالسلطة الغيبية للمخلوقات وقدرتها على التصرف في الكائنات لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها أو لما هو دونها في استعدادها وكمالها.

وثانيهما: إصلاح القلوب بحسن القصد في جميع الأعمال، وإخلاص النية لله وللناس. فمتى حصل الأمران انطلقت الفطرة من قيودها العائقة لها عن بلوغ كمالها في أفرادها وجمعياتها.

وهذان الأمران هما روح المراد من كلمة الإسلام. أما أعمال العبادات:

فإنما شرعت لتربية هذا الروح الأمري في الروح الخلقي، ولذلك شرط فيها النية والإخلاص، ومتى تربى سهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الأدبية والمدنية التي يصل بها إلى المدينة الفاضلة وتحقيق أمنية الحكماء[(١)].

وقيل الإسلام: هو علم بالغلبة على مجموع الذي جاء به محمد ﷺ كما أطلق على ذلك الإيمان أيضًا[(٢)].

فمضمون الإسلام هو توحيد الله والإخلاص له والإيمان برسوله محمد ﷺ والإيمان بجميع المرسلين مع الإيمان بوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله.

المطلب الثاني: الإسلام هو دين الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠).

أي: إذا تبين لك أحوال المعرضين عن دلائل الحق فأقم وجهك للدين. وإقامة الوجه تقويمه وتعديك باتجاهه قبالة نظره غير ملتفت يمينًا ولا شمالًا. فأقم وجهك لدين الإسلام حنيفًا وهو الميل عن الباطل أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق فطرة الله، والفطرة

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٥٧) بتصرف.

(٢) تفسير ابن عاشور (٣/ ١٩٠).

أصلها اسم هيئة وهو الخَلْق مثل الخلقة كما بينه قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: من الآية٣٠). والمعنى: فطر الناس على الدين الحنيف أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم؛ غير مجافية لها غير نائين عنه، ولا منكرين له، مثل إثبات الوحدانية لله لأن التوحيد هو الذي يسوق العقل والنظر الصحيح، حتى لو ترك الإنسان تفكيره ولم يلقن اعتقادًا ضالًا؛ لاهتدى إلى التوحيد بفطرته. فالفطرة هي الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان التي هي معدّة ومهيَّئة لأن يميز بها مصنوعات الله ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه.

فالله ﷻخلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة من الأديان الباطلة والعادات الذميمة، وأن ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلا من جراء التلقي والتعود وقد قال النبي ﷺ: "**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**"[(١)].

قال النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: "**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا. . .**"[(٢)]

فوصف الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جاء على مقتضى الفطرة العقلية.

وأما تشريعاته وتفاريعه فهي إما أمور فطرية أيضًا أي: جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته، وقوانين المعاملات هي راجعة إلى ما تشهد به الفطرة لأن طلب المصالح من الفطرة.

واعلم أن شواهد الفطرة قد تكون واضحة بينة وقد تكون خفية، فالفطرة وهي الإسلام تسمى أيضًا بالضرورات العقلية وهي التي لا يستغني عنها أحد ولا يحاول في

---

(١) البخاري (١٣٥٨)، مسلم (٢٦٥٨).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

التصديق بها والتحاكم إليها إلا من فقد عقله، وطمست بصيرته، ومسخت فطرته، وارتضى لنفسه طريق العناد والاستكبار(١).

لذا فإن الإسلام دين كل الأنبياء؛ فالإسلام ليس اسمًا لدين خاص؛ وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩).

فدين الله الذي بعث به أنبياءه من أولهم إلى آخرهم دين واحد هو دين الإسلام.

فلا يجوز التفريق بين رسل الله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥٠: ١٥٢) فهذا نوح عليه السلام يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٧٢). وهذا إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١). وهذا يعقوب يوصي بنيه فيقول: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢: ١٣٣). ويوسف ﷺ يقول: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

وعن الحواريين أصحاب عيسى ﷺ قالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١)

وقال محمد ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الزمر: ١٢). فالإسلام هو ما بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين من لدن نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(٢).

---

(١) راجع: الفصل لابن حزم (١/ ٤٣)، وتفسير ابن عاشور (٢١/ ٨٧)، وشرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٤).

(٢) راجع: فتاوى ابن تيمية (١٩/ ٩٥)، وتفسير القرطبي (١٥/ ٢٣٢)، وتفسير ابن عاشور (٦/ ٩)،

وقد خص الله تعالى محمدًا ﷺ بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين وجعل له شِرْعةً ومنهاجًا أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين[١].

المطلب الثالث: التوحيد وأقسامه.

التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٥٩). وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٦٥). وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٧٣). وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٨٥). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦). وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥). وقال ﷺ: **"أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله"**[٢]. ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله[٣].

فالتوحيد أول ما يدخل في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: **"مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ"**[٤]. فالتوحيد أول الأمر وآخره.

والتوحيد لا يخرج عن أقسام ثلاثة هي محصل ما ورد في الكتاب والسنة.

أحدها: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء.

والثاني: توحيد الإلهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

وشرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٢١).

(١) راجع: الجواب الصحيح (١/ ٥)، وتفسير المنار (٦/ ٤١٨).

(٢) البخاري (٢٥)، مسلم (٢٢).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية صـ ١٦.

(٤) أخرجه أبو داود (٣١٠٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٥١)، وحسنه الألباني في الإرواء (٦٨٧).

والثالث: الكلام في الصفات.[1]

ولنشرع الآن في بيان أنواع التوحيد وهذا التقسيم مستفاد من نصوص الوجهين وفصله العلماء بهذا التفصيل تيسيرا على المسلمين لدراسة عقيدتهم.

أولًا: توحيد الربوبية.

وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية. وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)[2]. ولا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل ما سواه إذا قدر سببًا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق، فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له[3].

ومن خصائص الربوبية أنه مالك خلقه، وأنشأهم لا عن حاجة إلى ما خلق ولا معنىً دعاه إلى أن خلقهم، لكنه فعال لما يشاء ويحكم كما يريد، لا يسأل عما يفعل، والخلق مسؤلون عما يفعلون[4].

فمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئا؛ بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن

---

(١) شرح الطحاوية صـ١٦.

(٢) المصدر السابق صـ١٧.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٣٣١).

(٤) اعتقاد أئمة الحديث لأبي بكر الإسماعيلي (صـ٥١).

يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٨، ٢٩). وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الإنسان ٢٩: ٣١)[١].

وبالجملة يمكن تلخيص معنى هذا التوحيد بأنه الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر[٢]. وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام بل لابد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الألوهية، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ (يونس: ٣١). وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧). وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢).

فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين، بل قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ (يوسف: ١٠٦). قال مجاهد في الآية: إيمانهم بالله قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره...

فتبين أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته، وملكه وقهره وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعًا من العبادات كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك[٣].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ (صـ١٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد صـ١٧، ١٨.

ثانيًا: توحيد الألوهية (توحيد العبادة).

هو عبادة الله وحده لا شريك له. وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه. وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله - صلوات الله عليهم - فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما، فهذا التوحيد - توحيد الألوهية - يتضمن فعل المأمور وترك المحظور. ومن ذلك: الصبر على المقدور، وهذا التوحيد: هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة. فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين في النار. فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[١]. ومن معانيه أيضًا تجريد محبته والإخلاصِ له، وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضى به ربًا وإلهًا ووليًا، وأن لا يجعل له عِدلًا في شيء من الأشياء. وسورة (الكافرون) فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له، والتبري من عبادة كل ما سواه[٢].

وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ (مريم: ٦٥). وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ (هود: ٨٨)، وقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ (الحجر: ٩٩)[٣]. وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية والإجلال والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خُلِقتْ الخليقة، وأُرسلت الرسل وأُنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ (البقرة: ٢١). فهذا أول أمر في القرآن، وقال تعالى:

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٣٧٨-٣٨٠).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (٣٥، ٣٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (صـ٢٠).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (المؤمنون: ٢٣). فهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك، وقال كل من هود وصالح، وشعيب لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وهكذا جميع الأنبياء، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات: ٥٦). وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ ما يقول لكم؟ قال: يقول: اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم[١]. وقال النبي ﷺ لمعاذ: **"إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الله**. وفي رواية: **"أَنْ يُوَحِّدُوا الله"**.[٢]. [٣] واعلم أن توحيد الإلهية يتضمن توحيد الربوبية. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الروم: ٣٠-٣٦)، وقال ﷺ: **"كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"**.[٤]

ولم يقل: ويسلمانه، وفي رواية: "يولد على الملة"[٥] وفي أخرى: "على هذه الملة"[٦].

وهذا الذي أخبر به ﷺ هو الذي تشهد الأدلة العقلية بصدقه، فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية، وهو مع ذلك لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه - كان مشركًا من جنس أمثاله من المشركين، والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلًا على الثاني.[٧]

---

(١) البخاري (٧).

(٢) البخاري (١٤٥٨)، والراوية الأخرى في البخاري (٧٣٧٢).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٠: ٢١)، شرح الطحاوية (١٦) بتصرف.

(٤) البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

(٥) الترمذي (٢١٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٦٠).

(٦) مسلم (٢٦٥٨).

(٧) شرح الطحاوية (١٦-١٩) بتصرف. وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٢٢، ٢٣)، (٣/ ١٠٥-١٠٦).

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحدٍ سواه، كما قال النبي: **"بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاة، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ"**(١)، فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال، فدل على أن الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، بفعل المأمور، وترك المحظور، والإخلاص في ذلك لله.

وقد تضمن جميع أنواع العبادة، فيجب إخلاصها لله تعالى (٢)؛ فهو الذي يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ويستعاذ به ويلتجئ العباد إليه؛ فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد، كما قال تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥). وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣). وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ (الرعد: ٣٠). (٣)

فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر(٤).

فهذه المعاني كلها صحيحة وهي من صريح التوحيد وبها جاء القرآن، فالعباد لا ينبغي لهم أن يخافوا إلا الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ (المائدة: ٤٤) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ (آل عمران: ١٧٣: ١٧٥)(٥).

---

(١) البخاري (٨)، مسلم (١٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٣).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٨٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٤).

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٨٨).

ولا يخاف خوف السر إلا من الله؛ ومعنى خوف السر، هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره فهذا شرك أكبر، لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله والله تعالى يقول: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ (النحل: ٥١)، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ (يونس: ١٠٧).

وكذلك لا ينبغي أن يرجى إلا الله، قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (فاطر: ٢)، فلا يدعى الأموات أو غيرهم رجاء حصول مطلوب من جهتهم فهذا شرك أكبر، قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ (فاطر: ١٤) ولا يدعو إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ (الجن: ١٨)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٣)، سواء أكان دعاء عبادة أو دعاء مسألة[1]، كذلك المحبة فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٥: ١٦٧).

وكذلك الصلاة والركوع والسجود، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ (الكوثر: ٢).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ (الحج: ٧٧).

وكذلك الذبح، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، وكذلك الطواف؛ فلا يطاف إلا ببيت الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩)، وكذلك التوبة، فلا يتاب إلا إلى

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٨٩).

الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، وكذلك الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٩)، فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى من هذه العبادات أو غيرها فهو مشرك، وكل نوع من أنواع العبادة، من صرفه لغير الله، أو شرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (النساء: ٣٦). وهذا الشرك في العبادة هو الذي كَفَّرَ الله به المشركين وأباح به دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ليس له شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها[1].

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات.

أهمية العلم بأسماء الله وصفاته: العلم بأسماء الله وصفاته منزلته في الدين عالية وأهميته عظيمة ولا يمكن لأحد أن يعبد الله على الوجه الأكمل حتى يكون على علمٍ بأسماء الله وصفاته ليعبده على بصيرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

ونشرع الآن في بيان الثمرات والمنافع التي تعود على العباد من وراء علمهم بأسماء الله وصفاته.

أولًا: العلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى معرفة الله: فإذا شاء العبدُ أن يعرف ربه ويزداد به علمًا؛ فليس أمامه طريق إلا النصوص الواصفة له والمصرحة بأفعاله وأسمائه، لأن الله غيبٌ لا يرى في الحياة الدنيا.

ثانيًا: تزكية النفوس وإقامتها على منهج العبودية للواحد الأحد.

ثالثًا: العلم بأسماء الله وصفاته أشرف العلوم: فشرف العلم بشرف المعلوم، والباري أشرف المعلومات، فالعلم بأسمائه أشرف العلوم.[2]

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٦).

(٢) أسماء الله وصفاته (٢٣).

رابعًا: العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه: فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له أو أمرًا، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة بهم، والإحسان إليهم، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنى وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، إذ مصدره أسماؤه الحسنى فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ولم يخلق خلقه سدى ولا عبثًا، وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه أصل لسائر العلوم، فمن أحصاها كما ينبغي أحصى جميع العلوم إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم[1].

خامسًا: العلم بها سبب زيادة الإيمان: العلم بأسماء الله وصفاته والفقه لمعناها والعمل بمقتضاها وسؤال الله بها؛ يُوجِد في قلوب العابدين تعظيم الباري، وتقديسه ومحبته، ورجاءه وخوفه، والتوكل عليه، والإنابة إليه بحيث يصبح الباري في قلوبهم المثل الأعلى الذي لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته[2].

سادسًا: عظم ثواب من أحصى أسماء الله: حيث ينال الحافظ لأسماء الله -تبارك وتعالى- العارف بمعناها العمل بمقتضاها من الأجر مالا يعلمه إلا الله؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **"إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"**.[3]

وإحصاء الأسماء على ثلاث مراتب وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٣).

(٢) أسماء الله وصفاته (٢٦).

(٣) البخاري (٢٧٣٦)، مسلم (٢٦٧٧)، عن أبي هريرة.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠)(١).

سابعًا: تعظيم الله وتمجيده ودعاؤه بأسمائه وصفاته؛ فأسماء الله وصفاته تدل على عظمته تبارك وتعالى، ومن هنا كثرت أسماؤه وصفاته، كما قيل: العظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال(٢).

وقد أمرنا الحق بدعائه بأسمائه الحسنى فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠). وهذا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فدعاء المسألة: أن تقدم بين يدي مطلوبك من أسماء الله تعالى ما يكون مناسبًا مثل أن تقول: يا غفور اغفر لي، ويا رحيم ارحمني، ويا حفيظ احفظني ونحو ذلك.

ودعاء العبادة: أن تتعبد الله تعالى بمقتضى هذه الأسماء فتقوم بالتوبة إليه لأنه التواب، وتذكره بلسانك لأنه السميع، وتتعبد له بجوارحك لأنه البصير، وتخشاه في السر لأنه اللطيف الخبير وهكذا. (٣)

ثامنًا: العلم بالله وفق المنهج القرآني النبوي سبب للتمكين في الأرض والضلال عنه سبب للهزيمة والخذلان.

عقيدة أهل الحق في أسماء الله وصفاته: تقوم عقيدة سلفنا الصالح على عدة أسس وأصول كلها دلَّ عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهي:

الأساس الأول: إثبات ما أثبته الله ورسوله ﷺ: فمذهب السلف -رحمهم الله- الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه في آياته وتنزيله أو على لسان رسوله ﷺ من غير زيادة عليها ولا نقص منها، ولا تجاوز لها ولا تفسير ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه بصفات المخلوقين ولا سمات المحدثين، بل أمرُّوها كما جاءت وردوا

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٤).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦١).

(٣) القواعد المثلى صـ٧.

علمها إلى قائلها ومعناها إلى المتكلم به[١].

الأساس الثاني: أن أسماء الله كلها حسنى وصفاته كلها كاملة عليا: فأهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهج الصحابة والتابعين يعتقدون جازمين بأن الصفات التي وصف الله بها نفسه، والأسماء التي سمى بها نفسه لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وهي أحسن الأسماء وأكمل الصفات. قال الله تبارك وتعالى -مقررًا هذه الحقيقة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠). فهو موصوف من الصفات بأكملها وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها[٢]، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يوصف بما فيه نقص أو عيب فإنه عز وجل تعالى عن ذلك[٣].

الأساس الثالث: تنزيه الباري- تبارك وتعالى- عن التشبيه والتمثيل وكل صفات النقص.

وهذا الأمر قد نصت عليه نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى: ١١). وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص: ٤).

وقد قرر أهل السنة والجماعة بناء على ما فقهوه من بيان الله تعالى أن الله لا يشبه شيئًا من خلقه، لا في ذاته ولا في صفاته، فنؤمن بما وصف الله به نفسه من غير تحريف في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، فلا ينفون

---

(١) ذم التأويل لابن قدامة صـ١١، عقيدة أصحاب الحديث للصابوني (١٣-١٥)، الشريعة للآجري (صـ٢٦٨)، اعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (صـ٥١).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦٨).

(٣) اعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (صـ٥١).

عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه[١].

تنبيه: لا يكفي في التنزيه مجرد نفي التشبيه. فهناك أصلان متلازمان:

الأول: وصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.

الثاني: نفي مشابهة صفات الله لصفات خلقه، ولا يكفي المثبتين مجرد نفي التشبيه، إذ لو كفى في إثباته مجرد النفي -أي نفي التشبيه- لجاز أن يوصف سبحانه من الأعضاء والأفعال، بما لا يكاد يحصى مما هو ممتنع عليه مع نفي التشبيه، وأن يوصف بالنقائص التي لا تجوز عليه مع نفي التشبيه. . .[٢].

الأساس الرابع: الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات: فإن الرسل صلوات الله عليهم جاءوا بنفي مجمل وإثبات مفصل؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ (الصافات: ١٨٠-١٨٢). فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وطريقة الرسل هي ما جاء بها القرآن، والله تعالى في القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل وينفي عنه - على طريق الإجمال - التشبيه والتمثيل. فهو في القرآن يخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه عزيز حكيم، غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه غفور ودود، وأنه تعالى - على عظم ذاته - يحب المؤمنين ويرضى عنهم، ويغضب على الكفار ويسخط عليهم، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلم موسى تكليما، وأنه تجلى للجبل فجعله دكا، وأمثال ذلك. ويقول في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١). ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ (مريم: ٦٥). ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (النحل: ٧٤). فيثبت الصفات

(١) العقيدة الواسطية، لابن تيمية (١٦-٢١) بشرح خليل هراس.

(٢) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٨٢)، وانظر أسماء الله وصفاته للأشقر.

وينفي مماثلة المخلوقات(١).

الأساس الخامس: إجراء الصفات على ظاهرها: فالواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف؛ لاسيما نصوص الصفات حيث لا مجال للرأي فيها:

ودليل ذلك السمع والعقل: أما السمع: فقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥) وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢). وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ٣).

وهذا يدلُّ على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي إلا أن يمنع منه دليلٌ شرعي.

وأما العقل: فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من غيره وقد خاطبنا باللسان العربي فوجب قبوله على ظاهره وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة(٢).

تنبيه: ليس معنى إجراء النصوص على ظاهرها أنها غير مفهومة المعنى، بل هي معلومة لنا باعتبار ومجهولة لنا باعتبار آخر.

فباعتبار المعنى هي معلومة، وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة. وقد دلَّ على ذلك السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، والتدبرُ لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه ليتذكر الإنسان بما فهمه منه.

وكون القرآن عربيًا ليعقله من يفهم العربية، يدلُّ على أن معناه معلوم وإلا لما كان فرقٌ بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها، وبيان النبي ﷺ القرآن للناس شامل لبيان لفظه وبيان معناه.

وأما العقل: فلأن من المحال أن يُنَزِّلَ الله تعالى كتابًا، أو يتكلم رسوله ﷺ بكلام، يقصد بهذا الكتاب وهذا الكلام أن يكون هداية للخلق؛ ويبقى في أعظم الأمور وأشدها

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٦/ ٣٧).

(٢) القواعد المثلى (٤٢).

ضرورة مجهول المعنى. لأن ذلك تأباه حكمة الله تعالى، وقد قال تعالى عن كتابه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

هذه دلالة السمع والعقل عن علمنا بمعاني نصوص الصفات[1]، وما أحسن كلمة الإمام مالك لما سئل عن كيفية الاستواء فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

الأساس السادس: ترك البحث في حقيقة الذات الإلهية والصفات التي تستحقها.

إنَّ ذات الله تبارك وتعالى ليس كمثلها شيء، وكذلك صفاته تبارك وتعالى، فالكلامُ في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإذا كانت الذات لا يعلم كنهها وحقيقتها، فكذلك الصفات لا يعلم كنهها وحقيقتها، ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ (الشورى: ١١).

ومن هنا منع الذين فقهوا المنهج القرآني السؤال عن الله وصفاته بكيف، لأن حقيقة الذات والصفات لا يمكن أن تعلم، فلا يقال كيف الله؟ ولا كيف استوى؟ ولا كيف علمه وسمعه وبصره؟ وهذا لا يعني نفي الصفة وقد أشار الحق إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ (طه: ١١٠)، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ (البقرة: ٢٥٥). فرؤية الله في الآخرة ممكنة، ولكن الإحاطة بالله منفية، وإدراك معنى العلم ممكن، ولكن الإحاطة بعلم الله غير ممكنة.

وقد نهى الرسول ﷺ عن التفكر في ذات الله، وأمر بالتفكر في خلق الله، ففي الحديث: "**لا تفكروا في الله وتفكروا في خلق الله**"[2].

وفي الحديث الآخر: "**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله**"[3].

---

(١) القواعد المثلى (٤٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٧)، وقال الألباني: حسن. صحيح الجامع (٢٩٧٦).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢٠)، والطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، وأبو الشيخ في العظمة (١)، والهروي في دلائل التوحيد (١/ ٩٠/ ٣٨)، وقال الألباني: وهذا إسناده حسن في الشواهد الصحيحة (١٧٨٨).

وقال الإمام الطحاوي: لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام[١]. [٢].

الأساس السابع: عدم الإلحاد في أسماء الله وصفاته: الابتعاد عن الإلحاد في أسماء الله وصفاته معلم بارز من معالم أهل السنة والجماعة في هذا الباب، واتباع هذا السبيل هو تحقيق لما حذر الله منه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ (فصلت: ٤٠)، والإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها وهو أنواع. [٣]: **الأول**: أن ينكر شيئًا منها أو مما دلت عليه الصفات والأحكام[٤].

وذلك كتكذيب المشركين باسم الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ (الفرقان: ٦٠)، وأيضًا إلحاد الجهمية والمعطلة الذين نفوا عن الله أسمائه وصفاته أو عطلوها عن معانيها[٥]، وإنما كان ذلك إلحادًا لوجوب الإيمان بها، وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله، فإنكار شيء من ذلك ميلٌ بها عما يجب فيها[٦].

الثاني: أن يجعلها دالَّةً على صفاتٍ تشبه صفات المخلوقين كما فعل أهل التشبيه، وذلك لأن التشبيه معنى باطل لا يمكن أن تدلَّ عليه النصوص، بل هي دالةٌ على بطلانه فجعْلها

وقال المناويُّ: تفكروا في آلا الله أي نعمه التي أنعم بها عليكم.

وقال القاضي: والتفكر فيها أفضل العبادات، ولا تفكروا في الله فإن العقول تحار فيه.

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١١٧).

(٢) أسماء الله وصفاته، للأشقر (١٣٦، ١٣٧).

(٣) قال صاحب القاموس (١/ ٤٥٨/ مادة لحد: ألحد: مال وعدل ومارى وجادل).

(٤) القواعد المثلى (٢٦).

(٥) أسماء الله وصفاته، للأشقر (١٣٨) بتصرف.

(٦) القواعد المثلى (٢٦).

دالة عليه ميلٌ بها عما يجب فيها.

الثالث: أن يسمِّي الله تعالى بما لم يسم به نفسه كتسمية النصارى له: الأب، وتسمية الفلاسفة إياه العلة الفاعلة، وذلك لأن أسماء الله تعالى توقيفية، فتسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه ميلٌ بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماء التي سموه بها نفسها باطلة يُنَزَّهُ الله تعالى عنها.

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام كما فعل المشركون في اشتقاق العُزَّى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله على أحد القولين فسَمُّوا بها أصنامهم[1]، ومن ذلك أيضًا دعوى الألوهية والربوبية، كقول فرعون طاغية مصر لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ (القصص: ٣٨)، ودعواه بأنه ربهم الأعلى في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات: ٢٤).

الأساس الثامن: الوقف في أسماء الله وصفاته.

قال الإمام أحمد: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه؛ أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث.

وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة فلا يزاد فيها ولا ينقص، لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء فوجب الوقوف في ذلك على النص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف: ٣٣).

لأن تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى فوجب سلوك الأدب في ذلك والاقتصار على ما جاء به النص[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القواعد المثلى (١٦).

وكل ما ذكرته هنا من أنه يجب أن يتوقف في أسماء الله وصفاته عائدٌ لأمور:

الأول: أن مخالفة هذا المنهج قولٌ على الله بغير علم، ورجم بالغيب، وقد حَرَّم الله هذا، وعده من الجرائم العظام، وإذا كان البشر لا يرضون أن يسموا بغير أسمائهم، فكيف يجوز هذا في حق خالق البشر.

الثاني: أن مخالفة هذا النهج تقديم بين يدي الله ورسوله ﷺ، وقد نهينا عن التقديم بين يدي الله ورسوله، وكيف يجيب العبد إذا حاسبه ربه يوم القيامة عن وصفه تبارك وتعالى بما لم يصف به نفسه.

الثالث: أن أسماء الله تبارك وتعالى حسنى، ومهما اجتهد العبد فإنه قد لا يوفَّق للتعرف على الاسم الأحسن الذي يستحقه الرب تبارك وتعالى[١].

وهذا الأساس أعنى الوقف في أسماء الله وصفاته، وأنه لا يجوز لأحد أن يشتق من الأفعال الثابتة لله أسماء، إلا إذا ورد نص إما في الكتاب أو السنة قد اتفق عليه العلماء المحققون.

فقال الفخر: المشهور عن أصحابنا أنها توقيفية.

وقال أبو القاسم القشيري: الأسماء تؤخذ توقيفًا من الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد فيها وجب إطلاقه في وصفه، وما لم يرد لا يجوز ولو صح معناه.

وقال أبو إسحاق الزجاج: لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه[٢].

---

(١) أسماء الله وصفاته للأشقر (١٢٨).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٢٦).

المبحث الثالث: مراتب الدين.

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: أركان الإسلام. [١]

الركن الأول: الشهادتان.

ومعنى لا إله إلا الله: أي لا معبود بحق في الأرض ولا في السماء إلا الله وحده، فهو الإله الحق، وكل إله غيره باطل، وتقتضي إخلاص العبادة لله وحده، ونفيها عما سواه.

ولا تنفع قائلها حتى يتحقق فيه أمران:

الأول: قول لا إله إلا الله عن اعتقاد وعلم ويقين وتصديق ومحبة.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله.

فمن قال هذه الشهادة ولم يكفر بما يعبد من دون الله لم ينفعه هذا القول.

شروط لا إله إلا الله

أحدها: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للرد.

الرابع: الانقياد المنافي للترك

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصدق المنافي للنفاق.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

وقد قال حافظ حكمي:

وبشروط سبعة قد قيدت وفي نصوص الوحي حقا وردت

فإنه لم ينتفع قائلها بالنطق إلا حيث يستكملها

---

(١) وهذا المطلب اختصرناه فالأصل فيه مخاطبة من ليس مسلمًا، أو مسلم يجهل أصول دينه، وإلا فإن هذا المطلب مفصل في أسفار عظام ولكنها إشارات هامة.

العلم واليقين والقبول والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة وفقك الله لما أحبه

ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وأن تعلم وتعتقد بأن محمدًا رسول الله إلى الناس جميعا، وأنه عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب، بل يطاع ويتبع، من أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وأن تعلم وتعتقد بأن تلقي التشريع سواء في العقيدة، أم في شعائر العبادات التي أمر الله بها، أم في نظام الحكم والتشريع، أم في مجال الأخلاق، أو في مجال بناء الأسرة، أو في مجال التحليل والتحريم. لا يكون إلا عن طريق هذا الرسول الكريم محمد ﷺ لأنه رسول الله المبلغ عنه شريعته.

وقد سبق التفصيل في ذلك عند الحديث عن التوحيد وأقسامه.

الركن الثاني: الصلاة.

الصلاة لغة: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ (التوبة: ١٠٣). أي ادع لهم.

وقال ﷺ: "**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ**". [(١)]

والصلاة عند أهل الاصطلاح: عبارة عن التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم مع النية بشرائط مخصوصة.

وقد ثبت فرضية الصلاة بالقرآن والسنة والإجماع، قال سبحانه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وقال ﷺ: " **بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**"[(٢)].

وهي خمس صلوات كما جاء في حديث الأعرابي: أخبرني ما فرض الله علي من الصلوات؟ فقال: " **خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**". [(٣)]

---

(١) مسلم (١٤٣١).

(٢) البخاري (٨)، مسلم (١٦) من حديث ابن عمر.

(٣) البخاري (٤٦)، مسلم (١١).

قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن صلاة الظهر أربع ركعات يخافت فيها بالقراءة، ويجلس فيها جلستين في كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة العصر أربعًا كصلاة الظهر لا يجهر فيها بالقراءة، ويجلس فيها جلستين في كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة المغرب ثلاثًا؛ يجهر في الركعتين الأوليتين منها بالقراءة ويخافت في الثالثة، ويجلس في الركعتين الأوليتين جلسة للتشهد وفي الآخرة جلسة، وأن عدد صلاة العشاء أربعًا، يجهر في الركعتين الأوليتين منها بالقراءة، ويخافت في الأخريين ويجلس فيها جلستين كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة الصبح ركعتان يجهر فيهما بالقراءة ويجلس فيها جلسة واحدة للتشهد هذا فرض المقيم، فأما المسافر ففرضه ركعتين إلا صلاة المغرب فإن فرض المسافر في صلاة المغرب كفرض المقيم(١).

الركن الثالث: إيتاء الزكاة.

إن التفاوت بين الناس في الأرزاق والمواهب وتحصيل المكاسب أمر واقع طارئ يحتاج في شرع الله إلى علاج، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾ (النحل: ٧١).

وأوجب على الغني أن يعطي الفقير حقًا واجبًا مفروضًا لا تطوعًا ولا منةً قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥﴾ (المعارج: ٢٤-٢٥).

وفريضة الزكاة أولى الوسائل لعلاج ذلك التفاوت، وتحقيق التكافل أو الضمان الاجتماعي في الإسلام. (٢)

الزكاة لغة: النماء والزيادة. (٣)

اصطلاحًا: فإنها حق مخصوص في مال مخصوص على وجه مخصوص في وقت مخصوص. ويعتبر في وجوبه الحول والنصاب.

الزكاة من أركان الإسلام الخمسة، وفرض من فروضه، وفرضت في المدينة في شوال

---

(١) الأوسط لابن المنذر (٢/ ٣١٨).

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته وهبه الزحيلي (٢/ ٧٣١-٧٣٢).

(٣) لسان العرب (٣/ ١٨٤٩).

السنة الثانية من الهجرة بعد فرض زكاة الفطر، وقرنت بالصلاة في اثنين وثمانين موضعًا مما يدل على كمال الاتصال بينهما. (١)

وقد دل على وجوبها الكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب؛ فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النور: ٥٦)، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ (التوبة: ١١). وغيرها كثير.

وأما السنة؛ فقوله ﷺ: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ. . . "منها "وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ". (٢)

ولما بعث النبي ﷺ: معاذًا إلى اليمن فقال: " **فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**". (٣)

وقال ﷺ: "**مَنْ آتَاهُ الله مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ**". (٤)

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون في جميع الأعصار على وجوبها من حيث الجملة، واتفق الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعيها(٥).

الحكمة من تشريع الزكاة.

١) تصون المال وتحصنه من تطلع الأعين وامتداد أيدي الآثمين والمجرمين.

٢) تطهر النفس من داء الشح والبخل فالزكاة التي يؤديها المسلم امتثالًا لأمر الله وابتغاء مرضاته، إنما هي تطهير له من أرجاس الذنوب بعامة، ومن رجس الشح بخاصة، وذلك الشح الذميم الذي أحضرته الأنفس وابتلي به الإنسان، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٧٣٣.

(٢) البخاري (٨)، ومسلم (٢١).

(٣) البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) البخاري (٤٥٦٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) المغني ٢/ ٤٣٣.

﴿قَتُورًا﴾ (الإسراء: ١٠٠)، وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨)[١].

٣) تدرب المسلم على الإنفاق والبذل والجود والسخاء والكرم الذي يحبه كل بر وفاجر وتبعده عن الشح الذي هو مذموم عند كل أحد وتطهر القلب عن حب الدنيا ببذل اليسير[٢].

٤) عون للفقراء والمحتاجين، تأخذ بأيديهم لاستئناف العمل والنشاط إن كانوا قادرين، وتساعدهم على ظروف العيش الكريم إن كانوا عاجزين فتحمي المجتمع من مرض الفقر، والدولة من الإرهاق والضعف[٣].

٥) وجبت شكرا لنعمة المال، فالزكاة توقظ في نفس معطيها معنى الشكر لله تعالى والاعتراف بفضله عليه وإحسانه إليه[٤].

٦) علاج القلب من حب الدنيا، فهي علاج للقلب من الاستغراق في حب الدنيا، وحب المال فإن الاستغراق في حبه -كما قال الرازي يذهل النفس عن حب الله وعن التأهب للآخرة[٥].

٧) الزكاة منمية لشخصية الغني وكيانه المعنوي فلإنسان الذي يبذل الخير ويصنع المعروف ويبذل من ذات نفسه ويده لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية وليقوم بحق الله عليه يشعر بامتداد في نفسه وانشراح واتساع في صدره، ويحس به من انتصر في معركة[٦].

٨) والزكاة تربط بين الغني ومجتمعه برباط متين سداه المحبة ولحمته الإخاء والتعاون، فإن الناس إذا علموا في الإنسان رغبته في نفعهم، وسعيه في جلب الخير لهم، ورفع الضر عنهم، أحبوه بالطبع ومالت نفوسهم إليه لا محالة.

---

(١) فقه الزكاة يوسف القرضاوي (٢/ ٨٥٧).

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز المحمد السلمان (١/ ٢٦١-٢٦٢)

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته (٢/ ٧٣٢).

(٤) فقه الزكاة (٢/ ٨٦٣).

(٥) المصدر السابق (٢/ ٨٦٤).

(٦) المصدر السابق (٢/ ٨٦٦).

الركن الرابع: الصيام.

الصيام في اللغة: هو الإمساك والكف عن كل شيء، يقال لمن سكت ولم يتكلم صائم.

قال الله تعالى في قصة مريم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ (مريم: ٢٦)

وأما الصيام في الشرع: إمساك مخصوص، عن شيء مخصوص، في زمن مخصوص، من شخص مخصوص، بنية مخصوصة، أي: الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات؛ من طلوع الشمس إلي غروب الشمس مع نية التعبد لله تعالي.

والصيام ركن من أركان الإسلام دَلَّ علي وجوبه الكتاب والسنة والإجماع.

أما من الكتاب: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣).

أما من السنة: حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ "**: بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**"[١].

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على أن الصوم ركن من أركان الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة بحيث يكفر منكره وأنه لا يسقط علي المكلف إلا بعذر من الأعذار الشرعية المعتبرة[٢].

ويجب الصوم على المسلم البالغ العاقل القادر على الصوم ولا يجب على كافر ولا مجنون ولا صبي.[٣]

الركن الخامس: الحج.

الحج في لسان العرب فيه قولان:

أحدهما: أنه القصد ولهذا سمي الطريق محجة لأنه يوصل إلى المقصد.

الثاني: أنه العود مرة بعد أخرى.

---

(١) البخاري (٨)، مسلم (١٦).

(٢) المغني (٣/ ٣)، المجموع (٦/ ٢٥٢).

(٣) المغني (٣/ ١٣).

الحج شرعًا: قصد مكة لعمل مخصوص في زمن مخصوص(١).

والحج فرض عين علي كل مكلف مستطيع في العمر مرة. وهو ركن من أركان الإسلام وقد ثبت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب: فقد قال تعالي: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)

وأما من السنة: فقد وردت أحاديث كثيرة جدًا بلغت حد التواتر تفيد اليقين والعلم القطعي الجازم بثبوت هذه الفريضة. ومن ذلك حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**"(٢)

وأما الإجماع: فقد أجمعت الأمة علي وجوب الحج (على المستطيع) مرة واحدة في العمر وهو المعلوم بالدين بالضرورة يكفر جاحده(٣)

والحج له مواقيت زمانية ومكانية: والزمانية في قوله ﷻ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة: ١٩٧).

أي: لا يصح شيء من أعمال الحج إلا فيها.

والمكانية: فهي كما في حديث ابن عباس قال: "وقت رسول الله ﷺ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ وَلِأَهْلِ الشَّامِ الْجُحْفَةَ وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ وَلِأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ. . ."(٤)

وفي حديث عائشة رضي الله عنها"أن رسول الله ﷺ وقت لأهل العراق ذات عرق"(٥).

هذا؛ وللحج أركان لا يصح إلا بها، وهي عند الجمهور أربعة: الإحرام، الوقوف بعرفة، طواف الإفاضة، والسعي بين الصفا والمروة، ويجب الحج بخمسة شروط هي

---

(١) معونة أولي النهى (٣/ ١٥٤).

(٢) البخاري (٨)، مسلم (١٦).

(٣) المغني (٣/ ١٥٩)، المجموع (٧/ ٧).

(٤) البخاري (١٥٦٢)، مسلم (١١٨١).

(٥) أبو داود (١٧٣٩)، النسائي (٥/ ١٢٣)، صححه الألباني في الإرواء (٩٩٩).

الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والاستطاعة. [١]

المطلب الثاني: أركان الإيمان.
الركن الأول: الإيمان بالله.

فلفظ الجلالة الله: علم على الرب تبارك وتعالى وقيل أنه أعرف المعارف. وأصله: الإله وهو مشتق.

إن الإيمان بالله تعالى هو الركن الركين والركن الأساسي، فهو العمدة ويبنى عليه باقي أركان الإيمان، وهو بمثابة القاعدة الصلبة لأركان الإيمان.

فالإيمان بالله تعالى: إثباته والاعتراف بوجوده، والإيمان له تعالى: القبول عنه والطاعة له. [٢]

معرفة الله ﷻ هي أسمى المعارف وأجلِّها وهي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الروحية كلها.

فمنها تفرعت المعرفة بالأنبياء والرسل وما يتصل بهم من حيث عصمتهم ووظيفتهم وصفاتهم والحاجة إلى رسالاتهم، وما يلحق بذلك من المعجزة والولاية والكرامة والكتب السماوية.

وعنها تشعبت المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة من الملائكة والجن والروح.

وعنها انبثقت المعرفة بمصير هذه الحياة وما تنتهي إليه من الحياة البرزخية والحياة الأخروية من البعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار.

الإيمان بوجود الله تعالى: دلت عليه الفطرة، والعقل، وإجماع الأمم، والآيات الكونية.

أما دلالة الفطرة: فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها، لقول النبي ﷺ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ"(٣).

فما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وما يلقيه الكتَّاب والمعلمون والباحثون في أفكار

---

(١) المغني (٣/ ١٦١).

(٢) تيسير العزيز الحميد صـ١٥.

(٣) البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨).

الناشئة؛ يبدل هذه الفطرة ويكدرها ويلقي عليها غشاوة فلا تتجه إلى الحقيقة.

وشياطين الإنس والجن يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها.

وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: **"أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا "**(١).

إذًا فالإقرار بوجود الله تعالى أمر فطري، فالعلم الإلهي فطري ضروري وأنه أشد رسوخًا في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين، لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر، وأما العلم الإلهي: فما يتصور أن تعرض عنه فطرة(٢).

فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقًا به ودينًا له، لكن يعرض لها ما يفسدها، ومعرفة الحق تقتضي محبته، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه؛ لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل، لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه.

ولهذا أمرنا الله أن نقول في الصلاة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ (الفاتحة٦: ٧). وقال النبي ﷺ: **"اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون"** لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم؛ ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته. والنصارى لهم عبادة وفي قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها لكن بلا علم فهم ضُلَّال. هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح وهؤلاء لهم قصد في الخير بلا معرفة له وينضم إلى ذلك الظن واتباع الهوى؛

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ١٥).

فلا يبقى في الحقيقة معرفة نافعة؛ ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن مشركي أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ (الملك: ١٠).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩)[1].

فإن قيل: إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتًا في كل فطرة فكيف ينكر ذلك كثير من النظار -نظار المسلمين- وغيرهم وهم يدعون أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية؟!

فيقال أولًا: أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام الذين اتفق السلف على ذمهم؛ من الجهمية والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم. ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية.

فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في الأصل عن علماء المسلمين؛ وليس كذلك إنما صدر أولًا عمن ذمه أئمة الدين وعلماء المسلمين.

الثاني: أن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به. فوجود الشيء في الإنسان وغيره غير علم الإنسان به[2].

فمعرفة الخالق سبحانه فطرية، وإنما تكون نظرية عند من فسدت فطرته فاحتاج إلى النظرة والبرهان.

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه لم يوجب هذا النظر على الأمة، ولا أمرهم به، بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة، ولو كان

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٧/ ٥٢٨)، فتح الباري (٣/ ٢٤٨)، درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٧٥).

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٦/ ٢٣٠-٣٤٨)، درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٩-٤١).

النظر واجبًا لكان أول ما يجب على الرسل دعوة قومهم إليه، وهذا مما علم فساده من دين الإسلام، فالفطرة تعرف الخالق بدون الآيات والأدلة العقلية، لأن معرفة الدليل تستلزم تصور المدلول عليه قبل ذلك.

كما أن معرفة الاسم تقتضي تصور المسمى من قبل حتى تمكن المطابقة وتتم المعرفة، والقلوب مفطورة على الإقرار به سبحانه أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات؛ كما قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)[١]، ولذلك قال كثير من العلماء والعقلاء: إن العلم بالخالق ضروري لا يحتاج إلى نظر، وإنما إلى تذكر يوقظ من سنة الغفلة كالموت الذي يغفل عنه كثير من الناس وهو ضروري، وقد قال تعالى في مخاطبة العقلاء به: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر: ٣٠)؛ فالألسنة تنطلق بذكره تعالى عند الكوارث، والنفوس تلجأ إليه عند دفع المضار، ولو قيِّد لسان المضطر لنطق جنانه وأفصحت إشاراته وأركانه، ووجد حرارة تدفعه إلى بارئه وتضطره إلى مُنْشِئه وهذا الشعور لا صنع فيه للبشر ولا كسب لهم فيه لا بتقليد ولا نظر بل هو لازم من لوازم الإنسانية وصفة من صفاتها الذاتية: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠)[٢]. فما أصبحت مسالة توحيد الربوبية من النظريات التي يقام عليه برهان فإن الفطرة السليمة الإنسانية تشهد بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير، ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشرك.

دلالة العقل على وجود الله تعالى: يجب أن يعلم: أن العالَمَ مُحدَث؛ وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه: تغيره من حال إلى حال، ومن صفة إلى صفة، وما كان هذا سبيله ووصفه كان مُحْدَثًا، وقد بيَّن نبيُنا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمن

---

(١) فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٣٣٠، درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣٧-٤١، مناهج الأدلة لابن رشد صـ٤٣.

(٢) دلائل التوحيد للقاسمي صـ١٢-١٤.

أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن بدء هذا الأمر؟ فقال: نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلق الله الأشياء.

فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق. وكذلك الخليل ﷺ، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب قال: هذا ربي، إلى آخر الآيات فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقًا، فقال عند ذلك ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (الأنعام: ٧٩)

وإذا صح حدوث العالم؛ فلا بد له من محدث أحدثه، ومصور صوره، والدليل على ذلك: أن الكتابة لا بد لها من كاتب كتبها، والصورة لا بد لها من مصور صورها، والبناء لا بد له من بان بناه. فإنا لا نشك في جهل من أخبرنا بكتابة حصلت بنفسها لا من كاتب، وصناعة لا من صانع، وحياكة لا من ناسج. وإذا صح هذا وجب أن تكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صنعها، ومحدث أحدثها، إذ كانت ألطف وأعجب صنعًا من سائر ما يتعذر وجوده إلا من صانع.

دليل ثان: ويدل على ذلك أيضًا: علمنا بتقدم الحوادث بعضها على بعض، وتأخر بعضها عن بعض، مع علمنا بتجانسها وتشاكلها، فلا يجوز أن يكون المتقدم منها متقدمًا لنفسه؛ لأنه لو تقدم لنفسه لوجب تقديم كل ما هو من جنسه معه، وكذلك المتأخر منها، لو تأخر لنفسه وجنسه لم يكن المتقدم منها بالتقدم أولى منه بالتأخر، وفي علمنا بأن المتقدم من المتماثلات بالتقدم أولى منه بالتأخر، دليل على أن له مقدمًا قدمه، وعاجلًا عجله في الوجود، مقصورًا على مشيئته.

ويدل على صحة ما ذكرناه: أن الموجودات لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها، أنا وجدنا منها الموات والأعراض، أعني الجمادات التي لا حياة فيها، لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها ولا لغيرها، لأن من شرط الفاعل أن يكون حيًا قادرًا، فبطل كونها محدثة لنفسها بل لها مُحدِثٌ أحدثها.

ويدل على صحة ذلك أيضًا: أنا وجدنا أنفس الموجودات في العالم، الحي القادر العاقل

المحصل، وهو الآدمي، أكمل ما تكون. تعلم وتحقق أنه كان في ابتداء أمره نطفة ميتة، لا حياة فيها ولا قدرة، ثم نقل إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم من حال إلى حال، ثم بعد خروجه حيًا من الأحشاء إلى الدنيا. تعلم وتحقق أنه كان في تلك الحالة جاهلًا بنفسه وتكييفه، وتركيبه، ثم بعد كمال عقله وتصوره وحذقه وفهمه لا يقدر في حال كماله أن يحدث في بدنه شعرة ولا شيئًا، ولا عرقًا فكيف يكون محدثًا لنفسه ومنقلًا لها في حال نقصه من صورة إلى صورة ومن حالة إلى حالة وإذا بطل ذلك منه في حال كماله كان أولى أن يبطل ذلك منه في حال نقصه، ولم يبق إلا أن له محدثًا أحدثه، ومصورًا صوره ومنقلًا نقله؛ وهو الله سبحانه وتعالى[1].

وتقوم هذه الأدلة على أسس عقلية لا يخالفنا فيها أحد.

١) فالعدم لا يفعل شيئًا: فمن المستحيل أن يوجد فعل بدون فاعل، ومن المستحيل أن يفعل العدم شيئًا لأنه لا وجود للعدم.

٢) والفعل مرآة لبعض قدرة فاعله وبعض صفاته:

فإن بين الفعل والفاعل علاقة قوية فالفاعل هو المقدمة والفعل هو النتيجة ولا يكون شيء في الفعل ليس للفاعل قدرة على فعله.

٣) وفاقد الشيء لا يعطيه: فنحن إذا شاهدنا مقتولًا في الشارع فإن أحدًا منا لا يدعوا إلى إلقاء القبض على حجرة بجوار القتيل بتهمة القتل لأنها لا تملك القدرة على الفعل كما أن الواحد منا لا يزعم بأن حيوانًا لا يعقل قد أطلق قمرًا صناعيًا يدور حول الأرض لأن الحيوان لا يملك القدرة على إطلاق ذلك القمر وهكذا يحكم العقل حكمًا جازمًا بأن ليس الفاعل من لا يملك القدرة على الفعل وفاقد الشيء لا يعطيه[2].

٤) مبدأ السببية؛ فالواقع والعقول السليمة تشهد أن الإنسان منذ فتح عينيه لم يشاهد أن حادثًا حدث من غير سبب أو أن شيئًا وجد من غير موجد حتى أصبح هذا المعنى

---

(١) انظر في ذلك الفصل في الملل والنحل (١/ ٦٦)، ودرء تعارض العقل والنقل (٣/ ١١٣)، وأضواء البيان (٤/ ٣٦٨).

(٢) توحيد الخالق (٢٩-٣٠)، والرياض النضرة (صـ٢٥٨)، ودرء تعارض العقل مع النقل (٣/ ١٢١).

بحكم الواقع لا يتصور العقل خلافه ولا يأبى الإقرار به إلا كصاحب عقل مفقود أو مريض كشأن المعتوهين.

دلالة إجماع الأمم على وجود الله سبحانه وتعالى:

من المعلوم أنه لا يوجد أحدً من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم شاركوا الله في خلق السموات والأرض بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال بل ولا أثبت أحد من بني آدم إلهًا مساويًا لله في جميع صفاته.

بل عامة المشركين بالله: مقرون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم يقرون أن الشريك مملوك له سواء كان ملكًا أو نبيًا أو كوكبًا أو صنمًا.

كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

فأهلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد وقال: " لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك".

وقد أخبر سبحانه عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات فقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الزمر: ٣٨).

فقد تبين أن ليس في العالم من ينازع في هذا الأصل؛ ولكن غاية ما يقال: إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقا لغير الله كالقدرية وغيرهم؛ لكن هؤلاء يقرون بأن الله خالق العباد وخالق قدرتهم، وإن قالوا إنهم خلقوا أفعالهم وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذين يجعلون أن بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور هم مع الإقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة لا يقولون إنها غنية عن الخالق مشاركة له في الخلق[١].

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٩٧-٩٩)، (٤/ ١٤-١٥)، (٥/ ٥٥٠).

الاستدلال بالآيات الكونية وغيرها على وجود الله سبحانه وتعالى.

وهذا من أعظم الأدلة فائدةً، وأسهلها طريقةً، وأسرعها نتيجةً، وأسلمها وأبعدها عن الخطأ.

ولذلك لما سئل بعض الأعراب عن وجود الرب تبارك وتعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وقال أبو نواس وقد سئل عن ذلك:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لُجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك.

وقال آخر:

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذي الصحاري والجبال الرواسيا

سل الروض مزدانًا سل الزهر والندى ... سل الليل والإصباح والطير شاديا

وسل هذه الآنام والأرض والسما ... وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربي يرجع الصبح ثانيا

وأول سورة نزلت في القرآن ذكرت هذا حيث يقول سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ (العلق: ١-٢). فذكر الخلق مطلقًا ومقيدًا؛ ليذكر أن هذا الخلق لابد له من خالق، وهذا ما يسميه دليل الخلق والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾ (الطارق: ٥-٦).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾ (الغاشية ١٧: ٢٠)

وقال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ (الطور: ٣٥).

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل: ٦٤)[1].

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لا يتم الإيمان إلا به، والملائكة عالم من عوالم الغيب التي امتدح الله بها المؤمنين تصديقًا لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ.

وهي أجسام لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات، وخلقهم الله من النور فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "**خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُور.**"[2].

ولهم أجنحة كما قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ (فاطر: ١).

ولا يأكلون ولا يشربون. ويدل على هذا قصة الملائكة مع إبراهيم عليه السلام لما جاؤوا إليه في صورة بشر، فقدَّم لهم الطعام، فلم تمتد أيديهم إليه، فأوجس منهم خيفة قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٤-٢٨).

ولا يملون ولا يتعبون من عبادة الله. لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٠).

فهم دائبون في العمل ليلًا ونهارًا، مطيعون قصدًا وعملًا، قادرون عليه[3].

وأعدادهم كثيرة لا يعلمه إلا الله. لقوله ﷺ: "**أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ**

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٩)، وعقيدة المسلمين للبليهي (١/ ١٢٥)، وتلبس إبليس (١/ ١٧٤)، والملل والنحل (٣/ ٧٩)، والإيمان لعبد المجيد الزنداني (صـ٢٢)، ودرء تعارض العقل مع النقل (٧/ ٣٠٥).

(٢) مسلم (٢٩٩٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٩/ ٣٩٦).

أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ"(١).

وحديث النبي ﷺ في وصف البيت المعمور "هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ". (٢)

ولهم أعمال موكلون بها. وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ولهم علاقة طيبة بالصالحين من بني آدم. وأما مع غيرهم فهي علاقة بغض وشدة.

وإليك بعض هذه الصور الطيبة للعلاقة الصالحة:

١- استغفارهم للصالحين: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (غافر: ٧)، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٥)، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً. . . . . "، وفيه "وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ يَقُولُونَ اللهمَّ ارْحَمْهُ اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ اللهمَّ تُبْ عليهِ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ"(٣).

٢-شفاعتهم للموحدين عند الله: قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٦)، وفي حديث أبي سعيد الخدري

---

(١) أحمد (٥/ ١٧٣)، الترمذي (٢٣١٢)، وغيرهما. وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٢).

(٢) البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٢).

(٣) البخاري (٤٧٧)، مسلم (٦٤٩) واللفظ له.

عن النبي ﷺ وهو حديث الرؤية الطويل وفيه"... فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون"(١).

٣-محبتهم للمؤمنين: كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **"إِذَا أَحَبَّ الله الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ"**(٢).

٤- وهم يصلون على النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ (الأحزاب: ٥٦).

٥-التأمين على دعاء المؤمنين: وبهذا يكون الدعاء أقرب إلي الله تعالى. لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم. ففي حديث أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: **"مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ"**(٣).

وهذا قليل من كثير من أعمال الملائكة وخصوصًا مع المؤمنين وإلا فالأعمال كثيرة. ولذا فإن واجب المؤمن تجاه الملائكة هو عدم إيذاء الملائكة والبعد عن كل ما يؤذي الملائكة من الذنوب والمعاصي وموالاة الملائكة كلهم.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب.

وهذا هو الركن الثالث من أركان الإيمان ومعناه: أن تؤمن بما سمى الله من كتبه في كتابه، من التوراة، والإنجيل، والزبور، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتبا أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها، وتؤمن بالفرقان.(٤) قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة: ١٣٦).

ومن الإيمان بالكتب الإيمان بأنها كلام الله عز وجل لا كلام غيره وأن الله تعالى تكلم بها حقيقة

---

(١) البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

(٢) البخاري (٣٢٠٩)، مسلم (٢٦٣٧).

(٣) مسلم (٢٧٣٣، ٢٧٣٢).

(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٩٣)، شرح الطحاوية (٣١٢).

كما شاء وعلى الوجه الذي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمعه الرسولُ الملكي ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري، ومنها ما خطه الله بيده ﷻ.

ومن الإيمان بالكتب الإيمان بأن جميعها يصدق بعضها بعضًا لا يكذبه.

ومن الإيمان بالكتب الإيمان بأن نسخ الكتب الأولى بعضها ببعض حق كما نسخ بعض شرائع التوارة بالإنجيل، وكما نسخ كثير من شرائع التوراة والإنجيل بالقرآن.

ونؤمنُ بأن القرآن لا يأتي كتاب بعده ولا مغير ولا مبدِّل لشيء من شرائعه بعده، وأنه ليس لأحدٍ الخروج عن شيء من أحكامه، وأن من كذب بشيء منه من الأمم الأولى فقد كذب بكتابه، كما أن من كذب بما أخبر عنه القرآن من الكتب فقد كذب به، وأن من اتبع غير سبيله ولم يقتف أثره ضل.

وأخيرًا نقول: إن الإيمان بكتب الله عز وجل يجب إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فصل كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

فقد سمى الله تعالى من كتبه التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود والقرآن على محمد ﷺ، وذكر صحف إبراهيم وموسى، وقد أخبر تعالى عن التنزيل على رسله مجملًا في قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ (النساء: ١٣٦).(١)

الركن الرابع: الإيمان بالرسل

إن الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، ومن لم يؤمن بالرسل ضلَّ ضلالًا بعيدًا، قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ (آل عمران: ٨٤).

---

(١) معارج القبول (٢/ ٦٧٣-٦٧٥) باختصار.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦)، ومن شعب الإيمان: الإيمان برسل الله ﷻ صلى الله عليهم أجمعين وسلم لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولذا قال النبي ﷺ في سؤال جبريل ؑ له عن الإيمان: "**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**". (١)

ويجب الإيمان بجميع الرسل، والكفر برسول واحد هو كفرٌ بجميع الرسل، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٥). وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٢٣). وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٤١). وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٦٠).

ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلّقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح

---

(١) مسلم (٨).

نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[١].

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

إن الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان وعمود من أعمدة هذا الإيمان. وهو الاعتقاد الجازم الذي لا يدخله شكٌ ولا ريب بكل ما أخبر به الله ﷻ في كتابه العزيز، أو جاء على لسان نبينا محمد ﷺ عن ذلك اليوم، وما يحدث فيه بما في ذلك من الساعة وعلاماتها، والقبر ونعيمه وعذابه، والصراط ومحنته، والصحف وتطايرها، والميزان وانتصابه، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها.

ومعناه التصديق بأن لأيام الدنيا آخرًا أي أن هذه الدنيا منقضية، وهذا العالم منقض. وفي الاعتراف بانقضائه اعتراف بابتدائه لأن القديم لا يفنى ولا يتغير، وفي اعتقاده وانشراح الصدر به ما يبعث على فضل الرهبة من الله ﷻ، وقلة الركون إلى الدينا والتهاون بأحزانها ومصائبها، والصبر عليها وعلى مضض الشهوات احتسابًا وثقةً بما عند الله ﷻ عنها من حسن الجزاء والثواب[٢].

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (البقرة: ١٧٧)، وقال ﷺ في تعريف الإيمان: **"أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"** والإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بأشراط الساعة وهي علاماتها الدالة عليها والمقدمة إليها، والإيمان بالموت وما يعقبه من غيبيات. حتى يصل فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير[٣].

الركن السادس: الإيمان بالقدر.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٦٩).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٧/ ٣١٣)، وشعب الإيمان للبيهقي (١/ ٢٣٥).

(٣) الاعتقاد للبيهقي (صـ٢٦٩).

الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان التي لا يتم الإيمان إلا بها، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر: ٤٩). والآيات في ذلك كثيرة وقد قال النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإيمان: **"أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"**[(١)]، فمن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقبلها ولم يؤمن بها لم يكن من أهلها. الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها لا يقال كيف ولا لم؛ إنما هو التصديق والإيمان بها، ومن لم يعرف تفسير الحديث ولم يبلغه عقله فقد كفى ذلك وأحكم له، فعليه الإيمان به والتسليم[(٢)]. ويقول أهل السنة والجماعة إن الخير والشر والحلو والمر، بقضاء من الله ﷻ، أمضاه وقدره، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعا إلا ما شاء الله، وإنهم فقراء إلى الله ﷻ، لا غنى لهم عنه في كل وقت[(٣)]. عَنْ طَاوُسٍ أَنَّهُ قَالَ أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ أَوْ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ"**[(٤)]. واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه: أن الله – تبارك وتعالى – قدر الأشياء في القدم، وعلم الله أنها ستقع في أوقات معلومة عنده – وتعالى – وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى[(٥)].

ومراتب القضاء أربعة من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر:

المرتبة الأولى: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابته له قبل كونها.

---

(١) مسلم (٨).

(٢) أصول السنة للإمام أحمد (١٧).

(٣) اعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (٦١). وانظر: أيضًا مجموع فتاوى ابن تيمية (٧/ ٣١٣)، ومختصر شعب الإيمان (٢٤).

(٤) مسلم (٢٦٥٥).

(٥) شرح مسلم للنووي (١/ ١٩٠).

المرتبة الثالثة: مشيئته لها.

المرتبة الرابعة: خلقه لها.

المطلب الثالث: الإحسان.

أولًا: تعريفه: وهو: كما عرفه النبي ﷺ " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". (١)

والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨)

هذه المرتبة هي الثالثة من مراتب الدين المفصلة في حديث جبريل المتقدم وهي أعلى مراتب الدين وأعظمها خطرًا، وأهلها هم المستكملون لها السابقون بالخيرات، المقربون في علو الدرجات، وقد جاء الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة تارة مقترنا بالإيمان، وتارة بالتقوى، وتارة بهما معا، وتارة بالجهاد، وتارة بالإسلام، وتارة بالعمل الصالح مطلقًا، وتارة بالإنفاق في سبيل الله. (٢)

فيعبد الإنسان ربه على هذه الصفة، وهي استحضار قربه، وأنه بين يديه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب النصح في أداء العبادة، ويذل الجهد في تحسينها وإتمامها.

فالعبد يراقب ربه في أداء العبادة، ويستحضر قربه منه حتى كأنه يراه، فإن شق عليه ذلك فليستعن على تحقيقه بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته، وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره. (٣)

فالعبد الذي بلغ هذه المنزلة يعبد ربه مخلصا، لا يلتفت إلى أحد سواه، فلا ينتظر ثناء الناس، ولا يخشى ذمهم، إذ حسبه أن يرضى عنه ربه، ويحمده مولاه.

فهو إنسان تساوت علانيته وسره، فهو عابد لربه في الخلوة والجلوة، موقن - تمام اليقين - أن الله مطلع على ما يكنه قلبه وتوسوس به نفسه، هيمن الإيمان على قلبه، واستشعر رقابة ربه عليه، فاستسلمت جوارحه لبارئها، فلا يعمل بها من العمل إلا ما يحبه

---

(١) مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) معارج القبول ٣/ ٩٩٨.

(٣) جامع العلوم والحكم ص: ١٢٨.

الله ويرضاه، مستسلم لربه.

وحيث تعلق قلبه بربه فلا يستعين بمخلوق، لاستغنائه بالله، ولا يشتكي لإنسان، لأنه أنزل حاجته بالله سبحانه وكفى به معينا، ولا يستوحش في مكان، ولا يخاف من أحد، لأنه يعلم أن الله معه في كل أحواله، وهو حسبه ونعم النصير، ولا يترك أمرا أمره الله به، ولا يقترف معصية لله، لأنه يستحيي من الله، ويكره أن يفقده حيث أمره، أو يجده حيث نهاه، ولا يعتدي أو يظلم مخلوقا أو يأخذ حقه، لأنه يعلم أن الله مطلع عليه، وأنه سبحانه سيحاسبه على أفعاله.

ولا يفسد في الأرض، لأنه يعلم أن ما فيها من خيرات ملك لله تعالى، سخرها لخلقه فهو يأخذ منها على قدر حاجته، ويشكر ربه أن يسرها له. (١)

ثانيا: مراتب الإحسان: فسره النبي ﷺ في حديث سؤال جبريل لما قال له: " فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فبين ﷺ أن الإحسان على مرتبتين متفاوتتين.

أعلاهما: مقام الإخلاص (المراقبة)، وهو أنْ يعملَ العبدُ على استحضارِ مُشاهدةِ الله إياه، واطِّلاعه عليه، وقُربه منه، فإذا استحضرَ العبدُ هذا في عمله، وعَمِلَ عليه، فهو مخلصٌ لله؛ لأنَّ استحضارَهُ ذلك في عمله يمنعُهُ من الالتفاتِ إلى غيرِ الله وإرادته بالعمل.

الثاني: مقام المشاهدة، وهو أنْ يعملَ العبدُ على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه، وهو أنْ يتنوَّرَ القلبُ بالإيمانِ، وتنفُذ البصيرةُ في العِرفان، حتّى يصيرَ الغيبُ كالعيانِ. وهذا هو حقيقةُ مقامِ الإحسّان المشار إليه في حديث جبريلَ - عليه السلام -، ويتفاوت أهلُ هذا المقام فيه بحسب قوّة نفوذ البصائرِ. (٢)

(١) الإسلام أصوله ومبادئه ١/ ٢٠٣.

(٢) جامع العلوم والحكم ٤/ ٥٣.

المبحث الرابع: بيان بعض مزايا الشريعة الإسلامية.

أولًا: إن الإسلام جاء دينًا صالحًا لجميع الأمم في جميع العصور ولسائر البشر وهذا شيء لم يسبق إليه دين قبله قط قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (سبأ: ٢٨)

ثانيًا: جاء الإسلام لإصلاح العقيدة، بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردد، ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، فيُكَوِّن عقيدة مبنية على الخضوع لواحد عظيم، وعلى الاعتراف باتصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختياريًا، ثم لتصير تلك الكلمات مطمع أنظار المعتقد في التخلق بها ثم بحمل جميع الناس على تطهير عقائدهم حتى يتحد مبدأ التخلق فيهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام؛ وأكثر ما تعرض له، وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة: خوفًا من لا شيء وطمعًا في غير شيء وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه.

ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي وأصالة الرأي وحرية العقل ومساواة الناس فيما عدا الفضائل.

وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثارًا لا يشبهه فيه دين آخر؛ بل إنك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلا قليلًا.

ثالثًا: كون الإسلام دين الفطرة فليس فيه شيء غير معقول كالتثليث، ولا غير ممكن طبعًا كحب الأعداء، وأساسه تجريد التوحيد الذي يعتق البشر من رق الخرافات والأوهام.

رابعًا: جمع الإسلام بين إصلاح النفوس بالتزكية؛ وبين إصلاح نظام الحياة بالتشريع، في حين كان معظم الأديان لا يتطرق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفه

حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفًا إلى المواعظ والعبادات، وقد قرن القرآن في غيرما آية بين الدين وارتباطه بصلاح الدنيا قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).

خامسًا: أن حكومة الإسلام مقيدة بالنصوص وبالشورى؛ ورئيسها مقيد باختيار أهل الحل والعقد الذين يمثلون الأمة، فلا يكون سلطانًا لها إلا باختيارهم إياه للخلافة، ومبايعتهم له، ولا يطاع في معصية الله تعالى وإنما الطاعة في المعروف.

سادسًا: استقلال الفكر في فهم الدين والعلم وجميع شئون الحياة، فليس في الإسلام سلطة دينية روحانية تلزم المسلمين اتباع مذهب لمجتهد وآرائه في العقائد والعبادات الدينية والحلال والحرام، وإنما هناك نصوص قطيعة وأصول وفروع إجماعية يشترك جميع المسلمين في التزامها ولا يعد أحد متبعًا لأحد غير الرسول وجماعة الأمة فيها، ويقرب من الإجماع ما جرى عليه جمهور سلف الأمة الصالح من أمر الدين، ولم يشذ عنهم إلا أفراد لا يعتد بهم، وما عدا ذلك من المسائل فهو اجتهادي، ويجب على كل مسلم أن يعلم باجتهاد نفسه فإن عجز فله أن يأخذ بعلم من يثق بعلمه ودينه.

والراجح المختار في العبادات أنه لا اجتهاد في التشريع فيها بل في التنفيذ.

والأحكام الدينية منوطة بنصوص الكتاب والسنة والقضائية يعتبر فيها مراعاة المصالح وعليها مدارها.

سابعًا: المساواة بين المسلمين في جميع أحكام الشرع.

ثامنًا: تقييد المسلمين بعقائد وأحكام وآداب وفضائل دينية بالوازع النفسي لا تتغير ولا تنقض وهي تؤمنهم من فوضى الحرية المسرفة التي أوقعت شعوب أوربا في أسر النظام المالي وسلطان أهله من جهة وفي المفاسد الأدبية التي هتكت الأعراض وأضاعت الأنساب وبددت الأموال من جهة ثالثة.

تاسعًا: اختصاصه بإقامة الحجة ومجادلة المخاطبين، بصنوف المجادلات، وتعليل

أحكامه بالترغيب وبالترهيب، وقد راعى مراتب نفوس المخاطبين فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقنع إلا بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر.

عاشرًا: الإقلال من التفريع في الأحكام بل تأتي بأصولها ويترك التفريع لاستنباط المجتهدين لتكون الأحكام صالحة لكل زمان.

حادي عشر: أنَّ المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها، وفي أصول الأخلاق أن التربية الصحيحة هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها وبين خواطر الشرور، لأن الشرور إذا تسربت إلى النفوس تعذر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين:

طريقة مباشرة وطريقة سد الذرائع الموصلة إلى الفساد وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل، وأحسنها أنها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث"**الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ**"[(١)].

الثاني عشر: الرأفة بالناس حتى في حملهم على مصالحهم؛ وذلك في إبراز ذلك التشريع في صورة لينة وفي القرآن: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). وفي الحديث "**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**"[(٢)].

الثالث عشر: امتزاج الشريعة والحكومة وذلك من خصائصها إذ لا معنى للتشريع إلا تأسيس قانون للأمة وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة وبامتزاج الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة واتحاد الأمة في العمل والنظام.

الرابع عشر: صراحة أصوله بحيث يتكرر في القرآن ما تستقري منه قواطع الشريعة

---

(١) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

معصومة من التأويلات الباطلة والتحريفات التي طرأت على أهل الكتاب السابقة.

الخامس عشر: قام الإسلام ببناء الأحكام السياسية والمدنية على أساس درء المفاسد وحفظ المصالح، والأحكام القضائية على العدل المطلق والمساواة، ووجوب حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، ولازمه النسب من الاعتداء عليهن.

السادس عشر: مساواة النساء للرجال في جميع الحقوق إلا ما جاء الدليل بالتفرقة.

السابع عشر: قام الإسلام ببناء ضرورات الاجتماع السابقة كالحرب والرق، والضرورات الفردية على قاعدة التوقيت فيها وتقديرها بقدرها وتخفيف شرها والسعي الممكن لإزالتها والاستغناء عنها.

الثامن عشر: فرض الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي الفريضة التي تّحفظ على الأمة فضائلها وآدابها ما أقامتها وذلك بضوابطه الشرعية.

التاسع عشر: بيان تكافل المسلمين وتضامنهم حكومةً وأفرادًا؛ وذلك من خلال فريضة الزكاة، والترغيب في الصدقات، والواجب من الكفارات، فتكون جماعة المسلمين دائمًا في كفاية قلما تنال الضرورة إلا من بعض الأفراد المجهولين منهم، وبذلك يقل التحاسد والعدوان بينهم.

العشرون: ختم الرسالة والنبوة المقتضي أن لا يوجد بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه نبي يبلغ الناس شيئًا عن وحي الله، أو يشرع لهم شيئًا من الدين، وهذا من إتمام عتق البشر من الأدعياء الذين يتحكمون في أفكار الناس وإراداتهم، يدعون أنهم نواب فيهم عن ربهم أو أنهم آلهة بالفعل كما يدعي البهائيون في زعيمهم أو أنبياء كما يدعى الأحمدية القاديانيون في مسيحيهم الدجال.

الواحد والعشرون: أن شريعة الإسلام فيها من الهدى ودين الحق أكمل مما في الشريعتين المتقدمتين، ويسَّر الله من اتباع الخلق له واهتدائهم به ما لم يتيسر مثله لمن قبله، فحصل فضيلة شريعته من جهة فضلها في نفسها ومن جهة كثرة من قبلها وكمال قبولهم لها، ففي شريعة

الإسلام تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وشريعة التوراة فيها تحريم كثير من الطيبات عليهم، وفي شريعة الإسلام من قبول الدية في الدماء ما لم يشرع في التوراة، وفيها من وضع الآصار والأغلال التي في التوراة ما يظهر به أن نعمة الله على أهل القرآن أكمل.

وما امتاز به الإنجيل عن التوراة بمكارم الأخلاق المستحسنة والزهد المستحب وتحليل بعض المحرمات وهذا كله في القرآن وهو في القرآن أكمل، فليس في التوارة والإنجيل ما هو من العلوم النافعة والأعمال الصالحة إلا وهو في القرآن والإسلام أو ما هو أفضل مما في التوراة والإنجيل.

ففي الإسلام والقرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى ودين الحق ما ليس في الكتابين[1].

الثاني والعشرون: ومن خصائص الإسلام الأمر بالاجتماع والنهى عن التفرق.

وقد استفاضت الأدلة في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة لتقرير هذا الأصل.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣). فهذه الوصية هي خاتمة وصاياه العشر، التي هي جوامع الشرائع التي تضاهي الكلمات التي أنزلها الله على موسى في التوراة، وإن كانت الكلمات التي أنزلت علينا أكمل وأبلغ وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

فنهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، وأخبر رسوله أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء، وذكر أنه جعله على شريعة من الأمر، وأمره أن يتَّبِعها ولا يتبع سبيل الذين لا يعلمون[2]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟

(١) راجع: الجواب الصحيح (٣/ ٢٣٥)، وتفسير ابن عاشور (٣/ ١٩٤)، ومجلة المنار عام (١٩٢٦)، (صـ٤٩٧-٤٩٩).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٥/ ١٢٧-١٢٧).

﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وحبل الله كتابه كما فسره النبي ﷺ، إلى غير ذلك من نصوص الكتاب.

ومن عناية الرسول ﷺ بالدعوة إلى اجتماع كلمة المسلمين وتحذيرهم عن التفرق أحاديث كثيرة، منها على سبيل المثال: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ: "هَذَا سَبِيلُ الله، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ قَالَ يَزِيدُ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [1].

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**"[2].

وقد أوصى الرسول ﷺ حذيفة عند ظهور الخلاف والافتراق في الدين بقوله: "**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**" قال حذيفة: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قال: "**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**"[3].

ونختم بهذا الكلام القيم الذي ذكره الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي يبين فيه فضل هذا الدين قال:

١- لا يوجد دين من الأديان يؤاخي العقل والعلم في كل ميدان إلا الإسلام.

٢- ولا يوجد دين روحي مادي إلا الإسلام.

---

(١) حسن. أحمد (١/ ٤٣٥)، الدارمي (٢٠٢)، الطيالسي (٢٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٦)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١٦٦).

(٢) حسن. أبو داود (٤٥٩٩)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد (٤/ ١٢٦).

(٣) البخاري (٣٦٠٦)، مسلم (١٨٤٧).

٣- ولا يوجد دين يدعو إلى الحضارة والعمران إلا الإسلام.

٤- ولا يوجد دين شهد له فلاسفة العالم المتحضر إلا الإسلام.

٥- ولا يوجد دين يسهل إثباته بالتجربة إلا الإسلام.

٦- ولا يوجد دين من أصوله الإيمان بجميع الرسل والأنبياء والكتب الإلهية إلا الإسلام.

٧- ولا يوجد دين جامع لجميع ما يحتاجه البشر إلا الإسلام.

٨- ولا يوجد دين فيه من المرونة واليسر الشيء الكثير إلا الإسلام.

٩- ولا يوجد دين تشهد له الاكتشافات العلمية إلا الإسلام.

١٠- ولا يوجد دين صالح لكل الأمم والأزمان إلا الإسلام.

١١- ولا يوجد دين يسهل العمل به في كل حال إلا الإسلام.

١٢- ولا يوجد دين لا إفراط فيه ولا تفريط إلا الإسلام.

١٣- ولا يوجد دين حفظ كتابه المقدس إلا الإسلام.

١٤- ولا يوجد دين صرح كتابه المنزل بأنه عام لكل الناس إلا الإسلام.

١٥- ولا يوجد دين يأمر بجميع العلوم النافعة إلا الإسلام.

١٦- الحضارة الحاضرة قبس من الإسلام.

١٧- هذه الحضارة مريضة ولا علاج لها إلا الإسلام.

١٨- ما شهد التاريخ حضارة جمعت بين الروح والمادة إلا حضارة الإسلام.

١٩- السلام العالمي لا يتم إلا بالإسلام.

٢٠- لا يوجد دين يسهل إثباته بالتحليل العلمي إلا الإسلام.

٢١- لا يوجد دين وحد قانون المعاملات بين البشر إلا الإسلام.

٢٢- لا يوجد دين أزال امتياز الطبقات إلا الإسلام.

٢٣- لا يوجد دين حقق العدالة الاجتماعية إلا الإسلام.

٢٤- لا يوجد دين لا يشذ عن الفطرة في شيء إلا الإسلام.

٢٥- لا يوجد دين منع استبداد الحكام وأمر بالشورى إلا الإسلام.

٢٦- لا يوجد دين أمر بالعدالة مع الأعداء إلا الإسلام.

٢٧- لا يوجد دين بشرت به الكتب السماوية إلا الإسلام.

٢٨- لا يوجد دين أنقذ المرأة في أدوارها: أما وزوجة وبنتا إلا الإسلام.

٢٩- لا يوجد دين ساوى بين الأبيض والأسود والأصفر والأحمر إلا الإسلام.

٣٥- لا يوجد دين أمر بالتعليم وحرّم كتمان العلم النافع إلا الإسلام.

٣١- لا يوجد دين قرر الحقوق الدولية إلا الإسلام.

٣٢- لا يوجد دين توافق أوامره ما اكتشفه الطب الحديث إلا الإسلام.

٣٣- لا يوجد دين أنقذ الرقيق من المعاملات الوحشية وأمر بمساواته لسادته وحض على إعتاقه إلا الإسلام.

٣٤- لا يوجد دين قرر سيادة العقل والخضوع لحكمه إلا الإسلام.

٣٥- لا يوجد دين ينقذ الفقّراء والأغنياء بفرض جزء من مال الأغنياء يعطى للفقراء إلا الإسلام.

٣٦- لا يوجد دين قرر من الأخلاق مقتضى الفطرة والحكمة الإلهية، فللشدة موقف وللرحمة موقف إلا الإسلام.

٣٧- لا يوجد دين أمر بالإحسان والرفق بجميع الخلق إلا الإسلام.

٣٨- لا يوجد دين قرر أصول الحقوق المدنية على قواعد فطرية إلا الإسلام.

٣٩- لا يوجد دين اعتنى بصحة الإنسان وثروته إلا الإسلام.

٤٠- لا يوجد دين أثر في النفوس والأخلاق والعقول كالإسلام[١]

---

(١) نقلًا من كمال الدين الإسلامي/ المؤلف: عبد الله بن جارالله بن إبراهيم آل جارالله.

المبحث الخامس: الإسلام بين الوسطية والغلو

ومن محاسن الإسلام نفي الغلو عن أحكامه وتشريعاته الإسلام بين الغلو والتوسط

تعريف الوسطية

أولًا: لغة: وسطُ الشيء: ما بين طرفيه. . . ، واعلم أن الوسط قد يأتي صفة، وإن كان أصله أن يكون اسمًا من جهة أن أوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه[١]. **الوسطُ**: من كلِ شيءٍ أَعْدَلُهُ. [٢]

ثانيًا: اصطلاحًا: قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

أي كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد ﷺ، وبما جاءكم به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطًا.

وأما الوسط فإنه في كلام العرب الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه: أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه. وهذا معنى من معاني الوسط المذكور في الآية الكريمة، ولعل هناك معنى آخر لا يعارض المعنى الأول وهو:

أن الوسط في هذا الموضع المقصود به الجزءُ، الذي هو بين الطرفين، مثل وسَط الدار، وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسَط، لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه - ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها. [٣]

وفي سنة النبي ﷺ ورد ما يقررُ هذا المعنى ويوضحه فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ الله تَعَالَى هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ**

---

(١) لسان العرب (٦/ ٤٨٣١، ٤٨٣٢) مادة وسط.

(٢) مختار الصحاح صـ٧٤٠.

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٦).

نَعَمْ أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ فَيَقُولُ لِنُوحٍ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ"[1].

الإسلام بين الملل الأخرى:

الإسلام دين الوسط بين المادية الملحدة وبين الرهبانية المبتدعة، فاليهودية والنصرانية زاغت عن العدل والاعتدال فيما يخص حقوق الروح وحقوق الجسد.

فبالنسبة لليهودية كانت وما تزال ترى أن المال هو الغاية، وأن المادة هي الهدف الأسمى، ولذا أقدمت على تقديسها وتأليهها لدرجة أنها حريصة على الحياة المادية أكثر من كل شيء حتى إن عيسى عليه السلام كان يخاطبهم قائلًا: "لا تعبدوا ربين: الله والمال". ويقول ول ديورانت: إن اليهود قلما كانوا يبشرون إلى حياة أخرى.

ولم يرد في دينهم شيء من الخلود، ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ٩٤). يقول سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٩٦). ويقول تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦١).

ومن هنا نرى أن اليهود حرفت وشوهت وبالغت في هذا الجانب المادي على حساب الجانب الروحي.

أما النصرانية فقد اتخذت منحىً معاكسًا للفكر اليهودي حيث بالغت في الجانب الروحي بدعوة الزهد والترهبن قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٧).

---

(١) البخاري (٣٣٣٩).

وقال رسول الله ﷺ: "لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ "[1].

صور الوسطية في الإسلام: وسطية الإسلام من أبرز خصائصه، وهي بالتبع من أبرز خصائص أمة الاستجابة[2].

فالأمة الإسلامية وسط في كل جوانب الدين[3].

١) في جانب العقيدة: فهم ممتثلون لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾ (المائدة: ٧٧).

فهم وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين؛ لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود؛ فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا فريقا.

بل المؤمنون آمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)﴾ (آل عمران: ٧٩: ٨٠).

ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح فلم يقولوا هو الله ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة

---

(١) أبو داود (٥/ ٣١٥/ ٤٨٦٨)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٤٦٨).

(٢) الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة (٢٦).

(٣) انظر: الغلو في الدين لجلال عارف (٢٠).

كما تقوله النصارى، ولا كفروا به وقالوا على مريم بهتانا عظيما حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود، بل قالوا هذا عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.[١]

وكذلك في صفات الله تعالى: فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة؛ فقالوا: هو ﴿فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. وقالوا: إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت. إلى غير ذلك.

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به فقالوا: إنه يخلق ويرزق؛ ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ويثيب ويعاقب.

والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى ليس له سميٌّ ولا ندٌّ ولم يكن له كفوا أحد وليس كمثله شيء. فإنه رب العالمين وخالق كل شيء وكل ما سواه عباد له فقراء إليه ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم: ٩٣-٩٥).[٢]

٢) في جانب التشريع وكذلك هم وسط في شرائع دين الله فلم يحرموا على الله أن ينسخ ما شاء ويمحو ما شاء. ويثبت كما قالته اليهود كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ (البقرة: ١٤٢).

وبقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة: ٩١)..

ولا جوزوا لأكابر علمائهم أن يغيروا دين الله فيأمروا بما شاءوا وينهوا عما شاءوا كما يفعله النصارى كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١).

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧٠).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧١-٣٧٢).

قال عدي بن حاتم ﷺقلت: يا رسول الله ما عبدوهم؟ قال: ما عبدوهم؛ ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم[١].

والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره. وقالوا: سمعنا وأطعنا؛ فأطاعوا كل ما أمر الله به. وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾. وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ولو كان عظيما[٢].

وفي السنة مثال على هذا الأمر وهو حديث الثلاثة نفر؛ فعن أنس بن مالك ﷺقال: "جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ: آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ وَقَالَ: آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: **"أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"**"[٣].

٣) **في جانب الحلال والحرام:** وهم وسطٌ أيضًا في هذا الباب، فإن اليهود كما قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ (النساء: ١٦٠).

فلا يأكلون ذوات الظفر؛ مثل الإبل والبط. ولا شحم الثرب[٤] والكليتين؛ ولا الجدي في لبن أمه. إلى غير ذلك مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرهما؛ حتى قيل: إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا. والواجب عليهم مئتان وثمانية وأربعون أمرًا وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتى لا يؤاكلوا الحائض ولا يجامعوها في البيوت. وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وباشروا جميع النجاسات وإنما قال لهم المسيح ﴿وَلِأُحِلَّ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني، غاية المرام (٦)

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧١).

(٣) البخاري (٥٠٦٣)، وانظر: أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان (صـ٧٢).

(٤) الثرب: شحم رقيق يغشى الكَرِش والأمعاء، اللسان، مادة: ثرب.

لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (التوبة: ٢٩).

وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به في قوله: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف ١٥٧)). [١]

٤) **في جانب الدعوة:** من فضل الله على الأمة الإسلامية، أن الرسالة الخاتمة جاءت شاملة لكل ما يحتاجه المسلمون في حياتهم الدينية والدنيوية، موجهة لكل الثقلين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ذلك أن الهدف هو هداية الله للإنسان، دون قصر الدعوة على جنس بذاته، أو مكان معين؛ إذ إن دعوة الرسول ﷺ موجهة إلى الناس كافة، قال الله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (الأعراف: ١٥٨). وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء الآية ١٠٧). وعلى ذلك إجماع المسلمين في كل العصور.

وقد وَضُحَ في القرآن الكريم، والسنة النبوية، كيف يؤدي المسلمون واجبهم في الدعوة إلى الله.

ويُقصد بوسطية الدعوة، أن منهاج الدعوة إلى الله، هو أوسط المناهج وأعدلها وأقومها، وهو الجدير وحده بالاتباع في كل زمان ومكان، وأن هذا المنهاج جانب من التشريع الإلهي، يجب أن يلتزم به المسلم إزاء الآخرين، سواء أكانوا مسلمين يحتاجون إلى

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧٢-٣٧٣).

تنمية المعارف، أو تزكية النفوس، حتى يكون اتباعهم للشريعة صحيحًا، أم كانوا غير مسلمين تطلب لهم الهداية.

ويمكن أن نحدد بعض الملامح المهمة في منهاج الدعوة والتي منها يتبين أن الإسلام هو دين الوسطية حتى في الدعوة إليه.

أ) هداية الناس بيد الله: قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦). وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (فاطر: ٨).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ اللهمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ"**[1].

ب) مهمة الدعاة التبليغ والبيان: قال تعالى: وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى الآية ٤٨). فإذا بذل الدعاة جهدهم في ذلك، فقد قاموا بالواجب، وأدوا الأمانة:

ج) لا إكراه في الدين: قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٥). وقال سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

د) وسائل الدعوة ثلاث: وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، كما قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

فالحكمة: وهي ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة، تجذب أصحاب العقول والفطر السوية.

والموعظة الحسنة: أي ما في الكتاب والسنة من الزواجر والوقائع بالناس، يذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، والداعية بهذه الوسيلة يستميل أولئك الذين يستمعون القول

---

(١) مسلم (٢٦٥٤).

فيتبعون أحسنه، والذين تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.

أما من يحتاج فهمه إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وهذه الأساليب الثلاثة، أهم أساليب الدعوة التي لا يخرج عن نطاقها والتأثر بها من المدعوين إلا من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ (الأعراف: ١٤٦).

هـ) **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: وهو من أوصاف الأمة الإسلامية التي استحقت بها الخيرية على الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ١١٠﴾.

وقد استحق بنو إسرائيل اللعن بتركهم لهذه الشريعة، قال الله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨- ٧٩).

ومنهاج الإسلام فيه منهاج الوسط والاعتدال، ، ومراعاة الاستطاعة والقدرة. ولقد كانت حياة النبي ﷺ هي المنهاج العملي للوسطية في الدعوة إلى الله، وعلى سيرته سار الخلفاء الراشدون، والتابعون لهم بإحسان.

والأمثلة على ذلك كثيرة، فمنها حديث المسيء صلاته لما صلى الرجل عدة مرات، والنبي يقول له في كل مرة "ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" ثم علمه النبي ﷺ كيفية الصلاة[١].

وأيضًا حديث معاوية بن الحكم السلمي لما تكلم في الصلاة وعلَّمه النبيُّ ﷺ **"إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ ما يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ"**[٢].

---

(١) البخاري (٧٥٧)، مسلم (٣٩٧).

(٢) مسلم (٥٣٧).

وفي هذه الفترة القليلة من الزمن في حياة الأمم، دخل الناس في دين الله أفواجًا وتكوَّن المجتمع المسلم الواحد في عقيدته وشريعته وسلوكه الاجتماعي.

وكانت الدعوة إلى الله وفق منهاج الوسطية القرآنية، هي السبيل الأول لانتشار الإسلام ودعوته(١).

٥) **في جانب حقوق الإنسان**: الإسلام يحترم حقوق الإنسان ويلزمه بأداء الواجب إذ أنهما وجهان لعملة واحدة فكل حق يقابله واجب، ويعطيه مكانته وكامل حقوقه المشروعة شريطة ألا تكون هذه الحقوق على حساب الجماعة، وهكذا نرى أنه من الحقوق التي منحها الإسلام للفرد حق حرية الرأي والتعبير والمشاركة في المجتمع وحق التملك وحق الكرامة وحرية التدين.

فالحرية التي يرفع شعارها اليوم الكثير من الدول في العالم بلا ضوابط ولا قيود مما أدى للفوضى والتناقض والاضطراب في فهمها وتطبيقها؛ فحرية كل فرد تكون اعتداء على حريات الآخرين، وفي الوقت نفسه فإن الحجر عليها كبت لا يرضى، فجاء الإسلام ليعلن الحرية في حمى الدين المقيدة بضوابط شرع رب العالمين، تلك التي تمنع الإنسان من فعل الشر، وتدفعه لجلب الخير.

فالحرية في الإسلام لا تعني التفلت من المسؤولية، وحرية القول لا تعني حرية السب والشتم، وحرية الفكر لا تعني حرية الكفر والإلحاد والهدم، وحرية الانتقال لا تعني حرية الاستيلاء والاحتلال.

وأما بالنسبة لحق التملك فقد أباح الإسلام للإنسان الملكية الفردية مع مراعاة حقوق الآخرين في هذه الملكية من زكاة وصدقات ووجوه البر والخير والإحسان، وكذلك الإرث والوصايا وغيرها، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩)،

---

(١) الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، تأليف الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، تحت فصل بعنوان، ((الوسطية في الدعوة)) بتصرف يسير.

وقال سبحانه: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ (الحديد: ٧).

لقد أباح الإسلام التملك الفردي احترامًا لحق الإنسان وحثًا له على العمل والإنتاج تلقائيًا ولكن مع مراعاة مصلحة الجماعة من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والتخفيف من الفوارق الطبقية هذه هي الوسطية الإسلامية الحقيقية التي لا نجدها في الأنظمة الاقتصادية الحديثة.

أما بالنسبة لكرامة الإنسان فإن الفرد في الإسلام مكرم عند الله بغض النظر عن الجنس أو العرق أو اللون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات: ١٣). وقال رسول الله ﷺ: "أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ"[(١)].

فالإسلام ينبذ العنصرية بكل أشكالها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ (الإسراء، آية: ٧٠).

وتظهر وسيطة الإسلام هنا من إعطاء الحق والعدل والاعتدال في الكرامة للجميع[(٢)].

٦) **في جانب إنفاق المال:** يعد المال في الإسلام عصب الحياة وقوام الأعمال إلا أنه في الوقت نفسه يحذرنا المولى ﷻ من طغيانه، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ (العلق: ٦).

وقال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ (الكهف: ٤٦). وقال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ (القصص: ٧٧).

---

(١) أبو داود (٥٠٧٥)، والترمذي (٣٢٧٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣١٠١).

(٢) وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار، تحت فصل بعنوان (الوسطية في الحقوق).

لقد أمرنا الله ﷻ بالاعتدال في الإنفاق فلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (سورة الإسراء: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١). ويقول ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٧).

ولما مرض سعد بن أبي وقاص وأتاه النبي ﷺ يعوده، قال له: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنْ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي قَالَ: "لَا" فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ فَقَالَ: "لَا" ثُمَّ قَالَ: **"الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ أَوْ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ"**[1]. ومن هنا فإن المال في الإسلام هو نعمة ينبغي للإنسان أن يشكر الله عليها فيبذل قصارى جهده في حسن التصرف والبذل للمستحقين دون إسراف أو تقتير.

وحذر الإسلام أيضًا من الترف الفاحش الذي يؤدي إلى الفسق وارتكاب المعاصي فيستوجب غضب الرب كما يستوجب الدمار والهلاك والخراب، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الإسراء: ١٦)[2].

٧) **في جانب المعاملة مع النفس:** حذر الإسلام من طغيان النفس وأهوائها وتحكمها في سلوك الإنسان، إلا أنه في الوقت نفسه نهانا عن إرهاق النفس بما لا تطيق، كما نهانا الإسلام عن تحريم ما أحله الله من الطيبات. وهذا يعني أن الإنسان عليه أن يتخذ من نفسه موقفًا وسطًا؛ بحيث لا تتحكم فيه كما تشاء ولا يكلفها ما لا تطيق من أمور العبادات والعمل ولا يمنعها حقها من التمتع بالطيبات.

---

(١) البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار، لـمحمد بن أحمد الصالح، تحت فصل بعنوان (وسطية الإسلام في إنفاق المال) بتصرف. وانظر أيضًا: أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان صـ٧٣.

وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (الطلاق: ٧). ولما دخل سلمان الفارسي ﷺعلى أبي الدرداء ﷺوصنع أبو الدرداء لَهُ طَعَامًا قَالَ له سلمان: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ فقَالَ سلمان: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ فَأَكَلَ فلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ قَالَ له سلمان: نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ فلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ قُمْ الْآنَ: فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ"فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "صَدَقَ سَلْمَانُ"(١).

وأمر الإسلام الإنسان أيضًا أن يسلك مسلك الحلم والتعقل والرزانة بحيث لا يكون لينًا فيعصر ولا يابسًا فيكسر، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ (آل عمران: ١٣٤). وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الشورى: ٣٧). وقال ﷺ: "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ"(٢). لذا لا بد من الوسطية هنا واستعمال الحكمة، فالغضب عواقبه وخيمة كما أنه دليل على الضعف وتحكم النفس والشيطان. وحتى في مشي الإنسان في الطريق أمر الإسلام المسلم بالتوسط فيه، فلا اختيال ولا تكبر ولا مسكنة ولا ذلة. فقال تعالى آمرًا رسوله ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ (الشعراء: ٢١٥). وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان، الآيات: ١٨-١٩)، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا

---

(١) البخاري (٦١٣٩).

(٢) البخاري (٦١١٤)، مسلم (٢٦٠٩).

﴿...كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ (الإسراء: ٣٧-٣٨)..

وقال ﷺ: "إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"[1].

٨) **في جانب الشهادة والحكم**: سبق أن أوضحنا أن من معاني كلمة "وسطًا" التي وردت في الآية الكريمة معنى العدل وهو ما فسره النبي ﷺ كما ورد في صحيح البخاري[2].

وقد جاءت آيات كثيرة تبيّن وجوب العدل في الشهادة، وكذلك في الحكم - أيضًا - والشهادة هي إحدى مقدّمات الحكم في كثير من الأحكام. . . .، وإذا كان العدل يعني الوسط، كما تقرّر، فإن أمر الله بالعدل في الشهادة والحكم هو أمر وإقرار لمنهج الوسطيّة، ويتّضح ذلك - من الآتي:

١) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء: ١٣٥). **ومعنى الآية الكريمة**: يا أيها الذين آمنوا ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام بالقسط، يعني العدل وشهداء الله جمع شهيد ونصبت الشهداء على القطع مما في قوله: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ من ذكر الذين آمنوا. معناه: قوموا بالقسط لله عند شهادتكم، أو حين شهادتكم ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (النساء: ١٣٥). أي ولو كانت شهادتكم على أنفسكم، أو على والديكم أو أقربيكم، فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموا على صحتها بأن تقولوا فيها الحق، ولا تميلوا فيها لغني لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غني فتجوروا.

٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨). يعني جلّ ثناؤه: يا أيها

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) انظر: تفسير الوسطية في أول الفصل.

الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله، شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم، فتجاوزوا ما حدّدت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصّروا فيما حدّدت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمري[(١)].

٣) تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

ومعنى الآية الكريمة: وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم، فقولوا الحق بينهم، واعدلوا، وأنصفوا، ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم، ولا تحملنّكم قرابة قريب، أو صداقة صديق، حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليه فيه.[(٢)]

٤) وردت آيات كثيرة تأمر بالعدل، وتنهى عن الهوى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨). وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ (الأعراف: ٢٩). ويقول تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦).

ويقول تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء: ٣٣)[(٣)].

توسط أهل السنة والجماعة بين الفرق الإسلامية
فأهل السنة والجماعة وسط بين الفرق كلها.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٩٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٢٥٢).

(٣) انظر: الوسيطة في القرآن الكريم، لناصر العمر، تحت فصل بعنوان (منهج الوسطية في الشهادة والحكم).

فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته وسطٌ بين أهل التعطيل، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه؛ حتى يشبهوه بالعدم والموات وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات.

فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف وتمثيل.

وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله؛ الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء؛ وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل. فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير. فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يعجز عن إنفاذ مراده وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات.

ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل وأنه مختار ولا يسمونه مجبورا؛ إذ المجبور من أكره على اختلاف اختياره والله سبحانه جعل العبد مختارًا لما يفعله فهو مختار مريد والله خالقه وخالق اختياره وهذا ليس له نظير. فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد وسط بين الوعيدية؛ الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار ويخرجونهم من الإيمان بالكلية ويكذبون بشفاعة النبي ﷺ. وبين المرجئة الذين يقولون: إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان. ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية.

فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة وأنهم لا يخلدون في النار. بل يخرج

منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان وأن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

وهم أيضًا في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وسط بين الغالية. الذين يغالون في علي رضي الله عنه فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما وأن الصحابة ظلموا وفسقوا، وكفروا الأمة بعدهم كذلك وربما جعلوه نبيا أو إلها وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان رضي الله عنهما ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما. ويستحبون سب علي وعثمان ونحوهما ويقدحون في خلافة علي رضي الله عنه وإمامته[1].

وهم وسط بين المعتزلة المعظمين للعقل إلى درجة أنهم يردون المتواتر من الأحاديث ويلوون أعناق الآيات بتأويلاتهم الفاسدة لزعمهم أنها تخالف العقل، وبين أهل الجمود والظاهر ممن يلغون دور العقل في الفهم والاستنباط والفقه ولا يثبتون للنص معنى.

وهم وسط بين من يقول: نقرأ القرآن والسنة للبركة، وأما العلم والفقه فهو مدون في المتون والمختصرات والمطولات وأقوال الرجال، ويحفظون الأقوال والمسائل دون اهتمام بالدليل، وبين من يقول: "الكتاب والسنة"، بمعنى إهدار جهود السابقين من الأئمة الأعلام ومصابيح الظلام الذين أصَّلُوا الأصول وفرّعوا الفروع ونفعوا الأمة وخدموا الكتاب والسنة، فالمتأخرون من بحر علومهم يغرفون، ولكن هذا لا يعني أنهم معصومون ولا يخطئون، فأهل السنة والجماعة يحبونهم ويحترمونهم وينتفعون بعلومهم ويستعينون بأقوالهم لفهم الكتاب والسنة واتباع الصحيح من الأقوال.

وهم وسط بين من يقول بأن كل مجتهد مصيب وبين من يسفه آراء العلماء ويتطاول على أئمة الإسلام، وقولهم في المسألة كل مجتهد مأجور وإن أخطأ، لقول النبي ﷺ: **"إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ واحد"**[2].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧٣-٣٧٥).

(٢) البخاري (٧٣٥٢)، مسلم (١٧١٦).

وهم وسط بين المتفلتين المتبعين لرخص العلماء بزعم التيسير والتخفيف على العباد وبين المتشددين المحرمين لكل شيء.

وهم وسط في مسألة التقليد بين من يحرم الاجتهاد ويوجب التقليد على كل أحدٍ وبين من يحرم التقليد على إطلاقه دون تفصيل[١].

وكذلك في سائر "أبواب السنة" هم وسط. لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان[٢].

الإسلام بين الغلو واليسر: تعريف اليُسرِ: لغة: نقيض العسر. وهو السهولة. [٣]

اصطلاحًا: هو تطبيق الأحكام الشرعية بصورة معتدلة كما جاءت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، من غير تشدد يحرم الحلال ولا تميع يحلل الحرام، ويدخل تحت هذا المصطلح: السعة، ورفع الحرج، وغيرها من المصطلحات التي تحمل المدلول نفسه[٤].

الدين الإسلامي قائم على اليسر ورفع الحرج: إن الدين الإسلامي قائم بمجمله على اليسر ورفع الحرج ابتداءً من العقيدة وانتهاءً بأصغر أمور الأحكام والعبادات بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية وتتقبله النفس البشرية من غير تكلف أو تعنت، "فإن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالمشاق الإعنات فيه والدليل على ذلك أمور"[٥]:

أولًا: الآيات الكثيرة التي تثبت التيسير وتنفي العسر والحرج والمشقة عن الدين الإسلامي منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٥٨). وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٨).

---

(١) الغلو في الدين، لجلال بن بعد الرحمن عارف صـ٢١، ٢٢.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٧٣).

(٣) الصحاح للجوهري (٢/ ٧٣٠)، القاموس المحيط (١/ ٦٩١).

(٤) اليسر والسماحة في الإسلام. تأليف/ فالح بن محمد الصغير تحت فصل بعنوان (مفهوم اليسر).

(٥) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٨١)، اليسر والسماحة في الإسلام.

وكذلك الأحاديث الكثيرة التي تحمل معاني اليسر في أمور الدين وعدم التنطع والتشدد في العبادات والطاعات، فقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى أن أهم ما تميزت به رسالة الإسلام عن غيرها من الرسالات السماوية السابقة هي اليسر ورفع الحرج والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر ولكن نكتفي منها بالإشارة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ"**(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ"**(٢).

والمتمعن في السيرة النبوية يجد أن سلوك النبي ﷺ وتعامله مع صحابته مبنى على منهج التيسير والسماحة، والشواهدُ أكثر من أن تعد أو تحصى، ولكن نكتفي بسرد حادثة وقعت لأحد الصحابة وجاء إلى الرسول ﷺ، يريدُ مخرجًا لها وهو صحابي فقير لا يملك قوت يومه.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكْتُ قَالَ: **"مَا لَكَ"** قَالَ وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا"**قَالَ: لَا قَالَ: **"فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ"**قَالَ: لَا فَقَالَ: **"فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا"**قَالَ: لَا قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ قَالَ: **"أَيْنَ السَّائِلُ"**فَقَالَ: أَنَا قَالَ: **"خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ"**فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ، فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا- يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ: **"أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ"**(٣).

ثانيًا: اعتماد الشريعة الإسلامية على عدة أسس في التيسير.

---

(١) البخاري (٣٩).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه معلقًا (١/ ١١٦)، ووصله في الأدب المفرد (٢٨٧)، ورواه أحمد (١/ ٢٣٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٨١).

(٣) البخاري (١٩٣٦)، مسلم (١١١١).

فإن الشريعة الإسلامية -كما سبق- اعتمادها الأساسي على التيسير ورفع الحرج وللتحقيق فقد اعتمدت على عدة أسس أو مرتكزات مثل:

١) **الرُخْصَةْ: ومعناها لغة:** ترخيصُ الله للعبد فيها يخففه عليه، والتسهيلُ[١].

واصطلاحًا: ما ثبت على خلاف دليلٍ شرعي لمعارض راجح[٢].

والرخصة قاعدة عظيمة من قواعد هذا الدين حيث تشمل جميع أمور الدين وجوانبه في العقيدة والعبادة والمعاملة والعقوبات وغيرها، وهي منحة وصدقة من الله تعالى لعباده، كما قال عليه الصلاة والسلام "**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ الله بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**"[٣].

والرخصة من أهم معالم اليسر في هذا الدين، وأن الله -تعالى- إنما أجازها ليخفف عن عباده وطأة بعض التكاليف، ويعذرهم عما لا يطيقونه لذلك يستحب إتيان هذه المنحة والعمل بها في مواضع الجواز، يقول ﷺ: "**إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**"[٤].

ونسوق بعض الأمثلة التي توضح تيسير الشرع الحنيف في هذا الجانب وهو الرخص.

أ) **الرخصة في السفر:** وذلك بقصر الصلاة الرباعية المفروضة وصلاتها ركعتين، والجمع بين صلاتي الظهر والعصر وكذا المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير.

وكذلك الإفطار للصائم لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٤). وقال ﷺ: "**لَيْسَ مِنْ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ**"[٥].

ب) التيمم بالتراب عند عدم وجود الماء أو عند تعذر استعماله لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ

(١) القاموس المحيط (١/ ٨٤٣).

(٢) شرح الكوكب المنير (١/ ٤٧٨)، روضة الناظر (١/ ١٩٠).

(٣) مسلم (٦٨٦).

(٤) أحمد (٢/ ١٠٨)، وابن خزيمة في صحيحة (٢٠٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٥٩).

(٥) البخاري (١٩٤٦)، مسلم (١١١٥).

حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة: ٦).

جـ) الرخصة في الحيض والنفاس، وهما عذران للصلاة والصيام والطواف بالنسبة للمرأة[١].

٢) الأصل في الأشياء الإباحة: وهذا من أهم المرتكزات والأسس التي قام عليها منهج التيسير في الإسلام وهو أن الأصل في الأشياء حلها وإباحتها، وليس منعها وحرمتها، فكل ما خلق في هذا الكون مسخرٌ للإنسان ومهيأ للاستمتاع به، ما لم يكن فيه نهي صريحٌ، فقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣). وبما أن الشارع قد بين ذلك فلا يحق لأحد أن يحرم هذا المباح، فإنه بذلك يدخل في نطاق التنطع والتعنت المنهي عنه، ومن أجل ذلك جاء التحذير الرباني بالنهي عن تحريم الأمور المباحة أو تحليل المحرم، فقد كان هذا السؤال سببًا لإخراج الناس من الدين الحق، وإحلال غضب الله عليهم، كما حدث لبعض الأمم السابقة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ١٠١، ١٠٢).

ويقول ﷺ: "**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**"[٢].

٣) عدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان والإكراه: وفي هذا الأمر تظهر سماحة الإسلام ويسره في توافقه مع الفطرة الإنسانية السليمة التي خلقها الله في نفس الإنسان، ومن هذه الفطرة الخطأ الذي يقع فيه الإنسان في معظم أحواله من غير قصد، وكذلك ما يعتريه من نسيان -وهو ما ذكره الله تعالى- على لسان المؤمنين الذين قالوا: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ "قَالَ قَدْ فَعَلْتُ"[٣].

وما كان يجيب به ﷺ في حجة الوداع على من أخطأ أو نسي فقدم أو أخر فكان الجواب دائمًا"

(١) انظر: المنثور في القواعد للإمام الزركشي تحت فصل بعنوان (الرخص).

(٢) البخاري (٧٢٨٩)، مسلم (٢٣٥٨).

(٣) مسلم (١٢٦).

افْعَلْ وَلَا حَرَجَ"[١].

فما كان هذا الجواب إلا سماحة الإسلام وتيسيره ورفعه الحرج على أتباعه.

وأما الاستكراه فهو أمرٌ خارجٌ عن إرادة الإنسان، لا يستطيع كل إنسان أن يتحمل ما قد يتعرض له من أذى أو ضرر أو تهديد بالقتل أو قطع عضو وغيره، فحينها رخص له الشارع أن يتنازل عن بعض مفاهيمه الدينية تخلصًا من الحال التي يعاينها والعذاب الواقع عليه كما حصل لعمار بن ياسر رضي الله عنهما حينما ذكر آلهة قريش بخير ونال من رسول الله ﷺ تحت وطأة التعذيب، وقتل أبواه أمام عينه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: **"كيف تجد قلبك؟ "** قال: مطمئنًا بالإيمان، قال النبي ﷺ: **"إن عادوا فعد"**[٢].

وما ذلك إلا رحمة وتيسيرًا لهم، لأن الخطأ والنسيان من الأمور الفطرية التي لا يسلم منها أحد، وأما الإكراه فلأن قوة التحمل تختلف من إنسانٍ لآخر، من أجل ذلك جاء هذا التشريع الرباني بهذه الصورة الميسرة التي تناسب أطباع الناس وفطرهم[٣].

٤) **التوبة**: والتوبة من الأسس المتينة التي يرتكز عليها منهج التيسير في الإسلام وهي سبب من أسباب ثبات المؤمن وبقائه على دين الله تعالى، حيث تزيل عن كاهله هموم المعاصي وأثقال المخالفات، وتدفعه للعمل دومًا نحو الأفضل، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر: ٥٣).

والتوبة سبب لمحبة الله تعالى للإنسان عندما ينيب إليه بعد أن عصاه ويندم على فعله:

---

(١) البخاري (٨٣)، مسلم (١٣٠٦).

(٢) المستدرك (٢/ ٣٥٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ورواه البيهقي في الكبرى (٨/ ٢٠٨/ ١٦٦٧٣). وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ٣٢٧): وهو مرسل ورجاله ثقات، وذكر مراسيل أخرى في المعنى نفسه ثم قال: وهذه المراسيل تقوى بعضها بعضًا.

(٣) اليسر والسماحة في الإسلام: تأليف/ فالح بن محمد الصغير تحت فصل بعنوان: مرتكزات منهج التيسير. وانظر أيضًا: المنثور في القواعد للزركشي عنوان ((الخطأ يرفع الإثم)).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وأيضًا قول النبي ﷺ: **"لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا"**(١).

ومن يسر هذا الدين وسعته ورحمته، أن الله تعالى جعل الأعمال الصالحة مكفرات لخطايا بني آدم لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ (الفرقان: ٧٠).

ومن أمثلة هذه الأعمال التي تكفر السيئات:

أ) الوضوء: فإنه يكفر الذنوب والخطايا ما اجتنبت الكبائر لقوله ﷺ: **"مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ"**(٢).

ب) الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة وكذا صوم رمضان فإنها جميعًا تكفر الخطايا لقوله ﷺ: **"الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ"**(٣).

ج) أن كل ابتلاء ومصيبة يبتلى بها المسلم فهي كفارة له لقوله ﷺ: **"مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"**(٤).

مجالات التيسير في الإسلام:

أولًا: في العبادات: يظهر مبدأ اليسر والمسامحة جليًا في العبادات أكثر من غيرها من أمور الدين، حيث إنها سلوك ظاهر، فجميع العبادات قائمة على هذا المبدأ الذي خص الله تعالى به هذه الأمة من غيرها من الأمم المفروضة منها والنوافل، يقول عليه ﷺ: **"عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ**

---

(١) مسلم (٢٦٧٥).

(٢) مسلم (٢٤٥).

(٣) مسلم (٢٣٣).

(٤) البخاري (٥٦٤١)، وانظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٨٢).

فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا"[١]. ويمكن أن نشير إلى بعض هذه المظاهر في العبادات الآتية:

أ) **في الطهارة**: يظهر مبدأ اليسر في الطهارة واضحًا لأنها المدخل إلى العبادات، واليسر فيها أمر ضروري، لأن المسلم يتوضأ في اليوم والليلة خمس مرات، ويغتسل من الجنابة كذلك، ويتعرض لبعض النجاسات هنا وهناك، فإن الشدة في الطهارة توقعه في الضيق والحرج ويجعل نفسه تمل من العبادة نفسها فضلًا عن الطهارة.

ومن الأمثلة الواضحة على هذا التيسير قول النبي ﷺ لما سئل عن ماء البحر قال: "**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**"[٢]. ويتبين هذا اليسر أيضًا من قصة الأعرابي الذي بال في المسجد فقام الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: "**دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**"[٣].

ومن اليسر في الطهارة أيضًا أنه إذا تعلقت القذارة بالنعلين فإن مسحهما بالأرض يطهرهما لقوله عليه الصلاة والسلام: "**إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَذَرًا أَوْ أَذًى فَلْيَمْسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا**"[٤].

ومن يسر هذا الدين أيضًا في الطهارة أن النجاسة الواقعة على الثوب تزال بالماء وهذا فيه يسر كبير إذا قورن بما كانت عليه بنو إسرائيل من قبل حيث كانوا يكلفون بقص ما أصيب بالنجاسة من الثوب.

ب) **التيمم**: ومن اليسر في هذا الدين أن المسلم إذا لم يجد الماء ليتوضأ به أو كان به مرض أو جرح لا يستطيع أن يتوضأ بالماء، فله أن يتيمم بالتراب، فضلًا من الله تعالى وتسهيلًا عليه، لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ

---

(١) البخاري (٤٣).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٤١)، وأبو داود (٨٤)، والترمذي (٦٩)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٩).

(٣) البخاري (٢٢٠).

(٤) رواه أبو داود (١/ ٤٥٣/ ٦٥٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٨٤).

لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ (المائدة: ٦).

بخلاف ما كانت عليه الشرائع السابقة، حيث لا تقبل صلاة من غير تطهر بالماء.

وجاء تأكيد هذا الأمر في السنة النبوية في قوله ﷺ: **"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"**[١].

ج) **الصلاة**: ويمكن بيان بعض صور التيسير في الصلاة من خلال النقاط الآتية:

١) أنها فرضت في بداية الأمر في رحلة المعراج خمسين صلاة ثم خففت إلى خمس في العمل وخمسين في الأجر.

٢) مشروعية الجمع والقصر في الصلاة أثناء السفر أو المطر أو المرض وذلك للظروف التي يمر بها الإنسان في هذه الحالات من قلة في الماء أو البرد أو خوف من الطريق أو زيادة في المرض.

لذلك جعل الإسلام فيه الصلاة بشكل آخر يتناسب مع هذه الظروف فأجاز له الجمع والقصر، حيث قصرت الصلوات الرباعية إلى ركعتين فقط.

ويتغير وضع الصلاة وكيفيتها كذلك في حالة الخوف في الحرب أو هجوم سبع أو سيل ونحوه، ويسهل أمرها وتقصر، لما في ذلك من مصلحة على المسلمين وحماية لهم من عدوهم الذين قد يغدرون بهم أثناء الصلاة، وتسمى هذه الصلاة بصلاة الخوف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء: ١٠١) ثم ذكرت في الآية الآتية كيفية أداء هذه الصلاة على دفعتين.

٣) جواز الصلاة في أي مكان من الأرض، حيث لم تكن جائزة عند الأمم السابقة إلا

---

(١) البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١).

في المعابد والصوامع، يقول عليه الصلاة والسلام: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ. . . . ."(١) الحديث.

٤) تخفيف الصلاة وعدم الإطالة فيها، لأن صلاة الجماعة تجمع بين الصغير والكبير والمريض، فينبغي مراعاة ذلك، وهذا ما كان الرسول ﷺ يحذر أصحابه معه، يقول جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوْ النِّسَاءِ فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ، أَوْ أَفَاتِنٌ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ"**(٢).

ويقول ﷺ: **"إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ"**(٣).

٥) رفعت الصلاة عن الحائض والنفساء، ولا تقضي بعد الطهر، وهذا يسر ولطف على المرأة، حيث تعاني في فترة الحيض والنفاس آلامًا ودماء، يصعب معها الصلاة، وقد تطول هذه المدة فيشق القضاء، فجاءت الرحمة الربانية على المرأة بهذا التيسير، ولم يطلب منها قضاء تلك الصلوات الفائتة عنها بعد ذلك(٤).

٦) مشروعية سجود السهو لجبر الخلل الذي يحصل في الصلاة، ولم تطلب إعادتها.

كل هذا اليسر وهذه السماحة جاءت في الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين

---

(١) متفق عليه، وقد سبق.

(٢) البخاري (٧٠٥).

(٣) البخاري (٨٦٨).

(٤) البخاري (٣٢١)، مسلم (٣٣٥)، عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت: أتجزى إحدانا صلاتها إذا طهرت؟ فقالت: كنا نحيض مع النبي ﷺ فلا يأمرنا به أو قالت فلا نفعله.

وهو الصلاة التي هي أعظم الأعمال العملية.

د) **الزكاة:** وتتبين مظاهر اليسر والتسهيل في أداء فريضة الزكاة من خلال الأمور الآتية:

١) أنها لم تأت على جميع الممتلكات والعقارات والأموال وإنما اقتصرت على بعض الأصناف.

٢) ثم إنها يشترط في الأصناف التي تجب فيها الزكاة أن تبلغ النصاب.

٣) ومن يسر الإسلام أيضًا في أداء هذه الفريضة أنه لم يجعل دفع الزكاة إلا مرة واحدة في السنة، وذلك بعد أن يحول عليها الحول.

٤) ومن ذلك أيضًا أن مقدار المال الواجب دفعه للزكاة قليل جدًا بالنسبة للمال الذي يوجب فيه الزكاة بحيث لا يؤثر فيه كثيرًا ولا يتأثر بذلك صاحبه.

هذا فضلًا عن كيفية تعامل الإسلام مع زكاة الزروع، حيث أوجب العشر في التي تسقى بماء المطر، ونصف العشر بالتي تسقى بالنضح والآبار، لقوله ﷺ: **"فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا الْعُشْرُ وَمَا سُقِيَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ الْعُشْرِ"**(١).

وهكذا نلاحظ يسر الإسلام وتسهيله في هذا الجانب مما يجعل صاحب المال يسارع إلى إخراج زكاة ماله عن طيب نفس، دون ضجر أو ملل أو ثقل.

هـ) **الصيام:** ونستطيع أن نلاحظ تيسير الإسلام أيضًا في هذه الفريضة من خلال النقاط الآتية:

١) أن الصيام لم يفرض إلا في شهر واحد في السنة وهو شهر رمضان قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)، وهذا فيه سعة وتيسير على المسلم.

٢) أن وقت الصيام من الفجر إلى غروب الشمس، ولا يجوز الزيادة في هذا الوقت، من أجل ذلك نهى عن صوم الوصال وهو وصل صيام يومين أو ثلاثة متواليات، لما في ذلك من مشقة وعنت على النفس يقول ﷺ: **"لَا تُوَاصِلُوا قَالُوا إِنَّكَ تُوَاصِلُ قَالَ لَسْتُ**

---

(١) البخاري (١٤٨٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

كَأَحَدٍ مِنْكُمْ إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى أَوْ إِنِّي أَبِيتُ أُطْعَمُ وَأُسْقَى"[١].

٣) ومن أفطر خطأ أو نسيانًا فإنه يكمل صومه، ولا حرج عليه، فإنما أطعمه الله وسقاه، يقول ﷺ: **"مَنْ أَكَلَ نَاسِيًا وَهُوَ صَائِمٌ فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ"**[٢].

٤) جواز الإفطار عند السفر أو المرض، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

و) الحج: ويتضح يسر الإسلام في هذا الركن أيضًا من خلال النقاط الآتية:

١) الاستطاعة في الزاد والراحلة، وأن لا يكون عليه دين أو التزام مالي آخر من حقوق الآخرين، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

٢) وجوبه في العمر مرة واحدة، لأن فيه المشقة والعناء، فيصعب على المؤمن أن يؤديه كل عام.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: **"أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ الله عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا"**فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله "فَسَكَتَ"حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ ثُمَّ قَالَ ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ"**[٣].

٣) التخيير بين المناسك الثلاثة: التمتع والقرآن والإفراد[٤].

٤) التخيير في الترتيب بين بالأعمال الثلاثة يوم العيد، الرمي والحلق والطواف، وهذا فيه تيسيرٌ على الحاج الذي يعاني من زحمة الناس والمواصلات والأسفار، يقول ابن عباس

---

(١) البخاري (١٩٦١).

(٢) البخاري (٦٦٦٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) مسلم (١٣٣٧).

(٤) ولهذه تفصيلات يطول المقام بذكرها وتراجع مصادر الفقه في ذلك.

رضي الله عنهما: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ زُرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ قَالَ: "**لَا حَرَجَ**"قَالَ حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ قَالَ: "**لَا حَرَجَ**"قَالَ ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ قَالَ: "**لَا حَرَجَ**"(١).

وفي رواية مسلم قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: فما رأيته ﷺ سئل يومئذ عن شيءٍ إلا قال: "**افْعَلْ وَلَا حَرَجَ**"(٢).

٥) أن الله تعالى جعله سببًا لمغفرة الذنوب والخطايا، وقد وعد الرسول ﷺ الحاج بالجنة وأنه يرجع كيوم ولدته أمه فقال ﷺ: "**مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**"(٣).

ويقول أيضًا: "**وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ**"(٤).

وهكذا لاحظنا يسر الإسلام أيضًا في هذا الركن.

ثانيًا: في المعاملات: لم يقتصر التيسير في الإسلام على العقيدة والعبادة بل تعداه إلى المعاملات التي تأخذ مساحة واسعة من حياة الإنسان العملية، فالتجارة والصناعة والزراعة والتعليم ونحوها يدخل جميعها تحت مظلة المعاملات، والناس في المعاملات أكثر عرضة للمعاصي والآثام، لأن المحرك هو المال، ومعلوم مدى تأثير المال على نفس الإنسان وطباعه وسلوكه، ولذلك كانت النصوص القرآنية والنبوية تترى في اتباع التيسير والمسامحة في المعاملات، يقول ﷺ: "**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى**"(٥).

ونبين بعض صور التيسير في المعاملات: أ) ففي البيع أجاز الإسلام للمتبايعين الخيار في عدد من المواضع كما إذا كانا في مجلس البيع، رفعًا للحرج الذي يقع فيه أحدهما، لأنه ربما يحصل ضرر كبير إذا تم هذا العقد يقول ﷺ: "**إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ**

---

(١) البخاري (١٧٢٢).

(٢) مسلم (١٣٠٦).

(٣) البخاري (١٨٢٠)، مسلم (١٣٥٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) البخاري (١٧٧٣)، مسلم (١٣٤٩)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) البخاري (٢٠٧٦)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

مَا لَمْ يَتفَرَّقَا وَكَانَا جَمِيعًا أَوْ يُخَيِّرُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فَتبَايَعَا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ وَإِنْ تفَرَّقَا بَعْدَ أَنْ يَتبَايَعَا وَلَمْ يَتْرُكْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا الْبَيْعَ فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ"[(١)].

ب) وحرم الإسلامُ الربا الذي فيه ظلم الناس، وهو سبب في إفشاء الفقر والغنى الفاحشين، وسبب لزرع الأحقاد والضغائن بين أبناء المجتمع الواحد، فحرم الله الربا وأباح القرض الحسن، يقول الله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٧٦). وقال تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ (المزمل: ٢٠).

ج) كما حرم هذا الدين احتكار الطعام والسلع واحتجازها في وقت تشتد حاجة الناس إليها، يقول عليه الصلاة والسلام: **"مَنْ احْتكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ"**[(٢)].

د) التيسير على المدين المعسر، وهو مبدأ عظيم جاء به الإسلام رحمة بحاله وتقديرًا لظروفه القاسية، وهو عنصر قوى من عناصر التكافل الاجتماعي بين أبناء الأمة، حيث يجعل من المجتمع وحدة متينة، قائمة على الحب والوئام، والتعاون والتراحم، وهو تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ (البقرة: ٢٨٠).

وأوصى به النبي ﷺ فقال: **"مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ الله مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ"**[(٣)].

ويقول ﷺ عن رجل كان يتجاوز عن المعسر: **"كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ تَجَاوَزُوا عَنْهُ لَعَلَّ الله أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا فَتَجَاوَزَ الله عَنْهُ"**[(٤)].

ثالثًا: في العقوبات: لقد تميزت الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع، والقوانين

(١) البخاري (٢١١٢)، مسلم (١٥٣١)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مسلم (١٦٠٥).

(٣) مسلم (١٥٦٣)، عن أبي قتادة ﷺ.

(٤) البخاري (٢٠٧٨)، عن أبي هريرة ﷺ.

في التشريع الجنائي ووضع العقوبات المناسبة لأفعال الناس التي تضر بالأنفس والأموال والأعراض وغيرها حيث أضفت الشريعة على هذه العقوبات ألوانًا من السماحة واليسر بحيث تتقبلها النفس الإنسانية في كل أحوالها.

ويمكن أن نبين هذه السماحة والسعة من خلال بيان عقوبتين فقط وهما:

أ) **عقوبة قتل النفس**: إن قتل النفس بغير حق يعد من أكبر الجرائم وأعظمها عند الله تعالى، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (الأنعام: ١٥١).

وقد جعل الله تعالى قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعًا وإحياء نفس بمثابة إحياء الناس جميعًا، يقول الله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ (المائدة: ٣٢).

ويقول ﷺ: **"لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ"**[(١)].

فقتل النفس فعلٌ شنيعٌ وجريمة عظمى، وكان حكم الله في القتل أن يقتل القاتل قصاصًا. قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ (المائدة: ٤٥).

ونستطيع أن نظهر يسر الإسلام وسماحته في تطبيق العقوبة على القاتل من خلال الآتي:

١) لا يؤخذ أحد بجريرة أحد، أي أنه لا يعاقب إلا القاتل نفسه، وليس لأهله وذريته وقبيلته شأن في فعله وتطبيق العقوبة عليه، بدون تعسف أو تعد، بخلاف ما كانت عليه الجاهلية، حيث كان يقتل بالرجل الواحد أكثر من رجل، فنجد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ (الإسراء: ٣٣).

٢) ولكن من يسر الإسلام وسماحته أن جعل المجال مفتوحًا أمام ولي أمر المقتول

---

(١) الترمذي (١٣٩٥)، النسائي (٧/ ٨٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٧).

وخيره بين إحدى ثلاث:

القصاص أو الدية أو العفو، لقوله ﷺ: "مَنْ أُصِيبَ بِدَمٍ أَوْ خَبْلٍ "الْخَبْلُ الْجِرَاحُ" فَهُوَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ أَوْ يَأْخُذَ الْعَقْلَ أَوْ يَعْفُوَ فَإِنْ أَرَادَ رَابِعَةً فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ فَإِنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ عَدَا بَعْدُ فَقَتَلَ فَلَهُ النَّارُ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا"(١).

٣) ومن يسر الإسلام وسماحته قبل تطبيق هذه العقوبة أنه يغري أهل المقتول بما عند الله تعالى، إذا تجاوزوا عن القاتل وعفوا عنه، لقوله ﷺ: **"مَا عَفَا رَجُلٌ إِلَّا زَادَهُ الله بِهِ عِزًّا وَلَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَلَا عَفَا رَجُلٌ قَطُّ إِلَّا زَادَهُ الله عِزًّا"**(٢).

٤) ومن سماحة الإسلام ويسره أنه اشترط في جواز تطبيق القصاص اتفاق أولياء الدم جميعًا على هذا القصاص، فإذا وجد من بينهم من عفا عن القاتل وإن كانت امرأة فإن الحكم يسقط، ويمنع القصاص. وكذلك إذا كان من بين أولياء الدم من لم يبلغ سن التمييز أو كان غائبًا، فإنه ينتظر بلوغه أو عودته من غيبته لأخذ رأيه، فإن عفا عن الجاني فإن الحكم يسقط، وقد يأخذ ذلك سنينًا وأعوامًا، وفي ذلك حكمة فربما ينسى هؤلاء الأولياء حنقهم على دمهم وتتخفف الوطأة عليهم، فيكون العفو حينها أقرب إلى القصاص.

ب) عقوبة الزنا: وجريمة الزنا من الجرائم الأخلاقية التي تفسد الأسر والمجتمعات وتضيع الأنساب وتفشي الضغائن والأحقاد، لذلك كانت هذه الجريمة من الكبائر التي توعد الله فاعلها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

وعقوبة الزاني الرجم للمحصن والجلد لغير المحصن، وفي هذا يسر وسماحة، وذلك بتناسب العقوبة مع طبيعة الزاني نفسه، فالزاني الثيب أعظم جرمًا من الزاني غير المحصن، لذلك جاءت عقوبته أقسى وأشد وهي الرجم.

---

(١) أحمد (٤/ ٣١)، وابن ماجه (٢٦٢٣)، وغيرهما، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٤٣٣).

(٢) أحمد (٢/ ٤٣٨)، من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة وهذا إسناد على شرط مسلم.

ومن يسر الإسلام وسماحته في إنفاذ العقوبة على الزاني أنه طلب شهادة أربعة أشخاص على الفاحشة، وهذا من باب التحدي الزائد، وتجنبًا لتطبيق العقوبة، وحتى لا يقع الناس في أعراض غيرهم، وليس هذا فحسب وإنما حدد عقوبة للذي يقذف الآخرين ويتهمهم بالزنا من غير أن يحضروا أربعة أشخاص فحينها ينال عقوبة القذف يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور: ٤).

ومن أجل إقرار هذا المبدأ لدى الأمة كان الرسولُ ﷺ يحاول تجنب تطبيق حد الزاني، أو يوجد للمعترف بالزنا أعذارًا لعله يتراجع عن اعترافه كما ثبت في حديث ماعز بن مالك.

وقد عمل الإسلام على تخفيف وقوع الزنا ومحاولة الستر على مرتكبها وأن تتم التوبة بينه وبين الله تعالى فالأمر يرجع إلى الله تعالى يوم القيامة إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه.

القواعد الشرعية المستنبطة من النصوص الواردة في اليسر:

استنبط علماء الأصول من النصوص الواردة في سماحة الإسلام ويسره بعض القواعد وجعلوها معالم لعلم الأصول، ونذكر منها قاعدتين أساسيتين.

الأولى: المشقة تجلب التيسير. وهذه قاعدة عظيمة تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدرها وبيان منزلتها في الفقه الإسلامي وأجمعت عليها كتب القواعد الفقهية وهي من الدعائم والأسس التي يقوم عليها صرح الفقه الإسلامي وأصوله[1].

معنى القاعدة: لغة: أن الصعوبة والعناء تصبح سببًا للتسهيل.

اصطلاحًا: أن الأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرج على المكلف ومشقة في نفسه أو ماله فالشريعة تخففها بما يقع تحت قدرة المكلف دون عسر أو إحراج[2].

الأدلة الشرعية على هذه القاعدة.

---

(١) القواعد الفقهية الكبرى، تأليف/ صالح بن غانم السدلان (٢١٦).

(٢) المصدر السابق (٢١٩-٢٢٠).

دل على هذه القاعدة أدلة كثيرة من القرآن والسنة نشير إلى شيء منها على سبيل المثال لا الحصر.

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقد تضمن ذلك أن جميع ما كلفهم به أمرا ونهيا فهم مطيقون له قادرون عليه وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون وفي ذلك رد صريح على من زعم خلاف ذلك. والله تعالى أمرهم بعبادته وضمن أرزاقهم فكلفهم من الأعمال ما يسعونه وأعطاهم من الرزق ما يسعهم فتكليفهم يسعونه وأرزاقهم تسعهم فهم في الوسع في رزقه وأمره: وسعوا أمره ووسعهم رزقه ففرق بين ما يسع العبد وما يسعه العبد. وتأمل قوله عز وجل: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ كيف تجد تحته أنهم في سعة ومنحة من تكاليفه؛ لا في ضيق وحرج ومشقة؛ فإن الوسع يقتضي ذلك فاقتضت الآية أن ما كلفهم به مقدور لهم من غير عسر لهم ولا ضيق ولا حرج(١).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، وغيرها من الآيات الكثير.

ومن أدلة هذه القاعدة في السنة النبوية:

١) قال النبي ﷺ: **"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ"**(٢).

أي: دين الإسلام ذو يسر، أو سمى الدين يسرا مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله؛ لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم. ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١٤/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) البخاري (٣٩).

كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم(١).

٢) قال النبي ﷺ: "يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا"(٢).

وغيرها كثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

الثانية: الضرورات تبيح المحظورات. إن من مسلمات المبادئ لدى جمهور المسلمين أن الشريعة الإسلامية قد التزمت في أحكامها مبدأ رعاية مصالح الناس دنيويًا وأخرويًا، فأحكامها مبنية على رعاية المصالح ودرء المفاسد، والمتأمل في نصوصها يجد ذلك واضحًا في جميع ما قررته من أحكام، وفي كل ميدان تناولته من ميادين الحياة، ومن هنا حصل تقسيم الأقوال والأفعال والعقود والتصرفات إلى مأمور بها لما فيها من المصالح، ومنهي عنها لما فيها من مفاسد على المتصف بها أو غيره. . . غير أن الإسلام يحسب حساب الضرورات فيبيح فيها المحظورات، ويحل فيها المحرمات بقدر ما تنتفي هذه الضرورات بغير تجاوز لها ولا تعد لحدودها وهذا ما يعرف عند جمهور العلماء بقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"(٣).

والتعريف الاصطلاحي لهذه القاعدة هو: أن تطرأ على الإنسان حالة من الخطر أو المشقة الشديدة بحيث يخاف حدوث ضرر أو أذى بالنفس أو بالعضو أو بالعرض أو بالعقل أو بالمال، ويتعين أو يباح عندئذ ارتكاب الحرام أو ترك الواجب أو تأخيره عن وقته دفعًا للضرر عنه في غالب ظنه ضمن قيود الشرع.

٢) الأدلة الشرعية على هذه القاعدة:

من القرآن الكريم: أ) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

ب) قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ

---

(١) فتح الباري (١/ ١١٦).

(٢) البخاري (٦٩)، مسلم (١٧٣٤)، عن أنس ﷺ.

(٣) انظر: القواعد الفقهية الكبرى وما تفرع منها (٢٤٧-٢٥٠).

دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الأنعام: ١٤٥). ففي هذه الآيات أباح الله تعالى الأكل من المحرمات في حال الاضطرار وكذلك أبيح الفعل المحرم حال الضرورة مثل التلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه عليه بالقتل أو بقطع عضو من الأعضاء مع اطمئنان القلب بالإيمان بدليل قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ (النحل: ١٠٦)[١].

وأيضًا ذكر الله تعالى الضرورة في هذه الآيات، وأطلق الإباحة في بعضها بوجود الضرورة من غير شرط ولا صفة، وهو قوله: ﴿ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ ﴾ فاقتضى ذلك وجود الإباحة وبوجود الضرورة في كل حال وجدت الضرورة فيها[٢].

من السنة النبوية: أ) فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا بِأَرْضٍ تُصِيبُنَا بِهَا مَخْمَصَةٌ فَمَا يَحِلُّ لَنَا مِنْ الْمَيْتَةِ قَالَ: **"إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا وَلَمْ تَغْتَبِقُوا وَلَمْ تَحْتَفِئُوا بَقْلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا"**[٣].

ومعنى الحديث: إذا لم تجدوا ألبنة -تشربونها أول النهار- أو شرابًا تغتبقونه -أي تشربونه آخر النهار- ولم تجدوا بعد ذلك بقلة تأكلونها حلَّت لكم الميتة[٤].

ب) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَنَّ أَهْلَ بَيْتٍ كَانُوا بِالْحَرَّةِ مُحْتَاجِينَ قَالَ فَمَاتَتْ عِنْدَهُمْ نَاقَةٌ لَهُمْ أَوْ بعير لهم فَرَخَّصَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَكْلِهَا قَالَ: **"فَعَصَمَتْهُمْ بَقِيَّةَ شِتَائِهِمْ أَوْ سَنَتِهِمْ"**[٥].

ومن الأحاديث التي تثبت هذه القاعدة أيضًا الأحاديث المروية في الدفاع عن النفس أو

---

(١) القواعد الفقيهة الكبرى (٢٥٧).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (١/ ١٢٦).

(٣) أحمد (٥/ ٢١٨)، والدارمي (٢/ ١٢٠/ ١٩٩٦)، وقال ابن كثير: وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين (تفسير ابن كثيرسورة المائدة/ آية ٣).

(٤) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (١٧/ ٨٣)، نقلًا عن أبي عبيد.

(٥) أحمد (٥/ ٨٨). وفي إسناده شريك بن عبد الله القاضي وهو سيء الحفظ وكذا فيه سماك بن حرب وقد تغير بأخرة فكان ربما يلقن كما قال الحافظ في التقريب فالحديث (إسناده ضعيف).

المال أو العرض، ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي قَالَ: **"فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ"** قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي قَالَ: **"قَاتِلْهُ"** قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي قَالَ: **"فَأَنْتَ شَهِيدٌ"** قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ قَالَ: **"هُوَ فِي النَّارِ"**(١).

حالات الضرورة التي يباح فيها المحظور: ضرورة الغذاء (الجوع والعطش)، والدواء، والإكراه، والنسيان، والجهل والعسر أو الحرج وعموم البلوى، والسفر والمرض، والنقص الطبيعي(٢).

ويلحق بهذه القاعدة قاعدة أخرى هي بمثابة ضابط لها وهي: (الضرورات تبيح المحظورات) أي أن المباح من فعل المحظورات يكون قدر حاجة الإنسان بحيث ينتفي الضرر الذي يهدده، فلا يتجاوز هذا القدر، وإلا وقع في المعصية، كالمقبل على الهلاك من العطش فلا يجوز له أن يشرب الخمر فوق ما يكسر عطشه ويخلصه من الموت، فإن فعل ذلك فإنه آثم ويتحمل وزر شرب الخمر(٣).

صور السماحة في الإسلام

أولًا: سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين:

إن الله بعث نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وهو ﷺ مثال للكمال البشري في حياته كلها، مثال للكمال في علاقته بربه وفي علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم، مسلمين وغير مسلمين، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا سَهْلًا"(٤).

أي سهل الخلق كريم الشمائل لطيفًا ميسرًا في الخلق(٥).

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: "مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عنه وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ

---

(١) مسلم (١٤٠).

(٢) القواعد الفقهية الكبرى (٢٦٠).

(٣) اليسر والسماحة في الإسلام تحت فصل بعنوان ((القواعد الشرعية المستنبطة من النصوص الواردة في اليسر)).

(٤) مسلم (١٢١٣).

(٥) شرح النووي (٤/ ٤٢٢).

حُرْمَةُ الله فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا"[١].

بمثل هذه القيم كانت دعوة النبي ﷺ يسر في كل شيء وذود عن حرمات الله لا عن عَرَضِ الدنيا أو أهواء النفوس. وتعدد صور السماحة في هدي النبي ﷺ مع غير المسلمين وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر منها ما يلي:

١) **رحمته ﷺ بالخلق عامة.** وذلك تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وقال ﷺ: **"لَا يَرْحَمُ الله مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ"**[٢].

فكلمة: "العالمين" وكلمة "الناس" عامة تشمل كل العالمين وكل الناس، فدين الإسلام دين السماحة والرحمة يسع الناس كلهم ويغمرهم بالرحمة والإحسان.

٢) **تجاوزه عن مخالفيه ممن ناصبوا له العداء.** وهذا له من الأمثلة ما يصعب حصرها وتعدادها فمنها: لما فتح مكة فكان موقفه فيها غاية ما يمكن أن يصل إليه صفح البشر وعفوهم فكان موقفه ممن كانوا حربًا على الدعوة ولم يضعوا سيوفهم بعد عن حربها أن قال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"[٣].

ومنها سماحته ﷺ مع لَبِيد بن الأعصم الذي سحره في مشط ومشاطة وحف طلع نخل ذكر في بئر زروان، وحينما أخبر عائشة بذلك قالت له: أَفَلَا اسْتَخْرَجْتَهُ قَالَ: "قَدْ عَافَانِي الله فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ"[٤].

ومنها سماحته مع زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول الذي تحمل قصة الإفك ومع ذلك فقد عفا عنه ﷺ، وحينما مات عبد الله بن أُبَيٍّ غطاه النبيُّ ﷺ بقميصه واستغفر له حتى نزل قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠)[٥].

---

(١) البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧).

(٢) البخاري (٧٣٧٦).

(٣) السيرة النبوية لابن كثير نقلًا عن ابن إسحاق (٣/ ٥٧٠).

(٤) البخاري (٥٧٦٣)، مسلم (٢١٨٩).

(٥) البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٤٠٠).

ومنها سماحته مع مشركي قريش في صلح الحديبية حيث تنازل عن كتابة صفته في كتاب المصالحة كما ترجحت عنده المصلحة في ذلك لما جاءه سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"** قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَالله مَا أَدْرِي مَا هِي، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَالله لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهمَّ"** ثُمَّ قَالَ: **"هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله"** فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَالله لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"وَالله إِنِّي لَرَسُولُ الله وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله"**[(١)].

٣) دعاؤه ﷺ لمخالفيه من غير المسلمين. ومثال ذلك، لما قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ الله عَلَيْهَا فَقِيلَ هَلَكَتْ دَوْسٌ قَالَ: **"اللهمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ"**[(٢)]. وكذلك دعاؤه ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها فعن أبي هريرة ﷺ: "كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ الله ﷺ مَا أَكْرَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَأَنَا أَبْكِي قُلْتُ يَا رَسُولَ الله إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ فَادْعُ الله أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"اللهمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ"** فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ الله ﷺ فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ فَقَالَتْ مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتْ الْبَابَ ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. . ."[(٣)] الحديث.

ومن صور الدعاء أيضًا ما كَانَ من الْيَهُودُ حديث كانوا يَتَعَاطَسُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) البخاري (٢٧٣١).

(٢) البخاري (٦٣٩٧)، مسلم (٢٥٢٤).

(٣) مسلم (٢٤٩١).

رجاء أَنْ يَقُولَ لَهُمْ يَرْحَمُكُمْ الله فَيَقُولُ: **"يَهْدِيكُمُ الله وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ"**[١].

٤) **وكان ﷺ يقبل هدايا مخالفيه من غير المسلمين.** فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر حيث أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السم[٢].

٥) **وكان ﷺ يغشى مخالفيه في دورهم.** فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِدْرَاسِ فَقَامَ رسول الله ﷺ فَنَادَاهُمْ: **"يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا"** فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ لهم رسول الله: ذَلِكَ أُرِيدُ، ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: **"اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ للهِ وَرَسُولِهِ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا الْأَرْضُ للهِ وَرَسُولِهِ"**[٣].

٦) وكان ﷺ يأمر بصلة القريب وإن كان غير مسلم فقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: "صِلِي أُمَّكِ"[٤]. ولما تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهد مع المسلمين وكان ﷺ غاية في الحلم معهم والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول الله ﷺ، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم وحذر رسول الله ﷺ من ظلم المعاهدين أو انتقاصهم فقال ﷺ: **"أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**[٥].

وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال ﷺ: **"مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ**

---

(١) الترمذي (٢٧٣٩)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٧٧).

(٢) البخاري (٢٦١٧).

(٣) البخاري (٦٩٤٤)، مسلم (١٧٦٥) بنحوه.

(٤) البخاري (٢٦٢٠)، مسلم (١٠٠٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٣/ ٤٩٧/ ٣٠٤٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠٥/ ١٨١١)، عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٥).

الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"(١). وقال ﷺ لأصحابه: "إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا"(٢).

صور من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين: تاريخ الإسلام شاهد على أن المسلمين لم يكرهوا أحدا في أي فترة من فترات التاريخ على ترك دينه، فالإسلام دين العقل والفطرة ولا يقبل من أحد أن يدخله مكرها، تحدى الأولين والآخرين بمعجزته الخالدة، ولم يعرف في تاريخ المسلمين الطويل أنهم ضيقوا على اليهود والنصارى أو غيرهم أو أنهم أجبروا أحدا من أي طائفة من الطوائف اليهودية أو النصرانية على اعتناق الإسلام. يقول توماس آرنولد: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي"(٣).

ولقد كان عهد الخلفاء الراشدين امتدادا لعهد النبي ﷺ وشهد صورا من سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين من إعانتهم بالمال أو النفس عند الحاجة، ومن كفالة العاجز منهم عن العمل أو كبير السن، وغير ذلك. وهذا هو عين ما سار عليه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم في صدر الإسلام في معاملتهم لأهل الذمة، وأسوق هنا بعض الشواهد والأمثلة التي تبين سماحة الصحابة رضي الله عنهم في معاملة غير المسلمين.

١) في خلافة أبي بكر رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق- وكانوا من النصارى -: "وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه؛ طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله"(٤).

---

(١) البخاري (٣١٦٦)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٦١/ ١١١)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٣٧٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٣)، وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٧٤).

(٣) سماحة الإسلام نقلًا عن كتاب ((الدعوة إلى الإسلام)) لـ توماس آرنولد.

(٤) انظر: سماحة الإسلام.

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة وهو يحيا في كنف الإسلام فيعيش على الصدقة يتكفف الناس ولكن الإسلام يحميه ويكرمه ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله.

٢) وكان أبو بكر ﷺ يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: "وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم "[(١)].

٣) وأوصى عمر ﷺالخليفة من بعده بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم[(٢)].

٤) ومر عمر بن الخطاب ﷺ بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ[(٣)] له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[(٤)].

٥) ومن السماحة أن يراعى في معاملتهم كل مصلحة وقصد صحيح فعن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقى عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة مقدمه من الشام فبينما عمر يسير إذ لقيه (المُقلَّسون)[(٥)] من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر ﷺ: مه ردوهم وامنعوهم فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم أو كلمة نحوها وإنك إن تمنعهم

---

(١) فتوح الشام للواقدي (١/ ٨)، باب: وصية أبي بكر.

(٢) البخاري (١٣٩٢).

(٣) معنى رضخ: أعطاه عطاءً غير كثير القاموس المحيط (١/ ٣٧٤/ مادة رضخ).

(٤) كتاب الخراج لأبي يوسف (صـ١٢٦).

(٥) هم الذين يلعبون بين يدي الأمير إذا وصل البلد انظر ((النهاية)) (٤/ ١٠٠).

منها يروا أن في نفسك نقضا لعهدهم فقال: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة[١].

٦) وعن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو ﷺوغلامه يسلخ شاة فقال: "يا غلام، إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي، فقال رجل من القوم اليهودي: أصلحك الله؟ قال: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو رؤينا أنه سيورثه "[٢].

٧) وفي خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطأة: وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه[٣].

٨) وعندما أمر عمر بن عبد العزيز مناديه ينادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد قم فاردد عليه ضيعته فردها عليه ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه[٤].

٩) وفي عهد الرشيد كانت وصية القاضي أبي يوسف له بأن يرفق بأهل الذمة حيث يخاطبه بقوله: "ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ من أموالهم إلا بحق يجب عليهم"[٥].

---

(١) كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام (صـ١٦٦)، وهذه الجملة الأخيرة تواضع من عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين للحق الذي قاله أمير الجيوش أبو عبيدة بن الجراح، فلله درهم من رجال!

(٢) الأدب المفرد (٦٢/ رقم ١٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم (٩٥).

(٣) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام صـ٥٠.

(٤) البداية والنهاية (٩/ ٢٣٩).

(٥) الخراج، أبو يوسف صـ١٢٥.

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم والتسامح في معاملتهم.

سماحة الإسلام في المعاملة في كتابات غير المسلمين:

منذ فجر الدعوة الإسلامية كانت شهادة الخصوم ظاهرة بيِّنة إذ رأوا من سماحة هذا الدين وتيسيره ما بهر عقولهم وأخذ بألبابهم ورأوا من سلوك أهله ما دعاهم إليه، فاستجابت نفوس الكثيرين إليه وإلى أهله وإن لم يؤمنوا به، فدون التاريخ شهاداتهم له ولأهله بحسن المعاملة والسماحة العظيمة، فمن ذلك:

١) ما كتبه نصارى الشام في صدر الإسلام حيث كتب النصارى في الشام سنة ١٣هـ إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ يقولون: "يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا"[١].

واستمر هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام.

٢) ففي الوقت الحاضر يعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي وهي شاهد على سماحة الإسلام جعلت المستشرق الإنجليزي توماس آرنولد يقول: "إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح"[٢].

ويقول أيضا: "لما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة".

٣) وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: "العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها سمح لهم جميعًا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم وترك

---

(١) انظر: سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين فقد نقل هذا النص عن فتوح البلدان للبلاذري.

(٢) انظر: المصدر السابق فقد نقل هذه النصوص عن قائلها من كتابه ((الدعوة إلى الإسلام)).

المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود. إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف"(١).

٤- **ويقول المستشرق ديورانت**: "لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام". (٢)

ثانيًا: السماحة في التجارة وقضاء الحق: وهذا أيضًا من سمات الدين الإسلامي حيث حث ﷺ على السماحة في البيع والشراء فقال: "رَحِمَ الله رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى"(٣).

وهذا النص يشمل التعامل مع المسلم وغير المسلم، وفي هذا الحديث الحض على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحث على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم(٤).

كما رغب وحث ﷺ على السماحة في القرض وإنظار المعسر فقال: "تَلَقَّتْ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنْ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا

---

(١) سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين. عبد الله بن إبراهيم اللحيدان. نقلًا عن كتاب: ((شمس العرب تسطع على الغرب)).

(٢) انظر: كتاب (سماحة الإسلام))، نقلًا عن (قصة الحضارة)، تأليف/ ول ديورانت.

(٣) البخاري (٢٠٧٦).

(٤) فتح الباري (٤/ ٣٥٩).

الْمُعْسِرَ وَيَتَجَوَّزُوا عَنْ الْمُوسِرِ، قَالَ: فَتَجَاوَزُوا عَنْهُ"[١].

وهذا دليل على أن السماحة اشتملت أمورًا كثيرة منها المجال الاقتصادي في البيع والشراء وهو أمر يتجدد يوميًا، مما يفصح أن التسامح ليس من الأمور النادرة بل يتجدد كل حينٍ.

ثالثا: السماحة في درء الحدود: ينعق المعادون للإسلام بأن الحدود في الإسلام فيها شدة وهدر للدماء وتخلّف في تنمية الموارد البشرية، فليعلم هؤلاء أن إقامة الحدود الشرعية لا تنفذ إلا في نطاق محدود، فقد يظن بعض الناس أن إقامة الحدود في الإسلام كإقامة الصلاة في كثرتها، والحق أن أحكام الشريعة الإسلامية تعد بالمئات لكن عدد الحدود التي تقام هي سبعة: الحرابة (قطع الطريق)، والردة، والبغي، والزنا، والقذف، والسرقة، وشرب الخمر، وإذا نفذت فإنه لا يمكن ذلك إلا بعد مراحل وشروط[٢].

وهذا من تمام حكمة الله تعالى ورحمته أنه لم يأخذ الجناة بغير حجة، كما لم يعذبهم في الآخرة إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وجعل الحجة التي يأخذهم بها، إما منهم وهي الإقرار، أو ما يقوم مقامه من إقرار الحال وهو أبلغ وأصدق من إقرار اللسان. . . وإما أن تكون الحجة من خارج عنهم، وهي البينة، واشترط فيها العدالة، وعدم التهمة، فلا أحسن في العقول والفطر من ذلك، ولو طلب منا الاقتراح لم تقترح أحسن من ذلك، ولا أوفق منه للمصلحة[٣].

وها هي أمثلة تبين هذا الأمر وتوضحه، فعلى قلة تنفيذ الحد لهذه الجريمة فإنه منذ أن نزل حد الزنا لم نسمع في تاريخ أمة الإسلام أن أُقيم حد الزنا بتوافر أربعة شهود، وكذلك لم تحد امرأة حتى لو تمت عليها الشهادة كما في الملاعنة إذا لم تقر بهذه الجريمة فقد ثبت أن النبي ﷺ لم يقم الحد على المرأة في قصة الملاعنة وذلك: أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ؟ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: **الْبَيِّنَةَ أو حَدٌّ**

(١) البخاري (٢٠٧٧)، مسلم (١٥٦٠).

(٢) سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين/ تأليف: حكمت بن بشير بن ياسين.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٢/ ١٠٣).

فِي ظَهْرِكَ؟ فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ، ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَّفُوهَا وَقَالُوا إِنَّهَا مُوجِبَةٌ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَبْصِرُوهَا؛ فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ"**(١).

وحتى لو ثبتت جريمة الزنا بالاعتراف وأقيم حد الرجم فإن هذا الزاني الذي يرجم لو طلب منهم التوقف عن ذلك لإدلاء ما عنده ما يدفع عنه فينبغي أن يوقف الرجم ويُسمع منه هل ما يقوله يعتد به أم لا؟

وقد صح أن ماعز بن مالك فرّ حين وجد مسّ الحجارة ومسّ الموت فقال رسول الله ﷺ: **"هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ"**(٢)؟. وفي رواية: "فلما وَجَدَ مَسَّ الْحِجَارَةِ صَرَخَ بِنَا يَا قَوْمُ رُدُّونِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّ قَوْمِي قَتَلُونِي وَغَرُّونِي مِنْ نَفْسِي وَأَخْبَرُونِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرُ قَاتِلِي فَلَمْ نَنْزِعْ عَنْهُ حَتَّى قَتَلْنَاهُ فَلَمَّا رَجَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ: **"فَهَلَّا تَرَكْتُمُوهُ وَجِئْتُمُونِي بِهِ لِيَسْتَثْبِتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُ"**"(٣).

وإذا وُجد أن أحد المسلمين له رغبة في الوقوع في هذه الجريمة أو ينوي فعلها فإنه ينصح ولا يؤخذ بنيته ولا يعاقب عليها.

ولقد استخدم النبي ﷺ منهاجًا فريدًا في نصح الشاب الذي رغب في الزنا فأراد أن

---

(١) البخاري (٤٧٤٧).

(٢) أبو داود (٤٤١٨)، وقال الألباني: إسناده حسن على شرط مسلم، الإرواء ٧/ ٣٥٧.

(٣) أبو داود (٤٤١٩)، وقال الألباني: إسناده جيد، الإرواء ٧/ ٣٥٤.

يستأذن النبي ﷺ فقال له: "**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ**، قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ**؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ**؟ قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ**؟ قَالَ: لَا، وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ** قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: **وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: **اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ**"(١).

وفي هذا الحديث تتجلى السماحة النبوية حيث لم تعاقب ذلك الشاب ولم تعنفه. مع أن الصحابة أرادوا أن يزجروه وينهروه عن ذلك لكن تلك السؤالات التي ألقاها المصطفى ﷺ على ذلك الشاب كانت درسًا عظيمًا له ولمن سمع تلك السؤالات.

وكذلك حينما يقع الشخص في بعض المحرمات، فإن الأصل قبل الحد الستر عليه، وذلك عند شرب الخمر أو عندما يرى الزنى. فالقاعدة حديث رسول الله ﷺ: "**مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(٢).

وكذلك أيضًا تدرء الحدود بالشبهات، وهي قاعدة فقهية مشهورة، وفي ذلك أثر صحيح عن ابن مسعود موقوفًا: "ادرءوا الجلد والقتل عن المسلمين ما استطعتم"(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَنَادَاهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي زَنَيْتُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى رَدَّدَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "**أَبِكَ جُنُونٌ**" قَالَ: لَا قَالَ: "**فَهَلْ أَحْصَنْتَ**" قَالَ نَعَمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ**"(٤).

و لما أتاه ماعز بن مالك يعترف له بالزنا قال له: "**لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ نَظَرْتَ**"

---

(١) أحمد (٥/ ٢٥٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٥).

(٢) أحمد (٢/ ٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٧).

(٣) سنن البيهقي الكبرى (٨/ ٢٣٨). وقال: هذا موصول. وحسن إسناده الألباني في الإرواء٨/ ٢٩.

(٤) البخاري (٦٨١٥)، مسلم (١٦٩١) عن أبي هريرة.

قَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: **"أَنِكْتَهَا"** لَا يَكْنِي قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ بِرَجْمِهِ(١).

وفي رواية مسلم قال: جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي فَقَالَ: **"وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ"** قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ طَهِّرْنِي فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ"** قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ طَهِّرْنِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ الرَّابِعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: **"فِيمَ أُطَهِّرُكَ"** فَقَالَ مِنْ الزِّنَى فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"أَبِهِ جُنُونٌ؟"** فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ فَقَالَ: **"أَشَرِبَ خَمْرًا؟"** فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"أَزَنَيْتَ"** فَقَالَ: نَعَمْ **"فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ. . ."**(٢).

ويستفاد من الحديث أنه لا يمكن إقامة الحد إلا بعد الاعتراف أربع مرات تعادل أربعة شهود، وأن الإمام يتأكد من سلامة عقل المعترف، وفيه أيضًا السماحة بقوله: ارجع فاستغفر الله وتب إليه.

---

(١) البخاري (٦٨٢٤). سيأتي هذا الحديث في الشبهات فلتراجع.

(٢) مسلم (١٦٩٥).

المبحث السادس: الحقوق الإسلامية

المطلب الأول: مقدمة عامة عن الحقوق ومزايا هذا الدين الإسلامي.

إن قضية "الحقوق "، أشغلت العالم اليوم بجميع أممه ودوله ولا تزال، وهي قضية كبرى، جديرة بالبحث والدراسة، من وجهة النظر الشرعية الإسلامية، ذلك أن تسلط العالم الغربي، وفرض هيمنته الفكرية والإعلامية على كثير من دول العالم، وبخاصة العالم العربي والإسلامي، أدى إلى ضياع المفهوم الإسلامي لهذه القضية وغيرها، وأوجد انطباعًا لدى الناس بأنه لا طريق لنيل الحقوق إلا من خلال التبعية المقيتة لذلك العالم الغربي، والدخول طوعًا أوكرهًا ضمن أحلافه ومنظوماته، وتحمّل أصناف المهانة، من أجل الحصول على هذه الحقوق.

لقد أصل الدين الإسلامي قضية الحقوق تأصيلًا شرعيًا متكاملًا، يتبين من خلال هذا الأمر أن مفهوم "الحقوق" يتضمن أربعة أمور أساسية هي: **النص الشرعي، والقواعد أو المبادئ، وتنظيم العلاقات، والوجوب أو الإلزام**، وبتطبيق هذه الأسس على ما جاء من آيات الحقوق في القرآن الكريم، نجد أن مفهوم "الحقوق " في القرآن، يشتمل على هذه الأمور نفسها، ولنأخذ مثالًا لذلك، آيات الحقوق في آخر سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥١: ١٥٣).

وتطبيق الأسس الأربعة على النحو الآتي:

١) النص الشرعي: وهو هذه الآيات القرآنية الجامعة.

٢) القواعد والمبادئ التي تتضمنها النصوص: فالآيات تتضمن حقوقًا كثيرة منها: حق الله، حق الوالدين، حق الحياة، حق اليتيم، حق الذمي وغير ذلك مما بينته الآيات.

٣) تنظيم علاقات الناس: فهذه القواعد جاءت لضبط حياة الناس في علاقة بعضهم ببعض، فهي تنظم علاقة الفرد بوالديه وأولاده وسائر فئات المجتمع، بل حتى مع المخالف في الدين، فله حق الوفاء بالعهد ونحوه.

٤) الوجوب والإلزام في تطبيق هذه المبادئ: فهذه المطالب جاءت بصيغة الأمر من الله تعالى، وهو في الأصل يقتضي الوجوب كما قرره أهل العلم، إضافة إلى أن الآيات الثلاث تضمنت في خاتمة كل واحدة منها؛ تأكيد الوجوب بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾: أي أمركم به وأوجبه عليكم.

قال ابن كثير: يقول تعالى: هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه.[1]

كما أن هذه الحقوق هي واجبات شرعية ملزمة، فهي عبادات يؤجر على فعلها، ويحاسب على تضييعها، وهي تنظم في مجموعها علاقات الناس ومعاملاتهم وحياتهم الاجتماعية، فأصحاب هذه الحقوق هم فئات مختلفة من المجتمع مثل: الآباء والأمهات، الأيتام، الجيران، الأبناء، المرأة، وهكذا.

ومن جهة أخرى: ترتبط هذه الحقوق بالضرورات، التي جاءت الشرائع بحفظها، ذلك أن مصالح الناس الدنيوية والأخروية، إنما تكون بحفظ مقاصد الشريعة ومنها هذه الضرورات، فهي من الدين المشترك بين الأنبياء، ويدل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ (المائدة: ٤٥)، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٠-١٦١)

---

(١) تفسير ابن كثير٦/ ٢١٥.

وفي هذا دلالة واضحة على أن كافة الشرائع، جاءت بحفظ تلك الضرورات، وهي قاعدة عظيمة لحفظ حقوق الأفراد والمجتمعات العامة والخاصة، ففي حفظ الدين مثلًا، إعطاء لحق التدين والعبادة، وفي حفظ النفس منح لحق الإنسان في الحياة، وفي حفظ النسل، تأكيد لحق الإنسان في التزوج، وحفظ المال يتضمن حق الإنسان في التملك والسعي في الأرض وممارسة أنواع المعاملات كالبيع والشراء والشراكة والتجارة، ونحوها، وحفظ العقل فيه حق الحرية في التفكير والتدبر، وهكذا. ومما يؤصل مسألة "الحقوق " في القرآن والسنة، كثرة الفئات التي راعى القرآن والسنة حقوقها، إضافة إلى تعدد أنواع الحقوق، كما سنبين بالتفصيل.

من خلال ما سبق بيانه في مفهوم "الحقوق " وتأصيله في القرآن الكريم، يمكن أن نستشف معالم مهمة، وخصائص مميزة، لمبادئ "الحقوق في الدين الإسلامي" فمن ذلك:

١) أن مصدرها الوحي المتمثل في القرآن والسنة النبوية، فهي منحة ربانية، أوجبها الله للإنسان، فهي ليست من مخلوق لبشر مثله، يمنّ بها عليه متى شاء، أو يمنعها إذا شاء، كلاّ، بل هي فرض لازم وحق واجب، من الخالق سبحانه لبني الإنسان. وقد أشارت الآيات إلى هذا في عدة مواضع كما تقدم في مثل قوله تعالى: (ذلكم وصاكم به) وقوله: (فريضة من الله) وقوله: (وقضى ربك) وغيرها.

٢) أنها تنبع من التكريم الإلهي للإنسان، الذي أكدته النصوص القرآنية الصريحة الواضحة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠) وغيرها. ولذا فإن القيام بهذه الحقوق، هو جزء من دين المسلم وعبوديته لله تعالى، وأمر مستقر في فطرة الإنسان التي فطره الله عليها.

٣) أنها شاملة لجميع أنواع الحقوق: الاجتماعية، والمالية، والسياسية، والشخصية، وغيرها، كما أنها عامة لكل أصناف المجتمع، ولجميع أفراده، حتى المخالفين منهم، كما تقدم ذكره آنفًا.

٤) أنها ثابتة لا تقبل الإلغاء ولا التبديل ولا التغيير، لأنها جزء من الدين، ولأنها فرض من رب العالمين، الذي حفظ دينه عامة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ

لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ فهو باقٍ إلى قيام الساعة، وهو صالح لكل زمانٍ ومكان، بينما وثائق البشر عرضة للنقض والتعديل في كل وقت وحين.

٥) أنه يترتب على أدائها الجزاء والثواب، وعلى التقصير فيها: الحساب والعقاب، ذلك أنها واجبة ملزمة، يؤكد ذلك بجلاء قول النبي: "لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء "[(١)].

٦) أنها أحيطت بضمانات لحمايتها من الانتهاك، تتلخص في: أ) إقامة الحدود الشرعية، التي من مقاصدها: المحافظة على حقوق الأفراد، وحفظ الضرورات الخمس.

ب) تحقيق العدالة المطلقة التي أوجبها الله على عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾. إلى غير ذلك من الخصائص التي تميز منهج "الحقوق في الدين الإسلامي"، وتؤكد تفرده بالصلاحية المطلقة: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ (البقرة: ١٣٨). [(٢)]

المطلب الثاني: ذكر بعض هذه الحقوق بشيء من التفصيل، وهي كما يلي:

١- حق الله تعالى على العباد.

٢- حق النبي ﷺ على أمته

٣- حق الأنبياء والمرسلين.

٤- حق القرآن.

٥- حقوق آل البيت.

٦- حق العلماء.

٧- حق الحاكم.

٨- حق الحياة.

---

(١) مسلم (٢٥٨٢).

(٢) انظر: المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم د/ يحيى بن محمد حسن زمزمي.

٩- حقوق الوالدين.

١٠- حقوق الزوج.

١١- حق المرأة.

١٢-حق الطفل.

١٣- حق الميت على أهله.

١٤- حق الأخوة.

١٥- حق الجنين.

١٦-حق الجسد.

١٧- حق المريض.

١٨- حق اللسان.

١٩- حق اليتيم.

٢٠- حق الضيف.

٢١- حق الجوار.

٢٢ - حق الخادم والمملوك.

٢٣- حق الدواب

٢٤ - حقوق الطريق.

٢٥- حق اللجوء.

٢٦- حقوق الذميين.

واليك تفصيلها.

١- حق الله تعالى على العباد

وهذا الحق هو أعظم الحقوق على الإطلاق، وأجلها قدرًا، وهو يدور على أصلين:

الأول: توحيده ﷻ. الثاني: عبادته سبحانه لا شريك له. فعَنْ مُعَاذٍ ﷺقَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، ، فَقَالَ: **يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله؟** قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ؛ أَنْ يَعْبُدُوهُ؛ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: **لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**"[1].

قال ابن حجر: قَوْله (أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا): الْمُرَاد بِالْعِبَادَةِ عَمَلُ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابُ الْمَعَاصِي وَعَطَفَ عَلَيْهَا عَدَمَ الشِّرْكِ لِأَنَّهُ تَمَامُ التَّوْحِيدِ، وَالْحِكْمَةُ فِي عَطْفِهِ عَلَى الْعِبَادَة أَنَّ بَعْضَ الْكَفَرَةِ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الله وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً أُخْرَى فَاشْتَرَطَ نَفْي ذَلِكَ، والمراد من حق الله على عباده، ما يستحقه الله على عباده مما جعله عليهم، وقال القرطبي: وحق الله على العباد هو ما وعدهم به من الثواب وألزمهم إياه بخطابه[2].

أولًا: توحيد الله سبحانه وتعالى: أعلى وأغلى الحقوق على الإطلاق، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، هذا مع قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وبذلك يكون معنى (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله.

قال الإمام البقاعي: (لا إله إلا الله) أي: انتفى انتفاءً عظيمًا أن يكون معبودًا بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، إلا فهو جهل

---

(١) البخاري (٢٨٥٦)، مسلم (٣٠).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٤٧)، وانظر: شرح النووي (١/ ٢٦٧: ٢٦٦).

صرف، وقد دل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ على أن العقيدة الصحيحة تتلخص في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فهذه الأمور الستة هي أصول العقيدة الصحيحة[(١)].

قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ (البقرة: ١٧٧)، وفي حديث جبريل: (**الْإِيمَانِ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**)[(٢)]. وهذه الأصول الستة يتفرع عنها جميع ما يجب على المسلم اعتقاده في حق الله سبحانه، وفي أمر المعاد وغير ذلك من أمور الغيب.

والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١ـالإيمان بوجود الله: فوجود الله سبحانه وتعالى من البداهات التي يدركها الإنسان بفطرته ويهتدي إليها بطبيعته، وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير العويصة، ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء، ولقتراب المسافة جدًا قد يعطل الرؤية ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

٢ـالإيمان بربوبيته: ومعنى الرب: أي: الخالق والمالك والمدبر، فهذا معنى ربوبية اللهﷻ، ولا يغني واحد من هذه الثلاثة عن الآخر، فهو الخالق الذي أوجد الأشياء من عدم﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ١١٧)، والمالك أي: خالق الخلق وانفرد بملكه له، كما انفرد بخلقه له، كذلك أيضًا منفرد بالتدبير، فهو المدبر لجميع الأمور، وهذا بإقرار المشركين فإنهم إذا سئلوا من يدبر الأمور؟ فسيقولون: الله، فهو المنفرد بالتدبير﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ (السجدة: ٥).

---

(١) الحقوق الإسلامية (٢٩).

(٢) البخاري (٤٤٣١)، مسلم (٨).

٣- **الإيمان بألوهيته**: الإيمان بأنه سبحانه هو الإله الحق، وأنه لا يشاركه أحد في هذا الحق لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولهذا كانت دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هي الدعوة إلى قول (لا إله إلا الله)، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل٣٦)، ولو أن أحدًا آمن بوجود الله وآمن بربوبيته، ولكنه يعبد مع الله غيره فلا يكون مؤمنًا حتى يفرده سبحانه بالألوهية.

٤- **الإيمان بأسمائه وصفاته**: الواردة في كتابه العزيز والثابتة عن الرسول الأمين ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يجب أن تمر كما جاءت بلا كيف مع الإيمان بما دلت عليه هذه المعاني العظيمة التي هي أوصاف الله ﷻ، يجب وصفه بها على الوجه اللائق به من غير أن يشابه خلقه في شئ من صفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى١١)، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (النحل٧٤).

الأمر الثاني: **من حقوق الله علينا**: **عبادته سبحانه لا شريك له**: والعبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار، والمنافقين، والإحسان إلي الجار، واليتيم والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

ذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له التي خلق الخلق لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات٥٦)، وبها أرسل جميع الرسل، وذم

المستكبرين عن عبادته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ (غافر ٦٠)، والدين كله داخل في العبادة، وقد ثبت في الصحيح، أن جبريل لما جاء إلي النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام قال: **"الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا"**، وفي قوله: "قال ما الإحسان؟ قال: **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** "، ثم قال في حديث آخر (**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**)[1]. فجعل هذا كله من الدين، والدين يتضمن معنى الخضوع، والذل، يقال: دنته فدان، أي: أذللته فذل، يقال يدين الله ويدين لله أي: يعبد الله ويطيعه ويخضع له.

فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له وتتضمن العبادة معنى الذل والحب بغاية المحبة له[2].

٢ – حق النبي ﷺ على أمته

١ـ الإيمان به ﷺ: فالإيمان به من أركان الإيمان التي يجب على المسلم الإيمان بها، ومن هذه الأركان الإيمان بالرسل، وهو رسول من أولئك الرسل عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ (التغابن: ٨)، وقد أخبر بوجوب الإيمان به فقال: **" أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"**[3].

ومن الإيمان به التصديق الجازم الذي لاشك فيه بأن رسالته ونبوته هي حق من عند الله تعالى، والعمل بمقتضى ذلك، والتصديق بأن كل ما جاء به من الدين وما أخبر به عن الله تعالى حق صحيح، ولابد من تصديق ذلك بالقلب واللسان، فلا يكفي الإيمان به باللسان، والقلب مُنكِر لذلك، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (النساء: ١٣٦).

٢ـ محبته ﷺ: وهذا حق من حقوقه على أمته، وواجب عليهم أيضًا، فينتفي الإيمان

---

(١) البخاري (٤٧٧٧)، مسلم (٨).

(٢) وقد فصلنا الكلام على هذا الحق في مقدمة هذه الموسوعة تحت المبحث الثاني (الإسلام وبيان معناه).

(٣) البخاري (٢٥)، مسلم (٢٠).

بعدم محبة النبي ﷺ، فقد أوجب الله محبة نبيه في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤). وقال ﷺ: "لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"[1]. وقال ﷺ: " ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[2].

٣ـ **طاعته ﷺ وامتثال أمره**: طاعته ﷺ واجبة بكتاب الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ (محمد: ٣٣)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠).

قال ابن كثير: يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به والمعاندين له، وأن لا يتركوا طاعته ﷺ، بل امتثلوا أمره، واتركوا زواجره بعدما علمتم ما دعاكم إليه من الحق، قال ﷺ: " كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قيل: يا رسول الله، ومن يأبى، قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى"[3].

وقال ﷺ: " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته ويقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه"[4].

ومما يدل على عظم شأن طاعته أن الله تعالى قرن طاعته سبحانه بطاعة نبيه فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠). وقال ﷺ: " **من أطاعني فقد أطاع الله**

---

(١) البخاري (١٥).

(٢) البخاري (١٦).

(٣) البخاري (٧٢٨٠).

(٤) أحمد ٤/ ١٣٠، وأبو داود (٤٦٠٤) بسند صحيح، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٤٤٠٨).

ومن عصاني فقد عصى الله "(١).

ولابد من الحذر كل الحذر من مخالفة أمره وأن ذلك مما يحبط الأعمال ويوجب النيران، فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ (الجن: ٢٣)، فمن طاعته التمسك بسنته وما أمر به واجتناب ما نهى عنه والابتعاد عنه والاهتداء بهديه، والالتزام بنظافة الثوب والبدن، وتحري الصدق في الأقوال والأفعال، وطلب الحلال في المأكل، والمشرب، والملبس، والنكاح، واجتناب الحرام في ذلك.

وغير ذلك من الأمور التي ينبغي على المسلم متابعتها والعمل بها مما أمر بها النبي، واجتناب ما نهى عنه من أعمال وأفعال قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)، وقال: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فانتهوا "(٢).

٤ـ اتباعه ﷺ: ومما يجب على المؤمن اتباع نبيه، واتباعه ﷺ يكون في الاعتقاد والقول، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)، فلا بد للمسلم من اتباع هدي نبيه، واقتفاء آثره والعمل بما جاء به من قول وفعل.

وقال ابن رجب الحنبلي: وقوله: " **فإنه من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ** "(٣)، هذا إخبار منه بما سيقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، ويجب على المسلم رد كل قول لقوله، وترك كل تشريع لشرعه والإعراض عن كل ما خالف هديه في القول والعمل والاعتقاد، والأخذ بكل ما صح عنه وثبت نسبته إليه فهو ﷺ أعلم الناس بربه تعالى وأخشاهم وأتقاهم له فيجب التمسك بما جاء به واتباع ذلك بلا تردد ولا شك لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى وإنما يعلمه ربه ﷻ،

---

(١) البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) مسلم (١٣٣٧).

(٣) أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

فالواجب على المؤمن اتباع النبي ﷺ في العقيدة والعبادة والسلوك فهذا هو طريق النجاة يوم القيامة بإذن الله تبارك وتعالى ومن خالف ذلك فسيلقي به إلى النار والعياذ بالله[1].

٥ـ الاقتداء به ﷺ: قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ (الأنعام: ٩٠)، فلقد أمر الله جل وعلا نبيه بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل. وأمرنا نحن باتباع النبي والاقتداء به فقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ (الأحزاب: ٢١)، أي أن لكم فيه قدوة صالحة في أفعاله وأقواله فاقتدوا به، فمن اقتدى به وتأس به سلك الطريق الموصل إلى كرامة الله وهو الصراط المستقيم، فهو ﷺ الأسوة الحسنة التي يوفق للاقتداء بها من كان يرجو الله واليوم الآخر، لما معه من الإيجار والخوف من الجبار سبحانه، ولما يرجو من ثواب ربه، وما يخشاه من عقابه وعذابه، فكل ذلك حافز، ودافع للاقتداء به في أقواله وأفعاله وأحواله.

٦ـ توقيره ﷺ وتعظيم شأنه: توقيره من آكد حقوقه على أمته قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ (الفتح: ٨ - ٩) فيجب توقيره ﷺ وإجلاله وتعظيمه، كما ينبغي له ذلك على ألا يُرفع إلى مقام العبودية فإن ذلك محرم لا يجوز ولا ينبغي إلا لله ﷻ. ومن توقيره ﷺ تعظيم شأنه احترامًا، وإكبارًا لكل ما يتعلق به من اسمه وحديثه، وسنته وشريعته، وآل بيته، وصحابته - رضوان الله عليهم- وكل ما اتصل به ﷺ من قريب أو بعيد. فيُرفع من قدره حتى لا يساويه ولا يدانيه أحد من الناس. فمن توقيره ﷺ عدم التقدم بين يديه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (الحجرات: ١) أي لا تقولوا قبل قوله وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، فلا يحل لأحد أن يسبقه بالقول ولا برأي ولا بقضاء بل يتعين عليهم أن يكونوا تابعين له ﷺ. وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) جامع العلوم والحكم الحديث (٢٨) ص٤٥٩.

ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (الحجرات: ٢)، فهذا نهي من الله ﷻ بعدم رفع الصوت عند مخاطبة النبي، ولا يجهر المخاطب له بالقول بل يخفض الصوت ويخاطبه بالأدب ولين الجانب ويخاطبه بالتعظيم والتكريم والإجلال والإعظام.

٧ـ وجوب النصح له ﷺ: قال ابن رجب[1]: وأما النصيحة للرسول في حياته فبذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته وبذل المال إذا أراده والمسارعة إلى محبته، وأما بعد موته، فالعناية بطلب سنته والبحث عن أخلاقه وآدابه وتعظيم أمره ولزوم القيام به وشدة الغضب والإعراض عمن يدين بخلاف سنته والغضب على من صنعها لأثرة دنيا وإن كان متديناً بها، وحب من كان منه بسبيل من قرابة، أو صهر، أو هجرة، أو نصرة، أو صحبة ساعة من ليل أو نهار على الإسلام والتشبه به في زيه ولباسه، والإيمان به وبما جاء به، ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه. . . . . ونحو ذلك.

ومن النصيحة له ﷺ الذب عن شريعته وحمايتها بألا يزيد فيها أحد ما ليس فيها، أو أن ينتقصها أحد، فيحارب أهل البدع القولية والفعلية والعقدية، كل حسب بدعته، وكذلك احترام أصحابه وتعظيمهم ومحبتهم، لأنهم خير القرون فلا يجتمع حب رسول الله والنصح له وبغض أصحابه أو أحد منهم، فمن سب الصحابة فقد قدح في الدين، لأنهم هم الذين بلغوا دين الله ﷻبعد وفاة نبيه وفي ذلك قدح لله ﷻوسب له، وتشكيك في حكمته تعالى، فالله جل وعلا قد اختار لنبيه ولحمل دينه من هم أهل لذلك لأن الله تعالى تكفل بحفظ دينه، وهيئ له من العلماء من يبلغوه إلى الناس، فالأمة لا تجتمع على ضلالة. فمن النصح له محبة أصحابه لأنهم هم الذين بلغوا عنه هذا الدين، فرضي الله عنهم أجمعين. فاللهم صلي وسلم وزد وبارك على نبينا محمد ما غرد طير وصاح، وصلي على محمد ما أظلم ليل وأشرق صباح.

---

(١) جامع العلوم والحكم الحديث السابع.

٨ـ محبة أهل بيته وصحابته ﷺ: إن محبة أهل بيت رسول الله، ومحبة أصحابه ﷺ، كل ذلك من محبته، وهي محبة واجبة فمن أبغض أحدًا من أهل بيت النبي أو أحدًا من صحابته الكرام ﷺ، فقد أبغض النبي ﷺ، لأن محبته مقرونة بمحبتهم. قال ﷺ: **"أذكركم الله في أهل بيتي"**[(١)]. وقال ﷺ لأم سلمة: **" لا تؤذيني في عائشة "**[(٢)].

وقوله في صحابته: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ "[(٣)].

وقوله: **" لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ذهبًا ما بلغ من أحدهم ولا نصيفه "**[(٤)].

٩ـ الصلاة عليه ﷺ: ومن حقه على أمته أن يصلوا عليه كلما ذكر ﷺ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦)

قال ابن كثير: أي أن الله تعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه ثم أمر أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع عليه الثناء عليه من أهل العالَمِين: العلوي والسفلي جميعًا[(٥)].

فالصلاة والسلام عليه واجبة على كل مؤمن ومؤمنة لما في ذلك من الأجر العظيم من الله ﷻ ولما في ذلك أيضًا من طاعة لله تعالى عندما أمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه.

قال النووي: إذا صلي على النبي فليجمع بين الصلاة والتسليم – أي ليقل عليه الصلاة والسلام – مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

وعن ابن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها

(١) مسلم (٢٤٠٨).

(٢) البخاري (٢٥٨١).

(٣) الترمذي ٢٦٧٦، أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

(٤) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٦٨).

عشرًا "[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصلي عليّ"[٢].

٣ـ حق الأنبياء والمرسلين

١-الإيمان بهم: فالإيمان بالأنبياء والمرسلين أصل من أصول الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٤).

والكفر بهم كفر بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ (النساء: ١٣٦)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ (النساء١٥٠: ١٥١).

٢ـالإيمان بمعجزاتهم: المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة، يظهره الله تعالى على يد من يشاء من عباده مقرونةً بالتحدي عند دعوى النبوة، هذا وقد أيد الله تعالى كل رسول منهم بمعجزات خارقة للعادة، كناقة صالح ونار إبراهيم، وعصا موسى ويده البيضاء، وفلق البحر وتفجير الماء من الحجر، وكإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى، وكانشقاق القمر لسيدنا محمد ﷺ، ونبع الماء من يده الشريفة، وتكثير الطعام والشراب، وتكليم الجمادات له صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣ـالاعتقاد بعصمتهم: حياة الأنبياء تحلق في مستوى من الكمال لا تهبط عنه أبدًا، والمؤمن من عامة الناس تتذبذب حرارته في مدارج الارتقاء، ويعتبر الحد الأسمى الذي يقف عنده هو مقام الإحسان وهو (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، بيد أن مقام الإحسان

---

(١) مسلم (٣٨٤).

(٢) الترمذي (٣٥٤٥)، صحيح الترمذي (٢٨١٠).

وهو آخر ما يصل إليه الناس بعد الجهد والمران، هو المرتبة الدنيا للأفق الذي يعيش فيه الأنبياء، إذ يستحيل في حقهم أن يسقطوا دونه، وقد قرر علماء المسلمين أن العصمة واجبة لرسل الله كافةً، فلا يليق أن تصدر عن أحدهم كبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها[١].

٤ـ **الشهادة لهم بأنهم قد بلغوا أممهم**: قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

قال القرطبي: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطًا، أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: " يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وأُمَّتُهُ فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٢].

٥ـ**الإيمان بالكتب المنزلة عليهم**: إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المؤمن: التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام، فجمع ودون فكان صحفًا مطهرةً، وكتبًا قيمةً، فما عرف منها آمن به المؤمن تفضيلًا، وما لم يعرف آمن به إجمالًا، والمصدر الوحيد الذي يرجع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفضيل هو القرآن الكريم وحده، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظًا، لا يتطرق إليه معه الزيادة والنقص ولا التحريف ولا التغيير أو التبديل بحال من الأحوال.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر٩)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾

---

(١) عقيدة المسلم (٢٠٧).

(٢) البخاري (٣٣٣٩).

(الحديد: ٢٥)، وقال ﷻ: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢١٣).

٦ـ**محبتهم، وإزالة الشبهات التي افتريت عليهم**: من علامات المحبة لأنبياء الله ورسله: إماطة اللثام عما دار حولهم من مفتريات وأوهام، فلقد تعرض الأنبياء على مر العصور والدهور لحملات غاشمة ظالمة، وألصقت بهم التهم، ودارت حولهم مفتريات في محاولة شيطانية صهيونية للنيل من مكانهم، والحط من شأنهم، ولم يسلم نبي من ذلك حتى رسولنا الأمين ﷺ ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ (فصلت: ٤٣).

٤ـ حق القرآن

أولًا: **فضل تلاوة القرآن وحملته**: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (فاطر: ٢٩-٣٠). وعن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"خيركم من تعلم القرآن وعلمه"**. [١]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **"مثل الذي يقرأ القرآن؛ وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ وهو عليه شديد فله أجران"**. [٢]

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر "**. [٣]

ثانيًا: **حقوق القرآن الكريم**: ولهذا الكتاب حقوق علينا ينبغي أن نعلمها ونراعيها مع القرآن الكريم

---

(١) البخاري (٥٠٢٧).

(٢) البخاري (٤٩٣٧)، مسلم (٧٩٨).

(٣) البخاري (٥٠٥٩)، مسلم (٧٩٧).

١ـ الإيمان به: فالإيمان بالكتب المنزلة أصل من أصول الإيمان، فمن كفر بكتاب منزل كفر كفرًا يخرجه من الملة والعياذ بالله. قال ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥). وقال ﷻ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣)

ونؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله منه بدأ وإليه يعود بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًا وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ (المدثر: ٢٥). علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه بقول البشر. [١]

٢ـ مراعاة آداب تلاوته:

ولتلاوة القرآن آداب ظاهرة وباطنة، فمن الآداب الظاهرة للتلاوة:

الأول: في حال القارئ: وهو أن يكون على الوضوء واقعًا على هيئة الأدب والسكون إما قائمًا وإما جالسًا مستقبل القبلة مطرقًا رأسه ولا متكئ ولا جالس على هيئة التكبر.

الثاني: في مقدار القراءة: وللقراءة عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يختم في الشهر مرة. . . . ، والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع، وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أومن المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة، وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل.

الثالث: في كتابة القرآن: يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه.

الرابع: الترتيل: هو المستحب في هيئة القرآن؛ لأن المقصود من القراءة التفكر والترتيل

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص- ١٦٨).

مُعِينٌ عليه، وقال ابن عباس ﷺ: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرًا، واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضًا الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرًا في القلب من الهذرمة والاستعجال.[١]

الخامس: البكاء: وهو مستحب مع القراءة، وقد ثبت ذلك عن النبي ﷺ لما قرأ عليه عبد الله بن مسعود ﷺ من أول سورة النساء حتى وصل إلى قوله ﷻ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (النساء: ٤١). وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء، . . . ، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب.

السادس: أن يراعي حق الآيات: فإذا مر بآية سجدة سجد، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة.

السابع: في الجهر بالقراءة: ولا شك في أنه لا بد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه، إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف، . . . ، والإسرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته أيضًا تتعلق بغيره فالخير المتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله.[٢]

الثامن: أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: لقوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٢٩-٤٣١).

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾، وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر. . . ، قال حذيفة: صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، وإذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل. [(١)]

التاسع: تحسين القراءة وترتيلها: بترديد الصوت بلا تمطيط مفرط يغير النظم لقوله ﷺ: **" ليس منا من لم يتغن بالقرآن"**[(٢)]، واستمع ﷺ مرة إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه فقال: **لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير داود.** [(٣)]

ومن الآداب الباطنة: الأول: فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه حيث أوصل إليهم معاني كلامه بكل يسر وسهولة.

الثاني: التعظيم للمتكلم، فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه، عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشيَ عليه ويقول: هو كلام ربي هو كلام ربي.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس. . . . ، قيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحب إليّ من القرآن حتى أحدث به نفسي؟.

الرابع: التدبر: وهو وراء حضور القلب؛ قال علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي قوله تعالى ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨). [(٤)]

الحق الثالث: العمل به وتطبيق أحكامه: فلقد أنزل الله الكتاب بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط. . . وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. . . وفرض على المسلمين ما فيه

---

(١) مسلم (٧٧٢).

(٢) البخاري (٧٥٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٧٩٣).

(٤) ابن ماجه (١٣٥٠) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١١٠).

من أحكام، قال ﷻ ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩).

٥ـ حقوق آل البيت عليهم السلام

اختلف أهل العلم في تعريف من هم آل البيت وأصح ما قيل في ذلك قولان الأول: من تحرم عليهم الصدقة وهو منصوص الشافعي وأحمد وجمهور أصحابهما.

والقول الثاني: أن آل النبي ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة[1].

لآل البيت عند أهل السنة والجماعة حقوق وواجبات:

١- منها: حق الموالاة والمحبة، فتجب محبتهم لإيمانهم، وتجب محبتهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ؛ حيث قال النبي ﷺ: "**أذكركم الله في أهل بيتي**"[2]، ولقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ (الشورى: ٢٣).

وهذه الآية لها معنيان: أحدهما السابق، والآخر: أن تحبوني لقرابتي فيكم؛ فإنه لا يخلو بطن في قريش إلا وله صلة قرابة به ﷺ.

٢- ومنها: حق الدفاع عنهم، وتبرئة ساحتهم مما ينسب إليهم كذبًا وزورًا، والدفاع عنهم لا يعني مجرد الرد على من يسبهم، بل يشمل ذلك، ويشمل الرد على من غلا فيهم، وأنزلهم فوق منزلتهم؛ فإن ذلك يؤذيهم.

٣-ومنها: مشروعية الصلاة عليهم، وذلك في عقب الأذان، وفي التشهد آخر الصلاة، وعند الصلاة على النبي ﷺ فقد جاء في هذا عدة نصوص؛ كما جاء في الحديث لما سئل النبي عن كيفية الصلاة عليه في الصلاة؟ قال: (قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد، والسلام كما قد علمتم)[3].

---

(١) انظر: جلاء الأفهام (ص ٣٢٥).

(٢) مسلم (٢٤٠٨).

(٣) البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٥).

فالصلاة على آله من تمام الصلاة عليه وتوابعها؛ لأن ذلك مما تقرُّ به عينه، ويزيده الله به شرفًا وعلوًا.

٤- ومن حقوق آل البيت عند أهل السنة، حقهم من الخُمس، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ (الأنفال: ٤١) وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ (الحشر: ٧)، لكنّ أهل السنة -بخلاف الشيعة- يقولون: إنهم يعطون من خمس الغنائم، وليس من خمس الأموال، فليس في الإرث خمس، وكذا في المسكن والسيارة وغيرها؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ (الأنفال: ٤١) فقال: مِنْ شَيْءٍ ولم يقل: من أموالكم. ففي الخمس سهم خاص بذي القربى، وهو ثابت لهم بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهو قول جمهور العلماء، وهو الصحيح.

قال ابن تيمية: "فآل بيت النبي لهم من الحقوق ما يجب رعايتها؛ فإن الله جعل لهم حقًا في الخمس والفيء، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله"[(١)].

٥- ومنها: اليقين الجازم بأن نسب رسول الله وذريته هو أشرف أنساب العرب قاطبة؛ فإن النبي ﷺ يقول: "إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[(٢)].

٦- ومن هذه الحقوق: تحريم الزكاة والصدقة عليهم؛ وذلك لكرامتهم وتنزيههم عن الأوساخ؛ فقد قال رسول الله: "إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٠٧).

(٢) مسلم (٢٢٧٦).

لمحمد ولا لآل محمد"[١].

قال ابن تيمية: "وأما تحريم الصدقة فحرمها عليه وعلى أهل بيته تكميلًا لتطهيرهم، ودفعًا للتهمة عنه؛ كما لم يورث، فلا يأخذ ورثته درهمًا ولا دينارًا"[٢].

٦ـ حق العلماء

إن مكانة العلماء في الإسلام مكانة عالية وغالية، فلقد رفع الإسلام شأنهم، وأعلى قدرهم، وصان حقهم، نطقت بذلك آيات القرآن والأحاديث والآثار.

فمن الآيات: قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨)، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة: ١١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨).

ومن الأحاديث: ١-عن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: **"من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين"**. [٣]

٢-وعن أبي الدرداء ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **" فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"**. [٤]

ومن الآثار: سئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قال: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهو يحفظونهم من نار الآخرة. [٥]

---

(١) مسلم (١٠٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٠).

(٣) البخاري (٧١)، مسلم (١٠٣٧).

(٤) الترمذي (٢٦٨٢)، ابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٢).

(٥) موسوعة الحقوق الإسلامية (٦٤٤-٦٤٥).

وعليه فحقوق العلماء علينا كثيرة نذكر منها الآتي:

الحق الأول: أن نحفظ مكانتهم، ونتأدب معهم: فالتأدب مع العلماء من تعظيم العلماء تعظيم لشعائر الله وقد قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢)، والشعيرة: هي كل ما اشعر الله بتعظيمه من أعلام الدين وتوقير حملته وحماته فهذا من توقير الله ﷻ، وقد قال ﷻ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٣)، قال سعيد بن جبير: "ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته". [١]

وهذه جملة من الآداب التي ينبغي أن نتحلى بها مع العلماء: ليكن شيخك محلَّ إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام أو مسير أو إكثار الكلام عنده، أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك، أو الإلحاح عليه في جواب، متجنبا الإكثار من السؤال، لاسيما مع شهود الملأ، فإن هذا يوجب لك الغرور وله الملل.

ولا تناده باسمه مجردًا، أو مع لقبه كقولك: يا شيخ فلان! بل قل: يا شيخي أو شيخنا! فلا تسمه، فإنه أرفع في الأدب ولا تخاطبه بتاء الخطاب، أو تناديه من بعد من اضطرار، وانظر ما ذكره الله تعالى من الدلالة على الأدب مع معلم الناس الخير ﷺ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣) والتزم توقير المجلس، وإظهار السرور من الدرس والإفادة به، وإذا بدا لك خطأ من الشيخ، أو وهم فلا يسقطه ذلك من عينك، فإنه سبب لحرمانك من علمه، ومن ذا الذي ينجو من الخطأ سالمًا؟). [٢]

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: " إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب وأن لا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا نفشين له سرًا ولا

---

(١) حرمة أهل العلم (١٩٧) تأليف (محمد إسماعيل المقدم).

(٢) المجموعة العلمية، تأليف / بكر أبو زيد صـ ١٦٢.

تغتابن عنده أحدًا ولا تطلبن عثرته وإن زل قبلت معذرته وعليك أن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله وإن كان له حاجه سبقت القوم إلى خدمته". (١)

ولقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة في تحقيق هذا الحق والأدب، منها قول الشافعي ﷺ: " كنت أتصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحًا رقيقًا هيبة له لئلا يسمع وقعها ". وقبل ذلك ما كان يفعله الصحابة ﷺ مع بعضهم البعض.

الحق الثاني: كف ألسنتنا عن الوقوع فيهم: الجناية على العلماء خرق في الدين، فمن ثم قال الطحاوي في عقيدته: (وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين – أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر – لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء، فهو على غير السبيل). قال ابن المبارك: (من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته). وقال أبوسنان الأسدي: إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة في الدين يتعلم الوقيعة في الناس، متى يفلح؟!. ، وقال الإمام أحمد بن الأذرعي: الوقيعة في أهل العلم ولا سيما أكابرهم من كبائر الذنوب. (٢)

وقال ابن عساكر: اعلم يا أخي وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلني وإياك ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته: أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب، بلاه الله قبل موته بموت القلب ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (النور: ٦٣). والطاعنون في العلماء لا يضرون إلا أنفسهم، وهم يستجلبون لها بفعلتهم الشنيعة أخبث الأوصاف ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾. وهم مفسدون في الأرض، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (يونس: ٨١). وهم عرضة لحرب الله تعالى،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٢٩).

(٢) انظر: حرمة أهل العلم لمحمد بن إسماعيل المقدم (ص- ٣١٩).

القائل في الحديث القدسي: " **من عادى لي وليًا، فقد آذنته بالحرب** "[١]. وذكر المفسرون في قوله ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (التوبة ٦٥: ٦٦). فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلًا من المنافقين قال في غزوة تبوك: ما رأيت مثل هؤلاء القوم أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عن اللقاء يعني رسول الله ﷺ والمؤمنين! فقال واحد من الصحابة: كذبت ولأنت منافق. ثم ذهب ليخبر رسول الله ﷺ فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وكان قد ركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به الطريق، وكان يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ولا يلتفت إليه وما يزيده عليه.[٢]

٧- حق الحاكم

إن الله ﷻ قد جعل للحاكم حقوق واجبة تجاه الرعية من هذه الحقوق:

وجوب طاعته في المعروف: قال الله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء: ٥٩). وأولي الأمر الذين أمرنا بطاعتهم هم الأمراء والولاة وقيل هم العلماء أي أهل العلم والفقه إذ يشترط للأمير أن يكون على علم أو يستعين بالعلماء.[٣]

وقال ﷺ: " **من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني** ".[٤]

وقال ﷺ: " **عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثره**

---

(١) البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر حرمة أهل العلم ص-٣٢٠.

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٣٣٣).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ١٤٧)، وفتح الباري (١٣/ ١١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

عليك ولو استعمل عليكم عبد حبشيًا يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا ". [(١)]

وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال وسببها اجتماع كلمة المسلمين فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم، لذا أجمع العلماء على وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وعلى تحريمها في المعصية لقوله ﷺ " **عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثره عليك** " معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة، وقوله ﷺ " **وأثره عليكم** " الأثرة بفتح الهمزة والثاء ويقال: بضم الهمزة وإسكان الثاء وبكسر الهمزة وإسكان الثاء ثلاث لغات وهي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلكم حقكم مما عندهم، قال أبو ذر (إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا مجدع الأطراف)[(٢)] يعني مقطوعها والمراد: أخس العبيد أي أسمع وأطيع للأمير وإن كان دنيء النسب حتى لو كان عبدًا أسود مقطوع الأطراف فطاعته واجبه.

وتجوز إمارة العبد إذا ولاه بعض الأئمة أو إذا تغلب على البلاد بشوكته وأتباعه ولا يجوز ابتداء عقد الولاية له مع الاختيار بل شرطها الحرية. [(٣)]

وقال ﷺ " أنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها، قالوا: يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك ذلك منا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم ". [(٤)]

وعن سعيد بن حضير أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استعملت فلانًا ولم تستعملني، قال: " **إنكم سترون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**". [(٥)]

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٨)، وأبو داود (١٨٣٤).

(٢) مسلم (١٨٣٧)، وابن ماجه (٢٨٦٣).

(٣) شرح مسلم للنووي (٦/ ٤٦٥-٤٦٩).

(٤) البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣).

(٥) البخاري (٣١٦٣)، ومسلم (١٠٥٩).

ومن الحقوق الواجبة على الراعي أن يعلم المقصود من الولاية: إن المقصود الواجب بالولايات إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم وهو نوعان: قسم المال بين مستحقيه، وعقوبات المعتدين فمن لم يعتد أصلح له دينه ودنياه ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول " إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ويقيموا بينكم دينكم " فلما تغيرت الرعية من وجه والرعاة من وجه تناقضت الأمور، فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله، فالمقصود أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه وهكذا قال الله ﷻ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).

فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه ثم قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (الحديد: ٢٥)، فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف.[١]

ومتى اهتم الولاة بإصلاح دين الناس صلح للطائفتين دينهم ودنياهم وإلا اضطربت الأمور عليهم وملاك ذلك كله حسن النية للرعية وإخلاص الدين كله لله والتوكل عليه فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة كما أمرنا أن نقول في صلاتنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ فإن هاتين الكلمتين قد قيل إنهما يجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء وقد روي أن النبي ﷺ كان مرة في بعض مغازيه فقال: "يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين " فجعلت الرءوس تندر عن كواهلها، وقد ذكر ذلك في غير موضع

---

(١) السياسة الشرعية (٢٩-٣١).

من كتابه كقوله "فاعبده وتوكل عليه " وقوله تعالى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ وكان النبي ﷺ إذا ذبح أضحيته يقول " **اللهم منك ولك**".

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة، ثلاثة أمور: أحدهما: الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن.

الثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر في كتابه في آيات منها ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ٤٥). وقوله ﷻ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (هود: ١١٤-١١٥). فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة.

ومن حق الحاكم على رعيته: إكرامه وتعظيمه وتقديره: قال ﷺ: " **إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط**". (١)

وعن زياد بن كسيب العدوي قال: كنت مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثياب رقاق فقال أبو بلال: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق فقال أبو بكرة: اسكت سمعت رسول الله ﷺ يقول"**من أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة ومن أهان سلطان الله في الدنيا أهانه الله يوم القيامة** ". (٢)

فمن أكرم سلطان الله أي بالطاعة له فيما أمر الله تعالى فيه بطاعته والإضافة في سلطان الله أضافه تشريف كبيت الله وناقة الله ومن أهان سلطان الله في الأرض أهانه من أهان من

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣)، وراجع صحيح الجامع (٢١٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢)، والترمذي (٢٢٢٤)، وقال: حسن غريب، صحيح الجامع (٣٣٥٢).

أعزه الله وألبسه خلعة السلطنة أهانه الله. [١]

ومن حقه أن لا تخرج عليه الرعية وأن لا ينازعوا الأمر أهله: فعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله قال: إلا أن تروا كفرا بواحًا عندكم من الله فيه برهان. [٢]

ففي قوله ﷺ: "وأن لا ننازع الأمر أهله " دليل على حرمة منازعة الأئمة والسلاطين والخروج عليهم إلا أن نرى منهم كفرًا بواحًا، فلا يحل منازعة ولاة الأمور في ولايتهم ولا يعترض عليهم إلا أن نرى منهم منكرًا محققًا نعلمه من قواعد الإسلام فإذا وجد ذلك صح الإنكار عليهم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقه ظالمين. [٣]

ومن حقه على الرعية: عدم عزله إلا لأمر شرعي: فالإمام صالح للولاية ولا يعزل من ولايته ولا يسعى في عزله لذا أجمع العلماء أنه لا ينعزل السلطان ولو بالفسق، وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه.

لذا أجمع جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: أنه لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك بل يجب وعظه وتخويفه. [٤]

ومن حق الحاكم على رعيته (النصح له): قال ﷺ: **"الدين النصيحة "** قلنا لمن قال: **"لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم "**. [٥]

والنصيحة كلمة جامعه معناها حيازة الحظ للمنصوح له، ويقال هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٠٩).

(٣) شرح مسلم للنووي (٦/ ٤٧٠).

(٤) شرح مسلم للنووي (٦/ ٤٧٠).

(٥) أخرجه مسلم (٩٥).

كما قالوا في الفلاح: ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه وقيل: النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا أخاطه فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب وقيل إنها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع ومعنى الحديث: عماد الدين وقوامه النصيحة كقوله ﷺ " **الحج عرفه** " أي عماده ومعظمه عرفه، والنصيحة لأئمة المسلمين معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم وتألف قلوب الناس لطاعتهم، ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة وأن لا يغزوا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعي لهم بالصلاح وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات. (١)

من الحقوق الواجبة على الولاة أن يقسموا الأموال كما أمر الله ورسوله:

فليس لولاة الأموال أن يقسموها بحسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه فإنما هم أمناء ونواب ووكلاء ليسوا ملاكا كما قال رسول الله ﷺ: "**إني والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت** ". (٢)

فهذا رسول رب العالمين قد أخبر أنه ليس المنع والعطاء بإرادته واختياره كما يفعل ذلك المالك الذي أبيح له التصرف في ماله وكما يفعل ذلك الملوك الذين يعطون من أحبوا وإنما هو عبد الله يقسم المال بأمره فيضعه حيث أمره الله تعالى، وهكذا قال رجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين لو وسعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى فقال له عمر: أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء كمثل قوم كانوا في سفر فجمعوا منهم ما لا وسلموه إلى واحد ينفقه عليهم فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم، وحمل مرة إلى عمر بن الخطاب ﷺ مال عظيم من الخمس فقال: إن قومًا أدوا الأمانة في هذا لأمناء فقال بعض

---

(١) شرح مسلم للنووي (٦/ ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٩).

الحاضرين إنك أديت الأمانة إلى الله تعالى فأدوا إليك الأمانة ولو رتعت رتعوا، وينبغي أن يعرف أن أولي الأمر كالسوق ما نفق فيه جلب إليه هكذا قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة جلب إليه ذلك وإن نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة جلب إليه ذلك، والذي على ولي الأمر أن يأخذ المال من حله ويضعه في حقه ولا يمنعه من مستحقه وكان علي بن أبي طالب ﷺ إذا بلغه أن بعض نوابه ظلم يقول: اللهم إني لم آمرهم أن يظلموا خلقك أو يتركوا حقك. (١)

ومن حق الحاكم جواز أخذ ما يكفيه من بيت المال لقيامه بمصالح المسلمين: فعن عبد الله بن السعدي أنه قدم على عمر في خلافته فقال له عمر ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالًا فإذا أعطيت العمالة كرهتها فقلت بلى فقال عمر: ما تريد إلى ذلك قلت إن لي أفراسًا وأعبدًا وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين قال عمر لا تفعل فإني كنت أردت الذي أردت فكان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني حتى أعطاني مرة مالًا فقلت أعطه أفقر إليه مني فقال النبي ﷺ: **"خذه فتموله وتصدق به فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وإلا فلا تتبعه نفسك"**. (٢)

وقال الله ﷻ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ (التوبة: ٦٠)، وفي هذه الآية والحديث الدليل الواضح على أن من اشتغل بشيء من أعمال المسلمين أخذ الرزق على عمله ذلك كالولاة والقضاة وجباة الغني وعمال الصدقة وشبههم لإعطاء رسول الله ﷺ عمر العمالة على عمله، وكان شريح القاضي يأخذ على القضاء أجرًا، وقال عمر: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة مال اليتيم إن استغنيت منه استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف. (٣)

وعن عائشة ﵂ قالت: " لما استخلف أبو بكر الصديق قال: لقد علم قومي أن

---

(١) السياسة الشرعية صـ ٣٥-٣٧.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٦٣).

(٣) مصنف ابن أبي شيبه (٦/ ٤٦٠)، وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٦١).

حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال وأحترف للمسلمين فيه "[١].

وفي كل هذا دليل على أنه للحاكم الحق في أخذ ما يكفيه وأهله من بيت المال ولكن بالمعروف.[٢]

ومن الحقوق الواجبة على الراعي تجاه الرعية: (استعمال الأصلح): إن النبي ﷺ لما فتح مكة وتسلم مفاتيح الكعبة من بني شيبة طلبها منه العباس ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت، فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل قال النبي ﷺ: **" من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولي رجال وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله "** وفي رواية **" من قلد رجلًا عملًا على عصابة وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين"**.[٣]

وروي بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر روى ذلك عنه وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه " من تولى من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلًا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين " وهذا واجب عليه فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاة من أمراء الأجناد ومقدمي العساكر الصغار والكبار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين، وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب، ويستعمل أصلح من يجده، وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة، والمؤذنين، والمقرئين، والمعلمين، وأمير الحاج، والبرد، والعيون، الذين هم القصاد، وخزان الأموال، وحراس الحصون، والحدادين الذين هم البوابون على الحصون، والمدائن، ونقباء العساكر الكبار، والصغار، وعرفاء القبائل، والأسواق، ورؤساء القرى الذين هم الدهاقين، فيجب على كل من ولى شيئا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم

(١) البخاري (٢٠٧٠).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٥٩-١٦٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ١٠٤)، وقال: صحيح الإسناد.

أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب بل ذلك سبب المنع فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ " **أن قومًا دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال: إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه** ". [١] وقال ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: " **يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها** ". [٢]

فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقه أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهي عنه في قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، ثم قال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٧-٢٨)، فإن الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه ما لا يستحقه فيكون قد خان أمانته كذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه بأخذ ما لا يستحقه أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته. [٣]

ومن الحقوق الواجبة على الراعي تجاه الرعية (اختيار الأمثل فالأمثل): إذا كان في غير وجود الحاكم من هو صالح لتلك الولاية فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام وأخذه للولاية بحقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب في هذا وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله وإن إختل بعض الأمور بسبب من غيره إذا لم يكن إلا ذلك فإن الله يقول ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن: ١٦). ويقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقال في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٠)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٨)، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) السياسة الشرعية صـ١٣-١٤.

الجهاد ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (النساء: ٨٤)، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ (المائدة: ١٠٥).

فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى وقال النبي ﷺ: **"إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم "**. [١]

لكن إن كان منه عجز ولا حاجة إليه أو خيانة عوقب على ذلك وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب فإن الولاية لها ركنان: القوة، حو الأمانة كما قال ﷻ ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ (القصص: ٢٦)

وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾، وقال ﷻ في صفة جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ (التكوير: ١٩-٢١)، والقوة في كل ولاية بحسبها والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام، والأمانة ترجع إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا وترك خشية الناس وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حكم على الناس في قوله ﷻ ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

من حقوق الرعية على الراعي (مشاورتهم): من المعلوم أنه لا غنى لولي الأمر عن المشاورة فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ فقال ﷻ: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ (آل عمران: ١٥٩). وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ "، وقد قيل: أن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك فغيره ﷺ أولى

---

(١) مسلم (١٣٣٧).

بالمشورة، وقد أثنى الله على المؤمنين بذلك في قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الشورى: ٣٦ - ٣٨).

وإذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب إتباعه من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك وإن كان عظيمًا في الدين والدنيا قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وإن كان أمرًا قد تنازع فيه المسلمون فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه فأي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به كما قال ﷻ: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

وأولي الأمر صنفان الأمراء والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس فعلى كل منهما أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة الله ورسوله وإتباع كتاب الله. [١]

من الحقوق التي تجب على الرعية (وجوب اتخاذ إمام): فيجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: " **إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم** ". [٢]

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: " **لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم** "[٣] فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن

---

(١) السياسة الشرعية (ص١٦٥-١٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨)، وابن حبان (٥/ ٥٠٤)، وراجع صحيح الجامع (٥٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٤٥): رواه أحمد، والطبراني (٩/ ١٨٥)، وفيه ابن لهيعه حديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجُمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة ولهذا روي " **أن السلطان ظل الله في الأرض** " ويقال: " ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان"، والتجربة لما ذكر جور الولاة فقال: " **أدوا إليهم الذي لهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم** " وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " **كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا فقال أوفوا ببيعة الأول فالأول ثم أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم**"[(١)].

وفيهما عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " **إنكم سترون بعدي أثرة وأمور تنكرونها** قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله قال: "**أدوا إليهم حقهم واسألوا الله حقكم**"[(٢)] [(٣)] ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وغيرهما يقولون " لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان "، وقال النبي ﷺ: " **إن الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم** ". [(٤)]

وقال ﷺ: " **ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم** ". [(٥)]

فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب غليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربان. [(٦)]

٨ـ حق الحياة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (١٨٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤٤)، ومسلم (١٧٠٩).

(٣) السياسة الشرعية صـ ٣٤-٣٥.

(٤) أخرجه مسلم (١٧١٥)، وأحمد (٢/ ٣٢٧).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣)، وابن ماجه (٢٣٠)، وصححه الألباني في المشكاة (٣١/ ٣٢).

(٦) السياسة الشرعية ص- ١٦٩-١٧١.

تعريف الحياة لغة: الحياة والحيوان والحيُّ مصادر والحيوان اسم يقع على كل شيءٍ حيٍّ. [(١)]

تحريم قتل الإنسان: قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (سورة الأنعام: ١٥١).

وعن عبد الله قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: **"والذي لا إله غيره، لا يحل دم رجل مسلم"**[(٢)]

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب. [(٣)]

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: **" من قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما"**. [(٤)]

قتل المؤمن متعمدًا: قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ (سورة النساء: ٩٣). فهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطي هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. (سورة الفرقان: (٦٨)، والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًّا. [(٥)] وعن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: " **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**". [(٦)]

غلظ تحريم الانتحار: عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **"من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن شرب**

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٢١٤).

(٢) البخاري (٦٨٧٨)، مسلم (١٦٧٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٢١٤).

(٤) البخاري (٦٩١٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٩).

(٦) ابن ماجه (٢٦١٩)، والترمذي (١٣٩٥)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (٢١٢١).

سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ". [١]

تحريم المبارزة لإثبات حق: عن الأحنف بن قيس قال: " ذهبت لأنصر هذا الرجل فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل، قال: ارجع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه**". [٢]

تحريم قتل الجنين: في حديث المرأة الغامدية التي جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله طهرني، فقال: " **ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه** "، فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك، قال: " **وما ذاك؟** قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: (**آنت؟**) قالت: نعم، فقال لها: " **حتى تضعي ما في بطنك**". [٣]

٩ـ حقوق الوالدين

من حق الوالدين على الولد أمور لا حصر لها من بينها: قول الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ (الإسراء ٢٣: ٢٥). لقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهما وهو البر والشفقة والعطف والتودد وإيثار رضاهما ونهي عن أن يقال لهما أف إذ هو كناية عن الإيذاء بأي نوع كان حتى بأقل أنواعه، ثم أمر بأن يقال لهما القول الكريم أي اللين اللطيف المشتمل على العطف والاستمالة وموافقة مرادهما وميلهما ومطلوبهما ما أمكن لاسيما عند الكبر فإن الكبير يصير كحال الطفل وأرذل ثم أمر تعالى بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من

---

(١) البخاري (٥٧٧٨)، مسلم (١٠٩).

(٢) البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٣) مسلم (١٦٩٥).

القول بأن لا يكلمهما إلا مع الاستكانة والذل والخضوع وإظهار ذلك لهما واحتمال ما يصدر منهما ويريهما أنه في غاية التقصير في حقهما وبرهما وأنه من أجل ذلك حقير ذليل ولا يزال على نحو ذلك إلى أن يتثلج خاطرهما ويبرد قلبهما عليه بالرضا والدعاء ومن ثم طلب منه بعد ذلك أن يدعوا لهما لأن ما سبق يقتضي دعائهما له كما تقرر فليكافئهما إن فرصت مساواة وإلا فشتان ما بين المرتبتين وكيف توهم المساواة وقد كانا يحملان أذاك وكلك وعظيم المشقة في تربيتك وغاية الإحسان إليك راجيين حياتك مؤملين سعادتك وأنت إن حملت شيئا من أذاهما رجوت موتهما وسئمت من مصاحبتهما ولكون الأم أحمل لذلك وأصبر عليه مع أن عنائها أكثر وشفقتها أعظم بما قاسته من حمل وطلق وولادة ورضاع وسهر ليل وتلطخ بالقذر والنجس وتجنب للنظافة والترفه لذا حض النبي ﷺ على برها ثلاث مرات وعلى بر الأب مرة واحدة كما في الحديث " **أن رجلا جاء النبي ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك، ثم من؟ قال أمك، ثم من؟ قال أبوك ثم الأقرب فالأقرب**". (١)

وجاء رجل إلى أبي الدرداء فقال يا أبا الدرداء إن لي امرأة وإن أمي تأمرني بطلاقها فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**الوالدة أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه**"(٢)

فبرهما يزيد في العمر: قال ﷺ: "**لا يزيد في العمر إلا البر ولا يرد القضاء إلا الدعاء وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها**". (٣)

وبرهما شكر لله ولهما:

قال الله ﷻ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ (لقمان: ١٤). فانظر - وفقني الله وإياك -

(١) أخرجه الترمذي (١٨٩٧) وقال: حديث حسن، وأبوداود (٥١٣٩)، وصححه الألباني في: صحيح أبي داود (١٦/ ٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٣٦٦٣)، وانظر السلسلة الصحيحة (٩١٠).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، والترمذي (٢١٣٩)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٧/ ٧٦).

كيف قرن شكرهما بشكره.

برهما أفضل من الجهاد مع النبي ﷺ:

جاء رجل يستأذن النبي ﷺ في الجهاد معه فقال له: **" أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد "**. [1] فانظر كيف فضل بر الوالدين وخدمتهما على الجهاد معه. [2]

فمن حقهما على الأولاد عدم عقوقهم:

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣)

وقال ﷺ: **" ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين"**. [3]

وهذه جملة حقوق للآباء على الأبناء:

١- إذا احتاج أحدهما إلى الطعام أطعمه.

٢- إذا احتاج على الكسوة كساه إن قدر عليه.

٣- إذا احتاج أحدهما إلى الخدمة خدمه.

٤- إذا دعاه أجابه وحضره.

٥- إذا أمره أطاعه ما لم يأمر بالمعصية والغيبة.

٦- أن يتكلم معه باللين ولا يتكلم معه بالكلام الغليظ.

٧- أن لا يدعوه باسمه.

٨- أن يمشي خلفه.

٩- أن يرضي له ما يرضي لنفسه ويكره ما يكره لنفسه.

١٠- أن يدعوا له بالمغفرة كلما يدعوا لنفسه قال الله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ (نوح: ٢٨)، وهكذا عن إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ (إبراهيم: ٤١)، وقال تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (١٩٧٥).

(٢) الزواجر (٢/ ١٤٥-١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥١١)، ومسلم (١٤٣).

﴿رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء: ٢٤)[١].

ومن حقهما أن يستأذنهما عند الخروج ولو إلى الجهاد: وروى أبوسعيد الخدري ﷺأن رجلًا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد هاجرت فقال رسول الله ﷺ: " **هل لك أحد باليمن؟** " قال: أبواي "**قال أذنا لك؟** " قال: لا "**قال فارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما**". [٢]

وذلك ما لوكان الوالد كافرا فإنه لا يحتاج الولد إلى إذنه في الجهاد ونحوه. [٣]

ومن حقهما أن يبر أهليهما بعد موتهما: فعن أبي أسد الساعدي قال: "بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمه، فقال: **يا** رسول الله **هل** بقى من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: "**نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما** ". [٤] "**والصلاة عليهما**" أي الدعاء ومنه صلاة الجنازة والمراد به الترحم. "**والاستغفار لهما**" أي طلب المغفرة لهما وهو تخصيص بعد تعميم، "**وإنفاذ عهدهما**" أي إمضاء وصيتهما، " **وصلة الرحم**" أي إحسان للأقارب التي لا توصل إلا من قبلهما. [٥]

فكل هذه حقوق تجب على الأولاد تجاه آبائهم:

* أن يستغفر لهما.

* وأن يدعوا لهما.

* وأن يمضي وصيتهما.

---

(١) تنبيه الغافلين (٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٣٠)، وراجع صحيح أبي داود (٢٢٠٧).

(٣) الزواجر (٢/ ١٥٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، والحاكم (٤/ ١٧١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

(٥) عون المعبود (٧/ ٣٦).

* وأن يصل ما كانوا يصلونه.

وعن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا مل ركوب الراحلة وعمامة يشد بها رأسه فبينا هو يوما على ذلك الحمار إذا مر به أعرابي، فقال: ألست ابن فلان بن فلان قال بلى فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا والعمامة، قال: اشدد بها رأسك، فقال له: بعض أصحابه غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حمارا كنت تروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى " وإن أباه كان صديقا لعمر"**. (١)

وفي هذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم وهو متضمن لبر الأب، وإكرامه لكونه بسببه وتلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ والزوج والزوجة. (٢)

١٠ـ حقوق الزوج

من حق الزوج على زوجته: حسن طاعته في المعروف:

قال ﷺ: **"إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحصنت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت"**(٣).

وقال ﷺ: **"لو كنت آمرًا أحد أن يسجد لغير الله لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كله حتى لو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه"**(٤).

وعن حصين بن محصن أن عمة له أتت النبي ﷺ فقال لها: **" أذات زوج أنت؟ "** قالت: نعم، قال: **فأين أنت منه؟** قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه، قال: **"فكيف أنت له**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٢).

(٢) شرح مسلم للنووي (٨/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٩١)، وابن حبان (٤١٦٣)، وراجع: صحيح الترغيب (٣٢٥٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨١)، وابن ماجه في سننه (١٨٥٣)، والترمذي في سننه (١١٩٩)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٥).

" **فإنه جنتك نارك**". [١]

وقال ﷺ: "**أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضي دخلت الجنة**"[٢].

وقال ﷺ: " **لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف**"[٣].

وقال ﷺ: " **لو كنت آمر أحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**"[٤].

أي: لكثرة حقوقه عليها وعجزها عن القيام بشكرها، وفي هذا غاية المبالغة لوجوب إطاعة المرأة في حق زوجها فإن السجدة لا تحل لغير الله. [٥]

ومن حق الزوج أيضًا: قرار زوجته في بيته وعدم خروجها إلا بأذنه:

قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

﴿وَقَرْنَ﴾: قرأ الجمهور "وقرن " بكسر القاف وقرأ عاصم ونافع بفتحها فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين أحدهما: أن يكون من الوقار: تقول "وقر يقر وقارًا أي سكن والأمر قر وللنساء قرن.

والثاني: وهو من القرار تقول قررت بالمكان (بفتح الراء أقر والأصل أقررن بكسر الراء فحذفت الراء الأولى تخفيفًا ونقلوا حركتها إلى القاف واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف" وأما قراءة أهل المدينة وعاصم فعلى لغة العرب قررت في المكان إذا أقمت فيه بكسر الراء أقرا بفتح القاف.

ومعنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لولم يرد دليل يخص جميع النساء كيف والشريعة طافحه بلزوم

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤١)، والحاكم (٢/ ١٨٩)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا حصين وهو ثقة (مجمع الزوائد٤/ ٣٠٩)، وراجع: صحيح الترغيب والترهيب (١٩٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي (١١٧١)، وقال: حسن غريب.

(٣) البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠)، وأحمد (١/ ٩٤).

(٤) مسند أحمد (٣/ ١٥٨)، والترمذي (١١٥٩)، وقال: حسن غريب، صحيح الجامع (٥٢٩٥).

(٥) تحفة الأحوذي (٤/ ٢٧١).

النساء بيوتهن والاعتكاف عن الخروج منها إلا لضرورة[١]، فقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾ يقال قر فلان في منزله يقر وقورا إذا هدأ فيه واطمأن به وفيه الدلالة على أن النساء مأمورات بلزوم البيوت منهيات عن الخروج.[٢]، ويجوز للزوج منعها من الخروج من منزله إلى مالها منه بد سواء أرادت زيارة والديها أو عيادتها أو حضور جنازة أحدهما.

قال أحمد في امرأة لها زوج وأم مريضة قال: طاعة زوجها أوجب عليها من أمها إلا أن يأذن لها، ولأن طاعة الزوج واجبة والعيادة غير واجبة فلا يجوز ترك الواجب بما ليس بواجب ولا يجوز لها الخروج إلا بإذنه، ولكن لا ينبغي للزوج منعها من عيادة والديها وزيارتها لأن في ذلك قطيعة رحم وحملا لزوجته على مخالفته وقد أمر الله تعالى بالمعاشرة بالمعروف وليس هذا من المعاشرة بالمعروف.[٣]

ومن حق الزوج عدم تبرج زوجته وإيجاب تحجبها:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: من الآية٣٣)، وقال تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ (النور: ٦٠). والتبرج: التكشف والظهور للعيون أي لا حائل لها ينزها.

قال ﷺ: **"صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها على الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا"**.

إنما جعلهن كاسيات لأن الثياب عليهن وإنما وصفهن بأنهن عاريات لأن الثوب إذا رق يصفهن ويبدي محاسنهن وذلك حرام.[٤] وقيل: أنهن كاسيات من الثياب عاريات من لباس التقوى الذي قال الله تعالى فيه ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (لأعراف: ٢٦)[٥]،

---

(١) أحكام القرآن القرطبي (١٤/ ١٧٣/ ١٧٤).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٣٦٠).

(٣) المغني (٨/ ١٣٠).

(٤) مسلم (٢١٢٨).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤٠١).

وهو اللائق بهن في هذه الأزمان وخاصة الشباب فإنهن يتزين ويخرجن متبرجات فهي كاسيات بالثياب عاريات من التقوى حقيقة ظاهرًا وباطنًا حيث تبدي زينتها ولا تبالي بمن ينظر إليها بل ذلك مقصودهن وذلك مشاهد في الوجود منهن فلو كان عندهن شيء من التقوى لما فعلن ذلك ولم يعلم أحد ما هنا لك. (١)

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنه أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة، كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها. (٢)

ومن حق الزوج على زوجته أن تحفظ ماله: قال ﷺ: **"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"**. (٣)

وقال ﷺ **"لا تنفق امرأة شيء من بيت زوجها إلا بإذن زوجها، قيل: يا رسول الله والطعام قال: ذاك أفضل أموالنا"**. (٤)

فعامة العلماء على أنه لا يجوز لها التصدق من مال زوجها بغير إذنه.

وعن سعد ﷺقال: "لما بايع الرسول ﷺ النساء، قامت امرأة جليله فقالت: "يا رسول إنا كل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا فما يحل لناس أموالهم قال: **"الرطب تأكلنه وتهدينه"**. (٥)

وقال ﷺ: **"خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه**

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٣٠٨).

(٢) القرطبي (١٤/ ٢١٨).

(٣) البخاري (٥٢٠٠)، ومسلم (١٩٢٩).

(٤) الترمذي (٦٧٠) وقال: حديث حسن.

(٥) أبوداود (١٦٨٦).

على زوج في ذات يده"[١]

وقوله (وأرعاه على زوج) أي أن النساء من قريش خير نساء لأنهن أحفظ لماله بالأمانة فيه والصيانة له وترك التبذير في الإنفاق في مال الزوج وفي هذا دلالة على وجوب حفظ مال الزوج وحسن التدبير فيه.[٢]

وعن عبد الله بن يحيى الأنصاري رجل من ولد كعب بن مالك عن أبيه عن جده أن جدته خيرة امرأة كعب بن مالك أتت رسول الله ﷺ بحلي لها فقالت " **أني تصدقت بهذا** "فقال لها رسول الله ﷺ "**لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها فهل استأذنت كعبًا** قالت نعم فبعث رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك فقال"**هل أذنت لخيرة أن تتصدق بحليها فقال: نعم فقبله رسول الله ﷺ منها** ".

وقال ﷺ: "**إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا**"[٣] وفي رواية ومن طعام زوجها – وفي رواية "**من العبد إذا أنفق من مال مواليه قال الأجر بينكما نصفان**". فأعلم أنه لا بد للعامل وهو الخازن وللزوجة والمملوك من إذن المالك فإن لم يكن أذن أصلا فلا أجر لأحد من هؤلاء الثلاثة بل عليهم وزر بتصرفهم في مال غيرهم بغير إذنه

والإذن ضربان: أحدهما الإذن الصريح في النفقة والصدقة.

والثاني: الإذن المفهوم من اطراد العرف والعادة كإعطاء السائل كسرة ونحوها مما جرت العادة به واطراد العرف فيه وعلم بالعرف رضاء الزوج والمالك به فإذنه في ذلك حاصل وإن لم يتكلم وهذا إذا علم رضاه لاطراد العرف وعلم أن نفسه كنفوس غالب الناس في السماحة بذلك والرضا به، فإن أضطرب العرف وشك في رضاه أو كان شخص يشح بذلك وعلم من حاله ذلك أوشك فيه لم يجز للمرأة وغيرها التصدق من ماله إلا

(١) البخاري (٥٠٨٢)، ومسلم (٢٥٢٧).

(٢) فتح الباري (٩/ ٢٨).

(٣) البخاري (١٤٤١)، ومسلم (١٠٢٤).

بصريح إذنه. وأما قوله ﷺ: "**وما أنفقت من كسبه من غير أمره فإن نصف أجره له**" فمعناه من غير أمره الصريح في ذلك القدر المعين ويكون معها إذن عام سابق متناول لهذا القدر وغيره وذلك الإذن الذي قد أولناه سابقًا أما بالصريح وإما بالعرف ولابد من هذا التأويل؛ لأنه ﷺ جعل الأجر مناصفة وفي رواية فلها نصف أجره ومعلوم أنها إذا أنفقت من غير إذن صريح ولا معروف من العرف فلا أجر لها بل عليها وزر فتعين تأويله.

واعلم أن هذا كله مفروض من قدر يسير يعلم رضا المالك به في العادة فإن زاد على المتعارف به لم يجز، وهذا معنى قوله ﷺ: "**إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة**". فأشار ﷺ إلى أنه قدر يعلم رضا الزوج به من العادة ونبه بالطعام أيضا على ذلك لأنه يسمح به في العادة بخلاف الدراهم والدنانير في حق أكثر الناس وفي كثير من الأحوال. واعلم أن المراد بنفقه المرأة والعبد والخازن النفقة على عيال صاحب المال وغلمانه ومصالحه وقاصديه من ضيف وابن سبيل ونحوهما وكذلك صدقتهم المأذون فيها بالصريح أو العرف والله أعلم. (١)

ومن حقه أن لا تصوم زوجته نفلًا إلا بإذنه: قال ﷺ: "**لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه**". (٢)

وفي لفظ "**لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه**". (٣)

وقوله ﷺ: " **لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه**" هذا محمول على صوم التطوع والمندوب الذي ليس له زمن معين وهذا النهي للتحريم صرح به أصحابنا وسببه أن الزوج له الحق الاستمتاع بها في كل الأيام وحقه فيه واجب على الفور فلا يفوته بتطوع ولا بواجب على التراخي فإن قيل: فينبغي أن يجوز لها الصوم بغير إذنه فإن أراد الاستمتاع بها كان له ذلك ويفسد صومها، فالجواب: أن صومها يمنعه من الاستمتاع في العادة لأنه يهاب انتهاك الصوم بالإفساد، وقوله ﷺ "**وزوجها شاهد** " أي: مقيم في البلد إذا كان

---

(١) شرح النووي (٤/ ١٢٢-١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٥)، وأحمد (٢/ ٢٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٢٦).

مسافرا فلها الصوم لأنه لا يتأتى منه الاستمتاع إذا لم تكن معه.[(١)]

عن أبي سعيد قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، ونحن عنده، فقالت: يا رسول الله، إن زوجي صفوان بن المعطل، يضربني إذا صليت، ويفطرني إذا صمت، ولا يصلي صلاة الفجر حتى تطلع الشمس، قال وصفوان عنده، قال: فسأله عما قالت، فقال: يا رسول الله، أما قولها يضربني إذا صليت، فإنها تقرأ بسورتين وقد نهيتها، قال: فقال: " **لو كانت سورة واحدة لكفت الناس** "، وأما قولها: يفطرني، فإنها تنطلق فتصوم، وأنا رجل شاب، فلا أصبر، فقال رسول الله ﷺ يومئذ: " **لا تصوم امرأة إلا بإذن زوجها** "، وأما قولها: إني لا أصلي حتى تطلع الشمس، فإنا أهل بيت قد عرف لنا ذاك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس، قال: " **فإذا استيقظت فصل** ".[(٢)]

وفي هذا الحديث من الفقه: أن منافع المتعة والعشرة من الزوجة مملوكة للزوج في عامة الأحوال وأن حقها في نفسها محصور في وقت دون وقت.[(٣)]

ومن حقه أن لا تأذن لأحد في بيته إلا بإذنه: فلا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه قال ﷺ: "**ولا تأذن في بيته إلا بإذنه**"[(٤)]، وفي لفظ "**ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه**"[(٥)]. وقوله " **وهو شاهد**": قيد لا مفهوم له بل خرج مخرج الغالب وإلا فغيبة الزوج لا تقتضي الإباحة للمرأة أن تأذن لمن يدخل بيته بل يتأكد حينئذ عليها المنع لثبوت الأحاديث الواردة في النهي عن الدخول على المغيبات أي من غاب عنها زوجها ويحتمل أن يكون له مفهوم وذلك أنه إذا حضر تيسر استئذانه وإذا غاب تعذر فلو دعت الضرورة إلى الدخول عليها لم تفتقر إلى استئذانه لتعذره، ثم هذا كله فيما يتعلق بالدخول عليها أما

---

(١) شرح النووي (٤/ ١٢٤).

(٢) أبو داود (٢٤٥٩)، وابن حبان (٩٥٦)، والحاكم (١/ ٤٣٦)، السلسلة الصحيحة (٣٩٥).

(٣) معالم السنن (٢/ ١١٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٩١).

(٥) أخرجه مسلم (١٠٢٦).

مطلق دخول البيت بأن تأذن لشخص في دخول موضع من حقوق الدار التي هي فيها أو إلى دار منفردة عن سكنها فالذي يظهر أنه ملتحق بالأول[١].

وقوله ﷺ: **"ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه "** فيه إشارة إلى أنه لا يفتات على الزوج وغيره من مالكي البيوت وغيرها بالإذن في أملاكهم إلا بإذنهم وهذا محمول على مالا يعلم رضا الزوج ونحوه به، فإذا علمت المرأة ونحوها رضاه جاز كما سبق في النفقة[٢]، وحاصله أنه لابد من اعتبار إذنه تفصيلا أو إجمالا. [٣]

ومن حقه أن تشكره زوجته على ما يقدمه لها، وأن لا تطالبه بأكثر: قال ﷺ: "لا ينظر الله ﷻ إلى امرأة لا تعرف حق زوجها ولا شكره وهي لا تستغني عنه". [٤] وقال ﷺ: **"لا يشكر الله من لا يشكر الناس "**[٥]

فمن كان من طبعه وعادته كفران نعمة الله تعالى وترك الشكر له فمن كان من طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله تعالى وترك الشكر له.

وأن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر. [٦] وقال ﷺ: **"حق الزوج على زوجته لو كانت به قرحة فلحستها أو انتثر منخراه صديدا أو دما ثم ابتلعته ما أدت حقه "**. [٧]

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٥).

(٢) النووي شرح مسلم (٤/ ١٢٤-١٢٥).

(٣) فتح الباري (٩/ ٢٠٧).

(٤) أخرجه النسائي في عشرة النساء (٢٥٠)، والحاكم (٢/ ١٩٠)، والبيهقي (٧/ ٢٩٤).

(٥) أبوداود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: صحيح، صحيح الجامع (٧٧١٩).

(٦) عون المعبود (٧/ ١١٤).

(٧) أخرجه ابن حبان (٤١٦٤)، والبزار (١٤٦٥)، وقال الهيثمي، والبزار: رجاله رجال الصحيح، صحيح الجامع (٣١٤٨).

وكذلك لا تكلف الزوجة زوجها أكثر من طاقته قال الله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٧).

ومن حق الزوج على زوجته إذا دعاها لحاجته تجيبه على أي حالة كانت إذ كانت طاهرة: قال ﷺ: "**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح** " وفي رواية "**والذي نفسي بيده ما من رجل يدعوا امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخط عليها حتى يرضى عنها**"[1]، وقال ﷺ: "**إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع** ".[2]

ومن حق الزوج على زوجته أن يأخذ حقه من مالها إذ توفيت: وحق الزوج النصف مع عدم الولد أو ولد الولد والربع مع وجوده، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: ١٢)، ولهذا أجمع العلماء على أن للزوج النصف مع عدم الولد أو ولد الولد وله مع وجوده الربع.[3]

فالقول الجامع في حق الزوج على زوجته أن تكون قاعدة في قعر بيتها، ولا يكثر صعودها واطلاعها، قليلة الكلام مع جيرانها، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول تحفظ بعلها في غيبته، وتطلب مسرته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسه وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرف إلى صديق بعلها في حاجاتها بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها مهتمة بتدبير بيتها

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٥)، ومسلم (١٤٣٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٨)، ومسلم (١٤٣٦).
(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٨٠).

مقبلة على صلاتها وصيامها وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضرا لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها منظفة في نفسها مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء مشفقة على أولادها حافظة للستر عليهم قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج وأن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه، ويجب على المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب، والانبساط، وأسباب اللذة في حضور زوجها ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال، روي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا"(١).

ولا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة قالت زينب بنت أبي سلمه دخل على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست بعارضيها ثم قالت والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا"**. (٢)

وتلزم مسكن النكاح إلى آخر العدة وليس الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة.

وتقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها فقد روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما- أنها قالت: تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى على رأس من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلى أبي بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني، ولقيني رسول الله ﷺ يوما ومعه أصحابه فقال ﷺ: **"أخ أخ"** لينيخ ناقته ويحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٧٤)، وابن ماجه (٢٠١٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٩١).

الزبير وغيرته وكان أغير الناس فعرف رسول الله ﷺ أنني قد استحييت فجئت الزبير فحكيت له ما جرى، فقال: والله لحملك النوى على رأسك أشد علي من ركوبك معه". [١]

١١- حق المرأة

لقد أعطى الإسلام حقوقًا للمرأة على مدار حياتها، ليحفظها، وليبين كرامتها، ومن هذه الحقوق:

١-حق المرأة كجنين وكطفل: حقوق المرأة وهي في بطن أمها كثيرةٌ، مراعاة لها في وقت لا تملك لنفسها فيه شيئًا؛ فعلى أبيها أن يختار أمًا ذات دين؛ حتى تقومها وتربيها على منهج الله وسنة رسوله ﷺ، وعلى من يعيشون حول أمها أن يهيئوا لها الاستقرار النفسي؛ لأن مرحلة الحمل والولادة شاقة وعسيرة، قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ (لقمان: ١٤)، وقال ﷺ: **"خيركم خيركم للنساء"**[٢]، ومن حقها وضع الصوم عن أمها، ووضع الحد حال الحمل، وحال الرضاع، وأن يصلى عليها الجنازة، ويستحسن أن تخرج الزكاة عنها، وإذا استهلت فلها الميراث، ولا بد من الحفاظ على حياتها، ولها أن يهيئ لها أبوان صالحان، وأن يحسن اسمها، وأن تختتن ولها حق الحضانة على أبويها، ولها حق الرضاعة على أمها.

وهكذا اعتنى الإسلام بالمرأة؛ حتى وهى لم تخرج للحياة بعد[٣].

٢- حق البنت: ولها حقوق منها:

١-حق التعليم: قال أهل العلم: ويدخل في فضل العلم للأبناء (الأولاد والبنات سويًا) عموم الأحاديث في فضل ذلك، ولنا أن نتصور الفتاة حين تبني أسرة من زوج وأبناء وهى لا تقرأ ولا تكتب، يعني أنها لن تقرأ القرآن ولا السنة ولا شيئًا مطلقًا من علوم الدين أو الدنيا، والواقع خير شاهد على الفرق بين الأم القارئة المثقفة، وبين غيرها في بناء عقول الأولاد، فهي تعين على المذاكرة، ويشعر الأبناء بالعلاقة القريبة منها،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٦)، ومسلم (٢١٨٢). وانظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٩٣-٩٥).

(٢) المستدرك (٤/ ١٩١)، الجامع الصغير (٥٦٢٧).

(٣) للتفصيل انظر: بحث حق الجنين، وحق الطفل.

بخلاف الأخرى التي تشعرهم بغربة تزداد مع الوقت، وقد تصل إلى الاحتقار لعدم قدرتها على المشاركة معهم ولو بالقراءة. والمتأمل في حياة السيدة عائشة يرى عجبًا في علمها واستدراكها على الصحابة وقوة حفظها واستنباطها، فعن عائشة بنت طلحة قالت: قلت لعائشة - وأنا في حجرها - وكان الناس يأتونها من كل مصر، فكان الشيوخ ينتابوني لمكاني منها، وكان الشباب يتأخوني فيهدون إلي، ويكتبون إلي من الأمصار، فأقول لعائشة: يا خالة، هذا كتاب فلان وهديته، فتقول لي عائشة: أي بنية، فأجيبيه وأثيبيه، فإن لم يكن عندك ثواب أعطيتك، فقالت: فتعطيني. (١)(٢)

٢ـحق الزواج: جعل الله للإنسان من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه في معيشته وطعامه وشرابه وضحكه وتقلبه وتصرفه، فكان بها قدره الله تعالى لهذا الإنسان ودبره له، قضاء الشهوة بالطريقة المثلى الصحيحة، التي تحافظ على استمرار الحياة دون خلل يدمر الأخلاق والعائلة.

وتأمل بدء الخلق، وكيف جعل الله تبارك وتعالى لأبينا آدم زوجه حواء تؤنسه، فقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، والنفس الواحدة: هي آدم عليه السلام، والزوج: حواء، ففي هذا الخلق العجيب عبرة، فإن أصله واحد، ويخرج هو مختلف الشكل والخصائص، وفيه المنة على الرجال بخلق النساء، وعلى النساء بخلق الرجال. (٣) وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

٣ـ الحق في اختيار الزوج دون إكراه: عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **"لَا تُنْكَحُ**

---

(١) الأدب المفرد (١١١٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٥١). راجع: شبهة تعليم المرأة في هذه الموسوعة.

(٢) انظر: حق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة.

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٢١٦).

الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ: أَنْ تَسْكُتَ"(١).

قال ابن القيم: فهذا خبر في معنى الأمر على إحدى الطريقتين، أو خبر محض، ويكون خبرًا من حكم الشرع، لا خبرًا عن الواقع، وهي طريقة المحققين. فقوله (حتى تستأمر)، أصل الاستئمار طلب الأمر، فالمعنى لا يعقد عليها حتى يطلب الأمر منها، ويؤخذ من قوله تستأمر أنه لا يعقد إلا بعد أن تأمر بذلك، وليس فيه دلالة على عدم اشتراط الولي في حقها، بل فيه إشعار باشتراطه. وقوله (ولا تنكح البكر حتى تستأذن) هنا للتفرقة بين الثيب والبكر، فعبر للثيب بالاستئمار وللبكر بالاستئذان، فيؤخذ منه فرق بينهما من جهة أن الاستئمار يدل على تأكيد المشاورة وجعل الأمر إلى المستأمرة، ولهذا يحتاج الولي إلى صريح إذنها في العقد، فإذا صرحت بمنعه امتنع اتفاقا والبكر بخلاف ذلك، والإذن دائر بين القول والسكوت بخلاف الأمر فإنه صريح في القول وإنما جعل السكوت إذنا في حق البكر لأنها قد تستحي أن تفصح(٢).

ومما يؤكد أن للمرأة الحق في اختيار زوجها، ما رواه البخاري: عن خنساء بنت خذام الأنصارية: أن أباها زوجها وهي ثيب، فكرهت ذلك، فأتت النبي ﷺ فرد نكاحها(٣).

٤ـ العدل: العدل بين الأبناء ذكورًا وإناثًا من إقامة شرع الله ﷻ في أرضه، وإقامة سنة نبيه ﷺ، وخاصة العدل للنساء؛ لأن حقهن عادة مهضوم، ويظلمن غالبًا من قبل الآباء وخاصة في الميراث(٤)، وقد قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ (النساء١١)، وقال تعالى في آخر السورة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ

(١) البخاري (٥١٣٦).

(٢) فتح الباري (٩/ ٩٩).

(٣) البخاري (٦٩٤٥).

(٤) انظر: بحث ميراث المرأة

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ (النساء١٧٦) فما هضم الله ﷻحق المرأة في كتابه، وقال ﷺ: "اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم"[(١)].

٣ـحق المرأة كزوجة، ويتضمن أمورًا

١ـ إعطائها المهر: قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ (النساء: ٤).

الصدقات جمع، الواحدة صدقة. قال الأخفش: وبنو تميم يقولون صدقة والجمع صدقات، وإن شئت فتحت وإن شئت أسكنت. قال المازني: يقال صداق المرأة بالكسر ولا يقال بالفتح. وحكي يعقوب وأحمد بن يحيى بالفتح عن النحاس. والخطاب في هذه الآية للأزواج؛ أمرهم الله تعالى بأن يتبرعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم. فهذه الآية تدل على وجوب الصداق للمرأة، وهو مجمع عليه لا خلاف فيه.

وأجمع العلماء أيضا: أنه لا حد لكثيره، واختلفوا في قليله؛ فلذلك أبقى النبي ﷺ وجوب المهر كما كان ولم يضبطه بحد إذ العادات في إظهار الاهتمام مختلفة والرغبات لها مراتب شتى[(٢)]. وروي أنس بن مالك ﷺأن عبد الرحمن بن عوف ﷺقال لرسول الله ﷺ: "تزوجت امرأة "فقال: ما أصدقتها؟ " قال: " وزن نواة من ذهب " فقال: بارك الله لك؛ أولم ولو بشاة "[(٣)]. وقال ﷺ: " خير النكاح أيسره "، وفي رواية " خير الصداق أيسره "[(٤)]، فكانوا لا ينكحون إلا بصداق، لأمور بعثتهم على ذلك وكان فيه مصالح منها: أن النكاح لا تتم فائدته إلا بأن يوطن كل واحد نفسه على المعاونة الدائمة، ويتحقق ذلك من جانب المرأة بزوال أمرها من يدها، ولا جائز أن يشرع زوال أمره أيضًا من يده، وإلا أنسد باب الطلاق، وكان أسيرًا في يدها كما أنها عانية بيده، وكان الأصل أن يكونوا قوامين على النساء، ولا جائز أن يجعل أمرهما إلى القضاة؛ فإن مراجعة القضية إليهم فيها حرج، وهم

(١) البخاري (٢٥٨٧).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٧)، حجة الله البالغة (٢/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٨)، ومسلم (١٣٦٥).

(٤) أبو داود (٢١١٧)، وابن حبان (١٢٥٧)، والحاكم (٢/ ١٨٢)، صحيح الجامع (٣٣٠٠).

لا يعرفون ما يعرف هو من خاصة أمره؛ فتعين أن يكون بين عينيه خسارة مال، إن أراد فك النظم؛ لئلا يجتريءَ على ذلك إلا عند حاجه لا يجد منها بدًا، فكان هذا نوعا من التوطين، وأيضا فلا يظهر الاهتمام بالنكاح؛ إلا بمال يكون عوض البضع؛ فإن الناس لما تشاحوا بالأموال شحا لم يتشاحوا به في غيرها، كان الاهتمام لا يتم ببذلها، وبالاهتمام تقر أعين الأولياء، حين يتملك هو فلذة أكبادهم، وبه يتحقق التمييز بين النكاح السفاح، وهو قوله تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ (النساء: ٢٤)(١).

٢ـالكفاءة: قال ﷺ: " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه؛ فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير "قالوا يا رسول الله: وإن كان فيه فقال: " **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه** ثلاث مرات"(٢). وقال النبي ﷺ لبني بياضة: "**أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه**، وكان حجامًا"(٣).

وتزوج بلال بن رباح رضي الله عنه بأخت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. فالذي يقتضيه حكمه ﷺ: اعتبار الدين في الكفاءة أصلًا وكمالًا؛ فلا تزوج مسلمة بكافر، ولا عفيفة بفاجر، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمرًا وراء ذلك، فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث ولم يعتبر نسبًا ولا صناعة ولا غنى ولا حرية، فجوّز للعبد القن، نكاح الحرة النسيبة الغنية؛ إذا كان عفيفا مسلما، وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات، وللفقراء نكاح الموسرات(٤).

٣ـحرية المرأة في اختيار الزوج: فلا ينكح الأب وغيره، البكر والثيب إلا برضاهما

---

(١) حجة الله البالغة (٢/ ٢٣٤).

(٢) الترمذي (١٠٨٥) وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٦٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٨٥) وقال حسن غريب، وراجع السلسلة الصحيحة (٢٤٤٦).

(٤) زاد المعاد (٥/ ١٥٩-١٦٠)، وراجع فتاوى ابن تيمية (٣٢/ ٥٧)، وفتح الباري (٩/ ٣٤-٤٠).

لحديث: " **لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن**". قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت "، وحديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: إن البكر تستحي، قال: " **رضاها صمتها** "[١].

ـ **البكر البالغة**: لا نعلم خلافًا في استحباب استئذانها، فإن النبي ﷺ قد أمر به، ونهى عن النكاح بدونه، وأقل أحواله ذلك الاستحباب، ولأن فيه تطييب قلبها وخروجًا من الخلاف، وقالت عائشة: سألت رسول الله ﷺ عن الجارية ينكحها أهلها، أتستأمر أم لا؟ فقال لها رسول الله: ﷺ" نعم تستأمر "، وقال: "**استأمروا النساء في أبضاعهن، فإن البكر تستحي فتسكت فهو إذنها** "[٢].

ـ **أما الثيب فإذنها الكلام**: أما الثيب: فلا نعلم بين أهل العلم خلافًا في أن إذنها الكلام: للخبر، ولأن اللسان هو المعبر عما في القلب، وهو المعتبر في كل موضع يعتبر فيه الإذن غير أشياء يسيرة أقيم فيها الصمت مقامه لعارض[٣]. وقد ثبت أن خنساء بنت خذام زوجها أبوها، وهي كارهة، وكانت ثيبًا؛ فأتت رسول الله ﷺفردَّ نكاحها[٤].

وفي السنن من حديث ابن عباس: أن جارية بكرًا أتت النبي ﷺفذكرت له أن أباها زوجها وهي كارهة فخيرها النبي ﷺ[٥]، وهذه غير خنساء فهما قضيتان قضي في إحداهما بتخيير الثيب وقضي في الأخرى بتخيير البكر.

وموجب هذا الحكم: أنه لا تجبر البكر البالغ على النكاح، ولا تزوج إلا برضاها. وهذا هو قول جمهور السلف، وهو القول الذي ندين الله به، ولا نعتقد سواه، وهو الموافق لحكم

(١) البخاري (٥١٣٧: ٥١٣٦).

(٢) مسند أحمد (٦/ ٤٥، ٢٠٣)، سنن النسائي (٦/ ٣٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٩٨). وانظر: المغني مع الشرح الكبير (٧/ ٣٨٤).

(٣) المغني مع الشرح الكبير (٧/ ٣٨٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٣٧).

(٥) أبو داود (٢٠٩٦)، وابن ماجه (١٨٧٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٩٦).

رسول الله ﷺ وأمره ونهيه وقواعد شريعته ومصالح أمته.[١]

٤ـ النفقة: ومن حقوق الزوجة على زوجها: الإنفاق عليها، وأن يوفر لها ما تحتاجه، قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ (النساء: ٣٤)، وقال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾ (الطلاق: ٧)، والإنفاق كفاية مؤونة الحياة؛ من طعام ولباس وغير ذلك مما يحتاج إليه. ولم يختلف العلماء في أن النفقات لا تتحدد بمقادير معينة؛ لاختلاف أحوال الناس والأزمان والبلاد. وإنما اختلفوا في التوسع في الإنفاق في مال الموسر، هل يقضى عليه بالتوسعة على من ينفق هو عليه؟ ولا أحسب الخلاف في ذلك إلا اختلافًا في أحوال الناس وعوائدهم، ولا بد من اعتبار حال المنفق عليه ومعتاده، كالزوجة العالية القدر. وفي عجز الزوج عن إنفاق زوجه؛ إذا طلبت الفراق لعدم النفقة خلاف. فمنهم من رأى ذلك موجبًا للتفرقة بينهما بعد أجل؛ رجاء يسر الزوج، وقُدّر بشهرين، وهو قول مالك. ومنهم من لم ير التفريق بين الزوجين بذلك، وهو قول أبي حنيفة، أي وتنفق من بيت مال المسلمين[٢].

قال النبي ﷺ: " **إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها كانت له صدقة**"[٣]، فالإنفاق على الأهل واجب، والذي يعطيه يؤجر عليه على ذلك بحسب قصده. ولا منافاة بين كونها واجبة، وبين تسميتها صدقه؛ بل هي أفضل من صدقة التطوع. فالنفقة على الأهل واجبة بالإجماع، وإنما سماها الشارع صدقة؛ خشية أن يظنوا أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه، وقد عرفوا ما في الصدقة من الأجر؛ فعرفهم أنها لهم صدقه؛ حتى لا يخرجوها إلى غير الأهل؛ إلا بعد أن يكفوهم؛ ترغيبًا لهم في تقديم الصدقة الواجبة قبل صدقة التطوع، وتسمية

---

(١) زاد المعاد ٥/ ٩٥.

(٢) تفسير ابن عاشور (٢٨/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٥٢).

النفقة صدقة من جنس تسمية الصداق نِحْلَة، فلما كان احتياج المرأة إلى رجل كاحتياجه إليها في اللذة والتأنيس والتحصين وطلب الولد؛ كان الأصل أن لا يجب لها عليه شيء؛ إلا أن الله خص الرجل بالفضل على المرأة بالقيام عليها، ورفعه عليها بذلك درجة؛ فمن ثم جاز إطلاق النحلة على الصداق، والصدقة على النفقة، وقال ﷺ: " قال الله: **أنفق يا ابن آدم؛ أُنفق عليك.** "[(١)]، وقال ﷺ: " **الساعي على الأرملة والمسكين؛ كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار**"[(٢)]. وقال ﷺ: " **أفضل الصدقة ما ترك غني، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**" تقول المرأة: إما أن تطعمني وإما أن تطلقني، ويقول العبد: أطعمني واستعملني، ويقول الابن: أطعمني إلى من تدعني "[(٣)].

وقال ﷺ: " **اتقوا الله في النساء؛ فإنهن عوانٍ عندكم، أخذتموهن بأمانه الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**"[(٤)]

وقال ﷺ: " **كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته**"[(٥)]، وفي رواية: "**كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت** "[(٦)].

وقال ﷺ: " **إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيع؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**"[(٧)].

ـ ومن النفقة توفير السكن: قال الله تعالى ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ (الطلاق: ٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٥٣).

(٣) البخاري (٥٣٥٥).

(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٥) مسلم (٢٤٥).

(٦) أبوداود (١٦٩٢)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، صحيح الجامع (٤٤٨١).

(٧) ابن حبان (١٥٦٢)، وصححه الحافظ في الفتح (١٣/ ١١٣).

٥ـ **وقايتها من النار بتعليمها وتأديبها:** قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التحريم: ٦)، ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: أي بالانتهاء عما نهاكم الله تعالى عنه، وقال مقاتل: أن يؤدب المسلم نفسه وأهله؛ فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، (قوا أنفسكم) بترك المعاصي وفعل الطاعات، (وأهليكم) بأن تؤاخذوهم بما تؤاخذون به أنفسكم[(١)]. ففي هذه الآية الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوا أنفسكم، وأمروا أهليكم بالذكر والدعاء؛ حتى يقيهم الله بكم. وقال علي رضي الله عنه وقتادة ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم. فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي لرعيته. ففي صحيح الحديث أن النبي ﷺ قال: " **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالإمام الذي على الناس راع، وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم** "[(٢)].

وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة، ووجوب الصيام، ووجوب الفطر، إذا وجب؛ مستندًا في ذلك إلى رؤية الهلال. وقد روي مسلم أن النبي ﷺ كان إذا أوتر يقول: "**قومي فأوتري يا عائشة**"[(٣)]، وقوله ﷺ: " **أيقظوا صواحب الحجر** "[(٤)]، ويدخل هذا في عموم قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٢). فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير، ومالا يستغنى عنه من الأدب. وهو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢) ونحو قوله تعالى للنبي ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(٥)].

---

(١) التفسير الكبير (٤٦/ ٣٠).

(٢) البخاري (٥١٨٨).

(٣) مسلم (٧٤٤).

(٤) البخاري (١١٥).

(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ١٨٧).

٦ـ الاعتدال في الغَيْرة: وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء. ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة: " **لا تطرقوا النساء ليلا**" فخالفه رجلان فسبقا فرأى كل واحد في منزله ما يكره"[(١)]، وفي الخبر المشهور: "**المرأة كالضلع إن قومته كسرته فدعه تستمتع به على عوج**"[(٢)].

وهذا في تهذيب أخلاقها وقال ﷺ: " **إن من الغيرة غيرة يبغضها الله ﷻ وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة**"[(٣)]، لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه، فإن بعض الظن إثم. وقال علي ﷺ: لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك. وأما الغيرة في محلها؛ فلا بد منها وهي محمودة. وقال رسول الله ﷺ: " **إن الله تعالى يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله تعالى؛ أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه**"[(٤)].

وقال ﷺ: " **أتعجبون من غيرة سعد! أنا والله أغير منه، والله أغير مني**"[(٥)].

ولأجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله؛ ولذلك بعث المنذرين والمبشرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله؛ ولأجل ذلك وعد الجنة، وكان الحسن البصري يقول: أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج في الأسواق قبح الله من لا يغار، والطريق المغني عن الغيرة: أن لا يدخل عليها الرجال، وهي لا تخرج إلى الأسواق[(٦)].

٧ـ المعاشرة بالمعروف: قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٤)، والبزار (١٤٨٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٨٥)

(٢) البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).

(٣) أبوداود (٢٦٥٩)، والنسائي (٥/ ٧٨)، وأحمد (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٩٩٩).

(٤) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

(٥) البخاري (٦٤٥٤)، ومسلم (١٤٩٩).

(٦) إحياء علوم الدين (٢/ ٧٥).

﴿تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾ (النساء: ١٩)، وعاشروهن بالمعروف على ما أمر الله به من حسن المعاشرة، والخطاب للجميع إذ لكل أحد عِشرة؛ زوجًا كان أووليًا، ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج وهو مثل قوله تعالى (فإمساك بمعروف) وذلك توفية حقها من المهر والنفقه، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقًا في القول، لا فظًا ولا غليظًا ولا مظهرًا ميلًا إلى غيرها.

والعشرة: المخالطة والممازجة. فأمر الله سبحانه بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون أدمة ما بينهم، وصحبتهم على الكمال؛ فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش. وهذا واجب على الزوج ولا يلزمه في القضاء، وقال بعضهم: أن يتصنع لها كما تتصنع له. (فإن كرهتموهن) أي: لدمامة أو سوء خلق من غير ارتكاب فاحشة أو نشوز، فهذا يندب فيه إلى الاحتمال؛ فعسى أن يؤل الأمر إلى أن يرزق الله منها أولادًا صالحين. ومن هذا المعنى ماورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **" لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر"**[١]، أي: لا يبغضها بغضا كليا يحمله على فراقها. أي لا ينبغي له ذلك بل يغفر سيئتها لحسنتها، ويتغاضى عما يكره لما يحب[٢]، قال النبي ﷺ **"لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم"**[٣]، فلا يعدل إلى الضرب؛ لما في وقوع ذلك من النفرة المضادة لحسن المعاشرة المطلوبة في الزوجية؛ إلا إذا كان في أمر يتعلق بمعصية الله[٤]. فحسن الخلق معهن، واحتمال الأذى منهن؛ ترحما عليهن لقصور عقلهن، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقال في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وقال: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ قيل: هي المرأة. واعلم أنه ليس حسن

(١) مسلم (١٤٦٩).

(٢) القرطبي (٥/ ١٠٤).

(٣) البخاري (٥٢٠٤).

(٤) فتح الباري (٩/ ٢١٥).

الخلق معها كف الأذى عنها؛ بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه تراجعنه في الكلام، وتهجره الواحدة منهن يومًا إلى الليل[١]، وقال ﷺ لجابر بن عبد الله حين تزوج ثيبا: " فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك"[٢].

ومن حسن المعاشرة: التحدث مع الزوجة، فعن عائشة رضي الله عنها: " أن النبي ﷺ كان إذا صلى سنة الفجر؛ فإن كنت مستيقظة حدثني، وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة، وقوله تعالى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ يؤخذ منه: أن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص إلى تعاطي المعصية بمباشرتها، أوترك الواجب، وإنما المراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة[٣].

ومن حسن المعاشرة: عدم ترجيح إحدى الزوجات على الأخرى ظلما وعدوانا: قال الله تعالى ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١٢٩).

وقال ﷺ: "من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما؛ جاء يوم القيامة وشقه ساقط"[٤]، وفي رواية: "من كانت له امرأتان فمال إلى أحدهما؛ جاء يوم القيامة وشقه مائل"، وفي رواية: "من كانت له امرأتان يميل إلى أحدهما على الأخرى؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل"[٥].

والمراد بقوله: "فمال" وقوله: " يميل" الميل بظاهره؛ بأن يرجح إحداهما في الأمور الظاهرة التي حرم الشارع الترجيح فيها، لا الميل القلبي، وروى مسلم وغيره: " إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٦٨).

(٢) البخاري (٥٣٦٧)، ومسلم (٧١٥).

(٣) الفتح (٩/ ١٦٣).

(٤) الترمذي (١١٤١)وابن ماجه (١٩٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٥).

(٥) ابن ماجه (١٩٦٩)، وابن حبان (٤٢٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٩٤٩).

وأهليهم وما ولوا". فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن؛ فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ. فإن ظلم المرأة بليلتها قضي لها، فإن القضاء واجب عليه، وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار. قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء: ١٢٩)، أي: أن تعدلوا في شهوة القلب وميل النفس، ويتبع ذلك التفاوت، وكان رسول الله ﷺ يعدل بينهن في العطاء والبيتوتة في الليالي[١].

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أخبر تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء، وذلك في ميل الطبع بالمحبة والجماع والحظ من القلب. فوصف الله تعالى حالة البشر، وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض، ولهذا كان ﷺ يقول: **"اللهم إن هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"**[٢] ثم نهى فقال (فلا تميلوا كل الميل) أي: لا تتعمدوا الإساءة؛ بل الزموا التسوية في القسمة والنفقة؛ لأن هذا مما يستطاع.

- **ومن حسن المعاشرة:** أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق، والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية هيبته عندها؛ بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكرًا، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة؛ بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض، فإن الله ملكه المرأة، فمن ملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١١٩).[٣]

٨ـ عدم إيلائها أكثر من أربعة أشهر: قال الله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٦-٢٢٧)

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٧٥). مسلم (١٨٢٧).

(٢) الترمذي (١١٤٠)، والمصنف (١٧٥٤٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (١٩٣).

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٧١).

والإيلاء: هو أن يحلف الرجل أن لا يطأ زوجته إما مدة هي أكثر من أربعة أشهر أو أربعة أشهر[1].

وهو لغة: الامتناع باليمين. وخص في عرف الشرع: بالامتناع من وطء الزوجة ولهذا عدى فعله بأداة "من" تضمينا له معنى "يمتنعون" من نسائهم، وهو أحسن من إقامة "من" مقام "على". وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء؛ فإذا مضت، فإما أن يفيء، وإما أن يطلق. وقد دلت الآية على أحكام منها: أن من حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن مؤليا، وهذا قول الجمهور. ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر، وبعد انقضائها إما أن يطلقوا وإما أن يفيئوا وهذا قول الجمهور، والجمهور يجعلون المدة أجلًا لاستحقاق المطالبة، وعند الجمهور لا يستحق المطالبة حتى تمضي الأربعة أشهر فحينئذ يقال: إما أن تفيء وإما أن تطلق، وإن لم يفيء أخذ بإيقاع الطلاق، إما بالحاكم وإما بحبسه حتى يطلق[2].

ومن حسن العشرة: عدم هجر فراش الزوجة إلا لأمر شرعي:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ (النساء٣٤)، أي: النساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن. والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز: هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، والهجران في المضاجع معناه: لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، وهذا الهجر غايته عند العلماء شهر، كما فعل النبي ﷺ حين أسر إلى حفصة، فأفشته إلى عائشة، وتظاهرتا عليه، ولا يبلغ به الأربعة الأشهر التي ضرب الله أجلا عذرا للمولى[3].

---

(١) بداية المجتهد (٣/ ١٨٧).

(٢) زاد المعاد (٥/ ٣١٠).

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ١٧٨)، وابن كثير (٢/ ٢٥٧).

وفي ضمن الهجر: امتناعه من كلامها: ولا يزيد في هجرة الكلام على ثلاث(١).

ولا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ؛ فإن أثر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر، وإن كفاه الهجر، لم ينتقل إلى الضرب، فكلا من الهجر والضرب مقيد بعلم النشوز ولا يجوز بمجرد الظن(٢).

ولك أن تقول: إن عبارة في المضاجع تدل بمفهومها على منع ما جعله بعضهم معنى لها، فهو يقول: "﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه، وهو الفراش، ولا يهجر الحجرة التي يكون فيها الاضطجاع؛ وإنما يتحقق بهجر في الفراش نفسه، وتعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة في العقوبة، لم يأذن بها الله تعالى، وربما يكون سببًا لزيادة الجفوة، ومن الهجر في المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذي هو فيه؛ لأن الاجتماع في المضجع يهيج شعور الزوجية، فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويزول اضطرابهما الذي أثارته الحوادث قبل ذلك، فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها في هذه الحالة، رجي أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسي إلى سؤاله عن السبب، ويهبط بها من نشز المخالفة إلى الموافقة(٣).

٩ـ عدم طلاقها في الحيض، أو طهر مسها فيه: قال الله: ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ﴾ (الطلاق: ١)، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: طلقت امرأتي وهي حائض، فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: "مره **فليراجعها حتى تحيض حيضة أخرى مستقبلة سوى حيضتها التي طلقها فيها؛ فإن بدا له أن يطلقها؛ فليطلقها طاهرًا من حيضتها قبل أن يمسها، فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله**"(٤).

أجمع العلماء على أن المطلق للسنة في المدخول بها: هو الذي يطلق امرأته في طهر لم يمسها

(١) نظم الدرر (٢/ ٢٥٢).

(٢) فتح البيان في مقاصد القران (٣/ ١٠٧).

(٣) تفسير المنار (٥/ ٧٣).

(٤) البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١).

فيه طلقه واحدة، وأن المطلق في الحيض أو الطهر الذي مسها فيه غير مطلق للسنة"[١].

عن عبد الله في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: الطهر من غير جماع. وعن ابن عباس قال: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدري حبلى هي أم لا؟ ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنه وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، أو حاملًا قد استبان حملها، والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أوفي طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا؟ [٢]

وكذلك فالنفساء حكمها حكم الحائض، قال الثوري: النفساء مثل الحائض لا تعتد بنفاسها في عدتها[٣].

١٠ـ عدم إخراجها من البيت ولو بعد الطلاق إلا لأمر شرعي: قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ يقول: وخافوا الله واحذروا معصيته أن تتعدوا حده، فلا تخرجوا من طلقتم من نسائكم لعدتهن من بيوتهن التي كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق؛ حتى تنقضي عدتهن[٤].

لما أمر بالتقوى، وناط بعضها بصفة الإحسان، فسره بقوله: (لا تخرجوهن) أي: أيها الرجال في حال العدة (من بيوتهن) أي: المساكن التي وقع فيها سكنهن، وكأنه عبر بذلك إشارة إلى أن استحقاقها لإيفاء العدة به في العظمة كاستحقاق المالك، ولأنها كانت في حال العصمة كأنها مالكة له؛ فليس من المروءة إظهار الجفاء بمنعها منه، ولأنها إن روجعت كانت حاصلة في الحوزة ولم يفحش الزوج في المقاطعة، وإن لم يحصل ذلك فظهر

(١) بداية المجتهد (٣/ ١٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١٤/ ٢٨).

(٣) عبد الرزاق (٦/ ٣١٢).

(٤) الطبري (١٤/ ١٣٢).

أنها حامل لم تحصل شبهة في الحمل[١] وأضيفت إليهن البيوت لاختصاصها بهن من حيث السكنى، ومعنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن قلت: معنى الإخراج: أن لا يخرجهن البعولة غضبًا عليهن وكراهة لمساكنتهن، أو لحاجة لهم إلى المساكن وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك إيذانًا بأن إذنهم لا أثر له في رفع الحظر[٢]. فإذا أذن لها أن تعتد في غير بيته، فتعتد في بيت أهلها، فقد شاركها إذا في الإثم، ثم تلا: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ . . . . ﴾[٣].

جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود ﷺفقال: إني طلقت امرأتي ثلاثًا وإنها أبت أن تعتد في بيتها، قال: لا تدعها قال: إنها أبت إلا أن تخرج قال تقيدها قال إن لها إخوة غليظة رقابهم قال استعد عليهم السلطان[٤].

١١ـ عدم العضل: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ (البقرة: ٢٣٢)

(عضل) العضلة والعضلية: كل عصبة معها لحم غليظ. وعضل المرأة عن الزوج: حبسها[٥].

إن الله ﷻ أنزلها دلالة على تحريمه على أولياء النساء مضارة من كانوا له أولياء من النساء، بعضلهن عمن أردن نكاحه من أزواج كانوا لهن، فبن منهن بما تبين به المرأة من زوجها، من طلاق أو فسخ نكاح، ويعني بقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لا تضيقوا عليهن بمنعكم إياهن أيها الأولياء من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد؛ تبتغون بذلك مضارتهن.

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٢٥).

(٢) تفسير الرازي (١٥/ ٣٧٤).

(٣) الطبري (١٤/ ١٣٣).

(٤) السنن لسعيد بن منصور (١/ ٣٢٣).

(٥) لسان العرب (٤/ ٢٩٨٩).

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله ذلك، ما ذكر في هذه الآية: من نهي أولياء المرأة عن عضلها عن النكاح، يقول: فهذا الذي نهيتكم عنه من عضلهن عن النكاح، عظة مني لمن كان منكم أيها الناس يؤمن بالله واليوم الآخر، يقول: ومن يؤمن باليوم الآخر، فيصدق بالبعث للجزاء والثواب والعقاب، ليتق الله في نفسه، فلا يظلمها بضرار وليته ومنعها من نكاح من رضيته لنفسها، ممن أذنت لها في نكاحه، (ذلكم) أي: نكاح أزواجهن لهن، ومراجعة أزواجهن إياهن، بما أباح لهن من نكاح ومهر جديد؛ أزكى لكم أيها الأولياء والأزواج والزوجات. ويعني بقوله: (أزكى) أفضل وخير عند الله من فراقهن أزواجهن، وأما قوله: (وأطهر) فإنه يعني بذلك: أطهر لقلوبكم وقلوبهن وقلوب أزواجهن من الريبة. وذلك أنهما إذا كان في نفس كل واحد منهما -أعني الزوج والمرأة- علاقة حب، لم يؤمن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحله الله لهما، ولم يؤمن من أوليائهما أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لعلهما أن يكونا منه بريئين. فأمر الله تعالى ذكره الأولياء إذا أراد الأزواج التراجع بعد البينونة، بنكاح مستأنف، في الحال التي أذن الله لهما بالتراجع أن لا يعضل وليته عما أرادت من ذلك، وأن يزوجها؛ لأن ذلك أفضل لجميعهم، وأطهر لقلوبهم مما يخاف سبقه إليها من المعاني المكروهة. ثم أخبر تعالى ذكره عباده أنه يعلم من سرائرهم وخفيات أمورهم ما لا يعلمه بعضهم من بعض، ودلهم بقوله لهم ذلك في هذا الموضع، أنه إنما أمر أولياء النساء بإنكاح من كانوا أولياءه من النساء، إذا تراضت المرأة والزوج الخاطب بينهم بالمعروف، ونهاهم عن عضلهن عن ذلك؛ لما علم مما قلب الخاطب والمخطوبة من غلبة الهوى والميل من كل واحد منهما إلى صاحبه بالمودة والمحبة، فقال لهم تعالى ذكره: افعلوا ما أمرتكم به، إن كنتم تؤمنون بي، وبثوابي وبعقابي من معادكم في الآخرة، فإني أعلم من قلب الخاطب والمخطوبة مالا تعلمون من الهوى والمحبة. وفعلكم ذلك أفضل لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر

لقلوبكم وقلوبهن في العاجل[١].

١٢ـ الخلع: والخلع لغة: الانتزاع على مهلة، ومنه خلع الثوب: نزعه. وسوى بعضهم بين الخلع والنزع، يقال: خلع امرأته وخالعها، إذا افتدت منه بمالها فطلقها وأبانها من نفسه، وسمي ذلك الفراق خلعا؛ لأن الله تعالى جعل النساء لباسًا للرجال والرجال لباسًا لهن فقال: " هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ " وهي ضجيعه وضجيعته، فإذا افتدت المرأة بمال تعطيه لزوجها ليبينها منه فأجابها إلى ذلك؛ فقد بانت منه، وخلع كل واحد منهما لباس صاحبه، والاسم من كل ذلك: الخلع[٢].

إذًا فالخلع في الشرع: هو بذل المرأة العوض على طلاقها، إلا أن اسم الخلع يختص ببذلها له جميع ما أعطاها، والصلح ببعضه، والفدية بأكثره، والمبارأة بإسقاطها عنه حقًا لها عليه[٣].

والأصل في إباحة الخلع: قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

فقوله تعالى: (ولا يحل لكم) أي: أيها المطلقون ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ من المهر وغيره، ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: فيما يلزمها من حقوق الزوجية "فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به " أي: نفسها عن ضرره، أي: لا إثم على الزوج في ما أخذ ما افتدت به ولا عليها في إعطائه وهذه الآية أصل في الخلع[٤].

والدليل من السنة على جواز الخلع: أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين؛ ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: " أتردين عليه حديقته"؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: **اقبل**

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٨٧-٤٨٩).

(٢) لسان العرب (٨/ ٧٦).

(٣) بداية المجتهد (٣/ ١٢٩).

(٤) محاسن التأويل (٣/ ٢٤٨).

الحديقة، وطلقها تطليقة"[١].

فالإسلام أباح للمرأة عند وقوع الضرر الغير محتمل أن تطلب الفراق، فلا تجبر على زواج لا تستقيم به حياتها، ولا يحفظ لها دينها، وهذا من أسمى درجات العدل في الإسلام.

١٣ـ ومن حق الزوجة حضانة ولدها: والحضانة هي: حفظ صغير ومعتوه -وهو المختل العقل- ومجنون عما يضرهم، وتربيتهم بعمل مصالحهم من غسل بدنهم وثيابهم ودهنهم ونحو ذلك، وأم المحضون أولى بحضانته من جميع أقاربه؛ لما روى عبد الله بن عمر وبن العاص: "أن امرأة قالت: يا رسول الله: إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينزعه مني. فقال رسول الله ﷺ: " أنت أحق به مالم تنكحي"[٢]، ولأنها أشفق عليه وأقرب، ولا يشاركها في القرب إلا الأب، وليس له مثل شفقتها، ولا يتولى الحضانة بنفسه وإنما يدفعه إليها، فتقدم على غيرها، ولو بالأجرة مثلها كرضاع[٣].

١٤ـ الإرث: قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ (النساء: ١٢). ، يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ أي: ولأزواجكم أيها الناس، ربع ما تركتم بعد وفاتكم، من مال وميراث، إن حدث بأحدكم حدث الوفاة، ولا ولد له ذكر ولا أنثى﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ يقول: فإن حدث بأحدكم حدث الموت وله ولد ذكر أو أنثى، واحدًا كان الولد أو جماعه ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ يقول: فلأزواجكم حينئذ من أموالكم وتركتكم التي تخلفونها بعد وفاتكم، الثمن من بعد قضاء ديونكم التي حدث بكم

---

(١) البخاري (٥٢٧٣).

(٢) أبوداود (٢٢٧٦)، والحاكم (٢/ ٢٠٧)، وصححه.

(٣) معونة أولي النهي (٨/ ١٠٧-١٠٨).

حدث الوفاة وهي عليكم، ومن بعد إنفاذ وصاياكم الجائزة التي توصون بها"[١].

فهذه فريضة الميراث الذي سببه العصمة، وقد أعطاها الله حقها المهجور عند الجاهلية، إذ كانوا لا يورثون الزوجين، فكانت المرأة لا ترث زوجها؛ بل كانت تعد موروثة عنه يتصرف فيها ورثته. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ فنوه الله في هذه الآيات بصلة العصمة، وهي التي وصفها بالميثاق الغليظ في قوله: " وأخذن منكم ميثاقا غليظا"[٢].

١٥ـ **حفظ الزوجة وصيانتها**: من حقوق المرأة حفظها من كل ما يسئ إليها بالقول أو الفعل ويخدش حياءها وكرامتها، فمن ذلك ألا يسبها أو يلعنها أو يؤذيها بسيء الأقوال، وكذلك ألا يهجرها إلا بالحق، وألا يضربها إلا برفق، ضربًا غير مبرح، ولو اتبع الزوج نصيحة القرآن الكريم في إصلاح الأسرة؛ لاستغنى عن كثير من الأمور التي عاقبتها الطلاق، أو الحياة المضطربة المتوترة التي تخلو من المودة والرحمة والسكن، ولذلك كان من حقها أن يجنبها أسباب الفتن ومواضع الشبهات، فيقول ﷺ: "**ذبوا بأموالكم عن أعراضكم**، قالوا: يا رسول الله كيف نذب بأموالنا عن أعراضنا؟ قال: **يعط الشاعر ومن تخافون لسانه**"[٣]. فمن حق الزوجة على زوجها؛ أن يحمي عرضها ويجنبها مجالس السوء، ويعالج الأحقاد والدسائس بحكمة، ويحذر إشاعة أسرارها وأحوالها الخاصة، ويحمي عرضه بماله ونفسه (فمن مات دون عرضه فهو شهيد) وهذا يحتاط منه نساء العلماء والدعاة بخاصة، حيث يتربص أهل الأحقاد والفجور، فيعملون على تشويه صورة أهل العلم، ومن تدبر قصة الإفك لاستخرج منها عبرًا وعظات دالة على تربص المنافقين وأهل

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٣).

(٣) صححه الألباني في الصحيحة (١٤٦١)، وهو في كنز العمال (٨٧٥٥).

الريب بالمؤمنين[١]. وكذلك حديث زيارة السيدة صفية أم المؤمنين للنبي ﷺ في معتكف فخرج معها إلى بَابِ أُمِّ سَلَمَة، مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَار، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: **عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**، فَقَالَا: سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا**"[٢]. وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء** "[٣]، والديوث هو الذي يرى المنكر بأهله فلا يغيره، فمن رأى في أهله عوجًا أو سوء خلق، فلا يسكت؛ بل يسارع بالإصلاح، وإلا كان من أهل السوء، ويستوجب غضب الله تعالى، ولهذا كانت الغيرة المحمودة، التي تحافظ على العرض، وتصون حمى المرأة من كل سوء، بل هذا من أوجب الأمور على الرجل، فمن حقها أن يسكنها بين صالحين مشهور عنهم الأدب، لا الفجور وفعل المنكرات، ولا يجبرها على صحبة أهل السوء، ولا يرضى لها ذلك.

١٦ـحق المرأة في النسب: قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ (الأحزاب: ٥)، فليس لأحد أن يغير نسبه، وكما هو للرجل، فهو كذلك للمرأة تُدعى لأبيها، وهذا ما عليه الفطرة والشرع فليس لها ولزوجها أن يدعوها بغير أبيها، كما يفعل المتشبهون بالغرب، فينسبون المرأة لزوجها بعد الزواج، ثم بعد ذلك يدعون الدفاع عن المرأة، وهم سالبون لأهم ركن في حريتها ويقول تعالى: (ومريم ابنت عمران) فنسبها لأبيها.

١٧ـحق المرأة في التصرف في مالها: يقول تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ (النساء٣٢)، للرجل نصيبه من الثواب والعقاب، وللنساء كذلك، فللمرأة الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها كما للرجل،

---

(١) القرطبي (٤/ ٤٥٧٨).

(٢) البخاري (٢٠٣٥).

(٣) النسائي (٢٥١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٩٩).

والاكتساب يعني الإصابة للذكر مثل حظ الأنثيين[١].

ويدخل في ذلك أن الرجال يختصون بما كسبوا، والنساء يتخصصن بما اكتسبن من الأموال، ومن هنا كان للمرأة الحق في التصرف في مالها في حدود مرضاة الله تعالى، فلها التصرف في البيع والشراء والهبة والوصية والإيجار وغير ذلك، وليس للزوج حق التدخل في تصرفات المرأة في مالها إلا في حالة الضرر والتعسف في استخدام الحق، ولا يجوز أخذ الزوج أو غيره شيئًا من مهرها قل أو كثر[٢].

١٨ـحق المرأة في التعبير عن حقها بالمعروف: يقول تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١). فعن خولة بنت ثعلبة قالت: وَالله فِيَّ وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِتٍ أَنْزَلَ الله ﷻصَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ. قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ وَضَجِرَ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، فَإِذَا هو يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ: فَقُلْتُ: كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ، لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ حَتَّى يَحْكُمَ الله وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ. قَالَتْ: فَوَاثَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَغَلَبْتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ، فَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْه، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ، فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ ﷺ مَا أَلْقَى مِنْ سوءِ خُلُقِهِ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُول: **يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِي الله فِيهِ**، قَالَتْ: فَوَ الله مَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِيَّ الْقُرْآنُ، فَتَغَشَّى رَسُولُ الله ﷺ مَا كَانَ يَتَغَشَّاهُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ لِي: يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ الله فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ** ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فَقَالَ

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ١٧٣٤).

(٢) المحلى (٩/ ٥٠٧).

لِي رَسُولُ الله ﷺ: **مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً**، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَالله يَا رَسُولَ الله مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتِقُ، قَالَ: **فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَالله يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ، قَالَ: **فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ**، قَالَتْ: قُلْتُ: وَالله يَا رَسُولَ الله، مَا ذَاكَ عِنْدَهُ قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ**، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ الله سَأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ، قَالَ: **قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ، فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرًا**، قَالَتْ: فَفَعَلْتُ، قَالَ سَعْدٌ: الْعَرَقُ الصَّنُّ[١].

فها هي خولة تجادل وترفع شكواها إلى رسول الله ﷺ، فسمعها رب العالمين وأنصفها من زوجها الذي تعجل في أمره، فالإسلام يسمح للمرأة أن ترفع شكواها لوليها أو القاضي أو الحاكم، ولها أن تتحدث بما يليق، ولا يحق لأحد هضم حقها، ورسول الله ﷺ يصبر على أحوال بعض نسائه، ويستمع إليهن بما يثير أحيانًا أبا بكر، وتارة يثار عمر كذلك على ابنته حفصة كما جاء في صدر سورة التحريم.

١٩ـ حق الزوجة الكتابية: قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (المائدة: ٥).

قال ابن قدامة: ليس بين أهل العلم بحمد الله اختلاف في حل حرائر نساء أهل الكتاب، بإجماع الصحابة، وهذا في الكتابيات دون الوثنيات أو المحاربات، وحيث كون الكتابيات، وبخاصة اللاتي يعشن في بلاد المسلمين، يوجد في دينها التقاء مع الإسلام في أمر التوحيد؛ حيث أن أصل الدين واحد، أما التحريف فطارئ عليه بأيديهم وتأويلهم، وهذا بخلاف الوثنيات.

وقال العلماء: وإذا تزوج المسلم الكتابية، فيكون عليها كل الحقوق التي على المسلمة، وكذلك لها حقوق المسلمة؛ إلا في التوارث؛ لأن شرط التوارث اتحاد الدين، مع الأخذ في

---

(١) مسند أحمد (٢٦٧٧٤)، أبوداود (٢٢١٤). وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٠٨٧).

الاعتبار، أن يكون جميع الأولاد مسلمين بلا فرق بين الذكر والأنثى، وله أن يدعوها إلى الإسلام، ويحببها في أحكامه، بما تراه من محافظة منه على دينه، وعدم تعاطيه المحرمات، مع المحافظة على الطاعات واستعمال العدل والإنصاف معها.

رابعًا: حق المرأة كمعتدة:

١ـ **تحريم الخطبة**: لا يجوز للأجنبي خطبة المعتدة صراحةً، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها، لأن المطلقة طلاقًا رجعيًا في حكم الزوجة، فلا يجوز خطبتها لبقاء بعض آثار الزواج في المطلقة ثلاثًا أوبائنًا أو متوفى عنها زوجها، ولا يجوز أيضًا التعريض بالخطبة في عدة الطلاق، ويجوز في عدة الوفاة: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ (البقرة٢٣٥).

قال أبو جعفر الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: ولا جناح عليكم، أيها الرجال، فيما عرضتم به من خطبة النساء، للنساء المعتدات من وفاة أزواجهن في عددهن، ولم تصرحوا بعقد نكاح[1]. وكذلك يحرم الزواج، لقوله تعالى: (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) ولا يجوز الخروج من البيت، لقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ (الطلاق: ١).

٢ـ **حقها في السكنى في بيت الزوجية، والنفقة**: هذا حق للمرأة واجب على الزوج، أما سكنى المعتدة- أي معتدة- في بيت الزوجية فواجبة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ (الطلاق: ١).

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٩٥).

قال الطبري: يقول: وخافوا الله أيها الناس ربكم فاحذروا معصيته أن تتعدّوا حده، لا تخرجوا من طلقتم من نسائكم لعدتهنّ من بيوتهنّ التي كنتم أسكنتموهنّ فيها قبل الطلاق حتى تنقضي عدتهنّ[١].

وعن القاسم بن محمد وسليمان بن يسار أن يَحْيَى بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، طَلَّقَ بِنْتَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ، فَانْتَقَلَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ؛ فَأَرْسَلَتْ عَائِشَةُ (أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ) إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ وَهُو أَمِيرُ الْمَدِينَةِ: اتَّقِ الله وَارْدُدْهَا إِلَى بَيْتِهَا. قَالَ مَرْوَانُ- فِي حَدِيثِ سلَيْمَانَ-: إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَكَمِ غَلَبَنِي[٢].

وعن عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ: أَنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصِ بْنِ الْمُغِيرَةِ خَرَجَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الْيَمَنِ، فَأَرْسَلَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ بِتَطْلِيقَةٍ كَانَتْ بَقِيَتْ مِنْ طَلَاقِهَا، وَأَمَرَ لَهَا الْحَارِثَ ابْنَ هِشَامٍ وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ بِنَفَقَةٍ، فَقَالَا لَهَا: وَالله مَا لَكِ نَفَقَةٌ إِلَّا أَنْ تَكُونِي حَامِلًا، فَأَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَتْ لَهُ قَوْلَهُمَا فَقَالَ: لَا نَفَقَةَ لَكِ، فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي الِانْتِقَالِ، فَأَذِنَ لَهَ، ا فَقَالَتْ: أَيْنَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ: إِلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، -وَكَانَ أَعْمَى تَضَعُ ثِيَابَهَا عِنْدَهُ وَلَا يَرَاهَا- فَلَمَّا مَضَتْ عِدَّتُهَا أَنْكَحَهَا النَّبِيُّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مَرْوَانُ قَبِيصَةَ بْنَ ذُؤَيْبٍ يَسْأَلُهَا عَنْ الْحَدِيثِ فَحَدَّثَتْهُ بِهِ، فَقَالَ مَرْوَانُ: لَمْ نَسْمَعْ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَّا مِنْ امْرَأَةٍ سَنَأْخُذُ بِالْعِصْمَةِ الَّتِي وَجَدْنَا النَّاسَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ حِينَ بَلَغَهَا قَوْلُ مَرْوَانَ: فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْقُرْآنُ، قَالَ الله ﷻ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ قَالَتْ: هَذَا لِمَنْ كَانَتْ لَهُ مُرَاجَعَةٌ، فَأَيُّ أَمْرٍ يَحْدُثُ بَعْدَ الثَّلَاثِ؟ فَكَيْفَ تَقُولُونَ لَا نَفَقَةَ لَهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ حَامِلًا؟ فَعَلَامَ تَحْبِسُونَهَا؟[٣].

وعن عائشة أنها قالت: ما لفاطمة ألا تتقي الله (يعني في قولها: لاسكنى ولا نفقة)[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٢١).

(٢) البخاري (٥٣٢٢، ٥٣٢١).

(٣) مسلم (١٤٨٠).

(٤) البخاري (٥٣٢٤، ٥٣٢٣).

وعن عروة بن الزبير أنه قال لعائشة: أَلَمْ تَرَيْ إِلَى فُلَانَةَ بِنْتِ الْحَكَمِ، طَلَّقَهَا زَوْجُهَا الْبَتَّةَ، فَخَرَجَتْ، فَقَالَتْ: بِئْسَ مَا صَنَعَتْ، قَالَ: أَلَمْ تَسْمَعِي فِي قَوْلِ فَاطِمَةَ، قَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ لَهَا خَيْرٌ فِي ذِكْرِ هَذَا الْحَدِيثِ، وفي رواية (عَابَتْ عَائِشَةُ أَشَدَّ الْعَيْبِ وَقَالَتْ: إِنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ فِي مَكَانٍ وَحْشٍ فَخِيفَ عَلَى نَاحِيَتِهَا، فَلِذَلِكَ أَرْخَصَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ)[(١)].

٣ـ ثبوت نسب الولد المولود في فترة العدة: يثبت نسب ولد المطلقة والمتوفى عنها زوجها إذا جاءت به في وقت تحتمله أقصى مدة للحمل على اختلاف في تفاصيلها بين الفقهاء والقانونيين والأطباء الرجعية [(٢)].

٤ـ ثبوت الإرث في العدة: إذا مات أحد الزوجين قبل انقضاء عدة المطلقة طلاقًا رجعيًا؛ ورثه الآخر بلا خلاف، سواء أكان الطلاق في حال المرض أم في حال الصحة، لبقاء الزوجية حكمًا، فتكون سببًا لاستحقاق الإرث من الجانبين. فإن كان الطلاق بائنًا أو ثلاثًا في حال الصحة، فمات أحد الزوجين في العدة لم يرثه الآخر وإن كان الطلاق بائنًا ثلاثًا في حال المرض، فإن كان برضاها لا ترث بالإجماع، وإن كان بغير رضاها فإنها ترث من زوجها عند الجمهور [(٣)]

خامسًا: حق الأم.

أولًا: بر الأم: قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان ١٤). والوهن: هو الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء، وقال الطبري: ضعفا على ضعف وشدة على شدة[(٤)]. فإنّ حَمْل المرأة يقارنه التعب من ثقل الجنين في البطن، والضعف من كون الجنين يتغذى من أمه، ويتزايد ضعفها بامتداد زمن الحمل، فلا جرم أنه وهن على وهن، فهذا باعث على الوصية بالوالدين خاصة الأم. ويقول تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ

(١) البخاري (٥٣٢٦، ٥٣٢٥).

(٢) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب السنة.

(٣) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة (٣٢٦).

(٤) تفسير الطبري (٢١/ ٦٩).

ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ (الإسراء: ٢٤)، فالأب أيضًا مشترك في التعب والوهن، ولهذا جمع الله بينهما في تعب التربية في تلك الآية، فلزم بر كليهما حيث يتوليان حفظه وإكمال نشأته، ولهذا إذا تعارض حقها دون القدرة على الجمع بينهما حيث جمعها الله تعالى في الوصية ثم خصص الأم بذكر درجة الحمل ودرجة الرضاعة، ودرجة الولادة قبل ذلك، فتحصل للأم ثلاث مراتب، وللأب واحدة، ولهذا قال رسول الله ﷺ حين سأله رجل درجة أحق الناس بحسن صحبته قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك)[١]. وفيه تأكيد للبر بالأم خشية التفريط فيه؛ إذ قد يقع التفريط في الوفاء الواجب للأم من الابن، اعتمادا على ما يلاقيه من اللين منها؛ بخلاف جانب الأب فإنه قوي ولأبنائه خوف من شدته[٢]. وقال ﷺ: **" إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات"**[٣]. وهو من تخصيص الشيء بالذكر إظهارًا لعظيم موقعه[٤].

وذهب العلماء إلى أن عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برهما موافقتهما على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب، وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصير في حق الولد مندوبا إليه، وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا في ندبيته[٥].

وكل هذا بشرط ألا يكون المأمور به معصية[٦]. ومن البر بهما عدم تعرضهما لأي أذى وخاصة الأم، لقوله ﷺ: **"إن مِنْ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ قَالُوا يَا رَسُولَ الله: وَهَلْ**

---

(١) البخاري (٥٩٧١)، مسلم (٢٥٤٨).

(٢) تفسير ابن عطية (١٠/ ٢٧٦)، التحرير التنوير (٢١/ ١٥٨).

(٣) البخاري (٥٩٧٥).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٥٧).

(٥) القرطبي (٥/ ٣٨٥٤).

(٦) حقوق الإنسان ليسري السيد محمد (٢٤١: ٢٤٠).

يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ"[١].

الإحسان إلى الأم: ومن الإحسان إليها أن لا يخرج للجهاد بدون إذنها وإذن أبيه، وهذا مستفاد من قوله ﷺ لرجل جاءه فقال: "جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبواي يبكيان، فقال ﷺ: ارجع اليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما"[٢]. قال الخطابي: إن كان الخارج فيه متطوعًا؛ فإن ذلك لا يجوز إلا بإذن الوالدين، فأما إذا تعين عليه فرض الجهاد فلا حاجة إلى إذنهما، هذا إن كانا مسلمين، فإن كانا كافرين، يخرج بدون إذنهما فرضا كان الجهاد أو تطوعًا[٣]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد)[٤].

واستدل به على تحريم السفر بغير إذن؛ لأن الجهاد إذا منع مع فضيلته فالسفر المباح أولى[٥].

حقها في النفقة: قال رسول الله ﷺ: "إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم"[٦].

وقال ﷺ: "أنت ومالك لأبيك"[٧]. ولما كان الأب هو سبب وجود هذا الرجل، فكان من أهنأ وأحل الطعام من مال هذا الرجل، ولأن الرجل بعضه، وحكم بعضه حكم نفسه، ثم بين في الحديث الثاني: أن وجودك سبب وجود مالك، فصار له بذلك حق كان به أولى منك بنفسك، فإذا احتاج فله أن يأخذ منه قدر الحاج، فليس المراد إباحة ماله له حتى يستأصله بلا حاجة، ولوجوب نفقة الأصل على فرعه[٨].

---

(١) مسلم (٩٠).

(٢) أبو داود (٢٥٢٨٩)، النسائي (٤١٦٣)، وابن ماجه (٢٧٨٢) وهو في صحيح أبي داود (٢٢٠٥).

(٣) عون المعبود (٥/ ٤٢٤).

(٤) البخاري (٣٠٠٤)، مسلم (٢٥٤٩)

(٥) فتح الباري (٦/ ١٥٩)

(٦) الترمذي (١٣٥٨)، ابن ماجه (٢٢٩٠)، وهو في صحيح ابن ماجه (١٨٥٤).

(٧) ابن ماجه (٢٢٩١)، مسند أحمد (٢/ ٢٠٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٥٥).

(٨) فيض القدير (٣/ ٥٢: ٥١).

قال ابن القيم: قال حرب: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: يأخذ الرجل من مال ولده ما شاء، وإن كان غنيًا[١]. فتكون الأم من باب أولى بالنفقة، لأن حقها أعظم من حق الأب كما بينا.

حقها بعد موتها: لا يتوقف حق الوالدين على حياتهما؛ بل يظل إلى ما بعد موتهما قال ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له)[٢]، ويشمل هذا الدعاء عند صلاة الجنازة: الاستغفار لهما وسؤال الله تعالى الرحمة لهما، والوفاء بوصيتهما بما يوافق شرع الله، والإحسان لأقاربهما وأصدقائهما[٣].

سادسًا: حق المرأة في عبادة الله: يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل٩٧)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات١٣)، وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥)، جعل الله المرأة نصف الحياة، ولذا لم يكن قبل الإسلام ذكر للمرأة ومنزلتها، ففي الوقت الذي كانت أوروبا غارقة في الظلمات، وتبحث هل المرأة جسد وروح أم جسد فقط؟ وهل هي إنسان أم شيطان؟ فجاء الإسلام ليزيح عنها تراب الجاهلية، وجبال الضلال والشرك، وبدد الإسلام ستائر الظلمات التي أحاطت بأخلاق المرأة ووضعها، وتحقير الإنسان حينئذ لها، فلهذا كان من اللازم أن يحمي الإسلام حق المرأة في عبادة الله، دون إكراه، أو تضييق، فلها الحق في توحيد الله دون إكراه لها على الشرك والضلالات، قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ٣٤). ويقول تعالى في بيان صفة المرأة المسلمة الصادقة: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ

---

(١) جامع الفقه (٤/ ٦٢٦).

(٢) مسلم (١٦٣١).

(٣) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة.

وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأحزاب: ٣٥). وجاء في أسباب النزول: أن النساء سألن النبي ﷺ ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى الآية[١]. والمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة: النساء، وأما ذكر الرجال، فللإشارة إلى أن الصنفين في هذه الشرائع سواء، ليعلموا أن الشريعة لا تختص بالرجال، لا كما كان معظم شريعة التوراة خاصا بالرجال، إلا الأحكام التي لا تتصور في غير النساء.

مما سبق يتضح: أن الله قد حفظ المرأة، وهى خلق من خلقه تعالى، ولهذا نبه على أن المرأة تقيم أولًا حق الله تعالى؛ حتى تشعر هي بمدي حفظ الله لها، والقرآن الكريم قد أكد المساواة في الجزاء، وعدم أفضلية الرجل على المرأة في أداء الصلاة مثلًا، إنما العبرة بالإخلاص والصدق: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء١٢٤)، وقال تعالى ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ ثم المساواة في التكاليف إلا خص به الرجل، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ (النور٣١: ٣٠). وقال ﷺ: **"إن النساء شقائق الرجال"**[٢].

وقال ابن الأثير: أي نظائرهم وأمثالهم في الأخلاق والطباع، كأنهن شققن منهم، ولأن حواء خلقت من آدم[٣].

ثم المساواة في العقوبات، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (المائدة:

---

(١) الترمذي (٣٠٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٦٥).

(٢) أبو داود (٢٢٧)، الترمذي (١١٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٦).

(٣) النهاية (٢/ ٤٩٢).

٣٨)، وقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢).

١٢ـ حق الطفل

أولًا ـ إثبات نسبه وتحسين اسمه: قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ (الأحزاب: ٥).

هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبني وهو من نسخ السنة بالقرآن فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه فإن لم يكن له ولاء معروف قال له يا أخي يعني في الدين قال الله تعالي: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)[١]. أما ما يستحب من الأسماء فقد قال النبي ﷺ: "**إن أحب أسمائكم إلى الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمن** "[٢].

قال النووي: فيه التسمية بهذين الاسمين، وتفضيلهما على سائر ما يسمى به[٣]، وكذلك يستحب تسمية الطفلة بما يدل الصدق ورفعة الشأن والهمة، وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ غير اسم (عاصية) وقال: (أنت جميلة)[٤]. وقال ﷺ "**لا تسمين غلامك يسارًا ولا رباحًا ولا نجاحًا ولا أفلح فإنك تقول: أثم هو فلا يكون، فيقول: لا** "[٥].

قال ابن القيم: تغيير الاسم يكون لقبحه وكراهته فقد يكون لمصلحة أخرى مع حسنه كما غير اسم برة بزينب كراهة التزكية وأن يقال خرج من عند برة أو يقال كنت عند برة فيقول لا، ويجوز التسمية بأكثر من اسم، وكذلك الجمع بين الاسم والكنية واللقب[٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت جويرية اسمها برة فحول رسول الله ﷺ اسمها

(١) إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٣٠٣).

(٢) مسلم (٢١٣٢).

(٣) شرح النووي (٧/ ٣٦٩).

(٤) مسلم (٢١٣٩)، الترمذي (٢٨٣٨) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٥) مسلم (٢١٣٧).

(٦) تحفة المودود (١/ ١٣٣).

جويرية وكان يكره أن يقال: خرج من عند برة(١).

قال النووي: معنى هذه الأحاديث تغيير الاسم القبيح أو المكروه إلى حسن وقد ثبتت أحاديث بتغيير أسماء جماعة كثيرين من الصحابة، وقد بين ﷺ العلة في النوعين وما في معناهما وهى التزكية أو خوف التطير(٢).

ثانيًا: **العقيقة**: قال ﷺ: " كل غلام رهينة بعقيقه تذبح عنه يوم سابعه ويسمى فيه ويحلق رأسه"(٣).

ثالثا: **حق الطفل في الاختتان**: الختان: اسم لفعل الخاتن، وهو مصدر كالنزال والقتال، ويسمى به كذلك موضع الختن، وهو قطع الجلدة التي تغطي الحشفة من الذكر، وقطع جزء من الجلدة التي في أعلى الأنثى(٤).

فعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب(٥). وينبغي أن يقوم بذلك طبيب خبير، ولعل من المفيد من استشارة الطبيب والطبيبة المسلمة الثقة الخبيرة في أمر ختان البنات، فلهن مقدرة على معرفة احتياجهن من عدمه، وينبغي مراعاة الرفق وعدم العنف خاصةً مع المرأة.

رابعًا: **رضاعه**: فبعد خروج هذا المخلوق الصغير العجيب، تتداركه رحمة ربه بإنشاء هذا المصنع العجيب لإفراز الغذاء الطيب (اللبن من صدر أمه)، فها هو سبحانه وتعالى يطعمه من جوع ويؤمنه من الخوف لأنه بين يدي أمه التي جعل الله تعالى فيها من الحنان مالا يتخيل مثله، ولا يقاس حنان على حنانها ولا شفقة على شفقتها، وإذا كان الرجل

---

(١) مسلم (٢١٤٠).

(٢) شرح النووي (٧/ ٣٧٤).

(٣) أبو داود (٢٨٣٨)، والترمذي (١٥٢٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وراجع صحيح الجامع (٤٥٤١).

(٤) لسان العرب (٢/ ١١٠٢).

(٥) البخاري (٥٨٨٩)، مسلم (٢٥٧).

يؤجر للقمة يطعمها زوجته، فما ظننا بما تصنعه الأم مع ولدها في هذه المرحلة الخطيرة من عمر الإنسان، فالأب وعليه النفقة، وفيها إطعام الأم فيجب عليه الاعتناء بها، لأنها بدورها تقوم على مخلوق آخر غيرها وهو طفلها، فيحرم على الأب التقصير تجاه الأم، لأنه بالتالي يؤدي إلى التقصير تجاه المولود، ويقول ﷺ: **"كفى بالمرء إثمًا أن يضيع ما يعول"**[(١)].

وتأمل رحمة الأم بوليدها كما يصوره الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: **"أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ**، قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ! فَقَالَ: **للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"**[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

قال ابن القيم: دلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن تمام الرضاع حولين وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ولم يستغن عنه وأكدهما بكاملين لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر، وثانيها: أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك. وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضارا بها أو بولدها فلا يجاب إلى ذلك ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى

---

(١) سنن النسائي الكبرى (٩١٧٦)، المستدرك (٨٥٢٦)، وصححه الألباني في الإرواء بلفظ (من يقوت) (٣/ ٤٠٦)، وهذا اللفظ عند أبي داود (١٦٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٨٤).

(٢) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

نصف الثالث أو أكثر[١].

خامسًا: فطامه: قال الله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ (البقرة: ٢٣٣).

دلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن إتمام الرضاع حولين وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ولم يستغن عنه وأكدهما (بكاملين) لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر الثاني.

وثانيهما: أن الأبوين إذا أرادا إفطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك.

وثالثهما: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن كرهت الأم ألا يكون مضارا بها أو بولدها فلا يجاب إلى ذلك.

سادسًا: الإنفاق على الولد: قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (الطلاق: ٧).

وروى أبو هريرة ﷺأن رجلًا أتى النبي ﷺ " فقال: يا رسول الله، عندي دينار، فقال: **أنفقه على نفسك**، قال: عندي آخر، قال: **أنفقه على ولدك** "[٢]. وقال ﷺ: **"كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت"**[٣].

---

(١) تحفة المودود (٢٠٥).

(٢) أحمد (٢/ ٢٥١)، وأبو داود (١٦٩١)، والنسائي (٢٥٣٥)، وابن حبان (٣٣٣٧)، صحيح الترغيب والترهيب (٩٨٥).

(٣) مسلم (٩٩٦).

وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٣). وقال ﷺ: **"وابدأ بمن تعول"**(١).

قال النووي: فيه تقديم نفقة نفسه وعياله، لأنها منحصرة فيه، بخلاف نفقة غيرهم(٢).

سابعًا: حق الحضانة: يثبت على الطفل منذ ولادته ثلاث ولايات:

الولاية الأولى: ولاية التربية.

الولاية الثانية: الولاية على النفس.

الولاية الثالثة: على ماله إن كان له مال.

أما الأولى هي ولاية التربية، فهذه وظيفة النساء، وهوما يسمى بالحضانة، فالحضانة هي تربية الولد في المدة التي لا يستغنى فيها عن النساء ممن لها الحق في تربيته شرعًا، وهي حق للأم ثم لمحارم المولود من النساء، والأصل في الباب حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاءً وَثَدْيِي لَهُ سِقَاءً وَحِجْرِي لَهُ حِوَاءً، وَإِنَّ أَبَاهُ طَلَّقَنِي وَأَرَادَ أَنْ يَنْتَزِعَهُ مِنِّي، فَقَالَ لَهَا رَسولُ الله ﷺ: **أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي**"(٣).

قال في عون المعبود: (كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاء) أَيْ: ظَرْفًا حَال حَمْله، (وَثَدْيِي لَهُ سِقَاء) أَيْ: حَال رَضَاعه، (وحجري له حواء) أي: مَكَانًا يَحْوِيه وَيَحْفَظهُ وَيَحْرُسهُ، وَمُرَاد الأمّ بِذَلِكَ أَنَّهَا أَحَقّ بِهِ لِاخْتِصَاصِهَا بِهَذِهِ الْأَوْصَاف دُون الْأَب. قال في النيل: في الحديث دليل على أن الأم أولى بالولد من الأب ما لم يحصل مانع من ذلك كالنكاح، لتقييده ﷺ للأحقية بقوله (مالم تنكحي). وَبِهِ قَالَ مَالِك وَالشَّافِعِيَّة وَالْحَنَفِيَّة(٤).

والحضانة واجبة، وهي من حقوق الطفل، حتى يحفظ مما يضره ويهلكه، من تجهيزه

---

(١) البخاري (٥٣٥٥)، مسلم (١٠٣٤).

(٢) شرح النووي (٤/ ١٣٦).

(٣) أبو داود (٢٢٧٦)، مسند أحمد (٢/ ١٨٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٦٨)، وفي صحيح أبي داود (١٩٩١).

(٤) عون المعبود (٥/ ١٤٩).

لملابسه وتنظيفه وتنظيف أدواته[١].

ثامنًا: تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم: ٦)، قال علي ﷺ: علموهم وأدبوهم، وقال الحسن: مروهم بطاعة الله وعلموهم الخير، وقال ﷺ: **"مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع"**[٢].

وقال: ﷺ **"اعدلوا بين أبنائكم اعدلوا بين أبنائكم أعدلوا بين أبنائكم"**[٣]، فمن أهمل في تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه فأضاعوهم صغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كبارًا[٤].

١٣ـ حقوق الميت على أهله

تلقينه الشهادة عند حضور الأجل: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **" لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله"**. [٥]

أن يؤمر بقول الشهادة: عن أنس: أن النبي ﷺ دخل على رجل من بني النجار يعوده، فقال له رسول الله ﷺ: **" يا خال، قل: لا إله إلا الله**، فقال: أو خال أنا، أو عم؟ فقال النبي ﷺ: لا، بل خال، فقال له: **قل: لا إله إلا هو**، قال: خيرٌ لي؟ قال: نعم". [٦]

---

(١) حقوق الإنسان ليسري سيد محمد (٢١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١)، وأبو داود (٤٩٥)، ، والترمذي (٤٠٧) وقال: حسن صحيح. وانظر: صحيح الجامع (٤٠٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٥)، وأبو داود (٣٥٤٤)، والنسائي، وراجع صحيح الجامع (١٢١)

(٤) تحفة المودود صـ(٢٧٥-٢٨٥).

(٥) أخرجه مسلم (٩١٧).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢)، وأبو يعلى (٣٤٩٩)، وقال عنه الشيخ الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم. انظر أحكام الجنائز (ص٢٠).

الدعاء له ولا يقال في حضوره إلا خيرًا:

عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: " **إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون** ". (١)

نعي الجنائز: يجوز إعلان الوفاة إذا لم يقترن به ما يشبه نعي الجاهلية. (٢)

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: " نعي النجاشي في اليوم الذي مات فيه ". (٣)

إغماض العين والدعاء له: عن أم سلمة قالت: " دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة، وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: **إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله، فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه**"(٤)

تغطيته بثوب يستر جميع بدنه: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف "أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ حين توفي سُجِّي ببردٍ حَبِرة "(٥)

(سُجِّيَ) أي غطي جميع بدنه.

(الحِبَرة) هي ضرب من برود اليمن، وفيه استحباب تسجية الميت، وهو مجمع عليه، وحكمته: صيانه من الانكشاف وستر عورته المتغيرة عن الأعين. (٦)

وهذا في غير من مات محرمًا فأما المحرم فإنه لا يغطى رأسه ووجهه. (٧)

عن ابن عباس رضي الله عنهما": أن رجلًا وقصه بعيره، ونحن مع النبي ﷺ وهو محرم فقال

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٩).

(٢) أحكام الجنائز للشيخ الألباني (ص٤٥).

(٣) البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١).

(٤) مسلم (٩٢٠).

(٥) البخاري (٥٨١٤)، ومسلم (٩٤٢).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٣).

(٧) أحكام الجنائز وبدعها للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (٢٢).

النبي ﷺ " **اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبين ولا تمسوه طيبًا ولا تخمروا رأسه فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا"**. (١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: " **أسرعوا بالجنازة**"(٢)(٣)

غسله، وتكفينه: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: " **للرجل الذي وقصته ناقته اغسلوه بماءٍ وسدر، وكفنوه في ثوبين**". (٤)

حرمة جسد الميت: قال النبي ﷺ: ((**إن كسر عظم المؤمن ميتا، مثل كسره حيًّا**))(٥).

قال الألباني: والحديث دليل على تحريم كسر عظم الميت المؤمن ولهذا جاء في كتب الحنابلة (ويحرم قطع شيء من أطراف الميت وإتلاف ذاته وإحراقه ولو أوصى به)(٦). إن جبر عظمه بعظم فجبر ثم مات فإن كان طاهرًا لم ينزع وإن كان نجسًا وأمكن إزالته من غير مثلة أزيل لأنه نجاسة مقدوره على إزالتها من غير ضرر وإن أفضى إلى المثلة لم يقلع، وإن كان في حكم الباطن كالحي، وإن كان عليه جبيرة يفضى نزعها إلى مثله مسح عليها كحال الحياة وإلا نزعها وغسل ما تحتها. (٧)

الصبر والرضا بالقدر: قال الله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ**

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٦٧)، ومسلم (١٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٥)، ومسلم (٩٤٤).

(٣) قال ابن حجر في الفتح " بالجنازة أي بحملها إلى قبرها، وقيل المعنى بتجهيزها، فهو أعم من الأول، قال القرطبي: والأول أظهر، وقال النووي: الثاني باطل مردود بقوله في الحديث " تضعونه على رقابكم "، وتعقبه الفاكهي بأن الحمل على الرقاب قد يعبر به عن المعاني كما تقول حمل فلان على رقبته ذنوبا، فيكون المعنى استريحوا من نظر من لا خير فيه، قال: ويؤيده أن الكل لا يحملونه (فتح الباري (٣/ ٢١٩).

(٤) البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (١٢٠٦).

(٥) أخرجه البخاري في تاريخه (١/ ١٥٠) وابن حبان في صحيحه (٧٧٦) موارد وصححه الألباني في أحكام الجنائز.

(٦) أحكام الجنائز (٢٩٦).

(٧) الشرح الكبير بهوامش المغني (٢/ ٣٢٦).

ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة)

وعن أنس بن مالك، ﷺقال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: **اتقي الله واصبري**، قالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ؛ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: **إنما الصبر عند الصدمة الأولى**. (١)

الاسترجاع: عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " **ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله، إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها**"، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ. (٢)

عدم النياحة عليه: عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: " **أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**". (٣)

عن ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " **الميت يعذب في قبره بما نيح عليه** ". (٤)

أن لا يلطم خد ولا يشق جيب: عن عبد اله ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية** ". (٥)

عدم حلق الشعر عند المصيبة: حدث أبو بردة بن أبي موسى ﷺ قال: "وجع أبو موسى وجعا فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيئا، فلما

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٦٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٩١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧).

(٥) أخرجه البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣).

أفاق، قال: أنا بريء ممن برئ منه رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة "[١]. الصالقة: التي ترفع صوتها بالبكاء.[٢]

أن لا يُنشر شعرًا: حدث أسيد بن أبي أسيد، عن امرأة من المبايعات، قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه وأن لا تخمش وجها، ولا ندعوا ويلا، ولا نشق جيبا، وأن لا ننشر شعرا "[٣] (أن لا تخمش) أي لا تخدش، (ولا ندعو ويلًا) والويل أن يقول عند المصيبة وا ويلاه، (ولا نشق جيبًا) الجيب هوما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس وهو الطوق في لغة العامة، (ولا ننشر شعرا) يقال نشر الراعي غنمه أي بثها بعد أن آواها.[٤]

المبادرة بقضاء دينه من ماله: عن جابر ﷺقال: "توفى رجل فغسلناه، وحنطناه، وكفناه، ثم أتينا به رسول الله ﷺ يصلي عليه، فقلنا: نصلي عليه فخطا خطى، ثم قال: **أعليه دين؟** قلنا: ديناران، فانصرف، فتحملهما أبو قتادة، فأتيناه، فقال أبو قتادة، الديناران علي، فقال رسول الله ﷺ: **أحق الغريم، وبرئ منهما الميت**، قال: نعم، فصلى عليه، ثم قال بعد ذلك بيوم: **ما فعل الديناران؟** فقال: إنما مات أمس، قال: فعاد إليه من الغد، فقال قد قضيتهما، فقال رسول الله ﷺ: **الآن بردت عليه جلده**، فقال معاوية بن عمرو في هذا الحديث: فغسلناه وقال: فقلنا نصلي عليه".[٥]

البكاء عليه ثلاثة أيام فقط: عن عبد الله بن جعفر أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثا أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال " **لا تبكوا على أخي بعد اليوم** ".[٦]

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ١٩٨).

(٣) أخرجه أبوداود (٣١٣١)، والطبراني في الكبير (٢٥/ ١٨٤)، وانظر: صحيح الترغيب (٣٥٣٥).

(٤) عون المعبود (٨/ ٢٨١).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٨١٢).

(٦) أخرجه أبو داود (٤١٩٢)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٠٥)، وأحمد (١/ ٢٠٤)، وصححه الألباني في

دفنه في البلد الذي مات فيه ولا ينقل إلى بلد آخر: عن جابر ﷺقال: كنا حملنا القتلى يوم أحد لندفنهم فجاء منادي النبي ﷺ فقال: إن رسول الله ﷺ "يأمركم أن تدفنوا القتلى في مضاجعهم فرددناهم". (١)

وعن منصور بن صفية عن أمه، قالت: مات أخ لعائشة- رضي الله عنها- بوادي الحبشة فحمل من مكانه فأتيناها نعزيها، فقالت: ما أجد في نفسي، أو يحزنني في نفسي إلا أني وددت أنه دفن في مكانه ". (٢)

وإذا أوصى بأن ينقل إلى بلد آخر لا تنفذ وصيته، فإن النقل حرام على المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون وصرح به المحققون، وقيل مكروه. (٣)

حمل الجنازة واتباعها: ويجب حمل الجنائز، واتباعها وذلك من حق الميت المسلم على المسلمين. (٤)

قال رسول الله ﷺ: " **حق المسلم على المسلم خمس: (ذكر منها) واتباع الجنائز**". (٥)

الصلاة على الميت: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: " **إن أخا لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه** ". (٦)

دفن الميت: ويجب دفن الميت ولو كان كافرًا. (٧) عن علي ﷺ قال: لما مات أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت له إن عمك الشيخ الضال قد مات قال: " اذهب فواره أنت إنه

المشكاة (٤٤٦٣).

(١) أخرجه أبو داود (٣١٥٧) واللفظ له، وأحمد (٣/ ٢٩٧)، والترمذي (١٧١٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٧١٠).

(٢) البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٥٧)، وقال الشيخ الألباني: سنده صحيح. أحكام الجنائز صـ٢٥.

(٣) الأذكار للنووي صـ ١٦٧.

(٤) أحكام الجنائز للألباني صـ ٨٦.

(٥) البخاري (١٢٤٠)، مسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) مسلم (٩٥٢).

(٧) أحكام الجنائز الألباني صـ ١٦٧.

مات مشركًا، قال: اذهب فواره ولا تحدث شيئًا حتى تأتيني، ثم أتيته فقلت قد واريته فأمرني فاغتسلت". (١)

قضاء الصوم عن الميت: عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **" من مات وعليه صيام صام عنه وليه "**. (٢)

١٤ـ حق الأخوة

الأخ لغة: الأخ للواحد والاثنان أخوان والجميع إخوان وإخوة، " الأخوة "في النسب. ويقال للأصدقاء وغير الأصدقاء. إخوة وإخوان، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: من الآية١٠)، ولم يعني النسب"، وقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ (النور: ٦١)، وهذا في النسب. (٣)

حقيقة الأخوة: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل إخوة الدين أثبت من إخوة النسب، فإن إخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب، وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ **"لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا"**(٤).

وفي رواية **"لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم**

(١) النسائي (١٩٥)، وأحمد (١/ ٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦١).

(٢) البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ٦٢٣)، وانظر: (لسان العرب مادة (أخا)، والقاموس المحيط (للفيروز آبادي) مادة (أخ).

(٤) البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٥٩).

على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"[١]

وقال الله ﷻ: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، أي: صرتم بنعمة الإسلام إخوانا في الدين، والإخوان جمع أخ، وسمي أخا لأنه يتوخى مذهب أخيه، أي يقصده. [٢] وقيل: فأصبحتم بتأليف الله ﷻ بينكم بالإسلام وكلمة الحق والتعاون على نصرة أهل الإيمان والتآزر على من خالفكم من أهل الكفر، إخوانا متصادقين لا ضغائن بينكم، ولا تحاسد. [٣]

الحب في الله والبغض في الله: عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"**. [٤] قوله: (وأن يحب المرء) قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء. [٥]

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله "ذكر منهم "ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه"**. [٦] قوله "تحابا " بتشديد الباء وأصله أي اشتركا في جنس المحبة وأحب كل منهما الآخر حقيقة لا إظهار فقط، وقوله: "اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه" والمراد أنهما على المحبة الدينية ولم يقطعاها بعارض دنيوي سواء اجتمعا حقيقة أم لا حتى فرق بينهما الموت". [٧]

وعن أبي هريرة ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: **"إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون**

---

(١) مسلم (٢٥٦٤). وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٣٠٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٧٢).
(٣) جامع البيان الطبري (٤/ ٣٦).
(٤) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).
(٥) فتح الباري لابن حجر (١/ ٧٩).
(٦) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(٧) الفتح (٢/ ١٧٠).

بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي". [(١)]

مسامحتهم ولو كانوا قد بالغوا في الإساءة وقبول عذرهم إذا اعتذروا: قال الله ﷻ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (يوسف: ١٠٠). قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجب استعمالا للكرم، لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم قوله: "لا تثريب عليكم " لأن ذكر الجفا في وقت الصفا جفا، وهو قول صحيح دل عليه الكتاب. [(٢)]

تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره وحرمة دمه وعرضه وماله: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **"لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات: بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه".** [(٣)]

تحريم الظن والتحاسد والتباغض والتدابر: عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"** [(٤)]

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).
وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا**

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٦).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٧٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٤) البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا". [(١)]

تحريم الظلم: عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله ﷻ أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا". [(٢)] وعن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه". [(٣)]

نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا: عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قالوا: يا رسول الله: هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال: تأخذ فوق يده". [(٤)]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: "أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع ذكر منها "ونصر المظلوم". [(٥)]

التراحم والتعاطف والتعاضد: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى". [(٦)]

وعن النعمان بن بشير قال، قال رسول الله ﷺ: "المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله". [(٧)]

تحريم غيبته: قال الله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢). وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أتدرون ما

---

(١) البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٤)، ورواه مسلم (٢٥٨٤) ولفظه "فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما إن كان ظالما، فلينهه فإنه له نصر. وإن كان مظلوما فلينصره".

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٨٦).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠١١)، وأخرجه مسلم (٢٥٨٦).

(٧) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).

الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **ذكرك أخاك بما يكره**، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: "**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته** ". (١)

الإشارة بالسلاح إلى أي مسلم: عن ابن سيرين سمعت أبا هريرة يقول: قال أبو القاسم ﷺ "**من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه** ". (٢)

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "**لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار**". (٣)

الاحترام والتقدير: قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾ (الحجرات: ١١).

الإعانة على قضاء حوائج الدنيا على قدر الاستطاعة: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**". (٤)

التناصح والتراحم: عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال " **الدين النصيحة**"قلنا: لمن؟ قال: **لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم** ". (٥)وقال الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾

الستر والتغافر: عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: " **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله**

---

(١) مسلم (٢٥٨٩).

(٢) مسلم (٢٦١٦).

(٣) البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٦٩٩).

(٥) البخاري (٤٢)، ومسلم (٥٥).

عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته". [(١)]

١٥ـ حق الجنين

الجنين هو: الولد ما دام في بطن أمه لاستتاره فيه وجمعه أجنه وأجنن بإظهار التضعيف فسمي جنينا لاستتاره فأجنته المرأة جنينا أي حملته.

وجمع الجنين: أجنه وأجنن وقد جن الجنين في الرحم يجن جنا وأجنته الحامل سترته ومنه الجنون لاستتار عقله والجان لاستتاره عن أنظار الناس[(٢)].

١ـ: حق الجنين في أبوين صالحين: بين القرآن الكريم، وكذا سنة رسوله الأمين ﷺ في ضرورة الاهتمام والتدقيق عند اختيار الزوج وكذا الزوجة، وبين الله تعالى أن الأسرة الصالحة تنشأ بين أبوين صالحين يتقيان الله تعالى بإقامة أوامره والانتهاء عن نواهيه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ (الكهف: ٨٢)، فجعل العلة صلاح الأب الذي هو عليه الكسب غالبًا، فعليه أن يطعم زوجته التي تحمل ولده حلالًا طيبًا، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (المائدة: ١٠٠). فالخبيث الحرام، والطيب الحلال، والخبيث إن كثر لا يفلح ولا ينجب ولا تحسن له عاقبة، والطيب وإن قل نافع مفيد جميل العاقبة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ (البقرة١٦٨)، وقال رسول الله ﷺ: **"إِذَا أَتاكم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ قَالُوا يَا رَسُولَ الله وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَالَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ. . ."**[(٣)].

فقد جعل لقبول الرجل زوجًا للمرأة شرطين (الدين والخلق)، والدين يشمل إقامة

---

(١) أبوداود في الأدب (٤/ ٤٨٨٠)، والإمام أحمد في مسنده (٤١/ ٤٢٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٥٦)، وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (٢٣٤٠).

(٢) لسان العرب (١٣/ ٩٢-٩٣).

(٣) الترمذي (١٠٨٥، ١٠٨٤)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٨٦٨).

الصلاة والصوم وأداء الزكاة للقادر، والحج للمستطيع، ويدخل فيه جميع أنواع العبادات التي هي إمارات على قوة وحسن دين فاعلها، كالذهاب لصلاة الجماعة والالتزام بالهدي النبوي الشريف، والأخلاق تجمع كل خصال الخير من بر الوالدين والإحسان للجار، وحسن أسلوب الكلام وأداء الأمانة، وحفظ العهد والصدق والعفة والصبر والحكمة.

٢ـ وضع الصوم عن أمه: قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤). فقد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن الحبلى والمرضع إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا[١].

٣ـ وضع إقامة الحد عن أمه حال حمله وإرضاعه للحفاظ على حياته:

جاءت امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله، طهرني، فقال: **ويحك! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه**، فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك، قال: وما ذاك؟ قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: آنت؟ قالت: نعم، فقال لها: **حتى تضعي ما في بطنك**، قال: فكلفها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ، فقال: وضعت الغامديه، فقال: "**إذا لا نرجمها، ولا ندع ولدها صغيرًا ليس له من يرضعه** "، فقام رجل من الأنصار، فقال: إلي رضاعه يا نبي الله، فرجمها"[٢].

٤ـ تحريم قتل الجنين وجعل دية لقتله: عن أبي هريرة ﷺأن امرأتين من هذيل رمت إحداهما الأخرى فطرحت جنينها، فقضى فيه النبي ﷺ بغرة عبد أو أمة "[٣].

٥ـ يصلي عليه الجنازة: قال ﷺ: الراكب خلف الجنازة والماشي حيث شاء منها والطفل يصلى عليه[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٩١).

(٢) مسلم (١٦٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٨)، ومسلم (١٦٨١).

(٤) أخرجه الترمذي (١٠٣١)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٢٣).

فيصلى على الطفل وإن لم يستهل بعد أن يعلم أنه خلق[١].

٦ـحق الجنين في الاستقرار النفسي لأمه: قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان: ١٤)، تصف الآية الكريمة حالة الأم أثناء حملها مما يصيبها من أثر هذا الحمل من آثار تظهر على وجهها وصحتها وسائر أحوالها، فيصيبها ضعف في البدن نتيجة هذا الحمل، مع كونها لا تترك عمل بيتها وخدمة زوجها، فكان حقًا لهذه الأم من وافر البر والرعاية خاصةً من زوجها، ولهذا يقول الرسول ﷺ: **"خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"**[٢].

وهذه الخيرية تعم الزوجة والأولاد والأقارب، ويقول الرسول ﷺ: "خيركم خيركم للنساء"[٣]. فتبين اختصاص الزوجة بخيرية خاصة تعم جميع أحوالها منذ بدء الزواج إلى ما شاء الله تعالى، وفي هدي رسول الله ﷺ خير بيان، حيث كان يلاطفهن قولًا وفعلًا، فيدخل نساء الأنصار للعب مع عائشة ويتتبع مكان شرابها إذا شربت، وكان يسابقها في السفر، وكان يريها وهي متكئة على فكيه لعب الحبشة في المسجد[٤].

ولهذا كان للحامل مزيد عناية واهتمام من زوجها، الاهتمام النفسي بحسن العبارة وجمال الأسلوب، والاهتمام بطعامها وغذائها بما ينبه عليه الأطباء. وفي حديث رسول الله ﷺ: "وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك"[٥]، دليل على وجوب الإنفاق على الأهل مع الثواب، وذلك بالاحتساب لوجه الله تعالى، وصدق نيته، ودفع مظنة عدم الأجر على الواجب[٦].

---

(١) سنن الترمذي (٣/ ٣٤١).

(٢) الترمذي (٣٨٩٥)، أبو داود (٤٢٥٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٥).

(٣) المستدرك (٤/ ١٩١)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٥٦٢٧).

(٤) فيض القدير (٣/ ٤٩٥).

(٥) البخاري (٢٧٤٣)، مسلم (١٦٢٨).

(٦) فتح الباري (٥/ ٤٣٢).

٧ـ**إخراج الزكاة عن الجنين**: ذهب كثير من أهل العلم إلى استحسان إخراج الزكاة عن الجنين، فقد كان عُثْمَانَ كَانَ يُخْرِجُهَا عَنْهُ، وَلِأَنَّهَا صَدَقَةٌ عَمَّنْ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ، فَكَانَتْ مُسْتَحَبَّةً كَسَائِرِ صَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ[1].

٨ـ**حق الجنين في الدية**: قال الخرقي: وَدِيَةُ الْجَنِينِ إذَا سَقَطَ مِنْ الضَّرْبَةِ مَيِّتًا، وَكَانَ مِنْ حُرَّةٍ مُسْلِمَةٍ، غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوأَمَةٌ[2]. وفي الحديث عن أبي هريرةﷺ، أن رسول الله ﷺ "قَضَى فِي امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ اقْتَتَلَتَا؛ فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى بِحَجَرٍ؛ فَأَصَابَ بَطْنَهَا وَهِيَ حَامِلٌ؛ فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِي فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَضَى أَنَّ دِيَةَ مَا فِي بَطْنِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَو أَمَةٌ، فَقَالَ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ الَّتِي غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ يَا رَسُولَ الله مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ**"[3].

وفيه من الفوائد: وجوب الدية في الجنين [4]. وأطلق على الآدمي غرة لأنه أشرف الكائنات، فإن محل الغرة الوجه، والوجه أشرف الأعضاء[5]. والغرة في الأصل البياض يكون في جبهة الفرس، وقد استعمل للآدمي في حديث الوضوء، وتطلق الغرة على الشيء النفيس آدميًا كان أو غيره، ذكرًا كان أو أنثى، ويقصد بها هنا: تحرير عبد أو أمة، كفارةً لإسقاطه، ومن هذا يؤخذ منزلة حق الجنين عند من كان كل شئ عنده بمقدار.

٩ـ **حق الجنين في الميراث**: وهذا مثال آخر لحفاظ الإسلام على حق الجنين، وهنا نرى حفظ حقه في الميراث، فيحفظ حقه في التركة على فرض كونه ذكرًا ثم على فرض كونه أنثى، ثم بعد وضع الأم جنينها بأخذ حقه من الميراث إذا كان ذكرًا، وكذلك إذا كانتا أنثيين، وفي حالة كونه أنثى ترد على الوراثة نصف ما كان قد اقتطع له، وفي حالة كون الحمل ذكرين، استرد حقه من

---

(١) المغني لابن قدامة (٤/ ٣١٦).

(٢) المغني (١٢/ ٥٩).

(٣) البخاري (٥٧٥٨)، مسلم (١٦٨١).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٤٦).

(٥) فتح الباري (١٢/ ٢٦٠).

أنصبة ما أخذ باقي الورثة، ولهذا حرصت الشريعة على حفظ حق الجنين باعتبار أحسن الحالين، وفي حق من معه من الورثة أسوؤهما حتى لا ينفرط حقه ويتعثر.

وقال العلماء في الرجل يتوفى ووارثه حمل في البطن: يوقف له الميراث فيرث له حالة خروجه حيًا، وإن خرج ميتًا لا يرث، بل هو لباقي الورثة الأول، وفي حالة خروجه حيًا ثم مات يورث منه سواء استهل أم لم يستهل بعد أن وجد فيه أمارات الحياة من عطاس أو تنفس أو حركة دالة على الحياة سوى اختلاج الخارج من الضيق، وهذا قول الثوري والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي(١). وذهب آخرون إلى أنه لا يورث منه ما لم يستهل وهو قول محمد بن سيرين وغيره، وبه قال الزهري ومالك، قال الزهري: أرى العطاس استهلالًا، واحتجوا بما روي عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: (إذا استهل المولود ورث)(٢). والاستهلال هو رفع الصوت، والمراد عند الآخرين وجود أمارة الحياة، وعبر عنها بالاستهلال، لأنه يستهل حالة الانفصال في الأغلب، وبه تعرف حياته، وانظر كلام الفقهاء في هذه المسألة، لأن المقصود هنا هو الإشارة فقط.

١٠ـ **حق الجنين في الحفاظ على حياته**: جاء دين الله تعالى وعموم البشرية في ظلمات فكرية وخلقية، فكان لزامًا أن يصحح دين الله تعالى ويصلح ما خربه الجاهليون، لفهمهم الضال عن الذرية وسلوكهم المشين تجاه أولادهم من قتل ووأد وحز شديد لإنجاب البنات، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (الأنعام١٤٠).

قال ابن كثير: يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، كما

---

(١) مستفاد من شرح السنة للبغوي (٨/ ٣٦٨).

(٢) أبو داود (٢٩٢٠)، ابن ماجه (١٥٠٨)، صححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٠٥٠).

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [(١)]. ويقول جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام١٣٧)، وتشير الآيات الكريمات إلى نظامهم الفاسد الباطل من وأد البنات، هذه الصفة السيئة التي اشتهرت غالبًا في قبيلتي ربيعة ومضر، وهما جمهرة العرب، وليس كلّ الآباء من هاتين القبيلتين يفعله[(٢)]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكوير: ٨، ٩)، فجعل الله هذه الخصلة السيئة إحدى حوادث وأهوال يوم القيامة، والوأد: دفن الطفلة، وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة؛ فإذا ولدت بنتًا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنًا حبسته[(٣)]. فحرم الإسلام هذا الفعل الخبيث، وصحح المعتقدات حفاظًا على حياة المرأة والبنت.

١٦ـحق الجسد

إن الإسلام في حاجة إلى كيان سليم قوي، وإن رسالته هي رسالة القوة في الحق، والقوة في البناء، والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، قال ﷻ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠). وفي الحديث الصحيح " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"[(٤)]، ولهذا اهتم الإسلام بحقوق البدن فحث على ما ينفعه ونهى عما يضره عن عبد الله بن عمرو بن العاص: **" قم ونم، وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا وإن لزوجك عليك حقًا"**[(٥)]. [(٦)]

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٤٥).

(٣) الكشاف (٤/ ١٨٨).

(٤) مسلم (٢٦٦٤).

(٥) البخاري (٦١٣٤).

(٦) موسوعة الحقوق الإسلامية تأليف / سعد يوسف أبو عزيز صـ ٢٨٤.

ونبين حرص الإسلام على هذا الحق من خلال النقاط الآتية:

١ـ الاستنجاء وآداب قضاء الحاجة: فلقد أوجب الإسلام الاستنجاء لكل خارج من السبيلين (القُبل والدُبر) إلا من الريح. فعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ يدخل الخلاء فأحمل أنا وغلام نحوي إداوة من ماء وعنزة، فيستنجي بالماء. [(١)] وإذا استنجى المسلم فإنه لا يستنجى بيمينه، لحديث أبي قتادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يمسكن أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول، ولا يتمسح من الخلاء بيمينه، ولا يتنفس في الإناء". [(٢)] وعن سلمان ﷺ قال: قال لي رجل: إن صاحبكم ليعلمكم حتى الخراءة قال: أجل، نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجي بأيماننا، أو نكتفي بأقل من ثلاثة أحجار". [(٣)] ومن آداب الاستنجاء أيضًا أن ينظف يده بعد الاستنجاء إما أن يغسلها بالصابون أو أن يدلكها بالأرض إن لم يجد فعن أبي هريرة ﷺ قال: " كان النبي ﷺ إذا أتى الخلاء أتيته بماء في تور أو ركوة، فاستنجى ثم مسح يده على الأرض". [(٤)]

وهذا الأمر فيه كثير من الفوائد الصحية والوقائية. [(٥)]

٢ـ السواك: لقد عني الإسلام عناية كبيرة بالسواك وجاء الحض على استعماله في أحاديث كثيرة منها: عن زيد بن خالد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة "**[(٦)].

ولقد أثبتت الأبحاث العلمية في جامعة رستوك بألمانيا الشرقية أن بعض المواد المضادة للميكروبات، وخاصة التي تحتمي في المواد الدهنية، موجودة في السواك وقد أثبت الطب

---

(١) البخاري (١٥٢)، مسلم (٢٧١).

(٢) مسلم (٢٦٧).

(٣) مسلم (٢٦٢).

(٤) أبو داود (٤٥)، أحمد (٣/ ٣١١)، وحسنه الألباني في صحيح أبو داود (٣٥).

(٥) موسوعة الحقوق (٢٨٦).

(٦) مسلم (٢٥٢).

الحديث أن السواك يحتوي على مادة قاتلة للميكروبات تفوق البنسلين في مفعولها. [١]

٣ـ الوضوء: والأحاديث في فضله كثيرة ومتنوعة فمنها ما ورد في حديث أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"الطُّهُور شطر الإيمان. . ."**[٢]، والوضوء إلى جانب تطهيره للذنوب والسيئات فهو أيضًا يقي الإنسان المسلم المتوضئ من الأمراض (فالوضوء بالماء الجاري على بساطته خمس مرات في اليوم كفيل بتطهير الجسم، وإزالة ما علق به من ميكروبات، وقد أثبتت التقارير الطبية لمنظمة الصحة العالمية في بنجلاديش عام ١٩٧٤م أن الاغتسال بالماء الجاري في حالات الوباء يزيل ٩٠٪ من الميكروبات العالقة بالجسم). [٣]

٤ ـ النظافة العامة في الثوب والبدن والمكان: إن الدين الإسلامي يحض المسلم على النظافة العامة في كل أمور حياته فمنها نظافة الشعر فعن جابر بن عبد الله ﷺقال: أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلًا شعثًا قد تفرق شعره فقال: "أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره؟ " ورأى رجلًا آخر وعليه ثياب وسخه فقال: "أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه"[٤]، وكذلك يأمر النبي ﷺ بجانب ما تقدم بقص الشارب، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط. . . ، فيقول ﷺ " عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء "قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة[٥]، ففي قص الأظافر عناية بالصحة البدنية فهي مكان تجمع الأوساخ واليد هي التي يأكل بها الإنسان فماذا عساه يكون حاله إذ أكل بيد أظافرها تجمعت بها الأوساخ، وكذا قص الشارب فإنه

---

(١) موسوعة الحقوق (٢٨٧) نقلًا عن مجلة الدعوة.

(٢) مسلم (٢٢٣).

(٣) موسوعة الحقوق (٢٨٨) وقد نقل هذا التقرير عن جريدة الأهرام القاهرية العدد ٣٣١٣٨ في ٢/ ٩/ ١٩٧٧م.

(٤) أبو داود (٤٠٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٣).

(٥) مسلم (٢٦١).

تتجمع فيه بقايا الطعام وتتكون فيه الميكروبات، وفي حلق العانة حكمة عظيمة فتركها يسبب حكة في الجلد. . . مما يولد بعض الأمراض الجلدية.

وفي إعفاء اللحية حكمة عظيمة أيضًا. . . فهي بالإضافة إلى أنها تورث المسلم جلالًا ووقارًا وهيبة وجمالًا إلا أن لها فوائد أخرى منها:

١-أن إمرار آلة الحلق على الذقن والخدين يضر بالبصر.

٢-أن اللحية تمنع الجراثيم الضارة، وتمنعها من الوصول إلى ظاهر الحلق والصدر.

٣-تحمي لثة الإنسان من العوارض الطبيعية فهي لها وقاء منها.

٤-أن هذا الشعر تجري فيه مفرزات دهنية من الجسد يلين بها الجلد ويبقى نضرًا فيه حيوية الحياة وطراوتها.

٥-إن اللحية والمادة المنوية، بينهما ارتباط باطني، فالرجولية تقوى بإعفاء اللحية، قال بعض الأطباء: لو اعتاد الناس حلق اللحية نسلًا بعد نسل ينتج من ذلك أن يولد الرجال في النسل الثامن من غير لحية، فالرجولية تقل شيئًا فشيئًا، ويظهر أثر ذلك بعد هذه المدة. . [1].

٥ـ الأمر بالفرار من المجذوم: ولقد أمر الإسلام بالتحرز والوقاية من الأمراض المعدية. . . ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ قال: " قال رسول الله ﷺ: **"لا يوردن ممرضٌ على مصحٍ"**[2]، وأيضًا ورد عن عمرو بن الشريد عن أبيه ﵁ قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي ﷺ **" إنا قد بايعناك فارجع "**[3]، وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ أنه قال: **"لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد "**[4]، وكل هذا الذي أرشدنا إليه النبي ﷺ هو ما يسمى في لغة العصر الحديث (بالحجر الصحي)، ويقوم مفهوم الحجر الصحي وماهيته، على منع انتقال الداء من المريض

---

(١) موسوعة الحقوق الإسلامية صـ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) البخاري (٥٧٧١).

(٣) مسلم (٢٢٣١).

(٤) البخاري (٥٧٠٧).

إلى السليم، أو بمعنى آخر، حصر المرض المراد عدم انتقاله في منطقة معينة حتى يسهل القضاء عليه، قبل انتشاره إلى المناطق المجاورة للبيئة الموبوءة. . . . ، والنبي ﷺ لم ينكر انتقال المرض عن طريق العدوى إلى الإنسان السليم، بل نصح عليه الصلاة والسلام أمته بأن تتجنب المناطق التي تتفشى فيها الأمراض المعدية، ولم يكتف ﷺ بذلك، بل فرض على مثل هذه المناطق حظر انتقال أفرادها إلى جهات أخرى منعًا من انتشار وتفشي الوباء، وهذا ما يشير إليه الحديث النبوي، وهو قوله ﷺ **"إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها"**[(١)، (٢)]

٦ـ **الأمر بغسل نجاسة الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب**: وثبت هذا الأمر عن النبي ﷺ بقوله **"إذا ولغ الكلب في الإناء فاغسلوه سبع مرات وعفروه الثامنة في التراب "**[(٣)]، والمراد اغسلوه سبعًا واحدة منهن بالتراب مع الماء، فكأن التراب قائم مقام غسله فسميت ثامنة لهذا. والله أعلم.

ولقد أثبت العلم الحديث أن الآنية التي يردها الكلاب تنقل مرض الكَلِب (الريبس) الخطير وعدة أمراض طفيلية أخرى، والحكمة في الغسل سبع مرات أولاها بالتراب أن فيروس الكلب دقيق متناه في الصغر، وكلما صغر حجم الميكروب كلما ازدادت فعالية سطحه للتعلق بجدار الإناء والتصاقه به، ولعاب الكلب المحتوي على الفيروس يكون على هيئة شريط لعابي سائل، ودور التراب هو امتزاز الميكروب منه على سطح دقائقه. [(٤)]

٧ـ **غسل اليدين قبل الطعام**: فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ، وإذا أراد أن يأكل غسل يده. [(٥)]

---

(١) البخاري (٥٧٢٨).

(٢) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة، تأليف / حسن ياسين عبد القادر صـ٨٥.

(٣) مسلم (٢٨٠).

(٤) كشاف الإعجاز العلمي في القرآن والسنة صـ٥٦ جمع / نبيل عبد السلام هارون.

(٥) أحمد (٦/ ١٩)، والنسائي (١/ ١٣٩)، وصححه الألباني في الصحيحة ٣٩٠.

٨ـ غسل اليدين والمضمضة بعد الطعام: ويستحب غسل اليد بعد الطعام لا سيما قبل النوم اتقاءً للضرر وحفاظًا على الصحة. فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " **من نام وفي يده غمر ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه**". [١]

٩ـ تقليل الطعام والشراب: قال ﷻ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)، وعن المقدام بن معدي كرب ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " **ما ملأ آدمي شرًا من بطن بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لنفسه** ". [٢]

قال عمر بن الخطاب ﷺ: إياكم والبطنة من الطعام والشراب فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد في الطعام والشراب، فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه. وقال طبيب نصراني لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان فقال له: إن الله قد جمع الطب كله في نصف آية. قال: وما هي؟ قال: قوله ﷻ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

١٠ – النهي عن الشرب من فِيِّ السقاء، ومن ثلمة القدح والشرب ثلاثا وعدم التنفس في الإناء:

وعن أبي سعيد ﷺ قال: "نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من ثلمة القدح، وأن ينفخ في الشراب ". [٣]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء، أو ينفخ فيه "[٤]، وفي هذا النهي من الحكم الكثيرة. . . فقد يكون الشارب مريضًا بمرض معدي فتنتقل العدوة إلى غيره، وكذا كان من سنته ﷺ أنه يتنفس في الشراب ثلاثًا ويقول: إنه أروى وأبر

---

(١) أحمد (٢/ ٢٦٣)، أبو داود (٣٨٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٦٤).

(٢) الترمذي (٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني، صحيح الجامع (٥٦٧٤).

(٣) أحمد (٣/ ٨٠)، وأبو داود (٣٧٢٢)، وقال الألباني صحيح (صحيح الجامع ٦٨٨٨).

(٤) أحمد (١/ ٢٢٠)، وأبو داود (٣٧٢٨)، الترمذي (١٨٨٨)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٩٧٧).

أو أمرأ، قال أنس: فأنا أتنفس في الشراب ثلاثًا. ". [١]

١١ـ النهي عن وطء الحائض: قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة: ٢٢٢). وسئل النبي ﷺ عن حكم الحيض فقال: "**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**". [٢]

وإنما كان القوم سألوا رسول الله ﷺ فيما ذكر لنا عن الحيض، لأنهم كانوا قبل بيان الله لهم ما يتبينون من أمره، لا يساكنون حائضًا في بيت، ولا يؤاكلونهن في إناء، ولا يشاربونهن، فعرفهم الله بهذه الآية أن الذي عليهم في أيام حيض نساءهم أن يجتنبوا جماعهن فقط دون ما عدا ذلك من مضاجعتهن، ومواكلتهن ومشاربتهن. [٣]

ولقد أثبت الطب الحديث بعد المئات من السنين الآفات والأمراض التي تحصل بسبب الاتصال بالمرأة الحائض، فمنها ما يلي:

١ - التهاب الأعضاء التناسلية للمرأة كالمهبل والرحم، وما يصعب ذلك من ارتفاع درجة الحرارة، وترشحات مرضية ذات رائحة كريهة.

٢ - تحرش المهبل والإصابة بالرضوض والسحجات.

٣ - وصول الالتهاب في بعض الحالات إلى ملحقات الرحم.

٤ - آلام في منطقة الثديين، وعدم حصول الانسجام عند المداعبة.

٥ - ردود فعل عصبية تؤدي إلى انقطاع شديد للمحيض مع آلام شديدة.

٦ - اضطراب حالة المرأة النفسية يؤدي إلى تصرفات غير طبيعية في البيت والمجتمع.

٧ - زيادة كمية النزف الدموي المرافق للحيض يصحبه ضعف عام لدى المرأة.

---

(١) مسلم (٢٠٢٨).

(٢) مسلم (٣٠٢).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٩٢).

٨- التهاب الأعضاء التناسلية في الرجل يشمل لشدته المثانة والمجاري البولية والبروستاتا. (١)

١٢ـ تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير: وقد جمع الله تعالى تحريم ذلك كله في قوله ﷻ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ (البقرة: ١٧٣). ومعنى الميتة هو الحيوان الذي يموت حتف أنفه وقبل تذكيته، والمراد بالدم الدم المسفوح ولحم الخنزير سواء ذكى أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه. (٢) ويأتي الطب الحديث ليكشف لنا عما أوضحه القرآن الكريم فنجد أن الخنزير يصاب بأنواع من الديدان منها: دودة التنيا، والدودة الشريطية، وهذه الدودة الشريطية لا يقتصر وجودها على أمعاء الإنسان بل تكمل دورتها في جسم نفس الشخص المريض وفي جسم أي إنسان آخر، إذ تخرج الأجنة اليرقات من البيض، وتخترق جدار الأمعاء إلى الدورة الدموية، وتتوزع على الأجهزة الحيوية للجسم حيث تتحوصل اليرقة في غلاف سميك الجدار، وقد تصل إلى حجم حبة الفول (٢سم تقريبًا) مما يزيد خطورتها أنها تفصل التحوصل في الجهاز العصبي. (٣)

وقد يعترض المدافعون عن أكل لحم الخنزير بقولهم: إن وسائل الطهو الحديثة والجيدة التي تمتاز بالحرارة المرتفعة، قادرة على قتل الدودة الشريطية، وحينئذ فلا وجه للتحريم، ولكن الطب الحديث الذي يقدسونه، يرد عليهم بالحجج والقواطع العلمية والطبية التالية:

١-الوقاية المضمونة من الإصابة لهذه الدودة هي في عدم أكل لحم الخنزير.

٢-أن الأمراض العضوية التي تنتج عن أكل لحم الخنزير هي كالآتي:

أ-الدودة الشريطية تسبب اضطرابات مختلفة في الجهاز الهضمي مع ضعف عام

---

(١) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة. حسن ياسين عبد القادر (٧٨-٧٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨).

(٣) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة ص٥٥، نقلًا عن كتاب الطب الوقائي في الإسلام تأليف/ أحمد شوقي الفنجري.

ونحول واصفرار الوجه.[١]

ب -يحتوي لحم الخنزير على ٢٨. ١ ٪ من الدهون في حين أن لحم البقر يحتوي على ٤. ٥ ٪ من الدهون، لذلك يكون لحم الخنزير أعسر هضمًا ويؤثر على الأمعاء.

ج-يحتوي لحم الخنزير على كمية كبيرة من حامض البوليك، خلافًا لسائر الحيوانات، فكل الحيوانات تستطيع أن تفرز ٩٠ ٪ من هذه المادة بمساعدة الكليتين، إلا أن الخنزير لا يتمكن من إفراز أكثر من ٢ ٪.

د-يسبب أكل لحم الخنزير، التهاب السحايا، والمخ نتيجة الإصابة بالميكروب السبحي الكثير الشيوع في لحم الخنزير.

هـ -يسبب أكل لحم الخنزير العديد من الأمراض النفسية منها: موت النخوة، وعدم الغيرة على أهله، ولما كان الخنزير من الحيوانات آكلات اللحوم، فهو أكثر عنفًا، وشراسة من الغنم والبقر وتنتقل هذه الصفات إلى أكل لحم الخنزير.[٢]

١٣ـ تحريم شرب الخمر والمخدرات: قال ﷻ ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠). وقال ﷺ: **"كل مسكر خمر، وكل خمر حرام".**[٣]

ولقد أعلن الإسلام الحرب على شاربي الخمر ومن عاونهم: فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **"لعن الله الخمر وشاربها وساقيها، وبايعها، ومبتاعها وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه".**[٤]

ومما قاله الطب الحديث بشأن الخمر وخطورتها على صحة الإنسان أن التجارب أثبتت

---

(١) المصدر السابق (٥٦).

(٢) لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع راجع كتاب "انعكاسات لحم الخنزير على الصحة "لمؤلفه / هايتس هاينرش ركفاق، ومجلة الإعجاز العلمي العدد الثالث. راجع: تفصيل ذلك في شبهة تحريم لحم الخنزير

(٣) مسلم (٢٠٠٣).

(٤) أبوداود (٣٦٧٤)، وأحمد (٢/ ٢٥)، وغيرهما، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٣٩).

أن أكثر خلايا الجسم تأثرًا بالكحول هي بالدرجة الأولى الملايين العديدة من الخلايا العصبية في قشرة الدماغ وجذعه وبالدرجة الثانية الخلايا العصبية في النخاع الشوكي. (١)

وكما حرم الإسلام الخمر وحرم التداوي بها. . . فقد حرم كل المخدرات والمفترات، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر "(٢)

ويدخل في المخدرات الحشيش والأفيون والماريجوانا والقات وغير ذلك من سائر المخدرات، وعلة التحريم هو مشاركتها الخمر في الإضرار بالجسم وإن اختلف التأثير، ويدخل التدخين في التحريم لثبوت ضرره على النفس والمال. . . فالتدخين من وسائل الإدمان، لأن شركات التبغ العالمية تربي المدخنين قبل سن العشرين، بحيث يصعب عليهم الإقلاع عن التدخين، كما تقوم بزيادة نسبة النيكوتين المخدر في السجائر مما يدفع إلى إدمانها. (٣)

١٤ـ الأمر بإطفاء النار أثناء النوم: وهذا أيضًا من حرص الإسلام على حياة الإنسان وصحته.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"خمروا الآنية وأجيفوا الأبواب، وأطفئوا المصابيح فإن الفويسقة ربما جرت الفتيلة فأحرقت أهل البيت "**. (٤)

١٥ـ تحريم الزنا: لقد حرم الله الزنا وسد الذرائع المؤدية إليه بالدعوة إلى الاحتشام ومنع الفتنة بالتزين المفرط أو بالتعطر، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٢). وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وأثنى الله تعالى على الحافظين فروجهم والحافظات فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (المؤمنون ٥: ٧). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة (٦١) نقلًا عن مصدر وسيط.

(٢) أحمد (٦/ ٣٠٩)، وأبو داود (٣٦٨٦)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٧٣٢).

(٣) موسوعة الحقوق الإسلامية (٣٠٨-٣١٠)، راجع: شبهة تحريم الخمر.

(٤) البخاري (٦٢٩٥).

رسول الله ﷺ: " **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**". [١] وفي حديث سمرة بن جندب ﷺ في حديث الرؤيا الطويل أن النبي ﷺ قال: "فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: أحسب أنه يقول: فإذا فيه لغط وأصوات قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا قال: قلت لهما ما هؤلاء،. . . . ، ثم قالا له: وأما الرجال والنساء العراة الذي في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني ". [٢]

هذا وقد كشف العلم الحديث عن بعض أضرار الزنا الصحية فمنها:

١ـ السيلان: وسببه الميكروبات البنية اللون التي يصاب بها الإنسان، نتيجة العلاقات الجنسية، غير الشرعية واتصاله بالنساء المريضات والعكس.

٢ـ السفلس: وهو من الأمراض الزهرية الخطرة يسببه ميكروب اللولبية الشاحبة ويصاب به الإنسان أثناء العلاقات الجنسية السرية مع الفاحشات أو عند اللواط. [٣]

١٦ـ الحث على التداوي: كان من هدي النبي ﷺ " فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، فعن أسامة بن شريك، قال: شهدت الأعراب يسألون النبي ﷺ أعلينا حرج في كذا؟ أعلينا حرج في كذا؟ فقال لهم عباد الله، وضع الله الحرج، إلا من اقترض من عرض أخيه شيئًا فذاك الذي حرج. فقالوا: يا رسول الله هل علينا جناح أن لا نتداوى؟ قال: تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داءً إلا وضع معه شفاءً، إلا الهرم. قالوا: يا رسول: ما خير ما أعطى العبد؟ قال: خلق حسن. [٤]

(والأمر بالتداوي لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه رفع داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها

---

(١) مسلم (١٧٢).

(٢) البخاري (٧٠٤٧).

(٣) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة، تأليف / حسن ياسين عبد القادر صـ ٧٤.

(٤) ابن ماجه في السنن (٣٤٣٦)، البخاري في الأدب المفرد (٢٩١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٣٣).

قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة). [١]

ولكن ينبغي أن يعلم أيضًا أن التداوي نوعان: تداوي مادي وتداوي روحي وهو التداوي بالقرآن والأدعية المأثورة عن النبي ﷺ. قال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢). وكان النبي ﷺ يدعو للمريض فيقول: **"أذهب البأس، رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا "**. [٢]

١٧ـ حق المريض

١ـ حقه في التداوي: عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرِ بن عبد الله رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ الله ﷻ"**[٣]، فهذا يوضح ثبوت الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها.

والْأَمْرُ بِالتَّدَاوِي لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ كَمَا لَا يُنَافِيهِ دَفْعُ دَاءِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِأَضْدَادِهَا بَلْ لَا تَتِمّ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ إلّا بِمُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ الّتِي نَصَبَهَا الله مُقْتَضَيَاتٍ لِمُسَبّبَاتِهَا قَدَرًا وَشَرْعًا وَأَنّ تَعْطِيلَهَا يَقْدَحُ فِي نَفْسِ التّوَكّلِ كَمَا يَقْدَحُ فِي الْأَمْرِ وَالْحِكْمَةِ[٤]. وله الحق في التداوي، ولو بشيء محرم اضطرارًا، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي لُبْسِ الْحَرِيرِ لِحِكَّةٍ كانت بِهِمَا[٥].

٢ـ حقه في العيادة: قال البراء: أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ[٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: **حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَسَمِّتْهُ وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا**

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢).

(٢) البخاري (٥٦٧٥)، مسلم (٤٨).

(٣) مسلم (٢٢٠٤).

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٦: ١٣).

(٥) البخاري (٢٧٦٤)، مسلم (٢٠٧٦).

(٦) البخاري (١١٨٢)، مسلم (٢٠٦٦).

مَاتَ فَاتَّبِعْهُ[١].

وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ**[٢].

٣ـحقه في المجاملة: يسأل العائد عن حال المريض، وينفس له في الأجل يعطيه الأمل في أنه سيشفى ويطول عمره بما يطيب نفسه إدخالًا للسرور عليه، ويرغبه في التوبة والوصية لحديث: "**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**"[٣]

ولا يطيل العائد الجلوس خوفًا من الضجر، وتكره العيادة وسط النهار، ويعاد بكرةً وعشيًا[٤]، ويرقيه ويدعو له بالصلاح، فعن عائشة قالت: كان النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: **اللهمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبْ الْبَاسَ اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**[٥].

٤ـ حقه في تخفيف بعض العبادات حسب مرضه: حقه في تخفيف أحكام الطهارة، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ (النساء: ٤٣)، وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه لما خاف أن يهلك من شدة البرد تيمم، ولم يأمره ﷺ بغسل ولا إعادة[٦]. وحقه في تخفيف الصلاة إذا عجز المريض عن القيام سقط عنه وصلى قاعدًا، وإذا تيسر له يركع ويسجد إن استطاع، فإن لم يستطع الركوع والسجود أو السجود فقط أومأ إيماءً برأسه، وجعل إيمائه للسجود أخفض من ركوعه تفرقةً بينهما. وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ

---

(١) مسلم (٢١٦٢).

(٢) الترمذي (٩٦٩)، أبو داود (٣٠٩٨)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١٠٧٠٦).

(٣) البخاري (٢٥٨٧)، مسلم (١٦٢٧).

(٤) الفقه الإسلامي (٢/ ٤٥٠).

(٥) البخاري (٥٧٥٠)، مسلم (٢١٩١).

(٦) أبوداود (٣٣٤)، المستدرك (١/ ٢٨٥)، سنن الدار قطني (١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٢٣).

عَادَ مَرِيضًا، فَرَآهُ يُصَلِّي عَلَى وِسَادَةٍ، فَأَخَذَهَا فَرَمَى بِهَا، فَأَخَذَ عُودًا لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ فَرَمَى بِهِ وَقَالَ: " **صَلِّ عَلَى الأَرْضِ إِنِ اسْتَطَعْتَ، وَإِلاَّ فَأَوْمِئْ إِيمَاءً، وَاجْعَلْ سُجُودَكَ أَخْفَضَ مِنْ رُكُوعِكَ** "(١). فإن لم يستطع القعود استلقى على ظهره وجعل رجليه إلى القبلة وأومأ بالركوع والسجود، وإن استلقى على جنبه ووجهه إلى القبلة وأومأ جاز، والكيفية أو الهيئة الأولى أولى، فإن لم يستطع الإيماء برأسه أخر الصلاة، ولا يومئ بعينه ولا بقلبه ولا بحاجبيه، لأنه لا عبرة له، ولا تسقط عنه الصلاة ويجب عليه القضاء.(٢)

٥ـحقه في تخفيف الصوم: قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٤)، قوله تعالى: " مريضا " للمريض حالتان: إحداهما: ألا يطيق الصوم بحال، فعليه الفطر واجبا. الثانية: أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة، فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل(٣). فإن تمادى به المرض فلم يصح حتى جاء رمضان آخر، فيطعم مكان كل يوم مسكينا مدًا من حنطة، ثم ليس عليه قضاء، وإذا أفطر في رمضان لعلة فمات من علته فلا شئ عليه(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من حلق شعره وجزه وإتلافه بحلق أو نورة أو غير ذلك إلا في حالة العلة كما نص على ذلك القرآن. وأجمعوا على وجوب الفدية على من حلق وهو محرم بغير علة(٥).

٦ـحقه في رفع الجهاد: قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى

(١) سنن البيهقي الكبرى (٣٤٨٤)، (٣٤٨٥)، وصححه الألباني في تمام المنة ١/ ٣١٤.
(٢) الفقه الإسلامي (١/ ٦٣٩، ٦٣٨).
(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٦٨٤٧).
(٤) تفسير القرطبي (١/ ٦٥٣).
(٥) تفسير القرطبي (١/ ٧٠٨).

ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ (الفتح١٧)، أي: لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد لعماهم وزمانتهم وضعفهم[١]. وله الحق أن يضع السلاح أثناء الحرب، قال تعالى: ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ (النساء١٠٢)، رخص في المطر وضع السلاح لمشقة حمله ورخص في وضعه في المرض[٢].

١٨ـ حق اللسان

اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير حجمه، عظيم طاعته وجرمه فمن أطلق للسانه العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان. . . ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع. [٣]

وفيما يلي نبين بإذن الله تعالى بعض حقوق اللسان:

أولًا: عظم خطر اللسان، وفضيلة الصمت: قال ﷺ: **" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت "**[٤]، وقال ﷺ لعقبة بن عامر لما سأله عن النجاة فقال: **" أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك "**. [٥]

ثانيًا: آفات اللسان: للسان آفات وأمراض وعلل كثيرة وكلها تودي بالإنسان في المهالك فمنها:

١ـ الكلام فيما لا يعنيك: قال ﷺ **" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه "**. [٦]

فعلى العاقل أن يستغل وقته فيما يعنيه ولا ينفقه ويضيعه فيما لا يعنيه، فكم من كلمة يبنى بها قصرٌ في الجنة.

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٦٠٩٣).

(٢) القرطبي (٣/ ١٩٤٣).

(٣) موسوعة الحقوق الإسلامية (٣٩٥).

(٤) البخاري (٦٠١٨)، مسلم (٧٤).

(٥) الترمذي (٢٤٠٦) عن عقبة بن عامر، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢٧٤١): صحيح لغيره.

(٦) الترمذي (٢٣١٧)، ابن ماجه (٣٩٧٦)، وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني (الجامع الصغير وزيادته ١٠٨٥٤).

٢ـ فضول الكلام: قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾. (النساء: ١١٤).

وقال عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد منها، أتذكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

٣ـ المراء والجدال: قال النبي ﷺ: **"أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا. ".** [(١)]

والمراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ، وإما في المعنى.

والجدال هو: قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه.

٤ـ الخصومة: قال رسول الله ﷺ **"إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم ".** [(٢)]

فاللسان هو سبب الخصومة، والخصومة توغر الصدر، وتهيج الغضب وتورث العداوة، وتشوش الخاطر، ومنها ينشأ الحقد والغل والحسد وهي مبدأ كل شر. . . فهي سبب الغيبة والنميمة، وتلمس العثرات. . . وقطع الأرحام، وسفك الدماء.

٥ـ التشدق في الكلام، وتكلف الفصاحة: قال ﷺ: **" إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون والمتفيهقون**، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون، والمتشدقون؛ فما المتفيهقون؟ قال: **المتكبرون ".** [(٣)] فهذا من التصنع المذموم.

---

(١) أبوداود (٤٨٠٠) عن أبي أمامه ﷺ، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٧٣).

(٢) البخاري (٢٤٥٧)، مسلم (٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) الترمذي (٢٠١٨) عن جابر، وحسنه الألباني (الجامع الصغير وزيادته ٣٩٦٤).

٦- **الفحش، والسب، وبذاءة اللسان**: والفحش: هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة.

ولم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا. (١)

وقال: " **سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**".(٢)

ومن أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا: يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: "**يسب الرجل فيسب أباه** ". (٣)

٧- **اللعن**: إما لعن الحيوان أو الجماد أو الإنسان وكل ذلك مذموم، قال النبي ﷺ "**لعن المؤمن كقتله** "(٤).

وقال ﷺ " **إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة** ". (٥)

٨- **المزاح**: منه مباح ومنه مذموم فأما المباح فهو ما كان يسيرًا ولم يتعد قدر الحاجة، وأما المذموم فهو الذي يتجاوز به العبد الحد، وكان النبي ﷺ "**يمزح ولا يقول إلا حقًا**".

٩- **السخرية والاستهزاء**: قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: حكيت إنسانًا فقال لي النبي ﷺ: "**والله ما أحبُ أني حاكيت إنسانًا ولي كذا وكذا** ". (٦)

١٠- **إفشاء السر**: وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء، والتهاون بحق المعارف والأصدقاء قال ﷺ: "**إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه**

---

(١) البخاري (٦٠٣٥)، مسلم (٦٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) البخاري (٦٠٤٤)، مسلم (١١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٥٩٧٣)، مسلم (١٤٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أحمد (٤/ ٣٣)، الدارمي (٢/ ٢٥٢-٢٣٦١)، وصححه الألباني (صحيح الجامع ٥٤٠٤).

(٥) مسلم (٨٦).

(٦) أبو داود (٤٨٧٥)، البيهقي في الشعب (٥/ ٣٠١)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١٠٤٥٢).

ثم ينشر سرها ". (١)

١١ـ الوعد الكاذب: الوعد الكاذب من أمارات النفاق. قال ﷺ: " **أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ".** (٢)

١٢ـ الغيبة: قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢). قال النبي ﷺ: " **أتدرون ما الغيبة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **ذكرك أخاه بما يكره**، قال: فإن كان فيه ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته. (٣)

١٩ـ حقوق اليتيم

اليتيم لغة: قال الليث: اليتيم الذي مات أبوه فهو يتيم حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم، واليتيم من قبل الأب في بني آدم وقد يتم يتيم يتما وقد أيتمه الله. وقوله تعالي: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾. (النساء: ٢). سماهم يتامى بعد بلوغهم وإيناس رشدهم للزوم اليتم إياهم. وقال المفضّل أصل اليتم: الغفلة قال: وبه يسمى اليتيم يتيما، لأنه يتغافل عن بره. وقال أبو عمرو: اليتيم، الإبطاء، ومنه أخذ اليتيم لأن البر يبطئ عنه. وقال الأصمعي: اليتم في البهائم من قبل الأم وفي الناس من قبل الأب. (٤)

مكانة اليتيم في القرآن: قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ (النساء: ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى

---

(١) مسلم (١٢٣).

(٢) البخاري (٣٤)، مسلم (١٠٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) تهذيب اللغة للأزهري مادة يتم (١٤/ ٣٣٩)، وانظر: الصحاح للجوهري (٥/ ١٦٦٧)، ولسان العرب لابن منظور (١٢/ ٦٤٥).

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ (البقرة: ٨٣).

دفع المال لليتيم بعد بلوغه ورشده: قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾. (النساء: ٦). يعني تعالى ذكره بقوله " وابتلوا اليتامى" واختبروا عقول يتاماكم في إفهامهم، وصلاحهم في أديانهم، وإصلاحهم أموالهم، "حتى إذا بلغوا النكاح " فإنه يعني إذا بلغوا الحلم.

وقوله "فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم" في حالهم والإصلاح في أموالهم يعني بذلك تعالى ذكره: ولاة أموالهم، يقول الله لهم فإذا بلغ أيتامكم الحلم، فآنستم منهم عقلا وإصلاحا لأموالهم، فادفعوا إليهم أموالهم ولا تحبسوها عنهم "[١]

تزويج اليتيمة: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النساء: من الآية٣). أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه. [٢] وعن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ فقالت يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ وقول الله تعالى في آية أخرى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال، قالت: فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا

---

(١) جامع البيان للطبري (٣/ ٢٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٣٣٩).

بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال. [١]

حق اليتيم في السنة: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **"إني أحرج[٢] حق الضعيفين اليتيم والمرأة"**. [٣]

وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قله فقال له: **"إذا أردت أن تلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم"**. [٤]

ما للوصي أن يعمل في مال اليتيم وما يأكل منه بقدر عمالته:

عن ابن عمر ﷺ " أن عمر تصدق بمال له على عهد رسول الله ﷺ وكان يقال له ثمغُ، وكان نخلا – فقال عمر: يا رسول الله إني استفدت مالا وهو عندي نفيس فأردت أن أتصدق به، فقال النبي ﷺ: **تصدق بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولكن ينفق ثمرة**، فتصدق به عمر، فصدقته تلك في سبيل الله وفي الرقاب والمساكين والضيف وابن السبيل ولذي القربى، ولا جناح على من وليه أن يأكل منه بالمعروف أو يوكل صديقه غير متمول"[٥]، وعن عائشة رضي الله عنها ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦)، قالت: أنزلت في والي اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان محتاجا بقدر ماله بالمعروف ". [٦]

وقوله تعالى: " ومن كان غنيًا" من ولاة أموال اليتامى على أموالهم " فليستعفف بماله عن أكلها بغير الإسراف والبدار أن يكبروا بما أباح الله له أكلها به، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف أي: ومن كان فقير منهم إليها محتاجا فليأكل بالمعروف"[٧].

(١) البخاري (٤٥٧٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٢) أحرج: أي أضيقه وأحرمه على من ظلمها. انظر لسان العرب مادة (حرج) (٢/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨) والنسائي (٩١٤٩)، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٣٩). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٥).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٦٣)، والبيهقي في الشعب (١١٠٣٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٨٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٦٤).

(٦) أخرجه البخاري (٢٧٦٥)، ومسلم (٣٠١٩).

(٧) انظر جامع البيان لابن جرير (٤/ ٢٥٤).

وعن عبد الله بن عمرو، أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم، " قال: كل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مبادر، ولا متأثل"[(١)]، وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام: ١٥٢)، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ (النساء: ١٠) فشق ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٢٢٠) إلى قوله "لأعنتكم "[(٢)] وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ قال: كان يكون في حجر الرجل اليتيم، فيعزل له طعامه وشرابه وآنيته، فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ **فأحل لهم خلطتهم**". [(٣)]

اجتناب التعدي على ماله: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (النساء: ١٠). أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون نارا تتأجج في بطونهم يوم القيامة ". [(٤)] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكر منها: " **أكل مال اليتيم** ". [(٥)]

كفالته: لقوله ﷺ " **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**. وقال بإصبعيه السبابة والوسطى ". [(٦)]

الشفقة والبر: قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ (الإنسان: ٨). أي: هؤلاء الأبرار يطعمون الطعام على حبهم إياه وشهوتهم له وقوله

---

(١) أخرجه النسائي (٦/ ٢٥٦)، وابن ماجه (٢٧١٨)، وأبو داود (٢٨٧٢)، وقال الألباني: حسن صحيح في صحيح النسائي (٣٤٢٩).

(٢) أخرجه النسائي٦/ ٢٥٦، وأبو داود (٢٨٧١)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٣٤٣٠).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الوصايا (٦/ ٢٥٦)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٣٤٣١).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٣٦٥).

(٥) البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٠٥)، ومسلم بنحوه (٢٩٨٣) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

مسكينا يعني جل ثناؤه بقوله "مسكينًا " ذوي الحاجة الذين قد أذلهم الحاجة "يتيما وهو الطفل الذي قد مات أبوه ولا شيء له". [١]

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ (الفجر: ١٧)، يقول الله تعالى: إنما أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، فأخرج الكلام على الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم، فلذلك أهنتكم. [٢]

وحديث أبي هريرة ﷺ أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: "إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم". [٣] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ (الضحى: ٩). أي: كما كنت يتيمًا فآواك الله فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهر وتهنه، ولكن أحسن إليه، وتلطف به ". [٤]

٢٠ـ حقوق الضيف

الضيف لغة: ضفت الرجل ضيفًا، وضيافة، وتضيفته: نزلت به ضيفًا وملت إليه، وقيل: نزلت به وصرت له ضيفا وضفته وتضيفته: طلبت منه الضيافة. [٥]

حق الضيف في القرآن: قال الله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ (الحجر: ٥١).

يقول ﷻ وخبرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر. [٦]

وقال ﷻ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (الذريات ٢٤: ٢٧).

---

(١) جامع البيان لابن جرير (٢٩/ ٢٠٩).

(٢) جامع البيان لابن جرير (٣٠/ ١٨٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تفسير ابن كثير (١٤/ ٣٨٥).

(٥) لسان العرب لابن منظور (٩/ ٢٠٩).

(٦) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٦٧).

وقوله" هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ "أي: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وقوله: "فراغ إلى أهله "أي: انسل خفية في سرعة، "فجاء بعجل حنيذ"أي: من خيار ماله وفي الآية الأخرى "﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾﴾ (هود: ٦٩) أي: مشوي [١] "فقربه إليهم " أي: أدناه منهم، "قال ألا تأكلون"؟: تلطف في العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال "نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى ثمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال"ألا تأكلون "؟ علي سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل. [٢]

حق الضيف في السنة: عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: **" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه "**. [٣]

قال ابن بطال: سئل عنه مالك فقال: يكرمه ويتحفه يوما وليلة وثلاثة أيام ضيافة، قلت: واختلفوا هل الثلاث غير الأول أو بعد منها؟ فقال أبو عبيد: يتكلف له في اليوم الأول بالبر والألطاف، وفي الثاني والثالث يقدم له ما حضره ولا يزيده على عادته، ثم يعطيه ما يجوز به مسافة يوم وليلة وتسمى الجيزة، وهي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل. [٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ **" إن لزورك عليك حقا"**. [٥] وعن

---

(١) الرصف: حجارة مرصوف بعضها إلى بعض (لسان العرب لابن منظور ٩/ ١٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣/ ٢١٧).

(٣) البخاري (٦١٣٦)، ومسلم (١٣٥٢).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٥٤٩).

(٥) البخاري (١٩٧٤).

أبي جحيفة عن أبيه قال " آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كُل فإني صائم، فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. . . الخ الحديث وفيه من الفوائد: صنع الطعام للضيف وتقديمه له.

يكره الغضب والجزع وعنده الضيف: عن أبي عثمان عن عبد الرحمن ابن أبي بكر رضي الله عنهما أن أبا بكر تضيف رهطا فقال لعبد الرحمن: دونك أضيافي فإني منطلق إلى النبي ﷺ، فافرُغْ من قراهم قبل أن أجئ، فأنطلق عبد الرحمن فأتاهم بما عنده فقال: اطعموا فقالوا أين رب منزلنا؟ قال: اطعموا قالوا ما نحن بآكلين حتى يجيء رب منزلنا قال: اقبلوا عنا قراكم فإنه إن جاء ولم تطعموا لنلقينَّ منه فأبوا فعرفت أنه يجد علي فلما جاء تنحيت عنه، فقال ما صنعتم فأخبروه، فقال يا عبد الرحمن فسكتُّ ثم قال يا عبد الرحمن فسكت فقال: يا غنثر، أقسمت عليك إن كنت تسمع صوتي لما جئت فخرجت فقلت: سل أضايفك. فقالوا صدق أتانا به قال: فإنما انتظرتموني والله لا أطعمه الليلة فقال الآخرون والله لا نطعمه حتى تطعمه قال لم أر في الشر كالليلة ويلكم ما أنتم؟ لم لا تقبلون عنا قراكم؟ هات طعامك فجاءه فوضع يده فقال: باسم الله فأكل وأكلوا"[(١)]

إيثاره على النفس: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال "من يضيف هذا الليلة رحمه الله فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٠)، ومسلم (٢٠٥٧).

"قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة". [١]

وفي رواية البخاري "فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾. (الحشر: من الآية٩).

ما يفعل الضيف إذا تبعه غير من دعاه صاحب الطعام واستحباب إذن صاحب الطعام للتابع:

عن أبي مسعود الأنصاري قال: كان رجل من الأنصار يقال له أبو شعيب وكان له غلام لحام فرأى رسول الله ﷺ فعرف في وجهه الجوع فقال لغلامه: ويحك اصنع لنا طعاما لخمسة نفر فإني أريد أن أدعو النبي ﷺ خامس خمسة. قال: فصنع ثم أتى النبي ﷺ فدعاه خامس خمسة، وأتبعهم رجل. فلما بلغ الباب قال النبي ﷺ "إن هذا اتبعنا فإن شئت أن تأذن له وإن شئت رجع " قال لا بل آذن له يا رسول الله". [٢]

٢١ـ حقوق الجوار

معنى الجوار في اللغة: الجوار: المجاورة والجار الذي يجاورك، وجارك: الذي يجاورك. [٣]

١ـحق الجار في القرآن: قال الله ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦). قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: والجار ذي القربى، يعني الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقال أبو إسحاق عن نوف البكالي، في قوله والجار ذي القربى: يعني الجار المسلم، والجار الجنب يعني اليهودي والنصراني[٤].

أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه. ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى: "والجار ذي القربى" أي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٦)، وأخرجه مسلم (٢٠٣٦).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٤/ ١٥٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣).

القريب، " والجار الجنب" أي الغريب، قاله ابن عباس وكذلك هو في اللغة، قلت: وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح. (١)

٢ـحقوق الجوار في السنة: "عن رجل من الأنصار قال: خرجت مع أهلي أريد النبي ﷺ وإذا أنا به قائم، وإذا رجل مقبل عليه، فظننت أن لهما حاجة فجلست فو الله لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثي له من طول القيام، ثم انصرف، فقمت إليه فقلت: يا رسول الله، لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام، قال أتدري من هذا؟ " قلت: لا قال: **ذاك جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه، أما إنك لو كنت سلمت عليه لرد عليك السلام**". (٢)

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: "**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**". (٣)

أن يحب لجاره ما يحبه لنفسه: عن انس بن مالك عن النبي ﷺ قال: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه أو لجاره ما يحبه لنفسه**". (٤)

إكرام الجار ولو بالقليل: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **يا نساء المسلمات! لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة**"(٥) "فرسن شاة ": هو حافر الشاة. (٦)

وهذا النهي عن الاحتقار نهي للمعطية المهدية، ومعناه: لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقار ما الموجود عندها، **بل** تجود بها تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاة، وهو خير من العدم. (٧)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٨٧).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٦٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٤٢٧)، والخرائطي (٣٥/ ٣٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٧٢).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٤) مسلم (٤٥)، والبخاري (١٣) بنحوه.

(٥) مسلم (١٠٣٠)، والبخاري (٦٠١٧).

(٦) الفتح (١٠/ ٤٥٩).

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي (٤/ ١٢٩).

وعن عمرو بن معاذ الأشهلي، عن جدته أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **"يا نساء المسلمات، لاتحتقرن امرأة منكن لجارتها ولو كراع شاة محرق"**. (١) الكراع: من الإنسان ومن الدواب وسائر المواشي: مادون الكعب.

وفي هذا الحديث الحض على الصلة والهدية بقليل الشيء وكثيره، وفي ذلك دليل على بر الجار وحفظه، لأن من ندب إلى أن تهدي إليه وتصله، فقد منعت من أذاه وأمرت ببره. (٢)

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليلي ﷺ أوصاني: **"إذا طبخت مرقًا فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف"**. (٣)

عدم أذيته: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره"**. (٤)

وعن جحيفة قال: جاء رجل إلي رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال: **"اطرح متاعك على الطريق فطرحه**، فجعل الناس يمرون عليه ويلعنونه، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لقيت من الناس، قال: وما لقيت منهم؟ قال: يلعنوني قال "قد لعنك الله قبل الناس، قال فإني لا أعود فجاء الذي شكاه إلى النبي ﷺ فقال له: **"ارفع متاعك فقد كفيت"**(٥) وعن أبي عامر الحمصي قال: كان ثوبان يقول: "وما من جار يظلم جاره ويقهره، حتى يحمله ذلك على أن يخرج من منزله فقد هلك ". (٦)

لا يمنعه من غرز الخشبة في جداره: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " لا

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٢) والموطأ صـ ٧٠٩، والإمام أحمد (٤/ ٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٩٠).

(٢) التمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٩٥).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٥).

(٤) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٣٤)، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٦٥) وبنحوه في الأدب المفرد (١٢٥) قال عنه الشيخ الألباني: صحيح لغيره. انظر: صحيح الترغيب (٢٥٥٨).

(٦) الأدب المفرد (١٢٧)، وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٤).

يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره". قال: ثم يقول أبوهريرة: مالي أراكم عنها معرضين؟ والله! لأرمين بها بين أكتافكم. (١)

عدم إغلاق الباب على الجار ومنع المعروف: "عن ابن عمر قال: لقد أتى علينا زمان، أو قال حين، وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم. ثم الآن الدنيا والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم سمعت النبي ﷺ يقول: **"كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب! هذا أغلق بابه دوني، فمنع معروفه "**. (٢)

دعاء النبي على جار السوء: عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ كان يقول: **"اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول "**. (٣)

أذية الجار سبب في دخول النار: عن أبي هريرة ﷺقال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها، وصيامها، وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها! قال: **هي في النار"**قال: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من قلة صيامها، وصدقتها، وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار(٤) من الأقط(٥)ولا تؤذي جيرانها بلسانها! قال: **هي في الجنة"**. (٦)

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال **"لا يدخل الجنة من لا يؤمن جاره بوائقه"**. (٧)

لا يشبع دون جاره: عن عبد الله بن المساور قال: سمعت ابن عباس يخبر ابن الزبير

---

(١) مسلم (١٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١١)، قال عنه الألباني: حسن لغيره، انظر: صحيح الأدب (٨١).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٧)، وابن حبان برقم (١٠١٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٢)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب (٨٦).

(٤) الثور القطعة العظيمة من الأقط والجمع أثوار. (لسان العرب لابن منظور ٤/ ١١١).

(٥) الأقط: شيء يتخذ من اللبن المحيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل لسان العرب (٧/ ٢٥٧).

(٦) رواه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٦)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٩)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٨٨).

(٧) مسلم (٧٣).

يقول: سمعت النبي ﷺ يقول "ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع". (١) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ " **ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به**". (٢)

إثم من لا يأمن جاره بوائقه: عن أبي شريح أن النبي ﷺ: "قال: **والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه** ". (٣) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه** "(٤)

الجار الصالح والجار السيئ: عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: "**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق والمركب السوء**"(٥)

الإحسان إلى الجار يؤدي إلى زيادة الإيمان: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من يأخذ مني خمس خصال فيعمل بهن، أو يعلمهن من يعمل بهن؟ قال: قلت: أنا يا رسول الله، قال: فأخذ بيدي، فعدهن فيها، ثم قال: **اتق المحارم؛ تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك؛ تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك؛ تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك؛ تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب**". (٦)

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلي في مسنده (٢٦٩١)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٨٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٢٥٩)، صحيح لغيره. انظر: صحيح الترغيب (٢٥٦١).

(٣) البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٧).

(٤) رواه الإمام أحمد (٣/ ١٩٨)، والبيهقي في الشعب (٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٨٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٥٤).

(٥) ابن حبان (٤٠٣٢)، وأحمد بنحوه (١/ ١٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٨٢).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي (٢٣٠٥)، والبيهقي في الشعب (٩٥٤٤)، (حسن لغيره) انظر صحيح الترغيب (٢٥٦٧).

المحسن لجاره يكتب عند الله من الخيرين: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**". (١)

الأدنى فالأدنى من الجيران: عن الوليد بن دينار عن الحسن، أنه سُئل عن الجار؟ "فقال: أربعين دارًا أمامه، وأربعين خلفه، وأربعين عن يمينه، وأربعين عن يساره ". (٢)

حرمة عرض الجار: عن محمد بن سعد قال: سمعت أبا ظبية الكلاعي قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سأل رسول الله ﷺ أصحابه عن الزنى؟ قالوا: حرام، حرمه الله ورسوله فقال: "لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره، وسألهم عن السرقة؟ قالوا: حرام، حرمه الله ﷻ ورسوله، فقال: لأن يسرق من عشرة أهل أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره". (٣)

إكرام الجار اليهودي: عن عبد الله بن عمرو أنه ذبحت له شاه فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودي، أهديت لجارنا اليهودي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**". (٤)

يهدي إلى أقربهم بابًا: عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: "**إلى أقربهم منك بابا**". (٥)

٢٢ـ حق الخادم والمملوك

إن ملك اليمين في الإسلام يقتضي حقوقًا في المعاشرة لا بد من مراعاتها، فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ. فعن علي ﷺ قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ " **الصلاة**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٤٤)، والإمام أحمد (٢/ ١٦٨)، وابن خزيمة (٢٥٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٩)، وحسن إسناده الألباني في صحيح الأدب (٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٣)، وأحمد (٦/ ٨)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٧٦).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥)، و أبوداود (٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٣)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب (٧٨).

(٥) البخاري (٦٠٢٠).

الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم "[١] يريد الإحسان إلى الرقيق والتخفيف عنهم[٢]، والأظهر أنه أراد بها ملكت أيمانكم المماليك وإنما قرنه بالصلاة ليعلم أن القيام بمقدار حاجتهم من الكسوة والطعام واجب على من ملكهم وجوب الصلاة التي لا سعة في تركها[٣].

وفيما يلي ذكر لبعض حقوق الخادم والمملوك في الإسلام:

أولًا حقه في العبادة: لا شك أن للخادم أو المملوك حقه في العبادة في الإسلام، ولذلك قال الفقهاء: والأجير يشهد الأعياد والجمعة ولا يشترط ذلك، وإنما أباح له ذلك لأن أوقات الصلاة مستثناةً من الخدمة، وقال ابن مبارك: لا بأس أن يصلي الأجير ركعات السنة. [٤]

ثانيًا: حقه في النفقة: عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر الغفاري ﷺ وعليه حلة وعلى غلامه حلةٌ، فسألناه عن ذلك فقال: إني ساببت رجلًا فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال لي النبي ﷺ: " **أعيرته بأمه؟ ثم قال: إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس**"[٥]،

والشاهد من الحديث قوله ﷺ " فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس"، وقال ﷺ " للمملوك طعامه وكسوته "[٦]، واللام للملك أي طعام المملوك وكسوته بقدر ما تنفع ضرورته مستحق له على سيده. [٧]

ثالثا: حقه في الرفق به في العمل: ويؤكد هذا الحق قوله ﷺ في الحديث "ولا

---

(١) أحمد (١/ ٧٨)، أبوداود (٥١٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦١٦).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٧٨٩).

(٣) عون المعبود (١٤/ ٤٤).

(٤) المغني (٦/ ٤١).

(٥) البخاري (٢٥٤٥).

(٦) مسلم (١٦٦٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٧) فيض القدير للمناوي (٥/ ٢٩٢).

تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم"[١]، وقوله ﷺ " **ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق** " والمراد أنه لا يكلفه إلا جنس ما يقدر عليه وفيه الحث على الإحسان إلى المماليك والرفق بهم وألحق بهم من في معناهم من أجير ونحوه. [٢]

رابعًا: حقه في عدم سبه أو شتمه: ويبين ذلك حديث أبي ذر ﷺ لما سبَّ غلامه فشكاه إلى النبي ﷺ فقال: أعيرته بأمه؟ ثم قال: **إخوانكم خولكم جعهلم الله تحت أيديكم** " ففي الحديث النهي عن سب الرقيق وتعييرهم بمن ولدهم. [٣]

خامسًا: ألا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء:

لقد بوب البخاري في صحيحه بابًا بعنوان (كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي أوأمتي) وذكر تحته قوله تعالى: (والصالحين من عبادكم وإمائكم) وغيرها.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "**لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي مولاي ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي** ". ففي كل هذا كراهية التطاول عليهم والترفع عليهم. [٤]

سادسًا: وإذا ضربه فليجتنب الوجه: فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " **إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه**"[٥]

٢٣ـ حقوق الدواب

لقد خلق الله سبحانه وتعالى العالم كله وجعل لكل شيء ما يناسبه ويلائمه وجعل لكل شيء حق يخصه حتى الدواب فلقد جعل لكل شيء حق يخصه حتى الدواب فلقد جعل الله ﷻ لها حق يخصها فمن هذه الحقوق:

١ـ الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة:

---

(١) البخاري (٢٥٤٥).

(٢) فيض القدير (٥/ ٢٩٢).

(٣) فتح الباري (٥/ ٢٠٧).

(٤) فتح الباري (٥/ ٢١٠، ٢١١).

(٥) البخاري (٢٥٥٩).

قال ﷺ "**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته** "[١] فالله ﷻ كتب الإحسان على كل شيء وعلى بمعنى (في) أي أمركم بالإحسان في كل شيء وعلى كل حاله أمر بالإحسان في الذبح وأمر بالإحسان في القتل.

والإحسان في القتل هو اختيار أسهل الطرق وأقلها إيلامًا.

وإذ ذبح فلا بد من الإحسان فلا يصرعها بعنف ولا يجرها للذبح بعنف ولا يذبحها بحضرة أخرى ويجب عليه أي على الذابح أن يحد شفرته أي سكينه أي ليجعلها حادة ويستحب أن لا يحدها بحضرة الذبيحة وأن يجعل السكين في إمرارها فيجب إراحة الذبيحة وإراحتها يكون بفعل كل ما سبق[٢].

٢ – ومن حقوق الدواب أيضا حرمة صبرها لورود النهي عن صبر البهائم واتخاذها غرضا:

قال أنس ؓ: نهى رسول الله ﷺ أن تصبرا البهائم. [٣] وقال جابر بن عبد الله ؓ: نهى رسول الله ﷺ أن يقتل شيء من الدواب صبرًا. [٤] وعن سعيد بن جبير قال: مر ابن عمر بنفر أو بفتيان من قريش قد نصبوا دجاجه يترامونها وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: "من فعل هذا لعن الله من فعل هذا وأن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا"، وصبر البهائم هو حبسها وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه وهو معنى لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضا أي لا تتخذوا الحيوان الحي غرضا ترمون إليه كالغرض من الجلود وغيرها وهذا النهي للتحريم ولهذا قال ﷺ في رواية ابن عمر "لعن الله من فعل هذا " ولأنه تعذيب للحيوان وإتلاف لنفسه وتضييع لماليته وتفويت لذكاته إن كان مذكي ولنفعته إن لم يكن مذكي.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١١).

(٢) شرح مسلم للنووي (٧/ ١١٨)، وعون المعبود (٤/ ٢).

(٣) البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦).

(٤) مسلم (١٩٥٩).

٣ـ ومن حق الدواب أيضا تحريم تعذيبها بالعطش والجوع وفضل سقيها الماء:

فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما " أن النبي ﷺ صلى صلاة الكسوف، فقال: **دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم؟ فإذا امرأة حسبت أنه قال تخدشها هره قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعا". (١)**

وقال ﷺ: " **دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض** "(٢)

وفي الحديث دليل على تحريم تعذيب الحيوان فانظر هذه كيف دخلت النار بسبب تعذيبها لهذا الحيوان ومنع الماء والطعام عنها حتى ماتت فكل من لديه شيء وجب أن يحسن إليه ويرعاه كما يرعى كل صاحب روح. (٣)

بل إن الله عز وجل جعل الفضل الكبير لمن سقاها وأطعمها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال "**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملا خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له "، قالوا: يا رسول الله وان لنا في هذه البهائم لأجرا، فقال: " في كل كبد رطبة أجر** "(٤) وفي هذا بيان معنى الإحسان إلى كل حيوان حتى نسقيه ففيه أجر وسمي الحي ذا كبد رطبة لأن الميت يجف جسمه وكبده وفي هذا الحث على الإحسان إلى الحيوان المحترم وهو ما لا يؤمر بقتله، فأما المأمور بقتله فيمثل أمر الشرع في قتله والمأمور بقتله كالكافر الحربي والمرتد والكلب العقور والفواسق الخمس المذكورات في الحديث وما في معناهن وأما المحترم فيحصل الثواب بسقيه الإحسان إليه أيضا بإطعامه

---

(١) البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٢) البخاري (٣٣١٨).

(٣) شرح النووي (٧/ ٥٠١)، وفتح الباري (٦/ ٤٠٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).

وغيره سواء كان مملوكا أو مباحا وسواء كان مملوكا له أو لغيره والله أعلم. [١]

٤ـ ومن حق الدواب أيضًا أن لا تتخذ كراسي: قال ﷺ: **" اركبوا هذه الدواب سالمة وابتدعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي "**[٢]

وفي هذا دليل على حرمة إجهاد الدواب وتحميلها أكثر من طاقتها لقوله ﷺ ابتدعوها أي اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها. [٣]

٥ـ ومن حق الدواب أيضا عدم ضربها في وجهها ووسمها فيه: فعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه. [٤] وعنه أن النبي ﷺ مر عليه حمار قد وسم في وجهه فقال: **"لعن الله الذي وسمه"**. [٥] وفي رواية ابن عباس رضي الله عنه، فأنكر ذلك، قال: فو الله لا أسمه إلا أقصى شيء من الوجه فأمر بحمار له فكوى في جاعرتيه فهو أول من كوى الجاعرتين"[٦]

قال النووي: فالوسم في الوجه منهي عنه بالإجماع للحديث فأما الآدمي فوسمه حرام لكرامته ولأنه لا حاجة إليه فلا يجوز تعذيبه وأما غير الآدمي فقال جماعة من أصحابنا يكره، وقال البغوي من أصحابنا لا يجوز فأشار إلى تحريمه وهو الأظهر لأن النبي ﷺ **لعن** فاعله واللعن يقتضي التحريم وأما وسم غير الوجه من غير الآدمي فجائز بلا خلاف عندنا لكن يستحب من نعم الزكاة والجزية ولا يستحب في غيرها ولا ينهى عنه. [٧]

٢٤ـ حقوق الطريق

---

(١) شرح مسلم للنووي (٧/ ٥٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وابن حبان (٥٦١٩)، والحاكم (١/ ٤٤٤)، وصححه، ووافقه الذهبي. ووافقهما الألباني كما في الصحيحة (٢١).

(٣) النهاية لابن الأثير (٥/ ٣٦٥).

(٤) مسلم (٢١١٦).

(٥) مسلم (٢١١٧).

(٦) مسلم (٢١١٨).

(٧) شرح النووي على مسلم (٧/ ٣٤٩).

الطريق لغة: السبيل، تذكر، وتؤنث، والطريق مابين السكتين من النخل.[١]

حق الطريق في القرآن: قال الله ﷻ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧). يقول ﷻ ناهيًا عباده عن التجبر والتبختر في المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متبخترًا متمايلًا مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لن تقطع بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده.[٢]

أو أن معناه لن تجعل فيها خرقًا بدوسك لها وشدة وطئك عليها، ويدل لهذا المعنى قوله بعده (ولن تبلغ الجبال طولًا) أي أنت أيها المتكبر المختال: ضعيف حقير عاجز محصور بين جامدين! أنت عاجز عن التأثير فيهما، فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها فتخرقها بشدة وطئك عليها، فاعرف قدرك، ولا تمش في الأرض مرحًا.[٣]

وأيضًا قوله ﷻ: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان: ١٩)، "واقصد في مشيك" أي: امشي مشيا مقتصدًا ليس بالبطيء المتثبط ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بَيْنَ بَيْن.[٤]

حقوق الطريق في السنة: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " لقد رأيت رجلًا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس ".[٥] وعن أبي الوازع قال حدثني أبو برزة، قال: قلت: يا نبي الله علمني شيئا أنتفع به قال: "اعزل الأذى عن

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١٠/ ٢٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩/ ١١)، تفسير الطبري (٩/ ٨٨).

(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٥٣٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١١/ ٥٨).

(٥) مسلم (١٩١٤).

طريق المسلمين". (١)

غض البصر: قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (النور: ٣٠). هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم. (٢)

وقال ﷻ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (النور: ٣١).

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغيرة منه لأزاجهن عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات. (٣)

عن أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ قال: " **إياكم والجلوس على الطرقات**، فقالوا: ما لنا بدٌ؛ إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: **فإذا أتيتم إلى المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا وما حق الطريق؟ قال: غض البصر**". (٤)

كف الأذى: قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ (الأحزاب: ٥٨)، أي: ينسبون إليهم ما هم بُراء منه لم يعلموه ولم يفعلوه، فقد احتملوا بهتانًا وإثما مبينا، وهذا هوا البهت البين أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم. (٥)

عن أبي هريرة ﵁: " أن رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم

(١) مسلم (٢٦١٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢١٢).

(٣) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢١٦).

(٤) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

(٥) تفسير ابن كثير (١١/ ٢٤١).

قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته ". [١]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" الإيمان بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان ".** [٢]

رد السلام: قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ (النساء: ٨٦).

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم".** [٣]، وفي الحديث كما سبق ذكره عن النبي ﷺ قال "... ورد السلام... ". [٤]

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الله ﷻ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وقال الله ﷻ ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ (التوبة: ٧١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"**[٥]، وفي الحديث كما سبق ذكره عن النبي ﷺ قال ".... **وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر**... ". [٦]

---

(١) مسلم (٢٥٨٩).

(٢) مسلم (٥٨).

(٣) مسلم (٩٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

(٥) رواه مسلم (٧٨).

(٦) أخرجه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

عدم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه:

قال الله ﷻ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الإسراء: ٣٧).

عن أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺ قال: " **بينما رجل يمشي قد أعجبته جمته وبراده إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة** ". [١]

وعن أبي هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال: "**بينما رجل يتبختر، يمشي في برديه قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**". [٢]

عدم قضاء الحاجة في الطريق وفي الظل وفي الماء:

عن أبي هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال: "**اتقوا اللَّعَّانين**" **قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال "الذي يتخلى في طريق الناس أوفي ظلهم**"[٣].

قال الخطابي: المراد باللعانين الأمرين الجالبين للعن الحاملين الناس عليه والداعيين إليه، وذلك أن من فعلهما شتم ولعن، يعني عادة الناس لعنه، فلما صار سببا لذلك أضيف اللعن إليهما. [٤]

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: " اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل". [٥]

٢٥ـ حق اللجوء

يتفرع عن حرية الإنسان بالتنقل حق اللجوء إلى بلد آخر، وهو المعروف اليوم "باللجوء السياسي " أي حق الانتقال إلى بلد لا يحمل جنسيته، وذلك لأهداف سياسية ينادي بها، ويضطهد من أجلها أو يلاقي العنت، والمشقة والمضايقة بسببها.

---

(١) البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٢) البخاري (٥٧٩٠)، مسلم (٢٠٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٦٤).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦٧)، وحسنه الشيخ الألباني في الإرواء (٦٢).

وحق اللجوء هو المعروف شرعًا بالهجرة، والتي كانت سنة الأنبياء مع أقوامهم وأممهم، فما منهم إلا وقد أوذي وأخرج من وطنه وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة في المرة الأولى، والثانية أول إقرار شرعي لحق المدينة، لشدة ما لاقوه من إيذاء المشركين بمكة وأملًا في إقامة الدولة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي في المدينة. (١)

وجوب الهجرة:

ويوجب القرآن على المؤمنين الخروج من دار يضطهدون فيها ولا يستطيعون إظهار شعائرهم إلى دار يأمنون فيها على دينهم وأنفسهم وأموالهم، ويعد القعود عن ذلك تقصير إذ يترتب عليه كفر بعد إيمان مما يكون سببا للنار في الآخرة فيكون الإنسان بذلك خاسرًا للدنيا والآخرة، خسر الدنيا بركونه إلى الذل والضعة وخسر الآخرة بعدم هجرته إلى أرض يستطيع فيها القيام بشعائر دينه قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٩٧-٩٩). (٢)

وقد أثنى الله ﷻ على المهاجرين فقال ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (الحشر: ٨).

ثم أثنى الله ﷻ على الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين وأحسنوا وفادتهم وإقامتهم فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحشر: ٩).

وبقي وجوب الهجرة حتى فتح الله مكة المكرمة، وقال رسول الله ﷺ: **"لا هجرة بعد**

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، تأليف: محمد الزحيلي (ص٣٣٣).

(٢) حقوق الإنسان بين هدي الرحمن واجتهاد الإنسان، محمد أحمد محمد فرج عطية ص ١٠٨.

الفتح "[١]، والغالب أنه لا هجرة من مكة إلى المدينة بعد الفتح، أما حكم الهجرة عامة إذا تحققت أسبابها فتبقى واجبة.[٢]

ثواب الهجرة في سبيل الله من أرض الوطن:

ولما كانت الهجرة من الوطن وأرض الآباء والأجداد ومنابت الصبا صعبة وشاقة على النفوس، وفيها احتمال كبير بفقد الأموال، وتركها في يد الكفار، وكذا فقد الأقارب والأحبة، وقطع مورد الرزق، لذلك رغب الشارع الحكيم بها فقال ﷻ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠).

ويثبت للمهاجر هذا الأجر والسعة والثواب بمجرد خروجه، وإن مات في الطريق، ولم يصل إلى دار الإسلام لقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾. (النساء: ١٠٠).

وهكذا يبشر القرآن المهاجر لله ورسوله بالسعة في الرزق، بدلًا عما تركه وفقده كما يبشره بالأجر العظيم عند الله تعالى، سواء حصل وحقق الهدف، أم أدركه الموت أثناء الطريق بعد خروجه من بلده مهاجرًا، ولا بد في الأمرين من إخلاص النية لله تعالى، لتكون الهجرة لله وللرسول، وهوما بينه رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح المشهور عن عمر بن الخطاب ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: " **الأعمال بالنية ولكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه** "[٣].[٤]

حق الاستجارة والأمان:

---

(١) البخاري (٢٧٨٣)، مسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حقوق الإنسان محمد الزحيلي صـ ٣٣٤، وانظر: شرح كتاب السير الكبير للسرخسي تحت فصل بعنوان (باب هجرة الأعراب).

(٣) البخاري (٥٤)، مسلم (١٩٠٧).

(٤) حقوق الإنسان في الإسلام (٣٣٥).

ومن صور حق اللجوء التي قررها الإسلام:

أن يعزم غير المسلم الفرار من بلده إلى دار الإسلام، ليتعرف أحكام الإسلام، سواء أكان مشركًا أم كتابيًا، وسواء قدم اختيارًا أم اضطرارًا، فيجب على المسلمين استقباله، واستضافته، وإعطاؤه حق الاستجارة، الوارد في قوله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٦).

فإن سمع الإسلام وأسلم، فبها ونعمت، وهو فضل من الله تعالى وإن طلب البقاء الدائم في دار الإسلام، فيعقد معه (عهد الذمة) ويصبح من رعايا الدولة الإسلامية، وإن أراد أن يبقى فترة مؤقتة فيعطي حق الأمان ويسمى (مستأمنًا) كما جاء في الآية الكريمة وأكده رسول الله ﷺ بإقراره الأمان الذي أعطته أم هانئ لأحد المشركين وقال ﷺ: " قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ "، ومن حقه على الدولة الإسلامية عامة، وعلى كل مسلم خاصة: التمتع بالأمن والأمان والطمأنينة، ثم يبلغ إلى بلده ومأمنه، كما جاء في القرآن الكريم ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (التوبة: ٦). [١]

٢٦ـ حقوق الذميين

١ـالتزام تقريرهم في بلادنا إلا الحرم المكي:

لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ (التوبة٢٨).

٢ـوجوب الكف عنهم وحمايتهم:

بسبب عصمة أنفسهم وأموالهم بالعقد، وإنهاء الحرب معهم ومسالمتهم، لحديث بريدة (فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم)[٢]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: **"وأوصيه بِذِمَّةِ الله وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَلَا يُكَلَّفُوا**

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، تأليف: محمد الزحيلي (ص ٣٣٦-٣٣٧).

(٢) مسلم (١٧٣١).

إِلَّا طَاقَتَهُمْ"[١].

٣ـعدم التعرض لكنائسهم ولا لخمورهم وخنازيرهم، ما لم يظهروها: فإن أظهروا الخمر أراقها عليهم، وإن لم يظهروها وأراقها مسلم ضمنها في رأي المالكية والحنفية، ولا يضمنها في رأي الشافعية والحنابلة، ويؤدب منهم من أظهر الخنزير[٢].

٤ـ عدم إكراههم على الإسلام: قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

قال ابن كثير: أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا[٣].

٥ـالإحسان إليهم وبرهم: وهناك فرق بين الولاء والبراء والمعاملة بالحسنى، فالولاء شيء والمعاملة بالحسنى شيء آخر، فالولاء لا يجوز لغير المسلمين، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

قال ابن جرير: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرُّوهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله ﷻ عمّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، فلم يخصصْ به بعضًا دون بعض[٤]. وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ

(١) مسلم (١٧٣١).

(٢) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة (٥٤٩، ٥٤٨).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٢).

(٤) تفسير الطبري (٢٨/ ٦٦).

قُلْتُ: إن أمي قدمت علي، وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أمِّي؟ قَالَ: **نَعَمْ صِلِي أمَّكِ**[١].

قال الخطابي: فِيهِ أَنَّ اَلرَّحِمَ اَلْكَافِرَةَ تُوصَلُ مِنْ اَلْمَالِ وَنَحْوِهِ كَمَا تُوصَلُ اَلْمُسْلِمَةَ وَيُسْتَنْبَطُ مِنْهُ وُجُوب نَفَقَة اَلْأَب اَلْكَافِر وَالْأُمّ اَلْكَافِرَة وَإِنْ كَانَ اَلْوَلَد مُسْلِمًا[٢]. فالْبِرُّ وَالصِّلَة وَالْإِحْسَان لَا يَسْتَلْزِمُ التَّحَابُبَ وَالتَّوَادُدَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة٢٢) فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِي حَقِّ مَنْ قَاتَلَ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ[٣].

٦ـ عدم ظلمهم: حذر الإسلام من ظلم أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، وأوجب الإسلام المحافظة على دمائهم وأعراضهم ومعابدهم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"**[٤].

المبحث السادس: قالوا عن الإسلام.

برناردشو: إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال؛ فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالدًا خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوروبا). إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم

---

(١) البخاري (٢٦٢٠)، مسلم (١٠٠٣).

(٢) فتح الباري (٥/ ٢٦٣).

(٣) فتح الباري (٥/ ٢٦١).

(٤) البخاري (٣١٦٦).

اليوم لوفق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.

الفيلسوف (توماس كارليل): لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خدّاع مزوِّر. وإن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟!

يان سامويلسون في كتابه: "الإسلام في السويد": إن الإسلام أشدّ حضارية ممّا يظنّه الكثير من المسيحيين و يذهب إلى القول أيضا بأنّ الإسلام هو مدرسة قائمة في حدّ ذاتها وليس الإسلام صورة منسوخة عن المسيحية كما يعتقد كثير من المسيحيين في الغرب.

المستشرق الألماني د. ج كامبفماير: " إن الاعتداء على الإسلام لا ترجى منه فائدة، ولن يردّ المسلمين عن دينهم، ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقويها "[(١)].

المستشرق لويس يونغ: "إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية منها نظرة العرب المتسامحة". [(٢)]

أرنولد توينبي: " أن الإسلام بوسعه تلبية كافة حاجات الإنسان في العصر الحاضر، فليس هناك أي دين كالإسلام يستطيع أن يقدم أنجح الحلول للمشكلات والقضايا المعاصرة [(٣)]

يقول الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا: "إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة"[(٤)]

---

(١) وجهة الإسلام ص ١٠٣.

(٢) العرب وأوربا ص ١٠ نقلًا عن قالوا عن الإسلام ص ٣٢٧.

(٣) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٧٣٩.

(٤) الإسلام والغرب محاضرة الأمير تشارلز في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣.

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: "لا إكراه في الدين، هذا ما أمر به القرآن الكريم، فلم يفرض العرب على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فبدون أي إجبار على انتحال الدين الجديد اختفى معتنقو المسيحية اختفاء الجليد، إذ تشرق الشمس عليه بدفئها! وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة، هكذا انعطف الناس حتى من بقي على دينه، إلى السادة الفاتحين". (١)

* **ويقول توماس أرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية**: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح ". (٢)

* * *

(١) (شمس الله تسطع على الغرب) زيغريد هونكه ٣٦٤-٣٦٨ ط/ دار الآفاق الجديدة بيروت.

(٢) الدعوة الإسلامية لتوماس أرنولد نقلا عن كتاب رد افتراءات المبشرين محمد جمعة عبد الله ص٢٤٢.

الفصل الثالث

رسول البشرية محمد ﷺ

ويشتمل على المباحث الآتية:

تمهيد: أهمية معرفة شمائله ﷺ.

المبحث الأول: التعريف بالنبي ﷺ.

المبحث الثاني: بعض فضائل النبي ﷺ.

المبحث الثالث: أخلاق النبي ﷺ.

المبحث الرابع: صحابة النبي ﷺ.

المبحث الخامس: قالوا عن النبي ﷺ.

وإليك التفصيل

تمهيد: أهمية معرفة شمائله ﷺ.

أيها الأحبة هذا الحبيب يحلو لكل مسلم محب أن يتذكره، وأن يتصوره ويتخيله، وأن يعيش بقلبه مع هذا الحبيب ليعرف كيف كانت حياته؟ كيف كانت معاملاته؟ كيف كانت أخلاقه؟

وقد أمرنا الله ﷻ أن نقتفي أثره، وأن نسير على دربه، وأن نقلده في كل شيء، قال ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١). فنحن مأمورون أن نسير على دربه، وأن نقتفي أثره وأن نتبع سنته.

إن رسول الله ﷺ بشر ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ ﴾ (الكهف: ١١٠)، ولكنه لم يكن بشرًا عاديًا.

فمبلغ العلم فيه أنه بشر	وأنه خير خلق الله كلهم
أغر عليه للنبوة خاتم	من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله	فذو العرش محمود وهذا أحمد

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الكهف: ١١٠). وهذه هي التي رفعت قدره وأعلت شأنه، ورفعت مكانته عند الله ﷻوعند الخلق، ولن ننال رفقته في الجنة وشفاعته يوم القيامة إلا إن اتبعنا سنته، وسرنا على طريقته واقتفينا أثره ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١) رسول الله لم يكن بشرًا عاديًا، لأنه مشرف بالوحي الذي أنزله الله عليه.

ومع هذه القطوف العطرة من سيرة النبي وأخلاقه ﷺ

المبحث الأول: التعريف بالنبي ﷺ

اسمه ﷺ: **مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ ابْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ.** (١)

إلى هنا معلوم الصحة ومتفق عليه بين النسَّابين، ولا خلاف أن عدنان من وَلَدِ إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

وله ﷺ أسماء أخري. فعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " **إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، الَّذِي يَمْحُو الله بِيَ الْكُفْر، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ**"(٢). والعاقب: من لا نبي بعده. لقد اهتم أهل العلم بجمع أسماء النبي ﷺ ومنهم من أفرد في ذلك مصنفات بجمع الأحاديث المروية في أسمائه ﷺ. (٣)

نسبه ﷺ: نبينا محمد ﷺ خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته.

عن وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " **إِنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ** ". (٤)

---

(١) البخاري كتاب مناقب الأنصار باب ٢٨.

(٢) البخاري (٤٨٩٦)، مسلم (٢٣٥٥).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٨٣: ٨٤، دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٥١: ١٦١.

(٤) مسلم (٢٢٧٦).

ميلاده ﷺ: وُلِدَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول، عام الفيل، الموافق سنة خمس مئة وإحدى وسبعين من الميلاد. (١)

ولما ولدته أمه آمنة بنت وهب أرسلت إلي جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل الكعبة، ودعا الله ﷺ وشكره، واختار للمولد اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفًا عند العرب. (٢)

قابلته ﷺ: هي الشفاء بنت عوف بن عبد الحارث بن زهرة، وهي والدة عبد الرحمن بن عوفرضي الله عنه. (٣)

مرضعاته ﷺ: ثُويبة مولاة أبي لهب، ثم حليمة السعدية. (٤)

حواضنه ﷺ: أمه آمنة بنت وهب، وثُويبة مولاة أبي لهب، وحليمة السعدية، والشيماء بنت حليمة السعدية، وأم أيمن بركة الحبشية. (٥)

إخوته وأخواته ﷺ من الرضاعة: حمزة بن عبد المطلب «عم النبي ﷺ»، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وعبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وجُدامة بنت الحارث «وهي الشيماء»، وهؤلاء الثلاثة الأخيرون هم أولاد حليمة السعدية، مرضعة النبي ﷺ. (٦)

أعمامه ﷺ: أعمام النبي ﷺ أحد عشر رجلًا وهم: العباس، والزبير، وأبو طالب «اسمه عبد مناف»، وعبد الكعبة، وحمزة، والمُقَوِّم، وحَجْلٌ «اسمه المغيرة»، وضرار وقُثَم، وأبو لهب «واسمه: عبد العُزى» والغَيْداق «اسمه مصعب»، لم يُسْلم منهم إلا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٤٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٤٦: ٢٤٧

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٤٦.

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ١/ ٥٦: ٥٧.

(٥) زاد المعاد لابن القيم ١/ ٨٣.

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٨٧: ٨٩.

حمزة والعباس رضي الله عنهما.[١]

عمات النبي ﷺ: عمات النبي ﷺ ست وهن: أميمة، وأم حكيم، وبَرَّة، وعاتكة، وصفية، وأروى.[٢]

زوجاته ﷺ: لقد تزوج نبينا ﷺ إحدى عشر امرأة دخل بهن وهن بالترتيب كما يلي:

١- خديجة بنت خويلد ٢- سـودة بنت زمعة ٣- عائشة بنت أبي بكر الصديق ٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب ٥- زينب بنت خزيمة ٦- أم سلمة: هند بنت أميــة المخزوميــة ٧- زينب بنت جحش ٨- جويرة بنت الحارث المصطلقية ٩- أم حبيبة: رَمْلة بنت أبي سفيان بن حرب ١٠- صفية بنت حُيي بن أخطب ١١ -ميمونة بنت الحارث الهلالية.

مات في حياة النبي ﷺ زوجتان هما: خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهن جميعًا.[٣]

أولاده ﷺ: كان للنبي ﷺ من الأبناء سبعة، ثلاثة من الذكور وهم: القاسم، وعبد الله (يُلقب بالطيب، والطاهر)، وإبراهيم. وأما بناته فهن: زينب، ورقية، وأم كلثوم وفاطمة. وكل الأولاد والبنات من خديجة رضي الله عنها ما عدا إبراهيم فمن مارية بنت شَمعون المصرية وكانت من مِلْكِ يمين للنبي ﷺ، وكل أولاد النبي ﷺ، ماتوا في حياته إلا فاطمة، رضي الله عنها، ماتت بعد النبي ﷺ بستة أشهر.[٤]

كنيته ﷺ: أبو القاسم، وهو أكبر أولاده.

أحفاد النبي ﷺ: أحفاده ﷺ ستة وهم: أُمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت النبي ﷺ، وعبد الله بن عثمان بن عفان وأمه رقية بنت النبي ﷺ، والحسن والحسين،

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٠٤.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٩

(٣) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٠٥: ١١٤.

(٤) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٠٣.

وزينب، وأم كلثوم، وهم جميعًا أبناء علي بن أبي طالب وأمهم فاطمة بنت النبي ﷺ. (١)

حرَّاسه ﷺ: سعد بن معاذ، ومحمد بن مسلمة، والزبير بن العوام، وعباد بن بشر، وآخرون. فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) خرج النبي ﷺ فأخبرهم بها وصرف الحرس. (٢)

حُدَاته ﷺ: (٣) وحُداة النبي ﷺ هم: عبدالله بن رواحة، وعامر بن الأكوع، وسلمة بن الأكوع، وأنجشة الحبشي رضي الله عنهم. (٤)

كُتَابه ﷺ: كُتَّاب النبي ﷺ الذين كانوا يكتبون القرآن الكريم ورسائله ﷺ: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وعامر بن فُهيرة، وعمرو بن العاص، وأُبي بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس ابن شماس، وحنظلة بن الربيع، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم. (٥)

خاتمه ﷺ: كان خاتم النبي ﷺ من الفضة، وكان مكتوبًا عليه: محمد رسول الله: محمدٌ سطرٌ، ورسولُ سطرٌ، والله سطرٌ. (٦)

شُعراؤه ﷺ: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت. (٧)

خُدَّامه ﷺ: أنس بن مالك وكان على حوائجه، وعبد الله بن مسعود صاحب نَعْله وسواكه، وعقبة بن عامر الجهني صاحب بغلته يقود به في الأسفار، وأُسْلع بن شريك

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١/ ٣٣١، صفة الصفوة لابن الجوزي ١/ ٢٩٤: ٣٠٩.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٢٧.

(٣) الحادي: هو الذي يسوق الإبل ويغني لها بدون معازف.

(٤) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٢٨.

(٥) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١١٧.

(٦) البخاري (٥٨٧٥، ٥٨٧٨).

(٧) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٢٨.

وكان صاحب راحلته، وبلال بن رباح، وسعد، مَوْليا أبي بكر الصديق، وأبو ذر الغفاري، وأيمن بن عُبيد، وكان على مَطهرته وحاجته. (١)

حجه وعمرته ﷺ: حج النبي ﷺ مرة واحدة وهي حجة الوداع وكانت في العام العاشر من الهجرة، واعتمر أربع عُمر كلهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة مع حجته وعمرة من الجعرانة. (٢)

مؤذنوه ﷺ: كانوا أربعة: بلال بن رباح، وعبد الله بن أم مكتوم بالمدينة، سعد القرظ بقباء، وأبو محذورة بمكة. (٣)

آخر صلاة للنبي ﷺ إمامًا للصحابة: هي صلاة المغرب وصلى فيها بسورة المرسلات. (٤)

آخر صلاة للنبي ﷺ في حياته: هي صلاة فجر يوم الاثنين الذي مات فيه. (٥)

آخر كلام النبي ﷺ: عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ: لَنْ يُقْبَضَ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرُ، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ ثُمَّ قَالَ: **اللهمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى**، قُلْتُ: إِذًا لَا يَخْتَارُنَا، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ، قَالَتْ: فَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا اللهمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى. (٦)

وفاته ﷺ: تُوفي رسول الله ﷺ ضحى الاثنين من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة، ودُفن ليلة الأربعاء، في حجرة عائشة رضي الله عنها.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١١٦: ١١٧.

(٢) البخاري (١٧٧٨)، مسلم (١٢٥٣).

(٣) زاد المعاد لابن القيم ١/ ١٢٤.

(٤) البخاري (٤٤٢٩)، مسلم (٤٦٢).

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٩٢: ١٩٣.

(٦) البخاري (٤٤٦٣).

المبحث: الثاني: بعض فضائل النبي ﷺ

أكرم الله نبيه ﷺ بفضائل جمّة، وصفات عدة، فأحسن خلْقَه وأتم خُلُقه، حتى وصفه تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، ومنحه ﷻفضائل عديدة، وخصائص كثيرة، تميز بها ﷺ عن غيره، فضلًا عن مكانة النبوة التي هي أشرف المراتب.

ونتناول في الأسطر التالية شيئًا يسيرًا من فضائله ﷺ.

أنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم: قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦).

قال الشوكاني: فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره، وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، وتطلبه خواطرهم.[1]

أنه ﷺ سيد ولد آدم: عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ** ".[2]

أنه ﷺ أمان لأمته: وعن أبي موسى الشعريﷺ أن النبي ﷺ قال " **النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لأصحابي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أصحابي مَا يُوعَدُونَ وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي فَإِذَا ذَهَبَ أصحابي أَتَى أمتي مَا يُوعَدُونَ**".[3]

أنه ﷺ خاتم الأنبياء: قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠)، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " **إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قبلي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ**

---

(١) فتح القدير٦/ ١٨.

(٢) مسلم (٢٢٧٨)

(٣) مسلم (٢٥٣١).

اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ ". [١]

أن رسالته ﷺ عامة للناس جميعًا: عن جابر بن عبد الله ﷺ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: " **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أمتي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قبلي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النبي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**". [٢]

أخذ الله له ﷺ العهد على جميع الأنبياء: من الأمور التي تدل على عظيم قدره ﷺ عند ربه ما أخذه الله من العهد له ﷺ على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على أنه لو بعث ﷺ وهم أحياء أو أحد منهم فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه. قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

قرنه ﷺ خير قرون بني آدم: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " **بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بني آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الذي كُنْتُ فِيهِ** ". [٣] وعَنْ عَبْدِ الله ﷺعَنِ النبي ﷺ قَالَ: " **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**". [٤]

أنه ﷺ خليل الرحمن: عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " **أَلاَ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خِلٍّ مِنْ خِلِّهِ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الله** ". [٥]

وهذه الفضيلة لم تثبت لأحد غير نبينا وإبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام.

أن الله رفع له ذكره ﷺ: قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ٤) فلا يذكر

---

(١) البخاري (٣٥٣٥)، مسلم (٢٢٨٦).

(٢) البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١).

(٣) البخاري (٣٥٥٧).

(٤) البخاري (٢٦٥٢)، مسلم (٢٥٣٣).

(٥) مسلم (٢٣٨٣).

سبحانه إلا ذكر معه، ولا تصح للأمة خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنه عبده ورسوله، وأوجب ذكره في كل خطبة، وفي الشهادتين اللتين هما أساس الإسلام وفي الأذان الذي هو شعار الإسلام وفي الصلاة التي هي عماد الدين إلى غير ذلك من المواضع.

أن الله أقسم بحياته ﷺ: فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢) والإقسام بحياة المقسم بحياته يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسم بها، وأن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها لما فيها من البركة العامة والخاصة ولم يثبت هذا لغيره ﷺ.

أن الله وقره في ندائه، فناداه بأحب أسمائه وأوصافه ﷺ: فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره، بل ثبت أن كلا منهم نودي باسمه فقال تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾ ولا يخفي على أحد أن السيد إذا دعي أحد عبيده بأفضل ما وجد فيه من الأوصاف العلية والأخلاق السنية، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف ولا بخلق من الأخلاق، دل ذلك على أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم. وهذا معلوم بالعرف أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه.

النهي عن مناداته باسمه ﷺ: فقال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ (النور: ٦٣)

لا يرفع صوت فوق صوته ﷺ: إن الله نهي الأمة أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته ﷺ ولا يجهروا له بالقول - كما هو الحال بين الناس- حتى لا تحبط أعمالهم فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (الحجرات: ٢). هذه بعض بفضائل النبي ﷺ.

المبحث الثالث: أخلاق النبي ﷺ.

أولًا: رسول الله رائد حياة الأخلاق:

فهذه إشارات سريعة إلى أخلاق سيد المتخلقين بمكارم الأخلاق صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وإننا مهما تكلمنا ومهما كتبنا في هذا الموضوع لا نستطيع أن نوفي قدر النبي ﷺ، فهو رائد حياة الأخلاق الكريمة، وهو الذي عَلَّم الدنيا محاسن الأخلاق، فلولاه بعد الله تخبط الناس في الجهل والغفلة والعمى، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وقد زَكَّى الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ في كل شيء. ومن زكاه ربه فلا يجوز لأحد من أهل الأرض قاطبة أن يظن أنه يأتي في يوم من الأيام ليزكيه، بل إن أي أحد وقف ليزكي رسول الله ﷺ وليصف رسول الله ﷺ وليتكلم عن قدر رسول الله ﷺ، فإنما يرفع من قدر نفسه، ومن قدر السامعين بحديثه عن الحبيب المصطفى ﷺ. ولنعلم أنه لا يعرف أحد قدر النبي ﷺ إلا الرب العلي ﷻ ولذا:

زَكَّاه ربه في عقله فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم: ٢).

وزَكَّاه في بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم: ١٧).

وزكاه في صدره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١).

وزكاه في ذكره فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ٤).

وزكاه في طُهره فقال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ (الشرح: ٢).

وزكاه في صدقه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ (النجم: ٣).

وزكاه في علمه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ (النجم: ٥).

وزكاه في حلمه فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

وزكاه في خلقه كله فقال جل وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) ﷺ.

وكدت بأخمصي أطأ الثريا ... ومما زادني فخرًا وتيها

وأن سيرت أحمد لي نبيا. ... دخولي تحت قولك يا عبادي

قال القاضي عياض: اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم ﷺ الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله تعالى زلفى.

فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جلبته من كمال خلقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه ونومه، وملبسه ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه. وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونة البدن على سلوك طريقها، وكانت على حدود الضرورة وقواعد الشريعة.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية، والآداب الشرعية: من الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها، وهي التي جماعها: حسن الخلق.[1]

ثانيًا: **بيان أصول أخلاق المصطفى وتحقق وصفه بها** ﷺ. أما أصل فروعها وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها: فالعقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتضرع عن هذا ثقوب الرأي، وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل. وقد بلغ النبي ﷺ من

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٧٦.

ذلك الغاية التي لم يبلغها بشر سواه. من تتبع مجارى أحواله، واطراد سيره، وطالع جوامع كلامه، وحسن شمائله وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية، وأيامها وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه ﷺ فيها قدوة، وإشاراته حجة، كالعبارة، والطب، والحساب، والفرائض، والنسب، وغير ذلك، دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم؛ بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره، وعلمه، وأقرأه، لاستيقن بالبرهان القاطع على نبوته، وبحسب عقله كانت معارفه ﷺ إلى سائر ما علمه الله تعالى، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجاب قدرته وعظيم ملكوته، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣). [١]

قال القاضي عياض: [٢] وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها فضلا عما فوقه وأثنى الشرع على جميعها وأمر بها ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة وهى المسماة بحسن الخلق وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها، فجميعها قد كانت خلق نبينا ﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم: ٤). قال ﷺ: **"بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ"**. [٣]،

قال أنس ﷺ: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا". [٤]

---

(١) من كتاب الشفا بتصرف ١/ ١١٨: ١١٧.

(٢) انظر الشفا ١/ ١١٢.

(٣) صحيح. رواه أحمد ٢/ ٣٨١، والبزار (٢٤٧٠)، والطحاوي في شرح المشكل (٤٤٣٢)، والبيهقي في السنن (١٩٢، ١٩١: ١٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥).

(٤) البخاري (٦٢٠٣)، مسلم (٢١٥٠).

وإليك الآن باقة متوجة من أخلاق النبي ﷺ أرجو أن ينفع الله بها المحبين، وأن يدحض بها الحاسدين الحاقدين. إنه حسبنا ونعم الوكيل.

حلمه وعفوه واحتماله وصبره ﷺ.

حلمه وعفوه واحتماله وصبره ﷺ، كلها معانٍ متقاربة، وهذا كله مما أدب الله به نبيه ﷺ فقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩). وقال عبد الله بن الزبير: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ قال: "مَا أَنْزَلَ الله إِلَّا فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ"[١]. وقال أيضا: أَمَرَ الله نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاس.[٢]

وقال تعالى لنبيه: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧ ﴾ (لقمان: ١٧).

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا.[٣]

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: "مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا؛ فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا".[٤]

قال ابن حجر في قوله " مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ": أي خاصة. فلا يرد أمره بقتل عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن خطل[٥] وغيرهما ممن كان يؤذيه لأنهم كانوا مع ذلك ينتهكون حرمات الله. وقيل: أنه لا ينتقم إذا أوذي في غير السبب الذي يخرج إلى الكفر، كما عفا عن الأعرابي الذي جفا في رفع صوته عليه، وعن الآخر الذي جبذ بردائه حتى أثر في كتفه.[٦][١]

---

(١) البخاري (٤٦٤٣).

(٢) البخاري (٤٦٤٤).

(٣) انظر الشفا ١/ ١١٨ بتصرف.

(٤) البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧).

(٥) انظر: حديث سعد بن أبي وقاص عند النسائي ٧/ ١٠٥ وغيره، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٣).

(٦) البخاري (٥٤٧٢)، مسلم (١٠٥٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: " **إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**". (٢)

وَعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: "كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: **اللهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**". (٣)

قال القاضي عياض: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال: اغفر أو اهد، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: "لِقَوْمِي"، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: "فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". (٤)

والحديث في بيان حلمه ﷺ كثير. فَعَنْ جَابِرٍ أخبر أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ الله ﷺ قَفَلَ مَعَهُ فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: الله ثَلَاثًا وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ. (٥)

وعَنْ أنس قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. (٦)

---

(١) فتح الباري ٦/ ٦٤٨.

(٢) مسلم (٢٥٩٩).

(٣) البخاري (٣٤٧٧).

(٤) انظر الشفا ١/ ١٢٠.

(٥) البخاري (٢٩١٠)، مسلم (٨٤٣).

(٦) البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧).

والحديث عن حلمه عليه الصلاة والسلام، وصبره، وعفوه عند القدرة؛ أكثر من أن تأتي عليه وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح وغيره إلى ما بلغ متواترا مبلغ اليقين: من صبره على مقاساة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظهره الله عليهم وحكمه فيهم وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم فما زاد على أن عفا وصفح، صلوات ربي وسلامه عليه. (١)

جوده وكرمه وسخائه وسماحته ﷺ:

كان ﷺ لا يوازَى في هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى بهذا وصفه كل من عرفه. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ لَا. (٢)

وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ: لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ. (٣)

قال النووي: في هذا كله بيان عظيم سخائه وغزارة جوده ﷺ. (٤)

حتى قبل أن يبعث ﷺ فقد قال له ورقة بن نوفل: إِنَّكَ تَحْمِلُ الْكَلَّ، تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ. (٥)

وفي غزوة حنين يقول ابن القيم: وكان السَّبيُ ستةَ آلاف رأس، والإبلُ أربعةً وعشرين ألفًا، والغنم أكثرَ من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أُوقية فضة، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدَموا عليه مسلمين بِضْعَ عشرة ليلة ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلَّفةَ قلوبُهم أوَّلَ الناسِ، فأعطى أبا سفيان بنَ حرب أربعين أُوقية، ومائةً من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فقال:

---

(١) انظر الشفا ١/ ١٢٣ بتصرف.

(٢) البخاري (٦٠٣٤).

(٣) البخاري (٦٠٣٣)، مسلم (٢٣٠٧).

(٤) شرح النووي على مسلم ٨/ ٨١.

(٥) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).

"أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً وَمِائَةً مِنَ الإبِلِ"، فقال: ابني معاوية؟ قال: "أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَمِائَةً مِن الإبلِ"، وأعطى حكيم بن حِزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أُخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين، وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين وأعطى العباسَ بن مرداس أربعين. . . . . الخ. (١)

شجاعته ونجدته ﷺ: فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف، وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل، قد حضر المواقف الصعبة وفر الأبطال عن غير مرة وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه. (٢)

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ. قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ: يَا أَبَا عُمَارَةَ أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: لاَ وَاللهِ مَا وَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ شُبَّانُ أَصْحَابِهِ وَأَخِفَّاؤُهُمْ حُسَّرًا لَيْسَ عَلَيْهِمْ سِلاَحٌ، أَوْ كَثِيرُ سِلاَحٍ، فَلَقُوا قَوْمًا رُمَاةً لاَ يَكَادُ يَسْقُطُ لَهُمْ سَهْمٌ. جَمْعُ هَوَازِنَ وَبَنِي نَصْرٍ. فَرَشَقُوهُمْ رَشْقًا مَا يَكَادُونَ يُخْطِئُونَ، فَأَقْبَلُوا هُنَاكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَقُودُ بِهِ. فَنَزَلَ فَاسْتَنْصَرَ وَقَالَ: أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، ثُمَّ صَفَّهُمْ. (٣)

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْهُ. (٤)

قَالَ الْبَرَاءُ بنُ عَازِب: كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ

(١) بتصرف من زاد المعاد ٣/ ٤٧٣، وأصل القصة في البخاري (٣١٥٠).

(٢) الشفا ١/ ١٢٦.

(٣) مسلم (١٧٧٦).

(٤) رواه أحمد في المسند ١/ ١٥٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٥٥، وأبو يعلى في مسنده (٣٠٢) (١/ ٢٥٨) وغيرهم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ.(١)

وَعَن العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ قال: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ الله ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ فَطَفِقَ رَسُولُ الله ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ الله ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، فَقَالَ عَبَّاسٌ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا فَقُلْتُ: بِأَعْلَى صَوْتِي أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَ الله لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ، قَالَ: فَاقْتَتَلُوا، وَالْكُفَّارَ وَالدَّعْوَةُ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتْ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ، قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى قَالَ: فَوَ الله مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا.(٢)

قال النووي: قال العلماء: ركوبه ﷺ البغلة في موطن الحرب وعند اشتداد الناس هو النهاية في الشجاعة والثبات ولأنه أيضا يكون معتمدًا يرجع المسلمون إليه وتطمئن قلوبهم به وبمكانه.(٣)

وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ: لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ

---

(١) مسلم (١٧٧٦).

(٢) مسلم (١٧٧٥).

(٣) شرح النووي على مسلم ٦/ ٣٦٠.

عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ. (١)

قال النووي: وفيه فوائد منها بيان شجاعته ﷺ من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس. (٢)

حيائه وعدم مواجهة الناس بالعتاب ﷺ: وكان النبي ﷺ أشد الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الأحزاب: ٥٣). (٣)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ. (٤) ومحل وجود الحياء منه ﷺ في غير حدود الله. (٥)

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا. (٦)

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنْ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ، وَلَكِنْ يَقُولُ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا". (٧)

حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق ﷺ: قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩). وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٦). وقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: " خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ

---

(١) البخاري (٦٠٣٣)، مسلم (٢٣٠٧).

(٢) شرح النووي على مسلم ٨/ ٧٥.

(٣) الشفا ١/ ١٢٩.

(٤) البخاري (٦١٠٢)، مسلم (٢٣٢٠) واللفظ له.

(٥) فتح الباري ٦/ ٦٥٠.

(٦) البخاري (٣٥٥٩)، مسلم (٢٣٢١).

(٧) صحيح. رواه أبو داود في سننه (٤٧٨٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٦٤).

تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ؟ وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا". (١)

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي، وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ أَنِّي لَا أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ: **اللهمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا**. (٢)

وكان ﷺ يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجرة، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر. (٣)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا الْتَقَمَ أُذُنَ رَسُولِ الله ﷺ فَيُنَحِّي رَأْسَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنَحِّي رَأْسَهُ وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَخَذَ بِيَدِهِ فَتَرَكَ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَهُ. (٤)

وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة لم ير قط مادًا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام. (٥)

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ. (٦)

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: إِنْ كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله

---

(١) صحيح. رواه أبو داود في سننه (٤٧٧٤)، والترمذي في سننه (٢٠١٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند ٣/ ١٩٧، واللفظ للترمذي، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٩٦).

(٢) البخاري (٢٨٧٨)، مسلم (٢٤٧٥).

(٣) انظر الشفا ١/ ١٣٤.

(٤) أبو داود (٤٧٩٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٨٥).

(٥) انظر الشفا ١٣٥.

(٦) صحيح. الترمذي (٣٦٤١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد في المسند ٤/ ١٩٠، والبيهقي في الشعب ٦/ ٢٥١، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٨٠).

ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ. (١)

قال ابن حجر: والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت وبقوله: (حَيْثُ شَاءَتْ) أي من الأمكنة. (٢)

شفقته ورأفته ورحمته ﷺ: قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ جَبْذَةً حَتَّى رَأَيْتُ صَفْحَ أَوْ صَفْحَةَ عُنُقِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. (٣)

ومن شفقته على أمته ﷺ تخفيفه وتسهيله عليهم. وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم كقوله عليه الصلاة والسلام: "**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ**"(٤)

ونهيهم عن الوصال. ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته. (٥)

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ**

---

(١) البخاري (٦٠٧٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٥٥٢.

(٣) البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧).

(٤) أحمد في مسنده ٢/ ٤٦٠، وابن خزيمة في صحيحه ١/ ٧٣ وغيرهما، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٩٤٤٨)، وكذلك أورده البخاري في صحيحه بلفظ: "لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ".

(٥) انظر الشفا ١/ ١٣٨، ١٣٧.

بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ". (١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " **اللهمَّ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**. (٢)

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا. (٣)

ولما حصل له ما حصل في الطائف وكذبه قومه وسال دمه الشريف جاءه جبريل فقال: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"**. (٤)

وفائه وحسن عهده وصلة رحمه ﷺ.

وأما عن وفائه ﷺ فحدث، فهو الذي علم الدنيا الوفاء وحسن العهد.

فَعَنْ أنسٍ ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أُتِيَ بالشَّيء يقول: اذْهَبُوا بِهِ إلى فُلانَةٍ فَإِنَّها كَانَت صَدِيقةَ خَدِيْجَةَ. اذْهَبُوا بِهِ إلى فُلانَةٍ فَإِنَّها كانت تُحِبُّ خَدِيْجَةَ. (٥)

صلوات ربي وسلامه عليه حتى بعد موت خديجة ما زال وفيًا لها فيكرم خلائلها إكرامًا لها.

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيُهْدِي فِي خَلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ. (٦)

---

(١) البخاري (٧٠٧)، مسلم (٤٧٠).

(٢) البخاري (٦٣٦١) واللفظ له، مسلم (٢٦٠١).

(٣) البخاري (٦٨)، مسلم (٢٨٢١).

(٤) البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).

(٥) صحيح. أخرجه الحاكم في مستدركه وصححه (٧٣٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨١٨).

(٦) البخاري (٣٨١٦)، مسلم (٢٤٣٥).

وعنها أيضا قالت: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاعَ لِذَلِكَ فَقَالَ: اللهمَّ هَالَةَ، قَالَتْ: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ قَدْ أَبْدَلَكَ الله خَيْرًا مِنْهَا. (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ الله شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا. (٢)

فالشاهد من الحديث قوله: "غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا" ومعناه: أي سأصلها شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، ومنه (بلوا أرحامكم) أي: صلوها. (٣)

وانظر إلى حاله مع الأطفال ﷺ، فَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ وَلِأَبِي الْعَاصِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا. (٤)

وفي حديث خَدِيجَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: وَالله مَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. (٥)

تواضعه ﷺ: وأما عن تواضعه ﷺ فعلى علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعا وحسبك أنه خير بين أن يكون نبيا ملكا أو أن يكون نبيا عبدا فاختار أن يكون

---

(١) البخاري (٣٨٢١)، مسلم (٢٤٣٧).

(٢) مسلم (٢٠٤).

(٣) انظر شرح النووي ٢/ ٨٤.

(٤) البخاري (٥١٦)، مسلم (٥٤٣).

(٥) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).

عبدا نبيا. فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا. (١)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ.** (٢)

والإطراء هو المدح بالباطل تقول: أطريت فلانا مدحته فأفرطت في مدحه. (٣)

وكان ﷺ يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس. (٤)

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك ويعطى كل جلسائه بنصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه من جالسه. (٥)

ففي هذه الأحاديث بيان بروزه ﷺ للناس، وقربه منهم ليصل أهل الحقوق إلى حقوقهم، ويرشد مسترشدهم ليشاهدوا أفعاله وحركاته فيقتدي بها، وهكذا ينبغي لولاة الأمور. (٦)

عَنْ أَنَسٍ قال جاء رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام. (٧)

قال النووي: قال العلماء: إنما قال ﷺ هذا تواضعا واحتراما لإبراهيم ﷺ لخلته وأبوته

---

(١) ضعيف. أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، وأحمد في المسند ٥/ ٢٥٣، قال الألباني: لكن النهي عن فعل فارس والروم في مسلم (٤١٣) قال فيه: " **إِنْ كِدْتُمْ آنِفًا لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ فَلَا تَفْعَلُوا**".

(٢) البخاري (٣٤٤٥).

(٣) فتح الباري ٦/ ٥٥١.

(٤) انظر الشفا ١/ ١٤٤.

(٥) **صحيح**. الطبراني في المعجم الكبير (٤١٤)، وانظر: مختصر الشمائل للألباني ١/ ٢٣.

(٦) شرح النووي ٨/ ٩١.

(٧) مسلم (٢٣٦٩).

وإلا فنبينا ﷺ أفضل. [١]

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ ﷺ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. [٢]

عَنْ عَمْرَةَ قَالَتْ: قِيلَ لِعَائِشَةَ: مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ، قَالَتْ: كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، يَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَخْدِمُ نَفْسَهُ. [٣] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنْ كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ. [٤]

قال ابن حجر: وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل والأمة دون الحرة وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت وبقوله (حيث شاءت) أي: من الأمكنة. [٥]

عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته ﷺ: فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة، وقد اعترف له بذلك محادوه وعداه، وكان يسمى قبل نبوته: الأمين، قال ابن اسحاق: كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة. [٦]

ولما اختلفت قريش وتحاربت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكموا أول داخل عليهم فإذا بالنبي ﷺ داخل وذلك قبل نبوته فقالوا: هذا محمد؟ هذا الأمين قد رضينا به. [٧]

ونبينا ﷺ أصدق الناس، وسأل هرقل أبا سفيان فقال: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قال: لا. [٨]

خوفه من ربه، وطاعته له وشدة عبادته ﷺ: وأما خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته

---

(١) شرح النووي ٨/ ١٣٥.

(٢) البخاري (٦٧٦).

(٣) **صحيح**. الشمائل للترمذي ص ٢٨٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧١).

(٤) البخاري (٦٠٧٢).

(٥) فتح الباري ١٠/ ٥٥٢.

(٦) الشفا ١/ ١٤٨.

(٧) الشفا ١/ ١٤٨.

(٨) البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣).

فعلى قدر علمه بربه، ولذلك قال في حديث أبي هريرة: " **لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**". (١)

وفي حديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ. (٢) وكان يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!** (٣)

قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ عَمَلُه ﷺ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطِيقُ! (٤) وَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لَا يَصُومُ. (٥) وَكَانَ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنْ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْتَهُ، وَلَا نَائِمًا إِلَّا رَأَيْتَهُ نَائِمًا. (٦) قال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك، ثم توضأ، ثم قام يصلي فقمت معه، فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث راكعا بقدر قيامه ويقول في ركوعه سبحان ذي الجبروت، والملكوت والكبرياء، والعظمة، ثم سجد بقدر ركوعه ويقول في سجوده سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء، والعظمة، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك. (٧) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الشِّخِّيرِ، رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنْ الْبُكَاءِ ﷺ. (٨)

---

(١) البخاري (٦٤٨٥)، وانظر الشفا ١/ ١٥٨.

(٢) مسلم (٢٨١٩).

(٣) البخاري (٦٤٧١)، مسلم (٢٨١٩).

(٤) البخاري (١٩٨٧)، مسلم (٧٨٣).

(٥) مسلم (١١٥٦).

(٦) البخاري (١٩٧٢) من قول أنس رضي الله عنه.

(٧) حسن. رواه أبو داود (٧٨٣)، والترمذي في الشمائل (٣١٤) واللفظ له، والنسائي ٢/ ١٩١، وأحمد ٦/ ٢٤ وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٧٦).

(٨) أبو داود (٩٠٤)، والترمذي في الشمائل (٣٢٣)، والنسائي ٣/ ١٣، وأحمد في المسند ٤/ ٢٥، ٢٦،

وقال ﷺ في حديث الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ: " إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ". (١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة. (٢)

وفي الصحيح عنه ﷺ قال: "وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ! "(٣)

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ. (٤)

فمع كونه ﷺ يأخذ بالأيسر إلا أنه يحتاط دائما أن يكون إثما، فإذا كان الأيسر إثما لم يأخذ به، وهذا من أمانته ﷺ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً. (٥)

وفي حديث عمر الطويل: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ. (٦)

ولا يؤخذ من هذه الأحاديث أنه كان فقيرا ﷺ بل كان غنيا، ويكفيه ما كان يحصل عليه من غنائم الحروب، ولكنه كان لا يبقي شيئا في يده، فقد ركل الدنيا برجله فلا يريد منها إلا أن تبلغه إلى نعيم الآخرة.

زهده في الدنيا ﷺ: وأما زهده في الدنيا فحسبك من تقلله منها وإعراضه عن زهرتها وقد

وغيرهم، وصححه الألباني في المشكاة (١٠٠٠).

(١) مسلم (٢٧٠٢).

(٢) حسن. رواه الترمذي (٤٤٨)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٣٣).

(٣) البخاري (٣١٣٨)، مسلم (١٦٠٤) واللفظ له.

(٤) البخاري (٣٥٦٠)، مسلم (٢٣٢٧).

(٥) صحيح. رواه الترمذي في السنن (٢٣٦٠)، وفي الشمائل (١٤٦)، وابن ماجة (٣٣٧٤)، وأحمد ١/ ٢٥٥، من طريق هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس به، وإسناده صحيح، وهلال بن خباب ثقة تغير بآخره، وحسنه الألباني في الصحيحة ٢١١٩.

(٦) البخاري (٥١٩١)، مسلم (١٤٦٩).

سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها إلى أن توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي.[١]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **اللهمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا.**[٢]

قال النووي: قال أهل اللغة العربية: القوت ما يسد الرمق وفيه فضيلة التقلل من الدنيا والاقتصار على القوت منها والدعاء بذلك.[٣]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ طَعَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ.[٤]

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: " **مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**".[٥]

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: " **هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**".

المبحث الرابع: صحابة النبي ﷺ.

لما كان الصحابة هم أول الناقلين لهذا الدين عن نبيهم وجب أن نبين منزلتهم من غير إفراط أو تفريط.

أولًا: تعريف الصحابي: الصحابي هو كل من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام[٦].

ذكر بعض فضائلهم: قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ

---

(١) البخاري (٢٧٨٠)، وانظر الشفا ١/ ١٥٤.

(٢) مسلم (١٠٥٥).

(٣) شرح النووي ٤/ ١٥٧.

(٤) البخاري (٥٠٥٩)، مسلم (٢٩٧٦).

(٥) صحيح. رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وأحمد ١/ ٣٠١، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٣٩).

(٦) الإصابة (١/ ٦)، وفتح المغيث (٣/ ٧٩).

سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح: ٢٩).

فأثنى عليهم ربهم وأحسن الثناء عليهم ورفع ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن ثم وعدهم المغفرة والأجر العظيم. وأخبر في آية أخرى برضاه عنهم ورضاهم عنه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠).

ثم بشرهم بما أعد لهم فقال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠). وأمر رسول الله ﷺ بالعفو عنهم والاستغفار لهم فقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وأمره بمشاورتهم تطييبًا لقلوبهم وتنبيهًا لمن بعده من الحكام على المشاورة في الأحكام فقال: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩). وندب من جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم، وأن لا يجعل في قلوبهم غلًا للذين آمنوا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر: ١٠).

وأثنى رسول الله ﷺ عليهم وشبههم بالنجوم ونبه بذلك أمته على الاقتداء بهم في أمور دينهم كما يهتدون بالنجوم في ظلمات البر والبحر في مصالحهم.

عن أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ انْتَظَرْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ قَالَ: ففعلنا فَخَرَجَ إِلَيْنَا فَقَالَ: مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا فقُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قُلْنَا: نُصَلِّي مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ: أَصَبْتُمْ أَحْسَنْتُمْ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: **النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى أهل السَّمَاءَ**

مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أنا أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَتْ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ(١).

ثم إنه ﷺ شهد لهم بكونهم خير أمته فقال: **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**(٢).

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "**لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**". (٣)

عن أنس بن مالك أنس رسول الله ﷺ قال: "**آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ**". (٤)

فيجب على كل مسلم حب أصحاب النبي ﷺ لأن حبهم دين وإيمان وإحسان لأنه امتثال لأمر الله. وبغض الصحابة كفر ونفاق وطغيان.

فلقد نهى النبي ﷺ عن سبهم، وأخبر أمته بأن أحدًا منهم لا يدرك محلهم ولا يبلغ درجتهم، وأن الله تعالى قد غفر لهم. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: "**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ**". (٥)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "**لاَ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ**". (٦)

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة وجوب السكوت وعدم الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا، وذلك بعد مقتل عثمان بن عفان، ونعتقد أن فتنة الجمل قد تمت من غير اختيار من علي بن أبي طالب، ولا من طلحة بن عبيد الله، ولا من الزبير بن العوام رضي الله عنهم، وأن عائشة رضي الله عنها خرجت للإصلاح بين المسلمين، مع العلم بأنهم

---

(١) مسلم (٢٥٣١).

(٢) البخاري (٢٦٥٢)، مسلم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله.

(٣) مسلم (٢٤٩٦).

(٤) البخاري (٣٧٨٤).

(٥) البخاري (٣٦٧٣)، مسلم (٢٥٤١).

(٦) مسلم (٧٧).

جميعًا من الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة التوقف عما شجر بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن سفيان رضي الله عنهما مع اعتقادنا أن الحق كان مع علي بن أبي طالب وأصحابه، وأن معاوية كان متأولًا في قتاله لعلي بن أبي طالب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن عقيدة أهل السنة والجماعة في أصحاب الرسول:

إن أهل السنة والجماعة لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة. ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنهم يُغفر لهم من السيئات مالا يغفر لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن الـمُد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا، ثم إذا كان قد صدر عن أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتي بحسنة تمحوه، أو غُفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ وهم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كُفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور، ثم القدر الذي يُنكر من فعل بعضهم قليل، نذر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة، والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل، علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، إنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها. اهـ. (١)

قال الإمام الطحاوي: ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. (٢)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيميه (٣/ ١٥٥: ١٥٦).

(٢) العقيدة الطحاوية ١/ ٥٧.

قال أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة. (١)

قال ابن تيمية: أن القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول ﷺ قدح في الرسول علية السلام، كما قال مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ ليقول قائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين. وأيضًا فهؤلاء الذين نقلوا القرآن والإسلام وشرائع النبي ﷺ هم الذين نقلوا فضائل علي وغيره، فالقدح فيهم يوجب أن لا يوثق بما نقلوه من الدين وحينئذ فلا تثبت فضيلة لا لعلي ولا لغيره. (٢)

قال الذهبي: يَعرف فضائل الصحابة ﵃ من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته من المسابقة إلى الإيمان والمجاهدة للكفار ونشر الدين وإظهار شعائر الإسلام وإعلاء كلمة الله ورسوله، وتعليم فرائضه وسننه، ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع، ولا علمنا من الفرائض والسنن سنة ولا فرضًا، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئًا، فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين، لأن الطعن لا يكون إلا من اعتقاد مساويهم و إضمار الحقد فيهم وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم، وبيان فضائلهم ومناقبهم وحبهم، ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور والوسائط من المنقول، والطعن في الوسائط طعن في الأصل والازدراء بالناقل، ازدراء بالمنقول وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من الزندقة والإلحاد في عقيدته. (٣)

معتقد أهل السنة والجماعة في الخلافة.

---

(١) الكفاية في علم الرواية صـ ٤٩.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٤٢٩.

(٣) الكبائر للذهبي صـ٢٩٤: ٢٩٣.

ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق ﷺ تفضيلًا له وتقديمًا على جميع الأمة. والدليل على إثبات الخلافة لأبي بكر ما رواه جُبَيْر بْن مُطْعِم عَنْ أَبِيهِ قال: أَتَتْ امْرَأَةٌ رَسُولَ الله ﷺ فَكَلَّمَتْهُ فِي شَيْءٍ، فَأَمَرَهَا أن ترجع إليه، فَقَالَتْ: أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ الله، إِنْ لَمْ أَجِدْكَ كَأَنَّهَا تَعْنِي الْمَوْتَ، فقَالَ: **إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**[١].

قال عبد الله بن جعفر الطيار: ولينا أبو بكر ﷺ فخير خليفة أرحمه بنا وأحناه علينا[٢].

ولما لا يكون الخليفة الأول بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وهو أول من صدق رسول الله، وأسلم وصحبه وأحسن الصحبة، وأنفق عليه ماله، وصاحبه في الغار، والمنزَّل عليه السكينة، وعاتب الله ﷻ الخلق كلهم في النبي ﷺ إلا أبا بكر فإنه أخرجه من المعاتبة فقال ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ (التوبة: ٤٠). الصابر معه بمكة في كل شدة ورفيقه في الهجرة ولما مرض النبي ﷺ فلم يستطع الخروج إلى الصلاة فأمر أن يتقدم أبو بكر فيصلي بالناس ولا يتقدم غيره. وقال ﷺ لعائشة وهو على فراش موته: "**ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا فَإِنِي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولَ قَائِلٌ أَنَا أَوْلَى. وَيَأْبَى الله وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ**". [٣]

وقال ﷺ: "**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ بنفسه وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ**". [٤]

فاجتمع المسلمون على بيعة أبي بكر الصديق وانقيادهم لإمامته لما اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاما أعجبني فخشيت أن لا يبلغه أبو بكر فتكلم وأبلغ، وقال في

---

(١) البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٣٩)، واللالكائي (٧/ ٢٩٩).

(٣) مسلم (٢٣٨٧).

(٤) البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، قال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل أبدا منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء - يعني المهاجرين هم أوسط العرب دارا وأعزهم أحسابا - فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل نبايعك أنت خيرنا وسيدنا وأحب إلى رسول الله ﷺ، وأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس.(١)، (٢)

ونثبت الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه: أي ونعتقد إثبات الخلافة لعمر بعد أبي بكر رضي الله عنهما وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه واتفاق الأمة بعده عليه وفضائله رضي الله عنه أشهر من أن تنكر وأكثر من أن تذكر.

عن مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي: من خير النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ، قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ، قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ". (٣)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي فالتفت إليه فإذا هو عليٌّ فترَّحم على عمر وقال: ما خلَّفت أحدًا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنت كثيرا ما اسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما. (٤)

ونثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما.

فلما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قالوا له: أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمَّى

---

(١) البخاري (١٢٤١)، ومسلم (٩٤٢).

(٢) الاعتقاد للبيهقي (صـ٤٧٠)، وشرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٦٩٨)، والشريعة للآجري (٤/ ١٧٩١).

(٣) أخرجه: البخاري (٣٦٧١)، وأبو داود (٤٦٢٩).

(٤) راجع: العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٠٩)، والاعتقاد للبيهقي صـ٥٠٦، والشريعة (٤/ ١٧٩١).

عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن بن عوف وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة وقال: أُوصي الخليفة من بعدي نذكر وصيته بالمهاجرين الأولين، ثم بالأنصار خيرًا ثم بأهل الأمصار، ثم بالأعراب ثم بأهل الذمة، ثم ذكر دفنه فلما فرغوا من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم.

فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه وليحرصن على صلاح الأمة فأسكت الشيخان.

فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليَّ والله علي أن لا آل عن أفضلكم، فقالا نعم. قال: فأخذ بيد أحدهما فقال لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه[1]. فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد. يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلًا.

قال: وأخذ بيد عثمان وقال: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده.

فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون وهذا بعد أن شاور عبد الرحمن الناس ثلاثة أيام لا يخلو به رجل ذو رأي فيعدل بعثمان[2]. قال ابن عمر كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بعد النبي ﷺ أحدًا بأبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم.[3]. [4]

(١) أخرجه: البخاري (٣٧٠٠).

(٢) البخاري (٧٢٠٧).

(٣) البخاري (٣٦٥٥).

(٤) الاعتقاد للبيهقي (صـ٥١٥)، وشرح العقيدة الطحاوي (٢/ ٧١٧).

فلما قتل عثمان وبايع الناس عليًا صار إمامًا حقًا واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة.

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بعد عثمان ﷺ بمبايعة الصحابة.

ومن فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ما ورد عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعَلِيٍّ: **"أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي"**. (١)

ونعتقد أن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق قال ﷺ: **"عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ فِي الْجَنَّةِ وسعيد بن زيد فِي الْجَنَّةِ"**. (٢)، (٣)

ونثبت خلافة معاوية ﷺ. معاوية ﷺ كاتب رسول الله ﷺ على وحي الله ﷻ وهو القرآن بأمر الله ﷻ وصاحب رسول الله ﷺ ومن دعا له النبي ﷺ أن يقيه العذاب ودعا له أن يعلمه الله الكتاب ويمكّن له في البلاد وأن يجعله هاديًا مهديًا.

وصاهره النبي ﷺ بأن تزوج أم حبيبة أخت معاوية ﷺ، فصارت أم المؤمنين، وصار هو خال المؤمنين. وهو ممن قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ (التحريم: ٨)

فقد ضمن الله الكريم له أن لا يخزيه لأنه ممن آمن برسول الله ﷺ (٤).

قال عبد الملك بن عبد الحميد الميموني قال: قالت: لأحمد بن حنبل: أليس قال النبي ﷺ: " كل صهر ونسب ينقطع إلا صهري ونسبي"؟ قال: بلى، قلت: وهذه لمعاوية؟ قال: نعم، له صهر ونسب.

قال: وسمعت ابن حنبل يقول: ما لهم ولمعاوية، نسأل الله العافية(٥). فمن قال إن

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٤)، وأحمد (١/ ١٨٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٣١).

(٤) الشريعة (٥/ ٢٤٣١).

(٥) أبو بكر الخلال في السنة (صـ٤٣٢).

معاوية لم يكن كاتب الوحي ولا خال المؤمنين. فنقول له: هذا قول سوء رديء ويجب أن نتجنب هؤلاء القوم ولا نجالسهم ونبيّن أمرهم للناس[١].

فمن قال هل معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز فنقول: إن معاوية أفضل من ستمائة مثل عمر بن عبد العزيز[٢].

فمعاوية ﷺ عمل بسيرة عمر بن الخطاب سنين لا يخرم منها شيئًا[٣].

إن معاوية ﷺ ثبت بالتواتر أنه أمره النبي ﷺ كما أمر غيره وجاهد معه وكان أمينًا عنده يكتب له الوحي، وما اتهمه النبي ﷺ في كتابة الوحي وولاه عمر بن الخطاب الذي كان من أخبر الناس بالرجال وقد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه ولم يتهمه في ولايته. وقد ولّي رسولُ الله ﷺ أباه أبا سفيان إلى أن مات النبي ﷺ وهو على ولايته.

فمعاوية خير من أبيه وأحسن إسلامًا من أبيه باتفاق المسلمين وإذا كان النبي ﷺ ولي أباه فلأن تجوز ولايته بطريق الأولى والأحرى ولم يكن من أهل الردة قط ولا نسبه أحد من أهل العلم إلى الردة. ولقد اتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك كان ملكه ملكًا ورحمة.

وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين ما يعلم أنه كان خيرًا من ملك غيره[٤].

ونعتقد كذلك في أزواجه. ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ (الأحزاب: ٣٣). وابتداء الآية في نساء النبي ﷺ وتخييرهن فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة كان لهن ما أعد الله لهن من الأجر العظيم ثم ميزهن عن نساء العالمين في العذاب والأجر، ثم أبانهن

(١) السنة لأبي بكر بن الخلال (صـ٤٣٤).

(٢) السنة لأبي بكر بن الخلال (٤٣٧).

(٣) السنة لأبي بكر بن الخلال (٤٤٤).

(٤) فتاوى ابن تيمية (٤/ ٤٧٣-٤٧٩).

منهن فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾.

وإنما ورد بلفظ الذكور لإدخال غيرهن معهن في ذلك ثم أضاف البيوت إليهن بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٤).

وجعلهن أمهات المؤمنين فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ (الأحزاب: ٦).

وحرم نكاحهن بعد وفاة نبيه ﷺ فقال: وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ (الأحزاب: ٥٣). [١].

المبحث الخامس: قالوا عن النبي ﷺ.

قال ول ديورانت: لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل، وقطيعًا من المعز، وبيتًا، وأمه عنيت بتربيته في طفولته. ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر قصة الحضارة، تحت عنوان محمد في مكة.

يقول سنرستن الآسوجي أستاذ اللغات السامية، في كتابه "تاريخ حياة محمد": إننا لم ننصف محمدًا إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا؛ فلقد خاض محمد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية، مصرًا على مبدئه، وما زال يحارب الطغاة حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين، فأصبحت شريعته أكمل الشرائع، وهو فوق عظماء التاريخ.

مايكل هارت في كتابه مائة رجل في التاريخ: إن اختياري محمدًا، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي. فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدأوا

---

[١] الشريعة (٥/ ٢٤٨٥-٢٤٩٣).

رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها، كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم أو سبقهم إليهم سواهم، كموسى في اليهودية، ولكن محمدًا هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته. ولأنه أقام جانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضًا وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم. أيضًا في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية، وأتمها".

برناردشو في كتابه "محمد" -والذي أحرقته السلطة البريطانية-:

إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال؛ فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالدًا خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوروبا).

إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يسمَّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم لوفق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.

الدكتور (شبرك) النمساوي: إنّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها؛ إذ إنّه رغم أُمّيته، استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع، سنكونُ نحنُ الأوروبيين أسعد ما نكون، إذا توصلنا إلى قمته.

مايكل هارت العظماء مائة أولهم محمد (الرسول الأعظم): نشر في أمريكا في الزمن الحاضر كتاب بعنوان "المائة" أو "الخالدون مائة" أو "القمم المائة" أو "أعظم مائة في التاريخ".

وقد ألف هذا الكتاب الجديد من نوعه عالم الفلك والرياضيات والمؤرخ "مايكل

هارت"، لقد قام بالبحث في التاريخ عن الرجال الذين كان لهم أعظم تأثير على البشر وقد ذكر لنا في هذا الكتاب أكثر مائة رجل تأثيرًا على البشرية منهم آزوس، أرسطو، بوذا، كونفوشيوس، هتلر، أفلاطون، ذرادشت. وهو لا يعطينا علامات محددة عن المائة من ناحية تأثيرهم على الناس ولكنه يقوم بتقييم درجة هذا التأثير ويصفهم بترتيب تفوقهم في هذا التأثير من رقم واحد وحتى رقم مائة، وهو يوضح لنا أسبابه في ترتيب مرشحيه.

ونحن غير مطالبين بالموافقة على كلامه ولكننا لا يسعنا إلا أن نعجب بأمانة هذا الرجل ودقته في البحث.

وأكثر شيء يدعو للدهشة في تصنيفه المنتقى أنه وضع نبينا الكريم الرسول محمد ﷺ كرقم واحد أول المائة العظماء، وهو بذلك يؤكد ـ بدون علم أو قصد ـ شهادة الله تعالى في آخر تنزيل له للعالم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

ايفلين كوبولد:

١-". . . هذه هي مدينة الرسول ﷺ تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل لا إله إلا الله، وتلقي في روعي صبره على المكاره واحتماله للأذى في سبيل الوحدانية الإلهية".

٢-كان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد ﷺ بعث هذه الأمة بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالًا وآجالًا.

٣- لعمري، ليجدن المرء في نفسه، ما تقدم إلى قبر الرسول ﷺ روعة ما يستطيع لها تفسيرًا، وهي روعة تملأ النفس اضطرابًا وذهولًا ورجاءً وخوفًا وأملًا، ذلك أنه أمام نبي مرسل وعبقري عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم. . إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية.

٤-لقد استطاع النبي ﷺ القيام بالمعجزات والعجائب، لمّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول الوحدانية الإلهية، لقد وفّق إلى خلق

العرب خلقًا جديدًا ونقلهم من الظلمات إلى النور.

٥-مع أن محمدًا ﷺ كان سيد الجزيرة العربية، فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفيًا بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، كريمًا بارًا كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلًا لا يكاد يكفيه.

جوتة الأديب الألماني: إننا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه "محمد"، وسوف لا يتقدم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي "محمد"..وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح "محمد" الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد.

دُرّاني[1]:

١-أستطيع أن أقول بكل قوة أنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد ﷺ؛ لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام؛ فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحبًا بنا حتى نقتفي أثره.[2]

٢-. وأخيرًا أخذت أدرس حياة النبي محمد ﷺ فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغير طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحضارة واحدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة ـ التي لم تنجب رجلًا عظيمًا

---

(١) الدكتور م. ج. دُرّاني Dr. M. H. Durrani: سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانيًا في فترة مبكرة من حياته وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى ردحًا من حياته في كنيسة إنكلترا، حيث عمل قسيسًا منذ عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٦٣ حيث جاءه الإسلام "كما يأتي فصل الربيع"، فعاد إلى دين آبائه وأجداده.

(٢) رجال ونساء أسلموا (٤/ ٢٧ - ٢٨).

واحدًا يستحق الذكر منذ عدة قرون ـ أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفًا من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد. (١)

٣- . تحمل ﷺ ثلاثة عشر عامًا كاملةً من المتاعب ـ في مكة ـ دون انقطاع، وثمانية سنوات ـ في المدينة ـ دون توقف، فتحمل ذلك كله، فلم يتزحزح شعرة عن موقفه، وكان صامدًا، رابط الجأش، صلبًا في أهدافه وموقفه. عرضت عليه أمته أن تنصبه ملكًا عليها وأن تضع عند قدميه كل ثروات البلاد إذا كف عن الدعوة إلى دينه ونشر رسالته. فرفض هذه الإغراءات كلها فاختار بدلًا من ذلك أن يعاني من أجل دعوته. لماذا؟ لماذا لم يكترث أبدًا للثروات والجاه والملك والمجد والراحة والدعة والرخاء؟ لابدّ أن يفكر المرء في ذلك بعمق شديد إذا أراد أن يصل إلى جواب عليه. (٢)

٤-هل بوسع المرء أن يتصور مثالًا للتضحية بالنفس وحب الغير والرأفة بالآخرين أسمى من هذا المثال حيث نجد رجلًا يقضي على سعادته الشخصية لصالح الآخرين، بينما يقوم هؤلاء القوم أنفسهم الذين يعمل على تحسين أحوالهم ويبذل أقصى جهده في سبيل ذلك، يقومون برميه بالحجارة والإساءة إليه ونفيه وعدم إتاحة الفرصة له للحياة الهادئة حتى في منفاه، وأنه رغم كل ذلك يرفض أن يكف عن السعي لخيرهم؟ هل يمكن لأحد أن يتحمل كل هذا العناء والألم من أجل دعوة السعي لخيرهم؟ هل يمكن لأحد أن يتحمل كل هذا العناء والألم من أجل دعوة مزيفة؟ هل يستطيع أي مدخول غير مخلص أن يبدي هذا الثبات والتصميم على مبدئه والتمسك به حتى آخر رمق دون أدنى وجل أو تعثر أمام الأخطار وصنوف التعذيب التي يمكن تصورها وقد قامت عليه البلاد بأكملها وحملت السلاح ضده؟. (٣)

---

(١) المرجع السابق (٤/ ٢٨: ٢٩).

(٢) نفسه (٤/ ٢٩: ٣٠).

(٣) رجال ونساء أسلموا (٤/ ٣٠).

إن هذا الإيمان وهذا السعي الحثيث وهذا التصميم والعزم الذي قاد به محمد ﷺ حركته حتى النصر النهائي، إنما هو برهان بليغ على صدقه المطلق في دعوته؛ إذ لو كانت في نفسه أدنى لمسة من شك أو اضطراب لما استطاع أبدًا أن يصمد أمام العاصفة التي استمرّ أوارها أكثر من عشرين عامًا كاملة. هل بعد هذا من برهان على صدق كامل في الهدف واستقامة في الخلق وسموّ في النفس كل هذه العوامل تؤدي لا محالة إلى الاستنتاج الذي لا مفر منه وهو أن هذا الرجل هو رسول الله حقًا. هذا هو نبينا محمد ﷺ إذ كان آية في صفاته النادرة ونموذجًا كاملًا للفضيلة والخير، ورمزًا للصدق والإخلاص. إن حياته وأفكاره وصدقه واستقامته، وتقواه وجوده، وعقيدته ومنجزاته، كل أولئك براهين فريدة على نبوته؛ فأي إنسان يدرس دون تحيّز حياته ورسالته سوف يشهد أنه حقًا رسول من عند الله، وأن القرآن الذي جاء به للناس هو كتاب الله حقًا. وكل مفكر منصف جاد يبحث عن الحقيقة لابدّ أن يصل إلى هذا الحكم". [1]

غاندي: يقول "مهاتما غاندي" في حديث لجريدة "ينج إنديا": "أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر، لقد أصبحت مقتنعًا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته؛ بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول، مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي أسِفًا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة.

غوستاف لوبون: ١-جمع محمد ﷺ قبل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى. ومما لا ريب فيه أن محمدًا ﷺ أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل

---

(١) المرجع السابق (٤/ ٣٠ - ٣١).

الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك كان فضله على العرب عظيمًا. . ". [١]

٢-إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد ﷺ من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا ﷺ مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله. [٢]

٣-استطاع محمد ﷺ أن يبدع مثلًا عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد ﷺ على الخصوص ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى. [٣]

٤- لا شيء أصوب من جمع محمد ﷺ لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد ﷺ. [٤]

نظمي لوقا[٥]:

١- ما كان محمد ﷺ كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل، وهمة البطل، فكان حقًا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيّي فيه الرجل. [٦]

٢-لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضًا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين

---

(١) دين الإسلام (ص١٦).

(٢) حضارة العرب (ص١١٥).

(٣) المرجع السابق (ص١١٦).

(٤) المرجع السابق (٣٩٣، ٣٩٤).

(٥) د. نظمي لوقا: نصراني من مصر، يتميز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق. ورغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبيًا، فإنه كثيرًا ما كان يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمع بشغف إلى كتاب الله وسيرة الرسول ﷺ، بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره، ألف عددًا من الكتب أبرزها "محمد الرسالة والرسول"، و"محمد في حياته الخاصة".

(٦) محمد الرسالة والرسول (ص ٢٨).

الألوهية بسبب من الأسباب، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبي أنه ليس بشرًا كسائر البشر وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء. ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواترًا مكررًا في آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)، وفي تخير كلمة (مثلكم) معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال. بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (الشورى: ٤٨) وظاهر في هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه ﷺ إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التي كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها. [١]

٣-رجل فرد هو لسان السماء، فوقه الله لا سواه، ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين، ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر؛ بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسول ﷺ بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتزّ، لما كان عليه جناح من أحد؛ لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة. يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله". ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيمًا له، فينهاهم عن ذلك قائلًا: "لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا. [٢]

٤-ماذا بقي من مزعم لزاعم؟ إيمان امتحنه البلاء طويلًا قبل أن يفاء عليه بالنصر وما كان النصر متوقعًا أو شبه متوقع لذلك الداعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام. . ونزاهة ترتفع فوق المنافع، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يداخلها زهو أو

(١) محمد الرسالة والرسول (٨٥، ٨٦).

(٢) محمد الرسالة والرسول (ص١٧٩، ١٨٠).

استطالة بسلطان مطاع. لم يفد. ولم يورث آله، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها. وحرم على نفسه ما أحلّ لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس في الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش. لم يمكن لنفسه ولا لذويه. وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوّى ذلك كله بالأرض أي قولة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق الصادق؟ لا خيرة في الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى. . وما ضلّ وما غوى. . وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين. (١)

٥-أي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من "أبي القاسم" ﷺ الذي حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام؟ ". (٢)

٦-كان محمد ﷺ يملك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه. فهي قوة له تحسب في مزاياه، وليست ضعفًا يعد في نقائصه. لم يكن ﷺ معطل النوازع ولكنها لم تكن نوازع تعصف به. (٣)

* * *

---

(١) المرجع السابق (١٨٣ : ١٨٦).

(٢) محمد في حياته الخاصة (ص١٢).

(٣) محمد في حياته الخاصة (٣٩، ٤٠)، ويمكن للقارئ أن يرجع للكتاب نفسه "محمد في حياته الخاصة"، فهو بمجمله يمكن أن يعدّ شهادة قيّمة على حياة الرسول ﷺ العائلية الخاصة.

شبهات العقيدة

وفيها:

١-بطلان ألوهية المسيح

٢-شبهة: ثناء القرآن والسنة على التوراة والإنجيل

٣- الصلب والفداء

٤- إثبات التحريف في الكتاب المقدس.

٥- شبهات في صفات الذات

٦- شبهات صفات الفعل

٧- شبهات في حق الله

٨- شبهات عن القبر

٩- شبهات عن الجنة

١٠- شبهة: ادعاؤهم أن المسلم يخلد في النار.

١١- أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف

١٢- إثبات نبوة النبي ﷺ

١ـ بطلان ألوهية المسيح

نص الشبهة: ضل النصارى حينما وقعوا في عبادة المسيحعليه السلام؛ حيث زعموا أنه ابن الله، وهو أحد الأقانيم الثلاثة التي يعتقدون بها؛ ولذا كان لزامًا علينا أن نفند هذا المعتقد ونبين بطلانه؛ لنصل بإذن الله إلى الحق، وهو أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، لا شريك معه ولا ولد - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - وأن المسيح هو رسول الله، نبي من أنبيائه، عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: مقدمة وتشتمل على فصلين.

الأول: بيان عام للتوحيد عند المسلمين.

الثاني: حول شرح معنى ألوهية المسيح، وكيف تم انتزاع هذه العقيدة من نصوص العهدين، ومدى اتفاق النصارى على هذه العقيدة.

الوجه الثاني: الأدلة من القرآن على بطلان ألوهية المسيح.

الوجه الثالث: الأدلة من السنة على بطلان ألوهية المسيح.

الوجه الرابع: الأدلة من العهد القديم والأناجيل الأربعة على بطلان ألوهية المسيح.

الوجه الخامس: الأدلة من رسائل بولس على بطلان ألوهية المسيح.

الوجه السادس: بطلان أدلة النصارى على ألوهية المسيح.

الوجه السابع: استدلال النصارى بآيات من القرآن على ألوهية المسيح، والرد عليها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: مقدمة.

وتشمل على الآتي:

الفصل الأول: بيان عام للتوحيد عند المسلمين، وأهميته

أولا: تعريف التوحيد: التوحيد هو: إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية، وكمال الأسماء والصفات. وهو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال. عن معاذ بن جبلرضي الله عنهقال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: " يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله؟. قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "

فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: " لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا ". [1]

والنصوص الدالة على وحدانية الله في القرآن الكريم كثيرة جدًا، بل إن القرآن كله ناطق بتوحيد الله ﷻ حق التوحيد وهذه جملة من الآيات الدالة على هذا الأصل:

١ - يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص)، فهذه السورة الكريمة نص في أن الله واحد أحد، وأنه لم يلد ولم يولد فليس له ابن لا عيسى عليه السلام ولا غيره، ولا يشاركه في وحدانيته أحد.

٢ - يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (النحل: ٥١)، وهنا نهى الله - سبحانه وتعالى - عن اتخاذ إلهين وأبان - سبحانه على الحصر إنما هو إله واحد لا إله غيره.

٣ - يقول تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٩).

٤ - قال ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

٥ - ويقول ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٢).

٦ - ويقول ﷻ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١). هذه الآيات غيض من فيض، ذلك أن القرآن الكريم مليء بأدلة وحدانية الله - سبحانه وتعالى - وتوحيده حق التوحيد كما هو معلوم.

---

(١) البخاري (٢٠٧١).

ثانيًا: أنواع التوحيد: ثلاثة، وهي توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

١ـ **توحيد الربوبية**: وهو توحيد الله بأفعاله. بأن يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربَّى جميع الخلق بالنعم وربَّى خواص خلقه- وهم الأنبياء وأتباعهم- بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وهذه هي التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين، فلا خالق إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (الزمر: من الآية٦٢). ولا رازق إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ (هود: ٦). ولا مدبِّر إلا الله، كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ (السجدة: ٥). ولا محيي ولا مميت إلا الله، كما قال تعالى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (يونس: ٥٦).

وقد قامت الأدلة الشرعية على وجوب الإيمان بربوبيته سبحانه وتعالى، كما في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢)، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وهذا النوع من التوحيد لم يخالف فيه كفار قريش، وأكثر أَصحاب الملل والدِيانات؛ فكلُهم يعتقدون أَن خالق العالم هو الله وحده، ومع ذلك لم يدخلهم في الإسلام.

قال الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ۝٨٩ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٠].

وذلك لأَن قلوبَ العباد مفطورةٌ على الإِقرار بربوبيته- سبحانه وتعالى- ولذا فلا يُصْبِحُ مُعْتقِدُه مُوَحِّدا، حتى يوحد في العبادة كما سيأتي

٢ـ توحيد الأسماء والصفات: ومعناه الاعتقاد الجازم بأَنَّ اللهﷻ له الأَسماء الحسنى والصفات العُلى، وهو متَّصف بجميع صفات الكمال، ومنزَّهٌ عن جميع صفات النقص، متفرد بذلك عن جميع الكائنات، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

وأسماء الله كثيرة، منها: الرحمن، والسميع، والبصير، والعزيز، والحكيم. فأهل السنة والجماعة: يعرفون ربهم بصفاته الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وأهل السنة والجماعة لا يحددون كيفية صفات الله- جل وعلا- لأنه تبارك وتعالى لم يخبر عن الكيفية، ولأنه لا أحد أعلم من الله سبحانه بنفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤]. ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله ﷺ الذي قال الله تبارك وتعالى في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، ويؤمنون أن الله- سبحانه وتعالى- هو الأول ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي

ليس دونه شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣] وكما أن ذاته- سبحانه وتعالى- لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات، لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه؛ فيثبتون لله ما أثبته لنفسه إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل؛ فحين يثبتون لله ما أثبته لنفسه لا يمثلون، وإذا نزهوه لا يعطلون الصفات التي وصف نفسه بها، وأنه- تعالى- محيط بكل شيء، وخالق كل شيء، ورازق كل حي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]. ويؤمنون بأن الله تعالى استوى على العرش فوق سبع سماوات، بائن من خلقه، أحاط بكل شيء علما، كما أخبر عن نفسه في كتابه العزيز في سبع آيات كريمات بلا تكييف. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]. وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦-١٧]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ويؤمنون بأن الكرسي والعرش حق. قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥] والعرش لا يقدر قدره إلا الله، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في فلاة وسع السموات والأرض، والله مستغن عن العرش والكرسي، ولم يستو على العرش لاحتياجه إليه؛ بل لحكمة يعلمها، وهو منزه عن أن يحتاج إلى العرش أو ما دونه، فشأن الله تبارك وتعالى أعظم من ذلك؛ بل العرش والكرسي محمولان بقدرته وسلطانه. وأن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بيديه، وأن كلتا يديه يمين ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء كما وصف نفسه سبحانه، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿مَا

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]. ويثبتون لله سمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وقدرةً، وقوةً، وعزًا، وكلامًا، وحياةً، وقدمًا وساقًا، ويدًا، ومعيةً، وغيرها من صفاته ﷻ التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه ﷺ بكيفية يعلمها الله ولا نعلمها؛ لأنه تعالى لم يخبرنا عن الكيفية، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢]، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ﮩ ﮪ ﮫ﴾ [الزُّخرُف: ٥٥]، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وغيرها من آيات الصفات.

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم، ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وسوف يرونه كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل نزولًا حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته قال النبي ﷺ: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟ " ويؤمنون بأنه تعالى يجيء يوم الميعاد للفصل بين العباد، مجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فمنهج أهل السنة والجماعة في كل ذلك الإيمان الكامل بما أخبر به الله تعالى، وأخبر به رسوله ﷺ والتسليم به؛ كما قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى: (من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم).

وكما قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله تعالى به نفسه في القرآن فقراءته؛ تفسيره لا كيف، ولا مثل. وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ.

وقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية، فقالوا: (أمرّوها كما جاءت بلا كيف).

وسأله رجل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالًا، وأمر به أن يخرج من المجلس. وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: (لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء؛ بل يصفه بما وصف به نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئًا؛ تبارك الله تعالى رب العالمين).

٣ـ **توحيد الألوهية ويقال له توحيد العبادة**: وهو توحيد الله بأفعال العباد التي أمرهم بها، وهو العلم والاعتراف والاعتقاد الجازم بأن الله هو الإلهُ الحق ولا إِلهَ غيره، وكل معبود سواه باطل، وإفراده تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة، وأَن لا يشرك به أَحد كائنا من كان، ولا يُصْرَف شيء من العبادة لغيره؛ كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والدعاء، والاستعانة، والنذر، والذبح، والتوكُّل، والخوف والرجاء، والحُبّ، وغيرها من أَنواع العبادة الظاهرة والباطنة، وأَن يُعْبَدَ الله بالحُبِّ والخوفِ والرجاءِ جميعًا، وعبادتُه ببعضها دون بعض ضلال.

قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وقال: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. وتوحيد الألوهية هو ما دعت إِليه جميع الرُسل، وإنكاره هو الذي أَورد الأُمم السابقة موارد الهلاك. وهو أَول الدّين وآخره وباطنه وظاهره، وهو أَول دعوة الرسل وآخرها ولأَجله أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكُتب، وسُلَت سيوف الجهاد، وفرِقَ بين المؤمنين والكافرين، وبين أَهل الجنة وأَهل النَّار، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا

نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ومَن كان ربًا خالقًا، رازقًا، مالكًا، متصرفًا، محييًا، مميتًا، موصوفًا بكل صفات الكمال، ومنزهًا من كلّ نقص، بيده كل شيء، وَجَبَ أَن يكون إلهًا واحدًا لا شريك له، ولا تُصْرَف العبادة إلا إليه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وتوحيد الربوبية من مقتضيات توحيد الأُلوهية؛ لأنَّ المشركين لم يَعبدوا إلهًا واحدًا، وإنَّما عَبَدُوا آلهة مُتَعَددَة، وزعموا أَنَّها تقرِّبهم إلى الله زلفى، وهم مع ذلك معترفون بأَنها لا تضر ولا تنفع، لذلك لم يجعلهم الله مؤمنين رغم اعترافهم بتوحيد الربوبية؛ بل جعلهم في عداد الكافرين بإشراكهم غيره في العبادة. ومن هنا يختلف مُعْتَقَدُ السَّلف- أَهل السُنَّة والجماعة- عن غيرهم في الألوهية؛ فلا يعنون كما يعني البعض أَنَ معنى التوحيد أَنَّه لا خالق إلا الله فحسب؛ بل إن توحيد الألوهية عندهم لاَ يتحقق إلا بوجود أَصلين:

الأول: أَن تُصرف جميع أَنواع العبادة له- سبحانه- دون ما سواه، ولا يُعْطى المخلوق شيئًا من حقوق الخالق وخصائصه. فلا يُعبد إلا الله، ولا يصلى لغير الله، ولا يُسْجَدُ لغير الله، ولا يُنْذَرُ لغير الله، ولا يُتَوكَّلُ على غير الله، وإن توحيد الأُلوهية يقتضي إفراد الله وحده بالعبادة.

والعبادة: إما قول القلب واللسان وإمَّا عمل القلب والجوارح.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣]، وقال سبحانه: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزُّمَر: ٣].

الثاني: أَنْ تكون العبادة موافقة لما أمر الله تعالى به، وأَمر رسوله ﷺ.

فتوحيد الله سبحانه بالعبادة والخضوع والطاعة هو تحقيق شهادة أَن لا إِلَهَ إلَّا الله، ومتابعة رسول الله ﷺ والإذعان لما أَمر به ونهى عنه هو تحقيق أَنَّ مُحَمَدًا رَسُولُ الله، ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وعلى هذا فالقسم الأخير يستلزمه القسمين الأولين ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي

هي صفة تعم أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة؛ فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال، ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أن لا يستحق العبادة أحد سواه.

ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم: الدعوة إلى هذا التوحيد.

فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصا محمد ﷺ. وهذا القرآن الكريم، فإنه أمر به وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على هذا الأمر بهذا التوحيد ووجوبه. فتصرف جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له، مثل الدعاء والخوف والتوكل والاستعانة والاستعاذة وغير ذلك.

فلا ندعو إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

ولا نخاف إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ولا نتوكل إلا على الله، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولا نستعين إلا بالله، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

ولا نستعيذ إلا بالله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ١].

وهذا النوع من التوحيد هو من أعظم ما جاءت به الرسل عليهم السلام لأن الأول لم تكن فيه خصومة مع المشركين، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وهذا النوع من التوحيد هو الذي أنكره الكفار قديمًا وحديثًا، كما قال تعالى على لسانهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].[1]

---

(١) انظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد تحت ترجمة كتاب التوحيد، والتوحيد للناشئة فصل أنواع

الفصل الثاني: شرح معنى ألوهية المسيح، ومدى اتفاق النصارى على هذه العقيدة.

أولًا: نبذة تاريخية عن عقيدة المسيح، وكيف تبدلت مع ذكر قانون الإيمان المسيحي، وكيف انتزع من النصوص وكيف تطور:

١- إن الذي جاء به عيسى عليه السلام من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول والإقرار بالعبودية الخالصة لله شأن كل رسول، فقد نشأ الجيل الأول بعد المسيح مؤمنًا بتوحيد الله وعبودية المسيح، وأنه كان نبيًا رسولًا، ورأينا ذلك في ما سطره الإنجيليون والقديسون بما فيهم بولس من نصوص موحدة.

كما نستطيع القول بأن الجيل الأول من تاريخ النصرانية كان موحدًا بشهادة التاريخ حيث يقول بطرس قرماج في كتابه " مروج الأخبار في تراجم الأبرار " عن بطرس ومرقس: "كانا ينكران ألوهية المسيح"، فهذا معتقد تلاميذ المسيح المقربين. وجاء في دائرة المعارف الأمريكية: "لقد بدأت عقيدة التوحيد كحركة لاهوتية بداية مبكرة جدًا في التاريخ أو في حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين"، وذلك لأنها بدأت مع بدء النبوات، واستنارت وتلألأت ببعثة عيسى عليه السلام وتعاليمه الموحدة لله.

وفي دائرة معارف لاوس الفرنسية: "عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد ولا في عمل الآباء الرسوليين ولا عند تلاميذهم المقربين إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي يدعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان، وكشف مؤخرًا عن وثيقة مسيحية قديمة نشرت في جريدة "التايمز" في ١٥ يوليو ١٩٦٦م وتقول: إن مؤرخي الكنيسة يسلمون أن أكثر أتباع المسيح في السنوات التالية لوفاته اعتبروه مجرد نبي آخر لبني إسرائيل. [(١)]

ولكن هذه العقيدة الناصعة أُدْخلت عليها التحريفات؛ بسبب دخول الوثنيين في النصرانية؛ وحرصهم على رواسب الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد، حتى لم

التوحيد، ومعارج القبول ١/ ٩٧.

(١) الله واحد أم ثلاثة (١/ ١٣٧).

يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها.

ولم تجيء هذه الانحرافات كلها دفعةٍ واحدة؛ ولكنها دخلت على فترات؛ وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى؛ حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير، الذي تحار فيه العقول. حتى عقول الشارحين للعقيدة المحرفة من أهلها المؤمنين بها!

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح عليه السلام في تلامذته وفي أتباعهم. وأحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت - وهو إنجيل برنابا - يتحدث عن عيسى عليه السلام بوصفه رسولًا من عند الله.

ثم وقعت بينهم الاختلافات. فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل. ومن قائل: إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة. ومن قائل: إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب، ولكنه على هذا مخلوق لله. ومن قائل: إنه ابن الله وليس مخلوقًا بل له صفة القدم كالأب، ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية « مجمع نيقية » الذي اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفًا من البطارقة والأساقفة. لصياغة قانون الإيمان فما هو الذي وصلوا إليه؟.

يقول نص قانون الإيمان: " المنبثق عن مجمع نيقية عام ٣٢٥ م. " نؤمن بإله واحد[١] آب[٢] ضابط الكل[٣] خالق السماوات والأرض ما يرى وما لا يرى[٤]. نؤمن برب واحد[٥] يسوع المسيح[٦] ابن الله الوحيد[٧] المولود من الآب قبل كل الدهور[٨]، نور من نور[٩]، إله حق[١] من إله حق[٢]، مولود غير مخلوق[٣]، مساو للأب في الجوهر[٤]، الذي به

(١) إنجيل (يوحنا ٣: ١٧).

(٢) من الرسالة الولى لأهل تسالونيكي (١١: ٣).

(٣) من إنجيل متي من (١: ٩- ٢٠).

(٤) متى (٢٥: ١١)، وسفر الخروج (١١: ٢٠).

(٥) من العبرانيين (١/ ٨)، والرؤيا (١٩/ ١٦).

(٦) العبرانيين (١٣/ ٨).

(٧) يوحنا (٣/ ١٦).

(٨) من ميخا (٥/ ٢).

(٩) من العبرانيين (١/ ٣).

كان كل شيء[٥]. هذا هو الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاص نفوسنا[٦]، نزل من السماء وتجسد[٧]من الروح القدس ومريم العذراء[٨] وتأنس[٩] وصلب عنا على عهد بيلاطس النبطي[١٠] وتألم[١١] وقُبر[١٢] وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب[١٣]، وصعد إلى السماوات[١٤]، وجلس عن يمين أبيه[١٥]، وأيضًا يأتي في مجده[١٦] ليدين الأحياء والأموات[١٧]. الذي ليس لملكه انقضاء[١٨]

هذا هو قانون الإيمان النصراني الأول قبل تطويره: وأود أن أنبه إلى أن هذا التخريج ليس من عندنا ولكنه كما خرج عليه المؤتمرون قرارهم وقدموا به محمولًا بين يدي هذه المذكرة الإيضاحية.

---

(١) من إنجيل يوحنا (١٧/ ٥).

(٢) يوحنا (١٧/ ٥).

(٣) من إنجيل يوحنا (٢٦/ ٥).

(٤) من إنجيل يوحنا (١٠/ ٣٠).

(٥) من إنجيل يوحنا (١/ ٣).

(٦) لايوجد في العهد الجديد، وإنما وضع بمعرفة المجمع.

(٧) يوحنا (١/ ١٤والعبرانيين ١٠/ ٥).

(٨) لوقا (١/ ٣٥).

(٩) يوحنا (٨/ ٤٠).

(١٠) يوحنا (١٩/ ١٩).

(١١) من الرسالة الأولى لبطرس (١/ ١١).

(١٢) أشعياء (٥٣/ ٩ ومن متى ٢٧/ ٦٠).

(١٣) من سفر الرؤيا (١٤/ ١٤) ومن الرسالة الأولى لكورنثوس (١٥/ ٢).

(١٤) من إنجيل لوقا (٢٤/ ٥١).

(١٥) من إنجيل مرقص (١٦/ ١٩).

(١٦) متي (٢٥/ ٣١)

(١٧) العبرانيين (١٠/ ٣٠)

(١٨) من إنجيل لوقا (١/ ٣٣).

وإذا جاوزت هذا التبرير وما فيه من تعسف وشطط بعيدين غريبين فإنك تجد أن الصورة التي رسمها القرار للألوهية ينقصها الوجه الثالث من وجوه التثليث وهو الروح القدس فالإيمان الذي يبشر به هذا القرار هو الإيمان بالآب والابن فقط، أما الروح القدس فهو ما دخل في تجسد الابن من مريم العذراء وهو في هذا الموضع قد يكون ملاك الرب أو جبريل أو كلمة الله أو الابن.

ونستطيع أن نتخذ من هذا القرار وثيقة تاريخية محققة للقول بأن التثليث المسيحي لم يكن معروفًا إلى سنة ٣٢٥ من ميلاد المسيح ولم يعترف المؤتمر المنعقد في هذا العام بغير الآب والابن.

كما نستطيع أن نقرر أيضًا أنه إلى ذلك الحين لم يكن المسيح قد دخل ببنوته في شركة مع الله على هذا النحو الذي يجعل منه الله مندمجًا في أقنومية الآب والروح القدسي. وغاية ما كان يتصور في هذه البنوة أنها فرع عن أصل وأنها إن دلت على الإله فلن تكون هي الإله. وفي هذا القرار إعلان صريح عن الله الآب أنه خالق للسماوات والأرض، أما الابن فلم يكن له في خلق السماوات والأرض أي دخل.

ولكن المسيحية بعد هذا تدين بأن الله الآب لم يخلق شيئًا وإنما المسيح الابن هو الذي خلق كل شيء. فأقنوم الابن هو القائم بعملية الخلق كما انتهى إلى ذلك معتقد المسيحية بيد أن المسيحية إلى ما بعد منتصف القرن الرابع لم تكن قد استكملت حقيقتها فما زال موقف المسيح متأرجحًا مضطربًا بين الإله والإنسان. وإن الأمر ليحتاج إلى خطوة أو خطوات أخرى لسد هذه الفجوة العميقة التي تتذبذب فيها شخصية المسيح متأرجحة مضطربة بين الإله والإنسان. وليس يقوم لهذا الأمر إلا مجمع مقدس يسوي ألوان هذه الصورة المهزوزة ويحدد ملامحها وهذا ما قد كان فعلًا؟. ثم سار خلاف جديد حول الروح القدس؛ فقال بعضهم: هو إله، وقال آخرون: ليس بإله! ففي سنة ٣٨١ م، أمر الملك تاودسيوس الكبير بعقد مجمع مقدس في مدينة القسطنطينية للنظر في مقولة مقدونيوس بطريرك القسطنظينية التي كان ينادي بها في محيط كنيسته ويذيعها في أتباعه وهي أن الروح

القدس مخلوق كسائر المخلوقات فعقد مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر.

وواضح من هذا أن أمر الروح القدس لم يكن قد استقر بعد كوجه من وجوه الله وأقنومًا من أقانيمه متساويًا مع الآب والابن في الرتبة، وقد اجتمع في هذا المؤتمر مائة وخمسون أسقفًا يمثلون جميع الهيئات المسيحية. وكان من بينهم تيموثاوس بطريرك الإسكندرية الذي أسندت إليه رئاسة الجميع.

وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية:

قال تيموثاوس بطريك الإسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله. وليس روح الله شيئًا غير حياته فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق. وإذا قلنا: إن روح الله مخلوق، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة. وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي. وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به. ومن كفر به وجب عليه اللعن. وكذلك تقررت ألوهية روح القدس في هذا المجمع، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية. وتم الثالوث من الآب، والابن، وروح القدس. وقد انتهى المؤتمر بإدانة مقدونيوس ومن كان على رأيه من الأساقفة ثم خرج المجمع بالمصادقة على قرار نيقية ثم إضافة نص جديد كالآتي مع بيان تخريجه من الكتاب المقدس في الحاشية: " نعم نؤمن بالروح القدس[١] الرب[٢] المحيي[٣] المنبثق من الآب[٤]، نسجد له ونمجده مع الآب والابن[٥]، الناطق في الأنبياء[٦]، وبكنيسة[١] واحدة[٢] مقدسة[٣] جامعة. [٤] رسولية[٥]،

(١) يوحنا (١٤/ ٢٦).

(٢) الرسالة الثانية إلى كورنثوس (٢/ ١٧و١٨).

(٣) رومية (٨/ ١١).

(٤) يوجنا (١٥/ ١٦)

(٥) إنجيل (متى ١٨ ١٩– ٢٠).

(٦) (الرسالة الأولى لبطرس ١/ ١١، ٢ بطرس ١/ ٢١).

ونعترف بمعمودية واحدة(٦) لمغفرة الخطايا(٧)، وننتظر قيامة الأموات(٨) وحياة الدهر الآتي. آمين(٩) ".

وقد جمع هذا النص كسابقه من أشتات ملفقة من الأناجيل والرسائل ومنتزعة من مواطنها انتزاعًا في غير رفق أو تلطف لتلتقي هنا على غير إلف أو تعارف وفي هذا النص يظهر الوجه الثالث للثالوث المقدس.

ثم تبدأ المسيحية النظر في الإله ذي الأقانيم الثلاثة نظرًا فلسفيا لاهوتيا تختلط فيه الفلسفة باللاهوت ويمتزج فيه الواقع بالخيال ويعمل العقل المسيحي في جد وبراعة في نسج ملحمة من أبرع الملاحم الأسطورية التي تصل السماء بالأرض وتخلط الله بالإنسان، ولكن القصة لم تتم فصولًا بعد فما زال هناك فجوات تنتظر من المجامع المقدسة أن تملأها بتلك الكلمات التي تلتقطها من شتيت الصفحات في الأناجيل والرسائل.

ولأجل هذه الفجوات ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية، حيث أعلن نسطور بطريك القسطنطينية قوله: إن العذراء لم تلد متأنسا بل ولدت إنسانًا عاديًا ساذجًا ثم حل فيه الإله بإرادته لا بالاتحاد، فهو لهذا ذو طبيعتين وأقنومين. وقد انقسم المسيحيون إزاء هذا الرأي فكان بعضهم في جانب نسطور وكان البعض الآخر في الجانب المخالف له على حين وقف كثيرون موقف الحياد بين الحيرة والتردد.

---

(١) " إنجيل (متى ١٦/ ١٨).

(٢) (رومية ١٣/ ٥).

(٣) (أفسس ٥/ ٢٥، ٢٦).

(٤) إنجيل (يوحنا ١١/ ٥٢).

(٥) (أفسس ٥/ ٣).

(٦) (أفسس ٤/ ٥).

(٧) (عبرانيين ٨/ ١٣، ٩/ ٢٢).

(٨) الرسالة الأولى لكورنثوس ١٥: ٢١).

(٩) إنجيل (لوقا ١٨: ٣٠).

ومن أجل هذا دعا الملك تاودوس الصغير ملك القسطنطينية إلى عقد المجمع المقدس فحضره نحو مائتي أسقف وبعد مناقشات طويلة انتهى الرأي إلى القول بتجسد الكلمة واتحاد الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة. والذي يلفت النظر في مقررات هذا المؤتمر أنها لم تخرج مخرج المقررات التي صدرت في المجمعين السابقين حيث لم تكن في صورة دعوة إلى إيمان بحقيقة جديدة وإنما جعلت هذه المقررات مقدمة لقانون الإيمان، وكأن المؤتمرين قدروا الخطر الناجم عن تبدل صورة العقيدة وما يدخل في قلوب الناس وعقولهم من هذه الإضافات التي تحدث كلما حدثت أحداث وبرزت آراء فذلك من شأنه أن يجعل الناس يتهمون المقولات التي تلقى إليهم من جهة الدين ويتشككون في إضافتها إلى السماء حيث لا تبديل لكلمات الله نقول إن المؤتمرين قدروا هذا كله فلم يجعلوا لمقرراتهم شيئًا جديدًا يدخل في مجال العقيدة، وإنما جعلوه مقدمة إلى العقيدة ومدخلًا إلى الإيمان. وقد حملت هذه المقدمة ثلاث مقولات عن العذراء والمسيح والثالوث، وها هي كما صدرت في المجمع مع تخريج نصوصها:

١ـ **تطويب العذراء**: " نعظمك[١] يا أم النور الحقيقي[٢] ونمجدك[٣] أيتها العذراء القديسة[٤] لأنك ولدت لنا مخلص العالم كله[٥] أتى وخلص نفوسنا[٦]".

٢ـ **تمجيد السيد المسيح**: " المجد لك يا سيدنا[٧] وملكنا المسيح[٨] فخر الرسل[٩] إكليل

---

(١) إنجيل (لوقا ١/ ٤٨).

(٢) من إنجيل (لوقا ١/ ٤٣) ومن إنجيل (يوحنا ١/ ٨-١٠)

(٣) من (المزمور ٩١/ ١٥).

(٤) من (أشعياء ٧/ ١٤ ولوقا ١/ ٣٧).

(٥) من (لوقا ٣/ ١١).

(٦) من (لوقا ١٩: ١٠).

(٧) من (أشعيا ٤٣/ ٨).

(٨) من (لوقا ١/ ٣٣).

(٩) من (غلاطية ٦/ ١٤)

الشهداء[١] تهليل الصديقين[٢] ثبات الكنائس[٣] غافر الخطايا[٤]".

٣ـ التبشير بالثالوث الأقدس: " نكرز ونبشر[٥] بالثالوث الأقدس[٦] لاهوت واحد[٧] نسجد له ونمجده[٨]. يا رب ارحم يا رب ارحم[٩] يا رب بارك. آمين "[١٠]. هذه هي قوانين الإيمان التي نريد أن نمر عليها لنعرف كيف لفقت هذه القوانين وكيف جمعت كلماتها من أسفارهم كما تجمع الكلمات المتقاطعة التي تنشر في الصحف.

ومن هنا نرى أنه فضلًا عن أن قانون الإيمان تطور عبر المجامع كما رأيتم فهو في الوقت نفسه ملفق من كلمات مفردة بعضها من أسفار العهد القديم وبعضها من أسفار العهد الجديد فهي كلها تلفيقات مأخوذة من أشتات متنافرة.[١١] قال سعد رستم في كتابه الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألوهية المسيح كما ينفيها القرآن بعد ذكره

---

(١) من (أشعياء ٣٨/ ٥).

(٢) من إنجيل (يوحنا ٨/ ٥٦)

(٣) من إنجيل (يوحنا ١٥ / ٣٤).

(٤) من إنجيل (متى ٩ / ٣).

(٥) من (الرسالة إلى العبرانيين ١٠ / ٤٣).

(٦) من (متى ٢٨ / ١٩).

(٧) من (يوحنا ٥ / ٧).

(٨) من (متى ٤ / ١٠).

(٩) من (المزمور ٣٣ / ١).

(١٠) من (لوقا ٥٣ / ٢٤).

(١١) انظر: مناظرة بين الإسلام والنصرانية تعقيب الدكتور محمد جميل غازي، وسوسنة سليمان لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني، وتاريخ الكتاب المقدس للدكتور بوست نقلًا عن ظلال القرآن سورة المائدة (آية ٧٣)، وهداية الحيارى من المجمع الأول إلى المجمع التاسع، وانظر المناظرة التقريرية واليهودية والمسيحية، محمد ضياء الرحمن الأعظمي صـ (٣٠٢-٣٠٦)، مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان، صـ (١٠٦)، عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية، حسني الأطير، ص (٧٩-٨٢)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي، ص (٢١٢-٢١٦). وكتاب الله جل جلاله واحد أو ثلاثة (١/ ١٣٣)، وفي ظلال القرآن تفسير سورة المائدة (١٧).

لنص قانون الإيمان المسيحي:

تلك هي عبارة دستور إيمان النصارى بالمسيح بحروفها، وهي ـ كما نرى ـ صريحة في النص على إلهية المسيح وأنه إله حق غير مخلوق ـ أي أزلي بلا بداية ـ وأنه مساو للآب في جوهريته: أي في ألوهيته. وعليه فدستور الإيمان هذا، حسب ظاهره، يؤدي للقول بتعدد الآلهة، باعتباره يثبت الغيرية بين الآب (الله) والابن (المسيح) من جهة، مع تأكيده بنفس الوقت على إلهية كل منهما وتساويهما في الألوهية.

إذن صار عندنا إلهان اثنان! وهذا يتناقض بظاهره مع إيمان المسيحية القاطع بوحدانية الله، لذا لا بد من تفصيل تلك العقيدة المجملة، وبيان شرح مختلف فرق النصارى لها، لتتضح حقيقة ما يعتقده النصارى حول المسيح وعلاقته بالله ﷻحسبما جاء في كتب عقائدهم وتقريرات لاهوتييهم.

ثانيًا: شرح موجز لهذه العقيدة: يعتقد الجمهور الأعظم من النصارى أن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاث، والأقنوم لفظة يونانية تعني الشخص، و هذه الأقانيم أو الأشخاص الثلاث هي:

١- شخص الآب، وهو الخالق لكل شيء والمالك والضابط للكل.

٢- وشخص ابنه، المولود منه أزلًا المساوي لأبيه في الألوهية والربوبية لأنه منه.

٣- وشخص الروح القدس، وهذه الأقانيم الثلاثة متحدة في الجوهر والإرادة والمشيئة، إلا أن هذا لا يعني أنها شخص واحد بل هم أشخاص ثلاثة، كل واحد منهم إله كامل في ذاته غير الآخر، فالآب إله كامل، والابن إله كامل غير الآب، وروح القدس أيضًا إله كامل غير الآب والابن، ولكن مجموع الثلاثة لا يشكل ثلاث آلهة ـ كما هو مقتضى الحساب! ـ بل يشكل إلهًا واحدًا، ويعترفون أن هذا لا سبيل لفهمه وإدراكه بالعقل ويسمونه "سرّ التثليث".

ثم يعتقدون أن الأقنوم الثاني لله، أي أقنوم الابن، هو الذي تجسد وصار إنسانًا حقيقيًا،

بكل ما في الإنسانية من معنى، وهو المسيح المولود من مريم العذراء، فالمسيح في اعتقادهم إله إنسان، أي هو بشر حقيقي مثلنا تمامًا تعرض له جميع أعراض الضعف والاحتياج البشرية، وهو في عين الحال إله قادر كامل الألوهية، ويسمون هذا بسر التجسد.

وهكذا، فالمسيح، حسب تفسير قانون الإيمان المسيحي الذي تقرر في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م. ، هو شخص واحد ذو طبيعتين، طبيعة إنسانية (ناسوت) وطبيعة إلهية (لاهوت) فهو إله بشر.

ونتيجة هذه العقيدة أن يكون عيسى المسيح عليه السلام في نظرهم ـ شخص واحد هو خالق وهو نفسه مخلوق، رازق ومرزوق، قديم وحادث! معبود وعابد، كامل العلم وناقصه، غني ومحتاج!. . . إلخ.

ولو كانت هذه الصفات المتناقضة لشخصين اثنين اتحدا بمظهر واحد لكان هناك مجال لفهم ما يقولون، لكن الذي يعسر على العقل فهمه بل يستحيل فهمه وقبوله عقلًا هو أن تكون هذه الصفات لشخص واحد وذات واحدة؛ لأن هذا بمثابة أن نقول أن هذا الشكل مربع ودائرة بنفس الوقت، أو موجود ومعدوم بنفس الوقت؟! لكن على أي حال الكنيسة الغربية تؤمن بذلك وتقر بأن هذا لا سبيل للعقل البشري القاصر أن يفهمه ويدركه ولذلك تعتبره سرًا من أسرار الله وتسميه، كما قلنا، بـ" سر التجسد ". [1]

---

(١) ما ذكر أعلى كان عقيدة جمهور المسيحيين أي: الروم الكاثوليك (اللاتين) أو الكنيسة الغربية التي رئاستها في روما، والروم الأرثوذكس، أي الكنيسة الشرقية اليونانية الأورثوذكسية التي رئاستها في القسطنطينية (والتي انفصلت عن الكنيسة الغربية عام ٨٧٩ م.)، والبروتستانت بفرقهم المختلفة من أنجليكان ولوثريين وإنجيليين وغيرهم. . . الذين خرجوا من بطن الكنيستين السابقتين في القرن السادس عشر الميلادي وما تلاه، لكن هناك طائفتين قديمتين من النصارى لم تعترفا أبدًا بقرار مجمع خلقيدونية المذكور، الذي نص على أن المسيح شخص واحد في طبيعتين، وهما: النساطرة أتباع نسطوريوس واليعاقبة أتباع يعقوب البرادعي.

أما النساطرة ـ وهم أقلية قليلة العدد تتوطن حاليًا شمال غرب إيران وجنوب شرق تركيا وشمال العراق وعدد من المناطق الأخرى ويسمون كذلك بالآشوريين ـ فهم يميزون في المسيح بين شخصين: شخص

وهذا هو مذهب جمهورهم خلافًا للنسطورية واليعقوبية كما هو مبين في الحاشية والحاصل أن جميع الفرق المسيحية تتفق على أن المسيح بشرٌ وإلهٌ بنفس الوقت! وإنما تختلف عن بعضها في مدى تأكيدها وإبرازها لأحد الجانبين الإلهية أو البشرية في المسيح، فاليعاقبة يؤكدون الجانب الإلهي أكثر، وعلى عكسهم النساطرة الذين يبرزون أكثر الجانب البشري في حين يطرح الجمهور الأعظم رؤية متوازية ومتعادلة للجانبين الإلهي والبشري

عيسى البشر المولود من مريم العذراء الذي هو إنسان بشر محض، وشخص الله الابن، أو ابن الله الذي هو إله كامل، المتحد بعيسى الإنسان، حسب زعمهم، فالذي ولد من مريم العذراء هو عيسى الإنسان وليس الله، ولذلك رفضوا قبول عبارة " مريم والدة الله "، كما أن الذي صُلِبَ ـ في اعتقادهم ـ وتألم ومات، لم يكن الله الابن، بل عيسى الإنسان البشر، والحاصل أن المسيح في اعتقادهم شخصيتان متمايزتان لكل شخصية طبيعتها الخاصة: البشرية المحضة لعيسى الناصري المولود من مريم العذراء، والإلهية المحضة لابن الله المتحد بعيسى في اعتقادهم. وعلى النقيض من ذلك تمامًا الطائفة الأخرى وهم اليعاقبة، الذين يرون أن عيسى المسيح شخص واحد فقط، لا شخصان، وليس هذا فحسب، بل هذا الشخص الواحد ذو طبيعة واحدة أيضا، ولذلك يُسمَّوْن أيضًا بالمونوفيزيين، أي القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، فاعتقادهم هو أن: أقنوم الابن من الله تجسد من روح القدس ومريم العذراء فصيَّر هذا الجسد معه واحدًا وحدة ذاتية جوهرية، أي صار الله (الابن) المتجسد، طبيعة واحدة من أصل طبيعتين، ومشيئة واحدة وشخصًا واحدًا. وبعبارة أخرى: المركز المسيّر والطبيعة الحقيقية لعيسى المسيح الذي ولد من مريم هي الألوهية المحضة، فهو الله عينه، أما بشريته فهي مجرد لباس فانٍ في إلهيته. فلذلك الله تعالى عندهم هو بذاته الذي وُلِدَ من مريم العذراء، لذا فهي والدة الله، والله نفسه هو الذي عُذِّب وتألم وصلب ومات! ثم قام بعد ثلاثة أيام من قبره حيًا - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- و في هؤلاء جاء قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (المائدة: ١٧)، وقوله سبحانه كذلك: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾** (المائدة: ٧٢).

وبهذا المذهب اليعقوبي تدين الكنيسة القبطية في مصر وكنيسة الحبشة التابعة لها، كما هو مذهب السريان الأرثوذكس في بلاد الشام، ومذهب الكنيسة الأرمنية الغريغورية. أما مذهب الجمهور الأعظم فهو الذي قال الله تعالى في شأنه: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** (المائدة: ٧٣).

دون ترجيح أي منهما على الآخر. وبهذا نكون قد عرفنا عقيدة مختلف الفرق النصرانية بإلهية المسيح وكيفية تفسيرهم لهذه العقيدة. (١)

---

(١) وبعد هذا العرض الموجز لعقيدتهم في المسيح يتوارد علينا سؤال مهم ألا وهو: هل آمن جميع المسيحيين دون خلاف بهذه العقيدة؟

إن ما سبق عرضه لا يعني أن الموحدين انتهوا تمامًا، بل إن التاريخ والوثائق تثبت أنه وجدت ولا تزال، في كل عصر من عصور تاريخ المسيحية وحتى يومنا هذا، أعداد غير قليلة من علماء النصارى وعامتهم ممن أنكر تأليه المسيح ورفض عقيدة التجسد والتثليث مؤكدًا تفرد الله الآب وحده بالألوهية والربوبية والأزلية، وأن المسيح مهما علا شأنه يبقى حادثًا مخلوقًا، هذا وقد حظي أولئك الأساقفة أو البطارقة الموحدون بآلاف بل عشرات آلاف الأتباع والمقلدين، وليس ههنا مجال لذكر واستقصاء أسماء كل من نقله التاريخ لنا من أولئك الموحدين الأعلام، ومن رام الاطلاع المفصَّل على ذلك فعليه بالكتاب القيِّم المسمى: " عيسى يبشِّر بالإسلام " للبروفيسور الهندي الدكتور محمد عطاء الرحيم، والذي ترجمه إلى العربية الدكتور (الأردني) فهمي الشما، فقد ذكر فيه مؤلفه الفرق النصرانية الموحدة القديمة وتحدث في فصل كامل عن أعلام الموحدين في النصرانية، كاد يستوعب فيها أسماءهم وتراجمهم وكتاباتهم ودلائلهم على التوحيد وأحوالهم وما لاقوه من اضطهاد ومحاربة في سبيل عقيدتهم، ونكتفي هنا بإشارة سريعة لأسماء أشهر الفرق والشخصيات النصرانية الموحدة البارزة عبر التاريخ: فقد ذكرت المراجع التاريخية النصرانية، التي تتحدث عن تاريخ الكنيسة، أسماء عدة فرق في القرون المسيحية الثلاثة الأولى كانت تنكر التثليث والتجسد وتأليه المسيح وهي: فرقة الأبيونيين، وفرقة الكارينثيانيين، وفرقة الباسيليديين وفرقة الكاربوقراطيين، فرقة الهيبسيستاريين، وفرقة الغنوصيين. وأما أشهر القساوسة والشخصيات المسيحية الموحدة القديمة التي تذكرها تلك المصادر فهي:

١-ديودوروس أسقف طرطوس.

٢-بولس الشمشاطي، وكان بطريركا في أنطاكية ووافقه على مذهبه التوحيدي الخالص كثيرون وعرفوا بالفرقة البوليقانية.

٣-الأسقف لوسيان الأنطاكي أستاذ آريوس (توفي سنة ٣١٢ م.)

٤-آريوس أسقف كنيسة بوكاليس في الإسكندرية (٢٥٠ ـ ٣٣٦ م

٥- يوزيبيوس النيقوميدي أسقف بيروت ثم نقل لنيقوميديا عاصمة الإمبراطورية الشرقية، وكان من أتباع لوسيان الأنطاكي ومن أصدقاء آريوس. أما أشهر الموحدين من رجال الدين والمفكرين المسيحيين المتأخرين فهم:

١- الطبيب الأسباني ميخائيل سيرفيتوس (١١٥١)

٢- القسيس الروماني فرانسيس ديفيد Francis David (١٥١٠ . ١٥٧٩

٣- اللاهوتي الإيطالي فاوستو باولو سوزيني ١٥٣٩) Fausto Paolo Sozini .١٦٠٤)

٤- الأستاذ المحقق البريطاني جون بيدل ١٦١٥) John Biddle .١٦٦٢).

٥- القسيس البريطاني توماس إيملين ١٦٦٣) Thomas Emlyn .١٧٤١)

٦- القسيس البريطاني ثيوفيلوس ليندسي١٧٢٣) Theophilos Lindsy .١٨٠٨)

٧- القسيس والعالم البريطاني جوزيف بريستلي ١٧٣٣) Joseph Priestly ١٨٠٤)

٨- القسيس الأمريكي ويليام إيليري تشانينغ ١٧٨٠) William Ellery Channing .١٨٤٢)

٩-البروفيسور البريطاني المعاصر جون هيك John Hick أستاذ اللاهوت في جامعة برمنجهام وصاحب الكتاب الممتاز " The Myth of God Incarnate" أي: أسطورة الله المتجسد، الذي ترجم للعربية ولعدة لغات عالمية، ويضم مقالات له وللفيف من كبار الأساتذة والدكاترة في اللاهوت ومقارنة الأديان في جامعات بريطانيا، محورها جميعا ما أشار إليه البروفيسور هيك نفسه في مقدمة كتابه ذاك حيث قال ما نصه:

The writers of this book are convinced that another major theological development is called for in this last part of the Twentieth Century. The need arises from growing knowledge of Christian origins and involves a A man approved " (recognition that Jesus was (as he is presented in Acts ٢. ٢١ and that the later ،for a special role within the Divine purpose " by God The Second Person of the Holy Trinity ،conception of him as God Incarnate is a mythological or poetic way of expressing his ،living a human life .significance for us

وترجمته: [إن كُتَّاب هذا الكتاب مقتنعين بأن هناك، في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين، حاجة ماسة لتطور عقائدي كبير آخر. هذه الحاجة أوجدتها المعرفة المتزايدة لأصول المسيحية، تلك المعرفة التي أصبحت تستلزم الاعتراف بعيسى أنه كان (كما يصفه سفر أعمال الرسل: ٢/ ٢١): " رجل أيده الله " لأداء دور خاص ضمن الهدف الإلهي، وأن المفهوم المتأخر عن عيسى والذي صار يعتبره " الله المتجسد والشخص الثاني من الثالوث المقدس الذي عاش حياة إنسانية " ليس في الواقع إلا طريقة تعبير أسطورية وشعرية عما يعنيه عيسى المسيح بالنسبة إلينا.

وأخيرًا فإن المتتبع لمؤلفات المحققين الغربيين المعاصرين حول تاريخ المسيحية وتاريخ الأديان والمطالع لما تذكره دوائر المعارف البريطانية والأمريكية الشهيرة حول المسيح وتاريخ تطور العقيدة النصرانية والأناجيل، يجد أن الغالبية العظمى من هؤلاء المفكرين والكتّاب العصريين لا تماري ولا ترتاب في كون غالب العقائد المعقدة للكنيسة النصرانية، لا سيما التثليث والتجسد والكفارة والأقانيم، ما هي إلا تعبيرات فلسفية بعدية

الوجه الثاني: الأدلة من القرآن على بطلان ألوهية المسيح سواء أكان هو الله، أو كان أحد الأقانيم الثلاثة.

الدليل الأول: القرآن ينفي ألوهية المسيح: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧].

قال السعدي رحمه الله: لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة؛ فذكر قول النصارى - القول الذي ما قاله أحد غيرهم- بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل مع أن حواء نظيره، خُلِقَت بلا أم، وآدم أولى منه، خلق بلا أب ولا أم، فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوها في المسيح؟ فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة؛ فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ

عن رسالة المسيح التي لم تكن إلا رسالة توحيدية أخلاقية بسيطة. ولم يبق إلا القليل جدًا من المفكرين ودكاترة اللاهوت وأساتذة علم الأديان الغربيين ممن لا يزال يرى أن عقائد الكنيسة الرسمية تلك تمثل بالضبط نفس تعاليم المسيح وتعكس حقيقة رسالته.

و في الختام أشير إلى أن كثيرًا من الفرق النصرانية الجديدة، التي انشقت عن الكنيسة في قرننا هذا والذي سبقه، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، تتفق على إنكار إلهية المسيح وإنكار التثليث ورفض فكرة: الله. الإنسان، وتنظر لبنوَّة المسيح لله على معنى مجازي لا حرفي، ومن أشهر هذه الفرق الجديدة التي قالت بذلك:

١-فرقة الموحدين أو التوحيديين The Unitarians

٢- فرقة شهود يهْوَه Witnesses' Jehovah

٣- فرقة الروحيين The Spiritualist

٤- فرقة العلم المسيحي The Christian Science

مع العلم أن لكل واحدة من هذه الفرق عشرات الكنائس، و عشرات آلاف الأتباع من مختلف الطبقات، لا سيما الطبقات المثقفة العصرية، في الولايات المتحدة الأمريكية وكثير من بلدان العالم الأخرى. " انظر فريد اشع ذلك في "كتاب الأناجيل الأربعة ورسائل بولس تنفي ألوهية المسيح " بتصرف.

شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ١٧]. فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك. ومن الأدلة أن﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩] يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهًا معبودًا غنيًا من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال. ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب؛ فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم كآدم(١).

الدليل الثاني: يثبت أن المسيح عبد آتاه الله البينات وأيده بروح القدس: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣). ووجه الاستدلال: هو أنه تعالى وصف عيسى بهذين مع أن سائر الرسل أيدوا بالبينات وبروح القدس؛ للرد على اليهود الذين أنكروا رسالته ومعجزاته؛ وللرد على النصارى الذين غلوا فزعموا ألوهيته؛ ولأجل هذا ذكر معه اسم أمه مهما ذكر؛ للتنبيه على أن ابن الإنسان لا يكون إلهًا، وعلى أن مريم أمة الله تعالى لا صاحبة؛ لأن العرب لا تذكر أسماء نسائها وإنما تكنى، فيقولون ربة البيت، والأهل،

(١) تفسير السعدي ١/ ٢٢٦.

ونحو ذلك، ولا يذكرون أسماء النساء إلا في الغزل، أو أسماء الإماء[١].

الدليل الثالث: يثبت أن المسيح لا يستنكف عن عبادة الله تعالى: قال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٧٢). **قال السعدي رحمه الله**: لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ فنزههم عن الاستنكاف وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده، أي: فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار. ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفعه عن العبادة كمالا، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل[٢].

الدليل الرابع: يحكم بالكفر على من قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم: قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

قال ابن كثير رحمه الله: حكم الله تعالى بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية

---

(١) من التحرير والتنوير تفسير سورة البقرة آية ٢٥٣.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٢١٦.

والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله - تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوًا كبيرًا-.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله. بل قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (مريم: ٣٠-٣٦).

وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: فيعبد معه غيره﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨، ١١٦)، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٠). وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ بعث مناديًا ينادي في الناس: ((إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة "، وفي لفظ: "مؤمنة))[1].

الدليل الخامس: حكم القرآن بالكفر على من قالوا: إن الله هو ثالث ثلاثة: قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة ٧٣ – ٧٤]. **قال الرازي:** في تفسير قول النصارى ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ طريقان:

الأول: قول بعض المفسرين: وهو أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة،

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١١). والحديث أخرجه البخاري (٢٨٩٧).

والذي يؤكد ذلك قوله تعالى للمسيح ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة: ١١٦)، فقوله ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، والدليل على أن المراد ذلك قوله تعالى في الرد عليهم ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار، إلا أنه حذف ذكر الآلهة لأن ذلك معلوم من مذاهبهم، قال الواحدي ولا يكفر من يقول: إن الله ثالث ثلاثة إذا لم يرد به ثالث ثلاثة آلهة، فإنه ما من شيئين إلا والله ثالثهما بالعلم، لقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ (المجادلة: ٧).

والطريق الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد وثلاثة أقانيم - أب، وابن، وروح القدس - وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة، وقالوا: إن الكلمة - التي هي كلام الله - اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر، واختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد. واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحدًا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادًا وأظهر بطلانًا من مقالة النصارى.[1]

قلت: والقرص والشعاع والحرارة ثلاثة أوصاف لذات واحدة، ومن الممكن أن نعد للشمس أكثر من ثلاثة أوصاف؛ فنقول مثلًا: والبعد والغروب والشروق والجمال والروعة وحجمها كذا ووزنها حوالي كذا. . . إلخ، فهذه كلها أوصاف لذات واحدة، أما ما يذكره النصارى؛ فإنها ثلاثة ذوات مختلفة، يريدون أن يجعلوها ذاتا واحدة، وهذا باطل ببداهة العقل.

الدليل السادس: وفيه قصر دور المسيح على الرسالة والاستدلال على ذلك ببعض

---

(١) التفسير الكبير (١٢/ ٥١).

الأحوال مثل أكل الطعام الذي يلزم منه الإخراج في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥).

قال الرازي: أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل، الذين خلوا من قبله، جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها؛ فإن كان الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده؛ فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى، وفلق البحر على يد موسى، وإن كان خلقه من غير ذكر؛ فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى.

قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ وفي تفسير ذلك وجوه:

أحدها: أنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها، قال تعالى في صفتها ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ (التحريم: ١٢).

وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٧)، فلما كلمها جبريل وصدقته وقع عليها اسم الصديقة.

وثالثها: أن المراد بكونها صديقة - غاية بعدها عن المعاصي وشدة جدها واجتهادها في إقامة مراسم العبودية؛ فإن الكامل في هذه الصفة يسمى صديقًا، قال تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ (النساء: ٦٩). ثم قال تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ اعلم أن المقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوه:

الأول: أن كل من كان له أم؛ فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك، كان مخلوقًا لا إلهًا.

والثاني: أنهما كانا محتاجين؛ لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيًا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهًا؟.

الثالث: قال بعضهم: إن قوله ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ كناية عن الحدث، لأن من أكل الطعام فإنه لا بدّ وأن يحدث، وهذا عندي ضعيف من وجوه:

١- أنه ليس كل من أكل أحدث، فإن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون.

٢- أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بإله، فأي حاجة بنا إلى جعله كناية عن شيء آخر؟

٣- أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد؛ فلو كان إلها لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه، كيف يعقل أن يكون إلها للعالمين؟ وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل. "[1]

وقال البقاعي: وخص الأكل؛ لأنه مع كونه ضعفًا لازمًا ظاهرًا، هو أصل الحاجات المعترية للإنسان؛ فهو تنبيه على غيره. ومن الأمر الجلي أن الإله لا ينبغي أن يدنو إلى جنابه عجز أصلًا، وقد اشتمل قوله تعالى﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ ﴾، وقوله ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥) على أشرف أحوال الإنسان وأخسها، فأشرفها عبادة الله، وأخسها الاشتغال عنها بالأكل الذي هو مبدأ الحاجات[2].

الدليل السابع: يثبت أن عيسى عليه ﷺ صور في الرحم ومن كان كذلك لا يكون إلهًا، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦).

وفي هذه الآية ذكر دليلًا آخر على بطلان ألوهية المسيح فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ وعيسى ﷺ قد صور في رحم مريم؛ فهو قطعًا ممن صور الله تعالى، فكيف يكون إذا إلها مع الله أو ابنا لله كما يزعم النصارى؟. وهنا قرر الحقيقة فقال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ العزة التي لا ترام، والحكمة التي لا تخطيء هما مقتضيات أولوهيته

---

(١) التفسير الكبير (١٢ / ٥١ – ٥٢).

(٢) نظم الدرر (٢ / ٥١٦).

الحقة، التي لا يجادل فيها إلا مكابر، ولا يجاحد فيها إلا معاند، كوفد نصارى نجران ومن على شاكلتهم من أهل الكفر والعناد. (١)

الدليل الثامن: القرآن يثبت عبودية المسيح وبشريته: قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٥٨-٦١).

وموضع الشاهد من الآية ما يلي

١ - قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

٢- قوله: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴾ أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلًا من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

٣-﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام، لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم.

أو إن المعنى: وإن عيسى عليه السلام، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة﴿ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكن في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر.

---

(١) أيسر التفاسير (المائدة: ٧٥).

﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله ﷻ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عما أمركم الله به؛ فإن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

٤- وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات. ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه؛ فيزول عنكم بذلك اللبس؛ فجاء عليه السلام مكملًا ومتمما لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي وصدقوني وأطيعون.

٥- وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: "إنه ابن الله أو ثالث ثلاثة" والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

٦- فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ كل قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في

ذلك اليوم"[١].

الدليل التاسع: وفيه أن عيسى عليه السلام ينطق في المهد؛ بأنه عبد جعله الله نبيًا، وأخبر- سبحانه وتعالى- أن أول كلمة نطق بها المسيح وهو في المهد - هي الإقرار بعبوديته لله-.

قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم ٢٩-٣٦).

قال الفخر الرازي: اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع: **الصفة الأولى**: قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وفيه فوائد: الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

الفائدة الثانية: أنه لما أقر بالعبودية؛ فإن كان صادقًا في مقاله؛ فقد حصل الغرض، وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية، بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت، إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى، يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة.

---

(١) تفسير السعدي لسورة الزخرف آية (٥٨-٦١).

وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم، لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى، فكان الاشتغال بذلك أولى، فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد.

واعلم أن مذهب النصارى متخبط جدًا، وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز، ومع ذلك فإنا نذكر تقسيمًا حاصرًا يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول:

١ - إما أن يعتقدوا كونه متحيزًا أو لا.

٢- فإن اعتقدوا كونه متحيزًا في مكان، أبطلنا قولهم بإقامة الدلالة على حدوث الأجسام المتحيزة في الأمكنة، وحينئذ يبطل كل ما فرعوا عليه.

٣- وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز، يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم؛ لأن ذلك لا يعقل إلا في الأجسام المتحيزة فإذا لم يكن جسمًا استحال ذلك.

ثم نقول للناس قولان في الإنسان:

١ - منهم من قال: إنه هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها.

٢ - ومنهم من يقول: إنه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول في الأجسام

فنقول لهؤلاء النصارى:

١ - إما أن يعتقدوا أن الله، أو صفة من صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه.

٢ - أو يعتقدوا أن الله، أو صفة من صفاته حل في بدن المسيح أو في نفسه.

٣- أو يقولوا: لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول، ولكن نقول: إنه تعالى أعطاه القدرة على خلق الأجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب إلهًا.

٤- أو لا يقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا: إنه على سبيل التشريف اتخذه ابنًا كما اتخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلًا، فهذه هي الوجوه المعقولة في هذا الباب، والكل باطل.

أما القول الأول بالاتحاد فهو باطل قطعًا، لأن الشيئين إذا اتحدا فهما حال الاتحاد، إما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجودًا والآخر معدومًا.

١ - فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل.

٢-وإن عدما وحصل ثالث فهو أيضًا لا يكون اتحادًا بل يكون قولًا بعدم ذينك الشيئين، وحصول ثالث.

٣- وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالمجود لأنه يستحيل أن يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال.

وأما الحلول فلنا فيه مقامان:

الأول: أن التصديق مسبوق بالتصور فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة:

أحدها: كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم، واعلم أن هذا باطل لأن هذا إنما يصح لو كان الله تعالى جسمًا متحيزًا وهم قائلون بأنه ليس بجسم.

وثانيها: حصوله في الشيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول: المعقول من هذه التبعية حصول اللون في ذلك الحيز تبعًا لحصول محله فيه، وهذا أيضًا إنما يعقل في حق الأجسام المتحيزة لا في حق الله تعالى.

وثالثها: حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافية للذوات فنقول: هذا أيضًا باطل لأن المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان الله تعالى في شيء بهذا المعنى لكان محتاجًا فكان ممكنًا فكان مفتقرًا إلى المؤثر، وذلك محال، وإذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن إثباته في حق الله تعالى امتنع إثباته.

المقام الثاني: احتج الأصحاب على نفي الحلول مطلقًا بأن قالوا: لو حل لحل، إما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل والقسمان باطلان، فالقول بالحلول باطل.

وإنما قلنا: إنه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل:

١-لأن ذلك يقتضي إما حدوث الله تعالى أو قدم المحل وكلاهما باطلان، لأنا دللنا على أن الله قديم. وعلى أن الجسم محدث.

٢-ولأنه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجًا إلى المحل والمحتاج إلى الغير ممكن

لذاته لا يكون واجبًا لذاته. (١)

ثم قال الرازي رحمه الله: ولنا في إبطال قول النصارى وجوه أخر.

أحدها: أنهم وافقونا على أن ذاته سبحانه وتعالى لم تحل في ناسوت عيسى ﷺبل قالوا الكلمة حلت فيه، والمراد من الكلمة العلم. فنقول: العلم لما حل في عيسى ففي تلك الحالة إما أن يقال إنه بقي في ذات الله تعالى أو ما بقي فيها

١-فإن كان الأول لزم حصول الصفة الواحدة في محلين. وذلك غير معقول، ولأنه لو جاز أن يقال العلم الحاصل في ذات عيسى ﷺهو العلم الحاصل في ذات الله تعالى بعينه، فلم لا يجوز في حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى.

٢-وإن كان الثاني لزم أن يقال: إن الله تعالى لم يبق عالمًا بعد حلول علمه في عيسى ﷺ وذلك مما لا يقوله عاقل.

وثانيها: أنا نقول دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لأنه كان مجتهدًا في العبادة والعبادة لا تليق إلا بالعبيد فإنه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى: إن اليهود قتلوه ومن كان في الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية.

وثالثها: المسيح إما أن يكون قديمًا أو محدثًا والقول بقدمه باطل لأنا نعلم بالضرورة أنه ولد وكان طفلًا ثم صار شابًا وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر، وإن كان محدثًا كان مخلوقًا ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فإن قيل: المعنى بإلهيته أنه حلت صفة الآلهية فيه، قلنا: هب أنه كان كذلك لكن الحال هو صفة الإله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح ﴿إلا﴾ عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالإلهية.

أما الاحتمال الثالث: وهو أن يقال معنى كونه إلهًا أنه سبحانه خص نفسه أو بدنه

---

(١) تفسير الرازي (مريم: ٣٠).

بالقدرة على خلق الأجسام والتصرف في هذا العالم فهذا أيضًا باطل لأن النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وأن اليهود قتلوه ولو كان قادرًا على خلق الأجسام لما قدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكرًا يذبون عنه.

وأما الاحتمال الرابع: وهو أنه اتخذه ابنًا لنفسه على سبيل التشريف فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الأرميوسية وليس فيه كثير خطأ إلا في اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه أنه قال: إني عبد الله. الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي جعلني برًا بوالدتي.

الصفة السابعة؛ قوله: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾.

الصفة الثامنة: هي قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾

الدليل العاشر: إثبات بنوة عيسى لمريم رضي الله عنها.

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ (آل عمران: ٤٥). يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله -عبده ورسوله - عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الزكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمى روح الله ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي:

له الوجاهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين - أصحاب الشرائع الكبار والأتباع - ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيها عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه السلام من سادات المقربين[1].

الدليل الحادي عشر: القرآن يذكر مقالة اليهود في قتل عيسى، ويثبت أنه رسول الله؛ ثم هو ينهى عن الغلو فيه: قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ (النساء: ١٥٧).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ (١٧١).

قال السعدي رحمه الله: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين؛ وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية؛ الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾. وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما: قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نصَّ على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ

---

(١) تفسير السعدي سورة آل عمران (٤٥).

ٱللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة، التي هي أعلى الدرجات، وأجلّ المثوبات، وأنه﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ التي﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام.

فلما بيّن حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة: أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد فقال: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي: تنزه وتقدس﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ لأن﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالكل مملوكون له مفتقرون إليه؛ فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى(١).

الدليل الثاني عشر: تكذيب الله لهم في قولهم: إن المسيح ابن الله: قال تعالى: ﴿ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠). فقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قالوا

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٢١٦، وانظر تفسير ابن كثير في هذا الموضع.

هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب؛ فكان ذلك سببًا لهذه المقالة، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة؛ لكون الإنجيل وصفه تارة بابن الله، وتارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الإنجيل، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة.

قيل: وهذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لا لكلهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة. وأما قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم.

ففيه وجهان: أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلاّ لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدلّ على معان. وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب. وما لا معنى له مقول بالفم لا غير، والمقصود من الإشارة تشهير القول وتمييزه، زيادة في تشنيعه عند المسلمين. و﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ حال من القول، والمراد أنّه قول لا يعدو الوجودَ في اللسان وليس له ما يحقّقه في الواقع، وهذا كناية عن كونه كاذبا؛ ولذلك قال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه لم يذكر قولًا مقرونًا بذكر الأفواه والألسن، إلا وكان قولًا زورًا كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٧)، وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ (الكهف: ٥)، وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (الفتح: ١١)، قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المضاهاة: المشابهة.

والثاني: أن يراد بالقول المذهب، كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له؛ لم تبق شبهة في انتفاء الولد﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء﴿قَٰتَلَهُمُ

ٱللَّهُ﴾ وقال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟ (١)

الدليل الثالث عشر: فيه تنزيه الله تعالى عن مقالتهم: قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١).

قال أبو السعود: اتخذوا زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى أحبارهم، وهم: علماء اليهود ورهبانهم وهم: علماء النصارى من أصحاب الصوامع؛ أي اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم أربابًا من دون الله؛ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه، أو بالسجود لهم، ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ ﴿مريم: ٤٤﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾.

قال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ، وفي عنقي صليب من ذهب، وكان إذ ذاك على دين يسمى الركوسية - فريق من النصارى - وهو يقرأ سورة براءة، فقال يا عدي! اطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم فقال ﷺ أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ فقلت بلى.

قال: ذلك عبادتهم. قال الربيع قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟

قال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله تعالى ما يخالف أقوال الأحبار؛ فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حكم كتاب الله. والمسيح ابن مريم، عطف على رهبانهم؛ أي: اتخذه النصارى ربًا معبودًا بعد ما قالوا: إنه ابنه - تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا - وتخصيص الاتخاذ به، يشير إلى أن اليهود ما فعلوا ذلك بعزير، وتأخيره في الذكر، مع أن اتخاذهم له عليه السلام ربًا

(١) تفسير ابن كثير سورة التوبة آية (٣٠).

معبودًا أقوى من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم، كما هو المراد باتخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا؛ لأنه مختص بالنصارى، ونسبته ﷺ إلى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للإيذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة وما أمروا أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في كتابيهم، إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه؛ فإن ذلك مخل بعبادته تعالى؛ فإن جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة، وقد قال المسيح: ﷷإنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، وأما طاعة الرسول ﷺ، وسائر من أمر الله تعالى بطاعته؛ فهي في الحقيقة طاعة لله ﷻ، أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابا من المسيح والأحبار والرهبان إلا ليوحدوا الله. (١)

الدليل الرابع عشر: **يثبت أنه رسول أيده الله بروح القدس**. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة: ٨٧). ووجه الاستدلال: في هذه الآية يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كليمه موسى، وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم ﷺ، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: قواه الله بروح القدس. قال أكثر المفسرين: إنه جبريلﷺ، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده. ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم، ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى. (٢)

---

(١) تفسير أبي السعود سورة التوبة آية (٣١).

(٢) تفسير السعدي ١/ ٥٨.

الدليل الخامس عشر: يثبت أنه لا فرق بين عيسى وبين غيره من الأنبياء في نبوته:

قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٦)، ووجه الدلالة من الآية أن عيسى عليه السلام معدود ضمن الأنبياء الذين بعثهم الله للناس. فأما قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾، يعني: وآمنا أيضًا بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى، والكتب التي آتى النبيين كلهم، وأقرَرنا وصدَّقنا أن ذلك كله حَق وهُدى ونور من عند الله، وأن جَميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى، يُصدِّق بعضهم بعضًا، على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله، والعمل بطاعته. [١] ولكون أهل الكتاب زادوا ونقصوا وحرفوا فيهما وادعوا أنهما أنزلا كذلك، والمؤمنون ينكرونه؛ اهتم بشأنهما فأفردهما بالذكر، وبين طريق الإيمان بهما، ولم يدرجهما في الموصول السابق؛ ولأن أمرهما أيضًا بالنسبة إلى موسى وعيسى أنهما منزلان عليهما حقيقة، لا باعتبار التعبد فقط كما في المنزل على إسحق ويعقوب والأسباط، ولم يعد الموصول لذلك في عيسى لعدم مخالفة شريعته لشريعة موسى إلا في النزر، ولذلك الاهتمام عبر بالايتاء دون الانزال؛ لأنه أبلغ لكونه المقصود منه، ولما فيه من الدلالة على الإعطاء الذي فيه شبه التمليك والتفويض، ولهذا يقال: أنزلت الدلو في البئر، ولا تقول: آتيتها إياها، ولك أن تقول: المراد بالموصول هنا ما هو أعم من التوراة والإنجيل، وسائر المعجزات الظاهرة بأيدي هذين النبيين الجليلين حسبما فصل في التنزيل الجليل، وإيثار الإيتاء لهذا التعميم، وتخصيص النبيين بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى. [٢]

وقوله: ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ دلالة على أن عطية الدين، هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٦١٨.

(٢) تفسير الآلوسي ١/ ٣٩٥.

ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع. وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء. وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده، أن ينزل عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته، تركهم سدى ولا هملًا. وإذا كان ما أوتي النبيون، إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا إلى الخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم، يصدق الآخر، ويشهد له بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع، وعرف ما يدعون إليه. (١)

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فيه وجهان: الأول: أنا لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإنا لو فعلنا ذلك كانت المناقضة لازمة على الدليل وذلك غير جائز.

الثاني: لا نفرق بين أحد منهم، أي لا نقول: إنهم متفرقون في أصول الديانات، بل هم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، والوجه الأول: أليق بسياق الآية. (٢)

فلما بيَّن تعالى جميع ما يؤمن به، عموما وخصوصا، وكان القول لا يغني عن العمل قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو﴿لَهُ﴾ على العامل وهو﴿مُسْلِمُونَ﴾. فقد

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٦٧.

(٢) تفسير الرازي (البقرة: ١٣٦).

اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص - الدال على الفضل - بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده، كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون. (١)

الدليل السادس عشر: إذا كان إلها فكيف يطلب العون من الحواريين وفيه أن عيسى يقول من أنصاري إلى الله؟ فكيف يكون هو الله؟ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢). وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ (الصف: ١٤).

أي إنه لما رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله(٢). وقال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: "مَنْ رَجُل يُؤْوِيني عَلى أن أبلغ كلامَ رَبِّي، فإنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي"(٣) حتى وجد الأنصار فآووه، ونصروه، وهاجر إليهم؛ فآسوه، ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انْتدَبَ له طائفة من بني إسرائيل؛ فآمنوا به،

(١) تفسير السعدي ١/ ٦٧.

(٢) تفسير السعدي ١/ ١٣١.

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٢٢) من حديث جابر ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٤٧).

وآزروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه. ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الحواريون، قيل: كانوا قصّارين وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين. والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما نَدبَ الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدَبَ الزبير (ثم ندبهم فانتدب الزبير) فقال ﷺ: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًا وَحَوَارِيي الزُّبَيْرُ". [1]

الدليل السابع عشر: وفيه أن الله يتوفى عيسى ويرفعه إليه. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران: ٥٥).

وقد اختلف المفسرون في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾:

١- فقال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: إني رافعك إلي ومتوفيك، يعني بعد ذلك.

٢- وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، والأدلة على ذلك: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠). وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢). وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا قام من النوم -: "الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ". [2] وقال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا

---

(١) تفسير ابن كثير سورة آل عمران آية (٥٢)، والحديث أخرجه البخاري (٣٧١٩) ومسلم (٢٤١٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٥٩٥٣).

قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (النساء: ١٥٦ -١٥٩). والضمير في قوله: ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ عائد على عيسى عليه السلام أي: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى؛ وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلّهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهكذا وقع؛ فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تَفَرَّقت أصحابه شيَعًا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد ذكر الله مقالاتهم في القرآن، ورَد على كل فريق، فلما بعث الله محمدًا ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كُل نبي على وجه الأرض-إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته، مع ما قد حَرّفوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث به محمدًا ﷺ من الدين الحق، الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائما منصورًا ظاهرا على كل دين؛ فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميعُ الدول، وكسروا كسرى، وقَصروا قيصر، وسلبوهما كُنُوزَهما، وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (النور: ٦٥).

ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًا؛ سلبوا النصارى بلاد الشام، وأَجْلَوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمّته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيؤون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مَقْتلة عظيمة جدا، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصارى، عَذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأَخْذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عَذابُهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (الرعد: ٣٤)، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: هذا الذي قَصَصْناه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (مريم: ٣٤-٣٥)[1]

الدليل الثامن عشر: يثبت أن الله تعالى خلق عيسى عليه السلام بكن: قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩). يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قدرة الله تعالى، حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾؛

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٧.

فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى بكونه مخلوقًا من غير أب؛ فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلانًا وأظهر فسادًا. ولكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خَلَق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ (مريم: ٢١). وقال هاهنا: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي: هذا القول هو الحق في عيسى، الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ثم قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيانِ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: منا أو منكم.[1]

قال السعدي: يخبر تعالى محتجًا على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكا لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلًا أن يكون حجة؛ لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحدًا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعاؤها في آدم من باب أولى وأحرى، فلهذا قال

(١) تفسير ابن كثير سورة آل عمران آية (٥٩).

تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام، ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ وبهذه القاعدة تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

الدليل التاسع عشر: يثبت أن عيسى من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (النساء: ١٦٣). ووجه الاستدلال من الآية: أنه لما ذكر عيسى عليه السلام بين هؤلاء الرسل دل على أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد، وغايتهم واحدة. وهو كقوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٥)وقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب: ٧). وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣).

الدليل العشرون: يذكر أن عيسى عليه السلام جاء على آثار من سبقه من الرسل: قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (المائدة: ٤٦). فقوله: ﴿وَقَفَّيۡنَا﴾ أي: أتبعنا، أي جعلنا عيسى ابن مريم يقفوا آثارهم، أي آثار النبيين الذين أسلموا من بني إسرائيل، يقال قفيته مثل عقبته إذا اتبعته ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ يعني: أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: متبعًا لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ (آل عمران: ٥٠)؛ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بَعْض أحكام التوراة. وقوله: ﴿وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلنا الإنجيل﴿هُدٗى﴾ يهتدى به، ﴿وَمَوۡعِظَةٗ﴾ أي: وزاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

وقوله: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ قُرِئ﴿ وَلِيَحۡكُمَ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي، أي: وآتيناه الإنجيل ﴿فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ ليحكم أهل ملته به في زمانهم. وقرئ: ﴿ وَلۡيَحۡكُمۡ﴾ بالجزم اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ ولأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٨)، و قال هاهنا: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. (١)

---

(١) تفسير ابن كثير٢/ ٩٠.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف: ٦).

الدليل الحادي والعشرون: وفيه المنة من الله تعالى على عيسى عليه السلام بما أعطاه من الآيات ردًا على اليهود الذين كذّبوه: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)﴾ (المائدة: ١١٠). وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل؛ لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطًا وتفريطًا، هذه تجعله إلهًا، وهذه تجعله كاذبًا.[١]

الدليل الثاني والعشرون: وفيه اعتقاد أصحاب عيسى أنه رسول من ربه: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ (المائدة: ١١٢-١١٤). ففي هذه الآيات سؤال الحواريين عن ربه وقول عيسي: اللهم ربنا، وهذا واضح فيما نحن فيه، وجرى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ على طريقة عربية في العرض والدعاء، يقولون للمستطيع لأمر: هل تستطيع كذا، على معنى تطلّب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك، وأنّ السائل لا يحبّ أن يكلّف المسؤول ما يشقّ عليه، وذلك كناية فلم يبق منظورًا فيه إلى صريح المعنى المقتضي أنّه يشكّ في استطاعة المسؤول، وإنّما يقول

---

(١) فتح القدير سورة المائدة آية ١١٠.

ذلك الأدنى للأعلى منه، وفي شيء يعلم أنه مستطاع للمسؤول، فقرينة الكناية تحقّقُ المسؤول أنّ السائل يعلم استطاعته.

ومنه ما جاء في حديث يحيى المازني «أنّ رجلًا قال لعبد الله بن زيد: أتستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضّأ». فإنّ السائل يعلم أنّ عبد الله بن زيد لا يشقّ عليه ذلك. فليس قول الحواريّين المحكي بهذا اللفظ في القرآن إلاّ لفظًا من لغتهم يدلّ على التلطّف والتأدّب في السؤال، كما هو مناسب أهل الإيمان الخالص. وليس شكًّا في قدرة الله تعالى ولكنّهم سألوا آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان بأن ينتقلوا من الدليل العقلي إلى الدليل المحسوس. فإنّ النفوس بالمحسوس آنس. [1]

الدليل الثالث والعشرون: وفيه الرد على النصارى في ادعاء الألوهية والتثليث صراحة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٦-١١٧).

وهذا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى بن مريمعليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾، وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد.

وهذا هو أحد الوجهين في الآية، والثاني أن هذا السؤال في الدنيا والأول أظهر. [2]

وهذا التوبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى. فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك، ﴿مَا

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٢٣٣.

(٢) تفسير ابن كثير (المائدة: ١١٦) بتصرف.

يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئًا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون، ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه السلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: "لم أقل شيئًا من ذلك" وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي.

﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ علما وسمعا وبصرا، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر. ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم. ﴿ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة. ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴾ حيث كان من مقتضى

حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة. [(١)]

الدليل الرابع والعشرون: إثبات الأحدية والصمدية، وأن الله لم يلد ولم يولد.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ (الإخلاص: ١-٤). أي﴿قُلْ﴾ قولًا جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه، ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل. ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم؛ لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى. فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات. [(٢)]

الوجه الثالث: الأدلة من السنة على بطلان ألوهية المسيح.

الدليل الأول: يثبت أن الله تعالى لم يلد ولم يولد، وأن من قال هذا القول فقد شتم الله ﷻ:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " قال الله ﷻ: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. فأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، ولم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد. وأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ". [(٣)]

وإنما سماه شتمًا؛ لما فيه من التنقيص؛ لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه،

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٢٤٩.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٩٣٧.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٩٠).

ويستلزم ذلك سبق النكاح، والنكاح يستدعي باعثًا له على ذلك. والله سبحانه منزه عن جميع ذلك[1]، واتخاذ الولد نقص لاستدعائه محالين:

أحدهما: مماثلته للولد، وتمام حقيقته فيلزم إمكانه وحدوثه.

وثانيهما: استخلافه لخلف يقوم بأمره من بعده؛ إذ الغرض من التوالد بقاء النوع فيلزم زواله وفناؤه سبحانه؛ ولذا قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ ﴾ (مريم: ٩٠)، والأحد: المنفرد المطلق ذاتًا وصفاتًا، وفرق بين الأحد والواحد؛ بأن الواحد لنفي مفتتح العدد، والأحد لنفي كل عدد، فالواحد ينبىء عن تفرد الذات عن المثل والنظير، والأحد ينبىء عن تفردها عن كل نقص واتصافها بكل كمال، فكيف مع ذلك يحتاج إلى الولد؟ والصمد هو الذي يحتاج إليه كل أحد وهو غني عنهم. [2] فأي شتم لله تعالى أعظم من أن يقال: إن لله ولدًا؟ وأي شتم أعظم من أن يقال: إن رب السموات والأرض - تبارك وتعالى - نزل عن كرسي عظمته وعرشه، ودخل في فرج امرأة تأكل، وتشرب، وتبول، وتتغوط، وتحيض فالتحم ببطنها، وأقام هناك تسعة أشهر، يتلبط بين نجو، وبول، ودم طمث، ثم خرج إلى القماط والسري كلما بكي ألقمته أمه ثديها، ثم انتقل إلى المكتب بين الصبيان، ثم آل أمره إلى لطم اليهود خديه، وصفعهم قفاه، وبصقهم في وجهه، ووضعهم تاجا من الشوك على رأسه والقصبة في يده؛ استخفافًا به وانتهاكًا لحرمته. ثم قربوه من مركب خص بالبلاء راكبه، فشدوه عليه وربطوه بالحبال، وسمروا يديه ورجليه، وهو يصيح ويبكي ويستغيث من حر الحديد وألم الصلب؛ هذا وهو الذي خلق السموات والأرض، وقسم الأرزاق والآجال، ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن يمكن أعداءه من نفسه لينالوا منه ما نالوا؛ فيستحقوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم، ويفدى أنبياءه ورسله وأولياءه بنفسه؛ فيخرجهم من سجن إبليس؛ فإن روح

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٦٨).

(٢) مرقاة المفاتيح كتاب الإيمان ١/ ٢٣٣.

آدم وإبراهيم ونوح وسائر النبيين عندهم، كانت في سجن إبليس في النار، حتى خلصها من سجنه بتمكينه أعداءه من صلبه. وأما قولهم في مريم؛ فإنهم يقولون: إنها أم المسيح ابن الله في الحقيقة، ووالدته في الحقيقة، لا أم لابن الله إلا هي، ولا والدة له غيرها، ولا أب لابنها إلا الله، ولا ولد له سواه، وأن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده وابنه من بين سائر النساء، ولو كانت كسائر النساء لما ولدت إلا عن وطء الرجال لها، ولكن اختصت عن النساء بأنها حبلت بابن الله، وولدت ابنه الذي لا ابن له في الحقيقة غيره، ولا والد له سواه، وإنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه. والنصارى يدعونها ويسألونها سعة الرزق، وصحة البدن، وطول العمر، ومغفرة الذنوب، وأن تكون لهم عند ابنها ووالده - الذي يعتقد عامتهم أنه زوجها، ولا ينكرون ذلك عليهم - سورًا وسندًا وذخرًا وشفيعًا وركنًا، ويقولون في دعائهم: يا والدة الإله اشفعي لنا، وهم يعظمونها، ويرفعونها على الملائكة، وعلى جميع النبيين والمرسلين، ويسألونها ما يسأل الإله من العافية، والرزق، والمغفرة، حتى إن اليعقوبية يقولون في مناجاتهم لها: يا مريم يا والدة الإله، كوني لنا سورًا، وسندًا، وذخرًا، وركنًا، والنسطورية يقولون: يا والدة المسيح كوني لنا كذلك! ويقولون لليعقوبية: لا تقولوا يا والدة الإله، وقولوا يا والدة المسيح، فقالت لهم اليعقوبية: المسيح عندنا، وعندكم إله في الحقيقة فأي فرق بيننا وبينكم في ذلك؟ ولكنكم أردتم مصالحة المسلمين ومقاربتهم في التوحيد. (١)

الدليل الثاني: يثبت أن عيسى مؤمن بالله معظم له: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: رأى عيسى بن مريم رجلًا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى آمنت بالله وكذبت عيني (٢)

وهذا الحديث فيه وجهان: أحدهما: قال القرطبي: ظاهر قول عيسى عليه السلام للرجل:

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى تحت عنوان خرافة الفداء (١/ ١٤٠).

(٢) البخاري (٣٢٦٠).

سرقت، أنه خبر جازم؛ لكونه أخذ مالًا من حرز في خفية، وقول الرجل: كلا، نفي لذلك ثم أكده باليمين، وقول عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني، أي صدقت من حلف بالله، وكذبت ما ظهر لي من كون الأخذ سرقة؛ فإنه يحتمل أن يكون الرجل أخذ ماله فيه حق، أو ما أذن له صاحبه في أخذه أو أخذه؛ ليقلبه وينظر فيه، ولم يقصد الغصب والاستيلاء.

الثاني: ما قاله ابن القيم: إن الله تعالى كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذبا، فدار الأمر بين تهمة الحالف، وتهمة بصره؛ فرد التهمة إلى بصره، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح، وهذا أحسن من الأول. (١)

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا يدل على سجية طاهرة، حيث قدم حلف ذلك الرجل؛ فظن أن أحدًا لا يحلف بعظمة الله كاذبًا على ما شاهده منه عيانًا؛ فقبل عذره ورجع على نفسه فقال: آمنت بالله أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك. (٢)

الدليل الثالث: وفيه لقاء النبي ﷺ بعيسى عليه السلام ليلة الإسراء وذكر صفته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال": قال رسول الله ﷺ ليلة أسري بي لقيت موسى، قال: فنعته فإذا رجل -حسبته قال- مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة، قال ولقيت عيسى - فنعته النبي ﷺ فقال - ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به. قال وأتيت بإناءين: أحدهما لبن، والآخر فيه خمر، فقيل لي: خذ أيهما شئت؛ فأخذت اللبن فشربته، فقيل لي: هديت الفطرة، أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك". (٣)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ "رأيت عيسى وموسى وإبراهيم فأما عيسى، فأحمر

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٥٣٣) وانظر شرح مسلم للنووي (٢٣٦٨)، وفتح الباري (٦/ ٤٨٩)، وبدائع الفوائد (٣/ ٧١٨).

(٢) البداية والنهاية (٢/ ١١٦).

(٣) البخاري (٣٢٥٤).

جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط". [١]

فالحديث فيه أمران:

الأول: ذكر لقاء النبي ﷺ بعيسى، عليه السلام وأن ذلك غير لقائه بالله تعالى، كما في القصة المطولة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺقَالَ: " أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ. . . ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام. فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ ". [٢]

وفي رواية أبي ذر قال: "ثم مررت بعيسى عليه السلام فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا؟ قال هذا عيسى بن مريم". [٣] وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: " لَقَدْ رَأَيْتُنِى فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَاىَ فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا. فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ قَالَ فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شيء إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّى فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام قَائِمٌ يُصَلِّى أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِىُّ وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلامقَائِمٌ يُصَلِّى أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ - يَعْنِى نَفْسَهُ - فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاَةِ قَالَ قَائِلٌ يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلاَمِ". [٤]

ففي هذه الروايات أنه قال له: "مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح فهل يقول الرب للعبد: يا أخي؟ ".

وفيها: أنه دعا له بخير فمن يدعوا عيسى لو كان هو الإله.

---

(١)البخاري (٣٢٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (٢٦٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٨).

وفيها: أنه لقيه في أثناء رحلة المعراج وليس في آخرها.

وفيها: أنه تردد في عودته بين موسى وربه، ولم يكن لعيسى ﷺ شيء من هذا الحوار، فلو كان هو الرب لجرى معه هذا الحوار. وفيها: أنه قال فإذا أنا بابني الخالة، فإذا قلنا بأن مريم خالة يحيى ﷺ فهل أم يحي خالة الرب؟ فإذا كانت كذلك فهلا توسل بها القوم كما توسلوا بأم الإله؟ وفي رواية أبي هريرة ﷺ أنه كان يصلي وصلى كذلك خلف رسول الله ﷺ فلو كان هو الإله فلمن يصلى وكيف يصلي به رسول الله ﷺ؟!

الأمر الثاني: صفة عيسى ﷺ، وليس فيها شيء من صفات الله تعالى، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فقال في وصفه له: " وإذا عيسى بن مريم ﷺ قائم يصلي؛ فإذا ربعة أحمر، جعد، عريض الصدر، مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، شابًا أبيضَ، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق، كأنما خرج من ديماس، أقرب الناس به شبهًا، عروة بن مسعود الثقفي". [١]

وفي بعض الروايات: " بينما أنا نائم أطوف بالكعبة؛ فإذا رجل آدم، كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، قد رجلها فهي تقطر ماء، متكئًا على رجلين، أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، فسألت من هذا؟ فقيل: هذا المسيح بن مريم، سبط الشعر، يهادى بين رجلين، ينطف رأسه ماء، أو يهراق رأسه ماء؛ فقلت من هذا؟ قالوا ابن مريم". [٢]

الدليل الرابع: وفيه إثبات أن عيسى من شباب أهل الجنة.

عن أبي سعيد الخدري ﷺعن النبي ﷺ قال: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا". [٣]

الدليل الخامس: وفيه أن المسيح يدعو الله ويتضرع إليه، ولو كان إلهًا لما احتاج أن يرغب إلى الله ويدعوه؛ كما في هذ ا الحديث. عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ

---

(١) مسلم حديث (٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥٧)، والزيادة بين المعقوفين من صحيح مسلم (٢٧٣).

(٣) أخرجه الطبراني٣/ ٣٨، وابن حبان (٦٩٥٩). والحديث صححه الألباني في الصحيحة (٧٩٦).

الله ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. . . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ الله الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ الله مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى الله إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ وَيَبْعَثُ الله يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ وَيُحْصَرُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ الله عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الله فَيُرْسِلُ الله طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ الله ثُمَّ يُرْسِلُ الله مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنْ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنْ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنْ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنْ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنْ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ الله رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ". (١)

الدليل السادس: وهو متعلق بنزول عيسى في آخر الزمان، وما هي مهمته بعد قتل الدجال؟

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل

(١) مسلم (٢٩٣٧).

فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا؛ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال؛ حتى لا يقبله أحد". [(١)]

زاد عند مسلم: وفي رواية ابن عيينة: " إمامًا مقسطًا، وحكمًا عدلًا ".

ووجه الدلالة من الحديث: قوله: ليوشكن بكسر المعجمة: أي ليقربن، أي لا بد من ذلك سريعًا.

وقوله: أن ينزل فيكم، أي في هذه الأمة؛ فإنه خطاب لبعض الأمة ممن لا يدرك نزوله.

وقوله: حكمًا أي حاكمًا، والمعنى أنه ينزل حاكمًا بهذه الشريعة؛ فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى حاكمًا من حكام هذه الأمة، وفي رواية الليث عن بن شهاب عند مسلم: حكمًا مقسطًا، وله من طريق بن عيينة عن بن شهاب إمامًا مقسطًا والمقسط العادل بخلاف القاسط فهو الجائر، وقوله فيكسر الصليب ويقتل الخنزير أي: يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه، ووقع في رواية عطاء بن ميناء عن أبي هريرة عند مسلم ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وقوله ويضع الحرب في رواية الكشميهني الجزية والمعنى أن الدين يصير واحدًا فلا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدي الجزية وقيل معناه أن المال يكثر حتى لا يبقى من يمكن صرف مال الجزية له فتترك الجزية استغناء عنها وقال عياض يحتمل أن يكون المراد بوضع الجزية تقريرها على الكفار من غير محاباة ويكون كثرة المال بسبب ذلك وتعقبه النووي وقال الصواب أن عيسى لا يقبل إلا الإسلام قلت: ويؤيده أن عند أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة وتكون الدعوى واحدة، قال النووي: ومعنى وضع عيسى الجزية مع أنها مشروعة في هذه الشريعة أن مشروعيتها مقيدة بنزول عيسى لما دل عليه هذا الخبر وليس عيسى بناسخ لحكم الجزية بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ بقوله هذا، وقوله: ويفيض المال بفتح أوله وكسر الفاء وبالضاد المعجمة أي يكثر، وفي رواية عطاء بن ميناء المذكورة وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد، وسبب كثرته نزول البركات،

---

(١) البخاري (١١٠٩و٢٣٤٤و٢٢٦٤)، ومسلم (١٥٥).

وتوالي الخيرات بسبب العدل، وعدم الظلم، وحينئذ تخرج الأرض كنوزها، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلمهم بقرب الساعة قوله: حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها أي: أنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة لا بالتصدق بالمال وقيل: معناه أن الناس يرغبون عن الدنيا حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا، وما فيها، وقد روى ابن مردويه من طريق محمد بن أبي حفصة عن الزهري بهذا الإسناد في هذا الحديث حتى تكون السجدة واحدة لله رب العالمين، وقوله: ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ هو موصول بالإسناد المذكور قال ابن الجوزي: إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله: حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها، فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس، وشدة إيمانهم، وإقبالهم على الخير فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا، والسجدة تطلق ويراد بها الركعة، قال القرطبي: معنى الحديث أن الصلاة حينئذ تكون أفضل من الصدقة لكثرة المال إذ ذاك وعدم الانتفاع به حتى لا يقبله أحد، وقوله في الآية ﴿وَإِن﴾ بمعنى ما أي: لا يبقى أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا نزل عيسى إلا آمن به، وهذا مصير من أبي هريرة إلى أن الضمير في قوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ وكذلك في قوله قبل موته يعود على عيسى أي إلا ليؤمن بعيسى قبل موت عيسى وبهذا جزم ابن عباس فيما رواه ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عنه بإسناد صحيح ومن طريق أبي رجاء عن الحسن قال قبل موت عيسى والله إنه الآن لحي ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون ونقله عن أكثر أهل العلم ورجحه ابن جرير وغيره ونقل أهل التفسير في ذلك أقوالًا أخر وأن الضمير في قوله به يعود لله أو لمحمد وفي موته يعود على الكتابي على القولين وقيل على عيسى وروى ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس لا يموت يهودي ولا نصراني حتى يؤمن بعيسى فقال له عكرمة أرأيت أن خر من بيت أو احترق أو أكله السبع قال لا يموت حتى يحرك شفتيه بالإيمان بعيسى وفي إسناده خصيف وفيه ضعف ورجح جماعة هذا المذهب بقراءة أبي بن كعب الا ليؤمنن به قبل موتهم أي أهل الكتاب قال النووي معنى

الآية على هذا ليس من أهل الكتاب أحد يحضره الموت إلا آمن عند المعاينة قبل خروج روحه بعيسى، وأنه عبد الله وابن أمته ولكن لا ينفعه هذا الإيمان في تلك الحالة كما قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ قال وهذا المذهب أظهر لأن الأول يخص الكتابي الذي يدرك نزول عيسى وظاهر القرآن عمومه في كل كتابي في زمن نزول عيسى وقبله.

قال العلماء: الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه فبين الله تعالى كذبهم وأنه الذي يقتلهم أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها وقيل: إنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام فيوافق خروج الدجال فيقتله والأول أوجه وروى مسلم من حديث ابن عمر في مدة إقامة عيسى بالأرض بعد نزوله أنها سبع سنين وروى نعيم بن حماد في كتاب الفتن من حديث ابن عباس أن عيسى إذ ذاك يتزوج في الأرض ويقيم بها تسع عشرة سنة، وروى أحمد وأبو داود بإسناد صحيح من طريق عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة مثله مرفوعًا وفي هذا الحديث ينزل عيسى عليه ثوبان ممصران فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام وتقع الآمنة في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل وتلعب الصبيان بالحيات وقال في آخره ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون وروى أحمد ومسلم من طريق حنظلة بن علي الأسلمي عن أبي هريرة ليهلن ابن مريم بفج الروحاء بالحج والعمرة الحديث وفي رواية لأحمد من هذا الوجه ينزل عيسى فيقتل الخنزير ويمحي الصليب وتجمع له الصلاة ويعطي المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما.[1] وعن أبي هريرة

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٩٣).

ﷺقال: قال رسول الله ﷺ " كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ". (١)

وقد أخرجه مسلم، من طريق ابن أبي ذئب، عن ابن شهاب بلفظ: وأمكم منكم قال الوليد بن مسلم فقلت لابن أبي ذئب إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري فقال وإمامكم منكم قال بن أبي ذئب أتدري ما أمكم منكم قلت تخبرني قال فأمكم بكتاب ربكم. (٢)

وعن جابر ﷺفي قصة الدجال. قال: " فينطلقون؛ فإذا هم بعيسى بن مريم ﷺ؛ فتقام الصلاة، فيقال له: تقدم يا روح الله! فيقول: ليتقدم إمامكم فليصل بكم؛ فإذا صلى صلاة الصبح؛ خرجوا إليه. قال: فحين يرى الكذاب؛ ينماث كما ينماث الملح في الماء، فيمشي إليه فيقتله؛ حتى إن الشجرة والحجر ينادي: يا روح الله! هذا يهودي، فلا يترك ممن كان يتبعه أحدًا إلا قتله". (٣)

وقال أبو الحسن الأبدي في مناقب الشافعي تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة، وأن عيسى يصلي خلفه ذكر ذلك ردًا للحديث الذي أخرجه ابن ماجه عن أنس وفيه ولا مهدي إلا عيسى، وقال أبو ذر الهروي حدثنا الجوزقي عن بعض المتقدمين قال معنى قوله وإمامكم منكم يعني أنه يحكم بالقرآن لا بالإنجيل.

وقال ابن التين معنى قوله: "وإمامكم منكم" أن الشريعة المحمدية متصلة إلى يوم القيامة وأن في كل قرن طائفة من أهل العلم، وهذا والذي قبله لا يبين كون عيسى إذا نزل يكون إماما، أو مأمومًا وعلى تقدير أن يكون عيسى إمامًا فمعناه أنه يصير معكم بالجماعة من هذه الأمة قال الطيبي المعنى يؤمكم عيسى حال كونه في دينكم ويعكر عليه قوله في حديث آخر عند مسلم فيقال له صل لنا فيقول لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة لهذه الأمة. وقال ابن الجوزي: لو تقدم عيسى إماما لوقع في النفس إشكال ولقيل أتراه تقدم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)

(٢) أخرجه مسلم (١٥٥)

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٦٧) ثنا محمد بن سابق، ثنا إبراهيم بن طهمان، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله به. وهذا إسناد على شرط مسلم.

نائبًا، أو مبتدئا شرعا فصلى مأمومًا لئلا يتدنس بغبار الشبهة وجه قوله: لا نبي بعدي وفي صلاة عيسى خلف رجل من هذه الأمة مع كونه في آخر الزمان، وقرب قيام الساعة دلالة للصحيح من الأقوال أن الأرض لا تخلو عن قائم لله بحجة والله أعلم.[(١)]

عن أبي هريرةﷺ أن النبي ﷺ قال: " الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه رجلًا مربوعًا إلى الحمرة، والبياض عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل فيدق الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام فيهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون"[(٢)].

فقول النبي ﷺ: "الأنبياء أولاد علات "، وفي لفظ إخوة من علات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد: قال الجوهري: بنو العلات هم أولاد الرجل من نسوة شتى سميت بذلك لأن الذي تزوجها على أولى كانت قبلها ثم عل من الثانية العلل الشرب الثاني يقال له: علل بعد نهل، وعله يعله إذا سقاه السقية الثانية، وقال غيره سموا بذلك لأنهم أولاد ضرائر، والعلات الضرائر وهذا الثاني أظهر وأما وجه التسمية فقال جماعة منهم القاضي عياض وغيره معناه أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم وبعضهم بعيد الوقت من بعض فهم أولاد علات إذ لم يجمعهم زمان واحد كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد وعيسى لما كان قريب الزمان من النبي، ولم يكن بينهما نبي كانا كأنهما في زمان واحد، فقال ﷺ " أنا أولى الناس بعيسى بن مريم عليه السلام قالوا كيف يا رسول الله فقال الأنبياء إخوة من علات" الحديث.

وفيه وجه آخر أحسن من هذا وهو أن النبي ﷺ شبه دين الأنبياء الذين اتفقوا عليه من

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٢٤)، وابن ماجة (٤٠٧٨)، وأحمد في مسنده (٩٢٧٠) واللفظ له.

التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، وقال البخاري في صحيحه باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد وذكر هذا الحديث وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه، ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد فهو بمنزلة الأب الواحد و أما شرائع الأعمال، والمأمورات فقد تختلف فهي بمنزلة الأمهات الشتى التي كان لقاح تلك الأمهات من أب واحد كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه فهذا أولى المعنيين بالحديث، وليس في تباعد أزمنتهم ما يوجب أن يشبه زمانهم بأمهاتهم، ويجعلون مختلفي الأمهات لذلك، وكون الأم بمنزلة الشريعة، والأب بمنزله الدين، وأصالة هذا وتذكيره، وفرعية الأم، وتأنيثها، واتحاد الأب، وتعدد الأم ما يدل على أنه معنى الحديث والله أعلم. (١)

وقال ابن تيمية: ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحدًا، وإن تنوعت شرائعه قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، والأنبياء إخوة لعلات، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا فليس بيني، وبينه نبي فدينهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو يعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت. (٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " ليس بيني وبينه نبي يعني عيسى وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة، والبياض بين ممصرتين كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧١٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٤٥٥).

أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون "(١).

الدليل السابع: وفيه أن الناس يذهبون إلى عيسى عليه السلام ليشفع لهم عند الله؛ فيحيل هذه الشفاعة إلى رسول الله ﷺ قائلًا: إن ربي غضب اليوم غضبًا –الخ ولم يقل أنا اليوم غضبت.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ – وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا – نَفْسِى نَفْسِى اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. "(٢).

الدليل الثامن: وفيه أن عبَّاد عيسى عليه السلام يلقون في النار يوم القيامة؛ لأنهم كذبوا.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "قلنا يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس، والقمر إذا كانت صحوا؟. قلنا: لا قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما. ثم قال: ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من كان يعبد الله من بر، أو فاجر، وغبرات من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة، ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم. ، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ **فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد،** فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا، فيتساقطون حتى يبقى من كان يعبد الله من بر، أو فاجر ". (٣)

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٢٤)، وأحمد (٩٢٧٠)، وابن أبي شيبة (٣٧٥٢٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٣) من حديث أبي هريرة، وأخرج نحوه من حديث أنس.

(٣) البخاري (٤٣٠٥، ٧٠٠١)، ومسلم (١٨٣).

قال القرطبي رحمه الله: وقد جاءنا على لسان من دلت المعجزة بصدقه أن الله تعالى إذا حشر الخلائق في صعيد واحد يعني يوم القيامة فيقال للنصارى: ما كنتم تعبدون فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله فيقول لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبه ولا ولد، ثم يقال لهم: ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا. فالله الله أدرك بقية نفسك قبل حلول رمسك، واستعمل سديد عقلك، ولا تعول على تقليد فاسد نقلك، واتبع الدين القويم دين الأب إبراهيم فما كان يهوديًا ولا نصرانيًا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين فالله يعلم أني أنظر إليك وإلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وأسأله هداية من ضل من هذة الأمة وأتأسف على الأباطيل التي ينتحلون فإنا لله وإنا إليه راجعون. (١)

وإن ما ذكر عنهم في هذا الحديث، هو حال كل صاحب باطل؛ فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه فإن الباطل لا حقيقة له وهو كاسمه باطل فإذا كان الاعتقاد غير مطابق، ولا حق كان متعلقه باطلًا، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله، أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته وتضرر عامله ببطلانه وبحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه بل صار معذبًا بفوات نفعه وبحصول ضد النفع فلهذا قال تعالى ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى. (٢)

الدليل التاسع: وفيه بشرى لكل مسلم بصفة عامة، ولكل نصراني دخل في الإسلام بصفة خاصة، وفيه أن عيسى عبد الله ورسوله: عن عبادة ﷺعن النبي ﷺقال: **"من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمتة ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل من أي أبواب الجنة الثمانية شاء"**. (٣)

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام (١٠١).

(٢) التفسير القيم لابن القيم (٢/ ٦٠).

(٣) البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨).

قال النووي رحمه الله: هذا حديث عظيم الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف ما يباين به جميعهم وسمى عيسى عليه السلام كلمة لأنه كان بكلمة كن فحسب من غير أب، بخلاف غيره من بنى آدم. قال الهروي: سمى كلمة لأنه كان عن الكلمة فسمى بها كما يقال للمطر رحمة، قال الهروي: وقوله تعالى﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي رحمة قال: وقال ابن عرفة: أي ليس من أب إنما نفخ في أمه الروح، وقال غيره: وروح منه أي مخلوقة من عنده، وعلى هذا يكون إضافتها إليه إضافة تشريف كناقة الله، وبيت الله وإلا فالعالم له ﷻ ومن عنده.[1]

وقال ابن حجر: قال القرطبي: مقصود هذا الحديث التنبيه على ما وقع للنصارى من الضلال في عيسى، وأمه ويستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم. وقال غيره: في ذكر عيسى تعريض بالنصارى وإيذان بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض، وكذا قوله: عبده، وفي ذكر رسوله تعريض باليهود في إنكارهم رسالته، وقذفه بما هو منزه عنه وكذا أمه وفي قوله وابن أمته تشريف له وكذا تسميته بالروح ووصفه بأنه منه كقوله تعالى وسخر لكم ما في الأرض جميعًا منه فالمعنى أنه كائن منه كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه أي أنه مكون كل ذلك وموجده بقدرته وحكمته، وقوله: وكلمته إشارة إلى أنه حجة الله على عباده أبدعه من غير أب، وأنطقه في غير أوانه، وأحيى الموتى على يده، وقيل: سمي كلمة الله لأنه أوجده بقوله: فلما كان بكلامه سمي به كما يقال سيف الله وأسد الله وقيل لما قال في صغره إني عبد الله، وأما تسميته بالروح فلما كان أقدره عليه من إحياء الموتى، وقيل: لكونه ذا روح وجد من غير جزء من ذي روح.[2] ومن فوائد هذا الحديث عدم الخلط بين الإسلام وغيره من الأديان، فقوله: " وأن عيسى عبد

---

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٣٦).

(٢) فتح الباري ٦/ ٤٧٥.

الله ورسوله " تعريض باليهود في التفريق بين رسله في إنكارهم رسالته، ثم رسالة محمد ﷺ وتعريض بالنصارى - أنفسهم - في قولهم بالإيمان به مع التثليث، وهو شرك محض؛ وبه تعرف السر في تخصيص ذكر عيسى عليه السلام في هذا الحديث العظيم الجامع، ألا وحدة بين مسلم يؤمن بجميع أنبياء الله ورسله، ويهودي، أو نصراني: لا يؤمن بمحمد ﷺ كما قال الله - سبحانه -: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ (البقرة: ١٣٧). [1]

الدليل العاشر: شهادة النجاشي لما جاء في القرآن من أن عيسى عبد، وقد كان على دينهم بل كان حاكمهم:

عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا على أن يبعثوا إلى النجاشي هدايا مما يستظرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة المخرومي وعمرو بن العاص، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم. قالت فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جوار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق أنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إليك فيهم أشارف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فإذا كلما الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم؛ فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا نعم، ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهم،

---

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين الأديان لبكر أبو زيد (١/ ٩٩).

ثم كلماه فقالا له أيها لاملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قوهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما ليردوهم إلا بلادهم وقومهم، قالت فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله أذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد أقوام جاوروني ونزلوا ببلادي واختاروني على من سواى حتى أدعوهم فأسئلهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني، قالت ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺفدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺكائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤه – وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله – سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الأمم، قالت وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قالت فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا

قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ﷻ وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرا من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ قالت فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا فو الله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد قالت أم سلمة فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاصي والله لآتينه غدا أعيبهم عنده بها استأصل به خضراءهم، قالت فقال عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا لا تفعل فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت ثم غدا عليه من الغد فقال له أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت فأرسل إليهم فسألهم عنه، قالت ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه، قالوا نقول والله فيه ما قال الله ﷻ وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب نقول فيه الذي جاء به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه، فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم، وإن نخرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - " والسيوم " الآمنون - من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبر ذهب وإني آذيت رجلا منكم -"، وفيه أن النجاشي وافق الصحابة على اعتقاد المسلمين في عيسى عليه السلام. (١)

---

(١) حسن. أخرجه ابن إسحاق في السيرة، قال حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن

الدليل الحادي عشر: وفيه نهي النبي ﷺ أصحابه وأمته عن الغلو الذي وقع فيه النصاري.

فعن عمرﷺ أن رسول الله ﷺقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله". (١)

قال ابن حجر: والإطراء المدح بالباطل، تقول أطريت فلانًا مدحته فأفرطت في مدحه. وقوله: كما أطرت النصارى ابن مريم، أي في دعواهم فيه الإلهية، وغير ذلك. (٢)

الدليل الثاني عشر: وفيه إثبات كفر النصارى الذين لا يؤمنون برسول الله محمد ﷺ ومما جاء به نبوة عيسى لا إلاهيته: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ". (٣)

قال النووي: وأما الحديث ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ، وفي مفهومه دلالة على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، وهذا جار على ما تقدم في الأصول؛ أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح والله أعلم. وقولهﷺ: **"لا يسمع بي أحد من هذه الأمة"** أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيها على من سواهما وذلك لأن اليهود والنصارى لهم

هشام عن أم سلمة زوج النبي به، وعنه ابن هشام في السيرة (٢/ ١٧٧) ومن طريقه أخرجه أحمد (١/ ٢٠١) قال: حدَّثنا يَعْقُوب، قال: حدَّثنا أَبِي. و"ابن خزيمة" (٢٢٦٠) قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن عِيسَى، حدَّثنا سَلَمَة، يَعْنِي ابن الفَضْل. كلاهما (إبراهيم بن سَعْد والد يَعْقُوب، وسَلَمَة بن الفَضْل) عن مُحَمَّد بن إِسْحَاق، به.

وهذا إسناد فيه: محمد بن إسحاق، وهو إمام المغازي صدوق يدلس وحديثه حسن إذا صرح بالتحديث، وانظر: التقريب (٥٧٢٥) والكاشف للذهبي (٤٧١٨) وهذا الحديث من أحاديث السيرة التي أسندها ابن إسحاق في السيرة وصرح فيها بالسماع فهو صحيح. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وقال الألباني في الصحيحة (٣١٩٠): إسناده جيد وقد سكت عنه الحافظ في الفتح (٧/ ١٨٨)، وقال على هامش فقه السيرة للغزالي (١٢٤): إسناده صحيح.

(١) البخاري (٣٢٦١).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٩٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٣).

كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى. والله أعلم(١).

الدليل الثالث عشر: يثبت أن عيسى مولودًا وقاه الله شر الشيطان عند الولادة، فلو كان إلهًا لوقى نفسه، وأيضًا قد سبق أن الإله لم يلد ولم يولد:

عن أبي هريرة ﷺأن النبي ﷺ قال: "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد؛ فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها ". ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران: ٣٦). (٢)

قال القرطبي: هذا الطعن من الشيطان، هو ابتداء التسليط فحفظ الله مريم وابنها منه ببركة دعوة أمها حيث قالت: إني أعيذها بك، وذريتها من الشيطان الرجيم، ولم يكن لمريم ذرية غير عيسى(٣)، وأيضًا هذه فضيلة ظاهرة، وظاهر الحديث اختصاصها بعيسى وأمه، واختار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يتشاركون فيها. (٤)

الدليل الرابع عشر: وفيه أن عيسى يهتم بالتبليغ عن الله تعالى:

عن الحارث الأشعري ﷺ: أن النبي ﷺ قال: " إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها فقال عيسى ﷺإن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أنا آمرهم فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي، أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد، وتعدوا على الشرف، فقال إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب، أو ورق فقال: هذه داري، وهذا عملي فاعمل، وأد إلي، فكان يعمل، ويؤدي إلى غيره سيده فأيكم يرضي أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب

---

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٨).

(٣) فتح الباري (٦/ ٤٧٠)

(٤) شرح مسلم للنووي (١٥/ ١٢٠).

وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب، أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديه منكم بالقليل، والكثير ففدى نفسه منهم، وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبي ﷺ وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة، والجماعة فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية، فإنه من جثا جهنم فقال رجل يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال وإن صلى وصام فدعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله هذا". (١)

الدليل الخامس عشر: وفيه إثبات مرحلة المهد لعيسى عليه السلام وأن الله أنطقه في المهد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج، كان يصلي، جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته؛ فتعرضت له امرأة وكلمته، فأبى فأتت راعيًا، فأمكنته من نفسها؛ فولدت غلامًا، فقالت: من جريج! فأتوه، فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام؛ فقال: من أبوك يا غلام؟ قال الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال لا إلا من طين، وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله! فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه - قال أبو هريرة كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه - ثم مر بأمة، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال اللهم اجعلني مثلها، فقالت لم ذاك؟ فقال الراكب

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٤).

جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون سرقت زنيت ولم تفعل". [(١)]

الدليل السادس عشر: وفيه أن عيسى ابن مريم عليه السلام يحج البيت الحرام: عن أبي هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده، ليهلن ابن مريم بفج الروحاء، حاجًا أو معتمرًا أو ليثنينهما". [(٢)]

فهذه جملة من الأحاديث في سنة النبي صلى الله عليه وسلم تثبت تارة أنه عبد، وتارة أنه مخلوق، وتارة أنه نبي. . . إلخ، وفي كل الأحوال هذه صفات لا تليق بالله تعالى؛ لأنها صفات المخلوقين، وقد ذكرنا في المقدمة بعض النصوص التي تدل على توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فهي في جملتها تضاف إلى الأدلة الدالة من القرآن والسنة على بطلان ألوهية المسيح عليه السلام.

الوجه الرابع: الأدلة من العهد القديم والأناجيل الأربعة على بطلان ألوهية المسيح. وهي على أقسام:

القسم الأول: الأدلة المؤكدة لوحدانية الله تعالى الذي في السماوات، وأنه رب واحد، وإله واحد، لا يشاركه في ربوبيته ولا ألوهيته أحد، ولا تجوز العبادة إلا له وحده فقط:

لقد تضافرت على إثبات تلك العقيدة: أي توحيد الذات وتوحيد الربوبية والألوهية، والتي هي أساس جميع الرسالات السماوية، نصوص العهد الجديد والعهد القديم، وفيما يلي بيان بعض هذه النصوص:

أولًا: من العهد الجديد: ١-جاء في إنجيل مرقس (١٢/ ٣١: ٢٨): فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَسَمِعَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَجَابَهُمْ حَسَنًا، سَأَلَهُ: «أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ الْكُلِّ؟ » ٢٩ فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ الْوَصَايَا هِيَ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. ٣٠ وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى. ٣١ وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٥٢).

هَاتَيْنِ». ٣٢ فَقَالَ لَهُ الْكَاتِبُ: «جَيِّدًا يَا مُعَلِّمُ. بِالْحَقِّ قُلْتَ، لأَنَّهُ اللهُ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرُ سِوَاهُ)).

قلت: هكذا جاء النص في إنجيل مرقس كما في العهد القديم، أما متى ولوقا فقد قاما بحذف عبارة: **اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ**، وجاءت العبارة هكذا في إنجيل متى، حيث سأله الغربيين قائلًا في الفقرة: يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس؟ فقال له يسوع: **وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى. وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاءُ** (متى ٢٢/ ٣٦: ٤٠).

وفي إنجيل لوقا: فقال له ما هو مكتوب في الناموس كيف تقرأ؟

فأجاب وقال: **وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ** قدرتك، **مِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ** (لوقا١٠/ ٢٦، ٢٧).

وهذا يؤكد أن توحيد الربوبية والألوهية أساس الشريعة وأساس دعوة جميع الأنبياء عليهم السلام، وهذا ما صدقه القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

ومما يجدر بالذكر، أن سيدنا عيسى عليه السلام بين أنه لا وصية أعظم من هاتين الوصيتين، وأنهما أساس الناموس وأساس جميع دعوات الأنبياء، وبناء عليه، فلو كانت ألوهية عيسى عليه السلام ومشاركة الابن لله في ألوهيته، عقيدة حقة، والإيمان بها شرط ضروري للنجاة والخلاص الأخروي ـ كما نص عليه دستور الإيمان الذي تقرر بمجمع نيقية ـ لبيَّن عيسى عليه السلام ضرورة الإيمان بذلك ولم يكتمه، خاصة في هذا المقام الذي سئل فيه عن أهم الوصايا، فلما لم يذكر ذلك في هذا المقام، علم أن ألوهية عيسى ليست من وصايا الله ﷻ أصلًا. [١]

---

(١) وهذه الوصيه في العهد القديم بنحو نصها في الجديد في سفر التثنية (٦/ ١٥: ٤): اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. وَلْتَكُنْ هذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ، وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلاَدِكَ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ، وَحِينَ

(٢) وجاء في إنجيل يوحنا (١٧/ ١ ـ ٣): " تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أيضًا، إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ. وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ ".

وطبعًا هذا الكلام معناه باللغة العربية المتداولة: (لا إله إلا الله، المسيح رسول الله). [1]

وهي ما تعني بوضوح أن الجنة وحياتها الأبدية لا تنال إلا بالشهادة لله بالتوحيد، ولنبيه وصفيه المسيح عليه السلام بالرسالة، وهو ما يعتقده المسلمون فيه ﷺ[2].

ففي هذه الآية بين عيسى عليه السلام أن النجاة الأخروية تكمن في: الإيمان بأن الآب هو الإله الحقيقي وحده، فلفظة وحدك صريحة قاطعة في انفراد الآب بالألوهية، وعدم مشاركة أي أحد آخر ـ ومنهم المسيح الابن ـ له فيها. ويؤكد هذه أكثر عطف المسيح، كرسولٍ لله تعالى، فيما يجب معرفته والإيمان به. وهذا هو عين ما قاله القرآن الكريم وهو وجوب الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبأن المسيح رسول الله، على نبينا وعليه الصلاة والسلام. ثم كيف يقول المسيح للإله هذه هي الحياة الأبدية أيها الإله أن يعرفوك أنك أنت الإله الحقيقي ولاحظ قال كلمة ﴿وحدك﴾ ثم اعترف أن الله هو من أرسله؟ أليس المسيح هو الإله؟ لو كان هو الله حقًا كما تزعمون لقال ليعرفوك أني الإله الحقيقي وحدي أو

تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُ وَحِينَ تَقُومُ، وَارْبُطْهَا عَلاَمَةً عَلَى يَدِكَ، وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ. «وَمَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ يُعْطِيَكَ، إِلَى مُدُنٍ عَظِيمَةٍ جَيِّدَةٍ لَمْ تَبْنِهَا، وَبُيُوتٍ مَمْلُوءَةٍ كُلَّ خَيْرٍ لَمْ تَمْلأْهَا، وَأَبَآرٍ مَحْفُورَةٍ لَمْ تَحْفِرْهَا، وَكُرُومٍ وَزَيْتُونٍ لَمْ تَغْرِسْهَا، وَأَكَلْتَ وَشَبِعْتَ، فَاحْتَرِزْ لِئَلاَّ تَنْسَى الرَّبَّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُ، وَبِاسْمِهِ تَحْلِفُ. لاَ تَسِيرُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الأُمَمِ الَّتِي حَوْلَكُمْ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ إِلهٌ غَيُورٌ فِي وَسَطِكُمْ، لِئَلاَّ يَحْمَى غَضَبُ الرَّبِّ إِلهِكُمْ عَلَيْكُمْ فَيُبِيدَكُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ.

(١) مناظرة بين الإسلام والنصرانية (٥٩) والمناظرة التقريرية (١٦٨)، وإظهار الحق ٢/ ٢.

(٢) الله جل جلاله واحد أم ثلاثة (٩٣).

ليعرفوا أنك أنت الأب وأنا الابن وهناك الروح القدس، ونحن إله واحد؟ أليس هذا من الدجل؟ [1] وجاء في إنجيل متى (٤ / ٨ـ١٠) قصة امتحان الشيطان للمسيح: " ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، ٩ وَقَالَ لَهُ: «أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي». ١٠ حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ " فهل كان الشيطان يعِد الرب العظيم - مالك كل شيء وواهبه - بالدنيا؟! !.

وينقل القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره لإنجيل متى عن القديس جيروم قوله: "يقصد إبليس بكل هذه التجارب أن يعرف إن كان هو الحق ابن الله، ولكن المخلص كان موفقًا في إجاباته تاركًا إياه في شك"، فالشيطان كان وبقي جاهلًا بألوهية المسيح المدعاة. [2]

فسيدنا المسيح عليه السلام يؤكد على ما هو منصوص في التوراة بأن الرب الإله وحده فقط، الذي ينبغي ويصح السجود له وعبادته، وبالتالي فلا تجوز العبادة ولا السجود لأي شيء آخر غيره، سواء كان المسيح الابن أو العذراء الأم أو الصليب أو أي كائن آخر سوى الله تعالى.

ثم إن نفس امتحان الشيطان لعيسى عليه السلام ووسوسته له ومحاولته إضلاله لأكبر دليل، في حد ذاته، على بشرية عيسى المحضة وعدم إلهيته، إذ ما معنى امتحان الشيطان لله خالقه وربه؟! ومتى وكيف يكون الله تعالى في حاجة للامتحان والاختبار؟! وفي إنجيل برنابا (الفصل الثالث والتسعون) "أشهد أمام السماء، وأُشهد كل شيء على الأرض أني بريء من كل ما قد قلتم لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله، مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر ". [3]

(٣) وفي إنجيل متى (١٩ / ١٦ ـ ١٧): " وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟ » ١٧ فَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟

---

(١) انظر: كتاب أسئلة تبحث عن أجوبة لخطاب المصري.

(٢) الله جل جلاله واحد أو ثلاثة (٩٣).

(٣) التحفة المقدسية في مختصر تاريخ النصرانية.

لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ الله. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا». "

قلت: لقد نفى سيدنا عيسى عليه السلام بكل صراحة عن نفسه الصلاح، ولعل المقصود به الصلاح الذاتي المطلق أي القداسة الذاتية المطلقة، وأثبته لله الواحد الأحد فقط. هذا القول يقلع أصل التثليث وما رضي تواضعًا أن يطلق عليه لفظ الصالح أيضًا، ولو كان إلهًا لما كان لقوله معنى، ولكان عليه أن يبين لا صالح إلا الأب وأنا وروح القدس، ولم يؤخر البيان عن وقت الحاجة، وإذا لم يرض بقوله الصالح فكيف يرضى بأقوال أهل التثليث التي يتفوهون بها في أوقات صلاتهم (يا ربنا وإلهنا يسوع لا تضيع من خلقت بيدك) حاشا جنابه أن يرضى بها. (١)

(٤) وفي إنجيل متى (٢٣ / ٨ ـ ١٠) يقول المسيح عليه السلام لأتباعه: " وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تُدْعَوْا سَيِّدِي، لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ، وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ. وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ".

فالمعروف أنه في لغة الإنجيل، كثيرًا ما يعبر عن الله بالآب، وهنا كذلك، فقول عيسى عليه السلام " لا تدعوا لكم أبًا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات " يعنى ليس لكم إله إلا الله وحده الذي في السماوات، وهذا صريح في نفي ألوهية كل أحد ممن هو على الأرض، ويدخل في هذا النفي المسيح كذلك لكونه على الأرض.

ويؤكد ذلك أيضًا، الاقتصار على وصف المسيح بالسيد والمعلم وعدم وصفه بالإله.

هذا وفيما يلي نورد عبارتين للقديس بولس، الذي يحتل مكانة عظيمة لدى النصارى؛ حيث تعتبر رسائله من إلهام الله تعالى، وبالتالي لها منزلة الوحي المعصوم عندهم، لذا ألحقت رسائله الأربعة عشر بالأناجيل واعتبرت جزءًا من كتاب العهد الجديد:

(٥) جاء في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (٨ / ٤ ـ ٦): " فَمِنْ جِهَةِ أَكْلِ مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ: نَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ وَثَنٌ فِي الْعَالَمِ، وَأَنْ لَيْسَ إِلهٌ آخَرُ إِلاَّ وَاحِدًا. ٥ لأَنَّهُ وَإِنْ وُجِدَ مَا يُسَمَّى

(١) مناظرة بين الإسلام والنصرانية ١ / ٦٠، وإظهار الحق ٢ / ٦

آلِهَةً، سِوَاءٌ كَانَ فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الأَرْضِ، كَمَا يُوجَدُ آلِهَةٌ كَثِيرُونَ وَأَرْبَابٌ كَثِيرُونَ. ٦ لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ". فقوله " ليس إله آخر إلا واحدًا " هو نفس الكلمة الطيبة وشعار التوحيد الخالد الذي بعث به جميع الأنبياء: " لا إله إلا الله ". وقوله " ولكن لنا إله واحد: الآب الذي منه جميع الأشياء " في غاية الصراحة والوضوح في إفراد الآب وحده بالإلهية وأن كل ما سواه - بما فيهم المسيح - مخلوق منه. ويزيد هذا الإفراد للآب بالألوهية تأكيدًا، ذكر يسوع المسيح بعده بصفة الرب فقط، ولا شك أنه لا يريد بالرب هنا الألوهية وإلا عاد مناقضا لنفسه؛ إذ يكون قد أثبت لنا إلهين اثنين بعد أن أكد أنه ليس لنا إلا إله واحد، لذلك لابد أن يكون مراده بالرب معنى غير الله، وهذا المعنى هو السيد المعلم، كما تدل عليه رسائله الأخرى وكما هو مصرح به في إنجيل يوحنا من أن لفظة الرب ـ عندما تطلق على المسيح ـ يقصد بها المعلم، ففي الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا (٣٨): " فقالا ربي! ـ الذي تفسيره: يا معلم! ـ أين تمكث؟ " و كذلك في إنجيل يوحنا (٢٠ / ١٦): " قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ» فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي! » الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ. "

(٦) وفي رسالته إلى أهل أفسس (٤ / ٦): " إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ ". (١)

ثانيًا: من العهد القديم: (١) أول وصية من الوصايا العشر التي أوحاها الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام، و كتبها له في الألواح، كما جاءت في سفر الخروج (٢٠ / ١ ـ ٤) من التوراة الحالية: " أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ ".

(٢) وفي سفر الخروج أيضًا (٢٣ / ١٣): " وَلاَ تَذْكُرُوا اسْمَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلاَ يُسْمَعْ مِنْ فَمِكَ. "

---

(١) الأناجيل الأربعة ١/ ٢٦.

(٣) وفي سفر التثنية من التوراة (٦ / ٤ ـ ٥ ثم ١٤ ـ ١٦) يوحي الله تعالى إلى موسى ﷺ أن يقول لبني إسرائيل: " اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. ٥ فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. . . . الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُ، وَبِاسْمِهِ تَحْلِفُ. لاَ تَسِيرُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الأُمَمِ الَّتِي حَوْلَكُمْ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ إِلهٌ غَيُورٌ فِي وَسَطِكُمْ، لِئَلاَّ يَحْمَى غَضَبُ الرَّبِّ إِلهِكُمْ عَلَيْكُمْ فَيُبِيدَكُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ".

(٤) وفي سفر التثنية (٤/ ٣٩) من التوراة أيضًا: " فَاعْلَمِ الْيَوْمَ وَرَدِّدْ فِي قَلْبِكَ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الإِلهُ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَعَلَى الأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ. لَيْسَ سِوَاهُ".

(٥) وفي سفر أخبار الأيام الأول (١٧ / ٢٠) قول داود ﷺ لله ﷻ: " يَا رَبُّ، لَيْسَ مِثْلُكَ وَلاَ إِلهَ غَيْرُكَ حَسَبَ كُلِّ مَا سَمِعْنَاهُ بِآذَانِنَا. ".

(٦) وفي سفر نحميا (٩ / ٥ ـ ٧) من العهد القديم: " قُومُوا بَارِكُوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ مِنَ الأَزَلِ إِلَى الأَبَدِ، وَلْيَتَبَارَكِ اسْمُ جَلاَلِكَ الْمُتَعَالِي عَلَى كُلِّ بَرَكَةٍ وَتَسْبِيحٍ. ٦ أَنْتَ هُوَ الرَّبُّ وَحْدَكَ. أَنْتَ صَنَعْتَ السَّمَاوَاتِ وَسَمَاءَ السَّمَاوَاتِ وَكُلَّ جُنْدِهَا، وَالأَرْضَ وَكُلَّ مَا عَلَيْهَا، وَالْبِحَارَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَأَنْتَ تُحْيِيهَا كُلَّهَا. وَجُنْدُ السَّمَاءِ لَكَ يَسْجُدُ. ".

(٧) وفي زبور داود ﷺ المسمى بسفر المزامير (١٦ / ١ ـ ٢ ـ ٤): " اِحْفَظْنِي يَا الله لأَنِّي عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. ٢ قُلْتُ لِلرَّبِّ: «أَنْتَ سَيِّدِي. خَيْرِي لاَ شَيْءَ غَيْرُكَ، تَكْثُرُ أَوْجَاعُهُمُ الَّذِينَ أَسْرَعُوا وَرَاءَ آخَرَ. لاَ أَسْكُبُ سَكَائِبَهُمْ مِنْ دَمٍ، وَلاَ أَذْكُرُ أَسْمَاءَهُمْ بِشَفَتَيَّ".

(٨) وفي المزامير لداود ﷺ أيضًا (١٨ / ٣٠ ـ ٣١): " الله طَرِيقُهُ كَامِلٌ. قَوْلُ الرَّبِّ نَقِيٌّ. تُرْسٌ هُوَ لِجَمِيعِ الْمُحْتَمِينَ بِهِ. لأَنَّهُ مَنْ هُوَ إِلهٌ غَيْرُ الرَّبِّ؟ وَمَنْ هُوَ صَخْرَةٌ سِوَى إِلهِنا؟ ".

(٩) وفي سفر النبي إشعيا ﷺ (٤٤ / ٦): " هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ وَفَادِيهِ، رَبُّ الْجُنُودِ: «أَنَا الأَوَّلُ وَأَنَا الآخِرُ، وَلاَ إِلهَ غَيْرِي".

(١٠) وفي سفر النبي إشعيا أيضًا (٤٥ / ٧: ٥): " أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ. لاَ إِلهَ سِوَايَ. نَطَّقْتُكَ وَأَنْتَ لَمْ تَعْرِفْنِي. ٦ لِكَيْ يَعْلَمُوا مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ وَمِنْ مَغْرِبِهَا أَنْ لَيْسَ غَيْرِي. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ

آخَرُ. ٧مُصَوِّرُ النُّورِ وَخَالِقُ الظُّلْمَةِ، صَانِعُ السَّلاَمِ وَخَالِقُ الشَّرِّ. أَنَا الرَّبُّ صَانِعُ كُلِّ هذِهِ".

القسم الثاني: نصوص يبين فيها المسيح بكل وضوح أن الله تعالى إلهه ومعبوده.

(١) في إنجيل يوحنا (٢٠ / ١٧): " قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ".

قلت: هذه الآية من أصرح العبارات في نفي عيسى الألوهية عن نفسه؛ إذ كيف يكون إلهًا وهو يعترف ويقر بأن الله تعالى إلهه؟! وهل الله يكون له إله؟ ؟ وهذا هو ما صدَّقه القرآن الكريم حين أكد أن عيسى ﷺكان يقول: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢). ومثله أيضًا ما قاله تعالى عنه ﷺأنه سيقول يوم القيامة: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة: ١١٧).

(٢) وفي إنجيل متى (٢٧/ ٤٦)، وإنجيل مرقس (١٥ / ٣٤): " وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: «إِيلِي، إِيلِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟ » أَيْ: إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ "

قلت: وهنا أيضًا يبين عيسى المسيح ﷺ أن الله تعالى إلهه، ويستغيث بإلهه هذا بتكرار وتضرع، فأين هذا ممن يدعي أن عيسى المسيح نفسه كان هو الله تعالى؟!

(٣) وفي رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس (١ / ٣ و١٦ ـ ١٧): " مُبَارَكٌ الله أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، . . . . . لاَ أَزَالُ شَاكِرًا لأَجْلِكُمْ، ذَاكِرًا إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِي، ١٧كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ، " قلت: فوصف بولسُ الله تعالى بأنه أبو المسيح، ثم وصفه بإله المسيح، مما يفيد بكل وضوح أن يسوع المسيح عبدٌ لله وليس بإله، إذ لو كان المسيح إلها لما قال بولس أن الله تعالى إلهه، لأن " الإله " أزلي واجب الوجود لا خالق ولا إله له، وهذا من أوضح الواضحات! !

(٤) ومن ذلك ما جاء في متى في وصف المسيح "هو ذا عبدي" (متى ١٢/ ١٨)، وفي سفر أعمال الرسل "قد مجد عبده يسوع. . القدوس البار" (أعمال ٣/ ١٣-١٤)، "فإليكم أولا

أرسل الله عبده" (أعمال ٣/ ٢٦)، وفي موضع آخر: "عبدك القديس يسوع " (أعمال ٤/ ٣٠).

وقد استبدلت لفظة (عبد) في التراجم العربية الحديثة بكلمة "فتى" الموهمة للعبودية أو البنوة، وذلك في التراجم العربية المختلفة، فيما تستخدم التراجم الإنجليزية كلمة (servant)، والتي تعني خادم أو عبد.

وكتوضيح لهذا الصنيع الموهم ننقل قول متى: "لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هوذا فتاي الذي اخترته، حبيبي الذي سرت به نفسي، أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق" (متى ١٢/ ١٧-١٨)، فاستخدم كلمة (فتى)، فيما استخدم سفر إشعيا الذي نقل منه متى كلمة (عبد)، فيقول: "هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم" (إشعيا ٤٢/ ١).

القسم الثالث: نصوص تبين عبادة المسيح لله ﷻ، وإكثاره من الصلاة له تبارك وتعالى.

(١) في إنجيل متى (١٤ / ٢٣ ـ و٢٥) "و بعد ما صفَّ الجموع، صعَد (أي المسيح) إلى الجبل منفردًا ليصلي. ولما صار المساء كان هناك وحده. وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشيا على البحر! ".

قلت: من هذا النص يتبين أمران: أولًا: أن سيدنا المسيح ﵇كان يحبِّذ الصلاة منفردًا؛ مما يفيد أن هذه الصلاة كانت فعلا لرغبته بعبادة الله تعالى، لا لمجرد تعليم التلاميذ.

ثانيًا: أنه ﵇ كان يقضي أحيانًا أكثر النهار وأكثر الليل في الصلاة، كما يفيده قوله: " ولما صار المساء "، وقوله: " وفي الهزيع الرابع من الليل " الذي يفيد أنه إلى ذلك الوقت كان لا يزال منفردًا لوحده مستيقظًا مشغولًا بالصلاة والمناجاة والعبادة. والنصوص الأخرى التالية تؤكد هذا المعنى:

(٢) في إنجيل مرقس (١/ ٣٥): " وَفِي الصُّبْحِ بَاكِرًا جِدًّا قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ، وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ.

(٣) وفي إنجيل لوقا (٥/ ١٦): " وأما هو (أي عيسى) فكان يعتزل في البراري ويصلي ".

(٤) وفي إنجيل لوقا (٦ / ١٢) في تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله

(٥) وفي لوقا (٩/ ٢٦) أيضًا: " وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد على جبل ليصلي، وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضا لامعًا ".

(٦) وفي إنجيل لوقا أيضًا (٩ / ١٨): " وَفِيمَا هُوَ يُصَلِّي عَلَى انْفِرَادٍ كَانَ التَّلاَمِيذُ مَعَهُ".

(٧) وفي إنجيل لوقا كذلك (١١ / ١): " وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي فِي مَوْضِعٍ، لَمَّا فَرَغَ، قَالَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: «يَارَبُّ، عَلِّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ كَمَا عَلَّمَ يُوحَنَّا أيضًا تَلاَمِيذَهُ"".

(٨) وفي إنجيل متى (٢٦ / ٣٦): " حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: «اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ"".

(٩) وفي إنجيل متى أيضًا (٢٦/ ٣٩ ـ ٤٤): " ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ، وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ». ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّلاَمِيذِ فَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: «أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟ اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». فَمَضَى أيضًا ثَانِيَةً وَصَلَّى قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ إِلاَّ أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ». ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهُمْ أيضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً. فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى أيضًا وَصَلَّى ثَالِثَةً قَائِلًا ذلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. "

(١٠) ويصور لوقا صلاته ﷺ، فيقول: " جثا على ركبتيه وصلى" (لوقا ٢٢/ ٤١). وذات يوم وقبل اختياره للتلاميذ " خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كله في الصلاة لله، ولما كان النهار دعا تلاميذه" (لوقا ٦/ ١٢) فلمن كان الإله يصلي طوال الليل منفردًا؟ وكان يصلي متواريًا، وصار عرقه كعبيط الدم، يقول لوقا: "وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض، ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه" (لوقا

٢٢/ ٤٤)، يقول يوحنا ذهبي الفم: "من ذا لا يتعجب عندما يرى الله جاثيًا ومصليًا"[١].

ومن تضرعه واستغاثته بربه، ما ذكره يوحنا عن حال المسيح عليه السلام عندما أحيا لعازر " ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك، لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنك أرسلتني" (يوحنا ١١/ ٤٠-٤١).

والتضرع والعبادة نوع من دلائل العبودية لا يجوز نسبته إلى الله أو للمتحد معه؛ إذ الأناجيل شهدت بعبوديته والتزامه بناموس موسى عليه السلام في سائر أحواله.

ويتحدث بولس عن انتصار المسيح عليه السلام على الكل بما فيهم الموت، ثم يذكر خضوعه بعد ذلك لله، فيقول: "متى أخضع له الكل، فحينئذ الابن نفسه أيضًا سيخضع للذي أخضع له الكل (لله)، كي يكون الله الكل في الكل" (كورنثوس (١) ١٥/ ٢٨). قلت: من تلك النصوص يظهر مدى اهتمام عيسى بالصلاة لله عز وجلَّ، وأن الصلاة كانت عبادة محببة له ومفزع يلجأ إليه عند الملمات، وأنه كان في الغالب يصعد للهضاب؛ ليصلي لوحده منفردا، يقضي بذلك أحيانًا أكثر الليل وأكثر النهار أيضًا.

و نسأل القارىء المنصف: هل الله تعالى يصلي؟ ؟ وإن صلَّى فلمن يصلي؟ ألنفسه؟! وهل هذا يمكن أن يقول به مجنونٌ فضلا عن عاقل؟! إذن أليست تلك النصوص دلائل بينة وقاطعة على نفي إلهية عيسى وتأكيد عبوديته لله الواحد القهار؟ ؟

القسم الرابع: الله تعالى أعظم من المسيح: (١) في إنجيل يوحنا (١٤ / ٢٨) يقول السيد المسيح عليه السلام لتلاميذه: " سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي. " قلت: الجملة الأخيرة صريحة في نفي عيسى عليه السلام الألوهية عن نفسه؛ لأنه لو كان إلها ـ كما يدعون ـ لكان كاملًا مطلقًا، والكامل المطلق لا يوجد من هو أعظم منه، في حين أن المسيح عليه السلام

(١) الرأي الصريح في طبيعة ومشيئة المسيح، القمص غبريال عبد المسيح ص (٥٨).

يثبت أن الآب (أي الله تعالى) أعظم منه.

وهذا النص أيضًا يبين خطأ دستور الإيمان الذي أقره مجمع نيقية، والذي نص على التساوي بين الآب والابن. سبحان الله! رسول الله عيسى المسيح ﷺ ينفي التساوي بينه وبين الله، ويبين أن الله تعالى أعظم منه، وآباء مجمع نيقية يصرون على تساويهما، فأيهما نصدق؟

(٢) وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥ / ٢٨): " وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ (أي الله) الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أيضًا سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ، كَيْ يَكُونَ الله الْكُلَّ فِي الْكُلِّ. "

قلت: ففي هذا النص، يبين بولس أن المسيح سيخضع في النهاية لله، وهذا بحد ذاته من أوضح الأدلة على عدم إلهية المسيح لأن الإله لا يخضع لأحد، كما أن في قوله: " سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ "، دلالة أخرى على عدم إلهية المسيح لأن مفاد هذه الجملة أن الله تعالى هو الذي كان قد أخضع للمسيح كل شيء، مما يعني أن المسيح لم يكن يستطع، بذاته ومستقلًا عن الله، أن يسخر ويخضع الأشياء. فهل مثل هذا يكون إلهًا؟! !

القسم الخامس: نصوص يؤكد فيها المسيح محدودية علمه: (١) في إنجيل مرقس (١٣ / ٣٢) يقول المسيح عن يوم القيامة: " وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ، وَلاَ الابْنُ، إِلاَّ الآبُ. ".

(٢) وفي إنجيل متى (٢٤ / ٣٦)، قول عيسى أيضًا: " وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ، إِلاَّ أَبِي وَحْدَهُ ". قلت: هذا النص من أوضح الأدلة على نفي إلهية المسيح ﷺ؛ لأن المسيح حصر علم قيام الساعة بأبيه الله تعالى وحده فقط، ونفي هذا العلم عن نفسه وعن سائر عباد الله الآخرين من الملائكة وغيرهم، وسوى بين نفسه وبين سائر المخلوقات في انتفاء العلم بالساعة، وهذا ما صدقه القرآن الكريم أيضًا حين أكد انحصار علم الساعة بالله تعالى وحده كما جاء في قوله تعالى مثلًا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى . . ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، وهذا من أوضح الأدلة على بشرية عيسى ﷺ المحضة، لأنه لو كان إلها؛ لكان علمه محيطًا بكل

شيء ومساويًا لعلم الآب في كل شيء. هذا، ولما لم يكن العلم من صفات الجسد، فلا يجري فيه عذر أساقفة النصارى المشهور بأنه " نفى العلم باعتبار جسميته وناسوته "! لأن العلم ليس من صفات الجسد بل من صفات الروح. فظهر من ذلك بشريته المحضة عدم وجود أي طبيعة إلهية في المسيح ﷺ إذ لو وجدت لما جهل هذه الأمور.

(٣) في إنجيل متى (٢١ / ١٨ ـ ١٩): " وَفِي الصُّبْحِ إِذْ كَانَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ جَاعَ، ١٩ فَنظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَجَاءَ إِلَيْهَا فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا شَيْئًا إِلاَّ وَرَقًا فَقَطْ. فَقَالَ لَهَا: «لاَ يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ! ".

وفي إنجيل مرقس (١١/ ١٢-١٤): (وفي الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع، فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئا فلما جاء إليها لم يجد شيئا إلا ورقا لأنه لم يكن وقت التين فأجاب يسوع وقال لها: لا يأكل أحد منك ثمرًا بعد إلى الأبد وكان تلاميذه يسمعون).

هذا النص يبين أن سيدنا عيسى ﷺلما رأى الشجرة من بعيد، لم يدر ولم يعلم أنها في الواقع غير مثمرة، بل توقع لأول وهلة أن تكون مثمرة، لذلك ذهب باتجاهها، لكن لما اقترب منها ظهر له أنها غير مثمرة فعند ذلك غضب عليها ولعنها!. وفي هذا عدة دلائل واضحة على نفي إلهية عيسى ﷺ:

أولًا: عدم علمه منذ البداية بخلو الشجرة من الثمر يؤكد بشريته المحضة؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وثانيًا: كونه جاع تأكيد آخر أنه بشر محض، يحتاج للغذاء للإبقاء على حياته، فإن قالوا بأنه جاع بحسب ناسوته، قلنا أفلم يكن لاهوته قادرا على إمداد ذلك الناسوت (أي الجسد)؟! خاصة أنكم تدعون أن اللاهوت طبيعة دائمة له وحاضرة لا تنفك عنه! !.

وثالثًا: أنه لما وجد الشجرة غير مثمرة لعنها وبقي جائعا! ولو كان إلها لكان عوضا عن أن يلعنها ويبقى جائعا، يأمرها أمرا تكوينيا أن تخرج ثمرها على الفور؛ لأن الله لا

يعجزه شيء، بل يقول للشيء كن فيكون، فكيف يُصْرَفون عن هذه الدلائل الواضحات والآيات البينات! وهل بعد الحق إلا الضلال؟

ومنها عدم علم المسيح عليه السلام **بأشياء كثيرة**، أهمها جهله بيوم القيامة، فقد قال: "أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب" (مرقس ١٣/ ٣٢)، فكيف تدعي النصارى بعد ذلك ألوهيته، فالجهل بالغيب مبطل لها. وليس ما يجهله المسيح هو موعد القيامة فحسب، بل كل ما غاب عنه فهو غيب يجهله إلا ما أطلعه الله عليه، ولذلك نجده عندما أراد إحياء لعازر يسأله " فانزعج بالروح واضطرب وقال: أين وضعتموه؟ " (يوحنا ١١/ ٣٣-٣٤). ولما جاءه رجل يريد منه شفاء ابنه من الجنون " فسأل أباه: كم من الزمان منذ أصابه هذا؟ فقال: منذ صباه" (مرقس ٩/ ١١).

القسم السادس: نصوص تفيد ابتداء بعثة المسيح بنزول الملائكة وروح القدس عليه عند اعتماده عن يد النبي يحيى (يوحنا) المعمدان عليه السلام

(١) جاء في إنجيل متى (٣/ ١٣ ـ ١٧): " حِينَئِذٍ جَاءَ يَسُوعُ مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى الأُرْدُنِّ إِلَى يُوحَنَّا لِيَعْتَمِدَ مِنْهُ. وَلكِنْ يُوحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلًا: «أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ! » فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «اسْمَحِ الآنَ، لأَنَّهُ هكَذَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نُكَمِّلَ كُلَّ بِرّ». حِينَئِذٍ سَمَحَ لَهُ. فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ الله نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلًا: « هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ ". وأقول: من البديهي أنه لو كان المسيح عليه السلام هو الله تعالى نفسه الذي تجسد ونزل لعالم الدنيا ـ كما يدعون ـ لكانت رسالته مبتدئة منذ ولادته، ولكان روح القدس ملازما له باعتباره جزء اللاهوت الذي لا يتجزأ ـ كما يدعون ـ، ولما احتاج إلى من ينزل عليه بالوحي أو الرسالة، ولما كان هناك أي معنى أصلا لابتداء بعثته بهبوط روح القدس عليه، وابتداء هبوط الملائكة صاعدين نازلين بالوحي والرسائل عندما بلغ الثلاثين من العمر، واعتمد على يد يوحنا النبي عليه السلام! ، فهذا النص والنصوص التالية التي تبين كيفية بدء البعثة النبوية للمسيح، لأكبر وأوضح دليل ـ عند ذوي التجرد والإنصاف ـ على بشرية

المسيح المحضة وعدم إلهيته، وأنه ليس الله المتجسد بل عبدٌ رسولٌ ونبيٌّ مبعوثٌ برسالة من الله كسائر الأنبياء والرسل وحسب.

(٢) ولقد استشهد متى في إنجيله، ببشارة كانت قد وردت في سفر إشعيا من العهد القديم فاعتبرها بشارة عن المسيح، وهي تشير أيضًا لنزول روح الله (أي جبريل) على المبشَّر به، ليعلن الحق للأمم: " فَلَمَّا خَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ تَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ، [١٥] فَعَلِمَ يَسُوعُ وَانْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ. وَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا. [١٦] وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ، [١٧] لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: [١٨] «هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. " (متى: ١٢ / ١٧: ١٤).

والشاهد قوله: أضع روحي عليه، أي أنزل جبريل، روح الله عليه بالوحي؛ فيخبر الأمم بالحق.

(٣) وإلى هذا الشروع بالعمل الرسالي، أشار يوحنا في إنجيله فقال: " وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَمَلاَئِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ». " يوحنا: ١/ ٥١.

(٤) هذا وقد نقل يوحنا الإنجيلي أيضًا عن النبي يحيى (يوحنا) المعمدان أنه قال لليهود لما تباحثوا معه عن ذاك (أي المسيح) الذي بدأ يعمد الناس، فقال النبي يحيى عليه السلام لهم: " إذًا فرحي قد كمُلَ. ينبغي أن ذلك يزيد وأنا أنقص " (يوحنا: ٣/ ٢٩ ـ ٣). مبينًا بدء رسالة المسيح وتواتر وحي الله تعالى إليه.

(٥) ولننظر ما ذكره لوقا عن بدء بعثة المسيح بنزول روح القدس عليه: " وَلَمَّا اعْتَمَدَ جَمِيعُ الشَّعْبِ اعْتَمَدَ يَسُوعُ أيضًا. وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي انْفَتَحَتِ السَّمَاءُ، [٢٢] وَنَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْقُدُسُ بِهَيْئَةٍ جِسْمِيَّةٍ مِثْلِ حَمَامَةٍ. وَكَانَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: «أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ، بِكَ سُرِرْتُ وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً. . . ورجع يسوع من الأردن وهو ممتلئ من الروح القدس " (لوقا: ٣/ ٢١ ـ ٢٣).

ونسأل أصحاب التثليث: أليس هذا النص أوضح دليل على نفي إلهية المسيح، ونفي التثليث؟

فأولًا: لو كان المسيح إلها متجسدًا؛ لما احتاج لروح القدس ليهبط عليه بالرسالة!

وثانيًا: لو كان التثليث حقًا؛ لكان المسيح متحدًا دائمًا وأزلًا مع روح القدس، فما احتاج أن يهبط عليه كحمامة! ولما قال الله تعالى عند اعتماده وابتداء بعثته: هذا ابني الحبيب؛ لأنه من المفروض أنه كان جزء اللاهوت بزعمهم من البداية؛ ولأن الله لا يمكن أن تنفصل عنه إحدى صفاته.

القسم السابع: المسيح يُعرِّف نفسه بأنه نبيٌ ورسولٌ لِلَّه، ويؤكد أنه عبدٌ مأمورٌ لا يفعل إلا ما يأمره به الله تعالى، ولا يتكلم إلا بما يسمعه من الله تعالى: البديهي أن المسيح عليه السلام لو كان هو الله تعالى نفسه الذي تجسَّد وصار بشرًا وجاء لعالم الدنيا بنفسه ـ كما استقر عليه دستور الإيمان المسيحي ـ لما صح أن يطلق عليه لقب نبيّ؛ لأن " النبيّ " اسم لشخص منفصل عن الله يُنبيء عن الله تعالى، أي يخبر عنه، بما يسمعه من الله: إما بواسطة الكلام المباشر، أو الوحي الخفي، أو ملكٍ رسول، كذلك لا يصح أن يطلق عليه اسم " رسول "؛ لأن الرسول اسم لشخص منفصل عن الله، يبعثه الله تعالى لأداء مهمة ما، أما الله تعالى لو تجسد فعلًا وصار بنفسه إنسانًا ونزل لعالم الدنيا؛ ليعلن الدين الجديد بنفسه، فلا يكون عندئذٍ رسولًا، إذ ليس ثمة مرسلٍ له، بل في هذه الحالة يكون هو نفسه، وبدون واسطة، قد أخذ على عاتقه مهمة الاتصال بمخاطبيه. وحاصله: أنه لو صح أن المسيح كان الله نفسه متجسدًا، لما صح أن يسمى رسولًا ولا نبيًا. ولكن الحقيقة أن الأناجيل طافحة بالنصوص التي يعرِّفُ المسيح عليه السلام فيها نفسه بأنه " نبيّ " وبأنه " رسول " أرسله الله تعالى للناس، وأن ما يقوله للناس ليس من عند نفسه بل من عند الله الذي أرسله، فتعليمه ليس لنفسه بل للآب الذي أرسله، فهل هناك أصرح من هذا في بيان الغيرية بين عيسى والله تعالى؟ ، وأنهما اثنان: مُنبيء ونبي، ومُرسل ورسول؟!

و فيما يلي بعض ما جاء في هذا المعنى: (١) في إنجيل متى (١٣ / ٥٤ -٥٨): " وَلَمَّا جَاءَ إِلَى وَطَنِهِ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ فِي مَجْمَعِهِمْ حَتَّى بُهِتُوا وَقَالُوا: «مِنْ أَيْنَ لِهذَا هذِهِ الْحِكْمَةُ

وَالْقُوَّاتُ؟ ٥٥ أَلَيْسَ هذَا ابْنَ النَّجَّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ، وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟ ٥٦ أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ جَمِيعُهُنَّ عِنْدَنَا؟ فَمِنْ أَيْنَ لِهذَا هذِهِ كُلُّهَا؟ » ٥٧ فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهُمْ: «لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ». ٥٨ وَلَمْ يَصْنَعْ هُنَاكَ قُوَّاتٍ كَثِيرَةً لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ " والشاهد في قوله " ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه " حيث عبر عن نفسه بأنه نبي، وهذه الجملة وردت في الأناجيل الأربعة جميعًا.

(٢) وفي إنجيل متى كذلك (١٠ / ٤٠ ـ ٤١) في ذكره لما قاله السيد المسيح عليه السلام للحواريين الاثني عشر حين أرسلهم لدعوة بني إسرائيل وتبشيرهم بالإنجيل: "من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني ومن يقبل نبيًا باسم نبي فأجر نبيٍ يأخذ. "

(٣) في إنجيل لوقا (١٠/ ١٦) في آخر الخطبة التي قالها السيد المسيح عليه السلام للتلاميذ السبعين الذي أرسلهم اثنين اثنين للوعظ والبشارة بالإنجيل في قرى فلسطين، أنه قال لهم: " اَلَّذِي يَسْمَعُ مِنْكُمْ يَسْمَعُ مِنِّي، وَالَّذِي يُرْذِلُكُمْ يُرْذِلُنِي، وَالَّذِي يُرْذِلُنِي يُرْذِلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي ".

(٤) وفي إنجيل لوقا (٤ / ٤٢- ٤٣): " وَلَمَّا صَارَ النَّهَارُ خَرَجَ وَذَهَبَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ، وَكَانَ الْجُمُوعُ يُفَتِّشُونَ عَلَيْهِ. فَجَاءُوا إِلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ لِئَلاَّ يَذْهَبَ عَنْهُمْ. ٤٣ فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُبَشِّرَ الْمُدُنَ الأُخَرَ أَيضًا بِمَلَكُوتِ الله، لأَنِّي لِهذَا قَدْ أُرْسِلْتُ ".

(٥) وفي إنجيل يوحنا (٧ / ٢٨- ٢٩): " فَنَادَى يَسُوعُ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ قَائِلًا: «تَعْرِفُونَنِي وَتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا، وَمِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ، بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق، الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. ٢٩ أَنَا أَعْرِفُهُ لأَنِّي مِنْهُ، وَهُوَ أَرْسَلَنِي".

(٦) وفيه أيضًا (٨ / ١٦- ١٨): " وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيْنُونَتِي حَق، لأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي، بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَأَيضًا فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَق: أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي، وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي" وفيه كذلك (١٢/ ٤٤-٤٩) فنادى يسوع، وقال الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني. والذي يراني يرى الذي أرسلني، أنا قد جئت نورًا إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة، وإن

سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير؛ لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا اتكلم.

قلت: استشهاد المسيح عليه السلام بحكم التوراة " شهادة رجلين حق " تصريح منه بالغيرية بينه وبين الله تعالى الذي يشهد له، فهما إذن اثنان: مرسِل ورسول، وهذا ينفي بوضوح قضية أن المسيح هو الله نفسه متجسدًا.

والآن إليكم هذه العبارة التي قد تفاجئكم بشدة وضوحها وصراحتها في نفي إلهية عيسى:

(٧) ففي إنجيل يوحنا (٨ / ٤٠): " وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ" أقول: لو لم يكن في الإنجيل سوى هذه الآية لكفى بها دلالة على نفي إلهية عيسى عليه السلام.

(٨) وفيه أيضًا (٨ / ٢٦- ٢٩): " لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الآبِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ".

(٩) وفيه أيضًا: (١٠/ ٣٦): " فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟ "

(١٠) وفيه أيضًا: (٢٠/ ٢١): " فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أيضًا: «سَلاَمٌ لَكُمْ! كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا".

قلت: ففي العبارة الأخيرة يماثل سيدنا المسيح عليه السلام بين إرسال الآب له وإرساله هو لتلاميذه للدعوة والتبشير، وبالتالي فكما أن تلاميذه وحوارييه ليسوا عيسى بعينه! فبمقتضى التماثل لا يكون عيسى عليه السلام هو الله بعينه، بل يكون رسوله ومبعوثه.

(١١) **قوله**: " أنتم تدعونني معلّمًا وسيّدًا، وحسنًا تقولون، لأني أنا كذلك" (يوحنا

١٣/ ١٣)، فقد أكد المسيح صحة اعتقاد التلاميذ به، إنهم يرونه معلمًا وسيدًا لهم، وقد شاع تسميته عندهم بالمعلم، "وقال له: يا معلم " (مرقس ١٠/ ٢٠)، أفكان من حسن الأدب أن يترك التلاميذ نداءه بالألوهية وأن ينادوه بهذا النداء المتواضع: معلم.

(١٢) **وقد بدأت نبوته، وهو في سن الثلاثين** "ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة " (لوقا ٣/ ٢٣)، وقد كان ثمة وقت لم ينزل عليه الروح القدس " **لأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ، لأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ.** " (يوحنا ٧/ ٣٩).

(١٣) **وشهد المسيح** عليه السلام **لربه بالوحدانية، ولنفسه بالرسالة، فقال: " أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته " (يوحنا ٣/١٧)**:

(١٤) **ولما خوفه الفريسيون من هيرودس قال لهم:** " **يَنْبَغِي أَنْ أَسِيرَ الْيَوْمَ وَغَدًا وَمَا يَلِيهِ، لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَهْلِكَ نَبِيٌّ خَارِجًا عَنْ أُورُشَلِيمَ! ٣٤يَا أُورُشَلِيمُ، يَاأُورُشَلِيمُ! يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ** " (لوقا ١٣/ ٣٣-٣٤)، فشهد لنفسه بالنبوة، وخاف من مصرعه في أورشليم كما صرع فيها غيره من الأنبياء، فغادر أورشليم، وناداها: " **يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ** " ولم يقل لها: يا قاتلة الإله.

ولما أظهر المعجزات لقومه قرنها بدعوى نبوته قائلًا وهو يناجي الله: " ولكن أسألك من أجل هذه الجماعة، ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني " (يوحنا ١١/ ٢٦).

(١٥) **وهو في كل ما يقوله عن الله معصوم لأنه ينطق بالوحي**، فقد قال: " **وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي** " (يوحنا ١٤/ ٢٨)، وفي موضع آخر: " **تَعْلِيمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي**. (يوحنا ٧/ ١٦). وقال: " **وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ** " (يوحنا ١٣/ ١٦).

وفيما يلي بعض النصوص التي يبين فيها المسيح عليه السلام **أنه لا يتكلم من نفسه بل هو حامل لرسالة من الله مأمور بتبليغها للناس، وأنه لا يعلم إلا ما يوحى إليه**:

(١) في إنجيل يوحنا (١٤/ ٢٤): " اَلَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كَلاَمِي. وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي ".

(٢) وفيه أيضًا: (١٥/ ١٥) " لكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي ".

(٣) وفيه كذلك (١٢ / ٤٩- ٥٠): " لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً ".

(١٦) ومما يبطل قول النصارى بألوهية المسيح، النصوص التي جعلته رسولًا خاصًا إلى بني إسرائيل، والإله لا يكون خاصًا بأمة دون أمة:

أ- ومن ذلك قوله: " لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ " (متى١٠/ ٦). ومثله قصة المرأة الكنعانية التي رفض شفاء ابنتها أول مرة، لأنها ليست من شعبه. (انظر متى ١٥/ ٢١-٢٨).

ب- ومثله الوعد الذي وعده كما جاء في لوقا "وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه، ويملك على آل يعقوب إلى الأبد" (لوقا ١/ ٣٢-٣٣)، فهل هو إله خاص ببني إسرائيل أم رسول خاص بهم؟ فلو كان إلهًا لما صح اختصاصه بشعب دون شعب، فهذا شأن الأنبياء.

(١٧) ونبوته عليه السلام **هي معتقد الناس عامة فيه**، وقد صرحوا بذلك أمامه فلم يخطئهم:

أ- فعندما أحيا المسيح ابن الأرملة في نايين " فَأَخَذَ الْجَمِيعَ خَوْفٌ، وَمَجَّدُوا اللهَ قَائِلِينَ: «**قَدْ قَامَ فِينَا نَبِيٌّ عَظِيمٌ**، وَافْتَقَدَ اللهُ شَعْبَهُ» " (لوقا ٧/ ١٦).

ب- ولما أطعم الخمسة آلاف إنسان من خمسة أرغفة قالوا: " فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الآيَةَ الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ قَالُوا: «إِنَّ هذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ!» " (يوحنا ٦/ ١٤).

(١٨) وقد قال بولس معترفًا برسالته وبشريته: " لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ " (تيموثاوس (١) ٢/ ٥).

(١٩) وقد صدق السير آرثر فندلاي في قوله في كتابه "الكون المنشور": "لا يعتبر عيسى إلهًا أو مخلصًا، **إنما هو رسول من الله خدم في حياته القصيرة** في علاج المرضى وبشر بالحياة الأخرى، وعلم بأن الحياة الدنيا ما هي إلا إعداد للملكوت الإلهي بحياة أفضل لكل من عمل صالحًا".

القسم الثامن: نصوص تؤكد أن المسيح لم يكن يمتلك بذاته أي قدرة تشريعية أو تكوينية:

فالذي أوتيه، إنما دُفع إليه من قبل الله تعالى من البديهيات التي لا نقاش فيها أن من

صفات الله ﷻ الضرورية اللازمة: القدرة الكلية التامة، أي أن الله قادر على جميع الممكنات وأن قدرته نابعة من ذاته وغير مكتسبة، بمعنى أن الله تعالى قادر وفاعل بالذات وبالاستقلال المطلق، فلا يحتاج في قدرته وأفعاله لمساعدة أي قدرة أخرى ولا إلى مدد أي شيء آخر، فهل هكذا كان شأن المسيح عليه السلام؟ كلا، على الإطلاق.

إن الأناجيل الأربعة تنقل عن سيدنا المسيح عليه السلام نفسه تصريحات متكررة يعلن فيها بكل وضوح أنه كان لا يقدر أن يفعل من نفسه شيئًا، ولا يفعل إلا ما أقدره الله تعالى عليه وأمره به، وأن ما لديه من سلطان وما أوتيه من قوة، هو مما منحه الله تعالى ودفعه إليه. وفي كل هذا نفي صريح لإلهية المسيح عليه السلام وتأكيد واضح لعبوديته لله ﷻ وافتقاره إليه. وفيما يلي بعض النصوص في هذا المجال:

(١) جاء في إنجيل يوحنا: (٥/ ١٩): " فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآب يعمل".

(٢) وفيه أيضًا في نفس الإصحاح (٥/ ٣٠): " أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي".

(٣) وفي نفس الإصحاح أيضًا (٥ / ٣٦): " **وَأَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا، لأَنَّ الأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ لأُكَمِّلَهَا، هذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ الآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي** ". ويؤكد هذا المعنى فيقول: " **قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. ٢٩وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ** " (يوحنا ٨/ ٢٨).

(٤) وفي إنجيل يوحنا (٣/ ٣٥): "**اَلآبُ يُحِبُّ الابْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ.** ".

(٥) و في إنجيل متى (٢٨ / ١٨): " فَتَقَدَّمَ يَسُوعُ وَكَلَّمَهُمْ قَائِلًا: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ ".

(٦) وفي إنجيل لوقا (١٠ / ٢١- ٢٢): والتفت (أي المسيح) إلى تلاميذه وقال: كل

شيء قد دُفِعَ إليَّ من أبي.[(١)]

القسم التاسع: نصوص تفيد أن المعجزات التي كان يصنعها المسيح عليه السلام لم يكن يفعلها بقوته الذاتية المستقلة بل كان يستمدها من الله، و يفعلها بقوة الله: أي أن الفاعل الحقيقي لها كان الله عز وجل، الذي أظهرها علي يدي المسيح عليه السلام لتكون شاهدًا له على صحة نبوته.

(١) من المعروف أن معجزة إحياء الموتى، كانت أحد أعظم معجزات السيد المسيح عليه السلام، فهل كان يفعلها بقوته الذاتية؟ أبدًا. فها هو إنجيل يوحنا يروي لنا معجزة إحياء المسيح لشخص مضى على وفاته أربعة أيام يدعى " عازر "، فيبين بوضوح أن هذه المعجزة ما حصلت إلا بعد أن تضرع المسيح لله عز وجل و طلب منه تحقيق هذه المعجزة؛ ليؤمن الناس به ويصدقوا أن الله تعالى أرسله، فسمعه الآب (الله) واستجاب له وأعطاه تلك المعجزة العظيمة. وإليك نص عبارته كما جاءت في يوحنا (١١/ ٤١ ـ ٤٤): " فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا! » فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيل. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ»". وكذلك روى متى ولوقا في إنجيليهما عن المسيح عليه السلام أنه إنما كان يخرج الشياطين من المصروعين والمجانين لا بقوته الذاتية ولكن بروح الله أو بإصبع الله. ففي إنجيل متى (١٢ / ٢٤ – ٢٨): " أَمَّا الْفَرِّيسِيُّونَ فَلَمَّا سَمِعُوا قَالُوا: «هذَا لاَ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ إِلاَّ بِبَعْلَزَبولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ». فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تُخْرَبُ، وَكُلُّ مَدِينَةٍ أَوْ بَيْتٍ مُنْقَسِمٍ عَلَى ذَاتِهِ لاَ يَثْبُتُ. فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُخْرِجُ الشَّيْطَانَ فَقَدِ انْقَسَمَ عَلَى ذَاتِهِ. فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَمْلَكَتُهُ؟ وَإِنْ كُنْتُ أَنَا بِبَعْلَزَبُولَ أُخرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَأَبْنَاؤُكُمْ بِمَنْ يُخْرِجُونَ؟ لِذلِكَ هُمْ يَكُونُونَ قُضَاتَكُمْ! وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ الله أُخْرِجُ

(١) انظر كتاب الله جل جلاله واحد أو ثلاثة ١/ ٨٢، والأناجيل والعقيدة لبهاء النحال ١/ ٩٧.

الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ الله ".

وفي إنجيل لوقا: (١١/ ٢٠) " وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ بِأَصْبعِ الله أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ الله ".

(٣) في إنجيل يوحنا (٥/ ٣٦) قول عيسى ﷺ: " وَأَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا، لأَنَّ الأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ لأُكَمِّلَهَا، هذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ الآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي".

قلت: والعبارة في غاية الدلالة والوضوح، ولا تحتاج لتعليق. كان هذا ما قاله المسيح عن معجزاته، وأما أصحاب عيسى فإنهم يؤكدون أن هذه المعجزات إنما هي من سلطان الله الذي أو تيه بالرسالة والوحي.

(أ) في سفر أعمال الرسل (٢ / ١٤: ٢٢): " فَوَقَفَ بُطْرُسُ مَعَ الأَحَدَ عَشَرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «. . . أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ الله بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا الله بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أيضًا تَعْلَمُونَ ".

(ب) وفي إنجيل متى (٩ / ٦– ٨): " حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ! » ٧ فَقَامَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ. ٨ فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا الله الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا ".

(ج) وفي إنجيل يوحنا (٣/ ١ ـ ٢): " كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسُ، رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ. ٢ هذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلًا وَقَالَ لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ الله مُعَلِّمًا، لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ الله مَعَهُ ".

(د) وفي إنجيل يوحنا أيضًا (٩ / ٣٠ ـ ٣٣) يقول الأعمى من الولادة (أي الأكمه)، الذي أبرأ عيسى ﷺ عينيه، لليهود الذين جاءوا إليه يجادلونه بسبب إيمانه بنبوّة عيسى ﷺ: " أَجَابَ الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ فِي هذَا عَجَبًا! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَقَدْ

فَتَحَ عَيْنَيَّ. [٣١] وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ، فَلِهذَا يَسْمَعُ ". قلت: فقول هذا المؤمن: " وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ، فَلِهذَا يَسْمَعُ " يؤكد أن عقيدته هي: أن الله تعالى هو الذي سمع لدعاء عبده المتقي عيسى؛ فأيده بهذه المعجزة وغيرها.

(هـ) وفي إنجيل يوحنا (١١/ ٢٢: ٢١) تقول مرثا (أخت لِعَازَر) للمسيح عليه السلام بعد موت أخيها، وقبل أن يحييه المسيح بإذن الله: " فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ ههُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي! لكِنِّي الآنَ أَيضًا أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللهِ يُعْطِيكَ اللهُ إِيَّاهُ ". قلت: والجملة الأخيرة في غاية الوضوح في الدلالة على ما قلناه.

القسم العاشر: نصوص فيها استغاثة المسيح بالله عز وجل وطلبه من الله تعالى المدد والعون.

ودعاؤه الله تعالى لنفسه ولأجل تلاميذه؛ مما يبين افتقار عيسى عليه السلام لله تعالى وعدم استغنائه بنفسه.

(١) ففي إنجيل لوقا (٢٢ / ٣٩ ـ ٤٤): " وَخَرَجَ وَمَضَى كَالْعَادَةِ إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ، وَتَبِعَهُ أَيضًا تَلاَمِيذُهُ. وَلَمَّا صَارَ إِلَى الْمَكَانِ قَالَ لَهُمْ: «صَلُّوا لِكَيْ لاَ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ». وَانْفَصَلَ عَنْهُمْ نَحْوَ رَمْيَةِ حَجَرٍ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُجِيزَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِتكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ». وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّيهِ. وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ". ونقل مرقس في إنجيله (١٤ / ٣٣ ـ ٣٦)، تضرُّعَ عيسى عليه السلام بصورة أشد وضوحًا في الاستمداد والاعتراف بالعجز وكون الاستطاعة بيد الله تعالى فقط، فقال: " وَابْتَدَأَ يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ. [٣٤] فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ! اُمْكُثُوا هُنَا وَاسْهَرُوا». ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ، وَكَانَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ السَّاعَةُ إِنْ أَمْكَنَ. وَقَالَ: «يَا أَبَا الآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ ".

أما يوحنا فنقل في إنجيله (١٢/ ١٧) عن عيسى عليه السلام قوله هنا: " **أَيُّهَا الآبُ نَجِّنِي مِنْ**

هٰذِهِ السَّاعَةِ؟ ".

فأقول: هل الله يحتاج لنجدة غيره؟ أو يضطر للاستعانة بغيره والتضرع إليه؟ ؟ أو ليس الله بنفسه على كل شيء قدير؟! فلو كان سيدنا عيسى عليه السلام إلهًا كما زُعِمَ فما معنى تضرعه إلى الله وسؤاله إياه أن يكشف عنه الكرب وينقذه من المصيبة المحيطة به؟!.

(٢) وفي إنجيل لوقا: (٢٣/ ٣٤): " فَقَالَ يَسُوعُ: «يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ ".

(٣) وفي إنجيل متى (٢٦ / ٥٠ ـ ٥٤): " حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ. وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟ ".

قلت: الشاهد في قول المسيح عليه السلام: " أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي " الذي هو دليل واضح على نفي إلهية عيسى؛ لأن الإله لا يستعين بغيره ولا يطلب شيئا من سواه، ولو كان المسيح إلهًا لقال عوضًا عن ذلك: " أتظن أني لا أستطيع الآن أن أحضر أكثر من اثني عشر جيشا من الملائكة. . . " أو قال " أتظن أنني لا أستطيع أن أقضي عليهم جميعا بأمر كن فيكون؟!. . . " الخ. أما قوله: أستطيع أن أطلب من أبي فيدل على أنه عبدٌ لله تعالى محتاج دائمًا لنصره ومدده.

(٤) في إنجيل يوحنا (١٤ / ١٥ ـ ١٦): " إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ، وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ " والشاهد هو قوله: " وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ " مما يثبت احتياج عيسى عليه السلام لله تعالى، وأنه لا يقدر من نفسه على أن يفعل ما يريد بل يطلب ذلك من ربه سبحانه وتعالى.

(٥) يشتمل الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا على دعاء طويل لعيسى عليه السلام

يرفعه إلى ربه تعالى ضارعا له، سائلًا إياه أن ينجده وأن يحفظ تلاميذه ويقدسهم ويحفظهم من الشرير. . . الخ، وهذا الدعاء يُعْرَف بِاسم: الدعاء لأجل التلاميذ وبِاسم: صلاة يسوع الكهنوتية، وهذا نص الدعاء: تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أيضًا، ٢ إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ. ٣ وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. ٤ أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ. ٥ وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ. ٦ «أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي، وَقَدْ حَفِظُوا كَلاَمَكَ. ٧ وَالآنَ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ، ٨ لأَنَّ الْكَلاَمَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ، وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا يَقِينًا أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ، وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. ٩ مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لأَنَّهُمْ لَكَ. ١٠ وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي، وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ. ١١ وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ، وَأَمَّا هؤُلاَءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ، وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ. أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ. ١٢ حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ. الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ، وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ابْنُ الْهَلاَكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ. ١٣ أَمَّا الآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ. وَأَتَكَلَّمُ بِهذَا فِي الْعَالَمِ لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَحِي كَامِلًا فِيهِمْ. ١٤ أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كَلاَمَكَ، وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ، كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ، ١٥ لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ. ١٦ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. ١٧ قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلاَمُكَ هُوَ حَق. ١٨ كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ، ١٩ وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أيضًا مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ. ٢٠ «وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ فَقَطْ، بَلْ أيضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ، ٢١ لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أيضًا وَاحِدًا فِينَا،

لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. ٢٢ وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. ٢٣ أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي. ٢٤ أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا، لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. ٢٥ أَيُّهَا الآبُ الْبَارُّ، إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ، أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ، وَهؤُلاَءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. ٢٦ وَعَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ، لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ، وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ».

قلت: وكل هذا لا يصح على القول بإلاهية عيسى ﷺ لأن الإله لا يطلب شيئًا من غيره ولا يحتاج للدعاء والسؤال، بل يفعل ما يشاء بنفسه وبقدرته الذاتية.

القسم الحادي عشر: المسيح ﷺ يصرِّح بأنه إنسان وابن إنسان، وكذلك حواريّوه الخُلّص كانوا يؤمنون بأن المسيح إنسان نبيٌّ ورجلٌ مؤيّدٌ من الله

(١) في إنجيل يوحنا (٨ / ٤٠) يقول سيدنا المسيح ﷺ لليهود: " وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ ". فما أبعد النجعة بين ما عرَّف به المسيح ﷺ نفسه هنا من أنه: إنسان يتكلم بالحق الذي يسمعه من الله، وبين تعريف المسيح في دستور الإيمان النصراني الذي تقرر عقب مجمع نيقية، والذي أوردناه في بداية الكتاب! فأي القولين نختار: أقول المسيح المختار ﷺ، أم قول غلاة الأحبار؟!

(٢) أما النصوص التي يؤكد فيها المسيح أنه ابن الإنسان فهي كثيرة جدا وهذا اللقب أي: " ابن الإنسان " كان اللقب المحبب لعيسى ﷺ و قد تكرر في الأناجيل والرسائل الملحقة بها ٨٥ مرة. ونكتفي هنا بذكر بعضها:

أ ـ " وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ أَوَّلاً، يَكُونُ لِلْجَمِيعِ عَبْدًا. لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ أَيضًا لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ " (مرقس: ١٠ / ٤٤ – ٤٥).

ب ـ " وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ " (يوحنا: ٣ / ١٤ – ١٥).

(٣) وقد مرت معنا قريبًا عبارة الحواريَّيْن الاثنين اللذين كانا يتكلمان مع المسيح بعد

حادثة صلبه ـ أو بالأحرى بعد شائعة صلبه ـ دون أن يعرفاه، لأنه كان متنكرا، حيث لما سألهما عن سبب حزنهما؟ حدّثاه عما حدث لـ:

" يسوع الناصري الذي كان إنسانا نبيًّا مقتدرًا في القول والفعل أمام الله وجميع الشعب " (إنجيل لوقا: ٢٤ / ١٣ ـ ٢٠).

(٤) كذلك مرت معنا عبارة القديس بطرس التي جاءت في كلمته التي ألقاها في مجمع التلاميذ والمؤمنين بعد رفع المسيح فكان مما قاله: " **أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيضًا تَعْلَمُونَ** " (أعمال الرسل: ٣/ ٢٢).

(٥) وفي إنجيل يوحنا قصة المرأة السامرية التي آمنت بالمسيح لما أخبرها بالغيب المتعلق بأزواجها السابقين الخمسة! فقالت مندهشةً: " قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ!. . . . . . وَقَالَتْ لِلنَّاسِ: ٢٩ «هَلُمُّوا انْظُرُوا إِنْسَانًا قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ. أَلَعَلَّ هذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟ " (يوحنا: ٤ / ١٩ ثم ٢٩).

والحاصل أن المسيح عليه السلام نفسه كان يؤكد بشريته وإنسانيته، وأنه من نسل البشر، كما أن حوارييه والمؤمنين به من تلاميذه ومعاصريه، كانوا ينظرون إليه على أنه إنسان ابن إنسان، وما كان أحد يعتبره إلهًا ابن إله[1].

القسم الثاني عشر: الحواريون وكُتّاب الأناجيل يعتبرون المسيح عليه السلام عبداً لله اجتباه الله.

واختاره ويعتبرونه بشرًا نبيًا كموسى عليه السلام، يرى المسلمون ـ تبعًا لتعليم كلام الله تعالى في القرآن الكريم ـ أن عيسى المسيح عليه السلام كان عبدَ الله ورسولَه، ولعل بعض عوام النصارى يمجُّ وصف المسيح بـ " العبوديّة " ويرى فيه إنقاصا لقدر المسيح عليه السلام، لكن الحقيقة التي قد يندهش لها المسلم قبل النصراني العامي، أن هذا الوصف بعينه، أعني وصف المسيح بالعبودية لله، جاء في متن الأناجيل، بل في متن التوراة والزبور، أي في تلك

---

(١) وسيأتي مزيد بيان حول هذا الوجه وذلك تحت فصل الأدلة التي يتعلقون بها لإثبات ألوهية تحت الوجه الثالث.

البشارات التي كان كتَّاب الأناجيل والحواريون يستشهدون بها على أن المقصود بها المسيح ﷺ، وفيما يلي الشواهد على ذلك:

(١) يقول متَّى ـ وهو أحد الحواريين الاثني عشر ـ في إنجيله (١٢ / ١٤ ـ ٢٠):

" فَلَمَّا خَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ تَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ، فَعَلِمَ يَسُوعُ وَانْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ. وَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا. وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: «هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ، حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ. "

ففي هذا النص يستشهد كاتب الإنجيل الأول القديس متى الحواري، وهو من الحواريين الاثني عشر ومن أوائل المؤمنين بالمسيح ﷺ، ببشارة وردت في سفر إشعيا من العهد القديم، على أنها تتكلم عن المسيح ﷺ، وهذه البشارة تبتدأ بإعلان عبودية المسيح لله ﷻ، وذلك حين تقول: " هو ذا فتاي الذي اخترته "، إذ كلمة فتاي مرادف لكلمة عبدي أو غلامي، وللتأكد من ذلك ما علينا إلا أن نرجع إلى سفر إشعيا نفسه الذي وردت فيه تلك البشارة حيث نجد البشارة في الإصحاح الثاني والأربعين منه كما يلي: " هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. ٢ لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. ٣ قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ. ٤ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ " (إشعيا: ٤٢ / ١ ـ ٤).

ولذلك في الترجمة الأخرى الجديدة للعهد الجديد التي قامت بها الرهبانية اليسوعية (الكاثوليكية) في بيروت (١٩٨٩ م) استُخْدِمَت لفظة "عبدي" عند ذكر كلام متى واستشهاده بالبشارة المذكورة.

والحاصل أن تطبيق متى الحواري تلك البشارة على عيسى ﷺ يبين أن متى كان يرى

في عيسى: " عبد الله، الذي اختاره الله تعالى واجتباه وأوحى إليه بواسطة جبريل وبعثه بالحق للأمم. . . " تماما كما هو التصور الإسلامي للمسيح ﷺ، أي لم يكن متى يرى في المسيح إلهًا متجسدًا ولا ربًا معبودا!.

(٢) يذكر القديس لوقا، كاتب الإنجيل الثالث ومؤلف سفر " أعمال الرسل" (١٢)، في أعمال الرسل: أن القديس فيليبس (أحد المعاونين السبعة الذين اختارهم الحواريون لمعاونتهم في خدمة المائدة وتقسيم الأرزاق اليومية، لأنهم وجدوهم مملوئين من الروح القدس والحكمة)، لما سأله العبد الحبشي الخصي عن الشخص المراد بالآيات التي كان يتلوها من سفر النبي إشعيا ﷺوالتي تقول: " كخروف سيق إلى الذبح. وكحملٍ صامتٍ بين يدي من يجزُّه. هكذا لا يفتح فاه. في ذلِّهِ ألغي الحكم عليه. ترى من يصف ذريته؟. لأن حياته أزيلت عن الأرض"، أجابه القديس فيليبس أن هذه الآيات تشير إلى يسوع وأخذ يشرح له ذلك، فآمن الرجل وطلب من فيليبس أن يعمده فعمده. من هذه القصة يتبين أن كلًا من لوقا كاتب أعمال الرسل والقديس فيليبس كانا يريان أن تلك البشارة في كلام إشعيا إنما تنطبق على المسيح وتشير إليه، وهو أمر أصبح فيما بعد من المسلمات لدى آباء الكنيسة. فإذا رجعنا إلى أصل هذه البشارة كما جاءت في سفر النبي إشعيا ﷺوجدناها بشارة مطولة تبدأ هكذا: " هو ذا عبدي يعقل، يتعالى، ويرتقي، ويتسامى جدا. . (إلى أن قال) ظُلِمَ أما هو فتذلل ولم يفتح فاه، كشاةٍ تُساق إلى الذبح. . . (إلى قوله) وعبدي البار بمعرفته يبرِّر كثيرين وآثامهم هو يحملها، لذلك أَقسم له بين الأعزاء، ومع العظماء يقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه وأُحْصي مع أثمة وهو حَمَلَ خطيَّة كثيرين وشفع في المذنبين " (إشعيا: ٥٣ / ١ ثم ٧ ثم ١١ - ١٢). وعليه فإن لوقا وفيليبس اللذين طبقا هذه البشارة على المسيح، كانا يريان فيه: عبدًا للهِّ تعالى تسامى وارتقى بعظيم تضحيته، وعبد الله البار، الذي ﷺلأجل تضحيته فجعله مع أعزائه وقسم له مقاما بين عظمائه. لذا لا نعجب إذا رأينا لوقا ـ في كتابه أعمال الرسل ـ يطلِق على المسيح مرارا لقب

"عبد الله" (١٤) كما نجد ذلك في أعمال الرسل: ٣/ ١٣ و٢٦، و٤ / ٢٧ و٣٠. هذا ومن الجدير بالذكر أن لوقا وفيليبس ليسا الوحيدين اللذين ذكرا أن تلك البشارة تشير للمسيح، بل شاركهما في ذلك أيضًا متى في إنجيله (٨/ ١٧).

(٣) وفي سفر أعمال الرسل أيضًا (٣ / ١٢ ـ ٢٦) ينقل لوقا الخطبة التي ألقاها القديس والحواري بطرس أمام الشعب الإسرائيلي فيقول: " فَلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ ذلِكَ أَجَابَ الشَّعْبَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ، مَا بَالُكُمْ تَتَعَجَّبُونَ مِنْ هذَا؟ وَلِمَاذَا تَشْخَصُونَ إِلَيْنَا، كَأَنَّنَا بِقُوَّتِنَا أَوْ تَقْوَانَا قَدْ جَعَلْنَا هذَا يَمْشِي؟ إِنَّ إِلهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، إِلهَ آبَائِنَا، مَجَّدَ فَتَاهُ يَسُوعَ، الَّذِي أَسْلَمْتُمُوهُ أَنْتُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ أَمَامَ وَجْهِ بِيلاَطُسَ، وَهُوَ حَاكِمٌ بِإِطْلاَقِهِ. وَلكِنْ أَنْتُمْ أَنْكَرْتُمُ الْقُدُّوسَ الْبَارَّ، وَطَلَبْتُمْ أَنْ يُوهَبَ لَكُمْ رَجُلٌ قَاتِلٌ. وَرَئِيسُ الْحَيَاةِ قَتَلْتُمُوهُ، الَّذِي أَقَامَهُ الله مِنَ الأَمْوَاتِ، وَنَحْنُ شُهُودٌ لِذلِكَ. وَبِالإِيمَانِ بِاسْمِهِ، شَدَّدَ اسْمُهُ هذَا الَّذِي تَنْظُرُونَهُ وَتَعْرِفُونَهُ، وَالإِيمَانُ الَّذِي بِوَاسِطَتِهِ أَعْطَاهُ هذِهِ الصِّحَّةَ أَمَامَ جَمِيعِكُمْ. وَالآنَ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ بِجَهَالَةٍ عَمِلْتُمْ، كَمَا رُؤَسَاؤُكُمْ أيضًا. وَأَمَّا الله فَمَا سَبَقَ وَأَنْبَأَ بِهِ بِأَفْوَاهِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ، أَنْ يَتَأَلَّمَ الْمَسِيحُ، قَدْ تَمَّمَهُ هكَذَا. فَتُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمْحَى خَطَايَاكُمْ، لِكَيْ تَأْتِيَ أَوْقَاتُ الْفَرَجِ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ. وَيُرْسِلَ يَسُوعَ الْمَسِيحَ الْمُبَشَّرَ بِهِ لَكُمْ قَبْلُ. الَّذِي يَنْبَغِي أَنَّ السَّمَاءَ تَقْبَلُهُ، إِلَى أَزْمِنَةِ رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ، الَّتِي تكَلَّمَ عَنْهَا الله بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ. فَإِنَّ مُوسَى قَالَ لِلآبَاءِ: إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ. لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لاَ تَسْمَعُ لِذلِكَ النَّبِيِّ تُبَادُ مِنَ الشَّعْبِ. وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ أيضًا مِنْ صَمُوئِيلَ فَمَا بَعْدَهُ، جَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا، سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِهذِهِ الأَيَّامِ. أَنْتُمْ أَبْنَاءُ الأَنْبِيَاءِ، وَالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَ بِهِ الله آبَاءَنَا قَائِلًا لإِبْرَاهِيمَ: وَبِنَسْلِكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ. إِلَيْكُمْ أَوَّلًا، إِذْ أَقَامَ الله فَتَاهُ يَسُوعَ، أَرْسَلَهُ يُبَارِكُكُمْ بِرَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَنْ شُرُورِهِ".

من هذا النص أيضًا يتبين أن عقيدة القديس بطرس ـ الذي كان من أقرب الحواريين

للمسيح ـ بالمسيح عليه السلام تتجاوز كونه عبد الله، وكونه نبيا كموسى عليه السلام، حيث استشهد بطرس ببشارة واردة في التوراة يقول فيها الله تعالى لموسى أن يقول لبني إسرائيل: " **إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ** " فاعتبر البشارة متعلقة بالمسيح، مما يعني كون المسيح عليه السلام في اعتقاده نبيًا مثل موسى عليه السلام، والمثلية هذه تؤكد كون عيسى عبدًا رسولًا وبشرًا نبيًا كما كان موسى عبدًا رسولًا وبشرًا نبيًا.

القسم الثالث عشر وهو معضد لما سبق: نصوص تثبت أن أم عيسى وأصحابه لا يعلمون المعتقد، فكيف عرفه من لم يره؟!

مما يدل على أن الفكرة لا علاقة لها بالمسيح ولا أتباعه، بل هي من مخترعات لاحقة لذلك العهد، وذلك يكفي للإعلان عن بطلانها.

وفي ذلك نصوص كثيرة منها:

١ـ **عدم معرفة أمه العذراء البتول بألوهيته**: إذ لما كان المسيح راجعا مع والدته ويوسف النجار حصل ما يدل على جهل والدته بمقامه، فإن جهلت والدته الطاهرة ألوهيته، فمن ذا الذي يعلمها، فقد جاء في لوقا: " **وَبَعْدَمَا أَكْمَلُوا الأَيَّامَ بَقِيَ عِنْدَ رُجُوعِهِمَا الصَّبِيُّ يَسُوعُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَيُوسُفُ وَأُمُّهُ لَمْ يَعْلَمَا. ٤٤وَإِذْ ظَنَّاهُ بَيْنَ الرُّفْقَةِ، ذَهَبَا مَسِيرَةَ يَوْمٍ، وَكَانَا يَطْلُبَانِهِ بَيْنَ الأَقْرِبَاءِ وَالْمَعَارِفِ. ٤٥وَلَمَّا لَمْ يَجِدَاهُ رَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ يَطْلُبَانِهِ. ٤٦وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ، جَالِسًا فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ ... يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!** " (لوقا ٢/ ٤١-٤٨)، فلو كانت مريم تعلم أن ابنها هو الله أو ابنه لما كان لهذا الخوف على المسيح أي معنى.

٢- ويجيب المسيح سؤال أمه ويوسف النجار بقوله: " **لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟** "، فهل فهمت البتول وزوجها من جوابه بأنه يتحدث عن ألوهيته وبنوته الحقيقية للآب؟ بالطبع: لا فهما لا يعرفان شيئًا عن هذا المعتقد الغريب. يقول لوقا: " **فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلاَمَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا** " (لوقا ٢/ ٥٠).

٣- وفي مرة أخرى سمعت مريم البتول ورأت فرح سمعان الأورشليمي وهو يحمل

وليدها، ويحمد الله على أن عينيه قد اكتحلتا برؤية المعزي المخلص، لكنها والنجار لم تفهما ما يقوله، فاكتفيا بعلامات العجب وأمارات الاستغراب، يقول لوقا: " **وَكَانَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ يَتَعَجَّبَانِ مِمَّا قِيلَ فِيهِ** " (لوقا ٢/ ٣٣).

٤- ويذكر يوحنا أن المسيح لما صلب ذهبت والدته لتذرف عليه الدمع. (انظر يوحنا ١٩/ ٢٥)، أفلم تكن تعلم حين ذاك أن ولدها هو الله أو ابنه، وأن الموت لا يضيره؟

٥- **وسمعان الصفا (بطرس)، أقرب التلاميذ إلى المسيح يقول** وهو ممتلئ من الروح القدس: " **أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ الله بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيضًا تَعْلَمُونَ. ٢٣هذَا أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّمًا بِمَشُورَةِ الله الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ، وَبِأَيْدِي أَثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ** " (أعمال الرسل ٢/ ٢٢)، فلم يشر في خطبته المهمة - التي كان فيها مؤيدا من الروح القدس - إلى شيء من الألوهية للمسيح، ولم يتحدث عن الناسوت المتأله ولا الإله المتجسد.

٦- **ولما عرض المسيح - متنكرًا بعد الصلب المزعوم**: لرجلين من أصحابه قد حزنا بسبب ما تردد عن صلبه، سألهما عن سبب حزنهما فقالا: " **يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي كَانَ إِنْسَانًا نَبِيًّا مُقْتَدِرًا فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ أَمَامَ الله وَجَمِيعِ الشَّعْبِ. ٢٠كَيْفَ أَسْلَمَهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَحُكَّامُنَا لِقَضَاءِ الْمَوْتِ وَصَلَبُوهُ. ٢١وَنَحْنُ كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُزْمِعُ أَنْ يَفْدِيَ إِسْرَائِيلَ.** " (لوقا ٢٤/ ١٩-٢١)، فليس في قولهما حديث عن ناسوت مقتول، ولا عن لاهوت متجسد نجا من الموت، إن غاية ما كانوا يرقبونه فيه، أن يكون مخلص إسرائيل، أي المسيح المنتظر الذي بشرت به الأنبياء. يقول القس إبراهيم سعيد عن هذين التلميذين: "إلى الآن لم يؤمنا بلاهوته. . لكننا لا ننكر عليهما أنهما كانا مؤمنين بنبوته"[(١)].

٧- **وأيضًا عجب منه تلاميذه لما رأوا بعض معجزاته**، ولو كانوا يرونه إلها لما كان في

(١) شرح بشارة لوقا، د. إبراهيم سعيد، ص (٦٣٤).

معجزاته أي عجب، فقد مر يسوع ﷺ بالشجرة وقد جاع، فقصدها، فلم يجد فيها سوى الورق. فقال: لا يخرج منك ثمرة إلى الأبد، فيبست الشجرة لوقتها، فتعجب التلاميذ " **فَقَالَ لَهَا: «لاَ يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ!». فَيَبِسَتِ التِّينَةُ فِي الْحَالِ. فَلَمَّا رَأَى التَّلاَمِيذُ ذلِكَ تَعَجَّبُوا قَائِلِينَ: «كَيْفَ يَبِسَتِ التِّينَةُ فِي الْحَالِ؟** " (متى ٢١/١٨-٢٢). فدل عجبهم على أنهم كانوا لا يدركون شيئًا مما تعتقده النصارى اليوم من ألوهية المسيح، وإلا فإن إيباس الإله للشجرة ليس فيه ما يدعو لأي عجب.

٨ ـ **وهذا يوحنا المعمدان (يحيى)** ﷺ الذي لم تقم النساء عن مثله. (انظر متى ١١/ ١١)، يرسل إلى المسيح رسلًا بعد أن عمده ليسألوه " **أَمَّا يُوحَنَّا فَلَمَّا سَمِعَ فِي السِّجْنِ بِأَعْمَالِ الْمَسِيحِ، أَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، ٣وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟» ٤فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمَا: «اذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا تَسْمَعَانِ وَتَنْظُرَانِ: ٥اَلْعُمْيُ يُبْصِرُونَ، وَالْعُرْجُ يَمْشُونَ، وَالْبُرْصُ يُطَهَّرُونَ، وَالصُّمُّ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ، وَالْمَسَاكِينُ يُبَشَّرُونَ. ٦وَطُوبَى لِمَنْ لاَ يَعْثُرُ فِيَّ».** " (متى ١١/ ٣-٦). فيحيى المعمداني ﷺ مع جلالة أمره لم يظن في المسيح أنه أكثر من النبي المنتظر الذي كانت تنتظره بنو إسرائيل.

٩ـ **ولما جاءته المرأة السامرية ورأت قدراته وأعاجيبه**: "**قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ!** " (يوحنا ٤/ ١٩)، وما زادت على ذلك، فما وبخها ولا صحح لها معتقدها، فكان هذا معتقدًا يعتقده عامة الناس كما اعتقده تلاميذ المسيح وحواريوه.

١٠ـ **وهو ما قاله عنه الأعمى الذي شفاه المسيح** ورأى برهان الله على نبوة هذا المبارك " **فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟» ١١أَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ: إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ** " (يوحنا ٩/ ١٠-١١)، لكن النصارى اعتقدوا في هذه الحادثة ما لم يعتقده ذاك الذي شفاه المسيح، والذي شهد له بالإنسانية فحسب.

١١ـ **وكذا الجموع** التي رأته كثيرًا في أورشليم، وخرجت لاستقباله لما دخل أورشليم دخول الأبطال، هذه الجموع كانت تعتقد بشريته ونبوته " فقالت الجموع: هذا يسوع

النبي" (متى ٢١/ ١١).

١٢- **وهاهم أعداؤه ﷺ من اليهود يلاحقونه**، ويطلبون منه آية، فأخبرهم بأنه لن تأتيهم سوى آية يونان النبي (يونس) ﷺ" **حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ** " (متى ١٢/ ٣٨-٣٩). واليهود، لا ريب أنهم يبحثون عن آية تدل على نبوته التي يدعوهم إلى الإيمان بها، ولو كان ما يدعو إليه الألوهية لما رضوا منه بمثل آية يونان، بل ولطالبوه بآيات أعظم من آية يونان، وغيره من الأنبياء.

١٣- **وفيما أحد الفريسيين** يرقب المسيح متشككًا بنبوته تقدمت إليه امرأة خاطئة باكية تمسح رجليه بشعرها، تقبلهما وتدهنهما بالطيب، "فلما رأى الفريسي الذي دعاه ذلك، تكلم في نفسه قائلًا: لو كان هذا نبيًا لعلم من هذه المرأة التي تلمسه؟ وما هي؟ إنها خاطئة" (لوقا ٧/ ٣٩). لقد استنكر في نفسه نبوة - لا ألوهية – هذا الذي يجهل حال الخاطئة، مما يؤكد أن دعواه ﷺ بينهم إنما كانت النبوة فحسب.

١٤- **ولما أراد اليهود قتله**، كانت جريمته عندهم دعواه النبوة، لا الربوبية، فقد قالوا لنيقوديموس: "ألعلك أنت أيضًا من الجليل؟ فتّش وانظر. إنه لم يقم نبي من الجليل" (يوحنا ٧/ ٥٢)، إنهم يكذبونه في دعواه النبوة، وهو من الجليل التي لم يسبق أن أتى منها نبي.

١٥- **والشيطان أيضًا لم ير في المسيح أكثر من كونه بشرًا**، فاجترأ عليه محاولًا غوايته، لذلك فقد حصره في الجبل أربعين يومًا من غير طعام ولا شراب، وهو في ذلك يمتحنه ويمنيه بإعطائه الدنيا في مقابل سجدة واحدة له " **٨ثُمَّ أَخَذَهُ أيضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، ٩وَقَالَ لَهُ: «أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي». ١٠حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ».** " (متى ٤/ ٩-١٠)، فهل كان الشيطان يعِد الرب العظيم - مالك كل شيء وواهبه - بالدنيا؟!!.

١٦ـ ثم إن كان المسيح إلهًا متجسدًا فكيف نفهم تبريرًا لخيانة يهوذا؟ وهل يخان الإله؟ وكيف نفهم بطرس إنكار بطرس له ثلاث مرات ولعنه في الليلة التي أراد اليهود القبض فيها على المسيح؟ بل إن كل ما قيل في سيرة المسيح يصعب فهمه مع القول بألوهيته، ويترك علامات استفهام لا إجابة عنها.

(١٧) **في إنجيل متى** (٢١ / ١٠ ـ ١١) قول المؤمنين بالمسيح ﷺ لدى استقبالهم له عند دخوله بيت المقدس: " مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! أُوصَنَّا فِي الأَعَالِي! ». ١٠ وَلَمَّا دَخَلَ أُورُشَلِيمَ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا قَائِلَةً: «مَنْ هذَا؟ » ١١ فَقَالَتِ الْجُمُوعُ: «هذَا يَسُوعُ النَّبِيُّ الَّذِي مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ".

(١٨) وفي إنجيل يوحنا (٤/ ١٩): عن المرأة التي دهشت لما أخبرها المسيح، الذي لم يكن يعرفها من قبل، عن أزواجها الخمسة السابقين! أنها قالت: " يا سيّد! أرى أنك نبيّ. . ".

القسم الرابع عشر: نصوص تثبت الحمل بالمسيح ثم ولادته ثم نموه التدريجي جسمًا وعقلًا:

وتثبت له كل أعراض الطبيعة البشرية من الجوع والعطش والتعب والنوم والخوف والاضطراب والألم بل الموت مما يتنزه عنه الباري سبحانه وتعالى. ولقد درس المحققون سيرة المسيح ﷺ- كما عرضتها الأناجيل - منذ بشارة أمه إلى حمله، وولادته في المزود، ثم لفه بالخرق، ثم ختانه، ومن ثم نشأته، وتعليمه مع الصبيان، ثم تعميده على يد المعمدان إلى أن ذكروا نهايته المزعومة على الصليب بعد أن جزع، وتذلل لله ليصرف عنه هذا الأمر؛ فوجدوا أن المسيح لا يفرق في شيء عن سائر الناس، فقد ولد وكبر، وأكل وشرب، ومات. فما الذي يميزه بالألوهية عن غيره؟

(١) **فقد ولد من فرج** امرأة متلبطًا بدمها "وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد" (لوقا ٦/ ٢).

(٢) **ونشأ جنينًا** في رحم أمه مريم -عليها السلام -التي تحمل به مدة الحمل كاملًا ثم تضعه: " فَصَعِدَ يُوسُفُ أيضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْم، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ، لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى. ٦ وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ. فَوَلَدَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ وَقَمَّطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي

الْمِذْوَدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ. " (لوقا: ٢/ ٤- ٧).

(٣) **ورضع من ثدييها** "وفيما هو يتكلم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجمع وقالت له: طوبى للبطن الذي حملك، والثديين اللذين رضعتهما" (لوقا ٢٧/ ١١).

(٤) **المسيح** عليه السلام **يختن عندما يبلغ ثمانية أيام**: " وَلَمَّا تَمَّتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ لِيَخْتِنُوا الصَّبِيَّ سُمِّيَ يَسُوعَ، كَمَا تَسَمَّى مِنَ الْمَلاَكِ قَبْلَ أَنْ حُبِلَ بِهِ فِي الْبَطْنِ " لوقا: ٢/ ٢١.

(٥) **وقد عمده يوحنا المعمدان** عليه السلام في نهر الأردن " جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه" (متى ١٣/ ٣)، أفجهل المعمدان أنه يعمد الإله؟ ومن المعلوم أن معمودية المعمدان غفران الذنوب، كما في متى: " واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم. . أنا أعمدكم بماء للتوبة. . . حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه" (متى ٣/ ٦-١٤)، فهل كان الإله مذنبًا يبحث عمن يغفر له ذنوبه؟!

(٦) **كما تعرض لمكايد أعدائه** فقد حاول الشيطان أن يغويه، فلم يقدر "قال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان" (متى ٤/ ٩-١٠).

(٧) **المسيح** عليه السلام **ينمو تدريجيًا جسمًا وعلمًا**: " وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ " (لوقا: ٢/ ٥٢). قلت: قوله " يتقدّم في الحكمة " دليل واضح على عدم ألوهية المسيح؛ إذ لو كان المسيح إلها متجسدًا لكان محيطا، قبل وبعد تجسده المزعوم في رحم العذراء، بكل المعلومات وبالحكمة المطلقة ولما احتاج أن يتقدم فيها! وثمة فائدة أخرى في هذا النص يجدر التنبيه إليها، وهي أن العلم ومعرفة الحكمة ليست من الأمور الجسدية حتى يُقال أن المسيح إنما تدرج فيهما بحسب ناسوته! بل من صفات الروح، مما يؤكد بشرية المسيح المحضة روحًا وجسدًا وقلبًا وقالبًا.

(٨) **المسيح** عليه السلام **يجوع**: " ثُمَّ أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ. فَبَعْدَ مَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، جَاعَ أَخِيرًا " (متى: ٤/ ١ ـ ٢) ". وبحث عن طعام يأكله "وفي الصبح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع" (متى ١٨/ ٢١). وقد أكل وشرب، فسد جوعته، وروى ظمأه " فناولوه

جزءًا من سمك مشوي وشيئا من شهد عسل، فأخذ وأكل قدامهم" (لوقا ٢٤/ ٤٢-٤٣)

" وَفِي الصُّبْحِ إِذْ كَانَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ جَاعَ، فَنَظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَجَاءَ إِلَيْهَا فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا شَيْئًا إِلاَّ وَرَقًا فَقَطْ. فَقَالَ لَهَا: «لاَ يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ! " متى: ٢١/ ١٩: ١٨.

(٩) **المسيح** عليه السلام **يعطش**: " بَعْدَ هذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ، فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ». " (يوحنا: ١٩/ ٢٨).

(١٠) **المسيح** عليه السلام **يتعب**: " وَكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعْقُوبَ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ، جَلَسَ هكَذَا عَلَى الْبِئْرِ، وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. " (يوحنا: ٤/ ٦). واحتاج إلى حمار يركبه، فأرسل تلاميذه طالبًا منهم إحضار الحمار لأن "الرب محتاج إليه" (مرقس ١١/ ٣).

(١١) **المسيح** عليه السلام **ينام**: " وكان هو في المؤخر على وسادة نائمًا. فأيقظوه وقالوا له: يا معلم أما يهمك أننا نهلك؟ " (مرقس: ٤/ ٣). والنوم من أحوال، وعوارض البشرية " وكان هو نائما" (متى ٢٤/ ٨).

(١٢) **المسيح** عليه السلام **يكثر الأكل والشرب**: " جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، فَتَقُولُونَ: هُوَذَا إِنْسَانٌ أَكُولٌ وَشِرِّيبُ خَمْرٍ، مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ. " (لوقا: ٧/ ٣٤).

(١٣) **المسيح** عليه السلام **يبكي**: " قَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ، تَعَالَ وَانْظُرْ». [٣٥] بَكَى يَسُوعُ. [٣٦] فَقَالَ الْيَهُودُ: «انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ!» " يوحنا: ١١/ ٣٤ ـ ٣٦. واكتئب المسيح عليه السلام لما أصابه "وابتدأ يدهش ويكتئب" (مرقس ١٤/ ٣٣)، وأحيانا كان يجتمع عليه الحزن والاكتئاب "وابتدأ يحزن ويكتئب" (متى ٢٦/ ٣٧).

(١٤) **المسيح** عليه السلام **يضطرب ويرتعد نفسيًا**: " فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ تَبْكِي، وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ، انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ، [٣٤] وَقَالَ: «أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ؟» " (يوحنا: ١١ / ٣٣ ـ ٣٤). " لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هذَا اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ، وَشَهِدَ وَقَالَ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي!» " (يوحنا: ١٣/ ٢١).

(١٥) و **المسيح** عليه السلام **يحزن بشدة ويكتئب حتى الموت**: " حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى

ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: «اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ». ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبْدِي، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ. فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ. اُمْكُثُوا ههُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي " (متى: ٢٦ / ٣٦ـ٣٨).

(١٦) **المسيح ﷺ يكتم حقيقة أمره في أول الدعوة:** خوفًا من شر اليهود، ويأمر أتباعه أيضًا أن لا يُظهِروا أمره، بل يكتموا إيمانهم ويكتموا المعجزات التي يرونها اتقاءً من شر اليهود، كما أن المسيح نفسه يفر من اليهود ويتوارى عن أنظارهم هربا من شرّهم:

أـ " وَلَمَّا نَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ تَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ. وَإِذَا أَبْرَصُ قَدْ جَاءَ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلًا: «يَا سَيِّدُ، إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي». فَمَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَلَمَسَهُ قَائِلًا: «أُرِيدُ، فَاطْهُرْ! ». وَلِلْوَقْتِ طَهُرَ بَرَصُهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «انْظُرْ أَنْ لاَ تَقُولَ لأَحَدٍ. بَلِ اذْهَبْ أَرِ نَفْسَكَ لِلْكَاهِنِ، وَقَدِّمِ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ مُوسَى شَهَادَةً لَهُمْ " (متى: ٨/ ١ ـ ٤)، و مثله في (مرقس: ١ / ٤٠- ٤٤).

ب ـ " وَالأَرْوَاحُ النَّجِسَةُ حِينَمَا نَظَرَتْهُ خَرَّتْ لَهُ وَصَرَخَتْ قَائِلَةً: «إِنَّكَ أَنْتَ ابْنُ اللهِ! ». وَأَوْصَاهُمْ كَثِيرًا أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ. " (مرقس: ٣ / ١١- ١٢).

ج ـ فَقَالَ (يسوع) لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ أَنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ: «مَسِيحُ اللهِ! ». فَانْتَهَرَهُمْ وَأَوْصَى أَنْ لاَ يَقُولُوا ذلِكَ لأَحَدٍ " (لوقا: ٩ / ٢٠ ـ ٢١).

د ـ " وَكَانَ يَسُوعُ يَتَرَدَّدُ بَعْدَ هذَا فِي الْجَلِيلِ، لأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي الْيَهُودِيَّةِ لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ. " (يوحنا: ٧/ ١). قلت: ومن البديهي أنه لو كان إلها؛ لما خاف من أحد ولوجَّه أبصار وأذهان اليهود بعيدًا عنه، ولما احتاج للتواري عن أنظارهم.

(١٧) **وتعرض للطم والشتم** "ولما قال هذا، لطم يسوع واحد من الخدام كان واقفا" (يوحنا ٢٢/ ١٨)، فلم يستطع أن يدفع عن نفسه إلا بالكلام، لأنه كان موثقا "قبضوا على يسوع وأوثقوه" (يوحنا ٨/ ١٢).

(١٨) **بل وتزعم الأناجيل أنه مات**، فهل الرب يموت؟ "فصرخ يسوع بصوت عظيم، وأسلم الروح" (مرقس ١٥/ ٣٧). ولا يجد الأسقف ترتليان (ق٣) ما يدفع به هذه

القاصمة إلا أن يقول: " لقد مات ابن الله! ذلك شيء غير معقول، لا لشيء، إلا لأنه مما لا يقبله العقل، وقد دفن من بين الموتى، وذلك أمر محقق، لأنه مستحيل(١)، ومع ذلك يؤمن به ترتليان والنصارى من بعده.

(١٩) **وأخيرًا**، فإن مما يؤكد بشرية المسيح ما أخبر من أنه ﷺ سيدخل الجنة التي وعدها الله عباده المؤمنين، ومنهم المسيح وتلاميذه، وأنه سيشرب في اليوم الآخر ويأكل معهم، حيث قال: "في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأعد لكم مكانًا.... حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضًا " (يوحنا ١٤/ ٢ - ٣)، وقال: " إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم، حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي" (متى ٢٦/ ٢٩). وجماع هذا كله قوله ﷺ عن نفسه: "وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله " (يوحنا ٨/ ٤٠)، أفلا نقبل شهادته ﷺ عن نفسه؟! فلو كان إلهًا لما صح منه أن يعمي علينا هذه الحقيقة بمثل هذا القول الصريح الدال على إنسانيته. وحين يصر النصارى على القول بألوهيته؛ فإنهم يضربون بعرض الحائط قول المسيح وتلاميذه، ويتنكرون بذلك لكل هذه النصوص التي لم تتحدث أبدا عن إله متجسد، ولا عن ناسوت حل به الله. وبذا يكون النصارى قد وقعوا فيما حذر منه مقدسهم بولس الذي تبرأ منهم ومن صنيعهم، حيث قال: " **لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ، بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ، وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ. ٢٢وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ، ٢٣وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللهِ الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ. ٢٤لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمْ. ٢٥الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ.** " (رومية ١/ ٢١-٢٥).

الوجه الخامس: الأدلة على بطلان ألوهية المسيح ﷺ من رسائل بولس.(٢)

---

(١) انظر: المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، عبد الكريم الخطيب، ص (٣٤٣).

(٢) **قال سعد رستم**: يرى كثير من المحققين الغربيين، الذين كتبوا عن المسيحية وعقائدها، في القرنين الأخيرين، ومثلهم كذلك عدد من الكتاب المسلمين، أن بولس ـ القديس الأكبر للنصرانية وصاحب ال ١٤

رسالة الملحقة بالأناجيل في كتاب العهد الجديد ـ هو واضع فكرة إلهية المسيح، ومبتدع عقيدة التجسد، وكنت أيضا من جملة من يعتقد أن بولس هو الذي أدخل هذه البدعة إلى النصرانية، إلى أن قيَّض الله تعالى لي اقتناء ومطالعة الترجمة العربية الحديثة للكتاب المقدس- حسب الرواية الكاثوليكية- التي نشرتها الرهبانية اليسوعية في بيروت عام ١٩٨٩، والمحلاة بالمقدمات لكل سفر، والحواشي الممتازة المتضمنة لشروح وإحالات مفيدة للغاية؛ إذ تساعد على إدراك معنى كثير من العبارات الغامضة، بالرجوع إلى ما يماثلها في المواضع الأخرى من الكتاب المقدس، فتبين لي لدى دراسة رسائل بولس والاستضاءة بتلك الحواشي، ومراجعة الترجمة الفرنسية العصرية المراجَعة المحققة للكتاب المقدس، وترجمته الإنجليزية العصرية المراجَعة المحققة أيضا، سيما للمواضع المتشابهة والحساسة في النص العربي، **تبين أن عبارات بولس التي يظن عادة أنها نص منه على تأليه المسيح، لا تخرج عن أحد ثلاثة أمور:**

١ ـ إما هي ترجمة احتمالية مرجوحة للنص اليوناني الأصلي، الذي يمكن ـ كما تشير الحواشي والترجمات المختلفة ـ أن يترجم بصورة أخرى، تبعا للتغُّير المحتمل للموضع، المشكوك به، للفاصلة أو النقطة في النص الأصلي، مما يجعل العبارة تتغير تغيرا تاما من نص على إلهية المسيح إلى كلام عن إلهية الله تعالى الآب!

٢ ـ أو هي عبارات مجازية، من الخطأ فهمها على معناها الحرفي الظاهر، وذلك بدلالة سياق الكلام، وبدلالة القرائن الأخرى، كملاحظة موارد استعمال بولس لنفس هذه الألفاظ في المواضع الأخرى من رسائله، مما يبين أن المراد الحقيقي لبولس من هذه الألفاظ هو معنى مجازي استعاري وليس المعنى الحرفي.

٣ ـ أو هي عبارة تتضمن وصف المسيح بلفظة مشتركة، مثل لفظة: " الربّ "، التي أحد معانيها هو الله، لكن لها معنى آخر هو: السيد، مع وجود قرائن تؤكد أن بولس يريد منها هذا المعنى الثاني غير التأليهي.

وبالتالي اتضح لي لدى التحقيق؛ أنه لا توجد في رسائل بولس، أي عبارة أو نص صريح قاطع في تأليهه للمسيح، بمعنى اعتباره الله تعالى نفسه الذي تجسد ونزل لعالم الدنيا، بل على العكس، نجد في رسائل بولس، نصوص واضحة ومحكمة لا تحتمل أي تأويل، تؤكد أن عقيدة الرجل كانت توحيدية محضة، حيث يؤكد على تفرّد الله تعالى (الآب) بالإلهية والربوبية والخالقية واستحقاق العبادة، وأنه وحده الإله الخالق الحكيم القدير بذاته، الذي لم يُرَ ولا يُرَى، الذي أبدع المخلوقات لوحده وأوجد جميع الكائنات بمن فيهم المسيح نفسه، الذي يعتبره بولس بكر كل خليقة، أي أول مخلوقات الله ﷻ، ويصرح بولس: **بأن الله تعالى إله المسيح وسيده.** نعم يعتقد بولس أن الله تعالى، خلق بالمسيح وفيه سائر الكائنات، أي ينظر للمسيح بمنظار اللوجوس في الفلسفة الأفلوطينية الحديثة التي ترى ـ حسب نظرية الفيض ـ أن اللوجوس (العقل الكلي) هو أول ما فاض عن المبدأ الأول (الله) وبه وفيه وجدت سائر الكائنات؛ فبولس يرى أن المسيح هو ذلك الكائن الروحي الوسيط الذي فاض عن الله وبه وفيه خلق الله سائر الكائنات، واتخذه الله ابنًا حبيبًا وجعله الواسطة بينه وبين خلقه، ثم صيره في آخر الزمن، في الميعاد المقرر أزلًا، إنسانًا بشرًا، وأرسله لخلاص بني

القسم الأول: أقاويل بولس الصريحة في نفي الاهية المسيح، وإفراد الله تعالى وحده بالألوهية.

أولًا: أقوال بولس في توحيد الذات الإلهية، وإفراد الله تعالى بالإلهية والربوبية والخالقية والقدرة المستقلة: ١ ـ يقول بولس في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (و في الطبعات البروتستانتية تسمى كورنثوس) (٨/ ٤ ـ ٦): " فَمِنْ جِهَةِ أَكْلِ مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ: نَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ وَثَنٌ فِي الْعَالَمِ، وَأَنْ لَيْسَ إِلهٌ آخَرُ إِلاَّ وَاحِدًا. ٥ لأَنَّهُ وَإِنْ وُجِدَ مَا يُسَمَّى آلِهَةً، سِوَاءٌ كَانَ فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الأَرْضِ، كَمَا يُوجَدُ آلِهَةٌ كَثِيرُونَ وَأَرْبَابٌ كَثِيرُونَ. ٦ لكِنْ لَنَا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ. ورب واحد وهو يسوع، به كل شيء وبه نحن أيضًا ".

قلت: فهذا النص صريح في انحصار الإلهية بالله الآب وحده.

٢ ـ ويقول بولس في رسالته إلى أهل أفسس (٤ / ٥ ـ ٦): " رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، ٦ إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ. "

الإنسان، بعمله التكفيري العظيم، الذي تجلى ـ حسب قول بولس ـ بآلامه وسفك دمه وموته على الصليب، تكفيرًا لخطايا البشر وفداء لهم بنفسه، فكرمه الله تعالى لأجل ذلك، ومجَّده ورفع قدره فوق كل الكائنات وأجلسه عن يمينه فوق عرشه (يتفق النصارى هنا على تنزيه الله تعالى عن حدود المكان والزمان ويفهمون هذه العبارات على نحو غير تجسيمي) وجعله شفيعا للمؤمنين وقاضيا وحاكما بينهم يوم الدين، ثم ليخضع في النهاية لأبيه الروحي وخالقه وإلهه: الله تعالى الذي هو ـ حسب تعبير بولس ـ الكل في الكل. تلك هي خلاصة عقيدة بولس في المسيح، كما تترشح من رسائله وتعاليمه، وهي عقيدة، وإن كانت لا تخلو من غلو وخلط بين الدين والفلسفة اليونانية، ومبالغة بحق المسيح لا دليل عليها في الإنجيل، إلا أنها مع ذلك حفظت الحد الفاصل بين الله تعالى (الآب) في وحدانيته وتفرده بالقدم والإلهية، وبين المسيح المخلوق والخاضع لأبيه وإلهه الله تعالى ـ على حد تعبير بولس ـ فلم تشرك المسيح مع الله في الذات واستحقاق العبادة، ولا ساوت بينه وبين الله تعالى في الإلهية ـ كما فعل ذلك للأسف دستور الإيمان النصراني الذي قرره مجمع نيقية ـ بل أبقته في دائرة الكائن المخلوق والعبد الخاضع لسلطان الله تعالى العابد له والمتبع لأمره، وبالتالي حافظت على وحدانية ذات الله تعالى.

وفيما ذكر أعلى الصفحة سنبين الشواهد على ما نقول، ثم نعقب ذلك بالرد على شبهاتهم من بعض أقوال بولس المشتبهة التي تحتاج لتوضيح.

هذا وسنعتمد في الغالب على الترجمة العربية الحديثة الكاثوليكية للرهبانية اليسوعية في بيروت للعهد الجديد.

٣ـ ويقول بولس في رسالته الأولى إلى طيموتاوس (٢ / ٥): " لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ الله وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ ". قلت: وهذه الجملة غاية في الصراحة والوضوح في إفراد الله تعالى بالألوهية ونفيها عن المسيح؛ إذ هي تؤكد أولا أن الله واحد، وأن المسيح شيء آخر، حيث هو الواسطة بين الله والناس، وبديهي أن الواسطة غير الموسوط، علاوة على تأكيده أن المسيح، ككلِّ إنسانٌ، وبهذا يتم الفصل بين الله والمسيح بكل وضوح، وتخصص الألوهية لله تعالى وحده فقط، فأنى يؤفكون! !

٤ ـ ثم يقول بولس في نفس الرسالة، بعد جملته تلك (٦ / ١٣ ـ ١٦): " وأوصيك في حضرة الله الذي يحيي كل شيء وفي حضرة يسوع المسيح الذي شهد شهادة حسنة في عهد بنطيوس بيلاطس، أن تحفظ هذه الوصية وأنت بريء من العيب واللوم إلى أن يظهر ربنا يسوع المسيح فسَيُظْهِرُه في الأوقات المحددة له:

المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب، الذي وحده له عدم الموت، ساكنًا في نور لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية، آمين. " (حسب الترجمة البروتستانتية).

ذلك السعيد القدير وحده ملك الملوك ورب الأرباب، الذي له وحده الخلود ومسكنه نور لا يقترب منه، وهو الذي لم يره إنسان ولا يستطيع أن يراه، له الإكرام والعزة الأبدية. آمين. " (حسب الترجمة الكاثوليكية للرهبانية اليسوعية).

٥ ـ وفيما يلي نص خطبة خطبها بولس في أعيان مدينة أثينا، كما جاءت في أعمال الرسل (١٧ / ٢٢ ـ ٣٢): " فَوَقَفَ بُولُسُ فِي وَسْطِ أَرِيُوسَ بَاغُوسَ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الأَثِينِوِيُّونَ! أَرَاكُمْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَأَنَّكُمْ مُتَدَيِّنُونَ كَثِيرًا، لأَنَّنِي بَيْنَمَا كُنْتُ أَجْتَازُ وَأَنْظُرُ إِلَى مَعْبُودَاتِكُمْ، وَجَدْتُ أَيضًا مَذْبَحًا مَكْتُوبًا عَلَيْهِ: «لإِلهٍ مَجْهُول». فَالَّذِي تَتَّقُونَهُ وَأَنْتُمْ تَجْهَلُونَهُ، هذَا أَنَا أُنَادِي لَكُمْ بِهِ. الإِلهُ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ وَكُلَّ مَا فِيهِ، هذَا، إِذْ هُوَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لاَ يَسْكُنُ فِي هَيَاكِلَ مَصْنُوعَةٍ بِالأَيَادِي، وَلاَ يُخْدَمُ بِأَيَادِي النَّاسِ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى شَيْءٍ، إِذْ هُوَ يُعْطِي الْجَمِيعَ

حَيَاةً وَنَفْسًا وَكُلَّ شَيْءٍ. وَصَنَعَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ، وَحَتَمَ بِالأَوْقَاتِ الْمُعَيَّنَةِ وَبِحُدُودِ مَسْكَنِهِمْ، لِكَيْ يَطْلُبُوا الله لَعَلَّهُمْ يَتَلَمَّسُونَهُ فَيَجِدُوهُ، مَعَ أَنَّهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا لَيْسَ بَعِيدًا. لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ. كَمَا قَالَ بَعْضُ شُعَرَائِكُمْ أيضًا: لأَنَّنَا أيضًا ذُرِّيَّتُهُ. فَإِذْ نَحْنُ ذُرِّيَّةُ الله، لاَ يَنْبَغِي أَنْ نَظُنَّ أَنَّ اللاَّهُوتَ شَبِيهٌ بِذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ حَجَرٍ نَقْشِ صِنَاعَةِ وَاخْتِرَاعِ إِنْسَانٍ. فَالله الآنَ يَأْمُرُ جَمِيعَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْ يَتُوبُوا، مُتَغَاضِيًا عَنْ أَزْمِنَةِ الْجَهْلِ. [٣١] لأَنَّهُ أَقَامَ يَوْمًا هُوَ فِيهِ مُزْمِعٌ أَنْ يَدِينَ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ، بِرَجُلٍ قَدْ عَيَّنَهُ، مُقَدِّمًا لِلْجَمِيعِ إِيمَانًا إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ ".

قلت: فقد تكلم كلامًا جميلًا عن الله تعالى، ولم يأت بكلمة على أن المسيح كان هو ذاك الله الذي تكلم عنه، بل على العكس، قال: إن الله أقام رجلًا (أي إنسانًا) ليدين العالم عن طريقه، وأماته ثم بعثه ليجعله عَلَمًا ودليلا على يوم القيامة، وهكذا نلاحظ التمايز والفصل التام بين الله في وحدانيته والمسيح.

القسم الثاني: أقوال بولس الواضحة في توحيد الأفعال، وفي توحيد العبودية أي صرف كل مظاهر العبادة مثل الصلاة والدعاء والشكر والحمد والثناء والاستغاثة والالتجاء لله الآب وحده دون غيره:

١ـ يقول بولس في رسالته إلى أهل فيليبي (٤ / ٦ ـ ٧): " لاَ تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى الله. [٧] وَسَلاَمُ الله الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ".

قلت: فطلب الحوائج والصلاة والدعاء والشكر يجب رفعها لله تعالى،؛ لكي ينزل الله سكينته على المؤمنين بواسطة المسيح؛ ولكي يثبت قلوبهم ـ في المصاعب ـ على الإيمان، والثقة بالمسيح ومحبته.

٢ ـ ويقول في رسالته إلى أهل أفسس (٣ / ١٤ ـ ٢٠): " بِسَبَبِ هذَا أَحْنِي رُكْبَتَيَّ لَدَى أَبِي رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، [١٥] الَّذِي مِنْهُ تُسَمَّى كُلُّ عَشِيرَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَعَلَى الأَرْضِ. [١٦] لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ، أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، [١٧] لِيَحِلَّ

الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ، [١٨] وَأَنْتُمْ مُتَأَصِّلُونَ وَمُتَأَسِّسُونَ فِي الْمَحَبَّةِ، حَتَّى تَسْتَطِيعُوا أَنْ تُدْرِكُوا مَعَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، مَا هُوَ الْعَرْضُ وَالطُّولُ وَالْعُمْقُ وَالْعُلْوُ، [١٩] وَتَعْرِفُوا مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ الْفَائِقَةَ الْمَعْرِفَةِ، لِكَيْ تَمْتَلِئُوا إِلَى كُلِّ مِلْءِ اللهِ. [٢٠] وَالْقَادِرُ أَنْ يَفْعَلَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ، بِحَسَبِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِينَا، [٢١] لَهُ الْمَجْدُ فِي الْكَنِيسَةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ إِلَى جَمِيعِ أَجْيَالِ دَهْرِ الدُّهُورِ. آمِينَ. ".

قلت: فبولس يؤكد أن الصلاة (الجثو على الركبتين)، إنما هي للآب فقط، لأنه منه وحده يستمد كل شيء، اسمه ووجوده، كما أنه بيده تعالى قلوب العباد، ومنه تعالى الثبات والتوفيق والهداية التي ينزلها على من يشاء بواسطة الملائكة والمسيح، فالمسيح هو مجرَى الفيض وواسطة المدد فحسب، لذا فالتسبيح والمجد لله تعالى المعطي والمفيض، ويا ليت النصارى يأخذون بهذا ويكفون عن عبادة المسيح، والجثو للصلبان والتماثيل!

٣ ـ ويقول في رسالته الثانية إلى أهل قورنتس (١/ ٣ ـ ٤ و٩ ـ ١٠): "تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، أبو الرأفة وإله كل عزاء، فهو الذي يعزينا في جميع شدائدنا لنستطيع، بما نتلقى نحن من عزاء من الله أن نعزي الذين هم في أية شدة كانت. . . لئلا نتكل على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات، فهو الذي أنقذنا من أمثال هذا الموت وسيُنقِذُنا منه: وعليه جَعَلْنَا رجاءَنا بأنه سينقذنا منه أيضًا. "ثم يقول في نفس الرسالة أيضًا: " وإن الذي يثبتنا وإياكم للمسيح، والذي مسحنا، هو الله، وهو الذي ختمنا بختمه وجعل في قلوبنا عربون الروح. . الشكر لله الذي يستصحبنا دائما أبدا في نصرِهِ بالمسيح وينشر بأيدينا في كل مكان شذى معرفته. . "

القسم الثالثَ: أقوال بولس الصريحة الواضحة في أن الله تعالى إلهُ المسيحِ وخالقُهُ وسيدُهُ، وأن المسيحَ عبدٌ مخلوق خاضعٌ لسلطان الله، وهذا في مسائل:

الأولى: أن المسيح عليه السلام مخلوق لله وقد جاء واضحا في رسالة بولس إلى أهل قولسي (أو كولوسي) (١/ ١٥) حيث قال يصف المسيح: "**الَّذِي هُوَ صُورَةُ** الله الذي لا يرى **بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ**. "

فها هو قد وصف المسيح بأنه " **بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ** " وهذا تصريح بأن المسيح هو باكورة

خليقة الله أي أول مخلوقات الله المتصدر لعالم الخلق، وبديهي أن المخلوق عبد لخالقه ولا يكون إلها أبدًا.

الثانية: أن الله تعالى إلهُ المسيح وقد جاء صريحًا في قول بولس في رسالته إلى أهل أفسس (١ / ١٦ ـ ١٧): " لاَ أَزَالُ شَاكِرًا لأَجْلِكُمْ، ذَاكِرًا إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِي، [١٧] كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ " قلت: فهذا بيان صريح في أن الله تعالى، أبا المجد، هو إلهُ يسوع، وبالتالي يسوع عبده، وهذا نفي قاطع لإلهية المسيح لأن الإله لا يكون له إله!

الثالثة: أن المسيح يستمد قوته من الله ويخضع في النهاية، ككل المخلوقات، لله تعالى، وقد جاء صريحًا في كلام بولس، في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (كورنثوس): (١٥ / ٢٤ ـ ٢٨): " وَبَعْدَ ذلِكَ النِّهَايَةُ، مَتَى سَلَّمَ الْمُلْكَ للهِ الآبِ، مَتَى أَبْطَلَ كُلَّ رِيَاسَةٍ وَكُلَّ سُلْطَانٍ وَكُلَّ قُوَّةٍ. لأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَمْلِكَ حَتَّى يَضَعَ جَمِيعَ الأَعْدَاءِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. آخِرُ عَدُوٍّ يُبْطَلُ هُوَ الْمَوْتُ. لأَنَّهُ أَخْضَعَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. وَلكِنْ حِينَمَا يَقُولُ: «إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُخْضِعَ» فَوَاضِحٌ أَنَّهُ غَيْرُ الَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ. وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ، فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أيضًا سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ، كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ. "

قلت: تظهر من هذا النص الحقائق التالية:

١- أن الْمُلْكَ الحقيقيَ الأصيلَ للهِ الآبِ وحدَه، وأما السلطان والْمُلْكُ الذي أوتيه المسيح، فهو من عطاء الله وموهبته، وهو أمانة لأداء رسالة محددة وفق مشيئة الله، ثم يسلم المسيح فيها بعد الأمانة لصاحبها الحقيقي.

٢- أن المسيح لم يخضِع شيئًا من قوات الشر في العالم بقوته الذاتية، بل الله تعالى هو الذي أخضعها له.

٣- أن المسيح نفسَه، بعد أن ينصره الله على قوى الشر ويجعلها تحت قدميه، سيخضع بنفسه لله؛ ليكون الله تعالى وحده الكل في الكل. ويذكرنا هذا بقوله تعالى في قرآنه المجيد:

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم: ٤٢).

وكل نقطة من هذه النقاط الثلاث تأكيد واضح على عدم إلهية المسيح.

القسم الرابع: تأكيد بولس الدائم، على الغيريّة الكاملة بين الله تعالى والمسيح عليه السلام والتعبير عنهما دائما ككائنين اثنين وشخصين منفصلين: من أوضح الأدلة على عدم اعتقاد بولس إلهية المسيح؛ ما يظهر في كل عبارة من عبارات رسائله، من فصل وتمييز واضحين بين الله، والذي يعبر عنه غالبا بالآب أو أبينا، والمسيح، الذي يعبر عنه غالبا بالرب أو ربنا، واعتبارهما شخصين اثنين وكائنين منفصلين، و الشواهد على هذا الموضوع - أعني أن الله غير المسيح وأنهما اثنين - من كلام بولس، كثيرة جدًا، مر بعضها فيما سبق، ونضيف هنا بعض الشواهد الأخرى لمزيد من التوضيح:

١ - الديباجة الدائمة التي يفتتح بها بولس رسائله فيقول: " نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ".

٢ - في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (٣ / ٢٢): " كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلِلْمَسِيحِ، وَالْمَسِيحُ للهِ "

٣ - وفي رسالته الثانية إلى أهل تسالونيقي (٢ / ١٦ - ١٧): " وَرَبُّنَا نَفْسُهُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، وَاللهُ أَبُونَا الَّذِي أَحَبَّنَا وَأَعْطَانَا عَزَاءً أَبَدِيًّا وَرَجَاءً صَالِحًا بِالنِّعْمَةِ، يُعَزِّي قُلُوبَكُمْ وَيُثَبِّتُكُمْ فِي كُلِّ كَلاَمٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ. "

٤ - وفي رسالته إلى أهل أفسس (١ / ١٩ - ٢٢) يتحدث بولس عن عمل الله الذي عمله في المسيح فيقول: " إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ، [٢١] فَوْقَ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَسِيَادَةٍ، وَكُلِّ اسْمٍ يُسَمَّى لَيْسَ فِي هذَا الدَّهْرِ فَقَطْ بَلْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا، [٢٢] وَأَخْضَعَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَإِيَّاهُ جَعَلَ رَأْسًا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ لِلْكَنِيسَةِ. "

وهذا الموضوع نفسه تكرر مرارًا في رسائل بولس. انظر على سبيل المثال: (أعمال الرسل: ١٣ / ٣٠)، ورسالته إلى (أهل رومية: ٨ / ١١ و١٠/ ٩)، ورسالته الأولى إلى (أهل تسالونيقي: ١ / ١٠)، ورسالته إلى (أهل أفسس: ١ / ٢٠) و رسالته إلى (أهل

قورنتس: ٦ / ١٤). ففي كل هذا تأكيد واضح وضوح الشمس في رابعة النهار على التمييز والفصل الكامل بين الله والمسيح وأنهما اثنان لا واحد.

القسم الخامس: بولس يصف المسيح بصفات ينفيها عن الله وينزِّه الله عنها:

١ ـ بين بولس مرارًا موت المسيح وأنه دفن وبقي في قبره ثلاثة أيام إلى أن بعثه الله تعالى حيا: انظر رسالته إلى (رومية: ٨ / ٣٤) وفيها يقول: من هو الذي يدين المسيح هو الذي مات بل بالحري قام أيضًا الذي هو أيضًا عن يمين الله الذي أيضًا يشفع فينا. وفيها أيضًا (١٤ / ٨و ٩)، " [٨]لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ. [٩]لأَنَّهُ لِهذَا مَاتَ الْمَسِيحُ وَقَامَ وَعَاشَ، لِكَيْ يَسُودَ عَلَى الأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ. " (أهل غلاطية: ٢ / ٢١)، وقد قال فيها: لست أبطل نعمة الله لأنه ان كان بالناموس بر فالمسيح إذا مات بلا سبب.

ورسالته إلى (أهل فيلبيي: ٢ / ٨). . وفيها يقول: " [٨]وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ. . . الخ ما قال بولس في هذا المعنى. هذا في حين يقول بولس واصفًا الله تبارك وتعالى: ". . . الْمُبَارَكُ الْعَزِيزُ الْوَحِيدُ: مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ، [١٦]الَّذِي وَحْدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوْتِ، سَاكِنًا فِي نُورٍ لاَ يُدْنَى مِنْهُ، الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ، الَّذِي لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ الأَبَدِيَّةُ. آمِينَ. ".

٢ـ كما ذكر بولس في رسائله مرارا أن المسيح تألم وعانى الشدائد، فعلى سبيل المثال نجده يقول في رسالته إلى أهل كولوسي (١/ ٢٤): " الَّذِي الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ، وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي لأَجْلِ جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ، "، أو يقول في رسالته الثانية إلى أهل قورنتس (١ / ٥): " لأَنَّهُ كَمَا تَكْثُرُ آلاَمُ الْمَسِيحِ فِينَا، كَذلِكَ بِالْمَسِيحِ تَكْثُرُ تَعْزِيَتُنَا أَيضًا ". هذا في حين أن بولس، لما كان يقوم بالتبشير مع برنابا، في منطقة إيقونية، وظهرت على أيديهما معجزات في مدينة لسترة حيث أقاما رجلًا مقعدًا خلقة فجعلاه يمشي ـ كما جاء في سفر أعمال الرسل ـ، وهجم وثنيو المدينة عليهما معتقدين أنهما إلهين نزلا من السماء! وأرادوا أن يقدموا لهما ذبائح! ! فصاحا (أي بولس وبرنابا) في

أولئك الوثنيين الجهلة قائلين: " ١٥«أَيُّهَا الرِّجَالُ، لِمَاذَا تَفْعَلُونَ هذَا؟ نَحْنُ أَيضًا بَشَرٌ تَحْتَ آلاَمٍ مِثْلُكُمْ، نُبَشِّرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا مِنْ هذِهِ الأَبَاطِيلِ إِلَى الإِلهِ الْحَيِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا. . . " (أعمال الرسل: ١٤ / ٨ ـ ١٥). **والآن؛ بعد أن ذكرنا النصوص الدالة على بطلان هذه العقيدة من القرآن، والسنة، والأناجيل الأربعة، ورسائل بولس؛ ننتقل إلى الأدلة التي استدل بها القوم على ألوهية المسيح، وهي في الحقيقة عبارة عن شبهات وليست أدلة، وسنسوق كل شبهة منها ونتبعها بالرد عليها.**

الوجه السادس: بطلان أدلة النصارى على ألوهية المسيح عليه السلام.

تمهيد:

وقبل أن نبدأ بمناقشة أدلة النصارى، فإنا نسجل ملاحظات هامة في هذا الباب:

١- أنه لا يوجد نص واحد في الكتاب المقدس يصرح فيه المسيح بألوهيته أو يطلب من الناس عبادته.

٢- كما لم يعبده أحد من معاصريه، ولم ينظر إليه هؤلاء إلا كمدع للنبوة، آمن به بعضهم، وكفر بنبوته الأكثرون من اليهود.

٣- لكن دعوى ألوهيته لا أساس لها في الكتاب المقدس، وفي هذا الصدد يتحدى ديدات، كبير قساوسة السويد في مناظرتها المتلفزة قائلًا: "أضع رأسي تحت مقصلة لو أطلعتموني على نص واحد قال فيه عيسى عن نفسه: أنا إله. أو قال: اعبدوني"، وهيهات أن يجدوه.

٤- أنه لم يكن أحد من تلاميذ المسيح يعتقد ألوهية المسيح، إذ لم يعبده واحد منهم، بل كلهم وجميع معاصري المسيح ما كانوا يعتقدون أكثر من نبوته، كما مر وسيأتي معنا تفصيله.

٥- ثم إن أقوى ما يتعلق به النصارى من الدليل، لا يوجد إلا في إنجيل يوحنا، ورسائل بولس، بينما تخلو الأناجيل الثلاثة من دليل واضح ينهض في إثبات ألوهية المسيح. بل إن خلو هذه الأناجيل عن الدليل المفقود هو الذي دفع يوحنا - أو كاتب يوحنا - لكتابة إنجيل عن لاهوت المسيح، فكتب ما لم يكتبه الآخرون، وجاءت كتابته مشبعة بالغموض والفلسفة الغريبة عن بيئة المسيح البسيطة التي صحبه بها العوام من أتباعه.

٦- عدم الدليل الصحيح الصريح على ألوهية المسيح، جعل النصارى يحرفون في طبعات الأناجيل الجديدة، ومن ذلك إضافتهم نص التثليث الصريح الوحيد في (يوحنا (١) ٥/ ٧). (١)

والأدلة التي يتعلق النصارى بها على ألوهية المسيح ﷺ على ستة ضروب، هي: (٢)

أولًا: نصوص نسبت إلى المسيح الألوهية والربوبية، والتي يسمونها (ألقاب الله).

ثانيًا: نصوص بنوة المسيح لله.

ثالثًا: نصوص الحلول الإلهي في المسيح.

رابعًا: نصوص نسبت صفات الله إلى المسيح.

خامسًا: نصوص نسبت أفعال الله إلى المسيح.

سادسًا: دلالة معجزات المسيح على ألوهيته.

أولًا: نصوص نسبت إلى المسيح الألوهية والربوبية

يستمسك النصارى بالألفاظ التي أطلقت على المسيح ﷺلفظ الألوهية والربوبية، ويرونها دالة على ألوهية المسيح، وفي أولها:

١- أنه سمي يسوع، وهي كلمة عبرانية أصلها: يهوه خلاص، ومعناها: الله خلاص.

٢- احتجاجهم وتمسكهم بما اعتبروه نبوءة عن المسيح في سفر إشعيا " لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا" (إشعيا ٩/ ٦).

٣- كذا يستمسكون بقول داود في وصفه للقادم المبشر به بالنبوات أنه ربه أو سيده: " قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: «اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ». يُرْسِلُ الرَّبُّ قَضِيبَ عِزِّكَ مِنْ صِهْيَوْنَ. تَسَلَّطْ فِي وَسَطِ أَعْدَائِكَ. شَعْبُكَ مُنْتَدَبٌ فِي يَوْمِ قُوَّتِكَ، فِي زِينَةٍ

---

(١) ومثله وقع التحريف في قول بولس: " عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد" (تيموثاوس (١) ٣/ ١٦) فالفقرة كما قال المحقق كريسباخ: محرفة، إذ ليس في الأصل كلمة "الله"، بل ضمير الغائب "هو" أو "الذي". أو هي بصيغة المبني للمجهول [أُظهر في الجسد] كما سبق بيانه.

(٢) نقل هذا الترتيب وكثير من كلام هذا الفصل من كتاب (الله جل جلاله واحد أو ثلاثة؟) للدكتور منقذ السقار (١٧) وما بعدها.

مُقَدَّسَةٍ مِنْ رَحِمِ الْفَجْرِ، لَكَ طَلُّ حَدَاثَتِكَ. أَقْسَمَ الرَّبُّ وَلَنْ يَنْدَمَ: «أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادَقَ " (المزمور ١١٠/ ١-٤)، فسماه داود عليه السلام ربًا. [١].

٤- كما يرى النصارى نبوءة أخرى دالة على ألوهية المسيح في قول إشعيا: " وَلكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ». " (إشعيا ٧/ ١٤)، فكلمة عمانويل تعني: الله معنا. ويرون تحقق النبوءة بالمسيح.

٥- كما بشر الملاك يوسف النجار خطيب مريم " فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ». ٢٢ وَهذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: ٢٣ «هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اللهُ مَعَنَا. " (متى ١/ ٢٣: ٢١).

فتسميته الله معنا دليل - عند النصارى - على ألوهيته.

٦- ومثله جاء في العهد الجديد قول بولس: " الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ، الْكَائِنُ عَلَى الْكُلِّ إِلهًا مُبَارَكًا إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ. " (رومية ٩/ ٥).

٧- ومثله قول توما للمسيح: "ربي وإلهي" (يوحنا ٢٠/ ٢٨).

٨- كما قال بطرس له: "حاشاك يا رب" (متى ١٦/ ٢٢)، وقال أيضًا: "هذا هو رب الكل" (أعمال ١٠/ ٣٦).

٩- وجاء في سفر الرؤيا عن المسيح: " وَلَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ " (الرؤيا ١٩/ ١٦)، وغير ذلك من النصوص مما أطلق على المسيح كلمة رب أو إله، فدل ذلك عندهم على ألوهيته وربوبيته.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إن هذه الأسماء لا تفيد ألوهية أصحابها وبيان ذلك ما يلي:

١-لأن هذه الإطلاقات ما كان لها أن تجعل من المسيح ربًا وإلهًا؛ إذ كثير منها ورد في باب التسمية، وتسمية المخلوق إلهًا لا تجعله كذلك؛ فقد سمي بولس وبرنابا آلهة لما أتيا

(١) انظر: شرح بشارة لوقا، د. إبراهيم سعيد، ص (٥٠٤).

ببعض المعجزات " فَالْجُمُوعُ لَمَّا رَأَوْا مَا فَعَلَ بُولُسُ، رَفَعُوا صَوْتَهُمْ بِلُغَةِ لِيكَأُونِيَّةَ قَائِلِينَ: «إِنَّ الآلِهَةَ تَشَبَّهُوا بِالنَّاسِ وَنَزَلُوا إِلَيْنَا" (أعمال الرسل ١٤/ ١١)، فقد كان من عادة الرومان تسمية من يفعل شيئًا فيه نفع للشعب: إلهًا، ولا تغير التسمية في الحقيقة شيئًا، ولا تجعل من المخلوق إلهًا، ولا من العبد الفاني ربًا وإلهًا.

٢- وقد سمي إسماعيل بهذا الاسم العبراني، ومعناه: "الله يسمع"، ومثله يهوياقيم أي: "الله يرفع"، ويهوشع "الرب خلص"، وغيرهم ... ولم تقتض أسماؤهم ألوهيتهم.

٣- وجاء في سفر الرؤيا: " مَنْ يَغْلِبُ فَسَأَجْعَلُهُ عَمُودًا فِي هَيْكَلِ إِلهِي، وَلاَ يَعُودُ يَخْرُجُ إِلَى خَارِجٍ، وَأَكْتُبُ عَلَيْهِ اسْمَ إِلهِي، وَاسْمَ مَدِينَةِ إِلهِي، أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ إِلهِي، وَاسْمِي الْجَدِيدَ. " (الرؤيا ٣/ ١٢).

٤- وجاء في التوراة: " فَيَجْعَلُونَ اسْمِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ" (العدد ٦/ ٢٧)، ومع ذلك فليسوا آلهة.[١]

الوجه الثاني: هل سمي المسيح الرب والإله؟ وعلى فرض صدور التسمية، فهي لا تعني إلهًا معبودًا، وإنما تعني السيد المعلم:

فكلمة "الرب" التي ترد كثيرًا في التراجم العربية كلقب للمسيح هي في التراجم الأجنبية بمعنى: "السيد" أو "المعلم"، فالمقابل لها في الترجمة الإنجليزية هو كلمةlordومعناها: السيد، وفي الترجمة الفرنسية: monsier "، ومعناها: المعلم، وهكذا في سائر التراجم كالألمانية، والإيطالية، والأسبانية.

وما أتت به الترجمة العربية ليس بجديد، بل هو متفق مع طبيعة اللغة التي نطق بها المسيح ومعاصروه، فكلمة: "رب" عندهم تطلق على المعلم، وتفيد نوعًا من الاحترام والتقدير.

١- ففي إنجيل يوحنا أن المسيح كان يخاطبه تلاميذه: يا رب، ومقصودهم: يا معلم، فها هي مريم المجدلية" فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي! » الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ" وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب" (يوحنا ٢٠/ ١٦-١٧).

---

(١) وانظر دعوة الحق بين المسيحية والإسلام ١/ ٤٨٤.

٢- وخاطبه اثنان من تلاميذه: "رب الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ " (يوحنا ١/ ٣٨). ولم يخطر ببال أحد من التلاميذ المعنى الاصطلاحي لكلمة الرب حين أطلقوها على المسيح، فقد كانوا يريدون: المعلم والسيد، ولذلك شبهوه بيوحنا المعمدان حين قالوا له: " يَارَبُّ، عَلِّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ كَمَا عَلَّمَ يُوحَنَّا أيضًا تَلاَمِيذَهُ" (لوقا ١١/ ١).

٣- واستعمال لفظة الرب بمعنى: السيد، شائع في اللغة اليونانية، يقول ستيفن نيل: "إن الكلمة اليونانية الأصلية التي معناها: "رب" يمكن استعمالها كصيغة للتأدب في المخاطبة، فسجان فلبي يخاطب بولس وسيلة بكلمة: "سيدي" أو "رب"، يقول سفر الأعمال: " ثُمَّ أَخْرَجَهُمَا وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ، مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ أَفْعَلَ لِكَيْ أَخْلُصَ؟ » فَقَالاَ: «آمِنْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَتَخْلُصَ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ " (أعمال الرسل ١٦/ ٣٠). . . وكانت اللفظة لقبًا من ألقاب الكرامة. . . ".

٤- ومما يؤكد صحة هذا التأويل قول بولس، وهو يصف المسيح بالرب، ولا يمنعه ذلك أن يجعله عبدا لله " كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ " (أفسس ١/ ١٧).

٥- وأما قول توما للمسيح "ربي وإلهي" فهو لم يقع منه في مقام الخطاب للمسيح، بل لما رأى المسيح حيًا، وقد كان يظنه ميتا استغرب ذلك، فقال متعجبا: "ربي وإلهي" (يوحنا ٢٠/ ٢٨)، ومما يؤكد صحة هذا الفهم أن المسيح أخبر في نفس السياق بأنه سيصعد إلى إلهه. (انظر يوحنا ٢٠/ ١٧)، وعليه فالألوهية هنا لو أريد بها المسيح فهي مجازية غير حقيقية. وقد يشكل على البعض في قوله: " **أَجَابَ تُومَا وَقَالَ لَهُ:** «**رَبِّي وَإِلهِي!** ». " (يوحنا ٢٠/ ٢٨)، فيرى أن هذه الصيغة لم ترد في باب الاستغراب، بل في باب الخطاب المباشر للمسيح بلقب الألوهية، والحق أن (له) في النص إنما هي بمعنى لأجله أو لأجل ما رأى منه، ولها مثيل في الكتاب، في سفر صموئيل، حيث دعا النبي يوناثان الله من أجل داود، فيما يفهم من ظاهر السياق أن الحديث موجه إليه، وهو في الحقيقة دعاء لله من أجل داود،

يقول سفر صموئيل: " وَقَالَ يُونَاثَانُ لِدَاوُدَ: «يَا رَبُّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ، مَتَى اخْتَبَرْتُ أَبِي مِثْلَ الآنَ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ، فَإِنْ كَانَ خَيْرٌ لِدَاوُدَ وَلَمْ أُرْسِلْ حِينَئِذٍ فَأُخْبِرَهُ " (صموئيل الأول ٢٠/ ١٢)، فهو نداء لله، والسياق يقول: "وقال يوناثان لداود "، أي لأجله.

ثم لو فهم المسيح من كلام توما أنه أراد ألوهيته لما سكت عليه السلام، فقد رفض عليه السلام حتى أن يدعى صالحا، إذ لما ناداه بعض تلاميذه: " أيها المعلم الصالح. . . لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. " (متى ١٩/ ١٧) فكيف يقبل أن يدعى ربا وإلها على الحقيقة؟.

٦- وبخصوص الاستدلال بالمزمور " قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: «اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ " (المزمور ١١٠/ ١)، فهو لا يُراد به المسيح بحال من الأحوال، بل المراد منه المسيح المنتظر، الذي وعد به بنو إسرائيل، وهو محمد ﷺ. وقد أخطأ بطرس حين فهم أن النص يراد به المسيح، فقال: " لأَنَّ دَاوُدَ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاوَاتِ. وَهُوَ نَفْسُهُ يَقُولُ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي ٣٥ حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. ٣٦ فَلْيَعْلَمْ يَقِينًا جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هذَا، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ، رَبًّا وَمَسِيحًا. فَلَمَّا سَمِعُوا نُخِسُوا فِي قُلُوبِهِمْ" (أعمال الرسل٢/ ٣٤-٣٧). ودليل الخطأ في فهم بطرس، وكذا فهم النصارى؛ أن المسيح أنكر أن يكون هو المسيح الموعود على لسان داود، " وَفِيمَا كَانَ الْفَرِّيسِيُّونَ مُجْتَمِعِينَ سَأَلَهُمْ يَسُوعُ ٤٢ قَائِلاً: «مَاذَا تَظُنُّونَ فِي الْمَسِيحِ؟ ابْنُ مَنْ هُوَ؟ » قَالُوا لَهُ: «ابْنُ دَاوُدَ». ٤٣ قَالَ لَهُمْ: «فَكَيْفَ يَدْعُوهُ دَاوُدُ بِالرُّوحِ رَبًّا؟ قَائِلًا: ٤٤ قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. ٤٥ فَإِنْ كَانَ دَاوُدُ يَدْعُوهُ رَبًّا، فَكَيْفَ يَكُونُ ابْنَهُ؟ » ٤٦ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يُجِيبَهُ بِكَلِمَةٍ. وَمِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ لَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ أَنْ يَسْأَلَهُ بَتَّةً. " (متى ٢٢/ ٤١-٤٦). فالمسيح سأل اليهود عن المسيح المنتظر الذي بشر به داود وغيره من الأنبياء، "ماذا تظنون في المسيح، ابن من هو؟ " فأجابوه: "ابن داود"، فخطأهم، وقال: " فإن كان داود يدعوه ربا فكيف يكون ابنه! ".

٧- وفي مرقس: " كَيْفَ يَقُولُ الْكَتَبَةُ إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ دَاوُدَ؟ ٣٦ لأَنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِالرُّوحِ

الْقُدُسِ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي، حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. [٣٧] فَدَاوُدُ نَفْسُهُ يَدْعُوهُ رَبًّا. فَمِنْ أَيْنَ هُوَ ابْنُهُ؟ " (مرقس ١٢/ ٣٧). وهو ما ذكره لوقا أيضًا " وَقَالَ لَهُمْ: «كَيْفَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ دَاوُدَ؟ [٤٢] وَدَاوُدُ نَفْسُهُ يَقُولُ فِي كِتَابِ الْمَزَامِيرِ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي [٤٣] حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. [٤٤] فَإِذًا دَاوُدُ يَدْعُوهُ رَبًّا. فَكَيْفَ يَكُونُ ابْنَهُ؟ " (لوقا ٢٠/ ٤٠-٤٤)، فالمبشر به ليس من ذرية داود الذي سماه ربًا له أو سيدًا، فيما لا يختلف النصارى في أن المسيح كان من ذرية داود كما جاء في نسبيه في متى ولوقا.

٨- وأما ما جاء في إشعيا من التنبؤ بقدوم عمانوئيل، فهي ليست عن المسيح، الذي لم يتسم بهذا الاسم أبدًا، ولم يناد به إطلاقًا. والقصة في سفر إشعيا تتحدث عن قصة قد حصلت قبل المسيح بقرون، حين تآمر " راصين " ملك أدوم مع ملك مملكة إسرائيل الشمالية " فقح بن رمليا " على مملكة يهوذا الجنوبية وملكها آحاز، وقد جعل الله من ميلاد الطفل عمانوئيل علامة على زوال الشر عن مملكة يهوذا، وإيذانا بخراب مملكة راصين وفقح على يد الآشوريين، وموت الملكين المتآمرين، يقول إشعيا: " ثم عاد الرب فكلم آحاز قائلا:. . ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابنا، وتدعو اسمه عمانوئيل. زبدا وعسلا يأكل.

متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير، لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير، تخلى الأرض التي أنت خاش من ملكيها (راصين وفقح)، يجلب الرب عليك وعلى شعبك وعلى بيت أبيك أياما لم تأت منذ يوم اعتزال أفرايم عن يهوذا أي ملك أشور.

ويكون في ذلك اليوم أن الرب يصفر للذباب الذي في أقصى ترع مصر وللنحل الذي في أرض أشور. . . لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يدعو: يا أبي ويا أمي تحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قدام ملك أشور" (إشعياء ٧/ ١- ٨/ ٤)، فالنص يتعلق بأحداث حصلت قبل المسيح بقرون، وذلك إبان الغزو الآشوري لفلسطين. وهذا النص الذي ذكره لوقا، وكذا النص الذي في إشعيا، قد تم تحريفهما عن الأصل ليصبحا نبوءة عن

المسيح وأمه العذراء، وكانت الترجمات القديمة للتوراة مثل ترجمة أيكوئلا، وترجمة تهيودوشن، وترجمة سميكس والتي تعود للقرن الثاني الميلادي، قد وضعت بدلا من العذراء: المرأة الشابة، وهو يشمل المرأة العذراء وغيرها، وذلك أن اللفظ المستخدم بالعبرانية هو (علما)، بمعنى: الصبية أو الشابة، وليس (بتولا)، التي تعني: العذراء.

ويذكر العلامة أحمد ديدات أن النسخة المنقحة (R. S. V) والصادرة عام ١٩٥٢م قد استبدلت كلمة العذراء في إشعيا بـ " الصبية "، ولكن هذا التنقيح لا يسري سوى على الترجمة الإنجليزية.[١]

٩- وبخصوص نبوءة النبي إشعيا " لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلاَمِ. ٧لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ، وَلِلسَّلاَمِ لاَ نِهَايَةَ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الآنَ إِلَى الأَبَدِ. " (إشعيا ٩/ ٦)، فإن أيًا من هذه الأسماء لم يتسم به المسيح عليه السلام وبيان ذلك فيما يلي:

أ- أين سمي عجيبًا أو مشيرًا أو قديرًا أو أبًا أو رئيس السلام؟ فليس في الكتاب المقدس نص يذكر أنه سمي بأي من هذه الأسماء.

ب- فإن قالوا: المراد أن هذه صفات هذا الابن الموعود، فهي أيضًا لا تنطبق على المسيح بحال، فهي تتحدث عن نبي غالب منتصر يملك على قومه، ويكون وارثًا لملك داود، وكل هذا ممتنع في حق المسيح، ممتنع بدليل الواقع والنصوص.

فالمسيح عليه السلام لم يملك على قومه يومًا واحدًا، بل كان فارًا من بني إسرائيل، خائفا من بطشهم، كما هرب من قومه حين أرادوه أن يملك عليهم. " وَأَمَّا يَسُوعُ فَإِذْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ يَأْتُوا وَيَخْتَطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكًا، انْصَرَفَ أيضًا إِلَى الْجَبَلِ وَحْدَهُ. " (يوحنا ٦/ ١٥).

لقد هرب منهم، وذلك لأن مملكته ليست دنيوية زمانية، ليست على كرسي داود، بل هي مملكة روحية في الآخرة " أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلمة الله؟ أحمد ديدات، ص (٢٤-٢٥).

مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا " (يوحنا ١٨/ ٣٦).

ج- كما أن إشعيا يتحدث عن رئيس السلام، وهو لا ينطبق على الذي نسبت إليه الأناجيل أنه قال: " لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. [٣٥]فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. [٣٦]وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. " (متى ١٠/ ٣٤ - ٣٦)، فهل يسمى المسيح الإنجيلي بعد ذلك رئيس السلام؟

د- ثم إن إشعيا يتحدث عن شخص قدير، وليس عن بشر محدود لا يقدر أن يصنع من نفسه شيئا كما قال عن نفسه: " أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ " (يوحنا ٥/ ٣٠)، وفي نص آخر يقول لليهود: " الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَقْدِرُ الابْنُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا إِلاَّ مَا يَنْظُرُ الآبَ يَعْمَلُ. لأَنْ مَهْمَا عَمِلَ ذَاكَ فَهذَا يَعْمَلُهُ الابْنُ كَذلِكَ. " (يوحنا ٥/ ١٩).

هـ- ثم إن الكتاب المقدس يمنع أن يكون المسيح ملكًا على بني إسرائيل، فقد حرم الله الملك على ذرية الملك الفاسق يهوياقيم بن يوشيا أحد أجداد المسيح، فقد ملك على مملكة يهوذا، فأفسد، فقال الله فيه: " هكَذَا قَالَ الرَّبُّ عَنْ يَهُويَاقِيمَ مَلِكِ يَهُوذَا: لاَ يَكُونُ لَهُ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ، وَتَكُونُ جُثَّتُهُ مَطْرُوحَةً لِلْحَرِّ نَهَارًا، وَلِلْبَرْدِ لَيْلًا. وَأُعَاقِبُهُ وَنَسْلَهُ وَعَبِيدَهُ عَلَى إِثْمِهِمْ، " (إرميا ٣٦/ ٣٠ - ٣١).

والمسيح - حسب الأناجيل - من ذرية هذا الملك الفاسق، يقول متى في سياق نسب المسيح: " وَآمُونُ وَلَدَ يُوشِيَّا. وَيُوشِيَّا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. " (متى ١/ ١٠-١١)، وقد أسقط متعمدًا اسم يهوياقيم، فذكر أباه يوشيا، وابنه يكينيا. وبيان ذلك في سفر الأيام الأول " وَبَنُو يُوشِيَّا: الْبِكْرُ يُوحَانَانُ، الثَّانِي يَهُويَاقِيمُ، الثَّالِثُ صِدْقِيَّا، الرَّابعُ شَلُّومُ. وَابْنَا يَهُويَاقِيمَ: يَكُنْيَا ابْنُهُ وَصِدْقِيَّا ابْنُهُ. " (الأيام (١) ٣/ ١٤-١٥)، فيهوياقيم أحد أجداد المسيح، وهذا يمنع تحقق نبوءة إشعيا في المسيح، فالملك القادم لن يكون من ذرية المحروم يهوياقيم.

الوجه الثالث: إطلاقات لفظ الألوهية والربوبية في الكتاب المقدس لا يدل على ألوهية المسيح لأنها أطلقت على غيره من المخلوقات وإليك البيان.

أ- **إطلاقها على الملائكة** فقد جاء في سفر القضاة، وهو يحكي عن ظهور ملاك الرب لمنوح وزوجه: " وَلَمْ يَعُدْ مَلاَكُ الرَّبِّ يَتَرَاءَى لِمَنُوحَ وَامْرَأَتِهِ. حِينَئِذٍ عَرَفَ مَنُوحُ أَنَّهُ مَلاَكُ الرَّبِّ. ٢٢ فَقَالَ مَنُوحُ لاِمْرَأَتِهِ: «نَمُوتُ مَوْتًا لأَنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا الله " (القضاة ١٣/ ٢١-٢٢)، ومراده ملاك الله. وظهر ملاك الله لسارة وبشرها بإسحاق " وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ. ١٢ وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ " (التكوين ١٦/ ١١-١٣) فأطلقت على الملاك اسم الرب.

ومثله تسمية الملاك الذي صحب بني إسرائيل في رحلة الخروج بالرب "وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلًا في عمود نار ليضيء لهم. . . فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهم " (الخروج ١٣/ ٢١-١٤/ ١٩)، فسمى الملاك ربًا.

ب ـ **ومن ذلك إطلاق كلمة الرب على الأنبياء**، من غير إرادة معناها الحقيقي، فقد قال الله لموسى عن هارون: " وَهُوَ يَكُونُ لَكَ فَمًا، وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ إِلهًا. " (الخروج ٤/ ١٦). ومثله في قول الله لموسى: " فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. " (الخروج ٧/ ١) أي: مسلطا عليه. وقد عهد تسمية الأنبياء (الله) مجازًا أي رسل الله، فقد " كَانَ يَقُولُ الرَّجُلُ عِنْدَ ذَهَابِهِ لِيَسْأَلَ الله: «هَلُمَّ نَذْهَبْ إِلَى الرَّائِي». لأَنَّ النَّبِيَّ الْيَوْمَ كَانَ يُدْعَى سَابِقًا الرَّائِيَ. " (صموئيل (١) ٩/ ٩).

ج ـ **وأطلقت لفظة "الله" وأريد منها القضاة**، لأنهم يحكمون بشرع الله، ففي سفر الخروج "إن قال العبد. . يقدمه سيده إلى الله، ويقربه إلى الباب. . . " (الخروج ٢٠/ ٥-٦). وفي السفر الذي يليه: "وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه. . . فالذي يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه" (الخروج ٢٢/ ٨-٩). وفي سفر التثنية " يقف الرجلان اللذان بينهما الخصومة أمام الرب أمام الكهنة" (التثنية ١٩/ ١٧).

ومثله " اللهُ قَائِمٌ فِي مَجْمَعِ اللهِ. فِي وَسْطِ الآلِهَةِ يَقْضِي: ٢ «حَتَّى مَتَى تَقْضُونَ جَوْرًا وَتَرْفَعُونَ وُجُوهَ الأَشْرَارِ؟ " (المزمور ٨٢/ ٢: ١)، والحديث كما هو ظاهر من السياق عن أشراف بني إسرائيل وقضاتهم. بل يمتد هذا الإطلاق ليشمل كل بني إسرائيل كما في قول داود في مزاميره: " أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ. ٧ لكِنْ مِثْلَ النَّاسِ تَمُوتُونَ " (المزمور ٨٢/ ٦)، وهذا الذي استشهد به عيسى عليه السلام عندما قال: " أَلَيْسَ مَكْتُوبًا فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ ٣٥ إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ الْمَكْتُوبُ، ٣٦ فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟ " (يوحنا ١٠/ ٣٦: ٣٤).

هـ- **وأطلقت على الشياطين، والآلهة الباطلة للأمم**، فقد سمى بولس الشيطان إلهًا، كما سمى البطن إلها، وأراد المعنى المجازي، فقال عن الشيطان: "إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح" (كورنثوس (٢) ٤/ ٥)، وقال عن الذين يتبعون شهواتهم ونزواتهم: "الذين إلههم بطنهم، ومجدهم في خزيهم. . " (فيلبي ٣/ ١٩). ومثله ما جاء في المزامير " لأَنِّي أَنَا قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّبَّ عَظِيمٌ، وَرَبَّنَا فَوْقَ جَمِيعِ الآلِهَةِ. " (المزمور ١٣٥/ ٥)، وألوهية البطن وسواها ألوهية مجازية غير حقيقية.

وجاء في " شرح أصول الإيمان ": " موسى تسمى (إلهًا) من الله ذاته، دلالة على نيابته عن الباري لدى فرعون، وليس لكونه اتصف بصفات إلهية، وكذلك القضاة تسموا (آلهة) لكونهم ينفذون مقاصد الله، وأما الأصنام والبطن والمال، فقد سميت بذلك لاتخاذ بعض الناس إياها آلهة، والشيطان تسمى (إلها) لتسلطه على العالم الحاضر "[1]

١١- كما أن المسيح عليه السلام وهو يسمع بمثل هذه الاستعارات والآلهة المجازية أوضح بأن ثمة إلهًا حقيقيًا واحدًا، هو الله، فقال: " وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. " (يوحنا ١٧/ ٣)، وهي ما تعني بوضوح

---

(١) شرح أصول الإيمان، الدكتور القس أندرواس واطسون، والدكتور إبراهيم سعيد، ص (٤٤).

أن الجنة وحياتها الأبدية لا تنال إلا بالشهادة لله بالتوحيد، ولنبيه وصفيه المسيح عليه السلام بالرسالة، وهو ما يعتقده المسلمون فيه عليه السلام.

فهذه لغة الكتاب المقدس في التعبير، والتي يخطئ من يصر على فهم ألفاظها حرفيًا كما يخطئ أولئك الذين يفرقون بين المتشابهات، فألوهية هؤلاء جميعا مجازية، وكذا ألوهية المسيح، سواء بسواء. [(١)]

ثانيًا: نصوص بنوة المسيح لله

وتتحدث نصوص إنجيلية عن المسيح عليه السلام، وتذكر أنه ابن الله، ويراها النصارى أدلة صريحة على ألوهية المسيح، فهل يصح هذا الاستدلال منهم؟ وما هو معنى البنوة لله؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: معنى البنوة الصحيح.

١- إن المعنى المقصود للبنوة في كل ما قيل عن المسيح عليه السلام وغيره إنما هو معنى مجازي بمعنى حبيب الله أو مطيع الله، أو المؤمن بالله. لذلك قال مرقس وهو يحكي عبارة قائد المائة الذي شاهد المصلوب وهو يموت فقال: "حقًا كان هذا الإنسان ابن الله " (مرقس ١٥/ ٣٩). ولما حكى لوقا القصة نفسها أبدل العبارة بمرادفها فقال: "بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًا" (لوقا ٢٣/ ٤٧).

٢- ومثل هذا الاستخدام وقع من يوحنا حين تحدث عن أولاد الله المؤمنين، فقال: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله. أي المؤمنين باسمه" ٣- (يوحنا ١/ ١٢)، ونحوه في قول بولس: "كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله" (غلاطية ٨/ ١٤).

٤- ومثل هذا الإطلاق المجازي للبنوة معهود في الكتب المقدسة التي تحدثت عن أبناء الشيطان، وأبناء الدهر (الدنيا) (انظر يوحنا ٨/ ٤٤، لوقا ١٦/ ٨).

---

(١) وفي كتاب "مرشد الطالبين": وأما اصطلاح الكتاب المقدس؛ فإنه ذو استعارات وافرة غامضة خاصة العهد العتيق. واصطلاح العهد الجديد أيضا هو استعاري جدا، وخاصة مسامرات مخلصنا، وقد اشتهرت آراء كثيرة فاسدة لكون بعض معلمي النصارى شرحوها شرحا حرفيا. . ." وانظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٣/ ٧٠٢).

وأما المعنى الحقيقي للبنوة فقد نطقت به الشياطين، فانتهرها المسيح، ففي إنجيل لوقا " وَكَانَتْ شَيَاطِينُ أيضًا تَخْرُجُ مِنْ كَثِيرِينَ وَهِيَ تَصْرُخُ وَتَقُولُ: «أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ!» فَانْتَهَرَهُمْ وَلَمْ يَدَعْهُمْ يَتَكَلَّمُونَ، لأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ أَنَّهُ الْمَسِيحُ. " (لوقا ٤/ ٤١)، فهو المسيح فحسب، وليس ابن الله على الحقيقة.

٥- وبناء على هذا المعنى يرى البعض أن المقصود في العهد القديم والجديد بابن الله هو محمد ﷺ وهي كلها بشارات بالنبي ﷺ وببعثته ولكن اليهود ومن بعدهم النصارى قاموا بعمليات تحريف في كتابهم حتى يصرفوا هذه البشارات عن النبي ﷺ وحتى يجعلوها في ولد إسحاق لافي ولد إسماعيل[1].

الوجه الثاني: هل سمى المسيح نفسه ابن الله؟

أول ما يلفت المحققون النظر إليه أنه لم يرد عن المسيح عليه السلام في الأناجيل- تسميته لنفسه بابن الله سوى مرة واحدة في يوحنا (١٠/ ٣٦)، وفيما سوى ذلك فإن الأناجيل تذكر أن معاصريه، وتلاميذه كانوا يقولون بأنه ابن الله.

لذا فإن المحققين يشككون في صدور هذه الكلمات من المسيح عليه السلام أو تلاميذه، يقول سنجر في كتابه "قاموس الإنجيل": ليس من المتيقن أن عيسى نفسه قد استخدم ذلك التعبير". ويقول شارل جنيبر: " والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين، هي: أن المسيح لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه إنه ابن الله. . . فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية". [2]

وقد قال العالم كولمن بخصوص هذا اللقب: "إن الحواريين الذين تحدث عنهم أعمال الرسل تأسوا بمعلمهم الذي تحفظ على استخدام هذا اللقب ولم يرغب به، فاستنوا بسنته".

ويرى جنيبر أن المفهوم الخاطئ وصل إلى الإنجيل عبر الفهم غير الدقيق من المتنصرين الوثنيين فيقول: "مفهوم "ابن الله" نبع من عالم الفكر اليوناني".

---

(١) وانظر: في هذا كتاب أقانيم النصارى الثلاثة لأحمد حجازى السقا من ٥٥-٧٤.

(٢) انظر: المسيحية، نشأتها وتطورها صـ (٥٠).

ويرى القس السابق سليمان مفسر - ويوافقه الدكتور شارل جنيبر - أن بولس هو أول من استعمل الكلمة، وكانت حسب لغة المسيح (عبد الله) وترجمتها اليونانية servant، فأبدلها بالكلمة اليونانية pais بمعنى طفل أو خادم تقربا إلى المتنصرين الجدد من الوثنيين[1].

الوجه الثالث: هذه النصوص مقابلة بنصوص أخرى تصف المسيح بأنه ابن الإنسان

ثم هذه النصوص التي تصف المسيح عليه السلام أنه ابن الله معارضة بثلاثة وثمانين نصًا من النصوص التي أطلقت على المسيح لقب " ابن الإنسان "، فلئن كانت تلك التي أسمته ابن الله دالة على ألوهيته فإن هذه مؤكدة لبشريته، صارفة تلك الأخرى إلى المعنى المجازي، ومنها ما يلي:

١ـ **قول متى**: " فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ، وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ " (متى ٨/ ٢٠)، وأيضًا قوله: " إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ، " (مرقس ١٤/ ٢١).

٢ـ **وقد جاء في التوراة**: "ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم" (العدد ٢٣/ ٩). فالمسيح ليس الله.

٣ـ **وقال متى** (٩/ ٨: ٢) "وَإِذَا مَفْلُوجٌ يُقَدِّمُونَهُ إِلَيْهِ مَطْرُوحًا عَلَى فِرَاشٍ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». وَإِذَا قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ قَدْ قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: «هذَا يُجَدِّفُ! » فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، فَقَالَ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَامْشِ؟ وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا». حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ! » فَقَامَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ. فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا اللهَ الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا".

٤ـ **وفي متى أيضًا قول عيسى لحوارييه**: (١٠/ ٢٣: ١٦) "هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ كَغَنَمٍ فِي وَسْطِ

(١) انظر: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي صـ (٢٦٣-٢٦٤)، عيسى رسول الإسلام، سليمان مفسر، ص (٤٤-٤٧)، المسيحية، نشأتها وتطورها، ص (٥٠).

ذِئَابٍ، فَكُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ. وَلكِنِ احْذَرُوا مِنَ النَّاسِ، لأَنَّهُمْ سَيُسْلِمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ، وَفِي مَجَامِعِهِمْ يَجْلِدُونَكُمْ. وَتُسَاقُونَ أَمَامَ وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِي شَهَادَةً لَهُمْ وَلِلأُمَمِ. فَمَتَى أَسْلَمُوكُمْ فَلاَ تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ، لأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ، لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ. وَسَيُسْلِمُ الأَخُ أَخَاهُ إِلَى الْمَوْتِ، وَالأَبُ وَلَدَهُ، وَيَقُومُ الأَوْلاَدُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ، وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ الْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي. وَلكِنِ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهذَا يَخْلُصُ. وَمَتَى طَرَدُوكُمْ فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ فَاهْرُبُوا إِلَى الأُخْرَى. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَانِ "

٥- **قال متى كذلك:** (١١/ ١٩: ١٨) " لأَنَّهُ جَاءَ يُوحَنَّا لاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ، فَيَقُولُونَ: فِيهِ شَيْطَانٌ. جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، فَيَقُولُونَ: هُوَذَا إِنْسَانٌ أَكُولٌ وَشِرِّيبُ خَمْرٍ، مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ. وَالْحِكْمَةُ تَبَرَّرَتْ مِنْ بَنِيهَا".

٦- **متى** (١٢: ٨) " فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضًا".

٧- **متى** (١٢: ٣٢) " وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي هذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي".

٨- **متى** (١٦/ ٢٤: ١٣): " وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى نَوَاحِي قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قِائِلاً: «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟ » فَقَالُوا: «قَوْمٌ: يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ، وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا، وَآخَرُونَ: إِرْمِيَا أَوْ وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ». قَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ! ». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاوَاتِ». حِينَئِذٍ أَوْصَى تَلاَمِيذَهُ أَنْ لاَ يَقُولُوا لأَحَدٍ إِنَّهُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ. مِنْ ذلِكَ الْوَقْتِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يُظْهِرُ لِتَلاَمِيذِهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَأَلَّمَ

كَثِيرًا مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومَ. فَأَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَابْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ قَائِلًا: «حَاشَاكَ يَارَبُّ! لاَ يَكُونُ لَكَ هذَا! » فَالْتَفَتَ وَقَالَ لِبُطْرُسَ: «اذْهَبْ عَنِّي يَاشَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا للهِ لكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ». حِينَئِذٍ قَالَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ: «إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي ".

وفي هذا النص أن الذي وصفه بأنه ابن الله هو بطرس مخالفًا بذلك أصحابه ثم وصفه عيسى في آخر النص بأن شيطان وفي نفس السياق والقصة صرح المسيح بأنه ابن الإنسان كما في:

٩ـ متى (١٦/٢٨: ٢٧) " فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ سَوْفَ يَأْتِي فِي مَجْدِ أَبِيهِ مَعَ مَلاَئِكَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ عَمَلِهِ. [٢٨] اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ ههُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوُا ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي مَلَكُوتِهِ"

١٠ـ متى (١٨ : ١١) " لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ قَدْ جَاءَ لِكَيْ يُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ".

١١ـ متى (٢٠: ٢٨) " كَمَا أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ ".

١٢ـ متى (٢٦: ٢) " تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ يَكُونُ الْفِصْحُ، وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ لِيُصْلَبَ".

١٣ـ متى (٢٦: ٤٥) " ثُمَّ جَاءَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! هُوَذَا السَّاعَةُ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ".

الوجه الرابع: لقد ذكر الكتاب المقدس أبناء كُثر لله، فهل هم أيضًا آلهة؟

ولفظ البنوة الذي أطلق على المسيح أطلق على كثيرين غيره، ولم يقتض ذلك ألوهيتهم، بل حملت بنوتهم على المعنى المجازي، أي المؤمنين والصالحين، منهم:

١ – آدم الذي قيل فيه: "آدم ابن الله" (لوقا ٣/ ٣٨).

٢– ومثله قوله لداود: " أنت ابني، أنا اليوم ولدتك " (المزمور ٢/ ٧).

٣– وسليمان أيضًا قيل أنه ابن الله، فقد جاء في سفر الأيام عنه: "هو يبني لي بيتًا ...أنا أكون له أبًا، وهو يكون لي ابنًا" (الأيام (١) ١٧/ ١٢-١٣).

٤– كما سمى لوقا الملائكة أبناء الله لشيوع مثل هذه الاستخدام في الصدر الأول

للمسيحية "مثل الملائكة وهم أبناء الله " (لوقا ٢٠/ ٣٦).

٥- وسمت النصوص أيضًا آخرين أبناء الله، أو ذكرت أن الله أبوهم، ومع ذلك لا يقول النصارى بألوهيتهم. فالحواريون أبناء الله، كما قال المسيح عنهم: " وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ " (يوحنا ٢٠/ ١٧).

٦- وقال للتلاميذ أيضًا: " فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ " (متى ٥/ ٤٨).

٧- وعلمهم المسيح أن يقولوا: "فَصَلُّوا أَنْتُمْ هكَذَا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. . . " (متى ٦/ ٩)، وقوله: " أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه" (متى ٦/ ١١)، فكان يوحنا يقول: " انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى نُدعى أولاد الله" (يوحنا (١) ٣/ ١).

٨- بل واليهود أيضًا كلهم أبناء الله، كما يوضحه قول المسيح لليهود: "أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنًا. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ الله" (يوحنا ٨/ ٤١).

٩- وفي سفر هوشع "لكِنْ يَكُونُ عَدَدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَرَمْلِ الْبَحْرِ الَّذِي لاَ يُكَالُ وَلاَ يُعَدُّ، وَيَكُونُ عِوَضًا عَنْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: لَسْتُمْ شَعْبِي، يُقَالُ لَهُمْ: أَبْنَاءُ الله الْحَيِّ" (هوشع ١/ ١٠).

١٠- ونحوه قال عنهم: "لَمَّا كَانَ إِسْرَائِيلُ غُلاَمًا أَحْبَبْتُهُ، وَمِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي. " (هوشع ١١/ ١).

١١- ومن ذلك أيضًا ما جاء في سفر الخروج عن جميع شعب " فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرُ. ٢٣ فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي لِيَعْبُدَنِي، فأبيت" (الخروج ٤/ ٢٢).

١٢- وخاطبهم داود قائلًا: "قَدِّمُوا لِلرَّبِّ يَا أَبْنَاءَ الله، قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْدًا وَعِزًّا" (المزمور ٢٩/ ١).

١٣- ومثله قوله: "لأَنَّهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يُعَادِلُ الرَّبَّ. مَنْ يُشْبِهُ الرَّبَّ بَيْنَ أَبْنَاءِ الله؟ " (المزمور ٨٩/ ٦).

١٤- وفي سفر أيوب: "وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو الله لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ" (أيوب ١/ ٦).

كما نرى في التوراة هذا الإطلاق على الشرفاء من غير أن يفهم منه النصارى أو غيرهم الألوهية الحقيقية.

١٥- فقد جاء فيها: "أَنَّ أَبْنَاءَ الله رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. " (التكوين ٦/ ٢). وعليه فلا يمكن النصارى أن يجعلوا من النصوص المتحدثة عن بنوة المسيح لله أدلة على ألوهيته ثم يمنعوا إطلاق حقيقة ذات اللفظ على غيره ممن وصف بذلك وتخصيصهم المسيح بالمعنى الحقيقي يحتاج إلى مرجح لا يملكونه ولا يقدرون عليه.

الوجه الخامس: بكورية المسيح بين الأبناء: لكن النصارى يرون تميزًا مستحقًا للمسيح في بنوته عن سائر الأبناء، فهم لا ينازعون في صحة الإطلاق المجازي عندما ترد لفظ البنوة بحق سائر المخلوقات.

لكن النزاع إنما يكمن في تلك الأوصاف التي أطلقت على المسيح ويثبتها النصارى على الحقيقة محتجين بأمور:

١ـ **منها:** أنه قد جاء وصف المسيح بأنه الابن البكر أو الوحيد لله. (انظر عبرانيين ١/ ٦، يوحنا ٣/ ١٨)

٢ـ **أو أنه سمي ابن الله العلي** (انظر لوقا ١/ ٣٢، ٧٦).

٣-**أو أنه ابن ليس مولودا من هذا العالم كسائر** الأبناء، بل هو مولود من السماء، أو من فوق. (انظر يوحنا ١/ ١٨).

ولكن ذلك كله تثبت النصوص أمثاله لأبناء آخرين:

١ - فالبكورية وصف بها إسرائيل" فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي

الْبِكْرُ. [٢٣] فَقُلْتُ لَكَ: أَطْلِقِ ابْنِي لِيَعْبُدَنِي، فَأَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَهُ. هَا أَنَا أَقْتُلُ ابْنَكَ الْبِكْرَ (الخروج ٤/ ٢٢-٢٣).

٢- وكذا إفرايم " لأَنِّي صِرْتُ لإِسْرَائِيلَ أَبًا، وَأَفْرَايِمُ هُوَ بِكْرِي" (إرميا ٣١/ ٩). وكذا داود " هُوَ يَدْعُونِي: أَبِي أَنْتَ، إِلهِي وَصَخْرَةُ خَلاَصِي. [٢٧] أَنَا أَيْضًا أَجْعَلُهُ بِكْرًا، أَعْلَى مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ. " (المزمور ٨٩/ ٢٦-٢٧).

٣- ولئن قيل في المسيح أنه ابن الله العلي، فكذلك سائر بني إسرائيل "وبنو العلي كلكم" (المزمور ٨٢/ ٦).

الوجه السادس: الابن النازل من السماء: وتعلق مؤلهوا المسيح بما ذكرته الأناجيل عن المسيح الذي أتى من فوق أو من السماء، و" اَلَّذِي يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ" (يوحنا ٣/ ٣١)، وهم يرون صورة ألوهيته مشرقة في قوله: " أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. " (يوحنا ٨/ ٢٣)، فدل ذلك - وفق رأي النصارى - على أنه كائن إلهي فريد، وهو ابن لا كسائر الأبناء.

والجواب على هذا من وجوه:

١- أن المقصود من المجيء السماوي، هو إتيان المواهب والشريعة لا إتيان الذات، وهو أمر يستوي به مع سائر الأنبياء، ومنهم يوحنا المعمدان فقد سأل المسيح اليهود: " مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا: مِنْ أَيْنَ كَانَتْ؟ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟ » فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ: «إِنْ قُلْنَا: مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ لَنَا: فَلِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ [٢٦] وَإِنْ قُلْنَا: مِنَ النَّاسِ، نَخَافُ مِنَ الشَّعْبِ. (متى ٢١/ ٢٥-٢٦).

٢- ومن قرأ النص كاملًا؛ تبين له ذلك، حيث جاء النص هكذا: " ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا قَائِلًا: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ». [١٣] فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «أَنْتَ تَشْهَدُ لِنَفْسِكَ. شَهَادَتُكَ لَيْسَتْ حَقًّا». [١٤] أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَق، لأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ آتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. [١٥] أَنْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ تَدِينُونَ، أَمَّا أَنَا

فَلَسْتُ أَدِينُ أَحَدًا. [١٦] وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيْنُونَتِي حَق، لأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي، بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. [١٧] وَأَيضًا فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَق: [١٨] أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي، وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي». [١٩] فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ؟ » أَجَابَ يَسُوعُ: «لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلاَ أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أيضًا». هذَا الْكَلاَمُ قَالَهُ يَسُوعُ فِي الْخِزَانَةِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ. وَلَمْ يُمْسِكْهُ أَحَدٌ، لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أيضًا: «أَنَا أَمْضِي وَسَتَطْلُبُونَنِي، وَتَمُوتُونَ فِي خَطِيَّتِكُمْ. حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا» [٢٢] فَقَالَ الْيَهُودُ: «أَلَعَلَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولُ: حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا؟ ». [٢٣] فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. [٢٤] فَقُلْتُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ، لأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ». [٢٥] فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟ » فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مِنَ الْبَدْءِ مَا أُكَلِّمُكُمْ أيضًا بِهِ. [٢٦] إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ، لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». [٢٧] وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الآبِ. [٢٨] فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. [٢٩] وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ». وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ بِهذَا آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ. [٣١] فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ: «إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي كَلاَمِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلاَمِيذِي، [٣٢] وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ». [٣٣] أَجَابُوهُ: «إِنَّنَا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ نُسْتَعْبَدْ لأَحَدٍ قَطُّ! كَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَارًا؟ » [٣٤] أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ. [٣٥] وَالْعَبْدُ لاَ يَبْقَى فِي الْبَيْتِ إِلَى الأَبَدِ، أَمَّا الابْنُ فَيَبْقَى إِلَى الأَبَدِ. [٣٦] فَإِنْ حَرَّرَكُمُ الابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَارًا. [٣٧] أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ. لكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي لأَنَّ كَلاَمِي لاَ مَوْضِعَ لَهُ فِيكُمْ. [٣٨] أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي، وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ أَبِيكُمْ». [٣٩] أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ: «أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ

كُنتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ، لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ! ٤٠ وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ. هذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ. ٤١ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنًا. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. ٤٣ لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كَلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. ٤٤ أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَق. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ، لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ. ٤٥ وَأَمَّا أَنَا فَلأَنِّي أَقُولُ الْحَقَّ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي. ٤٦ مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟ فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ الْحَقَّ، فَلِمَاذَا لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي؟ ٤٧ اَلَّذِي مِنَ اللهِ يَسْمَعُ كَلاَمَ اللهِ. لِذلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللهِ». فَأَجَاب الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا: إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟ » ٤٩ أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنَا لَيْسَ بِي شَيْطَانٌ، لكِنِّي أُكْرِمُ أَبِي وَأَنْتُمْ تُهِينُونَنِي. ٥٠ أَنَا لَسْتُ أَطْلُبُ مَجْدِي. يُوجَدُ مَنْ يَطْلُبُ وَيَدِينُ. ٥١ اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلاَمِي فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ». ٥٢ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: الآنَ عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَانًا. قَدْ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ وَالأَنْبِيَاءُ، وَأَنْتَ تَقُولُ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلاَمِي فَلَنْ يَذُوقَ الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ. ٥٣ أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَاتَ؟ وَالأَنْبِيَاءُ مَاتُوا. مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ؟ » ٥٤ أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئًا. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي، الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلهُكُمْ، ٥٥ وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. وَأَمَّا أَنَا فَأَعْرِفُهُ. وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَكُونُ مِثْلَكُمْ كَاذِبًا، لكِنِّي أَعْرِفُهُ وَأَحْفَظُ قَوْلَهُ. ٥٦ أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ». ٥٧ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟ » ٥٨ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ». ٥٩ فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازًا فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هكَذَا" (يوحنا ٨/ ٥٩: ١٢). " وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَانًا أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ، ٢ فَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، مَنْ

أَخطأَ: هذَا أَمْ أَبوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟ ». ٣ أَجابَ يَسُوعُ: «لاَ هذَا أَخْطأَ وَلاَ أَبوَاهُ، لكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ الله فِيهِ. ٤ يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ. ٥ مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ». قَالَ هذَا وَتَفَلَ عَلَى الأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى. ٧ وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: مُرْسَلٌ، فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيرًا. فَالْجِيرَانُ وَالَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلًا أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى، قَالُوا: «أَلَيْسَ هذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطِي؟ » ٩ آخَرُونَ قَالُوا: «هذَا هُوَ». وَآخَرُونَ: «إِنَّهُ يُشْبِهُهُ». وَأَمَّا هُوَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا هُوَ». ١٠ فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟ » ١١ أَجَابَ ذَاكَ وقَالَ: «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِينًا وَطَلَى عَيْنَيَّ، وَقَالَ لِي: اذْهَبْ إِلَى بِرْكَةِ سِلْوَامَ وَاغْتَسِلْ. فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ». ١٢ فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ ذَاكَ؟ » قَالَ: «لاَ أَعْلَمُ». فَأَتَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ بِالَّذِي كَانَ قَبْلًا أَعْمَى. ١٤ وَكَانَ سَبْتٌ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ الطِّينَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ. ١٥ فَسَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ أَيضًا كَيْفَ أَبْصَرَ، فَقَالَ لَهُمْ: «وَضَعَ طِينًا عَلَى عَيْنَيَّ وَاغْتَسَلْتُ، فَأَنَا أُبْصِرُ». ١٦ فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ: «هذَا الإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ الله، لأَنَّهُ لاَ يَحْفَظُ السَّبْتَ». آخَرُونَ قَالُوا: «كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هذِهِ الآيَاتِ؟ » وَكَانَ بَيْنَهُمُ انْشِقَاقٌ. ١٧ قَالُوا أَيضًا لِلأَعْمَى: «مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟ » فَقَالَ: «إِنَّهُ نَبِيٌّ! ». ١٨ فَلَمْ يُصَدِّقِ الْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوَيِ الَّذِي أَبْصَرَ. ١٩ فَسَأَلُوهُمَا قَائِلِينَ: «أَهذَا ابْنُكُمَا الَّذِي تَقُولاَنِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؟ فَكَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ؟ » ٢٠ أَجَابَهُمْ أَبَوَاهُ وَقَالاَ: «نَعْلَمُ أَنَّ هذَا ابْنُنَا، وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى. ٢١ وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ فَلاَ نَعْلَمُ. أَوْ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فَلاَ نَعْلَمُ. هُوَ كَامِلُ السِّنِّ. اسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ». ٢٢ قَالَ أَبَوَاهُ هذَا لأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ الْيَهُودِ، لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنِ اعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ يُخْرَجُ مِنَ الْمَجْمَعِ. ٢٣ لِذلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ: «إِنَّهُ كَامِلُ السِّنِّ، اسْأَلُوهُ». فَدَعَوْا ثَانِيَةً الإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى، وَقَالُوا لَهُ: «أَعْطِ مَجْدًا لله. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هذَا الإِنْسَانَ خَاطِئٌ». ٢٥ فَأَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ: «أَخَاطِئٌ هُوَ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئًا

وَاحِدًا: أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالآنَ أُبْصِرُ». [٢٦] فَقَالُوا لَهُ أَيضًا: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ؟ كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟ » [٢٧] أَجَابَهُمْ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا. لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أيضًا؟ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا لَهُ تَلاَمِيذَ؟ » [٢٨] فَشَتَمُوهُ وَقَالُوا: «أَنْتَ تِلْمِيذُ ذَاكَ، وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا تَلاَمِيذُ مُوسَى. [٢٩] نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللهُ، وَأَمَّا هذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ». [٣٠] أَجَابَ الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ فِي هذَا عَجَبًا! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيَّ. [٣١] وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ، فَلِهذَا يَسْمَعُ. [٣٢] مُنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَدًا فَتَحَ عَيْنَيْ مَوْلُودٍ أَعْمَى. [٣٣] لَوْ لَمْ يَكُنْ هذَا مِنَ اللهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا" (يوحنا ٩/ ٣٣: ١).

النص وهو عبارة عن مناظره بين المسيح وبين اليهود، وهو يدعوهم إلى الإيمان به، وفيه أكثر من موضع صريح وواضح في كونه إنسان وبشر، وليس إله ومن ذلك ما يلي:

١- قوله في ٨-١٦: "، بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي "فهذا صريح في كونه مرسل وأنه غير الآب (الإله)

٢- قوله: "وَأيضًا فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَق: [١٨] أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي، وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي ". ففي هذا أنهم طلبوا منه شهادة، فقال لهم إن في ناموسكم: إن شهادة رجلين حق، فجعل نفسه شاهدًا، والآب الذي أرسله شاهدا آخر، وهذا صريح في أن مرسل أو أنه غير الآب.

٣- قوله في (٨-٢٦): " لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ "فهذا أيضًا صريح في كونه مرسل ولايقول لهم إلا ما سمعه.

٤- قوله في (٨: ٢٨): " فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. ". وهذا صريح في أنه ابن الإنسان، وأنه مرسل، ولا يتكلم بشي من عند نفسه.

٥- قوله في (٨: ٤٠): " وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ

بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ". وهذا واضح وصريح في قوله وأنا إنسان!

٦- قوله (٨: ٥٤): " أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئًا. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي، الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلهُكُمْ". فلو كان إلها فلم لا يمجد نفسه؟

٧- قوله (٨: ٥٩): " فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازًا فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هكَذَا ". فلو كان إلهًا لماذا هرب منهم واختفى؟

٨- ولما طلى عين الأعمى بالطين وأمره بالاغتسال، ففعل وانفتحت عيناه وسأله اليهود عن عيسى فقال كما جاء في إنجيل يوحنا (٩: ١٧) "قالوا أيضًا للأعمى ماذا تقول أنت عنه من حيث أنه فتح عينيك فقال أنه نبي ".

فها هو الأعمى قد صرح بأنه نبي، كل هذا في سياق هذه المناظرة التي اجتزؤا منها قوله؛ إنه ليس من هذا العالم لأنه من فوق، وليس فيها تصريح بأنه إله، وفي هذه النصوص التصريح بأنه نبي إنسان مرسل.

٣- وأما النازلون على الحقيقة من السماء فهم كثر، ولا تعتبر النصارى أيا منهم آلهة، منهم الملائكة، "لأن ملاك الرب نزل من السماء" (متى ٢٨/ ٢). وكذا صعد أخنوخ إلى السماء " وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ. " (التكوين ٥/ ٢٤)، ومن المعلوم أن " وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ. " (يوحنا ٣/ ١٣)، فأخنوخ مثله، ولا يقولون بألوهيته. وكذا إيليا صعد إلى السماء " **فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا، فَصَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ.** " (الملوك (٢) ٢/ ١١). كما تذكر الأناجيل أن التلاميذ، هم أيضًا مولودون من فوق أو من الله، أي هم مؤمنون به، ففي يوحنا: " وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ " (يوحنا ١/ ١٢). فالمقصود بالولاد، الولاد الروحي، بحيث يتغير قلب الإنسان الخاطئ تغيرًا عظيمًا كاملًا مستمرًا، كأنه ولد ثانية، ويحدث ذلك عند توبته وإيمانه. والمؤمنون بالمسيح عليه السلام مولودون من فوق بما أعطاهم الله من الإيمان، فهم كسائر المؤمنين كما قال

المسيح: " الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ الله " (يوحنا ٣/ ٣).

قال: " كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله" (يوحنا (١) ١/٥). وقال: " كل من يصنع البر مولود منه" (يوحنا (١) ٢٩/٢).

وقول المسيح ﷺ: " أما أنا فلست من هذا العالم " ليس دليلًا على الألوهية بحال، فمراده اختلافه عن سائر البشر باستعلائه على العالم المادي، بل هو من فوق ذلك الحطام الذي يلهث وراءه سائر الناس. وقد قال مثل هذا القول في حق تلاميذه أيضًا بعد أن لمس فيهم حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، فقال: " **لَوْ كُنْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ. وَلكِنْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ مِنَ الْعَالَمِ، لِذلِكَ يُبْغِضُكُمُ الْعَالَمُ.** " (يوحنا ١٥/ ١٩). وفي موضع آخر قال عنهم: " **أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كَلاَمَكَ، وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ، كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ** " (١٧/ ١٤-١٥)، فقال في حق تلاميذه ما قاله في حق نفسه من كونهم جميعًا ليسوا من هذا العالم، فلو كان هذا على ظاهره، وكان مستلزمًا الألوهية، للزم أن يكون التلاميذ كلهم آلهة، لكن تعبيره في ذلك كله نوع من المجاز، كما يقال: فلان ليس من هذا العالم، يعني: هو لا يعيش للدنيا ولا يهتم بها، بل همه دوما رضا الله والدار الآخرة.

ثالثا: نصوص الحلول الإلهي في المسيح

ويرى النصارى أن بعض النصوص المقدسة تفيد حلولًا إلهيًا في عيسى ﷺ، منها قوله: "لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ الآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ" (يوحنا ١٠/ ٣٨)، وفي موضع آخر " الذي رآني فقد رأى الآب. . . الآب الحال في " (يوحنا ١٤/ ٩-١٠)، ويبقى أقوى أدلة النصارى على ألوهية المسيح قوله: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠/ ٣٠).

فهذه النصوص أفادت - حسب قول النصارى - أن المسيح هو الله، أو أن حلولًا إلهيًا حقيقيًا لله فيه.

والجواب من وجوه:

١ـالله تعالى يحل فيمن آمن بيسوع ولهذا فحلول الله على مخلوقاته كما في

كتابهم المقدس لابد أن يكون مجازيًا:

وقد تتبع المحققون هذه النصوص، فأبطلوا استدلال النصارى بها، وبينوا سوء فهمهم لها. فأما ما جاء من ألفاظ دلت على أن المسيح قد حل فيه الله - على ما فهمه النصارى- فإن فهمهم لها مغلوط؛ ذلك أن المراد بالحلول حلول مجازي كما جاء في حق غيره بلا خلاف، ونقول مثله في مسألة الحلول في المسيح.

فالله - حسب الكتاب المقدس- يحل في كثيرين، أي حلول المواهب الإلهية، لا حلول ذاته العلية التي تتنزه عن الحلول في المخلوقات المحدودة، فقد جاء في رسالة يوحنا " **مَنِ اعْتَرَفَ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ ابْنُ اللهِ، فَاللهُ يَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِي اللهِ. ١٦وَنَحْنُ قَدْ عَرَفْنَا وَصَدَّقْنَا الْمَحَبَّةَ الَّتِي للهِ فِينَا. اَللهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ، يَثْبُتْ فِي اللهِ وَاللهُ فِيهِ.** " (يوحنا ٤/ ١٥-١٦)، فحلول الله في الذين اعترفوا بالمسيح ليس بحلول ذوات، وإلا كانوا جميعًا آلهة.

ومثله؛ فإن الله يحل مجازًا في كل من يحفظ الوصايا ولا يعني ذلك ألوهيتهم، ففي رسالة يوحنا: "ومن يحفظ وصاياه يثبت فيه، وهو فيه، وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا" (يوحنا (١) ٣/ ٢٤)، فليس المقصود تقمص الذات الإلهية لهؤلاء الصالحين، بل حلول هداية الله وتأييده عليهم.

وكذا الذين يحبون بعضهم لله؛ فإن الله يحل فيهم برحمته، لا بذاته "إن أحب بعضنا بعضًا فالله يثبت فينا، ومحبته قد تكملت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه، وهو فينا" (يوحنا (١) ٤/ ١٢-١٣).

وكما في قوله عن التلاميذ: " أنا فيهم، وأنت في" (يوحنا ١٧/ ٢٢). ومثله يقول بولس عن المؤمنين: "فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ اللهِ الْحَيِّ، كَمَا قَالَ اللهُ: «إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا، وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْبًا. " (كورنثوس (٢) ٦/ ١٦)، ويقول: "وأما أنتم فجسد المسيح" (كورنثوس (١) ١٢/ ٢٧)، فالحلول في كل ذلك مجازي. فقد أفادت هذه النصوص - بحسب زعمهم - حلولًا إلهيًا في كل المؤمنين، وهذا الحلول هو حلول

مجازي بلا خلاف، أي حلول هدايته ومواهبه وتوفيقه، ومثله الحلول في المسيح، ومن زعم الفرق وجب عليه إحضار الدليل.

٢ـ كما تذكر التوراة حلول الله ـ وحاشاه ـ في بعض مخلوقاته على الحقيقة.

ولا تقول النصارى بألوهية هذه الأشياء، ومن ذلك ما جاء في سفر الخروج "المكان الذي صنعته يا رب لسكنك" (الخروج ١٥/ ١٧)، فقد حل وسكن في جبل الهيكل، ولا يعبد أحد ذلك الجبل.

وفي المزامير: "لِمَاذَا أَيَّتُهَا الْجِبَالُ الْمُسَنَّمَةُ تَرْصُدْنَ الْجَبَلَ الَّذِي اشْتَهَاهُ الله لِسَكَنِهِ؟ بَلِ الرَّبُّ يَسْكُنُ فِيهِ إِلَى الأَبَدِ. " (المزمور ٦٨/ ١٦).

٣ـ ولعل من أهم نصوص الحلول المزعوم قول المسيح: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠/ ٣٠)، وقوله: "من رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤/ ٩)،

١. قول المسيح: "أنا والآب واحد". القول المنسوب إلى المسيح: "أنا والآب واحد" أهم ما يتعلق فيه أولئك الذين يقولون بألوهية المسيح، وقد فهموا منه وحدة حقيقية جهر بها المسيح أمام اليهود، وفهموا منه أنه يعني الألوهية لذاته. ولفهم النص؛ نعود فنقرأ السياق من أوله، فنرى بأن المسيح ﷺ كان يتمشى في رواق سليمان في عيد التجديد"فَاحْتَاطَ بِهِ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «إِلَى مَتَى تُعَلِّقُ أَنْفُسَنَا؟ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا جَهْرًا». ٢٥ أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. اَلأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي. ٢٦ وَلكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي، كَمَا قُلْتُ لَكُمْ. ٢٧ خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي، وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي. ٢٨ وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. ٢٩ أَبِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي. ٣٠ أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يوحنا١٠/ ٢٤-٣٠).

فالنص من أوله يتحدث عن قضية معنوية مجازية[1] فخراف المسيح أي تلاميذه

---

(١) يرى القس جيمس أنس أنه ينبغي أن تفسر النصوص تفسيرًا مجازيًا إذا كان في سفر مملوء بالاستعارات

يتبعونه، فيعطيهم الحياة الأبدية، أي الجنة، ولن يستطيع أحد أن يخطفها منه (أي يبعدها عن طريقه وهدايته) لأنها هبة الله التي أعطاه إياها، ولا يستطيع أحد أن يسلبها من الله الذي هو أعظم من الكل، فالله والمسيح يريدان لها الخير، فالوحدة وحدة الهدف لا الجوهر. لكن اليهود في رواق سليمان، كان فهمهم لكلام المسيح سقيما - أشبه ما يكون بفهم النصارى له - لذا " تناول اليهود أيضًا حجارة ليرجموه. . لسنا نرجمك لأجل عمل حسن، بل لأجل تجديف، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا". فعرف المسيح عليه السلام خطأ فهمهم لكلامه، واستغرب منهم، كيف فهموا هذا الفهم وهم يهود يعرفون لغة الكتب المقدسة في التعبير المجازي فأجابهم: " أليس مكتوبا في ناموسكم: أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ " ومقصده ما جاء في مزامير داود: "أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ. " (المزمور ٨٢/ ٦). أي: فكيف تستغربون بعد ذلك مثل هذه الاستعارات، وهي معهودة في كتابكم الذي جعل بني إسرائيل آلهة بالمعنى المجازي للكلمة؟! فالمسيح أولى بهذه الألوهية المجازية من سائر بني إسرائيل" فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟ ٣٧ إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فَلاَ تُؤْمِنُوا بِي. (يوحنا١٠/ ٣٧: ٣٦).

والنص في نسخة الرهبانية اليسوعية أكثر وضوحا، وفيه: "أجابهم يسوع: ألم يكتب في شريعتكم: قلت: إنكم آلهة؟ فإذا كانت الشريعة تدعو آلهة من ألقيت إليهم كلمة الله. . فكيف تقولون للذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم: أنت تجدف، لأني قلت: إني ابن الله". يقول الأب متى المسكين تعليقًا على هذه الفقرة: "المسيح يستشهد بالمزمور الثاني والثمانين: (الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي. . أنا قلت إنكم آلهة، وبنو العلي كلكم)، فالوحي الإلهي هنا يعطي صفة الآلهة للمجمع الذي يجتمع على الحكم على أساس الحكم

التي لا تصح فيها التفسيرات الحرفية، فكيف الحال والإصحاح بين أيدينا يتحدث عن معان مجازية. انظر: علم اللاهوت النظامي، جيمس أنس، ص (٧١٣).

بكلمة الله. . يأتي ردا على ادعائهم أن كون المسيح إلها يعتبر تجديفا، في حين أن كل الذين صارت إليهم كلمة الله يدعون في الناموس آلهة"(١). وهكذا وبهذا الشاهد من المزامير صحح المسيح عليه السلام لليهود ثم للنصارى الفهم السيئ والحرفي لوحدته مع الآب.

وهذا الأسلوب في التعبير عن وحدة الهدف والمشيئة معهود في النصوص خاصة في إنجيل يوحنا.

١- فهو يقول عن التلاميذ على لسان المسيح: " لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا وَاحِدًا فِينَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. ٢٢ وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي. " (يوحنا ١٧/ ٢٠-٢٣)، فالحلول في المسيح والتلاميذ حلول معنوي فحسب، وإلا لزم تأليه التلاميذ، فكما المسيح والآب واحد، فإن التلاميذ والمسيح والآب أيضًا واحد، أي وحدة الهدف والطريق، لا وحدة الذوات، فإن أحدا لا يقول باتحاد التلاميذ ببعضهم أو باتحاد المسيح فيهم بذاته.

٢- وفي موضع آخر ذكر نفس المعنى فقال عن التلاميذ: " أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ. " (يوحنا ١٧/ ١١)، أي كما وحدتنا هي وحدة هدف لتكن وحدتهم بنا كذلك.

٣- ومثله قوله: " تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ. " (يوحنا ١٤/ ٢٠).

٤- ومثله يقول بولس: " فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ اللهِ الْحَيِّ، كَمَا قَالَ اللهُ: «إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا، وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْبًا. ١٧ لِذلِكَ اخْرُجُوا مِنْ وَسْطِهِمْ وَاعْتَزِلُوا، يَقُولُ الرَّبُّ. وَلاَ تَمَسُّوا نَجِسًا فَأَقْبَلَكُمْ، " (كورنثوس (٢) ٦/ ١٦-١٧).

٥- ومثله قوله: " إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ. "

---

(١) شرح إنجيل القديس يوحنا، الأب متى المسكين (١/ ٦٤٣-٦٤٤).

(أفسس ٤/ ٦).

٦- ومثله قول المسيح ﷺلتلاميذه: " أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ. الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. " (يوحنا ١٥/ ٥)، أي من يحبني ويطيعني ويؤمن بي فهذا يأتي بثمر كثير.

٧- والمعنى الصحيح لقوله: "لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في، وأنا فيه" (يوحنا ١٠/ ٣٨) أي أن الله يكون في المسيح، أي بمحبته وقداسته وإرشاده وتسديده، لا بذاته المقدسة التي لا تحل في الهياكل "العلي لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي" (أعمال ٧/ ٤٨).

٨- وقد تكرر هذا الأسلوب في التعبير عن وحدة الهدف والمشيئة في نصوص كثيرة، منها قول بولس: " أَنَا غَرَسْتُ وَأَبُلُّوسُ سَقَى، لكِنَّ اللهَ كَانَ يُنْمِي. ٧إِذًا لَيْسَ الْغَارِسُ شَيْئًا وَلاَ السَّاقِي، بَلِ اللهُ الَّذِي يُنْمِي. ٨وَالْغَارِسُ وَالسَّاقِي هُمَا وَاحِدٌ، وَلكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ سَيَأْخُذُ أُجْرَتَهُ بِحَسَبِ تَعَبِهِ. ٩فَإِنَّنَا نَحْنُ عَامِلاَنِ مَعَ اللهِ، وَأَنْتُمْ فَلاَحَةُ اللهِ، بِنَاءُ اللهِ. " (كورنثوس (١) ٣/ ٦-٩)، فوحدة بولس مع أبلوس وحدة الهدف المشترك، لا الجوهر والذات.

٩- ومثله جاء في التوراة في وصف الزوجين " يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا " (التكوين ٢/ ٢٤) أي الجسد الواحد، لا أن ذاتهما قد أضحت واحدة، وعليه لا يصح الفهم الظاهري السطحي لقوله: " وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. " (متى ١٩/ ٥)، ومثله سواء بسواء قول المسيح: "أنا والآب واحد".

١٠- ومثله أيضًا قول لابان ليعقوب ابن أخته " فَقَالَ لَهُ لاَبَانُ: «إِنَّمَا أَنْتَ عَظْمِي وَلَحْمِي». فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا مِنَ الزَّمَانِ. " (التكوين ٢٩/ ١٤).

١١- ومثله الرمز لوحدة الهدف والغاية بين التلاميذ باستعارة لفظ يدل ظاهره على وحدة الجسد، وليس مقصودًا، وذلك في قوله: " هكَذَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ: جَسَدٌ وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاءٌ بَعْضًا لِبَعْضٍ. " (رومية ١٢/ ٥)، ونحوه في قوله: " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ

أَجْسَادَكُمْ هِيَ أَعْضَاءُ الْمَسِيحِ؟ " (كورنثوس (١) ٦/ ١٥)، (وانظر صموئيل (٢) ١٩/ ١٢)، كورنثوس (١) ١٢/ ٢٧)، (أفسس ٢/ ١٤). وغير ذلك من أمثلة وحدة المشيئة والهدف والمحبة، لا الذات.

١٢- ومثل هذا الاستخدام للوحدة المجازية، وحدة الهدف والمشيئة ورد في القرآن من غير أن يفهم منه أحد من المسلمين الوحدة الحقيقية، وحدة الذات، وذلك في قوله تعالى، وهو يخاطب نبيه: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) (الفتح: ١٠)، فلم يقل أحد من المسلمين أن الله ونبيه ذات واحدة كما صنع النصارى في قول المسيح: "أنا والآب واحد".

٢. قول المسيح: "الذي رآني فقد رأى الآب" ومن أهم ما يستدل به النصارى على ألوهية المسيح عليه السلام قوله: "الذي رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤/ ٩)، إذ فهموا منه أن الله الآب هو المسيح، وأن رؤية المسيح هي بالحقيقة رؤية لله عز وجل. ولفهم النص الفهم الصحيح نعود إلى سياقه، فالسياق من أوله يخبر أن المسيح عليه السلام قال لتلاميذه: "أنا أمضي لأعد لكم مكانا، وإن مضيت وأعددت لكم مكانا آتي أيضًا وآخذكم " وقصده بالمكان الملكوت. فلم يفهم عليه توما فقال: " يَا سَيِّدُ، لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ، فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ؟ "، لقد فهم أنه يتحدث عن طريق حقيقي وعن رحلة حقيقية، فقال له المسيح مصححًا ومبينًا أن الرحلة معنوية وليست حقيقية مكانية: " أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. " (يوحنا١٤/ ١-٦)، أي أن اتباع شرعه ودينه هو وحده الموصل إلى رضوان الله وجنته.

ثم طلب منه فيلبس أن يريهم الله، فنهره المسيح وقال له: " أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟ الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ. " (يوحنا ١٤/ ١٠) أي كيف تسأل ذلك يا فيلبس، وأنت يهودي تعلم أن الله لا يرى، فالذي رآني رأى الآب، حين رأى أعمال الله (المعجزات) التي أجراها على يد المسيح.

١- يشبه هذا النص تمامًا ما جاء متى " ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. ٣٥ لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي.

عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِي. [٣٦] عُرْيَانًا فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضًا فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوسًا فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ. [٣٧] فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ قَائِلِينَ: يَارَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعًا فَأَطْعَمْنَاكَ، أَوْ عَطْشَانًا فَسَقَيْنَاكَ؟ [٣٨] وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيبًا فَآوَيْنَاكَ، أَوْ عُرْيَانًا فَكَسَوْنَاكَ؟ [٣٩] وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ [٤٠] فَيُجِيبُ الْمَلِكُ وَيَقُولُ لَهُمْ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ. " (متى ٢٥/ ٣٤-٤٠)، ومن المعلوم أن أحدا في الدنيا لا يقول بأن الجائع المطعم هو الملك رغم قوله: "فبي فعلتم"، إذ هذا على سبيل تقريب المعاني، لا الحلول والتماهي بين الذوات.

ويشبهه ما جاء في إنجيل مرقس " فَأَخَذَ وَلَدًا وَأَقَامَهُ فِي وَسْطِهِمْ ثُمَّ احْتَضَنَهُ وَقَالَ لَهُمْ: [٣٧] «مَنْ قَبِلَ وَاحِدًا مِنْ أَوْلاَدٍ مِثْلَ هذَا بِاسْمِي يَقْبَلُنِي، وَمَنْ قَبِلَنِي فَلَيْسَ يَقْبَلُنِي أَنَا بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي " (مرقس ٩/ ٣٧: ٣٦)، فالنص لا يعني أن الطفل الذي رفعه المسيح هو ذات المسيح، ولا أن المسيح عليه السلام هو ذات الله، ولكنه يخبر - عليه الصلاة والسلام - أن الذي يصنع برا بحق هذا الطفل، فإنما يصنعه طاعة ومحبة للمسيح، لا بل طاعةً لله وامتثالًا لأمره.

وكما أن من يرى المسيح فكأنه يرى الله، فإنه من قبل المسيح وتلاميذه فكأنما قبل الله عز وجل، ومن كفر بهم ورفض دعوتهم فإنما رفض في الحقيقة دعوة الله، لذا يقول المسيح: " اَلَّذِي يَسْمَعُ مِنْكُمْ يَسْمَعُ مِنِّي، وَالَّذِي يُرْذِلُكُمْ يُرْذِلُنِي، وَالَّذِي يُرْذِلُنِي يُرْذِلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي " (لوقا ١٠/ ١٦).

٢- ويؤكده مرة أخرى فيقول: " مَنْ يَقْبَلُكُمْ يَقْبَلُنِي، وَمَنْ يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. " (متى ١٠/ ٤٠)، وكذا من رأى المسيح فكأنه رأى الآب الذي أرسله، لأن " الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ (يوحنا ١٤/ ١٠). والرؤية في قوله: "الذي رآني فقد رأى الآب" معنوية مجازية، أي رؤية البصيرة، لا البصر، وهذه الرؤية متحققة لكل المؤمنين الذين هم من الله كما قال المسيح عليه السلام: "ليس أن أحدًا رأى الآب إلا الذي من الله، هذا قد رأى الآب" (يوحنا ٦/ ٤٦)، ومن المعلوم أن كل

المؤمنين هم من الله " كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله" (يوحنا (١) ٥/ ١)، فكلهم رأى الله رؤية المعرفة والإيمان. ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلا أن عيسى لم يدع قط أنه الآب، ولا يقول بمثل هذا من النصارى أحد سوى الأرثوذكس، الذين هم أيضًا لا يقولون بأن المسيح هو الآب، لكنهم يقولون: الآب هو الابن، فالمعنى الحقيقي القريب للرؤية مرفوض.

٣- ومما يؤكد أن الرؤيا معنوية أنه قال بعد قليل: " بعد قليل لا يراني العالم أيضًا، أما أنتم فترونني" (يوحنا ١٤ / ١٩)، فهو لا يتحدث عن رؤية حقيقية، إذ يتحدث عن رفعه للسماء، فحينذاك لن يراه العالم ولا التلاميذ، لكنه يتحدث عن رؤية معرفية إيمانية يراها التلاميذ، وتعشى عنها وجوه العالم الكافر.

ويشهد له ما جاء في متى: " وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ. " (متى ١١/ ٢٧)، فهو المقصود من الرؤية المذكورة في النصوص السابقة.

٤- ونحوه قوله: " فَنَادَى يَسُوعُ وَقَالَ: «الَّذِي يُؤْمِنُ بِي، لَيْسَ يُؤْمِنُ بِي بَلْ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي. ٤٥ وَالَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. ٤٦ أَنَا قَدْ جِئْتُ نُورًا إِلَى الْعَالَمِ، حَتَّى كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِي لاَ يَمْكُثُ فِي الظُّلْمَةِ. ٤٧ وَإِنْ سَمِعَ أَحَدٌ كَلاَمِي وَلَمْ يُؤْمِنْ فَأَنَا لاَ أَدِينُهُ، لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ. ٤٨ مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلاَمِي فَلَهُ مَنْ يَدِينُهُ. اَلْكَلاَمُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، ٤٩ لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً: مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ. ٥٠ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ، فَكَمَا قَالَ لِي الآبُ هكَذَا أَتَكَلَّمُ " (يوحنا ١٢/ ٤٤-٥١)، فالمقصود بكل ذلك رؤية المعرفة.

وقوله: " وَالَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. " ولا يمكن أن يراد منه، أن الذي رأى الآب المرسل قد رأى الابن المرسل، إلا إذا كان المرسل هو المرسل، وهو محال للمغايرة التي بينهما كما قال المسيح: "أبي أعظم مني" (يوحنا ١٤/ ٢٨)، وقال: "أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل" (يوحنا ١٠/ ٢٩).

ومثل هذا السياق الوارد في يوحنا (١٤/ ٩) والذي يفيد الاشتراك في الحكم بين المسيح والله، والذي عبر عنه هنا بالرؤية، مثل هذا معهود في العهد القديم والجديد:

١- ففي العهد القديم لما رفض بنو إسرائيل صموئيل " فَاجْتَمَعَ كُلُّ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ وَجَاءُوا إِلَى صَمُوئِيلَ إِلَى الرَّامَةِ ٥وَقَالُوا لَهُ: «هُوَذَا أَنْتَ قَدْ شِخْتَ، وَابْنَاكَ لَمْ يَسِيرَا فِي طَرِيقِكَ. فَالآنَ اجْعَلْ لَنَا مَلِكًا يَقْضِي لَنَا كَسَائِرِ الشُّعُوبِ». ٦فَسَاءَ الأَمْرُ فِي عَيْنَيْ صَمُوئِيلَ إِذْ قَالُوا: «أَعْطِنَا مَلِكًا يَقْضِي لَنَا». وَصَلَّى صَمُوئِيلُ إِلَى الرَّبِّ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ: «اسْمَعْ لِصَوْتِ الشَّعْبِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَ لَكَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَرْفُضُوكَ أَنْتَ بَلْ إِيَّايَ رَفَضُوا حَتَّى لاَ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ. " (صموئيل (١) ٨/ ٤-٧)، إذ رفضهم طاعة صموئيل هو عصيان لله في الحقيقة.

٢- وكذا في العهد الجديد، فقد قال بطرس لحنانيا الكاهن مبكتا إياه على أكل ثمن الحقل: " أَلَيْسَ وَهُوَ بَاق كَانَ يَبْقَى لَكَ؟ وَلَمَّا بِيعَ، أَلَمْ يَكُنْ فِي سُلْطَانِكَ؟ فَمَا بَالُكَ وَضَعْتَ فِي قَلْبِكَ هذَا الأَمْرَ؟ أَنْتَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّاسِ بَلْ عَلَى اللهِ». " (أعمال الرسل٥/ ٤)، فالكذب على الناس هنا كذب على الله في الحقيقة، ولا يعني أن الناس والله ذات واحدة.

٣- وقوله: "أنا هو الطريق والحق والحياة" يقصد فيه المسيح الالتزام بتعليمه ودينه الذي أنزله الله عليه، فذلك فقط يدخل الجنة دار الخلود، كما قال في موطن آخر: " لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَارَبُّ، يَارَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. " (متى ٧ / ٢١)، فالخلاص بالعمل الصالح والبر " فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. «قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. ٢٢وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. " (متى ٥/ ٢٠-٢٢).

٤- ويتأكد ضعف الاستدلال بهذا الدليل للنصارى "الذي رآني فقد رأى الآب" إذا آمنا أن رؤية الله ممتنعة في الدنيا، كما قال يوحنا: " الله لم يره أحد قط" (يوحنا ١ /١٨)،

وكما قال بولس: " الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ، الَّذِي لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ الأَبَدِيَّةُ. آمِينَ. " (تيموثاوس (١) ٦/ ١٦)، فيصير النص لزاما إلى رؤية المعرفة والبصيرة.

٣. المسيح صورة الله: ومن أدلة النصارى على ألوهية المسيح ما قاله بولس عنه: "مجد المسيح الذي هو صورة الله" (كورنثوس ٤/ ٤). وفي فيلبي يقول: " الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا للهِ. ٧ لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. " (فيلبي ٢/ ٦-٧)، ويقول عنه أيضًا: " الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ. " (كولوسي ١/ ١٥).

والجواب من وجوه:

الأول: قبل تفنيد هذه الشبهة، يجدر بنا أن نذكر الفقرات التي جاء تعبير بولس هذا ضمنها. فالأول جاء في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (٤ / ٣ـ ٤) كما يلي:

" فإذا كانت بشارتنا محجوبة، فهي محجوبة عن السائرين في طريق الهلاك. (محجوبة) عن غير المؤمنين، الذين أعمى أبصارهم إله هذه الدنيا لئلا يبصروا نور بشارة مجد المسيح وهو صورة الله ".

والموضع الثاني جاء في رسالته إلى أهل فيليبي (٢ / ٥ ـ ٨): " فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا: ٦ الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا للهِ. ٧ لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. ٨ وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ "، و مثل ذلك جاء في رسالة بولس إلى أهل قولوسي (١/ ١٥)، حيث قال عن المسيح " هو صورة الله الذي لا يُرَى. "

والآن نقول: إن وصف بولس للمسيح بأنه " صورة الله "، ليس فيه أي تأليه للمسيح؛ لأن هذه الصفة تكررت بعينها مرات عديدة في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ووصف بها الإنسان، بشكل عام والرجل بشكل عام أيضًا، ويفهم من تتبع موارد استعمالها في الكتاب المقدس أنها تعني نوع من التشابه العام أو العلاقة والترابط بين الإنسان ككل والله. فقد جاء في سفر التكوين من التوراة الحالية: " وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ،

وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، فَخَلَقَ الله الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ الله خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى. . . " (تكوين: ١ / ٢٦ ـ ٢٧). يقول مفسرو التوراة: إن المقصود بكون الإنسان خلق على صورة الله، هو ما يتميز به الإنسان عن الجمادات والنباتات والحيوانات بالعقل الكامل، والقدرة على النطق، والتعبير عما يريد، وبالإرادة والاختيار الحر وبالاستطاعة والقدرة، فضلا عن السمع والبصر والحياة والإدراك والعلم. . . الخ، أي أن هناك تشابه عام بين صورة الله في صفاته والإنسان، لذا قال سبحانه: إنه خلق الإنسان على صورته، وبتعبير آخر إن الله شاء أن يخلق مخلوقا تنعكس وتتجلى فيه ومضة من صفاته تعالى، من العقل والإرادة والاختيار والحياة والعلم والمعرفة والكلام والقدرة والسمع والبصر. . . الخ. ولما كانت صفات الكمال، من قوة وقدرة وعقل وحكمة، موجودة في الرجل أكثر من المرأة، لذا نجد بولس يعبر عن الرجل ـ كل رجل ـ بأنه " صورة الله " فيقول مثلًا في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (١١ / ٧): " وأما الرجل فما عليه أن يغطي رأسه لأنه صورة الله ومجده ". أما قول بولس عن المسيح في الشاهد الثاني: " فمع أنه في صورة الله، لم يعد مساواته لله غنيمة، بل تجرد من ذاته متخذا صورة العبد وصار على مثال البشر وظهر في هيئة إنسان. . . الخ "، فقد يظن البعض أن فيه تصريحًا بألوهيته؛ لأنه صرح بمساواته لله، وبأنه تجسّد وأخذ صورة العبد ولبس لباس البشر، فصرح بالتجسّد.

فنقول: إن قوله " مساواته لله " ليست إلا تعبيرا آخر عن عبارته " أنه في صورة الله " والتي عرفنا أن المقصود منها: أنه لما كان الإنسان الكامل مجلى وصورة تنعكس فيها صفات الحق جلَّ وعلا، من عقل كامل وعلم وإرادة واختيار وقدرة وعدل وحكمة، وطهر وقداسة، وحب ورحمة ورأفة. . . . الخ؛ لذا عبر عنه بأنه صورة الله، ومماثل لله، فيقول بولس: إن المسيح لم يستغل هذا التناظر والتساوي (الصفاتي الصوري) مع الله، لكي يفتخر ويتكبر ولا يخضع لله ويرى أنه صار على مستوى الله، كلا وحاشا، ولعله في هذا يلمِّح إلى آدم الذي ـ

حسبما تنقل التوراة التي تشكل خلفية فكر بولس باعتباره كان من أحبار اليهود ـ حاول أن يستغل قدرته وإرادته الحرة للأكل من الشجرة المحرمة؛ ليكون مساويًا لله في علمه وأبديته، حيث إن الشجرة ـ حسب نقل تلك التوراة ـ كانت شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الخلد والملك الذي لا يبلى ولا يفنى، أما المسيح فعلى العكس اختار التواضع والطاعة لمشيئة أبيه ووضع نفسه واستسلم للموت ـ على حد قول بولس ـ.

وأما قوله عن المسيح: إنه صار على مثال البشر وظهر بهيئة إنسان، فيعود لفكرة بولس عن المسيح التي سبق وشرحناها، وهي أنه يرى في المسيح أول (أو بتعبيره: بكر) خليقة الله، فكان كائنًا روحيًا قبل خلق العالم وبه وفيه خلق الله سائر الأشياء، فليس في تجسده أي إشارة للألوهية أو دلالة عليها.

ولا يختلف تجسده عن تجسد جبريل الأمين لما ظهر لمريم أو تجسد الملائكة الثلاثة الذين زاروا إبراهيم ؛ إذ من البديهي أن التجسد بحد ذاته، لا يعني أكثر من ظهور كائن روحي بمظهر جسدي إنساني، أما أن هذا الكائن الروحي كان قبل تجسده إلهًا أو غير إله، فهذا يحتاج لدليل آخر.

الثاني: وإذا نظرنا إلى تتمة كلام بولس؛ ظهر لنا بكل وضوح انتفاء قصد إلهية المسيح واستحالة كون المسيح هو الله في نظر بولس، حيث قال: " فوضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب، لذلك رفعه الله إلى العلى ووهب له الاسم الذي يفوق جميع الأسماء. . . " (فيليبي: ٢ / ٨ ـ ٩).

فعبارات: أنه مات ثم رفعه الله إلى العلا ووهب له الاسم. . . تصيح بأعلى صوتها أن المسيح ليس الله، بل عبد لله، محتاج له، وليس بإله؛ لأن الإله لا يموت ولا يحتاج لمن يرفعه للعلا، ولا لمن يهبه أي شيء!

الثالث: أنه يظهر لنا من خلال ما سبق ما يلي:

١ - هذه الأقوال صدرت عن بولس، الذي لم يتشرف برؤية المسيح ، ولا التلمذة على يديه، ولا نرى مثل هذه العبارات عند أحد من تلاميذ المسيح وحوارييه، وهذا كاف

لإضفاء ظلال الشك والارتياب عليها.

٢- ثم إن الصورة تغاير الذات، وصورة الله هنا تعني " نائبه في إبلاغ شريعته ".

٣- كما قال بولس في موضع آخر عن الرجل: " فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ. " (كورنثوس ١١/ ٧)، ومعناه أن الله أناب الرجل في سلطانه على المرأة.

٤- كما أن كون المسيح على صورة الله لا يمكن أن يستدل به على ألوهيته، فإن آدم - وفق الكتاب المقدس - يشارك الله في هذه الصورة، فقد جاء في سفر التكوين عن خلقه: " وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، ... فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. " (التكوين ١/ ٢٦-٢٧).

٥- فإن أصر النصارى على الجمع بين الصورة وألوهية المسيح؛ فإن في الأسفار ما يخطئهم، فقد جاء في إشعيا " اِجْتَمِعُوا يَا كُلَّ الأُمَمِ مَعًا ... لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا بِي... قَبْلِي لَمْ يُصَوَّرْ إِلهٌ وَبَعْدِي لاَ يَكُونُ. أَنَا أَنَا الرَّبُّ، وَلَيْسَ غَيْرِي مُخَلِّصٌ. " (إشعيا ٤٣/ ٩-١١).

٤. **السجود للمسيح:** وتتحدث الأناجيل عن سجود بعض معاصري المسيح له، ويرون في سجودهم له دليل ألوهيته واستحقاقه للعبادة. فقد سجد له أب الفتاة النازفة " وَفِيمَا هُوَ يُكَلِّمُهُمْ بِهذَا، إِذَا رَئِيسٌ قَدْ جَاءَ فَسَجَدَ لَهُ " (متى ٩/ ١٨). كما سجد له الأبرص "إذا أبرص قد جاء وسجد له " (متى ٨/ ٢)، وسجد له المجوس في طفولته " فخروا وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم " (متى ٢/ ١١).

فيما رفض بطرس سجود كرنيليوس له، وقال له: "قم أنا أيضًا إنسان" (أعمال ١٠/ ٢٥)، فقد اعتبر السجود نوعًا من العبادة لا ينبغي إلا لله، وعليه يرى النصارى في رضا المسيح بالسجود له دليلًا على أنه كان إلهًا.

ولا ريب أن السجود مظهر من مظاهر العبادة.

والجواب من وجوه:

١- أن السجود لا يعني بالضرورة: أن كل سجود عبادة، فمن السجود ما هو

للتبجيل والتعظيم فحسب، كما سجد إبراهيم إكراما لبني حث " فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الأَرْضِ، لِبَنِي حِثَّ" (التكوين ٢٣/ ٧).

٢- كما سجد يعقوب ﷺوأزواجه وبنيه لعيسو بن إسحاق حين لقائه " وَأَمَّا هُوَ فَاجْتَازَ قُدَّامَهُمْ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ حَتَّى اقْتَرَبَ إِلَى أَخِيهِ. [٤] فَرَكَضَ عِيسُو لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ، وَبَكَيَا. ثُمَّ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ وَقَالَ: «مَا هؤُلاَءِ مِنْكَ؟ » فَقَالَ: «الأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله بِهِمْ عَلَى عَبْدِكَ». [٦] فَاقْتَرَبَتِ الْجَارِيَتَانِ هُمَا وَأَوْلاَدُهُمَا وَسَجَدَتَا. [٧] ثُمَّ اقْتَرَبَتْ لَيْئَةُ أيضًا وَأَوْلاَدُهَا وَسَجَدُوا. وَبَعْدَ ذلِكَ اقْتَرَبَ يُوسُفُ وَرَاحِيلُ وَسَجَدَا. " (التكوين ٣٣/ ٣-٧).

٣- كما سجد موسى ﷺ لحماه حين جاء من مديان لزيارته "فخرج موسى لاستقبال حميه، وسجد، وقبله" (الخروج ١٨/ ٧).

٤- وسجد إخوة يوسف ﷺ تبجيلًا، لا عبادة لأخيهم يوسف "أتى إخوة يوسف، وسجدوا له بوجوههم إلى الأرض" (التكوين ٤٢/ ٦)، واستمرت هذه العادة عند بني إسرائيل " وبعد موت يهويا داع جاء رؤساء يهوذا، وسجدوا للملك " (الأيام (٢) ٢٤/ ٧). وكل هذه الصور وغيرها كثير، لا تفيد أكثر من الاحترام، وعليه يحمل سجود من سجد للمسيح ﷺ.

وأما رفض بولس وبطرس لسجود الوثنيين لهما؛ فكان بسبب أن مثل هؤلاء، قد يكون سجودهم من باب العبادة، لا التعظيم، خاصة أنهم يرون معجزات التلاميذ، فقد يظنونهم آلهة لما يرونه من أعاجيبهم.

رابعًا: نصوص نسبت صفات الله إلى المسيح.

١. أزلية المسيح. ويتحدث النصارى عن المسيح الإله الذي كان موجودًا في الأزل قبل الخليقة، ويستدلون لذلك بأمور، منها ما أورده يوحنا على لسان المسيح أنه قال: " أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ». [٥٧] فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟ » [٥٨] قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ"

(يوحنا ٨/ ٥٦-٥٨)، ففهموا منه - باطلًا - أن للمسيح عليه السلام وجودا قبل إبراهيم، مما يعني - وفق فهمهم - أنه كائن أزلي. وأيدوا استشهادهم بما ذكره يوحنا عن المسيح: " هُوَذَا يَأْتِي مَعَ السَّحَابِ، وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ، وَالَّذِينَ طَعَنُوهُ، وَيَنُوحُ عَلَيْهِ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ. نَعَمْ آمِينَ. ٨«أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ. " (الرؤيا ١/ ٧-٨) أي الأول والآخر. كما جاء في مقدمة يوحنا ما يفيد وجودًا أزليًا للمسيح قبل خلق العالم " فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. ٢ هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. " (يوحنا ١/ ١-٢). فهذه النصوص مصرحة - حسب رأي النصارى - بأزلية المسيح وأبديته، وعليه فهي دليل ألوهيته.

ويخالف المحققون في النتيجة التي توصل إليها النصارى:

١- إذ ليس المقصود من الوجود قبل إبراهيم الوجود الحقيقي للمسيح كشخص، بل المقصود الوجود القدري والاصطفائي، أي أن اختيار الله واصطفاءه له قديم، كما في قول بولس عنه - حسب الرهبانية اليسوعية -: "وكان قبل اصطفي قبل إنشاء العالم" (بطرس (١) ١/ ٢٠)، ومثله قال بولس عن نفسه وأتباعه: " كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ" (أفسس ١/ ٤) أي اختارنا بقدره القديم كما اختار المسيح واصطفاه، ولا يفيد أنهم وجدوا أو أنه وجد حينذاك.

٢- وهذا الوجود القديم للمسيح عليه السلام أي الاصطفاء الإلهي والمحبة الإلهية له هو المجد الذي منحه الله المسيح، كما في قوله: " وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ. " (يوحنا ١٧/ ٥).

٣- وهو المجد الذي أعطاه لتلاميذه حين اصطفاهم واختارهم للتلمذة كما الله اختاره للرسالة " أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا، لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. " (يوحنا ١٧/ ٢٤)، ومحبة الشيء لا تستلزم وجوده، فقد يحب المرء المعدوم أو المستحيل، الذي لم ولن يوجد.

٤- ومعرفة إبراهيم للمسيح - عليهما السلام - قبل خلقه ووجوده الأرضي، ليست معرفة لشخصه طبعا، لأنه لم يره قطعا، لذا فقوله: " فقد رآني وابتهج بي"، هو رؤية

مجازية، وهي رؤية المعرفة، وإلا لزم النصارى أن يذكروا دليلا على رؤية إبراهيم للابن الذي هو الأقنوم الثاني، أو أن يثبتوا لجسد المسيح وجودا زمن إبراهيم ﵇، وقول المسيح: "من قبل أن يكون إبراهيم كنت أنا " (يوحنا ٨/ ٥٦-٥٨)، لا يدل على وجوده في الأزل، وغاية ما يفيده النص - إذا أخذ على ظاهره - أن للمسيح ﵇وجودًا أرضيًا يعود إلى زمن إبراهيم، وزمن إبراهيم لا يعني الأزل.

٥ -ثم لو كان المسيح أقدم من إبراهيم وسائر المخلوقات، فإن له من يشاركه في هذه الأقدمية، وهو النبي إرمياء، والذي عرفه الله منذ القدم وقدسه قبل أن يخرج من رحم أمه، إذ يقول عن نفسه: " فَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَيَّ قَائِلًا: ٥«قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ" (إرمياء ١/ ٤-٥)، وقال عنه ابن سيراخ في حكمته: "وهو الذي قدس في جوف أمه" (ابن سيراخ ٤٩/ ٧)، وهذه المعرفة الإلهية لإرمياء بلا ريب أشرف من معرفة إبراهيم للمسيح وأقدم، ولا تستلزم وجودًا حقيقيًا له على الأرض.

٦- وممن شارك المسيح في هذه الأزلية المدعاة، ملكي صادق كاهن ساليم في عهد إبراهيم، فإن بولس يزعم أن لا أب له ولا أم، ويزعم أن لا بداية له ولا نهاية، أي هو أزلي أبدي، يقول بولس: " لأَنَّ مَلْكِي صَادَقَ هذَا، مَلِكَ سَالِيمَ، كَاهِنَ اللهِ الْعَلِيِّ، الَّذِي اسْتَقْبَلَ إِبْرَاهِيمَ رَاجِعًا مِنْ كَسْرَةِ الْمُلُوكِ وَبَارَكَهُ، ٢الَّذِي قَسَمَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عُشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. الْمُتَرْجَمَ أَوَّلًا «مَلِكَ الْبِرِّ» ثُمَّ أَيْضًا «مَلِكَ سَالِيمَ» أَيْ «مَلِكَ السَّلاَمِ» بِلاَ أَبٍ، بِلاَ أُمٍّ، بِلاَ نَسَبٍ. لاَ بَدَاءَةَ أَيَّامٍ لَهُ وَلاَ نِهَايَةَ حَيَاةٍ. بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِابْنِ اللهِ. هذَا يَبْقَى كَاهِنًا إِلَى الأَبَدِ. " (عبرانيين ٧/ ١-٣)، فلم لا يقول النصارى بألوهية ملكي صادق الذي يشبه بابن الله، لكثرة صور التشابه بينهما، بل هو متفوق على المسيح الذي يذكر النصارى أنه صلب ومات، وله أم بل وأب – حسب ما أورده متى ولوقا –، في حين أن ملكي صادق قد تنزه عن ذلك كله!

٧- ومن هؤلاء الذين كانوا قبل إبراهيم ويستحقون الأزلية - لو فهمت النصوص

على ظاهرها - حكمة البشر أو النبي سليمان الحكيم حين قال عن نفسه وعن حكمة الله التي تجسدت فيه وفي غيره من البشر: "أنا الحكمة أسكن الذكاء، وأجد معرفة التدابير. . . الرب قناني أول طريقه، من قبل أعماله منذ القديم، منذ الأزل مسحت، منذ البدء، منذ أوائل الأرض، إذ لم يكن ينابيع كثيرة المياه، ومن قبل أن تقرر الجبال أبدئت، قبل التلال أبدئت " (الأمثال ٨/ ١٢-٢٥)، فقد أضحى سليمان أو الحكمة البشرية - وفقا للفهم الظاهري الحرفي - مسيحًا للرب منذ الأزل، وقول بعض النصارى: إن سفر الأمثال كان يتحدث عن المسيح ﷺ، لا دليل عليه، فسفر الأمثال قد كتبه سليمان كما في مقدمته "أمثال سليمان بن داود" (الأمثال ١/ ١)، وقد تكرر في مواضع متفرقة منه استمرار سليمان الحكيم في الحديث، وهو يقول: "يا ابني أصغ إلى حكمتي" (الأمثال ٥/ ١)، وانظر (الأمثال ١/ ٨، ٣/ ١، ٣/ ٢١، ٥/ ١، ٧/ ١ وغيرها)، فالمتحدث في السفر هو سليمان ﷺ والحكمة المتجسدة فيه. وسليمان هو الموصوف بالحكمة في الكتاب المقدس، وأي حكمة؟ حكمة الله، فقد رأى معاصروه فيه حكمة الله " وَلَمَّا سَمِعَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ بِالْحُكْمِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ الْمَلِكُ خَافُوا الْمَلِكَ، لأَنَّهُمْ رَأَوْا حِكْمَةَ الله فِيهِ لإِجْرَاءِ الْحُكْمِ" (الملوك (١) ٣/ ٢٨). ويمضي السفر ليبين لنا عظم حكمة الله، التي حلت وتجسدت فيه، فيقول: " وأعطى الله سليمان حكمة وفهمًا كثيرًا جدًا. . . وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر، وكان أحكم من جميع الناس. . . وكان صيته في جميع الأمم حواليه. . . وكانوا يأتون من جميع الشعوب؛ ليسمعوا حكمة سليمان، من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته" (الملوك (١) ٤/ ٢٩-٣٤).

وفي سفر الأيام " مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ الَّذِي صَنَعَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، الَّذِي أَعْطَى دَاوُدَ الْمَلِكَ ابْنًا حَكِيمًا صَاحِبَ مَعْرِفَةٍ وَفَهْمٍ، الَّذِي يَبْنِي بَيْتًا لِلرَّبِّ وَبَيْتًا لِمُلْكِهِ" (الأيام (٢) ٢/ ١٢)، فالحكيم هو سليمان الذي شرفه الله ببناء بيته.

٨- وكلمة "منذ الأزل مسحت" لا تدل على المسيح عيسى ابن مريم؛ إذ "المسيح"

لقب أطلق على كثيرين غير المسيح عيسى، ممن مسحهم الله ببركته من الأنبياء كداود وإشعيا. (انظر المزمور ٤٥/ ٧، وإشعيا ٦١/ ١)، فلا وجه لتخصيص المسيح بالمسح دون غيره ممن المسوحين. وأمام الحرج الذي يسببه نص سفر الأمثال؛ فإن البعض من النصارى يقولون: إن المتحدث في سفر الأمثال، هو حكمة الله، التي هي صفته الذاتية القائمة به في الأزل، وليس فعله الذي منحه لنبي الله سليمان، وهذا المعنى مرفوض بدلالة النص الذي يتحدث عن نبي ممسوح بزيت البركة "منذ الأزل مسحت"، وصفة الله القائمة به لا يمكن أن تمسح، ولماذا تمسح؟

كما أن النص يتحدث عن حكمة مخلوقة، وإن كانت قديمة، فقد قالت الحكمة: "الرب قناني أول طريقه. . ومن قبل أن تقرر الجبال أبدئت، قبل التلال أبدئت "، وفي الترجمة الإنجليزية المسماة (THE GOOD NEWS BIBLE): ، والصادرة عام ١٩٧٨ - ١٩٩٧، تستخدم كلمة (خلقني)، فتقول: The lord created me " بدلًا من قوله: (الرب قناني). وهو ذات الصنيع الذي صنعته نسخة الرهبانية اليسوعية، ففيها: "الرب خلقني أول طرقه، قبل أعماله"، وهكذا فهذه الحكمة مخلوقة قديما، وهي مبدأة من قبل الجبال والتلال.

وفي حكمة ابن سيراخ "قبل كل شيء خلقت الحكمة" (ابن سيراخ ١/ ٤)، وتحديدًا "قبل الدهور، ومنذ البدء خلقني، وإلى الدهور لا أزول" (سيراخ ٢٤/ ٩)، فهي ليست حكمة الله الأزلية، بل حكمته التي أعطاها الحكماء فتجسدت فيهم، وفي مقدمتهم سليمان الحكيم، والذي "رأوا حكمة الله فيه " (الملوك (١) ٣/ ٣٨).

والمتأمل بتجرد للنص؛ لن يجد صعوبة لفهم نوع الحكمة التي تتحدث في النص السالف، فهي ثمينة " لأَنَّ الْحِكْمَةَ خَيْرٌ مِنَ اللآلِئِ، وَكُلُّ الْجَوَاهِرِ لاَ تُسَاوِيهَا. " (الأمثال ٨/ ١١)، وهي بشرية "فم الصديق ينبت الحكمة" (الأمثال ١٠/ ٣١)، وأول درجات هذه الحكمة البشرية مخافة الله "بدء الحكمة مخافة الله" (الأمثال ٩/ ١٠).

وأيضًا هذه الحكمة هبة الله للإنسان "الرب يعطي حكمة من فمه: المعرفة والفم" (الأمثال ٢/ ٦)، هي حكمة مقترنة بالفهم دائما، ويوصي كاتب السفر فيقول: "قل للحكمة أنت أختي، وادع الفهم ذا قرابة، لتحفظك من المرأة الأجنبية. . " (الأمثال ٧/ ٤-٥). وبهذه الحكمة ساد السادة من الملوك والقضاة والأغنياء على غيرهم "أنا الحكمة أسكن الذكاء. . لي المشورة والرأي، أنا الفهم لي القدرة، بي تملك الملوك، وتقضي العظماء عدلا، بي تترأس الرؤساء والشرفاء، كل قضاة الأرض، أنا أحب الذين يحبونني، والذين يبكرون إلي يجدونني، عندي الغنى والكرامة، قنية فاخرة فاخرة وحظ، ثمري خير من الذهب ومن الإبريز، وغلتي خير من الفضة المختارة، في طريق العدل أتمشى، في وسط سبل الحق، فأورث محبي رزقا، وأملأ خزائنهم، الرب قناني أول طريقه. . . " (الأمثال ٨/ ١٢-٢٢). فالمتأمل لهذا وغيره - لا ريب - يجزم بأن هذه الحكمة، ليست صفة الله الأزلية القائمة به؛ إذ تلك لا تثمن بالجواهر واللآلئ، ولا تثمر الغنى والمال والملك والسلطان، كما لا تنبت من فم البشر، ولا تشمل بالطبع مخافة الله لأنها صفة الله. [1]

٢. مقدمة إنجيل يوحنا: وأما الاستدلال على ألوهية المسيح بمقدمة يوحنا: " **فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ** " (يوحنا ١/ ١-٣) فقد كان للمحققين معه وقفات عديدة ومهمة، منها:

١- هذا النص ليس من كلام المسيح ، ولا من كلام أي حواري أو تلميذ مباشر

---

(١) ولربما أشكل على القارئ الكريم وصف سفر الأمثال للحكمة، بأنها صانعة أو خالقة في قوله: "كنت عنده صانعًا، وكنت كل يوم لذته فرحة دائمًا قدامه، فرحة في مسكونة أرضه " (الأمثال ٨/ ٣٠-٣١)، لكنه في الحقيقة تحريف مقصود بغرض الإلباس والتدليس، فالنص في الرهبانية اليسوعية مختلف تماما؛ إذ يقول: "وكنت عنده طفلًا، وكنت في نعيم يومًا فيومًا، ألعب أمامه في كل حين، ألعب على وجه أرضه"، وهو كما ترى لا يتحدث عن الحكمة الصانعة، بل عن الحكمة الطفولية التي تنشأ في الإنسان من سني لعبه وطفولته، وتترعرع وتنضج في قابل عمره.

من تلاميذه، بل كلام مسيحي تابعي ـ إن صح التعبير ـ وفيلسوف عاش في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني فلا يحمل في طياته أية حجة إلهية ملزمة. أما دعوى أنه كتب إنجيله بإلهام ووحي من الله فلا دليل علها إلا مجرد الظن.

٢ـ ما هو اعتقاد يوحنا كاتب هذا الإنجيل كما جاء في إنجيله ورسائله؟

هناك عبارات صريحة واضحة ليوحنا نفسه، تؤكد عبودية المسيح لله تعالى، وأن الله تعالى إله المسيح وخالقه:

(١) أما نصه على أن الله تعالى إله المسيح وبالتالي فالمسيح عبد مربوب لله، فقد جاء في رؤيا يوحنا الكشفية (١ / ٦) حين قال: "... ومن لدن يسوع المسيح الشاهد الأمين والبكر من بين الأموات وسيد ملوك الأرض، ذاك الذي أحبنا فحلنا من خطايانا بدمه، وجعل منا مملكة من الكهنة لإلهه وأبيه... "

(٢) وأما نصه على أن المسيح مخلوق لله سبحانه وتعالى، فجاء واضحا في رسالته الأولى (٢/ ١) في قوله: " أكتب إليك ما يقول الأمين (المسيح)، الشاهد الأمين الصادق، بدء خليقة الله... "

(٣) وأما أن المسيح يستمد من الله، وبالتالي لا يمكن أن يكون إلهًا لأن الله غني بذاته، فقد جاء ذلك مثلًا في رؤياه الكشفية أيضًا (١ / ١) حين يقول: " هذا ما كشفه يسوع المسيح بعطاء من الله ".

(٤) وأما عن الغيرية الكاملة والتمايز والاثنينية بين الله: الآب والمسيح عليه السلام، فالأمثلة عليه كثيرة من كلام يوحنا، نكتفي بهذا الشاهد من رسالته الأولى (٢/ ١): " وإن خطئ أحد فهناك شفيع لنا عند الآب وهو يسوع المسيح البار. "

(٥) ثم إن نفس النصوص الإنجيلية، التي سقناها قبل من إنجيل يوحنا، النافية لإلهية عيسى والمثبتة لعبوديته، تصلح كذلك للكشف عن عقيدة يوحنا مؤلف ذلك الإنجيل حول عدم إلهية المسيح؛ إذ من البديهي أن الرجل دوَّن في إنجيله ما يعتقده أو أنه كان يعتقد بما دونه، ونكتفي هنا بإشارة سريعة لثلاث نصوص قاطعة من إنجيل يوحنا:

١- " قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم " (إنجيل يوحنا: ٢٠ / ١٧).

٢- " تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب، قد أتت الساعة. . . وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته. . . " (إنجيل يوحنا: ١٧ / ١ ـ ٣).

٣- " فقال لهم يسوع: لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله " إنجيل (يوحنا: ٨/ ٤٠).

ومن خلال هذه النصوص تبدو عقيدة يوحنا، وأنه لم يعلِّم التثليث، ولا أن الله هو المسيح، بل أفرد الله تعالى وحده بالإلهية، فينبغي أن يبقى هذا بالبال عند مناقشتنا التالية لما جاء في مقدمة الإنجيل التي استندوا إليها من كلام يوحنا؛ لأنه ما دام قد ثبت معنا بالدلائل السابقة أن يوحنا هذا يؤمن بأن الله الآب هو الإله الحقيقي وحده وإله المسيح وخالقه ومرسله؛ فلكي يكون كلام يوحنا منسجمًا مع بعضه، لا بد أن يُفهَم هذا النص أو يُفسَّر على نحو يتسق وينسجم مع عقيدته التوحيدية تلك، وهناك تفسيران محتملان لهذا النص:

التفسير المعقول الأول: هذه الافتتاحية قرأها كثير من القدماء على نحو فيه اختلاف بسيط في اللفظ، لكن مهم جدا، وقد أورد الغزالي في كتابه " الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل " اللفظ القديم الذي يمثل الترجمة الحرفية للمتن اليوناني الأصلي على النحو التالي: " في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، **وإله هو الكلمة**، كان هذا قديمًا عند الله، كلٌّ به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان "

فالفرق بين الترجمتين هو في الجملة الثالثة، ففي حين تقول الترجمات الحديثة: " وكان الكلمةَ الله "، تقول الترجمة الحرفية القديمة: " وإلهٌ هو الكلمة " بتنكير إله. وتذكر الكتب التي تتحدث عن تاريخ العقيدة النصرانية، أن آريوس ومنكري ألوهية المسيح كانوا يؤكدون على أن الترجمة الحرفية الصحيحة للأصل اليوناني هي: " وإلهٌ هو الكلمة " والمسألة هي أن

كلمة " إله " في اصطلاح الإنجيل ـ واصطلاح الكتاب المقدس بشكل عام ـ لا تعني بالضرورة الله، بل تأتي أحيانا على معنى السيد والرئيس المطاع، مثل كلمة الرب، أو على معنى الملاك العظيم ونذكر مثالين على ما نقول: (١) جاء في سفر الخروج من التوراة قول الله تعالى لموسى ﷺ: " قد جعلناك إلهًا لفرعون وأخاك هارون رسولك " (الخروج: ٧ / ١).

(٢) وفي المزمور الثاني والثمانين من سفر المزامير قول الله تعالى لداود ﷺ: " الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي. . (إلى قوله): أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون " (المزامير: ٨٢ / ١، ٦ ـ ٧). حيث يتفق مفسرو العهد القديم أن المقصود بالآلهة وببني العلي هنا: الرؤساء والقضاة والملائكة الذين هم أعضاء البلاط الإلهي ـ إذا صح التعبير ـ، وأن لقب آلهة وأبناء الله لهم ليس إلا لقبًا تشريفيًا لا أكثر، ولا يعني أبدًا أنهم شركاء الله تعالى في ذاته وإلهيته، كيف ومن تعاليم التوراة الأساسية وحدانية الله تعالى! وبناءً عليه، فعبارة " وإله هو الكلمة " معناها: وكائنٌ روحيٌّ عظيم بل رئيسٌ للكائنات وعظيمٌ مقرب من الله هو الكلمة.

هذا ومما يرجح هذه القراءة ويوجب المصير إلى هذا التفسير، أن الترجمات الحديثة التي تذكر " وكان الكلمة الله " تجعل افتتاحية يوحنا نصًا مختل المبنى غير مستقيم المعنى، بل لا معنى له ولا يصح لأن معناها يصبح هكذا:

"في البدء كان الله، وكان الله عند الله! وكان الله هو الله، الله كان في البدء عند الله! ".

ومن البديهي أن الشيء لا يكون عند نفسه، فلا يصح أن نقول كان زيد عند زيد! ! أما على التفسير الذي ذكرناه، فإذا صار الإله الْمُنكَّر بمعنى الكائن الروحي العظيم الذي هو غير الله، صح أن نعتبره كان عند الله. وقد نبه العلامة ديدات على هذا التلاعب في الترجمة الإنجليزية، وهي الأصل الذي عنه ترجم الكتاب المقدس إلى لغات العالم. فعاد بنا إلى الأصل اليوناني. فالنص في الترجمة اليونانية تعريبه هكذا "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله"، وهنا يستخدم النص اليوناني بدلا من كلمة (الله) كلمة هثيوس (hotheos)، وفي الترجمة الإنجليزية تترجم (God) للدلالة على أن الألوهية حقيقة. ثم

يمضي النص اليوناني، فيقول "وكان الكلمة (الله) " (وهنا يستخدم النص اليوناني كلمة تنتيوس بمعنى إله (tontheos)، وكان ينبغي أن يستخدم في الترجمة الإنجليزية كلمة (god) بحرف صغير للدلالة على أن الألوهية مجازية، كما وقع في نص سفر الخروج "جعلتك إلهًا لفرعون" (الخروج ٧/ ١)، ومثله في حديثه عن الشيطان، والذي أسماه بولس إله الدهر، الذي أعمى أذهان غير المؤمنين (انظر كورنثوس (٢) ٤/ ٤) فاستخدم النص اليوناني لرسالة بولس كلمة (tontheos)، وترجمت في النص الإنجليزي (god) مع وضع أداة التنكير (a). لكن الترجمة الإنجليزية حرفت النص اليوناني لمقدمة يوحنا، فاستخدمت لفظة (God) التي تفيد ألوهية حقيقة بدلا من (god) التي تفيد ألوهية معنوية أو مجازية، فوقع اللبس في النص، وهذا ولا ريب نوع من التحريف[1].

وقد استدركت بعض الترجمات العربية والعالمية الخطأ، فغيرت النص، منها نسخة ترجمة العالم الجديد في ترجماتها العالمية المختلفة، وقد جاء في نسختها العربية: "وكان الكلمة إلهًا". [2]

---

(١) انظر: مناظرتان في استكهولم، أحمد ديدات، صـ(١٣٥-١٣٧)، المسيح في الإسلام، أحمد ديدات، صـ(٨٤-٨٧).

(٢) قال الدكتور منقذ السقار: وقد أفردت ملحقًا خاصًا بتبيان التحريف الذي وقعت فيه النسخ المخالفة في قراءة هذه الكلمة، ومما جاء فيه: "إن عبارة يوحنا أن الكلمة أولوغوس كان (إلها) أو (إلهيا) أو (كإله)، لا تعني أنه كان الله الذي كان هو معه، إنها تعبر فقط عن صفة معينة للكلمة أولوغوس، ولكنها لا تحدد هويته أنه الله نفسه".

ونقلت عن فيليب هارنر الكاتب في مجلة أدب الكتاب المقدس (المجلد ٩٢/ ٨٧) قوله: "أنا أرى أن القوة الوصفية للمسند في يوحنا ١: ١ بارزة جدا بحيث إنه لا يمكن اعتبار الاسم معرفة".

يقول الأب متى المسكين في شرحه لإنجيل يوحنا: "هنا كلمة (الله) جاءت في الأصل اليوناني غير معرفة بـ (الـ). . . ، وحيث (الله) المعرف بـ (الـ) يحمل معنى الذات الكلية، أما الجملة الثانية فالقصد من قوله: "وكان الكلمة الله" هو تعيين الجوهر أي طبيعة (الكلمة)، أنها إلهية، ولا يقصد تعريف الكلمة أنه هو الله من جهة الذات. وهنا يحذر أن تقرأ (الله) معرفًا بـ (الـ) في "وكان الكلمة الله"، وإلا لا يكون فرق بين الكلمة والله، وبالتالي لا فرق بين الآب والابن، وهذه هي بدعة سابيليوس الذي قال أنها مجرد أسماء، في حين أن الإيمان المسيحي يقول: إن الأقانيم في الله متميزة، فالآب ليس هو الابن، ولا الابن هو الآب، وكل أقنوم له

التفسير الممكن الثاني: يرى البعض أن الكلمة هي الأمر الإلهي " كن فيكون "، الذي به يخلق الله ما يشاء من الكائنات، كما جاء في سفر المزامير: " بكلمة الرب صنعت السماوات. . . إنه قال فكان، وأمر فوجد " (المزمور: ٣٣/ ٦، ٩). وتصديق ذلك أننا نجد، في سفر التكوين من التوراة، أن الخلق تم بأوامر وكلمات إلهية: " وقال الله: ليكن نور، فكان نور. . . . . وقال الله: ليكن في وسط المياه. . . . فكان كذلك. . . . الخ " التكوين (١/ ٣، ٦).

وقالوا: إن الترجمة القديمة الصحيحة لعبارة " والكلمة صار جسدًا " هي: "والكلمة صنع جسدًا " أي أنه بالأمر الإلهي تم خلق إنسان بشر. فالكلمة هي الله ولكن الإنسان الذي خلق بها ليس الكلمة؛ وبالتالي فالمسيح مخلوق بالكلمة، وليس الكلمة ذاتها. ومنهم من يرى أن هناك محذوف تقديره: "و أثر الكلمة صار جسدًا".

وعلى كل حال، فهذه تفسيرات ممكنة ومعقولة لهذه الافتتاحية، ولا ندعي أنها صحيحة قطعا، لكن نرى أن المصير لفهم توحيدي للنص واجب، بعد أن عرفنا من عبارات يوحنا السابقة نفيه كون المسيح الله، وذلك عندما اعتبره مخلوقا خاضعا لله مستمدًا منه، وبين أن الله تعالى إلهُ المسيح، وأن الله هو الإله الحقيقي وحده. [1]

يقول الدكتور منقذ السقار: وإذا غض المحققون طرفهم عن ذلك كله، فإن في النص أمورًا ملبسة تمنع استدلال النصارى به على ألوهية المسيح:

اختصاصه الإلهي، كذلك فالله ليس هو الكلمة، والكلمة ليس هو الله الكلي"[2]. ونوافق الأب المسكين في كثير مما قاله عن تنكير الكلمة المستخدمة، ولا نوافقه على قوله: "وهنا يقابلنا قصور مكشوف في اللغة العربية فلا توجد كلمة (الله) بدون تعريف (الـ). . " إذ كلامه يوهم القارئ اضطرارهم إلى استخدام اللفظة المعرفة (الله) في غير معناها بسبب قصور اللغة العربية، وهو غير صحيح، فذكرها إلباس وتحريف، بدليل وقوعه في سائر التراجم العالمية، وفي مقدمتها الترجمة الإنجليزية التي تعرض عن استخدام اللفظ النكرة (god a)، وتصر على تعريف الكلمة (God). . . انظر: الله جل جلاله واحد أو ثلاثة، وانظر تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ١/ ٣٠٩، و (اختلافات في تراجم الكتاب المقدس ص ٤٢-٤٤.

(١) انظر: الأناجيل الأربعة ورسائل بولس تنفي ألوهية المسيح (ص ١٥٢)، ومناظرة بين الإسلام والنصرانية (٢/ ١٥٨).

أولها: ما معنى كلمة "البدء"؟ وأي بدء تعني؟ ما حده الزمني؟ وإذا كان له حد زمني فهل يكون له متعلق بالله؟ وهل ذلك مما يليق بكمال الله الذي لا يحصره شيء. . زمانًا. . . ومكانًا؟ فالله سبحانه أول بلا ابتداء ويجيب النصارى: أي الأزل. لكن ذلك لا يسلم لهم، فإن الكلمة وردت في الدلالة على معان منها:

١- وقت بداية الخلق والتكوين كما جاء في " في البدء خلق الله السموات والأرض" (التكوين ١/ ١)، ومثله قول المسيح عن إبليس أنه كان منذ البدء: " **أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَق** " (يوحنا ٨/ ٤٤).

٢- ومثله قاله متى على لسان المسيح، وهو يحاجج اليهود " **قَالُوا لَهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَق فَتُطَلَّقُ؟ » ٨قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هكَذَا.** " (متى ١٩/ ٧-٨)، ومعناه أن ذلك لم يكن مأذونًا به عند بداية الخليقة، وبداية الخلق لحظة مخلوقة، وليست الأزل الذي يسبق كل زمان.

٣- وترد كلمة البدء أيضًا، ويراد منها فترة معهودة من الزمن كما في قول لوقا: "كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء" (لوقا ١/ ٢)، أي في أول رسالة المسيح.

٤- ومثله قول يوحنا: " **أَيُّهَا الإِخْوَةُ، لَسْتُ أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ وَصِيَّةً جَدِيدَةً، بَلْ وَصِيَّةً قَدِيمَةً كَانَتْ عِنْدَكُمْ مِنَ الْبَدْءِ. الْوَصِيَّةُ الْقَدِيمَةُ هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي سَمِعْتُمُوهَا مِنَ الْبَدْءِ.** " (يوحنا ١: ٢/ ٧).

٥- ومثله أيضًا قول يوحنا: " **وَلكِنْ مِنْكُمْ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ». لأَنَّ يَسُوعَ مِنَ الْبَدْءِ عَلِمَ مَنْ هُمُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُهُ.** " (يوحنا ٦/ ٦٤).

٦- ومثله قوله في جواب اليهود لما سألوه: "فقالوا له: من أنت؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدء ما أكلمكم أيضًا به" (يوحنا ٨/ ٢٥)، فكل هذه الاستعمالات لكلمة البدء لا

يراد منها الأزل، بل أوقات معينة حادثة.

وعليه فلا يجوز قول النصارى، بأن المراد بالبدء هنا الأزل إلا بدليل مرجح.

ويرجح الشيخ العلمي في كتابه الفريد "سلاسل المناظرات" بأن المعنى هنا هو بدء تنزل الوحي على الأنبياء، أي أنه كان بشارة صالحة عرفها الأنبياء كما في (إرميا ٣٣/ ١٤). (١)

ثانيها: ما المقصود بالكلمة؟ هل هو المسيح عليه السلام؟ أم أن اللفظ يحتمل أمورًا أخرى، وهو الصحيح. فلفظة "الكلمة" لها إطلاقات في الكتاب المقدس، منها:

١- كتاب الله أو وحيه "وكانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا" (لوقا ٣/ ٢)، " أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها" (لوقا ٨/ ٢١) "لكن ليس هكذا حتى إن كلمة الله قد سقطت، لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون" (رومية ٩/ ٦).

٢- ومنها: الأمر الإلهي الذي به صنعت المخلوقات، كما جاء في المزامير "بكلمة الرب صنعت السموات، وبنسمة فيه كل جنودها. . لأنه قال فكان، هو أمر فصار" (المزمور ٣٣/ ٦-٩)، ولهذا المعنى سمي المسيح عليه السلام كلمة، لأنه خلق بأمر الله، من غير سبب بشري قريب (أي من غير أب)، أو لأنه - حسب المعنى الأول - أظهر كلمة الله.

٣- كما قد يسمى وعد الله كلمته؛ كما حكى النبي إرمياء استعجال بني إسرائيل ليوم البلاء والعذاب الذي أوعدهم الله إياه: " **هَا هُمْ يَقُولُونَ لِي: «أَيْنَ هِيَ كَلِمَةُ الرَّبِّ؟ لِتَأْتِ!»** ١٦ **أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَعْتَزِلْ عَنْ أَنْ أَكُونَ رَاعِيًا وَرَاءَكَ، وَلاَ اشْتَهَيْتُ يَوْمَ الْبَلِيَّةِ.** "

(إرمياء ١٧/ ١٥-١٦)، والمسيح وفق هذا المعنى كلمة الله؛ أي أنه الكلمة الموعودة المبشر بها على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأما المعنى الذي يزعمه النصارى للكلمة (اللوغس)، وأنها الأقنوم الثاني للثالوث الأقدس، فلم يرد في كتب الأنبياء البتة.

ثالثها: "وكان الكلمة الله" غاية ما يستدل بها أن المسيح عليه السلام أطلق عليه: (الله)، كما أطلق على القضاة في التوراة " **اَللهُ قَائِمٌ فِي مَجْمَعِ اللهِ. فِي وَسْطِ الآلِهَةِ يَقْضِي: ٢«حَتَّى مَتَى**

---

(١) انظر: سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية بين شيخ وقسيس، عبد الله العلمي، ص (٢٥٩-٢٦٢).

تَقْضُونَ جَوْرًا وَتَرْفَعُونَ وُجُوهَ الأَشْرَارِ؟ " (المزمور ٨٢/ ١)، وكما سمي به أشراف اليهود في قول داود: " أحمدك من كل قلبي، قدام الآلهة أرنم لك" (المزمور ١٣٨/ ١)، وقد قال الله لموسى عن هارون: " وهو يكون لك فما، وأنت تكون له إلهًا " (الخروج ٤ / ١٦). وغيرهم كما سبق بيانه.

رابعها: قوله: "والكلمة كان عند الله"، والعندية لا تعني المثلية، ولا المساواة. إنما تعني أن الكلمة خلقت من الله كما في قول حواء: "اقتنيت رجلًا من عند الرب" (التكوين ٤/ ١)، فقايين ليس مساويًا للرب، ولا مثله، وإن جاءها من عنده، وجاء في موضع آخر " وأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب" (التكوين ١٩/ ٢٤). [١] وما نبه عليه العلامة ديدات إلى أن هذا النص، قد انتحله كاتب الإنجيل من فيلون الإسكندراني (ت٤٠م)، وأنه بتركيباته الفلسفية غريب عن بيئة المسيح وبساطة أقواله وعامية تلاميذه، وخاصة يوحنا الذي يصفه سفر أعمال الرسل بأنه عامي عديم العلم، فيقول: " فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا، ووجدوا أنهما إنسانان عديمًا العلم وعاميان تعجبوا " (أعمال ٤/ ١٣). [٢]

خامسًا: نصوص نسبت أفعال الله إلى المسيح

أ. إسناد الخالقية لله بالمسيح:

كما أسندت بعض النصوص الخالقية لله بالمسيح، فتعلق النصارى بها، ورأوها دالة على ألوهيته ومنها قول بولس عن المسيح: " **فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ**" (كولوسي ١/ ١٦-١٧)، وفي موضع آخر يقول: "الله خالق الجميع بيسوع المسيح" (أفسس ٣/ ٩)، ومثله ما جاء في مقدمة يوحنا "كان في العالم، وكون العالم به، ولم يعرفه العالم" (يوحنا ١/ ١٠)، ومثله في (عبرانيين ١/ ٢) وغيرها.

---

(١) الله جل جلاله واحد أو ثلاثة ١ / ٥٥.

(٢) نقلًا عن كتاب الله جل جلاله واحد أو ثلاثة ٥٣، وانظر كتاب الأناجيل والعقيدة ١/ ١٧، ١٨.

والجواب من وجوه: ١- أننا نلحظ ابتداء أن الخلق في كافة النصوص الكتابية مسند لله تعالى فقط، فقد قال سفر التكوين "في البدء خلق الله السماوات والأرض" (التكوين ١/ ١)، ولم يذكر خالقا شارك الله بالخلق أو كان واسطة تم الخلق من خلاله، وفي سفر إشعياء "هكذا يقول الله الرب خالق السموات" (إشعيا ٤٢/ ٥)، كما وقد قال بولس وبرنابا لأهل مدينة لسترة: "نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها" (أعمال ١٤/ ١٥)، فلم يذكر الكتاب خالقا سوى الله العظيم.

وما بين أيدينا من أقوال بولس ويوحنا؛ فإنها إنما تتحدث عن الله الذي خلق بيسوع كما صنع المعجزات بيد يسوع (انظر أعمال ٢/ ٢٢)، ولا تذكر أنه هو الخالق أبدا، فغاية ما تحتمله هذه النصوص - لو سلم بصحتها - أن يقال بأن الله خلق بالمسيح ما خلق من الكائنات والمخلوقات. يقول القس جيمس أنس متحدثًا عن الأقانيم وأعمالها المختلفة: "ومن أمثلة التميز في الأعمال أن الآب خلق العالم بواسطة الابن"(١).

وهذا المعنى جد غريب لم تنطق به أنبياء العهد القديم، ولا ذكره المسيح عليه السلام، إنما ورد من كلام بولس ومقدمة يوحنا الفلسفية، المستمدة من الفكر الأفلوطيني والفلسفات الغنوصية؛ التي ترى أن الله أشرف من يخلق بنفسه، لذا ينيط هذا الفعل بالعقل الكلي أو الملائكة.

٢- ولا يمكن أن يكون المسيح عليه السلام خالقًا للسماوات والأرض وما بينهما؛ إذ هو ذاته مخلوق، وإن زعمت النصارى أنه أول المخلوقين، لكنه على كل حال مخلوق، والمخلوق غير الخالق " الذي هو صورة الله غير المنظور، بكر كل خليقة" (كولوسي ١/ ١٥).

٣- ثم إن الذي عجز عن رد الحياة لنفسه عندما مات؛ لهو أعجز من أن يكون خالقًا للسماوات والأرض، أو أن تخلق به "فيسوع هذا أقامه الله" (أعمال ٢/ ٣٢)، ولو لم يقمه الله لما عاد من الموتى، وفي موضع آخر: "ورئيس الحياة قتلتموه الذي أقامه الله من الأموات "

---

(١) علم اللاهوت النظامي، القس الدكتور جيمس أنس، ص (١٧٨).

(أعمال ٣/ ١٥)، ومثله قول بولس: "والله الآب الذي أقامه من الأموات" (غلاطية ١/ ١).

٤- ويرى المحققون أن المقصود من هذه النصوص؛ أن المسيح خلقت به الخلائق خلقة الهداية والإرشاد، لا الإيجاد والتكوين، فتلك خلقة الله فحسب، والخلقة التي خلقها الله بالمسيح ﷺ هي الخلقة الجديدة، خلقة الهداية، التي تحدث عنها داود، وهو يدعو الله بقوله: "قلبًا نقيًا اخلق في يا الله، وروحًا مستقيمًا جدد في داخلي" (المزمور ٥١/ ١٠). ومثله قال بولس عن المؤمنين بالمسيح: "إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة" (كورنثوس (٢) ٥/ ١٧). وقال: " **لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئًا وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ.** " (غلاطية ٦/ ١٥). وفي موضع آخر يقول: "تلبسوا الإنسان المخلوق الجديد بحسب الله في البر" (أفسس ٤/ ٢٤). وعلى هذا الأساس؛ اعتبر يعقوب التلاميذ باكورة المخلوقات فقال: "شاء فولدنا بكلمة الحق، لكي نكون باكورة من خلائقه" (يعقوب ١/ ١٨) أي أوائل المهتدين الذين تلبسوا بالخليقة الجديدة. وعليه؛ فإن المقصود من خلق المسيح للبشر هو الخلق الروحي، إذ جعله الله محييا لموات القلوب وقاسيها.

٥- لكن قائلًا قد يرد استدلالنا وتأولنا للنصوص بما يقرأه فيها من حديث عن خلق السماوات والأرض وما فيهما بالمسيح، فيرى أن النصوص التي يتعلق بها النصارى لا تتعلق بالبشر فقط؛ إذ فيها أن الله خلق به ما في السماوات والأرض، وهذا قد يراه البعض - ممن لم يعتد طريقة الأسفار في التعبير - مانعًا من صرف النص إلى الخليقة الجديدة.

أما الذين اعتادوا على طريقة الأسفار في التعبير، فإنهم يرون في هذه النصوص مبالغة معهودة، حملتها مرارا الأسفار التوراتية والإنجيلية، ومن ذلك وصف العهد الجديد المسيح ﷺ والتلاميذ أنهم نور العالم، يقول يوحنا: " **ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا قَائِلاً: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ** " (يوحنا ٨/ ١٢)، وقال لتلاميذه: "أنتم نور العالم" (يوحنا ٥/ ١٤). ومن المعلوم أنهم جميعًا كانوا نورًا استنار به المؤمنون، وأعرض عنه غيرهم، فأظلمت قلوبهم، ولا يمكن أن يدعى ظهور النور في الجماد والحيوان

الموجودين في العالم، فكما وصف النص يوحنا الإنجيلي المسيح وتلاميذه بنور العالم من غير أن يكون لهم أثر في إنارة غير قلوب المؤمنين من الكافرين أو الجمادات، فإنه وصف المسيح بأنه كان واسطة الخليقة الجديدة للعالم، والمقصود المؤمنون في العالم فحسب.

ومثله أيضًا، قول بولس عن المصالحة التي تمت بدم المسيح فإنه يقول: " **وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ، عَامِلاً الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ، بِوَاسِطَتِهِ، سَوَاءٌ كَانَ: مَا عَلَى الأَرْضِ، أَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.** " (كولوسي ١/ ٢٠)، مع أن المصالحة كما يجزم القس جيمس أنس خاصة بشعبه المفديين دون الجمادات والكائنات الكافرة التي في السماوات والأرض، فهؤلاء لا حظ لهم في المصالحة، التي قد يفهم من النص شمولها إياهم، كما قد يفهم من نصوص الخلق شموله غير المؤمنين. وقال بولس أيضًا عن الذين أرسل الله المسيح لفدائهم: " **لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ**" (أفسس ١/ ١٠).

يقول القس جيمس أنس: " لا يمكن أن يكون معنى (كل شيء) العالمين، حيها وجمادها، كالشمس والقمر والنجوم؛ لأنها ليست قابلة للمصالحة مع الله؛ ولهذا السبب عينه لا يمكن أن يقصد بها كل الحيوان، ولا يمكن أن يقصد بها كل الخلائق العاقلة الساقطة؛ لأن المسيح لم يأت ليفتدي الملائكة الساقطين (عبرانيين ٢/ ١٦) ولايقصد بها جميع البشر، لأن الكتاب يعلم أن ليس كل البشر يتصالحون مع الله"[(١)].

ومثله أيضًا قوله: "لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيحيا الجميع" (كورنثوس (١) ١٥/ ٢٢)، فلئن كان الموت يشمل جميع البشر بسبب خطية آدم؛ فإن الذين يحيون جميع المؤمنين فحسب، لا جميع البشر الأموات الذين ماتوا بسبب خطيئة آدم. لكن النص كما رأينا يفهم من ظاهره ما لا يقصد، يفهم منه العموم ويراد به الخصوص، ومثل هذه المبالغات في التعبير - كما أسلفنا - معهودة ومألوفة في الكتاب، إذ يقول موسى لبني إسرائيل: "هوذا أنتم اليوم كنجوم السماء في الكثرة، الرب إلهكم يزيد عليكم مثلكم

---

(١) علم اللاهوت النظامي، جيمس أنس، ص (٧٢٤).

ألف مرة" (التثنية ١/ ١٠-١١). ومثله في قوله: " **وَكَانَ الْمِدْيَانِيُّونَ وَالْعَمَالِقَةُ وَكُلُّ بَنِي الْمَشْرِقِ حَالِّينَ فِي الْوَادِي كَالْجَرَادِ فِي الْكَثْرَةِ، وَجِمَالُهُمْ لاَ عَدَدَ لَهَا كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِي الْكَثْرَةِ** " (القضاة ٧/ ١٢). وتصل المبالغة عند يوحنا أقصاها حين قال: " **وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ، إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ** " (يوحنا ٢١/ ٢٥)، فهذه المبالغة في الحديث عن خلقة الكون بالمسيح إنما هي بعض ما تعودناه من كتاب الكتاب المقدس.[١]

ب. إسناد الدينونة إلى المسيح: وتتحدث الأسفار عن المسيح عليه السلام وأنه ديان الخلائق يوم القيامة، يقول بولس: " **أَنَا أُنَاشِدُكَ إِذاً أَمَامَ اللهِ وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الْعَتِيدِ أَنْ يَدِينَ الأَحْيَاءَ وَالأَمْوَاتَ، عِنْدَ ظُهُورِهِ وَمَلَكُوتِهِ** " (تيموثاوس (٢) ٤/ ١)، فيرون في ذلك دليلا على ألوهيته، لأن التوراة تقول: "الله هو الديان" (المزامير ٥٠/ ٦).

والجواب من وجوه: ١- توجد نصوص تمنع أن يكون المسيح عليه السلام هو الديان "لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم، الذي يؤمن به لا يدان، والذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد" (يوحنا ٣/ ١٧)، فالمسيح لن يدين أحدا. وهو ما أكده يوحنا بقوله: "وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم، من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه (أي الله وشرعه). الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير" (يوحنا ١٢/ ٤٧-٤٨). وقال لهم أيضًا: أما أنا فلست ادين أحدا وإن كنت أدين فدينونتي حق لأنني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني (يوحنا ٨-٥).

٢- والمسيح عليه السلام لم يستطع أن يضمن الجنة لابني خالته وتلميذيه، ابني زبدي، لأن الله لم يأذن له بذلك، ومن كان هذا حاله فإنه عن الدينونة المطلقة أعجز، فقد جاءته أم ابني زبدي وكانا من تلاميذه "فسألها ما تريدين؟ قالت: أن يجلس ابناي هذان، واحد عن

---

(١) الله جل جلاله واحد او ثلاثة (٥٨) وانظر تخجيل من حرف التوراة والإنجيل.

يمينك، والآخر عن اليسار في ملكوتك. فأجاب يسوع، وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أعد لهم من أبي" (متى ٢٠/ ٢٠-٢٢).

٣- وإن أصر النصارى على أن الدينونة من أعمال المسيح ﵇ فإن آخرين يشاركونه فيها، وهم تلاميذه الاثنا عشر، بما فيهم الخائن يهوذا الأسخريوطي " فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم: إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده؛ تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًا، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" (متى ١٩/ ٢٨)، (وانظر لوقا ٢٢/ ٣٠).

٤- وبولس أيضًا وغيره من القديسين سيمارسون الدينونة حتى للملائكة، حيث يقول: "ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم؟. . . ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة" (كورنثوس (١) ٦/ ٢-٣). فهو وغيره من القديسين سيدينون الملائكة والعالم، وليسوا آلهة.

٥- ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن دينونة المسيح للبشر - إن صحت - قد دفعها الله للمسيح الإنسان، فهو يصنعها بمقتضى إنسانيته " وأعطاه سلطانا أن يدين أيضًا، لأنه ابن الإنسان " (يوحنا ٥/ ٢٧).

ج. غفران المسيح الذنوب. ومما يستدل به النصارى على ألوهية المسيح ﵇ما نقلته الأناجيل من غفران ذنب المفلوج والخاطئة على يديه، والمغفرة - كما يرون - من خصائص الألوهية، وعليه فالمسيح إله يغفر الذنوب، فقد قال للخاطئة مريم المجدلية: "مغفورة لك خطاياك " (لوقا ٧/ ٤٨)، كما قال للمفلوج: " ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك "، وقد اتهمه اليهود لما سمعوا ذلك منه بالتجديف فقالوا: " قالوا في أنفسهم: هذا يجدف " (متى ٩/ ٣)، أي أنه يدعي الإلهية حين يغفر للناس.

والجواب ما يلي:

١- إذا رجعنا إلى قصتي الخاطئة والمفلوج؛ فإنا سنرى وبوضوح أن المسيح ﵇ ليس هو من غفر ذنبيهما، ففي قصة المرأة لما شك الناس بالمسيح وكيف قال لها: "مغفورة خطاياك"، وهو مجرد بشر، أزال المسيح ﵇اللبس، وأخبر المرأة أن إيمانها هو الذي

خلصها، ويجدر أن ننبه إلى أن المسيح لم يدع أنه هو الذي غفر ذنبها، بل أخبر أن ذنبها قد غفر، والذي غفره بالطبع هو الله تعالى.

والقصة بتمامها كما أوردها لوقا: " **وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ. ٤٧مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيرًا. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً». ٤٨ثُمَّ قَالَ لَهَا: «مَغْفُورَةٌ لَكِ خَطَايَاكِ». ٤٩فَابْتَدَأَ الْمُتَّكِئُونَ مَعَهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: «مَنْ هذَا الَّذِي يَغْفِرُ خَطَايَا أَيْضًا؟ ». ٥٠فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ، اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ** " (لوقا ٧/ ٤٦-٥٠)، فقد غفر الله لها بإيمانها، والمسيح أخبرها برحمة الله التي وسعتها، وأفهم الحاضرين بوضوح أنه لم يجدف ولم يدع لنفسه مغفرة الخطايا. وإذا كان يغفر الخطايا فلم لم يغفر الله خطيئة آدم لأن الإنسان يقدر أن يغفر والله لا يقدر وأيضًا لماذا لم يغفرها المسيح من غير قتل او صلب يزيد الخطيئة ولا يمحوها؟. [1]

٢- وكذا في قصة المفلوج لم يدع المسيح أنه الذي يغفر الذنوب، فقد قال للمفلوج: "ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك" فأخبر بتحقق الغفران، ولم يقل: إنه هو الغافر لذنوب المفلوج.

٣- ولما أخطأ اليهود، ودار في خلدهم أنه يجدف، وبخهم المسيح على الشر الذي في أفكارهم، وصحح لهم الأمر، وشرح لهم أن هذا الغفران ليس من فعل نفسه، بل هو من سلطان الله، لكن الله أذن له بذلك، كما سائر المعجزات والعجائب التي كان يصنعها، وقد فهموا منه المراد، وزال اللبس من صدورهم، "فلما رأى الجموع تعجبوا، ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا ". (متى ٩/ ٨). والقصة بتمامها كما أوردها متى تقول: " **قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». ٣وَإِذَا قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ قَدْ قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: «هذَا يُجَدِّفُ! » ٤فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، فَقَالَ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟ ٥أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَامْشِ؟ ٦وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا». حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «قُمِ احْمِلْ**

(١) وانظر مناظرة بين الإسلام والنصرانية ١٩٣ و٢٧٤.

فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ! » ٧فَقَامَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ. ٨فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا اللهَ الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا. " (متى ٩/ ٣-٨).

فاتضح من هذا النص أمران: الأول: أن المسيح لم يقل للمفلوج: ثق يا بني لقد غفرتُ لك خطاياك! بل أنبأه قائلًا: مغفورة لك خطاياك. والفرق واضح بين الجملتين، فالجملة الثانية لا تفيد أكثر من إعلام المفلوج؛ بأن الله تعالى قد غفر ذنوبه، وليس في هذا الإعلام أي دليل على ألوهية المسيح؛ لأن الأنبياء والرسل المؤيدين بالوحي والمتصلين بجبريل الأمين، يطلعون بإطلاع الله تعالى لهم، على كثير من المغيبات والشؤون الأخروية ومنها العاقبة الأخروية لبعض الناس، كما أخبر نبينا محمد ﷺ عن بعض صحابته فبشرهم أنهم من أهل الجنة وعن آخرين فبشرهم أنهم من أهل النار.

ثانيًا: قد يشكل على ما قلناه قول المسيح فيما بعد، ولكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا، فنسب غفران الخطايا لنفسه.

قلنا: آخر النص يجعلنا نحمل هذه النسبة على النسبة المجازية، أي على معنى أن ابن الإنسان (المسيح) خوله الله أن يعلن غفران خطايا، وذلك لأن الجملة الأخيرة في النص السابق تقول: " فلما رأى الجموع ذلك تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا "، فالغافر بالأصل والأساس هو الله تعالى، ثم هو الذي منح هذا الحق للمسيح وأقدره عليه؛ لأن المسيح فنى في الله تعالى وكان على أعلى مقام من الصلة بالله والكشف الروحي ولا يتحرك إلا ضمن حكمه وإرادته فلا يبشر بالغفران إلا من استحق ذلك.

ومما يؤكد أن غفران المسيح للذنوب هو تخويل إجمالي من الله تعالى له بذلك، وليس بقدرة ذاتيه له عليه السلام، هو أن المسيح، في بعض الحالات كان يطلب المغفرة للبعض من الله تعالى فقد جاء في إنجيل لوقا (٢٣ / ٣٤): " فقال يسوع: يا أبتاه! اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون ". فانظر كيف طلب من الله غفران ذنبهم ولو كان إلهًا يغفر الذنوب

بذاته ومستقلًا، كما ادعوا، لغفر ذنوبهم بنفسه.[١]

٤- وهذا السلطان دفع إليه، كما دفع كثير غيره من الله تبارك وتعالى: "التفت إلى تلاميذه وقال: كل شيء قد دفع إلي من أبي" (لوقا ١٠/ ٢٢)، وإلا فهو لا حول له ولا قوة، قد قال في موضع آخر: " دفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى ٢٨/ ١٨)، لكنه ليس سلطانه الشخصي، بل هو قد دفع إليه من الله، ولو كان إلهًا لكان هذا من خصائصه وقدراته الذاتية، لكنه يعجز عنه ﷺ، لأنه عبد الله، وكما يقول عن نفسه: " أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا" (يوحنا ٥/ ٣٠)، فلولا دفع الله بهذا السلطان إليه لما قدر على غفران ذنب أو خطيئة.

٥- وسأل اليهود المسيح ﷺ"وكلموه قائلين: قل لنا: بأي سلطان تفعل هذا؟ أو من هو الذي أعطاك هذا السلطان؟ " فلم يزعم المسيح أنه سلطان ذاتي امتلكه بموجب لاهوته الأزلي، بل سألهم عن السلطان الذي كان ليوحنا المعمدان في معمودية غفران الذنوب من أين هو؟ فقال: "وأنا أيضًا أسألكم كلمة واحدة، فقولوا لي: معمودية يوحنا المعمدان، من السماء كانت أم من الناس؟ " (لوقا ٢٠/ ٢-٤)، أي أنه يصنع الغفران وغيره بذات السلطان الذي كان للمعمدان، إنه سلطان النبوة فحسب.

٦- وسلطان غفران الخطايا دفع أيضًا إلى غير المسيح ﷺ، فقد دفع إلى التلاميذ، وأصبح بمقدورهم غفران الذنوب التي تتعلق بحقوقهم الشخصية، بل وكل الذنوب والخطايا، ومغفرتهم للذنوب الشخصية بحقهم يقول عنه المسيح: "إن غفرتم للناس زلاتهم؛ يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي، وإن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم" (متى ٦/ ١٤-١٥). فيما يعطيهم يوحنا صكًا مفتوحًا في غفران أي ذنب وخطيئة، فيقول: "من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت " (يوحنا ٢٠/ ٢٣)، فهم كالمسيح ﷺ، ومع ذلك فإن أحدًا من النصارى لا يقول بألوهيتهم!

(١) الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألوهية المسيح كما ينفيها القرآن (١٠٥).

٧- وقد ورثت الكنيسة عن بطرس والتلاميذ هذا المجد وهذا السلطان؛ فأصبح القسس يغفرون للخاطئين عن طريق الاعتراف أو صكوك الغفران، واعتمدوا في إقرار ذلك على وراثتهم للسلطان الذي دفع لبطرس "أنت بطرس وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات. . " (متى ١٦/ ١٩)، فلو غفر بطرس أو البابا - وارث كرسيه ومجده - لإنسان غفرت خطيئته من غير أن يقتضي ذلك ألوهية بطرس أو البابا أو القسيس.

٨- وهذا السلطان ليس خاصًا ببطرس وورثته، بل دفع لكل التلاميذ " **اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاءِ. ١٩وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضًا: إِنِ اتَّفَقَ اثْنَانِ مِنْكُمْ عَلَى الأَرْضِ فِي أَيِّ شَيْءٍ يَطْلُبَانِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُمَا مِنْ قِبَلِ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ** " (متى ١٨/ ١٨-٢٠)، لكنه كما لا يخفى لا يعني ألوهيتهم، لأنه ليس حقًا شخصيًا لهم، بل هبة إلهية وهبت لهم ولمعلمهم المسيح. هذا ما يذكره الكتاب المقدس.

٩- ولما كان المسيح ﵇ لا يملكه من تلقاء نفسه؛ فقد طلب من الله أن يغفر لليهود، ولو كان يملكه لغفر لهم ولم يطلبه من الله كما في لوقا " فقال يسوع: يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لوقا ٢٣/ ٣٤). [١]

سادسًا: دلالة معجزات المسيح على ألوهيته

وتذكر الأناجيل الكثير من معجزات المسيح ﵇، وتستدل بها على ألوهيته كولادته من غير أب وإحيائه للموتى وشفائه للمرضى وإخباره بالغيوب.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: كل الأنبياء أيده الله بالمعجزة فليست خاصة بعيسى ﵇

وبناء عليه لاحظ المحققون - من قراء الكتاب المقدس - أن الكثير مما صنعه المسيح ﵇ من عجائب ومعجزات قد شاركه فيه غيره من الأنبياء، وسواهم، ولم يقل

(١) المصدر السابق وانظر تخجيل من حرف التوراة والانجيل ١/ ٤١٩

أحد من النصارى بألوهيتهم، فدل ذلك على أن غاية ما تدل عليه المعجزات نبوة أصحابها، وإلا لزم القول بألوهية كل من شارك المسيح في الأعاجيب التي صنعها الله على يديه. وإليك شيء من هذه المعجزات التي شاركه فيها غيره.

أ. الميلاد العذراوي: لقد كانت ولادة المسيح عليه السلام من غير أب بشري إحدى أعظم معجزاته عليه السلام، وقد تعلق بها القائلون بألوهيته، يقول ياسين منصور: "لو لم يولد المسيح من عذراء لكان مجرد إنسان ". [١]

وهو بحق كذلك، بدليل أن بعض المخلوقات شارك المسيح في صورة هذه المعجزة الباهرة، أي ولادته من عذراء، من غير أب. فأصول سائر المخلوقات ومنهم البشر لا أب لهم ولا أم، ووجود آدم خلقًا سويًا أكبر وأكمل من خلقة المسيح الذي خلق جنينا في بطن أمه، ثم كبر بعد ذلك ونما. والميلاد من غير أب أعجوبة ولا ريب، لكنها لا تقتضي الألوهية بحال، ولو اقتضاها لاقتضى ألوهية أصول جميع الحيوانات، وألوهية أبوينا آدم وحواء، فقد ولد آدم من غير أب ولا أم، وولدت حواء من آدم، ولا أم لها. وذلك المعنى هو ما أرشدنا إليه الله بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

ورغم المثلية القائمة بين آدم وعيسى من جهة ميلادهما من غير أب، إلا أن آدم يتميز عن عيسى بأمور، منها أن آدم عليه السلام لم يخرج من بين نجو وطمث، وأيضًا فإن الله أسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء من علمه، كما كانت الجنة منزله، وقد تولى الله مناجاته بنفسه دون أن يرسل إليه رسولًا، إلى غير ذلك مما لم يكن لعيسى ولا غيره. فما دام آدم مميزًا بكل هذه المميزات، فلم لا تقول النصارى بألوهيته؟!

وممن فاق المسيح في هذه المعجزة - حسب الكتاب المقدس - ملكي صادق كاهن ساليم في عهد إبراهيم، فإن بولس يزعم أن لا أب له ولا أم ولا بداية ولا نهاية، يقول:

---

(١) مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان (٦٢)، المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، علاء أبو بكر (١٨٦).

"ملكي صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلي ... بلا أب، بلا أم، بلا نسب، لا بداءة أيام له، ولا نهاية حياة، بل هو مشبه بابن الله، هذا يبقى كاهنا إلى الأبد" (عبرانيين ٧/ ١-٣)، فلم لا يقول النصارى بألوهية ملكي صادق، وهو الذي لا أب له ولا أم؟ ومثل هذا أيضًا يلزم النصارى بحق الملائكة، فهم أيضًا خلقوا من غير أب ولا أم، بل ولا طين، لكن النصارى لا تعتبرهم آلهة. وهكذا فالميلاد العذراوي لا يصلح دليلًا على الألوهية، وإن كان حدثًا فريدًا – نسبيًا – في تاريخ البشرية.

ب. معجزة إحياء الموتى: لا ريب أن معجزة إحياء الموتى معجزة عظيمة من معجزات المسيح عليه السلام، وقد أثبتها القرآن له، وأخبر بأنها من عند الله ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وهو ما يتفق أيضًا مع الإنجيل، فقد قال عيسى للذين شاهدوه وعاصروه: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا" (يوحنا ٥/ ٣٠).

لكن النصارى يصرون على أن إحياء الموتى يدل على ربوبية المسيح وألوهيته، ويتجاهلون نصوصًا كتابية أسندت ذات الفعل لغير المسيح. فلم لا تقول النصارى بألوهيتهم؟!.

إن إعراض النصارى عن القول بألوهية هؤلاء، إنما هو دليل على بطلان الاستدلال لألوهية المسيح بمعجزة الخلق.

١- فلئن كان المسيح أحيا لعازر (انظر يوحنا ١١/ ٤١-٤٤)، فإن النبي إلياس أحيا ابن الأرملة "وقال: أيها الرب إلهي، أيضًا إلى الأرملة التي أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها – وحاشا لله أن يسيء –، فتمدد على الولد ثلاث مرات، وصرخ إلى الرب وقال: يا رب إلهي لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه. فسمع الرب لصوت إيليا، فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش" (الملوك (١) ١٧/ ١٩-٢٤)، لذا خاطبه يشوع بن سيراخ: "أنت الذي أقمت ميتا من الموت" (ابن سيراخ ٤٨/ ٥).

٢- واليسع أيضًا أحيا ـ بإذن الله ـ ميتين أحدهما أحياه حال حياته، والآخر بعد وفاته، فقد أحيا ابن الإسرائيلية التي جاءته "دخل أليشع البيت، وإذا بالصبي ميت ومضطجع

على سريره، فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما، وصلى إلى الرب، ثم صعد واضطجع فوق الصبي، ووضع فمه على فمه، وعينيه على عينيه، ويديه على يديه، وتمدد عليه، فسخن جسد الولد، ثم عاد وتمشى في البيت تارة إلى هنا وتارة إلى هناك، وصعد وتمدد عليه، فعطس الصبي سبع مرات، ثم فتح الصبي عينيه" (الملوك (٢) ٤/ ٣٢-٣٦).

٣- كما أحيا اليسع بقدرة الله بعد موته ميتًا وضعه أهله على قبر اليسع، فعاد حيا " **وَفِيمَا كَانُوا يَدْفِنُونَ رَجُلاً إِذَا بِهِمْ قَدْ رَأَوْا الْغُزَاةَ، فَطَرَحُوا الرَّجُلَ فِي قَبْرِ أَلِيشَعَ، فَلَمَّا نَزَلَ الرَّجُلُ وَمَسَّ عِظَامَ أَلِيشَعَ عَاشَ وَقَامَ عَلَى رِجْلَيْهِ.** " (الملوك (٢) ١٣/ ٢١).

٤- والعجب من استدلال النصارى بإحياء الموتى لإثبات ألوهية المسيح عليه السلام مع أنهم أثبتوا هذه القدرة للحواريين، والمقصود ما جاء قصة إحياء بطرس لطابيثا. فقد جاء في أعمال الرسل أن بطرس أحيا طابيثا بعد أن ماتت وغسلها أهلها "وكان في يافا تلميذة اسمها طابيثا الذي ترجمته غزالة. . . . وحدث في تلك الأيام أنها مرضت وماتت، فغسلوها ووضعوها في علية. . . . فأخرج بطرس الجميع خارجا وجثا على ركبتيه وصلى، ثم التفت إلى الجسد وقال: يا طابيثا قومي، ففتحت عينيها، ولما أبصرت بطرس جلست" (أعمال ٩/ ٣٦-٤١)، فأي فرق بين ما فعله المسيح وما فعله بطرس، فكل ذلك بإذن الله وقدرته.

وكل التلاميذ – حسب الكتاب المقدس – يقدرون على إحياء الموتى، فقد قال لهم المسيح: " **وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. ٨اِشْفُوا مَرْضَى. طَهِّرُوا بُرْصًا. أَقِيمُوا مَوْتَى. أَخْرِجُوا شَيَاطِينَ.** " (متى ١٠/ ٧-٨)، فهل كل هؤلاء آلهة؟

٥- كما يغفل النصارى المتحدثون عن ألوهية المسيح الذي أحيا الموتى، يغفلون عن تلك النصوص التي تتحدث عن موت المسيح، وعجزه عن دفع الموت عن نفسه، كما عجز عن ردها إلى الحياة من جديد، حتى أعاده الله وأقامه من الأموات، وقد تكاثرت النصوص على إيراد هذه الحقيقة حتى بلغت خمسة عشر نصا، منها "فيسوع هذا أقامه الله" (أعمال ٢/ ٣٢)، ومنها "ورئيس الحياة قتلتموه الذي أقامه الله من الأموات " (أعمال

٣/ ١٥)، وكذا "المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله" (أعمال ٤/ ١٠).

وهكذا بطل الاستدلال بهذه العجيبة على ألوهية المسيح، ولكنها بحق أعجوبة عظيمة دفعها الله للمسيح ليقيم بها الحجة على نبوة هذا النبي العظيم ﷺ.

ج. معجزة شفاء المرضى: ويستدل النصارى على ألوهية المسيح عليه السلام بقدرته على شفاء المرضى، ولئن كان عيسى عليه السلام قد شفى الأبرص (انظر متى ٨/ ٣) فإن اليسع شفى أبرصًا، وأمرض آخر وذريته من بعده بالبرص "فأرسل إليه أليشع رسولًا يقول: اذهب واغتسل سبع مرات في الأردن، فيرجع لحمك إليك، وتطهر. . . فبرص نعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد، وخرج من أمامه أبرص كالثلج" (الملوك (٢) ٥/ ١٠-٢٧).

د. التنبؤ بالغيوب: وقد تنبأ المسيح عليه السلام بكثير من الغيوب، فكانت كما قال، فقد أخبر التلميذان اللذان أرسلهما لذبح فصح العيد بما سيكون لهما (انظر مرقس ١٤/ ١٢-١٦)، وقد قال له بطرس: "يا رب أنت تعلم كل شيء" (يوحنا ٢١/ ١٧)، كما علم بأن الجحش المربوط في قرية بيت فاجي لم يركب عليه أحد، وهو كما يقول القس إبراهيم سعيد: "دليل جديد على أن المسيح يعلم بالغيب علمًا دقيقًا مفصلًا، لا يقبل شكًا ولا تأويلًا، وفي هذا برهان آخر على المجد الوضيع (هكذا) الذي كان يحف بالمسيح"(١).

١- لكن ليس المسيح وحده من قد تنبأ بالمغيبات، فقد تنبأ قبله يعقوب عليه السلام فقال لأبنائه: "اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام..." (التكوين ٤٩/ ١-٢٧).

٢- ومثله تنبأ صموئيل وإيليا (انظر صموئيل (١) ١٠/ ٢-٩، الملوك (١) ٢١/ ٢١-٢٤)، وقد تحققت نبوءتهما في (الملوك (٢) ١٠/ ١-١٧، ٩/ ٣٠-٣٧). ومثل هذا كثير في الأسفار المقدسة. (انظر صموئيل (١) ١٩/ ٢٣-٢٤، الملوك (٢) ٤/ ٨-١٨، ٨/ ١٢-١٣، يوحنا ١١/ ٤٩-٥٢).

٣- وقد جاء في وصف بلعام بن بعور المتنبئ الكافر الذي قتله موسى عليه السلام بأنه " الذي

---

(١) شرح بشارة لوقا، (ص٤٧٥).

يسمع أقوال الله، ويعرف معرفة العلي، الذي يرى رؤيا القدير" (العدد ٢٤/ ١٦) وذكرت الأسفار التوراتية عددًا من تنبؤاته التي تحققت.

٤- ثم إن المسيح عليه السلام كما تنبأ بالغيوب فإنه عجز عن أخر، وجهلها، إذ لم يعرف بالخبز وعدده (انظر متى ١٥/ ٣٤)، كما جهل موعد الساعة (انظر مرقس ١٣/ ٣٢-٣٣).

٥- وينبه العلامة ديدات أنه لا يجوز للنصارى أن يذكروا شيئًا عن مغيبات أخبر عنها المسيح وهم ينسبون إليه الكذب - وحاشاه - عندما تنبأ بعودته السريعة قبل انقضاء جيله. (انظر مرقس ١٣/ ٢٦، ٣٠، متى ١٠/ ٢٣) وهو ما لم يحدث حتى يومنا هذا.

هـ. التسلط على الشياطين: وكذلك أوتي المسيح عليه السلام سلطانًا على الشياطين (انظر متى ١٢/ ٢٧-٢٨)، ولكنها معجزة قام بها غيره.

١- فعندما اتهمه اليهود بأنه يخرج الشياطين بمعونة رئيسهم قال: "إن كنت أنا أخرج الشياطين ببعزبول، فأبناؤكم بمن يخرجونهم؟ " (متى ١٢/ ٢٧)، فأثبت لأبناء اليهود مثل قدرته.

٢- كما وقد حذر عليه السلام من الكذبة الذين سينجحون في إخراج الشياطين فقال: " كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب، يا رب، أليس باسمك تنبأنا؟ وباسمك أخرجنا شياطين؟ وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ " (متى ٧/ ٥-٢٣)، فالأنبياء الكذبة يخرجون الشياطين، من غير أن يدل ذلك على نبوتهم أو صلاحهم، فضلا عن القول بألوهيتهم.

وعجائب مختلفة: وتذكر الأناجيل عجائب متفرقة للمسيح عليه السلام، كتحويله الماء إلى خمر (انظر يوحنا ٢٢/ ٧-٩)، وإطعامه الجمع كبير من خمسة أرغفة (متى ١٤/ ١٩-٢١)، ويباس شجرة التين بقوله. (انظر متى ٢١/ ١٨-١٩). كما لا يفوتهم التنبيه إلى الظلمة العظيمة التي أعتمت الأرض عند موته المزعوم على الصليب (متى ٢٧/ ٤٥)، فدلت هذه العجائب المختلفة على ألوهيته وأنه ابن الله. وأيضًا يستدل القائلون بألوهيته عليه السلام بإطاعة الرياح والبحر له، فقد أوتي سلطانًا على العناصر الطبيعية، فالرياح والبحر يطيعه " **وَإِذَا اضْطِرَابٌ عَظِيمٌ قَدْ حَدَثَ فِي الْبَحْرِ حَتَّى غَطَّتِ الأَمْوَاجُ السَّفِينَةَ، وَكَانَ هُوَ نَائِمًا. ٢٥فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَأَيْقَظُوهُ**

قَائِلِينَ: «يَا سَيِّدُ، نَجِّنَا فَإِنَّنَا نَهْلِكُ! » ٢٦فَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ » ثُمَّ قَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ، فَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. ٢٧فَتَعَجَّبَ النَّاسُ قَائِلِينَ: «أَيُّ إِنْسَانٍ هذَا؟ فَإِنَّ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ جَمِيعًا تُطِيعُهُ! ». " (متى ٨/ ٢٣-٢٨)، فمن ذا الذي تطيعه الرياح والبحار، ولا يجدون - حسب فهمهم البسيط - من إجابة إلا أن يقولوا: إنه الله المسيح.

وكذا فإن المسيح صام أربعين يومًا لم يجع خلالها، وهو ما لا يطيقه بشر، فدل ذلك على أنه الله. (انظر متى ٤/ ١-٢). كما صعد المسيح إلى السماء، وجلس عن يمين الله. (مرقس ١٦/ ١٩)، وهو كما يرى النصارى منزل لم يصل إليه أحد من العالمين إلا المسيح بما له من خواص الألوهية.

ولكن أمثال هذه المعجزات بل وأعظم منها جرت على يدي غيره، ولم تقتض ألوهيتهم.

١- فلئن كان المسيح عليه السلام قد حول الماء إلى خمر (انظر يوحنا ٢/ ٧-٩)، فإن موسى عليه السلام حول الماء إلى دم كما في سفر الخروج " تَأْخُذُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ وَتَسْكُبُ عَلَى الْيَابِسَةِ، فَيَصِيرُ الْمَاءُ الَّذِي تَأْخُذُهُ مِنَ النَّهْرِ دَمًا عَلَى الْيَابِسَةِ " (الخروج ٤/ ٩).

٢-وأما اليشع فقد صنع أعظم من ذلك، إذ ملأ قدور العجوز الفارغة زيتًا، من غير أن يكون فيها شيء " فَقَالَ: «اذْهَبِي اسْتَعِيرِي لِنَفْسِكِ أَوْعِيَةً مِنْ خَارِجٍ، مِنْ عِنْدِ جَمِيعِ جِيرَانِكِ، أَوْعِيَةً فَارِغَةً. لاَ تُقَلِّلِي. ٤ثُمَّ ادْخُلِي وَأَغْلِقِي الْبَابَ عَلَى نَفْسِكِ وَعَلَى بَنِيكِ، وَصُبِّي فِي جَمِيعِ هذِهِ الأَوْعِيَةِ، وَمَا امْتَلأَ انْقُلِيهِ». ٥فَذَهَبَتْ مِنْ عِنْدِهِ وَأَغْلَقَتِ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى بَنِيهَا. فَكَانُوا هُمْ يُقَدِّمُونَ لَهَا الأَوْعِيَةَ وَهِيَ تَصُبُّ. ٦وَلَمَّا امْتَلأَتِ الأَوْعِيَةُ قَالَتْ لابْنِهَا: «قَدِّمْ لِي أَيْضًا وِعَاءً». فَقَالَ لَهَا: «لاَ يُوجَدُ بَعْدُ وِعَاءٌ». فَوَقَفَ الزَّيْتُ. ٧فَأَتَتْ وَأَخْبَرَتْ رَجُلَ اللهِ فَقَالَ: «اذْهَبِي بِيعِي الزَّيْتَ وَأَوْفِي دَيْنَكِ، وَعِيشِي أَنْتِ وَبَنُوكِ بِمَا بَقِيَ». " (الملوك (٢) ٤/ ٣-٧).

٣- وإن طعم ببركة المسيح عليه السلام خمسمائة شخص من خمسة أرغفة (انظر متى ١٤/ ١٩-٢١)، فقد أطعم الله عز وجل بني إسرائيل - وهم زهاء ستمائة ألف - المن والسلوى أربعين سنة، وكل ذلك ببركة موسى عليه السلام. (انظر الخروج ١٦/ ٣٥-٣٦).

٤- ولئن كان المسيح ﷺقد حول شجرة التين إلى يابس. (انظر متى ٢١/ ١٨-١٩)، فإن موسى ﷺحول العصا اليابسة إلى حية. (انظر الخروج ٧/ ٩)، وهو أعظم، إذ قد يدخل يبس الشجرة في قانون الطبيعة، لكن تحويل العصا إلى حية معجز بكل حال.

٥- وأما الظلمة التي يدعي النصارى حصولها عند صلب المسيح، فهي ليست - بأي حال - بأكبر من الظلمة التي استمرت على أرض مصر ثلاثة أيام بسبب كفرهم بموسى، " **فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فَكَانَ ظَلاَمٌ دَامِسٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ** " (الخروج ١٠/ ٢٢-٢٣).

٦- وأيضًا فإن يشوع لما حارب الأموريين، وكادت ليلة السبت أن تدخل، ناجى ربه فقال: "أمام عيون إسرائيل: يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر دوم على وادي أيلون، فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب ... فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل" (يشوع ١٠/ ١٢-١٣)، وهذا الذي حصل ليشوع لا يقتضي ألوهيته، وهو أعظم من غياب الشمس ثلاث ساعات، فإنها قد تغيب بالغيوم، وهو داخل في السنن المعهودة، أما توقف دوران الكرة الأرضية فهو أعظم من ذلك بكثير.

٧- وأعظم منهما، ما صنعه النبي إشعيا، فقد أعاد الله بدعائه الشمس إلى الوراء، ليبرهن للملك حزقيا على صدق مواعيد الرب. (انظر: الملوك (٢) ٢٠/ ١٠-١١)، وقال عنه ابن سيراخ: "في أيامه رجعت الشمس إلى الوراء" (ابن سيراخ ٤٨/ ٢٣)، ورغم هذا كله فإن أحدًا لا يقول بألوهية النبي إشعيا.

٨- ثم لئن كانت الطبيعة تطيع المسيح؛ فإن ذلك قد حصل مع الأنبياء أيضًا، فإيليا أطاعته النار حتى قال: " إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء تأكلك أنت والخمسين الذين لك، فنزلت نار الله من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له" (الملوك (٢) ١/ ٩-١١).

٩- وكذا أطاع البحر إيليا "و أخذ إيليا رداءه، ولفه، وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك، فعبر كلاهما (أليشع وإيليا) في اليبس" (الملوك (٢) ٢/ ٧-٨)، وقد رأينا كيف

أطاعت الشمس والقمر يشوع.

١٠- وأما صيام المسيح عليه السلام أربعين يومًا فلا يدل على ألوهيته؛ إذ إنه "جاع أخيرًا" (متى ٤/ ٢)، فلئن كان صومه وصبره يدل على ألوهيته، فإن جوعه يكذب هذه الدعوى، ويدل على بشريته.

١١- ولموسى عليه السلام "أقمت في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة لا آكل خبزا ولا أشرب ماء" (التثنية ٩/ ٩).

١٢- وإيليا حين أكل ثم "سار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارًا وأربعين ليلة إلى جبل الله" (الملوك ١٩/ ٧-٨).

١٣-ولئن قال النصارى برفع المسيح للسماء وجلوسه عن يمين الله، فإن مثل ذلك حصل مع إيليا الذي رفع من غير أن يصلب أو أن يصفع أو أن يصاب بسوء. (انظر الملوك (٢) ٢/ ١١-١٢)، ومثله حصل مع أخنوخ. (انظر التكوين ٥/ ٢٤).

١٤- وأما الجلوس عن يمين الله؛ فقد ألحقته الكنيسة بإنجيل مرقس (انظر مرقس ١٦/ ١٩)، ولا يمكن حمله على الحقيقة، بل غايته أن يقال: بأنه جلوس معنوي أي برفع مكانته، كما جاء في كلام ميخا "لقد رأيت الرب جالسا على كرسيه، وكل جند السماء وقوف عن يمينه ويساره" (الأيام (٢) ١٨/ ١٨). [1]

الوجه الثاني: جميع الأنبياء معترفون بأن المعجزة من الله تعالى ومنهم عيسى عليه السلام، وبهذا نعلم أن المعجزات هبة إلهية ليست من صنع المسيح عليه السلام في شيء وإليك هذا البيان.

الوجه الأول: ذكر القرآن وأكد صدور المعجزات العظيمة عن المسيح عليه السلام، وأخبر أنه يصنعها بتأييد من الله، فقال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ الله وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ الله وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩).

(١) انظر مناظرة بين الإسلام والنصرانية (٢٦٩) وما بعدها والأناجيل الأربعة ورسائل بولس تنفي ألوهية المسيح (١٠٩) وما بعدها.

الوجه الثاني: وهو ما أكدته النصوص الإنجيلية، ونقلته عن المسيح، فعندما أتى المسيح بما أتى به من المعجزات كان يؤكد أنها من الله ﷻ، ولم ينسبها إلى نفسه فقال:

١- " **أَنَا بِرُوحِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ** " (متى ١٢/ ٢٨).

٢- وقال: " **كُنْتُ بِأَصْبعِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ** " (لوقا ١١/ ٢٠).

٣- وعندما جاء لإحياء لعازر " **وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، ٤٢وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي** " (يوحنا ١١/ ٤٠-٤١)، لقد شكر الله أن قبل منه تضرعه ودعاءه حين رفع عينيه إليه متوسلا ضارعا، فاستجاب الله له، وأحيا على يديه لعازر.

٤- وأيضًا استلهم من الله القدير العون لما أراد إطعام الجمع من الأرغفة الخمس "رفع نظره نحو السماء، وبارك وكسر" (متى ١٤/ ١٩).

٥- ولما جيء له بالأصم "رفع نظره نحو السماء وأنّ، وقال: افثأ، أي انفتح، وللوقت انفتحت أذناه، وانحل رباط لسانه، وتكلم مستقيمًا" (مرقس ٧/ ٣٤-٣٥)، فأنينه تضرع واستغاثة بالله لم يخيبه الله فيهما.

٦- وقال متحدثًا عن سائر معجزاته وأعاجيبه: "دفع إلي (أي من الله) كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى ٢٨/ ١٨)، فكل ما يؤتاه هبة الله، ولو كان إلهًا لكانت معجزاته ذاتية تنبع من طبيعته الإلهية، ولا يحتاج إلى من يهبها له أو يمنعه إياها.

٧- وأكد المسيح ﷺ أيضًا أنه لا حول له ولا قوة بغير تأييد الله له، فقال: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا" (يوحنا ٥/ ٣٠).

٨- ويقول: "الأعمال التي أعملها باسم أبي هي تشهد لي" (يوحنا ١٠/ ٢٥).

٩- وأما الذين رأوا معجزات المسيح فقد عرفوا أنما يصنعه إنما هو من المعجزات التي يعطيها الله لأنبيائه، ولم يفهم أحد منهم ألوهية صاحب هذه المعجزات، فعندما شفي الصبي من الروح النجس "بهت الجميع من عظمة الله" (لوقا ٩/ ٣٤).

١٠- ولما شفى المرأة المقوسة الظهر " استقامت (أي المرأة بظهرها) ومجدت الله" (لوقا ١٣/ ١٣). ولما أقام المفلوج ورأت الجموع ذلك "تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا" (متى ٩/ ٨).

١١- وهو ما قاله عنه الأعمى الذي شفاه " فقالوا له: كيف انفتحت عيناك؟ أجاب ذاك وقال: إنسان يقال له يسوع" (يوحنا ٩/ ١٠-١١).

١٢- وحين انتهر البحر والرياح وأطاعته لم يفهم الراؤون لهذا ألوهيته رغم عظم هذه المعجزة، بل عجبوا لقدرة المسيح الإنسان، يقول متى: " فتعجب الناس قائلين: أي إنسان هذا؟ فإن الرياح والبحر جميعا تطيعه" (متى ٨/ ٢٧).

١٣- ولما أرادت مرثا أخت لعازر أن يُحييَ أخاها أكدت معرفتها بأن هذه المعجزات هي من الله، وأنه يؤيد بها المسيح، فقالت له: " أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه" (يوحنا ١١/ ٢٢).

١٤- وهذا تلميذه بطرس كبير الحواريين يقول مخاطبًا الجموع مؤكدًا هذا المفهوم: "يسوع الناصري رجل قد تبرهن من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده" (أعمال ٢/ ٢٢).

١٥- وأيضًا نيقوديموس معلم الناموس، أدرك سر هذه المعجزات العظيمة التي يصنعها المسيح، وأنها من قبل الله، وبسبب عونه وتأييده، فقال للمسيح عليه السلام: " يا معلم، نعلم أنك قد أتيت من الله معلمًا، لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل، إن لم يكن الله معه" (يوحنا ٣/ ٢).

١٦- وتحكي الأناجيل ما يؤكد أن هذه المعجزات لم تكن إلا هبة من الله، وكان المسيح يحذر أن لا يؤتاها في بعض المواطن، لذلك لما تقدم إلى لعازر الميت خاف أن لا يتمكن من صنع معجزة "قال بعض منهم: ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضًا لا يموت؟ فانزعج يسوع أيضًا في نفسه" (يوحنا ١١/ ٣٧-٣٨).

١٧- وفي مرات أخر طلب منه الفريسيون آيات، فلم يقدر على صنعها، أو لم يصنعها " فتنهد بروحه، وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية؟ الحق أقول لكم: لن يعطى هذا الجيل آية، ثم تركهم ودخل السفينة ومضى" (مرقس ٨/ ١١-١٣).

ولما تكاثرت جموع اليهود عليه تطلب آية لم يجبهم إلى طلبهم، بل قال: "جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تعطى له آية" (متى ١٢/ ٣٨-٣٩).

١٨- ثم لو كان ما يصدر من المسيح من آيات تدل على ألوهيته فلم يأمر بإخفائها، وهي السبيل الذي يدل الناس على حقيقته؟ فقد قال المسيح للأبرص لما شفاه "انظر، لا تقل لأحد شيئا" (مرقس١/ ٤٤). ولما شفى الأعميان قال: "انظرا، لا يعلم أحد" (متى ٩/ ٣١).

وقال للأعمى الثالث لما شفاه: "لا تدخل القرية، ولا تقل لأحد في القرية" (مرقس ٨/ ٢٦).

وتكرر منه ذلك "فعلم يسوع وانصرف من هناك، وتبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعا، وأوصاهم أن لا يظهروه" (متى ١٢/ ١٥-١٦)، فالمسيح عليه السلام بإخفائه للمعجزات يريد أن لا ينشغل الناس بالمعجزات عن دعوته وجوهرها، ولو كانت دليل ألوهيته لوجب أن ينبههم إلى ذلك.

١٩- المعجزات لا تدل - حسب الكتاب المقدس- على النبوة فضلًا عن الألوهية، والعجب - كل العجب - أن يعتبر النصارى معجزات المسيح عليه السلام دالة على ألوهيته، والكتاب مصرح بقدرة غيره من البشر على صنع مثل هذه المعجزات العظيمة، من غير أن يكون ذلك دالا على ألوهية هؤلاء.

فقد أثبت الكتاب هذه المعجزات وما هو أعظم منها لكل المؤمنين بالمسيح، فقال: "الحق أقول لكم: من يؤمن بي، فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا، ويعمل أعظم منها" (يوحنا ١٤/ ١٢)، أي يستطيع المؤمنون شفاء المرضى بل وإحياء الموتى، بل ويستطيعون صنع أعظم من ذلك، وعليه لا تصلح في الدلالة على الألوهية.

٢٠- وفعل العجائب - حسب الكتاب المقدس - لا يصح للدلالة على صدق أو صحة إيمان أصحابها، فضلا عن النبوة أو الألوهية، فإن المسيح عليه السلام ذكر بأن كذبة

سيفعلون المعجزات، ويزعمون أنهم يصنعونها باسم المسيح. فقد ذكر متى أن المسيح قال: "ليس كل من يقول لي: يا رب يا رب، يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات، كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة، فحينئذ أصرح لهم: إني لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (متى ٧/ ٢١-٢٣)، فهؤلاء المنافقون الكذبة قدروا على فعل المعجزات، ولم تدل على صلاحهم وإيمانهم، فضلًا عن نبوتهم وألوهيتهم.

وأيضًا إنسان الخطيئة يصنع الكثير من المعجزات والعجائب، من غير أن يعني ذلك صدقه أو ألوهيته، إذ يصنعها بعون الشيطان وقوته، يقول عنه بولس: "الذي مجيئه بعمل الشيطان، بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة" (تسالونيكي (٢) ٢/ ٩).

الوجه السابع: استدلال النصارى بآيات من القرآن على ألوهية المسيح

وهي عبارة عن دعاوى وشبهات يرون فيها أن القرآن يشهد لألوهية المسيح:

فالادعاء الأول، هو: أن ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن؛ تدل على ألوهية المسيح ؛ لأنها - بزعمهم - تدل على أن الإله ثلاثة أشخاص منهم: المسيح (فقد كان نصارى نجران يقولون عن عيسى : هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، ويحتجون بأنه ثالث ثلاثة بقول الله: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا وقضينا فيقولون: لو كان الله واحدا ما قال إلا فعلت، وقضيت وأمرت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم)[1]، كما احتجوا على الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿إنا نحن﴾ (الحجر: ٩). قالوا: وهذا يدل على أنهم ثلاثة)[2].

كذلك ردد عبد المسيح الكندي هذا الزعم حيث يقول - مخاطبًا عبد الله الهاشمي: " وفي كتابك أيضًا شبيه بما ذكرنا من قول موسى، ودانيال عن الله تعالى: فعلنا، وخلقنا،

---

(١) ابن هشام: « السيرة النبوية » ١/ ٥٧٥.

(٢) انظر: ابن تيمية « الجواب الصحيح » ٣/ ٤٤٨.

وأمرنا، وأوحينا، وأهلكنا، ودمرنا، مع نظائر لهذه كثيرة"[١] فحجتهم أن الله تكلم عن نفسه في القرآن بصيغة الجمع ومن ثم زعموا أن ذلك دليل على أن عيسى ﷺ واحد من الذين تدل عليهم الضمائر المذكورة، وأن هذا الجمع إنما هو ثلاثة، وزعموا بذلك أن القرآن يدل على ألوهية المسيح ﷺ.

أما الادعاء الثاني، فهو: أن المسيح ﷺ روح من الله بجعل (من) للتبعيض؛ إذ يرونه إلهًا من إله، وكلمة الله التي تجسدت - بزعمهم - وصارت إنسانًا أي أن كلمة الله هي عيسى ﷺ، إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا الزعم. يقول عبد المسيح الكندي - مخاطبا عبد الله الهاشمي: (فافهم كيف أوجب (يقصد الرسول ﷺ وقد كذب عليه في ذلك) أن الله تبارك وتعالى ذو كلمة وروح، وصرح بأن المسيح كلمة الله تجسدت وصارت إنسانًا)[٢].

أما الادعاء الثالث، فهو زعمهم أن المعجزات التي أيد الله بها عيسى ﷺ التي ذكرت في القرآن تدل على ألوهية عيسى ﷺ ولا سيما إحياء الموتى. وقد كان وفد نصارى نجران الذين وفدوا على الرسول ﷺ (يحتجون في قولهم (عن عيسى بأنه) هو الله بأنه كان يحي الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا) أي بالمعجزات التي أيد الله بها عيسى ﷺوالتي ذكرت في القرآن.

الرد على هذه الشبهات

يدور الرد في محورين: الأول مجمل، والثاني مفصل.

الأول: المجمل، ويتكون من وجهين:

الأول: أن هذه العقيدة خالفت أصول الأنبياء في تقديس الله ووصفه بصفات الكمال، فكيف يدل عليها القرآن؟ وإليك التفصيل:

الأول: إن الله سبحانه وتعالى، هو الأول الواحد الأحد، لا شريك له في ملكه، ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شافع إلا من بعد إذنه.

الثاني: أنه غني بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه.

---

(١) « رسالة عبد المسيح الكندي إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية » صـ(٣٨).

(٢) « رسالة عبد المسيح إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية » ص (٤٢)

الثالث: أنه لا يتغير ولا تعرض له الآفات، من الهرم والمرض والسنة والنوم والنسيان والندم والخوف والهم والحزن ونحو ذلك.

الرابع: أنه لا يماثل شيئًا من مخلوقاته، بل ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص). فهذه السورة متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال، التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد، الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير. فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفى إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه. وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك؛ ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن؛ فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة، والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه فأخلصت سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ الخبر عنه، وعن أسمائه وصفاته؛ فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي.[١]

الخامس: أنه لا يحل في شيء من مخلوقاته، ولا يحل في ذاته منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.

السادس: أنه أعظم من كل شيء منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته، والخلق بائنون عنه.

السابع: أنه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وفوق كل شيء وعال على كل شيء وليس فوقه شيء البتة.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٢٩٨).

فنحن نتبع طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فما اعتقدوه اعتقدناه، فما اعتقدوه أن الأحاديث التي تثبت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله عليه يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه وأن الله بائن عن خلقه والخلق بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم وهو مستو على عرشه في سماواته من دون أرضه. وقال أبو أحمد الكرخي: (كان ربنا وحده ولا شيء معه ولا مكان يحويه فخلق كل شيء بقدرته وخلق العرش لا لحاجته إليه فاستوى على استواء استقرار كيف شاء وأراد لا استقرار راحة كما يستريح الخلق وهو يدبر السماوات والأرض ويدبر ما فيهما ومن في البر والبحر لا مدبر غيره ولا حافظ سواه يرزقهم ويمرضهم ويعافيهم ويميتهم والخلق كلهم عاجزون: الملائكة والنبيون والمرسلون وسائر الخلق أجمعين وهو القادر بقدرة والعلم بعلم أزلي غير مستفاد وهو السميع بسمع والبصير ببصر تعرف صفتهما من نفسه لا يبلغ كنهها أحد من خلقه متكلم بكلام يخرج منه لا بآلة مخلوق كآلة المخلوقين لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم وكل صفة وصف بها نفسه أو وصف بها نبيه فهي صفة حقيقية لا صفة مجاز). [(١)]

الثامن: أنه قادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء يريده، بل هو الفعال لما يريد.

التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ (الأنعام: ٥٩) ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته.

العاشر: أنه سميع بصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فقد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته في جميع البريات، وعمت رحمته جميع المخلوقات،

---

(١) درء التعارض بين العقل والنقل ٣/ ٢٢٨.

ووسع كرسيه الأرض والسموات.

الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحدًا على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده، أو يعاونه عليها، أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم.

الثاني عشر: أنه المتكلم الآمر الناهي، قائل الحق، وهادي السبيل، ومرسل الرسل ومنزل الكتب والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، ومجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

الثالث عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدق منه قيلًا، ولا أصدق منه حديثًا، وهو لا يخلف الميعاد.

الرابع عشر: أنه تعالى صمد بجميع الصمدية، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته.

الخامس عشر: أنه قدوس سلام، فهو المبرأ من كل عيب وآفة ونقص.

السادس عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

السابع عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عباده منه ظلمًا.

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه، ولا يخبر نبي بخلافه أصلًا، فترك المثلثة عباد الصليب هذا كله، وتمسكوا بالمتشابهة من المعاني والمجمل من الألفاظ، وأقوال من ضلوا من قبل، وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

وأصول المثلثة ومقالتهم في رب العالمين تخالف هذا كله أشد المخالفة وتباينه أعظم المباينة[1].

والأدلة على هذا الفصل قد سبقت في هذا البحث؛ فلا نطيل بذكرها ثانية، والسؤال الآن هل في المسيح شيء من هذه الصفات في ضوء ما سبق بيانه في هذا البحث؟ والجواب: لا. فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته، وأن المسيح ابنه، وأنه نزل عن كرسي عظمته، والتحم ببطن الصاحبة، وجرى له ما جرى

(١) هداية الحيارى (١٥٩).

إلى أن قتل ومات ودفن، فدينها عبادة الصلبان، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان. يقولون في دعائهم: يا والدة الإله ارزقينا، واغفري لنا، وارحمينا، فدينهم شرب الخمور، وأكل الخنزير، وترك الختان والتعبد بالنجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة، والحلال ما حلله القس، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، وهو الذي يغفر لهم الذنوب، وينجيهم من عذاب السعير[1].

الوجه المجمل الثاني: إثبات نبوة عيسى ، ورسالته من خلال القرآن، والأناجيل.
وينقسم هذا الوجه إلى مبحثين: -

المبحث الأول: نبوته ورسالته من خلال القرآن:

وتقدمت أدلة هذا المبحث في أول هذا المجلد تحت الوجه الثاني: الأدلة من القرآن على بطلان ألوهية المسيح.

المبحث الثاني: نبوته ورسالته من خلال الأناجيل:

كذلك تدل الأناجيل الموجودة اليوم على نبوة عيسى ورسالته؛ فقد جاء في الأناجيل نصوص عدة، ونذكر منها إضافة إلى ما سبق ما يلي:

١ - " **وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ** " (متى (١٣: ٥٧) ولوقا (٤: ٢٤) و (١٣: ٣٣)، فهذا مما ينسب إليه من أقوال يشير بها إلى نفسه. ولفظ (مرقس ٦/ ٤)، إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته.

٢ - ومما يوضح ذلك نظرة بعض المدعويين من بني إسرائيل له، وأنه نبي قوله: " **وَلَمَّا سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ، عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. ٤٦وَإِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ، خَافُوا مِنَ الْجُمُوعِ، لأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِيٍّ.** " (متى (٢١: ٤٥).

٣ - وقوله " **وَلَمَّا دَخَلَ أُورُشَلِيمَ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا قَائِلَةً: «مَنْ هذَا؟ » ١١فَقَالَتِ الْجُمُوعُ: «هذَا يَسُوعُ النَّبِيُّ الَّذِي مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ** " (متى (٢١: ١١) وانظر سوى ما مر يوحنا (٦: ١٤) و (٧: ٤٠) و (٩: ١٧) ولوقا (٧: ١٩) ومرقس (٦: ١٥) ويوحنا (٩: ١٧).

---

(١) هداية الحيارى (٨).

٤ - مر بنا قول عيسى عليه السلام" وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع الذي أرسلته ".

٥ - وقوله: " فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلا: تعرفونني وتعرفون من أين أنا ومن نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني ".

فهذا من أقواله التي يوضح فيها أنه رسول من رسل الله.

إن ما سبق من نصوص تدل على نبوة عيسى عليه السلام ورسالته من خلال الأناجيل، على أن هناك نصوصًا أخرى تضيف إلى ما سبق بيان مهمة عيسى عليه السلام ووظيفته التي أرسله الله من أجلها؛ ألا وهي الدعوة إلى الله، وإلى عبادته وطاعته، وإبلاغ ما أمره الله أن يبلغه لبني إسرائيل من دين الله الذي أنزل على يديه آنذاك وهو النصرانية الصحيحة الموحدة، التي نسخها الله بالإسلام ولذا يسمى عيسى في الأناجيل معلم (يوحنا (٧: ٢٨ - ٢٩) و (١٦ - ١٧) و (٨: ١٦، ١٨، ٢٦، ٢٩، ٤٢) و (١٧: ٨و٢٥)، وهي وظيفة الرسل حيث يعلمون الناس الخير ويبلغونهم دين الله سبحانه وتعالى.

وهاهي النصوص الدالة على ذلك:

١ - قول الإنجيل " وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز (يدعو) ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل (مرقس (١: ١٤ - ١٥) " فها هو عيسى يدعو بني إسرائيل إلى التوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى والإيمان بالإنجيل كتاب الله الذي أنزله عليه.

٢ - قوله " فقال لهم إنه ينبغي لي أن أبشر المدن الأخر أيضًا بملكوت الله لأني لهذا قد أرسلت فكان يكرز في مجامع الجليل " (لوقا (٤: ٤٣ - ٤٤).

٣ - قوله " فقال لهم لنذهب إلى القرى المجاورة لأكرز هناك أيضًا لأني لهذا خرجت " (مرقس (١: ٣٨).

٤ - وجاء في الإنجيل قوله: " كان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت " (متى (٤: ٢٣ - ٢٥).

٥ - كما جاء قوله " حينئذ ابتدأ يوبخ المدن التي صنعت فيها أكثر قواته (المعجزات التي أظهر الله على يديه) لأنها لم تتب: ويل لك يا كورزين، ويل لك يا بيت صيدا. . . وأنت يا كفرنا حوم " (متى (١١: ٢٠ - ٢٣).

٦ - جاء قوله ". . . ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني مادام نهار، يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل " (يوحنا (٩: ٤)، وانظر يوحنا (٤: ٣١).

٧ - قوله ". . . لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم " (يوحنا (١٢: ٤٩ - ٥٠) وأنظر يوحنا (٤: ٣١) و (٨: ٢٦و٢٨) ويوحنا (١٧: ٧ - ٨)، يصدق هذا ما جاء في القرآن على لسان عيسى (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) (المائدة: ١١٧).

فعيسى عليه السلام كما تدل عليه الأناجيل، نبي رسول، جاء لإبلاغ بني إسرائيل رسالة ربه؛ ليتوبوا من معاصيهم وآثامهم، ويتبعوا كتاب الله الذي أنزله الله عليهم آنذاك على يد عيسى وهو الإنجيل.

وبذلك نكون قد انتهينا من الرد المجمل، والآن مع الرد التفصيلي على هذه الشبهة:

الوجه الأول: خروج ضمائر الجمع عن الظاهر (الجمع) إلى غيره ولا سيما المفرد. ويتكون من مبحثين:

الأول: ما يقوله بعض علماء اللغة عن هذا الأسلوب والشواهد اللغوية المستخرجة من القرآن الكريم، والشعر الجاهلي.

الثاني: النصوص اللغوية التوراتية والإنجيلية في الموضوع نفسه.

أما عن الوجه الأول:

١ - أن هذا أسلوب سائغ لغة، قال ابن قتيبة " ومنه (أي من خروج ضمير الجمع عن

ظاهره إلى ما يخالف الظاهر) أن يخاطب الواحد بلفظ الجمع كقوله سبحانه: ﴿قال رب ارجعون﴾ (المؤمنون: ٩٩). وأكثر من يخاطب بهذا الملوك لأن مذاهبهم أن يقولوا: نحن فعلنا، يقوله منهم، يعني نفسه فخوطبوا بمثل ألفاظهم "(١)

كما قال ابن فارس ـ رحمه الله: " ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع فيقال للرجل العظيم: انظروا في أمري، وكان بعض أصحابنا يقول: إنما يقال هذا لأن الرجل العظيم يقول: نحن فعلنا: فعلى هذه الابتداء خوطبوا في الجواب(٢).

فهل هناك من هو أعظم من مالك الملك وأولى منه بمثل هذا الأسلوب؟

ويقول ابن تيمية: إن ضمير الجمع يقع " على من كان له شركاء وأمثال، وعلى الواحد المطاع العظيم، الذي له أعوان يطيعونه وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء، والله تعالى خلق كل ما سواه، فيمتنع أن يكون له شريك أو مثيل والملائكة وسائر العالمين جنوده تعالى؛ فإذا كان الواحد من الملوك يقول: إنا ونحن ولا يريدون أنهم ثلاثة ملوك فمالك الملك رب العالمين، ورب كل شيء ومليكه هو أحق بأن يقول: إنا ونحن مع أنه ليس له شريك، ولا مثيل بل له جنود السماوات والأرض "(٣)

٢ - اللغة العربية مليئة بالشواهد على خروج ضمائر الجمع عن ظاهرها للدلالة على المفرد، ومن ذلك ما في الشعر الجاهلي:

١ - يقول امرؤ القيس - حين رأى قبر امرأة في سفح جبل عسيب الذي مات عنده-

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب

فإن تصلينا فالقرابة بيننا ... وإن تصرمينا فالغريب غريب

---

(١) ابن قتيبة « تأويل مشكل القرآن » (ص٢٩٣).

(٢) « الصاحبي » (٣٥٣)

(٣) الجواب الصحيح (٣ / ٤٤٨).

أجارتنا ما فات ليس يؤوب | وما هو أت في الزمان قريب(١)

٢- ويقول عمرو بن كلثوم متغزلًا:

قفي قبل التفرق يا ظعينا | نخبرك اليقين وتخبرينا

قفي نسألك هل أحدثت صرما | لوشك البين أم خنت الأمينا(٢)

٣- ويقول زهير بن أبي سلمى مخاطبا هرم بن سنان والحارث بن عوف:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم | ومن أكثر التسآل يوما سيحرم. (٣)

٣ - من الشواهد اللغوية في القرآن التي استخدمت فيها ضمائر الجمع للدلالة على الواحد مع أن الضمائر فيها تعود إلى غير الله غير الجمع سبحانه وتعالى ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١). فالضمير في قوله (لحكمهم) ضمير جمع يدل على المثنى وليس على الثلاثة فأكثر، ولا على الواحد، وكذلك ياء الجماعة في (طائعين) ومثل ذلك قوله (أتينا) هذه بعض أمثلة استخدام ضمائر الجمع للدلالة على المثنى.

أما استخدام ضمائر الجمع في القرآن للدلالة على المفرد فشواهدها:

قوله تعالى عن الخضر: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ (الكهف: ٨ - ٨١)

وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ

---

(١) ديوان امرئ القيس (٧٩).

(٢) شرح المعلقات العشر (٢٠٢).

(٣) المرجع السابق ص (١٥٥).

مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الكهف: ٨٦ - ٨٨)، وقال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (النمل: ١٦).

فالضمائر في: (فخشينا) و (فأردنا) و (نعذبه) و (سنقول) و (أمرنا) و (علمنا) و (أوتينا) ضمائر جمع تدل على واحد وليس على اثنين أو ثلاثة أو أكثر.

٤ - من العجيب أن عبد المسيح الكندي نفسه استخدم ضمير الجمع للدلالة على المفرد على نفسه هو في أثناء عرض شبهته نفسها حيث قال: " وشبيه بما ذكرنا " وهذا في رسالته كثير، فهل هو ثالث ثلاثة؟ وهكذا القسيس فندر حيث قال: " وإنما أوردنا ذلك إشعارًا بأننا لا نخطئ ". إن هذا دليل على أن هذا الأسلوب شائع مستخدم بكثرة، ولا سيما في الكتب وعند الكتاب، ويجري في سليقة العرب وسنن العربية قديمًا وحديثًا، وليس فيه أدنى غرابة أو شبهة لكن النصارى قوم مُلبسون.

الوجه الثاني: نصوص لغوية من خلال التوراة والأناجيل، تدل على المفرد أو المثنى وهي في صورة الجمع:

أولًا: شواهد توراتية وهي إما أن تدل: على المفرد أو على المثنى:

أ) شواهد تدل على المفرد منها:

(١) جاء في سفر التكوين " وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا " (التكوين ١: ٢٦).

(٢) وجاء فيه: " وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منا " التكوين (٣: ٢٢).

(٣) وجاء فيه " هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم" (التكوين (١١: ٧).

فهذه ضمائر جمع تدل على المفرد، وعلى الرغم من أن النصارى قد يحرفونها كما حاولوا ذلك في القرآن، إلا أن مما يوضح دلالتها على المفرد؛ النصوص التوراتية التي تدل على الوحدانية - كما مر سابقًا - كما يؤيد ذلك أن اليهود الذين نزلت التوراة بلغتهم على مختلف عصورهم وتعدد أنبيائهم ما فهموا من ضمائر الجمع هذه إلا دلالتها على المفرد؛ إذ إن ذلك هو معتقد الدين اليهودي كما هو معروف.

جاء في نشيد الإنشاد " ارجعي ارجعي ياشولميت ارجعي ارجعي فننظر إليك " (نشيد

الإنشاد: ٦ - ١٣).

وسياق هذا النص تشبيب من حبيب بمحبوبته، ودلالة هذا النص على الواحد واضحة جدًا؛ إذ يقوله محب - بزعمهم - في محبوبته، وسياق هذا السفر كله غزلي.

ب) شواهد تدل على المثنى: جاء في العهد القديم قوله " تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبث في القرى لنبكرن إلى الكروم لننظر هل أزهر الكرم " (نشيد الإنشاد ٧: ١١). وقوله " اجذبني وراءك فنجري " (نشيد الإنشاد ١ : ٤) فهذه ضمائر جمع أريد بها المثنى كما هو واضح من السياق.

ثانيًا: شواهد إنجيلية: من الشواهد الإنجيلية لاستخدام ضمائر المتكلمين التي تدل على الفرد:

١- قول بولس: " كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسى فماذا نقول ألعل عند الله ظلمًا حاشا " رومية (٩: ١٣ - ١٤).

٢- ويقول أيضًا: " إذًا نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس. . أفنبطل الناموس بالإيمان حاشا بل نثبت الناموس " رومية (٣: ٢٨ - ٣١).

٣- ويقول أيضًا: " فماذا نقول إن أبانا إبراهيم قد وجد حسب الجسد " رومية (٤ : ١).

٤- ويقول: " فماذا نقول إن الأمم الذين لم يسعوا في أثر البر أدركوا البر الذي بالإيمان المصدر نفسه (٩: ٣٠).

٥- بل قال بولس: " لذلك أردنا أن نأتي إليكم أنا بولس مرة ومرتين وإنما عاقنا الشيطان " تسالونيكي (٢: ١٨).

فقوله: (فماذا نقول) و (نحسب) و (أفنبطل) و (نثبت) و (أردنا) و (نأتي) و (عاقنا) تشتمل على ضمائر جمع مستترة وجوبًا، أو ضمائر ظاهرة أسندت إلى أفعال، وهي تدل على مفرد، هو بولس وحده وليس ثلاثة هو ثالثهم. وهكذا نرى أن من الأساليب المعهودة في اللغة العربية التي نزل بها القرآن وترجمت إليها التوراة والإنجيل، استخدام ضمائر الجمع للدلالة على المثنى أو على المفرد فقط، وقد استخدمت لتعود إلى غير الله، مما يبين فساد دعوى النصارى

والمنصرين، في أن ضمائر الجمع المسندة لله سبحانه وتعالى في القرآن تدل على ألوهية عيسى ﵇ بزعم دلالتها على التثليث، وإنما هو أسلوب من أساليب التعظيم أولى به الخالق سبحانه وتعالى من كل مخلوق، واستخدامه جرى على لسان العرب كثيرًا حتى النصارى - كما مر - وهو إلى اليوم معهود غير مستغرب سواء في مخاطبات الملوك أو غيرهم.

الوجه الثالث: قولهم بأن عيسى روح من الله؛ بجعل من للتبعيض، كما سبق بيانه في عرض شبهتم. والنصوص في هذا على قسمين:

القسم الأول: فالجواب على شبهتم فيه من وجوه:

أولًا: زعم الكندي أن القرآن " صرح بأن المسيح كلمة الله تجسدت وصارت إنسانًا ". فهو يشير إلى معتقد النصارى المعروف، وهو أن عيسى هو الكلمة، والكلمة هي الله فعيسى هو الله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا - وهذا صريح في إنجيل يوحنا كما مر سابقًا، ونسبة هذا الكفر إلى القرآن بهتان عظيم وكذب صريح على القرآن المحفوظ كما أنزل، فليأت النصارى بنص يدل على هذا المعنى الباطل. إنما الذي في القرآن﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران: ٥٩). فمن الواضح أن عيسى مخلوق ليس هو الكلمة (كن) وإنما بها كان، وسمي بكلمة الله؛ لأنه بها خُلق وليس له أب.

ثانيًا: أن قوله كلمة الله؛ المراد بها عيسى نفسه، فلا ريب أن المصدر يعبر به عن المفعول به في لغة العرب، كقولهم: هذا درهم ضرب الأمير، ومنه قوله: هذا خلق الله، ومنه تسمية المأمور به أمرا، والمقدور قدرة، والمرحوم به رحمة، والمخلوق بالكلمة كلمة، لكن هذا اللفظ إنما يستعمل مع ما يقترن به مما يبين المراد كقوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران: ٤٥) فبين أن الكلمة هو المسيح، ومعلوم أن المسيح نفسه، ليس هو الكلام. ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ (آل عمران: ٤٧)، فبين لما تعجبت من الولد، أنه سبحانه يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول

له كن فيكون؛ فدل ذلك على أن هذا الولد مما يخلقه الله بقوله كن فيكون[1]

ثالثا: آية سورة النساء - السابق ذكرها (١٧١) - تكفي وحدها للرد على ادعاءات النصارى واستنتاجاتهم المزعومة من خلال قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أو﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أو ما يشاكل ذلك من الآيات.

فالآية تدل على أمور منها:

(١) نهي النصارى عن الغلو في دينهم وتحذيرهم؛ بأن لا يقولوا على الله - سبحانه وتعالى - إلا الحق ومن أول ذلك: عدم الغلو في المسيح فهو ليس إلا رسول الله - سبحانه وتعالى - وعبد من عبيده.

(٢) نسبت الآية عيسى نسبًا بشريًا بينًا إلى أمه مريم ابنة عمران عليهما السلام.

(٣) حذر الله النصارى عن أن يقولوا بالتثليث، ومنه إدخال عيسى واحدًا من الثلاثة المزعومين باعتباره أنه إله منهم.

(٤) أوضحت الآية على سبيل الحصر أن الله - سبحانه وتعالى - ليس إلا إلهًا واحدًا منزهًا عن أن يكون له ولد، وهذا يرد على ادعائهم أن عيسى ابن الله.

(٥) هذه الآية حجة برهانية قاطعة تثبت بلغة الأرقام أن الله واحد أحد وحدانية لا يشوبها أدنى احتمال للشراكة معه؛ وذلك من خلال نفيها للثلاثة والتثليث وإثباتها في الوقت نفسه أن الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد، وليس واحدًا في ثلاثة أو ثلاثة في واحد، مع تحذير النصارى عن القول بالتثليث وتوعدهم على القول به.

(٦) أبانت الآية أن عيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها إلى مريم، فما المقصود بأنه كلمة الله؟ أو كلمة منه؟

رابعا: وإليك بعض كلام العلماء في هذا المعنى:

١ـ قال الإمام أحمد ـ رحمه الله: " المعنى في قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٩٣).

﴿مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ (النساء: ١٧١). فالكلمة التي ألقاها إلى مريم: حين قال له كن، فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن، ولكن بكن كان. فالكن من الله قول، وليس الكن مخلوقًا. وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى. . . وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة "(١)

٢- قال أبو عبيد القاسم بن سلام: " وأما المسيح فالمراد أن الله خلقه بكلمة لا أنه هو الكلمة لقوله ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ ولم يقل ألقاه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

٣- **قال شاذان بن يحيى:** " ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى "(٢).

٤- **كما يقول ابن كثير** - في قوله تعالى -﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ "أي إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه قال له كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل "

كما يقول ابن كثير: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ (آل عمران: ٤٥). : " أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله أي يقول له كن فيكون وهذا تفسير قوله ﴿ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ كما ذكر الجمهور " ويقول ابن جرير: " قال آخرون:

(١) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل: « الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله » ويليه: كتاب السنة « صححه وعلق عليه إسماعيل الأنصاري، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ص (٤٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٠).

بل هي (أي قوله كلمة منه) اسم لعيسى سماه الله بها كما سمى سائر خلقه بما شاء من الأسماء ". ويروي بإسناده عن قتادة أنه قال: " قوله﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ قال: قوله﴿كُن﴾ فسماه الله ﷻكلمته؛ لأنه كان عن كلمته ". وقال أبو عبيد: " كلمته: كن فكان". وكلمة الله التي قيلت لعيسى في القرآن وسمي بها، هي مضافة إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قسم ابن تيمية رحمه الله المضاف إلى الله تعالى إلى قسمين:

إضافة صفات، وإضافة أعيان: " فالصفات إذا أضيفت إليه تعالى، كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك؛ دلت الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به، ليست مخلوقة؛ لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولابد لها من موصوف تقوم به، فإذا أضيفت إليه، علم أنها صفة له، لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها، فيسمى المقدور قدرة، والمخلوق بالكلمة كلامًا، والمعلوم علمًا، والمرحوم به رحمة". فعيسى عليه السلام ليس هو عين الكلمة، وإنما قيل له كلمة الله؛ لأنه خلق بالكلمة ولم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ ومخلوق عن الكلمة: كن.

فالأعيان التي خلقها الله قائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله، فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة، لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضي للإضافة، لا لكونها صفة، والروح الذي هو جبريل من هذا الباب، كما أن الكعبة والناقة من هذا الباب، ومال الله من هذا الباب، وروح بني آدم من هذا، وذلك كقوله ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، وقوله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، وقوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ وقوله ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾.[1]

خامسًا: أن الإضافة من حيث اللغة " نسبة بين اسمين ". ويشترط فيها أن " لا يضاف الاسم إلى مرادفه فلا يقال: ليث أسدٍ ". بينما يزعم النصارى أن: عيسى هو الكلمة، وأن الكلمة هي الله؛ مما يعني تبعا لذلك: أن اسم عيسى ولفظ الجلالة (الله)

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٥١) والجواب الصحيح (٢/ ١٥٨).

اسمان ومسميان مترادفان عند النصارى - والعياذ بالله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، مما يبطل هذه الإضافة لغة وعقلًا؛ لأنها حينئذ - حسب اعتقاد النصارى - تصبح مكونة من اسمين مترادفين ولا تصح هذه الإضافة، إلا إذا كانت تدل على اسمين وذاتين، يختلف كل منهما عن الأخرى.

ثم من جهة أخرى؛ فإن هذا التركيب المكون من المضاف والمضاف إليه، يدل لغة على معنى يختلف عن المقصود بالمضاف إليه وحده فقط، أو بالمضاف فقط، فإذا قلنا: محمد رسول الله ﷺ؛ فإن المراد بالتركيب الإضافي في هذه الجملة - وهو قولنا (رسول الله) - المكون من المضاف (رسول) ومن المضاف إليه لفظ الجلالة (الله) هو رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ الإنسان المخلوق، أما المضاف إليه وحده؛ فإنه لفظ الجلالة اسم الله سبحانه وتعالى وشتان ما بين الرسول المخلوق، والمرسِل الخالق سبحانه وتعالى، فالمضاف إليه يدل على مسمى معين، والتركيب من المضاف والمضاف إليه يدل على مسمى آخر مختلف كليًّا عن ما يدل عليه المضاف إليه.

وهذا يعني من حيث اللغة أن: كلمة الله (المضافُ والمضاف إليه) التي قيلت لعيسى والتي هي اسم له عليه السلام ليست هي المضاف إليه هنا، وهو لفظ الجلالة (الله) فهذان اسمان يدلان على ذاتين مختلفتين: ذات عيسى المخلوقة التي تليق ببشريته، وذات الخالق - سبحانه وتعالى - التي تليق بجلاله وعظمته، وشتان ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، فكل ما في الأمر أن (كلمة الله) قيلت لعيسى عليه السلام اسمًا له؛ لأنه مخلوق بالكلمة، كما مر، فادعاء النصارى أن الكلمة تجسدت وصارت عيسى أمر مكذوب على القرآن؛ لأنه يدل على أن عيسى بها صار ولم يكن هو الكلمة. فعيسى عليه السلام مخلوق وكلمة الله: كن ليست مخلوقة.

القسم الثاني وهو: ما يتعلق بكون عيسى عليه السلام روح من الله أو روح الله:
فالجواب عنه منه وجوه
الأول: ما معنى قوله تعالى (وَرُوحٌ مِنهُ)؟

١ـ **يقول الإمام أحمد**: وأما قوله تعالى﴿ وَرُوحٌ مِّنۡهُ ﴾ يقول من أمره كان الروح فيه

كقوله: ﴿لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُ﴾ يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناه أنها روح بكلمة الله خلقها كما يقال: عبد الله وسماء الله وأرض الله[١].

٢- ويقول ابن جرير: وأما قوله﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾؛ فإن أهل العلم اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: معنى قوله " وروح منه " ونفخة منه لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى أنه روح من الله لأنه بأمره كان. [٢]

٣ـ ويقول ابن كثير: في تفسير قوله ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ أي عيسى (إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له كن فكان ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب يولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل)

٤ـ قال الرازي: أما قوله ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ ففيه وجوه:

الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئًا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله (مِنْه) التشريف والتفضيل كما يقال: هذه نعمة من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة.

الثاني: أنه كان سببًا لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روح. قال تعالى في صفة القرآن﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ (الشورى: ٥٢).

---

(١) الرد على الجهمية صـ(٤٣).

(٢) تفسير ابن جرير (٦ / ٣٥ - ٣٦).

الثالث: روح منه أي رحمة منه، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢) أي برحمة منه، وقال ﷺ: "إنما أنا رحمة مهداة" فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث أنه كان يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم، لا جرم سمي روحًا منه.

الرابع: أن الروح هو النفخ في كلام العرب؛ فإن الروح والريح متقاربان، فالروح عبارة عن نفخة جبريل وقوله: (مِنْهُ) يعني أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمر الله وإذنه فهو منه، وهذا كقوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (الأنبياء: ٩١).

الخامس: قوله (رُوحُ) أدخل التنكير في لفظ (رُوحُ) وذلك يفيد التعظيم، فكان المعنى: وروح من الأرواح الشريفة القدسية العالية، وقوله (مِنْهُ) إضافة لذلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتعظيم. [1]

الثاني: أن (مِنْ) في قوله (وروح منه) لابتداء الغاية، وليست للتبعيض يقول ابن كثير: ((وليست (من) للتبعيض كما تقول النصارى، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣). وقد قال مجاهد في قوله (وَرُوحٌ مِنْهُ) أي رسول منه، وقال غيره: ومحبة منه والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله)[2].

ويقول الشنقيطي: ولكن من هنا لابتداء الغاية، يعني: أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حيًّا من الله تعالى؛ لأنه هو الذي أحياه به، ويدل لما ذكرنا ما روي عن أبي بن كعب أنه قال خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق، ثم ردها إلى صلب آدم وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم فكان منه عيسى عليه السلام"[3].

الثالث: ولو فرض أن (مِنْ) هنا للتبعيض لفسد المعنى نصرانيًا كما سبق بيانه في قوله

---

(١) تفسير الرازي سورة النساء آية (١٧١).

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٥٩٠).

(٣) « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١ / ٤٩٤ – ٤٩٥).

تعالى﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ فلو قلنا على سبيل الفرض: وروح بعض منه باعتبار أن الروح هو عيسى عينه لكان المعنى فاسدًا من وجوه:

١- منها: أن عيسى يصبح جزءًا وبعضًا من الإله. والبعض ليس مساويًا للكل عقلًا، والنصارى يعتقدون أن المسيح (الابن) بزعمهم إله مساوٍ للأب في الجوهر وليس جزءًا منه بل يعتقدون أن الكلمة كما مر آنفًا - وهي عيسى - هي الله فعيسى ليس بعضًا من الله، سواء كان هو الروح أو هو الكلمة بحسب اعتقادهم. وهذا مبطل لكون (مِنْ) للتبعيض، فضلًا عما مر سابقًا من استخدام (مِنْ) لابتداء الغاية في كتبهم على نحو يمنع من خلال السياق أن تكون للتبعيض وهو ما يماثل ما ههنا.

وأما قوله تعالى (رُوحَنا) في مثل قوله (فَأَرْسَلْنا إِلَيْهَا رُوحَنا):

فيقول ابن كثير: " يعني جبريل عليه السلام". وكذلك روح القدس في مثل قوله تعالى﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (النحل: ١٠٢).. يذكر ابن كثير أنه جبريل.

ويقول ابن تيمية ": إن المضاف في الثاني (أي القسم الثاني) من أقسام المضاف إلى الله مملوك لله، مخلوق له، بائن عنه، لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى، كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من بين البيوت، وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق. ومن هذا الباب قوله تعالى﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشرًا سويًا وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيًا، وأنه قال: إنما أنا رسول ربك... وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها "[١].

كما يقول رحمه الله عن الموضوع نفسه " فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها بشرًا سويًا أنه رسول ربها؛ فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها، ليست صفة لغيرها، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله؛ ولهذا قال جماهير العلماء: إنه جبريل عليه السلام فإن الله

(١) الجواب الصحيح (٢/١٥٦ - ١٥٧).

سماه الروح الأمين، وسماه روح القدس، وسماه جبريل"[١] وهذا يوضح أنه ليس لهم أدنى شبهة في هذا؛ إذ المقصود بالروح القدس (وروحنا): جبريل عليه السلام وليس المسيح، بل إن البعض جعل معنى الروح في قوله تعالى (وَرُوحٌ مِنْهُ) أيضًا جبريل عليه السلام، يقول ابن جرير " وقال آخرون معنى الروح ههنا: جبريل عليه السلام قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم وألقاها أيضًا إليها روح من الله قالوا: فالروح معطوف به على ما في قوله " ألقاها " من ذكر الله بمعنى أن إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله ثم من جبريل عليه السلام".

رابعًا: الروح أو الروح القدس أو روح الله عند النصارى، هو الأقنوم الثالث في ثالوثهم الوثني[٢]، وهذا مبطل لادعاء النصارى على القرآن فيما يتعلق بقوله وروح منه، أو روحنا من أساسه؛ لأن القرآن قال عن عيسى عليه السلام: إنه روح من الله سبحانه وتعالى أو سماه بذلك بينما المسيح عند النصارى هو الابن أو " الأقنوم الثاني " بزعمهم، وليس هو روح الله؛ لأن روح الله، أو الروح، أو الروح القدس عندهم ليس عيسى عليه السلام وإنما هو الأقنوم الثالث، ولكل أقنوم بحسب اعتقاداتهم وظائف وأعمال ومهمات لا يقوم بها الأقنوم الآخر فجعلهما أقنومًا واحدًا لا شك أنه مبطل للتثليث النصراني جملة وتفصيلًا

وقد جاء في الأناجيل ما يوضح أن عيسى عليه السلام كان يخرج الشياطين بروح الله، مما يعني أن عيسى شيء، والمقصود بروح الله شيء آخر؛ إذ ينسب إلى عيسى قوله " ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله " متى (١٢: ٢٨)، وفي نص آخر يقول: " وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ومن قال كلمة على ابن الإنسان (أي عيسى عليه السلامبزعم النصارى) يغفر له وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي " متى (١٢: ١٣ - ٣٢)، وفي نص آخر " لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس " متى (١: ٢٠)، وفي غيره " فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا

---

(١) المرجع السابق (١ / ٢٤٠).

(٢) انظر: «القاموس الموجز للكتاب المقدس» (١ / ٣٠٤ - ٣٠٥).

السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلًا مثل حمامة وآتيا عليه" متى (٣: ١٦).

فروح الله أو الروح أو الروح القدس الواردة في النصوص السابقة لاشك أن المقصود بها غير عيسى، والمقصود بذلك عند النصارى: الأقنوم الثالث (الروح القدس). والذي هو غير عيسى؛ مما يبطل كل شبههم التي يحاولون من خلالها تأليه عيسى استنادًا إلى كتاب الله القرآن العظيم منطلقين من إنزال بعض معتقداتهم الفاسدة على قوله تعالى: (وَرُوحٌ مِنْهُ) أو " روحنا " ومخفين بعضًا.

ثالثا: معجزات عيسى عليه السلام التي ذكرت في القرآن والتي استدلو بها على أن في القرآن ما يدل على ألوهية المسيح.

وبداية قد سبق الجواب عن شبهة الاستدلال بالمعجزات على الألوهية عمومًا وحسبنا هنا أن نشير إلى ما يدفع الاستدلال بالقرآن على هذا.

أولًا: إحياء الموتى: ذكر القرآن الكريم معجزات عدة لإحياء الموتى إنعامًا من الله على بعض رسله وإجابة لدعواتهم وتأييدًا لهم وتحديًا لأعدائهم من ذلك:

١ - أَخْذ إبراهيم عليه السلام للطيور الأربعة بأمر الله له بعد دعائه الله أن يريه كيف يحيى الموتى، وتمزيقه لهن وتفريقه لأجزائهن على كل جبل منهن جزءا، ثم دعوته لهن أن يأتينه، فأتينه سعيًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة: ٢٦٠).

فهل حدوث هذه المعجزة على يد إبراهيم عليه السلام الذي هو أب لعيسى - من خلال القرآن ومن خلال الأناجيل - مسوغ لاتخاذ إبراهيم إلهًا؟

٢ـ إلقاء موسى لعصاه الجماد التي لا روح فيها، ثم تحولها إلى ثعبان عظيم عند فرعون والملأ من قومه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

(الأعراف: ١٠٤ - ١٠٧). وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ (الأعراف: ١١٧).

فهذه معجزة عظيمة أنعم الله بها على موسى عليه السلام إذ أحيا الله هذه القطعة الصغيرة من الخشب الجماد التي لا حياة فيها وجعلها حية عظيمة تسعى وتبتلع بفيها ما وضعه السحرة من عصي وحبال.. إلخ.

٣ـ إحياء الميت الذي قُتل في بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام بإذن الله بعد أمر الله لهم أن يضربوا الميت ببعض البقرة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (البقرة: ٧٢ - ٧٣).

فهؤلاء الذين ضربوا الميت ببعض لحم البقرة فقام حيًّا بإذن الله ليسوا من الرسل - على ما يظهر - وعلى الرغم من هذا حدثت على أيديهم هذه المعجزة بإذن الله فهل كان هذا مدعاة لتأليه أحد منهم؟ أو تأليه موسى عليه السلام؟ إن النصارى زعموا أن علة تأليه عيسى عليه السلام هي إحياؤه للموتى، ولو فرض أنها علة لتأليه أحد ما من البشر؛ لكان العقل موجبًا أن يؤله كل من اشترك في هذه العلة فقام بمثل هذه المعجزات، أو الأمور الخارقة للعادة. وقد شارك عيسى غيره في معجزة الإحياء كما مر آنفًا، مما يبطل ادعاء النصارى في تأليه عيسى عليه السلام لإحيائه الموتى على نحو عام.

ويبطل نسبة هذا التأليه إلى القرآن على نحو خاص؛ لأن القرآن أوضح أن كل ذلك بإذن الله وأن هناك من أنعم الله عليه بمثل معجزات عيسى عليه السلام **في إحياء الموتى، ولم يجعل ذلك منهم آلهة.**

ثانيًا: الإخبار بالغيب: أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم عن بعض من أنعم عليهم: باطلاعهم - من لدنه - على بعض الغيوب من ذلك:

(أ) ما أنزل على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ من الغيوب سواء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وهو شيء كثير لا يتسع المقام لذكره، مثل الإخبار عن الأقوام السابقين له صلوات الله وسلامه عليه، وعن رسلهم وما جرى لهم مع أقوامهم، ومثل الإخبار عن قصة سليمان والهدهد

وملكة سبأ إلى غير ذلك من أمور غيبية ماضية بل وأمور غيبية مستقبلية[١].

ولما كانت الدعوى (دعوى الألوهية وما يرتبط بها) مدعاة من النصارى والمنصرين على القرآن، ولأن بعض أهل الكتاب كما يقول ابن تيمية يقول " لا نصدق إلا بما في القرآن "[٢]. أي من معجزات الرسول ﷺ فإنه يحسن ذكر بعض ما أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله ﷺ في القرآن من الأخبار الغيبية، ولا سيما بعض ما يرتبط بعيسى عليه السلام وأمه مما انفرد به القرآن الكريم ومن ذلك:

إخباره عن أحوال الرسل الماضين، وإخباره عن أمور مستقبلة جاءت كما أخبر ﷺ.

ولا شك أن هذا من باب الجدل فقط، وعلى زعم محاولة إلزام المسلم من خلال مسلماته، فيما يعتقدون أنه حجة لهم مثل: معجزات عيسى عليه السلام أو غيرها وإليك ما يلي:

(١) أن مريم حملت بعيسى عليه السلام: ﴿فَأَنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (مريم: ٢٢ – ٢٥).

(٢) أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد و﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٠ – ٣٣).

(٣) أن عيسى عليه السلام خلق من الطين كهيئة الطير؛ فنفخ فيه فصار طيرًا بإذن الله.

(٤) أن عيسى عليه السلام كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

كل هذه الأخبار الغيبية لا يعلمها حتى النصارى أنفسهم وفق أناجيلهم الحالية، كما مر؛ فإنما أنزلها الله على يد عبده ورسوله ﷺ في القرآن.

---

(١) انظر رحمت الله الهندي « إظهار الحق » (٢ / ٨١) فما بعد، وعبد العزيز السلمان « من معجزات النبي ﷺ» ومحمود مهدي الإستانبولي « إعجاز القرآن العلمي » الطبعة الثانية، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة.

(٢) ابن تيمية في الجواب الصحيح (٦ / ٦٨).

(ب) ما جاء في القرآن من إخبار نبي من أنبياء بني إسرائيل لهم عن آية ملك طالوت عليهم. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ (البقرة: ٢٤٨) فهذا نبي من بني إسرائيل يخبرهم عن أمور غيبية مستقبلية، لم تحدث بعد آنذاك فما جعل ذلك منه إلهًا.

(ج) ما أعطاه الله سبحانه وتعالى - للخضر من العلم الغيبي الذي لم يُعطه رسول من أولي العزم من الرسل وهو موسى صلوات الله وسلامه عليهم؛ فإن الخضر خرق سفينة المساكين الذين يعملون في البحر حفاظًا عليها؛ لأن الله أعلمه أن وراءهم ملكًا يأخذ كل سفينة غصبًا، وقتل الغلام خشية أن يرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، وأقام الجدار الذي كان يريد أن ينقض؛ إذ كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة منه، كل ذلك من الإنباء بالغيب الذي منحه الله تعالى للخضر مما لم أطلع على أن عيسى ﷺ أعطي مثله لا في القرآن ولا في الأناجيل.

هذا فيما يتعلق بمعجزات مشابهة لمعجزات عيسى من خلال القرآن.

وأما عن المعجزات المشابهة من خلال التوراة والأناجيل فقد سبق بيانها بحمد الله تعالى، ولكن نشير هنا فقط إلى أن معجزات المسيح ﷺ التي وردت في الأناجيل إنما هي - بنص الأناجيل - بإذن الله تعالى يدل على ذلك من الأناجيل ما يلي:

(١) قوله: " **فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، ٤٢وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي». ٤٣وَلَمَّا قَالَ هذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا!» فَخَرَجَ الْمَيْتُ.** " (يوحنا (١١: ٤١ - ٤٣) فانظر كيف رفع عيسى بصره إلى السماء ودعا الله ومجده، وأوضح النص أن هذه المعجزة إنما هي من أجل أن يُصدقوا به رسولًا من عند الله، وقد استجاب الله دعاءه فخرج الميت حيًّا بإذن الله.

(٢) قوله " فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآب " (يوحنا (٥: ١٩)، وينسب إلى عيسى عليه السلام أنه قال: " والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك " (يوحنا (١٧ : ٧)، فكل ما أوتيه المسيح عليه السلام من إحياء للموتى، ومن إنباء بالغيب إلى غير ذلك من معجزات إنما هو بنص أقوال المسيح عليه السلام من عند الله وبإذن الله سبحانه وتعالى، وهذا مثبت أنه ليس له من الأمر شيء، ومبطل لدعوى ألوهية المسيح من خلال الأناجيل كما بطلت هذه الدعوى قبل من خلال القرآن.

(٣) جاء في نص آخر: " فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي لكن الآن أعلم أن كل ما تطلبه من الله يعطيك إياه " (يوحنا (١١: ٢١ - ٢٢).

فهذه المرأة تعلم أن الأمر ليس بيده، وإنما إذا دعا الله أعطاه الله سؤله، فإحياء الموتى الذي حدث على يد المسيح، إنما هو بإذن الله سبحانه وتعالى.

(٤) وفي نص آخر: " أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل، قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم تعلمون " (أعمال الرسل (٢: ٢٢)، وانظر: أعمال الرسل (١٠ : ٣٨)، فالأمر بدهي عند المؤمنين بعيسى آنذاك من بني إسرائيل: أن المعجزات التي جاء بها إنما أوجدها وصنعها الله، وليس عيسى عليه السلام وإنما حصلت على يد عيسى فهي من (قبل الله) أو من عند الله وبإذن الله، وأوجدها الله سبحانه وتعالى وما عيسى إلا (رجل) أو عبد من عبيد الله، ورسول من رسله، ثبت صدقه بما أنزله الله على يديه من المعجزات (القوات والعجائب).

ولذا على الرغم من إحياء عيسى للموتى بإذن الله، لم يجعل ذلك منه عند الجموع التي قام بالمعجزات في وسطها إلا أنه نبي فقط فلم يتجاوزوا به طور البشرية.

جاء في الأناجيل " فقال (أي عيسى) أيها الشاب لك أقول قم؛ فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه؛ فأخذ الجمع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه " (لوقا (٧: ١٤ - ١٦).

وفي النص الذي قبل هذا قالوا عن عيسى إنه (رجل تبرهن لكم من قبل الله)، ولم يقولوا: إله، أو ابن إله. وهذا مما يوضح حقيقة عيسى، وأنه عند بني إسرائيل الذين أرسل إليهم وآمنوا به، إنما هو رسول نبي وعبد من عباد الله؛ لأن المعجزات التي جاء بها، إنما كانت بإذن الله سبحانه وتعالى، ومن عنده وليست من عند المسيح ابتداءً.

وقد جاء في الأناجيل أن عيسى قال للحواريين " اشفوا مرضى طهروا برصًا أقيموا موتى أخرجوا شياطين مجانا " (متى (١٠ : ٨). وهذا دليل على أن إحياء الموتى، ليس علة ولا مبررًا لتأليه أحد من البشر؛ مما يسقط دعوى النصارى في ألوهية عيسى؛ استنادًا إلى إحيائه للموتى، فعلى فرض صحة هذا النص وافتراض تحققه من قبل الحواريين، يوضح بجلاء أن إحياءهم للموتى لم ولن يجعل منهم آلهة، وليس هذا مسوغًا لتأليه أحد من البشر؛ فإن زعم النصارى أن ذلك بسلطة أو بإذن من الله سبحانه وتعالى؛ فإن هذا الكلام هو عين الرد عليهم في حالة إحياء عيسى للموتى؛ إذ أحيا عيسى الموتى بإذن الله، كما أوضحت ذلك آيات القرآن ونصوص الأناجيل الآنفة الذكر.

* * *

٢ ـ شبهة: ثناء القرآن والسنة على التوراة والإنجيل

نص الشبهة:

جاء في القرآن والسنة النبوية ما يشير إلى تصديق القرآن للتوراة والإنجيل، والحديث عنهما والثناء عليهما وعلى موسى وعيسى عليهما السلام، والحديث عن بني إسرائيل، مثل قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾، وغير ذلك من الآيات.

ويحتجون بأن النبيﷺ أمسك التوراة في يده وقال: آمنت بك وبمن أنزلك.

فأخذوا من ذلك أن الكتاب الذي بأيديهم هو الذي أثنى عليه القرآن والسنة، وأنه لم يصبه زيف ولا تحريف، وإذا كان هذا الكتاب أثنى عليه القرآن والسنة، فلماذا هذا الاضطهاد؟

والجواب عن هذه الشبهة في مبحثين:

المبحث الأول: الرد الإجمالي على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الإيمان بجميع الرسل والكتب المنزلة عليهم هي عقيدة المسلمين.

الوجه الثاني: الثناء والمدح كان للكتاب الذي نزل على موسى و عيسى.

الوجه الثالث: مدح التوراة والإنجيل لا يعني مدح اليهود والنصارى.

الوجه الرابع: القرآن ناسخ للكتب السابقة، وشريعة النبي ﷺ ناسخة لجميع الشرائع؛ فوجب العمل بما في القرآن وبشريعة النبي ﷺ.

الوجه الخامس: هذا الثناء لا ينافي وجوب اتباع محمد ﷺ.

الوجه السادس: القرآن بيّن أنهم خالفوا أحكام التوراة.

الوجه السابع: ذم أهل الكتاب لا يقدح في أنبيائهم.

المبحث الثاني: الرد التفصيلي على بعض الشبهات التي أثارها أهل الكتاب في إثبات صدق كتابهم من خلال ثناء القرآن على التوراة والإنجيل، وهي:

الشبهة الأولى: قالوا: إننا نجد في (القرآن الكريم) آيات تشهد بصدق التوراة والإنجيل -كما هما اليوم- وتؤكد أن الكتابين لم يحرفا.

الشبهة الثانية: قالوا: بأن القرآن أثنى على أهل الكتاب.

الشبهة الثالثة: قالوا: إن القرآن رفع قدرنا وأعلى منزلتنا، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥).

الشبهة الرابعة: يقولون: بأن النبي ﷺ أثنى على كتابنا، وفي هذا دليل على أنها لم تحرف.

الشبهة الخامسة: يقولون: بأن القرآن يعظمنا بتقديم البيع والكنائس، على المساجد.

الشبهة السادسة: يقولون: بأننا وجدنا في القرآن تعظيم المسيح وأمه.

الشبة السابعة: يقولون: إن القرآن لما جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب فثبت بهذا ما معنا، ونفى عن كتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

الشبهة الثامنة: يقولون: بأن القرآن شهد لهم أنهم أنصار الله.

الشبهة التاسعة: الرد على تأويلهم لقول الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

المبحث الثالث: وماذا عن البشارات التي توجد في الكتاب المقدس بنبوة رسول الإسلام محمد ﷺ.

واليك التفصيل

المبحث الأول: الرد الإجمالي على هذه الشبهة

الوجه الأول: الإيمان بجميع الرسل والكتب المنزلة عليهم هي عقيدة المسلمين.

قال ابن تيمية: وقد أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض فقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ (البقرة: ١٣٦، ١٣٧).

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ

وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ (النساء: ١٥٠-١٥٢)، فذم المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض وبين أنه فضل بعضهم على بعض فقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، فبين أنه فضل بعضهم على بعض، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (الإسراء: ٥٥).

وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وبجميع ما أنزله الله من الكتب، فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم، ولوط، وموسى، وداود، وسليمان، ويونس، وعيسى، فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار، وإن كان مرتدًا استتيب فإن تاب وإلا قتل، ومن سب نبيًا واحدًا من الأنبياء قتل أيضًا باتفاق المسلمين، وما علم المسلمون أن نبيًا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد ﷺ وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف، وما لم يعلموا أن النبي ﷺ أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمدًا أخبر به صلى الله عليهم أجمعين ولكن لا يكذبون إلا بما علموا أنه كذب، كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق، وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد ﷺ وبهذا أمرهم.

وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد دينًا غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو دين الأنبياء وأتباعهم كما أخبر الله تعالى بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(يونس: ٧١، ٧٢)، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٠-١٣٢)، وقال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠١)، وقال تعالى عن موسى أنه قال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٨٤).

وأخبر تعالى عن السحرة أنهم قالوا لفرعون: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٦)، وقال تعالى عن بلقيس ملكة اليمن: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤)، وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال تعالى عن المسيح: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (آل عمران: ٥٢: ٥٣). وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة: ١١١).

فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، هو دين الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالى في كل زمان ومكان بطاعة رسله عليهم السلام، فلا يكون عابدا له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله كالذين قال فيهم: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (الشورى: ٢١).

فلا يكون مؤمنًا به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمنا به ولا عابدا له إلا من آمن بجميع رسله، وأطاع من أرسل إليه فيطاع كل رسول إلى أن يأتي الذي بعده فتكون الطاعة للرسول الثاني، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤).

ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافرا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا (١٥١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (١٥٢)﴾ (النساء: ١٥٠-١٥٢).[1]

الوجه الثاني: الثناء والمدح كان للكتاب الذي نزل على موسى و عيسى.

أولًا: توراة موسى عليه السلام أم التوراة المحرفة؟

يُقصد بتوراة موسى ذلك الكتاب الذي أوحاه الله إلى عبده موسى، والذي قرأه على بني إسرائيل في حياته، وحكم به وأخوه هارون فيهم، ثم تركه بينهم وانتقل إلى رحمة الله، يقول الله في القرآن عن توراة موسى الأصلية هذه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٤)﴾ (المائدة: ٤٤).

أ- ولقد كان في توراة موسى: لا إله إلا الله، الإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، مخاطبة الناس – غير الإسرائيليين- بالحسنى وعدم الاستكبار.

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٩٩.

فهذا ما يقوله القرآن: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (البقرة: ٨٣).

١- لكن التوراة المحرفة[1] -باعتراف علمائها - والتي يتداولها الناس منذ قرون عديدة، وتجمع بين دفتيها هذا وذاك، ونسميها (توراة اليهود)، نجدها تقر عبادة الشيطان، "و قال الرب لموسى كلم هارون أخاك. . . يأخذ تيسين من المعز لذبيحة خطية. . . ويأخذ التيسين ويوقفهما أمام الرب. . . و يلقي هارون على التيسين قرعتين قرعة للرب و قرعة لعزازيل. . . و يقرب هارون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب و يعمله ذبيحة خطية. . . وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حيا أمام الرب ليكفر عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية"(سفر اللاويين١٦/ ٢: ١٠).

ويقول علماء الترجمة الفرنسية المسكونية تعليقًا على هذه الفقرة(يبدو أن عزازيل – بحسب الترجمة السريانية – هو اسم شيطان كان العبرانيون والكنعانيون القدامى يعتقدون أنه يسكن البرية، والبرية أرض عقيمة لا يمارس فيها الله عمله المخصب).

سبحان الله، هل البرية أو الصحراء بعيدة عن سلطان الله؟ ، وحتى ولو لم يكن عزازيل شيطانًا؛ بل كان ملكًا أو كبير الملائكة، فإن اختصاصه بتقديم قربان إنما يعني عبادته. . . يعني الشرك بالله.

٢- كذلك تقر توراة اليهود، الناس من غير بني إسرائيل على عبادتهم الأجرام السماوية باعتبار ذلك قدرًا إلهيًا قسمه الرب لتلك الشعوب، بينما يتفرد الإسرائيليون بعبادة الله فلا يشاركهم فيه أحد: "لئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء فتغتر و تسجد لها و تعبدها" (تثنية٤: ١٩).

---

(١) انظر: شبهة تحريف الكتاب المقدس.

٣- كذلك تقر توراة اليهود استعباد غير الإسرائيليين ليكونوا عبيدًا لبني إسرائيل أبد الدهر: "وإذا افتقر أخوك عندك و بيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير نزيل يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو و بنوه معه و يعود إلى عشيرته. . . وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم منهم تقتنون عبيدا وإماء. وأيضًا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون، ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكا لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك تستعبدونهم إلى الدهر"(لاويين٢٥/ ٣٩: ٤٦).

٤- كذلك تفرض توراة اليهود على بني إسرائيل أن يقرضوا غيرهم بربا، بينما تحرم ذلك عندما يكون المقترض من الإسرائيليين: "لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا و لكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك"(تثنية٢٣/ ١٩: ٢٠).

ب – ولقد كان في توراة موسى نبوءات صريحة عن خاتم النبيين الذي يبعثه الله رسولًا إلى العالمين من غير بني إسرائيل؛ بل ومن أبناء إسماعيل بن إبراهيم على وجه التحديد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة: ١٤٦)، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأنعام: ٢٠)، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ (البقرة: ٨٩: ٩٠).

قال ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

ولا يزال في توراة اليهود بقايا من بشارات خاتم النبيين مثل قول الرب لموسى: "أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك و أجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به.

ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه (انتقم منه)"(تثنية١٨/ ١٨: ١٩).

القرآن يقرر إذن أن توراة موسى، أي التوراة الأصلية هي هدى ونور، وهذا حق لا مرية فيه، وأما توراة اليهود فهي توراة محرفة، فلا شك في ذلك على الإطلاق.

فكيف يثني القرآن على توراة حرفها أهلوها؟. (١)

ثانيًا: إنجيل عيسى عليه السلام أم الإنجيل المحرف؟

يقصد بإنجيل المسيح ذلك الكتاب الذي أوحاه الله إلى عبده المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام والذي ألقاه مواعظ وحكمًا على حوارييه، ومن سار خلفه من بني إسرائيل، وأكد فيه على التزامه بتوراة موسى أولًا وأخيرًا، يقول الله في القرآن عن إنجيل المسيح الحق: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة ٤٦: ٤٧).

أ- ولقد كان مما في إنجيل المسيح: المسيح عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل، التخفيف على الإسرائيليين من شدة الشريعة، والتخفيف على المرضى والضعفاء، صنع المعجزات بإذن الله، والتنبؤ بالغيب القريب الذي يمكن التحقق من صدقه ليكون دليلًا على صدق تنبؤ المسيح بالغيب البعيد، فالقرآن قال في شأن المسيح وإنجيله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم٢٧: ٣١).

---

(١) القرآن لا يشهد لتوراة اليهود (٤٣: ٣٧) بتصرف، وانظر: حديث القرآن عن التوراة (١٥٦: ١٦٦).

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران ٤٩ : ٥١).

لكن الأناجيل. . . لا، بل مجموعة الأناجيل التي يتداولها الناس الآن قد حُرفت نصوصها مما دفع علماء المسيحية إلى تقرير الحقيقة الخطيرة الآتية: "القارئ في عصرنا وهو حريص على الدّقة، لا ينفكّ يبحث عن الأحداث التي تم إثباتها والتحقّق منها، يقع في حيرة أمام تلك المؤلفات التي تبدو له مفكّكة يخلو تصميمها من التنسيق، ويستحيل التغلب على تناقضاتها، ولا يُمكنها أن تردّ على الأسئلة التي تُطرح عليها. . . لقد جمع الإنجيليون ودونوا وفقًا لنظراتهم الخاصة ما أتاهم من التقاليد الشفوية".

١- فهذه الأناجيل التي نسميها (أناجيل النصارى)أو (أناجيل المسيحيين) جعلت المسيح ابنًا لله، فها هو كاتب إنجيل مرقس يبدأ بقوله: "بدأ إنجيل يسوع المسيح ابن الله"(مرقس١ : ١).

ويقول كاتب إنجيل يوحنا: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد"(يوحنا٣: ١٦)، "و آيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. و أما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله" (يوحنا ٢٠ / ٣٠: ٣١).

وذلك على الرغم مما هو باق في سفر أعمال الرسل إلى اليوم من شهادة تلاميذ المسيح أنه عبد الله تمامًا كما كان داود عبدًا لله: " رفعوا أصواتهم إلى الله بقلب واحد فقالوا: ياسيد أنت صنعت السماء والأرض والبحر وكل شئ فيها، أنت قلت على لسان أبينا داود عبدك بوحي الروح القدس، تحالف حقًا في هذه المدينة هيرودس وبنطيوس بيلاطس والوثنيون وشعوب إسرائيل على عبدك القدوس الذي مسحته" (أعمال الرسل٤ / ٢٧: ٢٥).

ولقد اختارت ترجمة البرتستانت العربية كلمة (فتى) بدلًا من (عبد) كنوع من التشويش على فكر القارئ العادي، وإن كان ذلك لا يغير من حقيقة الأمر شيئًا، فالمسيح في عقيدة تلاميذه المقربين هو عبد الله ورسوله.

٢- بل إن إنجيل يوحنا كان هو الوحيد بين الأناجيل الذي تحدث عن حلول الإله في المسيح فقال: "لكن الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال" (يوحنا١٤: ١٠).

إن عقيدة حلول الإله في الإنسان هي من العقائد الوثنية القديمة، فقد كانت معروفة لدى الهنود والمصريين واليونان وغيرهم؛ بل إن قدماء المصريين توسعوا فيها حتى جعلوا روح الإله تحل في الحيوان، فكان ذلك مدعاة لعبادة الحيوان، بزعمهم.

٣- وحسبما يقول القرآن جاء المسيح ليخفف عن بني إسرائيل بعض قيود الشريعة، لكن هذه الأناجيل تجعل المسيح يشدد عليهم في أمور تتصل بحياتهم المعتادة مما يوقعهم في العنت أو الخطيئة، إن توراة موسى تسمح بالطلاق وتعدد الزوجات بلا حدود لكن المسيح شدد في موضوع الطلاق وجعله أقرب إلى المستحيلات مما تسبب عنه-إلى اليوم- مآسي وخطايا وانفلات اجتماعي.

يقول إنجيل النصارى على لسان المسيح: "قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن. و أما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها و ألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك و لا يلقى جسدك كله في جهنم. و قيل: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. و أما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني و من يتزوج مطلقة فإنه يزني"(متى٥/ ٢٧: ٣٢).

ويذكر هذا الإنجيل قول المسيح في بدء رسالته"لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لانقض بل لأكمل"(متى٥: ١٧)، ولما كان الناموس يسمح بالطلاق بلا قيود، فإن علماء المسيحية يقولون: إن هذا يعتبر أكبر نقض صريح للناموس.

٤- ولم يذكر أي من الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى المسيحيين شيئًا عن معجزات المسيح في طفولته مثل التي ذكرها القرآن، ولقد وجدت هذه المعجزات في كتب مسيحية أخرى نشرت تحت اسم (الكتب المفقودة) وقد جاء فيها" عندما كان الرب يسوع في السابعة من عمره، كان يلعب مع بعض رفاقه الذين نحو سنة. . . وقد صنع أشكالًا من الطيور والعصافير، وعندما أمرها بالطيران فإنها طارت، وعندما أمرها بالتوقف فإنها توقفت ".

٥- بل إن أناجيل النصارى هذه تنسب للمسيح تنبؤات باطلة، من أخطرها أن نهاية العالم وانهيار النظام الكوني سوف تحدث قبل نهاية القرن الميلادي الذي عاش فيه المسيح وتلاميذه: " وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين قل لنا متى يكون هذا و ما هي علامة مجيئك و انقضاء الدهر؟ فأجاب يسوع. . . للوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس و القمر لا يعطي ضوءه و النجوم تسقط من السماء و قوات السماوات تتزعزع وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. . . و يبصرون ابن الإنسان آتيا على سحاب السماء بقوة و مجد كثير. . . الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله" (متى٢٤/ ٣٠: ٣٤).

نهاية العالم-حسب هذه النبوءة- تحدث قبل أن يهلك الجيل الذي عاصر المسيح، ولقد هلكت عشرات الأجيال بعد المسيح ولا يزال النظام الكوني قائمًا ولا تزال الحياة مستمرة.

ب – ولقد كان في إنجيل المسيح الحق نبوءات صريحة عن خاتم النبيين الذي يبعثه الله مباشرة بعد المسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦)﴾ (الصف: ٦).

ولا تزال إلى الآن بقية من هذه النبوءات مثلما نجده في إنجيل يوحنا، فعندما ظهر يوحنا المعمدان(يحيى بن زكريا) كان اليهود يعلمون يقينًا من نبوءات كتبهم أنه لا يزال هناك في عالم الأنبياء ثلاثة لم يظهروا بعد، ولذلك أرسلوا يسألونه: "و هذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة و لاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف و لم ينكر و أقر: إني لست أنا

المسيح. فسألوه إذًا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا، أنبي أنت؟ فأجاب لا. فقالوا له: ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية. . . فسألوه و قالوا له: فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح و لا إيليا و لا النبي؟ " (يوحنا ١/ ٢٥: ١٩).

من الواضح تمامًا أن لكل واحد من الثلاثة الذين كان ينتظرهم اليهود اسمًا يُعرف به، وأن أسمائهم وترتيب ظهورهم هكذا: إيليا ثم المسيح ثم النبي، وأن ذلك النبي المرتقب يأتي بعد المسيح، ولما كان اليهود قد اشتهروا بظهور الأنبياء فيهم، فإن تسمية هذا المرتقب الأخير باسم (النبي) يعني ولا شك أنه نبي، ولكنه ليس ككل الأنبياء، إنه نبي أمره جلل وشأنه عظيم، إنه نبي الزمان.

وحتى بعد ظهور المسيح، استمر اليهود يخلطون بينه وبين النبي المرتقب، فقد حدث " في اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع و نادى قائلًا إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. . . فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي. وآخرون قالوا هذا هو المسيح. . . فحدث انشقاق في الجمع لسببه"(يوحنا٧/ ٢٤: ٣٤).

النبي المرتقب إذن يأتي بعد المسيح، هذا حق لا مرية فيه، ولم يأت بعد المسيح إلا محمد رسول الله إلى العالمين، هذا ولقد بين المسيح أن إيليا المنتظر الأول من أولئك الثلاثة قد جاء في شخص يوحنا المعمدان، فقد "ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا: ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا؟ أنبيًّا؟ نعم أقول لكم و أفضل من نبي. . . إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي" (متى١١/ ١٤: ٧).

ومرة أخرى"سأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة: إن إيليا ينبغي أن يأتي أولًا(قبل المسيح)، فأجاب يسوع و قال لهم: إن إيليا قد جاء و لم يعرفوه؛ بل عملوا به كل ما أرادوا(أي قتلوه). . . حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان" (متى١٧/ ١٠: ١٣).

لقد ظهر النبي إيليا(إلياس) في بني إسرائيل في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، وانتهت حياته برفعه إلى السماء حيًا، وكأنها تمهيد لرفع المسيح حيًا إلى السماء دون أن يذوق

الموت في تراب الأرض، ولقد كانت البشارة للنبي زكريا أنه سيُرزق بابن اسمه يحيى(يوحنا) يتقدم في بني إسرائيل بروح إيليا: "وخمرًا ومسكرًا لا يشرب ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. . . ويتقدم أمامه بروح إيليا" (لوقا١/ ١٣: ١٧).

لقد جاء يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) تقوده روح إيليا النبي الذي ظهر قبله بقرون، ومن هنا قال المسيح عن يحيى هذا"إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي".

القرآن يقرر أن إنجيل المسيح، أي الإنجيل الأصلي هو هدى ونور، وهذا حق لا مرية فيه، أما أناجيل النصارى، فلم يعد هناك شك بين علمائها، وأنها تعرضت للتحريف عبر القرون؛ بل ولا تزال تُحرف حتى وقتنا هذا. (١)

ونحن نطلب الآن من كل الطوائف النصرانية أن يظهروا لنا إنجيل عيسى الذي كان يكرز به بين الناس، فالذي بين أيدينا هي أناجيل بعض التلاميذ وتلاميذ التلاميذ، فالقرآن أثنى على إنجيل عيسى وأنتم تفتقدونه اليوم، فبأي وجه تعترضون؟.

الوجه الثالث: مدح التوراة والإنجيل لا يعني مدح اليهود والنصارى.

فقد مدح الله التوراة (توراة موسى عليه السلام)، والإنجيل (إنجيل عيسى عليه السلام)، ومع ذلك فقد بين صفات اليهود والنصارى (أهل الكتاب) من الغدر والكذب والخيانة، وقد حكم الله عليهم بالكفر لما فعلوه أو قالوه عن الله وبين أنهم من أصحاب النار بهذه الأفعال وغيرها.

قال ابن تيمية: وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم تسليمًا، وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى، فكذلك أيضًا ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل، ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمدًا ﷺوبدلوا أحكام التوراة والإنجيل، واتبعوا المبدل المنسوخ، واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيها ذكر مدح للنصارى، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيها ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل. فعلم

(١) القرآن لا يشهد لتوراة اليهود (٤٤: ٥٥)، وانظر مبحث التحريف في هذه الموسوعة.

اتفاق أهل الملل كلها المسلمون واليهود والنصارى على أنه ليس فيما ذكر في القرآن من ذكر التوراة، والإنجيل، وموسى، وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً ﷺ، ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه، فليس في ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل، ولا بدين منسوخ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ؟. (١)

الوجه الرابع: القرآن ناسخ للكتب السابقة، وشريعة النبي ﷺ ناسخة لجميع الشرائع فوجب العمل بما في القرآن وبشريعة النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ (آل عمران: ٨١-٨٣)

قال ابن تيمية: فقد بين أن من اتخذ الملائكة، والنبيين أربابًا فهو كافر، فمن اتخذ من دونهم أربابًا كان أولى بالكفر، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أربابًا بقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ (التوبة: ٣١).

ثم قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١).

قال ابن عباس وغيره من السلف: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٧٠.

ليؤمنن به ولينصرنه، والآية تدل على ما قالوا فإن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يتناول جميع النبيين ثم قال: وقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ هي ما الشرطية والتقدير: أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به، ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته؛ بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا تستغنوا بما آتيتكم عما جاء به، فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله.

فدل ذلك على أنه من أدرك محمدًا من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾، وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (آل عمران: ٨٢). [(١)]

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لَمَهْمَا آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة، وبلغ أيّ مبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنَنَّ به ولينصرَنَّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾.

قال علي بن أبي طالب، وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه.

(١) الجواب الصحيح ١/ ١٩٩: ٢٠٠.

فالرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء دائمًا إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدَّم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لِفَصْل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النوبة إليه، فيكونَ هو المخصوص به. (١)

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ " والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يهوديٌّ وَلاَ نصرانيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ". (٢)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الذي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِالله، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ الله أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ الله وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ الله، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ؟ وَلاَ وَالله مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الذي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ. (٣)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ " لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شيء، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يتبعني ". (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٠: ١٠١ مختصرًا.

(٢) مسلم (١٥٣).

(٣) البخاري (٢٦٨٥).

(٤) حسن. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٤٢١)، ومن طريقه ابن أبي عاصم في السنة (٥٠)، وأخرجه الدار مي في السنن (٤٣٥)، وأحمد في المسند٣: ٣٨٧، والبزار في كشف الأستار (١٢٤)، البيهقي في الشعب (١٧٩) من طرق عن مُجَالِدٍ عَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ به.

قال الألباني: وهذا سند فيه ضعف من أجل مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال الحافظ في " التقريب ": " ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره ".

الوجه الخامس: هذا الثناء لا ينافي وجوب اتباع محمد ﷺ.

قال ابن تيمية: وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه وعلى من اتبعه وكان على دينه الذي لم يبدل فهذا حق، وهو لا ينافي وجوب اتباع محمد ﷺ على من بعث إليه، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل، وأن محمدًا أثنى على كل من اتبعها وقال مع ذلك: إن الله أرسلني إليكم؛ لم يكن ذلك متناقضا وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه، فكيف وهو إنما مدح من اتبع دينا لم يبدل؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم؛ بل ذمهم كما قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ (المائدة: ١٤).

وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود، كفروا بتبديلهم ما في الكتاب الأول، وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثاني، وأما من لم يبدل الكتاب أو أدرك محمدًا فآمن به فهؤلاء مؤمنون، ومما يبين ذلك أن تعظيم المسيح للتوراة واتباعه لها وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم محمد للإنجيل، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطًا عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح، فكيف يكون تعظيم محمد للإنجيل مسقطًا عن النصارى وجوب اتباعه؟ [1]

الوجه السادس: القرآن بيّن أنهم خالفوا أحكام التوراة.

لقد جاء القرآن واضحًا في موقفه تجاه هذه الأسفار وحفظتها من الأحبار والعلماء، سنذكر عددًا من الأساسيات منها:

وقال الحافظ في " الفتح " (١٣: ٢٨٤): " رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار، ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفا ". قلت – أي الألباني – لكن الحديث قوي فإن له شواهد كثيرة. وذكر – الشيخ – بعضها.

ثم قال: وجملة القول: أن مجيء الحديث في هذه الطرق المتباينة، والألفاظ المتقاربة لما يدل على أن مجالد بن سعيد قد حفظ الحديث فهو على أقل تقدير حديث حسن. والله أعلم إرواء الغليل ٦/ ٣٤: ٣٨.

(١) الجواب الصحيح ٢/ ١٤٢: ١٤٣.

١- تعرضت الأسفار اليهودية والمسيحية للفقد والضياع بسبب التفريط في التحفظ عليها وحفظ ما فيها، فصارت تلك المفقودات نسيًا منسيًا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة١٢: ١٤).

٢- قام على أمر هذه الكتب طائفة من الأحبار والكهنة والكتبة وُجد بينهم:

أ- الذين يحرفون كلام الله بتغييره وتبديله وعدم الحفاظ على صورته الأصلية: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦).

ب- الذين يضيفون إلى كلام الله وينقصون منه ما شاءت لهم أهواءهم، ثم يدعون أن ذلك وحي الله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (آل عمران: ٧٨: ٨٠)، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ (النساء: ٥٠)، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا

قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٩)، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ (البقرة: ٧٨)، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ (المائدة: ٧٧).

ج- ولقد درج كثير منهم ممن عهد إليهم بالحفاظ على كتب الله من الكتبة والرؤساء الدينيين على كتمان الحق الذي لا يتفق وأهواءهم مثل نبوة محمد الذي جاء من العرب الأميين وكانت بشارته – ولا تزال بقيتها – في كتبهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (آل عمران: ١٨٧)، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ (آل عمران: ٧١)، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة: ١٥: ١٦).

ونستطيع الآن تقرير ما يمكن استخلاصه من موقف القرآن من الأسفار اليهودية والمسيحية -أي الكتاب المقدس – فنقول: إن هذه الأسفار بها بقية مما أنزله الله، كما أنها فقدت قدرًا من الحقائق عندما ضاع منها حظ من التنزيل الإلهي، وهي تضم بين جنباتها اختلافًا كثيرًا بسبب ما صنعته بها أيدي البشر الذين استحفظوا عليها وقاموا على أمرها، ولقد جمع ذلك سيدنا محمدﷺ خاتم النبيين –الذي أُوتي بحق جوامع الكلم- في عبارة موجزة فقال: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله)[1].

(١) البخاري (٤٤٨٥).

إن من معجزات هذا النبي الأمي أن هذا هو عين ما قاله علماء الكتاب المقدس في دائرة المعارف البريطانية: (لقد أصبح من الواضح أن هذه الأسفار لا تحتوي كل الصدق، وأن ليس كل ما تحتويه هذه الأسفار بصادق).

أليس هذا هو مجمل حديث خاتم النبيين: لا تصدقوهم ولا تكذبوهم. (١)

الوجه السابع: ذم أهل الكتاب لا يقدح في أنبيائهم.

قال ابن القيم: ماذا على الرسل الكرام من معاصي أممهم وأتباعهم؟ وهل يقدح ذلك شيئًا في نبوتهم أو يغير وجه رسالتهم؟ وهل سلم من الذنوب على اختلاف أنواعها وأجناسها إلا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم؟ وهل يجوز رد رسالتهم وتكذيبهم بمعصية بعض أتباعهم لهم؟ وهل هذا إلا من أقبح التعنت؟ وهو بمنزلة رجل مريض دعاه طبيب ناصح إلى سبب ينال به غاية عافيته، فقال: لو كنت طبيبًا لم يكن فلان وفلان وفلان مرضى، وهل يلزم الرسل أن يشفوا جميع المرضى بحيث لا يبقى في العالم مريض؟ هل تعنت أحد من الناس للرسل بمثل هذا التعنت؟ (٢)

المبحث الثاني الرد التفصيلي على بعض الشبهات التي أثارها أهل الكتاب في إثبات صدق كتابهم من خلال ثناء القرآن على التوراة والإنجيل.

وقبل عرض هذا المبحث نقرر مسألتين:

الأولى ـ إن كل شبهة سنعرضها يدخل تحتها آيات كثر سنكتفي بذكر آية منها(٣).

الثانية ـ يدخل في ثنايا الرد على كل شبهة من هذه الشبه – الآتي ذكرها-بعض من الردود الإجمالية التي مضت.

الشبهة الأولى: قالوا: إننا نجد في (القرآن الكريم) آيات تشهد بصدق التوراة والإنجيل ـ كما هما اليوم ـ وتؤكد أن الكتابين لم يصابا بتحريف، ولا تزييف.

---

(١) القرآن لا يشهد لتوراة اليهود؛ أحمد عبد الوهاب (٦٠) صلاح عبد الفتاح الخالدي (٩٦: ٩٧).

(٢) هداية الحيارى (٢١٦).

(٣) ذكرنا ذلك حتى لايظن القاريء أننا تركنا آيات لم يرد عليها.

من مثل قول الله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة: ٤٣)وقوله: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ (المائدة: ٤٧).

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان سبب نزول الآيات.

١ـ نزلت عامة:

قال ابن كثير: نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي: يستجيبون له، منفعلون عنه ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهُونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾.[1]

٢ـ نزلت في قضية القتل التي حدثت في اليهود:

قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلا وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: إِنَّ الله ﷻ أَنْزَلَ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ وَ ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْزَلَهَا الله فِي الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانَتْ إِحْدَاهُمَا قَدْ قَهَرَتِ الأُخْرَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى ارْتَضَوْا وَاصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ كُلَّ قَتِيلٍ قَتَلَتْهُ الْعَزِيزَةُ مِنَ الذَّلِيلَةِ فَدِيَتُهُ خَمْسُونَ وَسْقًا، وَكُلَّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢١٩.

قَتِيلٍ قتَلَتْهُ الذَّلِيلَةُ مِنَ الْعَزِيزَةِ فَدِيَتُهُ مِائَةُ وَسْقٍ، فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَدِمَ النبي ﷺ الْمَدِينَةَ فَذَلَّتِ الطَّائِفَتَانِ كِلْتَاهُمَا لِمَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَظْهَرْ وَلَمْ يُوطِئْهُمَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصُّلْحِ، فَقَتَلَتِ الذَّلِيلَةُ مِنَ الْعَزِيزَةِ قَتِيلًا فَأَرْسَلَتِ الْعَزِيزَةُ إِلَى الذَّلِيلَةِ أَنِ ابْعَثُوا إِلَيْنَا بِمِائَةِ وَسْقٍ. فَقَالَتِ الذَّلِيلَةُ: وَهَلْ كَانَ هَذَا فِي حَيَّيْنِ قَطُّ دِينُهُمَا وَاحِدٌ وَنَسَبُهُمَا وَاحِدٌ وَبَلَدُهُمَا وَاحِدٌ دِيَةُ بَعْضِهِمْ نِصْفُ دِيَةِ بَعْضٍ؟ إِنَّا إِنَّمَا أَعْطَيْنَاكُمْ هَذَا ضَيْمًا مِنْكُمْ لَنَا، وَفَرَقًا مِنْكُمْ فَأَمَّا إِذْ قَدِمَ مُحَمَّدٌ فَلاَ نُعْطِيكُمْ ذَلِكَ. فَكَادَتِ الْحَرْبُ تَهِيجُ بَيْنَهُمَا ثُمَّ ارْتَضَوْا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا رَسُولَ الله ﷺ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَتِ الْعَزِيزَةُ فَقَالَتْ: وَالله مَا مُحَمَّدٌ بِمُعْطِيكُمْ مِنْهُمْ ضِعْفَ مَا يُعْطِيهِمْ مِنْكُمْ، وَلَقَدْ صَدَقُوا مَا أَعْطَوْنَا هَذَا إِلاَّ ضَيْمًا مِنَّا وَقَهْرًا لَهُمْ، فَدُسُّوا إِلَى مُحَمَّدٍ مَنْ يَخْبُرُ لَكُمْ رَأْيَهُ إِنْ أَعْطَاكُمْ مَا تُرِيدُونَ حَكَّمْتُمُوهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِكُمْ حَذِرْتُمْ فَلَمْ تُحَكِّمُوهُ، فَدَسُّوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِيَخْبُرُوا لَهُمْ رَأْيَ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ أَخْبَرَ الله رَسُولَهُ بِأَمْرِهِمْ كُلِّهِ، وَمَا أَرَادُوا فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: فِيهِمَا وَالله نَزَلَتْ وَإِيَّاهُمَا عَنَى الله ﷻ.[1]

٣ـ **نزلت في اليهوديَّيْن اللذين زنيا**، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحْصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

---

(١) حسن. أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٤٦، أبو داود (٣٥٧٦) من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. وأخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٦٣، أبو داود (٣٥٩١، ٤٤٩٤)، النسائي ٨/ ١٩ وابن أبي حاتم في التفسير (٦٣٩١) من طرق عن عكرمة. كلاهما (عبيد الله، عكرمة) عن ابن عباس به. وإسناده حسن، حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٥٣).

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَتِ الْيَهُودُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ ». فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ سَلاَمٍ ﷺ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا. فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ. ثُمَّ قَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ سَلاَمٍ ﷺ: ارْفَعْ يَدَكَ. فَرَفَعَ يَدَهُ؛ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ الله ﷺ فَرُجِمَا. فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ. (١)

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ مُرَّ عَلَى النبي ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا فَدَعَاهُمْ ﷺ فَقَالَ: " هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ ". قَالُوا: نَعَمْ. فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ بِالله الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى! أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ ». قَالَ: لاَ. وَلَوْلاَ أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ. نَجِدُهُ الرَّجْمَ. وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ. وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ. قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شيء نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "اللهمَّ إني أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ ". فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ. فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يَقُولُ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ، فَخُذُوهُ وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا. فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا. (٢)

وهذا القول رجحه أكثر أهل العلم. (٣)

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٢٩، ٦٨١٩)، مسلم (١٦٩٩).

(٢) مسلم (١٧٠٠).

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٨، تفسير القرطبي ٦/ ١٧٢، تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٠.

قال ابن كثير: وقد يكون اجتمع هذان السببان – الثاني والثالث – في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم. (١)

قال ابن كثير: فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله ﷻ إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم، مما تراضوا على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع عَملهم على خلافه، بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به لهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ أي: الجلد والتحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي: اقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: من قبوله واتباعه(٢).

الوجه الثاني: هذا التحكيم فيما يتفق مع القرآن لا فيما يناقضه أو يخالفه.

فقد أمر أهل (التوراة) أن يحكموا بما أنزل الله في كتابهم! وأمر أهل (الإنجيل) أن يحكموا بما أنزل الله في كتابهم! والله أنزل في التوراة وأنزل في الإنجيل الأمر باتباع محمدﷺ فإذا لم يحكموه، فكأنهم لم يحكموا التوراة والإنجيل. وإذا لم يؤمنوا به، فكأنهم لم يؤمنوا بما في التوراة والإنجيل. يتضح لنا أن المقصود تحكيم هذه الكتب، فيما يتفق مع القرآن لا فيما يناقضه أو يخالفه. (٣)

قال ابن كثير: وقوله: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ قُرئ ﴿ وَلِيَحْكُمَ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي، أي: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم. وقرئ: ﴿ وَلْيَحْكُمْ﴾ بالجزم اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٥: ٢٢٦.

(٣) مناظرة بين الإسلام والنصرانية ٢/ ٨٨.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآية (المائدة: ٦٨) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ (الأعراف: ١٥٧)؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر السياق.(١)

ولهذا قال الله تعالى بعدها: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨).

الوجه الثالث: الآية فيها رد عليهم حيث جاء في آخرها (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)

قال محمد رشيد رضا: ومما يجب التنبيه له هنا أن دعاة النصرانية يحتجون بهذه الآية وما في معناها على كون التوراة التي في أيديهم وأيدي اليهود هي ما أنزله الله تعالى على موسى، لم يعرض لها تغيير ولا تحريف، وذلك أنهم كأولئك اليهود الذين يأخذون من القرآن أهوائهم ويردون ما يخالفها جدلاً، والمؤمنون يؤمنون بالكتاب كله، فالكتاب بيّن لنا أن عندهم التوراة أي الشريعة، وأن فيها حكم الله في القضية التي تحاكموا فيها إلى النبيﷺ، وقد صدق الله تعالى وهو أصدق القائلين، وبيّن لنا أيضًا أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، وأنهم نسوا حظًا مما ذُكروا به، وإنما أوتوا نصيبًا من الكتاب إذ نسوا نصيبًا آخر وأضاعوه، وقد صدق الله تعالى في ذلك أيضًا، ولما خرجت أمة القرآن

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٤.

بالقرآن من الأمية وعرفوا تاريخ أهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ظهر لهم أن إخبار القرآن بذلك كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله؛ إذ ظهر لهم أن اليهود قد فقدوا التوراة التي كتبها موسى ثم لم يجدوها، وإنما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظوه منها ممزوجًا بما ليس منها، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك كما بيناه في غير هذا الموضع. . . وهذه الآيات (المائدة٤٥: ٤٧) من سياق التي قبلها والتي بعدها، والغرض منها بيان كون التوراة كانت هداية لبني إسرائيل فأعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد، وبيان مثل ذلك في الإنجيل وأهله، ثم الانتقال من ذلك إلى ما سيأتي من ذكر إنزال القرآن ومزيته وحكمة ذلك، ومنه يُعلم أن العبرة بالاهتداء بالدين وأنه لا ينفع أهل الانتماء إليه إذا لم يقيموه؛ إذ لا يستفيدون من هدايته ونوره إلا بإقامته والعمل به، وأن إيثار أهل الكتاب أهوائهم على هداية دينهم، هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به(١)

الوجه الرابع: الآية فيها تعجب من صنعهم حيث عدلوا عن الحق إلى الباطل؛ فظهر جهلهم وعنادهم.

قال الرازي: هذا تعجيب من الله تعالى لنبيّه ﷺ بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني، ثم تركهم قبول ذلك الحكم، فعدلوا عما يعتقدونه حكمًا حقًا إلى ما يعتقدونه باطلًا طلبًا للرخصة، فلا جرم ظهر جهلهم وعنادهم في هذه الواقعة من وجوه:

أحدها: عدولهم عن حكم كتابهم، والثاني: رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل، والثالث: إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه، فبيّن الله تعالى حال جهلهم وعنادهم لئلا يغتر بهم مغتر أنهم أهل كتاب الله ومن المحافظين على أمر الله(٢).

قال محمد رشيد رضا: هذا تعجيب من الله لنبيه ببيان حال من أغرب أحوال هؤلاء القوم، وهو أنهم أصحاب شريعة يرغبون عنها ويتحاكمون إلى نبي جاء بشريعة أخرى وهم لم يؤمنوا به، أي: وكيف يحكمونك في قضية كقضية الزانيين أو قضية الدية، والحال

---

(١) تفسير المنار ٦/ ٣٣٦: ٣٣٧.

(٢) تفسير الرازي ١١/ ٢٣٦.

أن عندهم التوراة التي هي شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقته لها، أي: إذا فكرت في هذا رأيته من عجيب أمرهم، وسببه أنهم ليسوا بالمؤمنين إيمانًا صحيحًا بالتوراة ولا بك، وإنما هم ممن جاء فيهم ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، فإن المؤمن الصادق بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضًا أيد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك باختلاف أحوال عباده، وهؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدّعون الإيمان بها واتباعها؛ لأنه لم يوافق هواهم، وجاؤوك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق هواهم ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يوافق هواهم، فما هم بالمؤمنين بالتوراة ولا بك ولا بمن أنزل على موسى التوراة وأنزل عليك القرآن. (١)

الشبهة الثانية: قالوا: بأن القرآن أثنى على أهل الكتاب.

قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢)، فذكر القسيسين والرهبان لئلا يقال: إن هذا قيل عن غيرنا، ودل بهذا على أفعالنا وحسن نياتنا ونفى عنا اسم الشرك بقوله: اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودة.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ما هو وجه (نوعية) هذا المدح أو الثناء؟

قال الطبري: والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم لأن منهم أهل اجتهاد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وأن

(١) تفسير المنار ٦/ ٣٩٥.

منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحق إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنهم أهل دين واجتهاد فيه ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسل، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه.(١)

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم؛ إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد: ٢٧)، وفي كتابهم: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر).

وليس القتال مشروعًا في ملتهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون -وهم خطباؤهم وعلماؤهم، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وقوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ

---

(١) تفسير الطبري٧/ ٤.

ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ (آل عمران: ١٩٩)، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (القصص: ٥٢-٥٥).

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ساكنين فيها أبدًا، لا يحولون ولا يزولون، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان[1].

الوجه الثاني: تتمة الآية حجة عليهم.

قال ابن تيمية: والجواب أن يقال تمام الكلام ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (المائدة: ٨٣-٨٥)، فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ الذين قال فيهم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾، والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وهم الشهداء الذين قال فيهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٣١٢: ٣١٥ مختصرًا.

ولهذا قال ابن عباس وغيره: في قوله: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، قال: مع محمد ﷺ وأمته، وكل من شهد للرسل بالتصديق فهو من الشاهدين كما قال الحواريون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ (آل عمران: ٥٣).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ (الحج: ٧٧، ٧٨)[1]

الوجه الثالث: العلة من هذا المدح في الآية.

وأما قوله في أول الآية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، فهو كما أخبر سبحانه وتعالى فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارى، والنصارى أقرب مودة لهم وهذا معروف من أخلاق اليهود؛ فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس في النصارى، وفي النصارى من الرحمة والمودة ما ليس في اليهود، والعداوة أصلها البغض، فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم فكيف ببغضهم للمؤمنين؟.

وأما النصارى فليس في الدين الذي يدينون به عداوة ولا بغض لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم المؤمنين بجميع الكتب والرسل؟.

وليس في هذا مدح للنصارى بالإيمان بالله ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب واستحقاق الثواب، وإنما فيه أنهم أقرب مودة وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٤٦: ٤٨.

قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: بسبب هؤلاء وسبب ترك الاستكبار يصير فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيرا من المشركين وأقرب مودة من اليهود والمشركين، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة، والضمير وإن عاد إلى المتقدمين فالمراد جنس المتقدمين لا كل واحد منهم كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وكأن جنس الناس قالوا لهم: إن جنس الناس قد جمعوا، ويمتنع العموم فإن القائل من الناس والمقول له من الناس والمقول عنه من الناس ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس إنه قد جمع لكم جميع الناس ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، أي: جنس اليهود قال هذا، لم يقل هذا كل يهودي، ومن هذا أن في النصارى من رقة القلوب التي توجب لهم الإيمان ما ليس في اليهود وهذا حق[1].

الوجه الرابع: مدح النصارى بأنهم أقرب مودة لا يمنع أن يكونوا كفرة.

قال القرافي: وأما مدح النصارى بأنهم أقرب مودة، وأنهم متواضعون فمسلَّم، لكن هذا لا يمنع أن يكونوا كفرة مخلدين في النار وغضب الجبار؛ لأن السجايا الجليلة والآداب الكسبية تجتمع مع الكفر والإيمان، كالأمان والشجاعة، والظرف واللطف وجودة العقل. فليس فيه دليل على صحة دينهم[2].

الشبهة الثالثة: قالوا: إن القرآن رفع قدرنا وأعلى منزلتنا، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ٥٥).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: من هم الذين اتبعوه؟

---

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٤٦: ٤٨.

(٢) الأجوبة الفاخرة (١١١).

قال القرافي: إن الذين اتبعوه ليسوا النصارى الذين اعتقدوا فيه بأنه ابن الله، وسلكوا مسلك المتأخرين، فإن اتباع الإنسان موافقته فيما جاء به، وكون هؤلاء المتأخرين اتبعوه محل نزاع؛ بل متبعوه هم الحواريون، ومن تابعهم قبل ظهور القول بالتثليث، وأولئك هم الذين رفعهم الله في الدنيا والآخرة، ونحن منهم وهم منا، ونحن إنما نطالب هؤلاء بالرجوع إلى ما كان أولئك عليه، فإن قدس الله أرواحهم آمنوا بعيسى وبجملة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

وكان عيسى عليه السلام بشَّرهم بمحمد ﷺ، فكانوا ينتظرون ظهوره ليؤمنوا به عليه السلام، وكذلك لما ظهر النبي ﷺ جاءه أربعون راهبًا من نجران، فوجدوه هو الموعود به فآمنوا به في ساعة واحدة بمجرد النظر والتأمل لعلاماته، فهؤلاء هم الذين اتبعوه، وهم المرفوعون المعظَّمون، وأما هؤلاء النصارى فهم الذين كفروا به مع من كفر، وجعلوه سببًا لانتهاك حرمة الربوبية، بنسبة واجب الوجود المقدس عن صفات البشر إلى الصاحبة والولد الذي ينفر منها أقل رهبانهم، حتى إنه قد ورد أن الله تعالى إذا قال لعيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦) يسكت أربعين سنة خجلاً من الله تعالى حيث جعل سببًا للكفر به وانتهاك حرمة جلاله.

فخواص الله تعالى يألمون ويخجلون من اطلاعهم على انتهاك حرمة الله تعالى، وإن لم يكن لهم فيها مدخل ولا لهم فيها تعلق، فكيف إذا كان لهم فيها تعلق من حيث الجملة؟ ومن عاشر أماثل الناس ورؤساءهم، وله عقل قويم، وطبع مستقيم غير طبع النصارى أدرك هذا، فما آذى أحد عيسى عليه السلام ما آذته هؤلاء النصارى، نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه.(١)

الوجه الثاني: **بيان المعنى الصحيح للآية.**

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: وجاعل الذين اتبعوك على منهاجِك وملَّتك من الإسلام وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوّتك وخالفوا سبيلهم من جميع أهل الملل، فكذّبوا بما جئت به وصدّوا عن الإقرار به، فمصيِّرهم فوقهم ظاهرين عليهم(٢).

---

(١) الأجوبة الفاخرة (٨٢: ٨٥).

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٩٢.

قال الشوكاني: قوله: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي: الذين اتبعوا ما جئت به، وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلوّ فيه إلى ما بلغ من جعله إلهًا، ومنهم المسلمون، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلوّ، فلم يفرّطوا في وصفه، كما فرطت اليهود، ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى. وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم. وقيل: المراد بالآية: أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم، فيكون المراد بالذين كفروا هم اليهود خاصة؛ وقيل: هم الروم لا يزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين، وقيل: هم الحواريون لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح، وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار، أو لكل طوائف الكفار لا ينافي كونهم مقهورين مغلوبين بطوائف المسلمين، كما تفيده الآيات الكثيرة، بأن هذه الملة الإسلامية ظاهرة على كل الملل قاهرة لها مستعلية عليها[1].

الشبهة الرابعة: يقولون: بأن النبي ﷺ أثنى على كتابنا، وفي هذا دليل على أنها لم تحرف.
ويستندون إلى أن النبي ﷺ أمسك التوراة وقال: (آمنت بكِ وبمن أنزلك).
والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: قوله (آمنت بك وبمن أنزلك) زيادة شاذة في الحديث الصحيح لا يحتج بها.
عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى نَفَرٌ مِنْ يَهودَ فَدَعَوْا رَسُولَ الله ﷺ إِلَى الْقُفِّ، فَأَتَاهُمْ فِى بَيْتِ الْمِدْرَاسِ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّ رَجُلًا مِنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ. فَوَضَعُوا لِرَسُولِ الله ﷺ وِسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ " ائْتُونِى بِالتَّوْرَاةِ ". فَأُتِىَ بِهَا فَنَزَعَ الْوِسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ،

---

(١) فتح القدير ١/ ٥١٤.

فَوَضَعَ التَّوْرَاةَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: " آمَنْتُ بِكِ وَبِمَنْ أَنْزَلَكِ". ثُمَّ قَالَ " ائْتُونِى بِأَعْلَمِكُمْ ". فَأُتِيَ بِفَتًى شَابٍّ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الرَّجْمِ نَحْوَ حَدِيثِ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ(1).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٤٩) من طريق هِشَام بْن سَعْدٍ أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ حَدَّثَهُ عَنِ ابْنِ عُمَر به، بهذه الزيادة. وقد خالف هشام بن سعد في روايته عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، نافع وعبد الله بن دينار كلاهما عن ابن عمر بدون الزيادة.

أما طريق نافع عن ابن عمر فأخرجه مالك في الموطأ في كتاب الحدود، باب مَا جَاءَ فِى الرَّجْمِ، وأخرجه البخاري (١٣٢٩)، مسلم (١٦٩٩) من طريق موسى بن عقبة، وأخرجه أحمد في المسند ٦: ١، والبخاري (٧٥٤٣) من طريق أيوب، وأخرجه مسلم (١٦٩٩) من طريق عبيد الله، كلهم (مالك، موسى، أيوب، عبيد الله) عن نافع عن ابن عمر. بدون هذه الزيادة ولفظه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَتِ الْيَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلاً مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ ". فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ ثُمَّ قَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ ﷺ: ارْفَعْ يَدَكَ. فَرَفَعَ يَدَهُ. فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِى عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ.

أما طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر فأخرجه البخاري (٦٨١٩) من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر. بدون هذه الزيادة ولفظه. عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أُتِىَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ أَحْدَثَا جَمِيعًا. فَقَالَ لَهُمْ: " مَا تَجِدُونَ فِي كِتَابِكُمْ؟ ". قَالُوا: إِنَّ أَحْبَارَنَا أَحْدَثُوا تَحْمِيمَ الْوَجْهِ وَالتَّجْبِيَةَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ ﷺ: ادْعُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالتَّوْرَاةِ. فَأُتِىَ بِهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا. فَقَالَ لَهُ ابْنُ سَلاَمٍ ﷺ: ارْفَعْ يَدَكَ. فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ تَحْتَ يَدِهِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ الله ﷺ فَرُجِمَا. قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ: فَرُجِمَا عِنْدَ الْبَلاَطِ، فَرَأَيْتُ الْيَهُودِىَّ أَجْنَأَ عَلَيْهَا.

فتبين من خلال ذلك أن هشام بن سعد في روايته عن ابن عمر قد تفرد بهذه الزيادة.

وهشام بن سعد تكلم فيه أهل العلم بالجرح والتعديل كالآتي:

من جرحه:

١ – أحمد بن حنبل قال: لم يكن هشام بن سعد بالحافظ. وقال أيضا: هشام بن سعد كذا وكذا، كان يحيى بن سعيد لا يروي عنه. وقال أيضا: ليس هو محكم الحديث.

٢ – وقال عباس الدوري عن يحيى بن معين: هشام بن سعد ضعيف. وقال معاوية بن صالح، عن يحيى بن معين: ليس بذاك القوي.

٣– يحيى بن سعيد القطان نقل عنه يحيى بن معين و أحمد بن حنبل أنه كان لا يحدث عنه.

الوجه الثاني: على القول بتحسينها فلا شبهة في ذلك؛ لأن المقصود التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عليه السلام.

قال ابن حجر: وقد استدل به – أي: حديث ابن عمر رضي الله عنه- بعضهم على أنهم لم يسقطوا شيئًا من ألفاظها. . . . والاستدلال به لذلك غير واضح؛ لاحتمال خصوص ذلك بهذه الواقعة فلا يدل على التعميم. وكذا من استدل به على أن التوراة التي أحضرت حينئذ كانت كلها صحيحة سالمة من التبديل؛ لأنه يطرقه هذا الاحتمال بعينه ولا يرده قوله: (آمنت بك وبمن أنزلك) لأن المراد أصل التوراة[1].

الشبهة الخامسة: يقولون: بأن القرآن يعظمنا بتقديم البيع والكنائس، على المساجد.

٤- وقال النسائي: ضعيف. وقال في موضع آخر: ليس بالقوي.

٥- وقال البرذعي: سمعت أبا زرعة يقول: هشام بن سعد واهي الحديث.

٦- ابن حبان قال: كان ممن يقلب الأسانيد وهو لا يفهم، ويسند الموقوفات من حيث لا يعلم، فلما كثر مخالفته الأثبات فيما يروي عن الثقات بطل الاحتجاج به، وإن اعتبر بما وافق الثقات من حديثه فلا ضير.

٧- قال ابن سعد: كان كثير الحديث يستضعف، و كان متشيعا.

٨- قال ابن أبى شيبة عن على ابن المدينى: صالح، و ليس بالقوى.

ومن عدله:

وقال العجلي: جائز الحديث، حسن الحديث. قلت: والعجلي معروف بتساهله.

وقال أبو زرعة: شيخ محله الصدق، قلت: وهذا ليس من مراتب العدالة القوية.

وقال أبو حاتم: يكتب حديثه، ولا يحتج به. قلت: وهذا يدل على أنه لو خالف الأوثق فإن حديثه مردود.

وقال الساجى: صدوق.

استشهد به البخارى فى الصحيح، وقال الحاكم: أخرج له مسلم فى الشواهد. أي أن ذلك ليس في الأصول.

تهذيب الكمال ٣٠/ ٢٠٤، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٨، الطبقات الكبرى ٥/ ٤٧٠، الكامل في الضعفاء ٧/ ١٠٨، الجرح والتعديل ٩/ ٦١، أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة ٢/ ٣٩١. المجروحين ٣/ ٨٩.

وبالتالي فهذه الزياة لا تصح. ومما يدل على ذلك أيضا أن الحديث جاء عن غير ابن عمر بدون هذه الزياد ة، منهم: البراء بن عازب كما عند مسلم (١٧٠٠)، وجابر بن عبد الله كما عند مسلم (١٧٠١).

وأبي هريرة كما عند أبي داود (٤٤٥٠، ٤٤٥١)، والطبراني ٦/ ٢٣٢: ٢٣٣.

(١) فتح الباري لابن حجر ١٢/ ١٨٧.

قالوا: ثم وجدناه يعظم إنجيلنا ويقدم صوامعنا ويشرف مساجدنا ويشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيرًا وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠).

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٧).

وذلك يدل على أن النصارى -في زعمهم- على الحق، فلا ينبغي لهم العدول عما هم عليه؛ لأن العدول عن الحق إنما يكون للباطل.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ذكر الله يكون في المسجد، وإذا ذكر في الصوامع والبيع فهي على العهد الأول قبل التبديل والتحريف.

قال ابن تيمية: إن فيها - الآية - ذكر الصوامع والبيع، وأما قوله: (ويذكر فيها اسم الله كثيرًا فإنما ذكره عقب ذكره المساجد، والمساجد للمسلمين، وليس المراد بها كنائس النصارى، فإنها هي البيع ثم قوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، إما أن يكون مختصًا بالمساجد فلا يكون في ذلك إخبار بأن اسم الله يذكر كثيرًا في البيع والصوامع، وإما أن يكون ذكر اسم الله في الجميع فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث الله محمدًا كان فيها من يتبع دين المسيح الذي لم يبدل ويذكر فيها اسم الله كثيرًا، وقد قيل: إنها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم الله كثيرًا وإن الله يحب أن يذكر اسمه.

وأهل الكتاب خير من المشركين، وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس ساء ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وكرهوا انتصار الفرس على النصارى؛ لأن النصارى أقرب إلى دين الله ﷻ من المجوس، والرسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد

وتقليلها، وتقديم خير الخيرين على أدناهما حسب الإمكان، ودفع شر الشرين بخيرهما. فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون، وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا فهذا خير وصلاح.

وهذه الآية ذكرت في سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (الحج: ٣٩)، وهذه الآية أول آية نزلت في الجهاد ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فيدفع بالمؤمنين الكفار، ويدفع شر الطائفتين بخيرهما كما دفع المجوس بالروم النصارى، ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد ﷺ وهذا كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)[1].

الوجه الثاني: التقديم في اللفظ فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى

قال القرافي: إن هذه الآية تقتضي أن المساجد أفضل بيت عند الله تعالى، على عكس ما قالوه وتقريره أن الصنف القليل المنزلة عند الله تعالى أقرب إلى الهلاك من العظيم المنزلة، والقاعدة العربية أن الترقي في الخطاب إلى الأعلى فالأعلى أبدًا في المدح والذم، والتفخيم والامتنان، فيقال في المدح: الشجاع البطل، ولا يقال: البطل الشجاع؛ لأنك تعد راجعًا عن الأول، وفي الذم: العاصي الفاسق، ولا يقال: الفاسق العاصي، وفي التفخيم: فلان يغلب المائة والألف، ولايقال: فلان يغلب الألف والمائة، والسر في الجميع أنك تعد راجعًا عن الأول، كقهقرتك عما كنت فيه إلى ما هو أدنى منه، إذا تقرر ذلك ظهرت فضيلة المساجد ومزيد شرفها على غيرها، وأن هدمها أعظم من هدم غيرها، لا يوصل إليه إلا بعد تجاوز ما يقتضي هدم غيرها، كما نقول: لولا السلطان لهلك الصبيان والرجال

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٣٩: ٢٤٠، وانظر: تفسير الرازي ٢٣/ ٤٠.

والأمراء، فترتقي أبدًا للأعلى لتفخيم أمر عدم السلطان، وأن وجوده سبب عصمة هذه الطوائف، أما لو قلت: لولا السلطان لهلك الأبطال والصبيان لعُد كلامك متهافتًا. (١)

قال ابن تيمية: وأما التقديم في اللفظ فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأعراف: ٣٣)، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (عبس: ٣٤-٣٦)، وقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ (الذاريات: ١-٤)، ونظائره متعددة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠).

فبين سبحانه أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات، وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبدلها بخير منها، وأدناها هي الصوامع فإن الصومعة تكون لواحد أو لطائفة قليلة فبدأ بأدنى المعابد وختم بأشرفها وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا، ففي الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها، وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون، وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد، وبعد النسخ والتبديل إذا غلب أهل الكتاب من هو شر منهم كالمجوس والمشركين وهدموا معابدهم كان ذلك فسادا، وإذا هدمها من هو خير منهم كأمة محمد وأبدلوها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولا يشرك به ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله كان ذلك صلاحا لا فسادا، ولهذا أمر النبي أن يتخذ المساجد مواضع معابد الكفار كما كان لثقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات التي قال الله فيها: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (النجم: ١٩).

فأمر النبي ﷺ أن يهدم ذلك المعبد ويتخذ مكانه المسجد الذي يعبد الله وحده فيه؛ فإن المساجد هي بيوت الله في الأرض قال تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ

---

(١) الأجوبة الفاخرة (٨٧: ٨٨).

كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأعراف: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ الآية إلى قول: ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة: ١٧، ١٨)، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الآية إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركين فذكر أهل الجهل المركب والبسيط فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (النور: ٣٩، ٤٠).

فقد تبين أنه ليس لهم حجة في شيء مما جاء به محمد؛ بل ما جاء به حجة عليهم من وجوه متعددة[١].

الوجه الثالث: أن هذا عام في كل زمن.

قال القرافي: إن المراد بهذه الآية أن الله تعالى يدفع المكاره عن الأشرار بوجود الأخيار في كل عصر، فما من زمان إلا وفيه أهله من الأخيار، فيكون وجود الأخيار سببًا لسلامة الأشرار من الفتن والمحن، فزمان موسى عليه السلام سلم فيه أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيه من أهل الاستقامة على الشريعة الموسوية، وزمان عيسى عليه السلام سلم فيه أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيه من أهل الاستقامة على الشريعة العيسوية، وزمان محمد ﷺ سلم فيه أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيه من أهل الاستقامة على الشريعة المحمدية، وكذلك سائر الأزمان الكائنة، بعد الأنبياء عليهم السلام كل من كان مستقيمًا

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٤٠: ٢٤١.

على الشريعة الماضية هو سبب لسلامة البقية، فلولا أهل الاستقامة في زمن موسى عليه السلام لم تبق صوامع يُعبد الله فيها على الدين الصحيح لعموم الهلاك فينقطع الخير بالكلية، وكذلك سائر الأزمان، فلولا أهل الخير في زماننا لم يبق مسجد يُعبد الله فيه على الدين الصحيح، ولغضب الله تعالى على أهل الأرض.

والصوامع أمكنة الرهبان في زمن الاستقامة حيث يُعبد الله تعالى فيها على دين صحيح، وكذلك البيعة والمسجد، وليس المراد هذه المواطن إذا كفر بالله تعالى فيها وبُدلت شرائعه، وكانت محل العصيان والطغيان، لا محل التوحيد والإيمان، وهذه المواطن في زمن الاستقامة لا نزاع فيها، إنما النزاع لما تغيرت أحوالها وذهب التوحيد وجاء التثليث، وكُذبت الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وصار ذلك يُتلى في الصباح والمساء، فحينئذ هي أقبح بقعة على وجه الأرض وألعن مكان يوجد، فلا تجعل هذه الآية دليلًا على تفضيلها[1].

قال الزجاج: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلي فيه، فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه، وفي زمن عيسى الصوامع، وفي زمن نبينا محمد ﷺ المساجد فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ[2].

الوجه الرابع: الضمير يعود على أقرب مذكور.

قال القرافي: والآية تدل على أن المساجد أفضل بيت وُضع على وجه الأرض للعابدين من وجه آخر، وذلك أن القاعدة العربية أن الضمائر إنما يحكم بعودها على أقرب مذكور، فإذا قلت: جاء زيد وخالد وأكرمته، فالإكرام خاص بخالد؛ لأنه الأقرب، فقوله تعالى: ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ يختص بالأخير الذي هو المساجد؛ لأن قوله فيها

---

(١) الأجوبة الفاخرة (٨٦: ٨٧).

(٢) تفسير الرازي٢٣/ ٤٠.

ضمير يختص بالقريب، وهذا قول المفسرين – فتكون المساجد قد اختصت – بكثرة ذكر الله تعالى، وهو يقتضي أن غيرها لم يساوها في كثرة الذكر فتكون أفضل وهو المطلوب. [١]

الوجه الخامس: بيان الحكمة في هذا الترتيب، وتأخير المساجد على من ذكر.

١- لأن الترتيب الوجودي كذلك، فهي – البيع والكنائس – أقدم بناء وهذا ليس للتشريف[٢].

٢- لتقع المساجد في جوار مدح أهلها، فلما كان رسول الله ﷺ خير الرسل، وأمته خير الأمم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال ﷺ: " نحن الآخرون السابقون "[٣].

٣- وقيل: لقربها من الهدم، وقرب المساجد من الذكر كما أخر السابق في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (فاطر: ٣٢). [٤]

٤ – للانتقال من شريف إلى أشرف؛ فإن البيع أشرف من الصوامع لكثرة العباد فيها فإنها معبد للرهبان وغيرهم، والصوامع معبد للرهبان فقط، وكنائس اليهود أشرف من البيع؛ لأن حدوثها أقدم، وزمان العبادة فيها أطول، والمساجد أشرف من الجميع؛ لأن الله تعالى قد عبد فيها بما لم يعبد به في غيرها[٥].

٥- وتأخير المساجد؛ لأنها أعم، وشأن العموم أن يعقب به الخصوص إكمالًا للفائدة[٦].

الوجه السادس: ليس في ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح، وإنما فيه مدح لمن اتبعه.

فهو حق كما قال تعالى، وليس في ذلك مدح للرهبانية، ولا لمن بدل دين المسيح وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي:

---

(١) الأجوبة الفاخرة (٨٨).

(٢) تفسير الرازي٢٣/ ٤٠، تفسير القرطبي ١٢: ٧٧، تفسير الألوسي ١٧/ ١٦٤.

(٣) تفسير الرازي٢٣/ ٤٠، تفسير الألوسي ١٧/ ١٦٤، والحديث أخرجه البخاري (٢٣٨)، مسلم (٨٥٥).

(٤) تفسير القرطبي ١٢: ٧٧، تفسير الألوسي ١٧/ ١٦٤.

(٥) تفسير الألوسي ١٧/ ١٦٤.

(٦) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٩٧.

وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم، وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم؛ بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ (المائدة: ١٠٣).

وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبته للمشروع بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، وقوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج: ٦٧)، فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله.

وللناس في قوله (رهبانية) قولان:

أحدهما: أنها منصوبة يعني: ابتدعوها إما بفعل مضمر يفسره ما بعده، أو يقال: هذا الفعل عمل في المضمر والمظهر كما هو قول الكوفيين حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما ونظيره قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ (الإنسان: ٣١)، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ (الأعراف: ٣٠) وعلى هذا القول فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة والرحمة.

والقول الثاني: إنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية المبتدعة ويكون هذا جعلًا خلقيًا كونيًا، والجعل الكوني يتناول الخير والشر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (القصص: ٤١).

وعلى هذا القول فلا مدح للرهبانية؛ لأنها في القلوب فثبت أنه على التقديرين ليس في القرآن مدح للرهبانية. ثم قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع. وهذا يسمى استثناء منقطعا كما في قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (النساء: ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾

(الدخان: ٥٦)، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾ (الانشقاق: ٢٠-٢٥)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ (الواقعة: ٢٥، ٢٦)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ (النساء: ٩٢). وهذا أصح الأقوال في هذه الآية.

ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن الله لا يفعل شيئًا ابتغاء رضوان نفسه، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين كما قد بسط في موضع آخر وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية وما رعوها حق رعايتها وليس في ذلك مدح لهم؛ بل هو ذم ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وكثير منهم فاسقون، ولو أريد الذين آمنوا بالمسيح أيضًا فالمراد من اتبعه على دينه الذي لم يبدل، وإلا فكلهم يقولون: إنهم مؤمنون بالمسيح، وبكل حال فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذي لم يبدل ومن آمن بمحمد ﷺ، لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

فإن قيل: قد قال بعض الناس إن قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ عطف على رأفة ورحمة وإن المعنى: أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيةً أيضًا ابتدعوها، وجعلوا الجعل شرعيًا ممدوحًا. قيل: هذا غلط لوجوه:

منها: أن الرهبانية لم تكن في كل من اتبعه؛ بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت في قلب كل من اتبعه.

ومنها: أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة فإنهم لم يبتدعوها، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم فإن كان المراد هو الجعل الشرعي الديني لا الجعل

الكوني القدري فلم تدخل الرهبانية في ذلك، وإن كان المراد الجعل الخلقي الكوني فلا مدح للرهبانية في ذلك.

ومنها: أن الرأفة والرحمة جعلها في القلوب، والرهبانية لا تختص بالقلوب؛ بل الرهبانية ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك، وقد كان طائفة من الصحابة رضوان الله عليهم هموا بالرهبانية فأنزل الله تعالى نهيهم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (المائدة: ٨٧).

وثبت في الصحيحين أن نفرًا من أصحاب النبيﷺ قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر، وقال آخر: أما أنا فأقوم لا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقام النبي خطيبًا فقال: " ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام/ وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني.

وفي صحيح البخاري، أن النبي رأى رجلًا قائمًا في الشمس فقال: " ما هذا؟ "قالوا هذا أبو إسرائيل. نذر أن يقوم في الشمس، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم فقال: " مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه".

وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته: " خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة".

وفي السنن عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ قال: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة".

وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة، وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدى ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فإن قيل: قد قال طائفة: معناها ما فعلوها إلا ابتغاء

رضوان الله، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وقالت طائفة: ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

قيل: كلا القولين خطأ والأول أظهر خطأ؛ فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم؛ بل لم يشرعها لا إيجابًا ولا استحبابًا، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس في الآية ما يدل على ذلك فإنه قال: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها؛ بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة، وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين، قيل: ليس في الكلام ما يدل على ذلك؛ بل يدل على أنهم مع عدم الرعاية يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها وإن لم يكن واحد منهما محمودًا؛ بل مذمومًا مثل نصارى بني تغلب ونحوهم ممن دخل في النصرانية ولم يقوموا بواجباتها؛ بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شرا منهم، والنار دركات كما أن الجنة درجات، وأيضًا فالله تعالى إذا كتب شيئًا على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه؛ بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله، وأيضًا فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية؟

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله فهذا المعنى لو دل عليه الكلام لم يكن في ذلك مدح للرهبانية؛ فإن من فعل ما لم يأمر الله به؛ بل نهاه عنه مع حسن مقصده غايته أن يثاب على قصده لا يثاب على ما نهى عنه، ولا على ما ليس بواجب ولا مستحب فكيف والكلام لا يدل عليه فإن الله قال: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾؟

ولم يقل: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله. ولا قال: ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله لكان منصوبًا على المفعولية، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفي الابتداع؛ بل أثبته لهم، وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذي ذكرناه هو الصواب وأنه استثناء منقطع، فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله؛ فإن إرضاء الله واجب مكتوب على الخلق، وذلك يكون بفعل المأمور وبترك المحظور لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينه عن تركه، والرهبانية فيها فعل ما لم يؤمر به وترك ما لم ينه عنه[1].

الشبهة السادسة: يقولون: بأننا وجدنا في القرآن من تعظيم المسيح وأمه.

حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ (الأنبياء: ٩١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (آل عمران: ٤٢)، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧).

جوابًا على ما سبق ذكره نقول:

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ **حق، وهذا ليس خاصا فقط بعيسى** عليه السلام

قال ابن تيمية: وأما قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٧)، فهو حق كما أخبر الله به، وقد ذكر تعالى تأييد عيسى بن مريم بروح القدس في عدة مواضع فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٢٨: ٢٣٢.

مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١١٠)، وقال تعالى في القرآن: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (النحل: ١٠١، ١٠٢)، وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٩٧).

فروح القدس الذي نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين وهو جبريل. وثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه سمع النبيﷺ يقول لحسان بن ثابت: " أجب عني، اللهم أيده بروح القدس "[١]

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: " اهجهم أو هاجهم وجبريل معك "[٢].

فهذا حسان بن ثابت واحد من المؤمنين لما نافح عن الله ورسوله، وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس وهو جبريل ﷺ، وأهل الأرض يعلمون أن محمدًا ﷺ لم يكن يجعل اللاهوت متحدًا بناسوت حسان بن ثابت، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح، وأهل الكتاب يقرون بذلك، وأن غيره من الأنبياء كان مؤيدًا بروح القدس كداود وغيره؛ بل يقولون: إن الحواريين كانت فيهم روح القدس، وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون في غير المسيح؛ بل في غير الأنبياء[٣].

---

(١) البخاري (٣٢١٢)، مسلم (٢٤٨٥).

(٢) البخاري (٣٢١٣)، مسلم (٢٤٨٦).

(٣) الجواب الصحيح ٢/ ١٢٥: ١٢٦، وراجع شبهة ألوهية المسيح.

الشبة السابعة: يقولون: إن القرآن لما جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب، فثبت بهذا ما معنا، ونفى عن كتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (المائدة: ٤٨)، ومثل قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (آل عمران: ٣).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: تصديق النبي ﷺ للأنبياء من قبله، وبما أنزله الله عليهم من كتب حق.

قال ابن تيمية: أما تصديق خاتم الرسل محمد ﷺ لما أنزل الله قبله من الكتب، ولمن جاء قبله من الأنبياء فهذا معلوم بالاضطرار من دينه، متواترٌ تواترا ظاهرا كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم، وهذا من أصول الإيمان[1].

قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٦، ١٣٧)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٤، ٨٥)[2].

الوجه الثاني: الآيات نفسها حجة عليهم.

فقد تمسكوا بأول الآية وتركوا آخرها لما فيها من الجواب عليهم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

فبيّن أنه أنزل هذا القرآن مهيمنًا على ما بين يديه من الكتب، والمهيمن: الشاهد المؤتمن الحاكم، يشهد بما فيها من الحق، وينفي ما حرف فيها، ويحكم بإقرار ما أقره الله من

(١) وقد بينا ذلك في الوجه الأول من الردود الإجمالية.

(٢) الجواب الصحيح ١/ ٢٦١.

أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمن في ذلك عليها، وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص، وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكًا بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شيء من أحكامها؛ فإنه من أهل الإيمان والهدى، وكذلك من كان متمسكًا بالإنجيل من غير تبديل شيء من أحكامه قبل النسخ فهو من أهل الإيمان والهدى، وليس في ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل؛ فضلًا عمن تمسك بشرع منسوخ؛ ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل، وما أنزل إليه من الكتب؛ بل قد بين كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول، وبترك الإيمان بمحمد ﷺ في غير موضع[١].

وأيضًا: فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ (المائدة ٤٨). وهذا أمر من الله ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهلِ الملل، بكتابه الذي أنزله إليه، وهو القرآن الذي خصّه بشريعته. يقول تعالى ذكره: احكم، يا محمد، بين أهل الكتاب والمشركين، بما أُنزل إليك من كتابي وأحكامي، في كل ما احتكموا فيه إليك، من الحدود والجُرُوح والقَوَد والنفوس، فارجم الزاني المحصَن، واقتل النفسَ القاتلةَ بالنفس المقتولة ظلمًا، وافقأ العين بالعين، واجدع الأنف بالأنف، فإني أنزلت إليك القرآن مصدِّقًا في ذلك ما بين يديه من الكتب، ومهيمنًا عليه رقيبًا، يقضي على ما قبله من سائر الكتب قبلَه، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين يقولون: إن أوتيتم الجلدَ في الزاني المحصن دون الرجم، وقتلَ الوضيع بالشريف إذا قتله، وتركَ قتل الشريف بالوضيع إذا قتله، فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا عن الذي جاءك من عند الله من الحق، وهو كتاب الله الذي أنزله إليك. يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترتَ الحكم عليهم، ولا تتركنَّ العمل بذلك اتباعًا منك أهواءَهم، وإيثارًا لها على الحق الذي أنزلته إليك في كتابي[٢].

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٢.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٦٨: ٢٦٩.

الشبهة الثامنة: يقولون: بأن القرآن شهد لهم أنهم أنصار الله.

حيث يقول كما قال عيسى ابن مريم: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ (الصف: ١٤).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الحواريون مؤمنون مسلمون، لكن ليس في هذا أنهم رسل الله.

فيقال هذا حق، والحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله لكن ليس في هذا أنهم رسل الله، ولا في هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم، ولا في هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط؛ بل أمر الله المؤمنين من أمة محمد أن يكونوا أنصار الله كما طلب المسيح ذلك بقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١).

الوجه الثاني: أن هذا الوصف ليس خاصًا بهم.

فقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبيﷺ من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار الله بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهم أيضًا من أنصار الله نصروه كما نصره الأنصار لكن لما كان لهم اسم يخصهم وهو المهاجرون وهو أفضل الاسمين خص الأنصار بهذا الاسم. والمهاجرون والأنصار أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند المسلمين ومع هذا فليس فيهم عندهم نبي ولا رسول لله ولكن فيهم رسل رسول الله ﷺ تسليمًا(٢).

كذلك فإن أول الآية يرد عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى أمر عباده أن يكونوا أنصارًا له.

قال ابن كثير: يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق.

لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي: معيني في الدعوة إلى الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾.

وهم أتباع عيسى عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: "من رجل يُؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي" حتى قيَّض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك عَلَمًا عليهم رضي الله عنهم، وأرضاهم(١).

الشبهة التاسعة: الرد على تأويلهم لقول الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٢-٥)، حيث قالوا: فمعنى بالكتاب: الإنجيل، والذين يؤمنون بالغيب نحن النصارى الذين آمنا بالمسيح وما رأيناه، ثم أتبع بالقول "والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك" فأعني بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتى به وما أتى من قبله.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: هذا التأويل من تحريف الكلم عن مواضعه وتبديل كلام الله ﷻ.

وأما تأويلهم قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ إنه الإنجيل، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾عنى بهم النصارى، فهو من تحريف الكلم عن مواضعه وتبديل كلام الله؛ كما فعلوه في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ (آل عمران: ٨٥)، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ أي باللاهوت، وفي قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾، وفي غير ذلك مما ذكروه وتأولوه من القرآن على غير

(١) تفسير ابن كثير ١٣/ ٥٥٠.

المعنى الذي أراد الله به، وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة والإنجيل فإنه إذا كان القرآن الذي قد عرف تفسيره، والمراد به العام والخاص، ونقل ذلك عن الرسول نقلًا متواترًا حتى عرف معناه علما يقينًا اضطراريًا فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه، فماذا يصنعون بالتوراة والإنجيل ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه كما نقل القرآن وليس في أهل تلك الكتب من يذب عن لفظها ومعناها كما يذب المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه؟ [1].

الوجه الثاني: "ذلك" تستخدم للإشارة إلى الغائب و الحاضر.

وهؤلاء غرهم قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فظنوا أن لفظ ﴿ ذَٰلِكَ﴾لما كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل. فيقال لهم: هذا كقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ (آل عمران: ٥٨)، وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية، وقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ (الممتحنة: ١٠)، وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (الطلاق: ٢)، ومثله قوله تعالى بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (يوسف: ١٠٢).

وقال أيضًا لما ذكر خبر مريم: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾ (آل عمران: ٤٤)، كما قال لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ (هود: ٤٩)، وقال: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ١، ٢).

و(تلك) في المؤنث مثل (ذلك) في المذكر، ومع هذا فأشار إلى القرآن ومنه قوله: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر: ١)، وقوله: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل: ١)، ومنه قوله: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ (القصص: ١، ٢).

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٣.

ومثل هذا كثير، وذلك أنه لما أنزل قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، ونحو ذلك، لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة، وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذي يشار إليه كما يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبي يشار إليه كما يشار إلى الحاضر كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ (الأنبياء: ٥٠)[1].

الوجه الثالث: الآية نفسها ترد عليهم.

وقد قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ٢-٤).

قال ابن تيمية: وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وأنهم كافرون ظالمون، فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب؟.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ (التوبة: ٢٩)، وأول التقوى تقوى الشرك وقد وصف النصارى بالشرك في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١﴾ (التوبة: ٣١)، وقال تعالى لما ذكر المسيح: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٣٨﴾ (مريم: ٣٧، ٣٨).

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ (المائدة: ٧٢).

وقد أخبر أن الله ولي المتقين فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٣: ٢٦٤.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية: ١٨، ١٩)، فلو كانوا من المتقين فضلًا عن أن يكونوا هم المتقين؛ لكان الله وليهم ولكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين، وهو قد نهى عن موالاتهم وجعل من يتولاهم ظالمًا وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض والكفار بعضهم أولياء بعض، وأيضًا فإن الله ﷻ قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ (البقرة: ٣)، وهي الصلاة التي أمر بها في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨)، وقد قال ﷺ: "لا يقبل الله صلاة بغير طهور"، والنصارى يصلون بغير طهور، وقال ﷺ: " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب" وهم لا يقرؤونها، والصلاة التي فرضها وأثنى عليها مشتملة على استقبال الكعبة وعلى ركوع وسجدتين في كل ركعة، وغير ذلك مما لا يفعله النصارى، فكيف يمدحهم بإقامة الصلاة وهم لا يقيمون الصلاة التي أمر بإقامتها؟.

ثم لو قال اليهودي المراد بقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ التوراة ﴿بِالْمُتَّقِينَ﴾ اليهود. لكان هذا -مع بطلانه- أقرب من قول القائل: إن المراد بالكتاب الإنجيل؛ لأن التوراة أحق بذلك من الإنجيل فإنها الأصل والله تعالى يقرن بينها وبين القرآن في غير موضع كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (هود: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٠)، وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ (البقرة: ٤).

فهي صفة ثانية للذين يؤمنون بالغيب مجملا ثم وصفهم بإيمان مفصلًا بما أنزل إليك وما أنزل من قبله، والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ (الأعلى: ١-٥)، والذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى وهو

الذي أخرج المرعى. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ (الزخرف ٩: ١٢).

ومثله قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون١-١١)، فهم صنف واحد وصفهم بهذه الصفات بحرف الواو.

وقد فسر قبل قوله: يؤمنون بالغيب صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب كمشركي العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك صفة من آمن به من أهل الكتاب، وعلى هذا القول هؤلاء غير هؤلاء لكن هذا ضعيف؛ فإنه لا بد في المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، ولا بد في مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب فكل من الإيمانين واجب على كل واحد، ولا يكون أحد على هدًى من ربه مفلحا إلا بهذا وهذا.

وأما قول النصارى: نحن الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه، فهكذا اليهود آمنوا بموسى عليه السلام وما رأوه، والمسلمون آمنوا بمحمد وما رأوه؛ بل المسلمون آمنوا بموسى وعيسى وسائر النبيين وما رأوهم بخلاف اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، ثم الغيب ليس المراد به صورة النبي ﷺ؛ فإن صورة النبي ليست من الغيب فإن الناس يرونها وليس في رؤيتها ما يوجب إيمانًا ولا كفرًا، ولكن الغيب ما غاب عن مشاهدة الخلق وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب فيدخل فيه الإيمان بالله وملائكته

وكتبه ورسله وهو الإيمان بأنهم رسل الله، وسواء رؤيت أبدانهم أو لم تر فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم وقد يؤمن برسالتهم من لم يرهم.

والمقصود الإيمان برسالتهم لا بنفس صورهم حتى يقول القائل: آمنا بنبي ولم نره وقد يعلم من دلائل نبوته وأعلام رسالته من لم يره أكثر مما يعلمها من رآه(١).

الوجه الرابع: شهادة الكتاب المقدس على نفسه بالتحريف.

إليك أيها القارئ الشهادة بتحريف الكتاب المقدس من الكتاب المقدس نفسه:

أولًا: أن كاتب المزمور (٥٦: ٤) ينسب إلى داود عليه السلام بأن أعداءه طوال اليوم يحرفون كلامه: مَاذَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ بِي الْبَشَرُ؟ يُحَرِّفُ أَعْدَائِي طَوَالَ الْيَوْمِ كَلاَمِي.

ثانيًا: لقد اعترف كاتب سفر إرميا (٢٣: ١٣، ١٥، ١٦) بأن أنبياء أورشليم وأنبياء السامرة الكذبة حرفوا كلام الله عمدًا: فِي أَوْسَاطِ أَنْبِيَا ءِ السَّامِرَةِ شَهِدْتُ أُمُورًا كَرِيهَةً، إِذْ تَنَبَّأُوا بِاسْمِ الْبَعْلِ، وَأَضَلُّوا شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. وَفِي أَوْسَاطِ أَنْبِيَاءِ أُورُشَلِيمَ رَأَيْتُ أُمُورًا مَهُولَةً: يَرْتَكِبُونَ الْفِسْقَ، وَيَسْلُكُونَ فِي الأَكَاذِيبِ، يُشَدِّدُونَ أَيْدِي فَاعِلِي الإِثْمِ لِئَلاَّ يَتُوبَ أَحَدٌ عَنْ شَرِّهِ. . . لأَنَّهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ أُورُشَلِيمَ شَاعَ الْكُفْرُ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الأَرْضِ.

ثالثًا: لقد اعترف كاتب سفر إرميا بأن اليهود حرفوا كلمة الله؛ لذلك فهو ينسب لإرميا في (٢٣: ٣٦) توبيخ النبي إرميا لليهود: أما وحي الرب فلا تذكروه بعد؛ لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه؛ إِذْ قَدْ حَرَّفْتُمْ كَلاَمَ الإِلَهِ الْحَيِّ، الرَّبِّ الْقَدِيرِ، إِلَهِنَا.

رابعًا: وكاتب سفر الملوك الأول (١٩: ٩) ينسب لإليا النبي حين هرب من سيف اليهود فيقول: وَقَالَ الرَّبُّ لإِيلِيَّا: «مَاذَا تَفْعَلُ هُنَا يَاإِيلِيَّا؟ » فَأَجَابَ: «غِرْتُ غَيْرَةً لِلرَّبِّ الإِلَهِ الْقَدِيرِ، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَنكَّرُوا لِعَهْدِكَ وَهَدَمُوا مَذَابِحَكَ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِالسَّيْفِ، وَبَقِيتُ وَحْدِي. وَهَا هُمْ يَبْغُونَ قَتْلِي أيضًا.

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٢٦٤: ٢٦٨.

ويتسائل بعضهم الذين يتجاهلون الشواهد والأدلة الدالة على تحريف كتابهم المقدس قائلين: عندما يعطى الله الإنسان كتابا من عنده، فهل تظن أنه لا يستطيع المحافظة عليه من عبث البشر؟

نقول لهؤلاء الذين يتجاهلون الأدلة والشواهد الدالة على تحريف كتابهم المقدس: نعم، إن الله قادر على أن يحفظ كلمته ولكنه سبحانه وتعالى اختار أن يوكل حفظ كلمته إلى علماء وأحبار اليهود، ولم يتكفل هو بحفظها فقد ترك حفظ كلمته بيدهم فكان حفظ الكتاب أمرًا تكليفيًا، وحيث إنه أمرٌ تكليفيٌ فهو قابلٌ للطاعة والعصيان من قبل المكلفين، فالرب استحفظهم على كتابه ولم يتكفل هو بحفظه، وإليكم الأدلة من كتابكم المقدس على هذا:

جاء في سفر التثنية (٤: ٢) قول الرب: وَالآنَ أَصْغُوا يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الشَّرَائِعِ وَالأَحْكَامِ الَّتِي أُعَلِّمُهَا لَكُمْ لِتَعْمَلُوا بِهَا، فَتَحْيَوْا وَتَدْخُلُوا لِامْتِلاكِ الأَرْضِ الَّتِي يُوَرِّثُهَا لَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لاَ تزيدوا عَلَى الكلام الذي أنا أوصيكم به، وَلاَ تُنَقِّصُوا مِنهُ، لتحفظوا وصايا الرب إلهكم التي أنا أوصيكم بها.

وجاء في سفر الأمثال (٣٠: ٥-٦): كل كلمة من الله نقية. ترس هو للمحتمين به. لا تزد على كلماته لئلا يوبخك فتكذّب.

وقد جاء في سفر الرؤيا (٢٢: ١٨) قول الكاتب: وَإِنَّنِي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ النُّبُوءَةِ هَذَا: إِنْ زَادَ أَحَدٌ شيئًا عَلَى مَا كُتِبَ فِيهِ، يَزِيدُ الله عليه الضربات، وَإِنْ حذف أَحَدٌ شيئًا مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ النُّبُوءَةِ هَذَا، يُسْقِطُ الله نَصِيبَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.

إن هذا النص تعبير واضح من الكاتب بأن الله لم يتكفل بحفظ هذا الكتاب؛ لأنه جعل عقوبة من زاد شيئًا كذا ... وعقوبة من حذف شيئًا كذا. . . فهذا دليل واضح بأن الله لم يتكفل بحفظ الكتاب.

وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى عن التوراة التي كانت شريعة موسى ﷺ، وشريعة الأنبياء من بعده حتى عيسى ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا

﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (المائدة: ٤٤).

ومعنى ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾: أي أمروا بحفظه، فهناك حفظ، وهنا استحفاظ.

وإذا كان الأحبار والرهبان ممن جاء بعد لم يحفظوا؛ بل بدلوا وحرفوا، فليس معنى ذلك أن الله لم يقدر على حفظ كتابه ـ حاشا وكلا ـ ولكن المعنى: أن الله لم يتكفل بحفظه؛ بل جعل اليهود أمناء عليه.

ومن المعلوم أن هناك المئات من الرسل والانبياء جاؤوا بعد نوح عليه السلام ولم يتكفل الرب بحفظ رسائلهم سواء كانت شفوية أو مكتوبة وإلا فأين هي؟ مثال ذلك: صحف ابراهيم التي ذكرت في القرآن الكريم فلا وجود لها اليوم.

وأخيرًا: فهل هناك أعظم من شهادة الكتاب المقدس على نفسه بالتحريف؟

فقل لي بربك أيكون الثناء والمدح على هذا المحرف؟ [1].

المبحث الثالث: وماذا عن البشارات التي توجد في الكتاب المقدس بنبوة رسول الإسلام محمد ﷺ؟

البشارة الأولى: (أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ).

بشارة بمحمد والوحي إليه.

في (التثنية١٨/ ١٨: ٢١): قَالَ لِيَ الرَّبُّ: قَدْ أَحْسَنُوا فِي مَا تَكَلَّمُوا. ١٨ أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. ١٩ وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. ٢٠ وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذلِكَ النَّبِيُّ.

ومعنى النص أن موسى لما جمع بني إسرائيل ناحية الطور ليسمعوا صوت الله وهو يتحدث معه في جبل الطور (حوريب) حدث من هيبة الله وجلاله رعد وبرق ونار ودخان،

---

(١) يراجع تفصيلًا بحث: تحريف الكتاب المقدس في هذه الموسوعة.

فخاف بنو إسرائيل، وقالوا لموسى: إذا أراد الله أن يكلمنا فيما بعد فليكن عن طريق نبي ونحن نسمع لهذا النبي ونطيع، فاستحسن الله منهم ووعدهم بنبي له يسمعون ويطيعون.

ولاحظ أن هذا النص هو الذي تشير إليه آية سورة الأعراف﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ. . . ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

البشارة الثانية: (**فَأَنا أغيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْبًا**).

وهي بشارة بأمة محمد، ففي (التثنية٣٢/ ٢٢): هُمْ أَغَارُونِي بِمَا لَيْسَ إِلهًا، أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ. فَأَنَا أُغِيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْبًا، بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُهُمْ.

والمقصود من الفقرة: أن بني إسرائيل أغضبوا الله تعالى بانحرافهم عن التوحيد وعبادتهم الأوثان، وأن الله سيغيظهم باصطفاء العرب الذين هم عندهم محقرون وجاهلون.

البشارة الثالثة: (**الاستعلان من جبال فاران**).

وهي بشارة بنبوة محمد وبما يُوحى إليه: ففي (التثنية٣٣/ ٢): جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ.

البشارة الرابعة: (**البركة بإسماعيل**).

وهي بشارة بمحمد. ففي (التكوين١٧/ ٢٠): وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً.

وفي الطبعات القديمة(. . . وَأُكَثِّرُهُ جِدًّا جِدًّا. . .)، وقد وردت هذه البشارة في عدة مواضع من سفر التكوين مما يقوي الاستدلال بها على نبوة محمد ويبعد الوهم عنها[1].

* * *

(١) للمزيد: يُراجع بحث (إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ) من هذه الموسوعة.

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد الثاني

الصلب والفداء والتحريف

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٢٠

موسوعة محاسن الإسلام

ورد شبهات اللئام

٢

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال – هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ – ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء – مجمع الخير – الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي – شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم
للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

تابع
شبهات العقيدة

٣ـ الصلب والفداء

٣ـ شبهة: ادعاؤهم أن تكفير الخطايا لايكون إلا بالإيمان بالفداء والصلب.

مقدمة ونص الشبهة:

إن مما يلفت الانتباه إليه هو وجود كم كبير من الشبهات التي يلقيها النصارى للتشكيك في اعتقاد المسلمين بصلاح الأعمال الصالحة للتكفير عن الذنب، وقد وجدنا أن هذه الشبهات تُبنى على أمرين (نفي وإثبات).

نفي: الأعمال الصالحة باعتبارها أسباب للتكفير عن الذنب.

إثبات: أن صلب المسيح الإله كما يزعمون هو الوسيلة الوحيدة ليُكفر عن خطايا البشر وذنوبهم.

ولذا كان الرد متمثلًا في هذه الوجوه إجمالًا:

الوجه الأول: إبطال عقيدة الفداء والصلب كما في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: إبطال الصلب والفداء في الكتاب المقدس.

ويتكون هذا الوجه من أربعة أبواب:

الباب الأول: دعوى الخطية ولزوم الفداء والرد عليها، وينقسم إلى:

الفصل الأول: الرد على ادعاءات النصارى حول هذه العقيدة.

الفصل الثاني: الأدلة على بطلان عقيدة الفداء.

الباب الثاني: دعوى التجسد والرد عليها، وينقسم إلى:

الفصل الأول: عقيدة النصارى في التجسد وأقوالهم فيها.

الفصل الثاني: الرد على هذه الدعوى.

الباب الثالث: دعوى صلب المسيح من أجل الخلاص والرد عليها، وينقسم إلى:

الفصل الأول: أهمية الصلب عند النصارى.

الفصل الثاني: هل صلب المسيح أم لا؟ وما أدلتهم على ذلك؟

الفصل الثالث: الرد على دعوى الصلب، وينقسم إلى عدة مباحث:

المبحث الأول: تناقضات رواية قصة الصلب، وينقسم إلى عدة مطالب:

المطلب الأول: تناقض روايات مقدمة أحداث الصلب.

الوجه الثاني: كل هذا التصوير الظالم لحال آدم لكي يصبح لصلب المسيح مبررًا.

الوجه الثالث: أليس من العدل أن تتناسب العقوبة مع الذنب؟

الوجه الرابع: ألا يُعد تكرار العقوبة على العاصي ظلمًا؟

الوجه الخامس: إذا كان ذنب آدم احتاج لتجسد الإله والصلب، فما بال معاصي بني آدم الكثيرة كم تحتاج؟

الفصل الثاني: **أليس في تقدير الله بوقوع آدم في الذنب كان لحكمة بليغة.**

الوجه الأول: أليس قد قضى الله بأن يكون آدم خليفته في الأرض، وأخبر بذلك ملائكته قبل خلق آدم؟

الوجه الثاني: أليس في ابتلاء آدم بالذنب سبب لسعادته؟ فخرج من الجنة ليعود إليها على أحسن الأحوال؟.

الوجه الثالث: لم يكن خروج آدم عليه السلام من الجنة عقوبة، فقد تاب الله عليه.

الوجه الرابع: أليس قد عهد الله لآدم بأن يعود إلى الجنة هو وكل من اتبع هدى الله من ذريته؟.

الفصل الثالث: **كيف لا تكون توبة آدم مقبولة؟ (الرد على دعوى عدم قبول توبة آدم)**

الوجه الأول: أليس قد أخبر الله بتوبة آدم، وليس عند النصارى في كتابهم المقدس ما ينفي هذه التوبة؟

الوجه الثاني: كيف يجوز أن يكون رسل الله في حبس الشيطان في جهنم؟

الوجه الثالث: أليس الإنسان ضعيفًا ومُعرَّضًا للخطأ، فماذا يفعل إذا أذنب؟

الوجه الرابع: أليس مكتوب في الإنجيل أن الله قد تاب على أهل نينوى والعشارين؟

الوجه الخامس: أليس من رحمة الله أن يفتح لعباده باب التوبة والغفران؟

الوجه السادس: أليست توبة الله على آدم موافقة للعقل والنقل؟

الفصل الرابع: **كيف يحمل الإنسان إثم ذنب لم يرتكبه؟ (الرد على وراثة الذنب)**

الوجه الأول: هل يعقل أن تتوارث الخطيئة؟

الوجه الثاني: أليس في ادعاء غضب الله على البشر بدون ذنب لم يرتكبوه وصفٌ له بالظلم؟

الوجه الثالث: أليس في تحميل البشر ذنباً لم يرتكبوه ظلمًا لهم؟

الوجه الرابع: أليس منطق العقل يقضي بأن يتحمل كل إنسان نتيجة عمله؟

الوجه الخامس: نصوص التوراة والإنجيل تقضي بأن يتحمل كل إنسان نتيجة عمله.

الوجه السادس: أليس الهدف من توريث الخطيئة إيجاد مبررٍ لصلب المسيح وذبحه؟

الوجه السابع: الإسلام يقرر أن كل إنسان مُحاسب عن نفسه.

الفصل الخامس: كيف يكون في العفو عن المذنب تناقض بين العدل والرحمة الإلهية؟

الوجه الأول: بيان المقصود بالعدل، وبم تحقق العدل.

الوجه الثاني: ما الذي جعل الإله في مأزق بين العدل والرحمة؟

الوجه الثالث: ما هو الأليق بجلال الله: أن يعفو عن المذنب، أم يصلب الإله نفسه فداءً له؟

الوجه الرابع: أن دعوى أنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة فيها تجريد للإله من الرحمة.

الوجه الخامس: أليس حال المسيح عند الصلب ينفي أنه رضي بالصلب المزعوم؟

الوجه السادس: أليس في الإقرار بعقيدة الفداء دعوى للتحلل والشرور؟

الفصل السادس: هل لا يغفر الإله للبشر إلا بعد الحصول على ثـمن لذلك؟

الوجه الأول: هل الله يحتاج إلى العوض حتى يغفر الذنب؟

الوجه الثاني: بطلان الزعم بأن المسيح وحده الفادي لأنه المبرَّأ من كل ذنب.

الوجه الثالث: هل يقبل العقل فكرة الاستعاضة التي يقوم عليها اعتقادكم؟

الفصل السابع: هل يعقل أن يتجسد الإله فيصبح إنسانًا ثم يُصلب ويموت من أجل خطايا البشر؟

الوجه الأول: كيف حال الوجود والإله في اللحود؟ ومن دبَّر شئون الخلق في غيابه؟

الوجه الثاني: من هو أقدر على الخلاص اللاهوت أم الناسوت؟

الوجه الثالث: أليس من الجهل والضلال الادعاء بأن إله الخلق حل به الضرب والإذلال والصلب؟

الوجه الرابع: هل الإهانة التي حلت بالمصلوب لحقت الإله فإن ذلك لازم القول بالاتحاد؟

الوجه الخامس: هل يعقل أن يولد الإله من بشر، ويعيش مثل البشر يعتريه الآفات والأوجاع؟

الوجه السادس: هل يعقل أن يُصلب الناسوت بدون اللاهوت وهما متحدان؟

الوجه السابع: هل المصلوب إله أم إنسان، وكيف يعقل ذلك؟

الوجه الثامن: ما الفائدة من إرسال الرسل إذا كان الخلاص لا يتم إلا بصلب الإله؟

الوجه التاسع: إذا كان الناسوت مأخوذاً من مريم فلا بد أن تلحقه الخطية الموروثة المزعومة؟

الوجه العاشر: هل كان الإله المصلوب قادرًا على منع وقوع الصلب أم لا؟

الوجه الحادي عشر: أليس هروب الإله واستغاثته عند صلبه دليلاً على أن صلبه كان بدون اختياره؟

الوجه الثاني عشر: كيف يوقع الإله العقوبة على الذي هو إله مثله؟

الفصل الثامن: لماذا تأخر الصلب المزعوم للإله؟ وما هو موقف الذين ماتوا قبل صلب المسيح؟

الوجه الأول: كيف يُترك الأنبياء في الجحيم في حبس الشيطان قروناً عديدة حتى يأتي المسيح ليُصلب؟

الوجه الثاني: هل ضاقت الأمور بالإله بحيث لم يجد وسيلة للتوفيق بين العدل والرحمة إلا الصلب؟

الوجه الثالث: كيف يكون أمر الصلب مخفيًا عن الأنبياء فلم يذكروه في كتبهم حتى أتى بولس بعد المسيح فذكره؟

الوجه الرابع: ما بال الذين ماتوا قبل مجيء المسيح كفاراً كانوا أم مؤمنين؟

الوجه الخامس: ما قولكم في الذين أخبر عنهم كتابكم المقدس بأنهم خلصوا بدون الحاجة للصلب المزعوم؟

الفصل التاسع: ماذا تحقق من الخلاص بالصلب المزعوم للإله؟

الوجه الأول: أي شيء تغير بوقوع الصلب المزعوم؟ وأي فتنة انطفأت؟ وأي آثام مُحيت؟

الوجه الثاني: أي خلاص تم لكم وأنتم ما زلتم مطالبون بالتكاليف والحساب يوم القيامة؟

الوجه الثالث: هل رفع الصلب حكم الموت الذي كان على آدم وذريته كما تدعون؟

الوجه الرابع: هل بالصلب تم الخلاص أم لم يتم؟ وإذا كان قد تم فما فائدة أسرار

الكنيسة السبعة؟

الوجه الخامس: إذا كان الخلاص إنما هو عن خطيئة آدم فما بال الذنوب الأخرى لبني آدم كيف يتم الخلاص منها؟

الوجه السادس: لماذا سيكون حساب يوم الدينونة (القيامة) إذا كان الخلاص قد تم؟

الفصل العاشر: حقيقة الخلاص (الغفران) في الإسلام.

الوجه الأول: الخلاص بالإخلاص لله وترك الشرك وعبادة الله وحده واتباع نبيه محمدﷺ.

الوجه الثاني: طريق الخلاص في تحقيق العبودية بالإيمان والتوبة الصادقة وفعل الأعمال الصالحة.

الوجه الثالث: الخلاص الحق لا علاقة له بالصلب، ولم يقل بالصلب أحد الأنبياء.

الوجه الرابع: الحق في أمر المسيح عيسى عليه السلام بأنه عبد الله ورسوله، وبذلك يبطل الإنجيل

الوجه الخامس: القول بألوهية المسيح وصلبه قول اخترعه بولس وعارضه تلاميذ المسيح.

الوجه السادس: الرسائل القانونية في الإنجيل تخبر أن طريق الخلاص بالإيمان والعمل الصالح.

الوجه السابع: أليس في طلب الخلاص بالإيمان بالله والعمل الصالح أنفع من الاتكال على قصة صلب الإله المزعومة التي لا يقبلها عقل؟

الوجه الرابع: كفارة الذنب عند المسلمين.

الوجه الخامس: شبهات متعلقة بالفداء والصلب والرد عليهاوفيه شبهات:

الشبهة الأولى: الرد على تبريرات النصارى من قتل المسيح.

الشبهة الثانية: الرد على أن الأعمال الصالحة لاتفي حق الله فيما وقع فيه الإنسان من خطايا.

الشبهة الثالثة: أن التوبة ناقصة ولاتصلح لتكفير الذنب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إبطال عقيدة الفداء والصلب كما في القرآن والسنة.

أولًا: الأدلة على النجاة من القتل والصلب:

١-قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٥٧-١٥٨).

قال ابن كثير: قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلَّمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر. ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين. [١]

واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقي على جميع أصحابه. [٢]

٢-وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١١٠).

ومعنى كففتهم عنك أي: منعتهم-وأعجزتهم- عن إيذائك والنيل منك.

٣ - وقال الله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (آل عمران: ٤٩).

فإذا كانت أعظم أو من أعظم معجزات المسيح عليه السلام إحياء الموتى، فكيف يقضي الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٩.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٣٧٦.

تعالى عليه أن يموت- بل أن يقتل - بهذه الطريقة البشعة؟! إن في ذلك لإهانةً له ﷺ وإبطالًا لمعجزته. . . كما لو قَدَّرَ الله تعالى على موسى ﷺ أن يُسحَر مثلًا.

٤-وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (النساء: ١٥٩).

قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ يعني بعيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعنى: قبل موت عيسى-يُوَجِّه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيمﷺ، وعن ابن عباس: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم.

وكذا قال أبو مالك والحسن وابن زيد وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وهذا القول هو الحق، كما سنبينه بعدُ بالدليل القاطع، إن شاء الله، و به الثقة وعليه التكلان. [١]

وعن الحسن أيضًا قال: (قبل موت عيسى، إن الله رفع إليه عيسى (إليه) وهو باعثه قبل يوم القيامة مقامًا يؤمن به البر والفاجر). [٢]

ثانيًا- الأدلة على بطلان عقيدة الفداء:

قال الله تعالى على لسان المسيح ﷺ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المائدة: ١١٨)

فهذا يبين أن عيسى ﷺ لم يصلب من أجل أمته، فلو كان ذلك كذلك لشفع لأمته فإن قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، يبين تبرؤه منهم، إذ لم يقل: فإني قد صلبت لأجلهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ

(١) تفسير الطبري ٦/ ١٨-١٩. بتصرف يسير

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٤ / ١١١٣.

كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ (فاطر: ١٨).

أي لا تُعَذَّبُ نفسٌ بذنب نفسٍ أخرى، ولو كانت من أقرب الأقربين.

قال الله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦)، وقال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧)

فإذا كان الله تعالى قد تاب على آدم وزوجه – عليهما السلام- فما سبب صلب المسيح إذن؟!

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨-٣٩).

الآيات التي فيها مدح لبعض الأنبياء السابقين لعيسى عليه السلام كـ (نوح، وإدريس، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون،....).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (هود: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢٢)، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم: ٥١-٥٨).

وهذا ينقض عقيدة الفداء التي تقول: إن خطيئة آدم ظلت معلقةً في أعناق البشر جميعًا، وإن غضب الله ظل ملازمًا لهم حتى جاء المسيح فصلب فمات ففداهم وخلصهم من ذلك!!.

الشفاعة يوم القيامة تبطل عقيدتهم في الفداء والصلب.

قال الله تعالى عن الملائكة المكرمين: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ (طه: ١٠٩).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ"**(١).

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي. . . . وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ"**. (٢)

ولو كانت عقيدة الفداء حقًا لكفت وما احتجنا لشفاعة أحدٍ يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: ١٢٠-١٢٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧٠).

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال: ٣٣).

في هذه الآية بين رب العالمين أنه لا سبيل للنجاة من العذاب إلا بأحد أمرين: وجود النبي ﷺ فينا، واستغفارنا. . . ولم يذكر شيئًا عن صلب المسيح وفدائه ذنوب بني آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١).

بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (المائدة: ١٨).

فتعذيب الله تعالى للنصارى بذنوبهم مناقض لما يدَّعونه من أن المسيح عليه السلام صلب ليفديهم ويكفر خطاياهم.

ثالثا: الأدلة على الوفاة والرفع:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٤-٥٥)، ﴿ .. وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٧-١٥٨)

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنعام: ٦٠).

قال ابن كثير: قال مطر الوراق: متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت وكذا قال ابن جرير: توفيه هو رفعه. وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠) وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٢) وكان رسول الله ﷺ يقول -إذا قام من النوم-: "**الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ**"، وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء. وكذا قال الحسن.

رابعًا: الأدلة على النزول:

قال الله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ (طه: ٥٥)

فإذا كان المسيح عليه السلام قد رُفِعَ إلى السماء وقد أخبر رب العالمين أن مآل جميع البشر إلى

التراب دل هذا على ضرورة نزوله عليه السلام يومًا ليموت ويدفن في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾ (الزخرف: ٦١) وفي قراءة: (وإنه لعَلَمٌ. . .) الآية.

عن ابن عباسٍ ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: خروج عيسى ابن مريم، وقال أيضًا: نزول عيسى بن مريم قبل يوم القيامة . وبه قال مجاهد وقتادة والضحاك .[1]

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾**".[2]

الوجه الثاني: إبطال الصلب والفداء في الكتاب المقدس

ويتكون هذا الوجه من أربعة أبواب:

الباب الأول: دعوى الخطية ولزوم الفداء والرد عليها، وينقسم إلى:

١ـ تمهيد.

٢ـ الفصل الأول: الرد على ادعاءات النصارى حول هذه العقيدة.

٣ـ الفصل الثاني: الأدلة على بطلان عقيدة الفداء.

الباب الثاني: دعوى صلب المسيح من أجل الخلاص والرد عليها، وينقسم إلى: تمهيد وفصول.

الفصل الأول: أهمية الصلب عند النصارى.

الفصل الثاني: هل صلب المسيح أم لا؟ وما أدلتهم على ذلك؟

الفصل الثالث: الرد على دعوى الصلب، وينقسم إلى عدة مباحث:

المبحث الأول: تناقضات رواية قصة الصلب، وينقسم إلى عدة مطالب:

---

(١) تفسير الطبري (٢٥/ ٩٠-٩١).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٤) واللفظ له، و مسلم (١٥٥).

وإليك التفصيل

الباب الأول: دعوى الخطية ولزوم الفداء والرد عليها

وقبل أن نتحدث عن عملية الصلب ينبغي أن نناقش القضية من أصلها، إذ إن عملية الصلب تعتمد اعتمادًا كليًا على فكرة الفداء، وسنحاول في هذا المبحث – بإذن الله تعالى – أن نثبت بالأدلة العلمية من الكتاب المقدس بطلان عقيدة الفداء والتي كانت الأساس الأوحد لعقيدة الصلب(١).

تمهيد:

١ـ معنى كلمة (الخلاص) في الكتاب المقدس:

أطلقت هذه الكلمة في الكتاب المقدس بمعنى الإنقاذ والنجاة.

ففي قاموس الكتاب المقدس:

يراد بالخلاص في العهد القديم: النجاة من الشر أو الخطر. (٢)

أما في العهد الجديد فقد خلع عليه معنى آخر هو إنقاذ الخطاة بالإيمان بيسوع المسيح.(٣)

والمعنى الرئيسي - عندهم - هو الخلاص من خطيئة آدم التي ورَّثها لأبنائه والجنس البشري من بعده، والخلاص من الخطايا الأخرى التي يفعلها الإنسان في حياته.

فالخلاص من الخطيئة عندهم يشمل الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، بمعنى غفران الخطايا التي فعلها الإنسان في ماضيه، والتي يفعلها في حاضره، والتي سيفعلها في المستقبل. (٤)

يقول إلياس مقار: " الخلاص هو تحرير الإنسان الكامل من دين الخطية(٥)، ومرضها وسلطانها واستعبادها نفسًا وروحًا وجسدًا ، والأخذ بيده حتى يقف أمام الله في كمال البر والقداسة والمجد والعزة والبهاء إلى أبد الآبدين. (٦)

---

(١) أشرنا إجمالًا لهذا الكلام في الوجه السابق وآن تفصيله.

(٢) راجع خروج ١٤: ١٣، مزمور ١٠٦: ٨- ١٠.

(٣) قاموس الكتاب المقدس (٣٤٤).

(٤) هذه عقائدنا، كلايد تارنر (١١٣)، قضاء الله ومسئولية الإنسان، القس بخيت متى (١١٥).

(٥) دين الخطية: وراثة خطية آدم.

(٦) قضايا المسيحية الكبرى (٢٨٨).

٢- معنى كلمة (فداء) عند النصارى:

وكلمة (فداء) قريبة في المعنى لكلمة (خلاص) ولذلك يراد بها في بعض الأحيان ما يراد بكلمة (خلاص).

في قاموس الكتاب المقدس: تشير لفظة " فداء " في العهد القديم في أغلب الأحيان إلى خلاص الجسد.

أما في العهد الجديد فتشير إلى الخلاص من الخطيئة ومن نتائجها. (١)

يقول أندرو وطسون: " يراد بالفداء كل بركات الخلاص المعلن في الكتاب المقدس للخطاة الهالكين ". (٢)

وقد يراد بها أيضًا – عند النصارى – الفدية التي نال البشر بها الخلاص.

يقول القس صموئيل حبيب: " تستخدم كلمة الفداء أصلا لشخص يسترد أرضه التي وقعت في يد غيره فيشتريها لنفسه ثانية، فإذا رأي الله الإنسان قد باع نفسه للخطية وصار عبدًا لها، قدم نفسه في المسيح فداء للبشرية ثانية. "(٣)

٣- أصل عقيدة الفداء في التصور النصراني.

تبدأ هذه العقيدة – في التصور النصراني – من آدم عليه السلام. وهاك التفصيل:

١ - يعتقد النصارى أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم على حالة الطهارة والبر والقداسة والنعمة(٤) ووضعه في جنة غرسها الله بيده " ٩وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ " (تكوين ٢ / ٨).

٢- وفي وسط هذه الجنة غرس الله شجرتين عجيبتين هما – كما يقول كلايد تارنر: شجرة الحياة التي جعلها الله لخلاص الإنسان من الموت لو لم يخطئ، وشجرة معرفة الخير

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٦٧٢).

(٢) شرح أصول الإيمان (٢١٠).

(٣) الخلاص في مفهومه الكتابي، صموئيل حبيب (٤٢، ٤٣).

(٤) المسيح حياة النفس، دوم كولومبا مرميون (٦٦).

والشر التي جعلت لامتحان مقدار ولاء الإنسان لله. [(١)]

٣- ثم بعد ذلك أوصى الله آدم بألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر.

" عاش الإنسان (آدم) الحياة أسعد ما تكون الحياة، ولكي يحفظ له الرب هذه القامة الشامخة في السمة والترفع فإنه علمه بوصية ألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر حتى لا يقع في المخالفة وتكون عقوبته الموت (لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ».) (تكوين ٢ / ١٧). وفي نفس الوقت أعطاه شجرة الحياة التي تثبته في مكانه من الحياة وقداسة الحق". [(٢)]

جاء في سفر التكوين عن هذا (١٥وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. ١٦وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ) (تكوين ٢ / ١٨ : ١٥).

٤- ولكن آدم خالف وصية الله فأكل هو وحواء من شجرة معرفة الخير والشر، في نظرهم - وحينئذ - كما يقول سفر التكوين " ٧فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. " (٣ / ٧).

٥ - ونتيجة لهذه المعصية - كما يعتقد النصارى - فقد آدم حالة الكمال الأدبي الذي خلقه الله عليها وأصبح خاضعا لناموس الفساد وسلطان الخطية. [(٣)]

ويقول حبيب جرجس: " وكان من نتيجة مخالفتهما لعهد الله تعالى ما يأتي:

١- سقطا من حال القداسة وحياة النعمة وفقدا الشركة مع الله.

٢- صارا أسيرين للخطية والموت.

٣- طردًا من الفردوس وخضعا للبلايا كالتعب والجوع والعطش والفقر والأمراض والشيخوخة.

٤- فقدا ميراث الحياة الأبدية واستحقا غضب الله. [(٤)]

---

(١) هذه عقائدنا (٥٤).

(٢) شجرة الحياة، راغب عبد النور (٨).

(٣) المسيحية في الإسلام، إبراهيم لوقا (١٥٨).

(٤) خلاصة الأصول الإيمانية (٢١، ٢٢).

ويقول إلياس مقار: " وأجرة الخطية هي موت، وقد مات آدم وحواء في اللحظة التي سقطا فيها وانفصلا عن الله، لقد ماتا في الحال الموت الروحي والأدبي. . . ، بل لقد شعرا للمرة الأولى بأن غشية من الظلام استولت على عيونهما فلم يعودا يميزان بين الحق والباطل والنور والظلام، والجمال والقبح والخير والشر. . . ". [1]

ونرد عليهم فنقول: هذا كلام مناقض تماما لما ورد في كتابكم، إذ كيف يمكن القول بأن آدم بعدما أكل من شجرة معرفة الخير والشر لم يعد يميز بين الخير والشر والحق والباطل؟.

يقول سفر التكوين: " [٢٢]وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». [٢٣]فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. [٢٤]فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ. " (٣/ ٢٢ – ٢٤).

كيف يمكن بعد هذا أن نقول إنهما – أي آدم وحواء – أصبحا لا يفرقان بين الخير والشر والحق والباطل والنور والظلام؟

الفصل الأول: الرد على ادعاءات النصارى

أولًا: يدعى النصارى أن الخطية سببّت الموت لآدم وحواء، وهذا ادعاء خاطئ.

ذلك أننا لو نظرنا في قصة مخالفة آدم وحواء لأمر الله تعالى وأكلهما من الشجرة والملابسات المصاحبة لها – في سفر التكوين – نجد أنه يمكن استنباط أن الإنسان خاضع للموت قبل أن يأكل من الشجرة، ذلك أن سفر التكوين يوضح لنا أن هناك شجرتين في الجنة التي سكن فيها آدم قبل نزوله إلى الأرض إحداهما تسمى شجرة الحياة وثمرها يمنح الإنسان – في نظر المسيحيين – الحياة الخالدة، فلو تناول الإنسان من هذه الشجرة – في نظرهم – لأصبح خالدا وعاش إلى الأبد بدليل قوله "وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». " (تكوين ٣ / ٢٢).

---

(١) رجال الكتاب المقدس، إلياس مقار (١ / ١٢)، قضايا المسيحية الكبرى (٣٧٨).

وحيث إن آدم وحواء لم يأكلا من هذه الشجرة التي تمنح الخلود فمعنى ذلك أنهما كانا معرضين للموت قبل المخالفة وبعدها.

هذا فضلًا عن أن الكتاب المقدس يبين أن آدم كان قابلًا للفناء والموت حتى قبل المخالفة وذلك لأنه من التراب، يقول سفر التكوين " لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». (تكوين ٣/ ١٩).

ثانيًا: ويدعون أيضًا أن أكل آدم من الشجرة سبب له الفساد والبعد عن الله.

وهذا قول يفتقر إلى الحجة والبرهان، خاصة وأن سفر التكوين قد جاء فيه فقرة تدل على أن آدم وحواء تابا، والله سبحانه وتعالى قبل توبتهما، ذلك أنهما حين أكلا من الشجرة انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، واختبآ خوفا وخجلا من الله، ثم بعد ذلك يبين سفر التكوين أن الله صنع لآدم وحواء أقمصة من جلد وألبسهما، والتوبة تغفر الذنب وتكفره. يقول سفر الأعمال: " ١٩فَتُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمْحَى خَطَايَاكُمْ " (أعمال ٣ / ١٩). (١)

ثالثًا: يعتقد المسيحيون أن آدم وحواء لم يجلبا الدمار والهلاك والفساد على أنفسهما بعصيانهما فحسب، بل على كل ذريتهما أيضا؛ لأنهم أصبحوا ورثة لطبيعتهما الساقطة الآثمة. (٢)

يقول حبيب جرجس: " إن خطية آدم عمت جميع نسله وعادت بالويل والشقاء على سائر الجنس البشري، وصار محكوما عليهم بأن يولدوا أثمة وعبيدا للخطية والموت، وذلك لأن آدم لم يلدهم إلا وهو في حالة الإثم والمعصية والغضب، فبناء عليه كان جميع الجنس المتناسل منه بالطبيعة آثما ومخطئا وواقعا في المعصية ومعاقبا عليها كما عوقب آدم وزوجته من قبل، ولذلك حسبت المعصية عليهم كما حسبت عليه ". (٣)

وأصبح الإنسان بموجب هذه الفكرة – عند المسيحيين – عاجزًا عن كل خير روحي. يقول الأب بولس إلياس اليسوعي: " إن سقطة الإنسان الأول كانت جسيمة أفقدته توازن قوة الروحية فأصيب بجراح بليغة وبنوع خاص في عاقلته وإرادته، فعاقلته

---

(١) انظر: تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٥٣٥ – ٥٣٦).

(٢) هذه عقائدنا، كلايد تارنر (٥٩)، طريق الخلاص، عوض سمعان (١٢).

(٣) خلاصة الأصول الإيمانية (٢٣).

أصبحت محدودة القدرة تعجز عن إدراك الله كما في أول عهدها وشلت إرادته وأصبحت عاجزة عن صنع الخير والشر وحتى السعي إليه ". [١]

وبناء عليه لا يستطيع الإنسان في - نظرهم - أن يخلص نفسه من هذا الفساد.

رابعًا: دعوى عدم التوفيق بين عدل الله ورحمته:

لقد وضع المسيحيون فكرتهم عن توارث الخطيئة على هيئة مأزق لله سبحانه وتعالى، فباعتبار أن الإنسان في نظرهم غير مؤهل لأن يشق طريقه إلى الله لأنه متصف بالعجز لأن طبيعته فاسدة، فماذا يفعل الله في نظرهم إزاء هذا؟

والجواب: أن الله تعالى في نظرهم لا يستطيع أن يغفر هذه الخطية أو يعفو عنها. وهاهي بعض أقوالهم:

يقول إلياس مقار: " قد يقال: أليس من حق الله وسلطانه وهو صاحب السلطان الأعلى أن يعفو بكلمة عمن يريد أو يشاء؟ وهل يكون الله أقل من الملوك والرؤساء الذين يستطيعون بكلمة أن يعفو عن المجرمين والمحكوم عليهم بأقسى العقوبات؟

إنه قياس مع الفارق؛ لأن عفو الملوك الأرضيين أو الرؤساء إذا صح أنه نبيل أو عظيم إلا أنه على حساب العدالة في إطلاقها وكمالها ومجدها، وأنه إذا صح أن البشر لأنهم ناقصون يعفون أو يتساهلون بدافع من نقصهم أو ضعفهم عن العدالة المطلقة، فإن الله لا يمكن أن يعفو أو يتساهل قيد شعرة عن العدالة المطلقة، وأن القول إن الله قادر على العفو بمجرد كلمة وإن أحدًا لا يمكن أن يجرده أو يطلب إليه أن يتنازل عن السلطان عن هذا القول يفهم القدرة الإلهية فهما خاطئًا؛ لأن الله مع قدرته اللانهائية تُورد أشياء نقول بكل احترام وإجلال لا يقدر عليها ". [٢]

ثم يقول: " يمكن أن نقول بملء اليقين إن الله لا يمكن أن يغفر الخطية بمجرد كلمة

---

(١) يسوع المسيح (٨٣).

(٢) قضايا المسيحية الكبرى (٣٩٠).

إلهية تصدر منه؛ لأنه لا يقدر أن يكون غير عادل أو غير قدوس أو غير حق. . . ومن ثم فإن المسيحية ترفض رفضًا باتًا تصور أن الله يعفو لمجرد العفو من غير جزاء كامل تحتمه العدالة الإلهية المطلقة ". [1]

وإذا كان الله لا يستطيع أن يغفر الخطية، فماذا يفعل الله سبحانه وتعالى – في نظرهم – إزاء ذلك؟ يقول لبيب ميخائيل: " ماذا يفعل الله بذلك الإنسان الشرير الأثيم الذي أصبحت نفسه أمارة بالسوء؟ كيف يوفق جل شأنه بين عدله الذي يطالبه بتوقيع القصاص على الإنسان وهو قصاص رهيب أبدي عظيم يتناسب مع عدله وقداسته، وبين رحمته التي تطالبه بأن يصفح عن خطيئة الإنسان؟ "[2].

كيف يوفق الله في نظرهم بين عدله ورحمته؟

ويجيب عن هذا التساؤل نقولا يعقوب: ولما كان الله عادلًا فهو لا يترك مثقال ذرة، لذلك وجب علينا أن نسلم أن كل الخاطئين ضد الله لابد أن يقيموا في النار مخلدين عقابا لهم، فإذا تم هذا فأين رحمة الله؟ وإذا رحم الله هؤلاء الخطاة وغفر لهم ولم يعذبهم فأين عدله؟.[3]

يقول لبيب ميخائيل: " فالغفران الإلهي للإنسان الخاطئ يحتم أن يوفق الله بين عدله ورحمته، ذلك لأنه إذا غفر الله خطيئة الإنسان على أساس رحمته وحدها استهان الإنسان بعدالة الله ووصاياه، وأصبح فعل الخطية سهلا لديه، إذ يرى أن الله لم يتكلف شيئًا لمنحه غفرانه لخطاياه، وإذا نفذ الله في الإنسان حكمه ضد خطاياه على أساس عدله وحده لرأى الإنسانُ (الله) إلهًا جبارًا منتقمًا، ولأصبح بتأثير إحساسه بقسوة الله عنيدًا قاسيًا، بليد الشعور، ولاستمر في عناده ومعاصيه حتى الهلاك. "[4]

وحتى تُحل هذه المعادلة الصعبة – في نظرهم – فلابد من وجود فادي عن الإنسان

(١) المصدر السابق (٣٩١).

(٢) هل المسيح هو الله؟ (٨٧ – ٨٨).

(٣) أبحاث المجتهدين في الخلاف بين النصارى والمسلمين (٣٧).

(٤) هل المسيح هو الله؟ (٨٤).

يتحمل عنه وزر الخطيئة.

وهذا الفادي عندهم ليس مجرد إنسان كبقية الناس، ولذلك دبر الله – كما يعتقدون – طريقة الفداء بنفسه.

يقول إبراهيم لوقا: " إن المسيحية تعلم أن الله يجمع بين عدله ورحمته في تصرفه مع الإنسان عقب سقوطه، دبر طريقة فدائه بتجسد ابنه الحبيب وموته على الصليب نيابة عنا، وبهذا أخذ العدل حقه واكتملت رحمة الله فنال البشر العفو والغفران ".(1)

والرد على هذه الشبهات فيما يلي في الفصل القادم.

الفصل الثاني: الأدلة على بطلان عقيدة الفداء من الكتاب المقدس.

أولا: لا يؤخذ الأبناء بجرائم الآباء.

ورد في حزقيال (١٨ / ٢٠) "٢٠اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ. اَلاِبْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ، وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الاِبْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ، وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ. " ومثله ما جاء في التثنية (٢٤ / ١٦): " ١٦«لاَ يُقْتَلُ الآبَاءُ عَنِ الأَوْلاَدِ، وَلاَ يُقْتَلُ الأَوْلاَدُ عَنِ الآبَاءِ. كُلُّ إِنْسَانٍ بِخَطِيَّتِهِ يُقْتَلُ. "، ومثله في رومية (٢ / ٦) " ٦الَّذِي سَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِ. " وكذلك ما ورد في سفر الخروج (٣٢ / ٣٠ – ٣٢) " ٣٠وَكَانَ فِي الْغَدِ أَنَّ مُوسَى قَالَ لِلشَّعْبِ: «أَنْتُمْ قَدْ أَخْطَأْتُمْ خَطِيَّةً عَظِيمَةً، فَأَصْعَدُ الآنَ إِلَى الرَّبِّ لَعَلِّي أُكَفِّرُ خَطِيَّتَكُمْ». ٣١فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ، وَقَالَ: «آهِ، قَدْ أَخْطَأَ هذَا الشَّعْبُ خَطِيَّةً عَظِيمَةً وَصَنَعُوا لأَنْفُسِهِمْ آلِهَةً مِنْ ذَهَبٍ. ٣٢وَالآنَ إِنْ غَفَرْتَ خَطِيَّتَهُمْ، وَإِلاَّ فَامْحُنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ». ٣٣فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي. " وأيضا ما ورد في سفر التكوين (٤٤ / ١٧) من قول يوسف لإخوته عن شقيقه " الرَّجُلُ الَّذِي وُجِدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ هُوَ يَكُونُ لِي عَبْدًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاصْعَدُوا بِسَلاَمٍ إِلَى أَبِيكُمْ». "وكل ذلك يثبت أن خطيئة آدم لا تتعدى نفسه، ولا يقع إثمه على غيره، ولا يتحمل خطأه سواه.

ثانيًا: إذا كانت معصية آدم أوجبت تضحية الله، فما بالك بالفواحش والمنكرات التي نسبوها للأنبياء والمرسلين؟.

---

(١) المسيحية في الإسلام (١٧١).

يقول المسيحيون إن في خطيئة آدم من القبح والفحش، ما أوجب اللعنة الإلهية عليه وعلى سائر نسله من بعده، ومن جملتهم الأنبياء والمرسلون، فإذا كانت خطيئة آدم، وهي أكله من الشجرة المحرمة أدت إلى تجسد الله، وتحمله العذاب دون البشر، فما بالك بالمنكرات والفواحش التي ارتكبها - على زعمهم - الأنبياء والرسل. ألا تدعو هذه المعاصي – ولا تعد معصية آدم بجانبها شيئا – أن يضحي الله بأقنوم آخر كفارة عنها؟

ولكي يتضح الأمر أكثر، أرى أن أذكر هنا بعض الأمثلة من الفواحش التي نسبوها للأنبياء والرسل، ليقيس القارئ عليها ما اقترفه آدم من نسيان، وأكله من الشجرة المحرمة:

(١) نوح يسكر ويكشف عورته ويلعن كنعان ظلما:

ورد في سفر التكوين (٩ / ٢٠ – ٢٧): " [٢٠]وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. [٢١]وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. [٢٢]فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. [٢٣]فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. [٢٤]فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، [٢٥]فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». [٢٦]وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. [٢٧]لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ». " اقرأ وتأمل! ! !

(٢) لوط يسكر ويزني بابنتيه:

أتجد فاحشة في الوجود أبشع من أن يزني الوالد بابنتيه، الكبيرة في الليلة الأولى والصغيرة في الليلة الثانية، اقرأ هذا النص في التكوين١٩/ ٣٠-٣٨: " [٣٠]وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. [٣١]وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. [٣٢]هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». [٣٣]فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. [٣٤]وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا

فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». [٣٥]فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، [٣٦]فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. [٣٧]فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. [٣٨]وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ. "

(٣) موسى وهارون يخونان الله ولا يقدسانه ولا يصدقانه:

لقد روى النصارى في كتبهم أن الله تعالى عاقب موسى بالموت، وكذلك هارون من قبل؛ لأنهما خاناه ولم يقدساه ولم يصدقاه.

ويروون كذلك أن موسى طلب من الله أن يعفيه من الرسالة، وأنه رفضها، وأن هارون صنع عجلًا لبني إسرائيل ليعبدوه دون الخالق القهار. (١)

(٤) داود يزني ويقتل بريئًا:

يتهم النصارى داود عليه السلام بالزنا مع امرأة، وأنه أرسل زوجها إلى الحرب وأمر بقتله هناك.

وانظر التفصيل في (صموئيل الثاني ١١/ ١-٢٧) وغيره.

وهذا جزء قليل جدًّا مما ذكر في كتابهم من خطايا نسبوها للأنبياء.

ثالثًا: قتل الناس إلههم وإهانته أكبر من معصية آدم:

ثم أنه لو جاز أن الله تعالى يطالب بني آدم بذنب أبيهم، فليس في صلب المسيح ما يمحو ذلك الذنب، بل إن في ذلك ما يضيف خطيئة أخرى، فسيطالب الجنس البشري بجريمة آبائه وإخوانه اليهود الذين قتلوا إلههم أو الأقنوم الثاني منه ظلمًا وعدوانًا.

وبهذا لا يمكن أن تساوي معصية آدم شيئًا إذا قيست بمعصية الناس حين صلبوا ربهم، حين أتى إليهم، وقبل الهوان واللعن والعذاب من أجل خلاصهم.

رابعًا: المسيح يضن على امرأة بالمساعدة فهل يبذل حياته عن الناس؟

روى متى (١٥ / ٢١-٢٨) عن المسيح فقال: " ٢١ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنْ هُنَاكَ وَانْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ. [٢٢]وَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ التُّخُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً: «ارْحَمْنِي، يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! اِبْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدًّا». [٢٣]فَلَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَطَلَبُوا

---

(١) انظر (سفر التثنية ٣٢/ ٤٨-٥٢، ٢٠/ ٢٤)، (سفر الخروج ٤، ٣٢/ ١-٦).

إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «اصْرِفْهَا، لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا! » [٢٤] فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». [٢٥] فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً: «يَا سَيِّدُ، أَعِنِّي! » [٢٦] فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ». [٢٧] فَقَالَتْ: «نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَالْكِلاَبُ أَيْضًا تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا! ». [٢٨] حِينَئِذٍ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ». فَشُفِيَتِ ابْنَتُهَا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ. "

فهل يقدم المسيح نفسه عن الناس، ويقبل القتل والصلب والإهانة من البشر، كل ذلك عن طيب خاطر، مع أنه ثبت في الإنجيل أنه ضن على المرأة بالمساعدة، وأنه قابلها بالتحقير والسباب، ولم يقبل مساعدتها إلا بعد هذه الشدة، ووساطة تلاميذه الذين طلبوا منه مساعدتها لا للخير، وإنما لأنهم أرادوا التخلص منها ومن صياحها؟.

(وهذا بحسب ما ورد في الإنجيل وإلا فأنبياء الله تعالى هم أولى الناس بمكارم الأخلاق)

خامسا: تسليم النصارى بكون دعوى الكفارة لم تتحقق:

ويقولون إن الله تعالى قال لآدم ((إن أكلت من هذه الشجرة موتا تموت)) ويفسرون (موتًا تموت) بأن الله يعني أن يدخل آدم وذريته الجحيم، ولكن تفسيرهم هذا يؤخذ منه أن الله تعالى لم تنفذ إرادته؛ لأن الأقنوم الثاني – بزعمهم – نجاهم. بل إن الله تعالى لم تنفذ إرادته بعد ذلك كذلك، لأن معظم الناس لا يزالون لا يؤمنون بالفداء، وذلك - بحسب عقيدتهم - بسبب دخولهم الجحيم، فما معنى أن المسيح نجىَّ العالم من الخطيئة حتى استحقوا دخول الجنان؟!

يقولون عن المسيح: "[٢] وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَانَا. لَيْسَ لِخَطَايَانَا فَقَطْ، بَلْ لِخَطَايَا كُلِّ الْعَالَمِ أَيْضًا. " (يوحنا الأولى ٢ / ٢)، فكيف يكون المسيح كفارة لكل العالم، مع أن في العالم ملايين من عبدة الأوثان واللادينيين، ويوجد في العالم كذلك الملايين من المسلمين الذين لا يؤمنون إلا بالتوحيد الحقيقي، وينزهون الله تعالى عما لا يليق به من الصفات التي ينسبها إليه المسيحيون، بل لِمَ يتوعدُ المسيءَ والمخطئ والعاصي بالعذاب ويهدده بدخول النار؟

وإذا كان النصارى يقولون إنهم وحدهم الناجون، فلم يتحقق قول يوحنا إن المسيح كفارة عن العالم، وإذا قالوا بصدق قول يوحنا كذبوا حيث ادعوا هلاك غير النصراني، وكفر

كل فريق منهم الآخر، وحيث تعارض الدليلان، فلا اعتبار لهما. فلا كفارة على ذلك ولا فداء.

سادسا: عقيدة الفداء لا يقبلها العقل:

(أ) التفكير في الشر دون وقوعه لا يوجب العقاب.

فمجرد وجود الوازع إلى الشر في نفس الإنسان، بدون الوقوع فيه لا يوجب حكما بالمعصية، إنما المعصية هي الوقوع الفعلي فيها. ولقد جاء المسيح والعالم لا تزال فيه هذه الغريزة، ومضى المسيح والجنس البشري أشد شرًا مما كان.

(ب) لا يعذب الله ذاته:

إن الله لا يخلق لذاته العذاب الذي أعد للعاصين من عباده، فلقد خلق الله المحسن والمسيء، وأوجد الصالح والطالح، وأعد لأحدهما الثواب وللآخر العقاب، أم كان يجهل الله طبيعة خلقه، وأنه ما كان يقصد أنه يخلق فيهم الشر، وأنه فوجئ بالمعصية "[٦]فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. [٧]فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ». " (سفر التكوين ٦ / ٦ – ٧).

(ج) لا ينقسم الله على ذاته :

قال المسيح للفريسيين حين زعموا أنه يخرج الشياطين بوساطة (بِعَلْزَبُول) رئيسهم " [٢٦]فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُخْرِجُ الشَّيْطَانَ فَقَدِ انْقَسَمَ عَلَى ذَاتِهِ. " (متى ١٢ / ٢٦). ونقول نحن أيضًا " إن كان الله يصلب ويهين الله فقد انقسم على ذاته ".

(د) هل يخطئ الإنسان فيتعذب خالقه؟

وإذا فرضنا أن الإنسان قد أخطأ لأنه ورث عن آدم المعصية، فما ذنب الله تعالى ليتعذب، ويهان، ويشتم، ويتفل عليه، ويتهكم به الناس، ويضرب، ويصلب، ويقتل قتلة الأشرار المجرمين؟!.

(هـ) هل فدى الله آدم ببعض آدم؟

وإذا قيل إن الله لم يتعذب، بل الذي تعذب هو ناسوت المسيح، قلنا إما أن يكون ناسوت المسيح جزءا من الله فيكون العذاب قد وقع على الله كما قدمنا، وهو غير جائز

عقلا، أو يكون ناسوت المسيح جزءا من آدم كسائر البشر الذي توالد منه، فيكون آدم قد فدى ببعضه، وأن يفدي الناس بأحد منهم يبطل عقيدة الفداء، ولا يكون هناك معنى لنزول الله أو لتجسده أو لقيامه بالكفارة، إذ إن عقيدة المسيحيين كما بينا لا تنص على كون الله انتقم من الناس في شخص أحدهم، أو قبل فداء واحد منهم عن الآخرين.

وإما أن يكون العذاب قد وقع على ناسوت المسيح ولاهوته، ولا يخرج حكم ذلك عما قدمنا، فيثبت بذلك بطلان جواز دعوى الفداء.

(و) يذبح الله الله فما دخل البشر؟!

يقول النصارى (رؤيا ١٣ / ٨) أنه كان في الأزل، قبل وجود الكائنات، ثلاث وجودات أزلية، وهي: كائن، وخروف مذبوح، وروح القدس " أي الله والمسيح المصلوب والروح القدس " فمن ذبح الخروف غير أحد الكائنين الآخرين! فأية علاقة بين البشر وما تفعله الآلهة فيما بينهم؟!!!.

سابعًا: المسيح لم يدع أنه جاء ليخلص الناس من خطيئة آدم:

إن المسيح عليه السلام وجميع الأنبياء والرسل قبله لم يذكروا لنا شيئا مطلقا عن هذا الذنب المغروس، وإلا فها هي التوراة بين أيديهم، وهاهي الأناجيل التي يؤمنون بها، هاهي أمامهم ولم يذكر في أحدها أن بني آدم وصموا بذنب لم يقترفه أحدهم.

يقول المسيحيون: إن المسيح هو الله وأنه ما نزل في هذا العالم، وما انحط إلى مستوى البشر إلا ليخلص الناس من ذاك الذنب المزعوم، فإذا كان هذا هو السبب الوحيد الذي أرسل من أجله المسيح، فلم لم يقل عنه شيئا! ! ولم لم يبينه! !

لقد كان المسيح معلم الشعب، فإذا كان نزل للفداء فكان عليه أن يشرح ما جاء من أجله خاصة، وما كان هناك أدنى داع للتعليم والتهذيب والإرشاد إلى الطريق الذي يدخل الجنة، ما دام محض مجيئه يكفي لخلاصهم وخلاص العالم معهم. [1]

---

(١) المسيح والتثليث، محمد وصفي (١٤٧ - ١٥٦) وانظر: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، محمد بن صفي الدين الحنفي (٦٤).

وأيضا: فقد كان واجب عيسى عليه السلام الأساسي هو البشارة بملكوت الله، والمعزي أو إيليا الذي سيأتي من بعده.

وها هي النصوص على ذلك:

١- ورد في لوقا (٤ / ٤٣): "٤٣فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُبَشِّرَ الْمُدُنَ الأُخَرَ أَيْضًا بِمَلَكُوتِ الله، لأَنِّي لِهذَا قَدْ أُرْسِلْتُ». ٤٤فَكَانَ يَكْرِزُ فِي مَجَامِعِ الْجَلِيلِ. "

٢- كما أوصى يسوع تلاميذه قائلا: " ٧وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. " (متى ١٠ / ٧).

٣- وورد في متى (١١ / ١٤): " ١٤وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا، فَهذَا هُوَ إِيلِيَّا الْمُزْمِعُ أَنْ يَأْتِيَ. "

٤- ورد في يوحنا (١٤ / ١٥ – ١٧): " «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ، ١٦وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، ١٧رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ. "[١]

ومما سبق يتبين أن أساس عقيدة النصرانية يقوم على عدة أركان:

الأول: دعوى الخطية ولزوم الفداء (وقد سبق الكلام عنهما).

الثاني: دعوى تجسد ابن الله من أجل الخلاص.

الثالث: دعوى الصلب من أجل الخلاص.

الرابع: دعوى قيامة المسيح من أجل الخلاص.

الباب الثاني : الرد على دعوى تجسد ابن الله من أجل الخلاص

١ـ عقيدة النصارى في التجسد وأقوالهم فيها والرد عليها.

يدعي النصارى أن الإنسان لا يستطيع أن يتحرر ويتخلص بنفسه من الطبيعة الخاطئة التي ورثها عن آدم – بناء على فكرتهم في توارث خطيئة آدم – وذلك لأنه خاطئ .

وها هي بعض أقوالهم في تقرير هذا المعنى:

---

(١) انظر: إعدام الإله بين المسيحية والوثنية (٣١ – ٣٢).

يقول عوض سمعان: " فالإنسان لانتقال الطبيعة الخاطئة إليه بالوراثة وتسلطها على كيانه تبعًا لذلك لا يستطيع بمجهوده أن يتحرر منها أو يرتقي فوقها ".(١)

" فالبشر جميعًا بما فيهم الأنبياء محتاجون إلى من يفديهم ".(٢)

وهل يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ملاك من الملائكة ؟

والجواب هو أنه: لا يستطيع – في نظرهم – أن يقوم بمهمة الفداء أيضا ملاك .

ففي تاريخ الأمة القبطية " لم يكن باستطاعة إنسان أو ملاك أن يقوم بهذه الفدية لأن الإنسان خاطئ ولأن الملاك مخلوق ".(٣)

كذلك لا يستطيع أي مخلوق آخر – في نظرهم – أن يقوم بالفداء .

يقول حبيب جرجس: " ولم يستطع إنسان ولا ملاك ولا خليقة أخرى أن تصلح الجنس البشري من فساده لأن ذلك ضرب من المحال "(٤) .

ويقول حبيب جرجس: " وهذا الفادي ليس إنسانًا ولا ملاكًا ولا خليقة أخرى بل هو مخلصنا وفادينا ابن الله الوحيد ربنا يسوع المسيح ".(٥)

ويقول عوض سمعان: " بما أنه لا يستطيع فدائنا إلا الله، وبما أنه ليس من المعقول أن يخلق الله شخصا نظيره؛ لأن المخلوق يكون محدثًا، والمحدث لا يكون مثل الأزلي إذن ليس هناك كائن غير الله يستطيع القيام بفدائنا والتكفير عنا."(٦)

ولكي يقوم ابن الله بالخلاص لابد وأن يتجسد ويظهر في صورة بشرية أي في ثوب الخطية حتى يستطيع الانتصار عليها بثوبها .

---

(١) طريق الخلاص (١٣) .

(٢) مطلعات في الكتاب المقدس (٢٥١) .

(٣) لجنة التاريخ القبطي: تاريخ الأمة القبطية (٢ / ٢٨) .

(٤) خلاصة الأصول الإيمانية (٢٥) .

(٥) خلاصة الأصول الإيمانية (٢٦) .

(٦) طريق الخلاص (١٩).

يقول القس صموئيل حبيب: " لذلك جاء يسوع في جسد الخطية ليفتدي الخطاة ".(١)

ولكي يستطيع أن يموت على الصليب ويتحمل الخطايا والآثام كان ولابد أن يظهر في صورة الجسد القابل للموت .

يقول اثناسيوس الرسولي: " وإنه مستحيل أن يتحمل الكلمة الموت لأنه غير مائت، ولأنه ابن الآب لهذا أخذ لنفسه جسدا قابلا للموت حتى باتحاده بالكلمة الذي هو فوق الكل يكون جديرا أن يموت نيابة عن الكل ." (٢)

٢ـ الرد على هذه الدعوى

إذا كان كل أفراد الجنس البشري متصفين بالسقوط في الخطيئة نتيجة لعصيان آدم فكيف يكون المسيح بجسد بشري وهو غير خاطئ ؟ ذلك أن المسيح ولد من مريم وهي واحدة من أفراد الجنس البشري الساقط – في نظرهم – الذي ورث الخطية عن آدم، فكيف يكون مبرأ من الخطية وهو قد ولد من جسد خاطئ ؟ خاصة وأن الأناجيل تقول "١٧هكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، ١٨لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. " (متى ٧ / ١٧ – ١٨) .

فالنسل الفاسد – في نظرهم – لا يستطيع أن يثمر نسلًا جيدًا.

فإذا كان المسيح – في نظرهم – قد ولد من جسد فاسد أو من نسل فاسد أو من طبيعة فاسدة فإن طبيعته كذلك فاسدة – هذا على اعتقادهم – أما نحن المسلمين فنعتقد في عيسى عليه السلام أنه عبد الله ورسوله.

والجواب عند المسيحيين على مثل هذه الاعتراضات أن المسيح اتخذ جسدا مبرأ من الخطية؛ لأنه ابن الله المتجسد.

ونرد عليهم فنقول:

---

(١) الخلاص في مفهومه الكتابي والتطبيقي (٣٩) .

(٢) تجسد الكلمة (٣٩) .

إنه على ذلك ليس من نسل آدم، والشرط عندكم أن يكون الفادي من نسل آدم حتى يستطيع أن يقوم بالفداء .

يقول أنسلموس اللاهوتي: " وبما أنه من آدم وحواء قد سرت الخطية إلى العالم فلا يقتضي أن يكفر عن خطايا العالم إلا هما بالذات أو واحد من نسلهما، ولما كانا هما غير قادرين على ذلك وجب أن يعمله واحد من ذريتهما ".(١)

وتقول فرنسس يونغ: " الادعاءات الخاصة أن هناك طريقة واحدة لفهم موضوع الخلاص عن طريق المسيح لم تكن قط جزءا من قوانين الكنيسة المسيحية لا في الاعتقاد ولا في التعريف ." (٢)

الباب الثالث: دعوى صلب المسيح من أجل الخلاص والرد عليها.
تمهيد:

يدعي المسيحيون أن المسيح ابن الله الذي تجسد وظهر في صورة بشرية كان ولابد أن يموت على الصليب حتى يستطيع أن يفدي البشرية ويخلصها من خطيئة آدم والخطايا الأخرى. يقول يوحنا " وَدَمُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِهِ يُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ خَطِيَّةٍ. " (يوحنا (١) ١ / ٧).

يقول إلياس مقار: " إنه لابد أن يدفع الثمن كاملا لرفع الخطية، وإلا لكان الأمر مجرد تمثيلية بعيدة عن الحقيقة والواقع، ومن ثم لم يكن صلب المسيح مجرداً عن دفاع عن مبدأ يؤثر الناس الموت على تركه واستشهاده من أجل عقيدة يتمسك بها صاحبها وإلا لما افترق موت المسيح عن موت الشهداء وأصحاب المبادئ والمثل، لكن موت المسيح كان كفارة وفداء عن العقوبة التي وقعت للجنس البشري كله بسقوط وخطية نائبه الأول (آدم) فالصليب هو رافع العقوبة والدين وشاف ومطهر من اللوثة والطبيعة الفاسدة. "(٣)

من هنا كان الصلب في نظرهم هو مركز الدائرة وقطب الرحى الذي تدور عليه

---

(١) لماذا تجسد الكلمة (٥٥) .

(٢) أسطورة تجسد الإله (٤١) ، وانظر: تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٥٤٤ - ٥٤٧) .

(٣) قضايا المسيحية الكبرى (٣٩٨).

النصرانية كلها، ولننظر أهمية الصلب وسفك الدماء عندهم من أجل الخلاص.

الفصل الأول: أهمية الصلب عند النصارى.

يدعي النصارى أن هناك ارتباطًا بين غفران الذنوب وسفك الدماء، وذلك أن أساس غفران الخطايا عندهم هو سفك الدماء.[1]

ففي الرسالة الموجهة إلى العبرانيين يقول الكاتب " ٢٢وَكُلُّ شَيْءٍ تَقْرِيبًا يَتَطَهَّرُ حَسَبَ النَّامُوسِ بِالدَّمِ، وَبِدُونِ سَفْكِ دَمٍ لاَ تَحْصُلُ مَغْفِرَةٌ! " (عبرانيين ٩ / ٢٢).

ويقول بولس " الَّذِي فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ بِدَمِهِ، غُفْرَانُ الْخَطَايَا، حَسَبَ غِنَى نِعْمَتِهِ " (أفسس ١/ ٧).

يقول باركلي: " وهناك صلة بين الكفارة والذبيحة ففي ناموس العهد القديم كان المخطئ يقدم لله ذبيحة يهدف منها إلى جلب رضا الله وإزالة غضبه ورفع العقوبة عنه، لنفترض أن إنسانا أخطأ، فالخطية تفسد العلاقة بينه وبين الله، ولكي تعود العلاقة السليمة يقدم المخطئ ذبيحة. "[2]

يقول إنسطاسي شفيق " والذبائح كانت جزءا من عبادة الله التي وضعها منذ البدء وعلى ذلك نرى في الكتاب أن هابيل ونوحًا والآباء وإبراهيم وإسحاق ويعقوب قدموا الذبائح "[3]

والمسيح ابن الله – في نظر المسيحيين – هو الذبيحة الحقيقة التي حصل بها الغفران والخلاص والفداء للبشرية.

يقول حبيب جرجس: " وكلمة الكفارة معناها في الأصل التغطية والستر أي أن خطايانا سترت بواسطة ذبيحة المسيح وكفارته من انتقام العدل الإلهي "[4]

ويقول باركلي: " إن الذبائح الحيوانية فشلت في تحقيق هذا " ١٦لأَنَّكَ لاَ تُسَرُّ بِذَبِيحَةٍ وَإِلاَّ فَكُنْتُ أُقَدِّمُهَا. بِمُحْرَقَةٍ لاَ تَرْضَى. " (مزمور ٥١ / ١٦).

" ٦بِمَ أَتَقَدَّمُ إِلَى الرَّبِّ وَأَنْحَنِي لِلإِلهِ الْعَلِيِّ؟ هَلْ أَتَقَدَّمُ بِمُحْرَقَاتٍ، بِعُجُول أَبْنَاءِ سَنَةٍ؟

(١) يقين الخلاص، القس لبيب ميخائيل (٢٥).

(٢) تفسير رسالة روميا (٧٣).

(٣) الفداء في إنجيل لوقا (٣٩).

(٤) خلاصة الأصول الإيمانية (٢٧).

[٧]هَلْ يُسَرُّ الرَّبُّ بِأُلُوفِ الْكِبَاشِ، بِرِبَوَاتِ أَنْهَارِ زَيْتٍ؟ هَلْ أُعْطِي بِكْرِي عَنْ مَعْصِيَتِي، ثَمَرَةَ جَسَدِي عَنْ خَطِيَّةِ نَفْسِي؟ " (ميخا ٦ / ٦ – ٧).

ونرد عليهم فنقول:

لقد جاء في أسفار العهد القديم أن الذبائح الحيوانية كانت وسيلة من وسائل التقرب إلى الله تعالى، وأن الله قبل بعضها ورد أخرى.

يقول سفر التكوين: " [٣]وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، [٤]وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، [٥]وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ. " (تكوين ٤ / ٣ – ٥).

فواضح من هذا أن الله قبل قربان هابيل ولم يقبل قربان قايين.

وأيضًا: " [٢٠]وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ. وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَمِنْ كُلِّ الطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ، [٢١]فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا. وَقَالَ الرَّبُّ فِي قَلْبِهِ: «لاَ أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الإِنْسَانِ، لأَنَّ تَصَوُّرَ قَلْبِ الإِنْسَانِ شِرِّيرٌ مُنْذُ حَدَاثَتِهِ. وَلاَ أَعُودُ أَيْضًا أُمِيتُ كُلَّ حَيٍّ كَمَا فَعَلْتُ. " (تكوين ٨ / ٢٠ – ٢١).

فالله قبل ذبائح نوح عليه السلام التي تقرب بها إلى الله تعالى.

وهناك دليل أوضح من هذا، وهو أن ذبائح موسى وقومه كانت سببًا في نجاتهم من عذاب الرب، فلو لم تكن الذبائح الحيوانية كافية في التكفير عن الخطية، لما نجى الله موسى وقومه من العذاب.

يقول سفر الخروج " [٢١]فَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمُ: «اسْحَبُوا وَخُذُوا لَكُمْ غَنَمًا بِحَسَبِ عَشَائِرِكُمْ وَاذْبَحُوا الْفِصْحَ. [٢٢]وَخُذُوا بَاقَةَ زُوفَا وَاغْمِسُوهَا فِي الدَّمِ الَّذِي فِي الطَّسْتِ وَمُسُّوا الْعَتَبَةَ الْعُلْيَا وَالْقَائِمَتَيْنِ بِالدَّمِ الَّذِي فِي الطَّسْتِ. وَأَنْتُمْ لاَ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ بَابِ بَيْتِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ، [٢٣]فَإِنَّ الرَّبَّ يَجْتَازُ لِيَضْرِبَ الْمِصْرِيِّينَ. فَحِينَ يَرَى الدَّمَ عَلَى الْعَتَبَةِ الْعُلْيَا وَالْقَائِمَتَيْنِ يَعْبُرُ الرَّبُّ عَنِ الْبَابِ وَلاَ يَدَعُ الْمُهْلِكَ يَدْخُلُ بُيُوتَكُمْ لِيَضْرِبَ. [٢٤]فَتَحْفَظُونَ هذَا الأَمْرَ فَرِيضَةً لَكَ وَلأَوْلاَدِكَ إِلَى الأَبَدِ. " (١٢ / ٢١ – ٢٥).

فالنص يبين أن موسى فدى بني إسرائيل بأن دلهم على الذبائح الحيوانية التي كانت سببا في نجاته هو وقومه من عذاب الرب الذي عذب به المصريين.

وعلى هذا ففكرة المسيحيين بأن الذبائح الحيوانية فشلت في تحقيق غفران الخطايا فكرة مناقضة لما جاء في أسفار العهد القديم الدالة على أن هابيل ونوحًا وموسى وقومه قد قدموا الذبائح الحيوانية، والله قبلها منهم وغفر لهم خطاياهم ونجاهم من العذاب.

وعليه فلا داعي للادعاء بأهمية صلب وسفك دماء المسيح، ولا داعي لأن ننسب إلى الله الظلم - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - فقد كان من الممكن أن يقوم بهذه المهمة حيوان بدلا من تعذيب إنسان برئ لا ذنب له. (١)

ونأتي الآن للسؤال الأهم وهو:

الفصل الثاني: هل صلب المسيح فعلًا أم لا؟ وما أدلتهم على ذلك؟

أما بالنسبة للأدلة التي تثبت وقوع صلب المسيح، فليس للنصارى من أدلة سوى ما بين أيديهم من الأناجيل الأربعة، والنصارى أنفسهم يعترفون بذلك.

يقول د/ حنا جرجس الخضري: " إن الأناجيل الأربعة تذكر لنا مؤامرة القبض ومحاكمة يسوع وموته، كما أنها أيضا تذكر أسماء رؤساء الكهنة اليهود والحاكم الروماني الذين اشتركوا في محاكمة يسوع، ولكن الوثائق التاريخية غير الإنجيلية التي تتكلم عن يسوع وموته قليلة جدًا الأمر الذي أدهش المؤرخين كثيرًا بل يعتبر حجر عثرة بالنسبة لهم. "(٢)

ويذكر أيضًا أن السجلات والوثائق الرومانية لا تذكر شيئًا عن صلب المسيح. وهنا يتساءل بعض المؤرخين واللاهوتيين: كيف يمكن أن يصدر بيلاطس البنطي حكمه بإعدام شخص في أمة خاضعة لسلطة روما دون أن يرسل تقريرًا مفصلًا أو حتى موجزًا عن هذه القضية خصوصا وأن رؤساء الكهنة والكتبة قدموه إلى الحاكم الروماني كمفسد

---

(١) انظر: تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٥٥١ - ٥٥٢).

(٢) تاريخ الفكر المسيحي (١ / ٣٣٨).

للأمة[١] وكإنسان ثائر ضد روما والسلطة الحاكمة ". [٢]

فبما أنه لا دليل في أيديهم على صلب المسيح سوى الأناجيل فلنناقش هذه الروايات التي وردت في الأناجيل ونرى هل تثبت أمام النقد الصحيح في إثبات هذه القضية أم لا؟ والله المستعان.

الفصل الثالث: الرد على دعوى الصلب، وينقسم إلى عدة مباحث:

المبحث الأول: تناقضات روايات قصة الصلب.

لقد تحدثت الأناجيل عن حياة المسيح من الميلاد إلى الصلب والقيامة –كما يزعمون – وسنحاول بإذن الله تعالى أن نثبت الخطأ والتناقض بين هذه الروايات، من أول مقدمات حادثة الصلب إلى الانتهاء من صلب المسيح ودفنه –كما يزعمون –. وينقسم هذا المبحث إلى عدة مطالب:

المطلب الأول: تناقض روايات مقدمة أحداث الصلب

١ـ مسح جسد المسيح بالطيب

يقول إنجيل مرقس (١٤ / ١ – ٨): " ١وَكَانَ الْفِصْحُ وَأَيَّامُ الْفَطِيرِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ. وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَطْلُبُونَ كَيْفَ يُمْسِكُونَهُ بِمَكْرٍ وَيَقْتُلُونَهُ، ٢وَلكِنَّهُمْ قَالُوا: «لَيْسَ فِي الْعِيدِ، لِئَلاَّ يَكُونَ شَغَبٌ فِي الشَّعْبِ».

٣وَفِيمَا هُوَ فِي بَيْتِ عَنْيَا فِي بَيْتِ سِمْعَانَ الأَبْرَصِ، وَهُوَ مُتَّكِئٌ، جَاءَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا قَارُورَةُ طِيبِ نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ الثَّمَنِ. فَكَسَرَتِ الْقَارُورَةَ وَسَكَبَتْهُ عَلَى رَأْسِهِ. ٤وَكَانَ قَوْمٌ مُغْتَاظِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَقَالُوا: «لِمَاذَا كَانَ تَلَفُ الطِّيبِ هذَا؟ ٥لأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هذَا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ». وَكَانُوا يُؤَنِّبُونَهَا. ٦أَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ: «اتْرُكُوهَا! لِمَاذَا تُزْعِجُونَهَا؟ قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلًا حَسَنًا!. ٧لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمَتَى أَرَدْتُمْ تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِمْ خَيْرًا. وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ. ٨عَمِلَتْ مَا عِنْدَهَا. قَدْ سَبَقَتْ وَدَهَنَتْ بِالطِّيبِ جَسَدِي لِلتَّكْفِينِ. "

---

(١) يشير بذلك إلى ما جاء في إنجيل لوقا " ١فَقَامَ كُلُّ جُمْهُورِهِمْ وَجَاءُوا بِهِ إِلَى بِيلاَطُسَ، ٢وَابْتَدَأُوا يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: «إِنَّنَا وَجَدْنَا هذَا يُفْسِدُ الأُمَّةَ، وَيَمْنَعُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ، قَائِلًا: إِنَّهُ هُوَ مَسِيحٌ مَلِكٌ». . . . ٥فَكَانُوا يُشَدِّدُونَ قَائِلِينَ: «إِنَّهُ يُهَيِّجُ الشَّعْبَ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ مُبْتَدِئًا مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى هُنَا». " (لوقا ٢٣ / ١ – ٥).

(٢) تاريخ الفكر المسيحي (١ / ٣٣٩).

ويقول إنجيل لوقا: " ٣٦وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ الْفَرِّيسِيِّ وَاتَّكَأَ. ٣٧وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً، إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ، جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ ٣٨وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً، وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ، وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهَنُهُمَا بِالطِّيبِ. ٣٩فَلَمَّا رَأَى الْفَرِّيسِيُّ الَّذِي دَعَاهُ ذلِكَ، تَكَلَّمَ فِي نَفْسِهِ قِائِلًا: «لَوْ كَانَ هذَا نَبِيًّا، لَعَلِمَ مَنْ هذِهِ الامْرَأَةُ الَّتِي تَلْمِسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ». ٤٠فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «يَاسِمْعَانُ، عِنْدِي شَيْءٌ أَقُولُهُ لَكَ». فَقَالَ: «قُلْ، يَامُعَلِّمُ». ٤١«كَانَ لِمُدَايِنٍ مَدْيُونَانِ. عَلَى الْوَاحِدِ خَمْسُمِئَةِ دِينَارٍ وَعَلَى الآخَرِ خَمْسُونَ. ٤٢وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَا يُوفِيَانِ سَامَحَهُمَا جَمِيعًا. فَقُلْ: أَيُّهُمَا يَكُونُ أَكْثَرَ حُبًّا لَهُ؟ » ٤٣فَأَجَابَ سِمْعَانُ وَقَالَ: «أَظُنُّ الَّذِي سَامَحَهُ بِالأَكْثَرِ». فَقَالَ لَهُ: «بِالصَّوَابِ حَكَمْتَ». ٤٤ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ لِسِمْعَانَ: «أَتَنْظُرُ هذِهِ الْمَرْأَةَ؟ إِنِّي دَخَلْتُ بَيْتَكَ، وَمَاءً لأَجْلِ رِجْلَيَّ لَمْ تُعْطِ. وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ غَسَلَتْ رِجْلَيَّ بِالدُّمُوعِ وَمَسَحَتْهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا. ٤٥قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي، وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ. ٤٦بِزَيْتٍ لَمْ تَدْهُنْ رَأْسِي، وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ. ٤٧مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيرًا. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلًا». ٤٨ثُمَّ قَالَ لَهَا: «مَغْفُورَةٌ لَكِ خَطَايَاكِ». (٧/ ٣٦ – ٤٨).

ويقول إنجيل يوحنا: " ١ثُمَّ قَبْلَ الْفِصْحِ بِسِتَّةِ أَيَّامٍ أَتَى يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا، حَيْثُ كَانَ لِعَازَرُ الْمَيْتُ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. ٢فَصَنَعُوا لَهُ هُنَاكَ عَشَاءً. وَكَانَتْ مَرْثَا تَخْدِمُ، وَأَمَّا لِعَازَرُ فَكَانَ أَحَدَ الْمُتَّكِئِينَ مَعَهُ. ٣فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ مَنًا مِنْ طِيبِ نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ الثَّمَنِ، وَدَهَنَتْ قَدَمَيْ يَسُوعَ، وَمَسَحَتْ قَدَمَيْهِ بِشَعْرِهَا، فَامْتَلأَ الْبَيْتُ مِنْ رَائِحَةِ الطِّيبِ. ٤فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، وَهُوَ يَهُوذَا سِمْعَانُ الإِسْخَرْيُوطِيُّ، الْمُزْمِعُ أَنْ يُسَلِّمَهُ: ٥«لِمَاذَا لَمْ يُبَعْ هذَا الطِّيبُ بِثَلاَثَمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَ لِلْفُقَرَاءِ؟ » ٦قَالَ هذَا لَيْسَ لأَنَّهُ كَانَ يُبَالِي بِالْفُقَرَاءِ، بَلْ لأَنَّهُ كَانَ سَارِقًا، وَكَانَ الصُّنْدُوقُ عِنْدَهُ، وَكَانَ يَحْمِلُ مَا يُلْقَى فِيهِ. ٧فَقَالَ يَسُوعُ: «اتْرُكُوهَا! إِنَّهَا لِيَوْمِ تَكْفِينِي قَدْ حَفِظَتْهُ، ٨لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ». (١٢ / ١ –٨).

فمما سبق يتبين لنا التناقض الواضح في قصة (المسح بالطيب) ويتجلى ذلك في عدة أمور:

أولًا: وقت حدوثها.

فنجد أن يوحنا يذكرها مبكرا عما أورده مرقس ببضعة أيام (يوحنا ١٢ / ١) ويذكرها لوقا في موقع مختلف تماما من سيرة يسوع (٧ / ٣٦).

ثانيًا: في مكان حدوثها.

فبينما نجدها قد حدثت في منزل سمعان الأبرص من قرية بيت عنيا (حسب مرقس ومتى)– وفي بيت فريسي (حسب لوقا) – وفي بيت مريم ومرثا ولعازر (حسب يوحنا ١٢ / ١-٢).

ثالثًا: في شخصية المرأة.

فهي مجهولة (حسب مرقس ومتى) – وخاطئة (حسب لوقا) – وامرأة صديقة هي مريم أخت لعازر (حسب يوحنا).

رابعًا: ماذا فعلت؟

دهنت رأس يسوع بالطيب (حسب مرقس ومتى) - دهنت رجليه بالطيب (حسب لوقا ويوحنا).

خامسًا: رد الفعل عند المشاهدين.

اغتاظ قوم لإسرافها (حسب مرقس) – واغتاظ التلاميذ (حسب متى ٢٦ / ٨) – وكان تساؤل الفريسي مع نفسه حول معرفة يسوع بشخصية المرأة (حسب لوقا) – واغتاظ يهوذا الإسخريوطي لإسرافها (حسب يوحنا). [١]

٢ـ خيانة يهوذا

يقول مرقس: " ١٠ثُمَّ إِنَّ يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ، وَاحِدًا مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، مَضَى إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ لِيُسَلِّمَهُ إِلَيْهِمْ. ١١وَلَمَّا سَمِعُوا فَرِحُوا، وَوَعَدُوهُ أَنْ يُعْطُوهُ فِضَّةً. وَكَانَ يَطْلُبُ كَيْفَ يُسَلِّمُهُ فِي فُرْصَةٍ مُوافِقَةٍ. " (١٤ / ١٠ – ١١).

أما متى فقد غير – كما يقول جون فنتون – " في قول مرقس: ووعدوه أن يعطوه فضة

---

(١) انظر: تفسير إنجيل مرقس، نينهام (٣٧٠، ٣٧١)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (١٢٨ – ١٣١).

- إلى: فجعلوا له (بمعنى دفعوا له) ثلاثين من الفضة.

لكن كلمات متى مقتبسة من سفر زكريا الذي يقول: " ١٢فَقُلْتُ لَهُمْ: «إِنْ حَسُنَ فِي أَعْيُنِكُمْ فَأَعْطُونِي أُجْرَتِي وَإِلاَّ فَامْتَنِعُوا». فَوَزَنُوا أُجْرَتِي ثَلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. " (١١ / ١٢).

كذلك يوجد تلميح إلى ما في الإصحاحات الأخيرة من زكريا وقد ذكرها متى في ٢١ / ٥، ٢٤ / ٣، ٣٠، ٣١، ٢٦ / ١٨، ٢٧ / ٩ لقد قرأ متى هذه التفاصيل من العهد القديم ". (١)

٣ـ التحضير للعشاء الأخير

يقول مرقس: " ١٢وَفِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الْفَطِيرِ. حِينَ كَانُوا يَذْبَحُونَ الْفِصْحَ، قَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: «أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نَمْضِيَ وَنُعِدَّ لِتَأْكُلَ الْفِصْحَ؟ » ١٣فَأَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمَا: «اذْهَبَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَيُلاَقِيَكُمَا إِنْسَانٌ حَامِلٌ جَرَّةَ مَاءٍ. اِتْبَعَاهُ. ١٤وَحَيْثُمَا يَدْخُلْ فَقُولاَ لِرَبِّ الْبَيْتِ: إِنَّ الْمُعَلِّمَ يَقُولُ: أَيْنَ الْمَنْزِلُ حَيْثُ آكُلُ الْفِصْحَ مَعَ تَلاَمِيذِي؟ ١٥فَهُوَ يُرِيكُمَا عِلِّيَّةً كَبِيرَةً مَفْرُوشَةً مُعَدَّةً. هُنَاكَ أَعِدَّا لَنَا». ١٦فَخَرَجَ تِلْمِيذَاهُ وَأَتَيَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَوَجَدَا كَمَا قَالَ لَهُمَا. فَأَعَدَّا الْفِصْحَ. "(١٤ / ١٢ -١٦)

" إن أغلب المفسرين يعتقدون أن هذه الفقرة (بأعدادها من رقم ١٢ إلى ١٦) إنما كانت في الواقع إضافة أدخلت فيما بعد إلى الرواية التي كان يتبعها مرقس في هذا الجزء من إنجيله. ومن أسباب ذلك ما يلي:

١- وصف اليوم الذي قيل إن القصة حدثت فيه بأسلوب لا يستخدمه اليهودي العادي الذي كان معاصرًا لها.

٢- وصف اتباع يسوع في كل فقرة من هذا الإصحاح (الرابع عشر) بأنهم تلاميذه، بينما أشير إليهم بإصرار في هذه الفقرة بأنهم الاثنى عشر.

٣- إن كاتب العدد ١٧ (الذي يقول: ولما كان المساء جاء مع الإثنى عشر) لا يعلم شيئا عن رحلة التلميذين التي ذكرت في العدد ١٣. فلو كان كاتب العدد ١٧ يعلم محتويات تلك الفقرة، لكان عليه أن يتحدث عن العشرة (وليس عن الاثنى عشر، أي أن

---

(١) تفسير إنجيل متى، جون فنتون (٤١٣).

العدد ١٧ كان يجب أن يقرأ هكذا: ولما كان المساء جاء مع العشرة). [١]

ويختلف متى عن مرقس في قصة الإعداد للعشاء، إذ يجعل التلاميذ جميعا يشتركون في هذا الإعداد[٢] فيقول: "١٨فَقَالَ: «اذْهَبُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، إِلَى فُلاَنٍ وَقُولُوا لَهُ: الْمُعَلِّمُ يَقُولُ: إِنَّ وَقْتِي قَرِيبٌ. عِنْدَكَ أَصْنَعُ الْفِصْحَ مَعَ تَلاَمِيذِي». ١٩فَفَعَلَ التَّلاَمِيذُ كَمَا أَمَرَهُمْ يَسُوعُ وَأَعَدُّوا الْفِصْحَ. " (٢٦ / ١٨ – ١٩).

٤- توقيت العشاء الأخير وأثره على قضية الصلب.

يتفق متى مع مرقس (وكذلك لوقا ٢٢/ ٨) في أن العشاء الأخير كان هو الفصح، وعلى العكس من ذلك نجد الإنجيل الرابع يجعل الفصح يؤكل في المساء بعد موت يسوع (يوحنا ١٨ / ٢٨).

ويرى أغلب العلماء أن توقيت كل من متى ومرقس ولوقا صحيح، وأن يوحنا قد غير ذلك لأسباب عقائدية ". [٣]

ذلك أن يوحنا يقرر أن العشاء الأخير الذي حضره يسوع مع تلاميذه كان قبل الفصح: " ١أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ. . . ٢فَحِينَ كَانَ الْعَشَاءُ. . . ٤قَامَ عَنِ الْعَشَاءِ، وَخَلَعَ ثِيَابَهُ، وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا. . . ٥ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَل، وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِرًا بِهَا ". (١٤ / ١ – ٥)

وكذلك يقرر يوحنا أنهم قبضوا على يسوع في مساء اليوم السابق لأكل الفصح، وذلك في قوله: " ٢٨ثُمَّ جَاءُوا بِيَسُوعَ مِنْ عِنْدِ قَيَافَا إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ، وَكَانَ صُبْحٌ. وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ لِكَيْ لاَ يَتَنَجَّسُوا، فَيَأْكُلُونَ الْفِصْحَ. " (١٨ / ٢٨).

إن اختلاف الأناجيل في توقيت العشاء الأخير ترتب عليه اختلافهم في نقطة جوهرية تعتبر واحدة من أهم عناصر قضية الصلب، ألا وهي تحديد يوم الصلب. فإذا أخذنا برواية مرقس ومتى ولوقا لكان يسوع قد أكل الفصح مع تلاميذه مساء الخميس ثم كان القبض بعد

---

(١) تفسير إنجيل مرقس، ننهام (٣٧٦).

(٢) تفسير إنجيل متى، جون فنتون (٤١٤).

(٣) المصدر السابق (٤١٥).

ذلك بقليل في مساء الخميس ذاته وبذلك يكون الصلب قد حدث يوم الجمعة.

أما الأخذ برواية يوحنا فإنه يعني أن القبض كان مساء الأربعاء، وأن الصلب حدث يوم الخميس.

فهل حدث الصلب يوم الخميس أم يوم الجمعة؟! ! !. (١)

٥ـ العشاء الأخير والتلميذ الخائن.

يقول مرقس (١٤/ ١٦ – ٢١): " ١٧وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ جَاءَ مَعَ الاثْنَيْ عَشَرَ. ١٨وَفِيمَا هُمْ مُتَّكِئُونَ يَأْكُلُونَ، قَالَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. اَلآكِلُ مَعِي! » ١٩فَابْتَدَأُوا يَحْزَنُونَ، وَيَقُولُونَ لَهُ وَاحِدًا فَوَاحِدًا: «هَلْ أَنَا؟ » وَآخَرُ: «هَلْ أَنَا؟ » ٢٠فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «هُوَ وَاحِدٌ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يَغْمِسُ مَعِي فِي الصَّحْفَةِ. ٢١إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ، وَلكِنْ وَيْلٌ لِذلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِذلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ! ». "

أما التغييرات التي أدخلها متى على رواية مرقس فتعتبر بسيطة، إذ قد حذف قول مرقس في العدد ١٨ : الآكل معي – وهذا غريب، حيث إن هذا النص يعطي تلميحًا لما في المزمور ٤١ / ٩ (اَلَّذِي يَأْكُلُ مَعِي الْخُبْزَ رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ.) وقد اقتبسه يوحنا في ١٣ / ١٨ علمًا بأن متى لا يترك أي نقطة تشير إلى تتمة كتب العهد القديم إلا استخدمها.

وكذلك أضاف متى كلمة ربي في العدد ٢٢ (٢٢فَحَزِنُوا جِدًّا، وَابْتَدَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَارَبُّ؟ » ".

كما أضاف العدد ٢٥ بأكمله (٢٥فَأَجَابَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ وَقَالَ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا سَيِّدِي؟ » قَالَ لَهُ: «أَنْتَ قُلْتَ». (٢)

ويقول لوقا (٢٢/ ١٤، ١٥، ١٩، ٢٠): " ١٤وَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ اتَّكَأَ وَالاثْنَا عَشَرَ رَسُولًا

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٣٣ – ١٣٥).

(٢) تفسير إنجيل متى، جون فنتون (٤١٥ – ٤١٦).

مَعَهُ، ١٥وَقَالَ لَهُمْ: «شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَتَأَلَّمَ، ١٦لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ آكُلُ مِنْهُ بَعْدُ حَتَّى يُكْمَلَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ». . . ١٩وَأَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلًا: «هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هذَا لِذِكْرِي». ٢٠وَكَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلًا: «هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ. "

يقول جورج كيرد في تفسيره لهذه الفقرات " إن قصة العشاء الأخير في لوقا تعتبر كابوسًا، فهي تثير مشاكل في أغلب مواضيع دراسة العهد الجديد، كما أنها أعطت الأساس لطوفان من النظريات المتصارعة " ولتوضيح هذا التصارع والتناقض نقول:

١- أغلب النسخ تشتمل على ما يعرف بالنص الأطول وهو الذي يحتوي على جزء من العدد ١٩، والعدد ٢٠ (وهما المكتوبان بالبنط العريض وتحتهما خط) كما أن هناك النص الغربي – وقد سارت عليه النسخة القياسية المراجعة – الذي يحذف هذين العددين.

ويبدو أنهما أخذا مما جاء في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١١/ ٢٤، ٢٥ وجزءا من مرقس ١٤ / ٢٤، ثم أدخلا إلى النص في عهد مبكر على يد كاتب اعتقد أن قصة لوقا خاطئة. "[1]

٢- رواية يوحنا فيها اختلاف عن بقية الأناجيل الثلاثة الأخر فهو يقول: " لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هذَا اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ، وَشَهِدَ وَقَالَ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي! ». ٢٢فَكَانَ التَّلاَمِيذُ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهُمْ مُحْتَارُونَ فِي مَنْ قَالَ عَنْهُ. ٢٣وَكَانَ مُتَّكِئًا فِي حِضْنِ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ. ٢٤فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ. ٢٥فَاتَّكَأَ ذَاكَ عَلَى صَدْرِ يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، مَنْ هُوَ؟ » ٢٦أَجَابَ يَسُوعُ: «هُوَ ذَاكَ الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأُعْطِيهِ! ». فَغَمَسَ اللُّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ. ٢٧فَبَعْدَ اللُّقْمَةِ دَخَلَهُ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ». (١٣ / ٢١- ٣١).

٣- ولتحديد شخصية الخائن نجد الأناجيل قد أوردت إجابات مختلفة لسؤال التلاميذ

---

(١) تفسير إنجيل لوقا، كيرد (٢٣٦ - ٢٣٧).

معلمهم عمن يكون، فقد قال مرقس على لسان المسيح "الَّذِي يَغْمِسُ مَعِي فِي الصَّحْفَةِ. ".

وقال متى كلامًا يقرب من هذا إلا أنه أضاف: "فَأَجَابَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ وَقَالَ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا سَيِّدِي؟ » قَالَ لَهُ: «أَنْتَ قُلْتَ». " وتوقف لوقا عند القول بكلام شبيه بكلام مرقس.

أما يوحنا فقد قال: " الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأُعْطِيهِ! ». فَغَمَسَ اللُّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ. "

وهناك أيضًا اختلاف آخر وهو:

٤- أن الشيطان دخل يهوذا قبل العشاء (حسب رواية لوقا ٢٢/ ٣) إذ قد خرج بعد ذلك ليتآمر مع رؤساء الكهنة. لكن يوحنا يقرر أن الشيطان دخل يهوذا بعد أن أعطاه يسوع اللقمة أثناء العشاء (١٣ / ٢٧). [1]

٦ـ شك التلاميذ.

يقول مرقس: " ٢٧وَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «إِنَّ كُلَّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ الْخِرَافُ. ٢٨وَلكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ». ٢٩فَقَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «وَإِنْ شَكَّ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ! » ٣٠فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». ٣١فَقَالَ بِأَكْثَرِ تَشْدِيدٍ: «وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ! ». وَهكَذَا قَالَ أَيْضًا الْجَمِيعُ. " (١٤ / ٢٧- ٣١).

والشيء الهام هنا هو قول يسوع بوضوح لتلاميذه – كل تلاميذه – " إِنَّ كُلَّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ ".

فرغم أن الجملة واضحة تمامًا وتعني شك التلاميذ في معلمهم، إلا أن المعنى يزداد وضوحا حين نعلم أن كلمة: تشكون تعني: ترتدون عن عقيدتكم، وتزلون – كما في التراجم غير العربية.

ومن المعلوم كذلك أن الإنكار غير الشك: فقد ينكر الإنسان أمرًا أمام الناس بينما هو

---

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٣٥ – ١٣٨).

يعلمه في قرارة نفسه بيقين، أما الشك فيمكن تعريفه في إحدى صوره التي تنطبق على حالتنا هذه بأنه تراجع – يجري داخل النفس – عن التصديق بالشيء.

لقد آمن التلاميذ بالمسيح رسولًا من الله يقول الصدق، وهو إذا تنبأ بمستقبل كانت تنبؤاته صادقة ولابد أن يحدث ما سبق وأن تنبأ به. أما إذا رأى التلاميذ أن ما حدث يعتبر مخالفًا لما سبقت به نبوءة المسيح فعندئذ يكون الشك، وهنا فقط يشك التلاميذ في المسيح، ويرتدون عن عقيدتهم في الإيمان به والتصديق برسالته . فهل حدث الشك أم لا؟ لننظر ونتأمل.(١)

٧ـ آلام المسيح.

يقول مرقس: " ٣٢وَجَاءُوا إِلَى ضَيْعَةٍ اسْمُهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أُصَلِّيَ». ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَابْتَدَأَ يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ. ٣٤فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ! اُمْكُثُوا هُنَا وَاسْهَرُوا». ٣٥ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ، وَكَانَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ السَّاعَةُ إِنْ أَمْكَنَ. ٣٦وَقَالَ: «يَا أَبَا الآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ». ٣٧ثُمَّ جَاءَ وَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: «يَا سِمْعَانُ، أَنْتَ نَائِمٌ! أَمَا قَدَرْتَ أَنْ تَسْهَرَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟ ٣٨اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ، وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». ٣٩وَمَضَى أَيْضًا وَصَلَّى قَائِلًا ذلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. ٤٠ثُمَّ رَجَعَ وَوَجَدَهُمْ أَيْضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً، فَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَاذَا يُجِيبُونَهُ. ٤١ثُمَّ جَاءَ ثَالِثَةً وَقَالَ لَهُمْ: «نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! يَكْفِي! قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ! هُوَذَا ابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ. ٤٢قُومُوا لِنَذْهَبَ! هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ اقْتَرَبَ! ». " (١٤ / ٣٢- ٤٢) .

إن هذا الجزء " يصف آخر مرة كان فيها يسوع مع تلاميذه، إذ أننا نجد أن نهاية الفقرة التالية لنظيره متى تقول: "حِينَئِذٍ تَرَكَهُ التَّلاَمِيذُ كُلُّهُمْ وَهَرَبُوا. " (٢٦ / ٥٦).(٢)

ويروي لنا لوقا آلام المسيح أيضا فيقول: " ٣٩وَخَرَجَ وَمَضَى كَالْعَادَةِ إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ،

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٣٨ – ١٣٩).

(٢) تفسير إنجيل متى، مرجع سابق (٤٢١).

وَتَبِعَهُ أَيْضًا تَلاَمِيذُهُ. ٤٠ وَلَمَّا صَارَ إِلَى الْمَكَانِ قَالَ لَهُمْ: «صَلُّوا لِكَيْ لاَ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ». ٤١وَانْفَصَلَ عَنْهُمْ نَحْوَ رَمْيَةِ حَجَرٍ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى ٤٢قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُجِيزَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ». ٤٣وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّيهِ. ٤٤وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ. ٤٥ثُمَّ قَامَ مِنَ الصَّلاَةِ وَجَاءَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ، فَوَجَدَهُمْ نِيَامًا مِنَ الْحُزْنِ. ٤٦فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا أَنْتُمْ نِيَامٌ؟ قُومُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ». " (٢٢/ ٣٩ _ ٤٦).

فنلاحظ من خلال هذه الروايات مدى الفزع والهلع الذي حل بيسوع، يقول جورج كيرد في تفسيره لهذه الفقرات: " حسب رواية مرقس (الذي كان مصدرًا للوقا) نجد أن يسوع بدأ يكتنفه الآن الفزع والذهول، وقد تحدث إلى تلاميذه عن الحزن الذي صحب استنزاف حياته وتلاشيها، ولما كان غير قادر على رفقة أعز أصحابه (تلاميذه) فإنه قضى الليل في تشنجات متتالية من صلاة المكروب ".

وعندما نتذكر الشجاعة والثبات التي واجه بها الموت رجال آخرون شجعان، بكل أشكاله البربرية وما كان يصحب ذلك من تعذيب مفرط، فلا يسعنا إلا أن نتسائل عن ماهية الكأس التي كان يسوع يرجو الله – في صلاته – أن يجيزها عنه. [١]

" إن تحذير يسوع لتلاميذه من خطر التجربة يكشف لنا عن شعوره بأنه شخصيًا وتلاميذه قد أحاطت بهم سلطات الظلمة الروحية، التي جاهدها في مستهل دعوته.

ولقد كان من بواعث محنته، ما شعر به من أن جهاده وما كان يمثله من طهر وكمال، يتعرض آنذاك بصورة مروعة لعملية اغتصاب نهائي على يد سلطات الظلمة ". [٢]

أما رواية يوحنا فإنها تذكر أن يسوع استنفد الفترة ما بين خروج يهوذا لتنفيذ مؤامرته، وعودته مع القوة التي جاءت للقبض على معلمه، في جعل يسوع يلقي محاضرة طويلة على

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٤٠ – ١٤٢).

(٢) تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق (٢٤٣).

تلاميذه استغرقت أكثر من أربعة إصحاحات هي: بقية الإصحاح ١٣ ثم الإصحاحات ١٤، ١٥، ١٦، ١٧ فكانت تمثل بذلك نحو ٢٠ في المائة من حجم إنجيل يوحنا يركز على ما اعتبره البعض – فيما بعد – تأكيدا على لاهوت المسيح.

ولقد صمت يوحنا عن آلام المسيح ومعاناته في الحديقة، ولم يذكر لنا سوى نبذه يسيرة عن حالة الفزع والاضطراب التي لحقت به حين شعر بخطر المؤامرة يقترب منه، وكان ذلك أثناء العشاء الأخير – إذ قال يوحنا: " [٢١] لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هذَا اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ، وَشَهِدَ وَقَالَ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي!». " (يوحنا ١٣ / ٢١).

٨ـ القبض على المسيح.

يقول مرقس (١٤ / ٤٣ – ٥٢): " [٤٣] وَلِلْوَقْتِ فِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ أَقْبَلَ يَهُوذَا، وَاحِدٌ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ. [٤٤] وَكَانَ مُسَلِّمُهُ قَدْ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلًا: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ، وَامْضُوا بِهِ بِحِرْصٍ». [٤٥] فَجَاءَ لِلْوَقْتِ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَائِلًا: «يَا سَيِّدِي، يَاسَيِّدِي!» وَقَبَّلَهُ. [٤٦] فَأَلْقَوْا أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ. [٤٧] فَاسْتَلَّ وَاحِدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ السَّيْفَ، وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ.

[٤٨] فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! [٤٩] كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ مَعَكُمْ فِي الْهَيْكَلِ أُعَلِّمُ وَلَمْ تُمْسِكُونِي! وَلكِنْ لِكَيْ تُكْمَلَ الْكُتُبُ». [٥٠] فَتَرَكَهُ الْجَمِيعُ وَهَرَبُوا. [٥١] وَتَبِعَهُ شَابٌّ لاَبِسًا إِزَارًا عَلَى عُرْيِهِ، فَأَمْسَكَهُ الشُّبَّانُ، [٥٢] فَتَرَكَ الإِزَارَ وَهَرَبَ مِنْهُمْ عُرْيَانًا. " ونقول تعليقًا على هذه الفقرات:

١- لقد طعن أحد علماء الكتاب المقدس وهو " باكون " في القيمة التاريخية لكل هذه الفقرات في مقال هام وشهير " ماذا كانت خيانة يهوذا؟ " – وذلك على أساس أن السلطات كانت تعرف يسوع، كما كانت على علم تام بتحركاته، وكان في استطاعتها أن تكتشف مكانه بسهولة وتقبض عليه في هدوء، دون ما حاجة إلى معاونة غير مضمونة من خونة مأجورين. . . .

٢- أن العدد ٤٧ ([٤٧] فَاسْتَلَّ وَاحِدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ السَّيْفَ، وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ.) من الواضح أنه قد ألحق بأسلوب مفكك جدا بما قبله.

٣- أن القول (وَلكِنْ لِكَيْ تُكْمَلَ الْكُتُبُ) قد أدخل هنا على الرغم من عدم ورود فقرة معينة من كتب العهد القديم تناسب هذا الموقف.

٤- أن العددين ٥١، ٥٢ (٥١وَتَبِعَهُ شَابٌّ لاَبِسًا إِزَارًا عَلَى عُرْيِهِ، فَأَمْسَكَهُ الشُّبَّانُ، ٥٢فَتَرَكَ الإِزَارَ وَهَرَبَ مِنْهُمْ عُرْيَانًا.) يدعوان للحيرة، فقد وضعا بطريقة مربكة بعد العدد (٥٠)، ولهذا فإن بعض النساخ قد نقحوا الأصل الإغريقي لكي ينصقل الترابط مع ما قبلهما، كما أن كلا من متى ولوقا قد حذفهما من إنجيله. "[(١)]

أما رواية متى فقد دخل فيها بعض التغييرات مثل إضافته إلى قول يهوذا: السلام يا سيدي، وكذلك قول يسوع إلى أحد تابعيه بعد قطع أذن عبد رئيس الكهنة: " «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! ٥٣أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ ٥٤فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟ ». "

وأيضًا حذف متى قصة مرقس عن الشاب الذي هرب عريانًا. [(٢)]

وأما لوقا فإنه يسير في روايته بمحاذاة متى، إلا أنه يرفض رواية الإثنى عشر جيشًا من الملائكة، كما لم يذكر شيئًا عن الشاب الذي هرب عريانًا.

ثم هو يذكر شيئًا مختلفًا عن قُبلة يهوذا إذ يقول: " ٤٧وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذَا جَمْعٌ، وَالَّذِي يُدْعَى يَهُوذَا، أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ، يَتَقَدَّمُهُمْ، فَدَنَا مِنْ يَسُوعَ لِيُقَبِّلَهُ. ٤٨فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا يَهُوذَا، أَبِقُبْلَةٍ تُسَلِّمُ ابْنَ الإِنْسَانِ؟ » " (٢٢ / ٤٧ – ٤٨).

وأما رواية يوحنا فإنها تعطي صورة مختلفة تمامًا عما روته الأناجيل الثلاثة عن حادث القبض – فهو يقول: " ٣فَأَخَذَ يَهُوذَا الْجُنْدَ وَخُدَّامًا مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ، وَجَاءَ إِلَى هُنَاكَ بِمَشَاعِلَ وَمَصَابِيحَ وَسِلاَحٍ. ٤فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟ » ٥أَجَابُوهُ:

---

(١) تفسير إنجيل مرقس، مرجع سابق (٣٩٤ – ٣٩٦).

(٢) تفسير إنجيل متى، مرجع سابق (٤٢٤ – ٤٢٦).

«يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». قَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ». وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ أَيْضًا وَاقِفًا مَعَهُمْ. ٦فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ. ٧فَسَأَلَهُمْ أَيْضًا: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟ » فَقَالُوا: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». ٨أَجَابَ يَسُوع: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ». ٩لِيَتِمَّ الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ: «إِنَّ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَمْ أُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا» ١٠ثُمَّ إِنَّ سِمْعَانَ بُطْرُسَ كَانَ مَعَهُ سَيْفٌ، فَاسْتَلَّهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ الْيُمْنَى. وَكَانَ اسْمُ الْعَبْدِ مَلْخُسَ. ١١فَقَالَ يَسُوعُ لِبُطْرُسَ: «اجْعَلْ سَيْفَكَ فِي الْغِمْدِ! الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا؟ ». "(١٨ / ٣-١١).

التعليق:

وبعد عرض الروايات الأربع لهذه الحادثة الخطيرة، يحق لنا أن نسأل: أين شك التلاميذ؟ ، لقد سبق أن ذكرت الأناجيل على لسان المسيح قوله لتلاميذه: ": «كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ ".

ونحن هنا أمام احتمالين:

أحدهما: أن يكون المسيح قد تنبأ لتلاميذه بأن مؤامرة ستدبر ضده، ورغم أنها ستسبب له ألما ومعاناة إلا أنها ستفشل وينقذه الله من القتل الذي ينتظره على أيدي مدبريها.

ثانيهما: أن يكون المسيح قد تنبأ لتلاميذه بأن مؤامرة ستدبر ضده وتسبب له ألما ومعاناة وتنتهي بقتله.

فإن كانت الحالة الأولى، ورأى التلاميذ – حسب ما ترويه الأناجيل – بكل وضوح أن المسيح قبض عليه في تلك الليلة، واستطاعت قوى الشر أن تنتصر عليه، وتحقق ما تريد فعندئذ لا بد أن يشك التلاميذ في معلمهم الذي تنبأ لهم بنجاته، وقد يكون الارتداد عن العقيدة أيضًا.

ولما كانت الأناجيل قد أظهرت جميعها أن التلاميذ لم يشكوا في المسيح في تلك الليلة.

فإن هذا يعني أن الأحداث سارت حسبما جاء في تلك الحالة التي تنتهي بنجاة المسيح من القبض والقتل.

وأما إن كانت الحالة الثانية، وهي أن المسيح تنبأ لتلاميذه بالقبض عليه وقتله، فإن ما شاهده التلاميذ – حسب رواية الأناجيل أيضًا – هو أن ذلك ما حدث، ولا محل للشك

إذن في هذه الحالة.

والخلاصة:

أن الأناجيل الأربعة اختلفت في قصة القبض وملابساتها:

١-روى كل من (مرقس ومتى) أن يهوذا قبَّل المسيح، وروى (لوقا) أن يهوذا كان على وشك التقبيل، بينما لا يعرف (يوحنا) شيئًا عن التقبيل.

٢- ويذكر كل من مرقس ومتى أن تحية وكلامًا جرى بين يهوذا والمسيح ويصمت لوقا عن تلك التحية بينما لا يذكر يوحنا شيئًا عن يهوذا سوى الصمت التام بعد أن قاد القوة التي جاءت للقبض عليه في البستان.

ونستطيع أن نضع أيدينا على ثلاث نقاط أساسية:

١-أن القبلة كانت الوسيلة الوحيدة لتعريف أفراد القوة بشخصية المسيح (حسب مرقس ومتى ولوقا) – بينما تم ذلك بعد أن أظهر المسيح ذاته لهم بطريقة تنم عن التحدي والثبات الذي يتحلى به الشجعان في مثل هذه المواقف.

٢-وأن حادثًا غير عادي وقع في تلك اللحظة مما أذهل أفراد القوة وجعلهم يرجعون إلى الوراء ويسقطون على الأرض.

٣-أن التلاميذ – حسب ما يرويه كتبة الأناجيل – لم يشكوا في المسيح ولو للحظة واحدة في تلك الليلة.

٤- ولما كانت قصة المسيح بكل تفاصيلها ترد دائمًا إلى تنبؤات العهد القديم وخاصة سفر المزامير، فإن المزمور ٩١ الذي يستشهد به كثيرًا – يقول: " ٩لأَنَّكَ قُلْتَ: «أَنْتَ يَا رَبُّ مَلْجَإِي». جَعَلْتَ الْعَلِيَّ مَسْكَنَكَ، ١٠لاَ يُلاَقِيكَ شَرٌّ، وَلاَ تَدْنُو ضَرْبَةٌ مِنْ خَيْمَتِكَ. ١١لأَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ لِكَيْ يَحْفَظُوكَ فِي كُلِّ طُرُقِكَ. ١٢عَلَى الأَيْدِي يَحْمِلُونَكَ لِئَلاَّ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ. . . . أُرَفِّعُهُ لأَنَّهُ عَرَفَ اسْمِي. ١٥يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَعَهُ أَنَا فِي الضِّيقِ، أُنْقِذُهُ وَأُمَجِّدُهُ. ١٦مِنْ طُولِ الأَيَّامِ أُشْبِعُهُ، وَأُرِيهِ خَلاَصِي». " (٩ / ١٦).

أليس من حق القائل أن يقول : إن ملائكة الله حملت المسيح على أيديها في تلك اللحظة

التي كادت تزيغ فيها قلوب المؤمنين؟ وأليس هذا هو ما تنطق به المزامير؟.[1]

المطلب الثاني: تناقضات روايات قبل الصلب

١ـ هل ذهب رؤساء الكهنة للقبض على المسيح؟

مَن الذي ذهب للقبض على يسوع؟

يقول متى: " جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ. " (متى ٢٦/ ٤٧).

وزاد مرقس بأن ذكر أن من الجمع الكتبةَ والشيوخ (انظر مرقس ١٤/ ٤٣)، فيما ذكر يوحنا أن الآتين هم جند الرومان وخدم من عند رؤساءِ الكهنة (انظر يوحنا ١٨/ ٣) ولم يذكر أي من الثلاثة مجيء رؤساء الكهنة، ولو كانوا قد حضروا لما صح إغفال ذكرهم مع الحاضرين، فهم ليسوا أقل أهمية من الكتبة والشيوخ والدهماء.

ولكن لوقا ذكر أن رؤساء الكهنة جاءوا بأنفسهم للقبض على المسيح إذ يقول: "٥٢ثُمَّ قَالَ يَسُوعُ لِرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَقُوَّادِ جُنْدِ الْهَيْكَلِ وَالشُّيُوخِ الْمُقْبِلِينَ عَلَيْهِ " (لوقا ٢٢/ ٥٢). فالتناقض بين لوقا والباقين ظاهر.

٢ـ هل قبله يهوذا أم لم يقبله؟

قال متى: إن اليهود استأجروا أحد الحواريين ليرشدهم عن المسيح فأعطاهم علامة أن يقبضوا على الذي يقبله، فلما أقبل ومن معه " ٤٩فَلِلْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى يَسُوعَ وَقَالَ: «السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي! » وَقَبَّلَهُ. ٥٠فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟ » حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ. " (متى ٢٦ / ٤٧ – ٥٠).

وقد روى يوحنا هذه الحادثة بشكل مختلف عما ذكره متى، فقد قال: " ٣فَأَخَذَ يَهُوذَا الْجُنْدَ وَخُدَّامًا مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ، وَجَاءَ إِلَى هُنَاكَ بِمَشَاعِلَ وَمَصَابِيحَ وَسِلاَحٍ. ٤فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟ » ٥أَجَابُوهُ: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». قَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ». وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ أَيْضًا وَاقِفًا مَعَهُمْ. ٦فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ:

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٤٣ – ١٤٩) بتصرف يسير.

«إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ. [٧]فَسَأَلَهُمْ أَيْضًا: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟ » فَقَالُوا: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». [٨]أَجَابَ يَسُوعُ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ». " (يوحنا ١٨ / ٣- ٨).

ونلاحظ هنا الاختلاف بين الروايتين، حيث إنه لم يذكر هنا أن يهوذا تقدم إليه وقبله.

٣ـ متى حوكم المسيح؟

وتذكر الأناجيل محاكمة المسيح، وتتفق في وصف الكثير مما جرى في أثناء المحاكمة، كاستفسار كبير الكهنة عن شخص الماثل بين يديه، وإجابته له أن ابن الإنسان عن يمين قوة الله، وأنه سوف يأتي في سحاب السماء. (لوقا ٢٢/ ٦٧-٦٩).

ولكنهم اختلفوا في موعد هذه الجلسة من جلسات المحاكمة، إذ يجعلها لوقا صباح الليلة التي قبض عليه فيها فيقول: "[٦٦]وَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ اجْتَمَعَتْ مَشْيَخَةُ الشَّعْبِ: رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ، وَأَصْعَدُوهُ إِلَى مَجْمَعِهِمْ [٦٧]قَائِلِينَ: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ، فَقُلْ لَنَا!» " (لوقا ٢٢/ ٦٦ – ٦٧).

وأما الإنجيليون الثلاثة فإنهم يجعلون المحاكمة في ليلة القبض عليه، فيقول مرقس: " [٥٣]فَمَضَوْا بِيَسُوعَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْكَتَبَةُ. . . . . " (مرقس ١٤/ ٥٣) (وانظر: متى ٢٦/ ٥٧، ويوحنا ١٨/ ٣).

٤ـ كم مرة سيصيح الديك؟

وتبع بطرس المسيح من بعيد ليرى محاكمته، وقد أخبره المسيح بأنه سينكره في تلك الليلة ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك مرتين حسب مرقس " قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». " (مرقس ١٤/ ٧٢) ومَرةً حسب الثلاثة، يقول لوقا: " إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». " (لوقا ٢٢/ ٦١) (انظر: متى ٢٦/ ٧٤، يوحنا ١٨/ ٢٧) وقد ذكر الثلاثة خلال القصة صياحًا واحدًا فقط، خلافًا لما زعمه مرقس، فقد ذكر صياحين للديك.

٥ـ أين تعرفت الجارية على بطرس أول مرة؟

وأثناء متابعة بطرس للمحاكمة تعرف بعض الموجودين في المحاكمة عليه، وعرفوا أنه

من أتباع المسيح، مما اضطر بطرس لإنكار ذلك ثلاث مرات.

وتتفق الأناجيل في أنه تعرفت عليه في المرة الأولى جارية، وتختلف في تحديد المكان الذي تعرفوا فيه على بطرس، فيذكر متى ويوحنا أنه كان حينذاك خارج الدار " [٦٩]أَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ جَالِسًا خَارِجًا فِي الدَّارِ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ قَائِلَةً: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ الْجَلِيلِيِّ! ». " (متى ٢٦/ ٦٩، ٧٥).

وذكر مرقس ولوقا أنه كان داخل الدار يستدفئ من البرد، يقول مرقس: "[٦٦]وَبَيْنَمَا كَانَ بُطْرُسُ فِي الدَّارِ أَسْفَلَ جَاءَتْ إِحْدَى جَوَارِي رَئِيسِ الْكَهَنَةِ. [٦٧]فَلَمَّا رَأَتْ بُطْرُسَ يَسْتَدْفِئُ، نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ! » " (مرقس ١٤/ ٦٦).

وفي لوقا: " [٥٥]وَلَمَّا أَضْرَمُوا نَارًا فِي وَسْطِ الدَّارِ وَجَلَسُوا مَعًا، جَلَسَ بُطْرُسُ بَيْنَهُمْ. [٥٦]فَرَأَتْهُ جَارِيَةٌ جَالِسًا عِنْدَ النَّارِ فَتَفَرَّسَتْ فيهِ وَقَالَتْ: «وَهذَا كَانَ مَعَهُ! ». " (لوقا ٢٢/ ٥٥-٥٦)، فهل كان بطرس داخل الدار أم خارجها؟

كما نلحظ اختلافًا ثانيًا بين الأناجيل في الفعل الذي كان يصنعه بطرس حين تعرفت الجارية عليه، فقد ذكر الإنجيليون الثلاثة أنه كان جالسًا عند النار يستدفئ، فخالفوا يوحنا الذي أخبرنا أن الجارية تعرفت عليه عند البوابة، فهذه الجارية مسئولة عن البوابة، وقد صرح به يوحنا حين أخبرنا أن تلميذًا من تلاميذ المسيح توسط لبطرس عند رئيس الكهنة ليدخله إلى الدار، " [١٧]فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ الْبَوَّابَةُ لِبُطْرُسَ: «أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضًا مِنْ تَلاَمِيذِ هذَا الإِنْسَانِ؟ » قَالَ ذَاكَ: «لَسْتُ أَنَا! ». " (يوحنا ١٨/ ١٧)، إذًا اكتشف أمر بطرس عند البوابة، خلافًا لما ذكره الإنجيليون الثلاثة الذين أخبرونا بأنه كان جالسًا عند النار.

٦ـ من الذي تعرف على بطرس في المرة الثانية والثالثة؟

وأما المرة الثانية، فقد تعرفت عليه حسب مرقس نفس الجارية التي تعرفت عليه في المرة الأولى، يقول: "[٦٩]فَرَأَتْهُ الْجَارِيَةُ أَيْضًا وَابْتَدَأَتْ تَقُولُ لِلْحَاضِرِينَ: «إِنَّ هذَا مِنْهُمْ! »" (مرقس ١٤/ ٦٩).

ولكن حسب متى فإن الذي تعرف عليه جارية أخرى غير الأولى " [٧١]ثُمَّ إِذْ خَرَجَ إِلَى الدِّهْلِيزِ رَأَتْهُ أُخْرَى، فَقَالَتْ لِلَّذِينَ هُنَاكَ: «وَهذَا كَانَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ! » " (متى ٢٦/ ٧١).

ويخالفهما جميعًا لوقا الذي ذكر أن الذي تعرف عليه هذه المرة رجل من الحضور وليس جارية، فيقول: " [٥٨]وَبَعْدَ قَلِيل رَآهُ آخَرُ وَقَالَ: «وَأَنْتَ مِنْهُمْ! » فَقَالَ بُطْرُسُ: «يَا إِنْسَانُ، لَسْتُ أَنَا! » " (لوقا ٢٢/ ٥٨).

ويحاول يوحنا الخروج من الخلاف والجمع بين الأقوال المتناقضة للثلاثة الذين سبقوه، فيستعير قصة الإنكار الثالث لبطرس حين أشار جمع إليه، فيجعلها في الإنكار الثاني، فيقول: "[٢٥] وَسِمْعَانُ بُطْرُسُ كَانَ وَاقِفًا يَصْطَلِي. فَقَالُوا لَهُ: «أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضًا مِنْ تَلاَمِيذِهِ؟ » فَأَنْكَرَ ذَاكَ وَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا! »." (يوحنا ١٨/ ٢٥).

وهذه الصيغة في التعرف على بطرس بواسطة الجموع ذكرها مرقس ومتى في سياق الإنكار الثالث، حيث يقول مرقس: " [٧٠]فَأَنْكَرَ أَيْضًا. وَبَعْدَ قَلِيل أَيْضًا قَالَ الْحَاضِرُونَ لِبُطْرُسَ: «حَقًّا أَنْتَ مِنْهُمْ، لأَنَّكَ جَلِيلِيٌّ أَيْضًا وَلُغَتُكَ تُشْبِهُ لُغَتَهُمْ! ». [٧١]فَابْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ هذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ! » " (مرقس ١٤/ ٧٠-٧١).

وكذا ذكرها متى في الإنكار الثالث، فقال: " [٧٣]وَبَعْدَ قَلِيل جَاءَ الْقِيَامُ وَقَالُوا لِبُطْرُسَ: «حَقًّا أَنْتَ أَيْضًا مِنْهُمْ، فَإِنَّ لُغَتَكَ تُظْهِرُكَ! » [٧٤]فَابْتَدَأَ حِينَئِذٍ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ الرَّجُلَ! » " (متى ٢٦/ ٧٣-٧٤).

وأما لوقا ويوحنا فجعلا المتعرف على بطرس هذه المرة (الثالثة) رجل واحد، وليس مجموعة من الموجودين في المحكمة، يقول لوقا: "[٥٩]وَلَمَّا مَضَى نَحْوُ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَكَّدَ آخَرُ قَائِلًا: «بِالْحَقِّ إِنَّ هذَا أَيْضًا كَانَ مَعَهُ، لأَنَّهُ جَلِيلِيٌّ أَيْضًا! ». [٦٠]فَقَالَ بُطْرُسُ: «يَا إِنْسَانُ، لَسْتُ أَعْرِفُ مَا تَقُولُ! »." (لوقا ٢٢/ ٥٩-٦٠).

ويصادق على كلامه يوحنا، فيذكر أن هذا الرجل أحد عبيد رئيس الكهنة " [٢٦]قَالَ وَاحِدٌ مِنْ عَبِيدِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَهُوَ نَسِيبُ الَّذِي قَطَعَ بُطْرُسُ أُذْنَهُ: «أَمَا رَأَيْتُكَ أَنَا مَعَهُ فِي الْبُسْتَانِ؟ » [٢٧]فَأَنْكَرَ بُطْرُسُ أَيْضًا. " (يوحنا ١٨/ ٢٦).

فهل الذي تعرف على بطرس في المرة الثانية نفس الجارية؟ أم جارية أخرى؟ أم رجل؟

وهل أنكر بطرس المسيح في المرة الثالثة بسبب تعرف الجمع على لهجته؟ أم بسبب عبد رئيس الكهنة الذي رأى بطرس في البستان مع تلاميذ المسيح؟ ويعترف بهذا التضارب بين الروايات الأب متى المسكين، فيقول: " أقوال القديس لوقا اختلفت عن أقوال القديس مرقس في المضمون وأنواع الأفراد الذين تصدوا لبطرس وأسباب كل مرة". (١)

٧ـ لماذا حبس باراباس؟

وتختلف الأناجيل في تحديد السبب الذي من أجله حبس باراباس في سجن بيلاطس، فيذكر يوحنا بأنه كان لصًا " وَكَانَ بَارَابَاسُ لِصًّا. " (يوحنا ١٨/ ٤٠).

واتفق مرقس ولوقا على أنه صاحب فتنة، وأنه حصل فيها قتل، فاستوجب حبسه، يقول لوقا: " وَأَطْلِقْ لَنَا بَارَابَاسَ! » ١٩وَذَاكَ كَانَ قَدْ طُرِحَ فِي السِّجْنِ لأَجْلِ فِتْنَةٍ حَدَثَتْ فِي الْمَدِينَةِ وَقَتْل. " (لوقا ٢٣/ ١٩، وانظر: مرقس ١٥/ ٧).

وأما سفر أعمال الرسل فينصُّ على أن باراباس كان قاتلًا، وليس مجرد لص أو مشارك في الفتنة، إذ يقول: "١٤وَلكِنْ أَنْتُمْ أَنْكَرْتُمُ الْقُدُّوسَ الْبَارَّ، وَطَلَبْتُمْ أَنْ يُوهَبَ لَكُمْ رَجُلٌ قَاتِلٌ. " (أعمال ٣/ ١٤).

٨ـ قصة نهاية يهوذا.

ويتحدث العهد الجديد عن نهايتين مختلفتين للتلميذ الخائن يهوذا الأسخريوطي الذي خان المسيح، وسعى في الدلالة عليه وتسليمه مقابل ثلاثين درهمًا من الفضة، فيقول متى: " ٣حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى يَهُوذَا الَّذِي أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ، نَدِمَ وَرَدَّ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ ٤قَائِلًا: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا». فَقَالُوا: «مَاذَا عَلَيْنَا؟ أَنْتَ أَبْصِرْ! » ٥فَطَرَحَ الْفِضَّةَ فِي الْهَيْكَلِ وَانْصَرَفَ، ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ. ٦فَأَخَذَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْفِضَّةَ وَقَالُوا: «لاَ يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِي الْخِزَانَةِ لأَنَّهَا ثَمَنُ دَمٍ». ٧فَتَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِيِّ مَقْبَرَةً لِلْغُرَبَاءِ. ٨لِهذَا سُمِّيَ ذلِكَ الْحَقْلُ «حَقْلَ الدَّمِ» إِلَى هذَا الْيَوْمِ. " (متى ٢٧/ ٣-٨).

---

(١) الإنجيل بحسب القديس لوقا، الأب متى المسكين (٧٠٥)، وانظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٥٤ - ١٥٨)، هل افتدانا المسيح على الصليب (١٠ - ١١).

ولكن سفر أعمال الرسل يحكي نهاية أخرى ليهوذا وردت في سياق خطبة بطرس، حيث قال: " فَقَالَ: ١٦«أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ هذَا الْمَكْتُوبُ الَّذِي سَبَقَ الرُّوحُ الْقُدُسُ فَقَالَهُ بِفَمِ دَاوُدَ، عَنْ يَهُوذَا الَّذِي صَارَ دَلِيلًا لِلَّذِينَ قَبَضُوا عَلَى يَسُوعَ، ١٧إِذْ كَانَ مَعْدُودًا بَيْنَنَا وَصَارَ لَهُ نَصِيبٌ فِي هذِهِ الْخِدْمَةِ. ١٨فَإِنَّ هذَا اقْتَنَى حَقْلًا مِنْ أُجْرَةِ الظُّلْمِ، وَإِذْ سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ انْشَقَّ مِنَ الْوَسْطِ، فَانْسَكَبَتْ أَحْشَاؤُهُ كُلُّهَا. ١٩وَصَارَ ذلِكَ مَعْلُومًا عِنْدَ جَمِيعِ سُكَّانِ أُورُشَلِيمَ، حَتَّى دُعِيَ ذلِكَ الْحَقْلُ فِي لُغَتِهِمْ «حَقْلَ دَمَا» أَيْ: حَقْلَ دَمٍ. " (أعمال ١/ ١٦- ١٩).

فقد اختلف النصان في جملة من الأمور:

١- كيفية موت يهوذا، فإما أن يكون قد خنق نفسه ومات " ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ. "، وإما أن يكون قد مات بسقوطه، حيث انشقت بطنه وانسكبت أحشاؤه فمات " وَإِذْ سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ انْشَقَّ مِنَ الْوَسْطِ، فَانْسَكَبَتْ أَحْشَاؤُهُ كُلُّهَا. "، ولا يمكن أن يموت يهوذا مرتين، كما لا يمكن أن يكون قد مات بالطريقتين معًا، ويجدر هنا أن نذكر أن المؤرخ الأسقف بابياس (١٥٥م) ذكر أن يهوذا مات دهسًا بعربة فانسكبت أحشاؤه!

٢- من الذي اشترى الحقل، هل هو يهوذا " ١٨فَإِنَّ هذَا اقْتَنَى حَقْلًا مِنْ أُجْرَةِ الظُّلْمِ "، أم الكهنة الذين أخذوا منه المال "٧فَتَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِيِّ"؟

٣- هل مات يهوذا نادمًا " لَمَّا رَأَى يَهُوذَا الَّذِي أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ، نَدِمَ وَرَدَّ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ ٤قَائِلًا: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا». "

أم معاقبًا بذنبه كما يظهر من كلام بطرس؟

٤- هل رد يهوذا المال للكهنة " وَرَدَّ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ "، أم أخذه واشترى به حقلًا " ١٨فَإِنَّ هذَا اقْتَنَى حَقْلًا مِنْ أُجْرَةِ الظُّلْمِ"؟.

٥- هل كان موت يهوذا قبل صلب المسيح وبعد المحاكمة "وَدَفَعُوهُ إِلَى بِيلاَطُسَ الْبُنْطِيِّ الْوَالِي. حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى يَهُوذَا الَّذِي أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ، نَدِمَ وَرَدَّ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى

رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ " أم أن ذلك كان فيها بعد، حيث مضى واشترى حقلًا ثم مات في وقتٍ الله أعلم متى كان؟.

٦- هل سمي الحقل حقل دم؛ لأنه كان ثمنًا لدم المسيح "[٦]فَأَخَذَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْفِضَّةَ وَقَالُوا: «لاَ يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِي الْخِزَانَةِ لأَنَّهَا ثَمَنُ دَمٍ». [٧]فَتَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِيِّ مَقْبَرَةً لِلْغُرَبَاءِ. [٨]لِهذَا سُمِّيَ ذلِكَ الْحَقْلُ «حَقْلَ الدَّمِ» إِلَى هذَا الْيَوْمِ. "، أم سمي بذلك لأن دم يهوذا قد سال فيه لما انشق بطنه " [١٨]فَإِنَّ هذَا اقْتَنَى حَقْلًا مِنْ أُجْرَةِ الظُّلْمِ، وَإِذْ سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ انْشَقَّ مِنَ الْوَسْطِ، فَانْسَكَبَتْ أَحْشَاؤُهُ كُلُّهَا. [١٩]وَصَارَ ذلِكَ مَعْلُومًا عِنْدَ جَمِيعِ سُكَّانِ أُورُشَلِيمَ، حَتَّى دُعِيَ ذلِكَ الْحَقْلُ فِي لُغَتِهِمْ «حَقْلَ دَمَا» أَيْ: حَقْلَ دَمٍ. ".

٩ـ من الذي طلب ترك المسيح ليحقق المعجزات؟

ويحدثنا مرقس أن المسيح لما كان على الصليب صرخ يطلب الماء "[٣٦] فَرَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلأَ إِسْفِنْجَةً خَلًّا وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ قَائِلًا: «اتْرُكُوا. لِنَرَ هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا لِيُنْزِلَهُ! »" (مرقس ١٥/ ٣٦)، فقائل العبارة السابقة هو ذلك الذي سقى المسيح، ويوجه خطابه للآخرين قائلًا: " اتْرُكُوا. لِنَرَ هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا لِيُنْزِلَهُ! ".

وهذا وصف ناقضه فيه متى حيث كتب: " [٤٨]وَلِلْوَقْتِ رَكَضَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَأَخَذَ إِسْفِنْجَةً وَمَلأَهَا خَلًّا وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ. [٤٩]وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَقَالُوا: «اتْرُكْ. لِنَرَى هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا يُخَلِّصُهُ! ». " (متى ٢٧/ ٤٨-٤٩)، فجعل القائل لتلك العبارة الآخرون، فقد طلبوا من الذي يسقي المسيح أن يتركه " اتْرُكْ"، فمن القائل؟ ومن المخاطَب؟.

١٠ـ متى انشق حجاب الهيكل؟

ويرى الإنجيليون أنه لا يليق أن تكون نهاية المسيح عادية كسائر الأموات، بل لابد أن تصحبها بعض الأحداث الكبيرة، والتي يختلفون في نسجها وفقًا لخيالاتهم الخصبة، لكنهم على أي حال يتفقون على واحدة منها، وهي انشقاق حجاب الهيكل، من غير أن يتفقوا على لحظة حصوله، فمرقس يجعله بعد وفاة المسيح، فيقول: " [٣٧]فَصَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. [٣٨]وَانْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. "

(مرقس ١٥/ ٣٧-٣٨).

أما لوقا المتتبع لكل شيء بتدقيق فإنه يخالف البشير مرقس أول الإنجيلين تأليفًا، ويرى أن تلك الأعجوبة كانت قبل موت المسيح، فيقول: " [٤٤]وَكَانَ نَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ، فَكَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. [٤٥]وَأَظْلَمَتِ الشَّمْسُ، وَانْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ مِنْ وَسْطِهِ. [٤٦]وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا أَسْلَمَ الرُّوحَ. " (لوقا ٢٣/ ٤٤-٤٦)، فانشقاقه كان قبل موت المسيح خلافًا لما زعمه مرقس.

المطلب الثالث: تناقضات روايات أحداث الصلب.

١ـ من كان يحمل الصليب؟

قال لوقا (٢٣ / ٢٦): " [٢٦]وَلَمَّا مَضَوْا بِهِ أَمْسَكُوا سِمْعَانَ، رَجُلًا قَيْرَوَانِيًّا كَانَ آتِيًا مِنَ الْحَقْلِ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِ الصَّلِيبَ لِيَحْمِلَهُ خَلْفَ يَسُوعَ. "

ويقول يوحنا (١٩ / ١٧ –١٨): " فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ. [١٧]فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «مَوْضِعُ الْجُمْجُمَةِ» وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ «جُلْجُثَةُ»، [١٨]حَيْثُ صَلَبُوهُ. . "

١ـماذا كان عنوان علة المصلوب؟

يقول متى إنه كان (يَسُوعُ مَلِكُ الْيَهُودِ) (٢٧ / ٣٧). ويقول مرقس («مَلِكُ الْيَهُودِ» (١٥ / ٢٦). ويقول لوقا (: «هذَا هُوَ مَلِكُ الْيَهُودِ».) (٢٣ / ٣٨). ويقول يوحنا (: «يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ». (١٩ / ١٩). فيا ترى ما هو العنوان الحقيقي الذي كان مكتوبا على الصليب أو فوقه؟.

٢ـمتى كان المصلوب على الصليب؟

يقول كل من متى ومرقس ولوقا إن المسيح كان على الصليب نحو الساعة السادسة، ويعارضهم يوحنا في ذلك ويقول: إن المسيح لم يكن وقتئذ على الصليب، بل كان في حضرة بيلاطس (يوحنا ١٩ / ١٤).

٣ـماذا قدم للمصلوب؟

يقول مرقس (١٥ / ٢٣) إن جند بيلاطس قدموا له " خَمْرًا مَمْزُوجَةً بِمُرّ لِيَشْرَبَ، فَلَمْ

يَقْبَلْ. "، ويقول متى (٢٧ / ٣٤) " خَلًّا مَمْزُوجًا بِمَرَارَةٍ لِيَشْرَبَ. وَلَمَّا ذَاقَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَشْرَبَ. "، ويقول يوحنا (١٩ / ٢٨ – ٣٠) أن يسوع قال ": «أَنَا عَطْشَانُ». [٢٩]وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعًا مَمْلُوًّا خَلًّا، فَمَلأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ، وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ. [٣٠]فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ الْخَلَّ قَالَ: «قَدْ أُكْمِلَ». "

وهنا تلحظ تناقضًا آخر: فالأول يقول: إن الذي قدم إليه خمر ومر ولم يقبلها، ويقول الثاني: إن الذي قدم إليه خل ومر لما ذاقها ردهما، والثالث يقول: إن المقدم إليه هو الخل طلبه يسوع وشربه.

٤ـ ماذا قال المصلوب؟

قال متى (٢٧ / ٤٦) " [٤٦]وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: «إِيلِي، إِيلِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟ » أَيْ: إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ "

ويقول مرقس (١٥ / ٣٤) إنه صرخ قائلا: " إِلُوِي، إِلُوِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟ اَلَّذِي تَفْسِيرُهُ: إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ "

ويقول لوقا (١٣ / ٤٦) " [٤٦]وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا أَسْلَمَ الرُّوحَ. ".

٥ـ حال الرجلين المصلوبين مع المصلوب.

يقول متى (٢٧ / ٤٤) إن المسيح صلب مع لصين، وكان اللصان يعيرانه، وقال لوقا (٢٣ / ٣٩) " [٣٩]وَكَانَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُذْنِبَيْنِ الْمُعَلَّقَيْنِ يُجَدِّفُ عَلَيْهِ قَائِلًا: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ، فَخَلِّصْ نَفْسَكَ وَإِيَّانَا! » [٤٠]فَأَجَابَ الآخَرُ وَانْتَهَرَهُ قَائِلًا: «أَوَلاَ أَنْتَ تَخَافُ اللهَ، إِذْ أَنْتَ تَحْتَ هذَا الْحُكْمِ بِعَيْنِهِ؟ [٤١]أَمَّا نَحْنُ فَبِعَدْل، لأَنَّنَا نَنَالُ اسْتِحْقَاقَ مَا فَعَلْنَا، وَأَمَّا هذَا فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ». [٤٢]ثُمَّ قَالَ لِيَسُوعَ: «اذْكُرْنِي يَارَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ». [٤٣]فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ». "

ويقول مرقس (١٥ / ٣٧) إن المسيح صلب مع لصين ولم يذكر أنهما كانا يعيرانه، أو أن أحدهما كان يعيره والآخر يمدحه. ويقول يوحنا: إنهم صلبوه مع اثنين ولم يبين حالهما

فواضح من كل هذه التناقضات أن حدوث قصة الصلب أمر لا يمكن تصوره مع كل هذه الاختلافات والتناقضات؛ إذ لو كانت صحيحة لاتحدت في تفاصيلها وأحداثها، وهكذا دائما تبقى الحقيقة ناصعة وواضحة وضوح الشمس لا يغفل عنها إلا الأعمى.

المطلب الرابع: تفرد أحد الإنجيليين في الرواية.

وينفرد أحد الإنجيليين بذكر حوادث قد تكون مهمة، مع ذلك أغفلها الآخرون، قد يتبادر للذهن لأول وهلة أن ذلك يرجع لنظرية تكامل الروايات التي لا تعتبر زيادات البعض في روايتهم ضربًا من التناقض والتعارض.

وهذا ليس بصحيح، إذ معرفتنا البسيطة بتدوين الإنجيل وتاريخه تُنبئنا بأن الإنجيليين اعتمد اللاحق فيهم على السابق، فإغفال اللاحق لبعض ما ذكره سلفه، إنما يرجع لتشككه في جدوى الرواية، أو صحتها، أو تناسقها مع المعتقد، وهو ما يقال أيضًا في الإضافة التي قرر المتأخر زيادتها عن السابق.

ولعل مما يوضح الصورة ويجليها نقل مقدمة لوقا الذي يقول: " ٣رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، ٤لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ. " (لوقا ١/ ٣- ٤)، فهو ينقل عن السابقين له بتدقيق وإمعان في رواياتهم، وما يدعه من مروياتهم إنما تركه لعدم وثوقه بهذه الروايات.

وقد انفرد بعض الإنجيليين بذكر أحداث مهمة تثير أسئلة استفهام كبيرة، تبحث عن إجابة، ومن هذه الأمور التي انفرد بها أحد الإنجيليين:

١-انفرد لوقا فذكر في وصف ليلة القبض على المسيح أمورًا لم يذكرها غيره، ومنها:

أنه بالغ في إظهار جزع المسيح، حتى إن الله أيده بملاك يقويه، وكأنه أوشك على الانهيار. يقول لوقا: " ٤٣وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّيهِ. ٤٤وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ. " (لوقا ٢٢/ ٤٣ - ٤٤).

وهاتان الفقرتان - رغم وجودهما في أكثر النسخ المتداولة - فإن المراجع القديمة تحذفهما، كما نقل أحمد عبد الوهاب عن جورج كيرد مفسر إنجيل لوقا حيث يقول: " فإن هذا الحذف

يمكن إرجاع سببه إلى فهم أحد الكتبة بأن صورة يسوع هنا قد اكتنفها الضعف البشري، كان يتضارب مع اعتقاده في الابن الإلهي الذي شارك أباه في قدرته القاهرة ". (١)

ولعل هذا ما دعا الإنجيليين إلى تجاهل هذا الوصف الدقيق، بل إن يوحنا لم يذكر شيئًا عن معاناة المسيح وآلامه تلك الليلة، وذلك للسبب نفسه بالطبع.

ولنا أن نتساءل كيف عرف لوقا بنزول الملاك؟ وكيف شاهد عرقه وهو يتصبب منه على هذه الكيفية؛ كيف ذلك وجميع التلاميذ نيام كما وصفهم لوقا بعدها مباشرة بقوله: " ٤٥ثُمَّ قَامَ مِنَ الصَّلاَةِ وَجَاءَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ، فَوَجَدَهُمْ نِيَامًا مِنَ الْحُزْنِ. " (لوقا ٢٢/ ٤٥)؛ كما أن المسيح لم يكن بجوارهم، فقد كان يصلي بعيدًا عنهم "٤١وَانْفَصَلَ عَنْهُمْ نَحْوَ رَمْيَةِ حَجَرٍ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى" (لوقا ٢٢/ ٤١).

٢- ذكر الإنجيليون ضرب أحد التلاميذ لعبد رئيس الكهنة بالسيف، وأنه قطع أذنه، وتتكامل الروايات، فيذكر يوحنا أن اسم العبد ملخس، وأن الأذن هي اليمنى، فيما لم يحدد متى ومرقس اسم الضارب، كما لم يحددا الأذن المضروبة.

لكن أحدًا منهم - سوى لوقا الغائب حينذاك - لم يذكر أن المسيح أبرأ أذن العبد وردّها، وهي ولاشك معجزة كبيرة ستترك أثرًا في تلك الجموع الكافرة. . "٥١فَأَجَابَ يَسُوعُ وقَالَ: «دَعُوا إِلَى هذَا! » وَلَمَسَ أُذْنَهُ وَأَبْرَأَهَا. " (لوقا ٢٢/ ٥١)، ولم يذكر لوقا أي ردة فعل للجند والجموع تجاه هذه المعجزة الباهرة. وكأن شيئًا لم يكن.

٣- كما انفرد مرقس بواحدة أخرى، وهي: قصة الشاب الذي هرب من الشبان، فأمسكوا بإزاره الذي يلبسه على عري، فترك الإزار، وهرب منهم عريانًا (مرقس١٤/ ٥١ -٥٢).

٤- وأيضًا انفرد يوحنا بأن المسيح طلب من الجند أن يدعوا تلاميذه يهربون. (انظر: يوحنا ١٨/ ٨) مع أن أحدًا لم يتعرض لتلاميذه، لكن يوحنا يريد بذلك أن يحقق نبوءة

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (١٤٠ – ١٤٣)، وانظر حاشية النص في الترجمة العربية المشتركة.

توراتية، فقد قال بعدها " [٩] لِيَتِمَّ الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ: «إِنَّ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَمْ أُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا». " (يوحنا ١٨/ ٩).

٥- وانفرد يوحنا عن بقية الإنجيليين، فذكر أن الجند لما همّوا بالقبض على يسوع، وقعوا على الأرض، يقول يوحنا: "[٦] فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ. " (يوحنا ١٨/ ٦)، ولم يذكر هذا الخبر - على أهميته - غيره، فما الذي أخاف الجنود حتى سقطوا؟

إنه خوفهم من الملائكة الذين حموا المسيح، فذاك الذي سبب لهم هذا السقوط، كما في النبوءة التوراتية: " [١٠] لاَ يُلاَقِيكَ شَرٌّ، وَلاَ تَدْنُو ضَرْبَةٌ مِنْ خَيْمَتِكَ. [١١] لأَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ لِكَيْ يَحْفَظُوكَ فِي كُلِّ طُرُقِكَ. [١٢] عَلَى الأَيْدِي يَحْمِلُونَكَ لِئَلاَّ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ. " (المزمور ٩١/ ١٠ - ١٢).

٦- وانفرد يوحنا فذكر ذهاب الجند بالمسيح إلى حنان - حما رئيس الكهنة قيافا-، ثم أخذه بعدها إلى قيافا الكاهن. (انظر يوحنا ١٨/ ١٢ - ١٣).

٧- وانفرد لوقا بذكر إرسال بيلاطس المسيح إلى هيرودس حاكم الجليل (انظر لوقا ٢٣/ ٨)، مع أن هيرودس مات قبل ذلك بكثير، وذلك إبان طفولة المسيح، يقول متى: " [١٩] فَلَمَّا مَاتَ هِيرُودُسُ، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ فِي حُلْمٍ لِيُوسُفَ فِي مِصْرَ [٢٠] قَائِلًا: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّهُ قَدْ مَاتَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَ الصَّبِيِّ». [٢١] فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَجَاءَ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. [٢٢] وَلكِنْ لَمَّا سَمِعَ أَنَّ أَرْخِيلاَوُسَ يَمْلِكُ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ عِوَضًا عَنْ هِيرُودُسَ أَبِيه. . . " (متى ٢/ ١٩ - ٢٠).

فلو صدق متى في خبر وفاة هيرودس زمن طفولة المسيح فإن لوقا حينذاك من الكاذبين رغم تتبعه لكل شيء بتدقيق.

والذي دعاه لإحضار هيرودس من الموت-كما يرى مفسر إنجيل لوقا جورج كيرد -: أنه أراد أن يشرك ملكًا آخر مع بيلاطس، ليحقق نبوءة المزمور الثاني، وفيه: "[٢] قَامَ مُلُوكُ

الأَرْضِ، وَتَآمَرَ الرُّؤَسَاءُ مَعًا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَى مَسِيحِهِ " (المزمور ٢/ ٢). [١]

٨- وانفرد متى فذكر عجائب حصلت والمسيح على الصليب في اللحظة التي فارق فيها الحياة، فيقول: " ٥١وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقٍ إِلَى أَسْفَلٍ. وَالأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ، وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ، ٥٢وَالْقُبُورُ تَفَتَّحَتْ، وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقِدِّيسِينَ الرَّاقِدِينَ ٥٣وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ. " (متى ٢٧/ ٥١ - ٥٣)، فهذه الأعاجيب ينفرد بها دون سائر الإنجيليين والمؤرخين ومنهم لوقا المتتبع بالتدقيق لكل شيء.

ولو صح مثل هذا لكان من أعظم أعاجيب المسيح، ولحرص الجميع على ذكره، لذا فهو إلى الكذب أقرب، يقول نورتن المسمى " حامي الإنجيل ": " هذه الحكاية كاذبة، والغالب أن أمثال هذه الحكاية كانت رائجة في اليهود، بعدما صارت أورشليم خرابًا، فلعل أحدًا كتب في حاشية النسخة العبرانية لإنجيل متى، وأدخلها الكُتاب في المتن، وهذا المتن وقع في يد المترجم، فترجمها على حسبه ".

وقد نقلت هذه الأخبار عن الأساطير القديمة، يقول المفسر كيرد في تفسيره[٢] "كان الشائع قديمًا أن الأحداث الكبيرة المفجعة يصحبها نذر سوء، وكأن الطبيعة تواسي الإنسان بسبب تعاسته ".

ويقول المفسر نينهام في تفسيره[٣]: " لقد قيل: إن مثل تلك النذر لُوحِظَتْ عند موت بعض الأحبار الكبار، وبعض الشخصيات العظيمة في العصور القديمة والوثنية، وخاصة عند موت يوليوس قيصر ".

ويقول المفسر جون فنتون في تفسيره مدافعًا عن تحريف متى، مبررًا إضافاته في القصة: "لقد

---

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (١٦٢ – ١٦٣).

(٢) المصدر السابق صـ ٢٥٣.

(٣) المصدر السابق صـ ٤٢٧.

كان قصد متى من هذه الأحداث الخرافية أن يبين أن موت يسوع كان عملًا من صنع الله". [١]

ومما يدل على كذب كاتب إنجيل متى في هذه الزيادة، أن نتأمل أثر ظهور هذه العجائب في الأحداث التالية، فلو وقع ما ذكره متى لما تجرأ اليهود على الرجوع إلى بيلاطس، وطلب حراسة القبر، ولو وقعت هذه الأحداث الخرافية لما تجاسر قيافا أن يصف المسيح وقتئذ بالمضل، ولانتقم منهم بيلاطس، بل وعامة اليهود، ولآمن كثيرون بالمسيح، كما آمن كثيرون في أعجوبة أقل من ذلك، حين نزل روح القدس على التلاميذ، فآمن ثلاثة آلاف شخص. (انظر أعمال ٢/ ٤٠ - ٤١)، وما ذكره متى من عجائب تزامنت مع موت المسيح أعظم من ذلك.

ثم ماذا عن هؤلاء الأموات؟ هل عادوا بأكفانهم؛ أم حفاة عراة؟ ومع مَن تكلموا؟ هل كان خروجهم حزنًا عليه أم نصرة له؛ أم فرحًا به؟ ثم كم عاشوا؟ وكيف ماتوا؟ ومتى؟.

٩- وانفرد يوحنا بذكر وجوده إلى جوار المسيح، وأم المسيح معه وقت الصلب (يوحنا ١٩/ ٢٥ - ٢٦)، وأمر كهذا لا يتصور أن تغفله الأناجيل لو كان حقًا، كما لا يمكن تصور أن الجند يسمحون لذوي المسيح من الاقتراب منه وهو على الصليب، وهم الذين أنكر بطرس بين أيديهم معرفة المسيح ثلاث مرات، لخوفه من بطشهم. [٢]

المبحث الثاني: إبطال صلب المسيح بنبوءات التوراة.

المطلب الأول: أهمية النبوأت في التوراة بالنسبة للمسيحيين

تحتل النبوءات في الفكر المسيحي مكانة سامقة، جعلت بعض النصارى يشترطون لصحة النبوة أن يسبقها نبوءة.

وحادثة صلب المسيح - كما يعتبرها النصارى - أحد أهم أحداث المعمورة، فكان لابد وأن يتحدث عنها الأنبياء في أسفارهم، وأن يذكرها المسيح لتلاميذه.

---

(١) انظر: الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي البغدادي (٤٤١ – ٤٤٧)، المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، علاء أبو بكر، صـ(٢٦٤، ٣٠٠–٣٠١)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، صـ(١٧٤).

(٢) انظر: هل افتدانا المسيح على الصليب؟ (٢١ - ٢٤).

فهل أخبرت الأنبياء بصلب المسيح وقيامته؟ وهل أخبر المسيح تلاميذه بذلك؟

والإجابة النصرانية عن هذه التساؤلات: نعم، وحدث ذلك في مواضع كثيرة من الأناجيل والرسائل والأسفار التوراتية.

ولعل من نافلة القول أن نذكر بأن النصارى يعتبرون أسفار التوراة جزءًا مقدسًا من كتابهم المقدس، كيف لا والأناجيل ما فتئت تحيل إلى هذه الأسفار، تستمد منها تنبؤاتها المستقبلية، التي تحققت في شخص المسيح في حياته أو حين صلبه – كما يزعمون –.

وللأسفار التوراتية دور عظيم في قصة صلب المسيح، فقد أكثر الإنجيليون في سردهم للقصة من الإحالة إلى أسفار التوراة؛ التي يرونها تتنبأ بالمسيح المصلوب، وكانت نصف هذه الإحالات إلى المزامير المنسوبة لداود وغيره.

وقد أكد عيسى عليه السلام لتلاميذه ضرورة أن تتحقق فيه النبوءات التوراتية بقوله: " أَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَتِمَّ جَمِيعُ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِّي فِي نَامُوسِ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ وَالْمَزَامِيرِ». " (لوقا ٢٦/ ٤٤)، وقد قال لهم: " ٣٩فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي. "

يقول جوش مكدويل: "هناك تسع وعشرون نبوءة في العهد القديم تتحدث عن خيانة المسيح (أي خيانة يهوذا للمسيح) ومحاكمته وموته ودفنه. . . وتحققت كلها حرفيًا في أربع وعشرين ساعة من الزمان". (١)

وبعض هذه النبوءات استشهد بها الإنجيليون في سياق روايتهم لقصة صلب المسيح، ومجموع هذه النبوءات أربع عشرة نبوءة، ذكر متى منها ستًا، ومرقس أربعًا، ولوقا اثنتين، بينما ذكر منها يوحنا سبع نبوءات.

ونخلص من هذا إلى أهمية النبوءات التوراتية المتعلقة بصلب المسيح.

ويبالغ النصارى في التركيز على أهمية وكثرة النبوءات التوراتية المتحدثة والمشيرة إلى المسيح، فيقول القمّص سرجيوس في كتابه " هل تنبأت التوراة عن المسيح؟ ":

(١) انظر: برهان يتطلب قرارًا، جوش مكدويل (١٩٧).

" فالمسيح ساطع في كل الكتاب المقدس في إشراق دائم، وليس كالشمس التي تغيب عن نصف الأرض ليلًا، إذ ليس في التوراة أو كتب الأنبياء جزء تغرب عنه شمس المسيح، بل يشع اسمه، وشخصه، وصفاته، وأعماله، وظروفه، وأحواله في التوراة، وكتب الأنبياء، وفي ثنايا سطورها نجد المسيح في كل جملة، وفي كل إصحاح، وفي كل سفر من أسفارها. وما حروفها وكلماتها إلا خطوط أو ظلال لصورة المسيح المجيدة. . . فنحن المسيحيين لا نهتم أين نفتح التوراة وكتب الأنبياء لنجد الكلام عن المسيح. . . "(١)، ورغم ما في الكلام من مبالغة، فإننا نستشف منه أهمية النصوص التوارتية في الدلالة على المسيح.

ولسفر المزامير وموضوع الصلب شأن خاص، يصفه سرجيوس فيقول: " أما سفر المزامير فكان الهالة التي أحاطت بكوكب يسوع، فتكلم حتى عن إحساساته العميقة، وآلامه المبرحة، ناهيك عن صفاته وألقابه، أكثر من أي نبي آخر، ويمكننا القول : إن سفر المزامير هو سفر "مسِيّا" الخاص، بدليل أن الاقتباسات التي اقتبسها كتبة العهد القديم من سفر المزامير هذا بلغت نصف الاقتباسات المأخوذة من العهد القديم كله ".

المطلب الثاني: البحث في المزامير وتوجيهها:

دعونا نتجرد ونبحث عن الجواب الصحيح في سفر المزامير الذي فاقت أهميته عند اللاهوتيين جميع الأسفار، ولسوف نستعرض في هذه العجالة ثلاثة عشر مزمورًا فقط، من نبوءات المزامير، وهي تتحدث عن المسيح المصلوب.

أولًا: المزمور الثاني (نبوءة عن المؤامرة الفاشلة لصلب المسيح).

وفيه: " ١ لِمَاذَا ارْتَجَّتِ الأُمَمُ، وَتَفَكَّرَ الشُّعُوبُ فِي الْبَاطِلِ؟ ٢ قَامَ مُلُوكُ الأَرْضِ، وَتَآمَرَ الرُّؤَسَاءُ مَعًا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَى مَسِيحِهِ، قَائِلِينَ: ٣«لِنَقْطَعْ قُيُودَهُمَا، وَلْنَطْرَحْ عَنَّا رُبُطَهُمَا ٤اَلسَّاكِنُ فِي السَّمَاوَاتِ يَضْحَكُ. الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. ٥حِينَئِذٍ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِمْ بِغَضَبِهِ، وَيَرْجُفُهُمْ بِغَيْظِهِ. " (المزمور ٢/ ١ – ٥).

والمزمور الثاني يراه العلماء النصارى نبوءة بالمسيح الموعود.

(١) انظر: دعوة الحق بين المسيحية والإسلام، منصور حسين عبد العزيز (٤٢ – ٤٣).

يقول د. هاني رزق في كتابه "يسوع المسيح ناسوته وألوهيته" عن هذا المزمور:

" وقد تحققت هذه النبوءة في أحداث العهد الجديد، إن هذه النبوءة تشير إلى تآمر وقيام ملوك ورؤساء الشعب على يسوع المسيح لقتله وقطعه من الشعب، وهذا ما تحقق في أحداث العهد الجديد في فترتين، في زمان وجود يسوع المسيح له المجد في العالم " ويقصد تآمر هيرودس في طفولة المسيح، ثم تآمر رؤساء الكهنة لصلب المسيح.

ووافقه "فخري عطية" في كتابه "دراسات في سفر المزامير" و"حبيب سعيد" في كتابه "من وحي القيثارة " وويفل كوبر في كتابه "مسيا عمله الفدائي" وياسين منصور في كتابه "الصليب في جميع الأديان "، فيرى هؤلاء جميعًا أن المزمور نبوءة بالمسيح المصلوب. (١)

وقولهم بأن النص نبوءة بالمسيح تصديق لما ورد في سفر أعمال الرسل: " ٢٤فَلَمَّا سَمِعُوا، رَفَعُوا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ صَوْتًا إِلَى اللهِ وَقَالُوا: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَنْتَ هُوَ الإِلهُ الصَّانِعُ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، ٢٥الْقَائِلُ بِفَمِ دَاوُدَ فَتَاكَ: لِمَاذَا ارْتَجَّتِ الأُمَمُ وَتَفَكَّرَ الشُّعُوبُ بِالْبَاطِلِ؟ ٢٦قَامَتْ مُلُوكُ الأَرْضِ، وَاجْتَمَعَ الرُّؤَسَاءُ مَعًا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَى مَسِيحِهِ. ٢٧لأَنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ اجْتَمَعَ عَلَى فَتَاكَ الْقُدُّوسِ يَسُوعَ، الَّذِي مَسَحْتَهُ، هِيرُودُسُ وَبِيلاَطُسُ الْبُنْطِيُّ مَعَ أُمَمٍ وَشُعُوبِ إِسْرَائِيلَ، ٢٨لِيَفْعَلُوا كُلَّ مَا سَبَقَتْ فَعَيَّنَتْ يَدُكَ وَمَشُورَتُكَ أَنْ يَكُونَ. . . " (أعمال ٤/ ٢٤-٣١).

ولا نرى مانعًا في موافقتهم بأن المزمور نبوءة عن المسيح، فالمزمور يتحدث عن مؤامرات اليهود عليه، وهذا لا خلاف عليه بين المسلمين والنصارى، وإنما الخلاف: هل نجحوا أم لا؟ فبماذا يجيب النص؟.

يجيب المزمور بأن الله ضحك منهم واستهزأ بهم، وأنه حينئذ، أي في تلك اللحظة أرجف المتآمرين بغيظه وغضبه. فهل يكون ذلك دليل نجاحهم في صلب المسيح، أم أن الرب يضحك لنجاة عبده المسيح من بين أيديهم، ووقوعهم في شر أعمالهم؟

---

(١) انظر: يسوع المسيح ناسوته وألوهيته، د. هاني رزق (٤٦)، دراسات في سفر المزامير، فخري عطية (٦١-٦٦)، ومن وحي القيثارة، حبيب سعيد (١٨)، ومسيّا عمله الفدائي، ويفل كوبر (٣٢)، والصليب في جميع الأديان، يسي منصور (١٣)، نقلًا عن "دعوة الحق بين المسيحية والإسلام (٥١- ٥٢).

ويفسر المزمور السابع والثلاثون سبب ضحك الرب واستهزائه، فيقول: "١٢الشِّرِّيرُ يَتَفَكَّرُ ضِدَّ الصِّدِّيقِ وَيُحَرِّقُ عَلَيْهِ أَسْنَانَهُ. ١٣الرَّبُّ يَضْحَكُ بِهِ لأَنَّهُ رَأَى أَنَّ يَوْمَهُ آتٍ! ١٤الأَشْرَارُ قَدْ سَلُّوا السَّيْفَ وَمَدُّوا قَوْسَهُمْ لِرَمْيِ الْمِسْكِينِ وَالْفَقِيرِ، لِقَتْلِ الْمُسْتَقِيمِ طَرِيقُهُمْ. ١٥سَيْفُهُمْ يَدْخُلُ فِي قَلْبِهِمْ، وَقِسِيُّهُمْ تَنْكَسِرُ. " (المزمور ٣٧/ ١٢-١٥)، لقد ضحك الرب لفشل المؤامرة، وعودها على أصحابها، فقد وقعوا في الحفرة التي حفروها للمسيح الذي نجاه الله بقوته.

ثانيًا: المزمور السابع (نبوءة عن عود المؤامرة على أصحابها).

وفيه نقرأ: " ١يَا رَبُّ إِلهِي، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. خَلِّصْنِي مِنْ كُلِّ الَّذِينَ يَطْرُدُونَنِي وَنَجِّنِي، ٢لِئَلاَّ يَفْتَرِسَ كَأَسَدٍ نَفْسِي هَاشِمًا إِيَّاهَا وَلاَ مُنْقِذ ٣يَا رَبُّ إِلهِي، إِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ هذَا. إِنْ وُجِدَ ظُلْمٌ فِي يَدَيَّ. ٤إِنْ كَافَأْتُ مُسَالِمِي شَرًّا، وَسَلَبْتُ مُضَايِقِي بِلاَ سَبَبٍ، ٥فَلْيُطَارِدْ عَدُوٌّ نَفْسِي وَلْيُدْرِكْهَا، وَلْيَدُسْ إِلَى الأَرْضِ حَيَاتِي، وَلْيَحُطَّ إِلَى التُّرَابِ مَجْدِي. سِلاَهْ.

٦قُمْ يَا رَبُّ بِغَضَبِكَ. ارْتَفِعْ عَلَى سَخَطِ مُضَايِقِيَّ وَانْتَبِهْ لِي. بِالْحَقِّ أَوْصَيْتَ. ٧وَمَجْمَعُ الْقَبَائِلِ يُحِيطُ بِكَ، فَعُدْ فَوْقَهَا إِلَى الْعُلَى. ٨الرَّبُّ يَدِينُ الشُّعُوبَ. اقْضِ لِي يَا رَبُّ كَحَقِّي وَمِثْلَ كَمَالِي الَّذِي فِيَّ. ٩لِيَنْتَهِ شَرُّ الأَشْرَارِ وَثَبِّتِ الصِّدِّيقَ. فَإِنَّ فَاحِصَ القلوب والكلى الله الْبَارُّ. ١٠تُرْسِي عِنْدَ الله مُخَلِّصِ مُسْتَقِيمِي الْقُلُوبِ.

١١الله قَاضٍ عَادِلٌ، وَإِلهٌ يَسْخَطُ فِي كُلِّ يَوْمٍ. ١٢إِنْ لَمْ يَرْجعْ يُحَدِّدْ سَيْفَهُ. مَدَّ قَوْسَهُ وَهَيَّأَهَا، ١٣وَسَدَّدَ نَحوَهُ آلَةَ الْمَوْتِ. يَجْعَلُ سِهَامَهُ مُلْتَهِبَةً.

١٤هُوَذَا يَمْخَضُ بِالإِثْمِ. حَمَلَ تَعَبًا وَوَلَدَ كَذِبًا. ١٥كَرَا جُبًّا. حَفَرَهُ، فَسَقَطَ فِي الْهُوَّةِ الَّتِي صَنَعَ. ١٦يَرْجعُ تَعَبُهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَعَلَى هَامَتِهِ يَهْبِطُ ظُلْمُهُ. ١٧أَحْمَدُ الرَّبَّ حَسَبَ بِرِّهِ، وَأُرَنِّمُ لاسْمِ الرَّبِّ الْعَلِيِّ. " (المزمور ٧/ ١-١٧).

ولكن هل المزمور نبوءة تتعلق بالمسيح؟، والجواب نعم، فعلى قول الترنم في هذا المزمور: " اقْضِ لِي يَا رَبُّ كَحَقِّي وَمِثْلَ كَمَالِي الَّذِي فِيَّ.

" يعلق القديس جيروم فيقول: "لا يقدر داود أن يذكر هذه الكلمات عن نفسه، إنما هي

بالحقيقة تخص المخلص الكامل الذي لم يخطئ قط"[1] فهو يرى أن هذا المزمور نبوءة عن المسيح.

ويؤكد ذلك فخري عطية في كتاب " دراسات في المزامير " فيقول عن هذا المزمور: " واضح أنه من مزامير البقية، إذ يشير إلى زمن ضد المسيح، وفيه نسمع صوت البقية، ومرة أخرى نجد روح المسيح ينطق على فم داود بالأقوال التي تعبر عن مشاعر تلك البقية المتألمة، في أيام الضيق العظيمة". [2]

والربط واضح وبيّن بين دعاء المزمور المستقبلي " ١يَا رَبُّ إِلهِي، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. خَلِّصْنِي مِنْ كُلِّ الَّذِينَ يَطْرُدُونَنِي وَنَجِّنِي. . . " وبين دعاء المسيح ليلة أن جاءوا للقبض عليه " إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ".

ثم يطلب الداعي من الله عونًا؛ أن يرفعه إلى فوق، في لحظة ضيقه "فَعُدْ فَوْقَهَا إِلَى الْعُلَى "، ويشير إلى حصول ذلك في لحظة الإحاطة به " ٧وَمَجْمَعُ الْقَبَائِلِ يُحِيطُ بِكَ، فَعُدْ فَوْقَهَا إِلَى الْعُلَى. ".

ثم يذكر المزمور بأن" ١١الله قَاضٍ عَادِلٌ" فهل من العدل أن يصلب المسيح أم يهوذا؟ ثم يدعو الداعي في المزمور الله أن يثبت الصديق، وأن ينتهي شر الأشرار، ويؤكد لجوءه إلى الله، مخلص القلوب المستقيمة.

ثم يتحدث المزمور عن خيانة يهوذا. وقد جاء ". مَدَّ قَوْسَهُ وَهَيَّأَهَا، ١٣وَسَدَّدَ نَحوَهُ آلَةَ الْمَوْتِ. يَجْعَلُ سِهَامَهُ مُلْتَهِبَةً. " (القُبلة الآثمة) " يَجْعَلُ سِهَامَهُ مُلْتَهِبَةً".

ولكن حصل أمر عظيم، لقد انقلب السحر على الساحر، " ١٤هُوَذَا يَمْخَضُ بِالإِثْمِ. حَمَلَ تَعَبًا وَوَلَدَ كَذِبًا. ١٥كَرَا جُبًّا. حَفَرَهُ، فَسَقَطَ فِي الْهُوَّةِ الَّتِي صَنَعَ. ١٦يَرْجعُ تَعَبُهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَعَلَى هَامَتِهِ يَهْبِطُ ظُلْمُهُ. " لقد ذاق يهوذا ما كان حفره لسيده المسيح، ونجا المسيح من مجمع القبائل إلى العلا. لقد تحقق في يهوذا سنة الله وعادته في عقوبة الخائنين " ٢٧مَنْ يَحْفِرُ حُفْرَةً يَسْقُطُ فِيهَا، وَمَنْ يُدَحْرِجُ حَجَرًا يَرْجعُ عَلَيْهِ. " (الأمثال ٢٦/ ٢٧).

---

(١) كتاب المزامير، القمّص تادرس يعقوب ملطي (١٥٣).

(٢) دراسات في سفر المزامير، فخري عطية (١١٨).

وفي موضع آخر: "٢٢الشِّرِّيرُ تَأْخُذُهُ آثَامُهُ وَبِحِبَالِ خَطِيَّتِهِ يُمْسَكُ. ٢٣إِنَّهُ يَمُوتُ مِنْ عَدَمِ الأَدَبِ، وَبِفَرْطِ حُمْقِهِ يَتَهَوَّرُ. " (الأمثال ٥/ ٢٢-٢٣).

وفي سفر الجامعة: "مَنْ يَحْفُرْ هُوَّةً يَقَعُ فِيهَا، وَمَنْ يَنْقُضْ جِدَارًا تَلْدَغْهُ حَيَّةٌ. " (الجامعة ١٠/ ٨).

وهذا ما أسفر عنه المزمور التاسع بوضوح حين قال: " ٤لأَنَّكَ أَقَمْتَ حَقِّي وَدَعْوَايَ. جَلَسْتَ عَلَى الْكُرْسِيِّ قَاضِيًا عَادِلًا. ٥انْتَهَرْتَ الأُمَمَ. أَهْلَكْتَ الشِّرِّيرَ. . . . ١٥تَوَرَّطَتِ الأُمَمُ فِي الْحُفْرَةِ الَّتِي عَمِلُوهَا. فِي الشَّبَكَةِ الَّتِي أَخْفَوْهَا انْتَشَبَتْ أَرْجُلُهُمْ. ١٦مَعْرُوفٌ هُوَ الرَّبُّ. قَضَاءً أَمْضَى. الشِّرِّيرُ يَعْلَقُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ. " (المزمور ٩/ ٤ - ١٦)، فهل تراه علق يهوذا بشرِّ يديه أم نجا من قانون الله وقضائه، وأفلت من الشبكة التي نصبها للمسيح؟

ثم ينتهي المزمور بحمد الله على هذه العاقبة "١٧أَحْمَدُ الرَّبَّ حَسَبَ بِرِّهِ، وَأُرَنِّمُ لاسْمِ الرَّبِّ الْعَلِيِّ. " وهكذا نرى في هذا المزمور صورة واضحة لما حصل في ذلك اليوم، حيث نجى الله ﷻ نبيه، وأهلك يهوذا.

ولا مخرج للنصارى إزاء هذا النص إلا إنكاره، أو التسليم له، والقول بأن المسيح له ظلم، وله إثم، وأنه ذاق ما كان يستحقه، وأن الله عادل؛ بقضائه قتل المسيح، وأن ذلك أعدل وأفضل من القول بنجاته؛ وصلبِ يهوذا الظالم الآثم، جزاءً لفعله وخيانته، وإلا فعليهم الرجوع إلى معتقد المسلمين؛ بأن النص نبوءة عن يهوذا الخائن. [1]

ثالثا: المزمور العشرون (نبوءة باستجابة الله وتخليصه للمسيح وسقوط أعدائه).

وفيه: "١لِيَسْتَجِبْ لَكَ الرَّبُّ فِي يَوْمِ الضِّيقِ. لِيَرْفَعْكَ اسْمُ إِلهِ يَعْقُوبَ. ٢لِيُرْسِلْ لَكَ عَوْنًا مِنْ قُدْسِهِ، وَمِنْ صِهْيَوْنَ لِيَعْضُدْكَ. ٣لِيَذْكُرْ كُلَّ تَقْدِمَاتِكَ، وَيَسْتَسْمِنْ مُحْرَقَاتِكَ. سِلاَهْ. ٤لِيُعْطِكَ حَسَبَ قَلْبِكَ، وَيُتَمِّمْ كُلَّ رَأْيِكَ. ٥نَتَرَنَّمُ بِخَلاَصِكَ، وَبِاسْمِ إِلهِنَا نَرْفَعُ رَايَتَنَا. لِيُكَمِّلِ الرَّبُّ كُلَّ سُؤْلِكَ. ٦اَلآنَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّبَّ مُخَلِّصُ مَسِيحِهِ، يَسْتَجِيبُهُ مِنْ سَمَاءِ قُدْسِهِ، بِجَبَرُوتِ خَلاَصِ يَمِينِهِ. ٧هؤُلاَءِ بِالْمَرْكَبَاتِ وَهؤُلاَءِ بِالْخَيْلِ، أَمَّا نَحْنُ فَاسْمَ الرَّبِّ

(١) دعوة الحق بين المسيحية والإسلام (٥٦ – ٥٧)، هل افتدانا المسيح على الصليب (٤٠ – ٤٢)

إِلهِنَا نَذْكُرُ. ٨هُمْ جَثَوْا وَسَقَطُوا، أَمَّا نَحْنُ فَقُمْنَا وَانْتَصَبْنَا. ٩يَا رَبُّ خَلِّصْ! لِيَسْتَجِبْ لَنَا الْمَلِكُ فِي يَوْمِ دُعَائِنَا! " (المزمور ٢٠/ ١ – ٩).

يقول هاني رزق في كتابه " يسوع المسيح في ناسوته ولاهوته ": " تنبأ داود النبي (١٠٥٦ ق. م)، و (حبقوق النبي ٧٢٦ ق. م)، بأن الرب هو المسيح المخلص، نبوءة داود النبي، مزمور ٢٠/ ٦ "٦اَلآنَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّبَّ مُخَلِّصُ مَسِيحِهِ. . . . "[(١)].

وفي كتاب " دراسات في سفر المزامير" يؤكد فخري عطية هذا، ويقول عن الفقرة السادسة من هذا المزمور: " في هذا العدد تعبير يشير في الكتب النبوية إلى ربنا يسوع المسيح نفسه، تعبير يستخدمه الشعب الأرضي عن المخلص العتيد ". [(٢)]

وتقول كنيسة السيدة العذراء بالفجالة في تفسيرها لسفر المزامير: "ويرى عدد من آباء اليهود أن هذا المزمور خاص بالمسيا، وهكذا رأى عدد من آباء الكنيسة (أثناسيوس وأغسطينيوس) أنه نبوءة عن آلام المسيح وانتصاره". [(٣)]

وتخلص الكنيسة إلى القول: "خلاص المسيح كان بقيامته" أي من الموت، وهذا بالضبط ما قاله البابا أثناسيوس الذي يرى أن هذا المزمور نبوءة عن المسيح المصلوب. [(٤)]

وهكذا فالسفر حديث ونبوءة عن المسيح، فهل تراه يتحدث عن المسيح المصلوب أو المسيح الناجي؟.

القراءة المتأنية لهذا المزمور ترينا أن داود صاحب المزمور يدعو الله طالبًا أن يستجيب لوليه الضعيف، داود يدعو الله أن ينجي المسيح، وأن يرفعه للسماء لما صنع من بر وخير

---

(١) يسوع المسيح وناسوته وألوهيته (٨٩ – ٩٠).

(٢) انظر: دراسات في سفر المزامير (٣٠٨).

(٣) تفسير سفر المزامير، كنيسة السيدة العذراء بالفجالة (٩٧)، وانظر: كتاب المزامير، القمّص تادرس يعقوب ملطي (٣٣٣).

(٤) تفسير سفر المزامير، كنيسة السيدة العذراء بالفجالة (٩٧)، وانظر: كتاب المزامير، القمّص تادرس يعقوب ملطي (٣٤١).

(تقدمات ومحرقات)، ويبتهل صاحب المزمور طالبًا النجاة له "في يوم الضيق"، "في يوم دعائنا"، وليس من يوم مرّ على المسيح أضيق من ذلك اليوم الذي دعا فيه طويلًا، طالبًا من الله أن يصرف عنه هذا الكأس " ٤٤وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ. " (لوقا ٢٢/ ٤٤).

ويطلب داود من الله إجابة دعاء المسكين وإعطاءه ملتمس شفتيه وسؤله وكل مراده "٤لِيُعْطِكَ حَسَبَ قَلْبِكَ، وَيُتَمِّمْ كُلَّ رَأْيِكَ. ٥نَتَرَنَّمُ بِخَلاَصِكَ، وَبِاسْمِ إِلهِنَا نَرْفَعُ رَايَتَنَا. لِيُكَمِّلِ الرَّبُّ كُلَّ سُؤْلِكَ. ".

وهذا العون والنجاء يطلبه له داود لما سبق وتقدم به المسيح من أعمال صالحة " ٣لِيَذْكُرْ كُلَّ تَقْدِمَاتِكَ، وَيَسْتَسْمِنْ مُحْرَقَاتِكَ ".

وينص المزمور على اسم المسيح، وأن الله خلصه من الموت في فقرة ظاهرة لا تخفى حتى على أعمى، فقد عرف داود نتيجة دعائه " ٦اَلآنَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّبَّ مُخَلِّصُ مَسِيحِهِ، يَسْتَجِيبُهُ مِنْ سَمَاءِ قُدْسِهِ، بِجَبَرُوتِ خَلاَصِ يَمِينِهِ. "، فالمزمور يذكر المسيح بالاسم، ويتحدث عن خلاصه، أن الله رفعه، وأنه أرسل له ملائكة يحفظونه " لِيَرْفَعْكَ اسْمُ إِلهِ يَعْقُوبَ. ٢لِيُرْسِلْ لَكَ عَوْنًا مِنْ قُدْسِهِ ".

ويبتهج المزمور لهذه النهاية السعيدة "٥نَتَرَنَّمُ بِخَلاَصِكَ، وَبِاسْمِ إِلهِنَا نَرْفَعُ رَايَتَنَا. ".

ويتحدث المزمور أيضًا عن تلك اللحظة العظيمة، لحظة الخلاص التي نجا فيها المسيح " ٨هُمْ جَثَوْا وَسَقَطُوا، أَمَّا نَحْنُ فَقُمْنَا وَانْتَصَبْنَا. "، فهو يتحدث عن لحظة وقوع الجند كما في يوحنا " ٦فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ. " (يوحنا ١٨/ ٦).

وهذه اللحظة العظيمة، لحظة الخلاص يسجلها أيضًا المزمور التاسع، فهي إحدى آيات الله وأعاجيبه في خلقه، "١أَحْمَدُ الرَّبَّ بِكُلِّ قَلْبِي. أُحَدِّثُ بِجَمِيعِ عَجَائِبِكَ. ٢أَفْرَحُ وَأَبْتَهِجُ بِكَ. أُرَنِّمُ لاسْمِكَ أَيُّهَا الْعَلِيُّ. ٣عِنْدَ رُجُوعِ أَعْدَائِي إِلَى خَلْفٍ، يَسْقُطُونَ وَيَهْلِكُونَ مِنْ قُدَّامِ وَجْهِكَ، ٤لأَنَّكَ أَقَمْتَ حَقِّي وَدَعْوَايَ. جَلَسْتَ عَلَى الْكُرْسِيِّ قَاضِيًا عَادِلًا.

٥انْتَهَرْتَ الأُمَمَ. أَهْلَكْتَ الشِّرِّيرَ. مَحَوْتَ اسْمَهُمْ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. " (المزمور ٩/ ١-٥).

فالقاضي العادل أهلك الشرير، عندما رجع المبطلون إلى خلف وسقطوا، لتتحقق الأعجوبة وينجو العبد البار، فيحمد الله لأنه " يَا رَافِعِي مِنْ أَبْوَابِ الْمَوْتِ " (المزمور ٩/ ١٣)، لقد انتشله من فم الموت، ونجاه.

كما سجل المزمور السابع والعشرون هذه اللحظة العظيمة فقال: " ٢عِنْدَ مَا اقْتَرَبَ إِلَيَّ الأَشْرَارُ لِيَأْكُلُوا لَحْمِي، مُضَايِقِيَّ وَأَعْدَائِي عَثَرُوا وَسَقَطُوا. . . . ٥لأَنَّهُ يُخَبِّئُنِي فِي مَظَلَّتِهِ فِي يَوْمِ الشَّرِّ. يَسْتُرُنِي بِسِتْرِ خَيْمَتِهِ. عَلَى صَخْرَةٍ يَرْفَعُنِي. " (المزمور ٢٧/ ٢-٥).

فدلالة هذا المزمور على نجاة المسيح أوضح من الشمس في رابعة النهار.

رابعًا: المزمور الحادي والعشرون (نبوءة بفشل المؤامرة وإجابة طلب المسيح).

وفيه: "١يَا رَبُّ، بِقُوَّتِكَ يَفْرَحُ الْمَلِكُ، وَبِخَلاَصِكَ كَيْفَ لاَ يَبْتَهِجُ جِدًّا! ٢شَهْوَةَ قَلْبِهِ أَعْطَيْتَهُ، وَمُلْتَمَسَ شَفَتَيْهِ لَمْ تَمْنَعْهُ. سِلاَهْ. ٣لأَنَّكَ تَتَقَدَّمُهُ بِبَرَكَاتِ خَيْرٍ. وَضَعْتَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا مِنْ إِبْرِيزٍ. ٤حَيَاةً سَأَلَكَ فَأَعْطَيْتَهُ. طُولَ الأَيَّامِ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. ٥عَظِيمٌ مَجْدُهُ بِخَلاَصِكَ، جَلاَلًا وَبَهَاءً تَضَعُ عَلَيْهِ. ٦لأَنَّكَ جَعَلْتَهُ بَرَكَاتٍ إِلَى الأَبَدِ. تُفَرِّحُهُ ابْتِهَاجًا أَمَامَكَ. ٧لأَنَّ الْمَلِكَ يَتَوَكَّلُ عَلَى الرَّبِّ، وَبِنِعْمَةِ الْعَلِيِّ لاَ يَتَزَعْزَعُ. تُصِيبُ يَدُكَ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ. يَمِينُكَ تُصِيبُ كُلَّ مُبْغِضِيكَ. ٩تَجْعَلُهُمْ مِثْلَ تَنُّورِ نَارٍفِي زَمَانِ حُضُورِكَ. الرَّبُّ بِسَخَطِهِ يَبْتَلِعُهُمْ وَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ. ١٠تُبِيدُ ثَمَرَهُمْ مِنَ الأَرْضِ وَذُرِّيَّتَهُمْ مِنْ بَيْنِ بَنِي آدَمَ. ١١لأَنَّهُمْ نَصَبُوا عَلَيْكَ شَرًّا. تَفَكَّرُوا بِمَكِيدَةٍ. لَمْ يَسْتَطِيعُوهَا. ١٢لأَنَّكَ تَجْعَلُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ. تُفَوِّقُ السِّهَامَ عَلَى أَوْتَارِكَ تِلْقَاءَ وُجُوهِهِمْ. ١٣ارْتَفِعْ يَا رَبُّ بِقُوَّتِكَ. نُرَنِّمْ وَنُنَغِّمْ بِجَبَرُوتِكَ. " (المزمور ٢١/ ١ – ٣).

يقول فخري عطية في كتابه "دراسات في سفر المزامير": " إن المسيح هو المقصود بهذا المزمور" ووافقه كتاب " تأملات في المزامير " لآباء الكنيسة الصادر عن كنيسة مار جرجس باسبورتنج.[1]

---

(١) انظر: دراسات في سفر المزامير، فخري عطية (٣١١)، وتأملات في المزامير، لآباء الكنيسة القديسين الصادر عن كنيسة مارجرجس باسبورتنج (١٠).

ويعتبر القمص ملطي هذا المزمور من المزامير التي تنبأت عن المسيح، وينقل عن العلماء قولهم: "هذا المزمور مسياني، يعلم الترجوم والتلمود بأن الملك المذكور في هذا المزمور هو المسيّا"، ويعلق القمص ملطي بالقول: "بعض أجزاء من هذا المزمور (مثل عدد ٤) لا يمكن أن تنطبق حرفيًا إلا على المسيا". (١)

وقولهم صحيح، فقد حكى المزمور العشرون عن دعاء المسيح وعن استجابة الله له، ويحكي هذا المزمور (الواحد والعشرون) عن فرحه بهذه الاستجابة " ١يا رَبُّ، بِقُوَّتِكَ يَفْرَحُ الْمَلِكُ، وَبِخَلاَصِكَ كَيْفَ لاَ يَبْتَهِجُ جِدًّا. . . نُرَنِّمْ وَنُنَغِّمْ بِجَبَرُوتِكَ".

وينص المزمور أن الله أعطاه ما سأله وتمناه "٢شَهْوَةَ قَلْبِهِ أَعْطَيْتَهُ، وَمُلْتَمَسَ شَفَتَيْهِ لَمْ تَمْنَعْهُ"، وقد كان المسيح يطلب من الله بشفتيه النجاة من المؤامرة ": «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ" (متى ٢٦/ ٣٩)، لقد كان يخاف الموت، ويطلب من الله أن يصرفه عنه، وقد استجاب الله له كما في رسالة العبرانيين "٧الَّذِي، فِي أَيَّامِ جَسَدِهِ، إِذْ قَدَّمَ بِصُرَاخٍ شَدِيدٍ وَدُمُوعٍ طَلِبَاتٍ وَتَضَرُّعَاتٍ لِلْقَادِرِ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنَ الْمَوْتِ، وَسُمِعَ لَهُ مِنْ أَجْلِ تَقْوَاهُ" (عبرانيين ٥/ ٧)، لقد كان المسيح متيقنًا من استجابة الله له، فالله لا يرده أبدًا "وقال: ": «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، ٤٢وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي" (يوحنا ١١/ ٤٠) فقد سمع الله له وأجاب دعاءه.

ويذكر المزمور أن الله أعطاه حياة جديدة طويلة إلى قبيل قيام الساعة " ٤حَيَاةً سَأَلَكَ فَأَعْطَيْتَهُ. طُولَ الأَيَّامِ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. "، كما وضع عليه إكليل حياة، وهو غير إكليل الشوك الذي وضع على المصلوب، يقول المزمور: " وَضَعْتَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا مِنْ إِبْرِيزٍ. ".

ويحكي المزمور عن أعداء المسيح الذين تآمروا عليه وفكروا في " بِمَكِيدَةٍ. لَمْ يَسْتَطِيعُوهَا. " فهم لم يلحقوا الأذى به، فقد فشلت المؤامرة، لأنه رُفع " ١٣ارْتَفِعْ يَا رَبُّ بِقُوَّتِكَ. ".

وأما هؤلاء الأعداء: فترجع مكيدتهم عليهم " ٨تُصِيبُ يَدُكَ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ. يَمِينُكَ

(١) كتاب المزامير، القمّص تادرس يعقوب ملطي (٣٤٣-٣٤٤).

تُصِيبُ كُلَّ مُبْغِضِيكَ. ٩تَجْعَلُهُمْ مِثْلَ تَنُّورِ نَارٍفِي زَمَانِ حُضُورِكَ. الرَّبُّ بِسَخَطِهِ يَبْتَلِعُهُمْ وَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ. ١٠تُبِيدُ ثَمَرَهُمْ مِنَ الأَرْضِ وَذُرِّيَّتَهُمْ مِنْ بَيْنِ بَنِي آدَمَ. ١١لأَنَّهُمْ نَصَبُوا عَلَيْكَ شَرًّا. تَفَكَّرُوا بِمَكِيدَةٍ. لَمْ يَسْتَطِيعُوهَا. ١٢لأَنَّكَ تَجْعَلُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ. تُفَوِّقُ السِّهَامَ عَلَى أَوْتَارِكَ تِلْقَاءَ وُجُوهِهِمْ. "، فهل يقول أحد بعد ذا كله بأن المصلوب هو المسيح؟.

خامسًا: المزمور الثاني والعشرون (نبوءة بصلب الدودة العار، لا المسيح العظيم).

وفيه: " ١إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي، بَعِيدًا عَنْ خَلاَصِي، عَنْ كَلاَمِ زَفِيرِي؟ ٢إِلهِي، فِي النَّهَارِ أَدْعُو فَلاَ تَسْتَجِيبُ، فِي اللَّيْلِ أَدْعُو فَلاَ هُدُوَّ لِي. ٣وَأَنْتَ الْقُدُّوسُ الْجَالِسُ بَيْنَ تَسْبِيحَاتِ إِسْرَائِيلَ. ٤عَلَيْكَ اتَّكَلَ آبَاؤُنَا. اتَّكَلُوا فَنَجَّيْتَهُمْ. ٥إِلَيْكَ صَرَخُوا فَنَجَوْا. عَلَيْكَ اتَّكَلُوا فَلَمْ يَخْزَوْا. ٦أَمَّا أَنَا فَدُودَةٌ لاَ إِنْسَانٌ. عَارٌ عِنْدَ الْبَشَرِ وَمُحْتَقَرُ الشَّعْبِ. ٧كُلُّ الَّذِينَ يَرَوْنَنِي يَسْتَهْزِئُونَ بِي. يَفْغَرُونَ الشِّفَاهَ، وَيُنْغِضُونَ الرَّأْسَ قَائِلِينَ: ٨«اتَّكَلَ عَلَى الرَّبِّ فَلْيُنَجِّهِ، لِيُنْقِذْهُ لأَنَّهُ سُرَّ بِهِ». ٩لأَنَّكَ أَنْتَ جَذَبْتَنِي مِنَ الْبَطْنِ. جَعَلْتَنِي مُطْمَئِنًّا عَلَى ثَدْيَيْ أُمِّي. ١٠عَلَيْكَ أُلْقِيتُ مِنَ الرَّحِمِ. مِنْ بَطْنِ أُمِّي أَنْتَ إِلهِي. ١١لاَ تَتَبَاعَدْ عَنِّي، لأَنَّ الضِّيقَ قَرِيبٌ، لأَنَّهُ لاَ مُعِينَ. ١٢أَحَاطَتْ بِي ثِيرَانٌ كَثِيرَةٌ. أَقْوِيَاءُ بَاشَانَ اكْتَنَفَتْنِي. ١٣فَغَرُوا عَلَيَّ أَفْوَاهَهُمْ كَأَسَدٍ مُفْتَرِسٍ مُزَمْجِرٍ. ١٤كَالْمَاءِ انْسَكَبْتُ. انْفَصَلَتْ كُلُّ عِظَامِي. صَارَ قَلْبِي كَالشَّمْعِ. قَدْ ذَابَ فِي وَسَطِ أَمْعَائِي. ١٥يَبِسَتْ مِثْلَ شَقْفَةٍ قُوَّتِي، وَلَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي، وَإِلَى تُرَابِ الْمَوْتِ تَضَعُنِي. ١٦لأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِي كِلاَبٌ. جَمَاعَةٌ مِنَ الأَشْرَارِ اكْتَنَفَتْنِي. ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ. ١٧أُحْصِي كُلَّ عِظَامِي، وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَيَتَفَرَّسُونَ فِيَّ. ١٨يَقْسِمُونَ ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي يَقْتَرِعُونَ. " (المزمور ٢٢/ ١-١٨).

ويُجمع النصارى على أن هذا المزمور نبوءة عن المسيح، فقد اقتبس منه كُتّاب الأناجيل في سياق روايات الصلب، يقول متى: "٣٥وَلَمَّا صَلَبُوهُ اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ: «اقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقَوْا قُرْعَةً». " (متى ٢٧/ ٣٥)، ومثله في (يوحنا ١٩/ ٢٤).

والاقتباس من هذا المزمور في قوله: "١٨يَقْسِمُونَ ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي يَقْتَرِعُونَ.

"، كما أن الرواية التي في المزمور توافق رواية الصلب في صراخ المصلوب: " إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ " (متى ٢٧/ ٤٦)، (مرقس ١٥/ ٣٤).

ويوافق نص المزمور ما جاء في الأناجيل في بيان حال المصلوب " ٣٩وَكَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ ٤٠قَائِلِينَ: «يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ! ». ٤١وَكَذلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَيْضًا وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ مَعَ الْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ قَالُوا: ٤٢«خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الآنَ عَنِ الصَّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ! ٤٣قَدِ اتَّكَلَ عَلَى اللهِ، فَلْيُنْقِذْهُ الآنَ إِنْ أَرَادَهُ! لأَنَّهُ قَالَ: أَنَا ابْنُ اللهِ! ». " (متى ٢٧/ ٣٩ - ٤٣). فهذا يشبه ما جاء في هذا المزمور " وَمُحْتَقَرُ الشَّعْبِ. ٧كُلُّ الَّذِينَ يَرَوْنَنِي يَسْتَهْزِئُونَ بِي. يَفْغَرُونَ الشِّفَاهَ، وَيُنْغِضُونَ الرَّأْسَ قَائِلِينَ: ٨«اتَّكَلَ عَلَى الرَّبِّ فَلْيُنَجِّهِ، لِيُنْقِذْهُ لأَنَّهُ سُرَّ بِهِ». ".

كما يوافق النص الأناجيلَ كرّة أخرى في قوله: " جَمَاعَةٌ مِنَ الأَشْرَارِ اكْتَنَفَتْنِي. ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ. ١٧أُحْصِي كُلَّ عِظَامِي "، فهي عبارة تدل على أخذ المصلوب يوم سُمرت يداه ورجلاه على الصليب.

لهذا كله كان إجماع النصارى على أن هذا المزمور نبوءة عن حادثة الصلب، خاصة أن داود لم يمت مصلوبًا، فهو إذن يتحدث عن غيره.

والحق أن المزمور نبوءة عن المصلوب، لكنه ليس عيسى عليه السلام، بل هو الخائن يهوذا الأسخريوطي، فنراه وهو جزع، يائس، يصرخ: " إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ "، بينما المسيح عليه السلام يخبرنا أن الله يستجيب له دومًا " ٤٢وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. " (يوحنا ١١/ ٤٠)، ويؤكده كاتب رسالة العبرانيين بقوله: "٧الَّذِي، فِي أَيَّامِ جَسَدِهِ، إِذْ قَدَّمَ بِصُرَاخٍ شَدِيدٍ وَدُمُوعٍ طَلِبَاتٍ وَتَضَرُّعَاتٍ لِلْقَادِرِ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنَ الْمَوْتِ، وَسُمِعَ لَهُ مِنْ أَجْلِ تَقْوَاهُ" (عبرانيين ٥/ ٧).

المزمور نبوءة عن المصلوب اليائس الذي يدعو فلا يستجاب له "٢إِلهِي، فِي النَّهَارِ أَدْعُو فَلاَ تَسْتَجِيبُ، فِي اللَّيْلِ أَدْعُو فَلاَ هُدُوَّ لِي. . . ٤عَلَيْكَ اتَّكَلَ آبَاؤُنَا. اتَّكَلُوا فَنَجَّيْتَهُمْ.

٥إِلَيْكَ صَرَخُوا فَنَجَوْا. عَلَيْكَ اتَّكَلُوا فَلَمْ يَخْزَوْا. ٦أَمَّا أَنَا فَدُودَةٌ لاَ إِنْسَانٌ. . . ".

لقد وصف المزمور المصلوب بأنه " فَدُودَةٌ لاَ إِنْسَانٌ. عَارٌ عِنْدَ الْبَشَرِ وَمُحْتَقَرُ الشَّعْبِ" فمَن هو هذا اليائس الموصوف بأنه دودة، وأنه عار عند البشر، وأنه محتقر، وأنه لا يستجاب له؟

إنه يهوذا، حيث جعلتْه خستهُ وخيانتهُ كالدودة الحقيرة، وأصبح عارًا على البشر، كلَّ البشر، المسلمين واليهود والنصارى، بل وحتى البوذيين وغيرهم؛ لأنه خائن، والخيانة خسة وعار عند كل أحد، يحتقره الشعب، ولا يستجيب الله دعاءه.

والعجب لمن يصر على أن النبوءة عن المسيح، إذ كيف يوصف المسيح بالدودة والعار، وهو مجد وفخر للبشر؛ بل العار هو يهوذا.

ونلحظ أن النص يصف المصلوب بالدودة لمكانته عند الله، ويتضح هذا لمن تأمل المقابلة التي يجريها النص بين الآباء المقبولين عند الله، الذين يدعون الله فيستجيب لهم، وفي مقابل هؤلاء يقول المصلوب: " ٦أَمَّا أَنَا فَدُودَةٌ لاَ إِنْسَانٌ. . . . "، فهو دودة محتقرة عند الله الذي لا يستجيب دعاءه، ولا يقبله كما قبِل آباءه من قبل.

كما لا يفوتنا التنبيه على أن النص وصف المصلوب بالعار، ليس فقط عند جلاديه وأعدائه، بل عند البشر جميعًا، في كل أجيالهم، وجميع مِللهم، ولا يمكن أن يكون المسيح كذلك، بل تفخر البشرية أن فيها مثل هذا الرجل العظيم الذي اصطفاه الله برسالته ووحيه.

كما نلحظ أن كلمة "عار" تلحق بالشخص نفسه، لا الصلب الواقع عليه، فهو العار، وهو الدودة، وحاشا للمسيح العظيم أن يكون دودة أو عارًا عليه السلام.

لقد مجد الله المسيح فلم يكن عارًا، بل كان فخرًا وعزًا، وإن تاهت عنه عيون البعض، فرأوا مجده عارًا، ونجاته خزيًا، لقد غفلوا عن النبوءة القائلة: " ١عِنْدَ دُعَائِي اسْتَجِبْ لِي يَا إِلَهَ بِرِّي. فِي الضِّيقِ رَحَّبْتَ لِي. تَرَاءَفْ عَلَيَّ وَاسْمَعْ صَلاَتِي. ٢يَا بَنِي الْبَشَرِ، حَتَّى مَتَى يَكُونُ مَجْدِي عَارًا؟ حَتَّى مَتَى تُحِبُّونَ الْبَاطِلَ وَتَبْتَغُونَ الْكَذِبَ؟ سِلاَهْ. ٣فَاعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ قَدْ مَيَّزَ تَقِيَّهُ.

الرَّبُّ يَسْمَعُ عِنْدَ مَا أَدْعُوهُ. " (المزمور ٤/ ١-٣)، فخلاصه ﷺ هو المجد الذي لم يؤمن به النصارى، واعتبروه ﷺ لعنة وعارًا، لكنه كذب وباطل، فقد سمع الله دعاء تقيه ومسيحه.

سادسًا: المزمور التاسع والستون (نبوءة عن يهوذا المصلوب، صاحب الحماقات والذنوب).

وهذا المزمور نبوءة أخرى تتناول حادثة الصلب، وهو نبوءة متحدثة عن حادثة الصلب، فقد اقتبس منه كُتّاب الأناجيل، ورأوا فيه نبوءة عن المصلوب، تحققت – حسب رأيهم – في المسيح حين صلب، يقول يوحنا: " ٢٨بَعْدَ هذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ، فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ». ٢٩وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعًا مَمْلُوًّا خَلًّا، فَمَلأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ، وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ. ٣٠فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ الْخَلَّ قَالَ: «قَدْ أُكْمِلَ». وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. " (يوحنا ١٩/ ٢٨-٣٠)، أي كملت النبوءات والكتب، ومقصده ما جاء في الفقرة الحادية والعشرين من هذا المزمور، وفيها: "٢١وَيَجْعَلُونَ فِي طَعَامِي عَلْقَمًا، وَفِي عَطَشِي يَسْقُونَنِي خَلاًّ. ".

وأيضًا استشهد فيه بطرس في خطبته عن يهوذا، فقال: "٢٠لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي سِفْرِ الْمَزَامِيرِ: لِتَصِرْ دَارُهُ خَرَابًا وَلاَ يَكُنْ فِيهَا سَاكِنٌ. وَلْيَأْخُذْ وَظِيفَتَهُ آخَرُ. " (أعمال ١/ ٢٠).

فقول بطرس عن يهوذا: " لِتَصِرْ دَارُهُ خَرَابًا وَلاَ يَكُنْ فِيهَا سَاكِنٌ " اقتبسه بطرس من الفقرة الخامسة والعشرين في هذا المزمور: "٢٥لِتَصِرْ دَارُهُمْ خَرَابًا، وَفِي خِيَامِهِمْ لاَ يَكُنْ سَاكِنٌ" (المزمور ٦٩/ ٢٥).

يقول جامع تفسير أعمال الرسل من كتابات الآباء: "الروح القدس بفم داود قد تنبأ عن يهوذا في المزمورين ٦٩ و ١٠٩". [1]

فالمزمور نبوءة عن المصلوب بشهادة يوحنا، وهو في نفس الوقت نبوءة عن يهوذا الخائن بشهادة بطرس والمفسرين، أليس في هذا ما يستحق وقفة عند المؤمنين بصدق

(١) تفسير أعمال الرسل، جون ويسلي وآخرون (١١)، فقوله: " ٢٠لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي سِفْرِ الْمَزَامِيرِ: لِتَصِرْ دَارُهُ خَرَابًا وَلاَ يَكُنْ فِيهَا سَاكِنٌ. وَلْيَأْخُذْ وَظِيفَتَهُ آخَرُ. " إحالة إلى فقرتين من هذين المزمورين (انظر ٦٩/ ٢٥ و ١٠٩/ ٨)، وانظر: الإنجيل بحسب القديس متى (دراسة وتفسير وشرح)، الأب متى المسكين (٥٧٨).

شهادة العهد القديم؟ من هو صاحب الحماقات والذنوب الذي سقي الخل في عطشه؟ من تراه يكون: المسيح البار أم يهوذا الخائن؟.

السفر التوراتي وحده كفيل بالإجابة عن السؤال، وفيه يهتف المصلوب ويصرخ بيأس يرجو رحمة الله الذي لم يستجب له، فيقول: "١خَلِّصْنِي يَا اللهُ، لأَنَّ الْمِيَاهَ قَدْ دَخَلَتْ إِلَى نَفْسِي. ٢غَرِقْتُ فِي حَمْأَةٍ عَمِيقَةٍ، وَلَيْسَ مَقَرٌّ. دَخَلْتُ إِلَى أَعْمَاقِ الْمِيَاهِ، وَالسَّيْلُ غَمَرَنِي. ٣تَعِبْتُ مِنْ صُرَاخِي. يَبِسَ حَلْقِي. كَلَّتْ عَيْنَايَ مِنِ انْتِظَارِ إِلهِي. ٤أَكْثَرُ مِنْ شَعْرِ رَأْسِي الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي بِلاَ سَبَبٍ. اعْتَزَّ مُسْتَهْلِكِيَّ أَعْدَائِي ظُلْمًا. حِينَئِذٍ رَدَدْتُ الَّذِي لَمْ أَخْطَفْهُ. ٥يَا اللهُ أَنْتَ عَرَفْتَ حَمَاقَتِي، وَذُنُوبِي عَنْكَ لَمْ تَخْفَ. . . . ".

ويذكرنا المزمور بصراخ المصلوب اليائس " إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ "، وقد يبس حلقه، وكلّت عيناه، وما من مجيب.

ويعجب المصلوب لحال أولئك الذين أبغضوه وعلقوه بلا سبب، فقد جاء ليدلهم على المسيح، فإذا به يؤخذ بدلًا عنه، من غير أن يصنع سببًا واحدًا يستحق بغضهم له وصلبهم إياه.

لكنه يعلم أن سبب ما حاق به هو حماقته وذنوبه والعار، عار الخيانة الذي غطاه، فيقول: "٥يَا اللهُ أَنْتَ عَرَفْتَ حَمَاقَتِي، وَذُنُوبِي عَنْكَ لَمْ تَخْفَ. ٦لاَ يَخْزَ بِي مُنْتَظِرُوكَ يَا سَيِّدُ رَبَّ الْجُنُودِ. لاَ يَخْجَلْ بِي مُلْتَمِسُوكَ يَا إِلهَ إِسْرَائِيلَ. ٧لأَنِّي مِنْ أَجْلِكَ احْتَمَلْتُ الْعَارَ. غَطَّى الْخَجَلُ وَجْهِي. ٨صِرْتُ أَجْنَبِيًّا عِنْدَ إِخْوَتِي، وَغَرِيبًا عِنْدَ بَنِي أُمِّي. ٩لأَنَّ غَيْرَةَ بَيْتِكَ أَكَلَتْنِي، وَتَعْيِيرَاتِ مُعَيِّرِيكَ وَقَعَتْ عَلَيَّ. ١٠وَأَبْكَيْتُ بِصَوْمٍ نَفْسِي، فَصَارَ ذلِكَ عَارًا عَلَيَّ. ١١جَعَلْتُ لِبَاسِي مِسْحًا، وَصِرْتُ لَهُمْ مَثَلًا. ١٢يَتَكَلَّمُ فِيَّ الْجَالِسُونَ فِي الْبَابِ، وَأَغَانِيُّ شَرَّابِي الْمُسْكِرِ. ١٣أَمَّا أَنَا فَلَكَ صَلاَتِي يَا رَبُّ فِي وَقْتِ رِضًى. يَا اللهُ، بِكَثْرَةِ رَحْمَتِكَ اسْتَجِبْ لِي، بِحَقِّ خَلاَصِكَ. ١٤نَجِّنِي مِنَ الطِّينِ فَلاَ أَغْرَقَ. نَجِّنِي مِنْ مُبْغِضِيَّ وَمِنْ أَعْمَاقِ الْمِيَاهِ. ١٥لاَ يَغْمُرَنِّي سَيْلُ الْمِيَاهِ، وَلاَ يَبْتَلِعَنِّي الْعُمْقُ، وَلاَ تُطْبِقِ الْهَاوِيَةُ عَلَيَّ فَاهَا. ١٦اسْتَجِبْ لِي يَا رَبُّ لأَنَّ رَحْمَتَكَ صَالِحَةٌ. كَكَثْرَةِ مَرَاحِمِكَ الْتَفِتْ إِلَيَّ. ١٧وَلاَ تَحْجُبْ وَجْهَكَ عَنْ عَبْدِكَ،

لأَنَّ لِي ضِيْقًا. اسْتَجِبْ لِي سَرِيعًا. ١٨اقْتَرِبْ إِلَى نَفْسِي. فُكَّهَا. بِسَبَبِ أَعْدَائِي افْدِنِي. ١٩أَنْتَ عَرَفْتَ عَارِي وَخِزْيِي وَخَجَلِي. قُدَّامَكَ جَمِيعُ مُضَايِقِيَّ. ٢٠الْعَارُ قَدْ كَسَرَ قَلْبِي فَمَرِضْتُ. انْتَظَرْتُ رِقَّةً فَلَمْ تَكُنْ، وَمُعَزِّينَ فَلَمْ أَجِدْ. ٢١وَيَجْعَلُونَ فِي طَعَامِي عَلْقَمًا، وَفِي عَطَشِي يَسْقُونَنِي خَلاًّ. " (المزمور ٦٩/ ٥ - ٢١)، فمن هو صاحب الحماقة والذنوب والعار والخزي والخجل؟ من هو ذاك الذي كسر العار قلبه؟ إنه ذاك الذي سقوه الخل وهو على الصليب، هل يعقل أن نقول: إنه المسيح؟ لا وألف لا، إنه يهوذا الخائن.

لكن المصلوب البائس لا ييأس، فيواصل الصراخ والاستجداء طالبًا من الله الخلاص، مستعينًا فقط برحمة الله التي تسع كل شيء، ولكن بلا فائدة.

وتأتيه نتيجة دعائه وخيانته، إذ يقول السفر: "٢٢لِتَصِرْ مَائِدَتُهُمْ قُدَّامَهُمْ فَخًّا، وَلِلآمِنِينَ شَرَكًا. ٢٣لِتُظْلِمْ عُيُونُهُمْ عَنِ الْبَصَرِ، وَقَلْقِلْ مُتُونَهُمْ دَائِمًا. ٢٤صُبَّ عَلَيْهِمْ سَخَطَكَ، وَلْيُدْرِكْهُمْ حُمُوُّ غَضَبِكَ. ٢٥لِتَصِرْ دَارُهُمْ خَرَابًا، وَفِي خِيَامِهِمْ لاَ يَكُنْ سَاكِنٌ. ٢٦لأَنَّ الَّذِي ضَرَبْتَهُ أَنْتَ هُمْ طَرَدُوهُ، وَبِوَجَعِ الَّذِينَ جَرَحْتَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ. ٢٧اِجْعَلْ إِثْمًا عَلَى إِثْمِهِمْ، وَلاَ يَدْخُلُوا فِي بِرِّكَ. ٢٨لِيُمْحَوْا مِنْ سِفْرِ الأَحْيَاءِ، وَمَعَ الصِّدِّيقِينَ لاَ يُكْتَبُوا. " (المزمور ٦٩/ ٢٢-٢٨).

فمن تراه يكون هذا الهالك الذي صارت مائدته فخًا وشركًا للآمنين، لكن عميت عيونهم عن البصر، فلم تبصر الصديق، وهو ينجو، لقد باء الخائن بالإثم، وأصبحت داره خرابًا، ومحي اسمه من سفر الأحياء، فمات ولم يستجب له، كما حذف من قائمة الصديقين، فكتب مع الأشرار الهالكين، فمن تراه يكون؟ إنه يستحيل أن يكون السيد المسيح.

ثم يعود المزمور ليحدثنا عن المسيح الذي نجاه الله، فيقول عن نفسه: "٢٩أَمَّا أَنَا فَمِسْكِينٌ وَكَئِيبٌ. خَلاَصُكَ يَا اللهُ فَلْيُرَفِّعْنِي. ٣٠أُسَبِّحُ اسْمَ اللهِ بِتَسْبِيحٍ، وَأُعَظِّمُهُ بِحَمْدٍ. ٣١فَيُسْتَطَابُ عِنْدَ الرَّبِّ أَكْثَرَ مِنْ ثَوْرٍ بَقَرٍ ذِي قُرُونٍ وَأَظْلاَفٍ. ٣٢يَرَى ذلِكَ الْوُدَعَاءُ فَيَفْرَحُونَ، وَتَحْيَا قُلُوبُكُمْ يَا طَالِبِي اللهِ. ٣٣لأَنَّ الرَّبَّ سَامِعٌ لِلْمَسَاكِينِ وَلاَ يَحْتَقِرُ أَسْرَاهُ. ٣٤تُسَبِّحُهُ" (المزمور ٦٩/ ٢٩-٣٣)، لقد سمع الله دعاءه، وخلاص الله رفعه وإنجاؤه، ففرح بنجاته المؤمنون،

فالرب يسمع دعاء المساكين، لذا فهو يستحق المزيد من الحمد والتسبيح.

وقد يشكل على القارئ الكريم قوله: "١٣أَمَّا أَنَا فَلَكَ صَلاَتِي يَا رَبُّ فِي وَقْتِ رِضًى. يَا اللهُ، بِكَثْرَةِ رَحْمَتِكَ اسْتَجِبْ لِي، بِحَقِّ خَلاَصِكَ. . . . "، فيرى - خطئاً - أن هذا السائل المستغيث هو المسيح، وهذا فهم خاطئ، إذ السائل هنا يستغيث مستشفعًا بما سبق من صلوات له زمن صحبته للمسيح، ويشفعها بطلب الرحمات من الله الرحيم كثير الرحمات، وهو الحبل الوحيد الذي يتشبث به الغريق، ولو كان خائنًا فاجرًا.

أما المسيح عليه السلام فكان في دعائه المستجاب يستشفع بكماله وصلاحه وعبادته لله، ومنه قوله: " اقْضِ لِي يَا رَبُّ كَحَقِّي وَمِثْلَ كَمَالِي الَّذِي فِيَّ. " (المزمور ٧/ ٨).

ومثله في المزمور الواحد والأربعين "١٢أَمَّا أَنَا فَبِكَمَالِي دَعَمْتَنِي، وَأَقَمْتَنِي قُدَّامَكَ إِلَى الأَبَدِ. ١٣مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ، مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ. آمِينَ فَآمِينَ. " (المزمور ٤١/ -١٢- ١٣).

وقد أوضحته المزامير في مواضع، منها قوله: " أَذْلَلْتُ بِالصَّوْمِ نَفْسِي، وَصَلاَتِي إِلَى حِضْنِي تَرْجعُ. " (المزمور ٣٥/ ١٣)، وفي المزمور الواحد والتسعين " «لأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِي أُنَجِّيهِ. أُرَفِّعُهُ لأَنَّهُ عَرَفَ اسْمِي. ١٥يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَعَهُ أَنَا فِي الضِّيقِ، أُنْقِذُهُ وَأُمَجِّدُهُ" (المزمور ٩١/ ١٤- ١٥).

وكذا في المزمور العشرين اعتمد المسيح واتكل على صالح عمله وبره لله "١لِيَسْتَجِبْ لَكَ الرَّبُّ فِي يَوْمِ الضِّيقِ. لِيَرْفَعْكَ اسْمُ إِلهِ يَعْقُوبَ. ٢لِيُرْسِلْ لَكَ عَوْنًا مِنْ قُدْسِهِ، وَمِنْ صِهْيَوْنَ لِيَعْضُدْكَ. ٣لِيَذْكُرْ كُلَّ تَقْدِمَاتِكَ، وَيَسْتَسْمِنْ مُحْرَقَاتِكَ. " (المزمور ٢٠/ ٣).

سابعًا: المزمور الخامس والثلاثون (نبوءة بعود المؤامرة على أصحابها).

وهذا المزمور شاهد آخر يتحدث عن المسيح، فقد اقتبس منه يوحنا في إنجيله، حين قال: " وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي. ٢٥لكِنْ لِكَيْ تَتِمَّ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ فِي نَامُوسِهِمْ: إِنَّهُمْ أَبْغَضُونِي بِلاَ سَبَبٍ. " (يوحنا ١٥/ ٢٤-٢٥)، وهذا الاقتباس من الفقرة السابعة من المزمور، وفيها: " ٧لأَنَّهُمْ بِلاَ سبب أخفوا لِي هُوَّةَ شَبَكَتِهِمْ"، فهو متحدث عن

المسيح باتفاق النصارى، وبشهادة يوحنا.[1]

فهل كان المزمور نبوءة عن المسيح المصلوب، أم كان بشارة بنجاته ؟

يقول المزمور متحدثًا عن دعاء مؤمن محتاج إلى رعاية ربه وحمايته له من أعدائه، فيقول: " ١خَاصِمْ يَا رَبُّ مُخَاصِمِيَّ. قَاتِلْ مُقَاتِلِيَّ. ٢أَمْسِكْ مِجَنًّا وَتُرْسًا وَانْهَضْ إِلَى مَعُونَتِي، ٣وَأَشْرِعْ رُمْحًا وَصُدَّ تِلْقَاءَ مُطَارِدِيَّ. قُلْ لِنَفْسِي: «خَلاَصُكِ أَنَا». " (المزمور ٣٥/ ١-٣).

ويطلب ذلكم الداعي المؤمن من ربه أن يقع عدوه في الشبكة التي نصبها، ويطلب من الله أن يؤيده بالملائكة، فيقول: "٤لِيَخْزَ وَلْيَخْجَلِ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ نَفْسِي. لِيَرْتَدَّ إلى الوراء وَيَخْجَلِ الْمُتَفَكِّرُونَ بِإِسَاءَتِي. ٥لِيَكُونُوا مِثْلَ الْعُصَافَةِ قُدَّامَ الرِّيحِ، وَمَلاَكُ الرَّبِّ دَاحِرُهُمْ. ٦لِيَكُنْ طَرِيقُهُمْ ظَلاَمًا وَزَلَقًا، وَمَلاَكُ الرَّبِّ طَارِدُهُمْ. ٧لأَنَّهُمْ بِلاَ سبب أخفوا لي هُوَّةَ شَبَكَتِهِمْ. بِلاَ سبب حفروا لِنَفْسِي. ٨لِتَأْتِهِ التَّهْلُكَةُ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، وَلْتَنْشَبْ بِهِ الشَّبَكَةُ الَّتِي أَخْفَاهَا، وَفِي التَّهْلُكَةِ نَفْسِهَا لِيَقَعْ. " (المزمور ٣٥/ ٤ -٨)، لقد طلب الداعي المسكين من الله طُلبة في شأن عدوه، طلب منه أن يقتله بشبكته التي نصبها، أي في ذات المؤامرة التي سعى فيها، فهل استجاب الله لوليه أم خيبه؟.

السفر يجيب بوضوح أن الله استجاب له، ويبتهج بخلاص المسيح ونجاته "٩أَمَّا نَفْسِي فَتَفْرَحُ بِالرَّبِّ وَتَبْتَهِجُ بِخَلاَصِهِ. ١٠جَمِيعُ عِظَامِي تَقُولُ: «يَا رَبُّ، مَنْ مِثْلُكَ الْمُنْقِذُ الْمِسْكِينَ مِمَّنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ، وَالْفَقِيرَ وَالْبَائِسَ مِنْ سَالِبِهِ؟ ». ١١شُهُودُ زُورٍ يَقُومُونَ، وَعَمَّا لَمْ أَعْلَمْ يَسْأَلُونَنِي. ١٢يُجَازُونَنِي عَنِ الْخَيْرِ شَرًّا، ثَكَلًا لِنَفْسِي. ١٣أَمَّا أَنَا فَفِي مَرَضِهِمْ كَانَ لِبَاسِي مِسْحًا. أَذْلَلْتُ بِالصَّوْمِ نَفْسِي، وَصَلاَتِي إِلَى حِضْنِي تَرْجِعُ. " (المزمور ٣٥/ ٩-١٣).

ويعود المزمور للحديث عن أعدائه الذين عادوا بالخيبة، فيقول: " ١٩لاَ يَشْمَتْ بِي الَّذِينَ هُمْ أَعْدَائِي بَاطِلًا، وَلاَ يَتَغَامَزْ بِالْعَيْنِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي بِلاَ سَبَبٍ. ٢٠لأَنَّهُمْ لاَ يَتَكَلَّمُونَ بِالسَّلاَمِ، وَعَلَى الْهَادِئِينَ فِي الأَرْضِ يَتَفَكَّرُونَ بِكَلاَمِ مَكْرٍ. ٢١فَغَرُوا عَلَيَّ أَفْوَاهَهُمْ. قَالُوا: «هَهْ! هَهْ! قَدْ رَأَتْ أَعْيُنُنَا». ٢٢قَدْ رَأَيْتَ يَا رَبُّ، لاَ تَسْكُتْ. يَا سَيِّدُ، لاَ تَبْتَعِدْ عَنِّي. ٢٣اسْتَيْقِظْ وَانْتَبِهْ إِلَى حُكْمِي، يَا إِلهِي وَسَيِّدِي

(١) وانظر: قاموس الكتاب المقدس (٨٦٢).

إِلَى دَعْوَايَ. ٢٤اقْضِ لِي حَسَبَ عَدْلِكَ يَا رَبُّ إِلهِي، فَلاَ يَشْمَتُوا بِي. ٢٥لاَ يَقُولُوا فِي قُلُوبِهِمْ: «هَهْ! شَهْوَتُنَا». لاَ يَقُولُوا: «قَدِ ابْتَلَعْنَاهُ! ». ٢٦لِيَخْزَ وَلْيَخْجَلْ مَعًا الْفَرِحُونَ بِمُصِيبَتِي. لِيَلْبِسِ الْخِزْيَ وَالْخَجَلَ الْمُتَعَظِّمُونَ عَلَيَّ. ٢٧لِيَهْتِفْ ويفرح المبتغون حَقِّي، وَلْيَقُولُوا دَائِمًا: «لِيَتَعَظَّمِ الرَّبُّ الْمَسْرُورُ بِسَلاَمَةِ عَبْدِهِ». ٢٨وَلِسَانِي يَلْهَجُ بِعَدْلِكَ. الْيَوْمَ كُلَّهُ بِحَمْدِكَ. " (المزمور ٣٥/ ١٩-٢٨)، لقد كان دعاء حارًا من العبد المؤمن، وهو يطلب من الله العادل أن يخزي أعداءه الذين أبغضوه بلا سبب.

وقد استجاب الله له " ٩أَمَّا نَفْسِي فَتَفْرَحُ بِالرَّبِّ وَتَبْتَهِجُ بِخَلاَصِهِ. ١٠جَمِيعُ عِظَامِي تَقُولُ: «يَا رَبُّ، مَنْ مِثْلُكَ الْمُنْقِذُ الْمِسْكِينَ مِمَّنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ، وَالْفَقِيرَ وَالْبَائِسَ مِنْ سَالِبِهِ؟ ». ١١شُهُودُ زُورٍ يَقُومُونَ، وَعَمَّا لَمْ أَعْلَمْ يَسْأَلُونَنِي. ١٢يُجَازُونَنِي عَنِ الْخَيْرِ شَرًّا، ثَكَلًا لِنَفْسِي. ١٣أَمَّا أَنَا فَفِي مَرَضِهِمْ كَانَ لِبَاسِي مِسْحًا. أَذْلَلْتُ بِالصَّوْمِ نَفْسِي، وَصَلاَتِي إِلَى حِضْنِي تَرْجعُ. " (المزمور ٣٥/ ٩-١٣)، لقد شفع له عند ربه صلاته وصيامه ولباسه للمسوح عبادة لله وتذللًا.

ثامنًا: المزمور الأربعون (نبوءة باستجابة الله دعاء المسيح وفشل المؤامرة).

المزمور الأربعون شاهد آخر بنجاة المسيح وهلاك غيره من المتآمرين عليه، وقد اقتبس الكاتب المجهول للرسالة إلى العبرانيين من هذا المزمور، ليدلل لنا على أنه نبوءة عن المسيح فقال: " ٥لِذلِكَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: «ذَبِيحَةً وَقُرْبَانًا لَمْ تُرِدْ، وَلكِنْ هَيَّأْتَ لِي جَسَدًا. ٦بِمُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ لِلْخَطِيَّةِ لَمْ تُسَرَّ. ٧ثُمَّ قُلْتُ: هنَذَا أَجِيءُ. فِي دَرْجِ الْكِتَابِ مَكْتُوبٌ عَنِّي، لأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا اللهُ». " (عبرانيين ١٠/ ٥-٧).

وهو اقتباس من الفقرتين السادسة والسابعة من هذا المزمور، ففيهما يقول كاتب المزمور: "٦بِذَبِيحَةٍ وَتَقْدِمَةٍ لَمْ تُسَرَّ. أُذُنَيَّ فَتَحْتَ. مُحْرَقَةً وَذَبِيحَةَ خَطِيَّةٍ لَمْ تَطْلُبْ. ٧حِينَئِذٍ قُلْتُ: «هاأنذا جِئْتُ. بدرج الكتاب مَكْتُوبٌ عَنِّي: ٨أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلهِي سُرِرْتُ " (المزمور ٤٠/ ٦-٧).

ويؤكده اختيار محرري قاموس الكتاب المقدس لهذا المزمور ضمن المزامير المسيحية، وكذلك قول القس جيمس أنِس بأن هذا المزمور أحد المزامير "التي موضوعها آلام المسيح". (١)

فماذا يقول المزمور وقد ثبت أنه يتحدث عن المسيح؟

---

(١) انظر علم اللاهوت النظامي، جيمس أنس (٥١٥)، وانظر قاموس الكتاب المقدس (٤٣٢).

يبدأ المزمور بالبشارة باستجابة الله للمسيح وإنجائه له من المؤامرة؛ لأنه توكل على الله، فيقول: " اِنْتِظَارًا انْتَظَرْتُ الرَّبَّ، فَمَالَ إِلَيَّ وَسَمِعَ صُرَاخِي، ٢وَأَصْعَدَنِي مِنْ جُبِّ الْهَلاَكِ، مِنْ طِينِ الْحَمْأَةِ، وَأَقَامَ عَلَى صَخْرَةٍ رِجْلَيَّ. ثَبَّتَ خُطُوَاتِي، ٣وَجَعَلَ فِي فَمِي تَرْنِيمَةً جَدِيدَةً، تَسْبِيحَةً لإِلهِنَا. كَثِيرُونَ يَرَوْنَ وَيَخَافُونَ وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَى الرَّبِّ. ٤طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي جَعَلَ الرَّبَّ مُتَّكَلَهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الغطا ريس وَالْمُنْحَرِفِينَ إِلَى الْكَذِبِ. ٥كَثِيرًا مَا جَعَلْتَ أَنْتَ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي عَجَائِبَكَ وَأَفْكَارَكَ مِنْ جِهَتِنَا. لاَ تُقَوَّمُ لَدَيْكَ. لأُخْبِرَنَّ وَأَتَكَلَّمَنَّ بِهَا. زَادَتْ عَنْ أَنْ تُعَدَّ. ٦بِذَبِيحَةٍ وَتَقْدِمَةٍ لَمْ تُسَرَّ. أُذُنَيَّ فَتَحْتَ. مُحْرَقَةً وَذَبِيحَةَ خَطِيَّةٍ لَمْ تَطْلُبْ. ٧حِينَئِذٍ قُلْتُ: «هأنذا جِئْتُ. بدرج الكتاب مَكْتُوبٌ عَنِّي: ٨أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلهِي سُرِرْتُ، وَشَرِيعَتُكَ فِي وَسَطِ أَحْشَائِي». ٩بَشَّرْتُ بِبِرّ فِي جَمَاعَةٍ عَظِيمَةٍ. هُوَذَا شَفَتَايَ لَمْ أَمْنَعْهُمَا. أَنْتَ يَا رَبُّ عَلِمْتَ. ١٠لَمْ أَكْتُمْ عَدْلَكَ فِي وَسَطِ قَلْبِي. تكَلَّمْتُ بِأَمَانَتِك وَخَلاَصِكَ. لَمْ أُخْفِ رَحْمَتَكَ وَحَقَّكَ عَنِ الْجَمَاعَةِ الْعَظِيمَةِ. " (المزمور ٤٠/ ١-١٠).

ثم يعود المسيح للتضرع بين يدي الله طالبًا أن ينجيه من المؤامرة التي تحيط به، كما يطلب أن تحيق المؤامرة بالمتآمرين عليه، وأن يعودوا بالخزي والخجل حين يرتدون إلى الوراء "١١أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَلاَ تَمْنَعْ رَأْفَتَكَ عَنِّي. تَنْصُرُنِي رَحْمَتُكَ وَحَقُّكَ دَائِمًا. ١٢لأَنَّ شُرُورًا لاَ تُحْصَى قَدِ اكْتَنَفَتْنِي. حَاقَتْ بِي آثامِي، وَلاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُبْصِرَ. كَثُرَتْ أَكْثَرَ مِنْ شَعْرِ رَأْسِي، وَقَلْبِي قَدْ تَرَكَنِي. ١٣اِرْتَضِ يَا رَبُّ بِأَنْ تُنَجِّيَنِي. يَا رَبُّ، إِلَى مَعُونَتِي أَسْرِعْ. ١٤لِيَخْزَ وَلْيَخْجَلْ مَعًا الَّذِينَ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لإِهْلاَكِهَا. لِيَرْتَدَّ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلْيَخْزَ الْمَسْرُورُونَ بِأَذِيَّتِي. ١٥لِيَسْتَوْحِشْ مِنْ أَجْلِ خِزْيِهِمِ الْقَائِلُونَ لِي: «هَهْ! هَهْ! ». ١٦لِيَبْتَهِجْ وَيَفْرَحْ بِكَ جَمِيعُ طَالِبِيكَ. لِيَقُلْ أَبَدًا مُحِبُّو خَلاَصِكَ: «يَتَعَظَّمُ الرَّبُّ». ١٧أَمَّا أَنَا فَمِسْكِينٌ وَبَائِسٌ. الرَّبُّ يَهْتَمُّ بِي. عَوْنِي وَمُنْقِذِي أَنْتَ. يَا إِلهِي لاَ تُبْطِئْ. " (المزمور ٤٠/ ١١-١٧).

وقد كان كما طلب المسيح، فعادوا بالخزي والخجل، حين ارتدوا إلى الوراء، تلك اللحظة العظيمة التي سجلها يوحنا في إنجيله حين قال: "٦فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ. " (يوحنا ١٨/ ٦).

لقد طلب من الله أن ينقذه "١٧أَمَّا أَنَا فَمِسْكِينٌ وَبَائِسٌ. الرَّبُّ يَهْتَمُّ بِي. عَوْنِي وَمُنْقِذِي أَنْتَ. يَا إِلهِي لاَ تُبْطِئْ".

فلم تبطئ عنه معية الله "فَمَالَ إِلَيَّ وَسَمِعَ صُرَاخِي، ٢وَأَصْعَدَنِي مِنْ جُبِّ الْهَلاَكِ، مِنْ طِينِ الْحَمْأَةِ، وَأَقَامَ عَلَى صَخْرَةٍ رِجْلَيَّ. ثَبَّتَ خُطُوَاتِي".

كما سمع الله دعاءه بحق أعدائه، فعادوا بالخزي والخجل "١٤لِيَخْزَ وَلْيَخْجَلْ مَعًا الَّذِينَ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لإِهْلاَكِهَا. لِيَرْتَدَّ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلْيَخْزَ الْمَسْرُورُونَ بِأَذِيَّتِي".

تاسعًا: المزمور الواحد والأربعون (نبوءة بنجاة المسيح من مؤامرة تلميذه في يوم الضيق).

المزمور الواحد والأربعون هو أيضًا أحد الأسفار التي تحدثت عن نجاة المسيح وخيانة يهوذا له، وقد اقتبس منه يوحنا في ثنايا حديثه عن يهوذا فقال متنبئًا بخيانته: "١٧إِنْ عَلِمْتُمْ هذَا فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ. ١٨«لَسْتُ أَقُولُ عَنْ جَمِيعِكُمْ. أَنَا أَعْلَمُ الَّذِينَ اخْتَرْتُهُمْ. لكِنْ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ: اَلَّذِي يَأْكُلُ مَعِي الْخُبْزَ رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ." (يوحنا ١٣/ ١٧-١٨).

فقد اقتبس يوحنا من المزمور الواحد والأربعين الفقرة التاسعة وفيها: " ٩أَيْضًا رَجُلُ سَلاَمَتِي، الَّذِي وَثِقْتُ بِهِ، آكِلُ خُبْزِي، رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ!"، فالمزمور نبوءة عن المسيح بدليل قول المسيح: "لكِنْ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ". [1]

ودعونا نتأمل المزمور من أوله، حيث يتنبأ المزمور بنجاة المسيح في يوم ضيقه، فإن الرب حفظه ولم يسلمه لمرام أعدائه، فيقول: "١طُوبَى لِلَّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْمِسْكِينِ. فِي يَوْمِ الشَّرِّ يُنَجِّيهِ الرَّبُّ. ٢الرَّبُّ يَحْفَظُهُ وَيُحْيِيهِ. يَغْتَبِطُ فِي الأَرْضِ، وَلاَ يُسَلِّمُهُ إِلَى مَرَامِ أَعْدَائِهِ. ٣الرَّبُّ يَعْضُدُهُ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الضُّعْفِ. مَهَّدْتَ مَضْجَعَهُ كُلَّهُ فِي مَرَضِهِ." (المزمور ٤١/ ١-٣).

ثم يتحدث المزمور عن أعداء المسيح، وعن الخائن الذي وثق به، فيقول: "٥أَعْدَائِي يَتَقَاوَلُونَ عَلَيَّ بِشَرّ: «مَتَى يَمُوتُ وَيَبِيدُ اسْمُهُ؟» ٦وَإِنْ دَخَلَ لِيَرَانِي يَتَكَلَّمُ بِالْكَذِبِ. قَلْبُهُ يَجْمَعُ لِنَفْسِهِ إِثْمًا. يَخْرُجُ. فِي الْخَارِجِ يَتَكَلَّمُ. ٧كُلُّ مُبْغِضِيَّ يَتَنَاجَوْنَ مَعًا عَلَيَّ. عَلَيَّ تَفَكَّرُوا بِأَذِيَّتِي. ٨يَقُولُونَ: «أَمْرٌ رَدِيءٌ قَدِ انْسَكَبَ عَلَيْهِ. حَيْثُ اضْطَجَعَ لاَ يَعُودُ يَقُومُ». ٩أَيْضًا

---

(١) وانظر: قاموس الكتاب المقدس (٨٦٢).

رَجُلُ سَلاَمَتِي، الَّذِي وَثِقْتُ بِهِ، آكِلُ خُبْزِي، رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ! " (المزمور ٤١/ ٥-٩)، لقد كان تلميذه يهوذا، رجل سلامته أحد المتآمرين عليه.

لكن كمال المسيح وحسن طاعته لله نجياه من كيد عدوه، وأبطل مؤامرة يهوذا، فيقول المزمور: "١٠ أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَارْحَمْنِي وَأَقِمْنِي، فَأُجَازِيَهُمْ. ١١ بِهذَا عَلِمْتُ أَنَّكَ سُرِرْتَ بِي، أَنَّهُ لَمْ يَهْتِفْ عَلَيَّ عَدُوِّي. ١٢ أَمَّا أَنَا فَبِكَمَالِي دَعَمْتَنِي، وَأَقَمْتَنِي قُدَّامَكَ إِلَى الأَبَدِ. ١٣ مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ، مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ. آمِينَ فَآمِينَ. " (المزمور ٤١/ ١٠-١٣)، لقد سُر به ربه، ولم يهتف عليه عدوه، بل بكماله وصلاحه كتبت له النجاة.

خلاصة نبوءات المزامير

" مِن جماع ما تقدم لا نخلص إلا بأن المزامير تنبأت بحق بأن الله مخلص مسيحه، يستجيبه من سماء قدسه، يرفعه من أبواب الموت، يرفعه فوق القائمين عليه، يرسل من العُلا فيأخذه.

أما يهوذا الإسخريوطي الذي حفر له هذه الحفرة، وأتى على رأس الجمع من جنود وخدام ليقبضوا عليه، على المسيح سيده، فإنه في الحفرة نفسها يقع، وبعمل يديه يعلق، رجع تعبه على رأسه، وعلى هامته هبط ظُلمه، صار عارًا عند البشر، فقبض عليه هو بدلًا من المسيح، وحوكم هو، وصلب بدلًا منه.

وهكذا تستقيم النبوءة في المزامير، وهكذا تتجلى النبوءة في المزامير، في أسطع وأروع وأسمى ما تكون النبوءة، ليست آية نحرفها، أو كلمة نُحوّر معناها، بل صورة كاملة، عشرات الآيات، عشرات المزامير، كلها تنطق بصورة واحدة متكاملة، تتكرر كثيرًا، ولكن أبدًا لا تتغير.

هذه الحقيقة هي تلك التي نطق بها القرآن، واعتقدها المسلمون. . . ولمن يريد أن يزيد يقينًا، فها هي المزامير كلها في الكتاب المقدس، الذي يؤمن به المسيحيون، ويتداولونه، وإليها فليرجع، ولن يزيده هذا إلا يقينًا وتقديرًا لهذه الحقيقة التي انتهينا إليها. . ". [1]

المبحث الثالث: هل ما جاء في سفر إشعيا نبوءة عن صلب المسيح؟

---

(١) كان الاعتماد في هذا المبحث على دراسة الأستاذ حسين منصور في كتابه دعوة الحق بين المسيحية والإسلام (٥٠ – ١٢٠)، وتلخيص منقذ السقار لهذا المبحث من الكتاب السابق في كتابه هل افتدانا المسيح على الصليب؟ (٣٥– ٦٢).

يرى النصارى أن ثمة نبوءة في غير المزامير قد وردت عن صلب المسيح، ألا وهي ما جاء في إشعيا (٥٢، ٥٣) وفيه: " [١٣]هُوَذَا عَبْدِي يَعْقِلُ، يَتَعَالَى وَيَرْتَقِي وَيَتَسَامَى جِدًّا. [١٤]كَمَا انْدَهَشَ مِنْكَ كَثِيرُونَ. كَانَ مَنْظَرُهُ كَذَا مُفْسَدًا أَكْثَرَ مِنَ الرَّجُلِ، وَصُورَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي آدَمَ. [١٥]هكَذَا يَنْضِحُ أُمَمًا كَثِيرِينَ. مِنْ أَجْلِهِ يَسُدُّ مُلُوكٌ أَفْوَاهَهُمْ، لأَنَّهُمْ قَدْ أَبْصَرُوا مَا لَمْ يُخْبَرُوا بِهِ، وَمَا لَمْ يَسْمَعُوهُ فَهِمُوهُ. " (٥٢ / ١٣ – ١٥).

" [١]مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا، وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟ [٢]نَبَتَ قُدَّامَهُ كَفَرْخٍ وَكَعِرْق مِنْ أَرْضٍ يَابِسَةٍ، لاَ صُورَةَ لَهُ وَلاَ جَمَالَ فَنَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَلاَ مَنْظَرَ فَنَشْتَهِيَهُ. [٣]مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ، وَكَمُسَتَّرٍ عَنْهُ وُجُوهُنَا، مُحْتَقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدَّ بِهِ. لكِنَّ أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا، وَأَوْجَاعَنَا تَحَمَّلَهَا. وَنَحْنُ حَسِبْنَاهُ مُصَابًا مَضْرُوبًا مِنَ اللهِ وَمَذْلُولاً. [٥]وَهُوَ مَجْرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا. [٦]كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا. [٧]ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. [٨]مِنَ الضُّغْطَةِ وَمِنَ الدَّيْنُونَةِ أُخِذَ. وَفِي جِيلِهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ، أَنَّهُ ضُرِبَ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ شَعْبِي؟ [٩]وَجُعِلَ مَعَ الأَشْرَارِ قَبْرُهُ، وَمَعَ غَنِيٍّ عِنْدَ مَوْتِهِ. عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ ظُلْمًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي فَمِهِ غِشٌّ. [١٠]أَمَّا الرَّبُّ فَسُرَّ بِأَنْ يَسْحَقَهُ بِالْحَزَنِ. إِنْ جَعَلَ نَفْسَهُ ذَبِيحَةَ إِثْمٍ يَرَى نَسْلاً تَطُولُ أَيَّامُهُ، وَمَسَرَّةُ الرَّبِّ بِيَدِهِ تَنْجَحُ. [١١]مِنْ تَعَبِ نَفْسِهِ يَرَى وَيَشْبَعُ، وَعَبْدِي الْبَارُّ بِمَعْرِفَتِهِ يُبَرِّرُ كَثِيرِينَ، وَآثَامُهُمْ هُوَ يَحْمِلُهَا. [١٢]لِذلِكَ أَقْسِمُ لَهُ بَيْنَ الأَعِزَّاءِ وَمَعَ الْعُظَمَاءِ يَقْسِمُ غَنِيمَةً، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ، وَهُوَ حَمَلَ خَطِيَّةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُذْنِبِينَ. " (٥٣ / ١ – ١٢).

ويربط النصارى بين هذا السفر وبين ما جاء في مرقس " [٢٨]فَتَمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ». " (مرقس ١٥ / ٢٨)، ومقصوده كما لا يخفى ما جاء في إشعيا " سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ " ومثله في سفر أعمال الرسل. (انظر أعمال ٨/ ٢٢ – ٢٣).

والنص ولا ريب قد تعرض للكثير من التلاعب والتحوير، وتجزم بهذا التلاعب

عندما تلحظ غموض عباراته، وحين تقارن نص إشعيا مع ما جاء في أعمال الرسل، وهو ينقل عنه، وفيه " ٣٢وَأَمَّا فَصْلُ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ يَقْرَأُهُ فَكَانَ هذَا: «مِثْلَ شَاةٍ سِيقَ إِلَى الذَّبْحِ، وَمِثْلَ خَرُوفٍ صَامِتٍ أَمَامَ الَّذِي يَجُزُّهُ هكَذَا لَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. ٣٣فِي تَوَاضُعِهِ انْتُزِعَ قَضَاؤُهُ، وَجِيلُهُ مَنْ يُخْبِرُ بِهِ؟ لأَنَّ حَيَاتَهُ تُنْتَزَعُ مِنَ الأَرْضِ» " (أعمال ٨/ ٣٢- ٣٣)، فثمة فروق بين ما جاء في إشعياء وما نقله عنه أعمال الرسل.

فالنعجة في سفر إشعيا تحولت في أعمال الرسل إلى خروف، و ". ٨مِنَ الضُّغْطَةِ وَمِنَ الدَّيْنُونَةِ أُخِذَ. " أضحت: " ٣٣فِي تَوَاضُعِهِ انْتُزِعَ قَضَاؤُهُ ".

لكن الفارق الأكبر بين السفرين نجده في قول إشعيا: " وَفِي جِيلِهِ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ "، فيما يقول سفر الأعمال: " وَجِيلُهُ مَنْ يُخْبِرُ بِهِ؟ لأَنَّ حَيَاتَهُ تُنْتَزَعُ مِنَ الأَرْضِ ".

كما أن النص الكاثوليكي للسفر يزيد عبارة أسقطتها الطبعات البروتستنتية لما فيها من إبهام، ففي نسخة الشرق الأوسط الكاثوليكية "من الضيق والقضاء أُخذ، ومن يصف مولده، إنه قد انقطع من أرض الأحياء"، فقوله: "ومن يصف مولده" نص موجود في الترجمة السبعينية واللاتينية، وتسقطه النسخ التي اعتمدت النص العبراني فقط.

أما نسخة الرهبانية اليسوعية فقد حورت النص ليتلائم مع السياق الذي تريده، فجعلته "بالإكراه والقضاء أُخذ، فمن يفكر في مصيره، قد انقطع من أرض الأحياء"، فأضحى النص فيها متحدثًا عن صلب المسيح بدلًا من مولده! كما أضحى انتزاع حياته بالإكراه، لا مجرد ابتلاء وضيق.

وجاء في خاتمة القصة في سفر أعمال الرسل في نسخة الشرق الأوسط البرتستنتية، والأخرى الكاثوليكية أن فيلبُس مر مع العبد الحبشي على ماء " ٣٦وَفِيمَا هُمَا سَائِرَانِ فِي الطَّرِيقِ أَقْبَلاَ عَلَى مَاءٍ، فَقَالَ الْخَصِيُّ: «هُوَذَا مَاءٌ. مَاذَا يَمْنَعُ أَنْ أَعْتَمِدَ؟ » ٣٧فَقَالَ فِيلُبُّسُ: «إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ يَجُوزُ». فَأَجَابَ وَقَالَ: «أَنَا أُومِنُ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللهِ». ٣٨فَأَمَرَ أَنْ تَقِفَ الْمَرْكَبَةُ، فَنَزَلاَ كِلاَهُمَا إِلَى الْمَاءِ، فِيلُبُّسُ وَالْخَصِيُّ، فَعَمَّدَهُ. . . . " (أعمال

٨/ ٣٦-٣٨)، وهذا الحوار الذي جرى بعد رؤيتهما للماء لم تذكره نسخة شهود يهوه المسماة ترجمة العالم الجديد، كما حذفته نسخة الرهبانية اليسوعية الكاثوليكية، والنص فيها: "فقال الخصي: هذا ماء، فما يمنع أن أعتمد؟ ثم أمر بأن تقف المركبة، ونزلا كلاهما في الماء".

وهذه الفروق وذلك التحريف يدلنا على مدى الحرية التي تعامل بها القديسون أو المترجمون للنصوص الكتابية.

لكن التحريف الأكبر الذي صنعه النصارى لنص إشعيا هو اجتثاثه من سياقه الذي كان يتحدث عن عودة بني إسرائيل من السبي وفداء الله لهم وخلاصهم من ذلهم، فالقصة التوراتية لا تبدأ من حيث يبدأ النصارى "هوذا عبدي يعقل ويتسامى"، فإن الابتداء بها بتر للنص وإخراج له عن سياقه ومعناه الطبيعي، حيث يقول:

" ٤لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: «إِلَى مِصْرَ نَزَلَ شَعْبِي أَوَّلًا لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ. ثُمَّ ظَلَمَهُ أَشُّورُ بِلاَ سَبَبٍ. ٥فَالآنَ مَاذَا لِي هُنَا، يَقُولُ الرَّبُّ، حَتَّى أُخِذَ شَعْبِي مَجَّانًا؟ الْمُتَسَلِّطُونَ عَلَيْهِ يَصِيحُونَ، يَقُولُ الرَّبُّ، وَدَائِمًا كُلَّ يَوْمٍ اسْمِي يُهَانُ. ٦لِذلِكَ يَعْرِفُ شَعْبِيَ اسْمِي. لِذلِكَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَعْرِفُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ الْمُتَكَلِّمُ. هأَنَذَا». ٨صَوْتُ مُرَاقِبِيكِ. يَرْفَعُونَ صَوْتَهُمْ. يَتَرَنَّمُونَ مَعًا، لأَنَّهُمْ يُبْصِرُونَ عَيْنًا لِعَيْنٍ عِنْدَ رُجُوعِ الرَّبِّ إِلَى صِهْيَوْنَ. ٩أَشِيدِي تَرَنَّمِي مَعًا يَا خِرَبَ أُورُشَلِيمَ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ عَزَّى شَعْبَهُ. فَدَى أُورُشَلِيمَ. ١٠قَدْ شَمَّرَ الرَّبُّ عَنْ ذِرَاعِ قُدْسِهِ أَمَامَ عُيُونِ كُلِّ الأُمَمِ، فَتَرَى كُلُّ أَطْرَافِ الأَرْضِ خَلاَصَ إِلهِنَا. ١١اِعْتَزِلُوا، اعْتَزِلُوا. اخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ. لاَ تَمَسُّوا نَجِسًا. اخْرُجُوا مِنْ وَسَطِهَا. (في نسخة كتاب الحياة التفسيرية: اخرجوا من وسط بابل) تَطَهَّرُوا يَا حَامِلِي آنِيَةِ الرَّبِّ. ١٢لأَنَّكُمْ لاَ تَخْرُجُونَ بِالْعَجَلَةِ، وَلاَ تَذْهَبُونَ هَارِبِينَ. لأَنَّ الرَّبَّ سَائِرٌ أَمَامَكُمْ، وَإِلهَ إِسْرَائِيلَ يَجْمَعُ سَاقَتَكُمْ.

١٣هُوَذَا عَبْدِي يَعْقِلُ، يَتَعَالَى وَيَرْتَقِي وَيَتَسَامَى جِدًّا. . . " (إشعيا ٥٢/ ٣-١٣).

وبعد انتهاء النبوءة - المدعاة عن المسيح - عاد النص للحديث عن عزاء أمة بني إسرائيل بعد عذابها الطويل في بابل، فيقول مخاطبًا أورشليم: " ١«تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي

لَمْ تَلِدْ. أَشِيدِي بِالتَّرَنُّمِ أَيَّتُهَا الَّتِي لَمْ تَمْخَضْ، لأَنَّ بَنِي الْمُسْتَوْحِشَةِ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي ذَاتِ الْبَعْلِ، قَالَ الرَّبُّ. [٢] أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ، وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ. لاَ تُمْسِكِي. أَطِيلِي أَطْنَابَكِ وَشَدِّدِي أَوْتَادَكِ، [٣] لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إِلَى الْيَمِينِ وَإِلَى الْيَسَارِ، وَيَرِثُ نَسْلُكِ أُمَمًا، وَيُعْمِرُ مُدُنًا خَرِبَةً. [٤] لاَ تَخَافِي لأَنَّكِ لاَ تَخْزَيْنَ، وَلاَ تَخْجَلِي لأَنَّكِ لاَ تَسْتَحِينَ. فَإِنَّكِ تَنْسَيْنَ خِزْيَ صِبَاكِ، وَعَارُ تَرَمُّلِكِ لاَ تَذْكُرِينَهُ بَعْدُ. [٥] لأَنَّ بَعْلَكِ هُوَ صَانِعُكِ، رَبُّ الْجُنُودِ اسْمُهُ، وَوَلِيُّكِ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ، إِلهَ كُلِّ الأَرْضِ يُدْعَى. " (إشعيا ٥٤/ ١-٥).

لذا حق للمحققين أن يروا ما ورد في إشعيا نصًا حُور لفظًا ومعنىً لينطبق على المسيح، ودليل ذلك أن المسيح لم يخبر أن ما جاء في إشعيا نبوءة عنه المسيح، فالمسيح لم يشر إلى هذه النبوءة من قريب أو بعيد.

والمسلمون لا يرون في هذا النص أي نبوءة عن المسيح، ويستغربون ويستنكرون ربط النصارى بين نص إشعيا وقصة الصلب في الأناجيل، فنص إشعيا يتحدث وفي أكثر من موضع عن عبد، فيما يقول النصارى بألوهية المسيح، فكيف يجمعون بين عبوديته لله وألوهيته في وقت واحد.

وهذا العبد قبيح في منظره، مخذول محتقر لا يعتد به، فهو ليس المسيح على أي حال " [١٣] هُوَذَا عَبْدِي. . . كَانَ مَنْظَرُهُ كَذَا مُفْسَدًا أَكْثَرَ مِنَ الرَّجُلِ، وَصُورَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي آدَمَ. . . لاَ صُورَةَ لَهُ وَلاَ جَمَالَ فَنَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَلاَ مَنْظَرَ فَنَشْتَهِيَهُ. [٣] مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ، وَكَمُسَتَّرٍ عَنْهُ وُجُوهُنَا، مُحْتَقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدَّ بِهِ. " (إشعياء ٥٢ / ١٣، ٥٣ / ١)، أفهذه صورة المسيح عندهم؟.

والنص أيضًا يتحدث عن الذي " وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. " (إشعياء ٥٣ / ٧)، بينما المسيح تكلم مرارًا وتكرارًا، فقد تكلم طويلًا في البستان، وهو يناجي، طالبًا من الله أن يعبر عنه هذه الكأس. . . ثم نطق فقال لبيلاطس أثناء محاكمته: " أَنْتَ تَقُولُ: إِنِّي مَلِكٌ. لِهذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا، وَلِهذَا قَدْ

أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي». " (يوحنا ١٨/ ٣٧).

وكان قد قال له قبل: " «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا». " (يوحنا ١٨/ ٣٦).

كما تكلم في المحاكمة لما لطمه أحد الخدم فأجابه المسيح: ": «إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيًّا فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ، وَإِنْ حَسَنًا فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟ »" (يوحنا ١٨/ ٢٢).

فإن أصر النصارى بعد ذلك على أن النبوءة تنطبق على المسيح، فقد قالوا إذًا بأن المسيح تكلم وهو مغلق الفم! ! !

كما يذكر نص إشعيا شجاعة وتماسكًا لا تتناسب وصراخ المصلوب، وجزعه، وقنوطه، فالمصلوب لم يظهر كشاة أمام جازيها صامتة، " وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ "، بل كان يصرخ على الصليب: " إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ " (متى ٢٧/ ٤٦).

والنص متحدث عن صاحب نسل وولد، فيقول: " يَرَى نَسْلًا تَطُولُ أَيَّامُهُ" (إشعياء ٥٣ / ١٠)، وقد سُرّ الرب بعذابه وبالعاهات التي تصيبه "١٠أَمَّا الرَّبُّ فَسُرَّ بِأَنْ يَسْحَقَهُ بِالْحَزَنِ. "، والنص في النسخة الكاثوليكية يفسر الحزن بالعاهات، فيقول: "والرب رضي أن يسحقه بالعاهات"، وفي نسخة الرهبانية اليسوعية: "والرب رضي أن يسحق ذاك الذي أمرضه"، فهل يُسَرُّ الله لأحزان عبده البار، المسيح ﷺ، وهل كان المسيح مصابًا بعاهة من العاهات أو مرض من الأمراض؟

ويرى الأستاذ محمد الأفندي[1] أن لا علاقة بين هذا الإصحاح في إشعيا، وبين حادثة الصلب، فالإصحاح يتحدث عن قصة بني إسرائيل، وذلهم في بابل بسبب معاصيهم ومعاصي سلفهم، فحاق بهم عقوبة الله التي عمّت صالحيهم وفجارهم، ثم أنعم الله عليهم بالعود من بابل مرة أخرى إلى فلسطين، وهذا المعنى هو ما كان يتحدث عنه السياق التوراتي في سفر إشعيا.

وقوله: " ١٣هُوَذَا عَبْدِي. . . كَانَ مَنْظَرُهُ كَذَا مُفْسَدًا أَكْثَرَ مِنَ الرَّجُلِ، وَصُورَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي

(١) انظر: عقيدة الصلب والفداء، محمد رشيد رضا (١٠٦ - ١٢٢، ١٩٦)، فقد ضمنه كتاب الأفندي.

آدَمَ. . . لاَ صُورَةَ لَهُ وَلاَ جَمَالَ فَنَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَلاَ مَنْظَرَ فَنَشْتَهِيَهُ" فالمقصود بالعبد شعب إسرائيل.

وقد عُهد في التوراة إطلاق لفظ الفرد، والمراد الشعب كما في إشعيا: " خَالِقُكَ يَا يَعْقُوبُ وَجَابِلُكَ يَا إِسْرَائِيلُ: «لاَ تَخَفْ لأَنِّي فَدَيْتُكَ. دَعَوْتُكَ بِاسْمِكَ. أَنْتَ لِي. [٢]إِذَا اجْتَزْتَ فِي الْمِيَاهِ فَأَنَا مَعَكَ، وَفِي الأَنْهَارِ فَلاَ تَغْمُرُكَ. إِذَا مَشَيْتَ فِي النَّارِ فَلاَ تُلْذَعُ، وَاللهيبُ لاَ يُحْرِقُكَ. [٣]لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ، مُخَلِّصُكَ. جَعَلْتُ مِصْرَ فِدْيَتَكَ، كُوشَ وَسَبَا عِوَضَكَ. " (إشعيا ٤٣/ ١ - ٣)، وفي سفر ميخا: " [١٢]«إِنِّي أَجْمَعُ جَمِيعَكَ يَا يَعْقُوبُ. " (ميخا ٢/ ١٢)، ومثله في مواضع كثيرة، منها (إشعيا ٤١/ ٨) و (ميخا ١/ ٥)، والمقصود من ذلك كله شعب إسرائيل.

وفي إشعيا (٥٢، ٥٣) يتنبأ النبي عن غربة بني إسرائيل ويصف ذلتهم، ثم يتحدث عن عودة أبنائهم من أرض السبي " [٢]نَبَتَ قُدَّامَهُ كَفَرْخٍ وَكَعِرْق مِنْ أَرْضٍ يَابِسَةٍ " فقد عادوا للأرض المقدسة، ونبتوا فيها، من جديد، كما في سفر النبي إرمياء " [٦]وَأَجْعَلُ عَيْنَيَّ عَلَيْهِمْ لِلْخَيْرِ، وَأُرْجِعُهُمْ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ، وَأَبْنِيهِمْ وَلاَ أَهْدِمُهُمْ، وَأَغْرِسُهُمْ وَلاَ أَقْلَعُهُمْ. " (إرمياء ٢٤/ ٦)، وقوله: " [٤١]وَأَفْرَحُ بِهِمْ لأُحْسِنَ إِلَيْهِمْ، وَأَغْرِسُهُمْ فِي هذِهِ الأَرْضِ بِالأَمَانَةِ بِكُلِّ قَلْبِي وَبِكُلِّ نَفْسِي. " (إرمياء ٣٢/ ٤١).

وقد تغيرت صورتهم بسبب الذل فكان الشعب " [٣]مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ. . . وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا. " ويفسره قول إرميا وقد شاهد الأسر البابلي: " [٧]آبَاؤُنَا أَخْطَأُوا وَلَيْسُوا بِمَوْجُودِينَ، وَنَحْنُ نَحْمِلُ آثَامَهُمْ. [٨]عَبِيدٌ حَكَمُوا عَلَيْنَا. لَيْسَ مَنْ يُخَلِّصُ مِنْ أَيْدِيهِمْ. [٩]بِأَنْفُسِنَا نَأْتِي بِخُبْزِنَا مِنْ جَرَى سَيْفِ الْبَرِّيَّةِ. [١٠]جُلُودُنَا اسْوَدَّتْ كَتَنُّورٍ مِنْ جَرَى نِيرَانِ الْجُوعِ. " (المراثي ٥/ ٧-١٠).

وقوله: " [٧]ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ " كقول سفر إشعيا عن اضطهاد بني إسرائيل على يد الآشوريين: "«إِلَى مِصْرَ نَزَلَ شَعْبِي أَوَّلًا لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ. ثُمَّ ظَلَمَهُ أَشُّورُ بِلاَ سَبَبٍ. " (إشعيا ٥٢/ ٤)، وكقوله: " إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَنِي يَهُوذَا مَعًا مَظْلُومُونَ " (إرميا ٥٠/ ٣٣).

وأما قوله: " كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ. . . " فهو حديث ذبح ملك بابل لبني إسرائيل، وقد ساقهم كما تساق الشياه إلى الذبح، كما في قوله: " ٤٠أَنْزِلْهُمْ كَخِرَافٍ لِلذَّبْحِ وَكَكِبَاشٍ مَعَ أَعْتِدَةٍ. " (إرميا ٥١/ ٤٠) فمات أكثرهم جوعًا، ونحوه قوله عنهم: "١٩وَأَنَا كَخَرُوفٍ دَاجِنٍ يُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَلَمْ أَعْلَمْ أَنَّهُمْ فَكَّرُوا عَلَيَّ أَفْكَارًا، قَائِلِينَ: «لِنُهْلِكِ الشَّجَرَةَ بِثَمَرِهَا، وَنَقْطَعْهُ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ، فَلاَ يُذْكَرَ بَعْدُ اسْمُهُ». " (إرميا ١١/ ١٩).

وقوله: " ٩وَجُعِلَ مَعَ الأَشْرَارِ قَبْرُهُ، وَمَعَ غَنِيٍّ عِنْدَ مَوْتِهِ. " إشارة إلى أن دفنهم في بابل كان مع الوثنيين، ولا يمكن للنصارى حمله على المسيح المدفون - حسب كتابهم - وحده في بستان، في قبر جديد، لم يدفن فيه معه لا شرير ولا غني.

وقوله: " وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ " هو أيضًا يحكى عن وجود بني إسرائيل مع الوثنيين في بابل، ولا يصح أن يقال: الأثمة هما اللصان، إذ قد وعد أحدهما الفردوس، فكيف يوصف بعد ذلك بالآثم؟!

وقوله: " يَرَى نَسْلًا تَطُولُ أَيَّامُهُ"، وفي النسخة الكاثوليكية يتضح المعنى أكثر: "والرب رضي أن يسحقه بالعاهات، فإنه إذا جعل نفسه ذبيحة إثم يرى ذرية، وتطول أيامه"، وفي الترجمة التفسيرية المسماة كتاب الحياة: "فقد سُر الله أن يسحقه بالحزن، وحين يقدم نفسه ذبيحة إثم فإنه يرى نسله وتطول أيامه"، فالنص كما هو واضح ليس حديثًا عن المسيح الفادي، بل هو إشارة إلى تكفير الله خطايا بني إسرائيل بسبب توبتهم، حيث يرفع الله عنهم الاضطهادات، ويعيدهم إلى وطنهم، حيث تطول أيامهم ويعيشون ويتوالدون في فلسطين بعد السبي وآلامه وعاهاته وبلاياه.

وقوله: " عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ ظُلْمًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي فَمِهِ غِشٌّ. " حديث عن طهر أولئك الذين يعودون من السبي الذين عنهم " يَقُولُ الرَّبُّ، لأَنِّي أَصْفَحُ عَنْ إِثْمِهِمْ، وَلاَ أَذْكُرُ خَطِيَّتَهُمْ بَعْدُ. " (إرمياء ٣١/ ٣٤)، كما قال عنهم: "٧وَأَرُدُّ سَبْيَ يَهُوذَا وَسَبْيَ إِسْرَائِيلَ وَأَبْنِيهِمْ كَالأَوَّلِ. ٨وَأُطَهِّرُهُمْ مِنْ كُلِّ إِثْمِهِمِ الَّذِي أَخْطَأُوا بِهِ إِلَيَّ، وَأَغْفِرُ كُلَّ ذُنُوبِهِمِ الَّتِي أَخْطَأُوا بِهَا

إِلَيَّ، وَالَّتِي عَصَوْا بِهَا عَلَيَّ. " (إرمياء ٣٣/ ٧-٨).

وأما قوله: " وَعَبْدِي الْبَارُّ بِمَعْرِفَتِهِ يُبَرِّرُ كَثِيرِينَ، وَآثَامُهُمْ هُوَ يَحْمِلُهَا. " يتحدث كيف شمل البؤس بررة بني إسرائيل وعصاتهم، كما قال الله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ١٢٥).

وإكرامًا لهؤلاء البررة من بني إسرائيل، طهرهم الله من ذنبهم، ورفع عنهم هذه العقوبة، كما في إرميا: " يَقُولُ الرَّبُّ، يُطْلَبُ إِثْمُ إِسْرَائِيلَ فَلاَ يَكُونُ، وَخَطِيَّةُ يَهُوذَا فَلاَ تُوجَدُ، لأَنِّي أَغْفِرُ لِمَنْ أُبْقِيهِ. " (إرميا ٥٠/ ٢٠)، فقد حملوا خطيئة آبائهم، ثم غفرت ذنوبهم.

سوف يبدأ عهد جديد لا تضرس فيه أسنان الأبناء بحصرم آبائهم، ولا يعاقبون ثانية بجريرتهم، فقد تحملوا من آثامهم ما يكفي " ٢٩فِي تِلْكَ الأَيَّامِ لاَ يَقُولُونَ بَعْدُ: الآبَاءُ أَكَلُوا حِصْرِمًا، وَأَسْنَانُ الأَبْنَاءِ ضَرِسَتْ. ٣٠بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يَمُوتُ بِذَنْبِهِ. كُلُّ إِنْسَانٍ يَأْكُلُ الْحِصْرِمَ تَضْرَسُ أَسْنَانُهُ. ٣١«هَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَأَقْطَعُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْدًا جَدِيدًا. " (إرميا ٣١/ ٢٩-٣١). [١]

وهكذا فالإصحاح يتحدث عن شعب إسرائيل، وسبيه، وذلته، ثم نجاته. وهذا هو مفهوم النص عند اليهود وهم أصحاب الكتاب الأصليين، بل هو رأي كثير من المفسرين المسيحيين، كما نقل القس الخضري حين قال: "إن عددًا لا بأس به من المفسرين يتردد كثيرًا في نسب هذه النصوص إلى المسيح ظنًا منهم بأن النبي يتكلم عن إسرائيل كله كشخص محتقر مخذول ومطرود". [٢]

المبحث الرابع: إبطال وقوع صلب المسيح تاريخيًا.

عند الرجوع إلى التاريخ والتنقيب في رواياته وأخباره عن حقيقة حادثة الصلب، ومَن المصلوب فيها؟ يتبين الآتي:

---

(١) ينقل القس صموئيل عن بعض العلماء رأيه في معنى هذا النص أنه يشير "إلى الأبناء الذين ولدوا في أرض المعاناة والضيق، وكل كرب وألم في أرض سبيهم، وحملوا من إثم آبائهم في هذه الأرض الغريبة [بابل] ". المدخل إلى العهد القديم، القس الدكتور صموئيل يوسف (٢٩٨).

(٢) تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ٣٦).

١ - أن قدماء النصارى كُثُرٌ منهم ينكرون صلب المسيح، وقد ذكر المؤرخون النصارى أسماء فرق مسيحية كثيرة أنكرت الصلب.

وهذه الفرق هي: الباسيليديون والكورنثيون والكاربوكرايتون والساطرينوسية والماركيونية والبارديسيانية والسيرنثييون والبارسكاليونية والبولسية والماينسية، والتايتانيسيون والدوسيتية والمارسيونية والفلنطانيائية والهرمسيون.

وبعض هذه الفرق قريبة العهد بالمسيح، إذ يرجع بعضها للقرن الميلادي الأول ففي كتابه "الهرطقات مع دحضها " ذكر القديس الفونسو ماريا دي ليكوري أن من بدع القرن الأول قول فلوري: " إن المسيح قوة غير هيولية، وكان يتشكل ما شاء من الهيئات، ولذا لما أراد اليهود صلبه؛ أخذ صورة سمعان القروي، وأعطاه صورته، فصلب سمعان، بينما كان يسوع يسخر باليهود، ثم عاد غير منظور، وصعد إلى السماء. "

ويبدو أن هذا القول استمر في القرن الثاني، حيث يقول المفسر جون فنتون شارح متى: " إن إحدى الطوائف الغنوطسية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القيرواني قد صلب بدلًا من يسوع". (١)

فمن ذلك يتبين أنه في الفترة التي أعقبت رفع المسيح حتى كتابة الأناجيل قد وجد بين قدامى المسيحيين جماعات تنكر صلب المسيح وتؤمن بأن شخصا آخر قد صلب بدلا منه. (٢)

٢- كذلك وجدت جماعات أخرى تقول بأنه لم يمت على الصليب وإنما أنزل حيا، وهذا ما قاله الفيلسوف الألماني " فنتيوريني " في بداية القرن التاسع عشر حيث خلص من دراسة لما قيل عن الصلب والدفن إلى أن " يسوع قد أغمي عليه فقط، ثم أفاق فيما بعد نتيجة لبرودة القبر المنحوت في الصخرة ". (٣)

---

(١) شرح إنجيل متَّى لجون فنتون (ص ٤٤٠).

(٢) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٢٧٣، ٢٧٤)، وانظر تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ٢٠٧)، وقاموس الكتاب المقدس (١١١٢).

(٣) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (٢٧٤).

وقد نقل أوريجانوس تقليدًا شائعًا في عهده بأن يسوع كان يستطيع في حياته أن يغير شكله وقتما وكيفما يشاء، ويقول إن هذا كان السبب في ضرورة قلبه يهوذا الخائن؛ وإلا فإن المسيح كان معروفًا لدى عموم أهل أورشليم.[١]

٣- وقد استمر إنكار صلب المسيح، فكان من المنكرين الراهب تيودورس (٥٦٠م) والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص (٦١٠م) وغيرهم.

ولعل أهم هذه الفرق المنكرة لصلب المسيح الباسيليديون؛ الذين نقل عنهم سيوس في " عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانية " والمفسر جورج سايل القول بنجاة المسيح، وأن المصلوب هو سمعان القيرواني، وسماه بعضهم سيمون السيرناي، ولعل الاسمين لواحد.

وهذه الفرقة كانت تقول أيضًا ببشرية المسيح، يقول باسيليوس الباسليدي: " إن نفس حادثة القيامة المدعى بها بعد الصلب الموهوم هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح".

ولعل هؤلاء المنكرين لصلب المسيح قديمًا هم الذين عناهم جرجي زيدان حين قال: " الخياليون يقولون: إن المسيح لم يصلب، وإنما صلب رجل آخر مكانه ".[٢]

ومن هذه الفرق التي قالت بصلب غير المسيح بدلًا عنه: الكورنثيون والكربوكراتيون والسيرنثيون. يقول جورج سايل: إن السيرنثيين والكربوكراتيين، وهما من أقدم فرق النصارى، قالوا: إن المسيح نفسه لم يصلب ولم يقتل، وإنما صلب واحد من تلاميذه، يشبهه شبهًا تامًا، وهناك الباسيليديون يعتقدون أن شخصًا آخر صلب بدلًا من المسيح.

وثمة فِرق نصرانية قالت بأن المسيح نجا من الصلب، وأنه رفع إلى السماء، ومنهم الروسيتية والمرسيونية والفلنطنيائية. وهذه الفرق الثلاث تعتقد ألوهية المسيح، ويرون القول بصلب المسيح وإهانته لا يلائم البنوة والإلهية.[٣]

---

(١) انظر: دائرة المعارف الكتابية (مادة أبو كريفا).

(٢) أقانيم النصارى، أحمد حجازي السقا (٧٥)، الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي (٤٦٥ - ٤٦٦).

(٣) انظر: الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي (٤٦٥)، قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار (٥٠٣).

٤- كما تناقل علماء النصارى ومحققوهم إنكار صلب المسيح في كتبهم، وأهم من قال بذلك الحواري برنابا في إنجيله.

ويقول ارنست دي بوش الألماني في كتابه " الإسلام: أي النصرانية الحقة " ما معناه: إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح، لا في أصول النصرانية الأصلية.

ويقول ملمن في كتابه " تاريخ الديانة النصرانية ": " إن تنفيذ الحكم كان وقت الغلس، وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم كما اعتقد بعض الطوائف، وصدّقهم القرآن ". (١)

٥- وأخيرًا نذكر بما ذكرته دائرة المعارف البريطانية في موضوع روايات الصلب حيث جعلتها أوضح مثال للتزوير في الأناجيل.

ومن المنكرين أيضًا هيام ماكبي في كتاب " الدم المقدس، وكأس المسيح المقدس " وفيه أن السيد المسيح لم يصلب، وأنه غادر فلسطين، وتزوج مريم المجدلية، وأنهما أنجبا أولادًا، وأنه قد عثر على قبره في جنوب فرنسا، وأن أولاده سيرثون أوربا، ويصبحون ملوكًا عليها.

وذكر أيضًا أن المصلوب هو الخائن يهوذا الأسخريوطي، الذي صلب بدلًا من المسيح المرفوع. (٢)

وأما الطائفة التي يسميها القس الخضري بالرومانسيين (القرن التاسع عشر) فقد ذكروا أن المسيح " أنزل من على الصليب فاقد الوعي، وعالجه أطباء أسينيون إلى أن استرد قوته وظهر لتلاميذه الذين اعتقدوا أنه مات". (٣)

وهكذا فإن التاريخ أيضًا ناطق بالحقيقة، مُثبت لما ذكره القرآن عن نجاة المسيح

---

(١) انظر: الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي (٣٦٦)، قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار (٥٠٣).

(٢) انظر: دراسة تحليلية نقدية لإنجيل مرقس، محمد عبد الحليم أبو السعد، (٥٣٠ – ٥٣١).

(٣) تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري (١/ ١٥٨).

وصلب غيره. [١]

المبحث الخامس: عدم تنبؤ المسيح بصلبه.

تتحدث الأناجيل الأربعة عن صلب المسيح، كخاتمة لوجوده على الأرض، ولكن: هل تنبأ المسيح بأنه سيصلب؟ وهل عرف بذلك تلاميذه؟

لا تخطئ عين الناظر في الأناجيل أن ترى أن الإنجيليين نقلوا عن المسيح تنبؤه بتعرضه لمؤامرة تودي به إلى الموت والصلب، فهل تصح هذه الأقوال في نسبتها إلى السيد المسيح؟

الحقيقة أن خبر تنبؤ المسيح بقتله أو صلبه (انظر متى ١٧/ ٢٢ و٢٠/ ١٦، ٢٦/ ٢، ٢٦/ ٢٣)، قول دخيل على الأناجيل، ملحق بها، والأدلة على ذلك تتضح باستقراء عدد من الملاحظات التي يقوي بعضها بعضًا:

١- أن العبارة في إنجيل متى والتي يخبر فيها المسيح عن مؤامرة يتعرض لها ابن الإنسان وتودي به إلى الموت وردت بلا مقدمة، ولا مناسبة، ولا تعليق عليها من قبل الحواريين، حتى وكأنها تتحدث عن حدث عادي، فلئن صحت، دل ذلك على أن ابن الإنسان المصلوب المسلّم لأيدي الخطاة، هو غير المسيح.

تتحدث المواضع الأربعة- التي ذكرت تنبؤه بالموت - عن تسليم ابن الإنسان، وقتله أو صلبه، ولا تنص على عيسى، لكن اللفظ – وإن تبادر في الذهن إلى المسيح – فإنه يصح أن يطلق على غيره، بدليل أنهم سألوه عن ابن الإنسان مَن هو بقولهم: " فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَفِعَ ابْنُ الإِنْسَانِ؟ مَنْ هُوَ هذَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟ »" (يوحنا ١٢/ ٣٤) ولو كان هذا اللقب بالمسيح خاصًا لما كان في سؤالهم وجه.

يقترن وصف الأناجيل الثلاثة لردة فعل التلاميذ حيال هذا الخبر بكثير من الغرابة، ففي متى (٢٦/ ١ – ٢) لم يذكر لهم حسًا ولا خبرًا، بيد أنه في (متى ٢٦/ ٢٣) ذكر بأنهم " حَزِنُوا جِدًّا "، ويفهم منه أنهم فهموا مراده فحزنوا، لكن مرقس يقول: " ٣٢وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ

---

(١) انظر: هل افتدانا المسيح على الصليب؟، منقذ السقار (٣٣ – ٣٤).

يَفْهَمُوا الْقَوْلَ، وَخَافُوا أَنْ يَسْأَلُوهُ. " (مرقس ٩/ ٣٢)، ويؤكد لوقا هذا بقوله: " ٣٤وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مِنْ ذلِكَ شَيْئًا، وَكَانَ هذَا الأَمْرُ مُخْفًى عَنْهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا مَا قِيلَ. ".

وإضافة إلى تناقض النصوص، فإن في خوف التلاميذ من المسيح وترددهم في سؤاله ما يدعو للعجب، فقد عرف عليه الصلاة والسلام بدماثة خلقه، وبتحببه لهم، حتى إنه غسل أرجلهم، وكثيرًا ما كانوا يسألوه، فِلمَ لم يسألوه في هذا الأمر الخطير؟

٢- ذكر الإنجيليون الثلاثة الذين ذكروا الخبر بأن المسيح سيقوم في اليوم الثالث (انظر متى ١٧/ ٢٣، مرقس ٩/ ٣٢، لوقا ١٨/ ٣٣)، وهذا لم يحصل، بل مكث ما لا يزيد بحال عن ليلتين ويوم.

٣- ومما يدل على عدم صحة التنبؤ بالصلب والقتل: فرار التلاميذ، وفيهم بطرس الذي قال له المسيح: "٣٢وَلكِنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لاَ يَفْنَى إِيمَانُكَ. وَأَنْتَ مَتَى رَجَعْتَ ثَبِّتْ إِخْوَتَكَ». ٣٣فَقَالَ لَهُ: «يَارَبُّ، إِنِّي مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَمْضِيَ مَعَكَ حَتَّى إِلَى السِّجْنِ وَإِلَى الْمَوْتِ! ». " (لوقا ٢٢/ ٣٢ - ٣٣)، فدل هذا على معرفتهم بأن المأخوذ غيره، كما قد عرفوا ذلك فهربوا، وقد قال عنهم المسيح: " الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ، وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ابْنُ الْهَلاَكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ. " (يوحنا ١٧/ ١٢).

ثم بعد ذلك ولأن أمر المصلوب لا يهمهم وقد عرفوا بنجاة سيدهم لم يهتموا بمتابعة المصلوب وهو على الصليب، أو في أثناء المحاكمة، إلا ما جاء عن بطرس ويوحنا وبعض النسوة.

٤- كما تذكر الأناجيل دليلًا آخر يشهد على عدم صحة هذه النبوءات المتنبئة بصلب المسيح، بل تدلل على أن المسيح تنبأ بنجاته، وأن التلاميذ فهموا منه ذلك قول مرقس أن المسيح قال لتلاميذه: ": «إِنَّ كُلَّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ " (مرقس ١٤/ ٢٧).

هذا ولا تذكر الأناجيل شيئًا عن شك التلاميذ، سوى ما ذكرته عن بطرس الذي أنكر المأخوذ ثلاث مرات ليلة المحاكمة، وأما الآخرون فصمت مطبق، فكيف شك التلاميذ؟

لقد شك التلاميذ في المسيح وهم يرون المأخوذ من البستان (يهوذا) وقد قبض عليه،

وظنوه المسيح، فوقعوا فيما حذرهم منه المسيح، وهو الشك فيه، لقد كان أخبرهم بنجاته من المؤامرة ثم يرون أنه قد أخذ ولم ينج.

ويوضح العلامة أحمد عبد الوهاب هذه المسألة، فيقول بأن الشك هو تراجع داخل النفس، ويستشهد لتفسيره بما جاء في غير الترجمة العربية، فالنص في التراجم الأخرى تعريبه هكذا: " كلكم ترتدون عن عقيدتكم وتزلون ".

ويفرق بين الإنكار والشك، فالشك عمل قلبي، والإنكار: قد ينكر الإنسان بلسانه ما يعتقده في قلبه، والذي وقع من التلاميذ شك لا إنكار. فلقد آمن التلاميذ بالمسيح، وصدقوه فيما تنبأ به، فإذا رأوا ما اعتبروه مخالفًا لنبوءاته، فسوف يحصل منهم الشك، والردة عن العقيدة.

ويورد الأستاذ أحمد عبد الوهاب احتمالين:

الأول: أن يكون المسيح قد تنبأ لتلاميذه بأن مؤامرة ستدبر ضده، وستُحدث له ألمًا ومعاناة، إلا أنها ستفشل، وسينقذه الله من القتل، كما في قوله: " سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي " (يوحنا ٧ / ٣٦). وهذا الذي حصل ولم يشاهده التلاميذ، بل هم قد رأوا ما حسبوه وظنوه نقيضَه، فقد رأوا المسيح مأخوذًا مصلوبًا، فوقعوا في الشك فيه، لأن كلامه لم يتحقق، وهذا هو الصحيح.

والآخر: أن المسيح تنبأ بأن المؤامرة ستنتهي بقتله، وليس هناك ما يدعو للشك والارتياب حسب هذه الصورة، سواء تحقق قوله أم لم يتحقق، إذ تحققه تصديق لقوله، وتخلُّفه إكرام من الله له وحفظ ورعاية.

وهذا الفرض خاطيء، ويدحضه العود إلى لحظة القبض على المسيح، حيث نجد أن التلاميذ جميعًا قد هربوا، وتركوا المسيح وحده. ويبدو هنا شكهم واضحًا، لقد حصل أمام التلاميذ ما لم يتوقعوه – فيما يظهر لهم –، أي ما لم يتنبأ به المسيح.

فلئن كان أخبرهم بأن سيُقبض عليه وسيقتل، فليس ثمة ما يثير الشك، وإن كان

الاحتمال الأول بأنه سينجو، وأن المؤامرة ستفشل، ولكنهم يجدونه - فيما يظهر لهم - قد قبض عليه، ولم تتحقق نبوءته، فحينئذ وقعوا في الشك.[1]

ويؤكد العلامة ديدات على قرينة وحدة أفعال الله، لإبطال صلب المسيح والحكم بنجاته، فقد نجى الله النبي دانيال، وإبراهيم، والفتية الثلاثة الذين ألقوا في النار.

أما نجاة إبراهيم، فقد ذكرت في قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: ٦٨ - ٧٠).

وأما دانيال، فقد ألقاه الملك في جُبٍّ مع الأُسود، وختم الجب بخاتمه، ثم لما فتحه ناداه: " «يَا دَانِيآلُ عَبْدَ اللهِ الْحَيِّ، هَلْ إِلهُكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ دَائِمًا قَدِرَ عَلَى أَنْ يُنَجِّيَكَ مِنَ الأُسُودِ؟ » ٢١فَتَكَلَّمَ دَانِيآلُ مَعَ الْمَلِكِ: «يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ، عِشْ إِلَى الأَبَدِ! ٢٢إِلهِي أَرْسَلَ مَلاَكَهُ وَسَدَّ أَفْوَاهَ الأُسُودِ فَلَمْ تَضُرَّنِي، لأَنِّي وُجِدْتُ بَرِيئًا قُدَّامَهُ، وَقُدَّامَكَ أَيْضًا أَيُّهَا الْمَلِكُ، لَمْ أَفْعَلْ ذَنْبًا». ٢٣حِينَئِذٍ فَرِحَ الْمَلِكُ بِهِ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُصْعَدَ دَانِيآلُ مِنَ الْجُبِّ. فَأُصْعِدَ دَانِيآلُ مِنَ الْجُبِّ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهِ ضَرَرٌ، لأَنَّهُ آمَنَ بِإِلهِهِ. ٢٤فَأَمَرَ الْمَلِكُ فَأَحْضَرُوا أُولئِكَ الرِّجَالَ الَّذِينَ اشْتَكَوْا عَلَى دَانِيآلَ وَطَرَحُوهُمْ فِي جُبِّ الأُسُودِ هُمْ وَأَوْلاَدَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ. وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى أَسْفَلِ الْجُبِّ حَتَّى بَطَشَتْ بِهِمِ الأُسُودُ وَسَحَقَتْ كُلَّ عِظَامِهِمْ. " (دانيال ٦/ ١٥ - ٢٤).

وأما الفتية الثلاثة فقد أُلقوا في النار، ولكن " لَمْ تَكُنْ لِلنَّارِ قُوَّةٌ عَلَى أَجْسَامِهِمْ، وَشَعْرَةٌ مِنْ رُؤُوسِهِمْ لَمْ تَحْتَرِقْ، وَسَرَاوِيلُهُمْ لَمْ تَتَغَيَّرْ، وَرَائِحَةُ النَّارِ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِمْ" (دانيال ٣/ ٢٧).

ومما يؤكد استجابة الله للمسيح: ظهور ملاك له ليقويه (انظر لوقا ٢٢/ ٤٣) فهل كان ذلك الملاك يضحك عليه ويهزأ به، أم يعينه فينجيه؟

وهذا الأخير هو ما يليق بعدل الله ورحمته، فقد استجاب الله للمسيح فأنجاه، وصلب

---

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (١٣٨ - ١٣٩، ١٤٧ - ١٤٨)، المناظرة الإسلامية النصرانية (٨٩ - ٩٠).

يهوذا الخائن، فهذا أليق بعدل الله وكرمه من القول بعدم استجابته للمسيح، وصلبه وتسليمه إلى مرام أعدائه ومبغضيه.

لقد حفظ الله مسيحه، وأمكنه من النجاة ويسّر له سُبلها، كما يسرها لكثيرين دونه في الفضل والمكانة، منهم بطرس الذي دخل ملاك الرب إلى سجنه، وحطم سلاسله وهو نائم، وأمره بالخروج. (انظر أعمال ١٢/ ٧).

وكذلك زعم لوقا أن بولس نجا من السجن بأعجوبة، فقد تزلزلت الأرض، وتصدع السجن، وتحطمت القيود. وانفتحت الأبواب، فهرب وصاحبه سِيلا من سجنهما. (انظر أعمال ١٦/ ٢٦).

كما أن توراة القوم تتحدث عن معونة الله لعدد من القديسين رفعوا إلى السماء، منهم: أخنوخ " [٢٤]وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ. " (التكوين ٥/ ٢٤).

ومثله النبي إيليا " [١١]وَفِيمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَيَتَكَلَّمَانِ إِذَا مَرْكَبَةٌ مِنْ نَارٍ وَخَيْلٌ مِنْ نَارٍ فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا، فَصَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ. " (الملوك (٢) ٢/ ١١).

فِلِمَ أمكن هذا لبطرس وبولس وغيرهما، ولم يمكن للمسيح، وهو أولى منهم برعاية الله وحفظه؟!

وهكذا، ومن خلال هذه الأمثلة، نرى أن رعاية الله التي أحاطت بالمؤمنين من قبل قد أحاطت بالمسيح، وأنجته من يدي أعدائه، فتحقق ما كان قد تنبأ به بقوله: " [٢٩]وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ»" (يوحنا ٨/ ٢٩).

المبحث السادس: عدم وجود شهود على صلب المسيح.

فقد تركه الجميع وهربوا، بل إن حادثة الصلب فيها من التناقضات التي تضطر كل عاقل أن يرفضها.

(إن المأخوذ للقتل كان في شرذمة من تلاميذه فلما قبض عليه هربوا بأسرهم ولم يتبعه سوى بطرس من بعيد فلما دخل الدار حيث اجتمعوا نظرت جارية منهم إلى بطرس فعرفته فقالت: وهذا كان معه، فحلف بطرس أنه لا يعرف يسوع ولا يقول بقوله وخادعهم فذهب

ولم يعد، وأن شابًا تبعه وعليه إزار فتعلقوا به فترك إزاره في أيديهم وأفلت عريانًا). [١]

فهؤلاء أصحابه وأتباعه لم يحضر منم ولا رجل واحد بشهادة الأناجيل، وأما أعداؤه من اليهود الذين تزعم النصارى أنهم حضروا الأمر فلم يبلغوا عدد التواتر أصلًا، بل كانوا آحادًا وأفرادًا، فمن نازع فيما قلناه ونقلناه فهذا الإنجيل الذي بأيديهم حكما فيما بيننا وبينه، وإذا ثبت أن أتباع المسيح لم يحضر منهم أحد، واليهود الذين حضروا عصابة قليلة دون عدد التواتر يجوز عليهم السهو والغلط واعتماد الكذب، لم يجب قبول أقوالهم فلا جرم يقدم تواتر الكتاب العزيز وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء/ ١٥٧). [٢]

المبحث السابع: من الذي مات على الصليب، الإنسان أم الإله؟

يَرد على المسيحيين أسئلة كثيرة: من الذي صلب على الصليب؟ ومن الذي أسلم روحه ومات على الصليب؟ هل المسيح الإنسان؟ أم أنه المسيح الإله؟ أو بمعنى آخر: هل فارق اللاهوت الناسوت وقت الصلب والموت؟ أم أن اللاهوت لم يفارق الناسوت؟

مقتضى فكرة المسيحيين عن المخلص تحتم أن الذي صلب هو المسيح ابن الله، فهو في- نظرهم – تجسد خصيصا من أجل الصلب والموت ليخلص البشرية.

لذلك جاء في كتاب (السنكسار): " وتعلمنا الكنيسة المقدسة أن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين. "[٣]

ويقول الأب لويس برسوم: " وإذن ظل اللاهوت متحدًا بالناسوت على الدوام دون أن يفارقه قط، وحتى حينما أسلم يسوع روحه لم يفارق اللاهوت الناسوت، بل ظل متحدًا مع الجسد الذي دفن في القبر. "[٤]

ويقول الأب ساويرس: " لاهوته لم ينفصل قط لا من نفسه ولا من جسده ولم يفارق

(١) انظر تفصيل ذلك في: متى (٢٦)، مرقس (١٤)، لوقا (٢٢)، يوحنا (١٨).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (١/ ٣٣٧- ٣٣٨).

(٣) كتاب السنكسار (٢ / ٩٩).

(٤) المسيح الإله والإنسان (٦٥).

روحه ولا جسده عند موته. "[١]

كل هذا يقتضي أن اللاهوت وقع عليه الآلام وتعرض هو والناسوت إلى المعاناة والمشقة، ولكن المسيحيين يقولون نعم إن اللاهوت لم يفارق الناسوت لحظة إلا أن الذي تألم ومات هو الناسوت أما اللاهوت فلم يتألم ولم يمت. [٢]

يقول أفلاطون مطران موسكو: " إن الذي تألم هو الناسوت لا اللاهوت المنزه عن كل ألم، ثم دفن مع الجسد لئلا يظن موت المسيح خياليًا. "[٣]

ويقول إلياس اليسوعي: " إن المسيح لم يمت بوصفه إلهًا – فالإله لا يموت – ولكنه مات بوصفه إنسانًا وليس في موت الإنسان ما يدعو على الاستغراب. "[٤]

فالمسيح في – نظرهم – مات بوصفه (ابن الإنسان) لأن اللاهوت لا يتأثر بالصلب أو الموت.[٥]

يقول باسيليوس: " المسيح ابن الله مات يقينا ليس بلاهوته بل بناسوته قد مات ومع ذلك فإن إنسانية المسيح اتحدت بشخصه الإلهي وتشخصت فيه، ولذلك فرغم أن لاهوت المسيح كان حرا من الآلام وقت آلامه، وغير مائت في وقت موته إلا أن هذه الآلام قد اتخذها ابن الله وتبناها لنفسه بطريقة ما تفوق الفهم، ولهذا السبب يمكننا أن نقول عن ابن الله الأزلي المتجسد تألم ومات على الصليب بناسوته بينما ظل غير متألم بلاهوته. "[٦]

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: من الذي مات على الصليب الناسوت أم اللاهوت؟

١ – القول بأن الناسوت هو الذي تحمل الآلام والصلب والموت يعني الحط من شأن الفداء والخلاص؛ لأنه بذلك يصير خلاصًا ناسوتيًا بشريًا لا لاهوتيًا، أو أن معناه أن

(١) الدر الثمين في إيضاح الدين (٦٢ – ٦٥).

(٢) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٥٦٠).

(٣) الخلاصة الشهية في أخص العقائد والتعاليم الأرثوذكسية (٩٤).

(٤) يسوع المسيح (١١٥).

(٥) قيامة المسيح، عوض سمعان (٦).

(٦) سر الفداء (٢١ – ٢٢).

الناسوت أقدر على الخلاص والفداء من اللاهوت.

" ويقال لهم أليس المسيح عندكم عبارة عن لاهوت وناسوت اتحدا فصارا مسيحا؟ فإذا قالوا بلى. قلنا فالميت أيهما؟ فإذا قالوا الناسوت. قلنا: فكيف استقل بهداية الخلق ناسوت ميت وعجز عن ذلك لاهوت حي؟ أفتقولون إن ناسوت المسيح أقدر على الهداية من لاهوته؟. [١]

الوجه الثاني: لابد في المخلص أن يكون إلها، وهذا يبطل فكرة الناسوت.

إن هذا القول مناقض لفكرتهم وشروطهم في المخلص، إنه لابد وأن يكون المسيح ابن الله، فإذا كان الذي صلب وتألم ومات هو ابن الإنسان، فمعنى ذلك أنه لم يتوافر فيه وقت الفداء هذا الشرط.

هذا إلى جانب أن هذا القول مناقض لما جاء في العهد الجديد الذي يقول: " وَدَمُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِهِ يُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ خَطِيَّةٍ. " (يوحنا الأولى ١ / ٧).

فدم ابن الله – لا ابن الإنسان – هو الذي يطهرهم من كل الخطايا.

الوجه الثالث: لوكان المصلوب ناسوتا فهي مهمة يقوم بها أي بشر سوى عيسى.

أنه على هذا القول لا داعي لتجسد ابن الله، لأن أي إنسان كان يكفي أن يقوم بهذا ويتحمل الآلام ويصلب ويموت نيابة عن البشر. [٢]

الوجه الرابع: أنتم وصفتم الإله بعدم الموت ثم تثبتون موته على الصليب!

ورد في الكتاب عندهم عدة نصوص تفيد بأن الإله لا يموت سواء أكان ذو طبيعة واحدة أم ذو طبيعتين؟ فسواء كان ابن الإله أو الإله الرئيسي، فهو في النهاية إله والإله لا يموت باعتراف الكتاب والعقل.

وها هي الأدلة:

١- ورد في سفر التثنية ٣٢/ ٣٩: " [٣٩]اُنْظُرُوا الآنَ! أَنَا أَنَا هُوَ وَلَيْسَ إِلهٌ مَعِي. أَنَا أُمِيتُ وَأُحْيِي. "

---

(١) المنتخب الجليل (١١٥)

(٢) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٥٦٢).

أما يسوع " قَالَ: «قَدْ أُكْمِلَ». وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. " (يوحنا ١٩/ ٣٠).

٢- ورد في التثنية (٣٢ / ٤٠): " ٤٠إِنِّي أَرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ يَدِي وَأَقُولُ: حَيٌّ أَنَا إِلَى الأَبَدِ. "، لكن يسوع " ٥٠فَصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ" (متى ٢٧ / ٥٠).

٣- ورد في إرمياء (١٠ / ١٠): " ١٠أَمَّا الرَّبُّ الإِلهُ فَحَقٌّ. هُوَ إِلهٌ حَيٌّ وَمَلِكٌ أَبَدِيٌّ. "، أما يسوع " ٤٦وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا أَسْلَمَ الرُّوحَ. " (لوقا ٢٣ / ٤٦).

٤- ورد في سفر دانيال (٦ / ٢٦): " ٢٦مِنْ قِبَلِي صَدَرَ أَمْرٌ بِأَنَّهُ فِي كُلِّ سُلْطَانِ مَمْلَكَتِي يَرْتَعِدُونَ وَيَخَافُونَ قُدَّامَ إِلهِ دَانِيآلَ، لأَنَّهُ هُوَ الإِلهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ إِلَى الأَبَدِ، وَمَلَكُوتُهُ لَنْ يَزُولَ وَسُلْطَانُهُ إِلَى الْمُنْتَهَى. "، ولكن يسوع: "٥٠فَصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. " (متى ٢٧ / ٥٠).

٥- ورد في سفر دانيال ٦ / ٢٦: " ٢٦مِنْ قِبَلِي صَدَرَ أَمْرٌ بِأَنَّهُ فِي كُلِّ سُلْطَانِ مَمْلَكَتِي يَرْتَعِدُونَ وَيَخَافُونَ قُدَّامَ إِلهِ دَانِيآلَ، لأَنَّهُ هُوَ الإِلهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ إِلَى الأَبَدِ، وَمَلَكُوتُهُ لَنْ يَزُولَ وَسُلْطَانُهُ إِلَى الْمُنْتَهَى. ".

٦- ورد في متى ١٦ / ١٦: " سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ!»".

وكل هذه النصوص - وغيرها مما لم نذكره هنا - لا تنطبق على يسوع بأي حال من الأحوال، لأنه مات: " ٥٠فَصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. " (متى ٢٧ / ٥٠).

إذن، فلمن أسلم عيسى روحه يا ترى؟ لقد أسلمها إلى بارئها، إلى خالقها.

إذن فليس هو الله، وبما أنه ليس هو الله، فلا يوجد داع لأن ينزل ويتجسد، وبما أنه ليس هو الله، فلا سلطان له لغفران الذنوب، وبما أنه لا سلطان له لغفران الذنوب، إذن فأسطورة الصلب والفداء ليس لها أصل في دين السماء إنما هي مقتبسة من الأديان الوثنية.[1]

الوجه الخامس: إن لله تعالى صفات لا تتغير فكيف هذا التلون في قضية الصلب؟

---

(١) انظر: إعدام الإله بين المسيحية والوثنية (١٠ - ١١).

يؤيد هذا الكتاب المقدس في نصوص كثيرة منها :

" [٦]لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ لاَ أَتَغَيَّرُ " (ملاخي ٣ / ٦).

" فَبِمَنْ تُشَبِّهُونَ اللهَ، وَأَيَّ شَبَهٍ تُعَادِلُونَ بِهِ؟ " (إشعياء ٤٠ / ١٨).

" [٢٥]«فَبِمَنْ تُشَبِّهُونَنِي فَأُسَاوِيهِ؟ » يَقُولُ الْقُدُّوسُ. " (إشعياء ٤٠ / ٢٥).

فلا يمكن أن يكون الرب إنسان، ولا حيوان، ولا جماد ولا نبات، ولا أي صورة يمكن الإنسان أن يتخيلها، فهو لا مثيل له، ليس كمثله شئ.

وقد أكد كتابهم على هذه النقطة عدة مرات حتى لا يلبس الشيطان على الناس أمر دينهم، فقال: " [١٢]فَكَلَّمَكُمُ الرَّبُّ مِنْ وَسَطِ النَّارِ وَأَنْتُمْ سَامِعُونَ صَوْتَ كَلاَمٍ، وَلكِنْ لَمْ تَرَوْا صُورَةً بَلْ صَوْتًا. . . [١٥]«فَاحْتَفِظُوا جِدًّا لأَنْفُسِكُمْ. فَإِنَّكُمْ لَمْ تَرَوْا صُورَةً مَّا يَوْمَ كَلَّمَكُمُ الرَّبُّ فِي حُورِيبَ مِنْ وَسَطِ النَّارِ. " (تثنية ٤ / ١٢ — ١٥).

وعندما طلب موسى من الله أن يراه: " [٢٠]وَقَالَ: «لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِي وَيَعِيشُ». (الخروج ٣٣ / ٢٠).

فإذا كان الله روح، ولا يمكن أن يرى الإنسان هذا الروح لأن " [١٨]اللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. " فكيف يكون عيسى ﷺ هو الله، وهل الله له جسد أو مولود من الجسد؟ الجواب بالطبع: لا " [٦]اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. " يوحنا ٣ / ٦. و " كُلُّ رُوحٍ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَهُوَ مِنَ اللهِ، [٣]وَكُلُّ رُوحٍ لاَ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ" (رسالة يوحنا (١) ٤ / ٢-٣)

فهذا نفي قاطع من عيسى ﷺ، وتحذير أن يتخذه إنسان ما إله، لأنه مولود من جسد امرأة، فكان عظامًا وكان لحمًا.

أما الذين اتخذوا إنسانًا إلهًا وعبدوه بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة العقل وعرفوا الإله الحقيقي الذين يدين ولا يدان، الحي الذي لا يصلب ولا يموت، القدوس الذي لا يهان، فهم من الأنجاس الخالدين في النار: " [٢١]لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ، بَلْ حَمِقُوا

فِي أَفْكَارِهِمْ، وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ. [٢٢] وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ، [٢٣] وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللهِ الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ. [٢٤] لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمِ. [٢٥] الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ. [٢٦] لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ " (رومية ١ / ٢١ – ٢٦).

الفصل الثامن: نجاة المسيح من الصلب.

المطلب الأول: هل قبض اليهود على عيسى عليه السلام؟

الإجابة: لا، وهذه هي إجابة عيسى عليه السلام نفسه، انظروا كيف وقف يتحدى اليهود علانية، قائلا لهم إنهم لن يتمكنوا منه، ولن يقبضوا عليه، وسيرفعه الله إلى مكان آمن، لا يستطيعون الوصول إليه، وها هي الأدلة على ذلك:

١- " [٣٢] سَمِعَ الْفَرِّيسِيُّونَ الْجَمْعَ يَتَنَاجَوْنَ بِهذَا مِنْ نَحْوِهِ، فَأَرْسَلَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ خُدَّامًا لِيُمْسِكُوهُ. [٣٣] فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا يَسِيرًا بَعْدُ، ثُمَّ أَمْضِي إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. [٣٤] سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي، وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا». يوحنا (٧/ ٣٢– ٣٤).

٢- وأكد ذلك مرة أخرى فقال: " [٢١] قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا: «أَنَا أَمْضِي وَسَتَطْلُبُونَنِي، وَتَمُوتُونَ فِي خَطِيَّتِكُمْ. حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا» [٢٢] فَقَالَ الْيَهُودُ: «أَلَعَلَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولُ: حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا؟ ». [٢٣] فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. [٢٤] فَقُلْتُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ، لأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ». [٢٥] فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟ » فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مِنَ الْبَدْءِ مَا أُكَلِّمُكُمْ أَيْضًا بِهِ. [٢٦] إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ، لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». [٢٧] وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الآبِ. [٢٨] فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. [٢٩] وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ». " يوحنا (٨/ ٢١ – ٢٩).

إذن فقد أعلمهم عيسى أن الله سوف يتوفاه إليه أي يستخلصه وينقذه منهم ويرفعه إليه، أما الشخص الذي ستقبضون عليه، وتهينونه، فعندما ترفعونه على الصليب فسوف تفهمون أني أنا هو هذا الشخص المعلق: " مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. " وهو فهم خاطئ، لأني سأغلب العالم " وَلكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ». " (يوحنا ١٦ / ٣٣)

فلن تتمكنوا مني، وهذه هي إرادة الله "[٢٩]وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ». (يوحنا ٨ / ٢٩).

واللغز المحير هو: هل المقصود بقوله " مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ" هو يسوع؟ الإجابة: لا، للأدلة الآتية:

١ – لو كان يقصد نفسه لما تكلم عن نفسه بصيغة الغائب.

٢ – ثم إن قوله هذا الذي قاله هو نبوءة، بمعنى يجب أن تتحقق، فهل لو كان هو الذي علق على الصليب لكان إلهًا تافهًا كاذبًا، فقد تحدى اليهود وأخبرهم أنه سوف يغلبهم ويغلب العالم كله. فهل بعد كلامه هذا تغلبه شرذمة قليلة من اليهود؟

وأيضًا لا يمكن أن يكون رسولًا؛ لأن الرسول لا يخبر إلا الصدق ويتكلم بما يوحي إليه، فكيف يتحداهم رسول الله، بناء على تعليمات من الإله ثم يخدعه هذا الإله ويتركه يصلب؟

٣ – كما أنها نبوءة في المقام الأول، ولابد أن تتحقق، وإلا كان نبيًّا كاذبًا وحاشاه، وعلى ذلك فإن الذي فهمه اليهود كان خطأ، وماتوا في خطيتهم وهم يؤمنون أنهم صلبوا رسول الله، ولو سلمتم أن يسوع هو ابن الإنسان هنا، لانتفت عنه صفة الألوهية لقول الكتاب إن الله ليس كمثله أحد قط.

" [١٩]لَيْسَ اللهُ إِنْسَانًا فَيَكْذِبَ، وَلاَ ابْنَ إِنْسَانٍ فَيَنْدَمَ. هَلْ يَقُولُ وَلاَ يَفْعَلُ؟ أَوْ يَتَكَلَّمُ وَلاَ يَفِي؟ " (عدد ٢٣ / ١٩). " [٩]هَلْ تَقُولُ قَوْلًا أَمَامَ قَاتِلِكَ: أَنَا إِلهٌ؟ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ لاَ إِلهٌ فِي يَدِ طَاعِنِكَ! " (حزقيال ٢٨ / ٩). " هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدِ ارْتَفَعَ قَلْبُكَ

وَقُلْتَ: أَنَا إِلهٌ. فِي مَجْلِسِ الآلِهَةِ أَجْلِسُ فِي قَلْبِ الْبِحَارِ. وَأَنْتَ إِنْسَانٌ لاَ إِلهٌ، وَإِنْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ كَقَلْبِ الآلِهَةِ! " (حزقيال ٢٨ / ١ -٢).

ولقول الكتاب إن الله حي لا يموت " [٤٠] إِنِّي أَرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ يَدِي وَأَقُولُ: حَيٌّ أَنَا إِلَى الأَبَدِ. " (تثنية ٣٢ / ٤٠).

وبهذا يكون عيسى قد تحدى اليهود بأنهم سيؤمنون أنه هو ابن الإنسان الذي سيكون معلقًا على الصليب، ويموتون على هذا الفهم وعلى هذه الخطية، خطية محاولتهم قتل رسول الله.

٤- لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحاول فيها اليهود قتل عيسى عليه السلام فقد سبقها عدة محاولات، نجح عيسى عليه السلام من الافلات منهم، بما أعطاه الله من قدرة على التخفي، وهذه أمثلة:

١- أرادوا مرة أن يقذفوه من فوق الجبل فمكنه الله من تغيير هيئته وخرج من وسطهم ولم يعرفوه: " [٢٨] فَامْتَلأَ غَضَبًا جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْمَجْمَعِ حِينَ سَمِعُوا هذَا، [٢٩] فَقَامُوا وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَجَاءُوا بِهِ إِلَى حَافَّةَ الْجَبَلِ الَّذِي كَانَتْ مَدِينَتُهُمْ مَبْنِيَّةً عَلَيْهِ حَتَّى يَطْرَحُوهُ إِلَى أَسْفَلٍ. [٣٠] أَمَّا هُوَ فَجَازَ فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى. " (لوقا ٤ / ٢٨ – ٣٠).

٢- لم يعرفه اثنان من أتباعه وأحبائه " [١٥] وَفِيمَا هُمَا يَتَكَلَّمَانِ وَيَتَحَاوَرَانِ، اقْتَرَبَ إِلَيْهِمَا يَسُوعُ نَفْسُهُ وَكَانَ يَمْشِي مَعَهُمَا. [١٦] وَلكِنْ أُمْسِكَتْ أَعْيُنُهُمَا عَنْ مَعْرِفَتِهِ. " (لوقا ٢٤ / ١٥ – ١٦).

٣- بل لم يعرفه سبعة من تلاميذه وخاصته: " [١] بَعْدَ هذَا أَظْهَرَ أَيْضًا يَسُوعُ نَفْسَهُ لِلتَّلاَمِيذِ عَلَى بَحْرِ طَبَرِيَّةَ. ظَهَرَ هكَذَا: [٢] كَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ، وَتُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ، وَنَثَنَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ، وَابْنَا زَبْدِي، وَاثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ. [٣] قَالَ لَهُمْ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «أَنَا أَذْهَبُ لأَتَصَيَّدَ». قَالُوا لَهُ: «نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضًا مَعَكَ». فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا السَّفِينَةَ لِلْوَقْتِ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئًا. [٤] وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ، وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ. وَلكِنَّ التَّلاَمِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ. [٥] فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «يَا غِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَامًا؟ ». أَجَابُوهُ: «لاَ! » [٦] فَقَالَ لَهُمْ: «أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الأَيْمَنِ فَتَجِدُوا». فَأَلْقَوْا، وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّمَكِ. [٧] فَقَالَ ذلِكَ التِّلْمِيذُ

الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبُطْرُسَ: «هُوَ الرَّبُّ!». فَلَمَّا سَمِعَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَّهُ الرَّبُّ، اتَّزَرَ بِثَوْبِهِ، لأَنَّهُ كَانَ عُرْيَانًا، وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ." (يوحنا ٢١ / ١ - ٧).

٤- وكذلك لم يعرفه اليهود، الذين كانوا يسمعونه في المعبد في كل حين، ولو كان بإمكان اليهود القبض عليه والتعرف عليه لفعلوا، ولكن تغيير صورته وشكله وصوته أشكل عليهم الأمر، مما اضطرهم للجوء لأحد تلاميذه ليرشدهم عليه:

" [٣] فَأَخَذَ يَهُوذَا الْجُنْدَ وَخُدَّامًا مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ، وَجَاءَ إِلَى هُنَاكَ بِمَشَاعِلَ وَمَصَابِيحَ وَسِلاَحٍ. [٤] فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟» [٥] أَجَابُوهُ: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». قَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ». وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ أَيْضًا وَاقِفًا مَعَهُمْ. [٦] فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ. [٧] فَسَأَلَهُمْ أَيْضًا: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟» فَقَالُوا: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». [٨] أَجَابَ يَسُوع: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ»." (يوحنا ١٨ / ٣- ٨)

٥- كذلك أمسك عين مريم المجدلية أن تعرفه: " [١٤] وَلَمَّا قَالَتْ هذَا الْتَفَتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ، فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ. [١٥] قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ». [١٦] قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ» فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي!» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ." (يوحنا ٢٠ / ١٤ - ١٦).

٦- كذلك تحدى يسوع كل اليهود قائلا: " وَلكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ" (يوحنا ١٦ / ٣٣).

فكيف يكون قد غلب العالم لو قبض عليه وقهر وصلب؟

٧- قضى الله أن يعلق الشرير بعمل يديه: " [١٦] مَعْرُوفٌ هُوَ الرَّبُّ. قَضَاءً أَمْضَى. الشِّرِّيرُ يَعْلَقُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ." (مزامير ٩ / ١٦). " [٨] تُصِيبُ يَدُكَ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ. يَمِينُكَ تُصِيبُ كُلَّ مُبْغِضِيكَ. [٩] تَجْعَلُهُمْ مِثْلَ تَنُّورِ نَارٍ فِي زَمَانِ حُضُورِكَ. الرَّبُّ بِسَخَطِهِ يَبْتَلِعُهُمْ وَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ.

١٠تُبِيدُ ثَمَرَهُمْ مِنَ الأَرْضِ وَذُرِّيَّتَهُمْ مِنْ بَيْنِ بَنِي آدَمَ. ١١لأَنَّهُمْ نَصَبُوا عَلَيْكَ شَرًّا. تَفَكَّرُوا بِمَكِيدَةٍ. لَمْ يَسْتَطِيعُوهَا. " (مزامير ٢١ / ٨ – ١١).

الخلاصة: تحدى عيسى عليه السلام اليهود، وأعلمهم أنهم سيموتون في خطيتهم أي على فهمهم الخاطيء، وعلى محاولتهم قتل نبي الله، ولن يمكنهم الله منه. [1]

المطلب الثاني: كيف نجي المسيحُ من الصلب؟

إذا كانت الأدلة قد أثبتت أن المسيح قد نجا من عملية الصلب، فإن ثمة سؤالًا يطرح نفسه وهو: كيف نجا المسيح من عملية الصلب؟

ملخص ما ذكرته الأناجيل في ذلك ما يلي:

١) أن المسيح خرج إلى البستان برفقة تلاميذه، وأنه أخبرهم بأنه سيتعرض لمؤامرة من أحد التلاميذ مع اليهود الذين يريدون صلبه.

٢) أن المسيح دعا في تلك الليلة طويلًا، وبإلحاح كبير طالبًا من الله أن يصرف عنه كأس الموت.

٣) أن المسيح استسلم لقضاء الله وقدره، فقال: " وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ». " (متى ٢٦/ ٣٩) وقال: " فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ " (متى ٢٦/ ٤١).

٤) المسيح يصلي، والتلاميذ نيام، ويحاول إيقاظهم مرة بعد مرة.

٥) وصل يهوذا الأسخريوطي الخائن، ومعه الجند، يحملون مشاعل وسيوفًا وعصيًا، للقبض على المسيح، وقد جعل يهوذا علامة للجند أن يقبل المسيح.

٦) وصلت الجموع؛ فخرج إليهم المسيح، وقال: من تطلبون؟ فأجابوه: يسوع الناصري. فقال المسيح: " قَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ». . . ٦فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ " (يوحنا ١٨/ ٥-٦).

٧) حاول بطرس الدفاع، لكنه كان أعجز من ذلك، فهرب وجميع التلاميذ.

---

(١) إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر (٥– ٩).

٨) اقتيد المأخوذ (وهو غير المسيح) للمحاكمة عند رئيس الكهنة، ثم بيلاطس، وبطرس يتابعه في بعض ذلك، وقد أنكره تلك الليلة ثلاث مرات.

٩) في المحاكمة سأل رئيس الكهنة، واستحلف المأخوذ إن كان هو المسيح، فأجابه: " [٦٤]قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ قُلْتَ! وَأَيْضًا أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ»" (متى ٢٦/ ٦٤).

١٠) حكمت المحكمة على المأخوذ بالقتل، واقتيد إلى بلاط بيلاطس الذي سأله: إن كان هو ملك اليهود، فأجابه: " أنت تقول "، ثم لم يجبه بكلمة واحدة، حتى تعجب بيلاطس منه.

١١) لم يجد الوالي للمأخوذ علة في القبض عليه يستحق عليها القتل، فأراد أن يطلقه، لكن الجموع أصرت على صلبه، وإطلاق باراباس، فأعلن براءته من دم هذا البار، وأسلمه لهم.

١٢) اقتيد المأخوذ إلى موضع الصلب، وصلب بجوار لصين.

١٣) صرخ المصلوب على الصليب، فسقوه خلًا، ثم أسلم الروح.

ويفترق المسلمون عن الأناجيل في مسألة مهمة، وهي من هو المأخوذ من ساحة القبض على المسيح؟ فيراه المسلمون يهوذا الأسخريوطي، التلميذ الخائن، ويلزمنا إقامة الدليل على ذلك، إذ هي موضع النزاع، وقد كنا قد أقمنا الأدلة على ذلك من سفر المزامير. (انظر وجه الإبطال بنبؤات التوراة).

ولنتصور القول بأن يهوذا هو المأخوذ، وأنه حصل التباس عند آخذيه، فإنا نتصور الجموع الكثيرة والتي تقارب الألف وهي تسير، تحمل المشاعل والسيوف والعصي، وتتكون من جنود وغوغاء يتقدمهم يهوذا.

ولما وصل الجمع إلى المسيح كان التلاميذ نيامًا، وقد حاول المسيح إيقاظهم مرارًا فلم يستطع، برغم أن الموقف كان صعبًا، فقد كانت عيونهم ثقيلة، واقترب الجموع من المسيح يتقدمهم يهوذا، والتلاميذ نيام "[٦]فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ. " (يوحنا ١٨/ ٦).

وهنا نتوقف مليًا، لنقرأ ما غفلت عن ذكره السطور.

فما فائدة سقوطهم على الأرض؟ وما الذي أسقطهم؟ وماذا أفاد المسيحَ سقوطهم، إذا كانوا سيقبضون عليه بعدها؛ وَلِم لَمْ يتكرر السقوط عندما أرادوا أخذه بعدها؟

ولنحاول أكثر أن نتصور ما حدث في تلك اللحظة، فقد اقترب يهوذا لتقبيل المسيح كعلامة للجند على أنه المطلوب، وفي تلك اللحظة اقترب الجند، حملة المشاعل والسيوف للقبض على المسيح، فتدخلت قدرة الله العظيم - كما ذكر يوحنا-، فسقطوا على الأرض، بعد أن رجعوا للوراء.

ولك أن تتخيل ما حصل، من هرج، وتدافع، من جراء سقوط مقدمة هذه الجموع التي تحمل المشاعل، والتي هي فقط تنير لها ظلمة الليل البهيم.

بعد ذلك الاضطراب والفوضى قام الساقطون من الأرض، وأفاقوا من ذهولهم لما حصل لهم، ورأوا يهوذا وحده مبهوتًا أصابه الذهول، وقد رأى المسيح يرفع للسماء، وقد ألقى الله عليه الكثير من شبه المسيح، ولكن من سيتوقع أن هذا المذهول هو يهوذا، ومن الذي يعرفه وقتذاك؟

فكانت لحظةُ وقوع الجند: لحظة الخلاص كما وصفتها المزامير " [٦]اَلآنَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّبَّ مُخَلِّصُ مَسِيحِهِ " (المزمور ٢٠/ ٨)، وفي مزمور آخر: " وَأَمَّا أَنْتَ فَتُبَارِكُ. قَامُوا وَخَزُوا " (المزمور ١٠٩/ ٢٨)، وفي مزمور آخر يسجل تلك اللحظة الخالدة: " [٩]حِينَئِذٍ تَرْتَدُّ أَعْدَائِي إِلَى الْوَرَاءِ " (المزمور ٥٦/ ٩)، و " لِيَرْتَدَّ إِلَى خَلْفٍ وَيَخْجَلِ الْمُشْتَهُونَ لِي شَرًّا. " (المزمور ٧٠/ ٢)، و" [٢]عِنْدَ مَا اقْتَرَبَ إِلَيَّ الأَشْرَارُ لِيَأْكُلُوا لَحْمِي، مُضَايِقِيَّ وَأَعْدَائِي عَثَرُوا وَسَقَطُوا. " (المزمور ٢٧/ ٢)، " [١٤]لِيَخْزَ وَلْيَخْجَلْ مَعًا الَّذِينَ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لإِهْلاَكِهَا. لِيَرْتَدَّ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلْيَخْزَ الْمَسْرُورُونَ بِأَذِيَّتِي. " (المزمور ٤٠/ ١٤-١٥) وغيرها.

بعدها حُمل يهوذا إلى المحاكمة وإلى ديوان بيلاطس، والشك في حقيقة شخصه يلاحقه في كل هذه الخطوات، فقد شك فيه رئيس الكهنة، وكانت إجاباته لبيلاطس وهيرودس تنبيء عن الذهول الذي أصابه، وعن عجزه عن بيان الحقيقة، التي لن يُقنع أحدًا إن ذكرها، فكان يجيبهم: " أَنْتَ تَقُولُ " (متى ٢٧/ ١١)، " [١]وَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ اجْتَمَعَتْ مَشْيَخَةُ

الشَّعْبِ: رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ، وَأَصْعَدُوهُ إِلَى مَجْمَعِهِمْ [٦٧]قَائِلِينَ: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ، فَقُلْ لَنَا!». فَقَالَ لَهُمْ: «إِنْ قُلْتُ لَكُمْ لاَ تُصَدِّقُونَ، [٦٨]وَإِنْ سَأَلْتُ لاَ تُجِيبُونَنِي وَلاَ تُطْلِقُونَنِي. [٦٩]مُنْذُ الآنَ يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ قُوَّةِ اللهِ». [٧٠]فَقَالَ الْجَمِيعُ: «أَفَأَنْتَ ابْنُ اللهِ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا هُوَ». " (لوقا ٢٢/ ٦٦ – ٧٠).

ولا يفسر هذه الإجابات الغريبة، بل وتلك الأسئلة الغريبة من أناس كانوا يرون المسيح في كل يوم، لا يفسره إلا أن نقول بأن المأخوذ هو غير المسيح، وإن أشبهه، وهذا الشبه حير رؤساء الكهنة في حقيقة المأخوذ، فحاولوا استجلاء الحقيقة بسؤال المأخوذ، فلم ينكر ولم يثبت.

وأما يهوذا فقد عرف أن لا فائدة من إنكاره، إذ لن يصدقه أحد، ولربما ولفرط ندمه قد استسلم لرداه، ورضي بعقوبة الله له، أن يصلب عن المسيح، لعله بذلك أن يفديه، لذلك تكرر سكوته.

وهذا الموقف ليس بعيدًا عمن ذكرت الأناجيل أنه لفرط ندمه خنق نفسه، وانتحر.

لقد تحققت فيه نبوءات المزامير "[٧]إِذَا حُوكِمَ فَلْيَخْرُجْ مُذْنِبًا، وَصَلاَتُهُ فَلْتَكُنْ خَطِيَّةً. [٨]لِتَكُنْ أَيَّامُهُ قَلِيلَةً، وَوَظِيفَتُهُ لِيَأْخُذْهَا آخَرُ. " (المزمور ١٠٩/ ٧– ٨)، لقد أتى ليخطف المسيح، فلم يستطع. . " رَدَدْتُ الَّذِي لَمْ أَخْطَفْهُ " (المزمور ٦٩/ ٤).

وقد يشكل هنا أن متى ذكر في إنجيله أن يهوذا مات مخنوقًا (انظر متى ٢٧/ ٢ – ٥)، ويكفي في دفعه أن نتذكر ما ذكره سفر أعمال الرسل عن موته حين سقوطه وخروج أحشائه. (انظر أعمال ١/ ١٦ – ٢٠)، وسبب وقوع الإنجيليين في هذا التناقض اختفاء يهوذا، فاخترع كل من متى ولوقا نهاية ليهوذا تليق بجريمته، فهذا التناقض بين الروايتين الإنجيليتين، مشعر بوجود نهاية حقيقية، خفيت على الكاتبين، ودفعتهما لاختلاق روايتيهما.

الباب الرابع: دعوى قيامة المسيح من أجل الخلاص والرد عليها.

الفصل الأول: أقوالهم في إثبات القيامة والرد عليها، وينقسم إلى:

المبحث الأول: أقوالهم في إثبات القيامة:

يدعي النصارى أن المسيح عليه السلام صلب ومات ثم بعد ذلك قام من القبر بعد ثلاثة أيام حيث ظهر لتلاميذه. وهاهي أقوالهم في ذلك:

يقول حبيب جرجس: " بعدما دفن السيد المسيح ومكث في القبر ثلاثة أيام عادت نفسه الطاهرة ونهض بقوة لاهوته قائما من القبر في يوم الأحد باكرًا. . . وظهر بعد قيامته لتلاميذه. [(١)]

والاعتقاد بقيامة المسيح ركيزة أساسية من العقيدة النصرانية – حتى إنه بدون قيامة لا تكون المسيحية سوى وهم لا جدوى منه. "[(٢)]

ويقول باركلي: " ويجب ألا ننسى أنه بدون قيامة لما قامت الكنيسة المسيحية على الإطلاق. "[(٣)]

وهذه العقيدة – في نظر المسيحيين – هي المنطلق الأساسي الذي بُني عليه الإيمان المسيحي كله فالإيمان بالمسيح يعني الإيمان بالقيامة. [(٤)]

ويقول بولس: " [١٤]وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضًا إِيمَانُكُمْ " (كورنثوس الأولى ١٤).

يقول بولس إلياس اليسوعي " يظهر بولس بهذه العبارة أهمية القيامة بالنسبة للدين المسيحي، لو لم يقم المسيح من بين الأموات لكان إيمان المسيحيين باطلًا. "[(٥)]

يقول كلايد تارنر: " إن مسيحا ميتا لا يمكن أن يكون مخلصًا، فقيامة المسيح أكدت أن الله قد قبل عمله الكفاري على الصليب. "[(٦)]

ويقول بولس " [٢٥]الَّذِي أُسْلِمَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَأُقِيمَ لأَجْلِ تَبْرِيرِنَا. "

ويقول د/ فهيم عزيز: " إن قيامة المسيح كانت ركنًا أساسيًا في هذا العمل العظيم. "[(٧)]

وذلك لأن المسيح بقيامته – في نظرهم – أظهر انتصاره على الموت الذي هو أجرة الخطية.

---

(١) خلاصة الأصول الإيمانية (٤٨ - ٤٩).

(٢) سر الفداء، باسيليوس (٣٠).

(٣) تفسير أعمال الرسل (٤٧).

(٤) القيامة والصعود (٤٢).

(٥) يسوع المسيح (١٤٨).

(٦) هذه عقائدنا (٩٢).

(٧) المدخل إلى العهد الجديد (٨٩).

يقول اسبيروجبور: " ففي آدم مات الجميع بآدم حيث انتقل الموت إلى الجميع، أما في المسيح فقد قام الجميع، بالمسيح انتقل الجميع من الموت إلى الحياة. "(١)

ويقول أفلاطون مطران موسكو: " وقد أظهر يسوع بقيامته أنه غلب الموت، وكيف كان ممكنا أن ينضبط الموت المتسلط على الحياة. "(٢)

يقول دوم كولومبا مرميون: " فالمسيح بقيامته أباد الخطيئة التي سببت الموت لآدم ونسله، ذلك أن المسيح بقيامته انتصر على الموت الذي سببته الخطية، وعليه فإن القيامة أعادت الحياة الجديدة للإنسان التي لا سلطان للموت عليها. "(٣)

المبحث الثاني: الرد على هذه الأقوال من وجوه:

الوجه الأول: إذا كان المسيح قد مات فمن الذي أحياه؟

فإن قالوا: نفسه، قلنا: وهو حي أو ميت؟

فإن قالوا وهو حي لزمهم تحصيل الحاصل، وإن قالوا وهو ميت لزمهم المحال، لأن الخالق للحياة لا يمكن أن يكون ميتًا، بل أقل أحواله أن يكون عالمًا بمن يحييه، وقيام العلم بغير الحي محال، وإن قالوا أحياه غيره وهو الذي أماته. قلنا: فذلك الغير الذي تولى موته وإحيائه أحي أم ميت؟ فإن قالوا ميت كان ذلك محالا إذ الميت لا يحيي ولا يميت، وإن قالوا كان حيا قادرا أمات المسيح ثم أحياه قلنا فقد اعترفتم أن المسيح عبد من العبيد تجري عليه الأحكام من الأموات والأحياء وفي هذا بطلان شريعة إيمانكم. "(٤)

الوجه الثاني: من كان يحكم الكون أيام موت المسيح ؟

هم يقولون إن المسيح الابن – الأقنوم الثاني -هو الذي يمثل العلم أو النطق للذات الإلهية، وهنا نتسائل: هل كان الله في هذه الأيام الذي مات ودفن فيها جاهلًا بدون علم؟

---

(١) سر التدبير الإلهي (التجسد ص ١٦٨).

(٢) الخلاصة الشهية (١٠٠).

(٣) المسيح حياة النفس (١٩٤).

(٤) انظر: الأجوبة الفاخرة (١٩٩)، المنتخب الجليل (١١٥). وانظر تفصيل ذلك في الفصل الثالث من هذا الباب.

تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

هل كان الله في هذه الأيام أخرسًا بدون نطق! ! تنزه وتعالى سبحانه وتعالى عن ذلك.

هم يقولون أيضًا إنه الله وهنا أيضًا نتسائل – كما يقول ابن القيم – " أخبرونا من كان الممسك للسماوات والأرض حين كان ربها وخالقها مربوطًا على خشبة الصليب وقد شدت يداه ورجلاه بالحبال وسمرت اليد التي أتقنت العوالم فهل بقيت السموات والأرض خلوا من إلهها وفاطرها وقد جرى عليه هذا الأمر العظيم؟ أم تقولون استخلف على تدبيرها غيره وهبط عن عرشه لربط نفسه على خشبة الصليب وليذوق حر المسامير وليوجب اللعنة على نفسه. . . "(١)

الوجه الثالث: تناقض روايات الصلب تبطل معتقدهم.

وأيضًا إن روايات القيامة متناقضة فيما بينها تناقضًا عظيمًا – كما سبق –.

يقول شارل جنيبير: " إن روايات الإنجيل التي وصلت إلينا والتي تتعلق بقيامة المسيح لتبدو للمؤرخ الناقد نوعًا من الانشاءات التي لا تنسجم عناصرها، قد بنيت على ذكريات مبهمة وتفاصيل متعارضة ".(٢)

وقد وضحنا ذلك بالأدلة في الفصول السابقة.

الفصل الثاني: تناقضات روايات قصة القيامة.

وتتحدث الأناجيل الأربع عن قيامة المسيح بعد دفنه، وتمتلئ قصص القيامة في الأناجيل بالمتناقضات التي تجعل من هذه القصة أضعف قصص الأناجيل.

١-الخلاف في رؤية المسيح بعد ذلك يقول متى (٢٨): إن ملكًا لاقى امرأتين وأخبرهما أن المسيح قام من الأموات: "فَخَرَجَتَا سَرِيعًا مِنَ الْقَبْرِ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ عَظِيمٍ، رَاكِضَتَيْنِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ. ٩وَفِيمَا هُمَا مُنْطَلِقَتَانِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ إِذَا يَسُوعُ لاَقَاهُمَا وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمَا». فَتَقَدَّمَتَا وَأَمْسَكَتَا بِقَدَمَيْهِ وَسَجَدَتَا لَهُ. ١٠فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لاَ تَخَافَا. اِذْهَبَا قُولاَ

(١) هداية الحيارى، ابن القيم (١٤٨).

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها (٤٩) وانظر: تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٥٦٥ – ٥٦٦).

لِإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ، وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي». "

ويقول لوقا: إن ملكين قابلا النساء، وذاكرهن بقول المسيح أنه سيقوم فرجعن من القبر وأخبرن التلاميذ فلم يصدقوهن، وحسب هذه الرواية لم يقابلن المسيح مطلقًا.

ويختلف يوحنا في الرواية كذلك، فيقول: إن المرأة قابلت المسيح أثناء وجودها مع الملكين عند القبر، وأنه قال لها: " وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ». "

٢-من ذهب إلى القبر ؟ وماذا حدث وقتئذ ؟ ومتى كان ذلك؟

يقول متى (٢٨ / ١) " ١وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَى لِتَنْظُرَا الْقَبْرَ. ٢وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ. ".

ويقول مرقس (١٦ / ١) " ١وَبَعْدَمَا مَضَى السَّبْتُ، اشْتَرَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ، حَنُوطًا لِيَأْتِينَ وَيَدْهَنَّهُ. ٢وَبَاكِرًا جِدًّا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. ٣وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: «مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟ » ٤فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ الْحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ! لأَنَّهُ كَانَ عَظِيمًا جِدًّا. ٥وَلَمَّا دَخَلْنَ الْقَبْرَ رَأَيْنَ شَابًّا جَالِسًا عَنِ الْيَمِينِ لاَبِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ، فَانْدَهَشْنَ. "

ويقول لوقا (٢٤ / ١) " ١ثُمَّ فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، أَوَّلَ الْفَجْرِ، أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ حَامِلاَتٍ الْحَنُوطَ الَّذِي أَعْدَدْنَهُ، وَمَعَهُنَّ أُنَاسٌ. ٢فَوَجَدْنَ الْحَجَرَ مُدَحْرَجًا عَنِ الْقَبْرِ، ٣فَدَخَلْنَ وَلَمْ يَجِدْنَ جَسَدَ الرَّبِّ يَسُوعَ. ٤وَفِيمَا هُنَّ مُحْتَارَاتٌ فِي ذلِكَ، إِذَا رَجُلاَنِ وَقَفَا بِهِنَّ بِثِيَابٍ بَرَّاقَةٍ. "

فتأمل الاختلاف والتناقض الغريب في الحالة الواحدة:

١- يقول الأول: من ذهب إلى القبر هما مريم المجدلية ومريم الأخرى.

ويقول الثاني: إنهن ثلاثة لا اثنتان والثالثة هي سالومة.

ويقول لوقا (٢٣ / ٥٥): إنهن نساء عديدات ولم يعينهن، وذكر أن معهن أناس.

٢- يقول الأول: حين أتيتا إلى القبر حدثت زلزلة عظيمة، والآخران يظهر من كلاهما

واضحا، أنه لم تحدث أية زلزلة.

٣- يقول الأول: إنها حين جاءتا إلى القبر، نزل ملاك الرب أمامها ودحرج الحجر وجلس عليه.

ويقول الثاني: إنهن وجدن الحجر موضوعا على القبر فقلن لأنفسهن من يدحرج الحجر فرأين الحجر قد دحرج.

ويقول الثالث: إنهن أقبلن على القبر فوجدن الحجر مدحرجا من قبل.

٤- يقول الأول: إن ملاك الرب جلس على الحجر.

ويقول الثاني: إنه كان جالسا في القبر على اليمين.

ويقول الثالث: إنهن لقين رجلين في القبر بثياب براقة.

٥- يقول مرقس: إن مريم ومريم وسالومة ذهبن إلى القبر إذ طلعت الشمس.

ويقول يوحنا: إنه لم تكن إلا امرأة واحدة هي مريم المجدلية وقد أتت " الْقَبْرِ بَاكِرًا، وَالظَّلاَمُ بَاق. " (يوحنا ٢٠ / ١).

وأيضًا يخالفهم يوحنا مخالفات كبيرة: " ١وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِرًا، وَالظَّلاَمُ بَاق. فَنَظَرَتِ الْحَجَرَ مَرْفُوعًا عَنِ الْقَبْرِ. ٢فَرَكَضَتْ وَجَاءَتْ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى التِّلْمِيذِ الآخَرِ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ، وَقَالَتْ لَهُمَا: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ! ». ١١أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجًا تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ، ١٢فَنَظَرَتْ مَلاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ، حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا. ١٣فَقَالاَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ » (يوحنا ٢٠).

فأي تناقض بعد هذا ؟! ثم يزعم النصارى أن هذا هو كلمة الله، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة/ ٧٩).

٣ – متى أتت الزائرات إلى القبر؟

تتحدث الأناجيل عن زائراتٍ للقبر في يوم الأحد، ويجعله مرقس بعد طلوع الشمس، فيقول: "[٢]وَبَاكِرًا جِدًّا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. [٣]وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: «مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟ »" (مرقس ١٦/ ٢-٣).

لكن لوقا ومتَّى يجعلون الزيارة عند الفجر، وينصُّ يوحنا على أن الظلام باقٍ، يقول يوحنا: "[١]وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِرًا، وَالظَّلاَمُ بَاق. فَنَظَرَتِ الْحَجَرَ مَرْفُوعًا عَنِ الْقَبْرِ. " (يوحنا ٢٠/ ١)، (انظر: متى ٢٨/ ١، لوقا ٢٤/ ١).

ولنقرأ محاولة الأب متى المسكين في الجمع بين الفجر وطلوع الشمس، فقد قال: "فالاختلاف ناتج أن النسوة قمن باكرًا جدًا والظلام باق، وأتين إلى الباب، باب غربي المدينة، وانتظرن هناك إلى أن فتحوا الباب الذي لا يفتح إلا في شروق الشمس، وهكذا بين أن قمن ووصلن في الفجر عند الباب وخرجن والشمس قد طلعت؛ كانت المفارقة". [(١)]

ولا ريب أن القارئ يدرك أن أحدًا من الإنجيليين ولا المؤرخين يدري عما يكتبه الأب المسكين عن باب المدينة المغلق، كما يدرك أن تفسير الأب للقصة يكذب ما قاله يوحنا الذي يقول: " جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِرًا، وَالظَّلاَمُ بَاق. "، لقد وصلت المجدلية إلى القبر والظلام باق، وليس إلى باب المدينة الغربي الذي لا يفتح إلا بعد شروق الشمس!

٤- من زار القبر؟

أما الزائرات والزوار، فهم حسب يوحنا مريم المجدلية وحدها كما في النص السابق " جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِرًا " (يوحنا ٢٠/ ١ - ٣).

وأضاف متى مريمَ أخرى أبهمها " جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَى لِتَنْظُرَا الْقَبْرَ. " (متى ٢٨/ ١).

لكن مرقس يخبر قراءه أن الزائرات هن مريم المجدلية وأم يعقوب وسالومة، فيقول: " اشْتَرَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ، حَنُوطًا لِيَأْتِينَ وَيَدْهَنَّهُ. " (مرقس ١٦/ ١).

---

(١) الإنجيل بحسب القديس متى (دراسة وتفسير وشرح) الأب متى المسكين (٨٣٠).

وأما لوقا فيخبر أن القادمات للزيارة كن نساء كثيرات ومعهن أناس، يقول لوقا: " ٥٥وَتَبِعَتْهُ نِسَاءٌ كُنَّ قَدْ أَتَيْنَ مَعَهُ مِنَ الْجَلِيلِ، وَنَظَرْنَ الْقَبْرَ وَكَيْفَ وُضِعَ جَسَدُهُ. ٥٦فَرَجَعْنَ وَأَعْدَدْنَ حَنُوطًا وَأَطْيَابًا. وَفِي السَّبْتِ اسْتَرَحْنَ حَسَبَ الْوَصِيَّةِ. "، " ١ثُمَّ فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، أَوَّلَ الْفَجْرِ، أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ حَامِلاَتٍ الْحَنُوطَ الَّذِي أَعْدَدْنَهُ، وَمَعَهُنَّ أُنَاسٌ. ٢فَوَجَدْنَ الْحَجَرَ مُدَحْرَجًا عَنِ الْقَبْرِ " (لوقا ٢٣/ ٥٥ - ٢٤/ ١ - ٢). وهذا كله إنما كان في زيارة واحدة.

٥- متى دحرج الحجر؟

ثم هل وجد الزوار الحجر الذي يسد القبر مدحرجًا أم دُحرج وقت الزيارة؟

يقول متى: "٢وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ. " (متى ٢٨/ ٢)، فيفهم منه أن الدحرجة حصلت وقتذاك.

بينما يذكر الثلاثة أن الزائرات وجدن الحجر مدحرجًا، يقول لوقا: " أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ حَامِلاَتٍ الْحَنُوطَ الَّذِي أَعْدَدْنَهُ، وَمَعَهُنَّ أُنَاسٌ. ٢فَوَجَدْنَ الْحَجَرَ مُدَحْرَجًا عَنِ الْقَبْرِ" (لوقا ٢٤/ ٢) (وانظر: مرقس ١٦/ ٤، يوحنا ٢٠/ ١).

٦- ماذا رأت الزائرات؟

وقد شاهدت الزائرات في القبر شابًا جالسًا عن اليمين، لابسًا حُلة بيضاء حسب مرقس (انظر: مرقس ١٦/ ٥)، ومتَّى جعل الشاب ملاكًا نزل من السماء. (انظر: متى ٢٨/ ٢)، ولوقا جعلهما رجلين بثياب براقة. (انظر: لوقا ٢٤/ ٤).

وأما يوحنا فقد جعلهما ملكين بثياب بيضٍ، أحدهما عند الرأس، والآخر عند الرجلين. (انظر يوحنا ٢٠/ ١٢).

٧- أين لقيت المجدلية المسيح؟ ومن الذي بشرها بقيامة المسيح؟

لقد كانت زائرات القبر أول من رأين المسيح، فأين حصل هذا اللقاء.

يجيب يوحنا بأنه كان داخل قبر المسيح، حين كانت المجدلية (وهي الزائرة الوحيدة

حسب يوحنا) تتحدث إلى الملائكة، " ١٣فَقَالاَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ » قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ! ». ١٤وَلَمَّا قَالَتْ هذَا الْتَفَتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ، فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ. ١٥قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟ » فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ». ١٦قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ» فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي! » الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ. " (يوحنا ٢٠/ ١٣-١٦)، ونلحظ هنا أنها اكتشفت أن المسيح مازال حيًا من غير إخبار الملائكة لها، فقد رأته وتعرفت عليه بعد برهة من حديثه معها.

وأما إجابة متى عن السؤال فهي مختلفة، فإنه يرى أن المجدلية وصاحبتها قد لقيتاه خارج القبر، بل بعيدًا عنه، فقد قال لهما الملاك مبشرًا بنجاة المسيح: ": «لاَ تَخَافَا أَنْتُمَا، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. ٦لَيْسَ هُوَ ههُنَا، لأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ! هَلُمَّا انْظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجِعًا فِيهِ. ٧وَاذْهَبَا سَرِيعًا قُولاَ لِتَلاَمِيذِهِ: إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ. هَا هُوَ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ. هَا أَنَا قَدْ قُلْتُ لَكُمَا». ٨فَخَرَجَتَا سَرِيعًا مِنَ الْقَبْرِ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ عَظِيمٍ، رَاكِضَتَيْنِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ. ٩وَفِيمَا هُمَا مُنْطَلِقَتَانِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ إِذَا يَسُوعُ لاَقَاهُمَا وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمَا». فَتَقَدَّمَتَا وَأَمْسَكَتَا بِقَدَمَيْهِ وَسَجَدَتَا لَهُ. ١٠فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لاَ تَخَافَا. اِذْهَبَا قُولاَ لإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ، وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي». " (متى ٢٨/ ٥-١٠).

وهكذا فحسب متى كان اللقاء بعيدًا عن القبر، وكانت البشارة بقيامته من قبل الملائكة، لا المسيح نفسه، ليتجدد السؤال: أي الإنجيلين أصاب كبد الحقيقة وأيهما أخطأها؟ وهل يمكن أن يكون مصدر ذا وذاك الله؟

٨- هل أسرت الزائرات الخبر أم أشاعته؟

ويتناقض مرقس مع لوقا في مسألة: هل أخبرت النساء أحدًا بما رأين أم لا؟ فمرقس يقول: " وَلَمْ يَقُلْنَ لأَحَدٍ شَيْئًا لأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ. " (مرقس ١٦/ ٨)، ولوقا يقول: " ٩وَرَجَعْنَ مِنَ الْقَبْرِ، وَأَخْبَرْنَ الأَحَدَ عَشَرَ وَجَمِيعَ الْبَاقِينَ بِهذَا كُلِّهِ. " (لوقا ٢٤/ ٩).

٩- لمن ظهر المسيح أول مرة؟

وتختلف الأناجيل مرة أخرى في عدد مرات ظهور المسيح لتلاميذه، وفيمن لقيه المسيح في أول ظهور؟ فمرقس ويوحنا يجعلان الظهور الأول لمريم المجدلية. (انظر: مرقس ١٦/ ٩، يوحنا ٢٠/ ١٤). ويضيف متى: مريم الأخرى. (انظر: متى ٢٨/ ٩).

بينما يعتبر لوقا أن أول من ظهر له المسيح هما التلميذان المنطلقان لعمواس (انظر: لوقا ٢٤/ ١٣).

١٠- كم مرة ظهر المسيح؟ وأين؟

ويجعل يوحنا ظهور المسيح للتلاميذ مجتمعين ثلاث مرات. (يوحنا ٢٠/ ١٩، ٢٦، ٢٢) بينما يذكر الثلاثة للمسيح ظهورًا واحدًا (انظر: متى ٢٨/ ١٦، مرقس ١٦/ ١٤، لوقا ٢٤/ ٣٦).

ويجزم لوقا المتتبع لكل شيء بتدقيق أن المسيح ظهر للتلاميذ مرة واحدة، وقد رُفع في نهاية هذه المقابلة، فيقول: " وَفِيمَا هُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِهذَا وَقَفَ يَسُوعُ نَفْسُهُ فِي وَسْطِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «سَلاَمٌ لَكُمْ!» ٣٧فَجَزِعُوا وَخَافُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ نَظَرُوا رُوحًا. . . ٥٠وَأَخْرَجَهُمْ خَارِجًا إِلَى بَيْتِ عَنْيَا، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَبَارَكَهُمْ. ٥١وَفِيمَا هُوَ يُبَارِكُهُمُ، انْفَرَدَ عَنْهُمْ وَأُصْعِدَ إِلَى السَّمَاءِ. " (لوقا ٢٤/ ٣٦ - ٥١).

وهذا اللقاء الأول والأخير بين المعلم وتلاميذه يرى لوقا أنه قد تم في أورشليم، فيقول: " وَرَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَوَجَدَا الأَحَدَ عَشَرَ مُجْتَمِعِينَ، هُمْ وَالَّذِينَ مَعَهُمْ ٣٤وَهُمْ يَقُولُونَ: «إِنَّ الرَّبَّ قَامَ بِالْحَقِيقَةِ وَظَهَرَ لِسِمْعَانَ!» ٣٥وَأَمَّا هُمَا فَكَانَا يُخْبِرَانِ بِمَا حَدَثَ فِي الطَّرِيقِ، وَكَيْفَ عَرَفَاهُ عِنْدَ كَسْرِ الْخُبْزِ. ٣٦وَفِيمَا هُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِهذَا وَقَفَ يَسُوعُ نَفْسُهُ فِي وَسْطِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «سَلاَمٌ لَكُمْ!»" (لوقا ٢٤/ ٣٣ - ٣٦).

بينما يقول صاحباه (متى ومرقس) بأن ذلك كان في الجليل "١٦وَأَمَّا الأَحَدَ عَشَرَ تِلْمِيذًا فَانْطَلَقُوا إِلَى الْجَلِيلِ إِلَى الْجَبَلِ، حَيْثُ أَمَرَهُمْ يَسُوعُ. ١٧وَلَمَّا رَأَوْهُ سَجَدُوا لَهُ، " (متى ٢٨/ ١٦- ١٧)، (وانظر مرقس ١٦/ ٧)، فهل كان لقاؤهم الأول مع المسيح في الجليل أم في أورشليم؟

١١- هل حضر توما اللقاء الأول مع المسيح؟

وعند غض الطرف عن عدد ظهورات المسيح للتلاميذ فإنا نتساءل عن الحضور الذين رأوا المسيح في اللقاء الأول حيث كان التلاميذ مجتمعين في أورشليم أو الجليل، هل كانوا جميعًا موجودين أم أن أحدهم وهو توما الشكاك كان غائبًا عن هذا اللقاء؟

متّى يرى أن التلاميذ الاثني عشر كانوا موجودين خلا يهوذا الخائن، فيقول: "[١٦]وَأَمَّا الأَحَدَ عَشَرَ تِلْمِيذًا فَانْطَلَقُوا إِلَى الْجَلِيلِ إِلَى الْجَبَلِ، حَيْثُ أَمَرَهُمْ يَسُوعُ. [١٧]وَلَمَّا رَأَوْهُ سَجَدُوا لَهُ، وَلكِنَّ بَعْضَهُمْ شَكُّوا. " (متى ٢٨/ ١٦-١٧)، يفهم منه أن توما كان أحد أولئك الساجدين حينذاك، ولعله هو من عناه متى حين قال: " وَلكِنَّ بَعْضَهُمْ شَكُّوا".

لكن يوحنا يجزم بغياب توما عن اللقاء الأول، ويقول: "[٢٤]أَمَّا تُومَا، أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ. [٢٥]فَقَالَ لَهُ التَّلاَمِيذُ الآخَرُونَ: «قَدْ رَأَيْنَا الرَّبَّ!». " (يوحنا ٢٠/ ٢٤-٢٥)، والحديث بالطبع عن اللقاء الأول، وقد لقيه بعد ذلك بثمانية أيام، وشكّ في شخص من يراه، وأراه المسيح يديه ورجليه كما قال يوحنا. (انظر يوحنا ٢٠/ ٢٦-٢٧).

لكن العجب كل العجب فيما أضافه بولس في اللقاء الأول، لقد أضاف ضيفًا غريبًا ثقيلًا، وهو يهوذا الأسخريوطي، التلميذ الخائن الهالك، فقد قال: " [٤]وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ، [٥]وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِصَفَا ثُمَّ لِلاثْنَيْ عَشَرَ. " (كورنثوس (١) ١٥/ ٤- ٥)، إنه تناقض صارخ آخر من تناقضات هذه الرواية التي تعتبر بحق أضعف أجزاء العهد الجديد.

١٢- كم بقي المسيح في الأرض قبل رفعه؟

ونشير أخيرًا إلى تناقض كبير وقعت فيه الأناجيل، وهي تتحدث عن ظهور المسيح، ألا وهو مقدار المدة التي قضاها المسيح قبل رفعه.

ويفهم من متى ومرقس أن صعوده كان في يوم القيامة (انظر: متى ٢٨/ ٨ - ٢٠، مرقس ١٦/ ٩ - ١٩، ولوقا ٢٤/ ١ - ٥٣).

بيد أن مؤلف أعمال الرسل - والمفترض أنه لوقا - جعل صعود المسيح للسماء بعد

أربعين يومًا من القيامة. (انظر: أعمال ١/ ١٣).

وبهذه التناقضات وغيرها سقطت شهادة الشهود في هذه المسألة، وصح لأي محكمة أن تعتبرهم شهود زور، وهل يُعرف شهود الزور إلا بمثل هذه التناقضات، أو أقل منها؟ ، أما الأب متى المسكين فأعياه أن يواجه تناقضات قصة القيامة، فبدلًا عنه رأى أن يقدم "رجاء وتوعية لكل قارئ أن لا يعثر من الاختلافات الواضحة في قصة القيامة، لأن الذي يتحدث عن القيامة إنما يتحدث عن أمور ليست تحت ضبط العقل والفكر والحواس والتمييز البصري. . فكل ما يخص القيامة لا يدخل تحت النقد أو الفحص أو التحقيق والإيضاح". [(١)]

فهل القارئ الكريم ممن يلتمس العذر لكتاب الأناجيل فيما عثروا به في قصة القيامة؟

أم يعتبرها دليلًا آخر على كذب الشهود وسقوط شهاداتهم المتخالفة عن الشهادة في مثل هذه القضية العظيمة؟ [(٢)]

"وملاك القول أن ثمة تناقضًا كثيرًا بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأن فيها نقطًا تاريخية مشكوكًا في صحتها، وكثيرًا من القصص الباعثة على الريبة والشبيهة بما يُروى عن آلهة الوثنيين، وكثيرًا من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع النبوءات الواردة في العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس من طقوسها. . . ، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو تصحيح". [(٣)]

الفصل الثالث: من الذي أقامه من الأموات؟

يقول بولس مجددًا: " ١٤وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضًا إِيمَانُكُمْ

---

(١) الإنجيل بحسب القديس متى (دراسة وتفسير وشرح)، الأب متى المسكين (٨٣٢).

(٢) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٤٤: ١٧٩)، المسيح والتثليث، محمد وصفي (١٦٠: ١٦٤) هل افتدانا المسيح على الصليب؟، منقذ السقار (٩- ٢٠).

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت (١١ / ٢١٠) بتصرف يسير.

" (كورنثوس الأولى ١٥ / ١٤)، فهل هو الذي أقام نفسه؟ لا، فإن الذي أقامه هو الله، ومعنى ذلك أنه كان هناك أحد الثالوث ميتًا والآخر حيًا. وهذا دليل يضاف إلى ما سبق على أن يسوع ليس متحدا مع الآب ولا الروح القدس. ومعنى ذلك أيضًا أنه لا يوجد داع مطلقًا لأن يتجسد الإله ليهان وتراق كرامته على مذبح اليهود، ويفقد قداسته بين أيديهم، ليغفر للبشرية خطيئة لم يرتكبوها.

وسنذكر بعون الله تعالى الأدلة على أن يسوع لم يقم من الأموات، ولكن الله الذي يحيي ويميت هو الذي أقامه، وساعتها يبطل إيمانكم بنص كتابكم، وتبطل كرازتكم، وتقام عليكم الحجة في عدم اتحاد الخالق بالمخلوق والمحيي والمميت بالميت.

١- ورد في سفر أعمال الرسل (٢ / ٢٤) " [٢٤]اَلَّذِي أَقَامَهُ اللهُ نَاقِضًا أَوْجَاعَ الْمَوْتِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ يُمْسَكَ مِنْهُ. "

٢- ورد أيضا في أعمال الرسل (٢ / ٣٢) " [٣٢]فَيَسُوعُ هذَا أَقَامَهُ اللهُ، وَنَحْنُ جَمِيعًا شُهُودٌ لِذلِكَ. "

٣- وورد أيضًا في اعمال الرسل (٣ / ١٥): " [١٥]وَرَئِيسُ الْحَيَاةِ قَتَلْتُمُوهُ، الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَنَحْنُ شُهُودٌ لِذلِكَ. "

٤- وورد أيضًا في أعمال الرسل (٣ / ٢٦): " [٢٦]إِلَيْكُمْ أَوَّلاً، إِذْ أَقَامَ اللهُ فَتَاهُ يَسُوعَ، أَرْسَلَهُ يُبَارِكُكُمْ بِرَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَنْ شُرُورِهِ». "

والغريب حقا أن المترجم غير كلمة " عبده: إلى " فتاه "، فقد جاءت في الكثير من التراجم كلمة عبده:

Act ٣: ٢٦ To you, first , God sent his servant. blessing you by turning every one of you from his sins. (BBE)

Unto you first God, having raised up his servant. sent him to bless you, in turning away every one of you from your iniquities> (ASV)

Euch zuerst hat gott, al ser seinen Knecht erweckte. ihn gesandt, euch zu segnen, indem er einen jeden von euren Bosheiten abwendet (GEB)

Euch zuvorderst hat gott auferweckt seinen knecht gesus und hat ihn zu euch ges andt, auch zu segnen, daB ein jeglicher sich bekehre von seiner bosheit. (GLB)

وانظر إلى هذه الترجمة يتضح لك تحريف المترجم ليتناسب ما يكتبه وإيمان طائفته، فقد حذف المترجم كلمة (إذ أقام الله عبده يسوع):

God sent his choosen son to you first, because God wanted to bless you and make each one of turn away from your sins. (CEV)

والسبب في هذا التغيير هو أن عيسى ﷺ قال ما معناه: إن العبد لا يمكن أن يكون أعظم من سيده، ولا الرسول أعظم من مرسله، أي أنه بذلك ينفي الاتحاد المزعوم بينه وبين الله "١٦اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ، وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ. " (يوحنا ١٣ / ١٦).

فهو بذلك يقر بأن الله أعظم منه، فهو رسوله إلى بني إسرائيل، ويستحيل أن يتحد الإله القدوس بالعبد الذليل: " ٢٨سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي. " (يوحنا ١٤ / ٢٨).

٥- ورد أيضًا في أعمال الرسل ٤ / ١٠: " فَلْيَكُنْ مَعْلُومًا عِنْدَ جَمِيعِكُمْ وَجَمِيعِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ، أَنَّهُ بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمُ، الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِذَاكَ وَقَفَ هذَا أَمَامَكُمْ صَحِيحًا. "

٦- وفي أعمال الرسل ٥ / ٣٠: " ٣٠إِلهُ آبَائِنَا أَقَامَ يَسُوعَ الَّذِي أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ مُعَلِّقِينَ إِيَّاهُ عَلَى خَشَبَةٍ. "

٧- وفي أعمال الرسل (١٠ / ٤٠): " ٤٠هذَا أَقَامَهُ اللهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، وَأَعْطَى أَنْ يَصِيرَ ظَاهِرًا ".

٨- وفي أعمال الرسل (١٣ / ٣٠): "٣٠وَلكِنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. ".

٩- وفي أعمال الرسل (١٣ / ٣٣ – ٣٧): " ٣٣إِنَّ اللهَ قَدْ أَكْمَلَ هذَا لَنَا نَحْنُ أَوْلاَدَهُمْ، إِذْ أَقَامَ يَسُوعَ. . . ٣٤إِنَّهُ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. . . ٣٧وَأَمَّا الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ فَلَمْ يَرَ فَسَادًا ".

١٠ – وفي أعمال الرسل (١٧ / ٣١): "٣١لأَنَّهُ أَقَامَ يَوْمًا هُوَ فِيهِ مُزْمِعٌ أَنْ يَدِينَ

الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ، بِرَجُل قَدْ عَيَّنَهُ، مُقَدِّمًا لِلْجَمِيعِ إِيمَانًا إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ». "

١١- ورد في سفر رومية (٤ / ٢٤): " ٢٤بَلْ مِنْ أَجْلِنَا نَحْنُ أَيضًا، الَّذِينَ سَيُحْسَبُ لَنَا، الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِمَنْ أَقَامَ يَسُوعَ رَبَّنَا مِنَ الأَمْوَاتِ. ".

١٢ – وفي سفر رومية أيضًا (٨ / ١١): " ١١وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِنًا فِيكُمْ، فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيضًا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ. ".

١٣ – وفي سفر رومية ١٠ / ٩: " ٩لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ. "

١٤ – وفي غلاطية (١ / ١): " ١بُولُسُ، رَسُولٌ لاَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ بِإِنْسَانٍ، بَلْ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ وَاللهِ الآبِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ ".

١٥ – وفي أفسس (١ / ٢٠): " ٢٠الَّذِي عَمِلَهُ فِي الْمَسِيحِ، إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ ".

١٦ – وفي كولوسي (٢ / ١٢): " ١٢مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا أُقِمْتُمْ أَيضًا مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ اللهِ، الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. "

١٧ – وفي تسالونيكي الأولى (١ / ١٠): "١٠وَتَنْتَظِرُوا ابْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ، الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، يَسُوعَ، الَّذِي يُنْقِذُنَا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي. "

١٨ – وفي بطرس الأولى ١ / ٢١): " ٢١أَنْتُمُ الَّذِينَ بِهِ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَأَعْطَاهُ مَجْدًا، حَتَّى إِنَّ إِيمَانَكُمْ وَرَجَاءَكُمْ هُمَا فِي اللهِ. "(١)

وأخيرًا: ما السبيل إلى النجاة؟

لقد أوضح لهم عيسى عليه السلام كيفية دخول الجنة، وتأمل هذه النصوص:

١- ورد في يوحنا ١٧ / ٣: " ٣وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ

---

(١) وانظر: إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر (٢١ - ٢٤).

وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. "

٢- وورد في متى (٥ / ١٦): " ١٦فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. "

٣- وورد في متى ٥ / ٢٠: " ٢٠فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. ".

٤- وورد في متى ١٩ / ١٦ – ١٧ : " ١٦وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟ » ١٧فَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا». "

الوجه الثالث: بيان بطلان عقيدة الصلب والفداء عند النصارى فيما يُكفِّر به الذنب عقلًا ومنطقًا.

الفصل الأول: لماذا كل هذا التضخيم لذنب آدم؟.

النصارى يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه وأن تلك العقوبة بقيت في ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب وأنه كانت الذرية في حبس إبليس فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم في حبس إبليس حتى قالوا ذلك في الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى[1].

وأن آدم لما تخطى ما أُمر به وزلّ استحقّ العقاب، فلما توجه عليه العتاب أشفق من ذنبه وتقطع أسفًا على مخالفة ربّه، فرحمه الله ولطف له وفداه بابنه المسيح، فكان كلّ ما نزل بالمسيح من ضربٍ وإذلالٍ وصلبٍ وموتٍ إنما هو فداء وقضاء عن آدم، فضرب عوضًا من رفاهية آدم، ومات بدلًا عن موت المعصية الذي كان آدم يتوقعه[2].

فمن تمام رحمته بالناس أنه رضي بإراقة دمه ليرفع عنهم وزر خطيئة آدم على خشبة الصليب، فمكّن اليهود أعداءه من نفسه ليتم سخطه عليهم فأخذوه وصلبوه، لأنه لم يكن

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية ١/ ٢١٣.

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ١/ ٣٨٠.

في الحكمة الأزلية أن لا ينتقم الله من عبده العاصي آدم الذي ظلمه واستهان بقدره، لم يرد الله الانتقام منه لاعتلاء منزلة السيد وسقوط منزلة العبد فأراد الله أن ينتصف من الإنسان الذي هو إله مثله فصُلب ابن الله ﷻالذي هو الله في تمام الساعة التاسعة من يوم الجمعة صلبه اليهود الملاعين[١].

ومن رحمته بعباده جسد كلمته وهو ابنه الأزلي تجسدًا ظاهرًا، ورضي بموته على الصليب وهو غير مستحق لذلك لكي يكون ذلك فداءً عن الخطية الأولى، ولم يكن في استطاعة أحد أن يقوم بهذا الفداء سوى ابن الله وابن الإنسان منا، وكان ذلك الابن وهذا الفداء هو المسيح عيسى ولد مريم العذراء أرسل الله إليها ملاكه جبريل وبشرها بأن المسيح مخلِّص الدنيا يولد منها، وأن الروح القدس يحل فيها، فتلد الكلمة الأزلية وتصير والدة الإله.

فلهذا كان المسيح هو الذي يكفر عن خطايا العالم، وهو الوسيط الذي وفق بين محبة الله وبين عدله ورحمته، إذ إن مقتضى العدالة أن الناس كانوا يستمرون في الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم، ولكن باقتران العدل والرحمة وبتوسيط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد وقد كان التكفير الذي قام به المسيح هو الصلب.[٢]

وجواب ذلك من وجوه

الوجه الأول: أبأكلة من شجرة يغضب الرب، ويحكم بالموت الأبدي على آدم وذريته؟

فالنصارى يعتقدون أن سبب خطيئة آدم‌ﷺ أبي البشر أكلة من الشجرة التي نهاه الله عنها في الجنة، وعلى هذا الأساس قامت نظرية (عقيدة) الصلب والفداء والتي تعني صلب المسيح‌ﷺ (ابن الله كما يعتقدون) نيابةً عن الجنس البشري وفداءً لهم وهذا ما يعبِّر عنه النصارى بالخلاص[٣].

الوجه الثاني: كل هذا التصوير الظالم لحال آدم لكي يصبح لصلب المسيح مبررًا.

وكل هذا التصوير الظالم لحال آدم وذريته اللعنة المؤبدة الموروثة لماذا؟ لكي يصبح فداء

---

(١) بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي (٧٧)، وانظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ١/ ٣٨٠.

(٢) محاضرات في النصرانية (١٠٧).

(٣) الميزان في مقارنة الأديان (١٥٥).

المسيح – صلبه –مبَرَّرًا[١].

ومن المعلوم أن الديانة النصرانية بجملتها تقوم أو تسقط بقيام فكرة الخلاص والخطيئة أو سقوطها، فهذه الفكرة هي الأساس الأول والأخير الذي قامت عليه كل عقائد النصارى، فعلى أساسها جعلوا عيسى ابنًا وجعلوه إلهًا وجسدوا الإله وجعلوه مصلوبًا[٢].

الوجه الثالث: أليس من العدل أن تتناسب العقوبة مع الذنب؟

من المسلَّم به في جميع الشرائع العادلة أن تتناسب العقوبة مع الذنب، فهل تتناسب العقوبة بصلب المسيح (كما يزعمون) مع خطيئة آدمعليه السلام بالأكل من الشجرة، إن كل خطيئة آدم التي أحال عليها النصارى عملية قتل المسيح وصلبه لا تعدو أن تكون أكلًا من شجرة نُهي عنها، وثبت بنصوص الكتب المقدسة أن الله عاقبه عليها بإخراجه من الجنة، ولا شك أنه عقاب كافٍ، فالحرمان من الجنة والخروج منها إلى الكدح والتعب في الدنيا عقاب ليس بالهين[٣].

لكن النصارى يمنعون أن يعفو الله عن آدم وأبنائه، ويصرون أن لابد من العقوبة المستحقة لهم، لكنهم قد نالوها بالفعل، فما بال الخطيئة تتوارث وعقوبتها في أبنائهم.

الوجه الرابع: ألا يُعد تكرار العقوبة على العاصي ظلمًا؟

أليس تكرار العقوبة للعاصي صورة من صور الظلم الذي يتنزه عنه الله! ، وقد ذكر في سفر التكوين (٣/ ١٧): " ملعونة الأرض بسببك، وبالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ".

الوجه الخامس: إذا كان ذنب آدم احتاج لتجسد الإله والصلب، فما بال معاصي بني آدم الكثيرة؟

وليس ثمة تناسبًا بين الذنب والعقوبة، ونلحظ في العقوبة شدة متمثلة في لعن الأرض كلها والأتعاب الطويلة للرجال والنساء، ونلحظ أن ليس ثمة تناسبًا بين الذنب والعقوبة، فقد كان يكفيهم الإخراج من الجنة[٤].

إذا كان خطأ آدم قد احتاج لتجسد إله وصلبه من أجل أن يُغفر، فكم تحتاج معاصي

---

(١) ما هي حتمية كفارة المسيح؟ (٢٢).

(٢) مشكلات في العقيدة النصرانية (١٤٤).

(٣) الميزان في مقارنة الأديان لعزت طهطاوي (١٥٨).

(٤) هل افتدانا المسيح ؟ لمنقذ سقار (١٦٢: ١٦١).

بنيه من آلهة تصلب، إن جريمة قتل المسيح التي يدعيها النصارى أعظم وأكبر من معصية آدم، وأعظم منها ما نسبه القوم إلى أنبيائهم من القبائح التي لا تصدر إلا من حثالة البشر، وإن كان خطأ آدم في أكله من شجرة الإله قد ورث أبناءه الخطيئة الكبرى التي لن يغفرها الرب الإله إلا بقتل ابنه الوحيد، فكم تكون خطيئة بني آدم لقتلهم ابن الإله، إنها لا تُقارن بخطيئة أبيهم آدم، أي الخطيئتين أعظم؟، وأي المعصيتين أفدح عند الإله؟، وإن الرضا عن جريمة قتل ابن الإله التي يدعيها النصارى أعظم وأكبر من معصية آدم[1].

الفصل الثاني: أليس في وقوع آدم عليه السلام في الذنب حكمة بليغة؟

وفيه وجوه:

الوجه الأول: أليس قد قضى الله بأن يكون آدم خليفته في الأرض، وأخبر بذلك ملائكته قبل خلق آدم؟

خلق الله آدم وقد علم سبحانه أنه خلقه ليجعله خليفة في الأرض ويستخلف أولاده واقتضت حكمته سبحانه أن يبتلي الأبوين لتمام سعادتهم، فإن كمال العبودية المحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة، والدواعي إلى الشهوات والإرادات المخالفة للعبودية[2].

فلما نسي آدم عليه السلام عهد الله إليه في أن إبليس عدو له أحسن الظن بيمينه. فأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسيًا ومتأولًا وقاصدًا إلى الخير[3].

إن الله عز وجل قد علم منهما (الأبوين) أنه يتناول من الشجرة فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه، وإنما خلق للأرض وأنه لا يترك في الجنة بل ينتقل منها إلى الأرض فكان تناوله من الشجرة سببا لإهباطه واستخلافه في الأرض كما قال تعالى قبل خلقه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[4].

فإن الله سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة وأعلم بذلك ملائكته فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه لما له في ذلك

(١) ولكن شُبه لهم ، لجمال شرقاوي (٦٦).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ١/ ٢٦٨.

(٣) الفصل لابن حزم ٤/ ٣.

(٤) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٥١٧.

من الحِكَم والغايات الحميدة فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قد أسكناها قبل أن يخلقه وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم فمن أسبابه النهي عن تلك الشجرة وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية.

الوجه الثاني: أليس في ابتلاء آدم بالذنب سبب لسعادته؟ فخرج من الجنة ليعود إليها على أحسن الأحوال؟.

وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة تترتب على خروجه من الجنة ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جعلت غايات لِحِكم ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه. (١)

فإن الله سبحانه لما اهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له في ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها فكان إهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله. (٢)

الوجه الثالث: لم يكن خروج آدم ﷺ من الجنة عقوبة، فقد تاب الله عليه.

لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِلَ توبته وإنما أهبطه إما تأديبًا وإما تغليظًا للمحنة.

والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة، ولله أن يفعل ما يشاء(٣).

وبُلي الحبيب بالذنب فاعترف وتاب وندم وتضرع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة وهو التوحيد والاستغفار فأزيل عنه العتب وغفر له الذنب وقبل منه المتاب وفتح له من الرحمة والهداية كل باب ونحن الأبناء ومن أشبه أباه فما ظلم ومن كانت شيمته التوبة

---

(١) شفاء العليل لابن القيم صـ٢٤١.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٣.

(٣) تفسير القرطبي١/ ٢١٣.

والاستغفار فقد هدي لأحسن الشيم[(١)].

الوجه الرابع: أليس قد عهد الله لآدم بأن يعود إلى الجنة هو وكل من اتبع هدى الله من ذريته؟.

وإذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردا عنه وإقباله عليه بعد أن كان نائيا عنه وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضًا وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا وكانت البلية في هذا عين النعمة وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾[(٢)].

الفصل الثالث: كيف لا تكون توبة آدم مقبولة؟.

الوجه الأول: ليس عند أهل الكتاب في كتبهم ما ينفي توبة آدم.

إن آدم عليه السلام وإن كان أكل من الشجرة فقد تاب الله عليه واجتباه، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وليس عند أهل الكتاب في كتبهم ما ينفي توبته وإنما قد يقول قائلهم: إنا لا نعلم أنه تاب، أو ليس عندنا توبته وعدم العلم بشيء ليس علمًا بعدمه وعدم وجود الشيء في كتاب من كتب الله لا ينفي أن يكون في كتاب آخر ففي التوراة ما ليس في الإنجيل وفيهما ما ليس في الزبور وفي الإنجيل والزبور ما ليس في التوراة وفي سائر النبوات ما لا يوجد في هذه الكتب والقرآن لو كان دون التوراة والإنجيل والزبور والنبوات أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها فكيف إذا كان أفضل وأشرف وفيه من العلم أعظم مما في التوراة والإنجيل وقد بين الله تعالى فضله عليهما في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ﴾، وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٩٣.

(٢) طريق الهجرتين ودار السعادتين لابن القيم ١/ ١٥٢.

عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

الوجه الثاني: كيف يجوز أن يكون رسل الله في حبس الشيطان في جهنم؟

وسواء تاب آدم أو لم يتب فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين في حبس الشيطان في جهنم بذنبه وإبراهيم خليل الرحمن كان أبوه كافرًا ولم يؤاخذه الله بذنبه فكيف يجعله في جهنم في حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصى آدم مع أنه كان نبيًا ونوح عليه السلام قد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده وأغرق الله أهل الأرض بدعوته وجعل ذريته هم الباقين فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان لأجل ذنب آدم[1].

والمسلمون يثبتون بالدلائل الكثيرة أنهم بدلوا معاني التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من نبوات الأنبياء وابتدعوا شرعا لم يأت به المسيح ولا غيره ولا يقول عاقل مثل زعمهم إن جميع بني آدم من الأنبياء والرسل وغيرهم كانوا في الجحيم في حبس الشيطان لأجل أن أباهم آدم أكل من الشجرة وأنهم إنما تخلصوا من ذلك لما صلب المسيح.

فإن هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم فكيف وهذا الكلام ليس منقولًا عندهم عن أحد من الأنبياء وإنما ينقلونه عمن ليس قوله حجة لازمة فإن كثيرا من دينهم مأخوذ عن رؤوسهم الذين ليسوا بأنبياء.

فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبياء فكيف إذا لم ينقله عنهم وذلك أن الأنبياء عليهم السلام يخبرون الناس بما تقصر عقولهم عن معرفته لا بما يعرفون أنه باطل ممتنع فيخبرونهم بمحيرات العقول لا محالات العقول[2].

الوجه الثالث: أليس الإنسان ضعيفًا ومُعرَّض للخطأ، فماذا يفعل إذا أذنب؟

وهكذا نلاحظ أن آدم قد ارتكب خطيئته وأخذ جزاءه وهو الخروج من الجنة، ثم

(١) الجواب الصحيح ١/ ٣٥٤: ٣٥٥.

(٢) الجواب الصحيح ٢/ ٤١٣: ٤١٥.

أدرك خطأه فتاب إلى الله فقبل توبته واجتباه، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، إذ انتهت الخطيئة على صاحبها، ولكن النصارى يدعون شيئين كليهما لا يمكن تسليمه إطلاقًا:

الأول: أن الخطيئة باقية لم تزل، وأن الله لم يغفرها لآدم.

الثاني: أن الخطيئة لم تقف عند حد آدم، بل انتقلت منه إلى جميع أبنائه، ومن هنا أصبحوا مخطئين بطبيعتهم.

ونحن لا نسلم الأمر الأول؛ لأن الله قد تاب على آدم، وهو التواب الرحيم يفتح باب التوبة للإنسان، لأنه يعلم أن الإنسان ليس مَلَكًا مجردًا من الشهوة، وإنما هو مركب من الخير، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، ومن هنا كان من الممكن أن يسقط الإنسان في الخطأ بحكم طبيعته ومنطق العدل والرحمة يستلزم أن يفتح الله باب توبته لمن يتوب، ولكن النصارى لا يؤمنون بالتوبة كطريق إلى مغفرة الذنوب، ويقولون: ليست هناك توبة كاملة لأي مخلوق، وليس هناك إلا طريق واحد لمغفرة الذنوب، وهو أن يصلب الله نفسه على الصليب تكفيرًا عن خطايا البشر.

وهم (أي النصارى) يزعمون أن الله لا يمكن أن يغفر الخطيئة بمجرد كلمة إلهية تصدر منه لأنه لا يقدر أن يكون غير عادل، والذي نود أن نفهمه من هؤلاء ما وجه معارضة غفران الخطايا للعدالة، وألا يتعارض هذا مع صفة الرحمة.

الوجه الرابع: البرهان من التوراة والإنجيل على أن التوبة وحدها تكفي لغفران الذنوب، ولا حاجة للصلب.

في الإنجيل الذي بين أيديكم أن الله صفح (وتاب على أهل نينوى عندما صاموا وقاموا)، ويقولون: إن الصوم والصلاة والصدقة والتوبة لا تجدي شيئًا لأنها طرق بشرية ولا بد في التوبة من وسيلة إلهية، وهي (صلب نفسه على الصليب)[1].

---

(١) مشكلات العقيدة النصرانية د. سعد الدين صالح (١٥٦).

ويقال لمن زعم خطيئة آدم قد عمّت سائر أولاده، وأنه لا يطهرهم من خطاياهم إلاّ قتل المسيح: فالتوراة والنبوات ترد هذه المقالة الشوهاء؛ وذلك أن التوراة تقول في السفر الأوّل وهو الذي يعرف بسفر الخليقة لقابيل الذي قتل هابيلًا، وردّ الله عليه قربانه ولم يتقبله: "إنك إن أحسنت تقبلت منك، وإن لم تحسن فإن الخطية رابضة ببابك" (التكوين٤/ ٧: ٦)، وإذا كان الأمر كذلك فقد صار إحسان المحسن من بني آدم مطهرًا له ومخلصًا، فلا حاجة إلى شيء آخر.

وقال الله تعالى في السفر الأوّل من التوراة: "إني سأجزي هابيل عن الواحد سبعة" (التكوين٤/ ١٥)، وفي ذلك مندوحة عن التطهير بقتل وصلب، إذ الجزاء طهرة وزيادة.

وقد قال الله تعالى في بعض النبوات: "لا آخذ الولد بخطية والده ولا الوالد بخطية ولده، طهارة الطاهر له تكون، وخطية الخاطئ عليه تكون" (حزقيال١٨/ ٢٠)، وذلك موافق لقول ربنا جلّ اسمه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

وقد قال الله في المزمور الرابع: " **يَا بَنِي الْبَشَرِ، حَتَّى مَتَى يَكُونُ مَجْدِي عَارًا؟ حَتَّى مَتَى تُحِبُّونَ الْبَاطِلَ وَتَبْتَغُونَ الْكَذِبَ؟ سِلاَهْ. ٣فَاعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ قَدْ مَيَّزَ تَقِيَّهُ. الرَّبُّ يَسْمَعُ عِنْدَ مَا أَدْعُوهُ. ٤اِرْتَعِدُوا وَلاَ تُخْطِئُوا. تَكَلَّمُوا فِي قُلُوبِكُمْ عَلَى مَضَاجِعِكُمْ وَاسْكُتُوا. سِلاَهْ. ٥اِذْبَحُوا ذَبَائِحَ الْبِرِّ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى الرَّبِّ.** " (مزمور٤/ ٥: ٢)، فهذا المزمور من مزامير داود يقول: إنه لا حاجة إلى قتل المسيح إذ كان الندم والتوكل على الرّبّ تعالى فيه مندوحة عن ذلك.

وقال الله تعالى في المزمور الأوّل: "**طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الأَشْرَارِ، وَفِي طَرِيقِ الْخُطَاةِ لَمْ يَقِفْ، وَفِي مَجْلِسِ الْمُسْتَهْزِئِينَ لَمْ يَجْلِسْ. ٢لكِنْ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ مَسَرَّتُهُ، وَفِي نَامُوسِهِ يَلْهَجُ نَهَارًا وَلَيْلاً.** " (مزمور١/ ٢: ١)، فقد أخبر الله تعالى على لسان داود عليه السلام أن الاشتغال بأسباب الخير ومفارقة أهل الشرّ مخلص فلا حاجة إلى الخلاص بقتل المسيح وصلبه.

وقال بولس - خطيب النصارى ومتكلمهم -: "أولا تعلم أن إمهال الله لك إنما هو ليقبل بك إلى التوبة؟ " (بولس٢/ ٥: ٣). فإن كان لا بدّ من قتل المسيح لضرورة

خلاصهم فلا معنى لتوبة الله على عبده[١].

الوجه الخامس: أليس من رحمة الله أن يفتح لعباده باب التوبة والغفران؟

فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصا فهو غالط غلطا عظيما فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلا؛ لكن إن قدم التوبة لم يلحقه شيء وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله. والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة؛ بل يسارعون إليها ويسابقون إليها؛ لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك، ومن أخر ذلك زمنا قليلا كفر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النون عليه السلام[٢].

فما وقع فيه آدم عليه السلام من مخالفته بأكله من الشجرة التي نهاه الله عنها، فقد نص القرآن أن الله ألقى في روع آدم عليه السلام أن يتوسل إليه بكلمات ألهمه إياها ليتوب عليه فاستقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حتى تعلمها فتاب عليه، وأصبحت خطيئته كأن لم تكن لأن التوبة الصادقة تمحو الذنب، وبالتالي فلا حاجة إلى تسلسل الخطيئة من ذرية آدم أو توارثها في الأجيال التي من بعده، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾، بذلك فتح الله للعصاة طريق التوبة إذا عصوا فيتوب عليهم كما تاب على أبيهم آدم بدون واسطة من الكهان أو الرهبان، لأنه سبحانه التواب الرحيم[٣].

فالتوبة من الذنب كفارة له، وهي من فضل الله عز وجل على الخاطئين، فالتوبة تغسل الذنب وتنقي القلب، فيكون الخاطئ التائب حبيبًا إلى الله، فلم لا يقول النصارى بأن آدم تاب وقبلت توبته ؟ لم يصرون على القصاص ؟ ولِمَ يصر الكاتب المجهول لرسالة العبرانيين على أنه " بدون سفك دم لا تحصل مغفرة" ؟ (عبرانيين ٩/ ٢٢).

الوجه السادس: أليست توبة الله على آدم موافقة للعقل والنقل؟

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ١/ ٣٨٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٣٠٩.

(٣) الميزان في مقارنة الأديان لعزت طهطاوي (١٦٢).

لقد تحدثت نصوص التوراة والإنجيل بإسهاب عن التوبة وقصصها وقبول الله لها، فها هو المسيح يجلس مع العشارين والخطاة، ولقد وعد الله التائبين بالقبول ففي سفر حزقيال: " **فَإِذَا رَجَعَ الشِّرِّيرُ عَنْ جَمِيعِ خَطَايَاهُ الَّتِي فَعَلَهَا وَحَفِظَ كُلَّ فَرَائِضِي وَفَعَلَ حَقًّا وَعَدْلاً فَحَيَاةً يَحْيَا. لاَ يَمُوتُ. ٢٢ كُلُّ مَعَاصِيهِ الَّتِي فَعَلَهَا لاَ تُذْكَرُ عَلَيْهِ. فِي بِرِّهِ الَّذِي عَمِلَ يَحْيَا. ٢٣ هَلْ مَسَرَّةً أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ؟** " (حزقيال ١٨/ ٢١-٢٣)، فالتوبة مقبولة عند الله كوسيلة للخلاص من الذنب، ولا تتناقض مع قدر الله القاضي بالقصاص من العاصي، ولكن النصارى يقولون إن التوبة مهما كان شأنها ليست كافية للصفح عما مضى من خطايانا[1].

فالتوبة هي الطريق إلى المغفرة والخلاص، فالتوبة التي ذكر الله في القرآن أن آدم قد تاب، وهي باب عظيم من أبواب فضل الله جعله للخاطئين، فلمَ لا يقولون بأن آدم تاب وقُبلت توبته؟ ولم يصرون على القصاص الدموي؟[2].

وذلك لأن في القول بالتوبة والأعمال الصالحة وسائل لتكفير الذنوب هدمٌ لأصل معتقدهم، والأساس الذي بُنيت عليه عقيدة الصلب هو خطيئة آدم عليه السلام الموروثة منه إلى أبنائه عقيدة باطلة من أساسها؛ لأن آدم عليه السلام عندما عصا ربه بالأكل من الشجرة المحرمة قد استغفر الله تعالى وتاب وأناب إليه، وقد قبل الله تعالى توبته، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في عدة آيات من الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة: ٣٥- ٣٧).

وقال تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا

---

(١) هل افتدانا المسيح ؟ لمنقذ سقار (١٦١: ١٦٢).

(٢) ولكن شُبه لهم ، لجمال شرقاوي (٦٦).

عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف ١٩: ٢٣)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه ١١٥: ١٢٢).

الفصل الرابع: كيف يحمل الإنسان إثم ذنب لم يرتكبه؟ (الرد على وراثة الذنب)

الوجه الأول: هل يعقل أن تتوارث الخطيئة؟

ولو فرضنا جدلًا أن آدم وحواء عليهما السلام لم يتوبا إلى الله ولم يستغفراه، فهل يُعقل أن تنتقل الخطيئة أو غيرها وراثيًا إلى أبنائهما من البشر، إنه قول يؤكد كل عقل سليم وكل فطرة سليمة على أنه ظاهر البطلان والفساد، وأنه لا يمكن أن يرث شخص خطيئة أبيه أو أمه أو أي فرد مهما كانت قرابته، فكلٌ مسؤول عما جنت يداه إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر، وقد قرر القرآن الكريم المسؤولية الفردية في عدة آيات من الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة٨: ٧)، وقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦)، وقال أيضًا: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (غافر: ١٧)، وقال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الإسراء: ١٥).

الوجه الثاني: أليس في ادعاء غضب الله على البشر بدون ذنب لم يرتكبوه وصفٌ له بالظلم؟

النصارى يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه وأن تلك العقوبة بقيت في ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب وأنه كانت الذرية في حبس إبليس، فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم في حبس إبليس حتى قالوا ذلك في الأنبياء: نوح، وإبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وغيرهم، ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافرًا ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه، فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعد؟ ، هذا لو قدر أن آدم لم يتب فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة ؟ ثم يزعمون أن الصلب الذي هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم وبه عاقب إبليس مع أن إبليس ما زال عاصيًا لله مستحقًا للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح والرب قادر على عقوبته وبنو آدم لا عقوبة عليهم في ذنب أبيهم، فمن ثم أضحى قولهم مثل هذه الخرافات مضاحك العقلاء، والتي لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم، فكيف يدعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل؟.

وإن قيل: إن عدل الرب ليس كعدل المخلوقين بل من عدله أن لا ينقص أحدًا من حسناته ولا يعاقبه إلا بذنبه لم يجز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنبأبيهم، ولم يجز أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنب إلا ذنباً تابوا منه بذنب غيرهم، فإن الأنبياء معصومون أن يقروا على ذنب فكل من مات منهم مات وليس له ذنب يستحق عليه العقوبة فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم إن قدر أنه مات مصرًا على الذنب؟ مع أن هذا تقدير باطل ولو قدر أن الأنبياء لهم خطايا يستحقون بها العقوبة بعد الموت وتسليط إبليس على عقوبتهم مع أن هذا تقدير باطل فمن بعد المسيح من غير الأنبياء أولى بذلك فكيف يجوز في العدل الذي يوجب التسوية بين المتماثلين عقوبة الأنبياء ومنع عقوبة من هو دونهم بل من هو من الكفار؟[1].

الوجه الثالث: أليس في تحميل البشر ذنباً لم يرتكبوه ظلم لهم؟

من العقائد المسيحية المرفوضة إسلاميًا، وذلك لأن الخطيئة كما يعتقدون بدأت بآدم، وأن آدم في خطيئته كان نائبًا عن كل نسله في الخطيئة، أي أن النسل الذين لم يكونوا قد

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية ١/ ٢١٣: ٢١٨.

وُجدوا بعد قد أنابوا أباهم آدم ليخطيء بالنيابة عنهم، ومن ثَمَّ فإن كل إنسان فاسد بطبيعته وأيضًا خاطيء وفاسد بأعماله، هذا هو جوهر الخطأ والباطل والظلم، واللامعقول الذي بُنيت عليه عقائد المسيحية كلها، ففيه مصادمة للعدالة الإلهية التي قضت، قال تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم٣٨: ٤١)، وقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه١٢١: ١٢٢).

وهم يعتقدون أن آدم عليه السلام عندما أخطأ قد ناب عن نسله في الخطيئة، وفي هذا الاعتقاد مصادمة للحقيقة التي تقول إن الإنسان يُولد على الفطرة والبراءة، كما تدَّعي هذه العقيدة – في الخطيئة- أن سبب كل هذا السقوط الجماعي والأبدي وكل هذه اللعنة إنما هو التطلع إلى شجرة المعرفة، وكل هذا التصوير الظالم لحال آدم وذريته واللعنة المؤبدة والموروثة لماذا؟ لكي يصبح فداء المسيح -بذبحه وصلبه- مبَررًا.

ومن النصوص التي تكشف عن المنطق الظالم لهذه العقائد ما ينسبونه إلى الله تعالى عن ذلك من قوله (من عثر في واحدة فقد صار مجرمًا في الكل)، فأين هذا من العدل الإلهي القائل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[1].

الوجه الرابع: أليس منطق العقل يقضي بأن يتحمل كل إنسان نتيجة عمله؟

القول بأن خطيئة آدم يتحملها كل أبنائه من بعده، فإن كتبهم المقدسة تنفي أن يتحمل الولد ذنب الوالد، ويرفض أن تزر وازرة وزر أخرى، فقد جاء في التوراة كتابهم المقدس (الابن لا يحمل إثم أبيه، والأب لا يحمل إثم الابن، وعدل العادل يكون عليه، ونفاق المنافق يكون عليه)، وهذا يتفق مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

(١) رد الأزهر على كتاب ما هي حتمية كفارة المسيح ؟ لمحمد عمارة (١٤٢٦ هـ).

أُخۡرَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم هذا هو منطق العقل أن يتحمل كل إنسان نتيجة عمله، حتى يقول الرسولﷺ: " يافاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئًا"، وهكذا يتبرأ الرسولﷺ من أن يتحمل ذنب ابنته، فكيف يتحمل عيسى عليه السلام كل خطايا البشر؟ وهل من العدل أن يُضار البشر كلهم جميعًا بسبب خطيئةٍ ارتكبها آدم؟ وكيف رضي الله أن يخلد موسى صفيه وإبراهيم خليله وسائر الأنبياء في النار بسبب خطيئة آدم؟ وما ذنبهم؟وما أعجب إلا من قولهم: إن آدم هو النائب عنا فتعود خطاياه علينا، فبأي وجه حق؟ وما ذنبنا؟ هل هذا عدل؟ ولماذا كان عيسى وحده مسئولًا من بين كل البشر عن خطيئة آدم؟ ولماذا يتحملها وحده؟ والغريب أن عيسى عندهم متحمل لكل خطايا البشر، والإيمان والنجاة عندهم مختصرة في طريق واحد، وهو الاعتقاد بأن عيسى قد صُلب فداءً عن خطايا البشر. هذا هو طريق البراءة من النار والعودة إلى الجنة، وهو طريق ما أسهله لو كان حقًا![1].

الوجه الخامس: نصوص التوراة والإنـجيل تقضي بأن يتحمل كل إنسان نتيجة عمله.

ومما يبطل نظرية وراثة الذنب أيضًا النصوص التي تحمل كل إنسان مسئولية عمله، وقد تعاقَب الأنبياء على التذكير بهذا المعتقد في نصوص كثيرة ذكرتها التوراة والأناجيل، ومنها ما جاء في التوراة " لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته " (الأيام (٢) ٢٥/ ٤)، وأيضًا يقول المسيح: " فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله " (متى ١٦/ ٢٧)[2].

وفي (حزقيال١٨/ ٢٠): اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ. اَلابْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ، وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ، وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ)، وهذا ما

---

(١) مشكلات العقيدة النصرانية (١٥٦: ١٥٨).

(٢) موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام (٤٤٦).

يقضي به القرآن الكريم دستور العدالة الإلهية في قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

والمبدأ العام المُعترف به في الديانات جميعًا وفي القوانين الوضعية وعرف جميع الناس أنه لا يُورَّث عن الآباء والأجداد سوى ثرواتهم، أما جرائمهم فلا تُورَّث عنهم ولا تواخَذ بها ذرياتهم، ويعلل النصارى لتلك الفكرة المزعومة من أن ذرية آدم لزمهم العقاب بسبب خطيئة أبيهم آدم[1].

يؤكد المسلمون أن صلب المسيح البريء نيابة عن المذنب آدم وأبناءه حاملي الإثم ووارثيه نوع من الظلم الذي لا تقره الشرائع باختلاف أنواعها، فإن كان آدم قد تاب من فعلته وتاب الله عليه، فقد انقطعت عنا خطيئته ولم تحط بنا معصيته، فقد تاب آدم وتاب الله عليه، فلِمَ تُحمل فوق كواهلنا خطيئته؟[2].

الوجه السادس: أليس الهدف من توريث الخطيئة إيجادَ مبرر لصلب المسيح وذبحه؟

إن الإسلام يستهجن مبدأ الخطيئة الأصلية وينظر إلى الأولاد على أنهم أبرار وأطهار منذ ولادتهم. وبشأن الخطيئة فالإسلام يقرر بأنها لا تورث. ولكنها شيء ما يكتسبه الإنسان بنفسه بعمل ما لا ينبغي أن يعمله ولا يعمل ما ينبغي أن يعمله.

ومن المنطق أن يعتبر الإسلام مبدأ الخطيئة الأصلية ذروة في الظلم لإدانة كافة الجنس البشري لخطيئة اقترفت منذ آلاف السنين مضت بواسطة أبوينا الأولين، إن الخطيئة الأصلية التي تنادي بها المسيحية هي انتهاك عنيد لناموس الله أو لقانون الصواب والخطأ، ذلك لأن المسئولية والملامة باقتراف الخطيئة الأصلية ينبغي أن تقع فقط على الإنسان الذي اقترفها وليس على أولادهم[3].

الخطيئة كما يعتقدون بدأت بآدم، وأن آدم في خطيئته كان نائبا عن كل نسله في الخطيئة،

---

(١) هل افتدانا المسيح على الصلب؟ لمنقذ سقار (١٦٧).

(٢) الميزان في مقارنة الأديان (١٥٥).

(٣) الغفران بين المسيحية والإسلام.

أي أن النسل الذين لم يكونوا قد وُجدوا بعد قد أنابوا أباهم آدم ليخطئ بالنيابة عنهم، ومن ثَمَّ فإن كل إنسان فاسد بطبيعته وأيضًا خاطئ وفاسد بأعماله، هذا هو جوهر الخطأ والباطل والظلم واللامعقول الذي بُنيت عليه عقائد المسيحية كلها ففيه مصادمة للعدالة الإلهية، قال تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) ﴾ (النجم ٣٨: ٤١)، وفيه تجاهل لتوبة آدم من معصيته، وقبول الله سبحانه لتوبته، والاعتقاد أن آدم عليه السلام عندما أخطأ قد تاب عن نسله في الخطيئة، هذا القول مصادم للحقيقة التي تقول: إن الإنسان يُولد على الفطرة والبراءة، فكل هذا التصوير الظالم لحال آدم وذريته واللعنة المؤبدة والموروثة لماذا؟ لكي يصبح فداء المسيح -بذبحه وصلبه- مبررًا[1].

الوجه السابع: الإسلام يقرر أن كل إنسان مُحاسب عن نفسه.

فالإسلام لا يعرف الخطيئة الموروثة، ولا يعرف السقوط عن طبيعة إلى ما دونها، فلا يُحاسب أحد بذنب أبيه ولا تزر وازرة وزر أخرى، وليس مما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنساني ما دون طبيعته، ولكنه مما يؤمن به أن ارتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف، وقوامه الحرية والتبعة، فهو بأمانة التكليف قابل للصمود إلى قمة الخليقة، وهو قابل للهبوط إلى أسفل سافلين، فهذا الإنسان من أحسن تكوين إلى أسفل سافلين، ولا يزال في الحالين إنسانًا مكلفًا قابلًا للنهوض بنفسه بعد العثرة قابلًا للتوبة بعد الخطيئة محاسبًا لما جنت يداه غير محاسبٍ لما جناه غيره، قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ﴾، وقال: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾[2].

الفصل الخامس: كيف يكون في العفو عن المذنب تناقض بين العدل والرحمة الإلهية؟.

الوجه الأول: بيان المقصود بالعدل، وبم تحقق العدل.

قال أهل السنة والحديث ومن وافقهم: إن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه،

---

(١) دراسات في اليهودية والنصرانية لمحمد ضياء الأعظمي (٥٠٤).

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس العقاد (٥٩: ٦٢).

وهو سبحانه حكم عدل لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلين ولا يساوي بين مختلفين ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها بوضعها لما في ذلك من الحكمة ولا يعاقب أهل البر والتقوى، وهذا قول أهل اللغة قاطبةً.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ قال المفسرون من السلف والخلف قاطبةً إن الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم هو أن ينقص من حسنات العامل[1].

فإن من عدل الرب أن لا ينقص أحدًا من حسناته ولا يعاقبه إلا بذنبه لم يجز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنب أبيهم ولم يجز أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنب إلا ذنباً تابوا منه بذنب غيرهم فإن الأنبياء معصومون أن يقروا على ذنب فكل من مات منهم مات وليس له ذنب يستحق عليه العقوبة فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم؟ إن قدر أنه مات مصرًا على الذنب مع أن هذا تقدير باطل[2].

والعدل إذا كان مصدرًا فمعناه خلاف الجور (الظلم) وهو ما قام بالنفوس أنه مستقيم، وقال الراغب: الظلم هو الانحراف عن العدل، ولذلك حد بأنه وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به[3].

والنصارى يظنون أن العدل معناه وجوب معاقبة المذنب على ذنبه، والحق أن العدل معناه المساواة، فإذا ساوى الله تعالى بين جميع عباده في معاملته معهم بأن غفر مثلًا لجميع المذنبين وزاد في مقابلة ذلك في أجر المحسنين فهو لا شك عادل لغةً وعرفًا وعقلًا، وكذلك إذا وفَّى كل مخلوق حقه تمامًا بلا نقص في الأجر ولا زيادة في العقاب عما يستحقه كل شخص، ولا

(١) مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٢٢٢.

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية ١/ ٢٢٠.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ١٠/ ٤٨٧٢.

ينافي العدل بعد ذلك أن يزيد في الثواب أو ينقص من العقاب بمقتضى فضله ورحمته، فإذا أُريد بالعدل والمساواة في أصل الخلق وكل ما يلزمه، فهذا قطعًا غير موجود، وإن أُريد به المساواة في مجازاة العاملين بما يستحقونه – في الظاهر- بلا مراعاة ولا محاباة فهذا حق، وهو صفة من صفاته تعالى، فإنه كما يسميه المسلمون الحكم العدل لجميع مخلوقاته[١].

الوجه الثاني: ما الذي جعل الإله في مأزق بين العدل والرحمة؟

يقولون إن الله أراد برحمته أن يخلص الأرض من اللعنة التي أصابتها بسبب معصية آدم، لكن عدله يأبى إلا أن يعاقب أصحاب الذنب، فكيف المخرج للتوفيق بين العدل والرحمة، فمن أين علموا أن معصية آدم كانت لعنة أصابت الأرض بمن عليها، وما ذنب الأرض والمعصية قد فعلها آدم في الجنة في السماء، وليست على الأرض؟ ومن الغريب أنهم بعد أن وضعوا الإله الأب في مأزق من صنع أيديهم راحوا يخترعون له مخرجًا يخرج منه بأقلامهم وألسنتهم[٢].

قولهم: (إن صلب المسيح كان لا بد منه للتوفيق بين العدل والرحمة التي تنتج عن خطية آدم بالأكل من الشجرة والتي ترتب عليها الانفصال بين البشر والإله والحكم عليهم بالموت ففداهم المسيح الإله وصُلب كفارةً عن خطايا البشر).

وللرد على ذلك نقول:

لا يمكن أن يَقبل هذه القصة (صلب المسيح كما يزعمون) من يؤمن بالدليل العقلي أن خالق العالم لا بد أن يكون بكل شيء عليمًا، وفي كل صنعه حكيمًا، لأنها تستلزم الجهل والبداء على الباري ﷻ، كأنه حين خلق آدم ما كان يعلم ما يكون عليه أمره، وحين عصاه ما كان يعلم ما يقتضيه العدل والرحمة في شأنه حتى اهتدى إلى ذلك بعد ألوف السنين مرت على خلقه، كان فيها حائراً كيف يُجمع بين الصفتين من صفاته وواقعًا في ورطة التناقض بينهما، ولكن قد يقبلها من يشترط الدين عندهم أن لا يتفق مع العقل.

---

(١) نظرة في كتب العهد الجديد (١٢٤).

(٢) ولكن شُبِّه لهم (٦٣).

يلزم من هذه القصة شيء أعظم من عجز الخالق ﷻ عن اتهام مراده بالجمع بين العدل والرحمة، وهو انتفاء كل من العدل والرحمة في صلب المسيح، لأنه عذبه من حيث هو بشر وهو لا يستحق العذاب لأنه لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب والطعن بالحراب على ما زعموا لا يصدر من عادل ولا رحيم بالأحرى. فكيف يعقل أن يكون الخالق غير عادل ولا رحيم؟ أو أن يكون عادلًا رحيمًا فيخلق خلقا يوقعه في ورطة الوقوع في انتفاء إحدى هاتين الصفتين، فيحاول الجمع بينهما فيفقدهما معًا؟.

فما رأينا أحدًا من العقلاء ولا من علماء الشرائع والقوانين يقول: إن عفو الإنسان عمن يذنب إليه، أو عفو السيد عن عبده الذي يعصيه ينافي العدل والكمال، بل يعدون العفو من أعظم الفضائل، ونرى المؤمنين بالله من الأمم المختلفة يصفونه بالعفو ويقولون: إنه أهل للمغفرة، فدعوى الصليبيين أن العفو والمغفرة مما ينافى العدل مردودة غير مسلمة[١].

الوجه الثالث: ما هو الأليق بجلال الله: أن يعفو عن المذنب، أم يصلب الإله نفسه فداءً له؟

فالله فتح باب التوبة للإنسان لأنه يعلم أن الإنسان ليس ملكًا مجردًا من الشهوة، وإنما هو مركب من الخير والشر، ومنطق العدل يستلزم أن يفتح باب توبته لمن يتوب، ولكن النصارى لا يؤمنون بالتوبة كطريق إلى مغفرة الذنوب، ويقولون ليست هناك توبة كاملة لأي مخلوق، وأن الأعمال الصالحة كالتوبة لا تجدي شيئًا لأنها طرق بشرية، ولا بد من غفران الذنوب من وسيلة إلهية (وهي صلب المسيح الإله نفسه على الصليب)[٢].

وإذا كان الأب عادلًا فكيف يعاقب الذرية من آدم إلى المسيح بالبعد عن رحمته وما ذنب الأبناء في إثم ارتكبه أبوهم، قال تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾، وإذا كان الله محبة لمَ ترك بني آدم في هذه الفترة الطويلة من غير أن يغفر لهم، وإذا كان قد حرمهم هذه

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٦/ ٢٦: ٢٧.

(٢) مشكلات العقيدة النصرانية (١٥٩).

المدة الطويلة من رحمته فما الجدوى إذًا من بعث الرسل قبل المسيح عليهم السلام ليبينوا لهم طريق الهدى من طريق الضلال.

إذا كان المسيح ابن الله فأين كانت عاطفة الأبوة وأين كانت الرحمة حينما كان يلاقي الابن الوحيد ألوان التعذيب والسخرية ثم الصلب مع دق المسامير في بدنه، من هذا الذي قيَّد الله ﷻ وجعل عليه أن يلزم العدل وأن يلزم الرحمة وأن يبحث عن طريق للتوفيق بينهما؟ (١).

الوجه الرابع: أن دعوى أنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة فيها تجريد للإله من الرحمة.

وإن كان لابد من سفك الدم فهي دعوى لا دليل لكم عليها، ولم يكن موت المسيح بسفك دمه وذبحه، ولِمَ لم يزل عن الإنسان ذلك القصاص بعد الصلب؟ ، وإذا كان الله لا يكتفي بما حل ويحل بالإنسان في هذه الحياة من المصائب والبلايا والموت والقتل وغيره ويصر على الانتقام منه في شخص أحد أفراد هذا النوع (المسيح) الذي حمله من أنواع الإهانات والفظائع ما جعله يستغيث به، فلم يغثه ولم يرحمه (لوقا٢٢/ ٣٩: ٤٦)، (رومية٨/ ٣٢)، مع أنه اتخذه له ابنًا وحلّ فيه.

وإذا كان أيضًا لا يكتفي بحلول روح القدس في الناس لتطهيرهم ولتوبتهم واستقامتهم ولا باستشهاد كثير منهم في سبيله إلا بعد سفك دم عيسى ولحب الضحايا البشرية من قديم الزمان وبتفضيلها من مقربيها (قضاة١١/ ٢٩: ٤٠)، وبأمر أنبيائه وأتباعهم بسفك دم ما لا يحصى من الحيوانات (مل ٨/ ٦٢: ٦٣)، وقتل ما لا يُعد من البشر (التثنية٢٠/ ١٦)، ورائحة المحرقات (لاويين١/ ١٧)، وإذا كانت كل هذه صفات إلههم فهو مجرد من كل رحمة وشفقة وحنان وعدو للإنسان والحيوان، حتى أنه ندم على خلقه للإنسان (التكوين٦/ ٦) لشدة غيظه منه وبغضه له وخوفه منه (التكوين٣/ ٢٢) (التكوين١١/ ٦)، فكيف يمكن للإنسان أن يحبه بعد ذلك كله؟ ، مع أن الله وهو أقدر منا طبعًا لم يحب الإنسان ولم يرحم إلا بعض أفراد هذا النوع بعد أن شبع ورُوي من الدماء التي تملأ الأنهار، فهل يا قوم هذه العقيدة هي التي تدعون

(١) موقف اليهود والنصارى من المسيح.

أنها الطريقة الوحيدة لإظهار محبة الله للإنسان؟ وهل هذا إله محب كما يسميه يوحنا؟ (يوحنا٤/ ١٦)، وهل كل هذه الأشياء التي صدرت منه ضد الإنسان تحملنا على حبنا له، ولا طريقة تحملنا على حبه غيرها؟ إن هذا لشيء عجيب(١).

الوجه الخامس: أليس حال المسيح عند الصلب ينفي أنه رضي بالصلب المزعوم؟

يدَّعي النصارى أن صلب المسيح وقتله كان لتحقيق العدل والرحمة، وأي عدل وأي رحمة في تعذيب شخص غير مذنب وصلبه، فإن قالوا إنه قبل ذلك تجد ما ورد بأسفارهم عكس هذا القول، فقد جاء في إنجيل (متى٢٧/ ٤٦): (وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: «إِيلِي، إِيلِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟ » أَيْ: إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟)، كما ورد في إنجيل (مرقص ١٥/ ٣٤).

وإذا كان المسيح ابن الله -كما يزعمون – فأين كانت عاطفة الأبوة وأين الرحمة حينما كان هذا الابن الوحيد يلاقي دون ذنب ألوان التعذيب والسخرية؟ ويرى المسلمون في هذا الفكر النصراني انحرافًا وتجافيًا عن المعقول والمنقول، فإن فيه إساءة الأدب مع الله وكفرًا به كان ينبغي أن ينزهه النصارى عنه، إذ كيف يُقبل عقلًا ودينًا القول بتناقض العدل الإلهي مع الرحمة الإلهية قرونًا متطاولة من غير أن يهتدي الرب -تعالى عن ذلك- إلى سبيل التوفيق بين صفاته المتناقضة، وأخيرًا جاء الحل الدموي بصلب المسيح البريء رحمةً من رب العالمين؟(٢).

ويشبه النصارى إلههم وقتذاك بصورة مستقذرة، بصورة المرابي وهو يريد عوضًا على كل شيء، ونسي هؤلاء أن الله حين يعاقب لا يعاقب للمعاوضة أو لإرضاء نفسه أو للانتقام، بل لكبح الشر وتطهير النفس من درن الذنب(٣).

الوجه السادس: أليس في الإقرار بعقيدة الفداء دعوى للتحلل والشرور؟

---

(١) نظرة في كتب العهد الجديد (١١٣).

(٢) الميزان في مقارنة الأديان لعزت طهطاوي (١٥٨).

(٣) هل افتدانا المسيح على الصلب؟ لمنقذ سقار (١٥٩).

إذا كان الفداء عامًا لكل البشر ولكل الخطايا، فإن هذا الفداء يشمل الإباحيين الذين يرتكبون الموبقات ويملئون الأرض بالفساد، وتكون عقيدة الفداء دعوة للتحلل والفساد باسم الدين، ثم القول بالفداء للجميع يجعل ضمن الناجين أعداء الأنبياء كفرعون وقارون واليهود الذين تآمروا على المسيح[١].

إذا كان كل من يقول بهذه العقيدة أو القضية ينجو من عذاب الآخرة كيفما كانت أخلاقه وأعماله لزم من ذلك أن يكون أهلها إباحيين، وأن يكون الشرير الذي يعتدي على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم ويفسدون في الأرض ويهلك الحرث والنسل من أهل الملكوت الأعلى لا يُعذَّب على شروره وخطيئاته، ولا يُجازى عليها بشيء، فله أن يفعل في هذه الدنيا ما شاء هواه وهو آمن من عذاب الله، وإذا كان يُعذب على شروره وخطيئاته كغيره من الصليبيين فما هي فرية هذه العقيدة؟ وإذا كان امتياز عند الله في نفس الجزاء فأين العدل الإلهي؟ [٢].

فهم يزعمون أن المسيح اختار الصلب ليتحمل خطايا البشر، فمن آمن فقد تطهر من جميع الذنوب والآثام، وإن ارتكب الفواحش والمنكرات فالإيمان بالمسيح وحده كافٍ للنجاة ولا حاجة إلى العمل في الحصول على النجاة[٣].

الفصل السادس: هل لا يغفر الإله للبشر إلا بعد الحصول على ثمن منهم؟.

وفيه وجوه:

الوجه الأول: هل الله يحتاج إلى العوض حتى يغفر الذنب؟

فإن كلّ ما نزل بالمسيح من ضربٍ وإذلالٍ وصلبٍ وموتٍ إنما هو فداء وقضاء عن آدم، ضرب عوضًا من رفاهية آدم، وأهين بدلًا من عزّه الذي أمله بالخلود في الجنة، وذلك رحمة من الله ولطف لآدم وبنيه وإظهار الشرف للمسيح، إذ جعله كبش قربان العالم بأسره[٤].

من هنا وضع النصارى للفدية شروطًا كلها لا تنطبق إلا على عيسى عليه السلام وحده،

---

(١) لكن شُبِّه لهم (٧٨).

(٢) تفسير المنار ٦/ ٢٧.

(٣) دراسات في اليهودية والنصرانية (٥٠٤).

(٤) تخجيل من حرف الإنجيل ١/ ٣٨٠.

وبذلك يبرروا صلبه، وأن المسيح عليه السلام إنما هو الإله كما يزعمون الذي تجسد وتأنس من أجل هذه المهمة العظيمة، فكان أداة خلاصنا[١].

الوجه الثاني: بطلان الزعم بأن المسيح وحده الفادي لأنه المبرأ من كل ذنب.

إن شرط النصارى في براءة الفادي من الذنب لم يتحقق حتى في عيسى ابن مريم رغم أنه وُضع له، فيسوع عندهم جسد أرضي ويكتنفه حلول إلهي (المسيح) وهم يقولون بالصلب فإن أحدًا منهم لا يقول بصلب الإله (المسيح) ولكن بصلب الناسوت (يسوع) وناسوت المسيح جاءه من مريم هي أيضًا حاملة للخطيئة، فالمسيح بجسده الفادي الحامل للخطيئة وراثةً لا يصلح أن يكون فاديًا، فإن زعموا أن مريم قد تطهرت من خطيئتها بوسيلة ما من غير حاجة للفداء، فلِمَ لا يطهر جميع الناس بهذه الوسيلة؟.

فالنصارى يرون نوع البشر مذنب بصورة فظيعة، ويستحق الهلاك الأبدي، والله لا يخلص أحدًا من هؤلاء المذنبين من النار الأبدية المستحقة عليهم بدون شفيع، والشفيع لا بد أن يكون إلهًا تامًا وبشرًا تامًا، ويرون أن الشفيع لا بد أن يكون مطهرًا من خطيئة آدم، ويرون أنه كذلك وُلد عيسى من غير أب لينجو من انحدار الخطيئة إليه من أبيه، وسؤالنا لهم ألم يأخذ عيسى نصيبًا من الخطيئة عن طريق أمه؟ ، وهم يجيبون عن ذلك بأن الله قد طهر مريم من الخطيئة قبل أن يدخل الله الابن رحمها، والسؤال إذا كان الله يستطيع هكذا في سهولة ويسر أن يطهر بعض خلقه من الخطيئة فلماذا لم يطهر خلقه من الخطيئة كذلك بمثل هذه السهولة وذلك اليسر، وبدون إنزال ابنه وبدون تمثيلية الولادة والصلب؟[٢].

القول بأن جميع البشر مذنبون منذ آدم إلى المسيح وما بعده افتراء يرده كتابهم المقدس حين يصف يحيى نبي الله وهابيل بن آدم ودانيال نبي الله وزكريا نبي الله وزوجته بأنهم كانوا من المعصومين، وأنهم لم يقترفوا شيئا من الذنوب[٣].

---

(١) هل افتدانا المسيح؟ (١٦٩).

(٢) موقف اليهود والنصارى من المسيح (٤٤٨).

(٣) دراسات في اليهودية والمسيحية.

الوجه الثالث: هل يقبل العقل فكرة الاستعاضة التي يقوم عليها اعتقادكم؟

تنقسم عقيدة الفداء إلى ثلاثة أقسام:

١-الخطيئة الأصلية.

٢-الإيمان بأن عدالة الله تتطلب بأن يكون القصاص بسفك دم ثمنًا للخطيئة.

٣-الإيمان بأن يسوع المسيح قد دفع الثمن عن خطايا الناس بموته على الصليب، وهذا هو الخلاص الوحيد لأولئك الذين يؤمنون بكونه ذبيحة عوضًا عنهم.

إن مبدأ توريث الخطيئة لا تجد له سندًا في كلمات يسوع المسيح ولا كلمات الأنبياء الذين جاءوا قبله، لقد علموا أن كل إنسان مسئول عن أعماله الشخصية.

والإسلام يقرر أن الخطيئة لا تُورث، وأن المسئولية والملامة باقتراف الخطيئة الأصلية ينبغي أن تقع فقط على الذي اقترفها وليس على أولاده.

ثانيًا: أن غفران الخطيئة للخاطئ بعد القصاص منه أو القصاص من إنسان نيابةً عنه ليس بالغفران على الإطلاق أن الله يقدر ويقضي بالمغفرة لأولئك الذين يبدو صلاحهم حقًا، وأولئك الذين تنحوا كليةً عن خطاياهم، وتلك القدرة ليست ضد العدالة، وفي الواقع هذا هو الغفران الحقيقي وحده.

ثالثًا: إن تطلُّب الدم ثمنًا لمغفرة خطايا الناس ومعاقبة إنسان بريء لم يقترف إثمًا من أجل خطايا الآخرين، سواء كان السلف راغبًا أم لا، إن هذا هو ذروة الظلم وفيه إنكار لرحمة الله ودحض لعدالته.

إن فكرة الاستعاضة أو الذبيحة (الضحية) العويصة غير معقولة ولا معنى لها بل هي ظالمة، ونحن لا نجد ارتباطًا بين الخطيئة والدم، وأن تطهير الإنسان من الخطيئة يكون بالتوبة الصادقة وتأنيب الضمير والمثابرة على الجهاد ضد الميول الشريرة، ولذلك تبين أن عقيدة الكفارة مختلة للأسباب التالية:

١-أن الإنسان لم يولد بالخطيئة.

٢-أن الله لم يطلب ثمنًا لمغفرة الخطايا.

٣-أن فكرة الذبيحة العويصة ظالمة وقاسية.

٤-أن خطيئة الإنسان لا تؤذي الله، بل تؤذي الإنسان نفسه[١].

الفصل السابع: هل يعقل أن يتجسد الإله فيصبح إنسانًا ثم يُصلب ويموت من أجل غفران خطايا بني آدم؟.

الوجه الأول: كيف حال الوجود والإله في اللحود؟ ومن دبَّر شئون الخلق في غيابه؟

نقول للنصارى: قد زعمتم أن المسيح هو إله العباد وخالقهم وبارئهم ورازقهم وآمرهم وناهيهم ومدبِّرهم في جميع أحوالهم وحافظهم إلى منتهى آجالهم، ثم زعمتم مع ذلك أن اليهود عدوا عليه فأخذوه قهرًا وسحبوه قسرًا بعد أن هرب واختفى، وإنما دَلَّ عليه بعض أصحابه، فلما ظفروا به أهانوه وبذلوه وما صانوه، ثم جعلوا على رأسه إكليلًا من الشوك، وعبثوا به كما يعبث بأهل النوك، ثم رفعوه على جذع ضمانًا واستسقى ماء فسقي خلًا هوانًا، ثم ترك حتى ألصقت الشمس جسده بالصليب، ولم يكفن لولا تصدّق عليه بالكفن إنسان غريب، وبقي برهة تحت التراب تبكيه الأحباب والأتراب، فأخبرونا يا سخفاء العقول ومنتحلي هذا المحال المنقول-مَنِ الذي كان يقوم برزق الأنام والأنعام في تلك الأيام؟!.

وكيف كان حال الوجود والإله في اللحود؟! ومَن الذي دَبَّر السماء والأرض وخلقه فيها بالبسط والقبض والرفع والخفض؟! وهل دُفنت الكلمة بدفنه وقُتلت بقتله أم خذلته وهربت مع تلاميذه؟.

فإن كان قد دفنت بدفنه، فإن قبرًا وسع الإله القديم لقبر عظيم، وإن كانت قد فرَّت وأسلمته، فكيف تصحّ مفارقتها له بعد اتّحادها به؟! أين ذهب الاتّحاد وكيف بطل الامتزاج؟!.

وما شأن هذا الإله المسكين - أسلمه قومه لأعدائه وخذله سائر أودائه؟. أين قولكم في الأمانة: "إن المسيح أتقن العوالم بيده وخلق كلّ شيء"؟ أين ما وصفتم عن الإنجيل أن العالم بالمسيح كُوِّن؟ [٢].

الوجه الثاني: من هو أقدر على الخلاص اللاهوت أم الناسوت؟

---

(١) الغفران بين المسيحية والإسلام (١٠٦).

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ١/ ٣٩٦.

من أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانًا، وحُبل به ووُلد من مريم البتول وألم واتجع وقُتل وصُلب ودُفن في اليوم الثالث، فهذا قول من هُدم عقله وسُلب فهمه وغلب عليه هواه، وطبع الله على قلبه وأعماه لأنهم جعلوا إلههم يعجز عن خلاصهم، ففعل بنفسه ما لا يليق من هذه الخصال الرذيلة، ولم يكن يقدر على خلاصهم حتى نزل بنفسه من السماء وتجسد بجسد، ودخل في بطن أمه وخرج من فرجها، ثم حل به بعد ذلك ما وصفوه (قتل وصلب وإهانة) فكأنه لو لم يكن. . . المرأة ويحمل بها أخذه من ناسوتها لم يقدر على خلاصهم، وما ترى الناسوت إلا أقوى من الإله، إذ لولاه لم يقدر لكم الإله على خلاص[1].

الوجه الثالث: أليس من الجهل والضلال الادعاء بأن إله الخلق حل به الضرب والإذلال والصلب؟

قولهم إن الله فداهم بنفسه ودمه فهرق دمه في مرضاة جميع ولد آدم إذ كان ذنبه باقيًا في أعناق جميعهم فخلصهم منه بأن مكن أعداءه من صلبه وتسميره وصفعه إلا من أنكر صلبه أو شك فيه أو قال: بأن الإله يجل عن ذلك، فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما يأنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله بمملوكه، وكذبوا الله ﷻ في كونه تاب على آدم ﷺ وغفر له خطيئته ونسبوه إلى أقبح الظلم حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه في الجحيم بسبب خطيئة أبيهم ونسبوه إلى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه ونسبوه إلى غاية العجز حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ونسبوه إلى غاية النقص حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا وبالجملة فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة[2].

الوجه الرابع: هل الإهانة التي حلت بالمصلوب لحقت الإله فإن ذلك لازم القول بالاتحاد؟

إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين إحداهما طبيعة الناسوت والأخرى طبيعة اللاهوت وأن هاتين الطبيعتين تركبتا كما تركبت النفس مع البدن فصارتا إنسانًا واحدًا

---

(١) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية للإمام القرافي (١٤٦).

(٢) إغاثة اللهفان (٢٦٢).

وجوهرًا واحدًا وشخصًا واحدًا وأن هذه الطبيعة الواحدة والشخص والواحد هو المسيح وهو إله كله وإنسان كله وهو شخص واحد وطبيعة واحدة من طبيعتين.

ومما يوضح تناقضهم أنهم يقولون إن المسيح وهو اللاهوت والناسوت شخص واحد وأقنوم واحد مع قولهم أنهما جوهران بطبيعتين ومشيئتين فيثبتون للجوهرين أقنومًا واحدًا ويقولون هو شخص واحد ثم يقولون إن رب العالمين إله واحد وأقنوم واحد وجوهر واحد وهو ثلاثة أقانيم فيثبتون للجوهر الواحد ثلاثة أقانيم وللجوهرين المتحدين أقنومًا واحدًا مع أن مشيئة الأقانيم الثلاثة عندهم واحدة والناسوت واللاهوت يثبتون لهما مشيئتين وطبيعتين ومع هذا هما عندهم شخص واحد أقنوم واحد وهذا يقتضي غاية التناقض سواء فسروا الأقنوم بالصفة أو الشخص أو الذات مع الصفة أو أي شيء قالوه.

وهو يبين أن الذين تكلموا بهذا الكلام ما تصوروا ما قالوه بل كانوا ضلالًا جهالًا بخلاف ما يقوله الأنبياء فإنه حق فلهذا لا يوجد عن المسيح ولا غيره من الأنبياء ما يوافق قولهم في التثليث والأقانيم والاتحاد ونحو ذلك مما ابتدعوه بغير سمع وعقل بل ألقوا أقوالًا مخالفة للشرع والعقل.

ويقولون باتحاد اللاهوت والناسوت: فيشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن وهذا تشبيه الأرثوذوكس وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم وهذا تشبيه الكاثوليك وغيرهم، ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء شيء إلا وصل إلى اللبن فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر، فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضي أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم له وإيلامهم له والصلب الذي ادعوه.

وهذا لازم على القول بالاتحاد فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الأخر فيه لم يكن هنا اتحاد، بل تعدد[1].

إلهكم الذي صُلب مات أم لم يمت؟

(١) الجواب الصحيح ٤/ ٥٩.

يقول النصارى: **إن مريم ولدت إلها وأن المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت عند جماعتهم لا يشكون في ذلك مات بالجسد وأن الله لم يمت والذي قد ولدته مريم قد مات بجوهر ناسوته فكيف يكون ميت لم يمت.**

وإذا كانوا قد اعترفوا بأن مريم ولدت الله وأن الذي ولدته مريم وهو المسيح الاسم الجامع للجوهرين للاهوت والناسوت قد مات فهل وقعت الولادة والموت وسائر الأفعال التي تحكي النصارى أنها فعلت بالمسيح إلا عليهما، فكيف يصح لذي عقل عبادة مولود من امرأة بشرية قد مات ونالته العلل والآفات.

وقانون الإيمان عندهم الذي أجمعوا عليه هو: أن الرب المسيح الذي هذه صفته على ما اقتصصناه منها الإله الحق من الإله الحق نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانًا وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب.

في هذا الإقرار شبهة أو علقة يتعلق بها العنت المدافع عن الحجة فتدبروا هذا القول يا معشر النصارى فإنه لا يمكن أحد منكم أن يخرج عنه ولا أن يدفع ما صرح به فإنكم إن قلتم إن المقتول المصلوب هو الله فمريم على قولكم ولدت الله سبحانه وتعالى عما يقولون وإن قلتم إنه إنسان فمريم ولدت إنسانًا وفي ذلك أجمع بطلان شريعة إيمانكم فاختاروا أي القولين شئتم فإن فيه نقض الدين.

الوجه الخامس: هل يعقل أن يولد الإله من بشر، ويعيش مثل البشر يعتريه الآفات والأوجاع؟

وقد يجب على ذوي العقول أن تزجرهم عقولهم عن عبادة إله ولدته مريم وهي امرأة آدمية ثم مكث على الأرض ثلاثين سنة تجري عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية وصحة وسقم وخوف وأمن وتعلم وتعليم لا يتهيأ لكم أن تدعوا أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللاهوتية شيء ولا له من أحوال الآدميين كلها من حاجتهم وضروراتهم وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم مخرج ثم أحدث بعد هذه المدة الطويلة ما أحدثه من إظهار أمر الله تعالى. (١)

(١) الجواب الصحيح ٤/ ٣٠: ٣٥.

يقول النصارى: إن مريم ولدت الله - تعالى الله عما يقولون - وإن الله مات وتألم وصلب متجسدًا ودفن وقام من بين الأموات وصعد إلى السماء فجاءوا من القول بما لو عرض على السماء لانفطرت أو على الأرض لانشقت أو على الجبال لانهدت فلم يكن لمحاجة هؤلاء وجه إذ كان كفرهم بما صرحوا به أوضح من أن يقع فيه الشك.

الوجه السادس: هل يعقل أن يُصلب الناسوت بدون اللاهوت وهم متحدون؟

إن ما ذكروه من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك وأن المسيح لم يمت بعد وما ذكروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين:

الأول: أن ناسوته لم يصلب وليس فيه لاهوت وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكتفى في مقابلتها بالمنع.

الثاني: لازم على القول بالاتحاد فإن الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الأخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد.

هؤلاء الضلال لم يكفهم أن جعلوا إله السماوات والأرض متحدًا ببشر في جوف امرأة وجعلوه له مسكنًا ثم جعلوا أخابث خلق الله (اليهود) أمسكوه وبصقوا في وجهه ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين وهو في ذلك يستغيث بالله ويقول (إلهي إلهي لم تركتني) وهم يقولون اللاهوت صوت شخص واحد، إما أن يكون مستغيثًا وإما أن يكون مستغاثًا به وإما أن يكون داعيًا وإما أن يكون مدعوا فإذا قالوا إن الداعي هو غير المدعو لزم أن يكونا اثنين لا واحدا وإذا قالوا هما واحد فالداعي هو المدعو[1].

الوجه السابع: هل المصلوب كان إله أم إنسان، وكيف يعقل ذلك؟

ثم كيف كان المسيح عندما علق على الصليب؟ ، هل كان لاهوتًا أم ناسوتًا؟ فإن قالوا بأنه كان ناسوتًا فقط فهو إذًا ليس بإله كما يقولون بل إنسان فقط، والإنسان لا يستحق التأليه فهو مخلوق.

وإن قالوا بأنه كان لاهوتًا فقط، أو لاهوتًا وناسوتًا معًا فيلزم من ذلك بأن نقول بقتل

---

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٣٧.

الإله، إذ إن المسيح إله مطلق في نظرهم وابن الإله متساوٍ معه من القدم.

إذًا فالقول بقتل الإله خروج عن العقل والدين معًا، فالإله الذي لا يستطيع دفع الضرر عن نفسه ليس بإله ولا يستحق الإلوهية، فإن قالوا قُتل الناسوت، فهذا القول يناقض قولهم بأن المسيح ليس ناسوتًا محضًا مع أنهم يطلقون القول بالصلب، إذًا فقد ثبت بطلان وتناقض قد صُلب مع أنه إله؟[1].

الوجه الثامن: ما الفائدة من إرسال الرسل إذا كان الخلاص لا يتم إلا بصلب الإله؟

فلو كان الإنسان واقعًا تحت حكم اللعنة والخطيئة التي لا يُرجى خلاص منها إلا على يد الله في تلك الصورة التي تنتهي بصلب الإله وإراقة دمه، فلو كان الأمر كذلك لما كان هناك داعٍ لإرسال الرسل إلى الخلق مبشرين ومنذرين، ولا تزال الكتب التي تحض على الفضائل، ولما كان هناك داعٍ لأي عمل يعمله الإنسان، ولما كان هناك فرق بين محسن ومسيء.

الوجه التاسع: إذا كان الناسوت مأخوذًا من مريم، فكيف لا يلوثه الخطية الموروثة (المزعومة) كسائر الخلق؟.

وإذا كان المسيح باعتبار ناسوته من نسل آدم مولود من مريم، وتكوَّن من رحمها ودمها، فهو كباقي أولاد آدم واقع في الذنب، فهو أيضًا يحتاج إلى كفارة مثلهم، وإذًا يكون غير طاهر ولا معصومًا من الذنوب كما تزعمون لأن (ابن الإنسان الخاطئ) وناسوته مخلوق من مريم بمقتضى التولد الجثماني، وإن كان لم يتلوث بذنب آدم، فلِمَ لم يتلوث غيره، وكلنا من نسل آدم وطبيعتنا هي من طبيعته، أو أن الله طهره من الخطيئة بحلوله فيه، فإذًا يجوز التطهير من الذنوب بدون سفك الدم، وهو خلاف ما تدعون، وإن كان حلول الابن مطهرًا من ذلك، فلِم لم يطهركم حلول روح القدس فيكم، وكلكم هيكل الله الحي كما يقول بولس (أفسس ٤/ ٦)، (أعمال الرسل٢/ ٤).

فإذا كان حلول الله أو أحد أقانيمه في الإنسان مطهرًا له من الذنوب، فأية حاجة إذًا إلى صلب المسيح؟ ولِمَ لم يحصل موت شهدائهم الكثير بزعمهم كفارة عن باقي النوع الإنساني،

---

(١) موقف اليهود والنصارى من المسيح (٤٤٥).

وكلهم ممتلئون من روح القدس، وإن قيل: إنه باعتبار ناسوته واقع مثلنا في خطيئة آدم، ولكن صلبه وهو ابن الله كان لتكفير الخطيئة عن جميع بني آدم وهو من ضمنهم.

قلت: إن كان صلبه باعتباره إله جاز على الله الموت والألم والجزع والاستغاثة بغيره والضعف وغير ذلك مما أظن أنكم تنزهون الله تعالى عنه وخصوصًا بعد قول المصلوب (إلهي إلهي لماذا تركتني)، وإن كان صلبه باعتباره إنسان فهو خاطئ مثلنا بمقتضى طبيعته البشرية، فكيف لايكون موته مكفرًا عنه وحده، ويكون ما ينال كلًا من في هذه الحياة من المشاق والأحزان والموت أو القتل وغير ذلك كفارةً له عن ذنبه، وقد كان أصل العقاب على ذنب آدم (كما في سفر التكوين) الموت والألم والتعب والعداوة للشيطان أو الحية، ونحو ذلك، وكل هذه الأشياء واقعةً بنا وباقيةً علينا إلى الآن[1].

الوجه العاشر: هل كان الإله المصلوب قادرًاعلى منع الصلب أم لا؟.

إما أن يقولوا: إن اللاهوت كان قادرًا على دفعهم على ناسوته وإما أن يقولوا لم يكن قادرًا فإن قالوا: لم يكن قادرًا لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين، وأن يكون رب العالمين مقهورا مأسورا مع قوم من شرار اليهود وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين وهذا أعظم من قولهم إن لله ولدًا وأنه بخيل وأنه فقير ونحو ذلك مما يسب به الكفار رب العالمين.

الوجه الحادي عشر: أليس هروب الإله واستغاثته عند صلبه دليل على أن صلبه كان بدون اختياره؟

وإن قالوا كان قادرًا فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك فسنة الله في مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء والناسوت عندهم استغاث وقال: (إلهي إلهي لماذا تركتني) وإن كان هو قد فعل ذلك مكرا كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق فناسوته أعلم بذلك من

(١) نظرة في كتب العهد الجديد (١٢٢).

جميع الخلق فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما في ذلك من الحكمة وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره. ويقول بعضهم مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين وقد اتفقا على المكر بالعدو ولم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يحمل الصواع في رحله ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه لما ظهر الصواع في رحله كما جزع إخوته حيث لم يعلموا وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية.[1]

الوجه الثاني عشر: كيف يوقع الإله العقاب على الذي هو إله مثله؟

تقولون: إن عيسى إله، فكيف يوقع الإله العقاب على الذي هو إله مثله، وهو جزء مثله؟ ، فالنصارى يعتقدون أن الصلب وقع على الناسوت فقط، وهم يقولون إن الناسوت في اللاهوت كالماء في اللبن، جوهران أصبح جوهرًا واحدًا، من يعقل هذا؟

إذا كان عيسى عليه السلام إلهًا وقد صُلب ودُفن كما يقولون، فمن الذي أمسك السماوات من السقوط؟ والأرض أن تميد، ومن دبر شئون الخلق في هذه اللحظات التي غاب فيها الإله؟[2].

الفصل الثامن: لماذا تأخر الصلب؟ وما هو حال الذين ماتوا قبل الصلب؟.

الوجه الأول: كيف يُترك الأنبياء في الجحيم في حبس الشيطان قرونًا عديدة حتى يأتي المسيح ليُصلب؟

مناسبة بين الصلب الذي هو من أعظم الذنوب سواء صلبوا المسيح أو المشبه به وبين تخليص هؤلاء من الشيطان فإن الشيطان إن فعل ذلك بالذرية كان ظالما معتديًا والله عز وجل قادر على منعه من ظلمهم بل وعلى عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم، فلماذا أخر منعه من ظلمهم إلى زمن المسيح وهو سبحانه ولي المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم وهم رسله الذين نصرهم على من عاداهم بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتهم أن

---

(١) الجواب الصحيح ٤/ ٦١.

(٢) آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره (٣١٨: ٣٢٠).

يظلمهم ويجعل أرواحهم في جهنم هذا إن قدر أن الشيطان كان قادرا على ذلك وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه وأوليائه وسقوط التكليف عنهم واستحقاقهم كرامته وإحسانه وجنته بحكم وعده ومقتضى حكمته فجعله مسلطا على حبسهم في جهنم.

وإن قالوا الرب ﷻ ما كان يقدر على تخليصهم من الشيطان مع علمه بأنه ظالم معتد عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه ليتمكن الشيطان منه كما يزعمون فهذا مع ما فيه من الكفر العظيم وجعل الرب سبحانه عاجزًا كما جعلوه أولًا ظالمًا فيه من التناقض ما يقتضي عظيم جهلهم الذي جعلوا به الرب جاهلًا فإنهم يقولون إنه احتال على الشيطان ليأخذه بعدل كما احتال الشيطان على آدم بالحية فاختفى منه لئلا يعلم أنه ناسوت الإله.

الوجه الثاني: هل ضاقت الأمور بالإله بحيث لم يجد وسيلة للتوفيق بين العدل والرحمة إلا الصلب؟

أين كان عدل الله ورحمته منذ طرد آدم من الجنة حتى صلب المسيح (في زعمهم)، فهل كان الله حائرًا بين العدل والرحمة آلاف السنين حتى قبل المسيح منذ ألفي عام فقط أن يُصلب للتكفير عن خطيئة آدم ؑ، ثم كيف ضاقت الأمور على رب العالمين في نظر النصارى حتى استحال عليه أن يجد طريقًا آخر للخلاص ووسيلة أخرى من الممكن بواسطتها أن يغفر خطيئة آدم بدلًا من هذه الصورة القاسية لمن يزعمون أن صلب ابنه بتلك الصورة التي زادت بها خطايا البشر، فهل يُعالج المرض بمرض أخطر منه؟ أليس أولى بحكمة الله أن يقول للعصاة غفرت لكم بدلًا من هذه التمثيلية البشعة؟ وكيف يُستساغ أن يظل سبحانه مضمرًا السوء للجنس البشري غاضبًا عليه آلاف السنين حتى جاءت رسالة المسيح، وهنا فقط ينتهي الغضب بحادثة الصلب والقتل المنسوبة إليه؟[1].

الوجه الثالث: كيف يكون أمر الصلب مخفيًا عن الأنبياء فلم يذكروه في كتبهم حتى أتى بولس بعد المسيح فذكره؟

إن من العجب أن يعتقد النصارى أن هذا السر اللاهوتي وهو خطيئة آدم وغضب الله على الجنس البشري بسببها ظل مكتومًا عن كل الأنبياء والرسل السابقين، ولم تكتشفه إلا

---

(١) الميزان في مقارنة الأديان (١٥٥).

الكنيسة، ومتى كان ذلك؟ لقد كان ذلك بعد حادثة الصلب والقتل، وإذا كان ذلك هو قصد الله ﷻ فلماذا لم يعلنه للجنس البشري من بدء الخليقة على ألسنة الأنبياء والرسل، ولماذا لم يوضحه الله في كتابه؟ ولماذا لم يوضحه المسيح في الإنجيل؟ [(١)].

وتظهر العقيدة النصرانية الله ﷻعاجزًا عن العفو عن آدم وذنبه، حائرًا في الطريقة التي ينبغي أن يعاقبه بها بعد أن قرر عقوبته، ويظهر قرار العقوبة وكأنه قرار متسرع يبحث له عن مخرج، وقد امتد البحث عن هذا المخرج قرونًا عديدة، ثم اهتدى إليه بعدُ، فكان المخرج الوحيد هو ظلم المسيح وتعذيبه على الصليب كفارة عن ذنب لم يرتكبه[(٢)].

وفي هذا الصدد نسأل سؤالًا لا يجوز إغفاله أو الحيدة عن إجابته: كيف جهل الأنبياء ذلك المعتقد الهام، فلم يذكروه في كتبهم كما لم يذكره المسيح ولم يعرفه تلاميذه من بعده، حتى جاء به بولس وآباء الكنيسة، فكشفوا ما غاب عن الأنبياء والمرسلين؟[(٣)].

الوجه الرابع: ما بال الذين ماتوا قبل مجيء المسيح كفاراً كانوا أم مؤمنين؟

ويقال للنصارى: ما تقولون فيمن اخترم قبل مجيء المسيح، أكفارًا كانوا أم مؤمنين؟ ، فإن قالوا: مؤمنين، فقد سَلَّموا أنه لا حاجة إلى قتل المسيح في تخليصهم، إذ إيمانهم هو الذي خلصهم.

وإن قالوا: بل كانوا كفارًا، أكذبهم المسيح إذ يقول في الإنجيل: "إني لم أرسل إلاّ إلى الذين ضلّوا من بيت إسرائيل، وإن الأصحاء لا يحتاجون إلى الدواء" (متى ٩/ ١٥: ١٢).

ثم نقول لهم: ألستم تزعمون أن المسيح إنما تجشَّم ونزل من السماء لخلاص معشر الناس كما عقدتم في الأمانة التي لكم؟! فإذا قالوا: بلى. قلنا لهم: فما قولكم فيمن مات قبل نزوله عليه السلام؟!. وكيف الطريق إلى بلوغ دعوته إليهم؟!.

فإن قالوا: تعذّر تلافي أمره وفات استدراكه بموته. قلنا لهم: جوَّزتم المسيح ونسبتموه إلى الظلم والحيف حيث لم ينْزل لخلاصهم قبل موتهم، فلِمَ أخَّر ذلك حتى اخترموا على

---

(١) أقانيم النصارى (١١٦).

(٢) هل افتدانا المسيح؟ (١٥٩).

(٣) هل افتدانا المسيح؟ (١٦٧).

الكفر والضلال؟! وكيف صار الأحياء أحقّ برحمة المسيح عندكم من الأموات؟ وفي هذه المقالة هدم أصلكم في التحسين والتقبيح، وإن تحامقوا وقالوا: إن المسيح لما جاء دعا الأحياء وهو حيّ، ثم مات فدعا الأموات. في أجداثهم، فمن أجابه نجى ومن أبى هلك. . . ، فنقول: أدعاهم في أجداثهم وهو حيّ أم دعاهم وهو ميّت؟! ، فإن قالوا: دعاهم وهو ميّت، سقطت مكالمتهم لتبيّن جنونهم، فإن قالوا: دعاهم وهو حيّ، نقضوا قولهم أنه مات فدعا الأموات[١].

الوجه الخامس: ما قولكم في الذين أخبر عنهم كتابكم المقدس بأنهم خلصوا بدون الحاجة للصلب المزعوم؟.

ثم إن هناك من لا يملك النصارى دليلًا على موتهم، فنجوا من الموت من غير فداء المسيح، وذلك متمثل في أخنوخ وإيليا اللذين رفعا إلى السماء وهما حيين كما في الأسفار المقدسة (انظر: التكوين ٥/ ٢٤، والملوك (٢) ٢/ ١١، وعبرانيين ١١/ ٥)[٢].

وتشهد الكتب المقدسة عند النصارى لكثيرين بالخيرية، وتثني عليهم، ولو كانوا مسربلين بالخطيئة الأصلية لما استحقوا هذا الثناء، ومن هؤلاء الأطفال الذين قال فيهم المسيح في إحدى وصاياه: " **اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. ٤فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هذَا الْوَلَدِ فَهُوَ الأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.** " (متى ١٨/ ٣ - ٤)، ومن الأبرار أيضًا لاوي بن يعقوب، وأيضًا شهد المسيح بنجاة لعازر، وقد مات قبل الصلب المزعوم للمسيح.

ويجزم المسيح بخلاص العشار زكا الذي أنفق نصف ماله في سبيل الله من غير أن يحتاج لدم يخلصه أو فادٍ يصلب عنه، لقد نال الخلاص بالبر والعمل الصالح.

والعفو من الصفات الإلهية التي اتصف بها الرب، وطلب من عباده أن يتصفوا بها، وهو أولى بها لما فيها من كمال وحُسن، وقد عفا عن بني إسرائيل من غير كفارة ولا مصلوب "

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٣٨١: ٣٨٢.

(٢) هل افتدانا المسيح؟ (١٦٦).

رَضِيتَ يَا رَبُّ عَلَى أَرْضِكَ. أَرْجَعْتَ سَبْيَ يَعْقُوبَ. ٢غَفَرْتَ إِثْمَ شَعْبِكَ. سَتَرْتَ كُلَّ خَطِيَّتِهِمْ. سِلاَهْ. ٣حَجَزْتَ كُلَّ رِجْزِكَ. رَجَعْتَ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ. " (المزمور ٨٥/ ١-٣).

ويقول بولس: " طُوبَى لِلَّذِينَ غُفِرَتْ آثَامُهُمْ وَسُتِرَتْ خَطَايَاهُمْ. ٨طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً " (رومية ٤/ ٧-٨)، فثمة أناس عفا الله عن خطاياهم وذنوبهم، وسترها عليهم، من غير دم يسفك عنهم، ولا تناقض بين عدل الله ورحمته بشأنهم[1].

الفصل التاسع: ماذا تحقق من الخلاص بالصلب المزعوم للإله؟

الوجه الأول: أي شيء تغير بوقوع الصلب المزعوم؟ وأي فتنة انطفأت؟ وأي آثام مُحيت؟

وأما قولهم: إنه أراد أن يستسلم ويبذل نفسه فداء عن الناس لينقذهم من الخطيئة والبأس، فهذا كلام من الكلام السخيف، وذلك أنه لا يخلو أن يفديهم بنفسه من عقاب نفسه أو عقاب غيره.

فإن كان إنما فداهم من عقاب نفسه، فما حاجته أن يرذل نفسه في أمر هو يملكه وزمامه بيده؟ فهلا عفا عنهم وأعفا نفسه من القتل والإهانة!

وإن كان إنما افتداهم من عقاب غيره فقد صار ضعيفًا عاجزًا لم يمكنه صلاح عباده إلاّ بأن يشفع لهم، ثم لا تقبل شفاعته حتى يبذل نفسه للصفع والإهانة والموت.

والعجب أنه مع بذل نفسه لهذه المحن لم تقبل شفاعته، ولم يحصل لهم الفداء الذي يدعون، هذا مع أن المشفوع إليه أبوه، أفلم يكن له عند أبيه من الجاه ما يُشَفِّعه في مطلوبه وهو معافى من هذه المحن بلا قتله وصلبه من غير إسعافه بمراده؟

ومثل هذا الفعل لا يصدر إلاّ من العدوّ المشاحن وأرباب الحقود والضغائن، ومما يتعجب منه أن هذا الرّبّ الذي تدعون بعد أن تعنَّى ونزل إلى الأرض وحَلَّ به ما وصفتم يبتغي بذلك خلاصكم، لم يحصل لكم خلاص ولا تَمَّ له مراد. لأنه إن كان أراد خلاصكم من محن الدنيا فها أنتم باقون على ما كنتم عليه من طبائع البشر وتحمل الضرر ومعالجة

---

(١) هل افتدانا المسيح؟ (١٥٣-١٥٤-١٦٣).

الهرم والكبر ومضاجعة الأجداث والحُفر.[1]

الوجه الثاني: أي خلاص تم لكم وأنتم ما زلتم مطالبين بالتكاليف والحساب يوم القيامة؟

تتحدث نصوص الكتب المسيحية عن الدينونة والجزاء الأخروي الذي يصير إليه العصاة والمذنبون من المسيحيين وغيرهم، وهو مبطل لمعتقدات كافة الفرق المسيحية في الفداء، فالمسيحيون يتحدثون في أناجيلهم عن الدينونة التي يعطيها الله يومئذ للمسيح (وقد أعطاه السلطان لأن يدين) (يوحنا٥/ ٢٧)، كما تتحدث النصوص المسيحية عن وعيد في النار لبعض أبناء البشر فدل ذلك على أنهم غير ناجين، فلم ينالهم الخلاص المزعوم (وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ، فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. . . ثُمَّ يَقُولُ أيضًا لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ) (متى٢٥/ ٣١: ٤٢)، فلو كان الناس كلهم ينجون بالفداء كما قالت أكبر الكنائس لم يكن لهذه النصوص معنى[2].

ونحن نطرح سؤالًا على النصارى، فنقول لهم: إذا كان الكلمة قد تجسد لمحو الخطيئة الأصلية فما العمل في الخطايا التي تحدث بعد ذلك؟.

والنصارى يجيبون عن ذلك فيقولون بالحرف الواحد: إذا عاد الناس إلى اجتراح الخطايا فالذنب ذنبهم، لأنهم نسوا النور وعشوا عنه مؤثرين الظلمة بإرادتهم، ومعنى ذلك أن خطيئة واحدة مُحيت، وأن ملايين الخطايا سواها بقيت وجدَّت بعد ذلك، وسيُحاسب الناس على ما اقترفوه، وبعض ما اقترفوه أقسى من عصيان آدم، فلماذا كانت مظاهرة التجسد لخطيئة واحدة وتُركت خطايا لا تُعد.[3]

يقول بولس: " **مُخَلِّصِنَا يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي أَبْطَلَ الْمَوْتَ وَأَنَارَ الْحَيَاةَ وَالْخُلُودَ** "، فهل رُفعت العقوبات بموت المسيح، وهل رُفع حكم الصلب عن ذرية آدم؟.

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل صـ ٤٠٨.

(٢) لكن شُبِّه لهم (٧٧: ٧٨).

(٣) موقف اليهود والنصارى من المسيح (٤٤٧).

والصحيح أن شيئًا لم يتغير، فما زال الناس يموتون من لدن المسيح، يموت أبرارهم وفجارهم، فلم يبطل حكم الموت فيهم، فالمسيح لم يبطل بصلبه ولا بدعوته أي موت، لا الموت الحقيقي ولا الموت المجازي، إذ مازال الناس في الخطيئة يتسربلون، ثم بعد ذلك يموتون.

وأما الموت الحقيقي فليس في باب العقوبة في شيء، بل هو أمر قد كتب على بني آدم، بَرهم وفاجرهم على السواء، قبل المسيح وبعده، وإلى قيام الساعة، وعليه نستطيع القول بأن ليس ثمة علاقة بين الموت وخطيئة آدم.

وكذلك فإن القصاصات الأخرى ما تزال قائمة، فما زال الرجال يكدون ويتعبون، وما تزال النساء تتوجع في الولادة. . . ويستوي في ذلك النصارى المفديون - حسب العهد الجديد- بدم المسيح وغيرهم.

والعجب من إصرار النصارى بعد وقوع هذه العقوبات على أن الذنب ما زال مستمرًا، وأنه لابد من فادٍ بعد هذه العقوبات الشديدة التي نالها أصحابها(١).

فما السبيل للنجاة من هذه الخطايا التي لا تزال تُصدر وتُمارس من بني آدم إذا كانت التوبة والأعمال لا تؤدي إليها كما زعم بولس، وقد تم الصلب والخلاص من خطيئة آدم منذ ألفي سنة، وقد حار علماؤنا في فهم نصوص الفداء المتناقضة كما حاروا في فهم ما يريده المسيحيون من الخلاص؟ ، هل الخلاص -أي الغفران- خاص بالمسيحيين تحديدًا أم هو لقوم يسوع من بني إسرائيل تعيينًا، أم أنه عام لكل البشر؟ (٢).

وهل هو خاص بخطيئة آدم الموروثة، أم أنه خلاص عام من جميع الخطايا والذنوب؟ ، ثم إننا نسأل النصارى هذين السؤالين: هل تغير حال الدنيا من بعد المسيح عما كان قبله؟ سيقولون: لا، هل أنتم امتزتم عن سائر الناس بشيء؟ سيقولون: لا، ذلك أنه لا مزية لهم عن سائر البشر، فإنهم يسعون في طلب الرزق كسائر الناس(٣).

---

(١) هل افتدانا المسيح؟ (١٦٦).

(٢) لكن شُبِّه لهم (٧٠: ٧٥).

(٣) أقانيم النصارى (١١٦).

الفصل العاشر: حقيقة الخلاص في الإسلام.

الوجه الأول: الخلاص بالإخلاص لله وترك الشرك وعبادة الله وحده واتباع نبيه محمدﷺ.

بعث الله سبحانه عبده ورسوله وكلمته المسيح ابن مريم فجدد لهم الدين وبين لهم معالمه ودعاهم إلى عبادة الله وحده والتبري من تلك الأحداث والآراء الباطلة فعادوه وكذبوه ورموه وأمه بالعظائم وراموا قتله فطهره الله تعالى منهم ورفعه إليه فلم يصلوا إليه بسوء وأقام الله تعالى للمسيح أنصارا دعوا إلى دينه وشريعته حتى ظهر دينه على من خالفه ودخل فيه الملوك وانتشرت دعوته واستقام الأمر على السداد بعده نحو ثلثمائة سنة.

ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحل ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء بل ركَّبوا دينًا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عباد الأصنام وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلوهم في النصرانية فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.

ومن المعلوم أن هذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة:

أحدهما: الغلو في المخلوق حتى جعلوه شريك الخالق وجزءًا منه وإلهًا آخر معه وأنفوا أن يكون عبدًا له.

والثاني: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم حيث زعموا أنه - سبحانه وتعالى عن قولهم علوًا كبيرًا - نزل من العرش عن كرسي عظمته ودخل في فرج امرأة وأقام هناك تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن ثم خرج من حيث دخل رضيعًا صغيرًا يمص الثدي ويبكي ويجوع ويعطش ويتغوط، ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه وربطوا يديه وبصقوا في وجهه وصفعوا قفاه وصلبوه جهرًا بين لصين وألبسوه إكليلًا من الشوك وسمروا يديه ورجليه وجرعوه أعظم الآلام هذا هو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له.

ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم كما قال تعالى فيما يحكي عنه رسوله الذي نزهه ونزه أخاه المسيح عن هذا الباطل الذي: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ فقال: شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته(١).

إبطال التثليث بأقوال المسيح:

في الآية الثالثة من الباب السابع عشر من إنجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام في خطاب الله هكذا: (**وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ.**) فبين عيسى عليه السلام أن الحياة الأبدية، عبارة عن أن يعرف الناس أن الله واحد حقيقي وأن عيسى عليه السلام رسوله. وما قال: إن الحياة الأبدية أن يعرفوا أن ذاتك ثلاثة أقانيم ممتازة بامتياز حقيقي وأن عيسى إنسان وإله، أو أن عيسى إله مجسم ولما كان هذا القول في خطاب الله في الدعاء فلا احتمال ههنا للخوف من اليهود فلو كان اعتقاد التثليث مدار النجاة لبينه، وإذ ثبت أن الحياة الأبدية اعتقاد التوحيد الحقيقي لله واعتقاد الرسالة للمسيح فضدهما يكون موتًا أبديًا وضلالًا بينًا ألبتة، والتوحيد الحقيقي ضد للتثليث الحقيقي، وكون المسيح رسولًا ضد لكونه إلهًا، لأن التغاير بين المرسِل والمرسَل ضروري، وهذه الحياة الأبدية توجد في أهل الإسلام بفضل الله. وأما غيرهم فالمجوس ومشركوا الهند والصين محرومون منها لانتفاء الاعتقادين فيهم، وأهل التثليث من المسيحيين محرومون منها لانتفاء الاعتقاد الأول، واليهود كافة محرومون منها لانتفاء الاعتقاد الثاني(٢).

الخلاص الحقيقي في الإسلام:

لا جدال أنه لا فداء ولا خلاص بتلك المفاهيم التي تعتنقها الطوائف النصرانية، بل

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ٤٥٠: ٤٦١.

(٢) إظهار الحق لرحمت الله هندي٣/ ٧٣٦.

الحق أن الخلاص كل الخلاص هو الخلاص من دعاوي الشرك بالله وتصحيح الاعتقاد السائد لديهم، ولا يكون ذلك إلا باتجاههم إلى عقيدة التوحيد في الإسلام التي لا لبس فيها ولا التواء، وهو أن الله واحد لا شريك له، وأن المسيح ابن مريم عبد الله ورسوله دعا إلى التوحيد الخالص الذي أمر الله به(1).

الجزاء أثر لازم للعمل:

إن مدار نجاة الإنسان في الآخرة من العقاب وفوزه بالنعيم والسعادة الأبدية إنما هو على تزكية نفسه وتطهيرها من العقائد الوثنية الباطلة والأخلاق الفاسدة حتى تكون متخلية من الأباطيل والشرور، متحلية بالفضائل وعمل البر والخير، ومدار الهلاك على ضد ذلك، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، فالله جعل كل إنسان متمسكًا بقواه الفطرية من أعمال الفجور والشرور، ومن أعمال التقوى والخيرات، وهو الذي يزكي نفسه بهذه أو يدسها بتلك، فإن صحت عقيدته وحسن عمله صلحت نفسه وزكت كانت أهلاً للنعيم في ذلك العالم العلوي، ومن كانت عقيدته خرافية باطلة، وأعماله سيئة فسدت أخلاقه وخبثت نفسه، وكان هو الذي تكلف تدسيتها ودهورتها إلى هاوية الجحيم، ولا يُشترط في التزكية أن لا يلم الإنسان بخطأ ولا تقع منه سيئة البتة، بل المدار على طهارة القلب وسلامته من الخبث وسوء النية بحيث إذا غلبه بعض انفلات النفس ألمَّ بذنب يبادر إلى التوبة ويلجأ إلى الندم والاستغفار، وتكفير ذلك الذنب بعمل صالح، فيكون مثل نفسه كمثل بيت تتعاهده ربته من التراب بالكنس والمسح وسائر وسائل النظافة، فإذا ألمَّ به غبار أو أصابه دنس بادرت بإزالته، فيكون الغالب عليه النظافة، ولا يشترط في الشهادة له بذلك ما لا تخلو منه البيوت النظيفة عادةً من قليل غبار أو وسخ لا يلبث أن يزال، فالجزاء أثر لازم للعمل، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

فمن أخلص لله في تزكية نفسه وإصلاحها بالإيمان والعمل الصالح بقدر استطاعته كان

---

(١) الميزان في مقارنة الأديان (١٦٠).

مقبولًا مرضيًا عند الله تعالى، ولا يؤاخذه تعالى بما لا يستطيع، ومن لم يكن كذلك غضب الله عليه، وكان محرومًا من رضوانه الأكبر، ولا ينفعه في الآخرة شفاعة شافع ولا يُقبل منه فداء لو ملك الفداء، ولا يستطيع أحد من أهل السماوات والأرض أن يشفع لأحد لم يرض الله تعالى بالإيمان والإخلاص وتزكية النفس التي يقلب بها الحق والخير على ضدها[(١)].

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾، وقد علم مما ذكرناه من تزكية النفس، وتدسيتها بعمل الإنسان وكسبه الاختياري أن الجزاء في الآخرة أثر لازم للتزكية والتدسية مرتب عليهما ترتيب المسبب على السبب، والمعلول على العلة بفضل الله وحكمته ومقتضى سننه في خلقه، والله يضاعف لمن يشاء ويزيدهم من فضله.

أليست هذه التعاليم الإسلامية هي التي ترفع قدر الإنسان وتُعلي همته وتحفزه إلى طلب الكمال بإيمانه وإخلاصه وأعماله الصالحة، أليست أفضل وأنفع من الاتكال على تلك القصة الصليبية المأثور مثلها عن خرافات الوثنيين التي لا يصدقها عقل مستقل[(٢)].

الوجه الرابع: كفارة الذنب عند المسلمين.

وفيه مسائل:

الأولى: بيان أن الله قد تاب على آدم

خلق الله آدم وقد علم سبحانه أنه خلقه ليجعله خليفة في الأرض ويستخلف أولاده، واقتضت حكمته سبحانه أن يبتلي الأبوين لتمام سعادتهم، فإن كمال العبودية والمحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة والدواعي إلى الشهوات والإرادات المخالفة للعبودية[(٣)].

---

(١) تفسير المنار٦/ ٢٩: ٣٠.

(٢) تفسير المنار٦/ ٣١.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٢٦٨).

كما قال تعالى قبل خلقه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١].

فإن الله سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة وأعلم بذلك ملائكته فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قد سكناهم فيها قبل أن يخلقه وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم فمن أسبابه النهي عن تلك الشجرة وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة يترتب على خروجه من الجنة ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جعلت غايات لحكم ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه[٢].

لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته وإنما أهبطه إما تأديبا وإما تغليظا للمحنة والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة ولله أن يفعل ما يشاء[٣].

وبلي الحبيب آدم ﷺ بالذنب فاعترف وتاب وندم وتضرع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة وهو التوحيد والاستغفار فأزيل عنه العتب وغفر له الذنب وقبل منه المتاب وفتح له من الرحمة والهداية كل باب ونحن الأبناء ومن أشبه أباه فما ظلم ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هدي لأحسن الشيم[٤].

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنة أعاضهم أفضل منها وهو ما أعطاهم من عهده الذي جعله سببا موصلا لهم إليه، فمن أتيه

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٥١٧).

(٢) شفاء العليل لابن القيم (٢٤٢).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٢١٣).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٩٣).

منكم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون[١].

قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه: ١٢١، ١٢٢)، فبهذا الإطلاق وهذا التصريح، وحيث لم يقل وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعتب على النبيّ المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر فضلًا عن أن تجسروا عن التورط في الكبائر[٢].

وأجمع أهل الإسلام أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي معصية بعمد سواء كانت صغيرة أو كبيرة، ونقول أنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد ويقع منهم أيضًا قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى والتقرب منه فيوافق خلاف مراد الله تعالى إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين وينبههم عليه[٣].

اتفق العلماء على أن الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص اجتماعًا، إنما اختلف العلماء في هل وقع من الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا؟، والذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات،

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٢٥).

(٢) تفسير البحر المحيط (٦/ ٢١٥).

(٣) الفصل في الملل لابن حزم (٤/ ١٩).

(بالنسبة) إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة - صلوات الله وسلامه عليهم - وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم[١].

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على ما أخبر الله به في كتابه وما ثبت عن رسوله من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التي تابوا منها وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم، وعصمتهم هي من أن يقروا على الذنوب والخطأ[٢].

الثانية: وقوع الأنبياء في الذنب لا ينقص من قدر النبوة والعصمة.

اتفق المسلمون على أنهم معصومون فيما يبلغونه عن الله فلا يجوز أن يقرهم على الخطأ في شيء مما يبلغونه عنه وبهذا يحصل المقصود من البعثة، وأما وجوب كونه قبل أن يبعث نبيا لا يخطئ أو لا يذنب فليس في النبوة يستلزم هذا وقول القائل لو لم يكن كذلك لم تحصل ثقة فيما يبلغونه عن الله كذب صريح فإن من آمن وتاب حتى ظهر فضله وصلاحه ونبأه الله بعد ذلك كما نبأ إخوة يوسف ونبأ لوطا وشعيبًا وغيرهما وأيده الله تعالى بما يدل على نبوته فإنه يوثق فيما يبلغه كما يوثق بمن لم يفعل ذلك وقد تكون الثقة به أعظم إذا كان بعد الإيمان. والتوبة قد صار أفضل من غيره والله تعالى قد أخبر أنه يبدل السيئات بالحسنات للتائب كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح ومعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم من عهد الرسول ﷺ وقبل أن يصدر منهم ما يدعونه من الأحداث كانوا من خيار الخلق وكانوا أفضل من أولادهم الذين ولدوا بعد الإسلام.

ولا ريب أن السيئات لا يؤمر بها وليس للعبد أن يفعلها ليقصد بذلك التوبة منها فإن هذا مثل من يريد أن يحرك العدو عليه ليغلبهم بالجهاد، وهذا جهل بل إذا قدر من ابتلى بالعدو

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢٦٤: ٢٦٣).

(٢) رسالة في التوبة لابن تيمية (٢١٦).

فغلبه كان أفضل ممن لم يكن كذلك، والذنوب إنما تضر أصحابها إذا لم يتوبوا منها والجمهور الذين يقولون بجواز الصغائر عليهم يقولون إنهم معصومون من الإقرار عليها[(١)].

وهو سبحانه وله الحمد لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر معه توبته لينزهه عن النقص والعيب ويبين أنه ارتفعت منزلته وعظمت درجته وعظمت حسناته وقربه إليه بما أنعم الله عليه من التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة التي فعلها بعد ذلك وليكون ذلك أسوة لمن يتبع الأنبياء ويقتدي بهم إلى يوم القيامة، وأما من ذكر الله تعالى وتبارك عنه ذنبا كآدم عليه السلام فإنه لما قال﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه: ١٢١-١٢٢)، وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧).

ومن احتج على امتناع ذلك بأن الإقتداء بهم مشروع والاقتداء بالذنب لا يجوز قيل له إنما يقتدي بهم فيما أقروا عليه لا فيما نهوا عنه كما أنه إنما يقتدي بهم فيما أقروا عليه ولم ينسخ ولم ينسه فيما نسخ وحينئذ فيكون التأسي بهم مشروعا مأمورا به لا يمنع وقوع ما ينهون عنه ولا يقرون عليه لا من هذا ولا من هذا وإن كان اتباعهم في المنسوخ لا يجوز بالاتفاق.

والذي أجمع عليه جمهور المسلمين من سلف الأمة وأئمتها في شأن الأنبياء أن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس والله أعلم حيث يجعل رسالاته فالنبي يختص بصفات ميزه الله بها على غيره وفي عقله ودينه واستعد بها لأن يخصه الله بفضله ورحمته، فالأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين وبعدهم الصديقون والشهداء والصالحون، فالنبي مع وقوع الذنب الذي هو بالنسبة إليه ذنب وقد لا يكون ذنبا من غيره مع تعقبه بالتوبة والإستغفار لا يقدح في كون الرجل من المقربين السابقين ولا الأبرار ولا يلحقه بذلك وعيد في الآخرة فضلا عن أن يجعله من الفجار.

فليس من تاب إلى الله تعالى وأناب إليه بحيث صار بعد التوبة أعلى درجة مما كان قبلها منقوصًا ولا مغضوضًا منه، بل هذا مفضل عظيم مكرم وبهذا ينحل جميع ما يوردونه من

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٣٩٦: ٤٠٠).

الشبه حول آدم عليه السلام.

والإنسان ينتقل من نقص إلى كمال فلا ينظر إلى نقص البداية ولكن ينظر إلى كمال النهاية، وإذا ابتلى العبد بالذنب وقد علم أنه سيتوب منه ويتجنبه ففي ذلك من حكمة الله ورحمته بعبده أن ذلك يزيده عبودية وتواضعا وخشوعا وذلا ورغبة في كثرة الأعمال الصالحة ونفرة قوية عن السيئات فإن النبي ﷺ قال: " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين "، وذلك أيضًا يدفع عنه العجب والخيلاء ونحو ذلك مما يعرض للإنسان وهو أيضًا يوجب الرحمة لخلق الله ورجاء التوبة والرحمة لهم إذا أذنبوا وترغيبهم في التوبة.

وهو أيضًا يبين من فضل الله وإحسانه وكرمه ما لا يحصل بدون ذلك كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم، وهو أيضًا يبين قوة حاجة العبد إلى الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه في أن يستعمله في طاعته ويجنبه معصيته وأنه لا يملك ذلك إلا بفضل الله عليه وإعانته له فإن من ذاق مرارة الابتلاء وعجزه عن دفعه إلا بفضل الله ورحمته كان شهود قلبه وفقره إلى ربه واحتياجه إليه في أن يعينه على طاعته ويجنبه معصيته أعظم ممن لم يكن كذلك.

ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه، ولهذا تجد التائب الصادق أثبت على الطاعة وأرغب فيها وأشد حذرا من الذنب من كثير من الذين لم يبتلوا بذنب، وقد تكون التوبة موجبة له من الحسنات ما لا يحصل لمن يكن مثله تائبا من الذنب[1].

فمن يجعل التائب الذي اجتباه الله وهداه منقوصا بما كان من الذنب الذي تاب منه وقد صار بعد التوبة خيرًا مما كان قبل التوبة فهو جاهل بدين الله تعالى وما بعث الله به رسوله، ولسنا نقول إن كل من أذنب وتاب فهو أفضل ممن لم يذنب ذلك الذنب بل هذا يختلف باختلاف أحوال الناس فمن الناس من يكون بعد التوبة أفضل ومنهم من يعود إلى ما كان ومنهم من لا يعود إلى مثل حاله والأصناف الثلاثة فيهم من هو أفضل ممن لم يذنب

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٤٣٤).

ويتب وفيهم من هو مثله وفيهم من هو دونه[1].

الثالثة: أسباب مغفرة الذنوب للعبد.

فإن الذنوب مطلقًا من جميع المؤمنين هي سبب العذاب لكن العقوبة بها في الآخرة في جهنم تندفع بنحو عشرة أسباب:

السبب الأول: التوبة

فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوبة مقبولة من جميع الذنوب الكفر والفسوق والعصيان، قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ (الأنفال ٣٨)، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ (المائدة ٧٤: ٧٣)، فالتوبة عامة لكل عبد مؤمن كما قال تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ (الأحزاب: ٧٣).

وقد أخبر الله في كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة ٣٧)، وقال موسى عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ (القصص ١٦)، فالتوبة مشروعة لكل عبد للأنبياء ولمن دونهم وأن الله سبحانه يرفع عبده بالتوبة وإذا ابتلاه بما يتوب منه فالمقصود كمال النهاية لا نقص البداية فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين وهو يبدل بالتوبة السيئات حسنات والذنب مع التوبة يوجب لصاحبه من العبودية والخشوع والتواضع والدعاء وغير ذلك مالم يكن يحصل قبل ذلك ولهذا قال طائفة من السلف إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة ويفعل الحسنة فيدخل بها النار يفعل الذنب فلا يزال نصب عينيه إذا ذكره تاب إلى الله ودعاه وخشع له فيدخل به الجنة ويفعل الحسنة

(١) المصدر السابق.

فيعجب بها فيدخل النار.

السبب الثاني: الاستغفار.

فإن الاستغفار هو طلب المغفرة وهو من جنس الدعاء، والسؤال وهو مقرون بالتوبة في الغالب ومأمور به لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو وقد يدعو ولا يتوب، والتوبة تمحو جميع السيئات وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة.

السبب الثالث: الأعمال الصالحة.

فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هود ١١٤)، وقال النبي ﷺ لأبي ذر يوصيه: " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"[(١)]، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر"[(٢)]، وقالﷺ: "من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[(٣)]، وغير ذلك الكثير من الآيات والأحاديث.

إن الإنسان قد يقول إذا كفر عنى بالصلوات الخمس فأي شيء تكفر عني الجمعة أو رمضان وكذلك صوم يوم عرفة وعاشوراء وبعض الناس يجيب عن هذا بأنه يكتب لهم درجات إذا لم تجد ما تكفره من السيئات، فيقال: أولًا العمل الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول، والله تعالى إنما يتقبل من المتقين.

فإن الله لا يتقبل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل ففعله كما أمر به خالصًا لوجه الله تعالى، صاحب الكبائر إذا اتقى الله في عمل من الأعمال تقبل الله منه ومن هو أفضل منه إذا لم يتق الله في عمل لم يتقبله منه وإن تقبل منه عملًا آخر، وإذا كان الله يتقبل ممن يعمل العمل على

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٩٢)، والترمذي (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٦٠).

(٢) مسلم (٢٣٣).

(٣) البخاري (١٧٢٣)، مسلم (١٣٥٠).

الوجه المأمور به.

ففي السنن عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال: "إن العبد لينصرف عن صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها حتى قال إلا عشرها"(١)، وقال ابن عباس: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها، وفي الحديث: "رب صائم حظه من صيامه العطش ورب قائم حظه من قيامه السهر "(٢)، وكذلك الحج والجهاد وغيرهما.

فالمحو والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلاتهم فالسعيد منهم من يكتب له نصفها وهم يفعلون السيئات كثيرًا فلهذا يكفر بما يقبل من الصلوات الخمس شيء وبما يقبل من الجمعة شيء وبما يقبل من صيام رمضان شيء آخر وكذلك سائر الأعمال وليس كل حسنة تمحو كل سيئة بل المحو يكون للصغائر تارة ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة.

والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: " يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلًا كل سجل منها مد البصر فيقال هل تنكر من هذا شيئًا فيقول لا يا رب فيقول لا ظلم عليك فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله فيقول أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات فتوضع هذه البطاقة في كفيه والسجلات في كفة فثقلت البطاقة وطاشت السجلات". (٣)

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص وإلا فأهل الكبائر (من المسلمين) الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة. وفي الصحيحين إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم

---

(١) مسند أحمد (١٨٨٩٩)، سنن النسائي (٦١١). وحسنه الألباني في الإيمان لابن تيمية ١/ ٢٩.

(٢) مسند أحمد (٨٨٤٣)، سنن النسائي (٣٢٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٩٥).

حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها.

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل ما بغى سقت كلبا يغفر لها وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق غفر له، قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (الحج ٣٧)، فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول والتصدق به لكن يناله تقوى القلوب، فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق ولم يضرب بعضه ببعض.

والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس بمجرد صورها الظاهرة بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلًا عظيمًا.

السبب الرابع: الدعاء للمؤمنين.

فإن صلاة المسلمين على الميت ودعاءهم له من أسباب المغفرة

السبب الخامس: دعاء النبي ﷺ.

واستغفاره في حياته وبعد مماته كشفاعته يوم القيامة.

السبب السادس: ما يفعل بعد الموت من عمل صالح يهدي له مثل من يتصدق عنه ويحج عنه ويصوم عنه.

السبب السابع المصائب الدنيوية التي يكفر الله بها الخطايا

كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه. [١]

---

(١) مسلم (٢٥٧٢).

السبب الثامن: ما يبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة وفتنة الملكين.

السبب التاسع:ما يحصل له في الآخرة من كرب أهوال يوم القيامة.

السبب العاشر: ما ثبت في الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة[١].

الرابعة: الله ﷻ يقضي بين عباده ولا يظلم أحدا، ولا تزر وازرة وزر أخرى

الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزه الله عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، فإن ذلك ينزه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺأن الله تعالى يقول: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا "[٢]، فقد حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾، فالله سبحانه يحسن ويعدل ولا يخرج فعله عن العدل والإحسان ولهذا قيل كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل.

وعلى هذا فعقوبة الإنسان بذنب غيره ظلم ينزه الله عنه وأما إثابة المطيع ففضل منه وإحسان[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾، فالصواب الذي دلت عليه النصوص أن الظلم الذي حرمه الله على نفسه وتنزه عنه فعلا وإرادة هو ما فسره به سلف الأمة وأئمتها أنه لا يحمل المرء سيئات غيره ولا يعذب بما لم تكسب يداه ولم يكن سعى فيه ولا ينقص من حسناته فلا يجازي بها أو ببعضها إذا قارنها أو طرأ عليها ما يقتضي إبطالها أو اقتصاص المظلومين منها وهذا الظلم الذي نفى الله تعالى خوفه عن

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ٢٠٦: ٢٢٦).

(٢) مسلم (٢٥٧٧).

(٣) منهاج السنة١/ ١٣٧ -٢/ ٣٠٩.

العبد بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾(١).

قال أهل السنة والحديث ومن وافقهم: إن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو سبحانه حكم عدل لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلين ولا يساوي بين مختلفين ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها بوضعها لما في ذلك من الحكمة ولا يعاقب أهل البر والتقوى، وهذا قول أهل اللغة قاطبةً.

وقال المفسرون من السلف، والخلف قاطبةً: أن الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم هو أن ينقص من حسنات العامل(٢).

إن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول إن الله تعالى ليس بعدل ولا من يقول إنه ليس بحكيم ولا فيهم من يقول إنه يجوز أن يترك واجبًا ولا أن يفعل قبيحًا، فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام(٣).

وإن الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزه لا يفعله لعدله ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئا والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع، قالوا: وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾، قالوا: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم حسناته، وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها فدل على أن ذلك ظلم ينزه الله عنه، ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزه الله عنه

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٤٥٨: ٤٦٠.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٢٢٢.

(٣) منهاج السنة النبوية ١/ ١٣٤: ١٣٦.

وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره(١).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أي لا يضيع جزاء من أحسن ولو بمثقال ذرة فدل على أن إضاعتها وترك المجازاة بها مع عدم ما يبطلها ظلم يتعالى الله عنه ومعلوم أن ترك المجازاة عليها مقدور يتنزه الله عنه لكمال عدله وحكمته ولا تحتمل الآية قط غير معناها المفهوم منها وقال تعالى: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾، وقوله: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، فالله لا يعاقب العبد بغير إساءة ولا يحرمه ثواب إحسانه، ولا يحمل أحد في وزر غيره شيء، وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وأن هذا هو العدل الذي نزه نفسه عن خلافه(٢).

الله ﷻ ليس كمثله شيء، فلا تماثل صفات الله وأفعاله صفات خلقه وأفعالهم

فسلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين المشهورون بالإمامة فيهم كالأربعة وغيرهم وأهل العلم بالكتاب والسنة متفقون على أن الله موصوف بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسله ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يتأولون كلام الله بغير ما أراده ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق بل يعلمون أن الله سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله بل هو موصوف بصفات الكمال منزه عن النقائص وليس له مثل في شيء من صفاته(٣).

الخامسة: أعمال العبد الصالحة هي من توفيق الله وليست ثمنًا ولاعوضًا

الله ﷻ يتصرف في خلقه بالعدل لا بالظلم وبالإحسان لا بالإساءة وبالصلاح لا بالفساد، فهو يأمرهم وينهاهم إحسانًا إليهم وحمايةً وصيانةً لهم ولا حاجة إليهم ولا بخلًا عليهم، بل جودًا وكرمًا ولطفًا وبرًا، ويثيبهم إحسانًا وتفضلًا ورحمةً لا لمعاوضة

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢/ ٣٠٤: ٣٠٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٤٦١.

(٣) الجواب الصحيح ١/ ٢٤١.

واستحقاق منهم، ودين واجب لهم يستحقونه عليه، ويعاقبهم عدلًا وحكمةً لا تشفيًا ولا مخافةً ولا ظلمًا(١).

وأنه سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابغة على خلقه، وكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأنه سبحانه لم يكلف عباده إلا وسعهم، وأنه سبحانه لا يعاقب أحدًا بغير فعله ولا يعاقبه على فعل غيره(٢).

أعمالنا لا توجب على الله لنا ثوابًا:

فأعمالنا لا أثر لها في إيجاب شيء أو تحريمه على الله، ومصدر الإيجاب والتحريم هو الله سبحانه وتعالى، إذ أنه لم يخل بما وعد به، فإذا كانت الجنة ثوابه والنار عقابه، وقد أوعد بهما، فإنه يفي بوعده دون أن يوجب عليه الخلق شيئًا، ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه، وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال، والغاية المرادة به الجزاء بالعدل، والثواب والعقاب، وفضل الله على عباده غير مقيد بقدر أعمالهم(٣).

دخول العباد الجنة بفضل الله ورحمته:

إن الله قدر دخول الجنة بالأعمال ودخول النار بالأعمال، وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول السرور في الدنيا الآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب(٤).

عمل العبد الصالح لا يوفي حق الله ﷻ عليه:

فالرب تبارك وتعالى هو المنعم حقيقة بصنوف النعم التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه، ولكل نعمة من هذه النعم حق من الشكر يستدعيه ويقتضيه، فإذا وُزعت طاعات العبد كلها على هذه النعم لم يخرج قسط كل نعمة منها إلا جزءًا يسيرًا جدًا لا نسبة له إلى قدر تلك النعمة بوجه من الوجوه، وأنه كلما كملت نعمة الله على العبد عظم حقه

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٤١١.

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم (١٢٠).

(٣) قضية الثواب والعقاب بين مدارس الإسلاميين .

(٤) الداء والدواء (٢٧: ٣٠).

عليه، وكان ما يطالب به من الشكر أكثر مما يطالب من دونه، فيكون حق الله عليه أعظم، وأعماله لا تفي بحقه عليه فنعم الله تطالبه بالشكر، وأعماله لا تقابلها، وذنوبه وغفلته وتقصيره قد تستنفد عمله، فديوان النعم وديوان الذنوب يستنفدان طاعاته كلها هذا وأعمال العبد مستحقة عليه بمقتضى كونه عبدًا مملوكًا مستعملًا فيما يأمره به سيده، فنفسه مملوكة، وأعماله مستحقة بموجب العبودية، فليس له شيء، فلا هو مالك لنفسه ولا صفاته ولا أعماله، بل كل ذلك مملوك عليه مستحق عليه لمالكه(١).

الأعمال الصالحة أسباب لا أعواض ولا أثمان:

قال النبي ﷺ: لن ينجي أحدًا منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل.

وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، فإنها إنما تدل على أن الأعمال أسباب لا أعواض وأثمان والذي نفاه النبي ﷺ في الدخول بالعمل هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه فالمثبت باء السببية والمنفي باء المعاوضة والمقابلة وهذا فصل الخطاب(٢).

شكر الله على نعمه لا يقدر على القيام به أحد، لكثرة نعم الخالق وتقصير المخلوق:

الله هو المنعم المالك على الحقيقة الذي لا تُعد نعمه وحقوقه على عبده، ولا يمكن أن تقابلها طاعاته بوجه، فلو عذبه سبحانه لعذبه وهو غير ظالم له، وإذا رحمه فرحمته خير له من أعماله، ولا تكون أعماله ثمنًا لرحمته البتة، فلولا فضل الله ورحمته ومغفرته ما هنا أحدًا عيش البتة، ولا عرف خالقه ولا ذكره ولا آمن به ولا أطاعه، ومن لم ينظر في حقه عليه وتقصيره وعجزه عن القيام به فهو من أجهل الخلق بربه وبنفسه ولا تنفعه طاعاته ولا يسمع دعاؤه.

وسر المسألة أنه لما كان شكر المنعم على قدره، وعلى قدر نعمه، ولا يقوم بذلك أحد كان حقه سبحانه على كل أحد، وله المطالبة به، وأن لم يغفر له ويرحمه وإلا عذبه، فحاجتهم إلى مغفرته ورحمته وعفوه كحاجتهم إلى حفظه وكلاءته ورزقه، فإن لم يحفظهم

---

(١) شفاء العليل لابن القيم (٢٤٠).

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٤٤٥.

هلكوا، وإن لم يرزقهم هلكوا، وإن لم يغفر لهم ويرحمهم هلكوا وخسروا، ولهذا قال أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (١).

ولا يخاف أن يحمل عليه من سيئات غيره، ولا ينقص من حسناته ما يتحمل، فهذا هو العقول من الظلم ومن عدم خوفه، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فلما نفى الظلم عن نفسه وأثبته لهم دل على أن الظلم المنفي أن يعذبهم بغير جرم، وأنه إنما عذبهم بجرمهم وظلمهم، ولا تحتمل الآية غير هذا، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾.

ولا ريب أن هذا مذكور في سياق التحريض على الأعمال الصالحة والاستكثار منها، فإن صاحبها يجزي بها ولا ينقص منها بذرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فأخبر أنه ليس على أحد في وزر غيره شيء، وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وأن هذا هو العدل الذي نزه نفسه عن خلافه.

فالنصوص تقتضي كمال عدله وحكمته وغناه، ووضعه العقوبة والثواب مواضعهما، وأنه لا يعدل بهما عن سننهما، وأنه لو عذَّب أهل سماواته وأرضه لكان ذلك تعذيبًا لحقه عليهم، وكانوا إذ ذاك مستحقين للعذاب؛ لأن أعمالهم لا تفي بنجاتهم (ولو رحمهم لكان رحمته خيرًا لهم من أعمالهم)، فلو عذبهم لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكان ذلك لمجرد فضله وكرمه لا بأعمالهم(٢).

فجميع عباده تحت عفوه ورحمته وفضله، فما نجى منهم أحدًا إلا بعفوه ومغفرته، ولا فاز بالجنة إلا بفضله ورحمته(٣).

---

(١) شفاء العليل (٢٤٠: ٢٤٦).

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٤٦٢: ٤٦١.

(٣) المصدر السابق.

الله ﷻ غني عن خلقه، فلا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي:

فبين سبحانه أن ما أمرهم به من الطاعات، وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن استجلاب نفعهم ولا استدفاع ضررهم؛ كأمر السيد عبده والوالد ولده، والإمام رعيته بما ينفع الآمر والمأمور، ونهيهم عما يضر الناهي والمنهي، فبين تعالى أنه المنزه عن لحوق نفعهم وضرهم به في إحسانه إليهم بما يفعله بهم وبما يأمرهم به، وأنهم لو أطاعوه كلهم لم يزيدوا في ملكه شيئًا، ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئًا، وأنه الغني الحميد، ومن كان هكذا فإنه لا يتزين بطاعة عباده، ولا تشينه معاصيهم، ولكن له من الحكم البوالغ في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم ما يقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التي لا تحصى بحسب قواهم وطاقتهم، لا بحسب ما ينبغي له، فإنه أعظم وأجلُّ من أن يقدر خلقه عليه، ولكنه سبحانه يرضى من عباده بما تسمح به طبائعهم وقواهم، فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم، ولا أنفع للعبد منه فهذان مسلكان آخران في حسن التكليف والأمر والنهي:

أحدهما: يتعلق بذاته وصفاته وأنه أهل لذلك وإن جماله تعالى وكماله وأسماءه وصفاته تقتضي من عباده غاية الحب والذل والطاعة له.

والثاني: متعلق بإحسانه وإنعامه ولا سيما مع غناه عن عباده وانه إنما يحسن إليهم رحمة منه وجودًا وكرمًا لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة وأي المسلكين سلكه العبد أوقفه على محبته وبذل الجهد في مرضاته. (١)

فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الْوُجُودِ فَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْهَا، وَحَاصِلٌ بِهَا، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْوُجُودِ فَسَبَبُهُ مِنْ إضَاعَتِهَا، فَالشَّرِيعَةُ الَّتِي بَعَثَ الله بِهَا رَسولَهُ هِيَ عَمُودُ الْعَالَمِ(٢).

الله ﷻ أفعاله كلها حكمة، فلا يناقض عدل رحمته:

---

(١) مفتاح دار السعادة٢/ ٤٥٠.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم٣/ ٣.

أسماء الله كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب وأفعاله كلها حكمة ورحمة مصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة وهو المحمود على ذلك كله فيستحيل إضافة الشر إليه، فالنعم كلها من نعم الله وفضله على عبده وهو سبحانه لا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها ولا يناقض جوده ورحمته وفضله حكمته وعدله[١].

فأهل الإيمان من أهل السنة والجماعة يعملون أن الله أنعم عليهم بالطاعات، وأنها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه، وأن المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة[٢].

الله ﷻ خلق خلقه وأقدرهم على فعل الخير والشر ابتلاء :

ويتساءل أهل الباطل ويقولون: إذا كان الرب قادرًا على الفضل بمثل الثواب والعقاب ابتداءً بلا واسطة عمل، فلما شرع التكاليف والبلوى والمشاق في هذه الحياة وأهل السنة يجيبونهم عن ذلك بالقول: لو أن الرب تعالى خلق خلقه ممنوعين من المعاصي غير قادرين عليها بوجه لم يكن لإرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر والنهي والثواب والعقاب سبب يقتضيه ولا حكمة تستدعيه وفي ذلك تعطل الأمر جملة، بل تعطيل الملك والحمد والرب تعالى له الخلق والأمر وله الملك والحمد والغايات المطلوبة والعواقب المحمودة التي لأجلها أنزل كتبه وأرسل رسله وشرع شرائعه وخلق الجنة والنار ووضع الثواب والعقاب وذلك لا يحصل إلا بأقدار العباد على الخير والشر وتمكينهم من ذلك فأعطاهم الأسباب والآلات التي يتمكنون بها من فعل هذا وهذا[٣].

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (٩٠: ٨٨).

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم (١٠٥: ٩٠).

(٣) مفتاح دار السعادة ٤/ ٤٣٠: ٤٢٩.

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه بل شرد قلبه عنه ورده إلى الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه فهو علامة شقاوته وإرادته الشر[(١)].

فالعبد الموحد يشهد انفراد الرب بالخالق ونفوذ مشيئته وتعلق الموجودات بأسرها به وجريان حكمه على الخليقة وانتهاءها إلى ما سبق لها في علمه وجرى به قلمه ويشهد ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه وارتباط الجزاء بالأعمال واقتضاءها له ارتباط المسببات بأسبابها التي جعلت أسبابًا مقتضية لها شرعًا وقدرًا وحكمة فشهوده توحيد الرب وانفراده بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعاذة ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه وذلك يدنيه من عتبة العبودية ويطرحه بالباب فقيرا عاجزًا مسكينًا لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وشهوده أمره تعالى ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الحمد والتشمير وبذل الوسع والقيام بالأمر والرجوع على نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير فيكون سيره بين شهود التقصير والإساءة منه وتطلب عيوب نفسه وأعمالها فهذا هو العبد الموفق المعان الملطوف به المصنوع له الذي أقيم مقام العبودية وضمن له التوفيق وهذا هو مشهد الرسل فهو مشهد أبيهم آدم إذ يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[(٢)].

حكمة الله ﷻ في التخلية بين العبد والذنب:

فالله ﷻ هو الحكيم الخبير يشهد له بالحكمة في تخليته بينه وبين الذنب، وإقداره عليه وتهيئة أسبابه له، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه، ولكنه خلى بينه وبينه لحكم عظيمة لا يعلم مجموعها إلا الله:

١- أنه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم.

٢- تعريفه العبد بحاجته إلى ربه، وأنه إن لم يحفظه ربه وهلك.

---

(١) طريق الهجرتين (١٥٢).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١٥٥: ١٥٢).

٣- استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوه وشر نفسه

٤- تكميل مقام الذل والانكسار عندما يذنب، فلا يغتر إليه بعمله وصلاحه.

٥- تعريف الإنسان بحقيقة نفسه الحاصلة، وأن كل خير هو فضل الله.

٦- تعريف العبد بعلم الله، وأنه لو شاء لعجل له العقوبة، ولكنه يعفو عنه.

٧- تعريف العبد أن سبيل النجاة، وهو عفو الله وأنه كريم يقبل توبته.

٨- أن يرحم الخلق ويقبل معاذيرهم، كما يحب أن يعفو الله عن ذنبه.

٩- أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخزف والخشية.

١٠- أن يعرف العبد مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وعصمته.

١١- من تربى في العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلى، ولا يعرف مقدار العافية.

١٢- توبة العبد إلى ربه توجب مزيد حبه وشكر ورضا لا يحصل بدون التوبة.

١٣- إن شهد إساءته وظلمه استقل عمل الكثير لعلمه أن الذي يصلح لفعل ذنوبه أضعاف ما يفعله، فهو دائمًا مستقل عمله ولا يعجب به.

١٤- الوقوع في الذنب يوجب له الحذر والتيقظ من مصايد العدو ومكايده.

١٥- أنه قد يكون هناك أمراض في القلب لا يشعر بها، فعندما يقع في ذنب يطلب منه دواء فيشفى من ذنبه الخفي.

١٦- أنه يذيقه ألم الحجاب، والبعد عن الله بارتكاب الذنب، فيدفعه للتوبةوالإنابة.

١٧- امتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته أم لا؟ ، فإن كان ممن يصلح تضرع لربه ليرده إليه، وإن استمر العبد في أعراضه وما سُلب منه من حلاوة الطاعة، وإصراره على ذنبه عُلم أنه لا يصلح لله.

١٨- الحكمة الإلهية في الابتلاء والاختبار لا يتم إلا بالوقوع في الذنب الذي من موجبات البشرية.

١٩- أن ينسيه رؤية أعماله الحسنة، ويشغله برؤية ذنوبه.

٢٠- أن وقوع الذنب الذي يجعله أن لا يرى لنفسه على أحد فضلًا، ويشتغل بعيب نفسه يوجب له المسامحة للخلق عن تقصرهم في حقه لعلمه أنه لم يقوم بحق الله عليه. (١)

معنى العبادة، وبمَ تتحقق العبودية:

العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فجميع ما يحبه الله داخلًا في اسم العبادة، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة لله والمرضية له التي خلق الخلق لها وبها أرسل جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾، و العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة لله، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا لله.

فالإله الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك، فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه ومحتاج إليه عرف عبوديته المتعلقة بربوبية الله، وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع إليه ويتوكل عليه. (٢)

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم(٣).

وكلما قوى طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته، ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه، وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، من استعبد قلبه فصار عبدًا لغير الله فهذا يضره ذلك كل الضرر.

ومن أعظم هذا البلاء إعراض القلب عن الله فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله

---

(١) طريق الهجرتين ٢٦٦-٢٧٠ بتصرف واختصار.

(٢) مجموعة التوحيد لابن تيمية (٣٩٨: ٣٩٤).

(٣) مجموعة التوحيد لابن تيمية (٤١٥: ٤٠٠).

والإخلاص له لم يكن شيء قط عنده أحلى من ذلك ولا أطيب ولا ألذ ولا أقنع، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوى في قلبه انقهر له هواه بلا علاج، فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى المحرمات بإخلاصه لله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل[1].

المؤمن يحب الله لذاته:

فطريق أهل العلم والإيمان الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا مراده بها أمرهم ونهاهم عنه، وهي أن نفس معرفة الله ومحبته وطاعته والتقرب إليه وابتغاء الوسيلة إليه أمر مقصود لذاته، وأن الله سبحانه يستحقه لذاته، وهو سبحانه المحبوب لذاته الذي لا تصلح العبادة والمحبة والذل والخضوع والتأله إلا له فهو يستحق ذلك، لأنه أهل أن يعبد ولو لم يخلق جنة ولا نارًا ولو لم يضع ثوابًا ولا عقابًا، و هو غاية سعادة النفس وكمالها والنفس إذا فقدت ذلك كانت بمنزلة الجسد الذي فقد روحه وحياته[2].

فالله ﷻ فطر عباده على الحنيفة المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره وهذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم، ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره، فكونه سبحانه أهلًا أن يُعبد ويُحب ويُحمد ويُثنى عليه أمر ثابت له لذاته، فلا يكون إلا كذلك، فهو سبحانه الإله الحق المبين والإله هو الذي يستحق أن يوله محبةً وتعظيمًا، فهو الإله الحق، ولو لم يخلق خلقه وهو الإله الحق، ولو لم يعبدوه فهو المعبود حقًا إلا له حقًا المحمود حقًا، ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يألهوه، فهو الله الذي لا اله إلا هو قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم وبعد أن يغنيهم.

---

(١) مجموعة التوحيد لابن تيمية (٤٢٤: ٤٢٠).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٤١٦.

ولا ريب أن كمال العبودية تابع لكمال المحبة، فإن القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه ما دامت فطرها وعقولها سليمة، فلا ريب أن محبته توجب عبوديته وطاعته وتتبع مرضاته واستفراغ الجهد في التعبد له والإنابة إليه وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها حتى لو فرض تجرده عن الأمر والنهي والثواب والعقاب(١).

فعبد الله من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما أحب الله ورسوله، فجعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول والجهاد في سبيله، وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبًا إلا باحتمال المكروهات(٢).

فكلما ازداد القلب حبًا لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًا وحرية عما سواه، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائما مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣).

ولن يخلص العبد من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله؛ بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئًا لذاته إلا لله، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان، فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته لله واستغناؤه عن الخلق، فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه، ومحبوبه لا

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٤٤١: ٤٤٠.

(٢) مجموعة التوحيد لابن تيمية (٤٢٨: ٤٢٥).

(٣) المصدر السابق.

يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان، ومن فعل الكبائر وأصر عليها ولم يتب منها فإن الله يبغض منه ذلك، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه، فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب(١).

فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعى محبة الله، فالدين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا(٢).

فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرم عليه وبغضه له ومقته لفاعله، وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار عمل بموجب هذا العلم، ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، ومحبة الله هي أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه فإن المحب لمن يحب مطيع.

وأمر الله ﷻ جميع المؤمنين من أولهم إلى أخرهم بالتوبة ولا يستثني من ذلك أحد وعلق فلاحهم بها، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وهو سبحانه لمحبته للعفو والتوبة خلق خلقه على صفات وهيئات وأحوال تقتضي توبتهم إليه واستغفارهم وطلبهم عفوه ومغفرته، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ؓقال: قال رسول اللهﷺ: لو لم تذنبوا الذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم.

والله تعالى يحب التوابين والتوبة من أحب الطاعات إليه ويكفي في محبتها شدة فرحه بها، فتأمل محبته سبحانه لهذه الطاعة التي هي أصل الطاعات وأساسها، فإن من زعم أن أحدًا من الناس يستغني عنها ولا حاجة به إليها فقد جهل حق الربوبية ومرتبة العبودية،

---

(١) مجموعة التوحيد لابن تيمية (٤٢٨: ٤٣٨).

(٢) مجموعة التوحيد لابن تيمية (٤٤٠: ٤٤٥).

وينتقص بمن أغناه بزعمه عن التوبة من حيث زعم أنه معظِّم له، إذ عطله عن هذه الطاعة العظيمة التي هي من أجل الطاعات، وأكمل الخلق أكملهم توبةً وأكثرهم استغفارًا[١].

فحال العبد مع ربه في جميع أعماله، فهو يعلم أنه لا يوفي هذا المقام حقه، فهو أبدًا يستغفر الله عقيب كل عمل، والعارف يسير بين مشاهدة المنة من الله ومطالعة عيب النفس والعمل، فشهود المنة يوجب له المحبة لربه سبحانه وحمده والثناء عليه ومطالعة عيب النفس والعمل يوجب استغفاره ودوام توبته وتضرعه واستكانته لربه سبحانه[٢].

السادسة: كيف تكون الأعمال الصالحة أسبابًا للتكفير عن الذنب؟

لكي نفهم صلاحية الأعمال الصالحة لتكفير الذنوب فإننا نحتاج أن نتعرف على معنى الإسلام والإيمان، فإن الإسلام يعني الاستسلام والانقياد والخضوع لك، والإيمان يدخل في مسماه جميع ما يحب الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وجميع الطاعات فرضها ونفلها تدخل في مسماه سواء كانت من أعمال الجوارح أو القلوب، فأصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك.[٣]

ولا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى تقصت الأعمال الظاهرة كانت لنقص الإيمان الذي في القلب فلا يكتفي بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة، ولذا قالﷺ: "في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله"، فإن إيقان العبد بلقاء ربه واطمئنان قلبه الإيمان ببعث الجوارح كلها للقيام بالعمل الصالح، وعندما يكون الإيمان في القلب فإن ذلك يدعوا صاحبه لعمل المأمور وترك المحظور، والناس يتفاوتون في إيمانهم على أقسام ثلاثة (سابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسه)، فالسابقون مختصون بالمستحبات، والمقتصدون الأبرار هم عموم المؤمنين المستحقون

---

(١) شفاء العليل لابن القيم (٢٤٢: ٢٤٣).

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم (١٥٧).

(٣) فتح الباري لابن رجب الحنبلي ١/ ١٠.

للجنة، والظالم لنفسه هو الواقع في المعاصي والآثام. (١)

والناس يتفاضلون في أعمالهم بتفاضل الإيمان في قلوبهم، فإذا فسد القلب فسد إرادته ففسدت الجوارح كلها، وانبعثت في معاصي الله ﷻ، و لم تقنع بالحلال، و المؤمن يزيد إيمانه بالعمل الصالح، ولحصول هذه الزيادة فإنه لابد له من التوكل على الله والاستعانة به فيما لا يقدر عليه، ومن طاعته فيما لايقدر عليه، فالإيمان ليس مجرد التصديق بل لابد من أعمال قلبية تستلزم أعمال ظاهرة، فحسب ما أمر الله وبنقص ما نهى عنه من أخص الأمور بالإيمان، و العبد حين يقع في الذنب يكون ناقص الإيمان، لذلك قال النبيﷺ: "لا يزني الزاني وهو مؤمن. . . "، لأنه لو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة أوجب الله الذي يغلبها لم يزن ولم يعص الله فمن كان مخلصًا الله حق الإخلاص لم يعصِ الله (لم يزن)، إنما يعصي (أويزني) لخلوه من ذلك.

والإيمان الذي ينزع من المسلم حال وقوعه في الذنب لا ينزع منه نفس التصديق ولهذا قيل هو مسلم وليس بمؤمن، فإن المسلم المستحق للثواب لا بد أن يكون مصدقًا، و إلا كان منافقًا ولكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الإيمانية مثل كمال محبة الله ورسوله وخشيته لله والإخلاص له في الأعمال، بل يكون مصدقًا بما جاء به الرسول ﷺ وهو واقع في المعصية مثل الزنا والرياء. . . إلخ.

ولابد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشيته وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانًا البتة، وكل عاص لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنما يكون جاهلًا لنقص خوفه من الله إذ لو تم خوفه من الله لم يعصه، فإنه لوكمل إيمانه لوجد حلاوة الإيمان فاستغنى بها عن استحلاء المعصية، فمن عرف الله أحبه ومن أحبه أطاعه، فإن المحبة تقتضي الطاعة فمن ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده فهو كاذب. (٢)

---

(١) مجموع الفتاوى٧/ ٢٩.

(٢) فتح الباري لابن رجب١/ ٤٧ بتصرف.

والأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنه، وصدقته على عبده، فإنه أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها وحببها إليه وزينها في قلبه، وكره إليه أضدادها، فالحسنات التي هي الإيمان والعمل الصالح مصدرها من الله وغايتها منتهية إليه، والسيئات من النفس قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾، فليس للحسنات سبب إلا مجرد فضل الله ومنه، فالأعمال الصالحة وإن كانت أسباب النعم والخيرات فمن وفقه لها وأعانه عليها وشاءها له سواه، فالنعم وأسبابها من الله وقبول العمل منه وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (المائدة: ٢٧) أي من الذين يتقونه في العمل، والتقوى في العمل بشيئين أحدهما إخلاصه لله، والثاني أن يكون مما أمره الله به، ولا يقبل العمل حتى يكون خالصًا وصوابًا، خالصًا بأن يكون لله صوابًا أن يكون على السنة فالسعيد يخاف في أعماله أن لا يكون صادقا في إخلاصه الدين لله أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به على لسان رسوله، وهذا حال الصالحين كانوا يتهمون أعمالهم وتوباتهم ويخافون ألا يكون قبل منهم ذلك فكان ذلك يوجب لهم شدة الخوف وشدة الاجتهاد في العمل الصالح، وإن التائب توبة نصوحًا، مغفور له جزمًا، ولكن المؤمن يتهم توبته، ولا يجزم بصحتها ولا بقبولها فلا يزال خائفًا من ذنبه وجلًا. (١)

ومعنى التوبة وحقيقتها:

هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا.

والنصح في التوبة: تخليصها من كل غش وفساد وإيقاعها على أكمل الوجوه.

والصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث، والذنوب إنما تغلظ وتكبر في حق من تكررت منه مرارا عديدة، واتخذ الذنب عادته. (٢)

شروط التوبة: التوبة واجبةٌ من كل ذنبٍ:

---

(١) فتح الباري لابن رجب ١/ ٨٢.

(٢) مدارج السالكين صـ ١٥٦.

١ -أن يقلع عن المعصية.

٢ - أن يندم على فعلها.

٣ - أن يعزم أن لا يعود إليها أبدًا.

٤ -رد المظلمة إذا كان الذنب يتعلق بحق آدمي.

فالواجب على العبد الندم والاستغفار والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده، فإن لم تساعده النفس على الندم على الترك لغلبة الشهوة، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يعجز عن الواجب، الثاني: وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعًا من غير حل عقدة الإصرار؟

فنقول: الاستغفار الذي هو توبة الكاذبين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون لقلب فيه شركه، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة، فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة.

والمقصود أن للتوبة ثمرتان: إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له. الثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيبًا.

فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا من حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات، فليس يخلو من الفائدة أصلًا فلا ينبغي أن يظن أن وجودها كعدمه.

درجات الأعمال الصالحة في تكفير الذنوب الكبائر والصغائر هي: **أولًا**: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها، **الثانية**: أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر، **الثالثة**: أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر، والفائدة من تعدد وتنوع الأعمال الصالحة التي تصلح لتكفير الذنوب سواء كانت صلاة أو صوم أو صدقة أونحو ذلك، فإن وجد ما يكفره من الصغائر يكفره وإن لم يصادف صغيرة ولا كبيرة تثبت به حسنات ورفعت به درجات.

أما بالنسبة لما تكفره الأعمال الصالحة من الذنوب الصغائر والكبائر فإن العلماء اختلفوا هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر والصغائر؟ أم لا تكفر سوى الصغائر؟ فإن أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الإتيان بالفرائض وتقع الكبائر مكفرة كما تكفر الصغائر باجتناب الكبائر فهذا باطل، وإن أريد أنه قد يوازن يوم القيامة بين بعض الأعمال فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل ويسقط العمل فلا يبقى له ثواب فهذا قد يقع فلا يغتر جاهل فينهمك في الموبقات اتكالا على أنها تكفرها الصلوات دون الندم والاستغفار والتوبة، فقد تمحى الكبيرة وتكبر الصغيرة فتهلك، فينبغي أن يكون الناس على وجل فلا يتجرءون على الصغائر اعتماد تكفير الأعمال، اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فإن الذنب استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات، ظلمة المعصية تمحى بحرقة الندم، وشدة المجاهدة بالترك في المستقبل.

وغفران الذنوب يرجى للعبد إذا كان قد غلبته شهوته، وليس للعبد المستهتر، فإن هؤلاء الذين لا ينالون بذنب يقترفونه ولا يقدمون خوفًا ولا يدعون شهوة يحال بينهم دين التوبة غالبًا، ومن اعتمد على التقوى مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند، فإن التائب توبة نصوحًا مغفور له جزمًا، ولكن المؤمن يتهم توبته ولا يجزم بصحتها ولا بقبولها، فلا يزال خائفًا من ذنبه وجلًا.

وإن حسن الظن والرجاء هو الذي يحمل على العمل ويسوق إليه والمؤمن يقترن خوفه ورجاؤه بالعمل الصالح. (١)

الوجه الخامس: شبهات متعلقةبالفداء والصلب والرد عليها.

الشبهة الأولى: الرد على تبريرات النصارى من قتل المسيح.

نحن المسلمون نسأل النصارى سؤالًا:

---

(١) انظر: الجواب الكافي، ومفتاح دار السعادة، ومدارج السالكين كلهم لابن القيم.

سلمنا جدلًا أن المسيح قد قتل فما ذنب المسيح البريء حتى يدفعه الله ليُقتل ويُصلب عن الناس؟

فيجيب النصارى عن ذلك السؤال بالآتي:

١-أن أنبياء الله ﷺ قُتلوا بلا ذنب اقترفوه كما قرر ذلك القرآن، والله يكافئهم على ذلك.

٢-أن مبدأ الإنابة (تحمل المسيح الصلب كفارة للبشر) مبدأ سليم ما دام أن من سيتوب يوافق القيام بالمهمة، وأن المسيح فعل ذلك بدافع المحبة وبرغبته مختارًا بدون إجبار ليقدم الفداء للكنيسة ولكل من يؤمن بها.

٣-أن موت المسيح (الإله) لم يكن فجائيًا غير متوقع بالنسبة له كما يظن البعض ذلك، وينسون أن دم المسيح مكتوب عنه في العهد القديم في شكل نبوءات منذ آلاف السنين، فالذبائح كلها ترمز إلى ذبيحة المسيح، كذلك كل القرابين سواء في عيد الفصح أو غيرها.

٤-أن الصلب كان هو الوسيلة التي بواسطتها يهزم الله بها الشيطان ويفتح للإنسان أن يعود للشركة مع الله.

٥-أن ذلك بمقتضى عدالة الله ورحمته التي يلزم الجمع بينهما.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: القول بأن قتل المسيح (الإله كما يزعمون) بدون ذنب اقترفه مثل كمثل قتل الأنبياء من قبل أعدائهم، وأخذوا مكافأة على ذلك الفعل من الله كما قرر القرآن.

وللرد على ذلك نقول أن الأنبياء هم بشر اصطفاهم الله ومن قبل عن النبيين وهو صابر، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا واستشهدوا فأثابهم الله على ذلك بخلاف النصارى فإنها تعتقد أن المسيح إله، ولو أنها قالت بنبوة المسيح وادعت أنه صُلب لكان بالإمكان مناقشة الأمر على اعتبار أن المسيح بشر، وقد يتعرض لما يتعرض له البشر[1].

فالنصارى يرون في صلب المسيح كما يقولون عملية فداء للبشرية وخلاص، ولكن إذا كان المسيح إلهًا فهل صلبه برهان على ألوهيته؟

فأخبرونا مَنِ الذي كان يقوم برزق الأنام والأنعام في تلك الأيام؟ ، وكيف كان حال الوجود والإله في اللحود؟! ومَن الذي دَبَّر السماء والأرض وخلقه فيها بالبسط والقبض

---

(١) العقيدة النصرانية بين القرآن والإنجيل لحسن الباشا ١/ ١٥١.

والرفع والخفض؟! وهل دُفنت الكلمة بدفنه وقُتلت بقتله أم خذلته وهربت مع تلاميذه؟.

فإن كان قد دفنت بدفنه، فإن قبرًا وسع الإله القديم لقبر عظيم، وإن كانت قد فرَّت وأسلمته، فكيف تصحّ مفارقتها له بعد اتّحادها به؟! أين ذهب الاتّحاد وكيف بطل الامتزاج؟! [١].

الوجه الثاني: قولهم بأن الإنابة مبدأ سليم طالما أن من سينوب قبل ذلك مختارًا غير محدد.

والرد على ذلك نقول: قولهم بأن المسيح اختار الصلب يكفيه حال المسيح عند الصلب ،كما يزعمون ويرونها في كتبهم؟

وسؤالنا للفكر النصراني الذين يرون في أن آلام وموت المسيح كانت معجزات وانتصارات لا كوارث ولا تراجع، ويرون في صلب الإله المسيح كما يقولون عملية فداء للبشرية، فإذا كان المسيح إلهًا، فهل تُقبل عملية الصلب بدون أي تذمر؟ لأنه يعرف أنه إله ومجرد صلبه هو صلب للمادة والجسد وليس النور الإلهي[٢].

وإن الناسوت (الابن المتجسد كما يزعمون) استغاث عند صلبه وقال إلهي إلهي لماذا تركتني وإن كان هو قد فعل ذلك مكرا كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما في ذلك من الحكمة وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره.

ويقول بعضهم مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين وقد اتفقا على المكر بالعدو ولم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يحمل الصواع في رحله ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه لما ظهر الصواع في رحله كما جزع إخوته حيث لم يعلموا وكثير من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به

(١) تخجيل من حرف الإنجيل (٣٦٦).

(٢) العقيدة النصرانية بين القرآن والإنجيل لحسن الباشا ١/ ١٥٢.

المسيح وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية(١).

الوجه الثالث: يقولون إن موت المسيح على الصليب كان من إعداد إلهي مسبق، ولم يكن فجائيًا كما يظن البعض، ويظهر ذلك شغل النبوءات التي في العهد القديم منذ آلاف السنين، فالذبائح كلها ترمز لدم المسيح.

وللرد على ذلك نقول:

إن العهد الجديد عند النصارى يركز على أن الصلب أساسًا لتحقيق هدف جاء من أجل المسيح يسوع إلى الدنيا وتحقيقًا لرغبة إلهية ورحمة من الرب نحو شعبه، ولذلك ركزت إصحاحات العهد الجديد في الأناجيل الأربعة على فكرة أن يسوع كان يعرف مهمته في الحياة، وأنه مكتوب عليه التضحية ليخلص الناس.

ويرون أن المسيح قدم نفسه قربانًا فداءً للبشرية وتكفير عن خطاياها، ويرون أن المسيح قدم نفسه طوعًا، واختار أن يكون كمجرم علق جسده على مشنقة من أجل أن يبذل نفسه فداءً عن كثيرين، وأن موت يسوع الاختياري فداء غالي الثمن حيث يستبدل تقديم الذبائح غير العاملة بالذبيحة الشخصية والاختيارية، فيسوع لم يأت ليخدم، بل ليُخدم ولبذل نفسه فداءً عن كثيرين(٢).

فالنصارى يقولون أن المسيح عليه السلام هو الله، وأنه ما نزل في هذا العالم وما انحط مستوى البشر إلا ليخلص الناس من ذلك الذنب المزعوم، فإذا كان هذا هو السبب الوحيد الذي أُرسل من أجله المسيح فلِمَ لم يقل عنه شيئًا ولِمَ لم يبينه، لقد كان المسيح معلم الشعب، فإذا كان نزل للفداء كان عليه أن ما جاء من أجله خاصة(٣).

وادعاؤكم الألوهية في المسيح ما الحجة فيه عندكم؟ هل قالت كتب النبوات فيه ذلك أو هل قاله عن نفسه أو قاله أحد عن تلامذته والناقلين عنه الذين هم عماد دينكم وأساسه، وفي كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عز وجل ونبي له قوة وفضل فتأولتم في ذلك

---

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٣٤.

(٢) العقيدة النصرانية بين القرآن والإنجيل لحسن الباشا ١/ ١٥٢: ١٥٤

(٣) موقف اليهود والنصارى من المسيح (٤٥٠).

أنه أخرج كلامه على معنى الناسوت ولو كان كما تقولون لأفصح عن نفسه بأنه إله كما أفصح بأنه عبد ولكنه ما ذكره ولا ادعاه ولا دعا إليه ولا ادعته له كتب الأنبياء قبلة ولا كتب تلامذته ولا حكي عنهم. (١)

الوجه الرابع: قولهم أن الصلب هو الوسيلة التي بها يُهزم الشيطان ويعود الإنسان للشركة مع الله ولا سبيل غير ذلك.

وللرد على ذلك نقول:

نقول ليس هناك مناسبة بين الصلب وتخليص البشر من الشيطان، فادعاء النصارى الباطل بأن معصية آدم بالأكل من الشجرة ومخالفته لوصية الله جلبت عليه الموت وعلى سائر ذريته وأن بمقتضى صفة العدل كان على الله أن يخرج آدم من الجنة وأن تظل اللعنة تلاحق أبناءه فيذهب كل من يموت منهم إلى الجحيم وتظل روحه حبيسة في أسر إبليس، وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يدبر وسيلة ينقذ بها البشرية من العذاب، فلم يجد أفضل من إرسال ابنه الوحيد متجسدًا في رحم مريم ومتأنسًا من الروح القدس متخذًا جسدًا بشريًا ليخدع إبليس الذي سيسارع باختطاف روحه – بعد موته- وأسرها في الجحيم ظنًا منه أن تلك الروح من ذرية آدم.

فبطلان هذا الادعاء من وجوه متعددة:

أن إبليس إذا كان قد أخذ ذرية آدم بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره وإن كان أخذهم بالخطايا فلماذا يأخذهم بخطيئة أبيهم؟

أن العقل يرفض أن يذنب آدم وبنوه ثم يعاقبهم إبليس بغير إذن من الله في ذلك.

إن ذرية آدم يخطئون من بعد المسيح كما كانوا يخطئون قبله، فكيف يجوز أن يتمكن إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين ولا يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة بعد المسيح؟

إن دخول ذرية آدم جهنم إما أن يكون عدلًا من إبليس فلا يجوز أن يحتال عليه ليمنع من العدل، وإما أن يكون ظلمًا منه، والرب أحق منعه قبل المسيح، فإن لم يكن قادرًا على ذلك ووُصف بالضعف والعجز، وذلك كفر صريح.

---

(١) الجواب الصحيح ٤/ ١٢٠.

الشبهة الثانية: الرد على أن الأعمال الصالحة لا تفي حق الله فيما وقع فيه الإنسان من خطايا.

نص الشبهة:

إن الأعمال الصالحة التي نقوم بها نحن الخطاة - لا يمكن الخطأ في حق الله الذي لا حد لقداسته وبره وحقه - ، وبالتالي فهي لا تستطيع أن تحصل لنا أي صفح لأنها أعمال محدودة، فأثر العمل الصالح محدود وحق الله غير محدود، والشيء المحدود لا يفي مطالب أمر ليس له حدود، فالأعمال الصالحة إرضاء الله وليس للتكفير عن الخطية، وإننا بكل أعمالنا الصالحة لا نستطيع أن تكفِّر عن خطايانا لأن خطايانا هي تعدٍّ حدود الله، وحقوق الله لا حد لها كما أن ذاته لا حد لها، بينما أعمالنا الصالحة مهما كثرت وتنوعت فهي محدودة، والأعمال المحدودة لا تستطيع أن تكون تكفيرًا عن إساءة موجهة إلى حقوق غير محدودة، وإن الله وحده هو الذي يستطيع أن يكفِّر عن الإنسان لأنه هو وحده الذي يعرف حقوقه غير المحدودة.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هناك اختلاف في المقصود بحق الله عند كلٍ من المسلمين والنصارى.

هناك فارق بين المسلمين والنصارى في تعريف حق الله.

فالمسلمون يرون أن حق الله هو ما يستحقه الله على عباده مما جعله الله محتمًا عليهم من عبادته سبحانه وتوحيده وعدم الإشراك به شيئًا.

بينما النصارى يرون أن حق الله هو الإيمان بأن المسيح الإله كما يزعمون تجسَّد وصار إنسانًا ثم عاش وصُلب على الصليب كفارةً لخطايا البشر ومن أجل خلاصهم.

وبناءً على ذلك يترتب الاختلاف في الطريقة الذي يوفِّي هذا الحق، فما السبيل إلى الوفاء بحق الله ﷻ؟.

المسلمون يرون أن حق الله يتمثل في عبادته بامتثال أمره واجتناب نهيه وتوحيده وعدم الإشراك به، وأن يتوجه بالعبادة له وحده، فالأعمال الصالحة يبتغي بها مرضاة الله الذي شرعها للقرب منه وللتكفير عن الذنب.

بينما النصارى يرون أنه لا جدوى من هذه الأعمال الصالحة أن الوسيلة الوحيدة لتكفير الذنوب والقيام بحق الله هي الاعتبار بأن المسيح الإله صُلب كفارةً عن خطايا البشر.

الوجه الثاني: لا تصلح الأعمال الصالحة للتكفير عن الذنوب عند النصارى لأن في القبول بذلك هدم لمعتقدهم؟.

إن النصارى يزعمون أن البشر جميعًا خطاة بسبب وراثتهم لذنب آدم عليه السلام الذي أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها في الجنة، وأن الإنسان بطبيعته الخاطئة التي ورثها من آدم عليه السلام لا يستطيع القيام بحقوق الله إلا بإيمانه بأن المسيح الإله صُلب كفارةً لخطايا البشر، وبالتالي فإن النصارى يشككون في صلاحية الأعمال الصالحة للتكفير عن الذنوب، وذلك لأن في قبولهم بالأعمال الصالحة وسيلة لتكفير الذنب هدم لأصل معتقدهم الذي هو الإيمان بأن صلب المسيح الإله لنفسه كوسيلة وحيدة لتكفير الذنب.

وحتى لا يصبح الناس مستهترين ومتكلون على الكفارة المجانية، فكل من يعتقد بأن المسيح صُلب فقد غُفر له كل خطاياه، ولذا فإن النصارى (الأرثوذكس) يقولون أنه لكي تحصل على الخلاص الذي تم بصلب المسيح لا بد أن تعمل أعمالًا تتم هذا الخلاص من جهتك من خلال سلطان الكنيسة وممارسة طقوسها السبعة (المعمودية، الشكر، التوبة. . .)، وهم في ذلك يتناقضون، فالخلاص المزعوم بصلب المسيح الإله هل تحقق به غفران الذنوب أم لم يتحقق؟ ، فإذا كان تحقق به غفران الذنوب فما هو فائدة أسرار الكنيسة السبعة، وإذا كان هو موقوف على ممارسة هذه الأسرار فكيف يمكن أن يقول أنه تم الخلاص.

ثانيًا: أن هذا التضخيم لذنب آدم والإدعاء أنه خطية لا محدودة ولا تصلح التوبة كعمل صالح لمحوها، وذلك من أجل الوصول إلى نتيجة أن الخطية اللا محدودة لا يكفرها إلا الغير محدود مثله للوصول أن صلب المسيح هو الحل، وهو وحده الذي يستطيع أن يدفع الثمن عن هذه الخطية.

الوجه الثالث: الأعمال الصالحة أسباب شرعها الله للتكفير عن الذنب وليس ثمنًا للخلاص.

فالمسلمون يرون أن الأعمال الصالحة ليست ثمنًا ولا عوضًا عن الذنب، إنما النجاة بفضل الله ورحمته، وأن هذه الأعمال إنما هي أسباب قدَّرها الله وشرعها للتكفير عن الذنب، فإن الإنسان ضعيف أمام الشهوات، فإذا غلبته شهوته وأغواه الشيطان فإنه يتوب إلى الله

ويستغفره ويعمل صالحًا ليكفِّر عن ذنبه، فنحن إذًا لا نقول بأن الأعمال ثمنًا للخلاص، فإن نعم الله ﷻ على العبد لا تُعد ولا تُحصى، وإن أعمال العبد من توفيق الله، وهي لا توفي شكر هذه النعم فضلًا عن وقوع الذنوب من العبد التي تحتاج لأعمال تكفِّرها، فإن النجاة هي من فضل الله ومنِّه، وتتحقق بطاعته واجتناب نهيه وإخلاص العمل له وحده.

حق الله تعالى على العباد كما يعرِّفه أهل الإسلام: وهذا الحق من أعظم الحقوق وأجلَّها قدرًا، وهو يدور على أصلين:

الأول: عبادته سبحانه.

الثاني: توحيده ﷻ وعد الإشراك به شيئًا، ومعنى حق الله تعالى على العباد ما يستحقه عليهم متحتمًا عليهم[١].

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، فالعبادة هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أي مهملًا، قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى وقال غيره لا يثاب ولا يعاقب والصحيح الأمران فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها وحقيقة العبادة امتثالهما، فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره، وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة[٢].

حق الله على عباده: سأل النبي ﷺ معاذ بن جبل فقال له: هل تدري ما حق الله على عباده؟ ، فقال معاذ: الله ورسوله أعلم، فأجابه النبي ﷺ فقال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

فالحق هو كل موجود متحقق أو ما سيوجد لا محالة، وكذا الحق المستحق على الغير إذا

---

(١) موسوعة الحقوق الإسلامية (١٥).

(٢) مدارك السالكين لابن القيم ١/ ٧٧-٩١.

كان لا تردد فيه والمراد هنا ما يستحقه الله على عباده مما جعله محتمًا عليهم، المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد(١).

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾، فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته وهو سبحانه كما أنه يحب أن يعبد يحب أن يحمد ويثنى عليه ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى، ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه لأنه ينقص هذه المحبة ويجعلها بينه وبين من أشرك به ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به لأن الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة والتسوية فيها بينه وبين غيره ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه، فالعبادة تجمع أصلين عظيمين غاية الحب بغاية الذل والخضوع، وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبته ما أحبه وبذل الجهد في فلعه وموافقته في كراهة ما كرهه وبذل الجهد في تركه(٢).

فالعبادة هي غاية العباد التي خلقوا لها والاستعانة وسيلة إليها، ولذا يقول المسلم في كل صلاة﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾، وأفضل أهل العبادة والاستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته.

وأفضل العبادة هو العمل على تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت فمدار تعبده عليها فهو لا يزال متنقلًا في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره(٣).

حق الله كما يراه النصارى:

إن لفظة حق في العهد الجديد تعني الأمور عينها في تطبيقها على وحي الله في شخص المسيح، فحق الله أو أمانته لمخططه الخلاص ينكشف في يسوع المسيح الذي يسمَّى الحق

---

(١) فتح الباري ١١/ ٣٤٧.

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ١/ ٢٠٠-٢٢٢.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٧٧-٩٦.

لمخططه الخلاص ينكشف في يسوع المسيح (رومية٨/ ٧: ٣) الذي يسمَّى الحق (رومية٣/ ١٤: ٧)، فالسند المتين للمسيحي هو يسوع المسيح هو الإنجيل الذي هو كلمة الحق النهائية، فعلى الإنسان أن يخضع لهذا الحق، القاعدة الوحيدة لحياته ومن ابتعد عن هذا الوحي النهائي أصاب الحق في الصميم، فالله هو الحق وحده تجاه الأصنام الضعيفة الواهية.

فالحق عند يوحنا هو واقع الخلاص، أو الواقع الذي أوحى به الله والذين يشهدون بالحق يؤكدون أن يسوع قال الحق، والأب يتكلم ويعمل حقًا في يسوع، وبما أن يسوع هو وحي الأب الحقيقي فهو النور الحق، ويسوع هو الطريق الذي يقود إلى الأب لأنه الحق، ولأنه يمنح عطية معرفة حياة الله في تجلِّيها السامي[1].

الشبهة الثالثة: أن التوبة ناقصة ولاتصلح لتكفير الذنب.

نص الشبهة:

يقولون إنها لا توجد توبة كاملة للتكفير عن الذنب، وذلك لسببين:

أ-أن الذنب قد يتكرر بالقول والعمل، فلا يكون للتوبة معنى.

ب-أن التوبة لو كانت خالصة فإنها لا تستطيع غفران الخطية إلا بتوفية عدالة الله بالاعتقاد أن المسيح الإله كما يزعمون قام فتجسد وصار إنسانًا، ثم صُلب على الصليب لغفران خطايا البشر.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى التوبة وحقيقتها، والشروط اللازمة لقبولها.

معنى التوبة: هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا.

التوبة النصوح: أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن.

النصح في التوبة: الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها وتمحو جميع الذنوب.[2]

شروط التوبة:

التوبة واجبةٌ من كل ذنبٍ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق

---

(١) المحيط الجامع في الكتاب المقدس (٤٦٨).

(٢) رسالة في التوبة لابن تيمية.

آدمي؛ فلها شروطٍ ثلاثة هي: أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدًا. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعةٌ: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها؛ فإن كانت مالًا أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذفٍ ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته من ذلك الذنب[1].

الوجه الثاني: علامات التوبة المقبولة.

أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها، ومنها أنه لايزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون فهناك يزول الخوف، ومنها انخلاع قلبه وتقطعه ندما وخوفا وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها.

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه وهذا هو تقطعه وهذا حقيقة التوبة لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفا من سوء عاقبته فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد وإنما هي أمر وراء هذا كله تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة قد أحاطت به من جميع جهاته وألقته بين يدي ربه طريحًا خاشعًا[2].

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) رياض الصالحين للنووي صـ ١٧.

(٢) مدارج السالكين ١/ ١٨.

جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾.

وصف الله تعالى المتقين بأنهم ﴿إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ ولم يُصرُّوا عليها، فدلَّ على أنَّ المتقين قد يَقَعُ منهم أحيانًا كبائر وهي الفواحش، وصغائر وهي ظُلمُ النفس، لكنَّهم لا يُصرُّون عليها، بل يذكرون الله عَقِبَ وقوعها، ويستغفرونه ويتوبون إليه منها، والتوبة: هي تركُ الإصرار على الذنبِ.

ومعنى قوله: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: ذكروا عظمته وشِدَّة بطشه وانتقامِه، وما توعد به على المعصية من العقابِ، فيوجب ذلك لهم الرجوعَ في الحال والاستغفارَ وتركَ الإصرار، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾، لما كان العبدُ مأمورًا بالتقوى في السرِّ والعلانية مع أنَّه لابُدَّ أنْ يقع منه أحيانًا تفريط في التقوى، إما بترك بعض المأمورات، أو بارتكاب بعض المحظورات، فأمره أنْ يفعل ما يمحو به هذه السيئة وهو أنْ يتبعها بالحسنة، قال الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾، قال رسول الله ﷺ: "اتَّقِ الله حَيثُما كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"(١).

الوجه الثالث: أن الإنسان ضعيف أمام الذنب، وهو بحاجة دائمة لأن يلجأ إلى الله.

فالإنسان ضعيف بحاجة إلى التوبة والمغفرة، وسبيل النجاة هو الالتجاء لله: قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾، خُلق من ماء مهين لا يصبر على الشهوات، وضعُف عزمه عن قهر الهوى، وأن ضعفه يعم هذا كله، فإنه ضعيف البنية ضعيف القوة ضعيف العلم ضعيف الصبر والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور فبالاضطرار لا بد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه وخلقه على هذه الصفة هو من الأمور التي

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢٥٦).

يحمد عليها الرب سبحانه ويثنى عليه بها وهو موجب حكمته وعزته[١].

فالمذنبين ليس لهم من يلجأون إليه، ويُعوِّلون عليه في مغفرة ذنوبهم غيره، وكذلك قوله في حقِّ الثلاثة الذين خُلِّفوا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فرتَّب توبته عليهم على ظنِّهم أنْ لا ملجأ من الله إلا إليه، فإنَّ العبدَ إذا خاف من مخلوقٍ، هرب منه، وفرَّ إلى غيره، وأمَّا من خاف من الله، فما له منْ ملجأ يلجأُ إليه، ولا مهرب يهربُ إليه إلاَّ هو، فيهرُب منه إليه، كما كان النَّبيُّ ﷺيقول في دعائه: "لا ملجأ ولا مَنجَا منك إلاَّ إليك"[٢].

الوجه الرابع: إن لم يتب الله على الإنسان ويغفر له ذنوبه هلك.

إن الصبر غاية كل أحد من ولد آدم وكماله، فليس للعبد كمال بدون التوبة البتة، فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولا بد، فإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عاملة بالحق عاملة به وإلا خسر والمغفرة تمنع الشر والرحمة توجب الخير والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات وإلا هلك ولا بد إذ عاد كما كان ظالما لنفسه ظلومًا بنفسه فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها وهي متحركة بالذات فإن لم تتحرك للخير تحركت إلى الشر فضرت صاحبها[٣].

فلو أن الرب تعالى خلق خلقه ممنوعين من المعاصي غير قادرين عليها بوجه لم يكن لإرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر والنهى والثواب والعقاب سبب يقتضيه ولا حكمة تستدعيه وفي ذلك تعطل الأمر جملة بل تعطيل الملك والحمد، والتكليف إنما يتم بإعطاء القدرة والاختيار والله تعالى قد أقدر عباده على الطاعات والمعاصي والصلاح والفساد وهذا الأقدار هو مناط الشرع،

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (١٠٠).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢١٧).

(٣) طريق الهجرتين (١٠١).

والأمر والنهي فلولاه لم يكن شرع ولا رسالة ولا ثواب ولا عقاب[١].

والله سبحانه وتعالى إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردا عنه، وكانت البلية في هذا عين النعمة وإن ساءته وكرهها، قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾، وإن لم يرده ذلك البلاء إليه وشرد قلبه عنه ورده إلى الخلق وأنساه ذكر ربه، والرجوع إليه فهو علامة شقاوة العبد وإرادة الشر به[٢].

الوجه الخامس: الأعمال الصالحة لابد من اقترانها بالتوبة النصوح.

فالله تعالى قد بيَّن لنا شرط نفع الأعمال الصالحة في مغفرة الذنوب وهو اقترانها بالتوبة الصحيحة كقوله في حكاية دعاء الملائكة للمؤمنين﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾. [٣]

وختامًا: من خلال ما سبق يعرف القارئ اللبيب أن مسألة الصلب والفداء من الأوهام التي يعيش على أساسها النصارى، بينما هي لا أساس لها من الصحة، وقد ظهر عليها كل علاقة للبطلان والفساد كما بيناه في هذا البحث، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٤٣٠.

(٢) طريق الهجرتين (١٥٢).

(٣) تفسير المنار١/ ٣٠٠.

إثبات التحريف
في
الكتاب المقدس

٤ـ إثبات التحريف في الكتاب المقدس.

نص الشبهة:

إن حقيقة تحريف اليهود والنصارى لأسفارهم، أمر لا يجادل فيه إلا مماحك مجادل بالباطل يخفي الحقيقة ويُلبس على الناس، وقد نطقت ألسنة القوم بالتحريف، واعترف أكابرهم بوقوع التحريف بشتى أنواعه في أسفارهم لكن العجيب: أن ترى بعض أئمتهم يجادلون في هذه الحقيقة المتواترة عند الجميع!

ولذا كان الرد على هذه المسألة الكبيرة تحت هذا البحث والذي يتكون مما يلي:

١- **الباب الأول: المقدمة مع إثبات التحريف اللفظي، والمعنوي للتوراة والإنجيل من القرآن، والسنة، وأقوال العلماء في ذلك.**

٢- **الباب الثاني: الكتاب المقدس**، ويحتوي على فصلين:

الفصل الأول: التعريف بالكتاب المقدس.

الفصل الثاني: معتقد المسلمين في التوراة والإنجيل.

٣- **الباب الثالث: مدى صحة الكتاب المقدس**، ويحتوي على أربعة فصول:

الفصل الأول: إسناد الكتاب المقدس.

الفصل الثاني: إبطال دعوى الإلهام لكتبة العهد الجديد، ويحتوي على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شروط حجية الكتاب المقدس.

المبحث الثاني: إبطال دعوى النبوة لكتبة العهد الجديد.

المبحث الثالث: بولس، حقيقته وأثره في الملة النصرانية.

الفصل الثالث: المصادر الوثنية للكتاب المقدس.

الفصل الرابع: قانونية (قدسية) الكتاب المقدس، ويشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: قانونية التوراة.

المبحث الثاني: قانونية العهد الجديد.

المبحث الثالث: الأسفار غير القانونية (الأبوكريفا).

المبحث الرابع: إنجيل المسيح عليه السلام.

المبحث الخامس: إنجيل برنابا.

المبحث الخامس: المجامع

٤ـ الباب الرابع: **نقد متن الكتاب المقدس**، ويشتمل على عدة فصول:

الفصل الأول: الألفاظ غير المناسبة لقدسية الكتاب، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: صفات الله تعالى في التوراة.

المبحث الثاني: صفات الأنبياء في التوراة.

المبحث الثالث: الأخلاق في الكتاب المقدس وأثره على أتباعه.

الفصل الثاني: أغلاط الكتاب المقدس.

الفصل الثالث: التحريف في الكتاب المقدس.

الفصل الرابع: تناقضات الكتاب المقدس.

الفصل الخامس: اختلافات تراجم الكتاب المقدس.

الفصل السادس: الكتاب المقدس والعلم الحديث، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: موقف النصارى من العلم اعتقادًا وتشريعًا.

المبحث الثاني: دراسة نصوص الكتاب المقدس في ضوء العلم الحديث.

المبحث الثالث: موقف المفسرين النصارى من الأخطاء في نصوص الكتاب المقدس.

٥ـ الباب الخامس: **متفرقات تتعلق بالعقيدة النصرانية**، ويتكون من الآتي:

الفصل الأول: الأسرار الكنسية السبعة.

الفصل الثاني: العبادات

الفصل الثالث: الطوائف النصرانية والخلاف بينها في العقيدة والكتاب.

وإليك التفصيل

الباب الأول: المقدمة مع أدلة إثبات التحريف اللفظي والمعنوي للتوراة والإنجيل من القرآن، والسنة، وأقوال العلماء في ذلك.

بداية: ننبه على بعض الأمور في هذا الصدد:

الأمر الأول: لقد شهد القرآن الكريم، وشهدت السنة المطهرة على وقوع التحريف في أسفار السابقين بتغيير الألفاظ بالحذف والإضافة كقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة: ٧٩). وبتغيير المعاني بتأويلها وتفسيرها على غير معناها.

الأمر الثاني: لقد كثر كلام النصارى حول صحة نسخة التوراة والإنجيل التي كانت إبان البعثة النبوية لمحمد ﷺ. والنصارى يقصدون من وراء ذلك: إقرار الإسلام لهم على صحة دينهم كله لا صحة كتبهم فقط. لكن اعلم أيها القارئ أن ثمة فرقٌ بين صحة الدين وصحة الكتب. فقد يكون الكتاب صحيح اللفظ لكن محرف المعنى، فلا يغني عنهم من الله شيئـًا. ولذلك كان الأولى عندنا في هذا المقام هو تحريف المعاني لا تحريف الألفاظ، لأنه الخطوة الأولى المؤهلة لتحريف الألفاظ، وهو الدليل على بطلان الدين، ولذلك كان أكثر ما عاب القرآن الكريم على أهل الكتاب أنهم حرفوا المعاني وبدلوها، ثم تبع ذلك تجرؤهم على تحريف الألفاظ لما سهل عليهم تحريف المعنى كخطوة أولى.

الأمر الثالث: إن تحريف أهل الكتاب لمعاني التوراة والإنجيل لا خلاف عليه بين علماء المسلمين. وهو الذي تقوم به الحجة عليهم في هذا المقام. ولا ينفعهم عدم تحريف اللفظ لو فرضنا ذلك.

قال ابن تيمية: فأما تحريف معاني الكتب بالتفسير والتأويل وتبديل أحكامها، فجميع المسلمين واليهود والنصارى يشهدون عليهم بتحريفها وتبديلها، كما يشهدون هم والمسلمون على اليهود بتحريف كثير من معاني التوراة وتبديل أحكامها، وإن كانوا هم واليهود يقولون: إن التوراة لم تحرف ألفاظها. وحينئذ فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها، إلا كما ينفع اليهود بقاء حروف التوراة والنبوات عندهم مع تحريف معانيها. بل جميع النبوات التي يقرون بها هي عند اليهود، وهم مع اليهود ينفون

عنها التهم والتبديل لألفاظها، مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفرًا واستحقاقًا لعذاب الله في الدنيا والآخرة. . . فعُلم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتباع معانيها وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابها ولا يمنع كفرهم.[١]

وقال رحمه الله: فإن كل ما يحتج به من الألفاظ المنقولة عن الأنبياء، أنبياء بني إسرائيل وغيرهم، ممن أرسل بغير اللغة العربية لابد في الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدمات أن يعلم اللفظ الذي قاله ويعلم ترجمته ويعلم مراده بذلك اللفظ. والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على وقوع الغلط تفسير بعض الألفاظ وبيان مراد الأنبياء بها، وفي ترجمة بعضها فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة وبينها فروق يختلف بها المعنى المفهوم، وكذلك في الإنجيل وغيره.[٢]

الأمر الرابع: التحريف اللفظي أعم وأعظم في كتب اليهود والنصارى، وقد أشار إليه القرآن الكريم والنبي ﷺ والصحابة ﷺ، وقد شهد به الواقع، ونطق به اليهود والنصارى، وقال به جمهور المسلمين.

أما ما يستدل به النصارى من أقوال بعض علماء الإسلام أن التحريف وقع في المعنى فقط لا في اللفظ، فهو استدلال ساقط لعدة أسباب:

السبب الأول: أنهم نقلوا عن بعض علماء الإسلام ذلك، دون أن ينقلوا عنهم إقرارهم وقوع التحريف اللفظي في أسفار اليهود والنصارى.

السبب الثاني: يتعمد النصارى دائمًا تحريف أقوال علماء الإسلام، فأغلب من أقر بوقوع التحريف المعنوي، أقر في غير موضع في مؤلفاته بوقوع التحريف اللفظي، لكن هؤلاء النصارى نقلوا عنهم ما يتماشى مع أفكارهم المنحرفة.

السبب الثالث: اليهود والنصارى ينعدم في أسفارهم التواتر.

---

(١) الجواب الصحيح ٢/ ٣٨٠ - ٣٨١.

(٢) الجواب الصحيح ٢/ ٣٨٨.

الأمر الخامس: إذا اتفقت الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع على حكم، وجب إثباته، وتحريف ألفاظ أسفار أهل الكتاب نطق به القرآن الكريم والسنة النبوية وهو الراجح في المسألة، لوجود مرجحات عدة، أبرزها الكتاب والسنة، وما أكده الواقع وشهد به على مر العصور، فلا يعتد بمن قال خلاف ذلك، فالتحريف اللفظي والمعنوي واقع ولا شك في هذا كما سيأتي!

الأمر السادس: أنه على فرض أن الكتب السابقة لم تمسها أيدي المحرفين، فلا حجة للنصارى في ذلك، لأن عندنا التمسك بكتاب منسوخ ولو كان صحيحًا، كالتمسك بكتاب مبدل محرف.

ثانيًا: أدلة إثبات التحريف اللفظي والمعنوي للتوراة والإنجيل من القرآن، والسنة، وأقوال العلماء في ذلك.

أولًا: إثبات التحريف من القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم عن تحريف التوراة والإنجيل في عدة آيات كريمة:

١- منها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ (آل عمران: ٧١).

٢- وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾(النساء: ٤٦).

٣- وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (البقرة: ٧٥).

وعن تحريفهم بالنقص يقول:

﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ (الأنعام: ٩١)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ (البقرة: ١٧٤)، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (المائدة: ١٥).

وعن تحريفهم بالزيادة والكذب على الله يقول:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ

مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(المائدة: ١٣).

قال الطبري: وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهودنا من بني إسرائيل قاسية، منزوعًا منها الخير، مرفوعًا منها التوفيق، فلا يؤمنون ولا يهتدون، فهم لنزع الله ﷻ التوفيق من قلوبهم والإيمان، يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى ﷺ، وهو التوراة، فيبدلونه، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله ﷻ على نبيهم، ثم يقولون لجهال الناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى ﷺ، والتوراة التي أوحاها إليه. وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود، ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد ﷺ، ولكن الله عز ذكره أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدرك موسى منهم، إذ كانوا من أبنائهم، وعلى منهاجهم في الكذب على الله، والفرية عليه، ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة.[1]

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: ٤١).

يقول الرازي مبينًا إعجاز القرآن الكريم في هذا الباب: قوله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ إشارة إلى أن أهل الكتاب يذكرون التأويلات الفاسدة للنصوص التي عندهم وليس فيه بيان أنهم يخرجون اللفظة من الكتاب، أما في الآية الثانية فقوله تعالى

(١) تفسير الطبري ٤/ ٤٩٦.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ فهي دالة على أنهم جمعوا بين الأمرين فكانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يخرجون اللفظة من الكتاب[١].

- وقال تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ (البقرة: ٧٩).

قال مجاهد رحمه الله: "هؤلاء الذين عرفوا أنه من عند الله، ثم يحرفونه". [٢]

وهم أهل الكتاب كما علمت مسبقًا من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال الشوكاني في تفسيره لنفس الآية السابقة: والكتابة معروفة، والمراد: أنهم يكتبون الكتاب المحرف ولا يبينون ولا ينكرونه على فاعله. وقوله: "بأيديهم" تأكيد لأن الكتابة لا تكون إلا باليد فهو مثل قوله: ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾، وقوله "يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم" وقال ابن سراج: هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم. وفيه أنه قد دل على أنه من تلقائهم قوله: "يكتبون الكتاب" فإسناد الكتابة إليهم يفيد ذلك. [٣]

ثانيًا: أدلة التحريف من السنة النبوية.

١- حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ (ما تجدون في التوراة في شأن الرجم). فقالوا نفضحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. [٤]

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: (كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٠/ ١١٨.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٢٣.

(٣) فتح القدير ١/ ١٠٥.

(٤) رواه البخاري (٣٤٣٦) باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم (١٦٩٩).

وقولوا (قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) ...الآية ". (١)

٣- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: " أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ على النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ فَقَالَ: أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِي". (٢)

وفي هذا الحديث الترياق الشافي عما يسأل عنه كثير من النصارى – كيف يكون الكتاب المقدس محرفًا ويستشهد به القرآن الكريم - فيظهر منه أنه ﷺ غضب من عمر رضي الله عنه لاطلاعه على صحيفة من التوراة، وهذا يدل على أنها محرفة، لأنه ﷺ يؤمن بتوراة موسى ويعظمها كما أمرنا الله في كتابه الحكيم، فلا معنى للغضب إلا لأنها قد حرفت، إذ لو كانت صحيحة ما انتهر النبي ﷺ عمر الذي كان يعلم أنها محرفة كما أشار القرآن الكريم، لكنه ظن رضي الله عنه أن الإطلاع عليها دون سبب شرعي جائز، وقوله ﷺ عن شريعته أنها بيضاء نقية، يفيد العكس في صحيفة التوراة، بمعنى: لقد جئتكم بالشريعة النقية البيضاء الخالية من أوساخ التحريف والتزييف، فدع عنك يا عمر هذه الصحيفة الملوثة بالتحريف.

أما قوله ﷺ: " لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي" يدل على براءة موسى وكذلك عيسى عليهما السلام من هذه الكتب وهذه الشرائع، واتباعهما لشريعة محمد ﷺ والقرآن الكريم، فإن ما في الكتب السابقة من خير موجود في القرآن الكريم، ففي القرآن الكريم ما يغني عن كل هذه الكتب لقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾(آل عمران: ٣).

٤- عن عبيد الله بن عبد الله: أن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث تقرؤونه محضًا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو

(١) رواه البخاري (٤٢١٥).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧)، وحسنه الألباني بشواهده في إرواء الغليل (١٥٨٩).

من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا، والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم. [١]

فهذه من أعظم شهادات كبار الصحابة، لصدروها عن حبر هذه الأمة بتحريف اليهود والنصارى لأسفارهم. وقوله ﷺ: (تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ). قال الحافظ في الفتح: " أي لم يخالطه غيره ". وهى إشارة جلية من ابن عباس ﷺعلى أن كتب أهل الكتاب قد اختلطت بالتحريف والكذب، فلم تُصبح نقية، أما القرآن فلم يخالطه غيره.

قال الحافظ: " قوله (أَفَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ وَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ) فيه تأكيد الخبر بالقسم، وكأنه يقول: لا يسألونكم عن شيء مع علمهم بأن كتابكم لا تحريف فيه، فكيف تسألونهم وقد علمتم أن كتابهم محرف ". [٢]

٥- عن أنس بن مالك ﷺ: (أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى)[٣].

وكان هذا في وجود معظم الصحابة ﷺ، مما يعني علمهم اليقيني مما استاقوه من كلام ربهم وفهمهم لسنة نبيهم ﷺبأن اليهود والنصارى قد حرفوا أسفارهم فاختلفوا من بعد ذلك يكفر بعضهم بعضًا.

٦- وعن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كانت ملوك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة). [٤]

ثالثا: أقوال العلماء في التحريف

١- قال العلامة ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ

---

(١) رواه البخاري (٦٩٢٩).

(٢) فتح الباري ١٣/ ٤٩٩.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٠٤).

(٤) رواه النسائي (٥٤٠٠)، وإسناده صحيح.

ﵟٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَﵞ (يونس: ٩٤) (وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى: ﵟٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِﵞ (الأعراف: ١٥٧). ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبنائهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم). [١]

وقال رحمه الله: (وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه (أي عن المسيح) أربعة: لوقا ومتَّى ومرقس ويوحنا، وبين الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة لكل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى. . . . . وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل)[٢].

٢- **قال الإمام القرطبي الأندلسي** ما نصه: (إن الكتاب الذي بأيدي النصارى الذي يسمونه بالإنجيل ليس هو الإنجيل الذي قال الله فيه على لسان رسوله ﷺ: ﵟوَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِﵞ(آل عمران: ٣-٤)[٣].

وقال أيضًا: (فظهر من هذا البحث أن الإنجيل المدعى لم ينقل تواترًا، ولم يقم دليل على عصمة ناقليه. فإذًا يجوز الغلط والسهو على ناقليه فلا يحصل العلم بشيء منه، ولا غلبة الظن، فلا يلتفت إليه، ولا يعول في الاحتجاج عليه. وهذا كاف في رده وبيان قبول تحريفه وعدم الثقة بمضمونه. ولكنا مع ذلك نعمد منه إلى مواضع يتبين فيها تهافت نقلته ووقوع الغلط في نقله)[٤] ثم نقل المواضع المذكورة ثم قال: (فقد حصل من هذا البحث

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٥.

(٢) قصص الأنبياء صـ ٥٧٣- ٥٧٤.

(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام صـ ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق صـ ٢٠٥ – ٢٠٦.

الصحيح أن التوراة والإنجيل لا يحصل الثقة بهما، فلا يصح الاستدلال بهما لكونهما غير متواترين وقابلين للتغير. وقد دللنا على بعض ما وقع فيهما من ذلك. وإذا جاز مثل ذلك في هذين الكتابين، مع كونهما أشهر ما عندهم وأعظم عمدهم ومستند ديانتهم فما ظنك بغير ذلك من سائر الكتب التي يستدلون بها مما ليس مشهورًا مثلهما ولا منسوبًا إلى الله نسبتهما؟ فعلى هذا هو أولى بعدم التواتر وبقبول التحريف منهما)[1].

٣- **قال العلامة " أبو عبيدة الخزرجي** " في رسالته إلى القسيس " حنا مقار العيسوي " بعد أن بيَّن له تضارب الأناجيل وما اشتملت عليه من تناقض: (وأقتصر على هذا من تهافت أناجيلكم، وما اشتملت عليه من الزلل والأباطيل. ومن طالع كتبكم (يعني كتب العهد القديم)، وأناجيلكم وجد فيها من العجائب ما يقضي له بأن شرائعكم وأحكامكم ونقولكم قد تفرقت تفرق أهل سبأ، وأنكم لا تلزمون مذهبًا، وليس هذا بغريب فأناجيلكم ما هي إلا حكايات، وتواريخ، وكلام كهنة، وتلاميذ وغيرهم حتى أني أحلف بالله الذي لا إله إلا هو، أن تاريخ الطبري عندنا أصح نقلًا من الإنجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر، مع أن التاريخ عندنا لا يجوز أن ينبني عليه شيء من أمر الدين، وإنما هو فكاهات في المجالس). [2]

٤- **قال شهاب الدين القرافي المالكي** في شأن توراة العهد القديم: (نقول: التوراة مبدلة قطعًا، لما تقدم بيانه مما اشتملت عليه من نسبة الأنبياء عليهم السلام وخاصة عباد الله إلى الفسوق والزنا وشرب الخمر، وما يصدر من أدنى السفلة، حتى أنهم يسمون هذه الحكايات النجاسات، مع قيام الأدلة على عصمة الأنبياء، فيحصل الجزم بعدم صحة هذه التوراة). [3]

وقال في شأن الأناجيل: (ونحن ننازعهم في أن ما بين أيديهم – من الكتب – منزلة، بل هي مبدلة مغيرة في غاية الوهن والضعف، وسقم الحفظ والرواية والسند بحيث لا

---

(١) المصدر السابق صـ ٢١١ – ٢١٢.

(٢) بين الإسلام والمسيحية صـ ١٤٩.

(٣) الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة صـ ١٦٤.

يوثق بشيء منها)[١].

٥ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ادعوا (أي النصارى) أن محمدًا ﷺ صدَّق بجميع ألفاظ الكتب التي عندهم. فجمهور المسلمين يمنعون هذا، ويقولون: إن بعض ألفاظها بُدِّل كما قد بُدِّل كثير من معانيها)[٢].

٦ـ قال ابن القيم: وقولهم " إن نسخ التوراة متفقة في شرق الأرض ومغاربها " كذب ظاهر، فهذه التوراة التي بأيدي النصارى تخالف التوراة التي بأيدي اليهود، والتي بأيدي السامرة تخالف هذه وهذه، وهذه نسخ الأناجيل يخالف بعضها بعضًا ويناقضه. فدعواهم: أن نسخ التوراة والإنجيل متفقة شرقا وغربًا من البهت والكذب الذي يروجونه على أشباه الأنعام، وأن هذه التوراة التي بأيدي اليهود فيها من الزيادة والتحريف والنقصان ما لا يخفى على الراسخين في العلم، وهم يعلمون قطعًا أن ذلك ليس في التوراة التي أنزلها الله على موسى، وأن هذه الأناجيل التي بأيدي النصارى فيها من الزيادة والتحريف والنقصان ما لا يخفى على الراسخين في العلم، وهم يعلمون قطعًا أن ذلك ليس في الإنجيل الذي أنزله الله على المسيح)[٣]

وقد بيَّنَ أنواع التحريف الواقع في أسفار أهل الكتاب بشتى أنواعه (اللفظي والمعنوي

٧ـ يقول اللواء/أحمد عبد الوهاب رحمه الله: لم تعد أسفار المسيحيين الدينية كتابًا مقدسًا، فهذا هو واقع الحال الآن. فبعد أن كانت طبعات تلك الأسفار تصدر معنونة باسم: " الكتاب المقدس "، إذ بها تصدر الآن وقد جردت من القداسة فصار عنوانها: " الكتاب "!

فمثلًا صدرت ترجمة الملك جيمس الإنجليزية، التي اعتمدت عام ١٦١١م هكذا: الكتاب المقدس THE HOLY BIBLE

ولكن صدرت الترجمة الإنجليزية التي شارك فيها اثنان وثلاثون عالمًا في منتصف هذا

---

(١) المصدر السابق صـ ٣٢.

(٢) الجواب الصحيح ٢/ ٤٠٧.

(٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى صـ ١١٢.

القرن (١٩٥٢م) بعنوان:

الكتاب: ترجمة قياسية مراجعة THE BIBLE: Revisd Standard Version وحدث مثل ذلك في التراجم الفرنسية، فبعد أن صدرت تحت اسم:

الكتاب المقدس LA SAINTE BIBLE إذًا بالتراجم اللاحقة تصدر هكذا: الكتاب الأورشليمي LA BIBLE de JERUSALEM

وكذلك: الترجمة المسكونية للكتاب TRADUCTION OECUMENIQU de LA BIBLe ومثل ذلك في اللغة الألمانية، فبعد أن كان العنوان هو: الكتاب المقدس DIE HEILIGE BIBLE، وصار الآن: الكتاب DIE BIBLE

(وفي العربية بعد أن كان التقليد المعروف في تسمية الأسفار الدينية بـ"الكتاب المقدس " صدرت العديد من الترجمات الحديثة فجردت الأسفار من القداسة واكتفت بذكر " الكتاب "، وأذكر منها ترجمة " كتاب الحياة ").

إن السبب في هذا التغيير الهام لعنوان الأسفار الدينية واضح ومعروف لدى العلماء، وهو أن هذا "الكتاب" يحتوي في جملته، أسفارًا مؤلفة بكل معنى الكلمة. وهى ككل مؤلفات البشر لا عاصم لها من الخطأ.

والحق أن إطلاق اسم "الكتاب" فقط على أسفارهم الدينية، بعد تجريده من صفة المقدس لهو آية من آيات الله. فهذا ما خاطبهم به القرآن منذ ١٤ قرنًا في مثل قوله: " يَا أَهْلَ الْكِتَاب " ولم يقل لهم أبدًا: " يا أهل الكتاب المقدس ". . . وها هم قد عادوا مُسلِّمين بتسمية القرآن العظيم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٥٢)[1].

---

(١) البرهان المبين في تحريف أسفار السابقين صـ ٤٩، ٥٠.

الباب الثاني: الكتاب المقدس.

الفصل الأول: التعريف بالكتاب المقدس.

وقبل أن نبدأ في الحديث التفصيلي عن الكتاب المقدس نحب أن نعطي نبذة مختصرة عن الكتاب المقدس وعن مكوناته؛ ليكون القارئ على بينة مما نتحدث عنه.

يتكون الكتاب المقدس من قسمين:

العهد القديم والعهد الجديد، وسنتكلم عن كل واحد على حدة.

أولًا: العهد القديم :

١ـ موضوعه:

العهد الذي عاهد الله شعبه على يد موسى في جبل سيناء، ويزعم النصارى أن هذا القسم وصل إليهم بوساطة الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح ﷺ، ويعرفون منه أخبار العالم في عصوره القديمة وشرائع اليهود الدينية والاجتماعية، وتاريخ نشأتهم، وحكوماتهم وحوادثهم، والنبوات السابقة منذ هبوط الإنسان على هذه الأرض ويقتبسون منه الأدعية المتوارثة والمواعظ والشعر والحكمة وغير ذلك، كما يعرفون منه البشارات بالأنبياء اللاحقين. [١]

٢ـ أسفاره:

اختلف أهل الكتاب في أسفار العهد القديم، قبولًا وردًا في بعضها، وتقسيمًا وترتيبًا وتسمية في بعض آخر:

أولًا: فاليهود العبرانيون اعتمدوا أربعة وعشرين سفرًا، اعتقدوا أنها مقدسة – أي موحى بها – وهم يقسمونها من حيث الأسلوب والصفات الخارجية إلى ثلاثة أقسام:

١-أسفار الشريعة، أو كتب موسى الخمسة، وتسمى التوراة أو الناموس وهي: (سفر التكوين – الخروج – اللاويين – العدد – التثنية).

٢-أسفار الأنبياء، وينقسم إلى قسمين:

(أ)الأنبياء السابقين، ويتكون من أسفار: يشوع القضاة – صموئيل (الأول والثاني) –

---

(١) محاضرات في النصرانية (٤٣).

الملوك (الأول والثاني).

(ب) الأنبياء المتأخرين، ويتكون من أسفار: أشعياء – أرمياء – حزقيال – الاثنى عشر نبيا الأصاغر (هوشع – يوئيل – عاموس – عوبديا – يونان – ميخا – ناحوم – حبقوق – صفنيا – حجي – زكريا – ملاخي).

٣-أسفار الكتبة أو الكتب، وتتألف من أسفار:

(أ) المزامير – الأمثال – أيوب.

(ب) راعوث – نشيد الأنشاد – الجامعة – مراثي أرمياء – أستير.

(ج) دانيال – عزرا – نحميا – أخبار الأيام (الأول والثاني).

ثانيًا: واليهود السامريون لهم توراة خاصة بهم، تعرف بالتوراة السامرية، وهي لا تحتوي إلا على الأسفار الخمسة، لأنهم يبطلون كل نبوة في بني إسرائيل بعد موسى ويوشع، ويتهمون العبرانيين بالوضع والتحريف، وبعض السامريين يضيف إليها سفرى يوشع والقضاة. ويرون في هذه السبعة كتابهم المقدس.

٣- والنصارى البروتستانت اعتمدوا الأسفار المعترف بها لدى اليهود، غير أنهم يختلفون معهم في التقسيم والترتيب.

فاليهود جعلوها أربعة وعشرين سفرًا، والبروتستانت وزعوها بحسب الأسماء، فأصبحت تسعة وثلاثين سفرًا.

٤- أما الكاثوليك والأرثوذكس، فقد أضافوا إليها سبعة أخرى، فغدت ستة وأربعين سفرا. وهم يختلفون مع البروتستانت في تقسيم وترتيب وتسمية بعض الأسفار. وثمة سفر آخر منسوب إلى عزرا لا يعترف به الكاثوليك والبروتستانت، ويراه الأرثوذكس واجب التسليم.

ثانيًا: العهد الجديد:

١ـ تعريف لفظ الإنـجيل:

يطلق هذا اللفظ على الإنجيل وملحقاته، وكلمة إنجيل كلمة يونانية معناها (الحلوان) وهو ما تعطيه لمن أتاك بالبشرى، ثم أريد بالكلمة البشرى عينها، أما السيد المسيح فقد

استعملها بمعنى (بشرى الخلاص) التي حملها إلى البشر، واستعملها الرسل من بعده بالمعنى نفسه، وربما استعملوها أيضًا بمعنى ملخص تعاليم المسيح لأن فيه الخلاص.

وما لبثت هذه الكلمة أن استعملت بمعنى الكتاب الذي يتضمن هذه البشرى وقد غلب استعمالها بهذا المعنى منذ أواخر القرن الأول حتى اليوم.

ويزعم النصارى أن هذا القسم كتب بإلهام الروح القدس الذي حل في التلاميذ بعد رفع المسيح عليه السلام.

وقد استقر رأيهم في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي على اعتماد سبعة وعشرين سفرًا من الأسفار التي اختلفوا فيها، وأطلقوا عليها اسم (العهد الجديد) ويعتقدون أن الوحي إنما هو في معانيها دون ألفاظها.

٢ـ أقسامه:

ينقسم العهد الجديد من حيث الترتيب التقليدي لأسفاره إلى خمسة أقسام هي:

١-مجموعة الأناجيل: وهي أهم المجموعات في نظرهم، لأنها تروى سيرة المسيح عليه السلام وتعاليمه.

٢-سفر الأعمال: وهو منسوب إلى لوقا.

٣-مجموعة رسائل بولس: وعددها أربع عشرة رسالة. وهي:

رسالتان إلى أهل تسالونيكي سنة ٥٤.

رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس سنة ٥٥.

رسالته إلى أهل روما سنة ٥٦ أو ٥٧.

رسالته إلى أهل أفسس وفيلبي وكولوسي سنة ٦١ أو ٦٣.

ثم رسالته إلى أهل غلاطية، ورسالتان إلى تلميذه تيموثاوس، ورسالة إلى تيطس ورسالة إلى فيليمون، ورسالة إلى العبرانيين، ورسالته الثانية إلى أهل كورنثوس.

٤-مجموعة الرسائل الكاثوليكية: وعددها سبع، و هي:

ثلاث رسائل من كتابة يوحنا.

رسالتان من كتابة بطرس.

رسالة واحدة من كتابة يعقوب.

رسالة واحدة من كتابة يهوذا.

ومن هنا يتضح أن أكثر الرسائل هي رسائل بولس، ويتضح بالتالي أن بولس وضع أكثر التشاريع المسيحية.

٥-رؤيا يوحنا اللاهوتي، أو السفر النبوي. وتسمى رؤيا لأنها أشبه بالأحلام ولكن يوحنا رآها في اليقظة. ويحاول فيها يوحنا أن يظهر سلطان المسيح بعد رفعه وصلته بالكنائس.(١)

ترجمات الكتاب المقدس

من المعروف أن اللغة التي كتبت بها أسفار العهد الجديد هي اللغة اليونانية، المعروفة باللغة الإسكندرانية. والتي كانت منتشرة في الشرق منذ انتصارات الإسكندر، وهي ذات اللغة التي استعملت في الترجمة السبعينية لأسفار العهد القديم، إلا أن بعض فصوله كانت مكتوبة بالآرامية التي كان يتكلمها السيد المسيح. وقد عرف الكتاب المقدس ترجمات كثيرة من بينها:

أولًا: التراجم القديمة

١ـ الترجمة السبعينية:

من الترجمات القديمة التي نعرفها عن الكتاب المقدس (أسفار العهد القديم) الترجمة المعروفة بـ "السبعينية". وقد تمت هذه، في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد. وقد استخدمت لمنفعة أهل العهد القديم القاطنين خارج أرض فلسطين، حول حوض البحر الأبيض المتوسط والذين كانوا يتكلمون اليونانية، كما أن هذه الترجمة كانت معروفة في العصر الرسولي. ويؤكد بعض اللاهوتيين بأن الرسل والمبشرين قد استعملوها.

٢ـ الترجمة الباشيطا.

إن أقدم الكنائس التي تشكلت في الشرق العربي، هي الكنيسة السريانية، وقد وجد أبناء

---

(١) انظر: الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، عبد الوهاب عبد السلام طويلة (٥٨ – ٦١)، المسيحية، أحمد شلبي (٢٠٤ – ٢٠٧) بتصرف، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (١٣- ١٤)، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، علي وافي (١٢- ١٥).

الكنيسة هذه، ضرورة ترجمة الكتاب المقدس إلى لغتهم الخاصة. ومما عثر عليه ترجمات عديدة بهذه اللغة، ومن أشهرها ترجمة تدعى "الباشيطا" وتعني هذه الكلمة "بسيطة"، ويؤكد علماء الكتاب المقدس على أنها ترجمت في أواخر القرن الأول أو في بداية القرن الثاني للميلاد.

٣ـ نسخة فيلكس السريانية

ترجمت هذه النسخة سنة(٥٠٨) للميلاد. وقد وجدت ترجمات أخرى بالسريانية بقى منها نسختان أصليتان وهما نسخة الكارتونية والسينائية.

٤ـ الترجمة إلى سريانية فلسطين (الآرامية)

اكتشفت حديثًا قطع من ترجمة العهد الجديد من اليونانية إلى سريانية فلسطين التي كانت في عهد المسيح، كتبت هذه الترجمة في القرن الرابع للميلاد.

٥ـ نسخة كليماكوس

تشتمل هذه النسخة على أجزاء من البشائر الأربعة (الإنجيل) وسفر أعمال الرسل ورسائل بولس الرسول، تمت هذه حوالي سنة ٦٠٠ للميلاد.

٦ـ الترجمة القبطية:

تشير الوثائق التاريخية، إلى أن أهل مصر كانوا يقرأون الكتاب المقدس باللغة القبطية قبل النصف الأول من القرن الثالث بعد الميلاد. واللغة القبطية هي مركبة من اللغة المصرية القديمة واللغة اليونانية ويعتقد أن العهد القديم ترجم إليها من الترجمة السبعينية في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد.

هذا قليل القليل مما نعرفه عن الترجمات القديمة لهذا الكتاب. ومما لاشك فيه، أنه توجد ترجمات عديدة للكتاب المقدس لم يحدد بعد تاريخ ترجمتها. والدراسات لا تزال قائمة حول هذا الموضوع.

ثانيًا: الترجمات الحديثة.

١ـترجمة فانדايك – البستاني ١٨٦٥:

في عام ١٨٦٥ م بيروت. قام بطرس البستاني والمرسلان الإنجيليان عالي سميث وكرنيليوس فانديك بترجمة الكتاب المقدس إلى العربية وهذب عباراته وقواعده النحوية

ناصيف اليازجيُ ويوسف الأسير. وقد أصبحت هذه الترجمة من أشهر الترجمات العربية للكتاب المقدس وأوسعها انتشارًا في البلدان التى تتكلم العربية.

٢ـ ترجمة دار الكتاب المقدس بمصر ـ فاندايك الجديدة

الكتاب المقدس طبعة دار الكتاب المقدس - مصر باللغة العربية بالترتيب الجديد - عمودين في الصفحة الواحدة.

٣ـ ترجمة جمعية الكتاب المقدس في لبنان ـ ترجمة الأخبار السارة

ترجمة الكتاب المقدس لجمعية الكتاب المقدس في لبنان إصدار دار الكتاب المقدس للنشر في الشرق الأوسط. وهي ترجمة لجنة من اللاهوتيين العرب من كاثوليك وأرثوذكس و بروتستانت. صاغ أسلوبها العربي الشاعر يوسف الخال. أول ترجمة عربية وضعتها لجنة من علماء لاهوتيين تنتمي إلي مختلف الطوائف المسيحية من إنجيلية وكاثوليكية.

٤ـ الترجمة العربية المشتركة لدار الكتاب المقدس الدولية ـ الترجمة التفسيرية كتاب الحياة

أو الترجمة التفسيرية (كتاب الحياة): تهدف هذه الترجمة لتبسيط المعنى وإيضاحه. وقد صدر العهد الجديد عام ١٩٨٢، ثم صدر الكتاب المقدس كاملًا عام١٩٨٨ . وهي ترجمة جيدة إلى حد كبير.

وفي آخر ترجمة للكتاب المقدس الترجمة العربية المشتركة لدار الكتاب المقدس ووضعتها لجنة مؤلفة من علماء كتابين ولاهوتيين من مختلف الكنائس كاثوليكية وأرثوذكسية "طقسية" وإنجيلية وهذه الترجمة لا تذكر الأسفار القانونية الثانية أو الأبوكريفا. فهي تعد كتبًا تاريخية. وحتى الكتاب المقدس الذي يحوي هذه الأسفار يشار إليها بين قوسين "سفر قانوني ثاني" فالإجماع واضح على أنها أي هذه الأسفار لا ترقى من جهة وحيها إلى مستوى الأسفار القانونية التي يقر بها جميع المسيحيين على مختلف مذاهبهم. . وهذه الأسفار تعود إلى قبل التاريخ الذي ذكرته٣٩٣ م فهذا تاريخ متأخر جدًا لأن إقرار قانونية الأسفار كان في سنة ٩٠م.

٥ـ الترجمة العربية المبسطة:

المخطوطات الشهيرة للكتاب المقدس.

وفيما يلي عرض سريع لأهم مخطوطات الكتاب المقدس:

١ـ النسخة الفاتيكانية: (كودكس فاتيكانس):

سميت بهذا الاسم لأنها كانت ملك مكتبة الفاتيكان بروما وعندما اجتاحت جيوش نابليون إيطاليا، نقلت النسخة إلى باريس. وقام بدراستها أحد العلماء، من عام ١٨٠٩ حتى سنة ١٨١٥. وتتألف هذه النسخة من ٨٢٠ صحيفة، ويرجّح الخبراء بأنها كتبت في تاريخ يتعدى منتصف القرن الرابع للميلاد.

٢ـ النسخة السينائية:

اكتشفت هذه النسخة في دير سانت كاترين المقام على سفح جبل سيناء على يد عالم ألماني يدعى "قسطنطين تشندرف" حين قام بزيارة الدير سنة ١٨٤٢ بحثًا عن هذه النسخة الأثرية. فوجد ٤٥ رقًا تحوي بعض أجزاء من الأسفار المقدسة. وفي عام ١٨٥٣ وعام ١٨٥٩ عاد ليبحث عن الأجزاء الناقصة منها. فقدم له أحد الرهبان لفة ضخمة وجدها تحتوي على العهد الجديد بأكمله، وأجزاء من العهد القديم. فاشترى الكل بمبلغ ٦٧٥٠ دولارًا ونقلها إلى بتروغراد. ولما قامت الثورة الشيوعية، عرضت النسخة للبيع. فاشتراها المتحف البريطاني بمبلغ نصف مليون دولار.

والنسخة السينائية الأصلية يرجح أن عدد صفحاتها كان ٧٣٠ صفحة أحرق الرهبان بسبب جهلهم منها ٣٤٠ صفحة ولم يبق الآن سوى ٣٩٠ صفحة. ويقول العلماء بأنها كتبت في القرن الرابع أو في بداية القرن الخامس للميلاد.

٣ـ النسخة الإسكندرانية:

كانت تحوي هذه النسخة على ٨٢٠ صفحة بقي منها ٧٧٣ صفحة، وقد كتبت فيما بين نصف القرن الخامس ونهايته. وهي موجودة في متحف لندن.

٤ـ نسخة أفرايم:

كتبت في القرن الخامس وقد صنفها أفرايم السرياني الذي عاش في القرن الرابع للميلاد، وكانت هذه النسخة ملك عائلة مديتشي في فلورنسا، ونقلتها كاثرين دي مديتشي إلى باريس في القرن السادس عشر وهي اليوم في المتحف الفرنسي بباريس.

٥ـ النسخة القطونية: كتبت هذه النسخة في القرن الخامس أو السادس.

٦ـ النسخة الأمبروسانية: كتبت في نصف القرن الخامس.

٧ـ النسخة البيرائية: كانت محفوظة في جامعة كامبردج من أعمال إنكلترا. وقد كتبت في بداية القرن السادس، وتوجد نسخ صغيرة عدا هذه النسخ الكبيرة تشتمل على أجزاء متفرقة من أسفار العهد الجديد بالأصل اليوناني ومن أقدمها عهدًا نسخة محفوظة على شفة واحدة من البردى اكتشفت حديثا في أصلال البهنا وهي تشمل الإصحاح الأول والإصحاح العشرين من إنجيل يوحنا. وكتبت هذه ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ م في مصر.(١)

التعريف ببعض مصطلحات الكتاب المقدس

١ـ السفر: كلمة يطلقها أهل الكتاب على مجموعة من الإصحاحات.

٢ـ الإصحاح: عبارة عن مجموعة من الفقرات والجمل.

٣ـ اختصارات أسماء الأسفار:

أولًا: العهد القديم:

التكوين (تك)، الخروج (خر)، اللاويين (لا)، العدد (عد)، التثنية (تث)، يشوع (يش)، القضاة (قض)، راعوث (را)، صموئيل الأول (١صم)، صموئيل الثاني (٢صم)، الملوك الأول (١مل)، الملوك الثاني (٢مل)، أخبار الأيام الأول (١أخ)، أخبار الأيام الثاني (٢أخ)، عزرا (عز)، نحميا (نح)، أستير (أس)، أيوب (أي) المزامير (مز)، الأمثال (أم)، الجامعة (جا)، نشيد الأنشاد (نش) إشعياء (إش)، إرميا (إر)، مراثي إرميا (مرا)، حزقيال (حز)، دانيال (دا)، هوشع (هو)، يوئيل (يؤ)، عاموس (عا)، عوبديا (عو)، يونان (يون)، ميخا (مي)، ناحوم (نا)، حبقوق (حب)، صفنيا (صف)، حجي (حج)، زكريا (زك)، ملاخي (ملا).

ثانيًا: العهد الجديد:

إنجيل متى (مت)، إنجيل مرقس (مر)، إنجيل لوقا (لو)، إنجيل يوحنا (يو)، أعمال الرسل (أع) الرسالة إلى أهل روميا (رو)، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١كو)، الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس (٢كو)، الرسالة إلى أهل غلاطية (غل)، الرسالة إلى أهل

---

(١) من موقع نصراني على الشبكة العنكبوتية، وانظر: إظهار الحق (٩٩).

أفسس (أف)، الرسالة إلى أهل فليبي (في)، الرسالة إلى أهل كولوسي (كو)، الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي (١تس)، الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي (٢تس)، الرسالة الأولى إلى تيموثاوس(اتي) الرسالة الثانية إلى أهل تيموثاوس (٢تي)، الرسالة إلى تيطس (تي)، الرسالة إلى فليمون (فل)، الرسالة إلى العبرانيين (عب)، رسالة يعقوب (يع)، رسالة بطرس الرسول الأولى (١بط)، رسالة بطرس الرسول الثانية (٢بط)، رسالة يوحنا الرسول الأولى (١يو)، رسالة يوحنا الرسول الثانية (٢يو)، رسالة يوحنا الرسول الثالثة (٣يو)، رسالة يهوذا (يه)، رؤيا يوحنا اللاهوتي (رؤ). (١)

الفصل الثاني: معتقد المسلمين في التوراة والإنجيل.

وقبل أن نستفيض في الكلام عن الكتاب المقدس، وذكر ما فيه من التحريف والتناقضات والأغلاط، أحببنا أن نكتب هذا الفصل لكي لا يفهم أننا بنقدنا لكتاب اليهود والنصارى اليوم أننا بذلك نطعن في التوراة والإنجيل الأصليين اللذين أنزلهما الله على موسى وعيسى عليهما السلام. فنقول وبالله تعالى التوفيق.

من أركان الإيمان، وأصول الاعتقاد: الإيمان بجميع كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

وتبين آيات القرآن الكريم بجلاء موقف المسلمين من التوراة والإنجيل التي أنزلها الله تبارك وتعالى على نبيه موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، إذ يخبرنا القرآن أنهما وحي الله وكتابه وهديه الذي أنزله هدى ونورًا لبني إسرائيل ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ٣، ٤)، ويقول تعالى مخاطبًا المؤمنين، داعيًا إياهم إلى الإيمان والتصديق بكل ما أنزل على الأنبياء السابقين: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ

(١) مقدمة الكتاب المقدس.

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٦)، ويقول واصفًا المؤمنين: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(البقرة: ٢٨٥).

وقد ذكر القرآن الكريم أن الله وكل إلى أهل الكتاب حفظ كتابهم، فقال تعالى: ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾(المائدة: ٤٤) لكن هل كان بنو إسرائيل أمناء على الأمانة التي وضعها الله في أعناقهم؟

القرآن يخبرنا أن اليهود قد امتدت أيديهم إلى الكتاب تتلاعب بمضامينه ومعانيه، فذكر أنهم ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة: ١٣).

كما أخبرنا الله تعالى أنهم كتموا بعضًا مما أنزل الله عليهم، وأن الله بعث نبيه ومعه بيان كثير مما أخفوه، ناهيك عما تجاوزه، فلم يظهره ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾(المائدة: ١٥)، ثم كانت إحدى أكبر مساوئهم أنهم كانوا يكتبون كتبًا من عندهم، ثم ينسبونها إلى الله ﷻ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾(البقرة: ٧٩)، وقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٨).

ووضح النبي ﷺ هذا المعتقد حين قال: (إن بني إسرائيل كتبوا كتابًا، فاتبعوه، وتركوا التوراة). [(١)]

وعليه؛ فإن ما في أيدي اليهود، والنصارى اليوم من التوراة والأناجيل المتعددة، والأسفار، والإصحاحات، التي بلغت العشرات، ليست هي عين التوراة المنزلة على

---

(١) رواه الدارمي (٤٨٠)، والطبراني في الأوسط (٥٥٤٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٣٢).

موسى ﷺ، ولا عين الإنجيل المنزل على عيسى ﷺ؛ لانقطاع أسانيدها، واحتوائها على كثير من التحريف، والتبديل، والأغاليط، والاختلاف فيها، واختلاف أهلها عليها، واضطرابهم فيها، وأن ما كان منها صحيحًا فهو منسوخ بالإسلام، وما عداه فهو محرف مبدل، فهي دائرة بين النسخ والتحريف.

ولهذا فليست بكليتها وحيًا، وإنما هي كتب مؤلفة من متأخريهم بمثابة التواريخ، والمواعظ لهم، وحاشا لله، أن يكون ما بأيدي اليهود من التوراة هو عين التوراة المنزلة على نبي الله موسى ﷺ وأن يكون ما بأيدي النصارى من الأناجيل هو عين الإنجيل المنزل على نبي الله عيسى ﷺ.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه غَضِبَ حينما رأى مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة فيها شيء من التوراة وقال ﷺ: " أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقية؟ لو كان أخي موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي". (١)

واستقر هذا المعنى في نفوس الصحابة والمؤمنين بعدهم، يقول ابن عباس رضي الله عنه: (قال كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث تقرؤونه محضًا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم). (٢)

التوراة والإنجيل فيهما من بقايا الوحي:

ولا يمنع هذا من صحة بعض مواضع في التوراة، لما فيها من آثار الأنبياء، ففي التوراة حق وباطل كما أخبر الله ورسوله ﷺ. ومن النصوص التي أشارت إلى وجود شيء من الحق في كتبهم ألبسوه بالباطل والزور قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧) وغيره، وقال الألباني في الإرواء(٦/ ٣٤): حسن.

(٢) رواه البخاري (٧٣٦٣).

﴿ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١﴾ (آل عمران: ٧١)، وكذا قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣﴾ (المائدة: ٤٣) وذلك في مسألة رجم الزاني، وهو مذكور في سفر التثنية، حيث يقول: " «إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ عَذْرَاءُ مَخْطُوبَةً لِرَجُل، فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، ²⁴فَأَخْرِجُوهُمَا كِلَيْهِمَا إِلَى بَابِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَارْجُمُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا. الْفَتَاةُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا لَمْ تَصْرُخْ فِي الْمَدِينَةِ، وَالرَّجُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَلَّ امْرَأَةَ صَاحِبِهِ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ. " (التثنية ٢٢/ ٢٣- ٢٤).

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺقال: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ". [1]

أشياء ذكرت في القرآن وغير موجودة في التوراة والإنجيل:

ومما يثبت أيضًا أن هذه الأسفار ليست توراة موسى ولا إنجيل عيسى أن القرآن نسب إلى أسفار موسى وإنجيل عيسى عليهما السلام الكثير من المعاني التي نفتقدها في النصوص الحالية، ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ (التوبة: ١١١) ولا وجود لهذا المعنى في العهد القديم ولا الجديد.

ومثله قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾(الأعلى ١٦ – ١٩)، فهذا المعنى أيضًا لا وجود له في صحف الأسفار المنسوبة لموسى والتي تخلو من الحديث عن الآخرة والقيامة، فضلًا عن المقارنة بينها وبين الدنيا.

ومثله نفتقد في الأسفار الحالية ما نسبه الله إلى توراته وإنجيله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ

(١) رواه البخاري (٤٤٨٥). وانظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (١/ ١٣٢ – ١٣٤)، الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان لبكر أبو زيد (٧٢- ٧٤)، هل العهد القديم كلمة الله، منقذ السقار (٥ – ٧).

وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وأمثال هذه الآيات كثير في القرآن، ونفتقدها في الأسفار المقدسة عند اليهود والنصارى اليوم، وذلك مؤذن ببطلان استدلالهم بالقرآن على توثيق ما في أيديهم من الكتب، إذ توثيق القرآن ومدحه، إنها هما لكتاب الله ووحيه، وليس للمحرف من كتبهم، والمنسوب زورًا إلى الله ﷻ. [١]

الباب الثالث: مدى صحة الكتاب المقدس

الفصل الأول: هل للكتاب المقدس إسناد؟

تمهيد: ". . . فلابد لكون الكتاب سماويًا واجب التسليم أن يثبت أولًا بدليل تام أن هذا الكتاب كتب بواسطة النبي الفلاني، ووصل بعد ذلك إلينا بالسند المتصل بلا تغيير ولا تبديل، والاستناد إلى شخص ذي إلهام بمجرد الظن والوهم لا يكفي في إثبات أنه من تصنيف ذلك الشخص، وكذلك مجرد ادعاء فرقة أو فِرَق لا يكفي فيه. . . . ". [٢]

وسنحاول خلال هذا المبحث أن نرى هل ثبت فعلًا أن للكتاب المقدس بشقيه (القديم والجديد) إسناد؟ أم هي محض توهمات وتخييلات؟ ، ونبدأ:

أولًا: بالعهد القديم:

أولًا: لمحة تاريخية عن التوراة والأدوار التي مرت بها

عدم حفظ الله للكتب السابقة: لم يتكفل الله بحفظ الكتب السماوية السابقة المتقدمة كما تكفل بحفظ القرآن الكريم، بل وَكَّل حفظ الكتب إلى علماء الأمة التي أُنزل عليها؛ ولذلك كانت تلك الكتب عرضة للتحريف والضياع، وخصوصًا إذا مرت بتلك الأمة فترات اضطهاد، وهذا هو عين ما حدث للكتابين المنزلين على بني إسرائيل (التوراة والإنجيل).

---

(١) انظر: هل العهد القديم كلمة الله؟ (٨) بتصرف سير.

(٢) إظهار الحق ١/ ١٠٩.

معنى التوراة:

هي كلمة عبرية معناها: التعليم والشريعة، وفي اصطلاح أهل الكتاب هي: خمسة الأسفار التي تلقاها موسى عليه السلام من الله عز وجل في جبل سيناء بعد خروج اليهود من مصر، ثم ألحق بها أسفار الأنبياء.

الأدوار التي مرت بها التوراة:

التوراة في عهد موسى ويوشع:

أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يصعد إلى الجبل ليعطيه لوحى الحجارة والشريعة والوصية التي كتبها لتعليم بني إسرائيل (الخروج ٢٤/ ١٢)

وأمره أيضًا أن يأمر بني إسرائيل فيصنعوا تابوتًا من خشب السنط، بين لهم أوصافه ليضع فيه موسى عليه السلام الشهادة التي سيعطيه الله إياها (خروج ٢٥/ ١٠- ٢١).

كما أمره أن يقرب أخاه هارون عليه السلام وبنيه من بين بني إسرائيل ليكونوا كهنة لله وأمره أن يصنع لهم ثيابًا خاصة مقدسة وصفها له(خروج ٢٨/ ١-٢).

نزل موسى من الجبل، ولوحا الشهادة المكتوب عليهما كلمات العهد – أي الوصايا العشر – في يده (خروج ٣٤/ ٢٩).

وفعل موسى كل ما أمره الرب به – أخذ الشهادة وجعلها في التابوت (خروج ٤٠/ ١٦ و ٢١) – وكتب موسى هذه التوراة وسلمها لكهنة بني لاوى حاملي تابوت عهد الرب قائلًا: خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد ليكون شاهدًا عليكم، وأمرهم بإخراجها كل سبع سنين في عيد المظال لتلاوتها على بني إسرائيل بعد أن يجتمع رجالهم ونساؤهم وأطفالهم، حتى الغريب الذي في ديارهم (سفر التثنية ٣١/ ٩ – ١٣ و ٢٤ – ٢٦).

وهكذا صان موسى عليه السلام التوراة عن سائر بني إسرائيل، ولم يبثها فيهم خوفًا من اختلافهم بعده في تأويلها، مما يؤدي إلى انقسامهم. [1]

(١) الكتب المقدسة في ميزان التوثيق (٦٣- ٦٥)، توراة اليهود وابن حزم، (٨٠ - ٨٥) الكتابان تأليف: عبد الوهاب عبد السلام طويلة، الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة (٣٢٠)

٤ـ بعد وفاة موسى ﷺ:

وبعد وفاة موسى خلفه يوشع بن نون في قيادة الشعب، فاستولى على فلسطين وقسمها بين الأسباط ما عدا سبط لاوى الذي اختص بالخدمة الدينية، واختص منه أبناء هارون بالكهنوت، إذًا فالهارونيين وحدهم هم الذين كانوا يعرفون التوراة، ويحفظون أكثرها. ولم تكن كلها محفوظة على ألسنتهم، بل كان كل واحد منهم يحفظ فصلًا منها.

٥ـ التوراة إبَّان حكم القضاة:

وبعد موت يوشع ظل الشعب بأسباطه مقيما في تلك الجهات بين الشعوب المحيطة بهم وكان ذلك الجيل على شاكلة آبائه، لكن قام من بعده جيل آخر لم يعرف الرب، بل عمل الشر وعبد آلهة الشعوب الذين حوله؛ فسلط الله عليهم أعداءهم فنهبوهم.

ولما ضاق الأمر بهم أقام لهم الرب قضاة، فخلصوهم من يد ناهبيهم. (سفر القضاة ٢/ ٨-١٦).

وفي إحدى المعارك التي جرت بين الفلسطنيين وبني إسرائيل هرب بنو إسرائيل وكانت الضرة عظيمة، فسقط منهم ثلاثون ألفًا، وأخذ الفلسطينيون منهم تابوت عهد الرب (سفر صموئيل الأول ٤/ ١٠- ١١).

- كيف عاد التابوت؟

وهذه قصة عجيبة جدًا كما يقصها السفر، فقد أدخل الفلسطينيون التابوت إلى بيت إلههم (داجون) وأقاموا بقربه وفي الصباح وجدوا (داجون) ساقطًا على وجهه أمام التابوت فأقاموه مكانه، وفي صباح اليوم التالي وجدوه كذلك وقد قطعت رأسه ويداه، ثم أصيب أهل تلك المدينة بالبواسير، وتدافعت مدن الفلسطينيين حفظ التابوت إلى أن قرروا إعادته مع كمية من الذهب بعد سبعة أشهر (صموئيل ٥، ٦/ ١- ٤).

لكن ماذا حلَّ بالتوراة التي بداخله؟ لم يتعرض السفر لذلك. فهل عدم تعرضه ناتج عن أنه من البديهي أن تكون التوراة عادت مع التابوت سالمة غانمة، أم أنه من البديهي أن تكون قد أخرجت من الصندوق وأتلفت؟!

٦ـ التوراة إبان حكم الملوك:

أمام خطر الفلسطينيين اجتمع شيوخ بني إسرائيل وطلبوا من القاضي صموئيل أن يجعل لهم ملكًا يحارب، فاختار لهم شاؤل بن قيس من سبط بنيامين – وهو الذي أتت تسميته في القرآن طالوت – فقادهم بشجاعة في الحروب(صموئيل ٨، ٩، ١٠).

وبعد موت شاؤل استقر الأمر لداود ﷺ فحارب الفلسطينيين وفتح أهم مدنهم أورشاليم أي القدس، ثم اتخذها عاصمة له.

كان التابوت في قرية يعاريم على أكمة منها (صموئيل الأول ٧/ ١) ولما فتح داود القدس نقله إليها في احتفال بهيج، حيث أقام له خيمة هناك وعين اللاويين لخدمته. (صموئيل الثاني ٦).

وورث سليمان داود فبنى الهيكل، وبنى بداخله المحراب – أي قدس الأقداس– وهيئ مكانًا في وسط البيت ليضع فيه التابوت. (صموئيل الثاني ٢٩/ ٢٣ – ٢٥)، وسفر الملوك الأول (٢/ ١٢، ٦/ ١٤ – ٣٥، ٧).

وجمع سليمان شيوخ إسرائيل في العيد لوضع التابوت في المحراب. وفتح التابوت بعد وضعه في مكانه وكانت المفاجأة: ليس في التابوت إلا لوحا الحجر. (الملوك الأول ٨/ ١– ١١) وهكذا فقدت التوراة في ظروف غامضة، ولا يعلم جزما متى ضاعت: هل مزقها الفلسطينيون ثم أعادوا التابوت فارغا؟ أم أنها فقدت خلال الفترة الطويلة من حكم القضاة حين انحرف الشعب عن أوامر الله وظهر في بني إسرائيل الكفر والارتداد وعبادة الأصنام وقتل الأنبياء.[1]

٧ـ التوراة إبان الانقسام:

تحسنت أحوال اليهود إبان حكم داود وفي صدر حكم ابنه سليمان – كما تقول أسفارهم ثم ارتد سليمان – على حد زعمهم – في آخر عمره بترغيب من أزواجه وعبد الأصنام وبنى لها المعابد.

وإن المتأمل في هذا ليتساءل: إذا كان سليمان مرتدا فما غرضه بالتوراة إن كانت باقية؟!

(١) الكتب المقدسة في ميزان التوثيق (٦٦ – ٦٨).

وبعد موت سليمان انقسمت المملكة إلى مملكتين: جنوبية اسمها يهوذا، وقد بقي الملك فيها في بيت داود إلى نهايتها. وشمالية اسمها إسرائيل، وقد تنقل الملك فيها بين بيوتات مختلفة. (سفر الملوك الأول ١٢/ ٢١).

وحدث خلال ذلك أحداث عجيبة؛ فقد عكف معظم بني إسرائيل مع ملوكهم على عبادة الأصنام وترك أحكام التوراة مددا طويلة وأعصارًا متصلة، وكانت الأنبياء تتتابع عليهم ولكن هيهات، كفر مستمر وقتل للأنبياء.

٨ـ سقوط دولة إسرائيل:

كان الكفر والارتداد في مملكة إسرائيل أشد منه في مملكة يهوذا، ولذلك هاجر الكهنة ومن بقي معهم إلى مملكة يهوذا.

وسلط الله أعداء بني إسرائيل عليهم؛ ففي عام ٧٢١ ق. م أغار ملك آشور(شلمناصر) على عاصمة إسرائيل وحاصرها، ثم دكها دكًا، ثم جاء خليفته (سرجون) فأسر شعب إسرائيل، وأجلاهم عن بلادهم وفرقهم في مملكته، وأسكن بدلًا منهم وثنيين من بابل وغيرها، ولم يبق من اليهود إلا شرذمة قليلة اختلطت بالوثنيين، فتزاوجوا وتوالدوا.

فمنذ قيام دولة إسرائيل إلى أن محتها يد الأسر الآشوري، وأزالت شعبها من الوجود، لم يكن للأسباط الذين فيها غرض بالتوراة، وكان وجودها في تلك الدولة أندر من الكبريت الحمر.

٩ـ العثور على التوراة قبيل سقوط مملكة يهوذا:

جلس على حكم يهوذا بعد موت سليمان أكثر من عشرين ملكًا كان المرتدون منهم أكثر ممن يعترف بالدين، حتى غدا أهل المملكة وثنيين، ووضعت الأصنام حتى في البيت المقدس وبنيت لها المذابح، فضاعت التوراة وأصبحت نسيًا منسيًا (سفر الملوك الثاني ٢١، وسفر أخبار الأيام الثاني ٣٣).

وآل الأمر إلى الملك يوشيا بن آمون وكان فتى طيبًا، فتاب إلى الله واتجه إلى نشر الإيمان؛ فرمم الهيكل وأزال رسوم الكفر منه وبحث عن التوراة، ولكن دون جدوى، ومضى سبعة

عشر عامًا من حكمه دون أن يعثر أحد على نسخة للتوراة أو يسمع شيئًا عنها.

وفي السنة الثامنة عشرة من حكمه ادَّعى رئيس الكهنة حلقيا أنه وجد سفر شريعة الرب بيد موسى - أي التوراة - في بيت الرب بين الفضة التى جمعت من الشعب، وسلمه للكاتب شوفان ليقرأه على الملك. فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه. (الملوك الثاني ٢٢/ ١-١١) وأخبار الأيام الثاني (٣٤/ ١- ٢٠).

ثم إن الملك جمع شعب يهوذا بعد الهيكل وقرأ عليهم السفر، فتعجب الناس والملك من فرط ما ارتكبه اليهود في تاريخهم من مخالفات. ثم أخبر عن عزمه على العمل به(الملوك الثاني ٢٣/ ١- ٢٣)، أخبار الأيام الثاني ٣٤/ ٢٩ - ٣٣، ٣٥/ ١).

هذا، ولا يقبل الباحثون ادعاء حلقيا لأن البيت نهب مرتين قبل عهد الملك آخذ، ثم جعل بيتًا للأصنام وكان سدنة الأصنام يدخلون البيت كل يوم، وفي عهد يوشيا كان الكهنة يدخلون البيت كل يوم مدة سبعة عشر عامًا في أثناء الترميم وبعده، فلا يعقل أن تكون نسخة التوراة في البيت، ولا يراها أحد خلال تلك المدة الطويلة رغم البحث والتفتيش، ويرى الباحثون أن حلقيا وغيره من الكهنة لما رأوا ميل الملك يوشيا إلى الدين والعمل بالتوراة، انتهزوا هذه الفرصة للوقوف في وجه ارتداد اليهود والعودة بهم إلى الدين فجمعوا هذه النسخة من الروايات اللسانية التي وصلت إليهم دون تحر خلا السبعة عشر عامًا من حكمه، وأضافوا إليها ما يوافق رغبات اليهود من تاريخ وعقيدة وغير ذلك ولما انتهوا من الكتابة، سلم حلقيا النسخة للكاتب شوفان ليسلمها للملك مدعيًا أنه عثر على التوراة. (١)

واستمر العمل بتلك التوراة ثلاثة عشر عامًا، وهي ما تبقى من حكم يوشيا، فما إن مات وخلفه في الحكم ابنه يوحاز حتى ارتد وأشاع الكفر. واستمر الكفر والارتداد وقتل الأنبياء ومطاردة المصلحين في عهد إخوته وأولادهم من بعده، وطوال هذه المدة لم يكن للتوراة ذكر ولا رسم ولا أثر، وإنما كانت في التابوت عند الكاهن الأكبر، وتوالت

(١) الكتب المقدسة في ميزان التوثيق (٩٦- ٧٣).

النكبات على اليهود من قبل الشعوب المحيطة بهم، حتى إن بختنصر ملك بابل اجتاح مملكة يهوذا عدة مرات، بسبب ما يلقاه من غدر ونقض للعهود، إلى أن هاجمها عام ٥٨٨ ق. م فدك أسوار القدس وأحرق المدينة والهيكل بعد أن أخذ منه التابوت، وتتبع الهارونيين وسائر الكهنة، فقتلهم على دم واحد، ثم سبى اليهود جميعا فقادهم مقيدين بالسلاسل ولم يترك فيهم سوى أفقر الفقراء، وفي هذه الحادثة انعدمت التوراة وسائر أسفار العهد القديم التى كانت مصنفة، واليهود والنصارى يقرون بذلك (سفر الملوك الثاني ٢٤، ٢٥، وأخبار الأيام الثاني ٣٦). (١)

١٠ – التوراة إبان السبي:

سقطت مملكتا اليهود فزالت دولتهم واندثرت أمتهم؛ كان أكثرهم مشتتا بين نهرى دجلة والفرات وما حولهما فذابوا بين تلك الشعوب، وعبدوا آلهتهم وكانت قلة منهم مشردة في مصر ولم يبق في فلسطين إلا شرذمة قليلة من المعدمين.

واستمر هذا النفي إلى عام ٥٣٨ ق. م حيث قام ملك الفرس كورش – كيروس الثاني – بالهجوم على الميديين فأخضعهم واستولى على آشور وبابل، ومن ثم أصبح له السلطان على فلسطين واليهود.

وتودد اليهود للحكم الجديد واستعطفوه – وهم بارعون في ذلك – ثم التمسوا منه أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم وبناء هيكلهم واستئناف الحرية في ظله، فوافق، وعاد كثير منهم إلى فلسطين، فأعادوا بناء المدينة والهيكل بعد إعاقات كثيرة بسبب خلافاتهم. _ سفر عزرا ١ – ٦، وسفر نحميا ١ – ٧) ثم أقاموا الاحتفالات، ودشنوا البيت بالقرابين، لكن لم يضعوا فيه تابوت عهد الرب، لأن إرمياء النبي كان قد أخذه – كما يقولون – ووضعه في إحدى مغارات جبل (نبو) في (مؤاب) مقابل (أريحا) فلم يستطع أحد أن يهتدي إلى مكانه إلى اليوم. وهكذا استعاد اليهود بعض أوضاعهم، لكنهم فقدوا استقلالهم وتابوتهم هذه

(١) انظر المصدر السابق (٧٣- ٧٤).

المرة، ووقعوا تحت سيطرة الفرس.

وفي عهد الملك الفارسي (أرتخشستا) كان في بابل كاهن يهودي مقرب من الملك اسمه (عزرا بن سرايا) من سبط هارون، فطلب من الملك أن يسمح بعودة فوج آخر من اليهود إلى القدس فوافق. (سفر عزرا/ ٧) وعاد عزرا عام ٤٥٨ ق. م ومعه عامة الشعب وقوم من الكتبة اللاويين، وأموال كثيرة ورسالة أمن وتوصية من الملك جاء فيها (كما في سفر عزرا ٧/ ٢٥ - ٢٦): " أما أنت ياعزرا، فحسب حكمة إلهك التي بيدك، ضع حكاما وقضاة يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك. . . "

وهكذا وضع عزرا بتأييد من الفرس النظام لليهود، ودأب عزرا ومن معه من الكهنة على تبصير اليهود بالشريعة وتفسيرها لهم.

١١ـ كتابة التوراة وجمع أسفارها من جديد:

يسود اعتقاد عند اليهود أن عزرا هو الذي جمع أسفار التوراة ونظمها، لكن الدلائل تشير إلى أنها كتبت في مراحل متباعدة، وقد كتبها وجمعها معه أناس آخرون. (١)

يقول ول ديورانت:

" إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هو سفر التكوين. وقد كتب بعضه في يهوذا وبعضه في إسرائيل، ثم تم التوافق بين ما كتب هنا وهناك بعد سقوط دولتي اليهود "، ويقرر أيضًا أن أسفار العهد القديم جمعت لأول مرة في بابل، ثم ظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد.

١٢ـ وجود نسختين للتوراة بعد العودة:

لقد ظهرت نسختان مختلفتان للتوراة بعد الشروع في بناء الهيكل، نسخة للعبرانيين ونسخة للسامريين، وكل طائفة تضلل الأخرى ولا تعترف بها.

١٣ـ التوراة إبان حكم اليونان:

بعد أن استولى الإسكندر الأكبر على بلاد الشام عام ٣٢٣ ق. م تقاسم قواده الإمبراطورية بينهم وخضع اليهود لخلفائه من بعده.

---

(١) التوراة تاريخها وغاياتها، ترجمة سهيل ديب، (ص ١٦ - ١٧ و ص ٢٠).

وبدأ تشبه اليهود باليونان في عبادتهم للآلهة، والتقيد بعاداتهم وتقاليدهم، وفي عهد أنطيخوس الرابع، قام كاهن اليهود بانقلاب على المدينة وقتل من فيها من الحراس والمعارضين لليهود، وعاد أنطيخوس من معركته مع بطليموس السادس، فدخل القدس ودمرها، واقتحم الهيكل واستولى على ما فيه، وأحرق جميع نسخ العهد القديم، وقرر توحيد الديانة في البلاد التي تحت سيطرته، وألزم اليهود بالامتناع عن ممارسة العبادات والعادات اليهودية، ومزق الجنود كل ما وجدوه من نسخ التوراة و أسفار الشريعة وأحرقوه، وقتلوا كل من كان يعلن أنه يهودي أصلا. ففي ظل كل هذه الاضطهادات الغالب أنه انعدمت جميع النسخ التي كتبها عزرا وغيره.(١)

١٤ – التوراة إبان حكم المكابيين:

رأى كاهن يهودي اسمه (متاثيا) رجلًا يهوديًا يقدم ذبيحة لإله اليونان، فوثب عليه وقتله، ثم قتل مندوب الملك، وهرب مع أولاده إلى الجبال، ثم كونوا قوة وكانوا مصدر إزعاج للحكام.

وفي عام ١٦٧ ق. م مات الكاهن فخلفه ابنه يهوذا المسمى (مكابيوس) وتمكن في عام ١٦٤ ق. م من الاستيلاء على القدس، وطهرها مما فيها من الأوثان.

وفي عام ٦٣ ق. م اقتحم الرومان القدس، ودخلوا الهيكل حتى وطئوا قدس الأقداس، وأخذوا الملك وأولاده أسرى إلى روما.

ثم في عام ٣٧ ق. م اقتحموها ثانية بعد تمرد يهودي، فنهبوها وأشاعوا فيها التمرد والدمار، بعد أن قتلوا آخر الملوك المكابيين (أنتنيجوس).

ولا شك أن التوراة المتبقية في هذا العهد إنما هي التوراة المظنونة، أو النقول المتبقية بعد الاضطهادات في عهد اليونان.

١٥ – التوراة إبان حكم الرومان:

تولى أمر اليهود بعد مقتل أنتيجوس رجل يهودي من أصل ادومي، اسمه (هيرودس) كان

---

(١) وانظر: توراة اليهود وابن حزم (٨٠ – ١٨٥).

شديد الخضوع للرومان ومع ذلك كان يسترضي اليهود؛ فبنى لهم هيكلًا على نسق هيكل سليمان، لكنهم ظلوا على كراهيتهم له؛ لأنه ليس من أصل يهودي صرف، فأذاقهم سوء العذاب.

وفي سنة ٢٦ م عين الإمبراطور الروماني طيباروس حاكما على اليهودية اسمه (بيلاطوس بونتيوس)، وفي عهده طلب كهنة اليهود صلب المسيح عليه السلام لكن هموا بما لم ينالوا.

وفي عام ٧٠ م حاصر الرومان القدس، وأذاقوا اليهود فيها أشد ألوان العذاب، ولما اندلعت الثورة الثانية في عام ١٣٠ – ١٣٥ م وقضى عليها الإمبراطور الروماني (أدريانوس) أزال معالم المدينة والهيكل تماما، فحرث الأرض وزرعها، ولاحق اليهود بشدة للتخلص منهم نهائيًا، ثم أقام مكان الهيكل، هيكلًا وثنيا باسم (جوبيتار) رب الآلهة عند الرومان.

وهكذا أبيد معظم اليهود، ولم يبق منهم إلا عدد قليل، تشردوا في الأرض، وهاموا على وجوههم في كل مكان.

وخلاصة القول: ـ

أن اليهود تعرضوا للاضطهاد في كل مكان حلوا فيه، وفي ظل حكم أي دولة حكموا بها، فأي توراة تبقى بعد كل هذا الاضطهاد والتشريد والتدمير والحرق.

وحتى ما كتبه عزرا وغيره هل يبقى سليمًا بعد كل هذا أيضًا؟.

ثم هل قام الدليل على عصمة عزرا ومن ساعده؟ أو أن هذه النصوص المجموعة هي من عين التوراة التي أنزلها الله على موسى؟ ثم إن كان الكاتب هو عزرا فعلًا، فأين السند المتصل الذي يثبت ذلك بدون أدنى شك أو تخمين؟ أوحتى شبهة السند الذي يتميز به المسلمون ولا يعرفه أهل الكتاب لكتبهم؟. (١)

ثانيًا: إبطال نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى عليه السلام.

يزعم اليهود والنصارى أن موسى عليه السلام كتب الأسفار الخمسة، يقول القس سويجارت في مناظرته التلفزيونية للعلامة ديدات: " ونحن نعتقد أن موسى كتب ما يسمى بالأسفار الخمسة، تلك الكتب الخمسة الأولى باستثناء الترانيم القليلة، وسفر التثنية، وربما يكون قد

---

(١) الكتب المقدسة في ميزان التوثيق (٧٤ – ٨٩).

كتب هذا أيضًا، لأننا نعلم أن للرب من القدرة، بحيث يوحي إلى موسى بالضبط الكيفية التي يموت بها، ويوحي إليه بدقة الهيئة التي تكون عليها جنازته، وهذا ليس بمعضل على الرب".

وليس من دليل يؤيد هذا الزعم سوى ما ذكرته النصوص التوراتية والإنجيلية. (١)

لكن عند الرجوع إلى هذه الأسفار والتمعن فيها يتبين أنها كتبت بعد موسى عليه السلام بوقت طويل، وفيما يلي بعض هذه الأدلة:

١ـ قصر توراة موسى بالنسبة إلى التوراة الحالية.

• تحدثت أسفار العهد القديم عن توراة موسى، في سفر التثنية "وَكَتَبَ مُوسَى هذِهِ التَّوْرَاةَ وَسَلَّمَهَا لِلْكَهَنَةِ بَنِي لاَوِي حَامِلِي تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ، وَلِجَمِيعِ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ. " (التثنية ٣١/ ٩ - ١٠) وكان ينبغي أن تكون نهاية التوراة هنا، ولكن الذي نراه أنه جاء بعدها ثلاث إصحاحات، والمفروض أن التوراة سلمت للكهنة من بني لاوي، مما دل على أن المكتوب من قبل موسى ليس النص الذي يحكي القصة.

• أن توراة موسى قصيرة، فإن أسفاره الخمسة تبلغ ٤٠٠ صفحة، والذي كتبه موسى قصير جدًا بالنسبة إلى الأسفار الخمسة، فقد أمر موسى بجمع بني إسرائيل نساءً وأطفالًا ورجالًا، بل وحتى الغريب المار بأرضهم، أمر بجمعهم كل سبع سنين في عيد المظال لتقرأ عليهم التوراة (انظر التثنية ٣١/ ٩ - ١٢)، ولو كانت بالطول الذي بين أيدينا اليوم لشق سماع هؤلاء جميعًا وعسُر طول مكثهم لسماعها.

•ومن الدلائل على قصر توراة موسى أنه أمر بكتابتها على جدران المذبح " فَيَوْمَ تَعْبُرُونَ الأُرْدُنَّ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، تُقِيمُ لِنَفْسِكَ حِجَارَةً كَبِيرَةً وَتَشِيدُهَا بِالشِّيدِ، ٣وَتَكْتُبُ عَلَيْهَا جَمِيعَ كَلِمَاتِ هذَا النَّامُوسِ، حِينَ تَعْبُرُ لِكَيْ تَدْخُلَ الأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. . . ٨وَتَكْتُبُ عَلَى الْحِجَارَةِ جَمِيعَ كَلِمَاتِ هذَا النَّامُوسِ نَقْشًا جَيِّدًا». "

---

(١) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاى (٣١ - ٣٢)، النصرانية في ميزان العقل والإسلام (٨٧- ٨٨).

(التثنية ٢٧/ ٢ – ٨)، وقد عمل بالوصية وصي موسى يشوع فكتبها على حجارة المذبح.

وبعد إتمام البناء قرأ يشوع التوراة على الجموع، وهي له تسمع " ٣٢وَكَتَبَ هُنَاكَ عَلَى الْحِجَارَةِ نُسْخَةَ تَوْرَاةِ مُوسَى الَّتِي كَتَبَهَا أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. . . . ٣٤وَبَعْدَ ذلِكَ قَرَأَ جَمِيعَ كَلاَمِ التَّوْرَاةِ. . ٣٥لَمْ تَكُنْ كَلِمَةٌ مِنْ كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى لَمْ يَقْرَأْهَا يَشُوعُ قُدَّامَ كُلِّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ وَالْغَرِيبِ السَّائِرِ فِي وَسَطِهِمْ. " (يشوع ٨/ ٣٢ – ٣٥). [1]

٢ـ تناقض سفر يشوع مع الأسفار الخمسة.

ومما يؤكد أن التوراة التي كتبها موسى ليست الأسفار الخمسة: مخالفة يشوع وصي موسى لما جاء فيها، ولو كان يعرفها أو يعتقد صدقها لما خالفها، فإما أن يقال بأن سفر يشوع مزور، أو لا تصح نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى.

وبيان هذه المسألة أن موسى قال: " ١٧كَلَّمَنِي الرَّبُّ قَائِلًا: ١٨أَنْتَ مَارٌّ الْيَوْمَ بِتُخْمِ مُوآبَ، بِعَارَ. ١٩فَمَتَى قَرُبْتَ إِلَى تُجَاهِ بَنِي عَمُّونَ، لاَ تُعَادِهِمْ وَلاَ تَهْجِمُوا عَلَيْهِمْ، لأَنِّي لاَ أُعْطِيكَ مِنْ أَرْضِ بَنِي عَمُّونَ مِيرَاثًا، لأَنِّي لِبَنِي لُوطٍ قَدْ أَعْطَيْتُهَا مِيرَاثًا. " (التثنية ٢/ ١٦ – ٢٠) فكان أمر الله لموسى في حق أرض عمون أن لا يأخذ منها شيئًا.

ولكن يشوع في سفره ينسب إلى موسى أنه قسم أرض بني عمون، يقول: " ٢٤وَأَعْطَى مُوسَى لِسِبْطِ جَادَ، بَنِي جَادَ حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ: ٢٥فَكَانَ تُخُمُهُمْ يَعْزِيرَ وَكُلَّ مُدُنِ جِلْعَادَ وَنِصْفَ أَرْضِ بَنِي عَمُّونَ إِلَى عَرُوعِيرَ الَّتِي هِيَ أَمَامَ رَبَّةَ. . . هذَا نَصِيبُ بَنِي جَادَ " (يشوع ١٣/ ٢٤ – ٢٨)، فقد زعم سفر يشوع أن الله أعطى موسى نصف أرض بني عمون، وهو مخالف لما أمر الله به موسى.

فلو كانت هذه الأسفار توراة موسى لما نسب يشوع إلى موسى هذه المخالفة الصريحة لأمر الله بتقسيم أرض عمون.

٣ـ أحداث ذكرتها التوراة، وقد حصلت بعد وفاة موسى.

كما أن التوراة ذكرت أحداثًا حصلت بعد وفاة موسى في سيناء، مما دل على أنها كتبت

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (٣١ – ٣٢).

بعده، ومنها:

١- تقول التوراة: " وَأَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى جَاءُوا إِلَى أَرْضٍ عَامِرَةٍ. أَكَلُوا الْمَنَّ حَتَّى جَاءُوا إِلَى طَرَفِ أَرْضِ كَنْعَانَ. " (خروج ١٦/ ٣٥)، فكاتب السفر أدرك انقطاع المنّ عن بني إسرائيل، وعرف أن مدة أكلهم للمنّ كانت أربعين سنة، وهو أمر لم يدركه موسى ﵇، فقد انقطع المنّ زمن يشوع وبعد وفاة موسى بزمن ليس بقليل، ففي سفر يشوع " ١٠فَحَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْجِلْجَالِ. . . فِي عَرَبَاتِ أَرِيحَا. ١١وَأَكَلُوا مِنْ غَلَّةِ الأَرْضِ. . ١٢وَانْقَطَعَ الْمَنُّ فِي الْغَدِ عِنْدَ أَكْلِهِمْ مِنْ غَلَّةِ الأَرْضِ " (يشوع ٥/ ١٠ - ١٢). فكيف يتحدث موسى عن أمر حدث بعد وفاته، وذلك حين دخلوا الأرض المقدسة مع النبي يشوع، ومن المهم التنبيه إلى أن الخبر عن الماضي، وذلك في النص السابق في قوله"فحلَّ وأكلوا وانقطع المن في الغد عند أكلهم "، وليس إخبارًا بالغيب والمستقبل، لذا لا يمكننا أن نعتبره نبوءة من موسى ﵇. [(١)]

٢- ثم إن سفر العدد يصف المنّ لقارئيه، فمن المؤكد أنه يحدثهم عما لم يروه، ومن العجيب أن ينسب هذا الوصف إلى موسى، إذ ما الذي يدعوه لوصف المنّ وطعمه وطريقة طهيه لمن يصنعه ويأكله من معاصريه، يقول السفر: " ٧وَأَمَّا الْمَنُّ فَكَانَ كَبِزْرِ الْكُزْبَرَةِ، وَمَنْظَرُهُ كَمَنْظَرِ الْمُقْلِ. ٨كَانَ الشَّعْبُ يَطُوفُونَ لِيَلْتَقِطُوهُ، ثُمَّ يَطْحَنُونَهُ بِالرَّحَى أَوْ يَدُقُّونَهُ فِي الْهَاوَنِ وَيَطْبُخُونَهُ فِي الْقُدُورِ وَيَعْمَلُونَهُ مَلاَّتٍ. وَكَانَ طَعْمُهُ كَطَعْمِ قَطَائِفَ بِزَيْتٍ. " (العدد ١١/ ٧-٨) وانظر: (الخروج ١٦/ ٣١)، إنه شاهد آخر ببراءة موسى من كتابة هذه الأسفار. [(٢)]

٣- ويذكر سفر العدد ما يُشعِر بأن الكاتب قد كتبه بعد جلاء بني إسرائيل من برية سيناء ودخولهم فلسطين فيقول: " ٣٢وَلَمَّا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَجَدُوا رَجُلًا يَحْتَطِبُ

(١) وانظر: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (٧٧).

(٢) هل العهد القديم كلمة الله؟ (٣٢ – ٣٣).

حَطَبًا فِي يَوْمِ السَّبْتِ. " (العدد ١٥/ ٣٢)، فالكاتب ليس في البرية حتمًا. أي ليس موسى عليه السلام، فإنه قد مات في البرية قبل دخول الأرض المقدسة.

٤- ونحوه قول كاتب الأسفار: " وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفَرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الأَرْضِ. " (التكوين ١٣/ ٧)، وهذا النص جعلته نسخة الرهبانية اليسوعية بين قوسين للإيهام بأنه ملحق بالسياق، والصحيح أصالته، وأن السفر متأخر التأليف.

٥- ونحوه في قوله: "٣١وَهؤُلاَءِ هُمُ الْمُلُوكُ الَّذِينَ مَلَكُوا فِي أَرْضِ أَدُومَ، قَبْلَمَا مَلَكَ مَلِكٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. "

وقد أقر المحقق آدم كلارك بوقوع التحريف في هذا النص، وقال: " غالب ظني أن موسى ما كتب هذه الآية، والآيات التي بعدها إلى التاسعة والثلاثين. . وأظن ظنًا قويًا قريبًا من اليقين أن هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة، فظن الناقل أنها جزء من المتن فأدخلها فيه ". [(١)]

ولم يبين دليله الذي دفعه لهذا الظن الذي قارب اليقين، لكن هذا التبرير من كلارك يفضي إلى الشك بجملة الكتاب المقدس، إذ كما جاز للناسخ أن يدخل في المتن هنا ما ليس فيه، فإنه يجوز وقوع ذلك في سائر الكتاب. [(٢)]

٦- ورد في سفر اللاويين (٥/ ١٥- ١٦): "، يَأْتِي إِلَى الرَّبِّ بِذَبِيحَةٍ لإِثْمِهِ: كَبْشًا صَحِيحًا مِنَ الْغَنَمِ بِتَقْوِيمِكَ مِنْ شَوَاقِلِ فِضَّةٍ عَلَى شَاقِلِ الْقُدْسِ، ذَبِيحَةَ إِثْمٍ. ١٦وَيُعَوِّضُ عَمَّا أَخْطَأَ بِهِ مِنَ الْقُدْسِ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ خُمْسَهُ، وَيَدْفَعُهُ إِلَى الْكَاهِنِ، فَيُكَفِّرُ الْكَاهِنُ عَنْهُ بِكَبْشِ الإِثْمِ، فَيُصْفَحُ عَنْهُ. "

وهذا الكلام في معرض التكفير عن الخطأ في أقداس الرب عندهم.

ومعروف كما سبق أن بني إسرائيل لم يكونوا دخلوا القدس في عهد موسى، ولم

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٢/ ٤٦٨).

(٢) هل العهد القديم كلمة الله؟ (٣٤ – ٣٥).

يتخذوا الشاقل أيضًا في عهد موسى.[١]

لكن الطامة الكبرى والداهية العظمى أن يذكر خبر وفاة موسى عليه السلام وندب بني إسرائيل له، وذلك في أسفار تنسب إلى موسى، فقد جاء في سفر التثنية " ٥فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. ٦وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ. ٧وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ، وَلَمْ تَكِلَّ عَيْنُهُ وَلاَ ذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ. فَبَكَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى فِي عَرَبَاتِ مُوآبَ ثَلاَثِينَ يَوْمًا. فَكَمُلَتْ أَيَّامُ بُكَاءِ مَنَاحَةِ مُوسَى. " (التثنية ٣٤/ ٥ – ٨)، والملاحظ دومًا أنه حديث عن الماضي البعيد، وليس إخبارًا عن المستقبل.[٢]

٤ـ مسميات ظهرت بعد موسى.

وتذكر الأسفار الخمسة أسماء كثيرة لمسميات لم يعرفها بنو إسرائيل إلا بعد موسى، ولم تسم بهذه الأسماء إلا بعد قرون من وفاة موسى، فكيف ذكرتها توراة موسى إذًا؟

١- ومنها " وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ " (التكوين ١٤/ ١٤) وقد سميت بهذا الاسم في عهد القضاة، أي بعد موسى بما يربو على مائة سنة، يقول سفر القضاة: " وَجَاءُوا إِلَى لاَيِشَ. . . وَدَعَوْا اسْمَ الْمَدِينَةِ «دَانَ» بِاسْمِ دَانٍ أَبِيهِمِ " (القضاة ١٨/ ٢٧ – ٢٩).

٢- ونحوه ما جاء في التكوين وفيه " ١٥لأَنِّي قَدْ سُرِقْتُ مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ" (التكوين ٤٠/ ١٥)، ولم تسم فلسطين بهذا الاسم في عهد موسى، إذ لم يدخل العبرانيون إليها بعد.

٣- ومثله " ٢٧وَجَاءَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ إِلَى مَمْرَا، قَرْيَةِ أَرْبَعَ، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ "(التكوين ٣٥/ ٢٧)، ولم تسم حبرون (الخليل) بهذا الاسم إلا في عهد يشوع، كما ورد في سفره " وَأَعْطَى حَبْرُونَ لِكَالَبَ. . . ١٥وَاسْمُ حَبْرُونَ قَبْلًا قَرْيَةُ أَرْبَعَ " (يشوع ١٤/ ١٣ – ١٥)، فالكاتب لسفر التكوين أدرك دخول يشوع لفلسطين، ورأى تغيير اسم المدينة من أربع إلى حبرون.[٣]

---

(١) الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (٧٩).

(٢) المصدر السابق (٧٣).

(٣) وانظر: توراة اليهود وابن حزم، تأليف/ عبد الوهاب عبد السلام طويلة (٦٠- ٧٢).

٤ـ اعترافات مثيرة.

وبعد هذا كله كان لابد من أن يعترف أهل الإنصاف من أهل الكتاب بعدم صحة نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى، وقد كان من أوائل من فعل ذلك منهم، ابن عزرا الحبر اليهودي الغرناطي (تـ ١١٦٧م) حين ألغز اعترافه ببراءة موسى من هذه الأسفار، وذلك لمخافته القتل والاضطهاد فقال في شرحه لسفر التثنية: " فيما وراء نهر الأردن. . . لو كنت تعرف سر الإثني عشر . كتب موسى شريعته أيضًا. . . وكان الكنعاني على الأرض. . . سيوحي به على جبل الله. . . ها هوذا سريره، سرير من حديد، حينئذ تعرف الحقيقة " ولم يجرؤ ابن عزرا على كشف الحقيقة فألغزها.

وقد فسر اليهودي الناقد (اسبينوزا) قول ابن عزرا بأنه أراد بأن موسى لم يكتب التوراة لأن موسى لم يعبر النهر، ثم إن سفر موسى قد نقش على اثني عشر حجرًا بخط واضح، فحجمه ليس بحجم التوراة، ثم لا يصح أن تقول التوراة بأن موسى كتب التوراة، ثم كيف يذكر أن الكنعانيين كانوا حينئذ على الأرض؟ ، فهذا لا يكون إلا بعد طردهم منها، وأما جبل الله فسمي بهذا الاسم بعد قرون من موسى، وسرير عوج الحديدي جاء ذكره في التثنية (٣/ ١١-١٢) بما يدل على أنه كتب بعده بزمن طويل.

• ويعترف أيضًا في القرن التاسع عشر القس نورتن بعدم صحة نسبة الأسفار إلى موسى فيقول: "التوراة جعلية يقينًا، ليست من تصنيف موسى". [(١)]

•وفي مدخل طبعة للكتاب المقدس باللغة الانجليزية صدرت عام ١٩٧١م سجل محررو الطبعة تشككًا في إلصاق الأسفار بموسى فقالوا: " مؤلفه موسى على الأغلب ".

• وفي مدخل التوراة الكاثوليكية نقرأ: "ما من عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف على وضع النص الذي كتبه عديدون بعده، بل يجب القول بأن هناك ازديادًا تدريجيًا سببته مناسبات العصور التالية

---

(١) انظر: في مقارنة الأديان، محمد عبد الله الشرقاوي، (٧١ - ٧٥)، الغفران بين الإسلام والمسيحية، إبراهيم خليل أحمد، (٤٤ - ٤٦).

الاجتماعية والدينية "، ومثله في المدخل الفرنسي للكتاب المقدس.

• وتقول دائرة معارف القرن التاسع عشر: " العلم العصري، ولاسيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة، والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى ﷺ، وإنما هي من عمل أحبار لم يذكروا أسماءهم عليها، وألفوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل ".

• ويقول نولدكه في كتابه "اللغات السامية": " جمعت التوراة بعد موسى بتسعمائة سنة، واستغرق تأليفها وجمعها زمنًا متطاولًا تعرضت حياله للزيادة والنقص، وإنه من العسير أن نجد كلمة متكاملة في التوراة مما جاء به موسى. "[1]

فهل يقال بعد ذلك: هذه الأسفار الخمسة من كلام موسى أو أنها وحي الله إلى نبيه موسى؟

وصدق جارودي في كتابه " إسرائيل والصهيونية السياسية " حين قال: " ليس هناك عالم من علماء التوراة وتفسيرها لا يقر بأن أقدم نصوص التوراة قد أُلِّف وكتب على الأكثر في عهد سليمان، وهذه النصوص ليست إلا تجميعًا لروايات شفهية، وإذا التزمنا بمعايير الموضوعية التاريخية كان علينا الإقرار بأن هذه الروايات التي تتحدث عن ملاحم مرت عليها قرون ليست أكثر تاريخية - بالمعنى الدقيق للكلمة - من الإلياذة أو الرامايانا".

ثالثًا: إبطال نسبة أسفار الأنبياء إليهم.

لا يملك اليهود ولا النصارى أي دليل - ولو كان ضعيفًا - يثبت صحة نسبة الأسفار المقدسة إلى أصحابها، إذ هذه الكتب خالية من الأسانيد التي توثقها.

بل إن الأدلة تثبت عكس ذلك، وهو يتضح فيما نعرض من النصوص والشهادات التي تبطل نسبة أسفار العهد القديم إلى الأنبياء عليهم السلام، ولسوف نكتفي بعرض بعض الشهادات عن بعض الأسفار، ونترك للقارئ الكريم أن يقيس الغائب من الأسفار على

---

(١) انظر: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، يحيى ربيع، (١٠٠)، الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد، (٩٧ - ٩٨).

الشاهد منها. [1]

أولًا: سفر يشوع:

تنسب الدراسات التقليدية هذا السفر إلى النبي يشوع بن نون وصي موسى عليه السلام، لكن القراءة المتأنية لهذا السفر تكشف عن تأخر تاريخ كتابته عن يشوع بسنين طويلة، فقد جاء فيه خبر موت يشوع " أَنَّهُ مَاتَ يَشُوعُ بْنُ نُونٍ عَبْدُ الرَّبِّ ابْنَ مِئَةٍ وَعَشْرِ سِنِينَ. ٣٠ فَدَفَنُوهُ فِي تُخُمِ مُلْكِهِ " (يشوع ٢٤/ ٢٩ - ٣٠).

ويذكر سفر يشوع أحداثًا حصلت بعد موته كتعظيم بني إسرائيل له بعد وفاته، بقاء شيوخهم على العهد في عصر القضاة بعده " وَعَبَدَ إِسْرَائِيلُ الرَّبَّ كُلَّ أَيَّامِ يَشُوعَ، وَكُلَّ أَيَّامِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ طَالَتْ أَيَّامُهُمْ بَعْدَ يَشُوعَ وَالَّذِينَ عَرَفُوا كُلَّ عَمَلِ الرَّبِّ الَّذِي عَمِلَهُ لإِسْرَائِيلَ. " (يشوع ٢٤/ ٣١)، والسفر برمته يتحدث عن يشوع بضمير الغائب. (انظر ٨/ ٣٥، ٦/ ٢٧).

ومن الأدلة التي نسردها سريعًا لنؤكد أن يشوع ليس بكاتب السفر المنسوب إليه:

١- أن سفر يشوع ذكر مرارًا قرية دبير التي حاربها يشوع، ومن ذلك قوله: "٣٨ثُمَّ رَجَعَ يَشُوعُ وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ إِلَى دَبِيرَ وَحَارَبَهَا " (يشوع ١٠/ ٣٨)، وكذا قوله: " ٧وَصَعِدَ التُّخُمُ إِلَى دَبِيرَ مِنْ وَادِي عَخُورَ " (يشوع ١٥/ ٧)، وغيرها من المواضع.

وهذا الاسم لم يطلق على هذه القرية إلا بعد وفاة يشوع، فقد كان اسمها في عهد يشوع قرية سفر، وتغير في عهد القضاة " وَكَانَ اسْمُ دَبِيرَ قَبْلًا قَرْيَةَ سِفْرٍ" (القضاة ١/ ١١).

٢- كما نجد في مواضع كثيرة أن كاتب السفر يخبرنا ببقاء بعض المسميات التي سميت في عهد يشوع وأنها لم تتغير بتقادم الأيام وتصرم السنين، ومن المؤكد أن يشوع ليس القائل، إذ هذه المسميات ظهرت في عصره، وليس من المعتاد تغير أسماء المدن في وقت قريب، يقول سفر يشوع: "فَدُعِيَ اسْمُ ذلِكَ الْمَكَانِ «الْجِلْجَالَ» إِلَى هذَا الْيَوْمِ. " (يشوع ٥/ ٩)، أي ما زال اسمه كذلك إلى زمن كتابة السفر.

---

(١) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاى (٣٨ - ٤٢).

ومثله قوله: " ٢٦وَأَقَامُوا فَوْقَهُ رُجْمَةَ حِجَارَةٍ عَظِيمَةً إِلَى هذَا الْيَوْمِ. فَرَجَعَ الرَّبُّ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِهِ. وَلِذلِكَ دُعِيَ اسْمُ ذلِكَ الْمَكَانِ «وَادِيَ عَخُورَ» إِلَى هذَا الْيَوْمِ. " (يشوع ٧/ ٢٦).

وقد اعترف بمجهولية كاتب هذا السفر الناقد اليهودي اسبينوزا، وبه أقرت مقدمة الكاثوليك للكتاب المقدس، حيث تقول: "لكن المؤلف المقدس الذي نجهل اسمه وعصره كان. . . ". (١)

ثانيًا: سفر القضاة:

ويتحدث السفر عن الفترة التي تلت يشوع والتي سبقت الملكية، وهي فترة مبكرة من تاريخ بني إسرائيل، ونسبه التقليد اليهودي إلى النبي صموئيل آخر قضاة بني إسرائيل.

ولكن السفر يحوي ما يدل على أنه كتب في عهد الملوك فقد جاء فيه " ٢٥فِي تِلْكَ الأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ. " (القضاة ٢١/ ٢٥).

ونحوه يقول السفر: "٦وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ. " (القضاة ١٧/ ٦) مما يفهم منه أن الكاتب قد أدرك الملكية، وليس قاضيًا يعيش في عصر القضاة.

وتذكر مقدمة السفر أن كاتبه " يحتمل أن يكون صموئيل "، فهو مجرد احتمال يوافق عليه القس وليم مارش، ويضيف إليه احتمالات أخرى، حيث يرى - كما نقل عنه العلامة رحمة الله الهندي - أن كاتب السفر مجهول وأنه ينسب إلى صموئيل أو عزرا، كما يحتمل أن كل قاض كتب في زمان ولايته.

يقول الأب لوفيفر: إن سفر القضاة أعيدت كتابته وعدلت مرات كثيرة قبل أن يصل إلى صيغته النهائية، وإن أحداثه التاريخية تعوزها الدقة. (٢)

ثالثًا: سفر راعوث:

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (٣٩ – ٤٠) وانظر: إظهار الحق (١/ ١٢٩)، النصرانية في ميزان العقل والإسلام (٨٨ – ٨٩).

(٢) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٣٤)، التوراة عرض وتحليل، فؤاد حسين علي ص (٣٤ – ٣٥)، النصرانية في ميزان العقل والإسلام (٨٩ – ٩٠).

وهذا السفر يحكي قصة راعوث المؤابية التي تزوجت إسرائيليًا، ثم مات عنها زوجها ثم تزوجها بوعز فولدت له عوبيد جد داود، ولا يعرف بالتحديد من هو مؤلف هذه القصة.

لذلك يقول القس وليم مارش عن كاتب هذا السفر: " مجهول "، ويضيف جورج بوست: "لا يمكن الجزم بزمان هذه القصة، ولا بمعرفة مؤلفها. . نسب بعضهم كتابتها إلى صموئيل، وآخرون إلى حزقيا وآخرون إلى عزرا. . . "، وتقول مقدمة السفر عن الكاتب: " ليس معروفًا بالتحديد".

أما مقدمة السفر في التوراة الكاثوليكية فترى أن كاتبه المجهول قد عاش في زمن متأخر "اللغة ذاتها في النص العبري تشير إلى حداثة عهده الذي يعود إلى ما بعد السبي البابلي". (١)

رابعًا: سفرا صموئيل (الأول والثاني).

وينسب السفران إلى النبي صموئيل، لكن السفر الأول منهما يذكر وفاة النبي صموئيل ودفنه " ١وَمَاتَ صَمُوئِيلُ، فَاجْتَمَعَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ وَنَدَبُوهُ وَدَفَنُوهُ فِي بَيْتِهِ فِي الرَّامَةِ. " (صموئيل (١) ٢٥/ ١) فمن الذي أكمل السفر الأول؟ ومن كتب السفر الثاني؟

يقول منقحو الكتاب المقدس الذي راجعه القسيس فانت السكرتير العام لجمعية الكتاب المقدس بنيويورك عن مؤلف السفرين: " مجهول، ويحتمل أن يكون عزرا هو الذي كتبه وراجعه".

ويقول محررو طبعة ١٩٧١م الإنجليزية في مدخلهم: " مؤلفه: صموئيل على الاحتمال "، وقال آخرون الكاتب إرمياء، لكن مقدمة النسخة الكاثوليكية تعتبره "رأي صبياني، على أنه من المحتمل أن يكون المؤلف أحد تلاميذ إرميا". (٢)

خامسًا: سفرا عزرا ونحميا.

---

(١) انظر: اليهودية والمسيحية، محمد ضياء الرحمن الأعظمي (١١٠)، هل الكتاب المقدس كلام الله؟، أحمد ديدات (٨٠، ١٢٦)، إظهار الحق (١/ ١٣٥).

(٢) انظر: التحريف في التوراة، محمد الخولي (ص ٤، ١١٠- ١١١)، هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات (ص ٥٨)، الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد (ص ٩٩).

ويتحدث السفران عن حياة بني إسرائيل بعد السبي، ويفترض أن كاتبيهما هما عزرا ونحميا، لكن يرجح الباحثون أن كاتبهما وكاتب سفر الأيام واحد، وأن الكتابة كانت حوالي سنة ٣٠٠ ق. م، وممن يرجح تأخر كتابة السفر عن عزرا ونحميا المحققون توري وهوشر ومونتكل.

فنحميا كان معاصرًا للسبي البابلي، لكن كاتب السفر يتحدث فيه عن يشوع اللاوي الراجع في سبي بابل، فيقول: " ١وَهؤُلاَءِ هُمُ الْكَهَنَةُ وَاللاَّوِيُّونَ الَّذِينَ صَعِدُوا مَعَ زَرُبَّابِلَ بْنِ شَأَلْتِئِيلَ وَيَشُوعَ " (نحميا ١٢/ ١)، ثم يذكر أن من بين الراجعين من السبي مع زربابل يشوع اللاوي، فيقول: " ٨وَاللاَّوِيُّونَ: يَشُوعُ وَبِنُّويُ وَقَدْمِيئِيلُ. " (نحميا ١٢/ ٨)، لكن كاتب سفر نحميا يحدثنا عن الجيل الخامس ليشوع اللاوي، فيقول: " ١٠وَيَشُوعُ وَلَدَ يُويَاقِيمَ، وَيُويَاقِيمُ وَلَدَ أَلِيَاشِيبَ، وَأَلِيَاشِيبُ وَلَدَ يُويَادَاعَ، ١١وَيُويَادَاعُ وَلَدَ يُونَاثَانَ، وَيُونَاثَانُ وَلَدَ يَدُّوعَ. " (نحميا ١٢/ ١٠ – ١١)، وهذا لا يمكن نسبته إلى نحميا، الذي عاد من السبي، بينما السفر يتحدث عن الجيل الخامس لأبناء العائدين من السبي.

وعليه فكاتب السفر عاش على أقل تقدير في الجيل الخامس من الرجوع البابلي فمن هو هذا الكاتب؟

يجيب المدخل الفرنسي: " جرت العادة بأن تنسب مجموعة الأخبار وعزرا ونحميا إلى كاتب واحد لا يعرف اسمه، يقال له: محرر الأخبار ".

ويقول القس وليم مارش: " كاتب السفر حسب تقليد اليهود هو عزرا، وهذا قول أكثر رجال الكنيسة المسيحية أيضًا، غير أن بعض العلماء حديثًا يقولون: إن كاتبًا اسمه مجهول كتب سفر عزرا وكتب أيضًا سفر نحميا". (١)

سادسًا: سفر استير.

وفي هذا السفر يتصور الخيالُ اليهودي ملكةَ فارس يهودية وذات نفوذ تستخدمه لصالح الشعب اليهودي. ولم يذكر اسم الله في هذا السفر أبدًا، وتبرر ذلك مقدمة السفر في

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٣٦)، مقدمة المناظرة الحديثة، أحمد ديدات، (٨٨)، التوراة عرض وتحليل، فؤاد حسين علي، (٥٢ –٥٥)، الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد، (٩٦–١٠٠).

التوراة الكاثوليكية فتقول عن النص العبراني منه: "لربما كان ذلك خشية أن ترافق اسم الله هتافات وتظاهرات غير لائقة من قبل سامعين في نشوة من الأفراح، وهذا أمر مضر بالاحترام الواجب لاسم الله" ولا أدري لماذا لم يُحترَز عن ذكر اسم الله في سفر نشيد الإنشاد، وهو أيضًا مجموعة من الأغاني الغرامية؟

وعن مؤلفه يقول كتاب " مرشد الطالبين ": " مجهول "، ويقول الدكتور بوست: " ينسب البعض تأليف هذا السفر إلى عزرا، وآخرون إلى كاهن يدعى يهوياقيم، والبعض ينسبونه إلى أعضاء المجمع العظيم، على أن الأكثرين ينسبونه إلى مردخاي ".

أما مقدمة السفر الكاثوليكي فترى تأخر تأليفه "فقد يرجع إلى الجيل الثاني قبل المسيح".

وقد شكك البعض في قانونية السفر مثل مليتو الساردیسي، وجورجي النزيانزي كما ذكر ذلك قاموس الكتاب المقدس.

ويقول عنه لوثر: " ليت هذا السفر لم يوجد ".

وينقل العلامة الهندي قول بطرس عبد الملك وجون طمسن: " لا يوجد تناسق أو انسجام بين السفر في العبرية وبين هذه الزيادات، بل إن هناك تناقضًا بينها، فتذكر هذه الإضافات أن ملك الفرس في ذلك الحين هو ارتزركسيس بدلًا من روكسيس، وتذكر أن هامان كان مقدونيًا بدلًا من كونه فارسيًا ". (١)

وفي النسخة اليونانية التي يعتمدها الكاثوليك زيادات غير موجودة في النسخة العبرانية، مثل حلم مردوخاي وصلواته وسوى ذلك، وقصد المترجمون إلى اليونانية بهذه الزيادات إضفاء صفة دينية على السفر العبري الذي ليس فيه ما يشير إلى أنه نص ديني، كما صرحت المقدمة الكاثوليكية للسفر.

سابعًا: سفر أيوب.

من المفترض أن يكون هذا السفر من كتابة النبي أيوب، لكن جاء في وسط السفر ما

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٤٧)، التوراة عرض وتحليل، فؤاد حسين علي، (٥٦ – ٥٧)، الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد، (١٠١).

يدل على أن كاتبًا آخر غير أيوب قد تدخل فيه، ففي نهاية الإصحاح ٣١ يقول: " تَمَّتْ أَقْوَالُ أَيُّوبَ. " (أيوب ٣١/ ٤٠) من غير أن ينتهي السفر حينذاك، بل استمر بعده أحد عشر إصحاحًا تحدثت عن أيوب.

وفي نهاية السفر " ١٦وَعَاشَ أَيُّوبُ بَعْدَ هذَا مِئَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَرَأَى بَنِيهِ وَبَنِي بَنِيهِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَجْيَال. ١٧ثُمَّ مَاتَ أَيُّوبُ شَيْخًا وَشَبْعَانَ الأَيَّامِ. " (أيوب ٤٢/ ١٦ – ١٧)، فهل هذا أيضًا من كتابة أيوب؟.

ويرى الدكتور صموئيل شولتز أن تاريخ كتابة هذا السفر مجهول، وكذلك زمن الخلفية التاريخية واسم المؤلف.

أما المقدمة الكاثوليكية للسفر فتحاول تحديد زمن التأليف، فترى أن "كاتب هذا السفر يأتي بعد إرميا، وقد استلهمه (أي من إرمياء) وبعد حزقيال، وهو سابق دون شك للعهد الإغريقي، وأغلب الظن أنه من أبناء الجيل الخامس". (١)

ويحسن أن ننبه هنا إلى أن النسخة الكاثوليكية اليونانية لسفر أيوب تنقص مايقرب من خمس السفر المذكور في النسخة العبرانية.

ثامنًا: سفر المزامير:

يحوي سفر المزامير مائة وخمسين مزمورًا تنسب إلى مؤلفين مختلفين، إذ ينسب إلى النبي داود ثلاثة وسبعون مزمورًا، وإلى موسى مزمور واحد، وإلى أساف اثنا عشر مزمورًا، وينسب إلى بني قورح تسعة مزامير، ومزموران إلى سليمان، وآخر إلى ايثان، وتسمى المزامير الباقية (٥١ مزمورًا) بالمزامير اليتيمة لأنه لا يعرف قائلها!.

فكيف وصفت بالوحي؟ وهل كان بنو قورح أيضًا أنبياء؟ وهل كان أساف كبير المغنيين في بلاط داود نبيًا؟ وما أدلة نبوة هؤلاء؟ إن أحدًا لا يملك إجابة عن هذه الأسئلة.

والمتأمل في المزامير يدرك بوضوح كبير أن المزامير تعود إلى ما بعد داود وسليمان، وتحديدًا

---

(١) انظر: الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد (١٠١)، التوراة عرض وتحليل، فؤاد حسين علي، (٦١ – ٦٢)، إظهار الحق (١/ ١٣٧).

إلى القرن السادس قبل الميلاد، إلى أيام السبي البابلي، وذلك يظهر من أمثلة متعددة.

منها ما جاء في المزمور التاسع والسبعين والمنسوب لآساف كبير المغنيين في بلاط الملك داود، حيث يقول: " ١اللهمَّ، إِنَّ الأُمَمَ قَدْ دَخَلُوا مِيرَاثَكَ. نَجَّسُوا هَيْكَلَ قُدْسِكَ. جَعَلُوا أُورُشَلِيمَ أَكْوَامًا. ٢دَفَعُوا جُثَثَ عَبِيدِكَ طَعَامًا لِطُيُورِ السَّمَاءِ " (٧٩/ ١ – ٢).

ومثله في قوله: " ٢الرَّبُّ يَبْنِي أُورُشَلِيمَ. يَجْمَعُ مَنْفِيِّي إِسْرَائِيلَ. ٣يَشْفِي الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ. " (١٤٧/ ٤).

ومثله " عَلَى أَنْهَارِ بَابِلَ هُنَاكَ جَلَسْنَا، بَكَيْنَا أَيْضًا عِنْدَمَا تَذَكَّرْنَا صِهْيَوْنَ. ٢عَلَى الصَّفْصَافِ فِي وَسَطِهَا عَلَّقْنَا أَعْوَادَنَا. ٣لأَنَّهُ هُنَاكَ سَأَلَنَا الَّذِينَ سَبَوْنَا كَلاَمَ تَرْنِيمَةٍ (بعد السبي البابلي)، وَمُعَذِّبُونَا سَأَلُونَا فَرَحًا قَائِلِينَ: «رَنِّمُوا لَنَا مِنْ تَرْنِيمَاتِ صِهْيَوْنَ». (١٣٧/ ١). . . . وغيرها.

وهذه الأمثلة تثبت أن كتابة المزامير تأخرت عن داود ما لا يقل عن أربعة قرون، وعليه فلا تصح نسبتها إليه أو إلى معاصريه. [1]

تاسعًا: سفر (الأمثال) و (الجامعة) و (نشيد الإنشاد).

وتنسب الأسفار الثلاثة حسب التقليد الكنسي واليهودي إلى النبي سليمان عليه السلام.

لكن التأمل في سفر الأمثال يظهر فقرات لا تصح نسبتها إلى سليمان، فقراءتها تظهر أن لها أكثر من كاتب بدليل تكرار أكثر من مائة مثل باللفظ أو بالمعنى كما في (١٨/ ٨ و ٢٦/ ٢٢ و١٩/ ٢٤).

وقد نص السفر على أن بعض هذه الأمثال لسليمان، فقد بدأ بقوله: " أَمْثَالُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ " (١/ ١) ثم عاد في الإصحاح العاشر، فأكد عليه.

وكذا في الإصحاح الخامس والعشرين يؤكد أن سليمان هو قائل هذا السفر، ويضيف بأن الذي نقلها عنه هم رجال الملك حزقيا، فيقول: "١هذِهِ أيضًا أَمْثَالُ سُلَيْمَانَ الَّتِي نَقَلَهَا

---

(١) وانظر: الاختلاف الكبير في تحديد أسماء المؤلفين في كتاب: إظهار الحق (١/ ١٣٨ – ١٤٠).

رِجَالُ حَزَقِيَّا مَلِكِ يَهُوذَا " (٢٥/ ١).

ولا نعرف من هم رجال حزقيا، ولا كيف وصلت إليهم كلمات النبي سليمان، وهل هم أيضًا أنبياء، علمًا بأن حزقيا هو الملك الثاني عشر بعد سليمان؟.

وفي الإصحاح الثلاثين تنسب مجموعة الأمثال إلى غير سليمان، ففيه " ١كَلاَمُ أَجُورَ ابْنِ مُتَّقِيَةِ مَسَّا. " (أمثال ٣٠/ ١) ولا يذكر السفر نبوته ولا إلهاميته، وفي الإصحاح الذي يليه " ١كَلاَمُ لَمُوئِيلَ مَلِكِ مَسَّا، عَلَّمَتْهُ إِيَّاهُ أُمُّهُ" (٣١/ ١)، ولا يذكر لنا السفر كيف اعتبر هذا الذي علمته أمه من الوحي.

ويقول المدخل للآباء اليسوعيين (التوراة الكاثوليكية): " السفر ليس بكامله من تأليف هذا الملك، وهو يسند إلى مجموعتين مهمتين. . المجموعة المركبة قد اكتملت دون شك بشكلها النهائي بعد السبي. . يستحيل تحديد أصل هذه المجموعات حتى المسندة منها إلى سليمان. . إن عددًا كبيرًا من هذه الأمثال لا صفة دينية لها البتة "(١)

"فلا يمكن أن يدعى أن هذا الكتاب كله تصنيف سليمان عليه السلام ولا يمكن أن جامعه هو أيضًا، ولذلك اعترف الجمهور أن أناسًا كثيرين مثل حزقيا وإشعيا ولعل عزرا أيضًا جمعوه". (٢)

وأما سفر الجامعة فقد جاء في أوله: "كَلاَمُ الْجَامِعَةِ ابْنِ دَاوُدَ الْمَلِكِ فِي أُورُشَلِيمَ " (١/ ١) وفي موضع آخر يقول: "أَنَا الْجَامِعَةُ كُنْتُ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي أُورُشَلِيمَ " (١/ ١٢).

وليس في ملوك بني إسرائيل من اسمه الجامعة، وقد ذكروا في أيام (١) ٣/ ١ -٢٢، لذلك ينسبه الكهنوتيون إلى سليمان، ولا يصح هذا لأنه يقول: "وَأَيضًا رَأَيْتُ تَحْتَ الشَّمْسِ: مَوْضِعَ الْحَقِّ هُنَاكَ الظُّلْمُ، وَمَوْضِعَ الْعَدْلِ هُنَاكَ الْجَوْرُ!. . . " (٣/ ١٦).

ومثل هذه الصورة التشاؤمية لا يمكن أن تصدر عن النبي سليمان الملك الذي يملك رفع الحق وتثبيته، ومثله " ١ثُمَّ رَجَعْتُ وَرَأَيْتُ كُلَّ الْمَظَالِمِ الَّتِي تُجْرَى تَحْتَ الشَّمْسِ: فَهُوَذَا

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (٤٧).

(٢) إظهار الحق (١/ ١٤٣).

دُمُوعُ الْمَظْلُومِينَ وَلاَ مُعَزّ لَهُمْ، وَمِنْ يَدِ ظَالِمِيهِمْ قَهْرٌ، أَمَّا هُمْ فَلاَ مُعَزّ لَهُمْ "(٤/ ١)، ومثله كثير، فالسفر يحمل صورة تشاؤمية لا يمكن أن تصدر عن نبي ملك.

واليهود بعدما أطلقوا من أسر بابل أخرجوه من الكتب الإلهامية، لكنه ادخل بعد ذلك فيها(١).

وأما سفر نشيد الإنشاد فهو أشد الأسفار إثارة، وقد تعرض لتردد كثير حتى قُبل وأضيف للكتاب المقدس، ويرى المحققون أنه يعود إلى القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد، وإن اشتمل على بعض الأغاني القديمة جدًّا.

يقول عنه المدخل الفرنسي: " إن هذا الكتاب الصغير يمثل مسألة من أشد الأمور المتنازع عليها في نصوص الكتاب المقدس، فما معنى تلك القصيدة أو تلك المجموعة من القصائد الغزلية في العهد القديم. . لا نجد فيه أي مفتاح للسيرة. من الذي ألفه؟ وفي أي تاريخ؟ ولماذا ألف؟. . من الواضح أن مؤلفه ليس سليمان ".

وعن هذا السفر يقول مدخله في التوراة الكاثوليكية: " لا يقرأ نشيد الإنشاد إلا القليل من المؤمنين، لأنه لا يلائمهم كثيرًا ".

ويقول وشتن: " إنه غناء فسقي فليُخرج من الكتب المقدسة "، وقال العالم وارد الكاثوليكي عنه: " حكم كاستيليو بإخراج هذا الكتاب من كتب العهد العتيق لأنه غناء نجس "(٢).

عاشرًا: سفر إشعيا.

وينسب السفر إلى النبي إشعيا في القرن الثامن قبل الميلاد، فقد عاصر الملك عزيا ثم يوثام ثم أحاز ثم حزقيا، ولكن السفر يتحدث عن الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد مما يؤكد أن ثمة كاتبًا أو كاتبِين قد كتبوا ذلك بعد إشعيا، ومن أمثلة ذلك حديثه عن بابل الدولة العظيمة وتنبؤه بإنهيارها.

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٤٤).

(٢) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٤٥)، قراءات في الكتاب المقدس، عبد الرحيم محمد (٢/ ٢٦٦)، التوراة عرض وتحليل، فؤاد حسين علي، (٧٦)، الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد (١٠٣)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، محمد البار، (٢٣٥ - ٢٣٦).

وأيضًا حديثه عن كورش الفارسي الذي ردّ اليهود من السبي (انظر ٤٤/ ٢٨ – ٤٥/ ١).

كما يتحدث عن رجوع المسبيين والشروع في بناء الهيكل في الإصحاحات ٥٦ – ٦٦، لذا يقول العالم الألماني أستاهلن: " لا يمكن أن يكون الباب الأربعون وما بعده حتى الباب السادس والستين من تصنيف إشعيا". [١]

لذا تنقل لنا مقدمة السفر الكاثوليكي أن "عددًا متزايدًا من الشراح الكاثوليك يعتبرون اليوم أن عمل إشعيا قد تابعه أنبياء آخرون، لهم ما له من الأهمية، لكنهم لم يخلِّفوا لنا أسماءهم".

الحادى عشر: سفر إرمياء

أما سفر إرمياء فإن تقاليد الكنيسة تنسبه إلى النبي إرمياء، ولا تصح هذه النسبة، إذ هو من عمل عدة مؤلفين، بدليل تناقضه في ذكر الحادثة الواحدة، ومن ذلك تناقضه في طريقة القبض على إرمياء وسجنه (انظر: إرمياء ٣٧/ ١١ – ١٥ و ٣٨/ ٦ – ١٣).

كما يحمل السفر اعترافًا بزيادة لغير إرمياء ففيه " ٣٢فَأَخَذَ إِرْمِيَا دَرْجًا آخَرَ وَدَفَعَهُ لِبَارُوخَ بْنِ نِيرِيَّا الْكَاتِبِ، فَكَتَبَ فِيهِ عَنْ فَمِ إِرْمِيَا كُلَّ كَلاَمِ السِّفْرِ الَّذِي أَحْرَقَهُ يَهُويَاقِيمُ مَلِكُ يَهُوذَا بِالنَّارِ، وَزِيدَ عَلَيْهِ أيضًا كَلاَمٌ كَثِيرٌ مِثْلُهُ. " (٣٦/ ٣٣).

وفي موضع آخر " إِلَى هُنَا كَلاَمُ إِرْمِيَا. " (٥١/ ٦٤)، ومع ذلك يستمر السفر، فمن الذي أكمله؟[٢]

رابعًا: خاتمة جامعة (اعترافات)

ونختم مع اعتراف مهم يسجله مدخل التوراة الكاثوليكية وفيه: " صدرت جميع هذه الكتب عن أناس مقتنعين بأن الله دعاهم لتكوين شعب يحتل مكانًا في التاريخ. . . ظل عدد كبير منهم مجهولًا. . معظم عملهم مستوفى من تقاليد الجماعة، وقبل أن تتخذ كتبهم صيغتها النهائية انتشرت زمنًا طويلًا بين الشعب، وهي تحمل آثار ردود فعل القراء في شكل تنقيحات وتعليقات، وحتى في شكل إعادة صياغة بعض النصوص إلى حد هام أو

(١) انظر: إظهار الحق (١/ ١٥٠).

(٢) هل العهد القديم كلمة الله؟ (ص٤٩) وانظر: إظهار الحق (١/ ١٤٨ - ١٤٩).

قليل الأهمية، لا بل أحدث الأسفار ما هي إلا تفسير وتحديث لكتب قديمة ".

إذًا هذه الأسفار مجهولة المؤلف، لا تصح نسبتها إلى الأنبياء، بل هي من عمل الشعب اليهودي طوال عصور التاريخ اليهودي، وقد استلهموا هذه الكتابات من تقاليدهم، لا من الله ووحيه، وكل ذلك شاهد على أن التوراة ليست كلمة الله.

وقد صدق موريس فورن حين قال: " لو سألنا في أي وقت جمع كل كتاب من كتب التوراة، وفي أي حال، وظروف؟ وبأقلام من كتب؟ لا نجد أحدًا يجيبنا عن تلك الأسئلة وما شابهها إلا بأجوبة متباينة متخالفة جدًا. . .

والملخص أن المذاهب العلمية الجديدة ترفض أغلب أقوال علماء النقل التي هي أساس اعتقاد النصارى واليهود، وتقوض بنيان ادعاء السابقين، وتبرئ الأنبياء من تلك الكتابات ".

ويواصل فيقول: " ما الحيلة ونحن من مائة سنة حيارى بين أسانيد يمحو بعضها بعضًا، فالحديث يناقض سابقه، والسابق ينافي الأسبق، وقد تتناقض أجزاء الدليل الواحد. . وأيِسنا من الوصول إلى معرفة صاحب الكتاب الحقيقي".

وصدق الله حين قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(البقرة: ٧٩). [١]

ثانيًا: العهد الجديد.

هل ثبت إسناد متصل لكتب العهد الجديد؟.

تمهيد:

تعود أسفار العهد الجديد السبعة والعشرون إلى ثمانية مؤلفين تفاوتت مقادير كتاباتهم، ففي حين لم تزد رسالة يهوذا عن صفحتين فإن لبولس ما يربو على المائة صفحة.

وأيضًا يتفاوت قرب هؤلاء من المسيح، ففي حين أن متى ويوحنا وبطرس ويهوذا ويعقوب من تلاميذه الاثني عشر، فإن لوقا ومرقس لم يلقيا المسيح، بينما لم يتنصر بولس إلا

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (٥٠).

بعد رفع المسيح، والنصارى يعتبرون هؤلاء المؤلفين الثمانية بشرًا ملهمين، كتبوا ما أملاه عليهم روح القدس وفق أسلوبهم، وقد ثبت لدينا عدم إلهامية كتبة العهد الجديد فيما سبق. (١)

ولكن هل تصح نسبة الكتب إلى هؤلاء الثمانية؟ وبالذات إلى متى ويوحنا وبطرس الذين يفترض أنهم من أخص تلاميذ المسيح؟ أم أن النسبة هي أيضًا محرفة؟ وهل من الممكن أن يصدر هذا الكلام - الذي في العهد الجديد - من حواريي المسيح الذين رباهم طوال سني رسالته، وذكرهم القرآن بالثناء الحسن؟

إن تأمل المحققين في كتابات العهد الجديد، جعلهم يرون أن هذه الأسفار لا يمكن أن تصدر عن تلاميذ المسيح المؤمنين، فاهتموا لذلك بدراسة وتوثيق نسبة هذه الأسفار إليهم.

ولن نتوقف طويلًا مع توثيق نسبة بعض الأسفار، لأن كتبتها ليسوا من تلاميذ المسيح، وعليه فلا يهمنا إن كان كاتب إنجيلي مرقس ولوقا هما مرقس ولوقا أو أيًا من النصارى الذين عاشوا في نهاية القرن الميلادي الأول، إذ أي من هؤلاء ليس بمعصوم ولا ملهم ولا يملك ثناء واحدًا من المسيح ﷺ، ومثله نصنع في رسائل بولس عدو المسيح الذي ادعى الرسالة والعصمة، وهو لم يلق المسيح البتة. (٢)

أولًا: إنجيل متى

١- التعريف بالإنجيل:

وهو أول إنجيل يطالعك وأنت تقرأ في الكتاب المقدس، ويتكون هذا الإنجيل من ثمانية وعشرين إصحاحًا تحكي عن حياة المسيح ومواعظه من الميلاد وحتى الصعود إلى السماء.

وتنسبه الكنيسة إلى الحواري متّى أحد التلاميذ الاثني عشر الذين اصطفاهم المسيح، وتزعم أن هذا الكتاب قد ألهمه من الروح القدس. وترجح المصادر أن متى كتب إنجيله لأهل فلسطين، أي لليهود المتنصرين، وتختلف المصادر اختلافًا كبيرًا في تحديد تاريخ

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٤٧)، وانظر: المسيحية. . . دراسة وتحليل، ساجد مير (١٩٢)، خبايا الكتاب المقدس، مجدي قاسم (٦١ - ٦٨).

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٤٧).

كتابته، لكنها تكاد تطبق على أنه كتب بين ٣٧ - ١٠٠م.

يقول مدخل الإنجيل في نسخة الرهبانية اليسوعية: "فالكثير من المؤلفين يجعلون تاريخ الإنجيل الأول بين السنة ٨٠ والسنة ٩٠، وربما قبلها بقليل، ولا يمكن الوصول إلى يقين تام في هذا الأمر".

ويرجح فنتون مفسر الإنجيل أنه "كتب في حوالي الفترة من ٨٥ - ١٠٥م"، وهو يقارب ما ذهب إليه البرفسور هارنج حين قال: "إن إنجيل متى ألف بين ٨٠ - ١٠٠م". (١)

٢ـ التعريف بمتى:

فمن هو متّى؟ وما صلته بالإنجيل المنسوب إليه؟ وهل يحوي هذا الإنجيل كلمة الله ووحيه؟.

في الإجابة عن هذه الأسئلة تناقل المحققون ماذكره علماء النصارى في ترجمة متى، فهو أحد التلاميذ الاثني عشر، وكان يعمل عشارًا في كفر ناحوم، وقد تبع المسيح بعد ذلك.

وتذكر المصادر التاريخية أنه رحل إلى الحبشة، وقتل فيها عام ٧٠ م، ولم يرد له ذكر في العهد الجديد سوى مرتين، أما المرة الأولى فعندما نادى عليه المسيح، وهو في مكان عمله في الجباية (انظر متى ١٠/ ٣). والثانية في سياق تعداد أسماء التلاميذ الاثني عشر. (انظر متى ١٠/ ٣، ولوقا ٦/ ١٥).

ويجدر أن نذكر أن مرقس ولوقا يذكران أن العشار الذي لقيه المسيح في محل الجباية هو لاوي بن حلفي (انظر مرقس ٢/ ١٥، ولوقا ٥/ ٢٧) ولم يذكرا اسم متى. وتزعم الكنيسة – بلا دليل – أن لاوي بن حلفي هو اسم آخر لمتى العشار.

يقول جون فنتون مفسر إنجيل متى وعميد كلية اللاهوت بلينشفيلد بأنه لا يوجد دليل على أن متى هو اسم التنصير للاوي، ويرى أنه من المحتمل " أنه كانت هناك بعض الصلات بين متى التلميذ والكنيسة التي كتب من أجلها هذا الإنجيل، ولهذا فإن مؤلف هذا الإنجيل نسب عمله إلى مؤسس تلك الكنيسة أو معلمها الذي كان اسمه متى،

---

(١) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي (٨ – ١٢)، تاريخ الكنيسة، يوسابيوس القيصري، (١٤٦).

ويحتمل أن المبشر كاتب الإنجيل قد اغتنم الفرصة التي أعطاه إياها مرقس عند الكلام على دعوة أحد التلاميذ، فربطها بذلك التلميذ الخاص أحد الاثني عشر (متّى) الذي وقره باعتباره رسول الكنيسة التي يتبعها ". [١]

وأما لغة كتابة هذا الإنجيل:

فيكاد المحققون يُجمعون على أنها العبرانية، ورأى بعضهم بأنها السريانية أو اليونانية.

ولعل أهم الشهادات التاريخية لهذا الإنجيل شهادة أسقف هرابوليس الأسقف بابياس ١٥٥م حين قال: " قد كتب متى الأقوال بالعبرانية، ثم ترجمها كل واحد إلى اليونانية حسب استطاعته " كما يقول ايريناوس أسقف ليون ٢٠٠م في كتابه "الرد على الهراطقة" بأن متى وضع إنجيلًا للعبرانيين كتب بلغتهم.

ولما كانت جميع مخطوطات الإنجيل الموجودة يونانية فقد تساءل المحققون عن مترجم الأصل العبراني إلى اليونانية، وفي ذلك أقوال كثيرة لا دليل عليها البتة، فقيل بأن مترجمه متى نفسه، وقيل: بل يوحنا الإنجيلي، وقيل غيرهما.

والصحيح ما قاله القديس جيروم (٤٢٠م): " الذي ترجم متى من العبرانية إلى اليونانية غير معروف"، بل لعل مترجمه أكثر من واحد كما قال بابياس.

وقد قال نورتن الملقب "بحامي الإنجيل" عن عمل هذا المترجم المجهول: " إن مترجم متى كان حاطب ليل، ما كان يميز بين الرطب واليابس. فما في المتن من الصحيح والغلط ترجمه". [٢]

٣ـ أدلة الكنيسة على صحة نسبة الإنجيل إلى متى:

وتؤكد الكنيسة بأن متى هو كاتب الإنجيل، وتستند لأمور ذكرها محررو قاموس الكتاب المقدس، أهمها: " الشواهد والبينات الواضحة من نهج الكتابة بأن المؤلف يهودي متنصر ".

وأيضًا " لا يعقل أن إنجيلًا خطيرًا كهذا - هو في مقدمة الأناجيل - ينسب إلى

---

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٥٨)، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٢٢).

(٢) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٢/ ٥٢٣ – ٥٣٣).

شخص مجهول، وبالأحرى أن ينسب إلى أحد تلاميذ المسيح "، وأيضًا " يذكر بابياس " في القرن الثاني الميلادي أن متى قد جمع أقوال المسيح".

وأخيرًا " من المسلم به أن الجابي عادةً يحتفظ بالسجلات، لأن هذا من أهم واجباته لتقديم الحسابات، وكذلك فإن هذا الإنجيلي قد احتفظ بأقوال المسيح بكل دقة ". (١)

ملاحظات على إنجيل متى:

ومن خلال تأمل ما سبق رأى المحققون أنه ليس ثمة دليل حقيقي عند النصارى على صحة نسبة الإنجيل إلى متى، إذ ليس بالضرورة أن يكتب الجابي معلوماته الدينية كما يكتب متعلقات عمله، كما أن كتابة متى لأقوال المسيح لا تفيد صحة نسبة الإنجيل المنسوب إليه اليوم.

بل إن الأدلة قامت على أن الكاتب لهذا الإنجيل ليس من تلاميذ المسيح. إذ في الإنجيل أمور كثيرة تدل على أن كاتبه ليس متى الحواري، ومن هذه الأدلة:

١- أن متى اعتمد في إنجيله على إنجيل مرقس، فقد نقل من مرقس ٦٠٠ فقرة من فقرات مرقس الستمائة والاثني عشر، كما اعتمد على وثيقة أخرى يسميها المحققون.

يقول ج ب فيلبس أستاذ علم اللاهوت في الكنيسة الإنجليزية في مقدمته لإنجيل متى: " إن القديس متى كان يقتبس من إنجيل القديس مرقس، وكان ينقحه محاولًا الوصول إلى تصور أحسن وأفضل لله ".

ويضيف القس فهيم عزيز في "المدخل إلى الإنجيل" أن اعتماد متى على مرقس حقيقة معروفة لدى جميع الدارسين. بل يقول: " يكفي هنا أن نقول: إن متى احتوى على الغالبية العظمى من المادة التي يتكون منها إنجيل مرقس " فإذا كان متى التلميذ هو كاتب الإنجيل فكيف ينقل عن مرقس الذي كان عمره عشر سنوات أيام دعوة المسيح؟ كيف لأحد التلاميذ الاثني عشر أن ينقل عنه؟ هل ينقل الشاهد المعاين للأحداث عن الغائب

(١) قاموس الكتاب المقدس (٨٣٢)، والكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٢٤)

الذي لم يشهدها! ؟. [١]

٢- ثم إن إنجيل متى يذكر متى العشار مرتين، ولم يُشر من قريب أو بعيد إلى أنه الكاتب، فقد ذكر اسمه وسط قائمة التلاميذ الاثني عشر، ولم يجعله أولًا ولا آخرًا، ثم لما تحدث عن اتباعه للمسيح استخدم صيغة الغائب، فقال: " ٩وَفِيمَا يَسُوعُ مُجْتَازٌ مِنْ هُنَاكَ، رَأَى إِنْسَانًا جَالِسًا عِنْدَ مَكَانِ الْجِبَايَةِ، اسْمُهُ مَتَّى. فَقَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي». فَقَامَ وَتَبِعَهُ. " (متى ٩/ ٩).

ولو كان متى هو الكاتب لقال: " قال لي "، " تبعته "، " رآني "، فدل ذلك على أن متى ليس هو كاتب الإنجيل.

٣- ثم إن التمعن في الإنجيل يبين مدى الثقافة التوراتية الواسعة التي جعلت منه أكثر الإنجيليين اهتمامًا بالنبوءات التوراتية عن المسيح، وهذا لا يتصور أن يصدر من عامل ضرائب، فهذا الكاتب لن يكون متى العشار.

يقول أ. تريكو في شرحه للعهد الجديد (١٩٦٠م): إن الاعتقاد بأن متى هو عشار في كفر ناحوم ناداه عيسى ليتعلم منه، لم يعد مقبولًا، خلافًا لما يزعمه آباء الكنيسة. [٢]

منكرو نسبة الإنجيل إلى التلميذ متى.

وقد أنكر كثير من علماء المسيحية في القديم والحديث صحة نسبة الإنجيل إلى متى، يقول فاستس في القرن الرابع: " إن الإنجيل المنسوب إلى متى ليس من تصنيفه "، وكذا يرى القديس وليمس. والأب ديدون في كتابه " حياة المسيح".

ويقول ج ب فيلبس في مقدمته لإنجيل متى: " نسب التراث القديم هذه البشارة إلى الحواري متى، ولكن معظم علماء اليوم يرفضون هذا الرأي ".

ويقول البرفسور هارنج: إن إنجيل متى ليس من تأليف متى الحواري، بل هو لمؤلف مجهول أخفى شخصيته لغرض ما.

---

(١) انظر: مناظرتان في استكهولم، أحمد ديدات(٦٦)، اليهودية والمسيحية، محمد الأعظمي (٣٢١)، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٢٦)، والمدخل إلى العهد الجديد، القس: فهيم عزيز (٢٤٤) نقلًا عن المصدر السابق.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص (٨٠ – ٨٤).

وجاء في مقدمة الرهبانية اليسوعية لإنجيل متى: " أما المؤلِّف، فالإنجيل لا يذكر عنه شيئًا وأقدم تقليد كنسي (بابياس أسقف هيرابوليس في النصف الأول من القرن الثاني) ينسبه إلى الرسول متى. . ولكن البحث في الإنجيل لا يثبت ذلك الرأي أو يبطله على وجه حاسم، فلما كنا لا نعرف اسم المؤلف معرفة دقيقة يحسن بنا أن نكتفي ببعض الملامح المرسومة في الإنجيل نفسه. . . ".

ويقول القس فهيم عزيز في "المدخل إلى الإنجيل" عن كاتب متى المجهول: "

لا نستطيع أن نعطيه اسمًا، وقد يكون متى الرسول، وقد يكون غيره ".

ويقول المفسر جون فنتون في تفسيره لإنجيل متى عن كاتب متى: " إن ربط شخصيته كمؤلف بهذا التلميذ إنما هي بالتأكيد محض خيال ". (١)

وقد طعنت في صحة نسبة الإنجيل أو بعضه إلى متّى فرق مسيحية قديمة، فقد كانت الفرقة الأبيونية ترى البابين الأولين لإنجيل متى إلحاقيين، ومثلها فرقة يوني تيرين، ويرون أن البداية الحقيقية لهذا الإنجيل قوله: " في تلك الأيام جاء يوحنا المعمداني. . " (متى ٣/ ١)، فتكون بداية الإنجيل قصة يوحنا المعمداني كما هو الحال في مرقس ويوحنا.

ويدل على ذلك أيضًا أن قوله: " في تلك الأيام " لا يمكن عوده على ما في الإصحاحين السابقين، إذ كان الحديث في آخر الإصحاح الثاني عن قتل هيرودس للأطفال بعد ولادة المسيح، وهو زمن طفولة المسيح والمعمدان الذي يكبره بستة أشهر، بينما الإصحاح الثالث يتحدث عن دعوة المعمدان - أي وهو شاب -، وهذا يعني وجود سقط أو حذف قبل الإصحاح الثالث، أو أنه البداية الحقيقية للإنجيل. (٢)

من هو الكاتب الحقيقي لإنجيل متى؟

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٢/ ٥٣٨)، المسيح ﷺ بين الحقائق والأوهام، محمد وصفي، (٤١)، هل الكتاب المقدس كلام الله، أحمد ديدات، (٤٣ - ٤٥، ١٤٨)، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٢٧ - ١٢٨)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٥٣ - ٥٤).

(٢) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٢/ ٥٣٨).

وإذا لم يكن متى هو كاتب الإنجيل المنسوب إليه، فمن هو كاتب هذا الإنجيل؟

في الإجابة عن السؤال نقول: نتائج الدراسات الغربية التي أكدت أن هذا الإنجيل قد كتبه غير متى التلميذ، ونسبه إليه منذ القرن الثاني، ولربما يكون هذا الكاتب تلميذًا في مدرسة متى.

ويحاول كولمان وشراح الترجمة المسكونية تحديد بعض الملامح لهذا الكاتب، فالكاتب - كما يظهر في إنجيله - مسيحي يهودي يربط بين التوراة وحياة المسيح، وهو كما يصفه كولمان: يقطع الحبال التي تربطه باليهودية مع حرصه على الاستمرار في خط العهد القديم، فهو كاتب يهودي يحترم الناموس، ويعتبر بذلك من البعيدين عن مدرسة بولس الذي لا يحترم الناموس، بينما يقول هذا الكاتب " فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. " (متى ٥/ ١٩). [١]

ومما يؤكد براءة متى من كتابة هذا الإنجيل أن كثيرًا من الشراح والمحققين يرون - كما سبق بيانه - أن الإنجيل كتب بعد سنة ٧٠ م، وهي السنة التي مات فيها متى.

ولو تساءلنا أين الإنجيل الذي كتبه متى كما جاء في شهادة بابياس في القرن الثاني الميلادي؟

وفي الإجابة عن السؤال نقول: ذكر بابياس أن متى كتب وجمع أقوال المسيح، وما نراه في الإنجيل اليوم هو قصة كاملة عن المسيح، وليس جمعًا لأقواله، كما أن عدم صحة نسبة هذا الإنجيل إليه لا تمنع من وجود إنجيل آخر قد كتبه، ولعل من المهم أن نذكر بأن في الأناجيل التي رفضتها الكنيسة إنجيلًا يسمى إنجيل متى، فلعل بابياس عناه بقوله.

وهكذا رأى المحققون أن ثمة أمورًا تمنع القول بأن هذا الإنجيل هو كلمة الله ووحيه وهديه، فهو - وكما يقول الشيخ أبو زهرة - إنجيل " مجهول الكاتب، ومختلف في تاريخ كتابته، ولغة الكتابة، ومكانها، وتحديد من كتب له هذا الإنجيل، ثم شخصية المترجم وحاله من صلاح أو غيره وعلم بالدين، واللغتين التي ترجم عنها، والتي ترجم إليها، كل هذا يؤدي إلى فقد حلقات في البحث العلمي". [٢]

ما هي اللغة التي كتب بها وترجم إليها إنجيل متى؟

---

(١) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص (٨ - ١٢).

(٢) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص (٥٤).

لقد حدث الخلاف أيضًا بين علماء النصارى حول اللغة التي كتب بها إنجيل متى:

فقد اتفق الجمهور على أنه كتب بالعبرية أو السريانية، وربما كان مستندهم في ذلك قول بابياس: " إن متى كتب الأقوال باللغة العبرانية ". ولكن وقع الخلاف أيضًا بينهم في اسم متى.

وإذا كانوا قد اتفقوا على أنه كتب بالعبرانية، فإنهم قد اتفقوا أيضًا على أن أقدم نسخة عرفت شائعة رائجة كانت باليونانية "، ومعنى هذا: أنه على اعتبار أنه كتب بالعبرية فإن تلك النسخة الإنجيلية مفقودة ولا يستطيع أحد أن يتكهن أين هي؟.

ومع أن الجمهور على القول بأن الإنجيل كتب بالعبرية إلا أن الدكتور " بوست " في " قاموس المتاب المقدس " يقول: " إن هناك من يقول غنه كتب باليونانية، ثم يرجح أنه ألف باليونانية، مخالفًا بذلك إجماع مؤرخيهم ". [1]

أين كتب هذا الإنجيل؟

" هناك شواهد قوية تشير إلى أنطاكية باعتبارها موطنه الأصلي، ولما كان من الصعب ربط الإنجيل بمدينة محددة مثل " أنطاكية " فمن المناسب إذن أن نقول بأنه يأتي من مكان في المنطقة المحيطة بها، أو أي مكان ما يقع في شمال فلسطين". [2]

يقول جرجس زوين اللبناني فيما ترجمه عن الفرنسية: " إن متى كتب بشارته في أورشليم على ما ذهب إليه القديس إيرنموس "[3]

متى كتب إنجيل متى؟

ونجد أيضًا الخلاف في هذا الأمر واسعًا بين علماء الكتاب المقدس، ولم يستطع واحد منهم تحديد الوقت الذي كتب فيه هذا الإنجيل بالضبط. فالخلاف يمتد من سنة ٣٩ وحتى سنة ٦٥ م، ولا نعرف في أي السنوات من هذه إلى تلك كتب إنجيل متى. [4]

(١) المصدر السابق (٤٨).

(٢) الأناجيل أصلها وتطورها (١٤٠).

(٣) محاضرات في النصرانية (٤٧).

(٤) الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٣٠- ١٣٣) وانظر أيضًا: محاضرات في النصرانية (٤٨- ٤٩).

ونستطيع بعد كل ما سبق من الحديث عن إنجيل متى أن نخرج بهذه النتائج:

هناك اختلاف حول اللغة التي كتب بها الإنجيل، هل هي العبرية أو اليونانية؟ ، وعلى اعتبار أن الولى هي الأصل وأن الثانية ترجمة لها، فهناك اتفاق عل أن هذا الأصل قد فقد تمامًا، ولم يصلنا سوى الترجمة.

لا يعرف من هو المترجم.

امتدت ساحة الخلاف إلى المكان الذي ألف فيه.

لا يعرف في أي السنوات كتب.

فهل يمكن بعد ذلك أن يقال: إنه كتاب وحي أو أن بإلهام الروح القدس؟!

ولقد وددنا أن نعرف ذلك الأصل، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل، أم فيها انحراف، ولنعرف أفهم المترجم مرامي العبارات ومعانيها، سواء أكانت هذه المعاني تفهم بظاهر القول أم بإشارته أم بلحن القول وتلويحاته أم بروح المؤلف وغرضه ومرماه الكلي من الكلام؟. [1]

ثانيًا: إنجيل مرقس.

ثاني الأناجيل التي تطالعنا في العهد الجديد، وينسب إلى مرقس. فمن هو مرقس؟ وماذا عن كاتب هذا الإنجيل؟ وهل تصح نسبته إلى مؤلفه؟.

التعريف بالإنجيل:

يتكون إنجيل مرقس من ستة عشر إصحاحًا، تحكي قصة المسيح من لدن تعميده على يد يوحنا المعمداني إلى قيامة المسيح بعد قتله على الصليب.

وهو أقصر الأناجيل - ويعتبره النقاد - كما يقول ولس - أصح إنجيل يتحدث عن حياة المسيح، ويكاد يجمع النقاد على أنه أول الأناجيل تأليفًا، وأن إنجيل متى ولوقا قد نقلا عنه.

يقول العالم الألماني رويس: إنه كان الأصل الذي اقتبس منه إنجيلا متى ولوقا، وهذا الإنجيل هو الوحيد بين الأناجيل المسمى بإنجيل المسيح، إذ أول فقرة فيه " ١بَدْءُ إِنْجِيلِ

---

(١) محاضرات في النصرانية (٤٩).

يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ الله" (مرقس ١/ ١). [١]

٢ـ من هو مرقس؟

وتناقل المحققون ما رددته المصادر النصرانية في ترجمة مرقس، والتي يجمعها ما جاء في قاموس الكتاب المقدس عنه، فهو الملقب بمرقس، واسمه يوحنا، وقد رافق مرقس برنابا وبولس في رحلتيهما، ثم فارقهما، ثم عاد لمرافقة بولس. [٢]

ويتفق المترجمون له على أنه كان مترجمًا لبطرس الذي له علاقة بهذا الإنجيل.

ولم يكن من الحواريين الإثنى عشر الذين تتلمذوا للمسيح، واختصهم بالزلفى إليه، وأصله من اليهود، وكانت أسرته بأورشليم في وقت ظهور السيد المسيح. [٣]

ويذكر المؤرخ يوسيبوس أنه - أي مرقس - أول من نادى برسالة الإنجيل في الإسكندرية، وأنه قتل فيها.

قال بطرس قرماج في كتابه " مروج الأخبار في تراجم الأبرار " عن مرقس: "كان ينكر ألوهية المسيح ". [٤]

وأما لغة هذا الإنجيل:

فتكاد المصادر تتفق على أنها اليونانية، وذكر بعضهم أنها الرومانية أو اللاتينية.

وأقدم ذكر لهذا الإنجيل ورد على لسان المؤرخ بابياس (١٤٠م) حين قال: " إن مرقس أَلَّف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس ". [٥]

متى كتب هذا الإنجيل؟

---

(١) يجدر التنبيه على أن عبارة "ابن الله" لا ترد في جميع المخطوطات، كما نبه الآباء اليسوعيون في حاشيتهم على هذه الفقرة، وانظر: هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٥٥).

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاى (٨٤).

(٣) محاضرات في النصرانية (٥٠).

(٤) انظر: قاموس الكتاب المقدس(٨٥٣)، المسيح في مصادرالعقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، (٥٢ – ٥٦)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي، (١٥٣ – ١٥٤).

(٥) انظر: دراسة تحليلية نقدية لإنجيل مرقس، محمد عبد الحليم أبو السعد (٢٦٥ – ٢٦٧) وانظر: محاضرات في النصرانية (٥١).

نجد أن المؤرخين المسيحيين قد اختلفوا أيضًا في زمان تأليفه، وقد قال في ذلك هورن: " ألف الإنجيل الثاني سنة ٥٦ وما بعدها إلى سنة ٦٥، والأغلب أنه أُلف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣. "(١)

ويرى الناقد اليهودي سبينوزا أن هذا الإنجيل كتب مرتين إحداهما قبل عام ١٨٠م والثانية بعده.

أين كتب هذا الإنجيل؟

وتزعم المصادر النصرانية أن مرقس كتب إنجيله في روما، ولعله في الإسكندرية. (٢)

ملاحظات على إنجيل مرقس

وقد توقف المحققون مليًا مع هذا الإنجيل وكاتبه، وكانت لهم ملاحظات:

١ - أن مرقس ليس من تلاميذ المسيح، بل هو من تلاميذ بولس وبطرس. يقول المفسر دنيس نينهام مفسر مرقس: " لم يوجد أحد بهذا الاسم عرف أنه كان على صلة وثيقة، وعلاقة خاصة بيسوع، أو كانت له شهرة خاصة في الكنيسة الأولى ".

وثمة دليل قوي آخر هو شهادة المؤرخ بابياس (١٤٠م) حين قال: " اعتاد الشيخ يوحنا أن يقول: إذ أصبح مرقس ترجمانًا لبطرس دون بكل تدقيق كل ما تذكره، ولم يكن مع هذا بنفس الترتيب المضبوط ما رواه من أقوال وأفعال يسوع المسيح، وذلك لأنه لم يسمع من السيد المسيح فضلًا عن أنه لم يرافقه، ولكن بالتبعية كما قلت، التحق ببطرس الذي أخذ يصوغ تعاليم يسوع المسيح لتوائم حاجة المستمعين، وليس بعمل رواية وثيقة الصلة بيسوع وعن يسوع لأحاديثه ".

وأهم مسألة شغلت الباحثين بخصوص هذا الإنجيل خاتمته، فإن خاتمة هذا الإنجيل (١٦/ ٩ - ٢٠) غير موجودة في المخطوطات القديمة المهمة كمخطوطة الفاتيكان والمخطوطة السينائية.

ويقول وليم باركلي: إن النهاية المشهورة - علاوة على عدم وجودها في النسخ الأصلية القديمة - فإن أسلوبها اللغوي يختلف عن بقية الإنجيل.

---

(١) محاضرات في النصرانية (٥٢).

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٥٥).

ونقل رحمة الله الهندي عن القديس (جيروم) في القرن الخامس أنه ذكر بأن الآباء الأوائل كانوا يشكون في هذه الخاتمة.

وقد اعتبرتها النسخة الإنجليزية القياسية المراجعة (R S V) فقرات غير موثوق فيها، فحذفتها من طبعتها الصادرة عام ١٩٥٢م.

أما مقدمة الإنجيل في نسخة الرهبانية اليسوعية فتقول: "من المسلم به على العموم أن الخاتمة كما هي الآن (١٦/ ٩-٢٠) قد أضيفت لتخفيف ما في نهاية الكتاب من توقف فجائي في الآية ٨".

وعن الخاتمة الموجودة يقول الأب كسينجر: " لابد أنه قد حدث حذف للآيات الأخيرة عند الاستقبال الرسمي (النشر للعامة) لكتاب مرقس في الجماعة التي ضمنته.

وبعد أن جرت بين الأيدي الكتابات المتشابهة لمتى ولوقا ويوحنا، تم توليف خاتمة محترمة لمرقس بالعناصر من هنا ومن هناك لدى المبشرين الآخرين. . وذلك يسمح بتكوين فكرة عن الحرية التي كانوا يعالجون بها الأناجيل ".

ويعلق موريس بوكاي قائلًا: " ياله من اعتراف صريح بوجود التغييرات التي قام بها البشر على النصوص المقدسة". [1]

ثالثا: إنجيل لوقا

التعريف بالإنجيل: هو ثالث الأناجيل وأطولها، ويتكون من أربعة وعشرين إصحاحًا يتحدث الإصحاحان الأولان عن النبي يحيى وولادة المسيح، ثم تكمل بقية الإصحاحات سيرة المسيح إلى القيامة بعد الصلب.

متى كتب؟

وأما كتابة هذا الإنجيل فتختلف المصادر في تحديد زمنها بين ٥٣ - ٨٠ م، وقال هورن: أُلف الإنجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤، وقد اعتمد الكاتب في مصادره على مرقس، فنقل عنه ثلاثمائة وخمسين من فقراته التي بلغت ستمائة وإحدى

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٥٢)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي (٨٦ – ٨٧)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب(٥٦).

وستين فقرة، كما نقل عن متى أو عن مصدر آخر مشترك بينه وبين متى.[١]

من هو لوقا؟

وتنسب الكنيسة هذا الإنجيل إلى القديس لوقا، ولا تذكر المصادر النصرانية الكثير عن ترجمته، لكنها تتفق على أنه لم يكن من تلاميذ المسيح كما يتضح من مقدمته إذ يقول: " إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ. " (لوقا ١/ ١-٢).

وتتفق المصادر أيضًا في أنه لم يكن يهوديًا، وأنه رفيق بولس المذكور في (كولوسي ٤/ ١٤)وغيرها، وأنه كتب إنجيله من أجل صديقه ثاوفيلس " أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، ٤لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ"(لوقا ١/ ٣ - ٤).

وتختلف المصادر في تحديد شخصية ثاوفيلس، فقال بعضهم: كان من كبار الموظفين الرومان. وقال آخرون: من اليونان. وقال آخرون: بل كان مصريًا من أهل الإسكندرية، وتكاد المصادر تتفق على أنه كتب له باليونانية.[٢]

وأما لوقا، فقيل بأنه كان رومانيًا. وقيل إنطاكيًا، وقيل غير ذلك.

وعن مهنته، قيل بأنه كان طبيبًا، وقيل: كان مصورًا، لكنه على أي حال مثقف وهو كاتب قصص ماهر.[٣]

ملاحظات على إنجيل لوقا:

ويلحظ المحققون على إنجيل لوقا ملاحظات، أهمها:

١ - أن مقدمته تتحدث عن رسالة طابعها شخصي، وأنها تعتمد على اجتهاده لا على إلهام

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٦٤ - ٦٥، ١٥٠)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي (٨٧ - ٩٠) محاضرات في النصرانية (٥٤).

(٢) محاضرات في النصرانية (٥٣)، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٤٩)، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي (١٥٧)، الأناجيل أصلها وتطورها (١٢٧ - ١٢٨).

(٣) قاموس الكتاب المقدس(٨٢٢)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٦٤ - ٦٥)، محاضرات في النصرانية (٥٢ - ٥٣)، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٤٦ - ١٤٧).

وحي، وهي دليل صريح على انقطاع سند الإنجيل بعيسى عليه السلام وبالروح القدس، وكان قد لاحظ ذلك أيضًا عدد من محققي النصرانية، فأنكروا إلهامية هذا الإنجيل، منهم مستر كدل في كتابه " رسالة الإلهام " ومثله واتسن، ونسب هذا القول إلى القدماء من العلماء، وقال القديس أغسطينوس: " إني لم أكن أؤمن بالإنجيل لو لم تسلمني إياه الكنيسة المقدسة". [١]

٢- شك كثير من الباحثين في الإصحاحين الأولين من هذا الإنجيل، بل إن هذا الشك كما ذكر جيروم يمتد إلى الآباء الأوائل للكنيسة، وكذلك فرقة مارسيوني فليس في نسختها هذان الإصحاحان.

ويؤكد المحققون بأن لوقا لم يكتب هذين الإصحاحين، لأنه يقول في أعمال الرسل " ١اَلْكَلاَمُ الأَوَّلُ أَنْشَأْتُهُ يَا ثَاوُفِيلُسُ، عَنْ جَمِيعِ مَا ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَفْعَلُهُ وَيُعَلِّمُ بِهِ " (أعمال ١/ ١) أي معجزاته، بدليل تكملة النص " مَا ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَفْعَلُهُ وَيُعَلِّمُ بِهِ، ٢إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي ارْتَفَعَ فِيهِ " (أعمال ١/ ٢)، والإصحاحان الأولان إنما يتكلمان عن ولادة المسيح، لا عن أعماله. ونقل وارد كاثلك عن جيروم قوله: بأن بعض العلماء المتقدمين كانوا يشكون أيضًا في الباب الثاني والعشرين من هذا الإنجيل. [٢]

وهكذا نرى للإنجيل أربعة من الكتاب تناوبوا في كتابة فقراته وإصحاحاته.

٣- إن الغموض يلف شخصيته، فهو غير معروف البلد ولا المهنة ولا الجهة التي كتب لها إنجيله تحديدًا، ولا تاريخ الكتابة، والمعروف فقط أنه من تلاميذ بولس، وأنه لم يلق المسيح، فكيف يصح الاحتجاج بمن هذا حاله وكيف يجعل كلامه مقدسًا؟ [٣]

رابعًا: إنجيل يوحنا

التعريف بالإنجيل:

---

(١) انظر: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٥١).

(٢) انظر: الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن با جي البغدادي، صـ (٥٣٥ – ٥٣٦)، الأسفار المقدسة قبل الإسلام، صابر طعيمة، صـ (٢٦١).

(٣) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٦٠).

رابع الأناجيل إنجيل يوحنا، ولهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره؛ لأنه الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكرًا صريحًا الألوهية المسيح، فهذه الأوهية يعتبر هو نص إثباتها وركن الاستدلال فيها. (١)

ويتكون هذا الإنجيل من واحد وعشرين إصحاحًا تتحدث عن المسيح بنمط مختلف عن الأناجيل الثلاثة.

٢ـ متى كتب؟

ويرى المحققون أن كتابته جرت بين ٦٨ - ٩٨م، وقيل بعد ذلك. إذن فليس هناك تاريخ محرر لتدوين هذا الإنجيل. (٢)

٣ـ ما اللغة التي كتب بها؟

يقول الأستاذ شنودة: " سنة ٩٦ رجع يوحنا إلى أفسس وهناك كتب إنجيله ورسائله باللغة اليونانية ". (٣)

أين كتب؟

واختُلف في مكان كتابته، والأغلب أنه في تركيا - وتحديدًا في أفسس أو أنطاكيا -، وقيل الإسكندرية. (٤)

٥ـ من هو يوحنا الصياد؟

يوحنا بن زبدي الصياد، وهو صياد سمك جليلي، تبع وأخوه يعقوب المسيح، كما أن والدته سالومة كانت من القريبات إلى المسيح، ويرجح محررو القاموس بأنها أخت مريم والدة المسيح، وقد عاش حتى أواخر القرن الميلادي الأول، ويذهب المؤرخ ايرنيموس إلى أنه عاش إلى سنة ٩٨م، وتذكر الكنيسة أنه كتب إنجيله في أفسس قبيل وفاته. (٥)

---

(١) محاضرات في النصرانية (٥٤).

(٢) المصدر السابق (٥٨)، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٦٠).

(٣) يا أهل الكتاب تعالوا (١٦٤) نقلًا عن: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٦٢).

(٤) الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٦١).

(٥) انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (١١٠ – ١١١)، وانظر: إنجيل يوحنا في الميزان، محمد على زهران (ص ٩٠) الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٥٤ – ١٥٥).

٦ـ أدلة النصارى على نسبة الإنجيل إلى يوحنا:

وتستدل الكنيسة لتصحيح نسبة هذا الإنجيل بأدلة ذكرها محررو قاموس الكتاب المقدس وهي:

١-كان كاتب الإنجيل يهوديًا فلسطينيًا، ويظهر هذا من معرفته الدقيقة التفصيلية لجغرافية فلسطين، والأماكن المتعددة في أورشليم وتاريخ وعادات اليهود ...ويظهر من الأسلوب اليوناني للإنجيل بعض التأثيرات السامية.

٢- كان الكاتب واحدًا من تلاميذ المسيح، ويظهر هذا من استخدامه المتكلم الجمع.. وفي ذكر كثير من التفاصيل الخاصة بعمل المسيح ومشاعر تلاميذه... ويتضح من يوحنا (٢١/ ٢٤) أن كاتب هذا الإنجيل كان واحدًا من تلاميذ المسيح.

٣- كان كاتب الإنجيل هو التلميذ الذي كان المسيح يحبه.. وكان هذا التلميذ هو يوحنا نفسه ". [(١)]

ويتحدث مؤلف الإنجيل عن سبب تأليفه له فيقول: " ٣١وَأَمَّا هذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ الله، وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ " (يوحنا ٢٠/ ٣١) ".

ويوضح محررو قاموس الكتاب المقدس فيقولون: " كان الداعي الآخر إلى كتابة الإنجيل الرابع تثبيت الكنيسة الأولى في الإيمان بحقيقة لاهوت المسيح وناسوته، ودحض البدع المضلة التي كان فسادها آنذاك قد تسرب إلى الكنيسة، كبدع الدوكينيين والغنوصيين والكيرنثيين والأبيونيين... ولهذا كانت غايته إثبات لاهوت المسيح ".

وقد لقي هذا الإنجيل معارضة شديدة للإقرار بقانونيته، فاندفع د. بوست في قاموس الكتاب المقدس يدافع عنه ويقول: " وقد أنكر بعض الكفار قانونية هذا الإنجيل لكراهتهم تعليمه الروحي، ولا سيما تصريحه الواضح بلاهوت المسيح، غير أن الشهادة بصحته كافية.

فإن بطرس يشير إلى آية منه (بطرس (٢) ١/ ١٤، يوحنا ٢١/ ١٨) وأغناطيوس

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، صـ (١١٠ - ١١١).

وبوليكرس يقتطفان من روحه وفحواه، وكذلك الرسالة إلى ديوكينتس وباسيلوس وجوستينوس الشهيد وتايناس، وهذه الشواهد يرجع بنا زمانها إلى منتصف القرن الثاني.

وبناءً على هذه الشهادات، وعلى نفس كتابه الذي يوافق ما نعلمه من سيرة يوحنا نحكم بأنه من قلمه، وإلا فكاتبه من المكر والغش على جانب عظيم، وهذا الأمر يعسر تصديقه، لأن الذي يقصد أن يغش العالم لا يكون روحيًا". [1]

إنكار صحة نسبة الإنجيل إلى يوحنا

وتوجهت جهود المحققين لدراسة نسبة الإنجيل إلى يوحنا، ومعرفة الكاتب الحقيقي له، فقد أنكر المحققون نسبة الإنجيل إلى يوحنا الحواري، واستندوا في ذلك إلى أمور منها:

١ - أن ثمة إنكار قديمًا لصحة نسبته إلى يوحنا، وقد جاء هذا الإنكار على لسان عدد من الفرق النصرانية القديمة، منها فرقة ألوجين في القرن الثاني، يقول صاحب كتاب (رب المجد): "وجد منكرو لاهوت المسيح أن بشارة يوحنا هي عقبة كؤود، وحجر عثرة في سبيلهم، ففي الأجيال الأولى رفض الهراطقة يوحنا ". ولقد قال استادلن في العصور المتأخرة: " إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية. "

وتقول دائرة المعارف البريطانية: " هناك شهادة إيجابية في حق أولئك الذين ينتقدون إنجيل يوحنا، وهي أنه كانت هناك في آسيا الصغرى طائفة من المسيحيين ترفض الاعتراف بكونه تأليف يوحنا، وذلك في نحو ١٦٥م، وكانت تعزوه إلى سرنتهن (الملحد)، ولا شك أن عزوها هذا كان خاطئًا.

لكن السؤال عن هذه الطبقة المسيحية البالغة في كثرة عددها إلى أن رآه سانت

---

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (١١٠ - ١١١)، محاضرات في النصرانية (٥٦) وانظر الرد على كلام بوست السابق في نفس المصدر، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٦٢) وقد أخطأ د. بوست حين ذكر أن بطرس نقل من يوحنا، إذ تشابه الألفاظ لايعني النقل عن السابق، ولو لزم ذلك فإن يوحنا هو الذي نقل عن بطرس الذي توفي سنة ٦٥م، فيما كتب يوحنا إنجيله سنة ٩٥م، ثم إن الإحالة التي قصدها د. بوست ليست في (بطرس (٢) ١/ ١٤)، بل في (بطرس (١) ١/ ١٤)

ايبفانيوس جديرة بالحديث الطويل عنها في (٣٧٤ - ٣٧٧م) " أسماها القس " ألوغي " (أي معارضة الإنجيل ذي الكلمة).

لئن كانت أصلية إنجيل يوحنا فوق كل شبهة، فهل كانت مثل هذه الطبقة لتتخذ نحوه أمثال هذه النظريات في مثل هذا العصر، ومثل هذا البلد؟ لا وكلا".

وأقوى برهان على خطأ نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا أن جاستن مارتر في منتصف القرن الثاني تحدث عن يوحنا، ولم يذكر أن له إنجيلًا، واقتبس فيلمو - ١٦٥م - من إنجيل يوحنا، ولم ينسبه إليه.

وقد أُنكر نسبة الإنجيل إلى يوحنا أمام أرينيوس تلميذ بوليكارب الذي كان تلميذًا ليوحنا، فلم ينكر أرينيوس على المنكرين، ويبعد كل البعد أن يكون قد سمع من بوليكارب بوجود إنجيل ليوحنا، ثم لا يدافع عنه. [1]

وقد استمر إنكار المحققين نسبة هذا الإنجيل عصورًا متلاحقة، فجاءت الشهادات تلو الشهادات تنكر نسبته إلى يوحنا.

منها ما جاء في دائرة المعارف الفرنسية: " ينسب إلى يوحنا هذا الإنجيل وثلاثة أسفار أخرى من العهد الجديد، ولكن البحوث الحديثة في مسائل الأديان لا تُسلم بصحة هذه النسبة".

ويقول القس الهندي بركة الله في كتابه "لواء الصليب وتزوير الحقائق": " الحق أن العلماء باتوا لا يعترفون دونما بحث وتمحيص بالنظرية القائلة بأن مؤلف الإنجيل الرابع كان القديس يوحنا بن زبدي الرسول، ونرى النقاد بصورة عامة على خلاف هذه النظرية ".

وتقول دائرة المعارف البريطانية: " أما إنجيل يوحنا، فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة حواريين لبعضهما، وهما القديسان متى ويوحنا. . . وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم، وليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٥٥ - ١٥٦)، الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي البغدادي، ص (٥٦٠ - ٥٦١) وانظر أيضًا: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٥٥- ١٥٩)، المدخل إلى العهد الجديد (٥٥١).

الفلسفي الذي ألّف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليلي، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى، لخبطهم على غير هدى ". [١]

وعند تفحص الإنجيل أيضًا تجد ما يمتنع معه نسبته الإنجيل إلى الحواري يوحنا، فالإنجيل يظهر بأسلوب غنوصي يتحدث عن نظرية الفيض المعروفة عند فيلون الإسكندراني.

ولا يمكن لصائد السمك يوحنا أن يكتبه، خاصة أن يوحنا عامي كما وصفه سفر أعمال الرسل "فَلَمَّا رَأَوْا مُجَاهَرَةَ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا، وَوَجَدُوا أَنَّهُمَا إِنْسَانَانِ عَدِيمَا الْعِلْمِ وَعَامِّيَّانِ، تَعَجَّبُوا. " (أعمال ٤/ ١٣). وأما ما جاء في خاتمة الإنجيل مما استدل به القائلون بأن يوحنا هو كاتب الإنجيل وهو قوله: " ٢٤هذَا هُوَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهذَا وَكَتَبَ هذَا. وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَقٌّ"(يوحنا ٢١/ ٢٤). فهذه الفقرة كما يقول المحققون دليل على عدم صحة نسبة الإنجيل إلى يوحنا، إذ هي تتحدث عن يوحنا بصيغة الغائب.

ويرى ويست أن هذه الفقرة كانت في الحاشية، وأضيفت فيما بعد للمتن، وربما تكون من كلمات شيوخ أفسس. ويؤيده بشب غور بدليل عدم وجودها في المخطوطة السينائية.

وأما مقدمة الرهبانية اليسوعية فتقول عنها وعن الفقرة التي بعدها: "تشكلان إضافة يعترف بها جميع المفسرين".

ويرى العلامة برنت هلمين استرتير في كتابه " الأناجيل الأربعة " أن الزيادات في متن يوحنا وآخره كان الغرض منها " حث الناس على الاعتراف في شأن المؤلف بتلك النظرية التي كان ينكرها بعض الناس في ذلك العصر". [٢]

---

١ - انظر: اليهودية والمسيحية، محمد ضياء الرحمن الأعظمي (٣٢٦ – ٣٢٩)، الفارق بين الخالق والمخلوق، عبد الرحمن باجه البغدادي (٥٦١)، المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، محمد وصفي (٤١– ٤٢)، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، أحمد عبد الوهاب (٨٧ – ٨٨) محاضرات في النصرانية (٥٥).

(٢) انظر: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، يحيى ربيع، صـ (١٥٥)، ما هي النصرانية، محمد تقي العثماني، صـ (١٥٠ – ١٥٢)، اليهودية والمسيحية، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، صـ (٣٢٩)، هل الكتاب المقدس كلام الله، أحمد ديدات، صـ (٧٩).

ثم إن بعض المؤرخين ومنهم تشارلز الفريد، وروبرت إيزلز وغيرهما قالوا بأن يوحنا مات مشنوقًا سنة ٤٤م على يد غريباس الأول، وعليه فليس هو مؤلف هذا الإنجيل، إذ أن هذا الإنجيل قد كتب في نهاية القرن الميلادي الأول أو أوائل الثاني. (١)

من كتب إنجيل يوحنا؟

وإذا لم يكن يوحنا هو كاتب الإنجيل، فمن هو الكاتب الحقيقي؟

يجيب القس فهيم عزيز في مدخله إلى الإنجيل: " هذا السؤال صعب، والجواب عنه يتطلب دراسة واسعة غالبًا ما تنتهي بالعبارة: لا يعلم إلا الله وحده من الذي كتب هذا الإنجيل".

وحاول البعض الإجابة عن السؤال من خلال تحديد صفات كاتب الإنجيل دون ذكر اسم معين، يقول جرانت: " كان نصرانيًا، وبجانب ذلك كان هيلينيًا، ومن المحتمل أن لا يكون يهوديًا، ولكنه شرقي أو إغريقي، ونلمس هذا من عدم وجود دموع في عينيه علامة على الحزن عندما كتب عن هدم مدينة لليهود ".

وجاء في مدخل الإنجيل أن بعض النقاد " يترك اسم المؤلف، ويصفونه بأنه مسيحي كتب باليونانية في أواخر القرن الأول في كنائس آسيا ".

وقال مفسر إنجيل يوحنا جون مارش: " ومن المحتمل أنه خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الأول الميلادي قام شخص يدعى يوحنا، من الممكن أن يكون يوحنا مرقس خلافًا لما هو شائع من أنه يوحنا بن زبدي. . وقد تجمعت لديه معلومات وفيرة عن يسوع، ومن المحتمل أنه كان على دراية بواحد أو أكثر من الأناجيل المتشابهة، فقام حينئذ بتسجيل جديد لقصة يسوع".

وقال المحقق رطشنبدر: " إن هذا الإنجيل كله، وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه، بل صنفها أحد في ابتداء القرن الثاني، ونسبه إلى يوحنا ليعتبره الناس ".

ويوافقه استادلن، ويرى أن الكاتب " طالب من طلبة المدرسة الإسكندرية ".

---

(١) انظر: الغفران بين الإسلام والمسيحية، إبراهيم خليل أحمد صـ(١٨)، النصرانية، مصطفى شاهين صـ(٨٥).

وقال يوسف الخوري في " تحفة الجيل " بأن كاتب الإنجيل هو تلميذ يوحنا المسمى بروكلوس.

وقال بعض المحققين ومنهم جامس ماك كينون، واستيريتر في كتابه " الأناجيل الأربعة " بأن يوحنا المقصود هو تلميذ آخر من تلاميذ المسيح، وهو (يوحنا الأرشد)، وأن أرينوس الذي نسب إنجيل يوحنا إلى ابن زبدي قد اختلط عليه أمر التلميذين.

وذكر جورج إيلتون في كتابه " شهادة إنجيل يوحنا " أن كاتب هذا الإنجيل أحد ثلاثة: تلميذ ليوحنا الرسول أو يوحنا الشيخ (وليس الرسول) أو معلم كبير في أفسس مجهول الهوية.

لكن ذلك لم يفت في عضد إيلتون الذي ما زال يعتبر إنجيل يوحنا مقدسًا، لأنه " مهما كانت النظريات حول كاتب هذا الإنجيل، فإن ما يتضح لنا جليًا بأن كاتبه كان لديه فكرة الرسول، فإذا كتبه أحد تلاميذه فإنه بلا مراء كان مشبعًا بروحه ".

كما ذهب بعض المحققين إلى وجود أكثر من كاتب للإنجيل، منهم كولمان حين قال: " إن كل شيء يدفع إلى الاعتقاد بأن النص المنشور حاليًا ينتمي إلى أكثر من مؤلف واحد، فيحتمل أن الإنجيل بشكله الذي نملكه اليوم قد نشر بواسطة تلاميذ المؤلف، وأنهم قد أضافوا إليه "، ومثله يقول المدخل لإنجيل يوحنا. (١)

ومن هذا كله ثبت أن إنجيل يوحنا لم يكتبه يوحنا الحواري، ولا يعرف كاتبه الحقيقي، ولا يصح بحال أن ننسب العصمة والقداسة لكاتب مجهول لا نعرف من يكون.

وعند غض الطرف عن مجهولية الكاتب واستحالة القول بعصمته عندئذ، فإن ثمة مشكلات تثار في وجه هذا الإنجيل نبه المحققون إليها منها:

اختلاف هذا الإنجيل عن باقي الأناجيل الثلاثة رغم أن موضوع الأناجيل الأربعة هو تاريخ وسيرة المسيح عليه السلام.

إذ تتشابه قصة المسيح في الأناجيل الثلاثة، بينما يظهر الإنجيل الرابع غريبًا بينها.

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٥٥ – ١٥٧)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، ص (٦٩ – ٧٠)، ما هي النصرانية، محمد تقي العثماني، ص (١٤١ – ١٤٥)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص (٩٠ – ٩١).

فمثلًا: هو الإنجيل الوحيد الذي تظهر فيه نصوص تأليه المسيح، بل هو كتب لإثبات ذلك كما يقول المفسر يوسف الخوري: " إن يوحنا صنف إنجيله في آخر حياته بطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها، والسبب: أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح "، وأن كثيرين من فرق الشر كانت تقرر تلك الحقيقة، فطلب إلى يوحنا أن يكتب إنجيلا يتضمن بيان هذه الألوهية، فكتب هذا الإنجيل. (١)

ولما لم يكن في الأناجيل الثلاثة ما يدفع أقوال هذه الطوائف، أنشأ يوحنا إنجيله، وهذا المعنى يؤكده جرجس زوين، فيذكر عن أساقفة آسيا أنهم اجتمعوا " والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح، وينادي بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون ".

يقول الأب روغيه في كتابه "المدخل إلى الإنجيل": " إنه عالم آخر، فهو يختلف عن بقية الأناجيل في اختيار الموضوعات والخطب والأسلوب والجغرافيا والتاريخ، بل والرؤيا اللاهوتية".

وهذه المغايرة أوصلته إلى تقديم صورة للمسيح مغايرة تمامًا عما في الأناجيل الثلاثة والتي يسميها البعض: " المتشابهة " أو " الإزائية ".

لذا تقول دائرة المعارف الأمريكية: " من الصعب الجمع بين هذا الإنجيل والأناجيل الثلاثة، بمعنى أن لو قدرنا أنها صحيحة لتحتم أن يكون هذا الإنجيل كاذبًا ".

يقول السير آرثر فندلاي في كتابه "الكون المنشور" معبرًا عن هذا الاختلاف:

" إن إنجيل يوحنا ليس له قيمة تستحق الذكر في سرد الحوادث الأكيدة، ويظهر أن محتوياته لعب فيها خيال الكاتب دورًا بعيدًا ". (٢)

ومن المشكلات التي تواجه هذا الإنجيل أيضًا أن أيدي المحرفين نالت هذا الإنجيل،

---

(١) محاضرات في النصرانية (٥٨).

(٢) انظر: ما هي النصرانية، محمد تقي العثماني، ص (١٨١ – ١٨٢)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي، ص (١٦٢ – ١٦٥)، الأناجيل والرسائل بين انقطاع السند وتناقض المتن، محمد الشرقاوي، ص (٥٦)، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، أحمد عبد الوهاب، ص (٨٦).

فأضافت فيه رواية المرأة الزانية (انظر يوحنا ٨/ ١ - ١١) والتي يقول عنها مدخل الرهبانية اليسوعية إلى هذا الإنجيل: " هناك إجماع على أنها من مرجع مجهول فأدخلت في زمن لاحق". وقد حذفت هذه القصة من النسخة الإنجليزية القياسية المراجعة (R. S. V)لاعتبارها عبارة دخيلة على الإنجيل. [(١)]

كما أن كثيرًا من المحققين يعتقدون بأن الإصحاح الأخير ليس من تأليف مؤلف الإنجيل، يقول كرونيس: " إن هذا الإنجيل كان عشرين بابًا فألحقت كنيسة أفسس الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا ". [(٢)]

وهذا ما يعترف به كاتبو مقدمة الرهبانية اليسوعية، إذ اعتبرت الإصحاح العشرين خاتمة للإنجيل، واعتبرت الإصحاح الأخير ملحقًا بالإنجيل، وعنه تقول: "يظهر هذا الفصل الأخير، الوارد بعد خاتمة ٢٠/ ٣٠-٣١ بمظهر الملحق، ولا تزال مسألة مصدره موضوع نقاش. . وقد يكون هذا الفصل تكملة أضافها بعض تلاميذ يوحنا".

خامسًا: رسائل العهد الجديد

يلحق بالأناجيل الأربعة عدد من الرسائل " وتسمى هذه الرسائل – ما عدا رسالة أعمال الرسل – الأسفار التعليمية، وتتكون من اثنتين وعشرين رسالة: الأولى، وتسمى أعمال الرسل، وتنسب إلى لوقا صاحب الإنجيل، وأربع عشرة كتبها بولس، وهي رسالة أهل روميا وكورنثوس الأولى والثانية، وغلاطية، وأفسس، وفيلبي، وكولوسي، وتسالونيكي الأولى والثانية، وتيموثاوس الأولى وتيماثوس الثانية، وتيطس، وفيلمون والعبرانيين، ورسالة كتبها يعقوب، ورسالتان كتبهما بطرس، وثلاث رسائل كتبها يوحنا، ورسالة كتبها يهوذا.

وهناك غير الاثنتين والعشرين رسالة أخرى يسمونها السفر النبوي، وهي رؤيا يوحنا ". [(٣)]

---

(١) انظر: قراءات في الكتاب المقدس، عبد الرحيم محمد (٢/ ٢٧٢)، مسألة صلب المسيح، أحمد ديدات، ص (٦٨)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص (٩١).

(٢) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٥٦).

(٣) محاضرات في النصرانية (٧٦).

أولًا: أعمال الرسل

ويتكون هذا السفر من ثمان وعشرين إصحاحًا، تتحدث عن الأعمال التي قام بها الحواريون والرسل الذي نزل عليهم روح القدس يوم الخمسين (٢/ ١ - ٤)، من دعوة ومعجزات، كما يتحدث بإسهاب عن شاول ودعوته ورحلاته وقصة تنصره وبعض معجزاته.

وينسب هذا السفر إلى لوقا مؤلف الإنجيل الثالث حيث جاء في افتتاحيته: " ١اَلْكَلاَمُ الأَوَّلُ أَنْشَأْتُهُ يَا ثَاوُفِيلُسُ، عَنْ جَمِيعِ مَا ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَفْعَلُهُ وَيُعَلِّمُ بِهِ " (أعمال ١/ ١).

ولكن هذه الدعوى يشكل ويمنع من التسليم بها تناقض إنجيل لوقا مع سفر الأعمال في مسألة الصعود إلى السماء إذ يفهم من إنجيل لوقا أن صعود المسيح للسماء كان في يوم القيامة (لوقا ٢٤/ ١٣ - ٥١) وفي أعمال الرسل يتحدث عن ظهور المسيح بعد القيامة " أَرْبَعِينَ يَوْمًا " (أعمال ١/ ٣). وهذا الاختلاف يكذب الرأي القائل بأن كاتب الإنجيل والسفر واحد.

ثانيًا: رسائل بولس

وتنسب هذه الرسائل إلى القديس بولس، وتمتلئ بعبارات تدل على أنه كاتبها، وهذه الرسائل أربع عشرة رسالة.

وتصطبغ الرسائل أيضًا بالصبغة الشخصية لبولس، فهي ليست لاهوتية الطابع، بل رسائل شخصية لها ديباجة وخاتمة.

وليس ثمة إجماع على صحة نسبة هذه الرسائل إلى بولس، بل إن بعض المحققين يميل إلى أن أربع رسائل منسوبة إليه كتبت بيد بعض تلاميذه بعد وفاته بعشرين سنة كما ذكرت دائرة المعارف البريطانية.

ويشكك أرجن في شرحه لإنجيل يوحنا بجميع رسائل بولس المرسلة إلى الكنائس فيقول: " إن بولس ما كتب شيئًا إلى جميع الكنائس، والذي كتبه هو سطران أو أربعة سطور ".

أما الرسالة إلى العبرانيين خصوصًا فكان النزاع حولها أشد، فحين تنسبها الكنيسة الشرقية إلى بولس فإن لوثر يقول بأنها من وضع أبلوس، بينما يقول تارتوليان المؤرخ في القرن الميلادي الثاني: "إنها من وضع برنابا"، ويقول راجوس (من علماء البروتستانت):

" إن فريقًا من علماء البروتستانت يعتقدون كذب الرسالة العبرانية. . . ". [1]

أما مدخل الرهبانية اليسوعية فيقول: "لا شك أن الأدلة التي تنقض صحة نسبة الرسالة إلى بولس هي كثيرة. . فللمرء أن يعتقد أن الرسالة من إنشاء واحد من أصحاب بولس، أما الاهتداء إلى اسم الكاتب على نحو أفضل فلا سبيل إلى طلبه. . فلابد آخر الأمر من التسليم بأننا نجهل اسم الكاتب".

ثالثا: الرسائل الكاثوليكية ورؤيا يوحنا اللاهوتي

وهذه الرسائل سبع رسائل ثلاث منها ليوحنا، وثنتان لبطرس، وواحدة لكل من يهوذا ويعقوب، ثم رؤيا يوحنا اللاهوتي.

وعرف المحققون بأصحاب هذه الرسائل وهم من التلاميذ الاثني عشر.

فبطرس هو صياد سمك في كفر ناحوم، ويعرف بسمعان، ويرجح محررو قاموس الكتاب المقدس أنه كان من تلاميذ يوحنا المعمدان قبل أن يصحب المسيح، ويتقدم على سائر تلاميذه، وقد دعا في أنطاكية وغيرها، ثم قتل في روما في منتصف القرن الميلادي الأول.

ويذكر بطرس قرماج في " مروج الأخبار " أن بطرس ومرقس ينكران ألوهية المسيح.

وأما يعقوب فهو ابن زبدي الصياد - أخو يوحنا الإنجيلي - من المقربين للمسيح، وقد تولى رئاسة مجمع أورشليم سنة ٣٤م، وقد كانت وفاته قتلًا على يد أغريباس الأول عام ٤٤م على الأرجح، وقال آخرون: قتله اليهود حين طرحوه من جناح الهيكل ورموه بالحجارة سنة ٦٢م.

وأما يهوذا فلا تقدم المصادر عنه تعريفًا سوى أن تذكر أنه اختلف فيه هل هو يهوذا أخو يعقوب الصغير أي أنه ابن زبدي، أم أنه الحواري الذي يدعى لباوس الملقب تداوس؟. [2]

وهذه الرسائل تعليمية في محتوياتها، شخصية في طريقة تدبيجها، تحوي في مقدمتها

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٦٣ - ١٦٥)، الفارق بين المخلوق والخالق، عبد الرحمن باجي، ص (٣٠٦)، اليهودية والمسيحية، محمد ضياء الدين الأعظمي، ص (٣٢٥ - ٣٢٧).

(٢) انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص (١٧٤ - ١٧٦، ١٠٧٥)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي، ص (١٩٤ - ١٩٩).

اسم مؤلفها غالبًا.

ورغم ذلك فإن نسبة هذه الرسائل كانت محل جدل طويل في قرون النصرانية الأولى، وينطبق على أكثرها ما ذكرناه في رسالة العبرانيين، حيث تأخر الاعتراف إلى أواسط القرن الرابع الميلادي برسالة بطرس الثانية ورسالتي يوحنا الثانية والثالثة ورسالتي يعقوب ويهوذا، ورؤيا يوحنا اللاهوتي الذي كان موضع جدل كبير قبل إقراره.

إذ يحوي هذا السفر رؤيا منامية غريبة هدفها تقرير ألوهية المسيح، وإثبات سلطانه في السماء، وخضوع الملائكة له، إضافة إلى بعض التنبؤات المستقبلية التي صيغت بشكل رمزي وغامض.

وهذه الرؤيا رآها يوحنا في منامه وهي مسطرة في سبعة وعشرين صفحة! ! ومثل هذا يستغرب في المنامات ولا يعهد.

وقد شكك آباء الكنيسة الأوائل كثيرًا في هذا السفر. يقول (كيس برسبتر الروم) ٢١٢م: " إن سفر المشاهدات (الرؤيا) من تصنيف سرنتهن الملحد "، ومثله قاله ديونسيش من القدماء.

يقول لوثر: "إن هذا السفر لا يعلّم عن المسيح، ولا يشير إليه بوضوح، ولا يتضح فيه أنه من وحي الروح القدس".

وأما خلفه المصلح زونجلي فقد قال: "ليس لنا شأن بسفر الرؤيا، لأنه ليس سفرًا كتابيًا، فليس فيه طعم كتابات يوحنا. . وفي وسعي أن أرفضه".

ويعقب المفسر باركلي فيكتب: "وقد اشترك مع لوثر وزونجلي كثيرون".

كما نقل عن بعض المفسرين قولهم: "إن عدد الألغاز الموجودة في سفر الرؤيا يساوي عدد كلماته، وقال آخر: إن دراسة الرؤيا تصيب الإنسان بالخبل، أو إن الذي يحاول القيام بها مخبول". (١)

ويقول مدخل الرهبانية اليسوعية لهذا السفر: " لا يأتينا سفر يوحنا بشيء من الإيضاح عن كاتبه، لقد أطلق على نفسه اسم يوحنا، ولقب نبي، ولم يذكر قط أنه أحد

---

(١) تفسير العهد الجديد (سفر الرؤيا)، وليم باركلي، ص (٩).

الاثني عشر. هناك تقليد على شيء من الثبوت، وقد عثر على بعض آثاره منذ القرن الثاني، وورد فيه أن كاتب الرؤيا هو الرسول يوحنا. . بيد أنه ليس في التقليد القديم إجماع على ذلك، وقد بقي المصدر الرسولي لسفر الرؤيا عرضة للشك. . . إن آراء المفسرين في عصرنا متشعبة، ففيهم من يؤكد أن الاختلاف في الإنشاء والبيئة والتفكير اللاهوتي تجعل نسبة الرؤيا والإنجيل الرابع إلى كاتب واحد أمرًا عسيرًا.

ويخالفهم مفسرون آخرون في الرأي، ويرون أن سفر الرؤيا والإنجيل يرتبطان بتعليم الرسول عن يد كتبة ينتمون إلى بيئات يوحنا في أفسس"، ويقول المفسر وليم باركلي في مقدمة تفسيره للسفر: "وليس من المحتمل أن يكون الكاتب رسولًا، فلو أنه كان رسولًا لوضع تبريره على هذه الحقيقة أكثر من تبريره على أنه نبي، ثم إنه يتكلم عن الرسل كأغراب عليه. . فإن هذا أسلوب شخص يؤرخ لفترة خدمة الرسل، بل إن عنوان السفر يوحي بهذه الفكرة، فهو "رؤيا يوحنا اللاهوتي" ولعل لقب "اللاهوتي" أي عالم اللاهوت قد أضيف إلى اسم يوحنا الكاتب ليميزه عن يوحنا الرسول.

ويقول ديوفيسيوس رئيس مدرسة الاسكندرية عام ٢٥٠م: إن يوحنا كاتب الرؤيا لا يمكن أن يكون هو نفسه يوحنا كاتب البشارة، لأن الأسلوب اليوناني مختلف جدًا بين الإثنين ". [١]

وهكذا فالسفر لا دليل يثبت كتابة يوحنا له، وغاية ما يمكن قوله أنه كتب على يد كتبة مجهولين تربوا على يد يوحنا في أفسس.

ومما نقله المحققون في تكذيب نسبة الرسائل الكاثوليكية أو بعضها على الأقل تكذيب هورن لها، واحتج بعدم وجودها في الترجمة السريانية القديمة.

ويقول أوسابيوس: "قبل الجميع دون جدال أسفارنا المعروفة الآن ما خلا الرسالة إلى العبرانيين ورسالة يعقوب ورسالة يهوذا ورسالة بطرس الثانية وسفر الرؤيا ورسالتي يوحنا الثانية والثالثة، فقد قبلها الجمهور، ولكن البعض شكّ فيها. . وأما رسالتا يوحنا

---

(١) تفسير العهد الجديد (سفر الرؤيا)، وليم باركلي، ص (٢١).

فهما خطابان شخصيان يصعب برهنة صدق قانونيتهما". [١]

ونقل راجوس تكذيب علماء البروتستانت صحة نسبتها إلى الحواريين، ويقول جيمس ميك: إن الدلائل تثبت أن كاتب هذه الرسالة (رسالة يعقوب) ليس يعقوب.

وقال المؤرخ يوسي بيس في تاريخه: " ظُن أن هذه الرسالة جعلية، لكن كثيرًا من القدماء ذكروها، وكذا ظُن في حق رسالة يهوذا، لكنها تستعمل في كثير من الكنائس".

وعن رسالة يهوذا يقول المحقق كروتيس في كتابه " تاريخ البيبل ": " هذه الرسالة رسالة يهوذا الأسقف الذي كان خامس عشر من أساقفة أورشليم في عهد سلطنة أيد دين "، فجعل هذا المحقق رسالة يهوذا من عمل أسقف عاش في القرن الثاني الميلادي.

كما لا تسلم الكنيسة السريانية حتى الآن بصحة الرسالة الثانية لبطرس، والثانية والثالثة ليوحنا، ويقول اسكالجر: من كتب الرسالة الثانية لبطرس فقد ضيع وقته. [٢]

وعن كاتب رسالة بطرس الثانية تقول مقدمة الرسالة في نسخة الرهبانية اليسوعية: "لا يزال الرأي القائل أن كاتب الرسالة هو سمعان بطرس موضوعًا للنقاش، يثير كثيرًا من المتاعب، فلا يحسن من جهة أن يُجعل شأن كبير للإشارات التي أخبر فيها الكاتب عن حياته، والتي قال فيها أنه الرسول بطرس (أي كان المؤلف المجهول يكذب وهو يزعم أنه بطرس الرسول)، فإنها تعود إلى الفن الأدبي المعروف بالوصايا. . . لا يبدو أن الكاتب ينتمي إلى الجيل المسيحي الأول. . . ولما كان لا يسوغ الإفراط في تأخير تاريخ رسالة مشبعة على هذا النحو بالتقاليد اليهودية المسيحية يسوغ اقتراح نحو السنة ١٢٥م تاريخًا لإنشاء الرسالة، وهو تاريخ ينفي عنها نسبتها المباشرة إلى بطرس".

ويقول التفسير التطبيقي عنها: "لسنا على يقين من تاريخ كتابة هذه الرسالة أو لمن كتبت، كما أن كاتبها محل جدل كثير، وبسبب ذلك كانت (رسالة) بطرس الثانية آخر سفر

---

(١) علم اللاهوت النظامي، جيمس أنِس، ص (٦٤).

(٢) إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٦٣ – ١٦٤)، اليهودية والمسيحية، محمد ضياء الدين الأعظمي، ص (٣٣٨ – ٣٣٩)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي، ص (١٨٨ – ١٨٩).

يضم إلى الأسفار القانونية للعهد الجديد".

وعن قانونيتها تقول مقدمة الرسالة في نسخة الرهبانية اليسوعية: "إن كلًا من هذه الرسالة وسفر الرؤيا كان في العهد الجديد، السفر الذي لقي أكثر المصاعب ليُعترف به، فقد دخلت دخولًا بطيئًا إلى مجمل الكنائس. . ولم يعترف بها في معظم الكنائس إلا في القرن الخامس، واعترف بها في سورية في القرن السادس".

ونختم بقول المفسر الدكتور وليم باركلي أستاذ العهد الجديد بجامعة كلاسكو: "أما مارتن لوثر فقد رفض أن يعطي هذا السفر (الرؤيا) مكانًا في العهد الجديد، وأضافه إلى أسفار أخرى هي رسائل يعقوب ويهوذا وبطرس الثانية والعبرانيين، واقترح أن يضيف هذه في نهاية العهد الجديد". [١]

اعترافات حول العهد الجديد

يقول: "جون فنتون" - عميد كلية الاهوت بليتشفيلد بانجلترا -: " إن العقائد التي تتبناها مختلف الكنائس ومدارس الفكر الاهوتي فيما يتعلق بالسلطة الروحية للعهد الجديد، تختلف كثيرًا من واحدة لأخرى: فالكنيسة الكاثوليكية تمسك بشدة بعقيدة الإلهام التي تأكد القول بها في مجمع الفاتيكان الذي عقد بروما عام ١٨٦٩- ١٨٧٠ م والذي تقرر فيه: أن الكتب القانونية لكل من العهدين: القديم والجديد كتبت بإلهام الروح القدس، كذلك فإن طائفة المحافظين من البروتستانت يقبلون عقيدة الإلهام "[٢]

بينما يعتقد الليبراليون منهم، أن كتب العهد الجديد إنما هي وثائق بداية العقيدة المسيحية، وهي مثل أي من الوثائق التاريخية القديمة معرضة للبحث العلمي والنقد اللغوي. [٣]

متى كتبت الأناجيل؟

لقد كتبت الأناجيل الأربعة القانونية على مدى فترة زمنية تقدر بأكثر من ٦٠ عامًا، ولم

---

(١) تفسير العهد الجديد (سفر الرؤيا)، وليم باركلي، ص (٩).

(٢) تفسير إنجيل متى، جون فنتون (ص ٣١) نقلا عن: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١١٦).

(٣) السابق.

يكتب أقدمها في حياة المسيح، ولا عقب رفعه مباشرة، أو حتى بعد ذلك ببضع سنين، لكنه كتب بعد ٣٥ عامًا مضت منذ رفع المسيح. (١)

أسباب تأخر كتابة الأناجيل:

أن المسيحيين الأوائل لم يكونوا - أو حتى الغالبية العظمى منهم - طائفة مثقفة أو متعلمة. . . لكن وضعهم نجده حسب قول بولس: " لَيْسَ كَثِيرُونَ حُكَمَاءَ حَسَبَ الْجَسَدِ، لَيْسَ كَثِيرُونَ أَقْوِيَاءَ، لَيْسَ كَثِيرُونَ شُرَفَاءَ، ٢٧بَلِ اخْتَارَ الله جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ. " (كورنثوس "١ " ١/ ٢٦ - ٢٧).

أن الفترة الأولى من عملية التبشير بالإنجيل كانت الحاجة هي نقل التعاليم الدينية شفاها.

ثمن التكاليف والمواد الازمة للكتابة، حيث كان معظم المسيحيين الأوائل من المُعْدَمين.

تفشي فكرة المجيء الثاني للمسيح إلى الأرض في مجده. فإذا كانت نهاية كل شيء وشيكة، وإذا كان أي يوم هو الأخير، فمن الواضح أن أولئك الذين اشتركوا في مثل هذه الأفكار، لابد وأن يفتقدوا المزاج النفسي لكتابة سجلات الماضي.

الصعوبة في جمع البيانات والمعلومات اللازمة للكتابة. إذ يحق لنا أن مسألة: كيف يجد المسيحي العادي في الفترة المبكرة من حياة الكنيسة (التي اتسمت بالاضطهاد و الاضطراب) من الوقت ما يمكنه من جمع المعلومات عن حياة المسيح؟. (٢)

وكانت النتيجة كما وردت على لسان الدكتور فريدريك جرانت: " لم يبق من التعاليم والعقائد إلا فكرة باهتة لوجهة النظر العامة بالإضافة إلى الأقوال المبعثرة التي غالبا ما تكون غير المتن الأصلي ".

وبهذا تأخرت الكتابة، وبهذا تبدلت الكتابة وتحرفت، وضاع النص الأصلي، وانقطع السند. (٣)

اللغة الأصلية التي كتب بها العهد الجديد:

---

(١) المسيح في مصادر العقا ئد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (ص ٤٧).

(٢) المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٤٨ - ٤٩).

(٣) الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١١٨).

جاء في الموسوعة الأمريكية: " إن العهد الجديد من أوله إلى آخره هو كتاب إغريقي، فعلى الرغم من أن التعاليم الأولى الشفوية التي تختص بأعمال يسوع وأقواله، لا شك أنها كانت متداولة بالآرامية، وهي اللغة التي كانت سارية في فلسطين وبعض أجزاء الشرق الأدنى، وبالتأكيد بين اليهود، وهي اللغة التي تكلم بها المسيح وتلاميذه، فإنه لم يمض وقت طويل قبل أن تترجم هذه التعاليم الشفوية إلى الإغريقية الدارجة التي كانت لغة الحديث في عالم البحر الأبيض المتحضر". (١)

الفصل الثاني: إبطال دعوى الإلهام لكتبة العهد الجديد.

تمهيد:

" إن الأناجيل الأربعة التي يتخذها النصارى مصادر لدينهم لم تتوفر لها موجبات القدسية والقبول بما فيها من القضايا الإيمانية التي تستوجب أن تبنى على اليقينيات من النصوص، وإن ذلك في غاية البعد عن الأناجيل الأربعة.

والنصارى أنفسهم لا يدعون أن المسيح ﷺ ترك في تلاميذه كتابًا منزلًا عليه، وأن كل ما وصل إليهم من أمور دعوته وسيرته وما اقترن بحياته من أحداث هو الذي روته الأناجيل الأربعة، إما من كُتَّاب شاهدوا تلك الأحداث وعاصروا صاحبها وتتلمذوا عليه مثل متى ويوحنا، وإما من كُتَّاب تلقوا ذلك من أفواه تلاميذه الذين سمعوا أو شاهدوا، ونقلوا ذلك إلى من قام بتدوين ما نقل إليه مثل مرقس ولوقا.

وإن هذه الأناجيل لاتثبتها القواعد العلمية، ولا تثبت أو تصمد أمام البحث العلمي، والكتاب الذي يفقد دليل ثبوته لا يقوى على إثبات عقيدة لا دليل من كتب الأنبياء كافة على صحتها. "(٢)

" ولأجل أن يكون الكتاب الديني حجة – يجب الأخذ به على أنه شريعة الله ودينه،

---

(١) الموسوعة الأمريكية، سنة ١٩٥٩ م، (٣/ ٦٥٤).

(٢) التصريح بإثبات الأناجيل الأربعة الاعتقاد الصحيح في المسيح، عبد الشكور بن محمد أمان العروسي، ص ٦٣ – ٦٤.

ومجموع أوامره ونواهيه، ومصدر الاعتقاد، وأساس الملة – يجب أن يتوافر فيه عدة شروط.

المبحث الأول: شروط حجية الكتاب الديني:

الأول: أن يكون الرسول الذي نسب إليه قد علم صدقه بلا ريب ولاشك، وأن يكون قد دعم ذلك الصدق بمعجزة، أي بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين المكذبين، وأن يشتهر أمر ذلك التحدي وهذا الإعجاز، ويتوارثه الناس خلفا عن سلف، ويتواتر بينهم تواترا لايكون للإنسان مجال لتكذيبه.

الثاني: ألا يكون ذلك الكتاب متناقضًا مضطربًا يهدم بعضه بعضًا، فلا تتعارض تعليماته، ولا تتناقض أخباره، بل يكون كل جزء منه متممًا للآخر ومكملا له.

الثالث: أن يدعي ذلك الرسول أنه أوحي إليه به، ويدعم ذلك الادعاء بالبينات الثابتة، وهي المعجزات التي بعث بها الرسول، ودعا إلى كتابه على أساسها، ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر، أو يثبت بالكتاب نفسه.

الرابع: أن تكون نسبة الكتاب إلى الرسول الذي نسب إليه ثابتة بالطريق القطعي بأن يثبت نسبة الكتاب إلى الرسول، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف، جيلًا بعد جيل من غير أي مظنة للانتحال. "[1]

" ويتحقق هذا بأن يكون الناقل معروفًا بالعدالة والضبط عمن يماثله من الرواة العدول الضابطين، وأيضًا اتصال السند بأن يكون كل راوٍ متلقيًا عن راوٍ قبله حتى يبلغ به المصدر بلا انقطاع. "[2]

الخامس: صحة الكتابة بأن تكون الكتابة مطابقة لما تم نقله لفظا ومعنى في حالة النقل باللغة الموحى بها.

السادس: صحة الترجمة في حالة ترجمة الكتاب من الأصل الموحى به إلى لغة أخرى وذلك يتطلب ما يلي:

---

(١) محاضرات في النصرانية (ص ٨٦– ٨٧).

(٢) التصريح (ص ٦٥).

أولًا: شروط قبول الترجمة المجهولة:

وجود الأصل الموحى به حتى يتم عرض الترجمة عليه.

صحة الترجمة ويعرف ذلك بعد عرضها ومقابلتها بالأصل.

ثانيًا: شروط في المترجم:

عدالة المترجم.

معرفته التامة باللغتين الأصلية والتي ترجم إليها.

أن يكون ملمًا بمقاصد الدين ومصطلحاته حتى يترجم حسب المقاصد الدينية التي قد يكون ظاهر اللغة غير صريح فيها مثل الخيط الأبيض والأسود في التعبير بهما عن سواد الليل وبياض النهار. "(١)

ومن خلال تطبيق هذه الشروط ندرك أن هذه الأناجيل لا جذور لها تمتد بها إلى المصدر المعصوم، حيث لم يدَّعِ أحد أن عيسى هو كاتبها، أو هو ممليها، أو أنها كتبت في عهده. ثم إنهم لم يختلفوا في أن من نسبت إليهم على أنهم كاتبوها اثنان من تلاميذ المسيح وهما متى ويوحنا، وآخران ليسا كذلك وهما: مرقس ولوقا. . . وعليه فإن كاتبيها مجهولون، ومجهول العين لاشك في الجهالة بحاله ومجهول الحال لا تقبل روايته. ثم إن هذه الأناجيل ما عرفت إلا بعد أن ترجمت ولم توجد النسخ الأصلية حتى تعرض عليها الترجمات المختلفة باللغات المختلفة. والمترجمون لها أيضًا مجهولون، وتواريخ كتابتها أيضًا غير معلومة. أى إنها ظلمات بعضها فوق بعض "(٢).

" إن أحدًا من كتاب العهد الجديد - سوى بولس - لم يدع لنفسه الإلهام، بل سجلت كتاباتهم اعترافات أن هذا العمل جهد بشري خالص لم يقصد كاتبوه أن يسجلوا من خلاله كتبًا مقدسة.

فها هو لوقا في مقدمة إنجيله يقول: " ١إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي

---

(١) المصدر السابق (ص ٦٦) بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق (ص ٦٦).

الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، ٢كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، ٣رَأَيْتُ أَنَا أيضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، ٤لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ. " (لوقا ١/ ١-٤).

فيفهم من هذه المقدمة أمور، منها: أن إنجيله خطاب شخصي، وأنه دوّنه بدافع شخصي، وأن له مراجع نقل عنها بتدقيق، وأن كثيرين كتبوا غيره، ولم يذكر لوقا في مقدمته شيئًا عن إلهام إلهي ألهمه الكتابة أو وحي من روح القدس نزل عليه.

وإذا كان الحواريون والتلاميذ غير عارفين بإلهامية ذواتهم وبعضهم، فكيف عرف النصارى ما جهله أصحاب الشأن؟ لا دليل في الأناجيل على إلهامية أحد منهم، إلا ما ادعاه بولس لنفسه. "(١)

ومما يثبت أيضًا أنها لم تكتب بالإلهام ما يلي: -

١-وجود رسائل شخصية لا علاقة للإلهام والوحي بها.

والمتأمل في رسائل بولس خصوصًا والحواريين عمومًا يجد عشرات المواضع التي تشهد لهذه الرسائل بأنها شخصية لا علاقة للوحي بها، ومن ذلك: "١٣يُسَلِّمُ عَلَيْكِ أَوْلاَدُ أُخْتِكِ الْمُخْتَارَةِ. " (يوحنا (٢) ١٣).

ويرسل يوحنا المزيد من السلامات لأحبابه "١اَلشَّيْخُ، إِلَى غَايُسَ الْحَبِيبِ الَّذِي أَنَا أُحِبُّهُ بِالْحَقِّ ٢أَيُّهَا الْحَبِيبُ، فِي كُلِّ شَيْءٍ أَرُومُ أَنْ تَكُونَ نَاجِحًا وَصَحِيحًا ١٥سَلاَمٌ لَكَ. يُسَلِّمُ عَلَيْكَ الأَحِبَّاءُ. سَلِّمْ عَلَى الأَحِبَّاءِ بِأَسْمَائِهِمْ. " (يوحنا (٣) ١-١٤).

وفي رسائل بولس مثل ذلك، ومنه: " ١٩تُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ كَنَائِسُ أَسِيَّا. يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ فِي الرَّبِّ كَثِيرًا أَكِيلاَ وَبِرِيسْكِلاَّ مَعَ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي بَيْتِهِمَا. ٢٠يُسَلِّمُ عَلَيْكُمُ الإِخْوَةُ أَجْمَعُونَ. سَلِّمُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِقُبْلَةٍ مُقَدَّسَةٍ " (كورنثوس (١) ١٦/ ١٩ - ٢٠).

ويواصل بولس تسجيل رغباته الشخصية وأخبار أصدقائه في كورنثوس، فيقول:

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ١٧).

"١٣اَلرِّدَاءَ الَّذِي تَرَكْتُهُ فِي تَرُواسَ عِنْدَ كَارْبُسَ، أَحْضِرْهُ مَتَى جِئْتَ، وَالْكُتُبَ أيضًا وَلاَ سِيَّمَا الرُّقُوقَ. . . . ١٩سَلِّمْ عَلَى فِرِسْكَا وَأَكِيلاَ وَبَيْتِ أُنِيسِيفُورُسَ. ٢٠أَرَاسْتُسُ بَقِيَ فِي كُورِنْثُوسَ. وَأَمَّا تُرُوفِيمُسُ فَتَرَكْتُهُ فِي مِيلِيتُسَ مَرِيضًا. ٢١بَادِرْ أَنْ تَجِيءَ قَبْلَ الشِّتَاءِ. يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَفْبُولُسُ وَبُودِيسُ وَلِينُسُ وَكَلاَفَدِيَّةُ وَالإِخْوَةُ جَمِيعًا. ٢٢اَلرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ مَعَ رُوحِكَ. اَلنِّعْمَةُ مَعَكُمْ. آمِينَ. . " (تيموثاوس (٢) ٤/ ١٣ - ٢١). وهكذا تستمر رسائل بولس وسلاماته إلى أصدقائه وأقربائه، وتطول كما في رسالة رومية (رومية ١٦/ ١ – ٢١).

وأرسل بولس إلى تيطس قائلًا: " ١٢حِينَمَا أُرْسِلُ إِلَيْكَ أَرْتِيمَاسَ أَوْ تِيخِيكُسَ، بَادِرْ أَنْ تَأْتِيَ إِلَيَّ إِلَى نِيكُوبُولِيسَ، لأَنِّي عَزَمْتُ أَنْ أُشَتِّيَ هُنَاكَ. ١٣جَهِّزْ زِينَاسَ النَّامُوسِيَّ وَأَبُلُّوسَ بِاجْتِهَادٍ لِلسَّفَرِ حَتَّى لاَ يُعْوِزَهُمَا شَيْءٌ. " (تيطس ٣/ ١٢-١٣)، ولعل القارئ لاحظ أن بولس - الملهم لكتابة هذا النص كما يدعي المؤمنون بقدسية رسائله - لا يدري من سيرسل من أصدقائه لاستدعاء تيطس إلى نيكوبوليس، حيث يقضي بولس فصل الشتاء.

وتتكرر المشاهد الشخصية في ((رسالة فيلبي ٢/ ٢٦ -٢٨، ٤/ ٢١ – ٢٢، كورنثوس (١) ١٦/ ٢٠)، فيلمون ١/ ٢١ – ٢٤)) فهل هذه العبارات من إلهام الله ووحيه؟!

٢ـ عبارات لا يمكن أن تكون وحيًا:

لو تتبعنا الأناجيل لما وجدنا ما يشعر بأن أيًا منها صادر من مُلهَم يكتب وحيًا، فمثلًا يقول لوقا: "٢٣وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ. . " (لوقا ٣/ ٢٣)، فلفظة "نحو" و "يظن" لا تصدران عن ملهم جازم بما يقول، وقد أزعجت هاتان العبارتان علماء الكنيسة، فحذفوهما من طبعة الكتاب المقدس المنقحة الإنجليزية.

ومثله لم يستطع يوحنا تقدير المسافة التي قطعها التلاميذ في البحر قبل أن يروا المسيح فقال: "١٩فَلَمَّا كَانُوا قَدْ جَذَّفُوا نَحْوَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ أَوْ ثَلاَثِينَ غَلْوَةً، نَظَرُوا يَسُوعَ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ مُقْتَرِبًا مِنَ السَّفِينَةِ، فَخَافُوا " (يوحنا ٦/ ١٩)، ولو كان يلهم ما يكتب من الوحي لما وقع في مثل هذا.

ومثله في خاتمة يوحنا يقول: " ٣١وَأَمَّا هذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ الله " (يوحنا ٢٠/ ٣٠ - ٣١)، وقد كتبه بطلب من أساقفة آسيا لا الروح القدس، وهو لا يقول بأن الله ألهمه ذلك.

ويقول: " ٢٤هذَا هُوَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهذَا وَكَتَبَ هذَا. وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَقٌّ. " فلم يذكر شيئًا عن إلهام هذا الإنجيل، ثم قال بعدها ما أثبت صفة البشرية لكلامه: "٢٥وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ، إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ. آمِينَ (يوحنا ٢١/ ٢٤ - ٢٥)، فمثل هذه المبالغة لا يغيب أنها صنعة بشرية لعادة البشر في ذلك.[1]

وعلاوة على هذا كله فإن في الرسائل فقرات تنفي هي عن نفسها دعوى الإلهام وتكذبه، وتشهد لصاحبها بأنه يتحدث ببشرية تامة، وأن الوحي لا علاقة له بما يكتب.

ومن ذلك قول بولس عن المتزوج بغير المؤمنة: " ١٢وَأَمَّا الْبَاقُونَ، فَأَقُولُ لَهُمْ أَنَا، لاَ الرَّبُّ:. . . " (كورنثوس (١) ٧/ ١٢)، فكلامه في هذه المسألة لا علاقة له بالوحي، لكنهم مع ذلك يعتبرونه جزءًا من كلمة الله.

ويقول عن أمر آخر: "٢٥وَأَمَّا الْعَذَارَى، فَلَيْسَ عِنْدِي أَمْرٌ مِنَ الرَّبِّ فِيهِنَّ، وَلكِنَّنِي أُعْطِي رَأْيًا. . . " (كورنثوس (١) ٧/ ٢٥)، فهل نصدق بولس، وهو يصف كلامه هنا بأنه رأي شخصي أم نصدق النصارى الذين يقولون عن هذه العبارات أنها أيضًا ملهمة من قبل الله ووحيه؟.

ويؤكد بولس ثانية أن بعض ما يصدر عنه هو محض رأي بشري واجتهاد شخصي منه، فيقول: " ٨لَسْتُ أَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الأَمْرِ، بَلْ بِاجْتِهَادِ آخَرِينَ. . . ١٠أُعْطِي رَأْيًا فِي هذَا أيضًا. . . " (كورنثوس (٢) ٨/ ٨ - ١٠).

ويقول بولس أيضًا وهو ينفي عن كلامه صفة القداسة: " ١٧الَّذِي أَتَكَلَّمُ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ بِحَسَبِ الرَّبِّ، بَلْ كَأَنَّهُ فِي غَبَاوَةٍ، فِي جَسَارَةِ الافْتِخَارِ هذِهِ. " (كورنثوس (٢) ١١/ ١٦ - ١٧).

---

(١) مناظرتان في استكهولم، أحمد ديدات (٢٧ - ٢٨).

وقد وردت هذه الكلمات ضمن سياق مهم يصرخ بأن هذا الكلام رسالة شخصية لا علاقة لله به، إذ يقول: " [١٦]أَقُولُ أيضًا: لاَ يَظُنَّ أَحَدٌ أَنِّي غَبِيٌّ. وَإِلاَّ فَاقْبَلُونِي وَلَوْ كَغَبِيٍّ، لأَفْتَخِرَ أَنَا أيضًا قَلِيلًا. [١٧]الَّذِي أَتَكَلَّمُ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ بِحَسَبِ الرَّبِّ، بَلْ كَأَنَّهُ فِي غَبَاوَةٍ، فِي جَسَارَةِ الافْتِخَارِ هذِهِ. [١٨]بِمَا أَنَّ كَثِيرِينَ يَفْتَخِرُونَ حَسَبَ الْجَسَدِ، أَفْتَخِرُ أَنَا أيضًا. [١٩]فَإِنَّكُمْ بِسُرُورٍ تَحْتَمِلُونَ الأَغْبِيَاءَ، إِذْ أَنْتُمْ عُقَلاَءُ! [٢٠]لأَنَّكُمْ تَحْتَمِلُونَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَسْتَعْبِدُكُمْ! إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْكُلُكُمْ! إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْخُذُكُمْ! إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَرْتَفِعُ! إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَضْرِبُكُمْ عَلَى وُجُوهِكُمْ! [٢١]عَلَى سَبِيلِ الْهَوَانِ أَقُولُ: كَيْفَ أَنَّنَا كُنَّا ضُعَفَاءَ! وَلكِنَّ الَّذِي يَجْتَرِئُ فِيهِ أَحَدٌ، أَقُولُ فِي غَبَاوَةٍ: أَنَا أيضًا أَجْتَرِئُ فِيهِ. [٢٢]أَهُمْ عِبْرَانِيُّونَ؟ فَأَنَا أيضًا. أَهُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ؟ فَأَنَا أيضًا. أَهُمْ نَسْلُ إِبْرَاهِيمَ؟ فَأَنَا أيضًا. [٢٣]أَهُمْ خُدَّامُ الْمَسِيحِ؟ أَقُولُ كَمُخْتَلِّ الْعَقْلِ، فَأَنَا أَفْضَلُ: فِي الأَتْعَابِ أَكْثَرُ، فِي الضَّرَبَاتِ أَوْفَرُ " (كورنثوس (٢) ١١/ ١٥ - ٢٤)، فهل أوحي إليه أن يصف نفسه حال بلاغه للوحي أنه مختل العقل وأنه غبي.

ويقول متحدثًا إلى مستمعيه متلطفًا لهم: " [١]لَيْتَكُمْ تَحْتَمِلُونَ غَبَاوَتِي قَلِيلًا! " (كورنثوس (٢) ١١/ ١)، فهل أوحى الله له أن يصف نفسه بالغباء، وهل يعتذر الله ويخشى أن يكون ملهَمه قد أثقل على أولئك الذين يقرؤون رسالته.

٣ـ أحداث مهمة لا يصح أن يذهل عنها الملهَم:

ومما يردّ دعوى الإلهام ذهول بعض الإنجيليين عن ذكر أحداث هامة رغم اجتماعهم على ذكر أحداث لا قيمة لها.

ومن ذلك أن الإنجيليين أجمعوا على ذكر حادثة ركوب المسيح على الجحش وهو يدخل أورشليم[١]، لكن الإنجيليين ذهلوا عن تسجيل أحداث مهمة، فلم يسجل أول معجزات المسيح - وهو معجزة تحويل الماء إلى خمر - على أهميتها إلا واحد منهم (انظر يوحنا ٢/ ١ - ١١)، فهل كان ركوب المسيح الجحش أهم من هذه المعجزة الباهرة؟!

---

(١) انظر متى (٢١/ ٧)، مرقس (١١/ ١ - ٧)، لوقا (١٩/ ٣٥)، يوحنا (١٢/ ١٤).

وهل هو أيضًا أهم من معجزة إحياء لعاذر أمام الجموع الكثيرة التي آمنت به بعد ذلك؟ ، فقد ذهل عن تسجيله الإنجيليون فيما عدا يوحنا (يوحنا ١١/ ١ - ٤٦)

ولن يكون ركوب المسيح الجحش وهو يدخل أورشليم - بحال من الأحوال - أهم من وصيته التي تضمنت دعوة الأمم إلى اتباع الشريعة وتعميدهم باسم الآب والابن والروح القدس، وهو عمدة النصارى في إثبات عقيدة التثليث، فقد انفرد بذكره متى العشار (انظر متى ٢٨/ ١٩)، دون بقية الإنجيليين الذين لم يسجلوا هذا النص الفريد والمهم.

وصعود المسيح إلى السماء حدث بالغ الأهمية، ومع أهميته لم يذكره التلميذان متى ويوحنا اللذان يفترض أنهما شاهدا المسيح وهو يصعد للسماء، بينما ألهم لوقا ومرقس - الغائبان يومذاك - ذكر هذا الخبر! !

والحقيقة أن أحدًا من الإنجيليين لم يلهم كتابة خبر الصعود، لأن خبر الصعود قد أضيف فيما بعد، كما اعترفت بذلك لجنة تنقيح الكتاب المقدس التي أصدرت النسخة(R. S. V.)

وكذلك ذهل الكتاب الملهمون عن ذكر قدرة التلاميذ على مغفرة الذنوب، فيما عدا يوحنا (انظر يوحنا ٢٠/ ٢٣)، يوحنا الذي يستغرب منه أنه لم يذكر شيئًا عن العشاء الأخير على أهميته وشهوده له إبان حياة المسيح.

وكذلك لم يسجلوا زيارة المجوس للمسيح وسجودهم له، بينما سجلها متى (متى ٢/ ١ - ١٢)، وكان الوحيدَ الذي كتب عن سفر المسيح وأمه لمصر. (انظر متى ٢/ ١٤)، وكل هذا مما ينقض دعوى الإلهام، إذ لا يليق بالملهِم أن يغفل عن إلهام التلاميذ هذه الأمور المهمة. [1]

٤ـ إنكار المحققين لإلهامية كتبة العهد الجديد

وهذه المواضع التي ذكرناها وغيرها دفعت بعض فرق النصارى وبعض مقدميهم وغيرهم من المحققين لإنكار إلهامية الأناجيل والرسائل.

ويقول مؤلفو الترجمة المسكونية: " جمع المبشرون وحرروا، كل حسب وجهة نظره

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٢٢ - ٢٣).

الخاصة ما أعطاهم إياه التراث الشفهي " فليس ثمة إلهام إذن.

ويقول لوثر مؤسس مذهب البرتستانت عن رسالة يعقوب: "إنها كلّاء. . هذه الرسالة وإن كانت ليعقوب. . إن الحواري ليس له أن يعين حكمًا شرعيًا من جانب نفسه، لأن هذا المنصب كان لعيسى عليه السلام فقط "، فقول لوثر هذا يُفهم منه عدم اعتباره ليعقوب الحواري ملهمًا.

ويقول ريس في دائرة معارفه في المجلد التاسع عشر من هذا الكتاب: " إن الناس قد تكلموا في كون الكتب المقدسة إلهامية، وقالوا: إنه يوجد في أفعال مؤلفي هذه الكتب وأقوالهم أغلاط واختلافات. . . "(١)

وقال أيضًا: " والكتب التي كتبها تلاميذ الحواريين - مثل إنجيل مرقس ولوقا وكتاب الأعمال - توقف ميكايلس في كونها إلهامية ". (٢)

ويقول حبيب سعيد في كتابه "سيرة رسول الجهاد" منبهًا إلى حقيقة هامة وصحيحة عن بولس: " لم يدر بخلده عند كتابتها - أو على الأصح عند إملائها - أنه يسطر ألفاظًا ستبقى ذخرًا ثمينًا تعتز به الأجيال القادمة"، ويا للعجب، بولس لا يعلم بقدسية كلماته، بينما النصارى عنه يناضلون، وينسبون إليه ما لم ينسبه هو إلى نفسه.

وفي الفاتيكان شكل البابا جون لجنة لدراسة الإنجيل برئاسة العلامة هانز كومب، وبعد دراسة متأنية، قررت اللجنة: " أن الإنجيل كلام بشر، وأنه لا يوجد دليل على أن الإنجيل ينحدر مباشرة عن الله ".

المبحث الثاني: إبطال دعوى النبوة لكتبة العهد الجديد

تمهيد:

" ويزعم النصارى أيضًا أن الذين كتبوها _ أي الأناجيل - رسل من بعد المسيح،

---

(١) إظهار الحق (٢/ ٣٥٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٣٥٦ - وما بعدها)، محاضرات في النصرانية (٩١- ٩٤)، التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة (٢٩٦ - ٣٠٢)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٢٤).

مبعوثون بها، يبشرون الناس بما فيها، ونحن نبحث وننظر هل هؤلاء رسل حقًا قد ثبتت رسالتهم بدليل لا مجال للريب فيه؟ "

بداية لا يسلم المسلمون بأن أحدًا من الحواريين كان رسولًا، كما لم يصرح الإنجيليون فيما سوى بولس بذلك. " " إننا نبحث في مراجعهم فلا نجد مرجعًا صحيحًا قرر أن هؤلاء قد ادعوا مثل هذه الرسالة، ودعوا الناس إلى الإيمان بها، ومعهم البرهان عليها، والدليل القائم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ". (١)

" والمسلمون لا يؤمنون بالشهادات التي جعلت النصارى يقولون بنبوتهم، كما لا يؤمنون بغشيان روح القدس لهم بعد خمسين يومًا من صعود المسيح، ذاك الحدث الغريب الذي سجله لوقا، حين قال: "٤وَامْتَلأَ الْجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَى كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا. " (أعمال ٢/ ٤).

كما لا يؤمن المسلمون بالمعجزات التي تنسبها إليهم تلك الأسفار، فكل هذه الأخبار لم ترد في دليل له اعتبار عندنا. "(٢)

" وأما المنسوب إلى بطرس في رسالته الثانية " ٢١ لأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. " (بطرس (٢) ١/ ٢١)، وهو النص الذي يعتبره النصارى أصرح أدلتهم على إلهامية الكتبة ونبوتهم، فلا يصلح في الدلالة على إلهام الإنجيليين لأمور: أهمها أن هذه الرسالة لا تثبت نسبتها إلى بطرس ولا إلى أحد من أبناء الجيل المسيحي الأول.

وأيضًا لو سلمنا بصدق نسبة الرسالة إلى التلميذ بطرس، فإن بطرس قد مات قبل أن يدون مرقس (أول الإنجيليين تدوينًا) ثم بقية الإنجيليين كتاباتهم، فليس هؤلاء مَن تحدث عنه بطرس، إذ لا يعقل أن يوثق بطرس كتابات لم تكن قد كتبت بعد.

---

(١) محاضرات في النصرانية (٨٧- ٨٨).

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٢٥).

كما أن بطرس لم ينص على أسماء الإنجيليين، ولا يُدرى مقصوده، فلعله كان يقصد بعض الكثيرين الذين كتبوا حينذاك، ثم اعتبرت الكنيسة كتاباتهم مزيفة. "[1]

هل يليق هذا بالأنبياء؟

وتمتلئ الأناجيل والأسفار بالدلائل التي تكذب القول بإلهامية هؤلاء الذين ينبغي أن تعرض نبوتهم على الميزان الذي اقتبسه تلاميذ المسيح من معلمهم، فقد جاء في رسالة يوحنا الأولى: "١أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لاَ تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ، بَلِ امْتَحِنُوا الأَرْوَاحَ: هَلْ هِيَ مِنَ اللهِ؟ لأَنَّ أَنْبِيَاءَ كَذَبَةً كَثِيرِينَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالَمِ. " (يوحنا (١) ٤/ ١).

وبتطبيق هذا النص يتضح الآتي:

١ـ يهوذا الخائن:

هل يليق أن يكون يهوذا - الذي عُد من الاثني عشر تلميذًا الذين أرسلهم المسيح - خائنا ويبيع المسيح بثلاثين من الفضة؟ فمثل هذه الخيانة لا تصدر عن الرسل، وهي دليل يمنع دعوى نبوة ورسالة التلاميذ.

٢ـ بطرس اللئيم:

كما لا يصدر عن الأنبياء والرسل ما فعله بطرس عندما تخلى عن المسيح وأنكره في ليلة من أصعب الليالي ثلاث مرات (انظر لوقا ٢٢/ ٣٤)، ولوقا يقول على لسان المسيح: " ٩وَمَنْ أَنْكَرَنِي قُدَّامَ النَّاسِ، يُنْكَرُ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللهِ. " (لوقا ١٢/ ٩)، إن هذا الإنكار دعا القس إبراهيم سعيد إلى وصف بطرس بأنه "الغارق في بحر الكفر"[2]، ولم يشفع له طول صحبته للمسيح.

٣ـ بطرس الشيطان:

كيف يكون الرسول الملهم الممتلئ من الروح القدس شيطانًا؟ " ٢٣فَالْتَفَتَ وَقَالَ لِبُطْرُسَ: «اذْهَبْ عَنِّي يَاشَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا للهِ لكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ». " (متى ١٦/ ٢٣).

---

(١) المصدر السابق (٢٥ - ٢٦).

(٢) شرح بشارة لوقا، إبراهيم سعيد(ص ٥٨٠).

٤ـ بطرس قليل الإيمان:

ويقول المسيح عن بطرس أيضًا: " وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟ »" (متى ١٤/ ٣١)، لذا اندفع القديس أكستاين للقول عن بطرس: " إنه كان غير ثابت، لأنه كان يؤمن أحيانًا ويشك أحيانًا ".

٥ـ بقية التلاميذ:

وإذا قيل هذا في بطرس فماذا عساه يقال عن بقية التلاميذ والحواريين؟ وهل كانوا أفضل حظًا وأحسن شأنًا؟

نجد أن العهد الجديد يخبرنا بأنهم هم أيضًا كانوا قليلي الإيمان، فقد وصفهم المسيح بذلك مرارًا، يقول متى: "[٢٥]فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَأَيْقَظُوهُ قَائِلِينَ: «يَا سَيِّدُ، نَجِّنَا فَإِنَّنَا نَهْلِكُ! » [٢٦]فَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ »" (متى ٨/ ٢٥-٢٦).

ولما أمرهم بالتحرز من خمير اليهود خاطب التلاميذ ": «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ أَنَّكُمْ لَمْ تَأْخُذُوا خُبْزًا؟ [٩]أَحَتَّى الآنَ لاَ تَفْهَمُونَ؟ " (متى ١٦/ ٨).

وفي موطن آخر قال لهم: "[٢٨]فَإِنْ كَانَ الْعُشْبُ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ فِي الْحَقْلِ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي التَّنُّورِ يُلْبِسُهُ الله هكَذَا، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ " (لوقا ١٢/ ٢٨)، (وانظر مرقس ٤/ ٤٠، ومتى ٦/ ٣٠)، فهل مثل هؤلاء يعتد برواياتهم وتأليفاتهم فضلًا عن اعتبارها من وحي الله؟

لكن الداهية الدهياء في شهادة المسيح عليهم لما عجزوا عن شفاء المصروع، وجاءوا للمسيح عليه السلام شاكين مستفسرين: " [١٩]ثُمَّ تَقَدَّمَ التَّلاَمِيذُ إِلَى يَسُوعَ عَلَى انْفِرَادٍ وَقَالُوا: «لِمَاذَا لَمْ نَقْدِرْ نَحْنُ أَنْ نُخْرِجَهُ؟ » [٢٠]فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لِعَدَمِ إِيمَانِكُمْ. فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ. " (متى ١٧/ ١٩ - ٢٠)، فهل هؤلاء الذين لا يملكون من الإيمان حبة خردل أنبياء وأمناء على تسجيل وحي الله؟

معجزات التلاميذ لا تصلح دليلًا على النبوة:

وإذا كان اعتبار النصارى لهؤلاء التلاميذ أنبياء لمجرد أن قاموا ببعض المعجزات التي لم تقترن بدعوى النبوة منهم، فهذا لا يكفي في تقرير نبوتهم وعصمتهم، "ودعوى العصمة في كل واحد من الحواريين وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسى عليهما السلام دعوى ممنوعة وهي باطلة وإنما هم رسل المسيح ﷺبمنزلة رسل موسى ورسل إبراهيم ورسل محمد ﷺ، وأكثر النصارى أو كثير منهم أو كلهم يقولون هم رسل الله وليسوا بأنبياء وكل من ليس بنبي فليس برسول الله وليس بمعصوم وإن كانت له خوارق عادات كأولياء الله من المسلمين وغيرهم فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق فليسوا معصومين من الخطأ، والخوارق التي تجري على يدي غير الأنبياء لا تدل على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء فضلا عن كونهم معصومين. . "(١)

" وأيضًا تذكر الأسفار المقدسة أن المعجزات والآيات قد تعطى للكاذبين الذين يدعون النبوة، فالمسيح قال: " ٢٤لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا. ٢٥هَا أَنَا قَدْ سَبَقْتُ وَأَخْبَرْتُكُمْ. " (متى ٢٤/ ٢٤ - ٢٥)، كما أن لوقا لم يثبت أن له معجزة، وكذلك مرقس.

كما أن الأعاجيب لا تصلح أكثر من دليل على الإيمان فحسب، إذ كل مؤمن - حسب الإنجيل - يستطيع أن يأتي بإحياء الموتى وشفاء المرضى، فقد نقل متى عن المسيح قوله: " ٢٠فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لِعَدَمِ إِيمَانِكُمْ. فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ. " (متى ١٧/ ٢٠).

تقول الرهبانية اليسوعية في تعليقها على هذه الفقرة: "بإمكان المؤمن على مثال الله نفسه أن ينقل جبلًا من الجبال".

وقال: "١٢اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضًا، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا، لأَنِّي مَاضٍ إِلَى أَبِي. " (يوحنا ١٤/ ١٢)، فكل مؤمن من

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ٨٣ - ٨٤).

النصارى يقدر على صنع معجزات المسيح، بما فيها إحياء الموتى وشفاء المرضى، لا بل يقدر على أعظم منها! !

أما التفسير التطبيقي فقد أُحرج مفسروه من هذا النص الذي أخجل تواضعهم، إذ لا يليق بالتلاميذ وبالمؤمنين صنع معجزات أكبر وأعظم من معجزات المسيح، فقالوا: "لم يقل الرب يسوع: إن تلاميذه سيصنعون معجزات أعظم روعة، فإقامة الموتى هي أقصى ما نستطيع" إن غاية ما يقدرون عليه هي إحياء الموتى.

ويقول المسيح ﷺ محذرًا من الأنبياء الكذبة: " ٤فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «انْظُرُوا! لاَ يُضِلَّكُمْ أَحَدٌ. ٥فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: أَنَا هُوَ الْمَسِيحُ! وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ. " ...٢٤لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا. " (متى ٢٤/ ٤-٢٥).

وقد حذر المسيح ﷺ من خداع هؤلاء الكذبة للعوام بما يزعمونه من معجزات وإيمان بالمسيح وادعاء أنهم على دينه، وبيَّن المسيح كيفية معرفة هؤلاء الكذبة حين قال: " «لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَارَبُّ، يَارَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ٢٢كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ: يَارَبُّ، يَارَبُّ! أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ ٢٣فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ! " (متى ٧/ ٢١- ٢٤).

وأخيرًا، فإن إنسان الخطيئة يصنع الكثير من المعجزات والعجائب، من غير أن يعني ذلك صدقه أو نبوته، يقول عنه بولس: "٩الَّذِي مَجِيئُهُ بِعَمَلِ الشَّيْطَانِ، بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ " (تسالونيكي (٢) ٢/ ٩). "[1]

النبوة حسب الكتاب المقدس لا تقتضي العصمة من الكذب في البلاغ:

" ثم إن كون التلاميذ من الأنبياء لا يعني بالضرورة - حسب المعتقدات النصرانية -

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٢٨).

عصمتهم عن الخطأ في البلاغ أو حتى الكذب، ودليل ذلك ما نسبه سفر الملوك إلى أحد الأنبياء من الكذب بالبلاغ "[11]وَكَانَ نَبِيٌّ شَيْخٌ سَاكِنًا فِي بَيْتِ إِيلَ، فَأَتَى بَنُوهُ وَقَصُّوا عَلَيْهِ كُلَّ الْعَمَلِ الَّذِي عَمِلَهُ رَجُلُ اللهِ ذلِكَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِ إِيلَ، وَقَصُّوا عَلَى أَبِيهِمِ الْكَلاَمَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ. [12]فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ: «مِنْ أَيِّ طَرِيق ذَهَبَ؟ » وَكَانَ بَنُوهُ قَدْ رَأَوْا الطَّرِيقَ الَّذِي سَارَ فِيهِ رَجُلُ اللهِ الَّذِي جَاءَ مِنْ يَهُوذَا. [13]فَقَالَ لِبَنِيهِ: «شُدُّوا لِي عَلَى الْحِمَارِ». فَشَدُّوا لَهُ عَلَى الْحِمَارِ فَرَكِبَ عَلَيْهِ [14]وَسَارَ وَرَاءَ رَجُلِ اللهِ، فَوَجَدَهُ جَالِسًا تَحْتَ الْبَلُّوطَةِ، فَقَالَ لَهُ: «أَأَنْتَ رَجُلُ اللهِ الَّذِي جَاءَ مِنْ يَهُوذَا؟ » فَقَالَ: «أَنَا هُوَ». [15]فَقَالَ لَهُ: «سِرْ مَعِي إِلَى الْبَيْتِ وَكُلْ خُبْزًا». [16]فَقَالَ: «لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَرْجعَ مَعَكَ وَلاَ أَدْخُلُ مَعَكَ وَلاَ آكُلُ خُبْزًا وَلاَ أَشْرَبُ مَعَكَ مَاءً فِي هذَا الْمَوْضِعِ، [17]لأَنَّهُ قِيلَ لِي بِكَلاَمِ الرَّبِّ: لاَ تَأْكُلْ خُبْزًا وَلاَ تَشْرَبْ هُنَاكَ مَاءً. وَلاَ تَرْجعْ سَائِرًا فِي الطَّرِيقِ الَّذِي ذَهَبْتَ فِيهِ». [18]فَقَالَ لَهُ: «أَنَا أيضًا نَبِيٌّ مِثْلُكَ، وَقَدْ كَلَّمَنِي مَلاَكٌ بِكَلاَمِ الرَّبِّ قَائِلًا: ارْجعْ بِهِ مَعَكَ إِلَى بَيْتِكَ فَيَأْكُلَ خُبْزًا وَيَشْرَبَ مَاءً». كَذَبَ عَلَيْهِ. [19]فَرَجَعَ مَعَهُ وَأَكَلَ خُبْزًا فِي بَيْتِهِ وَشَرِبَ مَاءً. "

(ثم تحدث السفر عن عقوبة النبي المسكين الذي أطاع النبي الكذاب ظانًا إياه يحدثه بوحي الله وأمره) (الملوك (١) ١٣/ ١١ – ٢٩).

ومثله نسب سفر الملوك الكذب في البلاغ عن الله إلى النبي أليشع، حين أرسل ملك أرام الملك بنهدد قائده حزائيل إلى أليشع، يسأله عن مرضه الذي هو فيه، فكذب النبي – وحاشا لنبي أن يكذب – في جوابه للملك، وقال لحزائيل: "[10]فَقَالَ لَهُ أَلِيشَعُ: «اذْهَبْ وَقُلْ لَهُ: شِفَاءً تُشْفَى. وَقَدْ أَرَانِي الرَّبُّ أَنَّهُ يَمُوتُ مَوْتًا». " (الملوك (٢) ٨/ ١٠)، فقد أمره بإبلاغ سيده بغير الحقيقة التي أعلمه الله إياها، وكذب عليه!

المبحث الثالث: بولس، حقيقته وأثره في الملة النصرانية.

تمهيد:

" وإن لبولس هذا لشأنًا في المسيحية، فهي تنسب إليه أكثر مما تنسب لأحد سواه فرسائله هي التي شرحتها؛ وقد كان – بنشاطه الجم، وتطوافه في الأقاليم مشرقًا ومغربًا،

لا يستقر في مكان على نية الإقامة فيه، بل على قصد في الرحيل إلى غيره - أشد دعاتها، وقد تأثر المسيحيون خطاه، وتعرفوا أخباره وأقواله، ما دونه منه في رسائله، وما ألقاه في الجموع وتناقلوه، وإن لم يدونه هو، وتأثروا أعماله فاحتذوا حذوه، وسلكوا مسلكه، واعتبروه القدوة الأولى"(١)

وسنتكلم عنه من خلال عدة عناصر:

أولًا: التعريف ببولس:

١- " لقد ولد من عائلة يهودية أقامت بمدينة طَرَسُوس في سيليقيا ووجدت له بها رزقًا، وكانت طرسوس مدينة نشطة غاية في النشاط، تقع على نهاية حدود إقليم سيليقيا وتعتبر مفتتح سبل النفوذ إليه، كانت حلقة الاتصال بين هضبة آسيا الصغرى وبين الشام ومفرق الطرق التجارية الهامة التي تجلب إليها في آن واحد، من اليونان وإيطاليا وفريجيا وكابا دوسيا والشام وقبرص وفينيقيا ومصر، سيلًا لا ينقطع من الأفكار والعقائد والتأثيرات المختلفة. "(٢)

ولقد جاء التعريف به ضمن أعمال الرسل ومن خلالها نستطيع أن ننسق تعريفًا به:

٢- تربى في أورشليم، واسمه الأصلي شاول، "، ومعناه: "مطلوب"، ثم سمى نفسه بعد تنصره "بولس"، ومعناه "الصغير" وهذا ما ورد عنه في ٢٢/ ٣: " فَقَالَ: ٣«أَنَا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ وُلِدْتُ فِي طَرْسُوسَ كِيلِيكِيَّةَ، وَلكِنْ رَبَيْتُ فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ مُؤَدَّبًا عِنْدَ رِجْلَيْ غَمَالاَئِيلَ عَلَى تَحْقِيقِ النَّامُوسِ الأَبَوِيِّ. "

٣- ولقد جاء أيضًا أنه من الفريسيين الذين يقولون إن هناك قيامة يشاركون فيها ملك المسيح في الدنيا، فقد جاء في ٢٣: " ٦وَلَمَّا عَلِمَ بُولُسُ أَنَّ قِسْمًا مِنْهُمْ صَدُّوقِيُّونَ وَالآخَرَ فَرِّيسِيُّونَ، صَرَخَ فِي الْمَجْمَعِ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ، أَنَا فَرِّيسِيٌّ ابْنُ فَرِّيسِيٍّ. عَلَى

---

(١) محاضرات في النصرانية (ص ٧٨).

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها، شارل جنيبر (ص ٦٨)، في مقارنة الأديان. . . بحوث ودراسات، محمد عبد الله الشرقاوي (ص ١٥٢).

رَجَاءِ قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ أَنَا أُحَاكَمُ». "

ونجد كُتَّاب النصارى متفقين على أنه من اليهود، ولكن جاء في سفر أعمال الرسل أيضًا ما يدل على أنه روماني ففي (٢٢/ ٢٥ -٢٦): " ٢٥فَلَمَّا مَدُّوهُ لِلسِّيَاطِ، قَالَ بُولُسُ لِقَائِدِ الْمِئَةِ الْوَاقِفِ: «أَيَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَجْلِدُوا إِنْسَانًا رُومَانِيًّا غَيْرَ مَقْضِيٍّ عَلَيْهِ؟ » ٢٦فَإِذْ سَمِعَ قَائِدُ الْمِئَةِ ذَهَبَ إِلَى الأَمِيرِ، وَأَخْبَرَهُ قَائِلًا: «انْظُرْ مَاذَا أَنْتَ مُزْمِعٌ أَنْ تَفْعَلَ! لأَنَّ هذَا الرَّجُلَ رُومَانِيٌّ». "

فأنت تلاحظ بلا ريب التعارض الظاهر في أصل بولس، ولن نقف مع هذا طويلًا، فمهما يكن من أمر جنسه، فقد كان بولس هذا في صدر حياته من أشد أعداء المسيحية، وأبلغهم كيدًا لها، وأكثرهم إمعانًا في أذى معتنقيها ومن النصوص التي تثبت ذلك، ما جاء في أعمال الرسل (٨/ ١ – ٣): " وَحَدَثَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ اضْطِهَادٌ عَظِيمٌ عَلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي أُورُشَلِيمَ، فَتَشَتَّتَ الْجَمِيعُ فِي كُوَرِ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ، مَا عَدَا الرُّسُلَ. ٢وَحَمَلَ رِجَالٌ أَتْقِيَاءُ اسْتِفَانُوسَ وَعَمِلُوا عَلَيْهِ مَنَاحَةً عَظِيمَةً. ٣وَأَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ يَسْطُو عَلَى الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ يَدْخُلُ الْبُيُوتَ وَيَجُرُّ رِجَالًا وَنِسَاءً وَيُسَلِّمُهُمْ إِلَى السِّجْنِ. "

وفي (٩/ ١ – ٢): " ١أَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ يَنْفُثُ تَهَدُّدًا وَقَتْلًا عَلَى تَلاَمِيذِ الرَّبِّ، فَتَقَدَّمَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ ٢وَطَلَبَ مِنْهُ رَسَائِلَ إِلَى دِمَشْقَ، إِلَى الْجَمَاعَاتِ، حَتَّى إِذَا وَجَدَ أُنَاسًا مِنَ الطَّرِيقِ، رِجَالًا أَوْ نِسَاءً، يَسُوقُهُمْ مُوثَقِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. "(١)

ولا تذكر المصادر النصرانية لقيا بولس المسيح، وأول ذكر لبولس فيما يتصل بالنصرانية شهوده محاكمة وقتل استفانوس أحد تلاميذ المسيح، ويذكر بولس أنه كان راضيًا عن قتله. (انظر أعمال ٨/ ١) فقد كان يهوديًا معاديًا للمسيحيين الأوائل. (٢)

٤ـ تحول بولس العجيب إلى النصرانية:

ويقول سفر الأعمال إن ذلك الرجل الذي كاد للمسيحية هذا الكيد وآذى أهلها ذلك

---

(١) محاضرات في النصرانية (ص ٧٩ – ٨١) بتصرف يسير، وانظر أيضًا للأهمية كتاب " بولس وتحريف المسيحية "، تأليف/ هايم ماكبي، ترجمة سميرة عزمي الزين.

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٣٢) وانظر أيضًا: المسيحية د. أحمد شلبي (١١١ – ١١٢).

الإيذاء، قد انتقل من الجبت والطاغوت إلى المسيحية فجأة من غير مقدمات تقدمت ذلك الانتقال، ولا تمهيدات مهدت له. [١]

فيقول في (٩/ ٣- ٦): " ٣وَفِي ذَهَابِهِ حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ، ٤فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتًا قَائِلًا لَهُ: «شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟» ٥فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟» فَقَالَ الرَّبُّ: «أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ. صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ». ٦فَقَالَ وَهُوَ مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ: «يَارَبُّ، مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟» فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «قُمْ وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالَ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ». "

وكان مما قاله المسيح كما زعم: " لأَنِّي لِهذَا ظَهَرْتُ لَكَ، لأَنْتَخِبَكَ خَادِمًا وَشَاهِدًا بِمَا رَأَيْتَ وَبِمَا سَأَظْهَرُ لَكَ بِهِ، ١٧مُنْقِذًا إِيَّاكَ مِنَ الشَّعْبِ وَمِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ أَنَا الآنَ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِمْ، ١٨لِتَفْتَحَ عُيُونَهُمْ كَيْ يَرْجِعُوا مِنْ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ، وَمِنْ سُلْطَانِ الشَّيْطَانِ إِلَى اللهِ، حَتَّى يَنَالُوا بِالإِيمَانِ بِي غُفْرَانَ الْخَطَايَا وَنَصِيبًا مَعَ الْمُقَدَّسِينَ. " أعمال الرسل ١٦/ ١٦ – ١٨).

" و مكث بولس ثلاثة أيام في دمشق، ثم غادرها إلى العربية. [٢]

ثم عاد إليها "١٨ثُمَّ بَعْدَ ثَلاَثِ سِنِينَ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ لأَتَعَرَّفَ بِبُطْرُسَ، فَمَكَثْتُ عِنْدَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا. " (غلاطية ١/ ١٨).

ثم بدأ دعوته في دمشق، فحاول اليهود قتله، فهرب إلى أورشليم، فرحب به برنابا، وقدمه للتلاميذ الذين يصفه أعمال الرسل بأنهم " يَخَافُونَهُ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَنَّهُ تِلْمِيذٌ. " (أعمال ٩/ ٢٦).

ثم ذهب للدعوة في قيصرية (جنوب حيفا)، ثم سافر مع برنابا إلى آسيا الصغرى، ثم حضر مجمع أورشليم مع التلاميذ، ثم رجع إلى أنطاكيا، واختلف فيها مع برنابا بسبب (زعمته الأناجيل) وهو إصراره على اصطحاب مرقس معهما في رحلتهما التبشيرية، وعندها افترقا.

---

(١) محاضرات في النصرانية (ص ٨٣)، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، عبد الوهاب عبد السلام طويلة (١١٨).

(٢) يطلق اسم العربية في الكتاب المقدس، ويراد منه جزيرة العرب كما قد يراد به بعض المواقع شمال الجزيرة كسيناء وجنوب الشام. انظر قاموس الكتاب المقدس، ص (٦١٥).

و استمر بولس يدعو إلى المسيحية في أماكن عدة من أوربا سجن خلالها مرتين، إحداهما في روما سنة ٦٤م، ثم ثانيةً عام ٦٧، وقتل عام ٦٨م.

وتذكر بعض المصادر أنه أسر مرة واحدة عام ٦٤م وفيها مات. "(١)

ثانيًا: أهمية بولس في الفكر النصراني

" تقوم النصرانية المحرفة وعمادها الرئيس رسائل بولس، فقد كانت رسائله أول ما خط من سطور العهد الجديد، الذي جاء متناسقًا إلى حد ما مع هذه الرسائل، لا سيما إنجيل يوحنا، فيما رفضت الكنيسة النصرانية رسائل التلاميذ التي تتعارض مع نصرانية بولس التي طغت على النصرانية الأصلية التي نادى بها المسيح وتلاميذه من بعده.

و هذا الأثر الذي تركه بولس في النصرانية لا يغفل ولا ينكر، مما حدا بالكاتب مايكل هارت في كتابه "الخالدون المائة" أن يجعل بولس أحد أهم رجال التاريخ أثرًا، إذ وضعه في المرتبة السادسة فيما وضع المسيح في المرتبة الثالثة.

وقد برر هارت وجود النبي محمد ﷺفي المرتبة الأولى، وتقدمه على المسيح عليه السلامالذي يعد المنتسبون لدينه الأكثر على وجه الأرض، فقال: "فالمسيحية لم يؤسسها شخص واحد، وإنما أقامها اثنان: المسيح والقديس بولس، ولذلك يجب أن يتقاسم شرف إنشائها هذان الرجلان.

فالمسيح قد أرسى المبادئ الأخلاقية للمسيحية، وكذلك نظراتها الروحية وكل ما يتعلق بالسلوك الإنساني.

وأما مبادئ اللاهوت فهي من صنع القديس بولس"، ويقول هارت: "المسيح لم يبشر بشيء من هذا الذي قاله بولس الذي يعتبر المسئول الأول عن تأليه المسيح".

وقد خلت قائمة مايكل هارت من تلاميذ المسيح الذين غلبتهم دعوة بولس مؤسس المسيحية الحقيقي، بينما كان الامبرطور قسطنطين صاحب مجمع نيقية الذي تبنى رسميًا

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٣٢- ٣٣) وانظر أيضًا " بولس وتحريف المسيحية " ص ٩٣، نظرة عن قرب في المسيحية، بربارا براون (١٩ - ٢٢).

القول بألوهية المسيح (٣٢٥م) في المرتبة الثامنة والعشرين. [١]

ثالثا: بعض الملامح في شخصية بولس كما وردت في رسائله:

ولا بد من سبر هذه الشخصية الهامة في تاريخ المسيحية بقراءة الرسائل المنسوبة إليه أو ما جاء عنه في سفر أعمال الرسل، وعند قيامنا بهذا السبر سنجد عدة ملاحظات هامة:

١ـ تناقضات قصة الرؤية والنبوة المزعومة:

زعم بولس أنه لقي المسيح بعد ثلاث سنوات من رفعه، حين كان متجهًا إلى دمشق، لكن عند التحقيق في قصة رؤية بولس للمسيح يتبين أنها إحدى كذبات بولس وأوهامه، ودليل لذلك يتضح بالمقارنة بين روايات القصة في العهد الجديد، حيث وردت القصة ثلاث مرات: أولاها في أعمال الرسل (٩/ ٣-٢٢)، من رواية لوقا أو كاتب سفر الأعمال، والثانية من كلام بولس في خطبته أمام الشعب (انظر أعمال ٢٢/ ٦-١١)، والثالثة أيضًا من رواية بولس أمام الملك أغريباس (انظر أعمال ٢٦/ ١٢-١٨)، كما أشار بولس للقصة في مواضع متعددة في رسائله، و لدى دراسة القصة في مواضعها الثلاث يتبين تناقضها في مواضع: [٢]

١- جاء في الرواية الأولى (أعمال ٩) " ٧وَأَمَّا الرِّجَالُ الْمُسَافِرُونَ مَعَهُ فَوَقَفُوا صَامِتِينَ، يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ أَحَدًا. " (أعمال ٩/ ٧)، بينما جاء في الرواية الثانية (أعمال ٢٢): "٩وَالَّذِينَ كَانُوا مَعِي نَظَرُوا النُّورَ وَارْتَعَبُوا، وَلكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ الَّذِي كَلَّمَنِي. " (أعمال ٢٢/ ٩)، فهل سمع المسافرون الصوت؟ أم لم يسمعوه؟.

٢- جاء في الرواية الأولى والثانية أن المسيح طلب من بولس أن يذهب إلى دمشق حيث سيخبَر هناك بالتعليمات: " فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «قُمْ وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالَ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٣١ – ٣٢).

(٢) وانظر: الإسلام والأديان الأخرى نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، (ص ١٣٧ – ١٣٨)، " بولس وتحريف المسيحية "، هايم ماكبي (ص ٣٥) حيث حقق الهدف الذي من أجله كان بولس راحلا إلى دمشق، وأثبت – تاريخيا – كذب الدعوى التي قالها بولس عن نفسه – أنه كان يحمل رسائل رسمية من الكاهن الأكبر كما يزعم – بما لا يدع مجالا للشك.

(تنبيه) مؤلف هذا الكتاب من ألمع مؤرخي الأديان في تاريخنا المعاصر. " أفادته مترجمة الكتاب ".

أَنْ تَفْعَلَ». " (أعمال ٩/ ٦)، وفي الثانية: "١٠فَقُلْتُ: مَاذَا أَفْعَلُ يَارَبُّ؟ فَقَالَ لِي الرَّبُّ: قُمْ وَاذْهَبْ إِلَى دِمَشْقَ، وَهُنَاكَ يُقَالُ لَكَ عَنْ جَمِيعِ مَا تَرَتَّبَ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ. " (أعمال ٢٢/ ١٠).

بينما يذكر بولس في الرواية الثالثة (أعمال ٢٦) أن المسيح أخبره بتعليماته بنفسه، فقد قال له: " لأَنِّي لِهذَا ظَهَرْتُ لَكَ، لأَنْتَخِبَكَ خَادِمًا وَشَاهِدًا بِمَا رَأَيْتَ وَبِمَا سَأَظْهَرُ لَكَ بِهِ، ١٧مُنْقِذًا إِيَّاكَ مِنَ الشَّعْبِ وَمِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ أَنَا الآنَ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِمْ، ..." (أعمال ٢٦/ ١٦-١٨).

٣- جاء في الرواية الثانية أن المسافرين مع بولس " نَظَرُوا النُّورَ وَارْتَعَبُوا" (أعمال ٢٢/ ٩)، لكنه في الرواية الأولى يقول: "يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ أَحَدًا. " (أعمال ٩/ ٧).

٤- جاء في الرواية الأولى والثانية أن بولس "٤فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ " (أعمال ٩/ ٤)، بينما المسافرون وقفوا، وفي الرواية الثالثة أن الجميع سقطوا، فقد جاء فيها "١٤فَلَمَّا سَقَطْنَا جَمِيعُنَا عَلَى الأَرْضِ " (أعمال ٢٦/ ١٤).

٥- جاء في الرواية الأولى " أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ، " (أعمال ٩/ ٣)، ومثله في الرواية الثانية (انظر أعمال ٢٢/ ٦)، غير أن الرواية الثالثة تقول: " قَدْ أَبْرَقَ حَوْلِي وَحَوْلَ الذَّاهِبِينَ مَعِي. " (أعمال ٢٦/ ١٣).

فحدث بهذه الأهمية في تاريخ بولس ثم النصرانية لا يجوز أن تقع فيه مثل هذه الاختلافات، "وإن تقديم شهادتين مثل هاتين (الرواية الأولى والثالثة) أمام محكمة ابتدائية في أي قضية، ولتكن حادثة بسيطة من حوادث السير على الطرق لكفيل برفضهما معًا، فما بالنا إذا كانت القضية تتعلق بعقيدة يتوقف عليها المصير الأبدي للملايين من البشر"(١)، إذ بعد هذه الحادثة أصبح شاول الرسول بولس مؤسس المسيحية الحقيقي.

لكن إذا أردنا تحليل الهدف الذي جعل بولس يختلق هذه القصة فإنا نقول: يبدو أن بولس اندفع للنصرانية بسبب يأسه من هزيمة أتباع المسيح، فقد رآهم يثبتون على الحق

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، أحمد عبد الوهاب (ص ١٠٣) ولنظر للأهمية أيضًا " بولس وتحريف المسيحية " (ص ٤٠ – ٤٢).

رغم فنون العذاب الذي صبه عليهم، وهذا الشعور واضح في قول بولس أن المسيح قال له: "صعب عليك أن ترفس مناخس" (أعمال ٢٦/ ١٤).

و يُستغرب هنا كيف ينقل شخص من الكفر والعداوة إلى القديسية والرسالة من غير أن يمر حتى بمرحلة الإيمان؟. ، فمن الممكن تصديق التحول من فرط العداوة إلى الإيمان، أما إلى النبوة والرسالة من غير إعداد وتهيئة فلا، ومن المعلوم أن أحدًا من الأنبياء لم ينشأ على الكفر، فهم معصومون من ذلك.

ولنا أن نتساءل كيف لبولس أن يجزم بأن من رآه في السماء وكلمه كان المسيح وليس غيره، إذ هو لم يلق المسيح طوال حياته. (١)

٢ـ نفاقه وكذبه وتلونه كالحرباء:

ومن الأمور التي وقف عليها المحققون في شخصية بولس تلونه ونفاقه واحترافه للكذب في سبيل الوصول لغايته.

فهو يهودي فريسي ابن فريسي (انظر أعمال ٢٣/ ٦)، لكنه عندما خاف من الجلد قال: " قَالَ بُولُسُ لِقَائِدِ الْمِئَةِ الْوَاقِفِ: «أَيَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَجْلِدُوا إِنْسَانًا رُومَانِيًّا غَيْرَ مَقْضِيٍّ عَلَيْهِ؟ »" (أعمال ٢٢/ ٢٥).

وبولس يستبيح الكذب والتلون للوصول إلى غايته فيقول: " ٢٠فَصِرْتُ لِلْيَهُودِ كَيَهُودِيٍّ لأَرْبَحَ الْيَهُودَ. وَلِلَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ كَأَنِّي تَحْتَ النَّامُوسِ لأَرْبَحَ الَّذِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ. ٢١وَلِلَّذِينَ بِلاَ نَامُوسٍ كَأَنِّي بِلاَ نَامُوسٍ — مَعَ أَنِّي لَسْتُ بِلاَ نَامُوسٍ للهِ، بَلْ تَحْتَ نَامُوسٍ لِلْمَسِيحِ — لأَرْبَحَ الَّذِينَ بِلاَ نَامُوسٍ. ٢٢صِرْتُ لِلضُّعَفَاءِ كَضَعِيفٍ لأَرْبَحَ الضُّعَفَاءَ. صِرْتُ لِلْكُلِّ كُلَّ شَيْءٍ، لأُخَلِّصَ عَلَى كُلِّ حَال قَوْمًا. " (كورنثوس (١) ٩/ ٢٠-٢٢).

ويستبح بولس الكذب فيقول: " ٧فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صِدْقُ اللهِ قَدِ ازْدَادَ بِكَذِبِي لِمَجْدِهِ، فَلِمَاذَا أُدَانُ أَنَا بَعْدُ كَخَاطِئٍ؟ " (رومية ٣/ ٧).

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٣٥).

ومن نفاقه وتلونه تزلفه لحكام روما الوثنيين واعتبارهم وسائر الحكام سلاطين موضوعين من قبل الله، ويمضي فيجعل الضرائب والجزية التي يفرضونها حقًا مشروعًا لهم، فيقول: " ١لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ الله، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ الله، ٢حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ الله، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً. . . . ٦فَإِنَّكُمْ لأَجْلِ هذَا تُوفُونَ الْجِزْيَةَ أيضًا، إِذْ هُمْ خُدَّامُ الله مُواظِبُونَ عَلَى ذلِكَ بِعَيْنِهِ. ٧فَأَعْطُوا الْجَمِيعَ حُقُوقَهُمْ: الْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِزْيَةُ. الْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِبَايَةُ. وَالْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ الْخَوْفُ. وَالإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ الإِكْرَامُ. " (رومية ١٣/ ١-٧).

٣ـ غروره:

و تمتلئ رسائل بولس بثنائه على نفسه ومن ذلك قوله: " ١بُولُسُ، رَسُولٌ لاَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ بِإِنْسَانٍ، بَلْ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ وَالله الآبِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ" (غلاطية ١/ ١)، وفي رسالة أخرى يقول: " ١بُولُسُ، عَبْدُ الله، وَرَسُولُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. . . . ٣وَإِنَّمَا أَظْهَرَ كَلِمَتَهُ فِي أَوْقَاتِهَا الْخَاصَّةِ، بِالْكِرَازَةِ الَّتِي اؤْتُمِنْتُ أَنَا عَلَيْهَا، بِحَسَبِ أَمْرِ مُخَلِّصِنَا الله " (تيطس ١/ ١-٣).

ويظن بولس أن عنده روح الله فيقول: " وَأَظُنُّ أَنِّي أَنَا أيضًا عِنْدِي رُوحُ الله. " (كورنثوس (١) ٧/ ٤٠).

ويرتفع بنفسه إلى درجة القديسين الذين - كما يرى - سيدينون العالم بما فيهم الملائكة فيقول: " ٢أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْقِدِّيسِينَ سَيَدِينُونَ الْعَالَمَ؟. . . . ٣أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنَا سَنَدِينُ مَلاَئِكَةً" (كورنثوس (١) ٦/ ٢-٣) فهو سيدين الملائكة الذين كان قد ذكر بأن المسيح دونهم بقليل (انظر عبرانيين ٢/ ٩)، ويقول أيضًا مفاخرًا بنفسه: " ٤كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ" (أفسس ١/ ٤).[1]

٤ـ عدم تلقيه الدين والهدي من تلاميذ المسيح:

ورغم أن بولس لم يلق المسيح فإنه يعتبر نفسه في مرتبة التلاميذ، لا بل يفوقهم " ١١وَأُعَرِّفُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الإِنْجِيلَ الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ، أَنَّهُ لَيْسَ بِحَسَبِ إِنْسَانٍ. ١٢لأَنِّي لَمْ أَقْبَلْهُ

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٣٧) وانظر: مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان (ص ١٨).

مِنْ عِنْدِ إِنْسَانٍ وَلاَ عُلِّمْتُهُ. بَلْ بِإِعْلاَنِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. ... أَنْ يُعْلِنَ ابْنَهُ فِيَّ لأُبَشِّرَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، لِلْوَقْتِ لَمْ أَسْتَشِرْ لَحْماً وَدَماً ١٧وَلاَ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ، إِلَى الرُّسُلِ الَّذِينَ قَبْلِي، بَلِ انْطَلَقْتُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ رَجَعْتُ أيضًا إِلَى دِمَشْقَ. ١٨ثُمَّ بَعْدَ ثَلاَثِ سِنِينَ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ لأَتَعَرَّفَ بِبُطْرُسَ، فَمَكَثْتُ عِنْدَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا. ١٩وَلكِنَّنِي لَمْ أَرَ غَيْرَهُ مِنَ الرُّسُلِ إِلاَّ يَعْقُوبَ أَخَا الرَّبِّ. " (غلاطية ١/ ١١- ١٩).

ويؤكد بولس على تميزه عن سائر التلاميذ وانفراده عنهم، و يصفهم بقوله: "٤وَلكِنْ بِسَبَبِ الإِخْوَةِ الْكَذَبَةِ الْمُدْخَلِينَ خُفْيَةً، الَّذِينَ دَخَلُوا اخْتِلاَسًا لِيَتَجَسَّسُوا حُرِّيَّتَنَا الَّتِي لَنَا فِي الْمَسِيحِ كَيْ يَسْتَعْبِدُونَا، ٥اَلَّذِينَ لَمْ نُذْعِنْ لَهُمْ بِالْخُضُوعِ وَلاَ سَاعَةً، لِيَبْقَى عِنْدَكُمْ حَقُّ الإِنْجِيلِ. ٦وَأَمَّا الْمُعْتَبَرُونَ أَنَّهُمْ شَيْءٌ — مَهْمَا كَانُوا، لاَ فَرْقَ عِنْدِي، الله لاَ يَأْخُذُ بِوَجْهِ إِنْسَانٍ — فَإِنَّ هؤُلاَءِ الْمُعْتَبَرِينَ لَمْ يُشِيرُوا عَلَيَّ بِشَيْءٍ. ٧بَلْ بِالْعَكْسِ، إِذْ رَأَوْا أَنِّي اؤْتُمِنْتُ عَلَى إِنْجِيلِ الْغُرْلَةِ كَمَا بُطْرُسُ عَلَى إِنْجِيلِ الْخِتَانِ. " (غلاطية ٢/ ٤-٧).

و هكذا يؤكد بولس بأن ما يحمله في تبشيره لم يتلقه عن تلاميذ المسيح، بل هو من الله مباشرة.

رابعًا: اعترافات نصرانية بابتداع بولس لما قدمه

"يقول الفيلسوف الروسي تولستوي: " إن بولس لم يفهم تعاليم السيد المسيح ولم يره قط في حياته، ومن ثم فلم يكن من حوارييه، وبالتالي لم يتلق تعاليمه منه مباشرة، الأمر الذي جعله يطمس هذه التعاليم بتفسيراته التعسفية، إن الأقوال الواردة في كتب العهد القديم، لا تدل على أن يسوع هو الله ولا ابن الله. "

وفي دراسة لسبيينوزافي العهد الجديد، ينتهي بعد تركيز شديد على موضوع واحد جوهري، وهو الفرق بين النبي عيسى والحواري بولس، أي بين الإنجيل وأعمال الرسل والرسائل.

فمن ناحية الأسلوب، يختلف أسلوب النبي في الإنجيل عن أسلوب الحواري في الرسائل، يؤكد النبي في الإنجيل أنه يتحدث بناء على تفويض من الله، أما الحواري فإنه يتحدث باسمه، ويعبر عن آرائه الشخصية، والنبي لا يخطيء أما الحواري فيخطيء ويصيب.

والنبوة من عند الله، أما رسالة الحواري فمن عنده.

النبوة يقينية ودعوة الحواري ظنية يمكن الشك فيها باعتراف الحواري نفسه.

ومن حيث الطريقة في التعبير فإن النبي لا يستدل بل يتحدث معتمدًا على السلطة الإلهية، أما الحواري فيستدل ويناقش ويجادل ويحاجج. "(١)

" ويقول فريدرك جرانت: " من الواضح أن كلًا من بولس الهلليني، ومتى المبشر اليهودي، له وجهة نظر تخالف الآخر فيما يتعلق بأعمال يسوع وتعاليمه "

" ويقول تشارلز دود: " إن الرسائل البولسية كثيرا ما تعارض الأناجيل".

ويقول هنتر: " إن رسالة يعقوب تظهر معارضة لتعاليم بولس في نوال البر بالإيمان ". (٢)

و يتساءل المحققون لماذا لم يذهب بولس بعد تنصره مباشرة إلى التلاميذ ليتلقى عنهم دين المسيح؟ بل ذهب إلى العربية ومكث بعيدًا عن التلاميذ ثلاث سنين، ثم لقي اثنين منهم فقط لمدة خمسة عشر يومًا. (انظر غلاطية ١/ ١٨-١٩).

تقول دائرة المعارف البريطانية في الإجابة عن هذا السؤال: "إن ارتحاله إليها كان لحاجته إلى جو هادئ صامت يتمكن فيه من التفكير في موقفه الجديد، وإن القضية الأساس عنده هي تفسير الشريعة حسب تجاربه الحديثة".

ويقول المؤرخ جامس كينون في كتابه "من المسيح إلى قسطنطين": "إنه ارتحل بعد تحوله الفكري إلى العربية، وكان الغرض المنشود من وراء ذلك - كما يبدو من التبشير- أن يدرس مضمونات عقيدته الجديدة، ثم ذهب بعد ذلك بثلاثة أعوام إلى أورشليم حتى يجتمع ببطرس ويعقوب".

ويبرر جامس كينون موقف بولس فيقول: "كان بولس يؤمن أن الله قد وهبه ميدانًا محددًا للعمل، ولا يجوز لرجل أن يتدخل في شئونه مادام روح الله بدورها هادية له". (٣)

---

(١) ماذا تعرف عن المسيحية، عبد الفتاح حسين الزيات، (ص ٥٦ – ٥٧).

(٢) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (ص ٩٢ – ٩٨).

(٣) ما هي النصرانية، محمد تقي العثماني، ص (١٧٠-١٧٤)، المسيح في الأناجيل بشر، ممدوح جاد، ص (١١٠-١١٢)، مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان، ص (١٨-١٩)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٣٨).

ويعترف الفاتيكان إلى حد كبير بموقف بولس من المسيحية وعدم حرصه عليها، فقد جاء في كتاب نشره الفاتيكان سنة ١٩٦٨ بعنوان " المسيحية عقيدة وعمل " ما يلي:

كان القديس بولس منذ بدء المسيحية ينصح لحديثي الإيمان أن يحتفظوا بما كانوا عليه من أحوال قبل إيمانهم بيسوع ". وذلك أمر يستدعي الدهشة فليس لإنسان أن يسمح لمؤمن أن يظل على ما كان عليه قبل الإيمان، ولكن بولس لم يكن يهتم بالمسيحية، وكان تشويهها وتدميرها هدفا من أهدافه. (١)

خامسًا: أخلاق بولس الرسول

كما يرفض المحققون وسم النصارى لبولس بالرسول، إذ ليس له شاهد على دعواه النبوة إلا شهادته لنفسه بأنه رأى المسيح فجعله رسولًا، ومثل هذه الشهادة لا يعتد بها (انظر يوحنا ٥/ ٣١) كما قد رفض المحققون - كما أسلفنا - قصة تجلي المسيح له التي رواها عنه تلميذه لوقا في سفر أعمال الرسل لما فيها من تناقضات تبطل قدسيتها ووقوعها.

كما وجد المحققون في أقوال بولس ما يستحيل أن يصدر من نبي ورسول.

فمن ذلك:

١ - إساءته الأدب مع الله في قوله: " ٢٥لأَنَّ جَهَالَةَ الله أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ الله أَقْوَى مِنَ النَّاسِ! " (كورنثوس (١)١/ ٢٥)، فلا يقبل أن يقال بأن لله ضعفًا أو جهالةً من أحد، سواء كان رسولًا أو غير رسول، وصدور مثله عن الرسل محال، إذ هم أعرف الناس بربهم العليم القوي المتعال.

٢ - ومثله يقول بولس: " لأَنَّ الرُّوحَ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ الله. " (كورنثوس (١) ٢/ ١٠).

ويقول مستحلًا المحرمات: "١٢«كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي» " (كورنثوس (١) ٦/ ١٢).

يقول التفسير التطبيقي للكتاب المقدس تعليقًا على هذه الفقرة: "استغلت الكنيسة هذا

---

(١) المسيحية، أحمد شلبي ص(١٣٠).

القول أسوأ استغلال في أوقات كثيرة، فكان بعض المسيحيين يبررون الكثير من خطاياهم بالقول إن المسيح قد رفع كل خطية، فأصبح لهم الحرية أن يعيشوا كما يشاؤون".

٣- إلغاء بولس للناموس، ومثل هذا الموقف لا يكون من الأنبياء والرسل الذين تأتي دعوتهم لتؤكد على طاعة الله وتدعو إلى السير وفق شريعته، يقول(١): " ١٨فَإِنَّهُ يَصِيرُ إِبْطَالُ الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ(التوراة وشرائعها المختصة بالكهنوت اللاوي) مِنْ أَجْلِ ضَعْفِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا، ١٩إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكَمِّلْ شَيْئًا. وَلكِنْ يَصِيرُ إِدْخَالُ رَجَاءٍ أَفْضَلَ بِهِ نَقْتَرِبُ إِلَى الله. "(عبرانيين ٧/ ١٨ - ١٩).

ويقول مبررًا إلغاء نظام الكهنوت التوراتي: " ٧فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ ذلِكَ الأَوَّلُ بِلاَ عَيْبٍ لَمَا طُلِبَ مَوْضِعٌ لِثَانٍ. " (عبرانيين ٨/ ٧).

٤- وصفه للناموس بالشيخوخة: " وَأَمَّا مَا عَتَقَ وَشَاخَ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الاضْمِحْلاَلِ. " (عبرانيين ٨/ ١٣).

٥- ضعفه أمام الشهوات بما لا يليق بأحوال الأنبياء، فيقول: " ١٥لأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ، إِذْ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ، بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. . . ١٩لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ، بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. . ٢٣وَلكِنِّي أَرَى نَامُوسًا آخَرَ فِي أَعْضَائِي يُحَارِبُ نَامُوسَ ذِهْنِي، وَيَسْبِينِي إِلَى نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ الْكَائِنِ فِي أَعْضَائِي. " (رومية ٧/ ١٥- ٢٣).

٦- اعتقاده أن شيطانًا قد وكل إليه أن يضربه، فيؤدبه لكي يتجنب الغرور: " رسول الشيطان وكل إليه بأن يلطمني لئلا أتكبر " (كورنثوس (٢) ١٢: ٧ ". (٢)

وعجبًا أن تكون هذه الصفات في إنسان ثم يصبح رسولًا ومؤسس ديانة(٣)

وأما المعجزات المذكورة له في الرسائل (أعمال ١٤/ ٣) (انظر قصة شفائه للمقعد في

(١) رسالة العبرانيين لا يعرف قائلها على الحقيقة، لكن بعض المفسرين نسبها إلى بولس - من غير دليل عليه -، قد نسبنا هذه الأقوال إليه تبعًا لهؤلاء المفسرين.

(٢) الإسلام والأديان الأخرى نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب (ص ١٤٢).

(٣) المسيحية، أحمد شلبي (١١٢).

أعمال ١٤/ ٨-١١)، وقصة إحيائه أفتيخوس في أعمال ٢٠/ ٩-١٢) فلا تصلح دليلًا على نبوته لأن المسيح أخبر بمقدم الكذبة المضلين الذين يصنعون العجائب، فقال محذرًا من الاغترار بمعجزاتهم: ": «انْظُرُوا! لاَ يُضِلَّكُمْ أَحَدٌ. ٥فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: أَنَا هُوَ الْمَسِيحُ! وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ. ... ١١وَيَقُومُ أَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ كَثِيرُونَ وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ. . . . ٢٤لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا. " (متى ٢٤/ ٤-٢٥)، فقد يكون بولس أحد هؤلاء الكذابين الذين يعطون الآيات والعجائب، التي تضل حتى المختارين من التلاميذ. (١)

كما أن الأعاجيب - وكما سبق - لا تصلح أكثر من دليل على الإيمان فحسب، إذ كل مؤمن - حسب الإنجيل - يستطيع أن يأتي بإحياء الموتى وشفاء المرضى، فقد نقل متى عن المسيح قوله: " فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ. " (متى ١٧/ ٢٠).

وقال: "١٢اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضًا، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا، لأَنِّي مَاضٍ إِلَى أَبِي. " (يوحنا ١٤/ ١٢).

ويقول يوحنا محذرًا من الأنبياء الكذبة: "، قَدْ صَارَ الآنَ أَضْدَادٌ لِلْمَسِيحِ كَثِيرُونَ. مِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا السَّاعَةُ الأَخِيرَةُ. ١٩مِنَّا خَرَجُوا، لكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنَّا، لأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مِنَّا لَبَقُوا مَعَنَا. لكِنْ لِيُظْهَرُوا أَنَّهُمْ لَيْسُوا جَمِيعُهُمْ مِنَّا. . . . ٢٢مَنْ هُوَ الْكَذَّابُ، إِلاَّ الَّذِي يُنْكِرُ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ؟ هذَا هُوَ ضِدُّ الْمَسِيحِ، الَّذِي يُنْكِرُ الآبَ وَالاِبْنَ " (يوحنا (١) ٢/ ٢٢).

وقد حذر بطرس أيضًا فقال: "PPوَلكِنْ، كَانَ أَيضًا فِي الشَّعْبِ أَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ، كَمَا سَيَكُونُ فِيكُمْ أَيضًا مُعَلِّمُونَ كَذَبَةٌ، الَّذِينَ يَدُسُّونَ بِدَعَ هَلاَكٍ. . . . " (بطرس (٢) ٢/ ١-٣).

وهكذا كما قال المسيح عن هؤلاء المبطلين: "٢٠فَإِذًا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. " (متى ٧/ ٥-٢٣)، فقد كانت ثمار بولس بدع الهلاك التي أدخلها في المسيحية: ألوهية المسيح،

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٣٩ – ٤١).

الصلب والفداء، عالمية النصرانية، إلغاء الشريعة. [١]

سادسًا: موقف التلاميذ من بولس:

وإذا كان بولس قد أنشأ البدع في النصرانية، وبدل دين المسيح كيفما شاء، فما هو موقف التلاميذ منه، وهل شاركوه التغيير والتبديل؟

بداية نذكر بأن بولس لم يتلق شيئًا من النصرانية من المسيح أو تلاميذه، فهو لم يصحبهم بل لم يُرَ منهم سوى بطرس ويعقوب ولمدة خمسة عشر يومًا، و ذلك بعد ثلاث سنين من تنصره، ثم عاد مرة أخرى إلى أورشليم، وعرض عليهم ما كان يدعو به بعيدًا عنهم يقول بولس: " ١ثُمَّ بَعْدَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً صَعِدْتُ أيضًا إِلَى أُورُشَلِيمَ مَعَ بَرْنَابَا، آخِذًا مَعِي تِيطُسَ أيضًا. ٢وَإِنَّمَا صَعِدْتُ بِمُوجَبِ إِعْلاَنٍ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمِ الإِنْجِيلَ الَّذِي أَكْرِزُ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ " (غلاطية ٢/ ١-٢) فماذا كان رد فعل التلاميذ؟ ". [٢]

وفي دراسة للكاردينال دانيلو عما يسمى بالمسيحية اليهودية أو المسيحية الأولى، نجده يقول: " كونت مجموعة الحواريين الصغيرة بعد المسيح طائفة يهودية تمارس ديانة المعبد وتحفظ تعاليمها.

إنهم يعتبرون بولس كخائن، وتصفه وثائق مسيحية يهودية بالعدو، وتتهمه بتواطؤ تكتيكي، ولكن المسيحية اليهودية كانت تمثل حتى عام ٧٠م غالبية الكنيسة، وكان بولس منعزلًا في ذلك الوقت. . . وإذا كان بولس أكثر وجوه المسيحية موضعًا للنقاش، وإذا كان قد أُعتبر خائنًا لفكر المسيح، كما وصفته بذلك أسرة المسيح والحواريون الذين بقوا في القدس حول يعقوب، فذلك لأنه كون المسيحية على حساب هؤلاء الذين جمعهم المسيح حوله لنشر تعاليمه.

ولما لم يكن قد عرف المسيح في حياته، فقد برر لشرعية رسالته بأن أكد على أن المسيح بعد قيامته قد ظهر له على طريق دمشق "[٣]

---

(١) وانظر كلام ابن تيمية في الجواب الصحيح (٢/ ٨٣- ٨٤).

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٤١ – ٤٢).

(٣) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٩٩- ١٠٠)، وانظر " بولس وتحريف المسيحية " (٦٩ – ٦٨)

" ويمكن تلخيص موقف الحواريين وأتباع عيسى الحقيقيين من أفكار بولس أن نقول: إن ثمت صراعًا ضخمًا قام بين بولس وأنصاره من جانب وبين المسيحيين من جانب آخر، وقد طال مدى هذا الصراع، وامتد قرونا بعد وفاة بولس، ونتائج هذا الصراع كانت مطابقة للمنطق والعقل، ففي جانب بولس كانت قلة محدودة جدًا من المثقفين المسيحيين، وكثرة ساحقة من الجماهير وكان جانب المسيحيين الحقيقيين بالعكس أي كان معهم جماهير المثقفين وقلة من العامة، أما الطبقة الحاكمة فقد كانت ميولها في جانب بولس وأتباعه، وابتداء من مطلع القرن الرابع برزت هذه الميول وأصبحت تهديدًا صريحًا لاتجاهات بولس، وإلزاما للناس باتباعها.

والذي يطالع رسائل بولس إلى الفليبيين والكولوسيين والغلاطيين ورسالته إلى تيموثاوس ورسالته إلى تيطس يجد من ذلك الشيء الكثير، ويجد شيئًا آخر مهمًا هو سلوك بولس مع مخالفيه في الرأي وتحقيره لهم وإغراؤه بهم، وهاهي صورة سريعة لهذا الصراع من هذه الأقوال. "(١)

يقول بولس وهو ينقل لنا ردود أفعال التلاميذ: " فَإِنَّ هؤُلاَءِ الْمُعْتَبَرِينَ لَمْ يُشِيرُوا عَلَيَّ بِشَيْءٍ. ٧بَلْ بِالْعَكْسِ، إِذْ رَأَوْا أَنِّي اؤْتُمِنْتُ عَلَى إِنْجِيلِ الْغُرْلَةِ كَمَا بُطْرُسُ عَلَى إِنْجِيلِ الْخِتَانِ. . . أَعْطَوْنِي وَبَرْنَابَا يَمِينَ الشَّرِكَةِ لِنَكُونَ نَحْنُ لِلأُمَمِ، وَأَمَّا هُمْ فَلِلْخِتَانِ. ١٠غَيْرَ أَنْ نَذْكُرَ الْفُقَرَاءَ. وَهذَا عَيْنُهُ كُنْتُ اعْتَنَيْتُ أَنْ أَفْعَلَهُ. " (غلاطية ٢/ ٧-١٠).

إذا كان ما يقوله بولس صحيحًا فإن التلاميذ أبعدوا بولس بعيدًا عن اليهود الذين بعث إليهم المسيح وأوصى تلاميذه مرة بعد مرة أن يقوموا بدعوتهم، وأما إرسال برنابا معه فيبدو أنه كان بقصد التوجيه والإصلاح لبولس، وهو يقوم بدعوة الوثنيين الغلف في الغرب.

ثم يسجل بولس في رسائله آراء تلاميذ المسيح والمسيحيين في مبادئه الجديدة ودعوته فيقول:

١ - "أَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ فِي أَسِيَّا ارْتَدُّوا عَنِّي" (تيموثاوس (٢) ١/ ١٥)، وقد انفض عنه الجميع،

فقد شرح بالتفصيل حالة الشقاق والخصام التي كانت بين بولس و التلاميذ.

(١) المسيحية أحمد شلبي (١١٨ – ١١٩).

لذا يستنجد بتيموثاوس فيقول: "بَادِرْ أَنْ تَجِيءَ إِلَيَّ سَرِيعًا، ١٠لأَنَّ دِيمَاس قَدْ تَرَكَنِي إِذْ أَحَبَّ الْعَالَمَ الْحَاضِرَ وَذَهَبَ إِلَى تَسَالُونِيكِي، وَكِرِيسْكِيس إِلَى غَلاَطِيَّةَ، وَتِيطُس إِلَى دَلْمَاطِيَّةَ. ١١لُوقَا وَحْدَهُ مَعِي ١٤إِسْكَنْدَرُ النَّحَّاسُ أَظْهَرَ لِي شُرُورًا كَثِيرَةً. لِيُجَازِهِ الرَّبُّ حَسَبَ أَعْمَالِهِ. ١٥فَاحْتَفِظْ مِنْهُ أَنْتَ أيضًا، لأَنَّهُ قَاوَمَ أَقْوَالَنَا جِدًّا. ١٦فِي احْتِجَاجِي الأَوَّلِ لَمْ يَحْضُرْ أَحَدٌ مَعِي، بَلِ الْجَمِيعُ تَرَكُونِي. لاَ يُحْسَبْ عَلَيْهِمْ. " (تيموثاوس (٢) ٤/ ٩-١٦)، " لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ مَكِدُونِيَّةَ، لَمْ تُشَارِكْنِي كَنِيسَةٌ وَاحِدَةٌ فِي حِسَابِ الْعَطَاءِ وَالأَخْذِ إِلاَّ أَنْتُمْ وَحْدَكُمْ. " (فيلبي ٤/ ١٥).

هجوم بولس على معارضيه:

" والجواب على ذلك عجيب للغاية، فقد كان بولس قاسيًا عليهم حادًا، محقرًا شأنهم مغريًا بهم، ونحن نقتبس من رسائله نماذج تصور لنا موقف بولس من المسيحيين الآخرين:

١- يحذر بولس أنصاره من التلاميذ فيقول: " كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي مَعًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ لأَنَّ كَثِيرِينَ يَسِيرُونَ مِمَّنْ كُنْتُ أَذْكُرُهُمْ لَكُمْ مِرَارًا، وَالآنَ أَذْكُرُهُمْ أيضًا بَاكِيًا، وَهُمْ أَعْدَاءُ صَلِيبِ الْمَسِيحِ، ١٩الَّذِينَ نِهَايَتُهُمُ الْهَلاَكُ، الَّذِينَ إِلهُهُمْ بَطْنُهُمْ وَمَجْدُهُمْ فِي خِزْيِهِمِ، الَّذِينَ يَفْتَكِرُونَ فِي الأَرْضِيَّاتِ"، (فيلبي ٣/ ١٧-١٩) لقد رفض كثيرون دعواه صلب المسيح، فكان عاقبتهم اتهامات بولس لهم بالغواية وسلوك طريق الهلاك.

٢- وفي أنحاء متفرقة من رسائله يتحدث عن أولئك الرافضين لدعوته من غير أن يسميهم، فيقول في بعض ما تمتلئ به رسائله موصيًا تيموثاوس: "٣ كَمَا طَلَبْتُ إِلَيْكَ أَنْ تَمْكُثَ فِي أَفَسُسَ، إِذْ كُنْتُ أَنَا ذَاهِبًا إِلَى مَكِدُونِيَّةَ، لِكَيْ تُوصِيَ قَوْمًا أَنْ لاَ يُعَلِّمُوا تَعْلِيمًا آخَرَ، ٤وَلاَ يُصْغُوا إِلَى خُرَافَاتٍ وَأَنْسَابٍ لاَ حَدَّ لَهَا، تُسَبِّبُ مُبَاحَثَاتٍ دُونَ بُنْيَانِ اللهِ الَّذِي فِي الإِيمَانِ. ٥وَأَمَّا غَايَةُ الْوَصِيَّةِ فَهِيَ الْمَحَبَّةُ مِنْ قَلْبٍ طَاهِرٍ، وَضَمِيرٍ صَالِحٍ، وَإِيمَانٍ بِلاَ رِيَاءٍ. " (تيموثاوس (١) ١/ ٣-٥).

٣- ويقول معتبرًا نفسه صاحب التعاليم الصحيحة للمسيح الذي لم يلقه: "٣إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُعَلِّمُ تَعْلِيمًا آخَرَ، وَلاَ يُوافِقُ كَلِمَاتِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ الصَّحِيحَةَ، وَالتَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ حَسَبَ التَّقْوَى، ٤فَقَدْ تَصَلَّفَ، وَهُوَ لاَ يَفْهَمُ شَيْئًا، بَلْ هُوَ مُتَعَلِّلٌ بِمُبَاحَثَاتٍ وَمُمَاحَكَاتِ

الْكَلاَمِ، الَّتِي مِنْهَا يَحْصُلُ الْحَسَدُ وَالْخِصَامُ وَالافْتِرَاءُ وَالظُّنُونُ الرَّدِيَّةُ، ٥وَمُنَازَعَاتُ أُنَاسٍ فَاسِدِي الذِّهْنِ وَعَادِمِي الْحَقِّ، يَظُنُّونَ أَنَّ التَّقْوَى تِجَارَةٌ. تَجَنَّبْ مِثْلَ هؤُلاَءِ. " (تيموثاوس (١) ٦/ ٣-٥)، ويقول منددًا بمخالفيه: " ٢انْظُرُوا الْكِلاَبَ. انْظُرُوا فَعَلَةَ الشَّرِّ. انْظُرُوا الْقَطْعَ. " (فيلبي ٣/ ٢). "وتعليقنا على هذه الألفاظ التي ذكرها بولس في رسائله ضد الحواريين هو الدهشة أن تصدر مثل هذه الألفاظ من داعية ديني".

وعلى هذا المنوال تمتلئ رسائله بالهجوم على معارضيه من النصارى، فيتهمهم بسائر أنواع التهم من كفر ونفاق. . . (انظر كولوسي ٤/ ١٠-١١، فيلبي ٢/ ١٩-٣١، تيطس ١/ ٩-١٣، تيموثاوس (١) ١/ ٣-٧، ٢/ ٢٣، ٦/ ٢٠-٣٤) وغيرها.

٤- ويقول عن تلاميذ المسيح: " ٤وَلكِنْ بِسَبَبِ الإِخْوَةِ الْكَذَبَةِ الْمُدْخَلِينَ خُفْيَةً، الَّذِينَ دَخَلُوا اخْتِلاَسًا لِيَتَجَسَّسُوا حُرِّيَّتَنَا الَّتِي لَنَا فِي الْمَسِيحِ كَيْ يَسْتَعْبِدُونَا، ٥اَلَّذِينَ لَمْ نُذْعِنْ لَهُمْ بِالْخُضُوعِ وَلاَ سَاعَةً. . . . " (غلاطية ٢/ ٤-٥)، ومما يؤكد أن قصده التلاميذ لا غيرهم قوله: "٥اَلَّذِينَ لَمْ نُذْعِنْ لَهُمْ بِالْخُضُوعِ وَلاَ سَاعَةً ".

٥- وينال بولس من بعض تلاميذ المسيح الذين يقول عنهم المسيح: "١٦لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ، وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ، وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ " (يوحنا ١٥/ ١٦)، لكن بولس ومدرسته لم تبق لهم ثمرًا، ولم تخلد لهم فكرًا ولا كتبًا، فيما سوى بعض الصفحات القليلة.

٦- ويتهم بولس بطرس كبير الحواريين بالرياء فيقول: " ١١وَلكِنْ لَمَّا أَتَى بُطْرُسُ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ قَاوَمْتُهُ مُواجَهَةً، لأَنَّهُ كَانَ مَلُومًا. . . ١٣وَرَاءَى مَعَهُ بَاقِي الْيَهُودِ أَيضًا، حَتَّى إِنَّ بَرْنَابَا أَيضًا انْقَادَ إِلَى رِيَائِهِمْ! ١٤لكِنْ لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُمْ لاَ يَسْلُكُونَ بِاسْتِقَامَةٍ حَسَبَ حَقِّ الإِنْجِيلِ، قُلْتُ لِبُطْرُسَ قُدَّامَ الْجَمِيعِ: «إِنْ كُنْتَ وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ تَعِيشُ أُمَمِيًّا لاَ يَهُودِيًّا، فَلِمَاذَا تُلْزِمُ الأُمَمَ أَنْ يَتَهَوَّدُوا؟ »" (غلاطية ٢/ ١١-١٤).

٧- ويقول منددًا ومحذرًا من أولئك الذين تركوا دعوته: " ١٦وَأَمَّا الأَقْوَالُ الْبَاطِلَةُ

الدَّنِسَةُ فَاجْتَنِبْهَا، لأَنَّهُمْ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى أَكْثَرِ فُجُورٍ، ١٧وَكَلِمَتُهُمْ تَرْعَى كَآكِلَةٍ. الَّذِينَ مِنْهُمْ هِيمِينَايُسُ وَفِيلِيتُسُ، ١٨اللَّذَانِ زَاغَا عَنِ الْحَقِّ، قَائِلَيْنِ: «إِنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ صَارَتْ» فَيَقْلِبَانِ إِيمَانَ قَوْمٍ. " (تيموثاوس (٢) ٢/ ١٨). [(١)]

سابعًا: موقف برنابا من بولس

وأما موقف برنابا من بولس فهو في غاية الأهمية، إذ لبرنابا علاقة متميزة ببولس، إذ هو الذي قدمه للتلاميذ المتشككين في توبة شاول الذي اضطهد الكنيسة ثم ادعى النصرانية. (انظر أعمال ٩/ ٢٦)، ثم صحبه ست سنوات في رحلته التبشيرية في قبرص وأنطاكية، ثم اختلفا بعد ذلك، وانفصل كل منهما عن الآخر فما سبب الاختلاف؟

يقول سفر أعمال الرسل: " قَالَ بُولُسُ لِبَرْنَابَا: «لِنَرْجِعْ وَنَفْتَقِدْ إِخْوَتَنَا فِي كُلِّ مَدِينَةٍ نَادَيْنَا فِيهَا بِكَلِمَةِ الرَّبِّ، كَيْفَ هُمْ». ٣٧فَأَشَارَ بَرْنَابَا أَنْ يَأْخُذَا مَعَهُمَا أيضًا يُوحَنَّا الَّذِي يُدْعَى مَرْقُسَ، ٣٨وَأَمَّا بُولُسُ فَكَانَ يَسْتَحْسِنُ أَنَّ الَّذِي فَارَقَهُمَا مِنْ بَمْفِيلِيَّةَ وَلَمْ يَذْهَبْ مَعَهُمَا لِلْعَمَلِ، لاَ يَأْخُذَانِهِ مَعَهُمَا. ٣٩فَحَصَلَ بَيْنَهُمَا مُشَاجَرَةٌ حَتَّى فَارَقَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ. وَبَرْنَابَا أَخَذَ مَرْقُسَ وَسَافَرَ فِي الْبَحْرِ إِلَى قُبْرُسَ. " (أعمال ١٥/ ٣٦-٣٩).

ولكن هل يعقل أن يكون هذا هو السبب في مشاجرة برنابا وبولس؟

يرفض المحققون هذا التبرير، ويرون أن الأمر أكبر من ذلك، فهو كما يقول برنابا يعود إلى ضلالات بولس التي ينشرها في تبشيره، فقد جاء في مقدمة إنجيله: "كانوا عديمي التقوى والإيمان الذين ضلوا بدعوى التبشير بتعاليم المسيح ببث تعاليم أخرى شديدة الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله، مجوزين كل لحم نجس، الذين ضل في عدادهم بولس" (برنابا، المقدمة/ ٢-٧).

ويرفض المحققون ما جاء في أعمال الرسل في تحرير سبب الخصام بين برنابا وبولس، ويرونه محاولة لإخفاء السبب الحقيقي، وهو الذي ذكره برنابا في إنجيله.

---

(١) انظر: هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٤١- ٤٤)، المسيحية (١٢٠- ١٢٣).

ويستدلون لرأيهم بأنه لا يعقل أن ينفصل الصديقان ويتشاجران بسبب اختلافهما فيمن يرافقهما، خاصة أن بولس رضي فيما بعد برفقة مرقس، فقد أرسل إلى تيموثاوس يقول له: " خُذْ مَرْقُسَ وَأَحْضِرْهُ مَعَكَ لأَنَّهُ نَافِعٌ لِي لِلْخِدْمَةِ. " (تيموثاوس (٢) ٣/ ١٠).

وهو يوصي أخيرًا فيقول: "يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ أَرِسْتَرْخُسُ الْمَأْسُورُ مَعِي، وَمَرْقُسُ ابْنُ أُخْتِ بَرْنَابَا، الَّذِي أَخَذْتُمْ لأَجْلِهِ وَصَايَا. إِنْ أَتَى إِلَيْكُمْ فَاقْبَلُوهُ. " (كولوسي ٣/ ١٠).

ورغم تراجع بولس عن عدم اصطحاب مرقس إلا أننا لم نسمع بتاتًا عن تحسن العلاقة بين بولس وبرنابا.

وقد اعترف القس بتر سمث بأن الخلاف بين الرجلين كان خلافًا فكريًا. (١)

إذن نستطيع القول بأن تلاميذ المسيح قد عارضوا دعوة بولس ووقفوا في وجهها، ودليل ذلك اختفاء ذكرهم عن عالم المسيحية بعد ظهور بولس، فقد اختفت كتاباتهم وحوربت، ولم ينج منها إلا إنجيل برنابا وإنجيل بطرس وإنجيل توما، إضافة إلى رسالة يعقوب المضمنة في رسائل العهد الجديد، والتي تمتلئ بمخالفة بولس وخاصة في مسألة الفداء.

كما اختفى ذكر الحواريين والتلاميذ من أعمال الرسل إلا قليلًا، فلا نكاد نعرف شيئًا عن هؤلاء الذين أرسلهم المسيح وعن دعوتهم سوى ما نقل إلينا لوقا عن مقاومة أهل أنطاكية لتبشير بطرس المخالف لبولس، وعن رحلة برنابا مع بولس، ثم اختفاء ذكرهما من رسائل العهد الجديد بعد مشاجرتهما مع بولس.

وهكذا فالعهد الجديد وضعه بولس وتلاميذه، وأبعدوا عنه كل ما يعترض نهجه وأفكاره، وطال هذا الإبعاد تلاميذ المسيح ورسله وحملة دينه إلى أمته.

ومما سبق نستطيع القول: إن دعوة بولس لم تلق ترحيبًا من التلاميذ وأتباعهم الذين واجهوا فكره المنحرف بصرامة لم تمنعه من نشر أفكاره في آسيا بعيدًا عن تلاميذ المسيح

(١) انظر: ما هي النصرانية، محمد تقي العثماني، (ص ١٧٦ – ١٨٤).

وأصفيائه الذين كانوا بحق حملة دينه والمبشرين بتعاليمه. [١]

ثامنًا: بدع بولس في النصرانية

" لقد أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود كما أدخل صورًا من فلسفة الإغريق ليجذب أتباعا له من اليونان، فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد، استطاع الجنس البشري بواسطته أن ينال النجاة. . .

" لقد أحدث بولس في المسيحية أحداثًا خطيرةً. . . ، وفي كلمة واحدة خلق دينًا جديدًا وسلب له كلمة المسيحية فوضعها عليه، وطمس بذلك الديانة المسيحية الحقيقية. "[٢]

ونبرز هنا بإيجاز نقاطا كبيرة الأهمية كانت عماد ديانة بولس وهي تنقسم إلى قسمين:

أولًا: بدع في العقيدة.

ثانيًا: بدع في الشريعة.

أولًا: بدع العقيدة:

١-أن المسيحية ليست دينًا لبني إسرائيل فقط، بل هي دين عالمي.

يقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: "١ثُمَّ بَعْدَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً صَعِدْتُ أيضًا إِلَى أُورُشَلِيمَ مَعَ بَرْنَابَا، آخِذًا مَعِي تِيطُسَ أيضًا. ٢وَإِنَّمَا صَعِدْتُ بِمُوجَبِ إِعْلاَنٍ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمِ الإِنْجِيلَ الَّذِي أَكْرِزُ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ " (٢/ ١- ٢). والشاهد في هذا النص هو اعتراف بولس الصريح بأنه يكرز أي (يبشر) ويذيع أقواله بين الأمم وليس فقط بين بني إسرائيل.

وفي نفس الوقت نجد نصوصًا تعارض أقواله تلك بعمومية الدعوة المسيحية، من ذلك ما نسب إلى المسيح عليه السلام أنه قال: ": «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». (متى ١٥/ ٢٤).

ويقول أيضًا: " ٥هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: «إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٤٤ – ٤٦).

(٢) انظر: المسيحية، أحمد شلبي، (ص ١١٦، ١٢٧، ١٢٩) بتصرف يسير، بولس وتحريف المسيحية (٤٧)، الإسلام والأديان الأخرى نقاط الاتفاق والاختلاف (١٣٩ – ١٤٦)، نظرة عن قرب في المسيحية (٢٣وما بعدها).

تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. ٦بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ " (متى ١٠/ ٥-٦).

٢-التثليث ويتبع ذلك ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس.

فمن البدع التي ابتكرها بولس في النصرانية أنه نقلها من التوحيد إلى تأليه المسيح عليه السلام، ثم تطورت بعد ذلك إلى ما هي عليه الآن من القول بالتثليث (الآب والابن والروح القدس) آلهة ثلاثة في واحد! ! ، وقد اكتمل القول بهذه العقيدة في " المجمع القسطنطيني الأول " عام ٣٨١م، والذي تقرر فيه ألوهية الروح القدس ". وبعد أن اختلق بولس القصة التي أراد أن يوهم بها المسيحيين بدأ يكرز في المجامع بأن المسيح ابن الله ". (١)

٣-كون عيسى ابن الله ونزوله ليضحي بنفسه تكفيرًا عن خطيئة البشر.

وهذه أيضًا من الأمور التي ابتدعها بولس في عقائد المسيحية، والذي قد زعم بأن عيسى هو ابن الله – تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا – وذلك ليصلب ويفدي البشر تكفيرًا عن الخطيئة التي انتقلت إليهم وراثيًا من أبيهم آدم لأكله من الشجرة المنهي عنها! !

يقول في رسالته لأهل غلاطية: " ١أَيُّهَا الْغَلاَطِيُّونَ الأَغْبِيَاءُ، مَنْ رَقَاكُمْ حَتَّى لاَ تُذْعِنُوا لِلْحَقِّ؟ أَنْتُمُ الَّذِينَ أَمَامَ عُيُونِكُمْ قَدْ رُسِمَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ بَيْنَكُمْ مَصْلُوبًا"(٣/ ١)

ويقول أيضًا: " ١٤وَأَمَّا مِنْ جِهَتِي، فَحَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِهِ قَدْ صُلِبَ الْعَالَمُ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ. " (رسالة بولس إلى أهل غلاطية (٦/ ١٤).

ويقول في رسالته إلى أهل كولوسي: " ١٢شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِي أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِي النُّورِ، ١٣الَّذِي أَنْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ، وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ، ١٤الَّذِي لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا. " (١/ ١٢- ١٤).

" والمسيحيون يحاولون التعليل لذلك: " بأن الله من صفاته العدل والرحمة، فبمقتضى عدله لابد من أن يعاقب آدم وذريته لتلك الخطيئة، وبمقتضى الرحمة لابد أن يعفوا عنهم،

---

(١) التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة (ص ٨٢).

لذلك فإنه لا يمكن تخليص البشر من ذنبهم المتوارث إلا بنزول ابنه الوحيد وتجسده ليصلب ويتألم ويفدي البشر!!!". [١]

"وفي الحقيقة أن هذه العقيدة لا تستحق المناقشة، ففسادها بيِّن، والعقل السليم يرفضها، فإذا كان اللهُ محبةً لم ترك بني آدم هذه الفترة الطويلة من غير أن يغفر لهم ويكفر خطيئتهم؟ وإذا كان الآب عادلًا فكيف يعاقب الذرية من آدم إلى المسيح عليه السلام بالبعد عن رحمته؟ وما ذنب الأبناء في إثم ارتكبه أبوهم؟

قال تعالى: " أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " (النجم/ ٣٨)، وقال تعالى " فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" (الزلزلة٨: ٧)"[٢]

٤-قيامة عيسى من الأموات وصعوده ليجلس على يمين أبيه كما كان من قبل ليحكم ويدين البشر.

ففي رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس يقول: " ٣فَإِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي الأَوَّلِ مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أَيضًا: أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ، ٤وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ " (١٥/ ٣- ٤)

وبولس هنا يحاول أن يؤكد ما يدعيه بأن ينسبه إلى الكتب، ولكن أي كتب؟ وأين هي هذه الكتب؟ فالإنجيل الأصلي للمسيح عليه السلام مفقود، وليس هناك شاهد أوثق منه... [٣]

ثانيًا: بدع الشريعة:

والمقصود بالشريعة: الفروع العملية كالعبادات والمعاملات وما إلى ذلك.

وقد تناول تحريف بولس الشريعة المسيحية أيضًا، وتحريفه للشريعة تابع لتحريفه للعقيدة. ومن تحريفاته للشريعة:

١-نسبة بعض أقواله للمسيح على أنها وحي منه وهو الإله وابن الإله كما يزعم -

---

(١) انظر: المسيحية، أحمد شلبي (١٥٩) بتصرف يسير.

(٢) التحريف والتناقض (٨٥).

(٣) المصدر السابق (٩١).

تعالى الله عمل يقولون علوًا كبيرًا – وأحيانًا ينسب التشريع لنفسه بالعبارات الصريحة، فمثلًا يقول: " ١٠وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجُونَ، فَأُوصِيهِمْ، لاَ أَنَا بَلِ الرَّبُّ، أَنْ لاَ تُفَارِقَ الْمَرْأَةُ رَجُلَهَا، ١١وَإِنْ فَارَقَتْهُ، فَلْتَلْبَثْ غَيْرَ مُتَزَوِّجَةٍ، أَوْ لِتُصَالِحْ رَجُلَهَا. وَلاَ يَتْرُكِ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ. ١٢وَأَمَّا الْبَاقُونَ، فَأَقُولُ لَهُمْ أَنَا، لاَ الرَّبُّ: إِنْ كَانَ أَخٌ لَهُ امْرَأَةٌ غَيْرُ مُؤْمِنَةٍ، وَهِيَ تَرْتَضِي أَنْ تَسْكُنَ مَعَهُ، فَلاَ يَتْرُكْهَا. ١٣وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَهَا رَجُلٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ، وَهُوَ يَرْتَضِي أَنْ يَسْكُنَ مَعَهَا، فَلاَ تَتْرُكْهُ. ١٤لأَنَّ الرَّجُلَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ مُقَدَّسٌ فِي الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ مُقَدَّسَةٌ فِي الرَّجُلِ. وَإِلاَّ فَأَوْلاَدُكُمْ نَجِسُونَ، وَأَمَّا الآنَ فَهُمْ مُقَدَّسُونَ. " (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٧/ ١٠ – ١٥) ففي النص السابق تصريح واضح في أن بولس هذا ينسب التشريع لنفسه خاصة عندما يقول: " فَأَقُولُ لَهُمْ أَنَا، لاَ الرَّبُّ ".

٢-ومن مظاهر تحريفه للشريعة أيضًا ما يلاحظ اليوم من وجود المزامير والأغاني والتراتيل في الكنائس، وهذا – بلا شك – لم يُؤْثر عن المسيح عليه السلام ولم يأمر به ولا عن حوارييه وتابعيه، وإنما هو من ابتداع بولس المحرف.

يقول في رسالته إلى أهل أفسس: " ١٩مُكَلِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِمَزَامِيرَ وَتَسَابِيحَ وَأَغَانِيَّ رُوحِيَّةٍ، مُتَرَنِّمِينَ وَمُرَتِّلِينَ فِي قُلُوبِكُمْ لِلرَّبِّ. ٢٠شَاكِرِينَ كُلَّ حِينٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي اسْمِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، للهِ وَالآبِ. " (٥/ ١٩ – ٢٠).

٣-اختلاقه للشعيرة والتي تعرف لديهم الآن (بالعشاء الرباني).

يقول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: " ٢٣لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أيضًا: إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا ٢٤وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي الْمَكْسُورُ لأَجْلِكُمْ. اصْنَعُوا هذَا لِذِكْرِي». ٢٥كَذلِكَ الْكَأْسَ أيضًا بَعْدَمَا تَعَشَّوْا، قَائِلًا: «هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِذِكْرِي». ٢٦فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ. " (١١/ ٢٣ – ٢٦) ويعتقد بعض المسيحيين أن تناولهم لكسر الخبز الجاف وشربهم

لكأس الخمر أن الخبز يتحول إلى جسد المسيح، والخمر يتحول إلى دمه! ! ففي إنجيل يوحنا نص على لسان المسيح: " «أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ». (٦/ ٥١) ويقول أيضًا: ": «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ. " (٦/ ٥٣).

ولا يخفى ما في هذا الاعتقاد من تحريف وتخريف، وبعد عن الحقيقة لا سيما بعد تقدم العلوم في عصرنا الحاضر.

٤- ومن تحريفاته في الشريعة أيضًا إلغاؤه فرضية الختان، واستبداله بأمر آخر وهو المعمودية. ومعناها كما يعرفها المسيحيون: " طقس الغسل بالماء رمزًا للنقاوة والانخراط في سلك طائفة ما "[(١)]

ويقول قاموس الكتاب المقدس " والمعمودية في العهد الجديد تشبه الختان في العهد القديم، وكلاهما علامة على العهد. . . ". [(٢)]

(١) قاموس الكتاب المقدس (٦٣٧)، التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة (٩٧ - ١٠٢).

(٢) وانظر تفصيل هذه المسألة في مبحث " أسرار الكنيسة السبعة " من الباب الخامس "متفرقات تتعلق بالعقيدة النصرانية ".

الفصل الثالث: المصادر الوثنية القديمة للعهد الجديد

تمهيد:

بعدما ثبت للمحققين عدم إلهامية الأناجيل والرسائل، وكذب الدعوى التي يروجها النصارى أن هذه الأناجيل إنما هي وحي الله الذي صاغه بعض البشر بعباراتهم وأساليبهم بعد أن ألهمهم روح القدس ما كانوا يكتبونه، تساءل المحققون عن مصدر هذه الأناجيل وعن علاقة مواد بعضها ببعض، وقدمت عدة نظريات للكشف عن هذا الأمر غاية ما يهمنا هنا الآن هو أن نثبت أن الوثنيات القديمة كانت مرجعًا مهمًا للإنجيليين وهم يصوغون قصتهم عن المسيح، خاصة تلك الأجزاء التي لم يشهدوها، كتلك المتعلقة بولادة المسيح أو صلبه المزعوم ومحاكمته.

فقد نقل المحققون عن علماء تاريخ الديانات أوجه شبه كثيرة التقت فيها روايات الأناجيل مع أقوال الوثنيات البدائية - التي سبقت وجود المسيحية بقرون طويلة - عن آلهتهم المتجسدة. [١]

أولًا: التثليث.

١-عند الوثنيين:

قال موريس: [٢]كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثالوثي؛ أي أن الإله ذو ثلاثة أقانيم.

وقال (دوان): [٣]

إذا أرجعنا البصر نحو الهند نرى أن أعظم وأشهر عباداتهم الاهوتية هو التثليث أي القول بأن الإله ذو ثلاثة أقانيم. ويدعون هذا التثليث بلغتهم (ترى مورتي)، وهي جملة مركبة من كلمتين سنسكريَّتين: أما (ترى) فمعناها: (ثلاثة)، و(مورتي) معناها: (هيئات) أو أقانيم، وهي (برهما وفشنو وسيفا) ثلاثة أقانيم غير منفكة عن الوحدة، وهي: الرب

---

(١) انظر: هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٧٧- ٨١).

(٢) العادات الهندية (٣٥).

(٣) خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها في الأديان الأخرى (٣٦٦).

والمخلص وسيفا، ومجموع هذه الأقانيم الثلاثة: إله واحد. "

وقال موريس: [١]

لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم، دكَّته مرور القرون، صنمًا له ثلاثة رؤوس على جسد واحد، والمقصود منه التعبير عن الثالوث. "

ويوجد في كتابات (زورستر) سانن الشرائع الفارسية، هذه الجملة: الثالوث الاهوتي مضيء في العالم، ورأس هذا الثالوث موناد. "[٢]

وورد مثل ذلك عن الأشوريين والفينيقيين والإسكندنافيين والدردين والتتر الوثنيين والمكسيكيين والهندوس. . . وغيرهم الكثير ". [٣]

وأما التثليث عند النصارى:

فقد ورد في رسالة يوحنا الأولى (٥/ ٧): "٧فَإِنَّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي السَّمَاءِ هُمْ ثَلاَثَةٌ: الآبُ، وَالْكَلِمَةُ، وَالرُّوحُ الْقُدُسُ. وَهؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ وَاحِدٌ. "

وورد في إنجيل يوحنا (١/ ١): " ١فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ الله، وَكَانَ الْكَلِمَةُ الله. "

ثانيًا: التشابه بين الوثنيات وأسفار العهد الجديد فيما يخص ولادة الآلهة

(١) ولادة الإله (التجسد):

قال (دوان)[٤]:

" ومن عقائد الوثنيين القدماء قولهم بتجسد أحد الآلهة ونزوله وسكنه معهم.

قال توما موريس: " والهنديون يعظمون بلادهم لأنه ولد فيها الإله فشنو بالناسوت "

---

(١) العادات الهندية (٣٧٢).

(٢) الديانات القديمة (٢/ ٨١٩).

(٣) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تأليف/ محمد طاهر التنير (٥٥ - ٦٨) وهو أوفى مصدر في هذا الموضوع، وعنه نقل من بعده، وانظر أيضًا: أصول المسيحية كما يصورها القرآن (٢٠٨)، المسيحية، أحمد شلبي (١٨٠ - ١٨٨).

(٤) المصدر السابق.

قال (دوان): " والإله بوذا المولود من العذراء مايا الذي يعبده بوذيو الهند وغيرهم يقولون عنه أنه ترك الفردوس، ونزل على الأرض، وظهر بالناسوت رحمة بالناس. . . "

والصينيون يعتقدون بآلهة تجسدت، منها: " فوهي وستين نونك "، وهوانكتي.

" ويقول المصريون إن حورس المخلص ولد من العذراء " إيزيس " وأنه المنبثق الثاني من عامون، ويقولون الابن المولود، ويصورونه إما على يدي أمه أو على حضنها. . . "

وكذلك اليونانيون كانوا يدعون أبطالهم في القرون الماضية آلهة وأولاد الآلهة، وأنهم ظهروا بالناسوت، ومن بعد موتهم انضموا مع الآلهة. . . . "

قال دوان: " وكان الرومانيون يؤلهون ملوكهم ويعبدونهم ويقيمون لهم التماثيل "

وقد اعتقد سكان رومية بألوهية سمعان السامري الملقب " ماغوس " أو " الساحر " وكان معاصرا للمسيح عليه السلام، وقالوا إنه عمل آيات وعجائب مدهشة "

وكانت الأمم الساكنة بشمالي أوروبا كالاسوجبين والنروجيين والهولنديين وغيرهم يصفون أبطالهم بالألوهية وأنهم أولاد الإله " أودين "، وقد وصفوا الشعراء بالألوهية أيضًا.

ويقولون إن تورهو أول مولود ولد من الإله أودين، ويقولون عن " بلددر" إنه: " الصالح " و " المخلص " و" ابن الإله أودين وأمه الإلهة فريجا ".

وكذا سكان المكسيك، . . ، يعبدون إلها مخلصا اسمه " كوتز لكوتل " ولد من عذراء بتول طاهرة. . . " وأيضًا سكان " نيكازكو "، وسكان " البيرو "، وسكان اديو سيو كلفرينا " وغيرهم كثير كلهم يعتقدون بوجود الإله الذي حل في الناسوت.

وأما عند النصارى:

فكما هو مشهور عنهم أن مريم هي والدة الإله، كما ورد عند الوثنيين، وهم يتضرعون لها وينشدون لها الأناشيد تعظيما لها، ويتضرعون إليها في أيام مخصوصة يسمونها " الأيام المريمية "، ويلقبونها: " ملكة السماء، ووالدة الإله الممتلئة نعمة، وصاحبة المجد على الأرض وفي السماء وما شاكل ذلك من أوصاف التعظيم والتأليه، وجاء في إنجيل لوقا (١ / ٢٨): " وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ».

وقد صار القول بأنها والدة الإله في مجمع أفيسوس سنة ٤٣١ بعد المسيح.

قال " دوان " ما ملخصه: " كما نجد عند الوثنيين والدات للإلهة يعظمونهن ويلقبونهن بألقاب التمجيد والتفخيم، كذلك نجد عند النصارى والدة للإله يعظمونها ويلقبونها بالألقاب التي يلقب الوثنيون بها والدات آلهتهم. . . ".[(١)]

(٢) ظهور النجوم عند ولادة الآلهة

يقول بنصون في كتابه " الملاك المسيح "[(٢)]: "لقد جاء في كتب البوذيين المقدسة عندهم أنه قد بشرت السماوات بولادة بوذا بنجم ظهر مشرقًا في الأفق، ويدعونه في هذه الكتب المذكورة " نجم المسيح " ومثل هذا نقله المؤرخ بيال.

وأما المؤرخ ثورنتن في كتابه " تاريخ الصينيين "[(٣)]، فينقل أنه عند ولادة " يو " المولود من عذراء ظهر نجم في السماء دل عليه، ومثله حصل عند ولادة الحكيم الصيني لاوتز.

يقول القس جيكس في كتابه " حياة المسيح ": " وعم الاعتقاد في الحوادث الخارقة للعادة، وخصوصًا حين ولادة أو موت أحد الرجال العظام، وكان يشار إلى ذلك بظهور نجم أو مذنب أو اتصالات بين الأجرام السماوية".

ولقد تحدث متى عن ولادة المسيح فقال: "[١]وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ [٢]قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ». [٩]فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. [١٠]فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا. [١١]وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا. "(متى ٢/ ١ - ١١).

وكما استدل الوثنيون بالنجوم على محل ولادة آلهتهم، كذلك فعل المجوس حينما ولد

---

(١) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (٩٣- ١٠٨) بتصرف.

(٢) الملاك المسيح (٢٢، ٢٣، ٣٣).

(٣) تلريخ الصين (١/ ١٧٣).

يسوع المسيح، غير أننا لا نعلم إن كان ذلك النجم ذات النجم الذي دل الحكماء على محل ولادة أبناء الآلهة الذين مر ذكرهم، أم غيرها، كما أننا لا نعلم أنه هل كان من هذه النجوم المنتشرة في الفضاء البعيدة عنا ملايين الأميال والتي هي أعظم من الأرض بملايين المرات، أو صار إيجاده حديثا لأجل هذه الغاية خاصة، أي للدلالة على محل ولادته، وكم كانت مسافة اقترابه من الأرض، وكيف لم يحصل بإيجاده خلل في ناموس الجاذبية؟!. [1]

(٣) الجنود السماوية التي أظهرت تسبيح الله وتقدسه عند ولادة أحد الآلهة

١ـ عند الوثنيين:

جاء في كتاب " فشنو بورانا " ما نصه: " عندما كانت العذراء ديفاكي حبلى بحامي العالم، مجَّدها الآلهة، ويوم ولادتها عمت المسرات، وأضاء الكون بالأنوار وترنمت آلهة السماء ورتلت الأرواح، ولما ولد " عون الجميع " شرعت الغيوم ترتل بألحان مضطربة وأمطرت أزهارًا "

ومثل هذا يقال عن ولادة بوذا، وأنه سمع سكان الأرض أنغام موسيقى مطربة، وأمطرت السماء أزهارًا وعطرًا، وهبَّ نسيم لطيف، وأضاء نور عجيب. "

قال السرجون فرنسيس دافس: " والصينيون يقولون: ظهرت علامات سماوية قبل ولادة كونفشيوس الفيلسوف الصيني، وفي المساء الذي ولد فيه سمعت أمه بأذنها نغم موسيقى سماوية ".

قال العلامة بونويك[2]: " ويقول المصريون القدماء أنه عند ولادة " أوزيريس " سُمع منادٍ يقول: ولد رب لنا اسمه أوزيريس وبعضهم يقول إنه بينما كانت امرأة ذاهبة لتملأ ماء لهيكل عمون بمدينة تيبس سمعت هذا النداء، وأُمرت كي تنادي به بأعلى صوتها وهو سيولد الإله أوزيريس " وكذلك قيل عند ولادة " أبولو "، " أبو لونيوس " وغيرهم.

٢ـ وأما عند النصارى:

فقد قالوا مثل قول هؤلاء الوثنيين عن ولادة يسوع المسيح غير أننا لا نعلم إن كانت

---

(١) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (١١١ - ١١٣).

(٢) اعتقاد المصريين (٣٢٥).

تلك الجنود السماوية أكثر عددًا حين ولادة أبناء آلهة الوثنيين، أم كانت أكثر عددًا حين ولادة إله النصارى، أم كانت متساوية العدد في كافة الأوقات، لأن جميع المولودين بحسب زعمهم أبناء آلهة أتوا ليفدوهم بدمهم، ولم يتعرض لذلك أحد بحسب علمنا، فلعل الزمان المستقبل يوسع هذه الدائرة، وهاك ما في العهد الجديد.

ورد في إنجيل لوقا (٢/ ١٣ – ١٤): " ١٣وَظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ الْمَلاَكِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ اللهَ وَقَائِلِينَ: ١٤«الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ». "(١)

(٤) هدايا للآلهة المولودة

١ـ عند الوثنيين:

من الأقاصيص الكرشنية: أن هذا الطفل الإلهي وضع بمهد بين الرعاة وهم أول من عرف عظيم جلاله الدال على ألوهيته، وعرفوه أنه المخلص الموعود به، وقد أعطى الرعاة لكرشنا هدايا من خشب الصندل والطيب.

"ومسرا" مخلص العجم والوسيط بين الله والناس، لما وُلد زاره الحكماء المدعوون مجوسا، وأعطوه هدايا من الذهب والطيب والحنظل.

وبحسب رواية أفلاطون " أنه لما ولد سقراط (قبل المسيح ب ٤٦٩ سنة) أتى إلى محل ولادته ثلاثة رجال مجوس من الشرق وأهدوه ذهبًا وطيبًا ومأكولًا مرًا ".

والمخلص (اسكولابيوس) المولود من عذراء، حمته المعز من السوء لأنها عرفته عند رؤيتها إياه – أنه إله – وشاع خبر ولادته العجيب، وأتى الناس من كل مكان ليشاهدوه ويسجدوا له.

٢ـ عند النصارى:

وكما حدث لهؤلاء، حدث ليسوع المسيح، فقد جاء في إنجيل متى (٢/ ١- ١١): " ١وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ ٢قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ». ٩فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ

(١) المصدر السابق (١١٧ – ١١٩).

حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. ١٠فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا. ١١وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا. "

ومثله في إنجيل لوقا الإصحاح الثاني غير انه يقول: إن الذين رأوا نجمه رعاة وليسوا مجوسًا.(١)

(٥) مكان ولادة الآلهة

١ـ عند الوثنيين:

يقولون " ولد كرشنا في غار، وبعد ولادته وضع في حظيرة غنم وربَّاه أحد الرعاة الأمناء "، " وهوتسي " ابن السماء – عند الصينيين – تركته أمه وهو صغير وأحاطت به البقر والغنم وحمته من كل سوء باعتناء تام ".

" وباخوص " ابن الإله المولود من العذراء سميل، ولدته أمه في غار، ويقال عنها ولدته في مكان آخر، ومن بعد ولادته أتت به إلى الغار.

" وسكولابيوس " ابن الإله المولود من العذراء " كودنيس " تركته أمه حينما وضعته بالجبل ووجده راعي ماعز فرباه واعتنى به.

" وروبولس " ابن الإله المولود من العذراء (ريا سلفيا) تركته أمه وهو طفل على ضفة نهر (التيبر) ووجده الرعاة فربوه واعتنوا به.

وهكذا قيل أيضًا عن كلٍ من: " أدوني "، " متراس "، " أتيس"، " باخوص "، " أبولو " وغيرهم.

٢ـ عند النصارى:

في إنجيل لوقا (٢/ ١٥ – ١٧): " ١٥وَلَمَّا مَضَتْ عَنْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرجال الرُّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لِنَذْهَبِ الآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرْ هذَا الأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِي أَعْلَمَنَا بِهِ الرَّبُّ». ١٦فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ، وَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضْجَعًا فِي الْمِذْوَدِ. ١٧فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلاَمِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ عَنْ هذَا الصَّبِيِّ. " فكما ولدت آلهة الرومانيين واليونانيين

---

(١) المصدر السابق (١٢٣ – ١٢٥).

والبوذيين والبرهميين وغيرهم ولد إله المبشرين أي يسوع، ولنعم القول والمقابلة، وصدق الله تعالى: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج/ ٤٦). [(١)]

ثالثا: تشابه قصة الصلب (تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة).

١ـ عند الوثنيين:

كان الوثنيون القدماء يقدمون البشر ذبيحة أيضًا، والغالب عندهم تقديم الأرقَّاء والأسارى ذبيحة فداء عن الخطيئة، وليس هذا فقط، بل ونفس أولادهم.

قال (دوان): ويعتقد الهنود بأن كرشنا المولود البكر الذي هو نفس الإله فشنو، الذي لا ابتداء له ولا انتهاء، على رأيهم قد تحرك شفقةً وحنوًا – كي يخلص الأرض من ثقل حملها فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه.

وقد صور الراهب جورجيوس الإله (أندرا) الذي يعبده أهالي النيبال مصلوبًا [(٢)]

" ويدعون بوذا الطبيب العظيم، ومخلص العالم والممسوح، والمسيح المولود الوحيد وغير ذلك، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر آثام البشر. . "

"ويعد المصريون القدماء أوزيريس أحد مخلصي الناس وأنه بسبب جده لعمل الصلاح يلاقي اضطهادًا، وبمقاومته للخطايا يُقهر ويُقتل ".

قال (دوان): " وكان الوثنيون يدعون (بوخص) ابن المشتري من العذراء: المخلص، الابن الوحيد، الذبيح حامل الخطايا، الفادي. . . "

وكان الفرس يدعون مترا: " الوسيط بين الله والناس، والمخلص الذي بتألمه خلَّص الناس ففداهم " ويدعونه الكلمة، والفادي. . . "

وعبد المكسيكيون إلهًا مصلوبًا دعوه المخلص والفادي ويدعون ابن الله بلغتهم " باكوب " و" أبوكو ".

ولعل أوضح هذه القصص شبهًا بقصة المسيح أسطورة إله بابل "بعل".

---

(١) المصدر السابق (١٢٨ – ١٣٢).

(٢) Tibtetinum alphabetum (٢٠٣).

ونرى الآن صور التشابه بين قصة صلب بعل البابلي وصلب المسيح.

نقل المؤرخ "فندلاي" وغيره مقارنة بين ما قيل عن بعل قبل المسيحية، وما قيل عن المسيح في المسيحية. ويوضح ذلك الجدول التالي:

محاكمة عيسى عليه السلام	محاكمة بعل
١ - أخذ عيسى أسيرًا.	١ – أخذ بعل أسيرًا.
٢ - وكذلك حوكم عيسى.	٢ – حوكم بعل علنًا.
٣ - اعتُدي على عيسى بعد المحاكمة.	٣ – جرح بعل بعد المحاكمة.
٤ - اقتيد عيسى لصلبه على الجبل.	٤ – اقتيد بعل لتنفيذ الحكم على الجبل.
٥ - وكان مع عيسى قاتل اسمه: "باراباس" محكوم عليه بالإعدام، ورَشح بيلاطس عيسى ليعفو عنه كالعادة كل عام. ولكن اليهود طلبوا العفو عن "باراباس" وإعدام عيسى.	٥ – كان مع بعل مذنب حكم عليه بالإعدام وجرت العادة أن يعفى كل عام عن شخص حكم عليه بالموت. وقد طلب الشعب إعدام بعل، والعفو عن المذنب الآخر.
٦ - عقب تنفيذ الحكم على عيسى زلزلت الأرض وغامت السماء.	٦ – بعد تنفيذ الحكم على بعل عم الظلام وانطلق الرعد، واضطرب الناس.
٧ - وحرس الجنود مقبرة عيسى حتى لا يسرق حواريوه جثمانه.	٧ – حُرس بعل في قبره حتى لا يسرق أتباعه جثمانه
٨ - مريم المجدلية، ومريم أخرى جلستا عند مقبرة عيسى تنتحبان عليه.	٨ – الأمهات جلست حول مقبرة بعل يبكينه.
٩ - قام عيسى من مقبرته في يوم أحد، وفي مطلع الربيع أيضًا، وصعد إلى السماء.	٩ – قام بعل من الموت وعاد للحياة مع مطلع الربيع وصعد إلى السماء.

وقد انتقلت هذه الأسطورة البابلية فيما يبدو عن طريق الأسرى اليهود الذين عادوا

من بابل. [١]

ومما يؤكد وصول هذه القصة إلى الفكر اليهودي ثم المسيحي أن التوراة ذكرت ما يدل على شهرة مثل هذه القصة ففي سفر حزقيال " ١٤فَجَاءَ بِي إِلَى مَدْخَلِ بَابِ بَيْتِ الرَّبِّ الَّذِي مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ، وَإِذَا هُنَاكَ نِسْوَةٌ جَالِسَاتٌ يَبْكِينَ عَلَى تَمُّوزَ. " (حزقيال ٨/ ١٤)، وتموز هو الإله البابلي الذي قتل لأجل خلاص البشر، ثم قام من بين الموتى. [٢]

٢ـ الصلب عند النصارى:

وهذه المسألة والاعتقاد بالفداء – عند النصارى – رأس الإيمان.

وقد جاء ذكر الصلب في إنجيل متى: الإصحاح ٢٧، وإنجيل مرقس الإصحاح ٥، وإنجيل لوقا الإصحاح ٢٣، وإنجيل يوحنا الإصحاح ١٩، فلا حاجة للنقل منها لشهرتها، ولكن نذكر آية واحدة مثالًا لما في الأناجيل عن الصلب.

ففي غلاطية (٣/ ١٣): " ١٣اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ». "[٣]

(١) غرائب ترافق موت الآلهة.

وتتشابه كثير من تفاصيل قصة الصلب مع تفاصيل واردة في قصص وثنية مشابهة.

فقد ذكر متى أحداثًا غريبة عدة، صاحبت موت المسيح حيث يقول: " ٤٥وَمِنَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. ٤٦وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. . . ٥١وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. وَالأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ، وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ، ٥٢وَالْقُبُورُ تَفَتَّحَتْ، وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقِدِّيسِينَ الرَّاقِدِينَ ٥٣وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ. " (متى ٢٧/ ٤٥ – ٥٣).

وهذا نقله النصارى من الوثنيات القديمة:

---

(١) المسيحية، أحمد شلبي (١٨٢ – ١٨٣).

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٨٥).

(٣) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (٧٤ – ٨٤).

من ذلك: أن الهنود يقولون: " لما مات "كرشنا" مخلصهم على الصليب، حدثت في الكون مصائب جمة، وعلامات متنوعة، وأحاطت بالقمر دائرة سوداء، وأظلمت الشمس عند منتصف النهار، وأمطرت السماء نارًا ورمادًا، واندلعت ألسنة اللهب وصارت الشياطين تفسد في الأرض، وشوهد عند غروب الشمس وشروقها ألوف من الأشباح تتحارب في الهواء في كل جانب ومكان ".

وقال هيجن[١]: " إن عباد بروسيوس يقولون إنه لما صلب على جبل قوقاسوس، اهتزت الكائنات، وزلزلت الأرض واشتد دوي الرعد ولمعان البرق ومزقت الرياح الشديدة ما في الفضاء كل ممزق. . ".

والاعتقاد بحدوث أحداث سماوية عظيمة عند موت أحد العظماء أو ولادته، معروف عند الرومان واليونان.

كما ينقل المؤرخ "كنون فرار" في كتابه "حياة المسيح"، والمؤرخ جيبون في تاريخه أن عددًا من الشعراء والمؤرخين الوثنيين كان يقول: " لما قتل المخلص اسكولابيوس، أظلمت الشمس، واختبأت الطيور في أوكارها. . . لأن شافي أمراضهم وأوجاعهم فارق هذه الدنيا ".

وكذلك قيل عند موت كونز لكوتل إله المكسيكيين القدماء، وغيره من الآلهة المعبودة باطلًا.

وعليه فهو أسطورة قديمة تداولتها الأمم، ونقلها أصحاب الأناجيل من تلك الوثنيات.[٢]

(٢) طلب الملوك والجبابرة قتل الآلهة المتجسدة وكيف خلاصها منها

١ـ عند الوثنيين:

قال جوكوت اشوندر جنجولي[٣](وهو أحد الوثنيين المتنصرين في الهند): " يعتقد الهنود أنه لما ولد كرشنا سمعوا صوت منادٍ من السماء يقول لحاضنه قم وخذ الولد واهرب به واقطع نهر الجومتا، ففعل كما أمر؛ لأن الملك قانصا كان قاصدًا إهلاك الطفل المخلص،

---

(١) أنجلو ساكسون (١/ ٦١٦).

(٢) المصدر السابق (٨٧ – ٨٨)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٨٧).

(٣) حياة وتقاليد الهنود (١٣٤).

وقد أرسل الملك المذكور رسلًا من مملكته كي يقتلوا كل مولود ذكر ".

قال هيجين: " ويعتقد الهنود الوثنيون أنه لما ولد كرشنا أخذوه بالليل وهربوا به إلى بلاد بعيدة عن محل ولادته خوفا من الملك الجبار. . . "

وكذلك قيل عن " سلفاهانا " (وكان يعبده سكان أهالي كامورين بالهند)، وقيل أيضًا عن " بوذا "، و" هأوكي " (معبود الصينيين)و "حورس " (معبود المصريين)، و" تيروس " ملك الفرس " و" زورستر" (مؤسس ديانةالمجوس) وغيرهم كثير.

٢ـ عند النصارى:

ويعتقد النصارى أن هيرودس أراد قتل المسيح ولكن الله نجاه منه، ففي إنجيل متى (٢/ ١٣): " [١٣]وَبَعْدَمَا انْصَرَفُوا، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلًا: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ». "[١]

(٣) دماء الآلهة المسفوحة

وليست مسألة المخلص فقط هي التي نقلها بولس عن الوثنيات، فقد تحدث أيضًا عن دم المسيح المسفوح فقال: "[٢٥]الَّذِي قَدَّمَهُ الله كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ" (رومية ٣/ ٢٥)، ويقول: " وَنَحْنُ مُتَبَرِّرُونَ الآنَ بِدَمِهِ " (رومية ٥/ ٩)، " أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ " (كورنثوس (١) ١٠/ ١٦).

ويقول: "[٧]الَّذِي فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ بِدَمِهِ، غُفْرَانُ الْخَطَايَا " (أفسس ١/ ٧).

وفي موضع آخر يتحدث عن ذبح المسيح: " لأَنَّ فِصْحَنَا أيضًا الْمَسِيحَ قَدْ ذُبِحَ لأَجْلِنَا. "، " (كورنثوس (١) ٥/ ٧)، ومثل هذه النصوص تكثر في رسائل بولس وغيرها من الرسائل.

لكن النصارى يتغافلون عن مسألة هامة هي أن المسيح لم يذبح، فالأناجيل تتحدث عن موت المسيح صلبًا لا ذبحًا، الموت صلبًا لا يريق الدماء، ولم يرد في الأناجيل أن المسيح نزلت منه الدماء سوى ما قاله يوحنا، وجعله بعد وفاة المسيح حيث قال: " [٣٣]وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا

---

(١) المصدر السابق (١٣٩- ١٤١).

إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ، لأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ. [٣٤]لكِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ، وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ. " (يوحنا ١٩/ ٢٣ - ٢٤). وهو ليس ذبحًا بكل حال.

يقول ولز: " إنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صلبًا لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق، فتصوير يسوع في صورة المراق دمه من أجل البشرية إنما هو في الحقيقة من أشد العبارات بُعدًا عن الدقة ".

ولكن هذه النظرة إلى الله، بأنه لا يرضى إلا بأن يسيل الدم نظرة قديمة موجودة عند اليهود وعند الوثنيين قبلهم، ففي التوراة تجد ذلك واضحًا في مثل قولها: "[٢٠]وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَمِنْ كُلِّ الطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ، [٢١]فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا. وَقَالَ الرَّبُّ فِي قَلْبِهِ: «لاَ أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ أيضًا مِنْ أَجْلِ الإِنْسَانِ " (تكوين ٨/ ٢٠ - ٢١).

ومثله في محبة المحرقة وذبائحها والتنسم برائحتها قول العهد القديم: " [٢٦]وَبَنَى دَاوُدُ هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ، وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ، وَدَعَا الرَّبَّ فَأَجَابَهُ بِنَارٍ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى مَذْبَحِ الْمُحْرَقَةِ. " (الأيام (١) ٢١/ ٢٦).

وهكذا فإن التصور اليهودي للإله مشبع برائحة الدم يقول أرثر ويجال: " نحن لا نقدر أطول من ذلك قبول المبدأ اللاهوتي المفزع الذي من أجل بعض البواعث الغامضة وجوب تضحية استرضائية، إن هذا انتهاك إما لتصوراتنا عن الله بأنه الكلي القدرة، وإلا ما نتصوره عنه ككلي المحبة".

ويرى المحققون أن ادعاء إهراق دم المسيح مأخوذ من الديانة المثراسية حيث كانوا يذبحون العجل ويأخذون دمه، فيتلطخ به الآثم، ليولد من جديد بعد أن سال عليه دم العجل الفدية. [١]

رابعًا: التشابه في قيامة الآلهة بعد الموت.

(١) قيام الآلهة من بين الأموات.

ومن أوجه الشبه بين الوثنيات القديمة والنصرانية القول بقيامة الآلهة من الأموات،

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٨٥- ٨٧)، مسيحية بلا مسيح (ص ٤٥).

فقد أجمعت الأناجيل على قيامة عيسى من الموت، فقد جاء في إنجيل متى(٢٨/ ٥- ٧) " ٥فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لِلْمَرْأَتَيْنِ: «لاَ تَخَافَا أَنْتُمَا، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. ٦لَيْسَ هُوَ ههُنَا، لأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ! هَلُمَّا انْظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجِعًا فِيهِ. ٧وَاذْهَبَا سَرِيعًا قُولاَ لِتَلاَمِيذِهِ: إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ. "

ولكن هذا قد سبقهم إليه الهنود، حيث قالوا في كرشنا: "هوذا كرشنا صاعد إلى وطنه في السماوات "، وكذا يقول عُبّاد بوذا بأنه حزن عليه بعد موته أهل السماوات والأرض " حتى إن مهاويو (الإله العظيم) حزن ونادى: قم أيها المحب المقدس فقام كام (أي بوذا) حيًا، وبُدلت الأحزان والأتراح بالأفراح، وهاجت السماء، ونادت فرِحة: عاد الإله الذي ظُن أنه مات وفُقد. "، ومثله يعتقده الصينيون في إلههم (لأوكيون)، والمجوس في (زورستر).

ويقول عابدو (سكولابيوس) في القصيدة التي حكت عن حياته " أيها الطفل القادر على شفاء الأمم في السنين القادمة حينما يهبُّ مَن في القبور. . . . وأنت من المسكن المظلم ستقوم ظافرًا وتصير إلهًا " وعن تموز يقول البابليون: "ثقوا أيها القديسون برجوع إلهكم، واتكلوا على ربكم الذي قام من الأموات".

ومثل هذا الاعتقاد، سرى في كثير من الوثنيات قبل المسيحية، فقد قيل بقيام أوزوريس، وحورس، ومتراس، وباخوس، وهرقل، وكوتز لكوتل، ويلدور، وغيرهم، فكل هؤلاء قال عُبّادهم بقيامتهم من الموت. ولعل أهم هؤلاء أوزوريس معبود المصريين القريب من مهد المسيحية، وقد انتشرت أسطورته في القرن الثالث قبل الميلاد. ويقول المؤرخ مهامي: " إن محور التعليم الديني عند الوثنيين في مصر في القرون الخالية هو الإيمان بقيام الإله ". (١)

(٢)نزول الآلهة إلى الجحيم من أجل تخليص الأموات من الجحيم.

١ـ عند الوثنيين:

يعتقد الوثنيون أن آلهتهم المتجسدين نزلوا إلى الجحيم بعد قتلهم أو صلبهم ليخلصوا الأموات.

ورد ذلك عن " كرشنا "، " زورستر"، "أدونيس"، " باخوص "، "هرقل "

---

(١) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (١٥٨ –١٦٣)، المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، علاء أبو بكر (ص ١٦).

"عطارد"، " بالدور"، "كوتز لكزتل" وغيرهم من آلهة الوثنيين.

٢ـ عند النصارى:

وكما قال الوثنيون عن آلهتهم قالت النصارى عن يسوع أنه نزل إلى الجحيم ليخلص المعذبين فيها أيضًا.

ففي أعمال الرسل: " ٣١سَبَقَ فَرَأَى وَتَكَلَّمَ عَنْ قِيَامَةِ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ لَمْ تُتْرَكْ نَفْسُهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ رَأَى جَسَدُهُ فَسَادًا. " (أعمال ٢/ ٣١).

ويقول بطرس: "١٩الَّذِي فِيهِ أَيضًا ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلأَرْوَاحِ الَّتِي فِي السِّجْنِ" (بطرس (١) ٣/ ١٩).

يقول القديس كريستوم في سنة ٣٤٧م: " لا ينكر نزول المسيح إلى الجحيم إلا الكافر ".

ويقول القديس كليمندوس السكندري: " قد بشر يسوع في الإنجيل أهل الجحيم كما بشر به وعلمه لأهل الأرض، كي يؤمنوا به ويخلصوا أينما كانوا " وبمثله قال أوريجن وغيره من قديسي النصارى. (١)

ولما وصل النصارى إلى أمريكا الوسطى، وجدوا فيها أديانًا شتى، فخفّ القسس لدعوتهم للمسيحية، فأدهشهم بعد دراستهم لهذه الأديان أن لها شعائر تشبه شعائر المسيحية، وخاصة في مسائل الخطيئة والخلاص. (٢)

(٣) قيامة وعودة الآلهة من الموت للحساب والجزاء

١ـ عند الوثنيين:

يعتقد الصينيون أن مخلصهم وحاميهم فشنو الذي ظهر بالناسوت باسم كرشنا سيأتي ثانية في الأيام الأخيرة.

ويعتقد البوذيون بظهور بوذا مرارا عديدة بالناسوت ليؤهلهم، ويعلمهم باتحادهم بذاته المحيطة، وأنه في الأيام الخيرة يأتي أيضًا.

وأتباع بوخص ينتظرون مجيئه مرة ثانية ليحكم على الدنيا ويعيد إلى الناس السعادة.

---

(١) المصدر السابق (١٥١ – ١٥٣)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٩٢).

(٢) أقانيم النصارى، أحمد حجازي السقا (ص ٨٧).

والأثونيون كانوا منتظرين مجيء بطلهم " كالو يبوك " ثانية لكي يخلصهم من ظلم الألمانيين، فقد تحدث المؤرخون عن قول المصريين بقيامة مخلصهم بعد الموت، وأنه سيكون ديان الأموات يوم القيامة.

ويذكر هؤلاء في أساطيرهم أن أوزوريس حكم بالعدل، فاحتال عليه أخوه وقتله، ووزع أجزاء جسمه على محافظات مصر، فذهبت أرملته إيزيس، فجمعت أوصاله من هنا وهناك، وهي تملأ الدنيا نحيبًا وبكاءً، فانبعث نور إلى السماء، والتحمت أوصال الجسد الميت، وقام إلى السماء يمسك بميزان العدل والرحمة. وقيل مثل ذلك عن " الثلتيون "، " الاسكندنافيون"، " وأصحاب كوتز لكوتل"

٢ـ عند النصارى:

وكذلك قال النصارى أنه سيجيء المسيح مرة ثانية إلى هذا العالم. فقد جاء في إنجيل متى (٢٤/ ٢٧): " ٢٧لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْبَرْقَ يَخْرُجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَيَظْهَرُ إِلَى الْمَغَارِبِ، هكَذَا يَكُونُ أيضًا مَجِيءُ ابْنِ الإِنْسَانِ. "

وجاء في أعمال الرسل (١/ ١٠ -١١): " ١٠وَفِيمَا كَانُوا يَشْخَصُونَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ، إِذَا رَجُلاَنِ قَدْ وَقَفَا بِهِمْ بِلِبَاسٍ أَبْيَضَ، ١١وَقَالاَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ، مَا بَالُكُمْ وَاقِفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقًا إِلَى السَّمَاءِ». "

وفي إنجيل مرقس (١٣/ ١٦): " ٢٦وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابٍ بِقُوَّةٍ كَثِيرَةٍ وَمَجْدٍ".

وفي إنجيل يوحنا (٥/ ٢٧): " ٢٧وَأَعْطَاهُ سُلْطَانًا أَنْ يَدِينَ أَيْضًا، لأَنَّهُ ابْنُ الإِنْسَانِ. "[(١)]

---

(١) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (١٦٧ – ١٧٠). تنبيه: ينبغي التفريق بين ما يقوله النصارى عن عيسى عليه السلام من أنه سيعود إلى هذه الدنيا ليحاسب الناس على أعمالهم – وبين ما يعتقده المسلمون – من أن عيسى لم يصلب ولم يمت وسينزل في آخر الزمان ليفعل ما قاله النبي محمد ﷺ كما ورد عنه في صحيح البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (ح ١٥٥) " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا

خامسًا: تشابهات أخرى.

(١) القول عن الآلهة المتجسدة أنها من سلالة ملوكانية.

١ـعند الوثنيين:

يعتقد الهنود أن كرشنا مخلصهم من سلالة ملوكانية، وأنه ولد بحال التواضع والانكسار، ويعدون أجداده من جهة أمه، وأما من جهة أبيه فإنه مكث ابن الإله أجيالا كثيرة.

ويقولون عن بوذا أنه من سلالة ملوكانية من بيت سقيا، وهم أسمى وأشهر أسباط البرهميين الذين حكموا في بلاد الهند.

وفوحي ابن السماء المولود من عذراء هو من عائلة ملوكانية حكمت الصين في القرون الخالية.

ويقول الصينيون عن كونفشيوس إنه من عائلة ملوكانية.

وهركلوس كان من عائلة ملوكانية، وباخوص ابن الإله كان من عائلة ملوكانية، ويوسيوس ابن العذراء دانيا كان من عائلة ملوكانية.

واسكوبليوس ابن الإله صاحب الآيات والعجائب كان من نسل ملوكاني، ويوجد غيرهم كثيرون ممن يقال عنهم عند الوثنيين أنهم آلهة وأبناء آلهة وكلهم من سلالة ملوكانية.

٢ـ عند النصارى:

وكما قال الوثنيون في آلهتهم كذلك قال النصارى في يسوع المسيح أنه من سلالة ملوكانية ويصلون نسبه بداود الملك كما هو مذكور في إنجيل متى (الإصحاح الأول) وإنجيل لوقا الإصحاح الثالث، هذا عدا الأعداد الكثيرة الموجودة في الأناجيل المدعو فيها " ابن داود "، حتى أن الشياطين كانت تدعوه " ابن داود " عندما يخرجها من الناس وغير ذلك، وهاك مثال على هذا الكلام.

ففي إنجيل متى (٢٢/ ٤١- ٤٢): " [٤١]وَفِيمَا كَانَ الْفَرِّيسِيُّونَ مُجْتَمِعِينَ سَأَلَهُمْ يَسُوعُ [٤٢]قَائِلًا: «مَاذَا تَظُنُّونَ فِي الْمَسِيحِ؟ ابْنُ مَنْ هُوَ؟ » قَالُوا لَهُ: «ابْنُ دَاوُدَ». "[(١)]

(٢) تجربة الشيطان لأبناء الآلهة.

فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد.

(١) المصدر السابق (١٣٥ – ١٣٦).

١ـ عند الوثنيين:

جاء في كتاب "حياة بوذا الصيامية " تأليف مونكيور كونوي الصيني[١]: " والكائن العظيم بوذا جرَّد نفسه في الزهد لدرجة عدم الأكل (أي صام)، والتنفس أيضًا. . . فأتى الأمير مارا (أي أمير الشياطين) وقصد تجربة بوذا مرارًا عديدة مدعيًا الشفقة والحنو عليه، وقال لبوذا: " انتبه ياأيها الكائن العظيم فإن حالتك محزنة لكل من يراك، وقد نحلت لحد لا يوصف. . . فإنك تمارس الرذيلة وتعانيه باطلًا وإني أرى ألا تبقى هنا كثيرًا. . . "، فأجابه الكائن العظيم بوذا: " انتبه يا مارا (أي يا أمير الشياطين)، . . . ، تروم إجباري على ترك الناس بغير مرشد حتى لا يكونون في مأمن من دهائك، فاذهب عني "

وجرَّب الشيطان زروستر ووعده بمواعيد عظيمة إذا اطاعه واعتمد عليه، ولكن تجاربه ذهبت سدى.

وجرَّب الشيطان أيضًا " كوتز لكوتل " مخلص البرازيليين المولود من عذراء وصام أيضًا أربعين يومًا.

وكان اليونانيون حينما يريدون معرفة الأسرار الخفية يصومون ويمتنعون عن تناول الطعام الطيب، وينامون على وسادات صلبة خشنة، وبعد ثلاثة أو أربعة أيام من الصوم يتناولون طعامًا مقدسًا (أي باركته كهنتهم).

٢ـ عند النصارى:

جاء في إنجيل متى (٤/ ١ – ١١): " ١ثُمَّ أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ. ٢فَبَعْدَ مَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، جَاعَ أَخِيرًا. ٣فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرِّبُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ خُبْزًا». ٤فَأَجَابَ وَقَالَ: «مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ». ٥ثُمَّ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَوْقَفَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ، ٦وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لاَ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ».

---

(١) (ص ٤٤، ١٧٢، ١٧٣).

٧قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَكْتُوبٌ أيضًا: لاَ تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلهَكَ». ٨ثُمَّ أَخَذَهُ أيضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، ٩وَقَالَ لَهُ: «أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي». ١٠حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ». ١١ثُمَّ تَرَكَهُ إِبْلِيسُ، وَإِذَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَخْدِمُهُ. "(١)

(٣) العمادة لإزالة الخطيئة

١ـ عند الوثنيين:

قال امبرلي وبنصون وهيجين وليلي ما ملخصه: " عندما يُعمِّدون الأطفال في الهند ومنغوليا وتيبت يوقدون الشموع ويحرقون البخور على المذابح وتقرأ الكهنة صلوات مخصوصة، ثم يغطسون الطفل في الماء ثلاث مرات "

وكذلك يحدث عند البرهميين واليونانيين والرومانيين والمصريين.

وأتباع " زورستر" يعمدون أولادهم سواء كانوا أطفالا أو مراهقين.

وقال الدكتور " هيد ": " وكانت العمادة عند القدماء إما غمسًا بالماء أو رشًا، ويدعون هذه العمادة الولادة الثانية، ويعدون الأنفس زكية سعيدة من بعدها. "

وكان وثنيو السويد والنرويج والدانمارك يعمدون أولادهم بصب الماء عليهم، ثم يسمونهم " وكذلك جاء عن المكسيكيين القدماء.

وقال " لندي": " إذا تصفحنا التاريخ نرى طقس العمادة قديم العهد جدًا فقد كان شائعًا في آسيا وأمريكا، وكان سكان البرازيل يعمدون أولادهم الذكور والإناث في الهيكل المدعو " هيكل الصليب " بصب الماء من إبريق وكانوا يدعون ماء العمادة – " ماء الولادة الثانية ".

٢ـ عند النصارى:

والعمادة عند النصارى سر من أسرار الكنيسة السبعة، وقد ورد ذكرها في الأناجيل، فمنها ما ورد في إنجيل مرقس (١/ ٩): " ٩وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يَسُوعُ مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ وَاعْتَمَدَ مِنْ يُوحَنَّا فِي الأُرْدُنِّ. ١٠وَلِلْوَقْتِ وَهُوَ صَاعِدٌ مِنَ الْمَاءِ رَأَى السَّمَاوَاتِ قَدِ انْشَقَّتْ،

---

(١) المصدر السابق (١٤٥ – ١٤٧).

وَالرُّوحَ مِثْلَ حَمَامَةٍ نَازِلًا عَلَيْهِ. "

وورد في إنجيل متى (٣/ ١١): "١١أَجَابَ يُوحَنَّا الْجَمِيعَ قِائِلًا: «أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ، وَلكِنْ يَأْتِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. "

وفي إنجيل مرقس (١٦/ ١٦): " ١٦مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ. "[١]

(٤) التشابه في فكرة الفادي بين الوثنيات القديمة والنصرانية.

وكذلك سرت في الوثنيات فكرة الفادي والمخلص الذي يفدي شعبه أو قومه، وكانت الأمم البدائية تضحي بطفل محبوب، لاسترضاء من تسميهم آلهة السماء، وفي تطور لاحق أضحى الفداء بواسطة مجرم حكم عليه بالموت، وعند البابليين كان الضحية يلبس أثوابًا ملكية - كتلك التي ألبسها النصارى للمسيح في قصة الصلب -، لكي يمثل بها ابن الملك، ثم يجلد ويشنق.

وعند اليهود خصص يوم للكفارة يضع فيه كاهن اليهود يده على جدي حي، ويعترف فوق رأسه بجميع ما ارتكب بنو إسرائيل من مظالم، فإذا حمل الخطايا أطلقه في البرية.

وأما فكرة موت الإله فهي عقيدة وثنية حيث كان العقل اليوناني يحكم بموت بعض الآلهة.

والفداء عن طريق أحد الآلهة أو ابن الله أيضًا موجودة في الوثنيات القديمة كما وقد ذكر السير آرثر فندلاي في كتابه " صخرة الحق " أسماء ستة عشر شخصًا اعتبرتهم الأمم آلهة سعوا في خلاص هذه الأمم. منهم: أوزوريس في مصر ١٧٠٠ ق. م، وبعل في بابل ١٢٠٠ق. م، وأنيس في فرجيا ١١٧٠ ق. م، وناموس في سوريا ١١٦٠ ق. م، وديوس فيوس في اليونان ١١٠٠ ق. م، وكرشنا في الهند ١٠٠٠ ق. م، وأندرا في التبت ٧٢٥ ق. م، وبوذا في الصين ٥٦٠ ق. م، وبرومثيوس في اليونان ٥٤٧ ق. م، ومترا (متراس) في فارس ٤٠٠ ق. م.[٢]

ولدى البحث والدراسة في معتقدات هذه الأمم الوثنية نجد تشابهًا كبيرًا مع ما يقوله النصارى في المسيح المخلص.

---

(١) المصدر السابق (١٧٩ - ١٨١).

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ٩١) نقلا عن: العقائد المسيحية بين القرآن والعقل، هاشم جودة (ص ٢١٩).

فأما بوذا المخلص عند الهنود الوثنيين فلعله أكثر الصور تطابقًا مع ما يقوله النصارى عن المسيح، فقد ذكر صاحب كتاب " العقائد الوثنية في الديانة النصرانية " التشابه بين بوذا والمسيح من ثمانية وأربعين وجهًا، ولعل مرد هذا التشابه إلى تأخره التاريخي، فكان تطوير النصارى لذلك المعتقد ضئيلًا.

وكذلك التشابه الكبير في الألقاب التي يطلقها هؤلاء وهؤلاء على ما يعبدونه، فالبوذيون كما نقل المؤرخون يسمون بوذا المسيح المولود الوحيد، ومخلص العالم، ويقولون: إنه إنسان كامل وإله كامل تجسد بالناسوت، وأنه قدَّم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر ويخلصهم من ذنوبهم حتى لا يعاقبوا عليها. (١)

وجاء في أحد الترنيمات البوذية عن بوذا: " عانيتَ الاضطهاد والامتهان والسجن والموت والقتل بصبر وحب عظيم لجلب السعادة للناس، وسامحتَ المسيئين إليك ".

ويذكر مكس مولر في كتابه " تاريخ الآداب السنسكريتية " فيقول: " البوذيون يزعمون أن بوذا قال: دعوا الآثام التي ارتكبت في هذا العالم تقع عليّ، كي يخلص العالم ".

ويرى البوذيون أن الإنسان شرير بطبعه، ولا حيلة في إصلاحه إلا بمخلص ومنقذ إلهي.

وكذلك فإن المصريين يعتبرون أوزوريس إلهًا ويقول المؤرخ بونويك في كتابه " عقيدة المصريين ": يعد المصريون أوزوريس أحد مخلصي الناس، وأنه بسبب جده لعمل الصلاح يلاقي اضطهادًا، وبمقاومته للخطايا يقهر ويقتل ".

ويوافقه دوان في كتابه " خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها من الديانات الأخرى".

لذا يقول اَرَثر ويجال: " إن هذه العقيدة دخيلة من مصدر وثني، وهي حقًا من آثار الوثنية في الإيمان ". (٢)

---

(١) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (٢٠٣- ٢١٩).

(٢) انظر: الغفران بين الإسلام والمسيحية، إبراهيم خليل أحمد (١١٨)، معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير، إبراهيم الجبهان (١٤٧)، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب (٧٠-٧١)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (٩٠- ٩٢).

تفسير النصارى لهذا التشابه الغريب بين الوثنيات والنصرانية

فكيف يفسر النصارى هذا التطابق بين معتقداتهم والوثنيات القديمة والذي جعل من النصرانية نسخة معدلة عن هذه الأديان؟.

زعم الكثيرون أن هذه الأديان نقلت هذا الفكر عن النصرانية، لكن ذلك اصطدم بكون هذه الديانات كانت قبل المسيحية بقرون طويلة، والمخطوطات والأحافير التي سجلت عقائدها كانت أقدم من ظهور المسيحية وأناجيلها.

لذا كان لا بد من الاعتراف بانتحال كُتَّاب العهد الجديد لأساطير الوثنيات السابقة أو الهروب إلى عالم الأسرار والظلام، حيث يختفي دليل العقل وتسيطر الخرافة، ومنه قول الأب جيمس تد المحاضر في جامعة " اكسفورد" عن هذا التشابه: " سر لاهوتي فوق عقول البشر، وليس من الممكن تفسيره حسب تفسير وتصور هؤلاء البشر. "[1]

صدق الله إذ يقول عن النصارى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ (التوبة: ٣٠)، وقد نهاهم الله عن مشابهة المشركين فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ (المائدة: ٧٧).

---

(١) حوار صريح بين عبد الله وعبد المسيح، عبد الودود شلبي (٤١).

الفصل الرابع: قانونية (قدسية الكتاب المقدس)

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: قانونية التوراة (قدسيتها).

"إن كلمة: قانون، تعنى (بالإغريقية) مقياس أو معيار. . ولقد أطلق اللفظ: قانوني، أو قانونية على قائمة الكتب التي قبلتها الكنيسة بوجه عام، باعتبارها كتبت بإلهام". [(١)]

وإذا كانت التوراة نتاج عمل العشرات من المؤلفين الذين اجتهدوا في تسجيل تاريخ بني إسرائيل، ولم يَدُر بخلدهم أن تعتبر كتاباتهم مقدسة، إذ لو خطر على بالهم لصاغوها بطريقة أخرى، إذا كان الأمر كذلك، فمتى اكتسبت هذه النصوص قداستها؟ وهل تم ذلك لجميع أسفارها معًا أو أنه تم بالتدريج؟.

وفي الإجابة نقول: من الطبيعي عندما نتحدث عن كتاب إلهي أنّا لا نحتاج إلى الحديث عن قانونيته، إذ هو يستمدها من مصدره الإلهي، ويكتسبها منذ اللحظات الأولى التي ينزله الله فيها إلى البشر، وهذا الأمر لم يحدث مع الأسفار التوراتية التي احتاجت إلى قرارات بشرية تقدسها، فالأسفار الخمسة أقرت في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وتحديدًا في عام ٣٩٨ ق م في عهد عزرا، حين اعترفت الامبرطورية الفارسية بناموس اليهود حسبما جاء في دائرة المعارف الأمريكية. وكان اليهود يسمون الأسفار الخمسة لموسى بالناموس أو الشريعة أو القانون.

ويقول اسبينوزا: " يظهر بوضوح أنه لم تكن هناك مجموعة مقننة من الكتب المقدسة قبل عصر المكابيين (أي القرن الثاني قبل الميلاد)، أما الكتب المقننة الآن فقد اختارها فريسيو الهيكل الثاني بعد أن أعاد بناءه عزرا " الكاتب".

وهذا الاختيار من الفريسيين في ذلك العهد لم يكن بموافقة طوائف اليهودية المختلفة، يقول اسبينوزا: " فقد اختارها الفريسيون في ذلك العهد من بين كثير غيرها، وذلك بقرار منهم وحدهم".

وقد كان مما أقره فريسيو العهد الثاني برأي اسبينوزا الأسفار الخمسة مضافًا إليها ما

---

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٣٢).

يسمى بأسفار الأنبياء، واعتبرت قانونية وهي (يشوع - القضاة - والملوك الأول إلى الرابع وأشعيا وأرميا وحزقيال والأنبياء الصغار الاثنى عشر، وسميت المجموعة الثانية)، ولم تعتبر هذه المجموعة معادلة لسلطة الأسفار الخمسة، ورغم ذلك ألحقت بها، وقد كان ينظر إليها على أنها شروح وامتداد للأسفار الخمسة. (١)

وبقي موضوع الكتب المعترف بها قابلًا للزيادة حسب الحاجة وحسب آراء كبار الكهان. وتعلق دراسة المدخل المقدمة من المسكونية الفرنسية، والرهبانية اليسوعية: " ولكن إلى متى بقيت هذه اللائحة مفتوحة؟ وما هي المبادئ التي كانت تنظم استعمالها؟ وهل ضم هذا "المؤلف " أو ذاك إلى تلك اللائحة؟ وهل كان الاستعمال واحدا في جميع الأماكن وجميع الأوساط؟ تتضمن هذه الأمثلة كثيرا من النقاط الغامضة. "(٢)

وفي عام ٩٠م عقد الفريسيون مجمعًا في جامينيا، وقرروا اعتبار بعض الأسفار أسفارًا قانونية وهي: (المزامير - الأمثال - نشيد الإنشاد - راعوث، دانيال، أيوب، عزرا، نحميا، الأيام. . .)، واعتبروا هذه القائمة نهائية، ورفضوا ما عداها من الأسفار، وقد بلغ عدد هذه الأسفار ستًا وثلاثين سفرًا.

يقول القس إلياس مقار: " وقد استلمت الكنيسة المسيحية من اليهود أسفار العهد القديم التي قررها اليهود في مجمع " جامينيا " عام ٩٠م ".

ولم تكن هذه القائمة محل اتفاق بين اليهود، فمثلًا كان الفريسيون يعتبرون سفر دانيال قانونيًا، فيما لم يعتبره الصدوقيون كذلك، بينما كان لجماعة قمران أسفار كثيرة لم ترد في القائمة القانونية، منها أخنوخ واليوبيلات وغيرها، والأسفار التي لم تدخل في القائمة كانت خمسًا وثلاثين سفرًا كما عددها تشارلز في مقدمة كتابه: " أبو كريفا ".

وفي مجمع "نيقية" ٣٢٥م أقر المجتمعون النصارى سفر يهوديت فقط، وأبقوا ثمانية

---

(١) انظر: هل العهد القديم كلمة الله؟ (٦٥)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، محمد على البار (١٦٦)، التوراة واللأنا جيل بين التناقض والأساطير (٣٨٥ وما بعدها).

(٢) المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم (١٦٧).

أسفار مشكوكًا فيها.

وفي مجمع "لوديسيا" ٣٦٤م أقر المجتمعون سفرًا آخر هو سفر أستير.

وفي ٣٩٧م عقد مجمع "قرطاجة" بحضور أكستاين، فأضاف المجمع للقائمة ستة أسفار هي (زوم، وطوبيا وباروخ وإيكليزنا سيتكس (يشوع بن سيراخ) والمكابيين الأول والثاني).

واعتبر المجتمعون سفر باروخ جزءًا من إرميا، ثم فصلوهما في مجمع " ترلو"، وأصبحت هذه الأسفار متفقًا عليها عند النصارى.

ومن ذلك كله نستطيع القول إن هذه الكتب قد كتبها القوم بأيديهم، ثم نسبوها إلى الله، وأعطتها المجامع البشرية صفة القداسة. [1]

المبحث الثاني: قانونية العهد الجديد.

نحاول في هذا المبحث أن نجيب على عدة أسئلة:

كيف ظهرت الأناجيل بعد اختفاء إنجيل المسيح؟ ومن الذي كتبها؟ وما ظروف كتابتها؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة نقول وبالله تعالى التوفيق:

يقرر عدد من مؤرخي النصرانية انتقال روايات شفاهية، تبلورت فيما بعد بحركة دائبة في كتابة سيرة المسيح لتلبية حاجات الكنيسة المسيحية الناشئة، ونكتفي هنا بنقل ما ذكره يواكيم إرميا في كتابه الذي نشرته الكنيسة المصرية بعنوان " أقوال المسيح غير المدونة في بشائر الأناجيل " فيقول: " ينبغي أن نضع نصب أعيننا حقيقتين أساسيتين عن بشائر الإنجيل وكتابتها: أنه لمدة طويلة، كانت كل التقاليد المعروفة عن المسيح، كلها أقوال شفاهية متناقلة. . واستمرت على هذه الصورة ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا، ولم يتغير الوضع إلا في عهد اضطهاد نيرون للمسيحيين، حينها اجتمع شيوخ الكنيسة وكبارها في خريف عام ٦٤م، ووجدوا أن الكثيرين من أعمدة الكنيسة قد فقدوا. . ولم يجد المجتمعون أمامهم إلا يوحنا الملقب مرقص، زميل الرسول بطرس في الخدمة. . ليسجل

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٠٥ – ١٠٨)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، محمد البار، (١٦٩)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (١٣ – ١٤)، هل العهد القديم كلمة الله؟ (٦٦– ٦٧).

كل ما يستطيع أن يتذكره من أحاديث المسيح وتعاليمه، وكتب مرقص بشارته المختصرة التي تحمل اسمه، وهي أقدم قصة كتبت عن حياة المسيح.

والحقيقة الثانية: أن قصة مرقس عن المسيح وأقواله قد دفعت غيره ليحذوا حذوه، وينسجوا على منواله. . وتنشأ بشائر أخرى. . . حتى كان هناك عدد لا يستهان به من البشائر. . . ولما رأت الكنيسة أن الأمر جدٌّ خطير بدأت في تقصي أسس هذه البشائر الأربعة المعروفة، واعتبرت ما سواها " بشائر أبو كريفية "، طوردت وجمعت وأحرقت حتى اختفت ".

وينبه المحققون إلى أمر هام، وهو أن شيئًا من الأناجيل لم يكن يسمى إنجيلًا في الصدر الأول للنصرانية، إنما سميت " كاروزوتا " أي موعظة، وذلك باللغة اليونانية التي وجد بها ما سمي فيما بعد بالأناجيل.

وهذه الكتابات أطلق عليها القديس جوستين في منتصف القرن الثاني اسم "مذكرات الرسل". [(١)]

يقول مدخل الرهبانية اليسوعية متحدثًا عن تاريخ تدوين العهد الجديد: "ويمكن تأريخ إنجيل مرقس في السنين ٦٥-٧٠م. . وأما إنجيل متى وإنجيل لوقا فلا تنعكس فيهما البيئات نفسها، لأنهما وُجها إلى بيئات أخرى، وقد وضعا بعد إنجيل مرقس بخمس عشر إلى عشرين سنة ".

وقد بدأت في أواسط القرن الثاني حركة لتجميع كتاب مقدس للنصارى على غرار ما عند اليهود، وقد أثمرت ما بين أيدينا من أسفار العهد الجديد.

يقول المدخل الفرنسي للعهد الجديد: " لم يشعر المسيحيون الأولون إلا بعد وفاة آخر الرسل بضرورة تدوين أهم ما عمله الرسل وتولي حفظ ما كتبوه، ويبدو أن المسيحيين حتى ما يقرب من السنة ١٥٠م تدرجوا من حيث لم يشعروا بالأمر إلا قليلًا جدًا إلى الشروع في إنشاء مجموعة جديدة من الأسفار المقدسة، وأغلب الظن أنهم جمعوا في بدء

---

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٣٠ – ٤٤)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (١٠١ – ١٠٢).

أمرهم رسائل بولس، واستعملوها في حياتهم الكنسية، ولم تكن غايتهم قط أن يؤلفوا ملحقًا بالكتاب المقدس.

ومع ما كان لتلك النصوص من الشأن فليس هناك قبل القرن الثاني (بطرس (٢) ٣/ ١٦) أي شهادة تثبت أن الناس عرفوا مجموعة من النصوص الإنجيلية المكتوبة، ولا يذكر أن لمؤلَف من تلك المؤلفات صفة ما يلزم، فلم يظهر ذلك إلا في النصف الثاني من القرن الثاني، فيمكن القول أن الأناجيل الأربعة حظيت نحو السنة ١٧٠م بمقام الأدب القانوني، وإن لم تستعمل تلك اللفظة حتى ذلك الحين.

يجدر بالذكر ما جرى بين السنة ١٥٠ والسنة ٢٠٠ إذ حدد على نحو تدريجي أن سفر أعمال الرسل مؤلف قانوني، وقد حصل شيء من الإجماع على رسالة يوحنا الأولى. هناك عدد كبير من المؤلفات (الحائرة) يذكرها بعض الآباء ذكرهم لأسفار قانونية في حين أن غيرهم ينظر إليها نظرته إلى مطالعة مفيدة.

وهناك أيضًا مؤلفات جرت العادة أن يستشهد بها ذلك الوقت على أنها جزء من الكتاب المقدس، ومن ثم جزء من القانون لم تبق زمنًا على تلك الحال، بل أخرجت آخر الأمر من القانون، ذلك ما جرى لمؤلف هرماس وعنوانه الراعي، وللديداكي، ورسالة أكليمنص الأولى، ورسالة برنابا ورؤيا بطرس". [1]

وهذا الذي ذكرته مقدمة العهد الجديد نستطيع أن نجمله بأن حركة تدوين الأناجيل بدأت بعد موت أهم التلاميذ، وأخذت شرعيتها في أواسط القرن الثاني كما ساعد في تكوين قانونية العهد الجديد مرقيون الهرطوقي سنة ١٦٠م حيث دعا لنبذ سلطة العهد القديم، واحتاج لتزويد كنيسته بأسفار مقدسة أخرى، فساهم أتباعه في نشر هذه الأناجيل فقد جمع في عهده إنجيلًا، وراجعه مراجعة دقيقة ليتمشى مع أفكاره، وجمع إليه رسالة

---

(١) انظر: قراءات في الكتاب المقدس، عبد الرحيم محمد (٢/ ٢٦٨ – ٢٦٩)، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٧٩ – ٨٠)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (١٠٣).

بولس إلى أهل غلاطية، وهي رسالة تؤكد إبطال الناموس ونقده، ثم أضاف رسائل بولس إلى أهل كورنثوس وتسالونيكي وأفسس وفيلبي وفليمون.

كيفية اختيار الأناجيل الأربعة

أما الكيفية التي اختارت بها الكنيسة هذه الأناجيل دون غيرها، ومكان الاختيار، فلا يوجد أي تفصيل عند النصارى عن هذه النقطة سوى ما ذكره المدخل الفرنسي للعهد الجديد: "يبدو أن مقياس نسبة المؤلف إلى الرسل استعمل استعمالًا كبيرًا، ففقد رويدًا رويدًا كل مؤلَف لم تثبت نسبته إلى رسول من الرسل ما كان له من الحظوة ".

ولكن هذا القول إنما يصح لو كانت هذه الأناجيل جميعًا قانونية، ثم بدأ بعضها يفقد بريقه عند التحقيق والتدقيق، بينما حصل العكس في تاريخ الكتاب المقدس، إذ لم يعتبر شيئًا من هذه الكتب قانونيًا، ثم بدأ في الاختيار فيما بعد.

ويقول الأب كننغسر بأن الأناجيل التي رفضت هي التي لا تتفق مع الخط الأرثوذكسي.

لكن المتفق عليه عند مؤرخي الكنيسة أن الأناجيل الأربعة ورسائل بولس قد أقرت في أواخر القرن الثاني، وكان أول من ذكر الأناجيل الأربعة المؤرخ أرينيوس سنة ٢٠٠م تقريبًا، ثم ذكرها كليمنس اسكندريانوس، ودافع عنها، واعتبرها واجبة التسليم.

يقول الدكتور دوود ويل في كتابه "أطروحة حول إيرينوس": " نحن على يقين بأن كتابات كل من كليمنت رومانوس، هرماس، اغناطيوس وبوليكارب والذين كتبوا بعد التاريخ المفروض لكتبة الأناجيل ليس بها أي ذكر لهذه الكتب الأربعة ".

وأما جستين مارتاير أحد أبرز آباء الكنيسة فقد كتب في منتصف القرن الثاني مستدلًا لألوهية المسيح بأكثر من ثلاثمائة نص من العهد القديم ونحو مائة من الأناجيل المرفوضة، ولم ينقل نصًا واحدًا من الأناجيل الأربعة، بل لم يشر إليها البتة، يقول البطريرك الدكتور قايلز في كتابه "السجل المسيحي": "هذه الأسماء متى ومرقس ولوقا ويوحنا لم يذكرها جستين، ولا أي نص منها نجده في أي من كتاباته".

وأما بقية أسفار العهد الجديد فقد بقيت موضع نزاع بين الكنائس طوال القرن

الثالث، وقد قبلت بعض الكتب في الكنائس الشرقية كالرسالة إلى العبرانيين، بينما رفضها أتباع الكنائس الغربية، وقبلوا رؤيا يوحنا اللاهوتي. (١)

ترتيب الأسفار المقدسة ودلالته:

وكما وقع الخلاف في إلهامية بعض الأسفار وقع الخلاف في ترتيب هذه الأسفار في العهد الجديد، وهذا الخلاف مهم، إذ كلٌّ رتب الأسفار حسب ما يعتقد لها من قيمة وقداسة وأهمية، فالخلاف في الترتيب خلاف في قيمة الأسفار.

وأقدم قائمة رتبت الأسفار كانت في أواسط القرن الرابع قائمة أثناسيوس ٣٦٧م، وكان ترتيبه كالتالي: الأناجيل ثم أعمال الرسل ثم الرسائل الكاثوليكية ثم رسائل بولس ثم سفر الرؤيا.

ثم أصدر مجمع روما ٣٨٢م ترتيبًا آخر، تلا الأناجيل فيه رسائل بولس ثم رؤيا يوحنا ثم الرسائل الكاثوليكية السبعة، وأما الترتيب الحالي فكان من قرارات مجمع ترنت ١٥٤٦م. (٢)

وهكذا تبين لنا من خلال استعراض مسيرة الأناجيل تأليفًا وتقديسًا، أن تقديس هذه الكتب عمل بشري لا يستند إلى دليل من هذه الكتب، بل هو قرار اختلفت فيه المجامع حتى أُقر، ولو كان من الوحي لما اختلفت فيه المجامع، ولما احتاج إلى قرار كنسي ليصبح مقدسًا ووحيًا إلهيًا. (٣)

المبحث الثالث: الأسفار الغير قانونية (أبو كريفا)

تناولنا بشيء من التفصيل الأناجيل الأربعة، على اعتبار أنها الأناجيل المعتمدة والتي عليها المسيحيون على اختلاف طوائفهم.

فهل يا ترى يوجد أناجيل غير هذه الأربعة؟ إنه سؤال حيوي وهام جدًا، والإجابة عنه ستعطي المزيد والمزيد على القصور الذي أصاب سند الأناجيل بوجه عام.

هذا الموضوع تناوله كثير من علماء المسيحية، وأعلنوها صراحة، إذ يقررون ويعترفون أنه

---

(١) انظر: هل العهد الجديد كلمة الله؟ (١٠٤)، إظهار الحق (٢/ ٣٨١).

(٢) محاضرات في مقارنة الأديان، إبراهيم خليل أحمد (١٧).

(٣) هل العهد الجديد كلمة الله (١٠٥).

في الأعصر الغابرة، كانت توجد أناجيل أخرى، لكنها أخفيت ولم يعرف عنها شيء، ولكن، لماذا أخفيت؟ قد يقال لأنها لم تعتمد من الكنيسة، فهل يصح أن يكون ذلك سببا في إخفائها، أم أن فيها أو في بعضها شيء ضد صالح الكنيسة لا ينبغي لأحد أن يطلع عليه؟

إن الناظر في تاريخ المسيحية يجد أن حركة التأليف نشطت في الجيل الأول من النصرانية بشكل واسع، وظهرت أناجيل كثيرة كما تدلنا على ذلك مقدمة إنجيل لوقا " إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدامًا للكلمة، رأيت أنا أيضًا، إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علّمتَ به" (لوقا ١/ ١-٤)، لكن هذه الكثرة الكاثرة من الأناجيل التي سطرها تلاميذ المسيح لم يكتب لها القبول فيما بعد من الكنيسة، فاندثرت وأضحت في خبر كان. [1] ومن هنا نشأ مصطلح "أبو كريفا"

ولذا سنناقش هذا المبحث من خلال العناصر الآتية:

أولًا: ماذا تعني "أبوكريفا"

ثانيًا: نظرة تاريخية في الأناجيل غير القانونية.

ثالثًا: الأناجيل الأبوكريفية من حيث كونها كاملة أو ناقصة.

رابعًا: ما وصل إلينا من الأناجيل المحرمة (الأبوكريفا).

خامسًا: الأدلة التاريخية على وجود الأناجيل.

سادسًا: وأخيرًا ملاحظات.

وإليك التفصيل

أولًا: ماذا تعني " أبو كريفا "؟

أبو كريفا لفظ يوناني في صيغة الجمع معناه الأشياء المخبأة التي يجب إخفاؤها لأنها كاذبة وقد سماها ايرونيموس بالملفق، وسماها ترتليانوس بالزائف. وهي إما أسفار اختبأ كتابها الحقيقيون وراء أسماء بعض رجال العهد الجديد، وإما أسفار تنقل عقيدة سرية لا تتفق والعقائد القديمة قد

---

(١) ماذا تعرف عن المسيحية ٨٦-٨٧.

دست فيها دسًا من وراء ستار من الأسماء والظروف الإنجيلية الحقيقية.[1]

ثانياً: نظرة تاريخية في الأناجيل غير القانونية.

رأينا كيف اعترفت الكنيسة بأربعة أناجيل، وأنها رفضت عددًا كبيرًا من الأناجيل والكتب التي ألفها الجيل الأول من المسيحيين، وأوصلها صاحب كتاب اكسيهومو (١٨١٠م) إلى أربعة وسبعين كتابًا، وعدّدها، فذكر أن منها ما هو منسوب لعيسى وأمه، وللحواريين، ومنها ما هو منسوب للإنجيليين الأربعة، وبعض الباحثين يصل بعدد الأناجيل إلى ما يربو على المائة كتاب، ومنها ما هو منسوب لجماعات مسيحية قديمة كإنجيل المصريين والناصريين.

وقد سميت بعض هذه الكتب أناجيل كإنجيل بطرس وإندرياه ويعقوب وميتاه (متى) وإنجيل المصريين لمرقس وبرنابا، وعددت دائرة المعارف الأمريكية أسماء ستة وعشرين إنجيلًا لا تعترف بهم الكنيسة رغم نسبتهم إلى المسيح وكبار حوارييه.

وقد كانت بعض هذه الكتابات والأناجيل متداولة لدى عدد من الفرق المسيحية القديمة، وظلت متداولة إلى القرن الرابع الميلادي.

وفي مجمع نيقية ٣٢٥م أمرت الكنيسة باعتماد الأناجيل الأربعة ورفض ما سواها، من غير أن تقدم مبررًا لرفض تلك الأناجيل سوى مخالفتها لما تم الاتفاق عليه في المجمع، وفي ذلك يقول العالم الألماني تولستوي في مقدمة إنجيله الخاص الذي وضع فيه ما يعتقد صحته: " لا ندري السر في اختيار الكنيسة هذا العدد من الكتب وتفضيلها إياه على غيره، واعتباره مقدسًا منزلًا دون سواه مع كون جميع الأشخاص الذين كتبوها في نظرها رجال قديسون. . . ويا ليت الكنيسة عند اختيارها لتلك الكتب أوضحت للناس هذا التفضيل. . . إن الكنيسة أخطأت خطأً لا يغتفر في اختيارها بعض الكتب ورفضها الأخرى واجتهادها. . ".

وأمرت الكنيسة بحرق جميع هذه الأناجيل لما فيها من مخالفات للعقيدة الكنسية،

(١) الأدلة الكتابية على فساد النصرانية(٢٣٨)، أصول المسيحية كما يصورها الإسلام(١٥٧ – ١٥٨)، ماذا تعرف عن المسيحية (٨٧).

وصدر قرار من الإمبراطور بقتل كل من عنده نسخة من هذه الكتب.[١]

ثالثًا: الأناجيل الأبوكريفية من حيث كونها كاملة أوناقصة:

وهذه الأناجيل إما كاملة وإما ناقصة، والناقصة نوعان أيضًا منها ما يمكن إثبات ذاتيته، ومنها ما تكسر وتهشم إلى حد يصعب عنده تعيين الأصل الذي انتمى إليه.

وقبل أن نشرع في بيان ذلك ينبغي أن نورد سؤالًا ينبغي أن يورد هنا وهو كيف نصف هذه الأناجيل المخبأة بهذه الصفات ولا نصف بها الأناجيل الأربعة المعروفة، وقد وجدت دواعي الشك والمساواة بين الكل نظرًا لكثرة الكتاب وضياع السند؟ ومن الذي حكم وفصل هذا التفصيل بين هذه وتلك؟.

ونعود إلى تفصيل ما شرعنا فيه وهو تبيين الأناجيل المخبأة من حيث النقصان والكمال:

المخبأة الناقصة:

أناجيل النصارى المتهودين:

وهي من الأناجيل الأبوكريفية الناقصة التي يمكن إثبات ذاتيتها، ولعلها أقرب الأناجيل الأبوكريفية إلى الإنجيل الصحيح ويقع تحت هذا العنوان (إنجيل العبرانيين) و (إنجيل الناصريين) و ((إنجيل الأبيونيسين) و (إنجيل الرسل الاثنى عشر)، ورأى رجال الاختصاص فيما مضى أصلًا واحدًا وراء هذه الأناجيل الأربعة، ولكن متابعة النقد والبحث في هذا الموضوع أدت إلى تقسيم الأربعة إلى فئتين: " إنجيل العبرانيين والناصريين " و " إنجيل الأبيونيسين الفقراء الرسل ".

الفئة الأولى: إنجيل العبرانيين والناصريين:

ليس لدينا عن هذا الإنجيل سوى أربعين. مثالًا استشهد بها الآباء القديسون ولا سيما " ايرونيموس" وثلاثة عشر حاشية وردت على هامش بعض المخطوطات، كتب هذا الإنجيل بالآرامية ولكن بأحرف عبرانية، وشاع استعماله في أواخر القرن الأول بعد الميلاد في الأوساط النصرانية المتهودة في حلب. وقارب هذا الإنجيل إنجيل متى في الرواية،

---

(١) المسيح بين الحقائق والأوهام لمحمد وصفي(٤٣)، إظهار الحق (٢/ ٥٤٨).

فاعتبره بعضهم لأول وهلة الأصل الذي نقل منه إنجيل متى، ثم بان اعتماد هذا الإنجيل في الأناجيل الثلاثة الأولى (متى ومرقس ولوقا) فأمسى غريبًا بعيدًا.

الفئة الثانية: إنجيل الأبيونيين والرسل:

ويستدل من الأمثلة التي اقتبسها القديس (ابيفانيوس) من هذا الإنجيل أنه يعود إلى أواخر القرن الثاني، إلى الأوساط المتأخرة التي عاشت الكسائيين الأردنيين في إقناعهم عن أكل اللحوم واعتراضهم على الحبل (به) بلادنس وقولهم إنه ابن الله بالتبني.

إنجيل المصريين:

ذكره اقليمس الاسكندري ومناظره (ثيودوتوس الغنوسي) و (اوريجنس) وليس لدينا منه سوى بعض نماذج أوردها (اقليمس) وصاحبه (انقراتي) في اتجاهه وقد شاع استعماله في الأوساط الانقراتية في مصر في النصف الأول من القرن الثاني. والانقراتيون جماعة من الهراطقة الغنوسيين الذين غالوا في الزهد فامتنعوا عن اللحم والخمر والزواج

وقالوا " التشبيه " أي أن ابن الله لم يتخذ جسدًا ولم يقتل ولم يصلب وإنما شبه لمن حوله ذلك.

إنجيل بطرس:

دون في سوريا في منتصف القرن الثاني وشاع استعماله في الأوساط المركيونية ووصل إلى كنيسة أرسوز الارثوذكسية بين رأس الخنزير والاسكندرونة، فأقبل البعض على مطالعته وامتنع غيرهم. فأذن سرابيون أسقف أنطاكيا بقراءته أولا تهدئه للخصام ثم حصل على نسخة منه وعكف على مطالعتها فلمس الدس والتضليل فيها فحرم قراءته ووضع رسالة في ذلك. وعثر المنقبون في مصر سنة ١٨٨٦ / ١٨٨٧ على شيء يسير من هذا الإنجيل عكف علماء العهد الجديد على درس ما اكتشف فوجدوه يمت إلى الأناجيل الأربعة بصلة ولكنه يذر الشك فيما إذا كان المسيح تألم عن الصلب عملًا بعقيدة المشبهة ثم ينحى على اليهود وهيردوس باللوم الشديد وينزه بيلاطيس.

أناجيل الرؤيا:

وهي تشمل أناجيل "توماس ومتياس" و " فيليبوس " و " يهوذا " و "برثلماس " ورائدهما غنوسي صرف، فهي تجعل السيد المخلص يظهر لبعض أتباعه في حياته على الأرض

وبعد قيامته، ويتحدث إليهم في مواضيع تثبت نواحي معينة من الفلسفة الدينية الغنوسية.

فاسيليذس:

هو في الأرجح سوري المولد، غنوسي المذهب عاش في الإسكندرية في الربع الثاني من القرن الثاني، وادعى أنه يحمل تقليدًا رسوليًا يعود إلى بطرس نفسه فكتب إنجيلًا وعلق عليه في أربعة وعشرين كتابًا. قال بأنه في قمة الوجود لا يوصف بالسلبيات صدرت عنه أرواح متضائلة في الألوهية أبعدها عن إله اليهود. ولما طغى إله اليهود وأخضع البشر أرسل إله القمة عقله فاستقر في يسوع الذي تألم في الظاهر فقط.

الأناجيل المخفية الكاملة:

وهي أحدث عهدًا في غالب الأحيان من الإلهامات التي أشرنا إليها ولكنها صادرة عن أوساط قديمة الرأي ويجوز تنسقها هكذا:

مجموعة الأهل والأقرباء.

مجموعةالطفولة والصبوة.

مجموعة بيلاطيس.

وقد يكون الدافع الأساسي في تدوين هذه المجموعات تزويد المؤمنين بمعلومات وتفاصيل رغبوا في الوصول إليها والاطلاع عليها.

أناجيل الأهل والأقرباء:

وهذه ثلاثة: أ - إنجيل يعقوب، ب - انتقال العذراء، ج- تاريخ يوسف النجار.

أما إنجيل يعقوب فإنه دون في القرن الثاني فيما يظهر بلغة يونانية صحيحة نقية تضمن سيرة العذراء حتى البشارة، ورواية يوسف عن ولادة المسيح وسجود المجوس، وذبح الأطفال، وموت زخريا، والجدير بالذكر أن ما ننقله عن يواكيم وحنة وطفولة العذراء مأخوذ من هذا الإنجيل، ويعقوب الذي نسب إليه هذا الإنجيل هو يعقوب الرسول ابن زيدي.

وكتاب انتقال العذراء والدة الإله من مخلفات القرن الرابع، وقد نسب إلى يوحنا اللاهوتي، وتالايخ يوسف النجار الذي نسب إلى السيد المخلص نفسه هو في الواقع من

آثار القرن الخامس، وقد دون في مصر باللغة القبطية باللهجتين الصعيدية والبحرية. وتمجيد يوسف والاحتفال بذكره وتعظيمه من الأمور التي اهتم لها المصريون المسيحيون الأولون قبل غيرهم.

أناجيل الطفولة والصبوة:

وهي تشمل إنجيل " توما الإسرائيلي" الفيلسوف، وإنجيل الطفولة العربي وتختلف النسخ في ضبط اسم" توما" فهو في بعض النسخ اليونانية "توما" الإسرائيلي الفيلسوف، وفي غيرها القديس "توما". وجاء في بعض النسخ اللاتينية أنه توما الإسرائيلي. واعتبره كيرلس بضاعة مانوية، ولعا الربط بين اللقبين من نتاج عقل شرقي بعيد. وإنجيل توما الفيلسوف يتضمن مجموعة من غرائب العجائب التي أجراها يسوع بين الخامسة والثانية عشرة من عمره.

والإنجيل العربي من مخلفات القرن السابع والثامن بعد الميلاد، منه نسخ في روما وفلورنسة، أما النسخة التي نشر نصها (سيك) في سنة ١٦٩٧ فإنها ضائعة، ومعظم محتوياته واردة في تاريخ العذراء، نشره "برج" في سنة ١٨٩٩ وتبدأ عجائب السيد في هذا الإنجيل في المهد فالقابلة التي عاونت العذراء واهتمت بأمرها وقت الولادة يبست يداها لأنها لم تكن مؤمنة ثم شفاها الطفل المولود. ومن عجائبه في الناصرة بعد عودته من مصر أنه كان يصنع طيورًا من طين فتطير.

إنجيل نيقوديموس:

وهو من مصنفات القرن الرابع، ويتألف من قسمين رئيسيين وأولهما ضبط بها أجراه بيلاطس وأخبار القيامة والثاني وصف لنزول المسيح إلى الجحيم وما فعله فيه وهنالك أيضًا عشر وثائق تتعلق بأخبار بيلاطس منها رسائله إلى الامبراطور في صلب المسيح وموته وبين مخطوطات باريس العربية (١٦٠)، تاريخ حياة بيلاطس تنسب إلى غملائيل وحنانيا.

إنجيل برنابا. [١] وسيفرد الحديث عنه.

رابعًا: ما وصل إلينا من الأناجيل المحرمة (الأبوكريفا)

---

(١) أصول المسيحية كما يصورها القرآن الكريم ١٥٨ -١٦٢.

وهكذا اختفت معظم هذه الأناجيل ولم يصل منها سوى إنجيل برنابا والإنجيل الأغنسطي وإنجيل الطفولية وإنجيل يعقوب، وثلاث قصاصات من إنجيل مريم وبعض شرائح لاتينية وإغريقية وقبطية من إنجيل برثولماوس وإنجيل نيقوديموس، كما عثر أخيرًا في نجع حمادي بمصر على مقتطفات من إنجيل بطرس وكتاب أعمال يوحنا.

ولعل أهم ما وجد في نجع حمادي مائة وأربعة عشر قولًا منسوبًا للمسيح في إنجيل توما الذي يختلف أسلوبه عن الأناجيل الأربعة، إذ لم يسرد قصة المسيح، بل نقل أقواله، ويرجع المحقق كويستر هذا الإنجيل إلى منتصف القرن الأول الميلادي، وأرجعه كيسيبل إلى ١٤٠م.

وعثر أيضًا على إنجيل " الحقيقة " والذي اعتبره ايرينوس (١٨٠م) إنجيلًا مزورًا. (١)

خامسًا: الأدلة التاريخية على وجود هذه الأناجيل.

وقد ينازع قوم في الإثبات التاريخي لهذه الأناجيل، وللتأكيد على وجود هذه الأناجيل في القرن الأول وحتى قبل كتابة الإنجيليين الأربعة لأناجيلهم نتذكر ما سطره لوقا في مقدمته " إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا. . رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمتَ به " (لوقا ١/ ١ - ٤)، فقد كان بين يديه مجموعة كبيرة من الأناجيل، لا يعلم عددها إلا الله.

وقد استشهد كل من كليمنت الرومي (٩٧م) وبوليكارب (١١٢م) بأقوال للمسيح في صيغ مستقلة غير موجودة في الأناجيل الأربعة.

وقد جمع فابري سيوس ما تبقى من هذه الأناجيل، وطبعها في ثلاثة مجلدات. (٢)

سادسًا: وأخيرًا ملاحظات:

وبادئ ذي بدء فإن المحققين سجلوا حول هذه الأناجيل ملاحظات.

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله (٩٥)

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله (٩٥).

- أن ثمة كتب كثيرة ظهرت في القرن الأول، وكلها منسوبة للمسيح وحوارييه.

- أن هذه الأناجيل تخالف عقائد مجمع نيقية، وبعضها كان خاصًا بفرق مسيحية موحدة.

- أن الكنيسة حين حرمت هذه الأناجيل، لم تقدم أدلة على صحة القرار الذي اتخذته.

- أنه كما لا يحق لرجال الكنيسة إعطاء صفة القانونية للأناجيل الأربعة، فإنه لا يحق لهم إبطال صحة هذه الأناجيل واعتبارها أبوكريفا (مزيفة، خفية). [١]

المبحث الرابع: إنجيل المسيح.

تمهيد:

أخبرنا القرآن الكريم بوجود إنجيل هو كتاب الله الذي أنزل على نبي الله عيسى ﷺ وذلك في عدة آيات من الذكر الحكيم من ذلك قوله تعالى: (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين). [٢]

فإذا كانت هذه الأناجيل والرسائل التي بين أيدي النصارى من صنع البشر وتأليفهم، وإذا كان أصحابها لم يدعوا لأنفسهم أنهم يسجلون كلمة الله، فكيف أضحت هذه الكتابات مقدسة وإلهية؟.

لذا فنحن هنا نبحث عن ذلك الإنجيل الأصلي الذي جاء به عيسى عليه السلام من خلال العناصر الآتية:

أولًا: أين الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، والذي يؤمن به المسلمون؟

ثانيًا: نصوص تتحدث عن إنجيل المسيح الأصلي.

ثالثًا: تهرب عموم النصارى من الاعتراف بالإنجيل الأصلي، والرد عليهم.

رابعًا: إقرار علماءهم بوجود إنجيل المسيح وفقده.

خامسًا: هل هذه الأناجيل المعتمدة الآن هي إنجيل المسيح؟

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله (٩٦).

(٢) التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة (٥٩).

سادسًا: يا مسلمون أين إنجيل المسيح الذي تدعونه؟! !

سابعًا: رأي العقاد والرد عليه.

واليك التفصيل

أولًا: أين الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، والذي يؤمن به المسلمون؟

نعم أين الإنجيل الخاص بالسيد المسيح؟.

الجواب المؤكد: لا يوجد له أثر، وهذه النتيجة ليست من عندنا، بل تأيدت بما ذكره القس الماروني في كتابه (ذخيرة الألباب) ونصه: إن أسفار العهد الجديد لا تستغرق كل أعمال المسيح ولا تتضمن كل أقواله، كما شهد به القديس يوحنا) لقد تساءل المحققون طويلًا عن إنجيل المسيح الذي أنزله الله على عيسى، ذلكم الإنجيل الذي يؤمن به المسلمون والذي تذكره الأناجيل كثيرًا.

لكن الإجابة النصرانية هي صمت مطبق وتجاهل لوجود هذا الإنجيل، فنقطة البدء عندهم للإنجيل أو العهد الجديد تبدأ من الحواريين وهم يسطرون الرسائل والأناجيل.

لكن رسائل بولس التي ألفت في النصف الثاني من القرن الأول تتحدث في نصوص كثيرة عن إنجيل المسيح، ولا تذكر شيئًا عن الأناجيل الأربعة التي لم يكن مرقس - أول الإنجيليين - قد خط شيئًا منها، إذ أن بولس - وله أربعة عشر رسالة في العهد الجديد - قتل سنة ٦٢م، بينما ألف مرقس أول الأناجيل عام ٦٥م، ثم تتابعت العشرات من الأناجيل بعد ذلك، وهي تشير أيضًا إلى إنجيل المسيح عليه السلام أو إنجيل الله. [(١)]

ثانيًا: نصوص تتحدث عن إنجيل المسيح الأصلي.

ومع أننا لا نجد ذلك الإنجيل الأصلي والذي أنزله الله على نبيه عيسى عليه السلام إلا أننا نجد ما قد يشير إليه في هذه الأناجيل المعتمدة، تحدث بولس ثم الإنجيليون عن إنجيل المسيح في نصوص كثيرة منها:

قول بولس: " إني أعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعًا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح

---

(١) ماذا تعرف عن المسيحية (٨٥)، هل العهد الجديد كلمة الله (٩٥).

إلى إنجيل آخر. . يوجد قوم يريدون أن يحولوا إنجيل المسيح. . "(غلاطية ١/ ٦ – ٨).

فهو يتحدث عن إنجيل حقيقي يتركه الناس إلى إنجيل آخر مزور.

ومثله قول بولس: " بل نتحمل كل شيء، لئلا نجعل عائقًا لإنجيل المسيح. . أمر الرب أن الذين ينادون بالإنجيل، من الإنجيل يعيشون ". (كورنثوس (١) ٩/ ١٢ – ١٤).

ويقول متوعدًا: " الذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع، الذين سيعاقبون بهلاك أبدي ".

وفي الأناجيل الأربعة وسفر أعمال الرسل حديث عن إنجيل حقيقي من ذلك:

ورد في إنجيل متى (وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم، يكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب) (متى ٤: ٢٣).

يكرز: يذيع البشارة علانية، وبشارة الملكوت الأخبار السارة عن ملكوت السموات، والبشارة: أي الخبر المفرح.

فإذا كان المسيح عليه السلام كرز أي يذيع البشارة علانية، وأن البشارة هي الأخبار السارة فمعنى ذلك أنه يبشر ويتلو كتابًا ولا يخفى أن الكتاب المنزل عليه هو الإنجيل، إذا فهذه إشارة قد تكون خفية على وجود إنجيل أصلي كان يبشر به عيسى عليه السلام.

ومثل ذلك أيضًا في إنجيل مرقس على لسان المسيح حين بدأ يعلن دعوته (جاء يسوع على الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل) (١: ١٤–١٥).

وفي أعمال الرسل أن بطرس قام وقال: " أيها الرجال الإخوة: أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل، ويؤمنون " (أعمال ١٥/ ٧).

أي إنجيل هذا الذي أشار إليه بطرس، وعلى ما نستطيع أن نقطع به، لم تكن على الأقل كل الأناجيل المتداولة قد كتبت عندما قال بطرس هذا الكلام، ثم ما معنى أن الله قد اختار أنه بفمه يسمع الأمم كلمة الإنجيل – وبطرس بالذات – يسمع الأمم كلمة الإنجيل، ويؤمنون به، ثم لا نجد بين الأناجيل المتداولة إنجيلًا منسوبًا لبطرس رغم أنه

بفمه كما قال، اختار الله أن يسمع الأمم كلمة الإنجيل أليس هذا وحده بكاف على الأقل لينفي عن الأناجيل المتداولة اليوم شرعيتها، ويؤكد أن هناك إنجيلًا آخر اختار الله أن تسمعه الأمم بفم بطرس غير هذه الأناجيل الأربعة المعروفة، وهل هي محض مصادفة أن يقول بطرس هذا الكلام ومع هذا فإننا نقرأ اسمه في أول سلسلة الأناجيل التي طاردتها الكنيسة فمن ذا الذي أحرقه ياترى ومن أعطاه حق حرق ذلك الإنجيل.

(فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم) (رو ١ : ٩)، (وفي اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي بيسوع المسيح) (رومية ٢ : ١٦)، (وأنا أعلم أني إذا جئت إليكم سأجيء في ملء بركة إنجيل المسيح) (رو ١٥ : ٢٩)، (لكننا لم نستعمل هذا السلطان بل نتحمل كل شيء لئلا نجعل عائقًا لإنجيل المسيح) (١ كورنثوس ٩: ١٢)، (وأعرفكم أيها الإخوة بالإنجيل الذي بشرتكم به وقبلتموه وتقومون فيه) (١ كورنثوس ١٥ : ١).

الملاحظ أن هذه النصوص تتحدث عن إنجيل واحد، وليس الأناجيل الأربعة أو السبعين التي رفضتها الكنيسة، وتسمي النصوص هذا الإنجيل، إنجيل الله، وإنجيل المسيح.

كما أطلقت النصوص اسمًا آخر على وحي الله الذي أوتيه المسيح، وهو (كلمة الله)، فالجموع ازدحمت عليه عند شاطئ البحيرة لتسمع منه الإنجيل التي ينزل عليه من الله.

"وإذ كان الجمع يزدحم عليه ليسمع كلمة الله"(لوقا ٥/ ١).

وحين دخل كفر ناحوم " اجتمع كثيرون، حتى لم يعد يسع ولا ما حول الباب، فكان يخاطبهم بالكلمة" (مرقس ٢/ ٢)، وبحسب نسخة الرهبانية اليسوعية: "فألقى إليهم كلمة الله".

إن ذلك الكلام الإلهي الذي كان يفوه به المسيح ﷺ وتزدحم الجموع لسماعه هو ما يؤمن به المسلمون، إنه كلمة الله التي نزلت على المسيح، المسماة في القرآن بالإنجيل.

جاء في رسالة بولس إلى أهل رومية " أولًا أشكر إلهي يسوع المسيح من جهة جميعكم أن إيمانكم ينادى به في كل العالم فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف

بلا انقطاع أذكركم "(١).

ثالثا: تهرب عموم النصارى من الاعتراف بالإنجيل الأصلي، والرد عليهم

وقد تهرب عموم النصارى من الإقرار بوجود إنجيل حقيقي هو إنجيل المسيح، فقالوا: لم ينزل على المسيح شيء، بل الإنجيل هو أقواله الشخصية، وقد سطرها الإنجيليون، وهذا بالطبع متسق مع قولهم بألوهية المسيح، إذ لا يليق بالإله أن يؤتى كتابًا، فهذا حال الأنبياء.

لكن يردُّ هذه الدعوى ذكر النصوص التي تحدثت عن وحي الله إلى المسيح، منها: قوله: " أنا أتكلم بما رأيت عند أبي " (يوحنا ٨/ ٣٨).

وكذا قوله مثبتًا نزول الوحي عليه، بما أسماه وصية الله التي أعطاه الله إياها: "لأني لم أتكلم من نفسي، لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية: ماذا أقول و بماذا أتكلم، وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية. فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب، هكذا أتكلم" (يوحنا ١٢/ ٤٩-٥٠).

ومثله قوله: " أتكلم بهذا كما علمني أبي " (يوحنا ٨/ ٢٨).

ويسمي يوحنا المعمدان عليه السلام كلام الله الذي سيؤتاه المسيح (الشهادة)، ويتنبأ بإعراض الكثيرين من بني إسرائيل عنها، فيقول: "الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع، وما رآه وسمعه به يشهد، وشهادته ليس أحد يقبلها، ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق، لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله" (يوحنا ٣/ ٣١-٣٤).

لذا لما جاءته أمه وإخوته ووقفوا ببابه، أعرض عنهم وأقبل على تلاميذه الذين يسمعون منه كلام الله ويعملون به "فأجاب وقال لهم: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله، ويعملون بها" (لوقا ٨/ ٢١).

فكلام الله ليس مجرد بشارة يؤمن بها المؤمنون - كما يزعم القائلون بأن إنجيل المسيح

---

(١) التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة ٦٠، هل العهد الجديد كلمة الله ٩٦، محاضرات في النصرانية ٥٠ -٥١، دعوة الحق بين المسيحية والإسلام ٢١٣ – ٢١٥

هو البشارة بخلاصه بل هو عمل ينصاعون إليه وينفذونه.

وهذا الوحي الذي آتاه الله سيحاسب الناس بحسبه يوم القيامة " من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه، الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير، لأني لم أتكلم من نفسي "(يوحنا ١٢/ ٤٨-٤٩). (١)

رابعًا: إقرار علمائهم بوجود إنجيل المسيح وفقده

ونقل العلامة رحمة الله الهندي في كتابه الماتع إظهار الحق عن بعض علماء النصرانية إقرارهم بوجود إنجيل يسوع قبل ضياعه واختفائه، ومنهم مارش وليكرك وكوب وأكهارن وغيرهم.

يقول أكهارن: " إنه كان في ابتداء الملة المسيحية في بيان أحوال رسالة المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال أنها هي الإنجيل الأصلي، والغالب أن هذا الإنجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم، ولم يروا أحواله بأعينهم، وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب".

إذن فهؤلاء الأحرار يقرون أنه كان هناك إنجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب، ولكنه غير موجود، فهل لنا أن نقول أن ذلك الإنجيل هو المشار إليه في أقوال متى ونرقس، وبولس السابقة، وهو الذي نزل على عيسى، أهو إنجيله وإنجيل الله؟ ليت، وهل ينفع ليت، ليت هذا الإنجيل قائم، وحرصت الكنيسة على بقائه، وقامت بحياطته ليكون فيصلًا بين المختلفين، وحكمًا بين الفرق والمفترقين، وليكون قسطاس المجامع القديمة والحديثة التي حكمت حين الانشقاق، وليكون مصدرًا علميًا لمن يكتب في المسيحية الأولى ويتبعها في مدارجها في أحقاب الزمن وملابسات التاريخ. (٢)

خامسًا: هل هذه الأناجيل المعتمدة الآن هي إنجيل المسيح؟

لا بد أن نعلم أن هذه الأناجيل لم تنزل على المسيح ولم يملها وذلك لا نزاع فيه بين

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله ٩٧ – ٩٨.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٣٧٩، هل العهد الجديد كلمة الله ٩٨، محاضرات في النصرانية ٥٢

النصارى أنفسهم وإليك بيان ذلك:

نقل الشيخ رشيد رضا عن دائرة المعارف الفرنسية أن الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى ما ظهرت إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح عليه السلام وهي متعارضة، مجهولة الأصل والتاريخ، بل وقع الخلاف بينهم في مؤلفيها واللغة التي ألفوا بها، كما أن نسخها الأصلية فقدت.

ويقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة – رحمه الله – إن الأناجيل الأربعة، لم يملها المسيح، ولكنها كتبت بعده، وبالتالي فليست هي الوحي الذي أوحي إليه، وهي كما تشتمل على أخبار المسيح من وقت ولادته حتى الوقت الحكم عليه بالموت صلبًا – وصلبه بالفعل على حد اعتقادهم – فإنها أيضًا تشتمل على أخبار يوحنا المعمدان حتى قتله).

وأما رسل الرسائل فإن كتابها لم يدعوا لأنفسهم أنهم رسل من الله حتى يمكن القول بأن ما حرروه وحي من الله أو الهام منه. اللهم إلا ما جاء عن بولس، فهو يذكر في رسائله أنه يتكلم عن الله وأحيانًا يقول إنه يتكلم عن نفسه، مع أنه لا يوجد في كتب المسيحية ما يشهد له بالرسالة أو الإلهام أو الإيمان، سفر أعمال الرسل.

وهذه الأناجيل المعتمدة رسميًا ليست – بدون شك – ذلك الإنجيل الأصلي المنزل على عيسى عليه السلام، وهذا باعترافهم، ويعلل الإمام أبو زهرة ذلك فيقول:

ففي هذا كله نجد كلمة إنجيل أو كلمة بشارة (وهي ترجمة كلمة إنجيل اليونانية) مضافة إلى ملكوت الله، كما في إنجيل متى ومرقس، وإنجيل الابن كما في رسالة بولس إلى أهل رومية، وكلمة الإنجيل من غير إضافة كما في إنجيل مرقس ورسالة بولس إلى أهل كورنثوس الأولى، ولا شك أن الإنجيل المذكور في كل هذا ليس واحدًا من هذه الأناجيل لأنها:

لا تضاف إلا إلى أصحابها باتفاق النصارى، لأن المسيح قد وعظ بهذا الإنجيل – كما جاء في عبارة متى التي نقلناها – ولم يكن واحد من هذه الأناجيل قد وجد في عهده بالاتفاق.

ليس من المعقول أن يعظ بأقوال تلاميذه وهم بعد لا يزالون في دور التعليم.

لأن هذا الإنجيل قد ذكر في هذه الأناجيل على أنه كان قائمًا في عهد عيسى.

لأنه ذكر من غير نسبته إلى أحد – كما جاء في إنجيل مرقس ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، وليس واحد من هذه الأربعة تنصرف إليه كلمة إنجيل من غير نسبته إلى صاحبه.

ولأنه ذكر في رسالة بولس إلى أهل رومية منسوبًا إلى المسيح الابن. وليس واحد من هذه الأناجيل يستحق هذا الاسم.

لهذا كله نقول: ليس هذا الإنجيل واحدًا منها كما تقضي بذلك طبيعة السياق، وكما يقضي بذلك العقل وإذا كان الأمر كذلك، فهل لنا أن نفهم أن هناك إنجيلًا أصيلًا نزل على عيسى وكرز به على حد تعبيرهم ووعظ ويعتبر الأصل لهذه الديانة؟. (١)

وهل إذا وجد ذلك الإنجيل يكون حجة في أيدي المسيحيين؟

إننا نعتقد – بلا شك – أنه لو كان موجودًا بعينه لكان حجة في أيدي المسلمين لأن منزل كل من الإنجيل والقرآن الكريم واحد وهو الله تعالى، فلا يمكن عقلا أن يختلفا أو يتناقضا. (٢)

المبحث الخامس: إنجيل برنابا

تمهيد:

لقد ظهر إنجيل جديد كشف عنه البحث العلمي، وقد حمل من الأمارات ما يدل على أنه في نشأته يمتد إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحي، وأبعد أغواره.

وهو يشبه الأناجيل القائمة في أنه قصة المسيح من ولادته إلى اتهامه، ويحكي محاوراته، ومناقشاته، وخطبه، ولكن الكنيسة لم تعترف به، وأنكرته. فليس معتبرًا عند المسيحيين مصدرًا دينيًا، ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوروبية، وقد اتجهوا إليه بالبحث والعناية، والاهتمام ولم يمنعهم من ذلك إنكار الكنيسة له وذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا، فما هي قصته؟ (٣).

أولًا: من هو برنابا؟

يقول قاموس الكتاب المقدس: " برنابا: اسم آرامي معناه " ابن الوعظ"، وهو لاوي

---

(١) ماذا تعرف عن المسيحية ٨٥-٨٦، التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة ٦٠.

(٢) التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة ٥٩.

(٣) محاضرات في النصرانية (٦٣).

قبرصي الجنس، اعتنق المسيحية في زمان الرسل فترك علاقاته العلمية وابتدأ يجاهد في نشر بشرى الخلاص في العالم، ويحث الناس على اعتناق المسيحية، ويعزيهم في مصابهم، ولذلك سماه الرسل برنابا أي ابن الوعظ بعد ما كان اسمه أولًا يوسف "[١].

وجاء ذكره في أعمال الرسل التي ينسب تدوينها إلى لوقا، فقد جاء في ٤/ ٣٦ – ٣٧: " ٣٦وَيُوسُفُ الَّذِي دُعِيَ مِنَ الرُّسُلِ بَرْنَابَا، الَّذِي يُتَرْجَمُ ابْنَ الْوَعْظِ، وَهُوَ لاَوِيٌّ قُبْرُسِيُّ الْجِنْسِ، ٣٧إِذْ كَانَ لَهُ حَقْلٌ بَاعَهُ، وَأَتَى بِالدَّرَاهِمِ وَوَضَعَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرُّسُلِ. "

وقد ذهب برنابا للدعوة في أنطاكية وكان داعية ناجحًا: "٢٢فَسُمِعَ الْخَبَرُ عَنْهُمْ فِي آذَانِ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي أُورُشَلِيمَ، فَأَرْسَلُوا بَرْنَابَا لِكَيْ يَجْتَازَ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ. ٢٣الَّذِي لَمَّا أَتَى وَرَأَى نِعْمَةَ اللهِ فَرِحَ، وَوَعَظَ الْجَمِيعَ أَنْ يَثْبُتُوا فِي الرَّبِّ بِعَزْمِ الْقَلْبِ ٢٤لأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَمُمْتَلِئًا مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَالإِيمَانِ. فَانْضَمَّ إِلَى الرَّبِّ جَمْعٌ غَفِيرٌ. ٢٥ثُمَّ خَرَجَ بَرْنَابَا إِلَى طَرْسُوسَ لِيَطْلُبَ شَاوُلَ. وَلَمَّا وَجَدَهُ جَاءَ بِهِ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ. "(أعمال ١١/ ٢٢ – ٢٥).

وذكر المؤرخون أن وفاته كانت سنة ٦١م في قبرص، حيث قتله الوثنيون رجما بالحجارة ودفنه ابن أخته مرقس الإنجيلي[٢].

فيتضح من هذا أن برنابا إما من الحواريين الإثنى عشر[٣] وإما من الرسل السبعين، ولا يحتمل وجود برنابا آخر؛ لأنه لم يرد ذكر لغير برنابا واحد في جميع المراجع، وملامحه واحدة فيها كلها. [٤]

ومهما يكن من شيء في هذا الأمر، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم، فإن برنابا حجة عند المسيحيين، وهو من الملهمين في اعتقادهم، فإن صحت نسبة هذا الإنجيل إليه كان ما

---

(١) ص ١٧٢.

(٢) هل العهد الجديد كلمة الله؟ ، منقذ السقار (ص ١١١). نقلا عن: اليهودية والمسيحية، تأليف/ محمد ضياء الدين الأعظمي (ص ٣٥٣- ٣٥٦).

(٣) انظر إنجيل برنابا (الفصل الرابع عشر/ فقرة ١٣) حيث ذكر اسمه ضمن الاثنى عشر الذين اختارهم المسيح.

(٤) المسيحية، تأليف/ أحمد شلبي (ص ٢١٩).

يشمله حجة عليهم، يدعوهم إلى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء في غيره من كتبهم، ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصور والتصديق، وأصح سندًا، وأقرب بالمسيحية الأولى رحمًا. (١)

ثانيًا: التعريف بإنجيل برنابا:

لقد أسهب مترجم إنجيل برنابا في الحديث عن تاريخ هذا الإنجيل ومدى صحة نسبته إلى مؤلفه، ومن خلال هذه المقدمة نستطيع استنتاج الآتي:

(أ) النسخة الإيطالية:

اتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الإنجيل، نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية، عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا، وذلك في سنة ١٧٠٩، وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار في سنة ١٧٣٨م إلى البلاط الملكي بفينا، وكانت تلك النسخة هي الأصل لكل نسخ هذا الإنجيل في اللغات التي ترجم إليها. (٢)

وغني عن البيان أن هذه النسخة الإيطالية مترجمة عن اللغة التي كتب بها في الأصل هذا الإنجيل، فإذا صح أن مؤلفه هو برنابا فإن من الراجح أن يكون قد كتبها بإحدى اللغات الثلاث التي كانت المؤلفات الدينية وغيرها تدون بها في عصره وفي بيئته وهي اللغات العبرية والآرامية واليونانية ولا يمكن أن يكون قد كتب في الأصل بالإيطالية لأنها لغة حديثة لم يتم تكونها وانشعابها عن أمها اللاتينية إلا حوالي القرن السادس عشر الميلادي. (٣)

(ب) النسخة الأسبانية:

ولكن في أوائل القرن الثامن عشر، أي في زمن مقارب لظهور النسخة الإيطالية وجدت نسخة أسبانية ترجمها المستشرق سايل إلى اللغة الإنجليزية، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها إلا شذرات أشار إليها الدكتور هوايت في إحدى الخطب. . . ، ولقد رجح المحققون أن النسخة الإيطالية هي الأصل للنسخة الأسبانية، وذلك أنها قد قدمت بمقدمة تذكر أن الذي كشف النقاب عن النسخة الإيطالية التي كانت أصلًا للنسخة الأسبانية هو

---

(١) محاضرات في النصرانية (ص ٦٧).

(٢) محاضرات في النصرانية لأبي زهرة (ص ٦٧).

(٣) انظر: دراسات في الكتاب المقدس (ص ١١٢).

راهب لاتيني اسمه (فرامينو) وهذه قصته: فيقول " إنه عثر على رسائل لأيريانوس وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس الرسول. ويسند تنديده إلى إنجيل برنابا، فدفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن إنجيل برنابا. وقد وصل إلى مبتغاه لما صار أحد المقربين إلى البابا سكنس الخامس، فإنه عثر على ذلك الإنجيل في مكتبة هذا البابا فأخفاه بين أردانه، وطالعه، فاعتنق الإسلام. ويظهر أن تلك النسخة هي نفس النسخة التي عثر عليها سنة ١٧٠٩م. [١]

ثالثًا: إلى أي حد تصح نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا؟

لقد ناقش الدكتور خليل سعادة هذا الأمر بالتفصيل في مقدمته لهذا الإنجيل وخلص إلى الآتي: "أن واضع هذا الإنجيل يهودي أندلسي تعمق في دراسة اليهودية، ثم تنصر وتعمق في دراسة النصرانية، ثم اعتنق دين الإسلام وتحمس له "[٢].

" ونحن نرى أن هذه الصورة يصعب أن توجد في الخيال فهيهات أن توجد في الواقع، وأي خيال يستطيع أن يصور يهوديًا متعمقًا في اليهودية يتنصر ويتعمق في النصرانية، ثم يسلم ويتعمق في الإسلام ويتحمس له تحمسًا يحمله على كتابة إنجيل ونسبته إلى واحد من الحواريين أو الرسل؟ إن هذا الرجل يحتاج أن يعمر عدة قرون كما يحتاج إلى وسائل غير عادية ليصل إلى هذه النتيجة، ثم لماذا لم ينتقل مثل هذا الرجل مباشرة من اليهودية للإسلام كما فعل كثير من يهود الأندلس؟ الحق أن هذا التفكير يبدو مستحيلًا ومضحكًا في نفس الوقت!!.

ونحن نسأل الدكتور سعادة: لماذا وضع هذا الرجل المسلم هذا الإنجيل؟ الطبيعي أنه وضعه ليحتج به المسلمون على المسيحيين في المناظرات التي كانت دائمة الوقوع بينهم، ولكن ما رأي الدكتور سعادة في أن أحدًا لم يحتج بهذا الإنجيل قط ولم يرد ذكره في تلك المناظرات الحامية كما كتب ذلك الدكتور سعادة نفسه[٣].

وكيف ينحدر إنجيل كاذب كهذا إلى مكتبة البابا، ثم إلى البرنس أيوجين، ثم إلى مكتبة

---

(١) أبو زهرة (ص ٦٨) وانظر: مقدمة إنجيل برنابا، تقديم خليل سعادة فقد شرح ذك بالتفصيل.

(٢) مقدمة الإنجيل (ص١٨).

(٣) وانظر أيضًا المحاضرات لأبي زهرة (ص ٧١).

البلاط الملكي بفينا؟ وأول من عثر عليها في خزانة كتبه رئيس ديني خطير، وكاشفها راهب وكل هذه أوساط مسيحية "[١]

" فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم، وهي منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الاسم سواه، له مثل مكانته الدينية.

ولقد كان وجود إنجيل له أمرًا معروفًا بين العلماء بهذا الدين، فهذا فرامينو يقول إنه اطلع على رسالة لأريانوس يستنكر ما كتب بولس مستشهدًا على استنكاره بإنجيل برنابا، ويذكر التاريخ أن هناك أناجيل كثيرة حرمت قراءتها الكنيسة". [٢]

رابعًا: سبب كتابة برنابا لإنجيله

وقد كتب برنابا إنجيله ليكشف ما صنعه بولس كما جاء في مقدمته " إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائمًا مجوزين كل لحم نجس، الذين ضل في عدادهم أيضًا بولس الذي لا أتكلم معه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته. . . " (برنابا: مقدمة/ ٢ - ٨).

خامسًا: أوجه الخلاف بين هذا الإنجيل والأناجيل الأخرى.

ذكر مترجمه أربعة أمور خالف فيها هذا الإنجيل الأناجيل الأربعة الأخرى:

الأول: أنه لم يعتبر المسيح ابن الله، ولم يعتبره إلها، وقد ذكر ذلك في مقدمته فقال: " أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشؤين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائما مجوزين كل لحم نجس الذين ضل في عدادهم أيضًا بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب

---

(١) المسيحية، أحمد شلبي (ص ٢٢١).

(٢) محاضرات لأبي زهرة (ص ٦٨ - ٦٩).

الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع. . . "(١)

الثاني: أن الذبيح الذي تقدم به إبراهيم الخليل ﷺ للفداء هو إسماعيل، وليس بإسحاق، كما هو مذكور في التوراة، وكما يعتقد المسيحيون، وهذا نص ما جاء في إنجيل برنابا على لسان المسيح ﷺ: " الحق أقول لكم إنكم إذا أمعنتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلمون حيث كتبنا وفقهائنا، لأن الملاك قال: يا إبراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله. حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله، أجاب إبراهيم: ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله: فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا: خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة". (٢)

فكيف يكون إسحاق البكر، وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟! ! !

الثالث: أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع، بل محمد، وقد ذكر محمدًا باللفظ الصريح المتكرر في فصول ضافية الذيول، وقال إنه رسول الله، وإن آدم لما طرد من الجنة رأى سطورًا كتبت فوق بابها بأحرف من نور " لا إله إلا الله محمد رسول الله "(٣)، ولقد قال المسيح كما جاء في إنجيل برنابا: إن الآيات التي يفعلها الله على يدي يظهر أني أتكلم بما يريد الله، ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه، لأني لست أهلًا لأحل رباطات، أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا الذي خلق قبلي، وسيأتي بعدي بكلام الحق لدينه نهاية ". (٤)

وقد أسهب الإنجيل في الحديث عن البشارات بمحمد خاصة في الفصلين ٤٣، ٤٤

(الرابع) أن إنجيل برنابا يبين أن المسيح ﷺ لم يصلب، ولكن شبه لهم، فألقى الله شبهه على يهوذا الإسخريوطي، ويقول في ذلك برنابا: " الحق أقول إن صوت يهوذا ووجهه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع، كذلك

---

(١) إنجيل برنابا (ص ٣٢).

(٢) الفصل الرابع والأربعون، فقرات ٥- ١١.

(٣) الفصل الحادي والأربعون، فقرات ٣٠ - ٣١.

(٤) الفصل الثاني والأربعون، فقرات ١٣ – ١٦.

خرج بعضهم من تعاليم يسوع، معتقدين أن يسوع كان نبيًا كاذبًا، إنما الآيات التي فعلها بصناعة السحر، لأن يسوع قال إنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم لأنه سيؤخذ في ذلك الوقت من العالم ". [(١)]

ثم يقول: " ووبخ كثيرين ممن اعتدوا أنه مات وقام قائلًا: أتحسبوني أنا والله كاذبون، لأن الله وهبني أن أعيش حتى قبيل انقضاء العالم. كما قد قلت لكم الحق أقول لكم أني لم أمت، بل يهوذا الخائن احذروا لأن الشيطان سيحاول أن يخدعكم ولكن كونوا شهودي في كل إسرائيل، وفي العالم كله. . . لكل الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها ". [(٢)]

سادسًا: موقف المسلمين من إنجيل برنابا

على الرغم من موافقة إنجيل برنابا لمعتقدات المسلمين في الجملة، فإن أحدًا من المسلمين لا يعتبره الإنجيل الذي أنزله الله على المسيح.

ولم يلجأ المسلمون إلى الاستشهاد بهذا الإنجيل إلا نادرًا، وكان استشهادهم به أقرب إلى الاستئناس منه إلى الاستدلال، فالمسلمون لا يرون في هذا الإنجيل إنجيل المسيح، لكنه أقرب إلى طبيعة دعوة المسيح وتلاميذه من سائر الأناجيل.

سابعًا: موقف النصارى من هذا الإنجيل

لم تعتبر الكنيسة أيًا من رسائل أو إنجيل برنابا ضمن الكتب المقدسة، وهنا نعجب كيف اعتبرت رسائل بولس ولوقا اللذين لم يريا المسيح؟ ولم تعتبر أقوال برنابا الذي سبقهم بالإيمان وبصحبة المسيح! !

وقد صدر عام ٣٦٦م أمر من البابا دماسس بعدم مطالعة إنجيل برنابا، ومثله مجلس الكنائس الغربية عام ٣٨٢م، كما صدر مثله عن البابا أنوسنت ٤٦٥م، كما وقد حرّم البابا جلاسيوس الأول عام ٤٩٢م مطالعة بعض الأناجيل، فكان منها إنجيل برنابا. [(٣)]

---

(١) الفصل السابع عشر بعد المئتين: الفقرات ١٥- ١٩

(٢) الفصل الحادي والعشرين بعد المئتين، فقرات ١٥ – ١٩.

(٣) انظر: الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، محمد عوض، صـ (٦٠ – ٦١)،

ثامنًا: مخالفة الإنجيل لمعتقدات المسلمين

ومما يدل على براءة المسلمين من هذا الإنجيل اختلافه في طريقة صياغته وأسلوبه عن طريقة العرب وأسلوبهم، فليس في المسلمين من يذكر الله ولا يثني عليه. أو يذكر الأنبياء ولا يصلي عليهم.

كما يخالف إنجيل برنابا المعتقدات الإسلامية في مسائل منها:

١- قوله بأن الجحيم للخطاة السبعة: المتكبر والحسود والطماع والزاني والكسلان والنَهِم والغضِب المستشيط. (انظر برنابا ١٣٥/ ٤ - ٤٤) وقد ترك ذنوبًا أكبر كالشرك والقتل، كما أن الكسِل والنهِم لا يستحقان النار.

٢- تسمية الله " العجيب " (برنابا ٢١٦/ ٣)، وهو ليس من أسماء الله الحسنى، وأسماء الله عند المسلمين توقيفية، لا يجوز لأحد أن يزيد عليها.

وكذا قوله عن الله: " إن الله روح " (برنابا ٨٢/ ٦) والأرواح عندنا مخلوقة، ويتحدث عن الله، فيصفه أنه " المبارَك " (برنابا ٧١/ ١٦)، ولا يمكن لمسلم أن يقول عن الله ذلك، إذ هو الذي يبارِك، ومن ذا الذي يبارك الله جل وعلا فتبارك الله أحسن الخالقين.

٣- ومما يرد أيضًا انتحال مسلم لإنجيل برنابا قوله: " أقول لكم إذًا: إن السماوات تسع " (برنابا ١٠٥/ ٣)، ولا يقول بهذا مسلم قرأ القرآن.

٤- وأيضًا يذكر برنابا تسميات للملائكة لم يقل بها المسلمون، وفي ذلك ذكر اسم رفائيل وأوريل في قوله: " أمر جبريل وميخائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم ... فجاء الملائكة الأطهار " (برنابا ٢١٥/ ٤-٥).

٥- ثم قد ورد اسم الرسول " محمد " خمس عشرة مرة في إنجيل برنابا، ولم يرد اسمه " أحمد " مرة واحدة، ولو كان الكاتب مسلمًا لعمد إلى كتابته - ولو مرة واحدة ليحقق التوافق الحرفي مع ما جاء في سورة الصف ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

الأناجيل، أحمد طاهر، ص (١٨٤ - ١٨٥).

٦- ثم لو كان كاتبه مسلمًا لكتب معجزة كلام المسيح في المهد التي ذكرها القرآن وأغفلتها الأناجيل، وغير ذلك من المسائل التي تثور في وجه من يقول بانتحال مسلم لهذا الإنجيل. (١)

٧- ذكره أن مريم العذراء وتلاميذ المسيح عليه السلام ركعوا أمام الملائكة المقربين، ولا يمكن أن يكتب هذا مسلم.

٨- أنه يبشر بدوام الصلاة، ويصفها كما وردت في العهد الجديد بأنها أدعية بدون تحديد لركوع، أو لسجود، وذلك يوضح أنه لم يعلم بشريعة النبي محمد ﷺ، وهذه الأمور معلومة من دين الإسلام بالضرورة.

٩- يصف الصيام بأنه غير محدود الأيام، وأنه من نجمة الصباح إلى نجمة المساء، بينما في الشريعة الإسلامية قد فرض الصوم شهرًا كاملًا يمتنع فيه المسلم عن شهوتي البطن والفرج من الفجر إلى المغرب.

١٠- ويأمر برنابا في إنجيله بقتل القاتل والسارق والزاني، أما في الشريعة الإسلامية فهي تنص صراحة على قتل القاتل عمدا وقطع يد السارق، ورجم الزاني المحصن، وجلد الزاني غير المحصن.

١١- يقول برنابا في إنجيله: " إن الله لم يرسل رسولًا للجن، وهذا يصدق قبل رسالة محمد ﷺ ولكنه لا يصدق بعدها لأنه ﷺ بعث إلى الثقلين الإنس والجن، قال تعالى: " وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (الأحقاف: ٢٩)".

١٢- يذكر إنجيل برنابا أن الذين يحرسون النار شياطين، بينما حراس النار في القرآن الكريم ملائكة، قال تعالى: " وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً " (المدثر/ ٣١) " وذلك يدل على أن كاتب هذا الإنجيل لم يطلع على القرآن الكريم ولم يكن متعمقا في إسلامه وإلا ما قال ذلك.

١٣- لم يذكر برنابا في إنجيله أن المسيح عليه السلام خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ولا أنه عليه السلام أخبرهم بما يخبئون في بيوتهم، ولو أن مسلما أراد أن يزور إنجيلا لبدأ بالأسس

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص ١١٦ – ١١٧).

التي أوضحها القرين عن عيسى عليه السلام.

١٤- جاء فيه أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم قبل أن ينفخ فيه الروح، والقرآن الكريم يصرح بأنهم أُمروا بالسجود له إلا بعد نفخ الروح فيه، قال تعالى: " فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(الحجر: ٢٩). [1]

تاسعًا: حال هذا الإنجيل كحال بقية الأناجيل

وحين يدفع المسلمون القول بأن إنجيل برنابا منحول، ليس لجزمهم بصحة نسبة الإنجيل إلى برنابا، بل لجزمهم بأن هذا الإنجيل لا يقل حاله بحال من الأحوال عن سائر أسفار العهد القديم والجديد.

ويوافق المسلمون النصارى في اعتراضهم على هذا الإنجيل، ودعواهم بأنه لم يصل بطريق موثق، وأنه لا يعلم أصله، لكن الحال الذي ينكرونه في إنجيل برنابا هو حال كل صحيفة من صحائف الكتاب المقدس.

بل إن لإنجيل برنابا مزية على سائر الأناجيل، فقد صرح فيه الكاتب أنه برنابا، ويقول عن نفسه في سائر صفحات الإنجيل: فقال لي برنابا، وقلت للمسيح. . . . ، بينما لا تجد مثله في سائر الأناجيل (انظر متى ٩/ ٩) و(يوحنا ٢١/ ٢٤).

وأما عن أخطاء الإنجيل التاريخية أو ذكره تسمية "جبل طابور" (برنابا ٤٢/ ٢٠) وهي تسمية غير معهودة أيام المسيح، فهذا لا يختلف أبدًا عن ذكر حبرون في عهد موسى، وقد سميت بعده (انظر التكوين ١٣/ ١٨).

ولعل هذه التسمية الجديدة - إن صحت جدتها - من عمل الناسخ وتدخله في النص.

ثم إن أسلوب الكاتب ومعلومات الإنجيل يؤكدان بأن الكاتب ضليع في علوم الكتاب المقدس، متصف بعمق واسع يليق ببرنابا داعية النصرانية في الجيل الأول، فليس بمستغرب أن يكون قد كتب إنجيلًا، ومنع قراءته دليل وجوده بل واشتهاره.

---

(١) التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة (١٩٥- ١٩٦).

وأما مخالفة الإنجيل للحقائق التاريخية فلكونه عملًا بشريًا، ولا حرج في ذلك، إذ أن النصارى ينسبون مثل هذه المخالفات إلى أسفار الوحي.

وقول برنابا: " الكذب فضيلة " لا يختلف كثيرًا عن قول بولس عن نفسه بأنه روماني كذبًا (انظر أعمال ٢٣/ ٢٥)، ثم قوله: " ٧فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صِدْقُ الله قَدِ ازْدَادَ بِكَذِبِي لِمَجْدِهِ، فَلِمَاذَا أُدَانُ أَنَا بَعْدُ كَخَاطِئٍ؟ " (رومية ٣/ ٧)، فصدور هذا الاعتراض من النصارى لا يقبل.

وأما التشابه بين أقوال الشاعر دانتي وإنجيل برنابا فهو لا يعني جزمًا بأن كاتب الإنجيل كان بعد دانتي، بل قد يكون دانتي هو المستفيد من برنابا، ثم إن التشابه لا يعني بالضرورة نقل اللاحق عن السابق دائمًا، وإلا لزم أن نقول بأن أسفار التوارة التشريعية منقولة عن قوانين حمورابي للتشابه الكبير بينهما.

وأخيرًا، فإنه لو كان كاتب الإنجيل في العصور الوسطى لما وقع بتلك الأخطاء في الإحالة إلى أسفار التوارة، ولكان أيضًا قد اهتم بالتنديد بالأناجيل الأخرى، ولكنه لم يصنع لسبب بسيط، وهو أنه كتب إنجيله قبل انتشار هذه الأناجيل.

ولو كان الإنجيل منحولًا لندد مؤلفه بالتثليث وكتب في إبطاله، لكنه لم يتحدث عنه، فدل ذلك على أن زمن الكتابة سابق على دعوى التثليث التي ظهرت في القرن الميلادي الرابع.

وهكذا نرى أن إنجيل برنابا لا يختلف من ناحية الإسناد كثيرًا عن الأناجيل الأربعة، لكنه الإنجيل الوحيد الذي صرح فيه كاتبه باسمه وبأنه شاهد لما يكتب، وأما متنه فكان أكثر اتساقًا من جميع الأناجيل، متميزًا بترابطه وجمال أسلوبه ومعرفته الكبيرة بالعهد القديم وأسفاره، وهو ما يليق حقًا بداعية النصرانية في الصدر الأول: برنابا.

وقد كانت مضامين هذا الإنجيل متفقة إلى حد بعيد مع ما يعهد في رسالات الله إلى أنبيائه، وحُقَّ لتولاند ١٧١٨م في كتابه " الناصري " أن يقول عند ظهور هذا الإنجيل: " أقول على النصرانية السلام ".

وكذا قوله: " إن مد النصرانية قد وقف من ذلك اليوم. . . إن المسيحية ستتلاشى

تدريجيًا حتى تنمحي من الوجود". [١]

المبحث الخامس: المجامع المسيحية وأثرها على العقيدة.

تمهيد:

مقصدنا من ذكر هذا الفصل هو: أن نبين الأدوار التي مرت عليها عقيدة التثليث، فإنه من المقرر في تاريخ المسيحية بالبداهة أن التثليث بالشكل الذي يعتقده جماهير المسيحيين، أو الكثرة الغلبة فيهم، لم يعلن للناس دفعة واحدة، بل في أزمان مختلفة، وكان بإعلان المجامع التي كانت تعقد من الأساقفة، وفيها يقرر المجمع رأيا معينا، ولا يهمنا منها إلا مايختص بالعقيدة. [٢]

أولًا: تعريف المجامع:

" هي هيئات شورية في المسيحية، قد رسم رسلهم نظامها في حياتهم، حيث عقدوا المجمع الأول في أورشليم عام ٥١ – ٥٢ م، أي بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة للنظر في مسألة الختان، . . ، فقد قالوا إن التلاميذ والمشايخ بهذا المجمع الذي بينه سفر الأعمال (إصحاح ١٥) قد سنوا للمسيحيين سنة جمع المجامع؛ لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشريعة. "[٣]

ابتداع المجامع:

وواضح من هذا التعريف بداية أن المسيح لم ينشئ لهم هذا النظام ولم يشر إليه ولم يدع إلى تأسيسه، وإنما الذي رسمه وشرعه الذين جاءوا بعد المسيح عليه السلام، وهذا يعني أن المسيحيين لم يستندوا إلى نص صحيح من قول أو فعل في تأسيس هذا النظام.

والحقيقة أن المسيح عليه السلام لم يدع إلى شريعة جديدة ولم يؤسس نظامًا جديدًا، بل سار على النسق الذي رسمه الله لموسى عليه السلام، وحكم بشريعته وناموسه، ولم يؤمر المسيح عليه السلام أن يغير شيئًا من شريعة موسى ومنهاجه – إلا ما أشار إليه القرآن الكريم – وهذا

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (١١٧ – ١١٨)، وانظر: معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير، إبراهيم الجبهان، (ص ٦٢ – ٦٣).

(٢) محاضرات في النصرانية (١٣٦).

(٣) لجنة التاريخ القبطي: تاريخ الأمة القبطية (٢/ ١١٢).

يعني أن شريعة موسى هي التي كان على أصحاب المسيح وتابعيه إتباعها والعمل بها، ولكن هذا لم يحدث، وبدأ التغيير مبكرًا بسبب هذه المجامع.

المجامع حيلة لفرض عقائد وشرائع جديدة:

حينما أراد المسيحيون الجدد بعد المسيح ﷺ – وعلى رأسهم بولس – أن يغيروا نظام الديانة ويلغوا التعامل بشريعة اليهود، أقاموا مجمع أورشليم المشار إليه سابقا؛ ليحكم لهم بما أرادوا وليعطوا حكمه صفة القداسة ولتأخذ المجامع الصفة التشريعية بدلا من التوراة، ولتشرع لهم ما أرادوا وما رأوه ملائمًا لهم ولأهوائهم، وهذا يعني أن المجامع أنشئت لتشرع وتبدل وتنظم ما تراه. (١)

مهمة مجمع أورشليم:

وكانت مهمة هذا المجمع الأول هو مناقشة قضية من قضايا التشريع – وهي قبول غير اليهود في الديانة النصرانية، وهل عليهم أن يلتزموا بشريعة اليهود؟

مهمة المجامع الأخرى:

أما المجامع الأخرى التي ابتدعها قسطنطين وأعطاها الصفة المقدسة فقد كانت مناقشاتها تدور حول صيغة الإيمان وحقيقته، والقانون الإيماني الذي يجب على المسيحي اتباعه واعتقاده، هذا إلى جانب تقريرها للنظم الكنسية التي انتهجها القوم.

ثانيًا: أنواعها:

المجامع عند النصارى قسمان:

١- مجامع عامة (مسكونية)(٢).

وهي التي يجتمع فيها رجال الكنائس المسيحية في كل أقطار العالم.

٢- مجامع مكانية:

وهي – كما يعرفها المسيحيون – التي كانت ولا تزال الكنائس تعقدها في دوائرها الخاصة من أساقفتها وقسوسها إما لإقرار أو لرفض عقائد عامة، أو للنظر في بعض

---

(١) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، أحمد علي عجيبة (٢٦١ – ٢٦٢).

(٢) تقول ايريس حبيب المصري: إن مسكوني نسبة إلى مسكونة أي العالم (قصة الكنيسة القبطية ١/ ١٦٧).

الشئون المحلية الخالصة(١). أي أنها لا تقرر عقائد جديدة.

ونحن في هذا البحث، لن نتعرض - إن شاء الله - إلا للمجامع المسكونية؛ لأنها هي التي قررت العقائد المسيحية من وقتها وإلى الآن، وهي التي رسمت المسوح والتقاليد الكنسية القائمة في الكنائس.

ثالثا: عددها:

لقد أحصاها صاحب كتاب " سوسنة سليمان " منذ القرون الأولى للمسيحية إلى سنة ١٨٦٩، فكانت عدتها عشرين مجمعا. (٢)

سبب انعقاد المجامع المسكونية:

والسبب الأساسي لانعقادها - كما يرى المسيحيون - هو ظهور آراء دينية غريبة رئي من الضروري فحصها في هذه المجامع، وإصدار قرارات في شأنها وشأن مبتدعيها. (٣)

شروط المجمع المسكوني:

ذكر لنا - كيرلس الأنطوني - شروط المجمع المسكوني فقال: ينبغي أن تتوافر في المجامع العامة أو المسكونية بضعة شروط نوجزها فيما يلي:

١- أن تنعقد بسبب دعوى أو انشقاق.

٢- أن تنعقد بسبب دعوة من الإمبراطور.

٣- أن يحضرها غالبية أساقفة الكنيسة شرقًا وغربًا لتمثل فيها المسكونة.

٤- أن تقرر شيئا لم يكن مقررا من قبل. (٤)

وفي ضوء هذه الشروط يتبين لنا أن المجامع المسكونية أعطيت لها سلطة تقرير ما لم يكن مقررا من قبل، وذلك في الأمور الدينية والعقدية، وكان يساند هذه القرارات الأباطرة الذين

---

(١) لجنة التاريخ القبطي: تاريخ الأمة القبطية (٢/ ١١٢).

(٢) محاضرات في النصرانية (١٣٧).

(٣) لجنة التاريخ القبطي: تاريخ الأمة القبطي (٢/ ١١٢).

(٤) عصر المجامع، القمص كيرلس الأنطوني (٢١).

كانوا يدعون إليها – وهو شرط من شروط المجمع المسكوني – ويرأسون جلساتها، ويصدقون على قراراتها، ويعملون على تنفيذها، وهذا يعني أن هذه المجامع قد خضعت لأهواء السلطات الحاكمة يدعون ويقررون ما يرونه في صالحهم وصالح سياستهم. (١)

وليس هدفنا في هذا الفصل تعداد المجامع المسكونية بالتفصيل، وإنما المقصود بيان أثر هذه المجامع في المسيحية، لذلك سنكتفي بذكر أهم هذه المجامع وخاصة المجامع الأولى منها؛ وذلك لأنها المختصة بتقرير القواعد والقرارات الدينية العامة التي ينبغي أن تلتزم بها كل الطوائف والكنائس.

أهم المجامع المسكونية:

١ـ المجمع المسكوني الأول: مجمع نيقية ٣٢٥ م

أولًا: سبب انعقاده:

له سببان: عام وخاص

أما العام فهو: الاختلاف الشديد الذي وقع بين الطوائف المسيحية الأولى حول شخص المسيح وهويته.

والمشكلة من أساسها هي أن النصارى في القرون الثلاثة الأولى قد تعرضوا لألوان شتى من الاضطهاد والتعذيب، واستمر هذا الاضطهاد حتى عصر قسطنطين الذي منح النصارى الحرية والاطمئنان، لكنهم في الحقيقة لم ينعموا بالراحة والسعادة، ذلك أنهم حين استراحوا من نير الاضطهاد وشعروا بالاطمئنان جهر كل واحد بمسيحيته وباعتقاده في المسيح، وعندئذ فوجئوا بما هو أشد عليهم مما كانوا فيه، فلقد وجد النصارى أن بينهم من الخلاف ما لا يمكن وجوده في دين واحد.

يقول ول ديورانت: " إن أتباع المسيح قد انقسموا في الثلاثة قرون الأولى من ظهوره إلى مائة عقيدة وعقيدة ". (٢)

---

(١) تكوين أوروبا، كرستوفر دوس (٤٥)، تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٢٦٥)

(٢) قصة الحضارة (مج ٣ ج ٣ ص ٢٩١).

أما السبب الخاص فكان ما يسمى في تاريخهم (ببدعة آريوس)(١).

كان آريوس في مصر داعية قوي الدعاية، جريئًا فيها، واسع الحيلة، بالغ الأرب، قد أخذ على نفسه مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما تبثه بين المسيحيين من ألوهية المسيح وتدعوا إليه، فقام هو محاربا ذلك مقرًا بوحدانية المعبود، منكرا ما جاء في الأناجيل مما يوهم تلك الأوهية، وقد قال في بيان مقالته ابن البطريق: " كان يقول إن الآب وحده الله والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الآب إذ لم يكن الابن ". (٢)

وقد اتسع الخلاف بين آريوس وبين بطريرك الإسكندرية في وقته، وقد تدخل قسطنطين إمبراطور الرومان في الأمر، فأرسل كتابا إلى آريوس والإسكندر يدعوهما إلى الوفاق، ثم جمع بينهما، ولكنهما لم يتفقا، فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م.

يقول ابن البطريق في وصف المجتمعين: " بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطاركة والأساقفة، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية، ويسمون الريميتين، ومنهم من كان يقول إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة من نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، وهي مقالة سابليوس وشيعته، ومنهم من كان يقول لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة البيان وأشياعه " إلى آخر الأقوال المختلفة التي ذكرها ابن البطريق. (٣)

قال يعقوب نخلة " كل فئة تلعن الأخرى وتحرمها، وتزيف معتقدها ومذهبها.

---

(١) انظر تفصيلًا أكثر عن آريوس وحياته وتفصيل عقيدته، كتاب " تأثر المسيحية بالأديان الوضعية "، أحمد علي عجيبة (٢٦٨ - ٢٧٢).

(٢) محاضرات في النصرانية (١٤٠).

(٣) التاريخ المجموع على التحقيق (١/ ١٢٦).

كل يؤيد دينه يا. . . . . . . ليت شعري ما الصحيح ". [١]

تدخل قسطنطين:

ولما اجتمع هؤلاء المختلفين، وبدأ المجمع وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثليها، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع، فأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من، وأخلى دارا للمناظرة، ولكنه جنح أخيرا إلى رأي بولس، وعقد مجلسًا خاصًا للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأي وكان عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة.

ويصف ذلك الاجتماع ابن البطريق فيقول: " ووضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفًا مجلسًا خاصًا عظيمًا، وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي، لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية، وذب عنه، ووضعوا له أربعين كتابًا فيها السنن والشرائع، منها ما يصلح للملك أن يعمله ويعمل به، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به "[٢].

نتائج هذا المجمع:

(١) وضع قانون الإيمان:

لقد قام هؤلاء الثلاثمائة والثمانية عشر بوضع قانون الإيمان، أو ما يسمى " الأمانة "

وهاك نص هذا القانون " نؤمن بإله واحد ضابط الكل، ما يرى وما لا يرى، ونؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل الدهور، نور من نور إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر الذي هب كل شيء، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطي، وتألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماوات وجلس عن يمين أبيه وأيضًا يأتي

(١) تاريخ الأمة القبطية، يعقوب نخلة (٢٧).

(٢) التاريخ المجموع على التحقيق (١/ ١٢٧).

ليدين الأحياء والأموات الذي ليس لملكه انقضاء ". [١]

(٢) أما بالنسبة لآريوس الذي انعقد المجمع من أجله فقد أصدر المجمع قرارين بشأنه:

أ- أقر المجمع بحرم آريوس وتجريم بدعته ونفيه.

ب- حرق كتب آريوس ومنعها عن الناس، وقرر عقوبة الخيانة العظمى على كل من توجد معه تلك الكتابات. [٢]

(٣) قرر المجمع أيضًا حرمان كل من يقول بآراء آريوس، أو يخرج في آرائه وعقائده عن آراء هذا المجمع. [٣]

(٤) تم الفصل في هذا المجمع في بعض مشاكل المسيحيين، ووضع عشرين قانونا تتضمن بعض النظم الكنسية والأحكام الخاصة برجال الإكليروس. [٤]

تعقيب على هذا المجمع:

١-أول ما يلاحظ على هذا المجمع أن العدد الذي قرر ألوهية المسيح كان ثمانية عشر وثلاثمائة أسقف، فما هي آراء الباقين؟ ولماذا أهملت كل هذا الإهمال؟. . . ، ولماذا يؤخذ برأي هؤلاء مع أن العدد الأكبر كان مع آريوس.

ويظهر أن عصا السلطان ورهبة الملك كان لهما دخل في تكوين رأي الذين رأوا ألوهية المسيح.

٢- أن المجمع فرض نفسه حكومة وجماعة كهنوتية تلقي على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين، وقرر أن تعاليم الدين لا يتلقونها من كتب المسيحية رأسا، بل لابد من تلقيها من أفواه العلماء ورجال الكهنوت.

٣- أن المجمع أمر بتحريق الكتب التي تخالف رأيه، وتتبعها في كل مكان، وحث الناس على تحريم قراءتها، فهو بهذا يمنع أن يصل إلى الناس علم بأي أمر من الأمور التي تخالف رأيه، وهو بهذا يحاول التحكم في القلوب، والسيطرة على النفوس بحملها على قراءة ما وافق رأيه، ومنعها منعا باتا أن تقرأ غيره، ويسد عليها منافذ النور والاهتداء إلى

---

(١) تاريخ الفكر المسيحي (١/ ٦٣١)، عصر المجامع (٦٤ – ٦٥).

(٢) تاريخ الأقباط (١/ ١٥٧ – ١٥٨)، فجر المسيحية (١٥١).

(٣) تاريخ الفكر المسيحي ما بين الإسكندرية وروما وبيزنطة، الأنبا غريغوريوس (٨).

(٤) مجموعة الشرع الكنسي (٤١).

ما يخالفه، ولعل المجمع مخطئ في ذلك التحريم، وآثم في ذلك التحريق بل إن المجامع العامة من بعده قد خطأته، فأعادت إلى حظيرة التقديس كتبا حرمها، وأخرجت من البل ى كتبا حرقها، قد حرم كتبا من العهد القديم، ولم يعترف بها فاعترفت بها المجامع المسيحية من بعده، وحرم مكن كتب النصارى المعتبرة الآن: رسالة بولس إلى العبرانيين، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا ورسالة يعقوب ورسالة يهوذا، ومشاهدات يوحنا، ولكن المجامع من بعده أقرته، وأجمعت عليها. (١)

وهذا في حد ذاته دليل على التحريف، إذ لو كان المجمع معصوما لما أضيف إليه، ولما خطئ في بعض القرارات. (٢)

بقاء فكرة الوحدانية:

ومع أن المجمع قد عقد وتم فيه ما تم إلا أن فكرة الوحدانية لم تمت ولم يقض عليها تماما، والدليل على ذلك أن ابن البطريق يذكر أن " أوسابيوس " أسقف نيقومدية كان موحدًا ومن أنصار آريوس في المجمع العام، إلا أنه دخل مع الذين قالوا بألوهية المسيح حتى يتقرب إلى السلطان ويستطيع أن يقنعه بالتوحيد.

ولما انعقد الاجتماع الإقليمي في صور وحضره هو وبطريرك الإسكندرية، انتهز أوسابيوس هذه الفرصة وأثار مرة أخرى مقولة آريوس، وكان في هذا المجمع كثير من الموحدين المتمسكين به، واشتد النقاش القولي بينهم إلى أن تطور إلى الضرب بالأيدي.

ونستنتج من ذلك أن فكرة ألوهية المسيح هي العارضة، والأصل هو التوحيد وأيضًا كان قسطنطين يشجع دائمًا المخالفين للتوحيد، وإن كان لا يظهر السخط على غيرهم أحيانًا، وأيضًا اتضح لنا أن مجمع صور كان يخالف كل المخالفة ما تقرر في مجمع نيقية، وأن موطن الدعاية لألوهية المسيح كان كنيسة الإسكندرية وحدها، فهي التي حاربت

---

(١) محاضرات في النصرانية (١٤٤ – ١٤٥).

(٢) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٢٧٥ - ٢٧٧).

آريوس، وهي التي لعنته مرتين.[1]

المجمع المسكوني الثاني: مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م

يعتبر هذا المجمع هو المجمع المسكوني الثاني، ولقد عقد في القسطنطينية وذلك بأمر من الإمبارطور ثيودسيوس (٣٧٩ – ٣٩٥ م) في عام ٣٨١م.

ولقد كان هذا المجمع في أول الأمر مجمعا محليا ثم تحول إلى مجمع مسكوني بعد موافقة بابا روما على ما قرر فيه، ولقد ترددت الكنيسة أعواما طويلة قبل أن تمنحه صفة المجمع المسكوني.[2]

سبب انعقاد هذا المجمع:

في الفترة التي خلا فيها عرش القسطنطينية من وجود إمبراطور وهي الشهور الواقعة بين مقتل فالنز (إمبراطور الشرق ٣٦٤ – ٣٧٨ م) وإعلان ثيودوسيوس إمبراطورًا – وهي الفترة الواقعة بين شهرى أغسطس ٣٧٨ م، يناير ٣٧٩ م وامتدادها حتى دخل الإمبراطور الجديد إلى عاصمته في نوفمبر سنة ٣٨٠م – ماجت القسطنطينية بشتى الفكر والاتجاهات.

وهذه الفترة هي التي يعبر عنها الاهوتي القديس جريجوري أسقف نيسا (٣٤٠ – ٤٠٠ م) وهو يصف حال القسطنطينية وأهلها فيقول: " لقد امتلأ كل شيء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق والأزقة، فإذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمنًا لشيء فلسفوا لي الإجابة حول المولود والمخلوق، وإذا ما رغبت في الوقوف على ثمن الخبز أجابني بأن الآب أعظم من الابن، وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامي قد أعد جاءتني الإجابة تقول إن الابن خلق من العدم. . . ".[3]

وأيضًا قد بين الناس بعض العقائد أهمها: مقالة ماكدونيوس وكان أسقفًا للقسطنطينية، وقد عزل بسبب مقولته في الروح القدس أنه مخلوق كسائر المخلوقات؛ أي ليس بإله، وتبعه الكثير على ذلك.

---

(١) محاضرات في النصرانية (١٤٧ – ١٤٨) بتصرف.

(٢) فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية (٢/ ٢٨٩).

(٣) الدولة والكنيسة (٤/ ٥٧ – ٥٨).

ولقد انزعج بعض القواد والوزراء من هذه المقولة، وذهبوا إلى الإمبراطور "ثيودوسيوس" وشكوا إليه هذا الأمر وما حصل بين الناس من اختلاف وطلبوا من الإمبراطور أن يعقد مجمعًا مسكونيًا للبت في هذا الأمر ن فاستجاب الإمبراطور لطلبهم في هذا الأمر وكتب إلى البطاركة والأساقفة يدعوهم للاجتماع، وأمر بانعقاد مجمع في القسطنطينية يرد هذا الإشكال ويدحضه ويدعو الناس إلى عقيدة نيقية. (١)

اجتماع الأساقفة:

وقد حضر إلى القسطنطينية مائة وخمسون أسقفًا " وكانوا من أساقفة الكنائس الشرقية وكان منهم تيموثاوس بابا الإسكندرية، ونكتاريوس بطريرك القسطنطينية، وملاتيوس أسقف إنطاكية، وكيرلس أسقف أورشليم، ولم يحضر أحد من الكنيسة الغربية.

أهم قرارات هذا المجمع:

١- لعن أصحاب البدع المخالفة لقانون الإيمان الذي قرره مجمع نيقية، وحرمهم من الكنيسة وتحريم تعاليمهم.

٢- إن الروح القدس خالق غير مخلوق، إله حق من طبيعة الآب والابن جوهر واحد وطبيعة واحدة.

٣- زاد هذا المجمع في الأمانة - التي وضعت في مجمع نيقية - صيغة (نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجد).

٤- ثبتوا أن الآب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه وثلاث خواص وحدية في تثليث، وتثليث في وحدية، كيان واحد في ثلاثة أقانيم إله واحد جوهر واحد طبيعة واحدة. (٢)

وبعد ذلك قام المجمع بإرسال رسالة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس ضمنها القرارات والقوانين التي اتفق عليها المجمع، وطلبوا من الإمبراطور أن يؤكد القرارات التي أخذوها،

---

(١) المجامع المسيحية، محمد الشتيوي (١٩٩).

(٢) التاريخ المجموع على التحقيق، ابن البطريق (١/ ١٤٥ - ١٤٦).

واستجاب الإمبراطور لمطالبهم فأصدر أوامره في الثلاثين من يوليو سنة ٣٨١م بأن كل الكنائس تخضع لقرارات هذا المجمع، ومن لا يدخل في شركة هؤلاء وجب طرده من الكنيسة. (١)

وبذلك تقرر التثليث على يد الأباطرة والسلاطين الذين كانوا يؤكدون على قرارات المجامع ولا يزال الأمر مستمرًا. (٢)

المجمع الثالث: مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م

سبب انعقاده:

لقد هذا المجمع بسبب آراء نسطور حيث نادى نسطور بقوله " إن مريم لم تكن والدة الإله، بل ما يولد من الجسد ليس إلا جسدًا، وما يولد من الروح هو روح، إن الخليقة لم تلد الخالق بل ولدت إنسانا هو آلة للاهوت "(٣)

ومعنى هذا أن مذهبه يتلخص فيما يلي:

أن المسيح له طبيعتان: إحداهما بشرية والأخرى لاهوتية، والطبيعة البشرية ولدت من مريم لذلك تسمى (والدة المسيح الإنسان) أما اتصال الطبيعة البشرية باللاهوتية فذلك لم يكن عن طريق الاتحاد والامتزاج بينهما، بل عن طريق المصاحبة. . "(٤)

وطبعًا أغضبت هذه التعاليم المسيحيين؛ لنهم فهموا منها أن نسطور بقوله بإنكار الاتحاد بين الطبيعة البشرية واللاهوتية إنما هو يهدر بذلك ألوهية المسيح.

وتم إرسال رسائل إلى الإمبراطور ليعقد مجمعا للرد على هذه الآراء، وبالطبع وافق وانعقد المجمع وعدده من نحو مائتين من الأساقفة، وقرروا ما نصه: " أن مريم العذراء والدة الإله، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين، متوحد في الأقنوم، ولقد لعنوا نسطور. (٥)

زيادة حدة الاختلاف بين المسيحيين نتيجة لهذا المجمع:

---

(١) الدولة والكنيسة، رأفت عبد الحميد (٤/ ٧٧ – ٧٨).

(٢) محاضرات في النصرانية (١٥١: ١٥٣)، تأثر المسيحية بالأديان الوضعية(٢٨٠ – ٢٨٣)

(٣) تاريخ الأقباط (١/ ١٥٩).

(٤) تاريخ الأدب السرياني، مراد كامل (٩٤).

(٥) التاريخ المجموع على التحقيق (١/ ١٥٧).

لم يستطع أفسس أن يضع حدًا لتلك الاختلافات والمنازعات القائمة بين المسيحيين، بل بالعكس زاد من حدتها، وسبب ذلك أن المجمع عقد قبل وصول يوحنا أسقف غنطاكية، وقبل وصول مندوبي بابا روما، مما أدى إلى حدوث شقاق بين هذه الكنائس واستمر إلى الآن، وبذلك يتبين لنا أن مجمع أفسس لم يكن شاملا لكل أطراف النزاع.

وفي هذا المجمع أيضًا أثبتت كنيسة الإسكندرية أنها رائدة الفكر التثليثي وهي المدافعة عنه والواقفة لكل من يخالفه بالمرصاد. (١)

المجمع الرابع: مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م

سبب انعقاده:

لم يحسم المجمع السابق الخلاف في مسألة اجتماع العنصر الإنساني والعنصر الإلهي في المسيح، فلم يقض على نحلة نسطورس قضاء مبرمًا، وإن كان قد نفاه وآذاه، بل نمت نحلته بعد ذلك في المشرق وذاعت في البلاد، ولم يقف الخلاف في ذلك عند نسطور وأتباعه، بل إن كنيسة الإسكندرية قد خرجت هي الأخرى برأي جديد عرضته على الملأ من الأساقفة وجمعوا له مجمعا قرروه فيه، وذلك الرأي أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها الاهوت بالناسوت.

وانعقد لأجل هذا مجمع أفسس الثاني الذي تسميه الكنيسة الكاثوليكية " مجمع اللصوص". (٢)

مجمع أفسس الثاني في أغسطس سنة ٤٤٩م:

واجتمع في أفسس ما يقرب من مائة وخمسة وثلاثين أسقفا. . وبدأ المجمع أعماله برئاسة (ديسقورس) بطريرك الإسكندرية، " وأكد هذا المجمع على القول بالطبيعة الواحدة بعد التجسد، لذلك جاء في قراراته: كل من يقول بطبيعتين بعد التجسد فليكن محرومًا "(٣)

وهكذا تم في هذا المجمع لعن وحرمان كل من يقول بالطبيعتن بعد التجسد، وكان

---

(١) انظر: تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٢٨٩).

(٢) محاضرات في النصرانية (١٥٦).

(٣) تاريخ الكنيسة القبطية (٢٢٩).

من الذين شملهم قرار الحرمان واللعن بطريرك القسطنطينية.

وظهر لنا واضحًا مدى حرص كنيسة الإسكندرية على تأكيد ألوهية المسيح فلقد عمل بطريرك الإسكندرية " ديسقورس " على التأكيد على ألوهية المسيح بأن ركز على القول بالطبيعة الواحدة، وهذا المجمع لا تعترف به الكنيسة اليونانية ولا كنيسة روما. (١)

مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م:

ولم يحسم مجمع أفسس الثاني الخلاف بين المسيحيين بل زاده اشتعالًا، فالعقيدة التي ناقشها والتي كانت محل النزاع- وهي طبيعة المسيح – هي السبب في انفصال الكنيسة القبطية المصرية عن الكنيسة الغربية إلى الآن.

سبب انعقاد هذا المجمع:

لقد شن بابا روما الحرب ضد مجمع أفسس الثاني وقراراته، وكان يأمل في انعقاد مجمع يلغي به قرارات هذا المجمع، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك في عهد الإمبراطور " ثيودسيوس الثاني "، وبعد موت هذا الإمبراطور عام ٤٥٠م خلفه على العرش الإمبراطور " مرقيان " الذي كانت زوجته " بولكيرا " تميل إلى القول بالطبيعتين. فانتهز بابا روما(ليون الكبير) الفرصة، وكتب إلى الإمبراطور يطلب منه الدعوة بعقد مجمع مسكوني، واستجاب له الإمبراطور، ودعا إلى عقد مجمع مسكوني يأمل منه تقرير إيمان واحد في كل أنحاء الإمبراطورية. (٢)

وعقد المجمع في خلقيدونية سنة ٤٥١م، وقد اشترك في أعماله ستمائة وثلاثون أسقفًا بينهم نواب روما، وبطريرك الإسكندرية "ديسقورس "، وبطريرك القسطنطينية وغيرهم كثير.

ولقد حدث في أولى جلساته اختلاف كبير بين المسيحيين، أدى إلى الصخب والضجيج والمنازعات مما حدا بمندوبي الحكومة أن يصيحوا فيهم قائلين بلسان أحدهم " إنه لا يجدر بالأساقفة وأئمة الدين أن يأتوا بمثل هذه العمال الشائنة من صياح وصراخ

(١) لجنة التاريخ القبطي: تاريخ الأمة القبطية (٢/ ١١٧).

(٢) تاريخ الفكر المسيحي ما بين الإسكندرية و وروما (٣٣).

وسب وقذف وضرب ولكم، بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب في الهدوء وتسيير الأمور على محور الحكمة والسداد، ولذلك نرجوكم أن تستعملوا البرهان بدل المهاترة، والدليل عوضا عن القول الهراء. "[١]

نتائج المجمع:

١- وانتهى المجمع في قراراته إلى القول بالطبيعتين في المسيح، وهاتان الطبيعتان تؤلفان أقنومًا واحدًا وشخصًا واحدًا، ومريم على ذلك والدة الإله بحسب الناسوت.

٢- وقرر المجمع أيضًا حرمان ولعن كل من: نسطور، وديسقورس، ومن يقول بقولهما، ولعنوا وأبطلوا قرارات مجمع أفسس الثاني سنة ٤٤٩ م، ونفي ديسقورس إلى فلسطين[٢].

آثار هذا المجمع على المسيحية:

ولما علم المسيحيون المصريون بما حصل في هذا المجمع قرروا مقاطعة هذا المجمع وعدم الاعتراف بقراراته، وقاطعوا الكنائس التي وافقت على هذا المجمع، فهذا المجمع لا تعترف به الكنيسة المصرية[٣]، ولذلك يحدد عام ٤٥١ م بأنه عام انفصال الكنيسة المصرية عن الكنائس الأخرى.

وبعد هذا نبذ المصريون كل ما هو يوناني ولا تيني، وانطوت الكنيسة المصرية على نفسها واستخدمت اللغة الوطنية وهي اللغة القبطية في قداستها علامة على سخطها، وتسمت بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وتبنت القول بالطبيعة الواحدة في المسيح من طبيعتين. [٤]

وهكذا نرى أن هذا المجمع تسبب في الانشقاق المزمن بين المسيحيين، فهو أساس اختلاف الكنائس إلى اليوم، وهو أساس انفصال الكنيسة المصرية عن الكنائس الأخرى ولا زال هذا الانفصال ساريًا. [٥]

مجامع أخرى

---

(١) محاضرات في النصرانية (١٥٧).

(٢) التاريخ المجموع على التحقيق (١/ ١٨٢).

(٣) لجنة التاريخ القبطي: تاريخ الأمة القبطية (٢/ ١١٨).

(٤) الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، إسحاق عبيد (٩١).

(٥) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٢٩٧)، محاضرات في النصرانية (١٦٠).

وبعد المجامع الأربعة السابقة عقدت ثلاث مجامع أخرى مسكونية إلا أنه لم تمثل فيها الكنيسة الأرثوذكسية وهي:

المجمع الخامس: الذي عقد في القسطنطينية سنة ٥٥٣م للرد على القائلين يتناسخ الأرواح وأنه ليس هناك قيامة. (١)

والمجمع السادس: الذي عقد بالقسطنطينية أيضًا سنة ٦٨٠م وحكم بالكفر على القائلين بالمشيئة الواحدة ولعنهم وطردهم من الكنيسة. (٢)

والمجمع السابع: الذي عقد أولا بالقسطنطينية سنة ٨٨٦م وأتم جلساته في نيقية سنة ٧٨٧م لمناقشة عبادة الصور والأيقونات. (٣)

وبعد ذلك في المجمع الثامن انفصلت الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية بسبب الاعتقاد في انبثاق الروح القدس من الآب فقط، بينما اعتقدت الكنيسة الغربية بانبثاق الروح القدس من الآب والابن معًا. (٤)

والخلاصة:

أن المجامع الأربعة الأولى حددت قوانين الإيمان المسيحي:

فالمجمع الأول: قرر ألوهية المسيح.

والمجمع الثاني: قرر ألوهية الروح القدس.

والمجمع الثالث: حدد كيفية التجسد، حيث قرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله لا الإنسان فقط، وأن مريم والدة الإله.

والمجمع الرابع: في نظر المصريين قرر أن المسيح ذو طبيعة واحدة من طبيعتين أما المجمع المسكوني الرابع في نظر الكنائس الأخرى فقد قرر أن المسيح ذو طبيعتين

---

(١) التاريخ المجموع على التحقيق (١/ ٢٠٥).

(٢) راجع: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية (٢/ ٢٧٦).

(٣) الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية (٩٤).

(٤) راجع: روما وبيزنطة، إسحاق عبيد (١٢ – ١٨).

منفصلتين لا طبيعة واحدة وهذه هي أهم العقائد المسيحية. (١)

أثر المجامع في المسيحية

أولًا: أن هذه المجامع لم يؤسسها المسيح ولم يدع إليها ولم يأمر بها، ولم يشر إليها لا بالتلميح ولا بالتصريح، وإنما ابتدعت بعده، وذلك من أجل أن تحكم وتشرع وتقرر شرائع وعقائد ما انزل الله بعها من سلطان على رسوله عيسى بن مريم، لذلك كان أول مجمع ابتدع وكان لبولس يد في اجتماعه وفي القرارات التي توصل إليها - كانت قراراته مخالف للشريعة التي جاء بها المسيح ﷺ، ذلك أنه نقض شريعة موسى ﷺ، تلك التي صرح المسيح أنه ما جاء ناقضا لها بل مكملا، وكذلك المجمع المسكوني الأول نجد أيضًا أن الذي ابتدعه قسطنطين الوثني، الذي لم يعمد إلا على فراش الموت.

ثانيًا: إن رسل الله عليهم الصلاة والسلام يأتون الناس بعقائد وشرائع واضحة سهلة، يبلغونها للناس ويوضحونها لهم، ولا يتركون أصول العقائد لشطط العقول، ولا لاختلاف الناس حولها، كل واحد منهم يدلي بدلوه فيها ويشرح رأيه حولها.

ثالثًا: أن المجامع فرضت سيطرتها على عقول المسيحيين حين قررت أن التعاليم المسيحية من عقائد وشرائع ونظم وعبادات لا يتلقاها الناس من الكتب المسيحية بل لا بد من تلقيها من المجامع المؤلفة من الأساقفة بتدبير ودعوة الأباطرة.

رابعًا: أن المجامع المسيحية نسبت إلى نفسها العصمة من الوقوع في الخطأ متعللين بأن الروح القدس يحل عليهم في اجتماعاتهم. (٢)

ومع ذلك فقد أخطأت المجامع، وإليك عدة أمثلة:

١- إن مجمع نيقية وضع قانونا للإيمان، ولكن المجامع التي تلته رأت أن هذا القانون ناقصا فأضافت إليه ما ليس منه، وهذا يعني أنه لو كان معصومًا من الخطأ لوضع قانون الإيمان كاملًا بلا نقصان.

---

(١) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٢٩٨).

(٢) انظر: مجموعة الشرح الكنسي (١٠).

٢- لا تعترف المذاهب والطوائف المسيحية بكل المجامع المسكونية كما هو الحال بالنسبة لمجمع خلقيدونية.

خامسًا: أن هذه المجامع هي التي قررت العقائد والشرائع والعبادات، وكل ما يعتقده المسيحيون الآن.

قال ابن تيمية:

" فالنصارى تضع لهم عقائدهم وشعائرهم أكابرهم بعد المسيح، كما وضع لهم الثلاثمائة والثمانية عشر الذين كانوا في مجمع نيقية الأمانة التي اتفقوا عليها، ولعنوا من خالفها من الآريوسيين وغيرهم، وفيها أمور لم ينزل الله تعالى بها كتابا، بل تخالف ما أنزل الله من الكتب مع مخالفتها العقل الصريح. "(١)

سادسًا: أن العقائد التي قررتها المجامع لم تعلن للناس دفعة واحدة، بل قررت في مجامع مختلفة وأزمنة مختلفة، . . ، وهذا يدل على أمرين:

الأمر الأول: أن أصول الديانة كانت ناقصة، وكان كل مجمع يكمل فيها شيئا، وهذا يدل على وضعية هذه الديانة.

الأمر الثاني: بشرية العقول التي وضعت والتي من شأنها عدم العصمة من الخطأ.

سابعًا: أن هذه المجامع هي التي قضت على عقيدة التوحيد في المسيحية، وقد سبق تفصيل ذلك عند الكلام على كل مجمع منها.

ثامنًا: لا يمكن لدارس المجامع أن ينسى دور الأباطرة والحكام فلقد كان لهم دور كبير في اجتماع المجامع المسكونية وقراراتها.

تاسعًا: أن هذه المجامع تسببت في ازدياد الخلافات المذهبية والطائفية، وإلى انقسام الكنائس.(٢)

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١١٥).

(٢) انظر: تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٢٩٩ - ٣٠٦).

الباب الرابع: نقد متن الكتاب المقدس

ويشتمل على خمسة فصول:

الفصل الأول: الألفاظ غير المناسبة لقدسية الكتاب المقدس.

ويحتوي على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: صفات الله تعالى في التوراة

وسنحاول في هذا المبحث – إن شاء الله تعالى – أن نرصد ما يصف به الكتاب المقدس رب العزة سبحانه وتعالى وتقدس عما يصفه الظالمون.

أولًا: صفات التعظيم:

تتحدث الأسفار التوراتية في أماكن متفرقة عن الله العظيم بما يليق بجلاله وعظمته، وهذه بعض النصوص التي تثبت ذلك:

١- جاء في سفر التثنية (٦/ ٤ – ٥): " ٤«اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. ٥فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. "

٢- وتذكر أيضًا أن الرب لا يرى، كما جاء في (إشعيا ٤٥/ ١٥) " ١٥حَقًّا أَنْتَ إِلهٌ مُحْتَجِبٌ يَا إِلهَ إِسْرَائِيلَ الْمُخَلِّصَ. "، وقد قال الله لموسى: " ٢٠وَقَالَ: «لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِي وَيَعِيشُ» (الخروج ٣٣/ ٢٠).

٣- والله عز وجل ليس كمثله شيء، وفي ذلك يقول موسى: " «لَيْسَ مِثْلَ الله " (التثنية ٣٣/ ٢٦)، ويقول سليمان: " «أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ، لاَ إِلهَ مِثْلُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ " (الأيام (٢) ٦/ ١٤).

ثانيًا: صفات النقص:

لكن التوراة في مواضع لا تعد – لكثرتها - تتحدث عن الله، فتجعله كائنًا بشريًا، وتصفه بصفات البشر، وصفات النقص التي يتنزه عنها الإنسان النزيه - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - وسأورد بعضا من هذه الصفات التي وصفوا الله تعالى بها، لنرى مدى ضلالهم وانحرافهم.

وتنقسم هذه الصفات إلى أنواع:

فمنها التشبيه بالبشر في الشكل والصورة، ومنها التشبيه بالبشر في الأفعال، ومنها وصفه بصفات العجز والجهل، ومنها نسبة الأوامر الغريبة لله – تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا –.

أولًا: التشبيه بالبشر في الشكل والصورة

يتحدث سفر التكوين عن خلق الله الإنسان على صورته وشبهه " [٢٦] وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا" (التكوين ١/ ٢٦).

وتتحدث النصوص عن صور التشابه كما رسمها كتبة العهد القديم، ومن ذلك ما جاء في رؤيا دانيال أن له رأسًا، شعره أبيض " وَجَلَسَ الْقَدِيمُ الأَيَّامِ. لِبَاسُهُ أَبْيَضُ كَالثَّلْجِ، وَشَعْرُ رَأْسِهِ كَالصُّوفِ النَّقِيِّ، وَعَرْشُهُ لَهِيبُ نَارٍ، وَبَكَرَاتُهُ نَارٌ مُتَّقِدَةٌ. " (دانيال ٧/ ٩).

ثانيًا: أفعال الإله البشرية

وتحكي أسفار العهد القديم عن أفعال بشرية تنسبها إلى الله، وهي فرع من عقيدتهم المجسِّمة لله:

١- ومن ذلك أن الله يمشي، ولكن على شوامخ الجبال " [٣] فَإِنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ وَيَنْزِلُ وَيَمْشِي عَلَى شَوَامِخِ الأَرْضِ " (ميخا ١/ ٣).

٢- ويزور الربُّ إبراهيمَ – تعالى الله عن ذلك – ويأكل عنده زبدًا ولبنًا " [١] وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ، [٢] فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَال وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ، وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم " (التكوين ١٨/ ١ – ٣٣).

٣- ويذكر سفر التكوين أن الله رضي عن نوح وقومه بعد أن شم رائحة شواء المحرقات التي قدمها نوح على المذبح " [٢٠] وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ. وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَمِنْ كُلِّ الطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ، [٢١] فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا. " (التكوين ٨/ ٢٠ – ٢١).

٤- ونقرأ في رؤيا حزقيال أن الله دخل الهيكل من باب، وأمر بإغلاقه إلى الأبد " [٢] فَقَالَ لِيَ الرَّبُّ: «هذَا الْبَابُ يَكُونُ مُغْلَقًا، لاَ يُفْتَحُ وَلاَ يَدْخُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ دَخَلَ مِنْهُ فَيَكُونُ مُغْلَقًا. " (حزقيال ٤٤/ ٢).

٦- الله يسير أمام بني إسرائيل ليلا ونهارا حتى يهديهم إلى الطريق في برية صين:

تزعم التوراة أن الله عندما غضب على بني إسرائيل لرفضهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، أتاهم في صحراء سينا (برية صين). ولكنه مع ذلك لم يتركهم لأنهم شعبه وابنه البكر الأثير لديه جدًا مهما فعلوا. لذلك كان يسير أمامهم في الطريق ليلًا ونهارا حتى لا يضلوا. ورغم هذا الجهد الجبار لم يستطع حسب زعمهم أن يدلهم على الطريق لمدة أربعين عامًا.

جاء في سفر الخروج (١٣ – ٢٠): " [٢٠]وَارْتَحَلُوا مِنْ سُكُّوتَ وَنَزَلُوا فِي إِيثَامَ فِي طَرَفِ الْبَرِّيَّةِ. [٢١]وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودِ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَلَيْلًا فِي عَمُودِ نَارٍ لِيُضِيءَ لَهُمْ. لِكَيْ يَمْشُوا نَهَارًا وَلَيْلًا. [٢٢]لَمْ يَبْرَحْ عَمُودُ السَّحَابِ نَهَارًا وَعَمُودُ النَّارِ لَيْلًا مِنْ أَمَامِ الشَّعْبِ. ".

ثالثا: وصف الله – تعالى - بصفات العجز والجهل

كما وتنسب النصوص إلى الله أفعالًا كتلك التي تصدر عن البشر بسبب جِبلتهم وضعفهم الذي خلقهم الله عليه:

١- ومن ذلك عجز الإله عند مصارعة يعقوب، يقول سفر التكوين: " [٢٤]فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ. [٢٥]وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. [٢٦]وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي». [٢٧]فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يَعْقُوبُ». [٢٨]فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». " (التكوين ٣٢/ ٢٤ – ٢٨).

وتعليقًا على النص يقول محقق نسخة الرهبانية اليسوعية: "المقصود من هذه الرواية الغامضة هو الصراع الجسدي، أي صراع مع الله، يبدو فيه يعقوب الغالب أولًا، لكنه حين عرف طبيعة خصمه السامية اغتصب بركته، مع العلم أن النص يتجنب اسم الرب".

٢- ومن العجز أيضًا قوله: " [١٩]وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يَهُوذَا فَمَلَكَ الْجَبَلَ، وَلكِنْ لَمْ يُطْرَدْ

سُكَّانُ الْوَادِي لأَنَّ لَهُمْ مَرْكَبَاتِ حَدِيدٍ. " (القضاة ١/ ١٩)، فكان ذلك سببًا لعجزه عنهم، فكيف يكون الحال مع الأسلحة الحديثة المتطورة، وهل يعجز الإله عن حرب الدول التي تملك هذه الأسلحة! ؟

٣- وجاء في سفر التكوين (٢/ ٢- ٣): " ٢وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. ٣وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا. "

وهكذا تصور التوراة المحرفة أن الله – سبحانه وتعالى – يصاب بالتعب والنصب ويحتاج إلى الراحة، والقرآن الكريم يرد عليهم هذه الفرية فيقول: " وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ " (ق/ ٣٨)

٤- الرب يستيقظ وينام ويلعب كما تزعم التوراة والتلمود:

جاء في سفر زكريا (٢/ ١٠ – ١٣): " ١٠«تَرَنَّمِي وَافْرَحِي يَا بِنْتَ صِهْيَوْنَ، لأَنِّي هأَنَذَا آتِي وَأَسْكُنُ فِي وَسَطِكِ، يَقُولُ الرَّبُّ. ١١فَيَتَّصِلُ أُمَمٌ كَثِيرَةٌ بِالرَّبِّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، وَيَكُونُونَ لِي شَعْبًا فَأَسْكُنُ فِي وَسَطِكِ، فَتَعْلَمِينَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكِ. ١٢وَالرَّبُّ يَرِثُ يَهُوذَا نَصِيبَهُ فِي الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَيَخْتَارُ أُورُشَلِيمَ بَعْدُ. ١٣اُسْكُتُوا يَا كُلَّ الْبَشَرِ قُدَّامَ الرَّبِّ، لأَنَّهُ قَدِ اسْتَيْقَظَ مِنْ مَسْكَنِ قُدْسِهِ». "

٥- وتنسب التوراة إلى الله الندم على أمور صنعها، والندم فرع عن الجهل، ومن ذلك " ١١«نَدِمْتُ عَلَى أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكًا، لأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِي وَلَمْ يُقِمْ كَلاَمِي». " (صموئيل (١) ١٥/ ١٠).

وتذكر التوراة أنه لما عبد بنو إسرائيل العجل غضب الرب عليهم "١٠فَالآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ "، فكان من جواب موسى أن قال: " اِرْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ. ١٣اُذْكُرْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْرَائِيلَ عَبِيدَكَ الَّذِينَ حَلَفْتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ وَقُلْتَ لَهُمْ: أُكَثِّرُ نَسْلَكُمْ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكُمْ كُلَّ هذِهِ الأَرْضِ الَّتِي

تَكَلَّمْتُ عَنْهَا فَيَمْلِكُونَهَا إِلَى الأَبَدِ». [١٤] فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ. " (الخروج ٣٢/ ١٠ - ١٤).

ومثل هذا الندم في الأسفار كثير (انظر إرميا ٢٦/ ١٩، ٤٢/ ١١، عاموس ٧/ ٦، التكوين ١٨/ ٢٠).

رابعًا: هل يأمر الله بمثل هذا؟

كما تذكر التوراة أن الله أمر أوامر غريبة يظهر لمن تدبرها مقدار العبث فيها والذي ينزه عنه الله جل وعلا، وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

١- **موسى إله فرعون، وهارون نبي موسى**: جاء في سفر الخروج (٧/ ١-٣): " [١] فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. [٢] أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ، وَهَارُونُ أَخُوكَ يُكَلِّمُ فِرْعَوْنَ لِيُطْلِقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِهِ. [٣] وَلكِنِّي أُقَسِّي قَلْبَ فِرْعَوْنَ وَأُكَثِّرُ آيَاتِي وَعَجَائِبِي فِي أَرْضِ مِصْرَ. "

٢- **الله يأمر بالفاحشة**: ومنها أن الله أراد أن يصور حال بني إسرائيل معه وإدبارهم عن عبادته إلى عبادة الأصنام، فأمر نبيه باتخاذ جومر الزانية زوجة تنجب له من غيره أبناء زنا " [٢] أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى، لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ». " (هوشع ١/ ٢)، وفي موضع آخر " [١] وَقَالَ الرَّبُّ لِي: «اذْهَبْ أيضًا أَحْبِبِ امْرَأَةً حَبِيبَةَ صَاحِبٍ وَزَانِيَةً، كَمَحَبَّةِ الرَّبِّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ مُلْتَفِتُونَ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى وَمُحِبُّونَ لأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ». " (هوشع ٣/ ١).

تقول مقدمة السفر في نسخة الرهبانية اليسوعية: "في جرأة هوشع النبي ما يدهش، فإنه يجسد في حياته الخاصة تجسيدًا رمزيًا ما من علاقات بين الرب وشعبه الخائن. . كان ولا يزال زواج هوشع أكثر الأمور جدلًا في التفسير الكتابي. . ولا يرجح على كل حال أننا أمام مجرد استعارة. . ليس زواج هوشع خيالًا، بل رمز، ولذلك فمن شبه المستحيل وغير المفيد أن نهتدي إلى الحدث التاريخي الذي فيه، إنه عمل نبوي، مثل تلك الأعمال التي قام بها الأنبياء (راجع إشعيا ٢٠/ ١-٦، وأعمال الرسل ٢١/ ١٠-١٤)، والتي يفسرونها هم بأنفسهم ".

٣- ومثل هذه القصة ما تنسبه التوراة إلى الله من أمره لنبيه إشعياء بالتعري، ولماذا؟ لكي يري بني إسرائيل ما ينتظرهم من الهوان والذل والعري على يد ملك آشور " ٢فِي ذلِكَ الْوَقْتِ تَكَلَّمَ الرَّبُّ عَنْ يَدِ إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ قَائِلًا: «اِذْهَبْ وَحُلَّ الْمِسْحَ عَنْ حَقْوَيْكَ وَاخْلَعْ حِذَاءَكَ عَنْ رِجْلَيْكَ». فَفَعَلَ هكَذَا وَمَشَى مُعَرًّى وَحَافِيًا. ٣فَقَالَ الرَّبُّ: «كَمَا مَشَى عَبْدِي إِشَعْيَاءُ مُعَرًّى وَحَافِيًا ثَلاَثَ سِنِينٍ، آيَةً وَأُعْجُوبَةً عَلَى مِصْرَ وَعَلَى كُوشَ، ٤هكَذَا يَسُوقُ مَلِكُ أَشُّورَ سَبْيَ مِصْرَ وَجَلاَءَ كُوشَ، الْفِتْيَانَ وَالشُّيُوخَ، عُرَاةً وَحُفَاةً وَمَكْشُوفِي الأَسْتَاهِ خِزْيًا لِمِصْرَ. " (إشعياء ٢٠/ ٢ - ٤).

يقول التفسير التطبيقي تعليقًا على هذه الفقرة: "كان أمر الله لإشعياء أن يتجول عاريًا لمدة ثلاث سنوات، وهو اختبار مُذِل، فقد كان الله يستخدم إشعياء لبيان ما ستختبره مصر وكوش من إذلال على يد آشور، ولكن كانت الرسالة في الواقع ليهوذا".

٤- ويذكر سفر حزقيال أن الله أمر نبيه حزقيال بأوامر كثيرة منها أنه أمره وبني إسرائيل أن يأكلوا كعك الشعير مخبوزًا مع فضلات الإنسان، ولما صعب الأمر على حزقيال، خصه وسمح له أن يخبز كعكة الشعير مع فضلات البقر، بدلًا من فضلات الإنسان.

والنص بتمامه: " ١٢وَتَأْكُلُ كَعْكًا مِنَ الشَّعِيرِ. عَلَى الْخُرْءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ تَخْبِزُهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ». ١٣وَقَالَ الرَّبُّ: «هكَذَا يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ خُبْزَهُمُ النَّجِسَ بَيْنَ الأُمَمِ الَّذِينَ أَطْرُدُهُمْ إِلَيْهِمْ». ١٤فَقُلْتُ: «آهِ، يَا سَيِّدُ الرَّبُّ، هَا نَفْسِي لَمْ تَتَنَجَّسْ. وَمِنْ صِبَايَ إِلَى الآنَ لَمْ آكُلْ مِيتَةً أَوْ فَرِيسَةً، وَلاَ دَخَلَ فَمِي لَحْمٌ نَجِسٌ». ١٥فَقَالَ لِي: «اُنْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ لَكَ خِثْيَ الْبَقَرِ بَدَلَ خُرْءِ الإِنْسَانِ، فَتَصْنَعُ خُبْزَكَ عَلَيْهِ». " (حزقيال ٤/ ١٢ - ١٥).

٥- ومن ذلك اعتقادهم أن الله يقذف- تعالى عن ذلك - الروث الحيواني في وجوه عصاة بني إسرائيل: " قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. فَإِنِّي أُرْسِلُ عَلَيْكُمُ اللَّعْنَ، وَأَلْعَنُ بَرَكَاتِكُمْ، بَلْ قَدْ لَعَنْتُهَا، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ جَاعِلِينَ فِي الْقَلْبِ. ٣هأَنَذَا أَنْتَهِرُ لَكُمُ الزَّرْعَ، وَأَمُدُّ الْفَرْثَ عَلَى وُجُوهِكُمْ، فَرْثَ أَعْيَادِكُمْ، فَتُنْزَعُونَ مَعَهُ. ٤فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ هذِهِ الْوَصِيَّةَ لِكَوْنِ عَهْدِي مَعَ لاَوِي،

قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. " (ملاخي ٢/ ٢-٤)، فمثل هذا لا يقبل ولو كان في باب الاستعارة والمجاز.

٦- وتتحدث الأسفار أن الله أمر بني إسرائيل بسرقة أصحابهم من المصريين، وأنه شارك بهذا الغش عندما أمال قلوب المصريين إلى الموافقة على إعارة بني إسرائيل ما يطلبونه من ذهب وجواهر وثياب فتقول: " ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ضَرْبَةً وَاحِدَةً أيضًا أَجْلِبُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى مِصْرَ. بَعْدَ ذلِكَ يُطْلِقُكُمْ مِنْ هُنَا. وَعِنْدَمَا يُطْلِقُكُمْ يَطْرُدُكُمْ طَرْدًا مِنْ هُنَا بِالتَّمَامِ. [٢]تكَلَّمْ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ أَنْ يَطْلُبَ كُلُّ رَجُل مِنْ صَاحِبِهِ، وَكُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ صَاحِبَتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ». [٣]وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. . . . [٣٦]وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عيُونِ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارُوهُمْ. فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ. " (الخروج ١١/ ١- ١٢/ ٣٦).

٧- وتتحدث الأسفار عن الرب وهو يأمر بالإغواء والكذب، ويبحث عمن يرشده إلى طريقة لإغواء آخاب " [٢٠]فَقَالَ الرَّبُّ: مَنْ يُغْوِي أَخْآبَ فَيَصْعَدَ وَيَسْقُطَ فِي رَامُوتَ جِلْعَادَ؟ فَقَالَ هذَا هكَذَا، وَقَالَ ذَاكَ هكَذَا. [٢١]ثُمَّ خَرَجَ الرُّوحُ وَوَقَفَ أَمَامَ الرَّبِّ وَقَالَ: أَنَا أُغْوِيهِ. وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: بِمَاذَا؟ [٢٢]فَقَالَ: أَخْرُجُ وَأَكُونُ رُوحَ كَذِبٍ فِي أَفْوَاهِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ. فَقَالَ: إِنَّكَ تُغْوِيهِ وَتَقْتَدِرُ، فَاخْرُجْ وَافْعَلْ هكَذَا. " (الملوك (١) ٢٢/ ٢٠-٢٢).

٨- ويتحدث سفر العدد عن شريعة غريبة يكتشف الرجل بموجبها خيانة زوجته أو براءتها، ألا وهو شرب ماء اللعنة المر الممزوج بغبار البيت، فإن ورمت بطنها وسقطت فخذها، فهي مذنبة، وإن قدر لها النجاة من هذا الماء الغريب، فإنها تكون بريئة.

ودعونا نتأمل طقوس هذا الاختبار الغريب، يقول سفر العدد: " [١٥] يَأْتِي الرَّجُلُ بِامْرَأَتِهِ إِلَى الْكَاهِنِ، وَيَأْتِي بِقُرْبَانِهَا مَعَهَا: عُشْرِ الإِيفَةِ مِنْ طَحِينِ شَعِيرٍ، لاَ يَصُبُّ عَلَيْهِ زَيْتًا وَلاَ يَجْعَلُ عَلَيْهِ لُبَانًا، لأَنَّهُ تَقْدِمَةُ غَيْرَةٍ، تَقْدِمَةُ تَذْكَارٍ تُذَكِّرُ ذَنْبًا. [١٦]فَيُقَدِّمُهَا الْكَاهِنُ وَيُوقِفُهَا أَمَامَ الرَّبِّ، [١٧]وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مَاءً مُقَدَّسًا فِي إِنَاءِ خَزَفٍ، وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مِنَ الْغُبَارِ الَّذِي فِي أَرْضِ الْمَسْكَنِ وَيَجْعَلُ فِي الْمَاءِ، [١٨]وَيُوقِفُ الْكَاهِنُ الْمَرْأَةَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيَكْشِفُ رَأْسَ الْمَرْأَةِ، وَيَجْعَلُ فِي يَدَيْهَا تَقْدِمَةَ التَّذْكَارِ الَّتِي هِيَ تَقْدِمَةُ الْغَيْرَةِ، وَفِي يَدِ الْكَاهِنِ يَكُونُ مَاءُ اللَّعْنَةِ الْمُرُّ.

[١٩]وَيَسْتَحْلِفُ الْكَاهِنُ الْمَرْأَةَ وَيَقُولُ لَهَا: إِنْ كَانَ لَمْ يَضْطَجعْ مَعَكِ رَجُلٌ، وَإِنْ كُنْتِ لَمْ تَزِيغِي إِلَى نَجَاسَةٍ مِنْ تَحْتِ رَجُلِكِ، فَكُونِي بَرِيئَةً مِنْ مَاءِ اللَّعْنَةِ هذَا الْمُرِّ. [٢٠]وَلكِنْ إِنْ كُنْتِ قَدْ زُغْتِ مِنْ تَحْتِ رَجُلِكِ وَتَنَجَّسْتِ، وَجَعَلَ مَعَكِ رَجُلٌ غَيْرُ رَجُلِكِ مَضْجَعَهُ. [٢١]يَسْتَحْلِفُ الْكَاهِنُ الْمَرْأَةَ بِحَلْفِ اللَّعْنَةِ، وَيَقُولُ الْكَاهِنُ لِلْمَرْأَةِ: يَجْعَلُكِ الرَّبُّ لَعْنَةً وَحَلْفًا بَيْنَ شَعْبِكِ، بِأَنْ يَجْعَلَ الرَّبُّ فَخْذَكِ سَاقِطَةً وَبَطْنَكِ وَارِمًا. [٢٢]وَيَدْخُلُ مَاءُ اللَّعْنَةِ هذَا فِي أَحْشَائِكِ لِوَرَمِ الْبَطْنِ، وَلإِسْقَاطِ الْفَخْذِ. فَتَقُولُ الْمَرْأَةُ: آمِينَ، آمِينَ. [٢٣]وَيَكْتُبُ الْكَاهِنُ هذِهِ اللَّعْنَاتِ فِي الْكِتَابِ ثُمَّ يَمْحُوهَا فِي الْمَاءِ الْمُرِّ، [٢٤]وَيَسْقِي الْمَرْأَةَ مَاءَ اللَّعْنَةِ الْمُرَّ، فَيَدْخُلُ فِيهَا مَاءُ اللَّعْنَةِ لِلْمَرَارَةِ. [٢٥]وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مِنْ يَدِ الْمَرْأَةِ تَقْدِمَةَ الْغَيْرَةِ، وَيُرَدِّدُ التَّقْدِمَةَ أَمَامَ الرَّبِّ وَيُقَدِّمُهَا إِلَى الْمَذْبَحِ. [٢٦]وَيَقْبِضُ الْكَاهِنُ مِنَ التَّقْدِمَةِ تِذْكَارَهَا وَيُوقِدُهُ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَبَعْدَ ذلِكَ يَسْقِي الْمَرْأَةَ الْمَاءَ. [٢٧]وَمَتَى سَقَاهَا الْمَاءَ، فَإِنْ كَانَتْ قَدْ تَنَجَّسَتْ وَخَانَتْ رَجُلَهَا، يَدْخُلُ فِيهَا مَاءُ اللَّعْنَةِ لِلْمَرَارَةِ، فَيَرِمُ بَطْنُهَا وَتَسْقُطُ فَخْذُهَا، فَتَصِيرُ الْمَرْأَةُ لَعْنَةً فِي وَسَطِ شَعْبِهَا. [٢٨]وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الْمَرْأَةُ قَدْ تَنَجَّسَتْ بَلْ كَانَتْ طَاهِرَةً، تَتَبَرَّأُ وَتَحْبَلُ بِزَرْعٍ. " (العدد ٥/ ١٥- ٢٨)

خامسًا: تشبيهات ممجوجة لله في العهد القديم وجاء في أسفار العهد القديم أن الله يشبه نفسه تشبيهات غريبة ممجوجة، فيشبه نفسه بالحيوان تارة وبالمخمور تارة، ومثل هذه الطريقة لا يرتضيها العقلاء في التعبير عن ذواتهم، فالقارئ الكريم لن يقبل لو شُبه بالحمار بجامع الصبر والجلد في كليهما، أو بالقطة لما عندها من حنو على أبنائها، أو بالكلب لبالغ وفائه. . .

ولكن الكثير من ذلك تنسبه التوراة إلى الله، وهاك الأمثلة:

١- من ذلك قوله: "[٧]«فَأَكُونُ لَهُمْ كَأَسَدٍ. أَرْصُدُ عَلَى الطَّرِيقِ كَنَمِرٍ. [٨]أَصْدِمُهُمْ كَدُبَّةٍ مُثْكِلٍ، وَأَشُقُّ شَغَافَ قَلْبِهِمْ، وَآكُلُهُمْ هُنَاكَ كَلَبْوَةٍ. يُمَزِّقُهُمْ وَحْشُ الْبَرِّيَّةِ. " (هوشع ١٣/ ٧- ٨).

٢- ومثله التشبيه المنكر لله والذي جاء في سفر هوشع: "[١٢]فَأَنَا لأَفْرَايِمَ كَالْعُثِّ، وَلِبَيْتِ يَهُوذَا كَالسُّوسِ. " (هوشع ٥/ ١٢).

٣- ويشبه سفر ميخا حزن الرب على ما أصاب بني إسرائيل بنواح النعام ونحيب

إناث الثعالب، فيقول: "[١]قَوْلُ الرَّبِّ الَّذِي صَارَ إِلَى مِيخَا. . . [٢]اِسْمَعُوا أَيُّهَا الشُّعُوبُ جَمِيعُكُمْ. . . . [٨]مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَنُوحُ وَأُوَلْوِلُ. أَمْشِي حَافِيًا وَعُرْيَانًا. أَصْنَعُ نَحِيبًا كَبَنَاتِ آوَى، وَنَوْحًا كَرِعَالِ النَّعَامِ. " (ميخا ١/ ١-٨).

وفي نص آخر تذكر التوراة حزنه على شعبه وعذرائها أورشليم، فيقول للنبي إرميا: وتقول لهم هذه الكلمة: "لتذرف عيناي دموعًا ليلًا ونهارًا، ولا تكفّا أبدًا، لأنّ العذراء بنت شعبي سحقتْ سحقًا عظيمًا" (إرميا ١٤/ ١٧).

وتستمر المخازي في التشبيهات التوراتية، فتشبه الله عز وجل بالمرأة تارة، وبالزوج تارة، فقد جاء فيها: " لأَنَّ بَعْلَكِ هُوَ صَانِعُكِ، رَبُّ الْجُنُودِ اسْمُهُ، وَوَلِيُّكِ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ، إِلهَ كُلِّ الأَرْضِ يُدْعَى. [٦]لأَنَّهُ كَامْرَأَةٍ مَهْجُورَةٍ وَمَحْزُونَةِ الرُّوحِ دَعَاكِ الرَّبُّ" (إشعيا ٥٤/ ١-٦).

وفي موضع آخر أنه قال: "[١]هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «أَيْنَ كِتَابُ طَلاَقِ أُمِّكُمُ الَّتِي طَلَّقْتُهَا، أَوْ مَنْ هُوَ مِنْ غُرَمَائِي الَّذِي بِعْتُهُ إِيَّاكُمْ؟ هُوَذَا مِنْ أَجْلِ آثَامِكُمْ قَدْ بُعْتُمْ، وَمِنْ أَجْلِ ذُنُوبِكُمْ طُلِّقَتْ أُمُّكُمْ. " (إشعيا ٥٠/ ١).

ومثله أن الله خاطب أورشليم "وَكَفَرَحِ الْعَرِيسِ بِالْعَرُوسِ يَفْرَحُ بِكِ إِلهُكِ. " (إشعيا ٦٢/ ٥).

٤- ومن سيئ التشبيهات التوراتية تشبيه الله العظيم بالسكران يفيق من سكره، فتقول: "[٦٥]فَاسْتَيْقَظَ الرَّبُّ كَنَائِمٍ، كَجَبَّارٍ مُعَيِّطٍ مِنَ الْخَمْرِ. [٦٦]فَضَرَبَ أَعْدَاءَهُ إِلَى الْوَرَاءِ. جَعَلَهُمْ عَارًا أَبَدِيًّا " (المزمور ٧٨/ ٦٥- ٦٦).. [١]

المبحث الثاني: صفات الأنبياء في الكتاب المقدس

تمهيد:

اصطفى الله ﷻ أنبياءه من بين سائر خلقه، وحباهم بأن جعلهم حملة دينه إلى الناس، وأسبق أقوامهم إليه، وجعل منهم قدوة للعالمين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (الأنعام/ ٩٠) وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ

(١) انظر: هل العهد القديم كلمة الله؟ (٧١ - ٩٠)، المسيحية. . . دراسة وتحليل، ساجد مير (٢٨٥ - ٢٨٩)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، محمد علي البار (٢١- ٤٠)

حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم/ ٥٨). وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (السجدة/ ٢٤).

وهذا الذي يقتضيه العقل في هؤلاء الذين اختارهم الله لهداية خلقه، أن يكونوا أحسن الناس سيرة، وأصدقهم طوية. . . كيف لا، وقد جاء الحديث في التوراة عن عصمة الكهنة وبراءتهم من الآثام، لأنهم حاملو الشريعة ومبلغوها للناس، وهم - ولا ريب - دون منزلة الأنبياء، يقول سفر ملاخي عن لاوي وسبطه: " ٥كَانَ عَهْدِي مَعَهُ لِلْحَيَاةِ وَالسَّلاَمِ، وَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُمَا لِلتَّقْوَى. فَاتَّقَانِي، وَمِنِ اسْمِي ارْتَاعَ هُوَ. ٦شَرِيعَةُ الْحَقِّ كَانَتْ فِي فِيهِ، وَإِثْمٌ لَمْ يُوجَدْ فِي شَفَتَيْهِ. سَلَكَ مَعِي فِي السَّلاَمِ وَالاسْتِقَامَةِ، وَأَرْجَعَ كَثِيرِينَ عَنِ الإِثْمِ. ٧لأَنَّ شَفَتَيِ الْكَاهِنِ تَحْفَظَانِ مَعْرِفَةً، وَمِنْ فَمِهِ يَطْلُبُونَ الشَّرِيعَةَ، لأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْجُنُودِ. " (ملاخي ٢/ ٥-٧).

أولًا: تعظيم الأنبياء في العهد القديم:

وتثني التوراة في بعض نصوصها على بعض هؤلاء الأنبياء، فعن داود قال: "«أَنَا أَكُونُ لَهُ أَبًا وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا»" (صموئيل (٢) ٧/ ١٤).

وعن نوح قال: " كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًّا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ". (التكوين ٦/ ٩).

وعن إبراهيم تقول التوراة بأن الله قال له في المنام: " «لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا». " (التكوين ١٥/ ١).

وعن إسحاق " وَبَارَكَهُ الرَّبُّ " (التكوين ٢٦/ ١٢). . . إلى غير ذلك، لكن ذلك كله يضيع في بحر الرذائل التي تلصقها التوراة زورًا بحملة رسالات الله من الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله لبلاغ وحيه.

ثانيًا: الطعن في أنبياء الله تعالى في الكتاب المقدس:

١ - نوح عليه السلام:

تحدثت التوراة عن سُكرِ نبي الله نوح عليه السلام - وحاشاه - وتعريه داخل خبائه، وحينذاك أبصره ابنه الصغير حام، وأخبر أخويه بما رأى فجاءا بظهريهما، وسترا عورة أبيهما الثمِل،

فلما أفاق من سكرته وعرف ما فعل ابنه حام الصغير لعن، والقصة بتمامها: " ٢٠وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. ٢١وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. ٢٢فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. ٢٣فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. ٢٤فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، ٢٥فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! (أب الفلسطينين الذي لا علاقة له بالحادثة، الذي لم يولد حينذاك)، عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». ٢٦وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. ٢٧لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ». " (التكوين ٩/ ٢٥ - ٢٦).

٢- إبراهيم عليه السلام:

وأما إبراهيم خليل الله، فتزعم التوراة أنه أخطأ في حق الله لما أراد إهلاك قوم لوط، وخاطب ربه بأسلوب الناصح الغليظ، بأسلوب لا يقبل عاقل أن يخاطب به صديقه أو ابنه، فضلًا عن عبده الضعيف "٢٣فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «أَفَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ؟ ٢٤عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَفَتُهْلِكُ الْمَكَانَ وَلاَ تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟ ٢٥حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ، فَيَكُونُ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلًا؟ » " (التكوين ١٨/ ٢٣ - ٢٥).

٣- لوط عليه السلام.

وأما لوط عليه السلام النبي الذي حارب الشذوذ، فتذكر التوراة أنه لما أهلك الله قومه لجأ إلى مغارة مع ابنتيه فسقتاه الخمر، وضاجعتاه، ولم يعلم بذلك، وولد من هاتين الفاحشتين عمي ومؤاب، ومنهما انحدر العمويون والمؤابيون أعداء بني إسرائيل، فاسمع إلى السفر: " ٣٠وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. ٣١وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. ٣٢هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ

أَبِينَا نَسْلًا». [٣٣]فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. [٣٤]وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أيضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». [٣٥]فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أيضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، [٣٦]فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. [٣٧]فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. (أعداء بني إسرائيل) [٣٨]وَالصَّغِيرَةُ أيضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ. (وهم أيضًا أعداء بني إسرائيل) " (التكوين ١٩/ ٣٠ – ٣٨).

ويذكر السفر تبريرًا لهذه الفاحشة، أن الكبيرة منهما قالت لأختها: " «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. . . فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا" (التكوين ١٩/ ٣١ - ٣٢)، فيصور النص الأرض وقد خلت من الرجال، أو أن المغارة سيمكث فيها لوط وابنتاه إلى الأبد، فلا سبيل حينذاك لاستبقاء النسل إلا زنا المحارم!.

٤ - يعقوب عليه السلام.

وأما يعقوب عليه السلام أصل بني إسرائيل، فهو أيضًا لم يسلم من مخازي التوراة، ولم يشفع له أبوته لهم، فتذكر التوراة أنه سرق البركة من أخيه الأكبر عيسو عندما خدع أباه إسحاق وأشربه الخمر، وأوهمه أنه عيسو، ولم يستطع إسحاق أن يفرق بين ملمس ابنه الأكبر وجلد المعزي الذي وضعه يعقوب على يده. (انظر: التكوين ٢٧/ ١٦ – ٢٥).

فبارك يعقوب، وهو يظنه عيسو، وقال له: " رَائِحَةُ ابْنِي كَرَائِحَةِ حَقْلٍ قَدْ بَارَكَهُ الرَّبُّ. [٢٨]فَلْيُعْطِكَ الله مِنْ نَدَى السَّمَاءِ وَمِنْ دَسَمِ الأَرْضِ. وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. [٢٩]لِيُسْتَعْبَدْ لَكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدْ لَكَ قَبَائِلُ. كُنْ سَيِّدًا لإِخْوَتِكَ، وَلْيَسْجُدْ لَكَ بَنُو أُمِّكَ. لِيَكُنْ لاَعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ»"(التكوين ٢٧/ ٢٧ - ٢٩).

ثم بعد برهة جاء عيسو أباه فاكتشف الخدعة، ولكن بعد فوات الأوان.

وهكذا فالبركة سرقت، وهذا يعتبر كذبًا على الله واهب البركة، لا على إسحاق ويتساءل المسلمون لماذا لم يسترد إسحاق بركته؟ ثم ما هذه البركة التي تثمر خمرًا واستعبادًا للشعوب؟

وهذه البركة لا يبدو لها عظيم أثر في حياة يعقوب، فقد جوزي على خديعته لأبيه، فخدعه خاله لابان، فأدخله على ابنته الكبرى ليئة، فضاجعها، وهي غير التي عقد له عليها (راحيل). أي وقع في الزنا، ولكن من غير عمد. (انظر: التكوين ٢٩/ ٢٤).

وقد رد الصاع لخاله حينما خدعه في غنمه. (انظر: التكوين ٣٠/ ٣٧ - ٤٢).

ثم لما شاخ اعتدى شكيم على ابنته واغتصبها. (انظر: التكوين ٣٤/ ٢).

ثم زنى أحد أبنائه، وهو يهوذا بكنته ثامار، وأحبلها اثنين من أبنائه. (انظر: التكوين ٣٨/ ١٨).

ثم اعتدى ابنه البكر رؤابين على بلهة سرية يعقوب، واضطجع معها، ولم يحرك يعقوب ساكنًا. (انظر: التكوين ٣٥/ ٢١ - ٢٢). فأين أثر البركة المسروقة في هذا كله؟

٥- موسى وهارون عليهما السلام.

كما تسيء التوراة إلى موسى عليه السلام أعظم أنبياء بني إسرائيل، وهذه أمثلة:

١- تذكر كلمات لا يمكن أن تصدر من موسى لما فيها من إساءة أدب مع الله، منها: " [١١] فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى عَبْدِكَ؟ وَلِمَاذَا لَمْ أَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَنَّكَ وَضَعْتَ ثِقْلَ جَمِيعِ هذَا الشَّعْبِ عَلَيَّ؟ [١٢] أَلَعَلِّي حَبِلْتُ بِجَمِيعِ هذَا الشَّعْبِ؟ أَوْ لَعَلِّي وَلَدْتُهُ، حَتَّى تَقُولَ لِي احْمِلْهُ فِي حِضْنِكَ كَمَا يَحْمِلُ الْمُرَبِّي الرَّضِيعَ، إِلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفْتَ لآبَائِهِ؟ [١٣] مِنْ أَيْنَ لِي لَحْمٌ حَتَّى أُعْطِيَ جَمِيعَ هذَا الشَّعْبِ؟ لأَنَّهُمْ يَبْكُونَ عَلَيَّ قَائِلِينَ: أَعْطِنَا لَحْمًا لِنَأْكُلَ. [١٤] لاَ أَقْدِرُ أَنَا وَحْدِي أَنْ أَحْمِلَ جَمِيعَ هذَا الشَّعْبِ لأَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَيَّ. [١٥] فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ بِي هكَذَا، فَاقْتُلْنِي قَتْلاً إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ، فَلاَ أَرَى بَلِيَّتِي». " (العدد ١١/ ١٠ - ١٥)

فهل يتحدث عبد - فضلًا عن نبي - مع ربه بمثل هذا؟

٢- وتذكر التوراة أن موسى في حربه مع أهل مديان - الذين مكث فيهم سنين - أمر بقتلهم شر قتلة، وحين لم ينفذ الجيش أمره " [١٤] فَسَخَطَ مُوسَى عَلَى وُكَلاَءِ الْجَيْشِ، رُؤَسَاءِ

الأُلُوفِ وَرُؤَسَاءِ الْمِئَاتِ الْقَادِمِينَ مِنْ جُنْدِ الْحَرْبِ. ١٥وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هَلْ أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أُنْثَى حَيَّةً؟ ١٦إِنَّ هؤُلاَءِ كُنَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حَسَبَ كَلاَمِ بَلْعَامَ، سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ فِي أَمْرِ فَغُورَ، فَكَانَ الْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. ١٧فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا. ١٨لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ. " (العدد ٣١/ ١٤ – ١٨)، ولم يخبر السفر عن طريقة التمييز بين الأبكار وغيرهن، فهل يأمر نبي بمثل هذا؟!!

٣- وأما هارون القدوس كما في سفر المزامير" وَهارُونَ قُدُّوسَ الرَّبِّ " (المزمور ١٠٦/ ١٦)، فإن سفر الخروج يفتري عليه، ويتهمه بأنه الذي صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه، فيقول: "٢فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: «انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَاتُونِي بِهَا». ٣فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. ٤فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: «هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». " (الخروج ٣٢/ ٢-٤)، فهل هذا صنيع يصنعه قدوس الرب؟

٤- ثم تذكر التوراة المحرفة أن الله حرم موسى وهارون من دخول الأرض المقدسة لخيانتهما لله وعدم إيمانهما: "١٢فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي حَتَّى تُقَدِّسَانِي أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِذلِكَ لاَ تُدْخِلاَنِ هذِهِ الْجَمَاعَةَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». " (العدد ٢٠/ ١٢).

٥- وتذكر التوراة في قصة غريبة مبهمة من غير مقدمات لها، ومفادها أن الله أراد قتل موسى وهو في صحراء سيناء، حين كان متجهًا لدعوة فرعون كما أمره الرب، والذي أنقذه من القتل ذكاء زوجته صفورة وسرعة بديهتها، حيث أدركت أن سبب غضب الرب عدم ختان موسى لابنه، فختنته سريعًا، ووضعت غرلته عند رجلي الرب، فنجا موسى من الموت، يقول السفر: "٢٤وَحَدَثَ فِي الطَّرِيقِ فِي الْمَنْزِلِ أَنَّ الرَّبَّ الْتَقَاهُ وَطَلَبَ أَنْ يَقْتُلَهُ. ٢٥فَأَخَذَتْ صَفُّورَةُ صَوَّانَةً وَقَطَعَتْ غُرْلَةَ ابْنِهَا وَمَسَّتْ رِجْلَيْهِ. فَقَالَتْ: «إِنَّكَ عَرِيسُ دَمٍ لِي».

[٢٦] فَانْفَكَّ عَنْهُ. حِينَئِذٍ قَالَتْ: «عَرِيسُ دَمٍ مِنْ أَجْلِ الْخِتَانِ». " (الخروج ٤/ ٢٤-٢٦)

ولم يبين السفر السبب الصريح لهذه الغضبة الإلهية المزعومة، واكتفى ببيان هذه الطريقة الغريبة في استرضاء الرب، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

لكن القرآن الكريم يبرئ موسى وهارون من هذه الخيانة وأمثالها فيقول: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾ (مريم/ ٥١، ٥٣)

٦- يشوع بن نون عليه السلام.

وأما يشوع وصي موسى، فإن اسمه يقترن في التوراة بسلسلة من المجازر التي طالت النساء والأطفال والرجال والحيوان، وكنموذج لهذه المجازر نحكي قصة مجزرة أريحا التي لم ينج فيها سوى راحاب الزانية ومن يلوذ بها، وأما ما عداها فقد أمر يشوع: " وَصَعِدَ الشَّعْبُ إِلَى الْمَدِينَةِ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ وَجْهِهِ، وَأَخَذُوا الْمَدِينَةَ. [٢١] وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ. [٢٢] وَقَالَ يَشُوعُ لِلرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَجَسَّسَا الأَرْضَ: «ادْخُلاَ بَيْتَ الْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ وَأَخْرِجَا مِنْ هُنَاكَ الْمَرْأَةَ وَكُلَّ مَا لَهَا كَمَا حَلَفْتُمَا لَهَا». [٢٣] فَدَخَلَ الْغُلاَمَانِ الْجَاسُوسَانِ وَأَخْرَجَا رَاحَابَ وَأَبَاهَا وَأُمَّهَا وَإِخْوَتَهَا وَكُلَّ مَا لَهَا، وَأَخْرَجَا كُلَّ عَشَائِرِهَا وَتَرَكَاهُمْ خَارِجَ مَحَلَّةِ إِسْرَائِيلَ. [٢٤] وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ" (يشوع ٦/ ٢٠-٢٤).

ويستمر سفر يشوع في عرض سلسلة من المجازر التي طالت النساء والأطفال الأبرياء، وكل ذلك بأمر من يشوع، وحاشاه عليه السلام:

"[٢٨] وَأَخَذَ يَشُوعُ مَقِّيدَةَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ وَضَرَبَهَا بِحَدِّ السَّيْفِ، وَحَرَّمَ مَلِكَهَا هُوَ وَكُلَّ نَفْسٍ بِهَا. لَمْ يُبْقِ شَارِدًا، وَفَعَلَ بِمَلِكِ مَقِّيدَةَ كَمَا فَعَلَ بِمَلِكِ أَرِيحَا. [٢٩] ثُمَّ اجْتَازَ يَشُوعُ مِنْ مَقِّيدَةَ وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ إِلَى لِبْنَةَ، وَحَارَبَ لِبْنَةَ. [٣٠] فَدَفَعَهَا الرَّبُّ هِيَ أَيضًا بِيَدِ إِسْرَائِيلَ مَعَ مَلِكِهَا، فَضَرَبَهَا بِحَدِّ السَّيْفِ وَكُلَّ نَفْسٍ بِهَا. لَمْ يُبْقِ بِهَا شَارِدًا، وَفَعَلَ بِمَلِكِهَا كَمَا فَعَلَ بِمَلِكِ أَرِيحَا. [٣١] ثُمَّ اجْتَازَ يَشُوعُ وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ مِنْ لِبْنَةَ إِلَى لَخِيشَ وَنَزَلَ عَلَيْهَا وَحَارَبَهَا. [٣٢] فَدَفَعَ الرَّبُّ لَخِيشَ بِيَدِ

إِسْرَائِيلَ، فَأَخَذَهَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَضَرَبَهَا بِحَدِّ السَّيْفِ وَكُلَّ نَفْسٍ بِهَا حَسَبَ كُلِّ مَا فَعَلَ بِلِبْنَةَ.
٣٣حِينَئِذٍ صَعِدَ هُورَامُ مَلِكُ جَازَرَ لإِعَانَةِ لَخِيشَ، وَضَرَبَهُ يَشُوعُ مَعَ شَعْبِهِ حَتَّى لَمْ يُبْقِ لَهُ شَارِدًا.
٣٤ثُمَّ اجْتَازَ يَشُوعُ وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ مِنْ لَخِيشَ إِلَى عَجْلُونَ فَنَزَلُوا عَلَيْهَا وَحَارَبُوهَا، ٣٥وَأَخَذُوهَا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ، وَحَرَّمَ كُلَّ نَفْسٍ بِهَا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ حَسَبَ كُلِّ مَا فَعَلَ بِلَخِيشَ. ٣٦ثُمَّ صَعِدَ يَشُوعُ وَجَمِيعُ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ مِنْ عَجْلُونَ إِلَى حَبْرُونَ وَحَارَبُوهَا، ٣٧وَأَخَذُوهَا وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ مَعَ مَلِكِهَا وَكُلِّ مُدُنِهَا وَكُلِّ نَفْسٍ بِهَا. لَمْ يُبْقِ شَارِدًا حَسَبَ كُلِّ مَا فَعَلَ بِعَجْلُونَ، فَحَرَّمَهَا وَكُلَّ نَفْسٍ بِهَا.
٣٨ثُمَّ رَجَعَ يَشُوعُ وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ مَعَهُ إِلَى دَبِيرَ وَحَارَبَهَا، ٣٩وَأَخَذَهَا مَعَ مَلِكِهَا وَكُلِّ مُدُنِهَا، وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ وَحَرَّمُوا كُلَّ نَفْسٍ بِهَا. لَمْ يُبْقِ شَارِدًا، كَمَا فَعَلَ بِحَبْرُونَ كَذلِكَ فَعَلَ بِدَبِيرَ وَمَلِكِهَا، وَكَمَا فَعَلَ بِلِبْنَةَ وَمَلِكِهَا.
٤٠فَضَرَبَ يَشُوعُ كُلَّ أَرْضِ الْجَبَلِ وَالْجَنُوبِ وَالسَّهْلِ وَالسُّفُوحِ وَكُلَّ مُلُوكِهَا. لَمْ يُبْقِ شَارِدًا، بَلْ حَرَّمَ كُلَّ نَسَمَةٍ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ. " (يشوع ١٠/ ٢٨- ٤٠).

وقد رأينا بعد هذه السلسلة الطويلة من المجازر، والتي تذكر بمجازر اليهود اليوم كيف نسب السفر هذه المجازر المريعة إلى أمر الرب، فقال في آخره: " كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ " (يشوع ١٠/ ٤٠).

٧- داود عليه السلام.

وأما داود عليه السلام والذي يصفه القرآن بقوله: " وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا " (الإسراء/ ٥٥).

ومع ذلك تخصه التوراة بقبائح لم تذكر لغيره:

١- منها أنه لما أراد الزواج من ابنة شاول ملك إسرائيل الأول (طالوت) قدم إليه مهرًا عجيبًا فلقد " ٢٧حَتَّى قَامَ دَاوُدُ وَذَهَبَ هُوَ وَرِجَالُهُ وَقَتَلَ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ مِئَتَيْ رَجُل، وَأَتَى دَاوُدُ بِغُلَفِهِمْ (الجلدة التي تقطع في الختان) فَأَكْمَلُوهَا لِلْمَلِكِ لِمُصَاهَرَةِ الْمَلِكِ. فَأَعْطَاهُ

شَاوُلُ مِيكَالَ ابْنَتَهُ امْرَأَةً " (صموئيل (١) ١٨/ ٢٧)، فما ذنب أولئك المساكين الذين قتلوا لغير جريرة ولا إثم.

٢- ويحكي سفر صموئيل عن رقص النبي داود وتكشف عورته، وهو فرح باسترجاع التابوت من يد الفلسطينيين، وقد استاءت زوجه ميكال من هذا المنظر، واحتقرته لأجله " ١٤وَكَانَ دَاوُدُ يَرْقُصُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ أَمَامَ الرَّبِّ. . . ١٦وَلَمَّا دَخَلَ تَابُوتُ الرَّبِّ مَدِينَةَ دَاوُدَ، أَشْرَفَتْ مِيكَالُ بِنْتُ شَاوُلَ مِنَ الْكُوَّةِ وَرَأَتِ الْمَلِكَ دَاوُدَ يَطْفُرُ وَيَرْقُصُ أَمَامَ الرَّبِّ، فَاحْتَقَرَتْهُ فِي قَلْبِهَا. . . فَخَرَجَتْ مِيكَالُ بِنْتُ شَاوُلَ لاسْتِقْبَالِ دَاوُدَ، وَقَالَتْ: «مَا كَانَ أَكْرَمَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ الْيَوْمَ، حَيْثُ تَكَشَّفَ الْيَوْمَ فِي أَعْيُنِ إِمَاءِ عَبِيدِهِ كَمَا يَتَكَشَّفُ أَحَدُ السُّفَهَاءِ». " (صموئيل (٢) ٦/ ١٤ - ٢٠).

٣- ثم تحكي التوراة قصة داود مع أوريا الحثي وزوجته "٢وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. ٣فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ». ٤فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلًا وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». ٦فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: «أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ». فَأَرْسَلَ يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. ٧فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. ٨وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ». فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ. ٩وَنَامَ أُورِيَّا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ جَمِيعِ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْتِهِ. ١٠فَأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ: «لَمْ يَنْزِلْ أُورِيَّا إِلَى بَيْتِهِ». فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّفَرِ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ؟ » ١١فَقَالَ أُورِيَّا لِدَاوُدَ: «إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ، وَسَيِّدِي يُوآبُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّحْرَاءِ، وَأَنَا آتِي إِلَى بَيْتِي لآكُلَ وَأَشْرَبَ وَأَضْطَجِعَ مَعَ امْرَأَتِي؟

وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ، لاَ أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ». ١٢فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَقِمْ هُنَا الْيَوْمَ أَيضًا، وَغَدًا أُطْلِقُكَ». فَأَقَامَ أُورِيَّا فِي أُورُشَلِيمَ ذلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. ١٣وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ. وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. ١٥وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ». ١٦وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. ١٧فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوآبَ، فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عَبِيدِ دَاوُدَ، وَمَاتَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيضًا. ١٨فَأَرْسَلَ يُوآبُ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِجَمِيعِ أُمُورِ الْحَرْبِ. ١٩وَأَوْصَى الرَّسُولَ قَائِلًا: «عِنْدَمَا تَفْرَغُ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ الْمَلِكِ عَنْ جَمِيعِ أُمُورِ الْحَرْبِ، ٢٠فَإِنِ اشْتَعَلَ غَضَبُ الْمَلِكِ، وَقَالَ لَكَ: لِمَاذَا دَنَوْتُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ لِلْقِتَالِ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَرْمُونَ مِنْ عَلَى السُّورِ؟ ٢١مَنْ قَتَلَ أَبِيمَالِكَ بْنَ يَرُبُّوشَثَ؟ أَلَمْ تَرْمِهِ امْرَأَةٌ بِقِطْعَةِ رَحًى مِنْ عَلَى السُّورِ فَمَاتَ فِي تَابَاصَ؟ لِمَاذَا دَنَوْتُمْ مِنَ السُّورِ؟ فَقُلْ: قَدْ مَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيضًا».

٢٢فَذَهَبَ الرَّسُولُ وَدَخَلَ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِكُلِّ مَا أَرْسَلَهُ فِيهِ يُوآبُ. ٢٣وَقَالَ الرَّسُولُ لِدَاوُدَ: «قَدْ تَجَبَّرَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ وَخَرَجُوا إِلَيْنَا إِلَى الْحَقْلِ فَكُنَّا عَلَيْهِمْ إِلَى مَدْخَلِ الْبَابِ. ٢٤فَرَمَى الرُّمَاةُ عَبِيدَكَ مِنْ عَلَى السُّورِ، فَمَاتَ الْبَعْضُ مِنْ عَبِيدِ الْمَلِكِ، وَمَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيضًا». ٢٥فَقَالَ دَاوُدُ لِلرَّسُولِ: «هكَذَا تَقُولُ لِيُوآبَ: لاَ يَسُؤْ فِي عَيْنَيْكَ هذَا الأَمْرُ، لأَنَّ السَّيْفَ يَأْكُلُ هذَا وَذَاكَ. شَدِّدْ قِتَالَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْرِبْهَا. وَشَدِّدْهُ».

٢٦فَلَمَّا سَمِعَتِ امْرَأَةُ أُورِيَّا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ أُورِيَّا رَجُلُهَا، نَدَبَتْ بَعْلَهَا. ٢٧وَلَمَّا مَضَتِ الْمَنَاحَةُ أَرْسَلَ دَاوُدُ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ، وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا. وَأَمَّا الأَمْرُ الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ. " (صموئيل (٢) ١١/ ٢- ٢٧).

وكان كما أراد، ومات أوريا، وضم داود تلك الزانية إلى زوجاته، ومنها أنجب سليمان، الذي يشرفه كتاب الأناجيل، فيجعلونه أحد أجداد المسيح.

٨- **سليمان** عليه السلام:

وأما سليمان النبي الحكيم الذي تشهد له التوراة بالحكمة. (انظر الأيام (٢) ٢/ ١٢). فقد كان له نصيب أكبر في سلسلة المخازي التوراتية، فقد جعلته التوراة عابدًا لأصنام نسائه اللاتي بلغن ألفًا، كما بنى المعابد لعبادتها، فغضب عليه الرب وسخط، تقول التوراة: "٣وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. ٤وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. ٥فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. ٦وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ. ٧حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ. ٨وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ. ٩فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. " (الملوك (١) ١١/ ٣-١١).

وكانت الأسفار قد أثنت على سليمان، وذكرت بشارة الله لأبيه داود بهذا الابن الذي سيبني بيت الله، ووصفته بالبر والطهارة الذي عبرت عنه الأسفار بلفظة البنوة لله، وهو لفظ يدل على صلاح صاحبه - كما هو معهود في التوراة -، تقول البشارة لداود: "٩هُوَذَا يُولَدُ لَكَ ابْنٌ يَكُونُ صَاحِبَ رَاحَةٍ، وَأُرِيحُهُ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِهِ حَوَالَيْهِ، لأَنَّ اسْمَهُ يَكُونُ سُلَيْمَانَ. فَأَجْعَلُ سَلاَمًا وَسَكِينَةً فِي إِسْرَائِيلَ فِي أَيَّامِهِ. ١٠هُوَ يَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي، وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا، وَأَنَا لَهُ أَبًا وَأُثَبِّتُ كُرْسِيَّ مُلْكِهِ عَلَى إِسْرَائِيلَ إِلَى الأَبَدِ. " (الأيام (١) ٢٢/ ٩-١١)، كما ذكرت الأسفار أن الله سماه "يديديا" (أي حبيب الرب)، لأن "الرب أحبه" (صموئيل (٢) ١٢/ ٢٤)، فهل ضيع سليمان - المبشر به - أوامر الرب؟ وهل عمل الشر وبنى معابد الأوثان طمعًا في رضا نسائه أم كان - المحبوب عند الله - فصدق فيه قول الله في القرآن، فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ

سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٣٠)، ويقول أيضًا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ (البقرة: ١٠٢).

٩- أنبياء بني إسرائيل قبل المسيح كانوا لصوصًا.

وهذا ما ينسبه إنجيل يوحنا إلى المسيح حين يقول: " ٧فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أيضًا: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا بَابُ الْخِرَافِ. ٨جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ، وَلكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ. ٩أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى. ١٠اَلسَّارِقُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ، وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ. ١١أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. " (يوحنا/ ١٠/ ٧- ١١).

١٠ - الرسول يفتاح ابن زنا:

- ورد في صموئيل(١) ١٢/ ١١: " ١١فَأَرْسَلَ الرَّبُّ يَرُبَّعَلَ وَبَدَانَ وَيَفْتَاحَ وَصَمُوئِيلَ، وَأَنْقَذَكُمْ مِنْ يَدِ أَعْدَائِكُمُ الَّذِينَ حَوْلَكُمْ فَسَكَنْتُمْ آمِنِينَ. "

- وورد في قضاة (١١/ ١): " ١وَكَانَ يَفْتَاحُ الْجِلْعَادِيُّ جَبَّارَ بَأْسٍ، وَهُوَ ابْنُ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ. وَجِلْعَادُ وَلَدَ يَفْتَاحَ. "

١١- النبي إشعياء يتعرى ثلاثة سنين:

ورد في إشعياء ٢٠/ ٢- ٤: " ٢فِي ذلِكَ الْوَقْتِ تَكَلَّمَ الرَّبُّ عَنْ يَدِ إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ قَائِلًا: «اِذْهَبْ وَحُلَّ الْمِسْحَ عَنْ حَقَوَيْكَ وَاخْلَعْ حِذَاءَكَ عَنْ رِجْلَيْكَ». فَفَعَلَ هكَذَا وَمَشَى مُعَرًّى وَحَافِيًا. ٣فَقَالَ الرَّبُّ: «كَمَا مَشَى عَبْدِي إِشَعْيَاءُ مُعَرًّى وَحَافِيًا ثَلاَثَ سِنِينٍ، آيَةً وَأُعْجُوبَةً عَلَى مِصْرَ وَعَلَى كُوشَ، ٤هكَذَا يَسُوقُ مَلِكُ أَشُّورَ سَبْيَ مِصْرَ وَجَلاَءَ كُوشَ، الْفِتْيَانَ وَالشُّيُوخَ، عُرَاةً وَحُفَاةً وَمَكْشُوفِي الأَسْتَاهِ خِزْيًا لِمِصْرَ. "

١٢- يهوذا يزني مع زوجة ابنه:

ورد في التكوين ٣٨/ ١١- ١٩: " ١١فَقَالَ يَهُوذَا لِثَامَارَ كَنَّتِهِ: «اقْعُدِي أَرْمَلَةً فِي بَيْتِ

أَبِيكِ حَتَّى يَكْبُرَ شِيلَةُ ابْنِي». لأَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّهُ يَمُوتُ هُوَ أَيضًا كَأَخَوَيْهِ». فَمَضَتْ ثَامَارُ وَقَعَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا. ١٢وَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ مَاتَتِ ابْنَةُ شُوعٍ امْرَأَةُ يَهُوذَا. ثُمَّ تَعَزَّى يَهُوذَا فَصَعِدَ إِلَى جُزَّازِ غَنَمِهِ إِلَى تِمْنَةَ، هُوَ وَحِيرَةُ صَاحِبُهُ الْعَدُلاَّمِيُّ. ١٣فَأُخْبِرَتْ ثَامَارُ وَقِيلَ لَهَا: «هُوَذَا حَمُوكِ صَاعِدٌ إِلَى تِمْنَةَ لِيَجُزَّ غَنَمَهُ». ١٤فَخَلَعَتْ عَنْهَا ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا، وَتَغَطَّتْ بِبُرْقُعٍ وَتَلَفَّفَتْ، وَجَلَسَتْ فِي مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ، لأَنَّهَا رَأَتْ أَنَّ شِيلَةَ قَدْ كَبُرَ وَهِيَ لَمْ تُعْطَ لَهُ زَوْجَةً. ١٥فَنَظَرَهَا يَهُوذَا وَحَسِبَهَا زَانِيَةً، لأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهَا. ١٦فَمَالَ إِلَيْهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ: «هَاتِي أَدْخُلْ عَلَيْكِ». لأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا كَنَّتُهُ. فَقَالَتْ: «مَاذَا تُعْطِينِي لِكَيْ تَدْخُلَ عَلَيَّ؟» ١٧فَقَالَ: «إِنِّي أُرْسِلُ جَدْيَ مِعْزًى مِنَ الْغَنَمِ». فَقَالَتْ: «هَلْ تُعْطِينِي رَهْنًا حَتَّى تُرْسِلَهُ؟». ١٨فَقَالَ: «مَا الرَّهْنُ الَّذِي أُعْطِيكِ؟» فَقَالَتْ: «خَاتِمُكَ وَعِصَابَتُكَ وَعَصَاكَ الَّتِي فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهَا وَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَحَبِلَتْ مِنْهُ. ١٩ثُمَّ قَامَتْ وَمَضَتْ وَخَلَعَتْ عَنْهَا بُرْقُعَهَا وَلَبِسَتْ ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا. "

١٣- نبي الله شاول يزوج ابنته زوجة لداود ﷺ من شخص آخر وهي لم تطلق من زوجها الأول:

ورد في سفر صموئيل الأول (١٨/ ٢٧) " فَأَعْطَاهُ شَاوُلُ مِيكَالَ ابْنَتَهُ امْرَأَةً. "

وورد في صموئيل الثاني (٣/ ١٤ - ١٦) " ١٤وَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً إِلَى إِيشْبُوشَثَ بْنِ شَاوُلَ يَقُولُ: «أَعْطِنِي امْرَأَتِي مِيكَالَ الَّتِي خَطَبْتُهَا لِنَفْسِي بِمِئَةِ غُلْفَةٍ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ». ١٥فَأَرْسَلَ إِيشْبُوشَثُ وَأَخَذَهَا مِنْ عِنْدِ رَجُلِهَا، مِنْ فَلْطِيئِيلَ بْنِ لاَيِشَ. ١٦وَكَانَ رَجُلُهَا يَسِيرُ مَعَهَا وَيَبْكِي وَرَاءَهَا إِلَى بَحُورِيمَ. فَقَالَ لَهُ أَبْنَيْرُ: «اذْهَبِ. ارْجعْ». فَرَجَعَ. "

١٤- نبي الله شاول يكفر بذهابه لعرافة:

ورد في سفر صموئيل الأول (٢٨/ ٨) "٨فَتَنَكَّرَ شَاوُلُ وَلَبِسَ ثِيَابًا أُخْرَى، وَذَهَبَ هُوَ وَرَجُلاَنِ مَعَهُ وَجَاءُوا إِلَى الْمَرْأَةِ لَيْلاً. وَقَالَ: «اعْرِفِي لِي بِالْجَانِّ وَأَصْعِدِي لِي مَنْ أَقُولُ لَكِ» "

١٥- نبي الله ناثان يتآمر مع أمه ويكذبان وينصبان على أبيهما داود لإختيار سليمان

نبيًا: (ملوك الأول ١/ ١١- ٣٠)

١٦ – نبي الله شمشمون يزني بامرأة في غزة: (قضاة ١٦/ ١)

١٧- نبي الله إرمياء يحكم على نبي الله حننيا بالكفر ويقتله:

ورد في سفر إرميا (٢٨/ ١٥ – ١٧) "١٥فَقَالَ إِرْمِيَا النَّبِيُّ لِحَنَنِيَّا النَّبِيِّ: «اسْمَعْ يَا حَنَنِيَّا. إِنَّ الرَّبَّ لَمْ يُرْسِلْكَ، وَأَنْتَ قَدْ جَعَلْتَ هذَا الشَّعْبَ يَتَّكِلُ عَلَى الْكَذِبِ. ١٦لِذلِكَ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا طَارِدُكَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ. هذِهِ السَّنَةَ تَمُوتُ، لأَنَّكَ تَكَلَّمْتَ بِعِصْيَانٍ عَلَى الرَّبِّ». ١٧فَمَاتَ حَنَنِيَّا النَّبِيُّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ فِي الشَّهْرِ السَّابعِ.

هذه بعض الأمثلة من الكتاب المقدس حول صفات الأنبياء.

ونتساءل: لو كان هذا حال أنبياء الله؛ فما فائدة النبوات بعد ذلك إذا كان المختارون من البشر وصفوتهم على مثل هذه الحال؟ وأي خير يرتجى في إصلاح البشرية وتطهيرها من دنس الشرك والخطيئة بعد الذي قرأنا؟

ثم هل تخليد هذا الدنس يصدر عن وحي السماء؟ لو كان ذلك الذي ذكرته التوراة من المخازي حقًا فما فائدة ذكره؟ ما الفائدة المرجوة منه حتى يسطره الله في وحيه؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.[1]

ودفاعًا عن أنبياء الله تعالى، نذكر تعظيم الله لأنبيائه في القرآن الكريم:

١-قال الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩﴾(مريم/ ٥٨).

٢-وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ

(١) انظر: هل العهد القديم كلمة الله؟ (٩١ – ١٠١)، الإسلام والأديان الأخرى (٦١ – ٦٤)، النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام (٣٣، ٤٥) للواء/ أحمد عبد الوهاب، الجنس في العهد اليهودي القديم، محمد عبد الحليم عبد الفتاح (١٤٠ – ١٥٩)، المناظرة الكبرى مع القس زكريا بطرس حول صحة الكتاب المقدس (٣٩٠ – ٤٠٠)، التورات كتاب مقدس أم جمع من الأساطير، تأليف/ ليوتاكسل، ترجمة/ حسان ميخائيل إسحاق.

ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأنبياء/ ٧٣).

٣-وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الأنعام ٨٣ - ٩٠).

المبحث الثالث: الأخلاق في الكتاب المقدس وأثره على أتباعه.

تمهيد:

جاء في كلام المسيح: " ١٥«اِحْتَرِزُوا مِنَ الأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحُمْلاَنِ، وَلكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِل ذِئَابٌ خَاطِفَةٌ! ١٦مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟ ١٧هكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، ١٨لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. ١٩كُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. ٢٠فَإِذًا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. (متى ٧/ ١٥ - ٢٠).

يسوق المسلمون هذا النص الإنجيلي ويطلبون من النصارى التحاكم إليه، ومن ثم تكون الثمار دالة على حسن الغرس أو سوئه.

أولًا: الأخلاق في العهد القديم

يقول بولس: " ١٦كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحًى بِهِ مِنَ الله، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ، ١٧لِكَيْ يَكُونَ إِنْسَانُ الله كَامِلًا، مُتَأَهِّبًا لِكُلِّ عَمَل صَالِحٍ. " (تيموثاوس (٢) ٣/ ١٦).

فهل كان الكتاب المقدس فعلًا موبخًا للخطيئة ومعلمًا للبر ومقومًا للسلوك، وصالحًا للتأديب؟

تمتلئ جنبات الكتاب بالنصوص المختلفة، والذي يعنينا هنا تلك النصوص التي مست الجانب الأخلاقي، فقد امتلأت أسفار الكتاب المقدس بالحديث عن رذائل مارسها بنو إسرائيل وغيرهم، وحكت طويلًا عن سكرهم وزناهم ووثنيتهم. ولقد يظن الظان أنها حكت ذلك في باب النهر والتأديب والتبصر في عاقبة المجرمين.

ولكن شيئًا من ذلك لم يكن في الكتاب المقدس الذي حوى بين دفتيه عشرات النصوص القبيحة والوقحة التي تمثل صورة لأدب الفراش والجنس المكشوف.

أولًا: ألفاظ جنسية فاضحة لا تحمل صفة القداسة والطهارة في الكتاب المقدس.

سفر نشيد الإنشاد هو أحد أسفار الكتاب المقدس ويدعي النصارى أن رب العالمين

أوحاه إلى نبيه سليمان ﷺ وهذا نصه بحسب ترجمة الفاندايك:

ورد في سفر نشيد الإنشاد (٧: ١ - ٩): ((١مَا أَجْمَلَ رِجْلَيْكِ بِالنَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الْكَرِيمِ! دَوَائِرُ فَخْذَيْكِ مِثْلُ الْحَلِيِّ، صَنْعَةِ يَدَيْ صَنَّاعٍ. ٢سُرَّتُكِ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لاَ يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْزُوجٌ. بَطْنُكِ صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ. ٣ثَدْيَاكِ كَخَشْفَتَيْنِ، تَوْأَمَيْ ظَبْيَةٍ. ٤عُنُقُكِ كَبُرْجٍ مِنْ عَاجٍ. عَيْنَاكِ كَالْبِرَكِ فِي حَشْبُونَ عِنْدَ بَابِ بَثِّ رَبِّيمَ. أَنْفُكِ كَبُرْجِ لُبْنَانَ النَّاظِرِ تُجَاهَ دِمَشْقَ. ٥رَأْسُكِ عَلَيْكِ مِثْلُ الْكَرْمَلِ، وَشَعْرُ رَأْسِكِ كَأُرْجُوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ. ٦مَا أَجْمَلَكِ وَمَا أَحْلاَكِ أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ بِاللَّذَّاتِ! ٧قَامَتُكِ هذِهِ شَبِيهَةٌ بِالنَّخْلَةِ، وَثَدْيَاكِ بِالْعَنَاقِيدِ. ٨قُلْتُ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى النَّخْلَةِ وَأُمْسِكُ بِعُذُوقِهَا. وَتَكُونُ ثَدْيَاكِ كَعَنَاقِيدِ الْكَرْمِ، وَرَائِحَةُ أَنْفِكِ كَالتُّفَّاحِ، ٩وَحَنَكُكِ كَأَجْوَدِ الْخَمْرِ. لِحَبِيبِي السَّائِغَةُ الْمُرَقْرِقَةُ السَّائِحَةُ عَلَى شِفَاهِ النَّائِمِينَ.)) وفي (٨/ ١-٣): " ١لَيْتَكَ كَأَخٍ لِي الرَّاضِعِ ثَدْيَيْ أُمِّي، فَأَجِدَكَ فِي الْخَارِجِ وَأُقَبِّلَكَ وَلاَ يُخْزُونَنِي. ٢وَأَقُودُكَ وَأَدْخُلُ بِكَ بَيْتَ أُمِّي، وَهِيَ تُعَلِّمُنِي، فَأَسْقِيكَ مِنَ الْخَمْرِ الْمَمْزُوجَةِ مِنْ سُلاَفِ رُمَّانِي. ٣شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي، وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي. ٤أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ أَلاَّ تُيَقِّظْنَ وَلاَ تُنَبِّهْنَ الْحَبِيبَ حَتَّى يَشَاءَ.

قد يأتي مغالط مكابر من عشاق التفسير بالرمز أو(الشفرة) ليقول لنا ما لايفهم ولا يتصور في هذا الكلام الجنسي الفاضح، وليت شعري ماذا يقصد الله جل جلاله بفخذي المرأة المستديرين و بسرتها وبطنها وثدياها؟! (تعالى الله عما يصفون)، أليس من المخجل أن ندعي بأن الله تبارك وتعالى قد أوحى بمثل هذه الكلمات الفاضحة ولو كانت بشكل رمزي؟! ألم يجد كاتب سفر نشيد الأنشاد ألفاظًا أخرى يستعيض بها عن هذه الألفاظ الذي لا يختلف اثنان على مبلغ وقاحتها؟ إن هذا الإصحاح من الكتاب المقدس لم يترك شيئًا للأجيال اللاحقة التي تهوي الغزل الجنسي المفضوح، فهو لاشك مصدر إلهام لمن يسلك طريق الغزل الجنسي الفاضح.

وأخيرًا: هل يجرؤ الآباء بقراءة هذا الكلام في القداس أمام الرجال والنساء؟!

٢-الفراش المعطر!!

وفي سفر الأمثال ٧/ ٦ – ٢١ نتقل بعضًا منه كما يلي:

لأَنِّي مِنْ كُوَّةِ بَيْتِي، مِنْ وَرَاءِ شُبَّاكِي تَطَلَّعْتُ،. . . . ، ٨عَابِرًا فِي الشَّارِعِ عِنْدَ زَاوِيَتِهَا، وَصَاعِدًا فِي طَرِيقِ بَيْتِهَا. ٩فِي الْعِشَاءِ، فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ، فِي حَدَقَةِ اللَّيْلِ وَالظَّلاَمِ. ١٠وَإِذَا بِامْرَأَةٍ اسْتَقْبَلَتْهُ فِي زِيِّ زَانِيَةٍ، وَخَبِيثَةِ الْقَلْبِ. ١١صَخَّابَةٌ هِيَ وَجَامِحَةٌ. فِي بَيْتِهَا لاَ تَسْتَقِرُّ قَدَمَاهَا. ١٢تَارَةً فِي الْخَارِجِ، وَأُخْرَى فِي الشَّوَارِعِ، وَعِنْدَ كُلِّ زَاوِيَةٍ تَكْمُنُ. ١٣فَأَمْسَكَتْهُ وَقَبَّلَتْهُ. أَوْقَحَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ لَهُ: ١٤«عَلَيَّ ذَبَائِحُ السَّلاَمَةِ. الْيَوْمَ أَوْفَيْتُ نُذُورِي. ١٥فَلِذلِكَ خَرَجْتُ لِلِقَائِكَ، لأَطْلُبَ وَجْهَكَ حَتَّى أَجِدَكَ. ١٦بِالدِّيبَاجِ فَرَشْتُ سَرِيرِي، بِمُوَشَّى كَتَّانٍ مِنْ مِصْرَ. ١٧عَطَّرْتُ فِرَاشِي بِمُرّ وَعُودٍ وَقِرْفَةٍ. ١٨هَلُمَّ نَرْتَوِ وُدًّا إِلَى الصَّبَاحِ. نَتَلَذَّذُ بِالْحُبِّ. ١٩لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ فِي الْبَيْتِ. ذَهَبَ فِي طَرِيق بَعِيدَةٍ. . . . ، ٢١أَغْوَتْهُ بِكَثْرَةِ فُنُونِهَا، بِمَلْثِ شَفَتَيْهَا طَوَّحَتْهُ. "

التغزل بثدي المرأة على صفحات الكتاب المقدس!!

ورد في سفر الأمثال (٥: ١٨): ((. . . . وَافْرَحْ بِامْرَأَةِ شَبَابِكَ، ١٩الظَّبْيَةِ الْمَحْبُوبَةِ وَالْوَعْلَةِ الزَّهِيَّةِ. لِيُرْوِكَ ثَدْيَاهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَبِمَحَبَّتِهَا اسْكَرْ دَائِمًا. !))

وأيضًا في نشيد الأنشاد (٨: ٨): ((٨لَنَا أُخْتٌ صَغِيرَةٌ لَيْسَ لَهَا ثَدْيَانِ. فَمَاذَا نَصْنَعُ لأُخْتِنَا فِي يَوْمٍ تُخْطَبُ؟

ونحن نسأل: كيف يمكن أن تأتي مثل هذه العبارات المثيرة للشهوة من عند الله تبارك وتعالى؟!

٤- كيف يصور لنا الكتاب المقدس حجم عورات الشباب وكمية المني الخارج من ذكورهم؟ ورد في سفر حزقيال (٢٣: ١٩): ((٢٠وَعَشِقَتْ مَعْشُوقِيهِمِ الَّذِينَ لَحْمُهُمْ كَلَحْمِ الْحَمِيرِ وَمَنِيُّهُمْ كَمَنِيِّ الْخَيْلِ.)) نحن نسأل: أليس هذا تصويرًا مخجلًا خادشًا للحياء على صفحات الكتاب المقدس؟!

٥- ورد في سفر حزقيال ١٦/ ٣- ٣٩: "٣وَقُلْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ:

مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِيٌّ وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. ٤أَمَّا مِيلاَدُكِ يَوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِي بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِي تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِي تَقْمِيطًا. ٥لَمْ تَشْفُقْ عَلَيْكِ عَيْنٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هذِهِ لِتَرِقَّ لَكِ، بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يَوْمَ وُلِدْتِ. ٦فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي، قُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي. ٧جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيَانِ. نَهَدَ ثَدْيَاكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. ٨فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيْلِي عَلَيْكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي. ٩فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ، ١٠وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ، وَكَسَوْتُكِ بَزًّا. . . . ، ١٥«فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيْتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. ١٦وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيَابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفِعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيْتِ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. ١٧وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيْتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيْتِ بِهَا. . . . ، ٢٠«أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِي، وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَامًا. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ ٢١أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِيَّ وَجَعَلْتِهِمْ يَجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا؟ ٢٢وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. . . . ، ٢٥فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. ٢٦وَزَنَيْتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي. ٢٧«فَهأَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِي عَلَيْكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، اللَّوَاتِي يَخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. ٢٨وَزَنَيْتِ مَعَ بَنِي أَشُّورَ، إِذْ كُنْتِ لَمْ تَشْبَعِي فَزَنَيْتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيْضًا. ٢٩وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَبِهذَا أَيْضًا لَمْ تَشْبَعِي. ٣٠مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ سَلِيطَةٍ، ٣١بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقِرَةً

الأُجْرَةَ. ٣٢أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣لِكُلِّ الزَّوَانِي يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَايَاكِ، وَرَشَيْتِهِمْ لِيَأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. ٣٤وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ فَلِذلِكَ يَا زَانِيَةُ اسْمَعِي كَلاَمَ الرَّبِّ: ٣٦هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أُنْفِقَ نُحَاسُكِ وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُكِ بِزِنَاكِ بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكِ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكِ الَّذِينَ بَذَلْتِهِمْ لَهَا، ٣٧لِذلِكَ هأَنَذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتِ لَهُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيْكِ مِنْ حَوْلِكِ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكِ لَهُمْ لِيَنْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكِ. ٣٨وَأَحْكُمُ عَلَيْكِ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكِ دَمَ السَّخْطِ وَالْغَيْرَةِ. ٣٩وَأُسَلِّمُكِ لِيَدِهِمْ فَيَهْدِمُونَ قُبَّتَكِ وَيُهَدِّمُونَ مُرْتَفَعَاتِكِ، وَيَنْزِعُونَ عَنْكِ ثِيَابَكِ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ، وَيَتْرُكُونَكِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً.

٦-ورد في سفر هوشع ٢/ ١-٢٣: " ١«قُولُوا لإِخْوَتِكُمْ «عَمِّي» وَلأَخَوَاتِكُمْ «رُحَامَةَ». ٢حَاكِمُوا أُمَّكُمْ حَاكِمُوا، لأَنَّهَا لَيْسَتِ امْرَأَتِي وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا، لِكَيْ تَعْزِلَ زِنَاهَا عَنْ وَجْهِهَا وَفِسْقَهَا مِنْ بَيْنِ ثَدْيَيْهَا، ٣لِئَلاَّ أُجَرِّدَهَا عُرْيَانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيَوْمِ وِلاَدَتِهَا، وَأَجْعَلَهَا كَقَفْرٍ، وَأُصَيِّرَهَا كَأَرْضٍ يَابِسَةٍ، وَأُمِيتَهَا بِالْعَطَشِ. ٤وَلاَ أَرْحَمُ أَوْلاَدَهَا لأَنَّهُمْ أَوْلاَدُ زِنًى. لأَنَّ أُمَّهُمْ قَدْ زَنَتِ. الَّتِي حَبِلَتْ بِهِمْ صَنَعَتْ خِزْيًا. لأَنَّهَا قَالَتْ: أَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيَّ الَّذِينَ يُعْطُونَ خُبْزِي وَمَائِي، صُوفِي وَكَتَّانِي، زَيْتِي وَأَشْرِبَتِي. ٦لِذلِكَ هأَنَذَا أُسَيِّجُ طَرِيقَكِ بِالشَّوْكِ، وَأَبْنِي حَائِطَهَا حَتَّى لاَ تَجِدَ مَسَالِكَهَا. ٧فَتَتْبَعُ مُحِبِّيهَا وَلاَ تُدْرِكُهُمْ، وَتُفَتِّشُ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَجِدُهُمْ. فَتَقُولُ: أَذْهَبُ وَأَرْجِعُ إِلَى رَجُلِي الأَوَّلِ، لأَنَّهُ حِينَئِذٍ كَانَ خَيْرٌ لِي مِنَ الآنَ. ٨وَهِيَ لَمْ تَعْرِفْ أَنِّي أَنَا أَعْطَيْتُهَا الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيْتَ، وَكَثَّرْتُ لَهَا فِضَّةً وَذَهَبًا جَعَلُوهُ لِبَعْل. ٩لِذلِكَ أَرْجِعُ وَآخُذُ قَمْحِي فِي حِينِهِ، وَمِسْطَارِي فِي وَقْتِهِ، وَأَنْزِعُ صُوفِي وَكَتَّانِي اللَّذَيْنِ لِسَتْرِ عَوْرَتِهَا. ١٠وَالآنَ أَكْشِفُ عَوْرَتَهَا أَمَامَ عُيُونِ مُحِبِّيهَا وَلاَ يُنْقِذُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. ١١وَأُبَطِّلُ كُلَّ أَفْرَاحِهَا: أَعْيَادَهَا وَرُؤُوسَ شُهُورِهَا وَسُبُوتَهَا وَجَمِيعَ مَوَاسِمِهَا. ١٢وَأُخَرِّبُ كَرْمَهَا وَتِينَهَا اللَّذَيْنِ

قَالَتْ: هُمَا أُجْرَتِي الَّتِي أَعْطَانِيهَا مُحِبِّيَّ، وَأَجْعَلُهَا وَعْرًا فَيَأْكُلُهَا حَيَوَانُ الْبَرِّيَّةِ. ١٣وَأُعَاقِبُهَا عَلَى أَيَّامِ بَعْلِيمَ الَّتِي فِيهَا كَانَتْ تُبَخِّرُ لَهُمْ وَتَتَزَيَّنُ بِخَزَائِمِهَا وَحُلِيهَا وَتَذْهَبُ وَرَاءَ مُحِبِّيهَا وَتَنْسَانِي أَنَا، يَقُولُ الرَّبُّ. «لكِنْ هأَنَذَا أَتَمَلَّقُهَا وَأَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَأُلاَطِفُهَا، ١٥وَأُعْطِيهَا كُرُومَهَا مِنْ هُنَاكَ، وَوَادِي عَخُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ. وَهِيَ تُغَنِّي هُنَاكَ كَأَيَّامِ صِبَاهَا، وَكَيَوْمِ صُعُودِهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ١٦وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ الرَّبُّ، أَنَّكِ تَدْعِينَنِي: رَجُلِي، وَلاَ تَدْعِينَنِي بَعْدُ بَعْلِي. ١٧وَأَنْزِعُ أَسْمَاءَ الْبَعْلِيمِ مِنْ فَمِهَا، فَلاَ تُذْكَرُ أَيضًا بِأَسْمَائِهَا. ١٨وَأَقْطَعُ لَهُمْ عَهْدًا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مَعَ حَيَوَانِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَدَبَّابَاتِ الأَرْضِ، وَأَكْسِرُ الْقَوْسَ وَالسَّيْفَ وَالْحَرْبَ مِنَ الأَرْضِ، وَأَجْعَلُهُمْ يَضْطَجِعُونَ آمِنِينَ. ١٩وَأَخْطُبُكِ لِنَفْسِي إِلَى الأَبَدِ. وَأَخْطُبُكِ لِنَفْسِي بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَالإِحْسَانِ وَالْمَرَاحِمِ. ٢٠أَخْطُبُكِ لِنَفْسِي بِالأَمَانَةِ فَتَعْرِفِينَ الرَّبَّ. ٢١وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنِّي أَسْتَجِيبُ، يَقُولُ الرَّبُّ، أَسْتَجِيبُ السَّمَاوَاتِ وَهِيَ تَسْتَجِيبُ الأَرْضَ، ٢٢وَالأَرْضُ تَسْتَجِيبُ الْقَمْحَ وَالْمِسْطَارَ وَالزَّيْتَ، وَهِيَ تَسْتَجِيبُ يَزْرَعِيلَ. ٢٣وَأَزْرَعُهَا لِنَفْسِي فِي الأَرْضِ، وَأَرْحَمُ لُورُحَامَةَ، وَأَقُولُ لِلُوعَمِّي: أَنْتَ شَعْبِي، وَهُوَ يَقُولُ: أَنْتَ إِلهِي».

٧-ورد في سفر حبقوق ٢/ ١٥ – ١٦: " ١٥«وَيْلٌ لِمَنْ يَسْقِي صَاحِبَهُ سَافِحًا حُمُوَّكَ وَمُسْكِرًا أيضًا، لِلنَّظَرِ إِلَى عَوْرَاتِهِمْ. ١٦قَدْ شَبِعْتَ خِزْيًا عِوَضًا عَنِ الْمَجْدِ. فَاشْرَبْ أَنْتَ أيضًا وَاكْشِفْ غُرْلَتَكَ! تَدُورُ إِلَيْكَ كَأْسُ يَمِينِ الرَّبِّ، وَقُيَاءُ الْخِزْيِ عَلَى مَجْدِكَ. "

٨- ورد في سفر ناحوم ٣/ ٤-٥: " ٤مِنْ أَجْلِ زِنَى الزَّانِيَةِ الْحَسَنَةِ الْجَمَالِ صَاحِبَةِ السِّحْرِ الْبَائِعَةِ أُمَمًا بِزِنَاهَا، وَقَبَائِلَ بِسِحْرِهَا. ٥«هأَنَذَا عَلَيْكِ، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ، فَأَكْشِفُ أَذْيَالَكِ إِلَى فَوْقِ وَجْهِكِ، وَأُرِي الأُمَمَ عَوْرَتَكِ وَالْمَمَالِكَ خِزْيَكِ.

٩- ورد في سفر إشعيا ٢٣/ ١٥– ١٨: " ١٥وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ صُورَ تُنْسَى سَبْعِينَ سَنَةً كَأَيَّامِ مَلِكٍ وَاحِدٍ. مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً يَكُونُ لِصُورَ كَأُغْنِيَّةِ الزَّانِيَةِ: ١٦«خُذِي عُودًا. طُوفِي فِي الْمَدِينَةِ أَيَّتُهَا الزَّانِيَةُ الْمَنْسِيَّةُ. أَحْسِنِي الْعَزْفَ، أَكْثِرِي الْغِنَاءَ لِكَيْ تُذْكَرِي».

١٧وَيَكُونُ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً أَنَّ الرَّبَّ يَتَعَهَّدُ صُورَ فَتَعُودُ إِلَى أُجْرَتِهَا، وَتَزْنِي مَعَ كُلِّ مَمَالِكِ الْبِلاَدِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. ١٨وَتَكُونُ تِجَارَتُهَا وَأُجْرَتُهَا قُدْسًا لِلرَّبِّ. لاَ تُخْزَنُ وَلاَ تُكْنَزُ، بَلْ تَكُونُ تِجَارَتُهَا لِلْمُقِيمِينَ أَمَامَ الرَّبِّ، لأَكْلٍ إِلَى الشِّبَعِ وَلِلِبَاسٍ فَاخِرٍ."

١٠ - الكتاب المقدس يحدثنا عن ٢٠٠ غلفة (جلدة الذكر التي تقطع عند الختان) قدمت كمهر ! ! !

جاء في سفر صموئيل الأول (١٨/ ٢٥): أن نبي الله داود طلب أن يكون زوجًا لابنة شاول الملك فاشترط شاول عليه أن يكون المهر ١٠٠ غلفة: ((فَأَبْلَغَ عَبِيدُ شَاوُلَ دَاوُدَ بِمَطْلَبِ الْمَلِكِ، فَرَاقَهُ الأَمْرُ، وَلاَ سِيَّمَا فِكْرَةُ مُصَاهَرَةِ الْمَلِكِ. وَقَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ الْمُهْلَةُ الْمُعْطَاةُ لَهُ، انْطَلَقَ مَعَ رِجَالِهِ وَقَتَلَ مِئَتَيْ رَجُلٍ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، وَأَتَى بِغُلَفِهِمْ وَقَدَّمَهَا كَامِلَةً لِتَكُونَ مَهْرًا لِمُصَاهَرَةِ الْمَلِكِ. فَزَوَّجَهُ شَاوُلُ عِنْدَئِذٍ مِنِ ابْنَتِهِ مِيكَالَ.)).

ثانيًا: دعوة صريحة للاغتصاب

١- ورد في سفر التثنية ٢٢/ ٢٨- ٢٩: " ٢٨«إِذَا وَجَدَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ غَيْرَ مَخْطُوبَةٍ، فَأَمْسَكَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، فَوُجِدَا. ٢٩يُعْطِي الرَّجُلُ الَّذِي اضْطَجَعَ مَعَهَا لأَبِي الْفَتَاةِ خَمْسِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَتَكُونُ هِيَ لَهُ زَوْجَةً مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أَذَلَّهَا. لاَ يَقْدِرُ أَنْ يُطَلِّقَهَا كُلَّ أَيَّامِهِ. "

٢-كيف يوصي الكتاب المقدس بسرقة النساء واغتصابهن؟ جاء في سفر القضاة (٢١: ٢٠): ((فَأَوْصَوْا بَنِي بَنْيَامِينَ قَائِلِينَ: انْطَلِقُوا إِلَى الْكُرُومِ وَاكْمِنُوا فِيهَا. وَانْتَظِرُوا حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ بَنَاتُ شِيلُوهَ لِلرَّقْصِ فَانْدَفِعُوا أَنْتُمْ نَحْوَهُنَّ، وَاخْطِفُوا لأَنْفُسِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَةً وَاهْرُبُوا بِهِنَّ إِلَى أَرْضِ بَنْيَامِينَ.)) ونحن نسأل: أين القداسة في هذا الكلام؟

ثالثًا: السباب المقزع على صفحات الكتاب المقدس

كما تحوي الأسفار المقدسة بعض صور السباب المقزع، كما في قوله: ١- " ٦الله قَدْ تَكَلَّمَ بِقُدْسِهِ: . . . . . . ٨مُوآبُ مِرْحَضَتِي. عَلَى أَدُومَ أَطْرَحُ نَعْلِي " (المزمور٦٠/ ٦-٨)، فهل يعتبر الإله العظيم أمة من الأمم التي خلقها محلًا لقضاء حاجته أو التنظف من قذره، بل هل له حاجة أو قذر؟ وهل يحتاج إلى مرحاض، ولو على سبيل الاستعارة.

٢- ومن السباب الذي لا يليق بالله العظيم الجليل ووحيه ما تنقله الأسفار عن الملك شاول أنه قال ليوناثان ابنه: "٣٠فَحَمِيَ غَضَبُ شَاوُلَ عَلَى يُونَاثَانَ وَقَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ الْمُتَعَوِّجَةِ الْمُتَمَرِّدَةِ، أَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ قَدِ اخْتَرْتَ ابْنَ يَسَّى لِخِزْيِكَ وَخِزْيِ عَوْرَةِ أُمِّكَ؟ " (صموئيل (١)٢٠/ ٣٠).

٣ – ومن ذلك أن إشعيا قال لبني إسرائيل: "٣«أَمَّا أَنْتُمْ فَتَقَدَّمُوا إِلَى هُنَا يَا بَنِي السَّاحِرَةِ، نَسْلَ الْفَاسِقِ وَالزَّانِيَةِ " (إشعيا ٥٧/ ٣).

ثانيًا: حالات الزنا وزنا المحارم الواقعة في الكتاب المقدس.

من أصعب الأمور التي تواجهها البشرية هو الانحلال الخلقي، تفتت الأسرة وموت العلاقة الأسرية بين أفراد الأسرة، فلا يقدر الأخ حق أخته ولا يعلم حرمتها ويتورط في الفساد الخلقي والنفسي لدرجة أن يزني بأخته أو أن يزني الأب ببنته أو زوجة ابنه أو الأم بابنها وغيره من الحوادث التي تنذر عما قريب بهلاك البشرية وفسادها وحلول غضب الله على العالمين.

١- شمشون يمارس الزنى مع إحدى البغايا بمدينة غزة على صفحات الكتاب المقدس! ، يقول كاتب سفر القضاة (١٦/ ١): ((١ثُمَّ ذَهَبَ شَمْشُونُ إِلَى غَزَّةَ، وَرَأَى هُنَاكَ امْرَأَةً زَانِيَةً فَدَخَلَ إِلَيْهَا.))

٢- (راعوث) تضاجع (بوعز) بتوصية من حماتها على صفحات الكتاب المقدس، يقول كاتب سفر راعوث (٣: ٤): ((٤وَمَتَى اضْطَجَعَ فَاعْلَمِي الْمَكَانَ الَّذِي يَضْطَجِعُ فِيهِ، وَادْخُلِي وَاكْشِفِي نَاحِيَةَ رِجْلَيْهِ وَاضْطَجِعِي، وَهُوَ يُخْبِرُكِ بِمَا تَعْمَلِينَ».))

٣- داود النبي يضاجع فتاة صغيرة في فراشه على صفحات الكتاب المقدس! ! :

يقول كاتب سفر الملوك الأول (١/ ١- ٤): ((١وَشَاخَ الْمَلِكُ دَاوُدُ. تَقَدَّمَ فِي الأَيَّامِ. وَكَانُوا يُدَثِّرُونَهُ بِالثِّيَابِ فَلَمْ يَدْفَأْ. ٢فَقَالَ لَهُ عَبِيدُهُ: «لِيُفَتِّشُوا لِسَيِّدِنَا الْمَلِكِ عَلَى فَتَاةٍ عَذْرَاءَ، فَلْتَقِفْ أَمَامَ الْمَلِكِ وَلْتَكُنْ لَهُ حَاضِنَةً وَلْتَضْطَجِعْ فِي حِضْنِكَ فَيَدْفَأَ سَيِّدُنَا الْمَلِكُ». ٣فَفَتَّشُوا عَلَى فَتَاةٍ جَمِيلَةٍ فِي جَمِيعِ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ، فَوَجَدُوا أَبِيشَجَ الشُّونَمِيَّةَ، فَجَاءُوا بِهَا إِلَى الْمَلِكِ. ٤وَكَانَتِ الْفَتَاةُ جَمِيلَةً جِدًّا، فَكَانَتْ حَاضِنَةَ الْمَلِكِ. وَكَانَتْ تَخْدِمُهُ، وَلكِنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَعْرِفْهَا. "

٤ - لوط يزني ببناته:

ورد في سفر التكوين ١٩/ ٢٩ - ٣٨: ((٢٩وَحَدَثَ لَمَّا أَخْرَبَ الله مُدُنَ الدَّائِرَةِ أَنَّ الله ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرْسَلَ لُوطًا مِنْ وَسَطِ الانْقِلاَبِ. حِينَ قَلَبَ الْمُدُنَ الَّتِي سَكَنَ فِيهَا لُوطٌ.

وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. ٣١وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. ٣٢هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». ٣٣فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. ٣٤وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». ٣٥فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، ٣٦فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. ٣٧فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. ٣٨وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ. "

٥ - نبي الله داود يزني بزوجة جاره!

ورد في سفر صموئيل الثاني (١١: ١): ((. . . . وَأَمَّا دَاوُدُ فَأَقَامَ فِي أُورُشَلِيمَ. ٢وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. ٣فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ». ٤فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». ٦فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: «أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ». فَأَرْسَلَ يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. ٧فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. ٨وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ». فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ

الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ. ٩وَنَامَ أُورِيَّا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ جَمِيعِ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْتِهِ. ١٠فَأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ: «لَمْ يَنْزِلْ أُورِيَّا إِلَى بَيْتِهِ». فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّفَرِ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ؟ » ١١فَقَالَ أُورِيَّا لِدَاوُدَ: «إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ، وَسَيِّدِي يُوآبُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّحْرَاءِ، وَأَنَا آتِي إِلَى بَيْتِي لآكُلَ وَأَشْرَبَ وَأَضْطَجعَ مَعَ امْرَأَتِي؟ وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ، لاَ أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ». ١٢فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَقِمْ هُنَا الْيَوْمَ أيضًا، وَغَدًا أُطْلِقُكَ». فَأَقَامَ أُورِيَّا فِي أُورُشَلِيمَ ذلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. ١٣وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ، وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. ١٥وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ». . . . ، ٢٦فَلَمَّا سَمِعَتِ امْرَأَةُ أُورِيَّا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ أُورِيَّا رَجُلُهَا، نَدَبَتْ بَعْلَهَا. ٢٧وَلَمَّا مَضَتِ الْمَنَاحَةُ أَرْسَلَ دَاوُدُ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ، وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا. وَأَمَّا الأَمْرُ الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ. "

٦- ممارسة الجنس بين زوجة الابن وحميها على صفحات الكتاب المقدس

ورد في سفر التكوين (٣٨: ١٣ – ٢٣): ((١٣فَأُخْبِرَتْ ثَامَارُ وَقِيلَ لَهَا: «هُوَذَا حَمُوكِ صَاعِدٌ إِلَى تِمْنَةَ لِيَجُزَّ غَنَمَهُ». ١٤فَخَلَعَتْ عَنْهَا ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا، وَتَغَطَّتْ بِبُرْقُعٍ وَتَلَفَّفَتْ، وَجَلَسَتْ فِي مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ، لأَنَّهَا رَأَتْ أَنَّ شِيلَةَ قَدْ كَبُرَ وَهِيَ لَمْ تُعْطَ لَهُ زَوْجَةً. ١٥فَنَظَرَهَا يَهُوذَا وَحَسِبَهَا زَانِيَةً، لأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهَا. ١٦فَمَالَ إِلَيْهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ: «هَاتِي أَدْخُلْ عَلَيْكِ». لأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا كَنَّتُهُ. فَقَالَتْ: «مَاذَا تُعْطِينِي لِكَيْ تَدْخُلَ عَلَيَّ؟ » ١٧فَقَالَ: «إِنِّي أُرْسِلُ جَدْيَ مِعْزًى مِنَ الْغَنَمِ». فَقَالَتْ: «هَلْ تُعْطِينِي رَهْنًا حَتَّى تُرْسِلَهُ؟ ». ١٨فَقَالَ: «مَا الرَّهْنُ الَّذِي أُعْطِيكِ؟ » فَقَالَتْ: «خَاتِمُكَ وَعِصَابَتُكَ وَعَصَاكَ الَّتِي فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهَا وَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَحَبِلَتْ مِنْهُ. ١٩ثُمَّ قَامَتْ وَمَضَتْ وَخَلَعَتْ عَنْهَا بُرْقُعَهَا وَلَبِسَتْ ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا.

١-٢٠فَأَرْسَلَ يَهُوذَا جَدْيَ الْمِعْزَى بِيَدِ صَاحِبِهِ الْعَدُلاَّمِيِّ لِيَأْخُذَ الرَّهْنَ مِنْ يَدِ الْمَرْأَةِ، فَلَمْ يَجِدْهَا. ٢١فَسَأَلَ أَهْلَ مَكَانِهَا قَائِلًا: «أَيْنَ الزَّانِيَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي عَيْنَايِمَ عَلَى الطَّرِيقِ؟ » فَقَالُوا: «لَمْ تَكُنْ ههُنَا زَانِيَةٌ». ٢٢فَرَجَعَ إِلَى يَهُوذَا وَقَالَ: «لَمْ أَجِدْهَا. وَأَهْلُ الْمَكَانِ أيضا قَالُوا: لَمْ تَكُنْ ههُنَا زَانِيَةٌ». ٢٣فَقَالَ يَهُوذَا: «لِتَأْخُذْ لِنَفْسِهَا، لِئَلاَّ نَصِيرَ إِهَانَةً. إِنِّي قَدْ أَرْسَلْتُ هذَا الْجَدْيَ وَأَنْتَ لَمْ تَجِدْهَا».

٢-وَلَمَّا كَانَ نَحْوُ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ، أُخْبِرَ يَهُوذَا وَقِيلَ لَهُ: «قَدْ زَنَتْ ثَامَارُ كَنَّتُكَ، وَهَا هِيَ حُبْلَى أيضًا مِنَ الزِّنَا».

زوجات الأب:

٣-ورد في صموئيل الثاني ١٦/ ٢٠ - ٢٢: ٢٠وَقَالَ أَبْشَالُومُ لأَخِيتُوفَلَ: «أَعْطُوا مَشُورَةً، مَاذَا نَفْعَلُ؟ ». ٢١فَقَالَ أَخِيتُوفَلُ لأَبْشَالُومَ: «ادْخُلْ إِلَى سَرَارِيِّ أَبِيكَ اللَّوَاتِي تَرَكَهُنَّ لِحِفْظِ الْبَيْتِ، فَيَسْمَعَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ أَنَّكَ قَدْ صِرْتَ مَكْرُوهًا مِنْ أَبِيكَ، فَتَتَشَدَّدَ أَيْدِي جَمِيعِ الَّذِينَ مَعَكَ». ٢٢فَنَصَبُوا لأَبْشَالُومَ الْخَيْمَةَ عَلَى السَّطْحِ، وَدَخَلَ أَبْشَالُومُ إِلَى سَرَارِيِّ أَبِيهِ أَمَامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ.

٨- متفرقات فاضحة

١-ورد في أمثال ٥/ ١٩: " ١٩الظَّبْيَةِ الْمَحْبُوبَةِ وَالْوَعْلَةِ الزَّهِيَّةِ. لِيُرْوِكَ ثَدْيَاهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَبِمَحَبَّتِهَا اسْكَرْ دَائِمًا. "

٢-وفي أمثال ٥/ ٣: " ٣لأَنَّ شَفَتَيِ الْمَرْأَةِ الأَجْنَبِيَّةِ تَقْطُرَانِ عَسَلًا، وَحَنَكُهَا أَنْعَمُ مِنَ الزَّيْتِ "

٣-وفي صموئيل (٢) ١٢/ ١١: " ١١هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. "

٤-وفي حزقيال ١٦/ ٢٥: " ٣١بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيق، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقَرَةً الأُجْرَةَ. "

٥-وفي حزقيال ٢٣/ ٣٤: " ٣٤فَتَشْرَبِينَهَا وَتَمْتَصِّينَهَا وَتَقْضِمِينَ شُقَفَهَا وَتَجْتَثِّينَ ثَدْيَيْكِ، لأَنِّي تَكَلَّمْتُ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. "

٦-وورد في سفر التكوين ٣٨/ ٩: ٩فَعَلِمَ أُونَانُ أَنَّ النَّسْلَ لاَ يَكُونُ لَهُ، فَكَانَ إِذْ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةِ أَخِيهِ أَنَّهُ أَفْسَدَ عَلَى الأَرْضِ، لِكَيْ لاَ يُعْطِيَ نَسْلًا لأَخِيهِ. "

٧-وورد في حزقيال ١٦/ ٧: " ٧جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيَانِ. نَهَدَ ثَدْيَاكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. "

٩- العم مع بنت أخيه:

١-ورد في يشوع ١٥/ ١٦: ١٢ فَقَالَ كَالَبُ: «الَّذِي يَضْرِبُ قَرْيَةَ سَفَرٍ وَيَأْخُذُهَا، أُعْطِيهِ عَكْسَةَ ابْنَتِي امْرَأَةً». ١٣فَأَخَذَهَا عُثْنِيئِيلُ بْنُ قَنَازَ، أَخُو كَالَبَ الأَصْغَرُ مِنْهُ. فَأَعْطَاهُ عَكْسَةَ ابْنَتَهُ امْرَأَةً. " لا تفكر يا مسكين أن تقول: إن هذا كان قبل الشريعة، فهذه القصة في نهاية عهد يوشع بن نون تقريبًا بعد وفاة موسى بكثير، ويوشع بن نون لم يضع أي شريعة لبني إسرائيل من حلال أو حرام وإنما وضعها موسى قبل وفاته، ولو كان الأمر هكذا فمن المفروض أن يكون زواج الرجل من بنت أخيه حلال إلى الآن عند اليهود! ! !

٢- ورد في قضاة ١٩/ ٢٢: " ٢٢وَفِيمَا هُمْ يُطَيِّبُونَ قُلُوبَهُمْ، إِذَا بِرِجَالِ الْمَدِينَةِ، رِجَالِ بَنِي بَلِيَّعَالَ، أَحَاطُوا بِالْبَيْتِ قَارِعِينَ الْبَابَ، وَكَلَّمُوا الرَّجُلَ صَاحِبَ الْبَيْتِ الشَّيْخَ قَائِلِينَ: «أَخْرِجِ الرَّجُلَ الَّذِي دَخَلَ بَيْتَكَ فَنَعْرِفَهُ». ٢٣فَخَرَجَ إِلَيْهِمِ الرَّجُلُ صَاحِبُ الْبَيْتِ وَقَالَ لَهُمْ: «لاَ يَا إِخْوَتِي. لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا. بَعْدَمَا دَخَلَ هذَا الرَّجُلُ بَيْتِي لاَ تَفْعَلُوا هذِهِ الْقَبَاحَةَ. ٢٤هُوَذَا ابْنَتِي الْعَذْرَاءُ وَسُرِّيَّتُهُ. دَعُونِي أُخْرِجْهُمَا، فَأَذِلُّوهُمَا وَافْعَلُوا بِهِمَا مَا يَحْسُنُ فِي أَعْيُنِكُمْ. وَأَمَّا هذَا الرَّجُلُ فَلاَ تَعْمَلُوا بِهِ هذَا الأَمْرَ الْقَبِيحَ». ٢٥فَلَمْ يُرِدِ الرِّجَالُ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ. فَأَمْسَكَ الرَّجُلُ سُرِّيَّتَهُ وَأَخْرَجَهَا إِلَيْهِمْ خَارِجًا، فَعَرَفُوهَا وَتَعَلَّلُوا بِهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ إِلَى الصَّبَاحِ. وَعِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَطْلَقُوهَا. ٢٦فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصَّبَاحِ وَسَقَطَتْ عِنْدَ بَابِ بَيْتِ الرَّجُلِ حَيْثُ سَيِّدُهَا هُنَاكَ إِلَى الضَّوْءِ. ٢٧فَقَامَ سَيِّدُهَا فِي الصَّبَاحِ وَفَتَحَ أَبْوَابَ

الْبَيْتِ وَخَرَجَ لِلذَّهَابِ فِي طَرِيقِهِ، وَإِذَا بِالْمَرْأَةِ سُرِّيَّتِهِ سَاقِطَةٌ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ، وَيَدَاهَا عَلَى الْعَتَبَةِ. ٢٨فَقَالَ لَهَا: «قُومِي نَذْهَبْ». فَلَمْ يَكُنْ مُجِيبٌ. فَأَخَذَهَا عَلَى الْحِمَارِ وَقَامَ الرَّجُلُ وَذَهَبَ إِلَى مَكَانِهِ. ٢٩وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ وَأَمْسَكَ سُرِّيَّتَهُ وَقَطَّعَهَا مَعَ عِظَامِهَا إِلَى اثْنَتَيْ عَشَرَةَ قِطْعَةً، وَأَرْسَلَهَا إِلَى جَمِيعِ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ.

٣-وورد في إرميا ٥١/ ١٣: " ١٣أَيَّتُهَا السَّاكِنَةُ عَلَى مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ، الْوَافِرَةُ الْخَزَائِنِ، قَدْ أَتَتْ آخِرَتُكِ، كَيْلُ اغْتِصَابِكِ. "

وتبحث في هذا كله عن عقوبة للمجرم فلا تجد، إذ لم تخبرنا التوراة أن حد الزنا المذكور في سفر اللاويين (٢٠/ ١٧) قد طبق مرة واحدة.

وكنموذج للعقوبة التوراتية المفقودة نعرض لما جاء في سفر صموئيل عن عالي رئيس الكهنة وقاضي بني إسرائيل " ٢٢وَشَاخَ عَالِي جِدًّا، وَسَمِعَ بِكُلِّ مَا عَمِلَهُ بَنُوهُ بِجَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَبِأَنَّهُمْ كَانُوا يُضَاجِعُونَ النِّسَاءَ الْمُجْتَمِعَاتِ فِي بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. ٢٣فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تَعْمَلُونَ مِثْلَ هذِهِ الأُمُورِ؟ لأَنِّي أَسْمَعُ بِأُمُورِكُمُ الْخَبِيثَةِ مِنْ جَمِيعِ هذَا الشَّعْبِ. ٢٤لاَ يَا بَنِيَّ، لأَنَّهُ لَيْسَ حَسَنًا الْخَبَرُ الَّذِي أَسْمَعُ. " (صموئيل (٢) ٢/ ٢٢ - ٢٤)، فهل هذا كل ما صنعه كبير قضاة بني إسرائيل مع أولئك الذين يزنون في خيمة الاجتماع! ؟

يقول ول ديورانت في قصة الحضارة: " ومهما يكن أصلها – أي الكتابات الغرامية – فإن وجودها في التوراة سر خفي ولكنه سر ساحر جميل. ولسنا ندري كيف غفل- أو تغافل- رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية. "(١)

وتقول مقدمة الآباء اليسوعيين: "لا يقرأ نشيد الإنشاد إلا القليل من المؤمنين، لأنه لا يلائمهم كثيرًا ".

ثالثا: شذوذ في الكتاب المقدس

المثال الأول: قصة داود ويوناثان بن شاول الذي تنبأ وهو عريان:

(١) ص(٥٩٠).

ورد في صموئيل ١/ ٢٦: " ٢٦قَدْ تَضَايَقْتُ عَلَيْكَ يَا أَخِي يُونَاثَانُ. كُنْتَ حُلْوًا لِي جِدًّا. مَحَبَّتُكَ لِي أَعْجَبُ مِنْ مَحَبَّةِ النِّسَاءِ. "

قصة داود مع يوناثان ابن شاول قصة عجيبة فعلًا تبدأ بعد أن قتل داود جليات الفلسطيني في الحرب، وداود هو ذلك الفتى الجميل أصفر الشعر جميل العينين كما يصفه الكتاب المقدس في صموئيل الأول ١٦/ ١٢ هكذا: " ١٢فَأَرْسَلَ وَأَتَى بِهِ. وَكَانَ أَشْقَرَ مَعَ حَلاَوَةِ الْعَيْنَيْنِ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ. فَقَالَ الرَّبُّ: «قُمِ امْسَحْهُ، لأَنَّ هذَا هُوَ».

وداود أيضًا هو جد الرب يسوع الذي يعبده النصارى كما هو معلوم للجميع، وهو أبو سليمان، وسليمان هو ابن بتشبع زوجة أوريا الحثي التي اغتصبها داود من زوجها أوريا الحثي وقتل زوجها غدرًا في الحرب وأنجب منها من الزنى سليمان (كما يزعمون هم) وبعد أن قتل داود جليات الفلسطيني أعجب به شاول أبو يوناثان جدًا، خاصة أن داود كان يعمل عنده عازفًا على العود ثم أحبه يوناثان كثيرًا فقال في صموئيل الأول ١٨/ ١ هكذا: " ١وَكَانَ لَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ شَاوُلَ أَنَّ نَفْسَ يُونَاثَانَ تَعَلَّقَتْ بِنَفْسِ دَاوُدَ، وَأَحَبَّهُ يُونَاثَانُ كَنَفْسِهِ. " ومن شدة إعجاب يوناثان بشاول فقد فعل شيئًا عجيبًا من أجله، لقد اضطر يوناثان من شدة حبه لداود أن يخلع ملابسه من أجله، بعد أن قطع معه عهدًا، ولا ندري ما العهد الذي يقطعه رجلان مع بعضهما فيخلع أحدهما ملابسه بعد هذا العهد، كما يقول في نفس السفر ١٨/ ٣-٤: " ٣وَقَطَعَ يُونَاثَانُ وَدَاوُدُ عَهْدًا لأَنَّهُ أَحَبَّهُ كَنَفْسِهِ. ٤وَخَلَعَ يُونَاثَانُ الْجُبَّةَ الَّتِي عَلَيْهِ وَأَعْطَاهَا لِدَاوُدَ مَعَ ثِيَابِهِ وَسَيْفِهِ وَقَوْسِهِ وَمِنْطَقَتِهِ. " حتى أن يوناثان قد حل منطقته التي يلف بها وسطه كما قرأت، ولكن شاول بدأ يشعر بشيء ما تجاه داود فقرر أن يوقعه في فخ حتى يتخلص منه فيضع له العصا والجزرة كما يقول في نفس السفر ١٨/ ٢٠ -٢١: " ٢٠وَمِيكَالُ ابْنَةُ شَاوُلَ أَحَبَّتْ دَاوُدَ، فَأَخْبَرُوا شَاوُلَ، فَحَسُنَ الأَمْرُ فِي عَيْنَيْهِ. ٢١وَقَالَ شَاوُلُ: «أُعْطِيهِ إِيَّاهَا فَتَكُونُ لَهُ شَرَكًا وَتَكُونُ يَدُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ عَلَيْهِ». وَقَالَ شَاوُلُ لِدَاوُدَ ثَانِيَةً: «تُصَاهِرُنِي الْيَوْمَ». وهكذا شعر الملك شاول بخطر داود على بيته،

فداود أصبح على علاقة بيوناثان وقد خلع له يوناثان ملابسه، ثم إن أخت يوناثان (ميكال) قد أحبت داود، فأصبح الولد وأخته يحبان داود، فقرر شاول التخلص منه كما قرأت وقرر أن يوقعه بين فكي الفلسطينين.

ولا تنسى أن شاول هو نبي من أنبياء بني إسرائيل بنص الكتاب المقدس، ولكنه أراد أن يقتل داود فهو يشعر بخطره على آل بيته خاصة على ابنه يوناثان، فماذا قال شاول في نفس السفر ١٨/ ٢٥ هكذا: " ٢٥فَقَالَ شَاوُلُ: «هكَذَا تَقُولُونَ لِدَاوُدَ: لَيْسَتْ مَسَرَّةُ الْمَلِكِ بِالْمَهْرِ، بَلْ بِمِئَةِ غُلْفَةٍ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ لِلانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ». وَكَانَ شَاوُلُ يَتَفَكَّرُ أَنْ يُوقِعَ دَاوُدَ بِيَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. " ولما أفلت داود من هذا الفخ ضج شاول جدا منه فأراد أن يختبر ابنه يوناثان صاحب العلاقة مع داود، فقال له في نفس السفر ١٩/ ١- ٣: " ١وَكَلَّمَ شَاوُلُ يُونَاثَانَ ابْنَهُ وَجَمِيعَ عَبِيدِهِ أَنْ يَقْتُلُوا دَاوُدَ. ٢وَأَمَّا يُونَاثَانُ بْنُ شَاوُلَ فَسُرَّ بِدَاوُدَ جِدًّا. فَأَخْبَرَ يُونَاثَانُ دَاوُدَ قَائِلًا: «شَاوُلُ أَبِي مُلْتَمِسٌ قَتْلَكَ، وَالآنَ فَاحْتَفِظْ عَلَى نَفْسِكَ إِلَى الصَّبَاحِ، وَأَقِمْ فِي خُفْيَةٍ وَاخْتَبِئْ. ٣وَأَنَا أَخْرُجُ وَأَقِفُ بِجَانِبِ أَبِي فِي الْحَقْلِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَأُكَلِّمُ أَبِي عَنْكَ، وَأَرَى مَاذَا يَصِيرُ وَأُخْبِرُكَ». ويبدو ان العلاقة بين داود ويوناثان وصلت إلى مرحلة خطيرة فانظر ماذا يقول له يوناثان في ٢٠/ ٤: " ٤فَقَالَ يُونَاثَانُ لِدَاوُدَ: «مَهْمَا تَقُلْ نَفْسُكَ أَفْعَلْهُ لَكَ».

فمهما يخطر على بال داود فإن يوناثان مستعد أن يفعله له! ! ! لا عجب في ذلك لكن العجب أن يكون مكان اختباء داود الذي يختاره هو الحقل، فهو يريد أن يلتقي بيوناثان في الحقل ليلًا وانظر إلى ما جاء في ٢٠/ ٥: " ٥فَقَالَ دَاوُدُ لِيُونَاثَانَ: «هُوَذَا الشَّهْرُ غَدًا حِينَمَا أَجْلِسُ مَعَ الْمَلِكِ لِلأَكْلِ. وَلكِنْ أَرْسِلْنِي فَأَخْتَبِئَ فِي الْحَقْلِ إِلَى مَسَاءِ الْيَوْمِ الثَّالِثِ. " وقد وافقه يوناثان، وطلب منه أن يخرجا إلى الحقل معا فيقوا في ٢٠/ ١١: " ١١فَقَالَ يُونَاثَانُ لِدَاوُدَ: «تَعَالَ نَخْرُجُ إِلَى الْحَقْلِ». فَخَرَجَا كِلاَهُمَا إِلَى الْحَقْلِ. " فالمحبة كما ترون واضحة جدا بينهما ولا داعي أن نسيء الظن، ولكن كما قال يوناثان ٢٠/ ١٧: "١٧ثُمَّ عَادَ يُونَاثَانُ وَاسْتَحْلَفَ دَاوُدَ بِمَحَبَّتِهِ لَهُ

لأَنَّهُ أَحَبَّهُ مَحَبَّةَ نَفْسِهِ. ١٨وَقَالَ لَهُ يُونَاثَانُ: «غَدًا الشَّهْرُ، فَتُفْتَقَدُ لأَنَّ مَوْضِعَكَ يَكُونُ خَالِيًا. " نعم سيفتقد يوناثان مكان داود فمكانه لا يعوضه أحد أبدًا، ولكن شاول أبا يوناثان قد اكتشف ما بين داود ويوناثان وأدرك حقيقة الأمر فكان قوله في شدة القسوة وإن أردت فقل في شدة الصراحة لقد قال لابنه يوناثان كلمات في نظر من كتبوا هذا الكتاب كلمات رائعة يترفع أي إنسان عفيف أن يذكرها أمام أحد، فانظر ما قاله شاول النبي لابنه يوناثان بعد أن اكتشف ما بينه وبين داود النبي من علاقة يندى لها الجبين.

قال في ٢٠/ ٣٠: " ٣٠فَحَمِيَ غَضَبُ شَاوُلَ عَلَى يُونَاثَانَ وَقَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ الْمُتَعَوِّجَةِ الْمُتَمَرِّدَةِ، أَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ قَدِ اخْتَرْتَ ابْنَ يَسَّى لِخِزْيِكَ وَخِزْيِ عَوْرَةِ أُمِّكَ؟ " وكفى بالعبارة السابقة شاهدًا على مستوى أسلوب الكتاب المقدس إن صح أن نسميه مقدسًا وعلى ما كان يفكر فيه شاول فعبر عنه بهذه العبارة.

المثال الثاني: ورد في سفر الملوك (٢) ٤/ ٣٢ – ٣٥: " ٣٢وَدَخَلَ أَلِيشَعُ الْبَيْتَ وَإِذَا بِالصَّبِيِّ مَيْتٌ وَمُضْطَجِعٌ عَلَى سَرِيرِهِ. ٣٣فَدَخَلَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسَيْهِمَا كِلَيْهِمَا، وَصَلَّى إِلَى الرَّبِّ. ٣٤ثُمَّ صَعِدَ وَاضْطَجَعَ فَوْقَ الصَّبِيِّ وَوَضَعَ فَمَهُ عَلَى فَمِهِ، وَعَيْنَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَيَدَيْهِ عَلَى يَدَيْهِ، وَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ فَسَخُنَ جَسَدُ الْوَلَدِ. ٣٥ثُمَّ عَادَ وَتَمَشَّى فِي الْبَيْتِ تَارَةً إِلَى هُنَا وَتَارَةً إِلَى هُنَاكَ، وَصَعِدَ وَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ فَعَطَسَ الصَّبِيُّ سَبْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ فَتَحَ الصَّبِيُّ عَيْنَيْهِ. "

كل هذا في الكتاب المقدس مع أنه ورد في اللاويين ٢٠/ ١٣: " ١٣وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ، فَقَدْ فَعَلاَ كِلاَهُمَا رِجْسًا. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا.

رابعًا: رضاعة الكبير ورضاعة الجماهير

١- ورد في إشعياء ٤٩/ ٢٢: " ٢٢هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: «هَا إِنِّي أَرْفَعُ إِلَى الأُمَمِ يَدِي وَإِلَى الشُّعُوبِ أُقِيمُ رَايَتِي، فَيَأْتُونَ بِأَوْلاَدِكِ فِي الأَحْضَانِ، وَبَنَاتُكِ عَلَى الأَكْتَافِ يُحْمَلْنَ. ٢٣وَيَكُونُ الْمُلُوكُ حَاضِنِيكِ وَسَيِّدَاتُهُمْ مُرْضِعَاتِكِ. بِالْوُجُوهِ إِلَى الأَرْضِ يَسْجُدُونَ لَكِ، وَيَلْحَسُونَ غُبَارَ رِجْلَيْكِ، فَتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي لاَ يَخْزَى مُنْتَظِرُوهُ». "

٢- وفي إشعياء أيضًا ٦٠/ ١٦: " ١٦وَتَرْضَعِينَ لَبَنَ الأُمَمِ، وَتَرْضَعِينَ ثُدِيَّ مُلُوكٍ،

وَتَعْرِفِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ مُخَلِّصُكِ وَوَلِيُّكِ عَزِيزُ يَعْقُوبَ.

٣- وفي إشعياء أيضًا ٦٦/ ١٢: " ١٢لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «هأَنَذَا أُدِيرُ عَلَيْهَا سَلاَمًا كَنَهْرٍ، وَمَجْدَ الأُمَمِ كَسَيْل جَارِفٍ، فَتَرْضَعُونَ، وَعَلَى الأَيْدِي تُحْمَلُونَ وَعَلَى الرُّكْبَتَيْنِ تُدَلَّلُونَ. "

٤- وفي نشيد ١/ ١٣: " ١٣صُرَّةُ الْمُرِّ حَبِيبِي لِي. بَيْنَ ثَدْيَيَّ يَبِيتُ. "

خامسًا: أثر الكتاب على واقع المجتمعات النصرانية

وعند النظر إلى المجتمع النصراني بشكل عام يسجل المحققون على المجتمع النصراني انتشار عدد من الموبقات، من أهمها: (الزنا والشذوذ - الانتحار والجرائم - التمييز العنصري البغيض - التفكك الأسري والعلاقات الاجتماعية السيئة - المخدرات والمسكرات والخمور - الانسلاخ من الدين وشيوع الإلحاد - الوحشية مع الأمم الأخرى. . .).

ويتبين من هذا كله من خلال بعض الأرقام التي أوردها المحققون نقلًا عن إحصائيات صادرة في الغرب إضافة إلى قراءتهم الصحيحة للمجتمع النصراني.

فقد نشرت مجلة بونتي الألمانية إحصاءً حول معتقدات الألمان، ونتيجة الإحصاء أن ٦٥٪ من الألمان يؤمنون بالله، و٥٠٪ يؤمنون بالحياة بعد الموت والجزاء فيه.

وفي جنوب أفريقيا حيث نسبة النصارى ٩٨٪ ينتشر زنا المحارم بين البيض بنسبة ٨٪، بينما يبلغ عدد مدمني الخمر في أمريكا كما يقول القس جيمي سويجارت أربعة وأربعين مليون إضافة إلى أحد عشر مليون سكير.

ويذكر جون ستون بحثًا ميدانيًا أجري عام ١٩٧٨م، وكان من نتيجته أن ٤٪ من المجتمع الأمريكي يمارسون السحاق أو الشذوذ طوال حياتهم، و١٠٪ يمارسونه لمدة ثلاث سنوات، وتشير أرقام اتحاد تنظيم الأسرة في بريطانيا إلى أن نصف الفتيات المراهقات تحت ١٦ سنة يمارسن الزنا. [١]

كيف يواجه العهد الجديد هذا الواقع؟

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلمة الله؟ أحمد ديدات، ص (٧٧)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص (٩٤).

وللمرء أن يتساءل: ماذا لدى الإنجيل من مقومات الإصلاح لهذا الفساد وتلك الأرقام الوبائية؟ وهل للإنجيل علاقة بهذه الأرقام؟

الإجابة تتلخص في قصور التشريعات الإنجيلية عن معالجة الأوضاع الفاسدة في المجتمعات النصرانية، بل ليس من التجني في شيء إذا قلنا بأن الكتاب المقدس هو أحد أسباب الفساد في تلك المجتمعات، سواء كان ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة. (١)

وقد تجلت مسئولية الكتاب عن هذا الفساد بأمور تتفاوت في أثرها، لكنها مجتمعة حوت أسباب البلاء وجذوره، وفي كل ذلك ما يدل على أنه ليس كلمة الله، لأن الله يرسل أنبياءه بكتبه ليهدي الناس ويخرجهم من الظلمات والشرور إلى الهدى والنور.

أولًا: العهد الجديد ومنافاته للفطرة الإنسانية

ثمة نصوص إنجيلية كثيرة تجلى فيها مصادمة الإنجيل الموجود بين أيدينا

للفطرة الإنسانية التي خلق الله عليها عباده، مما يترك أثرًا سلبيًا أخلاقيًا أو اجتماعيًا على قارئيها، منها:

١- أنه ثمة نصوص تصطدم مع طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها، ومنه ما جاء في العهد الجديد من حث على التبتل وترك الزواج يقول بولس: "٨وَلكِنْ أَقُولُ لِغَيْرِ الْمُتَزَوِّجِينَ وَلِلأَرَامِلِ، إِنَّهُ حَسَنٌ لَهُمْ إِذَا لَبِثُوا كَمَا أَنَا. " (كورنثوس (١) ٧/ ٨).

وفي نص آخر يقول: " ٧لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ عَدَاوَةٌ للهِ" (رومية ٨/ ٧)، وعليه فالأكل والشرب والنوم والزواج. . . وغيرها من حاجات الإنسان الفطرية إنما يمارسها الإنسان وهو يعادي ربه، وهذه حرب على الفطرة الإنسانية.

وأما التلميذ يعقوب فيبالغ في تحذيره من محبة العالم، من غير أن يفرق بين الخير والشر، فيقول: " ٤أَيُّهَا الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ مَحَبَّةَ الْعَالَمِ عَدَاوَةٌ للهِ؟ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِلْعَالَمِ، فَقَدْ صَارَ عَدُوًّا للهِ. " (يعقوب ٤/ ٤)، فهل محبة الخير أو الوالدين أو حتى شهوات

(١) لا يعني هذا أن الكتاب المقدس خلو من التعاليم السامية والتي هي في الحقيقة بقية أنوار الأنبياء وهديهم، لكن شابها ما أضافه الكتبة من الباطل، فانطفأت أنوار الحق، وبهتت، وغاصت درره في بحور التحريف.

الإنسان الفطرية من نكاح وتناسل وطعام وشراب، هل محبة هذه المحبوبات عداوة لله؟!

٢- وفي مرة أخرى ينسب متى إلى المسيح أنه قال: " وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ». " (متى ١٩/ ١٢).

٣- ويذكر متى دعوة المسيح إلى التخلي عن الدنيا بما فيها الحاجات الأساسية والضرورية للحياة الإنسانية السوية، فقد جاءه رجل فقال للمسيح بأنه حفظ الوصايا كلها: "٢١قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلًا فَاذْهَبْ وَبعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي». ٢٢فَلَمَّا سَمِعَ الشَّابُّ الْكَلِمَةَ مَضَى حَزِينًا، لأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَال كَثِيرَةٍ.

فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ! ٢٤وَأَقُولُ لَكُمْ أَيضًا: إِنَّ مُرُورَ جَمَل مِنْ ثَقْب إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلى مَلَكُوتِ الله! ». ٢٥فَلَمَّا سَمِعَ تَلاَمِيذُهُ بُهِتُوا جِدًّا قَائِلِينَ: «إِذًا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟ » ٢٦فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «هذَا عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ، وَلكِنْ عِنْدَ الله كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ». " (متى ١٩/ ٢٠ - ٢٥).

فهذا النص وأمثاله محارب لدفعة الحياة التي بها يقوم العمران والحضارات.

ثانيًا: العجز التشريعي للعهد الجديد:

ورأى المحققون أيضًا أن تشريعات الأناجيل عاجزة عن إقامة الحياة المستقيمة المتكاملة بما تحمل هذه الأناجيل من مثالية مقيتة يستحيل أن تصلح الحياة معها.

١- ومن ذلك ما نسبه متى إلى المسيح: "، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أيضًا. " (متى ٥/ ٣٩)، وقد ورد النص في مقابل القصاص، ولذلك فهو إلغاء لشريعة القصاص، أو إضافة أخلاقية تفتقر إلى المعقولية، وكأني به يحث على الرضا بالضيم والظلم، وهو ولا ريب سبب عظيم في ظهور الفساد والبغي.

ومثله قول لوقا: " مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ أيضًا، وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أيضًا. ٣٠وَكُلُّ مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَخَذَ الَّذِي لَكَ فَلاَ تُطَالِبْهُ. " (لوقا ٦/ ٢٩- ٣٠)، فهل يصنع هذا احد من العقلاء؟ ولو صنعه الناس فأي واقع من الظلم

والاضطهاد والشرور سيكون؟!

وهنا نتساءل: لو كان هذا النص من كلام المسيح، فلم خالفه عندما ضربه خدم رؤساء الكهنة فلم يعرض له الخد الآخر، بل قال له: "٢٣أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيًّا فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ، وَإِنْ حَسَنًا فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟ »" (يوحنا ١٨/ ٢٣).

كما ثمة تساؤل آخر يبحث عن إجابة: هل طبقت الكنيسة هذا الخلق في جولة من جولاتها أم أن واقع الحال يؤذن بأن هذا المقال من المحال، وإذا عجزت الكنيسة والمسيح عن ذلك، فغيرهما عنه أعجز.

٢- ويحرم العهد الجديد الطلاق إلا بعلة الزنا، فيقول: " فَالَّذِي جَمَعَهُ الله لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». . . ٩وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَبِ الزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي». " (متى ١٩/ ٦ - ٩).

وهذا التشريع سبب من أسباب انتشار البغاء، إذ هو المخرج والسبيل الذي يلجأ إليه أولئك الذين حالت مشاكل الحياة واختلافات البشر دون إكمال مسيرتهم الزوجية، وحرم عليهم العهد الجديد أن يبنوا حياتهم على الطُهر من جديد، ولا يمكن أن تستقيم الحياة مع هذا التشريع العجيب، إذ ثمة أمور كثيرة تجعل الحياة بين الزوجين ضربًا من المحال، ولا مخرج من ضنكها إلا الطلاق، الذي بمنعه تقع الكثير من المضار، وهو ما دفع الكنيسة البروتستانتية لإباحة الطلاق، وهو ما تحاول الكنائس الأخرى إقراره بغية الخروج من هذا التشريع الغريب. وأما ما ذكره متى من علة تحريم الطلاق وهو قوله: " فَالَّذِي جَمَعَهُ الله لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ»" (متى ١٩/ ٦) فليس بصحيح، لأن الزواج ليس جمعًا إلهيًا بين اثنين، بل هو اتفاق بين اثنين على الزواج وفق شريعة الله وسنّته، فمثله في ذلك مثل سائر الشعائر التي أمر بها الله.

٣- وثمة عجز تشريعي آخر تواجهه أسفار العهد الجديد في مواجهة متطلبات الحياة الإنسانية، وهو منع الزواج بأكثر من واحدة كما يفهم من (كورنثوس (١) ٧/ ١ - ٥)، وهو ما تجمع عليه الكنائس النصرانية المختلفة، بينما تشير الإحصائيات إلى زيادة مطردة في

أعداد النساء، ففي انجلترا تزيد النساء على الرجال أربعة ملايين امرأة، وفي ألمانيا خمسة ملايين، وفي أمريكا ثمانية ملايين، فكيف يحل العهد الجديد هذه المشكلة التي ستتفاقم آثارها إذا تابع النصارى قول بولس في الحث على التبتل وترك الزواج " ٨وَلكِنْ أَقُولُ لِغَيْرِ الْمُتَزَوِّجِينَ وَلِلأَرَامِلِ، إِنَّهُ حَسَنٌ لَهُمْ إِذَا لَبِثُوا كَمَا أَنَا. ٩وَلكِنْ إِنْ لَمْ يَضْبُطُوا أَنْفُسَهُمْ، فَلْيَتَزَوَّجُوا. "(كورنثوس (١) ٧/٨ - ٩)، إن نتيجة هذا التعليم هي الفضائح التي تهز جنبات الكنيسة وتقرعها كل يوم، لتثبت أن الفطرة لا تُغلب، وأن هذا التوجيه ليس من كلمة الله، لأن الله يعلم ما يصلح عباده ويناسب أحوالهم.

الفصل الثاني: الأغلاط في الكتاب المقدس.

تمهيد:

عندما نتحدث عن كتاب مقدس، فإنه من الطبيعي أن نسلم بعصمة هذا الكتاب، وأن ما فيه هو وحي الله ﷻ.

إذ وجود الخطأ فيه يعني أن الله يخطئ، أو أن الروح القدس يخطئ، أو أن الرسول المبلغ يخطئ.

وهذه الاحتمالات كلها مرفوضة باتفاق الأمم وبدلالة العقل، إذ الخطأ صفة بشرية لا يمكن أن تصدر من الله أو أمناء وحيه من الملائكة أو الرسل، ففي ذلك تلبيس على البشر وإضلال لهم.

ولكنا حين نتصفح أسفار الكتاب المقدس نجد أغلاطا توراتية كثيرة، كل منها يشهد ببراءة الله ووحيه من هذا الكتاب.

أولًا: أغلاط العهد القديم.

وقد تعددت الشواهد والنماذج على الأخطاء والأغلاط في العهد القديم، ونكتفي منها بنماذج وأمثلة توضح بجلاء أمر هذه الأغلاط، فمنها:

١ - أن سفر التكوين يحكي عن خيانة إخوة يوسف لأخيهم، فيذكر أن تجارًا مديانيين أخرجوه من البئر، وباعوه لقوم من الإسماعيليين بعشرين من الفضة، وأن هؤلاء الإسماعيليين قد حملوه معهم إلى مصر "[٢٨]وَاجْتَازَ رِجَالٌ مِدْيَانِيُّونَ تُجَّارٌ، فَسَحَبُوا يُوسُفَ وَأَصْعَدُوهُ مِنَ الْبِئْرِ، وَبَاعُوا يُوسُفَ لِلإِسْمَاعِيلِيِّينَ بِعِشْرِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. فَأَتَوْا بِيُوسُفَ إِلَى مِصْرَ. " (التكوين ٣٧/ ٢٨).

وفي مصر بيع يوسف لفوطيفار، والمفروض أن الذي باعه لفوطيفار هم الإسماعيليون الذين حملوه إلى مصر بعد أن اشتروه بعشرين من الفضة، لكن كاتب السفر أخطأ فقال: "[٣٦]وَأَمَّا الْمِدْيَانِيُّونَ فَبَاعُوهُ فِي مِصْرَ لِفُوطِيفَارَ خَصِيِّ فِرْعَوْنَ، رَئِيسِ الشُّرَطِ. " (التكوين ٣٧/ ٣٦)، والمفروض أن الإسماعيليين هم الذين باعوه لفوطيفار، وهذا هو الصحيح، إذ يعود سفر التكوين لتقريره فيقول: "[١]وَأَمَّا يُوسُفُ فَأُنْزِلَ إِلَى مِصْرَ، وَاشْتَرَاهُ فُوطِيفَارُ خَصِيُّ

فِرْعَوْنَ رَئِيسُ الشُّرَطِ، رَجُلٌ مِصْرِيٌّ، مِنْ يَدِ الإِسْمَاعِيلِيِّينَ الَّذِينَ أَنْزَلُوهُ إِلَى هُنَاكَ. " (التكوين ٣٩/ ١). فمن المسئول عن هذا الخطأ؟ هل هو الله؟ تعالى عن ذلك، أم هو الكاتب المجهول الذي كتب السفر؟ أم نساخ آلاف المخطوطات الذين لم يكونوا أمناء في نساختهم للأسفار؟ أم أولئك الذين اعتبروا هذه الكتابات التاريخية - بما فيها من خلل وزلل - كلمة الله؟

٢- ومن الأخطاء أيضًا ما زعمه سفر الأيام من إدراك الملك السامري بعشا للسنة السادسة والثلاثين من حكم الملك اليهوذي آسا، وبناؤه للرامة فيها، حيث يقول: "[١]فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ وَالثَّلاَثِينَ لِمُلْكِ آسَا صَعِدَ بَعْشَا مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَلَى يَهُوذَا، وَبَنَى الرَّامَةَ " (الأيام (٢) ١٦/ ١)، وهو خطأ- ولا ريب - لأن الملك بعشا مات قبل هذا التاريخ بتسع سنين.

وإثبات ذلك ميسور، فقد ملك بعشا في السنة الثالثة من حكم آسا، وبقي في الملك مدة أربع وعشرين سنة، أي أنه مات في السنة السابعة والعشرين من حكم الملك آسا، فقد جاء ذلك في سفر الملوك "[٣٣]فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ بَعْشَا بْنُ أَخِيَّا عَلَى جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ فِي تِرْصَةَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً. " (الملوك (١) ١٥/ ٣٣).

ومما يؤكد هذا أنه قد توالى على الملك بعده في هذه السنوات التسع ثلاثة ملوك: وهم: ابنه أيلة، ثم زمري، ثم عمري.

ويحدد لنا سفر الملوك - بدقة - سنوات تولي الملوك الثلاثة، فيقول: "[٦]وَاضْطَجَعَ بَعْشَا مَعَ آبَائِهِ وَدُفِنَ فِي تِرْصَةَ، وَمَلَكَ أَيْلَةُ ابْنُهُ عِوَضًا عَنْهُ. [٨]وَفِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ وَالْعِشْرِينَ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ أَيْلَةُ بْنُ بَعْشَا عَلَى إِسْرَائِيلَ. . [١٠]فَدَخَلَ زِمْرِي وَضَرَبَهُ، فَقَتَلَهُ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، وَمَلَكَ عِوَضًا عَنْهُ. . . [٢٣]فِي السَّنَةِ الْوَاحِدَةِ وَالثَّلاَثِينَ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ عُمْرِي عَلَى إِسْرَائِيلَ اثْنَتَيْ عَشَرَةَ سَنَةً. " (الملوك (١) ١٦/ ٦-٢٣)، فكيف يبني بعشا الرامة في السنة السادسة والثلاثين من حكم آسا، وقد مات قبلها بتسع سنين!. [١]

٣- ومن الأغلاط ما جاء في سفر صموئيل عن عمر شاول عندما ملك على بني

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (ص ١٥٧ – ١٥٨).

إسرائيل حيث يقول: "'كَانَ شَاوُلُ ابْنَ سَنَةٍ فِي مُلْكِهِ، وَمَلَكَ سَنَتَيْنِ عَلَى إِسْرَائِيلَ. " (صموئيل (١) ١٣/ ١).

وهذا أمر لا يعقل أبدًا، كما أنه يتناقض مع كل ما تقدمه التوراة من معلومات عن شاول الملك الكبير، وكيفية اختياره، ورفضه لتزويج ابنته ميكال لداود إبان ملكه (شاول)، ثم تزوج داود بها عقب توليه الملك. فذلك كله وغيره مؤذن بوجود غلط في هذا النص.

ولتفادي ذكر هذا الغلط عمدت بعض الترجمات الحديثة إلى ترك مكان السن فارغًا، وهو ما صنعه محققو الرهبانية اليسوعية، ففيها: "وكان شاول ابن. . حين صار ملكًا، وملك. . سنة على إسرائيل".

وأشاروا في الهامش إلى مصدر هذا الغلط، فقالوا عما ورد في النص العبري: " وهذا أمر غير معقول، لربما لم يعرفوا عمر شاول عند ارتقائه العرش، أو لربما سقط العمر عن النص، أو لربما قصرت مدة ملكه إلى سنتين لعبرة لاهوتية ".

ولنا أن نتساءل هل كان كتبة الأسفار الملهمون يكتبون وفق معارفهم، أم كانوا يكتبون ما يمليه عليهم الروح القدس؟.

٤- ومثله وقع الغلط في أسفار العهد القديم في سياق الحديث عن صلة القرابة بين الملك يهوياكين والملك صدقيا الذي عينه نبوخذ نصر بعد أن عزل يهوياكين، إذ يذكر سفر الأيام أنه أخ لصدقيا، فيقول: " وَمَلَّكَ صِدْقِيَّا أَخَاهُ عَلَى يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ. " (الأيام (٢) ٣٦/ ١٠).

والصحيح أن صدقيا عم يهوياكين حيث إن عمر يهوياكين أكبر أبناء أبيه عندما ملك كان حوالي ثمان سنين، وملك لمدة ثلاثة شهور وعشرة أيام فقط. (انظر الأيام (٢) ٣٦/ ٩)، بينما كان عمر صدقيا حينذاك إحدى وعشرين سنة. (انظر الأيام (٢) ٣٦/ ٩ - ١٠)، ولو كان أخًا ليهوياكين لكان ينبغي أن يكون أقل من ثمان سنوات لأن يهوياكين أكبر أبناء أبيه.

وقد اعترف محررو قاموس الكتاب المقدس بهذا الخطأ، وتأولوه قائلين: " دعي أخًا ليهوياكين أي نسيبه، أو من أصل واحد". واعترف به أيضًا وارد الكاثوليكي في كتابه " الأغلاط "حيث

قال: " "لما كان هذا غلطًا بدل في الترجمة اليونانية والتراجم الأخر بالعم" .[1]

٥- ويتحدث سفر التكوين عن سارة زوجة إبراهيم، فيذكر من جمالها وحسنها أنها وقعت في استحسان فرعون مصر وهي تبلغ الخامسة والستين من العمر، ومثل هذا غير معهود في النساء. ثم لما تجاوزت التسعين وقعت في استحسان ملك جرار أبيمالك، ومثل هذا من الشطط الذي يتنزه عنه وحي الله وكتبه.

ولبيان هذه المسألة نبين أن سارة تصغر عن زوجها بعشر سنين، فقد جاء في سفر التكوين أن إبراهيم قال: "١٧فَسَقَطَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ وَضَحِكَ، وَقَالَ فِي قَلْبِهِ: «هَلْ يُولَدُ لابْنِ مِئَةِ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟ »." (التكوين ١٧/ ١٧)، فبينهما عشر سنين.

وقد غادر إبراهيم حاران، وعمر سارة خمس وستون سنة " وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. ٥فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. " (التكوين ١٢/ ٤-٥)، ثم بعد ذلك انطلق إلى مصر، حيث أعجب فرعون بسارة، وقد تجاوزت الخامسة والستين " ١١وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. ١٢فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. . . . فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوْا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. ١٥وَرَآهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ " (التكوين ١٢/ ١١-١٥).

ثم يتحدث سفر التكوين عن بلوغ إبراهيم التاسعة والتسعين واختتانه في هذا السن، (التكوين ١٧/ ٢٤-٢٥). مما يعني بلوغ سارة التسعين، وبعده يتحدث السفر عن مضي إبراهيم وزوجه العجوز إلى الجنوب، ليُعجب ويؤخَذ بجمالها - هذه المرة - أبيمالك ملك جرار، "١وَانْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْضِ الْجَنُوبِ، وَسَكَنَ بَيْنَ قَادِشَ وَشُورَ، وَتَغَرَّبَ

---

(١) انظر إظهار الحق (٢/ ٢٦٢).

فِي جَرَارَ. ٢وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: «هِيَ أُخْتِي». فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ. " (التكوين ٢٠/ ١-٣)، فهل يعقل أن امرأة قاربت التسعين يقع في هيامها الملوك؟ إنه أحد أغلاط الكتاب المقدس، وأحد شهاداته على أنه من صنع البشر. (١)

أخطاء بشهادة التاريخ.

وعود لم تتحقق:

١- ومن هذه الوعود قول التوراة أن الله قال لإبراهيم: "١٥وَأَمَّا أَنْتَ فَتَمْضِي إِلَى آبَائِكَ بِسَلاَمٍ وَتُدْفَنُ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ. ١٦وَفِي الْجِيلِ الرَّابعِ يَرْجِعُونَ إِلَى ههُنَا " (أي فلسطين). (التكوين ١٥/ ١٥-١٦).

والواقع التاريخي يكذب هذا النص فقد كان الجيل الثالث والرابع من إبراهيم وهم الأسباط وأبناؤهم، كانوا هم الداخلين إلى مصر، لا الخارجين منها، وأما الخارجون منها فهم الجيل السادس من أبناء إبراهيم.

٢- ومن هذه الوعود الزائفة ما زعمه كاتب سفر الأيام، حين قال بأن الله وعد إسرائيل بقوله لناثان النبي: "١٠وَعَيَّنْتُ مَكَانًا لِشَعْبِي إِسْرَائِيلَ وَغَرَسْتُهُ، فَسَكَنَ فِي مَكَانِهِ، وَلاَ يَضْطَرِبُ بَعْدُ، وَلاَ يَعُودُ بَنُو الإِثْمِ يُذَلِّلُونَهُ كَمَا فِي الأَوَّلِ " (الأيام (١) ١٧/ ١٠).

ولم يتحقق هذا الوعد الذي زعموا أن الله وعده، فقد ذل بنو إسرائيل على يد بختنصر، وأخرجوا من ديارهم، ولم يتحقق ما قيل لناثان: " ١٢مَتَى كَمُلَتْ أَيَّامُكَ وَاضْطَجَعْتَ مَعَ آبَائِكَ، أُقِيمُ بَعْدَكَ نَسْلَكَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ وَأُثَبِّتُ مَمْلَكَتَهُ. ١٣هُوَ يَبْنِي بَيْتًا لاسْمِي، وَأَنَا أُثَبِّتُ كُرْسِيَّ مَمْلَكَتِهِ إِلَى الأَبَدِ. " (صموئيل (٢) ٧/ ١٢- ١٣).

٣- وأيضًا تذكر التوراة أن الله وعد نبوخذ نصر الوثني وعدًا لم ينجز فهو من الأغلاط ولا ريب، فقد وعده أن يملكه على مدينة صور، ثم لم يتحقق له ذلك، فوعده بأرض مصر، ولم يتحقق ذلك أيضًا، فدل ذلك على أن هذا الوعد ليس من الله، لأن الله قادر على إنجاز وعده، فقد جاء في سفر حزقيال " ٧« لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أَجْلِبُ عَلَى

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (١٦٢ – ١٦٣).

صُورَ نَبُوخَذْرَاصَّرَ مَلِكَ بَابِلَ مِنَ الشِّمَالِ، مَلِكَ الْمُلُوكِ، بِخَيْلٍ وَبِمَرْكَبَاتٍ وَبِفُرْسَانٍ وَجَمَاعَةٍ وَشَعْبٍ كَثِيرٍ، ٨فَيَقْتُلُ بَنَاتِكِ فِي الْحَقْلِ بِالسَّيْفِ، وَيَبْنِي عَلَيْكِ مَعَاقِلَ، وَيَبْنِي عَلَيْكِ بُرْجًا، وَيُقِيمُ عَلَيْكِ مِتْرَسَةً، وَيَرْفَعُ عَلَيْكِ تُرْسًا، ٩وَيَجْعَلُ مَجَانِقَ عَلَى أَسْوَارِكِ، وَيَهْدِمُ أَبْرَاجَكِ بِأَدَوَاتِ حَرْبِهِ. ١٠وَلِكَثْرَةِ خَيْلِهِ يُغَطِّيكِ غُبَارُهَا. مِنْ صَوْتِ الْفُرْسَانِ وَالْعَجَلاَتِ وَالْمَرْكَبَاتِ تَتَزَلْزَلُ أَسْوَارُكِ عِنْدَ دُخُولِهِ أَبْوَابَكِ، كَمَا تُدْخَلُ مَدِينَةٌ مَثْغُورَةٌ. ١١بِحَوَافِرِ خَيْلِهِ يَدُوسُ كُلَّ شَوَارِعِكِ. يَقْتُلُ شَعْبَكِ بِالسَّيْفِ فَتَسْقُطُ إِلَى الأَرْضِ أَنْصَابُ عِزِّكِ. ١٢وَيَنْهَبُونَ ثَرْوَتَكِ، وَيَغْنَمُونَ تِجَارَتَكِ، وَيَهُدُّونَ أَسْوَارَكِ، وَيَهْدِمُونَ بُيُوتَكِ الْبَهِيجَةَ، وَيَضَعُونَ حِجَارَتَكِ وَخَشَبَكِ وَتُرَابَكِ فِي وَسْطِ الْمِيَاهِ. ١٣وَأُبَطِّلُ قَوْلَ أَغَانِيكِ، وَصَوْتُ أَعْوَادِكِ لَنْ يُسْمَعَ بَعْدُ. ١٤وَأُصَيِّرُكِ كَضِحِّ الصَّخْرِ، فَتَكُونِينَ مَبْسَطًا لِلشِّبَاكِ. لاَ تُبْنَيْنَ بَعْدُ، لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. " (حزقيال ٢٦/ ٧-١٤). (١)

لكن هذا الوعد لم يتحقق كما أسلفنا، إذ استعصت صور على ملك بابل، ولم يدخلها، ولم يغنم منها غنيمة، فوعد بأرض مصر بدلًا عنها، يقول السفر: " أَنَّ كَلاَمَ الرَّبِّ كَانَ إِلَيَّ قَائِلًا: ١٨«يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّ نَبُوخَذْرَاصَّرَ مَلِكَ بَابِلَ اسْتَخْدَمَ جَيْشَهُ خِدْمَةً شَدِيدَةً عَلَى صُورَ. كُلُّ رَأْسٍ قَرِعَ، وَكُلُّ كَتِفٍ تَجَرَّدَتْ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ وَلاَ لِجَيْشِهِ أُجْرَةٌ مِنْ صُورَ لأَجْلِ خِدْمَتِهِ الَّتِي خَدَمَ بِهَا عَلَيْهَا. ١٩لِذلِكَ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أَبْذُلُ أَرْضَ مِصْرَ لِنَبُوخَذْرَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ، فَيَأْخُذُ ثَرْوَتَهَا، وَيَغْنَمُ غَنِيمَتَهَا، وَيَنْهَبُ نَهْبَهَا فَتَكُونُ أُجْرَةً لِجَيْشِهِ. ٢٠قَدْ أَعْطَيْتُهُ أَرْضَ مِصْرَ لأَجْلِ شُغْلِهِ الَّذِي خَدَمَ بِهِ، لأَنَّهُمْ عَمِلُوا لأَجْلِي، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. " (حزقيال ٢٩/ ١٧-٢٠).

ولم يتحقق ذلك الوعد إذ لم يملك نبوخذ نصر أرض مصر أبدًا، وإن وصلت جيوشه إلى حدود مصر سنة ٦٠٥ ق. م، حين هزمت قواته المصريين في معركة قرقميش، لكن بقيت مصر تحت حكم الأسرة السادسة عشرة من حكام الفراعنة.

---

(١) المصدر السابق.

ولم تتحقق تلك الوعود التي استمرت الأسفار تعرضها في أربعة إصحاحات من سفر حزقيال

أخطاء بشهادة الواقع.

أخطاء في عدد بني إسرائيل:

١- حديث إرميا عن نسل داود فيقول: " ٢٢كَمَا أَنَّ جُنْدَ السَّمَاوَاتِ لاَ يُعَدُّ، وَرَمْلَ الْبَحْرِ لاَ يُحْصَى، هكَذَا أُكَثِّرُ نَسْلَ دَاوُدَ عَبْدِي وَاللاَّوِيِّينَ خَادِمِيَّ». " (إرميا ٣٣/ ٢٢)، لكن الواقع يكذب ذلك، فاليهود أقل أهل الأرض عددًا، إذ لا يبلغ تعدادهم في الأرض كلها ستة عشر مليونًا، علاوة على أن غالبهم ليسوا من أصول إسرائيلية.

وهذا أيضًا يقودنا للحديث عن الأعداد المهولة التي قدمتها التوراة لبني إسرائيل إبان موسى وبعده، إذ تتحدث التوراة عن أصل إسرائيل وهو يعقوب وأبناؤه وقد بلغوا حين هجرتهم إلى مصر سبعين نفسًا. (انظر الخروج ١/ ٣).

ثم تذكر التوراة أنهم " أثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرًا جدًا، وامتلأت الأرض منهم " (الخروج ١/ ٧).

وبعد مائتي سنة على دخولهم مصر؛ خرجوا منها، بعد سنين طويلة وقاسية؛ عانوا فيها صنوفًا من الاضطهاد واستباحة النساء وقتل الذكور، ولدى نزولهم في سيناء تذكر التوراة أن موسى أمر بتعداد بني إسرائيل " ٤٥فَكَانَ جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا، كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ ٤٦سِتَّ مِئَةِ أَلْفٍ وَثَلاَثَةَ آلاَفٍ وَخَمْسَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ. ٤٧وَأَمَّا اللاَّوِيُّونَ حَسَبَ سِبْطِ آبَائِهِمْ فَلَمْ يُعَدُّوا بَيْنَهُمْ. . " (العدد ١/ ٤٥- ٤٧)، وإذا كان الرجال القادرون على الحرب في أحد عشر سبطًا قد بلغوا الستمائة ألف، فيفهم من هذا أن بني إسرائيل قد جاوزوا المليون.

ومما يشكك في الرقم التوراتي الكبير أن موسى عليه السلام، وهو أحد الخارجين من مصر يعتبر الجيل الثاني للداخلين إلى مصر، فهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي. (انظر الخروج ٦/ ١٦ - ٢٠)، وجده قاهث من الداخلين إلى مصر كما ذكرت التوراة. (انظر التكوين ٤٦/ ١١).

ويستحيل تنامي العدد بهذه الزيادة خلال جيلين أو ثلاثة، فمثلًا لم يكن الجيل الأول

من أبناء لاوي سوى ثلاثة أشخاص عندما دخلوا مصر، فكيف أضحوا بعد ثلاثة أجيال فقط اثنين وعشرين ألف ذكر. (انظر العدد ٣/ ٣٩).

هذه الزيادة لا يمكن للعقل أن يستوعبها بحال، فلو ولد لكل من أبناء لاوي الثلاثة عشرة ذكور، وولد لكل منهم عشرة ذكور، ثم ولد لكل من هؤلاء عشرة ذكور، وما مات من هؤلاء جميعًا أحد، لأضحى عدد أبناء لاوي وأحفاده لا يتجاوز الأربعة آلاف من الذكور، وهو رقم لا يتناسب بحال مع الرقم التوراتي (٢٢٠٠٠).

ومما يدل على أن هذه الأعداد غير صحيحة أن بني إسرائيل كان يتولى توليد نسائهم قابلتان فقط هما: شفرة وفوعة. (انظر الخروج ١/ ١٥). ومثل هذه الأرقام المهولة لا يقوم بها قابلتان فقط.

٢- ثم تتحدث التوراة عن حروب بني إسرائيل فتذكر أرقامًا للجيوش والقتلى لا تعقل، ففي سفر الأيام "[١٧]وَضَرَبَهُمْ أَبِيًّا وَقَوْمُهُ ضَرْبَةً عَظِيمَةً، فَسَقَطَ قَتْلَى مِنْ إِسْرَائِيلَ خَمْسُ مِئَةِ أَلْفِ رَجُلٍ مُخْتَارٍ. " (الأيام (٢) ١٣/ ١٧)، هذا في طرف واحد من بني إسرائيل.

ثم إن كان السبعون شخصًا قد فاقوا - خلال قرنين فقط - المليون، فإنه وبعد ثلاثة آلاف سنة ينبغي أن يكون عددهم آلافًا من الملايين تنوء الأرض بحملهم، بل يزيد هذا العدد المفترض على تعداد سكان الأرض حاليًا مرات كثيرة.

لكن الأمر على خلاف ذلك، إذ لا يتجاوز اليهود الخمسة عشر مليونًا في الأرض كلها، علاوة على أن كثيرين منهم ليسوا من ذراري بني إسرائيل.

ثم إن التوراة تذكر تعدادًا آخر، وهو التعداد الذي جرى في أرض مؤاب بعد ثمانين سنة من تعداد موسى الأول، ولم تطرأ فيه زيادة عن التعداد الأول سوى ألفي شخص. (انظر العدد ٢٦/ ١ - ٦٥)، ولو كان بنو إسرائيل يزدادون بهذه النسبة الرهيبة، لكان ينبغي أن يتضاعف عددهم عشرات المرات.

وهذه المبالغات الكبيرة في أعداد بني إسرائيل يعترف بكذبها محققو نسخة الرهبانية

اليسوعية، حيث يقول هؤلاء تعليقًا على الأعداد الخيالية لبني إسرائيل المذكورة في (صموئيل (٢) ٢٤/ ٩) ما نصه: "من الواضح أن الأرقام مبالغ فيها كما في كثير من الأرقام المماثلة في العهد القديم".

وإذا تساءلنا عن الرقم الحقيقي للخارجين من مصر، فإن دائرة المعارف البريطانية تجزم بأن عددهم لم يتجاوز الخمسة عشر ألفًا.

ولا يفوتنا التنبيه على خطأ توراتي آخر يختص بمدة إقامة بني إسرائيل في مصر، حيث تذكر التوراة أن الله قال لإبراهيم: "«اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ. فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ. " (التكوين ١٥/ ١٣)، ووهو صريح أن مدة ذلتهم في أرض مصر أربع مائة سنة، وهذا الرقم يؤكده سفر الخروج بقوله: "٤٠وَأَمَّا إِقَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَقَامُوهَا فِي مِصْرَ فَكَانَتْ أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً. " (الخروج ١٢/ ٤٠).

وهذا الذي ذكرته الأسفار التوراتي خطأ ولا ريب، إذ لم يمكثوا في مصر إلا مائتين وخمس عشرة سنة، وقد أقر علماء النصرانية ومحققوها بذلك، واجتهدوا في تصحيح الخطأ، فزعم القس منيس عبد النور في كتابه "شبهات وهمية" أن المدة المذكورة في التوراة تبدأ من ابتداء دعوة إبراهيم في العراق، وبمثله قال آدم كلارك في تفسيره، وكذا وافقهما جامعو تفسير هنري واسكات. [١]

وما ذهبوا إليه هو تصحيح للنص في ضوء المعطيات التاريخية، لكنه على أي حال تلاعب بالنص الذي يصرح بأن الأربعمائة سنة هي مقدار إقامتهم وذِلتهم واستِعبادهم في مصر، كما هو بيّنٌ في قوله: " فيذلونهم أربع مائة سنة"، وقوله: "٤٠وَأَمَّا إِقَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَقَامُوهَا فِي مِصْرَ فَكَانَتْ أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً. " (الخروج ١٢/ ٤٠)، فليس في النصين أي تضمين لفترة ما قبل دخولهم إلى مصر.

(١) وانظر: كتاب مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين، (٣٤٦)، حيث ذكر أن دخول يعقوب وبنيه إلى مصركان في سنة ١٧٠٦ ق. م، وأن عبورهم بحر القُلزُم وغرق فرعون كان في سنة ١٤٩١ ق. م.

٤- إن العجب ليس فيما سبق من الأغلاط، بل في تلك الأخطاء التي لا يقع فيها كاتب مهما ضعفت مؤهلاته على الكتابة، ومنها أن سفر يشوع شرع يعدد المدن الفلسطينية التي سيأخذها كل سبط من أسباط بني إسرائيل، فيقول عن نصيب سبط يهوذا: "[٢١]وَكَانَتِ الْمُدُنُ الْقُصْوَى الَّتِي لِسِبْطِ بَنِي يَهُوذَا إِلَى تُخُمِ أَدُومَ جَنُوبًا: قَبْصِئِيلَ وَعِيدَرَ وَيَاجُورَ، [٢٢]وَقِينَةَ وَدِيمُونَةَ وَعَدْعَدَةَ، [٢٣]وَقَادَشَ وَحَاصُورَ وَيِثْنَانَ، [٢٤]وَزِيفَ وَطَالَمَ وَبَعَلُوتَ، [٢٥]وَحَاصُورَ وَحَدَتَّةَ وَقَرْيُوتَ وَحَصْرُونَ، هِيَ حَاصُورُ، [٢٦]وَأَمَامَ وَشَمَاعَ وَمُولاَدَةَ، [٢٧]وَحَصَرَ جَدَّةَ وَحَشْمُونَ وَبَيْتَ فَالَطَ، [٢٨]وَحَصَرَ شُوعَالَ وَبِئْرَ سَبْعٍ وَبِزْيُوتِيَةَ، [٢٩]وَبَعَلَةَ وَعَيِّيمَ وَعَاصَمَ، [٣٠]وَأَلْتُولَدَ وَكِسِيلَ وَحُرْمَةَ، [٣١]وَصِقْلَغَ وَمَدْمَنَّةَ وَسَنْسَنَّةَ، [٣٢]وَلَبَاوُتَ وَشِلْحِيمَ وَعَيْنَ وَرِمُّونَ. كُلُّ الْمُدُنِ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ مَعَ ضِيَاعِهَا.

" (يشوع ١٥/ ٢١-٣٢)، فقد ذكر سبعًا وثلاثين مدينة، وزعم أن عددها تسع وعشرون، فالفرق ثمانية مدن.

وقد حاولت نسخة الرهبانية اليسوعية تقليصه، فدمجت بعض الأسماء (حاصور ويثنان = حاصور بتنان)، و (حاصور وحدتة = حاصور حدتة)، و (قريوت وحصرون = قريوت حصرون)، و (عين ورمّون = عين رمون)، وحذفت واحدًا (بزيتوتية)، ووضعت بدلًا منه "وتوابعها"، واعتذر محققوها عن تلاعبهم بالنص وما أحدثوه فيه فقالوا عنه: "لم يُحفظ النص حفظًا جيدًا، فكثير من أسماء المدن تصوَّب بالرجوع إلى النص اليوناني أو إلى نصوص كتابية أخرى".

لكن رغم هذا كله فإن هناك ثلاثة أسماء زائدة، سها عن عدِّها كاتب السفر!

وفي الفقرة التي تليها من سفر يشوع ذكر الكاتب أسماء خمس عشرة مدينة، ثم أخطأ، فقال: "أربع عشرة مدينة مع ضياعها " (يشوع ١٥/ ٣٦)، وقد اقترح الشراح - كما نقل محققو الرهبانية اليسوعية - حذف الاسم الأخير، ليقرأ النص: "والجديرة وتوابعها" بدلًا من قوله: "والجديرة وجديروتايم" (يشوع ١٥/ ٣٦). [١]

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله (ص ١٦٦ - ١٧٠).

ثانيًا: أغلاط الأناجيل

تمهيد:

وكأي جهد بشري معرض للخطأ، فإن الأناجيل كذلك تمتلئ بالأغلاط التي يكذبها التاريخ والواقع، وثبوت الغلط في الكتاب يحيل قداسته، ويحيل دعوى إلهامه إلى سراب.

والأغلاط في الأناجيل كثيرة، وهي على أنواع فمنها ما تشهد عليه الأسفار المقدسة بالخطأ أو الكذب، ومنها ما يشهد عليه العقل، ومنها ما يشهد عليه التاريخ والواقع.

أولًا: الأغلاط بشهادة الكتب المقدسة

أولًا: أين هذه النصوص من تعظيم الله ورسله؟!

١- يتحدث سفر الرؤيا، رؤيا يوحنا اللاهوتي عن رؤيته للأقنوم الثاني لله، أي الله الابن، وهو جالس على عرشه على صورة خروف له سبعة قرون وسبع أعين، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، يقول يوحنا: " [٦]وَرَأَيْتُ فَإِذَا فِي وَسَطِ الْعَرْشِ وَالْحَيَوَانَاتِ الأَرْبَعَةِ وَفِي وَسَطِ الشُّيُوخِ خَرُوفٌ قَائِمٌ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ، لَهُ سَبْعَةُ قُرُونٍ وَسَبْعُ أَعْيُنٍ، هِيَ سَبْعَةُ أَرْوَاحِ الله الْمُرْسَلَةُ إِلَى كُلِّ الأَرْضِ. " (الرؤيا ٥/ ٦).

٢- ويمضي النص فيقول متحدثًا عن القائمين أمامه: "[١٥]مِنْ أَجْلِ ذلِكَ هُمْ أَمَامَ عَرْشِ الله، وَيَخْدِمُونَهُ نَهَارًا وَلَيْلًا فِي هَيْكَلِهِ، وَالْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ يَحِلُّ فَوْقَهُمْ. [١٦]لَنْ يَجُوعُوا بَعْدُ، وَلَنْ يَعْطَشُوا بَعْدُ، وَلاَ تَقَعُ عَلَيْهِمِ الشَّمْسُ وَلاَ شَيْءٌ مِنَ الْحَرِّ، [١٧]لأَنَّ الْخَرُوفَ الَّذِي فِي وَسَطِ الْعَرْشِ يَرْعَاهُمْ، وَيَقْتَادُهُمْ إِلَى يَنَابِيعِ مَاءٍ حَيَّةٍ، وَيَمْسَحُ الله كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ». الرؤيا (٧/ ١٥- ١٧).

٣- ويفصح النص عن ماهية الجالس على العرش على صورة الخروف، إنه الله الابن، الأقنوم الثاني للإله الواحد المتعدد الأقانيم، فيقول: "[١٤]هؤُلاَءِ سَيُحَارِبُونَ الْخَرُوفَ، وَالْخَرُوفُ يَغْلِبُهُمْ، لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ مَدْعُوُّونَ وَمُخْتَارُونَ وَمُؤْمِنُونَ». " (الرؤيا ١٧/ ١٤).

٤- ويمضي نص يوحنا ليذكر أن الجموع التي كانت أمام العرش كانت تصرخ بخلاص الله والخروف " [٩]بَعْدَ هذَا نَظَرْتُ وَإِذَا جَمْعٌ كَثِيرٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّهُ، مِنْ كُلِّ

الأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ وَالأَلْسِنَةِ، وَاقِفُونَ أَمَامَ الْعَرْشِ وَأَمَامَ الْخَرُوفِ، مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ وَفِي أَيْدِيهِمْ سَعَفُ النَّخْلِ [١٠]وَهُمْ يَصْرُخُونَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ: «الْخَلاَصُ لإِلهِنَا الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخَرُوفِ». [١١]وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ كَانُوا وَاقِفِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَالشُّيُوخِ وَالْحَيَوَانَاتِ الأَرْبَعَةِ، وَخَرُّوا أَمَامَ الْعَرْشِ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَسَجَدُوا للهِ [١٢]قَائِلِينَ: «آمِينَ! الْبَرَكَةُ وَالْمَجْدُ وَالْحِكْمَةُ وَالشُّكْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ لإِلهِنَا إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. آمِينَ! » " (الرؤيا ٧/ ٩-١٢)، فهل الرب محتاج للخلاص؟ وممن؟ ومن الذي سيخلصه؟ أولا توجد طريقة أفضل للرمز على الإله المعبود؟. (١)

٥- ويتحدث العهد الجديد عن جهالة لله وضعف، ولكن جهالته أكثر حكمة من الناس، وكذا ضعفه أقوى من الناس، وذلك في قول بولس: " [٢٥]لأَنَّ جَهَالَةَ اللهِ أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ اللهِ أَقْوَى مِنَ النَّاسِ! " (كورنثوس (١) ١/ ٢٥).

ولا يقبل بحال أن يقال عن الله العظيم أن له ضعفًا أو جهالة، بل هو القوي العزيز الحكيم العليم.

٦- ينسب العهد الجديد إلى المسيح سباب إخوانه من الأنبياء وتشبيههم باللصوص والسراق، واتهامهم بعدم الحرص على هداية أقوامهم، فيقول يوحنا: " [٧]فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا بَابُ الْخِرَافِ. [٨]جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ، وَلكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ. [٩]أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى. [١٠]اَلسَّارِقُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ، وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ. [١١]أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. [١٢]وَأَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ، وَلَيْسَ رَاعِيًا، الَّذِي لَيْسَتِ الْخِرَافُ لَهُ، فَيَرَى الذِّئْبَ مُقْبِلًا وَيَتْرُكُ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ، فَيَخْطَفُ الذِّئْبُ الْخِرَافَ وَيُبَدِّدُهَا. " (يوحنا ١٠/ ٧-١٢).

ومن المحال أن يسطر الله في وحيه مثل هذه الإساءات لمقامه العظيم، وكذا لكتبه ورسله.

---

(١) هل العهد الجديد كلمة الله (١١٩)

ثانيًا: زكريا المقتول هو ابن يهوياداع وليس ابن برخيا

فمن الأغلاط التي تشهد لها الأسفار المقدسة عند النصارى بالخطأ ما جاء في متى في قوله أن المسيح قال: "٣٥لِكَيْ يَأْتِيَ عَلَيْكُمْ كُلُّ دَمٍ زَكِيٍّ سُفِكَ عَلَى الأَرْضِ، مِنْ دَمِ هَابِيلَ الصِّدِّيقِ إِلَى دَمِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَّا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ بَيْنَ الْهَيْكَلِ وَالْمَذْبَحِ. " (متى ٢٣/ ٣٥).

وقد غلط متى، إذ المقتول بين الهيكل والمذبح هو زكريا بن يهوياداع، فقد جاء في سفر الأيام " ٢٠وَلَبِسَ رُوحُ الله زَكَرِيَّا بْنَ يَهُويَادَاعَ الْكَاهِنَ فَوَقَفَ فَوْقَ الشَّعْبِ. . . ٢١فَفَتَنُوا عَلَيْهِ وَرَجَمُوهُ بِحِجَارَةٍ بِأَمْرِ الْمَلِكِ فِي دَارِ بَيْتِ الرَّبِّ. " (الأيام (٢) ٢٤/ ٢٠ – ٢١).

وأما زكريا بن برخيا فهو آخر عاش أيام سبي بابل، وهو من الأنبياء الصغار، وينسب إليه السفر الذي في التوراة، ويقول عنه قاموس الكتاب المقدس " ويذكر التقليد اليهودي أن زكريا هذا طالت أيامه، وعاش في بلاده، ودفن بجانب حجي الذي كان زميلًا له ". (١)

كما يجدر أن ننبه هنا إلى أن لوقا قد نقل قول المسيح الذي ذكره متى، ولكنه لم يخطئ كما أخطأ متى، فقد قال: " ٥١مِنْ دَمِ هَابِيلَ إِلَى دَمِ زَكَرِيَّا الَّذِي أُهْلِكَ بَيْنَ الْمَذْبَحِ وَالْبَيْتِ. " (لوقا ١١/ ٥١).

ثالثًا: إحالة متى الخاطئة إلى سفر إرمياء

وفي نبوءة أوردها متى أخطأ وهو ينقل عن التوراة، يقول متى: " ٣حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى يَهُوذَا الَّذِي أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ، نَدِمَ وَرَدَّ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ ٤قَائِلًا: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا». فَقَالُوا: «مَاذَا عَلَيْنَا؟ أَنْتَ أَبْصِرْ! » ٥فَطَرَحَ الْفِضَّةَ فِي الْهَيْكَلِ وَانْصَرَفَ، ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ. ٦فَأَخَذَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْفِضَّةَ وَقَالُوا: «لاَ يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِي الْخِزَانَةِ لأَنَّهَا ثَمَنُ دَمٍ». ٧فَتَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِيِّ مَقْبَرَةً لِلْغُرَبَاءِ. ٨لِهذَا سُمِّيَ ذلِكَ الْحَقْلُ «حَقْلَ الدَّمِ» إِلَى هذَا الْيَوْمِ. ٩حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا النَّبِيِّ الْقَائِلِ: «وَأَخَذُوا الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، ثَمَنَ الْمُثَمَّنِ الَّذِي ثَمَّنُوهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ١٠وَأَعْطَوْهَا عَنْ حَقْلِ الْفَخَّارِيِّ، كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ». " (متى ٢٧/ ٣ – ١٠).

فإحالته إلى سفر إرميا غير صحيحة، إذ لا يوجد شيء من ذلك في إرميا، والصحيح

أنه في سفر زكريا: " ١٣فَقَالَ لِي الرَّبُّ: «أَلْقِهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ، الثَّمَنَ الْكَرِيمَ الَّذِي ثَمَّنُونِي بِهِ». " (زكريا ١١/ ١٢ - ١٣).

ويجدر أن ننبه هنا أن القصة في سفر زكريا لا علاقة لها بيهوذا ولا المسيح، إذ الثمن الذي يطلبه زكريا ثمن كريم، أجرة كهانته، في حين أن الثمن الذي قبضه يهوذا ثمن خيانة ولؤم.

والحق أن الإحالة ليست إلى سفر زكريا ولا إرميا، بل هي بالحقيقة إحالة إلى سفر غير قانوني ينسب إلى النبي إرمياء، فقد نقل المحقق آدم كلارك في تفسيره للكتاب المقدس عن العلامة جيروم قوله: "إن اليهود من فرقة الناصريين أظهروا له هذه النبوءة في نسخة عبرية لسفر إرميا مشكوك فيها (أبوكريفا)؛ لكن من الراجح أنهم أدخلوا هذه النبوءة في سفر إرميا فقط لموافقة الاقتباس الموجود في متى".

رابعًا: أصحاب داود لم يأكلوا خبز التقدمة في عهد الكاهن أخيمالك

وأخطأ كاتب إنجيل مرقس مرتين وهو يتحدث عما فعله داود عندما جاع فأكل من خبز التقدمة الذي لا يجوز أكله إلا للكهنة فقال: " ٢٥فَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ احْتَاجَ وَجَاعَ هُوَ وَالَّذِينَ مَعَهُ؟ ٢٦كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ اللهِ فِي أَيَّامِ أَبِيَأَثَارَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَأَكَلَ خُبْزَ التَّقْدِمَةِ الَّذِي لاَ يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلاَّ لِلْكَهَنَةِ، وَأَعْطَى الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَيْضًا». " (مرقس ٢/ ٢٥ - ٢٦).

وقوله: " الذين كانوا معه " خطأ ولا محالة، لأن داود كان حين ذهب إلى رئيس الكهنة كان وحيدًا فارًا من وجه شاول، كما في سفر صموئيل وفيه "١فَجَاءَ دَاوُدُ إِلَى نُوبٍ إِلَى أَخِيمَالِكَ الْكَاهِنِ، فَاضْطَرَبَ أَخِيمَالِكُ عِنْدَ لِقَاءِ دَاوُدَ وَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا أَنْتَ وَحْدَكَ وَلَيْسَ مَعَكَ أَحَدٌ؟ ». . . . " (صموئيل (١) ٢١/ ١ - ٤).

والخطأ الثاني الذي وقع فيه مرقس حينما سمى رئيس الكهنة أبياثار، وفي صموئيل أن رئيس الكهنة يومذاك هو أبوه، أخيمالك الذي قتله شاول، لأنه أعطى الخبز المقدس لداود. (انظر صموئيل (١) ٢٢/ ٢٠ - ٢٣).

وينبه محررو الكتاب المقدس إلى أن أبياثار هرب بعدها إلى داود مع صادوق رئيس الكهنة

بعد مقتل أبيه أخيمالك. وقد اعترف بهذا الغلط وارد الكاثوليكي في كتابه " الأغلاط "، وقال نقلًا عن مستر جوويل أنه كتب: غلط مرقس، فكتب أبياثار موضع أخيمالك.

خامسًا: الثناء على يهوذا الخائن

وفي أثناء حديث الإنجيليين عن التلاميذ فإنهم يذكرون الإثني عشر بخير، وينسون أن فيهم يهوذا الخائن، ولربما ذكروا حوادث حصلت بعد موته، فذكروه فيها.

ومن ذلك قول متى أن المسيح قال لتلاميذه الإثني عشر: ": «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِي، فِي التَّجْدِيدِ، مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ، تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيضًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِيًّا تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ. " (متى ١٩/ ٢٨).

ولم يستثنِ متى يهوذا الخائن الذي يقول عنه ناقلًا عن المسيح: " وَلكِنْ وَيْلٌ لِذلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِذلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ! ». " (متى ٢٦/ ٢٤)، وقد تنبه لوقا لخطأ متى، فلم يقع فيه، ولم يذكر عدد الكراسي. (انظر: لوقا ٢٢/ ٢٨ - ٢٩).

وهذا الخطأ وقع به بولس وهو يتحدث عن قيامة المسيح والتي يفترض أنها بعد وفاة يهوذا بأيام وقبل انتخاب البديل عنه ميتاس (انظر أعمال ١/ ٢٦)، فقال بولس: " وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ، [٥]وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِصَفَا ثُمَّ لِلاثْنَيْ عَشَرَ. [٦]وَبَعْدَ ذلِكَ ظَهَرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً لأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِئَةِ أَخٍ " (كورنثوس (١) ١٥/ ٤ - ٦).

وقد تنبه للخطأ كاتب مرقس وهو يروي ذات القصة، فقال: " [١٤]أَخِيرًا ظَهَرَ لِلأَحَدَ عَشَرَ وَهُمْ مُتَّكِئُونَ. " (مرقس ١٦/ ١٤).

سادسًا: مدة مكث المسيح في بطن الأرض ليست ثلاثة أيام وثلاث ليال

ومن الأغلاط ما ذكره متى عن مكث ابن الإنسان (المسيح) في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال، حيث يقول: "[٣٨]حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». [٣٩]فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ. [٤٠]لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال، هكَذَا

يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ. " (متى ١٢/ ٣٨ - ٤٠).

ومن المعلوم في الأناجيل أن المسيح صلب يوم الجمعة، ودفن ليلة السبت، وخرج من قبره قبل فجر الأحد، أي لم يمكث في القبر سوى ليلة السبت ويوم السبت وليلة الأحد. وهو ما يعدل ليلتين ويوم، وليس ثلاثة أيام وثلاث ليال، كما أخبر متى.

وقد اعترف(بالسي وشلز) أن متى قد غلط، وزعم أنه أخطأ في فهم كلام المسيح، فهذا التفسير بالبقاء ثلاثة أيام وثلاث ليال في الأرض كان من جانبه، وأما مقصود المسيح فهو: " أن أهل نينوي كما آمنوا بسماع الوعظ وما طلبوا معجزة، كذلك فليرضَ الناس مني بسماع الوعظ".

وأما يوحنا فيحاول في تفسيره تحوير النص فيقول: إن الثلاثة أيام والثلاثة ليال تحسب من يوم الخميس حين أكل المسيح العشاء مع التلاميذ وتحول الطعام إلى جسده، فبطن الأرض مجاز عن بطونهم. (1) وهو قول ممجوج واضح التكلف.

وأما تفسير (بالسي وشلز) فهو اعتذار لا يقبل، لأنه قد جاء مثل هذا القول عند غير متى، ففي يوحنا قال لهم: ": «انْقُضُوا هذَا الْهَيْكَلَ، وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ». "، فلم يفهم اليهود كلامه، وظنوه يتحدث عن هيكل سليمان " ٢٠فَقَالَ الْيَهُودُ: «فِي سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هذَا الْهَيْكَلُ، أَفَأَنْتَ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ؟ » ٢١وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ. ٢٢فَلَمَّا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، تَذَكَّرَ تَلاَمِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هذَا، فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلاَمِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ. " (يوحنا ٢/ ١٩ - ٢٤)، ولكنه قد قام في اليوم الثاني، وبعد مضي ليلتين فقط.

وقال لوقا: " يَنْبَغِي أَنْ يُسَلَّمَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي أَيْدِي أُنَاسٍ خُطَاةٍ، وَيُصْلَبَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ». " (لوقا ٢٤/ ٧)، وفي مرقس "٣٣فَيَقْتُلُونَهُ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ». " (مرقس ١٠/ ٣٤)، وقيامته هي القيامة من الموت، وقد قام في اليوم الثاني من الموت المزعوم.

ثانيًا: أغلاط بشهادة الواقع

١ـ العودة القريبة للمسيح والنهاية السريعة للدنيا

وثمة نصوص أخرى كثيرة غلط فيها الإنجيليون بشهادة الواقع والتاريخ، ومن مثل

---

(١) إظهار الحق (٢/ ٣١٨).

ذلك ما جاء في إنجيل متى عن القيامة القريبة التي تقترن بعودة المسيح القريبة، والتي حددها المسيح كما يزعمون بأنها قبيل انقضاء جيله، وعليه طلب إلى تلاميذه أن لا يذهبوا للدعوة في مدن السامريين فإن القيامة دون ذلك.

وقد قارب مجموع النصوص - التي تحدثت عن عودة المسيح والقيامة- العشرة، أهمها: " ٢٧فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ سَوْفَ يَأْتِي فِي مَجْدِ أَبِيهِ مَعَ مَلاَئِكَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ عَمَلِهِ. ٢٨اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ ههُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوُا ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي مَلَكُوتِهِ». " (متى ١٦/ ٢٧ - ٢٨).

ويقول أيضًا: " ٢٣وَمَتَى طَرَدُوكُمْ فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ فَاهْرُبُوا إِلَى الأُخْرَى. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَانِ. " (متى ١٠/ ٢٣).

وفي سفر الرؤيا يقول: "١١هَا أَنَا آتِي سَرِيعًا. " (الرؤيا ٣/ ١١).

ويقول يعقوب: " أَيُّهَا الإِخْوَةُ. . ٨فَتَأَنَّوْا أَنْتُمْ وَثَبِّتُوا قُلُوبَكُمْ، لأَنَّ مَجِيءَ الرَّبِّ قَدِ اقْتَرَبَ. " (يعقوب ٥/ ٨).

وتحدث متى عما يرافق عودة المسيح من أحداث " ٣وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ، تَقَدَّمَ إِلَيْهِ التَّلاَمِيذُ عَلَى انْفِرَادٍ قَائِلِينَ: «قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هذَا؟ وَمَا هِيَ عَلاَمَةُ مَجِيئِكَ وَانْقِضَاءِ الدَّهْرِ؟ »".

فأجابهم المسيح بذكر علامات كثيرة، ومنها "«وَلِلْوَقْتِ بَعْدَ ضِيقِ تِلْكَ الأَيَّامِ تُظْلِمُ الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ لاَ يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَالنُّجُومُ تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ، وَقُوَّاتُ السَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ. ٣٠وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلاَمَةُ ابْنِ الإِنْسَانِ فِي السَّمَاءِ. وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ، وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ. . ٣٤اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَمْضِي هذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هذَا كُلُّهُ[١]. ٣٥اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ. "(متى ٢٤/ ٢٩-٣٥).

---

(١) يحاول الشراح عبثًا تجاوز هذه المعضلة، فقال إيرونيموس بأن لفظة الجيل تعني النوع البشري، وقال أوريجانوس ويوحنا الذهبي بأنها تعني الكنيسة المسيحية، ورأى آخرون أنها تشير إلى النظام اليهودي واعترف آخرون بأنها مدة تتفاوت بين (٧٠-١٠٠) سنة. انظر شرح بشارة لوقا، القس إبراهيم سعيد، (٥٢٥).

وفي لوقا: " وَتكُونُ أُورُشَلِيمُ مَدُوسَةً مِنَ الأُمَمِ، حَتَّى تُكَمَّلَ أَزْمِنَةُ الأُمَمِ. «وَتكُونُ عَلاَمَاتٌ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَعَلَى الأَرْضِ كَرْبُ أُمَمٍ بِحَيْرَةٍ. اَلْبَحْرُ وَالأَمْوَاجُ تَضِجُّ، [٢٦]وَالنَّاسُ يُغْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ خَوْفٍ وَانْتِظَارِ مَا يَأْتِي عَلَى الْمَسْكُونَةِ، لأَنَّ قُوَّاتِ السَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ. [٢٧]وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابَةٍ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ. " (لوقا ٢١/ ٢٤-٢٧).

وقد سيطرت فكرة العودة السريعة والقيامة القريبة على كُتاب الرسائل، ومنهم بولس الذي يقول: " نَحْنُ الَّذِينَ انْتَهَتْ إِلَيْنَا أَوَاخِرُ الدُّهُورِ. " (كورنثوس (١) ١٠/ ١١).

وفي رسالته إلى تسالونيكي يتحدث عن الكيفية التي سيلاقي بها المسيح بعد قيام المؤمنين بالمسيح من الأموات، يقول: "إِنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ، لاَ نَسْبِقُ الرَّاقِدِينَ. [١٦]لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ بِهُتَافٍ، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ الله، سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلًا. [١٧]ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ، وَهكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ. " (تسالونيكي (١) ٤/ ١٥-١٧).

ويؤكد إيمانه بهذه الفكرة في قوله: " [٥١]هُوَذَا سِرٌّ أَقُولُهُ لَكُمْ: لاَ نَرْقُدُ كُلُّنَا، وَلكِنَّنَا كُلَّنَا نَتَغَيَّرُ، [٥٢]فِي لَحْظَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، عِنْدَ الْبُوقِ الأَخِيرِ. فَإِنَّهُ سَيُبَوَّقُ، فَيُقَامُ الأَمْوَاتُ عَدِيمِي فَسَادٍ، وَنَحْنُ نَتَغَيَّرُ. " (كورنثوس (١) ١٥/ ٥١ - ٥٢).

وعلى هذا النص الأخير تعلق الرهبانية اليسوعية، فتقول: " يتكلم بولس بكلام إنسان يتوقع أن يكون حيًا عند مجيء المسيح".

ويقول معجم اللاهوت الكتابي: " يبدو أن المؤمنين، في فجر الكنيسة، وقد لبسوا نور الفصح والعنصرة، قد ظنوا أن المسيح سيأتي من فوره. . لا يقول بولس أبدًا بأن المجيء الثاني المجيد سيأتي بعد حقبة طويلة من الزمن، بل بالعكس يداعبه الأمل بأن يكون إذ ذاك حيًا يرزق (تسالونيكي (١) ٤/ ١٧)".

ويقول يوحنا: "[١٨]أَيُّهَا الأَوْلاَدُ هِيَ السَّاعَةُ الأَخِيرَةُ. وَكَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّ ضِدَّ الْمَسِيحِ يَأْتِي، قَدْ صَارَ الآنَ أَضْدَادٌ لِلْمَسِيحِ كَثِيرُونَ. مِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا السَّاعَةُ الأَخِيرَةُ " (يوحنا (١) ٢/ ١٨).

تقول الرهبانية اليسوعية تعليقًا على هذا النص: "تلميح إلى الساعة الأخيرة من التاريخ، كان المسيحيون الأوائل ومنهم يوحنا، على يقين من أن تلك الساعة قريبة، ولكنهم كانوا يعتقدون بأن مجيء الرب في المجد سيسبقه قيام كائن مفسد، هو المسيح الدجال".

٢ـ معجزات المؤمنين:

ومن النصوص أيضًا التي تثبت شهادة الواقع خطأ الإنجيليين فيها، لأن المسيح لا يكذب، ولا يمكن أن يقول ما نسب إليه فيها، إذ هو من الخطأ البيّن.

من ذلك ما جاء في خاتمة مرقس، ففيها أن المسيح ظهر لتلاميذه بعد الصلب وقال لهم: "١٧وَهذِهِ الآيَاتُ تَتْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ: يُخْرِجُونَ الشَّيَاطِينَ بِاسْمِي، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. ١٨يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ، وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئًا مُمِيتًا لاَ يَضُرُّهُمْ، وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ». " (مرقس ١٦/ ١٧ - ١٨).

وقريبًا من هذا المعنى يقول مرقس بأن المسيح قال لتلاميذه: ": «لِيَكُنْ لَكُمْ إِيمَانٌ بِالله. ٢٣لأَنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ قَالَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ وَانْطَرِحْ فِي الْبَحْرِ! وَلاَ يَشُكُّ فِي قَلْبِهِ، بَلْ يُؤْمِنُ أَنَّ مَا يَقُولُهُ يَكُونُ، فَمَهْمَا قَالَ يَكُونُ لَهُ. " (مرقس ١١/ ٢٢ - ٢٣).

وفي إنجيل متى: "وَكُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ فِي الصَّلاَةِ مُؤْمِنِينَ تَنَالُونَهُ». " (متى ٢١/ ٢٢) وحين تقدم رجل إلى المسيح يرجوه أن يشفي ابنه من الصرع، و يقول: ". لكِنْ إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئًا فَتَحَنَّنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا». ٢٣فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤْمِنَ. كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ». ٢٤فَلِلْوَقْتِ صَرَخَ أَبُو الْوَلَدِ بِدُمُوعٍ وَقَالَ: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي». " (مرقس ٩/ ٢٣)، لقد أفهمه المسيح أن صنع المعجزات - كل المعجزات - يقدر عليه المؤمنون، وعليه طلب منه الإيمان ليشفي ابنه، فتعهد الرجل بالإيمان، وشفى له المسيح ابنه، لأنه لم يصر بعدُ في عداد المؤمنين.

وينقل يوحنا على لسان المسيح أنه قال: "١٢اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضًا، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا. . . " (يوحنا ١٤/ ١٢)، فكل مؤمن يستطيع صنع المعجزات الباهرة التي صنعها المسيح من إحياء للموتى وشفاء للمرضى، والتجربة خير برهان!

أما أولئك الذي يعجزون عن فعل المعجزات ممن يؤمن بقدسية هذا النص، فهؤلاء لا إيمان لهم، إذ يحكى متى عن تقدم التلاميذ إلى يسوع على انفراد ليسألوه عن سبب إخفاقهم في شفاء المصروع فأجابهم: " [٢٠]فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لِعَدَمِ إِيمَانِكُمْ. فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ. " (متى ١٧/ ٢٠).

وعليه فكل مؤمن نصراني يستطيع إحياء الموتى وشفاء المرضى وإخراج الشياطين. . . ، وإن لم يصنع ذلك فليس بمؤمن.

ويبالغ يوحنا في عرضه للمعجزات التي يتوارثها النصارى عن المسيح، إذ يقول في نص آخر بأن المسيح قال لليهود: " [٥١]اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلاَمِي فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ». " وفهم اليهود منه موتًا حقيقيًا فقالوا: " [٥٣]أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَاتَ؟ وَالأَنْبِيَاءُ مَاتُوا. مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ؟ » " فلم يتهمهم بسوء الفهم بل قال لهم: " [٥٤]أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئًا. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي، " (يوحنا ٨/ ٥١ – ٥٤).

إذًا هذه النصوص تتحدث عن معجزات يصنعها المؤمنون، فهل يتحقق شيء منها في حياة أولئك الذين يدعون الإيمان بالمسيح؟.

٣ـ التعويض السريع في الدنيا

ومن الأمور التي ذكرتها الأناجيل أيضًا، ويكذبها واقع الناس ما جاء في مرقس أن بطرس قال للمسيح: ": «هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ». [٢٩]فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَدًا أَوْ حُقُولًا، لأَجْلِي وَلأَجْلِ الإِنْجِيلِ، [٣٠]إِلاَّ وَيَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ الآنَ فِي هذَا الزَّمَانِ، بُيُوتًا وَإِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ وَأُمَّهَاتٍ وَأَوْلاَدًا وَحُقُولًا، مَعَ اضْطِهَادَاتٍ، وَفِي الدَّهْرِ الآتِي الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ. " (مرقس ١٠/ ٢٨ – ٣٠) ومثله في متى: " [٢٢]وَكُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ فِي الصَّلاَةِ مُؤْمِنِينَ تَنَالُونَهُ». " (متى ١٩/ ٢٩)، وفي لوقا: " وَيَأْخُذُ فِي هذَا الزَّمَانِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً " (لوقا ١٨/ ٢٩ – ٣٠).

وحار المحققون في فهم كيفية الحصول على هذا التعويض، كيف يمكن للإنسان أن يصبح

عنده أمهات وآباء كثر. . . وإذا فُهم أن الآباء والإخوة والأمهات أمور مجازية، فكيف يفهم تعويض الحقول والزوجات؟ ومتى رأينا ذلك لأحد أولئك الذين يهجرون أوطانهم للتبشير، فيتركون أمهاتهم وأخواتهم وأموالهم، متى أعطوا جزاء في الدنيا مائة ضعف.

والنص واضح الدلالة أنه يتحدث عن جزاء دنيوي " مع اضطهادات "، وستحصل " في هذا الزمان " ثم وعد بالحياة الأبدية في الآخرة.

٤ـ الأرض كروية أم مسطحة؟

ويتحدث سفر الرؤيا عن الأرض وقد رآها يوحنا مسطحة لها أربع زوايا، ويقف ملَك عند كل زاوية من الزوايا الأربع، يقول يوحنا: "[١]وَبَعْدَ هذَا رَأَيْتُ أَرْبَعَةَ مَلاَئِكَةٍ وَاقِفِينَ عَلَى أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ، مُمْسِكِينَ أَرْبَعَ رِيَاحِ الأَرْضِ لِكَيْ لاَ تَهُبَّ رِيحٌ عَلَى الأَرْضِ، وَلاَ عَلَى الْبَحْرِ، وَلاَ عَلَى شَجَرَةٍ مَا. " (الرؤيا ٧/ ١)، وقد أعاد يوحنا ذكر زوايا الأرض الأربعة ثانية في قوله: "[٧]ثُمَّ مَتَى تَمَّتِ الأَلْفُ السَّنَةِ يُحَلُّ الشَّيْطَانُ مِنْ سِجْنِهِ، [٨]وَيَخْرُجُ لِيُضِلَّ الأُمَمَ الَّذِينَ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ " (الرؤيا ٢٠/ ٧).

وأكد متى هذا التصور للأرض حين تحدث عن تجربة إبليس للمسيح، فعندما أراد أن يريه جميع ممالك الأرض أصعده إلى جبل عال، فرأى جميع العوالم والممالك، " [٨]ثُمَّ أَخَذَهُ أيضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا " (متى ٤/ ٨).

والذي مكنه من رؤيتها علو الجبل الذي صعد عليه، وهذا قد يستقيم فيما لو كانت الأرض مسطحة، لكنه يستحيل مع كرويتها، كما لا يخفى.

ثالثا: أغلاط بشهادة العقل:

كما ثمة أغلاط في الأناجيل يشهد العقل بأنها لا تصدر عن الوحي، لأنه أي العقل يشهد بخطئها وجهل قائلها بقوانين الله في الطبيعة.

١ـ نجم في سماء أورشليم

ذكر متى قصة المجوس الذين جاءوا للمسيح عند ولادته وسجدوا له فقال: "[١]وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا

إِلَى أُورُشَلِيمَ ٢قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ». . . . ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. ١٠فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا. . . . " (متى ٢/ ١-١٠).

فعند عرض القصة على العقل فإنه يرفضها لأمور:

أن متّى يتحدث عن نجم يمشي، وحركته - على رغم بعده الهائل - ملحوظة على الأرض تشير إلى بعض أزقة أورشليم دون بعض، ثم إلى بيت من بيوتها، حيث يوجد المسيح، فيتوقف وهو في السماء، فكيف مشى، وكيف دلهم على البيت، وكيف وقف؟! ! وكيف رأوا ذلك كله؟ أسئلة ليس لها إجابة.

كيف عرف المجوس خبر المسيح ونجمه وهم لا يعرفون الله؟ وكيف يسجدون لنبي وهم لا يؤمنون بدينه؟ فهذا من الكذب بدليل أن أحدًا من قدماء المجوس ومؤرخيهم لم ينقل مثل هذا، وكذلك لم ينقله الإنجيليون الآخرون، ومنهم لوقا الذي تتبع كل شيء بتدقيق.

ثم لماذا تحمل المجوس عناء هذه الرحلة الطويلة؟ هل لمجرد أن يسجدوا بين يديه ويقدموا له الهدايا ثم يعودون! ! ؟

كما يتحدث النص عن اهتمام الوالي هيرودس بأمر المولود وأنه أضمر قتله، وطلب من المجوس أن يخبروه إذا وجدوا الطفل ليسجد له، ثم أُوحي للمجوس في المنام أن لا يرجعوا لهيرودس، ففعلوا، فلو كان اهتمام هيرودس حقًا لقام معهم إلى بيت لحم وهي على مقربة من أورشليم، أو لأرسل معهم خاصته، إذ الموضوع بالنسبة إليه جِدٌّ خطير.

وأما ما ذكره متى عن قتل هيرودس للأطفال بعد تواري المجوس قبل أن يقف على الطفل فهذا كذب بدليل أن أحدًا من المؤرخين لم يذكره على أهمية هذا الحدث، كما ننبه إلى أن هيرودس الكبير قد مات قبل الميلاد بأربع سنوات كما تذكر ذلك كافة المصادر التاريخية.

٢ـ الركوب على الجحش والأتان معًا

ومما يكذبه العقل ولا يتصوره ما ذكره متى عند حديثه عن دخول المسيح أورشليم فقال: "٧وَأَتَيَا بِالأَتَانِ وَالْجَحْشِ، وَوَضَعَا عَلَيْهِمَا ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ عَلَيْهِمَا. " (متى ٢١/ ٧)

فجلوس المسيح على الجحش والأتان معًا لا يتصوره العقل.

وهو غلط وكذب أراد متى من خلاله أن يحقق نبوءة توراتية "٤فَكَانَ هذَا كُلُّهُ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: ٥«قُولُوا لابْنَةِ صِهْيَوْنَ: هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِيكِ وَدِيعًا، رَاكِبًا عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ». " (متى ٢١/ ٤-٥).

٣ـ عجائب متى عند موت المصلوب:

ومما يرفضه العقل أيضًا ما حكاه متى من عجائب حصلت عند موت المسيح يقول: "٥١وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ(١) قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. وَالأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ، وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ، ٥٢وَالْقُبُورُ تَفَتَّحَتْ، وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقِدِّيسِينَ الرَّاقِدِينَ ٥٣وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ. " (متى ٢٧/ ٥١ – ٥٤).

والقصة من الغلط بل والكذب، إذ لم يعهد مثل هذه العودة للقديسين والراقدين، ولم يعهد أن عاد هؤلاء أو غيرهم من الموت.

قال (نورتن) الملقب بحامي الإنجيل: " هذه الحكاية كاذبة، والغالب أن أمثال هذه الحكايات كانت رائجة عند اليهود بعد ما صارت أورشليم خرابًا، فلعل أحدًا كتب في حاشية النسخة العبرانية لإنجيل متى، وأدخلها الكاتب في المتن، وهذا المتن وقع في يد المترجم، فترجمها على حسبه".

ونقول ما قاله العلامة أبو زهرة: " لعل كثيرًا مما في المتن أصله في الحاشية ثم نقل خطأً في المتن"، فكيف يتسنى لنا بيان هذا الزائف وإخراجه من الكتاب؟. (٢)

٤ـ ما هو السبب الصحيح للقبض على المسيح

لقد حدث الاختلاف بين كتاب الأناجيل في السبب المباشر الذي من أجله تم القبض على المسيح (كما يزعمون!)

---

(١) الهيكل: كامة سومرية معناها (البيت الكبير) وهو مكان عبادة اله، ويقوم مكان الكنيسة اليوم، ولكن اليهود لم يطلقوا اسم الهيكل إلا على مكان واحد كبير في القدس. انظر: قاموس الكتاب المقدس ص ١٠١٢.

(٢) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ٣١٣ – ٣١٦)، محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة (١٠٧).

فمفاد الأناجيل الثلاثة (متى ومرقس ولوقا) أن السبب المباشر الذي حرك رؤساء الكهنة والكتبة ضده هو حادث الهيكل.

ففي متى ٢١/ ١٢- ١٤: " ١٢وَدَخَلَ يَسُوعُ إِلَى هَيْكَلِ اللهِ وَأَخْرَجَ جَمِيعَ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي الْهَيْكَلِ، وَقَلَبَ مَوَائِدَ الصَّيَارِفَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ الْحَمَامِ ١٣وَقَالَ لَهُمْ: «مَكْتُوبٌ: بَيْتِي بَيْتَ الصَّلاَةِ يُدْعَى. وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ! » ١٤وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ عُمْيٌ وَعُرْجٌ فِي الْهَيْكَلِ فَشَفَاهُمْ. "

وقال مرقس بعد حادثة طرد الباعة والصيارفة مباشرة ١١/ ١٨: " ١٨وَسَمِعَ الْكَتَبَةُ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ فَطَلَبُوا كَيْفَ يُهْلِكُونَهُ، لأَنَّهُمْ خَافُوهُ، إِذْ بُهِتَ الْجَمْعُ كُلُّهُ مِنْ تَعْلِيمِهِ. "

وفي لوقا ١٩/ ٤٥ – ٤٨: " ٤٥وَلَمَّا دَخَلَ الْهَيْكَلَ ابْتَدَأَ يُخْرِجُ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِيهِ ٤٦قَائِلًا لَهُمْ: «مَكْتُوبٌ: إِنَّ بَيْتِي بَيْتُ الصَّلاَةِ. وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ! ».

٤٧وَكَانَ يُعَلِّمُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْهَيْكَلِ، وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ مَعَ وُجُوهِ الشَّعْبِ يَطْلُبُونَ أَنْ يُهْلِكُوهُ، ٤٨وَلَمْ يَجِدُوا مَا يَفْعَلُونَ، لأَنَّ الشَّعْبَ كُلَّهُ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِهِ يَسْمَعُ مِنْهُ.

وفي ٢٠/ ١٩ – ٢٠: " ١٩فَطَلَبَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ أَنْ يُلْقُوا الأَيَادِيَ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، وَلكِنَّهُمْ خَافُوا الشَّعْبَ، لأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ قَالَ هذَا الْمَثَلَ عَلَيْهِمْ. "

أما مفاد نص يوحنا فإن السبب المباشر في القبض على من يزعمون أنه المسيح عليه السلام إنما هو إقامة رجل يدعى لعازر من قبره فكان ذلك سببا لتحرك اليهود ضده في تنفيذ مؤامرة القبض عليه وتسليمه لرجال السلطة، يقول يوحنا ١١/ ٤١- ٤٨: " ٤١فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، ٤٢وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي». ٤٣وَلَمَّا قَالَ هذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا! » ٤٤فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيل. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ».

٤٥فَكَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مَرْيَمَ، وَنَظَرُوا مَا فَعَلَ يَسُوعُ، آمَنُوا بِهِ. ٤٦وَأَمَّا

قَوْمٌ مِنْهُمْ فَمَضَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُمْ عَمَّا فَعَلَ يَسُوعُ. ٤٧فَجَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ مَجْمَعًا وَقَالُوا: «مَاذَا نَصْنَعُ؟ فَإِنَّ هذَا الإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً. ٤٨إِنْ تَرَكْنَاهُ هكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ، فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا».

" ٥٣فَمِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ تَشَاوَرُوا لِيَقْتُلُوهُ. " يوحنا ١١/ ٥٣.

٥٧ وَكَانَ أَيضًا رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ قَدْ أَصْدَرُوا أَمْرًا أَنَّهُ إِنْ عَرَفَ أَحَدٌ أَيْنَ هُوَ فَلْيَدُلَّ عَلَيْهِ، لِكَيْ يُمْسِكُوهُ. " يوحنا ١١/ ٥٧.

التعليق: فهذا تناقض لا يمكن رفعه، وسببه الخلاف في سبب القبض عليه فإنه عند يوحنا قصة لإقامة لعازر، وعند الثلاثة حادث الهيكل ! !. [(١)]

رابعًا: أغلاط بشهادة التاريخ.

ومن الأحداث التاريخية غير الصحيحة أيضًا ما ورد في الإنجيل المنسوب إلى لوقا ٢/ ١- ٦ ما يلي: " ١وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ صَدَرَ أَمْرٌ مِنْ أُوغُسْطُسَ قَيْصَرَ بِأَنْ يُكْتَتَبَ كُلُّ الْمَسْكُونَةِ. ٢وَهذَا الاكْتِتَابُ الأَوَّلُ جَرَى إِذْ كَانَ كِيرِينِيُوسُ وَالِيَ سُورِيَّةَ. ٣فَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيُكْتَتَبُوا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ. ٤فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمٍ، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ، ٥لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى. ٦وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ. "

فقد تضمن هذا النص أن (كِيرِينِيُوس) والي سورية قد كانت ولايته عليها بعد الميلاد بست سنوات فأكثر وهذا ما ذكره قاموس الكتاب المقدس: " كيريو نيوس: كان واليا على سوريا عام ٦-١١م ". [(٢)]

بينما يفيدنا نص لوقا أن الاكتتاب الذي جرى في عهد (كيرنيوس) والي سورية كان في العام الأول لميلاد المسيح عليه السلام[(٣)] " وهذا غلط لأن المراد بكل المسكونة إما أن يكون جميع ممالك سلطنة

---

(١) انظر: التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة، تأليف: سارة العبادي. (٢٧٦)

(٢) قاموس الكتاب المقدس (٨٠٢).

(٣) التحريف والتناقض. (٢٨٣ - ٢٨٤).

روما وهو الظاهر، أو جميع مملكة يهوذا، ولم يصرح أحد من القدماء المؤرخين اليونانيين الذين كانوا معاصرين للوقا أو متقدمين عليه قليلًا في تاريخه[١]، بهذا الاكتتاب المقدم على ولادة المسيح، وإن ذكر أحد من الذين كانوا بعد لوقا بمدة مديدة فلا سند لقوله، لأنه ناقل عنه، ومع قطع النظر عن هذا كان كيرينيوس والي سورية بعد ولادة المسيح بخمس عشرة سنة، فكيف يتصوّر في وقته الاكتتاب الذي كان قبل ولادة المسيح بخمس عشرة سنة؟ وكذا كيف يتصوّر ولادة المسيح في عهده؟ أبقي حمل مريم عليها السلام إلى خمس عشرة سنة؟ ! ! ، لأن لوقا أقر في السفر الأول[٢] أن حمل زوجة زكريا عليه السلام كان في عهد هيرود وحملت مريم بعد حملها بستة أشهر، ولما عجز البعض عن التوفيق حكم بأن الآية الثانية إلحاقية ما كتبها لوقا "[٣].

رأي النصارى في أغلاط كتاب الأناجيل:

وبعد، لعل المرء يتساءل ما هو رأي النصارى بأغلاط الأناجيل؟ وهل يقرونها؟

في الإجابة نقول: لا ريب أن أتباع الكنيسة الذين أغلقوا عقولهم في وجه الحقيقة يرفضون أن يحوي الإنجيل غلطًا، لأن روح القدس لا يغلط، ومن هؤلاء الدكتور القس شروش حيث يقول: " إنا نعلم أن الإنجيل هو وحي الله، لأن التنبؤ بالأحداث قد تم قبل وقوع الأحداث بقرون، إن للإنجيل تأثيره على المجتمعات البشرية طالما تم الإيمان به والعمل بمقتضاه. أكثر من ذلك فإن دقة الإنجيل قد وجدت من يتحداها، ولكنها لم تجد من ينجح في التحدي ".

ويقول أيضًا: " إن صحة محتويات الإنجيل قد أثبتتها الوثائق التاريخية والحفريات الأثرية والوثائق القديمة، وتوجد الآن أكثر من خمس وعشرين ألف وثيقة من الوثائق المقدسة بالمتحف البريطاني من أجلكم، لكي تتأكدوا من صحة مشيئة الله"[٤].

ولما كانت الحقيقة - بوجود الغلط في الأناجيل والرسائل - ساطعة كالشمس عمل

---

(١) أي تاريخ أحد المعاصرين.

(٢) فقرة ٧، ٢٣- ٣١.

(٣) إظهار الحق (٢/ ٣٣٤ - ٣٣٦) بتصرف يسير.

(٤) انظر: مناظرة العصر، أحمد ديدات، (٣٥).

بعض علماء النصرانية على التخلص من هذه الأغلاط بالإقرار بأن الإلهام لم يكن مصاحبًا للإنجيليين حال كل كتابة كتبوها، يقول هورن: " إذا قيل إن الكتب المقدسة أوحي بها من عند الله لا يراد أن كل الألفاظ والعبارات من إلهام الله. . . ولا يتخيل أنهم كانوا يلهمون في كل أمر يبينونه، وفي كل حكم كانوا يحكمون به ".

وتقول دائرة المعارف البريطانية: " وقع النزاع في أن كل قول مندرج في الكتب المقدسة هل هو إلهامي أم لا؟ وكذا كل حال من الحالات المندرجة فيها، فقال جيروم وكثيرون: ليس كل قول إلهامي. . . الذين قالوا: إن كل قول إلهامي لا يقدرون أن يثبتوا دعواهم بسهولة ". [1]

وهذا القول يطالب قائلوه بتعيين المواضع غير الإلهامية وإقامة الدليل على خصوصها بعدم الإلهام أو إقامة الدليل على خصوص المواضع التي يقولون بإلهاميتها، وإذا لم يتم ذلك وجب التوقف في شأن الكتب المقدسة، إذ فيها ما هو عمل بشري لا يجوز اعتباره مصدرًا دينيًا.

---

(١) إظهار الحق (٢/ ٣٥٨).

الفصل الثالث: التحريف في الكتاب المقدس.

تمهيد:

تحدث القرآن الكريم عن تحريف التوراة في آيات كريمة منها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧١)، ويقول: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦)، ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥).

وعن تحريفهم بالنقص يقول: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ (الأنعام: ٩١)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٤)، ويقول: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (المائدة: ١٥).

وعن تحريفهم بالزيادة والكذب على الله يقول: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ (البقرة: ٧٩)، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨).

فالتحريف إذًا يكون بالنقص والزيادة، وكل ذلك وقع في التوراة كما سنرى.

وهو قسمان: لفظي. معنوي.

أما المعنوي فلا نزاع بيننا وبين النصارى في وقوعه لأنهم يسلمون كلهم صدوره عن اليهود في العهد العتيق في تفسير الآيات، التي هي إشارة في زعمهم إلى المسيح، وفي تفسير الأحكام التي هي أبدية عند اليهود، وأن علماء البروتستانت يعترفون بصدوره عن معتقدي

البابا في كتب العهدين، كما أن معتقدي البابا يرمونهم بهذا رميًا شديدًا فلا احتياج إلى إثباته.

بقي القسم الأول وله ثلاثة أنواع:

أولًا: تحريف بتبديل الألفاظ.

ثانيًا: تحريف بالزيادة.

ثالثًا: تحريف بالنقصان. (١)

النوع الأول: التحريف بالتبديل.

أولًا: مقدمة عن نسخ العهد القديم.

لكي يتضح لنا موضوع التحريف بالتبديل في العهد القديم ينبغي أن نعلم أن النسخ المشهورة للعهد القديم عند أهل الكتاب ثلاث نسخ:

(الأولى) العبرانية وهي المعتبرة عند اليهود، وجمهور علماء البروتستنت.

(والثانية) النسخة اليونانية، وهي التي كانت معتبرة عند المسيحيين إلى القرن الخامس عشر من القرون المسيحية، وكانوا يعتقدون إلى هذه المدة تحريف النسخة العبرانية.

(والثالثة) النسخة السامرية، وهي المعتبرة عند السامريين، وهذه النسخة هي النسخة العبرانية لكنها تشتمل على سبعة كتب من العهد العتيق فقط، أعني الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، وكتاب يوشع وكتاب القضاة؛ لأن السامريين لا يسلمون الكتب الباقية من العهد العتيق، وتزيد على النسخة العبرانية في الألفاظ والفقرات الكثيرة التي لا توجد فيها الآن. (٢)

ثانيًا: نماذج التحريف بالتبديل.

١- ورد في سفر التثنية (٢٧/ ٤) في النسخة العبرانية هكذا: "فإذا عبرتم الأردن فانصبوا الحجارة التي أنا اليوم أوصيكم في جبل عِيبال وشيدها بالجص تشييدًا" (٣)

وفي طبعة أخرى هكذا " حين تعبرون الأردن، تقيمون هذه الحجارة التي أنا أوصيكم

---

(١) إظهار الحق (٢/ ٤٢٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٢٩ – ٤٣٠) بتصرف.

(٣) هذا نص طبعة سنة ١٨٤٤م.

بها اليوم في جبل عيبال، وتكلسها بالكلس. "

وهذه الجملة "فانصبوا الحجارة التي أنا اليوم أوصيكم في جبل عيبال" في النسخة السامرية هكذا: (تقيمون الحجارة هذه التي أنا موصيكم اليوم في جبل جريزيم وتشيده بشيد)[1].

وعيبال[2] وجِرزيم[3] جبلان متقابلان كما يفهم من الفقرتين ١٢ و١٣ من هذا الإصحاح حيث يقول: " هؤلاء يقفون على جبل جرزيم لكي يباركوا الشعب حين تعبرون الأردن. . . " وهؤلاء يقفون على جبل عيبال للعنة. . . "، ومن الفقرة ٢٩ من الإصحاح ١١ من هذا السفر حيث يقول ". . . فاجعل البركة على جبل جرزيم، واللعنة على جبل عيبال "، فيفهم من النسخة العبرانية أن موسى عليه السلام أمر ببناء الهيكل- أعني المسجد -على جبل عيبال، ومن النسخة السامرية أنه أمر ببنائه على جبل جِرزيم، وبين اليهود والسامريين سلفًا وخلفًا نزاع مشهور تدعي كل فرقة منهما أن الفرقة الأخرى حرّفت التوراة في هذا المقام.

٢- ورد في سفر التكوين الإصحاح ٢٩ - (طبعة سنة ١٨٤٤م) - هكذا: "٢- ونظر بئرًا في الحقل، وثلاثة قطعان غنم رابضةً عندها لأن من تلك البئر كانت تشرب الغنم، وكان حجر عظيم على فم البئر (٣)وكان يجتمع كل الغنم. . . (٨) فقالوا ما نستطيع حتى تجتمع الماشية" إلى آخر الآية، وفي طبعة سنة ١٨٦٥م كما يلي: " ٢وَنَظَرَ وَإِذَا فِي الْحَقْلِ بِئْرٌ وَهُنَاكَ ثَلاَثَةُ قُطْعَانِ غَنَمٍ رَابِضَةٌ عِنْدَهَا، لأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ تِلْكَ الْبِئْرِ يَسْقُونَ الْقُطْعَانَ، وَالْحَجَرُ عَلَى فَمِ الْبِئْرِ كَانَ كَبِيرًا. ٣فَكَانَ يَجْتَمِعُ إِلَى هُنَاكَ جَمِيعُ الْقُطْعَانِ فَيُدَحْرِجُونَ الْحَجَرَ عَنْ فَمِ الْبِئْرِ وَيَسْقُونَ الْغَنَمَ. . . ٨فَقَالُوا: «لاَ نَقْدِرُ حَتَّى تَجْتَمِعَ جَمِيعُ الْقُطْعَانِ وَيُدَحْرِجُوا الْحَجَرَ عَنْ فَمِ الْبِئْرِ، ثُمَّ نَسْقِي الْغَنَمَ».

ففي الآية الثانية والثامنة وقع لفظ" قطعان غنم"، ولفظ "الماشية"، والصحيح لفظ

---

(١) هذا نص التوراة السامرية ترجمة أبي الحسن إسحاق الصوري وتحيق أحمد حجازي السقا، والمطبوعة بالقاهرة سنة ١٩٧٨م.

(٢) عيبال: جبل في شمال مدينة نابلس (شكيم).

(٣) جرزيم: جبل في جنوب مدينة نابلس (شكيم).

(الرعاة) بدلهما كما هو في النسخة السامرية[1] واليونانية والترجمة العربية لوالتن.

٣- ورد في سفر صموئيل الثاني (٢٤/ ١٣) قال: " ١٣فَأَتَى جَادُ إِلَى دَاوُدَ وَأَخبَرهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَأْتِي عَلَيْكَ سَبْعُ سِنِي جُوعٍ فِي أَرْضِكَ، أَمْ تَهْرُبُ. . . . "

وفي سفر أخبار الأيام الأول ٢١/ ١١- ١٢ " ١١فَجَاءَ جَادُ إِلَى دَاوُدَ وَقَالَ لَهُ: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: اقْبَلْ لِنَفْسِكَ: ١٢إِمَّا ثَلاَثَ سِنِينَ جُوعٌ. . . . " ففي الموضع الأول لفظ " سَبْعُ سِنِي " وفي الثاني " ثَلاَثَ سِنِينَ " وأحدهما غلط يقيناً.

قال آدم كلارك في ذيل عبارة صموئيل: "وقع في كتاب أخبار الأيام ثلاث سنين لا سبع سنين، وكذا في اليونانية وقع ههنا ثلاث سنين، كما وقع في أخبار الأيام، وهذه هي العبارة الصادقة بلا ريب". انتهى كلامه.

٤ - وقع في سفر صموئيل الثاني (٢٤/ ٩): " ، فَكَانَ إِسْرَائِيلُ ثَمَانَ مِئَةِ أَلْفِ رَجُل ذِي بَأْسٍ مُسْتَلِّ السَّيْفِ، وَرِجَالُ يَهُوذَا خَمْسَ مِئَةِ أَلْفِ رَجُل. ".

وفي ٢١/ ٥ من سفر أخبار الأيام الأول: "، فَكَانَ كُلُّ إِسْرَائِيلَ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِئَةَ أَلْفِ رَجُل مُسْتَلِّي السَّيْفِ، وَيَهُوذَا أَرْبَعَ مِئَةٍ وَسَبْعِينَ أَلْفَ رَجُل مُسْتَلِّي السَّيْفِ". فإحدى العبارتين ههنا محرفة.

قال آدم كلارك في المجلد الثاني من تفسيره ذيل عبارة صموئيل: "لا يمكن صحة العبارتين، وتعيين الصحيحة عسير، والأغلب أنها الأولى، ووقعت في كتب التواريخ من العهد العتيق تحريفات كثيرة بالنسبة إلى المواضع الأخر، والاجتهاد في التطبيق عبث، والأحسن أن يسلم من أول الوهلة الأمر الذي لا قدرة على إنكاره بالظفر، ومصنفو العهد العتيق وإن كانوا ذوي إلهام لكنّ الناقلين لم يكونوا كذلك". انتهى كلامه.

فهذا المفسر اعترف بالتحريف، لكنه لم يقدر على التعيين، واعترف أن التحريفات في كتب التواريخ كثيرة، وأنصف فقال: الأسلم تسليم التحريف من أول الوهلة.

---

(١) نص السامرية هكذا: " ٢- ونظر وهو ذا بئر في الصحراء وهو ذا هناك ثلاث قطعان غنما رابضة عليها. إن من تلك البئر يسقون القطعان وحجر عظيمة على فم البئر (٣) وتجتمع هناك كل الرعاة. . . (٨) فقالوا لا نقدر إلى أن تجتمع الرعاة ".

٥- ورد في رسالة بولس إلى أهل أفسس ٥/ ٢١ طبعتي سنة ١٨٢٣ م وسنة ١٨٤٤م وردت هذه الفقرة هكذا: " وليخضع بعض لبعض بخوف المسيح " وفي باقي الطبعات: "[٢١]خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي خَوْفِ اللهِ. ".

قال كريسباخ وشولز: " إن لفظ " الله " غلط، والصحيح لفظ " المسيح". [(١)]

والمواضع المحرفة كثيرة وهذه أمثلة فقط

النوع الثاني: التحريف بالزيادة

نماذج التحريف بالزيادة

أولا: في العهد القديم:

١- ورد في سفر التكوين (٣٦/ ٣١) : " [٣١]وَهؤُلاَءِ هُمُ الْمُلُوكُ الَّذِينَ مَلَكُوا فِي أَرْضِ أَدُومَ، قَبْلَمَا مَلَكَ مَلِكٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ".

ولا يمكن أن تكون هذه الآية من كلام موسى عليه السلام لأنها تدل على أن المتكلم بها بعد زمان قامت فيه سلطنة بني إسرائيل، وأول ملوكهم شاول[(٢)] وكان بعد موسى عليه السلام بثلاثمائة وست وخمسين سنة(٣٥٦) سنة.

قال آدم كلارك في المجلد الأول من تفسيره ذيل هذه الآية: "غالب ظني أن موسى عليه السلام ما كتب هذه الآية والآيات التي بعدها إلى الآية التاسعة والثلاثين، بل هذه الآيات هي آيات الباب الأول من السفر الأول من كتاب أخبار الأيام[(٣)]، وأظن ظنًا قويًا قريبًا من اليقين أن هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة من التوراة، فظن الناقل

---

(١) انظر: إظهار الحق (٤٣١ – ٤٦١).

(٢) (شاول) هو شاؤول(شاول) بن قيس من سبط بنيامين أول ملوك بني إسرائيل، وهو الوارد اسمه مرتين في سورة البقرة باسم طالوت، وعهده هو نهاية عهد القضاة وبداية عهد ملوك بني إسرائيل.

(٣) الفقرات التسع في سفر التكوين ٣٦/ ٣١- ٣٩ هي نفسها فقرات سفر أخبار الأيام الأول ١/ ٤٣-٥٠، وهي تتحدث عن ملوك أدوم بالترتيب، وبعد موت كل واحد من الذي ملك مكانه، وذلك قبل حكم طالوت (شاول) وداود وسليمان، أي في الوقت الذي كان فيه إسرائيل في عهد القضاة، فلا مناسبة لهذه الآيات في سفر التكوين الذي هو أول أسفار التوراة، بينما مناسبتها لسفر الأخبار ظاهرة ولا اعتراض هناك.

أنها جزء من المتن فأدخلها فيه".

فاعترف هذا المفسر بإلحاق الآيات التسع، وعلى اعترافه يلزم أن كتبهم كانت صالحة للتحريف، لأن هذه الآيات التسع، مع عدم كونها من التوراة دخلت فيه وشاعت بعد ذلك في جميع النسخ.

٢- ورد في سفر التثنية (٣/ ١٤) طبعة سنة ١٨٤٤م: " يائير ابن منسي أخذ كل كورة أرجوب إلى تخم الجشوريين والمعكيين ودعاها على اسمه باشان حووث يائير إلى هذا اليوم".

وفي طبعة سنة ١٨٦٥م وما بعدها هكذا: " "يَائِيرُ ابْنُ مَنَسَّى أَخَذَ كُلَّ كُورَةِ أَرْجُوبَ إِلَى تُخْمِ الْجُشُورِيِّينَ وَالْمَعْكِيِّينَ، وَدَعَاهَا عَلَى اسْمِهِ بَاشَانَ «حَوُّوثِ يَائِيرَ» إِلَى هذَا الْيَوْمِ. "

وهذه الآية أيضًا لا يمكن أن تكون من كلام موسى ﷺ، لأن المتكلم بها لا بد أن يكون متأخرًا عن يائير تأخيرًا كثيرًا، كما يشعر به قوله: " إلى هذا اليوم"؛ لأن أمثال هذا اللفظ لا يستعمل إلا في الزمان الأبْعَد على ما حقق المحققون من علمائهم، مثل هورن وغيره.[1]

٣-ورد في سفر العدد ٣٢/ ٤٠ – طبعة سنة ١٨٤٤م –: " وذهب يائير ابن منسي وأخذ مزارعها ودعاهن حووث يائير". وفي طبع سنة ١٨٦٥ وما بعدها فهي الفقرة ٤١ وهي كما يلي: " "وَذَهَبَ يَائِيرُ ابْنُ مَنَسَّى وَأَخَذَ مَزَارِعَهَا.

وَدَعَاهُنَّ: حَوُّوثَ يَائِيرَ. " ويقال في هذه الفقرة ما قيل في المثال السابق، وقد جزم علماؤهم[2] بأن بعض الجمل والعبارات ليست من كلام موسى ﷺ، لكنهم ما قدروا أن يبينوا اسم الملحق على سبيل التعيين، بل نسبوا على سبيل الظن إلى عزرا ﷺ، وهذا الظن ليس بشيء ولا يظهر من الأبواب المذكورة أن عزرا أَلحق شيئًا في التوراة لأنه يُفهم من باب كتاب عزرا أنه تأسف على أفعال بني إسرائيل، واعترف بالذنوب، ويُفهم من باب

---

(١) انظر إظهار الحق (٢/ ٤٦٧ - ٤٧١)

(تنبيه) بقي في الفقرة شيء آخر هو أن يائر ليس ابن منسا بل هو ابن سجوب كما هو مصرح في سفرأخبار الأيام الأول ٢/ ٢٢ " وسجوب ولد يائير وكان له ثلاث وعشرون مدينة في أرض جلعاد".

(٢) مثل كالمنت في كتابه " قاموس الكتاب المقدس " والذي كمله رابت وتيلر.

كتاب نحميا أن عزرا قرأ التوراة عليهم. [١]

٤ - ورد في سفر العدد ٢١/ ١٤ - طبعة سنة ١٨٤٤م - : " ولذلك يقال في سفر حروب الرب كما صنع في بحر سوف كذلك يصنع في أودية أرنون". وفي طبعة سنة ١٨٦٥م جاءت هذه الفقرة هكذا: " ١٤لِذلِكَ يُقَالُ فِي كِتَابِ «حُرُوبِ الرَّبِّ»: «وَاهِبٌ فِي سُوفَةَ وَأَوْدِيَةِ أَرْنُونَ ". وفي التوراة السامرية: " بسبب ذلك يقال في كتاب ملاحم الله المعطي القلزم ".

هذه الفقرة لا يمكن أن تكون من كلام موسى بل تدل على أن مصنف سفر العدد ليس هو؛ لأن هذا المصنف نقل ههنا الحال عن سِفْر حروب الرب، ولم يعلم إلى الآن جَزْمًا أن مصنف هذا السفر أي شخص؟ ومتى كان؟ وأين كان؟ وهذا السفر كالعنقاء[٢] عند أهل الكتاب سمعوا اسمه وما رأوه ولا يوجد عندهم. [٣]

٥ - ورد في سفر التكوين (١٣/ ١٨): "١٨فَنَقَلَ أَبْرَامُ خِيَامَهُ وَأَتَى وَأَقَامَ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا الَّتِي فِي حَبْرُونَ، وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ. ".

وفي سفر التكوين ٣٥/ ٢٧: " ٢٧وَجَاءَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ إِلَى مَمْرَا، قَرْيَةِ أَرْبَعَ، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ، حَيْثُ تَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ. "، وفي سفر التكوين ٣٧/ ١٤: " فَأَرْسَلَهُ مِنْ وَطَاءِ حَبْرُونَ فَأَتَى إِلَى شَكِيمَ. "، حيث ورد فيه كلها لفظ " حبرون " وهو اسم قرية كان اسمها في سالف الزمان (قرية رابع)، وبنو إسرائيل بعد ما فتحوا فلسطين في عهد يوشع عليه السلام غيّروا هذا الاسم إلى حبرون[٤]، كما هو المصرح به في سفر يشوع ١٤/ ١٥: " ١٥وَاسْمُ حَبْرُونَ قَبْلًا قَرْيَةُ أَرْبَعَ، الرَّجُلِ الأَعْظَمِ فِي الْعَنَاقِيِّينَ. "، فهذه الآيات

---

(١) يتضح ذلك من سفر نحميا ٨/ ١ - ١٨، وأكتفي بنقل فقرتين منه " ١ - اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التي أمام باب الماء وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الرب إسرائيل (١٨) وكان يقرأ في سفر شريعة الله يوما فيوما من اليوم الأول إلى اليوم الأخير ".

(٢) العنقاء: طائر خرافي في أساطير المصريين القدماء.

(٣) إظهار الحق (٢/ ٤٧٦ وما بعدها).

(٤) وسماها المسلمون: الخليل، لأنها مدينة الخليل إبراهيم عليه السلام، وهي من أقدم مدن العالم التي لا تزال آهلة بالسكان.

ليست من كلام موسى ﷺ، بل من كلام شخص كان بعد هذا الفتح والتغيير.

وكذلك وقع في سفر التكوين أيضًا ١٤/ ١٤ لفظ (دان) ونص الفقرة كما يلي: " ١٤فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ سُبِيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلاَثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ. " وهو اسم بلدة عمّرت في عهد القضاة[1]؛ لأن القضاة فتحوا بلدة لايش وقتلوا أهلها وأحرقوا تلك البلدة وعمروا بدلها بلدة جديدة وسموها " دان "، كما هو مذكور في سفر القضاة ١٨/ ٢٧ – ٣١: " ٢٧وَأَمَّا هُمْ فَأَخَذُوا مَا صَنَعَ مِيخَا، وَالْكَاهِنَ الَّذِي كَانَ لَهُ، وَجَاءُوا إِلَى لاَيِشَ إِلَى شَعْبٍ مُسْتَرِيحٍ مُطْمَئِنٍّ، وَضَرَبُوهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ. ٢٨. . . فَبَنَوْا الْمَدِينَةَ وَسَكَنُوا بِهَا. ٢٩وَدَعَوْا اسْمَ الْمَدِينَةِ «دَانَ» بِاسْمِ دَانٍ أَبِيهِمِ الَّذِي وُلِدَ لإِسْرَائِيلَ. وَلكِنَّ اسْمَ الْمَدِينَةِ أَوَّلًا «لاَيِشُ». ". فلا تكون هذه الآية أيضًا من كلام موسى ﷺ.[2]

ثانيًا: في العهد الجديد:

وكما وقع التحريف في العهد القديم، كذلك حدث في العهد الجديد أيضًا، ونكتفي للتدليل على ذلك بعشرة أمثلة.

١- ورد في إنجيل متى ١٤/ ٣: " فَإِنَّ هِيرُودُسَ كَانَ قَدْ أَمْسَكَ يُوحَنَّا وَأَوْثَقَهُ وَطَرَحَهُ فِي سِجْنٍ مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيه"، وورد في إنجيل مرقس ٦/ ١٧: " لأَنَّ هِيرُودُسَ نَفْسَهُ كَانَ قَدْ أَرْسَلَ وَأَمْسَكَ يُوحَنَّا وَأَوْثَقَهُ فِي السِّجْنِ مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيهِ، إِذْ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا، وورد كذلك في إنجيل متى ٣/ ١٩: " أَمَّا هِيرُودُسُ رَئِيسُ الرُّبْعِ فَإِذْ تَوَبَّخَ مِنْهُ لِسَبَبِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيهِ، وَلِسَبَبِ جَمِيعِ الشُّرُورِ الَّتِي كَانَ هِيرُودُسُ يَفْعَلُهَا. "

ولفظ " فِيلُبُّس " غلط يقينًا في الأناجيل الثلاثة، ولم يثبت في كتاب من كتب التواريخ أن اسم زوج هيروديا كان " فِيلُبُّس "، بل صرح يوسيفس في الباب الخامس من الكتاب

---

(١) عهد القضاة: هو العهد الأول لبني إسرائيل في فلسطين حيث كانوا يعينون قضاة عليهم، ويبدأ هذا العهد من زمان يوشع خليفة موسى ﷺ وإلى زمن النبي صموئيل هو آخر القضاة، وهو الذي عين لهم أول ملوكهم طالوت الواردة قصته في سورة البقرة آية " ٢٤٦ – ٢٥١ "

(٢) انظر إظهار الحق (٢/ ٤٧٦ – ٤٧٩).

الثامن عشر: " أن اسمه كان هيرود أيضًا ".

وأيضًا لم يذكر لفظ " فِيلُبُّس " في طبعات سنة ١٨٢٣م وسنة ١٨٤٤م وسنة ١٨٨٢م، بينما ذكر في طبعات سنة ١٨٢٥م وسنة ١٨٢٦م وسنة ١٨٦٥م وما بعدها.

ومن أجل هذا قال هورن في الصفحة ٦٣٢ من المجلد الأول من تفسيره: "الغالب أن اسم " فِيلُبُّس " وقع في المتن من غلط الكاتب، فليسقط وكريسباخ قد أسقطه"، وعندنا هذا اللفظ من أغلاط الإنجيليين، ولا نسلم قولهم من غلط الكاتب، لأنه دعوى بلا دليل ويبعد كل البعد أن يقع الغلط من الكاتب في الأناجيل الثلاثة في مضمون واحد.

٢- ورد في إنجيل لوقا ٧/ ٣١ – طبعة سنة ١٨٢٥، ١٨٢٦ م – هكذا: " ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ: «فَبِمَنْ أُشَبِّهُ أُنَاسَ هذَا الْجِيلِ؟ وَمَاذَا يُشْبِهُونَ؟ " وهذه الجملة "ثم قال الرب" زيدت تحريفًا، ولذلك وضعت هذه الجملة في طبعتى سنة ١٨٦٥م و ١٩٨٣م بين قوسين هلاليين للتنبيه على زيادتها.

قال المفسر آدم كلارك في ذيل هذه الآية: "هذه الألفاظ ما كانت أجزاء لمتن لوقا قط، ولهذا الأمر شهادة تامة، وردَّ كل محقق هذه الألفاظ، وأخرجها بنجل وكريسباخ من المتن". [1]

٣- ورد في إنجيل متى ٢٧/ ٩: " حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا النَّبِيِّ الْقَائِلِ: «وَأَخَذُوا الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، ثَمَنَ الْمُثَمَّنِ الَّذِي ثَمَّنُوهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ " ولفظ (إِرْمِيَا) غلط من الأغلاط المشهورة في إنجيل متى لأن هذا لا يوجد في كتاب أرمياء، ولا يوجد هذا المضمون في كتاب آخر من كتب العهد العتيق بهذه الألفاظ، نعم توجد في الفقرة ١١/ ١٣ من سفرزكريا عبارة تناسب هذه العبارة التي نقلها متى وهي " فَقُلْتُ لَهُمْ: «إِنْ حَسُنَ فِي أَعْيُنِكُمْ فَأَعْطُونِي أُجْرَتِي وَإِلاَّ فَامْتَنِعُوا». فَوَزَنُوا أُجْرَتِي ثَلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. ١٣ فَقَالَ لِي الرَّبُّ: «أَلْقِهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ، الثَّمَنَ الْكَرِيمَ الَّذِي ثَمَّنُونِي بِهِ». فَأَخَذْتُ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ وَأَلْقَيْتُهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ فِي بَيْتِ الرَّبِّ. "، لكن بين العبارتين فرق كثير يمنع أن

---

(١) انظر: إظهار الحق (٢/ ٤٩١ – ٤٩٢).

يحكم أن متى نقل عن هذا الكتاب، ومع قطع النظر عن هذا الفرق لا علاقة لعبارة كتاب زكريا ﷺ بهذه الحادثة التي ينقل فيها متى، وفي هذا الموضع أقوال مضطربة لعلماء المسيحيين سلفًا وخلفًا.

٤- ورد في رؤيا يوحنا (١/ ١٠- ١١) – طبعة سنة ١٨٦٥م، ١٩٨٣م – : ١٠- كُنْتُ فِي الرُّوحِ فِي يَوْمِ الرَّبِّ، وَسَمِعْتُ وَرَائِي صَوْتًا عَظِيمًا كَصَوْتِ بُوقٍ قَائِلًا: «أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ. الأَوَّلُ وَالآخِرُ. وَالَّذِي تَرَاهُ، اكْتُبْ فِي كِتَابٍ " إلى آخرها.

فقد ذكرت جملة " الأَلِفُ وَالْيَاءُ. الأَوَّلُ وَالآخِرُ " في هاتين الطبعتين محصورة بين قوسين هلالين للدلالة على زيادتها حسبما هو مذكور في التنبيه في الصفحة الأولى منهما، وأما طبعة سنة ١٨٢٣م وطبعة سنة ١٨٤٤م فلم تذكر فيهما الجملة السابقة، فقد وردت فيهما فقرة رؤيا يوحنا (١/ ١٠- ١١) كما يلي: " ١٠ – صرت بالروح في يوم الأحد وسمعت خلفي صوتا عظيما مثل بوق (١١) قائلًا: الذي تراه اكتبه في سفر " وقريب منها نص طبعة سنة ١٨٨٢ م

٥- ورد في إنجيل متى (٦/ ١٨) – طبعة سنة ١٨٢٥ و ١٨٢٦م –: " وأبوك الذي يرى في السر يجازيك علانية"، ولفظ علانية إلحاقي.

قال آدم كلارك في ذيل شرح هذه الآية بعد ما أثبت إلحاقيته: "لما لم يكن لهذا اللفظ سند كامل أسقطه كريسباخ ووتستين وبنجل من المتن" انتهى.

ولذلك لا يوجد هذا اللفظ في طبعتى سنة ١٨٢٣م وسنة ١٨٤٤م. ونص فقرة إنجيل متى ٦/ ١٨ فيهما كما يلي: " وأبوك الذي ينظر في السر يجازيك "، وكذلك لفظ " علانية " أسقط من طبعة سنة ١٨٨٢م.

أما في طبعتي سنة ١٨٦٥م وسنة ١٩٨٣م فقد وضع هذا اللفظ فيهما بين قوسين هلالين للدلالة على زيادته وأنه ليس له وجود في أقدم النسخ وأصحها، ونص الفقرة السابقة فيهما كما يلي: " فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ (عَلاَنِيَةً). "[1]

---

(١) إظهار الحق (٥٠٥، ٥٠٩ – ٥١٠).

النوع الثالث: التحريف بالنقص

أولًا: في العهد القديم:

لقد وقع التحريف بالنقص في العهد القديم، وأخذ أشكالًا متنوعة وصورًا عديدة، وفيما يلي ذكر بعض الصور والأمثلة عليها.

أولًا: الإحالات الإنجيلية إلى التوراة والتي لا نجدها في الأسفار الموجودة بين أيدينا.

١-ورد في ٢/ ٢٣ من إنجيل متى هكذا: "٢٣وَأَتَى وَسَكَنَ فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالأَنْبِيَاءِ: «إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا»

وقوله: " لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالأَنْبِيَاءِ: «إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا» " من أغلاط هذا الإنجيل، ولا يوجد هذا في كتاب من الكتب المشهورة المنسوبة إلى الأنبياء، لكن أقول ههنا كما قال علماء الكاثوليك: إنَّ هذا كان في كتب الأنبياء، لكن اليهود ضيعوا هذه الكتب قصدًا لعناد الدين المسيحي، ثم أقول: أي تحريف بالنقصان يكون أزيد من أن تضيّع فرقة الكتب الإلهامية قصدًا للأغراض النفسانية، ولعناد ملة أخرى؟.

٢-ما شهد المسيح بضياعه حين قال: "٥أَوَ مَا قَرَأْتُمْ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ الْكَهَنَةَ فِي السَّبْتِ فِي الْهَيْكَلِ يُدَنِّسُونَ السَّبْتَ وَهُمْ أَبْرِيَاءُ؟ " (متى ١٢/ ٥)، ولا يوجد مثله في كلام التوراة، فدل ذلك على ضياعه وفقده.

ونحوه في قوله: "٣٨مَنْ آمَنَ بِي، كَمَا قَالَ الْكِتَابُ، تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». " (يوحنا ٧/ ٣٧)، وهذه الإحالة مفقودة من الكتاب.

ثانيًا: النقص الذي ترك مكانه بياض. وهذه بعض الأمثلة:

١- ما جاء في سفر التثنية (٢٥/ ٢-٥)" ٢فَإِنْ كَانَ الْمُذْنِبُ مُسْتَوْجِبَ الضَّرْبِ، يَطْرَحُهُ الْقَاضِي وَيَجْلِدُونَهُ أَمَامَهُ عَلَى قَدَرِ ذَنْبِهِ بِالْعَدَدِ. ٣أَرْبَعِينَ يَجْلِدُهُ. لاَ يَزِدْ، لِئَلاَّ إِذَا زَادَ فِي جَلْدِهِ عَلَى هذِهِ ضَرَبَاتٍ كَثِيرَةً، يُحْتَقَرَ أَخُوكَ فِي عَيْنَيْكَ. (بياض)، لا تكُمَّ الثور في دراسه[1]، (ثم ينتقل

---

(١) مثل يُضرب في الدعوة إلى عدم حرمان المرء من ثمرة عمله كما يحرم الثور من الأكل بتكميم فمه حين الدراس، قال شراح التفسير التطبيقي: "إن لهذه الآية معنى أوسع، وهو ألا تكون بخيلًا مع من يعملون

النص إلى موضوع آخر) «إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعًا وَمَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ. . . . "، فثمة نقص واضح في المعنى استعاض ناسخو الكتاب عنه بترك بياض، للدلالة على وجود سقط في النص، ولا علاقة بين مثل كم الثور وما قبله من حديث عن العدل في عقوبة المذنب. [1]

٢- ومثله سقط من النص المصيرُ الذي آلت إليه بهائم المصريين الذين لم يهربوا بمواشيهم وعبيدهم خوفًا من كلمة الرب ووعيده "[20]فَالَّذِي خَافَ كَلِمَةَ الرَّبِّ مِنْ عَبِيدِ فِرْعَوْنَ هَرَبَ بِعَبِيدِهِ وَمَوَاشِيهِ إِلَى الْبُيُوتِ. [21]وَأَمَّا الَّذِي لَمْ يُوَجِّهْ قَلْبَهُ إِلَى كَلِمَةِ الرَّبِّ فَتَرَكَ عَبِيدَهُ وَمَوَاشِيَهُ فِي الْحَقْلِ. [22]ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: " (الخروج ٩/ ٢٠-٢٢)، فقد سقط ذكر العقوبة، وانتقل النص للحديث في موضوع جديد.

٣- ومن السقط أيضًا خاتمة الإصحاح الثاني من سفر الخروج، الذي ينتهي بصورة فجائية، عند قوله: "[25]وَنَظَرَ الله بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَلِمَ الله. " (الخروج ٢/ ٢٥)، وقد أشار محققو نسخة الرهبانية اليسوعية إلى أن الإصحاح مبتور.

ثالثًا: ومن النقص ما تضع بعض التراجم والنسخ نجومًا أو خطوطا متقطعة بدلًا منه: منها النسخة العربية لدار الكتاب المقدس التي اعتمدناها في هذا البحث، وهذه بعض النماذج:

١- ففي سفر صموئيل نقص بيان جزاء بني إسرائيل إن استقاموا على عبادة الله، ففيه أن صموئيل قال: "إن اتقيتم الرب وعبدتموه وسمعتم صوته، ولم تعصوا قول الرب، وكنتم أنتم والملك أيضًا الذي يملك عليكم وراء الرب إلهكم (هكذا في المطبوع)، وإن لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم" (صموئيل (١) ١٢/ ١٤-١٥).

٢- وتتكرر النجوم مرة أخرى في سفر صموئيل الثاني مشيرة إلى وجود سقط في تمام حديث داود عن العرج والعمي، فيقول السفر: "قال داود في ذلك اليوم: إن الذي يضرب اليبوسيين ويبلغ إلى القناة والعرج والعمي المبغضين من نفس داود (هكذا في المطبوع)

لأجلك". (انظر ص ٤٠٠).

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (١٢١).

لذلك يقولون: لا يدخل البيت أعمى أو أعرج" (صموئيل (٢) ٥/ ٨).

٣- ونحوه سقط بعض النص في سفر حزقيال في وصف الزانية وبيان حالها، واستعيض عنه بالنجوم "فقلت عن البالية في الزنا: الآن يزنون زنى معها، وهي (هكذا في المطبوع)، فدخلوا عليها كما يُدخَل على امرأة زانية" (حزقيال ٢٣/ ٤٣).

٤ - كما وقع النقص في خاتمة الإصحاح السادس من سفر زكريا، ولم يجد طابعو الكتاب المقدس ما يكملون به الجملة إلا أربعة من النجوم ختموا بها هذا الإصحاح "والبعيدون يأتون ويبنون في هيكل الرب، فتعلمون أن رب الجنود أرسلني إليكم، ويكون إذا سمعتم سمعًا صوت الرب إلهكم " (زكريا ٦/ ١٥). [1]

ومن صور الخطوط المتقطعة(---):

١ - "هذه أيضًا للحكماء--- محاباة الوجوه في الحكم ليست صالحة" (الأمثال ٢٤/ ٢٣)

٢- ونحوه في سفر إرمياء "في الأنبياء-- انسحق قلبي في وسطي، ارتخت كل عظامي" (إرمياء ٢٣/ ٩).

٣- ومثله في نشيد الإنشاد "وحنكك كأجود الخمر-- لحبيبي السائغة المرقرقة السائحة على شفاه النائمين" (نشيد ٧/ ٩).

ويمتد السقط في الأسفار المقدسة إلى أسفار الأبوكريفا في التوراة الكاثوليكية، حيث ضاع من سفر يشوع بن سيراخ ثلاث فقرات، أثبت طابعو الكتاب أرقامها، وأعياهم أن يذكروا حرفًا واحدًا مما في هذه الفقرات الثلاث. (انظر يشوع بن سيراخ ٢٩/ ١٦-١٨).

ولرؤية المزيد من مواضع السقط في أسفار العهد القديم، والتي لم تنجح في استدراكها آلاف المخطوطات التي يتباهى بكثرتها النصارى، لكنها على كثرتها لم تكن كافية في إبلاغنا النصوص التوراتية بتمامها، أقول: لرؤية المزيد مما استعاض عنه طابعو الكتاب المقدس بالنجوم تارة وبترك بياض تارة أخرى ندعو للتأمل في (الأيام (٢) ٣٦/ ٢٣)، و(عزرا

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (١٢٢- ١٢٣).

١/ ٣)، و(عزرا ٦/ ٥-٦)، (المزمور ١٣٧/ ٥) وغيرها من المواطن.

رابعًا: ومن صور التحريف بالنقص تلك الأسفار الضائعة:

يمتد السقط والضياع في الأسفار التوراتية ليشمل أسفارًا توراتية ضاعت واندرس خبرها، وشهد لضياعها أسفار العهد القديم الموجودة في الكتاب المقدس منها:

١- سفر حروب الرب المذكور في سفر العدد، حيث يقول: "[١٤]لِذلِكَ يُقَالُ فِي كِتَابِ «حُرُوبِ الرَّبِّ»: «وَاهِبٌ فِي سُوفَةَ وَأَوْدِيَةِ أَرْنُونَ" (العدد ٢١/ ١٤).

٢- وكذا فُقِد سفر ياشر، فقد قال يشوع النبي: " هذَا مَكْتُوبًا فِي سِفْرِ يَاشَرَ؟ فَوَقَفَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ تَعْجَلْ لِلْغُرُوبِ نَحْوَ يَوْمٍ كَامِلٍ. " (يشوع ١٠/ ١٣)، وفي موضع آخر: "[١٨]وَقَالَ أَنْ يَتَعَلَّمَ بَنُو يَهُوذَا «نَشِيدَ الْقَوْسِ». هُوَذَا ذلِكَ مَكْتُوبٌ فِي سِفْرِ يَاشَرَ: " (صموئيل (٢) ١/ ١٨).

٣- ومن الأسفار الضائعة سفر أخبار شمعيا النبي، وسفر عدوَ الرائي المذكوران في سفر الأيام " [١٥]وَأُمُورُ رَحُبْعَامَ الأُولَى وَالأَخِيرَةُ، أَمَاهِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي أَخْبَارِ شَمْعِيَا النَّبِيِّ وَعِدُّو الرَّائِي. . . " (الأيام (٢) ١٢/ ١٥).

٤ - ومنها أيضًا سفر ينسب للنبي إشعيا ذكره كاتب سفر الأيام حين قال: " [٢٢]وَبَقِيَّةُ أُمُورِ عُزِّيَّا الأُولَى وَالأَخِيرَةُ كَتَبَهَا إِشَعْيَاءُ بْنُ آمُوصَ النَّبِيُّ. " (الأيام (٢) ٢٦/ ٢٢)، ومن المعلوم أن سفر إشعيا الحالي لم يتحدث مطلقًا عن الملك عزيا، فإما أنه سقط منه، أو أن الإحالة إلى سفر آخر كتبه النبي إشعيا، وضاع فيما ضاع من أسفار التوراة.

٥- يقول آدم كلارك: " حصل لقلوب العلماء قلق عظيم لأجل فقدان تاريخ المخلوقات فقدانًا أبديًا ".

ومقصوده ما جاء في سفر الملوك عن سليمان: "[٣٢]وَتَكَلَّمَ بِثَلاَثَةِ آلاَفِ مَثَل، وَكَانَتْ نَشَائِدُهُ أَلْفًا وَخَمْسًا. [٣٣]وَتَكَلَّمَ عَنِ الأَشْجَارِ، مِنَ الأَرْزِ الَّذِي فِي لُبْنَانَ إِلَى الزُّوفَا النَّابِتِ فِي الْحَائِطِ. وَتَكَلَّمَ عَنِ الْبَهَائِمِ وَعَنِ الطَّيْرِ وَعَنِ الدَّبِيبِ وَعَنِ السَّمَكِ. " (الملوك (١) ٤/ ٣٢ - ٣٣)، فأين هذا السفر؟

يقول طامس أنكلس الكاثوليكي: " اتفاق العالم على أن الكتب المفقودة من الكتب

المقدسة ليست بأقل من عشرين ". [١]

خامسًا: النقص الذي يستدرك من النسخ الأخرى للعهد القديم، أو ينبه عليه العلماء، وهذه أمثلته:

١- ورد في ٧/ ١٧من سفر التكوين في النسخة العبرانية - طبعة سنة ١٨٤٤م - هكذا: " وصار الطوفان أربعين يومًا على الأرض"، وفي طبعة سنة ١٨٦٥م – وما بعدها: " [١٧]وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الأَرْضِ. " وفي السامرية: " وأقام الطوفان أربعين يوما على الأرض ".

وهذه الجملة في كثير من نسخ اللاتينية وفي الترجمة اليونانية هكذا: "وصار الطوفان أربعين يومًا وليلة على الأرض".

قال هورن في المجلد الأول من تفسيره: "فليزد لفظ (ليلة) في المتن العبري".

٢- ورد في سفر التكوين ٣٥/ ٢٢ في النسخة العبرانية – طبعة سنة ١٨٦٥م- هكذا: " [٢٢]وَحَدَثَ إِذْ كَانَ إِسْرَائِيلُ سَاكِنًا فِي تِلْكَ الأَرْضِ، أَنَّ رَأُوبَيْنَ ذَهَبَ وَاضْطَجَعَ مَعَ بِلْهَةَ سُرِّيَّةِ أَبِيهِ، وَسَمِعَ إِسْرَائِيلُ. " وقريبا من هذا النص وردت به النسخة السامرية.

قال جامعو تفسير هنري واسكات: " اليهود يسلمون أن شيئًا سقط من هذه الآية، والترجمة اليونانية تتمتها هكذا: وكان قبيحًا في نظره "انتهى.

فاليهود ههنا أيضًا معترفون بالسقوط، فسقوط الجملة من النسخة العبرانية ليس بمستبعد عند أهل الكتاب، فضلًا عن سقوط حرف أو حرفين. [٢]

٣- ورد في سفر الخروج ٢/ ٢٢ : " فولدت له ابنًا ودعا اسمه جرسون[٣]، قائلًا: إنما أنا كنت ملتجئًا في أرض غريبة".

وتوجد في طبعة سنة ١٨٤٤م والترجمة اليونانية واللاتينية وبعض التراجم القديمة في آخر الآية المذكورة هذه العبارة: " وولدت أيضًا غلامًا ثانيًا ودعا اسمه العازر[٤]، فقال من

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٢/ ٥٨٣، ٥٨٧).

(٢) إظهار الحق (٢/ ٥٢٣).

(٣) جرسون (جرشوم): هو بكر أولاد موسى عليه السلام، ولدته أمه صفورة في أرض مديان.

(٤) العازر(أليعزر): هو ثاني أبناء موسى عليه السلام، وأمه صفورة فهو شقيق جرشوم.

أجل أن إله أبي أعانني وخلصني من يد فرعون".

ولا توجد هذه العبارة كلها في النسخة السامرية ولا في طبعة سنة ١٨٦٥م وما بعدها، ومما يدل على السقط ههنا فقرة سفر الخروج ١٨/٣- ٤ وهي كما يلي من طبعة سنة ١٨٦٥م: " ٣وَابْنَيْهَا، اللَّذَيْنِ اسْمُ أَحَدِهِمَا جِرْشُومُ، لأَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ نَزِيلاً فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ». ٤وَاسْمُ الآخَرِ أَلِيعَازَرُ، لأَنَّهُ قَالَ: «إِلهُ أَبِي كَانَ عَوْنِي وَأَنْقَذَنِي مِنْ سَيْفِ فِرْعَوْنَ».

قال آدم كلارك في المجلد الأول من تفسيره بعد ما نقل العبارة المسطورة من التراجم: "أدخل هيوبي كينت هذه العبارة في ترجمته اللاتينية، ويدعي أن موضعها هذا، ولا توجد هذه العبارة في نسخة من نسخ العبرانية مكتوبة كانت أو مطبوعة، مع أنها وجدت في التراجم المعتبرة" انتهى.

فعندهم هذه العبارة ساقطة من النسخة العبرانية.

ثانيًا: التحريف في العهد الجديد:

ولقد يتساءل المرء أين وقع التحريف في الأناجيل؟ هل وقع من الإنجيليين وأصحاب الرسائل، أم من النساخ الذين تصرفوا في النصوص حسب أهوائهم وعقائدهم، أم من أولئك الذين أضافوا القداسة للكتب الشخصية التي خطها الحواريون، أم من ذلك كله؟ ولعل الأخير هو أولاها بالصواب. (١)

فمن نماذج التحريف بالنقص:

أولًا: نقص بعض الكلمات والجمل:

١- قال هورن في المجلد الرابع من تفسيره: " سقطت آية تامة ما بين الآية ٣٣و٣٤ من الإصحاح ٢١ من إنجيل لوقا وهي: " ٣٣اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ، وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَيَزُولُ. ٣٤«فَاحْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ لِئَلاَّ تَثْقُلَ قُلُوبُكُمْ فِي خُمَارٍ وَسُكْرٍ وَهُمُومِ الْحَيَاةِ، فَيُصَادِفَكُمْ ذلِكَ الْيَوْمُ بَغْتَةً".

فلتزد بعد أخذها من الآية ٣٦ من الإصحاح ٢٤من إنجيل متى وهي: " " ٣٥اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ. ٣٦«وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ، إِلاَّ أَبِي وَحْدَهُ. "

(١) انظر " هل العهد الجديد كلمة الله "؟ (١٤١).

أو من الآية ٣٢ من الإصحاح ١٣من إنجيل مرقس وهي: "" ٣١اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ، وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ. «وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ، وَلاَ الابْنُ، إِلاَّ الآبُ. "

ليكون لوقا موافقًا للإنجيليين الآخرين. انتهى.

وبمقارنة هذه النصوص بعضها ببعض يظهر بوضوح سقوط فقرة تامة من إنجيل لوقا. وكفى باعتراف هؤلاء شاهدا.

٢- ورد في سفر أعمال الرسل ١٦/ ٧ – طبعة سنة ١٨٢٥ وسنة ١٨٢٦م – هكذا: "فلم يأذن لهم الروح". وفي طبعة سنة ١٨٦٥م وما بعدها: " فَلَمْ يَدَعْهُمُ الرُّوحُ "

قال كريسباخ وشولز الصحيح هكذا: "فلم يأذن لهم روح يسوع" فعلى إقرارهما سقط لفظ يسوع، وجاء هذا اللفظ في طبعة سنة ١٦٧١م وسنة ١٨٢١م وسنة ١٨٢٣م وسنة ١٨٤٤م: " فلم يتركهم روح يسوع ". [١]

ثانيًا: تحريف الإنجيليين حيث ينقص بعضهم ويزيد آخرون:

أصبح من المسلم به أن لوقا نقل ما نسبته ٥١٪ من فقرات إنجيل مرقس، بينما نقل متى ما نسبته ٩٠٪ من محتويات إنجيل مرقس. فهل كان متى ولوقا أمينان في نقلهما عن مرقس، أم كانا يتصرفان بنص مرقس كما يحلو لهما؟

الحقيقة البينة أن كلا الاثنين تصرف برواية مرقس حسب ما تبدى له، وخاصة متى الذي كان يضخم دائمًا فيما ينقله من أحداث ينقلها من رواية مرقس، لتناسب غلوه في شخص المسيح أو لتحقق نبوءة توراتية لم تحققها رواية مرقس، وذلك يظهر من أمثلة كثيرة ذكرها المحققون، منها:

١- يقول مرقس عن المصلوب: " ٢٣وَأَعْطَوْهُ خَمْرًا مَمْزُوجَةً بِمُرّ " (مرقس ١٥/ ٢٣).

لكن متى نقل عن مرقس وغيّر، فقال: " ٣٤أَعْطَوْهُ خَلًّا مَمْزُوجًا بِمَرَارَةٍ " (متى

---

(١) إظهار الحق (٢/ ٥٣٠ – ٥٤٠).

٢٧/ ٣٤)، ومن المعلوم أن الخل غير الخمر. ولقد قصد متى من هذا التغيير أن يحقق النبوءة التوراتية المزعومة " ٢١وَيَجْعَلُونَ فِي طَعَامِي عَلْقَمًا، وَفِي عَطَشِي يَسْقُونَنِي خَلاً. " (المزمور ٦٩/ ٢١)، فأبدل كلمة الخمر التي كتبها مرقس بالخل.

٢- يقول مرقس: "لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي. " (مرقس ٣/ ٣٥).
وينقلها متى: " ٥٠لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي». " (متى ١٢/ ٥٠). فكلمة أبي وضعت لأسباب لاهوتية.

٣- ومثله يقال عندما سأل المسيح تلاميذه عما يقولون فيه، فأجاب بطرس: " أنت المسيح " (مرقس ٨/ ٢٩).

لكن متى عدل في إجابة بطرس وجعلها: "أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ!». "(متى ١٦/ ١٦).

٤- ومن غلو متى تغييره لما جاء في مرقس عن عدم قيام المسيح بالمعجزات في الجليل حيث يقول: " ٥وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلاَ قُوَّةً وَاحِدَةً، غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ فَشَفَاهُمْ. ٦وَتَعَجَّبَ مِنْ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ. وَصَارَ يَطُوفُ الْقُرَى الْمُحِيطَةَ يُعَلِّمُ. " (مرقس ٦/ ٥ - ٦). حيث لم يصنع ولا قوة واحدة، لكنه شفى قليلين، لكن شفاء القليلين لم يكن كافيًا لإيمان أولئك القساة، فتعجب المسيح لعدم إيمانهم.

لكن متى عزّ عليه أن لا يصنع المسيح أي قوة، فقال: " ٥٨وَلَمْ يَصْنَعْ هُنَاكَ قُوَّاتٍ كَثِيرَةً لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ. " (متى ١٣/ ٥٨). إذًا هو صنع معجزات، ولكن ليس كثيرًا، وبرر قلة المعجزات بعدم إيمانهم. فأصبحت سببًا لقلة المعجزات بعد أن كانت عند مرقس نتيجة لها.

٥- وذكر مرقس ولوقا شفاء الأعمى، يقول مرقس: "٤٦وَجَاءُوا إِلَى أَرِيحَا. وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ أَرِيحَا مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَجَمْعٍ غَفِيرٍ، كَانَ بَارْتِيمَاوُسُ الأَعْمَى ابْنُ تِيمَاوُسَ جَالِسًا عَلَى الطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي. ٤٧فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ، ابْتَدَأَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: «يَا يَسُوعُ ابْنَ دَاوُدَ، ارْحَمْنِي! ». . . ٥١فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ؟ » فَقَالَ لَهُ الأَعْمَى: «يَا سَيِّدِي، أَنْ أُبْصِرَ! ». ٥٢فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ. إِيمَانُكَ قَدْ شَفَاكَ». فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَ، وَتَبِعَ

يَسُوعَ فِي الطَّرِيقِ. " (مرقس ١٠/ ٤٦ - ٥٢، وانظر لوقا ١٨/ ٣٥ - ٤٢).

لكن متى روى نفس القصة وجعل الأعمى أعميين اثنين، فقال: "[٢٩]وَفِيمَا هُمْ خَارِجُونَ مِنْ أَرِيحَا تَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ، [٣٠]وَإِذَا أَعْمَيَانِ جَالِسَانِ عَلَى الطَّرِيقِ. فَلَمَّا سَمِعَا أَنَّ يَسُوعَ مُجْتَازٌ صَرَخَا قَائِلَيْنِ: «ارْحَمْنَا يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! » [٣١]فَانْتَهَرَهُمَا الْجَمْعُ لِيَسْكُتَا، فَكَانَا يَصْرَخَانِ أَكْثَرَ قَائِلَيْنِ: «ارْحَمْنَا يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! » [٣٢]فَوَقَفَ يَسُوعُ وَنَادَاهُمَا وَقَالَ: «مَاذَا تُرِيدَانِ أَنْ أَفْعَلَ بِكُمَا؟ » [٣٣]قَالاَ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، أَنْ تَنْفَتِحَ أَعْيُنُنَا! » [٣٤]فَتَحَنَّنَ يَسُوعُ وَلَمَسَ أَعْيُنَهُمَا، فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَتْ أَعْيُنُهُمَا فَتَبِعَاهُ. " (متى ٢٠/ ٢٩ - ٣٤)، فهذا غلو من متى وتحريف للقصة التي ينقلها عن مرقس.

ولا يفوتنا هنا التنبيه على أن لوقا جعل القصة قبل دخول المسيح إلى أريحا فقال: " [٣٥]وَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرِيحَا كَانَ أَعْمَى جَالِسًا عَلَى الطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي. " (لوقا ١٨/ ٣٥)، فهل شفى المسيح الأعمى قبل دخوله أريحا أم بعد خروجه منها؟!

٦- ومثله تلاعب الإنجيليين بكلام المسيح، وهم ينقلون قوله لتلاميذه، فقد قال لهم - حسب لوقا -: " أَنْتُمْ أَفْضَلُ مِنْ عَصَافِيرَ كَثِيرَةٍ! [٨]وَأَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَنِ اعْتَرَفَ بِي قُدَّامَ النَّاسِ، يَعْتَرِفُ بِهِ ابْنُ الإِنْسَانِ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ الله. [٩]وَمَنْ أَنْكَرَنِي قُدَّامَ النَّاسِ، يُنْكَرُ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ الله. " (لوقا ١٢/ ٧-٩)، فقد جعل لوقا اعتراف المسيح وإنكاره قدام ملائكة الله.

وهو بذلك يخالف متى الذي جعل إنكار المسيح واعترافه قدام الله، لا الملائكة، فقد نسب إلى المسيح قوله: " أَنْتُمْ أَفْضَلُ مِنْ عَصَافِيرَ كَثِيرَةٍ! [٣٢]فَكُلُّ مَنْ يَعْتَرِفُ بِي قُدَّامَ النَّاسِ أَعْتَرِفُ أَنَا أَيضًا بِهِ قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، [٣٣]وَلكِنْ مَنْ يُنْكِرُنِي قُدَّامَ النَّاسِ أُنْكِرُهُ أَنَا أيضًا قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. " (متى ١٠/ ٣١-٣٣)، فأيهما هو قول المسيح؟! وماذا عن الآخر؟.

٧- ومن صور التلاعب بالنصوص والتصرف فيها ما صنعه متى ولوقا في كلام المسيح في وليمة الفريسي، ففي إنجيل متى أن المسيح قال: " [٣٤]لِذلِكَ هَا أَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ أَنْبِيَاءَ وَحُكَمَاءَ وَكَتَبَةً، فَمِنْهُمْ تَقْتُلُونَ وَتَصْلِبُونَ، وَمِنْهُمْ تَجْلِدُونَ فِي مَجَامِعِكُمْ، وَتَطْرُدُونَ مِنْ

مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، " (متى ٢٣/ ٣٤)، فالمسيح نسب إلى نفسه إرسال أنبياء وحكماء وكتبة.

لكن لوقا يخالفه، فيذكر أن المسيح نسب القول إلى حكمة الله، لا إلى نفسه، فيقول: " ٤٩لِذلِكَ أيضًا قَالَتْ حِكْمَةُ الله: إِنِّي أُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَ وَرُسُلاً، فَيَقْتُلُونَ مِنْهُمْ وَيَطْرُدُونَ " (لوقا ١/ ٤٩).

فصل: اعترافات بالتلاعب في الأناجيل:

أمام وضوح الحقيقة لا يجد المفسر(جون فنتون) مفسر إنجيل متى من سبيل إلا يعترف بهذا التطوير للروايات، ويحاول تبريره فيقول: "لقد حدث تحوير ملحوظ في مخطوطات (الأناجيل)، وذلك في المواضع التي ذكرت فيها ألقاب الرب " (يسوع)[1].

فهو يعترف بوقوع التحريف، لكنه يتهم نساخ المخطوطات، ويبرئ متى الكاتب.

والصحيح أن التلاعب بالنص يرجع إلى كُتاب الأناجيل، وليس نساخ المخطوطات، إذ أن الزيادة تطرِد دائمًا في متى عما في مرقس، ولو كان الخلل في المخطوطات لما اطردت الزيادة في متى دائمًا.

وقد صدق العلامة كيز مان حين قال: " إن لوقا ومتى قد قاما بتغيير نص مرقس الذي كان بحوزتهما مائة مرة عن عمدٍ لأسباب عقائدية "[2].

ثالثا: تحريف الإنجيليين في نقلهم من المصادر التوراتية:

وكذا وقع كتاب العهد الجديد في تحريف الأسفار التوراتية وهم ينقلون عنها، ليكون صورة أخرى من صور التحريف.

١- فقد وقع به بولس وهو ينقل عن مزامير داود، يقول بولس: "٤لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنَّ دَمَ ثِيرَانٍ وَتُيُوسٍ يَرْفَعُ خَطَايَا. ٥لِذلِكَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: «ذَبِيحَةً وَقُرْبَانًا لَمْ تُرِدْ، وَلكِنْ هَيَّأْتَ لِي جَسَدًا. ٦بِمُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ لِلْخَطِيَّةِ لَمْ تُسَرَّ. . . " (عبرانيين ١٠/ ٤ - ٦).

وقد نقل بولس النص عن المزامير، وحرفه، ففي المزامير "٦بِذَبِيحَةٍ وَتَقْدِمَةٍ لَمْ تُسَرَّ. أُذُنَيَّ

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٩٥ - ٩٧).

(٢) انظر: عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية، حسني الأطير (٢٠٨)، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (١٤١ - ١٤٧).

فَتَحْتَ. مُحْرَقَةً وَذَبِيحَةَ خَطِيَّةٍ لَمْ تَطْلُبْ. . . " (المزمور ٤٠/ ٦)، فقد أبدل " أذني فتحت " بقوله: "هيأت لي جسدًا ".

واعترف بوقوع التحريف في أحد النصين جامعو تفسير هنري واسكات، ولم يعينوا الموضع المحرف منهما، فقد اعتبر آدم كلارك ما جاء في المزمور محرفًا، فيما اعتبره دوالي ورجر وديمنت في تفسيرهما ما جاء في رسالة بولس هو المحرف.

٢- كما وقعَ التحريفُ من الإنجيليينَ بنسبة أقوال إلى التوراة لم تذكرها، منه ما جاء في متى عن المسيح "[٢٣]وَأَتَى وَسَكَنَ فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالأَنْبِيَاءِ: «إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا» " (متى ٢/ ٢٣)، ولا يوجد شيء من ذلك في كتب الأنبياء.

ومما يؤكد أن التحريف هنا متعلق بمتى أن التلميذ نثنائيل حين بشره فليبس بالمسيح الناصري استغرب أن يبعث مسيح من الناصرة " [٤٦]فَقَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ: «أَمِنَ النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟ »" (يوحنا ١/ ٤٦)، ولو كانت نبوءة الناصري موجودة قبلُ لما كان وجه للغرابة.

يقول طابعو الرهبانية اليسوعية تعقيبًا على النص: "يصعب علينا أن نعرف بدقة ما هو النص الذي يستند إليه متى".

ويقول مؤلفو قاموس الكتاب المقدس: " ولم تكن الناصرة ذات أهمية في الأزمنة القديمة، لذلك لم يرد لها أي ذكر في العهد القديم، ولا كتب يوسيفوس ولا الوثائق المصرية والآشورية والحثية والآرامية والفينيقية السابقة للميلاد، وأول ما ذكرت في الإنجيل". (١)

٣- ومن صور التحريف ما وقع به يعقوب ولوقا حين تحدثا عن انقطاع المطر بدعاء النبي إيليا، فذكرا أنه استمر ثلاث سنين وستة أشهر، محرفين ما ورد في العهد القديم، الذي أفاد بأن انقطاع المطر لم يكمل الثلاث سنوات، فيقول يعقوب في رسالته: " [١٧]كَانَ إِيلِيَّا إِنْسَانًا تَحْتَ الآلاَمِ مِثْلَنَا، وَصَلَّى صَلاَةً أَنْ لاَ تُمْطِرَ، فَلَمْ تُمْطِرْ عَلَى الأَرْضِ ثَلاَثَ سِنِينَ وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ. " (يعقوب ٥/ ١٧)، ووافقه لوقا فزعم أن المسيح قال: " [٢٥]وَبِالْحَقِّ أَقُولُ

---

(١) وانظر: إظهار الحق (٢/ ٥٣٨).

لَكُمْ: إِنَّ أَرَامِلَ كَثِيرَةً كُنَّ فِي إِسْرَائِيلَ فِي أَيَّامِ إِيلِيَّا حِينَ أُغْلِقَتِ السَّمَاءُ مُدَّةَ ثَلاَثِ سِنِينَ وَسِتَّةِ أَشْهُرٍ، لَمَّا كَانَ جُوعٌ عَظِيمٌ فِي الأَرْضِ كُلِّهَا" (لوقا ٤/ ٢٥).

والقصة - كما أسلفت - منقولة ومحرفة عن سفر الملوك وفيه: " وَقَالَ إِيلِيَّا. . . إِنَّهُ لاَ يَكُونُ طَلٌّ وَلاَ مَطَرٌ فِي هذِهِ السِّنِينَ إِلاَّ عِنْدَ قَوْلِي». " (الملوك (١) ١٧/ ١)، ثم " وَبَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ كَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى إِيلِيَّا فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ قَائِلًا: «اذْهَبْ وَتَرَاءَ لأَخْآبَ فَأُعْطِيَ مَطَرًا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ». " (الملوك (١) ١٨/ ١)، وفعل، فنزل المطر، وكان ذلك في السنة الثالثة، ولعله في أولها، أي لم يكمل انقطاع المطر ثلاث سنوات، فضلًا عن الأشهر الستة التي زادها يعقوب ولوقا.

رابعًا: تحريف المترجمين:

ولمترجمي الكتاب المقدس نصيبهم من التحريف الذي أضحى سمة لكل أولئك المؤتمنين على الكتاب المقدس، حيث يتلاعب هؤلاء بالنصوص، وهم يقومون بترجمتها، من صور هذا النوع من التحريف الصور التي نعرضها والتي توضح مقدار الحرية التي تعامل بها المترجمون مع النصوص التوراتية، إذ النص العربي يذكر اشتقاقات عربية لا يصح أن تكون في كتاب أصل لغته العبرية. ومن ذلك:

١ - يقول سفر التكوين: " وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». " (التكوين ٤/ ١)، فكلمة " قَايِينَ " كما في قاموس الكتاب المقدس معناها: " حداد "، فالمناسبة معدومة بين الاقتناء أو الشراء، واسم قايين الذي يعني: حداد.

٢ - ومثله قوله: " لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. " (التكوين ١١/ ٩). وهي في العبري " باب ايل " بمعنى: " بوابة الرب " كما في قاموس الكتاب المقدس، وعليه فليس من مناسبة بين اسم بابل والبلبلة التي تذكرها التوراة، فالمناسبة غير متحققة في اللغة العبرية التي كتب بها الكتاب المقدس.

٣- ومن صور التحريف الهامة ما صنعه المترجمون المسيحيون للمزمور الثاني والعشرين ليكون نبوءة مزعومة عن المسيح الذي مات على الصليب وقد ثقبت يداه ورجلاه، يقول المزمور: "١٦لأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِي كِلاَبٌ. جَمَاعَةٌ مِنَ الأَشْرَارِ اكْتَنَفَتْنِي. ثَقَبُوا

يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ. " (المزمور ٢٢/ ١٦)، وليس في النص العبراني كلمة: (כארו) ثقبوا، التي تنطق (كأرو)، بل يستخدم كلمة (כארי) (كأري) التي تعني كأسد.

وقد اعترفت نسخة الرهبانية اليسوعية بالتحريف، وذكرت أن النص المحرف "بحسب الترجمة اللاتينية الشائعة، والكلمة العبرية تعني: (كالأسد)، وهي غامضة"، وهكذا فلغموض كلمة الأسد تلاعبوا بالنص وحوروه إلى "ثقبوا يديّ ورجليّ".

فصل: وشهد شاهد من أهلها

أولًا: شهادة علماء النصارى على التحريف

يعترف كبار المراجع النصرانية بوقوع التحريف والزيادة المستمرة حيث تقول لجنة الكتاب المقدس البابوية في مدخلها سنة ١٩٤٨م: " يوجد ازدياد تدريجي في الشرائع الموسوية سببته مناسبات العصور التالية الاجتماعية والدينية".

ويقول كيرت: " الكتاب المقدس المتداول حاليًا لا يحتوي على التوراة والإنجيل المنزلين من الله، ولقد اعترف علماء باحثون باللمسات البشرية في إعداد هذا الكتاب المقدس ".

ويقول جيمس جيستنج: " ومع هذا فإننا نتوقع أن نجد خلال صفحات الكتاب المقدس بعض الأجزاء من التوراة والإنجيل الأصليين، مما يتحتم معه دراسة جادة لكي تجعل مضمون الكتاب المقدس مفهومًا".

ونختم بنقل ما قاله الناقد اليهودي الشهير اسبينوزا عن تحريف الأسفار التوراتية، حيث يقول: "لا يسلِّم معظم المفسرين بوقوع أي تحريف في النص، حتى في الأجزاء الأخرى، ويقررون أن الله بعناية فريدة قد حفظ التوراة كلها من أي ضياع".

ويضيف: "أما اختلاف القراءات فهو في نظرهم علامة على أسرار في غاية العمق، ويتناقشون بشأن النجوم الثمانية والعشرين الموجودة وسط إحدى الفقرات، بل تبدو أشكال الحروف ذاتها وكأنها تحتوي على أسرار كبيرة، ولست أدري إن كان ذلك ناجمًا عن اختلال العقل، وعن نوع من تقوى العجائز المخرفين، أم أنهم قالوا ذلك بدافع الغرور والخبث، حتى نعتقد أنهم وحدهم هم الأمناء على أسرار الله، ولكني أعلم فقط أني لم أجد

مطلقًا أي شيء عليه سيما السر في كتبهم، ولم أجد فيها إلا أعمالًا صبيانية ". [(١)]

ثانيًا: شهادة آباء الكنيسة على التحريف.

أولًا: إيريناوس أسقف ليون (١٢٠ – ٢٠٢م)

يطلق عليه أبو التقليد الكنسي، ويرون أن شهادته جليلة، ومع ذلك يقول عنه (يوسابيوس القيصري) - والمعروف بأبي التأريخ الكنسي - (وهو لا يعرف كتاب الراعي فقط بل أيضًا يقبله، وقد كتب عنه ما يلي: حسنا تكلم السفر قائلا أول كل شيء آمن بأن الله واحد الذي خلق كل الأشياء وأكملها)

والسؤال الآن: أين اتفاق الآباء على أسفار الكتاب المقدس؟ وسؤال آخر: أين الأسفار (كسفر الراعي لهرماس) التي سلموا بها وليست بأيدينا الآن؟

ثانيًا: العلامة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٢م) وهو ناظر المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية والذي يصفه القس منيس عبد النور بأنه: (العالم العظيم).

وبالنظر في الجدول الذي أورده يوسابيوس القيصري في كتابه تاريخ الكنيسه يذكر من بين الأسفار القانونية (إرميا مع المراثي والرسالة في سفر واحد، اسمه ارميا).

والآن نسأل جهابذة علماء الكتاب المقدس من البروتستانت هل رسالة إرميا التي كان يؤمن بها" العالم العظيم"! ! ـ الذي أصبح ناظرًا للمدرسة اللاهوتية في سن الثامنة عشرة ـ موجودة في الكتاب المقدس الذي بين يدي البروتستانت الآن؟ الإجابة طبعًا أنها غير موجودة.

وهذه الرسالة لم يكن أوريجانوس فقط يعتقد بأنها سفر موحى به من الإله بل يوجد غيره الكثير من آباء الكنيسة اعتقدوا بنفس عقيدته كما تخبرنا بذلك دائرة المعارف الكتابية فتقول:

(قانونية الرسالة وقيمتها: كان الآباء اليونانيون الأوائل، يميلون - بوجه عام - إلى اعتبار الرسالة جزءًا من الأسفار القانونية، لذلك تذكر في قوائم الأسفار القانونية لأوريجانوس وأبيفانيوس وكيرلس الأورشليمي وأثناسيوس، وعليه فقد اعترف بها رسميا في مجمع لاودكية (٣٦٠ م)).

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (١٣١).

جاء في الجدول الذي أورده يوسابيوس القيصري في كتابه تاريخ الكنيسة أن أوريجانوس لم يكن يعتبر رسالة بطرس الثانية من الأسفار المقدسة فقال: (وبطرس الذي بنيت عليه كنيسة المسيح التي لا تقوى عليها أبواب الجحيم ترك رسالة واحدة معترف بها، ولعله ترك رسالة ثانية أيضًا، ولكن هذا مشكوك فيه).

وهذا ليس رأيه وحده وإنما رأي يوسابيوس القيصري أيضًا إذ يقول: (إن رسالة بطرس الأولى معترف بصحتها وقد استعملها الشيوخ الأقدمون في كتاباتهم كسفر لا يقبل أي نزاع، على أننا علمنا بأن رسالته الثانية الموجودة بين أيدينا الآن ليست ضمن الأسفار القانونية ولكنها مع ذلك إذا اتضحت نافعة للكثيرين فقد استعملت مع باقي الأسفار) والسؤال الآن: بأي حق دخلت رسالة بطرس الثانية إلى الكتاب المقدس طالما نفاها هؤلاء؟!!!

ويستمر يوسابيوس القيصري في عرض جدول أوريجانوس للأسفار المقدسة عندما يتكلم عن يوحنا فيقول (وترك أيضًا رسالة قصيرة جدًا، وربما رسالة ثانية وثالثة، ولكنهما ليسا معترفًا بصحتهما من الجميع)

والسؤال هو إذا كانت رسالة يوحنا الثانية والثالثة مرفوضتان من الجميع فكيف دخلتا إلى الكتاب المقدس؟ ؟ ؟

وأين هو التواتر والإجماع المزعوم؟ ؟

ويستمر أبو" التأريخ الكنسي "في إتحافنا بتصور العالم العظيم أوريجانوس عن الأسفار المقدسة فينقل تصوره عن الرسالة إلى العبرانيين التي يحلو للبعض أن ينسبها إلى بولس فيقول (إن كل من يستطيع تمييز الفرق بين الألفاظ اللغوية يدرك أن أسلوب الرسالة إلى العبرانيين ليس عاميًا كلغة الرسول الذي اعترف عن نفسه بأنه عامي " ٢كور ٦: ١١ " في الكلام أي في التعبير بل تعبيراتها يونانية أكثر دقة وفصاحة)

وهَب أن محاكمة عُقدت للحكم في مسألة تحريف الكتاب المقدس فمن غير أوريجانوس أولى بالشهادة منه ـ وشهد شاهدٌ من أهلها ـ على تحريف الكتاب المقدس، فهو

الذي يشهد على أن اليهود حّرفوا الكتاب المقدس.

تعالوا بنا ننقل شهادةً من رهبان دير الأنبا مقار ـ وهم يقولون ((أما سبب غياب بعض الأسفار اليونانية من العهد القديم العبري لدى اليهود فيرجع ـ حسب تعليل أوريجانوس ـ إلى رغبتهم في إخفاء كل ما يمس رؤساءهم وشيوخهم، كما هو مذكور في بداية خبر سوسنا: " وعُيّن للقضاء في تلك السنة شيخان من الشعب وهما اللذان تكلم الرب عنهما أنه خرج الإثم من بابل من القضاة الشيوخ " ويقدم أمثلة من الإنجيل لتأكيد ما يقوله، حيث يخاطب السيد المسيح الكتبة والفريسيين بقوله: " لكي يأتي عليكم كل دم زكي سُفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح (متى ٢٣: ٣٥) فالسيد المسيح هنا يتكلم عن وقائع حدثت (كما يكتب أوريجانوس)، ومع ذلك لم تذكر في العهد القديم. ثم يتساءل: أين جاء في الأسفار المقدسة شيء عن الأنبياء الذين قتلهم اليهود؟ ثم يورد أوريجانوس مثلًا آخر من رسالة العبرانيين: ((آخرون تجربوا ... نشروا، جربوا ماتوا قتلًا بالسيف) " عب ١١: ٣٦ و ٣٧ " لأنه معروف في التقليد اليهودي خارجًا عن الأسفار العبرية أن أشعياء النبي فقط هو الذي نشر بالمنشار).

ثالثا: بابياس أسقف هيرابوليس (القرن الثاني)

لقد وصفه القس منيس عبد النور بالنبوغ فهو يقول ما نصه:

(بابياس: أسقف هيرابوليس في آسيا، نبغ بين ١١٠ و ١١٦ م واجتمع ببوليكاربوس، وربما اجتمع بيوحنا الرسول)

فهل يتجاهل هؤلاء القساوسة والدكاترة حقيقة هذا الرجل، أم هي مصيبة النقل بدون تمحيص وتحقيق للأقوال؟ ؟ ؟! فإن هذا " النابغة " الذي يتكلم عنه القساوسة وأساتذة اللاهوت الدفاعي، هو إنسان عديم الإدراك وحتى لا أخوض أكثر في وصف هذا البابياس سأكتفي بما ذكره أبو التأريخ الكنسي يوسابيوس القيصري فيقول ما نصه: (ويدون نفس الكاتب روايات أخرى يقول أنها وصلته من التقليد غير المكتوب وأمثالًا وتعاليم غريبة للمخلص، وأمور أخرى خرافية).

ويستمر أبو التأريخ الكنسي الذي يعرف عن الرجل أكثر مني وأكثر من ناعسي القساوسة والدكاترة إذ يقول عنه: (إذ يبدو أنه كان محدود الإدراك جدًا كما يتبين من أبحاثه. وإليه يرجع السبب في أن الكثيرين من آباء الكنيسة من بعده اعتنقوا نفس الآراء مستندين في ذلك على أقدمية الزمن الذي عاش فيه، كإيريناوس مثلًا وغيره ممن نادوا بآراء مماثلة).

رابعًا: أكلمندس الروماني بعد سنة ٩٦

قال عنه الدكتور القس منيس عبد النور " أكليمندس: أسقف روما وعمل مع الرسول بولس (فيلبي(٣ :٤)وكتب رسالة إلى كنيسة كورنثوس استشهد فيها بكثير من أقوال المسيح الواردة في الإنجيل، ومن رسائل الرسل. [(١)]"

ولو أن الدكتور القس وغيره من عشرات القساوسة الذين يرددون نفس الكلام قد كلّفوا أنفسهم عناء قراءة هذه الرسالة لعلموا أن أكلمندس الروماني كان يقتبس كلامًا على أنه من الكتب المقدسة ولا نجد له أي أثر في الكتاب المقدس الذي بين أيدينا الآن، على سبيل المثال لا الحصر يقول:

(فخليق بنا أيها الأخوة إذن أن نلتصق بهذه الأمثلة، لأنه مكتوب: التصقوا بالقديسين لأن الذين يلتصقون بهم يصيرون قديسين[(٢)]"، ويعلق الدكتور وليم سليمان قلادة على هذا النص في الهامش قائلًا: "غير موجودة في الكتاب المقدس"

أفتونا هداكم الله هل ينطبق على القديس أكلمندس الروماني نص الكتاب في رؤية يوحنا اللاهوتي: " [١٨]لأَنِّي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هذَا الْكِتَابِ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَزِيدُ عَلَى هذَا، يَزِيدُ الله عَلَيْهِ الضَّرَبَاتِ الْمَكْتُوبَةَ فِي هذَا الْكِتَابِ. ") رؤية(١٨ :٢٢

خامسًا: المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري ٣٣٩- ٢٦٤

يقول عنه القس عبد المسيح بسيط أبو الخير (أسقف قيصرية وأحد أعضاء مجمع نيقية الذي أنعقد سنة ٣٢٥م. وترجع أهمية كتاباته لكونه أقدم المؤرخين المسيحيين، وهو نفسه

(١) شبهات وهمية ص٢٦.

(٢) رسالة اكلمندس الروماني إلى الكورنثيين ـ ٤٦: ٢.

يعتبر حجة في تاريخ الكنيسة في عصورها الأولى وكان واسع الإطلاع في كتب الآباء والتي كان لديه منها الكثير جدًا واستقى معلوماته منها. [١]

ولكن الذي لم ينقله لنا القس هو وغيره من القائلين بعدم تحريف الكتاب المقدس هو أن يوسابيوس القيصري لم يكن يؤمن بأن رسالة بطرس الثانية سفر إلهي وأنه لم يكن يعتقد أن بطرس هو كاتب الرسالة الثانية المنسوبة له وإليكم نص كلام يوسابيوس (على أننا علمنا بأن رسالته الثانية الموجودة بين أيدينا الأن ليست ضمن الأسفار القانونية ولكنها مع ذلك اتضحت نافعة للكثيرين فقد استعملت مع باقي الأسفار) .

ألا فليعلم الحاضر الغائب أن حجة التأريخ الكنسي الذي كان واسع الإطلاع على كتب الآباء واستقى منها معلوماته يشهد بتحريف رسالة بطرس الثانية ويكفي أن نعلم خطورة تحريف رسالة مثل رسالة بطرس الثانة على العقيدة حيث أنها تعلم ببدعة الحلول وبدعة تأليه الإنسان أقرأوا إن شئتم ما جاء في الرسالة:

(اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينه لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الالهية هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة)). " ٢ بط٤

والعجيب أن القوم يستشهدون بكلام يوسابيوس القيصري مع إجماعهم على هرطقته كما جاء في المقدمة التي وضعها القمص مرقس داود لكتاب تاريخ الكنيسة[٢]. "

سادسًا: هرماس (القرن الأول)

يقول عنه الدكتور القس منيس عبد النور) كان معاصرًا لبولس الرسول وذكر اسمه في رومية ١٤ : ١٦ كتب ثلاثة مجلدات في أواخر القرن الأول استشهد فيها بكثير من كتب العهد الجديد وكانت له منزلة كبرى عند القدماء. [٣])

فأي تخبط هذا في كتابات هؤلاء القوم وكيف سمحت لهم أهواؤهم بالإستشهاد

---

(١) الكتاب المقدس يتحدى نقاده والقائلين بتحريفه، القس عبد المسيح بسيط أبو الخير، ١٤٤ .

(٢) تاريخ الكنيسة ـ يوسابيوس القيصري ـ مكتبة المحبة ـ ص ٥ ـ تعريبب القمص مرقس داود.

(٣) شبهات وهمية ص٢٦.

بكاتب مثل هرماس وهو رجل في مفهوم كل الكنائس سواء بروتستانتيه أو أرثوذكسية أو كاثوليكية غير مستقيم الإيمان فهو يؤمن بأن الروح القدس هو ابن الله ويدّعي كذبًا في المثل التاسع أن ملاك التوبة قال:

(أريد أن أريك كل ما أظهره لك الروح القدس الذي خاطبك باسم الكنيسة، هذا الروح هو ابن الله. .)[١] كتاب الراعي ٩: ١: ١" ويكفي أن نعلم أن العلامة ترتليان اعتبره يحبذ الزناة[٢]" ، والذي لم يذكره الدكاترة هو أن كاتب كتاب الراعي كان يقتبس من الكتب المنحولة والكتب الوثنية ثم أنه لم يصرح أنه يقتبس من إنجيل كذا أو رسالة كذا خاصة أنه لم يوردها بحرفيتها وإليكم شهادة من أحد رهبان الكنيسة القبطية الأرثوذكسية يقول (والكاتب بسيط الأسلوب، سهل اللغة، سطحي الثقافة، كثير الاستطراد، إلا أنه مطّلع على آيات الكتاب المقدس دون أن يوردها بحرفيتها، يستقي مادته من الكتب المنحولة والكتب المسيحية والوثنية على حد سواء، [٣]

سابعًا: ترتليان (١٤٥-٢٢٠)

يقول القس عبد المسيح بسيط: (العلامة ترتليان، من قرطاجنه بشمال أفريقيا والذي قال عنه القديس جيروم أنه يعتبر رائد للكتبة اللاتين عن صحة ووحي الأناجيل الأربعة (إن كتاب العهد الإنجيلي هم الرسل الذين عينهم الرب نفسه لنشر الإنجيل إلى جانب الرجال الرسوليين الذين ظهروا مع الرسل وبعد الرسل. يوحنا ومتى اللذان غرسا الإيمان داخلنا، ومن الرسوليين لوقا ومرقس اللذان جدداه لنا بعد ذلك " كما اقتبس من كل أسفار العهد الجديد واستشهد بأكثر من ٧٠٠٠ اقتباس[٤]" وبنفس الرجل يستشهد القس منيس عبد النور

---

(١) المدخل في علم الباترولوجي القمص تادرس يعقوب ملطي ١٧٢.

(٢) المدخل في علم الباترولوجي القمص تادرس يعقوب ملطي ١٥٠.

(٣) الديداخي أي تعليم الرسل - ص ٥٨.

(٤) الوحي الإلهي واستحالة تحريف الكتاب المقدس - ١٠٨.

في كتابه[١] ولكن يبدو أن القساوسة نسوا أو تناسوا أن ترتليان رائد الكُتَّاب اللاتين كان يؤمن بأن رسالة برنابا هي سفر إلهي وأنها من أسفار الكتاب المقدس ونسي القساوسة البروتستانت أن ترتليان كان يؤمن بقانونية سفر باروخ الذي يعتقدون هم أنه سفر مزيف.

ثامنًا: هيبوليتس (حوالي ٢٣٥)

يقول القس عبد المسيح بسيط أبو الخير (كان هيبوليتوس كاهنًا بروما وقد اقتبس واستشهد بأسفار العهد الجديد أكثر من ١٣٠٠ مرة وأشار إلى قراءتها في الاجتماعات العبادية العامة كما أشار إلى قداستها ووحيها وكونها كلمة الله. [٢]

والذي جهله القس أو تجاهله هو أن هيبوليتوس لم يكن يعترف بالرسالة إلى العبرانيين ولم يكن يعترف برسالة يعقوب ولا برسالة بطرس الثانية ولا رسالة يوحنا الثالثة ولا رسالة يهوذا وهذا الكلام يشهد به رهبان الكنيسة الأرثوذكسية نفسها التي ينتمي إليها القس فيقول رهبان دير الأنبا مقار (كان معاصرًا لأوريجانوس في روما رجل اسمه هيبوليتس تلميذ إيرينيئوس، الذي قبل مثل معلمه اثنين وعشرين سفرًا فقط للعهد الجديد، إذ لم يعترف بالرسالة إلى العبرانيين لأن كاتبها غير معروف، ولم يقبل سوى ثلاث رسائل جامعة وهي: بطرس الأولى ويوحنا الأولى والثانية. إلا أنه أقر باستخدامه لكتابات مسيحيه أخرى كان يعتبرها البعض الآخر قانونية، منها الرسالة إلى العبرانيين ورسائل بطرس الثانية ويعقوب ويهوذا وكتاب الراعي لهرماس[٣].

بل أكثر من ذلك فإن هيبوليتس كان يقتبس ويستشهد بسفر " أعمال بولس "الذي تعتبره الكنيسة الآن سفر مزيف فتقول دائرة المعارف الكتابية (أما في الغرب حيث كان ينظر بعين الريبة لأوريجانوس، فيبدو أنهم رفضوا أعمال بولس. ولا يرد لها ذكر إلا في كتابات هيبوليتس صديق أوريجانوس وهو لا يذكرها بالاسم ولكنه يستشهد بصراع بولس مع الوحش كدليل على صدق قصة دانيال في جب الأسود).

---

(١) شبهات وهميه ٢٧.

(٢) الكتاب المقدس يتحدى نقاده والقائلين بتحريفه ـ ص ١٤٣.

(٣) الكتاب المقدس النصوص الأصلية ـ كيف وصلت إلينا ـ دار مجلة مرقس ـ ص ٧٥.

الفصل الرابع: تناقضات الكتاب المقدس.

تمهيد:

التناسق الداخلي شرط لا يختلف العقلاء على لزوم اشتراطه في توثيق نسبة أي كتاب إلى الله ﷻ، فالكتاب الذي يكذِّب بعضه بعضًا، لا يمكن اعتباره كتابًا مقدسًا، كما لا يمكن اعتبار بقيته مقدسًا، إذ وجود الكذب في بعضه يطرح الشك في مصدره الكاذب ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء: ٨٢).

ولوجود التناقضات في الكتاب المقدس دلالات كثيرة أهمها: أنه يثبت أن هذه الأسفار بشرية في مصدرها، فقد وقع كُتّابها فيما يقع فيه البشر الضعفاء الذين يتوقع منهم الجهل، ولو كانت هذه الأسفار ملهمة من قبل الله لما خالف كُتابها بعضَهم فيما أوردوه من معلومات تاريخية وغيرها.

ووقوع الخطأ من أحد المتناقضين من كُتَّاب التوراة في قضايا بسيطة يسهل حفظها والتمكن منها يشير إلى إمكانية بل تحقق وقوع مثله في المسائل اللاهوتية والغيبية التي تحتاج إلى مزيد من العناية والتدقيق.

وهذه التناقضات التي نسوقها، معظمها توصلنا إليه من خلال دراسة أجزاء تم إعادة كتابتها ثانية من قبل كتاب الأسفار، ولو كتبت بقية الأجزاء ثانية لوقفنا على تناقضات تطال كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الذي يدعي البعض أنه مقدس. [١]

أولًا: في العهد القديم

أنواع التناقضات الواردة في العهد القديم

التناقضات التوراتية كثيرة، ومنها ما هو متعلق بأصول المعتقد، ومنها ما هو متعلق بصفات الله عز وجل، فالأسفار التوراتية تصف الله بالصفة ونقيضها.

أولًا: المتعلق بصفات الله ﷻ

١- وتحدثنا التوراة عن الله العظيم العليم، فتذكر أنه ليس كمثل البشر وضعفهم، فهو لا يندم ولا يكذب، فتقول: "[١٩]لَيْسَ اللهُ إِنْسَانًا فَيَكْذِبَ، وَلاَ ابْنَ إِنْسَانٍ فَيَنْدَمَ. هَلْ يَقُولُ وَلاَ يَفْعَلُ؟ أَوْ

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله؟ (١٣٣).

يَتَكَلَّمُ وَلاَ يَفِي؟ " (العدد ٢٣/ ١٩)، فالندم صفة الإنسان الجهول بعواقب الأمور "[٢٩]وَأَيضًا نَصِيحُ إِسْرَائِيلَ لاَ يَكْذِبُ وَلاَ يَنْدَمُ، لأَنَّهُ لَيسَ إِنْسَانًا لِيَنْدَمَ». " (صموئيل (١) ١٥/ ٢٩).

ولكن التوراة تناقض ذلك فتنسب إلى الله الندم على أمور صنعها، ومن ذلك ندمه على اختيار شاول لملك بني إسرائيل، حيث يقول: " [١٠]وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى صَمُوئِيلَ قَائِلًا: [١١]«نَدِمْتُ عَلَى أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكًا، لأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِي وَلَمْ يُقِمْ كَلاَمِي». " (صموئيل (١) ١٥/ ١٠)، فهل الله يندم أم لا؟.

٣- وتذكر التوراة أن الله لا يرى " [١٥]حَقًّا أَنْتَ إِلهٌ مُحْتَجِبٌ يَا إِلهَ إِسْرَائِيلَ الْمُخَلِّصَ. " (إشعيا ٤٥/ ١٥)، والإنسان لا يقدر على رؤيته، فقد قال الله لموسى: " [٢٠]وَقَالَ: «لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِي وَيَعِيشُ». " (الخروج ٣٣/ ٢٠).

لكن الأسفار التوراتية تذكر كثيرين رأوا الله، منهم شيوخ بني إسرائيل "[٩]ثُمَّ صَعِدَ مُوسَى وَهَارُونُ وَنَادَابُ وَأَبِيهُو وَسَبْعُونَ مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ، [١٠]وَرَأَوْا إِلهَ إِسْرَائِيلَ" (الخروج ٢٤/ ٩)، ومنهم يعقوب فقد رآه حين صارعه " [٣٠]فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلًا: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي». " (التكوين ٣٢/ ٣٠).

وقد يزعم البعض أن الذين رأوا الله رأوه حال تجسده، ولم يروه على هيئته وفي صورة مجده، ويرون أن المنفي رؤيته هو الله في مجده، وهذا التفريق لا دليل عليه، وتدحضه النصوص التي تحدثت عن أناس رأوا الله في صورة مجده.

منهم إشعيا حيث يقول: "[١]فِي سَنَةِ وَفَاةِ عُزِّيَّا الْمَلِكِ، رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. [٢]السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ، وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ، وَبَاثْنَيْنِ يَطِيرُ. . . [٥]فَقُلْتُ: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ، لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ، وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ». [٦]فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ، [٧]وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: «إِنَّ هذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ، فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ، وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ». " (إشعيا

٦/ ١-٧)، فقد رأى الله على عرشه وحوله الملائكة، وخاف على نفسه الموت، لأنه رأى الله الذي توعدت النصوص من يراه بالموت.

٤- ومن تناقضات التوراة ترددها في وصف الله بالقدرة التامة تارة، وبالعجز تارة أخرى، فقد وصفه سفر طوبيا بوصف حق حين قال: "لا إله قادر على كل شيء سواه" (طوبيا ١٣/ ٤).

وهذا المعتقد الصحيح تنقضه التوراة في مواطن كثيرة، نسبت إلى الله العجز كما في غلبة يعقوب عليه في المصارعة (انظر: التكوين ٣٢/ ٢٤ - ٣٢)، كما عجز عن طرد الكنعانيين الذين كانوا يمتلكون مركبات حديدية، إذ تقول الأسفار: " ١٩وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يَهُوذَا فَمَلَكَ الْجَبَلَ، وَلكِنْ لَمْ يُطْرَدْ سُكَّانُ الْوَادِي لأَنَّ لَهُمْ مَرْكَبَاتِ حَدِيدٍ. " (القضاة ١/ ١٩).

٥- وتتحدث التوراة عن رحمة الله وحلمه، فتقول: " ٨اَلرَّبُّ حَنَّانٌ وَرَحِيمٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ. " (المزمور ١٤٥/ ٨)، ثم تنقضه حين تذكر ما حصل مع أهل بيت شمس الذين رأوا التابوت فقتلهم جميعًا، وكانوا أكثر من خمسين ألف رجل " ١٩وَضَرَبَ أَهْلَ بَيْتَشَمْسَ لأَنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَى تَابُوتِ الرَّبِّ. وَضَرَبَ مِنَ الشَّعْبِ خَمْسِينَ أَلْفَ رَجُل وَسَبْعِينَ رَجُلًا. " (صموئيل (١) ٦/ ١٩) فهل يستحق هذا الفعل هذه العقوبة؟ مع أن " ٨اَلرَّبُّ حَنَّانٌ وَرَحِيمٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ. "!

٦- وأيضًا تصف التوراة بصر الله ومعرفته بما يصنعه عباده، فتقول: " ٣فِي كُلِّ مَكَانٍ عَيْنَا الرَّبِّ مُرَاقِبَتَانِ الطَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ. " (الأمثال ١٥/ ٣)، وتقول: " الرَّبَّ إِلهٌ عَلِيمٌ" (صموئيل (١) ٢/ ٣).

ولكن في سفر التكوين تنقضه، فتجعله جاهلًا ببعض صنائع عباده، إذ لما اختبأ آدم في الجنة بحث عنه الإله " ٩فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟ ». " (التكوين ٣/ ٩)، ثم لم يعرف أن آدم أكل من الشجرة وصار عارفًا للخير من الشر، وأنه قد أدرك سوءة العري، فقال له: " ١١فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟ »" (التكوين ٣/ ١١).

وكذا لما بدأ أهل بابل ببناء مدينتهم وبرجهم، أراد الرب – تعالى عن ذلك – أن يعرف ماذا يصنعون " [٥]فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. [٦]وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. " (التكوين ١١/ ٥-٦)، فكأنه خشي من اجتماع بني آدم وما يمكن أن ينتج عنه، فقال: " [٧]هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». " (التكوين ١١/ ٧).

ثانيًا: التناقض في أصل المعتقد

١- تناقض الأسفار في مسألة وراثة الذنب، ففي سفر الخروج ذكر أن الرب ". مُفْتَقِدٌ إِثْمَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ، وَفِي أَبْنَاءِ الأَبْنَاءِ، فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابعِ». " (الخروج ٣٤/ ٧) فالأبناء يعاقبون بجريرة آبائهم. وفي سفر حزقيال كذب ذلك فقال: " [٢٠]اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ. اَلابْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ، وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ، وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ. " (حزقيال ١٨/ ٢٠).

٢- وفي سفر حزقيال ينعي الرب على بني إسرائيل أنهم تركوا شريعتهم وعملوا بشرائع الأمم المجاورة، فيقول: " [١٢]فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي لَمْ تَسْلُكُوا فِي فَرَائِضِهِ، وَلَمْ تَعْمَلُوا بِأَحْكَامِهِ، بَلْ عَمِلْتُمْ حَسَبَ أَحْكَامِ الأُمَمِ الَّذِينَ حَوْلَكُمْ». " (حزقيال ١١/ ١٢)، ولكنه ينقضه السفر نفسه، حين يذكر أنهم لم يعملوا بشرائع الله ولا بشرائع الأمم الذين حولهم، فيقول: " [٧]لأَجْلِ ذلِكَ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمْ ضَجَجْتُمْ أَكْثَرَ مِنَ الأُمَمِ الَّتِي حَوَالَيْكُمْ، وَلَمْ تَسْلُكُوا فِي فَرَائِضِي، وَلَمْ تَعْمَلُوا حَسَبَ أَحْكَامِي، وَلاَ عَمِلْتُمْ حَسَبَ أَحْكَامِ الأُمَمِ الَّتِي حَوَالَيْكُمْ " (حزقيال ٥/ ٧)، فهل عملوا وفق أحكام الأمم المجاورة أم لم يعملوا؟

ثالثا: التناقض في الأخبار

١- ومن التناقضات الغريبة ما ورد في آخر سفر صموئيل الأول وأول سفر صموئيل الثاني، حيث يتحدث السفران عن نهايتين مختلفتين للملك شاول، فيقول السفر الأول بموته منتحرًا بسيفه، فقد جاء فيه: " [٤]فَقَالَ شَاوُلُ لِحَامِلِ سِلاَحِهِ: «اسْتَلَّ سَيْفَكَ وَاطْعَنِّي بِهِ لِئَلاَّ يَأْتِيَ هؤُلاَءِ الْغُلْفُ وَيُقَبِّحُونِي». فَلَمْ يَشَأْ حَامِلُ سِلاَحِهِ لأَنَّهُ خَافَ جِدًّا. فَأَخَذَ شَاوُلُ

السَّيْفَ وَسَقَطَ عَلَيْهِ. ٥فَلَمَّا رَأَى حَامِلُ سِلاَحِهِ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ شَاوُلُ، سَقَطَ هُوَ أيضًا عَلَى السَّيْفِ وَمَاتَ. " (صموئيل (١)٣١/ ٤-٥).

ولكن لو ألقى القارئ ببصره إلى الصفحة التالية فإنه واجد أن شاول مات بيد رجل من العماليق وأن داود قتله انتقامًا لشاول مسيح الرب، حيث يقول السفر الثاني: " ٦فَقَالَ الْغُلاَمُ الَّذِي أَخْبَرَهُ: «اتَّفَقَ أَنِّي كُنْتُ فِي جَبَلِ جِلْبُوعَ وَإِذَا شَاوُلُ يَتَوَكَّأُ عَلَى رُمْحِهِ، وَإِذَا بِالْمَرْكَبَاتِ وَالْفُرْسَانِ يَشُدُّونَ وَرَاءَهُ. ٧فَالْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ فَرَآنِي وَدَعَانِي فَقُلْتُ: هأَنَذَا. ٨فَقَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: عَمَالِيقِيٌّ أَنَا. ٩فَقَالَ لِي: قِفْ عَلَيَّ وَاقْتُلْنِي لأَنَّهُ قَدِ اعْتَرَانِيَ الدُّوَارُ، لأَنَّ كُلَّ نَفْسِي بَعْدُ فِيَّ. ١٠فَوَقَفْتُ عَلَيْهِ وَقَتَلْتُهُ لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لاَ يَعِيشُ بَعْدَ سُقُوطِهِ، وَأَخَذْتُ الإِكْلِيلَ الَّذِي عَلَى رَأْسِهِ وَالسِّوارَ الَّذِي عَلَى ذِرَاعِهِ وَأَتَيْتُ بِهِمَا إِلَى سَيِّدِي ههُنَا». " (صموئيل (٢) ١/ ٦-١٠)، فهل قتل شاول نفسه أم قتله الرجل العماليقي؟ وما سبب ورود الطريقتين معًا في الكتاب؟

يجيب محققو الرهبانية اليسوعية: "تقليد آخر في موت شاول.. وهي مزيج من عناصر مختلفة".

٢- وأيًا كانت طريقة موت شاول فإن الله قتله نتيجة لأخطائه، والتي منها أنه لجأ إلى العرّافة ولم يسأل الله "١٣فَمَاتَ شَاوُلُ بِخِيَانَتِهِ الَّتِي بِهَا خَانَ الرَّبَّ مِنْ أَجْلِ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِي لَمْ يَحْفَظْهُ. وَأيضًا لأَجْلِ طَلَبِهِ إِلَى الْجَانِّ لِلسُّؤَالِ، ١٤وَلَمْ يَسْأَلْ مِنَ الرَّبِّ، فَأَمَاتَهُ وَحَوَّلَ الْمَمْلَكَةَ إِلَى دَاوُدَ بْنِ يَسَّى. " (الأيام (١) ١٠/ ١٣).

لكن سفر صموئيل يبرئ ساحة شاول من أحد هذه الآثام، فقد سأل الله قبل أن يلجأ للعرافة يقول السفر: " ٦فَسَأَلَ شَاوُلُ مِنَ الرَّبِّ، فَلَمْ يُجِبْهُ الرَّبُّ لاَ بِالأَحْلاَمِ وَلاَ بِالأُورِيمِ وَلاَ بِالأَنْبِيَاءِ. ٧فَقَالَ شَاوُلُ لِعَبِيدِهِ: «فَتِّشُوا لِي عَلَى امْرَأَةٍ صَاحِبَةِ جَانٍّ، فَأَذْهَبَ إِلَيْهَا وَأَسْأَلَهَا». فَقَالَ لَهُ عَبِيدُهُ: «هُوَذَا امْرَأَةٌ صَاحِبَةُ جَانٍّ فِي عَيْنِ دُورٍ». " (صموئيل (١) ٢٨/ ٦-٧)، فأي السفرين يصدق القارئ الكريم؟ هل سأل شاول الله أم لم يسأله قبل ان يسأل العرافة؟

٣- ورد في سفر الأمثال، إذ يوصي في فقرة واحدة بوصيتين متناقضتين، في أولاهما يدعو

لعدم مقابلة الجاهل حسب حماقته، ثم يعود ليدعو إلى مقابلة الجاهل حسب حماقته، ليترك للقارئ دهشًا لا يدري بأي الوصيتين يعمل، يقول السفر: " ٤لاَ تُجَاوِبِ الْجَاهِلَ حَسَبَ حَمَاقَتِهِ لِئَلاَّ تَعْدِلَهُ أَنْتَ. ٥جَاوِبِ الْجَاهِلَ حَسَبَ حَمَاقَتِهِ لِئَلاَّ يَكُونَ حَكِيمًا فِي عَيْنَيْ نَفْسِهِ. " (الأمثال ٢٦/ ٤-٥)، فكيف يقابل أولئك الذين يهتدون بهدي الكتاب حماقة الجاهل؟.

٤- ومن التناقضات التي وقع فيها كُتَّاب التوراة أنه جاء في سفر الملوك أن الله وعد داود فقال: " وَيَكُونُ لِدَاوُدَ وَنَسْلِهِ وَبَيْتِهِ وَكُرْسِيِّهِ سَلاَمٌ إِلَى الأَبَدِ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». " (الملوك (١) ٢/ ٣٣).

لكن في سفر صموئيل ما ينقض ذلك تمامًا، فقد قال له الله: " ١٠وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ لَكَ امْرَأَةً. " (صموئيل (٢) ١٢/ ١٠)، فهل وُعِد بالسيف الأبدي أم بالسلام الأبدي، فالسيف والسلام ضدان لا يجتمعان.

رابعًا: التناقض التاريخي

ومن تناقضات العهد القديم التناقض في وصف أشياء محسوسة محددة، أو أخبار تاريخية معينة ذكرت في أكثر من موضع في أسفار التوراة، ولم يتنبه الكتبة الملهمون إلى تناقضهم مع نصوص سابقة:

١- ومنه أنه جاء في سفر الأيام وصف دقيق للمذبح النحاسي الذي صنعه سليمان، ومما جاء في وصفه أنه " وَيَسَعُ ثَلاَثَةَ آلاَفِ بَثٍّ. " (الأيام (٢) ٤/ ٥).

وكان سفر الملوك قد أورد وصفًا دقيقًا للمذبح يتطابق مع ما جاء في سفر الأيام غير أن سعة المذبح تختلف بنسبة ٣٣٪ إذ جاء فيه ". يَسَعُ أَلْفَيْ بَثٍّ. " (الملوك (١) ٧/ ٢٦). فهل نسي الروح القدس ما كان أملاه أم ماذا سبب هذا التفاوت بين الرقمين؟

٢- ويذكر سفر الملوك أن لسليمان أربعين ألف إصطبل لخيوله، فيقول: " ٢٦وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ أَرْبَعُونَ أَلْفَ مِذْوَدٍ لِخَيْلِ مَرْكَبَاتِهِ، وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ. " (الملوك (١) ٤/ ٢٦).

وهذا الرقم كبير جدًا، خاصة مع صغر أورشليم زمن سليمان عليه السلام، وهو على

كل حال مناقض لما جاء في سفر الأيام، وفيه " [٢٥]وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ أَرْبَعَةُ آلاَفِ مِذْوَدِ خَيْل وَمَرْكَبَاتٍ، وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ" (الأيام (٢) ٩/ ٢٥).

ويحاول القس استانلي شوبرج كبير قساوسة السويد إزالة هذا التناقض في مناظرته مع العلامة ديدات، فيقول في محاولة يائسة منه تدعو للضحك: " إن هذا يبرهن على بركة الله، في البداية كان عند سليمان أربعة آلاف مذود، زادت إلى أربعين ألف مذود بانتهاء العام ". (١)

٣- وتتحدث الأسفار عن غنائم داود التي غنمها من ملك صوبة، فيقول سفر صموئيل: " [٣]وَضَرَبَ دَاوُدُ هَدَدَ عَزَرَ بْنَ رَحُوبَ مَلِكَ صُوبَةَ حِينَ ذَهَبَ لِيَرُدَّ سُلْطَتَهُ عِنْدَ نَهْرِ الْفُرَاتِ. [٤]فَأَخَذَ دَاوُدُ مِنْهُ أَلْفًا وَسَبْعَ مِئَةِ فَارِسٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَاجِل. وَعَرْقَبَ دَاوُدُ جَمِيعَ خَيْلِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَبْقَى مِنْهَا مِئَةَ مَرْكَبَةٍ. " (صموئيل (٢) ٨/ ٣-٤)، فقد أخذ منه ١٧٠٠ فارس، سوى ما أخذه من راجلته.

وهذه الأرقام لا تتفق مع الأرقام التي ذكرها سفر الأيام، حين جعل الفرسان المأسورين ٧٠٠٠ فارس، عدا ما أخذه من راجلته، فقال: "[٣]وَضَرَبَ دَاوُدُ هَدَرَ عَزَرَ مَلِكَ صُوبَةَ فِي حَمَاةَ حِينَ ذَهَبَ لِيُقِيمَ سُلْطَتَهُ عِنْدَ نَهْرِ الْفُرَاتِ، [٤]وَأَخَذَ دَاوُدُ مِنْهُ أَلْفَ مَرْكَبَةٍ وَسَبْعَةَ آلاَفِ فَارِسٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَاجِل، وَعَرْقَبَ دَاوُدُ كُلَّ خَيْلِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَبْقَى مِنْهَا مِئَةَ مَرْكَبَةٍ. " (الأيام (١) ١٨/ ٣-٤).

٤- ويقص سفر صموئيل عن حرب أرام مع بني إسرائيل، فيقول: " وَقَتَلَ دَاوُدُ مِنْ أَرَامَ سَبْعَ مِئَةِ مَرْكَبَةٍ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ فَارِسٍ " (صموئيل (٢) ١٠/ ١٨).

ثم أعادت الأسفار ذكر حرب إسرائيل مع أرام فقال كاتب سفر الأيام: "[١٨]وَهَرَبَ أَرَامُ مِنْ أَمَامِ إِسْرَائِيلَ، وَقَتَلَ دَاوُدُ مِنْ أَرَامَ سَبْعَةَ آلاَفِ مَرْكَبَةٍ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ رَاجِل " (الأيام (١) ١٩/ ١٨).

وبين السفرين تناقض واضح في نقطتين:

---

(١) انظر: مناظرتان في استكهولم، أحمد ديدات، ص (٦٠).

الأولى: كم عدد المراكب التي قتلها جيش إسرائيل هل ٧٠٠ أم ٧٠٠٠، ولم يوضح لنا السفر كيف تقتل المراكب؟ ولعله أراد من فيها.

الثانية: هل كان القتلى من الفرسان أم المشاة؟ فكيف لم يفرق الملهم بين الفرسان والمشاة؟

٥-ومثله وقع الخطأ في عمر يهوياكين الذي ملك بني إسرائيل، فقد جاء في سفر الملوك " ٨كَانَ يَهُويَاكِينُ ابْنَ ثَمَانِي عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ فِي أُورُشَلِيمَ " (الملوك (٢) ٢٤/ ٨).

وفي سفر الأيام ما ينقضه ولا سبيل إلى الجمع، إذ يقول: "٩كَانَ يَهُويَاكِينُ ابْنَ ثَمَانِي سِنِينَ حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ وَعَشَرَةَ أَيَّامٍ فِي أُورُشَلِيمَ. " (الأيام (٢) ٣٦/ ٩).

٦- ويذكر سفر صموئيل أنه " ٢٧وَوُلِدَ لأَبْشَالُومَ ثَلاَثَةُ بَنِينَ وَبِنْتٌ وَاحِدَةٌ اسْمُهَا ثَامَارُ، وَكَانَتِ امْرَأَةً جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ. " (صموئيل (٢) ١٤/ ٢٧).

وفي سفر الملوك يذكر ابنة أخرى غير ثامار الوحيدة، فيقول: " مَعْكَةُ ابْنَةُ أَبْشَالُومَ. " (الملوك (١) ١٥/ ٢) فكيف زعم سفر صموئيل أنها وحيدة؟.

٧- ويتحدث سفر صموئيل عن ميكال بنت شاول فيقول: "٢٣وَلَمْ يَكُنْ لِمِيكَالَ بِنْتِ شَاوُلَ وَلَدٌ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهَا. " (صموئيل (٢) ٦/ ٢٣)، ولكنه في السفر نفسه يذكر أن لها ذرية، وأن لهم خمسة من الأبناء من زوجها عدرئيل المحولي، فيقول: " وَبَنِي مِيكَالَ ابْنَةِ شَاوُلَ الْخَمْسَةَ الَّذِينَ وَلَدَتْهُمْ لِعَدْرِئِيلَ بْنِ بَرْزِلاَّيَ الْمَحُولِيِّ " (صموئيل (٢) ٢١/ ٨).

والحق أن ليس ثمة تناقض هنا، بل خطأ وقع فيه كاتب صموئيل الذي لم يميز بين ميكال وأختها ميرب التي تزوجت عدرئيل المحولي، فقد جاء في سفر صموئيل " ١٩وَكَانَ فِي وَقْتِ إِعْطَاءِ مَيْرَبَ ابْنَةِ شَاوُلَ لِدَاوُدَ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ لِعَدْرِيئِيلَ الْمَحُولِيِّ امْرَأَةً. " (صموئيل (١) ١٨/ ١٩)، ثم حكى السفر قصة زواج داود من أختها ميكال.

وقد اعترف محررو قاموس الكتاب المقدس بهذا الخطأ، وردوه إلى خطأ بعض المخطوطات القديمة، وقد أبدلت نسخة الكتاب المقدس المسماة "الكتاب المقدس الأمريكي

الجديد" الصادرة عام ١٩٧٣م، أبدلت ميكال بميراب، لتصحح هذا الخطأ الكبير الذي مازال شامخًا في جميع الترجمات العالمية، ليدلل على أن هذا الكتاب ليس كلمة الله.

٨- ومما تناقض فيه كتاب التوراة عدد وكلاء سليمان المسلطين على الشعب، فزعم سفر الملوك أنهم ٥٥٠ وكيلًا، في حين ذكر سفر الأيام أنهم ٢٥٠ وكيلًا فقط، يقول سفر الملوك: " ٢٣هؤُلاَءِ رُؤَسَاءُ الْمُوَكَّلِينَ عَلَى أَعْمَالِ سُلَيْمَانَ خَمْسُ مِئَةٍ وَخَمْسُونَ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَسَلَّطُونَ عَلَى الشَّعْبِ الْعَامِلِينَ الْعَمَلَ. . . . " (الملوك (١) ٩/ ٢٣).

في حين أن سفر الأيام يخالفه، فيقول في نفس السياق: "١٠وَهؤُلاَءِ رُؤَسَاءُ الْمُوَكَّلِينَ الَّذِينَ لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، مِئَتَانِ وَخَمْسُونَ الْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى الشَّعْبِ. . . . " (الأيام (٢) ٨/ ١٠).

٩- ومن عجيب تناقضات الكتاب وقوعها في صفحة واحدة، يكذب آخرُها أولَها، ليترك القارئ في دهشة وحيرة مما يقرأ، إذ يخبرنا سفر الملوك عن مدة حكم الملك السامري يهوآحاز بن ياهو، وأنه قد ملك مدة سبع عشرة سنة، بدأت في السنة الثالثة والعشرين من حكم الملك اليهوذي يوآش "١فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ لِيُوآشَ بْنِ أَخَزْيَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ يَهُوأَحَازُ بْنُ يَاهُو عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ سَبْعَ عَشَرَةَ سَنَةً. " (الملوك (٢) ١٣/ ١)، ولو سألتُ القارئ في أي سنة من سني الملك يوآش مات يهوآحاز؟ فإنه سيجيب بأنها السنة الأربعين من حكم يوآش.

ولن أسهب في شكره على توصله إلى الجواب بسرعة، إذ لا صعوبة البتة في أن ندرك مهما اختلفت ثقافاتنا وقدراتنا الرياضية أن ٢٣ + ١٧ = ٤٠

لكن هذه النتيجة على بساطتها لم يتوصل إليها الكاتب المجهول لسفر الملوك، إذ يقول في نفس الإصحاح وهو يحدثنا عن موت يهوآحاز وتولي ابنه يهوآش: " ١٠فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالثَّلاَثِينَ لِيُوآشَ مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ يَهُوآشُ بْنُ يَهُوأَحَازَ عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً. " (الملوك (٢) ١٣/ ١٠)، فهل كان موت يهوآحاز في السنة الأربعين من حكم يهوآش - كما توصل القارئ الكريم - أم في السنة السابعة والثلاثين منه؟ إني أختبئ الكثير من الشكر والتقدير لذلك العبقري الذي سيخبرني أي القولين كان الحق الذي أوحى به الله العليم؟

أنواع التناقضات الواردة في العهد الجديد:

أولًا: تناقضات الإنجيليين في رواياتهم بعض الأحداث

١ـ نسب المسيح:

لعل أهم وأصرح تناقضات العهد الجديد تناقض متى ولوقا في نسب يوسف النجار، فقد اختلفا اختلافًا لا يمكن الجمع فيه، كما تناقض لوقا ومتى مع ما جاء في سفر الأيام الأول، وهو يتحدث عن بعض ملوك إسرائيل الذين جعلهم متى من أجداد المسيح.

يقول متى: " [١]كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْراهِيمَ: [٢]إِبْراهِيمُ وَلَدَ إِسْحاقَ. وَإِسْحاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ. [٣]وَيَهُوذَا وَلَدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ. وَفَارِصُ وَلَدَ حَصْرُونَ. وَحَصْرُونُ وَلَدَ أَرَامَ. [٤]وَأَرَامُ وَلَدَ عَمِّينَادَابَ. وَعَمِّينَادَابُ وَلَدَ نَحْشُونَ. وَنَحْشُونُ وَلَدَ سَلْمُونَ. [٥]وَسَلْمُونُ وَلَدَ بُوعَزَ مِنْ رَاحَابَ. وَبُوعَزُ وَلَدَ عُوبِيدَ مِنْ رَاعُوثَ. وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَسَّى. [٦]وَيَسَّى وَلَدَ دَاوُدَ الْمَلِكَ. وَدَاوُدُ الْمَلِكُ وَلَدَ سُلَيْمَانَ مِنَ الَّتِي لأُورِيَّا. [٧]وَسُلَيْمَانُ وَلَدَ رَحَبْعَامَ. وَرَحَبْعَامُ وَلَدَ أَبِيَّا. وَأَبِيَّا وَلَدَ آسَا. [٨]وَآسَا وَلَدَ يَهُوشَافَاطَ. وَيَهُوشَافَاطُ وَلَدَ يُورَامَ. وَيُورَامُ وَلَدَ عُزِّيَّا. [٩]وَعُزِّيَّا وَلَدَ يُوثَامَ. وَيُوثَامُ وَلَدَ أَحَازَ. وَأَحَازُ وَلَدَ حِزْقِيَّا. [١٠]وَحِزْقِيَّا وَلَدَ مَنَسَّى. وَمَنَسَّى وَلَدَ آمُونَ. وَآمُونُ وَلَدَ يُوشِيَّا. [١١]وَيُوشِيَّا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. [١٢]وَبَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وَلَدَ شَأَلْتِئِيلَ. وَشَأَلْتِئِيلُ وَلَدَ زَرُبَّابِلَ. [١٣]وَزَرُبَّابِلُ وَلَدَ أَبِيهُودَ. وَأَبِيهُودُ وَلَدَ أَلِيَاقِيمَ. وَأَلِيَاقِيمُ وَلَدَ عَازُورَ. [١٤]وَعَازُورُ وَلَدَ صَادُوقَ. وَصَادُوقُ وَلَدَ أَخِيمَ. وَأَخِيمُ وَلَدَ أَلِيُودَ. [١٥]وَأَلِيُودُ وَلَدَ أَلِيعَازَرَ. وَأَلِيعَازَرُ وَلَدَ مَتَّانَ. وَمَتَّانُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. [١٦]وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يُوسفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ. [١٧]فَجَمِيعُ الأَجْيَالِ مِنْ إِبْراهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلًا، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلًا، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلًا. " (متى ١/ ١ – ١٧).

لكن لوقا يورد نسبًا آخر للمسيح يختلف تمام الاختلاف عما جاء في متى يقول لوقا: " [٢٣]وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ، بْنِ هَالِي، [٢٤]بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، بْنِ مَلْكِي، بْنِ يَنَّا، بْنِ يُوسُفَ، [٢٥]بْنِ مَتَّاثِيَا، بْنِ عَامُوصَ، بْنِ نَاحُومَ، بْنِ

حَسْلِي، بْنِ نَجَّايِ، [٢٦]بْنِ مَآثَ، بْنِ مَتَّاثِيَا، بْنِ شِمْعِي، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يَهُوذَا، [٢٧]بْنِ يُوحَنَّا، بْنِ رِيسَا، بْنِ زَرُبَّابِلَ، بْنِ شَأَلْتِيئِيلَ، بْنِ نِيرِي، [٢٨]بْنِ مَلْكِي، بْنِ أَدِّي، بْنِ قُصَمَ، بْنِ أَلْمُودَامَ، بْنِ عِيرِ، [٢٩]بْنِ يُوسِي، بْنِ أَلِيعَازَرَ، بْنِ يُورِيمَ، بْنِ مَتْثَاتَ، بْنِ لاَوِي، [٣٠]بْنِ شِمْعُونَ، بْنِ يَهُوذَا، بْنِ يُوسُفَ، بْنِ يُونَانَ، بْنِ أَلِيَاقِيمَ، [٣١]بْنِ مَلَيَا، بْنِ مَيْنَانَ، بْنِ مَتَّاثَا، بْنِ نَاثَانَ، بْنِ دَاوُدَ، [٣٢]بْنِ يَسَّى، بْنِ عُوبِيدَ، بْنِ بُوعَزَ، بْنِ سَلْمُونَ، بْنِ نَحْشُونَ، [٣٣]بْنِ عَمِّينَادَابَ، بْنِ أَرَامَ، بْنِ حَصْرُونَ، بْنِ فَارِصَ، بْنِ يَهُوذَا، [٣٤]بْنِ يَعْقُوبَ، بْنِ إِسْحَاقَ، بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بْنِ تَارَحَ، بْنِ نَاحُورَ، [٣٥]بْنِ سَرُوجَ، بْنِ رَعُو، بْنِ فَالَجَ، بْنِ عَابِرَ، بْنِ شَالَحَ، [٣٦]بْنِ قِينَانَ، بْنِ أَرْفَكْشَادَ، بْنِ سَامِ، بْنِ نُوحِ، بْنِ لاَمَكَ، [٣٧]بْنِ مَتُوشَالَحَ، بْنِ أَخْنُوخَ، بْنِ يَارِدَ، بْنِ مَهْلَلْئِيلَ، بْنِ قِينَانَ، [٣٨]بْنِ أَنُوشَ، بْنِ شِيتِ، بْنِ آدَمَ، ابْنِ اللهِ"(لوقا ٣/ ٢٣ - ٣٨).

توقف المحققون مليًا عند التناقض في نسب المسيح، وقد استوقفتهم ملاحظات منها:

١- أن متى ولوقا اتفقا في ابتداء النسب بيوسف النجار، ثم افترقا ليلتقيا من جديد بزربابل بن شألتيل، حيث جعله متى الجد العاشر ليوسف النجار، فيما جعله لوقا الجد التاسع عشر ليوسف.

ثم اختلف الإنجيليان من جديد اختلافًا كبيرًا، فقد جعل متى المسيح من ذرية ملوك بني إسرائيل سليمان ثم رحبعام ثم أبيا ثم آسا ثم يهوشافاط. . . . ، بينما يجعله لوقا من نسل ناثان بن داود، وليس في أبنائه من ملك على بني اسرائيل.

٢- ولا يعقل أن يكون المسيح من ذرية أخوين، أي سليمان وناثان ابنا داود عليه السلام، كما لا يعقل أيضًا ذات الأمر بخصوص زربابل وأبوه شألتيل، فإما أن يكونوا (المسيح وزربابل وشألتيل) من نسل سليمان أو من ذرية أخيه ناثان.

٣- وأيضًا بلغ الاختلاف بين القوائم الثلاث مدى يستحيل الجمع فيه على صورة من الصور، فالاختلاف في أعداد الأجيال كما الأسماء، وثمة خلل في الأنساب وإسقاط لعدد من الآباء.

٤- وقد حرص متى على تقسيم سلسلة الأنساب التي ذكرها إلى ثلاثة مجموعات في كل منها أربعة عشر أبًا فيقول: " [١٧]فَجَمِيعُ الأَجْيَالِ مِنْ إِبْراهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلًا، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى

سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلًا، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلًا. " (متى ١/ ١٧).

لكن متى لم يوف بالأرقام التي ذكرها، إذ لم يذكر بين المسيح والسبي سوى اثني عشر أبًا. وقد تصرف متى في المجموعة الثانية، فأسقط عددًا من الأسماء ليحافظ على الرقم ١٤، فأسقط ما بين يورام وعزيا ثلاثة آباء، هم أخزيا بن يورام وابنه يواشي وابنه أمصيا والد عزيا. (١)

والسؤال كيف يجمع علماء الكتاب المقدس بين تناقضات أنساب المسيح؟

قال بعضهم: " لا يراد من هذا شجرة نسب كامل. . . أسماء قد سقطت من بعض الإنجيليين، وهذا للتوضيح الموصل إلى الرغبة بإثبات سلالة مؤسسة على الصحة التاريخية في خطوطها العريضة أو عناصرها الأساسية ".

ولكن بوكاي لا يرى هذا التبرير مقبولًا، لأن النصوص لا تسمح بمثل هذا الافتراض، إذ أن نص التوراة الذي اعتمد عليه الإنجيليون يقول: فلان في عمر كذا أنجب كذا، ثم عاش كذا من السنين، وهكذا فليس ثمة انقطاع.

ويقول صاحب كتاب " شمس البر ": "معرفتنا بطريقة تأليف جداول النسب في تلك الأيام قاصرة جدًا "، ويعلق بوكاي: " لاشك أن نسب المسيح في الأناجيل قد دفع المعلقين المسيحيين إلى بهلوانيات جدلية متميزة صارخة تكافئ الوهم والهوى عند كل من لوقا ومتى". (٢)

لكن النتيجة الخطيرة والمهمة المترتبة على وجود هذا التناقض هي: أن إنجيل متى لم يكن معروفًا للوقا مع أنه قد سبقه بنحو عشرين سنة، ولو كان لوقا يعرفه، أو يعتبره إنجيلًا مقدسًا لراجعه ولما خالفه، فدل ذلك على عدم وجود إنجيل متى يومذاك، أو إسقاط الاعتبار له. (٣)

ثم ماذا عن يوحنا ومرقس لم أهملا نسب المسيح، فلم يذكراه؟ هل يرجع ذلك لشكهما في صحة متى ولوقا أم خوفًا من سخرية اليهود أم. . . . . ؟. (٤)

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (٧٨ - ٨٣)، إظهار الحق (١/ ١٨٧ - ١٩٠)

(٢) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص (١١٩ - ١٢٠).

(٣) محاضرات في النصرانية (٩٥).

(٤) هل العهد الجديد كلمة الله؟ (١٦٤ - ١٦٩).

٢ـ أسماء التلاميذ الاثني عشر

ومن التناقضات بين الأناجيل أيضًا اختلاف الأناجيل في أسماء التلاميذ الاثني عشر، إذ يقدم العهد الجديد أربع قوائم للتلاميذ الاثني عشر تختلف كل واحدة عن الأخرى، وبيانه:

أن أسماء التلاميذ ذكرها متى في إنجيله (١٠/ ١ - ٤)، ومرقس أيضًا (انظر ٣/ ١٦)، وذكرها لوقا في إنجيله في (٦/ ١٤) ثم في أعمال (١/ ١٣).

وتتشابه القوائم الأربعة في عشرة أسماء وهي سمعان بطرس، وأخوه اندرواس، ويعقوب ابن زبدي، وأخوه يوحنا، وفيلبس، وبرثو لماوس، وتوما، ومتى، ويعقوب بن حلفي، وسمعان القانوي أو الغيور.

ويتفق متى ومرقس ولوقا على ذكر يهوذا الأسخريوطي، فيما أهمل في أعمال الرسل، وهو ما يمكن أن نعتبره توافقًا، إذ قد أهمل ذكر التلميذ الخائن.

وأما الاسم المكمل للإثني عشر، فيذكر متى ومرقس اسم لباوس الملقب: تداوس، فيما يذكر لوقا في إنجيله وأعمال الرسل يهوذا بن حلفي.

ولا يمكن أن يكون لهذا التلميذ هذه الأسماء الثلاثة، لأنه كما في تعليق الآباء اليسوعيين على (متى ١٠/ ٣): "يستبعد أن تكون هذه الأسماء المختلفة قد أطلقت على شخص واحد، لأن هذه الأسماء الثلاثة هي سامية كلها، حين كان لشخص واحد اسمان في ذلك الزمان؛ كان أحدهما يهوديًا، والآخر يونانيًا أو رومانيًا. إن التقليد الذي حافظ بثبات على عدد الرسل الاثني عشر لم يتردد إلا على اسم واحد منهم".

وإذا كانت الأناجيل تختلف بأمر بمثل هذه الأهمية والوضوح، فكيف لنا أن نثق بما وراء ذلك من أخبار ووقائع وتفصيلات تعرضها عن حياة المسيح وغيره. [1]

٣ـ من الذي طلب الملكوت، الأم أم ابناها؟

ومن تناقضات الأناجيل أيضًا ما تناقض فيه متى مع مرقس، فقد ذكر متى أنه "

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية أحمد عبد الوهاب (٨٣- ٨٤).

[٢٠]حِينَئِذٍ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ أُمُّ ابْنَيْ زَبْدِي مَعَ ابْنَيْهَا، وَسَجَدَتْ وَطَلَبَتْ مِنْهُ شَيْئًا. [٢١]فَقَالَ لَهَا: «مَاذَا تُرِيدِينَ؟ » قَالَتْ لَهُ: «قُلْ أَنْ يَجْلِسَ ابْنَايَ هذَانِ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالآخَرُ عَنِ الْيَسَارِ فِي مَلَكُوتِكَ». [٢٢]فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: «لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ. . . . " (متى ٢٠/ ٢٠ - ٢٣).

وفي مرقس تذكر القصة نفسها وبنفس حيثياتها، لكن الذي طلب الملكوت هما الابنان، وليس أمهما، يقول مرقس: " [٣٥]وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا ابْنَا زَبْدِي قَائِلَيْنِ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ لَنَا كُلَّ مَا طَلَبْنَا». [٣٦]فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تُرِيدَانِ أَنْ أَفْعَلَ لَكُمَا؟ » [٣٧]فَقَالاَ لَهُ: «أَعْطِنَا أَنْ نَجْلِسَ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالآخَرُ عَنْ يَسَارِكَ فِي مَجْدِكَ». [٣٨]فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ" (مرقس ١٠/ ٣٥ - ٣٨).

يقول جون فنتون في تفسيره لإنجيل متى: لقد أحدث متى بعضًا من التغيرات والحذف لما في إنجيل مرقس، وأهم ما في ذلك، أنه بينما في إنجيل مرقس نجد أن التلميذين نفسيهما يطلبان من يسوع، إذ بأمهما هي التي تطلب منه حسب رواية متى.[١]

٤ـ هل أوصى المسيح تلاميذه بأخذ العصا أم أوصاهم بتركها؟

ومن التناقضات أن مرقس يذكر وصية المسيح لتلاميذه بعد أن أعطاهم سلطانًا على الأرواح النجسة فقال: " [٨]وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ غَيْرَ عَصًا فَقَطْ، لاَ مِزْوَدًا وَلاَ خُبْزًا وَلاَ نُحَاسًا فِي الْمِنْطَقَةِ. [٩]بَلْ يَكُونُوا مَشْدُودِينَ بِنِعَال، وَلاَ يَلْبَسُوا ثَوْبَيْنِ. " (مرقس ٦/ ٨ - ٩).

لكن الوصية في لوقا تتفق مع مرقس في أمور وتختلف في أخرى فقد جاء فيها: " [٢]وَأَرْسَلَهُمْ لِيَكْرِزُوا بِمَلَكُوتِ اللهِ وَيَشْفُوا الْمَرْضَى. [٣]وَقَالَ لَهُمْ: «لاَ تَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ: لاَ عَصًا وَلاَ مِزْوَدًا وَلاَ خُبْزًا وَلاَ فِضَّةً، وَلاَ يَكُونُ لِلْوَاحِدِ ثَوْبَانِ. " (لوقا ٩/ ٢-٣). فقد تناقضا في وصية المسيح بخصوص العصا.

كما ناقض إنجيلُ متى القديسَ مرقس في حمل العصا والأحذية، إذ نسب إلى المسيح قوله: "[٩]لاَ تَقْتَنُوا ذَهَبًا وَلاَ فِضَّةً وَلاَ نُحَاسًا فِي مَنَاطِقِكُمْ، [١٠]وَلاَ مِزْوَدًا لِلطَّرِيقِ وَلاَ ثَوْبَيْنِ

---

(١) المصدر السابق (٨٧).

وَلاَ أَحْذِيَةً وَلاَ عَصًا " (متى ١٠/ ٩-١٠)، فقد نص متى على منعهم من اقتناء (أي تملك) الأحذية والعصا، مخالفًا ما جاء في إنجيل مرقس.

٥ـ هل سمعوا صوت الله أم أن الله لا يسمع صوته؟

يتحدث يوحنا عن الله الآب فيقول: "[٣٧]وَالآبُ نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي يَشْهَدُ لِي. لَمْ تَسْمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ، وَلاَ أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ" (يوحنا ٥/ ٣٧)، وعليه فإن أحدًا لم يسمع صوت الله.

في حين أن الإنجيليين الثلاثة يتحدثون عن صوت لله سمعه الناس بعد عمادة المسيح على يد يوحنا المعمدان، يقول مرقس: " [١١]وَكَانَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ: «أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ». " (مرقس ١/ ١١)، و(انظر متى ١٧/ ٥، ولوقا ٣/ ٢٢)، فكيف يتحدث الإنجيليون عن صوت الله وهو يبشر بالمسيح في حين أن يوحنا يذكر أن أحدًا لم يسمع صوت الله ولم يره؟

ثانيًا: هل يتناقض المسيح؟

وتظهر الأناجيل المسيح متناقضًا مع نفسه في أقواله، ومرد ذلك إلى تناقض الإنجيليين الأربعة، أو تناقض الواحد منهم مع نفسه، وهاهي النماذج:

١ـ بطرس شيطان أم رسول؟

يتناقض متى في صفحة واحدة وهو يتحدث عن رأي المسيح في بطرس، فقد قال له: ": «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. [١٨]وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. [١٩]وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاوَاتِ». . . . ".

ولكنه ناقض ذلك بعده بسطور حين قال عنه: " [٢٣]فَالْتَفَتَ وَقَالَ لِبُطْرُسَ: «اذْهَبْ عَنِّي يَاشَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا للهِ لكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ». "(متى ١٦/ ١٧ – ٢٣) ثم يتحدث متى عن إنكار بطرس للمسيح في ليلة المحاكمة بل وصدور اللعن والسب منه (انظر متى ٢٦/ ٧٤).

ثم يقول عنه في موضع آخر: " مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ، تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِيًّا تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ. " (متى ١٩/ ٢٨)، فأي الأقوال نصدق في حق بطرس، وجميعها منسوبة للمسيح؟

إن هذا القول " اذهب عني يا شيطان "هو ما قاله المسيح للشيطان حين كان يغريه لكي يحيد عن طريق الله كما يذكر متى ٤/ ٢٠، ولوقا ٤/ ٨.

لقد نسي كاتب إنجيل متى التوفيق بين ما سطره في صفحة واحدة، افتتحها بجعل بطرس: وكيلًا للمسيح يحل ويربط كما يشاء، لكنه ما لبث أن اختتمها بجعل بطرس أيضًا: شيطانا ومعثرة للمسيح.[1]

٢ـ هل المحايد معنا أو ضدنا؟

ومن التناقض الذي نسبه الإنجيليون إلى المسيح ﷺ ما زعمه متى أن المسيح قال لتلاميذه: " [٣٠]مَنْ لَيْسَ مَعِي فَهُوَ عَلَيَّ، وَمَنْ لاَ يَجْمَعُ مَعِي فَهُوَ يُفَرِّقُ. " (متى ١٢/ ٣٠).

وهذا يناقض ما ذكره مرقس عنه: "[٤٠]لأَنَّ مَنْ لَيْسَ عَلَيْنَا فَهُوَ مَعَنَا. " (مرقس ٩/ ٤٠)، فبأي الهديين يهتدي التلاميذ.

٣ـ ما هو موقف المسيح من أعدائه؟

ويعود لوقا للتناقض فينسب إلى المسيح موقفين متناقضين من الأعداء، فزعم مرة أنه أمر بمحبتهم فقال: " [٢٧]«لكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، [٢٨]بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ. " (لوقا ٦/ ٢٧ – ٣٨).

لكنه نسب إلى المسيح مناقضة ذلك عندما ذكر – على لسانه – مثل الأمناء العشرة الذي ضربه المسيح لملكته، وقد تمثل فيه قول الملك الذي رفضه شعبه، فقال: "[٢٧]أَمَّا أَعْدَائِي، أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأْتُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا وَاذْبَحُوهُمْ قُدَّامِي». " (لوقا ١٩/ ٢٧)، فأي الهديين في المعاملة مع الأعداء صدر من المسيح؟

٤ـ هل المطلوب بغض الوالدين أم محبتهما؟

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (٩٢).

ومن التناقض أيضًا ما وقع فيه لوقا حين زعم أن المسيح قال: "[٢٦]«إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيضًا، فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا. " (لوقا ١٤/ ٢٦).

ثم في موضع آخر يذكر لوقا أن رجلًا سأل المسيح عن طريق الحياة الأبدية فكان من إجابته ". أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ». " (لوقا ١٨/ ٢٠).

وفي مرقس أن المسيح قال: ": تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. " (مرقس ١٢/ ٣١)، فهل المطلوب من التلاميذ بغض الوالدين أم محبتهما وإكرامهما؟

٥- هل يعقل أن يكون مصير المسيح عليه السلام جهنم؟

وتتناقض الأناجيل حين تذكر أن المسيح توعد الذين يشتمون إخوانهم بالنار، ثم تزعم أنه صنعه، فقد قال: " وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. " (متى ٥/ ٢٢).

في حين أن لوقا زعم أن المسيح قال لتلميذيه اللذين لم يعرفاه بعد القيامة: "[٢٥]فَقَالَ لَهُمَا: «أَيُّهَا الْغَبِيَّانِ وَالْبَطِيئَا الْقُلُوبِ فِي الإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ! " (لوقا ٢٤/ ٢٥)، وأنه قال لبطرس: " اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! " (متى ١٦/ ٢٣).

وخاطبه في موطن آخر: ": «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟ » " (متى ١٤/ ٣١)، فهل يحكم النصارى على المسيح باستحقاقه النار، أم يحكمون على هذه النصوص بالقصور والتناقض.

ثالثًا: التناقض بين العهد القديم والعهد الجديد

وكما تناقض الإنجيليون وكتاب الرسائل مع بعضهم فإنهم تناقضوا مع أسفار العهد القديم، في مختلف القضايا التي شاركوا كُتاب العهد القديم في الحديث عنها، اللاهوتية منها والتاريخية.

أولًا: التناقضات في صفات الله

١- يقول يوحنا: "[١٨]الله لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. " (يوحنا ١/ ١٨) وكلامه حق.

لكنه متناقض مع ما جاء في عدة مواضع في التوراة، منها قول يعقوب: " نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ " (التكوين ٣٢/ ٣٠).

ومثله ما جاء في سفر الخروج أن موسى أصر على رؤية الله فقال له الرب: "[٢١]وَقَالَ

الرَّبُّ: «هُوَذَا عِنْدِي مَكَانٌ، فَتَقِفُ عَلَى الصَّخْرَةِ. [٢٢]وَيَكُونُ مَتَى اجْتَازَ مَجْدِي، أَنِّي أَضَعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ، وَأَسْتُرُكَ بِيَدِي حَتَّى أَجْتَازَ. [٢٣]ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي، وَأَمَّا وَجْهِي فَلاَ يُرَى». " (الخروج ٣٣/ ٢١ - ٢٣).

٢- كما وصف يوحنا الله الآب بأنه لم يسمع أحد صوته، فيقول: "[٣٧]وَالآبُ نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي يَشْهَدُ لِي. لَمْ تَسْمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ، وَلاَ أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ" (يوحنا ٥/ ٣٧)، وعليه فإن أحدًا لم يسمع صوت الله، وهو بذلك يخالف ما جاء في التوراة، التي تذكر أن بني إسرائيل سمعوا صوت الله حين كلمهم في حوريب "[١٢]فَكَلَّمَكُمُ الرَّبُّ مِنْ وَسَطِ النَّارِ وَأَنْتُمْ سَامِعُونَ صَوْتَ كَلاَمٍ، وَلكِنْ لَمْ تَرَوْا صُورَةً بَلْ صَوْتًا. " (التثنية ٤/ ١٢)، فهل سمع البشر صوت الله أم لم يسمعوه؟

٣- ويصف بولس الله ﷻ بوصف حق، فيقول: "[٣٣]لأَنَّ اللهَ لَيْسَ إِلهَ تَشْوِيشٍ بَلْ إِلهُ سَلاَمٍ " (كورنثوس (١) ١٤/ ٣٣)، ولكنه يناقض بذلك ما جاء في سفر التكوين " [٦]وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ. . . [٧]هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». [٨]فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ" (التكوين ١١/ ٦-٩).

تناقضات أخرى بين العهدين

١ـ هل كل المطعومات مباحة؟

ومن التناقضات أيضًا أن التوراة تتحدث عما يجوز أكله وما لا يجوز من الأطعمة مما ينجس أكله. (انظر اللاويين ١١/ ١ - ٤٧).

لكن مرقس يذكر أن المسيح خالف ذلك فقال كلاما غريبًا أباح فيه كل طعام فقال: ": «اسْمَعُوا مِنِّي كُلُّكُمْ وَافْهَمُوا. [١٥]لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ خَارِجِ الإِنْسَانِ إِذَا دَخَلَ فِيهِ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ، لكِنَّ الأَشْيَاءَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ هِيَ الَّتِي تُنَجِّسُ الإِنْسَانَ. ".

وقد صعُب فهم هذا على تلاميذه فأعادوا السؤال عنه، فأعاد الجواب، وقال: " [١٩]لأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ إِلَى قَلْبِهِ بَلْ إِلَى الْجَوْفِ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى الْخَلاَءِ، وَذلِكَ يُطَهِّرُ كُلَّ الأَطْعِمَةِ». " (مرقس ٧/ ١٤ - ١٩). فهذه أغرب طريقة في تطهير الطعام، وهي تناقض أحكام التوراة وتخالفها وتنقضها.

٢ـ من الذي اشترى الأرض من شكيم؟

ومن التناقضات أيضًا ما بين أعمال الرسل وسفر التكوين فيمن اشترى أرض شكيم من بني حمور، هل هو إبراهيم أم إسحاق؟

فقد جاء في أعمال الرسل "[١٥]فَنَزَلَ يَعْقُوبُ إِلَى مِصْرَ وَمَاتَ هُوَ وَآبَاؤُنَا، [١٦]وَنُقِلُوا إِلَى شَكِيمَ وَوُضِعُوا فِي الْقَبْرِ الَّذِي اشْتَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ بِثَمَنٍ فِضَّةٍ مِنْ بَنِي حَمُورَ أَبِي شَكِيمَ. " (أعمال ٧/ ١٥ - ١٦).

وفي سفر التكوين أن أرض شكيم قد ابتاعها يعقوب لا إبراهيم، حيث يقول: " [١٨]ثُمَّ أَتَى يَعْقُوبُ سَالِمًا إِلَى مَدِينَةِ شَكِيمَ الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، حِينَ جَاءَ مِنْ فَدَّانِ أَرَامَ. وَنَزَلَ أَمَامَ الْمَدِينَةِ. [١٩]وَابْتَاعَ قِطْعَةَ الْحَقْلِ الَّتِي نَصَبَ فِيهَا خَيْمَتَهُ مِنْ يَدِ بَنِي حَمُورَ أَبِي شَكِيمَ بِمِئَةِ قَسِيطَةٍ. " (التكوين ٣٣/ ١٨ - ١٩).

والخطأ من كاتب أعمال الرسل لأن الأرض التي ابتاعها إبراهيم، هي في أرض حبرون (الخليل)، واشتراها من عفرون، وفيها دفن سارة، ثم دفن هو فيها كما في سفر التكوين " وَوَزَنَ إِبْرَاهِيمُ لِعِفْرُونَ الْفِضَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي مَسَامِعِ بَنِي حِثَّ. أَرْبَعَ مِئَةِ شَاقِلِ فِضَّةٍ جَائِزَةٍ عِنْدَ التُّجَّارِ. [١٧]فَوَجَبَ حَقْلُ عِفْرُونَ الَّذِي فِي الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي أَمَامَ مَمْرَا، الْحَقْلُ وَالْمَغَارَةُ الَّتِي فِيهِ، وَجَمِيعُ الشَّجَرِ الَّذِي فِي الْحَقْلِ الَّذِي فِي جَمِيعِ حُدُودِهِ حَوَالَيْهِ، [١٨]لإِبْرَاهِيمَ مُلْكًا لَدَى عُيُونِ بَنِي حِثَّ، بَيْنَ جَمِيعِ الدَّاخِلِينَ بَابَ مَدِينَتِهِ. [١٩]وَبَعْدَ ذلِكَ دَفَنَ إِبْرَاهِيمُ سَارَةَ امْرَأَتَهُ فِي مَغَارَةِ حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ أَمَامَ مَمْرَا، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ " (التكوين ٢٣/ ١٦ - ١٩). فمن الذي اشترى أرض شكيم، يعقوب أم إبراهيم؟

رابعًا: النصارى بين الاعتراف بالتناقضات والمكابرة

"والمقصود أن هذا الاضطراب في الإنجيل يشهد بأن التغيير وقع فيه قطعا، ولا يمكن أن يكون ذلك من عند الله، بل الاختلاف الكثير الذي فيه يدل على أن ذلك الاختلاف من عند غير الله "[(١)]

وتبذل محاولات يائسة وساذجة للجمع بين هذه المتناقضات وتقديمها بصورة متوافقة متكاملة، لكن التكلف يكتنف جميع هذه المحاولات التي غالبًا ما تظهر باهتة، إضافة لما

(١) هداية الحيارى (٢٢١).

تحمله من صور للجمع لا دليل عليها.

لذا فإن الفيلسوف الناقد اليهودي اسبينوزا صدق وهو يقول عن التوراة، وينطبق حديثه على العهد الجديد: " فإذا ظن أحد أني أتحدث بطريقة عامة جدًا دون أساس كاف، فإني أرجو أن يكلف نفسه العناء، ويدلنا على ترتيب يقين لهذه الروايات يستطيع المؤرخون اتباعه في كتاباتهم للأخبار دون الوقوع في خطأ جسيم، وعلى المرء في أثناء محاولته تفسير الروايات والتوفيق أن يراعي العبارات والأساليب، وطرق الوصل في الكلام، ويشرحها بحيث نستطيع طبقًا لهذا الشرح أن نقلدها في كتاباتنا، ولسوف أنحني مقدمًا في خشوع لمن يستطيع القيام بهذه المهمة، وإني على استعداد لأن أشبهه (بأبوللو) نفسه.

على أني أعترف بأني لم أستطع أن أجد من يقوم بهذه المحاولة، على الرغم من طول بحثي عنه، ومع أني مشبع منذ طفولتي بالآراء الشائعة عن الكتاب المقدس، فقد كان من المستحيل ألا أنتهي إلى ما انتهيت إليه. وعلى أية حال فليس هناك ما يدعونا إلى أن نعطل القارئ هنا، وأن نعرض عليه في صورة تحد أن يقوم بمحاولة ميئوس منها"[(١)]

اعترافات بتناقضات الأناجيل

وقليلون هم الذين يعترفون بالحقيقة، ومنهم محررو مجلة " الحقيقة المجردة (الناصعة) " النصرانية والتي يقول عدد يوليو ١٩٧٥م منها: " هناك ادعاءات كثيرة لتناقضات في الكتاب المقدس لم يستطع العلماء حلها حتى الآن، وفيها ما يسر كل كافر ملحد، فهناك بعض الصعوبات النصية التي ما زال العلماء يتصارعون معها إلى يومنا هذا، ولا ينكر هذه الحقيقة إلا من كان جاهلًا بالكتاب المقدس ".

ومثلهم يقول مفسرو الترجمة المسكونية للتوراة عن الأناجيل بأنها " صورة لأدب غير مترابط، مفتقر هيكله إلى حسن التتابع. . . يبدو أن ما فيه من تضاد غير قابل للتذليل ". [(٢)]

---

(١) انظر: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، يحيى ربيع، ص (٣٢٥).

(٢) هل الكتاب المقدس كلمة الله؟ لأحمد ديدات (٧٧)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم(٩٤).

الفصل الخامس: اختلافات بين تراجم الكتاب المقدس

تمهيد:

نحاول في هذا المبحث أن نرصد الاختلافات الواقعة بين تراجم الكتاب المقدس المتعددة، والتي تختلف عن بعضها اختلافًا واضحًا لكل ذي عينين.

أولًا: قائمة تراجم الكتاب المقدس:

(١) تراجم عربية:

١-الكتاب المقدس: منشورات دار المشرق - بيروت- ١٩٨٣، اعتماد: أغناطيوس زيادة، مطران بيروت. ويرمز له في البحث: الكتاب المقدس للكاثوليك.

٢-الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط - طبعة العيد المئوي ١٨٨٣/ ١٩٨٣، الرمز: الكتاب المقدس للبروتستانت.

٣-كتب الشريعة الخمسة: دار المشرق - بيروت - ١٩٨٤. اعتماد: بولس باسيم النائب الرسولي للاتين. الرمز: التوراة للكاثوليك.

٤-العهد الجديد: منشورات دار المشرق - بيروت - ١٩٨٥ - الطبعة العاشرة. اعتماد: بولس باسيم، النائب الرسولي للاتين. الرمز: العهد الجديد للكاثوليك.

٥-العهد الجديد: منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٦٩ - الطبعة الخامسة. الرمز: العهد الجديد للمطبعة الكاثوليكية.

(٢) تراجم انجليزية:

١- ترجمة الملك جيمس.

٢- الترجمة القياسية المراجعة.

(٣) تراجم فرنسية

١- لوي سيجو الفرنسية.

٢- الترجمة الفرنسية المسكونية. (١)

ثانيًا: أمثلة من الكتاب المقدس على اختلاف التراجم

أولًا: العهد القديم

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، أحمد عبد الوهاب (٦).

١ـ روح الله والإنسان

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت، تحت عنوان فرعي هو: فساد العالم الذي هيج غضب الله وجلب الطوفان:

" ١وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ، وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ، ٢أَنَّ أَبْنَاءَ الله رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. ٣فَقَالَ الرَّبُّ: «لاَ يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ، لِزَيَغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً». ٤كَانَ فِي الأَرْضِ طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذلِكَ أَيْضًا إِذْ دَخَلَ بَنُو الله عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلاَدًا، هؤُلاَءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ. " (سفر التكوين ٦/ ١- ٤)

وتقول ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك في العدد ٣ من الفقرة السابقة " فقال الرب: لا تحل روحي على الإنسان أبدا، لأنه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة ".

وتقول ترجمة التوراة للكاثوليك في العدد ٣ من تلك الفقرة التي اتخذت عنوانًا فرعيًا هو: بنو الله وبنات الناس، "فقال الرب: لا تثبت روحي في الإنسان إلى للأبد، لأنه بشر، فتكون أيامه مئة وعشرين سنة ".

وكما هو ملاحظ عن طريق المقارنة بين النصوص أن ثمة خلاف واقع بين الترجمات العربية حول هذا النص.

وقد اتفقت الترجمتان: القياسية الإنجليزية، ولوي سيجو الفرنسية على القول بأن روح الرب: سوف لا يبقى إلى الأبد في الإنسان، أما ترجمة الملك جيمس فقالت: بأن الروح سوف لا يخاصم الإنسان أبدًا. وقالت الترجمة المسكونية إنه: سوف لا يوجه الإنسان على الدوام.

لقد انقسمت التراجم على نفسها ولا يرجى لها إصلاح نظرا لغموض الأصل الذي يتحدث عن أسطورة شعبية قديمة. (١)

٢ـاسم إله بني اسرائيل

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت:

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٢٧ – ٢٨).

" [١٣]فَقَالَ مُوسَى لله: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟ » [١٤]فَقَالَ الله لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ». [١٥]وَقَالَ الله أَيْضًا لِمُوسَى: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهْ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. هذَا اسْمِي إِلَى الأَبَدِ وَهذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. " (الخروج ٣/ ١٣ – ١٥).

وتقول ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك في اسم الإله: " فقال الله لموسى: أنا هو الكائن. وقال: كذا قل لبني إسرائيل: الكائن أرسلني إليكم. وقال الله لموسى ثانية: كذا قل لبني إسرائيل، إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب بعثني إليكم. هذا اسمي إلى الدهر، وهذا ذكري إلى جيل فجيل " (الخروج ٣/ ١٤ – ١٥) وهنا نلاحظ اختفاء كلمة يهوة التي وردت في العدد ١٥ من ترجمة البروتستانت.

وتقول ترجمة التوراة للكاثوليك:

" قال الله لموسى: أنا هو من هو. وقال: هكذا تقول لبني إسرائيل: أنا هو أرسلني إليكم. وقال الله لموسى ثانية: هكذا تقول لبني إسرائيل: هكذا تقول لبني إسرائيل: الرب إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي للأبد وهذا ذكري من جيل إلى جيل " (الخروج ٣/ ١٤ - ١٥).

وهنا نلاحظ أن كلمة: الرب، قد حلت محل كلمة: يهوة، التي وردت في ترجمة البروتستانت.

وتقول التراجم الإنجليزية في اسم الإله: أنا الذي أنا، وأنا من أنا، والكائن.

وتقول التراجم الفرنسية: أنا هو الكائن، والكائن.

والخروج من هذا الشتات أمر ميسور إذا اجتنبت الأساطير والتقاليد الشعبية القديمة.

فالكتاب المقدس يبدأ بالآتي:

" [١]فِي الْبَدْءِ خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. " لقد اتفقت على ذلك جميع التراجم العربية، وكذلك اتفقت التراجم الإنجليزية على استخدام كلمة: god نظيرًا لكلمة: الله، في العربية.

واتفقت أيضًا التراجم الفرنسية على استخدام كلمة: dieu نظيرًا للفظ الجلالة: الله.

وعلى ذلك يكون اسم الإله الواحد الخالق هو: الله. (١)

٣ـ حديث موسى عند تلقي الرسالة:

في أول وحي موسى، أعطاه الله الرسالة، وبعثه إلى بني إسرائيل وإلى فرعون، وعلمه ماذا يقول وماذا يفعل، وأجرى على يديه آيتين، وعلمه كيف يجري المعجزة أو الآية الثالثة إذا لم يصدقوا الآيتين السابقتين، بعد ذلك كان لموسى موقف.

تقول فيه ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: " ١٠فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلاَ أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلاَ مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ». ١١فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ ١٢فَالآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ». ١٣فَقَالَ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَرْسِلْ بِيَدِ مَنْ تُرْسِلُ». ١٤فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى مُوسَى. . " (الخروج ٤/ ١٠- ١٤).

وتذكر ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك قولًا آخر غير هذا القول الجاف الذي ينسب لموسى – أي استمع أيها السيد، جاء فيه: " فقال موسى للرب: رحماك يا رب. إني لست أحسن الكلام. . . رحماك يارب: ابعث من أنت باعثه "

وتقول ترجمة التوراة الكاثوليكية: " فقال موسى للرب: العفو يارب، إني لست رجل كلام. . . قال: العفو يارب، أرسل من تريد أن ترسله ".

وتذكر التراجم الإنجليزية أن لهجة موسى لم تكن جافة، حيث خلت من ذلك القول: استمع أيها السيد! وكذلك تقول الترجمة الفرنسية. (٢)

٤ـ موسى يقال له: إله وشبه إله!

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: إن الرب جعل موسى إلها لهارون أخيه، وكذلك إلها لفرعون، فقال لموسى: " «أَلَيْسَ هَارُونُ اللاَّوِيُّ أَخَاكَ؟. . . ١٥فَتُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٢٩ - ٣٠).

(٢) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٣٠ – ٣١). .

الْكَلِمَاتِ فِي فَمِهِ، وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَعَ فَمِهِ، وَأُعَلِّمُكُمَا مَاذَا تَصْنَعَانِ. ١٦وَهُوَ يُكَلِّمُ الشَّعْبَ عَنْكَ. وَهُوَ يَكُونُ لَكَ فَمًا، وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ إِلهًا. " (الخروج ٤/ ١٤- ١٦).

" ١فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. " (الخروج ٧/ ١).

وهذا ما تقوله أيضًا ترجمة التوراة للكاثوليك.

أما ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك فقد أبقت على علاقة موسى بكل من فرعون وهارون – كما جاءت في خروج ٧/ ١- لكنها قالت في الحديث الذي سبق هذا عن العلاقة بين موسى وهارون قولا آخر، إذ جعلت موسى مثل الله!

" هو يخاطب الشعب عنك، ويكون لك فما، وأنت تكون له بمثابة الله " (خروج ٤/ ١٦).

وأما التراجم الإنجليزية والفرنسية فقد اختلفت هي الأخرى مثلما حدث في التراجم العربية. . . وهنا نلاحظ:

اتفاق ترجمة الملك جيمس الإنجليزية مع ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك في جعل موسى بالنسبة لهارون بمثابة: الله، وجعله إلها بالنسبة لفرعون.

اتفاق الترجمة الفرنسية المسكونية مع ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت في جعل موسى إلها لكل من هارون وفرعون.

اتفاق الترجمة القياسية الإنجليزية – بوجه عام – مع ترجمة لوي سيجو الفرنسية في جعل موسى مثل: الله، بالنسبة لكل من هارون وفرعون.

وما من شك في أن الحديث عن الله، وعن الألوهية هو أخطر حديث في الكتب المقدسة، يلزمه التمسك التام بكامل الدقة والأمانة. لكن كتبة الأسفار المقدسة لم يتورعوا عن إطلاق لفظ: الإله، على كل من اعتقدوا أنه تلقى كلمة الله، وذلك جريا وراء شاعر أو مغن أطلق ألفاظه في لحظة من لحظات هياج النفس وانفعالاتها.

يقول المزمور ٨٢ لآساف، كبير المغنين: "٦أَنَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ. ٧لكِنْ

مِثْلَ النَّاسِ تَمُوتُونَ ".

ويقول كاتب إنجيل يوحنا أن المسيح استخدم هذه الفقرة في محاجته لليهود:

" ٣٤أَجَابَهُمْ: «أَلَيْسَ مَكْتُوبًا فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ ٣٥إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ. . . ٣٦فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ. . . " (يوحنا ١٠/ ٣٤ – ٣٦). [1]

٥ـ أول الوصايا العشر:

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: " ثُمَّ تَكَلَّمَ اللهُ بِجَمِيعِ هذِهِ الْكَلِمَاتِ قَائِلًا: ٢«أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. ٣لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. " (الخروج ٢٠/ ١ – ٢).

وبهذا تقول التراجم الإنجليزية والفرنسية: " لا يكن لك آلهة أخرى أمامي " لكن ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك، وترجمة التوراة للكاثوليك تقول: " لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي ".

إذا كان هناك داع لتعديل الترجمة التي تقول: " لا يكن لك آلهة اخرى أمامي "، فلتكن: " لا يكن لك آلهة أخرى إلا أنا ".

وهذا يتفق مع الصيغة الفرنسية الأخيرة.

٦ـالرب حي إلى الأبد

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت في وحي من الله لموسى: " حَيٌّ أَنَا إِلَى الأَبَدِ " (التثنية ٣٢/ ٤٠).

وهو ماتقوله ترجمة التوراة للكاثوليك.

وهو كذلك ما تقوله التراجم الإنجليزية والفرنسية.

لكن ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك تقول: " حي أنا إلى الدهر "

ومن المعلوم لغة أن: الدهر عند العرب يطلق على الزمان، وعلى الفصل من فصول السنة، وأقل من ذلك. ويقع على مدة الدنيا كلها. وقالوا أقمنا على ماء كذا دهرا، وهذا

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٣٢ – ٣٤).

المرعى يكفينا دهرًا. وقيل الدهر: الأبد. فاستخدام كلمة الدهر في قول الله: حي أنا إلى الدهر، به قصور ملحوظ. ذلك أن: كل أبد دهر، وليس كل دهر أبد. والأبد هو الدهر أو الزمن الذي لا نهاية له. (١)

٧ـ مع خطيئة داود.

يقول الكتاب المقدس أن داود قد بهره جمال زوجة أحد جنوده حين رآها تستحم عارية، فأرسل إليها وزنا بها.

وفي هذا تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: " ٤فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلًا وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». " (صموئيل الثاني ١١/ ٤- ٥).

لقد حرص كتبة الأسفار على بيان أن داود لم يزن بتلك المرأة إلا وهي مطهرة من طمثها وفق شريعة موسى التي تنهى عن المعاشرة الجنسية خلال مدة الطمث، فتقول: وَلاَ تَقْتَرِبْ إِلَى امْرَأَةٍ فِي نَجَاسَةِ طَمْثِهَا لِتَكْشِفَ عَوْرَتَهَا" (لاويين ١٨/ ١٩)

هذا – وتتفق ترجمة الملك جيمس الإنجليزية مع القول بأن المرأة كانت مطهرة من طمثها.

أما ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك – وبقية التراجم الإنجليزية والفرنسية الأخرى – فإنها تبين أن المرأة تطهرت بعد عملية الزنا ثم رجعت إلى بيتها: " فأرسل داوود رسلا، وأخذها، فدخلت عليه، فدخل بها، وتطهرت من نجاستها، ورجعت إلى بيتها ". (٢)

٨ـ كلمات داود الأخيرة... هل هي وحي إلهي، أم قول بشر؟

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: " ١فَهذِهِ هِيَ كَلِمَاتُ دَاوُدَ الأَخِيرَةُ: «وَحْيُ دَاوُدَ بْنِ يَسَّى، وَوَحْيُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ فِي الْعُلاَ، مَسِيحِ إِلهِ يَعْقُوبَ، وَمُرَنِّمِ إِسْرَائِيلَ الْحُلْوِ " (صموئيل الثاني ٢٣/ ١)، وهنا انقسمت التراجم على نفسها.

ذلك أن الترجمة القياسية الإنجليزية، والترجمة المسكونية الفرنسية، تتفقان مع ما جاء

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٣٤ - ٣٥).

(٢) المصدر السابق (٣٥ - ٣٦).

في ترجمة البروتستنات هذه من حيث احتواء العدد رقم ١ من هذا الإصحاح رقم ٢٣ على وجود كلمتى: وحي.

أما ترجمة الملك جيمس الإنجليزية، وترجمة لوي سيجو الفرنسية، فتختلفان مع التراجم السابقة، إذ أن كلمتى: وحي، يحل محلهما لفظي: كلمة.

إن هذا الفرق جوهري في كتاب مقدس يلتزم المؤمن به بما جاء في تعاليمه: عقيدة وسلوكا باعتباره تنزيلا إلهيًا، والفرق كبير حقًا، والبون شاسع، بين أن يقال هذا: كلام داود أو: هذا وحي داود! [(١)]

٩ـ هل تزوج عمرام عمته أم ابنة عمه.

أجمعت ترجمات الكتاب المقدس العربية والإنجليزية والفرنسية الحديثة على ما جاء في سفر الخروج (٦/ ٢٠): "[٢٠]وَأَخَذَ عَمْرَامُ يُوكَابَدَ عَمَّتَهُ زَوْجَةً لَهُ. فَوَلَدَتْ لَهُ هَارُونَ وَمُوسَى. " انظر نسخة البروتستانت العربية ١٩٨٣م.

ويختلف هذا ويتناقض مع ما جاء في ترجمة الكتاب المقدس العربية (رجارد واطس) طبعة لندن ١٨٣١م، و (وليم واطس) طبعة لندن ١٨٦٦م: " فتزوج عمرام يوخابد ابنة عمه فولدت له هارون وموسى ". انظر نسخة (رجاردواطس) العربية طبعة لندن.

١٠ـ هل قتل ثلاثة آلاف أم ثلاثة وعشرين ألف رجل:

أجمعت تراجم الكتاب المقدس العربية والإنجليزية والفرنسية الحديثة على ما جاء في سفر الخروج (٣٢/ ٢٨): " [٢٨]فَفَعَلَ بَنُو لاَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُل. "

ولكن يختلف هذا ويتناقض مع ما جاء في ترجمة الكتاب المقدس لرجارد واطس سنة ١٨٣١، و (وليم واطس) طبعة لندن سنة ١٨٦٦م: " فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل ". [(٢)]

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٣٧).

(٢) الاختلافات في الكتاب المقدس، سمير سامي شحاتة (٣٩ – ٤٣). وانظر أيضًا: دراسات في الكتاب

ثانيًا: أمثلة من العهد الجديد على اختلاف التراجم

١ـصيغة التثليث:

وردت هذه الصيغة في رسالة يوحنا الأولى (٥/ ٧) وكانت تعتبر النص الوحيد – في الكتاب المقدس– الذي يعطي الأساس لعقيدة التثليث التي تقول بأن الثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس هم واحد!

لكن التراجم الحديثة للكتاب المقدس حذفتها باعتبارها نصا دخيلا أقحمه كاتب مجهول منذ قرون.

يقول كتاب: " هل الكتاب المقدس حقا كلمة الله؟ "[1] (ص ١٦٠) وهو يتحدث عن الترجمات المختلفة المتلاحقة التي من شأنها تنقية الكتاب المقدس مما يكون قد علق به من أخطاء نتيجة لقصور الترجمات السابقة – ما يلي:

" بمقارنة أعداد كبيرة من المخطوطات القديمة باعتناء، يتمكن العلماء من اقتلاع أية أخطاء ربما تسللت إليها.

مثالًا على ذلك: الإدخال الزائف في يوحنا الأولى، الإصحاح الخامس. فالجزء الأخير من العدد ٧ والجزء الأول من العدد ٨ يقول، حسب الترجمة البروتستينية العربية، طبع الأمريكان في بيروت (ونقرأ في الترجمة اليسوعية العربية شيئا مماثلا): (في السماء. . . الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد. والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة). ولكن طوال القرون الثلاثة عشر الأولى للميلاد، لم تشتمل أية مخطوطة يونانية على هذه الكلمات. وترجمة حريصا العربية تحذف هذه الكلمات كليا من المتن. والترجمة البروتستينية العربية ذات الشواهد تضعها بين هلالين، موضحة في المقدمة أنه (ليس لها وجود في أقدم النسخ وأصحها). وهكذا تساعدنا الترجمات العصرية للكتاب المقدس على الوصول إلى المعنى الصحيح لما نقرأه "

المقدس، محمود علي حماية (١٩)، تحريف مخطوطات الكتاب المقدس، علي الريس (١٧٥ – ١٨١).

(١) طبع في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٩، ثم في بيروت، بالعربية، عام ١٩٧١ ويوزع كرسالة تبشيرية.

تقول ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك: " لأن الشهود في السماء ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد. والشهود في الأرض ثلاثة الروح والماء والدم وهؤلاء الثلاثة هم في واحد " (يوحنا (١) ٥/ ٧- ٨).

وتقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: " ٧فَإِنَّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ (فِي السَّمَاءِ) هُمْ ثَلاَثَةٌ: (الآبُ، وَالْكَلِمَةُ، وَالرُّوحُ الْقُدُسُ. وَهؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ وَاحِدٌ. ٨وَالَّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي الأَرْضِ هُمْ ثَلاَثَةٌ): الرُّوحُ، وَالْمَاءُ، وَالدَّمُ. وَالثَّلاَثَةُ هُمْ فِي الْوَاحِدِ. ".

وإذا رجعنا إلى التنبيه الذي وضعته هذه الترجمة في مطلعها نجده يقول في الكلمات التي توضع بين هلالين أو قوسين ما يلي:

" والهلالان () يدلان على أن الكلمات التي بينها ليس لها وجود في أقدم النسخ وأصحها ".

أي أن صيغة التثليث هذه فقرة مزيفة من عمل كاتب مجهول. . .

وتقول ترجمة العهد الجديد للكاثوليك:

"والذين يشهدون ثلاثة (٧). الروح والماء والدم وهؤلاء الثلاثة متفقون (٨)"

ثم تقول في الحاشية السفلى تعليقا على العدد (٧):

" في بعض الأصول: الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد. لم يرد ذلك في الأصول اليونانية المعول عليها، والأرجح انه شرح أدخل إلى المتن في بعض النسخ ".

وهذا ما تقوله أيضًا ترجمة العهد الجديد للمطبعة الكاثوليكية، سواء بالنسبة للمتن أو الحاشية.

وتظهر صيغة التثليث هذه في ترجمة الملك جيمس الإنجليزية فقط لكنها اختفت من كل من: الترجمة القياسية الإنجليزية (٢)، والترجمة الفرنسية المسكونية (٣)، وترجمة لوي سيجو الفرنسية.

ومن الملاحظ أن صيغة التثليث قد اختفت من التراجم الكاثوليكية الفرنسية الحديثة التي ظهرت منذ أكثر من ٧٥ عامًا، كما أنها اختفت من التراجم البروتستينية الحديثة التي ظهرت منذ أكثر من ٤٠ عاما، ولو أنها وضعت بين هلالين علامة على عدم أصالتها.

كذلك اختفت صيغة التثليث من التراجم الكاثوليكية العربية الحديثة مثل: العهد

الجديد للكاثوليك، والعهد الجديد للمطبعة الكاثوليكية.

والسؤال الآن: من المسئول عن مصائر الملايين من المسيحيين الذين هلكوا وهم يعتقدون أن عقيدة التثليث التي تعلموها تقوم على نص صريح في كتابهم المقدس، بينما هو نص دخيل أقحمته يد كاتب مجهول؟!. [1]

المسيح عبد الله.

بشر النبي إشعياء بنبي عظيم ينتظره العالم، أول صفاته أنه عبد الله ورسوله.

وقد اعتقد كاتب إنجيل متى أن تلك النبوءة قد تحققت في المسيح، فاقتبس لذلك مقدمتها ووضعها في الإصحاح الثاني عشر من ذلك الإنجيل، في الأعداد من رقم ١٨ إلى رقم ٢١.

وتقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت في هذه النبوءة: " ١«هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ. . " (اشعياء ٤٢/ ١).

وتقول ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك نفس الشيء. وقد اتفقت الترجمتان الإنجليزيتان: الملك جيمس والقياسية، على استخدام كلمة: servant مقابل كلمة: عبد، العربية.

كذلك اتفقت الترجمتان الفرنسيتان: لوي سيجو، والمسكونية على استخدام كلمة: serviteur مقابل كلمة: عبد، العربية.

لكن نقرأ في إنجيل متى بالعربية، حسب ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت:

لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: ١٨«هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. " (متى ١٢/ ١٧- ١٨).

كذلك استبدلت بقية التراجم العربية الأخرى – وهي: الكتاب المقدس للكاثوليك، والعهد الجديد للكاثوليك، والعهد الجديد للمطبعة الكاثوليكية – استبدلت جميعها كلمة فتاي، بكلمة: عبدي، ضاربة بالأمانة العلمية والدينية عرض الحائط.

فمن المعلوم أن: العبودية تعني الخضوع والذل. وأن العبادة تعني الانقياد والخضوع.

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٣٩- ٤١).

والعبد ضد الحر، كذلك يقال للشاب الحدث: فتى، ثم استعير للعبد. ويقال: الفتى، أي الشاب، والفتاة، أي الشابة، والفتى أيضًا: السخي الكريم من ذلك يتبين أن كلمة: فتى، لا تعني بالضرورة عبدا، بل إن المعنى الذي يتوارد لأول وهلة هو الشاب، أو ذو الخصال الحميدة، فمن الواجب أن يقرأ متى هكذا: " هو ذا عبدي الذي اخترته. . . "

وتكرر نفس الشيء في سفر أعمال الرسل عدة مرات، وضعت فيها كلمة: فتى، في موضع كان يجب أن تستخدم فيه كلمة: عبد، وذلك اعتمادًا على مقارنة الترجمات المختلفة.

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: "[١٢]فَلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ ذلِكَ أَجَابَ الشَّعْبَ:. . . [١٣]إِنَّ إِلهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، إِلهَ آبَائِنَا، مَجَّدَ فَتَاهُ يَسُوعَ. . . أَقَامَ اللهُ فَتَاهُ يَسُوعَ. . . (أعمال ٣/ ١٣، ٢٦).

" رَفَعُوا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ صَوْتًا إِلَى اللهِ وَقَالُوا: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَنْتَ هُوَ الإِلهُ الصَّانِعُ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، [٢٥]الْقَائِلُ بِفَمِ دَاوُدَ فَتَاكَ. . .

[٢٧]لأَنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ اجْتَمَعَ عَلَى فَتَاكَ الْقُدُّوسِ يَسُوعَ، الَّذِي مَسَحْتَهُ، هِيرُودُسُ وَبِيلاَطُسُ. . . وَلْتُجْرَ آيَاتٌ وَعَجَائِبُ بِاسْمِ فَتَاكَ الْقُدُّوسِ يَسُوعَ»(أعمال ٤/ ٢٥، ٢٧، ٣٠).

وقد استخدمت ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك نفس الكلمة: فتى، سواء في المواضع الأربعة الخاصة بالمسيح، أو في الموضع الخامس الخاص بداود والمذكور في: أعمال ٤/ ٢٥.

كذلك استخدمت الترجمتان الفرنسيتان كلمة: serviteur في المواضع الخمسة التي استخدمت فيها كلمة: فتى العربية.

واستخدمت النسخة القياسية الإنجليزية كلمة: servant في تلك المواضع الخمسة.

أما نسخة الملك جيمس الإنجليزية فقد استخدمت كلمة: child في المواضع الأربعة الخاصة بالمسيح، بينما استخدمت كلمة: servant في الموضع الخاص بداود.

وقياسًا على ما سبق، ومقارنة بالترجمات الفرنسية والإنجليزية وخاصة الحديثة منها، يجب أن تحل كلمة: عبد، محل كلمة: فتى، المستخدمة في هذه الفقرات، وما شابهها في

مختلف المواضع من أسفار العهد الجديد.

إن داود هو عبد الله ونبيه، وكذلك المسيح هو عبد الله ونبيه. . . [(١)]

١-لم يُرسل المسيح إلا إلى بني إسرائيل.

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: "٢١ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنْ هُنَاكَ وَانْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ. ٢٢وَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ التُّخُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً: «ارْحَمْنِي، يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! اِبْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدًّا». ٢٣فَلَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «اصْرِفْهَا، لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا! » ٢٤فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». (متى ١٥/ ٢١- ٢٤).

وهكذا تقول التراجم العربية الأخرى، وهي: الكتاب المقدس للكاثوليك، والعهد الجديد للكاثوليك، والعهد الجديد للمطبعة الكاثوليكية.

وكذلك تقول الترجمتان الفرنسيتان: لوي سيجو، والمسكونية.

وكذلك تقول ترجمة الملك جيمس الإنجليزية.

إلا أن الترجمة القياسية الإنجليزية أدخلت تعديلا مخالفا، وترجمتها بالعربية: " أجاب: لقد أرسلت فقط إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ".

ولو أن هذه الصيغة تعني قصر رسالة المسيح على بني إسرائيل، إلا أن هذه الصيغة التي تقول: " لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ " إنما تعني توكيدا لقصر رسالته على الاسرائيليين دون سواهم حتى ولو كانوا جيرانهم الذين يتحدثون لغتهم ويرتبطون معهم بمختلف روابط الحياة.

فأي الكلمات هي التي نطق بها المسيح؟ وأي من التراجم جاءت أقرب إلى الأصول؟!

هل صحيح ما يقال من أن: المؤمنين بالمسيح ولدهم الله؟!

تقول ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت: وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٤٧ – ٤٩).

يَصِيرُوا أَوْلاَدَ الله، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. ١٣الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُل، بَلْ مِنَ الله. "

وهو ما تقوله ترجمة الكتاب المقدس للكاثوليك، وتوضح أن أولئك المؤمنين " من الله ولدوا "

وهو أيضًا ما تقوله ترجمة العهد الجديد للكاثوليك.

أما ترجمة العهد الجديد للمطبعة الكاثوليكية فإنها جعلت الحديث عمن ولد ليس من دم ولا من مشيئة رجل، إنما هو المسيح وليس المؤمنون الذين قبلوه. وفي هذا تقول: " أما الذين قبلوه فقد أولاهم أن يصيروا أبناء الله. هم الذين آمنوا باسمه. وهو ليس من دم، ولا من رغبة ذي لحم، ولا من رغبة رجل، بل الله ولده "

وتتفق أيضًا التراجم الإنجليزية والفرنسية على أن الحديث عمن ولد من الله إنما هم المؤمنون وليس المسيح، وكل ذلك خلاف لما تقول به ترجمة المطبعة الكاثوليكية. (١)

وبعد كل هذا نقول إن التراجم كلها تحتاج إلى مراجعات ومراجعات، تلتزم أقصى ما يكون من الأمانة والتمحيص والتدقيق، وقبل ذلك وبعده تقدر مسئولية الكلمة التي يتوقف على الاعتقاد في صدقها مصائر الناس الأبدية. (٢)

الفصل السادس: أخطاء تاريخية في الكتاب المقدس.

سنشير إلى الأخطاء التاريخية في الأمور الآتية:

أولًا: الخطأ في ظهور الحيثيين.

ثانيًا: الخطأ في تاريخ تسمية فلسطين:

ثالثًا: الخطأ أو الشك في مكان دفن إبراهيم عليه السلام.

رابعًا: الخطأ في مجموعة من التواريخ والأسماء

خامسًا: الخطأ في القول بأن فرعون رئيس الشرطة كان خصيًا وكذا كل حاشية القصر الملكي.

---

(١) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٥٤ - ٥٥).

(٢) اختلافات في تراجم الكتاب المقدس (٥٥ - ٥٧).

سادسًا: الخطأ في الفترة التي يتم فيها التحنيط:

سابعًا: الخطأ في عصر إطلاق لقب فرعون على من يملك مصر

ثامنًا: الخطأ في عصر تاريخ إطلاق كلمة رعمسيس:

تاسعًا: الخطأ في ذكر ملك لا يعرفه التاريخ في هذه الحقبة الزمنية اسمه (سوا)

عاشرًا: الخطأ في القول بأن يربعام بنى مدينة (شكيم):

الحادي عشر: الخطأ في القول بأن سليمان بنى مدينة تدمر

الثاني عشر: الخطأ في ذكر وادي لا يعرفه التاريخ:

الثالث عشر: الخطأ في تفسير اختلاف اللغات والأجناس

الرابع عشر: الخطأ في تفسير سبب السنة الكونية بجعلها علامة على نقصان ربهم ونسيانه

الخامس عشر: الخطأ في أسطورة فنوئيل.

السادس عشر: الخطأ في جعل أسطورة أستير حقيقة

وإليك التفصيل

أولًا: الخطأ في ظهور الحيثيين

موضع الخطأ: أن سفر التكوين يروي أن إبراهيم الخليل عليه السلام قد اشترى (مغارة المكفيلة) من عفرون الحثي (التكوين: ٢٣/ ١-٢٠).

كما يروي كذلك أن (عيسو) قد تزوج من (يهوديت) ابنة (بيري الحثي) و (بسمة) ابنة (إيلون الحثي) (التكوين: ٢٦/ ٣٤) (٣٦/ ١ - ٣).

بيانه: ومن المعروف تاريخيًا أن الحيثيين لم يظهروا في فلسطين على أيام إبراهيم الخليل (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م)، وحفيده (عيسو) صحيح أن الحيثيين كانوا على صلة بسورية في عصر الإمبراطورية الحيثية، وأن الجيوش الحيثية على أيام (شوبيلوليوما) (١٣٨٥-١٣٥٩ ق. م) قد وصلت إلى دمشق ولكنها لم تدخل فلسطين نفسها على الإطلاق ولم توجد بين الدول الحيثية دولة واحدة تقع إلى الجنوب من مدينة (حماة) ولم تكن هذه الأخيرة ضمن أي جزء من أقاليم فلسطين، إذ كانت تفصلها عنها المملكة الآرامية في دمشق، والتي طالما

ناصبت الإسرائليين العداء.

ومن ثَمَّ فإن وجود الحيثيين في فلسطين قبل الغزو الإسرائيلي بقيادة يشوع (في النصف الأول من القرن الثاني عشر قبل الميلاد) - فضلًا عن أن يكون ذلك على أيام إبراهيم الخليل- إنما يثير مشكلة عجيبة، لم يجد لها النقاد من تعليل، سوى نسبة نصوص التوراة - التي تتردد فيها كلمة (بني حث) و (حيثى)، و (حيثيات) - إلا للكاتب الكهنوتي في العهد التالي للمنفي، ومن ثم فليست بالدليل التاريخي ذو القيمة الكبيرة. [1]

ثانيًا: الخطأ في تاريخ تسمية فلسطين

موضع الخطأ: أن سفر الخروج يقول: (تأخذه الرعدة سكان فلسطين) (الخروج: ١٥/ ١٤)

بيانه: من المعروف تاريخيًا أن كلمة (فلسطين) (وهي مشتقة من كلمة (برست) أو (بلستيا) نسبة إلى قبائل (البلست))، لم تطلق على (أرض كنعان) إلا بعد غزو (شعوب البحر) لمصر وسورية من جزرهم، على أيام فرعون مصر العظيم (رمسيس الثالث) (١١٨٢ - ١١٥١ ق. م) إذ اشتركت قبائل البلست (الهندو أوربية) في الغزو الذي قام به أقوام البحر هؤلاء في السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث (حوالي عام ١١٧٤ ق. م) ثم انتهى بالنسبة لهم في معكرة بحرية وأخرى برية، ثم سمح لهم الفرعون بعد ذلك بالإقامة في سواحل سورية الجنوبية في المنطقة ما بين يافا وغزة، وكانت أهم مدنهم غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت، ثم أطلق اليونان اسمهم على كنعان، ومن ثم فقد احتفظ باسم قبائل البلست على فلسطين، وإن كان ذلك لا يرجع إلى أنهم قد أصبحوا غالبية السكان فيها، أو أنهم قد بسطو نفوذهم عليها جميعًا ولكن ربما لأنهم آخر من نزل بها وإلى كثرة ترديد التوراة لاسمهم.

وهكذا يبعد العهد بموسى عليه السلام (القرن الثالث عشر ق. م) عن ظهور هذه التسمية، مما يدل على أن إطلاقها على أيامه إنما كان خطأ تاريخيًا كما يجعلنا - في الوقت نفسه -

(١) بنو إسرائيل الحضارة التوراة والتلمود ٢٢١-٢٢٢

نستبعد أن يكون كليم الله هو صاحب هذا الكلام. [١]

ثالثًا: الخطأ أو الشك في مكان دفن إبراهيم عليه السلام.

موضع الخطأ أو الشك: أن سفر التكوين يروي أن سيدنا إبراهيم عليه السلام إنما قد دفن – وكذا سارة – في مغارة المكفيلة، وقد دار حول ذلك شك كبير.

بيانه: لأنه منذ القرن الثامن عشر، وحتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، لم يكن لإبراهيم وذريته مقام في غير الجنوب، عند جيرار، أو ورائها جنوبًا ولم يكن لإبراهيم مقام في حبرون ومن ثم فإن الدكتور كامبل إنما يرجح أن إبراهيم لم يدفن في مغارة المكفيلة بحبرون، على مقربة من أورشليم، ولكن الذين انتسبوا إليه تعلقوا بذكرى هذا المدفن، لتسويغ دعواهم في مملكتهم (يهوذا). [٢]

رابعًا: الخطأ في مجموعة من التواريخ والأسماء

موضع الأخطاء: أن سفر دانيال إنما يروي أن الملك (بيلشاصر) بن (نبوخذ نصر) أقام وليمة استعمل فيها أواني الذهب والفضة التي أخذها أبوه من هيكل أورشليم عند استيلائه على المدينة المقدسة في عام ٥٨٧ ق. م، ثم أنس الملك يدًا بشرية تخط على جدران قصره كتابة مستعجمه، فوجل قلبه، واصطكت ركبتاه، فأشارت عليه الملكة أن يفزع إلى دانيال، قائلة (إن الملك نبوخذ نصر أبوك، جعله كبير المجوس والسحرة والكلدانيين والمنجمين).

وجاء دانيال إلى الملك البابلي هادرًا يعنف به، لأنه احتسى الخمر في الآنية المجتلبة من هيكل أورشليم، وقال: إن هذا الخط السحري المتوهج على الجدار ويقرأ هكذا (منا منا تقيل وفرسين)، ثم شرع يفسر هذا بقوله: (منا أحصى الله ملكوتك وأنها)، تقيل: وزنت بالموازين فوجدت ناقصًا، فرس: قسمت مملكتك لمادي وفارسى).

ويستطرد سفر دانيال في روايته (في تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين، فأخذ المملكة داريوس المادي وهو ابن اثنين وستين سنة)(دانيال: ٥/ ١ – ٣١)

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة التوراة والتلمود ٢٢٢ - ٢٢٣

(٢) بنو إسرائيل الحضارة التوراة والتلمود ٢٢٣-٢٢٤

ومن عجب أن التوراة لم تشر – حتى مجرد إشارة – إلى أن الملك البابلي قد أنكر على دانيال اليهودي جرأته وتطاوله عليه، ولا جبهه إياه بهذا النذير الذي يتهدده هو وبلاده، ولم يفرط عليه في القول، بل إنه أعلن رضاه عنه وأعلى منزلته ورفع مرتبته، فجعله ثالث ثلاثة في مملكته.

بيانها: وبدهي أن هناك الكثير من العقبات التي تقف حجر عثرة في قبولنا لرواية التوراة هذه، منها:

(أ) أن التاريخ العالمي لم يعرف ملكًا يدعى (داريوس المادي) قتل (بيلشاصر) ملك الكلدانيين، بل إن بيلشاصر) نفسه لم يكن ملكًا على الكلدانيين.

(ب) أن (بيلشاصر) هذا، لم يكن ابنًا للملك البابلي (نبوخذ نصر) (٦٠٥-٥٦٢ق. م)، ولا خليفة له، ذلك لأن ولده وخليفته إنما كان (أويل مردوخ) (٥٦٢-٥٦٠ق. م) ثم خلفه زوج أخته وأحد قواد أبيه (نريجليسار) (نرجال – سار – أوصر) (٥٥٩-٥٥٦ق. م) ثم خلفه ولده (لباشي مردوخ) (٥٥٦ق. م) وكان طفلًا، ذبح بعد تسعة أشهر، ليحل محله (نبونيد)(٥٥٥-٥٣٩ق. م)آخر ملوك بابل.

وهكذا يبدو واضحًا أن (بيلشاصر) ليس ابنًا للملك البابلي (نبوخذ نصر) ولا خليفة له، وربما كان – فيما يرى بعض الباحثين – الابن الأكبر (نبونيد) وولي عهده، وربما كان نائبًا عنه في الفترة التي قضاها في تيماء – وتقع غلى مبعدة ١٠٤ كيلًا إلى الشمال من مدينة (العلا) الحالية ١٦٠ كيلًا إلى الشرق من خليج العقبة – بعد أن قام بحملة في العام الثالث من حكمه، استولى فيها على عدة مدن في شمال غرب الجزيرة العربية ثم أقام قصرًا في تيماء نفى فيه حيناً من الدهر، أصبحت تيماء فيه وكأنها قد غدت خليفة لبابل.

(ج) أن الذي استولى على بابل إنما كان العاهل الفارسي (كيروش الثاني) (٥٥٨-٥٣٠. م)، إذ استولت جيوشه على المدينة العريقة في ١٢ أو ١٣ أكتوبر من عام ٥٣٩ ق. م وفي ٢٦ من نفس الشهر بدأ الكتاب يؤرخون باسم العاهل الجديد (كيروش ملك العالم) وفي ٢٩ أكتوبر ٥٣٩ق. م، دخل كيروش نفسه بابل، وفرشت الورود في طريقه،

وعين (جوبرياس) – والذي كان قد هرب إلى فارس منذ عشر سنوات، ليعمل في خدمة كيروش ضد قومه البابليين – واليًا (ستراب) على إقليم بابل الجديد، وأعلن كيروش أنه (الملك العظيم، الملك القوي، ملك بابل، ملك سومر وأكد، ملك كل أنحاء العالم)

وهكذا يبدوا واضحًا أن الذي فتح بابل، إنما كان (كيروش الثاني) وليس (داريوس المادي) وحتى لو كان (دانيال) يقصد به الملك (دار الأول) (٥٢٢-٤٨٦ق. م) الذي خلف (قمبيز الثاني) (٥٢٠-٥٢٢ق. م) بن (كيروش الثاني) بعد أن تمكن من قتل المدعى (جاوماتا)٢٢٦ الماجي والقبض على أنصاره في ٢٩سبتمبر من عام ٥٢٢ق. م – فمن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن (بابل) إنما قد سقطت في أيدي الفرس على أيام (كيروش الثاني) وليس على أيام (دار الأول) بل وقبل بداية حكمه بحوالي سبعة عشر عامًا (أكتوبر ٥٣٩ سبتمبر٥٢٢ق. م)

(د) ذلك الخطأ في رواية دانيال، من أن الكلدانيين قد كملوا الملك بالآرامية (ويعني اليهودية) فليس من طبائع الأشياء أن يتحدث أهل بابل إلى ملكهم بلسان اليهود.

(هـ) أن (داريوس) لم يكن ابن (أحشويروش) كما تقول التوراة في سفر دانيال – وإنما هو ابن (هستاسبس) وهو أمير من الأسرة الملكية في فارس وأن (أحشويروش) والمعروف باسم (أكزركسيس) هو ولده وقد خلفه على عرش فارس باسم (أكزر كسيس الأول) (٤٨٦-٤٢٤ق. م)، ومنها (و) أن (داريوس المادي) (دار الأول) لم يكن في الثانية والستين من عمره – كما تقول التوراة عندما تولى العرش، وإنما كان في الثامنة والعشرين، ذلك لأنه مات في نوفمبر من عام ٤٨٦ ق. م، وهو في الرابعة والستين من عمره وبعد أن حكم ٣٦ عامًا. [١]

خامسًا: الخطأ في القول بأن فرعون رئيس الشرطة كان خصيًا وكذا كل حاشية القصر الملكي.

موضع الخطأ: ذلك الخطأ التاريخي الذي جاء في سفر التكوين بشأن وصف (فوطيفار) بأنه (خصي فرعون رئيس الشرطة)(التكوين: ٣٩/ ١).

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة التوراة والتلمود ٢٢٤ - ٢٢٧

بيانه: ولست أدري كيف دار في خلد كاتب نص سفر التكوين هذا في التوراة بأن رئيس الشرطة المصرية إنما كان خصيًا، أو لم يكن دافعًا له في دحض هذه الفرية – في نظر كتبة التوراة، ومن لف لفهم – أنه كان زوج أجمل سيدة في البلاد.

ولكن ما الحيلة وصاحب سفر التكوين، يرى أن حاشية القصر الملكي كلها من الخصيان، حتى لنجده إنما يصف رئيس سقاة الفرعون ورئيس الخبازين في قصره بأنهما من الخصيان، إذ يقول (فسخط فرعون على خصيه رئيس السقاة، ورئيس الخبازين) (التكوين: ٤٠/ ٢).

وفي الواقع، إن ذلك أمرًا، ما اعتدناه في مصر الفراعنة، وماحدثنا تاريخها به، وإنما ذلك رأي يهود الأسر البابلي، حين كتبوا توراتهم على ضفاف الفرات في القرن السادس قبل الميلاد، متأثرين بكل الحضارات القديمة التي شاهدوها، أو التي عاشوها في ظلالها من ناحية، وبحقدهم الأعمى من ناحية أخرى، حتى أعماهم عن حقائق التاريخ فجعلوا كل رجال البلاط المصري من الخصيان. [1]

سادسًا: الخطأ في الفترة التي يتم فيها التحنيط:

موضع الخطأ: ما جاء في سفر التكوين من أن الصديق عليه السلام إنما قد (أمر عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه، فحنط الأطباء إسرائيل، وكان له أربعون يومًا لأن هكذا تكمل أيام المحنطين) (التكوين ٥٠/ ٢ – ٣).

بيانه: وهذا في الواقع خطأ ذلك لأن مدة التحنيط إنما كانت سبعين يومًا – وليس أربعين يومًا – على أرخص الأنواع، ولأفقر الناس، وأن هناك أنواعًا ثلاثة من التحنيط، وهي – إن اختلفت في المواد المستعملة، أو في كيفية التحنيط – فإنها إنما تتفق جميعًا على أن مدة التحنيط إنما كانت سبعين يومًا. [2]

سابعًا: الخطأ في عصر إطلاق لقب فرعون على من يملك مصر.

موضع الخطأ: مادرج عليه سفر التكوين من إطلاق لقب (فرعون) على ملك مصر، أثناء

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة التوراة والتلمود ٢٢٨.

(٢) بنو إسرائيل الحضارة والتوراة والتلمود ٢٢٨

سرده لقصتي إبراهيم ويوسف، عليهما السلام، دون أن يضيف اسمًا آخر إلى لقبه هذا. (التكوين (١٢: ١٤ - ٢٠)، (٣٩: ١)، (٤٠: ٢ - ٢١)، (٤١: ٤٦)، (٤٢: ١٥)، (٤٧: ١- ٤٦)، (٥٠: ٤ - ٧)

بيانه: ويرى الأستاذ حبيب سعيد أن هذه إنما كانت هي العادة المتبعة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، أما في عهد (سليمان) (٩٦٠-٩٢٢ ق. م) فقد جرت العادة أن تضاف كلمة (ملك مصر) إلى لقب (فرعون) أو اسم فرعون نفسه - كما في سفر الملوك الأول.

والرأي عندنا أن الأمر غير ذلك تمامًا - كما سوف نرى حالًا - وإن كان من الأفضل هنا، أن نشير - قبل أن نتعرض للقب (فرعون) بالمناقشة - إلى أن القرآن الكريم قد حرص في سرده لقصة يوسف الصديق عليه السلام الذي عاش في مصر أيام الهكسوس - على أن يلقب حاكم مصر الذي عاصره بلقب (الملك) بينما حرص على أن يلقب حاكم مصر الذي عاصر موسى الكليم عليه السلام بلقب (فرعون).

ومن المعروف تاريخيًا أن كلمة (فرعون) في صيغتها المصرية (بر- عو) أو (بر - عا) إنما كانت تعني - بادىء ذي بدء - (البيت العالي) أو (البيت العظيم) وهي طريقة من الطرائق الكثيرة التي كانت تشير إلى القصر الملكي وليس إلى ساكنه - ثم حدث خلال عصر (تحوتمس الثالث) (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق. م) أن الاصطلاح (بر - عو) (أو فرعون) إنما بدىء في إطلاقه على الملك نفسه وانطلاقًا من هذا، فإن إطلاق كلمة أو لقب (فرعون) على ملك مصر قبل عصر (تحوتمس الثالث) إنما يعد خطأً في تسلسل تواريخ الأحداث حيث أصبحت لفظة (فرعون) تعبيرًا محترمًا، يقصد به الملك نفسه منذ هذه الفترة من عصر الأسرة الثامنة عشرة وعلى أي حال فإن استعمال لقب (فرعون) إنما يبدو مؤكدًا منذ أيام (إخناتون) (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) حيث يشير (سير ألن جاردنر) العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة - إلى أن هناك خطابًا من عهد (إخناتون) استعمل فيه لقب (فرعون) بالنسبة إلى ملك مصر (إي إخناتون) ثم سرعان ما أصبح لقب (فرعون) منذ الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٩٤

ق. م) وما بعدها يستعمل في بعض الأحيان كمرادف لكلمة (جلالته) ومن هذا الوقت أصبحنا نقرأ، خرج فرعون، و (قال فرعون. . . . وهكذا) ومن ثم فإنه يبدو لي أن القرن الكريم وإنما أراد أن يفرق بين حاكم مصر الأجنبي في أيام يوسف على عصر الهكسوس، وبين حاكم مصر الوطني على أيام موسى، فأطلق على الأول لقب (ملك) وعلى الثاني لقب (فرعون) وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك مصر وقت ذاك، هذا فضلًا عن أن ذلك إنما هو من إعجاز القرآن الذي لا إعجاز بعده.

وإذا ما عدنا إلى التوراة لوجدنا أن الحقائق التاريخية إنما تقف ضد ما جاء فيها بشأن لقب (فرعون) ذلك لأن التوراة إنما تستعمل هذا اللقب حين يجب أن تستعمل لقب ملك وذلك في الفترة السابقة للأسرة الثامنة عشرة المصرية، وفي نفس الوقت إنما هي تستعمل لقب (ملك)حين يجب أن تستعمل لقب(فرعون) وذلك منذ الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها. [١]

ثامنًا: الخطأ في عصر تاريخ إطلاق كلمة رعمسيس:

موضع الخطأ: ما جاء في سفر التكوين من أن يوسف عليه السلام، إنما قد أسكن أباه وإخوته في أرض رعمسيس. (التكوين/ ٤٧: ١١).

بيانه: وهذا خطأ تاريخي ذلك لأن كلمة (رعمسيس) لا تستعمل قبل الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٨ – ١١٩٤ ق. م) وليس منذ عصر الهكسوس (حوالي ١٧٢٥ – ١٥٧٥ ق. م) أي عصر يوسف الصديق عليه السلام. [٢]

تاسعًا: الخطأ في ذكر ملك لا يعرفه التاريخ في هذه الحقبة الزمنية اسمه (سوا)

الخطأ: ما جاء في التوراة من أن (هوشع) (٧٣٣ – ٧٣٤ ق. م) ملك إسرائيل، قد أعلن العصيان – بل والثورة – على (شلمنصر الخامس)٢٣١ (٧٢٧ – ٧٢٢ ق. م) ملك أشور، وأنه قد (أرسل رسلًا إلى (سوا) ملك مصر ولم يؤد جزية إلى ملك أشور حسب كل سنة)(الملوك الأول/ ١٧: ٤ – ٥).

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٢٩ - ٢٣١

(٢) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٣١

بيانه: ومن المعروف تاريخيًا أنه ليس هناك ملك في هذه الفترة من تاريخ مصر يحمل اسم (سوا) ومن هنا حاول بعض الباحثين أن يقرنوا هذا ال(سوا) ب (سيبه) (تورتان مصر) الذي تشير إليه حوليات العاهل الأشوري (سرجون الثاني) (٧٢٢-٧٠٥ ق. م) بأنه خرج من (ربيجو) (وهي رفح المصرية على المقربة من حدود فلسطين) مع (هنو) ملك غزة لكي يقوما بمعركة حاسمة وكان (هنو) قد هرب في عهد تجلات بلاسر الثالث) (٧٤٥-٧٢٧ ق. م) إلى مصر.

ويرى (سير ألن جاردنر) أنه ليس من الممكن أن يكون (سوا) أو (سيبه) من الناحيتين اللغوية والتاريخية الملك الأثيوبي (شبكو) (٧١٦-٦٩٥ ق. م) ومن ثم فهذه – في أغلب الأمر – أسماء قواد، وذلك لأن الاسم (سوا) لا يمكن أن يكون (شبكو) كما أن (شبكو) نفسه لم يحكم مصر إلا في حوالي ٧١٥ ق. م (أو ٧١٦ق. م)، وأن طلب المساعدة إنما تم قبل ذلك بعقد من الزمان في حوالي عام ٧٢٥ ق. م

ويرى (أوسترلي) أنه واحد من أمراء الدلتا، بل ربما – فيما يرى جيمس هنري برستد، وهوجرفنكلر، وغيرهما – كان حاكمًا لولاية (موصرو) والتي تقع في شمال بلاد العرب، وتحمل اسمًا مشابهًا لاسم مصر

ويرى (كتشن) أن طلب (هوشع) ملك إسرائيل في عام ٧٢٥ ق. م، مساعدة (سوا) ملك مصر – طبقًا لرواية سفر الملوك الثاني – إنما تقع في عهود أوسركون الرابع) (٧٣٠ – ٧١٥ ق. م) ملك تانيس وبوباسته (من الأسرة الثانية والعشرية) و (أيوب وت الثاني) ملك (لينتو بوليس) (من الأسرة الثالثة والعشرين) و (تف تخت) (٧٢٨/ ٧٢٧ – ٧٢٠ ق. م) ملك سايس (من الأسرة الرابعة والعشرين) وأن كل الأسس التاريخية والجغرافية والنصية والسياسية تجعل من (أوسكرن الرابع) أفضل المرشحين لأن يكون (سوا).

ويدل لقب (سوا) هذا واسمه على أنه ليس هو (سيبه) وتورتان مصر (قائد جيش مصر)، الذي ذكته حوليات سرجون الثاني ملك آشور في عام ٧٢٠ ق. م، فقائد الجيش

ليس هو الفرعون، فضلًاعن أن اسم هذا القائد إنما يقرأ، وليس (سيبه)، وأخيرًا فإن النص العبري لن يقرأ (وزير مصر) كما اقترح البعض.

ويعارض (كتشن) كذلك في أن يكون (سوا) هو (أيوبوت الثاني) وأما (تف نخت) فهناك من يقترحه على أساس أن فترة حكمه كملك (٧٢٨/ ٧٢٧ – ٧٢٠ ق. م) تتناسب والحادث موضوع المناقشة، كما أن هناك من يقترح توحيد الكلمة العبرية (سوا)، وتفسر على أنها الأصل للاسم الحوري للملك (تف نخت)، إلا أن ذلك خيالًا واسعًا كما أنه غير مقبول بصفة عامة، هذا فضلًا عن أن الحكام والكتاب الأجانب لا يشيرون إلى الفراعين المصريين إلا بأسمائهم التي ترد في خراطيشهم وفي العصر المتأخر (من الأسرات ٢٢ إلى ٢٦) بأسمائهم الشخصية فحسب، ومن ثم فإن (سوا) لا يمكن أن يكون (سيبه).

وهناك من يقترح أن يقرأ نص سفر الملوك الثاني (١٧: ٤) (أن يوشع قد أرسل رسلًا إلى سايس، إلى ملك مصر) ومعنى هذا أنه ترك الملك (تف – نخت) دون أن يسميه، وأن (تف نخت) كان أقوى من كل من (أوسركون الرابع) و (إيو بوت الثاني) ورغم أن ذلك ربما كان صحيحًا إلى حد ما، فإن إمارة (تف نخت) إنما تقع في غرب الدلتا، فضلًا عن أنها ليست أكبر بكثير من المساحة التي كان يحكمها (أوسركون الرابع) كوريث للأسرة الثانية والعشرين)٢٣٤

وأما عن محاولة معاملة (سايس) مع (تف نخت)، فهناك عقبات كؤود تقف أمامها وهي:

(أ) أننا نجد من الناحية الجغرافية أن (سايس) بعيدة جدًا بدرجة لا تسمح ل (تف نخت) تقديم العون لملك إسرائيل.

(ب) أن قراءة (سوا) في نص الملوك الثاني (١٧: ٤) على أنها (سايس) تتطلب تنقيحًا في النص لا مبرر له، بل ليس هناك حاجة إلى ذلك مطلقًا، ذلك لأن (سوا) اسم شخص، و (سايس) اسم مكان.

(ج) أن هناك تخالفًا قائمًا (منذ أوسركون الثاني وتكلوت الثاني) بين ملوك الأسرة الثانية والعشرين والعبرانيين، ولم تكن إمارة سايس معروفة حتى تلك اللحظة في البلاط

الإسرائيلي.

(د) أن الأنبياء العبرانيين في تلك الأيام، إنما كانوا يهاجمون بعنف أولئك الرسل الذين كانوا يذهبون إلى شرق الدلتا، وليس إلى سايس البعيدة فالنبي إشعياء (٧٣٤ - ٦٨٠ ق. م) يعلن أن رؤساء صوعن أغبياء، ثم يندد بالحكام العبرانيين (الذين ينزلون إلى مصر ولم يسألوا فمي ليلتجئوا إلى حصن فرعون ويحتموا بطل فرعون)وذلك لأن رؤساءه صاروا في صوعن، وبلغ رسله إلى حانيس)، وهكذا يؤكد النبي العبراني، في القرن الثامن قبل الميلاد - عدم جدوى التحالف مع فرعون، وقد كان هذا الفرعون ومستشاروه في (تانيس) - والتي كانت في الغالب عاصمة مصر، فيما بين الأسرتين (تف نخت).

(هـ) أنه ليس هناك من هو أكثر ملاءمة من (أوسركون الرابع) ملك تانيس وبوباسته - فيما يرى كتشن - ومع ذلك لم يستطع أن يقدم لنا ملكًا يحمل اسم (سوا) الذي جاء اسمه في التوراة، من بين ملوك مصر على وجه اليقين. [(١)]

عاشرًا: الخطأ في القول بأن يربعام بنى مدينة (شكيم)

موضع الخطأ: مايرويه سفر الملوك الأول من أن (يربعام) ملك إسرائيل (٩٢٢-٩٠١ق. م) قد بنى (شكيم في جبل أفرايم وسكن بها)(ملوك أول/ ١٢: ٢٥).

بيانه: ولعل المقصود بذلك أن (يربعام) إنما قد نظم مدينة (شكيم) وهي تل بلاطة على مقربة من (نابلس الحالية) كمدينة ملكية، فالمدينة - طبقًا لرواية التوراة نفسها - إنما هي أقدم من الملك (يربعام) بآلاف السنين، وقد زارها إبراهيم الخليل ﷺ في زيارته الأولى لكنعان، قادمًا من حران وبنى هناك مذبحًا للرب أو قل محرابًا لعبادة الله الواحد الأحد - حيث نزل هناك في مكان (بلوطة مورة) بين جبل عيبال وجرزيم هذا فضلًا عن أن سفر القضاة إنما يشير إلى أن القوم من أهل شكيم إنما قد اجتمعوا في مدينتهم، وهناك (جعلوا أبيمالك ملكًا عند بلوطة النصب التي في شكيم)، هذا إلى أن سفر الملوك الأول نفسه -

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٣١ - ٢٣٦

وفي نفس الإصحاح الثاني عشر – قد سبق أن أخبرنا أن قبائل إسرائيل قد اجتمعت في شكيم لاختيار (رحبعام) بن (سليمان) ملكًا عليهم بشروطهم. [١]

الحادي عشر: الخطأ في القول بأن سليمان بنى مدينة تدمر

موضع الخطأ: ما جاء في التوراة – في سفري الملوك الأول، والأخبار الثاني – من أن سيدنا سليمان ﷺ قد بنى مدينة (تدمر) في البرية (ملوك أول (٩: ١٨)، أخبار أيام ثان (٨: ٤)، والأمر كذلك بالنسبة إلى المؤرخ اليهودي (يوسف بن متى).

بيانه: وليس هناك من شك في أن وجهة النظر هذه خاطئة، ذلك لأن مدينة (تدمر) إنما قد ذكرت في الوثائق الآشورية منذ أيام الملك الأشوري (تجلات بلاسر الأول) (١١١٦ – ١٠٩٠ ق. م) في صورة (تدمر أمورو)٢٣٧ أي قبل أن يولد سليمان نفسه، وبفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون.

ومن هنا فقد رأى العلماء أن الرواية التي تذهب إلى أن سليمان هو الذي بنى تدمر، إما أنها أرادت أن تعظم من شأن مملكة إسرائيل كعادة الروايات اليهودية – وكأن مكانة النبي الكريم لا تتأتى إلا ببناء المدن واتساع مملكته وليست برسالته السماوية – ومن ثم فقد نسبت إليه بناء هذه المدينة التي تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيلية، وإما أن هناك خطأ قد وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين (ثامار) التي أسسها سليمان، وهي موضع جاء ذكره في سفر حزقيال، ويقع إلى الجنوب الشرقي من (يهوذا)، وإن كنا لا ندري موقعه الآن على وجه التحقيق وربما كانت الشهرة التي اكتسبتها (تدمر) على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم.

وانطلاقًا من هذا كله، فقد ذهب كتبة الأسفار هؤلاء إلى أن المدينة التي بناها سليمان، ليست هي (ثامار) وإنما هي (تدمر) والتي كانت مدينة عامرة بسكانها، وذات شهرة في مجاوراتها، فيما بين عامي ٣٠٠ و ٢٠٠ ق. م. [٢]

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٣٦ –٢٣٧

(٢) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٣٧ – ٢٣٨

الثاني عشر: الخطأ في ذكر وادي لا يعرفه التاريخ

موضع الخطأ: ما جاء في التوراة – في سفر يوئيل – من أن الرب بعد أن يرد سبي يهوذا، سوف يجمع كل الأمم في (وادي يهوشافاط[1] لمحاكمتهم على ما فعلوه بإسرائيل (يوئيل/ ٣: ١ – ٣)

لأن من يمس إسرائيل، إنما يمس حدقة عين رب الجنود(زكريا/ ٢: ٨)، أو – كما يرى الأستاذ حبيب سعد – أن هناك حربًا عظمى سوف تنشب، تتجمع فيها كل شعوب الأرض للهجوم على أورشليم ولكن الله يتدخل ويهزم هذه الشعوب في وادي (يهوشافاط).

بيانه: وفي الحقيقة أن التاريخ لا يذكر واديًا باسم وادي (يهوشافاط)ومن هنا تسقط قيمة النص تاريخيًا، أو على الأقل، أن ما جاء به لا يعدو أن يكون مجرد أسطورة.

ويبدو أن ميل رواة أسفار الكتاب المقدس إلى الأسطورة لم يقتصر – كما يقول أستاذنا الدكتور حسن ظاظا – على ما يتعلق بهم وحدهم، بل تعدى ذلك إلى أصل السكان في فلسطين، فجعلوا لهم أممًا بائدة تصوروا أنهم كانوا عمالقة ومردة، وأنهم كانوا شعوبًا وقبائل لها أسماء تميزها، ذكروا منها: (النفليم) و (الإيميم) و (الرفائيم) و (الزوزيم) و (الزمزميم) و (العناقيم).

ويلاحظ (أرنست رينان) أن هذه الظاهرة إنما كانت فاشية في طفولة جميع الشعوب المستقرة المتحضرة، إذ تتخيل الإنسانية الهمجية الأولى على شكل بشر لهم أجساد خرافية في الطول والعرض، ولهم قوة وبأس على مستوى الخرافات والأساطير. [2]

الثالث عشر: الخطأ في تفسير اختلاف اللغات والأجناس

موضع الخطأ وبيانه: تلك الأساطير التي جاءت في سفر التكوين بشأن قصة حصن بابل(التكوين/ ١١: ١ – ٩)، وكيف قدمت التوراة فيها تفسيرًا ساذجًا غير علمي

---

(١) لا يعرف أحد موضع (وادي يهو شافط) ثم ظهر في القرن الرابع رأي بأنه وادي قدرون شرقي أورشليم، مقابل جبل الزيتون غربًا أو وادي الربابة جنوبي المدينة. (قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١٠٩٥)

(٢) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٣٨ – ٢٤٠

لاختلاف اللغات والأجناس، ذلك أنها تروي أن الله، سبحانه وتعالى، قد رأى سلالة الناجين من الطوفان يبنون برجًا بغية الوصول إليه في علياء سمائه، وكانوا يحسبون السماء أشبه بلوح زجاجي يعلو على الأرض بضع مئات مئات من الأمتر، فخشي شرهم واحتاط لنفسه، فهبط الأرض وبلبل ألسنتهم فتفرقوا شذر مذر، ومن ثم فقد (كفوا عن بنيان المدينة لذلك دعي اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض، ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض.[(١)]

الرابع عشر: الخطأ في تفسير سبب السنة الكونية وجعلها علامة على نقصان ربهم ونسيانه.

موضع الخطأ وبيانه: ما جاء في سفر التكوين بشأن (قوس قزح) التي تظهر في الأفق غب المطر[(٢)]، بأن الله سبحانه وتعالى إنما قد أنشأها لتكون تذكرة له، بألا يعود إلى إغراق الأرض أبدًا: (وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض، فيكون متى أنشر سحابًا على الأرض وتظهر القوس في السحاب، أني أذكر ميثاقي بيني وبينكم، وبين كل نفس حية في جسد، فلا تكون أيضًا المياه طوفانًا، لتهلك كل ذي جسد)(التكوين/ ٩: ١٣ – ١٥)

الخامس عشر: الخطأ في أسطورة فنوئيل

موضع الخطأ: تلك الأسطورة التي يرويها سفر التكوين لتفسير اسم (فنوئيل) في شرق الأردن، بأنه المكان الذي رأى فيه يعقوب (وجه الله) إذ تذهب رواية التوراة إلى أن يعقوب عليه السلام بينما كان عائدًا من (فدان آرام) إلى أرض كنعان، وهناك عند (مخاضة يبوق)، وقد أجاز يعقوب عائلته عبر الوادي، يبرز له من يصارعه حتى مطلع الفجر، صراع رهيب يكاد فيه يعقوب يتغلب على خصمه لولا حركة مخالفة للأصول، يصاب فيها يعقوب بضربة ينخلع لها حق الورك، ويسأل يعقوب غريمه فلا يجيبه، وإن كان يباركه،

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٤٠

(٢) ينشأ (قوس قزح) في السماء أو على مقربة من مسقط الماء من الشلال ونحوه، وتكون في ناحية الأفق المقابل للشمس، وترى فيه ألوان الطيف متتابعة وسببها انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء. (عصام حفني ناصف ص ٤٢) نقلًا من كتاب بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ص٢٤٠

فيطلق عليه اسم (إسرائيل) فيفرح يعقوب ويسمى المكان (فنوئيل) (وجه الله) قائلًا: (لأني نظرت الله وجها لوجه، ونجيت نفسي)، وتشرق الشمس، فإذا بيعقوب يخمع على فخذه، ومن ثم (لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا)((التكوين/ ٣٢: ٢ – ٣٢).

بيانه: ومن هنا فنحن لا نعجب كثيرًا لهذه الأساطير التي تطالعنا بها التوراة من حين لآخر، فهي أصلًا مجموعة من قصص تناقلته الأجيال وأخضعته للطابع المأثوري وهو أمر يكاد ينطبق على أغلب قصص الآباء الأولين التي أريد بها تقدمة لتاريخ بني إسرائيل، فهي إذن ليست من التاريخ بشيء، وإلا لما قوبلنا بتلك الفجوة التي امتدت إلى أربعمائة وثلاثين عامًا – وهي فترة بقائهم بمصر.

ومن ثم فكيف يتأتى لمنطق تحدوه النظرة العلمية، أن يتقبل – على علاته – قصصًا زخر بدقة ما بعدها دقة تفصيلًا لحياة الآباء الأولين، حتى أنها لتسجل أحيانًا، كلمة فكلمة، ما يزعم أن تفوهوا بها في مناسبات، بينما نجد من بعد أن قد مسحت ذاكرة القوم مسحًا، فيما يتعلق بفترة ربما كانت أعصب فترات (الحياة القومية) – لو أننا بصدد أمة كان لها بالفعل كيان من قومية متصلة. [1]

السادس عشر: الخطأ في جعل أسطورة أستير حقيقة

موضع الخطأ: ماجاء في سفر أستير من أنه كان في بلاد فارس وزير يدعى هامان، اشتهر باضطهاد اليهود، فأتمر اليهود بالوزير الفارسي، وأرسلوا إلى مليكه فتاة لعوبًا من بناتهم اسمها (أستير) سلبته لبه فاستخذى لها وفتك بوزيره هامان ابتغاء مرضاتها، وخف اليهود إلى العمل ففتكوا به وبأبنائه العشرة والألوف من أنصاره (٧٥ ألفًا، فيما يقال) ذبحوا ذبح الشياه، ثم (استراحوا في اليوم الرابع (من شهر آذار = مارس) وجعلوه يوم شرب وفرح) – وهو عيد الفوريم – وما يزال يوم الشرب والفرح هذا حتى اليوم. (استير/ ٩: ١٦ – ١٧).

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٤١ - ٢٤٢

بيانه: ولعل سائلًا يتسائل: هل كانت أستير هذه شخصية تاريخية؟ أم أن القصة أسطورة عبثت بوجدان عميق الجذور؟ ثم هل من بين ملكات فارس من تدعى أستير؟

أليست أستير تجسيدًا حيًا للربة (عشتار)، وأن التشابه بين الاسمين لا يخفى على إنسان، ليس هذا فحسب، وإنما الرجل الذي كفلها، قيل اتخذها ابنة ولكن هناك ما يومىء إلى أنها كانت زوجة سرًا، هو (مردخاي) كاد أن يكون سمى الإله (مردوك) (مردوخ)- زعيم الأرباب البابليين، وإله الزوابع – يتمكن بمعونة عشتار من الفتك بأعداء اليهود، فأنما القرابين تقدم إلى (الذات) التي تكتمل بدرًا في الرابع عشر من شهر آذار (مارس)، فلا يغربن عن بالنا، أن التقويم العبري ما يزال قمريًا حتى لحظتنا هذه.

وعلى أي حال، فإن سفر استير هذا إنما هو موضع شك كبير عند شراح التوراة ونقادها:

- لعدم وجود اسم الجلالة فيه أولًا.
- ولعدم اقتباس العهد الجديد (الإنجيل) منه ثانيًا.
- ولوجود مبالغات كثيرة فيه ثالثًا.
- ولأن بطله مردخاي إنما كان من سبس عام ٥٨٧ ق. م، ومن ثم فإنه في العام الثالث من حكم الملك الفارسي (أكزركسيس الأول) (أي حوالي عام ٤٨٢ ق. م) يكون قد بلغ المائة وعشرين عامًا، كما أن أستير يجب أن تكون في هذه الفترة عجوزًا.

وهكذا يذهب كثير من العلماء إلى أن هذا السفر الذي يتحدث عن (عيد الفوريم) (البوريم)، ما هو في الواقع إلا انتحال من الأدب البابلي، الذي يحكي ملحمة حربية بين الآلهة البابلية والعيلامية، ومن ثم فقد قال (مارتن لوثر) (١٤٨٣ – ١٥٤٦) – زعيم الإصلاح البروتستانتي – (ليت هذا السفر لم يوجد ففيه حتى لم يرد اسم الله، كما أنه ليس فيه ما يحمد عليه). (١)

---

(١) بنو إسرائيل الحضارة والتلمود والتوراة ٢٤٢-٢٤٤

الفصل السابع: الكتاب المقدس والعلم الحديث.

وفي هذا الباب سنقوم بعرض الكتاب المقدس على العلم الحديث لنرى مدى التوافق المفترض وجوده بين ما يفترض أن يكون وحيًا وبين الكون الذي خلقه منزل هذا الوحي والحقائق التي ركبها فيه.

المبحث الأول: موقف النصارى من العلم اعتقادًا وتشريعًا.

المبحث الثاني: دراسة نصوص الكتاب المقدس في ضوء العلم الحديث.

المبحث الثالث: موقف المفسرين النصارى من الأخطاء في نصوص الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

المبحث الأول: موقف النصارى من العلم اعتقادًا وتشريعًا.

أولًا: الأصول التي تحدد هذا الموقف وهي:

الأصل الأول: الخوارق.

أول أصل قام عليه الدين المسيحي، وأقوى عماد له هو خوارق العادات. تقرأ الأناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلًا على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق وعددها في الأناجيل يطول شرحه. ثم إنه جعل ذلك دليلًا على صحة الدين لمن يأتي بعده، فجعل لأصحابه ذلك كما تراه في الإصحاح العاشر من إنجيل متى وغيره إذا تتبعت جميع ما قال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذي يصدر مخالفًا لشرائع الكون ونواميسه فإذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص.

زاد الإنجيل على هذا أن الإيمان ولو كان مثل حبة خردل كاف في خرق نواميس الكون كما قال في الإصحاح السابع عشر من متى ١٠: **فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَل لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلاَ يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَيْكُمْ.**

وفي الحادي عشر من مرقس ٢٣: **لأَنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ قَالَ لِهذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ وَانْطَرِحْ فِي الْبَحْرِ! وَلاَ يَشُكُّ فِي قَلْبِهِ، بَلْ يُؤْمِنُ أَنَّ مَا يَقُولُهُ يَكُونُ، فَمَهْمَا قَالَ يَكُونُ لَهُ. ٢٤ لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ، فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ، فَيَكُونَ لَكُمْ.**

فكل بحث يؤدي إلى أن للكون شرائع ثابتة وأن للعلل والشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكامًا في معلولاتها أوما شرطت فيه أو ما تسبب عنها أو ما استحال وجوده لوجودها كان مضادًا لهذا الأصل في أي زمن. وقد كان كل علم من علوم الأكوان لا بد فيه من هذا البحث فكل علم مضاد لهذا الأصل.

ثم إن صاحب هذا الاعتقاد بهذا الأصل لا يحتاج إلى البحث في الأسباب والمسببات؛ لأن اعتقاده في الشيء أن يكون وإرادته لأن يكون كافيان في حصوله فهو في غني عن العلم والعلم عدو لما يعتقد فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه في سلطانه[1].

الأصل الثاني: سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرؤوسين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم. وقد أحكم هذه السلطة ما ورد ١٦-١٩ من إنجيل متى: **وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاوَاتِ.**

وفي ١٨: ١٨ منه: **اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاءِ.**

فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك، وإذا قال إنه مسيحي فاز بها. فليس المعتقد حرًا في اعتقاده يتصرف في معارفه كما يرشده عقله بل عينا قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه. فإذا اهتزت نفسه إلى بحث أوقفها القابض على تلك السلطة. وهذا الأصل إن نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قونًا طوالًا.

الأصل الثالث: ترك الدنيا

وبعد هذين الأصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة. تجد هذا الأصل في الأناجيل وفي أعمال الرسل وكلما قرأت في الكتب الأولى عثرت به.

وتجد الأوامر الصادرة بالانقطاع إلى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة في

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية(٢٩-٣١).

الإصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من إنجيل متى.

فيما جاء في السادس: (لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ. ٢٥«لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ. . . لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلًا مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ. ٣٤فَلاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ.

وقال في التاسع عشر: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ! ٢٤وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضًا: إِنَّ مُرُورَ جَمَل مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ!.

وفي العاشر: لاَ تَقْتَنُوا ذَهَبًا وَلاَ فِضَّةً وَلاَ نُحَاسًا فِي مَنَاطِقِكُمْ، ١٠وَلاَ مِزْوَدًا لِلطَّرِيقِ وَلاَ ثَوْبَيْنِ وَلاَ أَحْذِيَةً وَلاَ عَصًا.

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري قال في (١٩: ١٠ من متى) (وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ). ثم إن ملكوت السموات قد أنيط أمره بالإيمان المجرد عن النظر في الأكوان، فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الأصل من النظر في أي علم، والعلم لا دخل له في شؤون الآخرة والدنيا قد حرمت عليه؟ لا ريب أن همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكليته إلى العبادة دون سواها، وليس الفكر في الخليقة من العبادة عنده، فإن عبادة الإنجيل ليست شيئًا سوى الإيمان والصلاة.

الأصل الرابع: الإيمان بغير المعقول

وبعد هذه الأصول أصل رابع، وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول، لا يختلف فيه كاثوليك، ولا أرثوذكس، ولا بروتستانت، وهو أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها، وأن من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به. قال القديس أنسيلم (يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت) فليس الإيمان. وهو الوسيلة الفردة إلى النجاة، في حاجة إلى نظر العقل، والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل في نظره. وقول القديس (ثم

اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت) نوع من التفضل على النزعة البشرية إلى الفهم وعلى الميل الفطري إلى تصوير ما يتعلق به الاعتقاد. وإلا فمجرد الإيمان كاف في الخلاص.

ثم الويل كل الويل لطالب الفهم إذا أدى اجتهاده إلى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه، فكأن معنى الفهم أن يخلف المؤمن لنفسه ما يسلي به نفسه على إيمانه بغير المفهوم.(١)

الأصل الخامس: إن الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد.

سواء كان متعلقًا بالاعتقادات الدينية، والآداب النفسية والأعمال البدنية، مما يؤدي إلى نيل السعادة في الملكوت الأعلى أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الإنساني أن يتمتع بها.

قال تيرتور ليان – وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة –: (إن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ودليل صحة هذه الكتب قدمها، وكونها أقدم من كتاب أميروس وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين، وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها، والزمن ناصر الحقيقة، ثم تحقق النبوات التي وردت فيها ثم قال (إن أساس كل علم (عندهم) هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة، وإن الله لم يقصر تعليمنا بوحي على الهداية إلى الدين فقط، بل علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون، فالكتاب المقدس يحتوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر أن ينالوه).

فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وما فيها وتاريخ الأمم مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل أو خالف شاهد الحس فعلى الناس أن يؤمنوا به أولًا، ثم يجتهدوا ثانيًا في حمل أنفسهم على فهمه، أي على تسليمه أيضًا كما ترى.

وقال بعض فضلائهم: إنه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس.

ونقول قد يسلم هذا الأصل لو قلنا الأصول والقواعد في الكتب المقدسة تدعو لذلك جملة فالكلام من هذا المنظور صحيح جملة أما تفاصيل ذلك فلا ولكن هيهات هيهات والتحريف قد أتى عليه.

الأصل السادس: التفريق بين النصارى وغيرهم حتى الأقربين

ذلك الأصل هو الذي ورد في الإصحاح العاشر من إنجيل متى وهو: **لاَ تَظُنُّوا أَنِّي**

---

(١) مجلة المنار (٥/ ٤٠١).

جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. ٣٥فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. ٣٦وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ.

وقد صرح في عدة مواضع من الإنجيل أن الإخلال بشيء من محبة المسيحية أو بالانقياد إلى جميع ما أوصى به موجب للهلاك، وإن كان قد جاء في مواضع كثيرة أن الإيمان وحده كاف في الخلاص، غير أن روح الشدة التي جاءت في قوله: (لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا الخ) هي التي بقي أثرها في نفوس الأولين من المعتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثارما كان يصح أن تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر.

نتائج هذه الأصول وآثارها

أولًا: الإعراض عن النظر في الكون والاستفادة منه بالتعلم:

هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه إظهارًا للغنى بالإيمان والعبادة عن كل شيء سواهما، وحجروا على همم النفوس أن تنهض إلا إلى الدعوة إلى ذلك الإيمان وتلك العبادة، ووسائل الدعوة هي الإيمان والعبادة كذلك، فإذا نزعت العقول إلى علم شيء من العالم وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته، وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه، بل إنما يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة، خوفًا من الزيغ عن الإيمان السليم (البروتستانت رأوا أنه يجوز لغير الكنيسة تفسير الكتاب المقدس).

ثم إن إلقاء السيف ووضع التفريق بين الأقارب والأحبة إنما جاء حافظًا لذلك كله، فإذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي إلى معارضة شيء من أمور الإيمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة، كما أفهمه المسيح بعمله، على حسب ما ورد في الإنجيل، فقد قيل له: (**هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ وَاقِفُونَ خَارِجًا طَالِبِينَ أَنْ يُكَلِّمُوكَ». ٤٨فَأَجَابَ وَقَالَ لِلْقَائِلِ لَهُ: «مَنْ هِيَ أُمِّي وَمَنْ هُمْ إِخْوَتِي؟ » ٤٩ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ نَحْوَ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ: «هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي.**) ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقد. ولا يخفى أن الشيء يكون

بذرة ثم نبتًا ثم شجرًا، فانظر إلى ما صار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة.

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة: (إن الجهالة أم التقوى) فحصروا التعليم في الأديار، ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقرير الإيمان على وجه ظاهر. ويبقى غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره.

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأيا يخالف صريح ما في الكتاب ولذلك صور كثيرة نذكر منها:

أ-عندما أظهر بلاج رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم أي إن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطيء آدم بالأكل من الشجرة، قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك. يقول المؤرخ: وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على الملك.

ب-أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالأسكندرية قال أوروسيوس المؤرخ: إنه رأى أدراج المكتبة خاليه من الكتب بعد أن نال تيوفيل الأمر الإمبراطوري بإتلافها بنحو عشرين سنة.

ج-ثم جاء تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيبًا مفوهًا له على الشعب سلطان بفصاحته. وكان في الإسكندرية بنت تسمى هيباتي الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة، وكان يجتمع إليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية، وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أمور أخرى، خصوصًا في هذه المسائل الثلاث: من أنا؟ وإلى أين أذهب؟ وماذا يمكنني أن أعلم؟ فلم يحتمل ذلك القديس سيريل، مع أن البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق سائرة إلى دار ندوتها. وجردوها من ثيابها وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك، ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقي في النار: يقول المؤرخ راوي هذه القصة: ولم يسأل سيريل عما صنع بهيباتي ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع

عليها، ولعل ذلك كان أول ما تقررت تلك القاعدة: (الغاية تشفع للوسيلة).(١)

ثانيًا: استبداد الكنيسة بفهم الكتب المقدسة

ولقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق في فهم الكتب المقدسة عندهم، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس، ولا معقب لما تقول في هذا التفسير، أو في رأي تبديه، أو أمر تعلنه، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قولا قالته أو مبدأ دينيًا أعلنته أن يروض عقله على قبوله، فإن لم يستطع، فعليه أن يشك في العقل، ولا يشك في قول البابا.

ولقد كانت تعلن أمورًا ما جاء بها الكتاب المقدس عندهم، وما تعرض له المسيحيون الأولون، ولا المجامع الأولى، وهي أمور غريبة جد الغرابة، بعيدة عن القبول في أحكام العقل جد البعد، وتلزم المسيحيين بها، وتفرضها عليهم فرضًا، ومن قال كلمة فيها فالويل له ينزلونه به في الدنيا ولا ينتظرون حساب الديان في الآخرة.

ونذكر القارئ على سبيل المثال بمسألتين كان لها أثر في الفكر المسيحي، وبسببهما عما وغيرهما تقدم المصلحون في جرأة داعين إلى إصلاح الكنيسة بالحسنى أو بغير الحسنى. هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة ومسألة الغفران.

أما مسألة الاستحالة فالأساس فيها ما علمت في شرح الشعائر النصرانية، من أن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزًا ويشربون خمرًا، ويسمون ذلك العشاء الرباني، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلها وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه، وذلك أمر غريب في العقل، لا يستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهولة، بل لا يستطيع أن يستسيغه قط. إذ كيف يتحول الخبز لحمًا، وكيف يصير لحم شخص معين معروف. وكيف تتحول الخمر دما، وتصير دم شخص معين معروف؟ ذلك غريب بل

---

(١) مجلة المنار (٥/ ٤٠١).

مستحيل التصور والقبول في العقل، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من منقاشته، وإلا عرضوا للطرد والحرمان. وهل ورد هذا الأمر في الكتب المقدس، حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل؟ إنه أمر استقلت به الكنيسة وأعلنته وأبدته في أحد مجامعها، غير معتمدة في ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم.

ولقد خالفت في بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية غيرها من الكنائس، فالكنيسة الشرقية ترى أن العشاء الرباني لا يكون بالفطير، بينما تراه الكنيسة اللاتينية، ووجد من أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة، ويعتقدون أنها غير ممكنة في العقل ولا سائغة في الفكر.

أما المسألة الثانية وهي مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسيء في الدنيا فقد قررته الكنيسة حقًا لنفسها في المجمع الثاني عشر أيضًا.

وقد جاء في كتاب تاريخ الكنيسة في بيان قرار المجمع في هذا الشأن: (أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران) فقال: (إن يسوع المسيح ما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى، قد أعلم المجمع المقدس، وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي، المثبتة بسلطان المجامع)

ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها، غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراس حسب العادة المحفوظة قديمًا، والمثبتة في الكنيسة، لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بفرط التساهل.

هذا قرار المجمع، وفيه تمكين للكنيسة من سلطان قوى جبار، وهو سلطان مسح الذنوب، وغفرانها مهما يكن مقدارها، ومهما تكن قد دنست النفس، وأرهقت القلب، ولكنه قد أوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراس، حتى لا يؤدي الإفراط في منح الغفران إلى ترك التهذيب الديني، وهجر تعاليم الكنيسة، والعبث بهدى الدين، فهل أخذت الكنيسة بما أعطاها المجمع، وراعت حق الرعاية ما أوصاها به من عدم الإفراط في

الإعطاء والمنح؟ لقد أتى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق، أن أفرطوا في إعطائه إفراطًا شديدًا وأنشأوا صكوكًا تباع وتشترى، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا، ومتعة من متاعها، وبذل العصاة في سبيلها المال، وما كان عليهم من حرج في أن يرتكبوا ما شاءوا من الموبقات، وينالوا ما تهوى الأنفس من معاص. . ما دام ذلك يفتدى بمال قل أو جل، وهذا نص صك الغفران الذي بياع بيع السلعة، وإليك صورة من صك الغفران:

(ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لي أحلك من جميع القصاصات، والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضًا من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي، وأمحو جميع أقذار المذنب وكل هلامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر، وأردك حديثًا إلى الشركة في أسرا الكنيسة، وأقرنك في شركة القديسين، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك، حتى أنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تم سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس)

هذه صورة من صور صك الغفران تذكر أنها تمحو الآثام، وتغفر ذنوب العاصي ما تقدم منها وما تأخر تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهرًا، ثم لا يصير قابلًا لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا، ومهما ينغمس في المعاصي. كأن ذلك الصك جواز المرور إلى النعيم المقيم، لا يعوق حامله عائق، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس.

هذا ما يدل عليه الصك، وهذا ما كانت تحاول الكنيسة أن تلقيه في روع الناس تمكينًا لسلطانها، ورغبة في نقودهم التي يبذلونها للكنيسة في سبيل الحصول على ذلك الصك

الذي يكون سر الأمان، وطريق الوصول إلى الغاية.

لقد ابتدأت الكنيسة صك الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب والشخص لم يودع الدنيا، ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق في الغفران والشخص قوي يستقبل الحياة، ولا يودعها ويقبل على متعها، ولا يدبر عنها، وغالت فجعلت لنفسها حق غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب، ثم أغرقت في المغالاة فاتخذها رجال الدين بابًا من أبواب الكسب للكنيسة. ثم إنهم ينفقون ما يجمعون من مال فيما يحله الدين والأخلاق وما قد يحرمانه وبذلك طم، حتى جاوز الحزام الطبيين.

ثالثا: مقاومة النصرانية للعلم:

لا أجد في التاريخ ذكرًا للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده إلا في أثناء المنازعات الدينية التي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك، وأخرى بجمع المجامع، وثالثة بسفك الدماء، فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض. وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك في الدماء بإغراء رؤساء الكنيسة، وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضعونا الكلام فيه.

ولكني أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوروبا بعد ظهور الإسلام واستقرار سلطانه في بلاد الأندلس واحتكاك الأوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية.

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم وحملوا إلى الناس أخبارًا تناقض ماكان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص، وهم وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة. فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة، وذوي ود ووفاء وفضل مجاملة.

ثم كان الخليفة الحكم الثاني جعل من بلاد الأندلس فردوسًا، كما قال الفيلسوف الأميركاني،

وكان اليهود والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحرية قال بطرس المحترم الشهير: إنه رأي كثيرًا من العلماء يأتون إلى تلك البلاد لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا، وأولئك الذين يسعون إلى طلب العلوم من أي بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحبًا وسعة، وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعًا للكتب – نسخ وتذهيب وتجليد... إلخ ما قال.

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب، ثم وجدت المطبعة وسهل على الناس أن ينشروا آرائهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب إليهم رسل العلم الذي حملوه إليهم من أهالي أسانيا ومن حملوه مما جاورها ثم أنساب إلى العلم شيء مما سماه الأوروبيون فلسفة ابن رشد، عند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر وأخذت تحارب كل ما يظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة.

قال دي رومنيس: إن قوس قزح ليست قوسًا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء، فجلب إلى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار، وقيل في علة الحكم: إنه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا، وأي ذنب أعظم من هذا الصلح؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء.

رابعًا: مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش.

أنشئت المراقبة على المطبوعات، وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو مايريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة، وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئًا، لم يعرض على المراقب، أو ينشر شيئًا لم يأذن المراقب بنشره، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يوميء إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية، ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ماتنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجري عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين).

انشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورها بسعي تلامذة

ابن رشد وتلامذته خصوصًا في جنوب فرنسا وإيطاليا. . انشئت هذه المحكمة الغربية بطلب الراهب توركماندا.

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ففي مدة ١٨ سنة – من سنة ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ – حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصًا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بعقوبات مختلفة فنفذت، ثم أحرقت كل توراة بالعبرية.

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة (المقدسة)؟ وسيلة واحدة هي أن يحبس المتهم، وتجري عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ.

قرر مجمع لا تران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد. وطفق الدومينيكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئًا من الصناعة والعبادة لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره.

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعادة إلى كسبه، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها: في المدن، في البيوت، في السراديب، في الأنفاق، في المخازن، في المطابخ، في المغارات، في الغابات وفي الحقول، فوفت بما كلفت مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين، عملًا بالقول الجليل (ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا) كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم والقسوس قي كنائسهم والأشراف في قصورهم، والتجار بين بضائعهم، والصناع في مصانعهم، والعامة في بيوتهم ومزارعهم، وحيثما وجدوا، وأينما ثقفوا، ويوقفون أما المحكمة، وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم.

قرر مجمع (لا تران) أن يكون من وسائل الإطلاع على أفكار الناس الاعتراف

الواجب أداؤه على المهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلبًا لغفرانها)، تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه في بيته، وما يظهره في أعماله بين أهله. فإذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئًا من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره إلى المحكمة، فينقض شهاب التهمة عليه. فإذا سئل عن الشاهد الذي عول عليه اتهامه لا يجاب، وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف.

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوروبا ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه، وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه، ومن ورود الفكرة العلمية إليه، وقال با غليادیس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد: (يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيًا ويموت على فراشه).

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء.

خامسًا: اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوربا على زعم القسوس، وكان ابن رشد أستاذًا يتعلم عنده كثير من اليهود، وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ثم هو مع ذلك مسلم، صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معًا فصدر الأمر في ٣٠ مارس (آذار) ١٤٩٢ أن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان وعلى أي حال كان، يجب أن يترك بلاد أسبانيا قبل شهر يولو (تموز) ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط أن لا يأخذوا في الثمن ذهبًا ولا فضة، وإنما يأخذون الأثمان عروضًا وحوالات ومن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن؟ (يعني أن أموال اليهود تكون مباحة بعد

جلائهم الذي تم في يولو) وصدر أمر (تور كماندو) أن لا يساعدهم أحد من سكان أسبانيا في أمر من أمورهم. وهكذا خرج اليهود، تاركين كل ما يملكون بأرواحهم على أنه لا نجاة لكثير منها، فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر.

وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها – من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر أبريل (نيسان) وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذي وضع للمسلمين شرط آخر، وهو أن لا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل. فهؤلاء المساكين نفوا جميعًا إلى القتل إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العري.

ألا يعجب القارىء إذا رأى أن (برونو) يحرق بالنار حيًا بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود، وقال إن هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة؟.

ظهر القول بكروية الأرض – ذلك الأمر الذي عرفه المسلمون وصار رأيًا لهم في أول خلافة بني العباس، ولم تتحرك له شعرة في بدن – فأحدث اضطرابًا شديدًا في عالم النصرانية ولا يسلم هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه.

هل يصدق القارىء أن ما قصده كريستوف كولمب من السفر في المحيط الأطلنطي لعله يكتشف أرضًا جديدة كان من الأمور التي اهتمت لها الكنيسة، وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين، ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزستوم وأوغستين وجيروم وغر يغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة، ولم ينتج هذا العرض شيئًا، ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم. قال كريستوف كولمب (إن الذي أوحي إليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد) من هنا تفهم لم قامت الكنيسة وقعدت؟ قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم؟ ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل (السلطة للقسوس والطاعة على العامة) كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط

ويحل في الأرض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل ما يستطاع، لهذا حكم على غاليلي الذي ذهب إلى أن حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم.

سادسًا: مقاومة ما يجد من سبل العلاج ويخفف من الألم

وهذا كثير نذكر من ذلك:

١-مقاومة الحقن تحت الجلد: هل تدري ماذا حصل من المقاومة لإدخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين في الاستانة، ثم نقلتها إلى أوروبا امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها واحتيج في تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك انكلترا.

٢-وعادت هذه الشدة في المعارضة عندما اكتشف طريقة تطيعم الجدري.

٣-مقاومة تسهيل الولادة: أي مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق. اكتشاف أمريكاني رأى حضرات القسوس فيه أنه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين (إذ جاء في الأصحاح الثالث منه: وقال للمرأة: تكثيرًا أكثر أتعاب حملك بالوجع تلدين أولادًا)

سابعًا: مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد

نشر البابا منشورًا في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية أو جواز أن يفسر أحد شيئًا من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة أو يعتقد بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه وفي منشور له سنة ١٨٦٨ أن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم، وعليهم أن ينزلوا عن أرائهم وأفكارهم، ودعا الروم الأرثوذكس والبروتستانت إلى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه.

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة روسيا والبابا في عزل أستاذ في إحدى الكليات رأى رأيًا لا يروق للحزب الكاثوليكي، فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله، وكانت إحدى المعضلات السياسية، غير أن عزيمة بسمارك نصرت مدينة القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة، وأبقت الأستاذ، وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية.

ثالثا: اعتراض بعنوان (البروتستانت أو الإصلاح):

ربما يقول قائل: إن هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ولكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين إلى أصل الكتب المقدسة، ويبيحون للعامة أن ينظروا فيها ويفهموها، وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول، ومن عهد ظهور الإصلاح والرجوع إلى أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالرغب، وبسط للعلم بساط التسامح، وذلك لا يمكن أن يكون إلا جريًا مع طبيعة الدين.

لا أذكر في الجواب عن ذلك إلا ما ذكر البروتسانت أنفسهم في تاريخ الإصلاح: استمرت عقوبة الموت قانونًا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة، وقد أمر كلفان — هو الزعيم الثاني للبروتستانت ولوثر الأول - بإحراق (سيرفيت) في جنيف لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقية، وكان يقول إن روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها. فكان جزاؤه على هذا أن شوي على النار حتى مات وكذا أحرق (فايتي) في تولوز سنة ١٦٢٩.

قالوا: البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية، وإبطال عبادة الصور.

ولكنهم لم يغيروا شيئًا من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري، كما أنها منبع نور الإيمان بالدين الإلهي، وأنه لا يباح للعقل أن ينساق في نظره إلى ما يخالف شيئًا مما حوته، وأنه لا حاجة إلى شيء من العلم وراء ماورد فيها. وبالجملة إنهم لم يبطلوا أصلًا من الأصول الستة التي تقدمت، إلا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم المبنية على الأصل الثاني في سابق قولنا.

قالوا: ولهذا لم يكن مذهب الإصلاح أخف وطأة على العلم، ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك، لأن كلا المذهبين يرجع إلى طبيعة واحدة (وهي القائمة على الأصول الستة)

ولم يكن لأهل النظر العقلي جزاء في كلتا الملتين إلا القتل وسفك الدم.[(١)]

المبحث الثاني: دراسة نصوص الكتاب المقدس في ضوء العلم الحديث

للقيام بهذه الدراسة ينبغي أن نوضح ثلاثة أمور هامة وهما:

١-مدى دقة العلم الذي تدرس نصوص الكتاب المقدس في ضوئه أو بعبارة أخرى (أي علم الذي يصح أن تدرس الكتب المقدسة في ضوءه):

من الضروري أن نؤكد أننا عندما نشير إلى معطيات العلم هنا - التي يدرس في ضوئها نصوص الكتاب المقدس - فإننا نقصد بها حقائق العلم التي استقر ثبوتها وتأكدت صحتها كحقائق علمية. وهذا الاعتبار يخرج من نطاق الحقائق العلمية أي نظريات تفسيرية ربما تكون مفيدة أو متفقًا عليها الآن لتفسير بعض الظواهر ولكن البحث العلمي لا يزال جاريًا ومتصلًا بشأنها للتأكد من صحتها أو اكتشاف نظريات أخرى غيرها أقرب إلى الصواب وأكثر قربًا من مسار التقدم العلمي إن ما نعنيه بحقائق العلم هنا هو: (الحقائق العلمية المستقرة علميًا ولا جدال بين العلماء على صدقها) ولو كان العلم يجوز أن يقدم نظريات علمية غير مكتملة البراهين على صوابها فمن الممكن يتصل التقدم العلمي إلى إثباتها بحيث يتلاشى الخوف من وجود خطأ فيها.

٢-نوع النصوص التي يجوز ويسوغ أن تدرس في ضوء العلم الحديث أو بعبارة أخرى (أي النصوص تقارن وتدرس في ضوء العلم الحديث)؟ وهل كل النصوص يصح أن تدرس من خلال العلم الحديث؟

إن هذه الدراسة والمقارنة بين حقائق العلم ومقرات الدين لا دخل لها ولا صلة بالمسائل الدينية البحتة.

إن العلم – على سبيل المثال – لا يعرض ولا يعترض على الطريقة التي تجلى وظهر بها الله لسيدنا موسى ﷺ ويقال نفس الشيء عن كيفية مولد المسيح ﷺ بدون أب من

---

(١) الإسلام والنصرانية ٢٧ – ٦٠، محاضرات في النصرانية ١٥٥ – ١٥٦ بتصرف يسير

البشر. والكتب المقدسة لا تعطي أي تفسير مادي لمثل هذه المسائل إن الدراسة إنما هي معنية بما تقوله الكتب المقدسة عن الظواهر الطبيعية البحتة التي نلاحظ الفرق بين الكثرة والوفرة في المعلومات حول هذه الموضوعات المشتركة التناول بين الدين والعلم في القرآن الكريم وندرتها في التوراة والإنجيل في هذا الصدد.

٣-أسلوب الدراسة: وأظن أن تلخيصها في هذه الجملة يكفي (روح الإنصاف الذي ينبغي أن يتحلى بها من يقوم بالدراسة).

إن أكثر التناقضات مع حقائق العلم الحديث نستطيع أن نجدها في سفر التكوين وهذه التناقضات تتعلق بثلاثة موضوعات رئيسية هي:

١ - خلق العالم ومراحل هذا الخلق.

٢- تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.

٣- وصف الطوفان.

ثم تكمل هذه الدراسة بوقفة مع التاريخ ثم مع علم الآثار كما سيأتي

وإليك تفصيل ذلك:

خلق العالم ومراحل هذا الخلق.

يلاحظ الأب دي فو أن سفر التكوين (يقدم لنا روايتين مختلفتين عن خلق العالم وقد وضعت كل رواية منها إلى جانب الرواية الأخرى) ولكي نلم بمدى تناقض كل منهما مع الأخرى ومع حقائق العلم ندرس فيما يلي كلًا منهما على حدة.

الرواية الأولى عن خلق العالم:

تمهيد:

تحتل الرواية الأولى عن خلق العالم بالتوراة من الإصحاح الأول من سفر التكوين والجمل الأولى من الإصحاح الثاني.

إنها مثال نموذجي للتناقضات مع مقتضيات الدقة من وجهة النظر العلمية.

ومن الضروري فحص كل فقرة منها على حدة وسيكون هذا الفحص كالآتي:

أولًا: المرحلة الغازية أسبق من مرحلة الماء.

في سفر التكوين ١/ (١-٢): **فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. ٢وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ.**

التعليق: إننا نستطيع أن نقبل تمامًا أن مرحلة ما قبل خلق الأرض كان الكون غارقًا في الظلمات. ولكن وجود الماء في بدء خلق ليس له ما يسوغه من وجهة نظر العلم وربما كان ذلك من آثار بعض الأساطير والفلسفات القديمة إذ إن العلم يقرر سبق المرحلة الغازية لمرحلة المواد الصلبة في خلق العالم. ومن الخطأ أن نقحم الماء في أول مرحلة من مراحل خلق العالم. [1]فوجود الماء على وجه الأرض في اليوم الأول يتناقض مع النظرية العلمية القائلة بأن الأرض بل والعالم كان غازيًا في بداية خلقه. [2] نعم لأنه وفق التكوين الجيولوجي للكون تمثل المياه مرحلة متأخرة. [3]

ثانيًا: نور بلا نجوم أو صباح ومساء دون أرض تدور ولا شمس تدور حولها:

في سفر التكوين ١/ (٣ – ٥): **وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. ٤وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. ٥وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلًا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا.**

التعليق: إن النور الذي يحيط بالعالم إنما هو نتيجة انعكاسات لضوء النجوم على الأجرام غير المضيئة. وفي هذه المرحلة من خلق العالم لم تكن النجوم قد خلقت بعد. وحسب قول التوراة لم يتم خلق النجوم إلا في اليوم الرابع، كما تشير إلى ذلك الجملة الرابعة عشر. ومن غير المنطقي أن يتم ذكر نتيجة ما سيحدث في اليوم الرابع في غضون ذكر أحداث اليوم الأول. ويضاف إلى ذلك أن تقسيم اليوم إلى ليل ونهار ليس له مكان معقول في اليوم الأول من الخلق حسب قول التوراة إذ لا يعقل وجود كل منهما إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت الشمس

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٥٧)

(٢) هل العهد القديم كلمة الله (١٧١)

(٣) دراسة في التوراة والإنجيل (١٧٩).

وهو ما تم بعد اليوم الأول. [١] وما نحن نعلمه هو أن النهار والليل هما دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس ولا نهار – بغير شمس – فالنهار – وما يبدو من ضوء هو انعكاسات ضوئية وتشتيت لضوء الشمس على ذرات الغبار. [٢]

ثالثًا: السماء لم تتكون من الماء المدعى أنه أسبق من الغاز.

في سفر التكوين ١/ (٦-٨): **وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ». ٧فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ. ٨وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.**

التعليق: إن خرافة المياه يستمر استخدامها هاهنا أيضًا مع افتراض انفصال هذه المياه الخرافية إلى طبقتين تصبح إحداهما ببساطة أرضًا وتصبح الأخرى سماء. إن صورة انقسام المياه هكذا إلى طبقتين: إحداهما أرض والأخرى سماء إنما هي صورة غير مقبولة علميًا. [٣] هذا وإن قصة المياه التي " تحت " الجلد والمياه التي " فوقه " تعكس الضلال الذي عرفت به الشعوب البدائية كلها. فحسب التصورات القديمة، أن السماء عبارة عن جسم كثيف صلب، ومن هنا جاءت تسميتها با " الجلد "، أي القساوة اليابسة. واعتقدوا أيضًا. أن تجمعًا مائيًا هائلًا يقوم خلف ذلك الجلد، الذي تشكل السماء قاعه. وإذا كان كل قارىء يعرف اليوم أن المطر ما هو إلا الماء المتبخر من الأرض، فقد اعتقدوا في زمن ما، أن المطر هو الماء الذي ينساب من التجمع المائي العلوي، عبر فتحات صممت لهذا الغرض بالذات، لكن ها الرأي يثير السخرية اليوم، صمد طويلًا جدًا في أذهان الناس. ففي القرون المسيحية الأولى، أقره علماء اللاهوت كلهم. [٤]

رابعًا: هل يوجد عالم نباتي منظم تنظيم وراثي دون تمثيل غذائي بسبب عدم وجود الشمس؟ وهل يقبل القول بأن النبات وجد قبل الإنسان بثلاثة أيام فقط؟

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٥٧).

(٢) قراءات في الكتاب المقدس (٨٢)، دراسة في التوراة والإنجيل (١٧٩)، هل العهد القديم كلمة الله (١٧١).

(٣) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٥٧-٥٨)

(٤) التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير ٦

في سفر التكوين ١ (٩-١٣): وَقَالَ اللهُ: «لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ». وَكَانَ كَذلِكَ. ١٠وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١١وَقَالَ اللهُ: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. ١٢فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١٣وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا.

التعليق: من المقبول علميًا أن القارات قد ظهرت في مرحلة من تاريخ الأرض عندما كانت الأرض مغطاة بالمياه. ولكن افتراض وجود عالم نباتي منظم تنظيمًا ووراثيًا من خلال البذور التي لا تظهر إلا بعد نضج الثمار يستحيل أن يتحقق إلا بوجود الشمس التي لم تخلق إلا في اليوم الرابع كما يقرر ذلك الإصحاح الأول من سفر التكوين ذاته، وذلك ينطبق أيضًا على خلق الليل والنهار إذ يستحيل تصور إمكانية التمييز بينهما قبل خلق الشمس التي لم تخلق إلا في اليوم الرابع كما سبق أن أشرنا.

وهل بدأت الحياة النباتية بالحشائش وبقلًا ببزر وشجرًا له ثمر قبل ظهور الشمس وبغير التمثيل الضوئي؟

كما أن القول بأن النبات وجد قبل الإنسان بثلاثة أيام فقط قول مردود إذ تتحدث المكتشفات العلمية عن وجود النبات قبل الإنسان بملايين السنين. [1]

خامسًا: الأرض أولًا أم الشمس والنجوم؟

في سفر التكوين: ١/ (١٤-١٩): وَقَالَ اللهُ: «لِتكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ،

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٥٨)، قراءات في الكتاب المقدس (١٨٣)، هل العهد القديم كلمة الله (١٧١)

وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ، وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا.

التعليق: إن الوصف الذي يقدمه كاتب التوراة في هذه الفقرة يمكن أن يكون مقبولًا، وأهم نقد يمكن توجيهه إليه هو مكان وتوقيت ظهور الشمس بالنسبة لنظام خلق العالم ككل. وكما نعرف علميًا انفصلت الأرض وانفصل القمر من الكوكب الأصلي لهما وهو الشمس وترتيب وتوقيت خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض إنما هو مخالف ومناقض بكل شدة وبكل حسم للرأي المستقر علميًا بشأن تكوين نظام المجموعة الشمسية. إذن فخلق الأرض ليس سابقًا على خلق الشمس والقمر حتى تكون مياه ونبات ونورا !. فهذا مرفوض علميًا. [1]

لقد اعتبر العلماء هذا من الخرافات، ولك أن تتخيل أيها القارئ الكريم، أنه حتى نهاية القرن الميلادي السابع عشر، كان العلماء يعتقدون أن الشمس ليست مصدر الضوء، بل هي " تمرره " عبرها وحسب، أما الضوء، فهو موجود بذاته. وحتى رينيه ديكاريت نفسه كان من أنصار هذا الضلال. واستمرت الحال هكذا حتى جاء الفلكي الدانماركي أولاف ريمر (١٦٤٤ – ١٧١٠)، الذين يدين تعاليم التوارة مناقضة تامة، وهي أن الضوء الساقط فوق عالمنا مصدره الشمس، وهو لا ينتشر دفعة واحدة. . ثم حدد هذا العالم سرعة الضوء – وهو ماثبتت صحته غير مرة – مبينًا أنه يصل من الشمس إلى الأرض في ثمان دقائق وثمان عشرة ثانية، أي أن سرعته حوالي ثلاث مائة ألف كيلو متر في الثانية. وقد توصل ريمر إلى اكتشافه هذا عن طريق مراقبه هبوط الظلام فوق الأقمار التابعة لكوكب المشتري. كان ريمر يقيم عندئذ في فرنسا، فكتب بحثًا عن اكتشافاته وقدمه في أكاديمية باريس، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٦٧٥.

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٥٨)، دراسة في التوراة والإنجيل (١٧٩). ، هل العهد القديم كلمة الله (١٧١).

أما كاتب سطور التورات، فقد كان فريسة الجهل التام بشؤون الفلك، ولكن هذا لا يعفي يهوه من مسؤولياته، كان عليه أن يعرف كل شيء عندما كتبت التورات. (١)

سادسًا: الحيوانات البرية أولًا:

في سفر التكوين ١/ (٢٠-٣١): ٢٠وَقَالَ اللهُ: «لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلَدِ السَّمَاءِ». ٢١فَخَلَقَ اللهُ التَّنَانِينَ الْعِظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَّابَةِ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ٢٢وَبَارَكَهَا اللهُ قَائِلًا: «أَثْمِرِي وَاكْثُرِي وَامْلإِي الْمِيَاهَ فِي الْبِحَارِ. وَلْيَكْثُرِ الطَّيْرُ عَلَى الأَرْضِ». ٢٣وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا خَامِسًا. ٢٤وَقَالَ اللهُ: «لِتُخْرِجِ الأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا». وَكَانَ كَذلِكَ. ٢٥فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ٢٦وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ». ٢٧فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. ٢٨وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ». ٢٩وَقَالَ اللهُ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْل يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا. ٣٠وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا». وَكَانَ كَذلِكَ. وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا سَادِسًا.

التعليق: هذه الفقرة تحتوي على مزاعم لا يمكن القبول بها وفقًا لما ورد بدأ ظهور مملكة الحيوان بظهور مخلوقات بحرية وطيور ذات أجنحة. والوصف التوراتي يخبرنا أن

---

(١) التورات كتاب مقدس أم جمع من الأساطير ٩

الأرض نفسها لم تكن مأهولة بالكائنات الحية حتى مجيء اليوم التالي أي اليوم السادس كما سنرى في الفقرة التالية من ذات سفر التكوين. من المؤكد أن الأصول العضوية للحياة جاءت من البحر. من البحر تم تشكيل الأرض كما هو الشأن في تكوينها الذي أعطاها شكلها المعروف لنا، وعلى ظهرها وجد عالم الحيوانات ومن الحيوانات التي كانت تعيش على سطح الأرض وعلى وجه الخصوص من نوع معين من الزواحف يعتقد أن الطيور قد نشأت. إن العديد من الخصائص البيولوجية المشتركة بينهما تجعل هذا الاحتمال الظني ممكنًا. ووحوش الأرض لم يتم ذكرها حتى اليوم السادس بسفر التكوين حتى فترة ما بعد خلق الطيور وهذا الترتيب في الظهور بحيث تظهر الوحوش بعد الطيور ليس مقبولًا. [1]

سابعًا: لهفة تفضحهم وتنسب إلى ربهم نقصًا

في سفر التكوين ٢/ (١-٣): ١فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. ٢وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. ٣وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا.

التعليق: إن هذا الوصف التوراتي لليوم السابع يحتاج منا بعض التعليقات. وتنصب هذه التعليقات:

أولًا: وقبل كل شيء على ما تعنيه الكلمات المستخدمة في التوراة لوصف هذا اليوم السابع.

إن كلمة (جند) في تعبير: (وأكملت السموات والأرض وكل جندها) إنما هي كلمة غريبة في هذا السياق.

أما كلمة (استراح) التي وردت في النص فهي تفيد أن الله كان قد أصابه التعب في الأيام الستة الأولى(فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل) ومن هنا جاء يوم الراحة عند اليهود وهو يوم السبت.

ولا ريب أن هذه الراحة التي يفترض هذا النص التوراتي أن الله قد أخذها بعد اليوم

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٥٩)، هل العهد القديم كلمة الله (١٧١).

السادس من أيام العمل إنما هي خرافة اخترعها خيال كاتب الإصحاح الثاني من سفر التكوين. وربما كان هناك تفسير لوجود هذه الخرافة. إننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن هذا الوصف لعملية خلق العالم الذي نعرض له بالدراسة كما ورد بالتوراة إنما هو من النصوص التي سبق أن أشرنا إليها باعتبار أنها نصوص المرحلة الكهنوتية وهي المرحلة التي أخذ فيها (الكهنة) وهم الورثة الروحيون للنبي حزقيال (نبي السبي البابلي) على عاتقهم كتابة أسفار التوراة في القرن السادس قبل الميلاد. ومن المعروف أن أولئك الكهنة قد أعادوا صياغة وكتابة أسفار التوراة حسب مفهومهم وخبراتهم التي اكتسبوها وفقًا لمشيئتهم واهتماماتهم الخاصة التي ذكر الأب دي فو أن طابعها التشريعي كان جوهريًا.

وعلى حين لا يشير النص اليهودي للتوراة إلى راحة الله الذي تعب من عمله في الأيام الستة فسبت أي(استراح) نجد أن الكاتب (الكهنوتي) يقحمها على النص الذي يصف عملية خلق الله للعالم.

إن هذا الكاتب (الكهنوتي)يقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق لأيام الأسبوع وهو يجعل الهدف الأهم من هذه الرواية هو راحة الله في اليوم السابع والله هو أول من احترم الراحة في اليوم السابع. ولا ريب أن العلم يصف مثل هذه المحاولة الكهنوتية لفرض الراحة من العمل يوم السبت بأنها مجرد وهم وتوهم.

إن تهافت الكاتب الكهنوتي لقصة الخلق في بدء سفر التكوين على استغراق كل مراحل الخلق المتعاقبة في نطاق أسبوع بهدف الحث على الطاعة الدينية من جانب الشعب اليهودي بقصد وجوب إلزامه بتقديس الراحة يوم السبت لا يقبل أبدًا إمكانية الدفاع عنه من وجهة النظر العلمية.

إننا اليوم ندرك تمامًا أن تكوين العالم والأرض قد حدث في غضون مراحل استمرت على امتداد فترات زمنية طويلة.

وحتى لو كانت عملية الخلق كما قدمتها لنا التوراة قد انتهت في مساء ذلك اليوم

السادس، ودونها ذكر لتلك الراحة التي فرضها سفر التكوين على الله مفترضًا أن الله قد أصابه التعب طوال الأيام الستة التي عمل فيها على خلق العالم، وحتى لو كان اليوم يستخدم بمعنى مجازي للإشارة إلى زمن غير محدود كما هو الشأن في القرآن الكريم يظل الوصف الكهنوتي التوراتي غير مقبول حيث أن تتابع وتوالي ظهور المخلوقات يتضمن تناقضًا تامًا مع المبادئ الأولية للمعرفة العلمية.

ويجوز أن نقول بناء على ما سبق بيانه إن هذا الوصف الكهنوتي لقصة الخلق بالتوراة يظل تصورًا غير معقول ولا مقبول كمجرد خرافة بحتة وتزييف غير معقول. والغرض منه يختلف تمامًا عن أي تفسير يهدف إلى الوصول إلى أن تكون الحقيقة معروفة.

فخلاصة ذلك أن السفر يتحدث عن ستة أيام أرضية تتكون من ليل ونهار " وكان صباح"، "وكان مساء"، وكان سابعها يوم السبت الذي استراح فيه الخالق - تعالى عن ذلك -، ومن المعلوم علميًا أن الخلق تم على فترات كونية تقدر بملايين السنين، والعلماء يقولون بأن الأرض احتاجت لملايين السنين حتى بردت قشرتها وغدت صالحة للحياة، فيما يتحدث السفر عن ظهور الماء على الأرض في أول أيامها، ثم ظهور النبات في ثالثها، والحيوانات في رابعها وخامسها. (١)

تاريخ خلق العالم وظهور الإنسان على الأرض.

وفي هذا المبحث سنناقش ونستعرض ما يلي:

أولًا: عمر خلق الأرض والإنسان حسب التوراة.

ثانيًا: ماذا يقول العلم الحديث بهذا الصدد.

ثالثًا: تفصيل الفترات الزمنية حسب معلومات الكتاب المقدس.

رابعًا: خطأ فاحش وسكوتهم عنه مفضوح

وإليك التفصيل

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٦١)، هل العهد القديم كلمة الله (١٧١)، قراءات في الكتب المقدسة (١٨٣)

أولًا: عمر خلق الأرض والإنسان حسب التوراة.

التقويم اليهودي يتوافق ويتسق مع أحداث العهد القديم وهو يشير إلى أن النصف الثاني من عام ١٩٧٥ لميلاد المسيح يماثل بدء العام ٥٧٣٦ منذ بداية **خلق** العالم حسب التقويم اليهودي وكانت عملية خلق الإنسان قد تمت بعد أيام عديدة ليكون له نفس عمر الأرض من حيث حسابها بسنوات التقويم اليهودي.

ملاحظة هامة: ومن المحتمل أن تصويبًا ينبغي أن نأخذه في اعتبارنا، ويتعلق هذا التصويب بحقيقة أن حساب الزمن في التقويم اليهودي يتم حسب الأعوام القمرية بينما التقويم المسيحي الميلادي المستخدم في الغرب يعتمد على السنوات الشمسية وهذا التصويب يلزم عمله إذا شئنا مزيدًا من الدقة، ولكن حيث إن حساب هذا الفارق لا يشكل إلا فرقًا مقداره لا يزيد على ٣٪ نجد له أثرًا طفيفًا. ولكي نجعل حساباتنا أكثر بساطة من الأسهل إهمال هذا الفارق حيث إنه لا يتعدى في الحساب كله أكثر من ثلاثين سنة لكل ألف سنة.

ولذلك نكون أقرب ما نكون إلى الصواب عندما نقول: إن التقدير العبري يرجع ببدء تاريخ العالم إلى سبعة وثلاثين قرنًا من الزمان قبل ميلاد المسيح عليه السلام. [(١)]

وعلى هذا نقول: حسب الكتاب المقدس فعمر الأرض متزامن مع وجود آدم عليه السلام، وقد حدد الكتاب المقدس الزمن من آدم إلى الطوفان، ومن نوح عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام ومن إبراهيم عليه السلام حتى ميلاد السيد المسيح بحوالي ٥٠٠٠ عام[(٢)].

يضاف إليهم ٢٠٠٠ عام تقريبًا" (بعد الميلاد) فيصبح عمر الأرض يكافئ عمر الإنسان وفي حدود ٧٠٠٠ عام أو يزيد ببضع عقود.

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٦٣)

(٢) ربما يكون من الصعب أن يجيب العلم الحديث بدقة عن تاريخ بداية خلق العالم بالضبط، وكل ما يستطيع العلم الحديث أن يومئ إليه هو مساحة من الزمان تشكل في غضونها نظام مجموعتنا الشمسية، ومن الممكن أن يكون العلم الحديث قد وصل إلى تحديد تقريبي في هذا الشأن. إن الفاصل الزمني بين بدء نشوء النظام الشمسي لعالمنا ووقتنا الحالي يقدرهالعلم الحديث بأربعة بلايين ونصف بليون سنة.

ثانيًا: ماذا يقول العلم الحديث بهذا الصدد:

نستطيع بناء على ذلك أن ندرك الفرق بين الحقيقة العلمية في هذا الصدد وبين المعلومات التي يقدمها لنا الكتاب المقدس بهذا الشأن، وهذه الحقائق تتعارض تماماً مع ما تقدمه لنا نصوص العهد القديم من معلومات في هذا الموضوع إن سفر التكوين يمدنا بمعلومات محددة مقتضبة عن المدة الزمنية التي انقضت منذ عهد سيدنا آدم وسيدنا إبراهيم وعن المدة التي انقضت منذ عهد سيدنا إبراهيم إلى بدء تاريخ المسيحية. والمعلومات التي يقدمها لنا غير كافية ومن الضروري سد ثغراتها من مراجع أخرى.

ثالثًا: تفصيل الفترات الزمنية حسب معلومات الكتاب المقدس من آدم إلى إبراهيم:

بالإصحاحات ٤، ٥، ١١، ٢١، ٢٥ قدم لنا سفر التكوين معلومات متصلة بأنساب الأنبياء بدءًا من سيدنا آدم حتى سيدنا إبراهيم، ولما كان سفر التكوين يذكر عمر كل منهم وعمر الأب عند ميلاد الابن في الغالب الأعم، نستطيع أن نحدد تاريخ ميلاد ووفاة كل خلف لكل سلف، كما هو واضح من الجدول التالي المستمد من النص الكهنوتي بسفر التكوين، حيث إن هذا النص هو الوحيد في التوراة الذي يعطي معلومات من هذا النوع، ومن هذا الجدول نستطيع أن نستنتج أن سيدنا إبراهيم وفقًا لمعلومات التوراة قد ولد بعد ١٩٤٨ سنة بعد سيدنا آدم، وفيما يلي جدول يوضح تاريخ الميلاد ومقدار العمر وتاريخ الوفاة بعد خلق آدم حتى نصل إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام:

الاسم	تاريخ الميلاد بعد خلق آدم	مدة العمر	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
آدم	٠٠	٩٣٠	٩٣٠
شيث	١٣٠	٩١٢	١٠٤٢
أنوش	٢٣٥	٩٠٥	١١٤٠
قينان	٣٢٥	٩١٠	١٢٣٥
مهللئيل	٣٩٥	٨٩٥	١١٩٠
يارد	٤٦٠	٩٦٢	١٤٢٢
أخونخ	٦٢٢	٣٦٥	٩٨٧
متوشالح	٦٨٧	٩٦٩	١٦٥٦
لامك	٨٧٤	٧٧٧	١٦٥١
نوح	١٠٥٦	٩٥٠	٢٠٠٦
سام	١٥٥٦	٦٠٠	٢١٥٦
أرفكشاد	١٦٥٨	٤٣٨	٢٠٩٦
شالح	١٦٩٣	٤٣٣	٢١٢٢
عابر	١٧٢٣	٤٦٤	٢١٨٧
فالج	١٧٥٧	٢٣٩	١٩٩٦
داعو	١٧٨٧	٢٣٩	٢٠٢٦
سروج	١٨١٩	٢٣٠	٢٠٤٩
ناحور	١٨٤٩	١٤٨	١٩٩٧
تارح	١٨٧٨	٢٠٥	٢٠٨٣
إبراهيم	١٩٤٨	١٧٥	٢١٢٣

من إبراهيم إلى العصر المسيحي:

إن الكتاب المقدس لا يعطينا أية معلومات رقمية عن هذه الفترة الممتدة من سيدنا إبراهيم حتى العصر المسيحي مثل تلك المعلومات التي نجدها بسفر التكوين عن العصر السابق لعصر سيدنا إبراهيم وعصر أسلاف سيدنا إبراهيم، ويجب علينا أن نبحث عن مصادر أخرى للمعلومات لنتمكن من تحديد الزمن الذي يفصل بين سيدنا إبراهيم وسيدنا عيسى.

إن هذا العصر الذي يمتد فيما بين سيدنا إبراهيم وسيدنا عيسى يقدر حاليًا بحوالي ثمانية عشر قرنًا قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

وبإضافة هذه المدة إلى المدة التي تفصل بين سيدنا آدم وسيدنا إبراهيم كما يحددها سفر التكوين نجد أن هذه الإضافة تصل بنا إلى حوالي ثمانية وثلاثين قرنًا قبل ميلاد المسيح عليه السلام، (المدة التي تفصل بين سيدنا إبراهيم وسيدنا عيسى ١٨ قرنًا قبل الميلاد + المدة التي تفصل بين سيدنا آدم وسيدنا إبراهيم وهي ٢٠ قرنًا قبل الميلاد، إذن المدة بين سيدنا آدم وسيدنا عيسى عليه السلام = ١٨ + ٢٠ =٣٨ قرنًا قبل الميلاد)(١)

ومن ذلك أن (المطران جيمس أشار)، (١٥٨١-١٦٥٦) – مطران أرماغ في أيرلندا أصدركتابه الذي حسب فيه عمر العالم، وقد ذهب إلى أن الأرض قد خلقت في الأسبوع الذي ينتهي يوم السبت الموافق ٢٢ أكتوبر من ٤٠٠٤ق. م.

وفي عام ١٧٠١/ أضيفت تواريخ (جيمس أشار) إلى النسخة الإنجليزية الرسمية – وهي نسخة الملك جيمس للتوراة – ومن ثم فقد أصبح لهذه التواريخ سلطانًا قويًا، حتى أن الجيولوجيين الأوائل قابلوا مقاومة صلبة ودينية متعصبة لنظرياتهم التي تذهب إلى أن عمر العالم في الحقيقة يبلغ ملايين عديدة من السنين. (٢)

وقد زاد بعضهم الفترة من خلق الأرض إلى ميلاد المسيح فوصلت إلى حوالي ٥٠ قرناً أو أزيد قليلًا. (٣)

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٦٤)

(٢) بنو إسرائيل الحضارة التوراة والتلمود (٣٤٤-٣٤٥).

(٣) انظر إظهار الحق (٣/ ٨٥٨-٨٥٩)

رابعًا: خطأ فاحش وسكوتهم عنه مفضوح:

وهذا التقدير يستحيل إنكار الخطأ فيه، والسبب في هذا أن الخطأ ينبع من الغلطات التي في الكتاب المقدس في المدة التي يحددها الكتاب المقدس بين سيدنا آدم وسيدنا إبراهيم، والتقويم اليهودي لا يزال يؤسس تقويمه على هذا الأساس الخاطيء.

وفي أيامنا هذه يمكن لنا أن نتحدى أولئك المدافعين التقليديين عن الحقيقة التوراتية، اعتمادًا على وضوح وجود التناقض بين أوهام الكهنة اليهود الذين كانوا يعيشون في القرن السادس قبل الميلاد ويتصرفون في شئون كتابة التوراة للناس وبين المعلومات والحقائق التي اكتشفها العلم الحديث. وعلى مدار قرون متلاحقة كانت هذه المعلومات القديمة تستخدم كقاعدة لتحديد أحداث العصر القديم وتنسب إلى المسيح.

وفيما قبل عصرنا الحديث كانت الطبعات المختلفة من الكتاب المقدس تمد القاريء بمقدمة تتضمن شرح التتابع التاريخي للأحداث التي مرت بالبشرية من خلق العالم وأيام تحريرهم للكتاب المقدس. ولقد كانت الأرقام تختلف وتتمايز بين وقت وآخر، وعلى سبيل المثال: -تعطينا طبعة الفولجاتا من الكتاب المقدس مثل هذا الانطباع عندما تجعل تاريخ حياة سيدنا إبراهيم ترجع إلى الوراء قليلًا محددة بدء الخليقة بأربعين قرنًا قبل الميلاد.

أما طبعة والتون من الكتاب المقدس المتعددة اللغات التي صدرت في القرن السابع عشر فهي تعطي القاريء لها بعديد اللغات قائمة بالأسماء والأعمار قريبة من القائمة التي سبق لنا تقديمها عن أنساب سيدنا إبراهيم ﷺ.

وبحلول العصر الحديث لم يعد المشرفون على طباعة الكتاب المقدس يستطيعون التمسك بمثل هذه الأنماط الجزافية لتحديد تاريخ الأحداث دون الاصطدام بواحد من الاكتشافات العلمية هنا أو هناك يحتم أن يكون تاريخ بدء العالم قد تم في زمان يسبق الزمان المحدد للأحداث بقرون عديدة، ولذلك قنع المشرفون على تحرير وإعادة طبع الكتاب المقدس بأن يحذفوا المقدمات التي كانوا يعرضون فيها لتحديد تاريخ الأحداث وفقا لنصوص الكتاب المقدس، أو اكتفوا بالتحذير بأن التاريخ المستمد من نصوص

الكتاب المقدس لا يشترط أن يكون مطابقًا للحقيقة مفضلين أن يسدلوا حجابًا كثيفًا على الرغبة في تحديد زمن الأحداث التاريخية التي يتحدث عنها نص من النصوص في الكتاب المقدس وذلك باستخدام عبارات من شأنها أن تفرض القبول كما هو دون نظر لأي اعتراضات تثار بشأنه.

وهذا هو السبب في أن النصوص التي تمت كتابتها لا تزال تحتفظ بقداستها على الرغم من أن الإنسان في القرن العشرين لا يستطيع الاستمرار في الاعتماد عليها في التأريخ الدقيق للأحداث وفقًا للتقديرات الوهمية للكهنة الذين كتبوا تلك النصوص بالكتاب المقدس، وذلك باعتبار ضرورة الإيمان بها دون نظر لأي اعتراض مهما يكن معقولًا بشأنها.

إن الحقائق العلمية لا تسمح لنا أن نعتبر أن ظهور الإنسان على سطح الأرض يمتد وراء حد معين لا يتعداه في الماضي.

ويجوز لنا أن نتأكد من أن الإنسان بقدرته على التصرف وكسب الأفعال الاختيارية وفقًا للتفكير الإنساني الذي يتمتع بالتعقل والذكاء الذي يميز الكائنات البشرية عن غيرها من المخلوقات – هذا الإنسان قد بدأ ظهوره على سطح الأرض في تاريخ محدد، و لا يستطيع أحد بطبيعة الحال أن يحدد بدقة في أي عام بدأ ظهور الإنسان في عصور التاريخ الماضية لتدل على قدراته العقلية الإبداعية القادرة على الإنجاز والإبداع؟ هذه المعرفة تجعل من الجائز لنا أن نعرف بدقة الآثار الدالة على وجود هذا الإنسان على سطح الأرض في تاريخ معين على امتداد عصور التاريخ منذ عشرات الآلاف من السنين.

وهذا التأريخ العلمي مهما يكن تقريبيًا يرجع إلى حياة الإنسان في مرحلة ما قبل التاريخ مثل إنسان كروما جون، فلقد تم الوصول إلى اكتشافات أخرى في أنحاء كثيرة من العالم لآثار وبقايا إنسان مرحلة ما قبل التاريخ، وهذه الآثار البشرية تعزى إلى أنواع من البشر أقل تدرجًا في سلم البشرية ولكن تأريخ أولئك البشر يمكن أن يرجع إلى مئات الآلاف من السنين، ولكن السؤال هو: هل كانوا بشرًا بالمعنى الحقيقي لكلمة البشر؟.

وعلى كل حال وسواءً كانوا بشرًا أو لم يكونوا كذلك لدينا معطيات علمية دقيقة بشكل كاف في مجال علم السلالات البشرية ترجع ببدء تاريخ نشأة البشر على سطح الأرض إلى تاريخ أبعد بكثير في الماضي من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر، مما ينشأ عنه تعارض بين حقائق العلم بشأن بدء ظهور الإنسان على سطح الأرض وبين الحقائق الحسابية التي يقدمها سفر التكوين فيهذا الصدد. (١)

وصدق الله العظيم إذ يؤكد أن البشرية ضاربة جذورها في التاريخ قرونًا طويلة، فيقول: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ (طه: ٥١-٥٢)، وقال أيضًا: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾(الفرقان: ٣٨)، ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (إبراهيم: ٩). (٢)

٣ـ الطوفان

أولًا: تمهيد:

يروي لنا الإصحاح السادس والإصحاح السابع والإصحاح الثامن من سفر التكوين قصة الطوفان.

ونحن لا نجد في الحقيقة قصة واحدة للطوفان بل نجد قصتين، لم توضع إحداهما بعد إتمام الأخرى، ولكن تباعدت وتداخلت أجزاء إحداهما في الأخرى مع محاولة مكشوفة لمحاولة التنسيق بين الأحداث المختلفة. وإليك هذه النصوص:

أولًا: الإصحاح السادس: **١وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ، وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ، ٢أَنَّ أَبْنَاءَ الله رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا. ٣فَقَالَ الرَّبُّ: «لاَ يَدِينُ رُوحِي فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ، لِزَيَغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ**

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (٦٥-٦٧)

(٢) هل العهد القديم كلمة الله (١٧١-١٧٢)

أَيَّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً». ٤كَانَ فِي الأَرْضِ طُغَاةٌ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذلِكَ أَيْضًا إِذْ دَخَلَ بَنُو اللهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلاَدًا، هؤُلاَءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ ذَوُو اسْمٍ. وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ. ٦فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ». ٨وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، ٩هذِهِ مَوَالِيدُ نُوحٍ: كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًّا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ. ١٠وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلاَثَةَ بَنِينَ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ. ١١وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ اللهِ، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا. ١٢وَرَأَى اللهُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الأَرْضِ. ١٣فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: «نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ. ١٤اِصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكَ مَسَاكِنَ، وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ. ١٥وَهكَذَا تَصْنَعُهُ: ثَلاَثَ مِئَةِ ذِرَاعٍ يَكُونُ طُولُ الْفُلْكِ، وَخَمْسِينَ ذِرَاعًا عَرْضُهُ، وَثَلاَثِينَ ذِرَاعًا ارْتِفَاعُهُ. ١٦وَتَصْنَعُ كَوًّا لِلْفُلْكِ، وَتُكَمِّلُهُ إِلَى حَدِّ ذِرَاعٍ مِنْ فَوْقُ. وَتَضَعُ بَابَ الْفُلْكِ فِي جَانِبِهِ. مَسَاكِنَ سُفْلِيَّةً وَمُتَوَسِّطَةً وَعُلْوِيَّةً تَجْعَلُهُ. ١٧فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ لأُهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الأَرْضِ يَمُوتُ. ١٨وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ. ١٩وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ تُدْخِلُ إِلَى الْفُلْكِ لاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى. ٢٠مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنْ كُلِّ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. اثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ تُدْخِلُ إِلَيْكَ لاسْتِبْقَائِهَا. ٢١وَأَنْتَ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَاجْمَعْهُ عِنْدَكَ، فَيَكُونَ لَكَ وَلَهَا طَعَامًا». ٢٢فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللهُ. هكَذَا فَعَلَ.

ثانيًا: الإصحاح السابع: ١وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: «ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ، لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هذَا الْجِيلِ. ٢مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ تَأْخُذُ مَعَكَ سَبْعَةً سَبْعَةً ذَكَرًا

وَأُنْثَى. وَمِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ اثْنَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى. ٣وَمِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أَيْضًا سَبْعَةً سَبْعَةً: ذَكَرًا وَأُنْثَى. لاسْتِبْقَاءِ نَسْلٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ. ٤لأَنِّي بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا أُمْطِرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَأَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ كُلَّ قَائِمٍ عَمِلْتُهُ». ٥فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ الرَّبُّ، ٦وَلَمَّا كَانَ نُوحٌ ابْنَ سِتِّ مِئَةِ سَنَةٍ صَارَ طُوفَانُ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ، ٧فَدَخَلَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ إِلَى الْفُلْكِ مِنْ وَجْهِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ. ٨وَمِنَ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ، وَمِنَ الطُّيُورِ وَكُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ: ٩دَخَلَ اثْنَانِ اثْنَانِ إِلَى نُوحٍ إِلَى الْفُلْكِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى، كَمَا أَمَرَ اللهُ نُوحًا. ١٠وَحَدَثَ بَعْدَ السَّبْعَةِ الأَيَّامِ أَنَّ مِيَاهَ الطُّوفَانِ صَارَتْ عَلَى الأَرْضِ. ١١فِي سَنَةِ سِتِّ مِئَةٍ مِنْ حَيَاةِ نُوحٍ، فِي الشَّهْرِ الثَّانِي، فِي الْيَوْمِ السَّابعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ، وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ. ١٢وَكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. ١٣فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ دَخَلَ نُوحٌ، وَسَامٌ وَحَامٌ وَيَافَثُ بَنُو نُوحٍ، وَامْرَأَةُ نُوحٍ، وَثَلاَثُ نِسَاءِ بَنِيهِ مَعَهُمْ إِلَى الْفُلْكِ. ١٤هُمْ وَكُلُّ الْوُحُوشِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا: كُلُّ عُصْفُورٍ، كُلُّ ذِي جَنَاحٍ. ١٥وَدَخَلَتْ إِلَى نُوحٍ إِلَى الْفُلْكِ، اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ. ١٦وَالدَّاخِلاَتُ دَخَلَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى، مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، كَمَا أَمَرَهُ اللهُ. وَأَغْلَقَ الرَّبُّ عَلَيْهِ. ١٧وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الأَرْضِ. وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ الْفُلْكَ، فَارْتَفَعَ عَنِ الأَرْضِ. ١٨وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ وَتَكَاثَرَتْ جِدًّا عَلَى الأَرْضِ، فَكَانَ الْفُلْكُ يَسِيرُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. ١٩وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ كَثِيرًا جِدًّا عَلَى الأَرْضِ، فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ. ٢٠خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فِي الارْتِفَاعِ تَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ، فَتَغَطَّتِ الْجِبَالُ. ٢١فَمَاتَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ كَانَ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الطُّيُورِ وَالْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ، وَكُلُّ الزَّحَّافَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَزْحَفُ عَلَى الأَرْضِ، وَجَمِيعُ النَّاسِ. ٢٢كُلُّ مَا فِي أَنْفِهِ نَسَمَةُ رُوحِ حَيَاةٍ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْيَابِسَةِ مَاتَ. ٢٣فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ: النَّاسَ، وَالْبَهَائِمَ، وَالدَّبَّابَاتِ،

وَطُيُورَ السَّمَاءِ. فَانْمَحَتْ مِنَ الأَرْضِ. وَتَبَقَّى نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ. ٢٤وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الأَرْضِ مِئَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا.

ثالثًا: الإصحاح الثامن: ١ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ نُوحًا وَكُلَّ الْوُحُوشِ وَكُلَّ الْبَهَائِمِ الَّتِي مَعَهُ فِي الْفُلْكِ. وَأَجَازَ اللهُ رِيحًا عَلَى الأَرْضِ فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ. ٢وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ، فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ. ٣وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ رُجُوعًا مُتَوَالِيًا. وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا نَقَصَتِ الْمِيَاهُ، ٤وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابعِ، فِي الْيَوْمِ السَّابعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ. ٥وَكَانَتِ الْمِيَاهُ تَنْقُصُ نَقْصًا مُتَوَالِيًا إِلَى الشَّهْرِ الْعَاشِرِ. وَفِي الْعَاشِرِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، ظَهَرَتْ رُؤُوسُ الْجِبَالِ، ٦وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَنَّ نُوحًا فَتَحَ طَاقَةَ الْفُلْكِ الَّتِي كَانَ قَدْ عَمِلَهَا ٧وَأَرْسَلَ الْغُرَابَ، فَخَرَجَ مُتَرَدِّدًا حَتَّى نَشِفَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ. ٨ثُمَّ أَرْسَلَ الْحَمَامَةَ مِنْ عِنْدِهِ لِيَرَى هَلْ قَلَّتِ الْمِيَاهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، ٩فَلَمْ تَجِدِ الْحَمَامَةُ مَقَرًّا لِرِجْلِهَا، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ إِلَى الْفُلْكِ لأَنَّ مِيَاهًا كَانَتْ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ. فَمَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَهَا وَأَدْخَلَهَا عِنْدَهُ إِلَى الْفُلْكِ. ١٠فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَادَ فَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ مِنَ الْفُلْكِ، ١١فَأَتَتْ إِلَيْهِ الْحَمَامَةُ عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَإِذَا وَرَقَةُ زَيْتُونٍ خَضْرَاءُ فِي فَمِهَا. فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْمِيَاهَ قَدْ قَلَّتْ عَنِ الأَرْضِ. ١٢فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ فَلَمْ تَعُدْ تَرْجِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا. ١٣وَكَانَ فِي السَّنَةِ الْوَاحِدَةِ وَالسِّتِّ مِئَةٍ، فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، أَنَّ الْمِيَاهَ نَشِفَتْ عَنِ الأَرْضِ. فَكَشَفَ نُوحٌ الْغِطَاءَ عَنِ الْفُلْكِ وَنَظَرَ، فَإِذَا وَجْهُ الأَرْضِ قَدْ نَشِفَ. ١٤وَفِي الشَّهْرِ الثَّانِي، فِي الْيَوْمِ السَّابعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، جَفَّتِ الأَرْضُ، ١٥وَكَلَّمَ اللهُ نُوحًا قَائِلًا: ١٦«اخْرُجْ مِنَ الْفُلْكِ أَنْتَ وَامْرَأَتُكَ وَبَنُوكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ. ١٧وَكُلَّ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي مَعَكَ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ: الطُّيُورِ، وَالْبَهَائِمِ، وَكُلَّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، أَخْرِجْهَا مَعَكَ. وَلْتَتَوَالَدْ فِي الأَرْضِ وَتُثْمِرْ وَتَكْثُرْ عَلَى الأَرْضِ». ١٨فَخَرَجَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ. ١٩وَكُلُّ الْحَيَوَانَاتِ، كُلُّ الدَّبَّابَاتِ، وَكُلُّ الطُّيُورِ، كُلُّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، كَأَنْوَاعِهَا خَرَجَتْ مِنَ الْفُلْكِ، ٢٠وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ. وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ

الطَّاهِرَةِ وَمِنْ كُلِّ الطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ، ٢١فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا. وَقَالَ الرَّبُّ فِي قَلْبِهِ: «لاَ أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الإِنْسَانِ، لأَنَّ تَصَوُّرَ قَلْبِ الإِنْسَانِ شِرِّيرٌ مُنْذُ حَدَاثَتِهِ. وَلاَ أَعُودُ أَيْضًا أُمِيتُ كُلَّ حَيٍّ كَمَا فَعَلْتُ. ٢٢مُدَّةَ كُلِّ أَيَّامِ الأَرْضِ: زَرْعٌ وَحَصَادٌ، وَبَرْدٌ وَحَرٌّ، وَصَيْفٌ وَشِتَاءٌ، وَنَهَارٌ وَلَيْلٌ، لاَ تَزَالُ».

وفي حقيقة الأمر نجد في هذه الإصحاحات الثلاثة تناقضات واضحة كبيرة.

والسبب في وجود هذه التناقضات أيضًا يرجع إلى وجود مصدرين لكتابة أسفار التوراة هما المصدر الياهواي والمصدر الكهنوتي. وكما هو معلوم فهذان المصدران اللذان صدرت عنهما كتابة أسفار التوراة يتناقضان ويتعارضان إلى حد كبير.

لقد تم تقطيع كل رواية للحدث إلى أجزاء وتم إدخال تعديلات وتفسيرات في مزيج تداخلت فيه عناصر أحد المصدرين في عناصر المصدر الآخر لدرجة أننا نستطيع أن نلاحظ بوضوح أننا ننتقل من أحد المصدرين إلى المصدر الآخر في ذات قصة الطوفان سبع عشرة مرة، وذلك في غضون ما لا يزيد على مئة سطر تقريبًا في هذا النص من سفر التكوين المكتوب باللغة الإنجليزية. (١)

ثانيًا: نظرة في قصة الطوفان ومدته:

ولو أننا نظرنا إلى قصة الطوفان ككل لوجدناها تمضي على هذا النحو: لما عم الفساد بين الناس قرر الله أن يدمرهم وأن يدمر كل المخلوقات الحية. وحذر الله سيدنا (نوحًا) من الطوفان قبل حدوثه وأمره أن يبني الفلك أو السفينة وأن يدخل فيها زوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث مع كائنات حية أخرى. ويختلف المصدران المتداخلان في رواية قصة الطوفان في تحديد الكائنات الحية الأخرى التي أمر الله سيدنا (نوحًا) أن يدخلها معه إلى السفينة. هناك مقطع من الرواية كهنوتي الأصل يشير إلى أن سيدنا نوحًا قد أخذ معه في السفينة زوجًا من كل نوع. ثم يخبرنا مقطع آخر من الرواية ياهوي الأصل أن الله قد أمر

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث ٦٧

سيدنا نوحًا أن يأخذ معه في السفينة سبعة من كل نوع ذكورًا وإناثًا وذلك من الحيوانات المسماة بالحيوانات الطاهرة وأن يأخذ زوجًا واحدًا من الحيوانات غير الطاهرة وبعد ذلك، على كل حال، يخبرنا نص التوراة أن سيدنا نوحًا لم يدخل بالسفينة فعلًا إلا زوجًا واحدًا من كل نوع من الحيوانات. ويؤكد لنا المتخصصون في دراسة نصوص الكتاب المقدس مثل الأب دي فو أن هذه الرواية الأخيرة إنما هي النص المعدل من الرواية الياهوية.

وفي الرواية فقرة ترجع إلى الأصل الياهوي تشير إلى السبب في الطوفان هو ماء المطر المنهمر من السماء، وهناك رواية كهنوتية المصدر تؤكد لنا أن السبب في الطوفان هو سبب مزدوج أي أن الطوفان قد حدث بسبب ماء المطر وبسبب ماء الينابيع الأرضية أيضًا.

تغطت الأرض حتى قمم الجبال وإلى منسوب أعلى من أعلى ذروة في قمم الجبال بالماء وتدمرت على الأرض كل الحياة. وبعد سنة من بدء الطوفان رست سفينة سيدنا نوح على جبل أرارات وخرج سيدنا نوح ومن معه من السفينة بعد انحسار المياه عن الأرض. وبالتوراة أيضًا موقفان مختلفان من الزمن الذي حدث فيه الطوفان والزمن الذي استغرقه دوام الطوفان. لقد استمر الطوفان أربعين يومًا وفقًا للمصدر الياهوي. واستمر الطوفان مائة وخمسين يومًا حسب النص الكهنوتي.[١]

ثالثًا: تاريخ وقوعه وآثاره:

ولا تحدد الرواية الياهوية تاريخ وقوع حدث الطوفان من حياة سيدنا نوح على حين تحدد الرواية الكهنوتية عمر سيدنا نوح عند حدوث الطوفان بأنه ستمائة عام. وتعطي هذه الرواية الكهنوتية إشارات محددة لزمن وقوع الطوفان بالنسبة إلى سيدنا آدم وإلى سيدنا إبراهيم وذلك من خلال قائمة الأنساب، ووفقًا للحسابات المستمدة من سفر التكوين نجد أن سيدنا نوحًا قد ولد بعد ١٠٥٦ سنة بعد سيدنا آدم[٢] وبناءً على ذلك يكون الطوفان قد حدث بعد ١٦٥٦ من خلق الله لسيدنا آدم. ويحدد سفر التكوين وقت

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث ٦٧-٦٨.

(٢) (انظر جدول أسلاف سيدنا إبراهيم)

حدوث الطوفان بالنسبة لسيدنا إبراهيم أيضًا فيرجع بتاريخ حدوث الطوفان إلى ٢٩٢ سنة قبل مولد سيدنا إبراهيم.

ووفقًا لما ورد بسفر التكوين نجد أن الطوفان قد امتدت آثاره لتشمل كل الجنس البشري وكل المخلوقات الحية التي خلقها الله على سطح الأرض باعتبار أنها قد تم تدميرها جميعًا. وبذلك تكون البشرية قد أعادت تشكيل نفسها من خلال أبناء سيدنا نوح الثلاثة وزوجاتهم مما ينتج عنه أنه عندما ولد سيدنا إبراهيم بعد حوالي ثلاثة قرون فهو قد وجد البشرية قد أعيد تشكيلها إلى مجتمعات منفصلة. (١)

رابعًا: قصة توراتية بلا مصداقية:

السؤال هو: كيف يتسنى لمثل هذه التجمعات البشرية الكبيرة التعداد كتلك التي كانت موجودة في عصر سيدنا إبراهيم أن توجد في غضون ثلاثة قرون فقط؟ إن مثل هذه الملاحظة البسيطة تسلب هذه النصوص التوراتية عن قصة الطوفان كما أوردتها التوراة كل مصداقية تمت إلى الحقيقة بأي صلة.

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن المعلومات التاريخية المتاحة لنا تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية التوراتية عن الطوفان مع الحقائق العلمية التاريخية في هذا الصدد.

إن العصر الذي عاش فيه سيدنا إبراهيم قد تم تحديده بالسنوات من سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد إلى ١٨٥٠ سنة قبل الميلاد أي بفارق حسابي بسيط لا يزيد على خمسين سنة). فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من وجود سيدنا إبراهيم كما يقرر ذلك سفر التكوين عند ذكره للأنساب ينتج عن ذلك أن الطوفان قد حدث في القرن الحادي والعشرين أو القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد. ولكن في ذلك العصر وقبل ذلك العصر وبعد ذلك العصر في حياة متصلة الحلقات عاشت حضارات بشرية ظلت آثار حياتها موجودة على سطح الأرض كما تؤكد ذلك الدراسات العلمية التاريخية الحديثة.

---

(١) المصدر السابق ٦٨-٦٩.

وحتى لا يكون هذا الزعم الذي نزعمه جزافيًا نجد أن في هذه الفترة في إقليم مثل إقليم مصر على سبيل المثال لا الحصر أن القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد هو تاريخ الفترة الوسطى الأولى الذي سبق مباشرة تاريخ الأسرة الحادية عشرة في التاريخ المصري القديم. ونجد أن أسرة (أور) الثالثة كانت موجودة على أرض (بابل). ومن المعروف جيدًا أن حياة الناس لم تتوقف في هذه الأجزاء من العالم القديم ولم يحدث إعدام وتدمير لكافة مظاهر الحياة والبشر انعدمت فيه الحياة البشرية برمتها كما تقول التوراة. (١)

خامسًا: نتيجة مؤسفة:

ونحن لا نستطيع بناء على الروايات الثلاث التي تقدمها لنا التوراة عن قصة الطوفان أن نعتبر أن هذه الروايات يمكن أن تمدنا بمعلومات يمكن وصفها بأنها أحداث تتفق مع الحقيقة. ونحن مضطرون أن نعترف – لو شئنا أن تكلم بموضوعية – أن النصوص التوراتية التي وصلت إلينا لا تمثل تعبيرًا عن الحقائق. ومن الضروري أن نسأل أنفسنا ما إذا كان من الممكن أن يكون الله قد أنزل كلامًا بالكتاب المقدس مناقضًا للحقيقة مخالفًا لها.

إن من العسير أن نتقبل فكرة أن الله قد أعلم الإنسان أفكارًا وآراء لم تكن خرافية فقط، ولكنها متناقضة بعضها مع بعض ومناقضة لحقائق العلم أيضًا ومن الطبيعي أن نصل إلى ضرورة افتراض حدوث عمليات تحريف قد حدثت من جانب الناس، ونشأت عن مأثورات بشرية، وخبرات بشرية، وأقوال بشرية مرت من جيل إلى جيل في تواتر شفهي، أو من تنتقل نص مكتوب لهذا التراث الديني الذي كان قد سبقه كتابته على نحو آخر.

وعندما يدرك الإنسان أن نصًا مثل نص سفر التكوين قد تم تعديل نصوصه مرتين على الأقل في غضون ثلاثة قرون، فكيف يدهش الإنسان حين يجد فيه أمورًا غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع حقائق الواقع. وإذا كان تقدم المعارف البشرية الحديثة لم يتح لنا معرفة كل شيء، فهو على الأقل قد أتاح لنا قدرًا من المعارف العلمية الصحيحة التي تمكننا من

(١) المصدر السابق ٦٩

الحكم على مدى اتفاق أو اختلاف هذه الروايات القديمة بين أجزائها وبين المعارف العلمية التي أتيحت لنا وليس شيء أكثر معقولية من هذا الافتراض لو شئنا تفسيرًا لوجود التناقضات والأخطاء في نصوص التوراة دون حاجة إلى المغالطات في النقاش.

وإنه لمن المؤسف حقًا ألا يعترف المعلقون والشراح للنصوص المقدسة بهذا التفسير سواء كانوا مسيحيين أو يهودًا. [1]

المبحث الثالث: موقف المفسرين المسيحيين من الأخطاء في نصوص الكتاب المقدس.

ولكي يتبين هذا الموقف لا بد من تقسيمه إلى العناصر الآتية:

١ - تمهيد.

٢- (الأب دي فو) عرض جيد وموقف سيء.

٣- سبل أخرى للتبرير.

٤ - دانييلو والمبالغة المكشوفة.

٥- إقرار آخر وتبرير:

٦ - جهودهم في التوفيق بعد الضيق الذي سببته هذه الأخطاء لهم:

١ـتمهيد:

إن الإنسان ليدهش عندما يرى ردود الفعل الطائشة من جانب المفسرين المسيحيين في محاولاتهم للدفاع عن هذه الأخطاء والمتناقضات والأمور غير المعقولة بالكتاب المقدس من ذلك:

١-أن بعضهم يضع يده ويتعرف على بعض هذه الأخطاء والمتناقضات ولا يترددون في التعامل مع هذه المسائل الشائكة.

٢-وبعضهم يمرون باستخفاف على المسائل غير المقبولة ويصرون على الدفاع عن نصوصها كلمة كلمة.

(١) المصدر السابق صـ٧٠.

٣-ويحاول آخرون أن يقنعوا الناس عن طريق التماس الأعذار لتبرير وجود هذه الأخطاء والمتناقضات بالكتاب المقدس باللجوء إلى مناقشات معقدة بعيدة عن الموضوع لصرف الانتباه عن صميم المشكلة على أمل أن ما يستحيل قبوله عقليًا ومنطقيًا سيتم نسيانه في خضم المعلومات المعقدة غير ذات الصلة بالموضوع.[١] وسوف نتعرض لذلك بالمثال.

٢ـ(الأب دي فو) عرض جيد وموقف سيء:

أ - مدى وقوفه على أخطاء الكتاب المقدس:

في مقدمة ترجمته لسفر التكوين يتعرف بنفسه ويعترف بوجود هذه المشاكل المحرجة في نصوص سفر التكوين بل إنه يتوسع في شرح أبعادها وتوضيح وجاهتها وخطورتها.

ب- موقفه من هذه الأخطاء: وبالرغم من ذلك نجد أنه يبني موقفه إزاءها على أساس أن محاولتنا استعادة أحداث الماضي بدقة لا أهمية له.

إنه يكتب على سبيل المثال في ملاحظاته هذه في مقدمته ما نصه كما يلي: (إن حقيقة أن الكتاب المقدس قد عرض أوصافًا لسيل واحد أو طوفان واحد مدمر وقع في وادي نهر دجلة ونهر الفرات أو أكثر من طوفان، وإذا كان وصف التوراة لهذا الفيضان قد اعتراه كثير من المبالغة والتضخيم خلال تناقل وصفه على توالي الأجيال ليتخذ في النهاية شكل كارثة عالمية، فإن هذا لا يهم[٢]، ولكن المهم هو جوهر المسألة ومغزاها الذي يتمثل في أن كاتب النصوص المقدسة في هذا الصدد قد قام بتوظيف[٣] هذه الرواية عن الطوفان لتكريس وتأكيد التعاليم الخالدة التي مؤداها هو عدل الله ورحمته إزاء خبث الإنسان

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث صـ ٧٢.

(٢) وما هو المهم إذن بعد نسبة المبالغة والتضخيم وعدم المصداقية لكلام ينسب إلى الله جل وعلا.

(٣) الله يسمح بتدخل البشر في صياغة كلامه أهذا لعجز! ! أم لمكانة وإذا كان لمكانته عند الله فلماذا لا يؤيده بالحق كما سمح له بالتدخل في صياغة كلامه ورسالته إلى البشر بدلًا من أن يتركه يتخبط ثم إلى أي مدى يسمح للبشر بالتدخل في تغيير كلام الله أقول لو كان حقًا كلام الله ما سمح بذلك سبحان الله وصدق الله إذ قال (لا مبدل لكلماته) الكهف ٢٧.

وعناده، ونجاة المؤمنين من غضبه وعقابه). [١]

ج - **التعليق**: وهكذا وبهذه الطريقة حاول الأب دي فو تبرير عملية تحويل الخرافات التي أدخلها الكتاب المقدس في روايته لأحداث الطوفان إلى حدث ذي أبعاد إلهية - ويغدو الأمر كما لو كان فكرة مناسبة وملائمة لإدماج الخرافة من أجل تقوية الإيمان وتوظيفها لتدعيم الإيمان لدى الإنسان متبعًا في ذلك مبدأ أن المؤلف قد استخدم الخرافة فيما يبدعه المؤلف من البشر لتصوير وإبراز وتجسيم التعاليم الدينية. إن هذا الموقف التبريري يتم اتخاذه من جانب المفسرين المسيحيين لتبرير وتمرير النصوص التي يفترض أنها نصوص مقدسة تقدم للناس كلام الله.

ولو أباح واستساغ الإنسان مثل هذا التدخل البشري الإنساني فيما هو إلهي يجوز تمرير كل ما اعتسفه وأدخله البشر من إضافات كلام الله في الكتاب المقدس بناء على قاعدة أن وجود مقاصد وأهداف ومعان دينية يبرر أي إضافات وأي تدخل وإدماج لكلام البشر في كلام الله، وتغدو هذه الإضافات البشرية إلى كلام الله مشروعة مقبولة في نظر المفسرين المسيحيين مما يجيز إضافات ما كتبه كهنة القرن السادس من عند أنفسهم وأضافوه إلى كلام الله في القرن السادس قبل الميلاد. بما في ذلك ما أضافوه من روايات وهمية لا أساس لها من الصحة كتلك التي شاهدنا فيما سبق من أمثلة لها.

د - بل و محاولة مستميتة لرد العلم وإغلاق العقول والأعين عن الحقائق: ويعطينا الأب دي فو في مقدمته لسفر التكوين الأسباب التي تضطره إلى الدفاع عن نصوص الكتاب المقدس في كل الأحوال والظروف بأي وسيلة، وبأي ثمن حتى ولو كانت غير مقبولة من الناحية التاريخية أو من الناحية العلمية. إنه يطلب منا ألا ننظر إلى التاريخ التوراتي بذات القواعد العلمية التي يستخدمها الناس[٢]، بالنسبة إلى التاريخ البشري في

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث ٧٢

(٢) الأصل أن لا يكون هناك أدنى تعارض بين أن يكون الكتاب المقدس روحاني يسمو بالإنسان وبين أن يتوافق مع العلم لأن الأصل هذا ينبني على كونه من عند الله الذي يرشد الخلق إلى مافيه صلاحهم في الدنيا

أيامنا الراهنة كما لو كانت هنالك معايير مختلفة لتمحيص حقائق التاريخ. إن التاريخ عندما تتم روايته بطريقة غير صحيحة لا يكون تاريخًا بل يغدو خيالًا وأوهامًا. ويتفق كل الناس على صحة هذا المبدأ. ولكن التاريخ الذي يريده الأب دي فو بالنسبة التوراة لا ينبغي – من وجهة نظره – أن يخضع للمعايير والمقاييس والقواعد المتفق عليها كشروط لصحة سرد الوقائع التاريخية.

إن مفسر التوراة يرفض أي تمحيص لما تسرده التوراة من خلال حقائق علم الجيولوجيا أو حقائق العلوم التي تبحث تطورات الحياة في العصور الجيولوجية.

إن التوراة كما يقول الأب دي فو لا تأبه بأي من هذه الدراسات العلمية.

إذا أردنا أن نربط نصوص التوراة وننظر إليها في ضوء مثل هذه العلوم فلقد ننتهي إلى تعارض أو إلى توافق مصطنع.

وجدير بالذكر أن نلاحظ أن هذا الدفع وهذا التبرير الذي يلجا إليه الأب دي فو إنما يتعلق بالتناقضات الموجودة بسفر التكوين على وجه خاص في الأحد عشر أصحاحًا الأولى منه.[١]

هـ – ماذا لو كان العلم مؤيدًا للنصوص المقدسة غير معارض:

ولكن لو كانت أي حقيقة علمية يتم الكشف عنها تؤيد وتبرهن على صحة أي حقيقة من حقائق الكتاب المقدس يتم الترحيب بها وتتخذ دليلًا على مصداقية وصحة محتويات الكتاب المقدس كله ولا يتردد المفسر في الاستشهاد بمثل هذه المعارف العلمية الحديثة لمساندة حقائق التوراة وفي ذلك وفي مثل هذه الحالات يقول الأب دي فو بالحرف الواحد: (إن الشكوك التي غيمت وأحاطت بهذه النصوص التوراتية قد انقشعت وزالت

والدين والذي خلق العلم ولا تخفى عليه خافية فإن زعموا غير ذلك فإنا نرد بعون الله تعالى، إن الوحي الإلهي لا يخطئ تاريخيا" أو علميا"، فإن كان هناك تعارض مع العلم في كتاب ينسب لله تعالى فإن مصداقية هذا الكتاب تكون مشكوك فيها، وعندما تتعارض محتويات الكتاب مع حقائق علمية مؤكدة (وليس نظريات علمية)، فإن هذا يثبت التلاعب والإضافات في هذا الكتاب.

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث ص٧٥.

بفضل الاكتشافات التاريخية والاكتشافات التي تمت في إطار علم الآثار الشرقية) وبعبارة أخرى يمكن القول: لو كان العلم مفيدًا في تأييد إحدى روايات التوراة فلا بأس في ذلك، أما إذا دحضت حقائق العلم إحدى روايات التوراة فإن الرجوع إلى هذه الحقائق العلمية غير مقبول وغير مسموح به.

٣ـ سبل أخرى للتبرير:

ويدأب عدد كبير من المفسرين المسيحيين على تفسير الأخطاء والأمور غير المعقولة وتقديم تناقضات التوراة اعتمادًا على مقولة أن كتاب نصوص التوراة إنما كانوا متأثرين بثقافتهم الخاصة وأفكارهم المستمدة من حياتهم الاجتماعية والمتسقة مع العوامل المختلفة التي كانت تشكل وتكون ثقافتهم وعقليتهم[١] ومن هنا نشأ الاصطلاح الذي يطلق عليه اسم (الأنماط الأدبية الخاصة) وأفضى إدخال هذا الاصطلاح في مناقشات أولئك المفسرين إلى حل كل المشاكل والتناقضات والصعوبات[٢]. ورغم أن هذه الطريقة لا يلجأ إليها كل المفسرين فهي لا تزال مستخدمة حتى اليوم.

وهناك طريقة أخرى لتبرير وتمرير النصوص التي يأباها المنطق ولا تتسق مع المعقولية وهي إغراق هذه النصوص في فيض من المديح والمبالغة في بيان ظروف هذه النصوص والاستطراد في معان بعيدة عن النص لتشتيت انتباه السامع أو القاريء عن وجوه وأسباب التناقض إلى معان ونواح أخرى.

٤ـ دانييلو والمبالغة المكشوفة:

إن تأملات وملاحظات الكاردينال دانييلو عن الطوفان تتبع هذه الطريقة – أي إغراق النصوص في فيض من المديح والمبالغة –. لقد ظهرت هذه التأملات في مجلة (الله حي) تحت عنوان (الطوفان والتعميد والحكم) حيث يكتب مانصه: (إن تقاليد الكنيسة القديمة قد وجدت في قصة الطوفان صورة المسيح والكنيسة) ويكتب أيضًا ما نصه: (إن

---

(١) من هم وما مدى علمهم وما دخل الثقافة والبيئة المحيطة في دقة نقل كلام الله للناس

(٢) قلت غطاء منمق للتحريف وإزالة ما يفضح

الطوفان حدث ذو جلالة عظيمة إنه حكم يصيب الجنس البشري كله) ولقد تأثر في ذلك بكتابات أوريجن في مواعظه عن حزقيال عندما تحدث عن حطام السفينة التي أنقذت العالم كله، ثم يستطرد الكاردينال دانييلو في بيان أهمية وقيمة الرقم ثمانية (٨) وهو الرقم الذي ذكرت التوراة أن الله قد أمر سيدنا نوحًا أن يأخذ معه في السفينة من كل نوع من أنواع الموجودات وهو أيضًا الرقم الذ يحدد عدد البشر على السفينة (باعتبار أنهم نوح وزوجته وأبناؤه الثلاثة وزوجاتهم) ويستعير دانييلو أيضًا ما سبق أن كتبه أيضًا جوستين في (المحاورة) عندما قال إن العدد (٨) يرمز أيضًا إلى اليوم الثامن (عندما قام المسيح من بين الموتى) ويقول أيضًا (ولقد كان نوح وهو أول من كتبت له الحياة بعد الطوفان صورة حية معبرة عن الدور الذي أداه المسيح في حقيقة حياة البشرية).

وتستمر المقارنة ويستمر الاستطراد في المقارنة بين سيدنا نوح الذي نجا وأنقذه البشرية من الهلاك بواسطة السفينة المصنوعة من الخشب الشبيه بخشب الصليب وطفت وعامت السفينة فوق الماء الشبيه بماء التعميد الذي ينقذ البشر من الهلاك من الجهة الأخرى، ويمكن أن يقال الكثير عن مثل هذه المقارنة.

وينبغي أن نتذكر أنها تعليقات على حادثة لا يمكن الدفاع عنها كحقيقة، سواء تعلقها بالعالم كله أو تعلقها بالوقت الذي وقعت فيه حادثة الطوفان، كما تحدد التوراة زمان حدوث الطوفان.

إن تعليقات الكاردينال دانييلو ترجع بنا إلى العصر الوسيط حيث كانت نصوص التوراة يتم قبولها دون أي مناقشة حيث كانت المعقولية معدومة الصلة بالنصوص.[1]

٥ـ إقرار آخر وتبرير:

ومع ذلك نجد بعض الكتابات المشجعة في ظلمات العصر الوسيط مثل كتابات القديس أوغسطين التي نبعت من تفكيره الشخصي المستقل المستنير الذي انفرد بالتقدم

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث ٧٣-٧٤.

بالنسبة للعصر الذي عاش فيه القديس أوغسطين.

ومما لا شك فيه أن عصر آباء الكنيسة قد عرف مشاكل تتعلق بنقد النصوص إذ أننا نجد أن القديس أوغسطين يتحدث عن إحدى هذه المشكلات في خطابه رقم (٨٢) وعلى وجه الخصوص نجد ذلك في الفقرة التالية من هذا الخطاب إذ يقول فيها القديس أوغسطين ما نصه كما يلي: (إن الكتب المقدسة المعروفة باعتبار أنها وحدها هي الكتب القانونية هي الكتب التي تعلمت أن أوليها التفاتًا واحترامًا، وأعتقد أن محرريها لم يرتكبوا أي أخطاء في تحريرها. وعندما أصادف في أحدها كلامًا مناقضًا للحقيقة لا يخالجني أي شك في أن خطًا ما قد اعترى النسخة التي أجدها في يدي أو أن المترجم لم يكن دقيقًا أمينًا في الترجمة أو أن القصور إنما هو في قدرتي أنا على الفهم).

لم يكن من المعقول في نظر القديس أوغسطين القبول بأن النصوص المقدسة تحتوي على أخطاء.

كان القديس أوغسطين يؤمن تمامًا بعقيدة (عصمة النصوص المقدسة من الخطأ)، ولكنه كان يقر أيضًا ويعترف أيضًا بوجود أخطاء ومتناقضات في النصوص المقدسة، فيرجعها إلى أسباب إنسانية محضة.

وهذا المنحنى الذي نحاه القديس أوغسطين إنما هو منحى إنسان مؤمن يتمتع بحاسة نقدية سليمة في الوقت نفسه.

وفي عصر القديس أوغسطين لم تكن حقائق العالم من الوضوح والذيوع بحيث يظهر تناقضها مع نصوص الكتاب المقدس. وكانت رؤية مرنة واسعة الأفق مثل رؤيته لمبررات عدم المعقولية في بعض النصوص المقدسة كافية لتبرير وتسطيح كثير من المشكلات التي تثار في أيامنا الراهنة عند مقابلة بعض نصوص التوراة بحقائق العلم. [1]

ولا يزال مفسرو الكتاب المقدس في أيامنا الراهنة يجتهدون في الدفاع عن نصوص التوراة أمام أي اتهام بالخطأ.

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث صـ٧٥.

٦ـجهودهم في التوفيق بعد الضيق الذي سببته هذه الأخطاء لهم:

وللتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق وبين الاعتقاد السائد بين مفسري الكتاب المقدس ومؤداه هو الصدق المطلق لكل نصوص الكتاب المقدس على الرغم من ظهور ووضوح التناقض فيما بينها من جهة وفيما بينها وبين الحقائق العلم من جهة أخرى، اجتهد علماء اللاهوت المسيحي في تعريف الحقيقة والتصورات الكلاسيكية للحقيقة وليس متاحًا في بحثنا هذا أن نعرض لكل تفاصيل الدراسات اللاهوتية المتصلة بموضوع (الحقيقة في التوراة) مثل تلك الدراسة التي قدمها أ. لورتز عام ١٩٧٢ تحت عنوان (ما هي حقيقة التوراة) وهي الدراسة التي أصدرتها دار سنتريون في باريس ويهمان فحسب بهذا الصدد أن نشير إلى رأي مؤلف هذه الدراسة فيما يتعلق بحقائق العلم.

يلاحظ مؤلف كتاب (ما هي حقيقة التوراة) أن المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان قد حذر من إعطاء رجال الدين المسيحي أي قواعد أو أحكام للتمييز بين الخطأ والحقيقة في التوراة حيث إن هناك اعتبارات أساسية تشير إلى استحالة هذا التمييز بين الخطأ والحقيقة، ولا تستطيع الكنيسة أن تتخذ قرارًا تحسم به الرأي بشأن صحة أو خطأ المناهج العلمية بحيث تحل بشكل عام مشكلة الحقائق والأخطاء في الكتاب المقدس.

ومن الواضح أن الكنيسة لا تستطيع أن تصدر تقييما صحيحا عن قيمة المنهج العلمي كوسيلة للوصول إلى المعرفة ولكن المسألة إنما هي شيء آخر تمامًا. إن المسألة هنا لا تتعلق بالنظريات العلمية ولكن المسألة في حقيقة الأمر تتصل بالحقائق العلمية الثابتة فعلًا في يومنا هذا، وفي عصرنا هذا ليس من الضروري أن يكون الإنسان متعمقًا في العلوم الوضعية ليعرف أن العالم لم يخلق من عدم منذ سبعة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين قرنا مضت. إننا نعرف معرفة يقينية أن الإنسان لم يكن قد بدأ في الظهور على سطح الأرض آنذاك، وأن ترتيب الأدوار الجيولوجية التي بنى على أساسها هذا الترتيب التوراتي قد ثبت بطلانه بما لا يدع مجالًا لأي ريب. ولقد كان من الضروري لمؤلف كتاب (ما هي حقيقة التوراة؟) أن يعي مثل هذا الاعتبار على سبيل المثال لا الحصر.

إن ما يقوله مؤلف هذا الكتاب بشأن العلم إنما هو محاولة من جانبه لتنحية حقائق العلم حتى لا تكشف التناقض والخطأ في بعض نصوص التوراة يتضح لنا مدى ضيقهم وضجرهم إزاء حقائق العلم مما يفضي إلى استحالة الدفاع عن هذه الأخطاء التوراتية دفاعًا منطقيًا مقنعًا فيما عدا اللجوء إلى القصور البشري، والادعاء بأنهم الممثلون الشرعيون لجزء من الوحي الإلهي.

إن هذا الضيق الذي يعتري الأوساط المسيحية فيما يتعلق بشأن الوحي الإلهي (في التوراة) كان واضحًا جدًا في المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان (١٩٦٢-١٩٦٥) بحيث إنه قد تطلب تجريب ما لا يقل عن ٥ صياغات، حتى اتفقوا على النص النهائي لقرارهم بعد ثلاث سنوات من المناقشات حتى ينتهوا من (هذا الوضع المؤلم الذي كان يهدد بسحب الأرض من تحت أقدام المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان) على حد تعبير صاحب القداسة الأسقف فيبر في مقدمته التي كتبها للوثيقة المسكونية الرابعة من الوحي الإلهي في التوراة.

وهنالك جملتان وردتا في هذه الوثيقة الخاصة بالوحي الإلهي في التوراة، وردتا في الفصل الرابع ص ٥٣، وتشير هاتان الجملتان إلى وجود شوائب في بعض النصوص مما يفضي إلى بطلانها بشكل لا يسمح بأي معارضة لهذا البطلان ومع ذلك تسبغ عليها هالة من الألوهية والقداسة عندما تقول بالحرف الواحد (وبالنظر إلى موقف الناس من الخلاص قبل مجيء المسيح فإن العهد القديم (التوراة) إنما يمكن كل الناس أن يعرفوا من هو الله؟ ومن هو الإنسان؟ وكيف تصرف الله بعدله ورحمته نحو الإنسان؟ وأسفار العهد القديم مع أنها تحوي مادة لا تبلغ حد الكمال وبها شوائب يعتريها البطلان فهي تحوي أيضًا ما يدل على أنها تعاليم إلهية حقيقية).

وليس هناك تعبير أكثر حسمًا من هذا التعبير الوارد في هذه الوثيقة مستخدمًا كلمات مثل (عديم الاكتمال) وكلمات مثل (ظاهر البطلان والخطأ) ليتضح الانتقاد الذي ينبغي أن يفضي إلى نبذ القبول بمحتوى هذه النصوص. إن مبدأ وجوب نبذ هذه النصوص قد

تم الاعتراف به بكل وضوح.

إن هذا النص إنما هو جزء من وثيقة رسمية أعلنها مؤتمر لرجال الدين المسيحي وتم التصويت عليها وصدرت عن المؤتمر الفاتيكاني المشار إليه بأغلبية ٢٣٤٤ صوتًا ضد ستة أصوات فقط عارضت إصداره.

ولو عن لأحد أن يتشكك في هذا القرار الصادر بمثل هذه الأغلبية لقطع الشك باليقين ما حرره أصحاب القداسة (الكاردينال ويبر) مصاغًا في الجملة التي كتبها يقول فيها بهذا الصدد ما نصه كما يلي: (إن أسفارًا معينة في التوراة اليهودية موجودة بالتوراة في الوقت الحالي وبها شوائب تنتقص مصداقيتها).

لقد ورد تعبير (ظاهر البطلان والخطأ) في صلب الوثيقة الفاتيكانية وورد تعبير (التوراة اليهودية في الوقت الحالي بها شوائب تنقص مصداقيتها) ربما تحاول الإيهام بأن هذا الاتهام إنما يلتصق فقط بالتوراة في نصوصها العبرية باعتبار أن النص العبري من التوراة فقط هو موضوع ذلك القرار الذي يدمغ بعض نصوصها بالنقص والبطلان والخطأ. [1].

---

(١) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث ٧٧-٧٨.

ثم ننقل من مجلة المنار من (شبهات التاريخ على اليهودية والمسيحية)ولما قام الفيلسوف تولستوي الروسي يفند تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية، ويبين بطلان الديانة المسيحية - انتصر له المتعلمون للعلوم والفنون حتى تلامذة المدارس وتلميذاتها، فهذا هو شأن الديانة المسيحية كلما ازداد المرء علمًا ازداد عنها بعدًا؛ وإنما كانت أوربا مسيحية أيام كانت في ظلمات الجهل والغباوة، وبعكسها الديانة الإسلامية هي حليفة العلوم، وقد كانت أمتها في عصور المدنية والعلم أشد تمسكًا بالدين، وصارت تبعد عن الدين كلما بعدت عن العلم.

الباب الخامس: متفرقات تتعلق بالعقيدة النصرانية.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أسرار الكنيسة السبعة

وقبل المناقشة التفصيلية لهذه الأسرار السبعة، ومعرفة أصلها، وتكوينها، وكيف تتم حسب الملة النصرانية، نحب أن نعرف ببعض التعريفات الخاصة بها، والتي تعتبر كمقدمة وتمهيد لما نريد التعرض له.

أولًا: معنى كلمة سر:

لكلمة " سر " في الكتاب المقدس ثلاثة معان:

١- المعنى المعروف والمشهور، وهو " الشئ المستتر"، كما في قوله " ٩وَعَمِلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ سِرًّا " (ملوك (٢) ١٧/ ٩)، وقوله " وَلاَ تُبِحْ بِسِرِّ غَيْرِكَ " (أمثال ٢٥: ٩).

٢- ويراد بها أيضًا كل شئ مقدس وغير منظور، كما في الفقرات الآتية:

" ١٤سِرُّ الرَّبِّ لِخَائِفِيهِ " (مزمور ٢٥/ ١٤)، " لِدَانِيآلَ كُشِفَ السِّرُّ " (دانيال ٢/ ١٩)، " يُعْلِنُ سِرَّهُ لِعَبِيدِهِ الأَنْبِيَاءِ " (عاموث ٣: ٧).

٣- وتأتي الكلمة أيضًا بمعنى " رمز أو إشارة أو علامة " كما في قوله في سفر الرؤيا (١٧/ ١- ٧) من وصف الزانية الجالسة على المياه: "٥وَعَلَى جَبْهَتِهَا اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «سِرٌّ. "، وقال الملاك " أَنَا أَقُولُ لَكَ سِرَّ الْمَرْأَةِ ".

ثانيًا: تعريف السر الكنسي:

أما أسرار الكنيسة فقد جاءت في الكتاب بمعنى مواهب أو أعطيات ولها علامات تشير إلى أمور مقدسة خفية.

مثال ذلك قول بولس عن الزواج "٣٢هذَا السِّرُّ عَظِيمٌ، وَلكِنَّنِي أَنَا أَقُولُ مِنْ نَحْوِ الْمَسِيحِ وَالْكَنِيسَةِ. " (أفسس ٥/ ٣١) ومعنى ذلك أن الاتحاد المحسوس بين الرجل وزوجته علامة أو رمز إلى أمر روحي مكنون هو وحدة القلب والروح التي تشبه اتحاد المسيح والكنيسة.

فالسر الكنسي إذن معناه نعمة غير منظورة نحصل عليها بممارسة طقس ظاهر ذي علاقة بها على يد كاهن شرعي.

ثالثا: شروط إتمام السر:

١- مادة ملائمة للسر كالماء للمعمودية، والخبز والخمر لسر الشركة، والزيت للمسحة وهكذا.

٢- كاهن مشرطن قانونيا بوضع اليد.

استدعاء الروح القدس من الكاهن بالعبارات المعينة لتقديس السر لحلول الروح القدس. (١)

رابعًا: مفعول الأسرار:

اختلف النصارى حول مفعول الأسرار، هل لها قوة ذاتية تمنح فاعليها الخلاص والنعمة، أم أنها رموز مقدسة للدلالة على الخلاص والنعمة؟

الأرثوذكس والكاثوليك يعتقدون أن الأسرار تمنح فاعليها النعمة بذاتيتها وقوتها.

يقول حبيب جرجس: " إن الأسرار تمنح النعمة من ذاتها وبقوتها، فبها يتطهر الإنسان ويولد ثانية ويتجدد وتغفر خطاياه، وبها يقبل الروح القدس، وبها يتحد مع المسيح ويثبت فيه ويحيا إلى الأبد "(٢)

أما الإنجيليون فيعتقدون أنها رموز للدلالة على نعمة الله.

ففي علم اللاهوت النظامي: " فالأسرار تعني في نظر الكنيسة الإنجيلية رموزا مقدسة، وختوم عهد النعمة أقامها الله للدلالة على المسيح وفوائده، ولإثبات نصيبهم فيه. وأيضًا لوضع فرق ظاهر بين أعضاء الكنيسة وسائر العالم، ولأجل ربطهم بخدمة الله في المسيح حسب كلمته.

والأسرار تصير وسائط فعالة للخلاص ليس بقوة في ذاتها ولا في خادمها، ولكن بمجرد بركة المسيح وفعل روحه القدس في الذين يقبلونها بالإيمان. (٣)

خامسًا: التأثر بالأديان الوثنية في إطلاق كلمة السر على الشعائر:

يقول فهيم عزيز: " السر ترجمة للكلمة اليونانية (Musterion) وهي تعني في

---

(١) انظر: أسرار الكنيسة السبعة، حبيب جرجس (٥، ٦، ١٤).

(٢) المصدر السابق (١٣).

(٣) علم اللاهوت النظامي (١١٣٦).

استعمالها اليوناني الأصلي الطقوس السرية والتعاليم المختصة بها لتفسيرها وكيفية إقامتها، وقد ارتبطت هذه الكلمة بالديانات السرية حيث كان يقوم الشخص ببعض الطقوس ويستلم بعض التعاليم السرية، وبذلك يصبح الشخص كاملا أو روحيا "(١)

سادسًا: عدد الأسرار:

عددها سبعة لتكون موافقة ومناسبة لحاجات الإنسان في هذه الحياة، وهي:

١- سر المعمودية

٢- سر المسحة المقدسة أو الميرون

٣- سر الشكر أو الافخارستيا.

٤- سر التوبة.

٥- سر مسحة المرضى.

٦- سر الزيجة.

٧- سر الكهنوت.

وليس في الكنيسة أكثر أو أقل من هذه الأسرار.

ونحاول الآن التعرف على حقيقة هذه الأسرار بشئ من التفصيل، مع مقارنة سر التعميد والتناول بالديانات الوثنية لأنهما هما السران المتفق عليهما بين الأرثوذكس والإنجيليين.

أولًا: سرالمعمودية

أهميته:يقول حبيب جرجس: " ولسر المعمودية الرتبة الأولى بين الأسرار المسيحية لأنه بمثابة باب يدخل منه المسيحي إلى الكنيسة وملكوت النعمة طبقا لما جاء في إنجيل يوحنا " إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ الله. " (٣/ ٥)، ولذلك يمنح هذا السر للمؤمن قبل أي سر آخر. ومن لا يقبله فلا حق له في الاشتراك في باقي الأسرار. (٢)

---

(١) الفكر اللاهوتي في رسائل بولس (٤٥).

(٢) أسرار الكنيسة السبعة (٢٢).

والمعمودية كلمة معربة من الكلمة السريانية (معموديتو) ومعناها الغسل لأجل التطهر ومن كلمة المعمودية اشتقت كلمتا (اعتمد) و(عماد) وغيرهما. [١]

أسماؤه: وقد أطلق النصارى على سر المعمودية أسماء كثيرة:

يقول حبيب جرجس: " وبناء على مفاعيله باعتبار طقسه المنظور دعي حميمًا، وينبوعًا مقدسًا، وبالنظر إلى نتائجه غير المنظورة، دعاه الآباء ولادة جديدة، وتقديسًا وختم الإيمان، وختم الدين المسيحي، وحميم الخلاص، والولادة الثانية، حميم الحياة، وماء الحياة الدائمة، وهكذا من الأسماء الدالة على تأثيراته ومنحه "[٢]

أصل هذه الفريضة عند النصارى:

يذكر النصارى أن هذا السر بدأ منذ يوحنا المعمدان الذي يقولون عنه إنه كان يعمد الناس حتى إنه عمد المسيح نفسه.

ويقول الأستاذ أنيس الصائغ: " ولما جاء يسوع تبنى هذا الطقس وجعله فريضة في الكنيسة المسيحية "[٣]

والقول بأن يوحنا المعمدان كان يعمد بأمر إلهي قول ينظر إليه بمزيد من الحذر خاصة وأنه لم يرد في العهد القديم[٤]، ولا في أي مصدر آخر سوى الأناجيل، وهي ليست المصدر العلمي الموثوق به الذي يمكن الأخذ بأقواله على أنها صحيحة وحقيقية.

هذا إلى جانب أن معمودية يوحنا – على فرض أنه كان يعمد – تختلف عن معمودية النصارى؛ فيوحنا المعمدان – كما جاء في أناجيلهم – كان يعمد لأجل التوبة (متى ٣/ ١١) أما معمودية النصارى فلها غاية أخرى كما سيتبين فيما بعد.

أما الاستناد إلى ما جاء في إنجيل متى من أن المسيح أمرهم بالتعميد، فهذا القول أمر

---

(١) الكهنوت الطقسي في ضوء الوحي والتاريخ، عوض سمعان (٣٨)

(٢) أسرار الكنيسة السبعة (٢٢).

(٣) قاموس الكتاب المقدس (٦٣٧).

(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، القرطبي (٤٠٣)

به المسيح – في نظرهم – بعد صلبه وموته وقيامته من القبر، وهي أمور تبين بالأدلة أنها باطلة، وما بني على باطل فهو باطل خاصة وأن المسيح عليه السلام لم يعمد أحدا في حياته.(١)

وقت التعميد:

لم يتفق المسيحيون على وقت معين للتعميد.

(أ) فبعضهم يعمد الشخص في طفولته حتى ينشأ الطفل المسيحي مبرأ من الذنوب، وهذا هو الغالب.

(ب) وبعضهم يعمده في أي وقت من حياته.

(ج) والبعض الآخر يجري التعميد والشخص على فراش الموت بحجة أن التعميد إزالة للسيئات وتطهير من الذنوب.(٢)

نصوص التعميد:

جاء في إنجيل متى (٢٨/ ١٨ – ٢٠): " ١٨فَتَقَدَّمَ يَسُوعُ وَكَلَّمَهُمْ قَائِلًا: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ، ١٩فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. ٢٠وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ». آمِينَ. "

غاية المعمودية في نظر النصارى:

اختلف النصارى حول غاية المعمودية، وذلك بناء على اختلافهم حول مفعول الأسرار.

فالتعميد في نظر الإنجيليين رمز أو علامة خارجية للمواعيد الإلهية فليس لها أي فعل داخلي تحدثه في النصراني.

أما الأرثوذكس والكاثوليك فيرون أن العميد شركة حقيقية مع المسيح، فالإنسان الذي يغطس تماما تحت سطح الماء يشبه إنسانا مات مع المسيح، وعندما يخرج من الماء فذلك يشبه القيامة مع المسيح فهو يخرج إنسانا جديدا لحياة جديدة"(٣)

---

(١) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، أحمد على عجيبة (٥٩٨ – ٥٩٩).

(٢) النصرانية والإسلام، محمد عزت الطهطاوي (٦٢).

(٣) انظر: علم اللاهوت النظامي (١٠٧٤)، تفسير أعمال الرسل (١١٤).

فالمعمودية في نظرهم موت، ودفن، وقيامة مع المسيح إلى حياة جديدة. [١]

هذا إلى جانب أن التعميد – في نظرهم – يمحو الخطيئة الأصلية، ويمحو لدى البالغ الخطايا الشخصية ويفي ما يتوجب عليه من ديون ويحدث فيهم الموت عن الخطيئة. [٢]

كما أنها – أي المعمودية – في نظرهم " ضرورية جدا للخلاص وبدونها لا يمكن للإنسان أن يخلص "[٣]

فالمعمودية في نظر الأرثوذكس والكاثوليك ليست إشارة أو رمزا ولكنها عمل – كما يقول حبيب جرجس – يترك أثرا في النفس هو التطهير ومغفرة الخطايا والولادة الثانية. "[٤]

ويستفاد من هذه الأقوال أن التعميد وحده كاف في محو الخطايا وغفران الذنوب، وإذا كان الأمر كذلك فإننا نقول للنصارى لا حاجة إذن لصلب المسيح وموته وذلك لاستقلال التعميد بالخلاص ومغفرة الذنوب ومحو الخطايا.

كيف تتم المعمودية؟

اختلف النصارى أيضًا حول الكيفية التي يتم بها التعميد:

هل تتم بالتغطيس أو بالرش والسكب؟

اعتادت الكنيسة الإنجيلية رش الماء – وهو رأي الأغلبية – وبعضهم يفضل التغطيس بل يحسبه ضروريا للمعمودية، وبعضهم يرى أن الرش أو السكب مستحسن. [٥]

أما الأرثوذكس فيرون أن المعمودية لا تتم إلا بالتغطيس في الماء بواسطة رجال الكنيسة ويلزم أن يكون التغطيس ثلاث مرات.

والكاثوليك يرون أنها تكون بالتغطيس أو بالغسل أو بالرش. [٦]

---

(١) المعمودية في الكنيسة الواحدة (٢٩).

(٢) المسيح حياة نفس (٢٠٤).

(٣) خلاصة الأصول الإيمانية (٧٦)، أسرار الكنيسة السبعة (٢٦).

(٤) أسرار الكنيسة السبعة (٢٧).

(٥) علم اللاهوت النظامي (١٠٧٦).

(٦) انظر: تأثر المسيحية بالأديان الوضعية (٦٠١ – ٦٠٢).

ويقول الأستاذ/ محمد مجدي مرجان (الذي كان نصرانيا وأسلم) وطريقة العماد في الكنائس هي نفس طريقة يوحنا، صنعوا بئرا أو بركة صغيرة في كل كنيسة على غرار نهر الأردن الذي كان يعمد يوحنا الناس فيه، وملئوا البركة بالماء، فإذا احتاجوا لتعميد شخص لتنصيره سواء أكان طفلا حديث الولادة ولد لأبوين مسيحيين أم كان رجلا أو امرأة اعتنقت المسيحية حديثا، فإنه يخلع ملابسه ويصير عاريا كما ولدته أمه، ثم يأتي الكاهن ومساعده ويحملونه ويضعونه داخل البئر ويقومون بتغطيسه بأكمله ثلاث مرات في البحيرة حتى يتطهر من دنس الحمل وخطيئة الميلاد ويصير مباركًا. [١]

تأثر النصرانية بالأديان الوضعية في التعميد:

يقول كمال الدين " قد شوهد أن كل ما في الطقوس والنظامات الرسمية للديانة الوثنية قد أدخل على دين عيسى النقي الطاهر ". [٢]

ويقول شارل جنيبير: " إلا أنه لا مجال للشك في أن الروح الوثنية فيما يختص بمظاهر العبادة العملية قد فرضت على النصرانية شيئًا فشيئًا حتى أصبحنا نجدها كاملة في احتفالاتها ". [٣]

والتعميد كان من أهم الشعائر المنتشرة بين الوثنيين وقت وقبل ظهور المسيحية بآلاف السنين.

يقول لندي: " إذا تصفحنا التاريخ نرى طقس العمادة قديم العهد جدا، فقد كان شائعا في آسيا وأمريكا وكان البرازيل يعمدون أولادهم الذكور والإناث في الهيكل المدعو (هيكل الصليب) يصب الماء من إبريق وكان يدعون ماء العمادة: ماء الولادة الثانية ". [٤]

وقد أشار كثير من العلماء الأوروبيين إلى أن التعميد كان منتشرا منذ عهد قديم في بلاد كثيرة، فكانوا عندما يعمدون الأطفال في الهند ومنغوليا والتيبت ... "[٥]

---

(١) المسيح إنسان أم إله (٤٥ - ٤٦).

(٢) ينابيع المسيحية (٣٩).

(٣) المسيحية نشأتها وتطورها (١٢٦).

(٤) العقائد الوثنية (١٢٨).

(٥) المصدر السابق (١٢٥).

وسنرى ذلك عند الأمم الوثنية واحدة تلو الأخرى:

١ـ التعميد عند المصريين:

يقول زكي شنودة: " وكان المصريون يستعملون الغسل أو الرش بالماء المقدس وهو طقس يشبه العماد عند المسيحيين ". (١)

وكان المصريون يعتقدون أن من يعمد تحصل له الولادة الثانية ويحصل على النعيم الأبدي – وذلك كما يعتقد النصارى في التعميد.

يقول جون لويمر: " ففي عبادة إيزيس كان العضو يولد من جديد عندما يستحم في المياه المقدسة ". (٢)

٢ـ التعميد عند الفارسيين:

وقد وجد التعميد عند الفارسيين القدماء، حيث كانوا يأخذون أولادهم إلى الهياكل بعد الولادة ببضع أيام، ويسلمونهم للكاهن عند صنم الشمس، فيغمسه في إناء مملوء ماء، ثم يسمونه بما يريدون من الأسماء. (٣)

وكان التعميد واحدًا من طقوس ديانة (مثرا) الفارسية، وكان التعميد في هذه الديانة يتم عن طريق الاستحمام في دماء ثور، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن مثرا قدم ثورا ذبيحة وذلك لتخصيب الأرض. (٤)

٣ـ التعميد عند الهنود:

ذكر كثير من الباحثين أنه كان لدى البرهميين القدماء عادة تشبه ما يقوم به المصريون والفرس من طقوس وهي العمادة بعينها، وحين إجرائها يصلون ويتوسلون للشمس، ومن بعد قسم الأيمان المغلظة من المعمد على أداء الطاعة التامة للكهنة وحفظ الأسرار والنظافة على جسده يرشونه بالماء ثلاث مرات، ويخاطبونه بما يوافق المقام، ويعدون الرش

---

(١) تاريخ الأقباط (١/ ٣٧).

(٢) تاريخ الكنيسة (١/ ١٩).

(٣) العقائد الوثنية (١٢٦).

(٤) انظر: معالم تاريخ الإنسانية (٣/ ٧٠٩).

بالماء (الخلق الجديد) ويلبسونه ثوبًا خصوصيًا وإكليلًا، ويرسمون على جبينه صليبًا ويضعون على صدره صليبًا. . . .[(١)]

٤ـ التعميد عند اليونانيين:

وكان التعميد أيضًا واحدا من طقوس الأديان اليونانية أيضًا.

ففي الديانة الأليوسيسة كان من يريد الدخول في هذا الدين يقوم بالاستحمام في الخليج ليتطهر من الدنس الجسمي والروحي.[(٢)]

وفي الديانة الأورفية كان التعميد واحدا من أهم طقوسها حتى لقد اعتقد بعض الباحثين أن المسيحية استمدت هذا السر منها.[(٣)]

٥ـ التعميد عند الرومانيين:

وكان الرومانيون الوثنيون أيضًا يقومون بطقوس التعميد وما شابهها " فكانوا يعمدون أولادهم بالماء ويعتقدون أن العمادة واسطة لإزالة الخطايا، وكانوا يعمدون أولادهم على اسمها وبركتها. . . ، ويدعون ماء العمادة (الماء المقدس)، ومن بعد العمادة يعطي الكاهن أبوي الطفل ورقة شهادة على أن ولدهما عمد وخلق ثانية، ثم لهم الحق بعد ذلك أن يعدونه من العائلة ويتخذون هذا اليوم عيدا عظيما. "[(٤)]

ثانيًا: سر التناول (العشاء الرباني)

وهو يرمز إلى عشاء عيسى الأخير مع تلاميذه وحوارييه إذ اقتسم معهم الخبز والنبيذ.

تعريفه: له تعريفات مختلفة تبعا لاختلافهم حول غاية العشاء الرباني.

فالإنجيليون يعرفونه: بأنه سر يدل على موت المسيح بإعطاء خبز وخمر وقبولها حسبما رسم المسيح، والقابلون باستحقاق يتناولون جسده ودمه مع جميع فوائده لا تناولا جسميا

---

(١) العقائد الوثنية (١٢٥ – ١٢٦).

(٢) قصة الحضارة مجلد ٢ (١/ ٣٤٢)

(٣) تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثاني) (١٣).

(٤) العقائد الوثنية (١٢٧).

جسديا بل تناولا روحيا بالإيمان. [١]

أما الكاثوليك فيعرفونه بأنه سر حضور ربهم يسوع حضورا حقيقا بجسده ودمه ونفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر.

والخبز في نظرهم يتحول إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه. [٢]

أما الأرثوذكس فيعرفونه بتعريف يشبه تعريف الكاثوليك وذلك لأنهم متفقون في الغاية من العشاء الرباني.

يقول حبيب جرجس: " سر مقدس به يأكل المؤمن – المسيحي – جسد المسيح الأقدس ويشرب دمه الزكي تحت أعراض الخبز والخمر". [٣]

والخلاصة: أن الإنجيليين يرون أن حضور المسيح وقت تناول العشاء الرباني حضورا روحيا، أما الكاثوليك والأرثوذكس فيرون أن المسيح يحضر هذا السر – وقت الاحتفال به – حضورا حقيقيًا، وأن الخبز يتحول إلى جسد المسيح، والخمر يتحول إلى دمه تحولا حقيقيا، " وذلك أمر غريب في العقل، لا يستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهولة بل لا يستطيع أن يستسيغه قط، إذ كيف يتحول الخبز لحما؟ وكيف يصير لحم شخص معين معروف؟ وكيف تتحول الخبز دما؟ وتصير دم شخص معين معروف! ذلك غريب بل مستحيل التصور والقبول في العقل. "[٤]

أسماؤه: وهذا السر من أهم الأسرار المسيحية ولذلك دعي عندهم " سر الأسرار "، "وأسمى أسرار الكنيسة ".

ولقد أطلق على هذا السر أسماء متعددة فهو (سر الشكر – العشاء الرباني – العشاء السري – العشاء الإلهي – مائدة الرب – مائدة المسيح - المائدة السرية – خبز الرب –

---

(١) تفسير أصول الإيمان (٢/ ١٣٧).

(٢) يسوع المسيح (٣٠٦ - ٣٠٧).

(٣) أسرار الكنيسة السبعة (٦٢).

(٤) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة (٢٠٤).

كأس الحياة الخلاصية – الأفخارستيا – والاجتماع – والتقدمة) إلى غير ذلك من الأسماء.

العناصر التي تستعمل في العشاء الرباني: الخبز والخمر هما عنصر العشاء الرباني وقد اختارهما المسيح – في نظرهم – لأنهما مادتان بسيطتان تشيران إلى جسده ودمه. [1]

وقد استدل المسيحيون على ذلك بما جاء في إنجيل متى " ٢٦وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي». ٢٧وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلًا: «اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ " (متى ٢٦/ ٢٦ – ٢٧).

وبما جاء في رسالة بولس لأهل كورنثوس الأولى (١١/ ٢٣ – ٢٦): " إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا ٢٤وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي الْمَكْسُورُ لأَجْلِكُمْ. اصْنَعُوا هذَا لِذِكْرِي»"

وقد اختلفت الكنائس حول استعمال الفطير في العشاء الرباني بدل الخبز، ونشأت بينهما منازعة شديدة على هذا الموضوع في القرن الحادي عشر.

تأثر المسيحية بالأديان الوضعية في العشاء الرباني:

كان الوثنيون يمارسون طقوسا كثيرة من بينها فكرة (الوليمة المقدسة) يدعون فيها الأكل من لحوم آلهتهم والشرب من دمائهم، لكي تكون فيهم (أي في أجسادهم صفات وقوة آلهتهم) [2]

ولنعرض الآن لفكرة التناول عند الأمم الوثنية:

١ـ التناول في الديانة الهندية:

إن الأفخارستيا فكرة مأخوذة من مشركي الهند، فإن قدمائهم يتوقف ظاهر عبادتهم على ربان النار شعلها رب البيت صباحا ويبعث مع حراراتها صلاة حارة يستنزل بها رحمة القوة المستترة وراء الطبيعة، ورب البيت مثل الأب أو الكاهن تشارك امرأته في تقدمة

---

(١) انظر: علم اللاهوت النظامي (١٠٩٢)، جسد الرب ودمه (١١).

(٢) المسيحية بين الكتاب المقدس والتقليد، صموئيل مشرقي.

القربان شراب مخمر ومن أقراص دقيق معجون بالسمن كقربان المسيحيين. [١]

٢ـ التناول في الديانة الفارسية:

يقول ول ديورانت: " وكان من مشروبات الفارسيين مشروب مسكر يسمى (الهوما) يقدمونه قربانا محببا آلهتهم، وكانوا يعتقدون أنه لا يبعث في مدمنه الهياج والغضب بل يبعث فيهم التقى والاستقامة " [٢]

ويقول شارل جنيبير: " ونقل إلينا جوستين – أحد المدافعين عن المسيحية في القرن الثاني الميلادي (١٠٠م – ١٦٥ م) أن أسرار مثيرا احتوت على نوع من الشعائر، يفرض تقديم كأس من الشراب وقطعة خبز إلى المؤمن مع النطق ببعض العبارات المعروفة آنذاك "[٣]

٣ـ في الديانة اليونانية:

كان اليونانيون المتعبدون بالأديان السرية يقيمون بعض الطقوس الدينية والتي كان من أهمها (التناول) أو (العشاء الرباني).

ففي الأسرار الأليوسيسة كانوا يتناولون – كما يقول ول ديورانت – عشاء ربانيا مقدسا إحياء لذكرى " ديميتير " ويشربون مزيجا مقدسا من دقيق الحنطة والماء ويأكلون كعكا مقدسا "[٤]

وفي أسرار (ديونيسس) كانوا يقيمون بعض الاحتفالات التي تمثل موت الإله (ديونيسس) وبعثه.

" وكان أهم هذه الاحتفالات أن يمسك النساء بماعز أو ثور أو رجل في بعض الأحيان (يرين أن الإله قد تقمصه) ويمزقنه إربًا وهو على قيد الحياة إحياء لذكرى تمزيق ديونيسس، ثم يشربن دمه، ويأكلن لحمه يتخذنه عشاء ربانيًا مقدسًا، معتقدات أن الإله سيدخل بهذه الطريقة إلى أجسامهن ويستحوذ على أرواحهن، وكن في هذه الحماسة

---

(١) المسيح والتثليث، محمد وصفي (١٥٣).

(٢) قصة الحضارة مجلد ١ (٢/ ٤٢٢، ٤٣٣).

(٣) المسيحية نشأتها وتطورها (٧٧).

(٤) قصة الحضارة مجلد ٢ (١/ ٣٤٢).

القدسية يؤمن بأنهن سيصبحن والإله شيئًا واحدًا ". (١)

ثالثا: سر (التوبة) الاعتراف.

تعريفه: هو سر مقدس به يرجع الخاطئ إلى الله ويتصالح معه تعالى، باعترافه بخطاياه أمام كاهن ليحصل منه على حل بالسلطان المعطى له من المسيح، وبه ينال التجديد وغفران الخطايا.

أسماؤه: أطلق عليه أسماء عديدة مثل: (حل الخطايا – ميناء ثانية بعد الغرق – اعتراف – مصالحة – معمودية ثانية).

دليله: ويستدل النصارى على هذا السر بقول المسيح في متى للتلاميذ (١٨/ ١٧ – ١٨) "١٧وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ فَقُلْ لِلْكَنِيسَةِ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْكَنِيسَةِ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ كَالْوَثَنِيِّ وَالْعَشَّارِ. ١٨اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاءِ. " وكان هذا وعدا منه لهم، وبناء عليه أسس هذا السر بعدما قيامته عندما ظهر لتلاميذه: " ٢١فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا: «سَلاَمٌ لَكُمْ! كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا». ٢٢وَلَمَّا قَالَ هذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمْ: «اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ. ٢٣مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ». " (يوحنا ٢٠/ ٢١ -٢٣). (٢)

وقد سبق أن قلنا: إن أحداث القيامة لا يوثق بها.

وقد عرفنا من خلال القرآن الكريم أن الغافر هو الله، وأن الاعتراف بالذنب يكون في ضمير الإنسان وروحه. ويعني هذا أن التوبة والاعتراف أمران يربطان بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى: فلا واسطة حتى ولو كان نبيا. فكل نفس تحاسب حسب ما عمل بها صاحبها، والأنبياء لا يغفرون ذنوب الناس، ولم يبعثوا واسطة للغفران بين الله وبين الناس.

وقد صرح المسيح عليه السلام بأنه لم يؤمر أن يغفر للناس خطاياهم. وقد أناط الغفران لله وحده؛ لأنه أي المسيح ليس إلا نبيا بشرا وليس له سلطان لغفران الذنوب، فالعباد هم عباد الله، فهو

---

(١) المصدر السابق (٣٣٩).

(٢) أسرار الكنيسة السبعة، حبيب جرجس (١٠٣).

بمشيئته يغفر أو لا يغفر، وليس المسيح سوى نبي يدعو ويبلغ ويهدي إلى التوحيد.

قال الله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المائدة/ ١١٨).

لكن النصرانية تصر على أن المسيح هو الذي أسس سر التوبة بعد قيامته من الأموات كما سبق.

أما عن كيفية الاعتراف فيرون أن بعض المؤمنين يلجأ إلى بديل عن الاعتراف.

فمنهم مثلًا من يطلب من الكاهن حل الخطايا (الصلاة على الرأس) قبل ما يسمى بالمناولة، ومنهم من يكتفي بترديد صلاة الاعتراف (أومن يارب وأعترف) التي يتلوها بعض الكهنة في القداس الإلهي مباشرة قبل المناولة.

والاعتراف الصحيح في الكنيسة هو الاعتراف الفردي الصادق أمام الكاهن، وفيه يقر التائب بخطاياه جميعها.

ويستثنى الذين هم على وشك الموت، فهم عاجزون عن الاعتراف، لذلك يمنحهم الكاهن الحل من خطاياهم ويناولهم جسد الرب ودمه الكريمين دونما تردد حسب ما يدعون.

والأساقفة والكهنة وحدهم يمنحون حل الخطايا للمؤمنين التائبين.

ولكي يتقبل الكاهن اعترافات المؤمنين ويحلهم من خطاياهم يجب أن يحصل على إذن خاص من أسقفه، ويستطيع كل كاهن بحكم رتبته، أن يحل من الخطايا جميع المؤمنين التائبين الذين في خطر الموت. ويتقدم المؤمنون إلى سر التوبة كلما دعتهم الحاجة. ومن المفضل أن يعترف المؤمن دوريا، وبخاصة خلال الصوم ولا سيما الصوم الأربعيني.

فمن الملاحظ أن للكهنة سلطانا كبيرا في التكفير عن الخطايا. . ونريد أن نسأل سؤالًا وهو: ألا تغفر خطايا من يعترف لربه بما بينه وبين الله؟ ألا تقبل التوبة إلا إذا كان الكاهن مشرفًا على التائب يسمع منه توبته؟

فغفران الذنوب أمر من اختصاص رب العالمين ومن يدع أنه يغفر الخطايا فهو مشرك بالله تعالى، ويقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ

لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾(التوبة/ ٣٤).

إذًا فهناك بعض الرهبان والأحبار يستغلون مواقعهم الدينية ليكسبوا الأموال الحرام من الناس فكيف يمكن أن يكونوا واسطة لغفران الذنوب؟ ، وقد أصبح غفران الذنوب بدعة عجيبة ، فإذا أراد البابا أن يبني كنيسة أو يجمع مالا لشيء ما، طبع صكوك الغفران ووزعها على أتباعه ليبيعوها للناس كالذين يبيعون أسهم الشركات أو أوراق اليانصيب، وبالصك فراغ ترك يكتب به اسم الذي سيغفر ذنبه.

رابعًا: سر مسحة المرضى.

تعريفه: يقول النصارى: هو سر مقدس به ينال المريض شفاء أمراضه الروحية والجسدية.

تأسيسه: يدعي النصارى بأن هذا السر أسس من السيد المسيح، ويستدلون على ذلك بأن يعقوب الرسول يشير إلى ذلك صريحًا بقوله " ١٤أَمَرِيضٌ أَحَدٌ بَيْنَكُمْ؟ فَلْيَدْعُ شُيُوخَ الْكَنِيسَةِ فَيُصَلُّوا عَلَيْهِ وَيَدْهَنُوهُ بِزَيْتٍ بِاسْمِ الرَّبِّ، ١٥وَصَلاَةُ الإِيمَانِ تَشْفِي الْمَرِيضَ، وَالرَّبُّ يُقِيمُهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ خَطِيَّةً تُغْفَرُ لَهُ. " يعقوب (٥/ ١٤ – ١٥).

وقد مارس الرسل هذا السر عندما أرسلهم المسيح للكرازة كما قال مرقس الإنجيلي " وَدَهَنُوا بِزَيْتٍ مَرْضَى كَثِيرِينَ فَشَفَوْهُمْ. " (مرقس ٦/ ١٣)[1]

الشروط اللازمة لإتمام هذا السر:

١ – الشخص القابل السر وهو المريض قوله " ١٤أَمَرِيضٌ أَحَدٌ بَيْنَكُمْ؟ ".

٢ – خادم السر بقوله " فَلْيَدْعُ شُيُوخَ الْكَنِيسَةِ ".

٣ – صورة السر وهي " الصلاة " بقوله " فَيُصَلُّوا عَلَيْهِ ".

٤ – مادة السر بقوله " وَيَدْهَنُوهُ بِزَيْتٍ ".

٥ – مفعول السر وهو الشفاء بقوله " ١٥وَصَلاَةُ الإِيمَانِ تَشْفِي الْمَرِيضَ، وَالرَّبُّ يُقِيمُهُ،

---

(١) أسرار الكنيسة السبعة (١٢٨).

وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ خَطِيَّةً تُغْفَرُ لَهْ. "

خامسًا: سر الزيجة.

تعريفه: يقولون: الزيجة هي ناموس طبيعي سنه الله تعالى منذ ابتداء الخليقة.

غايته: وقد حدد النصارى لسر الزيجة غايتين:

الأولى: هي نمو النوع البشري وحفظه بالتناسل حسب الأمر الإلهي.

الثانية: هي التعاون والتعاضد ومساعدة كل من الزوجين للآخر.

الشروط المطلوبة لعقد رباط الزيجة:

وقد اشترط النصارى لهذا السر أربعة شروط:

أولا: أن يكون العروسان مسيحيين لأنه بدون الإيمان بالمسيح لا يمكن نيل النعمة الإلهية المعطاة بهذا السر أو بغيره.

ثانيا: أن يكونا أرثوذكسيين لأنه لا وجه لنوال غير الأرثوذكس إكليلا أرثوذكسيا من يد كاهن أرثوذكسي.

ثالثًا: أن يكونا بعيدين عن القرابة الجسدية والروحية المعينة درجاتها من قوانين الكنيسة الأرثوذكسية.

رابعا: أن يكونا راضيين وقابلين الزواج بتمام الحرية والإرادة المطلقة.

أوصاف الزيجة المسيحية:

للزيجة المسيحية صفتان:

الأولى: وحدة الزيجة، وهي أن يكون للرجل امرأة واحدة، وللمرأة رجل واحد أي منع تعدد الأزواج والزوجات.

والثانية: عدم انفكاك هذه الزيجة، بمعنى حرمة الطلاق. [1]

كيف يتم هذا السر؟

يقرب القسيس رأس العروسين، ويربطهما برباط واحد ثم يتلو بعض العبارات،

---

(١) أسرار الكنيسة السبعة (١٣٦ - ١٤٣ - ١٤٤).

وبذلك يتم العقد. ويشترط أن يتم الزواج في الكنيسة أما الزواج الذي يتم خارج الكنيسة فلا تعترف به، وتعده علاقة آثمة بين الرجل والمرأة.

ومن المفارقات العجيبة أن الأصل في المسيحية أن يترهب الناس ويعفوا أنفسهم عن الزواج، رجالا ونساء، ويستندون في ذلك إلى تأويل فاسد لعدم زواج السيد المسيح عليه السلام ولكنهم وجدوا أن هذا غير ممكن، فأجازوا الزواج، أي أن الأصل الترهب والاعفاف والزواج استثناء، إنه ضغط على النفس البشرية، وتجاهل لناموس الحياة من استمرارية الوجود البشري، وإعمار الكون.

أما عن تعدد الزواج، فقد كان معمولا به في العصور الأولى للمسيحية، أخذا من شريعة اليهود، وتمشيًا مع قول السيد المسيح عليه السلام" ١٧«لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. "(متى ٥/ ١٧).

فوجدت الكنيسة نفسها أمام نص صريح للسيد المسيح، ووضع جديد أن تفرضه على الناس فرضا، وللتوفيق ومحاولة منه للخروج من هذا المأزق جعلت الزواج من واحدة فقط مباحا، وأيضًا للخروج من ارتكاب جريمة الزنا، ولكن لا يجوز الطلاق بأي حال إلا لعلة الزنا.

ويلاحظ أن هذا خروج على تعاليم المسيح عليه السلام إذ أن اليهودية تجيز الطلاق لأسباب كثيرة غير علة الزنا، فإذا تم الطلاق في المسيحية لعلة الزنا فإنه لا يجوز للزاني رجلا كان أو امرأة أن يتزوج مرة أخرى، أما إذا كلن الفراق لموت أحد الزوجين، فإن الحي يجوز له أن يتزوج، كذلك يجوز الطلاق إذا كان أحد الزوجين غير مسيحي - اختلاف الملتين - ولكن بشرط أن تتعذر الألفة بينهما. [1]

سادسًا: سر الميرون(أو المسحة المقدسة).

تعريفه: يقول النصارى: إننا بسر المعمودية نولد ولادة ثانية من فوق، ومن ولد ولادة

(١) ماذا تعرف عن المسيحية، كامل سعفان (١٣٨ - ١٣٩).

جديدة يحتاج إلى قوة تثبته وتحفظ وجوده ونموه في الحياة الروحية.

وهو سر مقدس به ينالون ختم موهبة الروح القدس.

تعريف كلمة الميرون:

هي كلمة يونانية معناها " طيب " وتطلق في الاصطلاح الكنسي على المزيج السائل المركب من نحو ٣٠ صنفا من أصناف الطيوب والعطور كالمر والعود والسليخة وقصب الذريرة وعود اللبان.

أسماؤه: ويطلق عليه أيضًا " وضع الأيادي " لأن الرسل كانوا يتممونه في العصر الأول بوضع الأيادي على المعتمدين، ويسمى أيضًا " مسحة سرية – وسر المسحة – ومسحة الخلاص ".

تأسيسه: يدعي النصارى أن يسوع هو الذي أسس هذا السر عندما قال: ": «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. [٣٨]مَنْ آمَنَ بِي، كَمَا قَالَ الْكِتَابُ، تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». [٣٩]قَالَ هذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ، لأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ، لأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ"(يوحنا ٧/ ٣٧ – ٣٩).

وقت تطبيق هذا السر: عند الأرثوذكس تمنح الكنيسة هذا السر بعد المعمودية حالًا. (١)

سابعًا: سر الكهنوت:

معنى الكهنوت: السر الذي يحصل به الإنسان على النعمة التي تؤهله لأداء رسالة المسيح بين البشر فيعين بين الكهنة، فهو خلافة رسولية أخذها الآباء الأولون عن الرسل أنفسهم، ويسلمونها لمن بعدهم، والرسل هم الذين أخذوا هذا السر المقدس من المسيح.

تأسيسه: يعتمد النصارى في تأسيس هذا السر على ما ورد في إنجيل متى: " [١٨]اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاءِ. " (١٨/ ١٨).

معنى ذلك أن المسيحية تعطى للكهنة سلطة تشبه سلطة الإله، وتطلق يدهم بلا حدود في التحكم في مصائر الشعب، إذ تجعل قولهم ملزمًا يتبعه الناس، وتأسيسًا على ذلك:

---

(١) المصدر السابق (٤٧ – ٥٧).

إذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص أنه ليس بمسيحي صار كذلك، وإذا قال إنه مسيحي كان مسيحيًا، فليس المعتقد حرا في اعتقاده بحيث يتصرف في معارفه كما يرشده عقله، بل إنه مشدود بشفتي رئيسه الديني. "[١]

ولقد تمسك آباء الكنيسة بشتى الأفكار التي تقوم على نظرية السر المقدس.

يقول عبد الأحد داود الأشوري " إن الاعتقاد النصراني القائل إن نفس الروح القدس هذا، أو الأقنوم الثالث في الثالوث المقدس، ينحدر من عرشه السماوي طوع إشارة أي قسيس أثناء احتفاله اليومي ببعض الطقوس، من أجل تقديس عناصرها وتغيير جوهرها وخصائصها إلى بعض عناصر أخرى، فوق الطبيعة، إن هذا الاعتقاد أمر مناف للعواطف الدينية لكل موحد، يهوديا كان أو مسلما، ولا يوجد شئ يهز مشاعر المسلم أكثر من الاعتقاد بأن الروح القدس- بإيعاز من أحد القسس – يغير دائما ماء المعمودية إلى دم إله مصلوب، ويمحو ما يسمى بالخطيئة الأصلية، أو كالاعتقاد بأن العملية السحرية التي تجري على العناصر المادية للقربان المقدس، تحولها إلى دم وجسد إله متجسد "

بهذه الاعتقادات، وبالسلطان الكهنوتي، يهيمن رجال الاكليروس على الشعب، وسرعان ما يتوافد أفراد هذا الشعب على كرسي الاعتراف؛ لينالوا الغفران من الكهنة، وإذا تم الغفران صار للمغفور له الحق في تناول القربان المقدس، الذي يتحول إلى جسد ودم المسيح كما يزعمون. [٢]

إلى هنا تنهي الأسرار عند الكنيسة الأرثوذكسية، ولكن تخالفها الكنيسة الكاثوليكية في سر آخر وهو:

٨ـ سر عصمة البابا

وهذا السر تنفرد به الكنيسة الكاثوليكية، وهي تدعي عصمة بابا روما واستحالة ارتكابه الإثم أو الخطيئة، لأن الروح القدس ينطق من خلاله بوصفه خليفة بطرس

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، محمد عبده (٣١).

(٢) انظر: ماذا تعرف عن المسيحية (١٤٣).

الرسول، أحد تلاميذ المسيح، والذي منحه السيد المسيح – بزعمهم – مفاتيح السماء والأرض، بمعنى أن كل ما يربطه على الأرض فهو مربوط في السماء، وكل ما حله على الأرض يكون أيضًا محلولا في السماء.

ولما ضيقت البروتستانية من نفوذ البابا في روما، وحدت من سلطته، اضطر بابا روما إلى تأكيد هذا السر بعقد مجمع مسكوني كاثوليكي في روما عام ١٨٦٩ م فتأكد في ذلك المجمع تمتع البابا في روما بالعصمه واستحالة ارتكابه الإثم، فواعجبي! ! [١]

الخلاصة:

يقول ول ديورانت: " إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها، ذلك أن العقل اليوناني المحتضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها، وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قرونا عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب والطقوس المسيحية، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة، وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على أحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف، فجاءت من مصر لآراء الثالوث المقدس، ويوم الحساب وأبدية الثواب والعقاب، وخلود الإنسان في هذا أو ذاك، ومنها جائت عبادة أم الطفل، والاتصال الصوفي بالله، ذلك الاتصال الذي أوجد الأفلاطونية الحديثة، واللإدرية، وطمس معالم العقيدة المسيحية "[٢]

ومن هنا نستطيع أن نقول إن أمر العقائد المسيحية وشعائرها، واستمدادها من الديانات الوثنية السابقة والمعاصرة لها، ليس بخاف على الكهنة المسيحيين الذين يقودون شعب الكنيسة في أنحاء الأرض، ومما يؤكد هذا النظر أن الأستاذ/ محمد فؤاد الهاشمي، كان قسيسا فأسلم، يقول " إن المسيحية في أصلها دين روحي سماوي، جاء به المسيح من عند الله، ولكن الكهنة في كل زمان ومكان يحتكرون الأسرار لأنفسهم تلك الأسرار التي لو كشفنا عنها، لتبين أنهم يعرفون الحق ويحيدون عنه، وإنه ليمنعني من الدخول في أسرار

---

(١) النصرانية والإسلام، محمد عزت الطهطاوي (٦٨).

(٢) قصة الحضارة (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦).

الكنائس عديد من الاعتبارات، سوف تزول ويأتي الوقت الذي نفصح فيه عن كل شئ، وقد احتفظ رجال الكهنوت بكثير من الأسرار، وأباحوا الرموز للشعب، وهذه سنة جرى عليها جميع الكهنة من قبل المسيحية، وقد أشار السيد المسيح إلى هؤلاء الكهنة، عندما وجه القول إلى الفريسيين والصدوقيين من اليهود قائلًا لهم: " لا تضعوا المصباح تحت المكيال " وقد عنى المسيح بالمكيال: الرموز والطقوس،

كما عنى بالمصباح الحقائق المستورة تحت الرموز والطقوس"[(١)].

الفصل الثاني: العبادات في عصر المسيح عليه السلام.

عندما ندرس العبادات التي جاء بها السيد المسيح، لا بد أن نطلع على عبادات العقائد التي كانت سائدة آنذاك في فلسطين والحضارات المجاورة، وخاصة عبادات اليهود والرومان، باعتبار أن الطرفين كانا الأكثر وضوحًا من حيث عقائدهما عند مجيء السيد المسيح عليه السلام.

أما العبادات في اليهودية فإن كثيرًا من المصادر دونت لها ووصفتها، وكذلك بثت الأناجيل شيئًا منها.

والواقع أن الحقبة التاريخية التي سبقت مجيء المسيح بحوالي مئة عام شهدت انطلاقًا شديدًا لتابعي اليهود فالظروف التي وجد فيها اليهود لم تكن مشجعة لهم على إقامة الشعائر الدينية، لأن الحملات الآشورية ثم البابلية والفارسية واليونانية قد تركت طابعًا لم يكن من السهل إزالته، حيث انتشرت في طول البلاد وعرضها العبادات الوثنية على اختلافها، وشيدت في كل أنحاء فلسطين معابد وهياكل لآلهة عديدة و كثيرة.

وأما ديانة يهوه فاضطهدت وضعفت، بل في كثير من الأحيان لم تعد كديانة من الديانات الأخرى الموجودة في البلاد بل أصبحت ديانة مكلفة كان ثمنها في بعض الأحيان حياة الذين كانوا يتمسكون بها ويحيونها حياة عملية.

وفي عام ١٦٧ ق. م قام أنطيخوس الرابع بإقامة تمثال يحتمل أن يكون تمثال جوبيتر

---

(١) الأديان في كفة الميزان، نقلا من النصرانية والإسلام (٩٨).

الأولمبي في نفس المكان الذي كان فيه ما يسمى مذبح التقدمة. وبذلك اعتبر اليهود هذا العمل بأنه نجس بيت الرب. وقد أصدر هذا الإمبراطور قرارًا يمنع اليهود من تقديم الذبائح والعبادة لله في بيت الرب. وكان هدف هذا القرار توحيد الديانة الرومانية والقضاء على تنوع الديانات. والوقع أن هذا القرار كان ضد جميع الديانات وليس الديانة اليهودية فحسب. وكان من يتعبد لآلهة أخرى ويقدم لها الذبائح يحكم عليه بالموت وآنذاك أرغم اليهود على أكل لحم الخنزير.

وكان من العادات اليهودية تعيين رئيسًا للكهنة الذين يكهنون لبيت الرب وقد عرفنا من خلال الأناجيل أن زكريا عليه السلام وهو الذي عاصر بداية حياة المسيح، كان يكهن للرب، لا سيما عندما جاء الملاك جبريل وبشر بولده يحيى.

وعندما ننظر إلى واقع العبادات لدى اليهود لابد لنا أن نشير إلى أنهم كانوا عدة فرق، وكان أهمها فرقة الفريسيين التي عاندت السيد المسيح ورفضت ما بشر به، وفي الوقت نفسه كانت جماعة الأسينيين في قمران تؤسس لنفسها عالمًا خاصًا بها. وقد برزت أيضًا فرقة الأتقياء من الفريسيين كجماعة ترفض الاندماج وتبني الثقافة الرومانية، وبرزت أيضًا فرقة الصدوقيين التي كانت تؤيد الحكم الروماني ولكنها ظلت على يهوديتها.

وكان عدد الكهنة الصدوقيين أكثر من غيرهم حتى انقلب الأمر للفريسيين زمن المسيح، وكان الصدوقيون يؤمنون بأسفار موسى الخمسة، ويرفضون كل تقليد شفهي وكل الطقوس الخاصة بالطهارة، وكان الصدوقيون أيضًا يرفضون قيامة الأموات كما أنهم لا يؤمنون بالملائكة ولا بالشيطان، ولا يؤمنون بالعناية الإلهية، ويعتقدون أن الإنسان حر في اختيار الخير ورفض الشر.

وقبل ظهور المسيح بسنوات بدا واضحًا أن اليهود على مختلف أحزابهم آنذاك تركوا التمسك بالناموس والمكتوب، واشتركوا في عبادات ومعاملات غير يهودية وقد تواطأت طبقة الكهنة آنذاك مع الرومان.

ومع ولادة المسيح وظهوره على ساحة الدعوة كانت العبادات اليهودية وكذلك المعاملات تسير جنبًا إلى جنب مع عبادات الوثنيين من الرومان ومعاملاتهم.

والواقع أنه لو رجعنا إلى تاريخ اليهود لرأينا أن الفترة التي بدأ فيها المسيح دعوته كانت فترة اضطراب وقلق وعدم استقرار من الناحية السياسية والدينية.

ومع ذلك كله فإننا نجد أن العبادات اليهودية وكذلك المعبد بقيت على حالها زمن بعثة المسيح.

إلا أن تطور العقيدة المسيحية بعد رفع المسيح لحق التطور في العبادات نفسها. فالصلاة تطورت وكذلك الصيام وكذلك بقية الأمور المتعلقة بالقرابين والمعبد والأعياد وتبرز الصلاة كأهم أنواع العبادات التي اهتم بها كتبة الأناجيل والقائمون على العقيدة النصرانية. وقد عرفنا أن اليهود قد أقاموا الصلاة، وعرف منهم الصلاة في أوقات ثلاثة، وكذلك الصلاة في أيام معروفة محددة.

وقد وردت في الأناجيل إشارات عديدة لصلاة السيد المسيح عليه السلام إن كانت في بيت الرب أو في أماكن أخرى.

وكذلك عرف السيد المسيح الصيام وقام به، وقد ظهر ذلك في الأناجيل بشكل واضح. وهناك عبادات أخرى كالأدعية وتقديم القرابين والاغتسال والقيام بالامتناع عن المحرمات كشرب الخمر أو الزنا أو هتك الأعراض والتعرش بالناس.

وكل هذه الأمور أصبحت تشريعات طورها الكهنة وكبار رجال الدين في العقيدة النصرانية.

الخدمة الكهنوتية

يورد إنجيل لوقا في الفصل الأول أن زكريا كان يقوم بالخدمة الكهنوتية أمام الله في دور فرقته، وألقيت القرعة جريًا على سنة الكهنوت فأصابته ليدخل مقدس الرب ويحرق البخور، وكانت جماعة الشعب كلها تصلي في خارجه عند إحراق البخور، فمن خلال ما جاء في هذا الإنجيل نعرف أنه مع ولادة المسيح كانت هناك طقوس سائدة لدى اليهود. فهناك خدمة كهنوتية في بيت الرب يقوم بها كبير فرقة من فرق الكهنوت اليهودية، وهناك قرعة تجرى لمعرفة دور من يكهن.

ويرافق هذا العمل حرق البخور الذي هو عادة موجودة فرضتها التقاليد التي بثتها التوراة. وإلى جانب ذلك هناك صلاة جماعية يقوم بها الناس خارج المقدس الذي يكون بداخله الكاهن الأكبر.

ويتضح أيضًا أن هناك ما يسمى مذبح البخور، حيث يحرق فيه البخور لتكملة مهمة التقديس.

وقد أورد القرآن الكريم قصة زكريا وتعبده ودعائه.

فحسب النص القرآني فإن زكريا كان يتعبد بالصلاة في المحراب.

يقول الله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(مريم: ١١).

إذن فهناك صلاة وهناك تعبد في المحراب، وليس هناك شديد اختلاف في الإطار العام.

وجاء في إنجيل لوقا أنه لما انقضت ثمانية أيام فحان للطفل أن يختن سمي يسوع كما سماه الملاك قبل أن يحبل به.

وجاء أيضًا: ولما حان يوم طهوره بحسب شريعة موسى صعدا به إلى أورشليم ليقرباه للرب. كما كتب في شريعة الرب أن كل بكر ذكر ينذر للحرب وليقربا كما ورد في شريعة الرب زوجي يمام أو فرخي حمام.

فنرى أن المسيح عليه السلام يختن وهو ابن ثمانية أيام وذلك تطبيقًا لسنة إبراهيم عليه السلام وشريعة اليهود، التي سارت في الختان على نهج إبراهيم. فالختان إذًا من العبادات أو الطقوس التي كانت سائدة حين ولد المسيح عليه السلام.

ويتضح أيضًا أن هناك طقوسًا للطهارة تقوم بها المرأة بعد ولادتها بأربعين يومًا أما الغلام الذي يراد تطهيره فينذر للرب ثم يفدى بقربان.

ويتضح أيضًا أن قربان الفقراء من الناس كان عبارة عن فرخين من الحمام، أما الأغنياء فكانوا يقربون حملًا، وهذا ما ورد في نصوص التوراة، وخاصة في أسفار موسى الخمسة.

ويرد في الفصل الثاني من إنجيل لوقا أن هناك نبية هي حنة ابنة فانوئيل كانت متعبدة بالصوم والصلاة ليل نهار.

وهذه أيضًا إشارة لوجود صلاة وصوم عند اليهود زمن ولادة السيد المسيح. ويأتي في لوقا أن أبويه كانا يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح.

فعيد الفصح من أعياد اليهود المعروفة ويدوم عدة أيام.

وفي الفصل الثالث من لوقا تظهر عادة التعميد وقد ابتدعها يوحنا وهي من الأمور الهامة التي ترتبط بالعقيدة النصرانية.

جاء فيه (أنا أعمدكم بالماء) (وكان يقول للجموع التي تخرج إليه لتعتمد عن يده) (ولما اعتمد الشعب كله واعتمد يسوع أيضًا وكان يصلي).

وندرك أن التعميد من صنع يوحنا وليس من صنع المسيح بمعنى أن هذه العادة سبقت خدمة المسيح.

ويتضح من الفصل الرابع أن المسيح عليه السلام كان يصوم أربعين يومًا وليلة. وقد نجد ذلك في التوراة عند الحديث عن موسى عليه السلام عندما ذهب ليتلقى تعاليم ربه. وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(البقرة: ٥١).

وقد ورد أيضًا قول لوقا: مكتوب: (للرب إلهك تسجد) وهذا يعني أن في العقيدة السائدة زمن السيد المسيح سجودًا. والسجود لله لا يتم إلا في صلاة.

ومن عادات العبادات أن الناس كانوا يتعبدون يوم السبت ويذهبون إلى معبد الرب، يقول لوقا ودخل المجمع يوم السبت على عادته وقام ليقرأ.

ويمر أيضًا في إنجيل لوقا أن المسيح أمر الأبرص الذي شفاه وقال له: (اذهب إلى الكاهن فأره نفسك ثم قرب برئك ما أمر به موسى شهادة لديهم)، وهذا يعني أن الذي كان يشفى من مرض ما يقدم تقدمة وقربانًا للرب حسب ما قالت شريعة موسى.

وأورد إنجيل لوقا أن تلاميذ يوحنا يكثرون من الصوم ويقيمون الصلوات.

ويرد أيضًا: (وفي تلك الأيام ذهب إلى الجبل ليصلي فأحيا الليل كله في الصلاة).

ويرد أيضًا: (وبينما هو يصلي تبدل منظر وصارت ثيابه بيضًا تتلألأ كالبرق).

ويرد في إنجيل لوقا أن المسيح طلب السهر والصلاة من تلاميذه حتى يكونوا أهلًا للنجاة.

ويرد ما يسمى عشاء عيد الفصح، ويوم الفطير، وهو من الأعياد اليهودية المعروفة (وجاء يوم الفطير وفيه يجب ذبح حمل الفصح فأرسل بطرس ويوحنا وقال لهما اذهبا فأعدا لنا الفصح لنأكله).

ويرد أيضًا عن صلاته: (وأخذه الجهد فأمعن في الصلاة وصار عرقه كقطرات دم متخثر تتساقط على الأرض. ثم قام عن الصلاة فرجع إلى تلاميذه فقال لهم ما بالكم نائمين قوموا فصلوا لئلا تقعوا في التجربة).

فمن خلال ما تقدم نعرف أن الصلاة كانت موجود كعبادة يقوم بها الأنبياء والكهنة والناس، وكذلك الصيام والختان والطهارة والأعياد، فمن هذه الأمور ما ظل المسيح سائرًا عليها ومنها ما رفضه ووضع بديلًا تعبديًا عنه.

الصلاة في العقيدة النصرانية.

من خلال النصوص التي وردت في الأناجيل ندرك أن المسيح عليه السلام كان يصلي وصلاته كانت تعبدًا لله وتقربًا له، وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى أن الله أمر المسيح بالصلاة فقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١).

والصلاة فرضت على سائر الأنبياء، لكن كل نبي يصلي حسب ما أملاه الوحي الإلهي عليه، ولم تشر الأناجيل ولا القرآن الكريم إلى كيفية الصلاة. بينما أشارت آية إلى أن زكريا كان يصلي وهو قائم، ولا ندري إذا كان القيام جزءًا من عدة حركات للصلاة أم أن الصلاة كانت تؤدى في حالة القيام فحسب.

وعندما يرد في إنجيل لوقا: (وأخذه الجهد فأمعن في الصلاة وصار عرقه كقطرات دم متخثر) نرى من خلال ذلك أن الصلاة التي كان يؤديها المسيح تأخذ جهدًا وليست هي صلاة بدون حركة، فإذا كان ساكنًا في وضع معين لا يتصبب العرق منه، ولا بد أن يكون قد أدى حركات عديدة حتى أخذ الجهد منه هذا المبلغ.

ويظهر أيضًا أن المسيح كان قد صلى في عدة أماكن فتارة في المعبد، وتارة في البرية،

وهذا يشير إلى أن صلاة المسيح لها مكان محدد، وعليه فإن حصر الصلاة في الكنيسة أو الدير لا يتبع الصلاة التي أداها المسيح في أي مكان دون تحديد.

وقد ورد في إنجيل متى في الفصل السادس ما يسمى الصلاة الربانية. وقد جاءت على لسان المسيح حسب هذا الإنجيل: ويقول فيها: (فصلوا أنتم هذه الصلاة أبانا الذي في السماء ليقدس اسمك ليأت ملكوتك، ليكن ما تشاء في الأرض كما في السماء أرزقنا اليوم خبز يومنا، وأعفنا مما علينا. فقد أعفينا نحن أيضًا من لنا عليه، ولا تعرضنا للتجربة. بل نجنا من الشرير).

وبشكل عام فإن الصلاة حسب أكثرية المذاهب سبع صلوات في اليوم والليلة، وهي صلاة البكور وصلاة الساعة السادسة والحادية عشرة والثانية عشرة ومنتصف الليل. واهتمام المسيحية بالصلاة هو أكثر من اهتمامهم بالصوم، وليس للصلاة ترتيب خاص، وإنما هي أدعية تختلف من مكان إلى مكان، وغاية ما يلزم أن تحويه أن تكون على نسق الصلاة الربانية التي ذكرناها.

وحسب المذهب الأرثوذكسي فإن الصلاة تبدأ بصلاة النهوض من النوم، واتفقوا على أدعية معينة تقال في هذه الصلاة، تبدأ بقولهم باسم الآب والابن والروح القدس آمين المجد لك يا إلهنا المجد لك. أيها الملك السماوي المعزى روح الحق الحاضر في كل مكان وصقع، والمالىء الكل كنز الصالحات، ورازق الحياة، هلم واسكن فينا وطهرنا من دنس وخلص أيها الصالح نفوسنا.

ويستمر هذا الدعاء حتى قولهم: وأمجدك أيها الإله الكلمة الممجد في الآب والروح آمين. ويستشف من هذا أن الذي وضع هذه الأدعية ليس المسيح ﷺ بل القائمون على الديانة النصرانية. وتنبع هذه الأدعية من الإيمان بالتثليث وليس بالوحدانية، ويلاحظ كثرة الصفات التي يلصقونها بالمسيح ﷺوبعضها صفات من صفات الله التي تنم عن خلط بين المسيح وبين الذات الإلهية وصفاتها.

وعندهم كذلك الصلاة السحرية، وتبدأ أيضًا بقولهم: باسم الآب والإبن والروح

القدس آمين، قدوسٌ الله قدوسٌ القوي الذي لا يموت ارحمنا (ثلاثًا) المجد للآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى الدهر دهر الداهرين آمين. . . أيها الثالوث القدوس ارحمنا يارب اغفر خطايانا، ومن هذه الأدعية قولهم: أيتها الشفيعة الرهيبة غير المخذولة يا والدة الإله الكلية التسبيح لا تعرضي يا صالحة عن توسلاتنا. .).

وعندما نراجع بعض الأدعية التي وردت في بعض العقائد الفرعونية والهندية نرى تشابها كبيرًا بينها وبين الأدعية التي مرت معنا، وخاصة تلك التي تتعلق بالعذراء أم المسيح ﷺ.

ويستند المسيحيون في صلواتهم على بعض ما ورد من مزامير التوراة كالمزمور الثالث والمزمور السابع والثلاثين، والمزمور الثاني والستين، والمزمور السابع والثماني والمزمور الثاني بعد المئة والمزمور الثامن والأربعين بعد المئة. وبعد المزامير يرددون تراتيل لا توجه لله، بل توجه للملائكة كقولهم: (يا رئيسي الجنود السماويين إننا نبتهل إليكم نحن غير المستحقين طالبين أن تشملانا بتضرعاتكما بستر أجنحة مجدكما) وهذا يحدد بيوم الاثنين. أما في يوم الثلاثاء فيرتلون بقولهم: (إن تذكار الصديق بالمديح وأنت أيها السابق تكفيك شهادة الرب، لأنك ظهرت بالحقيقة أشرف من كل الأنبياء). وفي يومي الأربعاء والجمعة يقولون: (خلص يارب شعبك وبارك ميراثك وامنح المؤمنين الغلبة على محاربهم واحفظ بقوة صليبك جميع المختصين بك. . .) وفي يوم الخميس: (أيها الرسل القديسون تشفعوا إلى الإله الرحيم أن يمنح غفران الزلات لنفوسنا)، وفي يوم السبت: (أيها الرسل والشهداء والأنبياء ورؤساء الكهنة والأبرار والصديقون الذين أكملتم حسنًا سوط الجهاد وحفظتم الإيمان. .).

وفي الصلاة هذه دعاء للأموات الراقدين يقولون فيه: (اذكر يارب عبيدك بما أنك صالح وسامحهم بكل ما خطئوا به إليك في هذا العمر لأنه ليس أحد بلا خطيئة إلا أنت القادر أن تمنح المنتقلين الراحة).

ويؤدون بعد هذه التراتيل المزمور الخمسين الموجود في التوراة الذي يقول (ارحمني يا الله كعظيم رحمتك وكمثل كثرة رأفتك امح مآثمي. . . الخ).

وفي الصلاة نفسها يوجد ما يسمى التسبحة التاسعة ويقال عنها تسبحة السيدة والدة الإله. ويقولون فيها: (تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي) وهي من إنجيل لوقا. ثم يقولون فيها المزمور الثامن والأربعين بعد المئة، والمزمور التاسع والأربعين بعد المئة ويقولون فيه: (رتلوا للرب ترتيلة جديدة، فإن تسبحته في مجمع الأبرار ليفرح إسرائيل بخالقه وليبتهج بنو صهيون بملكهم. ليسبحوا لاسمه بالطبول ليرتلوا بالدف والمزمار) ثم يقولون في نفس الصلاة المزمور المئة والخمسين. وفيه أيضًا ترتيلة تحت عنوان المجد له.

أما الصلاة الثالثة فهي صلاة الغروب ويقولون فيها: (هلموا نسجد ونركع لملكنا وإلهنا، هلموا نسجد ونركع للمسيح ملكنا وإلهنا. هلموا نسجد ونركع للمسيح هذا هو ملكنا وربنا وإلهنا. والمسيح نفسه قال في الإنجيل لا تسجد إلا للإله، ولم يقل لا تسجد إلا للمسيح)، وفي هذه الصلاة يرتلون المزمور الثالث بعد المئة والمزمور المئة والأربعين والمزمور الحادي والأربعين بعد المئة الذي يقال فيه: (بصوتي إلى الرب صرخت، بصوتي إلى الرب تضرعت، أسكب أمامه تضرعي وأحزاني قدامه أخبر).

وفي هذه الصلاة أيضًا يرتلون المزمور التاسع والعشرين بعد المئة والمزمور السادس عشر بعد المئة. وفي هذه الصلاة أيضًا تراتيل منها ترتيلة المساء، وتقال يوم الأحد مساء ويوم الاثنين مساء وفيها يقولون: (الرب يستمع لي حين أصرخ إليه "مرتين"، لما دعوت استجاب لي إله بري. الرب يستمع لي حين أصرخ إليه "مرة" ثم يوم الثلاثاء مساء والأربعاء مساء والخميس مساء والجمعة مساء والسبت مساء، وفي هذه الأخيرة يقولون: (أهلنا يارب أن نحفظ في هذا المساء بغير خطيئة. مبارك أنت يارب إله آبائنا مسبح وممجد اسمك إلى الأبد).

وهناك صلاة رابعة تسمى صلاة النوم الصغرى. ويقولون فيها المزمور الخمسين الذي يقول: (ارحمني يا الله كعظيم وكمثل كثرة رأفتك امح مآثمي).

ويقولون فيها أيضًا المزمور التاسع والستين والمزمور الثاني والأربعين بعد المئة وفيها ما يسمى المجد له.

وهناك صلاة إلى الملك الحارس أو الملاك الحارس، يقولون فيها: (أيها الملاك القديس الملازم نفسي الشقية، وحياتي الذليلة، لا تهملني أنا الخاطيء، ولا تبتعد عني بسبب إسرافي وتبذخي، ولا تعط من فرصة للشيطان الشرير لكي يسود باقتداره على جسدي هذا المائت) وهناك صلوات إلى والدة الإله كما يقولون.

والصلاة الخامسة هي صلاة قبل المناولة. وهذه تعني أن المسيحي حين يزمع أن يتناول الأسرار المقدسة عليه أن يتلو صلاة النوم المعتادة، ويضيف عليها قانونًا آخر يقولون فيه: (أيها الرب المتحنن فليصر لي جسدك المقدس ودمك الكريم خبز حياة ودواء شافيا للأمراض الكثيرة)

ويلاحظ أيضًا في هذه الصلاة التشابه الكبير بين ما يقال هنا وما قاله الوثنيون الهنود في صلواتهم عن الإله براهما. ولعل عبارة جسدك المقدس ودمك الكريم تدل على ذلك، وفي هذه الصلاة كلام ودعاء للقديس يوحنا الذهبي الفم ولسمعان المترجم.

وهناك أيضًا صلوات مختلفة مثل صلوات المائدة وتقال قبل الأكل وبعد الأكل، وهناك صلاة عند مطالعة ما يسمى الكتاب المقدس، وصلاة قبل الدرس، وصلاة بعد الدرس، وصلاة قبل الاعتراف، وصلاة التوبة.

وهناك أشبه شيء بالصلاة وهي التراتيل التي ترافق بالألحان، وهي عبارة عن أدعية أيضًا وتمجيد للسيد المسيح وللعذراء، ولكنها ترافق بموسيقا، وذلك داخل الكنيسة. ولم تشر الكتب والمصادر المسيحية إلى أن هناك غسلًا أو ما يشبه الوضوء والطهارة قبل الصلاة. ففي الإسلام لا تصح الصلاة دون وضو وتطهير. وهنا لا بد أن يطرح سؤال يقول: هل الصلاة في المسيحية معنوية لفظية فحسب ولا تستدعي الطهارة والغسل؟ هل يمكن للذي يقوم من نومه وهو جنب أن يؤدي الصلاة الصباحية أو صلاة بعد النوم؟ هل يستطيع أي إنسان الدخول إلى الكنيسة وتأدية الصلاة دون أن يكون مغتسلًا أو متطهرًا من نجاسة البول أو الغائط أو الجنابة؟

فالمسيح عليه السلام كان يتدين بالطهارة ويغتسل من الجنابة، ويوجب غسل الحائض، وطوائف

النصارى عندهم أن ذلك كله غير واجب، وأن الإنسان يقوم من على بطن المرأة ويبول ويتغوط ولا يمس الماء ولا يستجمر. والبول والنجو ينحدر على ساقه وفخذه ويصلي كذلك، وصلاته صحيحة تامة ولو تغوط وبال وهو يصلي لم يضره فضلًا عما سوى ذلك.

ويقولون إن الصلاة بالجنابة والبول والغائط أفضل من الصلاة بالطهارة، لأنها حينئذ أبعد من صلاة المسلمين واليهود، وأقرب إلى مخالفة الأمتين. ويستفتح الصلاة بالتصليب بين عينيه. وحاشى المسيح أن تكون هذه صلاته أو صلاة أحد الحواريين. والمسيح كان يقرأ في صلاته ما كان الأنبياء وبنو إسرائيل يقرؤون في صلاتهم من التوراة والزبور. وطوائف النصارى إنما يقرؤون في صلاتهم كلامًا قد لحنه لهم الذين يتقدمون ويصلون بهم، يجري مجرى النوح والأغاني. فيقولون هذا قداس فلان وهذا قداس فلان، ينسبونه إلى الذين وضعوه. وهم يصلون إلى الشرق، وما صلى المسيح إلى الشرق قط، وما صلى إلى أن رفعه الله إلا إلى بيت المقدس، وهي قبلة داود والأنبياء قبله). [(١)]

والواقع أن اختلافًا كبيرًا يقع بين المذاهب المسيحية بشأن الصلاة، فالبروتستانت لا يطلبون الرحمة لنفس الميت ولا النياح له. كل ما يحدث أن يدخل جثمان الميت إلى الكنيسة لتقرأ بعض الفصول، وتلقى العظة لمجرد تعزية أسرة المتوفى، أو للاستفادة من الموت، ولكن لا يصلون مطلقًا من أجل الميت، ولا يطلبون مغفرة ولا يسألون الله من أجل أبدية هذا الذي انتقل، وكنائس البوتستانت لا تتجه إلى الشرق مثل الأرثوذكس، كذلك إذا وقفوا للصلاة لا يتجهون إلى الشرق، بل في أي اتجاه حسب موضع كل منهم.

وليس للبروتستانت ما يسمى صلاة قنديل، أي صلاة مسحة المرضى سواء اعتبرت سرًا من أسرار الكنيسة أم لا. فهم لا يؤمنون بالأسرار أو بأية صلاة طقسية ولا بالصلاة على المرضى كسر كنسي فيه تقديس الزيت والدهن به، ولا يؤمنون بالصلوات السبع التي للكنيسة، لا بمواعيدها ولا بمحتوياتها، ولا يلتزمون بمبدأ الصلوات المحفوظة عمومًا.

---

(١) هداية الحيارى.

يصلي كل إنسان متى يشاء وكيفما يشاء، ولا يستخدمون صلاة (أبانا الذي في السموات) في بدء الصلاة ولا في نهايتها ولا يلتزمون بها إطلاقًا. كما لا يلتزمون مطلقًا بصلاة المزامير، ويرى الأرثوذكس أن الملائكة تعرف صلوات الناس لأنها تحمل الصلوات إلى العرش.

الصوم في العقيدة النصرانية

مثلما كان للعهد القديم أثره الأول والكبير في صلاة المسيحيين من حيث تلاوة مزامير وأقوال لأنبياء بني إسرائيل. فإن الصوم أيضًا هو امتداد من اليهودية إلى المسيحية مع تطور واضح على يد من يسمون الرسل وكتبة الأناجيل والرسائل والأعمال.

والصوم أساسي في العقيدة المسيحية حتى يرد أن الصوم عند المسيحيين أهم من الصلاة. والصوم توجيه اختياري لا إجباري. ومعنى الصوم عندهم الامتناع عن الطعام من الصباح حتى بعد منتصف النهار، ثم هو يتناول طعام خال من الدسم، ويشمل الصوم عند المسيحيين صوم يوم الأربعاء، وهو يوم المؤامرة التي انتهت بالقبض على السيد المسيح ﷺ حسب قول الأناجيل، وكذلك صيام يوم الجمعة، لأن المسيح، كما يزعمون، صلب يوم الجمعة، وعندهم ما يسمى صوم الميلاد وعدد أيامه ٤٣ يومًا تنتهي بعيد الميلاد. ولديهم أيضًا الصوم المقدس، وعدد أيامه ٥٥ يومًا وهي عبارة عن الأربعين يومًا التي صامها المسيح مضافًا إليها أسبوعان. الأسبوع الأول منهما قبل الأربعين، ويسمى أسبوع الاستعداد والتهيئة للصوم الأربعيني المقدس. والأسبوع الثاني أسبوع الآلام، ويأتي بعد الأربعين وينتهي بأحد القيامة. ويمتنع في هذا الصوم أكل لحم حيوان أو ما يتولد منه، أو ما يستخرج من أصله، ويقتصر على أكل البقول ولا يعقد في أثنائه سر الزواج. ثم يجيء صيام الرسل، وعدد أيامه يزيد وينقص حسب الطوائف، وتتراوح مدته بين ١٥ و ٤٩. ثم صوم العذراء ومدته ١٥ يومًا تبدأ من أول شهر مسرى وهو شهر عبراني.

وهناك ما يسمى الصوم الإفخارستي (أي الصوم استعدادًا للمناولة) وهو تراث كنسي قديم، ويكون بالانقطاع عن الطعام منذ منتصف الليل السابق ليوم المناولة، يستثنى من ذلك الأطفال والطاعنون في السن ومن عليهم أخذ دواء أو طعام أو شراب بحسب

وصفة طبيب. وفي حال إقامة القداس الإلهي مساءً وجب انقطاع المؤمن عن الطعام والشراب خمس ساعات قبل القداس الإلهي.

وقد ورد في الأناجيل ما يشير إلى صيام السيد المسيح ﷺ.

فقد جاء في إنجيل متى: (فقد سار الروح بيسوع إلى البرية ليجربه إبليس فصام أربعين يومًا وأربعين ليلة حتى جاع) متى (٤: ١-٢)

وجاء أيضًا في إنجيل متى: وإذا صمتم فلا تعبسوا كالمرائين فإنهم يكلحون وجوههم ليظهر للناس أنهم صائمون. الحق أقول لكم إنهم أخذوا أجرهم، أما أنت فإذا صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكيلا يظهر للناس أنك صائم) متى (٦: ١٦-١٨)

ومن خلال قراءتنا لتعاليم الكنيسة، وخاصة الأرثوذكسية، نرى أن الصوم لم يكن رمزًا إنما هو وصية قائمة في العهد القديم كما هي قائمة في العهد الجديد.

والبروتستانت لا ينكرونه بصفة مطلقة، إنما يلغونه تقريبًا من الناحية العملية فيقول البروتستانت إن الصوم ينبغي أن يكون في الخفاء بين الإنسان والله عملًا بوصية الرب في العظة على الجبل.

وليست للبروتستانت أصوام ثابتة يصومها جميع المؤمنين في مواعيد محددة لها. وفي مناسبات خاصة بها إنما الصوم عندهم، في غالبيته، عمل فردي يصوم الفرد منهم متى شاء وكيف شاء. ولا سلطان للكنيسة عليه في هذا ولا تدخل لها في صومه. ويعتمدون على فهم خاطئ للآية التي تقول (لا يحكم أحد عليكم في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هي في ظل الأمور العتيدة، وأما الجسد فللمسيح) ولا يوافقون في الصوم على الطعام النباتي، والامتناع عن الأطعمة الحيوانية ويتهمون الأرثوذكس بأنهم في ذلك ينطبق عليهم على الأقل الجزء الأخير من الآية التي تقول في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان. . . ما نعين عن الزواج وآمرين أن يمتنع عن أطعمة خلقها الله للتتناول بالشكر).

ويرى الأرثوذكس أن الصوم في الخفاء خاص بالعبادة الفردية و ليس بالعبادة

الجماعية، لأنه يوجد هذان النوعان في العبادة. فالصوم الفردي في الخفاء لا يمنع الصوم العام لكي يشترك كل المؤمنين معًا في صومهم.

وتستند المسيحية في الصيام على ما جاء في العهد القديم من صوم الشعب أيام أستير وصوم أهل نينوى. وصوم الشعب أيام عزرا ونحميا والصوم أيام يوئيل. أما الصوم في العهد الجديد فقد ورد أن الرسل قد صاموا وليس في الخفاء فالصوم الجماعي مقبول وليس فيه رياء كما يقول البروتستانت.

الحج ومفهومه في المسيحية

لم يكن الحج يومًا من الأيام عبادةً من عبادات العقيدة النصرانية. فلم تشر الأناجيل إلى ذلك، ولم تظهر هذه العبادة في الكتابات المسيحية الأولى. وكبقية العبادات خضعت هذه العبادة أو الشعيرة لا اختراعات وابتداعات من قبل اللاهوتييت المسيحيين وخاصة البابا.

وباعتبار أن المسيح ﷺ قد ولد في فلسطين، ورفع إلى السماء منها فقد أنشئت له كنيسة في الناصرة وكنيسة القيامة في مدينة القدس، وكذلك كنيسة أخرى في بيت لحم، واعتبر المسيحيون كل بقعة تجول فيها المسيح مكانًا مقدسًا.

وراح اللاهوتيون مع مرور السنين يفلسفون مفهوم الحج بأنه زيارة واجبة على كل مسيحي إلى تلك الأماكن المقدسة.

كيف نشأ مفهوم الحج إلى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين؟

في القرن الحادي عشر كانت الكنيسة مالكة غنية للحقول والمروج والبساتين، وكانت تستثمر العبيد والفلاحين الذين يخصونها استثمارًا وحشيًا. ربما أن الكنيسة كانت أكبر ملاك عقاري إقطاعي فقد كانت حصنًا روحيًا لعموم طبقة الإقطاعيين، وفي ذلك كانت تتلخص وظيفتها الاجتماعية، وكان رجال الدين يساعدون الإقطاعيين في السيطرة على الفلاحين والحرفيين، وذلك بالوعظ بالتعاليم المسيحية التي تقول: إن النظم الأرضية هي من صنع الرب، وإنه لا يصلح و لا يمكن بالتالي تغييرها وبمطالبة الكادحين بالخضوع التام لأسيادهم، وبوعد الودعاء بالنعيم في الجنة بعد الموت، وبتهديد المتمردين والعصاة

بالعذابات الأبدية في الجحيم.

وعندما أخذ العبيد يهبون ضد الأسياد في القرنين العاشر والحادي عشر وعندما بدأت أفعال الفرسان والإقطاعيين تصيب بالضرر أتباع الكنيسة من رهبان وغيرهم راحت الكنيسة تبتدع أساليب جديدة توطد من خلالها مواقعها المادية والمعنوية، وكان من أهم الأساليب التي ابتدعتها الكنيسة تحويل أنظار طبقة العبيد والفقراء نحو الشرق. فبدل النهب والسلب وجهتهم تجاه الشرق، أي تجاه بلاد الشام وفلسطين بالذات من خلال مفهوم الحج الذي طرحته.

وقد وجه البابا آنذاك نداء إلى جموع المسيحيين في الغرب يدعوهم فيه للحج إلى فلسطين، والقدس بالذات.

ويرى الباحثون أن التوجه لزيارة كنيسة القيامة وكنيسة المهد والأماكن الأخرى يعود للقرن الرابع الميلادي. لكن لم يكن ملحوظًا باعتباره طقسًا أو عبادة كالصلاة.

وما إن حل القرن الحادي عشر حتى غدا منتشرًا بقوة كبيرة في أوساط المسيحيين الغربيين وبدأت عمليات الحج بشكل فردي، ثم تطورت حتى أصبحت عملياتها تتكاثر وتكتسب طابعًا عامًا. وقد أشارت المصادر إلى أن جموعًا لا تحصى كانت تمضي من جميع أنحاء العالم إلى القدس.

وعمليات الحج أو زيارات الأماكن المقدسة انتشرت على درجة كبيرة بحيث انعكس هذا على كل قيم نظام المجتمع الإقطاعي الروحية، وفي المقام الأول على التصورات عن القداسة التي كانت لها أهمية كبيرة في الفكر الإقطاعي. وأصبحت عمليات الحج بمنزلة قسم إلزامي من الزهد والنسك. والتوجه بالسفر إلى القدس صفة لا غنى عنها في سيرة القديسين، وكل من كان يريد أن يخلق ويثبت لنفسه سمعة الطاهر (الفقير بالمسيح) كان يذهب إلى القدس لتكريم المقدسات المسيحية الموجودة هناك من قديم الزمان. والصلاة في كنيسة القيامة والتمتع بإجلال ومهابة بمشاهدة جميع الأماكن التي تجول فيها المسيح يومًا ما.

وقد ترابطت مفاهيم عادة الحج مع مفاهيم العهد بممارسة سلوك النساك المقدسين بدرجة عالية من الثقة، إلى حد أنه كان لا يندر لسير القديسين أن تنسب السفر إلى القدس، بقدر ما تنسب للقديسين أنفسهم على الرغم من أن كثيرًا منهم لم يذهب إلى فلسطين ولم يحج إلى القدس. وقد ألفت الكنيسة قصصًا خيالية قالت فيها إن القديسين الذين لم يحجوا إلى فلسطين كانت في نيتهم زيارة القدس.

لقد أصبح السفر إلى فلسطين للحج إلى الأماكن المقدسة لدى المسيحيين قانونًا في سرد قصص القديسين.

أما من حيث التركيب الاجتماعي فقد كانت عمليات الحج حركة مزخرفة ملونة، وبدا أن أهداف الحجاج الفعلية كانت مختلفة على الرغم من أن الحج بدا للجميع مشروعًا دينيًا صرفًا. فكانت مثلًا لدى الفئات الفقيرة تعبيرًا مغلفًا بغلاف الدين، أما في عيون طبقة الإقطاعيين فقد كانت الأهداف المهمة هي البواعث الدنيوية، أي الرغبة في اكتساب سلع البذخ في الشرق، ورؤية أماكن جديدة والتخلص ولو مؤقتًا من رتابة الحياة القروية مع همومها اليومية.

ومن أمثلة ذلك أن أسقف أورليان المدعو أود إلرك عندما ذهب وحج إلى القدس اشترى فانوسًا نفيسًا من بطريرك القدس مقابل رطل من الذهب، وقال في ذلك أحد شواهد الحملات الصليبية، وهو رادولف غلابر: إن الأسقف حمل الفانوس إلى أورليان لأجل تجميل كنيسته حيث عاد على المرضى بالكثير من النفع.

وهناك أهداف أخرى تجلت من خلال مواقف بعض زعماء الإقطاعيين الأوربيين، ومثال ذلك أن روبير الأول النورماندي الذي انطلق إلى الشرق سنة ١٠٣٥ م أجبر أتباعه الكبار قبل بداية الحج على حلف اليمين والاعتراف بابنه غير الشرعي غليوم ابن الزنى (والذي أصبح الفاتح فيما بعد) وريثًا له. وهكذا كان الحج في هذه الحالة ذريعة مناسبة لأجل بلوغ هدف سياسي معين.

ومن عادات الزعماء الإقطاعيين أثناء سفرهم إلى فلسطين بغية الحج أنهم كانوا يوزعون شتى المجوهرات التي أخذوها مهم لهذه الغاية. وكانوا يعتبرون ذلك بمنزلة توطيد لنفوذهم في أوساط الشعب البسيط، وكانت الكنيسة تشجع هذه التوزيعات بوصفها فعلًا يرضي الله.

وتحت ذريعة الحج كان الفرسان ينضمون إلى الزعماء والملوك. ففي سنة ١٠٦٥م انطلق من ألمانيا إلى الحج زهاء سبعة آلاف شخص إلى اثني عشر ألفًا. وكان الذين لا أرض لهم وكذلك المعدمون يفتشون فيها وراء البحار عن الفرص لإصلاح أوضاعهم، وكان بعض منهم يرغبون في غفران الجرائم التي اقترفوها في بلادهم، والواقع أن الفرسان نهبوا في بلادهم الكنائس والأديرة، وعلى الرغم من ذلك توجهو إلى الحج لغايات وأهداف كثيرة أخرى. لقد تقبل هؤلاء المسيحية على طريقتهم كما فهموها وكيفوها للمفاهيم المألوفة على الإقطاعيين، وكانوا يتصورون الرب بصورة المولى الأعلى الذي يكافىء أتباعه الأرضيين بسخاء على خدمتهم الأمينة، ويغفر الخطايا، ويمنح الغبطة الأبدية في الجنة، كل هذا يفسر اتساع اشتراك الفرسان في عمليات الحج، وهذه العمليات كانت تلقى التحبيذ التام من جانب رجال الكنيسة.

إن حركة الحج التي اخترعها البابا والإقطاع قد هيأت للحروب الصليبية فكريًا وعمليًا، فقد أسهمت في تعاظم الأمزجة والميول الدينية الزهدية، وعرفت الأوربيين على الطرق إلى الشرق وعلى الوضع في الوطن العربي. وأهم ما أسهمت فيه تعطش الإطاعيين لامتلاك إقطاعات وأراض واسعة في الشرق العربي.

وإذا نظرنا إلى مفهوم الحج في وقتنا المعاصر الذي يخص المسيحية فإننا نرى ضعفًا كبيرًا فيه. بل انقطاعًا تامًا لدى بعض الفئات المسيحية، ومع الاحتلال الصهيوني لفلسطين زاد ضعف مفهوم الحج لدى المسيحيين.

ومن جانب آخر فقد أصدر البابا شنودة قرارًا يمنع فيه المسيحيين الأقباط من الذهاب

إلى القدس بحجة الحج ما دامت القدس في قبضة الاحتلال الصهيوني.

وبشكل عام فإن الكنائس الشرقية ترى في الحج إلى القدس في هذه الظروف ضربًا من الخروقات للمسيحية. فلا حج إلى بيت المقدس في ظل الاحتلال الصهيوني.

بينما قام البابا الحالي بزيارة إلى فلسطين وأدى حجه وزار كنيسة القيامة وكنيسة المهد وزار حائط البراق المسمى زورًا وبهتانًا حائط المبكى.

وبذلك شكل بادرة طيبة بالنسبة لليهود المحتلين. وفتح بابًا لجميع المسيحيين الغربيين الكاثوليك لزيارة الأماكن المقدسة ولو كانت تحت الاحتلال.

أما البروتستانت فإنهم يجدون باحتلال الصهاينة للقدس أمرًا محببًا بل أمرًا إلهيًا يهيء لمجيء المسيح الثاني، ويسجع البروتستانت الكيان الصهيوني على إقامة ما يسمى الهيكل مكان المسجد الأقصى. على الرغم من أن البروتستانت أكثر المسيحيين حقدًا على الإسلام وأكثر المسيحيين تحللًا من تعاليم الدين المسيحي فالحج بنظرهم أمر تافه إذا ما قيس بإعلان الحرب على المسلمين وإقامة الهيكل وتقوية الدولة اليهودية حتى يأتي المسيح حسب ما يزعمون. (١)

الفصل الثالث: الطوائف النصرانية والخلاف بينها.

أولًا: التعريف بالكنيسة.

إن كلمة " الكنيسة " كلمة معربة من الإغريقية، فهي من أصل يوناني، وهذا دليل واضح على أن نشأتها إنما كانت في أحضان الإمبراطورية الرومانية، غريبة عما كان يجب أن يكون مهدها ومنشؤها أورشليم، حيث يطلق على بيت الله المجمع الذي كان يرتاده يسوع المسيح ليعلم الشعب.

" ٢٣وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ كُلَّ الْجَلِيلِ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهِمْ، وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ فِي الشَّعْبِ. " (متى ٤/ ٢٣).

---

(١) العقيدة النصرانية بين القرآن والأناجيل ١٦١ – ١٨٧.

أما سر خروج الدعوة من أورشليم إلى آسيا الصغرى واليونان فيرجع إلى بولس الذي رآه اليهود بين قومه قد تزندق وحاولوا قتله فأثبت " لوقا " هذه الواقعة قائلا: " ٤٥فَلَمَّا رَأَى الْيَهُودُ الْجُمُوعَ امْتَلأُوا غَيْرَةً، وَجَعَلُوا يُقَاوِمُونَ مَا قَالَهُ بُولُسُ مُنَاقِضِينَ وَمُجَدِّفِينَ. ٤٦فَجَاهَرَ بُولُسُ وَبَرْنَابَا وَقَالاَ: «كَانَ يَجِبُ أَنْ تُكَلَّمُوا أَنْتُمْ أَوَّلًا بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلكِنْ إِذْ دَفَعْتُمُوهَا عَنْكُمْ، وَحَكَمْتُمْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُسْتَحِقِّينَ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، هُوَذَا نَتَوَجَّهُ إِلَى الأُمَمِ. ٤٧لأَنْ هكَذَا أَوْصَانَا الرَّبُّ: قَدْ أَقَمْتُكَ نُورًا لِلأُمَمِ، لِتَكُونَ أَنْتَ خَلاَصًا إِلَى أَقْصَى الأَرْضِ». " (لوقا ١٣/ ٤٥ – ٤٧).

وأصبحت الكنيسة في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، أي في غير أرضها وسماتها ديانة ناشئة ضعيفة بين عمالقة أديان الخلاص الرسمية في الإمبراطورية الرومانية، كالبوذية والميتراسية، وتعرضت طيلة أربعة قرون وقبل الاعتراف بها للاضطهادات اليهودية والوثنية.

لقد أوصى بولس الأساقفة قائلا: " اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ. " (أعمال الرسل ٢٠/ ٢٨).

ثانيًا: انقسام الكنيسة على ذاتها.

انقسمت الكنيسة على ذاتها في خلال الفترة من عام ٤٥١ إلى عام ١٥٢١م إلى مذاهب تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافا جوهريا، ومن ثم نشأت الكنائس المنشقة تباعا على هذا النحو:

١ – الكنيسة المصرية الأرثوذكسية (تعني مستقيم الرأي) عام ٤٥١.

٢ – كنيسة الموارنة بسوريا (نسبة إلى مؤسس المذهب) عام ٦٨٠.

٣ – كنيسة الروم الأرثوذكس (تعني حر الفكر) عام ٨٧٩.

٤ – كنيسة روما الكاثوليكية (تعني مقيم الحجة) عام ٨٧٩.

٥ – الكنيسة البروتستانتية عام ١٥٢١.

وإن هذا الانقسام الجوهري دليل على أن العهد الجديد كتاب وضعي، قام بتصنيفه مجموعة من البشر، وفي هذا الانقسام الذاتي يقول المسيح: " ٢٥فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تُخْرَبُ، وَكُلُّ مَدِينَةٍ أَوْ بَيْتٍ مُنْقَسِمٍ عَلَى ذَاتِهِ لاَ يَثْبُتُ. " (متى ١٢/ ٢٥).

يقول عبد الأحد داود " إن أي دين يعتمد على مداولات وقرارات المجامع العامة

المؤمنة أو الملحدة هو دين مصطنع.

إن دين الإسلام هو الإيمان بالله الواحد والتسليم المطلق لمشيئته، هذا الإيمان يعتنقه الملائكة في السماء، والمسلمون في الأرض، إنه دين التقديس والاستنارة، وقلعة الإيمان التي لا يمكن للوثنية اقتحامها ". (١)

ثالثا: التعريف بالفرق

كانت هناك طوائف ومذاهب مسيحية كثيرة في عصر المسيحية الأولى، لكنها فنيت بسبب قسوة اليهود ثم الرومان، وأحيانا بسبب قسوة فرق المسيحية الأخرى التي نالت نصيبا من الحظوة لدى أباطرة الرومان.

أولًا: الكاثوليك:

١- تسمى كنيستهم بالكنيسة الغربية؛ لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني الذين يقطنون بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، كما يوجد لها أتباع في بلاد أخرى في أوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية وأفريقيا وآسيا.

٢- يدعي الكاثوليك أن مؤسس كنيستهم الأول هو بطرس الرسول كبير الحواريين ورئيسهم، وأن بابوات روما هم خلفاؤه؛ لذلك فهم يسمون كنيستهم بالبطرسية أو الرسولية أو اللاتينية أو العامة لأنها تدعى أم الكنائس ومعلمتها، ولأنها وحدها هي التي تنشر المسيحية في العالم.

٣- تتبع كنيسة الكاثوليك في روما النظام البابوي وهو مجمع كنائس مكون من مجلس الكرادلة ويرأسه البابا، ولهذا المجمع الحق في إصدار إرادات بابوية سامية، هي في نظرهم إرادات إلهية، لأن البابا خليفة بطرس تلميذ المسيح ووصيه، فهو بالتالي يمثل الله، لذا كانت إرادته لا تقبل المناقشة أو الجدل.

معتقدات الكنيسة الكاثوليكية:

١- تقول كنيسة روما بأن روح القدس نشأ عن الله الآب، والابن معا.

---

(١) محمد في الكتاب المقدس (٢٠١).

٢- وتعتقد أيضًا بالمساواة الكاملة بين الإله الآب والإله الابن.

٣- وتقول بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين.

٤- ومن مستحدثاتها أنها أحلت الدم المخنوق، وأباحت للرهبان أكل دهن الخنزير؛ وكل ذلك لتجذب إليها الجرمان الوثنيين واللادينيين.

٥- اعتادت كنيسة روما إصدار صكوك الغفران لمن يشاء من رعاياها.

وهناك طوائف أخرى تتبع الكنيسة الكاثوليكية، وإن لم تكن تتبع اعتقادها في طبيعة المسيح ومشيئته وهم:

(أ) النسطورية:

تنسب إلى نسطور الذي كان بطريركا للقسطنطينية لمدة أربع سنين قبل خلعه ونفيه إلى مصر، حيث أقام في مدينة أخميم حتى مات.

معتقدات هذه الفرقة:

يرى النسطورية أن مريم العذراء أم المسيح لم تلد الإله، بل ولدت الإنسان فقط، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثاني وهو الابن، وليس ذلك الاتحاد بالمزج أو هو اتحاد حقيقي بل كان اتحادًا مجازيًا لأن الإله منحه المحبة ووهبه النعمة فصار بمنزلة الابن.

وواضح جدًّا أن نسطورا بهذه المقالة يلغي تماما الاعتقاد السائد بألوهية السيد المسيح ولهذا كاتبه رؤساء الكنائس الأخرى للرجوع عن هذه المقالة، لكنه لم يستجب، فعقد مجمع أفسس سنة ٤٣١ وقرر لعنه وطرده.

(ب) المارونية:

ومقر هذه الطائفة جبل لبنان، وتنسب إلى القديس يوحنا مارون الذي أعلن سنة ٦٦٧م أن المسيح ذو طبيعتين ولكنه ذو إرادة واحدة أو مشيئة واحدة.

ولم تقبل الكنائس المسيحية هذا الرأي، لذلك اجتمع المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠م وقرر رفض نحلة مارون، وحرمانه ولعنه وتكفيره وتكفير كل من يذهب مذهبه.

وقد نزلت بأتباع مارون الاضطهادات وصنوف الأذى، فلم يجدوا لهم ملجأ إلا الفرار والاعتصام بمدن جبل لبنان، وقد تحايلت الكنيسة الكاثوليكية عليهم وقربتهم إليها، فأعلنوا لها الطاعة والاتحاد معها سنة ١١٨٢م، على أن يبقوا على رأيهم وبطريركهم الخاص بهم وإن كان يقر بالرياسة لبابا روما.

(ج) السريان:

هم من طوائف المسيحيين الآسيويين يقولون إن المسيح ذو طبيعة واحدة (مثل أقباط مصر) لكنهم يعترفون برياسة الكنيسة الكاثوليكية عليهم وإن كان لهم رأيهم وبطريركهم الخاص بهم.

ثانيًا: الأرثوذكس:

١- تسمى كنيستهم الكنيسة الشرقية أو اليونانية، أو كنيسة الروم الشرقيين لأن أتباعها كانوا من الروم الشرقيين، أي من شرق أوروبا كروسيا ودول البلقان واليونان.

٢- مقر هذه الكنيسة الأصلي كان مدينة القسطنطينية، بعد انفصالها عن كنيسة روما سنة ١٠٥٤م، وتتبع تلك الكنيسة نظام الإكليروس، ويبدأ من البطريرك ويليه في الرتبة المطارنة، ثم الأساقفة ثم القمامصة وهم قسس ممتازون يليهم القسس العاديون.

معتقدات الكنيسة الأرثوذكسية:

١- أصرت الكنيسة الشرقية على أن روح القدس نشأ عن الله الآب فقط.

٢- قالت بأفضلية الإله الآب عن الإله الابن.

٣- تصر الكنيسة الشرقية على أن المسيح له طبيعة واحدة ومشيئة واحدة.

٤- لم تقبل الكنيسة الشرقية أكل الدم المخنوق ورفضت إباحة أكل دهن الخنزير للرهبان.

وهناك طوائف أخرى تتبع المذهب الأرثوذكسي، وإن كانت كنائسها مستقلة عنها وهي:

(أ) الكنيسة المصرية:

ورئيسها هو بطريرك القبط المقيم بالقاهرة، ويدعى حاليا بابا الإسكندرية ورئيس الإفريقيين المسيحيين، ويتبعه في هذه الرياسة سكان الحبشة المسيحيون، فهم خاضعون لبطريرك الكنيسة القبطية، وهو يعين لهم أسقفا يسوسهم.

نبذة تاريخية عن الكنيسة المصرية:

كانت مدينة الإسكندرية، في عصر الإمبراطورية الرومانية، تعتبر عاصمة كبرى للأسقفيات، ومن أساقفتها: أريوس زعيم الموحدين، وإثناسيوس زعيم التثليث، وديسقورس زعيم فكرة الإله المتجسد في يسوع المسيح.

وبما أن مصر في ذاك الوقت كانت نصرانية، فإنها أصبحت تعاني سياسيا من تبعيتها للإمبراطورية الرومانية، لدرجة أن المصريين هربوا من ديارهم، وسكنوا الكهوف، والمغارات هربا من ظلم الرومان، ومن العسف الذي كان واقعا عليهم، وتدل بعض المراجع التاريخية على أن التقويم القبطي، يبدأ من عصر الشهداء.

معتقداتها:

تعتقد الكنيسة المصرية أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت، وانعقد لأجل هذا مجمع أفسس الثاني خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، حيث أعلن هذا الرأي، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية رفضته ووصفت هذا المجمع بأنه مجمع اللصوص، لكن بعد ذلك انعقد مجمع خليكدونية سنة ٤٥١م، وتقرر فيه أن المسيح فيه طبيعتان لا طبيعة واحدة، وأن الألوهية طبيعة وحدها والناسوت طبيعة وحدها والناسوت طبيعة وحدها التقتا في المسيح، وبذلك رفض المجمع الأخير رأي الكنيسة المصرية، بل لعن هذا المجمع ديسقورس بطريرك الإسكندرية، إلا أن الأقباط المصريين عندما بلغهم ما نزل برئيس كنيستهم غضبوا، وأجمعوا أمرهم على عدم الاعتراف بقرارات ذلك المجمع، بل ثاروا ضد الرومان، وطلبوا تعيين بطريرك من مذهبهم.

وقد كان قرار مجمع خليكدونية هو السبب في انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية، ونشط أتباع المذهب القبطي في الدعوة إليه والدفاع عنه، وينتشرون في ربوع البلاد ومن أبرز هؤلاء " يعقوب البرذاعي الذي يجول في البلاد الرومانية داعيًا إلى اعتناق المذهب القبطي المصري وسلك في سبيل ذلك كثيرًا من المخاطر والجرأة.

واستمر الحال هكذا حتى كان الفتح الإسلامي لمصر بقيادة عمرو بن العاص في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فنال المصريون الحرية السياسية إلى جانب الحرية الدينية، وذلك بانتصار الإسلام على دولة الروم، ثم امتد الفتح الإسلامي حتى غطى بقاع الأرض من أقصاها إلى أقصاها، ودخل الناس في دين الله أفواجا، بقناعة واقتناع ورغبة لا رهبة.

وقد لخص صاحب كتاب " تاريخ المسيحية في مصر" عقيدة الكنيسة المصرية فقال الآتي: " كنيستنا مستقيمة الرأي التي تسلمت إيمانها من كيرلس وديسقورس ومعهما الكنائس الحبشية والسريانية الأرثوذكسية، تعتقد بأن الله ذات واحدة – مثلثة الأقانيم – أقنوم الأب – وأقنوم الابن – وأقنوم الروح القدس، وأن الأقنوم الثاني أي أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، فصير هذا الجسد معه واحدا، وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة. "

(ب) الأرمن:

هم طوائف من المسيحيين موطنهم الأصلي أرمينيا، وإن كانوا ينتشرون في مصر وبعض بلاد الشرق الأوسط، يعتقدون في المسيح اعتقاد الكنيسة القبطية أن المسيح ذو طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، ولكن لهم تقاليد دينية وطقوس دينية مختلفة، كما أن لهم بطاركة مستقلين بهم، لأنهم لا يندمجون في الكنائس الأخرى.

ثالثا: البروتستانت (أو الإصلاح الديني).

١- ينتشر البروتستانت في ألمانيا وإنجلترا والدانمارك وهولنده وسويسرا والنرويج وأمريكا الشمالية، وهم يسمون كنيستهم الإنجيلية، بمعنى أن أتباع تلك الكنيسة يتبعون الإنجيل ويفهمونه بأنفسهم دون الخضوع لأحد آخر أو طائفة أخرى، فالكل قادر على فهمه.

وهذا الاتجاه منهم في فهم الإنجيل يعارضون به الكنائس الأخرى التي تعتبر فهم الإنجيل وقفا على رجال الكنيسة، الذين يعتقدون في جانبهم الإلهام، فضلا عن ادعائهم بتلقي تعاليم غير مكتوبة يتناقلها البابوات خلفا عن سلف. كما يصح أن نصفها بأنها

كانت تركز على التعليم العقلاني وبالتالي ثارت على البدع المتفشية في الكنيسة الكاثوليكية، ورأت فيها جنوحا عن تعاليم السيد المسيح فمثلا، عقيدتهم في القربان المقدس هو أنه خبز على الحقيقة، وخمر على الحقيقة، ولن يتحولا بأي حال من الأحوال إلى جسد المسيح ودمه، وإنما يمارسان للذكرى فقط.

٢- زعيمهم الأول هو لوثر، وكان من أشد الناس إنكارا على من ينظر في فلسفة أرسطو، وكان يلقبه بالخنزير الدنس الكذاب.

أصول البروتستانت

أولًا: ليس للقسيس البروتستانتي هيمنة على مقدرات شعب الكنيسة، فالجميع متساوون أمام الله، والجميع يتقدمون أمام الله بإيمان يقيني يبعث فيهم الثقة، وكل إنسان مسئول عن عمله أمام الله مباشرة، والله يجزي كل إنسان بعمله.

ومن هذا الاعتقاد فإن الكنيسة البروتستانتية تزين جدرانها بنصوص من التوراة، أو من العهد الجديد، وكلها تحض على الإيمان الحقيقي المصفى، مثل:

١- " [٢٢]اِلْتَفِتُوا إِلَيَّ وَاخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقَاصِي الأَرْضِ، لأَنِّي أَنَا اللهُ وَلَيْسَ آخَرَ. " (إشعياء ٤٥/ ٢٢)

٢- " [٢٨]تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ. " (متى ١١/ ٢٨).

٣- ": إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً، لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ». (متى ٩/ ١٣).

ثانيًا: عند ممارسة العشاء الرباني، لا ترى فيها الكنيسة حلول الله الابن، أو استحضار الله الروح القدس، فهي تمارس العشاء الرباني وفقا أيضًا لتعاليم بولس، ومستندهم في ذلك: " [٢٣]لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أيضًا: إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا [٢٤]وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي الْمَكْسُورُ لأَجْلِكُمْ. اصْنَعُوا هذَا لِذِكْرِي». [٢٥]كَذلِكَ الْكَأْسَ أيضًا بَعْدَمَا تَعَشَّوْا، قَائِلًا: «هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِذِكْرِي». (كورنثوس(١) ١١/ ٢٣ – ٢٥)

ثالثًا: يجري النظام الإداري فيها على انتخاب اللجنة التنفيذية بالاقتراع السري بين الأعضاء

القساوسة، وهذه اللجنة تتألف من رئيس ونائب رئيس وأمين عام وأمين الصندوق.

رابعًا: لا تعترف الكنيسة البروتستانتية بالبابوية، ولا بالرتب الكهنوتية، فالكل سواء، وإنما التفاضل يكون بالحياة المثلى لقول المسيح عليه السلام: " ٤٨فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ"(متى ٥/ ٤٨).

خامسًا: ويطالب البروتستانت أيضًا بإبطال عبادة الصور، وإبطال صكوك الغفران والتجارة ببيع الثواب.

سادسًا: من ناحية الثياب الكهنوتية لم يلتزم البروتستانت بهذه الثياب؛ ذلك لأن يسوع اختار تلاميذه من عامة اليهود من صيادي السمك وأوصاهم قائلا: " اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. " (متى ١٠/ ٧)

ولذلك فهم لا يعرفون إلا بالكرازة، وسرعان ما يختلطون بالناس، والناس يألفونهم ويتيحون لهم فرص العمل دون أن ينكشف أمرهم.

وهم يعملون بوصية السيد المسيح عليه السلام القائلة: " ١٦«هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ كَغَنَمٍ فِي وَسْطِ ذِئَابٍ، فَكُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ. ١٧وَلكِنِ احْذَرُوا مِنَ النَّاسِ، لأَنَّهُمْ سَيُسْلِمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ، وَفِي مَجَامِعِهِمْ يَجْلِدُونَكُمْ. ١٨وَتُسَاقُونَ أَمَامَ وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِي شَهَادَةً لَهُمْ وَلِلأُمَمِ. ١٩فَمَتَى أَسْلَمُوكُمْ فَلاَ تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ، لأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ، ٢٠لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ. "(متى ١٠/ ١٦ – ٢٠).

والحقيقة أن البروتستانت لم يغيروا شيئا من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري، بل إنهم فقط قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم، أو بمعنى آخر كانت حركة لإصلاح الكنيسة لا إصلاحا للمسيحية وإرجاعها إلى أصولها النقية، وأيضًا فتحوا باب العداوة بينهم وبين غيرهم من الطوائف المسيحية.

لذلك بقيت الموضوعات الجوهرية في الديانة النصرانية كما هي، مثل الآتي:

١ – التثليث ومدى سلامة قرارات المجامع السابقة في العقيدة.

٢- صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر.

٣- البحث عن إنجيل المسيح نفسه، والاقتصار على التعاليم التي أتى بها المسيح نفسه، واستبعاد التعاليم الأخرى

ولكن هذا لا يعني عدم ظهور مصلحين حقيقيين أرادوا فعلا إصلاح العقيدة من جذورها، وفيما يلي أسماء لبعض هؤلاء وما حاول القيام به:

أولًا: آريوس قسيس الإسكندرية في بداية القرن الرابع الميلادي.

أعلن آريوس أن الله وحده هو الإله الأصلي الواجب الوجود، أما المسيح والروح القدس فهما كائنان من خلق الله. فما كان جزاؤه إلا أن حكم عليه مجمع نيقية بالكفر والهرطقة ويتقرر قتله مع مشايعيه.

ثانيًا: أوريجانوس.

أعلن أن الله روح لا يدركه الفهم، وهو أعلى من أن تكون أوصافه شبيهة بالإنسان، وأن الله لا يجزأ ولا يتجسد ولا يحصر. فحكم عليه بالحرمان وحرقت كتبه ثم طرد مع أتباعه.

ثالثًا: الفيلسوف المسيحي ترتليان في القرن الثالث الميلادي.

أعلن قوله " إننا بريئون من الذين ابتدعوا مسيحية رواقية أو أفلاطية أو جدلية بعد المسيح والإنجيل، لسنا بحاجة إلى شئ ".

رابعًا: الأسقف نسطور.

أنكر ألوهية المسيح، ويقرر أنه إنسان كسائر الناس مملوء بالنعمة والبركة.

خامسًا: الأسقف مقدونيوس أسقف القسطنطينية

أنكر ألوهية الروح القدس، فعقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م وقرر طرده وحرمانه وعزله.

سادسًا: المصلح الأسباني سرفيتوس.

أعلن وحدانية الله وإنكار الثالوث فتقرر حرقه حيا سنة ١٥٥٣م.

سابعًا: في بولونيا نادى سرسينس بوحدانية الله وبشرية المسيح، وقرر أن الإله لا يحل

في البشر، وقد تفرع عن عقيدته مذهب الموحدين، الذين قاموا يدعون إلى تطهير المسيحية من أدران الوثنية وجهالة التجسيد. وكان جزاؤهم كمن سبقوهم.

وهكذا لاحق عباد المسيح الموحدين في كل مكان وفي كل زمان، حتى انتشر الظلام في جميع أرجاء المعمورة وكان لابد من رسول ودين جديد لأهل الأرض، فجاء نور الإسلام فبدد ظلمات الشرك والأوثان، وأرسى عقيدة توحيد الخالق المنزه عن الشريك والوالد والصاحبة والولد، فأرجع القلوب والأفئدة إلى التوحيد الذي هو دين الأنبياء جميعا من لدن آدم أبي البشر حتى ختام رسالات السماء بمحمدﷺ.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء/ ٢٥)

ويقابل ذلك ما جاء في إنجيل يوحنا، منسوبا إلى المسيح عليه السلام: " [٣]وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. " (١٧/ ٣).

وسبق ذلك في العهد القديم، في سفر الخروج ضمن وصايا الرب لموسى عليه السلام" [٢]«أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. [٣]لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. [٤]لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. [٥]لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ ". (٢٠/ ٣- ٥).

ملخص الاتفاق والاختلاف العقدي بين الكنائس

أولا: ما هي التعاليم التي تتفق فيها الكنيستان الشرقية (الأرثوذكسية) والتقليدية (الكاثوليكية) والتعاليم التي تختلفان فيها؟

أولًا – الاتفاقات هي:

(١) قبول تعاليم القوانين الثلاثة الأولى المسكونية، أي الرسولي والنيقوي والأثناسي، ما عدا كلمة «والابن» التي أضافها الغربيون على قانون الإيمان النيقوي، وكذلك كلمة «والابن» في القانون الأثناسي.

(٢) التعاليم الآتية التي نشأت بعد نشر القوانين المسكونية (وهي مرفوضة عند

الإنجيليين) وهي:

(أ) سلطان التقليد الكنسي وعقيدة أنه دستور للإيمان مع الكتاب المقدس.

(ب) شفاعة مريم العذراء والقديسين وصورهم (لا تماثيلهم) وذخائرهم.

(ج) عصمة الكنيسة، غير أن الكنيسة التقليدية تحصر العصمة في المنصب التقليدي، والكنيسة الشرقية في المجامع المسكونية السبعة وفي مجمع البطاركة.

(د) التبرير بالإيمان والأعمال معًا أي أن الإيمان والأعمال شرطان للتبرير.

(هـ) الأسرار السبعة مع فرق زهيد في ما يتعلق بالتثبيت والمسحة.

(و) التجديد بواسطة المعمودية، وضرورة المعمودية بالماء للخلاص.

(ز) الحِل الكهنوتي من الخطايا بالسلطان الإلهي.

(ح) استحالة الخبز والخمر بعد تقديسهما والسجود لهما.

(ط) ذبيحة القداس لأجل الأحياء والأموات. وهذا هو محور العبادة عندهم، وأما التبشير فثانوي.

(ي) الصلاة لأجل الموتى.

ثانيًا ـ ما تختلفان فيه:

(١) الكتاب المقدس: لم تمنع الكنيسة الشرقية استعمال الشعب للكتاب المقدس كما فعلت الكنيسة الكاثوليكية.

(٢) انبثاق الروح القدس الأزلي (لا إرساله الزمني) من الابن، فإن الكنيسة الغربية تعتقد به والشرقية تنكره.

(٣) رياسة البابا وعصمته. فالكنيسة الغربية تعتقد أنها حجر الزاوية في الإيمان المسيحي، والشرقية ترفضها مطلقًا، وتحسبها من تعاليم ضد المسيح.

(٤) الحبل بمريم العذراء بلا دنس، الذي نادى به الكاثوليك سنة ١٨٥٤م.

(٥) زواج أصحاب الدرجات الكهنوتية الأقل. فالكنيسة الشرقية تجيزه، والغربية تمنعه حيثما استطاعت.

(٦) منع كأس الأفخارستيا عن الشعب عند الكاثوليك.

(٧) أسلوب ممارسة عدة من الطقوس والفرائض. ومما تنفرد فيه الكنيسة الشرقية تغطيس المعتمد ثلاث مرات عوضًا عن السكب أو الرش، واستعمال الخمير في الأفخارستيا عوضًا عن الفطير، والصلاة للروح القدس ليبارك العناصر المقدسة، وشركة الأطفال في العشاء الرباني، ودهن الأطفال المعتمدين بالميرون، وتكرار المسحة في المرض.

ثانيا: ما هي التعاليم التي تتفق فيها الكنيستان الشرقية والإنجيلية (البروتستانتية) والتعاليم التي تختلفان فيها؟

أولًا – ما تتفقان فيه:

(١) الإيمان بالكتاب المقدس وقبول تعاليم قوانين الإيمان الثلاثة الأولى المسكونية.

(٢) تتفقان في رفض ما يأتي:

(أ) رياسة البابا وعصمته. (ب) الحبل بمريم العذراء بلا دنس. (ج) منع الكأس عن الشعب. (د) بتولية الكهنة والشمامسة الإلزامية. (غير أن الكنيسة الشرقية تمنع زواج الكاهن ثانية، وتأمر ببتولية الأساقفة).

ثانيًا ـ ما تختلفان فيه:

(١) انبثاق الروح القدس الأزلي (لا إرساله الزمني): هل هو من الآب وحده، أو من الآب والابن معًا. ويتفق الإنجيليون والكاثوليك في انبثاق الروح الأزلي. ولم يكن هذا الموضوع في عصر الإصلاح موضوع بحث، ولا جرى عليه جدال وخصام، فاتّخذته الكنائس المصلحة أمرًا مسلّمًا به. غير أن بعض اللاهوتيين يميلون إلى تقليل أهمية هذه المسألة كموضوعٍ للخلاف بين الشرقيين والغربيين، كما تبين في قرار مؤتمر بون سنة ١٨٧٤م المؤلّف من نوّاب من الكاثوليك القدماء والكنيسة الشرقية وبعض أساقفة وقسوس الكنيسة الأسقفية. وقد قامت هذه المسألة حاجزًا بين الشرق والغرب منذ أكثر من ألف سنة: هل انبثاق الروح الأزلي هو من الآب وحده، أو هل هو من الآب والابن معًا؟ فالكنيسة الشرقية (حفظًا لشأن الآب في الثالوث الأقدس) اعتقدت بالانبثاق من

الآب وحده. والكنيسة الغربية (حفظًا لشأن الابن في الثالوث) اعتقدت بالانبثاق من الآب والابن معًا. غير أنه لا فرق بينهما في أن الروح القدس مرسَلٌ من الآب والابن معًا لإتمام مقاصد إلهية في عمل الفداء (يو ١٤: ٢٦ و١٥: ٢٦ و١٦: ٧). ولا فرق أيضًا من جهة عمله الخاص في تجديد القلب وتقديسه.

(٢) التعاليم التي نشأت بعد نشر القوانين الثلاثة الأولى المسكونية: الرسولي والنيقوي والأثناسي؛ فإن الكنيسة الشرقية تتفق فيها مع الغربية ضد الإنجيليين.

ثالثا: ما هي التعاليم التي تختلف فيها الكنيستان التقليدية والإنجيلية؟

ما تختلفان فيه فهو:

(١) دستور الإيمان: تعتبر الكنيسة التقليدية أن الكتاب المقدس والتقليد هما معًا دستور الإيمان. بينما يقول الإنجيليون أن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد المعصوم للإيمان والأعمال، وهو كافٍ لإرشادنا إلى الخلاص وأن له سلطانًا على كل ما سواه.

(٢) الكتاب المقدس: وحوله اختلافات، منها:

(أ) عدد الأسفار القانونية: فإن أسفار العهد القديم الأبوكريفية تدخل عند التقليديين في الأسفار القانونية، والإنجيليون لا يحسبونها.

(ب) مطالعة الشعب للكتاب المقدس ونشره بين الناس: لا تستحسن الكنيسة التقليدية ذلك، والإنجيلية تنادي بلزومه وتسعى في توزيعه، لأن تعاليمها مؤسسة على الكتاب المقدس فقط.

(٣) مواضيع العبادة: وهي عند التقليديين:

(أ) الله (ب) مريم العذراء (ج) الملائكة والقديسون (د) صور القديسين وذخائرهم. وعند الإنجيليين الله فقط. فالتقليدي يقترب إلى المسيح بوسطاء من البشر، ويجعل عبادته لمريم العذراء تنوب عن عبادته ليسوع. والإنجيلي يقترب إلى المسيح مباشرة، ويصلي له باعتبار أنه كاهنه ومخلّصه العظيم الوحيد الكافي له، وشفيعه عن الآب.

٤ - الحالة الأصلية: «﴿نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا ﴾» (تكوين ١: ٢٦). تقول الكنيسة التقليدية إن المقصود بكلمة «صورتنا» غير المقصود بكلمة «شبهنا» فكلمة «صورتنا» تعني أن الإنسان عاقل حرّ الاختيار، وإن كلمة «شبهنا» تعني أنه يشبه الله بما ناله من موهبة القداسة الأصلية، فقد وشّحه الله بالبر والقداسة بعد أن خلقه على صورته. أما الكنيسة الإنجيلية فتقول إن المقصود بكلمتي «صورتنا وشبهنا» هو واحد، لأن صورة الله التي خُلق عليها الإنسان أصلًا تشمل البر والقداسة.

(٥) الخطية الأصلية: يعلّم التقليديون أن الخطية الأصلية عيبٌ سلبيٌّ، أو ضياع موهبة القداسة الأصلية المشار إليها بكلمة «كشبهنا» (تك ١: ٢٦) (أي ضياع مشابهة الله لا صورته). وهم يقولون إنه يزول تمامًا بالمعمودية. ويعلّم الإنجيليون أن الخطية الأصلية هي فساد إيجابي كلي يعمّ تشويه صورة الله الأصلية ومشابهته اللتين خلق عليهما الإنسان، وأن الإنسان يميل دائمًا إلى الخطية بعد المعمودية.

(٦) التبرير: يقول التقليديون إنه يتم بالإيمان والأعمال الصالحة معًا، ويقول الإنجيليون إنه بالإيمان فقط. ومما يختلفان فيه في شأن التبرير: (أ) معنى التبرير وفعله. يقول التقليديون إن التبرير يجعل الخاطئ بارًا في الذات بالتدريج (وعلى ذلك هو مرادف للتقديس عند الإنجيليين). ويقول الإنجيليون إنه هو قضاء الله وتصريحه بأن الخاطئ صار بارًا شرعًا، فصفح عن الخاطئ التائب بناء على استحقاق المسيح، وعلى شرط الإيمان به، وأن التقديس يتبعه، وهو عمل متميّز عنه.

(ب) معنى الإيمان. يقول التقليديون إنه تسليم عقلي وخضوع للسلطان الكنسي النائب عن الإلهي. ويقول الإنجيليون إنه قبول تعاليم الله بالثقة وإنه الاتكال الشخصي على المسيح والشركة الحيَّة معه.

(ج) المقام المعيَّن للأعمال الصالحة. يقول التقليديون إنها شروط التبرير. ويقول الإنجيليون إنها برهان التبرير ونتيجته، فهي ثمار التبرير لا سببه.

(د) إمكان التحقُّق من التبرير والخلاص. ينكره التقليديون إلا إذا أُسند على إعلان خاص من الله عن لسان الكنيسة المعصومة. ويثبته الإنجيليون على درجات مختلفة.

(٧) الكنيسة:

(أ) يعتقد التقليديون أن كنيسة المسيح الحقيقية هي كنيستهم لا غير، ويعتقد الإنجيليون أن الكنيسة غير المنظورة واحدة وعامة وتحت رياسة المسيح فقط، وأن الكنيسة المنظورة مؤلفة من جماعات كثيرة منتظمة تحت أسماء مختلفة.

(ب) يعتقد التقليديون أن صفات الكنيسة هي الوحدة والقداسة والجامعية والرسولية والعصمة وعدم إمكان السقوط، وأن هذه الصفات اجتمعت في كنيستهم وحدها، فهي الكنيسة الوحيدة الصحيحة في العالم، ولا خلاص لمن هو خارج عنها. وينكر الإنجيليون بعض تلك الصفات على المعنى البابوي، ويقولون إن كنيسة المسيح الصحيحة ليست تحت نظام واحد خارجي، بل هي الكنيسة غير المنظورة الروحية المؤلفة من كل المؤمنين بالحق في كل زمان ومكان، وأنها جسد المسيح وهو رأسها وربها بغضّ النظر عن نظامها الخارجي.

(٨) البابا: يعتقد الكاثوليك أنه خليفة بطرس، ورأس الكنيسة الجامعة، ونائب المسيح على الأرض. وينكر الإنجيليون ذلك، ويعتقدون أن المسيح هو رأس الكنيسة الوحيد.

(٩) الأسرار على وجه الإجمال:

(أ) تعريف السر: هو إشارة منظورة لنعمة غير منظورة، مرسوم بأمر صريح في العهد الجديد من المسيح (عند الإنجيليين) أو بمجرد سلطان الكنيسة (عند التقليديين).

(ب) عدد الأسرار: هي سبعة عند التقليديين واثنان عند الإنجيليين، وهما المعمودية والعشاء الرباني.

(ج) فائدة الأسرار: تُنال عند التقليديين بواسطة ممارستها بواسطة الكهنة خلفاء الرسل، وعند الإنجيليين بواسطة الإيمان في قلب كل تائب مؤمن يقبلها.

(١٠) المعمودية: كلاهما يختلفان في عملها في الخطية الأصلية وفي علاقتها بالتجديد

وفي ضرورتها للخلاص وغير ذلك.

(١١) الأفخارستيا: ما يعتقده التقليديون ويرفضه الإنجيليون:

(أ) الاستحالة والسجود للخبز والخمر. (ب) منع الكأس عند الكاثوليك عن الشعب. (ج) الأفخارستيا ذبيحة حقيقية، وسمُّوها «غير دموية» وهي تكرار ذبيحة المسيح على الصليب بواسطة الكاهن لأجل خطايا الأحياء والأموات، أي النفوس في المطهر.

(١٢) الأسرار الخمسة الأخرى هي: التثبيت، والاعتراف أو التوبة، والكهنوت أو الرسامة، والزيجة، والمسحة الأخيرة: يعتقد التقليديون أنها أسرار حقيقية. ويرفض الإنجيليون ذلك، غير أن بعضهم يمارس جزءًا منها بغير المعنى التقليدي.

(أ) التثبيت: تقبله الكنائس اللوثرية والأسقفية والمصلحة الألمانية كعملٍ يُضاف لمعمودية الأطفال بعد تعليمهم التعليم المسيحي. وأما باقي الكنائس الإنجيلية فترفضه، معتقدةً أن الاتحاد الاختياري بالكنيسة (الاشتراك في العشاء الرباني) بواسطة الاعتراف بالإيمان جهارًا يغني عنه.

(ب) الاعتراف أو التوبة: يعتقد التقليديون أن الاعتراف الشفاهي للكاهن والحِلّ منه كافيان لغفران الخطايا والآثام القابلة للغفران. وتستحسن قوانين الكنائس اللوثرية والأسقفية الاعتراف السري للراعي، وفي بعض الأحوال لا توجبه. والكنائس الأخرى تتركه لاختيار كل شخصٍ. ويرفض جميع الإنجيليين الحِلّ الكهنوتي. لكن القس عند الأسقفيين يصرّح جهارًا بمغفرة الله للتائبين إذا تمت فيهم شروط المغفرة.

(ج) الكهنوت أو الرسامة: يعتقد التقليديون بالكهنوت الخاص ووجوب الرسامة من الأساقفة فقط. وعندهم أن الكاهن ينال بتلك الرسامة السلطان الكهنوتي الخاص بالتقليديين. ويعتقد الإنجيليون بكهنوت جميع المؤمنين بالإجمال وحقهم في الاشتراك في سياسة الكنيسة، ولا ينسبون إلى خدّام الكنيسة شيئًا من السلطان الكهنوتي.

(د) الزيجة: الفرق بين الفئتين يقوم بنظامها وبقدرة الكنيسة وسلطانها على ما يختص بها وبمسألة الطلاق.

(هـ) المسحة الأخيرة: يرفضها الإنجيليون ويحسبون أن المقصود بها جاء في يع ٥: ١٤ و الصلاة وليس الدهن بالزيت، الذي هو علاج طبيعي.

(١٣) المطهر: هو عند الكاثوليك مكان وحال زمنيان (إلى الدينونة الأخيرة) متوسطان بين السماء وجهنم لتطهير المسيحيين غير الكاملين الذين يمكن إفادتهم بالصلوات والقُدّاسات لأجلهم. ويعتقد الإنجيليون أن في العالم الآتي حالتين فقط مختلفتين جدًا، هما السعادة التي لا توصف والشقاوة التي لا توصف، مع التفاوت في درجاتها. وكانت الفظائع التي نشأت عن تعليم المطهر الداعي الأول إلى الإصلاح. (١)

الصراع الكنسي في سبيل الاستقلال الديني

على مشارف التاريخ الحديث لمصر، تصادفنا قصة البطريرك " يوأنس " الثامن عشر، مع كنيسة روما الكاثوليكية.

فعندما تولى البطريرك رئاسة الكنيسة المصرية سنة ١٧٦٩م وكانت كنيسة روما تبذل أقصى جهدها، لضم الكنائس الشرقية – وعلى الأخص الكنيسة المصرية – وفي سبيل تحقيق هذا الهدف بعث بابا روما، مندوبا عنه إلى مصر، حاملا رسالة يدعو فيها البطريرك القبطي المصري، للاتحاد معه وأيضًا ليعرض عليه مشروع خطاب أعدته كنيسة روما ليكون صيغة للمصالحة بين الكنيستين بالرغم ما بينهما من خلافات جوهرية عقائدية وخاصة حول طبيعة يسوع المسيح – عليه السلام وطلبت من البطريرك المصري أن يوافق على هذه الطلبات يزعم أنها في صالح العقيدة المسيحية عامة؛ لإعلان الاتحاد بين الكنيستين.

وقد دفعت الثقة المفرطة بابا روما إلى عدم رفض بطريرك مصر لهذه الطلبات؛ لأن هذه الفترة بزغ فيها نجم الحضارة الأوروبية، وأصبحت ذات قوة اقتصادية وعسكرية وهيبة،

---

(١) من أحد المواقع على الشبكة العنكبوتية، وانظر: تحريف مخطوطات الكتاب المقدس، علي الريس (٤٣ – ٥٢).

وأخذت ترنو في طمع إلى ما حولها من البلاد الأخرى، إضافة إلى أن مصر وبلاد الشرق عامة، كانوا يعانون من حكم الأتراك العلمانيين، بعد سقوط الخلافة الإسلامية، وبالطبع كان الحال يسير للأسوأ، وكانت الظروف تعتبر مواتية لتحقيق الأطماع الأوروبية في البلاد الشرقية.

ورفض البطريرك المصري هذا العرض السخيف، ورد عليه بسخرية واستهزاء، ووفدت إلى مصر إرساليات بروتستانتية، كان من أهمها الإرسالية البريطانية والإرسالية الأمريكية عن طريق الشام.

وكانت خطة الأمريكيين هي القضاء على الكنيسة القبطية، وضم أبنائها إلى كنيسة بروتستانتية جديدة، بينما كانت خطة الإنجليز هي الإبقاء على كنيسة مصر مع التغلغل فيها والسيطرة عليها من الداخل.

وعملت الإرساليات الأمريكية على أن تنشأ المدارس الدينية للصغار والصبية في المراكز الرئيسية في القطر المصري، كالقاهرة والإسكندرية وأسيوط.

وبدأ نزول المبشرين الأمريكيين إلى مصر سنة ١٨٤٥ م، وأنشأوا أول مدرسة لهم سنة ١٨٥٥م، وأنشاوا كلية أسيوط سنة ١٨٦٥، وبلغت مدارس الإرسالية سنة ١٨٩٧ نحو ١٦٨ مدرسة يدرس بها ١١٠١٤ تلميذًا، وكانت كلما تكونت جالية بروتستانتية من المصريين في منطقة، أعطى المبشرون إليها المدرسة، لينشئوا غيرها في مكان آخر.

وقد عارضت الكنيسة القبطية المصرية هذا النشاط، وسافر بطريرك القبط إلى أسيوط على ظهر باخرة نيلية وضعها تحت إمرته الخديوي إسماعيل، وعمل على الوقوف في وجه النشاط البروتستانتي، وعلى منع القبط من إرسال أبنائهم إلى مدارس التبشير، وطاف والكهنة على البيوت يحرمون على كل أب إرسال أولاده إلى هذه المدارس، وأعلنت الحروم الكنسية ضد من يرسل أولاده إلى مدارس الإرساليات أو يزور مكتباتها أو يقرأ كتبها أو يصافي أو يصادق أحدا من المبشرين. (١)

(١) انظر: محاضرات في النصرانية (١٥٨، ١٥٩، ١٨٤، ١٨٩، ٢٠٣ وما بعدها)، النصرانية والإسلام (١٣٦

وأخيرًا: بعد هذا العرض المسهب لهذه المسائل الخطيرة آن لنا أن نعرف الطريق الصحيح الذي يجب أن نسير عليه ألا وهو طريق الإسلام، وأن نؤمن بالكتاب الحق – القرآن الكريم- الذي﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾(فصلت: ٤٢).

* * *

- ١٤٦)، ماذا تعرف عن المسيحية، كامل سعفان (١٤٧ – ١٥٠، ١٥٤ – ١٥٦، ١٦١ وما بعدها)، العقيدة النصرانية بين القرآن والأناجيل، حسن الباش (٢٦٣)، حركات الإصلاح بين الإسلام والمسيحية، طارق عبد الحميد (٥٧،٧٩)، الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليربي، ترجمة/ سهيل زكار (١٠٩).

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد الثالث

شبهات عن العقيدة

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

٣

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢ - الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم
للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

تابع
شبهات العقيدة

٥ ـ شبهات في صفات الذات

وفيها:

١- شبهة: صفة اليد لله، والأصابع، والأنامل، والتجسيد.

٢- شبهة: صفة الوجه.

٣- شبهة: اعتراضهم على حديث النخامة في المسجد، وسوء فهمهم للنص.

٤- شبهة: صفة العين لله.

٥- شبهة: صفة القدم.

٦- شبهة: الساق.

٧- شبهات حول صفة المحبة لله تعالى.

٨- شبهة: أن الله خلق آدم على صورته.

تمهيد:

عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته، وتشتمل على هذه الوجوه:

الوجه الأول: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته.

الوجه الثاني: أقسام صفات الله.

الوجه الثالث: الاتفاق في الأسماء لا يقتضي التماثل في المسميات.

الوجه الرابع: كيف نفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق؟

الوجه الخامس: كل ما جاء في مخيَّلتك فالله بخلافه.

الوجه السادس: المُشَبِّهُ يعبد صنمًا والمعطل يعبد عدمًا.

الوجه السابع: عقائد بعض الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات.

واليك التفصيل

الوجه الأول: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته:

قال ابن القيم نقلا عن أهل السنة: وقالوا: نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تشبيه، ولا تمثيل؛ بل طريقتنا: إثبات حقائق الأسماء والصفات، ونفي مشابهة المخلوقات، فلا نعطل، ولا نؤول، ولا نمثل، ولا نجهل، ولا نقول: ليس لله يدان، ولا وجه، ولا سمع، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا استوى على عرشه، ولا نقول: له يدان كأيدي المخلوق، ووجه كوجوههم، وسمع وبصر وحياة وقدرة واستواء، كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم؛ بل نقول: له ذات حقيقة، ليست كالذوات، وله صفات حقيقة، لا مجازًا، ليست كصفات المخلوقين، وكذلك قولنا في وجهه تبارك وتعالى، ويديه، وسمعه، وبصره، وكلامه، واستوائه.

ولا يمنعنا ذلك أن نفهم المراد من تلك الصفات وحقائقها، كما لم يمنع ذلك من إثبات لله شيئًا من صفات الكمال من فهم معنى الصفة وتحقيقها؛ فإن من أثبت له سبحانه السمع والبصر أثبتهما حقيقة، وفهم معناهما، فهكذا سائر صفاته المقدسة، يجب أن تجري هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها؛ فإن الله سبحانه لم يكلف عباده بذلك، ولا أراده منهم، ولم يجعل لهم إليه سبيلا؛ بل كثير من مخلوقاته، أو أكثرها لم

يجعل لهم سبيلا إلى معرفة كنهه وكيفيته، وهذه أرواحهم التي هي أدنى إليهم من كل دان؛ قد حجب عنهم معرفة كنهها وكيفيتها، وجعل لهم السبيل إلى معرفتها، والتمييز بينها، وبين أرواح البهائم، وقد أخبرنا سبحانه عن تفاصيل يوم القيامة، وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان، وشاهدته عقولهم، ولم يعرفوا كيفيته وكنهه، فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهارًا من خمر وأنهارًا من عسل، وأنهارًا من لبن؛ ولكن لا يعرفون كنه ذلك، ومادته وكيفيته؛ إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب، والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها، واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من فم دود القز، وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلا لما في الدنيا كما قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء.

ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فهم ما أُخبروا به من ذلك، فهكذا الأسماء والصفات، لم يمنعهم انتفاء نظيرها في الدنيا ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها؛ بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها، وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها، وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته سبحانه لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (النحل: ٦٠)

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الروم: ٢٧)

الثالث: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى: ١١) فنفى سبحانه المماثلة عن هذا المثل الأعلى، وهو ما في قلوب أهل سماواته، وأرضه من معرفته والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته، فهذا المثل الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون وأنس به العارفون، وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة بالكتب الإلهية المقبولة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة، فإذا قال المثبت: يا الله!

قام بقلبه ربًا قيومًا قائمًا بنفسه مستويًا على عرشه مكلمًا متكلمًا سامعًا رائيًا قديرًا مريدًا فعالًا لما يشاء، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حوائج السائلين، ويفرج عن المكروبين، ترضيه الطاعات، وتغضبه المعاصي، تعرج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده، وإذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى؛ فقدِّر قوى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوته إلى قوة الرب تبارك وتعالى لم تجد لها نسبة وإياها ألبتة، كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، فإذا قدَّرت علوم الخلائق اجتمعت لرجل واحد، ثم قدَّرت جميعهم بهذه المثابة، كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور من بحر، وإذا قدَّرت حكمة جميع المخلوقين على هذا التقدير، لم يكن لها نسبة إلى حكمته، وكذلك إذا قدَّرت كل جمال في الوجود اجتمع لشخص واحد، ثم كان الخلق كلهم بذلك الجمال؛ كان نسبته إلى جمال الرب تعالى وجلاله دون نسبة السراج الضعيف إلى جرم الشمس، وقد نبهنا الله سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (لقمان: ٢٧) فقدر البحر المحيط بالعالم مدادًا، ووراءه سبعة أبحر، تحيط به كلها مداد، تكتب به كلمات الله؛ نفدت البحار، وفنيت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا ولم تنفد كلمات الله. . . فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به سبحانه من المثل الأعلى، فعرفوه به، وعبدوه به، وسألوه به، فأحبوه، وخافوه، ورجوه، وتوكلوا عليه، وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره، وأنسوا بحبه بواسطة هذا التعريف، فلم يصعب عليهم بعد ذلك فهم استوائه على عرشه، وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله؛ إذ قد أحاط عليهم بأنه لا نظير لذلك، ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلته لشيء من المخلوقات، وقد أعلمهم سبحانه على لسان رسوله، أنه يقبض سماواته بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، وأن السماوات السبع والأرضين السبع في كفه تعالى كخردلة في كف أحدكم، وأنه يضع السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر على أصبع، وسائر الخلق على

أصبع. فأي أيدي للخلق، وأي أصبع تشبه هذه اليد، وهذه الإصبع حتى يكون إثباتها تشبيها وتمثيلا؟ فقاتل الله أصحاب التحريف، والتأويل، وأصحاب التخييل، وأصحاب التجهيل، وأصحاب التشبيه والتمثيل. ماذا حرفوه من الحقائق الإيمانية، والمعارف الإلهية؟ وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار؟ فما أشبههم بمن كان غذاؤهم المن والسلوى، بلا تعب، ولا كلفة؛ فآثروا عليه الفوم والعدس والبصل، وقد جرت عادة الله سبحانه: أن يُذِلَّ من آثر الأدنى على الأعلى، ويجعله عبرة للعقلاء[1].

وملخص هذه العقيدة:

منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات[2].

(١) **في الإثبات:**

إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من أسماء وصفات من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا إلحاد.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى: ١١)، فقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: نفي المثلية والتشبيه والتكييف عن الله تعالى.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: إثبات لصفتي السمع والبصر لله مع نفي التعطيل والتأويل والإلحاد والتحريف.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ (لأعراف: ١٨٠)

قال الشيخ حمد بن ناصر آل معمر: قولنا في آيات الصفات والأحاديث الواردة في

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٢٦ ـ ٤٣٣).

(٢) انظر: اعتقاد أئمة الحديث للإمام الإسماعيلي ص٥١، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للإمام أبي عثمان الصابوني ص٤، وكذلك الرسالة الأكملية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومختصر الفتوى الحموية لابن عثيمين ص٥٢، وتقريب التدمرية له أيضًا ص١٩.

ذلك ما قاله الله ورسوله، وما قاله سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم من علماء المسلمين.

فنصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل؛ بل نؤمن بأن الله سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) فلا ننفي عنه ما وصف به نفسه، ولا نحرف الكلم عن مواضعه، ولا نلحد في أسماء الله وآياته، ولا نكيف، ولا نمثل صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفو له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه ـ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ـ ، فهو سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ بل يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تكييف ولا تمثيل خلافا للمشبهة، ومن غير تحريف ولا تعطيل خلافا للمعطلة، فمذهبنا مذهب السلف إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، وهو مذهب أئمة الإسلام كمالك والشافعي والثوري والأوزاعي وابن المبارك والإمام أحمد وإسحاق بن راهويه، وهو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة نزاع في أصول الدين. ا هـ[1]

(٢) في النفي:

نفي ما نفاه الله عن نفسه، ونفاه عنه رسوله ﷺ من صفاتٍ لا تليق به سبحانه وتعالى.

مثال: قال تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩) فنفي الظلم عن الله واجب مع إثبات كمال العدل له سبحانه.

مثال آخر: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، ففي هذه الآية إثبات لصفتي الحياة والقيومية لله تعالى؛ لأنهما من صفات الكمال،

(١) التحفة المدنية في العقيدة السلفية صـ ٢٣ ـ ٢٥.

ونفي صفتي السِنَة والنوم عنه؛ لأنهما من صفات النقص، فيجب نفيهما وإثبات كمال الحياة والقيومية. . . . وهكذا في سائر الصفات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي، فالإثبات: كإخباره بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شئ قدير، وأنه سميع بصير ونحو ذلك.

والنفي: كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل: ليس بشيء فضلًا عن أن يكون مدحا أو كمالا؛ ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال، فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنا لإثبات مدح كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥) إلى قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيومية، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يُكرثه ولا يُثقله، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها، بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته.

وكذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (سبأ: ٣) فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السماوات والأرض، وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتا هو مما لم يصف الله به نفسه، فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب لم يثبتوا في الحقيقة إلهًا محمودًا؛ بل ولا موجودًا، وكذلك من شاركهم في بعض ذلك كالذين قالوا: لا يتكلم أو لا يرى، أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش، ويقولون: ليس بداخل

العالم ولا خارجه، ولا مباين للعالم، ولا محايث له؛ إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم، وليست هي صفة مستلزمة صفة ثبوت. [1]

(٣) فيما لم يرد به إثبات ولا نفي:

وهو مما استُحدث بعد عصر السلف من ألفاظٍ تثبت لله صفات أو أسماء لم ترد لا في كتاب ولا في سنة مثل: الحيز والجسم والعرض والجهة وغير ذلك. ففيه أمران:

الأول: التوقف في اللفظ فلا نثبته ولا ننفيه.

الثاني: الاستفسار عن القصد وعما يراد منه. فإن كان يُقصد به كمالٌ يوصف الله به فنثبت المعنى دون اللفظ، وإن كان يُقصد به صفة نقص ينزه الله عنها فلا نثبت اللفظ والمعنى.

مثال: الجهة: فإن أراد من يثبت الجهة لله أنه على السماء مستوٍ على عرشه مباين للخلق؛ فهذه صفة كمال نثبتها لله، وإن أراد أنه في كل مكان بمعنى أنه داخل العالم المخلوق؛ فهذا معنى نقص ينزه الله عنه فننفيه، وهكذا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن ما أخبر به الرسول ﷺ عن ربه فإنه يجب الإيمان به، سواء عرفنا معناه أو لم نعرف؛ لأنه الصادق المصدوق، فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الإيمان به وإن لم يَفهم معناه.

وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها، مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصًا في الكتاب والسنة متفق عليه بين سلف الأمة.

وما تنازع فيه المتأخرون نفيًا وإثباتًا؛ فليس على أحد؛ بل ولا له أن يوافق أحدا على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده، فإن أراد حقًّا قُبِل، وإن أراد باطلا رد، وان اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ولم يرد جميع معناه؛ بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى.

كما تنازع الناس في الجهة والتحيز وغير ذلك، فلفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله، فيكون مخلوقا، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السماوات، وقد يراد به ما ليس

---

(١) الفتاوى ٣/ ٣٥ - ٣٧.

بموجود غير الله تعالى، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم، ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه، كما فيه إثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج إليه، ونحو ذلك، وقد علم أن ما ثَمَّ موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق مباين للمخلوق سبحانه وتعالى، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، فيقال لمن نفى الجهة: أتريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق فالله ليس داخلا في المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء العالم؟

فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات.

وكذلك يقال لمن قال الله في جهة: أتريد بذلك أن الله فوق العالم؟ أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات؟

فإن أردت الأول فهو حق، وإن أردت الثاني فهو باطل. ا هـ[1]

الوجه الثاني: أقسام صفات الله.

تنقسم الصفات إلى قسمين:

١ـ صفات ذات: وهي: التي لا تنفك عن ذات الله سبحانه.

مثل اليد والوجه والساق والقدرة والحياة والعلم والسمع والبصر وغيرها من الصفات.

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ (صّ: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ (البقرة: ١١٥).

وقال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ (آل عمران: ٢) وقال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (البقرة: ١٤٨). وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ (القلم: ٤٢).

عن عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قال: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول: " إِنَّ قُلُوبَ

(١) وانظر: الفتاوى (٣/ ٤١) لابن تيمية .

بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ". (١)

٢ـ صفات فعل: وهي التي تتعلق بمشيئة الله، إن شاء الله فعل وإن شاء الله لم يفعل.

مثل الغضب والرضى والنزول والمجيء والمحبة والضحك والخلق والرحمة وغير ذلك من صفات الفعل.

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (الفتح: ٦) ، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (المجادلة: ١٤). وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ٧٦). وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٢). وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الدخان: ٤٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ". (٢)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " يَضْحَكُ الله إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ كِلاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ"، فَقَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ الله ﷻ

(١) مسلم (٤٧٩٨).

(٢) البخاري (١٠٧٧)، ومسلم (١٢٦١).

فَيُسْتَشْهَدُ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْلِمُ فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ فَيُسْتَشْهَدُ ". (١)

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " اللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلاةٍ ". (٢)

الوجه الثالث: الاتفاق في الأسماء لا يقتضي التماثل في المسميات.

وهذه القاعدة أصل في فهم صفات الله تعالى، والتفريق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

فإذا كانت صفات المخلوقات لا تتماثل في المسميات ولا الكيفيات مع تساويها في الأسماء؛ فإن صفات الخالق لا تتماثل مع صفات المخلوق بداهة.

مثال ١: صفة العين

الإنس له عين، والجن له عين، والملائكة لها عين وهي لا تتماثل؛ ذلك أن هذه المخلوقات غير متماثلة لا في المادة، ولا في الذات.

الوجه الرابع: كيف نفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق؟

نقول: إن الله تعالى له يد، وإن للمخلوق يدًا، ولكن يد الله تليق بكماله وقدرته وحياته وبقائه. وللمخلوق صفة يد مناسبة لعجزه وفقره وفنائه.

ونقول: إن لله أصابع تليق بجلاله وعظمته وكماله وقدرته وبقائه، وللمخلوق أصابع مناسبة لعجزه وفقره وفنائه.

وهكذا كل صفة وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ تُستعمل على الوجه الذي بينَّاه.

فكون الله سبحانه له يد يبسطها، والمخلوق له يد يبسطها لا يقتضي ذلِك أن الله يشابه مخلوقاته في ذلك كما بينا.

---

(١) البخاري (٢٦١٤)، ومسلم (٣٥٠٤).

(٢) البخاري (٥٨٣٤).

الوجه الخامس: كل ما جاء في مخيلتك فالله بخلافه.

بمعنى: أن الله تعالى غيب عنا؛ لا تدرك ذاته، فليس لنا تخيله وتخيل صفاته؛ ولا يجوز لنا قياس صفات الخالق على صفات المخلوق؛ لأن ما وقع في خيالنا إنما هي صفات مخلوق قابلة للفناء والعجز. أما صفات الله تعالى فهي غير ذلك.

الوجه السادس: المشبه يعبد صنما والمعطل يعبد عدما.

بمعنى أن من عطل صفات الله؛ أي نفاها وقال: ليس لله يد، ولا قدم، ولا وجه، ولا علم، ولا قدرة، ولا سمع، ولا بصر، ولا عين. . . إلى آخره؛ فإنه بذلك يعبد ربا معدومًا لا وجود له.

ومن وقع في خياله أن الله له صفات، وهي تشابه صفات المخلوق فهو بذلك يعبد صنمًا، ولا فرق بينه وبين عُبَّاد الأصنام.

الوجه السابع: عقائد بعض الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات.

أولًا ـ أهل التعطيل:

وهؤلاء ينقسمون إلى:

١ ـ الجهمية: وهم أتباع جهم بن صفوان:

وهؤلاء يقولون بنفي جميع أسماء الله تعالى وصفاته.

٢ ـ المعتزلة: وهم أتباع واصل بن عطاء الغزال، وعمرو بن عبيد البصري، وهؤلاء يقولون: بإثبات الأسماء ونفي الصفات.

٣ ـ الأشاعرة والماتُرِدية:

وهؤلاء يثبتون لله سبع صفات فقط، وهي: السمع والبصر والإرادة، والكلام، والحياة، والعلم، والقدرة.

ولهم حجج في ذلك منها:

أن هذه الصفات تشابه صفات المخلوقين، فلو أثبتناها، أثبتنا النقص لله تعالى، والله ﷻ منزه عن النقص. فلجؤوا إلى تفسيرها وتأويلها بتأويلات عقيمة لا خطام لها ولا زمام.

فأوَّلُوا اليد بالقدرة أو النعمة، والوجه بالذات، ونحو ذلك من هذه التأويلات.

فنرد على الجهمية بهذه القاعدة: القول في الصفات كالقول في الذات.

ومعنى ذلك: أن الجهمية يثبتون لله ذاتًا ـ ولو نفوا الذات لما بقي لهم إله يعبدونه ـ فنقول لهم: لمَ أثبتم لله ذاتًا ووجودًا، وللمخلوق ذاتًا ووجودًا؟ قالوا: لله ذات ووجود يليق بجلاله وعظمته. وللمخلوق ذات ووجود مناسبة لعجزه وفنائه.

فنقول لهم: القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإذا كان الله له ذات ووجود يليق بجلاله وعظمته؛ كذلك له صفات تليق بجلاله وعظمته، وللمخلوق صفات مناسبة لعجزه وفنائه.

ونرد على المعتزلة: بنفس مقولة الجهمية؛ حيث إنهم ينفون الصفات كلها، ويثبتون الذات والوجود.

ويثبتون الأسماء على أساس أنها وردت في القرآن، ولكنها لا تعبر عن صفات، ولا تتضمن صفات؛ بل هي أعلام محضة على ذات الخالق.

وهذا منهم مخالف للفطرة والعقول السليمة.

أما الأشاعرة والماترودية: فنرد عليهم بقولنا: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر.

بمعنى: إذا قلنا لهم: لمَ أثبتم صفة الإرادة ونفيتم صفة الغضب والفرح؟

قالوا: لله صفة إرادة تليق بجلاله وعظمته، وللمخلوق صفة إرادة مناسبة لعجزه وفنائه.

قلنا لهم: وكذلك: لله صفة غضب تليق بجلاله وعظمته، وللمخلوق صفة غضب مناسبة لعجزه وفنائه، ولا فرق بين صفة وصفة.

ثانيًا: أهل التشبيه والتمثيل:

وهم الذين أثبتوا لله الأسماء والصفات ولكن على طريقة أنها تشابه المخلوقين، فقالوا لله يد كأيدينا، وقدم كقدمنا، ووجه كوجهنا، وعين كأعيننا، وأول من تكلم بذلك هو الحكم بن هشام الرافضي. وشُبَهُهم أن الله تعبَّد الخلق بما يفهمون ويعقلون من الصفات، ولا تكون إلا بما شابه به الخلق.

ومذهبهم باطل بالشرع والعقل والحس:

أما بالشرع: فقد قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، فنفى المثلية، وأثبت صفة السمع والبصر.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (النحل: ٧٤) فنهى الله تعالى عن تمثيله بغيره من مخلوقاته.

وأما بالعقل: فمن وجوه منها:

الأول: التباين الواضح لكل ذي عقل بين الخالق والمخلوق في الذات والوجود، وهذا يستلزم التباين في الصفات.

الثاني: أن تشبيه الله بالمخلوق فيه تنقيص لله ﷻ؛ إذ إن صفات المخلوق ناقصة وقابلة للفناء، فيستلزم نقصان صفات الله، وهذا ضلال. فقد قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان: ٥٨).

وأما بالحس: فلأن المخلوقات على اختلافها لها صفات، ولكن ليست متماثلة ولا متشابهة فكيف بالخالق سبحانه وتعالى؟!

ثالثا: أهل التفويض

وهم الذين فوضوا معنى الصفات وكيفيتها إلى الله فقالوا: لا نعلم لها معنى ولا كيفية.

وهؤلاء أخطر الفرق ضلالًا؛ لأنه يستلزم من قولهم: أن الله تعبد العباد بكلام لا يفهمونه؛ بل لا يفهمه النبي ﷺ وأصحابه فضلاً عن غيرهم.

وهذا مخالف للشرع والعقل: قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤). وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (النحل: ٦٤).

فكيف يبين النبي ﷺ كلاما لا يفهم معناه ! !

والعقل يقول: إن هذه الصفات لها معان وكيفية: أما المعنى فهو الذي وضحه النبي ﷺ للناس وجاء على لسان السلف، وأما الكيفية فهذه لم يطلعنا الله تعالى عليها ولا نبيه فهي عنا مجهولة ولم نكلف الخوض فيها.

وإليك ذكر الشبهات والرد عليها.

١ـ شبهة صفة اليد لله، والأصابع، والأنامل، والتجسيد

نص الشبهة:

اعترضوا على بعض صفات الله ﷻ كصفة اليد وبسطها، وساقوا جملة من الأحاديث:

الله له يد يمنى:

عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " يطوي الله ﷻ السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ".

الله يبسط يده: عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: " إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ".

الله له خنصر (إصبع من أصابع اليد):

عن أنس بن مالك رضي الله عنه. أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ قال "هكذا، وأشار بإصبعيه ووضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر. وفي لفظ: على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾وفي لفظ: فساخ الجبل في الأرض فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة".

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ قال: أظهر مقدار هذا، ووضع الإبهام على خنصر الإصبع الصغرى، فقال حميد: يا أبا محمد ما تريد إلى هذا؟ فضرب في صدره وقال: من أنت يا حميد، وما أنت يا حميد؟ ! يحدثني أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، وتقول أنت: ما تريد إلى هذا؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إثبات صفة اليد لله.

الوجه الثاني: الجواب عن الإبهام.

الوجه الثالث: ماذا يقول الكتاب المقدس في صفة اليد لله تعالى؟

الوجه الرابع: الرد على ملحقات هذه الشبهة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إثبات صفة اليد لله.

وهي ثابتة بالكتاب والسنة صفة تليق بجلاله وعظمته.

أولًا: القرآن: وردت صفة اليد في القرآن على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: مفردة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٨). وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح: ١٠).

النوع الثاني: مثناه:

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ (ص: ٧٥). وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١).

والنوع الثالث: مجموعة

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾ (يس: ٧١).

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليهما فقال ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ،ولما ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعدها بالباء، وهذه يفهم منها مثل ما يفهم من قوله " عملنا وخلقنا " في المراد بالجمع، أما قوله ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ لو كان المراد منها مجرد الفعل لم يكن لذكر اليدين بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت؟ فالفعل إذا أضيف إلى يد ذي اليد ثم عُدّي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده، فعن حكيم بن جابر قال " أُخبرت أن ربكم ﷻ لم يمس بيده إلا ثلاثة أشياء: غَرسَ الجنة بيده، وخَلقَ آدم بيده، وكَتبَ التوراة بيده "[1]، وكما جاء في

---

(١) أخرجه الآجُرِّيُّ في الشريعة صـ ٣٠٣ بسند صحيح، وعبد الله بن أحمد في السنة (ص ٦٨) وصححه الذهبي في العلو. انظر مختصر العلو للألباني ص ١٣٠.

الصحيحين وغيرها في حديث الشفاعة الطويل أن النبي ﷺ أخبر بأن أهل الموقف يأتون آدم يوم القيامة فيقولون: " يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء؛ فاشفع لنا إلى ربك"(١)، وكما جاء في كتاب الأسماء والصفات للبيهقي أن الملائكة قالوا: " يا رب خلقت بني آدم يأكلون، ويشربون، وينكحون، ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله تعالى: " لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيديَّ، ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان. (٢)

فكل هذه الأحاديث والآثار تبين المقصود من تخصيص آدم في الآية بكونه مخلوقاً بيد الله ﷻ.

ثانيا: الأدلة من السنة على إثبات اتصاف الله باليد.

ثم يقال: ليست هذه الآية الوحيدة التي ثبت بها اتصاف مولانا العظيم بصفة اليد؛ بل هناك نصوص أخرى من الكتاب والسنة، فمن ذلك أن أبا هريرة ﷺ كان يقول قال رسول الله ﷺ "يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟. (٣)

وعن عبدالله بن عمرو ﷺمرفوعاً " المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ". (٤)

و قوله ﷺ : " يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع". (٥)

ولمّا ذكر النبي ﷺ أعلى أهل الجنة منزلة قال الله: " أولئك الذين غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها ". (١)

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٢)، ومسلم (١٩٣).

(٢) كتاب الأسماء والصفات للبيهقي صـ ٣١٧.

(٣) البخاري (٤٥٣٤)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٤) مسلم (١٨٢٧).

(٥) البخاري (٤٤٠٧)، ومسلم (٩٩٣).

وعن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول في استفتاح الصلاة: " لبيك وسعديك والخير كله في يديك ". (٢)

وعن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ". (٣)

وفي الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ قال: " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار كما يكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة ". (٤)

أما الأدلة من نصوص القرآن فمنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (سورة المائدة: ٦٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة الزمر: ٦٧)

قال ابن عمر ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ قائماً على المنبر فقال: " إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة جمع السماوات والأرض في قبضته ثم قال هكذا ومد يده وبسطها ثم يقول أنا الله الرحمن ". (٥)

الوجه الثاني: الجواب عن الإبهام.

ذكروا الحديث وفيه: "وأشار بإصبعيه ووضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر".

وهذا نشأ من عدم فهمهم للحديث ؛ لأن الذي فعل ذلك رسول الله ﷺ بإبهامه، ولم يخبر عن الله تعالى، قال ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٩٧٩): حدثنا أبو زرعة، ثنا محمد بن كثير، ثنا حماد، أنبأ ثابت، عن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ

---

(١) مسلم (١٨٩).

(٢) مسلم (٢٢٢).

(٣) مسلم (٢٧٥٩).

(٤) البخاري (٦١٥٥)، مسلم (٢٩٧٢).

(٥) عن كتاب (الرد على منكر صفتي الوجه واليد) لسعيد بن ناصر الغامدي.

جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ (الأعراف: ١٤٣)، قال رسول الله ﷺ : ـ هكذا وصفه حماد ـ، ووضع طرف إبهامه على طرف خنصره من المفصل ». قال: «فساخ الجبل».

فالوصف كان من حماد بن سلمة لفعل رسول الله ﷺ ، ولم يكن إخبارًا عن صفات الله ﷻ، ولو فرض أن النبي ﷺ أخبر عن الله تعالى بهذه الصفة؛ فنحن نقول فيها مثلما قلنا في باقي الصفات الأخرى من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل.

أما صفة الأنامل فقد وردت في حديث الرؤيا عن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ قَالَ: احْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلاةِ الصُّبْحِ، حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى قَرْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ سَرِيعًا، فَثُوِّبَ بِالصَّلاةِ وَصَلَّى وَتَجَوَّزَ فِي صَلاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: كَمَا أَنْتُمْ عَلَى مَصَافِّكُمْ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ: إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ! إِنِّي قُمْتُ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلاتِي حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لا أَدْرِي يَا رَبِّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لا أَدْرِي رَبِّ. فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ، وَعَرَفْتُ. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ. قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ، وَجُلُوسٌ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلاةِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكَرِيهَاتِ. قَالَ: وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلامِ، وَالصَّلاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ: سَلْ، قُلْتُ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا. (١)

كل ذلك حق نؤمن به؛ ولكن ليس على طريق أهل التشبيه الذين يمثلون الخالق

---

(١) صحيح. مسند الإمام أحمد (٢٢١٦٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٦٩).

بالمخلوق! ؛ وليس على طريقة أهل التعطيل الذين ينفون عن الله تعالى كل صفة وصف بها نفسه بدعوى الوقوع في التشبيه.

فالله لا مثلَ له، ولا ندَ له، ولا كفوَا له سبحانه؛ وليست صفاته كصفات المخلوق وإن تشابهت في الأسماء كما قدمنا.

الوجه الثالث: ماذا يقول الكتاب المقدس في صفة اليد لله تعالى؟

١- إثبات صفة اليد في الكتاب المقدس.

٢- نسبة أفعال لا تليق بالله لهذه الصفة.

فقد وصفوا الله تعالى بأنه:

الله له يد:

١ ـ يد الله على المواشي والحمير والبقر:

في سفر(الخروج ٩: ٣): فَهَا يَدُ الرَّبِّ تَكُونُ عَلَى مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحَقْلِ، عَلَى الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَبَأً ثَقِيلاً جِدًّا.

٢ ـ يد الله تبيد وتهلك:

في سفر(التثنية ٢: ١٥): وَيَدُ الرَّبِّ أيضًا كَانَتْ عَلَيْهِمْ لإِبَادَتِهِمْ مِنْ وَسَطِ الْمَحَلَّةِ حَتَّى فَنُوا.

٣ ـ ويد غير الرب تبيد:

في سفر(٧ يوشع: ٧): وَقَالَ يَشُوعُ: «آهِ يَا سَيِّدُ الرَّبُّ! لِمَاذَا عَبَّرْتَ هذَا الشَّعْبَ الأُرْدُنَّ تَعْبِيرًا لِكَيْ تَدْفَعَنَا إِلَى يَدِ الأَمُورِيِّينَ لِيُبِيدُونَا؟ لَيْتَنَا ارْتَضَيْنَا وَسَكَنَّا فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ.

٤ ـ يد الرب تخرج على الناس وتدخل:

في سفر(راعوث ١: ١٣): هَلْ تَصْبِرَانِ لَهُمْ حَتَّى يَكْبُرُوا؟ هَلْ تَنْحَجِزَانِ مِنْ أَجْلِهِمْ عَنْ أَنْ تَكُونَا لِرَجُل؟ لاَ يَا بِنْتَيَّ. فَإِنِّي مَغْمُومَةٌ جِدًّا مِنْ أَجْلِكُمَا؛ لأَنَّ يَدَ الرَّبِّ قَدْ خَرَجَتْ عَلَيَّ».

٥ ـ يد الرب تضرب بالبواسير:

في سفر صمويل(١: ٥/ ٦): فَثَقُلَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَى الأَشْدُودِيِّينَ، وَأَخْرَبَهُمْ وَضَرَبَهُمْ بِالْبَوَاسِيرِ فِي أَشْدُودَ وَتُخُومِهَا.

٦ ـ يد الرب على أصحاب الطرب:

في سفر(٣ الملوك الثاني: ١٥): وَلَمَّا ضَرَبَ الْعَوَّادُ بِالْعُودِ كَانَتْ عَلَيْهِ يَدُ الرَّبِّ.

٧ ـ الرب يضع في يده كأسا وخمرا:

كما جاء في(المزامير ٧٥: ٨): أَنَّ فِي يَدِ الرَّبِّ كَأْسًا وَخَمْرُهَا مُخْتَمِرَةٌ. مَلآنَةٌ شَرَابًا مَمْزُوجًا. وَهُوَ يَسْكُبُ مِنْهَا. لكِنْ عَكَرُهَا يَمَصُّهُ، يَشْرَبُهُ كُلُّ أَشْرَارِ الأَرْضِ.

٨ ـ واليد تخرج من ذراع وله يمين:

كما جاء في سفر (الحكمة٥: ١٧): فلذلك سينالون ملك الكرامة وتاج الجمال من يد الرب لأنه يسترهم بيمينه وبذراعه يقيهم.

ملك الأرض في يد الرب:

كما في سفر (سيراخ ١٠: ٤): ملك الأرض في يد الرب فهو يقيم عليها في الأوان اللائق من به نفعها.

٩ ـ الله يهز يده:

كما جاء في سفر(أشعيا ١١: ١٥): وَيُبِيدُ الرَّبُّ لِسَانَ بَحْرِ مِصْرَ، وَيَهُزُّ يَدَهُ عَلَى النَّهْرِ بِقُوَّةِ رِيحِهِ، وَيَضْرِبُهُ إِلَى سَبْعِ سَوَاق، وَيُجِيزُ فِيهَا بِالأَحْذِيَةِ.

١٠ ـ والرب يمسح الدموع:

كما جاء في (أشعيا ٢٥: ٨): وَيَمْسَحُ السَّيِّدُ الرَّبُّ الدُّمُوعَ عَنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَيَنْزِعُ عَارَ شَعْبِهِ عَنْ كُلِّ الأَرْضِ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ تَكَلَّمَ.

١١ ـ يد الرب تسقي كأس الغضب:

كما جاء في(أشعيا ٥١: ١٧): انْهَضِي، انْهَضِي! قُومِي يَا أُورُشَلِيمُ الَّتِي شَرِبْتِ مِنْ يَدِ الرَّبِّ كَأْسَ غَضَبِهِ، ثُفْلَ كَأْسِ التَّرَنُّحِ شَرِبْتِ. مَصَصْتِ.

١٢ ـ الرب له يد وأذن:

كما جاء في (أشعيا ٥٩: ١): ها أن يد الرب لم تقصر عن أن تخلص ولم تثقل أذنه عن أن تسمع.

١٣ ـ يد الرب تحمل كأس ذهب فيه خمر:

كما جاء في سفر (أرميا ٥١: ٦-٨): اهْرُبُوا مِنْ وَسْطِ بَابِلَ، وَانْجُوا كُلُّ وَاحِدٍ بِنَفْسِهِ. لاَ تَهْلِكُوا بِذَنْبِهَا، لأَنَّ هذَا زَمَانُ انْتِقَامِ الرَّبِّ، هُوَ يُؤَدِّي لَهَا جَزَاءَهَا. ٧بَابِلُ كَأْسُ ذَهَبٍ بِيَدِ الرَّبِّ تُسْكِرُ كُلَّ الأَرْضِ. مِنْ خَمْرِهَا شَرِبَتِ الشُّعُوبُ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ جُنَّتِ الشُّعُوبُ.

١٤ ـ يد الله تمس المخلوق:

كما جاء في سفر (أيوب ١٩: ٢١): تَرَاءَفُوا، تَرَاءَفُوا أَنْتُمْ عَلَيَّ يَا أَصْحَابِي، لأَنَّ يَدَ اللهِ قَدْ مَسَّتْنِي.

١٥ ـ وله أصابع:

كما جاء في(المزامير ٨: ٣): إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ، الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا.

١٦ ـ الرب له ذراع:

كما جاء في(أشعيا ٥١: ٩): اِسْتَيْقِظِي، اسْتَيْقِظِي! الْبَسِي قُوَّةً يَا ذِرَاعَ الرَّبِّ! اسْتَيْقِظِي كَمَا فِي أَيَّامِ الْقِدَمِ، كَمَا فِي الأَدْوَارِ الْقَدِيمَةِ. أَلَسْتِ أَنْتِ الْقَاطِعَةَ رَهَبَ، الطَّاعِنَةَ التِّنِّينَ؟

وجاء أيضًا (أشعيا ٥٣: ١): مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا، وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟.

كما جاء في(يونان ١٢: ٣٨): لِيَتِمَّ قَوْلُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الَذي قَالَهُ: «يَارَبُّ، مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا؟ وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟

وهم بعد هذا كله يعيبون على القرآن والسنة ذكر صفات الله تبارك وتعالى،؟ وهما لا يشبهان الله بخلقه كما يفعلون، ولا ينفيان عنه صفات الكمال. ! ! !

الوجه الرابع: الرد على ملحقات هذه الشبهة.

الشبهة الأولى: الأصابع

نص الشبهة:

يقول المعترض: الله له خمسة أصابع.

عن عبد الله ﷺ أن يهوديا جاء إلى النبيﷺفقال: يا محمد، إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ وما قدروا الله حق قدره. (١)

ونقول: أولًا: هذا كلام اليهود أيضًا؛ لأن الذي أخبر النبي ﷺ عنه هو اليهودي، فلماذا تعيبون على قوم أنت تؤمنون بكتابهم المسمي عندكم " العهد القديم " وفيه مثل هذا الكلام؟!

ثانيًا: ذكرنا كما جاء في المزامير٨: ٣: إذا أرى سماواتك عمل أصابعك القمر والنجوم التي كونتها.

---

(١) البخاري (٤٥٣٣، ٦٩٧٨، ٦٩٧٩، ٧٠١٣)، مسلم (٢٧٨٦).

فلماذا تنكرون شيئًا أو تستهزئون بشيء هو موجود في كتابكم المقدس؟! !.

ثالثًا: أن الله ﷻ إذا وصف نفسه بوصف أو وصفه نبيه بهذا الوصف فهو على ما يليق بذات الخالق.

الشبهة الثانية: الحجر يمين الله في الأرض

نص الشبهة:

الحجر الأسود يمين الله، والله يصافح الناس بيمينه كما في الحديث "الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده".

والجواب عنها نقول:

إن هذا الحديث منكر مرفوعًا: وإذا كان كذلك فلا تقوم به حجة ولا يلزمنا به عقيدة.[1]

---

(١) **ضعيف**. ورد عن جماعة من الصحابة:

١ - حديث جابر بن عبد الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: "الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده".

أخرجه أبو الشيخ الأنصاري في طبقات المحدثين بأصبهان (٢٩٣)، وابن عدي في الكامل (١/ ٣٤٢)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٩٤٤)، والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٣٢٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠٩٩٢) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي.

وأخرجه ابن بشران في الأمالي (١٢) من طريق يحيى بن بشر الكوفي. كلاهما (إسحاق، يحيى) عن أبي معشر، عن محمد بن المنكدر، عن جابر به. قال فيه البخاري: منكر الحديث. وقال أحمد: ليس بذلك، وقال ابن معين: ضعيف. الضعفاء لابن الجوزي (٣/ ١٥٧)، تهذيب الكمال (٢٩/ ٣٢٦). وإسناده ضعيف فيه أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي: ضعيف.

٢ - حديث عبد الله بن عمرو ﷺقال: قال رسول الله ﷺ" يأتي الركن يوم القيامة أعظم من أبي قبيس له لسان وشفتان، يشهد لمن استلمه بالحق وهو يمين الله -عز وجل- التي يصافح بها عباده" .

أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢٧٣٧)، والطبراني في الأوسط (٥٦٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٧)، ومن طريقه البيهقي في الأسماء و الصفات (٧٢٩)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٩٤٥)، وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال (٣٣٦) من طرق عن عبد الله بن المؤمل قال: سمعت عطاء بن أبي رباح يحدث عن عبد الله بن عمرو فذكره.

الشبهة الثالثة: الله يمسك

نص الشبهة:

الله يمسك خبزة بيده كما يمسك الإنسان خبزته:

عن أبي سعيد الخدري، قال النبي ﷺ : " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلا لأهل الجنة " فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: " بلى " قال: تكون الأرض خبزة واحدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونون، قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا". [1]

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذا من تحريف الكلم عن مواضعه.

فليس في الحديث أن الله يمسك خبزة؛ وإنما في الحديث أن الله يمسك بالأرض، والأرض تكون كخبزة في يد أحدنا.

وإسناده ضعيف. فيه عبد الله بن المؤمل: ضعيف. قال الذهبي في المغني في الضعفاء (١/ ٣٥٩): ضعفه الدارقطني وجماعة. وقال في الميزان (٢/ ٥١٠): (وقال أحمد: أحاديثه مناكير) وضعفه البيهقي في الأسماء و الصفات (٧٢٩).

٣-حديث عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يبعث الله الركن يوم القيامة له لسان ينطق به، وعينان يبصر بهما، وهو يمين الله تعالى التي يصافح بها عباده". أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١٤) من طريق عبد الله بن المؤمل، عن عطاء، عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف. فيه عبد الله بن المؤمل: ضعيف.

٤-أثر عبد الله بن عباس ﷺقال: "إن هذا الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده مصافحة الرجل أخاه". أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨٩٢٠)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٠)، والأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٣٨، ومحمد بن أبي عمر في مسنده، كما في إتحاف المهرة للبوصيري (٣٣٥١)، من طريق محمد بن عباد بن جعفر، عن ابن عباس به. موقوفًا. وصححه البوصيرى كما في الإتحاف ٤/ ٧٥.

(١) البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٧٩٢).

الوجه الثاني: صفة الإمساك لله تعالى ثابتة في القرآن والسنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)﴾ (فاطر: ٤١).

فهي صفة تليق بجلاله وعظمته لا تشابه صفة المخلوق.

الوجه الثالث: ذكرنا أن ربهم يمسك كأس خمر ويسقي الناس.

كما جاء في(أشعيا ٥١: ١٧): انهضي انهضي قومي يا أورشليم التي شربت من يد الرب كأس غضبه، ثفل كأس الترنح شربت مصصت.

وكما جاء في سفر(أرميا ٥١: ٧): بابل كأس ذهب بيد الرب تسكر كل الأرض من خمرها شربت الشعوب من أجل ذلك جنت الشعوب.

الشبهة الرابعة: التجسيد في صفة اليد

نص الشبهة:

قالوا: يد الله مجسمة: يخلق بيده.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١)﴾ (يس: ٧١).

بناء الله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ (الذاريات: ٤٧).

يكتب في القلوب: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ (المجادلة: ٢٢).

يكتب في كتابه: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول ﷺ: " لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي". [١]

---

(١) البخاري (٣٠٢٢، ٧٠١٥، ٧١١٤)، مسلم (٢٧٥١).

يد الله مجسمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ (الفتح: ١٠).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (الأنفال: ١٧).

عن عبد الله ﷺ أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ قال يحيى بن سعيد: وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله ﷺ فضحك رسول الله ﷺ تعجبا وتصديقا له. (١)

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: صفات الله تعالى لا تشابه صفات المخلوق.

الوجه الثاني: إضافة الفعل إلى اليد بغير تعدية بحرف الجر يحتمل المجاز.

الوجه الثالث: ذكر الفهم الصحيح لبعض الآيات التي استدلوا بها.

الوجه الرابع: التجسيم في الكتاب المقدس.

واليك التفصيل

الوجه الأول: صفات الله تعالى لا تماثل صفات المخلوق.

لا يلزم من إثبات الصفات لله تعالى المماثلة أو المشابهة لصفات المخلوقين؛ فالأدلة المثبتة للصفات ثبت بمثلها نفي المماثلة للمخلوقين قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وليس بين الأدلة منافاة ولا منافرة.

(١) البخاري (٤٥٣٣، ٦٩٧٨، ٦٩٧٩، ٧٠١٣)، مسلم (٢٧٨٦).

قال ابن تيمية: ولهذا سمى الله نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم، مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما، واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص، اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلا عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص. . . ووصف نفسه ببسط اليدين فقال: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ) (المائدة: ٦٤)

ووصف بعض خلقه ببسط اليد في قوله: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ (الإسراء: ٢٩)، وليس اليد كاليد، ولا البسط كالبسط، وإذا كان المراد بالبسط الإعطاء والجود؛ فليس إعطاء الله كإعطاء خلقه، ولا جوده كجودهم.

ونظائر هذا كثيرة، فلا بد من إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه، فمن قال: ليس لله علم ولا قوة ولا رحمة ولا كلام ولا يحب ولا يرضى ولا نادى ولا ناجى ولا استوى؛ كان معطلًا جاحدًا ممثلًا لله بالمعدومات والجمادات.

ومن قال: له علم كعلمي أو قوة كقوتي أو حب كحبي أو رضاء كرضائي أو يدان كيداي أو استواء كاستوائي؛ كان مشبها ممثلا لله بالحيوانات؛ بل لا بد من إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل.[1]

الوجه الثاني: إضافة الفعل إلى اليد بغير تعدية بحرف الجر يحتمل المجاز.

وإنما معنى الصفة في سياق الآية يختلف عن غيرها من الآيات على حسب ما ورد في لسان العرب في تعريف اليد. فقد تكون بمعنى اليد حقيقة مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ (ص: ٧٥).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ١٣ ـ ١٦) باختصار.

وقد تكون بمعنى القوة أو البيعة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: من الآية ١٠)

قال ابن جرير الطبري: وفي قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وجهان من التأويل:

أحدهما: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: البيعة؛ لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ.

والآخر: قوة الله فوق قوتهم في نصرة رسولهﷺ ؛ لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نصرته على العدو. [1]

وقد تأتي كصفة ولكن معناها في السياق الكرم والإنفاق كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (المائدة: من الآية ٦٤).

وقد قال ابن جرير الطبري في اختلاف أهل الملة في هذه الآية:

واختلف أهل الجدل في تأويل قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾:

فقال بعضهم: عني بذلك نعمتاه؛ وقال ذلك بمعنى يد الله على خلقه، وذلك نعمه عليهم، وقال: إن العرب تقول: لك عندي يد؛ يعنون؛ بذلك نعمة.

وقال آخرون منهم: عنى بذلك: القوة، وقالوا: ذلك نظير قول الله تعالى ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ (صٓ: ٤٥).

وقال آخرون منهم: بل يده ملكه، وقال: معنى قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ملكه وخزائنه، قالوا: وذلك كقول العرب للمملوك: هو ملك يمينه، وفلان بيده عقدة نكاح فلانة؛ أي يملك ذلك، وكقول الله تعالى ذكره: ﴿فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة: ١٢).

وقال آخرون منهم: بل يد الله صفة من صفاته، هي أنها ليست بجارحة كجوارح بني آدمعليه السلام، قالوا: وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن خصوصية آدم بما خصه به من خلقه إياه

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/ ٧٦).

بيده، قالوا: ولو كان لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم؛ إذ كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته، ومشيئته في خلقه تعمه، وهو لجميعهم مالك، قالوا: وإذا كان تعالى ذكره قد خص آدم بذكره خلقه إياه بيده دون غيره من عباده؛ كان معلوما إنه إنما خصه بذلك لمعنى به فارق غيره من سائر الخلق، قالوا: وإذا كان ذلك كذلك بطل قول من قال: معنى اليد من الله القوة والنعمة أو الملك في هذا الموضع، قالوا: وأحرى أن ذلك لو كان كما قال الزاعمون: إن يد الله في قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ هي نعمته؛ لقيل: بل يده مبسوطة، ولم يقل بل يداه؛ لأن نعمة الله لا تحصى بكثرة، وبذلك جاء التنزيل، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (النحل: ١٨) قالوا: ولو كانت نعمتين ينفذ محصاتين.

قالوا: فإن ظن ظان أن النعمتين بمعنى النعم الكثيرة؛ فذلك منه خطأ؛ وذلك أن العرب قد تخرج الجميع بلفظ الواحد لأداء الواحد عن جميع جنسه؛ وذلك كقول الله تعالى ذكره: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ (العصر: ١، ٢) وكقوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ (البلد: ٤) وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ (الفرقان: ٥٥).

قال: فلم يرد بالإنسان والكافر في هذه الأماكن إنسان بعينه، ولا كافر مشار إليه حاضر؛ بل عنى به جميع الكفار؛ ولكن الواحد أدى عن جنسه؛ كما تقول العرب: ما أكثر الدرهم في أيدي الناس، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ ﴾ معناه: وكان الذين كفروا.

قالوا: فأما إذا ثني الاسم فلا يؤدى عن الجنس، ولا يؤدى إلا عن اثنين بأعيانهما دون الجميع ودون غيرهما.

قالوا: وخطأ في كلام العرب أن يقال: ما أكثر الدرهمين في أيدي الناس! بمعنى: ما أكثر الدراهم في أيديهم!.

قالوا: وذلك أن الدرهم إذا ثني لا يؤدى في كلامها إلا عن اثنين بأعيانهما.

قالوا: وغير محال ما أكثر الدرهم في أيدي الناس!، وما أكثر الدراهم في أيديهم!؛ لأن الواحد يؤدي عن الجميع.

قالوا: ففي قول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ مع إعلامه عباده أن نعمه لا تحصى، ومع ما وصفنا من معقول في كلام العرب أن اثنين يؤديان عن الجميع، ما ينبئ عن خطأ قول من قال: معنى اليد في هذا الموضع النعمة، وصحة قول من قال: إن يد الله هي له صفة.

قالوا: وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله، وقال به العلماء وأهل التأويل.[1]

الوجه الثالث: ذكر الفهم الصحيح لبعض الآيات التي استدلوا بها.

من هذه الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (البقرة: ٩٧). وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ (آل عمران: ٣).

وهاتان الآياتان لا علاقة لهما بصفة اليد، وإنما معنى قوله: (بين يديه): أي من قبل نزول هذا الكتاب.

قال الشنقيطي في أضواء البيان (٧/ ٢٨٨، ٢٨٩): (واعلم أن لفظ اليدين قد يستعمل في اللغة العربية استعمالا خاصا، بلفظ خاصٍّ لا تقصد به في ذلك النعمة ولا الجارحة ولا القدرة، وإنما يراد به معنى أمام.

واللفظ المختص بهذا المعنى هو لفظة اليدين التي أضيفت إليها لفظة "بين" خاصة، أعني لفظة "بين يديه"؛ فإن المراد بهذه اللفظة أمامه. وهو استعمال عربي معروف مشهور في لغة العرب لا يقصد فيه معنى الجارحة ولا النعمة ولا القدرة، ولا أي صفة كائنة ما كانت.

وإنما يراد به أمام فقط كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (سبأ: ٣١)، أي ولا بالذي كان أمامه سابقا عليه من الكتب.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٠١، ٣٠٢).

وكقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ (المائدة: ٤٦)، أي مصدقا لما كان أمامه متقدما عليه من التوراة. وكقوله: ﴿ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ (فصلت: ٢٥)، فالمراد بلفظ "ما بين أيديهم" ما أمامهم. وكقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ (الأعراف: ٥٧)، أي يرسل الرياح مبشرات أمام رحمته التي هي المطر، إلى غير ذلك من الآيات". [١]

قال ابن جرير في تفسيره: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعني بذلك القرآن أنه مصدق؛ لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رسل الله من عنده، جميع ذلك واحد فلا يكون فيه اختلاف، ولو كان من ثم غيره كان فيه اختلاف كثير، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. [٢]

ثم ذكر بأسانيده عن مجاهد وقتادة والربيع ذلك.

٢ ـ ومنها قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢). وهذه الآية لا علاقة لها بصفة اليد لله تعالى ولكنه التدليس والتلبيس على الجهال أمثالهم.

واليك قول ابن جرير الطبري في الآية:

وقوله: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله:

ـ فقال بعضهم: معناه لا يأتيه النكير من بين يديه ولا من خلفه.

ذكر من قال ذلك: عن سعيد: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. قال: النكير من بين يديه ولا من خلفه.

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١٦٦).

ـ وقال آخرون: معنى ذلك لا يستطيع الشيطان أن ينقص منه حقا ولا يزيد فيه باطلا، قالوا: والباطل هو الشيطان، وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ من قبل الحق، ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ من قبل الباطل ذكر من قال ذلك:

عن قتادة: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾الباطل: إبليس لا يستطيع أن ينقص منه حقا، ولا يزيد فيه باطلًا.

وقال آخرون: معناه إن الباطل لا يطيق أن يزيد فيه شيئًا من الحروف، ولا ينقص منه شيئًا منها. ذكر من قال ذلك:

عن السدي: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾قال: الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يزيد فيه حرفا، ولا ينقص.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب: أن يقال معناه لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيء من معانيه عما هو به، وذلك هو الإتيان من بين يديه. ولا إلحاق ما ليس منه فيه وذلك إتيانه من خلفه. (١)

٣ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ (الحجرات: ١). والمقصود بقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مخالفة الكتاب والسنة.

قال ابن جرير: (لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله،فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، محكيٌّ عن العرب فلان يقدم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وإن اختلفت ألفاظهم بالبيان عن معناه. (٢)

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ١٢٥).

(٢) تفسير الطبري (٢٦/ ١١٦)، وذكر بسنده عن ابن عباس قوله: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٦).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ (الأعراف: ٥٧).

وليس للآية أيضًا علاقة بصفة اليد لله؛ وإنما معناها: أمام رحمته، أو قدام رحمته وهو الغيث.

قال ابن جرير: وأما قوله: (بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ)؛ فإنه يقول: قدام رحمته وأمامها، والعرب كذلك تقول لكل شيء حدث قدام شيء وأمامه: جاء بين يديه؛ لأن ذلك من كلامهم جرى في أخبارهم عن بني آدم، وكثر استعماله فيهم حتى قالوا ذلك في غير ابن آدم وما لا يد له.

والرحمة التي ذكرها جل ثناؤه في هذا الموضع: المطر، فمعنى الكلام إذن: والله الذي يرسل الرياح لينا هبوبها، طيبا نسيمها أمام غيثه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها سحابا ثقالا، حتى إذا أقلتها، والإقلال بها: حملها كما يقال: استقل البعير بحمله وأقله: إذا حمله فقام به، ساقه الله لإحياء بلد ميت قد تعفت مزارعه، ودرست مشاربه، وأجدب أهله، فأنزل به المطر، وأخرج به من كل الثمرات. [(١)]

وهكذا يفعل هؤلاء؛ يستدلون بالآيات ولا يعرفون وجه تفسيرها، ويجعلونها بمعنى واحد في كل السياق، وهذا ينم عن ضلال وانحراف.

الوجه الرابع: التجسيم في الكتاب المقدس.

لقد أتوا بآيات وأحاديث ووضعوها في غير موضعها، يعيبون على المسلمين التجسيم لله تعالى زعما منهم ذلك، ونسوا ما في كتابهم المقدس عندهم من صفة اليد التي ذكرناها.

منها كما جاء في المزامير: (لأن في يد الرب كأسا وخمرها مختمرة ملآنة شرابا ممزوجا وهو يسكب منها لكن عكرها يمصه يشربه كل أشرار الأرض (مز ٧٥: ٨)

فهل يعقل أن يكون بيد الرب خمرًا يسقي بها الناس، والخمر تذهب بالعقول، وتجعل الرجل يطأ أمه أو أخته أو بنته، ويفعل ما يغضب الرب؟! !

* * *

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣١٠).

٢ـ شبهة: صفة الوجه.

نص الشبهة:

لقد أثار النصارى شبهة: أن لله عند المسلمين وجهًا، وبهذا يكون الله جسدًا؛ لأنه لا وجه إلا على جسد واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٧). ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨).

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى الوجه.

الوجه الثاني: أقوال أهل العلم في صفة الوجه.

الوجه الثالث: الرد على النصارى.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى الوجه.

في اللغة: وجه كل شيء: مستقبله.

وفي القرآن والسنة على معان:

المعنى الأول: أول النهار: قال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٢)

وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع وغيرهم من السلف.[١]

المعنى الثاني: العناية والرعاية والحب قال تعالى: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: ٩).

قال ابن كثير: يقولون هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم؛ ليخلو لكم وحدكم؛ إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم.[١]

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣١٣).

المعنى الثالث: الوجه الحقيقي وهو الجارحة: قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (يوسف: ٩٣).

وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (القيامة: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ (الكهف: ٢٩).

المعنى الرابع: التذلل بالطاعة: قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (البقرة: ١١٢).

قال الطبري: قوله: ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ فإنه يعني بإسلام الوجه التذلل لطاعته، والإذعان لأمره، وأصل الإسلام الاستسلام؛ لأنه من استسلمت لأمره وهو الخضوع لأمره؛ وإنما سمي المسلم مسلما بخضوع جوارحه لطاعة ربه.[٢]

وقال ابن كثير: أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ (آل عمران: ٢٠). وقال أبو العالية والربيع: ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ يقول: من أخلص لله. وقال سعيد بن جبير: ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾ أخلص، ﴿ وَجْهَهُۥ ﴾ قال: دينه.[٣]

المعنى الخامس: الانتكاس والضلال: قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحج: ١١). وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الملك: ٢٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧١).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٩٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٥).

المعنى السادس: صفة من صفات الله تعالى: قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٧). وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (القصص: ٨٨).

هذا وهذه الآية تعبر بالوجه عن ذات الله تعالى، والوجه هو تعبير بالصفة عن الكل، وليس معناه هو الذات مع نفي الصفة كما يقول أهل البدع.

قال ابن كثير: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨): كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله عز وجل كما قال: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1] (الرحمن: ٢٦، ٢٧). **وقال أيضا**: وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧).

فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨) أي: إلا إياه. [2]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. [3]

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨) أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٤).

(٣) البخاري (٣٨٤١).

قال ابن جرير: ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر: أستغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل.

وهذا القول لا ينافي القول الأول؛ فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة.

والقول الأول مقتضاه: أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس؛ فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شئ.

المعنى السابع: الإخلاص لله: قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، وقال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الروم: ٣٨). وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم: ٣٩).

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ. (١)

المعنى الثامن: قبلة الله: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ (البقرة: ١١٥). وإن كانت تثبت أن لله تعالى صفة الوجه.

قال ابن تيمية: فأخبر أن العبد حيث استقبل فقد استقبل قبلة الله؛ ليبين أنه حيث أمر العبد بالاستقبال والتولية فقد استقبل وولّي قبلة الله ووجهه. (٢)

وقال أيضًا: وهذا قد قال فيه طائفة من السلف: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾؛ أي فثم جهة الله، والجهة كالوعد والعدة والوزن والزنة.

---

(١) البخاري (٥٤).

(٢) تلبيس الجهمية (٢/ ٤٦١).

والمراد بوجه الله: وجهة الله، الوجه والجهة والوجهة الذي لله يُستقبل في الصلاة كما قال في أول الآية : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾، ثم قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: ١٤٢) فإذا كان لله المشرق والمغرب ولكل وجهة هو موليها، وقوله: ﴿مُوَلِّيهَا ﴾؛ أي متوليها أم مستقبلها، فهذا كقوله: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي فأينما تستقبلوا فثم وجهه الله، وقد قيل: إنه يدل على صفة الله؛ لكن يدل على أن ثم وجه الله، وأن العباد أينما يولون فثم وجه الله، فهم الذين يولون ويستقبلون لا أنه هو يولي وجهه إلى كل مكان، فهذا تحريف منهم للفظ القرآن عن معناه وكذب على المسلمين. (١)

الوجه الثاني: أقوال أهل العلم في صفة الوجه

من عقيدة السلف: أن لله تعالى وجها يليق بجلاله وعظمته، نثبت له هذه الصفة كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ من غير تأويل ولا تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل ولا تحريف. وكل آية في كتاب الله تعالى مضاف فيها الوجه لله تعالى فهي تدل على صفة الوجه له سبحانه وتعالى، وإن اختلف معناها في السياق كما قدمنا في صفة اليد.

قال الشيخ على بن خضير الخضير: وهناك آيات كثيرة في القرآن وأحاديث كثيرة تدل على صفة الوجه لله، ومن أكثر الكتب بسطاً لهذه الصفة الإمام ابن خزيمة في كتاب التوحيد، وقد بسط القول فيها خصوصاً الأحاديث، وعقد ثلاثة أبواب لهذه الصفة، ومثله ابن منده في كتابه التوحيد، فقد تكلم عن هذه الصفة، وكذلك اللالكائي في كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة، وقبلهم الدارمي في رده على طاغوت الجهمية بشر المريسي. وقبلها كتب السنة، السنة لعبد الله بن الإمام أحمد والسنة للخلال. (٢)

---

(١) الجواب الصحيح: ٤/ ٤١٤، ٤١٥.

(٢) الزناد شرح لمعة الاعتقاد.

أما مذهب أهل السنة والجماعة في صفة الوجه:

أهل السنة والجماعة يثبتون أن لله عز وجل وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام.

قال ابن خزيمة في كتابه التوحيد؛ في باب إثبات الوجه: فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز واليمن وتهامة والشام مذهبنا أن نثبت لله ما أثبته لنفسه من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، ثم قال في الباب الذي بعده: نحن نقول وعلمائنا جميعاً في جميع الأقطار أن لمعبودنا ﷻوجهاً كما أعلمنا في محكم تنزيله فذوَّاه - أي وصفه بأنه ذو جلال - وحكم له بالبقاء، ونفى عنه الهلاك، ونقول: إن لوجه ربنا عز وجل من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه لأحرقت سُبحات وجه كل شيء أدركه بصره".

مذاهب الناس في صفة الوجه:

أ - **مذهب أهل السنة والجماعة** وقد مضى الكلام عن ذلك.

ب - **مذهب الجهمية**: وهو نفي صفة الوجه لله عز وجل، ويؤولون ما جاء في القرآن من ذكر الوجه لله بأربع كلمات: أنه الذات أو القبلة أو الثواب أو الأعمال الصالحة، فيقولون: ويبقى وجه ربك أي ذاته، أي يبقى الله، ويقولون في قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ (الليل: ٢٠)، أي: ابتغاء الثواب.

وفي قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، أي: القبلة. وقد رد عليهم الدارمي في كتابه: الرد على بشر المريسي، فتناول تأويل الجهمية ورد عليهم ردوداً مفحمة.

جـ - **المعتزلة**: ومذهبهم في صفة الوجه مثل الجهمية، فهم ينفون الوجه عن الله عز وجل ويؤولون ذلك بالذات، أو بأن وجه الله هو الله، وقد نقل الأشعري في كتابه (مقالات الإسلاميين) مذاهب الناس في الوجه، وذكر مذهب المعتزلة ونسب إلى أبي الهذيل المعتزلي أنه قال: إن وجه الله هو الله، وأن غيره قال: الذات، انتهى.

ولعله يقصد النَّظَّام وهو من أئمة المعتزلة، والأشعري خبير بمذهب المعتزلة فقد استمر أربعين سنة على الاعتزال ولذلك فإن أقواله مهمة في معرفة اعتقاد المعتزلة وغيرهم.

د - **الكُلاّبية**: وهؤلاء يثبتون صفة الوجه لله تعالى كأهل السنة، ويثبتون جميع الصفات الذاتية لله كالوجه واليد والعين، ابتداءً من إمامهم عبد الله بن سعيد بن كلاّب، وكذا الأشعري فإنه يثبت صفة الوجه لله تعالى كما في كتابه (الإبانة ص٣٥) والأشعري على الصحيح أنه كُلاّبي، وقد ذكر ذلك عنه ابن حجر في كتابه " لسان الميزان "، لما ترجم لعبد الله بن سعيد بن كلاّب، قال: " وقد مشى الأشعري على طريقته ".

ومن الكلاّبية الذين أثبتوا صفة الوجه (القلانسي) والحارث المحاسبي المتصوف، وابن مهدي الطبري والباقلاني، كما أثبتها بعض المحدثين الذين فيهم ميل لذهب لكلاّبية، كالبيهقي وابن فُورك. والبيهقي في كتابه " الأسماء والصفات "، وابن فورك في كتابه " مشكل الحديث "، قد أثبتوا صفة الوجه لله ﷻ.

والبيهقي رحمه الله تأثر بالكلاّبية في باب صفات الله الاختيارية ومثله شيخه ابن فورك.

وخلاصة مذهب الكلاّبية المحضة أو من تأثر بهم في بعض الوجوه أنهم يثبتون صفة الوجه كأهل السنة والجماعة.

هـ - **مذهب المجسّمة والمشبّهة**: فإنهم يثبتون لله وجها كوجه المخلوقين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد رد عليهم ابن خزيمة في كتابه التوحيد في باب إثبات الوجه، وذكر مذهبهم الأشعريُّ في كتابه مقالات الإسلاميين.

و - **مذهب الماتريدية**: فهؤلاء ينفون صفة الوجه ولا يثبتونها، ويفسرون الوجه بتفسيرات الجهمية، أنها الذات أو الثواب أو القبلة. . . إلخ.

ز - **الأشاعرة**: وهؤلاء قسمان:

١ - أوائل الأشاعرة: فهؤلاء في الحقيقة كلاّبية كأبي الحسن الأشعري، والباقلاني، وهؤلاء يثبتون صفة الوجه.

٢ - متأخري الأشاعرة: ويسمون الأشاعرة المحضة، فهؤلاء ينفون صفة الوجه عن الله ﷻ، ويفسرون آيات الوجه بمعنى الذات أو الثواب أو الجزاء أو الأعمال الصالحة إلا أنهم يضيفون تفسيرًا خاصًا بهم وهو (الرضى).

الوجه الثالث: الرد على النصارى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ردًا على النصارى: وأما قولهم: له وجه يوليه إلى كل مكان؛ فليس هذا في القرآن؛ ولكن في القرآن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧) وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ (القصص: ٨٨)، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥)، وهذا قد قال فيه طائفة من السلف: فثم قبلة الله، أي فثم جهة الله، والجهة كالوعد والعِدة والوزن والزِنة، والمراد بوجه الله: وجهة الله، الوجه، والجهة والوجهة الذي لله يستقبل في الصلاة كما قال في أول الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، ثم قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢)، فإذا كان لله المشرق والمغرب، ولكلٍ وجهة هو موليها وقوله: ﴿مُوَلِّيهَا﴾؛ أي متوليها أم مستقبلها، فهذا كقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) أي فأينما تستقبلوا فثم وجهة الله، وقد قيل: إنه يدل على صفة الله؛ لكن يدل على أن ثم وجه لله، وأن العباد أينما يولون فثم وجه الله، فهم الذين يولون ويستقبلون لا أنه هو يولي وجهه إلى كل مكان، فهذا تحريف منهم للفظ القرآن عن معناه، وكذب على المسلمين ومن قال بالقول الثاني من المسلمين؛ فإن ذلك يقتضي أن الله محيط بالعالم كله كما قد بسطت هذه الأمور في غير هذا

الموضع؛ إذ المقصود هنا بيان ضلال هؤلاء في دينهم فيما ابتدعوا من الكفر والتثليث والاتحاد دون الذين آمنوا بالله ورسله، وما أخبرت به الرسل عن الله تبارك وتعالى. [1]

ماذا في كتابهم المقدس عن وجه الله؟

لو حصرت عدد المرات الموجودة في كتابهم المقدس عن وجه الله ووجه الرب لرأيتها أكثر مما هي موجودة في القرآن.

١ ـ الرب يمشي وله وجه وتختبئ الناس منه ولا يراهم:

كما جاء في سفر(التكوين٣: ٨): (وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه **الرب** الإله في وسط شجر الجنة).

٢ ـ الجبال تتزلزل من وجه الرب:

كما جاء سفر (القضاء٥: ٥): (تزلزلت الجبال من وجه **الرب** وسيناء هذا من وجه الرب إله إسرائيل).

٣ ـ وجه الله كوجه المخلوق:

كما جاء في سفر (التكوين٣٣: ١٠): (فقال يعقوب: لا إن وجدت نعمة في عينيك تأخذ هديتي من يدي؛ لأني رأيت **وجهك** كما يرى وجه الله فرضيت علي).

٤ ـ الدماء تسقط أمام وجه الرب:

كما جاء في صمويل الأول(٢٦: ٢٠): (والآن لا يسقط دمي إلى الأرض أمام **وجه الرب**؛ لأن ملك إسرائيل قد خرج ليفتش على برغوث واحد كما يتبع الحجل في الجبال).

٥ ـ داود يطلب وجه الرب:

كما جاء في (صمويل الثاني٢١: ١): (وكان جوع في أيام داود ثلاث سنين سنة بعد سنة فطلب داود وجه **الرب** فقال الرب: هو لأجل شاول ولأجل بيت الدماء لأنه قتل الجبعونيين).

وفي سفر الأخبار (٣٣: ١٢): (ولما تضايق طلب وجه **الرب** إلهه وتواضع جدا أمام اله آبائه).

٦ ـ وجه الرب لا يتحول عمن لا يحول وجهه عن فقير:

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٤١٤، ٤١٥).

كما جاء في طوبيا: (تصدق من مالك ولا تحول وجهك عن فقير وحينئذ فوجه الرب لا يحول عنك) (طوبيا ٤: ٧).

٧ ـ الشيطان يخرج من أمام وجه الرب:

كما جاء في (سفر أيوب١: ١٢): (فقال الرب للشيطان: هوذا كل ما له في يدك وإنما إليه لا تمد يدك ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب).

٨ ـ وجه الرب ضد عامل الشر:

كما جاء في (المزامير٣٤: ١٦): (وجه الرب ضد عاملي الشر ليقطع من الأرض ذكرهم).

٩ ـ المدن تهدم من وجه الرب:

كما جاء في (أرمياء٤: ٢٦): (نظرت وإذا البستان برية وكل مدنها نقضت من وجه الرب من وجه حمو غضبه).

١٠ ـ الرب له وجه يطلب ويندم الرب على فعل الشر:

في أرمياء (٢٦: ١٩): هل قتلا قتله حزقيا ملك يهوذا وكل يهوذا ألم يخف الرب وطلب وجه الرب فندم الرب عن الشر الذي تكلم به عليهم فنحن عاملون شرا عظيما ضد أنفسنا.

١١ ـ وجه الرب يقسم:

كما جاء في مراثي(أرمياء ٤: ١٦): (وجه الرب قسمهم لا يعود ينظر إليهم لم يرفعوا وجوه الكهنة ولم يترأفوا على الشيوخ).

١٢ ـ وجه الرب يستعطفه الناس:

كما جاء في (باروك ٢: ٨): (ونحن لم نستعطف وجه الرب تائبين كل واحد عن أفكار قلبه الشرير).

١٣ ـ وجه الرب يتضرع إليه:

كما جاء في(دنيال ٩: ١٣): (كما كتب في شريعة موسى قد جاء علينا كل هذا الشر ولم نتضرع إلى وجه الرب إلهنا لنرجع من آثامنا و نفطن بحقك).

١٤ ـ وجه الرب يهرب منه الناس:

كما جاء في (يوئيل ١ : ٣): (فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من **وجه الرب**).

وكما جاء في (يوئيل١ : ١٠) أيضًا: (فخاف الرجال خوفا عظيما وقالوا له: لماذا فعلت هذا فإن الرجال عرفوا أنه هارب من **وجه الرب** لأنه اخبرهم).

وكما جاء في (حجي ١: ١٢): (حينئذ سمع زربابل بن شالتيئيل ويهوشع بن يهو صادق الكاهن العظيم وكل بقية الشعب صوت الرب إلههم وكلام حجي النبي كما أرسله الرب إلههم وخاف الشعب أمام **وجه الرب**).

١٥ ـ وجه الرب يطلب الرضى:

جاء في (زكرياء ٨: ٢١): (وسكان واحدة يسيرون إلى أخرى قائلين لنذهب ذهابا لنترضي **وجه الرب** ونطلب رب الجنود أنا أيضًا اذهب. ٢٢فتأتي شعوب كثيرة وأمم قوية ليطلبوا رب الجنود في أورشليم وليترضوا **وجه الرب**).

١٦ ـ الناس تتقدم أمام وجه الرب:

كما جاء في (لوقا ١ : ٧٦): (وأنت أيها الصبي نبي العلي تدعى لأنك تتقدم أمام **وجه الرب** لتعد طرقه).

١٧ ـ وجه الرب يأتي بالفرج:

كما جاء في (أعمال الرسل٣: ١٩): (فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكي تأتى أوقات الفرج من **وجه الرب**).

كل هذه الفقرات من الكتاب المقدس تثبت صفة الوجه للرب، وفي كثير منها تحييز للرب في مكان، وتشبيه الرب بالمخلوق الضعيف، وصفات النقص.

* * *

٣ـ شبهة: النخامة في المسجد.

نص الشبهة:

وهذه الشبهة تابعة لشبهة الوجه، ولكننا أردنا إفرادها برد؛ لأنها تحتاج إلى توضيح.

فقد قالوا: يبزق في وجه الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ "مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ فَيَتَنَخَّعُ أَمَامَهُ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيُتَنَخَّعَ فِي وَجْهِهِ؟ فَإِذَا تَنَخَّعَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَنَخَّعْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ قَدَمِهِ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَقُلْ هَكَذَا ». وَوَصَفَ الْقَاسِمُ: فَتَفَلَ فِي ثَوْبِهِ ثُمَّ مَسَحَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ".(١)

والجواب عنها من وجوه:

الوجه الأول: كل ما جاء في خيالك فالله بخلافه.

الوجه الثاني: المعني الصحيح للحديث.

الوجه الثالث: أن الإسلام قد راعى الأدب في عبادة العبد ربه.

الوجه الرابع: عقوبة من بصق تجاه القبلة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: كل ما جاء في خيالك فالله بخلافه.

فما جاء في الكتاب والسنة عن الله تعالى لا يجب على المسلم أن يصور ذلك في خياله ويحكيه على أساس أنه هو المقصود من الكلام.

فما تخيله هؤلاء الجاهلون عن الله من خلال هذه النصوص هو محض افتراء على الله؛ لأنه ليس هو ما قصدوه هم. وذلك أنه لا يستطيع أحد أن يصف الله في ذاته؛ فكيف يكيفه في أفعاله؟ والقول في الصفات كالقول في الذات.

الوجه الثاني: المعني الصحيح للحديث.

---

(١) مسلم (٥٥٠).

قال ابن تيمية: وكذلك قوله ﷺ : "إذا قام أحدكم إلى الصلاة؛ فإن الله قِبَلَ وجهه فلا يبصق قِبَل وجهه. . . الحديث " حق على ظاهره، وهو سبحانه فوق العرش، وهو قبل وجه المصلى؛ بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات؛ فإن الإنسان لو أنه يناجى السماء أو يناجى الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه، وكانت أيضًا قبل وجهه، وقد ضرب النبيﷺ المثل بذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ولكن المقصود بالتمثيل بيان جواز هذا وإمكانه؛ لا تشبيه الخالق بالمخلوق فقال النبي ﷺ "ما منكم من أحد إلا سيرى ربه مخليا به" فقال له أبو رزين العقيلى: كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع؟

فقال النبي ﷺ : سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، هذا القمر كلكم يراه مخليا به، وهو آية من آيات الله، فالله أكبر". (١)

وقال: "إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر" فشبه الرؤية بالرؤية، وإن لم يكن المرئي مشابها للمرئي، فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه؛ كلٌ يراه فوقه قبل وجهه كما يرى الشمس والقمر، ولا منافاة أصلا، ومن كان له نصيب من المعرفة بالله والرسوخ في العلم بالله؛ يكون إقراره للكتاب والسنة على ما هما عليه أوكد.

واعلم أن من المتأخرين من يقول: مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، وهذا اللفظ مجمل؛ فإن قوله: (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين، مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلى أنه مستقر في الحائط الذي يصلى إليه، وأن الله معنا ظاهره أنه إلى جانبنا ونحو ذلك، فلا شك أن هذا غير مراد.

ومن قال: إن مذهب السلف أن هذا غير مراد فقد أصاب في المعنى؛ لكن أخطأ بإطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث، فإن هذا المحال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضع، اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٦٥)، وأبو داود (٤٧٣١)، وحسنه الألباني كما في ظلال الجنة (٤٥٩).

الناس، فيكون القائل لذلك مصيبا بهذا الاعتبار معذورا في هذا الإطلاق، فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس، وهو من الأمور النسبية، وكان أحسن من هذا أن يبين لمن اعتقد أن هذا هو الظاهر أن هذا ليس هو الظاهر؛ حتى يكون قد أعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظًا ومعنى.

وإن كان الناقل عن السلف أراد بقوله: (الظاهر غير مراد عندهم) أن المعاني التي تظهر من هذه الآيات والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته، ولا يختص بصفة المخلوقين؛ بل هي واجبة لله أو جائزة عليه جوازًا ذهنيا أو جوازًا خارجيا غير مراد؛ فهذا قد أخطأ فيما نقله عن السلف، أو تعمد الكذب، فما يمكن أحد قط أن ينقل عن واحد من السلف ما يدل لا نصا ولا ظاهرا أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش، ولا أن الله ليس له سمع ولا بصر ولا يد حقيقة، وقد رأيت هذا المعنى ينتحله بعض من يحكيه عن السلف، ويقولون: إن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السلف، بمعنى: أن الفريقين اتفقوا على أن هذه الآيات والأحاديث لم تدل على صفات الله سبحانه وتعالى، ولكن السلف أمسكوا عن تأويلها، والمتأخرون رأوا المصلحة في تأويلها؛ لمسيس الحاجة إلى ذلك، ويقولون: الفرق بين الطريقين؛ أن هؤلاء قد يعينون المراد بالتأويل، وأولئك لا يعينون؛ لجواز أن يراد غيره، وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف.

أما في كثير من الصفات فقطعا مثل أن الله تعالى فوق العرش، فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم الذي لم يحك هنا عشره؛ علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم قد صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك، والله يعلم أني بعد البحث التام ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ما رأيت كلام أحد منهم يدل لا نصا ولا ظاهرا ولا بالقرائن على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر؛ بل الذي رأيته أن كثيرا من كلامهم يدل إما نصا، وإما ظاهرا على تقرير جنس هذه الصفات، ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة؛ بل الذي رأيته؛

أنهم يثبتون جنسها في الجملة، وما رأيت أحدا منهم نفاها، وإنما ينفون التشبيه، وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، مع إنكارهم على من ينفي الصفات أيضًا كقول نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر.

وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها. (١)

الوجه الثالث: أن الإسلام قد راعى الأدب في عبادة العبد ربه.

وليس البصاق من الأدب إذا كان تلقاء من يناجيه. ألا ترى أنه لو خاطب إنسان آخر ثم أراد أن يبصق فبصق في وجهه أنه ليس من الأدب الذي درجت عليه الفطرة؛ إذا كان هذا حال الإنسان مع الإنسان فكيف بالإنسان مع ربه؟!!

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَلا يَبْصُقْ أَمَامَهُ؛ فَإِنَّمَا يُنَاجِي الله مَا دَامَ فِي مُصَلاهُ وَلا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ فَيَدْفِنُهَا"(٢)

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يعجبه العراجين أن يمسكها بيده، فدخل المسجد ذات يوم وفي يده واحد منها، فرأى نخامات في قبلة المسجد فحتهن حتى أنقاهن ثم أقبل على الناس مغضبًا فقال: "أيحب أحدكم أن يستقبله رجل فيبصق في وجهه؟!! إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه والملك عن يمينه فلا يبصق بين يديه ولا عن يمينه ". (٣)

وأيضًا: هل يجوز في عقيدتهم وهم في كنائسهم يتضرعون أمام صورة من يدعون أنه المسيح أو مريم؛ أن يبصقوا تلقاء وجوههم وهم على هذه الحالة؟

والجواب بالبديهة: لا.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٧ _ ١٠٩).

(٢) البخاري (٤١٦).

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٨٨٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٢): حسن صحيح.

فلماذا يتندرون ويسخرون من النبي ﷺ وهو يعلم المسلمين الأدب مع الله تعالى؟!!!

الوجه الرابع: عقوبة من بصق تجاه القبلة.

لقد نهى النبي ﷺ في أكثر من حديث عن البصاق تجاه القبلة منها:

عن ابن عمر قال رسول الله: ﷺ "يجيء صاحب النخامة في القبلة يوم القيامة وهي في وجهه". (١)

قال الصنعاني: وفي الحديث دلالة على تحريم البصاق إلى القبلة مطلقا، سواء ذلك في المسجد أو في غيره، وعلى المصلي وغيره، " وقد جزم النووي بالمنع في كل حالة داخل الصلاة و خارجها وفي المسجد أو غيره "(٢).

قال الألباني: والأحاديث الواردة في النهي عن البصق في الصلاة تجاه القبلة كثيرة مشهورة في الصحيحين وغيرها، وإنما آثرت هذا دون غيره، لعزته وقلة من أحاط علمه به. ولأن فيه أدبا رفيعا مع الكعبة المشرفة، طالما غفل عنه كثير من الخاصة، فضلا عن العامة، فكم رأيت في أئمة المساجد من يبصق إلى القبلة من نافذة المسجد!

وفي الحديث أيضًا فائدة هامة و هي الإشارة إلى أن النهي عن استقبال القبلة ببول أو غائط؛ إنما هو مطلق يشمل الصحراء و البنيان؛ لأنه إذا أفاد الحديث أن البصق تجاه القبلة لا يجوز مطلقا، فالبول و الغائط مستقبلا لها لا يجوز بالأولى. (٣)

* * *

---

(١) صحيح ابن خزيمة (١٣١٣)، صحيح ابن حبان (١٦٣٨)، قال الألباني في الصحيحة (٣٢٣): والحديث صحيح على كل حال.

(٢) سبل السلام (١/ ٢٣٠).

(٣) السلسلة الصحيحة حديث (٣٢٣).

٤ـ شبهة: صفة العين لله.

نص الشبهة:

قالوا: الله له عين، وهذا لا يليق بالإله، ووردت أحاديث تنفي العور عن الله.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: كلمة حق يراد بها باطل.

الوجه الثاني: من عقيدة أهل السنة والجماعة؛ إثبات صفة العين لله تعالى.

الوجه الثالث: إثبات العينين لله.

الوجه الرابع: أن الله تعالى ليس بأعور.

الوجه الخامس: في كتابهم المقدس صفة العين للرب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: كلمة حق يراد بها باطل.

عندما ذكروا هذه الآيات والأحاديث؛ ليس لإثبات حق؛ وإنما لإرادة الباطل الذي وقع في رؤوسهم. وقد ثبتت هذه الصفة لله تعالى في القرآن والسنة :

١ – من القرآن: قال تعالى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ (طـه: ٣٩)

وقال ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ (الطور: ٤٨)

ومن السنة: عن نافع عن عبد الله رضي الله عنه قال: ذُكر الدجال عند النبي ﷺ فقال " إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور – وأشار بيده إلى عينه – وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية". [1]

قال ابن خزيمة: فواجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبَّتَ الخالق البارئ لنفسه من العين، وغير مؤمن من ينفي عن الله تبارك وتعالى ما قد ثبته الله في محكم تنزيله ببيان النبي ﷺ الذي جعله الله مبينا عنه عز وجل في قوله ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

(١) البخاري (٧٤٠٧) ومسلم (١٦٩).

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(النحل : ٤٤) فبين النبي ﷺ أن لله عينين، فكان بيانه موافقا لبيان محكم التنزيل الذي هو مسطور بين الدفتين مقروء في المحاريب والكتاتيب. (١)

الوجه الثاني: من عقيدة أهل السنة والجماعة: إثبات صفة العين لله تعالى.

وأنها ليست كعين المخلوق، فله سبحانه وتعالى عين تليق بجلاله وعظمته، وللمخلوق عين مناسبة لعجزه وفنائه.

الوجه الثالث: إثبات العينين لله.

قال ابن خزيمة: نحن نقول: لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى، وتحت الأرض السابعة السفلى، وما في السموات العلى، وما بينهما من صغير وكبير، لا يخفى على خالقنا خافية في السموات السبع والأرضين السبع ولا مما بينهم، ولا فوقهم ولا أسفل منهن، لا يغيب عن بصره من ذلك شيء، يرى ما في جوف البحار ولججها كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه. (٢)

وبوب اللالكائي في أصول الاعتقاد (سياق مادل من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ على أن صفات الله ﷻ الوجه والعينين واليدين). (٣)

الوجه الرابع: أن الله تعالى ليس بأعور.

لأن العور صفة نقص، والله منزه عن صفة النقص. وقد خلق الله تعالى الدجال بهذه الصفة حتى لا يختلط الأمر عند الناس ويظنوا أنه الله، وخاصة وأن الله تعالى قد أقدره على أشياء لا يقدر عليها إلا هو سبحانه؛ فتنة للناس، واختبارا وامتحانا؛ ليكشف الله لخلقه حال الناس فيميز الصادق من الكاذب للناس.

---

(١) كتاب التوحيد (١/ ٩٧).

(٢) كتاب التوحيد (١/ ١١٧).

(٣) أصول الاعتقاد (٣/ ٤١٢).

وهذا شيخ الإسلام يحتج بحديث الدجال على إثبات صفة العين لله تعالى، وردا على النصارى فقال: ولهذا لما أنذر النبي ﷺ بالمسيح الدجال وقال: "ما من نبي إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال حتى نوح أنذر قومه به ".

وذكر النبي ﷺ له ثلاث دلائل ظاهرة تظهر لكل مسلم تبين كذبه:

أحدها: قوله ﷺ : " مكتوب بين عينيه كافر (ك ف ر) يقرأه كل مؤمن قارئ وغير قارئ".

الثاني: قوله ﷺ : "واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت " فبين أن الله لا يراه أحد في الدنيا بعينيه، وكل بشر فإنه يرى في الدنيا بالعين، فعلم أن الله لا يتحد ببشر.

الثالث: قوله ﷺ : " أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور " ودلائل نفي الربوبية عنه كثيرة؛ لكن لما كان حلول اللاهوت في البشر، واتخاذه به مذهبا ضل به طوائف كثيرون من بني آدم، النصارى وغيرهم، وكان المسيح الدجال يأتي بخوارق عظيمة، والنصارى احتجوا على إلهية المسيح بمثل ذلك.

ذكر النبي ﷺ من علامات كذبه أمورا ظاهرة لا يحتاج فيها إلى بيان موارد النزاع التي ضل فيها خلق كثير من الآدميين، فإن كثيرًا من الناس؛ بل أكثرهم تدهشهم الخوارق حتى يصدقوا صاحبها قبل النظر في إمكان دعواه، وإذا صدقوه صدقوا النصارى في دعوى إلهية المسيح، وصدقوا أيضًا من ادعى الحلول والاتحاد في بعض المشايخ، أو بعض أهل البيت، أو غيرهم من أهل الإفك والفجور.

وبهذا يظهر الجواب عما يورده بعض أهل الكلام كالرازي على هذا الحديث حيث قالوا: دلائل كون الدجال ليس هو الله ظاهرة، فكيف يحتج النبي ﷺ على ذلك بقوله: " إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور"؟ وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من الضلال، وبالأدلة البينة التي تبين فساد الأقوال الباطلة، وإلا فإذا كان بنو إسرائيل في عهد موسى ظنوا أن العجل هو إله موسى فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ (طه: ٨٨)، وظنوا أن موسى نسيه، والنصارى مع كثرتهم يقولون: إن المسيح هو الله، وفي المنتسبين إلى القبلة خلق كثير

يقولون ذلك في كثير من المشايخ، وأهل البيت، حتى إن كثيرا من أكابر شيوخ المعرفة والتصوف يجعلون هذا نهاية التحقيق والتوحيد، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد وينشدون:

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد

توحيد من يخبر عن نعته عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

فكيف يستبعد مع إظهار الدجال هذه الخوارق العظيمة أن يعتقد فيه أنه الله! وهو يقول: أنا الله، وقد اعتقد ذلك فيمن لم يظهر فيه مثل خوارقه من الكذابين، وفيمن لم يقل أنا الله كالمسيح، وسائر الأنبياء والصالحين. (١)

الوجه الخامس: في كتابهم المقدس صفة العين للرب.

- الله له أعين:

كما جاء في سفر (الأمثال٣: ٤): (فتجد نعمة وفطنة صالحة في **أعين الله** والناس).

وكما جاء في سفر (زكريا٤: ١٠): (لأنه من ازدرى بيوم الأمور الصغيرة فتفرح أولئك السبع ويرون الزيج بيد زربابل إنما هي **أعين الرب** الجائلة في الأرض كلها).

- جاء ت العين مفردة.

كما جاء في(المزامير٣٣: ١٨): (هوذا **عين الرب** على خائفيه الراجين رحمته).

- **عين** الرب على خائفيه.

كما جاء في (المزامير٣٣: ١٨): (هوذا **عين الرب على خائفيه** الراجين رحمته).

فكيف بعد ذلك يعيبون على المسلمين أن الله ذكر صفة العين له في كتابه؟! ! ، أم أنهم يكفرون بكتابهم أيضًا؛ لأن فيه هذه الصفة؟! !

*   *   *   *

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٣/ ٣٢٤، ٣٢٥.

٥ـ شبهة: صفة القدم.

نص الشبهة:

قالوا: الله له قدم و يضعها في جهنم.

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "لا يزال يُلقى فيها، و تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد بعزتك وكرمك. ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة"(١)

الجنة و النار يتحاوران والله يتدخل في الحوار ويضع رجله في جهنم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : "تحاجت الجنة والنار، فقالت: النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها. فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا. (٢)

والرد على ذلك نقول:

صفة القدم والرجل ثابتة لله تعالى في السنة الصحيحة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله ﷺ : " لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه " ـ وفي رواية: رجله ـ فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قد قد ـ وفي رواية: قط قط ـ بعزتك "، ونحو قوله ﷺ : " فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا "، وقوله ﷺ : " يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، أنا الملك أنا الديان "، إلى غيرها من الأحاديث هالتنا أو لم تهلنا، بلغتنا أو لم تبلغنا، اعتقادنا فيها، وفي الآي الواردة في

---

(١) البخاري (٦٩٤٩)، مسلم (٢٨٤٨)

(٢) البخارى (٤٥٦٩)، مسلم (٢٨٤٦)

الصفات: أنا نقلبها، ولا نحرفها، ولا نكيفها، ولا نعطلها، ولا نتأولها، وعلى العقول لا نحملها، وبصفات الخلق لا نشبهها، ولا نُعمل رأينا وفكرنا فيها، ولا نزيد عليها ولا ننقص منها؛ بل نؤمن بها، ونكل علمها إلى عالمها، كما فعل ذلك السلف الصالح، وهم القدوة لنا في كل علم. روينا عن إسحاق أنه قال: لا نزيل صفة مما وصف الله بها نفسه أو وصفه بها الرسول عن جهتها، لا بكلام، ولا بإرادة؛ إنما يلزم المسلم الأداء، ويوقن بقلبه أن ما وصف الله به نفسه في القرآن إنما هي صفاته، ولا يعقل نبي مرسل، ولا ملك مقرب تلك الصفات إلا بالأسماء التي عرفهم الرب عز وجل، فأما أن يدرك أحد من بني آدم تلك الصفات، فلا يدركه أحد... الحديث إلى آخره. وكما روينا عن مالك والأوزاعي وسفيان والليث وأحمد بن حنبل أنهم قالوا في الأحاديث في الرؤية والنزول: أَمِرُّوها كما جاءت، وكما روى عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة أنه قال في الأحاديث التي جاءت أن الله يهبط إلى السماء الدنيا ونحو هذا من الأحاديث: إن هذه الأحاديث قد رواها الثقات، فنحن نرويها ونؤمن بها ولا نفسرها. اهـ[1]

* * *

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ١٨٥، ١٨٦).

٦ـ شبهة: الساق.

نص الشبهة:

قالوا: الله يكشف عن ساقه أمام الناس.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم: ٤٢).

وفي حديث أبي سعيد الخدري. . . . وفيه، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة، فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا. . . . . . . الحديث.[١]

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: وصف الله ﷻ نفسه بأن له ساق، ووصفه رسوله به.

الوجه الثاني: تنازع السلف في المراد بالساق في الآية؛ هل هي صفة، أو أنها غير صفة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: وصف الله ﷻ نفسه بأن له ساق، ووصفه رسوله به.

فهو حق نؤمن به من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تأويل، ولا تعطيل كباقي الصفات التي ذكرت في القرآن والسنة الصحيحة.

قال تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم ٤٢).

وفي حديث أبي سعيد ﷺقال سمعت النبي ﷺ يقول: يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدًا.[٢]

الوجه الثاني: تنازع السلف في المراد بالساق في الآية؛ هل هي صفة، أو أنها غير صفة

قال ابن تيمية: وتمام هذا: أني لم أجدهم تنازعوا إلا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ (القلم: ٤٢) فروي عن ابن عباس ﷺ وطائفة: أن المراد به الشدة؛ أن الله يكشف عن

---

(١) البخاري (٤٦٣٥، ٧٠٠١).

(٢) البخاري (٤٦٣٥).

الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة: أنهم عدُّوها في الصفات للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين، ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات؛ فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله، ولم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر.[1]

وقال ابن القيم: نقول من أين في ظاهر القرآن أن لله ساقا؟ وليس معك إلا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾؛ والصحابة متنازعون في تفسير الآية؛ هل المراد الكشف عن الشدة، أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه، ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيما يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله؛ لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه؛ وإنما ذكره مجردا عن الإضافة منكرا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والإصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل، وفيه: (فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجدًا)، ومن حمل الآية على ذلك قال قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ مطابق لقوله ﷺ: "فيكشف عن ساقه فيخرون له سجدا "، وتنكيره للتعظيم والتفخيم؛ كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه، قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه؛ فإن لغة القوم في مثل ذلك: أن يقال كشفت الشدة عن القوم لا كشف عنها، كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ (الزخرف: ٥٠)، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ (المؤمنون: ٧٥)، فالعذاب والشدة هو المكشوف؛ لا المكشوف عنه، وأيضًا فهناك تحدث الشدة وتشتد، ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا

---

(١) دقائق التفسير لابن تيمية (٢/ ٤٨٢).

يدعون إلى السجود؛ وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة.[١]

وفي خلاصة القول: أن الساق ثبتت في الحديث الصحيح وأضيفت إلى الله تعالى؛ فهي صفة من صفات الذات تليق بجلاله وعظمته سبحانه وتعالى.

* * *

(١) الصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية (١/ ٢٥٢ـ ٢٥٤).

٧- شبهات حول صفة المحبة لله تعالى.

نص الشبهة:

لقد أثار المعترضون شبهة أن الله في عقيدة المسلمين لا يوصف بالمحبة، وعلى ذلك فالمسلمون لا يعرفون المحبة في دينهم.

المسلم محروم من معرفة عظمة وقوة واتساع محبة الله، لأن القرآن لا يوافق على أن يوصف الله بأنه محبة لأن الله لم يصف نفسه في القرآن بذلك؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: صفات الله تعالى غاية في الكمال.

الوجه الثاني: من صفات الله المحبة.

الوجه الثالث: من الأسماء الدالة على المحبة؛ الودود.

الوجه الرابع: ومن الصفات الدال على المحبة صفة الإرادة.

الوجه الخامس: من الصفات الدالة على المحبة الفرح.

الوجه السادس: الله سبحانه يأمر بالمحبة.

الوجه السابع: النبي ﷺ يأمر بالمحبة.

الوجه الثامن: المحبة هي من أصول الإيمان القلبي.

الوجه التاسع: المحبة في كتابهم المقدس وفي تاريخهم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: صفات الله تعالى غاية في الكمال.

فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بصفات الكمال ونعوت الجلال.

والصفات كما قدمنا على نوعين:

صفات ذات: وهي التي لا تنفك عن ذات الله تعالى: مثل اليد والوجه والقدم والساق والكف وغير ذلك.

وصفات فعل: وهي التي تتعلق بمشيئة الله تعالى إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

مثل الغضب والرضا والمحبة والنزول والاستواء ونحو ذلك من صفات الفعل.

وفي كل هذه الصفات لابد من أن نؤمن بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى: ١١)

الوجه الثاني: من صفات الله المحبة.

فالله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالمحبة، وليس كما افترى النصارى أنه ليس له صفات المحبة.

ومحبة لله تعالى للعبد لها أسباب:

والدليل على ذلك من القرآن والسنة:

الدليل من القرآن:

١ ـ الإنفاق في سبيل الله سبب لحب الله للعبد:

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ (آل عمران: ١٣٤).

٢ ـ الطهارة من النجاسة والحدث، وكذلك التوبة من الذنوب والمعاصي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة: ٢٢٢).

٣ ـ اتباع النبي ﷺ مجلبة لمحبة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١).

٤ ـ الوفاء بالعهد سبب لحب الله للعبد:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (آل عمران: ٧٦).

٦ ـ التوكل على الله وترك الاعتماد بالقلب على البشر سبب في محبة الله:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (آل عمران: ١٥٩).

٧ـ الحكم بالعدل سبب في محبة الله للعبد:

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (المائدة: ٤٢) وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجرات: ٩).

٨ ـ عدم الخوف في الله لومة لائم سبب لمحبة الله:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (المائدة: ٥٤).

٩ ـ معاملة غير المسلم بالعدل سبب في محبة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨)

١٠ ـ القتال في سبيل الله سبب في محبة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف: ٤)

١١ ـ إطعام الطعام سبب في حب الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (الإنسان: ٨).

هذا غيض من فيض، وهناك آيات كثيرة تدل على صفة المحبة لله تعالى.

وهناك أمر آخر في القرآن يدل على محبة الله تعالى للعبد، وهو نفي محبة الله لمن فعل ما يغضبه، وحب الله تعالى لمن فعل ضد الفعل.

منها قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

وقوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: ٢٧٦).

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (آل عمران: ٣٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء: ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٧).

الدليل من السنة:

أما أدلة السنة فكثيرة ولكن نكتفي ببعضها:

١ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " **إِذَا أَحَبَّ الله الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ** ". [(١)]

وفي هذا الحديث دلالة صريحة على صفة المحبة لله تعالى.

٢ ـ عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: " **لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلا يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ**. قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا.فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ الله ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ الله أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى

---

(١) البخاري (٢٩٧٠).

تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ". [1]

٣ ـ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ.. [2]

٤ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال قال رسول الله ﷺ : للهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ. [3]

٥ ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ؛ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ. [4]

الوجه الثالث: من الأسماء الدالة على المحبة؛ الودود.

فإن الله تعالى من أسمائه الحسنى: الودود، وهو يدل على كمال المحبة له سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (هود: ٩٠).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ (البروج: ١٤).

قال ابن جرير: وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ يقول تعالى ذكره: وهو ذو المغفرة لمن تاب إليه من ذنوبه، وذو المحبة له. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.قال ابن عباس: قوله: ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ يقول: الحبيب. [5]

---

(١) البخاري (٣٨٨٨).

(٢) البخاري (٥٥٦٥).

(٣) البخاري (٥٩٣١).

(٤) مسلم (١٣١).

(٥) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٤٦).

وقال القرطبي: (الودود) أي المحب لأوليائه. [(١)]

الوجه الرابع: ومن الصفات الدال على المحبة صفة الإرادة.

فإن الله تعالى موصوف بالإرادة، وهي صفة فعل، والله يريد الخير لعباده.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦). وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٢٧).وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٨).

وإرادة الشيء تدل على محبته له.

الوجه الخامس: من الصفات الدالة على المحبة الفرح.

فإن الفرح بالشيء دلالة على حبه له. والفرح صفة من صفات الله تعالى الفعلية، والله تعالى يفرح بتوبة عبده.

عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ الله، قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ". [(٢)]

الوجه السادس: الله سبحانه يأمر بالمحبة.

فقد حث الله تبارك وتعالى على الحب له وللمؤمنين في كثير من القرآن منها:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ (البقرة: ١٦٥)

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٩٦).

(٢) البخاري (٥٨٣٣).

وفي هذه الآية حث المؤمنين على حب الله تعالى، ومثلها التحذير الآخر من حب شئ فوق حبه لله مع عدم المنع من حبها.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤)

ومن رحمته سبحانه وتعالى أن ألقى حب موسى في قلب آل فرعون

قال تعالى لأم موسى: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (طه: ٣٩)

ومن رحمته أن حث المؤمنين على الإحسان حبا في مغفرة الله تعالى لهم فقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٢).

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَالله إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَالله لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. (١)

ولم يمنع الله سبحانه وتعالى الحب الطبيعي للكافر نظير نصرته للحق كما قال لنبيه ﷺ في عمه أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص: ٥٦).

ولم يمنع الله سبحانه وتعالى حب الخير ولكن إذا شغل الإنسان عن ذكر الله فهو مذموم، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾.

---

(١) البخاري (٤٤٧٣)، مسلم (٢٧٧٠).

الوجه السابع: النبي ﷺ يأمر بالمحبة.

في أحاديث كثيرة أمر النبي ﷺ بحب الله تعالى، وحبه، وحب المؤمنين، وحب الخير للناس، وحب الناس بعضهم لبعض، منها:

١ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: "عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ". (١)

٢ - النبي ﷺ يعلن حبه للأنصار:

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَكَلَّمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مَرَّتَيْنِ ". (٢)

٣ - النبي ﷺ يعلن عن حبه لأسامة بن زيد:

عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أُسَامَةَ فَقَالُوا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ قُلْتُمْ فِي أُسَامَةَ، وَإِنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ. (٣)

٣ - النبي ﷺ يعلن عن حب الله ورسوله لعلي بن أبي طالب:

عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: "لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا؟ فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ . . . الحديث(٤).

٤ - عدة الجنة حب الله ورسوله:

---

(١) البخاري (١٥).

(٢) البخاري (٣٥٠٢).

(٣) البخاري (٤١٠٨).

(٤) البخاري أيضا (٣٨٨٨).

عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟ قَالَ: وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلا أَنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ. قَالَ: إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفَرِحْنَا يَوْمَئِذٍ فَرَحًا شَدِيدًا فَمَرَّ غُلامٌ لِلْمُغِيرَةِ وَكَانَ مِنْ أَقْرَانِي فَقَالَ: إِنْ أُخِّرَ هَذَا فَلَنْ يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ". (١)

٥ ـ الرسول يحث على حب الخير للناس:

عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ. (٢)

٦ ـ حث النبي ﷺ على حب الأنصار:

عن أنس ﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ. (٣)

٧ ـ ربط النبي ﷺ الإيمان بالحب:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ: أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ(٤).

٨ ـ حب الجار من الإيمان:

عَنْ أَنَسٍ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ، ـ أَوْ قَالَ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ . (٥)

٩ ـ ظل الرحمن يُنال بالحب في الله:

---

(١) البخاري (٥٧٠١).

(٢) البخاري (١٢).

(٣) البخاري (١٦).

(٤) مسلم (٨١).

(٥) مسلم (٦٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ. (١)

الوجه الثامن: المحبة هي من أصول الإيمان القلبي.

لا شك أن الله سبحانه قد أمر عباده بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وركب فيهم الاختيار والحرية في فعل ذلك أو تركه. قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (النساء: ١٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩) والطاعة الاختيارية لا تكون إلا عن حب.

كما قال الشاعر: إن المحب لمن أحب مطيع، فالعبادة مبناها على فعل المأمور وترك المحظور، وفعل المأمور لا يكون إلا عن حب. وترك المحظور لا يكون إلا عن خوف.

قال ابن رجب: ومن كان همه طلب محبة الله ﷻ أعطاه الله فوق ما يريده من الدنيا تبعاً، قال بعض السلف: لما توفي داود ﵇ أرسل الله ﷻ إلى سليمان ﵇: ألك حاجة تسألني إياها؟.

فقال سليمان: أسأل الله أن يجعل قلبي يحبه كما كان قلب أبي داود يحبه، وأن يجعل قلبي يخشاه كما كان قلب أبي داود يخشاه. فشكر الله له ذلك وأعطاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

ومحبة الله تعالى على درجتين: إحداهما: واجبة، وهي المحبة التي توجب للعبد محبة ما يحبه الله من الواجبات، وكراهة ما يكرهه من المحرمات، فإن المحبة التامة تقتضي الموافقة لمن يحبه في محبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه خصوصاً فيما يحبه ويكرهه من المحب نفسه، فلا

---

(١) البخاري (٦٢٠).

تصح المحبة بدون فعل ما يحبه المحبوب وكراهة ما يكرهه المحبوب. وسئل بعض العارفين عن المحبة، فقال: الموافقة في جميع الأحوال. وأنشد:

ولو قلتَ لي: مُتْ مُتُّ سمعاً وطاع　　　وقلتُ لداعي الموت: أهلاً ومرحبا

وأنشد بعضهم:

تعصى الإلهَ وتزعُمُ حبَّه　　　هذا لعمري في القياسِ شنيعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته　　　إن المحبَّ لمن يحبُّ مُطيعُ

ومتى أخل العبد ببعض الواجبات، أو ارتكب بعض المحرمات فمحبته لربه غير تامة، فالواجب عليه المبادرة بالتوبة، والاجتهاد في تكميل المحبة المفضية لفعل الواجبات كلها واجتناب المحرمات كلها، وهذا معنى قول النبي ﷺ: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ". فإن الإيمان الكامل يقتضي محبة ما يحبه الله، وكراهة ما يكرهه الله عز وجل والعمل بمقتضى ذلك، فلا يرتكب أحد شيئًا من المحرمات أو يخل بشيء من الواجبات إلا لتقديم هوى النفس المقتضي لارتكاب ذلك على محبة الله تعالى المقتضية لخلافه.

الدرجة الثانية من المحبة: درجة المقربين، وهي أن يمتلئ القلب بمحبة الله تعالى حتى توجب له محبة النوافل، والاجتهاد فيها، وكراهة المكروهات، والانكفاف عنها، والرضا بالأقضية والأقدار المؤلمة للنفوس لصدورها عن المحبوب، كما قال عامر بن قيس: أحببت الله حباً هوّن عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني بكل بلية، فلا أبالي مع حبي إياه على ما أصبحت عليه ولا على ما أمسيت. وقال عمر بن عبد العزيز لما مات ولده الصالح: إن الله أحب قبضه، وإني أعوذ بالله أن يكون لي محبة في شيء من الأمور يخالف محبة الله. وكان يقول: إذا أصبحت فمالي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر.

يا من يعز علينا أن نفارقهم　　　وِجدَانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكم عدمُ

إن كان سرَّكم ما قد بُليت به   فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُ ألمُ[١]

الوجه التاسع: المحبة في كتابهم المقدس وفي تاريخهم.

أما المحبة في كتابهم المقدس فقد وردت على النحو التالي:

١ ـ الله محبة.

وردت في سفر أيوب في موضعين:

الموضع الأول: (ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة) (١يو ٤: ٨)

الموضع الثاني: (ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينا الله محبة ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه)(١يو ٤: ١٦).

وعندما نتجه إلى الموضع الأول: (من لا يحب لا يعرف الله).

ونقول هذا قول فيه نظر: لأن المعرفة تختلف عن الحب، فليس كل ما يعرفه الإنسان يحبه، وإلا ما كانت هناك كراهية! ! !

فكثير من الناس يعرفون الله تعالى، ومع ذلك تحمل قلوبهم الكراهية للمؤمنين والرسل، قال تعالى عن اليهود والنصارى في شأن النبي محمدﷺ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦). وكلمة (من لا يحب) عامة تشمل الحب الغريزي والحب الإيماني. فنجد أن الشيوعي والملحد والكافر فيهم غريزة الحب لكثير من الناس. وإيصال الخير لهم. ومع ذلك ليسوا بمؤمنين.

ولكن الإسلام لم يربط الحب بالمعرفة؛ وإنما بالإيمان، وهذا أبلغ في الوصف وأدق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ (البقرة: ١٦٥)

وقول الرسول ﷺ : " ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ".

---

(١) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى.

ففي الآية والحديث ربط الإيمان بالحب، وليس ربط الحب بالمعرفة.

وأما الكلام عن الموضع الثاني فهو أشد من الأول:

فهم يقولون: (ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينا، الله محبة، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله، والله فيه) فقولهم (ومن يثبت في المحبة يثبت في الله، والله فيه) هذا دلالة على حلول الله في العبد، وهي عقيدة خبيثة درج عليها النصارى. وتدل على أن الله قد يوجد في جميع البشر ليس الأمر خاصًا بحلول اللاهوت في الناسوت كما صوروا ذلك مع المسيح عليه السلام؛ بل صار الأمر أعم من ذلك؛ فكل من يحب يحل الله فيه، فكل المحبين آلهة؛ وليس المسيح فقط.

كما أنهم يدعون أن المسيح هو ابن الله ثم يعودون ويقولون (طوبى لصانعي السلام.فإنهم أبناء الله يدعون) وكل هذا تناقض في العبارات دلالة على تحريفهم لكتابهم كما هو مبين في موضعه.

وفي موضع آخر من سفر يوحنا (انظروا أية محبة أعطانا الأب حتى ندعى أولاد الله من أجل هذا لا يعرفنا العالم لأنه لا يعرفه) (١يو ٣: ١)

٢ ـ محبة الناس مخالفة لمحبة الله.

فها هم يدعون إلى ترك محبة الناس

فقد جاء في يوحنا ١: (لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الأب) (١يو ٢: ١٥). وهي دعوة صريحة للكراهية وحب النفس.

٣ ـ محبة المال أصل لكل شر.

والمال هو عصب الحياة، وحبه أمر فطري غريزي لا ينكره أحد من البشر. ولكنهم هنا يناقضون الفطرة والغريزة في ذلك فقد جاء في رسالة بولس الأولى: (إن محبة المال أصل لكل الشرور الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة) (١تي ٦: ١٠).

وأما في الإسلام فقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الكهف: ٤٦).

ثم حذر أن يلهيه المال عن طاعة الله تعالى فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (المنافقون: ٩).

٣ ـ وصايا في كتاب لوقا يعمل النصارى بعكسها تمامًا جاء في إنجيل لوقا الإصحاح السادس: ٢٧«لكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، ٢٨بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ. ٢٩مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ أيضًا، وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أيضًا. ٣٠وَكُلُّ مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَخَذَ الَّذِي لَكَ فَلاَ تُطَالِبْهُ. ٣١وَكَمَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا أَنْتُمْ أيضًا بِهِمْ هكَذَا. ٣٢وَإِنْ أَحْبَبْتُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَأَيُّ فَضْل لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أيضًا يُحِبُّونَ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُمْ. ٣٣وَإِذَا أَحْسَنْتُمْ إِلَى الَّذِينَ يُحْسِنُونَ إِلَيْكُمْ، فَأَيُّ فَضْل لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أيضًا يَفْعَلُونَ هكَذَا. ٣٤وَإِنْ أَقْرَضْتُمُ الَّذِينَ تَرْجُونَ أَنْ تَسْتَرِدُّوا مِنْهُمْ، فَأَيُّ فَضْل لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أيضًا يُقْرِضُونَ الْخُطَاةَ لِكَيْ يَسْتَرِدُّوا مِنْهُمُ الْمِثْلَ. ٣٥بَلْ أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، وَأَحْسِنُوا وَأَقْرِضُوا وَأَنْتُمْ لاَ تَرْجُونَ شَيْئًا، فَيَكُونَ أَجْرُكُمْ عَظِيمًا وَتَكُونُوا بَنِي الْعَلِيِّ، فَإِنَّهُ مُنْعِمٌ عَلَى غَيْرِ الشَّاكِرِينَ وَالأَشْرَارِ. ٣٦فَكُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ أيضًا رَحِيمٌ. ٣٧«وَلاَ تَدِينُوا فَلاَ تُدَانُوا. لاَ تَقْضُوا عَلَى أَحَدٍ فَلاَ يُقْضَى عَلَيْكُمْ. اِغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ».

ولننظر في تاريخ النصارى على مر العصور ماذا فعلوا بأعدائهم حتى بني جلدتهم؟، وكيف أن الحرب العالمية الأولى والثانية قد راح ضحيتها أكثر من سبعين مليون نسمة دون فائدة تعود لأحد الأطراف.

ولننظر إلى الحرب الصليبية وكم قتلوا من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والشباب؟!

ولننظر إلى الحركات الاستعمارية في الأمريكتين، كم قتلوا من السكان الأصليين؟ كما جاء في بعض الإحصائيات أكثر من مليار، وماذا فعلوا في أفريقيا والهند والدول التي استعمروها؟ نهبوا الأموال وقتلوا الناس واستعبدوهم.

وماذا فعلوا في البوسنة والهرسك؟، وماذا فعلوا في الشيشان ولا يزالوا يفعلون؟، وماذا فعل الأمريكان وحلفائهم في أفغانستان والعراق؟

ولو نظرنا إلى حركات التشويه والسب في نبي الإسلام والله سبحانه وتعالى على صفحات الانترنت، وفي الفضائيات والصحف وغيرها من وسائل الإعلام لرأينا أن كل هذا يناقض ما جاء في إنجيل لوقا.

وهذا إذا دل فإنما يدل على أن هؤلاء لا دين لهم صحيح يرتكزون عليه؛ إنما هو الهوى والتحريف بحسب هواهم[(١)].

* * *

(١) راجع شبهة (انتشار الإسلام بالسيف) في هذه الموسوعة.

٨ـ شبهة: أن الله خلق آدم على صورته.

نص الشبهة :

في قولهﷺ: " خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ "، استشكل البعض؛ حيث فهموا أن القول بإعادة الضمير على الله تعالى في هذا الحديث يلزم منه التشبيه، تشبيه صورة آدم بصورة الله تعالى.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: الأحاديث الواردة في هذا الباب، وبيان درجتها.

الوجه الثاني: أقوال أهل العلم في الأحاديث.

الوجه الثالث: ترجيح القول الأول (أن الضمير يعود على الله، والصورة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف)، ولإثبات الصورة لله تعالى، والرد على الأقوال الأخرى.

الوجه الرابع: المعنى الصحيح للحديث.

الوجه الخامس: وجوب الإيمان بظاهر الكتاب والسنة، وأنه حق.

الوجه السادس: وماذا عن هذا الوصف الذي ذكره الكتاب المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأحاديث الواردة في هذا الباب.

١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ، قَالَ: اذْهَبْ؛ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ[(١)].

٢ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"[(٢)].

---

(١) البخاري (٦٢٢٧)، مسلم (٢٨٤١)، مسند أحمد (٢/ ٣١٥، ٣٢٣)، صحيح ابن حبان (٦١٦٢)، مصنف عبد الرزاق (١٩٤٣٥)، مسند الشاميين وأخرجه إلى قوله (ستون ذراعًا) فقط (٣٣٥٩).

(٢) مسلم (٢٦١٢)، مسند أحمد (٢/ ٥١٩، ٤٦٣، ٢٤٤)، صحيح ابن حبان (٥٧١٠، ٥٦٠٥)، المعجم الأوسط (٧٨٥٠) بلفظ: على صورة وجهه، مصنف عبد الرزاق (١٧٩٥٠).

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَجَنَّبْ الْوَجْهَ، وَلَا تَقُلْ قَبَّحَ الله وَجْهَكَ، وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ؛ فَإِنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"(١).

٣- عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لا تُقَبِّحُوا الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ تَعَالَى(٢).

---

(١) حسن. أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٥١، ٤٣٤)، البخاري في الأدب المفرد (١٧٣)، مصنف عبد الرزاق (١٧٩٥٢)، مسند عبد بن حميد (٩٠٠)، مسند الحميدي (١٢٠)، ابن أبي عاصم في السنة (٤٢٠)، واللالكائي (٧١٥)، التوحيد لابن منده (٨١)، التوحيد لابن خزيمة (٣٨)، الصفات للدارقطني (٤٦)، كلهم من طريق محمد بن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة.

قال ابن منده: هذا إسناد مشهور متصل صريح، وابن عجلان أخرج له مسلم، والنسائي، والجماعة إلا البخاري، وقال يحيى القطان عن ابن عجلان: كان سعيد المقبري يحدث عن أبي هريرة وعن أبيه عن أبي هريرة، وعن رجل عن أبي هريرة، فاختُلف عليه فجعلها كلها عن أبي هريرة.

ولكن قال ابن حبان: قال ليس هذا بوهن يوهن الإنسان به؛ لأن الصحيفة كلها في نفسها صحيحة، وربما قال ابن عجلان عن سعيد عن أبيه عن أبي هريرة فهذا مما حمل عنه قديما قبل اختلاط صحيفته، فلا يجب الاحتجاج إلا بما يروي عنه الثقات.

وعلى كلام ابن حبان، فقد روى هذا الحديث عنه يحيى بن سعيد القطان وهو ثقة متقن حافظ إمام قدوة، ورواه عنه أيضًا ابن عيينة، قال الدارقطني: اختلف فيه على المقبري، فرواه محمد بن موسى الفطري مديني صالح عن المقبري عن أبيه عن أبي هريرة. وخالفه محمد بن عجلان، وعبد الله بن سعيد، وأسامة بن زيد الليثي، فرووه عن المقبري عن أبي هريرة، ولم يقولوا: عن أبيه، والأشبه بالصواب: قول من لم يقل: عن أبيه (العلل ١٠/ ٣٧٢).

قال ابن حجر: محمد بن عجلان صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة، وقال الذهبي: وثقه أحمد، وابن معين. وقد حسن الحديث الألباني في ظلال الجنة (٥١٩)، والسلسلة الصحيحة (٢/ ٣٦١).

(٢) مرسل. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٥٨٠)، الحارث ابن أبي أسامة في مسنده (زوائد الهيثمي٨٧٢)، ابن أبي عاصم في السنة (٥١٧)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٩٨)، ابن خزيمة في التوحيد (٤١)، الآجري في الشريعة (٧٢٥)، الدارقطني في الصفات (٤٩، ٤٨)، البيهقي في الصفات (٦٤٠، ٦٢٧). كلهم من طريق الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عمر، ورواه عن الأعمش جرير ابن عبد الحميد، ومحاضر وخالفهم ابن خزيمة في التوحيد (٤٢)، فأخرجه مرسلاً من طريق محمد بن المثنى عن ابن مهدي عن الثوري عن حبيب عن عطاء.

الوجه الثاني: أقوال أهل العلم.

اختلف أهل العلم -رحمهم الله تعالى- في هذه الأحاديث وما في معناها على أقوال كثيرة، واختلفوا على أي شئ يعود الضمير في قولهﷺ(خلق الله آدم على صورته)، ويمكن أن تُقسم أقوالهم في هذا الحديث إلى خمسة أقوال:

القول الأول: أن الضمير يعود على الله ﷻ من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

القول الثاني: أن الضمير يعود على الله ﷻ من باب إضافة الخالق إلى المخلوق.

القول الثالث: أن الضمير يعود على المضروب.

القول الرابع: أن الضمير يعود على آدم.

القول الخامس: إنكار التحدث بهذا الحديث.

وفيما يلي بيان لهذه الأقوال، وترجيح الصحيح منها:

القول الأول: أن الضمير يعود على الله ﷻ من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

وقد ضعف ابن خزيمة الإسناد المتصل: فقال ابن خزيمة: فإن في الخبر عللاً ثلاثًا: إحداها: أن الثوري قد خالف الأعمش في إسناده فأرسله الثوري و لم يقل: " عن ابن عمر. و الثانية: أن الأعمش مدلس لم يذكر أنه سمعه من حبيب بن أبي ثابت. و الثالثة: أن حبيب بن أبي ثابت أيضا مدلس لم يعلم أنه سمعه من عطاء. (التوحيد لابن خزيمة١/ ٨٦)

قال الألباني: قلت: و العلة الرابعة: هي جرير بن عبد الحميد فإنه و إن كان ثقة كما تقدم فقد ذكر الذهبي في ترجمته من " الميزان " أن البيهقي ذكر في " سننه " في ثلاثين حديثًا لجرير بن عبد الحميد قال: " قد نسب في آخر عمره إلى سوء الحفظ ". (السلسلة الضعيفة٣/ ٣١٧)

فمن ذلك تكون لفظة (على صورة الرحمن) شاذة، والثابت (على صورته)، وعلى كلٍ فالصورة ثابتة لله تبارك وتعالى كما سنبين إن شاء الله تعالى.

وسُئل الدارقطني عن حديث عطاء بن رباح عن ابن عمر، قال رسول اللهﷺ: (لا تقبحوا الوجه، فإن ابن آدم خُلق على صورة الرحمن)، فقال: يرويه حبيب بن أبي ثابت، واختُلف عنه: فرواه جرير بن عبد الحميد، عن الأعمش، عن حبيب، عن عطاء، عن ابن عمر، عن النبيﷺ، وغيره يرويه عن الأعمش، عن حبيب، عن عطاء مرسلاً، عن النبيﷺ، وكذلك رواه الثوري عن حبيب عن عطاء مرسلاً، والمرسل أصح (علل الدارقطني١٣/ ١٨٨).

وعلى هذا جمهور أهل السنة؛ بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو ممن انتصر لهذا القول وأطال الكلام جدًا على هذا الحديث، قال: لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير في الحديث عائد إلى الله تعالى، فإنه مستفيض من طرق متعددة، عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك[١].

وممن أثبت أن الصورة لله تعالى بهذا الحديث: إسحاق بن راهوية، والإمام أحمد. فعن إسحاق الكوسج أنه قال: قلت لأحمد(لا تقبحوا الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته)[٢]، أليس تقول بهذه الأحاديث؟ قال أحمد: صحيح.

وقال ابن راهوية: صحيح ولا يدعه إلا مبتدع أو ضعيف الرأي[٣].

وسُئل الإمام أحمد فقيل له: يا أبا عبد الله الحديث الذي روي عن النبيﷺ (أن الله خلق آدم على صورته) على صورة آدم؟ فقال: فأين الذي يروي عن النبي (أن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن)[٤].

وأي صورة كانت لآدم قبل أن يُخلق؟ [٥].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية تحقيق د. عبد الرحمن يحيى (٢/ ٣٩٦).

(٢) مسائل الإمام أحمد وإسحاق للكوسج (٢/ ٥٣٥)، مسند أحمد بهذا اللفظ عن ابن عمر، ابن أبي عاصم في السنة (٥١٨)، الدارقطني في الصفات (٤٩)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٥١٧).

(٣) الشريعة للآجري (٣/ ١١٢٨: ١١٢٧)، ابن بطة في الإبانة (٦/ ٩٦).

(٤) تقدم تخريجه، وهو ضعيف.

(٥) إبطال التأويلات (١/ ٩٠: ٨٨).

تنبيه: رُوي عن الإمام أحمد أنه قال في معنى الحديث: صور آدم قبل خلقه ثم خلقه على تلك الصورة، فأما أن يكون الله خلق آدم على صورته فلا، وقد قال الله (ليس كمثله شيء)، ولا نقول: إن الله يشبهه شيء من خلقه، ولا يخفى على الناس أن الله خلق آدم على صورة آدم. ولكن هذه الرواية باطلة لا تصح عن الإمام أحمد؛ إذ أن جميع الروايات عنه في هذا الباب ترد هذه الرواية وتبطلها، كيف وقد جعل الإمام أحمد هذا التأويل من تأويلات الجهمية، وقد نقل هذه الرواية أبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات (١/ ٨٨ ـ ٩٠)، ثم قال: قال أبو طالب المكي: هذا توهمٌ عن أحمد، إنما هذا قول أبي ثور، فذكر ذلك لأحمد فأنكر عليه، وقال: ويله، وأي

وصرح الإمام أحمد بأن القول: بإعادة الضمير على آدم أو على الرجل المضروب قول الجهمية، فقال: من قال: إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأي صورة لآدم قبل أن يخلقه؟[١].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قال رجل لأبي: إنّ فلاناً يقول في حديث رسول الله ﷺ: (إنّ الله خلـق آدم على صورته) فقال: على صورة الرجل، فقال أبي: كذب، هذا قول الجهمية، وأي فائدة في هذا[٢].

وممن قال بهذا القول أيضًا الآجري رحمه الله، فقد عقد بابًا بعنوان (الإيمان بأن الله خلق آدم على صورته بلا كيف)، ثم ساق هذا الحديث بطرق متعددة، ثم قال: هذه من السنن التي يجب على المسلمين الإيمان بها، ولا يقال فيها كيف، ولم؛ بل تستقبل بالتسليم والتصديق وترك النظر[٣].

وقال به أيضًا ابن قتيبة، وأبويعلى الفراء، وأبو إسماعيل الهروي، فقد عقد بابًا بعنوان: (إثبات الصورة لله ﷻ)[٤]. ثم ساق تحته حديث أبي هريرة(خلق الله آدم على صورته).

وكذا قوام السنة إسماعيل التيمي الأصبهاني[٥]، والشيخ أبو بطين[٦]، وعبد العزيز بن باز[١]، ومحمد العثيمين[٢] -عليهم رحمة الله-.

صورة كانت لآدم حتى خلقه عليها؟ يقول: إن الله خلق على مثال؟ ويله، فكيف يصنع بالحديث الآخر: أن الله خلق آدم على صورة الرحمن. وذكر هذه الرواية الذهبي في (الميزان ١/ ٦٠٢ـ ٦٠٣)، ووصف الراوي لها بأنه أتى بشيء منكر.

(١) الإبانة لابن بطة (١٩٨).

(٢) إبطال التأويلات (١/ ٨٨).

(٣) الشريعة (١/ ٣١٩).

(٤) الأربعين في دلائل التوحيد (١/ ٦٣).

(٥) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣١٠ـ ٣١١).

(٦) الدرر السنية (٣/ ٢٦٠ـ ٢٦٤).

واستدل أصحاب هذا القول بما يلي:

١- ظاهر النصوص السابقة والتي فيها قولهﷺ (خلق الله آدم على صورته).

والأصل حمل اللفظ على ظاهره وذلك بإرجاع الضمير إلى الله تعالى، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله عند هذا الحديث: وإذا ثبتت صحته فغير ممتنع الأخذ بظاهره من غير تفسير ولا تأويل(٣).

وسُئل رحمه الله عنه فقال: لا نفسره، كما جاء الحديث(٤).

قال القاضي أبو يعلى تعليقًا على هذا الكلام: فقد صرح بالقول بالأخذ بظاهره والكلام فيه في فصلين: أحدهما: جواز إطلاق تسمية الصورة عليه سبحانه، والثاني: في إطلاق القول بأنه خلق آدم على صورته وأن الهاء راجعة على الرحمن(٥).

وسُئل الإمام أحمد أيضًا فقال: نقول كما جاء الحديث(٦).

٢- حديث ابْنِ عُمَر قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لا تُقَبِّحُوا الْوَجْهَ فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ تَعَالَى. فقالوا: هذا نص صحيح صريح غير قابل للتأويل(٧).

القول الثاني: أن الضمير يعود على الله ﷻ من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

كما في قوله (ناقة الله)، وكما يقال في الكعبة (بيت الله) وهكذا، وبهذا جزم ابن خزيمة بناءً على افتراض صحة حديث (على صورة الرحمن) فقال بعد ما أعلَّ الحديث بما تقدم: فإن صح هذا الخبر مسنداً بأن يكون الأعمش قد سمعه من حبيب بن أبي ثابت، وحبيب

---

(١) مجموع الفتاوى ومقالات متنوعة له (٤/ ٢٢٦).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (١/ ١٠٨- ١١٠).

(٣) إبطال التأويلات (١/ ٧٩).

(٤) المصدر السابق (١/ ٧٩- ٨٠).

(٥) المصدر السابق (١/ ٨١).

(٦) الإبانة (١٩٦).

(٧) عقيدة أهل الإيمان (٤٠)، وقد قدمنا أن الصحيح في الخبر أنه مرسل.

قد سمعه من عطاء بن أبي رباح، وصح أنه عن ابن عمر على ما رواه الأعمش، فمعنى هذا الخبر عندنا أن إضافة الصورة إلى الرحمن في هذا الخبر إنما هو من إضافة الخلق إليه؛ لأن الخلق يضاف إلى الرحمن؛ إذ الله خلقه، وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن؛ لأن الله صورها، ألم تسمع قوله ﷻ: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ (لقمان: ١١)، فأضاف الله الخلق إلى نفسه؛ إذ الله تولى خلقه إلى آخر كلامه، وكذاك قولهﷻ: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ (الأعراف: ٧٣)، فأضاف الله الناقة إلى نفسه[١].

وقال النووي: وَقَالَتْ طَائِفَة: يَعُود إِلَى الله تَعَالَى، وَيَكُون الْمُرَادُ إِضَافَة تَشْرِيف وَاخْتِصَاص كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَاقَة الله﴾ وَكَمَا يُقَال فِي الْكَعْبَة: بَيْت الله وَنَظَائِره. وَالله أَعْلَم[٢].

القول الثالث: أن الضمير في قوله (على صورته) عائد على المضروب:

قال النووي رحمه الله: وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي تَأْوِيله فَقَالَتْ طَائِفَة: الضَّمِير فِي (صُورَته) عَائِد عَلَى الْأَخ الْمَضْرُوب، وَهَذَا ظَاهِر رِوَايَة مُسْلِم[٣].

وقال ابن حجر رحمه الله: وَاخْتُلِفَ فِي الضَّمِير عَلَى مَنْ يَعُود؟ فَالْأَكْثَر عَلَى أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْمَضْرُوبِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ الْأَمْر بِإِكْرَامِ وَجْهه، وَلَوْلَا أَنَّ الْمُرَاد التَّعْلِيل بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْجُمْلَة اِرْتِبَاط بِمَا قَبْلهَا[٤].

ولعل مراد الحافظ بقوله(فالأكثر. . .)، أي: أكثر أهل التأويل كابن حبان والبيهقي والقاضي عياض والقرطبي وغيرهم[٥].

وقال أبو حاتم: يريد به صورة المضروب، لأن الضارب إذا ضرب وجه أخيه المسلم

---

(١) التوحيد (١/ ٨٧ : ٩١).

(٢) شرح النووي (٨/ ٤١٣).

(٣) شرح النووي (٨/ ٤١٣).

(٤) فتح الباري (٥/ ٢٠٥).

(٥) أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين (١١٥).

ضرب وجهًا خلق الله آدم على صورته[١].

وهذا القول لا يُعرف عند أحد من أهل السنة سوى ابن خزيمة وابن منده.

قال ابن خزيمة: تَوَهَّمَ بَعْضُ مَنْ لَمْ يَتَحَرَّ الْعِلْمَ أَنَّ قَوْلَهُ: «عَلَى صُورَتِهِ» يُرِيدُ صُورَةَ الرَّحْمَنِ عَزَّ رَبُّنَا وَجَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَعْنَى الْخَبَرِ، بَلْ مَعْنَى قَوْلِهِ: «خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» ، الْهَاءُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كِنَايَةٌ عَنِ اسْمِ الْمَضْرُوبِ، وَالْمَشْتُومِ، أَرَادَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ هَذَا الْمَضْرُوبِ، الَّذِي أَمَرَ الضَّارِبَ بِاجْتِنَابِ وَجْهِهِ بِالضَّرْبِ، وَالَّذِي قَبَّحَ وَجْهَهُ، فَزَجَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ: «وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ» ، لِأَنَّ وَجْهَ آدَمَ شَبِيهُ وُجُوهِ بَنِيهِ، فَإِذَا قَالَ الشَّاتِمُ لِبَعْضِ بَنِي آدَمَ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ، كَانَ مُقَبِّحًا وَجْهَ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، الَّذِي وُجُوهُ بَنِيهِ شَبِيهَةٌ بِوَجْهِ أَبِيهِمْ، فَتَفَهَّمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ مَعْنَى الْخَبَرِ، لَا تَغْلَطُوا وَلَا تَغَالَطُوا فَتَضِلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَحْمِلُوا عَلَى الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ الَّذِي هُوَ ضَلَالٌ[٢].

وقال ابن بطال: وذهب طائفة إلى أن الحديث إنما خرج على سبب، وذلك: « أن النبي ﷺ مر برجل يضرب ابنه أو عبده فى وجهه لطخًا ويقول: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك فقال ﷺ، وذكره[٣].

وقال البدر العيني: واختلف في مرجع هذا الضمير، فعند الأكثرين يرجع إلى المضروب وهذا حسن[٤].

واستدل من قال بأن الضمير يعود على المضروب بما يلي:

(١) صحيح ابن حبان (١٢/ ٤١٩).

(٢) كتاب التوحيد (١ / ٨٤) .

(٣) شرح ابن بطال (٣/ ٧٠).

(٤) عمدة القاري (١٣/ ١١٦) باب إذا ضُرب العبد.

١- التعليل في قولهﷺ: (إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته)، فقوله(فإن الله خلق آدم على صورته) بيان لسبب النهي عن ضرب الوجه، وهو أن آدمعليه السلام خُلق على صورة المضروب، ولذلك عنون ابن حبان على هذا الحديث بقول (ذكر العلة التي من أجلها زُجر عن هذا الفعل)[١].

وقال البيهقي: وإنما أرادوا- والله أعلم - أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب[٢].

٢-حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهقَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: "إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَجَنَّبِ الْوَجْهَ، وَلَا تَقُلْ قَبَّحَ الله وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ؛ فَإِنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ "[٣].

قال ابن حجر: وهو ظاهر في عود الضمير على المقول له ذلك[٤].

ونقد استدلال ابن خزيمة بهذا الحديث.

٣- أن حمل الحديث على ظاهره يقتضي التشبيه، قال ابن خزيمة عن هذه الأحاديث: تأولها بعض من لم يتحر العلم على غير تأويلها، ففتن عالمًا من أهل الجهل والغباوة، حملهم الجهل بمعنى الخبر على القول بالتشبيه، جل وعلا عن أن يكون وجه خلق من خلقه مثل وجهه، الذي وصفه الله بالجلال والإكرام ونفي الهلاك عنه[٥].

قال ابن بطال: إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته ، فزجره النبيﷺ عن ذلك؛ لأنه قد سب الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين وخص آدم بالذكر؛ لأنه هو الذى ابتدئت خِلقة وجهه على الحدِّ الذى تخلَّق عليها سائر ولده، فالهاء على هذا الوجه كناية عن المضروب فى وجهه[٦].

---

(١) صحيح ابن حبان (١٢/ ٤١٩).
(٢) الأسماء والصفات (٢/ ٦٣).
(٣) مسند أحمد (٢/ ٢٥١)، الأدب المفرد (١٧٣) وتقدم تخريجه، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٥١٩).
(٤) فتح الباري (٥/ ٢٠٥).
(٥) التوحيد (١/ ٨١)، انظر: أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين (١١٧، ١١٨).
(٦) شرح ابن بطال (٩ / ٧).

وقال ابن قتيبة: وزاد قوم في الحديث أنه ﷺ مر برجل يضرب وجه رجل آخر فقال: لا تضربه؛ فإن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورته أي على صورة المضروب(١).

القول الرابع: أن الضمير يعود على آدم نفسه:

قال النووي في قوله (على صورته): هَذِهِ الرِّوَايَة ظَاهِرَة فِي أَنَّ الضَّمِير فِي (صُورَته) عَائِد إِلَى آدَم، وَأَنَّ الْمُرَاد أَنَّهُ خُلِقَ فِي أَوَّل نَشْأَته عَلَى صُورَته الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي الْأَرْض، وَتُوُفِّيَ عَلَيْهَا، وَهِيَ طُوله سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَلَمْ يَنْتَقِل أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ، وَكَانَتْ صُورَته فِي الْجَنَّة هِيَ صُورَته فِي الْأَرْض لَمْ تَتَغَيَّر(٢).

وقال ابن حجر: وَاخْتُلِفَ إِلَى مَاذَا يَعُود الضَّمِير؟ فَقِيلَ: إِلَى آدَم، أَيْ خَلَقَهُ عَلَى صورَته الَّتِي اِسْتَمَرَّ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ أُهْبِطَ وَإِلَى أَنْ مَاتَ؛ دَفْعًا لِتَوَهُّمِ مَنْ يَظُنّ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي الْجَنَّة كَانَ عَلَى صِفَة أُخْرَى(٣).

وقال في قوله(سِتُّونَ ذِرَاعًا): وَهَذِهِ الرِّوَايَة تُؤَيِّد قَوْل مَنْ قَالَ إِنَّ الضَّمِير لِآدَم، وَالْمَعْنَى أَنَّ الله تَعَالَى أَوْجَدَهُ عَلَى الْهَيْئَة الَّتِي خَلَقَهُ عَلَيْهَا لَمْ يَنْتَقِل فِي النَّشْأَة أَحْوَالًا، وَلَا تَرَدَّدَ فِي الْأَرْحَام أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ(٤).

وقال ابن منده: اختلف أهل التأويل في معنى هذا الحديث، وتكلموا على ضروب شتى، والأحسن أن الله تعالى خلق آدم على صورته، معناه: لم يخلقه طفلاً ثم صبياً ثم كهلاً ثم شيخاً، هو الأصح منها، وإنما أراد النبيﷺ بهذا الكلام أن الله عز وجل خلق بني آدم على صورة آدمعليه السلام فإذا شتم أحد من ولده ومن يشبه وجهه فقد شتم آدمعليه السلام، فنهى عن ذلك(٥).

(١) تأويل مختلف الحديث (١/ ٦٥).

(٢) شرح النووي (٩/ ١٩٥).

(٣) فتح الباري (١١/ ٥).

(٤) فتح الباري (٦/ ٤٠٨).

(٥) التوحيد لابن منده (١/ ١٠٥_١٠٦).

قال ابن بطال: قال ابن فورك: فذهب طائفة إلى أن الهاء من « صورته » راجعة إلى آدم عليه السلام، وأفادنا بذلك عليه السلام إبطال قول الدهرية أنه لم يكن قط إنسان إلا من نطفة، ولا نطفة إلا من إنسان فيما مضى ويأتي، وليس لذلك أول ولا آخر[(١)].

قال المناوي في فيض القدير: أي على صورة آدم التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى موته لم تتفاوت قامته، ولم تتغير هيئته بخلاف بنيه[(٢)].

قال الكلاباذي: ومعنى قوله: خلق الله آدم على صورته التي كان عليها يوم قبض أي: لم يكن علقة، ثم مضغة، ثم عظما، ثم مكسوا لحما؛ بل خلق على الصورة التي كان بها[(٣)].

وقال العيني: قوله "على صورته" أي: على صورة آدم؛ لأنه أقرب أي خلقه في أول الأمر بشرًا سويًا كامل الخلقة طويلًا ستين ذراعًا كما هو المشاهد بخلاف غيره[(٤)].

وممن قال بذلك أبو ثور، وابن ثور، وابن خزيمة، والخطابي، وأبو الشيخ الأصبهاني، وابن منده، والبيهقي، فقد نقل قول الخطابي وأقره عليه[(٥)]، والقاضي عياض[(٦)]، والقرطبي[(٧)].

وعزاه ابن قتيبة إلى أهل الكلام[(٨)]، وهو كما قال[(٩)]؛ فإن هذا القول لا يُعرف لأحد من أهل السنة غير أبي ثور، وابن خزيمة، وأبي الشيخ، وابن منده رحمهم الله.

قال أبو ثور: إنما هو على صورة آدم ليس هو على صورة الرحمن[(١)].

---

(١) شرح ابن بطال (٩ / ٦).

(٢) فيض القدير (٣/ ٥٩٣).

(٣) بحر الفوائد للكلاباذي (١/ ٩٧).

(٤) عمدة القاري (٢٢/ ٢٢٩).

(٥) الأسماء والصفات (٢/ ٦١).

(٦) إكمال المعلم (٨/ ٣٧٤).

(٧) المفهم (٧/ ١٨٣).

(٨) تأويل مختلف الحديث (١/ ٦٥).

(٩) انظر مثلاً: أساس التقديس في علم الكلام للرازي (٧١).

وقال ابن خزيمة: فصورة آدم ستون ذراعاً، التي أخبر النبي ﷺأن آدم خُلق عليها، لا على ما توهم بعض من لم يتحر العلم، فظن أن قوله (على صورته): صورة الرحمن، صفة من صفات ذاته، جل وعلا عن أن يوصف بالموتان والأبشار، قد نزه الله نفسه وقدس عن صفات المخلوقين، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)(٢).

وقال الخطابي: الهاء كناية عن اسمين ظاهرين فلا يصح أن يضاف إلى الله ﷻ لقيام الدليل على أنه ليس بذي صورة سبحانه﴿ليس كمثله شئ﴾، فكان مرجعها إلى آدم ﵇ فالمعنى أن ذرية آدم إنما خُلقوا أطوارًا كانوا في مبدأ الخلقة نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم صاروا صور أجنة إلى أن تتم مدة الحمل فيولدون أطفالا، وينشؤون صغارًا إلى أن يكبروا فتطول أجسامهم، يقول: إن آدم لم يكن خلقه على هذه الصفة، لكنه أول ما تناولته الخلقة وجد خلقًا تامًا طوله ستون ذراعًا(٣).

واستدل أصحاب هذا القول بما يلي:

١ - حديث: (خلق الله آدم على صورته، طوله. . .).

قال القاضي عياض: قوله هنا (طوله ستون ذراعًا) يبين الإشكال ويزيح التشابه ويوضح أن الضمير راجع إلى آدم نفسه(٤).

وقال ابن حجر: بعد ذكره لهذا الحديث: وَهَذِهِ الرِّوَايَة تُؤَيِّد قَوْل مَنْ قَالَ: إِنَّ الضَّمِير لِآدَم، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الله تَعَالَى أَوْجَدَهُ عَلَى الْهَيْئَة الَّتِي خَلَقَهُ عَلَيْهَا لَمْ يَنْتَقِل فِي النَّشْأَة أَحْوَالًا(٥).

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ٨٩، ٩٠).

(٢) التوحيد (١/ ٩٤).

(٣) أعلام الحديث (٣/ ٢٢٢٧).

(٤) إكمال المعلم (٨/ ٣٧٤)، وانظر التوحيد لابن خزيمة (١/ ٩٣: ٩٤).

(٥) فتح الباري (٦/ ٤٠٩).

٢- أن حمل هذا الحديث على ظاهره يقتضي التشبيه، فالحامل لهم على هذا التأويل هو الفرار من التشبيه[١].

الوجه الثالث: إثبات الصورة لله تبارك وتعالى، وترجيح القول الأول، والرد على الأقوال الأخرى.

مما لا ريب فيه أن الصورة ثابتة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وأن الضمير في قوله: (على صورته) عائد إلى الله تعالى، وإضافة الصورة إليه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف على ما جاء في القول الأول، ولا يجوز تأويل الحديث وصرفه عن ظاهره لمجرد توهم التشبيه والتمثيل، فإن هذا شأن أهل البدع.

أما أهل السنة فإنهم يؤمنون بما صح من أحاديث الصفات كلها، ويجرونها على ظاهرها على ما يليق بجلال الله وعظمته مع نفي المماثلة على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)[٢].

قال ابن تيمية: هذا الحديث لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير في الحديث عائد إلى الله تعالى، فإنه مستفيض من طرق متعددة، عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك. . . ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفة الضمير فيه عائدا إلى غير الله تعالى، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم، كأبي ثور، وابن خزيمة، وأبي الشيخ الأصفهاني، وغيرهم، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة[٣].

قال ابن قتيبة: والذي عندي ـ والله تعالى أعلم ـ أن الصورة ليست أعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من

---

(١) أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين (١٢١).

(٢) المصدر السابق (١٣٧).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٩٦، ٣٩٩).

هذه؛ لأنها لم تأت في القرآن. ونحن نؤمن بالجميع ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد[١].

وقال القاضي أبو يعلى: والوجه فيه: أنه ليس في حمله على ظاهره، ما يزيل صفاته، ولا يخرجها عما تستحقه؛ لأننا نطلق تسمية الصورة عليه، لا كالصور، كما أطلقنا تسمية: ذات، ونفس، لا كالذوات والنفوس[٢].

وقد جاءت عدة أحاديث صحيحة في إثبات الصورة لله تعالى غير ما تقدم، ومن ذلك ما يلي:

حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ أُنَاسٌ يَا رَسولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسولَ الله. قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسولَ الله. قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ. يَجْمَعُ الله النَّاسَ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شيئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمْ الله فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا أَتَانَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمْ الله فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ[٣].

قال ابن حجر: الْمَعْنَى: يَأْتِيهِمْ الله بِصُورَةٍ - أَيْ بِصِفَةٍ - تَظْهَر لَهُمْ مِنْ الصُّوَر الْمَخْلُوقَة الَّتِي لَا تُشْبِهُ صِفَةَ الْإِلَه لِيَخْتَبِرَهُمْ بِذَلِكَ، فَإِذَا قَالَ لَهُمْ هَذَا الْمَلَك: أَنَا رَبّكُمْ وَرَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ عَلَامَة الْمَخْلُوقِينَ مَا يَعْلَمُونَ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ رَبَّهُمْ اِسْتَعَاذُوا مِنْهُ لِذَلِكَ[٤].

وقال النووي: فَالْمُرَاد بِالصُّورَةِ هُنَا الصِّفَة، وَمَعْنَاهُ: فَيَتَجَلَّى الله سُبْحَانه وَتَعَالَى لَهُمْ عَلَى الصِّفَة الَّتِي يَعْلَمُونَهَا وَيَعْرِفُونَهُ بِهَا، وَإِنَّمَا عَرَفُوهُ بِصِفَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ رُؤْيَة لَهُ

---

(١) تأويل مختلف الحديث (١/ ٢٢١).

(٢) إبطال التأويلات (١/ ٨١).

(٣) البخاري (٦٥٧٣، ٧٤٣٧، ٧٤٣٩)، مسلم (٢١٨٢، ٢٩٦٨).

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٥٨).

سُبْحَانه وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ لَا يُشْبِه شيئًا مِنْ مَخْلُوقَاته، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يُشْبِه شيئًا مِنْ مَخْلُوقَاته، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَبّهمْ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبّنَا، وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالصُّورَةِ عَنْ الصِّفَة لِمُشَابَهَتِهَا إِيَّاهَا، وَلِمُجَانَسَةِ الْكَلَام فَإِنَّهُ تَقَدَّمَ ذِكْر الصُّورَة[1].

قال القاضي أبو يعلى: اعلم أن هذا الخبر يدل على إثبات الصورة وعلى الإتيان. . . ، وأنه غير ممتنع جواز إطلاق الصورة لا كالصور[2].

وأيضًا من الأدلة على إثبات الصورة حديث أبي سعيد الخدري في الرؤية، وهو بمعنى الحديث السابق وفيه: حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا[3].

الرد على الأقوال الأخرى:

أولاً: الرد على القول بأن الضمير يعود على غير الله تعالى، إما على المضروب وإما على آدم عليه السلام:

فنقول: هذا تأويل بعيد جدًا عن ظاهر اللفظ، والأصل حمل اللفظ على ظاهره، كما أن في هذا القول موافقة لأهل الكلام المحرفين لنصوص الصفات عن ظاهرها، ولهذا قال الإمام أحمد: هذا التأويل من تأويلات الجهمية، وأنكره أشد الإنكار[4]. فقال: من قال إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي[5].

وعند التأمل نجد أن الشبهة التي أوقعت إمام الأئمة ابن خزيمة وغيره في هذا التأويل هي: توهم التشبيه، ولذلك اجتهد في تأويله وصرفه عن ظاهره، فجعل متعلق الضمير في كل حديث غيره في الحديث الآخر، ففي حديث (إذا قاتل أحدكم. . .)، جعل الضمير

---

(١) شرح النووي (٢/ ٢٩).

(٢) إبطال التأويلات (١/ ١٥١).

(٣) البخاري (٤٥٨١)، مسلم (١٨٣).

(٤) أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها (١٤٣).

(٥) الإبانة لابن بطة (١٩٨).

عائدًا إلى المضروب، فلما أتى إلى حديث (خلق الله آدم على صورته)، ورأى أن هذا التأويل لا يستقيم جعله عائدًا إلى آدمعليه السلام.

ولما أتى إلى حديث ابن عمر: (فإن ابن آدم خُلق على صورة الرحمن)، فجعله على فرض صحته من باب إضافة الخلق إلى خالقه، كل ذلك فرارًا من التشبيه، فهذا يؤكد أنه لجأ إلى تأويل هذا الحديث؛ لتوهمه أن حمله على ظاهره يقتضي التشبيه، فأوَّله تنزيهًا لله تعالى عن صفات المخلوقين.

وقال أبو القاسم إسماعيل بن محمد التيمي صاحب كتاب الترغيب والترهيب: أخطأ محمد بن خزيمة في حديث الصورة، ولا يطعن عليه ذلك؛ بل لا يُؤخذ عنه هذا فحسب.

قال أبو موسى المديني(ناقل هذا الكلام): أشار بذلك إلى أنه قَلَّ من إمام إلا وله زلة، فإن تُرك ذلك الإمام لأجل زلته، تُرك كثير من الأئمة، وهذا لا ينبغي أن يُفعل[١].

قال الذهبي: وقد تأول ابن خزيمة في ذلك حديث الصورة، فليعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف، فما خاضوا في التأويل؛ بل آمنوا وكفوا، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه، وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه، وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه[٢].

ثم إن هذا الحديث ليس في حمله على ظاهره ما يقتضي التشبيه؛ بل نحن نثبته ونجريه على ظاهره مع نفي التشبيه.

ثانيًا: الرد على القول بأن الضمير يعود على الله، وجعل إضافة الصورة إلى الله تعالى من باب إضافة المخلوق إلى خالقه:

والرد على ذلك من وجوه:

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤١٩، ٤٢٤، ٤٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٧٤ : ٣٧٦).

أحدها: أنه لم يكن قبل خلق آدم صورة مخلوقة خلق آدم عليها، فقول القائل: على صورة مخلوقة لله، وليس هناك إلا صورة آدم بمنزلة قوله: على صورة آدم، وقد تقدم إبطال هذا.

ثانيها: أن إضافة المخلوق جاءت في الأعيان القائمة بنفسها كالناقة والبيت والأرض والفطرة التي هي مفطورة، فأما الصفات القائمة بغيرها مثل العلم والقدرة والكلام والمشيئة، إذا أُضيفت كانت إضافة صفة إلى موصوف، وهذا هو الفرق بين الأمرين.

ثالثها: أن هذا الوجه المضروب هو في كونه مخلوقًا مملوكًا لله بمنزلة الصورة المملوكة لله، فلو كان قد نهى عن ضرب هذا لكونه ذاك، لكان التشبيه من باب العبث؛ لأن العلة في المشبه به، مثل من يقول لأحد بنيه: إنما أكرمتك لأنك مثل ابني الآخر في معنى البنوة.

رابعها: أن العلم بأن الله خلق آدم هو من أظهر العلوم عند العامة والخاصة، فإذا لم يكن في قوله (على صورته) معنى، إلا أنها الصورة التي خلقها وهي ملكه، لكان قوله(خلق آدم كافيًا)[1].

الوجه الرابع: المعنى الصحيح لقوله: (خلق الله آدم على صورته).

بعد ما أثبتنا الصورة لله تبارك وتعالى، وقلنا: إن معنى هذا الحديث أن الله خلق آدم على صورة الرحمن، فماذا يكون المعنى الصحيح للحديث؟.

فنقول مستعينين بالله: للعلماء فيه قولان:

القول الأول: إمرار اللفظ كما جاء، فنؤمن به من غير تكييف، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تأويل.

القول الثاني: أن يكون له معنى لا يخرج عن مذهب أهل السنةوالجماعة، ويليق بجلال الله تبارك وتعالى.

فممن قال بالقول الأول:

قوام السنة إسماعيل التيمي قال: فصل في الرد على الجهمية الذين أنكروا صفات الله ﷻ، وسموا أهل السنة مشبهة، وليس قول أهل السنة أن لله وجهًا ويدين وسائر ما أخبر

---

(١) أحاديث العقيدة (١٥٨).

الله تعالى به عن نفسه موجبًا تشبيهه بخلقه، وليس روايتهم حديث النبيﷺ: (خلق الله آدم على صورته) بموجبة نسبة التشبيه إليهم؛ بل كل ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبر به رسوله فهو حق، قول إله حق وقول رسوله حق، والله أعلم بما يقول، ورسوله أعلم بما قال، وإنما علينا الإيمان والتسليم، وحسبنا الله ونعم الوكيل(١).

فالواجب إذا جاءت الآية من كتاب الله تعالى أو صح الحديث عن رسول اللهﷺ الإيمان والتصديق بهما، واعتقاد ما جاء فيهما، والتسليم والانقياد لهما، ولا يجوز السؤال عن كيفية ما جاء فيهما من الصفات، فإن الله تعالى أخبرنا أنه متصف بالصفات، ولم يخبرنا عن كيفية هذه الصفات، فنكل علمها إلى الله تعالى، مع اعتقادنا أنها لا تماثل صفات المخلوقين، فالله تعالى قال عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)(٢).

قال ابن بطة: كل ما جاء من هذه الأحاديث، وصحت عن رسول الله ﷺ ففرض على المسلمين قبولها، والتصديق بها، والتسليم لها، وترك الاعتراض عليها، وواجب على من قبلها، وصدَّق بها أن لا يضرب لها المقاييس، ولا يتحمل لها المعاني والتفاسير، لكن تُمَر على ما جاءت، ولا يقال فيها: لم؟ ولا كيف؟ إيمانًا بها وتصديقًا، ونقف من لفظها وروايتها حيث وقف أئمتنا وشيوخنا، وننتهي منها حيث انتُهي بنا، كما قال المصطفى نبينا ﷺ بلا معارضة، ولا تكذيب، ولا تنقير، ولا تفتيش، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل، فإن الذين نقلوها إلينا هم الذين نقلوا إلينا القرآن وأصل الشريعة، فالطعن عليهم، والرد لما نقلوه من هذه الأحاديث طعن في الدين، ورد لشريعة المسلمين ومن فعل ذلك فالله حسيبه، والمنتقم منه بما هو أهله(٣).

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣١٠).

(٢) أحاديث العقيدة (١٤٨).

(٣) الإبانة صـ٢٤٤، الشريعة للآجري (٣/ ١١٥٣).

وقال الكرجي: بعد ما ساق عددًا من أحاديث الصفات والتي منها(خلق الله آدم على صورته). . . إِلَى غَيْرِهَا مِنْ الْأَحَادِيثِ، هَالَتْنَا أَوْ لَمْ تَهُلْنَا، بَلَغَتْنَا أَوْ لَمْ تَبْلُغْنَا، اعْتِقَادُنَا فِيهَا وَفِي الْآيِ الْوَارِدَةِ فِي الصِّفَاتِ: أَنَّا نَقْبَلُهَا وَلَا نُحَرِّفُهَا، وَلَا نُكَيِّفُهَا، وَلَا نُعَطِّلُهَا، وَلَا نَتَأَوَّلُهَا، وَعَلَى الْعُقُولِ لَا نَحْمِلُهَا، وَبِصِفَاتِ الْخَلْقِ لَا نُشَبِّهُهَا، وَلَا نُعْمِلُ رَأْيَنَا وَفِكْرَنَا فِيهَا، وَلَا نَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا نَنْقُصُ مِنْهَا؛ بَلْ نُؤْمِنُ بِهَا وَنَكِلُ عِلْمَهَا إلَى عَالِمِهَا كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَهُمْ الْقُدْوَةُ لَنَا فِي كُلِّ عِلْمٍ[1].

وقال الذهبي: أما معنى حديث الصورة فنرد علمه إلى الله ورسوله، ونسكت كما سكت السلف مع الجزم بأن الله ليس كمثله شئ[2].

قال محمد بن الحسين: هذه من السنن التي يجب على المسلمين الإيمان بها، ولا يقال فيها: كيف؟ ولم؟ بل تستقبل بالتسليم والتصديق، وترك النظر، كما قال من تقدم من أئمة المسلمين[3].

وقال النووي: هذا من أحاديث الصفات ومذهب السلف أَنَّهُ لَا يُتَكَلَّم فِي مَعْنَاهَا؛ بَلْ يَقُولُونَ: يَجِب عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِن بِهَا وَنَعْتَقِد لَهَا مَعْنًى يَلِيق بِجَلَالِ الله تَعَالَى مَعَ اِعْتِقَادنَا الْجَازِم أَنّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء، وَهَذَا الْقَوْل اختاره جَمَاعَة مِنْ محققي الْمُتَكَلِّمِينَ، وَهُوَ أَسْلَم، وَ الثَّانِي: أَنَّهَا تُتَأَوَّل عَلَى مَا يَلِيق بِهَا عَلَى حَسَب مَوَاقِعهَا[4].

وأما من قالوا بأن له معنى يليق بالله، ولا نشبه فيه الله بالمخلوقين، فهو أن نقول: إن آدمﷺ خُلق ذا وجه متصفًا بصفة السمع والبصر والكلام، كما أن الله تعالى كذلك، فهو مخلوق على صورة الله من هذه الحيثية، ولا يلزم من ذلك المماثلة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٨٥).

(٢) ميزان الاعتدال (٤/ ٩٦).

(٣) الشريعة للآجري (٣/ ١١٥٣).

(٤) شرح النووي (٢/ ٢٩).

قال ابن القيم: وقوله: (خلق آدم على صورة الرحمن)، لم يُرد به تشبيه الرب وتمثيله بالمخلوق، إنما أراد به تحقيق الوجه، وإثبات السمع والبصر والكلام صفةً ومحلاً، والله أعلم[(١)].

قال الشوكاني: قال ابن العربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً، وهذه صفات الرب سبحانه، وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ: " إن الله خلق آدم على صورته "يعني: على صفاته التي تقدم ذكرها. قلت: وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ (طه: ١١٠). [(٢)]

وقال ابن باز: والمعنى والله أعلم أنه خلق آدم على صورته ذا وجه وسمع وبصر يسمع ويتكلم ويبصر ويفعل ما يشاء، ولا يلزم أن يكون الوجه كالوجه والسمع كالسمع والبصر كالبصر.. وهكذا لا يلزم أن تكون الصورة كالصورة[(٣)].

قال ابن تيمية: من المعلوم أن الشيئين المخلوقين قد يكون أحدهما على صورة الآخر مع التفاوت العظيم بين جنس ذواتها وقدر ذواتها، وقد تظهر صورة السماوات والقمر في الماء أو في مرآة في غاية الصغر، ويقال هذه صورتها، مع العلم بأن حقيقة السماوات والأرض أعظم من ذلك بما لا نسبة لأحدهما إلى الأخر[(٤)].

وقال ابن عثيمين: الذي قال: "إن الله خلق آدم على صورته" رسول الذي قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، والرسول ﷺ لا يمكن أن ينطق بما يكذب المرسل، والذي قال: "خلق آدم على صورته": هو الذي قال: "إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر"،

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/ ٥١٥).

(٢) فتح القدير (٥/ ٦٦٩: ٦٧٠).

(٣) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة د. محمد الشويعر (٦/ ٣٥٣: ٣٥٤).

(٤) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

فهل أنت تعتقد أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه؟

فإن قلت بالأول، فمقتضاه أنهم دخلوا وليس لهم أعين، وليس لهم آناف، وليس لهم أفواه، وإن شئنا قلنا: دخلوا وهم أحجار. وإن قلت بالثاني، زال الإشكال، وتبين أنه لا يلزم من كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مماثلاً له من كل وجه[١].

وخلاصة الكلام أن الصورة هنا بمعنى الصفة؛ لأن الصورة في اللغة تطلق على الصفة كما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر» يعني على صفة القمر من الوضاءة والنور والضياء، فقوله ﷺ (إن الله خلق آدم على صورته)؛ يعني خلق آدم على صورة الرحمن ؛ يعني على صفة الرحمن، ووجود الصفة في المخلوق لا يماثل وجودها في الخالق، فالله له سمع وجعل لآدم صفة السمع، والله موصوف بصفة الوجه وجعل لآدم وجها، وموصوف بصفة اليدين وجعل لآدم صفة اليدين، وهكذا.

فإذن هذا الحديث ليس فيه غرابة كما قال ابن قتيبة قال: (وإنما لم يألفه الناس فاستنكروه)[٢].

وهذا اشتراك في الصفة، والاشتراك في الصفة لا يعني الاشتراك في الكيفية؛ لأن هذا باطل، فالله سبحانه وتعالى جعل لآدم مثل الصفات التي ذكرنا، وكما جاء في الحديث هذا (خلق الله آدم على صورته)؛ و(على) ليست للتمثيل وليست للتشبيه، وإنما هي في اللغة للاشتراك، وهذا الاشتراك حاصل بدلالة النصوص، والصورة في اللغة هي الصفة، وكذلك من الصفات التي جاءت في الأحاديث أن لله ﷻ صورة ليست كصورة المخلوق، وهذا بمعنى الصورة الخاصة، وهو سبحانه له صورة يعني له صفات، وجعل المخلوق له من الصفات على صفات الرحمن سبحانه، وهذا هو التحقيق في معنى الحديث، خلافًا لمن

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (٧٠، ٧١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية للشيخ صالح آل الشيخ (١/ ١٩٨)، وهذه إجابة على سؤال سُئل للشيخ صالح، وانظر شرح الفتوى الحموية للشيخ حمد التويجري (١/ ١٥٤).

فهموا منه التمثيل أو التشبيه، أو الذين ردوه، أو الذين جعلوا معنى الصورة الصورة الخاصة، وليست الصورة العامة التي بمعنى الصفات(١).

الوجه الخامس: وجوب الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله، وأنه حق، والإيمان بظاهر الكتاب والسنة.

اعلم أن أعظم ما يحتاج إلى معرفة مراده هو الله تعالى ورسولهﷺ ؛ لأن على هذه المعرفة ينبني الاعتقاد والعمل(٢).

قال ابن تيمية: وَلَا بُدَّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ مَا يَدُلُّ عَلَى مُرَادِ الله وَرَسُولِهِ مِنْ الْأَلْفَاظِ وَكَيْفَ يُفْهَمُ كَلَامُهُ(٣).

والقاعدة عند أهل السنة والجماعة في نصوص الكتاب والسنة: أنهم يجرونها على ظاهرها، معتقدين أنه هو الحق الذي يوافق مراد الله تعالى، ومراد رسولهﷺ، لا سيما ما ليس للرأي فيه مجال كنصوص الصفات والمعاد، وغيرها من أمور الغيب(٤).

قَالَ الشَّافِعِيُّ: آمَنْت بِالله، وَبِمَا جَاءَ عَنْ الله، عَلَى مُرَادِ الله، وَآمَنْت بِرَسُولِ الله، وَمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ،عَلَى مُرَادِ رَسُولِ الله ﷺ(٥).

ولو أراد الله ورسوله من كلامه خلاف حقيقته وظاهره الذي يفهمه المخاطب لكان قد كلفه أن يفهم مراده بما لا يدل عليه؛ بل بما يدل على نقيض مراده، وأراد منه فهم النفي بما يدل على غاية الإثبات(٦).

---

(١) كتاب قسم العقيدة (شرح الفتوى١٨/ ١٩٩: ٢٠١).

(٢) أحاديث العقيدة (٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٦٢).

(٤) القواعد المثلى (٣٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٢).

(٦) الصواعق (١/ ٣١٠: ٣١١).

والله تعالى يقول: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ (النساء١٧٦)، ويقول جل وعلا: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء٢٦)، ويقول عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى٥٢)، وعلى هذا فالواجب حمل نصوص الكتاب والسنة على ظاهرها، واعتقاد أنه حق، فمن رام غير هذا مؤثرًا تحريفات المبطلين وتأويلات الجاهلين على بيان رب العالمين الذي قال عن نفسه: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء٨٧)، وبيان رسوله الصادق الأمين الذي قال له ربه ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ (النساء٦٣)، فقد خاب وخسر وضل عن الصراط المستقيم والطريق القويم[1].

وهناك أدلة من الكتاب والسنة على أن ظاهر الكتاب والسنة يجب إجراؤه على ظاهره، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل٨٩)، وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف: ١١١)، وقوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (المائدة١٥)، وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء ١٩٣: ١٩٥)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ٢)، وهذا يدل على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي إلا أن يمنع منه دليل شرعي[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٩)

---

(١) أحاديث العقيدة (٥١).

(٢) القواعد المثلى (٤٠).

قال ابن تيمية: فَقَدْ لَعَنَ كَاتِمَهُ -يعني كاتم العلم -وَأَخْبَرَ أَنَّهُ بَيَّنَهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَدْ بَيَّنَهُ لِلنَّاسِ وَهُوَ قَدْ كَتَمَ الْحَقَّ وَأَخْفَاهُ وَأَظْهَرَ خِلَافَ مَا أَبْطَنَ؟ فَلَوْ سَكَتَ عَنْ بَيَانِ الْحَقِّ كَانَ كَاتِمًا، وَمَنْ نَسَبَ الْأَنْبِيَاءَ إلَى الْكَذِبِ وَالْكِتْمَانِ مَعَ كَوْنِهِ يَقُولُ: إنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ فَهُوَ مِنْ أَشَرِّ الْمُنَافِقِينَ وَأَخْبَثِهِمْ وَأَبْيَنِهِمْ تَنَاقُضًا[١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر: ١٧).

قال ابن القيم: تيسيره للذكر يتضمن أنواعًا من التيسير:

إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ.

الثاني: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرًا له؛ بل كان معسرًا عليه فهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير وهو مناف للتيسير[٢].

ومن أدلة السنة على أن الأصل في النصوص حملها على ظاهرها:

قوله ﷺ في حديث الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ: "تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ"[٣].

والبيضاء: الحجة الظاهرة القوية التي لا لبس فيها ولا اشتباه[٤].

وقوله ﷺ كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: " قد تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٦٥).

(٢) الصواعق (١/ ٣٣١: ٣٣٢).

(٣) ابن ماجه (٤٣) بلفظ (إلا هلك)، مسند أحمد (٤/ ١٢٦)، الحاكم (٣٣١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٧)، صحيح ابن ماجه (٤١).

(٤) لسان العرب: مادة بيض (١/ ٣٩٦).

اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ اللهمَّ اشْهَدْ! اللهمَّ اشْهَدْ! ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"(١).

فالرسول ﷺ قد أخبر أنه تركنا على المحجة البيضاء الواضحةالبينة، ظاهرها وباطنها سواء، والصحابة شهدوا بأنه قد بلغ، وهذا يعني أن ظاهر كلامه مطابق لمراده؛ لأن هذا مقتضى البلاغ وحسن الأداء وكمال النصح(٢).

ومن أدلة العقل على ذلك:

فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من غيره، وقد خاطبنا باللسان العربي المبين، فوجب قبوله على ظاهره، وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة(٣).

وقال الشافعي: كلام كان عامًا ظاهرًا في سنة رسول الله ﷺفهو على ظهوره وعمومه حتى يعلم حديث ثابت عن رسول الله يدل على أنه إنما أريد بالجملة العامة في الظاهر بعض الجملة دون بعض. (٤)

وقال ابن تيمية: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ -أي الصحابة- يَعْتَقِدُ فِي خَبَرِهِ وَأَمْرِهِ مَا يُنَاقِضُ ظَاهِرَ مَا بَيَّنَهُ لَهُمْ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ وَأَرْشَدَهُمْ إلَيْهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَابَةِ مَنْ تَأَوَّلَ شيئًا مِنْ نُصُوصِهِ عَلَى خِلَافِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ لَا فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ اللهُ عَنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَا فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ(٥).

الوجه السادس وصف الإله في الكتاب المقدس

في سفر (التكوين١/ ٢٧): فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلقَهُمْ.

---

(١) مسلم (١٢١٨).

(٢) أحاديث العقيدة (٥٤).

(٣) القواعد المثلى (٤٠).

(٤) الرسالة (٣٤١).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٥٢).

حتى أنهم يعبدون ربهم على أنه خروف: (رؤيا١٧/ ١٤): هؤُلاَءِ سَيُحَارِبُونَ الْخَرُوفَ، وَالْخَرُوفُ يَغْلِبُهُمْ، لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ مَدْعُوُّونَ وَمُخْتَارُونَ وَمُؤْمِنُونَ.

(رؤيا٥/ ٦): وَرَأَيْتُ فَإِذَا فِي وَسَطِ الْعَرْشِ وَالْحَيَوَانَاتِ الأَرْبَعَةِ وَفِي وَسَطِ الشُّيُوخِ خَرُوفٌ قَائِمٌ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ، لَهُ سَبْعَةُ قُرُونٍ وَسَبْعُ أَعْيُنٍ، هِيَ سَبْعَةُ أَرْوَاحِ الله الْمُرْسَلَةُ إِلَى كُلِّ الأَرْضِ.

والرب عندهم يجلس وله أذيال (إشعياء: ٦/ ١): فِي سَنَةِ وَفَاةِ عُزِّيَّا الْمَلِكِ، رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ.

* * *

٦ ـ شبهات صفات الفعل

وفيها:

١- شبهة: النزول.

٢- شبهة: التردد.

٣- شبهة: النفخ في فرج مريم.

٤- شبهة: صفة الضحك.

٥- شبهة: ويمكرون ويمكر الله .

٦-شبهة: البغض والكره.

٧- شبهة: الملل.

٨- شبهة: التحسر.

٩- شبهة: صفة العَجب.

١٠- شبهة: الله الطبيب.

١١- شبهة: شم رائحة فم الصائم.

١٢- شبهة: اختلاق الأسف لله

١٣- شبهة: القتل والرمي.

١٤- شبهة: الرعد منطق الله.

وإليك التفصيل

١- شبهات: النزول.

الشبهة الأولى: النزول إلى السماء الدنيا.

نص الشبهة:

الله ينزل للسماء الدنيا؟.

عن أبي هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال: "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟".

وأن الله ينزل على جمل يوم الجمعة.

وأن الله ينزل للسماء الدنيا بروحه فتنتفض روحه، وتنتفض الملائكة.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: نزول الله جل وعلا ليس كنزول البشر.

الوجه الثاني: لا يُسأل عن كيفية النزول.

الوجه الثالث: الرد على قولهم: كيف ينزل مع اختلاف الليل في البلاد؟.

الوجه الرابع: أقوال أهل العلم في إثبات النزول.

الوجه الخامس: إذا كان من العيب أن يوصف الرب بالنزول، فهل هذا دلالة على خطأ كتابهم المقدس في ذكر النزول؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: نزول الله جل وعلا ليس كنزول البشر.

صفة النزول لله سبحانه وتعالى صفة فعل، تليق بجلاله وعظمته، يفعل ذلك سبحانه متى يشاء، لا يشبه نزول المخلوق؛ لأن الخالق غير المخلوق في الذات والصفات، فلا يجوز أن نشبه الله بخلقه في ذلك، أو أن نتوهم أنها صفة تشابه صفة الخلق، ومن وقع له ذلك في قلبه فليتهم نفسه.

ولقد سبق الجهمية لهذا الزيغ وقلبوا المعاني ، فقيض الله لهم من يبطل كلامهم بالحجة والبرهان، وإليك بعضاً من ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: روى أبو بكر الأثرم عن الفضيل بن عياض قال: ليس

لنا أن نتوهم في الله كيف؟ وكيف؟؛ لأن الله وصف فأبلغ فقال: قل هو الله أحد الله، الصمد، فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه.

ومثل هذا النزول والضحك، وهذه المباهاة، وهذا الاطلاع، كما شاء أن ينزل، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهم أن ينزل عن مكانه كيف؟ وكيف؟.

وإذا قال لك الجهمي: أنا كفرت برب ينزل.

فقل أنت: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء.

وقال البخاري في كتاب " خلق الأفعال " والفضيل بن عياض: إذا قال لك الجهمي أنا أكفر برب يزول عن مكانه.

فقل: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء.

قال البخاري: وحدث يزيد بن هارون عن الجهمية فقال: من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما تقرر في قلوب العامة فهو جهمي.

وروى الخلال عن سليمان بن حرب أنه سأل بشر بن السري حماد بن زيد فقال: يا أبا إسماعيل! الحديث ينزل الله إلى السماء الدنيا أيتحول من مكان إلى مكان؟

فسكت حماد بن زيد، ثم قال: هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء وهذا نقله الأشعري في كتاب " المقالات " عن أهل السنة والحديث، فقال: ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن النبيﷺ، ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (النساء: ٥٩)، ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين، ولا يحدثون في دينهم ما لم يأذن به الله، ويقرون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ (الفجر: ٢٢).

وإن الله يقرب من خلقه كما يشاء كما قال: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ (قٓ: ١٦) ثم قال الأشعري: وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب.

وقال أبو عثمان النيسابوري الملقب في رسالته المشهورة في السنة قال: ويثبت أهل الحديث نزول الرب سبحانه في كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين، ولا تمثيل، ولا تكييف؛ بل يثبتون له ما أثبته له رسول الله ﷺ، وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله، وكذلك يثبتون ما أنزل الله في كتابه من ذكر المجيء، والإتيان في ظلل من الغمام والملائكة، وقوله ﷻ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢).

وقال: سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبري يقول: سمعت إبراهيم بن أبي طالب سمعت أحمد بن سعيد الرباطي يقول: حضرت مجلس الأمير عبد الله ابن طاهر ذات يوم، وحضر إسحاق بن إبراهيم - يعني ابن راهويه - فسئل عن حديث النزول صحيح هو؟

فقال: . فقال بعض قواد عبد الله: يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ قال: نعم، قال كيف ينزل؟ قال: أثبته فوق؛ حتى أصف لك النزول، فقال الرجل: أثبته فوق؟ فقال إسحاق: قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ (الفجر: ٢٢).

فقال له الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة.

فقال إسحاق: أعز الله الأمير! من يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟! !

وروى بإسناده عن إسحاق قال: قال لي الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب! هذا الحديث الذي تروونه عن النبي ﷺ: " ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا " كيف ينزل؟

قال: قلت: أعز الله الأمير، لا يقال لأمر الرب كيف ينزل؟؛ إنما ينزل بلا كيف - أي بلا كيف معلوم لنا - وبإسناده أيضًا عن عبد الله بن المبارك أنه سأله سائل عن النزول ليلة النصف من شعبان؟.

فقال عبد الله: يا ضعيف ليلة النصف، أي وحدها؟! هو ينزل في كل ليلة.

فقال الرجل: يا أبا عبد الرحمن! كيف ينزل، ألم يخل ذلك المكان؟

فقال عبد الله بن المبارك: ينزل كيف شاء.

قال أبو عثمان النيسابوري: فلما صح خبر النزول عن النبي ﷺ أقر به أهل السنة، وقبلوا الحديث، وأثبتوا النزول على ما قاله رسول الله ﷺ، ولم يعتقدوا تشبيها له بنزول خلقه، وعلموا، وعرفوا، واعتقدوا، وتحققوا أن صفات الرب لا تشبه صفات الخلق، كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق سبحانه وتعالى عما يقول المشبهة والمعطلة علوًا كبيرًا.

و عن إسحاق بن راهويه قال: جمعني وهذا المبتدع ـ يعني ابن صالح ـ مجلس الأمير عبد الله بن طاهر فسألني الأمير عن أخبار النزول؟ فثبتها، فقال إبراهيم: كفرت برب ينزل من سماء إلى سماء، فقلت: آمنت برب يفعل ما يشاء، فرضي عبد الله كلامي، وأنكر على إبراهيم.[١]

الوجه الثاني: لا يُسأل عن كيفية النزول.

فمن سأل عن كيفية نزول الرب فنقول له: كيف هو في ذاته؟ فعندئذ لا يستطيع أن يتكلم؛ لأن القول في الصفات كالقول في الذات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر الصفات.

فإذا قال السائل: كيف استوى على العرش؟

قيل له: كما قال ربيعة ومالك وغيرهما ﵄: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة.

لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر، ولا يمكنهم الإجابة عنه.

وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟

فإذا قال: لا أعلم كيفيته.

---

(١) العقيدة الأصفهانية صـ ٤٩: ٥١.

قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع له وتابع له، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته؟ وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم.[1]

الوجه الثالث: الرد على قولهم، كيف ينزل مع اختلاف الليل في البلاد؟

وقد يتساءل البعض: الليل يختلف من بلد إلى أخرى، فحين يكون ثلث الليل في بلد يكون نهار في بلاد أخرى فكيف التوفيق؟

ونقول: إذا كنا بدايةً آمنا بالله سبحانه وتعالى، وأن رب الكون كله علويه وسفليه، لا يشاركه فيه أحد لا في خلق ولا في تدبير، وأن الله تعالى له القدرة التامة والمشيئة الكاملة، وأنه لا يشبه المخلوق لا في ذات ولا في صفات، وأنه يفعل في ملكه ما يشاء، فنحن نؤمن بأن ما جاء به حق وأن ما جاء به رسوله حق، فما كان متعلق بصفاته وذاته فنؤمن به من غير كيف؛ لأننا لم نرَ ربنا حتى نستطيع أن نكيفه.

فإذا أخبر رسوله ﷺ الأمين الصادق في قوله ونقله، وقد شهد له العدو قبل الحبيب بالصدق والأمانة بقوله عن ربه أن ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة، فنحن نؤمن بذلك من غير نظر في مجريات الكون وتغير الزمن والحال؛ لأن كل ذلك من خلق الله.

وقد أجاب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية عن ذلك وهذا نص الجواب:

الحمد لله رب العالمين، أما القائل الأول الذي ذكر نص النبي ﷺ؛ فقد أصاب فيما قال؛ فإنَّ هذا القول الذي قاله قد استفاضت به السنة عن النبي ﷺ، واتفق سلف الأمة وأئمتها وأهل العلم بالسنة والحديث على تصديق ذلك، وتلقيه بالقبول، ومن قال ما قاله الرسول فقوله حق وصدق، وإن كان لا يعرف حقيقة ما اشتمل عليه من المعاني كمن قرأ القرآن ولم يفهم ما فيه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢٥.

من المعاني، فإنَّ أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمدالنبي، قال هذا الكلام وأمثاله علانية، وبلغه الأمة تبليغا عاما لم يخص به أحدا دون أحد، ولا كتمه عن أحد، وكانت الصحابة والتابعون، تذكره وتأثره وتبلغه وترويه في المجالس الخاصة والعامة، واشتملت عليه كتب الإسلام التي تُقرأ في المجالس الخاصة والعامة كصحيحي البخاري ومسلم، وموطأ مالك، ومسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود، والترمذي، والنسائي، وأمثال ذلك من كتب المسلمين؛ لكن من فهم من هذا الحديث، وأمثاله ما يجب تنزيه الله عنه كتمثيله بصفات المخلوقين، ووصفه بالنقص المنافي لكماله الذي يستحقه؛ فقد أخطأ في ذلك، وإن أظهر ذلك مُنع منه، وإن زعم أن الحديث يدل على ذلك ويقتضيه فقد أخطأ أيضًا في ذلك، فإن وصفه سبحانه وتعالى في هذا الحديث بالنزول هو كوصفه بسائر الصفات كوصفه بالاستواء إلى السماء، وهى دخان ووصفه بأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، ووصفه بالإتيان والمجيء في مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (البقرة: ٢١٠)، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ (الأنعام: ١٥٨)، وقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر: ٢٢)، وكذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (الفرقان: ٥٩)، وقوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ (الذريات: ٤٧)، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ (الروم: ٤٠) وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ (السجدة: ٥) وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف الله تعالى بها نفسه.[1]

الوجه الرابع: أقوال أهل العلم في إثبات النزول.

قال الإمام أحمد: قال حنبل بن إسحاق، قال: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ٣٢٣.

الأحاديث التي تروى عن النبي ﷺ إن الله ينزل إلى السماء الدنيا، فقال أبو عبد الله: نؤمن بها ونصدق بها، ولا نرد شيئًا منها إذا كانت أسانيد صحاح، ولا نرد على رسول الله قوله، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق، حتى قلت لأبي عبد الله ينزل الله إلى سماء الدنيا، قال: قلت: نزوله بعلمه بماذا؟ فقال لي: اسكت عن هذا، مالك ولهذا؟ امض الحديث على ما روي بلا كيف، ولا حد، وإنما جاءت به الآثار وبما جاء به الكتاب، قال الله ﷻ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾، ينزل كيف يشاء بعلمه، وقدرته، وعظمته، أحاط بكل شيء علما، لا يبلغ قدره واصف، ولا ينأى عنه هرب هارب(١).

قال أبو سعيد ـ الدارمي ـ: فهذه الأحاديث (أحاديث النزول) قد جاءت كلها، وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا لا ينكرها منهم أحد ولا يمتنع من روايتها. (٢)

قال ابن خزيمة: باب أخبار ثابتة السند صحيحة القوام، رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي ﷺ في نزول الرب جل وعلا إلى السماء الدنيا كل ليلة، نشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب، من غير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفيه نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل. والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم.

فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية؛ إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفيه النزول.

وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصح أن الله جل وعلا فوق سماء الدنيا الذي أخبرنا نبينا أنه ينزل إليه؛ إذ محال في لغة العرب أن يقول: نزل من أسفل إلى أعلى، ومفهوم في

---

(١) اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ٢٨٥.

(٢) الرد على الجهمية ١/ ٩٣.

الخطاب أن النزول من أعلى إلى أسفل. [١]

قال الآجري: الإيمان والتصديق بأن الله ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة.

قال محمد بن الحسين رحمه الله: الإيمان بهذا واجب، ولا يسع المسلم العاقل أن يقول: كيف ينزل؟ ولا يردد هذا إلا المعتزلة.

وأما أهل الحق فيقولون: الإيمان به واجب بلا كيف؛ لأن الأخبار قد صحت عن رسول الله ﷺ: أن الله ﷻ، ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، والذين نقلوا إلينا هذه الأخبار هم الذين نقلوا إلينا الأحكام من الحلال والحرام، وعلم الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد وكما قبل العلماء منهم ذلك، كذلك قبلوا منهم هذه السنن، وقالوا: من ردها فهو ضال خبيث، يحذرونه ويحذرون منه. [٢]

قال الذهبي: وأحاديث نزول الباري تعالى متواترة قد سُقت طرقها، وتكلمت عليها بما أُسأل عنه يوم القيامة فلا قوة إلا بالله العلي العظيم. [٣]

الوجه الخامس: إذا كان من العيب أن يوصف الرب بالنزول، فهل هذا دلالة على خطأ كتابهم المقدس في ذكر النزول؟

فقد جاء في(الخروج ٣٤: ٥): فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي السَّحَابِ، فَوَقَفَ عِنْدَهُ هُنَاكَ وَنَادَى بِاسْمِ الرَّبِّ.

وجاء أيضًا: فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي سَحَابَةٍ وَتَكَلَّمَ مَعَهُ، وَأَخَذَ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى السَّبْعِينَ رَجُلاً الشُّيُوخَ. فَلَمَّا حَلَّتْ عَلَيْهِمِ الرُّوحُ تَنَبَّأُوا، وَلكِنَّهُمْ لَمْ يَزِيدُوا. (العدد ١١: ٢٥).

فهل ينكرون هم ذلك؟ وهل لو أثبتوها أثبتوا المماثلة لله والمشابهة بخلقه؟ أم أنهم لا يدرون ولا يدرون أنهم لا يدرون!!!

---

(١) التوحيد لابن خزيمة ١/ ٢٩٠_٢٩٨.

(٢) الشريعة للآجري ص ٢٩٤.

(٣) العلو للعلي الغفار ١/ ٩١.

الله ينزل على جبل سيناء بالنار

فقد جاء في سفر الخروج(١٩: ١٨): وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ، وَارْتَجَفَ كُلُّ الْجَبَلِ جِدًّا.

وفي هذا تجسيم صريح وتنقيص من الله تعالى، فكونه ينزل على جبل معناه: أن الجبل أكبر منه! فهل يعقل أن يقال هذا عن الله تعالى؟!

الرب ينزل أمام الشعب:

جاء في سفر الخروج(١٩: ١١): وَيَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ. لأَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَنْزِلُ الرَّبُّ أَمَامَ عُيونِ جَمِيعِ الشَّعْبِ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ.

الرب يخرج وينزل ويمشي على الأرض:

فَإِنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ وَيَنْزِلُ وَيَمْشِي عَلَى شَوَامِخِ الأَرْضِ، (ميخا ١: ٣).

الرب ينزل لينظر إلى برج آدم:

فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. (التكوين ١١: ٥).

الرب ينزل في السحاب:

فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي السَّحَابِ، فَوَقَفَ عِنْدَهُ هُنَاكَ وَنَادَى بِاسْمِ الرَّبِّ. (الخروج ٣٤:

الرب ينزل في عمود سحاب ويقف على باب الخيمة:

فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي عَمُودِ سَحَابٍ وَوَقَفَ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ. (عدد ١٢: ٥)

* * *

٢ـ شبهة: التردد.

نص الشبهة:

قالوا: الله يتردد ـ سبحان الله عما يصفون ـ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته". [1]

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المعنى الصحيح للحديث.

الوجه الثاني: ما وصف به الله في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: المعنى الصحيح للحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء، وقد رد هذا الكلام طائفة، وقالوا: إن الله لا يوصف بالتردد، فإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب، وربما قال بعضهم: إن الله يعامل معاملة التردد، والتحقيق: أن كلام رسوله حق، وليس أحد أعلم بالله من رسوله، ولا أنصح للأمة، ولا أفصح ولا أحسن بيانًا منه، فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس، وأجهلهم وأسوئهم أدبًا؛ بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة، ولكن المتردد منا وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور، فإنه لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا، فإن الله ليس كمثله شيء، ثم هذا باطل على إطلاقه؛ فإن الواحد

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي يحب من وجه، ويكره من وجه، كما قيل:

الشيب كره، وكره أن أفارقه فاعجب لشيء على البغضاء محبوب.

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه؛ بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب، وفي الصحيح: " حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره "، وقال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾.

ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في الحديث، فإنه قال: " لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه " فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوبًا للحق محبًا له، يتقرب إليه أولًا بالفرائض وهو يحبها، ثم اجتهد في النوافل، التي يحبها ويحب فاعلها، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة، بحيث يحب ما يحبه محبوبه، ويكره ما يكره محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده محبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه، والله ـ سبحانه ـ قد قضى بالموت، فكل ما قضى به فهو يريده ولابد منه، فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كارهٌ لمساءة عبده؛ وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مرادًا للحق من وجه مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة التردد؛ وهو أن يكون الشيء الواحد مرادًا من وجه مكروهًا من وجه، وإن كان لابد من ترجح أحد الجانبين كما ترجح إرادة الموت، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته ". (١)

وقال في مكان آخر: " فبين سبحانه أنه يتردد؛ لأن التردد تعارض إرادتين، فهو

(١) مجموع الفتاوى ١٨/ ١٢٩ـ ١٣١.

سبحانه يحب ما يحب عبده، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال: " وأنا أكره مساءته "، وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت، فسمى ذلك ترددًا، ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك ".[١]

الوجه الثاني: هل هذا الكلام مثل ما ذكروه هم عن الله حين وصفوه بالندم، والحزن، وغيرها من صفات النقص؟

كما جاء في سفر التكوين في (الإصحاح٦: العدد ٥ـ ٨): "ورَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ فِكْرِ قَلْبِهِ يَتَّسِمُ دَائِماً بِالإِثْمِ ، فَمَلأَ قَلبَهُ الأَسَفُ وَالْحُزْنُ؛ لأَنَّهُ خَلَقَ الإِنْسَانَ، وَقَالَ الرَّبُّ: أَمْحُو الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالزَّوَاحِفِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ ؛ لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي خَلَقْتُهُ".

فهل الندم والحزن يليقان بعظمة الله تعالى؟! كما أنهم يستهزئون بالتردد ولم يثبت ذلك، ولو ثبت لكان له معنىً آخر غير ما يظنون.

* * *

(١) المصدر السابق ١٠/ ٥٨ـ ٥٩.

٣ـ شبهة: النفخ في فرج مريم.

نص الشبهة:

أثاروا شبهة حول مريم بنت عمران عندما نفخ في فرجها، واعتبروا هذا منقصة في حق الله تعالى. فقالوا: الله ينفخ في الفروج (تعالى الله عما تقولون)، ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم ١٢).

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآية.

الوجه الثاني: تكريم الله لمريم بنت عمران.

الوجه الثالث: هل الروح صفة لله أو مخلوقة؟

الوجه الرابع: ماذا في كتبهم؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآية.

قبل الشروع في الرد على الشبهة نورد ما ذكره أهل التفسير في الآية:

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي حفظته وصانته.

والإحصان: هو العفاف والحرية، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾أي: بواسطة المَلَك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشرٍ سَوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، ولهذا قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: بقدره وشرعه ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[1].

ومن هنا يتضح أن الذي تولى النفخ هو جبريل بأمر الله تعالى، وليس الله عز وجل مباشرة كما زعم المعترضون. وأن الذي نُفخ فيه هو جيب درعها، وليس فرجها بالمعنى الغالب

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٥.

والمقصود بكلمة الفرج.

الوجه الثاني: تكريم الله لمريم بنت عمران.

في هذه الآية تكريم من الله تعالى لمريم بنت عمران ورفعها فوق النساء، وقد ضرب بها المثل الصالح، ولم ترفع بأكثر من قدرها كعبد لله تعالى.

بعكس ما فعلوه هم، حيث جعلوا لها زوجًا، وهو يوسف النجار، ولم يثبت لها الزواج منه، وجعلوا ابنها ولدًا ليوسف النجار، وهو لم يكن له أب.

وغالوا فيها، فمنهم من جعلها إلهًا، ومنهم من جعلها أم الرب. وغير ذلك من خرافاتهم التي يمجها العقل الخرب فضلًا عن السليم.

الوجه الثالث: هل الروح صفة لله أو مخلوقة؟

الروح مخلوقة وليست صفة من صفات الله تعالى، وهي هنا مضافة إليه إضافة تشريف لا إضافة وصف.

الرُوحُ: الرُّوح؛ بالضم: خلقٌ من مخلوقات الله ﷻ، أضيفت إلى الله إضافة مُلكٍ وتشريفٍ لا إضافة وصف؛ فهو خالقها ومالكها، يقبضها متى شاء ويرسلها متى شاء سبحانه، وقد وردت في الكتاب والسنة مضافة إلى الله عَزَّ وجَلَّ في عدة مواضع.

ذكرها في الكتاب:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١).

٢- وقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (الحجر: ٢٩).

٣- وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ⑰﴾ (مريم: ١٧).

ذكرها في السنة: حديث أبي هريرة ﷺ في الشفاعة، وفيه: "يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه... فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى! أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه". [1]

---

(١) البخاري (٣٣٤٠)، (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

أقوال العلماء في (الرُّوح) المضافة إلى الله تعالى:

قال ابن تيمية: فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له؛ بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق؛ كقوله تعالى: (بيت الله)، و(ناقة الله)، و(عباد الله)؛ بل وكذلك (روح الله) عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم، ولكن؛ إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره؛ مثل كلام الله، وعلم الله، ويد الله ... ونحو ذلك؛ كان صفة له)). (١)

وقال أيضًا: ((وقال النبي ﷺ: ((الريح من روح الله))؛ أي: من الروح التي خلقها الله، فإضافة الروح إلى الله إضافة ملك، لا إضافة وصف؛ إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به؛ فهو صفة لله؛ فالأول كقوله ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴾، وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾، وهو جبريل، ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴾، وقال: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾، وقال عن آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾.

- حديث أبي هريرة ﷺ في استفتاح الجنة، وفيه: " فيأتون آدم ... ثم موسى عليهما السلام، فيقول: اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه...". (٢)

وقال ابن القيم: فصل: هل الروح قديمة أم محدثة مخلوقة؟ وإذا كانت محدثة مخلوقة، وهي من أمر الله؛ فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخ في آدم من روحه؛ فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة هذه الإضافة؛ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة؟.

(١) الجواب الصحيح ٣/ ١٤٥.

(٢) رواه مسلم (١٩٥)، مجموع الفتاوى ٩/ ٢٩٠.

فهذه مسألة زلَّ فيها عالَم، وضل فيها طوائف من بني آدم، وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ كما يُعلم بالاضطرار من دينهم أنَّ العالَم حادث، وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق له، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم – وهم القرون المفضلة – على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة، حتى نبغت نابغة ممَّن قصر فهمه في الكتاب والسنة، فزعم أنها قديمة غير مخلوقة، واحتج بأنها من أمر الله، وأمره غير مخلوق، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده، وتوقف آخرون فقالوا: لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة. . .)).

ثم نقل كلام الحافظ أبي عبد الله بن منده، والحافظ محمد بن نصر المروزي، وهما ممن يقولان بأنها مخلوقة، ثم قال: ((ولا خلاف بين المسلمين أنَّ الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومَن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها وكوَّنها واخترعها، ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣). [١]

وقال ابن كثير: فقوله في الآية والحديث: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ كقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾؛ أي: من خلقه ومن عنده، وليست (من) للتبعيض... ؛ بل هي لابتداء الغاية، وقد قال مجاهد في قوله: (وَرُوحٌ مِنْهُ)، أي ورسول منه، وقال غيره: ومحبة منه، والأظهر الأول؛ أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف؛ كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله. [٢]

---

(١) كتاب الروح صـ ٥٠١.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٧٨٤.

لكن روى الإمام أحمد حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: " حتى لا يبقى في الأرضين إلا شرار أهلها، وتلفظهم أرضوهم، وتقذرهم رُوح الرحمن ﷻ".

قال الشيخ أحمد شاكر: ((إسناده ضعيف))، ولكن الغريب أنه علق على الحديث بقوله: ((روح الرحمن من الصفات التي يجب الإيمان بها دون تأويل أو إنكار، من غير تشبيه ولا تمثيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، سبحانه وتعالى.

قلت: هذا مردود بما سبق، والحديث ضعيف. [1]

نقل أبو موسى المديني في ((المجموع المغيث)) كلاماً نافعاً جدّاً لأبي إسحاق إبراهيم الحربي عن الاختلاف في قراءة وتفسير (الرّوْح)؛ فراجعه إن شئت.

قال ابن تيمية: لم يعبر أحدٌ من الأنبياء عن حياة الله بأنها رَوْحُ الله، فمن حمل كلام أحدٍ من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به حياة الله فقد كذب. [2]

الوجه الرابع: ماذا في كتبهم؟

الله في كتبهم ينفخ:

كما ورد في سفر التكوين(٢: ٧): وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً.

والرب ينفخ في البوق:

كما جاء في زكريا(٩: ١٤): وَيُرَى الرَّبُّ فَوْقَهُمْ، وَسَهْمُهُ يَخْرُجُ كَالْبَرْقِ، وَالسَّيِّدُ الرَّبُّ يَنْفُخُ فِي الْبُوقِ وَيَسِيرُ فِي زَوَابعِ الْجَنُوبِ.

روح القدس هو الذي أحبل مريم:

كما جاء في إنجيل متى(١/ ١٨): أَمَّا وِلاَدَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَكَانَتْ هكَذَا: لَمَّا كَانَتْ مَرْيَمُ أُمُّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ.

* * *

---

(١) مسند أحمد٢/ ٨٤ ، قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف.

(٢) الجواب الصحيح٤/ ٥٠.

٤ـ شبهة: صفة الضحك.

نص الشبهة:

قالوا: الله يضحك، فعن جابر ﷺ سمعت النبيﷺ يقول: اهتز العرش لموت سعد بن معاذ، وعن الأعمش حدثنا أبو صالح عن جابر عن النبي ﷺ مثله، فقال رجل لجابر: فإن البراء يقول: اهتز السرير، فقال: إنه كان بين هذين الحيين ضغائن، سمعت النبي ﷺ يقول: اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ. (١)

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة. فقالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: يقاتل هذا في سبيل الله ﷻفيستشهد، ثم يتوب الله على القاتل فيُسلم فيقاتل في سبيل اللهﷻ فيستشهد، وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وزهير بن حرب، وأبو كريب قالوا: حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي الزناد بهذا الإسناد مثله. (٢)

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: صفة الضحك لله تعالى.

الوجه الثاني: ماذا في كتب النصارى حول ضحك الرب؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: صفة الضحك لله تعالى.

فإن الله سبحانه وتعالى كما ورد في الأحاديث المتقدمة قد وصف نفسه بالضحك، وهي صفة فعل له سبحانه وتعالى متعلقة بمشيئته؛ إذا شاء ضحك وإذا شاء لم يضحك. صفة تليق بجلاله وعظمته من غير تشبيه لأحد من خلقه، أو تمثيل، أو تكييف، أو تعطيل، أو إلحاد فيها، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة خلافًا لأهل البدعة.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهﷺ قَالَ: " آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِى مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً. . .فَيَقُولُ اللهُ : يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِى مِنْكَ، أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ

---

(١) البخاري (٣٨٠٣)، مسلم (٢٤٦٦).

(٢) البخاري (٢٨٢٦)، مسلم (١٨٩٠).

الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّى، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ». فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَلاَ تَسْأَلُونِّى مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ. فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: « مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّى وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إني لاَ أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّى عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ". [١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ أُنَاسٌ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: ((هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟)) قَالُوا: لَا يَا رَسولَ الله. قَالَ: ((هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟)) قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله. . . الحديث [٢].

قال ابن خزيمة: باب ذكر إثبات ضحك ربنا ﷻ، بلا صفة تصف ضحكه جل ثناؤه، ولا يشبّه ضحكه بضحك المخلوقين وضحكهم كذلك؛ بل نؤمن بأنه يضحك كما أعلم النبي ﷺ ونسكت عن صفة ضحكه جل وعلا؛ إذ الله ﷻاستأثر بصفة ضحكه لم يطلعنا على ذلك، فنحن قائلون بما قال النبي ﷺ ، مصدقون بذلك بقلوبنا، منصتون عما لم يبين لنا مما استأثر الله بعلمه. [٣]

وقال محمد بن الحسين الآجري رحمه الله: باب الإيمان بأن الله ﷻيضحك. اعلموا - وفقنا الله، وإياكم للرشاد من القول والعمل - أن أهل الحق يصفون الله ﷻبما وصف به نفسه ﷻ، وبما وصفه به رسوله ﷺ، وبما وصفه به الصحابة ﷺ.

وهذا مذهب العلماء ممن اتبع ولم يبتدع، ولا يقال فيه: كيف؟ بل التسليم له، والإيمان به: أنَّ الله عز وجل يضحك، كذا روي عن النبي ﷺ، وعن صحابته رضي الله عنهم، فلا ينكر هذا إلا من لا يحمد حاله عند أهل الحق. [٤]

---

(١) مسلم (١٨٧).

(٢) البخاري (٦٥٧٣ ، ٧٤٣٧ ، ٧٤٣٩)، مسلم (٢١٨٢ ، ٢٩٦٨).

(٣) التوحيد ٢/ ٥٦٣.

(٤) الشريعة ٢٦٨.

وقال ابن تيمية: وقول القائل: إن الضحك خفة روح ليس بصحيح، وإن كان ذلك قد يقارنه، ثم قول القائل: خفة الروح إن أراد به وصفا مذموما فهذا يكون لما لا ينبغي أن يضحك منه وإلا فالضحك في موضعه المناسب له صفة مدح وكمال، وإذا قدر حيان أحدهما يضحك مما يضحك منه، والآخر لا يضحك قط كان الأول أكمل من الثاني، ولهذا قال النبيﷺ : ينظر إليكم الرب قنطين فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب، فقال له أبو رزين العقيلي: يا رسول الله أوَ يضحك الرب؟ قال: نعم. قال: لن نعدم من رب يضحك خيرا.

فجعل الأعرابي العاقل بصحة فطرته ضحكه دليلًا على إحسانه وإنعامه؛ فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود وأنه من صفات الكمال، والشخص العبوس الذي لا يضحك قط هو مذموم بذلك، وقد قيل في اليوم الشديد العذاب إنه يومًا عبوسًا قمطريرًا، وقد رُوي أن الملائكة قالت لآدم: حياك الله وبياك أي أضحكك، والإنسان حيوان ناطق ضاحك، وما يميز الإنسان عن البهيمة صفة كمال، فكما أن النطق صفة كمال فكذلك الضحك صفة كمال، فمن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يضحك أكمل ممن لا يضحك، وإذا كان الضحك فينا مستلزمًا لشيء من النقص فالله منزه عن ذلك، وذلك الأكثر مختص لا عام فليس حقيقة الضحك مطلقًا مقرونة بالنقص، كما أن ذواتنا وصفاتنا مقرونة بالنقص، ووجودنا مقرون بالنقص، ولا يلزم أن يكون الرب مُوجِدًا، وأن لا تكون له ذات. [1]

الوجه الثاني: ماذا في كتب النصارى حول ضحك الرب؟

ففي كتابهم المقدس عندهم صفة الضحك للرب.

١. الرب يضحك ويستهزئ بالناس

كما جاء في المزامير(٢: ٤): اَلسَّاكِنُ فِي السَّمَاوَاتِ يَضْحَكُ. الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ.

وأيضًا في المزامير(٥٩: ٨): أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَتَضْحَكُ بِهِمْ. تَسْتَهْزِئُ بِجَمِيعِ الأُمَمِ.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ١٢١، ١٢٢.

٢. الرب يضحك من القدر

كما جاء في المزامير(٣٧: ١٣): الرَّبُّ يَضْحَكُ بِهِ لأَنَّهُ رَأَى أَنَّ يَوْمَهُ آتٍ!

٣. الرب يضحك شماتة

كما جاء في الأمثال(١ : ٢٦): فَأَنَا أيضًا أَضْحَكُ عِنْدَ بَلِيَّتِكُمْ. أَشْمَتُ عِنْدَ مَجِيءِ خَوْفِكُمْ.

فهل قرأوا هذه الفقرات في كتبهم؟ واطلعوا عليها قبل أن يتسهزءوا بغيرهم؟! !

* * *

٥ـ شبهة: ويمكرون ويمكر الله.

نص الشبهة:

أثار المعترضون شبهة أن الله ﷻ ماكر، ويمكر، واعتبروا أن هذا نقص، وكيف يكون إله وله هذه الصفة المذمومة؟ ، فحرفوا الكلم عن مواضعه وقالوا: **الله ماكر ويمكر** ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ **(آل عمران: ٥٤)**، ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ **(النمل: ٥٠)**.

وعن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: رب أعني ولا تعن عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليَّ، رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا، لك رهابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أواها منيبا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهدقلبي، واسلل سخيمة صدري.[1]

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: المكر في اللغة.

الوجه الثاني: المكر بمعنى الاحتيال أو الخديعة ليس مذمومًا مطلقًا.

الوجه الثالث: التشابه في الأسماء لا يلزم التشابه في المسميات.

الوجه الرابع: الألفاظ في النصوص الشرعية قد تتشابه في مواضع بين الخالق والمخلوق.

الوجه الخامس: إذا اتفقنا أن صفات الله غير صفات المخلوق.

الوجه السادس: صفة المكر كما وردت في القرآن.

الوجه السابع: أقوال أهل العلم في المكر.

الوجه الثامن: ماذا في كتبهم المقدسة لديهم من صفة المكر؟

الوجه التاسع: نبذة يسيرة عما في كتبهم من وصف الله تعالى بصفات لا تليق.

وإليك التفصيل

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٣٥٥١)، وأبو داود في سننه (١٥١٠)، وابن ماجه في سننه (٣٨٣٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٠٨).

الوجه الأول: المكر في اللغة.

يأتي بمعاني: منها:

١. الـمَكْرُ: احتـيال فـي خُفـية.

٢. ابن سيده: الـمَكْرُ الـخَدِيعَة والاحتـيال.

٣. والـمَكْرُ: الـمَغْرَةُ. وثوب مَـمْكُورٌ ومُـمْتَكَرٌ: مصبوغ بالـمَكْرِ، وقد مَكَرَه فامْتَكَرَ أَي خَضَبه فاخْتَضَبَ.

٤. والمكر: نوع من النبات.

٥. والمكر: السقيا.[1]

٦. المكر التدبير والتخطيط. فيقال: فلان يمكر لك: أي يدبر ويخطط له.

فكلمة المكر في لغة العرب ليست على معنى واحد.

الوجه الثاني: المكر بمعنى الاحتيال أو الخديعة ليس مذمومًا مطلقًا.

وذلك أن العرب كانت تطلق صفة المكر على معنين:

المعنى الأول: معنى محمود: وهو أن المكر والدهاء يطلقان على من يستدرج عدوه، أو من لا يغلبه عدوه، فكانوا يمدحون من كانت هذه صفته.

المعنى الثاني: مذموم: وذلك يطلق على من يمكر بأوليائه ومن كان قريبًا منه، لاحتلال مكانته إذا كان ذا جاه أو سلطان، أو لنيل مال أو امرأة أو غير ذلك مما يتنازع عليه الناس في أمور الدنيا. وهذا يحتاج إلى تدبير وتخطيط وتفكير.

الوجه الثالث: التشابه في الأسماء لا يلزم منه التشابه في المسميات.

من المعلوم أن القرآن نزل بلغة العرب، وتفهم مفرداته بحسب لغة العرب، وذلك باختيار المعنى المناسب للنص، وروده فيه، فقد تأتي لفظة في القرآن أو السنة، وتتكرر، ويقصد بها في موضع معنى، وفي موضع آخر معنى مختلف، وهكذا.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٥/ ١٨٣، ١٨٤.

ومن أمثلة ذلك:

* الرجس: جاء معناها في اللغة: القَذَارة، والنجاسة، والعذاب، والإثم، والشك، والعمل القبيح الذي يؤدي إلى العذاب.(١)

وقد وردت في القرآن بمعنى مثل ذلك وكذلك السنة.

* أما في القرآن فالرجس بمعنى النجاسة كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

وبمعنى الحرام والإثم: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (المائدة: ٩٠).

وبمعنى العذاب: قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ (الأعراف: ٧١).

وبمعنى العمل القبيح: قال تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة: ٩٥).

وفي السنة كذلك:

* عن أسامة بن زيدﷺ قال رسول الله ﷺ: الطاعون رجس، أُرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه.(٢)

فمعنى رجس هنا: أي عذاب.

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس.(١)

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور ٦/ ٩٤، ٩٥.

(٢) البخاري (٣٢٨٦).

ومعناه هنا: النجاسة.

ونحو ذلك من المعاني، فكون إنسان يحكم على لفظة بمعنى لفظة أخرى؛ فهذا من الجهل بالمعاني.

الوجه الرابع: الألفاظ في النصوص الشرعية (الكتاب والسنة) قد تتشابه في مواضع بين الخالق والمخلوق " (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

لأن صفات الخالق غير صفات المخلوق، بمعنى إذا كنا نؤمن بأن الخالق سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة المخلوق في صفاته وذاته، فهنا لا نستطيع أن نأتي بلفظة لمخلوق مشابهة للفظة في حق الخالق ونسوي بينها.

ومثال على ذلك:

الله ﷻ وصف نفسه في كتابه بأنه رحيم ورؤوف.

فقال تعالى في حق نفسه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٠)

فهاتان صفتان لله سبحانه وتعالى تليق بجلاله وعظمته. وهما من صفات الكمال في حقه سبحانه كخالق ورب للعالمين.

وقال سبحانه في حق نبيه محمدﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

فقد وصف نبيهﷺ بأنه رؤوف رحيم، ووصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، فهل نستطيع أن نقول: إن صفة الرحمة في حق الله تتشابه مع صفة الرحمة في حق النبي ﷺ؟

من يقدر الله سبحانه حق قدره؛ لا يقع في التشابه.

فصفة الرحمة في حق النبي ﷺ هي صفة كمال بشري، مناسبة لحالته البشرية القابلة للفناء والنقص والزيادة.

أما صفة الله تعالى: فهي صفة كمال في حق الخالق الباقي الذي لا يفنى سبحانه.

---

(١) البخاري (٣٩٦٢).

وهكذا كثير من الصفات.

ولذلك قاعدة مهمة عند أهل السنة وهي: (التشابه في الأسماء لا يقتضي التشابه في المسميات)

بمعنى: إذا نظرنا إلى حالة الخلق من حولنا وأخذنا مثالًا على ذلك (القدم):

فلو نظرنا إلى لفظة القدم وعضو القدم نجده موجودًا في الفيل والحصان والنملة والإنسان.

فهل هذه الصفات تتشابه؟ والجواب بالبديهة: لا تتشابه.

فكذلك الصفة إذا وصف بها مخلوق ووصف بها الخالق، فلا يقتضي ذلك التساوي في المعنى والكيفية؟

الوجه الخامس: إذا اتفقنا أن صفات الله غير صفات المخلوق.

فصفات الله صفات كمال، وصفات المخلوق صفات نقص. استطعنا أن نفرق بين مكر الله ومكر المخلوق، وإذا كان مكر المخلوق ليس مذمومًا مطلقًا، فلماذا جعلنا مكر الله مذمومًا مطلقًا؟! أليس هذا من الجهل والظلم؟!

الوجه السادس: صفة المكر كما وردت في القرآن.

وردت صفة المكر ومشتقاتها في القرآن في واحد وأربعين موضعًا، في ثلاث وعشرين آية:

وهي على قسمين:

القسم الأول: وردت خاصة بأهل الزيغ والضلال من أعداء الرسل كصفة مذمومة.

والقسم الثاني: وردت في آيات كصفة للمخلوق، وردَّ الله عليهم بصفة له سبحانه فلم تأت هذه الصفة كصفة مستقلة لله سبحانه وتعالى.

ونبدأ بالكلام على القسم الأول، فنقول:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٣)

قال ابن كثير: والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرفٍ من المقال والفعال، كما قال تعالى إخبارًا عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ (نوح: ٢٢). [١]

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ (الأنعام: ١٢٤).

قال الطبري: تأويل قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مُعْلِمُه ما هو صانع بهؤلاء المتمردين عليه: سيصيب يا محمد الذي اكتسبوا الإثم بشركهم بالله وعبادتهم غيره صَغار يعني ذلة وهوان. [٢]

وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾؛ لما كان المكر غالبًا إنما يكون خفيًا، وهو التلطف في التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا، ولا يظلم ربك أحدا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ (الطارق: ٩).

أي تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: " يُنصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان"؛ والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل. [٣]

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٣)

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٧٣.

(٢) تفسير الطبري ٨/ ٢٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٧٥.

قال ابن جرير: قال فرعون للسحرة إذ آمنوا بالله يعني: صدقوا رسوله موسى عليه السلام لما عاينوا من عظيم قدرة الله وسلطانه (آمنتم) يقول: أصدقتم بموسى وأقررتم بنبوته قبل أن آذن لكم بالإيمان به؟ (إن هذا) يقول: تصديقكم إياه وإقراركم بنبوته (لمكر مكرتموه في المدينة) يقول: لخدعة خدعتم بها من في مدينتنا لتخرجوهم منها. (١)

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ (يوسف: ٣١)

عن ابن إسحاق قال: لما أظهر النساء ذلك من قولهن: تراود عبدها؛ مكرا بها لتريهن يوسف وكان يوصف لهن بحسنه وجماله، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئًا. (٢)

وهكذا باقي الآيات في مكر هؤلاء تدور حول الخداع، والتضليل، والتدبير للمؤمنين لإيقاعهم في الباطل أو قتلهم.

ـ قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٢)، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الرعد: ٣٣)، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم: ٤٦).

ـ وقال تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾ (النحل: ٢٦).

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٣.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٢٠١، وابن كثير ٢/ ٤٧٧.

قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم؛ فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (النمل: ٥٠، ٥١)، ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ (النمل: من الآية٥٢) الآيتين، وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ (الرعد: ٤٢)؛ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، ويجزي كل عامل بعمله وسيعلم الكافر، والقراءة الأخرى: الكفار لمن عقبى الدار، أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة.[1]

ـ قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (النحل: ٤٥)

ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (النحل: ١٢٧).

ـ وقال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (النمل: ٥١).

ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (النمل: ٧٠).

ـ وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٢.

كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (سبأ: ٣٣).

ـ وقال تعالى: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر: ٤٣).

ـ وقال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤٥).

القسم الثاني: ما ذكر فيه مكر الله تعالى:

لم يذكر مكر الله في أي آية إلا صفة فعل مقابل لما يفعله أهل الضلال، ولم تذكر الصفة مفردة، ومن أجل ذلك لا تطلق الصفة إلا مقارنة بالكفار كما ذكرت في القرآن، ولا يتخذ منها اسمًا أو صفة مستقلة. ولنأخذ مثالا على ذلك:

منها: قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٥٤)

قال البغوي: قوله تعالى: (وَمَكَرُوا) يعني كفار بني إسرائيل الذي أحس عيسى منهم الكفر، وبَرُّوا في قتل عيسى عليه السلام، وذلك أن عيسى عليه السلام بعد إخراج قومه إياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله، وتواطؤوا على الفتك به فذلك مكرهم قال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾فالمكر من المخلوقين: الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله: استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم كما قال: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٢)، وقال الزجاج: مكر الله عز وجل مجازاتهم على مكرهم فسمي الجزاء باسم الابتداء؛ لأنه في مقابلته كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٥) ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (النساء: ١٤٢) ومكر الله تعالى خاصة بهم في هذه الآية، وهو إلقاؤه الشَبه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى عليه السلام حتى قتل.[1]

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٠٧.

وقال أيضًا: وجملته: أن أسماء الله تعالى على التوقيف؛ فإنه يسمى جوادًا ولا يسمى سخيًا، وإن كان في معنى الجواد، ويسمى رحيمًا ولا يسمى رفيقًا، ويسمى عالمًا ولا يسمى عاقلًا، وقال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ (النساء: ١٤٢)وقال ﷻ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٥٤)، ولا يقال في الدعاء: يا مخادع، يا مكار؛ بل يدعى بأسمائه التي ورد بها التوقيف على وجه التعظيم، فيقال: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا عزيز، يا كريم ونحو ذلك. [(١)]

وقال الشيخ السعدي: قال تعالى هنا (ومكروا) أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله، وإطفاء نوره (ومكر الله) بهم جزاء لهم على مكرهم (والله خير الماكرين) رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين. [(٢)]

وجاء في التفسير الميسر: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾، ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل بعيسى ؈، بأن وكَّلوا به من يقتله غِيْلة، فألقى الله شَبَه عيسى على رجل دلَّهم عليه فأمسكوا به، وقتلوه وصلبوه ظناً منهم أنه عيسى ؈، والله خير الماكرين. وفي هذا إثبات صفة المكر لله -تعالى- على ما يليق بجلاله وكماله؛ لأنه مكر بحق، وفي مقابلة مكر الماكرين. [(٣)]

ومن المواضع الأخرى:

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩).

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ (الأنفال: ٣٠).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٢١٨.

(٢) تيسير السعدي صـ١٣٢.

(٣) التفسير الميسر: مجموعة من العلماء بإشراف الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي.

مَكۡرٗاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (يونس: ٢١).

وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ (الرعد: ٤٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦).

الوجه السابع: أقوال أهل العلم في المكر، وأن الله لا يوصف بالمكر إلا مقيداً.

قال الراغب الأصفهاني: المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة.

وذلك ضربان:

مكر محمود: وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل على ذلك قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

ومكرمذموم: وهو أن يتحرى به فعل قبيح، قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾، ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ وقال في الأمرين: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾.

وقال بعضهم: من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا، ولذلك قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله.[1]

وعلى التقديرين فإطلاق ذلك عليه سبحانه على حقيقته دون مجازها.

وقال ابن القيم: وأما المكر الذي وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيء بمكره الحسن فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء؛ لأنه عدل ومجازاة وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله أوليائه فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر[2].

---

(١) مفردات القرآن صـ٤٧١.

(٢) الفوائد صـ١٦٣.

وقال رحمه الله: وكذلك المكر ينقسم إلى محمود ومذموم؛ فإن حقيقته إظهار أمر وإخفاء خلافه؛ ليتوصل به إلى مراده. فمن المحمود مكره تعالى بأهل المكر مقابلة لهم بفعلهم وجزاء لهم بجنس عملهم قال تعالى ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٥٤) وقال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل: ٥٠). [١]

وقال أيضًا: فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلا منه وحكمة وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباده، وأما السيئة فهي فيعلة مما يسوء ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل. [٢]

وقال ناصر الفهد: والصحيح في هذه الصفات إثباتها على الوجه اللائق بالله سبحانه، وكون الاستهزاء والمكر والكيد ونحوها صفات مذمومة من البشر لا يقتضي هذا نفيها عن الله سبحانه لأمرين:

الأمر الأول: أن الله سبحانه وتعالى لا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا يقاس بخلقه -كقياسات المعتزلة مشبهة الأفعال- فيجعل كل ما حسن من البشر حسن منه، وما قبح منهم قبح منه، فإن هذا لا يكون إلا للنظيرين، والله سبحانه لا نظير له، فقد يحسن منه ما لا يجوز للبشر الاتصاف به كالعظمة والكبرياء، وقد يحسن من خلقه ما ينزه عنه سبحانه كالعبودية.

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٨٨.

(٢) إعلام الموقعين ٣/ ٢١٨.

الأمر الثاني: إن كون الاتصاف بهذه الصفات مذموم ليس على الإطلاق، لأن هذه الصفات ونحوها لها حالتان:

الحالة الأولى: يكون الاتصاف بها مذموماً وهو إذا ما تضمن ذلك الظلم والكذب والغش ونحوها.

الحالة الثانية: يكون الاتصاف بها محموداً وهو ما كان بحقٍ وعدلٍ ومجازاةٍ، فمن مكر بظلم فيحسن أن يمكر به بحقٍ و بعدلٍ.

فمثل هذه الصفات ليست كمالاً على الإطلاق، وليست نقصاً على الإطلاق؛ بل فيها تفصيل، ومثلها يرد إطلاقها على الله سبحانه في حالة كونها كمالاً وهي التي تكون على سبيل المقابلة، لذلك فليس من أسمائه سبحانه (المستهزئ) ولا (الماكر) ولا (الكائد) ونحوها؛ لأنها ليست محمودة على الإطلاق، والله سبحانه لم يصف نفسه بها إلا على وجه المقابلة والجزاء لمن فعل ذلك بغير وجه حق.[1]

قال ابن القيم: عن صفات المكر والخداع والكيد والاستهزاء ونحوها-: (لا ريب أن هذه المعاني يذم بها كثيراً، فيقال: فلان صاحب مكر وخداع وكيد واستهزاء، ولا تكاد تطلق على سبيل المدح بخلاف أضدادها، وهذا هو الذي غر من جعلها مجازاً في حق من يتعالى ويتقدس عن كل عيبٍ وذم.

والصواب: أن معانيها تنقسم إلى محمود ومذموم، فالمذموم منها يرجع إلى الظلم والكذب، فما يذم منها إنما لكونه متضمناً للكذب والظلم أو لهما جميعاً، وهذا هو الذي ذمه الله تعالى لأهله... فلما كان غالب استعمال هذه الألفاظ في المعاني المذمومة ظن المعطلون أن ذلك هو حقيقتها، فإذا أطلقت لغير الذم كان مجازاً، والحق خلاف هذا الظن، وأنها منقسمة إلى محمود ومذموم، فما كان منها متضمناً للكذب والظلم فهو مذموم، وما كان

(١) الإعلام بمخالفات الموافقات والاعتصام صـ٦١.

منها بحق وعدل ومجازاة على القبيح فهو حسن محمود، فإن المخادع إذا خادع بباطل وظلم حسُن من المجازي له أن يخدعه بحقٍ وعدلٍ -إلى أن قال-إذا عرف ذلك فنقول: إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقاً، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى -إلى أن قال- أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد عُلِم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟ ، وهذا إذا نزلنا على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين، وأنه سبحانه منزه عما يقدر عليه مما لا يليق بكماله، ولكنه لا يفعله لقبحه وغناه عنه، وإن نزلنا ذلك على نفي التحسين والتقبيح عقلاً وأنه يجوز عليه كل ممكن ولا يكون قبيحاً، فلا يكون الاستهزاء والمكر والخداع منه قبيحاً البتة، فلا يمتنع وصفه به ابتداءً لا على سبيل المقابلة على هذا التقرير. ا هـ. (١)

الوجه الثامن: ماذا في كتبهم المقدسة لديهم من صفة المكر؟

ولنعرض هنا بعض ما جاء في كتبهم ورسائلهم المقدسة من صفة المكر .

جاءت صفة المكر في كتبهم مقارب للمعنى الذي ذكرناه.

أولًا: كونه صفة مذمومة

جاء في مزامير داود (١١٩: ١١٨): احْتَقَرْتَ كُلَّ الضَّالِّينَ عَنْ فَرَائِضِكَ، لأَنَّ مَكْرَهُمْ بَاطِلٌ.

ثانيًا: وورد كصفة حسنة:

جاء في سفر التكوين: فَقَالَ: «قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ». (التكوين ٢٧: ٣٥).

فإذا كانت البركة شيء محمود فأخذها شيء محمود، فالمكر هنا شيء محمود، وإذا كان المكر عندهم مذموم مطلقًا؛ فإن هذا سبة في يعقوب الذي أخذ بركة أبيه بدلًا من أخيه مكرًا.

وجاء في مزامير داود: لأَنَّهُمْ لاَ يَتَكَلَّمُونَ بِالسَّلاَمِ، وَعَلَى الْهَادِئِينَ فِي الأَرْضِ يَتَفَكَّرُونَ بِكَلاَمِ مَكْرٍ. (مز ٣٥: ٢٠)

---

(١) الصواعق المرسلة صـ ٢٩٠ ـ ٢٩٣.

فإذا كان الهدوء شيء ممدوح فالمكر شيء ممدوح، وإذا كان المكر مذموم فالهدوء مذموم، وبذلك قد خالفتم الفطرة والعقل.

وفي حق الرب:

جاء في سفر أرمياء (٩: ٦): مَسْكَنُكَ فِي وَسْطِ الْمَكْرِ. بِالْمَكْرِ أَبَوْا أَنْ يَعْرِفُونِي، يَقُولُ الرَّبُّ.

فهذا الرب يأمر بالمكر، فهل يقصد المكر المذموم وهو خديعة أهل الحق للإيقاع بهم في شر؟ أم يقصد إمهال أهل الباطل حتى يقعوا في شرهم الذي نصبوه لغيرهم؟

فإذا كان الأول: فلما تعيبون على غيركم؟

وإذا كان الثاني! فلم يكون الكيل بمكيالين؟! تحملون كلامكم على الوجه الحسن وكلامنا على الوجه السيئ. ! !

ونجد المكر والخديعة بصورة أخرى للرب عند النصارى:

ونجدها في الرسالة الثانية إلى تسالونكي٢) ٢: ١١:)"وَلأَجْلِ هذَا سَيُرْسِلُ إِلَيْهِمُ اللهُ عَمَلَ الضَّلاَلِ، حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكَذِبَ" (وفي سفر حزقيال١٤: ٩): " فَإِذَا ضَلَّ النَّبِيُّ وَتَكَلَّمَ كَلاَمًا، فَأَنَا الرَّبُّ قَدْ أَضْلَلْتُ ذلِكَ النَّبِيَّ. "

وهل يجوز للرب أن يرسل عمل الضلال على أساس أنه الحق ليصدقوا الضلال؟ أم أن الله تعالى في شرعه إلى الخلق يبين لهم الهدى من الضلال فمن سار في الضلال فبإرادته سلك الطريق، ومن سلك طريق الضلال فبإرادته سلك الطريق؟ هذا هو الحق؛ أم كون الله تعالى يظهر الضلال في صورة الهدى ليضل الناس! فهذا ليس برب ناصح لعباده. وهل يضل الله النبي الذي اصطفاه من خلقه ليكون إمامًا وقدوة للناس؟! كيف يكون ذلك، والأصل أن الأنبياء يجب أن يكونوا على جانب كبير من الهدى والحق.

ولذلك جاء في القرآن أن الله تعالى يملك الهداية والضلال، فيضل من عباده من علم الله فيه أنه يسلك طريق الضلال، ويهدي من عباده من علم فيه أنه يسلك طريق الهداية فقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ١١٧).

وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ

﴿إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ (الرعد: ٢٧).

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ (مريم: ٧٥).

وهذا هو استدراج الله تعالى بالعبد بسبب تركه للهدى واتباع طريق الضلالة.

الوجه التاسع: نبذة يسيرة عما في كتبهم من وصف الله تعالى بصفات لا تليق:

١. الرب خروف:

جاء في رؤيا يوحنا: (هؤُلاَءِ سَيُحَارِبُونَ الْخَرُوفَ، وَالْخَرُوفُ يَغْلِبُهُمْ، لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ)(رؤيا يوحنا ١٧/ ١٤).

فهل هناك عقل يقبل أن يكون رب الأرباب خروفًا؟! !

٢. الرب يستيقظ كالسكران:

جاء في المزامير: (فَاسْتَيْقَظَ الرَّبُّ كَنَائِمٍ، كَجَبَّارٍ مُعَيِّطٍ مِنَ الْخَمْرِ.) (مز ٧٨: ٦٥)

فهل هناك رب يشرب الخمر وينام ويترنح من السكر؟! ! سبحانك ربي تعالى عما يصفون.

٣. الرب يستهزئ بالناس:

كما جاء في سفر الأمثال: لَعْنَةُ الرَّبِّ فِي بَيْتِ الشِّرِّيرِ، لكِنَّهُ يُبَارِكُ مَسْكَنَ الصِّدِّيقِينَ. [٣٤] كَمَا أَنَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِالْمُسْتَهْزِئِينَ، هكَذَا يُعْطِي نِعْمَةً لِلْمُتَوَاضِعِينَ. (أمثال ٣ : ٣٣، ٣٤) قد يقال هذا مدح على سبيل المقابلة.

وكما جاء في سفر الحكمة: (يبصرون ويزدرون والرب يستهزئ بهم (الحكمة ٤: ١٨).

ملحقات هذه الشبهة:

وقد أثار المعترضون شبهات تلحق بما ذكرنا وهي لفظ: وهو خادعهم، يستهزئ بهم، وأكيد كيدا، ونحوها:

الله مخادع يخادع الناس: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء ١٤٢).

عن الزبير بن العوام أنه كانت عنده أم كلثوم بنت عقبة، فقالت له وهي حامل: طيب نفسي بتطليقة فطلقها تطليقة ثم خرج إلى الصلاة فرجع وقد وضعت، فقال: ما لها خدعتني خدعها الله ثم أتى النبي ﷺ فقال سبق الكتاب أجله اخطبها إلى نفسها. (١)

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أننا ذكرنا في جواب شبهة المكر أن الفعل -سواء كان المكر أو الخداع أو الكيد- من العبد له معنى مذموم، وهو خداع أهل الخير لإيقاعهم في شر.

ومعنى محمود: وهو استدراج العدو حتى يقع هو فيما يخدع به غيره من غير خيانة له.

وذكرنا أنه من الله تعالى: محمود مطلقًا: لأن العبد من خلق الله تعالى وهو سبحانه أعلم بحقيقة عبده، وما يريد أن يفعله قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فهو سبحانه يعلم بخداعه وقد جعل الله لمن خادع أو مكر بمؤمن أن خداعة لا يرجع إلا على نفسه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر: من الآية٤٣).

فهناك مكر سيئ، وهناك مكر محمود، فالسيئ لا يضر إلا بأهله، والمكر المحمود يعود نفعه على كل الناس.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٢٦) من طريق قبيصة بن عقبة. حدثنا سفيان عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن الزبير بن العوام، وأخرجه إسحاق في مسنده (٢٢٣٦) من طريق وكيع، والبيهقي ٢/ ٤٢١من طريق عبيد الله الأشجعي، كلاهما وكيع والأشجعي عن سفيان عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن أم كلثوم، وأخرجه الحاكم ٢/ ٢٠٩من طريق عبد الملك بن أبى القاسم عن أم كلثوم.

فالحديث صحيح من مسند أم كلثوم، وقد صححه الألباني كما في الإرواء (٢١١٧) بمتابعة الأشجعي.

الوجه الثاني: سنة الله في عباده.

وقد اطردت سنته الكونية سبحانه في عباده بأن من مكر بالباطل مكر به، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خدع قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر: ٤٣)، فلا تجد ماكرًا إلا وهو ممكور به، ولا مخادعًا إلا وهو مخدوع، ولا محتالًا إلا وهو محتال عليه. (١)

الوجه الثالث: أعلى مراتب الحسن.

وقد دل على هذا نسبة الله سبحانه ذلك الكيد إلى نفسه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (يوسف: ٧٦) وهو سبحانه ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني، وما هو منها حكمة وحق وصواب وجزاء للمسيء، وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطارق: ١٥، ١٦). وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٥٤) وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٥) وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢) وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف: ١٨٣).

فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحسن، وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا؛ لأنه ظالم فيه؛ وموقعه بمن لا يستحقه؛ والرب تعالى عادل فيه موقعه بأهله؛ ومن يستحقه سواء قيل: إنه مجاز للمشاكلة الصورية أو للمقابلة، أو سماه كذلك مشاكلة لاسم ما فعلوه، أو قيل: إنه حقيقة وإن مسمى هذه الأفعال ينقسم إلى مذموم ومحمود واللفظ حقيقة في هذا وهذا. (٢)

الوجه الرابع: وماذا في كتبهم عن صفة الخداع؟

جاء في سفر أشعيا: هكَذَا تُكَلِّمُونَ حَزَقِيَّا مَلِكَ يَهُوذَا قَائِلِينَ: لاَ يَخْدَعْكَ إِلهُكَ الَّذِي أَنْتَ مُتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ، قَائِلاً: لاَ تُدْفَعُ أُورُشَلِيمُ إِلَى يَدِ مَلِكِ أَشُّورَ. (أشعيا ٣٧: ١٠).

* * *

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية ١/ ٣٦٠.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٤.

٦ـ شبهة: البغض والكره .

نص الشبهة:

عاب النصارى على أن الله يبغض ويكره بعض عباده لمخالفتهم أمر الله تعالى فقالوا:

الله يبغض و يكره الناس، و يفرض على جبريل أن يبغضهم و يكرههم، و يفرض ذلك على كل أهل السماء و الأرض كما في الحديث.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله : ﷺ إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلانا؛ فأحبوه، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانًا؛ فأبغضه، قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا؛ فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: صفة الكره ثابتة لله.

الوجه الثاني: صفة البغض، وكلام أهل العلم في صفة البغض.

الوجه الثالث: صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه، ووصفه بها رسوله حق.

الوجه الرابع: صفة البغض في كتبهم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: صفة الكره ثابتة لله تعالى.

الدليل من القرآن: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ (التوبة: ٤٦).

الدليل من السنة: حديث المغيرة أَنَّه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله -ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ الله كَرِهَ لَكُمْ : قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ". (١)

---

(١) البخاري (١٤٧٧)، مسلم (٥٩٣).

وعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله يرضى لكم ويكره لكم ثلاثًا: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال". (١)

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قَالَ: " مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ ". (٢)

قال الشيخ مُحمَّد خليل هرَّاس: تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ إِثْبَاتَ بَعْضِ صِفَاتِ الْفِعْلِ مِنَ الرِّضَى لله، وَالْغَضَبِ، وَاللَّعْنِ، وَالْكُرْهِ، وَالسَّخَطِ، وَالْمَقْتِ، وَالْأَسَفِ.

وَهِيَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ صِفَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ للهَّ عَجَّلَ، عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، وَلَا تُشْبِهُ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهَا مَا يَلْزَمُ فِي الْمَخْلُوقِ. (٣)

الوجه الثاني: صفة البغض، وكلام أهل العلم في صفة البغض.

صفةٌ فعليةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عَجَّلَ بالأحاديث الصحيحة.

الدليل:

١ - عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَرضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّى أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ - قَالَ - فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فِى السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ - قَالَ - ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّى أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ - قَالَ - فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فِى أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ الله يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ - قَالَ - فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِى الأَرْضِ"(٤).

٢ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها". (٥)

---

(١) مسلم (١٧١٥).

(٢) البخاري (٦٥٠٧)، مسلم (٢٦٨٣).

(٣) شرح العقيد الواسطية ١/ ١١١.

(٤) رواه مسلم (٢٦٣٧).

(٥) رواه مسلم (٦٧١).

يقول ابن القيم: إن ما وصف الله سبحانه به نفسه من المحبة والرضى والفرح والغضب والبغض والسخط من أعظم صفات الكمال. [1]

وفي ((تهذيب اللغة)): ((وقال الليث: البغض: نقيض الحب)). [2]

قال الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر:"والبغض" أي: ومن أوصافه الثابتة له سبحانه: البغض، فهو سبحانه يبغض الكفر والكافرين، والعصيان والعصاة.

ومن أدلة ثبوت هذه الصفة قول النبي ﷺ: "إنَّ الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: إني أحب فلاناً فأَحِبَّه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إنَّ الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يبغض فلاناً فأبغضوه، فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض".

وهذا الحديث العظيم، هو في بيان شأن ومقام الذين يحبهم الله من عباده ـ وأسأل الله ﷻأن يجعلني وإياكم منهم بمنه وكرمه ـ فهو سبحانه ينادي في السماء: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل لحب الله تعالى له، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: يا أهل السماء إنَّ الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يطرح له القبول في الأرض. وهذا هو معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾ (مريم: ٩٦).

وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني أبغض فلاناً فأبغضه. فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يبغض فلاناً فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم تطرح له البغضاء في الأرض، فهناك أهل محبة وأهل بغضاء، وإذا آمن العبد بذلك فعليه أن يعرف الأوصاف

(١) الصواعق المرسلة٤/ ١٤٥١.

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ١٧.

والأشخاص الذين يحبهم الله، وقد جاء في الحديث الصحيح قول النبي ﷺ: "أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله"(١).

فهذا الحديث من تحقيق الإيمان بصفة الحب وصفة البغض لله سبحانه وتعالى؛ لأن العبد مأمور أن يحب ما يحبه الله، وأن يبغض ما يبغضه الله.

إذا علمنا هذا، عرفنا الانقطاع الشاسع الكبير الذي وقع فيه الجهمية ومن تأثر بهم، الذين يقولون: إنَّ الله لا يُحب ولا يبغض ولا يرضى ولا يسخط. فما أضرَّ تعطيل صفات الله تبارك وتعالى أو تعطيل شيء منها على عبادة الإنسان وسلوكه، فكم أوجد فيهم هذا المعتقد من الانحرافات التعبدية والسلوكية.

فعقيدة الجهمية كما أنها انحراف في المعتقد هي كذلك انحراف في العبادة والسلوك، وبحسب ما يقع فيه العبد من التعطيل لصفات الله تعالى يكون الخلل في عبادته وسلوكه؛ إذ كلامهم الباطل في صفات الله تعالى قطع عليهم الطريق لتحصيل الآثار التي تقع من العبد إثر إيمانه بهذه الصفات العظيمة.(٢)

ولهذا يقول ابن القيم: تجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف؛ لجهلهم بالنصوص ومعانيها وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم، وإذا تأملت حال العامة الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم رأيتهم أتم بصيرة وأقوى إيماناً وأعظم تسليماً للوحي وانقياداً للحق"(٣)؛ لأنهم على السنة والفطرة.

وهذا يجعلنا نتنبه، فكما أكرمنا الله ﷻ بالإيمان بهذه الصفة: صفة المحبة وصفة البغض، فعلينا أن ننهض بأنفسنا، وأن نسعى جادين ـ مستعينين بالله ـ في معرفة الأمور التي يحبها الله لنفعلها فننال محبته، ولنعرف الأمور التي يبغضها فنجتنبها لنسلم من بغضه تبارك وتعالى لنا.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٦، والطيالسي (٧٤٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٣٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٨).

(٢) تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي صـ١٥٨: ١٦٠.

(٣) مدارج السالكين ١/ ١٢٥.

الوجه الثالث: صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ووصفها به رسوله حق.

نؤمن بها كما جاءت من غير تحريف، ولا تشبيه، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا تعطيل؛ فالغضب والرضى والضحك والبغض والحب، ونحو ذلك مما وصف الله به نفسه ووصفه بها رسوله حق نؤمن بها وهي صفات كمال لله تعالى، غير صفات المخلوق فهي صفات نقص مناسبة لعجزه وفقره وفنائه.

الوجه الرابع: صفة البغض في كتبهم.

جاء ت صفة البغض في كتبهم المقدسة كثيرة ومتناقضة

١ ـ الرب يبغض من النصب:

وفيه: وَلاَ تُقِمْ لَكَ نَصَبًا. الشَّيْءَ الَّذِي يُبْغِضُهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. (التثنية١٦: ٢٢).

٢ ـ الرب يبغض الستة:

وفيه: هذِهِ السِّتَّةُ يُبْغِضُهَا الرَّبُّ، وَسَبْعَةٌ هِيَ مَكْرُهَةُ نَفْسِهِ (أمثال ٦: ١٦).

٣ ـ الرب يبغض النفاق وأعمال السوء:

جاء: (كل رجس مبغض عند الرب وليس بمحبوب عند الذين يتقونه (سيراخ ١٥: ١٣)، وكما جاء في أشعيا(٦١: ٨): لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ مُحِبُّ الْعَدْلِ، مُبْغِضُ الْمُخْتَلِسِ بِالظُّلْمِ. وَأَجْعَلُ أُجْرَتَهُمْ أَمِينَةً، وَأَقْطَعُ لَهُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا.

٤ ـ الرب يبغض سكان أرضه المقدسة:

وجاء أيضًا في (الحكمة ١٢: ٣): فإنك أبغضت الذين كانوا قديما سكان أرضك المقدسة.

٥ ـ ونجد التناقض أن الرب لو بغض شيئًا لا يخلقه:

كما جاء في سفر الحكمة(١١: ٢٥): لأنك تحب جميع الأكوان ولا تمقت شيئًا مما صنعت فإنك لو أبغضت شيئًا لم تكونه.

٦ ـ ونجد أن المسيح يأمر ببغض كل الناس:

كما جاء في إنجيل لوقا (١٤: ٢٦): إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أيضًا، فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا.

* * *

٧ـ شبهة: الملل.

نص الشبهة:

أثار هؤلاء المعترضون شبهة في حديثٍ عن النبي ﷺ، وادعوا أن الله تعالى له صفة الملل فقالوا: الله يمل و يسأم.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَتْ عِنْدِي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قُلْتُ: فُلَانَةُ لَا تَنَامُ بِاللَّيْلِ فَذُكِرَ مِنْ صَلَاتِهَا، فَقَالَ: مَهْ عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنْ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ الله لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا. (١)

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ما صح عن النبي ﷺ في حق الله تعالى سواء كان وصفًا أو اسمًا.

فنحن نؤمن به على مراد الله تعالى مع تنزيه الله ﷻ عن كل نقص وعيب، وقد ذكرنا ذلك سابقا، وهذا هو منهج الصحابة ومن سار على منهجهم من التابعين وتابعيهم بإحسان.

الوجه الثاني: توضيح معنى الملل هنا

قال ابن قتيبة: ونحن نقول: إن التأويل لو كان على ما ذهبوا إليه كان عظيما من الخطأ فاحشا، ولكنه أراد فإن الله سبحانه لا يمل إذا مللتم. ومثال هذا قولك في الكلام: هذا الفرس لا يفتر حتى تفتر الخيل، لا تريد بذلك أنه يفتر إذا فترت، ولو كان هذا هو المراد ما كان له فضل عليها؛ لأنه يفتر معها، فأية فضيلة له؟ وإنما تريد أنه لا يفتر إذا فترت، وكذلك تقول في الرجل البليغ في كلامه الغزير: فلان لا ينقطع حتى تنقطع خصومه؛ تريد أنه لا ينقطع إذا انقطعوا، ولو أردت أنه ينقطع إذا انقطعوا لم يكن له في هذا القول فضل على غيره، ولا وجبت له به مدحة. وقد جاء مثل هذا بعينه في الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرا ويقال إنه لخلف الأحمر:

صليت مني هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يملوا

لم يرد أنه يمل الشر إذا ملوه، ولو أراد ذلك ما كان فيه مدح له؛ لأنه بمنزلتهم وإنما

---

(١) البخاري (١١٥١) ومسلم (٧٨٥) .

أراد أنهم يملون الشر وهو لا يمله.[1]

قال أبو إسحاق الحربي:قوله: ((لا يَمَلُّ الله حتى تملوا)): أخبرنا سلمة عن الفراء؛ يقال: مللت أمَلُّ: ضجرت، وقال أبو زيد: ملَّ يَمَلُّ ملالة، وأمللته إملالاً، فكأنَّ المعنى لا يملُّ من ثواب أعمالكم حتى تملُّوا من العمل.[2]

قلت: وهذا ليس تأويلاً؛ بل تفسير الحديث على ظاهره.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم: ((فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتى تملُّوا)): من نصوص الصفات، وهذا على وجه يليق بالباري، لا نقص فيه؛ كنصوص الاستهزاء والخداع فيها يتبادر.[3]

وقد سُئل الشيخ ابن عثيمين: هل نستطيع أن نثبت صفة الملل والهرولة لله تعالى؟ فأجاب: ((جاء في الحديث عن النبي ﷺقوله: "فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتى تملوا".

فمن العلماء من قال: إنَّ هذا دليل على إثبات الملل لله، لكن؛ ملل الله ليس كملل المخلوق؛ إذ إنَّ ملل المخلوق نقص؛ لأنه يدل على سأمه وضجره من هذا الشيء، أما ملل الله؛ فهو كمال وليس فيه نقص، ويجري هذا كسائر الصفات التي نثبتها لله على وجه الكمال وإن كانت في حق المخلوق ليست كمالاً.

ومن العلماء من يقول: إنَّ قوله: ((لا يَمَلُّ حتى تملوا))؛ يراد به بيان أنه مهما عملت من عمل؛ فإنَّ الله يجازيك عليه؛ فاعمل ما بدا لك؛ فإنَّ الله لا يمل من ثوابك حتى تمل من العمل، وعلى هذا، فيكون المراد بالملل لازم الملل.

ومنهم من قال: إنَّ هذا الحديث لا يدل على صفة الملل لله إطلاقاً؛ لأنَّ قول القائل: لا أقوم حتى تقوم؛ لا يستلزم قيام الثاني، وهذا أيضًا: ((لا يمل حتى تملوا))؛ لا يستلزم ثبوت الملل للهﻷ.

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) غريب الحديث ١/ ٣٣٨.

(٣) الفتاوى والرسائل ١/ ٢٠٩.

وعلى كل حال يجب علينا أن نعتقد أنَّ الله تعالى مُنَزَّه عن كل صفة نقص من الملل وغيره، وإذا ثبت أنَّ هذا الحديث دليل على الملل؛ فالمراد به ملل ليس كملل المخلوق)). [1]

الوجه الثالث: ماذا في كتب النصارى؟

جاء في سفر أرميا: أَنْتِ تَرَكْتِنِي، يَقُولُ الرَّبُّ. إِلَى الْوَرَاءِ سِرْتِ. فَأَمُدُّ يَدِي عَلَيْكِ وَأُهْلِكُكِ. مَلِلْتُ مِنَ النَّدَامَةِ. (أرميا ١٥ : ٦).

فهذا هو الرب عندهم يمل من الندامة ولا يمل من ترك العبد الطاعة.

* * *

(١) مجموعة دروس وفتاوى الحرم ١/ ١٥٢.

٨ـ شبهة: التحسر.

نص الشبهة:

قالوا عن الله: إنه يتحسر (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا).

ويحتجون بقول الله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ (يس: ٣٠).

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآية.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: يا حسرةً من العباد على أنفسها، وتندّمًا وتلهفًا في استهزائهم برسل الله﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ من الله﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ وذكر أن ذلك في بعض القراءات (يَاحَسْرَةَ العِبَادِ عَلى أَنْفُسِهَا)[١].

عن قتادة ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ ﴾ أي: يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضَيَّعت من أمر الله، وفرّطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءات: (يَاحَسْرَةَ العِبَادِ عَلى أَنْفُسِهَا). [٢]

قال ابن كثير: ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله؟ فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم، ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويجحدون ما أرسل به من الحق. [٣]

الوجه الثاني: من المتحسر؟

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ قال الفراء: المعنى: يالها حَسْرَة على العباد. وقال الزجاج: الحَسْرَةُ أن يَرْكَبَ الإنسان من شِدَّة الندم مالا نهاية له حتى يبقى قلبُه حَسِيراً.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٣: ٢.

(٢) إسناده صحيح. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٢ من طريق سعيد، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٤٧٢) من طريق معمر، كلاهما سعيد ومعمر عن قتادة. وفي لفظ معمر أنه قال: على العباد الحسرة.

(٣) تفسير ابن كثير ١١/ ٣٥٨، ٣٥٩.

وفي المتحسِّر على العباد قولان:

أحدهما: أنهم يتحسَّرون على أنفسهم، قال مجاهد والزجاج: استهزاؤهم بالرُّسل كان حسرةً عليهم في الآخرة. وقال أبو العالية: لمَّا عايَنوا العذاب، قالوا: يا حسرتنا على المرسَلين، كيف لنا بهمُ الآن حتى نؤمِن.

والثاني: أنه تحسُّر الملائكة على العباد في تكذيبهم الرُّسل، قاله الضحاك. [1]

* * *

(١) زاد المسير ٥/ ١٩١.

٩ـ شبهة: صفة العَجب.

نص الشبهة:

استغرب المعترض أن لله تعالى صفة العَجَب، وظنوا أن هذا منقصة في حق الله تعالى، فاستهزأوا وقالوا: الله يعجب و يتعجب (سبحان الله)﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ (الصافات ١٢)، قَوْله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الله تعالى ليس كمثله شيء.

كل ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة في وصف الله تعالى نؤمن على مراد الله ﷻ من غير تحريف ولا تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل.

فصفة العجب ثابتة لله تعالى بالسنة الصحيحة، نؤمن بها مع إيماننا أنه سبحانه وتعالى (ليس كمثله شيء) لا في ذاته ولا في صفاته.

الوجه الثاني: صحة القراءة الثانية (بضم التاء).

قال ابن خالويه: قوله تعالى (بل عجبت) يقرأ بضم التاء وفتحها، فالحجة لمن ضم أنه من إخبار الله تعالى عن نفسه. ودليله قوله النبي ﷺ: "عجب ربكم من آلكم وقنوطكم"، فالعجب من الله ﷻ إنكار لأفعالهم من إنكارهم البعث، وسخرياتهم من القرآن، وازدرائهم بالرسول جرأة على الله وتمردًا وعدوانًا وتكبرًا فهذا العجب من الله ﷻ، والفرق بينه وبين عجب المخلوقين أن المخلوق لا يعجب إلا عند نظره إلى ما لم يكن في علمه، ولا جرت العادة بمثله فبهره ما رأى من ذلك فيتعجب من ذلك، وقد جاء في القرآن ما يقارب معنى ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾، وكقوله ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾، وكقوله ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فالمكر من الله والاستهزاء والمحبة على غير ما هي من الخلق وبخلافها، فكذلك العجب منه بخلاف ما هو من المخلوقين؛ لأنها منه على طريق المجازاة بأفعالهم وإتيان اللفظ مردودًا على اللفظ، والحجة لمن فتح أنه جعل التاء للنبي ﷺ.

ومعناه: بل عجبت يا محمد من وحي الله إليك وهم يسخرون. [١]

والقراءة بضم التاء متواترة قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. [٢]

الوجه الثالث: صفة العجب.

الْعَجَبُ صفةٌ من صفاتِ الله ﷻ الفعليَّة الخبريَّة الثابتة له بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

١- قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الصافات: ١٢).

قال ابن جرير قوله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ اختلفت القرَّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرَّاء الكوفة: ﴿ بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ بضم التاء من ﴿ عَجِبْتُ ﴾؛ بمعنى: بل عظم عندي وكبر اتخاذهم لي شريكاً وتكذيبهم تَنْزيلي وهم يسخرون، وقرأ ذلك عامة قرَّاء المدينة والبصرة وبعض قرَّاء الكوفة ﴿عَجِبْتَ ﴾؛ بفتح التاء؛ بمعنى: بل عجبت أنت يا محمد ويسخرون من هذا القرآن.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قرَّاء الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ؛ فمصيب.

فإن قال قائل: وكيف يكون مصيباً القارئ بهما مع اختلاف معنييهما؟! قيل: إنهما وإن اختلف معنياهما؛ فكلّ واحد من معنييه صحيح، قد عجب محمد مما أعطاه الله من الفضل، وسخر منه أهل الشرك بالله، وقد عجِب ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسَخِر المشركونَ مما قالوه)). [٣]

وقال أبو زرعة عبدالرحمن بن زنجلة: قرأ حمزة والكسائي: ﴿ بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾؛ بضم التاء، وقرأ الباقون بفتح التاء. . .))، ثم قال: ((قال أبو عبيد: قوله:

---

(١) الحجة في القراءات السبع ١٩٤: ١٩٥.

(٢) التيسير في القراءات السبع ١٤٧، النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٥٦.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن٢٣/ ٤٣: ٤٤.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾؛ بالنصب: بل عجِبت يا محمد من جهلهم وتكذيبهم وهم يسخرون منك، ومن قرأ: (عَجِبْتُ)؛ فهو إخبار عن الله ﷻ. (١)

وقد صحت القراءة بالضم عن ابن مسعود ﷺكما سيأتي.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (الرعد: ٥).

نقل ابن جرير في تفسير هذه الآية بإسناده إلى قتادة قوله: ((قوله: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ ﴾: إن عجِبت يا محمد؛ فعجَبٌ﴿قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: عجِب الرحمن تبارك وتعالى من تكذيبهم بالبعث بعد الموت)). (٢)

قال ابن زنجلة بعد ذكر قراءة ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ بالضم: ((قال أبو عبيد: والشاهد لها مع هذه الأخبار قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾، فأخبر جل جلاله أنه عجيب)). (٣)

الدليل من السنة:

١- حديث أبي هريرة ﷺ: "لقد عَجِبَ الله ﷻ (أو: ضحك) من فلان وفلانة))، بلفظ: ((قد عَجِب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة". (٤)

٢- حديث أبي هريرة ﷺ: "عَجِبَ الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل". (٥)

٣- عن أبي وائل شقيق بن سلمة؛ قال: ((قرأ عبد الله (يعني: ابن مسعود) ﷺ: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾؛ قال شريح: إنَّ الله لا يعجب من شيء، إنما يعجب من لا يعلم.

---

(١) حجة القراءات صـ ٦٠٦.

(٢) إسناده صحيح. تفسير الطبري ١٣/ ١٠٤.

(٣) حجة القراءات صـ ٦٠٧.

(٤) رواه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

(٥) رواه البخاري (٣٠١٠).

قال الأعمش: فذكرت لإبراهيم، فقال: إنَّ شريحاً كان يعجبه رأيه، إنَّ عبدالله كان أعلم من شريح، وكان عبد الله يقرأها: (بَلْ عَجِبْتُ). [١]

قال أبو يعلى الفراء بعد أن ذكر ثلاثة أحاديث في إثبات صفة العَجَب: ((اعلم أنَّ الكلام في هذا الحديث (يعني: الثالث) كالكلام في الذي قبله، وأنه لا يمتنع إطلاق ذلك عليه وحمله على ظاهره؛ إذ ليس في ذلك ما يحيل صفاته، ولا يخرجها عما تستحقه؛ لأنا لا نثبت عَجَباً هو تعظيم لأمر دَهَمَه استعظمه لم يكن عالماً به؛ لأنه مما لا يليق بصفاته؛ بل نثبت ذلك صفة كما أثبتنا غيرها من صفاته)). [٢]

وقال قوَّام السُنَّة الأصبهاني: ((وقال قوم: لا يوصف الله بأنه يَعْجَبُ؛ لأن العَجَب ممَّن يعلم ما لم يكن يعلم، واحتج مثبت هذه الصفة بالحديث، وبقراءة أهل الكوفة: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ؛ على أنه إخبار من الله ﷻ عن نفسه)). [٣]

وقال ابن أبي عاصم في ((**السنة**)): ((باب: في تَعَجُّبِ ربنا من بعض ما يصنع عباده مما يتقرب به إليه))، ثم سرد جملة من الأحاديث التي تثبت هذه الصفة لله ﷻ. [٤]

الوجه الرابع: ماذا في كتبهم عن التعجب؟

يسوع الرب عندهم يتعجب

كما جاء في إنجيل لوقا (٧: ٩): وَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ هذَا تَعَجَّبَ مِنْهُ، وَالْتَفَتَ إِلَى الْجَمْعِ الَّذِي يَتْبَعُهُ وَقَالَ: «أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ أَجِدْ وَلاَ فِي إِسْرَائِيلَ إِيمَانًا بِمِقْدَارِ هذَا!".

* * *

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٠، ومن طريقه البيهقي في الأسماء والصفات صـ٥٨٧؛ بسند صحيح عن الأعمش قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.

(٢) إبطال التأويلات صـ ٢٤٥.

(٣) الحجة ٢/ ٤٥٧.

(٤) السنة١/ ٢٤٩، وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/ ١٨١، ٦/ ١٢٣و١٢٤.

١٠- شبهة: الله الطبيب.

نص الشبهة:

ظن المعترض أن اسم الطبيب الذي ذكره النبي ﷺ لله فيه غضاضة أو تنقص لله تعالى فقالوا: الله طبيب، كما في حديث أبي رمثة ﷺ؛ أنه قال للنبي ﷺ: " أرني هذا الذي بظهرك؛ فإني رجل طبيب؛ قال: "الله الطبيب؛ بل أنت رجل رفيق، طبيبها الذي خلقها".(١)

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: كل اسم محلى بالألف ووافق شروط التسمية لله من التنزيه فنحن نؤمن به على الوجه اللائق بالله سبحانه، والاسم منسوب لله تعالى فنحن نسميه بهذا الاسم.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الحشر: ٢٣)، فالملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن والعزيز والجبار والمتكبر من أسماء الله تعالى، وهي أسماء بالغة الحسن تحمل صفات الكمال لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (لأعراف: ١٨٠).

الوجه الثاني: اسم الله الطبيب.

يوصف الله ﷻ بأنه (الطَّبيب)، وهذا ثابت بالحديث الصحيح.

وقد دل على ذلك:

١- حديث أبي رمثة ﷺ؛ أنه قال للنبي ﷺ: أرني هذا الذي بظهرك؛ فإني رجل طبيب.

قال: "الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق، طبيبها الذي خلقها". (٢)

٢- حديث عائشة ﵂: قالت: ثم مرض رسول الله ﷺفوضعت يدي على صدره فقلت: اذهب البأس، رب الناس، أنت الطبيب، وأنت الشافي، وكان رسول الله يقول:

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) صحيح. رواه أبو داود واللفظ له (٣٥٤٤)، والإمام أحمد (٧١٠٩، ٧١١٠)، وابن حبان في صحيحه (٥٩٩٥) وغيرهم. وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٧)، وأحمد شاكر في المسند.

"ألحقني بالرفيق الأعلى، وألحقني بالرفيق الأعلى". (١)

قال ابن فارس: الطِّبُّ: هو العلم بالشيء، يقال: رجل طَبٌّ وطبيبٌ؛ أي: عالمٌ حاذق. (٢)

وقال الأزهري بعد أن أورد حديث أبي رمثة ﷺ: "طبيبها الذي خلقها": معناه: العالم بها خالقها الذي خلقها لا أنت. (٣)

وقال شمس الدين الحق أبادي: ((الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق))؛ أي: أنت ترفق بالمريض، وتتلطفه، والله هو يبرئه ويعافيه. (٤)

الوجه الثالث: أن الشفاء بيد الله تعالى.

وذلك أن المرض والدواء بيد الله، فإذا صادف الدواء الداء كان الشفاء بإذن الله تعالى، ولا يعلم مصادفة الداء للدواء إلا الله ﷻ.

لذلك فالأطباء ما هم إلا مجربين للدواء ولا يعلمون حقيقة الشفاء.

ولذلك جعل إبراهيم ؑ الشفاء بيده سبحانه لا بيد غيره، وهذا من علامات الربوبية لله.

قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء: ٨٠).

فكون الله ﷻ هو الطبيب: أي هو الأعلم بمواطن الداء، والأعلم بمصادفة الدواء له، وهل سينجو منه صاحبه أم لا ؟ ولذلك علم النبي ﷺ أن هذا مرضه الأخير، وعلم أن الطب لا يفيد في ذلك، وأنه يرغب في ملاقاة الله تعالى.

الوجه الرابع: ماذا في كتابهم المقدس؟

ورد الشفاء في كتابهم على يد المسيح والرب كما هي عقيدتهم.

---

(١) **إسناده صحيح**. رواه أحمد ٦/ ١٠٨ من طريق ابن عمر الجمحي عن ابن أبي مليكة عنها رضي الله عنها بإسناد صحيح، ورواه النسائي في السنن الكبرى ٤/ ٣٦٤ عن سريج به، ورواه أيضًا٦/ ٢٥١ عن طريق خالد بن نزار والخصيب بن ناصح عن نافع به.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٤٠٧.

(٣) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٠٤.

(٤) عون المعبود ١١/ ٢٦٢.

١ ـ الرب يشفي:

جاء في المزامير: اَلَّذِي يَغْفِرُ جَمِيعَ ذُنُوبِكِ. الَّذِي يَشْفِي كُلَّ أَمْرَاضِكِ. (مزمور١٠٣: ٣).

يَشْفِي الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ. (مز ١٤٧: ٣).

فَقَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «يَا إِينِيَاسُ، يَشْفِيكَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ. قُمْ وَافْرُشْ لِنَفْسِكَ! ». فَقَامَ لِلْوَقْتِ. (أعمال الرسل ٩: ٣٤).

٢ ـ المسيح يطوف في البلاد ويداوي المرضى:

كما جاء في إنجيل متى: وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ كُلَّ الْجَلِيلِ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهِمْ، وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ فِي الشَّعْبِ. (متى ٤: ٢٣).

وكما جاء في نفس الإنجيل: وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ الْمُدُنَ كُلَّهَا وَالْقُرَى يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهَا، وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضُعْفٍ فِي الشَّعْبِ. (متى ٩: ٣٥).

٣ ـ و التناقض موجود:

بأن المسيح ليس ربًا؛ وإنما مرسل من قبل الرب الأعلى، كما جاء في أعمال الرسل: يَسُوعُ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ كَيْفَ مَسَحَهُ اللهُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَالْقُوَّةِ، الَّذِي جَالَ يَصْنَعُ خَيْرًا وَيَشْفِي جَمِيعَ الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، لأَنَّ اللهَ كَانَ مَعَهُ. (أعمال الرسل ١٠: ٣٨).

٤ ـ المسيح طبيب:

جاء في إنجيل لوقا: (فَقَالَ لَهُمْ: «لاَ شَكَّ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ لِي هذَا الْمَثَلَ: أَيُّهَا الطَّبِيبُ اشْفِ نَفْسَكَ! فَاصْنَعْ هُنَا فِي بَلْدَتِكَ مَا سَمِعْنَا أَنَّهُ جَرَى فِي كَفْرَنَاحُومَ. . . » ٢٤ثُمَّ أَضَافَ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَا مِنْ نَبِيٍّ يُقْبَلُ فِي بَلْدَتِهِ.).

* * *

١١ـ شبهة: شم رائحة فم الصائم .

نص الشبهة:

أضاف هؤلاء صفة الشم لله تعالى، ولم ترد في الكتاب ولا في السنة الصحيحة ولكنهم تأولوها من الأحاديث التي وردت في فضل خلوف فم الصائم فقالوا: الله يشم رائحة فم الصائم و يحب رائحة فمه أكثر من المسك.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، ولخُلُوفُ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك".

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إثبات صفة استطابة الروائح.

قال ابن القيم: ومن المعلوم أن أطيب ما عند الناس من الرائحة رائحة المسك، فمَثَّلَ النبي ﷺ هذا الخلوف عند الله تعالى بطيب رائحة المسك عندنا وأعظم، ونسبةُ استطابة ذلك إليه ـ سبحانه وتعالى ـ كنسبة سائر صفاته وأفعاله إليه فإنها استطابة لا تماثل استطابة المخلوقين، كما أن رضاه، وغضبه، وفرحه، وكراهته، وحبه، وبغضه لا تماثل ما للمخلوق من ذلك، كما أن ذاته ـ سبحانه وتعالى ـ لا تشبه ذوات خلقه، وصفاته لا تشبه صفاتهم وأفعالهم، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ يستطيب الكلم الطيب فيصعد إليه، والعمل الصالح فيرفعه، وليست هذه الاستطابة كاستطابتنا، ثم إن تأويله لا يرفع الإشكال؛ إذ ما استشكله هؤلاء من الاستطابة يلزم مثله الرضا، فإن قال: رضا ليس كرضا المخلوقين، فقولوا: استطابة ليس كاستطابة المخلوقين، وعلى هذا جميع ما يجيء من هذا الباب. [1]

الوجه الثاني: ليس في الحديث صفة الشم لله.

وإنما هذا من تحريف الكلم عن مواضعه ، فصفات الله ـ تعالى ـ نوردها كما جاءت في كتاب الله تعالى، وكما جاءت في السنة الصحيحة، وتأتي على ظاهرها لا تأويلًا ولا استنباطًا.

---

(١) الوابل الصيب ١/ ٤٣.

الوجه الثالث: فضل الصائم.

في هذا الحديث الذي ذكروه حث على عبادة الصيام، وأنها العبادة التي لا يستطيع الإنسان أن يرائي فيها؛ لأنها بين العبد وربه، ولذلك كان جزاؤها بين العبد وربه.

ورائحة فم الصائم تكون متغيرة وغير مقبولة عند الناس، ولكن عند الله هذه الرائحة أطيب من المسك، ليس معنى ذلك إثبات الشم لله؛ وإنما تذكير للعباد، كما أنهم يفرون من الرائحة غير المقبولة أو الكريهة ويذمون صاحبها؛ ويتنعمون بالرائحة الطيبة؛ ويمدحون صاحبها؛ فإن رائحة فم الصائم ممدوح صاحبها عند الله تعالى أطيب من مدح رائحة المسك عند الناس، والله أعلم.

الوجه الرابع: ماذا في كتبهم عن الرائحة ؟

الرب يطلب البخور والرائحة الطيبة:

كما جاء في سيراخ: (اصطفاه من بين جميع الأحياء ليقرب التقدمة للرب البخور والرائحة الطيبة ذكرًا وتكفيرًا عن شعبه (سيراخ ٤٥: ٢٠)

فعلى حسب هذا النص: الرب يشم كما يشم البشر، بل يطلب البخور والرائحة الطيبة.

الرب له رائحة:

كما جاء في رسالة كورونثوس ٢(٢: ١٤-١٥): وَلكِنْ شُكْرًا للهِ الَّذِي يَقُودُنَا فِي مَوْكِبِ نُصْرَتِهِ فِي الْمَسِيحِ كُلَّ حِينٍ، وَيُظْهِرُ بِنَا رَائِحَةَ مَعْرِفَتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. لأَنَّنَا رَائِحَةُ الْمَسِيحِ الذَّكِيَّةِ للهِ، فِي الَّذِينَ يَخْلُصُونَ وَفِي الَّذِينَ يَهْلِكُونَ.

وكما جاء في أفسس: وَاسْلُكُوا فِي الْمَحَبَّةِ كَمَا أَحَبَّنَا الْمَسِيحُ أيضًا وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، قُرْبَانًا وَذَبِيحَةً للهِ رَائِحَةً طَيِّبَةً. (أفسس ٥: ٢).

* * *

١٢ـ شبهة اختلاق الأسف لله.

نص الشبهة:

ظن هؤلاء المعترضون من خلال نظرهم في القرآن أن الله يأسف، على بعض ما وقع من الناس فقالوا: الله يشعر بالأسف، في قوله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الزخرف: ٥٥).

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى الأسف.

قال ابن منظور: الأَسَفُ: الـمُبالغةُ في الـحُزْنِ والغَضَبِ، وأَسِفَ أَسَفاً، فهو أَسِفٌ وأَسْفان وآسِفٌ وأَسُوفٌ وأَسِيفٌ، والـجمع أُسَفَاء.

وقد أَسِفَ على ما فاتَه و تأَسَّف أَي تَلَهَّفَ، وأَسِفَ عليه أَسَفاً أَي غَضِبَ.

وآسَفَه: أَغْضَبَه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾؛ معنى آسَفُونا أَغْضَبُونا، وكذلك قوله ﷻ: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾.(١)

الوجه الثاني: تفسير الآية.

قال ابن جرير الطبري: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ يعني بقوله: آسفونا: أغضبونا.(٢)

وقال الشيخ محمد خليل هراس: وَأَمَّا قَوْلُهُ: (فَلَمَّا آسَفُونَا). . إِلَخْ؛ فَالْأَسَفُ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى شِدَّةِ الْحُزْنِ، وَبِمَعْنَى شِدَّةِ الْغَضَبِ وَالسَّخَطِ؛ وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ.

وَالِانْتِقَامُ: الْمُجَازَاةُ بِالْعُقُوبَةِ، مَأْخُوذٌ مِنَ النِّقْمَةِ وَهِيَ شِدَّةُ الْكَرَاهَةِ وَالسَّخَطِ. (٣)

فتبين من ذلك أن الأسف في الآية بمعنى الغضب وليس بمعنى الحزن كما هو مشاع عند العامة.

---

(١) لسان العرب (مادة : أسف) .

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٩٦ .

(٣) شرح العقيدة الواسطية صـ ١١٥ لمحمد خليل هراس.

الوجه الثالث: الأدلة على أن الله يغضب.

أولًا من القرآن:

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٢)، قال ﷻ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (النحل: ١٠٦)، قال ﷻ: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾ (طه: ٨٦)، قال ﷻ: ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (النور: ٩)، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ (الشورى: ١٦)، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المجادلة: ١٤)، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ (الممتحنة: ١٣).

ثانيًا من السنة: في حديث الشفاعة الطويل، وفيه أن الأنبياء يقولون:

"إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله".(١)

عن أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: " لَمَّا خَلَقَ الله الْخَلْقَ كَتَبَ فِى كِتَابِهِ - هُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهْوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ - إِنَّ رَحْمَتِى تَغْلِبُ غَضَبِى ".(٢)

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه - يشير إلى رباعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله".(١)

---

(١) البخاري (٣٣٤٠)، مسلم (١٩٤).

(٢) البخاري ٣١٩٤، مسلم (٢٧٥١).

وعن أبى هريرةﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قومًا في أيديهم مثل أذناب البقر يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله".(٢)

قال الطحاوى: والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى. (٣)

الوجه الرابع: ماذا في كتبهم عن الأسف؟

جاءت فقرات كثيرة في كتابهم المقدس في وصف الرب بالأسف والحزن.

١ ـ الرب يحزن ويتأسف في قلبه:

كما جاء في سفر التكوين(٦ : ٦): فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ.

وهذا الفعل من علامات الندم، والله ـ تعالى ـ منزه عن ذلك، فهو سبحانه القادر على كل شيء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

٢ ـ الرب يحزن على خلق الإنسان:

كما جاء في سفر التكوين (٦: ٧): فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ".

٣ ـ المخلوق يحزن، والحزن صفة قبيحة:

كما جاء في سيراخ (٣٨: ٢١): لا تسلم قلبك إلى الحزن بل اصرفه ذاكرًا الأواخر.

* * * *

(١) البخاري (٤٠٧٣)، مسلم (١٧٩٣).

(٢) مسلم (٢٨٥٧).

(٣) العقيدة الطحاوية ١/ ٥٦.

١٣ـ شبهة: القتل والرمي.

نص الشبهة:

أثار هؤلاء شبهاتٍ في الآيات؛ الله يرمي، و يقتل، و يقاتل، ويحارب في الحروب: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)﴾ (الأنفال: ١٧).

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: آجال العباد بيد الله تعالى:

الأجل بيد الله تعالى، فهو الذي حدد لكل إنسان أجله، فعندما رمى الرامي قد يصيب برميته بإذن الله تعالى، وقد لا يصيب برميته أيضًا بإذن الله تعالى، فعاد الرمي والقتل بيد الله عز وجل، وليس للمخلوق؛ قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤)، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل: ٦١).

عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: اللهمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ الله ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شيئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شيئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ الله أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ". [1]

الوجه الثاني: تفسير الآية:

قال الطبري: القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) مسلم (٤٨١٤).

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله ممن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ؛ فقاتل أعداء دينه معه من كفار قريش: فلم تقتلوا المشركين أيها المؤمنون أنتم، ولكن الله قتلهم.

وأضاف ـ جل ثناؤه ـ قتلهم إلى نفسه، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين؛ إذ كان ـ جل ثناؤه ـ هو مسبِّب قتلهم، وعن أمره كان قتالُ المؤمنين إياهم، ففي ذلك أدلُّ الدليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله في أفعال خلقه صُنْعٌ به وَصَلوا إليها.

وكذلك قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، فأضاف الرميَ إلى نبي الله، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي، إذ كان جل ثناؤه هو الموصل المرميَّ به إلى الذين رُمُوا به من المشركين، والمسبِّب الرمية لرسوله.

فيقال للمنكرين: ما ذكرنا قد علمتم إضافة الله رَمْيِ نبيه ﷺ المشركين إلى نفسه، بعد وصفه نبيَّه به، وإضافته إليه، وذلك فعلٌ واحد، كان من الله تسبيبه وتسديده، ومن رسول الله ﷺ الحذفُ والإرسال، فما تنكرون أن يكون كذلك سائر أفعال الخلق المكتسبة من الله الإنشاء والإنجاز بالتسبيب، ومن الخلق الاكتسابُ بالقُوى؟ فلن يقولوا في أحدهما قولًا إلا ألزموا في الآخر مثله، وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل(١).

قال ابن تيمية: إن قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، لَمْ يُرِدْ بِهِ أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ هُوَ فِعْلُ اللهَّ تَعَالَى - كَمَا تَظُنُّهُ طَائِفَةٌ مِنْ الغالطين - فَإِنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ صَحِيحًا لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لِكُلِّ أَحَدٍ حَتَّى يُقَالَ لِلْمَاشِي : مَا مَشَيْت إذْ مَشَيْت وَلَكِنَّ الله مَشَى وَيُقَالُ لِلرَّاكِبِ : وَمَا رَكِبْت إذْ رَكِبْت وَلَكِنَّ الله رَكِبَ وَيُقَالُ لِلْمُتَكَلِّمِ : مَا تَكَلَّمْت إذْ تَكَلَّمْت وَلَكِنَّ الله تَكَلَّمَ وَيُقَالُ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْآكِلِ وَالشَّارِبِ وَالصَّائِمِ وَالْمُصَلِّي وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَطَرْدُ ذَلِكَ : يَسْتَلْزِمُ أَنْ يُقَالَ لِلْكَافِرِ مَا كَفَرْت إذْ كَفَرْت وَلَكِنَّ الله كَفَرَ وَيُقَالُ لِلْكَاذِبِ مَا كَذَبْت إذْ كَذَبْت وَلَكِنَّ الله كَذَبَ . وَمَنْ قَالَ مِثْلَ هَذَا : فَهُوَ كَافِرٌ مُلْحِدٌ خَارِجٌ عَنْ الْعَقْلِ وَالدِّينِ .

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٣٠٣، ٣٠٤.

وَلَكِنَّ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ رَمَاهُمْ وَلَمْ يَكُنْ فِي قُدْرَتِهِ أَنْ يُوصِلَ الرَّمْيَ إِلَى جَمِيعِهِمْ فَإِنَّهُ إِذْ رَمَاهُمْ بِالتُّرَابِ وَقَالَ : شَاهَتْ الْوُجُوهُ لَمْ يَكُنْ فِي قُدْرَتِهِ أَنْ يُوصِلَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ كُلِّهِمْ، فَالله تَعَالَى أَوْصَلَ ذَلِكَ الرَّمْيَ إِلَيْهِمْ كُلِّهِم بِقُدْرَتِهِ . يَقُولُ : وَمَا أَوْصَلْت إِذْ حَذَفْت وَلَكِنَّ الله أَوْصَلَ، فَالرَّمْيُ الَّذِي أَثْبَتَهُ لَهُ لَيْسَ هُوَ الرَّمْيُ الَّذِي نَفَاهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ هَذَا مُسْتَلْزِمٌ لِلْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ؛ بَلْ نَفَى عَنْهُ الْإِيصَالَ وَالتَّبْلِيغَ وَأَثْبَتَ لَهُ الْحَذْفَ وَالْإِلْقَاءَ، وَكَذَلِكَ إذَا رَمَى سَهْمًا فَأَوْصَلَهُ اللهُ إلَى الْعَدُوِّ إيصَالًا خَارِقًا لِلْعَادَةِ : كَانَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَوْصَلَهُ بِقُدْرَتِهِ . [1]

الوجه الثالث: ماذا في كتبهم المقدسة؟

نجد في كتبهم المقدسة أن الرب يقتل ويرمي بالحجارة ويأمر بالقتل:

جاء في سفر العدد(١٤/ ١٦): لأَنَّ الرَّبَّ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُدْخِلَ هذَا الشَّعْبَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ لَهُمْ، قَتَلَهُمْ فِي الْقَفْرِ.

وفي سفر يشوع (١٠: ١١): وَبَيْنَمَا هُمْ هَارِبُونَ مِنْ أَمَامِ إِسْرَائِيلَ وَهُمْ فِي مُنْحَدَرِ بَيْتِ حُورُونَ، رَمَاهُمُ الرَّبُّ بِحِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى عَزِيقَةَ فَمَاتُوا. وَالَّذِينَ مَاتُوا بِحِجَارَةِ الْبَرَدِ هُمْ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالسَّيْفِ.

*   *   *

(١) مجموع الفتاوى ٢ / ٣٣١، ٣٣٢.

١٤ـ شبهة: الرعد منطق الله .

نص الشبهة:

أثار هؤلاء شبهة على ما ورد في أحد كتب التفسير عن الرعد والبرق فقالوا: الرعد هو منطق الله و البرق هو ضحك الله.

عَنْ شَيْخ مِنْ بَنِي غِفَار أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ يَقُول: "إِنَّ الله يُنْشِئ السَّحَاب، فَيَنْطِق أَحْسَن النُّطْق، وَيَضْحَك أَحْسَن الضَّحِك".

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ماذا في الحديث؟

عَنْ شَيْخ مِنْ بَنِي غِفَار أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ يَقُول: "إِنَّ الله يُنْشِئ السَّحَاب فَيَنْطِق أَحْسَن المنطْق وَيَضْحَك أَحْسَن الضَّحِك[(١)]".

الوجه الثاني: المعنى المستقيم للحديث .

قال ابن كثير: والمراد -والله أعلم -أن نطقَها الرعدُ، وضحكها البرقُ.

وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مضحكا، ولا آنس منه منطقا، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

وكذا روي عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك.

وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة.

وروي عن علي ﷺ، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سَبَّحت له. [(٢)]

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٣٥، والبيهقي في " الأسماء " صـ ٤٧٥، والرامهرمزي في " الأمثال " (١٢٥)، والعقيلي في الضعفاء (١٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٤٥٩رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٦٦٥) وقال: وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وجهالة الصحابي لا تضر.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٦ باختصار.

قال الطحاوي: فتَأَمَّلْنَا هَذَا الْحَدِيثَ، فَوَجَدْنَا مَا فِيهِ مَوْجُودًا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، فَمِنْهُ مَا ذَكَرَهُ الْفَرَّاءُ قَالَ: تَقُولُ الْعَرَبُ: يَوْمٌ ضَاحِكٌ مُصِحٌّ، وَسَحَابٌ نَاطِقٌ هَاطِلٌ، تَذْهَبُ بِنُطْقِهِ إِلَى رُجُوعِهِ وَمَطَرِهِ، لِأَنْوَاءَ يَعْرِفُونَهُ بِهَا قَالَ الْفَرَّاءُ: وَسَمِعْتُ أَبَا ثَرْوَانَ يَقُولُ: شَتَوْنَا بِأَرْضٍ سَهْلٍ عُبُورُهَا، كَثِيرٌ حُبُورُهَا، نَاطِقٌ سَحَابُهَا، ضَاحِكٌ جَنَّاتُهَا فَأَخْبَرَ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ بِأَفْعَالِ الْآدَمِيِّينَ لِثُبُوتِ الْمَعْرِفَةِ عَلَى مَا قَصَدَ لَهُ بِوَصْفِ السَّحَابِ بِالنُّطْقِ، يُرِيدُ غَزَارَةَ مَائِهِ، وَوَصْفِ الْجَنَّاتِ بِالضَّحِكِ، لِخُرُوجِ زَهْرِهِ، وَكَبِيرِ مَرْعَاهُ، قَالَ: وَفِي أَمْثَالِهِمْ: نَطَقَ الشَّيْبُ فِي رَأْسِهِ، وَضَحِكَ الشَّيْبُ كَذَلِكَ أَيْضًا: إِذَا ظَهَرَ، وَكَذَلِكَ: مَالَ الْجِدَارُ، وَاحْتَرَقَ الثَّوْبُ، كُلُّ هَذَا مَعْقُولٌ فِي الْمَعْنَى، فَخَاطَبَ النَّبِيُّ ﷺ - وَقَوْمُهُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ ذُرْوَتُهَا وَسَنَامُهَا - الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ بِذَلِكَ - وَهُمْ عَرَبٌ - بِمَا يَفْهَمُونَهُ عَنْهُ، وَيَعْقِلُونَهُ مِنْ مُرَادِهِ، لِأَنَّ اللهَ إِنَّمَا أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ بِلِسَانِهِمْ؛ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ (إبراهيم: ٤)، فَخَاطَبَهُمْ بِلِسَانِهِمْ لِعِلْمِهِ بِفَهْمِهِمْ عَنْهُ مَا خَاطَبَهُمْ بِهِ، وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ. (١)

ومن هنا يتضح أن الرعد ليس منطق الله وإنما منطق السحاب، والبرق ضحكه.

الوجه الثالث: ماذا في كتبهم؟

الرب يخرج سهمه كالبرق، وينفخ في البوق.

كما جاء في زكريا: وَيُرَى الرَّبُّ فَوْقَهُمْ، وَسَهْمُهُ يَخْرُجُ كَالْبَرْقِ، وَالسَّيِّدُ الرَّبُّ يَنْفُخُ فِي الْبُوقِ وَيَسِيرُ فِي زَوَابِعِ الْجَنُوبِ. (زكريا ٩: ١٤).

ونرى أن المغرب اسم الرب ومشرق الشمس مجده.

كما جاء في أشعيا: فَيَخَافُونَ مِنَ الْمَغْرِبِ اسْمَ الرَّبِّ، وَمِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ مَجْدَهُ. عِنْدَمَا يَأْتِي الْعَدُوُّ كَنَهْرٍ فَنَفْخَةُ الرَّبِّ تَدْفَعُهُ. (أشعيا ٥٩: ١٩).

* * *

---

(١) شرح مشكل الآثار ١٣/ ٢١٨ .

٧ـ شبهات في حق اللّه

وفيها:

١ – شبهة: ادعاؤهم أن الله ﷻ عنده كلب.

٢ – شبهة: حول العرش.

٣ – شبهة: علم الله للغيب.

٤ – شبهة: القسم.

٥ – شبهة: أن الله يدعو إلى الفجور.

٦ – شبهة: أن الله يميل إلى النساء.

٧ – شبهة: ادعاؤهم أن الله سبحانه وتعالى قوَّاد.

٨ – شبهة: أن الله سبحانه وتعالى يُضل الناس.

٩ – شبهة: ما ينزل من السماء.

١٠ – شبهة: ادعاؤهم أن الله يمرض ويجوع.

١ـ شبهة: ادعاؤهم أن الله ﷻ عنده كلب.

نص الشبهة:

هل الله عنده كلب ويسلطه على الناس؟.

واحتج هؤلاء بما روي عن هَبَّار بْن الْأَسْوَد ﷺأَنَّ عُتْبَة بْن أَبِي لَهَب لَمَّا خَرَج فِي تِجَارَة إِلَى الشَّام، قَالَ لِأَهْلِ مَكَّة: اِعْلَمُوا أَنِّي كَافِرٌ بِالَّذِي دَنَا فَتَدَلَّى، فَبَلَغَ قَوْلُهُ رَسُول ﷺ فَقَالَ: " سَيُرْسِلُ الله عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابه " قَالَ هَبَّار: فَكُنْت مَعَهُمْ. فَنَزَلْنَا بِأَرْضٍ كَثِيرَة الْأُسْد، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْت الْأَسَد جَاءَ فَجَعَلَ يَشُمُّ رُءُوس الْقَوْم وَاحِدًا وَاحِدًا، حَتَّى تَخَطَّى إِلَى عُتْبَة فَاقْتَطَعَ رَأْسه مِنْ بَيْنهمْ.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ما نسب الله تعالى إلى نفسه ونسبه له رسولهﷺ فنحن نثبته له مع التنزيه.

الوجه الثاني: حديث "اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك" لا يثبت.

الوجه الثالث: ماذا في كتب النصارى عن الله؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ما نسب الله تعالى إلى نفسه، ونسبه له رسولهﷺ.

فنحن ننسبه كما جاء مع تنزيه الله تعالى عن التشبيه بالخلق، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٧٣)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَاۚ﴾ (النساء: ٩٧).

وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ (لقمان: ١١)، وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف: ٨٧).

وقد وردت أحاديث كثيرة في بيت الله، وأسد الله، وسيف الله، ونحوها مما أضافه النبي ﷺ إلى الله تعالى.

قال ابن تيمية: فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك: دلت الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به؛ ليست مخلوقة؛ لأن الصفة لا تقوم بنفسها، فلا بد لها من موصوف تقوم به، فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له.

لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها:

فيسمى المقدور قدرة، والمخلوق بالكلمة كلامًا، والمعلوم علمًا، والمرحوم به رحمة.

كقول النبي ﷺ : "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة". [(١)]

وقوله تعالى فيما يروي عنه نبيه ﷺ أنه قال للجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء". [(٢)] ويقال للمطر والسحاب هذه قدرة قادر، وهذه قدرة عظيمة، ويقال في الدعاء: غفر الله لك علمه فيك، أي: معلومه.

وأما الأعيان إذا أضيفت إلى الله تعالى: فإما أن تضاف بالجهة العامة التي يشترك فيها المخلوق، مثل كونها مخلوقة ومملوكة له، ومقدورة، ونحو ذلك؛ فهذه إضافة عامة مشتركة. كقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ (لقمان: ١١).

وقد يضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل: (بيت الله)، (وناقة الله)، (وعبد الله)، (وروح الله)، فمن المعلوم اختصاص ناقة صالح بما تميزت به عن سائر النياق، وكذلك اختصاص الكعبة، واختصاص العبد الصالح الذي عبد الله، وأطاع أمره. وكذلك الروح المقدسة التي امتازت بها فارقت به غيرها من الأرواح.

فإن المخلوقات اشتركت في كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله يجري عليها حكمه وقضاؤه وقدره. وهذه الإضافة لا اختصاص فيها، ولا فضيلة للمضاف على غيره، وامتاز بعضها بأن الله يحبه ويرضاه ويصطفيه ويقربه إليه ويأمر به أو يعظمه ويحبه؛ فهذه الإضافة

---

(١) البخاري (٦٤٦٩).

(٢) البخاري (٤٨٥٠)، مسلم (٢٨٤٦).

يختص بها بعض المخلوقات؛ كإضافة البيت والناقة والروح، وعباد الله من هذا الباب وقد قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩١).

وقال في سورة التحريم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ (التحريم: ١١، ١٢).

فذكر امرأة فرعون التي ربت موسى بن عمران، وجمعت بينه وبين أمه، حتى أرضعته أمه عندها، وذكر مريم أم المسيح التي ولدته وربته، فهاتان المرأتان ربتا هذين الرسولين الكريمين، فلما قال هنا: (فنفخنا فيه) أي: في المرأة، و(فيه) أي: في فرجها، (من روحنا)، وقال هنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ (مريم: ١٧) إلى قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ (مريم: ١٩) دل على أن قوله: (روحنا) ليس المراد به أنه صفة لله؛ لا الحياة ولا غيرها، ولا هو رب خالق، فلا هو الرب الخالق، ولا صفة الرب الخالق؛ بل هو روح من الأرواح التي اصطفاها الله وأكرمها، كما تقدم في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، وأن الأكثرين على أنه جبريل.

وهذا الأصل الذي ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلى الله بين صفاته، وبين مملوكاته، أصل عظيم ضل فيه كثير من أهل الأرض من أهل الملل كلهم؛ فإن كتب الأنبياء التوراة والإنجيل والقرآن وغيرها أضافت إلى الله أشياء على هذا الوجه، وأشياء على هذا الوجه، فاختلف الناس في هذه الإضافة:

فقالت المعطلة - نفاة الصفات من أهل الملل-: إن الجميع إضافة ملك، وليس لله حياة قائمة به، ولا علم قائم به، ولا قدرة قائمة به، ولا كلام قائم به، ولا حب ولا بغض، ولا غضب ولا رضى؛ بل جميع ذلك مخلوق من مخلوقاته.

وهذا أول ما ابتدعته في الإسلام الجهمية، وإنما ابتدعوه بعد انقراض عصر الصحابة، وأكابر التابعين لهم بإحسان، وكان مقدمهم رجل يقال له: الجهم بن صفوان فنسبت الجهمية إليه، ونفوا الأسماء والصفات، واتبعهم المعتزلة، وغيرهم؛ فنفوا الصفات دون الأسماء، ووافقهم طائفة من الفلاسفة أتباع أرسطو.

وقالت الحلولية: بل ما يضاف إلى الله قد يكون هو صفة له، وإن كان بائنًا عنه؛ بل قالوا: هو قديم أزلي، فقالوا: روح الله قديمة أزلية صفة لله، حتى قال كثير منهم: إن أرواح بني آدم قديمة أزلية وصفة لله، وقالوا: إن ما يسمعه الناس من أصوات القراء ومداد المصاحف قديم أزلي، وهو صفة لله، وقال حذاق هؤلاء: بل غضبه ورضاه، وحبه وبغضه، وإرادته لما يخلقه قديم أزلي، وهو صفة الله، وكلامه الذي سمعه موسى قديم أزلي، وأنه لم يزل راضيًا محبًا لمن علم أنه يطيعه قبل أن يخلق، ولم يزل غضبانًا ساخطًا على من علم أنه يكفر قبل أن يخلق، ولم يزل ولا يزال قائلًا: يا آدم! ، يا نوح! ، يا إبراهيم قبل أن يوجدوا، وبعد موتهم، ولم يزل: ولا يزال يقول يا معشر الجن والإنس قبل أن يخلقوا، وبعد ما يدخلون الجنة والنار.

وأما سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين المشهورون بالإمامة فيهم، كالأربعة وغيرهم، وأهل العلم بالكتاب والسنة؛ فيفرقون بين مملوكاته، وبين صفاته، فيعلمون أن العباد مخلوقون، وصفات العباد مخلوقة، وأجسادهم، وأرواحهم، وكلامهم، وأصواتهم بالكتب الإلهية، وغيرها ومدادهم وأوراقهم والملائكة والأنبياء وغيرها، ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست مخلوقة؛ كعلمه، وقدرته، وكلامه، وإرادته، وحياته، وسمعه، وبصره، ورضاه، وغضبه، وحبه، وبغضه؛ بل هو موصوف بها وصف به

نفسه وبما وصفته به رسله من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأولون كلام الله بغير ما أراده، ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق؛ بل يعلمون أن الله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ بل هو موصوف بصفات الكمال، منزه عن النقائص، وليس له مثل في شيء من صفاته، ويقولون: إنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال، لم يزل متكلما إذا شاء بمشيئته وقدرته، ولم يزل عالمًا، ولم يزل قادرًا، ولم يزل حيًا سميعًا بصيرًا، ولم يزل مريدًا، فكل كمال لا نقص فيه يمكن اتصافه به فهو موصوف به، لم يزل ولا يزال متصفًا بصفات الكمال، منعوتا بنعوت الجلال والإكرام سبحانه وتعالى، والنصارى من أعظم الناس اضطرابًا في هذا الأصل. [١]

الوجه الثاني: حديث (اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك) لا يثبت. [٢]

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٤.

(٢) **ضعيف جدًّا.** من حديث **هبار الأسود** أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة صـ ٣٨٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق٢٨/ ٣٠١ من حديث محمد بن حميد الرازى، ثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة، عن أبيه، عن هبار الأسود فذكره. وإسناده ضعيف جدًّا.

وهو ضعيف جدًّا: فيه محمد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن.

وسلمة بن الفضل: صدوق كثير الخطأ.

ومحمد بن حميد: كذبه أهل بلده. وقال الذهبي: الأولى تركه.

وأخرجه ابن قانع في معجم الصحابة (١١٨٨) من حديث داود بن إبراهيم العقيلي، عن حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن هبار بن الأسود فذكره.

فيه داود بن إبراهيم العقيلي: كذبه الأزدي. ميزان الاعتدال ٢/ ٤، لسان الميزان ٢/ ٤.

ومن حديث أبى عقرب البكري.

أخرجه الحاكم ٢/ ٥٣٩ من حديث العباس بن الفضل الأنصاري ثنا الأسود بن شيبان، عن أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسب النبيﷺ فقال النبى: " اللهم سلط عليه كلبك". وإسناده ضعيف جدًّا.

فيه العباس بن الفضل: متروك. التقريب ١/ ٢٧٧، ميزان الاعتدال ٢/ ٣٨٥.

الوجه الثالث: ماذا في كتب النصارى عن الله؟

يعتبر هؤلاء أن ما وجد في السنة من إضافة النبي ﷺ لله تعالى كلبًا له، عيبًا ويتندرون به على المسلمين، فماذا قالوا هم عن الله تعالى ذاته؟

١ ـ الله كالدب:

ونجد هذا الوصف في سفر مراثي إرميا (٣: ١٠) فيصف النبي إرميا الرب فيقول: (هُوَ لِي كَدُبٍّ مُتَرَبِّصٍ).

٢ ـ الله كالحشرة:

ونجد هذا الوصف في سفر هوشع٥: ١٢: يقول الرب: فَأَنَا لأَفْرَايِمَ كَالْعُثِّ، وَلِبَيْتِ يَهُوذَا كَالسُّوسِ.

والعث: هي حشرة تتغذي على الثياب وتتلفه (معجم الكلمات الصعبة للكتاب المقدس).

٣ ـ الله كلبوة.

ومن حديث عثمان بن عروة عن بعض أهله.

أخرجه أبونعيم في الدلائل ص ٣٩٠ من حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن رجال من أهل بيته. فذكره. وإسناده ضعيف. لجهالة من حدث عثمان، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن.

ومن حديث قتادة: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ تَلَا: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، فَقَالَ ابْنٌ لِأَبِي لَهَب حَسِبْته قَالَ: اسْمه عُتْبَة: كَفَرْت بِرَبِّ النَّجْم، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: " احْذَرْ لَا يَأْكُلك كَلْبُ الله "؛ قَالَ: فَضَرَبَ هَامَته. قَالَ: وَقَالَ ابْن طَاوُس عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: " أَلَا تَخَاف أَنْ يُسَلِّطَ الله عَلَيْك كَلْبَهُ؟ " فَخَرَجَ ابْن أَبِي لَهَب مَعَ نَاس فِي سَفَر حَتَّى إِذَا كَانُوا فِي بَعْض الطَّرِيق سَمِعُوا صَوْت الْأَسَد، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا يُرِيدُنِي، فَاجْتَمَعَ أَصْحَابه حَوْله وَجَعَلُوهُ فِي وَسَطِهِمْ، حَتَّى إِذَا نَامُوا جَاءَ الْأَسَد فَأَخَذَهُ مِنْ بَيْنهمْ.

أخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ٥٠٣. وهو مرسل ضعيف من مراسيل طاووس.

وأخرجه أبو نعيم في الدلائل ص ٣٩٢ من حديث محمد بن عمر الواقدي، حدثني معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه. فذكره. وإسناده ضعيف جدًا.

فيه محمد بن عمر الواقدي: متروك. التقريب ٢/ ٥٤٣.

ونجد هذا الوصف في سفر هوشع (١٣ : ٤-٨): يقول الرب: وَآكُلُهُمْ هُنَاكَ كَلَبْوَةٍ.

٤ـ الله كالدودة.

ونجد هذا الوصف في سفر هوشع (٥: ١٢) يقول الرب: فَأَنَا لأَفْرَايِمَ كَالْعُثِّ، وَلِبَيْتِ يَهُوذَا كَالسُّوسِ.

والسُّوْس: دودٌ يقع في الصوف والثياب والطعام والشجر.

٥ـ الله كبنات آوى .

ونجد هذا الوصف في سفر ميخا (١: ٨)يقول الرب عن نفسه: (لِهَذَا أَنُوحُ وَأُوَلْوِلُ وَأَمْشِي حَافِياً عُرْيَاناً، وَأُعْوِلُ كَبَنَاتِ آوَى، وَأَنْتَحِبُ).

* * *

٢ـ شبهة: حول العرش وأنه محمول على حيوانات.

نص الشبهة:

يقولون: إن عرش الرحمن قائم على حيوانات، ويحتجون على ذلك بما روي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ (الحاقة: ١٧) أن النبي ﷺ قال: هُمْ ثَمَانِيَة أَمْلَاك عَلَى صُورَة الأَوْعَال.

وقال أيضًا: ملك على صورة سيد الصور وهو ابن آدم، وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد، وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور، وملك على صورة سيد الطير وهو النسر.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآية على ما ورد عن أهل العلم مع تحقيق القول الصحيح فيها.

الوجه الثاني: تحقيق القول في العرش وحملته.

الوجه الثالث: القرآن يوجب أن لله عرشًا يُحمل.

الوجه الرابع: أن العرش في اللغة السرير بالنسبة إلى ما فوقه، وكالسقف بالنسبة إلى ما تحته.

الوجه الخامس: إضافة العرش إلى الله إضافة اختصاص.

الوجه السادس: بعض ما ذكر في العرش.

الوجه السابع: ماذا قال الكتاب المقدس عن العرش؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآية على ما ورد عن أهل العلم مع تحقيق القول الصحيح فيها.

قال الطبري: وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾، اختلف أهل التأويل في الذي عني بقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾، فقال بعضهم: عني به ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عدّتهن إلا الله.

ذكر من قال ذلك:

أولًا: ابن عباس. [١]

---

(١) ضعيف جدًّا. جاء عن ابن عباس من ثلاثة طرق:

ثانيًا: عن الضحاك قال في قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ قال بعضهم: ثمانية صفوف لا يعلم عدتهنّ إلا الله. [1]

وقال بعضهم: ثمانية أملاك على خلق الوعلة.

وقال آخرون: بل عني به ثمانية أملاك.

ذكر من قال ذلك:

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ قال: ثمانية أملاك، وقال، قال رسول الله ﷺ : "يَحْمِلُهُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ، وَيَوْم الْقِيامَةِ ثَمَانِيَةٌ"، وقال رسول الله ﷺ : "إِنَّ أَقْدامَهُمْ لَفِي الأَرْضِ السَّابِعَةِ، وَإِنَّ مَناكِبَهُمْ لَخَارِجَةٌ مِنَ السَّمَوَاتِ عَلَيْها الْعَرْشُ". قال ابن زيد: الأربعة، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: "لَمَّا خَلَقَهُمُ اللهُ قَالَ: تَدْرُون لِمَ خَلَقْتُكُمْ؟ قالُوا: خَلَقْتَنا رَبَّنا لِمَا تَشاءُ، قالَ لَهُمْ: تَحْمِلُونَ عَرْشِي، ثُمَّ قالَ: سَلُوني مِنَ القُوَّةِ ما شِئْتُمْ أَجْعَلْها فِيكُمْ، فَقالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: قَدْ كانَ عَرْشُ رَبِّنا على المَاءِ، فاجْعل فِيَّ قُوَّةَ المَاءِ، قالَ: قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ المَاءِ؛ وقال آخرُ: اجْعَل فِيَّ قُوَّةَ السَّمَوَاتِ، قالَ: قَدْ جَعَلْتُ فيك قُوَّةَ السَّمَوَاتِ؛ وقالَ آخَرُ: اجْعَل فِيَّ قُوَّةَ الأَرْضِ، قالَ: قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ الأَرْضِ والجِبالِ؛ وقالَ آخَرُ: اجْعَلْ فِيَّ قُوَّةَ الرِّياحِ، قالَ: قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ الرِّياحِ؛ ثُمَّ قال:

١-أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/ ٥٨ من طريق الحكم بن ظهير، عن السدي، عن أبي مالك عن ابن عباس به. وفيه ابن ظهير: متروك.

٢- أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/ ٥٨ من طريق ابن حميد، عن يحيى بن واضح، عن الحسين، عن يزيد، عن عكرمة، عن ابن عباس به. وفيه يزيد بن أبان: ضعيف. وابن حميد: كذبه أهل بلده.

٣-أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/ ٥٨ من طريق محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس به. وإسناده مسلسل بالضعفاء.

(١) إسناده ضعيف.

أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/ ٥٨ قال حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: ثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك به. وإسناده ضعيف لجهالة شيخ الطبري.

احْمِلُوا، فَوَضَعُوا العَرْش على كَوَاهِلِهِمْ، فَلَمْ يَزُولُوا؛ قالَ: فَجاءَ عِلْمٌ آخَرُ، وإنَّما كانَ عِلْمُهُمُ الَّذِي سأَلُوهُ القُوَّةَ، فقالَ لَهُمْ: قُولُوا: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بالله، فقالوا: لا حَوْلَ وَلا قوَّةَ إلا بالله، فَجَعَلَ اللهُ فِيهِمْ مِنْ الْحَوْلِ والقُوَّةِ ما لَمْ يَبْلُغْهُ عِلْمُهُمْ، فَحَمَلُوا". (١)

قال الحافظ ابن كثير: وقوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش: العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب. وفي حديث عبد الله بن عَميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، في ذكر حَمَلة العرش أنهم ثمانية أوعال. (٢)

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: حملة العرش ثمانية، ما بين مُوق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام. (٣)

وأخرج أيضًا عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "أُذِنَ لي أن أحدثكم عن ملك من حَمَلة العرش: بُعْدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام"(٤).

وقد رواه أبو داود في كتاب "السنة" من سننه: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام". (٥)

---

(١) **مرسل ضعيف.** أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/ ٥٨ من طريق يونس، عن ابن وهب، عن ابن زيد به. فيه ابن زيد هو أسامة بن زيد بن أسلم: ضعيف.

(٢) الوعل: هو تيس الجبل، والخبر منكر وسيأتي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٩٦٦) قال حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا أبو السمح البصري، حدثنا قبيل حيي بن هاني، أنه سمع عبد الله بن عمرو، يقول. . فذكره.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٩٦٦). قال ابن كثير: وهذا إسناده جيد، رجاله ثقات.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٧٢٧) وإسناده حسن. وقد صححه الألباني في الصحيحة (١٥١).

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ قال: ثمانية صفوف من الملائكة[١][٢].

قال البغوي: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ﴾ أي: فوق رءوسهم يعني الحملة (يَوْمَئِذٍ) يوم القيامة (ثَمَانِيَةٌ)أي ثمانية أملاك.

جاء في الحديث: "لكل ملك منهم وجه رجل، ووجه أسد، ووجه ثور، ووجه نسر". [٣]

ثم ساق البغوي بسنده عن عبد الله بن عميرة، عن العباس بن عبد المطلب قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال: النبي ﷺ : "أتدرون ما هذا؟ قلنا: السحاب. قال: والمزن؟ قلنا: والمزن، قال: والعنان؟ فسكتنا، فقال: هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكذلك غِلظ كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم بين ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٩٦٦). حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد به.

جعفر بن أبي المغيرة: صدوق يهم. قال ابن منده: ابن أبي المغيرة ليس بالقوي في ابن جبير.

(٢) تفسير ابن كثير (١٤/ ١١٦: ١١٥) باختصار.

(٣) **ضعيف.** أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣٣١٣) من طريق عبد الله بن وهب، عن أبيه في قوله ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ﴾ قال: أربعة ملائكة يحملون العرش على أكتافهم لكل واحد منهم أربعة أوجه، وجه وجه ثور، ووجه وجه أسد، ووجه وجه نسر، ووجه وجه إنسان ولكل واحد منهم أربعة أجنحة؛ أما جناحان فعلى وجهه من أن ينظر إلى العرش فيصعق، وأما جناحان فيهفو بهما ليس لهم كلام، إلا أن يقولوا: قدسوا الله ملأت عظمته السموات والأرضين.

وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية: (٣/ ٣٩١) وقال: موقوف ضعيف الإسناد. وقال البوصيري: ضعيف لجهالة بعض رواته.

وركبهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله تعالى فوق ذلك، ليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء"(١). (٢)

قال السيوطي: قال الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٧).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الأَرْضَ السَّابِعَةَ وَالْعَرْشُ عَلَى مِنْكَبِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ أَيْنَ كُنْتَ وَأَيْنَ تَكُونُ". (٣)

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، رجلاه في الأرض السفلى وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، ويقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت". (٤)

---

(١) منكر. أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٢٣)، والترمذي في سننه (٣٣٢٠) وابن ماجه (١٩٣)، وابن خزيمة في التوحيد (١٢٤)، والآجري في الشريعة ١/ ٢٩٥، والدارمي في الرد على الجهمية (٧٢) والبزار في مسنده (١٣٠٩) وغيرهم من حديث سماك بن حرب، عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب به.

وفيه عبد الله بن عميرة: فيه جهالة. وقال البخاري لا يعرف له سماع من الأحنف بن قيس. ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٩، التاريخ الكبير للبخاري٥/ ١٥٩، تهذيب التهذيب ٤/ ٤٢٢.

وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة و الموضوعة " (٣/ ٣٩٨).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٣٨٧) باختصار.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٦١٩) قال حدثنا عمرو الناقد حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا إسرائيل، عن معاوية بن إسحاق، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة به. وصححه ابن حجر في المطالب العالية ١٠/ ٨٢. والسيوطي في الدر المنثور٧/ ٢٧٤.

(٤) منكر بهذا اللفظ. أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٥٠٣) من طريق عبيد الله بن عبد الله بن المنكدر بن محمد بن المنكدر: نا أبي عن، أبيه، عن جده محمد بن المنكدر، عن أنس بن مالك مرفوعًا.

فيه المنكدر بن محمد: لين الحديث. وقد تفرد به.

وابنه عبد الله بن المنكدر فيه جهالة. لسان الميزان ٣/ ٣٧٦.

وانظر السلسلة الضعيفة (٦٩٢٣).

وعن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ : "إن في حملة العرش أربعة أملاك: ملك على صورة سيد الصور وهو ابن آدم، وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد، وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور، فما زال غضبان منذ يوم عبد العجل إلى ساعتي هذه، وملك على صورة سيد الطير وهو النسر". (١)

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقال ما جمعكم؟ فقالوا: اجتمعنا نذكر ربنا، ونتفكر في عظمته فقال: لن تدركوا التفكير في عظمته، ألا أخبركم ببعض عظمة ربكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إن ملكا من حملة العرش يقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السفلى، ومرق رأسه من السماء السابعة العليا، في مثله من خليقة ربكم. (٢)

وعَنْ أُمِّ سَعْدٍ اِمْرَأَةٍ مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " الْعَرْشُ عَلَى مَلَكٍ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ فِي صُورَةِ دِيكٍ، رِجْلاهُ فِي التُّخُومِ السُّفْلَى، وَعُنُقُه مَثْنِيَةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَجَنَاحَاهُ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَإِذَا سَبَّحَ اللهَ ذَلِكَ الْمَلَكُ، لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إِلا سَبَّحَ ". (٣)

---

(١) **موضوع**. أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٣١) من طريق ركن الشامي، عن مكحول به.
وفي سنده علتان: الأولى: ركن الشامي وهاه ابن المبارك، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي والدار قطني: متروك، وقال البخاري: منكر الحديث. وأحاديثه عن مكحول فيها مناكير. لسان الميزان ٢/ ٤٦٢، التاريخ الكبير ٣/ ٣٤٣، الكامل في الضعفاء٣/ ١٦٠.
والثانية: الانقطاع بين مكحول وبين النبي ﷺ.

(٢) **ضعيف**. أخرجه أبو الشيخ في كتاب العظمة (٢٨٣)، وأبو نعيم في الحلية٦/ ٦٥ من طريق شهر بن حوشب، عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف.
فيه شهر بن حوشب: ضعيف.

(٣) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن أبي شيبة في العرش (٦٨) من طريق حدثنا داود بن عبد الرحمن المكي، عن محمد بن زاذان، أنه أخبره عن أم سعد به.
فيه محمد بن زاذان: متروك.

وعلى هذا لم يصح حديث عن رسول الله ﷺ في أن صفة ملائكة العرش كصفة الأوعال. فلا عبرة بما قيل بعد ذلك.

قال أبو حيان: وذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالًا متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحًا. (١)

الوجه الثاني: تحقيق القول في العرش وحملته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: للناس في أن الله فوق العرش والعالم قولان مشهوران لعامة الطوائف من المتكلمين، وأهل الحديث، والصوفية، والفقهاء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم:

أحدهما: أنه مجرد نسبة وإضافة بين المخلوقات والخالق، وبين العرش والرب، تجددت بخلقه للعرش من غير أن يكون هو في نفسه تحرك أو تصرف بنفسه شيئًا.

وهذا قول من يقول: يمتنع حلول الحوادث بذاته وتمتنع الحركة عليه.

والقول الثاني: هو المشهور عن السلف، وأئمة الحديث، وكثير من أهل الكلام والفقهاء والصوفية من الطوائف الأربعة وغيرهم؛ أنه استوى عليه بعد خلق السماوات والأرض كما دل عليه القرآن، فيكون قد استوى عليه بعد أن لم يكن مستويًا عليه، وكذلك استواؤه إلى السماء ومجيؤه وإتيانه كما وردت بذلك النصوص المتواترة الصحيحة، وعلى هذا التقدير فليس في ذلك انقلاب لذاته؛ بل قد ذكر أنه ليس في الأدلة العقلية ما يحيل ذلك.

وللناس في حملة العرش قولان:

أحدهما: أن حملة العرش يحملون العرش ولا يحملون من فوقه.

والثاني: أنهم يحملون العرش ومن فوقه كما تقدم حكاية القولين.

فيذكر ما يقوله الفريقان في جواب هذه الحجة فإنهم ينازعونه في المقدمتين جميعًا.

---

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٢٤).

فيقال: من جهة الأولين لا نسلم أن من حمل العرش يجب أن يحمل ما فوقه إلا أن يكون ما فوقه معتمدًا عليه، وإلا فالهواء والطير وغير ذلك مما هو فوق السقف ليس محمولًا لما يحمل السقف، وكذلك السماوات فوق الأرض وليست الأرض حاملة السماوات، وكل سماء فوقها سماء وليست السفلى حاملة للعليا، فإذا لم يجب في المخلوقات أن يكون الشيء حاملًا لما فوقه؛ بل قد يكون وقد لا يكون، لم يلزم أن يكون العرش حاملًا للرب تعالى إلا بحجة تبين ذلك، وإذا لم يكن العرش حاملًا لم يكن حملة العرش حاملة لما فوقه بطريق الأولى.

الوجه الثاني: أن الطائفة الأخرى تمنع المقدمة الثانية؛ فيقولون: لا نسلم أن العرش وحملته إذا كانوا حاملين لله لزم أن يكون الله محتاجًا إليهم، فإن الله هو الذي يخلقهم ويخلق قواهم وأفعالهم فلا يحملونه إلا بقدرته ومعونته، كما لا يفعلون شيئًا من الأفعال إلا بذلك، فلا يحمل في الحقيقة نفسه إلا نفسه، كما أنه سبحانه إذا دعاه عباده فأجابهم وهو سبحانه الذي خلقهم وخلق دعاءهم وأفعالهم؛ فهو المجيب لما خلقه وأعان عليه من الأفعال، وكذلك إذا فرح بتوبة التائب من عباده، أو غضب من معاصيهم، وغير ذلك مما فيه إثبات نوع تحول عن أفعال عباده، فإن هذا يقوله كثير من أهل الكلام مع موافقة جمهور أهل الحديث وغيرهم فيه مقامان مشكلان:

أحدهما: مسألة حلول الحوادث.

والثانية: تأثير المخلوق فيه.

وجواب المسألة الأولى مذكور في غير هذا الموضع.

وجواب السؤال الثاني:

أنه لا خالق، ولا بارئ، ولا مصور، ولا مدبر لأمر الأرض والسماء إلا هو فلا حول ولا قوة إلا به، وكل ما في عباده من حول وقوة فبه هو سبحانه فيعود الأمر إلى أنه هو المتصرف بنفسه سبحانه وتعالى الغني عما سواه.

وهؤلاء يقولون: هذا الذي ذكرناه أكمل في صفة الغني عما سواه، والقدرة على كل شيء مما يقوله النفاة، فإن أولئك يقولون: لا يقدر أن يتصرف بنفسه، ولا يقدر أن ينزل ولا يصعد ولا يأتي ولا يجيء، ولا يقدر أن يخلق في عباده قوة يحملون بها عرشه الذي هو عليه، ويكونون إنما حملوه وهو فوق عرشه بقوته.

ولولا ذلك ما استقل به العرش ولا الحملة ولا السماوات ولا الأرض ولا من فيهن، ولو قد شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته ولطف ربوبيته؛ فكيف على عرش عظيم أكبر من السماوات والأرض، وكيف تنكر أيها النفاج أن عرشه يقله والعرش أكبر من السماوات السبع والأرضين السبع؟! !

ولو كان العرش في السماوات والأرضيين ما وسعته؛ ولكنه فوق السماء السابعة فكيف تنكر هذا؟! وأنت تزعم أن الله في الأرض في جميع أمكنتها؟! ! ، والأرض دون العرش في العظمة والسعة، فكيف تقله الأرض في دعواك ولا يقله العرش الذي هو أعظم منها وأوسع؟! !

وأدخل هذا القياس الذي أدخلت علينا في عظم العرش وصغره وكبره على نفسك وعلى أصحابك في الأرض وصغرها؛ حتى تستدل على جهلك، وتفطن لما يورد عليك حصائد لسانك، فإنك لا تحتج بشيء إلا هو راجع عليك وآخذ بحلقك.

أفلا تدري أيها المعارض أن حملة العرش لم يحملوا العرش ومن عليه بقوتهم وبشدة أسرهم إلا بقوة الله. [1]

الوجه الثالث: القرآن يوجب أن لله عرشًا يُحْمَل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ (غافر: ٧). وقوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ (الحاقة: ١٧).

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ١ / ٥٦٦ .

وهذا يوجب أن لله عرشًا يُحمل، ويوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية فإن الملك هو مجموع الخلق، فهنا دلت الآية على أن لله ملائكة من جملة خلقه يحملون عرشه وآخرون يكونون حوله، وعلى أنه يوم القيامة يحمله ثمانية إما ثمانية أملاك وإما ثمانية أصناف وصفوف وهذا إلى مذهب المثبتة أقرب منه إلى قول النافية بلا ريب. (١)

الوجه الرابع: أن العرش في اللغة السرير بالنسبة إلى ما فوقه، وكالسقف بالنسبة إلى ما تحته.

فإذا كان القرآن قد جعل لله عرشًا وليس هو بالنسبة إليه كالسقف علم أنه بالنسبة إليه كالسرير بالنسبة إلى غيره وذلك يقتضي أنه فوق العرش.

الوجه الخامس: إضافة العرش إلى الله إضافة اختصاص.

إن إضافة العرش مخصوصة إلى الله لقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ (الحاقة: من الآية١٧) يقتضي أنه مضاف إلى الله إضافة تخصه كما في سائر المضافات إلى الله كقوله: ﴿بيت الله﴾، ﴿وناقة الله﴾ ونحو ذلك.

وإذا كان العرش مضافًا إلى الله في هذه الآية إضافة اختصاص؛ وذلك يوجب أن يكون بينه وبين الله من النسبة ما ليس لغيره، فما يذكره الجهمية من الاستيلاء والقدرة وغير ذلك أمر مشترك بين العرش وسائر المخلوقات، وهذه الآية التي احتج بها تنفي أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشترك، وتوجب اختصاصا للعرش بالله ليس لغيره كقوله: ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾ وهذا إنما يدل على قول المثبتة هو إلى الدلالة عليه أقرب، وأيهما كان فقد دلت الآية على نقيض مطلوبه، وهو الذي ألزمناه فلم يذكر آية من كتاب الله على مطلوبه إلا وهي لا دلالة فيها؛ بل دلالتها على نقيض مطلوبه أقوى. ا هـ. (٢)

الوجه السادس: بعض ما ذكر في العرش.

أولًا: في القرآن

---

(١) المصدر السابق ١/ ٥٧٦ .

(٢) تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٥٦٤ ـ ٥٧٧).

١ ـ ذكر استواء الله على عرشه في سبعة مواضع هي:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الأعراف: ٥٤)

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٣)

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد: ٢)

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (طه: ٥)

الموضع الخامس: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ (الفرقان: ٥٩)

الموضع السادس: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ (السجدة: ٤).

الموضع السابع: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (الحديد: ٤).

٢ ـ وصف الله بأنه رب العرش (أي خالقه ومالكه والمتصرف فيه كيف يشاء) **في مواضع:**

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (التوبة: ١٢٩).

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء: ٢٢).

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (المؤمنون: ٨٦).

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ (المؤمنون: ١١٦).

الموضع الخامس: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ (النمل: ٢٦).

الموضع السادس: قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الزخرف: ٨٢).

٣ ـ وصف الله بأنه صاحب العرش في مواضع:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ (الإسراء: ٤٢).

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ (غافر: ١٥).

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ (التكوير: ٢٠).

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (البروج: ١٥).

٤ ـ أضيف العرش إلى الله في موضعين:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ (هود: ٧).

الموضع الثاني: قال تعالى ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٧).

٥ ـ ذكر العرش مفردًا في موضعين:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الزمر: ٧٥)

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ (غافر: ٧).

هذه جملة ما ذكر فيها عرش الله تعالى في كتابه، ومعنى الاستواء في الآيات: الارتفاع، والاستقرار، والصعود، والعلو.

قال ابن تيمية: ما ذكره الخلال وغيره عن إسحاق بن راهويه حدثنا بشر بن عمر قال سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ (طه: ٥) أي ارتفع. (١)

وقال البخاري في صحيحه: قال أبو العالية: استوى إلى السماء: ارتفع.

وقال مجاهد: استوى: علا على العرش.

وقال البغوي في تفسيره: قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف: استوى إلى السماء ارتفع إلى السماء. وكذلك قال الخليل بن أحمد.

وروى البيهقي عن الفراء: استوى أي صعد، وهو كقول الرجل: كان قاعدًا فاستوى قائمًا وروى الشافعي في مسنده عن أنس بن مالك أنه قال عن يوم الجمعة: وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش.

ثانيًا: في السنة:

فضل العرش على الكرسي.

عن أبي ذر الغفاري قال دخلت المسجد الحرام، فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله أي آية نزلت عليك أفضل؟ قال: "آية الكرسي، ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة". (١)

---

(١) العقيدة الأصفهانية (صـ٤٩).

العرش له قوائم:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ ". (٢)

هذا جزء مما يتعلق بالعرش في عقيدة أهل الإسلام، لا تشعر فيها إلا بالعظمة للخالق سبحانه وتعالى.

أما عن قولهم: إن الله يجلس على العرش والعرش له أطيط وصرير من ثقله ويشبه الراكب على الرحل. فهذا لا يصح لأنهم يعتمدون على حديث ضعيف وبيانه كالتالي

عن جُبَيْرِ بن مُحَمَّدِ بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: جَاءَ رَسُولَ الله ﷺ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله جَهِدَتِ الأَنْفُسُ، وَضَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، وَنَهَكَتِ الأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ الله ﷻ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى الله، وَنَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَيْحَكَ تَدْرِي مَا تَقُولُ؟ ، فَسَبَّحَ رَسُولُ الله ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ، حَتَّى عَرَفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ لا يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ الله أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ تَدْرِي مَا الله ﷻ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ، وَأَرْضِهِ هَكَذَا، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ: مِثْلُ الْقُبَّةِ، وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ. (٣)

الوجه السابع: ماذا قال الكتاب المقدس عن العرش؟

---

(١) صحيح. أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٦١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٦٧)، وابن أبي شيبة في العرش (١١٤) من طريق أبي إدريس الخولاني. وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٣٠) من طريق عبيد بن عمير الليثي. كلهم عن أبي ذر به.

والحديث صححه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (١٠٩).

(٢) البخاري (٣٣٩٨).

(٣) ضعيف. رواه أبو داود في سننه (٤١٠١)، والطبراني في الكبير (١٥٤٧) من طريق جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده به.

فيه جبير بن محمد بن جبير وهو مقبول وهذا حيث يتابع وإلا فهو لين ولم يتابع هنا. فعلى هذا فإسناده ضعيف. وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة و الموضوعة " (٢٦٣٩).

١ ـ السماء هي عرش الله، والله جالس عليه.

ورد في إنجيل متى (إصحاح: ٢٣ فقرة: ٢٢): (وَمَنْ حَلَفَ بِالسَّمَاءِ فَقَدْ حَلَفَ بِعَرْشِ اللهِ وَبِالْجَالِسِ عَلَيْهِ).

٢ ـ العرش يخرج منه رعد وبرق ولله سبعة أرواح هي مصابيح أمام العرش وحيوانات وقصص وحكايات.

جاء في رؤيا يوحنا: الإصحاح الرابع: (١ بَعْدَ هذَا نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي السَّمَاءِ، وَالصَّوْتُ الأَوَّلُ الَّذِي سَمِعْتُهُ كَبُوق يَتكَلَّمُ مَعِي قَائِلاً: «اصْعَدْ إِلَى هُنَا فَأُرِيَكَ مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَصِيرَ بَعْدَ هذَا». ٢ وَلِلْوَقْتِ صِرْتُ فِي الرُّوحِ، وَإِذَا عَرْشٌ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَعَلَى الْعَرْشِ جَالِسٌ. ٣ وَكَانَ الْجَالِسُ فِي الْمَنْظَرِ شِبْهَ حَجَرِ الْيَشْبِ وَالْعَقِيقِ، وَقَوْسُ قُزَحَ حَوْلَ الْعَرْشِ فِي الْمَنْظَرِ شِبْهُ الزُّمُرُّدِ. ٤ وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ عَرْشًا. وَرَأَيْتُ عَلَى الْعُرُوشِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ شَيْخًا جَالِسِينَ مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ، وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ أَكَالِيلُ مِنْ ذَهَبٍ. ٥ وَمِنَ الْعَرْشِ يَخْرُجُ بُرُوقٌ وَرُعُودٌ وَأَصْوَاتٌ. وَأَمَامَ الْعَرْشِ سَبْعَةُ مَصَابِيحِ نَارٍ مُتَّقِدَةٌ، هِيَ سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ. ٦ وَقُدَّامَ الْعَرْشِ بَحْرُ زُجَاجٍ شِبْهُ الْبَلُّورِ. وَفِي وَسَطِ الْعَرْشِ وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةُ حَيَوَانَاتٍ مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا مِنْ قُدَّامٍ وَمِنْ وَرَاءٍ: ٧ وَالْحَيَوَانُ الأَوَّلُ شِبْهُ أَسَدٍ، وَالْحَيَوَانُ الثَّانِي شِبْهُ عِجْل، وَالْحَيَوَانُ الثَّالِثُ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ وَجْهِ إِنْسَانٍ، وَالْحَيَوَانُ الرَّابعُ شِبْهُ نَسْرٍ طَائِرٍ. ٨ وَالأَرْبَعَةُ الْحَيَوَانَاتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ حَوْلَهَا، وَمِنْ دَاخِل مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا، وَلاَ تَزَالُ نَهَارًا وَلَيْلاً قَائِلَةً: «قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، الرَّبُّ الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي كَانَ وَالْكَائِنُ وَالَّذِي يَأْتِي». ٩ وَحِينَمَا تُعْطِي الْحَيَوَانَاتُ مَجْدًا وَكَرَامَةً وَشُكْرًا لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ، الْحَيِّ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ، ١٠ يَخِرُّ الأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا قُدَّامَ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَسْجُدُونَ لِلْحَيِّ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ، وَيَطْرَحُونَ أَكَالِيلَهُمْ أَمَامَ الْعَرْشِ قَائِلِينَ: ١١ «أَنْتَ مُسْتَحِق أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ».

* * *

٣ـ شبهة: علم الله للغيب.

نص الشبهة:

ادعى المعترضون أن الله لا يعلم الغيب واستدلوا – بالفهم الخاطيء – لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (لأنفال: ٦٥)، وبقول الله تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٦٦).

وبقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (المائدة: من الآية ٩٤).

وبقول الله تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ (العنكبوت: ١١).

والجواب عن الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أن ما قالوه مناقض تمامًا لما هو مذكور في الكتاب والسنة؛ ولما هو موجود في الفطر السليمة، والعقول القويمة، من أن الله وحده هو الذي يعلم الغيب.

الوجه الثاني: تفسير الآيات التي استشهدوا بها.

الوجه الثالث: في كتبهم الله لا يعلم الغيب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن ما قالوه مناقض تمامًا لما هو مذكور في الكتاب والسنة؛ ولما هو موجود في الفطر السليمة، والعقول القويمة؛ من أن الله وحده هو الذي يعلم الغيب.

أولًا: من القرآن.

فكثير من الآيات تتحدث عن تفرد الله تعالى بعلمه للغيب منها:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩).

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ

وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ٧٣).

٣ ـ قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (يونس: ٢٠).

٤ ـ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾(النمل: ٦٥).

٥ ـ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ: ٣).

٦ ـ قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الجن: ٢٦).

ومن الآيات التي نفت علم الغيب عن الأنبياء والجن والملائكة:

١ ـ قال تعالى لنبيه: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: ٥٠).

٢ ـ وقال تعالى أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ (سبأ: ١٤).

ثانيًا: السنة. وهي كثيرة منها:

١ ـ عَنْ ابنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهَا إلا الله، لا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ، وَلا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الأَرْحَامِ، وَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ". [1]

(١) البخاري (٩٨١).

٢ ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ كَذَبَ وَهُوَ يَقُولُ: "لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلا اللهُ".(١)

ثالثا: العقل والفطرة.

فإنه من المعلوم لدى العقلاء أن الذي يقدر أن يخلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن عالم بكل شيء قبل خلقه لهذه الأشياء، وأن علمه للغيب والشهادة لا يملكه مخلوق سواء أكان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا إلا من أطلعه الله تعالى على بعض هذه الغيبيات. فيستحيل في العقول السليمة أن يساوي علم المخلوق علم الخالق؛ فضلا عن أن يفوقه.

الوجه الثاني: تفسير الآيات التي استشهدوا بها.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الانفال: ٦٥).

هذه الآية خبر من الله تعالى تدل على علمه بالغيب وليس نفي علم الغيب عنه، وذلك أن علم الله تعالى بالمؤمنين أنهم يستطيعون أن يغلبوا أكثر بما يعادل أن يغلب الواحد عشرة أفراد، لكن قد يكون هذا شاقًا عليهم، وإن كانوا يستطيعون ذلك فخفف الله تعالى عنهم فصار الأمر أن لو فر رجل من أكثر من اثنين فلا لوم عليه في ذلك. أما إذا كان الوضع كما هو الحال الأول؛ فإن الواحد لو فر من عشرة فيأثم لذلك.

قال تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (لأنفال:

---

(١) البخاري (٦٨٣٢).

٦٦)، ولأجل ذلك نجد في التاريخ الإسلامي كم من جيش مسلم عدده عشرون ألفا، ومع ذلك غلب جيشا وعدده أكثر من مائتي ألف من غير المسلمين .

قال ابن كثير: ثم قال تعالى مُبَشِّرًا للمؤمنين وآمرا: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الخِرِّيت عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

وروى البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه. (١)

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم ألا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين. (٢)

وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به ونحوه. (٣)

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفًا، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ

---

(١) البخاري (٤٦٥٢).

(٢) سنن سعيد بن منصور (٢٥٣٧) بإسناد صحيح.

(٣) البخاري (٤٦٥٣).

ضَعۡفٗاۚ﴾الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدو لهم لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم. (١)

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر، رضي الله عنهما: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ. (٢)

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾ (المائدة: ٩٤).

قال الطبري: يعني تعالى ذكره: ليختبرنكم الله، أيها المؤمنون، ببعض الصيد في حال إحرامكم، كي يعلم أهلَ طاعة الله والإيمان به، والمنتهين إلى حدوده وأمره ونهيه، ومن الذي يخاف الله فيتقي ما نهاه عنه، ويجتنبه خوف عقابه "بالغيب"، بمعنى: في الدنيا، بحيث لا يراه. (٣)

وقال ابن كثير: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا ليظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ (الملك: ١٢). (٤)

الآية الثالثة: خلطوا بين آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ (العنكبوت: ٣).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ٢٨٢ قال: حدثنا ابن حميد، عن سلمة قال: قال محمد بن إسحق به. وإسناده ضعيف جدًّا فيه محمد بن حميد كذبه أهل بلده.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٥).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٨).

والثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ (العنكبوت: ١١).

المقصود في هاتين الآيتين هو كشف الله تعالى المؤمن الصادق من الذي يدعي الإيمان لعلمه تعالى الأزلي بأحوال العباد قبل خلقهم.

الآية الأولى:

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ولقد اختبرنا الذين من قبلهم من الأمم، ممن أرسلنا إليهم رسلنا، فقالوا مثل ما قالته أمتك يا محمد بأعدائهم، وتمكيننا إياهم من أذاهم، كموسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتليناهم بفرعون وملئهم، وكعيسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتلينا من اتبعه بمن تولى عنه، فكذلك ابتلينا أتباعك بمخالفيك من أعدائك ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ منهم في قيلهم: آمنَّا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منهم في قيلهم ذلك، والله عالم بذلك منهم قبل الاختبار، وفي حال الاختبار، وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: ولَيُظْهِرَنَّ الله صدق الصادق منهم في قيله آمنا بالله من كذب الكاذب منهم بابتلائه إياه بعدوّه، ليعلم صدقه من كذبه أولياؤه، على نحو ما قد بيَّناه فيما مضى قبلُ. (١)

والآية الثانية:

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وليعلمنّ الله أولياء الله، وحزبه أهل الإيمان بالله منكم أيها القوم، وليعلمنّ المنافقين منكم حتى يميزوا كلّ فريق منكم من الفريق الآخر، بإظهار الله ذلك منكم بالمحن والابتلاء والاختبار وبمسارعة المسارع منكم إلى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام، وتثاقل المتثاقل منكم عنها. (٢)

وبعدُ فقد تبين من خلال عرض تفسير هذه الآيات التي استشهدوا بها أنها على غير مقصدهم وفهمهم، والله يهدي الجميع إلى سواء السبيل .

الوجه الثالث: في كتبهم الله لا يعلم الغيب.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٢٥).

(٢) مصدر السابق (٢٠/ ١٣٢).

١ ـ الله لا يعلم الغيب الحاضر:

جاء في سفر التكوين: (٣وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». ٤ فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! ٥ بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». ٦ فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أيضا مَعَهَا فَأَكَلَ. ٧ فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. ٨ وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩ فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟ ». ١٠ فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». ١١ فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟ » ١٢ فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». ١٣ فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟ » فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». (سفر التكوين ٣/ ١٣: ٣).

٢ ـ الرب لا يعلم ما حدث من خلقه فندم على خلقه:

جاء في سفر التكوين: (فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ). (تكوين٦: ٦).

٣ـ الرب يندم على فعل الشر لأنه لم يكن يعلم ما سيكون من عاقبته:

كما جاء في سفر الخروج: (فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ). (سفر الخروج ٣٢: ١٤).

وكما جاء في صموئيل: (وَبَسَطَ الْمَلاَكُ يَدَهُ عَلَى أُورُشَلِيمَ لِيُهْلِكَهَا، فَنَدِمَ الرَّبُّ عَنِ الشَّرِّ، وَقَالَ لِلْمَلاَكِ الْمُهْلِكِ الشَّعْبَ: «كَفَى! الآنَ رُدَّ يَدَكَ». وَكَانَ مَلاَكُ الرَّبِّ عِنْدَ بَيْدَرِ أَرُونَةَ الْيَبُوسِيِّ) (صموئيل الثانى ٢٤: ١٦).

٤ ـ الرب يسأل قايين عن أخيه لأنه لا يعلم مكانه:

كما جاء في سفر التكوين: (فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟ » فَقَالَ: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟ » (تكوين ٤: ٩).

٥ ـ الرب لا يعلم لماذا ضحكت سارة:

كما جاء في سفر التكوين: (فَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: أَفَبِالْحَقِيقَةِ أَلِدُ وَأَنَا قَدْ شِخْتُ؟) (تكوين ١٨: ١٣).

٦ ـ الرب لا يعلم لماذا سقط يشوع على وجهه:

كما جاء في يشوع: فَقَالَ الرَّبُّ لِيَشُوعَ: «قُمْ! لِمَاذَا أَنْتَ سَاقِطٌ عَلَى وَجْهِكَ؟) (يشوع٧: ١٠).

٧ ـ الرب لا يعلم لماذا شك تلاميذه:

كما جاء في إنجيل متى: (فَفِي الْحَالِ مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟ ») (متى ١٤: ٣١).

٨ ـ وهناك نصوص أخرى تنسب الجهل لله تعالى:

جاء في سفر التكوين: (وَقَالَ الرَّبُّ: «٢٠إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا. ٢١ أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ صُرَاخِهَا الآتِي إِلَيَّ، وَإِلاَّ فَأَعْلَمُ». ٢٢ وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ. ٢٣ فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «أَفَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ؟ ٢٤ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَفَتُهْلِكُ الْمَكَانَ وَلاَ تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟ ٢٥ حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ، فَيَكُونُ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلاً؟ » ٢٦ فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنْ وَجَدْتُ فِي سَدُومَ خَمْسِينَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ، فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ». ٢٧ فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ. ٢٨ رُبَّمَا نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَارًّا خَمْسَةً. أَتُهْلِكُ كُلَّ الْمَدِينَةِ بِالْخَمْسَةِ؟ » فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ». ٢٩ فَعَادَ يُكَلِّمُهُ أَيْضًا وَقَالَ: «عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ أَرْبَعُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ مِنْ أَجْلِ الأَرْبَعِينَ». سفر التكوين(١٨/ ٢٩: ٢٠)

* * *

٤ـ شبهة: حول القسم .

نص الشبهة:

ادعى هؤلاء أن الله تعالى له صفات بشرية، ومن هذه الصفات أنه يقسم كما يقسم البشر فقالوا: يقسم برب المشارق والمغارب.

كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (المعارج: ٤٠).

وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الحاقة: ٣٨- ٣٩).

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التساوي في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسميات.

الوجه الثاني: ما الفائدة من قسم الله تعالى؟

الوجه الثالث: القسم في كتابهم المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التساوي في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسميات .

بمعنى أن الله تعالى يقسم، وأن المخلوق يقسم، فليس معنى ذلك أن الله كالمخلوق، كباقي الصفات.

فإن المخلوق يتفاوت في صفاته من إنسان لآخر، ومن إنسان لحيوان، ومن حيوان لآخر وهكذا. وقد تكون الأسماء واحدة؛ كالقدم والعين والوجه والمشي وغير ذلك.

الوجه الثاني: ما الفائدة من قسم الله تعالى؟

قال ابن القيم رحمه الله: هو سبحانه يقسم بأمور على أمور؛ وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته. وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته؛ فالقسم: إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ (الذاريات: من الآية٢٣).

وإما على جملة طلبية كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢، ٩٣).

مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه، فيكون من باب الخبر، وقد يراد به تحقيق القسم.

والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك؛ كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها، فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها، وما أقسم عليه الرب فهو من آياته، فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس[1].

الوجه الثالث: القسم في كتابهم المقدس.

يوجد كثير من الفقرات في كتابهم المقدس فيه أن الرب يقسم، فإذا كانوا يعتبرون أن هذا صفة نقص في حق الإله فعليهم أن ينكروا كتبهم.

١ ـ الرب يقسم بذاته.

كما جاء في سفر التكوين: (وَقَالَ: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ). (تكوين ٢٢/ ١٦)

وكما ورد في أشعياء(بِذَاتِي أَقْسَمْتُ، خَرَجَ مِنْ فَمِي الصِّدْقُ كَلِمَةٌ لاَ تَرْجعُ: إِنَّهُ لِي تَجْثُو كُلُّ رُكْبَةٍ، يَحْلِفُ كُلُّ لِسَانٍ). (أشعياء ٤٥/ ٢٣).

وكما ورد في أرمياء: (أَنِّي بِذَاتِي حَلَفْتُ، يَقُولُ الرَّبُّ، إِنَّ بُصْرَةَ تَكُونُ دَهَشًا وَعَارًا وَخَرَابًا وَلَعْنَةً، وَكُلُّ مُدُنِهَا تَكُونُ خِرَبًا أَبَدِيَّةً) (أرمياء ٤٩/ ١٣).

٢ـ الرب يقسم.

كما جاء في سفر العدد (فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ وَأَقْسَمَ قَائِلا) (سفر العدد ٣٢: ١٠).

وكما جاء في سفر التثنية: (اُنْظُرْ قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكُمُ الأَرْضَ. ادْخُلُوا وَتَمَلَّكُوا الأَرْضَ الَّتِي أَقْسَمَ الرَّبُّ لآبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ يُعْطِيَهَا لَهُمْ وَلِنَسْلِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ). (سفر التثنية ١/ ٨).

---

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ص٤، ٥).

وكما جاء في أعمال الرسل: (وَكَمَا كَانَ يَقْرُبُ وَقْتُ الْمَوْعِدِ الَّذِي أَقْسَمَ اللهُ عَلَيْهِ لإِبْرَاهِيمَ، كَانَ يَنْمُو الشَّعْبُ وَيَكْثُرُ فِي مِصْرَ). (أعمال الرسل ٧/ ١٧)

٣ ـ المخلوق يقسم.

كما جاء في سفر العدد: (إِذَا نَذَرَ رَجُلٌ نَذْرًا لِلرَّبِّ، أَوْ أَقْسَمَ قَسَمًا أَنْ يُلْزِمَ نَفْسَهُ بِلاَزِمٍ، فَلاَ يَنْقُضْ كَلاَمَهُ حَسَبَ كُلِّ مَا خَرَجَ مِنْ فَمِهِ يَفْعَلُ)(سفر العدد ٣٠/ ٢).

وكما جاء أيضًا: (كُلُّ نَذْرٍ وَكُلُّ قَسَمِ الْتِزَامٍ لإِذْلاَلِ النَّفْسِ، زَوْجُهَا يُثْبِتُهُ وَزَوْجُهَا يَفْسَخُهُ)(سفر ا لعدد ٣٠/ ١٣).

وفي الواقع والحس أن المخلوق يقسم. فهل الله مخلوق وتعتبر هذه صفات نقص؟! !

٤ ـ الرب يحلف.

كما جاء في سفر الخروج: (وَيَكُونُ مَتَى أَدْخَلَكَ الرَّبُّ أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ كَمَا حَلَفَ لَكَ وَلآبَائِكَ، وَأَعْطَاكَ إِيَّاهَا)(خروج ١٣/ ١١).

وكما جاء في سفر التثنية: (وَإِنْ وَسَّعَ الرَّبُّ إِلهُكَ تُخُومَكَ كَمَا حَلَفَ لآبَائِكَ، وَأَعْطَاكَ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي قَالَ إِنَّهُ يُعْطِي لآبَائِكَ) (تثنية ١٩/ ٨).

وكما جاء في أعمال الرسل: (فَإِذْ كَانَ نَبِيًّا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ حَلَفَ لَهُ بِقَسَمٍ أَنَّهُ مِنْ ثَمَرَةِ صُلْبِهِ يُقِيمُ الْمَسِيحَ حَسَبَ الْجَسَدِ لِيَجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ) (أعمال الرسل ٢/ ٣٠).

٥ ـ المخلوق يحلف .

كما ورد في التكوين: (فَوَضَعَ الْعَبْدُ يَدَهُ تَحْتَ فَخْذِ إِبْرَاهِيمَ مَوْلاَهُ، وَحَلَفَ لَهُ عَلَى هذَا الأَمْرِ) (تكوين ٢٤/ ٩).

وكما ورد في اللاويين: (وَلاَ تَحْلِفُوا بِاسْمِي لِلْكَذِبِ، فَتُدَنِّسَ اسْمَ إِلهِكَ. أَنَا الرَّبُّ) (لاويين ١٩/ ١٢).

وكما جاء في متى: (وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتًا. فَأَجَابَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟) (متى ٢٦/ ٦٣).

٦ ـ المخلوق يحلف بغير الله عندهم .

كما جاء في متى: (وَمَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِالسَّاكِنِ فِيه) (متى ٢٣/ ٢١).

وجاء أيضًا فيه: (وَمَنْ حَلَفَ بِالسَّمَاءِ فَقَدْ حَلَفَ بِعَرْشِ اللهِ وَبِالْجَالِسِ عَلَيْهِ) (متى٢٣/ ٢٢).

جاء فيه أيضًا: (وَمَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِالْقُرْبَانِ الَّذِي عَلَيْهِ يَلْتَزِم) (متى ٢٣/ ١٨)

فَإِنَّ مَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِكُلِّ مَا عَلَيْهِ (متى ٢٣/ ٢٠)

٧ ـ ونجد في كتبهم النهي عن الحلف بالسماء والرأس.

كما جاء في متى: (وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَحْلِفُوا الْبَتَّةَ، لاَ بِالسَّمَاءِ لأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللهِ) (متى٥/ ٣٤)

وجاء أيضًا فيه: (وَلاَ تَحْلِفْ بِرَأْسِكَ، لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ)(متى ٥/ ٣٦)

ففي إنجيل واحد نجد التناقض بين الحلف والنهي عن الحلف. ! !

* * *

٥ـ شبهة أن الله يدعو إلى الفجور.

نص الشبهة:

يقولون:إن الله يدعو إلى الفجور وفهموا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس: ٨)

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: في بيان معنى الآية وتفسير العلماء لها.

الوجه الثاني: ماذا قالوا عن الله في كتابهم؟

واليك التفصيل

الوجه الأول: في بيان معنى الآية وتفسير العلماء لها.

الله تبارك وتعالى خلق الخير والشر، فكل فجور هو شر، وكل تقوى هي خير، فبين للإنسان طريق الخير وطريق الشر. وطلب منه فعل الخير والسير في طريقه، ورتب على ذلك الجنة ثوابًا لمن امتثل أمر الله تعالى.

ونهاه عن الشر والسير في طريقه، ورتب على من عصاه نارًا وقودها الناس والحجارة.

وجعل له حرية الاختيار حتى لا يظلمه. فإن دخل النار دخلها بعدل الله تعالى فيه.

وإن دخل الجنة جراء فعله للخير؛ دخلها برحمة الله تعالى؛ لأن الذي خلقه هو الله والذي رزقه العقل والطعام والشراب ووفقه للحق هو الله تعالى، فلو عبده آلاف السنين ما استطاع أن يوفي نعم الله تعالى عليه. ولو حاسبه الله على ذلك لأهلكه. فمن هنا كانت رحمة الله تعالى بخلقه، وأنها وسعت كل شيء.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (الإنسان ١ : ٥).

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ

نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف: ٢٩)

قال ابن جرير: وقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾يقول تعالى ذكره: فبين لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير، أو شرّ أو طاعة، أو معصية. (١)

ذكر من قال ذلك:

عن ابن عباس، قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾يقول: بَيَّنَ الخيرَ والشرَّ. (٢)

عن مجاهد ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ قال: عَرَّفَها. (٣)

عن قتادة ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾: فبَيَّن لها فجورها وتقواها. (٤)

عن الضحاك بن مزاحم ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ قال: الطاعةَ والمعصيةَ. (٥)

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن الله جعل فيها ذلك.

ذكر من قال ذلك:

قال ابن زيد، في قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قال: **جعل** فيها فجورَها وتقواها. (٦)

الوجه الثاني: الرب يضلل الناس في كتبهم المقدسة!

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٢١٠).

(٢) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢١٠). فيه على بن أبى طلحة صدوق يخطئ، ثم هو لم يسمع من ابن عباس التفسير فهو مرسل (جامع التحصيل ١/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢١٠). من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

(٤) **إسناده صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣٦٢٧) من طريق معمر، وأخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢١٠) من طريق سعيد. كلاهما عن قتادة به.

(٥) **حسن**. أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣٦٢٨) من طريق ابن أبي داود. وأخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢١٠) من طريق عبيد. كلاهما عن الضحاك به.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢١٠) حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب عن ابن زيد به.

إذا كانوا يفهمون خطأ بأن الله يدعو للفجور، فهم يزعمون أن الرب يضلل الناس.

كما جاء في أشعيا: (لِمَاذَا أَضْلَلْتَنَا يَا رَبُّ عَنْ طُرُقِكَ، قَسَّيْتَ قُلُوبَنَا عَنْ مَخَافَتِكَ؟ ارْجِعْ مِنْ أَجْلِ عَبِيدِكَ، أَسْبَاطِ مِيرَاثِكَ)(اشعياء ٦٣/ ١٧)

وكما جاء في حزقيال: (فَإِذَا ضَلَّ النَّبِيُّ وَتَكَلَّمَ كَلاَمًا، فَأَنَا الرَّبُّ قَدْ أَضْلَلْتُ ذلِكَ النَّبِيَّ، وَسَأَمُدُّ يَدِي عَلَيْهِ وَأُبِيدُهُ مِنْ وَسْطِ شَعْبِي إِسْرَائِيلَ) (حزقيال ١٤/ ٩)

* * *

٦ـ شبهة أن الله يميل إلى النساء.

نص الشبهة:

وقد استدل هؤلاء – بالفهم الخاطئ – لقول الله تعالى ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٧)

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآية.

الوجه الثاني: الله تبارك وتعالى منزه عن الزوجة والولد.

الوجه الثالث: ماذا في كتبهم عن الله؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآية.

هذه الآية جاءت ردًا على النصارى الذين ادعوا أن الله له زوجة، وأن له ابنًا، وأن الله تعالى لو شاء أن يتخذ زوجة وولدًا فهو القادر على كل شيء سبحانه وتعالى، ولذلك جاء سياق الآيات ردًا على المشركين فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الأنبياء١٦ : ٢٩).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: لو أردنا أن نتخذ زوجة وولدًا لاتخذنا ذلك من عندنا، ولكنا لا نفعل ذلك، ولا يصلح لنا فعله ولا ينبغي؛ لأنه لا ينبغي أن يكون لله ولد ولا صاحبة.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل.[1]

وقال ابن كثير: يخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ (النجم: ٣١)، وأنه لم يخلق ذلك عبثًا ولا لعبًا، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ (ص: ٢٧).

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا نارًا، ولا موتًا، ولا بعثًا، ولا حسابًا.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن.

وقال إبراهيم النَّخعِي: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ﴾ من الحور العين.

وقال عكرمة والسدي: المراد باللهو هاهنا: الولد.

وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ (الزمر: ٤)، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقًا، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى، أو العزير، أو الملائكة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ (الإسراء: ٤٣).

وقوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال قتادة، والسدي، وإبراهيم النخعي، ومغيرة بن مِقْسَم، أي: ما كنا فاعلين.

---

(١) تفسير الطبري (١٦ / ٢٣٨).

وقال مجاهد: كل شيء في القرآن "إن" فهو إنكار.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: (فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) أي: ذاهب مضمحل، ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أي: أيها القائلون: لله ولد، (مِمَّا تَصِفُونَ) أي: تقولون وتفترون.[1]

الوجه الثاني: الله تبارك وتعالى منزه عن الزوجة والولد.

أولًا: من القرآن:

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾ (الأنعام: ١٠١)

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ (المؤمنون: ٩١)

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ (الجن: ٣)

وقال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٦٨).

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾ (الإسراء: ١١١).

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٣).

قال ابن كثير: يقول تعالى حاكمًا بتكفير فرق النصارى، من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوًا كبيرًا.

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٦).

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٣٦﴾ (مريم: ٣٠-٣٦). وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨، ١١٦). [1]

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾ (النساء: ١٧١).

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ (الأنعام: ١٠١).

قال ابن كثير: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولدا عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١١).

﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ (مريم: ٨٨-٩٥).

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾﴾ فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.(١)

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾(المائدة: ١١٦-١١٧).

هذا أيضًا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليه السلام، قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد.

ثانيًا: من السنة.

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا في زَمَنِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قَالُوا يَا رَسُولَ الله هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم « نَعَمْ ». . . . وهو حديث الرؤية وفيه قَالَ «. . . . إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ في النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٦).

مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ! فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. . . "[1].

الوجه الثالث: ماذا في كتبهم عن الله؟

١ ـ ادعوا أن الله له ولد وهو المسيح.

فجاء في إنجيل متى: (فأجاب سمعان بطرس و قال أنت هو المسيح ابن الله الحي) (متى ١٦: ١٦).

وجاء في إنجيل مرقص: (ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقا كان هذا الإنسان ابن الله) (مرقص ١٥: ٣٩)

وجاء في إنجيل لوقا: (فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضًا القدوس المولود منك يدعى ابن الله) (لوقا ١: ٣٥).

وجاء في إنجيل يوحنا: (الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد) (يوحنا ٣: ١٨).

وكما جاء في أعمال الرسل: (فقال فيلبس: إن كنت تؤمن من كل قلبك يجوز فأجاب وقال أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله) (أعمال الرسل ٨: ٣٧) والولد لا يكون إلا من زوجة فمن أمه؟

٢ ـ آدم ابن الله.

كما جاء في إنجيل لوقا في نسب يسوع (...بن أنوش بن شيت بن آدم ابن الله) (لوقا ٣: ٣٨)

* * *

(١) البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

٧ـ شبهة: ادعاؤهم أن الله سبحانه وتعالى قوّاد.

نص الشبهة:

واحتجوا على ذلك بقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢٨).

وبقول عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ : "إن ربك ليسارع في هواك ".

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآية وأنها على خلاف هذا الظن الفاسد.

الوجه الثاني: بيان المقصود بقولها رضي الله عنها (إن ربك يسارع في هواك).

الوجه الثالث: ماذا في كتبهم من القبائح!

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآية، وأنها على خلاف هذا الظن الفاسد.

قال ابن كثير: هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يُخَيِّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن ـ رضي الله عنهن وأرضاهن ـ الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. (١)

وقال القرطبي: في المسالة الثالثة من الآية : قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ " إن " شرط، وجوابه " فتعالين "، فعلق التخيير على شرط.

الرابعة : قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾ هو جواب الشرط، وهو فعل جماعة النساء، من قولك تعالى، وهو دعاء إلى الإقبال إليه، يقال: تعال بمعنى أقبل، وضع لمن له جلالة

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨١).

ورفعة، ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال، وأما في هذا الموضع فهو على أصله، فإن الداعي هو رسول الله ﷺ (أمتعكن). . . . . . ، وقرئ " أمتعكن " بضم العين.

وكذا (وأسرحكن) بضم الحاء على الاستئناف.

والسراح الجميل: هو أن يكون طلاقا للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لها.

الخامسة : اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه على قولين:

الأول : أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق، فاخترن البقاء، قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي وابن شهاب وربيعة.

الثاني : ومنهن من قال: إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن، ولم يخيرهن في الطلاق، ذكره الحسن وقتادة.

ومن الصحابة علي فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال: لم يخير رسول الله ﷺ نساءه إلا بين الدنيا والآخرة.

قلت: القول الأول أصح، لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت: قد خيرنا رسول الله ﷺ أفكان طلاقًا! في رواية: فاخترناه فلم يعده طلاقا ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق، لذلك قال: (يا عائشة إني ذاكر لك أمرًا فلا عليك ألا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك) الحديث.

ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة.

فثبت أن الاستئمار إنما وقع في الفرقة، أو النكاح. والله أعلم. [1]

الوجه الثاني: بيان المقصود بقولها رضي الله عنها (إن ربك يسارع في هواك).

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ الله ﷺ وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا فَلَمَّا أَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٠).

مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قُلْتُ: مَا أُرَى رَبَّكَ إلا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ. [١]

أولًا: معنى الهوى:

والهَوى ـ مقصور ـ: هَوَى النَّفْس، وإِذا أَضفته إِلـيك قلت هَوايَ.

الهَوى: العِشْق، يكون فـي مداخـل الـخير والشر.

وهَوى النفسِ: إِرادتها، والـجمع الأَهْواء.

قال اللغويون: الهَوَى: مـحبةُ الإِنسانِ الشيء وغَلَبَتُه علـى قلبه؛ قال الله ﷻ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠)﴾ معناه: نَهاها عن شَهَوَاتِها وما تدعو إِلـيه من معاصي الله ﷻ.

وقال اللـيث: الهَوى ـ مقصور ـ: هَوى الضَّمير، تقول: هَوِي، بالكسر، يَهْوى هوىً أَي أَحبّ. [٢]

ثانيًا: معنى الهوى في الحديث:

قول عائشة: مَا أَرَى رَبَّك إِلا يُسَارِع فِي هَوَاك.

قال ابن حجر: أَيْ: مَا أَرَى الله إِلا مُوجِدًا لِمَا تُرِيد بِلا تَأْخِير، مُنْزِلا لِمَا تُحِبّ وَتَخْتَار. [٣]

وقال: فِي رِوَايَة مُحَمَّد بْن بِشْر "إِنِّي لأَرَى رَبّك يُسَارِع لَك فِي هَوَاك" أَيْ فِي رِضَاك.

قَالَ الْقُرْطُبِيّ: هَذَا قَوْل أَبْرَزَهُ الدَّلال وَالْغَيْرَة، وَهُوَ مِنْ نَوْع قَوْلهَا: مَا أَحْمَدكُمَا وَلا أَحْمَد إِلا الله، وَإِلا فَإِضَافَة الْهَوَى إِلَى النَّبِيّ ﷺ لا تُحْمَل عَلَى ظَاهِره، لأَنَّهُ لا يَنْطِق عَنْ الْهَوَى وَلا يَفْعَل بِالْهَوَى، وَلَوْ قَالَتْ إِلَى مَرْضَاتك لَكَانَ أَلْيَق، وَلَكِنَّ الْغَيْرَة يُغْتَفَر لأَجْلِهَا إِطْلاق مِثْل ذَلِكَ[٤].

الوجه الثالث: ماذا في كتابهم من القبائح!

١ ـ الرب يأمر بالزنى.

كما جاء في هوشع: (أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى، لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ») (هوشع ١/ ٢)

---

(١) البخاري (٤٤١٤)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٣٧٤) باختصار.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٨/ ٥٢٦).

(٤) المصدر السابق (٩/ ١٦٥).

وجاء أيضًا فيه: (وَقَالَ الرَّبُّ لِي: «اذْهَبْ أيضًا أَحْبِبِ امْرَأَةً حَبِيبَةَ صَاحِبٍ وَزَانِيَةً، كَمَحَبَّةِ الرَّبِّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ مُلْتَفِتُونَ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى وَمُحِبُّونَ لأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ») (هوشع٣/ ١)

٢ ـ نشيد الإنشاد وكلام فاضح.

جاء في نشيد الإنشاد كلام يُنسب إلى الرب ويُدَّعى فيه العصمة، وهو كلام يستحي كل عاقل أن يذكره أمام امرأة.

جاء في نشيد الإنشاد:

لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلاَتِ فَمِهِ، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ. لِرَائِحَةِ أَدْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، لِذلِكَ أَحَبَّتْكَ الْعَذَارَى. اُجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِيَ. أَدْخَلَنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ بِكَ. نَذْكُرُ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ. بِالْحَقِّ يُحِبُّونَكَ. أَنَا سَوْدَاءُ وَجَمِيلَةٌ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، كَخِيَامِ قِيدَارَ، كَشُقَقِ سُلَيْمَانَ. لاَ تَنْظُرْنَ إِلَيَّ لِكَوْنِي سَوْدَاءَ، لأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ لَوَّحَتْنِي. بَنُو أُمِّي غَضِبُوا عَلَيَّ. جَعَلُونِي نَاطُورَةَ الْكُرُومِ. أَمَّا كَرْمِي فَلَمْ أَنْطُرْهُ. أَخْبِرْنِي يَا مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي، أَيْنَ تَرْعَى، أَيْنَ تُرْبِضُ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ. لِمَاذَا أَنَا أَكُونُ كَمُقَنَّعَةٍ عِنْدَ قُطْعَانِ أَصْحَابِكَ؟ إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ، فَاخْرُجِي عَلَى آثَارِ الْغَنَمِ، وَارْعَيْ جِدَاءَكِ عِنْدَ مَسَاكِنِ الرُّعَاةِ. لَقَدْ شَبَّهْتُكِ يَا حَبِيبَتِي بِفَرَسٍ فِي مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ. مَا أَجْمَلَ خَدَّيْكِ بِسُمُوطٍ، وَعُنُقَكِ بِقَلاَئِدَ! نَصْنَعُ لَكِ سَلاَسِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَعَ جُمَانٍ مِنْ فِضَّةٍ. مَا دَامَ الْمَلِكُ فِي مَجْلِسِهِ أَفَاحَ نَارِدِينِي رَائِحَتَهُ. صُرَّةُ الْمُرِّ حَبِيبِي لِي. بَيْنَ ثَدْيَيَّ يَبِيتُ. طَاقَةُ فَاغِيَةٍ حَبِيبِي لِي فِي كُرُومِ عَيْنِ جَدْيٍ. هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي، هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ. عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ. هَا أَنْتَ جَمِيلٌ يَا حَبِيبِي وَحُلْوٌ، وَسَرِيرُنَا أَخْضَرُ. جَوَائِزُ بَيْتِنَا أَرْزٌ، وَرَوَافِدُنَا سَرْوٌ) (نشيد الإنشاد ١ : ١٧)

* * *

٨ـ شبهة: أن الله سبحانه وتعالى يُضل الناس.

نص الشبهة:

وقد احتج هؤلاء - بالفهم الخاطيء - لقول الله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ (النساء: ١١٩).

وبقول الله ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٠٠).

وبقول الله ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

وبقول الله ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٥).

وقال الله ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ٨٨).

وبقول الله ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (الأعراف: ١٨٦)، وغيرها من الآيات. وبقول الله ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (المدثر: ٣١).

وبقول الله ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (النحل: ٩٣).

وبقول الله ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

الشيطان مضل:

قال تعالى ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (القصص: ١٥).

والجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: توضيح الآيات التي ذكروها وفق ما قال أهل التفسير.

الوجه الثاني: الآيات التي فيها أن الشيطان يضل.

الوجه الثالث: ماذا في كتبهم عن الرب؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: توضيح الآيات التي ذكروها وفق ما قال أهل التفسير.

الآية الأولى:

قول الله تعالى ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ (النساء: ١١٩).

وهي خاصة بالشيطان كما في سياق الآيات حيث قال الله قبلها ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾ (النساء: ١١٧ - ١١٨).

قال ابن جرير: القول في تأويل قوله: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: مخبرًا عن قيل الشيطان المريد الذي وصف صفته في هذه الآية: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾، ولأصدّن النصيب المفروض الذي أتخذه من عبادك عن محجة الهدى إلى الضلال، ومن الإسلام إلى الكفر. ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، يقول: لأزيغنَّهم -بما أجعل في نفوسهم من الأماني- عن طاعتك وتوحيدك، إلى طاعتي والشرك بك، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾، يقول: ولآمرن النصيبَ المفروض لي من عبادك، بعبادة غيرك من الأوثان والأنداد حتى يَنْسُكوا له، ويحرِّموا ويحللوا له، ويشرعوا غيرَ الذي شرعته لهم، فيتبعوني ويخالفونك.

و"البتك"، القطع، وهو في هذا الموضع: قطع أذن البَحِيرة ليعلم أنها بَحِيرة.

وإنما أراد بذلك الخبيثُ أنه يدعوهم إلى البحيرة، فيستجيبون له، ويعملون بها طاعةً له.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. (١)

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

الإرادة المقصودة في هذه الآية هي الإرادة الكونية القدرية. وهي التي سبقت في علم الله تعالى أن عبده فلان سوف يسلك طريق الهداية ويسلم لله تعالى فيسر الله تعالى له ذلك. ومن العباد من أراد الضلال والبعد عن الحق بمحض اختياره فيسر الله تعالى له الطريق الذي سلكه، ولا يظلم ربك أحدًا.

وهذا قد فاض الكتاب به، منها:

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (الليل ١٠ : ٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ (مريم: ٧٥-٧٦).

وقد أثبت الله تعالى للعبد اختيارًا في الضلال والهدى فقال تعالى في سورة الكهف:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (الكهف: ٢٩-٣٠).

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٢٨١).

الآية الثالثة: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٥).

قال ابن جرير: وأما قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: ما هذه الفعلة التي فعلَها قومي، من عبادتهم ما عبَدُوا دونك، إلا فتنة منك أصَابتهم، ويعني (بالفتنة)، الابتلاء والاختبار، يقول: ابتليتهم بها، ليتبين الذي يضلّ عن الحق بعبادته إياه، والذي يهتدي بترك عبادته. وأضاف إضلالهم وهدايتهم إلى الله، إذ كان ما كان منهم من ذلك عن سببٍ منه جل ثناؤه. [١]

فالمقصود بالفتنة هي: الاختبار والامتحان لمن زعم أنه قد استقام على طريق الله تعالى وهو كاذب، فحتى لا ينخدع به الناس تأتي الفتنة لتكشف كذبه.

وأما إضلال الله تعالى له، فإنما هو أمر كوني قدري لما علم الله فيه الضلال والسير فيه سهل له الطريق.

ولذلك قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد: من الآية ١١)

وقد قال ابن كثير: وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، وربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمرُ إلا أمرُك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِل لمن هَديت، ولا مُعطِي لما

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٧٧).

مَنَعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.[(١)]

الآية الرابعة:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النحل: ٩٣).

فالله سبحانه وتعالى له الملك وله الحكم ولا معقب لحكمه ولا شريك له في أمره ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فإن الإنسان إذا ملك بيتا أو قطعة أرض فهو يرى في نفسه أنه يعمل فيها ما يشاء سواء كان ببيعها أو هبتها أو إهدائها، أو بنيانها أو شيء يريد أن يعمله وهو يعتقد أنه لا شريك له فيها.

فكيف بخالق هذا الكون سبحانه ومالكه ولا شريك له فيه؛ أليس له الأمر كله في تصرفه في ملكه كيف يشاء سبحانه؟!

ولكنه سبحانه موصوف بالعدل والرحمة، فلا يحاسب عبده إلا بعدله، ولا يدخله في نعيمه إلا برحمته. وهو الحكيم الخبير بشؤون خلقه.

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفية من عنده، فصرتم جميعًا جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفترقون، ولكنه تعالى ذكره خالف بينكم، فجعلكم أهل ملل شتى، بأن وفَّق هؤلاء للإيمان به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحَرَمهم توفيقه فكانوا كافرين، وليسألنكم الله جميعا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم ليجازينكم جزاء المطيع منكم بطاعته، والعاصي له بمعصيته.[(٢)]

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥١).

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٦٨).

وإذا نظرنا إلى أي حاكم وهو يحكم بالسجن على مجرمين، والإعدام على آخرين وغير ذلك من العقوبات، وأعطى أقواما وقربهم منه، لأنهم طائعين له ومنفذين لأوامره، فهل نقول عليه أنه ظالم؟ لأنه فرق بين الناس!!.

بالبديهي: أن كل إنسان عاقل سوف يقول: إن هذا من العدل.

ولله المثل الأعلى سبحانه وتعالى. هو الملك، وهو بيده مقاليد السماوات والأرض. فلا يسوي بين طائع ومجرم كما قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (القلم: ٣٥، ٣٦).

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (السجدة: ١٨).

وهذا ما كان منه سبحانه في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (سبأ: ٥).

وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (الجاثية: ١١).

وغيرها من الآيات التي توعد الله تعالى بها المجرمين المنحرفين عن طريق الهدى أمثال اليهود والنصارى وغيرهم من ملل الكفر.

فهذا العذاب جزاء إجرامهم وكفرهم بالله تعالى الذي خلقهم وعبدوا غيره.

الوجه الثاني: الآيات التي فيه أن الشيطان يُضل.

فإذا كان الله تعالى له الملك وله الأمر وله الخلق سبحانه يفعل في ملكه ما يشاء، فيضل من يشاء عدلا منه سبحانه؛ لأن العبد اختار الضلال، ويهدي من يشاء رحمة منه سبحانه؛ لأن العبد اختار الهدى فوفقه للهدى.

فإن الشيطان سواء كان من الإنس أو من الجن يضل؛ بمعنى أنه يدعو إلى طريق الضلال، لا أنه يملك الضلال. ولا سلطان له على الخلق.

والدعوة إلى الخير أو الشر شيء جعله الله من اختيار العبد، وعلى ذلك رتب الثواب والعقاب.

ولذلك يخطب الشيطان يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

أما الشيطان فليس له سلطان على المؤمن بأي حال من الأحوال كما قال الله تعالى له: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٦٥).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل: ٩٩).

وليس له سلطان على العاصي أن يجره بالقوة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (سبأ: ٢١).

وكذلك شياطين الإنس ليس لهم سلطان كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الصافات: ٣٠).

الوجه الثالث: ماذا في كتبهم عن الرب؟

١ ـ الرب ضلل عباده فيعطيهم فرائض غير صالحة.

كما جاء في حزقيال: (وَأَعْطَيْتُهُمْ أيضًا فَرَائِضَ غَيْرَ صَالِحَةٍ وَأَحْكَاماً لاَ يَحْيُونَ بِهَا) (حزقيال ٢٠: ٢٥).

٢ ـ الرب يأمر بالسُّكر.

كما جاء في نشيد الإنشاد: (الرب يأمر بالسُّكر: (كُلُوا أَيُّهَا الأَصْحَابُ. اشْرَبُوا وَاسْكَرُوا أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ.) (نشيد الإنشاد٥: ١).

٣ ـ الرب يأمر بالسرقة:

كما في جاء في الخروج: (وَأُعْطِي نِعْمَةً لِهَذَا الشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ. بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَاباً وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الْمِصْرِيِّينَ) (خروج ٣: ٢١-٢٢).

وكما جاء كذلك أيضًا في التكوين: (وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. طَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَاباً. وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارُوهُمْ. فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ.) (تكوين ١٢: ٣٥-٣٦).

ونقول لهم:

أليس هذا كله من تضليل الناس؟! هل هناك رب يأمر بما هو فاحش؟ ثم يعاقبهم على ذلك عندما يأمرهم؟!!

ولكن الله تعالى في عقيدة المسلمين منزه عن كل نقيصة، فهو سبحانه عادل، وحكيم، ورحيم، ولا يأمر عبده إلا بما فيه منفعته في الدنيا والآخرة، ولا ينهاه عن فعل إلا وفي فعله ضرر عليه في الدنيا والآخرة.

* * *

٩ـ شبهة: ما ينزل من السماء.

نص الشبهة:

قالوا: بأن الله له منيٌّ كمنيِّ الرجال وذلك بسبب الفهم الخاطئ للماء الذي ينزل من السماء فينبت به الناس. واحتجوا على ذلك من خلال ما روي عن النبيﷺ أنه قال: "ما بين النفختين أربعون سنه ثم ينزل الله ماء من السماء كمنيِّ الرجال فينبتون كما ينبت البقل".

والجواب عن ذلك من وجوه.

الوجه الأول: نص الحديث الصحيح.

الوجه الثاني: لفظة كمنيِّ الرجال لا تصح.

الوجه الثالث: على افتراض صحة الحديث.

واليك التفصيل

الوجه الأول: نص الحديث الصحيح.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: " مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ. قَالَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

وليس في الحديث: كمنيِّ الرجال.

الوجه الثاني: لفظة كمنى الرجال لا تصح.

الحديث الذي ذُكر فيه أنه كمنيِّ الرجال من حديث ابن مسعود ولا يصح.

قال أبو الزعراء ذكر الدجال عند ابن مسعود فقال: ". . . . . فيرسل الله ماء من تحت العرش كمنيِّ الرجال، فتنبت لحمانهم وجثمانهم من ذلك الماء، كما ينبت الأرض من الثرى، ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ

(١) البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ (فاطر: ٩). . . "(١)

الوجه الثالث: على افتراض صحة الحديث.

فنحن نؤمن به كما جاء، والحديث ليس فيه إثبات أن هذا السائل خرج من الله تعالى، وإنما هو خلق من خلق الله تعالى كما خلق مني الرجل في أصلابهم، قادرٌ سبحانه أن يجعل المني كالمطر وهو على شيء قدير.

وليس في الحديث أن هذا السائل يضاف إلى الله تعالى حتى نقول إنه صفة من صفاته أو هو إضافة خلق كما بينا. وقد وصف النبي ﷺ هذا الماء بالطل أو الظل.

عن عبد الله بن عمرو قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " يَخْرُجُ الدَّجَّالُ في أمتي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لاَ أَدْرِى أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشام؛ فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ ". قَالَ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ "فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلاَمِ السِّبَاعِ، لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلاَ تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ. وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ

---

(١) منكر. أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٦٧٦)، ونعيم ابن حماد في الفتن (١٦٥٧) وحنبل بن إسحاق في الفتن (٤٤)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٤٦٨)، والطبراني (٩٧٦١)، والعقيلي في الضعفاء (١٠٣٠) كلهم من حديث سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن ابن مسعود به.

قال البخاري: عبد الله بن هانئ أبو الزعراء الكوفي سمع ابن مسعود ﷺ سمع منه سلمة بن كهيل، يقال عن أبي نعيم أنه الكندي، روى عن ابن مسعود ﷺ في الشفاعة" ثم يقوم نبيكم رابعهم" والمعروف عن النبي ﷺ أنا أول شافع. ولا يتابع في حديثه. التاريخ الكبير (٥/ ٢٢١). ولهذا فقد أنكر شعبة هذا حيث قال: لم أسمع هذا إلا في هذا الحديث فيقوم نبيكم ﷺ رابع أربعة. الطبراني في الكبير ٩/ ٣٥٤.

فالحديث منكر بهذ اللفظ. فلا تثبت به عقيدة بذلك. والله أعلم.

عَيْشُهُمْ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ - قَالَ - فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ - قَالَ - ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ فَيُقَالُ مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ - قَالَ - فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ". [1]

* * *

(١) مسلم (٢٩٤٧).

١٠ـ شبهة: ادعاؤهم أن الله يمرض ويجوع.

نص الشبهة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : "إِنَّ الله ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تعدني، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عبدي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لوجدتني عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تطعمني، قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عبدي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عندي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تسقني، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عبدي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عندي ". [1]

والاعتراض: كيف يمرض الإله ويُسقى ويُستطعم إلى غير ذلك كما هو في الحديث؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذه طريقة معتادة في الخطاب، ويخبر السيد عن نفسه ويريد بها العبد.

الوجه الثاني: بيان أن نسبة المرض والجوع تعود على العبد، لا على الله ﷻ.

الوجه الثالث: فهم السلف لهذا الحديث.

الوجه الرابع: إن إضافة المرض والإطعام والاستسقاء لله ﷻ إنما هي على الترغيب.

الوجه الخامس: بطلان قول من قال بالحلول والاتحاد.

الوجه السادس: قد يُطلق الاتحاد ويُراد به معنًى آخر.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن هذه طريقة معتادة في الخطاب، ويخبر السيد عن نفسه ويريد بها العبد.

قال أبو يعلى: اعلم أن هذا الخبر قد اقترن به تفسير من النبي ﷺ في بعضه، فوجب الرجوع إلى تفسيره، وذلك تفسير قوله: مرضت واستطعمت واستسقيت على أنه إشارة إلى مرض وليه واستسقائه واستطعامه، وأضاف ذلك إلى نفسه إكرامًا لوليه ورفعةً لقدره،

---

(١) مسلم (٢٥٦٩).

وهذه طريقة معتادة في الخطاب، يخبر السيد عن نفسه ويريد عبده إكرامًا له وتعظيمًا. [١]

الوجه الثاني: بيان أن نسبة المرض والجوع تعود على العبد، لا على الله ﷻ.

قال ابن تيمية: فإنه لا يجوز لعاقل أن يقول: إن دلالة هذا الحديث مخالفة لعقلٍ ولا سمعٍ إلا من يظن أنه قد دل على جواز المرض والجوع علي الخالق سبحانه وتعالى، ومن قال هذا فقد كذب على الحديث، ومن قال: إن هذا ظاهر الحديث أو مدلوله أو مفهومه فقد كذب؛ فإن الحديث قد فسره المتكلم به وبين مراده بيانًا زالت به كل شبهة، وبين فيه أن العبد هو الذي جاع، وأكل، ومرض، وعاده العواد، وأن الله ـ سبحانه ـ لم يأكل ولم يُعَدْ. [٢]

الوجه الثالث: فهم السلف لهذا الحديث.

قال ابن عثيمين: السلف أخذوا بهذا الحديث ولم يصرفوه عن ظاهره بتحريف يتخبطون فيه بأهوائهم، وإنما فسروه بما فسره به المتكلم به، فقوله – تعالى- في الحديث القدسي: " مرضت، واستطعمتك، واستسقيتك" بينه الله – تعالى- بنفسه حيث قال: " أما علمت أن عبدي فلانًا مرض، وأنه استطعمك عبدي فلان، واستسقاك عبدي فلان " وهو صريح في أن المراد به مرض عبد من عباد الله، واستطعام عبد من عباد الله، واستسقاء عبد من عباد الله، والذي فسره بذلك هو الله المتكلم به، وهو أعلم بمراده، فإذا فسرنا المرض المضاف إلى الله، والاستطعام المضاف إليه، والاستسقاء المضاف إليه، بمرض العبد، واستطعامه، واستسقائه – لم يكن في ذلك صرف للكلام عن ظاهره؛ لأن ذلك تفسير المتكلم به، فهو كما لو تكلم بهذا المعنى ابتداءً. [٣]

الوجه الرابع: إن إضافة المرض، والإطعام، والاستسقاء لله ﷻ؛ إنما هي على الترغيب.

وقد أضاف الله – تعالى- مرض عبده واستطعامه واستسقائه إلى نفسه للترغيب والحث كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ (البقرة: ٢٤٥).

---

(١) نقلاً من إبطال التأويلات ١/ ٢٢٤.

(٢) درء التعارض لابن تيمية ١/ ٨٦.

(٣) القواعد المثلى لابن عثيمين (٧٦).

قال ابن تيمية: وذلك لأن المحب يتفق هو محبوبه بحيث يرضى أحدهما بما يرضاه الآخر، ويأمر بما يأمر به، ويبغض ما يبغضه، ويكره ما يكرهه، وينهى عما ينهى عنه، وهؤلاء هم الذين يرضى الحق لرضاهم، ويغضب لغضبهم، والكامل المطلق في هؤلاء محمد ﷺ، ولهذا قال -تعالى- فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾. [١]

قال ابن القيم: فتأمل قوله في الإطعام والإسقاء: " لوجدت ذلك عندي "، وقوله: في العيادة: " لوجدتني عنده " ولم يقل: لوجدت ذلك عندي إيذانًا بقربه من المريض، وأنه عنده لذله، وخضوعه، وانكسار قلبه، وافتقاره إلى ربه، فأوجب ذلك وجود الله عنده، هذا وهو فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، وهو عند عبده. [٢]

الوجه الخامس: بطلان قول من قال بالحلول والاتحاد.

قال ابن تيمية: وقوله: "لوجدتني عنده ووجدت ذلك عندي" نَفْيٌ لِلِاتِّحَادِ الْعَيْنِيِّ بِنَفْيِ الْبَاطِلِ وَإِثْبَاتٌ لِتَمْيِيزِ الرَّبِّ عَنْ الْعَبْدِ.

وَقَوْلُهُ: {لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ} لَفْظُ ظَرْفٍ؛ وَبِكُلِّ يَثْبُتُ الْمَعْنَى الْحَقُّ مِنْ الْحُلُولِ الْحَقِّ؛ الَّذِي هُوَ بِالْإِيمَانِ لَا بِالذَّاتِ. وَيُفَسِّرُ قَوْلُهُ: {مَرِضْت فَلَمْ تَعُدْنِي} فَلَوْ كَانَ الرَّبُّ عَيْنَ الْمَرِيضِ وَالْجَائِعِ لَكَانَ إذَا عَادَهُ وَإِذَا أَطْعَمَهُ يَكُونُ قَدْ وَجَدَهُ إيَّاهُ وَقَدْ وَجَدَهُ قَدْ أَكَلَهُ.

وقال: يُفَسِّرُ قَوْلُهُ: {مَرِضْت فَلَمْ تَعُدْنِي} فَلَوْ كَانَ الرَّبُّ عَيْنَ الْمَرِيضِ وَالْجَائِعِ لَكَانَ إذَا عَادَهُ وَإِذَا أَطْعَمَهُ يَكُونُ قَدْ وَجَدَهُ إيَّاهُ وَقَدْ وَجَدَهُ قَدْ أَكَلَهُ. [٣]

كما أن الحديث قد فرق وميز بين العابد والمعبود، والرب والمربوب، وهذا نقض صريح لعقيدة الحلول والاتحاد.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٣٩١: ٣٩٢.

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٤١١.

(٣) مجموع الفتاوى ٢/ ٣٩١، ٣٩٢.

وقال أيضا: وأما أن يكون الخلق جزءا من الخالق تعالى، فهو كفر صريح يقوله أعداء الله النصارى ومن غلا من الرافضة، وجهال المتصوفة، ومن اعتقده فهو كافر، نعم للمؤمنين العارفين بالله المحبين له من مقامات القرب ومنازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من أدركه وناله، والرب رب، والعبد عبد، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، وليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به، أو بغيره من المخلوقات واتحاده به. (١)

الوجه السادس: **قد يُطلق الاتحاد ويُراد به معنًى آخر.**

قال ابن تيمية:فينبغي أن يعرف هذا النوع من الكلام؛ فإنه تنحل به إشكالات كثيرة، فإن هذا موجود في كلام الله ورسله، وكلام المخلوقين في عامة الطوائف مع ظهور المعنى، ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر؛ بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ الحلول والاتحاد ويراد به معنى صحيح كما يقال: فلان وفلان بينهما اتحاد إذا كانا متفقين فيما يحبان ويبغضان، ويواليان ويعاديان، فلما اتحد مرادهما ومقصودهما صار يقال: هما متحدان وبينهما اتحاد، ولا يعني بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر كاتحاد النار والحديد، والماء واللبن، أو النفس والبدن، وأيضًا فلفظ الحلول يراد به حلول ذات الشيء تارة وحلول معرفته ومحبته ومثاله العلمي تارة. (٢)

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٧٤.

(٢) الجواب الصحيح ٣/ ٣٤٣.

٩ـ شبهات عن القبر

وفيها:

١- شبهة: ضغطة القبر.

٢- شبهة: صفة منكر ونكير.

٣- شبهة: عذاب القبر بسبب البول.

٤- شبهة: عذاب القبر تسمعه البهائم.

٥- شبهة: عذاب الكافر في القبر.

١ـ شبهة: ضغطة القبر.

نص الشبهة:

المسلمون مضغوطون في قبورهم.

عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه.

وعن عائشة عن النبيﷺ قال: إن للقبر ضغطة ولو كان أحد ناجيا منها نجا منها سعد بن معاذ.

والجواب عن ذلك نقول:

الوجه الأول: صحة الحديث

الحديث الأول: (هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه). (١)

الحديث الثاني: عن عائشة قال رسول الله ﷺ: "إن للقبر ضغطة، فلو نجا أو سلم أحد منها لنجا سعد بن معاذ". (٢)

الوجه الثاني: في الباب أحاديث أخر، منها ما هو ضعيف مثل:

١ - حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهَّ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ يَوْمًا إِلَى سَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ حِينَ تُوُفِّيَ قَالَ: فَلَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهَّ ﷺ وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَسُوِّيَ عَلَيْهِ سَبَّحَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ فَسَبَّحْنَا طَوِيلا ثُمَّ كَبَّرَ فَكَبَّرْنَا فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهَّ لِمَ سَبَّحْتَ ثُمَّ كَبَّرْتَ؟ قَالَ: لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَهُ اللهَّ ﷻ عَنْهُ. (٣)

---

(١) **صحيح**. أخرجه النسائي (٢٠٥٥)، والطبراني في الأوسط (١٧٠٧)، وفي الكبير (٥١٩٥) من حديث ابن عمر به، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٣٦).

(٢) **صحيح**. رواه علي بن الجعد في الجعديات (١٥٦٦)، وابن حبان في صحيحه (٣١١٢)، وأخرجه أحمد (٦/ ٥٥ و ٩٨)، وفضائل الصحابة له (١٥٠١)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة "(١٦٩٥) ثم قال بعد جمع طرق هذا الحديث: وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب، **فنسأل الله تعالى أن يهون علينا ضغطة القبر إنه نعم المجيب.**

(٣) **ضعيف**. رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٦٠)، والطبراني في الكبير (٥٣٤٦)، وقد ضعفه الألباني في "إرواء الغليل"(٧١٢).

٢- حديث ابن عمر قال: اهتز العرش لحب لقاء الله سعدا، قال: إنما يعني السرير، قال: تفسخت أعواده، قال: دخل رسول الله ﷺقبره فاحتبس، فلما خرج، قيل: يا رسول الله! ما حبسك؟ قال: " ضم سعد في القبر ضمة فدعوت الله أن يكشف عنه". [(١)]

الوجه الثالث: ضمة القبر حق على كل الناس مسلمهم وكافرهم.

وهذا من اعتقاد المسلمين لما صح فيه عن رسول الله ﷺ الأحاديث.

ومن قال غير ذلك فليأتنا بدليل على نفي ما ذكرناه، وأما العقل فلا مجال لنفيه، فإن العقل لا يدرك إلا المحسوسات في الدنيا، أما القبر فهو عالم آخر وغيب لا يمكن لعقل الاطلاع عليه.

* * *

---

(١) ضعيف. رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٨٠٠)، ورواه ابن حبان في صحيحه (٧٠٣٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٥٩٣).

قلت وهو كما قال: فيه محمد بن فضيل: مختلف في توثيقه، وهو شيعي محترق. قال الجوزجاني: زائغ عن الحق، وعطاء بن السائب: ثقة اختلط في آخره وساء حفظه.

٢ـ شبهة: صفة منكر ونكير.

نص الشبهة:

منكر ونكير هما ملكان أسودان أزرقان.

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: " إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ثم ينور له فيه. . . . . . "الحديث

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: نص الحديث والحكم عليه.

الوجه الثاني: الملائكة من خلق الله تعالى.

الوجه الثالث: القبر يفسح للمؤمن مد بصره.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: نص الحديث والحكم عليه.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: " إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ – أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لأَحَدِهِمَا المُنْكَرُ، وَالآخَرُ النَّكِيرُ. فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللهَّ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُّ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ". فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا. ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ. فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أهلي فَأُخْبِرُهُمْ. فَيَقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الذي لاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ. حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُّ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ لاَ أَدْرِى. فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ. فَيُقَالُ لِلأَرْضِ التئمي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ. فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاَعُهُ فَلاَ يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا

حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ ". (١)

الوجه الثاني: الملائكة من خلق الله تعالى.

كما خلق الله سبحانه وتعالى الجن والإنس خلق الملائكة، وهم خُلقوا من نور كما جاء عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "خُلِقَتْ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ". (٢)

والملائكة لهم صفات خِلْقية وخُلُقية.

فمن صفاتهم الخِلقية:

١ـ أنهم ذوو أجنحة: قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ (فاطر: ١).

وعن بْنُ مَسْعُودٍ أَنَّ النبي ﷺ: "رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ ". (٣)

٢ـ عظم خَلقهم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ". (٤)

٣ـ أنهم أولو قوة:

قال تعالى واصفاً جبريل عليه السلام: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ (النجم: ٥: ٦).

٤ـ أنهم قادرون على الهبوط والصعود من السماء إلى الأرض والعكس:

قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧١) وقال: حديث حسن غريب، و ابن أبي عاصم في " السنة " (٨٦٤)، قال الألباني في " السلسلة الصحيحة (١٣٩١): إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، وفي ابن إسحاق وهو العامري القرشي مولاهم كلام لا يضر.

(٢) صحيح مسلم (٥٣١٤).

(٣) البخاري (٢٩٩٣).

(٤) أبو داود في سننه (٤٧٢٧)، والطبراني في الأوسط (١٧٠٩)، وصححه الألباني (١٥١).

٥ ـ أنهم يتشكلون في صور البشر:

قال تعالى عن مريم: ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ ﴾ (مريم: ١٧).

والذين جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام وبشروه بإسحاق وذهبوا إلى قوم لوط، قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الذريات: ٢٤) وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي ويكلمه ويحادثه..

وأما أعمالهم فكثيرة:

فمنهم:

١ ـ الموكل بسؤال الناس في قبورهم:

كما ورد في الحديث السابق، وهما ملكان وصفاتهم أسودان أزرقان.

٢ ـ ومنهم حملة العرش وهم ثمانية:

قال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ (الحاقة: من الآية١٧).

٣ ـ ومنهم الموكل بالوحي إلى الرسل وهو جبريل عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ (الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥).

٤ ـ ومنهم الموكل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الزمر: ٦٨).

٥ ـ ومنهم الموكلون بقبض الأرواح وهو ملك الموت ومعه أعوانه:

قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ (السجدة: من الآية١١).

٦ ـ ومنهم الموكل بالمطر والنبات وهو ميكائيل عليه السلام.

وغير ذلك من الأعمال.

الوجه الثالث: القبر يفسح للمؤمن مد بصره.

وكما قلنا إن حياة القبر حياة غيبية لا نعرف كيفيتها، ولذلك إيماننا بها عن طريق الخبر وليس عن طريق الحس.

فليس من العجيب أن يفسح القبر للمؤمن مد بصره جزاء إيهانه في الدنيا.

وليس ببعيد على الله تعالى أن يفسحه له مد بصره دون أن نشعر نحن به من فوقه.

وهناك الرؤى والأحلام التي تأتي الإنسان في منامه، فيسافر بلادًا لا يعرفها، ويقفز من فوق أبراج عالية، ويفعل ما هو خارق للعادة حال يقظته، ومع ذلك لا ينكر أحد ذلك، فمن الذي فعل به ذلك؟ أليس هو الله تبارك وتعالى؟ القادر على كل شئ.

* * *

٣ـ شبهة: عذاب القبر بسبب البول.

نص الشبهة:

أكثر عذاب القبر من البول

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :أكثر عذاب القبر من البول.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأحاديث الواردة في ذلك.

الوجه الثاني: الفهم الصحيح للحديث.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأحاديث الواردة في ذلك.

وردت أحاديث في هذا الشأن منها:

١ ـ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ مِنْ كَبِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ عُودًا رَطْبًا فَكَسَرَهُ بِاثْنَتَيْنِ ثُمَّ غَرَزَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى قَبْرٍ، ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا.(١)

٢ ـ الحديث الذي ذكره: (أَكْثَرُ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنْ الْبَوْلِ).(٢)

الوجه الثاني: الفهم الصحيح للحديث.

نؤمن بما جاءت به هذه الأحاديث، وقد دخل في عقل صاحب الشبهة عموم كلمة البول وإجمالها من غير تفصيل.

فالمقصود بالبول كما جاء مفسرًا في الأحاديث الأُخر: هو عدم الاحتراز من البول أن يقع على جسده وثوبه.

---

(١) البخاري (١٢٨٩).

(٢) **صحيح**. رواه أحمد (٢/ ٣٢٦، ٣٨٨، ٣٨٩)، ابن ماجه (٣٤٨)، والآجري في " الشريعة " (٨٥٢)، الحاكم (١/ ١٨٣)، والدار قطني في السنن (٤٥٩) وقال: صحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١/ ٣١١، ٣١٢).

والاستتار أنه لا يجعل بينه وبين بوله سترة يعني لا يتحفظ منه.

وسياق الحديث يدل على أن للبول بالنسبة إلى عذاب القبر خصوصية ويؤيده ما أخرجه بن خزيمة من حديث أبي هريرة مرفوعًا: أكثر عذاب القبر من البول أي بسبب ترك التحرز منه.[١]

وهكذا نرى أن الإسلام يدعو إلى التنزه من النجاسات والطهارة منها. وهذا ما لم يوجد في شعائر النصارى؛ لذلك يتهكمون من المسلمين! !.[٢]

قال الذهبي: عدم التنزه من البول وهو شعار النصارى. قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤).[٣]

* * *

---

(١) عون المعبود (١/ ٢٧).

(٢) وقد مر تفصيل ذلك فليراجع في بابه.

(٣) الكبائر للذهبي (صـ ١٤١).

٤ـ شبهة: عذاب القبر تسمعه البهائم

نص الشبهة:

قالوا: يعذبون في قبورهم عذابًا تسمعه البهائم.

عن عائشة قالت: دخلت عليَّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم. قالت: فكذبتهما ولم أُنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليَّ فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم! فقال: صدقتا إنهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم. قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر.

وللجواب عن ذلك نقول:

الوجه الأول: عقيدة أهل السنة في عذاب القبر.

الوجه الثاني: الأدلة على إثبات عذاب القبر.

الوجه الثالث: هل العذاب على الروح والبدن؟ أم على البدن فقط؟ أم على الروح فقط؟

الوجه الرابع: غير الجن والإنس يسمعون عذاب القبر.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: عقيدة أهل السنة في عذاب القبر.

يعتقد أهل السنة والجماعة أن القبر هو البداية للحياة الآخرة، وهو الذي يعرف فيها الإنسان مصيره، إما إلى جنة وإما إلى نار.

وأن الحياة البرزخية (حياة القبر) هي غيب نعلم معناه ووصفه لكن لا نعلم كيفيته، فلأجل ذلك يؤمن أهل السنة بما ورد ولا يسعون إلى معرفة الكيفية.

وأن العذاب والنعيم في القبر يقع على الروح والجسد معا.

مثال على ذلك: حياة الأنبياء في القبور.

الوجه الثاني: الأدلة على إثبات عذاب القبر.

وردت أدلة كثيرة على عذاب القبر ونعيمه منها:

قوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾(غافر: ٤٥:٤٦).

قال البخاري في صحيحه: بَاب مَا جَاءَ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾.

قَالَ أَبُو عَبْد الله: الْهُونُ هُوَ الْهَوَانُ وَالْهَوْنُ الرِّفْقُ وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: عَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ. (١)

ومن أجمع الأحاديث في هذا الباب:

حديث البراء بن عازب وقد جمع طرقه ورواياته الشيخ الألباني رحمه الله في كتابه " أحكام الجنائز" فنذكره بطوله وبتخريجه إن شاء الله تعالى.

عن البراء بن عازب قال: " خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ (مستقبل القبلة)، وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عوده ينكت في الأرض، (فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثا)، فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين، أو ثلاثا، (ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر) (ثلاثا)، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من

(١) البخاري (١٢٨٠).

الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي رواية: المطمئنة)، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، وفي رواية: حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١)، ويخرج منها كأطيب نفحة مسلك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان - بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾، فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض، فإني (وعدتهم أني) منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: ف (يرد إلى الأرض، و) تعاد روحه في جسده، (قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه) (مدبرين).

فيأتيه ملكان (شديدا الانتهار) ف (ينتهرانه، و) يجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به، وصدقت، (فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله ﷻ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ

ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (إبراهيم: من الآية٢٧)، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه (وفي رواية: يمثل له) رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، (أبشر برضوان من الله، وجنات فيها نعيم مقيم)، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: (وأنت فبشرك الله بخير) من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح (فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا في إطاعة الله، بطيئا في معصية الله، فجزاك الله خيرا)، ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت، الله، أبد لك الله به هذا فإذا رأى ما في الجنة قال: رب عجل قيام الساعة، كيما أرجع إلى أهلي ومالي، (فيقال له: اسكن)، قال: وإن العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة (غلاظ شداد)، سود الوجوه، معهم المسوح (من النار)، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود (الكثير الشعب) من الصوف المبلول، (فتقطع معها العروق والعصب)، (فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم)، فيأخذها، فإذا أخذها، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان - بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة، حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عزوجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، (ثم يقال:

أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى)، فتطرح روحه (من السماء) طرحًا (حتى تقع في جسده) ثم قرأ (ومن يشرك بالله، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق)، فتعاد روحه في جسده، (قال: فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولو عنه).

ويأتيه ملكان (شديدا الانتهار، فينتهرانه، و) يجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ (فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقول له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى)، فيقولان له: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟) فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد! فيقول) هاه هاه لا أدري (سمعت الناس يقولون ذاك! قال: فيقال: لا دريت)، (ولا تلوت)، فينادي مناد من السماء أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه (وفي رواية: ويمثل له) رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول (وأنت فبشرك الله بالشر) من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث؟ (فو الله ما علمت إلا كنت بطيئا عن طاعة الله، سريعا إلى معصية الله)، (فجزاك الله شرا، ، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة! لو ضرب بها جبل كان ترابا، فيضربه ضربة حتى يصير بها ترابا، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كل شئ إلا الثقلين، ثم يفتح له باب من النار، يمهد من فرش النار). فيقول: رب لا تقم الساعة ". [1]

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧ - ٤٠)، والطيالسي (٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨ و ٢٩٥ و ٢٩٦)، والآجري في " الشريعة " (٨٦٤). وصححه الألباني في أحكام الجنائز مسألة رقم (١٠٥)، وقد ذكرنا النص الذي جمعه الشيخ الألباني بالزيادات على ترتيبه، وذلك للفائدة. وانظر: تفصيل ذلك في أحكام الجنائز.

وهذا الحديث أصل من أصول أهل السنة في إثبات عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكان للإنسان.

٢ ـ اليهود يؤمنون بعذاب القبر:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكِ الله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللهَّ ﷺعَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. فَقَالَ: نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ. قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺبَعْدُ صَلَّى صَلاةً إِلا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.(١)

٣ ـ التعوذ من عذاب القبر:

١-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُو وَيَقُولُ: اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ.(٢)

٢ ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ وَلَمْ أَشْهَدْهُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ وَلَكِنْ حَدَّثَنِيهِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ، فَقَالَ: مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟ فَقَالَ: رَجُلٌ أَنَا، قَالَ: فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاءِ؟ ، قَالَ: مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ. فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلا أَنْ لا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللهَّ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهَّ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللهَّ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهَّ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللهَّ مِنْ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهَّ مِنْ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللهَّ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهَّ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ.(٣)

الوجه الثالث: هل العذاب على الروح والبدن أم على البدن فقط أم على الروح فقط

(١) البخاري (١٢٨٣).

(٢) البخاري (١٢٨٨).

(٣) مسلم (٥١١٢).

قال ابن القيم: قول السائل: هل عذاب القبر على النفس والبدن؟ أو على النفس دون البدن؟ أو على البدن دون النفس؟ وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا؟

وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، فقال:

بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين، كما تكون على الروح منفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟

هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام.

وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث: قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وإن البدن لا ينعم ولا يعذب.

وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين.

ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان؛ لكن يقولون لا يكون ذلك في البرزخ، وإنما يكون عند القيام من القبور؛ لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط، ويقولون: إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ، فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معًا.

وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم، وهو اختيار ابن حزم وابن مرة، فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة؛ بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر، ويقر بالقيامة ويثبت معاد الأبدان والأرواح ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط وقد يضم إلى ذلك القول الثاني، وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هي الحياة ويجعل الشاذ قول منكر عذاب الأبدان مطلقا وقول من ينكر عذاب الروح مطلقا. فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة.

فالقول الثاني الشاذ: قول من يقول إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب؛ وإنما الروح هي الحياة وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية كالقاضي أبى بكر وغيره، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وهذا قول باطل وقد خالف أصحابه أبو المعالي الجويني وغيره؛ بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة: أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك؛ لكن ينكرون معاد الأبدان وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان، وكلا القولين خطأ وضلال؛ لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام؛ بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام.

والقول الثالث الشاذ: قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب؛ بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى.

فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة، فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.

ونحن نثبت ما ذكرناه فأما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي ﷺ. (١)

الوجه الرابع: غير الجن والإنس يسمعون عذاب القبر.

وهذا حق نؤمن به. وقد يقول قائلهم: وكيف يسمعه كل شئ إلا الجن والإنس والأسماع تتشابه؟

ونقول: إن الذي خلق الجن والإنس قادر على أن لا يسمعهم ما لا يسمع غيرهم.

* * *

(١) الروح لابن قيم الجوزية (صـ ٥١، ٥٢).

٥ـ شبهة: عذاب الكافر في القبر.

نص الشبهة:

قالوا: عذاب الكافر في القبر تسْعَة وَتسْعُون تنينًا، وكل تنين عبارة عن تسْعَة وَتسْعِينَ حية، وكل حية لها سبعة رؤوس، وأنه حينما يسأل يقول: هاه هاه هاه لا أدري. فكيف يعقل هذا؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول اللهَّ ﷺأَنَّهُ قَالَ: " أَتَدْرُونَ فيمَ أُنْزلَتْ هَذه الْآيَة: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أَتَدْرُونَ مَا الْمعيشَة الضَّنْك؟ " قَالُوا: اللهَّ وَرَسُوله أَعْلَم، قَالَ: وَعَذَاب الْكَافر في قَبْره، وَالَّذي نَفْسي بيَده أَنَّهُ لَيُسَلَّط عَلَيْه تسْعَة وَتسْعُونَ تنّينًا، أَتَدْرُونَ مَا التّنّين: تسْعَة وَتسْعُونَ حَيَّة، لكُلّ حَيَّة سَبْعَة رُءُوس، يَنْفُخُونَ في جسْمه وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدشُونَهُ إلَى يَوْم الْقيَامة.

والجواب عن ذلك نقول:

الوجه الأول: الحديث ضعيف فلا يحتج به.

الوجه الثاني: المستفاد من الحديث.

الوجه الثالث: إثبات عذاب القبر للكافر.

واليك التفصيل

الوجه الأول: الحديث ضعيف فلا يحتج به.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول اللهَّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " أَتَدْرُونَ فيمَ أُنْزلَتْ هَذه الْآيَة: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أَتَدْرُونَ مَا الْمعيشَة الضَّنْك؟ " قَالُوا: اللهَّ وَرَسُوله أَعْلَم، قَالَ: وَعَذَاب الْكَافر في قَبْره، وَالَّذي نَفْسي بيَده أَنَّهُ لَيُسَلَّط عَلَيْه تسْعَة وَتسْعُونَ تنّينًا، أَتَدْرُونَ مَا التّنّين: تسْعَة وَتسْعُونَ حَيَّة، لكُلّ حَيَّة سَبْعَة رُءُوس، يَنْفُخُونَ في جسْمه وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدشُونَهُ إلَى يَوْم الْقيَامة.

الحديث منكر فلا يحتج به: [1]

(١) منكر. أخرجه ابن حبان (٣١٢٢)، وأبو يعلى في مسنده (٦٦٤٤) من طريق دراج بن أبي السمح، عن أبي حجيرة، عن أبي هريرة به. تفرد به دراج بن أبي السمح .

قال الذهبي عنه في المغني (١/ ٢٢٢): قال أحمد وغيره: أحاديثه مناكير، ووثقه ابن معين، وتركه الدارقطني.
وقال أبو حاتم الرازي: ضعيف، وقال النسائي: ليس بالقوي.
وقد أخرجه أحمد (١١٣٥٢)، والدارمي (٢٨١٥)، وعبد بن حميد (٩٢٩) من طريق سَعِيد بْنِ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا السَّمْحِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْهَيْثَمِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يُسَلَّطُ عَلَى الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّينًا تَلْدَغُهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ فَلَوْ أَنَّ تِنِّينًا مِنْهَا نَفَخَ فِي الْأَرْضِ مَا أَنْبَتَتْ خَضْرَاءَ.
ولفظه يختلف عن سابقه. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٢٠٧٩).
وللحديث رواية أخرى مختلفة: أخرجها الترمذي (٢٤٦٠) من طريق الْقَاسِم بن الْحَكَمِ الْعُرَنِيِّ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ الْوَلِيدِ الْوَصَّافِيُّ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺمُصَلَّاهُ فَرَأَى نَاسًا كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِرُونَ، قَالَ: أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلَّا تَكَلَّمَ فِيهِ فَيَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ وَأَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ، فَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا أَمَا إِنْ كُنْتَ لَأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ فَإِذ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ، قَالَ: فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْفَاجِرُ أَوْ الْكَافِرُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: لَا مَرْحَبًا وَلَا أَهْلًا أَمَا إِنْ كُنْتَ لَأَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ قَالَ: فَيَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْتَقِيَ عَلَيْهِ وَتَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصَابِعِهِ فَأَدْخَلَ بَعْضَهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ قَالَ: وَيُقَيِّضُ اللهُ لَهُ سَبْعِينَ تِنِّينًا لَوْ أَنْ وَاحِدًا مِنْهَا نَفَخَ فِي الْأَرْضِ مَا أَنْبَتَتْ شَيْئًا مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا فَيَنْهَشْنَهُ وَيَخْدِشْنَهُ حَتَّى يُفْضَى بِهِ إِلَى الْحِسَابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ".
قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
قلت: فيه علل:
١- القاسم بن الحكم العرني: قال عنه أبو حاتم: لا يحتج به. وقال الحافظ في التقريب: صدوق فيه لين.
٢- عبيد الله بن الوليد الوصافي: قال عنه ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين (٢/ ١٦٤): يروي عن عطاء، وعطية العوفي.
قال أحمد: ليس محكم الحديث يكتب حديثه للمعرفة. وقال يحيى: ليس بشيء، وقال مرة: ضعيف. وكذلك قال أبو زرعة، والدارقطني. وقال عمرو بن علي والنسائي: متروك الحديث.
وقال ابن حبان: يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات حتى يسبق إلى القلب أنه المتعمد لها فاستحق الترك.
٣- عطية العوفي: ضعفه النسائي وغيره.

الوجه الثاني: المستفاد من الحديث:

المستفاد من الحديث أنه لا تؤخذ منه عقيدة ولا يعتبر بما فيه على أنه من عقيدة الإسلام.

ولكن لو صح الحديث لآمنا به كما جاء؛ لأن عقيدتنا قائمة على الخبر الصحيح.

الوجه الثالث: إثبات عذاب القبر للكافر.

أثبت القرآن عذاب القبر للكافر:

قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (غافر: ٤٦).

قال ابن كثير: وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾. [1]

وكذلك السنة وقد ثبت ذلك في أحاديث صحيحة كثيرة كما في حديث البراء الطويل، وغيره وقد مر ذلك كثيرًا.

والحديث فيه فوائد مهمة: منها:

١ ـ إعلام النبي ﷺ أمته بما يحدث لهم في قبورهم. وفي هذا رادع عن الباطل وترغيبا للحق والسير فيه.

٢ ـ أن الروح ترد إلى الميت عند ذهاب آخر قدم من عنده. ولكن على كيفية غير كيفية الدنيا.

٣ ـ أن الكافر لا يوفق في الإجابة عن الأسئلة الثلاثة.

وذلك بأن أعرضوا عن الله تعالى في الدنيا، فأعماهم الله وأضلهم عن الإجابة في القبر.

٤ ـ أن الكافر في القبر يذوق من عذاب الآخرة كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤٦).

٥ ـ أن المؤمن يبشر بأن يفتح له من الجنة بابا ينعم به إلى يوم القيامة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٣).

٦ ـ أن فترة البرزخ إلى يوم القيامة تمر على المؤمن كأنها صلاة ظهر أو صلاة عصر. فيتمنى إقامة الساعة.

أما الكافر فيقول: ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ (يس: ٥٢) ولا يتمنى إقامة الساعة.

٧ ـ أن القبر يضيق على الكافر حتى تختلف أضلاعه، ولكن بكيفية لا ندركها لأنها غيب. والمؤمن يفسح له قبره سبعون ذراعا وبكيفية لا ندركها.

٨ ـ أن عذاب القبر ونعيمه علمناه عن طريق الخبر فلا مجال للعقل فيه، ولا مخالفة له للعقل. فالعقل يقبل أشياء أغرب من هذه.

* * *

٩ـ شبهات عن الجنة

وفيها:

مقدمة في وصف الجنة من القرآن والسنة

١- هل للمسلمين جنة واحدة أم جنات؟.

٢- شبهة: في وصف الجنة.

٣- شبهة: عن درجات الجنة.

٤- شبهة: فيمن يستحق دخول الجنة.

٥- شبهة: عن جنة الفردوس.

٦- شبهة: عن عرق أهل الجنة.

٧- شبهة: ادعاؤهم بيع الجنة بالمال.

٨- شبهة: ادعاؤهم أن في الجنة لواط.

٩- شبهة: الرجال لهم الحور فماذا للنساء؟

١٠- شبهة: عن النكاح في الجنة، واعتراضهم على ذكر الجماع والنساء في الجنة.

مقدمة في وصف الجنة من القرآن والسنة

الجنة دار غرسها الله بيده، وجعلها مقرًا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص. لذا رغب الشرع فيها ووصف لنا ما فيها، فإليك ذكر بعض ما جاء فيها.

الترغيب في الجنة ونعيمها.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ، وَالله، يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ، وَالله، يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤُسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ. (١)

وعَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ. (٢)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ الله الْجَنَّةُ ". (٣)

ليس للجنة إلا طريق واحد.

هذا مما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم، وأما طرق الجحيم فأكثر من أن تحصى ،ولهذا يوحد سبحانه سبيله ويجمع سبل النار كقوله تعالى﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام: ١٥٣) وقال﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ (النحل: ٩) أي ومن السبيل

(١) مسلم (٢٨٠٧).

(٢) البخاري (٦٤٨٨).

(٣) سنن الترمذى (٢٦٣٨). وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٤)

جائر عن القصد وهي سبيل الغي وقال﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ (الحجر: ٤١).

وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله خطا وقال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره ثم قال: هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ الآية.

فإن قيل: قد قال الله تعالى:﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦) قيل: هي سبل تجمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد والطرق في الطريق الأعظم فهذه هي شعب الإيمان يجمعها الإيمان وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا.

وعن جابر قال: "جَاءَتْ مَلاَئِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهْوَ نَائِمٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلاً فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلاً. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ. فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا: فَالدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ"[1].

بيان وجود الجنة وأنها مخلوقة.

قال الطحاوي: والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلًا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلًا منه، ومن شاء

---

(١) البخاري (٧٢٨١).

منهم إلى النار عدلًا منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد.

قال ابن أبي العز: قوله: "إن الجنة والنار مخلوقتان" اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة! ! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا! ! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة! وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث! لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة! ! فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم. (١)

والأدلة على ذلك منها:

قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥)﴾.

وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى. كما في الصحيحين، من حديث أنس ﷺ، في قصة الإسراء، وفي آخره "ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ. . . "(٢)

عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٤٢٠.

(٢) البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣).

ﷺ ؟فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ. فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أَبْدَلَكَ الله بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ – قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا. . . . ". (١) والأدلة على ذلك كثيرة. (٢)

دخول عصاة المؤمنين الجنة بالشفاعة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ – أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ – فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ. فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ". (٣)

عن أنس بن مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيُسَمِّيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ". (٤)

وفي حديث أبي هريرة الطويل " حَتَّى إِذَا أَرَادَ الله رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الله الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ الله عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ الله مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ. . . ". (٥)

أبواب الجنة سعتها وصفتها.

قال تعالى﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الزمر: ٧٣).

---

(١) البخاري (١٣٣٨)، مسلم (٢٨٧٠).

(٢) راجع صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ، باب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ. وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. وأيضا حادي الأرواح لابن القيم صـ ١٤: ٢٤.

(٣) مسلم (١٨٥).

(٤) البخاري (٦٥٥٩).

(٥) البخاري (٨٠٦). مسلم (١٨٢).

قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (ص: ٥٠).

قال ابن القيم: وتأمل قوله سبحانه ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ﴾ (ص: ٥٠ -٥١) كيف تجد تحته معنى بديعا، وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم؛ بل تبقى مفتحة كما هي، وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها كما قال تعالى إنها عليهم مؤصدة أي مطبقة. (١)

قال مقاتل: يعني أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح آخر الأبد.

وأيضًا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنة حيث شاؤوا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت.

وأيضًا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا. (٢)

وللجنة ثمانية أبواب، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "في الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لاَ يَدْخُلُهُ إِلاَّ الصَّائِمُونَ". (٣)

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبِيلِ الله نُودِىَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ الله، هَذَا خَيْرٌ. فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى يَا

---

(١) حادي الأرواح صـ٥٢.

(٢) المصدر السابق .

(٣) البخاري (٣٢٥٧).

رَسُولَ الله، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا قَالَ " نَعَمْ. وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ". (١).

عَنْ عُبَادَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : "مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله، وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ ". (٢)

وعن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ قال: " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ ". (٣)

سعة أبواب الجنة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: أُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، كَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يُجْمَعُ النَّاسُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ. "فذكر حديث الشفاعة الطويل وقال في آخره " فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شيئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى ". (٤)

---

(١) البخاري (١٨٩٧)، مسلم (١٠٢٧).

(٢) البخاري (٣٤٣٥)، مسلم (٢٨).

(٣) مسلم (٢٣٤).

(٤) البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤).

وفي لفظ" وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى ".

وفي لفظ " وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ إِلَى عِضَادَتَيِ الْبَابِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ هَجَرٍ وَمَكَّةَ ".

عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ: خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِى فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا وَوَاللهِ لَتُمْلأَنَّ أَفَعَجِبْتُمْ! وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ. . ."[1]

قال ابن القيم: ولما كانت الجنات درجات بعضها فوق بعض كانت أبوابها كذلك وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها، وكلما علت الجنة اتسعت، فعاليها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة، ولعل هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصراعي الباب فإن أبوابها بعضها أعلى من بعض.[2]

درجات الجنة.

الجنة درجات بعضها فوق بعض، وأهلها متفاضلون فيها بحسب منازلهم فيها قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ (طه: ٧٥).

قال ابن تيمية: والجنة درجات متفاضلة تفاضلًا عظيمًا وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم قال تبارك وتعالى﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ

(١) مسلم (٢٩٦٧).

(٢) حادي الأرواح صـ٥٩.

وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾(الإسراء: ١٨ - ٢١).

فبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه، وأن عطاءه ما كان محظورًا من بر ولا فاجر، ثم قال تعالى﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا، وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا، وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين فقال تعالى﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (البقرة: ٢٥٣) وقال تعالى﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ (الإسراء: ٥٥). (١)

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ (النساء: ٩٥، ٩٦).

قال ابن القيم: وتأمل قوله كيف أوقع التفضيل أولاً بدرجة ثم أوقعه ثانيًا بدرجات. فقيل: الأول بين القاعد المعذور والمجاهد. والثاني بين القاعد بلا عذر والمجاهد. (٢)

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٨٨).

(٢) حادي الأرواح صـ٧٢.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٢ – ٤).

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : "مَنْ آمَنَ بِالله وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِى وُلِدَ فِيهَا ". فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟. قَالَ: " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ". [١]

وبيّن رسول الله ﷺ أن أهل الجنة متفاضلون فيها.

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَيُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَيُونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّىَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ ". قَالُوا يَا رَسُولَ الله: تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ " بَلَى وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ". [٢]

أعلى درجات الجنة.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِى إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ ". [٣]

---

(١) البخاري (٢٧٩٠).

(٢) البخاري (٣٢٥٦)، مسلم (٢٨٣١).

(٣) مسلم (٣٨٤).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ". (١)

عَنْ مُوسَى بْنِ وَرْدَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : "الْوَسِيلَةُ دَرَجَةٌ عِنْدَ الله لَيْسَ فَوْقَهَا دَرَجَةٌ فَسَلُوا الله أَنْ يُؤْتِيَنِي الْوَسِيلَةَ". (٢)

عدد الجنات.

الجنة: اسم شامل لجميع ما حوته من البساتين والمساكن والقصور وهي جنات كثيرة جدًا. جنتان من ذهب وجنتان من فضة.

عن أنس بن مالك أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهْىَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ الله، أَلاَ تُحَدِّثُنِى عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ، صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ. قَالَ " يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى ". (٣)

وعن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ ". (٤)

---

(١) البخاري (٦١٤).

(٢) أحمد ٣/ ٨٣، الطبراني في "المعجم الأوسط " (١/ ٨٩/ ٢٦٣)، وأيضًا (٢/ ١٢٦/ ١٤٦٦). والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٧١).

(٣) البخاري (٢٨٠٩).

(٤) البخاري (٤٨٧٨)، مسلم (١٨٠).

وقد قال تعالى﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ (الرحمن: ٤٦) فذكرهما ثم قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ (الرحمن: ٦٢) فهذه أربعٌ، وقد اختلف في قوله "ومن دونهما" هل المراد به أنهما فوقهما أو تحتهما، على قولين:

فقالت طائفة: من دونهما أي: أقرب منهما إلى العرش فيكونان فوقهما.

وقالت طائفة: بل معنى من دونهما: تحتهما، قالوا: وهذا المنقول في لغة العرب، إذا قالوا: هذا دون هذا أي: دونه في المنزلة، كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك، وفي الصحاح: دون نقيض فوق، وهو تقصير عن الغاية ثم قال: ويقال: هذا دون هذا أي أقرب منه، والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأولين من عشرة أوجه.

أحدها: قوله ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ (الرحمن: ٤٨) وفيه قولان: أحدهما: أنه جمع فنن وهو الغصن، والثاني: أنه جمع فن وهو الصنف أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

الثاني: قوله ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ (الرحمن: ٥٠) وفي الأخريين ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الرحمن: ٦٦) والنضاخة هي الفوارة والجارية السارحة وهي أحسن من الفوارة فإنها تتضمن الفوران والجريان.

الثالث: أنه قال: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ (الرحمن: ٥٢) وفي الأخريين ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ (الرحمن: ٦٨) ولا ريب أن وصف الأوليين أكمل.

الرابع: أنه قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ (الرحمن: ٥٤) وهذا تنبية على فضل الظهائر وخطرها وفي الأخريين قال﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ (الرحمن: ٧٦) وفسر الرفرف بالمحابس والبسط وفسر بالفرش وفسر بالمحابس فوقها وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين.

الخامس: أنه قال﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الرحمن: ٥٤) أي قريب وسهل يتناولونه كيف شاؤوا ولم يذكر ذلك في الأخريين.

السادس: أنه قال ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ (الرحمن: ٥٦) أي قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم، ومحبتهن لهم وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخريين ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ (الرحمن: ٧٢) ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.

السابع: أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

الثامن: أنه قال سبحانه وتعالى في الجنتين الأولين ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ (الرحمن: ٦٠) وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

التاسع: أنه بدأ بوصف الجنتين الأولين وجعلهما جزءًا لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

العاشر: أنه قال ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ (الرحمن: ٦٢) والسياق يدل على أنه نقيض فوق كما قال الجوهري.[1]

أبواب الجنة وخزنتها واسم مقدمهم ورئيسهم.

قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا

---

(١) حادي الأرواح صـ٩٦: ٩٨.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الزمر: ٧٣).

والخزنة جمع خازن ومثل حفظة وحافظ وهو المؤتمن على الشيء الذي قد استحفظه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :" آتِى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ ". (١)

قال ابن القيم: قد سمى الله سبحانه وتعالى كبير هذه الخزنة رضوان وهو اسم مشتق من الرضا، وسمى خازن النار مالكا وهو اسم مشتق من الملك وهو القوة والشدة حيث تصرفت حروفه. (٢)

أول من يقرع باب الجنة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :" أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ ". (٣)

وقد تقدم في حديث أنس السابق وفيه قوله ﷺ : " فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ".

أول الأمم دخولاً الجنة.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَاخْتَلَفُوا فَهَدَانَا الله لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ". (٤)

فهذه الأمة أسبق الأمم خروجًا من الأرض، وأسبقهم إلى أعلي مكان في الموقف، وأسبقهم إلى ظل العرش، وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط، وأسبقهم إلى دخول الجنة؛ فالجنة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمدﷺ،

---

(١) مسلم (١٩٧).

(٢) حادي الأرواح صـ١٠٣.

(٣) مسلم (١٩٦).

(٤) البخاري (٨٧٦)، مسلم (٨٥٥).

ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته. (١)

تربة الجنة وطينتها وحصبائها وبنائها.

عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: فذكر حديث المعراج وفيه " ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ ". (٢)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِابْنِ صَائِدٍ " مَا تُرْبَةُ الْجَنَّةِ ". قَالَ دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. قَالَ " صَدَقْتَ ". (٣)

قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ أَنَّهَا فِي الْبَيَاض دَرْمَكَة، وَفِي الطِّيب مِسْك، وَالدَّرْمَك هُوَ الدَّقِيق الْحَوَارِيّ الْخَالِص الْبَيَاض. (٤)

وفي حديث أبي هريرة قال: قُلْنَا: الْجَنَّةُ مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ ﷺ : " لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ وَلاَ يَبْأَسْ، وَيُخَلَّدْ وَلاَ يَمُوتْ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُمْ ". (٥)

قال ابن القيم: فهذه ثلاث صفات في تربتها ولا تعارض بينها.

فذهبت طائفة من السلف إلى أن تربتها متضمنة للنوعين المسك والزعفران.

ويحتمل معنيين آخرين.

أحدهما: أن يكون التراب من زعفران فإذا عجن بالماء صار مسكا والطين ترابا ويدل على هذا قوله في اللفظ الآخر ملاطها المسك.

---

(١) حادي الأرواح صـ١٠٧.

(٢) البخاري (٣٤٩)، مسلم (١٦٣).

(٣) مسلم (٢٩٢٨).

(٤) شرح النووي على مسلم (٩/ ٣١٧).

(٥) الترمذي (٢٥٢٦)، أحمد ٢/ ٣٠٤، مسند الطيالسي (٢٥٨٣)، وقال الألباني: حسن لغيره. صحيح الترغيب والترهيب (٣٧١١).

والملاط: الطين ويدل عليه أن في حديث العلاء بن زياد: ترابها الزعفران وطينها المسك، فلما كانت تربتها طيبة وماؤها طيبا فانضم أحدهما إلى الآخر حدث لهما طيب آخر فصار مسكًا.

المعنى الثاني: أن يكون زعفرانا باعتبار اللون، مسكا باعتبار الرائحة، وهذا من أحسن شيء يكون البهجة والإشراق لون الزعفران والرائحة رائحة المسك، وكذلك تشبيهها بالدرمك وهو الخبز الصافي الذي يضرب لونه إلى صفرة مع لينها ونعومتها، وهذا معنى ما ذكره سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد:" أرض الجنة من فضة، وترابها مسك" فاللون في البياض لون الفضة، والرائحة رائحة المسك. (١)

غرف الجنة وقصورها وخيمها.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ (الزمر: ٢٠). وقال تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ (الصف: ١٢).

عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ الْمُؤْمِنُونَ. وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ". (٢)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ. (٣)

معرفة منازلهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة وإن لم يروها قبل ذلك.

(١) حادي الأرواح صـ١٣٢

(٢) البخاري (٤٨٧٩)، مسلم (٢٨٣٨).

(٣) البخاري (٣٨٢٠)، مسلم (٢٤٣٢).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)﴾ (محمد: ٤ - ٦).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: " إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا". [١]

أعلى أهل الجنة وأدناهم منزلة.

أعلاهم منزلة سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه.

وفي صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شيبة عن النبي ﷺ قَالَ: " سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَىْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ.

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِى، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ".
قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآيَةَ. [٢]

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ " إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً رَجُلٌ صَرَفَ الله وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ، وَمَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ فَقَالَ: أَي رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَكُونُ فِي ظِلِّهَا ". وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَلَمْ يُذْكَرْ " فَيَقُولُ يَا

---

(١) البخاري (٢٤٤٠).

(٢) مسلم (١٨٩).

ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ ". إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ وَزَادَ فِيهِ " وَيُذَكِّرُهُ اللهُ سَلْ كَذَا وَكَذَا فَإِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ قَالَ اللهُ: هُوَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ - قَالَ - ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فَتَقُولاَنِ: الْحَمْدُ للهِ الذي أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ - قَالَ - فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ"[١].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ كَبْوًا فيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ فيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَكَانَ يَقُولُ ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً[٢].

تحفة أهل الجنة إذا دخلوها.

عن ثوبان قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ. فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلاَ تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِى سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " إِنَّ اسْمِى مُحَمَّدٌ الَّذِى سَمَّانِى بِهِ أَهْلِى ". فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " أَيَنْفَعُكَ شَىْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ ". قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَىَّ. فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعُودٍ مَعَهُ. فَقَالَ: " سَلْ ". فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : "هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ". قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ قَالَ: "

---

(١) مسلم (١٨٨).

(٢) البخاري (٦٥٧١)، مسلم (١٨٦).

فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ". قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: " زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ " قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: " يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِى كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا ".

قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: " مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ". قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَىْءٍ لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ إِلاَّ نَبِىٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ. قَالَ: "يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ"؟. قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَىَّ.

قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ. قَالَ: "مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلاَ مَنِىُّ الرَّجُلِ مَنِىَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلاَ مَنِىُّ الْمَرْأَةِ مَنِىَّ الرَّجُلِ آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ". قَالَ الْيَهُودِىُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِىٌّ ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " لَقَدْ سَأَلَنِى هَذَا عَنِ الَّذِى سَأَلَنِى عَنْهُ وَمَا لِى عِلْمٌ بِشَىْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِىَ اللهُ بِهِ"[(١)].

وعن أنس أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلاَمٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: إِنِّى سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ نَبِىٌّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: " أَخْبَرَنِى بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا ". قَالَ ابْنُ سَلاَمٍ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ. قَالَ " أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ، فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدَ ". قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، فَاسْأَلْهُمْ عَنِّى قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِى، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ " أَىُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ فِيكُمْ؟ ". قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ؟ ". قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ. فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. قَالُوا: شَرُّنَا

---

(١) مسلم (٥١٣).

وَابْنُ شَرِّنَا. وَتَنَقَّصُوهُ. قَالَ: هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ الله[١].

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ " تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ، كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ، نُزُلاً لأَهْلِ الْجَنَّةِ ". فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَلاَ أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: " بَلَى ". قَالَ: تَكُونُ الأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا، ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟ قَالَ: إِدَامُهُمْ بَالاَمٌ وَنُونٌ. قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: ثَوْرٌ وَنُونٌ يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا.[٢]

ريح الجنة ومن مسيرة كم يُنشَق

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: " مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا ".[٣]

أشجار الجنة وبساتينها وظلالها

قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ (الواقعة: ٢٧-٣٣)

والمخضود الذي قد خضد شوكه أي نزع وقطع فلا شوك فيه.

وأما الطلح فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرة الموز.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ".[٤]

---

(١) البخاري (٣٩٣٨).

(٢) البخاري (٦٥٢٠)، مسلم (٢٧٩٢).

(٣) البخاري (٣١٦٦).

(٤) البخاري (٤٨٨١)، مسلم (٢٨٢٦).

وعن أبي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ، مَا يَقْطَعُهَا ". (١)

أنهار الجنة وعيونها وأصنافها ومجراها.

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (البقرة: ٢٥). وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ (محمد: ١٥).

وأنهار الجنة تتفجر من أعلاها ثم تنحدر نازلة إلى أقصى درجاتها، كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"(٢).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرٍ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفُيُولِ، فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النِّيلُ وَالْفُرَاتُ"(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ. قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِى أَعْطَاكَ رَبُّكَ. فَإِذَا طِينُهُ - أَوْ طِيبُهُ - مِسْكٌ أَذْفَرُ"(٤).

طعام أهل الجنة وشرابهم ومصرفه.

---

(١) البخاري (٦٥٥٣)، مسلم (٢٨٢٨).

(٢) البخاري (٢٧٩٠).

(٣) البخاري (٣٢٠٧).

(٤) البخاري (٦٥٨١)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (المرسلات: ٤١ - ٤٣).

قال تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الطور: ٢٢، ٢٣).

قال تعالى: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٥، ٢٦).

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلاَ يَتْفُلُونَ، وَلاَ يَبُولُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ ". قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: " جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ ". (١)

السابقون من هذه الأمة إلى الجنة وصفتهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا". (٢)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَتْفِلُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ

(١) مسلم (٢٨٣٥).

(٢) البخاري (٣٢٤٥)، مسلم (٢٨٣٤).

الأَلُوَّةُ الأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ". (١)

الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة.

عن عبد الله بن عمرو قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا ". (٢)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ". (٣)

قال ابن القيم: والذي في الصحيح أن سبقهم لهم بأربعين خريفًا فإما أن يكون هو المحفوظ، وإما أن يكون كلاهما محفوظًا وتختلف مدة السبق بحسب أحوال الفقراء والأغنياء، فمنهم من يسبق بأربعين، ومنهم من يسبق بخمسمائة، كما يتأخر مكث العصاة من الموحدين في النار بحسب أحوالهم والله أعلم.

ولكن ههنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أنه لا يلزم من سبقهم لهم في الدخول ارتفاع منازلهم عليهم؛ بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة وإن سبقه غيره في الدخول، والدليل على هذا أن من الأمة من يدخل الجنة بغير حساب وهم السبعون ألفا، وقد يكون بعض من يحاسب أفضل من أكثرهم. والغني إذا حوسب على غناه فوجد قد شكر الله تعالى فيه وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف كان أعلى درجة من الفقير الذي سبقه في الدخول ولم يكن له تلك الأعمال ولا سيما إذا شاركه الغني في أعماله وزاد عليه فيها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فالمزية مزيتان: مزية سبق ومزية رفعة، وقد يجتمعان وينفردان فيحصل الواحد السبق والرفعة ويعدمهما آخر ويحصل لآخر السبق دون الرفعة

---

(١) البخاري (٣٣٢٧)، مسلم (٢٨٣٤).

(٢) مسلم (٢٩٧٩).

(٣) أحمد ٢/ ٣٤٣، والترمذي (٢٥٠٨)، وابن ماجه (٤١٢٢). وقال الألباني: حسن صحيح.

ولآخر الرفعة دون السبق، وهذا بحسب المقتضى للأمرين أو لأحدهما وعدمه. (١)

قال الألباني: المحفوظ أن هذه المدة: أربعين خريفًا إنما قالها ﷺ في فقراء المهاجرين، وأما فقراء المسلمين - عامة - فيدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة. (٢)

أكثر أهل الجنة هم أمة محمد ﷺ .

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ". فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ " أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ". فَكَبَّرْنَا.

فَقَالَ: " أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ". فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: " مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ ". (٣)

وعن عبد الله بن مسعود قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ: " أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ ". قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: " تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ ". قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: " أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ ". قُلْنَا نَعَمْ. قَالَ " والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِني لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ ". (٤)

وعن بريدة بن الحصيب قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ ". (٥)

فيمن يدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب.

---

(١) حادي الأرواح صـ١١٢.

(٢) السلسلة الضعيفة (٤/ ٤٢٥).

(٣) البخاري (٣٣٤٨).

(٤) البخاري (٦٥٢٨)، مسلم (٢٢١).

(٥) أحمد ٥/ ٣٤٧، الترمذي (٢٥٤٦)، ابن ماجة (٤٢٨٩). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٦٢).

وعن ابن عبَّاسٍ قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا، أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ. فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ فَأَفَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِالله، وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلاَدُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ". فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ " نَعَمْ ". فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا قَالَ: " سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ ".(١)

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِى الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ ". فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُمْ. قَالَ: " اللهمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ ". ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُمْ. قَالَ: " سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ ".(٢)

وعَنْ أَبِى أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " وَعَدَنِى رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِى سَبْعِينَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً وَثَلاَثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ ".(٣)

النساء في الجنة أكثر من الرجال وكذلك هم في النار.

عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ: إِمَّا تَفَاخَرُوا وَإِمَّا تَذَاكَرُوا الرِّجَالُ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ أَمِ النِّسَاءُ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَوَلَمْ يَقُلْ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ " إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِى تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مُخُّ

---

(١) البخاري (٥٧٠٥).

(٢) البخاري (٥٨١١)، مسلم (٢١٦).

(٣) أحمد ٤/ ٦٢٦، ابن ماجه (٤٢٨٦)، الترمذي (٢٤٣٧). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٥٩).

سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ ". (١)

فقد اخْتَصَمَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ أَيُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ؟ فَسَأَلُوا أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ فذكره.

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى أَضْحًى - أَوْ فِطْرٍ - إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: " يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّى أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ ". فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ ". قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ " أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ ". قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: " فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ ". قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: " فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا ". (٢)

وبما جاء عَنْ أَبِى التَّيَّاحِ قَالَ: كَانَ لِمُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ امْرَأَتَانِ فَجَاءَ مِنْ عِنْدِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتِ الأُخْرَى: جِئْتَ مِنْ عِنْدِ فُلاَنَةَ؟ فَقَالَ: جِئْتُ مِنْ عِنْدِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فَحَدَّثَنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " إِنَّ أَقَلَّ سَاكِنِى الْجَنَّةِ النِّسَاءُ ". (٣)

قال ابن حجر: ويجاب بأنه لا يلزم من أكثريتهن في النار نفى أكثريتهن في الجنة، لكن يشكل على ذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر: اطلعت في الجنة فرأيت أقل ساكنها النساء، ويحتمل أن يكون الراوي رواه بالمعنى الذي فهمه من أن كونهن أكثر ساكني النار يلزم منه أن يكن أقل ساكني الجنة، وليس ذلك بلازم لما قدمته، ويحتمل أن يكون ذلك في أول الأمر قبل خروج العصاة من النار بالشفاعة. (٤)

---

(١) مسلم (٢٨٣٤).

(٢) البخاري (٣٠٤).

(٣) مسلم (٢٧٣٨).

(٤) فتح الباري ٦/ ٣٢٥.

وقال ابن القيم: قيل: هذا يدل على أنهن إنما كن في الجنة أكثر بالحور العين التي خلقن في الجنة وأقل ساكنيها نساء الدنيا فنساء الدنيا أقل أهل الجنة وأكثر أهل النار. (١)

نساء أهل الجنة وأصنافهن وحسنهن وأوصافهن

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (البقرة: ٢٥)، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الدخان: ٥٤)، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ (الواقعة: ٣٥ – ٣٨)

عن أنس بْنِ مَالِكٍ عَنِ النبيِّ ﷺ " لَرَوْحَةٌ في سَبِيلِ الله أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ – يَعْنِى سَوْطَهُ – خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا". (٢)

وفي حديث أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: " لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ ". (٣)

سوق الجنة و ما أعد الله تعالى فيه لأهلها

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ " إِنَّ في الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو في وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَالله لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً. فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَالله لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً". (١)

---

(١) حادي الأرواح صـ١٢٠.

(٢) البخاري (٢٧٩٦).

(٣) البخاري (٣٢٥٤)، مسلم (٢٨٣٤).

في رؤيتهم ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة كما يرى القمر ليلة البدر

قال ابن القيم: هذا الباب أشرف أبواب الكتاب(٢)، وأجلها قدرًا، وأعلاها خطرًا، وأقرها لعيون أهل السنة والجماعة، وأشدها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، و تنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وجميع الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبة أصحاب رسول الله عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله و دينه مسالمون، وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون. (٣)

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣)

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (يونس: ٢٦)

فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم، كذلك فسرها رسول الله الذي أنزل عليه القران فالصحابة من بعده.

عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شيئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ".

---

(١) مسلم (٢٨٣٣).

(٢) يقصد كتابه " حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" .

(٣) حادي الأرواح صـ٢٦٦.

ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾. (١)

وفي حديث أبي هريرة أن نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ". قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: " هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ ". قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ الله. قَالَ " فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ. . فذكر حديث الشفاعة الطويل. (٢)

أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد.

هذا مما يعلم بالاضطرار أن الرسول أخبر به قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾﴾ (هود: ١٠٨).

وفي حديث أبي هريرةأنه ﷺ قال: مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ وَلاَ يَبْأَسْ، وَيُخَلَّدْ وَلاَ يَمُوتْ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُمْ، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُمْ ". (٣)

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾. (٤)

وإليك ذكر الشبهات والرد عليها.

---

(١) مسلم (١٨١).

(٢) البخاري (٦٥٧٣)، مسلم (١٨٢).

(٣) الترمذي (٢٥٢٦)، أحمد ٢/ ٣٠٤، مسند الطيالسي (٢٥٨٣)، وقال الألباني: حسن لغيره. صحيح الترغيب والترهيب (٣٧١١).

(٤) البخاري (٤٧٣٠)، مسلم (٢٨٤٩).

١ـ هل للمسلمين جنة واحدة أم جنات؟.

الرد من وجوه:

الوجه الأول: تعريف الجنة.

الوجه الثاني: الفرق بين جنة وجنات.

الوجه الثالث: الجنات والجنة في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تعريف الجنة.

١ ـ في اللغة: من الستر والتغطية.

جن الشيء يجنه جنا ستره، وكل شيء ستر عنك فقد جن عنك، وسمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه، وجن الليل وجنونه وجنانه: شدة ظلمته وادلهامه وقيل: اختلاط ظلامه؛ لأن ذلك كله ساتر،والجُنة: الوقاية، والجنة: البستان، ومنه الجنات، والعرب تسمي النخيل جنة، قال زهير:

كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقي جنة سحقًا

والجنة: حديقة ذات الشجر والنخل، جمعها: جنان وفيها تخصيص، ويقال للنخل وغيرها وقال أبو علي في التذكرة: لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة، وقد ورد ذكر الجنة في القرآن العزيز والحديث الكريم في غير موضع. [1]

٢ ـ أما حقيقتها فهي:

دار النعيم في الدار الآخرة، أعدها الله تبارك وتعالى لعباده المتقين.

من الاجتنان: وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها

قال: وسميت بالجنة وهي المرة الواحدة من مصدر جنه جنا إذا ستره فكأنها سترة واحدة لشدة التفافها وإظلالها. [2]

---

(١) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٩٣-٩٦) باختصار.

(٢) المصدر السابق .

الوجه الثاني: الفرق بين جنة وجنات.

وقد جاء في القرآن ذكر الجنة مفردة ومجموعة، فإذا كانت مفردة فالمراد الجنس. [(١)]

المقصود بجنة مفردة: هي الجنة التي خلقها الله تعالى لعباده المتقين.

والمقصود بجنات: هي عدد النعيم في الجنة كلٌ على حسب إيمانه وعمله، وهذا من عدل الله تعالى ورحمته بعباده.

وتثنية جنتين باعتبار أن ما على يمين السائر كجنة، وما على يساره كجنة. وقيل: كان لكل رجل في مسكنه، أي داره جنتان جنة عن يمين المسكن وجنة عن شماله فكانوا يتفؤون ظلالهما في الصباح والمساء ويجتنون ثمارها من نخيل وأعناب وغيرها، فيكون معنى التركيب على التوزيع، أي: لكل مسكن جنتان، كقولهم: ركب القوم دوابهم، وهذا مناسب لقوله: ﴿فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ دون أن يقول في بلادهم، أو ديارهم، ويجوز أن يكون المراد أن مدينتهم وهي مأرب كانت محفوفة على يمينها وشمالها بغابة من الجنات يصطافون فيها ويستثمرونها مثل غوطة دمشق، وهذا يناسب قوله بعد ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]؛ لأن ظاهره أن المبدل به جنتان اثنتان، إلا أن تجعله على التوزيع من مقابلة المتعدد بالمتعدد. [(٢)]

الوجه الثالث: الجنات والجنة في الكتاب المقدس.

ورد في كتبهم كلمة جنة والجنة مفردة ٣٠ مرة.

مثال: في سفر (التكوين٢/ ١٠: ٩): وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. ١٠وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ.

وكلمة جنة كما جاء في سفر (حزقيال٣١/ ٩: ٨): اَلأَرْزُ فِي جَنَّةِ اللهِ لَمْ يَفُقْهُ، السَّرْوُ لَمْ

---

(١) البحر المحيط (١/ ١٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٤- ٣٥)

يُشْبِهْ أَغْصَانَهُ، وَالدُّلْبُ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ فُرُوعِهِ. كُلُّ الأَشْجَارِ فِي جَنَّةِ الله لَمْ تُشْبِهْهُ فِي حُسْنِهِ.
٩ جَعَلْتُهُ جَمِيلًا بِكَثْرَةِ قُضْبَانِهِ، حَتَّى حَسَدَتْهُ كُلُّ أَشْجَارِ عَدْنٍ الَّتِي فِي جَنَّةِ الله.

وكلمة جنات وردت بالتعريف والتنكير ٨ مرات.

مثال على ذلك كما ورد في (أشعياء ٦٦/ ١٧): الَّذِينَ يُقَدِّسُونَ وَيُطَهِّرُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ

فهل في ذكر الجنات والجنة غضاضة أو سوء؟.

* * *

٢ـ شبهة في وصف الجنة.

نص الشبهة:

ادعوا التناقض بين القرآن والسنة؛ فقالوا: إن القرآن وصف الكثير من الجنة وفي حديث قُدُسِيٍّ رواه أبو هريرة عن النبيِّ محمد قال فيه: قال الله: أعددتُ لعابدي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، فاقْرَأوا إن شئتُم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. ويفيد هذا الحديث أن ما أعده الله لعباده الصّالحين لا يمكن وصفه، حيث لم تَرَهُ عيونهم، ولم تسمع عنه آذانهم ولا خطر على قلوبهم.

وقالوا: إن هذا الحديث النبوي مأخوذٌ من الإنجيل المقدس، فقد ورد في رسالة كورنثوس الأولى(٢/ ٩)قول الوحي المقدس: "ما لم تَرَ عينٌ، ولم تَسْمَعْ أذنٌ، ولم يخطر على بال إنسانٍ: ما أَعَدَّهُ الله للّذين يحبّونَهُ".

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الجنة من الأمور الغيبية، (فليس السامع كالشاهد).

الوجه الثاني: الرسول يصف لنا بعضًا من نعيم الجنة.

الوجه الثالث: لايوجد تناقض بين القرآن والسنة.

الوجه الرابع: قوله (إن الحديث القدسي موافق لما في كتابهم) دلالة على صدق القرآن.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الجنة من الأمور الغيبية، (فليس السامع كالشاهد).

فالجنة من عالم الغيب الذي لم ندركه بحواسنا فلم نسمعها ولم نرها ولم نلمسها ولم نتذوقها، فهي بالنسبة لنا وصف مجهول الكيفية الحقيقية التي نستطيع أن نحكم عليها.

ولنضرب مثالاً على ذلك من الدنيا: والأشياء فيها متشابهة.

لو سمع منا إنسان عن جزيرة ما مثل جزر مثلث برمودة الذي يحكى عنه مثلث الرعب، هناك أوصاف كثيرة لهذا المثلث، لكن لا يستطيع أحد أن يدرك حقيقته كما هي؛ لأن الذي يفعل ذلك هو الذي شاهد هذه الجزيرة ولم يستطع أحد أن يذهب إليها ويرجع سالما.

هذا في أمر الدنيا الذي تتشابه فيه الأشياء فما بالك بأمر الآخرة.

ومثال آخر: الروح التي في الجسد كل البشر يؤمنون بذلك؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يدركوا حقيقة الروح ولا كيفيتها. وهذا من أمر الدنيا؛ فكيف بالآخرة؟! !

الوجه الثاني: الرسول يصف لنا بعضًا من نعيم الجنة.

وصف النبي ﷺ بعضًا من نعيم الجنة؛ لأنه شاهده ورآه، ولذلك عندما وصفه كان وصفا فوق عقلية الإنسان البشري الدنيوي فمما وصفه النبي ﷺ:

١ ـ الحور العين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى آثَارِهِمْ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لا تَبَاغُضَ بَيْنَهُمْ وَلا تَحَاسُدَ، لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتَانِ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ".(١)

فعندما يتخيل العقل البشري امرأة يرى مخ عظام ساقها من وراء العظم لا يستطيع أن يدرك هذه الكيفية؛ لأنه لا يوجد كيفية في الواقع الدنيوي مثل هذه الكيفية. وهذا شئ لم تره العيون قبل ذلك ولا خطر في خيال إنسان.

٢ ـ سدرة المنتهى:

في حديث الإسراء فيه: "وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلالُ هَجَرَ وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الفيل. . . . . ".(٢)

فهذه شجرة نبق في عظم أوراقها، اسمها مطابق لاسم النبق في الدنيا، ولكن الكيفية تختلف، وهذا شئ لم تره العيون قبل ذلك ولا خطر على قلب إنسان.

فهذان مثالان عن ما في الآخرة يدل على أن ما يدور في خلد الإنسان فهو بخلافه.

---

(١) البخاري (٣٠١٤).

(٢) البخاري (٢٩٦٨).

الوجه الثالث: لايوجد تناقض بين القرآن والسنة.

من خلال ما سبق يتبين أنه لا تناقض، ففي الحديث ما لم تره الأعين وهذا حق: فإن الأعين لم تر الجنة وما فيها، وسوف ترى ما لم تره في الدنيا من النعيم.

وأيضًا كل ما خطر على قلب إنسان ودار في خياله من معرفة كيفية هذا النعيم فما أعده الله أعلى وأسمى مما نتصور؛ لأنه ينظر بنظرة أشياء الدنيا، والآخرة أعظم من الدنيا بكثير. فلا يستطيع مهما أوتي من خيال أن يأتي بالصورة الحقيقية لنعيم الجنة.

والوصف غير المشاهدة، فوصف الجنة ونعيمها لا يستطيع الإنسان أن يدركها إدراكًا كاملًا.

الوجه الرابع: قوله (إن الحديث القدسي موافق لما في كتابهم)دلالة على صدق القرآن.

وإذا دل فإنما يدل على صدق النبي ﷺ وأنه جاء بالحق المبين؛ لأنه بشهادة الأعداء أن النبي ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب فكيف عرف بهذا النعيم الذي أعده الله تعالى للمؤمنين في الآخرة؟!!

* * *

٣ـ شبهة عن درجات الجنة.

نص الشبهة:

قالوا: إن للجنة مائة درجة، بحيث تبعد كل درجة عن الأخرى كبعد السماء عن الأرض، وبين الدرجتين مائة عام. فهل نفهم أن المسافة بين السماء والأرض هي مائة عام؟ علمًا أن عبارة مائة عام تدل على زمنٍ وليست على مسافة؟ ثم هل سيقضي المجاهدون من المسلمين الأبدية منعزلين بعضهم عن بعض، بحيث تفصل بينهم المسافات الشاسعة جدًا؟ وما الحكمة من هذا الفصل؟.

والجواب عن ذلك من وجوه

الوجه الأول: ثبوت أحاديث درجات الجنة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ". فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: " إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة - أراه - فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة ". قال محمد بن فليح عن أبيه، وفوقه عرش الرحمن. (١)

الوجه الثاني: أقيسة المسافات متعددة وأن المسافة قيست بشيء من خلق الله تعالى وذلك:

١ ـ المسافات البعيدة تقاس بالزمن بسرعة الراكب أو الماشي.

وهذا هو المشاهد: فيقال:

المسافة بين القاهرة وعمان ساعة بالطائرة، وما بين السعودية ومصر ساعتان مثلًا.

(١) البخاري (٢٦٣٧).

وما بين القاهرة وأمريكا ١٢ ساعة. يقال المسافة بين كوكب كذا وكوكب كذا مائة سنة ضوئية.

فليس خلق البشر وهو الراكب المسرع، كخلق الله تعالى؛ لأن ما صنعه البشر قد لا يصلح في زمن من الأزمان.

الوجه الثالث: الرد على قولهم.

هل سيقضي المجاهدون من المسلمين الأبدية منعزلين بعضهم عن بعض، بحيث تفصل بينهم المسافات الشاسعة جدًّا؟

ونقول له:

١ ـ ليس في الجنة عزلة وما يتمناه المرء يدركه بمجرد التمني لا يكلف نفسه عناء الطلب وأهل الجنة يتزاورون. قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الصافات: ٥٠-٥٧).

فأخبر سبحانه وتعالى أن أهل الجنة يقبل بعضهم على بعض ويتذاكرون أمر الدنيا، ومن كان له صاحب يسأل عن صاحبه فيريه الله تعالى حاله في الآخرة.

٢ ـ أن في الجنة سوقًا يذهب إليه الناس يوم الجمعة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَالله لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالا فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَالله لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا. [(١)]

فأين العزلة التي يتكلمون عنها؟!

(١) مسلم (٥٠٦١).

٣ ـ أن هذه المسافات الشاسعة عند الله تعالى ليست بشيء؛ فإنه سبحانه وتعالى كما قال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧)

والدليل على ذلك أن جبريل كان ينزل من فوق سبع سماوات بالخبر إلى رسول الله ﷺ في لمح من البصر.

وقد أسري برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء السابعة ثم ما بعد السماوات في جزء من الليل.

الوجه الرابع: الرد على قولهم.

ما الحكمة من هذا الفصل؟ بل هي حكمة الله، كما يقول القرآن، الذي يفاضل بين المؤمنين بحسب أعمالهم.

ونقول له:

١ ـ ما الحكمة في الشركات الكبرى أن يفاضل فيها بين الناس؟ فهذا مدير وهذا ساعي، وهذا عامل وهذا موظف وهذا رئيس؟ أليس هذا من العدل؟ كل على حسب عمله؟ هل يجوز أن يعين الساعي مكان المدير العام في الشركة؟ برغم أنهم جميعا في شركة واحدة.

والجواب بالبديهي: لا؛ لأنه لم يعمل عملا يؤهله أن يكون في هذه المكانة. فكل على حسب جهده وعمله.

٢ ـ ولله المثل الأعلى؛ فإذا كان هذا شأن الدنيا والبشر بعضهم مع بعض، فما بالك بشأن الآخرة وحكمهم إلى رب البشر ! !

٣ـ فمن العدل أن لا يكونوا جميعا في مكانة واحدة؛ بل كل على حسب عمله يكون في درجته.

٤ ـ وهذا ما قرره القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: من الآية١١). وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٣).

وقال أيضًا: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأحقاف: ١٩).

ومن السنة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : "مَنْ آمَنَ بِالله وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَفَلا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟، قَالَ: إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ"(١).

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : "مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلا رَفَعَهُ الله بِهَا دَرَجَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً"(٢).

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: " يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأ بها"(٣).

فهذه المنازل والدرجات على حسب الأعمال؛ أما كيف يلتقون؟ فهذا ما لا ندركه بحسنا نحن في الدنيا.

* * *

(١) روى البخاري (٢٥٨١).

(٢) روى مسلم (٤٦٦٥).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٥)، وابن حبان (١٧٩٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٤٠).

٤ـ شبهة: فيمن يستحق دخول الجنة.

نص الشبهة:

هل دخول الجنة بالعمل أم فضل من الله؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأصل أن دخول الجنة فضل من الله، والعمل سبب موصل إليها.

الوجه الثاني: الأعمال الصالحة فضل من الله وهي سبب لدخول الجنة ثم الدخول يكون فضلًا من الله.

الوجه الثالث: اعتقاد المسلمين في دخول الجنة لاتعلق له بعقيدة الفداء الباطلة عند النصارى.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأصل أن دخول الجنة فضل من الله والعمل سبب موصل إليها.

إن الله تعالى قد خلق الإنسان، وجعل له السمع والبصر، وخلق له العقل يميز به بين الحق والباطل، وأعطاه الرزق والقدرة على العبادة، وعلى التفكير في آلاء الله تعالى، فمن صاحب الفضل عليه؟

الله تعالى هو صاحب الفضل أولًا وآخرًا، فلو جازى الله تعالى العبد على عبادته مقابل نعمة من هذه النعم مثل نعمة البصر، فهل يستطيع الإنسان أن يكافئ ربه بهذه النعمة ولو ظل ساجدا العمر كله؟! ! بالبديهي: الجواب لا يستطيع. فكيف بسائر النعم الأخرى؟! !

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (ق: ٣٧).

إذًا فالعبد يحتاج إلى أعمار فوق عمره حتى يكافئ الله تعالى على نعمه ويبلغ شكره، فلو فرضنا أن عبادته مقابل نعمة البصر، فأين مقابل النعم الأخرى؟.

وفي هذه الحالة ليس له رصيد يدخل به الجنة. فعندما يَعِدُ الله تعالى من آمن وعمل صالحا بدخول الجنة؛ إنما هذا من رحمته سبحانه وتعالى وكرمه ومنه. وليس مقابل عمله.

وبذلك يكون قد فسر حديث النبي ﷺ: "لا يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت

يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ". [١]

فهذا حق؛ لأن من الذي اصطفى الرسل وفضلهم على عباده؟ أليس هو الخالق سبحانه وتعالى؟ من الذي جعلهم رسله، ومنحهم رسالته؟ أليس هو الله.

ولا يستطيع الإنسان مهما بلغ من عبادته أن يوفى ربه ولو عشر ما أعطاه. فعندما يدخل النبي ﷺ الجنة؛ إنما يدخل أيضًا برحمة الله تعالى.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: "أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنْ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ الله وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا، فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ ". [٢]

الوجه الثاني: الأعمال الصالحة فضل من الله، وهي سبب لدخول الجنة، ثم الدخول يكون فضلًا من الله.

قال البغوي في تفسيره: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أي: بثواب الآخرة، وقيل: بمن أطاع رسول الله وأحبَّه، وفيه بيان أنهم لن ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، وإنّما نالوُها بفضل الله ﷻ. [٣]

وقال الآلوسي في تفسيره: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، والباء للسببية وتُجُوِّز بذلك عن الإعطاء؛ إشارة إلى أن السبب فيه ليس موجبًا، وإن كان سببًا بحسب الظاهر كما أن الإرث ملك بدون كسب، وإن كان النسب مثلًا سببًا له، والباء في قوله ﷺ على ما في بعض الكتب: " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله " وكذا في قوله ﷺ على ما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وجابر " لن ينجو أحد منكم بعمله " للسبب التام فلا تعارض، وجوز أن تكون الباء فيما نحن فيه للعوض أي بمقابلة أعمالكم، وقيل:

(١) البخاري (٥٣٤٩)، مسلم (٢٨١٦).

(٢) البخاري (٤٥٥٧).

(٣) تفسير البغوي (٢/ ٢٤٨).

تلك الإشارة إلى منازل في الجنة هي لأهل النار لو كانوا أطاعوا جعلها الله تعالى إرثًا للمؤمنين، فقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي قال: "ما من مؤمن ولا كافر إلا وله في الجنة والنار منزل مبين، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار، فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل لهم: هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله تعالى، ثم يقال: يا أهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون، فيقتسم أهل الجنة منازلهم"، وأنت تعلم أن القول بهذا الإرث الغريب لا يدفع الحاجة إلى المجاز.

وزعم المعتزلة أن دخول الجنة بسبب الأعمال لا بالتفضل لهذه الآية، ولا يخفى أنه لا محيص لمؤمن عن فضل الله تعالى؛ لأن اقتضاء الأعمال لذاتها دخول الجنة أو إدخال الله تعالى ذويها فيها مما لا يكاد يعقل، وقصارى ما يعقل أن الله تعالى تفضل فرتب عليها دخول الجنة فلولا فضله لم يكن ذلك، وأنا لا أرى أكثر جرأة من المعتزلة في هذا الباب ككثير من الأبواب؛ فإنَّ مآل كلامهم فيه أن الجنة ونعيمها الذي لا يتناهى إقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى الذي لا ينتفع بشيء، ولا يتضرر بشيء لا تفضل له عليهم في ذلك؛ بل هو بمثابة دين أُدِّيَ إلى صاحبه، سبحانك هذا بهتان عظيم، وتكذيب لغير ما خبر صحيح!. (١)

قال الشوكاني: قوله: ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾أي: في جنته ودار كرامته، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة، بل لا بد من الرحمة. (٢)

الوجه الثالث: اعتقاد المسلمين في دخول الجنة لا تعلق له بعقيدة الفداء الباطلة عند النصارى.

إن عقيدة الفداء الباطلة من أفسد عقائد النصارى ويظهر هذا في عدة نقاط:

١ـ عقيدة الفداء راجعة إلى توريث الخطيئة التي فعلها أبو البشر آدم لذريته، وليس دخول الجنة في الإسلام كذلك كما وضحنا.

٢ ـ عقيدة الفداء تثبت تلوث كل الأنبياء بالخطيئة حتى مريم والمسيح، والإسلام برأ

---

(١) تفسير الآلوسي (٨/ ٢٢).

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٧٠).

الأنبياء من الكبائر.

٣ـ عقيدة الفداء فيها أن كل من يفعل خطيئة فقد غفرت له ولو كانت شركًا وكفرًا ولو لم يتب؛ لأن المسيح قد محى هذه الذنوب، وفي الإسلام الشرك لا يغفره الله للعبد إن مات عليه من غير توبة.

٤ ـ عقيدة الفداء فيها الظلم؛ لأن البشر قد ورثوا خطيئة لا ذنب لهم فيها، وفي الإسلام كل إنسان يحاسب على عمله.

٥ ـ عقيدة الفداء فيها عجز الله تعالى عن أن يمحو ذنوب البشر إلا بفداء ابنه (كما يزعمون) تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا! وفي الإسلام الله تعالى على كل شئ قدير، وأنه لا يعجزه شئ.

٦ ـ عقيدة الفداء قد اختلف فيها النصارى أنفسهم. فمن الذي كان على الصليب؟ أهو الله وقد تجسد، أم هو ابن الله نزل من السماء، أم هو ابن الإنسان. وكتبهم مليئة بالتناقضات في هذا الشأن كما في الرد على هذه العقيدة الفاسدة.

أما في الإسلام فإن الله تعالى لا يعاقب عبدًا على فعل غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (الأنعام: ١٦٤)، وقال سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء: ١٥) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (فاطر: ١٨)، وهذا منتهى العدل والإحسان.[١]

* * *

(١) راجع مبحث عقيدة الفداء والصلب عند النصارى؛ فقد ثبت بطلانها بالأدلة النقلية والعقلية مفصلة في محلها.

٥ـ شبهة: عن جنة الفردوس.

نص الشبهة:

قالوا: اختلف علماء الإسلام في معنى الفردوس وأصل الفردوس، مع العلم أن الكلمة ليست عربية كما قال ابن منظور.

بناء على هذا يحق لنا أن نطرح الأسئلة التّالية:

هل الفردوس هي الجنّة نفسها؟ أم مكان في الجنّة؟ أم جنّة قائمة بذاتها؟

هل الفردوس سُرّةَ الجنة أم ربوة الجنة أم حديقة في الجنة؟

هل كلمة الفردوس عربية أم روميّة أم فارسية أم حبشية؟

هل تُفَجَّرُ أنهار الجنة من الفردوس؟

أم أن هذه الأنهار تنبع من البحار الموجودة في الجنة؟!

وعليه: هل يحق للمسلم، أو لغير المسلم، أن يبحث عن معنى الفردوس في مصادر غير إسلامية، مادام المسلمون مختلفين في تحديد معنى الكلمة، وخصوصًا البحث في الكتاب المقدس؟!

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تعريف كلمة الفردوس.

الوجه الثاني: الفردوس أعلى درجات الجنان وأعظمها نعيما.

الوجه الثالث: ثبت بالدليل المعصوم عندنا أن الأنهار تتفجر من جنة الفردوس.

الوجه الرابع: كلمة الفردوس في كتبهم المقدسة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تعريف كلمة الفردوس.

قال ابن منظور: الفردوس: البستان، قال الفراء: هو عربي، وقال ابن سيده: الفردوس: الوادي الخصيب عند العرب كالبستان، وهو بلسان الروم: البستان، والفردوس: الروضة عند السيرافي، والفردوس: خضرة الأعناب.

قال الزجاج: وحقيقته: أنه البستان الذي يجمع ما يكون في البساتين، وكذلك هو عند أهل كل لغة، والفردوس: حديقة في الجنة، والفردوس: أصله رومي عُرِّبَ، وهو البستان كذلك جاء في التفسير، والعرب تسمي الموضع الذي فيه كرم: فردوسًا.

وقال أهل اللغة: الفردوس مذكر، وإنما أنث في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا﴾؛ لأنه عنى به الجنة، وفي الحديث: نسألك الفردوس الأعلى. وأهل الشام يقولون: للبساتين والكروم: الفراديس، وقال الليث: كرم مفردس؛ أي معرش. [١]

فمن خلال ما ذكرنا يتبين أن الفردوس كلمة تستعمل في العربية والرومية على حد سواء، وقد ذكرت في القرآن فهي عربية.

الوجه الثاني: هل الفردوس هو الجنة نفسها؟ أم مكان في الجنة؟ أم جنة قائمة بذاتها؟!

ونقول: الفردوس هو مكان في الجنة، ودرجة من درجاتها، وليس الجنة ذاتها، ولا جنة قائمة بذاتها.

وما ذكره هذه المعترض كله حق ولكنه لا يفهمه، فهو أعلى درجة في الجنة باعتبار النعيم، وهو أوسط الجنة باعتباره تحت العرش، وأرفعها باعتبار منزلتها فهي أفضل الجنان؛ ولذلك جاء في حديث أبي هريرة قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ". [٢]

فالفردوس: هو أعلى درجات الجنة، وفي هذا حث للمسلمين على الاجتهاد في العبادة، وأن الله تعالى يجازي كلا بحسب عمله، ولا يظلم ربك أحدًا.

وأيضًا: الفردوس هو ربوة الجنة باعتباره أعلاها، فالربوة هي المكان المرتفع، وهي سرة الجنة باعتباره أوسطها كما قدمنا، وسرة الشيء أوسطه، فلا فرق بين هذه الثلاثة، فلا تناقض بينها والله أعلم.

---

(١) لسان العرب (٦/ ١٦٣).

(٢) البخاري (٢٥٨١).

الوجه الثالث: ثبت بالدليل المعصوم عندنا أن الأنهار تتفجر من جنة الفردوس.

ونقول: منه تفجر أنهار الجنة كما ذكرنا من حديث النبي ﷺ، ولم يرد غير ذلك في كتب السنة ولا في القرآن.

أما كون الجنة فيها عدة أنهار، فكلها تفجر من الفردوس. ومنها ما يفجر من سدرة المنتهى كما سنذكره في مكانه، وكلها في الجنة كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (محمد: ١٥).

وعلى هذا فليس هناك اختلاف بين المسلمين في هذه المعاني كما ادعى الكاتب، وأما كون المسلم يبحث عن المعاني في غير المصادر الإسلامية، فحرية الفكر والبحث والتحري في الإسلام أوسع من غيرها. ولكن البحث يكون بمعرفة ما عند الآخر من المعرفة، فإن كانت توافق ما في الإسلام فهي صحيحة، وإن كانت تخالفه فهي باطلة، ومعرفتها واجب على الكفاية من باب: عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

الوجه الرابع: كلمة الفردوس في كتبهم المقدسة.

وردت كلمة الفردوس معرفة ثلاثة مرات:

ففي رسالة بولس الثانية إلى كورنثوس(٤: ٣): وَأَعرِفُ هذَا الإِنْسَانَ: أَفِي الْجَسَدِ أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. الله يَعْلَمُ. ٤ أَنَّهُ اخْتُطِفَ إِلَى الْفِرْدَوْسِ، وَسَمِعَ كَلِمَاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا، وَلاَ يَسُوغُ لإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا.

وفي سفر سيراخ (٢٤/ ٤٢: ٤٠): (٤٠ أنا الحكمة مفيضة الأنهار ٤١ أنا كساقية من النهر وكقناة خرجت إلى الفردوس ٤٢ قلت اسقي جنتي واروي روضتي)

وفي إنجيل لوقا (٢٣/ ٤٢: ٤٤): ثُمَّ قَالَ لِيَسُوعَ: «اذْكُرْنِي يَارَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ». ٤٣ فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ ٤٤ وَكَانَ نَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ، فَكَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ.

وجاءت بصفة النكرة ثلاثة مرات:

ففي رؤيا يوحنا ٢ (٧مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِي وَسَطِ فِرْدَوْسِ الله».

وفي نحميا ٢: ٨ "وَرِسَالَةٌ إِلَى آسَافَ حَارِسِ فِرْدَوْسِ الْمَلِكِ لِكَيْ يُعْطِيَنِي أَخْشَابًا لِسَقْفِ أَبْوَابِ الْقَصْرِ الَّذِي لِلْبَيْتِ، وَلِسُورِ الْمَدِينَةِ، وَلِلْبَيْتِ الَّذِي أَدْخُلُ إِلَيْهِ. فَأَعْطَانِي الْمَلِكُ حَسَبَ يَدِ إِلهِي الصَّالِحَةِ عَلَيَّ".

وفي نشيد الإنشاد (٤: ١٢-١٣): أُخْتِي الْعَرُوسُ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ، عَيْنٌ مُقْفَلَةٌ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ. غرَاسُكِ فِرْدَوْسُ رُمَّانٍ مَعَ أَثْمَارٍ نَفِيسَةٍ، فَاغِيَةٍ وَنَارِدِينٍ.

فإذا نظرنا إلى هذه الكلمة على حسب ورودها عند النصارى لا نجد توحدا في المعني؛ وإنما هي على معاني مختلفة عندهم، ومع ذلك يرموننا نحن بالتعارض في المعني على قول القائل: رمتني بدائها وانسلت!

* * *

٦ـ شبهة: عن عرق أهل الجنة.

نص الشبهة:

عن عمر بن الخطاب قال: "جاء أناس إلى رسول الله، فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟ قال: "نعم، فاكهة ونخل ورمان" قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: "نعم، وأضعاف" قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: "لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون (يسيل عرقهم) فيذهب ما في بطونهم من أذى".

قالوا: فهذا الحديث يدل على قذارة الجنة، فكيف تكون رائحة الجنة من عرقهم ورشحهم هذا؟. **والرد على ذلك من وجوه:**

الوجه الأول: الحديث المذكور في الشبهة مكذوب على النبي ﷺ.

الوجه الثاني: رشح أهل الجنة المسك.

الوجه الثالث: العرق في الجنة هو رشح من الجبين.

الوجه الرابع: ليس جميع الفضلات التي يخرجها الكائن الحي تكون مضرة كريهة.

الوجه الخامس: نعيم الجنة ليس به آلام جسمانية.

الوجه السادس: الله ينشئ من يدخل الجنة إنشاءً آخر.

الوجه السابع: كما أن مسألة الجماع والنوم في الجنة تختلف عنها في الدنيا؛ فكذلك نقول في مسألة العرق.

الوجه الثامن: إذا تذكرنا أن أكل الجنة يختلف عن أكل الدنيا زال الإشكال.

الوجه التاسع: شراب الجنة يقوم بتحويل الطعام إلى سائل يسهل امتصاصه.

الوجه العاشر: كلما يزيد المؤمن إيمانا؛ فإن عرقه يزيد طيبًا في الدنيا.

الوجه الثاني عشر: عرق أهل النار هو الذي له رائحة كريهة.

الوجه الخامس عشر: المسيح يشرب الخمر في ملكوت الله.

الوجه السادس عشر: العرق المدمم في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الحديث المذكور في الشبهة مكذوب على النبي ﷺ .

عن عمر بن الخطاب، قال: "جاء أناس من اليهود إلى النبي ﷺ ، فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟ قال: « نعم، فيها فاكهة ونخل ورمان »، قال: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: « نعم، وأضعاف »، قال: أفيقضون الحوائج؟ قال: « لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون؛ فيذهب الله بما في بطونهم من أذى".

فالحديث موضوع فلا تثبت به عقيدة ولا يعتد به، وضاع ما عول عليه المعترضون من القول في هذه الشبهة. (١)

الوجه الثاني: رشح أهل الجنة المسك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمْ الْأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنْ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا. (٢)

---

(١) موضوع. أخرجه عبد بن حميد في مسنده (٣٦)، وابن أبي الدنيا (في صفة الجنة٩٩)، والحارث بن أبي أسامة كما في (المطالب العالية ٤٧٢٦): جميعا من طريق يحيى بن عبد الحميد قال: ثنا حصين بن عمر، ثنا مخارق، عن طارق بن شهاب به.

وإسناده واه فيه: حصين بن عمر الفرات أبو عمر الأحمسي الكوفي كذبه: أحمد بن حنبل، وابن خراش.

-ومن قال عنه إنه متروك: أبو حاتم، ومسلم، وابن حجر.

-وقال أبو أحمد بن عدى: عامة أحاديثه معاضيل، ينفرد عن كل من روى عنه.

وقال ابن حبان: روى الموضوعات عن الأثبات. انظر: تهذيب الكمال (١٣٦٣)، وتهذيب التهذيب (٦٦٨).

وفيه: يحيى بن عبد الحميد الحماني، قال أحمد: ما زلنا نعرفه أنه يسرق الأحاديث أو يتلقطها أو يتلقفها. وقال: قد طلب وسمع، ولو اقتصر على ما سمع لكان له فيه كفاية. انظر: تهذيب الكمال (٦٨٦٨)، وتهذيب التهذيب (٣٩٩).

(٢) البخاري (٣٠٠٦).

فليس كما يُدعى أن في الجنة فضلات .

وإنما حياة الجنة تختلف عن حياة الدنيا تماما. فليس فيها رائحة يكرهها المؤمن مطلقا.

الوجه الثالث: العرق في الجنة هو رشح من الجبين.

عن إبراهيم التيمي في قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قال: عرق يفيض من أعراضهم مثل ريح المسك. (١)

فدل ذلك على أنه لا يخرج من الأماكن المنتنة كريهة الرائحة.

الوجه الرابع: ليس جميع الفضلات التي يخرجها الكائن الحي تكون مضرة كريهة.

لا يلزم في كل طعام أن يكون له فضلة، ولو سلمنا أنه تكون له فضلة لما لزم أن يكون فضلة مستقذرة؛ بل قد يكون فضلات كثيرة طِيبا يُتطيب به، وشرابا يشرب مثل المسك فإنه بعض دم الحيوان، أو العسل فإنه فضل حيوان معروف، وليس شيء من ذلك مستقذرا؛ بل هو مستطاب مستلذ، ولا يبعد أن تكون فضلات الجنة هكذا؛ بل هو هكذا فعلًا فقد جاءنا على لسان الصادق: أن أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون إنما هو عرق يجري من أجسادهم مثل المسك، وهذه أمور لا ينكرها إلا كل غبي جاهل ليس له معقول حاصل فإذا دل العقل على جوازه فينبغي أن يستدل على وقوع ذلك. ومن المعلوم أن آدم عليه السلام كان يأكل في الجنة ويشرب وينكح(٢).

الوجه الخامس: نعيم الجنة ليس به آلام جسمانية.

قال الإمام شهاب الدين القرافي: إن النعيم الجسماني الذي يثبته المسلمون ليس مفسرًا على ما ذكرتموه من التشنيع؛ بل على وفق الكرامة الربانية والسعادة الأبدية، وتقريره: أننا نجد في هذه الدار الملاذ الجسمانية تترتب على أسباب عادية.

فالملاذ: إما علوم خاصة حسية كإدراك الحلاوة وأنواع الطعوم الملائمة، وإدراك الأرايح المناسبة لجواهر النفس البشرية، وإدراك الملامسة للأجسام الموافقة لجواهر الطباع،

---

(١) رواه الطبري (١١٣/ ٢٤).

(٢) الإعلام للقرطبي صـ (٤٣٤) بتصرف.

وإدراك المبصرات من الألوان والأضواء وتفاصيل أنواع الحس والجمال وغيرها من المبصرات السارة للنفس، وكذلك القول في بقية الحواس.

وإما إدراك الأحوال النفسية كاستشعار النفس حصول الشراب والغذاء عند حاجتها للاغتذاء والإرواء، ونحو ذلك، فهذه هي الملاذ الجسمانية ولذلك حد الفضلاء اللذة بقولهم: " هي إدراك الملائم "، فجمعوا الجميع في هذا الحد الشامل.

وأما أسبابها العادية فهي المباشرةلأنواع المآكل والمشارب والمناكح ونحو ذلك، ثم هذه المباشرة تقترن بها في العادات حاجات للمتناولات وقاذورات تقترن بالمباشرات، فالمسلمون يدعون من هذه الأقسام الثلاثة الأولين فقط دون الثالث، فيثبتون اللذات وأسبابها مجردة عن القاذورات وأنواع الحاجات، فيقولون: الأكل والشرب والنكاح في الجنة من غير ألم جوع ولا عطش ولا بصاق ولامخاط، ولا دمع ولابول ولا غائط، ولا ريح منتن ولا حيض ولا مني ولا رطوبات مستقذرة، ولا إبداء عورة منقصة، ولا زوال أبهة معتبرة، ولا شيء مما يعاب بنوع من النقيصة؛ بل يجد المؤمن غاية ما يكون من لذة الأكل بمباشرة أنفس المآكل من غير بصاق ولا تلويث، ولا ألم جوع سابق ولا شيء لاحق، وكذلك يحصل أعظم ما يكون من لذة الشرب عند مباشرة أشرف المشروبات، من غير عطش ولا حاجة سابقة ولا تلويث لاحق ولا شيء يعاب، وكذلك يحصل الجماع بمباشرة أجمل الموطوآت من الحوريات والآدميات، التي كل واحدة منهن لو ظهرت لأهل الأرض لهاموا أجمعين بجمالها وتحيرت عقولهم بكمالها، وبديع حسنها وفائق محاسنها، ورائق تركيبها في جملتها وتفصيلها، مكسوة من الحلي ما أقله خير من ملك الدنيا وما فيها، قد نشأت من السعادة الأبدية، وهيئت للكرامة الإلهية، وأبدعت بمتسع شمول القدرة الربانية، ومع ذلك فقد تناسب خلقها وخلقها وطبعت على الميل من غير نفار، وعلى المحبة من غير ازورار، قد وصلت في محبة المؤمن وتعظيمه والأدب معه وإظهار المسرة به، والتشرف بقربه إلى أفضل الغايات، وتجاوزت في الحسن والإحسان إلى أقصى

النهايات، وللحسن والإحسان معنى ورونق إذا أمكن الإنسان الجمع بينهما. فنظرة إليها خير من جميع ممالك الأرض، وزورة منها وإليها تنسي مؤلمات يوم العرض، فيحصل من لذة جماع هذه ما هو لائق بهذا الطور العجيب والرونق الغريب، من غير إنزال فضلات، ولا رطوبات مستقذرات، منزه عن جميع النداءات؛ بل كل حالة منها في غاية الرتب العليات، وكل جزء من أجزاء حسنها في غاية الشرف والجلالة فلا عورة لها ولا للمؤمن، ولا سوءة فيها ولا فيه، لأن العورة إنما تبدت في هذه الدار؛ لكونها مخرج النجاسات والشعر والنتن والرطوبات، فإذا ذهبت هذه المعيبات المنقصات ذهبت بذهابها العورات، وبقيت المحال شريفة علية، لا ينسب إليها خصلة دنية، وإذا كان هذا هو الذي يعتقده المسلمون من الجمع بين النعيم الروحاني المتعلق بالأرواح من إدراك معنى جلال الله تعالى وجماله وتفاصيل صفاته وآلائه المتجددة على ممر الأبد والنعيم الجسماني الذي تقدم تحقيقه؛ كان هو اللائق بالكرم الإلهي والإحسان الرباني، فإن الاقتصار على النعيم الروحاني تقصير من قائله في سعة النعمة وتمام الكرامة، وأن ما يقوله المسلمون يجزم العقل الشريف بأن مثله لا تعرى عنه دار أريدت لغاية الإكرام، وأن يكون على غاية التمام؛ بل لو فرض عدم هذه الملاذ البديعة منها لقال العقل الوافر لو كان فيها هذه الملاذ لكانت أتم وأكمل، وهي أولى بقول الشاعر: ليس فيها ما يقال لـه كملت لو أن ذا كمـلا

فظهر إصابة المسلمين للصواب ببيان الحق واندفع السؤال.[1]

الوجه السادس: الله ينشئ من يدخل الجنة إنشاءً آخر.

وذلك لإعدادهم لرؤية الله، فالجسد في الدنيا لا يتحمل رؤية الله، فعندما طلب موسى من ربه أن يراه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ . . .﴾.

ففي قصور الجنة ينظرون إلى الرحمن تبارك وتعالى ويُمَتِّعون أنظارهم. ويلتقون بصفوة البشر سيدنا محمد ﷺ، في نعيم لا يوصف لا هم ولا كدر؛ لا عرق ولا أذى ولا قذر ولا

(١) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة. ٢٢٨ : ٢٣١ .

حيض ولا نفاس ولا نصب ولا تعب ولا نوم لكي لا ينقطع النعيم بنوم؛ و لا عبادة تنشأ إلا لمن أراد أن يتلذذ بها فهي دار جزاء لا دار عمل.

الوجه السابع: كما أن مسألة الجماع والنوم في الجنة تختلف عنها في الدنيا؛ فكذلك نقول في مسألة العرق.

إِنَّ شَرَابَ الْجَنَّةِ وَكَذَا أَكْلُهَا إِنَّمَا هُوَ تَلَذُّذٌ صِرْفٌ وَشَهْوَةٌ لَا عَنْ جُوعٍ وَعَطَشٍ وَلَا نَوْمَ فِيهَا، وَلَا بَوْلَ وَلَا غَائِطَ وَإِنَّمَا رَشْحُهُمْ الْمِسْكُ . (١)

عن أبي الدرداء قال: ليس في الجنة مني ولا منية، إنما يدحمونهن دحمًا. (٢)

عن طاوس قال: أهل الجنة ينكحون النساء ولا يلدن، ليس فيها مني ولا منية. (٣)

كما قال ﷺ لما سئل: أفي الجنة نوم؟ قال: النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون. (٤)

الوجه الثامن: إذا تذكرنا أن أكل الجنة يختلف عن أكل الدنيا زال الإشكال.

فطعام الجنة يختلف عن طعام الدنيا.

وكما قال ابن عباس رضى الله عنهما: أنه ليس بين أشياء الجنة وأشياء الدنيا إلا الأسماء، أما الكيفيات فتختلف.

طعام أهل الجنة، وطعام أهل الدنيا:

فطعام أهل الجنة ليس به هرمونات تسبب لهم فشل كلوي، ولا سرطان، ولا تلبك معوي: فانظر إلى جودة طعامهم (ألين من الزبد، وأحلى من العسل).

فالطب يقرر أنه كلما طاب الطعام وكان ذا جودة صحيًا، فإن العمليات الهضمية تسير في أحسن أحوالها؛ بل إن نوعية ما يأكله الإنسان يؤثر في لون ورائحة بوله وغائطه : (فلقد أكل الصحابة ورق الشجر حتى إن غائطهم كالبعر).

---

(١) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني (١/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والأصبهاني في الترغيب. انظر : الدر المنثور (١/ ٥٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد. انظر : الدر المنثور (١/ ٥٥).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٩١٩). وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٨٧).

فأهل الجنة: طعامهم أفضل طعام فهو صحي ١٠٠٪.

ولنتساءل: لماذا يخرج الإنسان الفضلات إلا إذا كانت هذه الفضلات ناتجة عن بعض السموم الذي يطردها الجسم، أو زيادة الجسم لا يقبلها؟

أما طعام أهل الجنة فإن الجسم في الجنة مهيأ بأن يمتص كل محتويات الطعام، فليس به سموم كما في طعامنا اليوم.

الوجه التاسع: شراب الجنة يقوم بتحويل الطعام إلى سائل يسهل امتصاصه.

فهناك شراب في الجنة يهضم سائر الأشربة والأطعمة، ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب، وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرقًا يفوح منه ريح كريح المسك.

فالشراب ليس مثل شراب الدنيا يزيد في حجم المعدة، أو يسبب مشكلة في الجهاز الهضمي بسبب كثرة الشرب مع كثرة الأكل.

قال الرازي: قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ الطهور فيه قولان:

الأول: المبالغة في كونه طاهرًا، ثم فيه على هذا التفسير احتمالات:

أحدها: أنه لا يكون نجسًا كخمر الدنيا.

وثانيها: المبالغة في البعد عن الأمور المستقذرة يعني ما مسته الأيدي الوضرة، وما داسته الأقدام الدنسة.

وثالثها: أنها لا تؤول إلى النجاسة؛ لأنها ترشح عرقًا من أبدانهم له ريح كريح المسك.

القول الثاني: في الطهور أنه المطهر، وعلى هذا التفسير أيضًا في الآية احتمالان:

أحدهما: قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة، تنبع من ساق شجرة، من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد، وما كان في جوفه من قذر وأذى.

وثانيهما: قال أبو قلابة: يؤتون الطعام والشراب فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتطهر بذلك بطونهم، ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهرًا؛ لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة، والأشياء المؤذية.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هو عين ما ذكر تعالى قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور، والزنجبيل، والسلسبيل أو هذا نوع آخر؟ قلنا: بل هذا نوع آخر، ويدل عليه وجوه: أحدها: دفع التكرار، وثانيها: أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذلك يدل على فضل في هذا دون غيره، وثالثها: ما روينا أنه تقدم إليهم الأطعمة والأشربة، فإذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون، فيطهر ذلك بطونهم، ويفيض عرقًا من جلودهم مثل ريح المسك، وهذا يدل على أن هذا الشراب مغاير لتلك الأشربة، ولأن هذا الشراب يهضم سائر الأشربة، ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب، وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرقًا يفوح منه ريح كريح المسك، وكل ذلك يدل على المغايرة[1].

الوجه الثاني عشر: عرق أهل النار هو الذي له رائحة كريهة (بغض النظر هل يخرجون فضلاتهم أم لا ؟)

عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: "كل مسكر حرام، وإن على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال، قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار أوعصارة أهل النار". [2]

الوجه الخامس عشر: المسيح يشرب الخمر في ملكوت الله.

أضف إلى ذلك ماورد على لسان المسيح ﷺ أنه بشرب الخمر في ملكوت الله أي في الجنة كما في سفر مرقس(١٤: ٢٥): اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ أَشْرَبُ بَعْدُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ إِلَى ذلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ اللهِ.

وفي إنجيل لوقا (٢٢: ٣٠) قول المسيح لتلاميذه: وَأَنَا أَجْعَلُ لَكُمْ كَمَا جَعَلَ لِي أَبِي مَلَكُوتًا، ٣٠لِتَأْكُلُوا وَتَشْرَبُوا عَلَى مَائِدَتِي فِي مَلَكُوتِي، وَتَجْلِسُوا عَلَى كَرَاسِيَّ تَدِينُونَ أَسْبَاطَ

---

(١) مفاتيح الغيب١٦/ ٢٣٦.

(٢) مسلم (٢٠٠٢).

إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ.

الوجه السادس عشر: العرق المدمم في الكتاب المقدس.

ففي المعارف الكتابية للكتاب المقدس:

نقرأ هذه العبارة فيما ذكره لوقا البشير عن الرب وصلاته في بستان جثسيماني: " وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ. " (لوقا٢٢: ٤٤).

وقد ثار جدل عما إذا كان لوقا يقصد بهذه العبارة أن العرق اصطبغ بالدم، أو أن قطرات العرق كانت كبيرة وتنساب غزيرة كقطرات الدم. والأرجح أنه يقصد المعنى الأول. وهناك ظاهرة علمية معروفة باسم "العرق المدمم " ولكنها نادرة، وهي تحدث كما يصفها "د. لي بيك" في أحوال خاصة جدًا، من شدة الوهن الجسماني المصحوب بجهاد نفسي عنيف، على أثر انفعال عميق أو خوف شديد. فعندما يقع إنسان تحت ضغط نفسي شديد، فإن العمليات الكيميائية في الجسم تجري بأسرع من معدلاتها الطبيعية، فينتج المزيد من فائض الحرارة الذي يُفقد عن طريق العرق. ويمر العرق كسائل في الغدد العرقية منتقلا إليها من مجرى تيار الدم، وهكذا تبدأ الأوعية الدموية الملاصقة للجلد والمحيطة بالغدد العرقية، في الانتفاخ بصورة ملحوظة. وفي حالة ظاهرة"العرق المدمم" يزداد هذا الانتفاخ جدًا وترق جدران الشعيرات الدموية، فيخترق الدم جدران الشعيرات إلى الغدد العرقية، فيسيل العرق ممتزجًا بالدم.

ولم يكن قطعًا الخوف الشديد هو السبب في حالة الرب يسوع المسيح، وهكذا يعطينا هذا التفسير لمحة عن الآلام النفسية المبرحة التي عاناها المسيح في جهاده في الصلاة في بستان جثسيماني.[1]

* * *

(١) دائرة المعارف الكتابية: مادة: دم ــ عرق كالدم.

٧ـ شبهة: ادعاؤهم أن في الجنة لواط.

نص الشبهة:

ادعى هؤلاء بالفهم الخاطئ لما ذكره الله في كتابه من وصف الحور العين بصفات حسنة، وبما ذكره عن طبيعة أعمالهم بطوافهم على أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الطور: ٢٤)، وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ (الإنسان: ١٩)، وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ (الواقعة: ١٧-١٩). فقالوا: بأن ذلك مما يبين أنهم كانوا يمارسون اللواط ومما يؤكد ذلك- بزعمهم- التركيز في وصفهم على حسن المنظر والهيئة.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: كل ما يخالف الفطرة السوية فهو محرم في الدنيا؛ ممنوع وقوعه في الآخرة؛ لأنه شيءٌ خبيث.

الوجه الثاني: الولدان المخلدون من أجل الخدمة لا من أجل الاستمتاع الجنسي.

الوجه الثالث: الإسلام يعتبر الشذوذ جريمة.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ هو وصف للأبرار المنعمين في الجنة وليس وصفًا لخدمهم.

الوجه الخامس: اللواط لم ينتشر في مشركي العرب حتى يغريهم القرآن به، واللواط يعافه الصحابة؛ لأنهم ليسوا بقابعين على الشهوات حتى يغريهم بها.

الوجه السادس: كثرة الولدان المخلدين كرامة من الله ﷻ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: كل ما يخالف الفطرة السوية فهو محرم في الدنيا؛ ممنوع وقوعه في الآخرة؛ لأنه شيءٌ خبيث.

١-إن الفطرة السوية تكره الشرك واللواط.

فاللواط يعارض الأخلاق السوية؛ فالأخلاق في الأصل هي فطرية، وما دور الأديان فيها إلا التهذيب والتنمية، والعمل على تفعيلها وتقويتها، كي تكون مستقرة مستمرة.

٢-هذا الشذوذ لا يليق بقدسية الله.

٣-اللواط يعد من الأمراض النفسية، فكل ما فيه انحرافٌ في السلوك يؤثر بطريقة مباشرة في تغيير الحالة النفسية المعتدلة، فإدمان المخدرات ـ بغض النظر عن أنه مضر بالصحة ـ إلا أنه يؤثر في السلوك النفسي، لذلك قد يحتاج من يمارس اللواط إلى طبيبٍ نفسيٍّ ليساعده للخروج من الانحراف النفسي الذي مر به، ليصبح إنسانًا سويًا.

٤-لا يقارن الخمر باللواط، فخمر الآخرة يختلف تمامًا عن خمر الدنيا، فليس لمعترض أن يقول: بأن الخمر عند المسلمين محرمة في الدنيا محللة في الآخرة فكذلك اللواط، فنقول له: هذا قياس مع الفارق كما هو موضح في قواعد القياس.

٥-كره المستقذرات في الدنيا وامتناع تحققها في جنة الآخرة، كأكل القاذورات والنجاسات، فاللواط أقذر من ذلك في الإسلام، فكيف يليق بالجنة أن يوجد بها شيء مستقذر؟

الوجه الثاني: الولدان المخلدون من أجل الخدمة لا من أجل الاستمتاع الجنسي.

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ (الواقعة: ١٧)، وهم في ذلك تصوروا أن معنى هذه الآية هي معاشرة الولدان، وهذا لا يقوله عاقل يفهم الكلام العربي، لأنهم لو ذكروا كل الآيات لاستقام المعنى.

قال تعالى في سورة الواقعة ذاكرًا ما أعده لعباده الموحدين، ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ

﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الواقعة: ١٠-٤٠).

فقد وضح المعنى أن الولدان المخلدين ليسوا للمعاشرة الجنسية كما يقولون؛ وإنما هم خدم لأهل الجنة يحملون لهم الأسقية التي خلقها الله تعالى لهم.

وفي سورة الإنسان نفس المعنى، قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ (الإنسان: ١٥-٢٢).

فقد وضح المعنى أن الولدان يطوفون على أهل الجنة يحملون الأكواب والأباريق لسقي أهل الجنة.

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ أي: يطوف على أهل الجنة للخدْمَة ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسرهم بأنهم مُخَرَّصُونَ في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك؛ لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير.

وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤا منثورا. ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

قال قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى

عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه. [(١)(٢)]

فسياق الآيات تدل على أنهم يطوفون بالأكواب فهذا هو عملهم، ولم يجمع القرآن بين الحور العين والولدان في آية واحدة؛ فلو كان حدث ذلك لأمكن لصاحب الشبهة أن يتقول على القرآن بأنه ما جمع بينهما إلا من أجل الإغراء الجنسي بأن الحور العين هي لمن يحب التلذذ بالنساء، والولدان المخلدين لمن يحب التلذذ باللواط.

الوجه الثالث: الإسلام يعتبر الشذوذ جريمة. [(٣)]

إن الإسلام يعتبر الشذوذ جريمة لا تضاهيها جريمة؛ لأنها تخالف الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكل ما يخالف الفطرة هو يخالف الإسلام؛ لأن الإسلام دين الفطرة، ولنقرأ هذه الآيات: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾ (الشعراء: ١٦٥-١٦٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾ (النمل: ٥٤-٥٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩)﴾ (العنكبوت: ٢٨-٢٩).

وقال سبحانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ٢١٠. وفيه عنعنة قتادة وهو مدلس.

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩٢.

(٣) راجع شبهة اللواط في هذه الموسوعة.

قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (النمل: ٥٤-٥٨).

هذا قول الله تعالى، فمن أين أتوا بهذه الأقوال الباطلة؟! !

وقال الذهبي في كتاب الكبائر: وأجمع المسلمون على أن التلوط من الكبائر التي حرم الله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾. أي: مجاوزون من الحلال إلى الحرام.[1]

وعن جَابِر قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ".[2]

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ . . .﴾ **هو وصف للأبرار المنعمين في الجنة وليس وصفًا لخدمهم.**

وبهذا نرد على من يقول بأن الله يغري من يريد الدخول للجنة بالولدان ذوي الملابس الحريرية وما ذاك إلا بسبب الفهم الخاطئ لقوله تعالى: ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

فنقول: الأبرار الذين تستطرد الآيات في وصف نعيمهم بدءًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ إلى أن قال: ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ لاحظ التقرير بأن هذا المذكور هو جزاء لهؤلاء الأبرار.

ويتضح المعنى أكثر حينما نعود إلى الآيات القرآنية التي تناولت نفس الموضوع لنرى لمن يكون هذا اللباس؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن

---

(١) كتاب الكبائر للحافظ الذهبي الكبيرة الحادية عشر.

(٢) رواه الترمذي (١٤٥٧)، وابن ماجه (٢٥٦٣)، وأحمد في مسنده ٣/ ٣٨٢.

سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ (الكهف ٣٠: ٣١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الدخان: ٥١-٥٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج: ٢٣).

وقال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ (فاطر: ٣٢-٣٣).

وفي سورة الإنسان نفسها قال عن الأبرار: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان: ١٢).

الوجه الخامس: اللواط لم ينتشر في مشركي العرب حتى يغريهم القرآن به، واللواط يعافه الصحابة؛ لأنهم ليسوا بقابعين على الشهوات حتى يغريهم بها.

ولنسأل سؤالًا: هل كان العرب وقت نزول القرآن مشتهرين باللواط؟

لقد فات هؤلاء المفترين أن يدعموا كلامهم ببيان حال العرب وقت نزول القرآن، وهل كانت هذه الفعلة منتشرة بينهم، وأنهم كانوا يستحلونها ويميلون إليها.

قال نمير بن عبد الله الشعناني عن أبيه قال: قال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكرًا يفعل هذا بذكر.[1]

قال ابن كثير: والمقصود أن مفسدة "اللواط" من أعظم المفاسد وكانت لا تعرف بين العرب قديمًا كما قد ذكر ذلك غير واحد منهم، فلهذا قال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله ﷻ قصَّ علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا[2].

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٦٢.

(٢) المصدر السابق ٩ / ١٦٣ .

الوجه السادس: كثرة الولدان المخلدين كرامة من الله ﷻ.

قال أبو زيد الشافعي: وروي أن أطفال المشركين الذين يموتون دون سن البلوغ يكونون خدمًا لأهل الجنة، و هؤلاء الغلمان ليس لهم وظيفة إلا خدمة أهل الجنة، ولكن قائلًا قد يقول: أو ليس كل ما في الجنة قريبًا مني، و القطوف دانية، و الأكواب موضوعة، و النمارق مصفوفة، فما فائدة الخدم؟ فنقول: إن من إكرام الله لأهل الجنة أن خلق لهم خدمًا، فأغلب ملوك الدنيا قد لا يحتاجون لهذه الأعداد الكبيرة من الخدم؛ و لكنه مظهر من مظاهر الترف و التكريم للملك، و هكذا حال خدم أهل الجنة.[1].

* * *

(١) وصف الجنة في القرآن والسنة (١/ ٦).

٨ـ شبهة: الرجال لهم الحور فماذا للنساء؟

نص الشبهة:

يقولون: للرجال في الجنة حور العين فماذا للنساء؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن من طبيعة النساء الحياء ولهذا فإن الله ﷻ لا يشوقهن للجنة بما يستحيين منه.

الوجه الثاني: إنما ذكر الله الزوجات للأزواج؛ لأن الزوج هو الطالب.

الوجه الثالث: حالات المرأة في الدنيا بين الزواج وعدمه.

الوجه الرابع: أن الجنة ونعيمها ليست خاصة بالرجال دون النساء.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن من طبيعة النساء الحياء ولهذا فإن الله ﷻ لا يشوقهن للجنة بما يستحين منه.

فعن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، عن جدته أم سليم قالت: كانت مجاورة أم سلمة زوج النبي ﷺ فكانت تدخل عليها، فدخل النبي ﷺ فقالت أم سليم: يا رسول الله أرأيت إذا رأت المرأة أن زوجها يجامعها في المنام أتغتسل؟ فقالت أم سلمة: تربت يداك يا أم سليم فضحت النساء عند رسول الله ﷺ ! فقالت أم سليم: إن الله لا يستحي من الحق، وأنا أن نسأل النبي ﷺ عما أشكل علينا خير من أن نكون منه على عمياء. فقال النبي ﷺ لأم سلمة: " بل أنت تربت يداك! نعم يا أم سليم، عليها الغسل إذا وجدت الماء" فقالت أم سلمة: يا رسول الله وهل للمرأة ماء؟ فقال النبي ﷺ :" فأنى يشبهها ولدها؟ هن شقائق الرجال". [(١)]

فهذا دليل على استحياء النساء حتى أنهن لا يردن معرفة الرجال بأنهن يرغبن فيهم، حتى تجرأت أم سليم فأنكرت عليها أم سلمة، لعلم أم سلمة بحياء النساء بألا تسأل مثل ذلك.

الوجه الثاني: إنما ذكر الله الزوجات للأزواج لأن الزوج هو الطالب.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٧٧)، والحديث حسن لغيره.

قال ابن عثيمين: إنما ذكر الله الزوجات للأزواج؛ لأن الزوج هو الطالب وهو الراغب في المرأة فلذلك ذكرت الزوجات للرجال في الجنة، وسكت عن الأزواج للنساء ولكن ليس مقتضى ذلك أنه ليس لهن أزواج؛ بل لهن أزواج من بني آدم. [١]

فإنَّ شوق المرأة للرجال ليس كشوق الرجال للمرأة – كما هو معلوم – ولهذا فإن الله شوّق الرجال بذكر نساء الجنة مصداقا لقوله ﷺ: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء). [٢]

أما المرأة فشوقها إلى الزينة من اللباس والحلي يفوق شوقها إلى الرجال؛ لأنه مما جبلت عليه كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ (الزخرف: ١٨).

الوجه الثالث: حالات المرأة في الدنيا بين الزواج وعدمه

المرأة لا تخرج عن هذه الحالات في الدنيا فهي:

١- إما أن تموت قبل أن تتزوج.

٢- إما أن تموت بعد طلاقها قبل أن تتزوج من آخر.

٣- إما أن تكون متزوجة ولكن لا يدخل زوجها معها الجنة.

٤- إما أن تموت بعد زواجها.

٥- إما أن يموت زوجها وتبقى بعده بلا زوج حتى تموت.

٦- إما أن يموت زوجها فتتزوج بعده غيره.

هذه حالات المرأة في الدنيا ولكل حالة ما يقابلها في الجنة.

١ ـ فأما المرأة التي ماتت قبل أن تتزوج فهذه يزوجها الله ﷻ في الجنة من رجل من أهل الدنيا لقوله ﷺ: "ما في الجنة أعزب". [٣]

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم ٢/ ٥٣

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٠٨)، ومسلم (٢٧٤١).

(٣) مسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة.

قال ابن عثيمين: إذا لم تتزوج – أي المرأة – في الدنيا فإن الله تعالى يزوجها ما تقر بها عينها في الجنة. . فالنعيم في الجنة ليس مقصورا على الذكور، وإنما هو للذكور والإناث ومن جملة النعيم: الزواج. (١)

٢- ومثلها المرأة التي ماتت وهي مطلقة.

٣ـ ومثلها المرأة التي لم يدخل زوجها الجنة.

قال ابن عثيمين: فالمرأة إذا كانت من أهل الجنة ولم تتزوج، أو كان زوجها ليس من أهل الجنة فإنها إذا دخلت الجنة فهناك من أهل الجنة من لم يتزوجوا من الرجال. أي فيتزوجها أحدهم. (٢)

فإن كان أحد الزوجين من أهل النار فإمّا أن يكون كافرًا، فهذا يُخلَّد فيها، ولا ينفعه كون قرينه من أهل الجنّة؛ لأنّ الله تعالى قضى على الكافرين أنّهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ (البقرة: ١٦٢).

وقضى تعالى بالتفريق بين الأنبياء وزوجاتهم إن كنّ كافرات يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم: ١٠)، فكان التفريق بين سائر الناس لاختلاف الدين أولى.

قال ابن كثير: قال تعالى ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ أي: نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلًا ونهارًا، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾أي: في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدّقاهما في

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم ٢/ ٥٣.

(٢) المصدر السابق.

الرسالة، فلم يُجدِ ذلك كله شيئًا، ولا دفع عنهما محذورًا، ولهذا قال تعالى ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لكُفرهما، وقيل للمرأتين﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.[1]

٤-وأما المرأة التي ماتت بعد زواجها فهي -في الجنة- لزوجها الذي ماتت عنه.

فإذا كان الزوجان من أهل الجنّة فإنّ الله تعالى يجمعُ بينهما فيها؛ بل يزيدهُم من فضلِه فيُلحِقُ بهم أبناءهم، و يرفع دَرجات الأدنى منهم فيُلحقه بمن فاقه في الدرجة، بدلالة إخباره تعالى عن حملة العرش من الملائكة أنّهم يقولون في دُعائهم للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾(غافر: ٨). وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ (الطور: ٢١).

٥- وأما المرأة التي مات عنها زوجها فبقيت بعده لم تتزوج حتى ماتت فهي زوجة له في الجنة.

٦ ـ أما إن كان للمرأة في الدنيا أكثر من زوجٍ، فإنّ من فارقَها بطلاق حُلّ زواجه بطلاقه، فتعيّن افتراقهما في الآخرة كما افترقا في الدنيا.

وأمّا إن مات عنها و هي في عصمته، ثم تزوّجت غيره بعده، فلأهل العلم ثلاثة أقوال في من تكون معه في الجنّة:

القول الأول: أنّها مع من كان أحسنَهُم خُلقًا و عشرةً معها في الدنيا.

القول الثاني: أنها تُخيَّر فتختار من بينهم من تشاء، ولا أعرف دليلًا لمن قال به.

وهذان القولان ذكرهما الإمام القرطبي في كتابه الشهير (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة) واختار الثاني منهما الشيخ ابن العثيمين -رحمه الله- وبعض المعاصرين.

والقول الثالث: أنها تكون في الجنّة مع آخر زوجٍ لها في الدنيا، أي مع من ماتت وهي في عصمته، أو مات عنها ولم تنكح بعده، ويدلّ على هذا القول حديث أبي الدرداء ﷺ أنّ رسول

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٤).

الله ﷺ قال: "أيما امرأة توفي عنها زوجها، فتزوجت بعده، فهي لآخر أزواجها". [(١)]

فلذلك كان القول الثالث أولى الأقوال بالاعتبار، وأرجَحَها.

قال ابن عثيمين: وأما إذا كانت متزوجة فإن الله يبدلها خيرًا من زوجها أي خيرًا منه في الصفات في الدنيا؛ لأن التبديل يكون بتبديل الأعيان كما لو بعت شاة ببعير مثلا ويكون بتبديل الأوصاف كما لو قلت بدل الله كفر هذا الرجل بإيمان وكما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ (إبراهيم: ٤٨)، والأرض هي الأرض ولكنها مدت والسماء هي السماء لكنها انشقت. [(٢)]

الوجه الرابع: أن الجنة ونعيمها ليست خاصة بالرجال دون النساء.

إنما هي قد ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) من الجنسين كما أخبرنا بذلك تعالى قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (النساء: ١٢٤).

عند ذكر الله للمغريات الموجودة في الجنة من أنواع المأكولات والمناظر الجميلة والمساكن والملابس فإنه يعمم ذلك للجنسين (الذكر والأنثى) فالجميع يستمتع بما سبق. ويتبقى: أن الله قد أغرى الرجال وشوقهم للجنة بذكر ما فيها من (الحور العين) و(النساء الجميلات) ولم يرد مثل هذا للنساء. وعلى كل حال فينبغي للمسلم أن يشتغل بسؤال الله تعالى الجنّة ونعيمها على وجه الإجمال، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ ومن دخَلها فحق على الله أن يُرضيه.

فالجنّة دار النعيم المقيم، ومن دَخَلها فقد استحقَّ من نعيمها ما يُناسب منزلته فيها، وهذا للرجال والنساء كلٌّ بحسبه، لأنّ النِّسَاء شَقَائِقُ الرِّجَالِ كما أخبر بذلك النبيّ ﷺ .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٣١٣٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨١).

(٢) أحوال النساء في الجنة، سليمان الخراشي؛ ضمن موسوعة البحوث والمقالات العلمية١/ ١٥٨.

وقد جمَع الله تعالى في الذكر، والوعد بالأجر والثواب بين الرجال و النساء في آياتٍ تُتلى من كتابه العزيز؛ منها قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ (آل عمران: ١٩٥).

قال ابن كثير: أي قال لهم مخبرًا أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه؛ بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى، وقوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ (أي: جميعكم في ثوابي سواء.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ (النساء: ١٢٤).

قال ابن كثير: في هذه الآية بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان. اهـ.

* * *

٩- شبهة النكاح في الجنة، واعتراضهم على ذكر الجماع والنساء في الجنة.

نص الشبهة:

ادعى هؤلاء أن الجنة ما لاهي إلا مجرد شهوات بالتلذذ بالنساء فيها، وكانت شبهتهم قائمة حول كثرة أزواج أهل الجنة، وقالوا بأن السبب في ذلك هو أن النبي ﷺ قال: لكل رجل من أهل الجنة ذَكَرٌ لَا يَنْثَنِي. وغيرها من الأحاديث.

كذلك اهتم القرآن بذكر المسائل الجنسية.

والجواب على ذلك من وجوه :

الوجه الأول: الشهوة الجنسية من اللذات الطبيعية.

الوجه الثاني: الجنة دار جزاء ونعيم.

الوجه الثالث: الأحاديث التي يستدلون بها وبيان صحيحها من سقيمها.

الوجه الرابع : ماذا قال الكتاب المقدس حول الحديث عن الجنس؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الشهوة الجنسية من اللذات الطبيعية.

ورغم أن هذا من اللذات التي يستمتع بها الإنسان في الدنيا، وقد حرم الله تبارك وتعالى على العبد أن يأتي غير أهله، وحدد له العدد الذي يكون تحت عصمته وهن أربع نساء، والإنسان في هذا يطمح دائمًا إلى المزيد، ولأجل ذلك خلقه الله تبارك وتعالى في الآخرة لعباده المؤمنين، وزادهم من الشهوة لزيادة الاستمتاع.

الوجه الثاني: الجنة دار جزاء ونعيم.

فعلى حسب العمل والتضحية يكون التفاوت بين أهل الجنة في قيمة النعيم الذي يسعد به الإنسان.

لذلك قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١). وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأحقاف: ١٩). وقال أيضًا: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ (الإسراء: ٢١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى آثَارِهِمْ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا تَبَاغُضَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَحَاسُدَ، لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتَانِ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ". (١)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً رَجُلٌ صَرَفَ اللهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ وَمَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَكُونُ فِي ظِلِّهَا. . . وَسَاقَ الْحَدِيثَ وفيه. . وَيُذَكِّرُهُ اللهُ سَلْ كَذَا وَكَذَا فَإِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللهُ: هُوَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ فَتَقُولَانِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ"(٢).

وعن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: "لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ". (٣)

قال ابن القيم بعد أن ذكر جملة من الأحاديث تبين أن للرجل أكثر من زوجة في الجنة:

والأحاديث الصحيحة إنما فيها أن لكل منهم زوجتين و ليس في الصحيح زيادة على ذلك، فإن كانت هذه الأحاديث - يعني التي ذكرها - محفوظة فإما أن يراد بها ما لكل واحد من السراري زيادة على الزوجتين، و يكونون في ذلك على حسب منازلهم في القلة

---

(١) البخاري (٣٢٥٤).

(٢) مسلم (٢٧٥).

(٣) **صحيح**. أخرجه الترمذي (١٦٦٢)، وابن ماجه (١٧٩٩)، وصححه الألباني كما في الصحيحة (٣٢١٣).

والكثرة كالخدم و الولدان، و إما أن يراد أنه يعطي قوة من يجامع هذا العدد و يكون هذا هو المحفوظ، فرواه بعض هؤلاء بالمعنى فقال له كذا وكذا زوجة.

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: " يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا و كذا من الجماع" قيل: يا رسول الله أو يطيق ذلك؟ قال: "يعطى قوة مائة" هذا حديث صحيح. فلعل من رواه يفضي إلى مائة عذراء رواه بالمعنى، أو يكون تفاوتهم في عدد النساء بحسب تفاوتهم في الدرجات و الله اعلم.

ولا ريب أن للمؤمن في الجنة أكثر من اثنتين، لما في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني عن أبي بكر، عن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ " إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا". [1]اهـ[2]

ولذا قال ابن حجر بعد أن ذكر جملة من الأحاديث تبين أن للرجل أكثر من زوجة في الجنة: والذي يظهر أن المراد أن أقل ما لكل واحد منهم زوجتان. [3]

هذا وقد قال الله تعالى﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف: ٧١).

وعن سهل بن سعد قال: شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ مَجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ حَتَّى انْتَهَى ثُمَّ قَالَ ﷺ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ: فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ثُمَّ اقْتَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾. [4]

---

(١) البخاري (٤٨٧٩)، مسلم (٢٨٣٨) واللفظ له.

(٢) حادي الأرواح (٢٢٠: ٢٢١).

(٣) فتح الباري ٦/ ٣٧٤ : ٣٧٥.

(٤) مسلم (٢٨٢٥).

فالجنة دار جزاء وليست دار عمل وتعب ونصب. فما المانع من أن ينعم العبد بأكثر من زوجة في الجنة.

الوجه الثالث: الأحاديث التي يستدلون بها وبيان صحيحها من سقيمها.

لقد اعتمدوا في شبهتهم على بعض الأحاديث منه ما هو صحيح، ومنها ما لا يصح، وبيانها كالتالي:

الحديث الأول: عن دراج عن ابن حجيرة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: أنطأ في الجنة؟ قال: "نعم والذي نفسي بيده دحمًا دحمًا، (١) فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرًا". (٢)

الحديث الثاني: وعن أبي أمامة قال: سئل رسول الله ﷺ هل يتناكح أهل الجنة؛ فقال: " نعم بذكر لا يمل وشهوة لا تنقطع دحما دحما ". (٣)

الحديث الثالث: عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : "مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ الله الْجَنَّةَ

---

(١) دحمًا دحمًا : هُو النّكاحُ والْوَطءُ بدَفْع وإزْعاج. وانْتِصَابُه بفعل مُضْمَرٍ: أي يَدْحَمُون دَحْماً. والتَّكرير للتأكيد وهو بِمنْزلة قَوْلك: لَقيتُهم رَجُلاً رَجُلاً: أي دَحْماً بَعْد دَحْم. النهاية في غريب الأثر٢/ ٢٣٢

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحة (٧٤٠٢، ٧٤٠٣) من طريق عمرو بن الحارث عن درّاج عن ابن حُجَيرة عن أبي هريرة به بهذا اللفظ. وأخرجه البزار (٣٥٢٤ كشف)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٩٠)، وابن راهويه في مسنده (٣٤٦)، وهناد في الزهد (٨٧)، وابن أبي عمر في مسنده كما في المطالب العالية (٤٧٢٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٣/ ٣١٢ من طريق عبد الرحمن بن زياد، عن عمارة بن راشد الكناني، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: هل يمس أهل الجنة أزواجهم؟ قال: "نعم، بذكر لا يمل، وفرج لا يحفى، وشهوة لا تنقطع". والحديث صححه بطرقه وشواهده الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٥١).

ومن شواهده عن أبي أمامة قال: سئل رسول الله ﷺ هل يتناكح أهل الجنة؛ فقال: " نعم، بذكر لا يمل، وشهوة لا تنقطع دحما دحما" وتخريجه في الحديث التالي.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني في معجمه ٨/ ١٧٢، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٩٢) من طريق هاشم بن زيد، عن سليم أبي يحيى، عن أبي أمامة به. وهاشم بن زيد: ضعيف. الجرح والتعديل٩/ ١٠٣، لسان الميزان ٦/ ١٨٤. وفيه صدقة بن عبد الله أبو معاوية السمين: ضعيف.

إِلَّا زَوَّجَهُ اللهُ ﷻ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً: ثِنْتَيْنِ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، وَسَبْعِينَ مِنْ مِيرَاثِهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، مَا مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ إِلَّا وَلَهَا قُبُلٌ شَهِيٌّ وَلَهُ ذَكَرٌ لَا يَنْثَنِي". (١)

الحديث الرابع:

عن أبي أمامة قال: سئل رسول الله ﷺ: هل يجامع أهل الجنة؟ قال: " نعم، دحمًا دحمًا، ولكن لا مني ولا منية". (٢)

فهذه الأحاديث التي اعتمدوا عليها ليست فيها شبهة؛ إذ أن الجنة هي دار نعيم ومتاع وجزاء فما المانع أن يمتعهم الله بالأزواج والملذات التي قد منعوا منها في الدنيا طاعة لله ﷻ؟

الوجه الرابع: ماذا قال الكتاب المقدس حول الحديث عن الجنس.

جاء في سفر نشيد الإنشاد

الإصحاح الأول:

١نَشِيدُ الأَنْشَادِ الَّذِي لِسُلَيْمَانَ: ٢لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلاَتِ فَمِهِ، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ. ٣لِرَائِحَةِ أَدْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، لِذلِكَ أَحَبَّتْكَ الْعَذَارَى. ٤اُجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِيَ. أَدْخَلَنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ بِكَ. نَذْكُرُ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ. بِالْحَقِّ يُحِبُّونَكَ. ٥أَنَا سَوْدَاءُ وَجَمِيلَةٌ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، كَخِيَامِ قِيدَارَ، كَشُقَقِ سُلَيْمَانَ. ٦لاَ تَنْظُرْنَ

---

(١) **ضعيف جدًا**. أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٣٧)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١ ومن طريقه البيهقي في البعث والنشور (٣٥٧) من طريق أبي مروان الدمشقي. وأخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (٣٩٤) من طريق سليمان بن عبد الرحمن. كلاهما (أبو مروان، سليمان) عن خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن خالد بن معدان، عن أبي أمامة به. وإسناده ضعيف جدًا.

فيه: خالد بن يزيد بن أبي مالك: ضعيف، و قد اتهمه ابن معين.

قال ابن حجر: هذا الحديث سنده ضعيف جدًا. فتح الباري٦/ ٣٧٤

وقال الألباني عن الحديث في الضعيفة (٤٤٧٣): ضعيف جدًا.

(٢) **ضعيف جدًا**. أخرجه أبو يعلى (٤٧٢٩) كما في المطالب العالية، والطبراني في معجمه١/ ٤٦٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق١٦/ ٢٩٥من طريق سويد بن سعيد ثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه عن خالد ابن معدان عن أبي أمامة به. وإسناده ضعيف جدًا. فيه: خالد بن يزيد بن أبي مالك: ضعيف، وقد اتهمه ابن معين.

إِلَيَّ لِكَوْنِي سَوْدَاءَ، لأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ لَوَّحَتْنِي. بَنُو أُمِّي غَضِبُوا عَلَيَّ. جَعَلُونِي نَاطُورَةَ الْكُرُومِ. أَمَّا كَرْمِي فَلَمْ أَنْطُرْهُ. ٧أَخْبِرْنِي يَا مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي، أَيْنَ تَرْعَى، أَيْنَ تُرْبِضُ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ. لِمَاذَا أَنَا أَكُونُ كَمُقَنَّعَةٍ عِنْدَ قُطْعَانِ أَصْحَابِكَ؟ ٨إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ، فَاخْرُجِي عَلَى آثَارِ الْغَنَمِ، وَارْعَيْ جِدَاءَكِ عِنْدَ مَسَاكِنِ الرُّعَاةِ. ٩لَقَدْ شَبَّهْتُكِ يَا حَبِيبَتِي بِفَرَسٍ فِي مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ. ١٠مَا أَجْمَلَ خَدَّيْكِ بِسُمُوطٍ، وَعُنُقَكِ بِقَلاَئِدَ! ١١نَصْنَعُ لَكِ سَلاَسِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَعَ جُمَانٍ مِنْ فِضَّةٍ. ١٢مَا دَامَ الْمَلِكُ فِي مَجْلِسِهِ أَفَاحَ نَارِدِينِي رَائِحَتَهُ. ١٣صُرَّةُ الْمُرِّ حَبِيبِي لِي. بَيْنَ ثَدْيَيَّ يَبِيتُ. ١٤طَاقَةُ فَاغِيَةٍ حَبِيبِي لِي فِي كُرُومِ عَيْنِ جَدْيٍ. ١٥هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي، هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ. عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ. ١٦هَا أَنْتَ جَمِيلٌ يَا حَبِيبِي وَحُلْوٌ، وَسَرِيرُنَا أَخْضَرُ. ١٧جَوَائِزُ بَيْتِنَا أَرْزٌ، وَرَوَافِدُنَا سَرْوٌ".

وانظر مزيدا على ذلك تحت مبحث تحريف الكتاب عندهم ففيه غنية عن إعادته هنا.

* * *

١٠- شبهة: ادعاؤهم أن المسلم يخلد في النار

نص الشبهة:

يقولون: إن المسلم يخلد في النار بارتكابه كبيرة من الكبائر، وذلك بنص القرآن في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾، ونص سنة النبي ﷺ في قوله ﷺ: " مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا "[1].

الرد علي ذلك من وجوه:

الوجه الأول: اعتقاد أهل السنة والجماعة في المسألة.

الوجه الثاني: أقوال المفسرين والعلماء حول الآية.

الوجه الثالث: الجمع بين الآثار التي ظاهرها التعارض.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: اعتقاد أهل السنة والجماعة في المسألة.

وهو أن من مات على الشرك دخل النار وإن عمل صالحًا جوزي به في الدنيا، ومن مات مؤمنًا دخل الجنة وإن عذب قبل ذلك.

وإليك بيان ذلك من كلام العلماء:

قال النووي: وأما حكمه ﷺ على من مات يشرك بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة فقد أجمع عليه المسلمون، فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام، وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك، وأما دخول من مات

(١) البخاري (٥٧٧٨)، مسلم (١٠٩) واللفظ له.

غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًا عليها دخل الجنة أولا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا عليها فهو تحت المشيئة فإن عفي عنه دخل أولًا، وإلا عُذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة. (١)

وقال أيضًا: اعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحدًا دخل الجنة قطعًا على كل حال، فإن كان سالمًا من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلًا فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلًا لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود، والصحيح أن المراد به المرور على الصراط وهو منصوب على ظهر جهنم أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه.

وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولًا وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذَّبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل. هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة، وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي. (٢)

وفي حديث أبي ذر ﷺ قال: قال النبي ﷺ : مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ». ثَلاَثًا ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ: « عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِى ذَرٍّ »(٣).

(١) شرح مسلم للنووي ١/ ٣٧٤.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) البخاري (٥٨٢٧)، مسلم (٩٤).

قال النووي: وأما قوله ﷺ : وإن زنى وإن سرق فهو حجة لمذهب أهل السنة أن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار، وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها وختم لهم بالخلود في الجنة. (١)

وقال البخاري تعليقًا علي الحديث: هذا عند الموت أو قبله إذا تاب، وندم، وقال: لا إله إلا الله غفر له. (٢)

وقال ابن حجر تعليقًا علي كلام البخاري: قوله: هذا عند الموت أو قبله إذا تاب أي من الكفر وندم. يريد شرح قوله: ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، وحاصل ما أشار إليه أن الحديث محمول على من وحد ربه، ومات على ذلك تائبًا من الذنوب التي أشير إليها في الحديث؛ فإنه موعود بهذا الحديث بدخول الجنة ابتداء، وهذا في حقوق الله باتفاق أهل السنة، وأما حقوق العباد فيشترط ردها عند الأكثر، وقيل: بل هو كالأول ويثيب الله صاحب الحق بما شاء، وأما من تلبس بالذنوب المذكورة ومات من غير توبة فظاهر الحديث أنه أيضًا داخل في ذلك لكن مذهب أهل السنة أنه في مشيئة الله تعالى. (٣)

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ومن لقي الله بذنب يجب له به النار تائبًا غير مصر عليه؛ فإن الله ﷻ يتوب عليه ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. ومن لقيه وقد أقيم عليه حد ذلك الذنب في الدنيا فهو كفارته كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ ، ومن لقيه مصرًا غير تائب من الذنوب التي قد استوجب بها العقوبة، فأمره إلى الله ﷻ، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، ومن لقيه كافرًا عذبه ولم يغفر له. (٤)

قال الطحاوي: وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُون وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين. وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ إِنْ شَاءَ

---

(١) شرح مسلم للنووي ١/ ٣٧٤- ٣٧٥.

(٢) البخاري مع الفتح ١٠/ ٢٩٥.

(٣) فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٢٩٥.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ١٨٢ للالكائي، وهو معتقد علي بن المديني أيضًا.

غَفَرَ لَهُمْ، وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ ﷻ فِي كِتَابِهِ: (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (النساء: ٤٨، ١١٦)، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَدْلِهِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِه. وَذَلِكَ بِأَنَّ الله تَعَالَى تَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نُكْرَتِهِ الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وَلَايَتِه. [١]

قال ابن تيمية: ومذهب الصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين، وسائر أهل السنة والجماعة أنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحد؛ بل يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان. [٢]

ووافقه تلميذه ابن القيم في مدارجه. [٣]

أدلة أهل السنة والجماعة على معتقدهم في مرتكب الكبيرة:

١ـ من الكتاب:

الله ينادي المسرفين في المعاصي بأن لا يقنطوا من رحمته:

قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الزمر: ٥٣).

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه[٤].

الله ﷻ يغفر ما دون الشرك:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٥٢٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١/ ٣١٨.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٢٨٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٧٥.

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء: ٤٨).

قال الطبري: إن الله لا يغفر الشرك به والكفر، ويغفر ما دون ذلك الشرك لمن يشاء من أهل الذنوب والآثام.[1]

وقال ابن كثير في قوله (لا يغفر أن يشرك به): أي: لايغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: من الذنوب ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ أي: من عباده.[2]

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء: ١٧).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: إن ربك للذين عصوا الله فجهلوا بركوبهم ما ركبوا من معصية الله، وسَفُهوا بذلك ثم راجعوا طاعة الله والندم عليها، والاستغفار والتوبة منها، من بعد ما سلف منهم ما سلف من ركوب المعصية، وأصلح فعمل بما يحبّ الله ويرضاه(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا) يقول: إن ربك يا محمد من بعد توبتهم له﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.[3]

كتب الله رب العالمين على نفسه الرحمة:

قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الأنعام: ٥٤).

قال ابن كثير: وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾أي: فأكرمهم برد السلام عليهم، وبَشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كَتَبَ

(١) تفسير الطبري ٤/ ١٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٧٠١.

(٣) تفسير الطبري٧/ ٦٥٩.

رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلا منه وإحسانًا وامتنانًا ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألا يعود وأصلح العمل في المستقبل، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. [1]

الله رب العالمين يقبل التوبة عن عباده:

قال الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الشورى: ٢٥)، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ (النساء: ١١٠).

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن كرمه وجوده: أن كل من تاب إليه تاب عليه من أيّ ذنب كان. [2]

فظهر من خلال هذه الآيات السابقة أن مرتكب الكبيرة إذا تاب وأناب ورجع إلي الله ﷻ وعمل صالحًا يقبل الله رب العالمين منه توبته ورجوعه إليه.

٢ـ من السنة:

فهذه بعض الأدلة من السنة تبين أن مرتكب الكبيرة غير مخلد في النار.

من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة:

١ـ عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله دَخَلَ الْجَنَّةَ". [3]

٢ـ عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ الله مِنْ أي أَبْوَابِ الْجَنَّةِ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٧ بتصرف.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٧٥٩.

(٣) مسلم (٢٦).

الثَّمَانِيَةِ شَاءَ ". [١]

٣ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّى رَسُولُ الله لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّة. [٢]

٤ ـ عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ ». قَالَ يَا رَسُولَ الله أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا قَالَ: « إِذًا يَتَّكِلُوا » فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا". [٣]

٥ـ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شيئًا دَخَلَ النَّارَ». وَقُلْتُ أَنَا: مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِالله شيئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ". [٤]

٦ـ عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ. فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ". [٥]

٧ـ عن أبي هريرة ﷺ؛ حديث معرفة الرؤية وفيه قول النبي ﷺ: "حَتَّى إِذَا فَرَغَ الله مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِالله شيئًا مِمَّنْ أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. فَيَعْرِفُونَهُمْ فِى النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ تَأْكُلُ النَّارُ مِنِ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ الله عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ. فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ

---

(١) البخاري (٣٤٣٥)، مسلم (٢٨) واللفظ له.

(٢) مسلم (٢٧).

(٣) البخاري (١٢٨)، مسلم (٣٢) واللفظ له.

(٤) البخاري (١٢٣٨)، مسلم (٩٢).

(٥) مسلم (١٨٥)، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار.

فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ"[١].

٨ ـ عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: " يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً ". [٢]

قبول توبة القاتل وإن كثر قتله:

١ ـ حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ". [٣]

قال النووي: قوله ﷺ: "إن رجلا قتل تسعا وتسعين نفسا، ثم قتل تمام المائة، ثم أفتاه العالم بأن له توبة"، هذا مذهب أهل العلم، وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمدًا، ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس. وأما ما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا، فمراد قائله الزجر عن سبب التوبة، لا أنه يعتقد بطلان توبته. وهذا الحديث ظاهر فيه، وهو إن

---

(١) البخاري (٧٤٣٧)، مسلم (١٨٢) واللفظ له.

(٢) مسلم (١٩٣).

(٣) البخاري (٣٤٧٠)، مسلم (٢٧٦٦) باب (قبول توبة القاتل وإن كثر قتله) واللفظ له.

كان شرعا لمن قبلنا، وفي الاحتجاج به خلاف فليس موضع الخلاف، وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره، فإن ورد كان شرعا لنا بلا شك، وهذا قد ورد شرعنا به وهو قول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ فالصواب في معناه: أن جزاءه جهنم، وقد يجازي به، وقد يجازي بغيره وقد لا يجازى بل يعفى عنه، فإن قتل عمدا مستحلا له بغير حق، ولا تأويل، فهو كافر مرتد، يخلد به في جهنم بالإجماع، وإن كان غير مستحل بل معتقدا تحريمه فهو فاسق عاص مرتكب كبيرة، جزاؤه جهنم خالدا فيها، لكن بفضل الله تعالى ثم أخبر أنه لا يخلد من مات موحدا فيها، فلا يخلد هذا، ولكن قد يعفى عنه، فلا يدخل النار أصلا، وقد لا يعفى عنه، بل يعذب كسائر العصاة الموحدين، ثم يخرج معهم إلى الجنة، ولا يخلد في النار، هذا هو الصواب في معنى الآية، ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازى بعقوبة مخصوصة أن يتحتم ذلك الجزاء، وليس في الآية إخبار بأنه يخلد في جهنم، وإنما فيها أنها جزاؤه أي: يستحق أن يجازى بذلك، وقيل: إن المراد من قتل مستحلا، قيل: وردت الآية في رجل بعينه، وقيل: المراد بالخلود طول المدة لا الدوام، وقيل: معناها هذا جزاؤه إن جازاه، وهذه الأقوال كلها ضعيفة أو فاسدة لمخالفتها حقيقة لفظ الآية، وأما هذا القول فهو شائع على ألسنة كثير من الناس، وهو فاسد؛ لأنه يقتضي أنه إذا عفي عنه خرج عن كونها كانت جزاء، وهي جزاء له، لكن ترك الله مجازاته عفوا عنه وكرما، فالصواب ما قدمناه. والله أعلم.[1]

الوجه الثاني: أقوال المفسرين والعلماء حول الآية.

قال الرازي: في تفسير الآية ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾: هذه الآية مخصوصة في موضعين:

---

(١) شرح مسلم للنووي ٩/ ٩٦-٩٧.

أحدهما: أن يكون القتل العمد غير عدوان كما في القصاص؛ فإنه لا يحصل فيه هذا الوعيد ألبتة.

والثاني: القتل العمد العدوان إذا تاب عنه فإنه لا يحصل فيه الوعيد، وإذا ثبت دخول التخصيص فيه في هاتين الصورتين فنحن نخصص هذا العموم فيما إذا حصل العفو بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨) وأيضًا فهذه الآية إحدى عمومات الوعيد، وعمومات الوعد أكثر من عمومات الوعيد.

نُقل عن ابن عباس أنه قال: توبة من أقدم على القتل العمد العدوان غير مقبولة، وقال جمهور العلماء: إنها مقبولة، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن الكفر أعظم من هذا القتل فإذا قبلت التوبة عن الكفر فالتوبة من هذا القتل أولى بالقبول.

الحجة الثانية: قوله تعالى في آخر الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ (الفرقان: ٦٨-٧٠)، وإذا كانت توبة الآتي بالقتل العمد مع سائر الكبائر المذكورة في هذه الآية مقبولة: فبأن تكون توبة الآتي بالقتل العمد وحده مقبولة كان أولى.

الحجة الثالثة: قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وعد بالعفو عن كل ما سوى الكفر، فبأن يعفو عنه بعد التوبة أولى، والله أعلم.[1]

قال ابن كثير: والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه ﷻ، فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل عملًا صالحًا، بدَّل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٠/ ٢٤٠ بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (الفرقان: ٦٨، ٧٠)، وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم. (١)

وقال أيضًا: قال أبو هريرة ﷺوجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك مُعَارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قولي أصحاب الموازنة أو الإحباط، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. وبتقدير دخول القاتل إلى النار، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له(٢)، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحًا ينجو به، فليس يخلد فيها أبدًا، بل الخلود هو المكث الطويل. وقد تواردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان(٣). وأما حديث معاوية ﷺ: "كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا"(٤): "عسى" للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما، وهو القتل؛ لما ذكرنا من الأدلة. (٥)

قال السندي في تعليقه علي حديث (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا): و قوله: (إلا الرجل): أي ذنب الرجل وكان المراد

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧٣٨.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٦٤)، مسلم (٣٠٢٣).

(٣) البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

(٤) أبو داوود (٤٢٧٠)، النسائي ٧/ ٨١. و صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥١١).

(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٧٣٩ بتصرف.

كل ذنب ترجى مغفرته ابتداء إلا قتل المؤمن فإنه لا يغفر بلا سبق عقوبة وإلا الكفر فإنه لا يغفر أصلًا، ولو حمل على القتل مستحلًا لا يبقى المقابلة بينه وبين الكفر، ثم لا بد من حمله على ما إذا لم يتب وإلا فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له كيف، وقد يدخل القاتل والمقتول الجنة معًا كما إذا قتله وهو كافر ثم آمن وقتل؟ ولعل هذا بعد ذكره على وجه التغليظ والله تعالى أعلم.(١)

قال أبو حيان الأندلسي: في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾: وقيل: هو لفظ يقع كثيرًا للخصوص كقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وليس من حكم من المؤمنين بغير ما أنزل الله بكافر.

الآية للوعيد وليست للوعد:

قال الفخر الرازي: القتل العمد العدوان إذا تاب عنه فإنه لا يحصل فيه الوعيد. . . و عمومات الوعد أكثر من عمومات الوعيد.(٢)

و قال البغوي: حكي أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يُخلفُ الله وعدَه؟ فقال: لا فقال: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾؟ فقال له أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أُتِيْتَ يا أبا عثمان! إن العرب لا تعد الإخلاف في الوعيد خلفًا وذمًا، وإنما تعد إخلاف الوعد خلفًا وذمًا، وأنشد:

وإنِّي وإنْ أوْعَدْتُه أو وَعَدْتُه ... لَمُخْلِفُ إيعادَي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي.(٣)

---

(١) حاشية السندي علي النسائي ٧/ ٨١.

(٢) تفسير الرازي ١٠/ ٢٤٠ بتصرف.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٤٦٥.

الوجه الثالث: الجمع بين الآثار التي ظاهرها التعارض.

قال الشاطبي: لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الأخبار النبوية ولا بين أحدهما مع الآخر؛ بل الجميع جار على مهيع واحد ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أداه باديء الرأي إلى ظاهر اختلاف فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف؛ لأن الله قد شهد له أن لا اختلاف فيه، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع، أو المسلِّم من غير اعتراق، فإن كان الموضع مما يتعلق به حكم عملي فليلتمس المخرج حتى يقف على الحق اليقين أو ليبق باحثًا إلى الموت ولا عليه من ذلك، فإذا اتضح له المغزى وتبينت له الواضحة فلا بد له من أن يجعلها حاكمة في كل ما يعرض له من النظر فيها، ويضعها نصب عينيه في كل مطلب ديني كما فعل من تقدمنا ممن أثنى الله عليهم.[1]

قال العلامة الشنقيطي: وللجمع بين ذلك أوجه:

أن قوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾، أي إذا كان مستحلًا لقتل المؤمن عمدًا؛ لأن مستحل ذلك كافر قاله عكرمة وغيره، ويدل له ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جبير، وابن جرير عن ابن جريج من أنها نزلت في مقيس بن صبابة فإنه أسلم هو وأخوه هشام وكانا بالمدينة، فوجد مقيس أخاه قتيلًا في بني النجار ولم يعرف قاتله، فأمر له النبي ﷺ بالدية فأعطتها له الأنصار مائة من الإبل، وقد أرسل معه النبي ﷺ رجلًا من قريش من بني فهر فعمد مقيس إلى الفهري رسول رسول الله ﷺ فقتله وارتد عن الإسلام، وركب جملًا من الدية، وساق معه البقية ولحق بمكة مرتدًا وهو يقول في شعر له:

قتلت به فهرًا وحملت عقله ... سراة بني النجار أرباب فارع

وأدركت ثأري وأضجعت موسدًا ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

---

(١) الاعتصام للشاطبي ٤٨١.

ومقيس هذا هو الذي قال فيه النبي ﷺ: "لا أؤمنه في حل ولا في حرم"[١]، وقتل متعلقًا بأستار الكعبة يوم الفتح. فالقاتل الذي هو كمقيس بن صبابة المستحل للقتل، المرتد عن الإسلام لا إشكال في خلوده في النار، وعلى هذا فالآية مختصة بها يماثل سبب نزولها بدليل النصوص المصرحة بأن جميع المؤمنين لا يخلد أحد منهم في النار.

الوجه الثاني: أن المعنى فجزاؤه إن جوزي مع إمكان ألا يجازى إذا تاب، أو كان له عمل صالح يرجح بعمله السيئ. . . وهذا قول أبي هريرة رضي الله عنه وأبي مجلز وأبي صالح وجماعة من السلف.

الوجه الثالث: أن الآية للتغليظ في الزجر، ذكر هذا الوجه الخطيب والآلوسي في تفسيريها وعزاه الآلوسي لبعض المحققين، واستدلا عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، على القول بأن معناه: ومن لم يحج، وبقوله ﷺ الثابت في الصحيحين للمقداد حين سأله عن قتل من أسلم من الكفار بعد أن قطع يده في الحرب: "لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن يقول الكلمة التي قال"، وهذا الوجه من قبيل كفر دون كفر، وخلود دون خلود، فالظاهر أن المراد به عند القائل به أن معنى الخلود المكث الطويل، والعرب ربما تطلق اسم الخلود على المكث الطويل، ومنه وقول لبيد:

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صمًا خوالد ما يبين كلامها.

إلا أن الصحيح في معنى الآية الوجه الثاني والأول، وعلى التغليظ في الزجر حمل بعض العلماء كلام ابن عباس أن هذه الآية ناسخة لكل ما سواها، والعلم عند الله تعالى.

قال الشنقيطي: الذي يظهر أن القاتل عمدًا مؤمن عاص له توبة كما عليه جمهور علماء الأمة وهو صريح قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية، وادعاء تخصيصها بالكفار لا دليل عليه، ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وقد توافرت الأحاديث عن النبي ﷺ أنه يخرج من النار من

---

(١) انظر سنن النسائي ٧/ ١٠٥. وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٧٩١).

كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، وصرح تعالى بأن القاتل أخو المقتول في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾، وليس أخو المؤمن إلا المؤمن، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾، فسماهم مؤمنين مع أن بعضهم يقتل بعضًا.ومما يدل على ذلك ما ثبت في الصحيحين في قصة الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس[1]، لأن هذه الأمة أولى بالتخفيف من بني إسرائيل؛ لأن الله رفع عنها الآصار والأغلال التي كانت عليهم. [2]

* * *

(١) البخاري (٣٤٧٠)، مسلم (٢٧٦٦).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (٦٨: ٦٩).

١١ـ أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف

١١ـ أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف

ما زال أعداء الإسلام قديمًا وحديثًا يرددون شبهتهم العارية عن الدليل بأن الإسلام دين إرهابي، وأنه انتشر بالسيف دون غيره، وفرض نفسه على الشعوب بالقهر والغلبة.

لذا كان الرد على هذه الشبهة من خلال مايلي:

المقدمة، وفيها:

تعريف الإرهاب. أنواع الإرهاب. ما يحمد من الإرهاب وما يذم. مفاهيم خاطئة حول الإرهاب.

الفصل الأول: أسباب انتشار الإسلام

المبحث الأول: انتشار الإسلام لم يكن بالقهر والغلبة.

المبحث الثاني: منهج الإسلام في دعوة الآخرين بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحسنة.

المبحث الثالث: سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين.

المبحث الرابع: صور من سماحة الصحابة والتابعين مع غير المسلمين.

المبحث الخامس: المفهوم الإسلامي في العلاقات بين الأمم.

المبحث السادس: شهادات منصفة من غير المسلمين على سماحة الإسلام.

المبحث السابع: الإسلام يدعو إلى احترام العهود والمواثيق.

الفصل الثاني: رد شبهة انتشار الإسلام بالسيف.

الرد عليها من وجوه:

الوجه الأول: السلام خصوصية إسلامية.

الوجه الثاني: إن من يقرأ سيرة النبي ﷺ يتضح له بجلاء كذب هذه الشبهة وبيان زيفها.

الوجه الثالث: نبذ الإسلام للعنف واستخدامه الحوار.

الوجه الرابع: إن من يقرأ مفهوم الجهاد في الإسلام ويعرف غاياته وأهدافه يتضح له بجلاء زيف هذه الشبهة.

الوجه الخامس: موقف الإسلام من أهل الذمة داخل الدولة الإسلامية.

الوجه السادس: معاملة المستأمن في الدولة الإسلامية.

الفصل الثالث: نقد المشككين في الإسلام من وجوه:

الوجه الأول: الفتح الإسلامي والاستعمار الغربي.

الوجه الثاني: رمتني بدائها وانسلَّت (كيف انتشرت المسيحية وغيرها من الديانات؟).

الوجه الثالث: وضوح العنف والعدوان في بعض الديانات غير الإسلامية.

الوجه الرابع: شهادات غير المسلمين على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف.

الوجه الخامس: علاقة الدول الإسلامية بالدول المحاربة.

الوجه السادس: لم يذكر السيف في القرآن صراحة، وذكر في الكتاب المقدس حوالي ٣٩٠ مرة.

وإليك التفصيل

المقدمة

فإن الدين الإسلامي هو آخر الأديان السماوية، فبه ختم الله الأديان وبه نسخ ما قبله ورضيه للعالمين بعد كماله.

وقد أثبت الدين الإسلامي نجاحه في الحياة على مر العصور مع تغير الزمان والمكان، فلم تنعم البشرية بالعدل والمساواة والحرية والإخاء كما كانت في ظله.

إن هذه الحقيقة واقعة وليست من نسج الخيال، ولكن كثيرا من الناس يغفل عنها أو يتغافل عنها إما جهلا وإما حسدًا.

لذا توجهت الأنظار في هذا العصر إلى الإسلام لتبث فيه سمومها، فتلبس الحق بالباطل أو تكتم الحق، فحالُهم كحال من يريدون أن يطفئوا نور الشمس بأفواههم.

فانطلقت جحافل الأجهزة السياسية والإعلامية والفكرية في الغرب نحو المسلمين وحدهم بتهمة الإرهاب من دون كل البشر، والإسلام من دون كل الملل والنحل، ليس هذا فحسب وإنما وُجد من يحاول تأصيل التهمة، بجعل عقيدة الإسلام وشريعته مصدرًا للإرهاب، لكي يثبتوا أن الإسلام يربي كائنات بشرية إرهابية، وأن المسلم الحق هو مشروع إرهابي جاهز للقتل، وبهذا يتحقق ترهيب الناس من الإسلام وإبعادهم عنه.

إن الغرب يكيل بمكيالين، فحين تُرتكب جريمة نفذها يهودي أو نصراني أو أي ديانةٍ أخرى لا يقال: نفذها يهودي أو نصراني، أما حين يكون المنفذ مسلمًا فوصف الإرهاب قرينًا له فيقال: "إرهابي مسلم".

لقد وضعوا الإسلام في قفص الاتهام، وحكموا عليه من غير شهود ولا بينة، وحقًا إن العين لتدمع وإن القلب لينفطر غيظًا وحزنًا حين يرى هذا الظلم العالمي والإرهاب العدواني على الإسلام[١].

أصبح مصطلح الإرهاب يحتل حيزًا كبيرًا في القاموس السياسي المعاصر، وأصبحت له هالة رهيبة؛ بل لقد أصبح هذا المصطلح نفسه من أخطر وسائل الإرهاب، فتهمة الإرهاب صارت تشكل مسوغًا لا نقاش فيه للانقضاض على الشعوب والحركات والأفراد، وحتى على بعض الحكومات بقصد إذلالها والتنكيل بها أو ربما تصفيتها والقضاء عليها، وفي أحيان كثيرة نجد أن مجرد التلويح بتهمة الإرهاب يشكل تهديدًا صريحًا للجهة المراد ضربها، ومقدمة للانقضاض عليها إلا أن ترضخ وتستسلم أمام هذا النوع من الإرهاب.

لذا أصبح من الضروري العمل على توضيح هذا الأمر والسعي إلى رفع ما يكتنفه من تلبيس وتضليل، وما يصاحبه من استغلال وتهويل فهذا واجب كل الشرفاء والنزهاء من الباحثين والمفكرين والعلماء[٢].

تعريف الإرهاب لغةً

تشتق كلمة "إرهاب" من الفعل المزيد (أرهب)؛ ويقال أرهب فلانًا: أي خوَّفه وفزَّعه، وهو نفس المعنى الذي يدل عليه الفعل المضعف (رَهَّبَ). أما الفعل المجرد من

---

(١) انظر : أثر الانحراف الاعتقادي على الإرهاب العالمي د/ سعد الشهراني. اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب. ١٤٢٥هـ.

(٢) انظر مجلة كلية أصول الدين والدعوة- جامعة الأزهر- فرع أسيوط- العدد ٢١- الجزء الثاني (٩٠٦).

نفس المادة وهو (رَهِبَ)، يَرْهبُ رَهْبَةً ورَهْبًا ورَهَبًا فيعني خاف، فيقال: رَهِبَ الشيء رهبًا ورهبة أي خافه. أما الفعل المزيد بالتاء وهو (ترَهَّبَ) فيعني انقطع للعبادة في صومعته، ويشتق منه الراهب والراهبة والرهبنة والرهبانية ... إلخ، وكذلك يستعمل الفعل ترهب بمعنى توعد إذا كان متعديا فيقال: ترهب فلانا: أي توعده. وكذلك تستعمل اللغة العربية صيغة استفعل من نفس المادة فتقول (استرهب) فلانا أي رَهَّبَه.

ويلاحظ أن القرآن الكريم لم يستعمل مصطلح "الإرهاب" بهذه الصيغة، وإنما اقتصر على استعمال صيغ مختلفة الاشتقاق من نفس المادة اللغوية، بعضها يدل على الإرهاب والخوف والفزع، والبعض الآخر يدل على الرهبنة والتعبد، حيث وردت مشتقات المادة (رهب) سبع مرات في مواضع مختلفة في الذكر الحكيم لتدل على معنى الخوف والفزع كالتالي:

(يَرْهبُون): ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾. (الأعراف: ١٥٤)

(فارْهبُون): ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠).

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (النحل: ٥١)

(تُرهِبُونَ): ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ (الأنفال: ٦٠)

(اسْتَرْهَبُوهُم): ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾. (الأعراف: ١١٦).

(رَهْبَةً): ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ (الحشر: ١٣).

(رَهَبًا): ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

بينما وردت مشتقات نفس المادة (رهب) خمس مرات في مواضع مختلفة لتدل على الرهبنة والتعبد كالتالي:

ورد لفظ (الرهبان) في سورة (التوبة: ٣٤)، كما ورد لفظ (رهبانًا) في (المائدة: ٨٢)، ولفظ (رهبانهم) في (التوبة: ٣١) وأخيرا (رهبانية) في (الحديد: ٢٧).

بينما لم ترد مشتقات مادة (رهب) كثيرًا في الحديث النبوي ولعل أشهر ما ورد هو لفظ (رهبة) في حديث الدعاء: "رغبة ورهبة إليك". [١] ويلاحظ أيضًا أن القرآن والحديث قد اشتملا على بعض الكلمات التي تتضمن الإرهاب والعنف، بمعنى استخدام القوة أو التهديد لتحقيق أهداف معينة، ومن هذه المفاهيم: العقاب والقتل والبغي والعدوان والجهاد... إلخ.

وقال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة"[٢] مادة (رهب): الراء والهاء والباء أصلان أحدهما يدل على الخوف، والآخر على دقة وخفة.

فالأول الرَّهبة: تقول رهِبت الشيء رُهبًا ورهبة. والترهيب التعبد. ومن الباب الإرهاب وهو قَدْع الإبل من الحوض وذيادُها.

قال ابن منظور: رهب بالكسر يرهب رهبة ورهبًا بالضم ورهبًا بالتحريك أي: خاف، ورهب الشيء رهبًا ورهبًا ورهبة أي: خافه، وترهب غيره إذا توعده، وأرهبه ورهبه واسترهبه أي: أخافه وفزعه، وترهب الرجل إذا صار راهبًا يخشى الله.

وأصل الرهبانية من الرهبة، قال ابن الأثير: وأصلها أي الرهبانية من الرهبة الخوف.

تعريف الإرهاب اصطلاحًا:

وقد عرَّف علماء المسلمين المعاصرين عند اجتماعهم في الدورة السادسة عشر للمجمع الفقهي الإسلامي التي عقدتها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في شهر يناير ٢٠٠٢م ونشر في رسالة الرابطة إلى الشعب الأمريكي قائلين: "الإرهاب هو العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول، بغيًا على الإنسان ودينه، ودمه، وعقله، وماله بغير حق، وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذًا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس

---

(١) البخاري (٢٤٤)، مسلم (٢٧١٠).

(٢) لسان العرب مادة (رهب).

أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أموالهم للخطر. ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصة أو تعريض أحد الموارد الوطنية أو الطبيعية للخطر".

تعريف الإرهاب في الثقافة الغربية:

تتكون كلمة "إرهاب" في اللغة الإنجليزية بإضافة اللاحقة ism إلى الاسم Terror بمعنى فزع ورعب وهول، كما يستعمل منها الفعل Terrorize بمعنى يرهب ويفزع.

ويرجع استخدام مصطلح Terrorism في الثقافة الغربية تاريخيًّا للدلالة على نوع الحكم الذي لجأت إليه الثورة الفرنسية إبان الجمهورية الجاكوبية في عامي (١٧٩٣ - ١٧٩٤) ضد تحالف الملكيين والبرجوازيين المناهضين للثورة. وقد نتج عن إرهاب هذه المرحلة التي يطلق عليها Reign of Terror اعتقال ما يزيد عن ٣٠٠ ألف مشتبه وإعدام حوالي ١٧ ألفًا، بالإضافة إلى موت الآلاف في السجون بلا محاكمة.

وإن كان هناك من يرجع بالمصطلح والمفهوم إلى أقدم من هذا التاريخ كثيرًا، حيث يفترض أن الإرهاب حدث ويحدث على مدار التاريخ الإنساني وفى جميع أنحاء العالم، وقد كتب المؤرخ الإغريقي زينوفون Xenophon (٤٣٠- ٣٤٩ ق. م ـ في سياق الثقافة الغربية ـ عن المؤثرات النفسية للحرب والإرهاب على الشعوب.

وقد استخدم حكام رومان من أمثال (Tiberius١٤-٣٧م)، Caligula)٣٧-٤١م) العنف ومصادرة الممتلكات والإعدام كوسائل لإخضاع المعارضين لحكمهما. ولعل محاكم التفتيش التي قام بها الأسبان ضد الأقليات الدينية (المسلمين أساسًا) أهم محطات الإرهاب الرئيسية في تاريخ الثقافة الغربية.

وقد تبنت بعض الدول الإرهاب وجعلته جزءًا من الخطة السياسية للدولة مثل دولة هتلر النازية في ألمانيا، وحكم ستالين في الاتحاد السوفيتي آنذاك، حيث تمت ممارسة إرهاب الدولة تحت غطاء أيديولوجي لتحقيق مآرب سياسية واقتصادية وثقافية.

واعتبرت منظمات وجماعات مثل جماعة "بادر ماينهوف" الألمانية، ومنظمة "الألوية الحمراء" الإيطالية، والجيش الأحمر الياباني، والجيش الجمهوري الأيرلندي، والدرب المضيء البيروية، ومنظمة "إيتا" الباسكية، ومنظمات فلسطينية في مقدمتها فتح. . اعتُبرت من أشهر المنظمات الإرهابية في تاريخ القرن العشرين من منظور غربي. ويضاف إليها في السنوات الأخيرة العديد من المنظمات الإسلامية، على رأسها بالطبع تنظيم القاعدة.

تعريف الإرهاب في اصطلاح السياسيين.

والإرهاب في اصطلاح السياسيين والإعلاميين يقصد به أعمال العنف التي يقوم بها الأفراد أو الجماعات أو الدول والحكومات بشكل مبيت ضد خصومهم السياسيين.

معنى الإرهاب عند الأمم المتحدة، ليس هناك تعريف محدد متفق عليه حول معنى الإرهاب؛ بل إن مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد في نيويورك في سبتمبر ٢٠٠٥ لم يحاول التوصل لمعنى محدد لهذا المصطلح برغم طلب بعض الأعضاء ذلك. لكن هناك تعريف عام معمول به في الأمم المتحدة وهو أن الإرهاب:

"أعمال العنف الخطيرة التي تصدر من فرد أو جماعة بقصد تهديد الأشخاص أو التسبب في إصابتهم أو موتهم، وسواء كان يعمل بمفرده أو بالاشتراك مع أفراد آخرين ويوجه ضد الأشخاص أو المنظمات أو المواقع السكنية أو الحكومية أو الدبلوماسية أو وسائل النقل والمواصلات وضد أفراد الجمهور العام دون تمييز أو الممتلكات أو تدمير وسائل النقل والمواصلات بهدف إفساد علاقات الود والصداقة بين الدول أو بين مواطني الدول المختلفة أو ابتزاز أو تنازلات معينة من الدول في أي صورة كانت. لذلك فإن التآمر على ارتكاب أو محاولة ارتكاب أو الاشتراك في الارتكاب أو التحريض على ارتكاب الجرائم يشكل جريمة من جرائم الإرهاب الدولي".

تعريف الإرهاب عند الأمريكان

بينما عرف الغربيون الإرهاب بتعاريف مختلفة؛ منها ما ورد في التقرير الصادر عن وزارة الخارجية الأمريكية في أكتوبر سنة ٢٠٠١ م أن الإرهاب يعني: "العنف المتعمد ذا

الدوافع السياسية، والذي يرتكب ضد غير المقاتلين وعادة بغية التأثير في الجمهور، حيث إن غير المقاتلين هم المدنيون، إلى جانب العسكريين غير المسلحين، أو الذين هم في غير مهامهم وقت تعرضهم للحادثة الإرهابية أو في الأوقات التي لا توجد فيها حالة حرب أو عداء. . . "، وتعرف وكالة التحقيقات العدلية الأمريكية (FBI) للإرهاب بأنه: استعمال- أو التهديد باستعمال- غير مشروع للعنف ضد أشخاص أو ممتلكات لتخويف أو إجبار حكومة أو المدنيين كلهم أو بعضهم لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية. وفي قاموس أكسفورد نجد كلمة إرهاب (Terrorism) تعني سياسة، أو أسلوبًا يعد لإرهاب وإفزاع المناوئين أو المعارضين لحكومة ما. فالإرهابي (Terrorist) هو الشخص الذين يحاول أن يدعم آراءه بالإكراه أو التهديد أو الترويع.

وباستعراض هذا التعريف الأمريكي يتبين أن القاسم المشترك فيها هو استخدام العنف والقوة والغدر حيث إن الجميع يتفق على أن الإرهاب هو الاستعمال المطلق للعنف والقوة تجاه المدنيين أو الأهداف المدنية، أو العسكريين، أو الأهداف العسكرية في غير حال الحرب المعلنة بين طرفين بهدف بث الرعب بدون إنذار سابق.

أنواع الإرهاب

للإرهاب صور وأنواع متعددة ومن هذه الأنواع ما يلي:

١ـ إرهاب الأفراد:

ويتبدى في السطو المسلح، وقطع الطريق وأعمال الثأر والانتقام للشرف، والاختطاف من أجل الفدية أو التهديد به والابتزاز، وما إلى ذلك من الأعمال التي تقوم بها أفراد معينون منحرفون، سواء كانوا منضوين تحت مظلة عصابات صغيرة أو كبيرة أو أفراد.

٢ـ الإرهاب المؤسسي:

ويتمثل في غيبة القوانين والأنظمة التي تقوم بحماية العاملين من العقاب غير المبرر.

كالفصل التعسفي، أو النقل إلى مكان بعيد، أو الحرمان من الترقية، أو الزيادة السنوية أو حقوق نهاية الخدمة، من تقاعد ومكافأة، فيتحول الموظفون العاملون إلى عبيد، وتسود سطوة

صاحب المؤسسة أو مديرها، سواء كان على صواب أو خطأ. ولا يكون للعاملين فيها رأى، وإنما يكونون أدوات تنفيذية جسدية فقط، ويصير التزلف والنفاق وسائل مشروعة؛ بل مستحبة، ويحل الخوف والقلق على المصير ويعيش العاملون في رعب مستمر وتوتر دائم.

٣ـ إرهاب الجماعات المنظمة:

كما هو الحال في جماعات المافيا، فلا تدخل أعمال الجريمة المنظمة التي تقوم بها (المافيا) ضمن دائرة الأفراد؛ لأن (المافيا) تعمل وفق تخطيط مبرمج هادف، ويقوم على تسييرها مجموعات من المتطرفين فكريًّا تدعمهم مؤسسات رأسمالية وعسكرية وقانونية واقتصادية، وينتشر خطرها ليشمل مناحي الحياة كافة، ولهذا عدت المافيا دولة داخل الدولة، وبسبب قوة تأثيرها، واستغلالها للعالم السري (تحت الأرض) مجالًا لتنفيذ مخططاتها، مستعملة المخدرات بأنواعها والجنس، والإغراء والتهديد والقتل وكل الوسائل المرزولة سبيلًا للوصول إلى غايتها الهادفة إلى السيطرة والتحكم.

إن أعمال المافيا كلها تدخل في دائرة الإرهاب والعنف؛ لأنها تعد الإنسان سلعة، وكما لا قيمة له مطلقًا إلا بقدر الفائدة المادية التي تجني من ورائه.

ولهذا كان ضمن أعمالها "الإرهابية" اختطاف أشخاص بغية استعمال أعضائهم طبيًّا حيث يجري اقتلاع أعين المخطوفين أو أكبادهم، أو كلاهم، كي يستفيد منها ثرى هنا أو هناك، مما يفقد المواطن إحساسه الكامل بالأمن، ويجعله دائم القلق على مصيره ومصير أبنائه إضافة إلى الخطف واستعمال المخدرات من أجل الوصول إلى الهدف.

ومن هذا النوع بعض الجماعات التي تتخذ أغراضًا دينية أو سياسية لتبرير أعمالها الإرهابية، ولا يدخل ضمن ذلك بالطبع الجماعات التي تقاتل للحصول على حق مشروع لشعوبها.

٤ـ الإرهاب الدولي:

وهو أفدح أنواع الإرهاب وأعمه خطرًا؛ لأنه يشمل الكون بأسره شعوبًا وحكومات، ويتمثل هذا الإرهاب في محاولة فرض الذات على الآخرين بالإكراه أو الإغراء، وكان من نتيجة هذه الفلسفة بروز قطبين متناحرين بعد الحرب العالمية، أدى سباق التسلح بينهما إلى

قيام ما سمى بالحرب الباردة، التي عاشها العالم مرعوبًا من الأسلحة الذرية والبكتيرية وسواها عشرات السنين، والتي نشبت خلالها عشرات الحروب الساخنة وبخاصة في قارات العالم الثالث: آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، دفع الناس خلالها ملايين القتلى والجرحى والمشوهين والمعاقين، وجرى تدمير اقتصاديات تلك البلدان لعقود طويلة قادمة، وما فيتنام، وغانا، وغينيا، والصومال، ولاوس، وكوريا، والأرجنتين إلا أمثلة قليلة لما جرى من محاولات السيطرة على العالم واقتسامه بين الغرب الرأسمالي والشرقي الشيوعي أو الاشتراكي.

أما الأعمال الإرهابية التي يمكن إدراجها تحت مظلة العنف الدولي فيمكن إجمالها في الآتي:

أ- المؤامرات الانقلابية: بقصد تغيير أنظمة الحكم غير الموالية، حيث تلجأ بعض الدول إلى نشر عملائها وجواسيسها وبثهم في مؤسسات الدولة للإطاحة بنظام الحكم فيها عبر سلسلة من الدعايات المغرضة الهادفة إلى خلق بلبة في الرأي العام وتهيئته لقبول التغيير القادم، وما حدث في الأرجنتين من قتل للمواشي وإتلاف لمزروعات الفلاحين يعد مثالًا من هذه المؤامرات والدسائس التي تبتغي قلب الحكم ووضع نظام بديل ينفذ سياسة الدولة الكبرى.

ويدخل ضمن هذه الوسائل الضاغطة على الحكومات ما تجريه الدول الكبرى من مناورات عسكرية واسعة وتحريك للأساطيل والقطع البحرية الكبيرة أو المناورات المشتركة مع الدول الحليفة، حيث تجرى هذه الأعمال قريبًا من حدود الدولة المقصودة.

كما يندرج تحتها خلق أجسام ومؤسسات عسكرية غرضها إرهاب الآخرين مثل إنشاء وحدات التدخل السريع، وهي تحمل اسمًا دالًا على طبيعة عملها وهو التدخل في شئون الآخرين، رغم أن ميثاق الأمم المتحدة ينص على عدم التدخل في هذه الشئون ولكنه المنطق الإرهابي المسنود بنظرية البقاء للأصلح، بمعنى الأقوى.

ب- الإرهاب الاقتصادي:

ويتمثل هذا النوع من الإرهاب في فرض الحصار الاقتصادي على بلد ما بغية إجباره على الإذعان للدولة القوية وقبول شروطها أو إملاءاتها، أو اللعب بميزان المدفوعات أو دفع الحكومات لطلب قرض مالي مشروط يجبر الموقعين على مثل هذه القروض على اتخاذ مواقف سياسية تتماشى ومصالح رأس المالي[1] حتى تتكرس التبعية الاقتصادية والمالية للبلد الموقع، ويصبح رهينة للدول المانحة، ومع الزمن تتحول المرافق الحيوية الموجودة في البلد ملكًا خالصًا لتلك الدولة الغريبة عن طريق الأسهم كما كانت عليه حال قناة السويس قبل التأميم، وكثير من الشركات البترولية والمعدنية والغذائية والكسائية في العالم، حيث إن الشركات (صاحبة الامتيازات) تستولى على خيرات البلاد تحت طائلة التطوير أو الاستثمار، وهي في الحقيقة تمارس أقصى أنواع النهب، الذي لا يترك خلفه سوى التبعية والتخلف، ويجر إلى إلحاق البلد اقتصاديًّا بالدولة المانحة، لتصير سوقًا استهلاكيًّا لمنتجاتها، ومصدرًا للحصول على الخامات والأيدي العاملة الرخيصة.

ج- الإرهاب الفكري:

ويتمثل الإرهاب الفكري في مصادرة حريات الآخرين في قول آرائهم أو التعبير عنها، سواء من خلال الإعلام، صحافة وإذاعة وتلفازًا أو منعهم من نشر كتبهم وأبحاثهم، أو مشاركاتهم في المؤتمرات والندوات أو تأسيس الأحزاب أو الجمعيات، وكل ما له شأن من قريب أو بعيد بموضوعات الفكر أو الثقافة.

ولا يكتفي الإرهاب الفكري بمحاولة تجميد فكر الآخرين من خلال الإجراءات السابقة، بل إنه يكرس كل وسائل الإعلام المتاحة لديه، وكل العقول والأدمغة ووسائل البحث الحديثة: كي يهاجم الأفكار الأخرى واضعًا فيها كل المفاسد، فالمهم أن يهدمها ويهزمها، بأية وسيلة كانت، ومن هنا كان التزوير وتلفيق المعلومات أسلوبًا مباحًا عند

---

(١) الإرهاب الدولي بين الواقع والتشويه.

صانعي هذا النوع من الإرهاب.

ويهدف الإرهاب الفكري الذي تمارسه دولة ما ضد أخرى إلى طمس شخصية الأمة وحضارتها وثقافتها عن طريق ما يسمى بمراكز الأبحاث العلمية، حيث تلجأ هذه المراكز (المأجورة) إلى إخراج أية نتائج تريدها الدولة لسلب الخصم كل ما يفخر به من لغة وتراث، وإنجازات، وتاريخ مشرف، وتحويل كل ذلك إلى عمليات سالبة وبهذا تفقد الأمة شخصيتها وتصبح هامشية بدون جذور(١).

د- إرهاب العزل والمقاطعة والحرمان:

وهو أسلوب قديم عرفته الأمم السابقة ومنه عزل وحصار ومقاطعة الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل في شعب بنى هاشم من قبل قريش وأشياعها، وهو أشد من الحصار الاقتصادي؛ لأنه يشمل حركة السفن والمطارات والمواصلات البرية، والتعاملات التجارية بأنواعها والنواحي الطبية والعلاجية، وتعيش الدولة تحت طائلة العقوبات والتهديدات بالاجتياح أو التقسيم أو من استعمال المرافق الحيوية التابعة لها كالموانئ والمطارات، مما يعطل كل نبضات الحياة في شرايين المجتمع عن العمل فيهلك آلاف؛ بل مئات الآلاف من الضحايا.

نخلص من هذا الموضوع إلى القول أن الإرهاب ظاهرة فاشية في العالم كله، وليس حصرًا بشعب دون آخر أو أمة دون أخرى، وأنه يتمثل في الممارسة التي قد تتسبب عن شعور جنس ما بالتفوق، أو عقيدة ما بذلك، لكن دمغ شعب أو جنس بالإرهاب لا يستقيم مع الفهم السليم(٢).

---

(١) انظر: الشخصية العربية لإبراهيم يحيى شهابي صـ ٤١ وما بعدها.

(٢) الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري- أبحاث المؤتمر العام الثامن للشئون الإسلامية المنعقد بالقاهرة في الفترة من بين ٢٤- ٢٧ يوليو سنة ١٩٩٦م. وانظر مجلة كلية أصول الدين- جامعة الأزهر- فرع أسيوط- العدد ٢١ الجزء الثاني- صـ ٩١٥ وما بعدها.

ما يُحمد من الإرهاب وما يُذم[1]

تتهم العديد من الأوساط الغربية المسلمين بالإرهاب والعنف والتطرف؛ بل أصبح عند كثير منهم صفة لازمة للإسلام زعمًا منهم أن تعاليم الإسلام تحض على ذلك، وتوجه المسلمين إلى سلوك هذا الطريق، وهذا بعيد تمامًا عن حقائق الإسلام وتعاليمه.

والمتأمل في أقوال علماء المسلمين يجد أن الإرهاب في الشريعة الإسلامية ينقسم إلى نوعين:

الأول: الإرهاب المحمود أو الإرهاب بحق للخير.

الثاني: الإرهاب المذموم أو الإرهاب الظالم المتجاوز للحدود.

الأول: الإرهاب المحمود:

الإرهاب المحمود هو الشرعي لدى الإسلام. وبهذا المعنى المحمود المشروع استعملت الكلمة في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ، فالمراد بهذه القوة السلاح، كما قال عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وهو على المنبر،: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ".

تفسير العلماء:

وقد قام العلماء المفسرون، من القدامى والمحدثين، بتفسير هذه الآية بما يأتي:

قال الطبري: وأعدوا لهؤلاء الذين كفروا الذين بينكم وبينهم عهد إذا خفتم خيانتهم وغدرهم أيها المؤمنون بالله ورسوله ما استطعتم من قوة تخيفون بذلك عدو الله وعدوكم من المشركين[2].

قال الجصاص: أمر الله المؤمنين في هذه الآية بإعداد السلاح والكراع قبل وقت القتال إرهابا للعدو[1].

---

(١) انظر: الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب. د. علي الشبل.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٧٤.

قال الفخر الرازي: اعلم أنه تعالى لما أوجب على رسوله أن يشرد من صدر منه نقض العهد، وأن ينبذ العهد إلى من خاف منه النقض أمره في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار. . ثم قال: فقال تعالى: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ وذلك لأن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له ومستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم. وذلك الخوف يفيد أمورًا؛ منها: أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام عدوانًا، ولا يعينون سائر الكفار للتعدي على دار الإسلام، وربما صار ذلك داعيًا لهم إلى الإيمان(٢).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: أن يكون القصد الأول من إعداد هذه القوى والمرابطة إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الأمة أو مصالحها، أو على أفراد منها، أو متاع لها حتى في غير بلادها لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها. وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلح وتدعيه الدول العسكرية فيه زورًا وخداعًا(٣).

من خلال ما سبق من أقوال المفسرين يتبين لنا ما يأتي:

أولًا: أن تكليف إعداد القوة بقدر الاستطاعة واجب على الحكومة الإسلامية خاصة، وعلى الأمة الإسلامية عامة. وذلك لنزول هذه الآية في عهد المدينة المنورة، والأمة كلها واحدة تحت قيادة رسول الله ﷺ . فهي مكلفة للمشاركة في هذا الإعداد؛ كما يقول أبو السعود الحنفي بأن توجيه الخطاب يعني: " وأعدوا " إلى جميع المؤمنين؛ لأن المأمور به من وظائف الجميع. والله أعلم.

---

(١) أحكام القرآن ٤/ ٢٥٢.

(٢) تفسير الرازي ١/ ٢١٥٧.

(٣) تفسير المنار (الآية).

ثانيًا: أن القوة المطلوب إعدادها هي قوة الرمي، وهو كل ما يوجد في كل عصر ومكان من سلاح يرمى به الأعداء في حالة الحرب. فإذا استطاع أن يعد أفضل وأحدث ما يكون في ذلك العصر فبها ونعمت وإلا فاتقوا الله ما استطعتم.

ثالثًا: أن الدلالة اللفظية في الآية تشير إلى أن الغرض الأساس من إعداد القوة هو الإرهاب والتخويف، وليس القتل والقتال. يقول تعالى: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ، ولا يقول: "تقاتلون به أو تقتلون به عدو الله وعدوكم". وبذلك تبين أن اختيار الله هذه الكلمة (الإرهاب) هو نوع من رحمته تعالى لخلقه، تجنبًا عن القتل أو القتال الذي هو سفك الدماء وهو الغرض الغالب من أي قوة. وحتى مع الأعداء لا يريد أن يعاملهم الإسلام بالقتل والقتال، فما بالك مع عامة الناس ولو كانوا غير مسلمين. فإذا اكتفى هؤلاء الأعداء المجرمون أو الكفار بمجرد هذا الإرهاب والتخويف الذي يمنعهم من التعدي والظلم والصد عن سبيل الله فقد تحقق الغرض الأساس من إعداد القوة في الإسلام.

رابعًا: المرهبون به هم أعداء الله: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ لأن طبيعة دعوة الإسلام التي جاء بها الرسل أنها تواجه المجرمين المعتدين من أعداء الله طول الطريق، ولاسيما الرسول الخاتم محمدﷺ. وقد صرح بذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾. أي: كما جعلنا لك، يا محمد، أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك؛ جعلنا لكل نبي من قبلك أيضًا أعداء.

خامسًا: إن الإرهاب الشرعي على ضوء هذه الآية الكريمة هو أحد الأساسيات الفطرية للتعامل مع العالم. فأمم العالم جميعًا تعد ما تستطيع من قوة كي تدخل الرهبة في قلوب أعدائها. وهي تستعرض قوتها في المناورات كي يعرف خصومها درجة مناعتها

فيحترمونها ولا يعادونها. وهذا أمر مشروع وحق معمول لدى الأمم ومسموح لدى القوانين كلها منذ قديم الزمان وحتى الآن. فلا ينكر عليه إلا مجرم. ويعد ذلك من حق كل دولة، وكل سلطان، وكل قوم. فمن حق المسلمين أن يفعلوا ذلك كغيرهم في إعداد القوة المانعة للعدوان الذي قد يقع عليهم. ومع ذلك فإن الشريعة الإسلامية قامت بتحديد مواضع استخدام هذه القوة المعدة للدفاع عن النفس وعن حرمة الدعوة وسلامة الحقوق والأعراض وتحرير الإنسان والأوطان من الضبط والكبت والظلم والطغيان. لذا كان الإرهاب مع أعداء الله وأعداء الفطرة، ويكون الغرض منه الدفاع عن النفس أو تخويفهم من الاعتداء على الإسلام والوقوف أمام سير الدعوة الإسلامية التي تنشر الرحمة للعالم؛ فهو مشروع، وليس ذلك بالإرهاب المحظور. والله أعلم.

ومن أمثلة الإرهاب العدواني المحرم في الإسلام:

١-تخويف أحد ابني آدم لأخيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

٢- المحاربون الذين يفككون أمن الناس بالنهب والسلب والإفساد في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ .

٣- محاولة الاعتداء على النفس، كما في قوله ﷺ : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار.

ثانيًا: الإرهاب المذموم:

لا شك أن كلًّا من العنف والتطرف والظلم مذموم في الإسلام. فهذا الثالوث المذموم هو أهم صفات الإرهاب المذموم. فالإرهاب لا يكون مذمومًا إلا إذا دخل فيه العنف والتطرف والظلم. فالعنف عبارة عن استخدام القوة المادية في غير موضعها، حيث يمكن

فيه أن تستخدم الحجة أو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة أو المجادلة بالتي هي أحسن، وبغير ضابط من خلق أو شرع أو قانون؛ هل يجوز قتلهم أو الاعتداء عليهم أو لا؟

فمن الإرهاب المذموم استخدام العنف مع الأبرياء، أو فيمن ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين، وإجبارهم على أن يخضعوا لمطالبك أو لسياستك، وإن كانت عادلة أو صحيحة في رأيك.

مفاهيم خاطئة حول الإرهاب

لقد أصبحت تهمة الإرهاب سلاحًا خطيرًا يسلط على كثير من الشعوب والجماعات والمنظمات وأحيانًا حتى على الدول والحكومات، وأصبح ترويج هذه التهمة وإلصاقها بجهة من الجهات كافية لإدانتها وتجريمها وشن الحرب عليها بل يمكن القول أن تهم الإرهاب قد أصبحت من أخطر وسائل الإرهاب.

غير أن من أخطر ما في استعمال مصطلح الإرهاب اليوم هو التسوية والخلط المعتمد بين الظالمين والمظلومين، بين المعتدين والمقهورين وقد يتجاوز الأمر مجرد الخلط والتسوية إلى قلب الحقائق بإضفاء صفة المشروعية على الظالم المعتدي وإلصاق تهمة الإرهاب على المظلوم والمعتدى عليه.

إن النظر السليم والحكم الصحيح على الأعمال التي توصف اليوم بالإرهاب لابد فيها من التمييز والتفريق ووضع كل شيء في موضعه اللائق به، فهذا من البدهيات التي يقتضيها العدل والإنصاف، أما الخلط والتعميم والتسوية بين المختلفات فليس سوى أسلوب من أساليب المغالطة والتضليل والخداع.

لابد في هذا الموضوع من التمييز مثلًا بين الحالات الآتية:

الحالة الأولى: كون الفاعل ظالمًا والمفعول ضده مظلومًا لا ذنب له.

الحالة الثانية: كون الفاعل مظلومًا والمفعول ضده هو ظالمه المصر على ظلمه.

الحالة الثالثة: كونهما معًا معتدين ظالمين.

الحالة الرابعة: حالة من ترك الوسائل السلمية وسلك من أول الأمر أعمال العنف والإرهاب لنيل حقه أو لم يستنفد كل الفرص السليمة المتاحة له.

الحالة الخامسة: من سلك كل السبل السلمية واستنفد كل فرص المطالبة والإقناع لنيل حقه ورفع الظلم والعدوان عن نفسه، فلم تجده شيئًا ولم يأبه له خصمه؛ بل أمعن في ظلمه وهضم حقه.

الحالة السادسة: من يلجأ إلى العنف دفاعًا عن النفس أو معاملة بالمثل حيث جاءت البداية من خصمه.

الحالة السابعة: حالة من كان حقه مقررًا ومسلمًا ومعترفًا به.

الحالة الثامنة: من كان حقه مجرد ادعاء ومطلب لم يثبت أحقيته ولم يعترف بمشروعيته.

فهذه الحالات كلها موجودة الآن فيمن يتهمون بالإرهاب ويدانون به ويجرمون وليس فيما عرفته البشرية وآمنت به من تعاليم دينية أو قيم أخلاقية أو قواعد قانونية أو أعراف قضائية ليس فيها ما يسوغ التسوية بين كل هذه الحالات وإدانتها وتجريمها جميعًا واعتبارها شيئًا واحد والحكم عليها بحكم واحد. ولكن الأغلبية الساحقة نعم ساحقة من السياسيين وأتباعهم من الإعلاميين وغيرهم يفعلون هذا تلبيسًا على الشعوب وتضليلًا لها ويفعلونه على سبيل الإرهاب والإذلال لذوى الحقوق المشروعة حتى لا ينهضوا لنيل حقوقهم ورفع الظلم عن أنفسهم، ويفعلونه على سبيل التشويه والتنفير من كل فكرة أو حركة ينشد أصحابها الحق والعدل والكرامة.

وإذا كان المنطق يقتضي أن ندين كل إرهابي ظالم وأن ندين كل مسارع إلى تفجير أعمال العنف والقتل حتى ولو كان ذلك في طلب الحق ما دام لم يستنفد جميع الوسائل السلمية في طلب حقه فإن هذا المنطق نفسه يقتضي تأييد من قام يدافع عن نفسه وعن حقه بعد أن صبر واحتمل، وبعد أن استنفد كل السبل والوسائل السلمية.

وإذا كنا ندين المبادئ بالعنف والإرهاب، فلا شك أن من يفعل ذلك ردًا ودفاعًا عن النفس يختلف عنه، وحتى حينما ندين من يرد العنف بمثله، فيجب على الأقل أن ندين أكثر البادئ بالعدوان.

وإذا كنا نقف موقف التحفظ أو التردد أو حتى الإدانة تجاه من دافع عن حق مختلف في أحقيته، أو ما زال بحاجة إلى إثبات واعتراف، فليس من العدل في شيء أن نستنكر على من يسعى إلى حق لا غبار عليه، ولا نزاع في مشروعيته، وهكذا. .

والأدهى والأمر هو أن يدان المظلوم المعتدى عليه ويسمى إرهابيًا، ويسكت تمامًا عن ظالمه وعن الظلم الذي ألحق به؛ بل قد يحظى ظالمه بالتأييد والدعم والمساندة(١).

---

(١) مجلة كلية أصول الدين والدعوة- العدد ٢١/ الجزء الثاني صـ ٩١٢- ٩١٤.

الفصل الأول: أسباب انتشار الإسلام

يقول الشيخ إبراهيم فاديقا الأمين العام للرابطة الإسلامية كوناكري- غينيا[1]:

إن قول بعض المستشرقين إن الإسلام قد انتشر بالسيف، ولم يكن للناس آنذاك بد إلا الاختيار بين الإسلام والقتل، وأن الفتوحات الإسلامية دليل على انتشار هذا الدين الحنيف بالسيف، هذا القول مناف للحقيقة، وفيه عداوة للإسلام، إننا نلاحظ في انتشار الإسلام ما يلي:

أولًا: إن وجود غير المسلمين في الدول الإسلامية من يهود ونصارى وغيرهما بكامل الحرية والعبادات مع أمن الحياة لَدليل على تكذيب ذلك القول.

ثانيًا: إن تاريخ البشرية يقرر بأن كل نظام أنشأه السيف يزول بزوال السيف.

ثالثًا: رغم ما أصاب المسلمين في يومنا هذا من ضعف في الإيمان والجهاد ما زال الإسلام ينتشر ويزدهر يومًا بعد يوم في دول لم يطأ المسلمون الأوائل أراضيها.

ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف قول باطل، والإسلام منذ الفجر الأول دين تسامح وتعايش بين بني البشر، ولم يستخدم السيف إلا عند لزوم الأمر للدفاع عن حرية الاعتقاد والفكر للبشرية جمعاء، فقد كان دعاة الإسلام الأوائل يعرضون الإسلام على الأمم من منطلق قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فكم من دعاة قُتلوا ظلمًا وطغيانًا في سبيل الدعوة في عهد الرسولﷺ عندما يعلن بعض القبائل إسلامهم فيرسل الرسول معهم من يعلمهم دين الله فيقتلون.

وما الفتوحات إلا نتاج عمل بعض القبائل والملوك لما صادروا حرية الناس في الاعتقاد وقتل بعض الدعاة.

إن قضية انتشار الإسلام بالسيف قضية قديمة أحدثت جدالًا طويلًا عبر التاريخ

---

(١) حقيقة الإسلام المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٤٢٣هـ صـ٦٦-٦٨.

الإسلامي، ولكن الحقيقة التي نؤمن بها كمسلمين هو أن انتشار الإسلام كان كما يأتي:

١- الصبر وتحمل الأذى: فقد أوذي المسلمون في مكة مع رسول الله ﷺ أذى شديدًا، حتى توجه الرسول ﷺ إلى الطائف، وما كان من أهلها إلا أن قاموا في وجهه ورموه بالحجارة كما جاء في الحديث أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثت أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: " إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا". (١)

٢- التأني وعدم التسرع: إن الذين جاهدوا في غزوة بدر الكبرى هم الذين كانوا في مكة، فكانوا يطالبون الرسول بالرد بالمثل، إلا أن الرسول ﷺ كان يأمرهم بكف الأيدي حتى أذن لهم بالقتال، والقرآن يصدق ذلك الموقف بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (الحج: ٣٩، ٤٠).

٣- الحكمة في الدعوة وحسن الجوار مع غير المسلمين دون لجوء إلى السيف: فنرى الرسول ﷺ يقبل في صلح الحديبية من الشروط في المعايشة مع الكفار ما لم يقبله أحد سواه، وكذلك المسلمون عند فتح بيت المقدس، مما يؤكد سمة الإسلام وسبب انتشاره.

---

(١) البخاري (٣٠٩٥)، مسلم (١٧٩٥).

٤- العفو عند المقدرة: إن في قضية أسرى بدر التي لام القرآن المسلمين عليها، ورد الرسولﷺ على أهل مكة يوم الفتح لدليلًا على اقتناع الخصوم بسماحة الإسلام.

٥- المعاملة الحسنة: إن الدول التي دخلها الفاتحون لم يفرضوا الإسلام على أهلها قهرًا؛ بل خيروهم بعد إعلانهم لمبدئهم ألا وهو إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، أو الجزية، أو القتال لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال: ٦١)، وقال أيضًا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة: ١٩٠).

٦- قوة الإسلام نفسه: إن الله تعالى قد تكفل بحفظ القرآن وشريعته ونصر الرسول والصديق إذ هما في الغار، ونصر جنده يوم الأحزاب وحده.

٧- اعتراف أعداء الإسلام بقوة ومبادئ الإسلام وصراحته في معالجة الأمور وموقفه الواضح تجاه أمر القتال أو الاستعداد له، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

٨- معالجة الأمور بالمثل، قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤).

٩- وفي إفريقيا فيما وراء الصحراء لم يسجل في التاريخ قتال ولا معارك إسلامية استعان بها التابعون في حمل الرسالة إلى إفريقيا، ومع ذلك فنسبة المسلمين في هذه القارة تنوف اليوم على ٦٢٪.

المبحث الأول: (كيف انتشر الإسلام؟)

إن الإسلام لم ينتشر بالقهر والغلبة فهناك بلاد كثيرة دخلها الإسلام عن طريق التجار كإندونسيا وحتى البلاد التي تم فتحها لم يجبر المسلمون أحدًا فيها على اعتناق الإسلام.

وقد جاءت هذه الشهادة المنصفة في كتاب "الدعوة إلى الإسلام" الذي ألفه توماس أرنولد، وبحث فيه تاريخ نشر العقيدة الإسلامية في أقطار الأرض، وإليك بعض الفقرات منه الدالة على ذلك.

١- بلاد الشام: "تحول البدو المسيحيون إلى الإسلام بالتسامح". دخل الناس في الإسلام عن اقتناع فلماذا؟ لأن الخليفة عمر عيَّن في كل بلد معلمين مهنتهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين[١].

"إن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح"[٢].

ودليل آخر أن السكان قد رضوا بالإسلام عن قناعة ورضا، تلك الكتب التي ألفها القديس "يوحنا الدمشقي"، "وقد عاش في عصر الفتوحات، وكلها تدور حول مناقشات بين المسيحية والإسلام، فهذه المناقشات والمجادلات تعطينا فكرة عن عدم الإكراه وفرض الإسلام بالسيف. وكانت صياغة هذه الكتب على شكل حوار: "وإذا سألك العربيُّ"، "إذا قال لك العربيُّ. . . فأجبه.". وكذلك كتب تلميذ القديس يوحنا: "الأسقف تيودور أبو قرة" الذي كتب بعض المحاورات بين العقيدتين. واستمرت هذه المناظرات حتى أيام الرشيد الذي كان يحضر هذه المناظرات التي كان فيها "طيماثاوس"و"يوسف مطران مرو".[٣]

فبعد هذا كله، هل دخل الإسلام إلى بلاد الشام عنوة وبالسيف؟

---

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ٦٩- ٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق صـ١٠٣.

أم بعد نقاش ومناظرة سادهما جو من التسامح الكامل، انتهى إلى القناعة والإيمان والرضى بالإسلام؟.

٢- إفريقيا:

يذكر توماس أرنولد حالة القبط قبل الفتح الإسلامي فيقول: كان القبط في مصر يعذَّب أحدهم ثم يلقى به إلى اليم.

وقد كتب في الباب الرابع من كتابه فصلًا عن انتشار الإسلام بين مسيحي أفريقيا جعل عنوانه "فتح مصر على أيدي العرب، وترحيب القبط بهم لإنقاذهم من الحكم البيزنطي" ومما جاء تحت هذا العنوان: "ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب، قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عرف به من الإدارة الظالمة، ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت".

فماذا قدم الفتح الإسلامي لهم لتغيير حالتهم تلك؟.

١- لقد خلَّصهم من الضرائب العالية المرهقة، ولم يأخذ منهم إلا العشر مما كان يأخذه الروم.

٢- وضمن لهم الحرية الدينية المطلقة، وقد اعترف "أرنولد" بأن الفتح الإسلامي قد جلب للقبط: (حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك)[١].

ومن اعترافه أيضًا قوله: كفل- عمرو بن العاص- الحرية في إقامة الشعائر الدينية، وخلَّصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنّوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملًا من أعمال السلب والنهب.

"وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى الاضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين"[٢] "بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح".[١]

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ ١٢٣.

(٢) الدعوة إلى الإسلام صـ ٢٤.

٣- أسبانيا:

"أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي الإسلامي، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئًا، وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية، كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد". كما ذكر "دوزي Dozy" تسامح العرب في أسبانيا مظهرًا رحمة الفاتحين، ويسر الضرائب التي فرضت والتي كانوا يدفعون أضعافها مضاعفة.[٢]

وفي معرض الحديث عن حكم العرب لأسبانية ورد في "المعرفة": "إن حكمهم لأسبانيا اتسم بالحكمة، ولم يكرهوا الناس على الدخول في دينهم، اكتفاء بدفع الجزية، وغدت أسبانيا في عهود حكمهم تنعم بأوفى قسط من الرخاء والرفاهية".[٣]

"وقد بلغ تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيي أسبانيا مبلغًا كبيرًا، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم"[٤].

هذا.. ولما خرج العرب المسلمون من أسبانية في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢م "كان الأهالي المساكين لا يزالون يتمسكون بدين آبائهم، مع أنهم أرغموا على إظهار تدينهم بالمسيحية أكثر من قرن"[٥]، ثم خرج هؤلاء إلى الطرف الآخر من البحر، إلى المغرب، فارِّين بدينهم.

فهل دخلت أسبانيا في الإسلام بالإكراه وحد السيف؟

٤- أوربا الشرقية:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق صـ ١٥٧.

(٣) موسوعة المعرفة: جـ ٤٣ صـ ٦٨٤ الطبعة العربية.

(٤) الدعوة إلى الإسلام صـ ١٦٤.

(٥) الدعوة إلى الإسلام صـ ١٦٨، عن Lea، the Moriscos، p. ٢٥٩:

بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م: انطلق العثمانيون في أوربا الشرقية، فهل دخلت مناطق البلقان ويوغسلافيا وألبانيا. . . في الإسلام بقوة السيف؟

لنرى ماذا عمل فاتح القسطنطينية بعد سقوطها بيده مباشرة، مكتفين بما جاء في كتاب توماس أرنولد.

"ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني- الفاتح- بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية. فحرَّم اضطهاد المسيحيين تحريمًا قاطعًا، ومنح البطريق الجديد مرسومًا يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة، والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق، وقد تسلَّم جناديوس، أوَّل بطريق بعد الفتح التركي، من يد السلطان نفسه، عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية"(١).

لم يتدخل الفاتحون في أمور الكنيسة "بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية"(٢). سمح لهم بالاحتفال بطقوسهم الدينية تبعًا لعاداتهم القومية(٣).

٥- في بلاد فارس وما وراء النهر:

وحول انتشار الإسلام في بلاد فارس وما وراء النهر، فقد وضح توماس أرنولد ظروف انتشاره في المنطقة، وذلك في مقدمة الباب السابع في كتابه "الدعوة إلى الإسلام"، ولكنه سبق ذلك بوصف لمظالم الدولة الساسانية في شعبها، واستبدادها الذي امتاز بضروب الفوضى والعنت، فصار الشعب يكره ويمقت حكامه، وخاصة عندما تبنت الدولة الديانة الزرادشتية، وسمحت لكهنة هذه الديانة بالسيطرة حتى على بعض الأمور المدنية، وظهر الفتح الإسلامي كمخلص للشعب من حكم الساسانيين وذلك باعتراف "غيتاني"(١).

---

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ ١٧٠- ١٧١: Phrantzes، ٦-٣٠٥ .p.

(٢) الدعوة إلى الإسلام صـ ١٧١.

(٣) الدعوة إلى الإسلام صـ ١٧١، عن: Finaly، vol. iii. P. ٥٢٢

لذلك لا غرابة أن يعترف أكثر من مستشرق: (أن سكان المدن وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة قد رحبوا بالدين الإسلامي، واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة)[٢].

فهل دخلت بلاد فارس وما وراء النهر في الإسلام بالسيف أم عن اقتناع وإعجاب ومسالمة وأمن ومحبة فأخلصوا لهذا الدين عن صدق ومحبة خارقة جادة؟

ومما هو جدير بالذكر، أن هذه المنطقة قدمت للدين الجديد والحضارة العربية الإسلامية خدمة لا تقدر، فلقد أخلص أبناء هذه المنطقة لدين الفاتحين ولغتهم وأحاديث رسول الله ﷺ ولعلوم الحضارة الجديدة، فهل نقبل أن من يقوم بمثل هذه الخدمة قد دخل مكرهًا في الإسلام؟ لو دخل مكرهًا لاستعمل عقله وفكره وقلمه ودواته لتخريب عقيدة الفاتحين ومحاربتها، ولكنهم كرَّسوا أنفسهم مخلصين لخدمة الحضارة الإسلامية فأفنوا حياتهم وهم في كل لحظة حريصون على أن يخدموا علوم الإسلام في كل مجالاتهم، فبرز من الأسماء الكثير، أسماء تحمل أسماء المدن في هذه المنطقة مثل: الطبري "المؤرخ والمفسر المشهور"، ابن خرداذبة "الجغرافي المعروف". الشهرستاني "صاحب الملل والنحل"، البخاري "المحدِّث الكبير"، وعشرات غيرهم من العلماء في كل الميادين العلمية مثل: أبو علي الحسين بن سينا، أبو بكر الرازي، أبو حنيفة الدينوري، أبو الريحان البيروني، محمد بن موسى الخوارزمي، أبو الوفاء البوزنجاني. . .

فهل خدم هؤلاء الحضارة العربية الإسلامية عن إكراه أم عن قناعة وإعجاب، ثم عن تعلق وافتداء؟.

٦- المغول والتتر:

---

(١) Caitani، vol. ii، ٩١٠-٩١١ pp.

(٢) الدعوة إلى الإسلام صـ ٢٣٧.

جاءت موجات هؤلاء من الشرق فاندحرت جيوش المسلمين أمام أمواج مدهم الكبير، ولم ينزل من الخطوب والويلات مثل ما نزل من جراء وحشية المغول الذين اكتسحوا كل مدنية وثقافة وداسوها، تاركينها وراءهم صحراء خالية وأطلالًا دارسة، "ففي بخارى اتخذ المغول من مساجدها المقدسة اصطبلات لخيولهم[١] ومزَّقوا المصاحف ووطئوها بدوابهم" وكذلك في سمرقند وبلخ وغيرها من مدن آسيا الوسطى التي كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية، ومواطن الأولياء وكعبة العلوم، كما كان ذلك أيضًا مصير بغداد".

وابن الأثير أخذته القشعريرة حين أراد وصف غارات المغول، حيث يقول: "لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليه "رجلًا" وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا "ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا""[٢].

وتكفينا هذه الفكرة عن المصيبة التي حلت بالحضارة الإنسانية، وخاصة بإغراق كتب مكتبة "دار الحكمة" التي أسسها هارون الرشيد، وآتت أكلها أيام المأمون في نهر دجلة، فبقي أيامًا يجري ومياهه سوداء من لون الحبر الأسود.

وهكذا إن الحضارة قد تأخرت قرونًا بسبب ضياع علوم هذه المكتبة الإسلامية الفريدة من نوعها.

أمام هذا الانكسار العسكري أمام المغول الذين اكتسحوا العالم من الصين حتى فلسطين، كان لابدّ من إثبات أن الإسلام ليس كغيره من المبادئ التي ظهرت في هذا العالم، فأمام عظمته الذاتية، وبتحرك غريب، لا ندري كيف كان الله ﷻ يكتب له النصر!

لقد كان لابدّ للإسلام أن ينهض من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده التالد، في كل مرة وبطريقة جديدة. فاستطاع بدعاته أن يغزو قلوب أولئك الفاتحين المتبربرين،

---

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ ٢٤٩.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٢/ ٢٤٣- ٢٤٤ وذلك في حوادث سنة ٦١٧هـ.

وقام صراع غريب وتنافس كبير بين الأديان لاجتذاب هؤلاء الوثنيين البرابرة (على حد قول أرنولد)، "تلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة"(١).

فبالدعاة، وبالدعاة فقط، تراجع القوم، ورجعوا إلى بلادهم يحملون الإسلام إلى أبناء جلدتهم، جاؤوا ببربرية وقسوة وحصاد للشعوب بلا رحمة، وآبوا بإنسانية ورحمة ومحبة للعالم أجمع، حوَّلهم الإسلام بدون سيف أو جيش، إلاَّ سيف الكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة، التي حمل الدعاة لواءها ....، فخرقوا القلوب بنور توجهاتهم، فما أن فتح المغول بلادنا حتى فتح العلماء العاملون قلوبهم، فملكناهم وملكنا أرضنا التي عادت إلينا.

وهكذا. . . انتصر وانتشر الإسلام في وجه السيف. . ولم ينتصر أو ينتشر بحده. .

لقد حول الدعاة المسلمون المغول إلى دعاة مسلمين، فعادوا بعد أن صار في جيش "بركة خان" كل فارس وسجادة صلاته معه(٢) أينما حل الأذان قام للصلاة مجيبًا نداء: "حيَّ على الصلاة. حيَّ على الفلاح. . . ".

وتبع هذا النصر نصر آخر، ألا وهو دخول الإسلام إلى روسيا ليس بالسيف، ولكن بفضل ما يسميه المؤرخون "القوة المعنوية التي تميز بها المسلمون أنفسهم"(٣) وهذه القوة هي قوة الإيمان، قوة الإيمان بالمبدأ الذي خالط اللحم والعظم والدم. إنها قوة الإسلام الكامنة في ثناياه، قوة البقاء والبقاء للأفضل، ويقول "أرنولد" بصراحة: "بدأ الإسلام يتخلَّص تدريجيًّا من أطلال مجده السالف، ويتخذ مكانه من جديد باعتباره دينًا ذا سيادة"(٤). بدأ هذا الإسلام رغم "نكبة المغول" في عملية مد عنيفة بين التتر في أواسط آسيا وفي روسيا.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ ٢٦٩.

(٢) الدعوة إلى الإسلام صـ ٢٦٩- ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق صـ ٢٧٦.

(٤) المصدر السابق صـ ٢٦٩.

ودليل قوة الإسلام المتجددة التي تعتمد على القناعة والفكر: أن "نشطت الدعوة إلى الإسلام بيد تتار القرم بعد أن صدر مرسوم حرية الدين في سنة ١٩٠٥"[1].

والآن نتساءل مع من يرى أن الإسلام انتشر بالسيف، كيف وصل الإسلام إلى: جنوب الهند وسيلان وجزر لكديف ومالاديف[2] في المحيط الهندي، وإلى التيبت وإلى سواحل الصين وإلى الفلبين وجزر أندونسيا وشبه جزيرة الملايو؟ كيف انتشر الإسلام في أواسط أفريقيا في السنغال ونيجريا والصومال وتنزانيا ومدغشقر وزنجبار. . . كيف وصل الإسلام إلى هناك؟ أبالسيف؟ وما وصلت إلى هناك جيوش تحمل سيوفًا؟.

إنه وصل بواسطة تجار اتقد الإيمان في قلوبهم، فكانوا مع تجارتهم دعاة إلى الإسلام، دعاة بالكلمة الطيبة وبالعمل الذي هو دعوة ناطقة، فالصدق والأمانة والوفاء والمحبة. . . كلها دعوات بطريقة عملية إلى دين الإسلام.

المبحث الثاني: منهج الإسلام في دعوة الآخرين بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

رسم القرآن الكريم منهج الإسلام في الدعوة إلى الله[3] بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

والدعوة بالحكمة تعني: الخطاب الذي يقنع العقول بالحجة والبرهان.

الموعظة الحسنة تعني: الخطاب الذي يستميل العواطف ويؤثر في القلوب رغبًا ورهبًا.

والجدال بالتي هي أحسن يعني: الحوار مع المخالفين بأحسن الطرق، وأرق الأساليب التي تقربهم ولا تبعدهم.

---

(١) المصدر السابق صـ ٢٧٦، عن: Islam and Missions، ٢٥٧ .p.

(٢) أهل مالاديف: دخلوا في الإسلام عن طريق التجار العرب والفرس الذين استوطنوا هذه البلاد، الدعوة إلى الإسلام، صـ ٣٠٢.

(٣) استفدنا هذا المبحث من الإرهاب والعنف والتطرف في ميزان الشرع إعداد: د. محمد على إبراهيم. اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب.

ولنا عبر كثيرة في أنبياء الله في دعوة قومهم كما جاء ذلك في قصصهم في القرآن الكريم، فكانوا يبدؤون خطابهم ودعوتهم مع قومهم بـ(يا قوم) إشعارًا منهم بأنهم آحاد وأفراد منهم، مع رقة الأسلوب ولين الجانب.

فانظر مثلًا دعوة نوح لقومه في سورة الشعراء وغيرها: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩)﴾ (الشعراء: ١٠٥-١٠٩).

وفي سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٥٩).

وفي سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢)﴾ (نوح: ١، ٢).

وقال تعالى عن هود عليه السلام ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٦٥).

وعن صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٧٣). وعن شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٨٥).

وانظر خطاب أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه في دعوته إلى توحيد الله تعالى والابتعاد عن عبادة الأوثان، فإنه في قمة الرقة والرأفة واللين والرحمة.

يقول الله- تعالى- على لسانه عليه السلام في سورة مريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا (٤٥)﴾ (مريم: ٤٢-٤٥).

وعندما ردّه أبوه ردًا سيئًا بقوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ قال له ؈: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم: ٤٦-٤٧). وهذه أيضًا من صفات المؤمنين، يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره: فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال- تعالى- في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ (الفرقان: ٦٣)، وقال- تعالى- عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (القصص: ٥٥).

ومعنى قول إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة[1].

ونموذج آخر من رسل الله- عليهم السلام- هو نبي الله موسى؈ مع الطاغية فرعون الذي ادعى الربوبية والألوهية: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤). وقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: ٣٨)، حيث أمره- سبحانه وتعالى- هو وأخاه هارون بتليين القول لفرعون: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٢-٤٤)، ولذا وجدنا موسى؈حين ذهب إلى فرعون الطاغية قال له: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (النازعات: ١٨، ١٩).

ويذكر في هذا المقام قصة الرجل الذي دخل على المأمون الخليفة العباسي رحمه الله، فأغلظ له القول في الدعوة والموعظة، فقال له المأمون وكان على علم وفقه: يا هذا، إن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق، بعث نبي الله موسى وهارون- عليهما السلام- وهما خير منك إلى فرعون وهو شر مني، وقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ فخصمه وحجه فأفحمه!!!

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، مريم: ٤٦.

ب- في السنة:

ونبي الرحمة المهداة الرؤوف الرحيم، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، يدعو إلى الرفق وينكر العنف في أحاديثه وسيرته ومنهجه في الحياة كلها، فهو صاحب الخلق العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ المتمم لمكارم الأخلاق.

فها هي جملة مختصرة من توجيهاته وأحاديثه في الدعوة إلى الرفق والبعد عن العنف، وأن من حرم الرفق حرم الخير.

١- قال ﷺ: "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله"[١].

وسبب ورود هذا الحديث يدل على عظم خلق النبي ﷺ، كما يدل على خبث نفوس اليهود وسوء طويتهم وفساد أخلاقهم وآدابهم، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك، فقلت- أي عائشة- بل عليكم السّام واللعنة، فقال ﷺ: "يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله"، قلت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: قلت: وعليكم.

٢- ومن الأحاديث في هذا الباب عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "يا عائشة: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على غيره".[٢]

٣- وعن عائشة رضي الله عنها أيضًا عن النبي ﷺ قال: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه"[٣].

٤- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق، فقد حرم حظه من الخير"[٤].

---

(١) البخاري (٦٩٢٧).

(٢) مسلم (٢٥٩٣).

(٣) مسلم (٢٥٩٤).

(٤) رواه الترمذي في سننه (٢٠١٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧٤).

٥- ومن التربية النبوية الفريدة لأصحابه في معاملة الجاهل وعدم تعنيفه ما جاء في حديث راوية الإسلام أبي هريرةﷺ قال:قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ : دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ؛ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ (١).

وكان النبيﷺيحب التخفيف والتيسير على الناس.

قال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث السابق: وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عنادًا، ولا سيما إن كان يحتاج إلى استئلافه، وفيه رأفة النبّيﷺوحسن خلقه.

٦- وعن أنس بن مالكﷺعن النبّي ﷺ، قال: "يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا"(٢).

٧- وعن عائشة ﷺ قالت: ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلاّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان ثَمَّ إثم كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلاّ أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى(٣).

المبحث الثالث: سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين

إن سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين دليل على زيف هذه الشبهة؛ فقد بعث الله تعالى نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وهو ﷺ مثال للكمال البشري في حياته كلها، مثال للكمال في علاقته بربه وفي علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم، مسلمين وغير مسلمين، قال جابر بن عبد الله ﷺ: كان رسول اللهﷺ رجلًا سهلًا(٤)، قال النووي: " أي سهل الخلق كريم الشمائل لطيفًا ميسرًا في الخلق. "(٥).

---

(١) البخاري (٢٢٠).

(٢) البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

(٣) البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٤) مسلم (١٢١٣).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ٤١٠.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها"(١).

بمثل هذه القيم كانت دعوة النبي ﷺ، وهي يسر في كل شيء، وذود عن حرمات الله لا عن عرض الدنيا أو أهواء النفوس.

وتعدد صور السماحة في هدي النبي ﷺ مع غير المسلمين وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر ونذكر منها ما يلي:

١- رحمته ﷺ بالخلق عامة وهو الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، فكان ﷺ الرحمة المهداة إلى الخلق كلهم، وحث على العطف على الناس ورحمتهم فقد قال ﷺ: " لَا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ"(٢)، وكلمة الناس هنا تشمل كل أحد من الناس، دون اعتبار لجنسهم أو دينهم وجاءت النصوص في باب الرحمة مطلقة، وقد ساق البخاري في باب رحمة الناس والبهائم حديث النبي ﷺ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ(٣)، فدين الإسلام دين السماحة والرحمة، يسع الناس كلهم ويغمرهم بالرحمة والإحسان.

٢- تجاوزه عن مخالفيه ممن ناصبوا له العداء فقد كانت سماحته يوم الفتح غاية ما يمكن أن يصل إليه صفح البشر وعفوهم، فكان موقفه ممن كانوا حربًا على الدعوة ولم يضعوا سيوفهم بعد عن حربها أن قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء(٤).

٣- دعاؤه ﷺ لمخالفيه من غير المسلمين فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا:

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠).

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٦).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٢).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٦١.

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا. فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ فَقَالَ « اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ ».[١].

ودعا ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ : " اللهم اهد أم أبي هريرة"، فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت، ولبست درعها، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح. . الحديث[٢].

وجاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ادع الله على ثقيف فقال رسول الله ﷺ : "اللهم اهد ثقيفًا"، قالوا يا رسول الله ادع عليهم فقال: "اللهم اهد ثقيفًا"، فعادوا فأسلموا فوجدوا من صالحي الناس إسلامًا ووجد منهم أئمة وقادة[٣].

ومن صور الدعاء ما كان من اليهود حيث كانوا يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم يرحمكم الله فلم يحرمهم من الدعوة بالهداية والصلاح، فكان يقول: "يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بالكم" [٤].

٤- وكان ﷺ يقبل هدايا مخالفيه من غير المسلمين[١].

(١) رواه مسلم (٢٥٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩١).

(٣) انظر : تاريخ المدينة لابن شبة ٢ / ٩٨.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب: إذا عطس اليهودي، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧١٩).

وقد قرر الفقهاء قبول الهدايا من الكفار بجميع أصنافهم حتى أهل الحرب قال في المغني: "ويجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب؛ لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس صاحب مصر "(٢).

٥- وكان من سماحة النبي ﷺ أن يخاطب مخالفيه باللين من القول تأليفًا لهم، كما تظهر سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين في كتبه إليهم حيث تضمنت هذه الكتب دعوتهم إلى الإسلام بألطف أسلوب وأبلغ عبارة.

٦- وكان ﷺ يغشى مخالفيه في دورهم فعن أبي هريرة ﷺقال: بينا نحن في المسجد إذ خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود فخرجنا معه حتى جئناهم فقام رسول الله ﷺ فناداهم فقال: "يا معشر يهود أسلموا تسلموا" فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم ... الحديث(٣). وعاد ﷺ يهوديًا، كما في البخاري عن أنس ﷺ:أَنَّ غُلَامًا لِيَهُودَ كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَالَ أَسْلِمْ فَأَسْلَمَ (٤).

٧- وكان ﷺ يعامل مخالفيه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، فعن عائشة ﵂ قالت: تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ (٥).

٨- وكان ﷺ يأمر بصلة القريب وإن كان غير مسلم فقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: "صِلي أمك"(٦).

وفي المدينة حيث تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهد مع المسلمين، وكان ﷺ غاية في الحلم معهم، والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول الله ﷺ، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم فلهم الضمان النبوي،

---

(١) البخاري (٢٦١٧).
(٢) المغني لابن قدامة ١٣/ ٢٠٠.
(٣) رواه مسلم (١٧٦٥).
(٤) رواه البخاري (٥٦٥٧).
(٥) رواه البخاري (٤٤٦٧).
(٦) رواه البخاري (٢٦٢٠).

فقد ضمن ﷺ لمن عاش بين ظهراني المسلمين بعهد وبقي على عهده أن يحظى بمحاجة النبي ﷺ لمن ظلمه فقال ﷺ : ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة. وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال ﷺ : مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا (١).

٩- وقد أوصى ﷺ بالقبط خيرًا وثبت عنه أنه قال: إذا افتتحتم مصرا فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما (٢).

وفي صحيح مسلم : إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا (٣).

قال النووي: وفي رواية: ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، وفيها: فإن لهم ذمة ورحمًا . . . " قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، وأما الذمة فهي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم"(٤).

١٠- عندما قتل أحد الصحابة في أحد أحياء اليهود في خيبر فقد رضي وقبل ﷺ يمين اليهود إذ أقسموا أنهم لم يقتلوه ولم يعلموا قاتله فقد أخرج البخاري بسنده عن بُشير بن يسار زَعَمَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ سَهْلُ بْنُ أَبِي حَثْمَةَ أَخْبَرَهُ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خَيْبَرَ فَتَفَرَّقُوا فِيهَا وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلًا وَقَالُوا لِلَّذِي وُجِدَ فِيهِمْ: قَدْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا قَالُوا: مَا قَتَلْنَا وَلَا عَلِمْنَا قَاتِلًا فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلًا فَقَالَ: الْكُبْرَ الْكُبْرَ فَقَالَ لَهُمْ: تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ قَالُوا:

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٦). وانظر سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين د/ عبد الله اللحيدان.

(٢) رواه الحاكم ٢/ ٥٥٣، وصححه الألباني الصحيحة (١٣٧٤).

(٣) مسلم (٢٥٤٣).

(٤) شرح مسلم ١٦/ ٩٧.

مَا لَنَا بَيِّنَةٌ قَالَ: فَيَحْلِفُونَ قَالُوا: لَا نَرْضَى بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُبْطِلَ دَمَهُ فَوَدَاهُ مِائَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ [(١)].

قال القرطبي في المفهم: فعل ﷺ ذلك على مقتضى كرمه وحسن سياسته وجلبًا للمصلحة ودرءًا للمفسدة على سبيل التأليف، ولاسيما عند تعذر الوصول إلى استيفاء الحق.

وقال القاضي عياض: هذا الحديث أصل من أصول الشرع وقاعدة من قواعد الأحكام وركن من أركان مصالح العباد، وبه أخذ جميع الأئمة والسلف من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة وفقهاء الأمصار من الحجازيين والشاميين والكوفيين وإن اختلفوا في صور الأخذ به [(٢)].

قال النووي عند شرحه لهذا الحديث: وفي هذا دليل لصحة يمين الكافر والفاسق واليهودي[(٣)].

١١- ولو تتبعنا المعاهدات التي صدرت عن النبي ﷺ لوجدنا فيها ضروبًا من التسامح والموادعة والمساواة، ومن هذه المعاهدات " إعلان دستور المدينة الذي اشتمل على سبع وأربعين فقرة منها ما يخص موادعة اليهود كما يأتي:

بند ٢٤ من المعاهدة- إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

بند٣١ من المعاهدة- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسه وأهل بيته.

بند ٣٧- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

بند ٤٥- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٩٨).

(٢) فتح الباري ١٢/ ٢٣١- ٢٥٣.

(٣) شرح مسلم ١١/ ١٤٧.

بند ٤٦ - وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

بند ٤٧ - وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ)[١].

قال ابن زنجويه: وقوله: " إن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين " فهو النفقة في الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه، ونرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين لهذا الشرط الذي شرط عليهم من النفقة، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم.

وقوله: " إن يهود بني عوف أمة من المؤمنين " إنما أراد نصرهم المؤمنين، ومعاونتهم إياهم على عدوهم، بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدّين فليسوا منه بشيء، ألا تراه قد بين ذلك فقال: لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، وقوله " لا يوتغ إلا نفسه " يقول: لا يهلك غيرها[٢].

وقد قام بتحليل هذه المعاهدة د. أكرم بن ضياء العمري، وأنقل ما ذكره بخصوص اليهود فقال: قد تناولت البنود من ٢٥ إلى ٣٥ تحديد العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج، وقد نسبتهم البنود إلى عشائرهم من العربية، وأقرت حلفهم مع المسلمين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين" وقد وردت العبارة في كتاب الأموال " أمة من المؤمنين " مما جعل أبا عبيد يقول: "فإنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدين فليسوا منه في شيء، ألا تراه قد بين ذلك فقال لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم "[٣] أما

---

(١) هذه المعاهدة ورد ذكرها في كتاب الأموال لأبي عبيد صـ ٢٩٢- ٢٩٥، والأموال لابن زنجويه ٢/ ٤٦٦-٤٧٠، وسيره ابن هشام ٢/ ٩٢، والروض الأنف ٤/ ٢٩٣.

(٢) الأموال لابن زنجويه ٢/ ٤٧٢.

(٣) الأموال لأبي عبيد صـ ٢٩٦.

ابن إسحاق فقد قال: " مع المؤمنين " وهو أجود، ولعل ما في كتاب الأموال مصحّف، وقد كفلت المادة (أو البند) رقم ٢٥ لليهود حريتهم الدينية، كما حددت مسئولية الجرائم وحصرتها في مرتكبها (إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ- أي لا يهلك- إلا نفسه وأهل بيته) فالمجرم ينال عقابه وإن كان من المتعاهدين (لا يحول الكتاب دون ظالم ولا آثم). . . كما أن المعاهدة امتدت بموجب البند رقم ٤٥ لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأخرى، إذ شرطت المادة على كل طرف مصالحة حلفاء الطرف الآخر لكن المسلمين استثنوا قريشًا " إلا من حارب في الدين " لأنهم كانوا في حالة حرب معهم[١].

١٢- (من صور السماحة)- كما نرى تسامحه مع أهل الكتاب من الذين يعادون ويخالفون فيما يفتي؛ إذ يتكلمون فيه ويبلغه ذلك أخرج مسلم بسنده عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ إلى آخر الآية فقال رسول الله ﷺ : " "اصنعوا كل شيء إلا النكاح"، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول: كذا وكذا، فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما[٢].

١٣- بل نجد سماحته مع لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ في مشط ومشاطة وجف طلع نخل ذكر في بئر روان، وحينما أخبر عائشة بذلك قالت له: أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًّا، فأمر بها فدفنت .

المشاطة وما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاط من مشاطة الكتان[٣].

---

(١) المجتمع المدني في عهد النبوة صـ١٢٧، ١٢٨ .

(٢) مسلم (٣٠٢).

(٣) البخاري (٥٧٦٣).

وهكذا كان تسامحه مع بعض المنافقين فقد تحمل المنافق عبد الله بن أُبي ابن سلول قصة الإفك ومع ذلك فقد عفا عنه ﷺ[(١)] بل حينما مات عبد الله بن أُبي غطّاه بقميصه واستغفر له حتى نزل قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ (التوبة: ٨٠).

كما عفا النبي ﷺ عن عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي بينما كان النبيﷺ يقسم فقال له: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: "دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر نضيّه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه- أو قال ثدييه- مثل ثدي المرأة، أو قال مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس"، قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ ، قال: فنزلت فيه[(٢)].

إنها غاية السماحة إذ لم ينتصر رسول الله ﷺ لنفسه بل عفا عنه.

١٦- كما له مواقف أخرى مع المشركين فعن عبد الله بن مغفل المزني، قال: كنا مع رسول اللهﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله، وكأني بغصن من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ ، فرفعته عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول اللهﷺ: " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فأخذ سهيل يده فقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: " اكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة "، فأمسك بيده فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولًا، اكتب في قضيتنا ما

---

(١) البخاري (٤٥٦٦).

(٢) البخاري (٦٩٣٣).

نعرف، فقال: " اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب، وأنا رسول الله "، قال فكتب، فبينما نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ : " هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانًا؟ "، فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ إلى قوله ﴿ بَصِيرًا ﴾ [1].

لقد كان بإمكانه أن يأسرهم أو أن يقتلهم ولكن سماحته تأبى ذلك؛ بل قال لهم ولغيرهم من أهل مكة حينما فتحها: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

١٧- فقد تجلّت روح التسامح عند النبي ﷺ حتى في الحرب فقد قال لهم أيضًا: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن[2].

١٨- ومن تسامحه مع المشركين أيضًا أنه كان لا يمنع صلة المسلمين بأهلهم المشركين فقد أخرج البخاري بسنده عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أصلها؟ قال: " نعم " [3].

إن هذا المنهج العملي والقولي في التسامح والارتقاء فوق حظوظ النفس يؤتي أكله كل حين بإذن الله تعالى، فقد أثّر في نفوس الصحابة ﷺ والتابعين رحمهم الله ومن جاء بعدهم إلى يومنا هذا نرى صورًا ونماذج من التسامح التي ازدانت بها صفحات التاريخ كالخليفة

---

(١) أخرجه النسائي (٥٣١)، وأحمد في المسند ٤/ ٨٦- ٨٧، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٠-٤٦١ من طريق الحسين ابن واقد عن ثابت به.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٦/ ١٤٥، وقال ابن حجر: أخرجه أحمد، والنسائي من حديث عبد الله بن مغفل بسند صحيح الفتح ٥/ ٣١٥، والحديث أخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس الصحيح (١٧٨٤) بنحوه مختصرًا.

(٢) مسلم (١٧٨).

(٣) البخاري (٥٩٧٨، ٥٩٧٩).

الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في لون آخر من التسامح مع المشركين فقد أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن دينار قال: " سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: رأى عمر حلة سيراء [١] تباع، فقال: يا رسول الله، ابتع هذه والبسها يوم الجمعة وإذا جاءك الوفود، قال: إنما يلبس هذه من لا خلاق له، فأُتِيَ النبي ﷺ منها بحلل فأرسل إلى عمر بحلة فقال: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟ قال: إني لم أعطكها لتلبسها، ولكن لتبعها أو تكسوها، فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم [٢].

وهذا أنموذج آخر في زمن معاوية رضي الله عنه فإن الكفار لَمَّا نقضوا عهدهم امتنع المسلمون من قتالهم وقالوا: وفاء بغدر خيرٌ من غدر بغدر [٣].

إنه ذروة التسامح الذي نهجه النبي ﷺ وأمر به. [٤]

المبحث الرابع: صور من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين.

إن تاريخ الإسلام شاهد على أن المسلمين لم يكرهوا أحدًا في أي فترة من فترات التاريخ على ترك دينه، فالإسلام دين العقل والفطرة ولا يقبل من أحد أن يدخله مكرهًا، تحدى الأولين والآخرين بمعجزته الخالدة، ولم يعرف في تاريخ المسلمين الطويل أنهم ضيقوا على اليهود والنصارى أو غيرهم أو أنهم أجبروا أحدًا من أي طائفة من الطوائف اليهودية أو النصرانية على اعتناق الإسلام [٥]. يقول توماس آرنولد: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه

---

(١) السيراء بكسر السين وفتح الياء والمد نوع من البرود يخالطه حرير كالسُّيُور وقيل: الحلة من الحرير وقيل فيها خطوط من إبريسم كالسيور. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٤٣٣- ٤٣٤.

(٢) انظر تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام للإمام بد الدين بن جماعة صـ٢٣٤.

(٣) صحيح مسلم (٥٩٨١).

(٤) انظر: سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين للدكتور حكمت بن بشير في المؤتمر العالمي، موقف الإسلام من الإرهاب.

(٥) انظر عقد الذمة في التشريع الإسلامي، محمد المطردي صـ ١٧.

استئصال الدين المسيحي "[١].

لقد كان عهد الخلفاء الراشدين امتدادًا لعهد النبي ﷺ وشهد صورًا من سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين من إعانتهم بالمال أو النفس عند الحاجة، ومن كفالة العاجز منهم عن العمل أو كبير السن، وغير ذلك. وهذا هو ما سار عليه الخلفاء الراشدون ﷺ في صدر الإسلام في معاملتهم لأهل الذمة، وأسوق هنا بعض الشواهد والأمثلة التي تبين سماحة الصحابة ﷺ في معاملة غير المسلمين.

١- في خلافة أبي بكر ﷺ كتب خالد بن الوليد ﷺ في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق- وكانوا من النصارى -: " وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله"[٢].

إن الذين يسعون إلى تقرير التكافل الاجتماعي وبيان صوره لن يجدوا أعظم من هذه الصورة في الإسلام مع مخالفيه، فهو يتسامى بمن يعيشون في كنفه ويحوطهم برحمته وإحسانه عندما يحتاجون إلى مواساة، لأي سبب من الأسباب بل يجعلهم عيالا على بيت مال المسلمين ويرضخ له منه أيا كانت ديانتهم.

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة وهو يحيا في كنف الإسلام، فيعيش على الصدقة يتكفف الناس ولكن الإسلام يحميه ويكرمه ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله[٣].

٢- وكان أبو بكر ﷺ يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: " وستمرون على قوم في الصوامع رهبانًا يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم "[١].

(١) الدعوة إلى الإسلام لتوماس آرنولدصـ ٩٩.

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف صـ ٣٠٦.

(٣) انظر الموسوعة في سماحة الإسلام١/ ٤٤٦.

٣- وأوصى عمر ﷺ الخليفة من بعده بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم[٢].

٤- ومر عمر بن الخطاب ﷺ بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[٣].

٥- إن السماحة في المعاملة يجب أن تكون في ضوء ضوابط الشرع ومقاصده ومثل ذلك يتطلب أن يكون المسلم على بصيرة بهدي النبي ﷺ وسلف الأمة من الصحابة والتابعين في هذا الشأن، فمن صور السماحة في المعاملة ما روي عن عمر ﷺ أنه لما قدم الجابية من أرض الشام استعار ثوبًا من نصراني فلبسه حتى خاطوا قميصه وغسلوه، وتوضأ من جرة نصرانية. وصنع له أهل الكتاب طعامًا فدعوه فقال أين هو؟ قالوا: في الكنيسة فكره دخولها وقال لعلي ﷺ: اذهب بالناس فذهب علي ﷺ بالمسلمين فدخلوا فأكلوا وجعل علي ﷺ ينظر إلى الصور وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل فأكل[٤].

٦- ومن السماحة أن يراعى في معاملتهم كل مصلحة وقصد صحيح، فعن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقى عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة مقدمه من الشام فبينما عمر يسير إذ لقيه (المقلسون) وهم قوم يلعبون بلعبة لهم بين أيدي الأمراء إذا قدموا عليهم

---

(١) فتوح الشام للواقدي ١/ ٨.

(٢) رواه البخاري (١٣٩٢).

(٣) الخراج لأبي يوسف صـ١٢٦.

(٤) انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم١/ ١٥٣، ١٥٧.

بالسيوف والريحان فقال عمر ﷺ: مه ردوهم وامنعوهم، فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم أو كلمة نحوها وإنك إن تمنعهم منها سروا أن في نفسك نقضًا لعهدهم فقال: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة[١].

٧- وصلى سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما في بيت نصرانية فقال لها أبو الدرداء ﷺ: هل في بيتك مكان طاهر فنصلي فيه؟ فقالت: طهرا قلوبكما ثم صليا أين أحببتما فقال له سلمان ﷺ: خذها من غير فقيه[٢].

٨- وجاء في صفة الصفوة أن عمر بعث عميرًا عاملًا على حمص فمكث حولًا لا يأتيه خبره ولم يبعث له شيئًا لبيت مال المسلمين، فقال عمر لكاتبه: اكتب إلى عمير فوالله ما أراه إلا قد خاننا إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا. فأخذ عمير- لما وصله كتاب عمر- جرابه فوضع فيه زاده وقصعته وعلق إداوته وأخذ عنزته ثم أقبل يمشي من حمص حتى قدم المدينة، فقدم وقد شحب لونه، واغبر وجهه فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله! قال عمر: ما شأنك؟ قال: ما تراني صحيح البدن ظاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرونها؟ قال عمر: وما معك؟ وظن عمر أنه جاءه بمال. قال: معي جرابي أجعل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها، وأغسل فيها رأسي وثيابي، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، ومعي عنزتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوًّا إن عرض لي، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي. وسأله عمر عن سيرته في قومه وعن الفيء فأخبره، فحمد فعله فيهم ثم قال: جددوا لعمير عهدًا.

قال عمير: إن ذلك شيء لا أعمله لك ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت؛ بل لم أسلم، لقد قلت لنصراني: أخزاك الله، فهذا ما عرضتني له يا عمر، وإن أشقى أيامي يوم خلفت معك.[٣]

---

(١) كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام صـ ١٨٠.

(٢) انظر إغاثة اللهفان لابن القيم١/ ١٥٣.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي١/ ٣٥٤.

لقد عظم على عمير قوله لرجل من غير المسلمين: أخزاك الله، وهو دعاء، وما ذكر خطأ اقترفه في ولايته على حمص أعظم من هذا، وفي ذلك دليل على أن هذا الدين ما جاء إلا بالرحمة والهداية وإنقاذ البشر من الضلال إلى الهدى ومن ظلمات الكفر إلى نور الطاعة، ولا عجب فمن مدرسة النبوة تخرج هذا الصحابي وغيره، ممن لا يؤذون الناس؛ بل يغمرونهم بعطفهم ورحمتهم وسماحتهم وإحسانهم، ولذا قال عنه عمر: إنه نسيج وحده، وقال: وددت أن لي رجلًا مثل عمير بن سعد استعين به على أعمال المسلمين[١].

إن الدعاء لغير المسلمين وفق ضوابط الشرع من أعظم صور التسامح في الإسلام ومن محاسنه الكبرى التي تنظر إلى الإنسان نظرة تكريم وعناية، وفي الدعاء استمالة ظاهرة لقلب المدعو فكل أحد يتمنى من الناس الدعاء له بالخير، ومن هنا قال ابن عباس رضى الله عنه لو قال لي فرعون: بارك الله فيك، قلت: وفيك، وفرعون قد مات[٢].

٩- وعن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو ﷺوغلامه يسلخ شاة "يا غلام إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي" فقال رجل من القوم: اليهودي أصلحك الله؟ قال: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو روينا أنه سيورثه [٣].

١٠- وفي خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطأة: وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه[٤].

---

(١) المرجع السابق١/ ٣٥٦.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد باب: كيف يدعو للذمي؟ وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد للألباني (٨٤٧).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب: جار اليهودي، وصححه الألباني، انظر: صحيح الأدب المفرد الألباني (٩٥).

(٤) كتاب الأموال لأبي عبيد صـ ٥٧.

وهذا لون من السماحة في المعاملة والعدل الذي لا يعرف له وجود إلا في الإسلام؛ لأنه قائم على احترام الإنسانية ومعرفة حقوقها[(١)].

١١- وعندما أمر عمر بن عبد العزيز رحمه الله مناديه ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلًا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد قم فاردد عليه ضيعته فردها عليه[(٢)].

١٢- وفي عهد الرشيد كانت وصية القاضي أبي يوسف له بأن يرفق بأهل الذمة حيث يخاطبه بقوله: "ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ ،والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ من أموالهم إلا بحق يجب عليهم"[(٣)].

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم والتسامح في معاملتهم.[(٤)]

المبحث الخامس: المفهوم الإسلامي في العلاقات بين الأمم.

إن الأصل في العلاقة البشرية عند الإسلام، فرديًّا كان أو جماعيًّا أو دوليًّا، علاقة التعارف والتعاون والدعوة والخير، لا علاقة التصادم والاعتداء والإرهاب والشر. فالإسلام يدعو البشرية إلى التعارف والتعاون على البر والتقوى ويرفض التجاهل

---

(١) انظر الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد الصـادق عرجون١/ ٢١١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير٩/ ٢١٣.

(٣) الخراج لأبي يوسف صـ ١٢٥.

(٤) انظر: سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين للدكتور عبد الله اللحيدان.

والتعاون على الإثم والعدوان. فقد حدد القرآن أساس العلاقة بين البشرية في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، والتعارف الذي هو محور العلاقات بين البشر على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، له مدلول أبعد من مجرد معرفة شخص اسم آخر؛ بل التعارف الذي يؤدي إلى أعلى تبادل المنافع وإيجاد التعاون فيما بينهم. ومن أجل هذا التعارف يتطلب طبيعة العلاقة السلمية الإيجابية. وبذلك كان السلم هو الحالة الأصلية التي تهيئ للتعارف والتعاون وإشاعة الخير بين الناس على مختلف الشعوب والقبائل. فالتعارف الهادف بين الشعوب من أكبر أسباب السلام في المجتمع الإنساني، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ .

فنظرة التعارف تؤدي إلى التعاون بين الأطراف المتعارفة، والإسلام يقيد التعاون المطلوب على أساس البر والتقوى. وهما جماع الخير والسلام للإنسانية في الدارين. أما التعاون على الإثم والعدوان الذي كثيرًا ما وقع بين أهل الدنيا فهو ممنوع في الإسلام؛ إذ هما من جماع الشرور والأضرار التي تفضي إلى الحروب والنزاعات وتؤجج نيران الصراع المدمر لمشروع السلام ولسعادة البشرية.

ومما تقدم تبين بوضوح أن الأصل في العلاقات الخارجية للأمة الإسلامية هو السلم، وأن الحرب والاعتداء أمر طارئ يحدث بسبب طارئ من اعتداء الكفار على المسلمين ودينهم. فالسلم مقرر لكل الناس ليس نتيجة الإيمان أو الأمان، وإنما من حيث الأصل وعدم الاعتداء، أما الحرب فإنما شرعت من أجل حماية الدعوة الإسلامية ودفع الضرر عن معتنقيه، وضمان سير الدعوة الإسلامية التي تحمل راية الرحمة والسلام. كما أثبتت تاريخيًا الحروب التي خاضها رسول الله ﷺ مع الكفار عن طريق الغزوات والسرايا، فإنها لا تخرج عن الأسباب المشروعة لها. وأغلب هذه الحروب تكون في موقف الدفاع برد العدوان الواقع فعلًا. والله أعلم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: تفضيل السلم على الحرب إذا جنح العدو لها، إيثارًا لها على الحرب التي لا تقصد لذاتها؛ بل هي ضرورة من ضرورات الاجتماع، فتقدر بقدرها، وذلك قوله تعالى عقب الأمر بإعداد كل ما تستطيع الأمة من قوة ومرابطة لإرهاب عدوه وعدوها: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾، ولما كان جنوح العدو للسلم قد يكون خديعة لنا لنكف عن القتال ريثما يستعدون هم له أو لغيره، وكان من المصلحة في هذه الحال أن لا نقبل الصلح منهم ما لم نستفد كل ما يمكننا منه تفوقنا عليهم، لم يعد الشارع احتمال ذلك مانعًا من ترجيح السلم؛ بل قال ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾. وهو برهان على أن الإسلام دين السلام، لكن عن قدرة وعزة، لا عن ضعف وذلة.

فالإسلام دين يرفض العنف ويمنع العدوان وينشر السلام، ويوطد معاني العدالة والتسامح وسمو الحوار الهادف والتواصل الإيجابي بين الناس. فهو يضع أفضل الأسس للعلاقات بين الدول وهو العدل ولا يجعل الأساس لهذه العلاقات المصلحة القومية والقوة المادية كما هو السائد في الجاهلية ثم في الحضارة المعاصرة. وقد جرب العالم دوما أن إقامة العلاقات بين الدول على أساس المصلحة القومية والقوة المادية كان سبب الحروب الطاحنة، كما وقع في الحروب العالمية المشهودة بشراستها في القرن الماضي ومطالع هذا القرن، والإسلام بريء منها، ولا عجب؛ فهذا المبدأ لا يختلف عن مبدأ أي قطاع طريق أو عصابة إجرام؛ بل أي تجمع من تجمعات الحيوانات المفترسة في الغابة.

وأكبر دليل على أن الإسلام دين السلام أنه لا يشجع الحرب والعنف؛ بل يأتي لوقف الحروب الجاهلية الكثيرة وحماية الحقوق الإنسانية خاصة بين الأوس والخزرج فجاء الإسلام وأصلح بينهما صلحًا يوصلها إلى شاطئ العزة والوئام تبين ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

يقول ابن كثير: وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلمّا جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى"، ويقول ﷺ : يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، وإذا لقيتموه فاصبروا" .

بل قد حرم الإسلام قتل الكافر المعاهد أو الذمي الذي يعيش تحت نفوذ الحكومة الإسلامية، ومن ارتكبه فقد ارتكب جرمًا عظيمًا حتى حرم الله عليه الجنة، حفاظًا على أمن المجتمع. يقول ﷺ : من قتل معاهدًا- وفي اللفظ: من قتل قتيلًا من أهل الذمة- لم يرح رائحة الجنة . . . ". وقال ﷺ : من قتل معاهدًا في غير كنهه حرم الله عليه الجنة .

ومن هذا المنطلق حدد الإسلام علاقات الأمة الإسلامية بالآخرين، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

فالإسلام دين الرحمة وشريعة السلام، وهو دين يدعو إلى التعايش السلمي، وإلى صون الحق الإنساني، وحسن العلاقات مع الآخرين من دون ربط لهذا الحق بدين أو اعتقاد أو عرق أو لون. . . ، فهم في الوقت نفسه مدعوون إلى الإسلام والسلام. ولا يأتي الإسلام بالحرب إلا للضرورة القصوى وقمع الاعتداء ورد الظلم والانتصار للمظلومين ولضمان انتشار دعوة دين الرحمة والسلام. ويمنع الظلم والعدوان والعنف والطغيان على الخلق جميعًا. قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ . إنه دين الرحمة والعدالة ورسالة الشمول والتوازن التي لا يمكن للعالم أن يشفى من أدوائه إلا بها.

على أية حال فإن الإسلام لا يدعو إلى الحرب، ولا يسمح بقيامها إلا إذا كانت في سبيل الله بأحكامها وشروطها وآدابها السامية، ولا يتخذ القرار بهذا الشأن إلا إمام المسلمين العام، لا أي فرد ولا أيّة طائفة. بل لا يجوز أن تؤجج نار الحرب إلاّ عقب مقدّمات من الدعوة الصحيحة إلى الإسلام. وذلك لتحقيق أحد هذه الأغراض السامية وهي:

١- رد الظلم والعدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والدين والوطن.

٢- تأمين حرية الاعتقاد والتدين للمؤمنين الذين يحاول المعتدون من الكفار أن يفتنوهم عن دينهم، ويسدوا أمامهم طريق الحرية في التفكير والاعتناق.

٣- حماية الدعوة الإسلامية التي تحمل الرحمة والأمن والسلام حتى تبلغ إلى الخلق جميعًا.

٤- تأديب ناكثي العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين التي تتمرد على أمر الله وتأبى حكم العدل والإصلاح.

٥- إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين والمعتدين.

فلابد من أن نفرق بين الإرهاب الممنوع المؤدي إلى الضرر والهلاك وبين الجهاد المشروع المؤدي إلى تحقيق العدل والأمن وقمع أسباب الإرهاب والدمار[١]. والإرهاب في المصطلح الغربي المعاصر: لا يفرق بين المحق والمبطل فمقاومة المحتل والرد عليه تسمى إرهابًا عندهم والاستسلام له يسمى سلامًا وتعاونًا؛ بل ولو طال بهم زمان لسموا كل مسلم إرهابيًّا[٢].

المبحث السادس: شهادات منصفة من غير المسلمين.

شهادة من نصارى الشام: منذ بداية ظهور الإسلام في القرن السابع كتب النصارى في الشام سنة ١٣هـ أي في القرن السابع الميلادي إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺيقولون: "يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا"[٣].

---

(١) انظر: الإرهاب والعنف والتطرف في ميزان الشرع د/ إسماعيل لطفي- اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي من موقف الإسلام من الإرهاب ١٤٢٥هـ.

(٢) انظر الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف د/ على الشبل- اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

(٣) فتوح البدان، البلاذري صـ ١٣٩. وانظر: الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، صـ ٧٣، وكتاب الخراج، أبو يوسف، صـ١٣٩.

واستمر هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام.

شهادة توماس آرنولد: وهو أبرز من أرخ لانتشار الإسلام في كتابه "الدعوة إلى الإسلام" فإنه يؤكد على حقيقة السماحة الإسلامية فيقول: (إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلًا في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح)[1].

ويضيف: كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني. تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة"[2].

وقال: اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عددًا مذكورًا حتى في العهد الأول، أي في القرن الثاني عشر، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى؛ بل إن بعض أمرائهم وقاداتهم انضموا أيضًا إلى المسلمين في ساعات انتصارات المسيحيين، فهل يمكن أن نقول: إن الإسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة؟

شهادة يوحنا النقيوسي: وفي أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص مع نصارى مصر. وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان وهزيمة الاستعمار الروماني بمصر على يد الجيش الإسلامي الفاتح إنما كان انتقامًا إلهيًّا من ظلم الرومان لمصر، واضطهادهم لنصارى مصر. ففي تاريخ "يوحنا النقيوسي" وهو معاصر للفتح وشاهد عليه.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام توماس أرنولد صـ٧٢٩-٧٠٣، ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن. د/ عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوي.

(٢) انظر الدعوة إلى الإسلام توماس آرنولد صـ ٨١.

إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين -(العرب المسلمين)- ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة في مصر. وكان هرقل حزينًا. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم. مرض هرقل ومات. وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا وحافظ على -الكنائس- طوال الأيام(١).

إنها شهادة شاهد عيان نصراني على هذه السماحة الإسلامية التي تجسدت على أرض الواقع ومتى؟ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان! وهي سماحة نابعة من الدين الإسلامي. وليست كحقوق المواطنة التي لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين، وبعد ما استقبل عمرو بن العاص البطريرك القبطي "بنيامين" وأمنه على نفسه، وكنائسه، ورعيته، وحرية عقيدته؛ بل وطلب منه أن يدعو له: أخذ "بنيامين" في زيارة كنائسه، وفي إعادة افتتاحها، وكان الناس يستقبلونه فرحين مرددين العبارات التي تشهد على أن هذا الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء الظلم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

وعن هذه الحقيقة من حقائق سماحة التحرير الإسلامي لشعوب الشرق يقول الأسقف "يوحنا النقيوسي" في أقدم تأريخ للفتح الإسلامي لمصر كتبه شاهد عيان:

ويدخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية بعد هروبه من الروم في العام ١٣ (أي العام الثالث عشر من تاريخ هروبه)، وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان الناس يقولون: هذا النفي، وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا كيرس البطريرك المعين من قبل الدولة الرومانية في

---

(١) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي؛ رؤية قبطية للفتح الإسلامي صـ٢٠١-٢٢٠، ترجمة ودراسة د/ عمر صابر عبد الجليل.

مصر وهلك الروم لهذا السبب وساد المسلمون مصر[1].

ولقد عبر الأنبا بنيامين عن الأمان الذي أحلته سماحة الإسلام بمصر على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان – النصارى- ضد نصارى مصر! فقال وهو يخطب في دير "مقاريوس": لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون[2].

أما رجل الدين المسيحي – القبطي- ميخائيل السرياني فإنه يقول عن تحرير الفتح الإسلامي للنصرانية المصرية وعن سماحة الإسلام مع نصارى مصر:

لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا المونوفيزيقية – (القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح)- بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت، ولهذا قد انتقم الرب منه، لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية وعشنا في الإسلام[3].

شهادة المستر وينتروب كيهمبال الإنجليزي، فيما صرح به بشأن تعاليم الإسلام ووصفها ما نصه:

"ولم ينتشر الإسلام في العالم أجمع هذا الانتشار العجيب من أقصى شواطئ المحيط الهادي، إلى أقصى شواطئ المحيط الأطلانتيكي، في مدة قصيرة، إلا إنه قد امتاز بالمساواة والعدالة. وفي المدة الأخيرة ترى الدين الإسلامي يكتسح بلاد الملايو والصين واليابان والهند وأوروبا، لا بالسيف! ولكن بالعدالة والمساواة، وحرية الفكر ونشر روح الإخاء الحقيقي العملية، ومما يجدر بنا أن نلاحظ أن الإسلام ينتشر الآن في بلاد لم يصلها الحكم

---

(١) المصدر السابق صـ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق صـ٢٢٠.

(٣) تاريخ مصر في العصر البيزنطي د/ صبري أبو الخير سليم صـ٦٢.

الإسلامي، ولم تعرف فتوحات الإسلام، ولكن الإسلام كما هو معروف عنه، إنما ينتشر كانتشار النور لا يشد تياره شيء".

شهادة السير سي بي راي الإنجليزي في ضمن ما صرح به في وصف الإسلام ما نصه:

". . . وإن الإسلام بطريقته المثلى استطاع التقدم من حدود الباسفيكي إلى حدود المحيط الأطلانتيكي، وبعد هذا سار الإسلام بخطوات واسعة في شبه جزيرة ملايو، وليس بسبب وجود السيف ولكن بسبب سياسته الطيبة الحرة".

شهادة توماس كارليل: في كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) اتخذ فيه محمدًا ﷺ مثلًا لبطولة النبوة، فقال ما معناه: "إن اتهام محمد بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه، ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها".

شهادة مسيو أوجين يوغ الفرنسي في كتابه "يقظة الإسلام والعرب": "إن الإسلام عدا أنه دين ونهج سياسي حكيم، فإنه زبدة مختارة من البساطة والعدل، وهو كذلك النهج الاشتراكي الذي لا يمكن للعالم أن يتوفق إلى إيجاد نهج مثله من حيث سعة انتشاره، ومطابقته لمقتضيات العالم، وهو كذلك العدو الألد للاستعمار والشيوعية، ويلائم جميع الظروف، ويسير مع جميع المدنيات، وهذا هو السبب (لا غيره) الذي جعله يصادف انتشارًا واسعًا وسريعًا، وأن هذا الانتشار لدليل على أن الإسلام يوافق أمزجة البشر على اختلاف الجنسيات والنزعات والمشارب".

شهادة مسيو هنري دي كاسبري: في كتابه "الإسلام تأثرات ومباحث": "وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر (المسلمين) للمقهور هي التي ضعضعت الديانة النصرانية جدًّا، حتى زالت بالمرة من شمال أفريقيا، على أن الإسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره (كما أن للنصرانية دعاة) ولم يكره على الأخذ (بالدين الإسلامي) أحدًا، بالسيف،

ولا باللسان، بل دخل القلوب عن حب واختيار، وكان هذا من آثار ما أودع في القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب"[١].

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: لعل من أهم عوامل انتصارات العرب ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال، تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة. والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عددًا ضئيلًا من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب. وكان لمسلكهم هذا أطيب الأثر مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة)[٢].

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ هذا ما أمر به القرآن الكريم، وبناء على ذلك فإن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام. فالمسيحيون والزرادشتيون واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعًا دون أي عائق يمنعهم، بممارسة شعائر دينهم. وترك لهم المسلمون بيوت عباداتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى. أوَ ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهادات اليهود؟ إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع الميلادي لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف)[٣].

---

(١) نقلًا من كتاب الإسلام الدين الفطري للطرازي صـ٩٦ وما بعدها.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب صـ٣٥٧-٣٥٨.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب صـ٣٦٤.

(إن الإنسانية والتسامح العربي هما اللذان دفعا الشعوب ذات الديانة المختلفة إلى أن تعيش في انسجام مدهش، وأن تبدأ نموها وتوسعها وازدهارها، ولأول مرة يتحرر أصحاب المذاهب المسيحية من اضطهاد كنيسة الدولة فتنتشر مذاهبهم بحرية ويسر، واستطاع العربي بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته، لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلقه الكريم وسلوكه الحميد. فكسب بذلك لدينه عددًا وفيرًا لم تكن أية دعاوى مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله)[١].

(إن الأديرة المسيحية في سورية، التي كادت أن تنمحي في عصر الحكم المسيحي وصلت إلى ذروة عظمتها في الدولة الإسلامية، أوليس هذا بغريب؟)[٢].

أوليس من العجيب أن نتساءل لماذا نفسر كما يحلو لنا، والعرب المسلمون قد فتحوا فعلًا جزءًا من أوربة هو الأندلس، فلم يقضوا على المسيحية التي يزعمون أن شارل مارتل قد حماها، ولم يقضوا على المدينة الغريبة التي لم يكن لها وجود؟)[٣].

شهادة غوستاف لوبون: فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم[٤]. ويتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: وكان عرب أسبانيا خلال تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية، فيرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبسها الأمم النصرانية بأوربا منهم مؤخرًا. [٥]

---

(١) المرجع نفسه صـ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) المرجع نفسه صـ٣٦٨.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار صادر، بيروت، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي صـ٥٤٠-٥٤١.

(٤) انظر: حضارة العرب، غوستاف لوبون، صـ ٧٢٠.

(٥) حضارة العرب، غوستاف لوبون، صـ ٣٤٤، وانظر: السلوك أثره في الدعوة إلى الله، فضل إلهي، إدارة ترجمان الإسلام صـ ١٦٤.

شهادة هنري دي شامبون: مدير مجلة "ريفي بارلمنتير" الفرنسية: لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا لما وقعت بلادنا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها، ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي، لولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام، ولنجت من وصمة محاكم التفتيش، ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون، ومهما اختلفت المشاعر والآراء حول انتصارنا ذاك فنحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، مدعوون لأن نعترف بأنهم كانوا مثال الكمال البشري في الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية[1].

شهادة المستشرق دوزي: "إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام، وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة"[2].

شهادة بارتولد[3]: كانت في بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت الواقعة جنوبي البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها. وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة، ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم الدينية، وكان في المؤتمر الديني الذي

---

(١) نقلًا عن: صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، صـ ٤٢٠.

(٢) انظر: تاريخ أهل الذمة في العراق صـ ٧٠ نقلًا عن: نظرات في تاريخ الإسلام، دوزي، صـ ٤١١.

(٣) ق بارتولد ١٨٧٩-١٩٣٠- V. Barghold. تخرج من جامعة بطرسبرغ ١٨٩١، وعين أستاذًا لتاريخ الشرق الإسلامي فيها ١٩٠١، فكان أول من درس تاريخ آسيا الوسطى. وعني بالشرق الإسلامي وحقق المصادر العربية المتعلقة به، وتخرج عليه عدد من المستشرقين. وقد انتخب عضوًا في مجمع العلوم الروسي ١٩١٢ ورئيسًا دائمًا للجنة المستشرقين فيه بعد الثورة البلشفية حتى وفاته.

تربو آثاره على الأربعمائة، أشهرها: تركستان عند غزو المغول لها- في مجلدين ١٨٩٨-١٩٠٩-، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وآسيا- ١٩١١، حضارة الإسلام- ١٩١٨، تاريخ تركستان- ١٩٢٢، مغول الهند- ١٩٢٨، تاريخ أتراك آسيا الوسطى- ١٩٣٤ وغيرها.

انعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠-٦٨١م مندوب من القدس أيضًا. ثم إن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطًا وثيقًا)[١].

انتشر الدين الإسلامي في القرن الرابع للهجرة في قبائل الترك الرحل وفي بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة، وبدون استخدام أي سلاح فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري مسلمين)[٢].

"إن النصارى كانوا أحسن حالًا تحت حكم المسلمين؛ إذ إن المسلمين اتبعوا في معاملاتهم الدينية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل"[٣].

يقول يعقوب نخلة (١٨٤٧-١٩٠٥م) صاحب كتاب "تاريخ الأمة القبطية":

(ولما ثبت قدم العرب في مصر شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهليين، واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم).

وأول شيء فعله من هذا القبيل: استدعاؤه بنيامين البطريرك للحضور، والذي اختفى من أيام هرقل ملك الروم فكتب أمانًا وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيها البطريرك للحضور؛ ولا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر وذهب لمقابلته؛ ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته، وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل، ورد بنيامين إلى مركزه الأصلي معززًا مكرمًا، وكان بنيامين موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم الحكيم، وقيل: إن عمرًا لما تحقق ذلك منه قربه إليه، وصار يدعوه في بعض الأوقات يستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منه عظيمة وفضلًا جزيلًا لعمرو، واستعان عمرو في تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية صـ٥٤.

(٢) المرجع نفسه صـ١٢٢.

(٣) تاريخ أهل الذمة في العراق لتوفيق سلطان، صـ ١٢٤، نقلًا عن الحضارة الإسلامية، بارتولد، صـ ١٩.

الأهالي، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلا منها حاكم قبطي ينظر في قضايا الناس، ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نوابًا من القبط، ومنحهم حق التدخل في القضايا المختصة بالأقباط، والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وكانوا بذلك في نوع من الحرية والاستقلال المدني وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية.

وضرب عمرو بن العاص الخراج على البلاد بطريقة عادلة، وجعله على أقسام في آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد، وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان[1].

هكذا تعلن هذه الشهادة القبطية التي نشرتها في طبعتها الثانية مؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ أن الفتح الإسلامي والسماحة الإسلامية قد حررا الأرض، والضمير، والإنسان. فأصبحت حكومة مصر لنصارى مصر لأول مرة في تاريخ النصرانية المصرية، كما شملت السماحة الإسلامية العدل في الاقتصاد والاجتماع، وجعلت الحاكمية لشرائع القبط الدينية والأهلية فيما هو خاص بأحوالهم الدينية، التي تركوا فيها وما يدينون.

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية فلقد هبوا عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥هـ ٦٤٦م: في عهد الراشد الثالث عثمان بن عفان (٤٧ق. هـ. ٣٥هـ ٥٣٧-٦٥٦م)، هبوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان النصارى، وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص لقيادة المعركة فعاد إلى مصر واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الرومان، وبعبارة صاحب كتاب "تاريخ الأمة القبطية": فإن المقوقس والقبط تمسكوا بعهدهم مع المسلمين، ودافعوا عن المدينة (الإسكندرية) ما استطاعوا؛ واجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن

---

(١) يعقوب نخلة تاريخ الأمة القبطية صـ٥٤-٥٧، تقديم د/ جودت جبرة.

يأذن لعمرو بن العاص في العودة إلى مصر لمقاتلة الروم لتدربه على الحرب وهيبته في عين العدو، فأجاب الخليفة طلبهم، وكان القبط يحاربون مع العرب، ويقاتلون الروم خوفًا من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها فيقع الأقباط في يدهم مرة أخرى)(١).

الفيلسوف المعروف "وولتر"(٢): في سلسلة ما صرح به في وصف رسول الإسلام، محمد بن عبد الله ﷺ، ما نصه: "وليس بصحيح ما يدعى من أن الإسلام استولى بالسيف قهرًا، على أكثر من نصف الكرة الأرضية؛ بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس لاعتناقه، بعد أن أقنع عقولهم. وإن أكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة الإسلامية هو اتصافهم بالشيم العالية، اتباعًا بالنبي محمد ﷺ ".

وفي الختام قال وولتر: "وهذا القول النزر (القليل) مني يكفي لتفنيد كل ما ذكره لنا مؤرخونا وخطباؤنا فارتكز به في ضمائرنا كثير من الأوهام الباطلة والأراجيف المتوارثة (بشأن الدين الإسلامي) لأن من الواجب أن يدحض الباطل الحق".

المبحث السابع: الإسلام يدعو إلى احترام العهود والمواثيق.

الإسلام يدعو إلى احترام العهود والمواثيق إلى أبعد ما يظن كثير من محبي الأمن والسلام ويتجلى ذلك في الأحكام الآتية:

١- حرم القرآن الكريم على المسلمين محاربة الكفار الذين لم يوافقوا أقوامهم على حرب المسلمين، (وبرهنوا على ميلهم للسلم) وذلك باعتزال قومهم، والذهاب إلى دار الإسلام، أو إلى دار قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ (النساء: ٩٠).

---

(١) المصدر السابق صـ٥٨-٥٩.

(٢) فرانسوا ماري أروثة، الفرنسي ١٦٩٤ - ١٧٧٨م-.

٢- أوجب القرآن الكريم إجارة المشرك والسماح له بالدخول إلى دار الإسلام إذا استجار بالمسلمين، لعل ذلك يمكنه من سماع كلام الله تعالى فيعرف الحق من الباطل، ثم أوجب على المسلمين أن يضمنوا أمنه وسلامه حتى يصل إلى مأمنه، في حالة بقائه على شركه ما دام مسالمًا ولم يقدم أذى لمسلم. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (التوبة: ٦).

٣- سوى القرآن الكريم بين دماء المعاهدين الذين يحترمون العهود والمواثيق ودماء المسلمين، ففرض على المؤمن إذا قتل أحدهم على سبيل الخطأ الدية، وهي نفس ما فرض عليه إذا قتل مؤمنًا على وجه الخطأ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ (النساء: ٩٢)، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢) وذلك حسب ما قرره الفقهاء من دلالة الآية الكريمة.

هذا هو موقف القرآن الكريم من الذين يحترمون العهود والمواثيق.

(موقف القرآن الكريم من الذين لا يحترمون العهود بعد إبرامها).

أما الذين لا يحترمون العهود بعد إبرامها وإنما يتخذونها ذريعة ووسيلة يحتمون وراءها حينما يشعرون بضعف جانبهم، حتى إذا لاحت لهم الفرصة نقضوها وأشعلوها نار حرب من جديد، أما هؤلاء فقد أباح الله سبحانه وتعالى للمسلمين نبذ عهودهم واستئناف حالة الحرب معهم، وحثهم على تأديبهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (الأنفال ٥٥: ٥٧)، وقال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي

دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ (التوبة: ١٢).

وهذا هو المبدأ الذي طبق مع الذين نزلت فيهم براءة من الله ورسوله، فقد أعلن الله سبحانه وتعالى براءته وبراءة الرسول ﷺ من هؤلاء المشركين، الذين لم يحترموا عهدًا ولم يراعوا ذمة ونبذ إليهم ما كان لهم من ميثاق؛ قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ (التوبة: ١).

وأكد السبب في براءته منهم ونبذ عهودهم عندما أعلن الحفاظ على العهد وإتمام مدته مع الذين حافظوا عليه. قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤). ثم أكد مرة أخرى فقال: كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

٢- من المبادئ العظيمة التي قررها القرآن الكريم. أن الغدر حرام، وأن مفاجأة الآمن بالشر لا تصح شرعًا ولا تجوز، وتقريرًا لهذا المبدأ:

(أ) فقد حرم على المسلمين أن يستبيحوا لأنفسهم نقض العهد من جانبهم إذا رأوا المصلحة في ذلك- دون أن يعلنوا الجانب الآخر بما اعتزموا عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

(ب) ولم يجعل مجرد نبذ العهد وإعلان الخصم به مبيحًا للقتال العاجل وإنما أوجب إعطاءه مهلة لتغليب الأمر، وتدبير الشأن ويكون آمنًا فيها على نفسه، ونجد تطبيق ذلك مع الذين أعلن الله براءته وبراءة رسوله منهم، حيث يقول تعالى في إعلانهم: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ثم يقول للمسلمين: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٥).

الفصل الثاني: شبهة انتشار الإسلام بالسيف.

ما زال أعداء الإسلام قديمًا وحديثًا يرددون شبهتهم العارية عن الدليل بأن الإسلام دين إرهابي، وأنه انتشر بالسيف، وفرض نفسه على الشعوب بالقهر والغلبة، وهاهي بعض أقوالهم في ذلك: "يتحتم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم؛ لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني"[(١)].

"من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحًا إلا عندما كان يهدف إلى الغزو"[(٢)].

ويرجع كل من "مور" و"غيتاني": "ازدياد عدد المؤمنين إلى الانتصارات العسكرية، وإكراه الناس على الدعوة الموجودة في تعاليم الإسلام"[(٣)].

"وأخضع سيف الإسلام شعوب أفريقية وآسية شعبًا بعد شعب"[(٤)].

"إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح"[(٥)].

"في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه. وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذَّات"[(٦)].

"وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة"[(٧)].

---

(١) راجع كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية: صـ٧٨.

(٢) راجع Caetani vol، ١، col ٢ Muir: p. ٦٦٣، IV، ٨٨ -١٠٧ .PP وفردريك دينسون موريس في The Religions of the Word P. ٢٨ Cambrige، ١٨٥٢.

(٣) الدعوة إلى الإسلام صـ٤٦٩: The religions of the World، Cambridge P. ٢٨، ١٨٥٢.

(٤) التبشير والاستعمار صـ٤١. عن Islam And Mission: ٤٣

(٥) هذا كلام: لطفي ليفونيان: ٩ Levonian.

(٦) كتاب البحث عن الدين الحقيقي تأليف المنسينور كولي. صـ ٢٢٠.

(٧) كتاب تاريخ محاضرات ج. أيزاك. للشرق الأدنى صـ٣٢. والكتاب يدرس لطلاب الصف الخامس في المدارس الفرنسية في بيروت.

"إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: "أسلموا أو موتوا".

"بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرِّهم وإحسانهم"(١).

تفنيد الشبهة والجواب عنها من وجوه:

الوجه الأول: السلام خصوصية إسلامية.

مفردات السلام كثيرة ومتعددة سواء في القرآن الكريم، أو في الحديث الشريف:

١- السلام اسم من أسماء الله ﷻ: وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الحشر: ٢٣).

فقد أراد الله سبحانه أن يجعل من اسمه عنوانًا لرسالته، ومهمة لأنبيائه ورسله يبشرون بها ويعملون بوحيها.

٢- الجنة دار السلام: سماها الله سبحانه وتعالى بذلك حين قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (يونس: ٢٥)، وهي دار المتقين التي فيها مستراحهم ومستقرهم، والتي تهفوا إليها أرواح المؤمنين كافة.

٣- السلام دعوة إسلامية: فقد خاطب الله المؤمنين كافة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ (البقرة: ٢٠٨) إذ عد الامتناع عن الدخول في السلم اتباعًا لخطوات الشيطان الذي هو العدو الواضح العداوة للمؤمنين.

٤- السلام تحية المسلمين الدائمة: ورد عن أبي هريرة ﷺ، عن الرسول ﷺ أنه قال: "لما خلق الله آدم قال: اذهب فسلّم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه

(١) كتاب تاريخ فرنسة تأليف هـ. غيومان وف. لوسيتر. صـ ٨٠- ٨٢ وكان يدرس في لبنان.

رحمة الله". (١)

فالله تعالى يُعلِّم أبا البشرية كيف تكون التحية وما هي ألفاظها، وكأن السلام تحية الله سبحانه لعباده المؤمنين، وعليهم أن يردوا بما يليق بها.

نتعلم من هذا الحديث أن السلام تحية الملائكة أيضًا قبل نزول آدم إلى الأرض، وأنه الأمانة التي حملها معه إلى ذريته، وعليهم أن يتعاملوا بها إلى يوم الدين.

٥- السلام نهاية كل صلاة: فالمسلم الذي يؤدي خمس فرائض في اليوم بواقع سبع عشرة ركعة ينهي كل صلاة بقوله: السلام عليكم ورحمة الله، مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال، أي عشر مرات في الصلاة المكتوبة واثنتي عشرة في صلاة السُنة، مما جعل المسلم العابد في صلاته يستشعر السلام حقيقة في سلوكه ومعاملاته كافة، وهي تربية يحرص الإسلام على غرسها في النفوس؛ لتكون متصالحة مع ذاتها أولًا وسواها من المخلوقات ثانيًا؛ وبهذا كان لفظ السلام جزءًا من عبادة المؤمن في الصلاة، وجزءًا من ترتيله لكتاب الله سبحانه.

٦- السلام تحية الإسلام الخاصة: لكل أُمة من الأمم تحيتها الخاصة مثل صباح الخير، ومساء الخير، وتصبحون على خير، ونهار سعيد، وليلة سعيدة، إلى ما هنالك من ألفاظ التحية التي تتعامل بها الأمم والشعوب على اختلاف لغاتها، ولكن المسلمين يمتازون عن سواهم من الأمم بتحية الإسلام المعروفة وهي السلام عليكم، يقولها الراكب للماشي، والواقف للجالس، والصغير للكبير، والقادم للماكث، والراحل للمقيم، يقولونها في الأسواق، والبيوت، والمتاجر، والمكاتب، والمصانع، والمعامل، وفي كل موقع من مواقع الحياة. فعن أبي يوسف عبد الله بن سلام قال: سمعت الرسول ﷺ يقول: "يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وَصِلُوا الأرحام، وصَلّوا والناس نيام تدخلوا الجنة

(١) رواه البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١) .

بسلام"[١]، فقد قدم الرسول ﷺ إفشاء السلام على ما عداه من القضايا مثل: إطعام الطعام، وصلة الأرحام، وربطه بدخول الجنة.

ويكون إفشاء السلام على من تعرف ومن لا تعرف، فقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلًا سأل الرسول ﷺ : أي الإسلام خير؟ قال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف"[٢]، ولهذا ينصح الرسول ﷺ المسلمين بإفشاء السلام إن أرادوا دخول الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ قال: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"[٣]؛ لأن إفشاء السلام هو المقدمة الطبيعية للإيمان والمحبة وهما السبب في دخول الجنة.

٧- السلام مفتاح الدخول إلى البيوت: قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور: ٦١).

٨- السلام علامة توقير واحترام: فعن شيبة الحجبي عن عمه، قال: قال ﷺ : "ثلاث يصفين لك ود أخيك: تُسلّم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه". فقد جعل الرسول من إفشاء السلام مدخلًا للوصول إلى مودة الأخ وكسب صداقته.

٩- السلام تحية الله لعباده يوم القيامة: فالله سبحانه يستقبل عباده المؤمنين الداخلين جنته بالسلام يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٤).

١٠- السلام على جميع الناس: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سلّم عليك من خلق الله فاردد عليه، وإن كان مجوسيًا، ذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ (النساء: ٨٦).

---

(١) رواه أحمد (٢٣٧٨٤) والترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجه (١٣٣٤) وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٦٩) .

(٢) رواه البخاري (١٢)، ومسلم(٣٩).

(٣) رواه أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي (٢٥١٠)، قال الترمذي: صحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٣/ ٢٣٨).

ولقد حرص المسلمون على هذه التحية العبادية، وعدُّوها من القربات، فعن الطفيل بن أُبي ابن كعب أنه كان يأتي عبد الله بن عمر فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمرّ عبد الله على سقاط، ولا صاحب بيعة، ولا مسكن، ولا أحد إلا سَلّم عليه. قال الطفيل: فجئت عبد الله ابن عمر يومًا فاستتبعني إلى السوق، فقلت له: ما تصنع بالسوق وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السوق؟ فقال: إنما نغدو إلى السوق من أجل السلام، نسلّم على من لقيناه.

رد السلام: إذا كان السلام أمرًا محببًا فإن الجواب عليه واجب يصل إلى مرتبة الفريضة، ويكون رد التحية بأحسن منها عملًا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ (النساء: ٨٦)، فإذا قال لك أحدهم: السلام عليكم. فقل: وعليكم السلام ورحمة الله. فإن قال لك أحدهم: السلام عليكم ورحمه الله. فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وبهذا يكون رد التحية بأفضل منه، أما ردها فيكون بالتماثل دون زيادة ولا يجوز اتهام الشخص الذي يلقي السلام بعدم الإيمان، فقد قال تعالى في هذا الصدد: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ (النساء: ٩٤).

نصل بهذا إلى القول بأن السلام مفردة رئيسة من مفردات الإسلام، وقاعدة أصيلة من قواعده، سلوكًا وتربية وعبادة، ولهذا وجدنا كثيرًا من المسلمين الذكور يتسمون بـ عبد السلام، وكثيرًا من النساء يحملن اسم سلام تيمنًا بهذا الشعار الإسلامي الخالد.

الإسلام تاريخ سلام

في مناهجنا التعليمية كثير من التجني على تاريخنا الإسلامي، وبخاصة كتب التربية الدينية والتاريخ، فقد صممت هذه المناهج في عهد الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي لتخدم أهداف الغرب التوسعية وتهمه الباطلة ضد الإسلام والمسلمين، وذلك حين جعلت من

التاريخ الإسلامي سلسلة ممتدة من الغزوات والمعارك المتتابعة التي لم تهدأ؛ لتصل إلى القول بأن الإسلام قد قام بحد السيف، شأنه شأن غيره من الديانات السابقة.

ولدفع هذه التهمة لابد من قراءة تاريخ الإسلام إبتداء من نزول الوحي وحتى وفاة صاحب الرسالة:

١ـ **بداية الدعوة**: كانت الدعوة الإسلامية منذ بدايتها سلمية قائمة على العقل والحكمة والإقناع، وليس أدل على ذلك من مخاطبة الوحي للرسول بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ١-٥)، فلم تكن الدعوة عُنفيّة؛ بل دعوة حكيمة تستند إلى الفكر والإقناع، قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥)، فالدعوة موصوفة بالحكمة، والموعظة موصوفة بالحسنة، وهكذا كانت طوال ثلاثة عشر عامًا في مكة قبل الهجرة وعشرة بعدها.

٢ـ **الهجرة**: عندما نزل الرسول بالمدينة وقَّع مع أهلها معاهدة سميت صحيفة المدينة، وهي أول وثيقة دستورية تحدد العلاقات بين الناس على أساس متساو، فقد ورد فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أُمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ظلم أو أثم، أن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم، وأن يهود بني عوف أُمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم).

فقد عدَّت هذه الصحيفة الناس أمة واحدة داخل المدينة بغض النظر عن كل اعتبارات اللغة واللون والدين، وهذه الوثيقة تسبق إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان بأربعة عشر قرنًا، وتدل على ما للإنسان من كرامة عند هذا الدين الذي أرسله الله رحمة للإنسان وسلامًا.

٣ـ صلح الحديبية: أراد الرسول ﷺ أن يحج إلى الكعبة قبل فتح مكة فمنعته قريش، وكان هناك صلح بين الطرفين وردت فيه عبارات عَدَّها بعض المسلمين مذلة، وكان عمر بن الخطاب ضمن المنتقدين لهذا الصلح، فقد نصت إحدى فقراته على أنه من جاء من المسلمين إلى قريش فلا ترده قريش إلى المسلمين، بينما يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلمًا، فقد أقر الرسول المعاهدة واحترمها وعمل بما فيها؛ حقنًا لدماء القرشيين والمسلمين معًا؛ ولأن صون حياة الإنسان مقدمة في الإسلام على ما سواها من الأمور.

٤ـ فتح مكة: عندما نقض القرشيون صلح الحديبية قرر الرسول أن يفتحها، ولكن سلمًا بدون قتال، وهكذا كان، فعندما فوجئ القرشيون بالجيش الإسلامي ورأوا ما فعلوه بالمسلمين من قتل وحرق وتعذيب وتجويع ومصادرة أموال ظنوا أنهم هالكون، وبخاصة عندما سمعوا سعد بن عبادة حامل راية الأنصار يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذلَّ الله قريشًا. في هذا الموقف الرهيب لم يشأ الرسول أن يتركهم طويلًا تحت وطأة هذه المشاعر المذلة، فاستقبل وجوههم في تسامح وأناة وقال لهم: "يا معشر قريش، ماذا ترون أني فاعل بكم؟ " فتقدم خصم الإسلام بالأمس سهيل بن عمرو وقال: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. فرد النبي قائلًا: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لي ولكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء". وكان الرسول قد قال لسعد عندما سمعه يقول: اليوم يوم الملحمة: "لا يا سعد، بل هو يوم المرحمة، واليوم أعز الله قريشًا". أي بالإسلام، وقد ترتب على هذا العفو إسلام أهل مكة وخروجهم مع الرسول ﷺ لحرب هوازن في غزوة حنين.

إن الانتقام ليس من سلوك المسلمين؛ بل العفو، وهذا ما أراد الرسول القائد أن يعلم أصحابه وأمته في حياته ومن بعده حتى يقتدوا به، وهذا ما حصل في فتح القدس أيام عمر

بن الخطاب حين دخلها سلمًا ووقّع مع أهلها ما عُرف بالعُهدة العمرية التي ما زالت بنودها محترمة حتى يومنا هذا بين المسلمين والمسيحيين من مختلف الطوائف.

٥ـ فتح سمرقند: في ولاية عمر بن عبد العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند، ورفعوا إليه أن قائده قتيبة بن مسلم الباهلي قد دخل مدينتهم وأسكن المسلمين فيها بغير حق -أي بغتة دون إنذار- فكتب عمر إلى عامله هناك أن ينصّب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروا، فنصّب لهم القاضي جميع بن حاضر الباجي يحكم بينهم، فحكم القاضي المسلم بإخراج المسلمين من سمرقند.

وإن المرء ليتساءل: هل يمكن لجيش أن يغادر مدينة قد احتلها بقرار من القاضي، وهل حدث هذا في التاريخ؟ والجواب موثق عندنا، في تاريخنا، ليدل على أن هذا الدين يبتغي سلام الناس جميعًا، ولا يحب العدوان والمعتدين، ولعل هذه الحادثة هي الوحيدة التي حدثت في تاريخ البشرية كله.

٦ـ فتح القدس الصلاحي: حين احتل الفرنجة القدس أعملوا في أهلها السيف، قتلوا ما يزيد على سبعين ألف شخص، وحين استعادها صلاح الدين من أيديهم لم يشأ أن يعاملهم بالمثل، ورفض أن يذبحهم مثلما فعلوا؛ بل اكتفى بفدية لمن قدر على دفعها، وعامل الضعفاء من الشيوخ والنساء والأطفال معاملة كريمة: أعطى الأمان لمن بقي منهم في القدس، وكانوا يزيدون على ألف شخص، وسمح للباقين أن يخرجوا بأموالهم وجواهرهم دون أن يلحق بهم أذى، وحماهم طوال طريقهم من أي عدوان عليهم حتى من قطاع الطرق.

فالإسلام لا يعرف لغة الدم، ولا لغة الانتقام، وما صلاح الدين الأيوبي وعمر بن عبد العزيز وعمر بن الخطاب سوى تلامذة مقلدين يسيرون على هدي رسولنا الكريم محمد ﷺ في هذا الطريق.

الإسلام وسلام الزمان.

اقتطع الإسلام ثلث الدهر ليجعل منه وقت سلام يأمن فيه الناس على أموالهم وأنفسهم، فكانت الأشهر الحرم الأربعة من كل عام وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، قال

تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ ﴾ (التوبة: ٣٦).

الإسلام وسلام المكان.

كما منع الإسلام القتال في أشهر معينة من الزمن (السنة) فقد عين مكانين لا يجوز القتال فيهما، ولا يجوز حمل السلاح لثأر أو سواه، ولا يقطع فيهما شجر ولا يروع صيد، وهذان المكانان هما: مكة المكرمة والمدينة، بدائرة يصل قطرها إلى ثمانية وعشرين ميلًا، إذ اعتبر الإسلام الحرم المكي والحرم المدني مكانين للعبادة مُخصَّصين لها لا يجوز فيهما قتال أو إحداث شرّ مهما كان نوعه، وفي هذا يقول الرسول ﷺ : "إني حرّمت ما بين لابتي المدينة كما حرم إبراهيم مكة"، فكان أحدنا يجد الطير في يده فيفكه ويرسله.

هذا هو الإسلام يعتني بالإنسان؛ فيوفر له المكان الآمن الذي يحرّم فيه القتال، ويوفر له الزمان الآمن الذي لا يجوز فيه قتال، فأين نجد سلامًا إن لم نجده في دين الله[1].

الوجه الثاني: إن من يقرأ سيرة النبي ﷺ يتضح له بجلاء كذب هذه الشبهة وبيان زيفها.

فقد بدأ الرسول العربي الكريم ﷺ دعوته في مكة بأن عرض الإسلام على بعض أصحابه الثقات: فأسلم الصدِّيق وعثمان وابن العوام وسعد وابن عوف وغيرهم. . كما عرض نفسه في موسم الحج على القبائل داعيًا إلى دين الله ﷻ. فاستجاب قوم من الأوس والخزرج. وبقي النبي ﷺ يدعو في مكة محتملًا الأذى والألم والاضطهاد والظلم من قريش، وهاجر إلى المدينة دون أن يريق قطرة دم، وبعد قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة حارب النبي ﷺ الفئات التالية:

١- قريش "سكان مكة المكرمة".

٢- اليهود "في المدينة المنورة وفي خيبر".

---

(١) الإسلام دين الرحمة والسلام د/ عبد الرحمن عباد. المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية صـ١١٨-١٢٥.

٣- الروم والغساسنة العرب الخاضعين لهم.

فلماذا حارب النبي ﷺ والمسلمون هؤلاء؟

١- قريش:

مكث النبي ﷺ بمكة "مسقط رأسه" ثلاث عشرة سنة. يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة، وقد أذاقته قريش هو والمؤمنين عامة كل صنوف الأذى. وصبَّر الله نبيه ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وذكر الله قصة "أصحاب الأخدود" الذين تحملوا النار في سبيل الله- كما ورد في سورة البروج وهي مكية- وذكر له قصص الأنبياء في "الأنبياء" ومنها قصة "ذي النون" "يونس عليه السلام". ومغزاها أن اصبر في قومك ولا تكن كذي النون الذي لم يصبر و ﴿ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ (الأنبياء: ٨٧) فصبَّر الله ﷻ النبي ﷺ، وصبَّر النبي ﷺ صحابته.

ثم هاجر النبي بعد أن أذن الله له فصودرت أمواله وأموال المسلمين فظلم وظلم أصحابه، وفي المدينة أعلن على قريش مقابل ما سبق حربًا اقتصادية يرغمها بها على الاعتراف بحقوقه في مكة وحقه في نشر الدعوة، فخرج يريد قافلة أبي سفيان ولكنها تمكنت من الإفلات، ولكن قريشًا خرجت إلى رسول الله ﷺ بقضِّها وقضيضها، بكامل قوتها حتى عبيدها خرجوا معها، فأذن الله لنبيه بالقتال بالآيات التالية:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (الحج: ٣٩، ٤٠). ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة ١٩٠: ١٩٣).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

فنرى أن القتال لم يشرع إلا "دفاعًا عن النفس" وما إلى ذلك من العرض والمال، وما يذكر بالفخر والكرامة لرسول الله ـ وكل سيرته عزة وفخر وكرامة ﷺ ـ أنه في بدر ما أراد قتالًا أو سفك دماء، إنه أراد حربًا اقتصادية ليعوض عما ذهب وصودر في مكة، وفي أحد أراد البقاء في المدينة والمحاصرة لدفع قريش بأقل خسائر، وفي الخندق- غزوة الأحزاب- اتخذ ﷺ موقف المدافع وفرّق قريشًا بإنشاب خلاف بينهم كي لا تزهق أرواح من الطرفين، وعندما أراد فتح مكة[(١)] أغلق وقطع الطرق الذاهبة إلى مكة كي يعود إلى بلده التي أخرج منها، وليفهم قريشًا التي تطاولت على نقض صلح الحديبية ولم تف بعهدها. استخفافًا وحقدًا عندما رأت القبائل العربية تدخل في دين الله بالإقناع والموعظة الحسنة؛ ليفهمها أن دعايتها عن محمد أنه: كاهن، أو شاعر، أو مجنون، قد تكشفت أمام العرب، ورأى العرب في محمد رسول الله ﷺ عاقلًا حكيمًا. . . . دعوته حق ورسالته صدق.

أراد النبي ﷺ دخول مكة دون أن تزهق أرواح أو تراق دماء. وبالفعل فإنه لما وصل إلى قرب مكة جاءه أبو سفيان، فقال النبي ﷺ للعباس: "اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم[(٢)] الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله"[(٣)]. وهنا أراد النبي ﷺ أن يذهب أبو سفيان بعد هذا وفي نفسه خوف من قوة النبي ﷺ ليقنع قريشًا بعدم جدوى المقاومة، وقال النبي ﷺ : "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو

---

(١) أراد ﷺ فتح مكة لنقض قريش صلح الحديبية: ٦هـ عندما شجعت قبيلة بكر، ضد قبيلة خزاعة حليفة النبي ﷺ. راجع الكامل في التاريخ ٢/ ١٦١، والطبري ٣/ ٤٢، وتاريخ الإسلام ١/ ١٣٧.

(٢) الخطم: أنف الجبل، وهو يخرج منه يضيق معه الطريق فتتزاحم فيه الخيل حتى يحطم بعضها بعضًا.

(٣) الكامل في التاريخ ٢/ ١٦٥، الطبري ٣/ ٥٤، عيون الأثر ٢/ ١٧٠.

آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن"[١]، وبالفعل فقد وصل أبو سفيان مكة فقال: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. .[٢] وعهد النبي إلى أمرائه عند دخول مكة "أن لا يقتلوا أحدًا إلا من قاتلهم"[٣].

فالنبي ﷺ كان حريصًا على عدم سفك الدماء.

٢- حروب النبي ﷺ ضد اليهود:

النبي ﷺ مُحِقٌّ كل الحق في إجلاء اليهود من بني قينقاع بعد بدر؛ لمؤامرتهم وتطاولهم وغرورهم، فمن أقوالهم: "يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة" ويقول ابن الأثير: "فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه".

والنبيُّ ﷺ محق كل الحق في إجلاء يهود بني النضير بعد أحد ؛ لأنهم تآمروا مع قريش ضد المسلمين.

والنبيُّ ﷺ محق كل الحق في حكمه ببني قريظة بعد الخندق؛ لنكثهم عهودهم معه، وهو في أشد ساعات الحرج، بعد أن ساعدوا قريشًا وحرضوها ضد رسول الله ﷺ .

٣- حروب النبي ﷺ ضد الغساسنة وأسيادهم الروم:

وذلك في معركتي: "مؤتة سنة ٨هـ، وتبوك سنة ٩هـ".

مؤتة: أرسل النبي ﷺ في السنة الثامنة للهجرة رسولًا إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الغساسنة يدعوه إلى الإسلام، فقتل الحارث رسول رسول الله: شجاع بن وهب الأسدي (وليس هكذا تعامل الرُّسل والوفود، ففي هذا انتهاك للعرف الدولي، وأن الرسل لا تقتل مهما عملت، ومهما تكلمت). وقال: "من ينزع مني ملكي أنا سائر إليه"[١]. مع أن النبي ﷺ ما أراد منه ملكه؛ بل أراد هدايته وإسلامه فحسب.

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ١٦٦، الطبري ٣/ ٥٤، والرواية للطبري.

(٢) الكامل في التاريخ ٢/ ١٦٦، الطبري ٣/ ٥٤.

(٣) الكامل في التاريخ ٢/ ١٦٧.

ولما سبق، سيَّر الرسول ﷺ جيشًا من ثلاثة آلاف مجاهد بقيادة مولاه زيد بن حارثة لتأديب من قتل ممثل الإسلام والنبوة. فلقى زيد جموع الغساسنة ومعهم الروم عند مؤتة، ولا تهمنا حوادث المعركة؛ بل يهمنا أن النبي ﷺ ما رفع سيفًا بوجه الغساسنة وأسيادهم الروم إلا بعد قتل رسوله إليهم، واستعداد الحارث للسير إلى المدينة المنورة لحرب الإسلام في عاصمة الإسلام، فكانت سرية مؤتة عملًا دفاعيًا.

تبوك: بلغ الرسول ﷺ أن الروم تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ومعهم بعض القبائل العربية المتنصِّرة، فدعا المسلمين للخروج إليهم قبل أن يغزوهم في عقر دارهم. وبالفعل فقد وصل ﷺ تبوك وأقام فيها أيامًا، فصالحه أهلها بعد انسحاب الجيش الرومي باتجاه الشمال، وصالح أمير دومة الجندل وأيلة وعاد دون سفك دماء.

وهكذا فإن مسير النبي ﷺ إلى تبوك كان لأسباب مشروعة جلية.

وصفوة القول لقد خاض النبي ﷺ حروبًا عادلة بعد أن وضع السلم أساسًا لسياسته والحرب للدفاع، وكان الحفاظ على الأرواح أمله، وكان تأديب الظالم المغرور بأقل دماء هدفه، وكان التسامح منطبعًا في ذاته وهو غايته.

فالنبي ﷺ القدوة الحسنة والأسوة لمن بعده في الجهاد.

الوجه الثالث: نبذ الإسلام العنف واستخدامه الحوار.

وفي مجال الدعوة إلى الله نجد أن الإسلام ينبذ العنف لأن الدعوة الإسلامية تستهدف البدء بتغيير النفس، وإعادة صياغة الإنسان قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ (الرعد: ١١).

وتغيير ما بأنفسهم وما بداخلهم لا يتأتى بالإكراه أو العنف؛ لأن العنف يؤدي إلى النفاق، فإذا استعملت العنف في الدعوة أكرهت الآخرين، فأنت تكسب بذلك منافقًا لا

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ١٤٥.

مؤمنًا، لأنك تكسب الظاهر، أما الداخل أو الباطن فلا يظهر، ومن هنا كانت وما زالت الحكمة والموعظة الحسنة، والحوار والجدال بالتي هي أحسن سبيل الدعوة.

فالذين يلجئون إلى العنف في الدعوة اليوم، أو في فرض آرائهم هؤلاء مخالفون تمام المخالفة لمناهج الإسلام في الدعوة، هذا المنهاج الذي هو منهاج القرآن.

إذن النقطة الأساسية في بداية الدعوة الإسلامية هي تغيير ما في النفس، وهذا لا يتأتى بالإكراه أو العنف، فالعنف عادة يكون رد فعل لعنف آخر أو رد فعل لقيود عنيفة تمارس على حريات الإنسان، فيرفضها رفضًا عنيفًا.

إن استخدام القوة لا يجوز إلا دفاعًا عن النفس وحماية للأرض والعرض والحفاظ على حرمات الله ومقدساتنا، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ (الفتح: ٢٩)، وقال ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦)، وقال سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤).

فلا بد أن نكون رحماء فيما بيننا؛ لنحقق المنهج الإسلامي في الوسطية والبعد عن الإفراط والتفريط.

فالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن هي من أبرز وسائل الدعوة إلى الله، وهي علامة على وسطية الأمة واعتدالها في التعامل مع وجهات النظر؛ بل مع المخالف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، وقد كان رسول الله ﷺ يحاور الناس ويبحث عمن يقبل دعوته، واستخدم رسولنا ﷺ الوسائل المتعددة لتبليغ الرسالة ومنها الحوار.

وقد سمى الله ﷻ صلح الحديبية الذي عارضه أغلب الصحابة وعدوه ضيمًا سماه ﷻ فتحًا، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ (الفتح: ١)؛ وذلك لما ترتب عليه من ثمرات

وفتوح كان من أعظمها الحوار بين المسلمين والمشركين، وعرض المسلمين لدينهم الأمر الذي كان ممنوعًا وغير مقبول قبل هذا الصلح فدخل الناس بعده في دين الله أفواجًا.

فالواجب على المسلمين الاعتدال في الدعوة إلى الله فلا غلظة ولا شدة؛ بل قول لين وموعظة حسنة ورفق بالمدعوين، وإرشاد بالحسنى للضالين عن الصراط المستقيم، وستر على المسلمين، ومجادلة وحوار مع الجميع بالتي هي أحسن.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (يوسف: ١٠٨)، وقال ﷻ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل: ١٢٥)، أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب.

وقال الرسول المصطفى ﷺ: "إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ"(١)

إن وسطية هذا الدين وسماحته لو ظهرت للناس على حقيقتها؛ لوجد التائهون فيه ضالتهم المنشودة وسعادتهم وغبطتهم، ولتحقق لهم النصر العظيم والفوز المبين، ولو أعطى المسلمون بسلوكهم المنهج الوسط لكان للإسلام شأن أعظم وأرض أرحب.

ولهذا فإن الواجب تعميق مفهوم الوسطية بالتوعية والإرشاد والقدوة، ومقارعة الحجة بالحكمة والموعظة الحسنة، ينهض بذلك العلماء وأهل الهدى، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة من الآية: ١١)، وقال ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ٩).

على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها، ويعين وسائلها وطرائقها، ويرسم المنهج للرسول الكريم، وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر في

---

(١) مسلم (٤٦٩٨).

دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن.

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله. لا لشخص الداعي ولا لقومه، والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس الهدف هو الغلبة في الجدل، ولكن بالإقناع وإظهار الحق[1].

الوجه الرابع: إن من يقرأ مفهوم الجهاد في الإسلام ويعرف غاياته وأهدافه يتضح له بجلاء زيف هذه الشبهة.

لم يفرض الله الجهاد لإكراه الناس على الإسلام. فالإكراه لا يؤسس عقيدة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦). لذلك فإن الإسلام لا يقهر، ولا يجبر امرءًا على دين يرفضه. وعلى هذا فالحرية مكفولة في أحكام ودستور الإسلام.

ولو صح قول بعضهم: إن الإسلام سل سيفًا وفرض نفسه على الناس جبرًا لما وجدنا شيئًا اسمه: "الجزية" أو "ذميون" فالجزية لغير المسلمين الذين لم يرضوا دخول الإسلام، ولم يجبرهم الإسلام على اعتناقه، إنهم في حرية تامة، عقائدهم ومعابدهم محترمة يطبقون أحكام دينهم فيما بينهم.

---

(١) انظر: وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار، إعداد: د/ محمد الصالح اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب.

فالحجة وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥). ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور: ٥٤). ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: ٢١- ٢٢).
﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (ق: ٤٥).

وقد صرحت الآيات في القرآن الكريم أن الله تعالى لم يرد من خلقه أن يكونوا مؤمنين عن طريق القهر؛ بل عن طريق النظر، إذ لو أراد سبحانه إيمانًا قهريًّا لطبعهم عليه كما طبع الملائكة، لكنه ترك البشر وما يختارون، واكتفى بأن أخذ عليهم مواثيق الفطرة وأشهدهم بها على أنفسهم، وأرسل إليهم رسلًا تذكرهم وتدعوهم إلى النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، ولمَّا كان من سننه سبحانه في بني الإنسان أن تختلف عقولهم وأفكارهم، وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة على الإيمان فيؤمن بعض ويكفر آخرون، جاءت نصوص الإسلام داعية إلى الإيمان بالله عن طريق النظر والاختيار قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ٩٨: ١٠١).

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩). وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأنعام: ٣٥).

بل وأفادت الآيات كذلك أن تلك هي طبيعة الدعوات السماوية قاطبة التي جاءت بها رسل الله أجمعين.

فجاء على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود: ٢٨) وفي دعوة إبراهيم لأبيه "فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه".

وفي دعوة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٤) وفي دعوة نبينا ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢).

بل إن الوقائع التاريخية لتؤكد كذلك خلو الدعوة الإسلامية من الإكراه، وإلا فأين الإكراه الذي فرض على المسلمين في مكة قبول الدين؟

إن النبي ﷺ نفسه كان مضطهدًا، ومن حوله من أتباع كانوا يعذبون ويضطهدون، وحالة كهذه لا يعقل أن يكون معها إرغام على الإسلام؛ بل قد تكون مانعة من الدخول في الإسلام أو إظهاره على الأقل(١).

وعبر تاريخ دولة الإسلام كان يعيش في داخلها غير المسلمين في مراحل قوتها وضعفها، فلم يجبروا على ترك معتقداتهم أو يكرهوا على الدخول في الإسلام، والقاعدة العظمى في الإسلام أن لا إكراه في الدين، ولذا فقد عاش الذميون وغيرهم في كنف دولة الإسلام دون أن يتعرض أحد لعقائدهم ودياناتهم(٢).

إن الإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه، أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم، وتاريخ الإسلام في هذا المجال أنصع تاريخ على وجه الأرض(٣).

ومن المقرر عند الفقهاء أنه لو أكره أحد على الإسلام فإنه لا يصح إسلامه. قال في المغني: "وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم لم يثبت له

---

(١) حولية كلية أصول الدين العدد ٢٢، المجلد الثاني صـ ١٤١١ - ١٤١٢.

(٢) انظر تلبيس مردود في قضايا حية، صالح بن حميد صـ ٣٠.

(٣) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام محمد الغزالي صـ ٦.

حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعا"[١]. ولذلك فإنه إذا عاد إلى دينه بعد زوال الإكراه لم يحكم بردته، ولا يجوز قتله ولا إكراهه على الإسلام، ونقل ابن قدامة إجماع أهل العلم على أن الذمي إذا أقام على ما عوهد عليه والمستأمن، لا يجوز نقض عهده ولا إكراهه على ما لم يلتزمه[٢].

ومن سماحة الإسلام في المعاملة أن شرع العدل مع المخالف، وجعل ذلك دليلا على التقوى التي رتب عليها أعظم الجزاء قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٨).

ولذا فإن من يتأمل أحكام الإسلام وتاريخ المسلمين يجد أنه لا يمكن أن يقوم مجتمع تحترم فيه الحقوق والواجبات كما في دولة الإسلام، وفي أوج عزة دولة الإسلام وقوتها كان يوجد من غير المسلمين العلماء والأدباء والأطباء والنابغون في مختلف الفنون والأعمال، وهل يمكن أن يكون لهؤلاء ظهور ونبوغ في أعمالهم لولا سماحة الإسلام ونبذه للتعصب الديني؟

إن المعاهد في بلد الإسلام لا يعيش على هامش المجتمع؛ بل يشارك ويخالط أفراد المجتمع، وقد يسند إليه بعض الأعمال التي هي من صميم عمل أهل الإسلام، فقد جوز الخرقي أن يكون الكافر من العاملين على الزكاة، وذكر في المغني أنها إحدى الروايتين عن الإمام أحمد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ (التوبة: ٦٠). وهذا لفظ عام يدخل فيه أي عامل على أي صفة كانت، ولأن ما يأخذ على العمالة أجرة لعمله فلم يمنع من أخذه كسائر الإجارات[٣].

---

(١) المغني لابن قدامة ١٢/ ٢٩١.

(٢) انظر سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين إعداد: د/ عبد الله اللحيدان، اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب.

(٣) انظر المغني لابن قدامة ٤/ ١٠٧.

بل صرح الإمام الماوردي بجواز أن يتولى الذمي وزارة التنفيذ دون وزارة التفويض[١].

لقد أطلق الإسلام على غير المسلمين الذين لهم ذمة أهل الذمة وعاملهم بها وهي تعني: العهد والأمان والضمان، والحرمة والحق[٢] وهو عهد منسوب إلى الله ﷻ وإلى الرسول ﷺ قال ابن الأثير: "وسمي أهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم"[٣].

إن قوة هذا الدين وسلامة قواعده وتنوع أساليبه أوجدت مجالًا خصبًا للحوار والحرية والإبداع في المجتمع المسلم[٤]. وإن من يأخذون ببعض النصوص من الكتاب أو السنة ويريدون تطبيقها في معاملة غير المسلمين يخطئون في فهم منهج الإسلام وطبيعته، فالواجب أن تؤخذ نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة كاملة، وتقرر معاملة المسلم مع غيره في ضوئها وعلى هديها، وفي القرآن العظيم آيات لا تحصر في الأمر بالبر والصلة والإحسان والعدل والقسط والوفاء بالعهد، والنصوص في ذلك مطلقة تستوعب كل أحد؛ بل إن نصوص الإحسان تشمل حتى الحيوان وفي الحديث عنه ﷺ قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"[٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ (البقرة: ١٩٥)، وقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، وفي ظل هذا المفهوم العام للإحسان كان هدي النبي ﷺ في معاملة غير المسلمين[٦].

---

(١) انظر الأحكام السلطانية الماوردي صـ ٦٨، وانظر: تفصيل أقوال العلماء في مسألة تولي الذمي وزارة التنفيذ في كتاب أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي لنمر النمرصـ ١٩٧ - ٢١٤ وانتهى المؤلف إلى القول بعدم جواز ذلك.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ١٦٨.

(٣) المرجع السابق ٢/ ١٦٨.

(٤) انظر أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي لحسن الزين صـ ٥٣.

(٥) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٦) سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين د/ عبد الله اللحيدان.

الوجه الخامس: موقف الإسلام من أهل الذمة داخل الدولة الإسلامية.

جرى العرف الإسلامي على تسمية المواطنين من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي باسم أهل الذمة، أو الذميين[1].

والذمة كلمة معناها العهد والضمان والأمان، وإنما سموا بذلك؛ لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا في حماية الإسلام وفي كنف المجتمع الإسلامي آمنين مطمئنين، فهم في أمان المسلمين وضمانهم بناء على عقد الذمة، فهذه الذمة تعطي أهلها من غير المسلمين ما يشبه في عصرنا الجنسية السياسية التي تعطيها الدولة لرعاياها، فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين ويلتزمون بواجباتهم.

فالذمي على هذا الأساس من أهل دار الإسلام، كما يعبر الفقهاء[2] أو من حاملي الجنسية الإسلامية كما يعبر المعاصرون[3].

وعقد الذمة عقد مؤبد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم، وتمتعهم بحماية الجماعة الإسلامية ورعايتها بشرط بذلهم الجزية، والتزامهم أحكام القانون الإسلامي في غير الشئون الدينية، وبهذا يصيرون من أهل دار الإسلام، فهذا العقد ينشئ حقوقًا متبادلة لكل من الطرفين المسلمين وأهل ذمتهم بإزاء ما عليه من واجبات.

حقوق أهل الذمة: القاعدة الأولى في معاملة أهل الذمة في دار الإسلام أن لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين إلا في أمور محددة مستثناة، كما أن عليهم ما على المسلمين من واجبات إلا ما استثنى.

---

(١) استفدنا هذا الوجه من كتاب غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للدكتور القرضاوي باختصار وتصرف يسير.

(٢) انظر: شرح السير الكبير للسرخسي ١/ ١٤٠، البدائع للكاساني ٥/ ٢٨١، المغني لابن قدامة ٥/ ٥١٦.

(٣) انظر: التشريع الجنائي في الإسلام لعبد القادر عودة ١/ ٣٠٧، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان صـ٦٣-٦٦.

حق الحماية: فأول هذه الحقوق هو حق تمتعهم بحماية الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وهذه الحماية تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجي، ومن كل ظلم داخلي حتى ينعموا بالأمان والاستقرار.

(أ) الحماية من الاعتداء الخارجي:

أما الحماية من الاعتداء الخارجي فيجب لهم ما يجب للمسلمين، وعلى الإمام أو ولي الأمر في المسلمين بما له من سلطة شرعية، وما لديه من قوة عسكرية أن يوفر لهم هذه الحماية قال في "مطالب أولي النهى" من كتب الحنابلة:

يجب على الإمام حفظ أهل الذمة، ومنع من يؤذيهم، وفك أسرهم، ودفع من قصدهم بأذى إن لم يكونوا بدار حرب؛ بل كانوا بدارنا، ولو كانوا منفردين ببلد، وعلل ذلك بأنهم: (جرت عليهم أحكام الإسلام وتأبد عقدهم فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين)[1].

وينقل الإمام القرافي المالكي في كتابه "الفروق" قول الإمام الظاهري ابن حزم في كتابه "مراتب الإجماع": إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك صونًا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة[2]. وحكى في ذلك إجماع الأمة.

وعلق على ذلك القرافي بقوله: فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صونًا لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم[3].

(ب) الحماية من الظلم الداخلي:

وأما الحماية من الظلم الداخلي فهو أمر يوجبه الإسلام ويشدد في وجوبه ويحذر المسلمين أن يمدوا أيديهم أو ألسنتهم إلى أهل الذمة بأذى أو عدوان، فالله تعالى لا يحب الظالمين ولا يهديهم؛ بل يعاجلهم بعذابه في الدنيا، أو يؤخر لهم العقاب مضاعفًا في الآخرة.

---

(١) مطالب أولي النهى ٢/ ٦٠٢-٦٠٣.

(٢) الفروق ٣/ ١٤-١٥، الفرق التاسع عشر والمائة.

(٣) نفس المصـدر السابق.

وقد تكاثرت الآيات والأحاديث الواردة في تحريم الظلم، وتقبيحه، وبيان آثاره الوخيمة في الآخرة والأولى، وجاءت أحاديث خاصة تحذر من ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة.

يقول الرسول ﷺ: "من ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقًّا، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة"[١].

وفي عهد النبي ﷺ لأهل نجران أنه: "لا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر"[٢].

ولهذا كله اشتدت عناية المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين بدفع الظلم عن أهل الذمة، وكف الأذى عنهم، والتحقيق في كل شكوى تأتي من قبلهم.

كان عمر ﷺيسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: (ما نعلم إلا وفاء)[٣]، أي: بمقتضى العهد والعقد الذي بينهم وبين المسلمين، وهذا يقتضي أن كلا من الطرفين وفَّى بها عليه.

وعلي بن أبي طالب ﷺيقول: إنها بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا[٤].

وفقهاء المسلمين من كافة المذاهب الاجتهادية صرحوا وأكدوا بأن على المسلمين دفع الظلم عن أهل الذمة، والمحافظة عليهم؛ لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة قد التزموا دفع الظلم عنهم، وهم صاروا به من أهل دار الإسلام؛ بل صرح بعضهم بأن ظلم الذمي أشد من ظلم المسلم إثمًا[٥].

---

(١) رواه أبو داود (٣٠٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢٠٥، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٤٥).

(٢) رواه أبو يوسف في الخراج صـ٧٢-٧٣.

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٨.

(٤) المغني ٨/ ٤٤٥، البدائع ٧/ ١١١، نقلًا عن: أحكام الذميين والمستأمنين صـ ٨٩.

(٥) ذكر ذلك ابن عابدين في حاشيته، وهو مبني على أن الذمي في دار الإسلام أضعف شوكة عادة، وبظلم القوي للضعيف أعظم في الإثم.

حماية الدماء والأبدان: وحق الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن حماية دمائهم، وأنفسهم، وأبدانهم، كما يتضمن حماية أموالهم وأعراضهم. فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين، وقتلهم حرام بالإجماع. يقول الرسول ﷺ : "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا"[(١)].

ولهذا أجمع فقهاء الإسلام على أن قتل الذمي كبيرة من كبائر المحرمات لهذا الوعيد في الحديث.

حماية الأموال: ومثل حماية الأنفس، والأبدان حماية الأموال، وهذا مما اتفق عليه المسلمون في جميع المذاهب وفي جميع الأقطار ومختلف العصور.

روى أبو يوسف في "الخراج"[(٢)] ما جاء به في عهد النبي ﷺ ، لأهل نجران: "ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ ، على أموالهم، وملتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. . . ".

وفي عهد عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح أن: امنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها.

فمن سرق مال ذمي قُطِعت يده، ومن غَصبه عزر، وأعيد المال إلى صاحبه، ومن استدان من ذمي فعليه أن يقضي دينه، فإن مطله وهو غني حبسه الحاكم حتى يؤدي ما عليه.

حماية الأعراض: ويحمي الإسلام عرض الذمي وكرامته كما يحمي المسلم وكرامته، فلا يجوز لأحد أن يسبه، أو يتهمه بالباطل، أو يشنع عليه بالكذب، أو يغتابه، ويذكره بما يكره في نفسه أو نسبه، أو خلقه، أو خَلْقِه أو غير ذلك مما يتعلق به.

يقول الفقيه الأصولي المالكي شهاب الدين القرافي في كتاب "الفروق": إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقًا علينا؛ لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا ـ حمايتنا ـ ، وذمتنا وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٥).

(٢) الخراج صـ٧٢.

ذمة الله، وذمة رسولهﷺ، وذمة دين الإسلام[١].

وفي "الدر المختار" من كتب الحنفية: يجب كف الأذى عن الذمي وتحرم غيبته كالمسلم. ويعلق العلامة ابن عابدين على ذلك بقوله: لأنه بعقد الذمة وجب له مالنا؛ فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته؛ بل قالوا إن ظلم الذمي أشد[٢].

التأمين عند العجز والشيخوخة والفقر:

وأكثر من ذلك أن الإسلام ضمن لغير المسلمين في ظل دولته كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونه؛ لأنهم رعية للدولة المسلمة، وهي مسئولة عن كل رعاياها، قال رسول الله ﷺ : "كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته"[٣].

وهذا ما مضت به سنة الراشدين ومن بعدهم.

ففي عقد الذمة الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق، وكانوا من النصارى: وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله[٤]، وكان هذا في عهد أبي بكر الصديق، وبحضرة عدد كبير من الصحابة، وقد كتب خالد به إلى الصديق ولم ينكر عليه أحد، ومثل هذا يعد إجماعًا.

ورأى عمر بن الخطاب شيخًا يهوديًّا يسأل الناس، فسأله عن ذلك فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأتاه إلى ذلك، فأخذه وذهب به إلى خازن بيت مال المسلمين، وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم، وقال في ذلك: ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية شابًا ثم نخذله عند الهرم[٥].

---

(١) الفروق ٣/ ١٤.

(٢) حاشية ابن عابدين ٣/ ٣٤٤-٣٤٦.

(٣) رواه البخاري (٨٥٣)، مسلم (١٨٢٩).

(٤) الخراج صـ١٤٤.

(٥) المصدر السابق صـ١٢٦.

حرية التدين: ويحمي الإسلام فيما يحميه من حقوق أهل الذمة حق الحرية.

وأول هذه الحريات: حرية الاعتقاد والتعبد، فلكل ذي دين دينه ومذهبه، لا يجبر على تركه إلى غيره، ولا يضغط عليه أي ضغط ليتحول منه إلى الإسلام.

وأساس هذا الحق قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى: أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه.

وسبب نزول الآية -كما ذكر المفسرون- يبين لنا جانبًا من إعجاز هذا الدين، فقد رووا عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاة -قليلة النسل- فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، كان يفعل ذلك نساء الأنصار في الجاهلية، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقال آباؤهم: لاندع أبناءنا. يعنون: لا ندعهم يعتنقون اليهودية، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1].

وكذلك صان الإسلام لغير المسلمين معابدهم، ورعى حرمة شعائرهم؛ بل جعل القرآن من أسباب الإذن في القتال حماية حرية العبادة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

وقد رأينا كيف اشتمل عهد النبي ﷺ إلى أهل نجران أن لهم جوار الله، وذمة رسوله على أموالهم وملتهم وبيعهم.

---

(١) نسبه ابن كثير إلى ابن جرير قال: قد رواه أبو داود والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه، وهكذا ذكر مجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري، وغيرهم أنها نزلت في ذلك. تفسير ابن كثير ١/ ٣١٠.

وفي عهد عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء -القدس- نص على حريتهم الدينية وحرمة معابدهم وشعائرهم: هذا ما أعطى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتها، لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا من حيزها ولا من صليبها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود كما رواه الطبري[1].

يقول العلامة الفرنسي غوستاف لوبون:

(رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفًا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي اقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصًا بنا.

قال روبرتسن في كتابه "تاريخ شارلكن": إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية)[2].

حرية العمل والكسب: لغير المسلمين حرية العمل والكسب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين.

فقد قرر الفقهاء أن أهل الذمة في البيوع، والتجارات، وسائر العقود والمعاملات المالية كالمسلمين، ولم يستثنوا من ذلك إلا عقد الربا، فإنه محرم عليهم كالمسلمين، وقد روي أن

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٩.

(٢) حاشية من: صـ١٢٨ من كتاب حضارة العرب.

النبي ﷺ، كتب إلى مجوس هجر: "إما أن تذروا الربا أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله".

كما يمنع أهل الذمة من بيع الخمور والخنازير في أمصار المسلمين، وفتح الخانات فيها لشرب الخمر، وتسهيل تداولها، أو إدخالها إلى أمصار المسلمين على وجه الشهرة والظهور، ولو كان ذلك لاستمتاعهم الخاص سدًّا لذريعة الفساد، وإغلاقًا لباب الفتنة.

وفيما عدا هذه الأمور المحدودة، يتمتع الذميون بتمام حريتهم في مباشرة التجارات، والصناعات، والحرف المختلفة. وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شتى الأزمان، وكادت بعض المهن تكون مقصورة عليهم كالصيرفة والصيدلة وغيرها، واستمر ذلك إلى وقت قريب في كثير من بلاد الإسلام، وقد جمعوا من وراء ذلك ثروات طائلة معفاة من الزكاة، ومن كل ضريبة إلا الجزية، وهي ضريبة على الأشخاص القادرين على حمل السلاح كما سيأتي، وهي مقدار جد زهيد.

قال آدم ميتز: ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة، وتجارًا، وأصحاب ضياع، وأطباء؛ بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة الجهابذة في الشام مثلًا يهودًا، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده)[1].

ضمان العقيدة:

أما الشريعة الإسلامية فهي شريعة الله وقانون السماء، الذي لا تبديل لكلماته، ولا جور في أحكامه، ولا يتم الإيمان إلا بطاعته، والرضا به. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ولهذا يحرص كل مسلم يتمسك بدينه على تنفيذ أحكام هذه الشريعة ووصاياها؛ ليرضي ربه

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري للأستاذ آدم ميتز أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بازل بسويسرا. ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة١/ ٨٦.

وينال ثوابه، لا يمنعه من ذلك عواطف القرابة والمودة، ولا مشاعر العداوة والشنآن. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

واجبات أهل الذمة

تلك هي حقوق المواطنين من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، وهذه هي ضمانات الوفاء بتلك الحقوق، فما هي الواجبات التي فرضها عليهم الإسلام في مقابل التمتع بتلك الحقوق، فمن المقرر أن كل حق يقابله واجب؟

والواجب أن هؤلاء المواطنين أهل الذمة تنحصر واجباتهم في أمور معدودة هي:

١- أداء الجزية والخراج والضريبة التجارية، وهذه هي واجباتهم المالية.

٢- التزام أحكام القانون الإسلامي في المعاملات المدنية ونحوها.

٣- احترام شعائر المسلمين ومشاعرهم.

الجزية والخراج:

أما الجزية فهي ضريبة سنوية على الرؤوس، تتمثل في مقدار زهيد من المال يفرض على الرجال البالغين القادرين على حسب ثرواتهم، أما الفقراء فمعفون منها إعفاء تامًّا. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ (الطلاق: ٧)، وليس للجزية حد معين، وإنما ترجع إلى تقدير الإمام الذي عليه أن يراعي طاقات الدافعين ولا يرهقهم، كما عليه أن يرعى المصلحة العامة للأمة.

وقد جعل عمر الجزية على الموسرين ثمانية وأربعين درهمًا، وعلى المتوسطين في اليسار أربعة وعشرين، وعلى الطبقة الدنيا من الموسرين اثنى عشر درهمًا، وبهذا سبق الفكر الضريبي الحديث في تقرير مبدأ تفاوت الضريبة بتفاوت القدرة على الدفع، ولا تعارض بين صنيع عمر وقول النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: "خذ من كل حالم دينارًا"[(١)] لأن الفقر كان في أهل اليمن أغلب، فراعى النبي ﷺ حالتهم.

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٣٠، والترمذي (٦٢٣) وحسنه، وصححه الألباني في إرواء الغليل٣/ ٢٦٩.

والأصل في وجوب الجزية من القرآن قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾.

ومعنى الصغَّار هنا التسليم، وإلقاء السلاح، والخضوع لحكم الدولة الإسلامية، ومن السنة أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس البحرين، كذلك أخذ الخلفاء الراشدون الجزية من أهل الكتاب ومن في حكمهم في سائر البلاد المفتوحة، واستقر العمل عليه فصار إجماعًا.

وأما الخراج فهو ضريبة مالية تفرض على رقبة الأرض إذا بقيت في أيديهم، ويرجع تقديره إلى الإمام أيضًا، فله أن يقاسمهم بنسبة معينة مما يخرج من الأرض كالثلث والربع مثلًا، وله أن يفرض عليهم مقدارًا محددًا، مكيلًا أو موزونًا بحسب ما تطيقه الأرض كما صنع عمر في سواد العراق، وقد يقوم ذلك بالنقود.

والفرق بين الجزية والخراج أن الأولى تسقط بالإسلام، دون الخراج.

فالذمي إذا أسلم لا يعفيه إسلامه من أداء الخراج؛ بل يظل عليه أيضًا، ويزيد على الذمي الباقي على ديانته الأصلية أنه يدفع العشر -أو نصفه- عن غلة الأرض بجوار دفع الخراج عن رقبتها، كما هو مذهب الأئمة الثلاثة، وجمهور الفقهاء خلافًا لأبي حنيفة، فالخراج هو بمثابة ضريبة الأملاك العقارية اليوم، والعشر بمثابة ضريبة الاستغلال الزراعي.

ومن الناس من ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية فيحسبون الإسلام متعسفًا في فرضه الجزية على غير المسلمين.

ولو أنهم أنصفوا وتأملوا حقيقة الأمر لعلموا أن الإسلام كان منصفًا كل الإنصاف في إيجابه هذه الجزية الزهيدة.

فقد أوجب الإسلام على أبنائه الخدمة العسكرية باعتبارها فرض كفاية، أو فرض عين، وناط بهم واجب الدفاع عن الدولة، وأعفي من ذلك غير المسلمين، وإن كانوا يعيشون في ظل دولته.

ذلك أن الدولة الإسلامية دولة عقائدية - أو بتعبير المعاصرين أيديولوجية- أي: أنها دولة تقوم على مبدأ وفكرة، ومثل هذه الدولة لا يقاتل دفاعًا عنها إلا الذين يؤمنون بصحة مبدئها وسلامة فكرتها، وليس من المعقول أن يؤخذ شخص ليضع رأسه على كفه، ويسفك دمه من أجل فكرة يعتقد ببطلانها، وفي سبيل دين لا يؤمن به، والغالب أن دين المخالفين ذاته لا يسمح لهم بالدفاع عن دين آخر والقتال من أجله.

ولهذا قصر الإسلام واجب الجهاد على المسلمين؛ لأنه يعد فريضة دينية مقدسة، وعبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه حتى إن ثواب المجاهد ليفضل ثواب العابد القانت الذي يصوم النهار ويقوم الليل.

ولكن الإسلام فرض على هؤلاء المواطنين من غير المسلمين أن يسهموا في نفقات الدفاع، والحماية للوطن عن طريق ما عرف في المصطلح الإسلامي باسم الجزية.

فالجزية – فضلًا عن كونها علامة خضوع للحكم الإسلامي- هي في الحقيقة بدل مالي عن الخدمة العسكرية المفروضة على المسلمين.

ولهذا فرضها الإسلام على كل قادر على حمل السلاح من الرجال، فلا تجب على امرأة، ولا صبي؛ لأنهما ليسا من أهل القتال، وقد قال عمر: لا تضربوها على النساء والصبيان، ولهذا قال الفقهاء: لو أن امرأة بذلت الجزية ليسمح لها بدخول دار الإسلام تمكن من دخولها مجانًا، ويرد عليها ما أعطته؛ لأنه أخذ بغير حق، وإن أعطتها تبرعًا مع علمها بأن لا جزية عليها قبلت منها، وتعتبر هبة من الهبات.

ومثل المرأة والصبي الشيخ الكبير، والأعمى، والزَّمِن، والمعتوه، وكل من ليس من أهل السلاح.

ومن سماحة المسلمين أنهم قرروا أن لا جزية على الراهب المنقطع للعبادة في صومعته؛ لأنه ليس من أهل القتال[١].

يقول المؤرخ الغربي آدم ميتز: (كان أهل الذمة -بحكم ما يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم، ومن حمايتهم لهم- يدفعون الجزية كل منهم بحسب قدرته، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون، وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار)[٢].

على أن هناك علة أخرى لإيجاب الجزية على أهل الذمة، وهي العلة التي تبرر فرض الضرائب من أي حكومة في أي عصر على رعاياها، وهي إشراكهم في نفقات المرافق العامة التي يتمتع الجميع بثمراتها ووجوه نشاطها، كالقضاء والشرطة، وما تقوم به الدولة من إصلاح الطرق وإقامة الجسور، وما يلزمها من كفالة المعيشة الملائمة لكل فرد يستظل بظلها مسلمًا كان أو غير مسلم.

والمسلمون يسهمون في ذلك بما يدفعونه من زكاة عن نقودهم، وتجاراتهم، وأنعامهم، وزروعهم، وثمارهم، فضلًا عن صدقة الفطر وغيرها، فلا عجب أن يطلب من غير المسلمين المساهمة بهذا القدر الزهيد وهو الجزية.

ومن ثم وجدنا كتب الفقه المالكي تضع أحكام الجزية لأهل الذمة في صلب أحكام الزكاة للمسلمين[٣].

إن الجزية بدل عن الحماية العسكرية التي تقوم بها الدولة الإسلامية لأهل ذمته في المرتبة الأولى، فإذا لم تستطع الدولة أن تقوم بهذه الحماية لم يعد لها حق في هذه الجزية أو هذه الضريبة.

---

(١) انظر على سبيل المثال: مطالب أولي النهى بشرح غاية المنتهى في فقه الحنابلة ٢/ ٩٦.

(٢) الحضارة الإسلامية ١/ ٩٦.

(٣) انظر على سبيل المثال: الرسالة لابن أبي زيد مع شرحها لابن ناجي، وزروق ١/ ٣٣١وما بعدها، حيث وضعت الجزية في صلب أبواب الزكاة.

وهذا ما صنعه أبو عبيدة حين أبلغه نوابه عن مدن الشام بتجمع جحافل الروم، فكتب إليهم أن يردوا الجزية عمن أخذوها منه، وأمرهم أن يعلنوهم بهذا البلاغ: إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه قد بلغنا ما جُمِعَ لنا من الجموع، وإنكم اشترطم علينا أن نمنعكم، أي نحميكم إنَّا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشروط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم. رواه أبو يوسف في "الخراج".

وجاء في كثير من العقود التي كتبها قواد المسلمين كخالد وغيره لأهل الذمة مثل هذا النص: إن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم. كما روى ذلك الطبري في تاريخه.

وتسقط الجزية أيضًا باشتراك أهل الذمة مع المسلمين في القتال والدفاع عن دار الإسلام ضد أعداء الإسلام، وقد نص على ذلك صراحة في بعض العهود والمواثيق التي أُبرمت بين المسلمين، وأهل الذمة في عهد عمر رضي الله عنه[1].

أما طريقة جمع الجزية وموعدها فيقول صاحب كتاب "الإسلام وأهل الذمة"[2] أخذًا عن أوثق المصادر: كانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية[3]، وكان يسمح بدفع الجزية نقدًا أو عينًا، لكن لا يسمح بتقديم الميتة، أو الخنزير، أو الخمر بدلًا من الجزية. وأمر عمر بن الخطاب بالتخفيف عن أهل الذمة فقال: من لم يطق الجزية خففوا عنه، ومن عجز فأعينوه؛ فإنا لا نريدهم لعام أو لعامين[4]، وكانت الدولة الإسلامية كثيرًا ما تؤخر موعد تأدية الجزية حتى تنضج المحصولات الزراعية، فيستطيع أهل الذمة تأديتها

---

(١) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان صـ١٥٥ وما بعدها، وراجع على سبيل المثال: فتوح البلدان للبلاذري صـ٢١٧، حيث صالح مندوب أبي عبيدة جماعة الجراجمة المسيحيين أن يكونوا أعوانًا للمسلمين، وعيونًا على عدوهم، وإلا يؤخذوا بالجزية.

(٢) الإسلام وأهل الذمة صـ٧٠-٧١.

(٣) الماوردي الأحكام السلطانية صـ١٣٨.

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٨.

دون أن يرهقهم ذلك، فقال أبو عبيد[١]: وإنما وجه التأخير إلى الغلة للرفق بهم.

واتبعت الدولة الإسلامية الرفق والرحمة في جمع الجزية، فقد قدم أحد عمال عمر بن الخطاب عليه بأموال الجزية فوجدها عمر كثيرة فقال لعامله: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس؟ فقال: لا، والله ما أخذنا إلا عفوًا صفوًا، فقال عمر: بلا سوط، ولا نوط؟ فقال: نعم، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني[٢].

والواجب الثاني على أهل الذمة: أن يلتزموا أحكام الإسلام التي تطبق على المسلمين؛ لأنهم بمقتضى الذمة أصبحوا يحملون جنسية الدولة الإسلامية فعليهم أن يتقيدوا بقوانينها التي لا تمس عقائدهم وحريتهم الدينية.

فليس عليهم أي تكليف من التكاليف التعبدية للمسلمين، أو التي لها صبغة تعبدية أو دينية مثل الزكاة التي هي ضريبة وعبادة في الوقت نفسه، ومثل الجهاد الذي هو خدمة عسكرية وفريضة إسلامية. ومن أجل ذلك فرض الإسلام عليهم الجزية بدلًا من الجهاد والزكاة -كما عرفنا- رعاية لشعورهم الديني أن يفرض عليهم ما هو من عبادات الإسلام.

وليس عليهم في أحوالهم الشخصية والاجتماعية أن يتنازلوا عما أحله له دينهم، وإن كان قد حرمه الإسلام، كما في الزواج، والطلاق، وأكل الخنزير، وشرب الخمر. فالإسلام يقرهم على ما يعتقدون حله، ولا يتعرض لهم في ذلك بإبطال ولا عتاب.

فالمجوسي الذي يتزوج إحدى محارمه، واليهودي الذي يتزوج بنت أخيه، والنصراني الذي يأكل الخنزير، ويشرب الخمر، لا يتدخل الإسلام في شئونهم هذه ما داموا يعتقدون حلها، فقد أمر المسلمون أن يتركوهم وما يدينون، فإذا رضوا بالاحتكام إلى شرع المسلمين في هذه الأمور حكمنا فيهم بحكم الإسلام لقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا

---

(١) الأموال صـ٤٤.

(٢) المصدر السابق صـ٤٣.

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (المائدة: ٤٩).

مراعاة شعور المسلمين:

والواجب الثالث عليهم: أن يحترموا شعور المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، وأن يراعوا هيبة الدولة الإسلامية التي تظلهم بحمايتها ورعايتها.

فلا يجوز لهم أن يسبوا الإسلام ورسوله وكتابه جهرة، ولا أن يروجوا من العقائد والأفكار ما ينافي عقيدة الدولة ودينها، ما لم يكن ذلك جزءًا من عقيدتهم كالتثليث والصلب عند النصارى.

ولا يجوز لهم أن يتظاهروا بشرب الخمر وأكل الخنزير، ونحو ذلك مما يحرم في دين الإسلام، كما لا يجوز لهم أن يبيعوها لأفراد المسلمين، لما في ذلك من إفساد المجتمع الإسلامي.

وعليهم ألا يظهروا الأكل والشرب في نهار رمضان، مراعاة لعواطف المسلمين.

وكل ما يراه الإسلام منكرًا في حق أبنائه، وهو مباح في دينهم، فعليهم -إن فعلوه- ألا يعلنوا به، ولا يظهروا في صورة المتحدي لجمهور المسلمين حتى تعيش عناصر المجتمع كلها في سلام ووئام.

إن التسامح الديني والفكري له درجات ومراتب.

فالدرجة الدنيا من التسامح أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك، أو مذهبك، بحيث إذا أبى حكمت عليه بالموت، أو العذاب، أو المصادرة، أو النفي، أو غير ذلك من ألوان العقوبات والاضطهاد. فتدع له حرية الاعتقاد، ولكن لا تمكنه من ممارسة واجباته الدينية التي تفرضها عليه عقيدته، والامتناع مما يعتقد تحريمه عليه.

والدرجة الوسطى من التسامح أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حرمته، فإذا كان اليهودي يعتقد حرمة العمل يوم السبت فلا يجوز أن يكلف بعمل في هذا اليوم؛ لأنه لا يفعله إلا وهو

يشعر بمخالفة دينه[١].

وإذا كان النصراني يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنسية يوم الأحد فلا يجوز أن يمنع من ذلك في هذا اليوم.

والدرجة التي تعلو هذه في التسامح: ألا تضيق على المخالفين فيما يعتقدون حله في دينهم أو مذهبهم، وإن كنت تعتقد أنه حرام في دينك أو مذهبك. وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح.

فقد التزموا كل ما يعتقده غير المسلم أنه حلال في دينه، ووسعوا له في ذلك، ولم يضيقوا عليه بالمنع والتحريم، وكان يمكنهم أن يحرموا ذلك مراعاة لشريعة الدولة، ودينها، ولا يُتهموا بكثير من التعصب أو قليل ذلك؛ لأن الشيء الذي يحله دين من الأديان ليس فرضًا على أتباعه أن يفعلوه؛ فإذا كان دين المجوسي يبيح له الزواج من أمه أو أخته فيمكنه أن يتزوج من غيرهما ولا حرج وإذا كان دين النصراني يحل له أكل الخنزير؛ فإنه يستطيع أن يعيش عمره دون أن يأكل الخنزير وفي لحوم البقر، والغنم، والطير متسع له.

ومثل ذلك الخمر، فإذا كان الإنجيل قد جاء بإباحتها فليس من فرائض المسيحية أن يشرب المسيحي الخمر.

فلو أن الإسلام قال للذميين دعوا زواج المحارم، وشرب الخمر، وأكل الخنازير مراعاة لشعور إخوانكم المسلمين، لم يكن عليهم في ذلك أي حرج ديني؛ لأنهم إذا تركوا هذه الأشياء لم يرتكبوا في دينهم منكرًا، ولا أخلوا بواجب مقدس.

ومع هذا لم يقل الإسلام ذلك، ولم يشأ أن يضيق على غير المسلمين في أمر يعتقدون حله، وقال للمسلمين: اتركوهم وما يدينون.

---

(١) في غاية المنتهى وشرحه من كتب الحنابلة: ويحرم إحضار يهودي في سبته، وتحريمه باق بالنسبة إليه فيستثني شرعًا من عمل في إجازة، لحديث النسائي والترمذي وصححه: وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت اهـ ٢/ ٦٠٤.

على أن هناك شيئًا آخر لا يدخل في نطاق الحقوق التي تنظمها القوانين، ويلزم بها القضاء، وتشرف على تنفيذها الحكومات.

ذلك هو روح التسامح التي تبدو في حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان، وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية، ولا يُغني فيها قانون ولا قضاء. وهذه الروح لا تكاد توجد في غير المجتمع الإسلامي.

تتجلى هذه السماحة في مثل قول القرآن في شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥).

وفي ترغيب القرآن في البر والإقساط إلى المخالفين الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة: ٨).

وفي قول القرآن يصف الأبرار من عباد الله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨)، ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين.

وفي قول القرآن يجيب عن شبهة المسلمين في مشروعية الإنفاق على ذويهم، وجيرانهم من المشركين المصرين: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

هذا على الرغم مما قاساه من أهل مكة من العنت والأذى هو وأصحابه.

وروى أحمد والشيخان عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: "نعم صلي أمك"(١).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٩.

وفي قول القرآن يبين أدب المجادلة مع المخالفين: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الرسول ﷺ لأهل الكتاب يهودًا كانوا أو نصارى، فقد كان يزورهم ويكرمهم، ويحسن إليهم، ويعود مرضاهم، ويأخذ منهم ويعطيهم.

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الصحابة والتابعين لغير المسلمين، فعمر يأمر بصرف معاش دائم ليهودي وعياله من بيت مال المسلمين ثم يقول: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾، وهذا من مساكين أهل الكتاب[١].

ويمر في رحلته إلى الشام بقوم مجذومين من النصارى فيأمر بمساعدة اجتماعية لهم من بيت مال المسلمين.

وأصيب عمر بضربة رجل من أهل الذمة -أبي لؤلؤة المجوسي- فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده، وهو على فراش الموت فيقول: أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، أن يوفي بعهدِهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم[٢].

وابن عمر يوصي غلامه أن يعطي جاره اليهودي من الأضحية، ويكرر الوصية مرة بعد مرة حتى دهش الغلام، وسأله عن سر هذه العناية بجار يهودي، قال ابن عمر: إن النبي ﷺ قال: "مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[٣].

وماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية فشيعها أصحاب رسول الله ﷺ وكان بعض أجلاء التابعين يعطون نصيبًا من صدقة الفطر لرهبان النصارى، ولا يرون في ذلك حرجًا؛ بل

---

(١) الخراج لأبي يوسف صـ٢٦.

(٢) البخاري (٣٤٩٧).

(٣) البخاري (٥٦٦٩)، مسلم (٢٦٢٤).

ذهب بعضهم كعكرمة، وابن سيرين، والزهري إلى جواز إعطائهم من الزكاة نفسها.

وروى ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد: أنه سُئِل عن الصدقة فيمن توضع؟ فقال: في أهل ملتكم من المسلمين، وأهل ذمتهم[١].

وذكر القاضي عياض في "ترتيب المدارك" قال: حدث الدارقطني: أن القاضي إسماعيل بن إسحاق، دخل عليه الوزير عبدون بن صاعد النصراني وزير الخليفة المعتضد بالله العباسي، فقام له القاضي ورحب به فرأى إنكار الشهود لذلك، فلما خرج الوزير قال القاضي إسماعيل: قد علمت إنكاركم، وقد قال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين، وهو سفير بيننا وبين المعتضد، وهذا من البر[٢].

وتتجلى هذه السماحة بعد ذلك في مواقف كثير من الأئمة والفقهاء، في الدفاع عن أهل الذمة، واعتبار أعراضهم، وحرماتهم كحرمات المسلمين.

ونكتفي هنا بكلمات نيرة للفقيه الأصولي المحقق شهاب الدين القرافي شارحًا بها معنى البر الذي أمر الله به المسلمين في شأنهم، فذكر من ذلك الرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم – على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة واحتمال أذيتهم في الجوار– مع القدرة على إزالته لطفًا منا بهم، لا خوفًا ولا تطيعًا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم...... إلخ[٣].

---

(١) ذكر ذلك ابن حزم في المحلي ٥/ ١١٧.

(٢) المرجع السابق صـ١٧٤.

(٣) الفروق ٣/ ١٥.

وأساس النظرة المتسامحة التي تسود المسلمين في معاملة مخالفيهم في الدين يرجع إلى الأفكار والحقائق الناصعة التي غرسها الإسلام في عقول المسلمين وقلوبهم وأهمها:

١- اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان، أيًّا كان دينه أو جنسه أو لونه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية.

ومن الأمثلة العملية ما ذكرناه من قبل، وهو ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله: أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفًا، فقيل له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي! فقال: "أليست نفسًا؟!"[١].

بلى، ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان، فما أروع الموقف! وما أروع التفسير والتعليل!

٢- ليس المسلم مكلفًا أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب، وجزاؤهم متروك إليه في يوم الدين قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج: ٦٨-٦٩). وقال يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب: ﴿فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٥).

وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد.

٣- إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم على كافر. قال تعالى:

---

(١) رواه البخاري (١٣١٢).

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

وقال ﷺ: "دعوة المظلوم – وإن كان كافرًا – ليس دونها حجاب"[(١)].

كثيرًا ما توضع شرائع حسنة، وأحكام عادلة، ومبادئ قيمة، ولكنها تظل حبرًا على ورق، فلا توضع موضع التنفيذ، ولا يبالي بها الذين في أيديهم سلطة الأمر والنهي والإبرام والنقض.

ولكن ميزة المبادئ والأحكام الإسلامية أنها مبادئ ربانية الأصول دينية الصبغة، ولهذا وجدت من القبول والاستجابة ما لم تجده أي شريعة أخرى أو قانون مما يضع البشر بعضهم لبعض.

وقد حفل الواقع التاريخي للأمة الإسلامية في مختلف عصورها، وشتى أقدارها بأروع مظاهر التسامح الذي لا يزال الناس يتطلعون إليه إلى اليوم في معظم بقاع الأرض فلا يجدونه.

شبهات حول معاملة غير المسلمين

الشبهة الأولى: الجزية.*

يثير المبشرون والمستشرقون قضية الجزية التي غُلِّفَت بظلال كئيبة، وتفسيرات سوداء جعلت أهل الذمة يفزعون من مجرد ذكر اسمها، فهي في نظرهم ضريبة ذل وهوان، وعقوبة فرضت عليهم مقابل الامتناع عن الإسلام.

والجواب عن هذه الشبهة أن الجزية كما تقدم بدل عن فريضتين فرضتا على المسلمين وهما فريضة الجهاد وفريضة الزكاة.

وتتجلى مظاهر التسامح في فرض الجزية على أهل الذمة فيما يلي:

١ – كون الإسلام قد ارتضى من أهل الذمة الجزية ولم يقاتلهم رغم أنهم كفار، هذا في حد ذاته مظهر من مظاهر التسامح والسلام.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٦٧).

* انظر: شبهة (الجزية) تحت أبواب الفقه من هذه الموسوعة فقد فصلنا القول هناك.

٢- إذا نظرنا إلى حكمة تشريع الجزية نجد فيها مظهرًا من مظاهر التسامح والسلام؛ لأن الجزية في الواقع ونفس الأمر ليست سوى ضريبة دفاع على حد تعبيرنا المعاصر؛ لأنها مقابل مادي نظير ما يتمتع به أهل الذمة من حماية في ديار الإسلام، وهذه الحماية لا تقدر بمال.

٣- وإذا كانت الجزية ضريبة دفاع فأي غضاضة في أن يدفع أهل الذمة هذه الضريبة؟

مع العلم بأن التشريعات الوضعية قد ألزمت المواطنين كلهم مسلمين وغير مسلمين بدفع الضرائب المختلفة كالضريبة على إيرادات رؤوس الأموال المنقولة، والضريبة على الأرباح التجارية والصناعية والضريبة على المرتبات، والضريبة على أرباح المهن غير التجارية، والضريبة العامة على الدخل. . . . . إلخ

٤- حرم الإسلام تكليف أهل الذمة ما لا قدرة لهم عليه، كما حرم ضربهم أو تعذيبهم أو حبسهم على أداء الجزية[1].

وهذه شهادات منصفة من باحثين غربيين تتحدث عن الجزية وهاهي بعض نصوصها:

١- إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئًا ضئيلًا من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية[2].

٢- إن هذه الإتاوات المفروضة كانت سببًا لهذه السهولة الغريبة التي صادفها المسلمون في فتوحاتهم، فالشعوب رأت بدل أن تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم التي تخيلها حرص الأباطرة أن تخضع لأداء جزية خفيفة يمكن توفيتها بسهولة، وتسلمها بسهولة كذلك[3].

٣- تكلمت لورافيشيا فاغليري عن المعاهدات التي وقعها المسلمون مع الذميين، وقالت عن هذه الاتفاقيات: منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة،

---

(١) انظر حولية كلية أصول الدين العدد التاسع صـ١٠٠-١٠٢.

(٢) القول للعلامة دريبر، راجع: روح الدين الإسلامي صـ٣٩٢.

(٣) القول لمونتسيكو في كتابه روح الشرائع.

وتقاليدها القديمة شرط أن يدفع الذين لا يرضون الإسلام دينًا ضريبة عادلة إلى الحكومة تعرف بالجزية لقد كانت هذه الضريبة أخف من الضرائب التي كان المسلمون ملزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها، ومقابل ذلك منح أولئك الرعايا المعروفون بأهل الذمة حماية لا تختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الإسلامية نفسها، ولما كانت أعمال الرسول والخلفاء الراشدين قد أصبحت فيما بعد قانونًا يتبعه المسلمون فليس من الغلو أن تصرَّ على أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامح الديني؛ بل تجاوز ذلك ليجعل التسامح جزءًا من شريعته الدينية[1].

٤- وقالت فاغليري أيضًا: ادفعوا جزية يسيرة تسبغ عليكم حماية كاملة، أو اتخذوا الإسلام دينًا وادخلوا في ملتنا فتتمتعوا بالحقوق نفسها التي نتمتع بها نحن[2].

٥- ويقول لوبون: جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من ضرائب[3].

قال شيخ المؤرخين المعاصرين توينبي: من الميسور أن نسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوًّا في تجسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية؛ إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف، وإنما كان تخييرًا بين الإسلام والجزية، وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الإنجليزية على عهد الملكة إليزابيث، فكيف يعتبر مبدأ الإسلام أو الجزية في الشرق منكرًا وقسوة وعارًا، بينما ينظر إلى مبدأ المسيحية أو الجزية في الغرب في إنجلترا بالذات على أنه خطة حكيمة تستحق الثناء؟ أليس هذا تحاملًا؟! !

يقول المؤرخ سير توماس أرنولد[1]: ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين -كما يريدنا بعض الباحثين على الظن- لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن

---

(١) دفاع عن الإسلام صـ٣٤-٣٥.

(٢) دفاع عن الإسلام صـ٣٢.

(٣) حضارة العرب صـ١٣٤.

قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم. [٢]

الشبهة الثانية: ملابس أهل الذمة

ومن هذه الشبهات التي ضخمها المستشرقون ما يتعلق بملابس أهل الذمة، وما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اشترط عليهم ألا يتشبهوا بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم ونعالهم، وأن يضعوا في أوساطهم أو على أكتافهم شارات معينة تميزهم عن المسلمين وينسب ذلك إلى عمر بن العزيز أيضًا.

الجواب عن هذه الشبهة:

يقول الدكتور الخربوطلي[٣]: ونحن نرى أنه لو افترضنا جدلًا حقيقة هذه الأوامر الصادرة عن الخليفتين، فقد كان هذا لا غبار عليه، فهو نوع من التحديد للملابس في نطاق الحياة الاجتماعية، للتمييز بين أصحاب الأديان المختلفة، وخاصة أننا في وقت مبكر من التاريخ ليس فيه بطاقات تثبت الشخصية، وما تحمله عادة من تحديد الجنسية والدين والعمر وغير ذلك. فقد كانت الملابس المتميزة هي الوسيلة الوحيدة لإثبات دين كل من يرتديها، وكان للعرب المسلمين ملابسهم كما للنصارى أو اليهود أو المجوس ملابسهم أيضًا، وإذا كان المستشرقون قد اعتبروا أن تحديد شكل ولون الثياب هو من مظاهر الاضطهاد، فنحن نقول لهم: إن الاضطهاد في هذه الصورة يكون قد لحق بالمسلمين، وأهل الذمة على السواء، وإذا كان الخلفاء ينصحون العرب والمسلمين بألا يتشبهوا بغيرهم، فمن المنطقي أن يأمروا غير

---

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ٧٩-٨١.

(٢) راجع تفصيل ذلك كله في شبهة الجزية من هذه الموسوعة.

(٣) الإسلام وأهل الذمة صـ٨٦-٨٧.

العرب وغير المسلمين أن لا يتشبهوا بالعرب المسلمين.

الشبهة الثالثة: ختم رقاب أهل الذمة.

ومن هذه الشبهات مسألة ختم رقاب أهل الذمة وشبهتهم هذه تقوم على تصوير الأمر كما يلي:

١- إن هذا الختم أمر دائم ومستمر.

٢- إن المسلمين هم مبتكرو هذا النظام.

٣- إنه يحمل صورة الإذلال والاضطهاد لأهل الذمة.

الجواب عن هذه الشبهة:

والحقيقة أن هذه الأمور الثلاثة غير صحيحة، كما بين ذلك المنصفون من مؤرخي المستشرقين أنفسهم الذين درسوا قضية أهل الذمة درسًا فاحصًا.

ومن أبرز هؤلاء المستشرق ترتون صاحب كتاب "أهل الذمة في الإسلام".

أما الأمر الأول: فقد ذكر اليعقوبي المؤرخ أن ختم الرقاب كان وقت جباية جزية رؤوسهم ثم تكسر الخواتيم(١). وقال أبو يوسف: ينبغي أن تختم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم(٢).

وأما الأمر الثاني: فيقول ترتون: من الحق ألا نحمل العرب وزر هذا العيب إذ لم يكونوا فيه إلا مقلدين لما اتبعه البيزنطيون قبلهم(٣).

وأما الأمر الثالث: فيذكر الدكتور علي حسن الخربوطلي في كتابه "الإسلام وأهل الذمة"(٤): أن السياسة التي سار عليها المسلمون في ختم الرقاب وقت تأدية الجزية، جريًا على ما كان متبعًا عند الرومان البيزنطيين. ليست صورة لاضطهاد أو إذلال، ولكنها -كما

---

(١) تارخ اليعقوبي ٢/ ١٣٠، نقلًا عن الإسلام وأهل الذمة صـ٧١.

(٢) الخراج لأبي يوسف صـ٧٢، المصـدر السابق.

(٣) أهل الذمة في الإسلام صـ١٣٢، نفس المصـدر.

(٤) الإسلام وأهل الذمة صـ٧٢.

يقول الدكتور بحق- وسيلة لمعرفة وتمييز من أدى الضريبة ومن لم يؤدها، وخاصة أن الطباعة لم تكن قد ظهرت بعد، وكان من العسير تدوين إيصالات واضحة ثابتة، تثبت تأدية الجزية ولا يمكن تزييفها، وما زالت بعض الدول الأفريقية والآسيوية في القرن العشرين تتبع هذه السياسة في الانتخابات، فيقومون بختم أيدي الناخبين بنوع من الأختام لا تزول إلا بعد يومين أو أكثر حتى لا يعطي صوته أكثر من مرة.

الشبهة الرابعة:

قالوا: إن التاريخ يثبت أن هناك فترات من التوتر الديني والطائفي بين المسلمين وغير المسلمين.

الجواب:

إن تاريخ التسامح الإسلامي مع أهل الأديان الأخرى تاريخ ناصع البياض، وقد رأينا كيف عاش هؤلاء في غاية من الأمان، والحرية، والكرامة باعتراف المؤرخين المنصفين من الغربيين أنفسهم، ولكن قومًا لبسوا مسوح العلم يريدون أن يقولوا في هذا التاريخ ما لم يقله، ويحملوه ما لم يحمله عنوة وافتعالًا، يصطادون في الماء العكر.

وفي سبيل هذه الغاية الشريرة جهدوا جهدهم أن يشوهوا تاريخ التسامح الإسلامي الذي لم تعرف له الإنسانية نظيرًا. متذرعين بحوادث جزئية قام بها بعض العوام أو الرعاع في بعض البلاد، وبعض الأزمان نتيجة لظروف وأسباب خاصة تحدث في كل بلاد الدنيا إلى يومنا هذا.

وفي شهادة لمؤرخ نصراني معاصر هو الدكتور جاك تاجر (١٣٣٦-١٣٧١هـ) (١٩١٨-١٩٥٢م) يقول: إن الأقباط قد استقبلوا العرب كمحررين بعد أن ضمن لهم العرب عند دخولهم مصر الحرية الدينية، وخففوا عنهم الضرائب، ولقد ساعدت الشريعة الإسلامية الأقباط على دخولهم الإسلام وإدماجهم في المجموعة الإسلامية بفضل إعفائهم من الضرائب، أما الذين ظلوا مخلصين للمسيحية فقد يسر لهم العرب سبل كسب المعيشة، إذ وكلوا لهم أمر الإشراف على دخل الدولة[1]، وهذه السماحة الإسلامية التي

(١) د/ جاك تاجر أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢ صـ٣٠٩-٣١٥.

تحدثت عنها هذه الشهادات النصرانية الشرقية، والتي أكدت وتؤكد أن هذه السماحة لم تقف فقط عند الدين وإنما امتدت لتترك جهاز الدولة أيضًا لأهل البلاد قد شهد بحقيقتها المستشرق الألماني الحجة آدم متز (١٨٦٩-١٩١٧م) عندما قال: لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام[١]، وحتى فترات التوتر الديني والطائفي التي شهدها التاريخ الإسلامي بين المسلمين وغير المسلمين التي ما كان متصورًا لهذا التاريخ الطويل أن يخلو منها؛ فإن سماحة الإسلام قد ظلت بريئة منها وذلك بشهادة المؤرخين الثقات من غير المسلمين، والذي يقول واحد منهم وهو المؤرخ الاجتماعي اللبناني جورج قرم عن أسباب هذا التوتر الطائفي الذي كان عابرًا كسحب الصيف في سماء ذلك التاريخ الطويل يقول هذا المؤرخ النصراني عن أسباب هذا التوتر: إنها محصورة في ثلاثة أسباب:

١- المزاج الشخصي المختل لحكام اضطهدوا الأغلبية المسلمة مع الأقليات غير المسلمة.

٢- الظلم والاستعلاء الذي مارسته الزعامات النصرانية واليهودية التي قبضت على جهاز الدولة المالي والإداري؛ فاضطهدت جمهور المسلمين الفقراء: الأمر الذي ولد ردود أفعال لم تقف عند الذين ظلموا منهم خاصة.

٣- استجابة قطاعات من أبناء الأقليات لغوايات الغزاة الغربيين الأمر الذي ولد ردود أفعال عنيفة عقب الغزوات الغربية، طالت قطاعات من أبناء هذه الأقليات.

لقد حصر جورج قرم التوتر الطائفي الذي مر بتاريخ السماحة الإسلامية في هذه الأسباب الثلاثة فقال: إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة يحكمها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصي فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل العباسي (٢٠٦-٢٤٧هـ) (٨٢١-٨٦١م) الخليفة الميال بطبعه إلى

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ١٠٥، ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة.

التعصب والقسوة، وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٧٥-٤١١هـ) (٩٨٥-١٠٢١م) الذي غالى في التصرف معهم بشدة.

العامل الثاني: هو تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين والظلم الذي يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار.

أما العامل الثالث: فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدارج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة. إن الحكام الأجانب بمن فيهم الإنجليز لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب، وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضًا حيث أظهرت أبحاث جب بولياك (١٨٩٥-١٩٧١م) كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان سنة ١٨٤٠م، وسنة ١٨٦٠م، ونهايات الحملات الصليبية قد أعقبتها في أماكن عديدة أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية ولا سيما الأرمن التي تعاونت مع الغازي.

بل إنه كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي -حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح- سببًا في نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز، وفي مراعاتهم وتحيزهم إلى حد الصفاقة أحيانًا لأبناء دينهم ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة[1].

تلك هي السماحة الإسلامية كما تجلت في القرآن الكريم، وفي البيان النبوي للبلاغ القرآني وكما تجسدت في المواثيق الدستورية، وفي الحياة العملية، والواقع المعيش للدولة

(١) جورج قرم. تعدد الأديان ونظم الحكم دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة صـ٢١١-٢٢٤، والنقل عن د/ سعد الدين إبراهيم . الملل والنحل والأعراق صـ٧٢٩-٧٣٠.

الإسلامية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، وكما شهدت بها المصادر التي كتبها المؤرخون الثقات من النصارى الشرقيين والغربيين القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين الذين تعمدنا الاعتماد على شهاداتهم – هم وحدهم- دون شهادة المؤرخين المسلمين، وذلك عملًا بمنهاج ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ على هذه السماحة الإسلامية التي تفرد بها الإسلام، والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام.

الشبهة الخامسة:

يستشهد بعض الغربيين بحوادث العنف التي تقع من بعض المسلمين على عدم سماحة الإسلام، وأنه دين مبني على العنف والإرهاب.

والجواب عن هذه الشبهة:

في الوقت الحاضر تعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي وهي شاهد على سماحة الإسلام وهذا جعل المستشرق الإنجليزي توماس آرنولد[1] يقول: إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح.

يقول د/ مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق في محاضرة ألقاها في جامعة الأزهر، مصر بتاريخ ١٠ مايو (آيار) ١٩٩٨، قال فيها: لم يكن الرسول الكريم سياسيًا حصيفًا فحسب، وإنما كان قدوة في السماحة في قمة درجاتها، والاعتدال في أرقى صوره حتى في تعامله مع ألد أعدائه.

ويقول: ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان في هذا المقام هل يلتزم المسلمون بتعاليم الإسلام الداعية إلى التسامح والاعتدال؟ والإجابة بالإيجاب. لماذا؟ لأن الملايين من المسلمين، أو فلنقل الغالبية العظمى من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها

---

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ٧٠.

ملتزمون بتعاليم الدين الحنيف التي تدعوهم إلى التسامح والاعتدال، ولكن كما في أي مجتمع، أو في أي تجمع، أو في أي دين، هناك من هم خارجون عن الإجماع، وهناك من هم استثناء من القاعدة العامة.

ولماذا نذهب بعيدًا، أليس من بين المسيحيين من هم أكثر تطرفًا وعنفًا من المسلمين والذين يسمونهم بالمتعصبين أو المتطرفين؟ لقد رأينا مثل هؤلاء المسيحيين في البوسنة والهرسك يقتلون الرجال، والنساء، والأطفال، ويغتصبون ويعذبون إخوانهم في الوطن لمجرد أنهم مسلمون، ولوعدنا إلى وقائع التاريخ في العصر الوسيط لرأينا محاكم التفتيش الأسبانية التي ظلت تمارس عملها لمدة ثلاثمائة عام في تعذيب المسلمين، وملاحقتهم، وطردهم من الأندلس؛ بل وصل الحال بها إلى أنها كانت تحقق حتى مع من ارتدوا منهم إلى المسيحية للتأكد من أن ردتهم قد جاءت عن اقتناع، وليس من أجل الهروب من الملاحقة، والاضطهاد، والتعذيب، والإحراق.

وفي أيرلندا كيف كان عدم التسامح قائمًا حتى بين المسيحيين من طائفتي البروتستانت والكاثوليك؟ وكيف أدى عدم التسامح هذا إلى حرب ضروس بين الطائفتين ظلت مشتعلة لفترة طويلة من الزمن، كما رأينا كيف أدى تعصب الميليشيات المسيحية المسلحة في لبنان إلى اندلاع نيران الحرب الطائفية هناك، والتي أتت على الأخضر واليابس في هذا البلد الجميل الذي كان درة البلدان.

أمّا اليهود وأما الصهيونية فحدث ولا حرج عن جرائمهم البشعة.

إننا نرى التطرف وعدم التسامح في إسرائيل من بنيامين نتنياهو إلى شارون وجميع قادتهم من جهة، وقادة الأحزاب الدينية المسرفة في التطرف وفي الإرهاب، والذين نسوا ما تعرضوا له من اضطهاد في أوروبا، ويقومون اليوم بممارسة ظلم أنكى، واضطهاد أشد ضد العرب من مسلمين ومسيحيين، وإجبار هؤلاء العرب على العيش في أحياء منعزلة فقيرة ومعدمة كالتي فرضها عليهم هتلر في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية.

وفي الهند نرى التطرف من جانب الهندوس ضد المسلمين، وفي بلدان آسيوية أخرى نرى تطرفًا بوذيًّا ضد أصحاب الأديان الأخرى.

خلاصة القول؛ هو أن لا أحد يستطيع الادعاء أن التسامح والاعتدال حكر عليه من دون غيره، ففي كل مجتمع سوف يكون هناك نوع من الزيغ والضلال، وسوف تكون هناك قلة شاذة أو خارجة عما هو مألوف ومتفق عليه!.

الوجه السادس: معاملة المستأمن في دولة الإسلام.

تعريف المستأمن:

قال ابن منظور: " استأمن إليه: دخل في أمانه، وقد أمنه وآمنه، والمأمن: موضع الآمن، والأمن: المستجير ليأمن على نفسه "[١]، وقال الجوهري: " الأمان والأمانة بمعنى، وآمنت غيري من الأمن والأمان "[٢].

فالأمان يعتمد على ركنين أساسيين، هما المؤمن والمستأمن، فالمستأمن: هو من طلب الأمان لنفسه ليدخل بلاد المسلمين مدة معلومة.

والمؤَمِّن: هو الذي يعطي الأمان، والأصل في هذا أنه الإمام أو نائبه؛ لأنه ينظر إلى ما فيه مصلحة المسلمين، ويجوز أن يكون المؤمن من أفراد الرعية من المسلمين المكلفين ذكورًا كانوا أو إناثًا، والحر والعبد في ذلك سواء، هذا ما عليه جمهور أهل العلم، وخالف أبو حنيفة في أمان العبد، فإنه لا ينعقد عنده إلا أن يكون مأذونًا له في القتال.

أما صيغ الأمان فغير مقيدة بصيغة معينة، وليس له لفظ خاص به؛ بل يكفي في ذلك أي لفظ يؤدي المقصود، سواء كان صريحًا كآجرتك وأمنتك أو لا بأس عليك أو لا فزع أو لا خوف ونحوه، أو كناية بنية كقوله: كن كيف شئت، أو أنت على ما تحب، ويصح أيضًا بالمكاتبة والمراسلة ونحو ذلك[٣].

---

(١) لسان العرب ١٣/ ٢٢.

(٢) الصحاح ٥/ ٢٠٧١.

(٣) ينظر لما سبق: حاشية ابن عابدين ٣/ ٢٤٧.

قال ابن قدامة: "إذا دخل حربي دار الإسلام بغير أمان، وادعى أنه رسول قبل منه، ولم يجز التعرض له؛ لقول النبي ﷺ لرسولي مسيلمة "لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما""[١]. ولأن العادة جارية بذلك، وإن ادعى أنه تاجر، وقد جرت العادة بدخول تجارهم إلينا، لم يعرض له إن كان معه ما يبيعه؛ لأنهم دخلوا يعتقدون الأمان، أشبه ما لو دخلوا بإشارة مسلم، قال أحمد: " إذا ركب القوم في البحر، فاستقبلهم فيه تجار مشركون من أرض العدو ويريدون بلاد الإسلام لم يعرضوا لهم، ولم يقاتلوهم، وكل من دخل بلاد المسلمين من أرض الحرب بتجارة بويع، ولم يسأل عن شيء""[٢].

الأدلة على مشروعية الأمان من الكتاب والسنة

الأصل في الأمان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه وإن استأمنك - يا محمد - من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحد ليسمع كلام الله منك، وهو القرآن الذي أنزل الله عليه، (فَأَجِرْهُ) يقول: فأمنه﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وتتلوه عليه: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾يقول ثم رده بعد سماعه كلام الله إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ بما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن إلى: (مَأْمَنَهُ) يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين "[٣].

وقال ابن كثير: " يقول - تعالى - لنبيه ﷺ عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم (اسْتَجَارَكَ) أي: استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين

---

(١) رواه أحمد (١٥٩٨٩) وأبو داود (٢٧٦٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٢٠) .

(٢) الشرح الكبير ١٠/ ٣٥٨، والحديث رواه أبو داود في سننه ٢/ ٧٦ وأحمد في مسنده ١/ ٣٩١.

(٣) تفسير الطبري١١/ ٣٤٦.

تقيم به عليه حجة الله: ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده "[١].

والدليل عليه من السنة ما رواه علي ﷺأن النبي ﷺ قال: "ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منهم صرف ولا عدل"[٢]. ورُوي أيضًا عن أم هانئ ﵂ أنها قالت: يا رسول الله، قد أجرت أحمائي وأغلقت عليهم، وإن ابن أمي أراد قتلهم، فقال لها رسول الله ﷺ : "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، إنما يجير على المسلمين أدناهم"[٣]. ، وأجارت زينب بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها أبا العاص بن الربيع، فأمضاه ﷺ لها[٤].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه ﷺ أنه قال: "يد المسلمين على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، ويجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم"[٥].

الفرق بين الأمان والذمة والهدنة.

لابن القيم - رحمه الله تعالى - كلام نفيس في الفرق بين هذه المصطلحات الثلاثة وما يترتب عليها من أحكام، حيث يقول: " الكفار إما أهل حرب وإما أهل عهد؛ وأهل العهد ثلاثة أصناف: أهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان، وقد عقد الفقهاء لكل صنف بابًا فقالوا: باب الهدنة، باب الأمان، باب عقد الذمة، ولفظ الذمة والعهد يتناول هؤلاء كلهم في الأصل، وكذلك لفظ الصلح، فإن الذمة من جنس لفظ العهد والعقد، وقولهم: هذا في ذمة فلان أصله

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٣٧.

(٢) رواه البخاري (٣٠٠٨)، ومسلم (١٣٧١).

(٣) رواه البخاري (٣٥٠)، مسلم (٣٣٦).

(٤) رواه عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٢٢٤- ٢٢٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٩٥.

(٥) رواه أحمد في المسند ٢/ ١٨٠، وابن خزيمة في صحيحه ٤/ ٢٦.

من هذا، أي: في عهده وعقده، أي: فألزمه بالعقد والميثاق، ثم صار يستعمل في كل ما يمكن أخذ الحق من جهته، سواء وجب بعقده أو بغير عقده، وهكذا لفظ الصلح عام في كل صلح، وهو يتناول صلح المسلمين، بعضهم مع بعض وصلحهم مع الكفار، ولكن صار في اصطلاح كثير من الفقهاء أهل الذمة عبارة عمن يؤدي الجزية، وهؤلاء لهم ذمة مؤبدة، وهؤلاء قد عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكم الله ورسوله؛ إذ هم مقيمون في الدار التي يجري فيها حكم الله ورسوله، بخلاف أهل الهدنة فإنهم صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم، سواء كان الصلح على مال أو غير مال، لا تجري عليهم أحكام الإسلام كما تجري على أهل الذمة، ولكن عليهم الكف عن محاربة المسلمين، وهؤلاء يسمون أهل العهد وأهل الصلح وأهل الهدنة، وأما المستأمن فهو الذي يقدم بلاد المسلمين من غير استيطان لها، وهؤلاء أربعة أقسام: رسل وتجار ومستجيرون، حتى يعرض عليهم الإسلام والقرآن، فإن شاؤوا دخلوا فيه، وإن شاؤوا رجعوا إلى بلادهم، وطالبوا حاجة من زيارة أو غيرها، وحكم هؤلاء ألا يهاجروا ولا يقتلوا ولا تؤخذ منهم الجزية، وأن يعرض على المستجير منهم الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذاك وإن أحب اللحاق بمأمنه ألحق به، ولم يعرض له قبل وصوله إليه فإذا وصل مأمنه عاد حربيًّا كما كان"(١).

ففي تقريره - رحمه الله - عدة فوائد منها:

ذكر حقوق أهل الذمة، وأهل الهدنة، والمستأمنين. فجميعهم في طور العهد.

ومنها: وجوب الوفاء لهم ما أوفوا.

ومنها: جواز دخول التجار والرسل والعمال وأهل الحرف والصناعات ونحوهم.

ومنها: أن أحكام الشرع تطبق على المعاهدين إذا كانوا يقيمون في الدار التي يجري فيها حكم الله ورسوله.

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢/ ٨٧٣.

ومنها: أنه لا تطبق أحكام الإسلام على أهل الهدنة إذا كانوا يقيمون في ديارهم.

ومنها: جواز إعطاء أهل العهد الرخصة لزيارة أو حاجة تفيد المسلمين. فالمسلمون قد يحتاجون إلى غيرهم في الصناعة والتجارة ونحو ذلك، كالعلوم اللازمة لتقوية الشوكة والدفاع. أو في شؤون الزراعة أو الاقتصاد، فليس هناك حرج في دخول غير المسلمين في دار الإسلام من أجل هذه المقاصد بعقد وعهد.

قال شيخ الإسلام:" ولهذا ذهب طائفة من العلماء كمحمد بن جرير الطبري إلى أن الكفار لا يقرون في بلاد المسلمين بالجزية، إلا إذا كان المسلمون محتاجين إليهم، فإذا استغنوا عنهم أجلوهم كأهل خيبر، وفي هذه المسألة نزاع ليس هذا موضعه، والمقصود هنا أن الناس إذا احتاجوا إلى الطحانين والخبازين، فهذا على وجهين: أحدهما: أن يحتاجوا إلى صناعتهم، كالذين يطحنون ويخبزون لأهل البيوت، فهؤلاء يستحقون الأجرة، وليس لهم عند الحاجة إليهم أن يطالبوا إلا بأجرة المثل كغيرهم من الصنّاع، والثاني: أن يحتاجوا إلى الصنعة والبيع فيحتاجون إلى من يشتري الحنطة ويطحنها وإلى من يخبزها ويبيعها خبزًا لحاجة الناس. . . "[1].

وقال ابن عثيمين: "أنا أوافق على أنه ليس عندنا أهل ذمة، لأن أهل الذمة هم الذين يخضعون لأحكام الإسلام، ويؤدون الجزية وهذا مفقود من زمان طويل، ولكن لدينا معاهدون ومستأمنون ومعاهدون معاهدة عامة ومعاهدة خاصة فمن قدم إلى بلادنا من الكفار لعمل أو تجارة وسمح له بذلك فهو إما معاهد أو مستأمن لا يجوز الاعتداء عليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة"[2] فنحن مسلمون مستسلمون لأمر الله ﷻ محترمون لما اقتضى الإسلام احترامه من أهل العهد والأمان، فمن أخل بذلك فقد أساء للإسلام وأظهره للناس بمظهر الإرهاب والغدر والخيانة، ومن التزم أحكام الإسلام واحترم العهود والمواثيق فهذا هو الذي يرجى خيره وفلاحه".

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٨٩.

(٢) رواه البخاري (٣١٦٦).

فهؤلاء ومن على شاكلتهم مستأمنون لا يجوز قتالهم ولا التعرض لهم أو أذيتهم.

الواجب على المسلمين تجاه المستأمنين:

جعل الإسلام في شريعته الغراء حقوقًا واجبة للمستأمنين يجب الوفاء بها وأداؤها تجاههم، وأرشد المسلمين إلى كيفية التعامل معهم، كما أوجب عليهم حقوقًا تجاه المسلمين الذين أمنوهم في ديارهم. فمن تلك الحقوق الواجبة على المسلمين تجاههم:

١ ـ العدل معهم وعدم التعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم؛ بل ولا يجوز ترويعهم وإخافتهم، ويعاملون بالعدل والقسط.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

قال البيضاوي:" لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيًّا مما في قلوبكم: ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ، أي: العدل أقرب للتقوى، صرَّح لهم بالأمر بالعدل، وبيَّن أنَّه بمكانٍ من التقوى بعدما نهاهم عن الجور، وبيَّن أنَّه مقتضى الهوى، وإذا كان هذا العدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟"[١].

وقال ابن كثير: " ومن هذا قول عبد الله بن رواحة ﷺ لما بعثه النبيّ ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبِّي إيّاه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض[٢].

وعن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال: ":« أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا وَانْتَقَصَهُ وَكَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٦٥، والحديث رواه أحمد في مسنده ٢/ ٢٤.

بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِﷺ بِإِصْبَعِهِ إِلَى صَدْرِهِ :« أَلاَ وَمَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَهُ ذِمَّةُ الله وَذِمَّةُ رَسُولِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا ». (١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول اللهﷺ: "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا" رواه البخاري. (٢).

وصور تطبيق هذه التعاليم والأحكام في تاريخ المسلمين كثيرة ومتنوعة، فقد كان عمر رضي الله عنه يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة والمعاهدين، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: " ما نعلم إلا وفاء " أي: وفاء بمقتضى العقد والعهد الذي بينهم وبين المسلمين(٣).

ودخل ذمِّيٌّ من أهل حمص أبيض الرأس واللحية على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله. قال عمر: ما ذاك؟ قال: العبّاس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. وكان عددٌ من رؤوس النّاس، وفيهم العباس بمجلس عمر، فسأله: يا عبّاس ما تقول؟ قال: نعم، أقطعنيها أبِي أمير المؤمنين، وكتب لي بِها سجلًا. فقال عمر: ما تقول يا ذمّيّ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله تعالى. فقال عمر: نعم، كتاب الله أحقّ أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته يا عبّاس(٤).

قال ابن القيم رحمه الله: " أحكام المستأمن والحربي مختلفة؛ لأن المستأمن يحرم قتله، وتضمن نفسه ويقطع بسرقة ماله، والحربي بخلافه "(٥).

---

(١) رواه البيهقي في سننه ٩/ ٢٠٥.

(٢) رواه البخاري (٣١٦٦).

(٣) تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٢١٨.

(٤) صفة الصفوة ٢/ ١١٥.

(٥) أحكام أهل الذمة ٢/ ٧٣٧.

وقال ابن باز: " لا يجوز قتل الكافر المستأمن الذي أدخلته الدولة آمنًا، ولا قتل العصاة ولا التعدي عليهم؛ بل يحالون للحكم الشرعي، هذه مسائل يحكمها الحكم الشرعي "(١).

٢ ـ دعوتهم إلى الإسلام وبيان أحكامه بعلم وحكمة وأسلوب حسن

فمن خصائص هذا الدين أنه عالمي الرسالة، ليس مقصورًا على قوم أو بلد أو زمان، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

وعن أبي هريرة ﷺعن رسول الله ﷺ أنّه قال: "والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بِي أحد من هذه الأمّة؛ يهوديّ ولا نصرانِيّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلاّ كان من أصحاب النار"(٢).

قال النووي: " فيه نسخ الملل كلها برسالة نبيناﷺ"(٣).

إن من سماحة هذا الدين أنه أذن لغير أهله من أهل الذمة والمعاهدين والمستأمنين أن يعيشوا في أرضه مع بقائهم على دينهم وعدم إكراههم على الإسلام، ولم يخل عصر من العصور من وجود غير المسلمين داخل المجتمع المسلم، يعيشون بين المسلمين، وينعمون بالأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يعني بقاؤهم داخل المجتمع المسلم بأي وجه من الوجوه الرضا بما هم عليه من الكفر بالله، فإن الله - تعالى - لا يرضى لعباده الكفر، وإنما أذن الشارع لهم بالبقاء لحكم عديدة منها:

- أن يخالطوا المسلمين ويتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه وينظروا فيها، فيجدوها مؤسسة على ما تحتمله العقول وتقبله، فيدعوهم ذلك إلى الإسلام، ويرغبهم فيه، فيدخلوا فيه، وهذا أحب إلى الله من قتلهم. والمقصود من ذلك أن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، وعدم اختلاطهم بالمسلمين يفوت هذه المصلحة، وهي معرفتهم بالإسلام.

---

(١) مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري ٢٩.

(٢) رواه مسلم ٢/ ١٨٦.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١٨٨.

قال السبكي رحمه الله: "وعدم اختلاطهم يبعدهم عن معرفة محاسن الإسلام، ألا ترى من الهجرة إلى زمن الحديبية لم يدخل في الإسلام إلا قليل، ومن الحديبية إلى الفتح دخل فيه نحو عشرة آلاف؛ لاختلاطهم بهم، للهدنة التي حصلت بينهم فهذا هو السبب في مشروعية عقد الذمة"[١].

٣ـ الإحسان إلى المحتاج منهم بالصدقة والصلة:

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

وعن أسماء بنت أبي بكر ﵄، قالت: قدمت عليَّ أمي، وهي مشركة في عهد قريشٍ إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فاستفتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إنّ أمي قدمت عليَّ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: "نعم، صليها"[٢]. وأنزل الله تعالى فيها: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ الآية[٣].

وعن ابن عمر ﵄ أنّ عمر بن الخطاب ﵁ رأى حلة سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها للناس يوم الجمعة، وللوفد إذا قدموا عليك. فقال رسول الله ﷺ: "إنّما يلبس هذه مَن لا خلاق له في الآخرة"، ثم جاءت رسولَ الله ﷺ منها حللٌ، فأعطى عمر منها حلة. فقال عمر: يا رسول الله كسوتنيها، وقد قلتَ في حلة عُطارد ما قلت؟ فقال رسول الله ﷺ: "إنّي لم أكسكها لتلبسها" فكساها عمر أخًا له مشركًا بمكة[٤].

قال النوويّ:" وفي هذا دليل لجواز صلة الأقارب الكفار، والإحسان إليهم، وجواز

---

(١) الفتاوى ٢/ ٤٠٤.

(٢) رواه البخاري(٥٩٧٩).

(٣) ينظر: الدر المنثور ٨/ ١٣٠ - ١٣١، حيث عزاه لابن المنذر وغيره.

(٤) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٢٠٦٨).

الهدية إلى الكفار"[١]. والمشركون بمكة كانوا أهل حربٍ.

ومن الإحسان: الإحسان إلى الحربِي الأسير، قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ قال قتادة: " لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم، وإنهم يومئذ لمشركون "[٢]. ، وقال الحسن: " كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية "[٣]. ، وقال الطبريّ: " هو الحربي من أهل دار الحرب، يؤخذ قهرًا بالغلبة، أو من أهل القبلة يؤخذ فيحبس بحقّ "[٤].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ٣٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٣٧١، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٣٧١، وعزاه لابن مردويه وغيره.

(٤) تفسير الطبري ٢٦/ ٥٤٣- ٥٤٤، وانظر: في هذا المبحث إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه. د/ بدر بن ناصر البدر اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب.

الفصل الثالث: نقد المشككين.

الوجه الأول: الفتح الإسلامي والاستعمار الغربي.

الاستعمار سيطرة فرد على فرد، أو جماعة على جماعة، أو دولة على دولة بغية الاستغلال.

وبعد الكشوف الجغرافية في العصر الحديث عرف العالم تنافسًا استعماريًّا محمومًا، انحسر عن أنواع من الاستعمار أهمها:

١- الاستعمار الاستيطاني: وهو أن تقوم دولة بإبادة السكان الأصليين أو إجلائهم لتملأ البلاد بأبنائها. كما حدث في أمريكا عند إبادة الهنود الحمر، وفي أسترالية عند إبادة السكان الاستراليين الأصليين، وفي فلسطين عندما أجلي السكان الأصليون عنها وشردوا.

٢- الاستعمار العسكري: وهو سيطرة أجنبية بجيوش مقيمة تتصرف بشؤون البلاد تصرفًا مطلقًا، وتستغلها أبشع استغلال، كما حدث في الهند أيام الاستعمار البريطاني لها.

٣- الحماية: السيطرة على الشؤون الخارجية والأمن والدفاع والاقتصاد. . . مع بقاء مظهر من مظاهر الحكم المحلي.

٤- الانتداب: ابتكرته عصبة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى (حسب المادة ٢٢ من ميثاقها)، وهو صيغة متقدمة للاستعمار، وضع لتأهيل البلاد للاستقلال فإذا به استغلال تام لمقدرات البلاد.

وتطور الاستعمار إلى نوع جديد منه، هو الاستعمار الحديث، وهو استعمار اقتصادي يسيطر على مصادر ثروة البلاد، مع السماح للبلاد المستعمرة اقتصاديًّا بالتمثيل خارجيًّا، وبإنشاء جيش، وبالانضمام للأمم المتحدة.

ومن صور الاستعمار التي حدثت في العالم: "إلى جانب القوة العسكرية والاقتصادية":

١- استيراد وشراء الزنوج من أفريقية؛ بل اختطافهم بأعداد هائلة (٢٠ مليونًا) وترحيلهم إلى أمريكا وأوربا للعمل في الأعمال القاسية: كالمناجم.

٢- إبادة السكان الأصليين في بعض المناطق: كأمريكا وأستراليا، أو تشريدهم كما فعل اليهود في فلسطين.

٣- سيطرة العنصرية والتفريق العنصري في: أمريكا وروديسيا وجنوب أفريقية، أو التمييز الديني كما في فلسطين المحتلة.

٤- تطاحن الدول المستعمرة فيما بينها طمعًا على خيرات الأمم، كما حدث بين أسبانيا والبرتغال، والإنكليز والفرنسيين، والإنكليز والبرتغاليين، والإنكليز والهولنديين. . .

٥- ابتزاز خيرات الشعوب وخاصة المواد الأولية، وإقامة صرح الصناعة في أوروبا وأمريكا بفضل خيرات المستعمرات.

٦- تطور الاستعمار ووصوله إلى "الإمبريالية" التي هي استعمار اقتصادي يتجلى في الاحتكارات، وتوظيف رؤوس الأموال، والضغط الاقتصادي.

٧- إفقار البلاد الزراعية وإبقاؤها زراعية وربطها بقروض مشروطة وبأحلاف وقواعد.

أما آثار ونتائج الاستعمار فهي:

١- التجزئة واغتصاب الأراضي.

٢- التخلف الاقتصادي في البلاد المستعمرة.

٣- إبقاء البلدان المستعمرة معتمدة على وسائل الإنتاج البدائية، الزراعة فقط.

٤- التدخل في العلاقات، وإقامة الحواجز الاقتصادية كالاحتكارات والمضاربة.

٥- انخفاض مستوى المعيشة في البلاد المستعمرة، والرفاهية في البلاد المستعمرة.

٦- تأخر الصحة وعجز الخدمات الصحية في البلاد المستعمرة.

٧- انتشار الجهل والأمية وقصور التعليم في البلاد المستعمرة.

٨- افتقار البلاد المستعمرة إلى الفنيين والاقتصاديين والعلماء لإعاقة النمو الاقتصادي.

٩- انتشار الرقيق في أوربا وأمريكا.

فهل نستطيع استنادًا لتعريف الاستعمار العلمي ونتائج وآثار هذا الاستعمار أن نسمي الفتح الإسلامي استعمارًا؟

يمكن القول بكل تأكيد- بعد النظر إلى نتائج الاستعمار التي مرت معنا- إن الإسلام لم يكن استعمارًا لما يلي:

١- الإسلام جاء فحرر الرقيق.

٢- لم يعرف الإسلام إبادة الشعوب، فوصية الصدِّيق شاهد يمكن الرجوع إليها في آداب الجهاد.

٣- السيطرة العنصرية والتمييز العنصري، حدد الإسلام موقفه منهما بقول رسول الله ﷺ "لا فرق بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى". فلقد رفع الإسلام بلالًا- وهو عبد أسود- فوق الكعبة ليقول: الله أكبر.

٤- أما ابتزاز خيرات الشعوب، فنرى أن الإسلام خلَّص سكان البلاد المفتوحة من الضرائب الباهظة التي كانت مفروضة من قبل الفرس أو الروم، ولنعلم أن الجزية مبلغ لا يُذكر مقابل الخدمات التي يستفيد منها الذمي، ويدفع المسلم أضعاف ما يدفع الذمي.

٥- عمَّ الرفاه البلاد التي فتحت؛ لاستتباب الأمن فيها، كما حدث في وادي النيل وسواد العراق. وأصبح الفاتح المسلم أحب إلى الشعوب من الحاكم السابق؛ لأنهم رأوا عمليًا خير وفائدة الإسلام.

كما عمت نهضة علمية وطبية وكثرت "البيمارستانات" والترجمات وإحياء الكتب القديمة على يد المسلمين ويد سكان البلاد المفتوحة معًا، فقد كان العلم للجميع، حتى أن أمهر العلماء في كل الميادين كانوا من سكان البلاد المفتوحة مثل: ابن سينا الذي ولد في "أفشنة" قرب بخارى، وأبي بكر الرازي المولود في "الري" والإمام البخاري المنسوب إلى "بخارى"، وأبي ريحان البيروني في "خوارزم". ومحمد بن موسى الخوارزمي المولود في "خوارزم" وأبي الوفاء البوزنجاني المولود في فارس، وكلهم علماء خلَّدهم التاريخ في ميادين العلوم بأنواعها.

تساءل د. لوبون: لو انتصر العرب في بواتيه، فماذا كان يصيب أوروبا؟ ويجيب: "كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة، مثل ما أصاب أسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية

النبي العربي، وكان لا يحدث في أوربا التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتيمي ومظالم محاكم التفتيش، وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضرَّجت أوربا بالدماء عدة قرون"[(١)].

فهل نشر الإسلام مع الإيمان بالله عز وجل علمًا أم جهلًا؟ نورًا أم ظلامًا؟ الاستعمار جهل، والإسلام علم، فكيف يجتمعان؟ الاستعمار خراب، والإسلام إعمار وبناء فكيف يلتقيان؟

كان النشيد الذي ردده الجيش الإيطالي الذي غزا ليبيا سنة ١٩١١م:

"يا أماه أتمي صلاتك، ولا تبكي؛ بل أضحكي وتأملي، ألا تعلمين أن إيطالية تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا مسرورًا؛ لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن، وإن لم أرجع فلا تبك على ولدك، وإن سألك أخي عن عدم حزنك عليَّ فأجيبيه إنه مات في محاربة الإسلام".

١- سحق الأمة الملعونة: المسلم لا يسحق حتى حكام الشعوب عند الفتح؛ بل أراد هداية، هنا في النشيد سحق، والإسلام حياة للشعوب التي فتحت بلادها.

٢- "محو القرآن والإسلام"، بينما نجد في القرآن ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (آل عمران: ٦٤) فالإسلام دعوة، والاستعمار سحق ومحو، ولن يلتقيا.

وهذه شهادة منصفة من مبشر في أفريقية ذكرها في كتابه "الإسلام في أفريقية الشرقية" وصاحب الكتاب هو المبشر "ليندن هاديس" فقد قرر المؤلف بعد النظر إلى الفارق الكبير بين أثر العرب وأثر الأوربيين في إفريقية الشمالية، أن البرتغاليين قضوا فيها نحو مائتي سنة لم يتركوا بعدها أثرًا من آثار الحضارة النافعة، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الذي حل على أيديهم بالمعاهد والمعابد الإسلامية، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخربون وينهبون.

---

(١) حضارة العرب، صـ ٣١٧.

أما العرب الذين انتقلوا إلى السواحل، فإنهم نقلوا إليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة، وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة.

وليس ما حدث من الدمار إنما حلّ في إفريقية فحسب؛ بل لننظر في مناظر مؤسفة أخرى.

فماذا فعل رعاة البقر بشعب أمريكا الأصلي- الهنود الحمر؟

الجواب: إبادة كاملة.

وماذا فعلت فرنسا في الجزائر مثلًا؟

الجواب: مليون شهيد، وقبلها اتباع سياسة الأرض المحروقة على يد "بوجو".

وماذا عملت إنجلترا في أستراليا؟

الجواب: إبادة واستعمار استيطاني، وفي أفريقية تميز عنصري.

ماذا عملت أسبانية والبرتغال في سكان أمريكا الجنوبية؟

الجواب: إنتهاء حضارة الإنكا والمايا والأزتيك، وإبادة كاملة، وسفن أسبوعية في قوافل مستمرة لنقل الذهب والفضة إلى أسبانية والبرتغال.

ماذا عملت هولندا في أندونيسيا؟

الجواب: امتصاص خيرات وإرهاق الشعب وإذلاله حتى إذا أراد الجندي الهولندي أن يعلو جواده أشار إلى أندونيسيٍّ فيركع أمام الهولندي بإزاء جواده، فيدوس الهولندي بحذائه العسكري على ظهر الأندونيسى ليعلو جواده.

ماذا عملت أمريكا المتحضرة في فيتنام؟

الجواب: ملايين القنابل على الشعب الآمن.

ناهيك عن الجهل والتأخر والسيطرة الاقتصادية على الشعوب.

الوجه الثاني: رمتني بدائها وانسلت (كيف انتشرت المسيحية وغيرها من الديانات؟).

مثل عربي يطلق على الشخص الذي يكون به الداء ثم يرمى به غيره.

فإننا لو نظرنا إلى أصحاب الديانات الذين يتهمون الإسلام بأنه انتشر بالسيف والإرهاب نجد هذه الفرية ملتصقة بهم قديمًا وحديثا فهم اتهمونا بها لدفعها عن أنفسهم

فوقعوا في "الإسقاط" كما يقول علم النفس، والإسقاط من وسائل الدفاع الأولية ألا وهو اتهام الآخرين بما فينا، كالكاذب يتهم الناس بالكذب ليظهر نفسه صادقًا.

فمن يستقريء التاريخ في كيفية انتشار الأديان يجد ما يلي:

١- فرض "امنحتب" - فرعون مصر- على شعبه عبادة إله الشمس "آتون". وأغلق معابد الآلهة الأخرى، وحطم تماثيلها، ومحا صورها، وطمس أسماءها، وكل مخالف تعرض للاضطهاد والعذاب[١].

٢- كانت البوذية: لا شأن لها قبل "آزوكا" الذي اعتنقها واهتم بنشرها خارج مملكته حتى وصل سيلان وبورما، فآزوكا تبناها وأخذ بنشرها حتى شملت جنوب شرق آسيا[٢].

٣- وكذلك المزدكية: لم يكن لها اعتبار قبل "قباذ" فهذا الملك الفارسي تبنى هذه العقيدة وحاول فرضها جبرًا على شعبه كله، وحتى المناذرة العرب التابعين له في العراق[٣]. وبزوال سلطان قباذ ضعف شأن المزدكية.

٤- وأما الزرادشتية: فلم تنشر قبل دارا كسرى الفرس، الذي نشرها حربًا بعد قرن من وفاة زرادشت، حتى وصل بها أثينا عاصمة اليونانيين القدماء.

٥- الكونفوشيوسية: ما انتشرت تعاليمها إلا لاستخدام صاحبها لمركزه رئيسًا للوزراء في مقاطعة "لو" الصينية.

٦- وأخيرًا المسيحية: فإنها لم تكن لتنتشر لولا سلطة قسطنطين الذي أراد أن يكون سيدها فاستغل الخلافات الداخلية للكنيسة، وأصدر مرسوم ميلانو عام ٣١٣م، الذي اعترف بموجبه بالمسيحية، وأهال عليها أعطياته.

---

(١) راجع تاريخ الشرق الأدنى القديم لعبد العزيز عثمان، القسم المختص بتاريخ مصر القديم.

(٢) راجع تاريخ الحضارة لجورج حداد.

(٣) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري، الجزء الأول، وراجع الشهرستاني في الملل والنحل٢/ ٨٨.

وأما شارلمان فقد كان متحمسًا للمسيحية، يؤمن أن من واجبه تحويل جيرانه إلى المسيحية، ولم يؤمن بالحجة وضرب الأمثال طرقًا للهداية؛ بل كان يفضل طريق القوة[١]، فقد ظل يحارب السكسونيين ثلاثًا وثلاثين سنة، كلها عنف ووحشية، حتى أخضعهم وحوَّلهم قسرًا إلى الديانة المسيحية، كما تطلب ثماني رحلات حسومًا متتابعة، حتى هدم الأفاريين، الذي قيل عن أسلاب كنوزهم المكدسة أنها رفعت شارلمان من عالي الغنى والثروة إلى شاهق الفيض والوفرة[٢].

وفي مصدر آخر: فرض شارلمان على السكسونيين الوثنيين النصرانية بالسيف، ولما ضعف السكسونيون بعد معارك كثيرة وحروب عديدة، اعتنقوا المسيحية آخر الأمر وخضعوا لحكم الفرنجة، وكان فرض هذا الدين على السكسونيين على يد القديس ليودجر Liudger وويليهاد Willehad.

أـ ويقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب": "ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحًا للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين"[٣].

بـ وفي الدانمارك: نشر الملك "كنوت Cnut" المسيحية في ممتلكاته بالقوة والإرهاب، "ومن ثم أخضع الأمم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن اشتبك مع الممالك

---

(١) راجع العدد الثامن من موسوعة المعرفة التي تنشرها شركة ترديسكيم جنيف، صـ ١٢٢/ ١٢٣، والتي صدرت بالعربية ٢٠ أيار ١٩٧١.

(٢) تاريخ أوربا العصور الوسطى، تأليف: هـ. ا. ل. فيشر، ١/ ٦١.

(٣) حضارة العرب صـ ٣٣٦، الفصل الرابع العرب في مصر.

المتبربرة في حروب طاحنة مدفوعًا بما كان يضطرم في نفسه من الشوق إلى نشر العقيدة"[1].

العقيدة"[1].

جـ وفي روسيا: نشرت الدعوة المسيحية على يد جماعة اسمها، (تمعن أيها القاريء الجليل في اسمها)، إن اسمها: "إخوان السيف"[2].

وفي مصدر آخر: "أما كيف كان دخول المسيحية روسيا، فيبدو أولًا أنه تم على يد فلاديمير دوق كييف (٩٨٥- ١٠١٥م) وهو سليل رورك، ويضرب به المثل في الوحشية والشهوانية، إذ جاء إلى الدوقية فوق جثة آخر إخوته، واقتنى من النسوة ثلاثة آلاف وخمسمائة[3]. على أن هذا وذاك كله لم يمنع من تسجيله قديسًا في عداد القديسين بالكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية؛ لأنه الرجل الذي جعل من كييف مدينة مسيحية، وجعل من الروسيين شعبًا على دين المسيح، "زعيم بغفران ذنوبه". وقد أمر فلاديمير بتعميد أهل دوقية روسيا كلهم مرة واحدة في مياه نهر "الدنيبر"[4].

د- فرض فرسان: Ordo Fratrum Militiae Christ المسيحية على شعوب ليفونيا فرضًا"[5].

ويقول توماس أرنولد عن هذه المنطقة: وربما حل الاضطهاد والتغيير الإجباري محل الدعوة الهادئة إلى "كلمة الله"[6].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ ٣٠ حاشية الصفحة ١٥٦ -١٥٩ .I. P. ٣٤٩ PP-.

(٢) الدعوة إلى الإسلام صـ ٣١ واسمهم بالأجنبية Bretheren of the sword.

(٣) راجع: Camb. Med. Hist. IV. P. ٢٠٨- حيث ورد أن عدد أولئك النسوة اللائي اختارهن فلاديمير لنفسه، بالإضافة إلى خمس زوجات شرعيات، لم يكن سوى ثمانمائة.

(٤) تاريخ أوربا في العصور الوسطى. هـ. أ. ل. فيشر، صـ ٤٠٧.

(٥) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، صـ ٣١.

(٦) الدعوة إلى الإسلام، صـ ٣١ وفي المرجع ذاته صـ ٢٢٣٦: وظل الإسلام قائمًا بين الباشغردية من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠م، حيث أرغم الملك شارل روبرت جميع رعاياه والذين لم يكونوا مسيحيين بعد، أن يعتنقوا الدين المسيحي أو يغادروا البلاد.

هـ ـ في " النرويج ": قام الملك (أولاف ترايجفيسون) بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر المسيحية في "فيكن" القسم الجنوبي من النرويج بأسرها[١].

و ـ جاء في "كتاب صلاح الدين الأيوبي" قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر لقدري قلعجي ما يلي: "سمل باسيليوس الثاني ناشر النصرانية في روسيا أعين (١٥ ألف) من أسرى البلغار إلا مائة وخمسين منهم، أبقى لكل واحد منهم عينًا واحدة ليقودوا إخوانهم في عودتهم لبلادهم".

ز ـ بعد أن استعرض الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الاضطهاد الذي رافق انتشار المسيحية في عهد شارلمان ومذابحه للساكسون والنورمانديين، وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منطقة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية، بعد هذا كله أتى إلى ما صنعه المبشرون الجوزيت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند[٢] التي لاقت منهم الأهوال.

ح ـ لم تكن الكشوف الجغرافية التي قامت بها أوربا خالصة للحضارة والمدنية، فمثلًا: "لقد أراد ليفنغستون أن يستكشف طرقًا في أفريقيا للمبشرين لا للمدينة"[٣] ولما مات في أفريقيا، دفن زملاؤه قلبه تحت الشجرة التي مات تحتها، أما الجسد فهو مدفون في دير وستمنستر بلندن.

لقد ارتكب المبشرون الذين رافقوا رحلات الكشوف الجغرافية أبشع الأعمال التي لا تليق بالإنسان وإن "فاسكودي غاما" مكتشف طريق الهند كان مبشرًا.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام: صـ ٣٢.

(٢) الحركة الصليبية ١/ ٣٠، د. سعيد عاشور.

(٣) التبشير والاستعمار صـ ٥١. دج. خالدي د. فروخ.

ماذا عمل المكتشفون المسيحيون بشعب أمريكا الأصلي "الهنود الحمر"؟ كان الجواب ببساطة إنه حملة إبادة.

وهكذا كان نصيب حضارة "الأنتيل" وحضارة "المایاس" في جنوب المكسيك وحضارة الآزتيك في وسطها، وحضارة الآنكا في بيرو[١].

وهذا مثال حيٌّ على ما رافق الكشوفات الجغرافية: نشرت جريدة الحياة البيروتية صورة لما رافق استكشاف جزيرة "هايتي" على يد الأسبان كانت العلمية تحتها ما يلي: "وانشغل ضباطه وخلفاؤه أول الأمر- خلفاء المستكشف قائد الحملة- باستكشاف جزيرة هايتي (اسبانيولا) واحتلالها، وكانت ما تزال في داخلها أرض شاسعة مجهولة، وقد تولى هذه المهمة كل من دييغو فلاسكيز، وبانفيلو دونارفيز، فأبديا من ضروب الوحشية ما لم يسبق له مثيل، متفننين في تعذيب سكان الجزيرة بقطع أناملهم وفقء عيونهم، وصب الزيت المغلي، والرصاص المذاب في جراحهم، أو بإحراقهم أحياء على مرأى من الأسرى. . . ليعترفوا بمخابئ الذهب، أو ليهتدوا إلى الدين[٢].

وقد حاول أحد الرهبان إقناع الزعيم "هانيهاي" باعتناق الدين. . . وكان مربوطًا إلى المحرقة، فقال له: إنه إذا تعمد يذهب إلى الجنة. . . فسأله الزعيم الهندي: "وهل في الجنة أسبانيون؟ " فأجابه الراهب: "طبعًا، ما داموا يعبدون الإله الحق! " فما كان من الهندي إلا أن قال: إذن، أنا لا أريد أن أذهب إلى مكان أصادف فيه أبناء هذه الأمة المتوحشة![٣].

ليس هذا بمعلوم لنا فقط، فقد نشرت CUBA internacional Joulio ١٩٧٢ تحت عنوان LAHISTORLY الصفحة: ٦، صورة لمبشر بيده صليب وزعيم إلى سارية وقد غطى حتى منتصفه بحزم الحطب والقش لحرقه، أما المبشر فرافع الصليب في وجهه يدعوه

(١) تاريخ العصور الحديثة صـ ٦٩.

(٢) أين هذا من انتشار الإسلام! وأين هذا من وصية الصديق لجيوش الفاتحين! قليلٌ من الإنصاف يا عقلاء.

(٣) الحياة: السنة ٩، العدد ٢٤٩٤، الأربعاء ٢٣ ١٩٥٤ من كتاب التبشير والاستعمار صـ ١٢٣.

إلى المسيحية قبل موته.

ط- **الحروب الصليبية**: التي حملت الصليب شعارًا فظائعها لا تعد، وانتهاكها للمفهوم البشري كان في كل أرض مروا بها، حتى في بلاد أبناء دينهم[١].

من فظائعهم:

"وعندما احتمى بعض أهالي قيسارية بجامع المدينة لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم، دون أن يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين"[٢].

مذبحة بيت المقدس عام ١٠٩٩م كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى، باعتراف المؤرخين الأوربيين[٣].

أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها[٤]. ويقول لوبون: "في مسجد عمر وحده في القدس ذبح عشرة آلاف مسلم"[٥].

يذكر ابن العديم عن إحدى الحملات الصليبية: أن الصليبيين أتوا في تلك الغزوة مساوئ كثيرة: "فنبشوا قبور موتى المسلمين، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم، وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون: هذا نبيكم محمد، وآخر يقول: هذا عليُّكم، وأخذوا مصحفًا من المشاهد بظاهر حلب، وقالوا: يا مسلم أبصر كتابكم"[٦].

ارتكب قواد الحملات (وخاصة لويس السابع وزوجته اليانور وريموند دي بواتيه)

---

(١) أفضل مرجع للحروب الصليبية مع تحليل عميق عليها كتاب: الحركة الصليبية .د/ سعيد عبد الفتاح عاشور.

(٢) الحركة الصليبية ١/ ٢٩٤.

(٣) Gunciman: op. cit، 1، p. 287.

(٤) الحركة الصليبية صـ ٣٢٩.

(٥) حضارة العرب صـ ٣٢٦.

(٦) الحركة الصليبية ١/ ٥٢٤، عن: ابن العديم زبدة الحلب صـ ٦٤٥، والنص منقول حرفيًا كما هو.

فضائح جنسية مشينة[(١)]. هذا. . . فضلًا على أن المؤرخين الأوربيين وصفوا الحملات كلها بكلمتين فقط: (بربرية همجية)[(٢)].

وكيف لا تكون كذلك وهي صفحة سوداء في تاريخ أوربا كلها. ألم يضع الرهبان على الصخرة المشرفة زجاجات الخمر؟ ألم يضرب الناقوس داخل المسجد الأقصى بعد إبطال الأذان به[(٣)]؟

أهكذا تحترم العقائد والمعابد؟ فأين هذا من وصية الصديق رضي الله عنه إلى جيش أسامة بن زيد التي أكد فيها بأنه على المسلمين أن يدعوا الرهبان ممن فرغوا أنفسهم في الصوامع وما فرغوا أنفسهم له؟ [(٤)].

بعد استعراض "محاكم التفتيش" في أسبانيا وأعمالها المخجلة المزرية، قال د. لوبون: "الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من مئة وأربعين ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى أفريقية"[(٥)].

وبعد أن ذكر لوبون في "حضارة العرب" خسارة ثلاثة ملايين مسلم بين ذبح وحرق وتهجير في أسبانيا قال: "ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين- الأسبان- من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين"[(٦)].

الوجه الثالث: وضوح العنف والعدوان في بعض الديانات غير الإسلامية.

ويتضح لنا من هذه الدراسة أن عقيدة الإسلام ليست عقيدة عدوانية بخلاف العقائد الأخرى، فمثلًا الناظر في عقائد اليهود يتضح له بجلاء أثر هذه العقيدة في سلوكهم العدواني الإرهابي وهذا ما يتضح لنا في هذه المطالب الآتية:

---

(١) الحركة الصليبية: ٢/ ٣٦٠، عن رونسمان.

(٢) الحركة الصليبية عن Eyre: op. cit. pp. ١٩٧-٨. .

(٣) راجع وصية الصديق في آداب الجهاد، وانظر عهد عمر لأهل إيليا.

(٤) الحركة الصليبية . عن العيني عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤١هـ.

(٥) حضارة العرب صـ٢٧٠.

(٦) حضارة العرب صـ٢٧٢.

المطلب الأول: عقيدة التمييز العنصري عند اليهود.

إن من المفارقات العجيبة أن يندد اليهود: "بالعنصرية النازية" مع أنهم أعنف دعاة الاستعلاء والتمييز العنصري عبر قرون الدهر.

إن اليهود يعدون أنفسهم من جنس مميز على سائر أجناس بني البشر الذين يطلق عليهم اليهود (الجويم) أو الأميين. فهم يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أصحاب مميزات جنسية وعقلية وحضارية لم تتوافر لسائر بني البشر.

ويستند اليهود في هذه العقيدة إلى نصوصٍ في توراتهم المحرفة وتلمودهم الموضوع[١].

المطلب الثاني: عقيدة أرض الميعاد عند اليهود

تعد هذه العقيدة من أهم عقائد اليهود التي يؤمنون بها، ويبنون سياساتهم وعلاقاتهم عليها، ومعناها عندهم: أن الله سبحانه وتعالى قد وعد بني إسرائيل أن يملكهم أرضًا، لكي يقيموا عليها دولة لهم تجمعهم من التشرد والشتات. وقد اختلفوا فيما بينهم حول تحديد حدود هذه الأرض الموعودة، فمنهم من قال: إنها أرض كنعان فقط، يعني أرض فلسطين، ومنهم من قال: بأنها من النيل إلى الفرات، والمستغرب أن كلتا الطائفتين لديها نصوص من كتابهم المحرف تؤيد ما ذهبت إليه[٢].

المطلب الثالث: أثر عقائد اليهود على الإرهاب العالمي.

إن الإرهاب الحقيقي واستخدام العنف بطريقة غير مشروعة يمتد بجذوره إلى العقيدة اليهودية المحرفة، والتي تمثلها إسرائيل وتطبقها في واقعنا اليوم، وإن دراسة التاريخ المعاصر للصهيونية، يظهر بجلاء أن الكيان الصهيوني قد تبنى الإرهاب على مستوى الأفراد والدول على حدٍ سواء، وإرهابهم الحالي يشهد به القاصي والداني، وقد أُلفت في

---

(١) انظر هذه النصوص مجموع في العقيدة اليهودية صـ ٣٥١- ٣٥٢. وراجع فصل تحريف الكتاب المقدس من هذه الموسوعة.

(٢) العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية د. سعد الدين صـ ٣٦٧- ٣٧٠.

ذلك كتب عديدة، وهناك مواقع في الشبكة العالمية "الإنترنت" خصصت لذلك[١].

لكننا في هذا البحث معنيون ببيان الجذور التي تربي وتغذي الإرهاب وهي جذور عقائدية.

إن في عدم معرفة اليهود لله تعالى حقًا، وبما يجب له من صفات الكمال والجلال أثرًا كبيرًا على سلوكهم وعدوانهم، فمن كان بالله أعرف كان لله أخوف، وكتبهم مليئة بالاستهزاء والانتقاص من حق الله تعالى، ومن اعتدى على الله من باب أولى كان له أن يعتدي على خلقه.

وكذلك نجد وصفهم لرسل الله تعالى وأنبيائه - عليهم السلام - بما يستحيي المرء من ذكره يعد احتقارًا وعدوانًا عليهم، ومن اعتدى على أنبياء الله تعالى فلن يتردد أو يتأخر في العدوان على غيرهم من البشر.

كما أن عدم الإيمان باليوم الآخر يجعل منهم عبيدًا للمادة وللتراب ولكل ما هو أرضي، وفي اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار وتميزهم العنصري يجعلهم يسوِّغون كل عمل إرهابي في حق غيرهم؛ لأنهم هم الأسياد وما عداهم خدم لهم ـ في ظنهم ـ.

واعتقادهم بأرض الميعاد يجعلهم يستبيحون احتلال أراضي المسلمين وطردهم وقتلهم لإخراجهم منها، وقد تسببت هذه العقيدة في حروب دامية وصراعات طويلة بينهم وبين المسلمين، وقد بين لنا المولى عز وجل في القرآن الكريم فساد عقيدتهم، وحذرنا منهم في أكمل بيان وأجلى حقيقة[٢].

وإن الباحث ليعجب أشد العجب حين يعلم أن توراة بني إسرائيل الحالية تعد سجلًا دقيقًا ومفصلًا لشرورهم وآثامهم، وصمم آذانهم عن الاستجابة لله، ومخالفتهم لشريعته، وخيانتهم لعهده؛ بل كفرانهم به، وعبادتهم الأصنام والأوثان من دونه، وقتل أنبيائهم في

---

(١) انظر: المركز الإعلامي الفلسطيني، على الإنترنت. وقد خصص دراسات ومقالات وكتبًا وصورًا عن الإرهاب الصهيوني.

(٢) وقد ألفت كتب عنيت بذلك منها: معركة الوجود بين القرآن والتلمود، د: عبد الستار فتح الله السعيد صـ ٥٩ وما بعدها، وموجز الأديان في القرآن، د: عبد الكريم زيدان صـ ٣١-٦٠.

أطوار تاريخهم، فما من سفر من أسفارهم إلا يزخر بعبارات السخط والغضب التي صبها الله على بني إسرائيل صبًّا في كل عهودهم منذ أن أخرجهم الله من مصر، إلى أن أهلكهم بظلمهم، وقضى بخراب بلادهم، وتقطيعهم في الأرض(١).

ويهود اليوم هم الخلف السيئ لمن سلف، إننا نجد هؤلاء الخلف ينطلقون من تراث السلف، فوراء كل جريمة يرتكبونها نبوأة مزعومة تسوِّغها لهم.

يقول هرتزل: ". . . إن هدف الحركة الصهيونية هو تنفيذ النص الوارد في الكتاب المقدس بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين"(٢).

ويقول بن غوريون: "قد لا تكون فلسطين لنا من طريق الحق السياسي أو القانوني، ولكنها حق لنا على أساس ديني، فهي الأرض التي وعدنا الله، وأعطانا إياها من الفرات إلى النيل"(٣).

ولعل أشد ما دونته نبوءاتهم المحرفة تحريضًا لليهود على التوسع العدواني الظالم هو: "كل مكان تطؤهُ أخامص أرجلكم لكم أعطيته" يشوع ١ : ٣.

فهم مرتبطون عقديًّا بكل أرض سكنوا فيها، من أرض الآباء والأجداد مثل كل فلسطين، وسورية. . العراق، ومصر.

ولقد قال بن غوريون في تسويغ عدوان (١٩٥٦م): "إنه يوطد أمن إسرائيل، ويحميها من العدو، ويحرر أرض الأجداد من الغاصبين".

ولما اعترض أحد الوزراء على احتلال الجولان، وعلَّل اعتراضه بعدم وجود روابط توراتية، رد عليه "إيجال آلون" قائلًا: "إن الجولان قطعة من إسرائيل القديمة لا تقل أهمية عن الخليل ونابلس"، وهبَّ زعماء يهود يؤكدون أن استيلاءهم على الأراضي المحتلة ما

---

(١) في مقارنة الأديان بحوث ودراسات: د. محمد الشرقاوي صـ ٢٤٠ وقد أورد المؤلف نصوصا على ذلك من الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى، وهي أوثق الكتب عندهم.

(٢) عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين لمحمد آل عمر صـ ٢١٣.

(٣) المصدر السابق: صـ ٢١٣.

هو إلا تحقيق لنبوءات العهد القديم.

وقال "مناحيم بيجن" في (٢٨/ ٥/ ١٩٦٨): "إن الأراضي العربية المحتلة هي أراضٍ إسرائيلية حررتها إسرائيل من الحكم الأجنبي غير الشرعي"(١).

حتى السور العنصري المقيت الذي اقترح بناءه إسحاق رابين - حمامة السلام المفترسة - وشرع بيريز في تنفيذه عام ١٩٩٦م، وهو مثار الجدل حاليًّا في حكومة شارون الذي سيحول المناطق الفلسطينية الحالية إلى معتقل كبير للفلسطينيين، استخرجوا له أسطورة من كتاب القابلاه في شرح التوراة، تنص على أن القدس هي "الملكوت الذي سيحكم العالم، وستحيط بها المرتفعات، حتى لا تصل إليها قوى الظلام، وستعلو جدرانها؛ حتى يعود التوازن إلى العالم"(٢).

إذن وراء كل مجزرة ومذبحة وجريمة يهودية نبوأة توراتية مزيفة، أو محرفة، وليس على الآخرين سوى أن يرضخوا لإرادة الشعب المختار؛ لأنها - وببساطة - إرادة الله في زعمهم.

وإنَّ العقيدة اليهودية المحرفة لم تكن مسطرة في كتبهم القديمة فحسب؛ بل كانت حيةً في مناهجهم التي يربون عليها أطفالهم، وبالفعل أثمرت هذه المناهج، وفرخت ما نراه من إرهاب عبر شاشات التلفزة على مرأى ومسمع العالم كله، ليشهد العالم على إرهابهم وعدوانهم المتأصِّل في نفوسهم التي ربيت على مناهج البغي والعدوان، وسأعرض نموذجًا على هذا وهو رسالة دكتوراة بعنوان "الاتجاهات الأيديولوجية في أدب الأطفال العبري" للدكتورة سناء عبد اللطيف، حيث تتبعت المؤلفة مناهجهم بالعبرية في دراسة موضوعية، وسأنقل شيئًا من خاتمتها حيث قالت:

"يسعى المؤلفون إلى تلقين الأطفال مبادئ الأيديولوجية الصهيونية بشكل يظهر فيه بوضوح انحياز أدب الأطفال العبري للنسق القيمي للحركة الصهيونية، ومتسقًا اتساقًا شديدًا مع أهدافها حتى إنه يمكن القول: إن أدب الأطفال العبري يُعدّ سمفونية دعاوية

---

(١) خدعة هرمجدون صـ٢٦.

(٢) موسوعة اليهودية والصهيونية د. عبد الوهاب المسيري ٤/ ١٢٥.

وإعلامية، وإنه يعمل بانضباط على إيقاع تعاليم الأيديولوجية الصهيونية.

إن أدب الأطفال العبري يسعى إلى صهينة الجيل الجديد من اليهود في إسرائيل.

ويعمد إلى خلق ما يؤيد كل القضايا التي واجهت الصهيونية سواء كان ذلك:

* تسويغ رفض الاندماج في مجتمعات الشتات اليهودي، وذلك بالتركيز على ما يطلقون عليه العداء للسامية وكراهية اليهود.

* أو بتسويغ اغتصاب فلسطين من العرب، وذلك بالتركيز على مقولة أرض اليهود التاريخية، والحق الديني والتاريخي لهم في فلسطين.

* مضمون الأدب العبري مناسب جدًّا لأهدافه، وهو يتسق اتساقًا مباشرًا مع أهداف الصهيونية ومتمشٍ مع اتجاهاتها العقدية.

* يركز الأدب العبري الموجّه للأطفال على وضع المفاهيم الصهيونية في قالب ديني عاطفي يمكنه من جذب اليهود وتأييدهم، وإثارة حماستهم الدينية من خلال تحويل القيم اليهودية إلى مفاهيم سياسية قومية.

* يركز الأدب الموجّه للأطفال أيضًا على الدعوة إلى الاهتمام باللغة العبرية من أجل الحفاظ على التراث اليهودي وبعثه وتعميقه بين الأطفال.

* يركز أدب الأطفال على تدعيم الإحساس لدى الأطفال بحتمية الحروب من أجل ضمان الوجود البيولوجي الإسرائيلي، فيكثر الأدباء من الحديث عن وضع اليهود في أيام الحروب.

* ومن ناحية أخرى، فإن اهتمام الأدباء بوضع اليهود في جوّ محاصر بالأعداء في قصصهم الموجّهة للأطفال يؤكّد في نفوسهم المقولة الصهيونية: "لا خيار إلا القتال" وبذلك يعدّ الأطفال نفسيًا لتقبل فكرة التجنيد الإلزامي حينما يصلون إلى السن الملائمة لذلك، وتهيئتهم لخوض الحروب.

وقد سادت الصفحات السلبية معظم كتب الأطفال لتشوه الشخصية العربية، مثل الخيانة والكذب والمبالغة والدهاء والوقاحة والشك والوحشية والجبن وحب المال

وسرعة الغضب والتملق والنفاق والتظاهر والتباهي والخبث، كما وُصِفَ العربيُّ بأنه قاتل وسارق ومخرّب ومتسلل وقذر وذو ملامح تثير الرعب"[1].

ويبقى المحور الكبير أيضًا في مناهجهم، هو التأكيد على حقهم التاريخي المزعوم في فلسطين؛ بل قدسية ترابها حتى إنه كان يقدم هديةً إلى اليهود في الشتات، ليوضع معهم في قبورهم هناك[2]!

يقول د/عبد السلام الهراس[3]: ولا يُعرف في تاريخ الفتوحات الإسلامية أنها أبادت شعوبا كما فعلت أمم أخرى من أجل إحلال المسلمين مكانهم، أو استعبدت شعوبا كما فعل الآخرون عن طريق الغزو والعدوان، وجلبها المستعمرات الجديدة وبيعها في الأسواق كما تباع الأنعام لاستغلالها أبشع استغلال، وإنما كانت الشعوب تسلم عن طواعية، فمن أبى فإنه يعيش على دينه كما نرى ذلك في كثير من بلاد العرب وغيرها مثل الشام: " سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق ومصر واليهود في المغرب العربي والسودان ".

أما الهند وبلاد فارس والأندلس وغيرها فإن الفتح الإسلامي اعترف أيضًا بالآخر ولم يرغم أي واحد على الدخول في الإسلام، في حين عندما انتصر ملوك شبه الجزيرة النصارى أطبقوا على إبادة المسلمين وإحراق كتبهم وتراثهم وتحويل مساجدهم إلى كنائس؛ إذ لم يبق في إسبانيا ولو كتاب واحد من ملايين الكتب التي ألفها واقتناها ونسخها علماء الأندلس ووراقوها ونساخوها. . أما الكتب التي هي بمكتبة الإسكوريال فهي مغربية الأصل قرصنها قرصان فرنسي وتسلط عليه الإسبان فجعلوها في دير الإسكوريال وقد أتلف جلها بالحرق وغيره! !

(١) هكذا يربي اليهود أطفالهم. د: سناء عبد اللطيف صـ ٢١٥- ٢٢١ باختصار.

(٢) المصدر السابق صـ ١١.

(٣) الإسلام دين الوسطية والفضائل والقيم الخالدة، اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب ١٤٢٥/ ٢٠٠٤.

ولولا الفتح الإسلامي بالأندلس لاستؤصل اليهود الذين كانوا يتعرضون من حين لآخر إلى مصائب وويلات من لدن ملوك شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامي، وقد نالوا في ظل الإسلام من الحقوق والحظوة والمكانة العلمية والاجتماعية والسياسية ما لا ينكره أحد منهم، أما المسلمون فلا يزالون يبادون إلى اليوم، والبوسنة والشيشان مثال على ذلك.

المطلب الرابع: هل حضارة الغربيين حضارة مسيحية؟

يقول د/القرضاوي(١): ولقد رأينا الغربيين يزعمون أنهم مسيحيون: وأن حضارتهم القائمة اليوم حضارة مسيحية(٢) ويتباهون بأن المسيحية ديانة سلام ومحبة، وأن المسيح لم يرفع سيفًا في وجه أحد؛ بل قال لأتباعه: "من ضربك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، ومن سخرك لتسير معه ميلًا فسر معه ميلين، ومن أراد أن يأخذ قميصك، فأعطه إزارك"(٣)! ! وبهذا لا يقاوم الشر بالشر، ولا يدفع القوة بالقوة؛ بل دعا المسيح أتباعه إلى أن يحبوا أعداءهم، ويباركوا لاَعِنِيهم(٤)!

فما نصيب هذه المقولة من الصحة؟ وهل الغربيون مسيحيون حقًّا؟ وهل للمسيحية ووصاياها -كما جاء بها الإنجيل- أثر في حياتهم؟ وهل طبق النصارى أتباع المسيح هذه التعاليم والوصايا في حياتهم وفي علاقاتهم بغيرهم من الأمم وأهل الأديان؟ بل هل طبقوها في علاقاتهم بعضهم ببعض؟.

---

(١) الإسلام والعنف صـ١٨ وما بعدها.

(٢) يقول الدكتور القرضاوي: إن حضارة الغرب أبعد ما تكون عن المسيحية، فهي حضارة مغرقة في المادية، والمسيحية ديانة مغرقة في الروحية، وهي حضارة تسوغ الإباحية والتحلل، والمسيح يقول: من نظر بعينه فقد زنى! وقد قلت من قديم: إنها ليست حضارة المسيح ابن مريم، ولكنها حضارة المسيح الدجال، فهو أعور، وهي حضارة عوراء! تنظر إلى الحياة والإنسان والعالم بعين واحدة، هي العين المادية. انظر: الإسلام حضارة الغد صـ١١-٢٥.

(٣) انظر: إنجيل متى. الإصحاح ٥- الفقرات: ٣٩-٤٢. إنجيل لوقا ٦-٢٩، ٣٠.

(٤) إنجيل متى ٥-٤٣، ٤٤. ولوقا ٦-٢٧، ٢٨.

التاريخ الحافل، والواقع الماثل، يقولان: إن النصارى أتباع المسيح ـ في جملتهم ـ كانوا أبعد الناس عن هذه الوصايا. ولم يدر منهم أحد خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن، بل هم ابتدؤوا العالمين بالضرب على كلا الخدين، بلا مسوَّغ ولا سبب إلا العدوان.

ولقد قتل المسيحيون طوال التاريخ من أبناء الشعوب المخالفين لهم، ما تشيب من هوله الولدان، بل قتل بعضهم من بعض بالملايين ما لا يزال التاريخ القريب يذكره ولا ينساه.

قتل الكاثوليك من البروتستانت في بداية ظهورهم بالملايين، وقتل البروتستانت من الكاثوليك ـ بعد انتصارهم عليهم ـ بالملايين(١).

وقتل بعضهم من بعض في الحربين العالميتين في القرن العشرين، بالملايين. وكلهم مسيحيون، يؤمنون بالإنجيل، ويدينون بدين المسيح ﵇. حتى قال بعض الباحثين من المسيحيين الأوربيين: لم يصدق المسيح ﵇ في نبوءة من نبوءاته، مثلما صدق في قوله: ما جئت لألقي على الأرض سلامًا بل سيفًا(٢)!

وبهذا أثبت التاريخ، وأثبت الواقع كلاهما: أن أتباع دين المحبة والسلام هم أكثر أهل الأديان دموية، وأسرعهم إلى العدوانية، وأشدهم قسوة ووحشية في التعامل مع الآخرين.

وهذا ما نراه رأي العين، ونلمسه لمس اليد، في يومنا هذا من القوة العالمية العظمى، القوة المتألهة في العالم، وهي قوة أمريكا التي تتصرف في الأرض، تصرفَ الإله في السماء، فهي لا تُسأل عما تفعل ولا يقف أمام رغبتها شيء، وقد رأينا أثرها العسكري في أفغانستان والعراق. وقد جسدت موقفها الديني والأخلاقي فيما صنعته في سجون

---

(١) انظر: ما نقله الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق بالوقائع والأرقام من كتب المسيحيين أنفسهم من مجازر ومظالم ومآثم قام بها الكاثوليك مع البروتستانت عند بداية ظهورهم، ثم عندما انتصر البروتستانت على الكاثوليك كالوا لهم الصاع صاعين، صـ٥٠٩-٥٢٨.

(٢) إنجيل متى ١٠-٤٣، لوقا ١٢-٥١.

العراق، وخصوصًا سجن أبي غريب، وقبلها في أسرى جوانتانامو الذين عوملوا معاملة لا يقرها دين ولا أخلاق ولا عرف ولا قانون!

كما تجسد موقفها كذلك في مساندتها المطلقة والدائمة للصهيونية ودولتها المدللة (إسرائيل) التي تمدها بالمال والسلاح لتقتل الفلسطينيين وتدمر منازلهم، وتجرف أراضيهم، وتحرق مزارعهم، وتقلع أشجارهم، وتضم أراضيهم إليها بالقوة الطاغية، وتعزلهم وتمزقهم بعضهم عن بعض بواسطة الجدار العازل، وتخرب كل البنى التحتية لمجتمعهم.

يقول د/عبد الصبور مرزوق[1]: فإذا جاء من يحاول غمز الإسلام بالإرهاب، أو أنه يقهر الحريات، أو رفضه للآخر، أو عدم قدرته على التعايش السلمي، فإنا نجعل من التاريخ، ومن الواقع حكمًا نثق ثقة كاملة في أن حكمه -كما ذكرنا- سيكون في صالح الإسلام، فالتاريخ شاهد على ما فعله الغرب بالإنسانية في العالم الثالث (أفريقيا وآسيا) العالم الثالث الذي أغلب سكانه هم من المسلمين.

ماذا فعلوا هم بهم زمان الاستعمار؟! وكيف سرقوا خيرات الأرض، وحرموا أهلها من الإفادة منها، ونقلوها إلى بلادهم يبنون بها مدنيتهم وتقدمهم، تاركين أصحاب الأرض في أفريقيا وآسيا في ظلام الفقر والجهل والتخلف.

أسألهم مستحثًّا إياهم على قليل من الإنصاف أن يراجعوا تاريخ الاستعمار، ليروا ما فعله أجدادهم بشعوب العالم الثالث، وما أنزلوه به من المظالم، وكيف كانوا يقتلون عشرات الألوف، ومئات الألوف من أهل البلاد، ليوطدوا حكمهم ويحكموا قبضتهم على الإنسان، والأرض ظاهرها، وباطنها، دون أدنى رحمة.

وأسألهم: من الذي وطد ظلمه بالسيف: الإسلام أم أنتم؟!

---

(١) الإسلام والجهاد، المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية صـ٨٠٠ وما بعدها باختصار وتصرف.

ومن الذي سرق إنسان أفريقيا، وشحنه في السفن التي تحمل الحيوان ليصلوا به بعيدًا إلى بلادهم ليعمل في مزارعهم، ومصانعهم، ويبني مدنيتهم ساقيًا أحجارها بدمه. الإسلام أم أنتم؟!

ثم أتجه إلى أمريكا لأسأل أهلها الحكام والشعب:

من الذي ضرب نجازاكي وهيروشيما بالسلاح النووي فأباد الإنسان بعشرات المئات من الألوف، وأهلك الحرث والنسل -كما يقولون- ليس هذا فحسب بل دمروا البيئة، ولوثوا مناخها بالإشعاع المدمر؟!

وأذكر الأمريكيين، الحكومات والشعب بالدموية والعنف الرهيب في إبادة أهل أمريكا الأصليين من الهنود الحمر.

من الذي ارتكب الجريمة التي لن ينساها التاريخ، جريمة إبادة الهنود الحمر ليحل محلهم الأمريكيون المحدثون؟!

من الذي فعل ذلك، أو مثله من الفظائع: الإسلام أم أنتم؟!

أسأل الجميع الأوروبيين والأمريكيين، وأتمنى أن أسمع إجابة. أي إجابة وأي نوع من التفسير لما فعلوه أجمعين.

من أذن لكم بذلك؟!

وبأي حق أو منطق أبحتم لأنفسكم أن تنزلوا بالبشرية هذا البلاء المبين؟! ، ثم بعد هذا كله تزعمون أنكم أصحاب حضارة! ! ، وأنكم شعوب وأنظمة راقية؟! ، بل تزدادون عتوًّا بما تعملون في هذا القرن كي تكونوا أصحاب الهيمنة على العالم.

بل وأن تكونوا أنتم ولاة أمره! حتى يكون نموذجكم هو النموذج الحضاري الذي يجب أن يسود العالم! !

أبدًا لا تصلح حضارتكم المادية والعلمانية الفارغة تمامًا من كل المعاني، والقيم، والأخلاقيات. لا تصلح حضارتكم الفارغة من عطاء الدين، وروحه، ورقيه لقيادة الإنسانية.

الحضارة المرشحة لذلك وحدها هي حضارة الإسلام الذي كفل للإنسان من الحقوق، ومن التكريم ما لم يعطه إياه أي دين آخر لا سماوي ولا وضعي.

وحسب الإسلام أنه رفع مكانة الإنسان، واستخلفه عن الله في أرض الله، وكرمه، وأسجد له ملائكته.

ثم بعد هذا تريدون أن تهيمنوا على العالم، وأن تكونوا أنتم القدوة والمثال! كبرت كلمة!.

إن المرشح الأول، والأعدل، والأمثل لقيادة البشرية هو الإسلام. وإنه المنقذ الحقيقي للإنسان من شرور نفسه، ومن سيئات أعماله، ومن عدوانه على الآخرين. الإسلام، والإسلام وحده.

الوجه الرابع: شهادات غير المسلمين على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف.

تواترت شهادات المفكرين الغربيين وشهدوا بالحق، وأثبتوا ما أنكره الجاحدون، وهذه مقتطفات مختصرة من أقوالهم:

قال غوستاف لوبون: "لم ينتشر القرآن بالسيف... بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب"[(١)].

وقال روبرتسون في كتابه "تاريخ شارلكن": "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم، وتركوهم أحرارًا في إقامة شعائرهم الدينية".

قال "ميشود" في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية": "إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب".

وقال الكونت هنري دي كاستري في كتابه "الإسلام خواطر وسوانح" بعد وصفه الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام بين الشعوب. وصف المسلمين بقوله: "فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام"[(٢)].

---

(١) حضارة العرب صـ ١٢٨.

(٢) الإسلام خواطر وسوانح صـ ٣٥، ترجمة أحمد فتحى زغلول.

وقال: "فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب"(١).

ذكر توماس كارليل صـ ٧٦ في "الأبطال" في معرض رده على شبهة انتشار الإسلام بالسيف: "فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف. ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟

هو قوة ذلك الدين، وإنه حق، والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأي رجل واحد، فالذي يعتقده هو فرد، فرد ضد العالم أجمع، فإذا تناول هذا الفرد سيفًا وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال، أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانًا، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أو باللسان أم بأية آية أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار. لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم"(٢).

يقول مونتكومري وات: لا يعني التأكيد – على إخضاع مشركي الجزيرة للإسلام- أن الإسلام قد انتشر بحدّ السيف. حقًّا إن القبائل الوثنية في الجزيرة العربية كان عليها أن تختار الإسلام والسيف، إلا أن تعامل المسلمين كان مختلفًا تجاه اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وغيرهم ممن اعتبرت دياناتهم شقيقة للإسلام، رغم الدعوى القائلة بأن الأتباع المعاصرين لتلك الديانات قد ابتعدوا عن جوهرها. ومهما كان الأمر فقد كان بالإمكان قبولهم نوعًا من الحلفاء للمسلمين في معظم الأقطار التي فتحتها العرب، لذلك فإن غرض الجهاد لم يكن يهدف إلى تحويل أولئك السكان نحو الإسلام بقدر ما كان يهدف إلى اعترافهم بالحكم الإسلامي وبمنزلة أناس يحميهم الإسلام. وبعامة فإنهم أهل الذمة، وكانت الطائفة الذمية مجموعة من الناس تعتنق ديانة واحدة لها استقلالها الداخلي برعاية رئيس ديني كالبطريك أو

---

(١) المصدر السابق صـ ٣٩- ٤٠: L'Islam impression et etudes.

(٢) الإسلام في قفص الاتهام صـ ١٣٥- ١٣٨.

الرابي، وكان على كل فرد من أفراد المجموعة الذمية دفع ضريبة شخصية إلى الحاكم المسلم، إضافة إلى مبالغ مختلفة أخرى تحدد استنادًا إلى شروط الاتفاقية مع المجموعة، وكانت تلك الضرائب أحيانًا أقل وطأة من الضرائب التي كانت تدفع للحكام السابقين، وكانت حمايتهم بصورة فعالة بالنسبة للدولة الإسلامية تمثل كلمة شرف تلتزم بها الدولة وتنفذها، ثم إن وضع أهل الذمة لم يكن سيئًا رغم بعض القيود المفروضة عليهم.

كانت هناك مناطق مثل شرق إفريقيا وجنوب شرق آسيا انتشر الإسلام فيها نتيجة نشاط رجال الأعمال؛ إذ لم يكون للمسلمين في تلك المناطق الوثنية أية سرية في ممارسة الصلاة خمس مرات يوميًّا، وإن إخلاص هؤلاء المسلمين والتزامهم المتزن بالإسلام الحنيف أذهل الوثنيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع المسلمين مما أدى إلى اعتناق الإسلام والاختلاط عن طريق الزواج إلى تكوين مجتمعات إسلامية صغيرة وسط المناطق الوثنية ونمت تلك المجتمعات بصورة تدريجية)[1].

يقول ول ديورانت: الحق أن حادث الفتوحات الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى[2].

كان أهل الذمة المسيحيون، والزردشتيون، واليهود، والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد نظيرًا لها في المسيحية في هذه الأيام. فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم[3].

---

(١) نقلًا من كتاب قالوا عن الإسلام صـ٣٢٢.

(٢) قصة الحضارة ١٣/ ٧.

(٣) نفسه ٣/ ١٣٠-١٣١.

على الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون، أو بسبب هذه الخطة اعتنق الدين معظم المسيحيين، وجميع الزردشتيون والوثنيون إلا عددًا قليلًا جدًا منهم، وكثيرون من اليهود. وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي، فإن في هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصًا واستمساكًا أنساهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين وحتى الأندلس، وتملك خيالهم وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالًا تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والألفة، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به في هذه الأيام مئات الملايين من الأنفس، يوحد هذا الدين بينهم، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية[١].

في وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام ١٣١١م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف، كلهم ما عدا ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام. وكثيرًا ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين[٢].

(إن المسلمين -كما يلوح- كانوا رجالًا أكمل من المسيحيين، فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م)[٣].

(١) قصة الحضارة ١٣/ ١٣٣.

(٢) قصة الحضارة ١٣/ ٢٩٧.

(٣) المصدر السابق ١٣/ ٣٨٣.

يقول سير توماس أرنولد(١): لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرود وايزابلا دين الإسلام من أسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهبًا يعاقب عليه متبّعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنكلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالًا تامًا عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف إلى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم.

يقول المستشرق الدومييلي(٢): إن السكان الساميين في سوريا ومصر، الذين قاسوا كل صنوف الضغط والهول –على الأخص بسبب الضرائب– من قبل الحكومات الأجنبية التابعة للدولة البيزنطية أو المملكة الساسانية، لم يستطيعوا أن يروا في العرب إلا محررين مخلصين، كما أن المسيحيين القائلين بوحدة الطبيعة طبيعة المسيح عليه السلام في الشرق استطاعوا أن يعتمدوا على التسامح الإسلامي، بعد أن كانوا يخشون الاضطهاد من قبل نصارى القسطنطينية(٣).

كانت شروط الفتح الإسلامي تسمح ببقاء بذور الحضارات القديمة عند طوائف كبيرة من الأهالي الذين واصلوا التمتع بعاداتهم، وقوانينهم، ولغاتهم، على شريطة أن

---

(١) الدعوة إلى الإسلام صـ٩٤.

(٢) مستشرق فرنسي، تفرغ لتاريخ العلوم، تولى وكالة المجمع الدولي لتاريخ العلوم وأسس مجلة اركيون– التي تسجل نشاطه.

من آثاره: تاريخ العلوم باريس ١٩٣٥، العلم العربي وأثره في التطوير العلمي العالمي ١٩٣٨، علم الفلك في العالم الإسلامي ١٩٤١، علم النبات عند العرب ١٩٤١، علم الجغرافيين العرب ١٩٤١، العلم الإسلامي ١٩٤٢، الرياضيات العربية ١٩٤٢، التشريح العربي ١٩٤٢، وغيرها.

(٣) العلم عند العرب صـ٨١.

يعطوا بانتظام قيم الجزية المفروضة على من لا يدخل في جماعة المسلمين.

وكان طبيعيًّا مع ذلك أن تتأسس الروابط والعلاقات بين الفاتحين وأهل البلاد في وقت مبكر، سواء أكان ذلك بسبب الجوار أم بسبب اعتناق الأهالي كثيرًا أو قليلًا للإسلام بوجه خاص(١).

التسامح العظيم الذي تحلى به الخلفاء الأمويون، وملوك الطوائف لم يمتد لواؤه على ما حكموه من شعوب، أو على المسلمين القادمين من أفريقية والمشرق فحسب؛ بل انبسط ظله أيضًا على العلماء المسيحيين الذين أقبلوا مهطعين من أبعد الأقطار لتلقي العلوم في المدن المزدهرة التي لا تحصى في ذلك القطر الساحر الأندلس الآخذ بمجامع الألباب. (٢)

يقول أدوار بروي: قلما عرف التاريخ والحق يقال، فتوحات كان لها في المدى القريب على الأهلين مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربي لهذه الأقطار، فمن لم يكن عربيًّا من الأهلين لم يشعر بأي اضطهاد قط، فاليهود والنصارى الذين هم أيضًا من أهل الكتاب حق لهم أن يتمتعوا بالتساهل وأن لا يضاموا، وكان لابدّ من الوقوف هذا الموقف نفسه من الزرادشتية والبوذية والصابئة وغيرها من الملل والنحل الأخرى. والمطلوب من هؤلاء السكان أن يظهروا الولاء للإسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه، وأن يؤدوا له الرسوم المترتبة على أهل الذمة تأديتها، وفي نطاق هذه التحفظات التي لم يكن لتؤثر كثيرًا على الحياة العادية، تمتع الزمن بكافة حرياتهم(٣).

انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الأصليين بسهولة كلية وفقًا لروح القانون المعمول به في البلاد، وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها الخاص، وبالموظفين الذين يسهرون على الشئون الدينية عندها باستثناء ما كان منها تابعًا للحق العام. ونلاحظ تطورًا ملحوظًا يطرأ على وضع النصارى بعد أن احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة

---

(١) المصدر السابق صـ١٢٣.

(٢) العلم عند العرب صـ٤٥٤.

(٣) تاريخ الحضارات العام ٣/ ١١٦.

العدالة في الأمم الخاصة، وهكذا برز البطاركة والأساقفة الرؤساء الأعلين لطوائفهم تعلو سلطتهم سلطة الموظفين الإداريين المحليين، حتى إن اليهود أنفسهم لم يجدوا بأسًا في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبربابنتهم وبحاخامهم الأكبر(١).

انتشرت حوالي السنة ١٠٠٠م عادة القيام بالحج، تزايد السفر إلى الأرض المقدسة؛ لأنه اعتبر أعظم الممارسات النصرانية نفعًا للخلاص الأبدي، وقلما ضايقه العرب الذين كانوا متساهلين جدًّا، كما يبدو من جهة ثانية أن الغزو التركي لم يجعل الدخول إلى معابد فلسطين أكثر صعوبة إلا أن فرسان الغرب، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة أخذوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر يؤدون فريضة الحج جماعات صغيرة مسلحة كما أخذوا بعد عودتهم يبسطون شعورهم بأن الفتح ليس أمرًا مستحيلًا، وجاء الاندماج التركي أخيرًا يهدد بيزنطية آنذاك تهديدًا جديًّا خطيرًا، ففكر الغرب بوجوب وقاية المسيحية من جهة الشرق(٢).

مما لابدّ من التنويه به عاليًا أن هؤلاء السلاطين العثمانيين لم يظهروا أي تحرج أو تعصب تجاه المسيحيين في وقت وزمان كان فيه ديوان التفتيش يبطش بالناس بطشًا وينزل بهم الهلع، وفي عهد كان اليهود والمسلمون يطردون دونما رحمة أو شفقة من أسبانيا، وبالرغم من إسكان عدد كبير من الجاليات الإسلامية في البلقان، واعتناق بعض الجماعات البلقانية الإسلام فلم يأت العثمانيون شيئًا مهمًا ليمنعوا السواد الأكبر من سكان البلاد البلقانية من الاحتفاظ بنصرانيتهم(٣).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٣١٢.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٥٨٩-٥٩٠.

يقول مارسيل بوازار: لقد أظهرت الرسالة القرآنية وتعاليم النبي ﷺ أنها تقدمية بشكل جوهري، وتفسّر هذه الخصائص انتشار الإسلام السريع بصورة خارقة خلال القرون الأولى من تاريخه. (١)

فتح الإسلام الباب للتعايش على الصعيد الاجتماعي والعرقي حين اعترف بصدق الرسالات الإلهية المنزلة من قبل على بعض الشعوب، لكنه بدا أنه يرفض الحوار في الوقت ذاته على الصعيد اللاهوتي حين أزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفًا مخالفًا للتوحيد بالمعنى الدقيق للكلمة، وأتاح منطق تعاليمه القوي وبساطة عقيدته، وما يرافقها من تسامح أتاح كل هذا للشعوب التي فتح بلادها حرية دينية تفوق بكثير تلك التي أتاحتها الدول المسيحية نفسها(٢).

لقد تألفت أمم من نوع معين واتحدت وخضعت لنظامها الديني الخاص وانخرطت في البنية الاجتماعية الفوقية للمجتمع الإسلامي الذي يحميها(٣).

حاول الإسلام منذ القرن السابع للميلاد أن يقدم حلًا لمشكلة الأقليات فريدًا في نوعه وتستحق جماعة غير المسلمين على أرض الإسلام أن تتناول بالتحليل؛ لأنه ثبت أنها نهج لا مثيل له في الوقت الذي كان فيه الغرب على أهبة الخروج من العصور الوسطى، وإدراك ضرورة وضع الأنظمة المحدودة للعلاقات مع الغرباء(٤).

منذ بدء الفتح العربي الإسلامي كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحًا من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب المغلوبة، وفي زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعًا ولا عاطفة، أصدر أبو بكر ﷺأول خليفة للنبي ﷺ إلى جنوده التعليمات

---

(١) إنسانية الإسلام صـ٧٤.

(٢) المصدر السابق صـ١٨٤.

(٣) إنسانية الإسلام صـ١٨٦.

(٤) المصدر السابق صـ٢٨٧.

المشهورة المرنة كثيرًا التي تختصر الروح الخلقي للقانون الإسلامي[١].

يقول تريتون[٢]: أما النواحي الشرقية القصوى من الدولة الإسلامية فإن الشعوب المحكومة كانت تعامل معاملة تنطوي على مثل هذا العطف الذي حظيت به في النواحي الأخرى[٣].

ولما تدانى أجل عمر بن الخطاب أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله: (أوصى الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألّا يكلفهم فوق طاقتهم)[٤] وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول، وهي شهادة "عيشويابه" الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧ إلى ٦٥٧م إذ كتب يقول: إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية؛ بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسيسينا وقدّيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا. والظاهر أن الاتفاق الذي تم بين عيشويابه وبين العرب كان من صالح النصارى فقد نصّ على وجوب حمايتهم من أعدائهم وألا يحملوا قسرًا على الحرب من أجل العرب، وألّا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعاداتهم وممارسة شعائرهم، وألا تزيد الجزية المجباة من الفقير على أربعة دراهم، وأن يؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهمًا، وإذا كانت أمة نصرانية في خدمة مسلم فإنه لا يحق لسيدها أن يجبرها على ترك دينها

---

(١) المصدر السابق صـ٢٧٨.

(٢) آرثر ستانلي تريتون. ولد عام ١٨٨١، وتعلم في عدد من الكليات البريطانية وعين مساعد أستاذ للعربية في ادنبرا ١٩١١ وكلاسكو ١٩١٩، وأستاذًا في عليكرة في الهند ١٩٢١، ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن ١٩٣١-٣٨-٤٧-، وقد وجه جل اهتمامه إلى الفقه وطوّف في عدد من البلدان العربية.
من آثاره: أئمة الزيدية بصنعاء واليمن ١٩٢٥، الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين ١٩٣٠، علم الكلام في الإسلام ١٩٤٧، الإسلام إيمان وشعائر ١٩٥٠، مواد في التربية الإسلامية ١٩٥٧. كما نشر عددًا من الأبحاث في المجالات الاستشراقية وبخاصة مجلة الجمعية الملكية الآسيوية.

(٣) أهل الذمة في الإسلام صـ٤٣.

(٤) يحيى بن آدم: كتاب الخراج صـ٥٤.

أو إهمال صلاتها والتخلي عن صيامها[١].

كان العرب في أيامهم الأولى يلتزمون جادة الصبر والأناة، إذ كثيرًا ما نقرأ عن مدن استسلمت بشروط ثم ثارت وتمردت على العرب ثم استسلمت مرة أخرى فأعادوا لها عهودها الأولى[٢].

ومن الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية في معاملتها الذميين ما جاء في الأمر الذي وجد بين أوراق البردي اليونانية المحفوظة في المتحف البريطاني، وعلى الرغم من فساد قسم منه فقد جاء في الباقي: خوفًا من الله، وحفظًا للعدالة والحق في توزيع القدر المفروض عليهم ولكن تجب معاملة الجميع بالعدل، وأخذ الشيء من كل منهم بقدر طاقته[٣].

يقول أرنولد توينبي: ثمة حالة نابهة الذكر لهذا التسامح المنشود يفرضها نبيٌّ على أتباعه وهو في موضعه الجليل. فإن محمدًا ﷺ قد أمر أتباعه بالتسامح الديني تجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسيًّا للحكم الإسلامي. فقدم محمد ﷺ بذلك لقاعدة التسامح تفسيرًا قوامه أن أفراد هاتين الجماعتين الدينيتين غير المسلمتين هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم، وليس أدل على روح التسامح التي بعثت الحياة في الإسلام منذ بدايته من أن المسلمين قد طبقوا مبدأ التسامح الديني على أتباع زرادشت الذين خضعوا للحكم الإسلامي؛ وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه[٤].

لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الجزية وتلك سياسة مستنيرة، أجمعت الآراء على امتداحها. لقد سلك الإسلام طريقة بين رعايا الخلافة غير العرب، مستندًا على مزاياه وفضائله الذاتية، وكان انتشارًا بطيئًا لكنه كان مؤكدًا، ويحتمل

---

(١) أهل الذمة في الإسلام صـ١٥٨-١٥٩.

(٢) المرجع السابق صـ١٦٠.

(٣) المرجع السابق صـ١٦٣-١٦٤.

(٤) مختصر دراسة التاريخ ٣/ ٤٢.

أن الهداية إلى الإسلام بصورة جماعية لم تبدأ قبل القرن التاسع الميلادي – أو تصل نهايتها- حتى حلول فترة اضمحلال الإمبراطورية العباسية من القرن الثالث عشر. ويمكن القول بالتأكيد إن هذه الغلات التي حصدت من حقل التبشير الإسلامي كانت حصيلة حركة شعبية تلقائية، ولم تنجم قط عن ضغط سياسي(١).

إن المسلمين قد سبقوا بناة الإمبراطورية من الأسبانيين والبرتغاليين في إظهار إخلاصهم لمعتقداتهم الدينية. فإن المسلمين قد تزاوجوا منذ البداية مع من تولوا هدايتهم إلى دينهم دون اعتبار لاختلاف الجنس؛ بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فإن المجتمع الإسلامي قد ورث عن نص وارد في القرآن إقرارًا بطائفة من الأديان عدا الإسلام هي رغم ما بها من قصور أديان سماوية أصلية نزل بها الوحي وهذا الإقرار أسبغ على اليهود والمسيحيين أولًا، ثم اتسع فشمل بعد ذلك الزرادشيتين والهندوس(٢).

يقول جورج حنا:إن المسلمين العرب لم يعرف عنهم القسوة والجور في معاملتهم للمسيحيين؛ بل كانوا يتركون لأهل الكتاب حرية العبادة وممارسة طقوسهم الدينية مكتفين بأخذ الجزية منهم. (٣)

لم يرو المؤرخون المسيحيون أنفسهم مثل هذه الوحشية التي مارسها الصليبيون عن المسلمين. لم يكن هؤلاء وحشيين في معاملة الأسرى الأهليين المسيحيين، فإذا انتصروا كانوا يكتفون بضرب الجزية على أعدائهم ولا يفظّعون بهم.

بعد معركة طبرية التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على خصمه الملك غي ده لوسينيان عفَّ صلاح الدين عن التفظيع بالأسرى الذين نجوا من الموت المريع أثناء المعركة، وجردهم من السلاح، وضرب عليهم الجزية وأطلق سراحهم مع قائدهم الملك

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٥٥-٣٥٧.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤١٨.

(٣) قصة الإنسان صـ٨٩-٩٠.

غي. وليست هذه الحادثة وحدها هي الدليل على الفرق الكبير بين معاملة الغزاة لأعدائهم وبين معاملة أعدائهم في واحدة من المئات التي جاءت في كتب التاريخ عن الحروب الصليبية ومعظمها لمؤرخين مسيحيين من الفرنج بالذات[1].

يقول أميل درمنغم: كانت الفتوح الإسلامية جزاءً مقدرًا، وخزيًا كبيرًا على النصرانية الشرقية المتفرقة المنحطة، وكان سلطان العرب غلًّا أكرهت به أوروبا على الصواب، فكان ظهور العرب ووعيدهم حافزين للنصرانية إلى سلوك سبيل الإصلاح والترقي[2].

لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف ففي القرآن: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال وبألا يبدؤوا بالاعتداء[3].

كتب الفوز للعرب؛ لأنهم كانوا أهلًا للفوز، وتمّ النصر للإسلام؛ لأنه عنوان رسالة كان الشرق كثير الاحتياج إليها، واحتمل المسلمون ضروب العذاب قبل الهجرة ولم يستطيعوا لها ردًّا، فلما كانت الهجرة وكان ما أبدوه من المقاومة والنصر، اتخذوا التسامح الواسع دستورًا لهم. أجل لم يبق للمشركين مقام في دار الإسلام، ولكنه أصبح لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيها حق الحماية وحرية العبادة وما إليهما، وصاروا من المجتمع إذا ما أعطوا الجزية. قال النبي ﷺ : "من آذى ذميًّا فأنا خصمه"، وما أكثر ما في القرآن والحديث من الأمر بالتسامح، وما أكثر عمل فاتحي الإسلام بذلك، ولم يرو التاريخ أن المسلمين قتلوا شعبًا، وما دخول الناس أفواجًا في الإسلام إلّا عن رغبة فيه، وهنا نذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا دخل القدس فاتحًا أمر بألّا يمسّ النصارى بسوء وبأن تترك لهم كنائسهم، وشمل البطرك بكل رعاية، ورفض الصلاة في الكنيسة خوفًا من أن يتخذ المسلمون ذلك ذريعة لتحويلها إلى مسجد.

---

(١) المصدر السابق صـ٩٢-٩٣.

(٢) حياة محمد صـ١٤٤.

(٣) المصدر السابق صـ١٩٦.

وهنا نقول ما أعظم الفرق بين دخول المسلمين القدس فاتحين ودخول الصليبيين الذين ضربوا رقاب المسلمين فسار فرسانهم في نهر من الدماء التي كانت من الغزاة ما بلغت به ركبهم، وعقد النية على قتل المسلمين الذين تفلتوا من المذبحة الأولى![1].

يقول اتيين دينيه: من الحقائق التاريخية أن النبي ﷺ أعطى أهل نجران المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية. وها نحن أولًا نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيون في الدعوى إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي يحبها الذوق السليم. وقد أنصف القس ميثون الحقيقة في كتابه "سياحة دينية في الشرق" حيث يقول: إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم[2].

المسلمون على عكس ما يعتقده الكثيرون، لم يستخدموا القوة أبدًا خارج حدود الحجاز لإكراه غيرهم على الإسلام. وإن وجود المسيحيين في أسبانيا لدليل واضح على ذلك، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التي ملك فيها المسلمون بلادهم، وكان لبعضهم مناصب رفيعة في بلاط قرطبة. ثم إذا بهؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان في هذه البلاد فكان أول همٍّ لهم أن يقضوا قضاء تامًّا على المسلمين[3].

إن القدوة الحسنة التي لا تقترن بمحاولة التبشير المتعصبة لهي أقوى أثرًا في النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين، ولقد اضطر العالم دوزي –رغم تعصبه ضد الإسلام– إلى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا في أسبانيا اعتنقوا الإسلام عن عقيدة[4].

---

(١) حياة محمد صـ٣٦٩ – ٣٧٠.

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام صـ١٨-١٩.

(٣) محمد رسول الله صـ٣٣٢.

(٤) المرجع السابق صـ٣٣٣.

القاعدة التي يجري عليها المسلم في علاقاته بأصحاب الديانات الأخرى هي تلك التي حددها القرآن في الآية التالية ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ وكيف لا يكون المسلم متسامحًا وهو يجل الأنبياء الذين يجلهمّ اليهود والنصارى فموسى بالنسبة إليه كليم الله، وعيسى روح الله، يجب تبجيلهما كما نبجل محمدًا حبيب الله. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[(١)].

يقول ادوين كالغرلي: لم يحمل المسلمون أثناء غزواتهم المنتصرة أحدًا من المسيحيين أو اليهود على اعتناق الإسلام، فقد أقر الإسلام لأهل الكتاب بحرية ممارسة شعائر دينهم بشرط دفع الجزية، وكل ما طالبهم به هو أن يسلموا للدين الجديد بالسيادة المدنية والسياسية التي تمثلت في الدولة الإسلامية[(٢)].

(احتفظ المسلمون للأقليات غير المسلمة في البلاد التي فتحوها بحقوقهم وامتيازاتهم الدينية)[(٣)].

في القرآن آية كريمة تفيض بالصدق والحكمة يعرفها المسلمون جميعًا، ويجب أن يعرفها غيرهم، وهي تقول بأن: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦)[(٤)].

يقول كلود كاهن: حافظت الأقوام المغلوبة على حرية إقامة شعائرها، لا يحدّها في ذلك سوى الامتناع عن تلك التظاهرات العامة التي تؤذي المسلمين في المناطق الآهلة بهم، كما حافظت تلك الأقوام على شرائعها الخاصة، ورأى المسلمون في أداء الضريبة لهم اعترافًا بالسيادة العليا للأمة الإسلامية، ولقاء ذلك استبقى الأهالي ما يملكون من عقارات ونزل العرب خارج ممتلكاتهم، وكان على المغلوبين أيضًا واجب الوفاء والإخلاص للفاتحين، وبخاصة في فترات الحروب كإيواء المسلمين وتزويدهم بالأخبار والامتناع عن إفشاء المعلومات للعدو[(١)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته بإشراف كويلر يونغ، صـ١٦٣-١٦٤.

(٣) نفسه، صـ١٦٤.

(٤) الشرق الأدنى صـ١٨٢.

يقول كرامرز[٢]: إن أورشليم القدس المركز الديني الأسمى لأوربا النصرانية دخلت منذ السنة ٦٣٨م في حوزة الإسلام إلا أن الفتح الإسلامي لم يمنع من زيارة القبر المقدس، أو يحل بين الأوربيين المسيحيين وبين إنجاز هذه الفريضة الدينية.

يقول جوليفيه كستلو: ما كان الحكم التركي الذي امتد ظله إلى المجر ظالمًا ولا قاسيًا، فقد كان العثمانيون يرعون أديان الشعوب المحكومة، ويحترمون عاداتها، وظلت تركية متمسكة بهذه القاعدة إلى القرن العشرين، وما تعمدت قط أن تتمثل العناصر؛ بل اكتفت بفرض الضرائب عليهم. وقد رأينا الشعوب التي خضعت لحكم السلطنة أضاعت قوميتها، وكانت مع هذا أيام استعبادها أسعد حالًا من العصور المضطربة المحاربة أيام استقلالها، وربما لم تربح إلى اليوم من هذا التبدل في الحكم. [٣]

يقول كولد تسيهر: إنه مما لا يمكن إنكاره أن الأوامر القديمة التي وضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم، أثناء هذه المرحلة الأولى من التطور الفقهي كانت قائمة على روح التسامح وعدم التعصب. وأن ما يشاهد اليوم مما يشبه أن يكون تسامحًا دينيًّا في علاقات الحكومات الإسلامية، ونجد ظواهر هذا التشريع في الإسلام في كتب الرحالة في القرن الثامن عشر يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع من مبادئ الحرية الدينية التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية.

روح التسامح في الإسلام قديمًا تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضًا كان لها أصلها في القرآن: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقد جاءت الأخبار

---

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ١/ ٥-٦.

(٢) البروفيسور جي. م. ج كرامرز. ولد بهولندا سنة ١٨٩١، وكان أستاذًا للتركية والفارسية في جامعة ليدن حتى سنة ١٩٣٩، اشتغل من ١٩١٥ حتى ١٩٢١ مترجمًا للسفارة الهولندية في الأستانة. كان أحد المساهمين في كتابة كثير من الموضوعات في دائرة المعارف الإسلامية، وألف كتاب: فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين- ١٩٤٤.

(٣) قانون التاريخ، عن محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ٢/ ٤٩٦-٤٩٧.

عن السنين العشر الأولى للإسلام بمثل للتسامح الديني للخلفاء إزاء أهل الأديان القديمة، وكثيرًا ما كانوا يوصون في وصاياهم للفاتحين بالتعاليم الحكيمة، ومن المثل لذلك عهد النبي ﷺ مع نصارى نجران الذي حوى احترام منشآت النصارى، ثم هذه القواعد التي أعطاها لمعاذ بن جبل عند ذهابه إلى اليمن لا يزعج يهودي في يهوديته. وفي هذه الدائرة العالية كانت أيضًا عهود الصلح التي أعطيت للنصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التي اندمجت في الإسلام وبموجبها كانوا – في مقابل دفع الجزية- يستطيعون مباشرة شئونهم الدينية من غير إزعاج لهم.

وكما أن مبدأ التسامح كان جاريًا في الأعمال الدينية، كذلك من جهة أخرى كان يراعي فقهيًا فيما يتعلق بالمعاملات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الكتاب مبدأ الرعاية والتساهل، فظلم أهل الذمة، وهم أولئك المحتمون بحمى الإسلام من غير المسلمين كان يحكم عليه بالمعصية وتعدي الشريعة. ففي بعض المرات عامل حاكم إقليم لبنان الشعب بقسوة عندما ثار ضد ظلم أحد عمال الضرائب، فحكم عليه بما قاله الرسول ﷺ : "من ظلم معاهدًا، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة". وفي عصر أحدث من هذا ما رواه بورتر Porter في كتابه "خمس سنين في دمشق" من أنه رأى بالقرب من بصرى بيت اليهود، وحكمت أنه كان في هذا الموضع مسجد هدمه عمر ﷺلأن الحاكم قد اغتصبه من يهودي ليبني عليه هذا المسجد)[1].

الوجه الخامس: علاقة الدولة الإسلامية بالدول المحاربة.

إن الله تعالى عظَّم شأن من سعى لحفظ حياة إنسان واحد، وعظَّم جرم من سعى في قتل إنسان بريء ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢) وقد تكلَّم

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام صـ٤٥-٤٧.

علماء الإسلام أن هذه الآية تشمل كل إنسان مسلمًا كان أم غير مسلم. وما شرع القصاص في القتل إلا لحماية حياة الناس، فإن الإنسان لا يبادر إلى قتل البريء إذا عم أنه يقتل به ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٩).

أما الأمن الذي يقابل العنف فقد جعله الإسلام من أعظم أسباب النعم التي أنعم الله بها على عباده، ومنَّ بها عليهم ليعبدوه وحده لا شريك له، فقال: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (قريش: ١-٤).

والسلم والحرب من سنن الله تعالى في هذه الحياة، والناس لا يعدّون إلا مسالمين أو محاربين. وقد جعل الشرع للحرب سننًا وآدابًا، وللسلم سننًا وآدابًا. لقد جعل الإسلام للحرب آدابًا للرحمة لم يعرفها غير المسلمين لا في تأريخهم القديم ولا الحديث.

إن من أعظم سنن الحرب عند المسلمين:

- الإعلان والإنذار قبل الحرب.
- قتال المحارب دون غيره من الرجال.
- ترك النساء والأطفال والشيوخ.
- إعطاء الأمان للمحارب إذا طلب ذلك قبل القدرة عليه.
- الوفاء بالعهد وعدم الغدر.
- الحرب الشريفة (النظيفة).

إن هذه السنن الحربية سنن مقدسة شريفة عند المسلمين، إنها سنن يتعبَّدون الله تعالى بها، ذلك أن من خالفها فقد عصى الأوامر الشرعية تمامًا مثل من شرب الخمر أو سرق ونحو ذلك. وقد شهد التأريخ بشرفية حروب المسلمين ونظافتها من الخبث والغدر.

روى مسلم في صحيحه عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سريَّة أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: "اغزوا باسم الله

في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا".

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان. ؟ [(١)]

وقال تعالى في ترك المسالمين من الرجال: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة: ٨).

وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ (النساء: ٩٠). وقوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي: كرهوا قتالكم.

والدارس للقرآن الكريم في هذا المجال يجد الحقائق الآتية[(٢)]:

الحقيقة الأولى:

أن الإسلام قد حرم الاعتداء تحريمًا قاطعًا، وتشريعه للحرب دفاعي محض، والدليل على ذلك: أننا لا نجد في القرآن الكريم كله آية واحدة تتحدث عن حرب هجومية من جانب المسلمين، أما إذا وقع اعتداء على المسلمين من أحد، فعليهم أن يهبوا للدفاع عن أنفسهم ودينهم، وهذا حق مشروع لا ينكره إنسان منصف، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

الحقيقة الثانية:

القرآن الكريم صريح كل الصراحة في أن الكفر في ذاته لا يبيح قتال أصحابه، وإنما الذي يبيحه هو اعتداؤهم، ومن الأدلة على ذلك: الآية السابقة وما قدمناه من احترام

(١) البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤).

(٢) انظر مجلة الحكمة العدد ٢٤ صـ ١٣ وما بعدها.

القرآن جوار المعاهدين وتحريمه قتال من أتى إلى المسلمين من دار الحرب كما سبق، ومن الأدلة أيضًا ما قرره القرآن من إجارة المشرك ما دام مسالمًا على النحو الذي قدمناه.

الحقيقة الثالثة:

أباح القرآن الكريم قتال الكفار الذين يحاولون الصيد في الماء العكر، ويتلونون كل يوم بلون ليأمنوا جانب المسلمين وجانب قومهم في وقت واحد، قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ (النساء: ٩١)[1].

الحقيقة الرابعة:

إذا أثخن العدو بالجراح، وتجلى ضعفه، وصار النصر محققًا في جانب المسلمين، فلهم أخذ الأعداء أسرى إلى أن يتم الاتفاق على إنهاء حالة الحرب، وللحاكم المسلم أن يمن على هؤلاء الأسرى فيطلق سراحهم دون مقابل، وله أن يأخذ فدية مقابل تسريحهم تبعًا لما فيه المصلحة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ (محمد: ٤).

الحقيقة الخامسة:

الحرب في مفهوم القرآن الكريم ضرورة، ولذلك فهي مؤقتة بوجود سببها وهو الاعتداء على جماعة المسلمين، فإذا انتفى هذا السبب وجب إنهاؤها، وهذا يحدث في نظر القرآن الكريم بأحد أمور ثلاثة:

١- أن ينتهي المعتدون من عدوانهم، ويكفوا أيديهم عن القتال قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ (البقرة: ١٩٢).

---

(١) انظر حولية كلية أصول الدين العدد التاسع صـ ١٠٨ وما بعدها.

٢- أن يجنحوا إلى السلم ويمدوا أيديهم للتصالح مع المسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال: ٦١)

٣- أن يحرز المسلمون النصر ويوقنوا بزوال الخطر، وعليهم حينئذ أن يكفوا عن القتال ويبدأوا بتصفية الموقف، قال تعالى: ﴿إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ (محمد: ٤).

معاملة الأسرى في الإسلام والتشريعات الأخرى

إذا كانت معاملة الأسرى في ظل منهج القرآن قد بلغت شأوًا بعيدًا في الإحسان والرحمة؛ فإنه باستقرار تاريخ التشريعات الأخرى نرى عكس ما انتظمته تشريعات القرآن الكريم السامية[١].

الأسرى في ظل تشريعات فارس

فالقارئ لتاريخ فارس يرى أمرًا عجبًا فإنهم كانوا يعاملون أسراهم بقسوة لا شفقة معها فيسملون أعينهم، ويسومونهم سوء العذاب ثم يقتلونهم أو يطلبونهم.[٢]

فأسرى الحرب لم تكن لهم أي قيمة تذكر كبشر في نظر أهل فارس حين وقع (والير فإن) قيصر الروم في أسر شابور الأول قيد بالسلاسل، وطوف به في المدينة، واستخدم كالعبيد طوال حياته، وبعد موته سلخ جلده وملء بالقش[٣].

أما حادثة شابور و الأكتاف فهي مشهورة فحين أريد الانتقام من الأسرى العرب (عرب البحرين أو الإحساء) أمر بصفهم معًا، وحرق أكتافهم وربطهم معًا؛ ولهذا عرف في التاريخ باسم (ذو الأكتاف). وتزداد فظاعة هذه الحكايات الدامية حين تعرف أن هذا

---

(١) استفدنا هذا المبحث من معاملة أسرى الحرب في ضوء القرآن الكريم للدكتور عبد الفتاح عبد الغنى، حولية كلية أصول الدين العدد ١٩ صـ ٢١٩.

(٢) راجع، الحرب والسلام في شرعة الإسلام صـ ١٧٤ د/ مجيد خدوري.

(٣) راجع شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية لأبي الأعلى المودودي صـ ١٦٥.

الظلم الذي وقع على الجنس البشري لم يكن له أي مقصد أو هدف؛ بل كان لمجرد الشهرة وإظهار الهيبة والعظمة لا غير وكان يحدث أن تسفك دماء الألوف من الناس لمجرد إرضاء شهوات الملوك ونزواتهم الوضيعة وهذه الحادثة التي وقعت في عهد رسول الله ﷺ فقد سمع (خسرو أبرويز) عن جمال ابنة النعمان بن المنذر فأمره أن يدخل ابنته في البلاط الملكي إلا أن النعمان بغيرته العربية لم يهتم بهذا الحكم ورفضه علنا فصدر أمرًا من خسروا باحتلال إمارة الحيرة والقبض على النعمان فقام النعمان وأولاده باللجوء إلى حماية بنى شيبان وذهب بنفسه إلى بلاط كسرى يلتمس العفو على هذا الذنب لكن كسرى أمر بقتله وأرسل جيشًا قوامه أربعون ألف جندي لسلب أهل النعمان ابن المنذر من بني شيبان ودارت رحى المعركة عند ذي قار معركة ضارية مات فيها الآلاف من الطرفين لا لشيء إلا لأن الملك كان يشتهى رؤية امرأة جميلة(١).

الأسرى في ظل تشريعات الرومان واليونان

إذا كان هذا هو الحال في فارس في معاملة أسرى الحرب؛ فإن حال الأسرى في قوانين الرومان واليونان القدامى أشد سوءًا.

كان أسرى الحرب عندهم هم أكثر الناس تعرضًا للمهانة والمذلة والتعذيب والقهر، فقد كان الرومان واليونان قدامى يعتبرون الأمم الأخرى أمم همجية بربرية، ولم يكن في قوانينهم مادة تتعلق بالأسير سوى مادة واحدة تنص على قتله أو استرقاقه ولا شيء غير هذا.

يقول أرسطو معلم الأخلاق: ببساطة إن الطبيعة قد خلقت هؤلاء البرابرة؛ ليكونوا مجرد عبيد وغلمان(٢).

وفي موضع آخر يتحدث عن السبل المشروعة للحصول على الثروة فيقول: وتحدث

(١) المرجع السابق.

(٢) راجع شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية صـ ١٦٣.

الحرب من أجل استرقاق هذه الأمم فقد خلقتهم الطبيعة لهذا الغرض[١].

وقد أدى هذا الاعتقاد بالتالي إلى استهتار الرومان بأرواح الأمم الأخرى وأموالها من ناحية، ومن ناحية أخرى سيطرت على المجتمع الروماني بهمجية ووحشية جعلت أفراد المجتمع الروماني يتلذذون بمشاهدة الوحشية في ألعابهم، فحولوا هذا التلذذ المجازي إلى واقع فلو تخيلوا حرق بيت قاموا بحرقه فعلًا، وهكذا قاموا بحرق الإنسان حيًا، وتركوا الإنسان فريسة للأسود في قفص واحد، ولما كانوا في حاجة إلى هؤلاء الذين يتسلون بهم في لهوهم الوحشي ولم يكن من المعقول أن يكونوا من المواطنين الأحرار في روما؛ جعلوا أسرى الحرب وسائل لتلك التسلية الدموية، وكانت هذه التسلية تتم على نطاق واسع لدرجة أنها كانت تضم آلاف الرجال، يطاح بهم في وقت واحد.

أما تينوس الذي يقال: إنه محبوب الجنس البشرى فقد أمر بالقبض على خمسين ألفًا من الحيوانات المتوحشة ثم نزل منها عدة آلاف من الأسرى اليهود داخل سياج واحد.

وفي ألعاب بشعة أخرى كان هناك عشرة ألف رجل يتصارعون مع أحد عشر ألفًا من الوحوش الضارية.

وقد قام كلاديوس ذات مرة بجعل (١٩) تسع عشرة ألف رجل يقتلون بعضهم بعضًا بالسيف خلال هذه الألاعيب الحربية البشعة، والوصية التي كتبها قيصر أغسطس جاء فيها: لقد شاهدت مباريات ثمانية آلاف جندي مع ثلاثة آلاف وخمسمائة وعشرة من الحيوانات المفترسة، وكانت هذه المباريات تتم كلها باستخدام أسرى الحروب.

أضف إلى ذلك لقد كان استخدام أسرى الحرب يشمل أيضًا استرقاقهم من جانب الرومان الأحرار، وقد احتل الأسرى الدرجة الدنيا في المجتمع؛ إذ لم تكن لهم أية حقوق محدودة، ولم تكن لأرواحهم قيمة، ولم يكن لهم هدف من حياتهم سوى إرضاء رغبات

---

(١) راجع المصدر السابق.

سادتهم ونزواتهم.

وكما يقول "فيرر": "يقضون حياتهم وطفولتهم ذليلة، وشبابهم تعب شاق، وشيخوختهم لا رحمة لها من سادتهم وهكذا حياتهم من المهد إلى اللحد"[١].

ويقول: "فيرر": حين اتسعت فتوحات الرومان بدأ عدد ضخم من أسرى الحرب يفد إلى البلاد، ووصل مجموع عددهم في وقت من الأوقات إلى ستين مليون مستعبد[٢].

الأسرى في ظل تشريعات اليهود

أما عن اليهود فحدث ولا حرج فقد اشتملت نصوص توارتهم المحرفة على ما يندى له الجبين، ومن ثم انطلق الحكم العبري من خلال هذه النصوص المحرفة فما كان أقل قسوة من الفرس أو الرومان فقد ورد في:

(أ) سفر التثنية: "حين تقترب من مدينة لكي تحاربها فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك".

(ب) جاء في الإصحاح الثالث عشر من تثنية الاشتراع في العهد القديم: فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب ولإلهك فتكون تلك إلى الأبد لاثيني بعد[٣].

(ج) وما جاء في الإصحاح العشرين: (فكل الشعب الموجود فيها يكون لك التسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل

(١) Ferrarp. ٢ نقلًا عن المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الإصحاح الثالث عشر ١٥، ١٦.

غنيمتها فتغنمها لنفسك[١].

وهكذا انطلق اليهود العبريون في كل عصر ومصر ينفذون تلك التعاليم المحرفة التي احتواها كتابهم؛ فأخذوا يعيثون في الأرض فسادا، ويقتلون ويخربون ويدمرون ويذيقون أسارى الحرب أشد ألوان التعذيب والتنكيل وإن شئت فاقرأ جرائمهم في العصر الحاضر مع الشعب العربي بصفة عامة والشعب الفلسطيني بصفة خاصة.

لقد ذكرت التقارير والأبحاث المقدمة إلى مؤتمر حقوق الإنسان الذي عقدته جامعة الدول العربية ببيروت سنة ١٩٦٨ الجرائم والمخالفات التي ارتكبتها إسرائيل ضد الأسرى العرب بعد حرب يونيو ١٩٦٧ لقد أساءت معاملتهم وعذبتهم وقتلت بعضهم مخالفة بذلك أبسط المبادئ الأخلاقية والإنسانية.

معاملة الأسرى في التشريع الإسلامي*

جاء تشريع الإسلام في أسمى صوره من اليسر والرفق والرحمة، تجاه هؤلاء الأسرى؛ بل واسأل التاريخ كله، فإنه سيجيبك أنه لم يعرف محاربًا رفيقًا بأسرى الحرب كالمحارب المسلم.

لقد حث الإسلام على إحسان معاملة الأسرى والرفق بهم وتتجلى مظاهر الإحسان فيما يلي:

١ـ توفير الطعام والشراب للأسرى.

وقد دلَّ على ذلك النصوص الآتية:

أ- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ (الإنسان: ٥- ٩).

فقد وصف الله تعالى حال الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا بأنهم يوفون بالنذر، ويطعمون الطعام المساكين والأيتام والأسارى وإن كانوا غير مسلمين، كما

(١) الإصحاح العشرين العهد القديم ١٠- ١٨.

* انظر تفصيل هذه المسألة في شبهة " الرق في الإسلام " من هذه الموسوعة.

قال قتادة[١].

فرغبت الآية المسلمين في إطعام الأسرى واعتبرت ذلك من قبيل القربة إلى الله.

فهذه الآية نص محكم في الإحسان إلى الأسرى، والرفق بهم، ويقول الإمام القرطبي بعد أن ذكر أقوال السلف في بيان المراد من الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم، وقال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه قال: قلت: وكأن هذا القول عام يجمع جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى[٢].

ب- وروي عن عمران بن حصين قال: "كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلًا من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء (ناقة) فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، فقال: يا محمد، فأتاه، فقال: ما شأنك؟ فقال: بم أخذتني وأخذت سابقة الحاج (يعني العضباء)؟ فقال: بجريرة حلفائك ثقيف، ثم انصرف، فناداه فقال: يا محمد، يا محمد، فقال: ما شأنك؟ قال: إني مسلم. قال: "لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح" ثم انصرف عنه فناداه: يا محمد، يا محمد، فأتاه فقال: ما شأنك؟ فقال: إني جائع فأطعمني، وظمآن فاسقني. قال: "هذه حاجتك" ففُدِي بعد بالرجلين[٣].

فقوله ﷺ "هذه حاجتك" تدل على إطعام الأسير وأنه ينبغي أن يكون الطعام كافيًا في كميته وقيمته الغذائية، بحيث تكفل للأسير السلامة.

ج- وروي أن رسول الله ﷺ حين أتي بالأسارى (أي أسرى بدر) فرقهم بين أصحابه وقال لهم: "استوصوا بالأسرى خيرًا" قال: وكان أبو عزيز عمير بن هاشم أخو مصعب

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١٥/ ٢٣٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٩.

(٣) مسلم (١٦٤١).

بن عمير لأبيه وأمه يأسرني. فقال: شدَّ يدك به! فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك. قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا. ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فاستحيي فأردها على أحدهم، فيردها ما يمسها[1].

٢ـ توفير الكساء:

ومن مظاهر الإحسان في الإسلام للأسرى أنه لا يترك الأسرى بدون كساء يقيهم حر الصيف وشدة البرد. فقد روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهقال: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أُتِيَ بِأُسَارَى، وَأُتِيَ بِالْعَبَّاسِ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ، فَلِذَلِكَ نَزَعَ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ الَّذِي أَلْبَسَهُ. قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: كَانَتْ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَدٌ فَأَحَبَّ أَنْ يُكَافِئَهُ.[2] وقد بوَّب البخاري على هذا الحديث بابًا بعنوان: (الكسوة للأسارى).

وأوصى القاضي أبو يوسف خليفة المسلمين هارون الرشيد: أن يصرف للسجناء ملابس ثقيلة تحميهم من برد الشتاء، وملابس خفيفة تروح عنهم حر الصيف[3].

٣ـ توفير السكن المناسب لهم:

في العصور الأولى للإسلام التي لم يكن فيها سجون وزَّع رسول الله ﷺ الأسرى على الناس؛ لإسكانهم في بيوتهم، وكان يحبس البعض في المسجد، ويوصي بهم خيرًا. ولما اتخذت السجون نبه كثير من العلماء إلى ضرورة أن تكون واسعة وصحية.

فقال ابن هبيرة: (لا يجوز جمع السجناء في مكان ضيق)[4]، وقال الماوردي: (لا يجوز

---

(١) وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ٨٦: رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٦).

(٣) الخراج لأبي يوسف صـ ١٦٢.

(٤) الإفصاح لابن هبيرة ١/ ٣٩.

عند أحد من المسلمين أن يجمع الكثير في موضع ضيق)[١].

٤ـ عدم تكليفهم بما لا يطيقون:

لقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الأسرى.

من الإحسان للأسرى أن لا يكلفوا من الأعمال ما لا يستطيعونه، ولا أن يجبروا على أعمال لا يقدرون عليها، وتراعى بنية الأسير الجسدية وآدميته ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقوله ﷺ: "اكلفوا من الأعمال ما تطيقون"[٢].

٥ـ توفير العناية الصحية والعلاج اللازم للأسرى إذا احتاجوا إلى ذلك:

وهو داخل في قول النبي ﷺ للأسير العقيلي: "هذه حاجتك"[٣] كما يدخل في وصيته بالأسرى خيرًا.

٤- عدم إكراههم على تغيير معتقداتهم:

من الإحسان إلى الأسرى عدم إكراههم على ترك دينهم والدخول في الإسلام[٤]؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ونسأل أين الغرب من هذه السنن؟ وأين هو شرف الحرب عندهم؟ هل هو في قنبلتي اليابان اللتين خلفتا ملايين المعوقين من الرجال والنساء والشيوخ؛ بل والأجنة في بطون أمهاتها، بل أجيال عدة من الأبرياء، بعدما أفنت بدقائق معدودة مئات الآلاف من البشر. أم أن شرف الحرب عندهم نجده في حرب الخليج حيث ألقيت مئات الأطنان من اليورانيوم المنضب الذي سبَّب ويسبِّب أنواع السرطانات والتشويهات الخلقية والسموم التي تبث خبثها إلى كلِّ شيء حيٍّ. ولا شكَّ نحن هنا نتحدثَّ عن المدنيين الأبرياء ولا

---

(١) التراتيب الإدارية للكناني ١/ ٢٩٥.

(٢) صحيح مسلم (١١٠٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: أحكام الأسرى في الفقه الإسلامي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية العدد ٥٦، صـ ٢١١.

نتحدَّث عن الجنود المقاتلين، فلا ندري عن أي إرهاب عالمي يتحدث الغرب!!!

ولكن يمكن للمتتبع أن يفهم المعنى المطلوب للإرهاب عندهم. إنهم يقصدون بالإرهاب هو أي إضرار بالمصالح الأمريكية. ولذا فليس هناك أدنى علاقة للإرهاب عند الحديث عن ملايين الضحايا من الأطفال والأبرياء في فلسطين، والعراق، والصومال، وأفغانستان، فهذه كلها تدور بين أن تكون نتائج طبيعية للحروب أو مشاكل داخلية.

الوجه السادس: لم يذكر لفظ السيف في القرآن، وذكر في الكتاب المقدس مرات عديدة.

للسيف في اللغة العربية سبعة أسماء ومع ذلك لم يذكر ولا مرة في القرآن الكريم، والذي ذُكر هو الجهاد، والجهاد في الإسلام له أحكامه وضوابطه وآدابه، أما في الكتاب المقدس فله اسم واحد ومع ذلك ذكر نحو من (٣٩٠) مرة وإليك بعض النماذج:

التحريق بالنار

سفر القضاة الإصحاح: ١/ ٨: وَحَارَبَ بَنُو يَهُوذَا أُورُشَلِيمَ وَأَخَذُوهَا وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ **السَّيْفِ**، وَأَشْعَلُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ.

الخيانة والقسوة في القتل

سفر القضاة ٣/ ١٤-٢٤: فَعَبَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِجْلُونَ مَلِكَ مُوآبَ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً. [١٥] وَصَرَخَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ، فَأَقَامَ لَهُمُ الرَّبُّ مُخَلِّصًا إِهُودَ بْنَ جِيرَا الْبَنْيَامِينِيَّ، رَجُلًا أَعْسَرَ. فَأَرْسَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِيَدِهِ هَدِيَّةً لِعِجْلُونَ مَلِكِ مُوآبَ. [١٦] فَعَمِلَ إِهُودُ لِنَفْسِهِ سَيْفًا، ذَا حَدَّيْنِ طُولُهُ ذِرَاعٌ، وَتَقَلَّدَهُ تَحْتَ ثِيَابِهِ عَلَى فَخْذِهِ الْيُمْنَى. [١٧] وَقَدَّمَ الْهَدِيَّةَ لِعِجْلُونَ مَلِكِ مُوآبَ. وَكَانَ عِجْلُونُ رَجُلًا سَمِينًا جِدًّا. [١٨] وَكَانَ لَمَّا انْتَهَى مِنْ تَقْدِيمِ الْهَدِيَّةِ، صَرَفَ الْقَوْمَ حَامِلِي الْهَدِيَّةِ، [١٩] وَأَمَّا هُوَ فَرَجَعَ مِنْ عِنْدِ الْمَنْحُوتَاتِ الَّتِي لَدَى الْجِلْجَالِ وَقَالَ: «لِي كَلاَمُ سِرّ إِلَيْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ». فَقَالَ: «صَهْ». وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ جَمِيعُ الْوَاقِفِينَ لَدَيْهِ. [٢٠] فَدَخَلَ إِلَيْهِ إِهُودُ وَهُوَ جَالِسٌ فِي عُلِّيَّةِ بُرُودٍ كَانَتْ لَهُ وَحْدَهُ. وَقَالَ إِهُودُ: «عِنْدِي كَلاَمُ اللهِ إِلَيْكَ». فَقَامَ عَنِ الْكُرْسِيِّ. [٢١] فَمَدَّ إِهُودُ يَدَهُ الْيُسْرَى وَأَخَذَ السَّيْفَ عَنْ فَخْذِهِ الْيُمْنَى وَضَرَبَهُ فِي بَطْنِهِ. [٢٢]

فَدَخَلَ الْقَائِمُ أَيْضًا وَرَاءَ النَّصْلِ، وَطَبَقَ الشَّحْمُ وَرَاءَ النَّصْلِ لأَنَّهُ لَمْ يَجْذُبِ السَّيْفَ مِنْ بَطْنِهِ. وَخَرَجَ مِنَ الْحِتَارِ. ٢٣ فَخَرَجَ إِهُودُ مِنَ الرِّوَاقِ وَأَغْلَقَ أَبْوَابَ الْعِلِّيَّةِ وَرَاءَهُ وَأَقْفَلَهَا. ٢٤

حتى البهائم لم تسلم من السيف

سفر القضاة ٢٠/ ٤٨: وَرَجَعَ رِجَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى بَنِي بَنْيَامِينَ وَضَرَبُوهُمْ بِحَدِّ **السَّيْفِ** مِنَ الْمَدِينَةِ بِأَسْرِهَا، حَتَّى الْبَهَائِمَ، حَتَّى كُلَّ مَا وُجِدَ. وَأَيْضًا جَمِيعُ الْمُدُنِ الَّتِي وُجِدَتْ أَحْرَقُوهَا بِالنَّارِ.

والنساء والأطفال كذلك

سفر القضاة: ٢١/ ١٠: فَأَرْسَلَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى هُنَاكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي الْبَأْسِ، وَأَوْصَوْهُمْ قَائِلِينَ: «اذْهَبُوا وَاضْرِبُوا سُكَّانَ يَابِيشِ جِلْعَادَ بِحَدِّ **السَّيْفِ** مَعَ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ.

صموئيل الأول: ٢٢/ ١٩: وَضَرَبَ نُوبَ مَدِينَةَ الْكَهَنَةِ بِحَدِّ **السَّيْفِ** الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ وَالرِّضْعَانَ وَالثِّيرَانَ وَالْحَمِيرَ وَالْغَنَمَ بِحَدِّ **السَّيْفِ**.

الملوك الثاني: ٨/ ١٢: فَقَالَ حَزَائِيلُ: «لِمَاذَا يَبْكِي سَيِّدِي؟» فَقَالَ: «لأَنِّي عَلِمْتُ مَا سَتَفْعَلُهُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الشَّرِّ، فَإِنَّكَ تُطْلِقُ النَّارَ فِي حُصُونِهِمْ، وَتَقْتُلُ شُبَّانَهُمْ **بِالسَّيْفِ**، وَتُحَطِّمُ أَطْفَالَهُمْ، وَتَشُقُّ حَوَامِلَهُمْ».

النشر بالمناشير والقتل بالفؤوس

أخبار الأيام الأول: ٢٠/ ٣: وَأَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِينَ بِهَا وَنَشَرَهُمْ بِمَنَاشِيرِ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسٍ. وَهكَذَا صَنَعَ دَاوُدُ لِكُلِّ مُدُنِ بَنِي عَمُّونَ. ثُمَّ رَجَعَ دَاوُدُ وَكُلُّ الشَّعْبِ إِلَى أُورُشَلِيمَ.

النصرانية لا تعرف السلام

إنجيل متى: ١٠/ ٣٤-٣٥: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. ٣٥ فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا.

إنجيل لوقا: ١٢/ ٤٩-٥٣: «جِئْتُ لأُلْقِيَ نَارًا عَلَى الأَرْضِ، فَمَاذَا أُرِيدُ لَوِ اضْطَرَمَتْ؟ ٥٠ وَلِي صِبْغَةٌ أَصْطَبِغُهَا، وَكَيْفَ أَنْحَصِرُ حَتَّى تُكْمَلَ؟ ٥١ أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ؟ كَلاَّ، أَقُولُ لَكُمْ: بَلِ انْقِسَامًا. ٥٢ لأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الآنَ خَمْسَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ

مُنْقَسِمِينَ: ثَلاَثَةٌ عَلَى اثْنَيْنِ، وَاثْنَانِ عَلَى ثَلاَثَةٍ. ٣ يَنْقَسِمُ الأَبُ عَلَى الابْنِ، وَالابْنُ عَلَى الأَبِ، وَالأُمُّ عَلَى الْبِنْتِ، وَالْبِنْتُ عَلَى الأُمِّ، وَالْحَمَاةُ عَلَى كَنَّتِهَا، وَالْكَنَّةُ عَلَى حَمَاتِهَا».

رؤيا يوحنا اللاهوتي: ٦/ ٤: ٤ فَخَرَجَ فَرَسٌ آخَرُ أَحْمَرُ، وَلِلْجَالِسِ عَلَيْهِ أُعْطِيَ أَنْ يَنْزِعَ السَّلاَمَ مِنَ الأَرْضِ، وَأَنْ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأُعْطِيَ سَيْفًا عَظِيمًا.

ذبح الأعداء كالنعاج

إنجيل لوقا: ١٩/ ٢٧: أَمَّا أَعْدَائِي، أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأْتُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا وَاذْبَحُوهُمْ قُدَّامِي».

السيف سبيل الحياة واستعباد الناس

سفر التكوين: ٢٧/ ٤٠: وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ، وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ، وَلكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ».

سفر الخروج: ٢٢/ ٢٤: فَيَحْمَى غَضَبِي وَأَقْتُلُكُمْ بِالسَّيْفِ، فَتَصِيرُ نِسَاؤُكُمْ أَرَامِلَ، وَأَوْلاَدُكُمْ يَتَامَى.

سفر الخروج: ٣٢/ ٢٧: فَقَالَ لَهُمْ: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ، وَاقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ».

سفر اللاويين: ٢٦/ ٧: وَتَطْرُدُونَ أَعْدَاءَكُمْ فَيَسْقُطُونَ أَمَامَكُمْ بِالسَّيْفِ.

سفر اللاويين: ٢٦/ ٢٥: أَجْلِبُ عَلَيْكُمْ سَيْفًا يَنْتَقِمُ نَقْمَةَ الْمِيثَاقِ، فَتَجْتَمِعُونَ إِلَى مُدُنِكُمْ وَأُرْسِلُ فِي وَسَطِكُمُ الْوَبَأَ فَتُدْفَعُونَ بِيَدِ الْعَدُوِّ.

سفر العدد: ٣١/ ١-١٨: ١ وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: ٢ «انْتَقِمْ نَقْمَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْمِدْيَانِيِّينَ، ثُمَّ تُضَمُّ إِلَى قَوْمِكَ». ٣ فَكَلَّمَ مُوسَى الشَّعْبَ قَائِلًا: «جَرِّدُوا مِنْكُمْ رِجَالًا لِلْجُنْدِ، فَيَكُونُوا عَلَى مِدْيَانَ لِيَجْعَلُوا نَقْمَةَ الرَّبِّ عَلَى مِدْيَانَ. ٤ أَلْفًا وَاحِدًا مِنْ كُلِّ سِبْطٍ مِنْ جَمِيعِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ تُرْسِلُونَ لِلْحَرْبِ». ٥ فَاخْتِيرَ مِنْ أُلُوفِ إِسْرَائِيلَ أَلْفٌ مِنْ كُلِّ سِبْطٍ. اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مُجَرَّدُونَ لِلْحَرْبِ. ٦ فَأَرْسَلَهُمْ مُوسَى أَلْفًا مِنْ كُلِّ سِبْطٍ إِلَى الْحَرْبِ، هُمْ وَفِينْحَاسَ

بْنَ أَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ إِلَى الْحَرْبِ، وَأَمْتِعَةُ الْقُدْسِ وَأَبْوَاقُ الْهُتَافِ فِي يَدِهِ. ٧ فَتَجَنَّدُوا عَلَى مِدْيَانَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ. ٨ وَمُلُوكُ مِدْيَانَ قَتَلُوهُمْ فَوْقَ قَتْلاَهُمْ: أَوِيَ وَرَاقِمَ وَصُورَ وَحُورَ وَرَابعَ. خَمْسَةَ مُلُوكِ مِدْيَانَ. وَبَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ قَتَلُوهُ بِالسَّيْفِ. ٩ وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ مِدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَنَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ، وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَمْلاَكِهِمْ. ١٠ وَأَحْرَقُوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ. ١١ وَأَخَذُوا كُلَّ الْغَنِيمَةِ وَكُلَّ النَّهْبِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، ١٢ وَأَتَوْا إِلَى مُوسَى وَأَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ وَإِلَى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَالْغَنِيمَةِ إِلَى الْمَحَلَّةِ إِلَى عَرَبَاتِ مُوآبَ الَّتِي عَلَى أُرْدُنِّ أَرِيحَا.

١٣ فَخَرَجَ مُوسَى وَأَلِعَازَارُ الْكَاهِنُ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ الْجَمَاعَةِ لاسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ. ١٤ فَسَخَطَ مُوسَى عَلَى وُكَلاَءِ الْجَيْشِ، رُؤَسَاءِ الأُلُوفِ وَرُؤَسَاءِ الْمِئَاتِ الْقَادِمِينَ مِنْ جُنْدِ الْحَرْبِ. ١٥ وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هَلْ أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أُنْثَى حَيَّةً؟ ١٦ إِنَّ هؤُلاَءِ كُنَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حَسَبَ كَلاَمِ بَلْعَامَ، سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ فِي أَمْرِ فَغُورَ، فَكَانَ الْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. ١٧ فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا. ١٨ لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ.

الأمر بتدمير كل شئ

التثنية: ٢٠/ ١٦-١٨: وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، ١٧ بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، ١٨ لِكَيْ لاَ يُعَلِّمُوكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا حَسَبَ جَمِيعِ أَرْجَاسِهِمِ الَّتِي عَمِلُوا لآلِهَتِهِمْ، فَتُخْطِئُوا إِلَى الرَّبِّ إِلهِكُمْ.

سفر أستير: ٩/ ٥: ٥ فَضَرَبَ الْيَهُودُ جَمِيعَ أَعْدَائِهِمْ ضَرْبَةَ سَيْفٍ وَقَتْل وَهَلاَكٍ، وَعَمِلُوا بِمُبْغِضِيهِمْ مَا أَرَادُوا.

سفر أشعياء: ١/ ٢٠: ٢٠ وَإِنْ أَبَيْتُمْ وَتَمَرَّدْتُمْ تُؤْكَلُونَ بِالسَّيْفِ». لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ.

الرب يخادع ويقتل بالسيف ولا يسالم

إرميا: ٤/ ١٠: ١٠ فَقُلْتُ: «آهِ، يَا سَيِّدُ الرَّبُّ، حَقًّا إِنَّكَ خِدَاعًا خَادَعْتَ هذَا الشَّعْبَ وَأُورُشَلِيمَ، قَائِلًا: يَكُونُ لَكُمْ سَلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَ السَّيْفُ النَّفْسَ».

اللعنة على من لم يستعمل السيف

إرميا: ٤٨/ ١٠: ١٠ مَلْعُونٌ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ الرَّبِّ بِرِخَاءٍ، وَمَلْعُونٌ مَنْ يَمْنَعُ سَيْفَهُ عَنِ الدَّمِ.

قسوة في القتل وإيذاء بعد الموت

إرميا: ١٩/ ٧: وَأَنْقُضُ مَشُورَةَ يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ فِي هذَا الْمَوْضِعِ، وَأَجْعَلُهُمْ يَسْقُطُونَ بِالسَّيْفِ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ وَبِيَدِ طَالِبِي نُفُوسِهِمْ، وَأَجْعَلُ جُثَثَهُمْ أُكْلًا لِطُيُورِ السَّمَاءِ وَلِوُحُوشِ الأَرْضِ.

النهي عن الشفقة والرحمة بالمخالفين

إرميا: ٢١/ ٧: ٧ ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ قَالَ الرَّبُّ: أَدْفَعُ صِدْقِيَّا مَلِكَ يَهُوذَا وَعَبِيدَهُ وَالشَّعْبَ وَالْبَاقِينَ فِي هذِهِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْوَبَإِ وَالسَّيْفِ وَالْجُوعِ لِيَدِ نَبُوخَذْرَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ وَلِيَدِ أَعْدَائِهِمْ وَلِيَدِ طَالِبِي نُفُوسِهِمْ، فَيَضْرِبُهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ. لاَ يَتَرَأَّفُ عَلَيْهِمْ وَلاَ يَشْفُقُ وَلاَ يَرْحَمُ».

إكراه الأمم على اعتناق ملتهم و إلا فالسيف..

إرميا: ٢٧/ ٨:. ٨ وَيَكُونُ أَنَّ الأُمَّةَ أَوِ الْمَمْلَكَةَ الَّتِي لاَ تَخْدِمُ نَبُوخَذْنَاصَّرَ مَلِكَ بَابِلَ، وَالَّتِي لاَ تَجْعَلُ عُنُقَهَا تَحْتَ نِيرِ مَلِكِ بَابِلَ، إِنِّي أُعَاقِبُ تِلْكَ الأُمَّةَ بِالسَّيْفِ وَالْجُوعِ وَالْوَبَإِ، يَقُولُ الرَّبُّ، حَتَّى أُفْنِيَهَا بِيَدِهِ.

سيف الرب لا يستريح و لا يهدأ و لا يسكن

إرميا: ٤٧/ ٦: آهِ، يَا سَيْفَ الرَّبِّ، حَتَّى مَتَى لاَ تَسْتَرِيحُ؟ انْضَمَّ إِلَى غِمْدِكَ! اهْدَأْ وَاسْكُنْ.

اقتل بيدك ورجلك وأطلق السيف والجوع عليهم

حزقيال: ٦/ ١١: ١١ «هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: اضْرِبْ بِيَدِكَ وَاخْبِطْ بِرِجْلِكَ، وَقُلْ: آهِ عَلَى كُلِّ رَجَاسَاتِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الشِّرِّيرَةِ، حَتَّى يَسْقُطُوا بِالسَّيْفِ وَبِالْجُوعِ وَبِالْوَبَإِ!

إبادة جماعية لا تعرف الرحمة

حزقيال: ٩/ ٥-٧: وَقَالَ لأُولئِكَ فِي سَمْعِي: «اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لاَ تُشْفُقْ أَعْيُنُكُمْ وَلاَ تَعْفُوا. ٦ اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ، اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ. وَلاَ تَقْرُبُوا مِنْ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ السِّمَةُ، وَابْتَدِئُوا مِنْ مَقْدِسِي». فَابْتَدَأُوا بِالرِّجَالِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ أَمَامَ

الْبَيْتِ. ٧ وَقَالَ لَهُمْ: «نَجِّسُوا الْبَيْتَ، وَامْلأُوا الدُّورَ قَتْلَى. اخْرُجُوا». فَخَرَجُوا وَقَتَلُوا فِي الْمَدِينَةِ.

السيف للذبح

حزقيال: ٢١/ ١٥: لِذَوَبَانِ الْقَلْبِ وَتَكْثِيرِ الْمَهَالِكِ، لِذلِكَ جَعَلْتُ عَلَى كُلِّ الأَبْوَابِ سَيْفًا مُتَقَلِّبًا. آهِ! قَدْ جُعِلَ بَرَّاقًا. هُوَ مَصْقُولٌ لِلذَّبْحِ.

شق بطن الحوامل

هوشع: ١٣/ ١٦: تُجَازَى السَّامِرَةُ لأَنَّهَا قَدْ تَمَرَّدَتْ عَلَى إِلهِهَا. بِالسَّيْفِ يَسْقُطُونَ. تُحَطَّمُ أَطْفَالُهُمْ، وَالْحَوَامِلُ تُشَقُّ.

* * *

١٢ـ إثبات نبوة النبي ﷺ

١٢- إثبات نبوة النبي ﷺ.

نص الشبهة:

إن نبوة نبينا محمد ﷺ لا تحتاج إلى دليل أو برهان؛ إذ هي واضحة لكل صغير وكبير كوضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن لما قام المعاند بإنكارها وطالبنا بالدليل على إثبات نبوته ﷺ ، قلنا إن المسألة واضحة لكل ذي لب، وطالب حق؛ إذ الشرع كله، بل وحياته كلها ﷺ تدل على صدق دعوته، ونبوته ﷺ، وحتى لايطول المقام سطرنا كلماتنا تحت هذه الوجوه طلبًا للاختصار، والوصول إلى الحق سريعًا فافتح قلبك، وصفِّ ذهنك وأنت تقرأ هذه الكلمات فإنَّ الحق أبلج والباطل لجلج، والله المستعان وعليه التكلان ولاحول ولا قوة إلا بالله، وصلِّ اللهم على نبيِّنا المُخْتار وعلى آله وصحبه وسلِّم.

الوجه الأول: إثبات نبوته ﷺ من القرآن الكريم والسُنَّة المطهَّرة.

الوجه الثاني: صفاتُ النبيّ ﷺ .

الوجه الثالث: عصمةُ النبيِّ ﷺ من القتل.

الوجه الرابع: معجزاتُ النبيّ الأكرم ﷺ

الوجه الخامس: ظهورُ دينه وغلبته على الأمم.

الوجه السادس: الثمراتُ التي أتى بها محمّد ﷺ .

الوجه السابع: الكراماتُ التي ظهرت على يد أصحاب النبيّ ﷺ والتابعين.

الوجه الثامن: البشاراتُ بالنبيّ ﷺ في الكتاب المقدّس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إثبات نبوته ﷺ من القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

إنَّ دلائلَ النبوة الشاهدةَ بنبوة نبينا ﷺ متنوعةٌ وكثيرةٌ في القرآنِ والسُّنةِ. وسنكتفي بذكر بعضها.

أولًا: ما ورد في القرآن الكريم.

ثانيًا: ما ورد في السنة الشريفة.

أولًا: إثبات نبوته ﷺ من القرآن الكريم.

القرآن الكريم معجزة الله التي لا تبليها السُنونُ ولا القرون، هذا الكتاب معجزة خالدة ودليل باهر بما أودعه الله من أنواع الإعجاز العلمي والتشريعي والبياني، وغيرِها من وجوه الإعجاز،(١) يقول رسول الله ﷺ: "**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**". (٢)

والآيات في ذلك كثيرة ومتعددة، وسنكتفي بذكر بعضها، مع ذكر تفسير مختصر لها.

قال تعالى:

١- ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ** . ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

المعنى: إن محمدًا ﷺ رسولٌ كسائر الرُّسل؛ قد بلَّغَ الرِّسالة كما بلَّغُوا فيجب عليكم التمسُّكُ بدينه في حياته وبعد موته. وَحَاصِلُ الْمَعْنَى: أَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا قَدْ خَلَتْ وَمَضَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ فَماتُوا، وَقَدْ قُتِلَ بَعْضُ النَّبِيِّينَ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى فَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمُ الْخُلْدُ وَهُوَ لَا بُدَّ أَنْ تَحْكُمَ عَلَيْهِ سُنَّةُالله بالمَوتِ. (٣)

٢- ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾ (آل عمران: ١٦٤).

المعنى: لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسهمْ" أَيْ عَرَبِيًّا مِثْلهمْ لِيَفْهَمُوا عَنْهُ وَيَشْرُفُوا بِهِ لَا مَلَكًا وَلَا عَجَمِيًّا "يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاته" الْقُرْآن "وَيُزَكِّيهِمْ" يُطَهِّرهُمْ مِنْ الذُّنُوب "وَيُعَلِّمهُمْ الْكِتَاب" الْقُرْآن "وَالْحِكْمَة" السُّنَّة "وَإِنْ" مُخَفَّفَة أَيْ إنَّهُمْ "كَانُوا مِنْ قَبْل" أَيْ قَبْل بَعْثه "لَفِي ضَلَال مُبِين" بَيِّن. (٤)

---

(١) مستفاد من كتاب دلائل النبوة لـ د/ منقذ السقار١/ ٢-٣.

(٢) البخاري (٦٤٩٦)، ومسلم (٤٠٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَي١/ ٢٠٩، وتفسير المنار٤/ ١٣٢.

(٤) تفسير الجلالين١/ ٤٦٤، وابن عبد السلام١/ ٣٢٥.

٣- ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٨)

المعنى: هَذَا خِطَابٌ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَجَّهَهُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ النَّبِيُّ الْعَرَبِيُّ الْهَاشِمِيُّ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى، يُنْبِئُهُمْ بِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ كَافَّةً لَا إِلَى قَوْمِهِ الْعَرَبِ خَاصَّةً (كَمَا زَعَمَتِ الْعِيسَوِيَّةُ مِنَ الْيَهُودِ)، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.(١)

٤- ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

المعنى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾، أيها القوم، رسول الله إليكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، تعرفونه، لا من غيركم، فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: عزيز عليه عنتكم، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، يقول: حريص على هُدَى ضُلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾ أي: رفيق ﴿رَّحِيمٌ﴾: شديد الرأفة والرحمة بكم.(٢)

٥- **وقال تعالى**: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢١).

المعنى: هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته

---

(١) تفسير المنار ٩/ ٢٥٥، والتفسير الميسر ٣/ ١١٩.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٥٨٤، والوسيط لطنطاوي ١/ ٢٠٦٨.

وانتظاره الفرج من ربه ﷻ صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين. (١)

٦- **وقال تعالى:** ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (الأحزاب: ٤٠).

المعنى: يقول تعالى ذكره: ما كان أيها الناس محمدًا أبا زيد بن حارثة، ولا أبا أحدٍ من رجالكم الذين لم يلده محمد؛ فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين، الذي ختم النبوة فطبع عليها، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة، وكان الله بكل شيء من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك ذا علم لا يخفى عليه شيء. (٢)

لما نفى كونه أبًا عقَّبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الأبوة من بعض الوجوه فقال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فإن رسول الله كالأب للأمة في الشفقة من جانبه، وفي التعظيم من طرفهم؛ بل أقوى فإن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، والأب ليس كذلك، ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئًا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى؛ إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد. (٣)

٧- **وقال تعالى:** ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ﴾ (الفتح: ٢٩).

المعنى: ذلك المرسَل بالهدى ودين الحق هو محمد رسول الله ﷺ. يخبر تعالى عن محمد

(١) تفسير ابن كثير٦/ ٣٩١، والنكت والعيون٣/ ٣٦٧.

(٢) تفسير الطبري٢٠/ ٢٧٨، والنكت والعيون٣/ ٣٨١، وابن عجيبة٥/ ٩٥.

(٣) تفسير الرازي ١٢/ ٣٥٧، والكشاف٥/ ٣٣٣.

صلوات الله عليه أنه رسوله حقًا بلا شك ولا ريب.[١]

٨- ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف: ٦).

المعنى: بَشَّرَ كلُّ نبيٍّ قومَه بنَبِيِّنا ﷺ ، وأفرد الله - سبحانه- عيسى بالذِّكْرِ في هذا الموضع؛ لأنه آخِرُ نبيٍّ قبل نبيِّنا ﷺ : فبيَّن بذلك أن البشارة به عَمّتْ جميعَ الأنبياء واحدًا بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام.

فعيسى عليه الصلاة والسلام -كالأنبياء - يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ ﷺ الذي بشر به عيسى (بِالْبَيِّنَاتِ) أي: الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقًا. قَالُوا معاندين للحق مكذبين له ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته، وصارت أبين من شمس النهار، يُجعل ساحرًا بينًا سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلومًا من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟[٢]

٩- ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (البقرة: ١١٩).

المعنى: يَقُولُ الله تَعَالَى لِنَبيِّه ﷺ : **" إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالشَّيءِ الثَّابِتِ الحَقِّ لِتُبَشِّرَ بِهِ مَنْ أَطَاعَ، وَتُنْذِرَ بِهِ مَنْ عَصَى وَاسْتَكْبَرَ"**.[٣]

---

(١) تفسير ابن عجيبة٦/ ٩٧، وابن كثير٧/ ٣٦٠.

(٢) تفسير القشيري٧/ ٤٢١، والسعدي١/ ٨٥٩.

(٣) تفسير حومد١/ ١٢٦، والنكت والعيون ١/ ٨٨.

١٠- ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ (الإسراء: ١٠٥)

المعنى: ولعل الجملة لتحقيق حقية بعثته ﷺ أثر تحقيق حقية القرآن.[١]

١١- ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

المعنى: قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان محمد ﷺ رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدق به سَعِد. . .، ومن رَدّها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة، وقال ابن زيد: أراد بالعالمين المؤمنين خاصة.[٢]

١٢- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ (الفرقان: ٥٦).

المعنى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا" بِالْجَنَّةِ "وَنَذِيرًا" مُخَوِّفًا مِنْ النَّار.[٣]

١٣- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ (الأحزاب: ٤٥).

المعنى: على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالهم وتتحمل عنهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ما هم عليه من الهدى والضلال، وتؤديها يوم القيامة أداءً مقبولًا فيما لهم وما عليهم.[٤]

١٤-﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(سبأ:٢٨).

المعنى: كافًا لهم عن الشرك والهاء للمبالغة، أو أرسلناك إلى الجميع تضمهم. (٥)

١٥- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤).

المعنى: يعني بشيرًا بالثواب لمن آمن ونذيرًا بالعقاب لمن كفر. (٦)

---

(١) تفسير الآلوسي١١/ ١٢٤، وأبوالسعود٤/ ٢٣٠.

(٢) تفسير القرطبي١١/ ٣٥٠، وابن كثير٥/ ٣٨٥.

(٣) تفسير الجلالين٦/ ٤٢٢، وابن عجيبة٤/ ٣٠٦.

(٤) تفسير الآلوسي١٦/ ١٥٩، والتسهيل لابن جُزي١/ ١٥٥٧.

(٥) تفسير ابن عبدالسلام٥/ ٩١، والمحرر لابن عطية٥/ ٣٥١.

(٦) لباب التأويل للخازن٥/ ٢٣٦، والنكت والعيون٣/ ٤٢٥.

١٦- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الفتح: ٨)

المعنى: الخطاب للنبي ﷺ ذكَره في معرض الامتنان عليه حيث شرفه بالرسالة، وبعثه إلى الكافة شاهدًا على أعمال أمته، ومبشرًا يعني لمن آمن به وأطاعه بالثواب، ونذيرًا يعني لمن خالفه وعصى أمره بالعقاب.[1]

ثانيًا: إثبات نبوته ﷺ من السنة الشريفة.

وهي أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر؛ وسنكتفي ببعضها؛

١- فمنها قوله ﷺ: "... **أنا رسُولُ الله، وأنا محمّدُ بنُ عبدِ الله** ".[2]

٢- ومنها قوله ﷺ: "**والله ما أدري وأنا رسُولُ الله ما يفعل بي** ".[3]

٣- ومنها قوله ﷺ: " **أنا عبدُ الله ورسُولُه وقال: يا معشر الأنصار! أنا عبدُ الله ورسُولُهُ، فهزم الله المشركين ولم يُطعن برُمح ولم يُضرب بِسَيفٍ** ".[4]

٥- ومنها قوله ﷺ: "**اخْرُجْ عدوَّ الله؛ أنا رسُولُ الله** ".[5]

٦- ومنها قوله ﷺ: " **بُعِثتُ إلى كُلِّ أحمر وأسْود** ".[6]

٧- ومنها: "... وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتوكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ،

---

(١) لباب التأويل للخازن٥/ ٤٣٣، والتستري٢/ ٣٥.

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٢) عن البراء بن عازب ﷺ.

(٣) رواه البخاري (١١٨٦) عن خارجة بن زيد الأنصاري ﷺ.

(٤) رواه البيهقي في الكبرى (١٣١٤١)، والحاكم (٢٥٩١)عن أنس بن مالك ﷺ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٠٩).

(٥) رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٤٢٣٢)، وجود إسناده الألباني بالمتابعات انظر (الصحيحة: ٢٩١٨) عن يعلى بن مرة عن أبيه ﷺ.

(٦) رواه البزار٢/ ١٠٩، وقال الألباني: صحيح لغيره كما في صحيح الترغيب (٣٦٣٦) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ

وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا". (١)

٨- ومنها: قوله ﷺ ". . أنا محمدُ بنُ عبدِ الله، أنا عبدُ الله ورسُولهُ؛ ما أحب أن ترفعُوني فوقَ مَنزِلتي الّتي أنزَلنيها الله». (٢)

٩- ومنها قوله ﷺ " **إِنِّي عَبْدُ الله لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ تَرَيْنَ** ". (٣)

١٠- (. . . بينما ﷺ يمشي في بطن الرّوحاء إذ أقبل وفدٌ فقال رجلٌ منهم: من أنتم؟ فقال: نحن المسلمون، ثم قالت امرأة: من أنت؟ قال: (أنا رسُول الله) فأخرجت صبيا فقالت: يا رسول الله ألهذا حجّ؟ فقال: (ولكِ أجر). (٤)

الوجه الثاني: صفات النبي ﷺ .

تمهيد:

ومما يثبتُ نبوّةَ نبيّنا ﷺ أنه تامُّ الخِلقة في بدنه، سويًا ليس فيه عيبٌ، وقد نقل الناسُ صفاتِه الظاهرةَ الدّالةَ على كماله، ونقلوا أخلاقه من حلمِهِ، وشجاعتِهِ، وكرمه، وزهده، وغير ذلك.

أولًا: الصفات البدنية الظاهرة:

١-عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناسِ وجهًا، وأحسنَهم خَلْقًا، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير. (١)

---

(١) رواه البخاري (٢٠١٨) عن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍعن عبد الله بن عمر وبن العاص رضي الله عنه

(٢) رواه أحمد٢٦/ ٤٢٠، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩٧) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد ٤/ ١٢٧، وابن حبان (٦٤٠٤)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٥٩) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٣٣١٧) عن ابن عباس رضي الله عنه.

٢- وعنه أيضًا: قال كان بعيدَ ما بين المنكبين، عظيم الجُمّة[٢] إلى شحمة أذنيه، عليه حُلّة[٣] حمراء، ما رأيت شيئًا قطُّ أحسنَ منهُ[٤].

٣- وسئل البراء أكان وجهُ رسولِ الله ﷺ مثلَ السّيف؟ قال: لا، بل مثلُ القمر.

٤- وعن كعب بن مالك قال: " كان النبيّ ﷺ إذا سُر، استنار وجهُه، حتى كأنه فلقةُ[٥] قمر "[٦].

٥- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ ضخْمَ الرأس والقدمين، لم أر قبلَه ولا بعدَهُ مِثلهُ، وكان بسطَ الكفّين[٧]، ضخمَ اليدين.

وسُئل عن شعره فقال: كان شعرًا رجِلًا.[٨] ليس بالجعد.[٩] ولا بالسّبط بين أذنيه وعاتقه.[١٠]

٦- وعن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة ﷺ قال: " كان رسولُ الله ﷺ ضليعَ الفمِ، أشكلَ العينينِ، مَنهُوسَ العقِبينِ ".

وفسّرها سماك بن حرب فقال: واسعُ الفمِ، طويلُ شقّ العين، قليلُ لحمِ العقِب[١١].

٧- عن أنس ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ ليس بالطويل البائِن[١]، ولا بالقصيرِ، ولا بالأبيض الأمهق[٢]، ولا بالآدم[٣] ولا بالجعد القطَطَ[٤]، ولا بالسبِط[٥]"[٦].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٤٩)، ومسلم (٢٣٣٧).

(٢) الجُمّة: الشعر الذي نزل إلى المنكبين.

(٣) الحُلّة: ثوبين من جنس واحد.

(٤) رواه البخاري (٣٥٥١) ومسلم (٢٣٣٧) واللفظ له.

(٥) فلقة: قطعة.

(٦) رواه البخاري (٣٥٥٦)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٧) بسط الكفين: ليونتهما.

(٨) رجلًا: أي إذا مشط كان بين السبوطة والجعودة.

(٩) الجعد: هو الذي يتجعد، أي يلتوي ويتقبض كشعور السودان.

(١٠) رواه البخاري (٥٩٠٥ – ٥٩١٢)، ومسلم (٢٣٣٨).

(١١) رواه مسلم (٢٣٣٩).

٨- وعنه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أزهرَ اللون(٧)، كأنّ عرقَه اللؤلؤ(٨)، إذا مشى تكفّأ(٩)، وما مسستُ دِيباجةً ولا حريرًا ألْينَ من كفّ رسولِ الله ﷺ، ولا شمَمْتُ مسكًا ولا عنبرة أطيبَ من رائحةِ رسولِ الله ﷺ. (١٠)

٩- وعن أنس ﷺ قال: " دخل علينا رسول الله ﷺ فقَال(١١) عندنا، فعرَق وجاءت أمّي بقارورة فجعلت تسلُتُ(١٢) العرَق فيها؛ فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: أُمّ سليم، ما هذا الذي تصنعين؟ قالت هذا عرقُك نجعله في طِيبنا وهو أطيب من الطّيب(١٣).

١٠- "كانَ رسولُ الله ﷺ يعرفُ بريح الطيبِ إذا أقبل "(١٤).

١١- وفي حديث أمّ مَعبد المشهور، لماّ مرّ بها النبيّ ﷺ في الهجرة هو وأبو بكرﷺ، ومولاه، ودليلُهم، وجاء زوجها فقال: "صفيه لي يا أم معبد" فقالت: رأيت رجلًا ظاهرَ الوَضاءة، حُلوَ المنطق(١)، فصلٌ(٢) لا نزرٌ ولا هذرٌ(٣)، كأن منطقَه خرزاتُ نظْمٍ يتحدّرن "(٤).

---

(١) البائن: المفرط في الطول مع اضطراب القامة.

(٢) الأمهق: الأبيض الشديد البياض، الذي لا تخالطه حمرة.

(٣) الآدم: الأسمر.

(٤) القطط: شديد الجعودة.

(٥) السبط: هو الذي يسترسل فلا ينكسر منه شئ.

(٦) رواه البخاري (٣٥٤٨)، ومسلم بمعناه (٢٣٣٧، ٢٣٣٨).

(٧) أزهر اللون: أبيض مستنير، وهو أحسن الألوان.

(٨) أي في الصفاء والبياض.

(٩) أي يتمايل إلى قدام.

(١٠) رواه مسلم (٢٣٣٠).

(١١) أي نام للقيلولة.

(١٢) السلت: هو التنحية والإزالة.

(١٣) رواه البخاري بمعناه (٥٩٢٥)، ومسلم (٢٣٣١)، واللفظ له.

(١٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٨٥٨)، والدارمي (٦٥)مرسلًا، وحسنه الألباني بمجموع طرقه كما في الصحيحة (٢١٣٧).

صفات النبي ﷺ الخلقية:

١- كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس، وكان أجودَ الناس، وكان أشجعَ الناسِ، ولقد فزِع أهلُ المدينة ذاتَ ليلةٍ فانطلق ناسٌ قِبَلَ الصّوت[٥] فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصّوت، وقد استبرأ الخبر[٦] وهو على فرس لأبي طلحة عري[٧] في عنقه السيف، وهو يقول: لن تراعوا وقال" وجدناه بحرًا "[٨]وكان الفرس قبل ذلك بطيئًا فعاد لا يُجارى[٩].

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس بالخير، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسُه القرآن، فلَرسول الله أجودُ بالخيرِ من الريح المرسَلة. [١٠]

٣- وعن البراء بن عازب ﷺ قال: كنا إذا احمرَّ البأس. [١١] نتّقي به، وإنّ الشّجاع منّا الذي يحاذي به -يعني رسول الله ﷺ . [١٢]

---

(١) أي: لذيذ الكلام.

(٢) أي قوله فصل: حق ليس بباطل.

(٣) النزر: القليل الذي يدل على العيّ، والهذر: الكثير.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤٢٧٤). وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبيّ

(٥) قبل الصوت: تجاهه.

(٦) استبرأ الخبر: أي طلب آخره لقطع الشبهة.

(٧) عري: أي ليس عليه سرج ولا أداة.

(٨) أي: واسع الجري.

(٩) رواه البخاري في صحيحه في عدة مواضع منها (١٨٢٠، ٢٨٦٧)، ومسلم (٢٣٠٧).

(١٠) رواه البخاري (٤٩٩٧)، ومسلم (٢٣٠٨).

(١١) احمرار البأس: كناية عن شدة الحرب، واستعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة، أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر.

(١٢) رواه مسلم (١٧٧٦).

٤- وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: لما كان يومُ بدر اتّقينا المشركين برسول الله، وكان أشدّ الناس بأسًا وما كان أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه. (١)

٥- وعن أنس ﷺ قال: خدمت رسول الله ﷺ عشرَ سنين، والله ما قال لي أفًا قطّ ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلّا فعلت كذا "(٢).

وفي رواية قال: خدمته في السفر والحضر والله ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا؟ وكان أحسن الناس خلقًا.

٦- عن جابر ﷺ قال: ما سئل رسول الله شيئًا فقال: لا. (٣)

٧- وعن أنس ﷺ، قال: ما سئل رسول الله على الإسلام شيئًا. (٤) إلا أعطاه قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قومه، فقال يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاءَ من لاّ يخافُ الفاقة(٥). (٦)

٨- عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: " كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء(٧) في خِدْرِها، وكان إذا كَرِه شيئًا عرفناه في وجهه ". (٨)

٩- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وذكر رسول الله قال: لم يكن فاحشًا ولا متفحّشًا. (٩)

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل (٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩)، واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٤) أي: على الدخول في الإسلام، أو على نصرة الإسلام.

(٥) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٦) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٧) هي الجارية البكر.

(٨) رواه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٩) الفحش: هو كل ما خرج عن مقداره حتى يستقبح. رواه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

١٠- وعن أنس ﷺ قال: لم يكن رسول الله سبّابًا ولا فحّاشًا ولا لعّانًا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة[١] ماله ترِبتْ جبينُه[٢].

١١- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناسِ منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ إلا أن تنتهك حرمة الله[٣].

١٢- وعنها رضي الله عنها قالت: " ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئًا قَطُّ لا امرأةً ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيل منه شيء قطّ فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيءٌ من محارم الله فينتقم لله.[٤]

١٣- وعنها وقد سئلت عن خُلق رسول الله فقالت: كان خلقُه القرآنَ.[٥]

١٤- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-: أن هذه الآية التي في القرآن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥). قال في التوراة: " يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا).[٦]

---

(١) المعتبة: هي مصدر عتب عليه.

(٢) أي: خرّ لوجهه فأصاب الترابُ جبينَه، وهذا من الكلام الذي يجري على اللسان ولا يراد به حقيقته. رواه البخاري (٦٠٣١).

(٣) أي حرمات الله. رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٤) رواه مسلم (٦١٩٥).

(٥) رواه مسلم (٧٤٦).

(٦) رواه البخاري (٢٠١٨).

١٥- عن سعد بن هشام وقد سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ ؟ فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلقَ نبي الله القرآنُ. (١)

١٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما عاب رسولُ الله طعامًا قطُّ، إن اشتهاه أكله وإلاّ تركه. (٢)

١٧- وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ . قَالَ: وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ. (٣)

١٨- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ يَا مُحَمَّدُ: أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ أَفَمَلَكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: "بَلْ عَبْدًا رَسُولًا". (٤)

١٩- وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ " أَسْلِمْ ". فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ . فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ " الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ". (٥)

٢٠- وعن أبي حازم أن النبي ﷺ كلّم رجلًا فأرعد، فقال له رسول الله ﷺ : هوّن عليك فإني لست بملِك، إنّما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكل القدِيد. (٦)

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه البخاري (٥٤٠٩)ومسلم (٢٠٦٤).

(٣) وهو حديث صحيح. رواه الترمذي (٢٧٥٤)، وقال: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وقال الألباني في الصحيحة: إسناده صحيح على شرط مسلم (٣٥٨).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٣١)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٠٢)

(٥) رواه البخاري (١٢٩٠).

(٦) رواه ابن ماجه في سننه (٣٣١٢)، والحاكم ٢/ ٥٠٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٧٦).

٢١- وعن أنس ﷺ: أن امرأة كان في عقلها شيءٌ، قالت: يا رسول الله: إن لي إليك حاجة، قال: يا أمّ فلان، خُذي في أي الطرق شئت قومي فيه حتىّ أقومَ معك، فخلَا معها يُناجيها حتّى قضَتْ حاجَتَها.

وعن أنس ﷺ قال: كانت الأمةُ من إماء أهل المدينة لَتأخذُ بيد رسول الله فتدور به في حوائجها حتى تفرُغَ ثُمّ يرْجع. (١)

وروي عن ابن أبي أوفى ﷺ قال: كان رسول الله يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لها حاجتها(٢).

وعن أنس ﷺ قال: ما رأيت أرحمَ بالعيال من رسول الله ﷺ. (٣)

وعنه ﷺ قال: مرّ رسولُ الله ﷺ على صِبيان فسلّم عليهم. (٤)

وروى ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله ﷺ يجلسُ على الأرض، ويأكلُ على الأرض، ويعتقلُ الشاة، ويجيبُ دعوة المملوك على خبز الشعير. (٥)

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ - قَالَتْ - وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا. رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ، قَالَتْ: فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا (هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) (الأحقاف: ٢٤). (٦)

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١٨)، وأحمد في المسند ٣/ ١١٩ . وصححه الألباني في سنن أبي داود.

(٢) رواه النسائي (١٤١٣)، وابن حبان(٦٤٢٤). وصححه الألباني في المشكاة (٣/ ١٦٢٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣١٦).

(٤) رواه البخاري (٥٨٩٣)، ومسلم (٢١٦٨).

(٥) صحيح. رواه الطبراني في الكبير (١٢٥٢٤). انظر: السلسلة الصحيحة (٢١٢٥).

(٦) رواه البخاري (٤٥٥١)، مسلم (٨٩٩).

وعن أنس ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرد نَجْرانيّ غليظُ الحاشِية، فأدركه أعرابيّ فجبذ بردائهِ جبذًا شديدًا حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثّرت بها حاشيةُ البُرد من شدّة جبذته ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، قال: فالتفتَ إليه رسولُ الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء. (١)

وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مصلاّه الذي يصلي فيه حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدّثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتَبسّم. (٢)

وعن عائشة ﵂ وسألها الأسود ما كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟ فقالت: كان يكون في مهنة أهله تعني خدمة أهله فإذا حضرتِ الصلاةُ خرج. (٣)

وعن عائشة ﵂ قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خبزِ بُرٍّ تباعًا حتى مضى لسبيله. (٤)

وعنها ﵂ أنها قالت لعروة: ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثةُ أهلة في شهرين وما أُوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ. فقلت: يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر، والماء إلاَّ إنه قد كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار كانت لهم منائحَ وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا. (٥)

وقال أنس ﷺ : ما رأى رسول الله ﷺ رغيفًا مرقّقًا حتى لحق بالله، ولا أرى شاةً سميطًا بعينه قط. (٦)

وعنه أيضًا ﷺ قَالَ: مَا عَلِمْتُ النبي ﷺ أَكَلَ عَلَى سُكُرُّجَةٍ قَطُّ، وَلاَ خُبِزَ لَهُ مُرَقَّقٌ قَطُّ، وَلاَ أَكَلَ عَلَى خِوَانٍ. قِيلَ لِقَتَادَةَ: فَعَلَى مَا كَانُوا يَأْكُلُونَ؟ قَالَ: عَلَى السُّفَرِ. (١)

---

(١) رواه البخاري (٢٩٨٠)، مسلم (١٠٥٧).

(٢) رواه مسلم (٦٧٠).

(٣) رواه البخاري (٤٦٦).

(٤) رواه مسلم (٢٩٧٠).

(٥) رواه البخاري (٢٤٢٨)، مسلم (٢٩٧٢).

(٦) رواه البخاري (٥١٠٥).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه يقول: ألستم في طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقَلِ ما يملأُ به بطنَهُ.(٢)

وعن أنس رضي الله عنه أنه مشى إلى النبي ﷺ بخبزِ شعيرٍ وإهالةٍ سنخةٍ، ولقد رهن درعَهُ عند يهوديّ فأخذ لأهله شعيرًا، ولقد سمعته يقول: ما أمسى عند آل محمّدٍ صاعُ بُرٍّ ولا صاعُ حَبٍّ، وإنهم يومئذ تسعةُ أبيات، وفيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فراش رسول الله ﷺ من أَدَم حشوُه ليف.(٣)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما ذكر اعتزال رسول الله ﷺ نساءه قال: فدخلتُ على رسول الله ﷺ في خزانته، فإذا هو مضطجعٌ على حصير فأدنى إليه إزاره وجلس وإذا الحصير قد أثَّر بجنبه، وقلَّبْتُ عينيَّ في بيته فلم أجد شيئًا يرُدُّ البصرَ غيرَ قبضةٍ من شَعيرٍ، وقبضةٍ من قرَظٍ نحو الصاعين وإذا أفيَقٌ (الإهاب الذي قد ذهب شعره ولم يُدبَغ) مُعَلَّقةٌ فابتدرت عيناي؛ فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت: يا رسول الله ﷺ وما لي لا أبكي، وأنت صفوة الله ورسوله ﷺ ، وخيرته من خلقه، وهذه خزانتك، وهذه الأعاجم كسرى وقيصر في الثمار والأنهار؟ فقال: أَوَ فِي شكٍّ أنتَ يا ابن الخطاب؟! أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا - وفي رواية -أَوَ ما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ قال: بلى قال: فالحمد لله عز وجل. قال: فقلت: أستغفر الله.(٤)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: اللهم اجعل رزق آلِ محمدٍ قُوتًا.(٥)

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: اضطَّجعَ النبيّ ﷺ على حصيرٍ فأثّر في جلده؛ فقلتُ: بأبي وأمي

---

(١) رواه البخاري (٥٠٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٩٧٧).

(٣) رواه البخاري (١٩٦٣).

(٤) رواه مسلم (١٤٧٩).

(٥) رواه البخاري (٢٣٧٢)، مسلم (١٠٥٥).

يا رسول الله ﷺ لو كنت آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئًا يقِيكَ منه! فقال رسول الله ﷺ: **"مَا أَنَا وَالدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"**. (١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حج النبي ﷺ على رحلٍ رثٍ وَقطيفةٍ. (٢)

وعَنْ ثُمَامَةَ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ أَنَسٍ قَالَ: حَجَّ أَنَسٌ عَلَى رَحْلٍ، وَلَمْ يَكُنْ شَحِيحًا، وَحَدَّثَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَجَّ عَلَى رَحْلٍ وَكَانَتْ زَامِلَتَهُ. (٣)

الوجه الثالث: عصمة النبي ﷺ من القتل.

تمهيد:

ومن أبلغ الدلائل على نبوة النبي محمد ﷺ عصمته من أعدائه، وهم الجمّ الغفير والعدد الكثير، وهُم على أَتَمِّ حَنَقٍ عليه، وأشدِّ طلبٍ لنفيه، وهو بينهم مسترسلٌ قاهرٌ، ولهم مُخالطٌ ومُكاثرٌ، ترمقه أبصارُهم شَزَرًا، وترتدُّ عنه أيديهم ذُعرًا، وقد هاجر عنه أصحابُه حذرًا، حتى استكمل مدته فيهم ثلاثَ عشرةَ سَنةً، ثم خرج عنهم سليمًا لم يُكلَم في نفسٍ ولا جسدٍ، وما كان ذاك إلا بعصمة إلهية وعده الله تعالى بها فحقّقها". (٤)

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَالله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبَّة فقال لهم: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله ". (٥)

أي: بلِّغ أنت رسالتي، وأنا حافظُكَ وناصرُكَ، ومؤيِّدُكَ على أعدائكَ، ومظفركَ بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحدٌ منهم إليك بسوءٍ يؤذيك. . . . ".

---

(١) سنن ابن ماجه (٤١٠٩)، قال الألباني: صحيح.

(٢) سنن ابن ماجه (٢٨٩٠)، قال الألباني: صحيح.

(٣) رواه البخاري (١٤٤٥).

(٤) انظر: أعلام النبوة للماوردي (٥٩).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٨). وقال ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٨٢): إسناده حسن، وصححه الألباني بشواهده (انظر الصحيحة ٢٤٨٩).

ومن عصمة الله ﷻ لرسوله حفْظُه له من أهل مكة وصناديدها وحُسَّادها ومُعَانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبَغْضة ونصب المحاربة له ليلا ونهارًا، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقَدَره وحكمته العظيمة. فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش، وخلق الله في قلبه محبةً طبيعيةً لرسول الله ﷺ لا شرعيةً، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كُفّارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدرٌ مشتركٌ في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذىً يسيرًا، ثم قيض الله ﷻ له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهي المدينة، فلما صار إليها حَمَوْه من الأحمر والأسود، فكلما همَّ أحدٌ من المشركين وأهلِ الكتاب بسوء كاده الله وردّ كيده عليه، لما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمّ اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به وحماه الله منه؛ ولهذا أشباه كثيرة جدًا يطول ذكرها "[١].

فإن قيل: أليس قد شُجّ رأسُه وكُسرت رَبَاعِيتُه وأوذي بضروب من الأذى؟

قيل: معناه يعصمك من القتل فلا يصلون إلى قتلك.

وقيل: نزلت هذه الآية بعدما شُجَّ رأسُه؛ لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن.

وقيل: والله يخُصّك بالعصمة من بين الناس، لأن النبي ﷺ معصوم. "[٢]

مع ملاحظة أن هذه العصمة إنما هي من المخاوف التي يمكن أن توقف عن شئ من التبليغ كالقتل والأسر والأذى في الجسم ونحوه، وأما أقوال الكفار ونحوها فليست في الآية "[٣]

وقائع تثبت عصمة النبي ﷺ من القتل

١- عن جابر بن عبد الله : أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثيرِ العِضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٢٨٨ - ٢٩١)

(٢) انظر تفسير الكشف والبيان للثعلبي (٢/ ٤٧٩)، تفسير البغوي (٢/ ٤٢).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٢/ ٢١٨).

بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَة، وعلّق بها سيفه، ونِمنا نَوْمة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابيٌّ فقال: إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظت وهو في يده صلتًا فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله ثلاثًا. ولم يعاقبه وجلس.(١)

٢- وإن قريشًا اجتمعت في دار الندوة وكان فيهم النضر بن الحارث بن كنانة، وكان زعيمَ القوم، وساعده عبد الله بن الزبعري، وكان شاعرَ القوم، فحضّهم على قتل محمد ﷺ وقال لهم: الموت خير لكم من الحياة، فقال بعضهم: كيف نصنع؟ فقال أبو جهل: هل محمد إلا رجلٌ واحدٌ؟ وهل بنو هاشم إلا قبيلة من قبائل قريش؟ فليس منكم من يزهد في الحياة فيقتل محمدًا ويريح قومه؛ و أطرق مليًّا فقالوا: من فعل هذا ساد. فقال أبو جهل: ما محمد بأقوى من رجل منّا، وإنّي أقوم إليه فأشدخ رأسه بحجر، فإن قُتلت أرَحْتُ قومي وإن بقيت فذاك الذي أُوثره، وعلى ذلك خرجوا، فلما اجتمعوا في الحطيم خرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقالوا: قد جاء فتقدم من الركن فقام يصلي فنظروا إليه يطيل الركوع والسجود، فقال أبو جهل: فإني أقوم فأريحكم منه، فأخذ مهراشًا عظيمًا ودنا من رسول الله ﷺ وهو ساجد لا يلتفت ولا يهابه وهو يراه فلما دنا منه، ارتعد وأرسل الحجر على رجله فرجع وقد شُدخت أصابعه وهو يرتعد، وقد دُوِّخت أوداجُه ورسول الله ﷺ ساجدٌ، فقال أبو جهل لأصحابه: خذوني إليكم فالتزموه وقد غشي عليه ساعة، فلما أفاق قال له أصحابه ما الذي أصابك؟ قال: لما دنوت منه أقبل عليّ من رأسه فحلٌ فَاغِرٌ فَاهُ فحمل عليّ أسنانه فلم أتمالك وإني أرى محمّدًا محجوبًا، فقال له بعض أصحابه: يا أبا الحكم رغبت وأحببت الحياة ورجعت، قال: ما تغرّوني عن نفسي. قال النضر بن الحارث: فإن رجع غدًا فأنا له، قالوا له: يا أبا سهم لئن فعلت هذا لتُسودنّ، فلما كان من الغد اجتمعوا في الحَطيم منتظرين رسول الله ﷺ فلما أشرف عليهم قاموا بأجمَعِهم فواثبوه فأخذ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، رواه مسلم (٨٤٣).

حفنةً من تراب، وقال: شاهتِ الوجوهُ، وقال: حم لا يبصرون فتفرّقوا عنه. وهذا دفع إلهي وثق به من الله تعالى فصبر عليه حتى وقاه الله، و كان من أقوى شاهد على صدقه. (١)

٣ـ معمر بن يزيد يحاول قتل النبي ﷺ :

ومما يثبت عصمته ﷺ من القتل، أن معمر بن يزيد، وكان أشجعَ قومه، استغاثت به قريش، وشكوا إليه أمر رسول الله ﷺ ، وكانت بنو كنانة تصدر عن رأيه، وتطيع أمره فلما شكوا إليه قال لهم: إني قادم إلى ثلاث وأريحكم منه، وعندي عشرون ألف مدجّج فلا أرى هذا الحيّ من بني هاشم يقدر على حربي وإن سألوني الدّية أعطيتهم عشر ديَات ففي مالي سعة، وكان يتقلّد بسيف طوله سبعة أشبار في عرض شبر وقصته في العرب مشهورة بالشجاعة والبأس، فلبس يوم وعده قريشًا سلاحَه وظاهر بين دِرعين، فوافقهم بالحطيم ورسول الله ﷺ في الحِجر يصلّي، وقد عرف ذلك فما التفت ولا تزَعزع ولا قصَّر في صلاة، فقيل له: هذا محمد ساجدٌ، فأهوى إليه وقد سلّ سيفه وأقبل نحوه، فلما دنا منه رمى بسيفه وعاد، فلما صار إلى باب الصفا عثر في درعه فسقط فقام وقد أدمى وجهه بالحجارة يعدو كأشد العدْوِ حتى بلغ البطحاء ما يلتفت إلى خلْف، فاجتمعوا وغسلوا عن وجهه الدم، وقالوا ماذا أصابك؟ ، قال: ويحكم المغرور من غرّرتموه. قالوا ما شأنك؟ قال: ما رأيت كاليوم دَعوني ترجعْ إليَّ نفسي فتركوه ساعة، وقالوا: ما أصابك يا أبا الليث؟ قال: إنّي لما دنوت من محمّد فأردت أن أهوي بسيفي إليه، أهوي إليّ من عند رأسه شُجاعان أقرعان ينفخان بالنيران، وتلمع فيَّ أبصارُهما، فعدَوْت فما كنت لأعود في شيء من مساءة محمد ﷺ . (٢)

٤ـ كلدة بن أسد يحاول قتل النبي ﷺ :

ولقد خاطر قريشًا يومًا في قتل رسول الله ﷺ فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم فرأى رسول الله ﷺ في الطريق يريد المسجد ما بين دار عقيل وعقال، فجاء كلدة ومعه المزراق،

---

(١) انظر: أعلام النبوة للما وردي صـ ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق (١٠٠).

فرجع المزراق في صدره فرجع فزِعًا فقالت له قريش: ما لك يا أبا الأشدّ؟ فقال: ويحكم فإني أراه فلم يزل يعْدُو حتى بلغ الطائف فاستهزأت به ثقيف فقال: أنا أعذركم لو رأيتم ما رأيت لهلكتم. (١)

٥ـ أبولهب يحاول قتل النبي ﷺ :

خرج أبو لهب يوماً وقد اجتمعت قريش فقالوا له: يا أبا عتبة إنك سيدّنا، وأنت أولى بمحمد منَّا، وإن أبا طالب هو الحائل بيننا وبينه، ولو قتلته لم ينكر أبوطالب ولا حمزة منك شيئًا، وأنت بريء من دمه، فنؤدي نحن الدّية وتسُود قومك، فقال: فإني أكفيكم ففرحوا بذلك ومدحته خطباؤهم.

فلما كان في تلك الليلة وكان مشرفًا عليه، نزل أبو لهب وهو يصلّي وتسلّقت أُمّ جميل الحائط حتى وقفت على رسول الله ﷺ وهو ساجد، فصاح أبو لهب فلم يلتفت إليه، وهما كانا لا ينقلان قدمًا، ولا يقدران على شيء حتى تفجَّر الصبح وفرغ ﷺ ، فقال أبو لهب: يا محمد أطلق عنا، فقال: ما كنت لأطلق عنكما أو تضمنا لي أنكما لا تؤذياني، قالا: قد فعلنا فدعا ربه فرجعا. (٢)

٦ـ سراقة بن مالك يحاول قتل النبي ﷺ :

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري أن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم حدثه عن أبيه عن عمه سراقة بن مالك بن جعشم قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم.

قال: فبينا أنا جالس في نادي قومي؛ إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مرُّوا عليّ آنفًا إني لأراهم محمدًا وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني: أن اسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالَّة لهم قال: لعله، ثم سكت. قال: ثم مكثت

---

(١) المصدر السابق (١٠٠).

(٢) أعلام النبوة، للما وردي (١٠٠).

قليلًا ثم قمت، فدخلت بيتي ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها ثم انطلقت فلبست لأمتي ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره (لا يضره). قال: وكنت أرجو أن أردّه على قريش فآخذ المائة الناقة. قال: فركبت على أثره فبينما فرسي يشتدّ بي عثر بي فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره (لا يضره) قال: فأبيت إلا أن أتبعه. قال: فركبت في أثره فبينا فرسي يشتد بي عثر بي فسقطتُّ عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره (لا يضره) قال: فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره. فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار، قال: فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنِع مني وأنه ظاهر، قال: فناديت القوم: فقلت: أنا سراقة بن جعشم: انظِروني أكلمْكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟ قال: فقال ذلك أبو بكر قال: قلت: تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك، قال: اكتب له يا أبا بكر. [1]

٧ـ شيبة بن عثمان يحاول قتل النبي ﷺ :

عن شيبة بن عثمان، قال: « لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عري، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أدرك ثأري من محمد، قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائمٌ عليه درع بيضاء كأنها فضّة يكشف عنها العجَاج، فقلت: عمُّه ولن يخْذَلهُ، قال: ثم جئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابن عمّه ولن يخذلَهُ، قال: ثُمَّ جئتُهُ من خلفه فلم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف إذ رُفَع لي شُواظٌ من نار بيني وبينه كأنه برق، فخفت تمحشني،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٢ – ٦٣).

فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى، والتفت رسول الله ﷺ وقال: " يا شيب، يا شيب، ادن مني، اللهم أذهب عنه الشيطان "، قال: فرفعت إليه بصري ولهو أحب إليَّ من سمعي وبصري، وقال: يا شيب، قاتل الكفار. (١)

٨ – ليلة الهجرة:

ومن ذلك القصة المشهورة التي تؤذن بالكفاية التامة، وذلك أن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ ، أو يحبسوه، أو يخرجوه، فأطلعه الله على ذلك فأنزل عليه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠).

فأمر عليًّا فنام على فراشه، وذهب هو وأبو بكر، فلما أصبحوا ذهبوا في طلبهما في كل وجه يطلبونهما. (٢)

الوجه الرابع: معجزات النبي الأكرم ﷺ

ما من نبي أُرسل إلّا وأيده الله تعالى بالمعجزات؛ لتكون برهانًا واضحًا للناس في إثبات رسالته، وهاهي بعض معجزات نبينا الأكرم ﷺ إجمالًا ليهتدي من أراد طريق الحق.

١ـ معجزة القرآن:

أعطى الله ﷻ كل نبي من الأنبياء عليهم السلام معجزة خاصة به لم يُعْطها بعينها غيره، تحدى بها قومه، وكانت معجزةُ كل نبيّ تقع مناسبة لحال قومه وأهل زمانه، فلما كان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، بعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار، وحيرت كل سحَّار، فلما استيقنوا أنها من عند العزيز الجبَّار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبعثه الله في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة، فمن أين

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢ / ٤٦٦ .

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٢٤٤.

للطبيب قدرة على إحياء الجماد، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟

وكذلك نبيًّا بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء، فأتاهم بكتاب من عند الله ﷻ، فاتّهمه أكثرهم أنه اختلقه وافتراه من عنده؛ فتحداهم ودعاهم أن يعارضوه ويأتوا بمثله وليستعينوا بمن شاءوا فعجزوا عن ذلك كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، وكما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور: ٣٣، ٣٤).

ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود: ١٣).

ثم تنازل إلى سورة فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس: ٣٨)، وكذلك في سورة البقرة وهى مدنية أعاد التحدي بسورة منه، وأخبر تعالى أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا لا في الحال ولا في المآل فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٣-٢٤). وهكذا وقع، فإنه من لدن رسول الله ﷺ وإلى زماننا هذا لم يستطع أحدٌ أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبدًا؛ فإنه كلام رب العالمين الذي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فأنّى يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق؟.

وقد انطوى كتاب الله العزيز على وجوه كثيرة من وجوه الإعجاز: ذلك أن القرآن الكريم معجز في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفنّي باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد، لا يختلف ولا يتفاوت، ولا تختلف خصائصه. معجز في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها،

فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تتناسب وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية دون أن تصطدم بالفطرة الإنسانية، معجز في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها وفتح مغاليقها واستجاشة مواضع التأثر، والاستجابة فيها[1].

٢ـ انشقاق القمر:

قال الله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه.[2]

وعن أنس بن مالك ﷺ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسولَ الله ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ.[3]

ومن هذه المعجزات أيضًا:

٣- الإسراء:

أمّا في القرآن ففي قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

يُمَجِّدُ الله تَعَالَى نَفْسَهُ الكَرِيمَةَ، وَيُنَزِهُهَا عَنْ شِرْكِ مَنْ أَشْرَكَ، وَيُعَظِّمُ شَأْنَهُ لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَقَدْ أَسْرَى بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْلًا مِنْ مَكَّةَ (المَسْجِدِ الحَرَامِ)، إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ (المَسْجِدِ الأَقْصَى)، وَهُوَ المَسْجِدُ الذِي بَارَكَ الله مَا حَوْلَهُ، مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَنَبَاتٍ. لِيُرِيَ عَبْدَهُ مُحَمَّدًا، مِنْ آيَاتِهِ العِظَامِ، مَا فِيهِ الدَّلِيلُ القَاطِعُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ لأَقْوَالِ العِبَادِ، البَصِيرُ بِأَحْوَالِهِمْ.[4]

---

(١) راجع في ذلك شبهة ادعاؤهم عدم وجود إعجاز في القرآن والرد عليها من خلال هذه الموسوعة.

(٢) الشفا للقاضي عياض (٢٨٩).

(٣) رواه البخاري (٣٨٦٨)، ومسلم (٢٨٠٢).

(٤) تفسير حومد ١/ ٢٠٣٠.

وأمَّا في السُنَّة: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " حِينَ أُسْرِىَ بِى لَقِيتُ مُوسَى عليه السلام". فَنعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا رَجُلٌ – حَسِبْتُهُ قَالَ – مُضْطَرِبٌ، رَجِلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ – قَالَ – وَلَقِيتُ عِيسَى ». فَنعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ «فَإِذَا رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ ». – يَعْنِى حَمَّامًا – قَالَ « وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ – قَالَ: فَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِى أَحَدِهِمَا لَبَنٌ، وَفِى الآخَرِ خَمْرٌ، فَقِيلَ لِى: خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ. فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ. فَقَالَ: هُدِيتَ الْفِطْرَةَ أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ ». [1]

والمعراج:

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِى وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَلَمَّا جِئْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام لِخَازِنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا: افْتَحْ. قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ. قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ مَعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: فَأُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَفَتَحَ – قَالَ: فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ – قَالَ: فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى – قَالَ: فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالِابْنِ الصَّالِحِ – قَالَ: قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ ﷺ وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى – قَالَ: ثُمَّ عَرَجَ بِى جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ. فَقَالَ لِخَازِنِهَا افْتَحْ – قَالَ: فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ خَازِنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَفَتَحَ ». فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَعِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ – صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ – وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ آدَمَ عليه السلام فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. قَالَ: « فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٤)، ومسلم (١٦٨) واللفظ له.

وَرَسُولُ الله ﷺ بِإِدْرِيسَ - صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ - قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ - قَالَ: ثُمَّ مَرَّ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ - قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى عليه السلام فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ - قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ هَذَا مُوسَى - قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالاِبْنِ الصَّالِحِ - قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ هَذَا إِبْرَاهِيمُ". (١)

٤ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ.

فقد روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِالزَّوْرَاءِ قَالَ: وَالزَّوْرَاءُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ السُّوقِ وَالْمَسْجِدِ فِيمَا ثَمَّهْ - دَعَا بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ فَوَضَعَ كَفَّهُ فِيهِ، فَجَعَلَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ فَتَوَضَّأَ جَمِيعُ أَصْحَابِهِ. قَالَ: قُلْتُ كَمْ كَانُوا يَا أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ: كَانُوا زُهَاءَ الثَّلاَثِمِائَةِ. (٢)

٥ـ تكثير الطعام ببركته ودعائه.

فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بالنبيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي؛ فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؛ فَإِنِّى رَأَيْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا؟ فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي، وَقَطَّعْتُهَا في بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: لاَ تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ الله ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ. فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ. فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: « يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ ». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ « لاَ تُنْزِلُنَّ بُرْمَتكُمْ، وَلاَ تَخْبِزُنَّ عَجِينكُمْ حَتَّى أَجِيءَ ». فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ. فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِى قُلْتِ. فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا، فَبَصَقَ

(١) رواه مسلم (١٦٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٦٠٨٢).

فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ: « ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلاَ تُنْزِلُوهَا، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِالله لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ. (١)

٦ـ كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة، وإجابتها دعوته.

فقد أَتَى النَّبِىَّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِى عَامِرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَرِنِي الْخَاتَمَ الَّذِى بَيْنَ كَتِفَيْكَ فَإِنِّى مِنْ أَطَبِّ النَّاسِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « أَلاَ أُرِيكَ آيَةً». قَالَ: بَلَى.

قَالَ: فَنَظَرَ إِلَى نَخْلَةٍ فَقَالَ: « ادْعُ ذَلِكَ الْعَذْقَ ». قَالَ: فَدَعَاهُ فَجَاءَ يَنْقُزُ حَتَّى قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « ارْجِعْ ». فَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ؛ فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: يَا آلَ بني عَامِرٍ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ رَجُلًا أَسْحَرَ مِنْهُ. (٢)

٧ـ حنين الجزع لفراق النبي ﷺ .

وهي قصة مشهورة شهدها الكثير من أصحاب النبي ﷺ - أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ : يَا رَسُولَ الله، أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ فَإِنَّ لِي غُلاَمًا نَجَّارًا؟ قَالَ: " إِنْ شِئْتِ ". قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ الْمِنْبَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَنْشَقَّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ. قَالَ: " بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ ". (٣)

٨ـ تسليم الحجر على النبي ﷺ .

---

(١) رواه البخاري (٣٨٧٦)، ومسلم (٥٤٣٦).

(٢) رواه أحمد٥/ ٨ (١٩٨٢)، والدار مي (٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وصحح إسناده الألباني في الصحيحة (٣٣١٥).

(٣) رواه البخاري (٢٠٩٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

فقد كان الحجر يسلم عليه، يقول رسول الله ﷺ: " إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ". (١)

٩- إخبار الشاة له ﷺ بأنها مسمومة.

إذ إن النبي ﷺ أتى خيبر، فَأَهْدَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً، فَتَنَاوَلَ مِنْهَا وَتَنَاوَلَ مِنْهَا بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ، ثُمَّ رَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ هَذِهِ تُخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ ". فَمَاتَ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ: " مَا حَمَلَكِ عَلَى مَا صَنَعْتِ؟ ". فَقَالَتْ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ شَيْءٌ، وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ. . .). (٢)

١٠- إبراؤه للمرضى ﷺ .

من ذلك أنه ﷺ قال يوم خيبر: "لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ". فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيٌّ ». فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَمَرَ فَدُعِي لَهُ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ. (٣)

١١- إخباره ﷺ بالأحداث التي لم تقع وقد وقعت.

كخبر أم حرام بنت ملحان، فقد سَمِعَتِ النبيَّ ﷺ يقول: " أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أمتي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا ". قَالَتْ أُمُّ حَرَامٍ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: أَنَا فِيهِمْ. قَالَ « أَنْتِ فِيهِمْ ». ثُمَّ قَالَ النبي ﷺ: " أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أمتي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ ". فَقُلْتُ: أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ الله. قَالَ " لا". (٤)

وكذلك: إخباره عن بركان يثور في الحجاز ينعكس ضوؤه بالشفق، فيلحظه أهل بصري بالشام، فتحقق تنبؤه ﷺ عام ٦٥٤هـ، ليكون دليلًا آخر على نبوته ورسالته ﷺ، فقد قال ﷺ "لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، تضيء أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى". (٥)

---

(١) رواه مسلم (٦٠٧٨) عن جابر بن سمرة ﷺ.

(٢) رواه أبو داود (٤٥١٤)، والحديث أصله في البخاري (٢٤٧٤)، ومسلم (٥٨٣٤). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ.

(٣) رواه البخاري (٢٨٧٤)، ومسلم (٦٣٧٣). عن سهل بن سعد ﷺ.

(٤) رواه البخاري (٢٧٦٦)، عن أم حرام رضي الله عنها.

(٥) رواه البخاري (٦٧٠١)؛ ومسلم (٧٤٧٣)عن أبي هريرة ﷺ

قال النووي: وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت نارًا عظيمة جدًا، من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة.[1]

وغيرها كثير من المعجزات التي أجراها الكريم ﷻ -إذ الفضل منه وإليه- على يدي النبي المعصوم ﷺ ولكننا نثبت أن الله تبارك وتعالى أجرى معجزات كثيرة على يد نبيّه ﷺ تثبت نبوته ﷺ.[2]

الوجه الخامس: ظهور دينه وغلبته على الأمم.

ومن الأوجه القوية التي تثبت نبوته ﷺ أنه ﷺ جهر بدعوته بين قوم لا كتاب لهم، ولا حكمة فيهم: أني بعثت من عند الله بالكتاب المنير، والحكمة الباهرة لأنوّر العالم بالإيمان والعمل الصالح. وانتصب مع ضعفه وفقره وقلة أعوانه وأنصاره، مخالفًا لجميع أهل الأرض آحادهم وأوساطهم وسلاطينهم وجبابرتهم، فضلَّلَ آراءهم، وسفَّه أحلامهم، وأبطل مللهم وهدم دولهم، وظهر دينه على الأديان في مدة قليلة شرقًا وغربًا، وزاد على مر الأعصار والأزمان، ولم يقدر الأعداء مع كثرة عَدَدِهم وعُدَدِهم وشدة شوكتهم وشكيمتهم، وفرط تعصبهم وحميتهم وبذل غاية جهدهم في إطفاء نور دينه وطمس آثار مذهبه. فهل يكون ذلك إلا بعون إلهي وتأييد سماوي؟

قال غمالائيل مُعلّم اليهود لهم في حق الحواريين: أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ، احْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ جِهَةِ هؤُلاَءِ النَّاسِ فِي مَا أَنْتُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ تَفْعَلُوا. ٣٦لأَنَّهُ قَبْلَ هذِهِ الأَيَّامِ قَامَ ثُودَاسُ قَائِلًا عَنْ نَفْسِهِ إِنَّهُ شَيْءٌ، الَّذِي الْتَصَقَ بِهِ عَدَدٌ مِنَ الرِّجَالِ نَحْوُ أَرْبَعِمِئَةٍ، الَّذِي قُتِلَ، وَجَمِيعُ الَّذِينَ انْقَادُوا إِلَيْهِ تَبَدَّدُوا وَصَارُوا لاَ شَيْءَ. ٣٧بَعْدَ هذَا قَامَ يَهُوذَا الْجَلِيلِيُّ فِي أَيَّامِ الاكْتِتَابِ، وَأَزَاغَ وَرَاءَهُ شَعْبًا غَفِيرًا. فَذَاكَ أَيْضًا هَلَكَ، وَجَمِيعُ الَّذِينَ انْقَادُوا إِلَيْهِ تَشَتَّتُوا. ٣٨وَالآنَ أَقُولُ لَكُمْ: تَنَحَّوْا عَنْ هؤُلاَءِ النَّاسِ وَاتْرُكُوهُمْ! لأَنَّهُ إِنْ كَانَ هذَا الرَّأْيُ أَوْ هذَا

---

(١) شرح النووي١٨/ ٢٨.

(٢) وقد فُصِّلَ ذلك في بابه من خلال هذه الموسوعة فراجعها غير مأمور فإنها مهمة.

الْعَمَلُ مِنَ النَّاسِ فَسَوْفَ يَنْتَقِضُ، ٣٩وَإِنْ كَانَ مِنَ اللهِ فَلاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَنْقُضُوهُ، لِئَلاَّ تُوجَدُوا مُحَارِبِينَ للهِ أَيْضًا. (أعمال الرسل ٥: ٣٥ – ٣٩).

وورد في المزمور الأول: "لأَنَّ الرَّبَّ يَعْلَمُ طَرِيقَ الأَبْرَارِ، أَمَّا طَرِيقُ الأَشْرَارِ فَتَهْلِكُ".

وورد في المزمور الخامس ٦: "تُهْلِكُ الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْكَذِبِ. رَجُلُ الدِّمَاءِ وَالْغِشِّ يَكْرَهُهُ الرَّبُّ".

وورد في المزمور ٣٤/ ١٦ "وَجْهُ الرَّبِّ ضِدُّ عَامِلِي الشَّرِّ لِيَقْطَعَ مِنَ الأَرْضِ ذِكْرَهُمْ".

فلو لم يكن محمد ﷺ من الصديقين لأهلك الرب طريقه، ورذله، وأباد ذكره من الأرض، وكسر سواعده، وأفناه كالدخان، لكنه لم يفعل شيئًا منها، فكان محمد ﷺ من الصديقين، والمحاربون كثير، والوقت قريب فسوف يعلمون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧) ولا يقدرون على نقضه ألبتة كما وعد الله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢) أي دين الإسلام ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بأقوالهم الباطلة ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي مبلغه غايته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أي اليهود والنصارى والمشركون، ولنعم ما قيل:

ألا قل لمن ظل لي حاسدًا أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله لأنك لم ترض لي ما وهب[1].

الوجه السادس: الثمرات التي أتى بها محمد ﷺ

تمهيد:

من ثمارهم تعرفونهم:

قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٨).

احْتَرِزُوا مِنَ الأَنْبِيَاءِ الْكَذَبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحُمْلاَنِ، وَلكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِلٍ ذِئَابٌ

---

(١) إظهار الحق (٤/ ١٠٧٤ – ١٠٧٦) بتصرف يسير.

خَاطِفَةٌ! ١٦مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟ ١٧هكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، ١٨لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. ١٩كُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ ٢٠فَإِذًا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. " (متى ٧: ١٥).

ويستشف أيضًا من كلام المسيح عليه السلام أنه ينبئ بنبيٍ بعده ليس بكاذب، وسوف يأتي بعد عيسى عليه السلام أنبياء ليسوا بكذبة، وكأن أصحابه سألوه: وكيف نفرق بين النبي الكاذب والنبي الصادق؟ ، فقال لهم: من ثمارهم تعرفونهم، ومن نتاج عمله ودعوته يظهر، فالنبي الصادق لابد أن تكون ثمرته طيبة كعمل صالح لأتباعه وغير ذلك، أما الأنبياء الكذبة بعد عيسى، فقد ذكر التاريخ العديد منهم، خاصة مع نهاية القرن الأول الميلادي.

أسماء الأنبياء الكذبة بعد عيسى عليه السلام:

١- سيمون " الملقب بالساحر ":

وهو لم يدَّعِ النبوة فقط، بل ادَّعى الألوهية أيضًا، خرج هذا الرجل من بعض قرى "السامرة " بفلسطين في عهد القيصر كلوديس، وأتى ببعض أعمال السحر العجيبة، وتابعه عدد كبير من أهل السامرة وغيرها؛ بل لقد صنع له في روما تمثال أقيم فوق نهر " التيبر" نقش عليه " إلى سيمون الإله القدوس " ورغم الأعمال الخارقة لسيمون هذا، فقد كانت أخلاقه وضيعة؛ إذ كان يعاشر عاهرة تدعى " هلانة " سماها " الفكرة الأولى " التي انبثقت منه، وسجد أتباعُهُ أمام أصنامه هو وعشيقته ويعبدونها بالبخور والذبائح. (١)

٢- اليهودي المصري الذي خرج في القرن الأول الميلادي، وقد اقتاد جيشًا مكونًا من ٤٠٠٠ من اليهود لدخول القدس لكن الحامية الرومانية قضت عليهم، وقد أتى ذكره في الإنجيل في سفر الأعمال(٢١: ٣٨)(٢)

---

(١) تاريخ الكنيسة، يوسابيوس القيصري (٨٢).

(٢) المصدر السابق (٨٣).

٣- ولقد تكلم العهد القديم نفسه عن العديد من الأشياء مثل " أجابوس " وغيره الذين شكلوا ظاهرةً خطيرةَ بنهاية القرن الأول. (١)

٤- ذكر التاريخ أيضًا من أوائل مدعي النبوة " ميناندر العراف " خليفة سيمون الساحر. الذي قال إنه نفسه " المخلص " الذي أرسل من الدهور غير المنظورة لخلاص البشر. وقد أتى بأعمال سحر عظيمة، وأقنع أتباعه أنهم لن يموتوا. (٢)

٥- أما أخطر النبوات الكاذبة بعد عيسى التي ذكرها التاريخ المسيحي، فهي نبوة " مونتانوس " الذي أعلن عام ١٥٦م أن الروح القدس يتكلم إليه مباشرة. . . (وأن أتباعه أداة توصيل للروح القدس " البراكليت "). . . وكان ينطق بعبارات مثل. . . " هو ذا الإنسان وكأنه قيثارة، وأن الله يلعب على أوتارها. . . انضمت إلى مونتانوس نبيتان أعلنتا نهاية العالم ورجوع المسيح السريع إلى " فريجيا " موطن مونتاس في تركيا الحالية، وأن أورشليم الجديدة سوف تنزل من السماء. . . وقد رحب الكثيرون بكل قوة بهذه الدعوة؛ لأن الانتظار ـ انتظار عودة المسيح ـ قد ضعف منذ نهاية القرن الأول. . . وقد امتدت المونتانية حتى إلى الغرب؛ بل وتبعها العديد من الآباء الكبار مثل " ترتليان القرطاجي " وعاشت المونتانية حتى القرن الخامس رغم المحاربة السابقة لها، ذلك لرفعها صوت النبوة في وجه السلطان الكهنوتي.

وقد عاب المونتانية أخذها من مدينة " فريجيا " التي عبدت الإلهة " سيبيل " أخذت منها الرقصات المتوحشة، وخصى الذات، والاستحمام في دماء الثور الذي يقدم ذبيحة لها. (٣)

والآن وبعد استعراض هذه النبوءات الزائفة تعال بنا لنطبق المعادلة التي ذكرناها في بداية البحث وهي " مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. ".

---

(١) التفسير الحديث للكتاب المقدس، (د. ت. فرانس) (إنجيل متى ١٥٥) نقلا عن: محمد في الترجوم والتلمود والتوراة، هشام محمد طلبة (٢١٢ – ٢١٤).

(٢) المصدر السابق (١٥٤).

(٣) تاريخ الكنيسة، جون لويمر، دار الثقافة (١/ ١٢٠).

ثمرات هذه النبوءات الكاذبة:

يجمع كل هذه الدعوات أن ثمراتها جميعها كانت خبيثةً، كالدعوة للزنا، والذبح للأصنام وادعاء الألوهية، كما أن هذه الدعوات ماتت ولم تعد لها أية ثمرة، بالرغم من وجود بعض الخوارق لأصحابها.

أما ثمرات النبي محمد ﷺ فثمرته باقية ودعوته خالدة، وهي ثمرة الصدق والحق والفضيلة.

الثمرة الأولى: التوحيد الخالص لله ﷻ:

إنه لكي نعرف فضل الإسلام والنور الذي أتى به لابد أولًا أن نعرج على الشرك الموجود بين الأمم والشعوب القديمة والحالية الآن.

١-**في الهند**: يوجد في الهند الآن حوالي ٢٠٠ مليون بقرة، وهذه الأبقار تعتبر عندهم مقدّسة، وبالتالي فإنهم لا يستفيدون منها بتاتًا، ويحرمون ذبحها؛ بل وأكثر من هذا فإن الشعب الهندي كله مسخر لخدمتها، وتعيش على حسابه، فكم تحتاج هذه الأبقار إلى مراع ومزارع؟ ، وكم تعطل من طاقات؟

بالإضافة إلى هذا فإن للبقرة سلطانًا على كل شئ في حياتهم، حيث تقف البقرة في وسط الطريق فتقف وراءها السيارات ولا يزعجها أحد حتى تمضي. وتبول في أي مكان، وتخثي في أي مكان، وتعتدي على مال أي إنسان، ولا أحد يجرؤ على أن يعترض سبيلها بشئ.

فانظر كيف جعل شرك البشر مسخرًا لخدمة البقر! فالحمد لله على نعمة العقل.

٢-**في مصر القديمة أيام الفراعنة**: نجد في مصر اليوم أهرامات ضخمة جدًا، وأحجارها ضخمة جدًا، نقلت من أماكن بعيدة جدًا، نقلها آلاف من أبناء الشعب المصري إلى منطقة الأهرامات، وتعبت في بناء هذه الأهرامات آلافُ الأدمغة وآلافُ الأيدي من أجل ماذا؟ ، من أجل أن يصنعوا قبرًا لفرعون الذي كانوا يعبدونه كإله؟!

فانظر كيف جعل الشرك كل هذا الجهد والقوى والمال مسخرًا لخدمة فرد من البشر!!. [1]

---

(١) الرسول. . . سعيد حوى (٢/ ١٤٥).

٣-الطائفة الإسماعيلية: في العالم اليوم حوالي ١٣ مليونًا من الطائفة الإسماعيلية، التي تعبد رجلًا كإله، وتقدم له كل عام خمس أموالها، حيث تجعله في كفة ميزان، وتجعل الذهب في كفة أخرى حتى يتساويا، وتقدمه له كهديةٍ سنويةٍ.

فانظر إلى هذه الصورة من صور الشرك كيف أن ثلاثة عشر مليونًا من البشر مسخرين لخدمة فرد واحد قد يكون من أفجر الناس وأفسق الناس.

ومن صور الوثنية القديمة والحديثة الشيء الكثير ونضرب أمثلة لها:

١-عند العرب: عن أبي رجاء العطاردي قال: (كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثوةً من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طُفنا به). [١]

وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًّا وجعل ثلاثًا- أثافي لقدره إذا ارتحل تركه.

وقال أيضًا: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أيضا يتمسح به. [٢]

٢-عند الهنود: يقول أبوالحسن الندوي في كتابه " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " عن حال الوثنية في الهند: " بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس فقد كان عدد الآلهة في "ويد " ثلاثةً وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليونًا، وقد أصبح كل شيء رائعًا وجذَّابًا، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهًا يُعبد. . وهكذا، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصر وأربت على العدِّ، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله- زعموا- في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن

(١) رواه البخاري (٤٣٧٦).

(٢) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد على (١١/ ٦٦).

كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس "مهاديو" الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجًا من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان ". (١)

٣-**عند الفرس**: كانوا يعبدون ملوكهم ونيرانهم.

٤-**اليابانيون**: يعتبرون ملكهم ابن الشمس المعبودة.

٥-**اليونانيون**: يعبدون إلاهًا للمطر وإلاهًا للحرب وإلاهة للحب. . وهكذا.

والخلاصة:

أن الإنسان اعتبر نفسه أقل من الحجر، وأقل من الشمس، وأقل من الحيوانات، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها؛ بل جعلها في مقام السيد، وجعل نفسه في مقام العبد الذليل، وجعلها تتحكم فيه بواسطة وبغير واسطة.

وأما عند النصارى فقد سبق تفصيل عقيدتهم. (٢)

وأما بالنسبة للإلحاد فقد ألحد أُناسٌ قديمًا وحديثًا.

ومعنى الإلحاد أن الإنسان اعتبر نفسه عبدًا للكون كله بدلًا من أن يعبد جزءًا منه، وخلع على الكون كله صفات الألوهية، فالكون يخلق ويرزق، ويعطي ويمنع، ويحيي ويميت. . . .

وفي نهاية الأمر اعتبر الإنسان نفسه أعظم ما في الكون فعبد نفسه، واعتبر نفسه هو مصدر التشريع، ومصدر الحاكمية، ومصدر الأمر والنهي، وهو حرٌّ أن يفعل ويترك ما شاء، فغلبتهم شهواتهم، وظلموا بعضهم، وأصبح كلُّ واحد من هؤلاء يعتبر نفسه إلاهًا يفعل ما يشاء، لا رادَّ لحكمه فحدث على أيديهم من المآسي ما يندى له جبين البشرية كلها، حتى إنه قتل في عهد ستالين وحده تسعة عشر مليونًا من أبناء الاتحاد السوفيتي.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي (ص ٦٩).

(٢) انظر مبحث تحريف الكتاب المقدس من هذه الموسوعة.

وأما الإسلام دين النبي محمد ﷺ فهو الذي وضع الإنسان في مكانه الصحيح فعلمه: أن الكون كلَّه- قَمرَهُ وشمسَهُ ونجومَهُ وأرضَهُ وحيواناتِهِ من بقر ونمر وأسد وعجل، ونباتاتِهِ كلِّها، وأحجاره ومعادنه وكل شئ فيه خلق للإنسان.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

والإنسان هو أكرم مخلوق على وجه الأرض، فمن حقه أن يستفيد من هذا الكون إلى أقصى درجة ممكنه في حدود " لا ضرر ولا ضرار "، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

٢- وأن الله خالق الكون والإنسان، وهو وحده الإله المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، المستحق وحده للعبادة، والإنسان عبد وحده.

قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات: ٥٦)، فالناس كلهم عبيد لله ورسولهم ونبيهم وملكهم وخادمهم وكبيرهم وصغيرهم، ولا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه.

قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف: ١١٠).

الله أكبر. . . كل الكون للإنسان، والإنسان لله، مقام الإنسان السيادة على المخلوقات؛ لأنها مسخّرة له والعبودية لله وحده.

فانظر كيف نقل محمد ﷺ البشر من أحطّ الدركات إلى أعلى الدرجات.

وبهذه النظرة الإيجابية إلى الكون والإنسان، فتح المسلم أقفال الكون بالتجربة والمشاهدة، يدفعه في ذلك عقيدة أن الكون كله للإنسان، وعليه أن يستفيد منه، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم إلى القمة في تسخير الكون، فذلك لأنها تأثرت بالحضارة الإسلامية، ولولا ذلك لما كان في أوروبا حضارة ولا علم وهاهي بعض الأدلة على ذلك:

١-في (١١: ١٢: ١٨٦٢) أصدر البابا أبيوس التاسع قرارًا جاء فيه: لا يمكننا قبول العقل بغزو المجال المخصص لشئون الإيمان ليزرع فيه الاضطراب.[١]

وهذا الكلام له جذور في أصل النصرانية في العهد الجديد؛ إذ يقول بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس "٢٧بَلِ اخْتَارَ الله جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ". (١: ٢٧).

وقال أيضا " إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ حَكِيمٌ بَيْنَكُمْ فِي هذَا الدَّهْرِ، فَلْيَصِرْ جَاهِلًا لِكَيْ يَصِيرَ حَكِيمًا! ١٩لأَنَّ حِكْمَةَ هذَا الْعَالَمِ هِيَ جَهَالَةٌ عِنْدَ الله، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «الآخِذُ الْحُكَمَاءَ بِمَكْرِهِمْ». ٢٠وَأَيْضًا: «الرَّبُّ يَعْلَمُ أَفْكَارَ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ". (٢: ١٨ – ٢٠).

أين هذا من قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

والأقوال الكثيرة للنبي محمد ﷺ في الحث على طلب العلم، ومنها:

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ".[٢]

---

(١) محاصرة وإبادة، زينب عبد العزيز صـ ١٩٣.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤٣)، ابن ماجه (٢٢٣)، وقال الألباني: حسن لغيره/ صحيح الترغيب والترهيب (٧٠).

تقول (زيغريد هونكة) المستشرقة الألمانية الشهيرة " لو أردنا دليلا آخر على مدى الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب، لكفانا أن نعرف أن نسبة ٩٥ في المائة على الأقل من سكان الغرب في القرون: التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة، وبينما كان شارل الأكبر يجهد نفسه في شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة. . . كانت الآلاف مؤلفة في المدارس في القرى والمدن تستقبل ملايين البنين والبنات يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواح خشبية،. . . فلم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدى فيها الصلوات فحسب؛ بل كانت منبرًا للعلوم والمعارف.

كما ارتفعت فيها كلمات الرسول فوق مجد التدين الأعمى. ألم يقل محمد أقوالًا، كان يكفي لأن يقولها في روما حتى يحاكم عليها بتهمة الهرطقة. . . لقد قدم العرب بجامعاتهم التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع، والتي جذبت إليها منذ عهد البابا سلفستر الثاني عدداً من الغربيين من جانبي جبال البرانس ظل يتزايد حتى صار تيارًا فكريًّا دائمًا. [(١)]

يقول د: لويس لونج " يجب ألا ننسى الوجه الآخر للصورة في العصور الوسطى، عندما عكفت أوروبا على علوم العرب من طبّ وفلسفة وطبيعة، واستمرّ ذلك لفترة طويلة. حتى إذا كان القرن الثامن عشر قبست منهم نار الرومانطقية، وفي القرن التاسع عشر سلبتهم أراضيهم، ثم بتروهم في القرن العشرين. وعلى الرغم من سجل أوروبا الطافح بالتزمت الفكري واللّاتسامح الديني، على النقيض من المسلمين، فإنها ظلت ترفض الاعتراف بما للعرب من يد طولى على حضارتها، وتتجاهل دورهم الحضاري وتقلّل من شأنه". [(٢)]

وانظر إلى مدى التخلف الحضاري الأوروبي: في عام ١٨١٩ م ندّدت صحيفة كولونيا في ألمانيا بإضاءة شوارع المدينة بالغاز؛ إذ إن الإنسان في هذه الحالة قد حطّم إرادة الله التي

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب (٣٦٩- ٣٧٤، ٣٩٣- ٣٩٨).

(٢) انظر: الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، لواء: أحمد عبد الوهاب صـ ٢٤.

قضت بأن يكون الليل مظلمًا.[1]

أصدر البرلمان الإنجليزي قرارًا في عصر هنري الثامن يحظر على المرأة قراءة العهد الجديد (الأناجيل وملحقاتها) – أين هذا عند المسلمين في وضعهم المصحف الأم عند حفصة أم المؤمنين؟!

في عام ١٨٤٧م عارضت الكنيسة استخدام التخدير في حالات الوضع؛ لأن الله قال في الكتاب المقدس– حسب زعمهم – قضى أن تلد حواء بآلام.[2]

الثمرة الثانية: الإيمان باليوم الآخر وجعله محور سلوك الإنسان.

تمهيد:

إن الرسل كلهم بعثوا من أجل التبشير بالحياة الأبدية الطيبة للصالحين والعذاب الأبدي للطالحين.

قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (النساء: ١٦٥).

وجاء في إنجيل مرقس (١٣ : ٣٢): وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ، وَلاَ الابْنُ، إِلاَّ الآبُ.

وجاء في إنجيل متى (١٩ : ١٦): وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟.

من ثمار دعوة النبي ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر:

إن من ثمار دعوة النبي محمد ﷺ أنه أخرج -بإذنِ الله وَأَمرِهِ- جيلًا من البشر لم يَعُدْ لَهُ هِمَّةٌ إلاَّ أن ينالَ رضا الله، وينالَ سعادة الأبد، وَدَلَّ البشرية على الطريق إلى ذلك.

فكان أتباعُه أعظمَ نماذج عرفها العالم كطلاَّب آخرة بعد النبيين، هذا مع قيام كامل في

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب صـ٣٠٥.

(٢) انظر: محمد في الترجوم والتلمود والتوراة صـ ٢١٧ – ٢٢٠.

أمر الدنيا إصلاحًا ورعايةً، ولكن كممرٍّ إلى الآخرة.

وهذه أمثلة على هذه النماذج التي أخرجتها تربية النبي محمدٍ ﷺ:

١- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ مُضْطَجِعٌ، مُرْمَلٌ بِشَرِيطٍ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَدَخَلَ عُمَرُ رضي الله عنه فَانْحَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ انْحِرَافَةً، فَلَمْ يَرَ عُمَرُ بَيْنَ جَنْبِهِ وَبَيْنَ الشَّرِيطِ ثَوْبًا، وَقَدْ أَثَّرَ الشَّرِيطُ بِجَنْبِ رَسُولِ الله ﷺ فَبَكَى عُمَرُ. فَقَالَ لَهُ النبي ﷺ: مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ ؟. قَالَ: وَالله مَا أَبْكِي إِلاَّ أَنْ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّكَ أَكْرَمُ عَلَى الله ﷻ مِنْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَهُمَا يَعِيثَانِ فِي الدُّنْيَا فِيمَا يَعِيثَانِ فِيهِ، وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله بِالْمَكَانِ الَّذِي أَرَى. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟ ». قَالَ عُمَرُ: بَلَى. قَالَ: " فَإِنَّهُ كَذَاكَ "[1].

٢-وعن عائشة رضي الله عنها قالت: " مات أبو بكر رضي الله عنه فما ترك دينارًا ولا درهمًا، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه في بيت المال ".

٣-وعن الحسن أنه سئل عن القائلين في المسجد فقال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة، قال: ويقوم وأثر الحصير بجنبه، فيقال: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين.

٤-وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخلّ والزيت.

٥-وعن عبد الملك بن عمير قال: حدثني رجل من ثقيف أن عليًا استعمله على عكبرا قال: ولم يكن السواد يسكنه المصلون وقال لي: إذا كان عند الظهر فرُح إلي فرُحت إليه فلم أجد عنده حاجبًا يحبسني عنه دونه، فوجدته جالسًا وعنده قدح وكوز من ماء فدعا بطينة، فقلت في نفسي لقد أمنني حتى يخرج إليّ جوهرًا ولا أدري ما فيها، فإذا عليها خاتم فكسر الخاتم فإذا فيها سويق فأخرج منها فصبَّ في القدح فصَبَّ عليه ماءً فشرب وسقاني فلم

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨٤).

أصبر فقلت: يا أمير المؤمنين أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك؟ قال: أما والله ما أختم عليه بخلًا عليه، ولكني أبتاع قدر ما يكفيني فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره، وإنما حفظي لذلك وأكره أن أدخل بطني إلا طيبًا. (١)

٦-وعن عروة ﷺقال: دخل عمر بن الخطاب على أبي عبيدة بن الجراح ﷺفإذا هو مضطجع على طنفسة رحله، متوسد الحقيبة، فقال له عمر: ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك؟

قال: يا أمير المؤمنين، هذا يبلّغني المقيل.

وقال معمر في حديثه: لما قدم عمر الشام تلقّاه الناس وعظماءُ أهل الأرض فقال عمر: أين أخي؟ قالوا من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك! فلما أتاه نزل فاعتنقه فقال، ثم دخل عليه بيته فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله. (٢)

٧-وعن الحسن قال: كان عطاء سلمان ﷺ خمسة آلاف درهم، وكان أميرًا على زهاء ثلاثين ألفًا من المسلمين، وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها، وإذا خرج عطاؤه أمضاه ويأكل من سفيف يده. (٣)

مما مرَّ – وغيره كثير – يتبين لنا أنّ الجيل الذي ربّاه محمد ﷺ جيلٌ أصبح همُّه الأعلى الآخرة، ولم يعد له في غيرها همة، إلا إذا كان وسيلة تقربهم إلى الله تعالى، وتفرع عن هذا الأصل سلوك لا مثيل له في أي جانب من جوانب الحياة، ألا وهو التضحية، وهذا ما نراه عند الصحابة ﷺواضحًا جليًا لكل ذي عينين ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، مما يدل على مقدار إيمانهم بالله تعالى واليوم الآخر، حتى أصبح محور حياتهم، وأسوق الآن بعض الأمثلة التي توضح أن هذا الأمر قد استقر في أنفسهم:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٨٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٠١).

(٣) المصدر السابق (١/ ١٩٨).

عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان للزبير بن العوّام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فكان يقسِّمه كل ليلة، ثم يقوم إلى منزله وليس معه منه شيء. [١]

عن مالك الدار: أن عمر بن الخطاب أخذ أربعمائة دينار، فجعلها في صُرَّةٍ فقال للغلام: اذهب بهم إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم تلَهَّ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها الغلام إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه ثم قال: تعالَيْ يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها، فرجع الغلام وأخبره فوجده قد أعدّ مثله إلى معاذ بن جبل فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتلَهَّ في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذا في بعض حاجتك فقال: رحمه الله ووصله - تعالَيْ يا جارية اذهبي إلى بيت فلان بكذا واذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطّلعت امرأة معاذ فقالت: نحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخرقة إلا ديناران فدَحَا (أي دفعهما) بهما إليها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره وسُرَّ بذلك وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض. [٢]

بهذه الأمثلة وغيرها كثير يتبين لنا أن من ثمار نبوءة النبي محمد ﷺ هذا الضمير الحيّ، والروح اليقظة المنتظرة لجزائها في اليوم الآخر الذي دعا إليه كل المرسلين، وغفل عنه كثير من الناس.

ولا يمكن بحال من الأحوال للعقل إلا أن يقرّ بأن هذه الثمرة ليست إلا من ثمار نبيّ وليست من ثمار كذّاب. [٣]

فاللهم صلّ وسلّم وبارك على محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٩٠).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٣).

(٣) وانظر: الرسول ﷺ. . . تأليف/ سعيد حوى (٣٧٦).

الثمرة الثالثة: أن الدين الذي أتى به النبي ﷺ من عند الله.

تمهيد:

مصدر الإسلام، ومشرّع أحكامه ومناهجه، هو الله تعالى فهو وحيه إلى رسوله الكريمﷺ باللفظ والمعنى (القرآن الكريم) وبالمعنى دون اللفظ (السنّة النّبويّة). فالإسلام بهذه الخصيصة يختلف اختلافًا جوهريًا عن جميع الشرائع الوضعية؛ لأن مصدرها الإنسان، أما الإسلام فمصدره رَبُّ الإنسان. إنّ هذا الفرق الهائل بين الإسلام وغيره لا يجوز إغفاله مطلقًا ولا التقليل من أهميته.

أولًا: النصوص الدالة على أن الإسلام من عند الله.

من القرآن الكريم:

قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (القدر: ١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر: ٨٧)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل: ٦)، وقال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران: ٣)، وقال تعالى﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (السجدة: ٢).

ثانيًا: من سنة النبي ﷺ :

عن المقدام بن معدِ يكَرِب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " أَلاَ إني أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ (السَّرير) يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ. . . ".[1]

مميزات كون دين الإسلام من عند الله

الميزة الأولى: كماله وخلوه من النقائص

ويترتب على كون الإسلام من عند الله كمالُه وخلوُّه من معاني النقص والجهل والهوى والظلم، لسبب بسيط واضح هو أن صفات الصانع تظهر في ما يصنعه. . ولما كان الله

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود (٤٦٠٤)، واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٣).

تعالى له الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ويستحيل في حقه خلاف ذلك، فإن أثر هذا الكمال يظهر فيما يشرّعه من أحكام ومناهج وقواعد، وبالتالي لا بد أن يكون كاملًا. وهذا بخلاف ما يصنعه الإنسان ويشرّعه فإنه لا ينفك عن معاني النقص والهوى والجهل والجور؛ لأن هذه المعاني لاصقةٌ بالبشر ويستحيل تجردهم عنها كل التجرد، وبالتالي تظهر هذه النقائص في القوانين والشرائع التي يصنعونها.

ويكفينا هنا أن نذكر مثالًا واحدًا للتدليل على ما نقول:

جاء الإسلام بمبدإِ المساواة بين الناس في الحقوق وأمام القانون، بغضِّ النظر عن اختلافهم في الجنس أو اللّغة أو اللّون أو الحرفة أو الغنى أو الفقر، وأقام ميزان التفاضل على أساس التقوى والعمل الصالح. وقد ورد هذا المبدأ العظيم في القرآن والسنة النبوية. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقد جاء في السنة النبوية ما يقرر هذا المبدأ، فَعَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لعربي عَلَى أعجمي، وَلاَ لعجمي عَلَى عربي، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى."(١)

وقال ﷺ "لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعتُ يدها". (٢)

وبلغت دقّة تطبيق هذا المبدأ إلى حدّ أن النبي ﷺ أنكر على مسلم عربيّ قوله لمسلم غير عربي "يا ابن السوداء" واعتبر هذا القول من بقايا الجاهلية الأولى. (٣)

أما عند غير المسلمين من أتباع الديانات الأخرى فالأمر مختلف، وخذ دليلًا على ذلك:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٧)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

ففي الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال الفروق قائمةً بين المواطنين في أبسط الحقوق على أساس اللّون والجنس، فصاحب البشرة البيضاء أسمى منزلةً وأعلى قدرًا من صاحب البشرة السوداء، ولا مساواة بين الاثنين في الحقوق الآدمية ولا أمام القانون.

ولو كان هذا التفريق والتمايز في واقع الحياة فقط لأمكن أن يدعي البعض أنه من انحراف الأفراد ولا تسأل عنه الدولة، ولكن الواقع أن القانون نفسه يقر ويعترف صراحةً بهذا التمايز الظالم بين الأسود والأبيض ويحميه وإن كان الاثنان يحملان الجنسية الأمريكية.

فمن هذه النصوص القانونية في بعض الولايات الأمريكية:

أن النكاح بين شخصين أبيض وآخر زنجيّ يعتبر نكاحًا باطلًا. وبطلان العقد هنا لا يرجع إلى نقص أهلية العاقدين، فأهليتهما كاملة وإنما يرجع إلى شيء آخر خطير في نظر القانون هو أن أحد

طرفي عقد النكاح ذو بشرة بيضاء بينما الطرف الآخر في العقد ذو بشرة سوداء.

ومن هذه النصوص أيضًا في بعض الولايات المتحدة الأمريكية: أن كل من يطبع أو ينشر أو يوزع ما فيه دعوة أو حث للجمهور على إقرار المساواة الاجتماعية، والزواج بين البيض والسود، أو تقديم حجج للجمهور أو مجرد اقتراح في هذا السبيل يعتبر عملهُ جريمةً يعاقب عليها القانون بغرامة لا تتجاوز خمسمائة دولار أو بالسجن مدةً لا تتجاوز ستَّة أشهر أو بالعقوبتين.

أما التمايز بين رعايا المستعمِر "بكسر الميم" وأهل البلاد المنكوبة بالاستعمار فحدِّث ولا حرج، فالمستعمرون يضعون من القوانين ما يجعل أهل البلاد المستعمرة بمنزلة البهائم، دون أن يشعر هؤلاء المستعمرون بتأنيب ضمير أو بجَوْرهم على هؤلاء الآدميين. وما يعتبرونه ظلمًا في بلادهم، وبالنسبة لرعاياهم يعتبرونه حقًّا وعدلًا بالنسبة لأهل البلاد المنكوبة باستعمارهم. وهذا وغيره يدل على مدى ما عند الإنسان من ظلم وجور وهوى ومحاباة وجهل.

الميزة الثانية: الاحترام والهيبة.

ويترتب أيضًا على كون الإسلام من عند الله، أنه يظفر بقدر كبير جدًّا من الهيبة والاحترام من قبل المؤمنين به، مهما كانت مراكزهم الاجتماعية وسلطاتهم الدنيوية؛ لأن هذه السلطات وتلك المراكز لا تخرجهم من دائرة الخضوع لله تعالى واحترام شرعه، وطاعة هذا الشرع طاعة اختيارية تنبعث من النفس وتقوم على الإيمان، ولا يقسر عليها المسلم قسرًا. وفي هذا ضمان عظيم لحسن تطبيق القانون الإسلامي وعدم الخروج عليه ولو مع القدرة على هذا الخروج.

أما القوانين والمبادئ الوضعية التي شرعها الإنسان؛ فإنها لا تظفر بهذا المقدار من الاحترام والهيبة، إذ ليس لها سلطان على النفوس ولا تقوم على أساس من العقيدة والإيمان كما هو الحال بالنسبة للإسلام، ولهذا فإن النفوس تجرؤ على مخالفة القانون الوضعي كلما وجدت فرصة لذلك وقدرة على الإفلات من ملاحقة القانون وسلطان القضاء، ورأت في هذه المخالفة اتباعًا لأهوائها وتحقيقًا لرغباتها. إن القانون لا يكفي أن يكون صالحًا؛ بل لا بد له من ضمانات تكفل حسن تطبيقه، ومن أول هذه الضمانات، إيجاد ما يصل هذا القانون بنفوس الناس ويحملهم على الرضى به والانقياد له عن طواعية واختيار. ولا يحقق مثل هذه الضمانة مثل الإسلام؛ لأنه أقام تشريعاته على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر ورسوله محمد ﷺ، وأن الالتزام الاختياري بهذه التشريعات واحترامها هو مقتضى هذا الإيمان.

وللتدليل على صحة ما نقول نضرب مثلًا واحدًا بشأن واقعة معينة عالجها الإسلام بتشريعه ونجح في هذه المعالجة، وعالجت هذه الواقعةَ بالذات القوانينُ الوضعيةُ وفشلت في هذه المعالجة.

من المعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا مولعين بشرب الخمر لا يجدون فيه منقصةً ولا منكرًا، وكانت زقاق الخمر ودنانه في البيوت كالماء المخزون في القرب والحباب. فلما أتى الإسلام بتحريم الخمر بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ (المائدة: ٩٠) قوة هائلة تفوق قوة الجيش والشرطة، وما يمكن أن تستعمله أي دولة لتنفيذ أوامرها بالقوة والجبر. . لقد قام المسلمون إلى زقاق الخمر فأراقوها، وإلى دنانه فكسروها، وفطموا نفوسهم من شرب

الخمر حتى غدوا وكأنهم لا يعرفون الخمر ولم يتذوقوها من قبل. . لأن أمر الله ورد ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ وأوامر الله من شأنها الاحترام والطاعة.

قارن هذا الموقف بما حدث في القرن العشرين أرادت الولايات المتحدة الأمريكية تخليص مواطنيها من الخمر، وقبل أن تشرع قانون تحريم الخمر، مهدت له بدعايةٍ واسعةٍ جدًا لتهيئة النفوس إلى قبول هذا القانون، وقد استعانت بجميع أجهزة الدولة وبذوي الكفاية في هذا الباب. استعانت بالسّينما ومسارح التمثيل وبالإذاعة وبنشر الكتب والرسائل والنشرات والمحاضرات والإحصائيات من قبل العلماء والأطباء والمختصين بالشؤون الاجتماعية، وقد قُدّر ما أنفق على هذه الدعاية بـ (٦٥) مليون من الدولارات وكتبت تسعة آلاف صفحة في مضارّ الخمر ونتائجه وعواقبه. وأنفق ما يقرب من (١٠) عشرة ملايين دولار من أجل تنفيذ القانون. وبعد هذه الدعاية الواسعة والمبالغ المنفقة شرعت الحكومة قانون تحريم الخمر لسنة ١٩٣٠م وبموجبه حرم بيع الخمور وشراؤها وصنعها وتصديرها واستيرادها. فما كانت النتيجة؟ لقد دلت الإحصائيات للمدة الواقعة بين تشريعه وبين تشرين الأول سنة ١٩٣٣م أنه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نفس وحبس نصف مليون شخص وغرم المخالفون له غرامات بلغت ما يقرب من أربعة ملايين دولار، وصودرت أموال بسبب مخالفته قدرت بألف مليون دولار. وكان آخر المطاف أن قامت الحكومة الأمريكية بإلغاء قانون تحريم الخمر في أواخر سنة ١٩٣٣م، ولم تستطع تلك الدعايات الضخمة التي قامت بها الدولة أن توجد القاعدة التي يرتكز عليها القانون في نفوس المواطنين، وبالتالي قاموا بمخالفته مما حمل الحكومة على إلغائه؛ لأن القانون لم يكن له سلطان على النفوس يحملها على احترامه وطاعته، ومن ثم فشل وألغي. أمّا كلمة ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾التي جاء بها الإسلام في جزيرة العرب فقد أثّرت أعظم التأثير وطبّقت فعلًا، وأريقت الخمور من قبل أصحابها وامتنعوا عنها، لا بقوة شرطيّ ولا

بقوّة جنديّ ولا رقيب ولكن بقوة الإيمان وطاعة المسلمين لشرائع الإسلام واحترامهم لها. [١]

الثمرة الرابعة: شمول الدين.

ومما يتميز به الإسلام أيضا أنه دين شامل لجميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان.

فالإسلام يشتمل على:

أولًا: أحكام العقيدة الإسلامية، وهي تتعلق بأمور العقيدة كالإيمان بالله واليوم الآخر وهذه هي الأمور الاعتقادية.

ثانيًا: أحكام الأخلاق، وهي المتعلقة بما يجب أن يتحلى به المسلم، وما يجب أن يتخلّى عنه كوجوب الصدق، وحرمة الكذب.

ثالثًا: أحكام تتعلق بتنظيم علاقة الإنسان بخالقه، كالصلاة والصيام وغيرها من العبادات.

رابعًا: أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم وهذه على أنواع:

أ) أحكام الأسرة من نكاح وطلاق وإرث ونفقة. . الخ وتسمى في الاصطلاح الحديث بأحكام الأسرة أو قانون الأحوال الشخصية.

ب) أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد ومعاملاتهم كالبيع والإجارة والرهن والكفالة، وهي التي تسمّى في الاصطلاح الحديث بأحكام المعاملات المالية أو بالقانون المدنيّ.

ت) أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى وأصول الحكم والشهادة واليمين والبينات وهي تدخل فيما يسمى اليوم بقانون المرافعات.

ث) أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية، والحقوق التي يتمتعون بها والتكاليف التي يلتزمون بها، وهذه الأحكام تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الدولي الخاص.

ج) أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى في السلم

---

(١) انظر: أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان (٤٦ –٥١).

والحرب، وتدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الدولي العام.

ح) أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده، وكيفية اختيار رئيس الدولة، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها، وهي تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الدُّستوري.

خ) أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية ومصارفها، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة، وبين الأغنياء والفقراء، وهي تدخل في القانون المالي بمختلف فروعه.

د) أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهة الأفعال المنهي عنها "الجرائم ومقدار عقوبة كل جريمة". . وهذه تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الجنائيّ، ويلحق بهذه الأحكام الإجراءات التي تتبع في تحقيق الجرائم وإنزال العقوبات بالمجرمين وكيفية تنفيذها، وهي تدخل فيما يسمى اليوم بقانون تحقيق الجنايات أو بقانون المرافعات الجزائية.

مقارنة بين شمول الشريعة وشمول القوانين الوضعية:

وواضح مما قدمناه أن الشريعة في شمولها تختلف مع جميع القوانين الوضعية؛ لأن شمولها كامل تامٌّ بكل معاني الكلمة، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الإنسان، ولا علاقة تقوم بينه وبين غيره، إلا وللشريعة حكم فيها.

فأمور العقيدة والأخلاق والعبادات تدخل في نطاق شمول الشريعة ولا تدخل في نطاق تنظيم القوانين الوضعية. وحتى في نطاق العلاقات البشرية التي تنظمها القوانين الوضعية فإن الشريعة تختلف اختلافًا بيِّنًا مع القوانين الوضعية في جانب مهم جدًا ألا وهو مراعاة الأخلاق في التشريع.

فالشريعة الإسلامية راعت جانبها كل الرعاية، وسمحت لها بالتسرب إلى القواعد القانونية والامتزاج بها وإقامة الأحكام التنظيمية عليها. وهذا بخلاف القوانين الوضعية حيث إنها لا تراعي المعاني الأخلاقية؛ بل إن الأصل فيها هو الفصل بين القواعد الأخلاقية والقواعد القانونية.

ونكتفي هنا بضرب مثالٍ واحدٍ فقط ليظهر لنا مدى تمسك التشريع الإسلامي بالمعاني الأخلاقية في أدق العلاقات وأخطرها ولو ترتب على هذا التمسك تضحيات جسيمة.

يقرر الفقهاء المسلمون أن الأجنبي (غير المسلم) إذا دخل إقليم الدولة الإسلامية بأمان ولمدّة معينة لا يجوز تسليمه إلى دولته إذا طلبته خلال هذه المدة ولو على سبيل المفاداة بأسير مسلم عندها، ويبقى المنع من تسليمه قائمًا حتى لو هددت دولته الدولة الإسلامية بإعلان الحرب عليها إذا لم تسلمها إياه.

ويعلل الفقهاء هذا الحكم بأن الأجنبي دخل إقليم الدولة الإسلامية بأمان منها، فعلى الدولة الإسلامية أن تفي بعهدها له فيبقى آمنًا لا يمسه سوء، وتسليمه بدون رضاه غدرٌ منها بعهدها له لا رخصة فيه فلا يجوز في شرع الإسلام. ويبقى المنع من تسليمه وعدم إلحاق أي ضرر به حتى لو قتلت دولته جميع رعايا الدولة الإسلامية المقيمين في أرضها؛ لأن فعلها ظلم ولا مقابلة بالظلم، هكذا يقول الفقهاء. فأي مستوى رفيع بلغه التشريع الإسلامي في التزامه بالمعاني الأخلاقية في أدق الظروف وأحرج الأوقات! مما لا نجد له نظيرًا أبدًا في أي تشريع وضعي آخر لا في القديم ولا في الجديد، ولا عجب من ذلك فالشريعة الإسلامية من عند الله، وما يأتي من الله هو الحق الخالص والعدل الخالص. [1]

الثمرة الخامسة: المساواة بين البشر.

لقد أعلن محمدٌ رسول الله ﷺ وحقق عمليًّا إنسانية الإنسان، ووحدة الإنسانية، وكرامة الإنسان. . . ، والناس كلهم سواء في هذه الإنسانية، فلا شعب أعلى من شعب، ولا جنس أعظم من جنس.

إن هناك إنسانية واحدة، ترجع إلى أصل واحد، وتتجه إلى إله واحد، والهدف من اختلاف الأجناس والألوان، واختلاف الرقعة والمكان، واختلاف العشائر والآباء. . كل أولئك لم يكن ليتفرّق الناس ويختصموا، ويتحوصلوا وينعزلوا، ولكن ليتعارفوا ويتآلفوا، وتتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض، ويرجعوا بعد ذلك إلى الله الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها.

---

(١) أصول الدعوة (٥٢ – ٥٣).

وقال الله: ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض فسيحة، تكاد تضمُّ جميع الأجناس وجميع الألوان. . وذابت كلها في النظام الإسلامي، ولم تقف وراثة لون، ولا وراثة جنس، ولا وراثة طبقة، ولا وراثة بيت، دون أن يعيش الجميع إخوانًا، ودون أن يبلغ كل فرد منهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية، وما تكفله له صفة الإنسان.

وقال الإسلام كلمته المدوية: إن كرامة الإنسان مستمدة من إنسانيته ذاتها، لا من أي عرض آخر كالجنس، أو اللون، أو الطبقة أو الثروة أو المنصب إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة. . والحقوق الأصيلة للإنسان مستمدةٌ إذن من تلك الإنسانية التي ترجع إلى أصل واحد.

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠)، وقال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، وقال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤)، وقال الله: ﷻ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣).

وعلم الناس منذُئذٍ: أن الإنسان – بنوعه – كريم على الله. وأن كرامته ذاتية أصيلة، لا تتبع جنسه، ولا لونه، ولا بلده، ولا قومه ولا عشيرته، ولا بيته، ولا عرضًا من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة.

وإنما تنبع من كونه إنسانًا من هذا النوع الذي أفاض عليه ربه الكريم، ولم تكن هذه المبادئ نظرية، إنما كانت واقعًا عمليًا، تمثل في حياة الجماعة المسلمة، وانساحت به في أرجاء الأرض، فعلمته للناس، وأقرته في أوضاع حياتهم كذلك، وعلمت جمهور الناس ـ ذلك الغثاء ـ أنه كريم، وأن له حقوقًا، هي حقوق الناس، وأن له أن يحاسب حكامه وأمراءه، وأن عليه ألا يقبل الذلّ والضّيم والمهانة، وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس، وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد ممن ليس بحاكم أو أمير.

وهذه بعض الأمثلة:

لما تولّى أبو بكر الخلافة، قام فخطب الناس فقال: لقد ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

وخطب عمر بن الخطاب ﷺ فقال يعلم الناس حقوقهم تجاه الأمراء:

يا أيها الناس، إني والله ما أرسل إليكم عمالًا ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا من أموالكم، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به شئ من ذلك فليرفعه إليَّ، فوالذي نفس عمر بيده لأُقُصَّنَّهُ منه. . . فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته، إنك لتقتص منه؟

قال عمر: إي والذي نفسي بيده لأُقُصَّنَّهُ منه، وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوا الناس فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفرونهم.

وكتب عثمان ﷺكتابًا إلى جميع الأمصار قال فيه: إني آخذ عمّالي بموافقاتي كل موسم، قد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فلايرفع على شئ ولا أحد من عمّالي إلا أعطيته، وليس لي ولا لعمّالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إليَّ أهلُ المدينة أنَّ أقوامًا يشتمون ويضربون.

فمنِ ادَّعى شيئًا من ذلك فليواف الموسم، يأخذ حقّه حيث كان مني أو من عمالي، أو تصدقوا إن الله يجزي المتصدقين ".

ولم تكن هذه مجرد مبادئ نظرية أو مجرد كلمات تقال، فقد طبقت تطبيقًا واقعيًا، وسرت في أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للأوضاع العملية.

وكمثال عملي على هذا الكلام هذه الحادثة:

حادثة ابن القبطي الذي سابق ابن عمرو بن العاص، فاتح مصر وواليها، فسبقه فضربه ابن عمرو، فشكا أبوه إلى عمر بن الخطاب ﷺ فأقصه منه في موسم الحج وعلى ملأ من الناس.

ولا نقف في هذه الحادثة عند عدل عمر فقط ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحريري الذي أطلق الإسلام في ضمائر الناس وفي حياتهم.

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح، وحديث عهد بالفتح الإسلامي. وهذا القبطي لم يزل على دينه فردًا من جماهير البلد المفتوحة، وعمرو بن العاص ﷺ هو فاتح هذا الإقليم، وأول أمير عليه من قبل الإسلام، وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامي هم الرومان، أصحاب السياط التي تجلد ظهور شعوب المستعمرات، ولعل ذلك القبطي كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان.

ولكن المدّ التحرري الذي أطلقه الإسلام في أنحاء الأرض، أنسى ذلك القبطيّ سياطَ الرُّومان وذُلَّها، وأطلقه إنسانًا حرًا كريمًا، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه بعد اشتراكهما في سباق. ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر إلى المدينة، لا طائرة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطارًا، ولكن جملًا يَخُبُّ به ويضَعُ الأشهرَ الطُّوال كل ذلك ليشكو للخليفة.[1]

وإليك نماذج من توجيهات النبي ﷺ في هذا الباب:

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ،

(١) انظر: الرسول ﷺ، سعيد حوى (٢/ ١٧٧).

لَيَنْتَهِيَنَّ قَوْمٌ يَفْخَرُونَ بِآبَائِهِمْ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجُعْلَانِ". [١]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: لَطَمْتُ مَوْلًى لَنَا فَهَرَبْتُ ثُمَّ جِئْتُ قُبَيْلَ الظُّهْرِ، فَصَلَّيْتُ خَلْفَ أَبِي فَدَعَاهُ وَدَعَانِي ثُمَّ قَالَ: امْتَثِلْ مِنْهُ فَعَفَا، ثُمَّ قَالَ: كُنَّا بني مُقَرِّنٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْسَ لَنَا إِلاَّ خَادِمٌ وَاحِدَةٌ فَلَطَمَهَا أَحَدُنَا فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِي ﷺ فَقَالَ " أَعْتِقُوهَا ". قَالُوا: لَيْسَ لَهُمْ خَادِمٌ غَيْرُهَا قَالَ " فَلْيَسْتَخْدِمُوهَا فَإِذَا اسْتَغْنَوْا عَنْهَا فَلْيُخَلُّوا سَبِيلَهَا ". [٢]

عن المعرور بن سُويد قال: رأيت أبا ذرٍّ رضي الله عنه وعليه حُلَّة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك؟ قال: فذكر أنه سَبَّ رجلًا على عهد رسول الله ﷺ فعيَّره بأُمِّه قال: فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له فقال ﷺ: " إنك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم؛ فإن كلَّفتُمُوهم فأعينوهم عليه". [٣]

عن جابر بن عبد الله قال: كان عمر رضي الله عنه يقول: أبو بكر رضي الله عنه سيدُنا وأعتق سيدَنا. يعني بلالًا. [٤]

فهذه ثمرة من ثمرات محمد رسول الله ﷺ وهي ثمرة ما كانت لولا أنه رسول الله ﷺ.

الثمرة السادسة: العدل.

وهذه ثمرة أخرى من ثمار دعوة النبي محمد ﷺ تشهد أنه رسول الله ﷺ، ولولا ذلك ما كانت، وهي ثمرة العدل الذي ما عرف التاريخ له مثيلًا.

وسنختار حوادث من حياة رسول الله ﷺ والصحابة الذين رباهم، نرى فيها كيف ارتفعت النفس البشرية بمحمد ﷺ وبهديه إلى آفاق أعلى ما يطمح إليه الطامحون على مدى الأزمان والأجيال، ونرى بذلك كيف أن القرآن كان واقعًا حيًا متمثلًا بهذا الجيل

---

(١) رواه البزار (٢٩٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٦٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٨).

(٣) رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٤) رواه البخاري (٣٧٥٤).

الفريد، وكيف أن القرآن يرفع الإنسان إلى أعلى آفاق الإنسانية.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ١٣٥) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

واليك بعضًا من هذه الأمثلة:

١- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه دينًا كان عليه. فاشتد عليه حتى قال له: أُحَرِّج عليك إلا قضيتني. فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك تدري من تكلّم؟ قال إني أطلب حقّي. فقال النبيّ: ﷺ هلاّ مع صاحب الحق كنتم؟ ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك، فقالت: نعم بأبي أنت يا رسول الله. قال: فأقرضته. فقضى الأعرابي وأطعمه، فقال: أوفيتَ أوفى الله لك. فقال: " أولئك خيارُ الناس؛ إنه لا قُدِّست أمةٌ لا يأخذ الضعيفُ فيها حقه غير متعتع. "[1]

أي: من غير أن يصيبه أذى يقلقه.

٢- وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلوّن وجه رسول الله ﷺ فقال: " أتكلّمني في حد من حدود الله ". قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشيّ قام رسول الله ﷺ خطيبًا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: " أمّا بعد؛

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٢٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٩٦٩).

فإنّما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعتُ يدها". ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتُها بعد ذلك، وتزوّجت قالت عائشة: فكانت تأتي بعدَ ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ. (١)

٣- عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ : أن أبا بكر الصديق ﷺقام يوم جمعة فقال: إذا كان بالغداة فاحضُروا صدقات الإبل تقسّم ولا يدخل علينا أحدٌ إلاَّ بإذن، فقالت امرأة لزوجها: خُذْ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملًا، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمرﷺ قد دخلوا إلى الإبل فدخل معهما فالتفت أبو بكرﷺ فقال: ما أدخلك علينا؟ ثم أخذ منه الخطام فضربه، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا بالرجل فأعطاه الخطام وقال: استقِد فقال له عمرﷺ: والله لا يستقيد، لا تجعلها سنة. قال أبو بكر: فمن لي من الله يوم القيامة؟ فقال عمر ﷺ: أَرْضِه، فأمر أبو بكر الصديقﷺ غلامه أن يأتيه براحلته ورحلها وقطيفة وخمسة دنانير فأرضاه بها. (٢)

٤- عن جابر بن عبد الله أنه قال: أفاء الله ﷻخيبر على رسول الله ﷺ فأقرهم رسول الله ﷺ كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة ﷺ فخرصها عليهم ثم قال لهم يا معشر اليهود: أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله ﷻ، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم. قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر فإن شئتم فلكم وإن أبيتم فلي. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض قد أخذنا فاخرجوا عنا. (٣)

٥- عن الشعبي قال: كان بين عمر وأُبيّ -رضي الله عنهما- خصومة. فقال عمر: اجعل بيني وبينك رجلًا، قال فجعلا بينهما زيد بن ثابت، قال فأتوه، فقال عمر: ﷺأتيناك

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٧).

(٢) سنن البيهقي الكبرى (٨/ ٤٩).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٦٧)، وإسناده على شرط مسلم.

لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم. قال: فلما دخلوا عليه أجلسه معه على صدر فراشه. فقال: هذا أول جَوْر جُرْتَ في حكمك، أجْلسني وخصمي مجلسًا، قال فقصا عليه القصة، قال: فقال زيد لأُبَيّ: اليمين على أمير المؤمنين فإن شئت أعفيته. قال: فأقسم عمرﷺ على ذلك ثم أقسم له لا تدرك باب القضاء حتى لا يكون لي عندك- على أحدٍ- فضيلة. (١)

٦- كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى فيروز الدّيلمي: أما بعد: فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل، فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم على بركة الله، فاغزُ في سبيل الله فقدم فيروز فاستأذن على عمرﷺ فأذن له فزاحمه قوم من قريش، فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي، فدخل القرشيُّ على عمرﷺ مستدمي فقال له عمر: من فعل بك؟ قال: فيروز وهو على الباب، فأذن لفيروز بالدخول فدخل فقال: ما هذا يا فيروز؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا كنا حديث عهد بملك، وإنك كتبت إليَّ ولم تكتب إليه، وأذنت لي بالدخول ولم تأذن له، فأراد أن يدخل في إذني قبلي فكان مني ما قد أخبرك. قال عمر: القصاص قال فيروز: لا بد؟ قال: لا بد .قال: فجثا فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه فقال له عمر: على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشئ سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعت رسول الله ﷺ ذات غداة يقول: قُتل الليلة الأسودُ العنسيُّ الكذَّابُ، قتلهُ العبدُ الصَّالحُ فيروزُ الدَّيلمي، أفتراك مقتصًّا منه بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال الفتى: قد عفوت عنه بعد إذ أخبرتني عن رسول الله ﷺ بهذا. فقال فيروز لعمر: فترى هذا مخرجي مما صنعت إقراري له وعفوه غير مستكره؟ قال نعم: قال فيروز: فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفًا من مالي هبة له. قال: عفوتَ مأجورًا يا أخا قريش وأخذتَ مالًا. (٢)

٧- عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: مر عمر بن الخطاب ﷺفي السوق ومعه الدِّرَّة فخفقني بها خفقة، فأصاب طرف ثوبي فقال: أمِط عن الطريق! فلما كان في العام المقبل

---

(١) رواه علي بن الجعد في مسنده (١٧٢٨)، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٤٤).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/ ٢٣).

لقيني فقال يا سلمة: تريد الحج؟ فقلت: نعم، فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم، وقال: استعن بها على حجّك، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك، قلت: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها؛ ؛ قال: وأنا ما نسيتها.(١)

إن هذا العدل الذي رأينا بعض نماذجه فيما مضى، إنما كان وليدَ دعوة الرسول ﷺ وإلا فإن العرب قبل ذلك كان شعارهم "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا " وكان هذا على ظاهره، بمعنى أنه ينصر أخاه فعلًا إن كان ظالمًا بأن يعينه على ظلمه، أما الإسلام فقد صحح هذا المفهوم المعكوس وقرر بأن معنى النصر للظالم هو أن تأخذ على يديه، وتمنعه من ظلمه لا أن تعينه على الظلم.

وعلى الرغم من تضاؤلِ جيل الصحابة بالنسبة لرقعة الأرض المفتوحة، فإن قوة الحياة التي صبتها تربية الرسول ﷺ في قلوب الأصحاب، كانت كافية لأن تجعل الأمور تمشي في طريقها المستقيم.

وحتى بعد ذلك، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن قضاة الإسلام المتحققين بالإسلام علمًا وعملًا هم الذين يضربون المثل الأعلى في العدل الربَّاني، الذي يتضائل جانبَهُ كلُّ قضاء.

الثمرة السابعة: الطاعة والانقياد.

تمهيد:

وهذه ثمرة جديدة من ثمار نبيّنا محمد ﷺ ، تشهد أنها ثمرة نبيّ ونبوة، هي الطاعة المبصرة، وذلك أن العرب شعب لم يتربَّ على طاعة أحد، ولم يتربّ على نظام ولا انضباط، وليس لديه مفهوم عن الولاء لحكومة ما، أو الخضوع لها، وأما غير العرب فالأمر عندهم مختلف، طاعةٌ عمياء لملوكهم ومرؤوسيهم في كل شئ، إذا أمروا بالشئ كان خيرًا، وإذا نهوا عنه كان شرًا، لا يقال لهم لا، ولا يحاسبون ولا يراقبون.

وحدث شئ اهتز العالم له ألا وهو: بعثة النبي محمد ﷺ التي قلبت الأمة التي لا

---

(١) رواه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٧٨).

تعرف النظام أصبحت منظمة، والتي لا تعرف الطاعة أصبحت مطيعة، ولكنها طاعة من نوع فريد جديد، طاعة للحق لا بالباطل، بالعدل لا بالظلم، لمن يستحق الطاعة لا لمن لا يستحقها، فكان ذلك فتحًا جديدًا في تاريخ الوعي عند الشعوب، لدرجة أن العربي الذي كان يتعصّب لقريبه وينصره وإن كان على الباطل ولا يطيع فيه أحدًا أبدًا، صار على ابن عمه إذا كان على الباطل، ويطيع فيه أبعد الناس نسبًا عنه في الحق. والذي كان أبعد الناس عن الانضباط، صار أكثرَ الناس انضباطًا، ومن قرأ تاريخ العرب في الجاهلية، عرف الفارق الكبير بين ذلك الواقع وواقعهم بعد.

وهذه أمثلة من واقعهم بعد تربية الرسول ﷺ إيّاهم:

١ - عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إنه قد بلغني أنك تريد قتلَ عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج ما كان بها رجل أبرّ بوالده منّي، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ : " بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ". (١)

٢- ولما رأى سعدُ بنُ معاذ كثرةَ استشارة النبي ﷺ لأصحابه ظن سعدٌ أنه يستنطق الأنصار شفقًا أن لا يستحوذوا معه أو قال: أن لا يستجلبوا معه على ما يريد، فقال: لعلك يا رسول الله تخشى أن لا يكون الأنصار يريدون مواساتك. ولا يرونها حقًّا عليهم إلا بأن يروا عدُوًّا في بيوتهم وأولادهم ونسائهم. وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظْعن حيث شئت، وصِلْ حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذته منا أحب إلينا مما تركته علينا، فوالله لو سرت حتى تبلغ البرك من غمد ذي يمن لسرنا معك. (٢)

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ١١٠).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام (١/ ١٨٦).

٣- وعن كعب بن مالك ﷺفي قصة الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك فيقول فيها:

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبَنَا الناس، وتغيّروا لنا، حتى تنكرتْ في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأمَّا صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيتُ حتى تسورتُ جدارَ حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي - وأحبُّ الناس، إليّ، فسلَّمتُ عليه فوالله ما ردَّ عليّ السلامَ، فقلت: يا أبا قتادة أنشدُك بالله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟ فسكتَ، فعدتُّ له فنشدتُّه فسكتَ، فعدتُّ له فنشدتُّه فقال: الله ورسوله أعلم؛ ففاضت عيناي وتوليتُ حتى تسورتُ الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نِبطيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان؛ فإذا فيه أمّا بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضِيعة فَالْحق بنا نُواسِك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء فتيممت بها التَّنُّور فسجّرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت: أُطَلِّقُها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك فقلت لامرأتي: الْحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر. [1]

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

٤- وللعرب ولع بالخمر تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وشغلت جانبًا كبيرًا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرةً تدعو إلى العَجَب، وكانت حوانيت الخمّارين مفتوحةً دائمًا يرفرف عليها علمٌ يسمى غايةً، وشاعت تجارتها عندهم حتى أصبحت كلمةُ التجارة مرادفةً لكلمة بيع الخمر، ومع هذا كله فما يكاد تحريم الخمر ينزل حتى انتهت أمر الخمر من أرض العرب.

فعن ابن بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قُعودٌ على شراب لنا (ونحن على رمْلة، ونحن ثلاثةٌ أو أربعةٌ وعندنا بَاطيةٌ لنا) ونحن نشربُ الخمر -حِلًّا- إِذْ قمتُ حتى آتي رسولَ الله ﷺ فأسلمَّ عليه وقد نزل تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المائدة: ٩٠، ٩١) فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾؟ قال: وبعض القوم شَربته في يده، قد شرب بعضًا وبقي بعضٌ في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجَّام ثم صبُّوا ما في باطيتهم، فقالوا: انتهينا ربَّنا! انتهينا ربَّنا. (١)

الثمرة الثامنة: مسئولية كل فرد عن عمله.

تمهيد:

صُور من عدم تحمل المسؤولية ونتائجها.

١ـ في العقيدة النصرانية:

يعتقد النصارى بأن الإنسان خاطئٌ منذ ولادته؛ لأن أباه آدم قد ارتكب الخطيئة، وأن المسيح عليه السلام صلب -حسب زعمهم- حتى يُكفِّرَ عن البشر خطاياهم فهو قد تحمل خطايا البشر، وهذا يعني أن الإنسان مسئول عن أعمال غيره وليس مسئولًا عن أعماله هو، وبين

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٥٧٢) عند تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١).

هذا وذاك تضيع المسؤولية الفردية التي بها يحس الإنسان أنه مسئول عن أعماله فقط صغيرها وكبيرها، وليس مسئولًا عن عمل غيره بتاتًا.

ويترتب على هذا أمران خطيران:

الأول: أن الإنسان غيرُ طاهر القلب والنفس بسبب الخطيئة.

الثاني: أنه مادام غيره مسئولًا عن ذنوبه فلن يبالي بهذه الذنوب.

٢ـ عند البراهمة والبوذيين والجينيين:

وهؤلاء عندهم عقيدةٌ غريبةٌ جدًّا ألا وهي عقيدة " تناسخ الأرواح " وخلاصة هذه العقيدة هي أن الروح بعدما تفارق الجسد في هذه الدنيا فإنها تنتقل إلى جسد آخر في هذه الدنيا نفسها، ولا يكون هذا الجسد الثاني إلا متفقًا مع الحياة التي كان قد سار بها الجسد الأول.

فإن كانت أعمالُه وأفكاره، وميولُه، وعواطفُه سيئةً، فإنَّ رُوحَهُ سوف تنتقل إلى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانات أو النباتات. وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله صالحةً، فإن روحه سترتقي إلى طبقة من الطبقات العليا.

فهذه العقيدة مقتضاها أنني أنا الإنسان الحالي، تنبع إنسانيتي من سلوك غيري، وحصيلة لسلسلة طويلة من أعمال المخلوقات قبلي، وهذه المخلوقات السابقة عليَّ، هي أنا وأنا بأعمالي الحاضرة سأكون بالتالي نباتًا أو حيوانًا أو إنسانًا، فماذا ينتج عن هذه العقيدة أيضًا؟

ينتج عنها أمران:

١-سينتج عنها شعور لدى الإنسان بأن الحيوان والنبات والإنسان سواءٌ في ميزان الوجود؛ إذ الحيوان كان إنسانًا والنبات كان حيوانًا، ويترتب على هذا أنه لا يجوز إيذاء الحيوان ولا النبات ولا الإنسان حتى ولو آذاني الإنسان، مما ينتج عن هذا بالطبع تشتُّتٌ شديد بين هذا وذاك.

٢-كما ينتج عن هذه العقيدة رهبانية مميتة عمليًّا؛ إذ إن أهل هذه العقيدة يعتقدون أن الشهوة هي أصل كل فساد في الأرض، وهي التي تلوِّث الروح بالذنوب والآثام. . . ،

فالإنسان إذا أَوْدى بها، وقضى عليها، ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ.

ويقولون: ليست هناك سبل أخرى للتخلص من دورة التناسخ غير هذه؛ لأنه من المحال إذا انشغل الإنسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشؤونها الخلاَّبة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا، والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها، والنتيجة اللازمة لذلك – يقولون – إن من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليه أن ينعزل عن الدنيا، ولا يسكن إلا في الغابات، ورؤوس الجبال وكهوفها، وإن لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناسخ، ويستعد للانضمام إلى طبقات الحيوانات والنباتات.

فالناس نتيجة لذلك إما أن يسلكوا الطريق المرسوم للخلاص من دورة التناسخ بزعمهم فتفنى البشرية كلها لو سلكت هذا الطريق.

وإما إنسان لن يمشي في هذا الطريق وهو بالتالي لا يبالي لأنه ليس مسئولًا عن حاضره ولا يهمه مستقبله. (١)

تظهر فكرة انعدام المسئولية الفردية عند البشرية بصورة أخرى، كلها غير معقول:

فتظهر بصورة أخذ الثأر من أي قريب للقاتل، وتظهر بصورة الإيمان بأن الإنسان غيرُ مسئول أمام أحد عند الملحدين الفوْضَوِيِّين، وتظهر بصورة أن الإنسان مسئُولٌ أمام القانون فقط، فإذا استطاع أن يهرب من عين القانون فعل ما شاء.

٣ـ عند اليهود:

وهناك صورة أخرى تنعدم فيها المسؤولية موجودة عند اليهود، فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، الذي غفر له كل شئ، فمهما فعلوه من جرائم أو مآس أو مفاسد أو مظالم، فإن خصوصيتهم هذه تجعلهم بمنجاة من العذاب، فأنَّى يؤفكون؟!.

هذه بعض الصور التي كانت ولا زالت موجودة إلى اليوم بين بني آدم عليه السلام.

---

(١) انظر: الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها/ أبو الأعلى المودودي.

فيا تُرى ماذا فعل محمد ﷺ بالوحي الذي أنزل إليه؟ هل غيَّر هذا المفهوم أم بقي كما هو بدون تغيير؟

لقد كان الإعلان الذي أعلنه الإسلام؛ هو أن الإنسان لا يتحمل إلا مسؤولية أعماله وحده، فلا يتحمل مسؤُولية ذنب جَدٍّ، ولا مسؤولية ذنب أخ وعم، إلا إذا كان له علاقة في الموضوع، وأن الجيل اللاحق لا يتحمل أوزار الجيل السابق، وإنما الإنسان مسئولٌ عن أعماله وحدَهُ صغيرِها وكبيرِها أمام الله في الآخرة.

قال ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (فاطر: ١٨).

وقال النبيﷺ: " أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. "(١)

وخاطب القرآن الناس ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ (النساء: ١٢٣).

فأصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة، حتى قال قائل المسلمين: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام ".

ونادي النبي ﷺ فقال حين أنزل الله ﷻ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء: ٢١٤) " يا معشر قريش - أو كلمةً نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما

---

(١) رواه البخاري (٥١٨٨)، مسلم (٤٨٢٨)، واللفظ له. عن ابن عمر رضي الله عنهما.

شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا). [١]

وهكذا أصبح سلوك الإنسان مستقيمًا، وتحرر ضميره من التواكل على الآخرين، وبذلك لم يعد الإنسان غير مبال في أمر الخطيئة، واستقلت شخصيته استقلالًا تامًا. [٢]

الوجه السابع: الكرامات التي ظهرت على يد أصحاب النبي ﷺ والتابعين.

تمهيد:

اعلم أن غرضنا في إثبات هذا الفصل شيئان:

الأول: أن نبيّن أن ما ظهر على يد أصحابه وعلى أهل دينه من الكرامات هو آية لرسول الله ﷺ من أعظم الآيات؛ وذلك أن الله تعالى إذا أكرم واحدًا منهم؛ بأن خرق له عادة فإن ذلك يدل على أنه على الحق، وأن دينه حق؛ إذ لو كان مبطلًا في دينه، متبعًا لمبطل في دعواه، كاذب في قوله على الله، لما أكرمه الله، ولا أكرم من اتبع دينه.

فعلى هذا نقول إن كُلّ كرامة لوليّ إنما هي آية للنبيّ الذي يتبعه ذلك الوليّ.

الثاني: أن أصحاب رسول الله ﷺ وإن كانوا قد أكرمهم الله بكرامات خارقةٍ للعادات؛ فلا يعتقد فيهم أنهم أنبياء كما فعلت النصارى بالحواريين، بل يعتقد فيهم أنهم أولياء الله وأصحاب رسول الله ﷺ تلقّوا عن رسول الله ﷺ شرعه، وبلّغوا عنه قوله وفعله؛ فبذلوا في إظهار دين الله أنفسهم وأموالهم، حتى أظهر الله على كل الأديان دينهم وإيمانهم، كما قال الله تعالى فيهم ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ (الفتح: ٢٩). [٣]

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الرسول ﷺ، سعيد حوي (٤١١ - ٤١٢).

(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام (٣٨١ - ٣٨٢).

أولا: بعض الكرامات التي أكرم الله بها صحابة النبي ﷺ:

١- نصرتهم على عدوهم من جميع الأجناس بعد موت نبيهم ﷺ، رغم قلة عَدَدهم وعُدَّتهم. ومن وقف على فتوحات الشام علم أن دين الحق هو دين الإسلام، فلقد اجتمع عليهم من عدوهم بالشام ثلاثمائةِ ألفٍ ونحوها؛ بل قد قال الواقدي ثمانمائة ألف من النصارى المستعربة، وغيرهم وهم زهاء ثلاثين ألفًا بخيلهم ورجِلهم، فقارعوهم مقارعة الكرام، وصبروا صبر من صدق ما وعده به نبيه محمد ﷺ، فأظفرهم الله عليهم ومنحهم رقابهم، وأورثهم أموالهم وديارهم.

وهكذا فعل الله معهم غيرَ مَا مرَّةٍ، ولا يشك في أن هذا كرامةٌ من الله لهم، وأمرٌ خارق للعادة في حقهم، فإن العادة أن مَن أكثر من مقارعة الشجعان فلا بد له من أن يصاب، ولو في وقت من الزمان، وما اتفق لهم، وإن كان كرامة لهم فهو آية لرسول الله ﷺ وأنه قد كان بَشَّرَهُمْ بذلك وأخبرهم بكل ما طرأ لهم هنالك.

فقد ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: "يَأْتِي زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ؟فَيُقَالُ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ صَاحِبَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؟فَيُقَالُ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ". [(١)]

وأيضا حدثت كرامات لآحاد الصحابة رضي الله عنهم، لا ينقضي العجب منها:

٢- أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. . . فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ " تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ

(١) رواه البخاري (٢٧٤٠) ومسلم (٢٥٣٢).

يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ ". [١]

٣- وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين رضي الله عنه. [٢]

٤- وكان سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما يأكلان في صحفة فسبّحت الصحفة أو سبّح ما فيها.

٥- وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نورٌ مثلُ طرفُ السّوط فلما افترقا افترق الضوء معهما. [٣]

٦- وقصة الصّديق رضي الله عنه في الصحيحين (لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا رَبا من أسفلها أكثرُ منها فشبِعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوامٌ كثيرون فأكلوا منها وشَبعوا). [٤]

٧- وخُبَيب بن عديّ رضي الله عنه: كان أسيرًا عند المشركين بمكّة ـ شرّفها الله تعالى- وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة. [٥]

٨- وعامر بن فهيرة رضي الله عنه: قُتِل شهيدًا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما كان قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل رضي الله عنه وقد رفع، وقال عروة: فيرون الملائكة رفَعَتْهُ. [٦]

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (١٨٩٥) عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (١٢٢٦).

(٣) رواه البخاري (٤٦٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٥٧٩٠)؛ ومسلم (٢٠٥٧)، واللفظ له عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري (٣٠٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٦) رواه البخاري (١٠٩٣) عن عائشة رضي الله عنها. وفيه: لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر ابن الطفيل: من هذا فأشار إلى قتيل؟ فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة فقال: لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع.

٩- وسفينة مولى رسول الله ﷺ : أخبر الأسدَ بأنه رسولُ رسولِ الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده. (١)

١٠- والبراء بن مالك رضي الله عنه: كان إذا أقسم على الله تعالى أبرَّ قسَمه، وكانت الحربُ إذا اشتدّت على المسلمين في الجِهاد يقولون: يا براءُ! أقسم على ربك فيقول: يا ربّ! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، فيهزم العدو، فلما كان يوم القادسية قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وجعلتني أول شهيدٍ، فمنحوا أكتافهم وقُتِل البراء شهيدًا. (٢)

١١- وخالد بن الوليد رضي الله عنه: حاصرَ حصنًا منيعًا، فقالوا: لا نسلم حتى تشرب السُمّ فشربه فلم يضره. (٣)

١٢- وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كان مستجاب الدعوة، ما دعا قطُّ إلا استجيب له، وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق. (٤)

١٣- وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما أرسل جيشًا أمّر عليهم رجلًا يسمى سارية، فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر: يا ساريةُ! الجبلَ، يا ساريةُ! الجبلَ، فقدم رسول الجيش فسأله؛ فقال: يا أمير المؤمنين! لقينا عدونا فهزمونا فإذا بصائح: يا ساريةُ الجبلَ، يا ساريةُ الجبلَ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله. (٥)

١٤- ولما عذبت الزنيرة على الإسلام في الله، فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها، قال

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣٩٨٤). وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي (٣٨٥٤) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأ بره، منهم البراء بن مالك. وقال: هذا حديث صحيح حسن من هذا الوجه، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٣٠٢٨).

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده (١٣/ ١٠٩/ ٧١٨٦)، وإسناده منقطع.

(٤) رواه البخاري (٧٥٥) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٥) رواه ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٨٢٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١١٠).

المشركون: أصاب بصرها اللات والعزى. قالت: كلا والله، فرد الله عليها بصرها. (١)

١٥- والعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حليم، يا علي يا عظيم، فيستجاب له، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء والإسقاء فأجيب. ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم هو والعسكر بخيولهم على الماء ما ابتلت سرج خيولهم. ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات فلم يجدوه في اللحد. (٢)

ثانيًا: كرامات التابعين:

وجرى لأبي مسلم الخولاني الذي ألقي في النار، أنه مشى هو ومن معه من المعسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدها، ثم التفت إلى أصحابه فقال: هل تفقدون من متاعكم شيئًا حتى أدعو الله عز وجل فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة، فقال: اتبعني فتبعته فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها. (٣)

وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائمًا يصلي فيها وقد صارت عليه بردًا وسلامًا.

وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما- وقال: الحمد لله الذي لم يُمِتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله.

ووضعت له جاريته السم في طعامه فلم يضره.

---

(١) ذكره ابن حجر في الإصابة (٧/ ٤٦٦).

(٢) أشار إليها ابن حجر في الإصابة (٤/ ٤٥١/ ٦٥٤٦) وقال: وكان يقال إنه مجاب الدعوة، وخاض البحر بكلمات قالها وذلك مشهور في كتب الفتوح.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ١٢٠).

وخبَّبَت امرأةٌ عليه زوجته فدعا عليها فعميت وجاءت وتابت فدعا لها فردّ الله عليها بصرها.[(١)]

٢- وكان عامر بن عبد قيس رضي الله عنه يأخذ عطاءه ألفي درهم في كُمِّه، وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد، ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها.

ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن، وإني أستحيي من الله أن أخاف شيئًا غيره، ومرت القافلة.

ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء فكان يؤتى بالماء له بخار، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه.[(٢)]

٣- وتغيب الحسن البصري عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه، ودعا على بعض الخوارج - كان يؤذيهم - فخر ميتًا.

٤- وصِلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق عليَّ مِنّة، ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه، فلما وصل إلى بيته قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عاريّة، فأخذ سرجه فمات الفرس. وجاع مرة بالأهواز فدعا الله عز وجل واستطعمه فوقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير، فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانًا.

وجاءه الأسد وهو يصلي في غيضه بالليل، فلما سلم قال له: اطلب الرزق من غير هذا الموضع فولّى الأسدُ وله زئير.[(٣)]

٥- عن سعيد بن عبد العزيز قال: لما كان أيام الحرَّة لم يؤذّن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثًا، ولم يقم ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وسلم.[(٤)]

---

(١) المصدر السابق (٥/ ١٢١).

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ١٤٣).

(٣) المصدر السابق (٣/ ١٥٢).

(٤) رواه الدارمي (٩٣).

٦- وكان عمرو بن عتبة بن فرقد يصلي يومًا في شدة الحر فأظلَّته غمامة، وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه؛ لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم. (١)

٧- وكان مطرِّف بن الشِّخِّير إذا دخل بيته سبّحت معه آنيته. وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة، فأضاء لهما طرفُ السَّوط. (٢)

٨- ولما مات الأحنف بن قيس وقعت قَلنسوة رجل في قبره فأهوى ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مدّ البصر.

٩- وكان إبراهيم التيمي يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئًا. (٣)

١٠- وكان عتبة الغلام سأل ربه ثلاثَ خصالٍ: صوتًا حسنًا، ودمعًا غزيرًا، وطعامًا من غير تكلف، فكان إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعُه جاريةٌ دهرَه، وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قُوتَه ولا يدري من أين يأتيه. (٤)

١٣- وكان عبد الواحد بن زيد أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ثم تعود بعدها. (٥)

الوجه الثامن: البشارات بالنبي ﷺ في الكتاب المقدس.

شروط صحة النبوة:

- النبوة لا تصح إلا ممن أرسله الله تعالى بوحي منه، فصحتها معتبرةٌ بثلاثة شروط تدل على صدقه ووجوب طاعته:

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٧) بدون اشتراط الخدمة.

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٥٧ - ١٥٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ٢٦٥).

(٥) ذكره ابن تيمية في الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان١/ ٨٧، وانظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/ ٣٢٤)، وانظر شيئًا من هذه الكرامات في: الإعلام... للقرطبي (٣٨١- ٣٨٤)

أحدها: أن يكون مدَّعِي النبوة على صفات يجوز أن يكون مؤهلًا لها لصدق لهجته، وظهور فضله وكمال حالته، فإن اعتوَره نقص أو ظهر منه كذب، لم يجز أن يؤهل للنبوة.

الشرط الثاني: إظهارُ معجزٍ يدل على صدقه، ويعجز البشر عن مثله، لتكون مضاهيةً للأفعال الإلهية، وليعلم أنها منه فيصح بها دعوى رسالته؛ لأنه لا يظهرها من كذب عليه، ويكون المعجز دليلًا على صدقه، وصدقه دليلًا على صحة نبوته، وليس بعد إعجاز القرآن إعجاز.

الشرط الثالث: أن يقرن بالمعجزة دعوى النبوة، فإن لم يقترن بالمعجزة دعوى، لم يصبح بظهور المعجزة نبيًا؛ لأن المعجزة تدل على صدق الدعوى فكان صفة لها، فلم يجز أن نثبت الصفة قبل وجود الموصوف، فإن تقدم ظهور المعجز على دعوى النبوة كان تأسيسًا للنبوة، ككلام عيسى عليه السلام في المهد تأسيسًا لنبوته، فاحتاج مع دعوى النبوة إلى إحداث معجزة يقترن بها ليدل على صدقه فيها. [1]

وسنتحدث بإذن الله تعالى في هذا الباب حول أدلة إثبات نبوة النبي محمد ﷺ .

أولًا: البشارات بالنبي ﷺ في الكتاب المقدس.

قواعد في ذكر البشارات

القاعدة الأولى:

أن أنبياء بني إسرائيل مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليه السلام، أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بُختَنصَّر وقورش واسكندر وخلفائه، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحدٌ منهم عن خروج محمد ﷺ الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول، ثم صار شجرة عظيمة تأوي طيور السماء في أغصانها، فكسر الجبابرة والأكاسرة، وبلغ دينه شرقًا وغربًا وغلب الأديان، وامتد دهرًا بحيث مضى على ظهوره مدة ألف ومائتين وثمانين إلى هذا الحين[2] ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء

---

(١) الدليل من الأناجيل على أن نصارى اليوم يعرفون محمدًا كما يعرفون أنبياءهم، محمود عبد الرزاق الرضواني (ص ٨٥، ٨٦).

(٢) هذا قاله رحمت الله الهندي في زمنه ، ونحن الآن في عام ١٤٣٥ من هجرة سيد المرسلين .

الدنيا، وظهر في أمته ألوف ألوف من العلماء الربانيين، والحكماء المتقنين، والأولياء ذوي الكرامات والمجاهدات، والسلاطين العظام. وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرهما، فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الإخبار عن الحادثة العظيمة؟ (١)

القاعدة الثانية

أن النبيّ المتقدّم إذا أخبر عن النبي المتأخر، لا يشترط في إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية في السنة الفلانية في البلد الفلاني، وتكون صفته كيت وكيت؛ بل يكون هذا الإخبار في غالب الأوقات مجملًا عند العوام، وأما عند الخواص فقد يصير جليًا بواسطة القرائن، وقد يبقى خفيًا عليهم أيضًا لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عنّي، وظهور صدق ادّعائه بالمعجزات وعلامات النبوة، وبعد الادّعاء وظهور صدقه يصير جليًا عندهم بلا ريب، ولذلك يعاتَبون كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله: (٥٢وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا النَّامُوسِيُّونَ! لأَنَّكُمْ أَخَذْتُمْ مِفْتَاحَ الْمَعْرِفَةِ. مَا دَخَلْتُمْ أَنْتُمْ، وَالدَّاخِلُونَ مَنَعْتُمُوهُمْ.) لوقا ١١: ٥٢. (٢)

القاعدة الثالثة

ادّعاءُ أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيًا آخر غير المسيح وإيلياء، ادّعاءٌ باطل لا أصل له؛ بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضًا، لما علمت في الأمر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولًا: أنت المسيح؟ ولما أنكر، سألوه: أنت إيلياء؟ ولما أنكر، سألوه: أنت النبيّ؟ أي النبيّ المعهود الذي أخبر به موسى، فعلم أن هذا النبيّ كان منتظرًا مثل المسيح وإيلياء، وكان مشهورًا بحيث ما كان محتاجًا إلى ذكر الاسم؛ بل الإشارة إليه كانت كافية.

وفي إنجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا: "٤٠فَكَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ لَمَّا سَمِعُوا

---

(١) إظهار الحق (٤/ ١٠٧٨).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٠٧٩).

هذَا الْكَلاَمَ قَالُوا: «هذَا بِالْحَقِيقَةِ هُوَ النَّبِيُّ» آخَرُونَ قَالُوا: «هذَا هُوَ الْمَسِيحُ! ». وظهر من هذا الكلام أيضًا

أن النبي المعهود عندهم كان غير المسيح، ولذلك قابلوا بالمسيح. (١)

القاعدة الرابعة

ادّعاء أن المسيحَ خاتمُ النبيين ولا نبي بعده باطل، لما عرفت في القاعدة الثالثة أنهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وإيلياء عليهم السلام، ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده، ولأنهم يعترفون بنبوة الحواريين وبولس؛ بل بنبوة غيرهم أيضًا.

وفي سفر أعمال الرسل (١١: ٢٧): " ٢٧وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ انْحَدَرَ أَنْبِيَاءُ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ. وَقَامَ وَاحِدٌ مِنْهُمُ اسْمُهُ أَغَابُوسُ، وَأَشَارَ بِالرُّوحِ أَنَّ جُوعًا عَظِيمًا كَانَ عَتِيدًا أَنْ يَصِيرَ عَلَى جَمِيعِ الْمَسْكُونَةِ، الَّذِي صَارَ أَيْضًا فِي أَيَّامِ كُلُودِيُوسَ قَيْصَرَ. " فهؤلاء كلهم كانوا أنبياء على تصريح إنجيلهم، وأخبر واحد منهم اسمه أغابوس عن وقوع الجدب العظيم. (٢)

القاعدة الخامسة.

الإخبارات التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام لا تصدق عليه، على تفاسير اليهود وتأويلاتهم، ولذلك هم ينكرونه أشدّ الإنكار، وعلماء المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب إلى تفاسيرهم وتأويلاتهم ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام.

وكما أن اليهود ادّعوا في حق بعض الإخبارات التي هي في حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين أنها في حق مسيحهم المنتظر، أو في حق غيره أو ليست في حق أحد، والمسيحيون يدّعون أنها في حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم، فكذا نحن لا نبالي بمخالفة المسيحيين في حق بعض الإخبارات التي هي في حقّ محمدّ صلى الله عليه وسلم لو قالوا إنها في حق عيسى

(١) المصدر السابق (١٠٨٥).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٠٨٥ – ١٠٨٦).

عليه السلام، وسترى أيضًا أن صدقها في حق محمد ﷺ أليق من صدقها في حق عيسى عليه السلام، فادّعاؤنا أحق من ادّعائهم. [١]

القاعدة السادسة.

وجود البشارات وعدمها سواء:

إن وجود البشارات وعدمها في الكتب المشار إليها آنفًا سواء، وجودها مثل عدمها، وعدمها مثل وجودها. فرسالة رسول الإسلام ﷺ ليست في حاجة إلى دليل يقام عليها من خارجها، بحيث إذا لم يوجد ذلك الدليل"الخارجي" بطلت - لا سمح الله - تلك الرسالة؛ فهي رسالة دليلها فيها، ووجود البشارات بها في كتب متقدمة - زمنًا - عليها لا يضيف إليها جديدًا، وعدم وجود تلك البشارات لا ينال منها شيئًا قطّ.

فهي حقيقة قائمة بذاتها لها سلطانها الغني عما سواها. ودليلها قائم خالد صالح للفحص في كل زمان ومكان، باق بقاء رسالته أبد الدهر، أشرق ولم يغب، ظهر ولم يختف، قوي ولم يضعف. علا ولم يهبط، إنه دليل صدق الأنبياء كلهم. فكل الأنبياء مضوا ولم يبق من أدلة صدقهم إلا ما جاء في هذا الدليل " القرآن العظيم " حيث شهد لهم بالصدق والوفاء وأنهم رسل الله المكرمون.

فلا يظنن أحدٌ أننا حين نتحدث عن بشارات الكتب السابقة برسول الإسلام إنما نتلمس أدلّة نحن في حاجة إليها لإثبات صدق رسول الإسلام في دعواه الرسالة. فرسول الإسلام ليس في حاجة إلى " تلك البشارات " حتى ولو سلّم لنا الخصوم بوجودها فله من أدلة الصدق ما لم يحظَ به رسولٌ غيره.

أولًا: بشارات التوراة :

تعددت البشارات برسول الإسلام في التوراة وملحقاتها، ولكن اليهود أزالوا عنها كل معنى صريح، وصيروها نصوصًا احتمالية تسمح لهم بصرفها عنه ﷺ ومع هذا فقد

---

(١) إظهار الحق (٤/ ١٠٨٩- ١٠٩١).

بقيت بعد تعديلها وتحريفها قوية الدلالة على معناها " الأصلي " من حملها على رسول الإسلام ﷺ لأن حملها على غيره متعذر أو متعسر أو محال.

فهي أشبهُ ما تكون برسالة مغلقة محي " عنوانها " ولكن صاحب الرسالة قادر - بعد فضّها - أن يثبت اختصاصها به؛ لأن الكلام " الداخلي " الذي فيها يقطع بأنها " له " دون سواه؛ لما فيها من " قرائن " وبينات واضحة ونعرض - فيما يلي - بعضًا منها.

البشارة رقم (١)

﴿وَهذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى، رَجُلُ الله، بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: "جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ[1]، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ[2]" (التثنية ٣٣: ١ - ٢).

وفي التوراة السامرية: " ولهم لمع من جبل فاران ومعه ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم ".

في هذا النص إشارة إلى ثلاث نبوات:

الأولى: نبوة موسى عليه السلام التي تلقاها على جبل سيناء.

الثانية: نبوة عيسى عليه السلام وساعير هي قرية مجاورة لبيت المقدس، حيث تلقّى عيسى عليه السلام أمر رسالته.

الثالثة: نبوة محمد ﷺ وجبل فاران هو المكان الذي تلقى فيه - ﷺ - أول ما نزل عليه من الوحي، وفاران هي مكة المكرمة مولد ومنشأ ومبعث محمد ﷺ .

وهذه العبارة - مرة أخرى - تضمنت خبرًا وبشارتين:

فالخبر هو تذكير موسى بفضل الله عليه حيث أرسله إليهم رسولًا.

والبشارتان:

الأولى: خاصّة بعيسى عليه السلام. والثانية: خاصّة بمحمد ﷺ.

---

(١) سعير (ساعير) اسم لجبال فلسطين، واسم لقرية من قرى الناصرة بين طبرية وعكا. (معجم البلدان).

(٢) فاران: اسم مكة بالعبرانية، وقيل اسم لجبال مكة، وقد تطلق على جبال الحجاز كلها. (معجم البلدان).

وموقف اليهود منهما النفي: فلا الأولى بشارة بعيسى ابن مريم، ولا الثانية بشارة برسول الإسلام.

أما موقف النصارى فإن النفي - عندهم - خاص ببشارة رسول الإسلام. ولهم في ذلك مغالطات عجيبة، حيث قالوا:

إن " فاران " هي " إيلات " وليست مكة. وأجمع على هذا " الباطل " واضعوا كتاب: " قاموس الكتاب المقدس ". وهدفهم منه واضح إذ لو سَلَّمُوا بأن " فاران " هي مكة المكرمة، للزمهم إمّا التصديق برسالة رسول الإسلام ﷺ، وهذا عندهم قطع الرقاب أسهل عليهم من الإذعان له. . ؟! ، أو يلزمهم مخالفة كتابهم المقدس. ولم يقتصر ورود ذكر " فاران "على هذا الموضع من كتب العهد القديم، فقد ورد في قصة إسماعيل عليه السلام مع أمه هاجر حيث تقول التوراة: " ٩وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ، ١٠فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ». ١١فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. ١٢فَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. ١٣وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ». (تكوين ٢١: ٩ – ١٣).

وأيضا " ٢٠وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ. ٢١وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. " (سفر التكوين٢١: ٢٠ –٢١).

على أنه يلزم من دعوى واضعى قاموس الكتاب المقدس من تفسيرهم فاران بإيلات أن الكذب باعترافهم وارد في التوراة؛ لأنه لم يبعث نبيّ من " إيلات " حتى تكون البشارة صادقة. ومستحيل أن يكون هو عيسى عليه السلام؛ لأن العبارة تتحدث عن بدء الرسالات وعيسى تلقى الإنجيل بساعير وليس بإيلات. فليست " فاران " إلا " مكة المكرمة " وباعتراف الكثير منهم، وجبل فاران هو جبل " النور " الذي به غار حراء، الذي تلقى فيه رسول الإسلام ﷺ بدء الوحي.

وهجرة إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة المكرمة " فاران" أشهر من الشمس.

وترتيب الأحداث الثلاثة في العبارة المذكورة:

- جاء من سيناء.
- وأشرق من ساعير.
- وتلألأ من فاران.

هذا الترتيب الزمني دليل ثالث على أن " وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ" تبشير قطعي برسول الإسلام ﷺ.

وفي بعض " النسخ " كانت العبارة: " واستعلن من جبل فاران " بدل " تلألأ. "

وأيًا كان اللفظ فإن " تلألأ " و" استعلن " أقوى دلالة من " جاء " و" أشرق " وقوة الدلالة هنا ترجع إلى " المدلولات " الثلاثة. فالإشراق جزء من مفهوم " المجيء " وهكذا كانت رسالة عيسى بالنسبة لرسالة موسى عليهما السلام.

أما تلألأ واستعلن فهذا هو واقع الإسلام، رسولًا ورسالة وأمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه المغالطة (أعني قولهم: فاران هي إيلات) لها مثيل، حيث تزعم التوراة أن هاجر أم إسماعيل عندما أجهدها العطش هي وابنها إسماعيل بعد أن طردا من وجه " سارة " طلبت الماء فلم تجده إلا بعد أن لقيا ملاك " الرب "في المكان المعروف الآن " ببئر سبع "؟! وأنها سميت بذلك لذلك. . ؟! وكما كذبت فاران دعوى " إيلات " كذَّبت " زمزم الطهور " دعوى " بئر سبع؟

وستظل فاران - مكة المكرمة - وزمزم الطهور " عملاقين " تتحطم على صخورهما كل مزاعم الحقد والهوى[1].

---

(١) وانظر الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، للقرطبي (٢٦٥).

" ومضمون هذه البشارة موافق لمضمون قوله تعالى في سورة التين ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ (التين: ١-٣).

ففيه إشارة لأماكن بعثة الأنبياء الثلاثة، لكن لما كان المقصودُ في القرآن التعظيم تدرج من الأدنى إلى الأعلى؛ لأن رسالة موسى أعظم من رسالة عيسى، ورسالة محمد أعظم من رسالتيهما ﷺ، وكذلك مكة أقدس وأشرف من سيناء والقدس، ولما كان المقصود في التوراة الخبر التاريخي ذكرت هذه الأماكن الثلاثة مرتبة حسب زمان بعثة الأنبياء الثلاثة. . . "[١]

البشارة رقم (٢)

ويجيء نص آخر في التوراة لا محمل له إلا البشارة برسول الإسلام ﷺ مهما غالط المغالطون. وهو قول الله لموسى عليه السلام حسب ما تروى التوراة:

" ١٨أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. ١٩وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. " (التثنية ١٨: ١٨ - ١٩).

حدث هذا حسب روايات التوراة وعدًا من الله لموسى عليه السلام في آخر عهده بالرسالة، وكان يهمه أمر بني إسرائيل من بعده، فأعلمه الله - حسب هذه الرواية التوراتية أنه سيبعث فيهم رسولًا مثل موسى عليه السلام.

ولقوة دلالة النص على نبوة محمد ﷺ فقد وقف أهل الكتابين - اليهود والنصارى - موقفين مختلفين هدفهما واحد، وهو أن النص ليس بشارة برسول الإسلام ﷺ .

أما اليهود فلهم فيه رأيان: الأول: أن العبارة نفسها ليست خبرًا؛ بل هي نفى، ويقدرون قبل الفعل أقيم " همزة استفهام يكون الاستفهام معها " إنكاريًا " وتقدير النص عندهم هكذا: أأقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك. . ؟!

(١) هامش إظهار الحق (٤/ ١١٣٥)، وانظر: أيضا تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، تأليف/ صالح بن الحسين الجعفري (٢/ ٦٥٥)، هداية الحيارى لابن القيم (١٤٤).

نقل النص نفسه كما في النسخة العربية المشتركة: " سأقيم لهم نبيًا من بين إخوتهم مثلك وألقي كلامي في فمه، فينقل إليهم جميع ما أكلمه به. "

و كما في نسخة كتاب الحياة: " لهذا أقيم لهم نبيًا من بين إخوتهم مثلك، وأضع كلامي في فمه، فيخاطبهم بكل ما آمره به. "

أعتقد أنه واضح الآن كما في النسخ هذه: سأقيم، ولهذا أقيم، لا يمكن أن تكون استفهامًا أبدًا.

بطلان هذا الرأي:

وهذا الرأي باطل ولن نذهب في بيان بطلانه إلى أكثر من كلام التوراة نفسها. وذلك؛ لأنه لو كان النص كما ذكروا بهمزة إستفهام إنكاري محذوفة هي في قوة المذكور لكان الكلام نفيًا فعلًا. . ولو كان الكلام نفيًا لما صح أن يعطف عليه قوله بعد ذلك:

"١٩وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ "؟!

فهذا المقطع إثبات قطعًا فهو مرتب على إقامة النبي الذي وعد به المقطع الذي قبله. فدل هذا العطف على أن المقطع السابق وعد خبري ثابت لا نفي. ويترتب على ذلك بطلان القول الذاهب إلى تقدير الاستفهام. . ؟!

الثاني: وقد أحس اليهود ببطلان القول بالاستفهام فاحتاطوا للأمر وقالوا: لا مانع أن يكون النص خبرًا ووعدًا مثبتًا، ولكنه ليس المقصود به عيسى ابن مريم ﷺ ولا محمد بن عبد الله رسول الإسلام ﷺ، بل المراد به نبي من أنبياء إسرائيل يوشع بن نون فتى موسى، أو صموئيل. . ؟!

موقف النصارى:

أما النصارى فيحملون البشارة في النص على عيسى ﷺ وينفون أن يكون المراد بها رسول الإسلام ﷺ ، واليهود ينفون أن تكون لعيسى ﷺ.

وللنصارى مغالطات عجيبة في ذلك؛ إذ يقولون إن النبي الموعود به ليس من بني إسماعيل بل من بني إسرائيل. ومحمد إسماعيليّ فكيف يرسل الله إلى بني إسرائيل رجلًا ليس منهم. ؟! كما قالوا: إن موسى أتى بمعجزات ومحمد لم يأت بمعجزات فكيف يكون مثله؟

الحق الذي لا جدال فيه: والواقع أن كل ما ذهب إليه اليهود والنصارى باطل. ولن نذهب في بيان بطلانه إلى أبعد من دلالة النص المتنازع عليه نفسه. أما الحق الذي لا جدال فيه فإن هذا النص ليس له محمل مقبول إلا البشارة برسول الإسلام ﷺ .

وإليكم البيان: إن النص المتنازع عليه يقيد البشارة بالنبي الموعود به فيه بشرطين:

أحدهما: أنه من وسط إخوة بني إسرائيل.

وثانيهما: أنه مثل موسى عليه السلام صاحب شريعة وجهاد لأعداء الله ، وهذان الشرطان لا وجود لهما لا في يوشع بن نون، ولا في صموئيل كما يدعي اليهود في أحد قوليهم.

ولا في عيسى عليه السلام كما يدعي النصارى.

أما انتفاء الشرط الأول:

فلأن يوشع وصموئيل وعيسى من بني إسرائيل وليسو من وسط إخوة بني إسرائيل. ولو كان المراد واحدًا منهم لقال في الوعد: أقيم لهم نبيًا منهم. . ؟! هذا هو منهج الوحي في مثل هذه الأمور كما قال في شأن النبي ﷺ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢).

وكما جاء على لسان إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وأما انتفاء الشرط الثاني:

فلأن لاصموئيل ولا يوشع ولا عيسى ابن مريم كانوا مثل" موسى"عليه السلام، لعدة أوجه:

أولًا: لأنهما من بني إسرائيل، ولا يجوز أن يقوم أحد من بني إسرائيل مثل موسى كما يدل عليه هذا النص " ١٠وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ " (سفر التثنية ٣٤: ١٠) فإن قام أحد مثل موسى بعده من بني إسرائيل، يلزم تكذيب هذا القول.

ثانيًا: فلأنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى عليهما السلام؛ لأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهي، ويوشع ليس كذلك؛ بل هو متبع لشريعته.

وكذا لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام؛ لأن عيسى عليه السلام كان إلهًا وربًا على زعم النصارى وموسى عليه السلام كان عبدًا له.

وأن عيسى عليه السلام على زعمهم، صار ملعونًا لشفاعة الخلق كما صرح به بولس في الباب الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية، وموسى عليه السلام ما صار ملعونًا لشفاعتهم.

وأن عيسى عليه السلام دخل الجحيم بعد موته كما هو مصرح به في عقائد أهل التثليث، وموسى عليه السلام ما دخل الجحيم.

وأن عيسى عليه السلام صلب على زعم النصارى ليكون كفارةً لأمته، وموسى عليه السلام ما صار كفارةً لأمته بالصلب.

وأن شريعة موسى مشتملةٌ على الحدود والتعزيزات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات، بخلاف شريعة عيسى عليه السلام، فإنها فارغة عنها على ما يشهد به هذا الإنجيل المتداول بينهم.

وأن موسى عليه السلام كان رئيسًا مطاعًا في قومه نفاذًا لأوامره ونواهيه، وعيسى عليه السلام لم يكن كذلك.

وأن موسى عليه السلام ولد من الأبوين، وعيسى عليه السلام ولد بلا أب من عذراء.

وأن موسى عليه السلام كان صاحب زوجة وأولاد بخلاف عيسى عليه السلام، فأين المثلية إذن؟

وثالثًا: أنه وقع في هذه البشارة لفظ " مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ "، ولا شك أن الأسباط الاثني عشر كانوا موجودين في ذاك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده، فلو كان المقصود كون النبي المبشر به منهم، قال: منهم، أو: من خلفهم، لا من بين إخوتهم؛ لأن الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببني إسرائيل. . . ".

ورابعًا: أنه وقع في هذه البشارة لفظ سوف أقيم، ويوشع عليه السلام كان حاضرًا عند موسى عليه السلام، داخلًا في بني إسرائيل، نبيًا في هذا الوقت، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ؟

وخامسًا: أنه وقع في هذه البشارة لفظ: أجعل كلامي في فمه، وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب، وإلى أنه يكون أميًّا حافظًا للكلام، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام

لانتفاء كلا الأمرين فيه، فقد كان يوشع قارئًا للتوراة عاملًا بها ولم ينزل عليه كتاب مستقل.

وهذه الوجوه التي ذكرت وغيرها أيضا تصدق في حق النبي محمد ﷺ على أكمل صدق، لأنه غير المسيح عليه السلام، ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة:

١-كونه عبد الله ورسوله.

٢-كونه ذا الوالدين.

٣-كونه ذا نكاح وأولاد.

٤-كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية.

٥-كونه مأمورًا بالجهاد.

٦-اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته.

٧- وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته.

٨-اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز.

٩-حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان.

١٠-كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية.

١١-أمره بحد الزنا.

ووجوه أخرى كثيرة. [١]

الشرطان متحققان في رسول الإسلام ﷺ:

وبنفس القوة والوضوح اللذين انتفى الشرطان بهما عمن ذكروا من الأنبياء ثبت ذلك الشرطان لمحمد بن عبد الله ﷺ.

فهو من نسل إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحق، الذي هو أبو يعقوب المسمى إسرائيل. فهو من وسط إخوة بني إسرائيل - بنو عمومتهم - وليس من إسرائيل نفسها. وبهذا تحقق

---

(١) انظرها بالتفصيل في كتاب إظهار الحق (٤/ ١١٢٤).

الشرط الأول من شرطي البشارة.

ومحمد ﷺ صاحب شريعة جليلة الشأن لها سلطانها الخاص بها - جمعت فأوعت - مثلما كان موسى - أكبر رسل بني إسرائيل - صاحب شريعة مستقلة كانت لها منزلتها التي لم تضارع فيما قبل من بدء عهد الرسالات إلى مبعث عيسى ﷺ

وبهذا يتحقق الشرط الثاني من شرطي البشارة وهو " المثلية " بين موسى ومحمد (عليهما صلوات الله وسلامه)، فعلى القارئ أن يتأمل ثم يحكم. (١)

ويقول الأستاذ: إبراهيم خليل أحمد في كتابه " محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن":

" ويشاء الله – وهو العليم بجبلة بني إسرائيل – كما وضح لنا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة: ١٤٦).

يشاء الله تعالى أن يجعل الأمر لبني إسرائيل طلسمًا حتى لا يحرفوا الكلم عن مواضعه، فيظهر الحق ويزهق الباطل، ويحرصوا على حماية الرسول الكريم، لكنهم كانوا يظنون أنه إسرائيلي لا عربي، فلما بعث رسول الله ﷺ خاب رجاؤهم وقابلوه بعدوان، كأنه اغتصب منهم النبوة والكتاب والملك. "(٢)

البشارة رقم (٣)

وتنسب التوراة إلى نبي يدعى " حبقوق " من أنبياء العهد القديم، وله سفر صغير قوامه ثلاثة إصحاحات. تنسب إليه التوراة نصوصًا كان يصلي بها. تضمنها الإصحاح الثالث من سفره. وهذا الإصحاح يكاد يكون كله بشارة برسول الإسلام ﷺ .

وإليكم مقاطع منه:

(١) وانظر الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام صـ ٢٦٤.

(٢) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٦٨.

" ٣الله جاءَ مِنْ تِيمانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. سِلاَهْ. جَلاَلُهُ غَطَّى السَّماوَاتِ، وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ. ٤وَكَانَ لَمَعَانٌ كَالنُّورِ. لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ، وَهُنَاكَ اسْتِتَارُ قُدْرَتِهِ. ٥قُدَّامَهُ ذَهَبَ الْوَبَأُ، وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الْحُمَّى. ٦وَقَفَ وَقَاسَ الأَرْضَ. نَظَرَ فَرَجَفَ الأُمَمُ وَدُكَّتِ الْجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَفَتْ آكَامُ الْقِدَمِ. مَسَالِكُ الأَزَلِ لَهُ. "

" بِسَخَطٍ دُسْتَ الأُمَمَ. ١٣خَرَجْتَ لِخَلاَصِ شَعْبِكَ، لِخَلاَصِ مَسِيحِكَ. سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّيًا الأَسَاسَ حَتَّى الْعُنُقِ. سِلاَهْ. ".

دلالات هذه الإشارات:

لا يستطيع عاقل عالم بتاريخ الرسالات ومعاني التراكيب أن يصرف هذه النصوص على غير البشارة برسول الإسلام ﷺ . فالجهتان المذكورتان في مطلع هذا المقطع وهما تيمان: يعنى اليمن – وهي جزء من بلاد العرب – ومعنى كلمة تيمان الصحراء الجنوبية؛ لأنها جنوب بلاد الشام ولا يزال إلى الآن على طريق القوافل بين دمشق ومكة قرية تسمى (تيماء)ومعنى هذه الكلمة أيضًا الصحراءالجنوبية.

وجبل فاران: يعنى جبل النور الذي بمكة المكرمة التي هي فاران. هاتان الجهتان عربيتان. وهما رمز لشبه الجزيرة العربية التي كانت مسرحًا أوليًا لرسالة محمد ﷺ فليس المراد إذن نبيًا من بني إسرائيل؛ لأنه معلوم أن رسل بني إسرائيل كانت تأتى من جهة الشام شمالًا. لا من جهة بلاد العرب. وهذه البشارة أتت مؤكدة للبشارة المماثلة، التي تقدم ذكرها من سفر التثنية، وقد ذكرت أن الله: تلألأ أو استعلن من جبل فاران.

بيد أن بشارة التثنية شملت الإخبار بمقدم موسى عليه السلام والتبشير بعيسى عليه السلام وبمحمد ﷺ ، أما بشارة حبقوق فهي خاصة برسول الإسلام ﷺ . ولو لم يكن في كلام حبقوق إلا هذا " التحديد " لكان ذلك كافيًا في اختصاص بشارته برسول الإسلام ﷺ ومع هذا فقد اشتمل كلام حبقوق على دلائل أخرى ذات مغزى:

منها: الإشارة إلى كثرة التسبيح حتى امتلأت منه الأرض. . ؟

ومنها: دكه ﷺ لعروش الظلم والطغيان وقهر الممالك الجائرة.

ومنها: أن خيل جيوشه ركبت البحر، وهذا لم يحدث إلا في ظل رسالة الإسلام.(١)

البشارة رقم (٤):

في المزامير المنسوبة إلى داود ﷺ وردت كثير من العبارات التى لا يصح حمل معناها إلا على رسول الإسلام ﷺ.

ومن ذلك قول داود مزمور (٤٥: ٢- ١٧):

٢أَنْتَ أَبْرَعُ جَمَالًا مِنْ بَنِي الْبَشَرِ. انْسَكَبَتِ النِّعْمَةُ عَلَى شَفَتَيْكَ، لِذلِكَ بَارَكَكَ الله إِلَى الأَبَدِ. ٣تَقَلَّدْ سَيْفَكَ عَلَى فَخْذِكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ، جَلاَلَكَ وَبَهَاءَكَ. ٤وَبِجَلاَلِكَ اقْتَحِم. ارْكَبْ. مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ وَالدَّعَةِ وَالْبِرِّ، فَتُرِيكَ يَمِينُكَ مَخَاوِفَ. ٥نَبْلُكَ الْمَسْنُونَةُ فِي قَلْبِ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ. شُعُوبٌ تَحْتَكَ يَسْقُطُونَ.

٦كُرْسِيُّكَ يَا الله إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ. ٧أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ الله إِلهُكَ بِدُهْنِ الابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ رُفَقَائِكَ. ٨كُلُّ ثِيَابِكَ مُرٌّ وَعُودٌ وَسَلِيخَةٌ. مِنْ قُصُورِ الْعَاجِ سَرَّتْكَ الأَوْتَارُ. ٩بَنَاتُ مُلُوكٍ بَيْنَ حَظِيَّاتِكَ. جُعِلَتِ الْمَلِكَةُ عَنْ يَمِينِكَ بِذَهَبِ أُوفِيرِ.

١٠اِسْمَعِي يَا بِنْتُ وَانْظُرِي، وَأَمِيلِي أُذُنَكِ، وَانْسَيْ شَعْبَكِ وَبَيْتَ أَبِيكِ، ١١فَيَشْتَهِيَ الْمَلِكُ حُسْنَكِ، لأَنَّهُ هُوَ سَيِّدُكِ فَاسْجُدِي لَهُ. ١٢وَبِنْتُ صُورٍ أَغْنَى الشُّعُوبِ تَتَرَضَّى وَجْهَكِ بِهَدِيَّةٍ.

١٣كُلُّهَا مَجْدٌ ابْنَةُ الْمَلِكِ فِي خِدْرِهَا. مَنْسُوجَةٌ بِذَهَبٍ مَلاَبِسُهَا. ١٤بِمَلاَبِسَ مُطَرَّزَةٍ تُحْضَرُ إِلَى الْمَلِكِ. فِي إِثْرِهَا عَذَارَى صَاحِبَاتُهَا. مُقَدَّمَاتٌ إِلَيْكَ. ١٥يُحْضَرْنَ بِفَرَحٍ وَابْتِهَاجٍ. يَدْخُلْنَ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ. ١٦عِوَضًا عَنْ آبَائِكَ يَكُونُ بَنُوكَ، تُقِيمُهُمْ رُؤَسَاءَ فِي كُلِّ الأَرْضِ. ١٧أَذْكُرُ اسْمَكَ فِي كُلِّ دَوْرٍ فَدَوْرٍ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ تَحْمَدُكَ الشُّعُوبُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأبد.

وقد ذكر داود ﷺ في هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات:

---

(١) انظر: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن (٧١)، بشائر عيسى ومحمد (١٤٢ – ١٤٤).

كونه حسنًا. كونه أفضل البشر. كون النعمة منسكبة على شفتيه. كونه مباركًا إلى الدهر. كونه متقلدًا بالسيف. كونه قويًا. كونه ذا حق ودعة وصدق. كون هداية يمينه بالعجب. كون نبله مسنونة. سقوط الشعب تحته. كونه محبًا للبر ومبغضًا للإثم. خدمة بنات الملوك إياه. إتيان الهدايا إليه. انقياد كل أغنياء الشعب له. كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم.

وهذه الأوصاف كلها توجد في محمد ﷺ على أكمل وجه. [1]

وقفة مع هذا الكلام.

في المقطع الأول:

أ) لا تنطبق الأوصاف التي ذكرها داود إلّا على رسول الإسلام ﷺ فهو الذي قاتل بسيفه في سبيل الله، وسقطت أمامه شعوب عظيمة كالفرس والروم. وهو الممسوح بالبركة أكثر من رفقائه الأنبياء؛ لأنه خاتم النبيين، ورسالته عامة خالدة، قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ولم يترك رسول هدىً وبيانًا مثلما ترك رسول الإسلام في القرآن الحكيم، وفى أحاديثه وتوجيهاته، التي بلغت مئات الآلاف، وتعددت المصادر التي سجلتها، وفيها من روائع البيان، وصفاء الألفاظ، وشرف المعاني ما ليس في غيرها.

أما المقطع الثاني (ب):

فهو أوصاف للكعبة الشريفة. فهي التي تترضاها الأمم بالهدايا. وهى ذات الملابس المنسوجة بالذهب والمطرزة، وهى التي يذكر اسمها في كل دور، وتأتيها قوافل " الحجيج " رجالًا ونساءً من كل مكان فيدخل الجميع في " قصر الملك " ويحمدها الناس إلى الأبد؛ لأن الرسالة المرتبطة بها رسالة عامة: لكل شعوب الأرض الإنس والجن؛ بل والملائكة. وفى مواسم الحج يأتيها القاصدون من جميع بقاع الأرض مسلمين ورعايا مسلمين من

---

(١) انظر: كيف تنطبق على النبي محمد ﷺ من خلال سيرته وأوصافه، إظهار الحق (٤/ ١١٤٥).

بلاد ليست مسلمة. وهي خالدة لم ينته العمل بها بوفاة رسولها ﷺ كما هو الحال فيما تقدم. وإنما هي دين الله إلى الأبد الآبدين. [(١)]

البشارة رقم(٥)

ورد في سفر أشعيا : ٦٠

١ «قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ. ٢ لأَنَّهُ هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ. أَمَّا عَلَيْكِ فَيُشْرِقُ الرَّبُّ، وَمَجْدُهُ عَلَيْكِ يُرَى. ٣ فَتَسِيرُ الأُمَمُ فِي نُورِكِ، وَالْمُلُوكُ فِي ضِيَاءِ إِشْرَاقِكِ.

٤ «اِرْفَعِي عَيْنَيْكِ حَوَالَيْكِ وَانْظُرِي. قَدِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ. جَاءُوا إِلَيْكِ. يَأْتِي بَنُوكِ مِنْ بَعِيدٍ وَتُحْمَلُ بَنَاتُكِ عَلَى الأَيْدِي. ٥ حِينَئِذٍ تَنْظُرِينَ وَتُنِيرِينَ وَيَخْفُقُ قَلْبُكِ وَيَتَّسِعُ، لأَنَّهُ تَتَحَوَّلُ إِلَيْكِ ثَرْوَةُ الْبَحْرِ، وَيَأْتِي إِلَيْكِ غِنَى الأُمَمِ. ٦ تُغَطِّيكِ كَثْرَةُ الْجِمَالِ، بُكْرَانُ مِدْيَانَ وَعِيفَةَ كُلُّهَا تَأْتِي مِنْ شَبَا. تَحْمِلُ ذَهَبًا وَلُبَانًا، وَتُبَشِّرُ بِتَسَابِيحِ الرَّبِّ. ٧ كُلُّ غَنَمِ قِيدَارَ تَجْتَمِعُ إِلَيْكِ. كِبَاشُ نَبَايُوتَ تَخْدِمُكِ. تَصْعَدُ مَقْبُولَةً عَلَى مَذْبَحِي، وَأُزَيِّنُ بَيْتَ جَمَالِي.

٨ مَنْ هؤُلاَءِ الطَّائِرُونَ كَسَحَابٍ وَكَالْحَمَامِ إِلَى بُيُوتِهَا؟ ٩ إِنَّ الْجَزَائِرَ تَنْتَظِرُنِي، وَسُفُنَ تَرْشِيشَ فِي الأَوَّلِ، لِتَأْتِيَ بِبَنِيكِ مِنْ بَعِيدٍ وَفِضَّتُهُمْ وَذَهَبُهُمْ مَعَهُمْ، لاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكِ وَقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّهُ قَدْ مَجَّدَكِ.

١٠ «وَبَنُو الْغَرِيبِ يَبْنُونَ أَسْوَارَكِ، وَمُلُوكُهُمْ يَخْدِمُونَكِ. لأَنِّي بِغَضَبِي ضَرَبْتُكِ، وَبِرِضْوَانِي رَحِمْتُكِ. ١١ وَتَنْفَتِحُ أَبْوَابُكِ دَائِمًا. نَهَارًا وَلَيْلًا لاَ تُغْلَقُ. لِيُؤْتَى إِلَيْكِ بِغِنَى الأُمَمِ، وَتُقَادَ مُلُوكُهُمْ.

وفي أشعياء أيضا ٤٢ : ١٠ – ١٣ " ١٠ غَنُّوا لِلرَّبِّ أُغْنِيَةً جَدِيدَةً، تَسْبِيحَهُ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ. أَيُّهَا الْمُنْحَدِرُونَ فِي الْبَحْرِ وَمِلْؤُهُ وَالْجَزَائِرُ وَسُكَّانُهَا، ١١ لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ. مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا.

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٦٦٠).

١٢لِيُعْطُوا الرَّبَّ مَجْدًا وَيُخْبِرُوا بِتَسْبِيحِهِ فِي الْجَزَائِرِ. ١٣الرَّبُّ كَالْجَبَّارِ يَخْرُجُ. كَرَجُلِ حُرُوبٍ يُنْهِضُ غَيْرَتَهُ. يَهْتِفُ وَيَصْرُخُ وَيَقْوَى عَلَى أَعْدَائِهِ. "

دلالة هذه النصوص

بلا أدنى ريب فإن هذا الكلام المنسوب إلى أشعيا وصف لمكة المكرمة وكعبتها الشامخة.

فالمقطع الأول:

إنما هو حديث عن موسم الحج المبارك ، فيه يجتمع بنوها حولها من كل مكان، وفيه لمحة قوية جدًّا إلى نحر الهدي صبيحة العيد. ألم يشر النص إلى غنم قيدار، وقيدار هو ولد إسماعيل عليه السلام الذي تشعبت منه قبائل العرب. ثم ألم ينص على المذبح الذي تنحر عليه الذبائح؟ كما أشار النص ثلاث إشارات تعد من أوضح الأدلة على أن المراد بهذا النص مكة المكرمة. وتلك الإشارات هي طرق حضور الحجاج إليها. ففي القديم كانت وسائل النقل: ركوب الجمال. ثم السفن. أما في العصر الحديث فقد جدَّت وسيلة النقل الجوي " الطائرات " وبشارة أشعيا تضمنت هذه الوسائل الثلاث على النحو الآتي:

١- الجمال، قال فيها: تغطيك كثرة الجمال. ؟!

٢- السفن، قال فيها: وسفن ترشيش تأتى ببنيك من بعيد؟!

٣- النقل الجوى، وفيه يقول: من هؤلاء الطائرون كسحاب وكالحمام إلى بيوتها. ؟!!

أليس هذا أوضح من الشمس في كبد السماء.

على أن النص مليءٌ بعد ذلك بالدقائق والأسرار، ومنها أن مكة مفتوحةُ الأبواب ليلًا ونهارًا لكل قادم في حج أو عمرة. . ؟!

ومنها أن خيرات الأمم تجبى إليها من كل مكان، والقرآن يقرر هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ٥٧).

ومنها: أن بني الغريب (يعنى غير العرب) يبنون أسوارها. وكم من الأيدي العاملة الآن، وذوى الخبرات يعملون فيها ويشيدون قلاعها فوق الأرض وتحت الأرض.

ومنها أنه ما من عاصمة من عواصم العالم إلا دخلت في محنة من أهلها أو من غير أهلها إلا هذه العاصمة المقدسة فظلت بمأمن من غارات الغائرين وكيد الكائدين، ومثلها المدينة المنورة.

ومنها: كثرة الثروات التي مَنَّ الله بها عليها. أليس البترول من ثروات البحر العظمى التي تفجرت أرض الحجاز وشبه الجزيرة منه عيونًا دفاقة بمعدل لم تصل إليه أمة من الأمم. أضف إلى ذلك سبائك الذهب والفضة.

والحديث عن مكة المكرمة حديث عن رسول الإسلام؛ لأن مجدها لم يأت إلا على يدي بعثتهﷺ.

هذه الحقائق لا تقبل الجدل. ومع هذا فإن أهل الكتاب (وخاصة اليهود) يحملون هذه الأوصاف على مدينة" صهيون " ولهذا فإنهم عمدوا إلى النص وعدلوه ليصلح لهذا الزعم.

ولكننا نضع الأمر بين يدي المنصفين من كل ملة. أهذه الأوصاف يمكن أن تطلق على مدينة "صهيون ".

لقد خرب " بيت الرب " في القدس مرارًا، وتعرض لأعمال شنيعة على كل العصور. أما الكعبة الشريفة والمسجد الحرام فلم يصل أحد إليهما بسوء، ثم أين ثروات البحر والبر التي تجبى إلى تلك المدينة وأهلها (إلى الآن) يعيشون عالة على صدقات الأمم.

وأين هي المواكب التي تأتى إليها برًا وبحرًا وجَوًّا، وهل أبوابها مفتوحة ليلًا ونهارًا، وأين هم بنوها الذين اجتمعوا حولها.

وما صلة غنم قيدار وكباش مدين بها. وأين هو التسبيح الذي يشق عنان السماء منها. . وأين. وأين. . ؟

إن هذه المغالطات لا تثبت أمام قوة الحق، ونحن يكفينا أن نقيم هذه الأدلة من كتبهم على صدق الدعوى، ولا يهمنا أن يذعن القوم لما نقول، فحسبك من خصمك أن تثبت باطل ما يدعيه أمام الحق الذي تدافع عنه.

والفاصل بيننا ـ في النهاية ـ هو الله الذي لا يُبدل القول لديه. [(١)]

البشارة رقم (٦)

ورد في سفر التثنية (٣٢: ٢١): "هُمْ أَغَارُونِي بِمَا لَيْسَ إِلهًا، أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ. فَأَنَا أُغِيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْبًا، بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُهُمْ."

وفي التوراة السامرية " هم أسخطوني بغير قادر أكادوني بهبائهم وأنا أغيرهم بغير قوم بشعب ساقط أكيدهم ".

التعليق على البشارة:

والمراد بشعبٍ جاهلٍ العرب؛ لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال، وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام، وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر الجارية. فمقصود الفقرة أن بني إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون، فأوفى بها وعد فبعث من العرب النبي ﷺ فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى في سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ (الجمعة: ٩)

البشارة رقم (٧)

ورد في سفر التكوين (٤٩: ١٠):

" ١٠ لاَ يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ شِيلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ. "

التعليق على البشارة:

والمقصود بكلمة " شيلون " هو " الذي له الكل " أو " الذي هو له " وبهذا التفسير جاءت في ترجمة سنة ١٨١١م، وسنة ١٨٢٢م، وسنة ١٨٣١م، وسنة ١٨٤٤ م.

فهو يخبرهم عن وقت زوال الملك والشريعة عنهم في آخر الأيام.

---

(١) وانظر: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد (٧٠ – ٧١).

وأما نسخة الرهبانية اليسوعية، فالنص فيها: " لا يزول الصولجان من يهوذا، ولا عصا القيادة من بين قدميه، إلا أن يأتي صاحبها وتطيعه الشعوب ".

والنص حسب ترجمة يوناثان أوضح، وفيه " لا يتوقف الملوك والحكام من عائلة يهوذا ولا يتوقف معلمو الشريعة من نسله حتى الملك المسيا أصغر أبنائه ". (١)

وحسب الترجمة التي ترجمها عبد الأحد داود " لا يزول الصولجان من يهوذا أو التشريع من بين قدميه حتى يأتي شايلوه ويكون له خضوع الأمم ".

وبين التراجم الثلاثة اختلافات، ولكن الاختلاف الأهم هو في كلمة " شِيلُونُ " التي أبقتها الترجمات على حالها، وفي تراجم عبرانية أخرى قيل: " إلى أن يأتي المسيح "، وقد فسر القس إبراهيم لوقا "شيلون" بالمسيح، واعتبرها ترجمة صحيحة لكلمة " شيلوه " العبرية، وذكرت الطبعة الأمريكية للكتاب المقدس في هامشها أن كلمة " شيلون " تعني " الأمان "، أو: الذي له.

فما هو المعنى الدقيق للكلمة " شيلون " التي تدور حولها النبوءة؟

في إجابة على هذا السؤال يرى القس السابق والخبير في اللغات القديمة:

عبد الأحد داود أن كلمة " شيلون " لا تخرج في أصلها العبري عن معان، **أهمها**:

أن تكون الكلمة سريانية مكونة من كلمتي " بشيتا " و" لوه " ومعنى الأولى منهما: " هو " أو " الذي "، والثانية: لوه، معناها " له "، ويصبح معنى النبوءة حسب ترجمته المفسرة: " إن الطابع الملكي المتنبئ لن ينقطع من يهوذا إلى أن يجيء الشخص الذي يخصه هذا الطابع، ويكون له خضوع الشعوب ".

أن تكون الكلمة محرفةً من كلمة " شيلواح " ومعناها " رسول الله " كما يعبر بالكلمة مجازًا عن الزوجة المطلقة؛ لأنها ترسل بعيدًا، وتفسير الكلمة بالرسالة: مال إليه القديس جيروم، فترجم العبارة " ذلك الذي أرسل ".

---

(١) برهان يتطلب قرارا، جوش مكدويل (ص ١٧٥).

وأيًاما كان المعنى؛ فإن النبوءة تتحدث عن شخص تدعوه: شيلون، وليس عن المكان المسمى " شيلون " كما ادعى بعض المفسرين، فمن هو شيلون؟

يمكن التأكد من تحقق نبوءة يعقوب حرفيًا في (محمد) من الحجج التالية:

- هناك إجماع بين المعلقين أن التعبيرين المجازيين: (الصولجان) و(التشريع) معناهما (السلطة الدنيوية) و(النبوءة) على التوالي.

- إن الترجمة السريانية للكتاب المقدس (البشيتا) ترجمت كلمة (شايلوه) إلى الشخص الذي يخصه الصولجان والتشريع، وهو الذي يمتلك السلطة وحق التشريع وتخضع له الأمم.

فمن يكون هذا السلطان والمشرع العظيم؟

قطعًا ليس موسى؛ لأنه كان أول منظم لقبائل إسرائيل الإثنى عشر ولم يأت قبله أي ملك أو نبي من سبط يهوذا أصلًا.

وحتمًا ليس داود؛ لأنه كان أول ملك ونبي من نسل يهوذا نفسه.

كما أنه ليس عيسى المسيح؛ لأنه أعلم بنفسه أن المسيح الذي تنتظره إسرائيل لن يكون من نسل داود (متى ٢٢: ٤٤ – ٤٥، مرقص ١٢: ٣٥ – ٣٧، لوقا ٢٠: ٤١ -٤٤).

غير أن محمدًا ﷺ جاء بالسلطة الدنيوية وبالقرآن يحلان محل الصولجان اليهودي المهترئ والشريعة البالية غير العملية والكهنوت الفاسد.

أعلن محمدﷺ أنقى الأديان وتوحيد الإله الحق، ووضع أفضل القواعد العملية لأخلاق وسلوك البشر، ووحد بالإسلام أممًا من كل الأجناس لا تشرك بالله شيئًا، تطيع الرسول وتحبه وتحترمه، ولكنها لا تعبده ولا تقدسه ولا تجعله إلاهًا.

كما أن محمدًا ﷺ قد سحق آخر معاقل اليهود في قريظة وخيبر ووضع نهاية لنفوذهم.[1]

البشارة رقم (٨)

---

(١) محمد ﷺ كما ورد في كتابات اليهود والنصارى، عبد الأحد داود (٦٠، ٦٤، ٦٥)، وانظر أيضا: هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ، منقذ السقار (٦٥ – ٦٨)، إظهار الحق (٤/ ١١٣٩ – ١١٤٠).

ورد في المزمور (١٤٩: ٦- ٩): " ٦تَنْوِيهَاتُ اللهِ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَسَيْفٌ ذُو حَدَّيْنِ فِي يَدِهِمْ. ٧لِيَصْنَعُوا نَقْمَةً فِي الأُمَمِ، وَتَأْدِيبَاتٍ فِي الشُّعُوبِ. ٨لأَسْرِ مُلُوكِهِمْ بِقُيُودٍ، وَشُرَفَائِهِمْ بِكُبُولٍ مِنْ حَدِيدٍ. ٩لِيُجْرُوا بِهِمُ الْحُكْمَ الْمَكْتُوبَ. كَرَامَةٌ هذَا لِجَمِيعِ أَتْقِيَائِهِ. هَلِّلُويَا. ".

التعليق على البشارة:

" ففي هذا الزبور عبر عن المبشر به بالملك، وعن مطيعه بالأبرار، وذكر من أوصافهم افتخارهم بالمجد وترفيع الله في حلوقهم، وكون سيوف ذات فمَيْنِ في أياديهم، وانتقامهم من الأمم وتوبيخاتهم للشعوب، وأسرهم الملوك والأشراف بالقيود والأغلال من حديد. فأقول: المبشر به هو محمد ﷺ وأصحابه ﷺ، ويصدق جميع الأوصاف المذكورة في هذا الزبور عليه وعلى أصحابه.

وليس المبشر به سليمان عليه السلام؛ لأنه ما وسع مملكته على مملكة أبيه على زعم أهل الكتاب؛ ولأنه صار مرتدًا عابدًا الأصنام في آخر عمره على زعمهم، ولا عيسى ابن مريم عليهما السلام؛ لأنه بمراحل عن الأوصاف المذكورة فيه؛ لأنه أسر ثم قتل على زعمهم، وكذا أسر أكثر حواريّه بالقيود والأغلال، ثم قتلوا بأيدي الملوك والأشراف الكفار. (١)

البشارة رقم(٩).

ورد في سفر إشعياء (٤٢: ٩ – ١٧): " ٩هُوَذَا الأَوَّلِيَّاتُ قَدْ أَتَتْ، وَالْحَدِيثَاتُ أَنَا مُخْبِرٌ بِهَا. قَبْلَ أَنْ تَنْبُتَ أُعْلِمُكُمْ بِهَا ١٠غَنُّوا لِلرَّبِّ أُغْنِيَةً جَدِيدَةً، تَسْبِيحَهُ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ. أَيُّهَا الْمُنْحَدِرُونَ فِي الْبَحْرِ وَمِلْؤُهُ وَالْجَزَائِرُ وَسُكَّانُهَا، ١١لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ. مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا. ١٢لِيُعْطُوا الرَّبَّ مَجْدًا وَيُخْبِرُوا بِتَسْبِيحِهِ فِي الْجَزَائِرِ. ١٣الرَّبُّ كَالْجَبَّارِ يَخْرُجُ. كَرَجُلِ حُرُوبٍ يُنْهِضُ غَيْرَتَهُ. يَهْتِفُ وَيَصْرُخُ وَيَقْوَى عَلَى أَعْدَائِهِ. ١٤«قَدْ صَمَتُّ مُنْذُ الدَّهْرِ. سَكَتُّ. تَجَلَّدْتُ. كَالْوَالِدَةِ أَصِيحُ. أَنْفُخُ وَأَنْخُرُ مَعًا. ١٥أُخَرِّبُ الْجِبَالَ وَالآكَامَ، وَأُجَفِّفُ كُلَّ عُشْبِهَا، وَأَجْعَلُ الأَنْهَارَ يَبَسًا وَأُنَشِّفُ

---

(١) إظهار الحق (٤/ ١١٥٥).

الآجَامَ، ١٦وَأُسَيِّرُ الْعُمْيَ فِي طَرِيقٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا. فِي مَسَالِكَ لَمْ يَدْرُوهَا أُمَشِّيهِمْ. أَجْعَلُ الظُّلْمَةَ أَمَامَهُمْ نُورًا، وَالْمُعْوَجَّاتِ مُسْتَقِيمَةً. هذِهِ الأُمُورُ أَفْعَلُهَا وَلاَ أَتْرُكُهُمْ. ١٧قَدِ ارْتَدُّوا إِلَى الْوَرَاءِ. يَخْزَى خِزْيًا الْمُتَّكِلُونَ عَلَى الْمَنْحُوتَاتِ، الْقَائِلُونَ لِلْمَسْبُوكَاتِ: أَنْتُنَّ آلِهَتُنَا! ".

التعليق على البشارة:

المقصود بقوله " أُغْنِيَةً جَدِيدَةً " عبارة عن العبادة على النهج الجديد التي هي في الشريعة المحمدية، وتعميمها على سكان أقاصي الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبراري، إشارة إلى عموم نبوته ﷺ ، ولفظ" قِيدَار" أقوى إشارة إليه؛ لأن محمدًا ﷺ في أولاد قيدار بن إسماعيل.

وقوله " مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا " إشارة إلى العبادة المخصوصة التي تؤدى في أيام الحج، يصيح ألوف ألوف من الناس بلبيك اللهم لبيك.

وقوله " ١٢لِيُعْطُوا الرَّبَّ مَجْدًا وَيُخْبِرُوا بِتَسْبِيحِهِ فِي الْجَزَائِرِ. " إشارة إلى الأذان يخبر به ألوف ألوف في أقطار العالم في الأوقات الخمسة بالجهر.

وقوله " ١٣الرَّبُّ كَالْجَبَّارِ يَخْرُجُ. كَرَجُلِ حُرُوبٍ يُنْهِضُ غَيْرَتَهُ " يشير إلى مضمون الجهاد إشارةً حسنةً، بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون لله وبأمره، خاليًا عن حظوظ الهوى النفسانية، ولذلك عبر الله عن خروج هذا النبيّ وخروج تابعيه بخروجه، وبيّن في الآية الرابعة عشر سبب مشروعية الجهاد وأشار في الآية السادسة عشر إلى حال العرب؛ لأنهم كانوا غير واقفين على أحكام الله، وكانوا يعبدون الأصنام، وكانوا مبتلين بأنواع الرسوم القبيحة الجاهلية، كما قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢) وقوله " وَلاَ أَتْرُكُهُمْ. " إشارة إلى كون أمته مرحومة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) وإلى تأييد شريعته.

وقوله " الْمُتَّكِلُونَ عَلَى الْمَنْحُوتَاتِ، الْقَائِلُونَ لِلْمَسْبُوكَاتِ: أَنْتُنَّ آلِهَتُنَا! " وعد بأن عابدي الأصنام والأوثان كمشركي العرب وعابدي الصليب وصور القديسين يحصل لهم الخزي والهزيمة التامة، ووفّى بما وعد. فإن مشركي العرب، وهرقل عظيم الروم، وكسرى فارس ما

قصَّروا في إطفاء النور الأحمدي لكنهم ما حصل لهم سوى الخزي التام، وعاقبة الأمر لم يبق أثر الشرك في إقليم العرب، وزالت دولة كسرى مطلقًا، وزالت حكومة أهل الصليب من الشام مطلقًا. وأما في الأقاليم الأخر، فمن بعضها انمحى أثره مطلقًا كبخارى وكابل وغيرهما، ومن بعضها قل كالهند والسند وغيرهما وانتشر التوحيد شرقًا وغربًا. (١)

البشارة رقم (١٠):

ورد في سفر إشعياء (٥٤: ١ – ١٧): " ١«تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. أَشِيدِي بِالتَّرَنُّمِ أَيَّتُهَا الَّتِي لَمْ تَمْخَضْ، لأَنَّ بَنِي الْمُسْتَوْحِشَةِ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي ذَاتِ الْبَعْلِ، قَالَ الرَّبُّ. ٢أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ، وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ. لاَ تُمْسِكِي. أَطِيلِي أَطْنَابَكِ وَشَدِّدِي أَوْتَادَكِ، ٣لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إِلَى الْيَمِينِ وَإِلَى الْيَسَارِ، وَيَرِثُ نَسْلُكِ أُمَمًا، وَيُعْمِرُ مُدُنًا خَرِبَةً. ٤لاَ تَخَافِي لأَنَّكِ لاَ تَخْزَيْنَ، وَلاَ تَخْجَلِي لأَنَّكِ لاَ تَسْتَحِينَ. فَإِنَّكِ تَنْسَيْنَ خِزْيَ صِبَاكِ، وَعَارُ تَرَمُّلِكِ لاَ تَذْكُرِينَهُ بَعْدُ. ٥لأَنَّ بَعْلَكِ هُوَ صَانِعُكِ، رَبُّ الْجُنُودِ اسْمُهُ، وَوَلِيُّكِ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ، إِلهَ كُلِّ الأَرْضِ يُدْعَى. ٦لأَنَّهُ كَامْرَأَةٍ مَهْجُورَةٍ وَمَحْزُونَةِ الرُّوحِ دَعَاكِ الرَّبُّ، وَكَزَوْجَةِ الصِّبَا إِذَا رُذِلَتْ، قَالَ إِلهُكِ. ٧لُحَيْظَةً تَرَكْتُكِ، وَبِمَرَاحِمَ عَظِيمَةٍ سَأَجْمَعُكِ. ٨بِفَيَضَانِ الْغَضَبِ حَجَبْتُ وَجْهِي عَنْكِ لَحْظَةً، وَبِإِحْسَانٍ أَبَدِيٍّ أَرْحَمُكِ، قَالَ وَلِيُّكِ الرَّبُّ. ٩لأَنَّهُ كَمِيَاهِ نُوحٍ هذِهِ لِي. كَمَا حَلَفْتُ أَنْ لاَ تَعْبُرَ بَعْدُ مِيَاهُ نُوحٍ عَلَى الأَرْضِ، هكَذَا حَلَفْتُ أَنْ لاَ أَغْضَبَ عَلَيْكِ وَلاَ أَزْجُرَكِ. ١٠فَإِنَّ الْجِبَالَ تَزُولُ، وَالآكَامَ تَتَزَعْزَعُ، أَمَّا إِحْسَانِي فَلاَ يَزُولُ عَنْكِ، وَعَهْدُ سَلاَمِي لاَ يَتَزَعْزَعُ، قَالَ رَاحِمُكِ الرَّبُّ. «أَيَّتُهَا الذَّلِيلَةُ الْمُضْطَرِبَةُ غَيْرُ الْمُتَعَزِّيَةِ، هأَنَذَا أَبْنِي بِالأُثْمُدِ حِجَارَتَكِ، وَبِالْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ أُؤَسِّسُكِ، ١٢وَأَجْعَلُ شُرَفَكِ يَاقُوتًا، وَأَبْوَابَكِ حِجَارَةً بَهْرَمَانِيَّةً، وَكُلَّ تُخُومِكِ حِجَارَةً كَرِيمَةً ١٣وَكُلَّ بَنِيكِ تَلاَمِيذَ الرَّبِّ، وَسَلاَمَ بَنِيكِ كَثِيرًا. ١٤بِالْبِرِّ تُثَبَّتِينَ بَعِيدَةً عَنِ الظُّلْمِ فَلاَ تَخَافِينَ، وَعَنِ الارْتِعَابِ فَلاَ يَدْنُو مِنْكِ. ١٥هَا إِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ اجْتِمَاعًا لَيْسَ مِنْ عِنْدِي. مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْكِ فَإِلَيْكِ يَسْقُطُ. ١٦هأَنَذَا قَدْ خَلَقْتُ

(١) إظهار الحق (٤/ ١١٥٧ – ١١٥٨)، وانظر: بشائر عيسى ومحمد (١٤٤)

الْحَدَّادَ الَّذِي يَنْفُخُ الْفَحْمَ فِي النَّارِ وَيُخْرِجُ آلَةً لِعَمَلِهِ، وَأَنَا خَلَقْتُ الْمُهْلِكَ لِيَخْرِبَ. «كُلُّ آلَةٍ صُوِّرَتْ ضِدَّكِ لاَ تَنْجَحُ، وَكُلُّ لِسَانٍ يَقُومُ عَلَيْكِ فِي الْقَضَاءِ تَحْكُمِينَ عَلَيْهِ. هذَا هُوَ مِيرَاثُ عَبِيدِ الرَّبِّ وَبِرُّهُمْ مِنْ عِنْدِي، يَقُولُ الرَّبُّ".

التعليق على البشارة:

المراد " بالعاقر " في الفقرة الأولى مكة المعظمة؛ لأنها لم يظهر منها نبيٌّ بعد إسماعيل ﷺ، ولم ينزل فيها وحيٌ بخلاف أورشليم؛ لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون، وكثر فيها نزول الوحي.

وقوله " بَنِي الْمُسْتَوْحِشَةِ " عبارة عن أولاد هاجر؛ لأنها كانت بمنزلة المطلقة المخرجة من البيت ساكنة في البر، ولذلك وقع - في حق إسماعيل - في وعد الله هاجر (وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا) كما هو مصرح به سفر التكوين (١٦: ١١- ١٢).

وقوله " بَنِي ذَاتِ الْبَعْلِ " عبارة عن أولاد سارة. فخاطب الله مكة آمرًا لها بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر، لأجل أن كثيرين من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة، فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لأهلها، ووفَّى بها وعد بأن بعث محمدًا ﷺ رسولًا أفضل البشر خاتم النبيين من أهلها في أولاد هاجر، وهو المراد بالصائغ الذي ينفخ في النار جمرًا، وهو القَتُول الذي خُلق لإهلاك المشركين، وحصل لها السَّعة بواسطة هذا النبي وما حصل لغيرها من المعابد في الدنيا؛ إذ لا يوجد معبد مثل الكعبة من ظهور محمد ﷺ إلى هذا الحين، والتعظيم الذي يحصل لها من القرابين في كل سنة من مدة كبيرة، لم يحصل لبيت المقدس إلا مرتين، مرة في عهد سليمان ﷺ لما فرغ من بنائه، ومرة في السنة الثامنة عشر من سلطنة يوشيا، ويبقى هذا التعظيم لمكة إلى آخر الدهر إن شاء الله كما وعد الله بقوله: (لاَ تَخَافِي لأَنَّكِ لاَ تَخْزَيْنَ، وَلاَ تَخْجَلِي لأَنَّكِ لاَ تَسْتَحِينَ.) وبقوله: (برحمات عظيمة أجمعك وبالرحمة الأبدية رحمتك) وبقوله: (حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك)، وبقوله: (رحمتي لا تزول عنك وعهد سلامي لا يتحرك)، وملك زرعها شرقًا وغربًا وورثوا الأمم وعمروا المدن في مدة قليلة لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة، ومثل هذه الغلبة في مثل هذه المدة القليلة، لم يسمع من عهد آدم ﷺ إلى زمان محمد ﷺ

لمن يدّعي الدين الجديد. وهذا مفاد قول الله، وزرعك يرث الأمم، ويعمر المدن الخربة سلاطين الإسلام سلفًا وخلفًا اجتهدوا اجتهادًا تامًا في بناء الكعبة والمسجد الحرام وتزيينهما، وحفر الآبار والبرك والعيون في مكة ونواحيها إلى الآن.

والغرباء يحبون مجاورتها من ظهور الإسلام إلى هذا الحين، سيّما في هذا الزمان، وألوف من الناس يصلون إليها في كل سنة من أقاليم مختلفة وديار بعيدة، ووفّى بها وعد بقوله كل إناء مجبول بضدك لا ينجح، لأن كل شخص من المخالف قام بضدها أذله الله كما وقع بأصحاب الفيل. . . . ، وبحسب الوعد المذكور لا يدخل الأعور الدجال مكة ويرجع خائبًا كما جاء في الأحاديث الصحيحة. (1)

البشارة رقم (١١)

ورد في سفر إشعياء (٦٥: ١ – ٦):

" ١«أَصْغَيْتُ إِلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا. وُجِدْتُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي. قُلْتُ: هأَنَذَا، هأَنَذَا. لأُمَّةٍ لَمْ تُسَمَّ بِاسْمِي. ٢بَسَطْتُ يَدَيَّ طُولَ النَّهَارِ إِلَى شَعْبٍ مُتَمَرِّدٍ سَائِرٍ فِي طَرِيقٍ غَيْرِ صَالِحٍ وَرَاءَ أَفْكَارِهِ. ٣شَعْبٍ يُغِيظُنِي بِوَجْهِي. دَائِمًا يَذْبَحُ فِي الْجَنَّاتِ، وَيُبَخِّرُ عَلَى الآجُرِّ. ٤يَجْلِسُ فِي الْقُبُورِ، وَيَبِيتُ فِي الْمَدَافِنِ. يَأْكُلُ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ، وَفِي آنِيَتِهِ مَرَقُ لُحُومٍ نَجِسَةٍ. ٥يَقُولُ: قِفْ عِنْدَكَ. لاَ تَدْنُ مِنِّي لأَنِّي أَقْدَسُ مِنْكَ. هؤُلاَءِ دُخَانٌ فِي أَنْفِي، نَارٌ مُتَّقِدَةٌ كُلَّ النَّهَارِ. ٦هَا قَدْ كُتِبَ أَمَامِي. لاَ أَسْكُتُ بَلْ أُجَازِي. أُجَازِي فِي حِضْنِهِمْ. "

فالمراد " الَّذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا " و" الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي " العرب؛ لأنهم كانوا غير واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه، فما كانوا سائلين عن الله وطالبين له كما قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

---

(١) انظر: إظهار الحق (٤/ ١١٦٠ – ١١٦٤).

ولا يجوز أن يراد بهم اليونانيون كما عرفت في البشارة الثانية، والوصف المذكور في الآية الثانية والثالثة يصدق على كل واحد من اليهود والنصارى، والأوصاف المذكورة في الآية الرابعة ألصق بحال النصارى، كما أن الوصف المذكور في الخامسة ألصق بحال اليهود فردّهم الباري واختار الأمة المحمدية.(١)

البشارة رقم (١٢)

ورد في سفر دانيال (٢: ٣١ – ٤٥):

" ٣١«أَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنْتَ تَنْظُرُ وَإِذَا بِتِمْثَالٍ عَظِيمٍ. هذَا التِّمْثَالُ الْعَظِيمُ الْبَهِيُّ جِدًّا وَقَفَ قُبَالَتَكَ، وَمَنْظَرُهُ هَائِلٌ. ٣٢رَأْسُ هذَا التِّمْثَالِ مِنْ ذَهَبٍ جَيِّدٍ. صَدْرُهُ وَذِرَاعَاهُ مِنْ فِضَّةٍ. بَطْنُهُ وَفَخْذَاهُ مِنْ نُحَاسٍ. ٣٣سَاقَاهُ مِنْ حَدِيدٍ. قَدَمَاهُ بَعْضُهُمَا مِنْ حَدِيدٍ وَالْبَعْضُ مِنْ خَزَفٍ. ٣٤كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَى أَنْ قُطِعَ حَجَرٌ بِغَيْرِ يَدَيْنِ، فَضَرَبَ التِّمْثَالَ عَلَى قَدَمَيْهِ اللَّتَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ وَخَزَفٍ فَسَحَقَهُمَا. ٣٥فَانْسَحَقَ حِينَئِذٍ الْحَدِيدُ وَالْخَزَفُ وَالنُّحَاسُ وَالْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ مَعًا، وَصَارَتْ كَعُصَافَةِ الْبَيْدَرِ فِي الصَّيْفِ، فَحَمَلَتْهَا الرِّيحُ فَلَمْ يُوجَدْ لَهَا مَكَانٌ. أَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي ضَرَبَ التِّمْثَالَ فَصَارَ جَبَلًا كَبِيرًا وَمَلأَ الأَرْضَ كُلَّهَا. ٣٦هذَا هُوَ الْحُلْمُ. فَنُخْبِرُ بِتَعْبِيرِهِ قُدَّامَ الْمَلِكِ.

٣٧«أَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَلِكُ مُلُوكٍ، لأَنَّ إِلهَ السَّمَاوَاتِ أَعْطَاكَ مَمْلَكَةً وَاقْتِدَارًا وَسُلْطَانًا وَفَخْرًا. ٣٨وَحَيْثُمَا يَسْكُنُ بَنُو الْبَشَرِ وَوُحُوشُ الْبَرِّ وَطُيُورُ السَّمَاءِ دَفَعَهَا لِيَدِكَ وَسَلَّطَكَ عَلَيْهَا جَمِيعِهَا. فَأَنْتَ هذَا الرَّأْسُ مِنْ ذَهَبٍ. ٣٩وَبَعْدَكَ تَقُومُ مَمْلَكَةٌ أُخْرَى أَصْغَرُ مِنْكَ وَمَمْلَكَةٌ ثَالِثَةٌ أُخْرَى مِنْ نُحَاسٍ فَتَتَسَلَّطُ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ. ٤٠وَتَكُونُ مَمْلَكَةٌ رَابِعَةٌ صَلْبَةٌ كَالْحَدِيدِ، لأَنَّ الْحَدِيدَ يَدُقُّ وَيَسْحَقُ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَالْحَدِيدِ الَّذِي يُكَسِّرُ تَسْحَقُ وَتُكَسِّرُ كُلَّ هؤُلاَءِ. ٤١وَبِمَا رَأَيْتَ الْقَدَمَيْنِ وَالأَصَابِعَ بَعْضُهَا مِنْ خَزَفٍ وَالْبَعْضُ مِنْ حَدِيدٍ، فَالْمَمْلَكَةُ تَكُونُ مُنْقَسِمَةً، وَيَكُونُ فِيهَا قُوَّةُ الْحَدِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّكَ رَأَيْتَ الْحَدِيدَ مُخْتَلِطًا بِخَزَفِ الطِّينِ. ٤٢وَأَصَابِعُ الْقَدَمَيْنِ بَعْضُهَا مِنْ حَدِيدٍ وَالْبَعْضُ مِنْ خَزَفٍ، فَبَعْضُ الْمَمْلَكَةِ يَكُونُ قَوِيًّا وَالْبَعْضُ قَصِمًا.

---

(١) إظهار الحق (٤/ ١١٦٥).

"٤٣وَبِمَا رَأَيْتَ الْحَدِيدَ مُخْتَلِطًا بِخَزَفِ الطِّينِ، فَإِنَّهُمْ يَخْتَلِطُونَ بِنَسْلِ النَّاسِ، وَلكِنْ لاَ يَتَلاَصَقُ هذَا بِذَاكَ، كَمَا أَنَّ الْحَدِيدَ لاَ يَخْتَلِطُ بِالْخَزَفِ. ٤٤وَفِي أَيَّامِ هؤُلاَءِ الْمُلُوكِ، يُقِيمُ إِلهُ السَّمَاوَاتِ مَمْلَكَةً لَنْ تَنْقَرِضَ أَبَدًا، وَمَلِكُهَا لاَ يُتْرَكُ لِشَعْبٍ آخَرَ، وَتَسْحَقُ وَتُفْنِي كُلَّ هذِهِ الْمَمَالِكِ، وَهِيَ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ. ٤٥لأَنَّكَ رَأَيْتَ أَنَّهُ قَدْ قُطِعَ حَجَرٌ مِنْ جَبَل لاَ بِيَدَيْنِ، فَسَحَقَ الْحَدِيدَ وَالنُّحَاسَ وَالْخَزَفَ وَالْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ. اللهُ الْعَظِيمُ قَدْ عَرَّفَ الْمَلِكَ مَا سَيَأْتِي بَعْدَ هذَا. اَلْحُلْمُ حَقٌّ وَتَعْبِيرُهُ يَقِينٌ». "

التعليق على البشارة:

" فالمراد بالمملكة الأولى سلطنة بُختنصَّر، وبالمملكة الثانية سلطنة الماديين[1] الذين تسلطوا بعد قتل بلشاصر بن بختنصر[2] كما هو مصرح به في الإصحاح الخامس من نفس هذا السفر (٥: ٣٠ – ٣١) "٣٠فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ قُتِلَ بَيْلْشَاصَّرُ مَلِكُ الْكَلْدَانِيِّينَ، ٣١فَأَخَذَ الْمَمْلَكَةَ دَارِيُّوسُ الْمَادِيُّ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ سَنَةً. "، وسلطنتهم كانت ضعيفة بالنسبة إلى سلطنة الكلدانيين.

والمراد بالمملكة الثالثة سلطنة الكيانيين[3] لأن قورش ملك إيران الذي هو بزعم القسيسين كيخسر، وتسلط على بابل قبل ميلاد المسيح بخمسمائة وست وثلاثين سنةً، ولما كان الكيانيون على السلطنة القاهرة فكأنهم كانوا متسلطين على جميع الأرض.

والمراد بالمملكة الرابعة سلطنة اسكندر بن فيلقوس الرومي.[4] الذي تسلط على ديار فارس قبل ميلاد المسيح بثلثمائة وثلاثين سنةً، فهذا السلطان كان في القوة بمنزلة الحديد ثم

---

(١) الماديون: يتصلون بالفرس من ناحية الجنس واللغة والتاريخ، وقد ظهروا كقوة كبيرة في منتصف القرن السابع قبل الميلاد.

(٢) بلشاصر بن بختنصر: هو ابن بختنصر وخليفته وآخر ملوك الكلدانيين، تولى الملك سنة ٥٥٣ ق. م.

(٣) الكيانيون: أي الفرس الذين منهم كورش، وهذه هي الامبراطورية الفارسية الأولى، وقد دامت مملكتهم إلى سنة ٣٣١ ق. م.

(٤) هو الإسكندر الكبير الرومي ابن فيليب الثاني المقدوني، وكان حكمه من سنة ٣٣٦ – ٣٢٣ ق. م

جعل هذا السلطان سلطنة فارس منقسمة على طوائف الملوك فبقيت هذه السلطنة ضعيفة إلى ظهور الساسانيين. [(١)] ثم صارت قويةً بعد ظهورهم، فكانت ضعيفةً تارةً وقويةً تارةً وفي عهد أنوشروان[(٢)] ولد محمد بن عبد اللهﷺ وأعطاه الله السلطنة الظاهرية والباطنية، وقد تسلط متبعوه في مدّةٍ قليلةٍ شرقًا وغربًا على جميع ديار فارس التي كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها، فهذه هي السلطنة الأبدية التي لا تنقضي وملكها لا يعطى لشعب آخر، وسيظهر كمالها عن قريب في زمان الإمام المهدي ﷺ لكن الوهن والضعف يقع قبل ظهوره بمدة قليلة كما يشاهد بعض علاماته الآن، ثم يزول بظهوره، ويكون الدين كله لله، فهذا الحجر الذي انقطع لا بيدين من جبل، وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب، وصار جبلًا عظيمًا، وملأ الأرض بأسرها هو محمدﷺ. "[(٣)]

البشارة رقم (١٣)

ورد في رسالة يهوذا (١٤ - ١٥):

" ١٤وَتَنَبَّأَ عَنْ هؤُلاَءِ أَيْضًا أَخْنُوخُ السَّابعُ مِنْ آدمَ قَائِلًا: «هُوَذَا قَدْ جَاءَ الرَّبُّ فِي رَبَوَاتِ قِدِّيسِيهِ، ١٥لِيَصْنَعَ دَيْنُونَةً عَلَى الْجَمِيعِ، وَيُعَاقِبَ جَمِيعَ فُجَّارِهِمْ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ فُجُورِهِمُ الَّتِي فَجَرُوا بِهَا، وَعَلَى جَمِيعِ الْكَلِمَاتِ الصَّعْبَةِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا عَلَيْهِ خُطَاةٌ فُجَّارٌ». "

التعليق على البشارة:

قوله (الرَّبُّ): معناه المخدوم والمعلم، وهذا شائع استخدامه.

ولفظ (القديس): يطلق في العهدين على المؤمن الموجود في الأرض إطلاقًا شائعًا. [(٤)]

فإذا تقرر هذا نقول:

---

(١) الساسانيون: ينتسبون إلى ساسان جد الملك أردشير الأول الذي أسس الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة ٢٢٦م.

(٢) أنو شيروان: هو كسرى الأول بن قباذ، أعظم ملوك آل ساسان مكانة، وأشهر أكاسرتها بأسًا ومروءةً وعدلًا، فلقب بالملك العادل، وهو الذي انتصر على الروم وحكم معظم بلادهم.

(٣) إظهار الحق (٤/ ١١٦٨ - ١١٦٩).

(٤) انظر: إظهار الحق لمزيد تفصيل حول هذا المعنى.

إن المراد (بالرب) محمد ﷺ و(بالربوات المقدسة) الصحابة ﷺ.

والتعبير عن مجيئه (بقد جاء) لكونه أمرًا يقينيًا فجاء محمد ﷺ في ربواته المقدسة فَدَانَ الكُفّارَ، وبكَّتَ المنافقين والخُطاة على أعمال النّفاق وعلى أقوالهم القبيحة في الله ورسله، فبكَّت المشركين لعدم تسليم توحيد الله ورسالة رسله مطلقًا وعبادتهم الأصنام والأوثان، وبكَّت اليهود على تفريطهم في حق عيسى ومريم عليهما السلام وبعض عقائدهم الواهية، وبكَّت أهل التثليث مطلقًا على تفريطهم في توحيد الله وإفراطهم في حق عيسى ﷺ، وبكَّت أكثرهم على عبادة الصليب والتماثيل وبعض عقائدهم الواهية. (1)

البشارة رقم (١٤)

ورد في سفر التكوين (١٦: ١١):

" ١١وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ. ١٢وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ». "

التعليق على البشارة:

في هذا النص يتحدث الملاك مع هاجر، ويخبرها بأنها ستلد ابنًا، ستكون يده العليا ويد من سواه السفلى.

ويبين لنا المهتدي عبد الأحد داود أن عبارة (١٢وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا) مُحرّفة وتصحيحها كالآتي (وسوف يصبح إسماعيل ذا ذريةٍ كثيرةٍ) ويقول: لقد قام المسيحيون بترجمة نفس هذه الكلمة التي تعني (وفير أو كثير) من الفعل(Para) الذي يرادفه بالعربية لفظ (وفير) ترجموها إلى معنى مغاير لحقيقة اللفظ ألا وهو (الحمار الوحش)؟! أليس من العار والكفر أن ينعت إسماعيل بالحمار المتوحش وهو النبي الذي كرمه الله فنعته

(١) المصدر السابق (٤/ ١١٧٢).

(بصاحب الذرية الخصبة الكثيرة العدد)؟!.[(١)]

البشارة رقم (١٥).

ورد في سفر التكوين (١٧: ٢٠):

" ٢٠وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. "

التعليق على البشارة:

قوله " وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً " يشير إلى محمد ﷺ ؛ لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره، وقد قال الله تعالى ناقلًا دعاء إبراهيم وإسماعيل في حقه عليهم السلام في كلامه المجيد أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).[(٢)]

ولقد علم المؤالف والمخالف، والموافق والمفارق أنه لم يكن في ذرية إسماعيل من ظهرت بركته ونمت أمته، وأعطي الشعب الجليل سوى محمد رسول الله ﷺ فلقد ملؤا الأرض برحبها، وطبقوا من شرق الدنيا إلى غربها، ودوّخوا الآفاق وأربَوْا في العدد على أولاد إسحاق، وهم والحمد لله لا يزدادون على مر الأيام إلا نماء وكثرة، وهذا بالغ في شرف إسماعيل؛ إذ فخر الولد يكسب الوالد فخرًا، ويرفعه دنيا وأخرى. . . "[(٣)]

البشارة رقم(١٦)

ورد في سفر التثنية (١٨: ١٥):

" ١٥«يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي. لَهُ تَسْمَعُونَ. "

التعليق على البشارة:

(١) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٦٥٣- هامش رقم ٢).

(٢) انظر: إظهار الحق (٤/ ١١٣٦)، الإعلام للقرطبي (ص ٢٢٥ – ٢٢٦).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٦٥٢).

فإن قيل: فلعل هذا الموعود به بنو إسرائيل هو هارون أخو موسى ووزيره، أو يوشع خادمه ومشيره، قلنا: التوراة تأبى ذلك؛ إذ قد أخبرت أن هارون توفي في حياة موسى وعاش موسى بعده، وأما يوشع بن نون فهو من بني إسرائيل والله تعالى يقول (مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي) ولم يقل من أنفسهم، والتوراة أيضا قد سدّت هذا الباب ففي سفر التثنية (٣٤: ١٠) " وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ ".

ثم هارون ويوشع قد كانا أقيما للنبوة قبل صدور هذا الخطاب من الله، ولا يصحّ أن يُنَزَّل على المسيح بإجماع الأمم.

أما اليهود فهو عندهم كذَّاب أَشِر. وأنه ما أحيا ميتًا قط ولا أبرأ أبرص. وأما النصارى فهم يزعمون أنه الرّبّ الذي بعث الأنبياء وأرسل الرسل وأنه الذي خلق الخلق وأتقن العالم.

فإن رجعوا القهقري وقالوا: إن المسيح مثل موسى فقد تناقض قولهم وخبطوا عشوى.

وأما المسلمون فالمسيح عندهم نبيٌّ كريمٌ غير أنه من بني إسرائيل والله تعالى يقول: " مِنْ إِخْوَتِكَ " ولم يقل من أنفسهم. فبطل أن يكون المسيح أو غيره وتعيّن أن يكون محمّدًا ﷺ ضرورة الوفاء بقول الله تعالى. (١)

البشارة رقم (١٧):

البشارة بـ(محمد) مشتهى الأمم.

مناسبة هذه البشارة:

" سقطت مملكة إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس الحالية) بيد الآشوريين عام (٧٢١ ق. م) وتم نفي سكانها من بقايا أسباط إسرائيل العشرة إلى بلاد الآشوريين ثم بعد ذلك بأقل من قرن ونصف (٥٨٦ ق. م) سقطت مملكة يهوذا، وعاصمتها القدس بيد الكلدانيين بقيادة نبوخذ نصر، وتم تدمير معبد سليمان تدميرًا تامًا، وأعمل القتل في سلالة سبطي يهوذا وبنيامين الذين كانوا يشكلون مملكة يهوذا، ونفى من سلم منهم إلى بلاد بابل

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٦٥٨).

حيث بقوا في المنفى حتى سيطر قورش ملك الفرس على بابل عام(٥٣٨ ق. م) وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين كما سمح لهم بإعادة بناء القدس والهيكل.

وعندما وضعت الأساسات لبناء المعبد الجديد ارتفعت صيحات الفرح بين اليهود، بينما استولى النحيب والبكاء المرير على كبار السن الذين سبق أن شاهدوا معبد سليمان قبل تدميره، وفي تلك المناسبة بعث الله النبي (حجي) ليعزي المجتمعين بهذه الرسالة الهامة "[1]:

" ٦لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: هِيَ مَرَّةٌ، بَعْدَ قَلِيل، فَأُزَلْزِلُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَالْيَابِسَةَ، ٧وَأُزَلْزِلُ كُلَّ الأُمَمِ. وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الأُمَمِ، فَأَمْلأُ هذَا الْبَيْتَ مَجْدًا، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. ٨لِي الْفِضَّةُ وَلِي الذَّهَبُ، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ. ٩مَجْدُ هذَا الْبَيْتِ الأَخِيرِ يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ مَجْدِ الأَوَّلِ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. وَفِي هذَا الْمَكَانِ أُعْطِي السَّلاَمَ، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ». " (سفر حجي ٢ : ٦ – ٩).

التعليق على البشارة:

وهذه النبوءة لا ريب تتحدث عن القادم الذي وعد به إبراهيم، وبشر به يعقوب وموسى ثم داود عليهم الصلاة والسلام.

قوله " فَأُزَلْزِلُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَالْيَابِسَةَ، ٧وَأُزَلْزِلُ كُلَّ الأُمَمِ. "

إشارة إلى حروب المسلمين وانتصاراتهم السريعة الباهرة على الظالمين وإنقاذهم اليهود من ظلم النصارى وتأمينهم لهم في أورشليم، ثم بعد ذلك أعطُوا السلام للناس جميعًا الذين يقصدون البيت من جميع الأمم ومن سائر البقاع.

وقوله " مُشْتَهَى" هنا بالعبرية " حمدوت "، أي: محمود كل الأمم، وهذا صريح في محمد ﷺ، ولا ينطبق على أحد سواه.

وفي قوله " أُعْطِي السَّلاَمَ " إشارة لتحية المسلمين، وهي " السلام عليكم" التي كانوا يقولونها بعد أن عمروا بيت أورشليم في زمن عمر ﵁ وأعادوا إليه مجدًا أعظم من مجده

---

(١) محمد كما ورد في كتابات اليهود والنصارى، عبد الأحد داود (٣٦).

الأول، حتى صار يعظمه اليهود والنصارى والمسلمون الذين عاشوا حوله في أمن وسلام في حمى الإسلام، ويفِدون عليه من جميع الجهات مع اختلافهم في الدين والمعتقدات لزيارته وتكريمه إلى اليوم.

وقد تحقق السلام تحققًا تامًا بمجيء عمر ﵁ بنفسه إلى أورشليم بعد الحصار، وتأمين أهلها وعقده شروط الصلح معهم، وبذلك خضعوا وسلّموا بدون سفك دم وأعطاهم عمر السلم والأمان وفتحت المدينة بالصلح لا بالحرب، كما قال ربُّ الجنود، مع أن المسلمين زلزلوا الأمم الأخرى والأرض والجبال. (١)

ثانيًا: البشارات بالنبي ﷺ في العهد الجديد

تمهيد.

أسفارُ العهد الجديد (الأناجيل والرسائل) حافلةٌ بالنصوص التى يتعين أن تكون "بشارات " برسول الإسلام ﷺ .

تلك البشارات تعلن أحيانًا في صورة الوعد بملكوت الله أو ملكوت السماوات. وأحيانًا أخرى بالروح القدس. ومرات باسم المعزي أو الفارقليط، وهى كلمة يونانية سيأتى فيما بعد معناها.

البشارة رقم (١)

البشارة بالملكوت

ورد في إنجيل متى (٣: ٢): " ١وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ ٢قَائِلًا: «تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. "

وورد أيضًا في متّى (٤: ١٧): " ١٧مِنْ ذلِكَ الزَّمَانِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَكْرِزُ وَيَقُولُ: «تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ». "

وورد أيضًا في متّى (٦: ١٠): " ١٠لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. "

---

(١) انظر: بشائر عيسى ومحمد في العهد القديم والعهد الجديد، تأليف/ محمد توفيق صدقي (١٤٠ – ١٤٢).

وورد أيضا في متّى (١: ٧): " ٧وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. "

وورد في إنجيل لوقا (٩: ١ – ٢): " ١وَدَعَا تَلاَمِيذَهُ الاثْنَيْ عَشَرَ، وَأَعْطَاهُمْ قُوَّةً وَسُلْطَانًا عَلَى جَمِيعِ الشَّيَاطِينِ وَشِفَاءَأَمْرَاضٍ، ٢وَأَرْسَلَهُمْ لِيَكْرِزُوا بِمَلَكُوتِ الله وَيَشْفُوا الْمَرْضَى. "

وورد أيضا في إنجيل لوقا (١٠: ١ – ١١): " ١وَبَعْدَ ذلِكَ عَيَّنَ الرَّبُّ سَبْعِينَ آخَرِينَ أَيْضًا، وَأَرْسَلَهُمُ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ أَمَامَ وَجْهِهِ إِلَى كُلِّ مَدِينَةٍ وَمَوْضِعٍ حَيْثُ كَانَ هُوَ مُزْمِعًا أَنْ يَأْتِيَ. . . . ، ٨وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَقَبِلُوكُمْ، فَكُلُوا مِمَّا يُقَدَّمُ لَكُمْ، ٩وَاشْفُوا الْمَرْضَى الَّذِينَ فِيهَا، وَقُولُوا لَهُمْ: قَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ الله. ١٠وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَلَمْ يَقْبَلُوكُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَى شَوَارِعِهَا وَقُولُوا: ١١حَتَّى الْغُبَارَ الَّذِي لَصِقَ بِنَا مِنْ مَدِينَتِكُمْ نَنْفُضُهُ لَكُمْ. وَلكِنِ اعْلَمُوا هذَا إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ الله. "

التعليق على البشارة:

" ظهر من مجموع هذه النصوص أن كلًا من يحيى وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين بشر بملكوت السماوات، وبشر عيسى عليه السلام بالألفاظ التي بشر بها يحيى عليه السلام، فعلم أن هذا الملكوت كما لم يظهر في عهد يحيى عليه السلام فكذلك لم يظهر في عهد عيسى عليه السلام ولا في عهد الحواريين والسبعين؛ بل كل منهم مبشر به، ومخبر عن فضله، ومترجّ لمجيئه، فلا يكون المراد بملكوت السماوات طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة عيسى عليه السلام، وإلا لما قاله عيسى عليه السلام والحواريون والسبعون " أن ملكوت السماوات قد اقترب "، ولما علم التلاميذُ أن يقولوا في الصلاة: " وليأت ملكوتك " لأن هذه الطريقة قد ظهرت بعد ادعاء عيسى عليه السلام النبوة بشريعته، فهو- أي الملكوت - عبارة عن طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء كانوا يبشرون بهذه الطريقة الجليلة، ولفظ " مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ " بحسب الظاهر يدل على أن هذا الملكوت يكون في صورة السلطنة لا في صورة المسكنة، وأن المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكونان لأجله، وأن مبنى قوانينه لا بد أن يكون كتابًا سماويًا. وكل من هذه الأمور يصدق على الشريعة المحمدية.

وما قال علماء المسيحية: إن المراد بهذا الملكوت، شيوع الملة المسيحية في جميع العالم وإحاطتها كل الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام، فتأويل ضعيف خلاف الظاهر، وترده التمثيلات المنقولة عن عيسى عليه السلام.

ففي إنجيل متّى (١٣: ٢٤، ٣١، ٣٣) قال: ": «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا فِي حَقْلِهِ. "

": «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ "

"يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ خَمِيرَةً أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَخَبَّأَتْهَا فِي ثَلاَثَةِ أَكْيَالِ دَقِيقٍ حَتَّى اخْتَمَرَ الْجَمِيعُ». "

فشبّه ملكوت السماوات بإنسان زارع لا بنمو الزراعة وحصادها، وكذلك شبّه بحبّة خردل لا بصيرورتها شجرة عظيمة، وشبّه بخميرة لا باختمار جميع الدقيق. وكذا يردّ هذا التأويل قولُ عيسى عليه السلام بعد بيان التمثيل المنقول في الإصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متّى هكذا: " ٤٣لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. ".

فإن هذا القول يدل على أن المراد بملكوت السماوات طريقة النجاة نفسها لا شيوعها في جميع العالم وإحاطتها كل العالم، وإلاّ لَا معنى لنزع الشيوع والإحاطة من قوم وإعطائها لقوم آخرين، فالحق أن المراد بهذا الملكوت هي المملكة التي أخبر عنها دانيال في الإصحاح الثاني من السفر المنسوب إليه[(١)].

فمصداق هذا الملكوت وتلك المملكة نبوة محمد ﷺ. والله أعلم.[(٢)]

البشارة رقم (٢)

ورد في رؤيا يوحنا اللاهوتي (٢: ٢٦ – ٢٩):

---

(١) سبق ذكرها والتعليق عليها.

(٢) إظهار الحق (٤/ ١١٧٤ – ١١٧٦) بتصرف يسير.

" ²⁶وَمَنْ يَغْلِبُ وَيَحْفَظُ أَعْمَالِي إِلَى النِّهَايَةِ فَسَأُعْطِيهِ سُلْطَانًا عَلَى الأُمَمِ، ²⁷فَيَرْعَاهُمْ بِقَضِيبٍ مِنْ حَدِيدٍ، كَمَا تُكْسَرُ آنِيَةٌ مِنْ خَزَفٍ، كَمَا أَخَذْتُ أَنَا أَيْضًا مِنْ عِنْدِ أَبِي، ²⁸وَأُعْطِيهِ كَوْكَبَ الصُّبْحِ. ²⁹مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ».

التعليق على البشارة:

فهذا الغالب الذي أعطى سلطانًا على الأمم، ويرعاهم بالقضيب من حديد، هو محمد ﷺ كما قال الله ﷻ في حقه: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ (الفتح: ٣).

وقوله " ²⁸وَأُعْطِيهِ كَوْكَبَ الصُّبْحِ " عبارة عن القرآن، قال الله تعالى في سورة النساء ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء: ١٧٤)، وفي سورة التغابن ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ (التغابن: ٨).(١)

البشارة رقم (٣)

ورد في إنجيل متى (٢٠: ١- ١٦):

" ¹«فَإِنَّ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلًا - رَبَّ بَيْتٍ- خَرَجَ مَعَ الصُّبْحِ لِيَسْتَأْجِرَ فَعَلَةً لِكَرْمِهِ، ²فَاتَّفَقَ مَعَ الْفَعَلَةِ عَلَى دِينَارٍ فِي الْيَوْمِ، وَأَرْسَلَهُمْ إِلَى كَرْمِهِ. ³ثُمَّ خَرَجَ نَحْوَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ وَرَأَى آخَرِينَ قِيَامًا فِي السُّوقِ بَطَّالِينَ، ⁴فَقَالَ لَهُمُ: اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضًا إِلَى الْكَرْمِ فَأُعْطِيَكُمْ مَا يَحِقُّ لَكُمْ. فَمَضَوْا. ⁵وَخَرَجَ أَيْضًا نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ وَالتَّاسِعَةِ وَفَعَلَ كَذلِكَ. ⁶ثُمَّ نَحْوَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ خَرَجَ وَوَجَدَ آخَرِينَ قِيَامًا بَطَّالِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا وَقَفْتُمْ ههُنَا كُلَّ النَّهَارِ بَطَّالِينَ؟ ⁷قَالُوا لَهُ: لأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْجِرْنَا أَحَدٌ. قَالَ لَهُمُ: اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضًا إِلَى الْكَرْمِ فَتَأْخُذُوا مَا يَحِقُّ لَكُمْ. ⁸فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ قَالَ صَاحِبُ الْكَرْمِ لِوَكِيلِهِ: ادْعُ الْفَعَلَةَ وَأَعْطِهِمُ الأُجْرَةَ مُبْتَدِئًا مِنَ الآخِرِينَ إِلَى الأَوَّلِينَ. ⁹فَجَاءَ أَصْحَابُ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دِينَارًا دِينَارًا. ¹⁰فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ. فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضًا دِينَارًا دِينَارًا. ¹¹وَفِيمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَى رَبِّ الْبَيْتِ ¹²قَائِلِينَ: هؤُلاَءِ الآخِرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ سَاوَيْتَهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثِقَلَ

---

(١) انظر: إظهار الحق (٤/ ١١٨١، ١١٨٤).

النَّهَارِ وَالْحَرَّ! [١٣] فَأَجَابَ وَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: يَا صَاحِبُ، مَا ظَلَمْتُكَ! أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ؟ [١٤] فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ. [١٥] أَوَ مَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَا لِي؟ أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةٌ لأَنِّي أَنَا صَالِحٌ؟ [١٦] هكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ وَالأَوَّلُونَ آخِرِينَ، لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ». "

التعليق على البشارة:

فالآخرون أمة محمد ﷺ، فهم يقدمون في الأجر، وهم الآخرون الأولون، وقد وردت عدة أحاديث صحيحة بمعنى هذه البشارة، فمنها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ " نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِى فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ". (١)

٢- عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: عن النبي ﷺ قال: "مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِى مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِى مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِى مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لاَ. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِى أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ". (٢)

٣- عن أبي موسى رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: " مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لاَحَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا، وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: لاَ تَفْعَلُوا أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا وَتَرَكُوا، وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ

---

(١) رواه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) رواه البخاري (٢١٤٨).

فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا، وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الأَجْرِ. فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلاَةِ الْعَصْرِ قَالاَ: لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، وَلَكَ الأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا، فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ. فَأَبَيَا، وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ. (١)

البشارة رقم(٤)

يقول القس المهتدي إبراهيم خليل أحمد:

" لقد جهد المسيح عليه السلام من الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين، وندّد بهم بقوله:

" ٢١«لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَارَبُّ، يَارَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ٢٢كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ: يَارَبُّ، يَارَبُّ! أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ ٢٣فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ! إنجيل متّى (٧: ٢١ – ٢٣)

وأسى للشعب فقال عنهم: " ٨يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا. ٩وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ (إنجيل متّى ١٥: ٨ – ٩).

وفي هذا القول ترديد لما قاله نبي العهد القديم أشعياء وهو في أرض السبي في بابل سنة ٧٠١ ق. م: " ١٣فَقَالَ السَّيِّدُ: «لأَنَّ هذَا الشَّعْبَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ بِفَمِهِ وَأَكْرَمَنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَأَبْعَدَهُ عَنِّي، وَصَارَتْ مَخَافَتُهُمْ مِنِّي وَصِيَّةَ النَّاسِ مُعَلَّمَةً. ١٤لِذلِكَ هَاأَنَذَا أَعُودُ أَصْنَعُ بِهذَا الشَّعْبِ عَجَبًا وَعَجِيبًا، فَتَبِيدُ حِكْمَةُ حُكَمَائِهِ، وَيَخْتَفِي فَهْمُ فُهَمَائِهِ». ١٥وَيْلٌ لِلَّذِينَ يَتَعَمَّقُونَ لِيَكْتُمُوا رَأْيَهُمْ عَنِ الرَّبِّ، فَتَصِيرُ أَعْمَالُهُمْ فِي الظُّلْمَةِ، وَيَقُولُونَ: «مَنْ يُبْصِرُنَا وَمَنْ يَعْرِفُنَا؟ ». ١٦يَا لَتَحْرِيفِكُمْ! هَلْ يُحْسَبُ الْجَابِلُ كَالطِّينِ، حَتَّى يَقُولُ الْمَصْنُوعُ عَنْ صَانِعِهِ: «لَمْ يَصْنَعْنِي». أَوْ تَقُولُ الْجُبْلَةُ عَنْ جَابِلِهَا: «لَمْ يَفْهَمْ»؟ " (سفر إشعياء ٢٩: ١٣ – ١٦).

---

(١) رواه البخاري (٢١٥١)، وانظر: الفارق بين المخلوق والخالق- عبد الرحمن الباجه جي زاده (١٧٣).

فيقرر عيسى عليه السلام قرار الرب بانتزاع النبوة والكتاب من ذرية إسحاق إلى ذرية من؟"[1]

قال لهم يسوع: " ٣٣«اِسْمَعُوا مَثَلًا آخَرَ: كَانَ إِنْسَانٌ- رَبُّ بَيْتٍ- غَرَسَ كَرْمًا، وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. ٣٤وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الأَثْمَارِ أَرْسَلَ عَبِيدَهُ إِلَى الْكَرَّامِينَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ. ٣٥فَأَخَذَ الْكَرَّامُونَ عَبِيدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا وَرَجَمُوا بَعْضًا. ٣٦ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا آخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الأَوَّلِينَ، فَفَعَلُوا بِهِمْ كَذلِكَ. ٣٧فَأَخِيرًا أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنَهُ قَائِلًا: يَهَابُونَ ابْنِي! ٣٨وَأَمَّا الْكَرَّامُونَ فَلَمَّا رَأَوْا الابْنَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ مِيرَاثَهُ! ٣٩فَأَخَذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ وَقَتَلُوهُ. ٤٠فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟ » ٤١قَالُوا لَهُ: «أُولئِكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلاَكًا رَدِيًّا، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا». ٤٢قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا! ٤٣لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ الله يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. ٤٤وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ!» ٤٥وَلَمَّا سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ، عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. " (متى ٢١: ٣٣ – ٤٥).

التعليق على البشارة:

أقول: إن قوله " رَبُّ بَيْتٍ " كناية عن الله، " والكَرْم " كناية عن الشريعة، و " وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً، وَبَنَى بُرْجًا " كنايات عن بيان المحرمات والمباحات والأوامر والنواهي، وإن " الكرامين الأردياء " كناية عن اليهود، كما فهم رؤساء الكهنة، والفريسيون، أنه تكلم عليهم.

و " أَرْسَلَ عَبِيدَهُ " كناية عن الأنبياء عليهم السلام، و" الابن " كناية عن عيسى عليه السلام. . . ، وقد قتله اليهود أيضًا في زعمهم. والحجر الذي رفضه البناءون كناية عن محمد ﷺ ، والأمة التي تعمل أثماره كناية عن أمته ﷺ ، وهذا هو الحجر الذي كل من

---

(١) انظر: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، (ص ٧٢ – ٧٣).

سقط عليه ترضض، وكل من سقط هو عليه سحقه.

وما ادعاه علماء المسيحية بزعمهم، أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام، فغير صحيح لوجوه:

(**الأول**): أن داود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا: " [٢٢]الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. [٢٣]مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا".

فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام وهو من اليهود من آل يهوذا من آل داود عليه السلام، فأي عجب في أعين اليهود عمومًا لكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية سيما في عين داود عليه السلام خصوصًا؛ لأن مزعوم المسيحيين، أن داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيمًا بليغًا، ويعتقد الألوهية في حقه بخلاف آل إسماعيل؛ لأن اليهود كانوا يحقرون أولاد إسماعيل غاية التحقير، وكان كون أحد منهم رأسًا للزاوية عجيبًا في أعينهم.

(**والثاني**): أنه وقع في وصف هذا الحجر: وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ! ».

ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام ؛ لأنه قال: وَإِنْ سَمِعَ أَحَدٌ كَلاَمِي وَلَمْ يُؤْمِنْ فَأَنَا لاَ أَدِينُهُ، لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ. (إنجيل يوحنا ١٢: ٤٧)، وصدقه على محمد ﷺ غير محتاج إلى البيان؛ لأنه كان مأمورًا بتنبيه الفجار الأشرار، فإن سقطوا عليه ترضّضوا، وإن سقط هو عليهم سحقهم.

(**الثالث**) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ.)[١]

فهذا الحديث يوافق في معناه معنى هذه البشارة.

(**والرابع**) أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن، أي أن صيغة كلام المسيح

---

(١) البخاري (٣٣٤١)، ومسلم (٢٢٨٦).

تدل على أنه لم يتكلم عن نفسه وإنما عن آخر سيأتي بعده؛ لأن الابن أخذه الكرامون وقتلوه ثم يأتي بعد ذلك الحجر الذي يسحق الخصوم، فكيف يكون الابن هو الحجر؟

فالتفريق واضحٌ بين نفسه وبين الحجر، ويدل غضب الكهنة كذلك على أن هذا الابن ليس من بني إسرائيل، وأن الأمة المقصودة هي غيرهم، ولو كان النبي منهم لم يغضبوا؛ لأنه لم يخالف إرادتهم وهواهم.[1]

البشارة رقم (٥)

وأعظم البشارات في العهد الجديد هي البشارة " بالبارقليط " وحسب النسخة الرهبانية اليسوعية " سيد هذا العالم ".

ورد في إنجيل يوحنا (١٤: ١٥ – ٣٠): " ١٥«إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ، ١٦وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، ١٧رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ. ١٨لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ. ١٩بَعْدَ قَلِيل لاَ يَرَانِي الْعَالَمُ أَيْضًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنَنِي. إِنِّي أَنَا حَيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ. ٢٠فِي ذلِكَ الْيَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ. ٢١اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي، وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي».

٢٢قَالَ لَهُ يَهُوذَا لَيْسَ الإِسْخَرْيُوطِيَّ: «يَا سَيِّدُ، مَاذَا حَدَثَ حَتَّى إِنَّكَ مُزْمِعٌ أَنْ تُظْهِرَ ذَاتَكَ لَنَا وَلَيْسَ لِلْعَالَمِ؟ » ٢٣أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلًا. ٢٤اَلَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كَلاَمِي. وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي. ٢٥بِهذَا كَلَّمْتُكُمْ وَأَنَا عِنْدَكُمْ. ٢٦وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ.

٢٧«سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ. ٢٨سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي

---

(١) انظر: إظهار الحق (٤/ ١١٧٩ – ١١٨١).

لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي. [٢٩]وَقُلْتُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ. "

وفي نفس الإنجيل (١٥: ٢٦ – ٢٧):

" [٢٦]«وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي. [٢٧]وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الابْتِدَاءِ. "

وفي نفس الإنجيل أيضا (١٦: ٧ – ١٤):

" [٧]لكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ: إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي، وَلكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. [٨]وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ: [٩]أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي. [١٠]وَأَمَّا عَلَى بِرّ فَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلاَ تَرَوْنَنِي أَيْضًا. [١١]وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ.

[١٢]«إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. [١٣]وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ؛ لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ؛ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. [١٤]ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. "

ففي هذه النصوص يتحدث المسيح عليه السلام عن صفات الآتي بعده، فمن هو هذا الآتي؟

أولًا: البارقليط عند النصارى :

لقد اختلف النصارى في (الفارقليط) في لغتهم فذكروا فيه أقوالًا ترجع إلى ثلاثة:

الأول: أنه الحامد والحماد أو الحمد، . . . ، ورجحت طائفة هذا القول.

والثاني: وعليه أكثر النصارى أنه المخلص والمسيح نفسه يسمونه المخلص.

قالوا: وهذه كلمة سريانية ومعناها المخلص قالوا: وهو بالسريانية فاروق فجعل (فارق)، قالوا و(ليط)كلمة تزاد، ومعناها كمعنى قول العرب: رجل هو، وحجر هو، وفرس هو، قالوا: فكذلك معنى (ليط) في السريانية.

والثالث: وقالت طائفة أخرى من النصارى معناه بالسريانية " المعزي " قالوا: وكذلك هو في اللسان اليوناني. [١]

ويجيبون أيضا بأن الآتي هو روح القدس الذي نزل على التلاميذ يوم الخمسين ليعزيهم في فقدهم للسيد المسيح، وهناك "١وَلَمَّا حَضَرَ يَوْمُ الْخَمْسِينَ كَانَ الْجَمِيعُ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ٢وَصَارَ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ صَوْتٌ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ عَاصِفَةٍ وَمَلأَ كُلَّ الْبَيْتِ حَيْثُ كَانُوا جَالِسِينَ، ٣وَظَهَرَتْ لَهُمْ أَلْسِنَةٌ مُنْقَسِمَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. ٤وَامْتَلأَ الْجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَى كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا. (أعمال ٢: ١ – ٤).

ولا تذكر أسفار العهد الجديد شيئًا - سوى ما سبق - عن هذا الذي حصل يوم الخمسين من قيامة المسيح.

يقول الأنبا أثناسيوس في تفسيره لإنجيل يوحنا: " البارقليط هو روح الله القدوس نفسه المعزي، البارقليط: المعزي " الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي "(يوحنا ١٤ : ٢٦)، وهو الذي نزل عليهم يوم الخمسين (أعمال ٢ : ١ – ٤) " فامتلأوا به وخرجوا للتبشير، وهو مع الكنيسة وفي المؤمنين، وهو هبة ملازمة للإيمان والعماد ". [٢]

ثانيًا: البارقليط عند المسلمين

ويعتقد المسلمون أن ما جاء في يوحنا عن المعزي رئيس هذا العالم الآتي، إنما هو بشارة من المسيح بنبينا – ﷺ –، وذلك يظهر من أمور:

أولا: أن لفظة " المعزي " لفظة حديثة استبدلتها التراجم الجديدة للعهد الجديد، فيما كانت التراجم العربية القديمة (١٨٢٠م، ١٨٢١م، ١٨٢٣م، ١٨٣١م، ١٨٤٤م، وترجمة الخوري يوسف عون بلفظ " فارقليط " و" بارقليط " و" روح الحق ".

وفي طبعة سنة ١٨٢٥ م، وسنة ١٨٢٦ م بلفظ " المعزي " و" روح الصدق ".

---

(١) هداية الحيارى (ص ١٢٥ – ١٢٦).

(٢) هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ ؟تأليف : منقذ السقار (١٢٠ – ١٢١).

وفي طبعة سنة ١٨٦٥ م وسنة ١٩٧٠ م و١٩٧١م و١٩٧٦ م ١٩٨٣ م ١٩٨٥م بلفظ "المعزي " و" روح الحق ".

وفي طبعة دار المشرق ببيروت سنة ١٩٨٢ م بالمطبعة الكاثوليكية بإذن بولس باسيم النائب الرسولي للاتين بلفظ " المؤيد " و" روح الحق ". [١]

فهذا دليل واضح على أن اليهود والنصارى يسعون إلى إخفاء البشارات بالنبيّ ﷺ من كتبهم المقدسة لديهم أو تحريف معناها. وذلك مما أخبرنا الله ﷻ عنهم فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦).

فما معنى كلمة: (فارقليط) التي اختلف النصارى في معناها؟

إن (فارقليط) معربة من كلمة: (بيركليتوس) اليونانية (PERIQLYTOS) التي تعني اسم: أحمد، صيغة المبالغة من الحمد. والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١- شهادة العلامة علي بن ربنّ الطبري - الذي كان مسيحيًا فأسلم - في القرن الثالث الهجري بذلك في كتابه: الدين والدولة.

٢- أن هذه الكلمة كانت سببًا في إسلام القس الأسباني: أنسلم تورميدا في القرن التاسع الهجري بعدما أخبره أستاذه القسيس (نقلًا ومرتيل) - بعد إلحاح منه - أن الفارقليط هو اسم من أسماء محمّد ﷺ . فكان ذلك سببًا في إشهار إسلامه وتغيير اسمه إلى عبد الله الترجمان وتأليف كتابه: تحفة الأريب في الرّدّ على أهل الصليب، وذكر فيه قصته مفصلة.

٣- شهادة القسيس (دافيد بنجامين كلداني) - الذي هداه الله إلى الإسلام وغيّر اسمه إلى: (عبد الأحد داود) - في كتابه القيم: (محمّد في الكتاب المقدس) بذلك فقد وضح فيه أن الفارقليط ليس هو الروح القدس وليس أي شيء يدّعيه النصارى، وإنما هو اسم محمّد ﷺ

---

(١) انظر إظهار الحق (٤/ ١١٨٦) هامش رقم (٢).

وبيّن ذلك بأدلة من نصوص الأناجيل وقواميس اللغة اليونانية.

٤- ذكر الأستاذ عبد الوهّاب النجار في كتابه " قصص الأنبياء " أنه كان في سنة ١٨٩٤م زميل دراسة اللغة العربية للمستشرق الإيطالي. (كارلو نالينو) وقد سأله النجار في ليلة ٢٧: ٧: ١٣١١هـ ما معنى: (بيريكلتوس)؟. فأجابه قائلًا: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها: (المعزي). فقال النجار: إني أسأل الدكتور كارلونالينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اليهود باللغة اليونانية القديمة. ولست أسأل قسيسًا. فقال: إن معناها: "الذي له حمد كثير". فقال النجار: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال الدكتور: نعم. فقال النجار: إن رسول الله ﷺ من أسمائه (أحمد) فقال الدكتور: يا أخي أنت تحفظ كثيرًا ثم افترقا. [1]

ثانيًا: أن عيسى عليه السلام قال أولًا: " ١٥«إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ" ثم أخبر عن معزي (فارقليط). فمقصوده عليه السلام، أن يعتقد السامعون بأن ما يلقى عليهم يعد ضروري واجب الرعاية، فلو كان فارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة؛ لأنه ما كان مظنونًا أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى؛ لأنهم كانوا مستفيضين به من قبل أيضًا؛ بل لا مجال للاستبعاد أيضًا؛ لأنه إذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهورًا بينًا، فلا يتصوّر إنكار المتأثر منه، وليس ظهوره عندهم في صورة يكون فيه مظنة الاستبعاد، فهو عبارة عن النبي المبشر به، فحقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوّة أن الكثيرين من أمته ينكرون النبي المبشر به عند ظهوره، فأكد أولًا بهذه الفقرة، ثم أخبر عن مجيئه.

ثالثًا: أن هذا الروح متحد بالأب مطلقًا وبالابن، نظرًا إلى لاهوته اتحادًا حقيقيًا فلا يصدق في حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبي المبشر به فإنه يصدق هذا القول في حقه بلا تكلُّف.

رابعًا: أن الوكالة والشفاعة من خواص النبوّة لا من خواص هذا الروح المتحد بالله،

---

(١) انظر تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٧٠٣) هامش رقم (١).

فلا يصدقان على الروح ويصدقان على النبي المبشر به بلا تكلُّف.

خامسًا: أن عيسى عليه السلام قال: " وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ. "

ولم يثبت في رسالة من رسائل العهد الجديد، أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام، وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه.

سادسًا: أن عيسى عليه السلام قال: " ٢٩وَقُلْتُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ. "

وهذا يدل على أن المراد به ليس الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الإيمان مظنونًا منهم وقت نزوله؛ بل لا مجال للاستبعاد أيضًا، فلا حاجة إلى هذا القول، وليس من شأن الحكيم العاقل أن يتكلم بكلام فضول فضلًا عن شأن النبي العظيم الشأن. فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله، وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرةً ثانيةً.

سابعًا: أن عيسى عليه السلام قال: " فَهُوَ يَشْهَدُ لِي " وهذا الروح ما شهد لأجله بين يدي أحد؛ لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة؛ لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضًا، فلا فائدة للشهادة بين أيديهم، والمنكرون الذين كانوا محتاجين للشهادة، فهذا الروح ما شهد بين أيديهم بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم فإنه شهد لأجل المسيح عليه السلام، وصدقه، وبرأه عن ادعاء الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال، وبرأ أمه عن تهمة الزنا، وجاء ذكر براءتها في القرآن في مواضع متعددة[1]، وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة.

ثامنًا: أن عيسى عليه السلام قال: " ٢٧وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الابْتِدَاءِ. "

وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا: (وتشهدون أنتم أيضًا لأنكم كنتم معي من الابتداء). فيوجد في هذه التراجم لفظ أيضًا، وكذلك يوجد اللفظ في طبعة سنة ١٨٢٥م وسنة ١٨٢٦م وسنة ١٨٦٥م و١٩٧٠م و١٩٧١ و ١٩٧٦ و١٩٨٣م

(١) انظر: سورة آل عمران (٣٣ –٦٣)، وسورة النساء (١٥٥ – ١٥٩)، وسورة المائد ة (٧٢ – ٧٥) و (١١٠ – ١١٨)، وسورة مريم (١٦ – ٣٦)، وسورة المؤمنون (٥٠)، وسورة التحريم (١٢).

وسنة ١٩٨٥م، وطبعة دار المشرق وترجمة يوسف عون، ولم يسقط إلا من الطبعة العربية المطبوعة سنة ١٨٢٣م و١٨٤٤م، ونص المتن منقول عنهما.

فلفظ " أيضًا " سقط من التراجم التي نقلت عنها عبارة يوحنا سهوًا أو قصدًا، فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة فارقليط، فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار فلا توجد مغايرة بين الشهادتين؛ لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين؛ بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها؛ لأن هذا الروح مع كونه إلهًا متحدًا بالله اتحادًا حقيقيًا بريئًا من النزول والحلول والاستقرار والشكل التي هي من عوارض الجسم والجسمانيات، نزل مثل ريح عاصفة، وظهر في أشكال ألسنة منقسمة كأنها من نار، واستقرت على كل واحد منهم يوم الدار، فكان حالهم كحال من عليه أثر الجن، فكما أن قول الجن يكون قوله في تلك الحالة فكذلك كانت شهادة الروح هي شهادة الحواريين، فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبي المبشر به، فإن شهادته غير شهادة الحواريين.

تاسعًا: أن عيسى عليه السلام قال: " لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي، وَلكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. "

فعلق مجيئه بذهابه – أي علق مجئ المعزي بذهاب عيسى – وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره لما أرسلهم إلى البلاد الإسرائيلية، فنزوله ليس بمشروط بذهابه، فلا يكون مرادًا بالمعزي؛ بل المراد به شخص لم يستفض منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده، وكان مجيئه موقوفًا على ذهاب عيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ كان كذلك؛ لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام، وكان مجيئه موقوفًا على ذهاب عيسى عليه السلام؛ لأن وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمان واحد غير جائز، بخلاف ما إذا كان الآخر مطيعًا لشريعة الأول، أو يكون كل من الرسولين مطيعًا لشريعة واحدة؛ لأنه يجوز في هذه الصورة وجود

اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحد، كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى وعيسى عليهما السلام.

عاشرًا: أن عيسى عليه السلام قال: "يُبَكِّتُ الْعَالَمَ".

فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد ﷺ ؛ لأنه بكّت العالم - لاسيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام - توبيخًا لا يشك فيه إلا معاند بحت، وسيكون ابنه الرشيد محمد المهدي رفيقًا لعيسى عليه السلام في زمان قتل الدجال الأعور ومتابعيه، بخلاف الروح النازل يوم الدار، فإن تبكيته لا يصح على أصول أحد، وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضًا؛ لأنهم كانوا يدعون إلى الملة بالترغيب والوعظ.

الحادي عشر: أن عيسى عليه السلام قال: "أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي."

وهذا يدل على أن المعزي يكون ظاهرًا على منكري عيسى عليه السلام موبخًا لهم على عدم الإيمان به، والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهرًا على الناس موبخًا لهم.

الثاني عشر: قال عيسى عليه السلام: "«إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ."

وهذا ينافي إرادة الروح النازل يوم الدار؛ لأنه ما زاد حكمًا على أحكام عيسى عليه السلام، لأنه على زعم أهل التثليث كان أمر الحواريين بعقيدة التثليث وبدعوة أهل العالم كله، فأي أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قال لهم إلى زمان صعوده؟!

الثالث عشر: أن عيسى عليه السلام قال: "لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ".

وهذا يدل على أن المعزي (فارقليط) يكون بحيث يكذبه بنو إسرائيل، فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول، ولا مجال لمظنة التكذيب في حق الروح النازل يوم الدار، على أن هذا الروح عندهم عين الله فلا معنى لقوله "بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ". فمصداقه محمد ﷺ ، فإنه كان في حقه مظنة التكذيب وليس هو عين الله، وكان يتكلم بما يوحى إليه كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣، ٤).

وقال ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الأنعام: ٥٠). [١]

الرابع عشر: ومما يدل أيضا على أن المعزي غير الروح القدس أن يوحنا استعمل في حديثه عن البارقليط أفعالًا حسية (الكلام، والسمع، والتوبيخ) في قوله: " بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ " وهذه الصفات لا تنطبق على الألسنة النارية التي هبت على التلاميذ يوم الخمسين؛ إذ لم ينقل أن الألسنة النارية تكلمت يومذاك بشيء، وأما الروح فغاية ما يصنعه إنما هو الإلهام القلبي، وأما الكلام فهو صفة بشرية، لا روحية.

وقد فهم أوائل النصارى قول يوحنا بأنه بشارة بكائن بشري، وادَّعى مونتنوس في القرن الثاني (١٨٧م) أنه البارقليط القادم، ومثله صنع ماني في القرن الرابع فادعَّى أنه البارقليط، وتشبه بالمسيح فاختار اثنا عشر تلميذًا وسبعين أسقفًا أرسلهم إلى بلاد المشرق، ولو كان فهمهم للبارقليط أنه الأقنوم الثالث لما تجرؤوا على هذه الدعوى. [٢]

البشارة رقم(٦)

ورد في متّى (١٧: ١٠ – ١٢): " ١٠وَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «فَلِمَاذَا يَقُولُ الْكَتَبَةُ: إِنَّ إِيلِيَّا يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ أَوَّلاً؟ » ١١فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ إِيلِيَّا يَأْتِي أَوَّلاً وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ. ١٢وَلكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا قَدْ جَاءَ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، بَلْ عَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوا. كَذلِكَ ابْنُ الإِنْسَانِ أَيْضًا سَوْفَ يَتَأَلَّمُ مِنْهُمْ».

التعليق على البشارة:

وقد فسروا إلياء بأنه نبيّ. وقد ذكر: " إِنَّ إِيلِيَّا قَدْ جَاءَ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ ". فلا بدَّ من الوفاء بقول المسيح عليه السلام إن إلياء يأتي ويُعلِّم الناس كلّ شيء، ولم يأتِ بعد المسيح من علَّم الناس كلّ شيء من أمر الدنيا والآخرة سوى محمّد رسول الله ﷺ . [٣]

---

(١) انظر: إظهار الحق (٤/ ١١٩١ – ١١٩٧) بتصرف يسير.

(٢) هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ ؟ (ص ١٢٣)، وبشائر عيسى ومحمد في العهد القديم والعهد الجديد، محمد توفيق صدقي (ص ١٣٦ – ١٣٨).

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٧١٤)

البشارة رقم(٧)

ورد في متى (١١: ١١ – ١٥): "١١اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ، وَلكِنَّ الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ. ١٢وَمِنْ أَيَّامِ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ إِلَى الآنَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ، وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ. ١٣لأَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ وَالنَّامُوسَ إِلَى يُوحَنَّا تَنَبَّأُوا. ١٤وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا، فَهذَا هُوَ إِيلِيَّا الْمُزْمِعُ أَنْ يَأْتِيَ. ١٥مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ. "

التعليق على البشارة:

قوله " الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ " هو إيلياء المزمع أن يأتي، الذي تنبأ به الأنبياء، نبيًا تلو نبي، وكان آخرهم يوحنا المعمدان.

فمن هو إيليّا، الأصغر في ملكوت السماوات؟

إنه محمدٌ رسول الله ﷺ الذي صغُر بتأخره في الزمان عن سائر الأنبياء، لكنه فاقهم جميعًا باكتمال رسالته ورضا الله بدينه دينًا خاتمًا إلى قيام الساعة، فإن لم يكن محمدًا ﷺ فمن ذا يكون؟

ولا يمكن لنصرانّي أن يدّعي بأن عيسى هو آخر الرسل والأنبياء؛ لإيمانهم برسالة تلاميذه؛ بل وغيرهم كبولس، كما لم تكمل رسالته عليه السلام بدليل التعديل والنسخ الذي أجراه الحواريّون عليها في المجمع الأورشليمي الأول بزعم التيسير على المتنصّرين، فأبطلوا الختان، وأحلوا بعض محرمات التوراة.

وعليه فلا تصدق على المسيح عليه السلام كلمة " الأصغر "، لأنه ليس آخر الأنبياء، كما أنه لم يصرح ولا يفهم أنه كان يتحدث عن نفسه حين قال: " وَلكِنَّ الأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ. . . . ١٣لأَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ وَالنَّامُوسَ إِلَى يُوحَنَّا تَنَبَّأُوا. ١٤وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا، فَهذَا هُوَ إِيلِيَّا الْمُزْمِعُ أَنْ يَأْتِيَ. ١٥مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ. (متّى ١١: ١١– ١٥).

وهذا الأصغر إنما يأتي في ملكوت السماوات التي لم تكن قد قامت يومذاك، وهو مزمع

أن يأتي ولمّا يأتِ بعدُ، إنه محمدٌ ﷺ . (١)

البشارة رقم (٨)

قال يحيى بن زكريا عليه السلام لأصحابه: " ١١أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. " (متّى ٣: ١١، مرقص ١: ٧، لوقا ٣: ١٦، يوحنّا ١: ٢٦ – ٢٧).

التعليق على البشارة:

وما ذلك إلاّ محمّد ﷺ . ولا يليق أن يكون المسيحُ أصلًا؛ لأن المسيح جاء مع يحيى لا بعده. فيحيى أكبر منه بستة أشهر لا غيرُ كما نطق به الإنجيل. (٢)

البشارة رقم (٩)

ورد في إنجيل يوحنّا (٤: ١٩ – ٢١):

" ١٩قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ! ٢٠آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هذَا الْجَبَلِ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ». ٢١قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ، لاَ فِي هذَا الْجَبَلِ، وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ. "

التعليق على البشارة:

وهذا القول من المسيح عليه السلام تنويهٌ بأمر الكعبة. فإن التوجه إليها على يد محمّد ﷺ نسخُ مَا عدَاها. وصار السجود لله تعالى لا في أورشليم ولا في غيرها؛ بل إلى جهة الكعبة لا غيرُ، قال تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (البقرة: ١٤٤). (٣)

البشارة رقم(١٠)

---

(١) انظر:هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ منقذ السقار (١١٧ – ١١٨).

(٢) إنجيل لوقا الإصحاح الأوّل. وانظر تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٧١٥).

(٣) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٧١٣).

ورد في إنجيل متى (٨: ١١ – ١٢): " ١١وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، ١٢وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ».

التعليق على البشارة:

وذلك القول من المسيح تنويهٌ بأمة محمّد ﷺ ؛ إذ ليسُوا من الذين خاطبهم المسيح عليه السلام بهذا الكلام، فهم الذين يكونون في رفقة إبراهيم وإسحاق ويعقوب. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران: ٦٨). [1]

البشارة رقم (١١)

ورد في رسالة يوحنّا الأولى (٤: ١ – ٤): " ١أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لاَ تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ، بَلِ امْتَحِنُوا الأَرْوَاحَ: هَلْ هِيَ مِنَ اللهِ؟ لأَنَّ أَنْبِيَاءَ كَذَبَةً كَثِيرِينَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالَمِ. ٢بِهذَا تَعْرِفُونَ رُوحَ اللهِ: كُلُّ رُوحٍ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَهُوَ مِنَ اللهِ، ٣وَكُلُّ رُوحٍ لاَ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ. وَهذَا هُوَ رُوحُ ضِدِّ الْمَسِيحِ الَّذِي سَمِعْتُمْ أَنَّهُ يَأْتِي، وَالآنَ هُوَ فِي الْعَالَمِ. "

التعليق على البشارة:

لقد شهد الحواريّ بأنّ محمّدًا ﷺ من عند الله؛ لأنّ محمّدًا قد آمن أن المسيح قد جاء وكان جسدانيًا، فأما اليهود فلم يؤمنوا بالمسيح ولا كثير من أهل ذلك الزمان. واليهود إلى الآن في انتظار مسيح آخر. ولا مسيح يأتي سوى المسيح الدجّال الكذّاب الذي حذرت منه الأنبياء عليهم السلام.

فهذا الحواريّ يوحنّا قد شهد بصدق محمّد ﷺ وأمته، وأن اعتقادهم في المسيح هو الاعتقاد الحقّ، وقد أكذب النصارى بقوله هذا في دعوى ربوبية المسيح؛ إذ فرّق في قوله بين الله وبين المسيح. وشهد أن الله غيرُه وأنهُ غيرُ الله. [1]

---

(١) انظر: المصدر السابق.

البشارة رقم (١٢).

ورد في رسالة بطرس الأولى (٤: ١٧):

" ١٧لأَنَّهُ الْوَقْتُ لابْتِدَاءِ الْقَضَاءِ مِنْ بَيْتِ الله. "

التعليق على البشارة:

فبيت الله الذي ذكره الحواريُّ هو الكعبة شرّفها الله. ومنها كان ابتداء الحكم الجديد. ولا يحسُن تنْزيل هذا الكلام على بيت المقدس؛ لأن حكم ذاك كان مستمرًا عند صدور هذا الكلام من شمعون. ولا يليق إلاّ بشرع جديد ولا يقال فيما كان مستمرًا إنه قد حان أن يبتدأ. [٢]

البشارة رقم (١٣).

ورد في رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية (٤: ٢٢ – ٢٦): "٢٢فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ كَانَ لإِبْرَاهِيمَ ابْنَانِ، وَاحِدٌ مِنَ الْجَارِيَةِ وَالآخَرُ مِنَ الْحُرَّةِ. ٢٣لكِنَّ الَّذِي مِنَ الْجَارِيَةِ وُلِدَ حَسَبَ الْجَسَدِ، وَأَمَّا الَّذِي مِنَ الْحُرَّةِ فَبِالْمَوْعِدِ. ٢٤وَكُلُّ ذلِكَ رَمْزٌ، لأَنَّ هَاتَيْنِ هُمَا الْعَهْدَانِ، أَحَدُهُمَا مِنْ جَبَلِ سِينَاءَ، الْوَالِدُ لِلْعُبُودِيَّةِ، الَّذِي هُوَ هَاجَرُ. ٢٥لأَنَّ هَاجَرَ جَبَلُ سِينَاءَ فِي الْعَرَبِيَّةِ. وَلكِنَّهُ يُقَابِلُ أُورُشَلِيمَ الْحَاضِرَةَ، فَإِنَّهَا مُسْتَعْبَدَةٌ مَعَ بَنِيهَا. ٢٦وَأَمَّا أُورُشَلِيمُ الْعُلْيَا، الَّتِي هِيَ أُمُّنَا جَمِيعًا، فَهِيَ حُرَّةٌ. "

التعليق على البشارة :

لقد أفاد قول بولس هذا أمورًا:

١ – أن إسماعيل وأمه هاجر قد كانا أُوطِنا أرض العرب.

٢– أن جبل سيناء متّصل بوادي العرب.

٣– أن بيت مكّة نظير بيت المقدس بشهادة بولس.

٤ – أن كلاَ الولدين صاحبُ ناموسٍ وشريعةٍ وأحكامٍ وفرائضَ. [٣]

وختامًا: هذا خطاب للعقول السليمة أن تتفكّر وتتأمّل قبل أن تُكذِّب هذا الرسول ﷺ، فهو

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٧١٧).

(٢)المصدر السابق (٧١٧– ٧١٨).

(٣) تخجيل من حرف الإنجيل (٢/ ٧١٨).

المبعوث بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فكمل الله به الرسالة وهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة وفتح برسالته أعينًا عميًا، وآذانا صمًا، وقلوبًا غلفًا، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء وأوضح بها المحجة البيضاء، فبين عن طريقه ﷺ الكفر من الإيمان، والربح من الخسران، والهدى من الضلال، وأهل الجنة من أهل النار، والمتقين من الفجار، فهو المبعوث رحمة للعالمين، ومحجة للسالكين وحجة على الخلائق أجمعين. ولقد نوه الله ﷻ في كتابه الكريم بهذه النعمة العظمى التي امتن بها على هذه الأمة في آيات كثيرة- كما أسلفنا- منها: قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الجمعة: ٢-٤).

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)

وإنما كان إرساله ﷺ إلى الناس أعظم منة امتن بها على عباده؛ لأن في ذلك تخليص من وفقه الله وهداه منهم من العذاب السرمدي، وذلك بسبب الإيمان بالله ورسوله والابتعاد عن كل ما يوجب دخول النار والخلود فيها.

ولذلك فإن الناس أحوج ما يكونون إلى الإيمان بالرسول ﷺ والأخذ بما جاء به من الدين فهم أحوج إلى ذلك من الطعام والشراب؛ بل ومن نفس الهواء الذي يتنفسونه، فإنهم متى فقدوا ذلك فالنار جزاء من كذب بالرسول وتولى عن طاعته كما قال تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ (الليل: ١٤-١٦) أي كذب به وتولى عن طاعته، فهم محتاجون إلى الإيمان بالرسول وطاعته، والأخذ بما جاء به والالتزام بذلك في كل مكان وزمان ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، سرًا وعلانية. فاللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الأمي وصحبه أجمعين.

* * *

الفهـــــــرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد السابع

شبهات علوم القرآن

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

٤

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢ - الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم

للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

شبهات
علوم القرآن

وفيها:

١- شبهة: ادعاؤهم وجود آيات متعارضة في القرآن الكريم.

٢- شبهة حول حفظ الله ﷻ للقرآن، وحديث الداجن.

٣- شبهة حول المتشابه بين آيات القرآن الكريم.

٤- شبهة: ادعاؤهم عدم وجود إعجاز في القرآن الكريم.

٥- شبهة: ادعاؤهم وجود ألفاظ أعجمية في القرآن.

٦- شبهة: التكرار في القرآن.

٧- اختلاف المسلمين في أول ما نزل، وآخر ما نزل من القرآن.

٨- اختلاف المسلمين في المكي والمدني من آيات وسور القرآن.

٩- اختلاف المسلمين في أسباب النزول.

١٠- اختلاف المسلمين في ترتيب السور.

١١- اختلاف المسلمين في عدد سور وآيات القرآن.

١٢- شبهة: الوحي.

١٣- شبهة: القرآن من تأليف النبي ﷺ.

١٤- شبهة: اقتباس القرآن من الشعر.

١٥- شبهة: اقتباس القرآن من ورقة بن نوفل.

١٦- شبهة: اقتباس القرآن من بحيرى.

١٧- شبهة: اقتباس القرآن من التوراة والإنجيل.

١٨- شبهات: الناسخ والمنسوخ.

١٩- الأحرف السبعة، والقراءات.

٢٠- شبهات: جمع القرآن.

١ـ شبهة: ادعاؤهم وجود آيات متعارضة في القرآن الكريم.

نص الشبهة:

يدَّعون وجود تعارض واختلاف بين آيات القرآن الكريم.

و الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: قواعد وتنبيهات مهمة.

الوجه الثاني: طرق دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: قواعد وتنبيهات مهمة.

قبل الخوض في مباحث هذا الفصل نذكر بعض القواعد والتنبيهات والتقييدات المهمة.

أولًا: المقطوع به أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره فلا يجوز أن يكون الله أنزل كلامًا لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه(١).

وهذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وتيسيره للذكر يتضمن أنواعًا من التيسير:

إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ. **الثاني**: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال، ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب، لم يكن ميسرًا له، بل كان معسرًا عليه. (٢)

ثانيًا: المطلوب ممن وقع له إشكال في آيات الكتاب أن يبذل الوسع في دفع الإشكال ورفع الاشتباه، وليحذر من العجلة أو الإقدام على تفسير كتاب الله تعالى بالرأي والقول فيه بلا علم. (٣)

ثالثًا: أشار ابن القيم: إلى أن آيات الأحكام قد تشكل على الناس، ثم قال:

وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية، ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٧/ ٣٩٠) مع تقديم وتأخير.

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٣٣١-٣٢٢).

(٣) مشكل القرآن الكريم (٣٣٨-٣٣٩).

سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ حتى بين لهم بقوله: (من الفجر) ولم يشكل عليه ولا غيره قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وأمثالها من آيات الصفات.
وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة، ولم يشكل عليه أول الحديد، وآخر الحشر، وأول سورة طه، ونحوها من آيات الصفات.[١]

الوجه الثاني: طرق دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم.

الأول: تحرير وجه الإشكال:

إن أول أمر ينبغي أن يسلكه من استشكل عليه آية أن يقف على السبب الذي استشكلت الآية لأجله، ثم يحرره، وذلك بالتعرف على سبب وروده على الآية، وجعلها مشكلة؛ فإذا تبين أن الآية مشكلة فعلًا، بحثنا عن الطريق التي يدفع بها هذا الإشكال.[٢]

الثاني: معرفة سبب النزول:

فمعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[٣] والوقوف على المعنى يزيل الإشكال[٤]، والجهل بأسباب التنزيل موقع في الشُبه والإشكالات ومُورِدٌ للنصوص الظاهرة مَورِدَ الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع، ويوضح هذا المعنى ما روي أبو عبيد عن إبراهيم التيمي قال: خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه: " كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: إنا أُنزل علينا القرآن، فقرأناه، وعلمنا فيما نزل، وأنه سيكون بعدنا أقوامٌ، يقرؤن القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. قال: فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه فأرسل إليه، فقال: أعد عليّ ما قلت، فأعاده عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه.[٥]

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٠).

(٢) مشكل القرآن (٣٤٥).

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٣٩).

(٤) الإتقان (١/ ٨٢).

(٥) الموافقات (٣/ ٢٠٢).

الثالث: رد المتشابه المشكل إلى المحكم، وإلى العالم به مع الإيمان والتصديق:

فلقد أخبرنا الله تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب أي: بينات، واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس، أو بعضهم، فمن ردَّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وأحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس. [١] فما كان من عند الله لا اختلاف فيه ولا تناقض، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره، وهذه هي طريقة الصحابة والتابعين في التعامل مع المحكم والمتشابه. [٢]

الرابع: اعتبار طريقة القرآن وعادته في دفع الإشكال:

ففي كل موضوع يسوق الله فيه حكمًا من الأحكام، أو خبرًا من الأخبار، فيتشوف الذهن إلى شيء آخر، إلا وجدت الله قرن به ذلك الأمر الذي يعلق في الأذهان، فيبينه أحسن بيان، وهذا أعلى أنواع التعليم، الذي لا يُبقي إشكالًا إلا أزاله، ولا احتمالًا إلا أوضحه، وهذا يدل على سعة علم الله وحكمته، وذلك في القرآن الكريم كثير جدًا[٣]، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لا يشك عربي القلب واللسان أن المراد به إثبات الحقيقة. ومنها قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٤٢﴾ [الأعراف: ٤٢]. فرفع توهم السامع أن المكلفين عملوا جميع الصالحات المقدورة والمعجوز عنها، كما يجوزه أصحاب تكليف ما لا يطاق، رفع هذا التوهم بجملة اعترض بها بين المبتدأ وخبره يزيل الإشكال. [٤]

الخامس: جمع الآيات ذات الموضوع الواحد:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٧).

(٢) معالم أصول الفقه للجيزاني (ص١٠٦)، وانظر: فتاوى ابن تيمية (١٧/ ٣٨٦)، والقواعد الحسان للسعدي (صـ٦٨).

(٣) القواعد الحسان للسعدي (صـ٩٧).

(٤) الصواعق المرسلة (١/ ٣٩٠).

وهذا مسلك مهم في دفع الإشكال، ذلك أن ما أُجمل في موطن فإنه قد فسر في موطن آخر، وما اختصر في موضع، فقد بسط في موضع آخر، وقد كان هذا المسلك أحد المناهج النبوية في دفع الإشكال عن الآيات.

فمنه ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: من الآية٨٢): شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه، قال: ليس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"(لقمان: ١٣). [(١)]

فالآيتان أشارتا إلى الظلم، وفسرت إحداهما بالأخرى.

سادسًا: النظر في السياق:

فهذا مما يعين على فهم المعنى عند الإشكال، فإنَّ دلالة السياق ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظرته، وانظر إلى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ (الدخان: ٤٩). [(٢)]

ومن هذا الباب ما أورده الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾(الصافات: ١٣٩-١٤٥).

حيث يقول: وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ وقوله في موضع آخر ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (القلم: ٤٩)فإن هذه الآية تدل على أنه ينبذ بالعراء.

وأجاب النحاس وغيره بأن الله سبحانه أخبر ها هنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم،

---

(١) البخاري (٤٦٢٩).

(٢) البرهان للزركشي (٢/ ٢٠٠)، وانظر: قواعد التفسير جمعًا ودراسة لخالد بن عثمان السبت (٢/ ٦٥٣).

ولولا رحمته ﷻ لنبذ بالعراء وهو مذموم.[١]

سابعًا: تلمس الأحاديث والآثار الصحيحة الدافعة للإشكال:

فلا تخفى منزلة السنة من القرآن الكريم، فهي شارحة للقرآن وموضحة له، ودافعة للإشكال الذي يتوهم في آياته.[٢]

فمما ينبغي أن يُعلم أن القرآن والحديث إذا عُرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك أقوال أهل اللغة[٣]

ولطالب التفسير مآخذ كثيرة، أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن رسول الله ﷺ وهذا هو الطراز الأول، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنه كثير.[٤]

فمن هذا الباب الإشكال الحاصل في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر: ٨٧). حيث يحتمل أن يكون قوله تعالى (سبعًا) من السور، ويحتمل من الآيات، لكن النبي ﷺ قد كشف قناع الإشكال، وأوضح شعاع البيان، ففي الصحيح عند كل فريق ومن كل طريق، أنها أم الكتاب، والقرآن العظيم حسبما تقدم من قول النبي ﷺ لأبي بن كعب: هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيت.[٥]

وبعد هذا فالسبع المثاني كثير، والكل محتمل، والنص قاطع بالمراد، قاطع بمن أراد التكليف والعناد، وبعد تفسير النبي ﷺ فلا تفسير، وليس للمتعرض إلى غيره إلا النكير، وقد كان يمكن لولا تفسير النبي ﷺ أن أحرر في ذلك مقالًا وجيزًا، وأسبك من سنام

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٧٧).

(٢) مشكل القرآن (٣٧٩).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٣٦).

(٤) البرهان للذركشي (٢/ ١٥٦).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٧).

المعارف إبريزًا إلا أن الجوهر الأغلى من عند النبي ﷺ أولى وأعلى.[١]

وحيث تقررت أهمية تفسير النبي ﷺ للقرآن الكريم في دفع الإشكال ورفعه، فلا بد من التحقق من صحة الأحاديث الواردة في ذلك، كما يتعين طرح الضعيف منها، فمن ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره قال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا رَجُلٌ سَمَّاهُ، حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ الْأَشْقَرُ، عَنْ قَيْسٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: " " قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى "، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَمَرَ الله بِمَوَدَّتِهِمْ؟ قَالَ: "فَاطِمَةُ، وَوَلَدَاهَا عَلَيْهِمُ السَّلامُ".[٢]

وهذا إسناد ضعيف مبهم لا يعرف إلا عن شيخ شيعي متحرق، وهو حسين الأشقر ولا يقبل خبره في هذا المحل، وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيد، فإنها مكية، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية للهجرة.[٣]

ثامنًا: استخدام الإعراب في بيان المشكل:

الإعراب به تُميز المعاني ويُوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلًا لو قال: "ما أحسنْ زيد" غيرَ معرب، أو "ضرب عمرْ زيد "غيرَ معرب – لم يوقف على مراده. فإذا قال: "ما أحسنَ زيدًا "، أو: " ما أحسنُ زيدٍ "، أو: " ما أحسنَ زيدٌ "، أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده.[٤]

واستخدم بعض المفسرين الإعراب في بيان المشكل ودفعه، فمن ذلك ما ورد عنهم في قوله تعالى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣).

" فمغفرة " أشكلت على جماعة من المفسرين وفيها ثلاثة أقوال:

الأول: أنها مغفرة من المسئول، واختلف في توجيهها على قولين:

١ – أنها إحسان من المسئول بترك المؤاخذة، أو مقابلة إساءة السائل، إذا وجد منه بعض الجفوة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٣٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير ١٢/ ٢٧١، سورة الشورى ٢٣.

(٤) الصاحبي لابن فارس (٣٠٩).

٢- أن المغفرة بمعنى ستر المسئول على سوء حالة السؤال.

الثاني: إنها مغفرة من السائل، والمعنى: مغفرة، وعفو من السائل إذا رُدّ وتعذر المسئول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

الثالث: أنها مغفرة من الله تعالى، والمعنى مغفرة لكم من الله تعالى بسبب القول المعروف خير من صدقة يتبعها أذى.

قال النحاس: وهذا مشكل يبينه الإعراب[(١)]

أما كيفية بيان الإعراب لهذا الإشكال فيتضح فيما يلي:

- إن قلنا أن كلمة " وَمَغْفِرَةٌ " معطوفة على " قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ " فإن المعنى الأول هو الصحيح، فإن المغفرة على هذا صادرة من المسئول.

- وإن قلنا إن كلمة " مغفرة " مبتدأ، فيتعين المصير إلى القول الثاني أو الثالث؛ لأنه لا وجه للابتداء إلا ذلك، إذا لو كان المراد أن المغفرة صادرة عن المسئول لقلنا بالعطف.[(٢)]

تاسعًا: الجمع بين الآيات بإعمال قواعد الترجيح:

فالجمع بين الآيات لابد منه، ومن طرق الجمع: إعمال قواعد الترجيح، وهذا الترجيح ليس بين الآيات قطعًا، وإنما هو ترجيح بين أقوال المفسرين بحيث نختار القول الراجح، ونترك القول المرجوح.[(٣)]

وعلى العبد أن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن، ولا بين الأخبار النبوية، ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أراه بادئ الرأي إلى ظاهر اختلاف؛ فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف؛ لأن الله قد شهد له أن لا اختلاف فيه، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع، أو المسَلِّم من غير اعتراض "[(٤)]

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٣١٠.

(٢) مشكل القرآن (٣٨٦).

(٣) المصدر السابق (٣٩١).

(٤) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٤٨١) بتصرف يسير.

٢ـ شبهة: حول حفظ الله للقرآن، وحديث الداجن.

نص الشبهة:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، فأثبت الله حفظه للقرآن الكريم كما في الآية، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: أن الداجن دخلت فأكلت صحيفة كُتِبَ فيها آية الرجم والرضاع. فكيف يكون الحفظ؟.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أن الحديث لا يصح، فلا تعارض حينئذ.

الوجه الثاني: على القول بتحسينه، فالجواب عليه من هذه الوجوه:

الأول: الحفظ كان في صدور الرجال، وعائشة ليست وحدها عندها الأوراق.

الثاني: تفسير أهل العلم لمعنى الحفظ في الآية.

الثالث: أن الله عز وجل هو الذي تولى حفظ القرآن بنفسه دون سائر الكتب.

الوجه الثالث: إثبات أن كتبهم محرفة بالزيادة والنقص.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن الحديث لا يصح، فلا تعارض حينئذ.

ونصه: (لما نَزَلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ وَرَضَاعَةُ الْكَبِيرِ عَشْرًا، فَلَقَدْ كَانَتْ فِي صَحِيفَةٍ تَحْتَ سريري، فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شُغِلْنَا بِمَوْتِهِ، فَدَخَلَ الدَّاجِنُ فَأَكَلَهَا)[1].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٥٦٩) من حديث جعفر بن حميد الكوفي، والدارقطني (٤٣٣٠)، ومن طريقه البيهقي في المعرفة (١٥٤٦٨) من حديث محمد بن يحيى القطعي، وابن ماجه (١٩٤٤)، والطبراني في الأوسط (٧٨٠٥)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٢٣٥)، من حديث يحيى بن خلف، ثلاثتهم (جعفر ـ ومحمد ـ ويحيى) عن عبد الأعلى: قال حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة الحديث.

وأخرجه أحمد (٦/ ٢٦٩)من حديث إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق، قال حدثني عبد الله به.

وأخرجه ابن الجوزي في الناسخ والمنسوخ (١٨٨)من حديث ابن أبي داود، حدثنا عبد الله بن سعد قال حدثني عمر قال حدثني أبي عن محمد ابن إسحاق قال حدثني عبد الله به. . . .

وأخرجه أبو يعلى (٤٥٨٨) والدار قطني (٤٣٣٠)، وابن ماجه (١٩٤٤)، والطبراني في الأوسط (٧٨٠٥)، وابن حزم (١١/ ٢٣٥) عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: قالت عائشة. . . . الحديث.

وقد تكلم أهل العلم على هذا الحديث، وإليك بعض من تكلم فيه:

قال ابن قتيبة: بعد ما ذكر حديث الداجن: وقد رجم رسول الله ﷺ، ورجم الناس بعده وأخذ بذلك الفقهاء. وأما رضاع الكبير عشرًا، فنراه غلطًا من محمد بن إسحاق، ولا نأمن أيضًا أن يكون الرجم الذي ذكر أنه في هذه الصحيفة كان باطلًا؛ لأن رسول الله ﷺ قد رجم ماعز بن مالك، وغيره قبل هذا الوقت، فكيف ينزل عليه مرة أخرى، ولأن مالك بن أنس

ومدار الحديث على محمد بن إسحاق، فمرة يرويه عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، ومرة يرويه عن عبد الرحمن بن القاسم، وقد خولف ممن هو أثبت منه.

خالفه مالك بن أنس كما أخرجه مالك في الموطأ (١٢٧٠ - كتاب الرضاع، باب جامع ما جاء في الرضاعة) عن ابن أبي بكر عن عمرة عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس رضعات معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهو مما يقرأ من القرآن».

وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٧)وابن ماجه (١٩٤٢)من حديث عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عمرة به.

وأخرجه مسلم (١٤٥٢)، وعبد الرزاق (١٣٩١٣)، والدارقطني (٤٣٣٨)، والشافعي في المسند (٣٠٧)، والبيهقي (٧/ ٤٥٤) من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري عن عمرة عن عائشة ولفظه أنها كانت تقول: " نزل القرآن بعشر رضعات معلومات يحرمن، ثم صرن إلى خمس يحرمن، فكان لا يدخل على عائشة إلا من استكمل خمس رضعات " ولفظ حديث القاسم " كان فيما أنزل من القرآن، ثم سقط لا يحرم إلا عشر رضعات أو خمس معلومات "وليس فيه ذكرٌ للداجن ولا هذه الصحيفة، وأيضًا فإن حماد بن سلمة خالفه فرواه عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عمرة عن عائشة أنها قالت: " كان فيما أنزل الله من القرآن ثم سقط لا يحرم إلا عشر رضعات أو خمس معلومات".

أخرجه ابن ماجه (١٩٤٢)والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٧).

ومحمد بن إسحاق دون مالك وحمادٍ بكثير، خاصة وقد تكلم فيه أهل العلم بكلام كثير، وانظره إن شئت في تهذيب الكمال (٢٤/ ٤٠٥: ٤٢٨) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ ١٩١: ١٩٤).

قال الذهبي: وأما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن إلا فيما شذ فيه فإنه يعد منكرًا. سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١).

وقال أيضًا: فالذي يظهر لي أن ابن إسحاق: حسن الحديث، صالح الحال، صدوق، وما انفرد به ففيه نكارة؛ فإنَّ في حفظه شيئًا. ميزان الاعتدال (٣/ ٤٧٥).

فدلت المخالفة على شذوذ ابن إسحاق في الرواية، ولم يذكر الداجن سواه، وهو من قد علمت في سوء حفظه، وقد انفرد بهذا اللفظ ولم يأت به أحد سواه، فالزيادة شاذة لا تعتمد.

روى هذا الحديث بعينه عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات يحرمن، فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن)، إلى أن قال: " وألفاظ حديث مالك خلاف ألفاظ حديث محمد بن إسحاق. ومالك أثبت عند أصحاب الحديث من محمد بن إسحاق[1].

قال السرخسي: وحديث عائشة لا يكاد يصح؛ لأنه قال في ذلك الحديث: وكانت الصحيفة تحت السرير فاشتغلنا بدفن رسول الله ﷺ، فدخل داجنٌ البيتَ فأكله، ومعلوم أن بهذا لا ينعدم حفظه من القلوب، ولا يتعذر عليهم إثباته في صحيفة أخرى؛ فعرفنا أنه لا أصل لهذا الحديث". [2]

وقال أيضا: أما حديث عائشة رضي الله عنها فضعيف جدًا؛ لأنه إذا كان متلوا بعد رسول الله، ونسخ التلاوة بعد رسول الله ﷺ لا يجوز فلماذا لا يتلى الآن؟! وذُكر في الحديث (فدخل داجن البيت فأكله)، وهذا يقوي قول الروافض الذين يقولون: كثير من القرآن ذهب بعد رسول الله ﷺ فلم يثبته الصحابة رضي الله عنهم في المصحف وهو قول باطل بالإجماع[3].

قال ابن حزم: وقد غلط قوم غلطًا شديدًا، وأتوا بأخبار ولَّدها الكاذبون والملحدون، منها أن الداجن أكل صحيفة فيها آية متلوة فذهب البتة.

إلى أن قال: وهذا كله ضلال نعوذ بالله منه ومن اعتقاده، وأما الذي لا يحل اعتقاد سواه فهو قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، فمن شك في هذا كفر، ولقد أساء الثناء على أمهات المؤمنين، ووصفهن بتضييع ما يتلى في بيوتهن؛ حتى تأكله الشاة فيتلف، مع أن هذا كذب ظاهر، ومحال ممتنع؛ لأن الذي أكل الداجن لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون رسول الله ﷺ حافظًا له، أو كان قد أنسيه، فإن كان في حفظه، فسواء أكل الداجن الصحيفة أو تركها، وإن كان رسول الله ﷺ قد أنسيه، فسواء أكله الداجن أو تركه قد

(١) تأويل مختلف الحديث (٣١٥: ٣١٤).

(٢) أصول السرخسي (٢ / ٨٠).

(٣)المبسوط للسرخسي (٥ / ١٣٤).

رفع من القرآن، فلا يحل إثباته فيه. كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾. فنص تعالى على أنه لا ينسى أصلا شيئا من القرآن، إلا ما أراد تعالى رفعه بإنسائه، فصح أن حديث الداجن إفك وكذب وفرية، ولعن الله من جوّز هذا أو صدَّق به، بل كل ما رفعه الله تعالى من القرآن فإنما رفعه في حياة النبيﷺ، قاصدًا إلى رفعه، ناهيًا عن تلاوته إن كان غير منسي، أو ممحوًا من الصدور كلها. ولا سبيل إلى كون شيء من ذلك بعد موت رسول الله ﷺ، ولا يجيز هذا مسلم؛ لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾. ولكان ذلك أيضا تكذيبا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ولكان ما يرفع منه بعد مو ت رسول الله ﷺ خرما في الدين، ونقصًا منه، وإبطالا للكمال المضمون. ولكان ذلك مبطلًا لهذه الفضيلة التي خصصنا بها، والفضائل لا تنسخ. [١].

قال القرطبي: وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة، كانت في صحيفةٍ في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض. [٢].

قال ابن عاشور: ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف، فإنه لو صدق هذا؛ لكانت هذه الصحيفة قد هلكت في زمن النبي ﷺ أو بعده، والصحابة متوافرون، وحفاظ القرآن كثيرون، فلو تلفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ، وكون القرآن قد تلاشى منه كثير هو أصل من أصول الروافض ليطعنوا به في الخلفاء الثلاثة، والرافضة يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر فهو الذي يأتي بالقرآن وقر بعير[٣].

الوجه الثاني: على القول بتحسين الحديث، أو من قال بصحته فيجاب عليه أيضًا بهذه الوجوه:

الأول: أن عائشة ليست وحدها عندها الأوراق، والحفظ كان في صدور الرجال:

وهذا أيضا لا حجة فيه؛ فإن مصاحف المسلمين كثيرة، والدواجن إذا أكلت ورقة لا

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٩٢: ٤٩١).

(٢) تفسير القرطبي (١٤ / ١١٢) وبنحوه قال الزمخشري في الكشاف (٣/ ٥١٨).

(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٤٧.

نستطيع إذهاب آيات القرآن من صدور مئات آلاف المسلمين، وليست عائشة وحدها عندها أوراق من القرآن، ولم تكن من كتبة الوحي المتخصصين في كل آية تنزل على النبي ﷺ.

قال ابن حزم: وهذا حديث صحيح، وليس هو على ما ظنوا؛ لأن آية الرجم إذ نزلت حفظت، وعرفت، وعمل بها رسول الله ﷺ إلا أنه لم يكتبها نساخ القرآن في المصاحف، ولا أثبتوا لفظها في القرآن. وقد سأله عمر بن الخطاب ذلك كما أوردنا، فلم يجبه رسول الله ﷺ إلى ذلك فصح نسخ لفظها، وبقيت الصحيفة التي كتبت فيها كما قالت عائشة رضي الله عنها: فأكلها الداجن، ولا حاجة بأحد إليها، وهكذا القول في آية الرضاعة ولا فرق، وبرهان هذا أنهم قد حفظوها كما أوردنا، فلو كانت مثبتة في القرآن لما منع أكل الداجن للصحيفة من إثباتها في القرآن من حفظهم.

فبيقين ندري أنه لا يختلف مسلمان في أن الله تعالى افترض التبليغ على رسوله ﷺ، وأنه ﷺ قد بلغ كما أُمر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦).

فصح أن الآيات التي ذهبت لو أُمر رسول الله ﷺ بتبليغها لبلَّغها، ولو بلَّغها لحُفظت، ولو حفظت ما ضرها موته، كما لم يضر موته ﷺ كل ما بلغ فقط من القرآن، وإن كان ﷺ لم يبلغ، أو بلغه فأنسيه هو والناس أو لم ينسوه، لكن لم يأمر عليه السلام أن يُكتب في القرآن، فهو منسوخ بيقين من عند الله تعالى لا يحل أن يضاف إلى القرآن[1].

الثاني: تفسير أهل العلم لمعنى الحفظ في الآية.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وهو القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه، والهاء في قوله: (لَهُ) من ذكر الذكر.

---

(١) المحلى ١١/ ٢٣٦، راجع كلامه في الإحكام١/ ٤٩٢: ٤٩١.

ثم ذكر بإسناده إلى قتادة﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ قال: حفظه الله من أن يزيد فيه الشيطان باطلا أو ينقص منه حقا، وقيل: الهاء في قوله﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾من ذكر محمد ﷺ بمعنى: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه(١).

قال ابن كثير: ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ على النبي ﷺ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق(٢).

قال الماوردي: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ قال الحسن والضحاك يعني: القرآن.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فيه قولان:

أحدهما: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه، حكاه ابن جرير.

الثاني: وإنا للقرآن لحافظون.

وفي هذا الحفظ ثلاثة أوجه:

أحدها: حفظه حتى يجزى به يوم القيامة، قاله الحسن.

الثاني: حفظه من أن يزيد فيه الشيطان باطلًا، أو يزيل منه حقًا، قاله قتادة.

الثالث: إنا له لحافظون في قلوب من أردنا به خيرًا، وذاهبوان به من قلوب من أردنا به شرًّا(٣).

قال القِنوجي: ثم أنكر سبحانه على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم المذكور، فقال سبحانه: "إنا نحن نزلنا الذكر" الذي أنكروه، ونسبوك بسببه إلى الجنون وهو القرآن، واعتقدوا أنه مختلق من عندك، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف، وتحريف، وزيادة، ونقص، ونحو ذلك. فالقرآن محفوظ من هذه الأشياء كلها، لا يقدر واحد من جميع الخلق من الإنس والجن أن يزيد فيه أو ينقص منه حرفًا واحدًا أو كلمة واحدة.

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ٨.

(٢) تفسير ابن كثير٨/ ٢٤٦.

(٣) النكت والعيون٣/ ١٤٩.

وهذا مختص بالكتاب العزيز بخلاف سائر الكتب المنزلة، فإنه قد دخل على بعضها تلك الأشياء، ولما تولَّى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصونًا على الأبد، محروسًا من الزيادة والنقصان وغيرهما، وفيه دليل على أنه مُنزّل من عنده آية إذ لو كان من البشر لتطرق إليه الزيادة والنقصان كما يتطرق إلى كل كلام سواه، وقيل: المعنى نزله محفوظًا من الشياطين، وقيل: حفظه بأن جعله معجزة باقية إلى آخر الدهر، وقيل: حفظه من المعارضة، فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارض ولو بأقصر آية.

وقيل: أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه، فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه، ويذبون عنه إلى آخر الدهر؛ لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده، فلم يقدروا على ذلك بحمد الله. ومن أسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في أبواب إفساده، وإبطاله، وتحريفه، وتصحيفه، وزيادته، ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان وأصول الحديث والفقه والتفسير، وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشأن.

وعن عياض عن النبي ﷺ عن ربه تعالى: وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ[1]. [2]

قال الرازي: وفيه مسائل:

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان:

القول الأول: أنه عائد إلى الذكر، يعني: وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ (فصلت: ٤٢) وقال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

---

(١) مسلم (٢٨٦٥). قال النووي: أَمَّا قَوْله تَعَالَى: { لَا يَغْسِلهُ الْمَاء } فَمَعْنَاهُ: مَحْفُوظ فِي الصُّدُور، لَا يَتَطَرَّق إِلَيْهِ الذَّهَاب، بَلْ يَبْقَى عَلَى مَرّ الْأَزْمَان. وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى "تَقْرَأهُ نَائِمًا وَيَقْظَان "، فَقَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ يَكُون مَحْفُوظًا لَك فِي حَالَتَيْ النَّوْم وَالْيَقَظَة، وَقِيلَ: تَقْرَأهُ فِي يُسْر وَسُهُولَة. شرح النووي٩/ ٢١٧.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (٧/ ١٤٨: ١٤٩).

والقول الثاني: أن الكناية في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ راجعة إلى محمد ﷺ، والمعنى: وإنا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء، وقوّى ابن الأنباري هذا القول فقال: لما ذكر الله الإنزال، والمنزل دل ذلك على المنزل عليه؛ فحسنت الكناية عنه؛ لكونه أمرًا معلومًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ (القدر: ١) فإنَّ هذه الكناية عائدة إلى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره، وإنما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا، إلا أن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: إذا قلنا الكناية عائدة إلى القرآن، فاختلفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن؟ قال بعضهم: حفظه بأن جعله معجزًا مباينًا لكلام البشر؛ فعجز الخلق عن الزيادة فيه، والنقصان عنه؛ لأنهم لو زادوا فيه، أو نقصوا عنه؛ لتغير نظم القرآن، فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن، فصار كونه معجزًا، كإحاطة السور بالمدينة؛ لأنه يحصنها ويحفظها. وقال آخرون: إنه تعالى صانه وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته. وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف. وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحدًا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى، حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات.

وأيضًا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظًا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبًا من ستمائة سنة فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك أيضًا معجزًا قاهرًا[1].

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٦١: ١٦٠، البحر المحيط(٥/ ٤٣٥)، الفتوحات الإلهية(٢/ ٥٣٩).

الثالث: أن الله هو الذي تولى حفظ القرآن الكريم بنفسه، دون سائر الكتب.

فإن الله سبحانه لم يحفظ كتابًا من الكتب كذلك، بل استحفظها جل وعلا الربانيين والأحبار فوقع فيها ما وقع، وتولى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظًا أولًا وآخرًا، فقد أنزل الله ﷻ القرآن على قلب النبي ﷺ، وتكفل الله بجمعه في قلب النبي ﷺ وعدم نسيانه إياه، وأرشده إلى عدم الاستعجال في هذا الأمر، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة١٩: ١٦).

قال ابن كثير: هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[1].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ فَكَانَ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْهُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ أَخْذَهُ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ فَتَقْرَؤُهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ قَالَ أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ[2].

وتكفل الله بعدم نسيانه إياه، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى٧: ٦)، والمعنى: سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه إلا ما شاء الله، ومعنى الاستثناء في هذا الموضع على النسيان، ومعنى الكلام: فلا تنسى إلا ماشاء الله أن تنساه وتذكره، وهذا ما نسخه الله من القرآن، فرفع حكمه وتلاوته، وقيل: معنى النسيان في هذا الموضع الترك، والمعنى:

---

(١) تفسير ابن كثير(١٤/ ١٩٦).

(٢) البخاري (٤٩٢٩)، مسلم (٤٤٨) واللفظ له.

سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما ننسخه.

قال الطبري: والقول الذي هو أولى بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه؛ وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك أظهر معانيه(١).

هذا في جانب القرآن الكريم وحفظه من رب العالمين، أما سائر الكتب فقد وكّل الله حفظها لأهلها فحرفوا فيها وغيروا، وهذا شأنهم، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (المائدة: ١٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ٤٤).

قال ابن كثير: قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلا وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه. والصحيح أنها نزلت في اليهوديَّيْن اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحْصن منهم، فحرَّفوا، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك(٢).

وفي الصحيحين من حديث عَبْدِ الله بْنَ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودَ، فَقَالَ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟ قَالُوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا، وَنُحَمِّلُهُمَا، وَنُخَالِفُ بَيْنَ وُجُوهِهِمَا، وَيُطَافُ بِهِمَا. قَالَ: فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَجَاءُوا بِهَا فَقَرَءُوهَا حَتَّى إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٥٤، تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٠: ٢١٩.

رَسُولِ اللهِ ﷺ: مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَا. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنْ الْحِجَارَةِ بِنَفْسِهِ(١).

فهذا دليل واضح في التحريف والتبديل، فلأجل ذلك تكفل رب العزة سبحانه بحفظ كتابه الكريم.

وقد أخرج القرطبي بسنده إلى يحيى بن أكثم قال: كان للمأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي، حسن الثوب، حسن الوجه، طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما أن تقوض المجلس، دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال نعم. قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف.

قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلمًا، قال: فتكلم على الفقه، فأحسن الكلام، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك، فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما تراني حَسَنُ الخَطِّ، فعمدت إلى التوراة، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها، ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشتُريت منى، وعمدت إلى الإنجيل، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها، ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتُريت منى، وعمدت إلى القرآن، فعملت ثلاث نسخ، وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان؛ رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنة، فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لى: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل، قال قلت: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: " بما استحفظوا من كتاب الله "، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عز وجل: " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"، فحفظه الله ﷻ علينا فلم يضع(٢).

الوجه الثالث: إثبات أن كتبهم مليئة بالتحريف إما بالزيادة أو النقصان.

(١) البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩) واللفظ له.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ١٠.

١ـ إثبات التحريف بالزيادة:

ما ورد في قصة شفاء المسيح عليه السلام للرجل المجنون، فيلاحظ أن هذه القصة وردت بنفس التفاصيل في مرقس وفي لوقا وفي متّى، إلا أن متّى قد زاد فيها، فجعل بدلًا من كونه مجنونًا واحدًا فقد ضاعفه إلى اثنين. وفيما يلي نص هذه الشواهد:

مرقس (٥/ ٢): وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ اسْتَقْبَلَهُ مِنَ الْقُبُورِ إِنْسَانٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ، كَانَ مَسْكَنُهُ فِي الْقُبُورِ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَرْبِطَهُ وَلاَ بِسَلاَسِلَ.

(لوقا ٨/ ٢٧): وَلَمَّا خَرَجَ إِلَى الأَرْضِ اسْتَقْبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ كَانَ فِيهِ شَيَاطِينُ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ، وَكَانَ لاَ يَلْبَسُ ثَوْبًا، وَلاَ يُقِيمُ فِي بَيْتٍ، بَلْ فِي الْقُبُورِ.

(متى ٨/ ٢٨): وَلَمَّا جَاءَ إِلَى الْعَبْرِ إِلَى كُورَةِ الْجِرْجَسِيِّينَ، اسْتَقْبَلَهُ مَجْنُونَانِ خَارِجَانِ مِنَ الْقُبُورِ هَائِجَانِ جِدًّا، حَتَّى لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَجْتَازَ مِنْ تِلْكَ الطَّرِيقِ.

وفي قصة الأعمى الذي طلب الشفاء فشُفي وعاد إليه بصره، وقد تكررت هذه القصة في كل من مرقس ولوقا ومتّى، ولكن متّى قد زاد العدد، فجعل بدلًا من الأعمى الواحد أعميين اثنين، وهذه هي النصوص:

(مرقس ١٠/ ٤٦): وَجَاءُوا إِلَى أَرِيحَا. وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ أَرِيحَا مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَجَمْعٍ غَفِيرٍ، كَانَ بَارْتِيمَاوُسُ الأَعْمَى ابْنُ تِيمَاوُسَ جَالِسًا عَلَى الطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي.

(لوقا١٨/ ٣٥): وَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرِيحَا كَانَ أَعْمَى جَالِسًا عَلَى الطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي.

(متى٢٠/ ٢٩): وَفِيمَا هُمْ خَارِجُونَ مِنْ أَرِيحَا تَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ، وَإِذَا أَعْمَيَانِ جَالِسَانِ عَلَى الطَّرِيقِ.

وعندما سأل المسيح التلاميذ عن الكيفية التي يعرّفون الناس به اختلفت الألفاظ بالزيادة، وإليك النصوص:

(مرقس٨/ ٣٠: ٢٧): ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ إِلَى قُرَى قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ. وَفِي الطَّرِيقِ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قَائِلًا لَهُمْ: «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابُوا: «يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ. وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا. وَآخَرُونَ: وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ». فَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ الْمَسِيحُ! » فَانْتَهَرَهُمْ كَيْ لاَ يَقُولُوا لأَحَدٍ عَنْهُ.

(متى١٦/ ٢٠: ١٣): ٣ وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى نَوَاحِي قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قِائِلًا: «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟ » فَقَالُوا: «قَوْمٌ: يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ، وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا، وَآخَرُونَ: إِرْمِيَا أَوْ وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ»قَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ! ».

٢ـ إثبات التحريف بالنقصان:

(سفر التكوين٧/ ١٧): وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الأَرْضِ.

وهذه الجملة في كثير من نسخ اللاتينية، وفي الترجمة اليونانية هكذا: وصار الطوفان أربعين وليلة على الأرض.

(سفر الخروج٦/ ٢٠): فَوَلَدَتْ لَهُ هَارُونَ وَمُوسَى.

وفي النسخة السامرية والترجمة اليونانية هكذا: فولدت له هارون وموسى ومريم أختهما.

(سفر التكوين٣٥/ ٢٢): وَحَدَثَ إِذْ كَانَ إِسْرَائِيلُ سَاكِنًا فِي تِلْكَ الأَرْضِ، أَنَّ رَأُوبَيْنَ ذَهَبَ وَاضْطَجَعَ مَعَ بِلْهَةَ سُرِّيَّةِ أَبِيهِ، وَسَمِعَ إِسْرَائِيلُ.

قال جامعو تفسير هنري وإسكات: إن اليهود يسلمون أن شيئا سقط من هذه الفقرة، وتتمته من الترجمة اليونانية هكذا: (وكان قبيحًا في نظره).

فاليهود أيضًا معترفون بالسقوط، فسقوط الجملة من النسخة العبرانية ليس بمستبعد عند أهل الكتاب فضلًا عن سقوط حرف أو حرفين. [١]

* * *

(١) وانظر تفصيل ذلك في مبحث (تحريف الكتاب المقدس) من هذه الموسوعة.

٣ـ شبهة: حول المتشابه بين آيات القرآن.

والباعث على البحث في هذا هو الجواب على شبهة: (أن القرآن إنما أنزل للهدى والبيان، فكيف اشتمل على المتشابه؟

والجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: فوائد وجود المتشابه إن كان مما يمكن علمه.

الوجه الثاني: فوائد وجود المتشابه إن كان مما لا يمكن علمه.

الوجه الثالث: الأسباب الموهمة للاختلاف في القرآن الكريم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فوائد وجود المتشابه إن كان مما يمكن علمه.

أولًا: يحُث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائق معانيه، فإنَّ استدعاء الهمم؛ لمعرفة ذلك من أعظم القرب، وحذرًا مما قال المشركون ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف: ٢٢). [١]، فإنه مع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة. [٢]

ثانيًا: إظهار فضل العالم على الجاهل، ويستدعيه علمه إلى المزيد في الطلب في تحصيله؛ ليحصل له درجة الفضل، والأنفس الشريفة تتشوف لطلب العلم وتحصيله. [٣]

إذ لو كان القرآن كله محكمًا لا يحتاج إلى تأويل ونظر؛ لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالم على غيره. [٤]

ثالثًا: تحقيق إعجاز القرآن؛ لأن كلَّ ما استتبع فيه شيئًا من الخفاء المؤدي إلى التشابه، له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى في البيان. فالبحث في مشكل القرآن يظهر بلاغة القرآن، وإحكامه، واتساق معانيه، وروعة ألفاظه. [٥]

---

(١) البرهان (٢/ ٧٥)، والإتقان (٣/ ٣٠).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (١٠٨).

(٣) البرهان (٢/ ٧٥).

(٤) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣١).

(٥) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٤)، ومشكل القرآن/ عبد الله بن حمد المنصور (١٠٨).

رابعًا: إنَّ البحث في المشكل يوجب المشقة في الوصول إلى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيدًا من الثواب. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (آل عمران: ١٤٢). [(١)]

خامسًا: أنه لما كان القرآن مشتملًا على المحكم والمتشابه، افتقر العلماء إلى تعلم طرق التأويلات، وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة. [(٢)]

سادسًا: تربية المسلم على التواضع ولين الجانب، فإنه عندما يرى غيره يعلم ما لا يعلمه هو، فإن هذا يدعوه إلى التعلم والاعتراف بالعجز. [(٣)] وفي هذا يقول عمرو بن مرة ﷺ: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (العنكبوت: ٤٣). [(٤)]

سابعًا: أن القرآن إذا كان مشتملًا على المحكم والمتشابه، افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص عن ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبيِّنة، أما لو كان كله محكمًا لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية؛ فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد. [(٥)]

ثامنًا: أنه لو كان القرآن محكمًا بالكلية لما كان مطابقًا إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلًا لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفر أرباب المذاهب عن قبوله، وعن النظر فيه. فالانتفاع به إنما حصل لَمَّا كان مشتملًا على المحكم والمتشابه؛ فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي مذهبه ويؤثر مقالته، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٧/ ١٧٢)، والإتقان (٣/ ٣٢)، والبرهان (٢/ ٧٥).

(٢) التفسير الكبير (٧/ ١٧٢).

(٣) مشكل القرآن (١٠٨).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٤/ ١٧٣٢٧).

(٥) التفسير الكبير (٧/ ١٧٢).

المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله، ويصل إلى الحق. (١)

تاسعًا: تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه؛ لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء، دال على معانٍ كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام، ولو عُبِّر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بألفاظ؛ لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ (الكهف: ١٠٩)، وكذلك يدرك القارئ لدقة القرآن، وعلو أسلوبه روعة ولذة تغريه على قراءته، وتشجعه على استظهاره وحفظه. (٢)

الوجه الثاني: فوائد وجود المتشابه إن كان مما لا يمكن علمه.

١ - إنزاله ابتلاء وامتحانًا لعباده، فأما المؤمن فلا يداخله فيه شك ولا يعتريه ريب، وهو بين أمرين:

إما قادر على رده إلى المحكم، وإما قائل: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، عندما لم يتبيّن معناه، فأمره كله خير وتعظم بذلك مثوبته، وتزيد عند الله تعالى درجته.

وأما المنافق فيرتاب ولا يزيده القرآن إلا خسارًا، وأما من كان في قلبه زيغ - كأهل البدع- فيتبعون المتشابه؛ ليفتنوا الناس عن القرآن، وصحيح السنة، ويُنزلوه على مقتضى بدعتهم. وسياق الآية وما بعدها دالٌّ على أن هذا من حكمة إنزال المتشابه، إذ قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران: ٧ -٨)، وقد ذكر الله في القرآن أنه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٢٤٤-٢٢٥).

يُنَزِّل ما يمتحن الله به عباده؛ ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويضل غيرهم من أهل الضلال. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦). (١)

٢- لرحمة الله بالإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء، وإذا كان الجبل حين تجلى له ربه جعله دكًا، وخرَّ موسى صعقًا، فكيف لو تجلى سبحانه بذاته، وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفى الله عن الناس معرفة الساعة رحمة بهم؛ كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم، ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم؛ ليعيشوا في بحبوحة من أعمارهم، فسبحانه من إله حكيم، رحمن رحيم.

٣- إقامة الدليل على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخالق، وأنه وحده هو الذي أحاط بكل شيء علما، وأن الخلق جميعًا لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهنالك يخضع العبد ويخشع. (٢)

الوجه الثالث: الأسباب الموهمة للاختلاف في القرآن الكريم.

قبل الدخول في ذكر الأسباب التي أدت إلى ادعاء التناقض في القرآن الكريم؛ ينبغي أن نعلم أن هناك سببًا رئيسيًا مشتركًا في كل الأسباب التي سأوردها، وهذا السبب يتعلق بالقارىء لكتاب الله تعالى، ألا وهو مقدار العلم والمعرفة، فبالعلم يتفاوت الناس في هذا الباب، ما بين مقل ومستكثر، وإلا فإنَّ التدبر التام للقرآن الكريم كفيلٌ بدفع الإشكال عن النفس، كيف لا يكون كذلك وقد وصف الله كتابه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

(١) دعاوي الطاعنين (٧٧-٧٨)، وانظر أيضًا البرهان (٢/ ٧٥)، والإتقان (٣/ ٣١)، ومشكل القرآن (١٠٨)، ومناهل العرفان (٢/ ٢٢٣)، ومذكرة في أصول الفقه للشنقيطي (٧٨).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧). [١]

ولقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ كلامًا قريبًا من هذا المعنى حول قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ ﴾ (يونس: ٩٤).

حيث قال: وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيرادًا، وقالوا: كان في شك فأُمر أن يسألنا. وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أُتى أشباه الأنعام من سوء قصدهم، وقلة فهمهم، وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ، وليس في الآية ما يدل على الشك ولا السؤال أصلًا، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه. [٢]

ويقول ابن تيمية: نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء، فضلًا عن غيرهم، وليس ذلك في آية معينة، بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا، وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره، وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق، وتارة لعدم التدبر التام، وتارة لغير ذلك من الأسباب. [٣]

ولنشرع الآن في ذكر هذه الأسباب:

الأسباب التي جعلت وجود متشابه في القرآن:

الأول: وقوع المخبَر به على أحوالٍ مختلفة وتطويرات شتى:

وهو أن ترد عدد من الآيات تتحدث عن شيء واحد، وتكون ألفاظها مختلفة، مما يوقع الإشكال لدى قارئ القرآن الكريم، بينما الصواب أنها مجتمعة ومتجانسة، وإنما الواقع أنها تحكي أحوالًا أو أطوارًا لهذا الشيء الذي تتحدث عنه. [٤]

---

(١) مشكل القرآن الكريم، تأليف: عبد الرحمن حمد منصور (١٢٢).

(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٦).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٧/ ٤٠٠).

(٤) مشكل القرآن الكريم (١٤٣).

ونضرب مثالين لهذا السبب: **الأول**: قوله تعالى في خلق آدم أنه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩)، ومرة: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٨)، ومرة: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (الصافات: ١١)، ومرة: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤)، وهذه الألفاظ مختلفة، ومعانيها في أحوال مختلفة؛ لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهرٍ وهو التراب، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

والثاني: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ١٠٧)، وفي موضع: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾، والجانُّ: الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها، وذلك لأن خلقها خلقُ الثعبان العظيم، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.[1]

الثاني: لاختلاف الموضع والمكان والآيات:

ويُقصدُ بهذا السبب أن قارئ القرآن الكريم قد يرسخ إليه أحد الأحكام، أو المعاني عند قراءته لبعض الآيات، ثم يقرأ آيات أخرى، فيظهر له حكم أو معنى يتوهم تعارضه مع ما سبق أن ترسخ إليه فيستشكل الآية، بينما الحق أن الآية أو الآيات الأولى تتحدث عن الموضوع ذاته، ولكن موضعها ومكانها يختلف عن موضع ومكان الآية أو الآيات الأخرى.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤)، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٦) مع قوله تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ**﴾ (الرحمن: ٣٩).

قال الحليمي: فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه. وحمله غيره على اختلاف الأماكن؛ لأن في القيامة مواقف كثيرة، فموضع يسأل ويناقش، وموضع آخر يرحم ويلطف به، وموضع آخر يعنف ويوبخ- وهم الكفار- وموضع آخر لا يعنف -وهم المؤمنون-.[2]

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٥٤-٥٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٥٥).

الثالث: لاختلاف جهة الفعل:

وهو أن تأتي آيات تبين الفعل وفاعله، ثم تأتي آيات أخرى أو حتى نفس الآية – تذكر نفس الفعل وتثبت فاعلًا آخر وهذا يعني اختلاف جهة الفعل، مع أنه نفس الفعل، فمن هنا يظهر الإشكال ويبرز أهمية دفعه.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧). حيث نفي الرمي عن رسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ ثم أثبته له بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، وتوجيه ذلك أن الله تعالى لم يرد به أن فعل العبد هو فعل الله تعالى ـ كما تظنه طائفة من الغالطين ـ فإن ذلك لو كان صحيحًا؛ لكان ينبغي أن يقال لكل أحد حتى يقال للماشي: ما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى، ويقال للراكب: وما ركبت إذ ركبت ولكن الله ركب، ويقال للمتكلم: ما تكلمت إذ تكلمت ولكن الله تكلم، ويقال مثل ذلك للآكل والشارب والصائم والمصلي ونحو ذلك، وطرد ذلك: يستلزم أن يقال للكافر ما كفرت إذ كفرت ولكن الله كفر، ويقال للكاذب ما كذبت إذ كذبت ولكن الله كذب، ومن قال مثل هذا: فهو كافر ملحد خارج عن العقل والدين، ولكن معنى الآية: أن النبي ﷺ يوم بدر رماهم ولم يكن في قدرته أن يوصل الرمي إلى جميعهم، فإنه إذ رماهم بالتراب وقال: " **شاهت الوجوه**". [(١)] لم يكن في قدرته أن يوصل ذلك إليهم كلهم بقدرته، فيكون معنى الآية: وما أوصلت إذ حذفت ولكن الله أوصل، فالرمي الذي أثبته له ليس هو الرمي الذي نفاه عنه، فإن هذا مستلزم للجمع بين النقيضين، بل نفى عنه الإيصال والتبليغ وأثبت له الحذف والإلقاء. وكذلك إذا رمي سهمًا فأوصله الله إلى العدو إيصالًا خارقًا للعادة: كان الله هو الذي أوصله بقدرته. [(٢)]

الرابع: لاختلافهم في الحقيقة والمجاز: ويعرف المجاز بأنه: إسنادُ الفعل أو معناه إلى ملابس له، غير ما هو له بتأولٍ، أي بقرينة صارفة له عن إرادة الظاهر[(٣)]، وذلك كقوله

(١) رواه مسلم (٣٣٢٨).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

(٣) البرهان (٢/ ٦٠-٦١).

تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ (الحج: ٢) أي: وترى الناس سكارى بالإضافة إلى أهوال يوم القيامة مجازًا، وما هم بسكارى بالإضافة إلى الخمر حقيقة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢١)، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٨)، فإنه لا يلزم من نفي النظر نفي الإبصار لجواز قولهم: نظرت إليه فلم أبصره.[1]

الخامس: بوجهين واعتبارين، وهو الجامع للمفترقات:

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الشورى: ٤٥).

قال قطربُ: في قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢) أي: علمك ومعرفتك بها قوية، من قولهم: بصر بكذا وكذا- أي: علم، وليس المراد رؤية العين، قال الفارسي ويدل على ذلك قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ وصف البصر بالحدة. وكقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الرعد: ٢٨) مع قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال: ٢)، فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة، **وجوابه**: أن الطمأنينة إنما تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى فتوجل القلوب لذلك.

وقد جمع بينهما في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)، فإن هؤلاء قد سكنت نفوسهم إلى معتقدهم ووثقوا به فانتفى عنهم الشك.[2]

السادس: تفهم تعارض الآية أو الآيات مع الأحاديث النبوية:

فقد يتوهم قارئ القرآن الكريم حين القراءة أن هذه الآية أو الآيات التي يقرؤها تتعارض مع حديث أو أحاديث يعرفها، وباعتبار أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما

---

(١) الإيضاح لتلخيص المفتاح للقزويني مع شرحه بغية الإيضاح (٥٣).

(٢) البرهان (٢/ ٦١-٦٢).

المصدر الأساسي للتشريع، فيلزم النظر وإعمال الفكر للوصول إلى التوجيه الصحيح والمعنى الصحيح لهذا التعارض المتوهم.

ومن هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٣٢). مع ما ورد عن النبي ﷺ **"لن يدخل أحدكم الجنة بعمله"**.[١]

فظاهر الحديث يخالف الآية مما جعل أهل الحديث يبحثون في وجه الجمع بينهما، وممن قام بالجمع بينهما شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله حيث يقول: ها هنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن الجنة تدخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلًا بدخولها، وإن كان سببًا.

ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونفي رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال في قوله " **لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله** "، ولا تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال، ويدل على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه " **أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم** ".[٢]

والثاني: أن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابل للآخر، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية التي تقضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلًا بحصوله، وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله" **سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أن أحدًا منكم لن ينجو بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته** ".[٣]

(١) رواه البخاري (٥٢٤١)، ومسلم (٥٠٤٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٤٣٣٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٨٣١).

(٣) رواه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ البخاري " **لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنْ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا** ".

ومن عرف الله تعالى، وشهد مشهد حقه عليه، ومشهد تقصيره وذنوبه، وأبصر هذين المشهدين بقلبه عرف ذلك وجزم به، والله سبحانه وتعالى المستعان. (١)

وقد ذكر ابن تيمية قريبًا من هذا الجمع فقال: وليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب، ولهذا قال النبيﷺ: **"أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل "**، وقد قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فهذه باء السبب، أي بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة كما يقال: اشتريت هذا بهذا، أي: ليس العمل عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات. (٢)

السابع: توهم استحالة المعنى:

ويقصد بهذا أن يتوهم القارئ للقرآن الكريم أن معنى الآية مستحيل، فيستشكل الآية بذلك، ويكون مخطئًا في توهمه، ويكون قد فهم من الآية شيئًا ليس مرادًا، أو أنه مراد وهو غير مستحيل. (٣)

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف: ٨١).

اختلف العلماء في معنى ﴿إِن﴾ في هذه الآية الكريمة:

١ ـ فقالت جماعة من أهل العلم أنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا أنها شرطية، اختلفوا في المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لهذا الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولدًا.

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٨٧-٨٨).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٨/ ٧٠-٧١).

(٣) مشكل القرآن/ عبد الله حمد المنصور (١٧١).

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله جازمين بأن لا يمكن أن يكون له ولد.

٢ ـ وقالت جماعة آخرون: إن لفظ ﴿إن﴾ في الآية نافية، والمعنى: ما كان لله ولدٌ، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ **ثلاثة أوجه:**

-**الأول.** وهو أقربها: أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله، المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

- **والثاني**: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: أي الآنفين المستنكفين من ذلك يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له.

- **والثالث**: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: أي الجاحدين النافين أن يكون لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا[1].

التاسع: الإيجاز والاختصار:

للعرب أساليبهم في كلامهم، ومن أبدع هذه الأساليب: الإيجاز؛ وقد جاء القرآن الكريم بلغة العرب، فلا ريب أن يرد الإيجاز في آياته، ونبدأ الآن بتعريف الإيجاز، وهل بينه وبين الاختصار فرق؟ ولماذا كان الإيجاز لاستشكال بعض الآيات؟

ذهب البعض من العلماء إلى أن الإيجاز والاختصار بمعنى واحد، وفرق البعض الآخر بينهما، فقال أبو الحسن الرماني: الإيجاز: تقليل الكلام من غير الإخلال بالمعنى، وإن كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز.

والإيجاز عل وجهين: حذف وقصر.

فالحذف: إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام.

والقصر: بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف.[2]

ونأخذ مثالًا لهذا النوع وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مشكل القرآن (١٩٧-١٩٨).

(البقرة: ١٧٩). ففيها يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: ليس المراد من هذه الآية أن نفس القصاص حياة؛ لأن القصاص إزالة للحياة، وإزالة الشيء يمتنع أن تكون نفس ذلك الشيء، بل المراد أن شرع القصاص يفضي إلى الحياة في حق من يريد أن يكون قاتلًا، وفي حق من يراد جعله مقتولًا، وفي حق غيرهما أيضًا.

أما في حق من يريد أن يكون قاتلًا: فلأنه إذا علم أنه لو قتل قُتل؛ ترك القتل، فلا يقتل فيبقى حيًا. وأما في حق من يراد جعله مقتولًا: فلأن من أراد قتله إذا خاف من القصاص ترك قتله فيبقى غير مقتول. وأما في حق غيرهما: فلأن في شرع القصاص بقاء في من همَّ بالقتل أو من يهم به، وفي بقائهما بقاء من يتعصب لهما؛ لأن الفتنة تعظم بسبب القتل؛ فتؤدي إلى المحاربة التي تنتهي إلى قتل عالم من الناس. (١)

وبهذا يتبين أن الإيجاز قد يصاحبه غموض، مما يؤدي إلى استشكال الآية لدى البعض.

العاشر: احتمال الإحكام أو النسخ للآية:

وذلك أن المفسر قد تشكل عليه الآية لاختلافها مع آية أخرى، فيبحث عن وجه الجمع، فإن لم يجده يلجأ إلى القول بالنسخ، بينما يكون غيره من المفسرين يعرف وجه الجمع فيذكره ويورده، ويبين أنه لا نسخ في الآية. (٢)

ومن الأمثلة على هذا، قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ (البقرة: ٢٤٠).

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، ففي هذه الآية أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليالي. كما أن قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ

(١) التفسير الكبير للرازي (٥/ ٥٦)، وانظر أيضًا: الإتقان للسيوطي (٣/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) مشكل القرآن الكريم (٢٠٥).

﴿أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: يستفاد منه وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها.

وذهب مجاهد وعطاء إلى أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة – كما زعمه الجمهور – حتى يكون ذلك منسوخًا بالأربعة أشهر وعشرًا، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاية بالزوجات أن يُمَكَّنَّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا إن اخْتَرْنَ ذلك، ولهذا قال ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية، كقوله ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، ولا يمنعن من ذلك لقوله ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك بالمنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك، لقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾، وهذا القول له اتجاه وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم: الإمام أبو العباس ابن تيمية، وردَّه آخرون منهم ابن عبد البر. (١)

الحادي عشر: تعدد القراءات في الآية:

تعرف القراءات بأنها: علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقًا مع عزو كل وجه لناقله. (٢)

- واختلاف القراءات لا يخلو من ثلاثة أحوال:

أحدها: اختلاف اللفظ والمعنى واحد. **والثاني:** اختلاف اللفظ والمعنى جميعًا، مع جواز أن يجتمعا في شيء واحد، لعدم تضاد اجتماعهما فيه. **والثالث:** اختلاف اللفظ والمعنى مع امتناع جواز أن يجتمعا في شيء واحد؛ لاستحالة اجتماعهما فيه. (٣)

والذي يعنينا هنا في هذا الباب الأمر الثالث فهو مثار الإشكال عند بعض المفسرين، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد من القراءات في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٩-٤١١).

(٢) البدور الزاهرة في القراءات العشرة المتواترة (٥).

(٣) الأحرف السبعة لأبي عمرو الداني (٤٧).

قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ (المائدة: ٦). ففيها أي: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ثلاث قراءات: واحدة شاذة، واثنتان متواترتان. أما **الشاذة**: فقراءة الرفع وهي قراءة الحسن. [١]

وأما **المتواتران**: فقراءة النصب، وقراءة الخفض، **أما النصب**: فهو قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي، وعاصم في رواية حفص من السبعة، ويعقوب من الثلاثة. [٢]

وأما **الجر**: فهو قراءة ابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر. [٣]

أما قراءة النصب فلا إشكال فيها؛ لأن الأرجل فيها معطوفة على الوجه، وتقرير المعنى عليها: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برءوسكم.

وأما على قراءة الجر: ففي الآية الكريمة إجمال، وهو أنه يُفهم منها الاكتفاء بمسح الرجلين في الوضوء عن الغسل وذلك مثل الرأس تمامًا، وهو خلاف الواقع للأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب غسل الرجلين في الوضوء والتوعد لمن ترك ذلك.

اعلم أولًا أن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة لهما حكم الآيتين كما هو معروف عند العلماء، فإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ بالنصب صريح في وجوب غسل الرجلين في الوضوء، فهي تفهم أن قراءة الخفض إنما هي لمجاورة المخفوض، وقال بعض العلماء: المراد بمسح الرجلين غسلهما، والعرب تطلق المسح على الغسل أيضًا، وقال بعض العلماء: المراد بقراءة الجر: المسح، ولكن النبي ﷺ بَيَّن أن ذلك المسح لا يكون إلا على الخف، وعليه فالآية تشير إلى أن المسح على الخف في قراءة الخفض. [٤]

الثاني عشر: تردد معنى الآية بين أن يكون لها مفهوم مخالفة أولا: ومعنى هذا العنوان هو: أنه قد ترد بعض الآيات وفيها نص على أحد الأحكام، وهذا الحكم يستخرج

---

(١) إتحاف فضلاء البشر للبنا الدمياطي (٢٥١).

(٢) المصدر السابق، وانظر أيضًا النشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤)، والتيسير (٧٤).

(٣) المصادر السابقة.

(٤) أضواء البيان (٢/ ٧-١٤)باختصار.

من منطوق النص القرآني. وأحيانًا تدل الآية على حكم من الأحكام بالمفهوم، بمعنى أن الحكم لم يرد في الآية منصوصًا عليه، ولكنه يفهم من معنى الآية.

فمثلًا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ (الإسراء: ٢٣)يدل بمنطوقه عن النهي عن التأفف، وهو يدل أيضًا بمفهومه على النهي عن الضرب.[١]

ومن الآيات التي تُبيِّن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ (الأعلى: ٩)، فهذه الآية يفهم منها أن التذكير لا يطلب إلا عند مظنة نفعه، بدليل ﴿إِن﴾ الشرطية.

وقد جاءت آيات كثيرة تدل على الأمر بالتذكير مطلقًا، كقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية: ٢١)، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ٢٢).

وقبل أن نجيب عن هذا الإشكال نبين أولًا أن هذا الاستشكال لا يكون إلا على قول من يقول باعتبار دليل الخطاب – الذي هو مفهوم المخالفة – وأما على قول من لا يعتبر مفهوم المخالفة فلا يعتبر ذلك إشكالًا.

ونجيب عن هذا الإشكال بعدة أجوبة منها:

١ ـ أن في الكلام حذفًا، أي إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ (النحل: ٨١)، أي والبرد.

٢ ـ أنها بمعنى (إذ).

٣ ـ أن معنى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: الإرشاد إلى التذكير بالأهم، أي: ذكر بالمهم الذي فيه النفع دون ما لا ينفع.

٤ ـ أنها صيغة شرط أريد بها ذم الكفار واستبعاد تذكيرهم.

قلت: والذي يظهر هو بقاء الآية الكريمة على ظاهرها، وأنه ﷺ بعد أن يكرر الذكرى تكريرًا تقوم به حجة الله على خلقه ـ مأمورٌ بالتذكير عند ظن الفائدة، أما إذا علم عدم

(١) مشكل القرآن الكريم (٢١٧).

الفائدة، فلا يؤمر بشيء هو عالم أنه لا فائدة فيه؛ لأن العاقل لا يسعى إلى مالا فائدة فيه. (١)

الثالث عشر: الاستعارة البديعة:

وتعرف الاستعارة بأنها: ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له. (٢)

ونظيرها قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ (الإنسان: ١٦)، فالقوارير لا يكون من الفضة، وما كان من الفضة لا يكون قوارير، ولكن للفضة صفة كمال: وهي نفاسة جوهره وبياض لونه، وصفة نقصان: وهي أنها لا تصفوا، ولا تشفُّ وللقارورة صفة كمال أيضًا، وهي الصفاء والشفيف، وصفة نقص وهي خساسة الجوهر. فعرف بعد التأمل أن المراد من كل واحد صفة كماله، وأن معناه أنها مخلوقة من فضة، وهي مع بياض الفضة في صفاء القوارير وشفيفها. وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ (النحل: ١١٢)، فاللباس لا يذاق ولكنه يشمل الظاهر، ولا أثر له في الباطن، والإذاقة أثرها في الباطن ولا شمول لها، فاستعيرت الإذاقة لما يصل من أثر الضرر إلى الباطن واللباس بالشمول، فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف، أي أثرهما واصلٌ إلى بواطنهم مع كونه شاملًا لهم. (٣)

الرابع عشر: اعتقاد أمر مخالف للكتاب والسنة:

وهذا واقع عند أهل البدع؛ حيث ابتدعوا بعض الاعتقادات، وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم الذي يجب اعتقاده والبناء عليه، ثم نظروا في الكتاب والسنة، فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه، وإلا قالوا: هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أريد بها، فجعلوا بدعهم أصلًا مُحكمًا، وما جاء به الرسول فَرْعًا له، ومُشْكَلًا إذا لم يوافقه، فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلًا في هذه الأمور، ثم يُرَدُّ ما تكلم فيه الناس إلى ذلك، ويُبَيِّن ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة من الكتاب

(١) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (٢٥٧-٢٥٩) باختصار.
(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح (٤٧٥).
(٣) كشف الأسرار، لعبد العزيز البخاري الحنفي (١/ ٥٤).

والسنة فتقبل، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فَتُرَد. [١]

ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعل الفريق الآخر مشكلًا، فمنكر الصفات الخبرية الذي يقول: إنها لا تعلم بالعقل يقول: نصوصها مشكلة متشابهة، بخلاف الصفات المعلومة بالعقل عنده بعقله؛ فإنها عنده محكمة بيِّنَة. وكذلك يقول من ينكر العلو والرؤية: نصوص هذه مشكلة.

ومنكر الصفات مطلقًا يجعل ما يثبتها مشكلًا دون ما يثبت أسماء الله الحسنى، ومنكر معاني الأسماء: يجعل نصوصها مشكلة، ومنكر معاد الأبدان وما وصفت به الجنة والنار: يجعل ذلك مشكلًا

أيضًا، ومنكر القدر: يجعل ما يثبت أن الله خالق كل شيء وما شاء كان مشكلًا، دون آيات الأمر والنهي والوعد والوعيد، والخائض في القدر بالجبر يجعل نصوص الوعيد، بل ونصوص الأمر والنهي مشكلة فقد يستشكل كل فريق ما لا يستشكله غيره، ثم يقول فيما يستشكله إن معاني نصوصه لم يُبيِّنها الرسولﷺ. [٢]

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠)، ونحو ذلك، أشكلت على كثير من الناس إشكالًا ضلَّ بسببه خَلْقٌ لا يحصى كَثرة، فصار قوم إلى التعطيل، وقومٌ أخر إلى التشبيه ـ سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا عن ذلك كله ـ والله جل وعلا أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال. [٣]

وبذلك يتبين أن كون الآية من آيات الصفات لا يجعلها موضع إشكال، ولا ينبغي وصفها بذلك، كما أنه ينبغي على الباحث أن ينظر فيما يشكل عليه، والبحث عما يدفع عنه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٧/ ٣٠٦-٣٠٧) بتصرف يسير.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٣).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٢٧٢).

الإشكال، خصوصًا فيما يتعلق بمسائل الاعتقاد. [١]

الخامس عشر: خفاء المعنى:

أي: إن الإشكال يقع في الآية؛ لغموض المعنى، وخفائه على المفسر. ومن نظائره قوله تعالى: ﴿أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: ١١٠).

قال القرطبي: هذه آية مشكلة، ولا سيما وفيها: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: قيل: المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب وحرّ الجمر، كما لم يؤمنوا به في الدنيا، ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ في الدنيا، أي نمهلهم ولا نعاقبهم، فبعض الآية في الآخرة، وبعضها في الدنيا، ونظيرها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ (الغاشية: ٢)، فهذا في الآخرة، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (الغاشية: ٣) في الدنيا.

وقيل: ونقلب في الدنيا، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية، كما حِلْنَا بينهم وبين الإيمان أول مرة، لَمَّا دَعَوْتَهُم وأَظْهَرْتَ المعجزة، وفي التنزيل ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الأنفال: ٢٤)، والمعنى: كان ينبغي أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية، فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبهم وأبصارهم ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ودخلت الكاف على محذوف، أي: فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة، أي: أول مرة أتتهم الآيات التي عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره. **وقيل:** ونقلب أفئدة هؤلاء كيلا يؤمنوا؛ كما لم تؤمن كفار الأمم السالفة لما رأوا ما اقترحوا من الآيات. **وقيل:** في الكلام تقديم وتأخير، أي أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أول مرة ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ يتحيرون. [٢]

* * *

(١) مشكل القرآن (١٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٦٧).

٤ـ شبهة: ادعاؤهم عدم وجود إعجاز في القرآن الكريم.

نص الشبهة:

التشكيك في إعجاز القرآن، بأنه ليس بمعجزة، وليست معجزته متجددة.

الرد على الشبهة من خلال مبحثين:

المبحث الأول: مقدمة مختصرة في الإعجاز.

المبحث الثاني: بيان أوجه إعجاز القرآن:

الوجه الأول: الإعجاز في فصاحة القرآن الكريم.

الوجه الثاني: الإعجاز في حروف القرآن الكريم.

الوجه الثالث: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم.

الوجه الرابع: الإعجاز في ألفاظ القرآن الكريم.

الوجه الخامس: الإعجاز في المعنى (أي: في معاني الألفاظ في القرآن الكريم).

الوجه السادس: الإعجاز في وفاء اللفظ بالمعنى في القرآن.

الوجه السابع: الإعجاز في التركيب (أي: تركيب مفردات القرآن الكريم).

الوجه الثامن: الإعجاز في النظم.

الوجه التاسع: الإعجاز في كثرة أغراضه.

الوجه العاشر: الإعجاز البلاغي.

الوجه الحادي عشر: الإعجاز الخطابي: في مناسبة القرآن وإرضائه للعامة والخاصة.

الوجه الثاني عشر: الإعجاز في الوحدة الموضوعية(العضوية) للآيات والسور.

الوجه الثالث عشر: الإعجاز في عرضه القصصي.

الوجه الرابع عشر: الإعجاز في ضربه للأمثال.

الوجه الخامس عشر: الإعجاز في التكرار.

الوجه السادس عشر: الإعجاز في تيسير الله القرآن للذكر.

الوجه السابع عشر: الإعجاز النفسي.

الوجه الثامن عشر: إعجاز القرآن في كثرة علومه ومعارفه.

الوجه التاسع عشر: الإعجاز التشريعي.

الوجه العشرون: الإعجاز العلمي في القرآن.

الوجه الحادي والعشرون: الإعجاز الغيبي.

الوجه الثاني والعشرون: الإعجاز التأثيري.

الوجه الثالث والعشرون: القرآن معجزة متجددة.

الوجه الرابع والعشرون: الإعجاز في هيمنته على الكتب السابقة وجمعه لعلومها.

الوجه الخامس والعشرون: إعجاز القرآن في أسمائه وصفاته.

الوجه السادس والعشرون: إعجاز القرآن في بيانه للحق بالأدلة العقلية والقياس البيّن.

الوجه السابع والعشرون: إعجاز القرآن في حفظ الله له.

الوجه الثامن والعشرون: إعجاز القرآن في عدم المجيء بمثله، وتحديه للبشر.

وإليك التفصيل

المبحث الأول: مقدمة مختصرة في إعجاز القرآن.

الأدلة على إعجاز القرآن:

الدليل من القرآن:

١ - قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت: ٥٠-٥١).

قال السيوطي: فأخبر أن الكتاب آية من آياته، كافٍ في الدلالة، قائمٌ مقام معجزاتِ غيره، وآياتِ من سواه من الأنبياء، ولما جاء به النبيّ ﷺ إليهم وكانوا أفصح الفصحاء، ومصاقع الخطباء، وتحدّاهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا.

٢- قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور: ٣٤)، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ

يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود: ١٣- ١٤).

وقال: فقد تحدّاهم الله على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا: كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾، ثم تحدّاهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ . . . ﴾ ثم تحدّاهم بسورة في قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس: ٣٨). ، ثم كرّر في قوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (البقرة: ٢٣) فلما عجزوا عن معارضته، والإتيان بسورة تشبهه، على كثرة الخطباء فيهم، والبلغاء نادى عليهم بإظهار العجز، وإعجاز القرآن فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

الدليل من السنة

١- عن أبي هريرةﷺ قال: قال النبي ﷺ: "مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ، إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ، آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ". [1]

٢- وعن ابن عباس ﷺأن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال: أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا، قال: لم؟ قال: يعطونكه فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما قبله؛ قال: قد علمت قريشٌ أني أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له؛ قال: فما أقول فيه، فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منّي، ولا أعلم برجزه منّي، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه

(١) أخرجه البخاري (٤٦٩٦)، ومسلم (١٥٢).

ليعلو ولا يعلى. قال: والله لا يرضى قومك حتّى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكّر فيه؛ فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ (المدثر: ١١). قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيدًا، فنزلت هذه الآية حتى بلغ تسعة عشر.[1]

الأدلة العقلية:

قال السيوطي: إن العرب الفصحاء اللدّ: قد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره، وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته، لعدلوا إليها قطعًا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك، ولا رامه، بل عدلوا إلى العناد تارة، وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: سحر، وتارة قالوا: شعر، وتارة قالوا: أساطير الأولين، كل ذلك من التحيّر والانقطاع، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم، وحرمهم، واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنفَ شيءٍ، وأشدّه حميّة، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم.

قال الجاحظ: بعث الله محمدًا أكثر ما كانت العرب، شاعرًا وخطيبًا، وأحكم ما كانت لغةً، وأشدّ ما كانت عدةً، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجّة؛ فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب، ونصبوا له. وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحًا ومساءً، إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا، بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدّيًا لهم بها، وتقريعًا لعجزهم عنها، تكشّف من نقصهم ما كان مستورًا، وظهر منه ما كان خفيًّا، فحين لم يجدوا حيلةً، ولا حجةً، قالوا له: أنت

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٨٠٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٠٢)، وشعب الإيمان (١٢٦): كلاهما عن أيوب السختياني، عن عكرمة، عن ابن عباس به. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٨٧)، عن معمر، عن رجل، عن عكرمة به. والحديث صححه الألباني: في صحيح السيرة النبوية (١٥٩).

تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولا طمع فيه لتكلفه؛ ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده، ويحامي عليه، ويكايد فيه، ويزعم أنه قد عارض، وقابل، وناقض.

فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واستحالة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمته؛ لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفي على من هو دون قريش، والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع، والمزدوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال- أكرمك الله- أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البيّن، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشدّ الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثًا وعشرين سنةً على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه، وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه. (١)

لماذا خص الله القرآن بأنه معجزة هذه الأمة؟

قال السيوطي: وهي – أي المعجزات – إما حسّية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّية لبَلادتهم، وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية، لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم؛ ولأن هذه الشريعة لما كانت باقيةً على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذوو البصائر. (٢)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١١: ٣١٧

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١١

اختلاف العلماء في معرفة وجه الإعجاز في القرآن:

قال ابن سراقة: اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرةً، كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءًا واحدًا من عشر معشاره. (١)

أنواع الإعجاز:

قال ابن تيمية: وكون القرآن أنه معجزة، ليس هو من جهة فصاحته، وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط؛ بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة، من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى، وأسمائه، وصفاته وملائكته وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بيّن فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية، التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٨٩). (٢)

كيفية الوقوف على إعجاز القرآن.

قال الباقلاني: قد لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم، والترك، وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن، إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك؛ فإذا عرفوا هذا - بأن علموا، أنهم قد تحدّوا إلى أن يأتوا بمثله، وقُرِّعوا على ترك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به - تبيّنوا أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل ذلك اللسان، فهم عنه أعجز، وكذلك نقول إن من كان من أهل اللسان العربي - إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة، وما يعدّونه فصيحًا بليغًا بارعًا من غيره - فهو كالأعجمي، في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، إلا بمثل ما بيّنا أن يعرف به

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢١

(٢) الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨

الفارسي، الذي بدأنا بذكره، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء، فأما من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها - فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة - فليس يخفى عليه إعجاز القران، كما يميّز بين جنس الخطب والرسائل والشعر، وكما يميّز بين الشعر الجيّد والرديء، والفصيح والبديع، والنادر والبارع والغريب، وهذا يميّز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره، ويعرف البزّاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره، وإن كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر، وربّما اختلفوا فيه؛ لأن من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين، ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه، وتروع بهجته ورواؤه، ويسلس مأخذه ويسلم وجهه ومنفذه، ويكون قريب المتناول، غير عويص اللفظ، ولا غامض المعنى، كما قد يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سهل على اللسان وسبق إلى البيان، وروي أن عمر بن الخطاب ﷺوصف زهيرًا فقال: كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وقال لعبد بني الحسحاس حين أنشده:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا   أما إنه لو قلت مثل هذا لأَجَزْتُك عليه

ومنهم من يختار الغلو في قول الشِّعر والإفراط فيه حتى ربما قالوا: أحسن الشعر أكذبه، كقول النابغة:

يقد السلوقي المضاعف نسجه   ويوقدن بالصفاح نار الحباحب[1]

فالخلاصة:

إن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالًا، وكذلك من ليس ببليغ؛ فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العرب، وغرائب الصنعة؛ فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه، وعجز غيره عن الإتيان بمثله.[2]

---

(١) إعجاز القرآن (١/ ١١٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٥.

المبحث الثاني: بيان أوجه إعجاز القرآن.

الوجه الأول: الإعجاز في فصاحة القرآن الكريم.

قال الإمام فخر الدين: وجه الإعجاز في القرآن: الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب. [(١)]

وفيه مسائل:

١ـ سبب نزول القرآن باللسان العربي:

قال الباقلاني: فإنّا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف في الاستعارات، والإشارات، ووجوه الاستعمالات البديعة، التي يجيء تفصيلها بعد هذا، ويشهد لذلك من القرآن: أن الله تعالى وصفه بأنه ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ وكرر ذلك في مواضع كثيرة، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميًّا؛ فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد مثل فصاحته، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة، وأنه وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله إنه ﴿عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، أنه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم، ولا يحتاجون في تفسيره إلى سواهم، فلا يمتنع أن يفيد ما قلناه أيضًا كما أفاد بظاهره ما قدّمناهُ.

وبيّن ذلك أن كثيرًا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة، وهم من أهل البراعة فيها، وفي العربية، فقد وقفوا على أنه ليس فيها من التفاضل والفصاحة، ما يقع في العربية. ومعنى آخر وهو: أنّا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادّعوا الإعجاز لكتابهم، ولا ادّعى لهم المسلمون؛ فعُلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن. ويبين هذا أن الشعر لا يتأتّى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية، وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية، وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧: ٣٢٠

٢ـ الأعجمي لا يعلم أن القرآن معجز، إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، فيعلم أن القرآن معجز بفصاحته استدلالًا.

قال الباقلاني: فالأعجمي لا يعلم أن القرآن معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة؛ فإذا عرف عجز أهل الصنعة، حل محلهم، وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه.

وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن، ما يعرفه العالي في هذه الصنعة، فربّما حلّ في ذلك محلّ الأعجمي في أن لا تتوجه عليه الحجة، حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه.

وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب، أو الرسائل وحدهما من غور هذا الشأن، ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب، ووجوه الكلام، وطرق البراعة، فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه؛ لعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه.

٣ـ من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه ضرورة.

فأما من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه، وإن لم نقل ذلك أدى هذا القول إلى أن يقال: إن النبي ﷺ لم يعرف إعجاز القرآن حين أوحى إليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه. وهذا خطأ من القول، فالبليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة؛ فإنه يعلم من نفسه ضرورة، عجزه عن الإتيان بمثله، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه، كما أنه إذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك، فهو يعلم عجز غيره استدلالا.

٤ـ النبي ﷺ حين أوحي إليه القرآن؛ عرف كونه معجزًا.

فصحّ من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحى إليه القرآن عرف كونه معجزًا، أو عرف بأن قيل له: إنه دلالةٌ، وعلَمٌ على نبوتك؛ أنه كذلك من قبل أن يقرأه على غيره، أو يتحدى إليه سواه.

ولذلك قلنا: إن المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاصح، متى

سمع القرآن عرف أنه معجز؛ لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو. وإن كان يحتاج بعد هذا إلى استدلال آخر، على أنه علَم على نبوته، ودلالة على رسالته؛ بأن يقال له: إن هذه آية لنبي، وإنها ظهرت عليه، وادّعاها معجزةً له وبرهانًا على صدقه.

٥ـ متى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره عنه.

فإن قيل: فإن من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر، ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه، فكذلك البليغ، وإن علم عجز نفسه عن مثل القرآن، فهو يخفي عليه عجز غيره.

قيل: هو مع مستقر العادة، وإن عجز عن قول الشعر، وعلم أنه مفحم؛ فإنه يعلم أن الناس لا ينفكُّون من وجود الشعراء فيهم، ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن، علم عجز غيره عنه، وأنه كهو؛ لأنه يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواءٌ.

٦ـ نقض العادة يقع موقع المعجزة في القول أو الفعل.

إذ ليس في العادة مَثَلٌ للقرآن يجوز أن يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه؛ فإذا لم يكن لذلك مثل في العادة، وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام، وأنواع الخطاب، ووجد القرآن مباينًا لها؛ علم خروجه عن العادة، وجرى مجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات، فهو لا يُجوِّزه من نفسه، وكذلك لا يُجوِّز وقوعه من غيره إلا على وجه نقض العادة، بل يرى وقوعه موقع المعجزة. وهذا وإن كان يفارق فلق البحر، وإخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه، فهو أنه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه؛ بكونه ناقضًا للعادة من غير تأمل شديد ولا نظر بعيد، ومما يبين ما قلناه من أن البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة، يعرف إعجاز القرآن، وتكون معرفته حجة عليه إذا تُحدّي إليه وعجز عن مثله، وإن لم ينتظر وقوع التحدي في غيره، وما الذي يصنع ذلك بالغير فهو: ما رُوي في الحديث أن جبير بن مطعم وَرد على النبيّ ﷺ في حليف له أراد أن يفاديه، فدخل والنبي ﷺ: " يقرأ سورة ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢﴾ في صلاة الفجر، قال: فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ (الطور:

١-٨) قال: خشيت أن يدركني العذاب، فأسلمَ. (١) وفي حديثٍ آخر أن عمر بن الخطاب ﷺ سمع سورة طه فأسلمَ(٢)، وقد رُوي أن قوله ﷻ في أول حم السجدة - أي سورة فصلت - إلى قوله: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (فصلت: ٤) نزلت في شيبة، وعتبة ابني ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، وأبى جهل، وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليكلمه، وكان حسن الحديث، عجيب البيان، بليغ الكلام، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده، فقرأ النبي ﷺ سورة حم السجدة من أولها حتى انتهى إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (فصلت: ١٣)؛ فوثب مخافة العذاب فاستحكوه ما سمع، فذكر أنه لم يفهم منه كلمة واحدة، ولا اهتدى لجوابه، ولو كان ذلك من جنس كلامهم، لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد، فقال له عثمان بن مظعون ﷺ: لتعلموا أنه من عند الله إذا لم يهتد لجوابه. (٣)

وأبْيَنُ من ذلك قول الله ﷻ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (التوبة: ٦)؛ فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه.

فإن قيل: لو كان كذلك على ما قلتم، لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في إسلامهم عند سماعه؟ قيل له لا يجب ذلك؛ لأن صوارفهم كانت كثيرة، وبيان ذلك في الوجه السابع.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (١٠٦٣) بمعناه: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَ جَاءَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه أحمد في فضائل الصحابة١/ ٢٧٩، سيرة ابن كثير٢/ ٣٣، وسيرة ابن إسحاق١/ ١٦٠.

(٣) وفيه قَالُوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ رَجُلٌ بِالْعَرَبِيَّةِ لاَ تَدْرِي مَاذَا قَالَ؟ قَالَ: لاَ وَالله مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ. أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٧١٥)، وعبد بن حميد (١١٢٣)، وأبو يعلى (١٨١٨)، والحاكم (٣٠٠٢) وصححه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٦/ ١٦: وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات.

٧ـ بيان سبب عدم إسلام جميع فصحاء العرب في عهد النبيﷺ.

لأنهم كانوا يشكُّون؛ ففيهم من يشك في إثبات الصانع، وفيهم من يشك في التوحيد، وفيهم من يشك في النبوة، ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء إلى رسول الله ﷺ ليسلم عام الفتح، قال له النبي ﷺ: " أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى؛ فشهد. قال: أما آن لك أن تشهد أني رسول الله؟ قال: أمّا هذه ففي النفس منها شيء. "

فكانت وجوه شكوكهم مختلفة وطرق شبههم متباينة، فمنهم من قلت شبههه، وتأمل الحجة حق تأملها، ولم يستكبر فأسلم. ومنهم من كثرت شبهه أو أعرض عن تأمل الحجة حق تأملها، أو لم يكن في البلاغة على حدود النهاية، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر، وراعى واعتبر، واحتاج إلى أن يتأمل عجز غيره عن الإتيان بمثله؛ فلذلك وقف أمره، ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة – لتوافوا إلى القبول جملة واحدة.

٨ ـ بيان سبب أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات.

فإن قيل: فلِمَ زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله، مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟ وهلاّ قلتم: إنَّ من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادرًا، وإنما يصرفه الله عنه ضربًا من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربًا من المنع، أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه؛ ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة؛ لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة؟.

فالجواب: أنه لو صح ذلك لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار، وصح لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة، ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن، على أن ذلك لو لم يكن معجزًا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه

ومنع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صُرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا من معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب، على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادّعاه لم يكن مَن قَبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة، والبلاغة وحسن النظم، وعجيب الرصف؛ لأنهم لم يتحدوا إليهن ولم تلزمهم حجته، فلما لم يوجد في كلام مَن قَبله مثله عُلم أنَّ ما ادعاه القائل بالصِرفة ظاهر البطلان.

وفيه معنى آخر وهو: أن أهل الصنعة في هذا الشأن إذا سمعوا كلامًا مطمعًا لم يخف عليهم، ولم يشتبه لديهم، ومن كان متناهيًا في فصاحته، لم يجز أن يطمع في مثل هذا القرآن بحال، **فإن قال**: صاحب السؤال إنه قد يطمع في ذلك.

قيل له: أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمي يضارع القرآن، وقد يزيد عليه في الفصاحة، ولا يتحاشاه، ويحسب أن ما ألفه في الجزء والطفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظًا ومعنًى؛ ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدر في نفسه، ويحسبه ظان من أمره، والمرجوع في هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد، ونحن نبيّن بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، ونميزه في ذلك عن سائر أجناس الخطاب؛ ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بيين الغلط، وأن هذا التقدير من جنس مَن حكي الله ـ تعالى ـ قولُه في محكم كتابه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ (المدثر: ١٨–٢٥)؛ فهم يعبرون عن دعواهم أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله، وأن ذلك من قول البشر؛ لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذي يتجاوز إمكان معارضته.[١]

٩ـ سبب انصراف الفصحاء عن نقد القرآن: ولولا أن القرآن له وجوه الإعجاز، لما تحير فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التعمل- أي التصنع – للمقابلة، والتصنع

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٢٥ – ٢٨.

للمعارضة، وكانوا ينظرون في أمرهم، ويراجعون أنفسهم، أو كان يراجع بعضهم بعضًا في معارضته ويتوقفون لها، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور؛ لعلمهم بعجزهم عنه، وقصور فصاحتهم دونه، ولا يمتنع أن يلتبس على من لم يكن بارعًا فيهم، ولا متقدّمًا في الفصاحة منهم، هذا الحال حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل، وحتى يعرف حال عجز غيره، إلا أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا، ولم يشتغلوا بذلك تحققًا بظهور العجز وتبينًا له. (١)

١٠ـ فصاحة القرآن في جميع الفترات الإنسانية.

قال حازم القرطاجني في منهاج البلغاء: وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه، استمرارًا لا يوجد له فترة، ولا يقدر عليه أحدٌ من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه، إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه. (٢)

١١ـ السر في أن القرآن له أسلوب خاص، وأن الأساليب تختلف باختلاف المتكلمين.

فإعجاز القرآن الكريم في أسلوبه هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه؛ فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر، تتعدد بتعدد أشخاصهم بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها، والفنون التي يعالجها.

- فالأسلوب هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه.

- وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين، من ناثرين وناظمين، مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة، والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة، وهذا هو السر أيضًا في أن القرآن لم يخرج عن معهود

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٤٣.

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣١٧).

العرب في لغتهم العربية من حيث ذوات المفردات، والجمل، وقوانينها العامة، بل جاء كتابًا عربيًا جاريًا على مألوف العرب من هذه الناحية. [١]

الوجه الثاني: الإعجاز في حروف القرآن الكريم

١ـ طبيعة تنوع الحروف في القرآن:

قال الباقلاني: إن الحروف التي بُنِيَ عليها كلام العرب تسعةٌ وعشرون حرفًا، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورةً. وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفًا؛ ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظمٌ من الحروف التي ينظمون بها كلامهم، والذي تنقسم إليه هذه الحروف، على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها أقسامٌ نحن ذاكروها، فمن ذلك: أنهم قسموها إلى حروف مهموسة، وأخرى مجهورة.

فالمهموسة منها عشرة: وهي: الحاء، والهاء، والخاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء، والتاء، والصاد، والسين. وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة.

وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور.

وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء، لا زيادة ولا نقصان.

(والمجهور) معناه: أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع أن يُجرى معه النفس حتى ينقضي الاعتماد، ويُجرى الصوت.

(والمهموس) كل حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس.

وذلك مما يحتاج إلى معرفته لتبنى عليه أصول العربية.

وكذلك مما يقسمون إليه الحروف، يقولون: إنها على ضربين: أحدهما حروف الحلق، وهي ستة أحرف: العين، والحاء، والهمزة، والهاء، والخاء، والغين.

والنصف الآخر من هذه الحروف: مذكور في جملة الحروف التي تشتمل عليها الحروف المثبتة في أوائل السور، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٤.

وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين: أحدهما: حروف غير شديدة، وحروف شديدة، وهى التي تمنع الصوت أن يجرى فيه، وهى الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والظاء، والذال، والطاء، والباء.

وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضًا هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بني عليها تلك السور.

ومن ذلك الحروف المطبقة، وهى أربعة أحرف، وما سواها منفتحة.

فالمطبقة: الطاء، والظاء، والصاد، والضاد.

وقد علمنا أن نصف هذه الحروف في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور.

وإذا كان القوم - الذين قسموا الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ - رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر، على حد التنصيف الذي وصفنا - دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه - بعد العهد الطويل - لا يجوز أن يقع إلا من الله ﷻ؛ لأن ذلك يجرى مجرى علم الغيوب، وإن كان إنما تنبهوا على ما بني عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان، فذلك أيضًا من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة، التي يقصر عنها اللسان. فإن كان أصل اللغة توقيفًا فالأمر في ذلك أَبْيَنُ.

وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيبٌ أيضًا! ! لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمرٍ من عند الله تعالى.

وكلّ ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حدّ يتعلق به الإعجاز من وجه، ويشبه أن يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الألف؛ لأن الألف قد تلغى، وقد تقع الهمزة وهى موقعًا واحدًا. (١)

٢ـ إعجاز في مخارج الحروف بتناسق مخارجها:

---

(١) إعجاز القرآن (١/ ٤٤).

إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات. هذا يُنقر، وذاك يُصفر، وهذا يخفى، وذاك يُظهر، وهذا يُهمس، وذاك يجهر إلى غير ذلك مما هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد، ومن هنا يتجلّى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين اللين، والشدة، والخشونة، والرقة، والجهر، والخفية على وجه دقيق محكم، وضع كلًا من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش، وقشرة سطحية أخّاذة، امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة برقة الحضارة، من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة. (١)

٣ـ إعجاز في وضع الحروف: بمراعاة وضعها في مكان دون الآخر:

مثال: يقول الخطيب الإسكافي عن سر التعبير بالفاء في لفظ ﴿كُلُوا﴾ من قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٥٨)، وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء في لفظ ﴿كُلُوا﴾ أيضًا من قوله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ (الأعراف: ١٦١) مع أن القصة واحدة ومدخول الحرف واحد قال رحمه الله: الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به، تعلق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء، ومنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾فإن وجود الأكل متعلق بالدخول، والدخول موصل إلى الأكل؛ فالأكل وجوده معلق بوجوده بخلاف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده؛ لأن من يدخل بستانًا قد يأكل منه مجتازًا فلما لم يتعلق الثاني بالأول، تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء. (٢)

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٦.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل منقول من مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٦.

الوجه الثالث: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم.

قال السكاكي: إنه ليُدرك طيب النغم العارض للصوت، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة، إلا بإتقان علمَي المعاني والبيان والتمرين فيهما. (١)

قال الزركشي: فمن الإعجاز الروعة التي للقرآن في قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقر والجاحد. ومنها أنه لم يزل ولا يزال غضًّا طريًا في أسماع السامعين، وعلى ألسنة القارئين. (٢)

ونريد بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن وائتلافه في حركاته، وسكناته، ومدّاته، وغُنّاته، واتصالاته، وسكتاته اتساقًا عجيبًا، وائتلافًا رائعًا، يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور. وبيان ذلك: أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية وهي مرسلة على وجه السذاجة في الهواء مجردة من هيكل الحروف والكلمات؛ كأن يكون السامع بعيدًا عن القارئ المجود؛ بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزًا بعضها عن بعض، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدّات، والغُنّات، والحركات، والسكنات، والاتصالات، والسكتات. نقول: إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة، يشعر من نفسه ولو كان أعجميًا لا يعرف العربية؛ بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر؛ لأن الموسيقى تتشابه أجراسها، وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملّها، والطبع أن يمجها؛ ولأن الشعر تتّحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبًا، وإن طالت على نمط يورث سامعه السأم والملل، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل؛ لأنه يتنقل فيه دائمًا بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة، يهزّ كلّ وضع منها أوتار القلوب وأعصاب الأفئدة.

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، هو أول شيء أحسّته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلًا أم

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧-٣٢٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٧.

مسجوعًا، حتى خُيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر؛ لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزّة لم يعرفوا شيئًا قريبًا منها إلا في الشعر، ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنّوا، حتى قال قائلهم وهو الوليد بن المغيرة: وما هو بالشعر معلّلًا ذلك؛ بأنه ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيدة بيد أنه تورط في خطأ أفحش من هذا الخطأ، حين زعم في ظلام العناد. (١)

الوجه الرابع: الإعجاز في ألفاظ القرآن الكريم.

وبيانه كما يلي:

١ـ ترتيب الألفاظ.

قال ابن عطية: فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، عُلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره. (٢)

٢ـ صفة الألفاظ.

قال الزركشي: فمن إعجاز القرآن جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبًا في كلام البشر؛ لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما يشوبها من القوة، وبعض الوعورة والعذوبة منها ما يضادها من السلاسة والسهولة، فمن نحا نحو الصورة الأولى، فإنما يقصد الفخامة والروعة في الأسماع مثل الفصحاء من الأعراب وفحول الشعراء منهم، ومن نحا نحو الثانية قصد كون الكلام في السماع أعذب وأشهى وألذ، مثل أشعار المخضرمين ومن داناهم من المولدين المتأخرين، وترى ألفاظ القرآن قد جمعت في نظمه كلتا الصفتين، وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز. (٣)

فالكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديًا غامرًا سائر ما تقرن به كالدُّرّة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد،

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣١١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧-٣٢٠.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٧.

وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله. (١)

٣ـ عدم وجود لفظة مُستكرهة:

فالقرآن ليس فيه لفظ مسخوط، ومعنًى مدخول، ولا تناقض، ولا اختلاف تضادّ، وجميعه في هذه الوجوه جار على منهاج واحد، وكلام العباد لا يخلو إذا طال من أن يكون فيه الألفاظ الساقطة، والمعاني الفاسدة، والتناقض في المعاني، وهذه المعاني التي ذكرنا من عيوب الكلام موجودة في كلام الناس من أهل سائر اللغات، لا يختص باللغة العربية دون غيرها، فجائز أن يكون التحدي واقعًا للعجم بمثل هذه المعاني في الإتيان بها، عارية مما يعيبها ويهجنها من الوجوه التي ذكرناها، ومن جهة أن الفصاحة لا تختص بها لغة العرب دون سائر اللغات، وإن كانت لغة العرب أفصحها، وقد علمنا أن القرآن في أعلى طبقات البلاغة، فجائز أن يكون التحدي للعجم واقعًا؛ بأن يأتوا بكلام في أعلى طبقات البلاغة بلغتهم التي يتكلمون بها. (٢)

فمفردات اللغة العربية منها متآلف في حروفه، ومتنافر، وواضح مستأنس، وخفي غريب، ورقيق خفيف على الأسماع، وثقيل كريه تمجه الأسماع، وموافق لقياس اللغة، ومخالف له ثم من هذه المفردات: عام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، ومعرف ومنكر، وظاهر ومضمر، وحقيقة ومجاز. (٣)

٤ـ مناسبة الألفاظ لجميع الأجيال:

فألفاظ القرآن اختيرت اختيارًا يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال، منذ نزل القرآن إلى اليوم؛ فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٤٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٣٤.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٥.

ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحًا في أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر.[1]

أمثلة:

إن القرآن في أغلب المواضع يأتي بلفظ يسير متضمن لمعنى كثير، ويكون اللفظ أعذب، ومن تأمل في سورة (ص) علم ما قلت، كيف صدرها وجمع فيها من أخبار الكفار وخلافهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، ومن تكذيبهم لمحمد ﷺ، وتعجبهم مما أتى به، والخبر عن إجماع ملإهم على الكفر، وظهور الحسد في كلامهم، وتعجيزهم وتحقيرهم ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة، وتكذيب الأمم قبلهم وإهلاك الله لهم، ووعيد قريش وأمثالهم مثل مصابهم. وحمل النبي على الصبر على أذاهم وتسليته في قصص الأنبياء مثل داود وسليمان وأيوب وإبراهيم ويعقوب وغيرهم عليهم السلام. وكل هذا الذي ذكر من أولها إلى آخرها في ألفاظ يسيرة متضمنة لمعان كثيرة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (البقرة: ١٧٩) فإن هذا القول لفظه يسير ومعناه كثير. ومع كونه بليغًا مشتملًا على المطابقة بين المعنيين المتقابلين، وهما القصاص والحياة. وعلى الغرابة، بجعل القتل الذي هو مفوت للحياة ظرفًا لها، وأولى من جميع الأقوال المشهورة عند العرب في هذا الباب؛ لأنهم عبروا عن هذا المعنى بقولهم: (قتل البعض إحياء الجميع) وقولهم: (أكثروا القتل ليقل القتل) وقولهم: (القتل أنفى للقتل). وأجود الأقوال المنقولة القول الأخير.

ولفظ القرآن أفصح منه بستة أوجه:

أحدها: أنه أخصر من الكل؛ لأن قوله ﴿وَلَكُمْ﴾ لا يدخل في هذا الباب؛ لأنه لا بد من تقدير ذلك في الكل؛ لأن قول القائل- قتل البعض إحياء للجميع- لا بد فيه من تقدير مثله، وكذلك في قولهم- القتل أنفى للقتل.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٨.

وثانيها: أن قولهم: القتل أنفى للقتل، ظاهره يقتضي كون الشيء سببًا لانتفاء نفسه بخلاف لفظ القرآن؛ فإنه يقتضي أن نوعًا من القتل - وهو القصاص - سبب لنوع من أنواع الحياة.

وثالثها: أن قولهم الأجود تكرير لفظ القتل بخلاف لفظ القرآن.

و رابعها: أن قولهم الأجود لا يفيد إلا الردع عن القتل، بخلاف لفظ القرآن؛ فإنه يفيد الردع عن القتل، والجرح فهو أفيد.

و خامسها: أن قولهم الأجود دال على ما هو المطلوب بالتبع، بخلاف لفظ القرآن؛ فإنه دال على ما هو مقصود أصلي؛ لأن نفي القتل مطلوب تبعًا من حيث إنه يتضمن حصول الحياة الذي هو مطلوب أصالة.

و سادسها: أن القتل ظلمًا أيضًا قتل، مع أنه ليس بناف للقتل بخلاف القصاص فظاهر قولهم باطل، وأما لفظ القرآن فصحيح ظاهرًا وباطنًا. (١)

الوجه الخامس: الإعجاز في المعنى (أي في معاني الألفاظ في القرآن الكريم).

وبيان ذلك كما يلي:

١ـ الأعجمي إن لم يحدث له تحدٍ عن طريق ألفاظ القرآن؛ فإنه يتحداه من جهة المعاني وترتيبها.

قال الجصاص: معلوم أن العجم لا يُتحدون من طريق النظم، فوجب أن يكون التحدي لهم من جهة المعاني وترتيبها على هذا النظام دون نظم الألفاظ(٢).

قلت: فمن طلب العُلا في الأخلاق وجد القرآن يُرشد إلى معانٍ نبيلة، يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، وهذا في باب الحقوق وغير ذلك.

٢ـ القرآن مشتمل على الفصيح والأفصح والمليح والأملح:

قال السيوطي: قال البارزي في أول كتابه أنوار التحصيل في أسرار التنزيل:

اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معاني

---

(١) إظهار الحق ٢/ ٣٤.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٣٤.

الجمل أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال؛ وذلك عتيد حاصل في علم الله تعالى؛ فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه، وإن كان مشتملًا على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح.

- ولذلك أمثلة منها: قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (الرحمن: ٥٤)، لو قال مكانه وثمر الجنتين قريب، لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجني والجنتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يُجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨) أحسن من التعبير بـ تقرأ لثقله بالهمزة.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) أحسن من- لاشك فيه -لثقل الإدغام، ولهذا كثر ذكر الريب، ومنها: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ (محمد: ٣٥) أحسن من- ولا تضعفوا - لخفته، و ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ (مريم: ٤) أحسن من- ضعف- لأن الفتحة أخف من الضمة، ومنها ﴿ءَامَنَ﴾ (غافر: ٣٠) أخفّ من- صدق- ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق، و﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ (يوسف: ٩١) أخفّ من- فضّلك، وآتى من قوله: ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أخف من- أعطى- وأَنْذِر من قوله: ﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ (يونس: ٢) أخفّ من -خوّف و﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ (البقرة: ١٨٤) أخفّ من- أفضل لكم- والمصدر في نحو ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: ١١)أخف من - مخلوق- وتَنْكِحَ من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٣٠) أخف من - تتزوج- لأن تفْعل أخفّ من تفعّل ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر.

ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة والغضب، والرضا، والحب، والمقت في أوصاف الله تعالى، مع أنه لا يوصف بها حقيقة؛ لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام؛ كأن يقال: يعامله معاملة المحب والماقت؛ فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة لخفّته، واختصاره، وابتنائه على التشبيه البليغ فإن قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا

ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الزخرف: ٥٥) أحسن من - فلما عاملونا معاملة المغضب، أو فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب.[١]

٣ـ القرآن يُورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة بمقدرة فائقة:

فيورد القرآن المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء، ولسنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء، ولكنها أمثلة تهديك، ونماذج تكفيك.[٢]

ـ منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

١ - الإتيان بصريح مادة الأمر نحو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

٢ - والإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين نحو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣).

٣ - والإخبار بكونه على الناس نحو: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . . .﴾ (آل عمران: ٩٧).

٤ - والإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه، نحو﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨) أي: مطلوب منهن أن يتربصن.

٥ - والإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره نحو: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) أي مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم.

٦ - وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر نحو: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ (البقرة: ٢٣٨)، أو بلام الأمر نحو: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحج: ٢٩).

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٨.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣١٩

٧ - والإخبار عن الفعل بأنه خيرٌ نحو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ (البقرة: ٢٢٠).

٨ - ووصف الفعل وصفًا عنوانيًا بأنه برّ نحو: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٩).

٩ - ووصف الفعل بالفريضة نحو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ . . .﴾ (الأحزاب: ٥٠) أي من بذل المهور والنفقة.

١٠ - وترتيب الوعد والثواب على الفعل نحو: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ (البقرة: ٢٤٥).

١١ - وترتيب الفعل على شرط قبله نحو: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ﴾ (البقرة: ١٩٦).

١٢ - وإيقاع الفعل منفيًا معطوفًا عقب استفهام نحو: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النحل: ١٧) أي تذكروا.

١٣ - وإيقاع الفعل عقب ترجّ نحو: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

١٤ - وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل نحو: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

ب ـ ومنها تعبيره عن النهي بالوسائل الآتية:

١ - الإتيان في جانب الفعل بمادة النهي نحو: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ (الممتحنة: ٩).

٢ - والإتيان في جانبه بمادة التحريم نحو: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

٣ - ونفي الحِلّ عنه نحو: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ (النساء: ١٩).

٤ - والنهي عنه بلفظ لا، نحو: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

٥ – ووصفه بأنه ليس برًا، نحو: ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ ﴾ (البقرة: ١٨٩).

٦ – ووصفه بأنه شرّ، نحو: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

٧ – وذكر الفعل مقرونًا بالوعيد، نحو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤).

٨ – وذكر الفعل منسوبًا إليه الإثم، نحو: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ (البقرة: ١٨١).

٩ – ونظم الأمر في سلك ما هو بالغ الإثم والحرمة.

١٠ – والإخبار عن الفعل بأنه رجس.

١١ – ووصفه بأنه من عمل الشيطان.

١٢ – والأمر باجتنابه.

١٣ – ورجاء الفلاح في تركه.

١٤ – وترتيب مضار مؤذية على فعله.

١٥ – والأمر بالانتهاء عنه في صورة الاستفهام، ونمثل لهذه الطرق كلها بتحريم الخمر والميسر في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المائدة: ٩٠– ٩١).

وهكذا تجد القرآن يفتنّ في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددةٍ، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتكلم وغيبة وخطاب، ومضي وحضورواستقبال، واسمية، وفعلية، واستفهام، وامتنان، ووصف، ووعد ووعيد إلى غير ذلك. ومن عجب أنه في تحويله الكلام من نمطٍ إلى نمطٍ كثيرًا ما تجده سريعًا لا يجارى في سرعته. ثم هو على هذه

السرعة الخارقة لا يمشي مكبًّا على وجهه، مضطربًا أو متعثرًا، بل هو محتفظ دائمًا بمكانته العليا من البلاغة ﴿يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢).

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان، لباسًا فضفاضًا من الجدّة والروعة على القرآن، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يملّ قارئهُ، ولا يسأم سامعه، مهما كثرت القراءة والسماع. بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون، كما ينتقل الطائر في روضة غنّاء من فنن إلى فنن، ومن زهر إلى زهر.

واعلم أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو كان فنًّا من فنون إعجازه الأسلوبي كما ترى، وكان في الوقت نفسه منّة يمنّها الله على الناس؛ ليستفيدُوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءةً وسماعًا، وتدبرًا وعملًا، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه. اقرأ إن شئت قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ (الإسراء: ٨٩). [١]

الوجه السادس: الإعجاز في وفاء اللفظ بالمعنى في القرآن.

وبيانه كما يلي:

١ـ براعة اللفظ في المعنى البارع:

إنَّ المعاني التي تضمنها القرآن في أصل وضع الشريعة، والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع.

وذلك أنه قد عُلم أن تخيّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس أسهلُ وأقربُ من تخيّر الألفاظ لمعانٍ مبتكرةٍ، وأسباب مؤسسةٍ مستحدثةٍ؛ فإذا برعَ اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٣.

ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه، بانَ - ظهر - التفاضل في البراعة والفصاحة؛ ثم إذا وجدت الألفاظ وِفْقَ المعنى، والمعاني وِفْقَهَا لا يفضُل أحدهما على الآخر؛ فالبراعة أظهر، والفصاحة أتمّ.

٢ـ الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جميعه وواسطة عقده:

فالكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته؛ بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديًا غامرًا سائر ما تقرن به كالدّرّة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد، وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غُرّة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله[1].

٣ـ عدم زيادة اللفظ على المعنى: عن طريق القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى.

قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى؛ ومعنى هذا إنك في كل من جمل القرآن، تجد بيانًا قاصدًا مقدرًا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير، تجده قد جلي لك المعنى في صورة كاملة، لا تنقص شيئًا يعتبر عنصرًا أصليًّا فيها، أو حليةً مكملةً لها، كما أنها لا تزيد شيئًا يعتبر دخيلًا فيها وغريبًا عنها، بل هو كما قال الله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن، بل كل مِنطِيق[2] بليغ مهما تفوق في البلاغة والبيان، تجده بين هاتين الغايتين، كالزوج بين ضرّتين، بمقدار ما يرضي إحداهما يغضب الأخرى؛ فإن ألقى البليغ باله إلى القصد في اللفظ، وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه، حمله ذلك في الغالب على أن يغضّ من شأن المعنى، فتجيء صورته ناقصة خفية ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغاز والتعمية؛ وإذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٤٢.

(٢) صفة على وزن: فِعْلِيلٌ، أي صاحب كلام فصيح. لسان العرب (مادة: كلم).

بالمعنى، وتجلية صورته كاملة، حمله ذلك على أن يخرج عن حد القصد في اللفظ راكبًا متن الإسهاب والإكثار حرصًا على أن لا يفوته شيء من المعنى الذي يقصده؛ ولكن ينذر حينئذ أن يسلم هذا اللفظ من داء التخمة في إسرافه وفضوله، تلك التخمة التي تذهب ببهائه، ورونقه، وتجعل السامع يتعثر في ذيوله، لا يكاد يميز بين زوائد المعنى وأصوله.

وإذا افترضنا أن بليغًا كُتب له التوفيق بين هاتين الغايتين وهما القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى في جملة أو جملتين من كلامه؛ فإن الكلال والإعياء لا بد لاحقًا به في بقية هذا الكلام، وندر أن يصادفه هذا التوفيق مرةً ثانيةً إلا في الفينة بعد الفينة، كما تصادف الإنسان قطعة من الذهب أو الماس في الحين بعد الحين، وهو يبحث في التراب أو ينقب بين الصخور.

الوجه السابع: الإعجاز في التركيب (أي: تركيب مفردات القرآن الكريم)

بيان المقصود من الإعجاز في التركيب:

فالتراكيب العربية منها ما هو حقيقة ومجاز، ومنها متآلف الكلمات ومتنافرها، وواضح المعاني ومعقدها، وموافق للقياس اللغوي والخارج عليه، ومنها الإسمية والفعلية، والخبرية والإنشائية، وفيها النفي والإثبات، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل إلى غير ذلك مما هو مفصل في علوم اللغة وكتبها. [1]

قال الزملكاني: فوجه الإعجاز في هذا راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف، بأن اعتدلت مفرداته تركيبًا وزنة، وعلت مركباته معنى بأن يوضع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى. [2]

الوجه الثامن: الإعجاز في النظم.

فمعنى ذلك: أن القرآن خارجًا عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر، مع كون حروفه في كلامهم، ومعانيه في خطابهم، وألفاظه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قبيلٌ غير قبيل كلامهم، وجنس آخر متميز عن أجناس خطابهم، حتى إن من

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٥

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧.

اقتصر على معانيه وغيّر حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته؛ فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه.

قال الأصبهاني في تفسيره: فالنظم المخصوص يعتبر صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصره، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره. كالخاتم والقرط والسوار فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها، لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد؛ فإن الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمى خاتمًا وإن كان العنصر مختلفًا، وإن اتخذ خاتم وقرط وسوار

من ذهب اختلفت أسماؤها باختلاف صورها وإن كان العنصر واحدًا. قال: فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص.

وبيان كون النظم معجزًا يتوقف على بيان نظم الكلام ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه. (١)

أنواع النظم المختلفة في الكلام عمومًا:

قال الباقلاني: وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى:

١ – أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه.

٢ –أنواع الكلام الموزون غير المقفى.

٣ –أصناف الكلام المعدل المسجع.

٤ – الكلام المعدل الموزون غير المسجع.

٥ – ما يرسل إرسالًا، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع ترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلًا في وزنه: وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه ولا يتصنع له. (٢)

القرآن يختلف عن جميع هذا النظم:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٢١).

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٣٥: ٣٧).

قال الباقلاني: فالذي يشتمل عليه بديع نظم القرآن المتضمن للإعجاز: منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

وقد علمنا أن القرآن خارج عن جميع النظم، ومباين لهذه الطرق، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب مسجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر؛ لأن من الناس من زعم أنه كلام السجع ومنهم من يدَّعى فيه شعرًا كثيرًا، والكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع؛ فهذا إذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة وأنه معجز. وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه. [1]

طول النظم في القرآن لا يُضاهيه طول نظم آخر:

قال الباقلاني: إنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة. وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف.

وقد حصل القرآن ـ على كثرته وطوله ـ متناسبًا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر: ٢٣)، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢)، فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إن امتد؛ وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال. [1]

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٣٥: ٣٧).

النظم في القرآن لا يختلف باختلاف أغراضه من قصص ومواعظ، خلافًا لكلام البشر:

قال الباقلاني: فإن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت، ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل، وسائر أجناس الكلام.

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ؛ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنًى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره. ولذلك ضرب المثل بالذين سمّيتهم؛ لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم؛ فإذا كان الاختلال يتأتّي في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه؛ ستغنينا عن ذكر من هو دونهم. وكذلك يُستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها، ثم نجد من الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصد أصلا، ومنهم من ينظم القصيد، ولكن يقصر تقصيرًا عجيبًا، ويقع ذلك من رجزه موقعًا بعيدًا، ومنهم من يبلغ في القصيدة الرتبة العالية، ولا ينظم الرجز أو يقصر فيه مهما تكلفه أو تعمله. ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانًا بيّنًا ومنهم من يوجد بضد ذلك.

---

(١) المصدر السابق.

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة؛ فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف. وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتًا بيّنًا، ويختلف اختلافًا كبيرًا. ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة؛ فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت؛ بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة؛ فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر؛ لأن الذي يقدرون عليه قد بيّنّا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب التي يتضمن:

حسن التنقل في القرآن من معنًى إلى غيره، مع حسن النظم:

فإن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بيّنًا في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضمّ والجمع.

ألا ترى أن كثيرًا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء؛ وإنّما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن.

وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب، ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة، ونبيّن أن القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبيّن به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف.

ومعنى خامس وهو: أن نظم القرآن وقع موقعًا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجنّ، كما يخرج عن عادة كلام الإنس. فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه

كقصورنا، وقد قال الله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨). [١]

الحكمة من اختلاف نظم القرآن عن غيره:

فتأليفه العجيب وأسلوبه الغريب في المطالع والمقاطع والفواصل، مع اشتماله على دقائق البيان وحقائق العرفان، وحسن العبارة، ولطف الإشارة، وسلامة التركيب، وسلامة الترتيب، فتحيرت فيه عقول العرب العرباء، وفهوم الفصحاء. والحكمة في هذه المخالفة أن لا يبقى لمتعسف عنيد مظنة السرقة، ويمتاز هذا الكلام عن كلامهم ويظهر تفوقه؛ لأن البليغ- ناظمًا كان أو ناثرًا- يجتهد في هذه المواضع اجتهادًا كاملًا، ويمدح ويعاب عليه غالبًا في هذه المواضع.

اختلاف نظم القرآن عن نظم الشعر خاصة:

قال ابن العربي: فمن إعجاز القرآن خروجه عن أنواع كلام العرب، وخصوصًا عن وزن الشعر؛ ولذلك قال أخو أبي ذر لأبي ذر: " لقد وضعت قوله على أقوال الشعراء فلم يكن عليها". ولا دخل في بحور العروض الخمسة عشر، ولا في زيادات المتأخرين عليها.

ولقد اجتهد المجتهدون في أن يجروا القرآن أو شيئا منه على وزن من هذه الأوزان فلم يقدروا، فظهر عند الولي والعدو أنه ليس بشعر؛ وذلك قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩). وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (الحاقة: ٤١). [٢]

الحكمة من اختلاف نظم القرآن عن نظم الشعر:

قال السيوطي: قيل الحكمة في تنزيه القرآن عن الشعر الموزون، مع أن الموزون من الكلام رتبته فوق رتبة غيره؛ أنَّ القرآن منبع الحق ومجمع الصدق، وقصارى أمر الشاعر التخييل بتصور الباطل في صورة الحق، والإفراط في الإطراء، والمبالغة في الذم، والإيذاء

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٣٥: ٣٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٦/ ٤٧٤.

دون إظهار الحق، وإثبات الصدق؛ ولهذا نزه الله نبيه عنه. ولأجل شهرة الشعر بالكذب؛ سمى أصحاب البرهان القياسات المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية.

وقال بعض الحكماء: لم يُر متديّن صادق اللهجة مفلقًا في شعره.

وأما ما وجد في القرآن مما صورته صورة الموزون، فالجواب عنه: أن ذلك لا يسمى شعرًا؛ لأن شرط الشعر القصد، ولو كان شعرًا لكان كل من اتفق له في كلامه شيء موزون شاعرًا فكان الناس كلهم شعراء؛ لأنه قل أن يخلو كلام أحد عن ذلك. وقد ورد ذلك على ألسنة الفصحاء فلو اعتقدوه شعرًا لبادروا إلى معارضته، والطعن عليه؛ لأنهم كانوا أحرص شيء على ذلك، وإنما يقع ذلك لبلوغ الكلام الغاية القصوى في الانسجام.

وقيل: البيت الواحد وما كان على وزنه لا يسمى شعرًا وأقل الشعر بيتان فصاعدًا. وقيل الرجز لا يسمى شعرًا أصلًا. وقيل: أقل ما يكون من الرجز شعرًا أربعة أبيات، وليس ذلك في القرآن بحال. (١)

التوراة والإنجيل والصحف ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف كالقرآن:

- **فإن قيل**: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالتوراة والإنجيل والصحف؟

قيل: ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزًا كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار عن الغيوب. وإنما لم يكن معجزًا؛ لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن. (٢)

الوجه التاسع: الإعجاز في كثرة أغراضه.

اشتمالُ القرآنِ على كثيرٍ من الأغراضِ، مثل: القصصِ، والمواعظِ، والحِكَمِ، والإعذارِ، والإنذارِ، والأحكامِ. وقد جاءَ في أروعِ ما يمكنُ أن يكونَ من براعةِ النظم والتأليف. أما الشاعرُ البليغُ فلا يُجيدُ إلا لونًا واحدًا أو لونينِ، فإذا خرجَ عما اعتادَ عليه وبرَعَ فيه، أساءَ وقصَّرَ. (١)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٦.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٣١.

فإنَّ الشاعر أو الكاتب إذا كرر مضمونًا أو قصة لا يكون كلامه الثاني مثل الأول. وقد تكررت قصص الأنبياء، وأحوال المبدأ والمعاد والأحكام والصفات الإلهية، واختلفت العبارات إيجازًا وإطنابًا وتفننًا في بيانها غيبة وخطابًا، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلًا.

وفي القرآن إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحثّ على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة، وأمثال هذه الأمور توجب تقليل الفصاحة. ولذلك إذا قيل لشاعر فصيح أو كاتب بليغ أن يكتب تسعًا أو عشرًا من مسائل الفقه أو العقائد في عبارة فصيحة مشتملة على التشبيهات البليغة والاستعارات الدقيقة يعجز.[٢]

الوجه العاشر: الإعجاز البلاغي.

أنواع البلاغة في اللغة العربية وفي القرآن.

قال الباقلاني: ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام:

الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.[٣]

فالقرآن اشتمل على جميعِ أنواعِ البلاغةِ، ويتجاوزُها إلى مالم يعرفْه العربُ ولا يستطيعونه.[٤]

فإنه مشتمل على جميع فنون البلاغة من ضروب التأكيد وأنواع التشبيه والتمثيل، وأصناف الاستعارة وحسن المطالع والمقاطع، وحسن الفواصل، والتقديم والتأخير والفصل والوصل اللائق بالمقام، وخلوّه عن اللفظ الرّكيك والشاذّ الخارج عن القياس النافر عن الاستعمال، وغير ذلك من أنواع البلاغات. ولا يقدر أحد من البلغاء والكملاء من العرب العرباء إلا على نوع أو نوعين من الأنواع المذكورة، ولو رام غيره في كلامه لم

---

(١) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ١/ ٦١.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٣١.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٣٥.

(٤) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ١/ ٦١.

يتأت له، وكان مقصرًا. والقرآن محتو عليها كلها فتلك عشرة كاملة، وهذه الوجوه العشرة تدل على أن القرآن في الدرجة العالية من البلاغة الخارجة عن العادة، يعرفه فصحاء العرب بسليقتهم، وعلماء الفرق بمهارتهم في فن البيان، وإحاطتهم بأساليب الكلام، ومن كان أعرف بلغة العرب وفنون بلاغتها كان أعرف بإعجاز القرآن. (١)

حازت بلاغات القرآن من كل قسم من أقسام البلاغة حصة:

قال الخطابي: ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها، وصغوا فيه إلى حكم الذوق. والتحقيق: أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في درجات البيان متفاوتة؛ فمنها: البليغ الرصين الجزل. ومنها: الفصيح الغريب السهل. ومنها: الجائز الطلق الرسل. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، فالأول أعلاها، والثاني أوسطها، والثالث أدناها وأقربها.

فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الإنفراد في نعوتهما كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة؛ والجزالة والمتانة يعالجان نوعًا من الزعورة(٢) ؛ فكان اجتماع الأمرين في نظمه ـ مع نُبُوِّ كل واحد منهما عن الآخر ـ فضيلة خُصّ بها القرآن؛ ليكون آية بينة لنبيه ﷺ.

سبب عدم اتيان البشر بمثل البلاغة في القرآن:

قال الخطابي: وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور:

منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها، وارتباط بعضها ببعض،

(١) إظهار الحق ٢/ ٣٥.

(٢) هكذا وردت، ولعلها: الوعورة.

فيتوصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا، وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه. وأما معانيه: فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه، والترقي إلى أعلى درجاته.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام؛ فأمّا أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير. فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم[1] التأليف، مضمنًا أصح المعاني من توحيد لله تعالى، وتنزيهه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساويها، واضعًا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعًا أخبار القرون الماضية، وما نزل من مُثُلات الله بمن مضى وعاند منهم، منبئًا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الآتية من الزمان، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك آكد للزوم ما دعا عليه وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهي عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها؛ حتى تنتظم وتتسق أمرٌ تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم؛ فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله.[2]

إعجاز القرآن في علم البديع

---

(١) جمع (نُظُم).

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧-٣٢٠.

إن سأل سائل فقال: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟ قيل: ذكر أهل الصنعة، ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظًا نحن نذكرها، ثم نبين ما سألوا عنه؛ ليكون الكلام واردًا على أمر مبيّن، وباب مقرّر مصوّر.

ذكروا أن من البديع في القرآن قوله عز ذكره: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء: ٢٤)، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (الزخرف: ٤)، وقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا﴾ (مريم: ٤)، وقوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (يس: ٣٧)، وقوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٥)، وقوله: ﴿نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ (النور: ٣٥).

وقد يكون البديع في الكلمات الجامعة الحكيمة، كقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وفي الألفاظ الفصيحة: كقوله: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ (يوسف: ٨).

وفي الألفاظ الإلهية: كقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ (النمل: ٩١)، وقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)، وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ (غافر: ٥٣)، ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾﴾ (الصافات: ٤٩). (١)

أمثلة من القرآن على إتيانه بأنواع البلاغة المختلفة، وبيان سبب إتيان القرآن بها:

قال الباقلاني: فأما الإيجاز: فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى؛ فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة، وذلك ينقسم إلى حذف وقصر:

فالحذف: الإسقاط للتخفيف: كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢)، وقوله: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ (محمد: ٢١).

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٧٣).

-وحذف الجواب، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١)؛ كأنه قيل: لكان هذا القرآن، والحذف أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب.

والإيجاز بالقصر: كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون: ٤)، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ (يونس: ٢٣)، وقوله﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر: ٤٣).

إعجاز القرآن في علم البيان:

تعريف علم البيان

قال المراكشي: تعريف علم البيان كما اختاره جماعة: فهو ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى، وعن تعقيده وتعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال. (١)

-فالبيان على أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة.

ويقع التفاضل في البيان، ولذلك قال عزّ من قائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ (الرحمن: ١-٤)، ونقيضه العي، ومنه قيل: أعيا من باقلٍ؛ سئل عن ظبية في يده بكم اشتراها، فأراد أن يقول بأحد عشر، فأشار بيديه مادًا أصابعه العشر ثم أدلع لسانه، فأفلتت الظبية من يده.

والشيء إذا صدر من أهله، وبدا من أصله، وانتسب إلى ذويه، سلم في نفسه، وبانت فخامته، وشوهد أثر الاستحقاق فيه. وإذا صدر من متكلف، وبدا من متصنع بان أثر الغربة عليه، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه وعرف شمائل التحير منه. فالكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الإلهية يتميز عما لم يكن كذلك، ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان، ولو لم يكن فيه إلا ما منّ به الله على خلقه بقوله﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، فأما بيان القرآن: فهو أشرف بيان وأهداه وأكمله وأعلاه وأبلغه وأسناه.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧-٣٢٠.

تأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ (الزخرف: ٥) في شدة التنبيه على تركهم الحق، والإعراض عنه، وموضع امتنانه بالذكر والتحذير. وقوله: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الزخرف: ٣٩)، وهذا بليغ في التحسير.

وقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٢٨)، وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معوَّدين لمخالفة النهي والأمر.

وقوله: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المؤمنون: ٩١)، وكذلك قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٢): نهاية في الحجاج، وقوله: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الملك١٣-١٤): نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات، ولا وجه للتطويل؛ فإنَّ بيان الجميع في الرفعة وكِبَر المنزلة على سواء.

وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز وهو معجز من القرآن. وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ فليس ذلك بطريق الإعجاز، لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام غيره وليس ذلك بمعجز؛ بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه من اللفظ تثمر الإعجاز، وتضمين المعاني أيضا قد يتعلق به الإعجاز إذا حصلت للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها.[1]

الوجه الحادي عشر: الإعجاز الخطابي: في مناسبة القرآن وإرضائه للعامة والخاصة - إعجاز خاص بالأقوال المحكية في القرآن.

قال ابن عاشور: فهو إذا حكى أقوالًا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية. وإذا حكى أقوالًا عربية تصرف فيها تصرفًا يناسب أسلوب المعبر، مثل

---

(١) إعجاز القرآن (١/ ٢٨٤).

ما يحكيه عن العرب، فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم، بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية. (١)

قال الزركشي: ومن الإعجاز ما ينتشر فيه عند تلاوته من إنزال الله إياه في صورة كلام هو مخاطبة من الله لرسوله تارة، ومخاطبة أخرى لخلقه، لا في صورة كلام يستمليه من نفسه من قد قُذف في قلبه وأُوحى إليه ما شاء أن يلقيه إلى عباده على لسانه، فهو يأتي بالمعاني التي ألهمها بألفاظه التي يكسوها إياه كما يشاهد من الكتب المتقدمة. (٢)

ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم. وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام، لا في إشراق ديباجته، ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر؛ فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة، لم يرض العامة؛ لأنهم لا يفهمونه. وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يرض الخاصة؛ لنزوله إلى مستوى ليس فيه إمتاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم. (٣)

الوجه الثاني عشر: الإعجاز في الوحدة الموضوعية(العضوية) للآيات والسور:

الأغلب أنه إذا انتقل الكلام من مضمون إلى مضمون آخر، واشتمل على بيان أشياء مختلفة لا يبقى حسن ربط الكلام ويسقط عن الدرجة العالية للبلاغة. والقرآن يوجد فيه الانتقال من قصة إلى قصة أخرى، والخروج من باب إلى باب، والاشتمال على أمر ونهي، وخبر واستخبار، ووعد وعيد، وإثبات النبوة، وتوحيد الذات، وتفريد الصفات،

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠٧).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣١٣).

وترغيب وترهيب، وضرب مثال، وبيان حال. ومع ذلك يوجد فيه كمال الربط والدرجة العالية للبلاغة الخارجة عن العادة فتحير فيها عقول بلغاء العرب.(١)

ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغًا لا يدانيه فيه أي كلام آخر مع طول نفسه وتنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد. وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم وجدت منه جسمًا كاملًا، تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه، ولمحت فيه روحًا عامًا يبعث الحياة والحس على تشابك وتساند بين أعضائه؛ فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة فبين كلمات الجملة السورة الواحدة من التناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء، متعانقة الآيات. وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابًا سويّ الخلق، حسن السمت ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ (الزمر: ٢٨) فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار، على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء موضع خاص من الحلقة، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة؛ لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد، جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة وحدة بديعة متآلفة، تُريك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء، ثم بين كل حلقة وحلقة، ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها.

يَعرف هذا الإحكام والترابط في القرآن كلُّ من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه من غير تفكك ولا تخاذل ولا انحلال ولا تنافر، بينما الموضوعات مختلفة متنوعة؛ فمن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك. وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات فنحيلك عليها، ونكتفي بمثال واحد نضربه مع الاختصار والاقتصار.

الوجه الثالث عشر: الإعجاز في عرضه القصصي.

---

(١) إظهار الحق (٢/ ٣٣).

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (يوسف: ٣).

قال ابن تيمية: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: قيل: المعنى نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص كما يقال نكلمك أحسن التكليم، ونبين لك أحسن البيان. قال الزجاج: نحن نبين لك أحسن البيان. والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها، قال: وقوله: ﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي بوحينا إليك هذا القرآن، ومن قال هذا قال بما أوحينا إليك هذا القرآن.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: نَقْرَأُ عَلَيْك أَحْسَنَ الْقِرَاءَةِ، وَنَتْلُوا عَلَيْك أَحْسَنَ التِّلَاوَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى نَقُصُّ عَلَيْك أَحْسَنَ مَا يُقَصُّ، أَيْ أَحْسَنَ الْأَخْبَارِ الْمَقْصُوصَاتِ، كَمَا قَالَ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ (الزمر: ٢٣) وَقَالَ: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا**﴾ (النساء: ١٢٢). وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى: ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ**﴾ (القصص: ٢٥) وَقَوْلُهُ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (يوسف: ١١١)، الْمُرَادُ خَبَرُهُمْ وَنَبَؤُهُمْ وَحَدِيثُهُمْ لَيْسَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ الْمَصْدَرِ. وَالْقَوْلَانِ مُتَلَازِمَانِ فِي الْمَعْنَى.(١)

الوجه الرابع عشر: الإعجاز في ضربه للأمثال.

تعريف التمثيل.

قال ابن تيمية: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ يُعَبَّرُ فِي اللُّغَةِ بِضَرْبِ الْمَثَلِ أَوْ بِالْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ عَنْ نَوْعٍ مِنْ الْأَلْفَاظِ فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ التَّعْبِيرُ كَمَا يُسْتَفَادُ مِنْ اللُّغَةِ؛ لَكِنْ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْحُكْمِ كَأَمْثَالِ الْقُرْآنِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ قَدْ قَالَ كَلِمَةً مَنْظُومَةً أَوْ مَنْثُورَةً لِسَبَبٍ اقْتَضَاهُ فَشَاعَتْ فِي الِاسْتِعْمَالِ حَتَّى يُصَارَ يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ كُلِّ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ، وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ فِي الْأَصْلِ غَيْرَ مَوْضُوعٍ لَهَا، فَكَأَنَّ تِلْكَ الْجُمْلَةَ المثلية نُقِلَتْ بِالْعُرْفِ مِنْ الْمَعْنَى الْخَاصِّ إلَى الْعَامِّ، كَمَا تُنْقَلُ الْأَلْفَاظُ الْمُفْرَدَةُ فَهَذَا نَقْلٌ فِي الْجُمْلَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ: "يَدَاك أَوْكَتَا وَفُوك نَفَخَ" هُوَ مُوَازٍ لِقَوْلِهِمْ: "

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٨).

أَنْتَ جَنَيْت هَذَا "، لِأَنَّ هَذَا الْمَثَل قِيلَ ابْتِدَاءً لِمَنْ كَانَتْ جِنَايَتُهُ بِالْإِيكَاءِ وَالنَّفْخِ، ثُمَّ صَارَ مَثَلًا عَامًّا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: " الصَّيْفَ ضَيَّعْت اللَّبَنَ " مِثْلُ قَوْلِك " فَرَّطْت وَتَرَكْت الْحَزْمَ، وَتَرَكْت مَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ وَقْتَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ حَتَّى فَاتَ " وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ قِيلَتْ لِلْمَعْنَى الْخَاصِّ. وَكَذَلِكَ " عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُسًا " أَيْ أَتَخَافُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الظَّاهِرِ الْحَسَنِ بَاطِنٌ رَدِيءٌ؟ فَهَذَا نَوْعٌ مِنْ الْبَيَانِ يَدْخُلُ فِي اللُّغَةِ وَالْخِطَابِ، فَالْمُتَكَلِّمُ بِهِ حُكْمُهُ حُكْمُ الْمُبَيِّنِ بِالْعِبَارَةِ الدَّالَّةِ سَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا إذْ قَدْ يَتَمَثَّلُ بِهِ فِي حَقِّ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَهَذَا تَطَلُّبُهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ جِنْسِ تَطَلُّبِ الْأَلْفَاظِ الْعُرْفِيَّةِ، فَهُوَ نَظَرٌ فِي دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى لَا نَظَرٌ فِي صِحَّةِ الْمَعْنَى، وَدَلَالَتِهِ عَلَى الْحُكْمِ وَلَيْسَ هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (الزمر: ٢٧) فَتَدَبَّرْ هَذَا فَإِنَّهُ يَجْلُو عَنْك شُبْهَةً لَفْظِيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً.

وَهَذِهِ الْأَمْثَالُ اللُّغَوِيَّةُ أَنْوَاعٌ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا أَجْنَاسُهَا، وَهِيَ مُعْلِنَةٌ بِبَلَاغَةِ لَفْظِهِ وَنَظْمِهِ وَبَرَاعَةِ بَيَانِهِ اللَّفْظِيِّ. وَالَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ وَإِعْجَازِ الْقُرْآنِ يَتَكَلَّمُونَ فِي مِثْلِ هَذَا. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ أَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ صَارَتْ مَثَلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا تَصِيرُ الْكَلِمَةُ مَثَلًا حَتَّى يَتَمَثَّلَ بِهَا الضَّارِبُ؛ فَيَكُونُ هَذَا أَوَّلَ مَنْ تَمَثَّلَ بِهَا كَقَوْلِهِ ﷺ: " الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ "(١).

وَكَقَوْلِهِ: : " مُسَعِّرُ حَرْبٍ "(٢) وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لَكِنَّ النَّفْيَ بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ الْمُضَمَّنِ مَعْنَى الْإِنْكَارِ هُوَ نَفْيٌ مُضَمَّنٌ دَلِيلَ النَّفْيِ؛ فَلَا يُمْكِنُ مُقَابَلَتُهُ بِمَنْعٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَنْفِي بِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ إلَّا مَا ظَهَرَ بَيَانُهُ أَوْ اُدُّعِيَ ظُهُورُ بَيَانِهِ، فَيَكُونُ ضَارِبُهُ إمَّا كَامِلًا فِي اسْتِدْلَالِهِ وَقِيَاسِهِ، وَإِمَّا جَاهِلًا كَالَّذِي قَالَ: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس: ٧٨).

الحكمة من ذكر الأمثال في القرآن:

ولقد أكثر القرآن الكريم من التمثيلات إلى أن بلغت الألف؛ لأن في التمثيل سرًا لطيفًا وحكمة عالية؛ إذ به٩+ يصير الوهم مغلوبًا للعقل، والخيال مجبورًا للانقياد للفكر، وبه

(١) مسلم (٤٧١٢)، مسند أحمد (٤/ ٣٢٦)، واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٥٨١).

يتحول الغائب حاضرًا، والمعقول محسوسًا، والمعنى مجسمًا، وبه يجعل المتفرق مجموعًا، والمختلط ممتزجًا، والمختلف متّحدًا، والمنقطع متصلًا، والأعزل مسلّحًا. (١)

قال الجرجاني: اعلم أن مما اتفق العقلاء عليه: أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبةً، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبةً وشغفًا.

فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخمَ، وأنبلَ في النفوس وأعظمَ، وأهزَّ للعِطْف، وأسرعَ للإلف، وأجلبَ للفرح، وأغلبَ على الممتدح، وأوجَبَ شفاعة للمادح، وأقضى له بغرّ المواهب والمنائح، وأسيرَ على الألسن واذكرَ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدرَ. وإن كان ذمًا كان مَسُّه أوجعَ، ومِيسمه ألذَعَ، ووقعه أشدَّ، وحدُّه أحدَّ. وإن كان حجاجًا كان برهانه أنورَ، وسلطانه أقهرَ، وبيانه أبهَر. وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعدَ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدَّ. وإن كان اعتذارًا كان إلى القلوب أقربَ، وللقلوب أخلبَ، وللسخائم اسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عُقَد العقود أنفثَ، وعلى حسن الرجوع أبعثَ. وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجْلي الغياية، ويبصر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل. . . وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه. (٢)

الوجه الخامس عشر: الإعجاز في التكرار.
سواء تكرار العبارات أو الكلمات:

ففي كتاب: أسرار التكرار في القرآن لابن نصر الكرماني، ذكر أمثلة كثيرة في القرآن، ووضح الهدف من هذا التكرار، وأبان بأنه لا يُخل بالمعنى؛ بل يُعد صورةً جديدةً من إعجاز القرآن.

---

(١) إشارات الإعجاز (١/ ١١٧).

(٢) أسرار البلاغة (١/ ٩٢).

فمثال ذلك: قال الكرماني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ (البقرة: ٦٢)، وقال في (الحج: ١٧): ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، وقال في (المائدة: ٦٩) ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة؛ لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، والصابئون مقدَّمون على النصارى في الزمان؛ لأنهم كانوا قبلهم فقدمهم في الحج، وراعى في المائدة بين المعنيين فقدّمهم في اللفظ، وأخّرهم في التقدير؛ لأن تقديره والصابئون في كذلك، قال الشاعر:

فإن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب[1]

الوجه السادس عشر: الإعجاز في تيسير الله القرآن للذكر

فمن إعجاز القرآن أن قارئه لا يملّه، وسامعه لا يمجّه؛ بل الإكباب على تلاوته يُزيده.[2]

قلت: وسبب ذلك تيسيرُ الله القرآنَ للذّكرِ.

قال الباقلاني: فقد سهل الله سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة. وجعله قريبًا إلى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس.

وهو مع ذلك ممتنعُ المطلب، عسيرُ المتناول، غير مُطمِع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوّه في موقعه أن يقدر عليه، أو يظفر به.

فأمّا الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل، والقول المسفسف، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة، فيطلب فيه الممتنع، أو يوضع فيه الإعجاز.

ولكن لو وضع في وحشي مستكره، أو غمر بوجوه الصنعة، وأطبق بأبواب التعسف والتكلف - لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر، أو يعيب ويقرع، ولكنه أوضح مناره، وقرّب منهاجه، وسهّل سبيله، وجعله في ذلك متشابهًا متماثلًا، وبين مع ذلك إعجازهم فيه.

---

(١) أسرار التكرار في القرآن (١/ ٣١)، وانظر: شبهة التكرار في القرآن من هذه الموسوعة.

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٣).

وقد علمت أن كلام فصحائهم، وشِعْرَ بُلغائهم لا ينفكّ من تصرفٍ في غريب مستنكر، أو وحشي مستكره، ومعانٍ مستبعدة. ثم عدولهم إلى كلامٍ مبتذلٍ وضيعٍ لا يوجد دونه في الرتبة، ثم تحوّلهم إلى كلام معتدل بين الأمرين، متصرّف بين المنزلتين. فمن شاء أن يتحقق هذا نظر في قصيدة امرئ القيس: قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل. [١]

الوجه السابع عشر: الإعجاز النفسي.

قال القاضي عياض: مشيرًا إلى تأثير القرآن في النفوس وهو يَعُدُّ وجوه الإعجاز، ومنها: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيئة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وإنافة خَطَره، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفورًا، كما قال تعالى، ويودّون انقطاعه لكراهتهم له،. . . ، وأمّا المؤمن فلا تزال روعته به، وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابًا، وتكسبه هشاشةً لميل قلبه إليه، وتصديقه به). [٢]

وقد مات جماعةٌ عند سماع آيات منه أُفرِدُوا بالتصنيف[٣]

قال السيوطي: وقد قلت في إعجاز القرآن وجهًا ذهب عنه الناس؛ وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه إليه. قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١)، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ﴾ (الزمر: ٢٣). [٤]

فمن أمثلة التأثير المفضي إلى الإيمان ما أخرجه البخاري من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٤٦)

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/ ٢٣٠، ٢٣١

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٣).

(٤) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٢١).

هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. (١)

الوجه الثامن عشر: إعجاز القرآن في كثرة علومه ومعارفه.

قال السيوطي: فهذه ثمانون نوعًا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإدماج، ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة، وغالب هذه الأنواع فيها تصانيف مفردة وقفتُ على كثير منها. (٢)

قال الزركشي: واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لاستفرغ عمره، ثم لم يحكم أمره، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله، والرمز إلى بعض فصوله؛ فإنَّ الصناعة طويلة، والعمر قصير، وماذا عسى أن يبلغ لسان التقصير! (٣)

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل: الطبّ، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة والنجامة، وغير ذلك:

- أما الطبّ فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة؛ وذلك إنما باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ (الفرقان: ٦٧)، وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل: ٦٩)، ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور.

- وأما الهيئة ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بثّ في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

- وأما الهندسة ففي قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾﴾ (المرسلات: ٣٠).

---

(١) البخاري (٤٥٧٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٠).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٢).

- وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول بالموجب والمعارضة، وغير ذلك شيئًا كثيرًا، ومناظرة إبراهيم نمرود، ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم. وأما الجبر والمقابلة، فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض. وأما النِّجامة ففي قوله: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ (الأحقاف: ٤) فقد فسّره بذلك ابن عباس

- وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها: كالخياطة في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٢). والحدادة ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ (الكهف: ٩٦)، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ (سبأ: ١٠)، والغزْل ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ (النحل: ٩٢)، والنسج ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾ (العنكبوت: ٤١)، والفلاحة ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣﴾ (الواقعة: ٦٣-٦٧)، والصيد في آيات، والغوص: ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ (ص: ٣٧)، ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ﴾ (النحل: ١٤) والصياغة: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ (الأعراف: ١٤٨). [١]

الوجه التاسع عشر: الإعجاز التشريعي.

١ـ لا تعارض بين التشريع والعقل:

قال الباقلاني: واعلم أن من قال من أصحابنا: إن الأحكام معلّلة بعلل موافقة لمقتضى العقل، جعل هذا وجهًا من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالةً فيه، كنحو ما يعلّلون به الصلاة، ومعظم الفروض وأصولها. ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة، ووجوه تستحسن. [٢]

ـ إعجاز القرآن في كونه صالحًا ومُصلحًا لكل زمان ومكان:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤ / ٨٤: ٨٦).

(٢) إعجاز القرآن (١/ ٤٧).

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر، وفاء لا تظفر به في أي تشريع، ولا في أي دين آخر، ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته، والتي نعرض عليك من تفاصيلها ما يأتي:

أولًا: إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد، وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر.

ثانيًا: إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس، ويغذي الأرواح ويقوم الإرادة، ويفيد الفرد والمجموع منها.

ثالثًا: إصلاح الأخلاق: عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم، وتنفيرهم من رذائلها في قصد واعتدال، وعند حدٍّ وسط، لا إفراط فيه ولا تفريط.

رابعًا: إصلاح الاجتماع: عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم، ومحو العصبيات، وإزالة الفوارق التي تباعد بينهم. وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد، من نفس واحدة، ومن عائلة واحدة، أبوهم آدم، وأمهم حواء، وأنه لا فضل لشعب على شعب، ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى؛ وأنهم متساوون أمام الله، ودينه، وتشريعه. متكافئون في الأفضلية، وفي الحقوق، والتبعات من غير استثناءات، ولا امتيازات. وأن الإسلام عقد إخاءً بينهم أقوى من إخاء النسب والعصب. وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين، ولسان كتابه لغة العرب. وأنهم أمة واحدة، يؤلف بينها المبدأ، ولا تفرقها الحدود الإقليمية، ولا الفواصل السياسية والوضعية ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ (المؤمنون: ٥٢).

خامسًا: إصلاح السياسة أو الحكم الدولي: عن طريق تقرير العدل المطلق، والمساواة بين الناس، ومراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات؛ من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة

والمواساة والمحبة واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل: كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات.

سادسًا: الإصلاح المالي: عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد، وحماية المال من التلف والضياع، ووجوب إنفاقه في وجوه البر، وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعي المشروع.

سابعًا: الإصلاح النسائي: عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

ثامنًا: الإصلاح الحربي: عن طريق تهذيب الحرب، ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية في مبدئها، وغايتها، ووجوب التزام الرحمة فيها، والوفاء بمعاهداتها، وإيثار السلم عليها، والاكتفاء بالجزية عند النصر، والظفر فيها.

تاسعًا: محاربة الاسترقاق في المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى: منها الترغيب العظيم في تحرير الرقاب، وجعله كفارة للقتل، وللظهار، ولإفساد الصيام بطريقة فاحشة، ولليمين الحانثة، ولإيذاء المملوك باللطم أو الضرب.

عاشرًا: تحرير العقول والأفكار، ومنع الإكراه، والاضطهاد، والسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد والغطرسة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١-٢٢).

ب- إعجاز في أن تشريعاته؛ مهما حاولت التشريعات الوضعية أن تأتي بمثلها فلن تستطيع.

والدليل على هذا الوجه من إعجاز القرآن: أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور، وينقبون عما يفي بحاجتهم في كثير من نواحي حياتهم حتى اضطّروا تحت ضغط هذه الحاجة، وبعد طول المطاف، وقسوة التجارب أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وإليك شواهد على ذلك:

١ - أمريكا حرّمت الخمر أخيرًا، ولكنها فشلت ولم تنجح؛ لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التي اتبعها الإسلام في تحريم الخمر.

٢ - أمريكا أباحت الطلاق، وإن كانت قد أسرفت فيه إلى درجة ضارّة.

٣ - أسبانيا أصدرت حكومتها قانونًا بمنع البغاء الرسمي في بلادها، وبمنع النساء من البروز على الشواطئ في ثياب الاستحمام.

٤ - مصلحوا أوروبا يرفعون أصواتهم بضرورة الرجوع إلى مبدأ تعدد الزوجات حتى بعض نسائهم طالبن بهذا.

٥ - اليهود يطالبون أيضا بتعدد الزوجات، وقد تزعَّم هذه الحركة يهودي اسمه: مورشه ليكفر مان، وبرهن على أن ذلك من أحكام الدين اليهودي. وطلب إلى اليهود إلغاء قرار الحاخام غرشون الذي تعدى حدود الدين اليهودي؛ بإبطاله الزواج بأكثر من واحدة، وأصبح له أتباع كثيرون.

٦ - زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها في حرب من الحروب يقول: إن سبب انهيار دولتهم هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في المفاسد والمفاتن. [١]

جـ- عرض التشريع في القرآن فيه حث للقلوب على الخضوع له، لا أنها قوانين صارمة:

جمع القرآن في أسلوبه ونظمه بين مقصدين: مقصد الموعظة، ومقصد التشريع؛ فنظمه يفيد بظاهره السامع ما يحتاج إلى علمه، وهو في ذلك يشبه خطب العرب. ومع ذلك فقد ضم معناه ما يستخرج منه العلماء الأحكام الكثيرة في التشريع، وفي الآداب وغيرها. [٢]

الوجه العشرون: الإعجاز العلمي في القرآن.

- فمن إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين، ولا معارفهم علي حين أحاطت بكشوف العصر الحديث! [٣]

- وحكي أن طبيبًا نصرانيًا حاذقًا سأل الحسين بن علي الواقدي: لماذا لم ينقل شيء في كتابكم عن علم الطب. . . والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان؟. فقال الحسين: إن الله بيّن علم الطب كلّه في نصف آية، فسأل الطبيب النصراني عن هذه الآية. فقال: هي

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٢) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (١/ ٦٠).

(٣) إقامة الحجة على العالمين بنبوة خاتم النبيين (١/ ٤٨٩).

قوله: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟. . . ﴾ (الأعراف: ٣١) ما أحل الله لكم من المطعومات والمشروبات ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أي لا تتعدوا إلى الحرام، ولا تكثروا الإنفاق المستقبح، ولا تناولوا مقدارًا كثيرًا يضركم ولا تحتاجون إليه. ثم سأل الطبيب: أقال نبيكم أيضًا شيئًا في هذا الأمر؟ ، فقال الحسين: إن نبيَّنا أيضًا جمع الطب في ألفاظ يسيرة، فسأل الطبيب عنها، فقال الحسين: هي هذه: "المعدة بيت الداء. والحمية رأس كل دواء. وأعط كل بدن ما عودته"[1] فقال الطبيب: الإنصاف أن كتابكم ونبيكم ما تركا حاجة إلى جالينوس، يعني بينا الأمر الذي هو رأس حفظ الصحة وإزالة المرض وأصلهما ومضارهما.[2]

- فالقرآن حضّ على معرفة علوم الكون، وصنائع العالم، وحث على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا في الوجود. قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١)، وقال جلّت حكمته: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية: ١٣). فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفرّوا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه في خزائن سمواته وأرضه. ولهذا نَصَّ علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية، وحذق هذه الصناعات الفنية فرض من فروض الكفايات، ما داموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع.[3]

الوجه الحادي والعشرون: الإعجاز الغيبي

- فمن وجه إعجاز القرآن الغيبي:

١- ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، ولم يكن ذلك من شأن العرب.

٢- ما تضمنه من الإخبار عن قصص الأولين، وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحَضَرها.

---

(١) لا أصل له مرفوعًا، إنما هو من قول الحارث بن كلدة، قاله ابن القيم وغيره، انظر: الضعيفة للألباني (٢٥٢).

(٢) إظهار الحق (٢/ ٣٥)

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٦٧)

٣- ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل: كقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾(آل عمران: ١٢٢)، ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة: ٨). [١]

٤- ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، ولم يكن ذلك من شأن العرب.

فإن هذا لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه

الوجه الثاني والعشرون: الإعجاز التأثيري.

لقد أشار القرآن نفسه إلى هذه الوجه من وجوه إعجازه حين سمى الله كتابه روحًا من أمره بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢)، وحين سماه نورًا بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)، وحين وصف بالحياة والنور من آمن به في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢) وفي قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧)، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤).

تأثيره في أعدائه:

أما أعداؤه المشركون، فقد ثبت أنه جذبهم إليه بقوته في مظاهر كثيرة، نذكر بعضها على سبيل التمثيل:

المظهر الأول: أن هؤلاء المشركين مع حربهم له، ونفورهم مما جاء به، كانوا يخرجون في جنح الليل البهيم يستمعون إليه والمسلمون يرتلونه في بيوتهم. فهل ذاك إلا لأنه استولى على مشاعرهم، ولكن أبي عليهم عنادهم وكبرهم وكراهتهم للحق أن يؤمنوا به ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (المؤمنون: ٧٠)

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣١٧).

المظهر الثاني: أن أئمة الكفر منهم كانوا يجتهدون في صد رسول الله ﷺ عن قراءته في المسجد الحرام وفي مجامع العرب وأسواقهم، وكذلك كانوا يمنعون المسلمين من إظهاره، حتى لقد هالهم من أبي بكر أن يصلي به في فناء داره، وذلك لأن الأولاد والنساء كانوا يجتمعون عليه يستمتعون بلذة هذا الحديث ويتأثرون به ويهتزون له!.

المظهر الثالث: أنهم ذعروا ذعرا شديدا من قوة تأثيره ونفوذه إلى النفوس على رغم صدهم عنه واضطهادهم لمن أذعن له فتواصوا على ألا يسمعوه، وتعاقدوا على ان يلغوا فيه إذا سمعوه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

المظهر الرابع: أن بعض شجعانهم وصناديدهم، كان الواحد منهم يحمله طغيانه وكفره وتحمسه لموروثه، على أن يخرج من بيته شاهرا سيفه، معلنا غدره، ناويا القضاء على دعوة القرآن ومن جاء به، فلا يلبث حين تركه لمحة من لمحات العناية، وينصت إلى صوت القرآن في سورة أو آية، أن يذل للحق ويخشع، ويؤمن بالله ورسوله وكتابه ويخضع. وإن أردت شاهدا على هذا فاستعرض قصة إسلام عمر وهي مشهورة. أو فتأمل كيف أسلم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس هو وابن أخيه أسيد بن حضير رضي الله عنهم وإليك كلمة قصيرة عن إسلام سعدوأسيد فيها نفع كبير:

تروي كتب السيرة أن رسول الله ﷺ وهو في مكة قبل الهجرة، أرسل مع اهل المدينة الذين جاءوا وبايعوه بيعة العقبة، مبعوثين جليلين يعلمانهم الإسلام وينشرانه في المدينة هما: مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنهما وقد نجح هذان في مهمتهما أكثر نجاح، وأحدثا في المدينة ثورة فكرية أو حركة تبشيرية جزع لها سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما. فلما انتهى إليهما أسيد قال لهما: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ ثم هددهما، وقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة- رضي الله عن مصعب- فقد تغاضى عن هذا التهديد، وقال لأسيد في وقار المؤمن وثباته: أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن

كرهته كففْنا عنك ما تكره. ثم قرأ مصعب القرآن وأسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتى أسلم، ثم كر راجعًا إلى سعد؛ فقال له: والله ما رأيت بالرجلين بأسًا. فغضب سعد وذهب هو نفسه ثائرًا مهتاجًا، فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيدًا وانتهى الأمر بإسلامه ـ أيضًا ـ ثم كرّ راجعًا فجمع قبيلته، وقال لهم: ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا؛ فقال سعد: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا. فأسلموا أجمعين!.

تأثير القرآن في نفوس أوليائه:

تلك مظاهر لفعل القرآن بنفوس شانئيه، فهل تدري ماذا فعل بهم بعد أن دانوا له وآمنوا به وأصبحوا من تابعيه ومحبيه؟ لعلك لم تنس ما فعل القرآن بعمر وسعد وأسيد الذين نوّهنا بهم بين يديك. ألم يعودوا من خيرة جنود الإسلام ودعاته من يوم أسلموا بل من ساعة أسلموا؟ وهناك مظاهر أربعة لهذا الضرب أيضًا:

المظهر الأول: تنافسهم في حفظه وقراءته في الصلاة وفي غير الصلاة، حتى لقد طاب لهم أن يهجروا لذيذ منامهم من أجل تهجّدهم به في الأسحار، ومناجاتهم العزيز الغفار. وما كان هذا حالًا نادرًا فيهم؛ بل ورد أن المارّ على بيوت الصحابة بالليل كان يسمع لها دويًا كدوي النحل بالقرآن! وكان التفاضل بينهم بمقدار ما يحفظ أحدهم من القرآن! وكانت المرأة ترضى بل تغتبط أن يكون مهرها سورة يعلمها إيّاها زوجها من القرآن؟.

المظهر الثاني: عملهم به وتنفيذهم لتعاليمه في كل شأن من شؤونهم، تاركين كل ما كانوا عليه مما يخالف تعاليمه ويجافي هداياته. طيبةً بذلك نفوسُهم، طيّعةً أجسامُهم، سخيّةً أيديهم وأرواحهم، حتى صهرهم القرآن في بوتقته، وأخرجهم للعالم خلقًا آخر، مستقيم العقيدة، قويم العبادة، طاهر العادة، كريم الخلق، نبيل المطمح!.

المظهر الثالث: استبسالهم في نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته. فأخلصوا له وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه، ومنهم من انتظر حتى أتاه اليقين وهو مجاهد في سبيله مضحّ بنفسه ونفيسه. ولقد بلغ الأمر إلى حدّ أن الرسول ﷺ كان يردّ بعض من يتطوع بالجندية من الشباب لحداثة أسنانهم وكان كثير من

ذوي الأعذار يؤلمهم التخلف عن الغزو حتى يضطرّ الرسول ﷺأن يتخلّف معهم جبرًا لخاطرهم، ويرسل سراياه وبعوثه بعد أن ينظمها ويزودها بما تحتاجه ولا يخرج معهم. روى مالك والشيخان أن رسول الله ﷺقال: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ". (١)

المظهر الرابع: ذلك النجاح الباهر الذي أحرزه القرآن في هداية العالم. فقد وجد قبل النبي ﷺأنبياء ومصلحون، وعلماء ومشترعون، وفلاسفة وأخلاقيون، وحكام ومتحكمون، فما تسنّى لأحد من هؤلاء؛ بل ما تسنى لجميعهم أن يحدثوا مثل هذه النهضة الرائعة التي أحدثها محمد ﷺ في العقائد والأخلاق، وفي العبادات والمعاملات، وفي السياسة والإدارة، وفي كافة نواحي الإصلاح الإنساني. وما كان لمحمد ولا لألف رجل غير محمد أن يأتوا بمثل هذا الدستور الصالح الذي أحيا موات الأمة العربية في أقل من عشرين سنة، ثم نفخ فيهم من روحه فهبّوا بعد وفاته ينقذون العالم؛ ففتحوا ملك كسر وقيصر، ووضعوا رِجلًا في الشرق ورِجلًا في الغرب، وخفقت رايتهم على نصف المعمور في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان. (٢)

الوجه الثالث والعشرون: القرآن معجزة متجددة

إن إحدى أهم أوجه إعجاز القرآن الكريم، أن معجزته متجددة وعجائبه لا تنقضي، فالقرآن معجزة باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول تُتْلى آيات التحدّي به، ويُتلى قوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور: ٣٤)، و﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ (هود: ١٣)، و﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس: ٣٨).

---

(١) رواه البخاري (٢٦٤٤)، ومسلم (٤٩٧٦)، ومالك في الموطأ من رواية الليثي (٩٩٥).

(٢) مناهل العرفان٢ / ٤٣٦: ٤٤٠.

وإخبار رسول الله ﷺ بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق؛ دليلٌ على أنّه كان خارقًا يعجز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

وها هو القرآن الكريم مع طول الزمان، قد سمعه الموافق، والمخالف، والعرب، والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتابًا يقرأه الناس، وقال إنّه مثله، وهذا يعرفه كلّ أحدٍ. [1]

الوجه الرابع والعشرون: الإعجاز في هيمنته على الكتب السابقة وجمعه لعلومها

قال الزركشي: ومن وجوه الإعجاز جعله آخر الكتب غنيًا عن غيره، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يُرجع فيه إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (النمل: ٧٦). [2]

قال ابن تيمية: وَهَكَذَا الْقُرْآنُ فَإِنَّهُ قَرَّرَ مَا فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ الْخَبَرِ عَنْ اللهِ، وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَزَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَفْصِيلًا. وَبَيَّنَ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَرَّرَ نُبُوَّةَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَرِسَالَةَ الْمُرْسَلِينَ، وَقَرَّرَ الشَّرَائِعَ الْكُلِّيَّةَ الَّتِي بُعِثَتْ بِهَا الرُّسُلُ كُلُّهُمْ. وَجَادَلَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ بِأَنْوَاعِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَبَيَّنَ عُقُوبَاتِ اللهِ لَهُمْ وَنَصْرَهُ لِأَهْلِ الْكُتُبِ الْمُتَّبِعِينَ لَهَا، وَبَيَّنَ مَا حُرِّفَ مِنْهَا وَبُدِّلَ، وَمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَبَيَّنَ أَيْضًا مَا كَتَمُوهُ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِبَيَانِهِ. وَكُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّبُوَّاتُ بِأَحْسَنِ الشَّرَائِعِ وَالْمَنَاهِجِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ فَصَارَتْ لَهُ الْهَيْمَنَةُ عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ فَهُوَ شَاهِدٌ بِصِدْقِهَا وَشَاهِدٌ بِكَذِبِ مَا حُرِّفَ مِنْهَا، وَهُوَ حَاكِمٌ بِإِقْرَارِ مَا أَقَرَّهُ اللهُ، وَنَسْخِ مَا نَسَخَهُ فَهُوَ شَاهِدٌ فِي الْخَبَرِيَّاتِ حَاكِمٌ فِي الْأَمْرِيَّاتِ. وَكَذَلِكَ مَعْنَى "الشَّهَادَةِ" و"الْحُكْمِ" يَتَضَمَّنُ إثْبَاتَ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ مِنْ صِدْقٍ وَمُحْكَمٍ، وَإِبْطَالِ مَا أَبْطَلَهُ مِنْ كَذِبٍ وَمَنْسُوخٍ، وَلَيْسَ الْإِنْجِيلُ مَعَ التَّوْرَاةِ وَلَا الزَّبُورِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ بَلْ هِيَ مُتَّبَعَةٌ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ إلَّا يَسِيرًا نَسَخَهُ اللهُ بِالْإِنْجِيلِ؛ بِخِلَافِ الْقُرْآنِ. [3]

---

(١) المختصر القويم في دلائل نبوة الرسول الكريم ١/ ١٣٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٧

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ٤٤.

الوجه الوجه الخامس والعشرون: إعجاز القرآن في أسمائه وصفاته

لا يوجد كتاب على وجه الأرض له من الأسماء والصفات ما كان للقرآن.

قال ابن تيمية: أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ: الْفُرْقَانُ، الْكِتَابُ، الْهُدَى، النُّورُ، الشِّفَاءُ، الْبَيَانُ، الْمَوْعِظَةُ، الرَّحْمَةُ، بَصَائِرُ، الْبَلَاغُ، الْكَرِيمُ، الْمَجِيدُ، الْعَزِيزُ، الْمُبَارَكُ، التَّنْزِيلُ، الْمُنَزَّلُ، الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، حَبْلُ الله، الذِّكْرُ، الذِّكْرَى، تَذْكِرَةٌ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (الحاقة: ٤٨)، ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ (المدثر: ٥٤-٥٥)، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ (البقرة: ٩٧) و﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ (يونس: ٣٧) الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (يوسف: ١١١)، ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ (النحل: ٨٩)، الْمُتَشَابِهُ، الْمَثَانِي، الْحَكِيمُ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ (يونس: ١)، مُحْكَمٌ، الْمُفَصَّلُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ (الأنعام: ١١٤)، الْبُرْهَانُ ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء: ١٧٤)، عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ. الْحَقُّ ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ (يونس: ١٠٨)، عَرَبِيٌّ مُبِينٌ، أَحْسَنَ الْحَدِيثِ، أَحْسَنَ الْقَصَصِ عَلَى قَوْلٍ. كَلَامُ الله ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٦)، الْعِلْمُ ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ (آل عمران: ٦١)، الْعَلِيُّ، الْحَكِيمُ ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤)، الْقَيِّمُ ﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ (البينة: ٢-٣)، ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا﴾ (الكهف: ١-٢) وَوَحْيٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٤)، حِكْمَةٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ (القمر: ٤-٥) وَحُكْمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا﴾ (الرعد: ٣٧)، وَنَبَأٌ عَلَى قَوْلٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (النبأ: ٢)، وَنَذِيرٌ عَلَى قَوْلٍ ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ (النجم: ٥٦) فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى: شَافِعًا مُشَفَّعًا، وَشَاهِدًا

مُصَدِّقًا، وَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ" حُجَّةٌ لَك أَوْ عَلَيْك "(١)، وَفِي حَدِيثِ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ "عِصْمَةٌ لِمَنْ اسْتَمْسَكَ بِهِ "(٢). وَأَمَّا وَصْفُهُ بِأَنَّهُ يَقُصُّ، وَيَنْطِقُ، وَيَحْكُمُ، وَيُفْتِي، وَيُبَشِّرُ، وَيَهْدِي فَقَالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (النمل: ٧٦) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ (الجاثية: ٢٩) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ (النساء: ١٢٧) أَيْ يُفْتِيكُمْ أَيْضًا ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ . . .﴾ (الإسراء: ٩). (٣)

الوجه السادس والعشرون: إعجاز القرآن في بيانه للحق بالأدلة العقلية والقياس البين.

وَهَكَذَا غَالِبُ مَا بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ الْحَقَّ وَالصِّدْقَ وَيَذْكُرُ أَدِلَّتَهُ وَبَرَاهِينَهُ؛ لَيْسَ يُبَيِّنُهُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ عَنْ الْأَمْرِ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ والمتفلسفة أَنَّ دَلَالَتَهُ سَمْعِيَّةٌ خَبَرِيَّةٌ، وَأَنَّهَا وَاجِبَةٌ لِصِدْقِ الْمُخْبِرِ؛ بَلْ دَلَالَتُهُ أَيْضًا عَقْلِيَّةٌ بُرْهَانِيَّةٌ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ مِنْ الْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى أَحْسَنِهَا وَأَتَمِّهَا بِأَحْسَنِ بَيَانٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ فَهْمٌ وَعَقْلٌ؛ بِحَيْثُ إذَا أَخَذَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ، وَبَيَّنَ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، أَوْ لَمْ يَعْلَمْ صِدْقَ الرَّسُولِ، أَوْ يَظُنَّ فِيهِ ظَنًّا مُجَرَّدًا عَنْ مَا يَجِبُ مِنْ قَبُولِ قَوْلِ الْمُخْبِرِ كَانَ فِيهِ مَا يُبَيِّنُ صِدْقَهُ وَحَقَّهُ وَيُبَرْهِنُ عَنْ صِحَّتِهِ. (٤)

الوجه السابع والعشرون: إعجاز القرآن في حفظ الله له

١- تكفل الله بحفظه.

قال القاضي عياض: ومن وجوه إعجازه كونه آيةً باقيةً لا يعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفّل الله بحفظه. (٥)

٢-إبطال حِيل من أراد تحريفًا للقرآن.

٣- نقل القرآن بالتّواتر من جيلٍ لجيلٍ.

---

(١) رواه مسلم (٥٥٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه (٣٠٦٣٠). وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٨٤٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢).

(٤) مجموع الفتاوى١٤/ ٤٣٧.

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٣.

قال الباقلاني: القرآن الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبيﷺ، وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثًا وعشرين سنةً. (١)

الوجه الثامن والعشرون: إعجاز القرآن في عدم المجيء بمثله، وتحديه للبشر.

قال الرماني: وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والتحدّي للكافة. (٢)

فجعل الله عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله دليلًا على أنه منه، ودليلًا على وحدانيته. وذلك يدلّ عندنا على بطلان قول من زعم أنه لا يمكن أن تُعلم بالقرآن الوحدانية، وزعم أن ذلك مما لا سبيل إليه إلا من جهة العقل؛ لأن القرآن كلام الله ﷻ، ولا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولًا.

فقلنا: إذا ثبت بما نبينه إعجازه، وأن الخلق لا يقدرون عليه - ثبت أن الذي أتى به غيرهم، وأنه إنما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم، وأنه صدق، وإذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقًا، وليس إذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع أن يعرف من طريق القرآن؛ بل يمكن عندنا أن يعرف من قوله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الطور: ٣٣-٣٤)، فقد ثبت بما بيناه أنه تحدّاهم إليه ولم يأتوا بمثله.

وفي هذا أمران: أحدهما: التحدّي إليه، والآخر: أنهم لم يأتوا له بمِثلٍ، والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين. (٣)

* * *

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ١٨، ١٩.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٣.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ١٧.

٥ـ شبهة: ادعاؤهم وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم

نص الشبهة:

يقولون: كيف توجد ألفاظ أعجمية في القرآن مع أن الله قال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾؟

والجواب على ذلك في مبحثين

المبحث الأول: هل في القرآن ألفاظ أعجمية؟

المبحث الثاني: على فرض وجود ألفاظ أعجمية

فالجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: إن لسان العرب أوسع من أن يحيط به أحد.

الوجه الثاني: ليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنس الآخر، فلعل ما وصف أنه عجمي يكون عربي الأصل.

الوجه الثالث: لم يرد أن أحدًا من سكان مكة أو غيرها قال: بأنها غريبة عنه لا يعرفها.

الوجه الرابع: هذه المفردات غير العربية هي عربية باستعمال العرب لها فتكلّمت به العرب حتى صار كاللغة.

الوجه الخامس: لا يمتنع أن يتفق لسان العرب مع لسان العجم في بعض الألفاظ فتكون عربية وأعجمية، فالقرآن فيه من كلّ لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به، وليس معنى هذا أن اللفظ أصله أعجمي.

الوجه السادس: إن كل ما في القرآن من كلمات غير عربية الأصل إنما هي كلمات مفردات.

الوجه السابع: إن وجود مفردات أجنبية في أي لغة سواء كانت اللغة العربية أو غير العربية لا يخرج تلك اللغة عن أصالتها.

الوجه الثامن: وجود عدد وإن كان نادرًا جدًا من الألفاظ ذات الأصل غير العربي، ومن مختلف اللغات القديمة، يحمل إشارة إلى عالمية الدعوة الإسلامية.

الوجه التاسع: يخلو القرآن الكريم من تراكيب، أو جُمل، أو أشباه جُمل، غير عربية.

الوجه العاشر: ذكر الأعجمي على فرض أنه ذكر للإعجاز.

وإليك التفصيل

المبحث الأول: هل في القرآن ألفاظ أعجمية؟ والجواب: في ذلك خلاف، والراجح عدم وجود ألفاظ أعجمية. وإليك تفصيل الكلام.

القول الأول: لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ لَفْظٌ غَيْرُ عَلَمٍ إلاَ عَرَبِيٌّ.

اخْتَارَهُ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ، وَالْقَاضِي، وَأَبُو الْخَطَّابِ، وَابْنُ عَقِيلٍ، وَالْمَجْدُ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ، مِنْهُمْ: الإمام الشَّافِعِيُّ، وَأَبُو عُبَيْدَة، وَابْنُ جَرِير، وَالْبَاقِلانِيّ، وَابْنُ فَارِسٍ وَغَيْرُهُمْ؛ لِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ الآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ. (١)

---

(١) **قال الإمام الشافعي في الرسالة ٤٦ ـ ٥٠**: الحجة في أن كتاب الله محضٌ بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره، قال الله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾ (إبراهيم: ٤)، فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدًا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم. فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ فإن كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع، وأولى الناس بالفضل باللسان من لسانه لسان النبي ﷺ ولا يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون أهل لسانه أتباعًا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد، بل كلُّ لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه. وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه قال الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٤)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧) وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ١-٣)، وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٨). **قال الشافعي**: فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾ (النحل: ١٠٣) وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**﴾ (فصلت: ٤٤)، **قال الشافعي**: وعرّفنا نعمه بما خصنا به من مكانه، فقال: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (التوبة: ١٢٨)، وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (الجمعة: ٢)، وكان مما عرّف الله نبيه من إنعامه أن قال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ (الزخرف: ٤٤)، فخص قومه بالذكر معه بكتابه، وقال تعالى: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ (الشعراء: ٢١٤)، وقال تعالى: ﴿**تُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى**

أدلة القول الأول:

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ (إبراهيم: ٤). وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (الشورى: ٧). وقوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٥). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (الزخرف: ٣). وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّا ﴾ (الرعد: ٣٧). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف: ٢). ونفى عنه جل ثناءه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه: فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ﴾ (فصلت: ٤٤)

إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن هذا القرآن عربي لا يشارك العربية فيه كلام أمة أخرى.

قال الزركشي: اعلم أن القرآن أنزله الله بلغة العرب، فلا يجوز قراءته وتلاوته إلا بها؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا ﴾ الآية، يدل على أنه

وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ (الشورى: ٧). وأم القرى مكة، وهي بلده وبلد قومه، فجعلهم في كتابه خاصة، وأدخلهم مع المنذرين عامة، وقضى أن يُنذروا بلسانهم العربي: لسان قومه منهم خاصة. فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جَهدُه، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلوا به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك.

وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه: كان خيرًا له كما عليه يتعلمُ الصلاة والذكر فيها، ويأتي البيت وما أمر بإتيانه، ويتوجه لما وجه له. ويكون تبعًا فيما افترض عليه، وندب إليه لا متبوعًا. وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحدٌ جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها. ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها. فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة: نصيحة للمسلمين. والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه. وكان يجمع مع النصيحة لهم قيامًا بإيضاح حق. وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين من طاعة الله. وطاعة الله جامعة للخير.

ليس فيه غير العربي؛ لأن الله تعالى جعله معجزة شاهدة لنبيه عليه الصلاة والسلام، ودلالة قاطعة لصدقه، وليتحدى العرب العرباء به، ويحاضر البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته، فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة. (١)

القول الثاني: أنَّ في القرآن أَلْفَاظًا غَيْرَ الْعَرَبِيَّةِ:

وَذَهَبَ إليه ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ، وَعِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءٌ، وَغَيْرُهُمْ.

أما أدلة المذهب الثاني فهي كما يلي:

أولًا: ذهب من قال بالوقوع بأن في القرآن خاصًا يجهله بعض العرب.

ثانيًا: وجود من كان ينطق من العجم بالشيء من لسان العرب.

ثالثًا: أن جميع الرسل كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، أما محمد ﷺبُعث إلى الناس كافة، فليكن في القرآن عموم في اللغات كعموم المنزل عليه إلى العالم. (٢)

القول الثالث: وَنُقِلَ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ: الصَّوَابُ عِنْدِي مَذْهَبٌ فِيهِ تَصْدِيقُ الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا. وَذَلِكَ: أَنَّ هَذِهِ الأَحْرُفَ أُصُولُهَا أَعْجَمِيَّةٌ كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ، لَكِنَّهَا وَقَعَتْ لِلْعَرَبِ، فَعُرِّبَتْ بألسنتها، وَحَوَّلَتْهَا عَنْ أَلْفَاظِ الْعَجَمِ إِلَى أَلْفَاظِهَا فَصَارَتْ عَرَبِيَّةً، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ - وَقَدْ اخْتَلَطَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ بِكَلاَمِ الْعَرَبِ - فَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا عَرَبِيَّةٌ فَهُوَ صَادِقٌ، وَمَنْ قَالَ أَعْجَمِيَّةٌ فَصَادِقٌ. (٣)

ومال إلى هذا القول الجواليقي، وابن الجوزي، وآخرون. (٤)

لا خلاف بين العلماء في أنه ليس في القرآن كلام مركب من ألفاظ أعجمية تعطي معنى مستفادًا حسب هذا التركيب.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٧)، والإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٣).

(٢) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (٧/ ٤٠٧).

(٣) الكوكب المنير شرح مختصر التحرير (١/ ٩٧)، والرسالة (١/ ٤٢)، وجامع البيان للطبري (١/ ٧)، والبحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٥٢٩)، والإحكام لابن حزم (٢/ ٢١٤)، والاعتصام (١/ ٥٠٠)، والموافقات (٢/ ١٠١)، والمدخل لابن بدران (٨٨)، وروضة الناظر (١/ ٦٥)، وحاشية العطار (٣/ ٦٠)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٧)، والإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٣)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

(٤) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ٢).

كما أنه لا خلاف بينهم أن في القرآن أعلام أعجمية كنوح، وإسرائيل، ولوط من غير لسان العرب. والخلاف إنما هو في ألفاظ مفردة ليست من هذا ولا ذاك، فهل من لسان العرب أم من لسان غير العرب؟. [١]

المبحث الثاني: على فرض وجود ألفاظ أعجمية فالجواب عليه من وجوه

الوجه الأول: إن لسان العرب أوسع من أن يحيط به أحد.

نعم، فلسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شئ على عامتها؛ حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه. والعلم به عند العرب كالعلم بالسُنّة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلًا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شئ. [٢]

قال السيوطي: وقال آخرون: كل هذه الألفاظ عربية صرفة، ولكن لغة العرب متسعة جدًّا، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الأجلة، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وفاتح. وقال أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك إنما وجدت هذه الألفاظ في لغة العرب؛ لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظًا، ويجوز أن يكونوا سبقوا إلى هذه الألفاظ. [٣] لأنَّ غيرَ العرب لم تتسع في المجاز اتساعَ العرب؛ ألا ترى أنك لو أردتَ أن تنقلَ قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾. لم تستطع أن تأتي لهذه بألفاظ مؤدِّية عن المعنى الذي أودِعَتْه حتى تبسط مجموعها، وتصلَ مقطوعها، وتُظهرَ مَسْتُورها؛ فتقول: إن كان بينك وبين قوم هُدْنة وعَهْد، فخِفْت منهم خيانةً ونقضًا، فأعْلمهم أنك قد نقضتَ ما شرطته لهم، وآذنْهم بالحرب؛ لتكونَ أنتَ وهم في العلم بالنَّقْض على الاستواء. وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ ﴾. [٤]

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٦٨) بتصرف.

(٢) الرسالة (١/ ٤٢).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٣)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

(٤) المزهر (١/ ٩٩).

الوجه الثاني: ليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنس الآخر، فلعل ما وصف أنه عجمي يكون عربي الأصل.

قال الطبري: لم نستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها؟ كما وجدنا اتفاقًا كثيرًا منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفة، وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة، والقلم، والقرْطاس، وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه وُيمِلّ تعداده، كرهنا إطالة الكتاب بذكره مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى. ولعلّ ذلك كذلك في سائر الألسن التي نجهل منطقها ولا نعرف كلامها. فلو أن قائلًا قال -فيما ذكرنا من الأشياء التي عددْنا وأخبرْنا اتفاقَه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية، وما أشبهَ ذلك مما سكتنا عن ذكره-: ذلك كله فارسيّ لا عربيّ، أو ذلك كله عربيّ لا فارسيّ، أو قال: بعضه عربيّ وبعضه فارسيّ، أو قال: كان مخرج أصله من عند العرب فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته كان مستجهَلًا؛ لأن العربَ ليست بأولى من أن يكون مخرجُ أصل ذلك منها إلى العجم، ولا العجم أحقّ أن يكون مخرج أصل ذلك منها إلى العرب، إذا كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجودًا في الجنسين. وإذْ كان ذلك موجودًا على ما وصفنا في الجنسين، فليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنس الآخر. والمدّعي أن مخرج أصل ذلك إنما كان من أحد الجنسين إلى الآخر، مدّعٍ أمرًا لا يوصَل إلى حقيقة صحّته إلا بخبرٍ يوجب العلم، ويزيل الشكّ، ويقطع العذرَ صحتُه؛ بل الصواب في ذلك عندنا: أن يسمَّى: عربيًّا أعجميًّا، أو حبشيًّا عربيًّا، إذا كانت الأمّتان له مستعملتين -في بيانها ومنطقها- استعمالَ سائر منطقها وبيانها. فليس غيرُ ذلك من كلام كلّ أمة منهما، بأولى أن يكون إليها منسوبًا منه. فكذلك سبيل كل كلمة واسم اتفقت ألفاظ أجناس أمم فيها وفي معناها، ووُجد ذلك مستعملًا في كل جنس منها استعمالَ سائرِ منطقهم، فسبيلُ إضافته إلى كل جنس منها، سبيلُ ما وصفنا - من الدرهم والدينار والدواة والقلم، التي اتفقت ألسن

الفرس والعرب فيها بالألفاظ الواحدة والمعنى الواحد، في أنه مستحقٌّ إضافته إلى كل جنس من تلك الأجناس- اجتماعٌ واقترانٌ. (١)

الوجه الثالث: لم يرد أن أحدًا من سكان مكة أو غيرها قال بأنها غريبة عنه لا يعرفها.

فكيف يتهمون محمدًا ﷺ بأنه قد أدخل كلمات، عرَفها الناس وتداولوها قبل أن يولد بعقود.

ولو وجد العرب حرفًا واحدًا من غير لسانهم في القرآن لراموا التطاول على هاتين الآيتين اللتين احتجتا عليهم بعدم العذر لفهم هذا القرآن بأسلوب توكيدي كما يرى الإمام الشافعي. والقوم كما يعلم كل ذي بصيرة في التاريخ في سيرة النبي ﷺ في حواره معهم، وفي أساليب القرآن وتحديه لهم؛ جادلوا النبي ﷺ في كل جليلة وحقيرة، لا يفوتون فرصة قامت لهم في هذا الميدان. وكيف تُتلى عليهم ألفاظٌ رومية وفارسية ونبطية وحبشية ولا يتحركون ويستسلمون؟!. وهل نقل أنهم عارضوا هذه الألفاظ على أنها عجمية؟! (٢)

الوجه الرابع: هذه المفردات غير العربية هي عربية باستعمال العرب لها، فتكلّمت به العرب حتى صار كاللغة.

قال الجوهري: تعريبُ الاسم الأعجميّ أن تتفوَّه به العرب على مِنْهاجها، تقول: عرَّبَتْه العرب وأَعَرَبته أيضًا. (٣)

إن هذه المفردات غير العربية التي وردت في القرآن الكريم، وإن لم تكن عربية في أصل الوضع اللغوي، فهي عربية باستعمال العرب لها قبل عصر نزول القرآن وفيه، وكانت سائغة ومستعملة بكثرة في اللسان العربي قبيل نزول القرآن، وبهذا الاستعمال فارقت أصلها غير العربي، وعُدَّتْ عربية نطقًا واستعمالًا وخطًا.

بل إنَّ للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم، فعلَّقت من لغاتهم ألفاظًا غيرت بعضها بالنقص من حروفها، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها؛ حتى جرت مجرى العربيّ الفصيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن. (١)

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢١).

(٢) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد (٢١): (هل في القرآن من غير لسان العرب؟) بقلم: محمد الأنصاري.

(٣) الصحاح في اللغة (١/ ٤٥٦).

وقال الجواليقي في المعرَّب: إن العرب كثيرًا ما يجترئون على الأسماء الأعجمية فيغيِّرونها بالإبدال، قالوا: إسماعيل، وأصلُه إشْمائيل، فأبدلوا لقُرْب المَخْرج. (٢)

قال ابن دريد: باب ما تكلّمت به العرب من كلام العجم، حتى صار كاللغة، من ذلك: **الدَّيابوذ**، وهو دُوابُوذ بالفارسية، أي ثوب يُنسج على نِيرَين. قال الشاعر:

كأنها وابنَ أيامٍ تُرَبِّبه ... من قُرّةَ العين مجتابًا دَيابُودِ

يعني ظبية وولدَها أنهما في خِصْب وسَعَة فقد حَسُنَت شَعرتُهما فكأنما عليهما ثوبٌ ذو نِيرَين.

ومن ذلك **القُرْدُمانيّ**، أي الكَرْدَمانُذ، أي عُمِلَ فبَقِيَ. **والمُهْرَق**، وهي خِرَق كانت تُصقل ويُكتب عليها، وتفسيرها مُهْرَ كرْد، أي صُقلت بالخَرَز. **والسَّبيجة**: البَقيرة، وأصلها شَبيّ، وهو القميص. وأنشد: كالحَبَشيِّ التفَّ أو تسَّبجا.

والكرْد: العُنُق، وهي كَرْدَن بالفارسية.

قال الفرزدق: وكنّا إذا القيسي نَبَّ عَتُوده. . . ضربناه تحت الأنثيَيْن على الكَرْدِ.

والفَصافِص فارسية معرَّبة: إسْفِست، وهي الرَّطْبة. **والبُوصِيّ**: السفينة، وهي بُوذيّ.

والأَرَنْدَج: الجلود التي تدبغ بالعَفْص حتى تسوادَّ؛ أَرَنْدَه. قال الراجز:

كأنّه مُسَرْوَلٌ أَرندَجا ... كما رأيتَ في المُلاء البَرْدَجا

أي البَرْدَه، وهم العبيد.

وقال الراجز: عَكْفَ النَّبيطِ يلعبون الفَنْزَجا يقال: هو **الفَنْجَكان**. قال أبو حاتم: وهو الدَّسْتَبَنْد.

وقال أبو حاتم: **الزِّنديق** فارسيّ معرَّب، كأن أصله زَنْده كَر، أي يقول بدوام بقاء الدهر. قال بكر: زِنْدَهْ: الحياة، والكَرْ: العمل بالفارسية. (٣)

الوجه الخامس: لا يمتنع أن يتفق لسان العرب مع لسان العجم في بعض الألفاظ، فتكون عربية وأعجمية، فالقرآن فيه من كلّ لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به وليس معنى هذا أن اللفظ أصله أعجمي.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٣)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

(٢) المزهر (١/ ٨٥).

(٣) جمهرة اللغة (٢/ ٢٥٧).

قال ابن قتيبة: وخبَّرني- يعني أباه ـ عن أبي عبيدة أنَّه رُبَّما وافق الأعجميُّ العَرَبيَّ. قالوا: غَزْل سَخْت، أي: صُلْب. **والزُّور**: القوّة. **والدست**: الصحراء وهي بالفارسية: **دَشْت**. ولم يكن ذهب إلى أنَّ في القرآن شيئًا من غير لغة العرب. وكان يقول: هو اتّفاق بين اللسانين. وخبَّرنا بمثل ذلك عن أبي عبيدة عبد الله بن محمد بن هانيء. وكان غيره يزْعُم أن **القُسْطاس**: الميزان بلغة قوم من الروم. **والمِشْكاة**: الكُوَّة بلسان الحَبَشة، **والسِّجَيل** بالفارسية: سَنْك وكَلِ. **والطُور**: الجَبَل بالسّريانية. **واليمُّ**: البحر بالسريانية. (١)

وقال ابن جرير: ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن إنها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية أو نحو ذلك؛ إنما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد. (٢)

الوجه السادس: إن كل ما في القرآن من كلمات غير عربية الأصل؛ إنما هي كلمات مفردات.

نعم، أسماء أعلام مثل: **إبراهيم، يعقوب، إسحاق، فرعون**، وهذه أعلام أشخاص، أو صفات مثل: **طاغوت، حبر**، إذا سلمنا أن كلمة طاغوت أعجمية.

قال القرطبي: لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب كإسرائيل، وجبريل، وعمران، ونوح، ولوط. (٣) بالنظر إلى الكلمات المذكورة تجد أن عددًا منها كان أسماء شخصيات وأماكن ـ وما يتعلق بها ـ لا يمكن إلا أن تُسمَّى باسمها، ولا يوجد عاقل يطلب تسميتها بغير اسمها، بل لو فعل القرآن الكريم ذلك، لعدَّه خصومه مثلبة! (٤)

الوجه السابع: إن وجود مفردات أجنبية في أي لغة سواء كانت اللغة العربية أو غير العربية لا يخرج تلك اللغة عن أصالتها.

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٣٤١) وانظر: أدب الكاتب لابن قتيبة أيضا (١ / ١٠٥).

(٢) الإتقان (١/ ٣٩٣).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٦٨)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

(٤) اللفظ المعرب في القرآن الكريم (٩).

فمن المعروف أن الأسماء لا تترجم إلى اللغة التي تستعملها حتى الآن. فالمتحدث بالإنجليزية، إذا احتاج إلى ذكر اسم من لغة غير لغته، يذكره برسمه ونطقه في لغته الأصلية، ومن هذا ما نسمعه الآن في نشرات الأخبار باللغات الأجنبية في مصر، فإنها تنطق الأسماء العربية نُطقًا عربيًا. ولا يقال: إن نشرة الأخبار ليست باللغة الفرنسية أو الإنجليزية مثلًا، لمجرد أن بعض المفردات فيها نطقت بلغة أخرى.

فالكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيًا، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية.

وأجاب القائلون بذلك عن قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بأن المعنى من السياق: أكلام أعجمي ومخاطب عربي؟ واستدلوا باتفاق النحاة على أن منع صرف نحو إبراهيم للعلمية والعجمة. ورُد هذا الاستدلال بأن الأعلام ليست محل خلاف، فالكلام في غيرها موجه بأنه إذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس، وأقوى ما رأيته للوقوع وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان.[(١)]

الوجه الثامن: وجود عدد وإن كان نادرًا جدًا من الألفاظ ذات الأصل غير العربي، ومن مختلف اللغات القديمة، يحمل إشارة إلى عالمية الدعوة الإسلامية.

قال السيوطي: فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن؛ ليتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب، ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال: من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير. وأيضا النبي مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٤)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١)، ومباحث في علوم القرآن مناع القطان (٣٤٤).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾، فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم، وإن كان أصله بلغة قومه هو. (١)

الوجه التاسع: يخلو القرآن الكريم من تراكيب، أو جُمل، أو أشباه جُمل، غير عربية. فكل ما ذكروه من المعرب، مجرد لفظٍ لأدواتٍ حسية، ليست معنوية. (٢)

الوجه العاشر: ذكر الأعجمي على فرض أنه ذكر للإعجاز.

قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة ٢٣: ٢٤). وقال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨) بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس: ٣٨-٣٩). وقال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (هود١٣-١٤)، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا (٨٨) وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ (الإسراء: ٨٨-٨٩).

قال السيوطي: وقد رأيت الخويِّي ذكر لوقوع المعرب في القرآن فائدة أخرى، فقال: إن قيل: إن "استبرق" ليس بعربي، وغيرُ العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك؛ وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة، فإن لم يرغبهم بالوعد الجميل ويخوفهم بالعذاب الوبيل لا يكون حثه على وجه الحكمة،

---

(١) الإتقان (١/ ١٥٧).

(٢) اللفظ المعرب في القرآن الكريم (٩).

فالوعد والوعيد نظرًا إلى الفصاحة واجب. ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر في أمورٍ: الأماكن الطيبة، ثم المآكل الشهية، ثم المشارب الهنية، ثم الملابس الرفيعة، ثم المناكح اللذيذة، ثم ما بعده مما يختلف فيه الطباع، فإذن ذكر الأماكن الطيبة والوعد به لازم عند الفصيح، ولو تركه لقال من أُمر بالعبادة ووعد عليها بالأكل والشرب: إن الأكل والشرب لا ألتذ به إذا كنت في حبس أو موضع كريه، فإذن ذكَر الله الجنة ومساكن طيبة فيها، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، وأما الذهب فليس مما ينسج منه ثوب. ثم إن الثوب الذي من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن الثقيل، وربما يكون الصفيق الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع؛ فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثخن، ولا يتركه في الوعد لئلا يقصر في الحث والدعاء. ثم هذا الواجب الذكر، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، أولا يذكر بمثل هذا؛ ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى؛ لأنه أوجز وأظهر في الإفادة؛ وذلك "إستبرق"، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه؛ لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة، ولا يجد العربي لفظًا واحدًا يدل عليه؛ لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد، ولا وُضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم، وإنما عرَّبوا ما سمعوا من العجم واستغنوا به عن الوضع لقلة وجوده عندهم ونزْرة تلفظهم به، وأما إن ذكره بلفظين فأكثر، فإنه يكون قد أخل بالبلاغة؛ لأن ذكر لفظين لمعنى يمكن ذكره بلفظٍ تطويلٌ، فعلم بهذا أن لفظ "إستبرق" يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه ولا يجد ما يقوم مقامه، وأي فصاحة أبلغ من أن لا يوجد غيره مثله! (١)

* * *

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٥)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

٦ـ شبهة: حول التكرار في القرآن.

نص الشبهة:

قد تكررت ألفاظ في القرآن بعينها، وكذلك أعيد ذكر قصص في أكثر من موضع، وهذا لا فائدة منه إلا تكثير الآيات والإطناب لغير فائدة، في حين أنه لو حذفت هذه المكررات لأتى القرآن بحجم أصغر من ذلك بكثير ولأدى نفس الفائدة. . . ألا يعدُّ هذا عيبًا يعاب به القرآن ويشينه ويُضعف من إعجازه؟!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى التكرار في اللغة.

الوجه الثاني: التكرار في كلام العرب.

الوجه الثالث: وسائل التكرار.

الوجه الرابع: التكرار في عموم القرآن كمنهج عام.

الوجه الخامس: التكرار في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى التكرار في اللغة.

كَرَّرَ الشيء وكَرْكَره: أَعاده مرة بعد أُخرى، والكَرّةُ المَرَّةُ، والجمع الكَرَّات، ويقال: كَرَّرْتُ عليه الحديث وكَرْكَرْتُه إِذا ردّدته عليه، وكَركَرْتُه عن كذا كَرْكَرةً إِذا رَدَدْتَه، والكَرُّ الرجوع على الشيء، ومنه التَّكْرارُ. (١)

و(تَكْرِيُر) الشيء وهو إعادته مرارًا، والاسم (التَّكْرارُ). (٢)

فالتكرار هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى، والمراد بذلك تأكيد الوصف، أو المدح، أو الذم، أو التهويل، أو الوعيد، أو الإنكار، أو التوبيخ، أو الاستبعاد، أو أي غرض من الأغراض. (٣)

---

(١) لسان العرب (٥/ ١٣٥).

(٢) المصباح المنير (٢/ ٥٣٠).

(٣) خزانة الأدب للحموي (١/ ٣٦١).

الوجه الثاني: التكرار في كلام العرب.

لقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيرًا كما في قول الشاعر:

فَأَيْنَ إِلَى أَيْنَ النَّجاةُ بِبَغْلَتِي أَتَاكَ أَتَاكَ اللاَّحِقُون احْبِسِ احْبِس

وقول الآخر:

كَمْ نِعْمَةٍ كانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وكم كانَتْ وَكَمْ

إلى غير ذلك ما وقع في كلامهم مما لا تأخذه الإحاطة. (١)

وقال ابن عادل: والتكرير حسن في مثل هذا، وقال الشاعر (من البسيط):

لا تَقْتُلِي مُسْلِمًا إن كُنْتِ مُسْلمَةً إِيَّاكِ من دمِهِ إيَّاكِ إيَّاكِ

وقال آخر (من المنسرح):

لا تَقْطَعَنَّ الصَّديقَ ما طَرَفَتْ عَيْنَاكَ من قَوْلِ كَاشحٍ أَشِرِ

ولا تَمَلَّنَّ مِنْ زيَارتِهِ زُرْهُ وَزُرْهُ وَزُرْ وَزُرْ وَزُرِ

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، وتأكيد للحجَّة. (٢)

قال الفراء: إن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام فيقول المجيب: بلى بلى، المتنع: لَا لا، وعليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾، وأنشد قوله (من الطويل):

كائن وكم عندي لهم من صنيعة أيدي سنوها عليّ وأوجبوا

وقوله (من الرجز):

نعق الغراب ببين ليلى غدوة كم كم وكم بفراق ليلى ينعق

وهو كثير نظمًا ونثرًا. (٣)

الوجه الثالث: وسائل التكرار.

---

(١) كتاب الصناعتين للعسكري (١/ ٦٠)، وخزانة الأدب للبغدادي (٥/ ١٥٦).

(٢) تفسير اللباب (١٥/ ٣٧).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ٢٥١).

يكون التكرار بإعادة اللفظ بعينه اسمًا كان أو فعلًا أو حرفًا كقولك مثلا: زيدٌ زيدٌ لمهذب، وكقولك: جاء جاء النذير، وكقولك: إنَّ إنَّ محمدًا آتٍ، وتارة يكون التكرار بإعادة المعنى وإن اختلف اللفظ كإعادة قصة في أكثر من مكان لفائدة كتكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم.

وقد بين القزويني أن التكرير يأتي لفائدة: كتأكيد الإنذار كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ (التكاثر: ٣، ٤) وكزيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ (غافر: ٣٨، ٣٩)، وقد يكرر اللفظ لطولٍ في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ (النحل: ١١٩)، وقد يكرر لتعدد المتعلق كما كرره الله تعالى من قوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ (الرحمن: ١٣)؛ لأنه تعالى ذكر نعمة بعد نعمة، وعقب كل نعمة بهذا القول. ومعلوم أن الغرض من ذكره عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى.(1)

الوجه الرابع: التكرار في عموم القرآن كمنهج عام، وفيه مباحث:

أولًا: من أمثلة التكرار في القرآن: كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ (الحاقة: ١، ٢)، وكقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ (القارعة: ١، ٢) وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ (القدر: ١، ٢) وقوله: ﴿ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ (الواقعة: ٨، ٩)، وقوله: ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ (الواقعة: ٢٧) وقوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (١٨٩) بتصرف واختصار.

﴿١٣﴾ ﴾ (الرحمن: ١٣)، فقد تكررت في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (المرسلات: ١٥)، فقد ذكرت في سورة المرسلات عشر مرات.

ثانيًا: من أمثلة التكرار في السنة: كقول النبي ﷺ: **" أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ. ثَلاَثًا. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: " الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ "وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: " أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ ". قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ. "**.[1]

- وقوله ﷺ: **" هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ". قَالَهَا ثَلاَثًا.**[2]

- وقوله للرجل الذي قال: له أوصني فقال: **" لاَ تَغْضَبْ ". فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ " لاَ تَغْضَبْ "**.[3]

- وقوله: **" وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ ". مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا.**[4]

- وقوله: **" هل بلغت؟ ثلاثا "**[5]، - **وكان من هديه ﷺ "أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ "**.[6]

ثالثًا: فوائد التكرار في القرآن:

قال الزركشي: وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنًا أنه لا فائدة له وليس كذلك؛ بل هو من محاسنها لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشيء إرادةً لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيدًا، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه حيث تقصد الدعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض. وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة، وعلى ذلك يحمل ما ورد من

---

(١) رواه البخاري (٢٥١١)، ومسلم (٩١).

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٢٦٧).

(٤) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٢١٤).

(٥) رواه البخاري (٤٧)، ومسلم (٦١٨).

(٦) رواه البخاري (٤٨).

تكرار المواعظ والوعد والوعيد؛ لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة وكلها داعية إلى الشهوات، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر: ١٧).

قال الزمخشري: قوله ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: سهلناه للادكار والاتعاظ؛ بأن شحناه بالمواعظ الشافية، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِن﴾ متعظ، وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه.(١)

ثم تارة يكون التكرار مرتين كقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (المدثر: ١٩- ٢٠)، وقوله: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ (القيامة: ٣٤- ٣٥)، وقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (التكاثر: ٣- ٤)وقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ (التكاثر: ٦- ٧)، وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن: فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص: ٥١)، وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (طه: ١١٣).

وحقيقة التكرار: إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به، فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ (الزمر: ١١- ١٥) فأعاد قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾ بعد: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾؛ لأنه لم يأتِ لتقرير الأول، بل لغرض آخر؛ لأن معنى الأول الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والإخلاص له فيها. ومعنى الثاني أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص، ولذلك قدم المفعول على فعل العبادة في الثاني.

---

(١) الكشاف للزمخشري (٦/ ٤٥٢).

واعلم أنه إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل. أما إذا وافق الأصل فلا، ولهذا لا يتجه سؤالهم لمَ كرر إياك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ (الفاتحة: ٥) فقيل: إنما كررت للتأكيد.

فوائد التكرار بوجه عام:

أحدها: التأكيد. واعلم أن التكرير أبلغ من التأكيد؛ لأنه وقع في تكرار التأسيس وهو أبلغ من التأكيد؛ فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز؛ فإن الثانية تأسيس لا تأكيد؛ لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء.

الثاني: زيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول.

الثالث: إذا طال الكلام وخشي تناسى الأول أعيد ثانيًا تطرية له وتجديدًا لعهده، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ (النحل: ١١٠) ثم أعاد فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ (النحل: ١١٩)، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . . . ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (البقرة: ٨٩)، فهذا تكرار للأول.

الرابع: في مقام التعظيم والتهويل كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ١، ٢)، وقال: ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ١، ٢)، وقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١، ٢)، وقوله: ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ (الواقعة: ٨، ٩)، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة: ٢٧)، وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (المدثر: ٣١).

الخامس: في مقام الوعيد والتهديد كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (التكاثر: ٣- ٤)، وذكر ﴿ ثُمَّ ﴾ في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ

من الأول، وفيه تنبيه على تكرر ذلك مرة بعد أخرى، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغيير بل هو مستمر دائمًا.

السادس: التعجب. كقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ (المدثر: ١٩-٢٠) فأعيد تعجبًا من تقديره وإصابته الغرض على حد قولهم: قاتله الله ما أشجعه.

السابع: لتعدد المتعلق. كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ (الرحمن: ١٣)، فإنها وإن تعددت فكل واحد منها متعلق بما قبله، وإن الله تعالى خاطب بها الثقلين من الإنس والجن، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلًا من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم بالشكر عليها، وهي أنواع مختلفة وصور شتى. فإن قيل: فإذا كان المعنى في تكريرها عد النعم واقتضاء الشكر عليها فما معنى قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ (الرحمن: ٣٥) وأي نعمة هنا، وإنما هو وعيد؟ قيل: إن نعم الله فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها، فيرتدعوا عنها نظير أنعمه على ما وعده وبشر من ثوابه على طاعته؛ ليرغبوا فيها ويحرصوا عليها، وإنما تتحقق معرفة الشيء بأن تعتبره بضده والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتها، فإنهما متقاربان في موضع النعم بالتوقيت على ملاك الأمر منها. وعليه يحمل قول بعض حكماء الشعراء:

والحادثات وإن أصابك بؤسها   فهو الذي أنباك كيف نعيمها

وإنما ذكرنا هذا؛ لتعلم الحكمة في كونها زادت على ثلاثة، ولو كان عائدًا لشيء واحد لما زاد على ثلاثة؛ لأن التأكيد لا يقع به أكثر من ثلاثة، فإن قيل: فإذا كان المراد بكلٍ ما قبله، فليس ذلك بإطناب، بل هي ألفاظ أريد بها غير ما أريد بالآخر!

قلت: إن قلنا: العبرة بعموم اللفظ؛ فكل واحد أريد به غير ما أريد بالآخر. وقد تكلف لتوجيه العدّة التي جاءت عليها هذه الآية مكررة، **قال الكرماني**: جاءت آية واحدة في هذه السورة كررت نيفًا وثلاثين مرة؛ لأن ست عشرة راجعة إلى الجنان لأن لها ثمانية أبواب، وأربعة عشر منها راجعة إلى النعم والنقم، فأعظم النقم جهنم ولها سبعة

أبواب، وجاءت سبعة في مقابلة تلك الأبواب، وسبعة عقب كل نعمة ذكرها للثقلين. وقال غيره: نبه في سبع منها على ما خلقه الله للعباد من نعم الدنيا المختلفة على عدة أمهات النعم، وأفرد سبعًا منها للتخويف وإنذارًا على عدة أبواب المخوف منه، وفصل بين الأول والسبع الثواني بواحدة سوّى فيها بين الخلق كلهم فيما كتبه عليهم من الفناء حيث اتصلت بقوله: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الرحمن: ٢٦)، فكانت خمس عشرة أُتبعت بثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدة أبوابها، ثم بثمانية أخر في وصف الجنتين اللتين من دون الأوليين لذلك أيضًا، فاستكملت إحدى وثلاثين.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (المرسلات: ١٥)، فقد ذكرت في سورة المرسلات عشر مرات؛ لأنه سبحانه ذكر قصصًا مختلفة، وأتبع كل قصة بهذا القول، فصار كأنه قال عقب كل قصة: ويل للمكذبين بهذه القصة، وكل قصة مخالفة لصاحبتها، فأثبت الويل لمن كذب بها. ويحتمل أنه لما كان جزاء الحسنة بعشر أمثالها، جعل للكفار في مقابلة كل مثل من الثواب ويلًا.

ومنه قوله في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الشعراء: ٦٧)، ومنه تكرار الإضراب. واعلم أن بل إذا ذكرت بعد كلام موجب فمعناها الإضراب، وهو إما أن يقع في كلام الخلق؛ ومعناه: إبطال ما سبق على طريق الغلط من المتكلم؛ وإما أن يقع في كلام الله تعالى وهو ضربان:

أحدهما: أن يكون ما فيها من الرد راجعًا إلى العباد؛ كقوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (الأنبياء: ٥).

والثاني: أن يكون إبطالًا، ولكنه على أنه قد انقضى وقته، وأن الذي بعده أولى بالذكر، كقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (النمل: ٦٦)، و: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ (ص: ٨)، وزعم ابن مالك في شرح الكافية أن ﴿ بَلِ ﴾ حيث وقعت في القرآن، فإنها

للاستئناف لغرض آخر، لا لإبطال الأول؛ وهو مردود بما سبق وبقوله: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٦)، فأضرب بها عن قولهم وأبطل كذبهم. وقوله: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء: ١٦٦) إن أضرب بها عن حقيقة إتيانهم الذكور وترك الأزواج. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ (الطلاق: ٢).

ومنه تكرار القصص في القرآن كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء. قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعًا من كتابه. قال ابن العربي في "القواصم": ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية؛ **وإنما كررها لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:**

أحدها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئا، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام وذكرها في موضع آخر ثعبانًا، ففائدته أن ليس كل حية ثعبانًا، وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم في آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن، ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به مهاجريًا فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون، وعبر عن هذا ابن الجوزي وغيره.

الثالثة: تسليته لقلب النبي ﷺ مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠).

الرابعة: إن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام، فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

السادسة: أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمدﷺ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم؛ بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلامًا بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا بأي عبارة عبروا. قال ابن فارس: وهذا هو الصحيح.

السابعة: أنه لما سخر العرب بالقرآن قال: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣)، وقال في موضع آخر: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ (هود: ١٣)، فلو ذكر قصة آدم مثلًا في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي بما قال الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إيتونا أنتم بسورة من مثله، فأنزلها سبحانه في تعداد السور دفعًا لحجتهم من كل وجه.

الثامنة: أن القصة الواحدة من هذه القصص كقصة موسى مع فرعون -وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى -فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ، فإن كل واحدة لا بد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها، فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار؛ لتوجد متفرقة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة.

فاجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معان عجيبة:

منها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة ولا أحدث مللًا، فباين بذلك كلام المخلوقين.

ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصانًا وتقديمًا وتأخيرًا؛ ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها فيكون شيئًا معادًا، فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات. [1]

وقال الرازي: إن فائدة التكرير التقرير، وأما هذا العدد الخاص، فالأعداد توقيفية لا تطلع على تقدير المقدرات أذهان الناس. والأولى أن لا يبالغ الإنسان في استخراج الأمور البعيدة في

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٧) بتصرف كبير.

كلام الله تعالى تمسكًا بقول عمر ﷺ حيث قال مع نفسه عند قراءته سورة عبس: كل هذا قد عرفناه فما الأبُّ؟ ، ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لَعمْرُ الله هو التكلُّف، وما عليك يا عمر أن لا تدري ما الأبُّ؟ ، ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه. (١)

وقال سعيد النورسي: إن قلت: إن في القرآن الموجز المعجز أشياء مكررة تكرارًا كثيرًا في الظاهر كـ(البسملة)، و﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ وقصة موسى وأمثالها، مع أن التكرار يُمِلُّ وينافي البلاغة.

قيل لك: مَا كُلُّ مَا يَتَلأْلأُ يُحْرِقُ، فإن التكرار قد يُمِلُّ لا مطلقًا، بل قد يُستحسن وقد يُسأم، فكما أن في غذاء الإنسان ما هو قُوت كلما تكرر حلا وكان آنس، وما هو تفكّه إن تكرر مُلَّ وان تجدد استُلِذّ، كذلك في الكلام ما هو حقيقة وقوت وقوّة للأفكار وغذاء للأرواح كلما استعيد استحسن واستؤنس بمألوفه كضياء الشمس، وفيه ما هو من قبيل الزينة والتفكه لذتُه في تجدّد صورتِه وتلوّن لباسه.

إذا عرفت هذا فاعلم أنه كما أن القرآن بمجموعه قوتٌ وقوّة للقلوب لا يُمَلُّ على التكرار، بل يُستحلى على الإكثار منه، كذلك في القرآن ما هو روح لذلك القوت كلما تكرر تلألأ، وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه، وفي ذلك البعض ما هوأسُّ الأساس والعقدة الحياتية والنور المتجسد بجسدٍ سرمدي كـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ . . . هذا بناء على تسليم التكرار، وإلا فيجوز أن تكون قصة موسى مثلًا مذكورة في كل مقام لوجهٍ مناسب من الوجوه المشتملة هي عليها، فإنّ قصة موسى أجدى من تفاريق العصا، أخذَها القرآن بيده البيضاء فضةً فصاغتها ذهبًا، فخرت سحرةُ البيان ساجدين لبلاغته وكذا في (البسملة) جهات: من الاستعانة، والتبرك، والموضوعية، بل الغايتية، والفهرستية للنقط الأساسية في القرآن.

وأيضًا فيها مقامات: كمقام التوحيد، ومقام التنزيه، ومقام الثناء، ومقام الجلال والجمال، ومقام الإحسان وغيرها.

---

(١) تفسير الرازي (١٥/ ٦٦).

وأيضًا فيها أحكام ضمنية: كالإشارة إلى التوحيد والنبوة والحشر والعدل أعني المقاصد الأربعة المشهورة، مع أن في أكثر السور يكون المقصود بالذات واحدًا منها والباقي استطراديًا، فلِمَ لا يجوز أن يكون لجهة أو حُكمٍ أو مقام منها مناسبة مخصوصة لروح السورة وتكون موضوعًا للمقام! ، بل فهرسته إجمالية باعتبار تلك الجهات والمقامات؟ (١).

وبعد: فلقد جاء التكرار في القرآن الكريم محكمًا، وقد ورد فيه كثيرًا فليس فيه موضع قد أخذ عليه. دَعْ دعاوى المغالين فإن بينهم وبين القرآن تارات؛ فهم له أعداء وإذا أحسنا الفهم لكتاب الله، فإن التكرار فيه مع سلامته من المآخذ والعيوب يؤدى وظيفتين أولاهما: من الناحية الدينية. ثانيهما: من الناحية الأدبية.

فالناحية الدينية: باعتبار أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع لا يخلو منها فن من فنونه، وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية هو تقرير المكرر وتوكيده وإظهار العناية به؛ ليكون في السلوك أمثَل وللاعتقاد أبْيَن. أما الناحية الأدبية فإن دور التكرار فيها متعدد، وإن كان الهدف منه في جميع مواضعه يؤدى إلى تأكيد المعاني وإبرازها في معرض الوضوح والبيان. (٢)

الوجه الخامس: التكرار في الكتاب المقدس.

إن تكرار القرآن جاء محكمًا مؤديًا غرضه في أبلغ صورة على الإطلاق، لكن عندما ننظر إلى التكرار في الكتاب المقدس نجد شيئًا مغايرًا تمامًا.

لنبدأ بسفر الجامعة فقد تكررت فيه كلمة: (تَحْتَ الشَّمْسِ) ثلاثين مرة في السفر وبطريقة لا تمت إلى البلاغة بصلة وإليك أمثلة: (مَا الْفَائِدَةُ لِلإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ تَعَبِهِ الَّذِي يَتْعَبُهُ تَحْتَ الشَّمْسِ. رَأَيْتُ كُلَّ الأَعْمَالِ الَّتِي عُمِلَتْ تَحْتَ الشَّمْسِ وَلاَ مَنْفَعَةَ تَحْتَ الشَّمْسِ ولا جديد تحت الشمس) سفر الجامعة (٢/ ٤٨٨).

وهكذا أكثر من ثلاثين مرة. وهنا لنا كلمة عن سفر الجامعة هذا وهو من الكتب الغريبة في العهد القديم، ويختلف في موضوعه وفى روحه الدينية عن بقية الأسفار ويقدم

---

(١) إشارات الإعجاز (١/ ٣٤).

(٢) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (٧٧) وما بعدها.

رؤية فكرية مختلفة، بل مضادة للدين، ويعكس موقفًا سلبيًا من الحياة الإنسانية، ويفسر هذه الحياة في ضوء نظرية عبثية ترى كل الأشياء باطلة، ولا معنى للأشياء سوى التكرار الممل للأحداث فلا جديد تحت الشمس التي تتكرر بطريقة سمجة ثلاثين مرة. وهذه كلمة سلاه تكررت أكثر من ٧٠ مرة في المزامير(٢/ ٣٦٧)، والكارثة هنا أن هذه الكلمة ليس لها معنى على الإطلاق أو كما يقول القاموس معناها مشكوك فيه.

والآن قاصمة الظهر يتحدثون عن التكرار انظر الملوك الثاني الإصحاح ١٩ من بدايته

الإِصْحَاحُ التَّاسِعُ عَشَرَ

١٩ ١ فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ حَزَقِيَّا ذلِكَ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ. ٢وَأَرْسَلَ أَلِيَاقِيمَ الَّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشَبْنَةَ الْكَاتِبَ وَشُيُوخَ الْكَهَنَةِ مُتَغَطِّينَ بِمُسُوحٍ إِلَى إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ النَّبِيِّ. ٣فَقَالُوا لَهُ: «هكَذَا يَقُولُ حَزَقِيَّا: هذَا الْيَوْمُ يَوْمُ شِدَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَإِهَانَةٍ، لأَنَّ الأَجِنَّةَ دَنَتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلاَ قُوَّةَ عَلَى الْوِلاَدَةِ. ٤لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَكَ يَسْمَعُ كَلاَمَ رَبْشَاقَى الَّذِي أَرْسَلَهُ مَلِكُ أَشُّورَ سَيِّدُهُ لِيُعَيِّرَ الإِلهَ الْحَيَّ، فَيُوَبِّخَ عَلَى الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعَهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. فَارْفَعْ صَلاَةً لأَجْلِ الْبَقِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ

فجاء عبيد الملك حزقيا إلى أشعياء ٥ فَجَاءَ عَبِيدُ الْمَلِكِ حَزَقِيَّا إِلَى إِشَعْيَاءَ. ٦فَقَالَ لَهُمْ إِشَعْيَاءُ: « هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ)، وقارن مع أشعيا الإصحاح ٣٧ من أوله:

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ حَزَقِيَّا ذلِكَ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ. ٢ وَأَرْسَلَ أَلِيَاقِيمَ الَّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشَبْنَةَ الْكَاتِبَ وَشُيُوخَ الْكَهَنَةِ مُتَغَطِّينَ بِمُسُوحٍ إِلَى إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ النَّبِيِّ. ٣ فَقَالُوا لَهُ: «هكَذَا يَقُولُ حَزَقِيَّا: هذَا الْيَوْمُ يَوْمُ شِدَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَإِهَانَةٍ، لأَنَّ الأَجِنَّةَ دَنَتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلاَ قُوَّةَ عَلَى الْوِلاَدَةِ. ٤ لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَكَ يَسْمَعُ كَلاَمَ رَبْشَاقَى الَّذِي أَرْسَلَهُ مَلِكُ أَشُّورَ سَيِّدُهُ لِيُعَيِّرَ الإِلهَ الْحَيَّ، فَيُوَبِّخَ عَلَى الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعَهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. فَارْفَعْ صَلاَةً لأَجْلِ الْبَقِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ».

فَجَاءَ عَبِيدُ الْمَلِكِ حَزَقِيَّا إِلَى إِشَعْيَاءَ. ٦ فَقَالَ لَهُمْ إِشَعْيَاءُ: « هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ بِسَبَبِ الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعْتَهُ، الَّذِي جَدَّفَ عَلَيَّ بِهِ غِلْمَانُ مَلِكِ أَشُّورَ(سفر أشعياء٣٧/ ٦: ١).

بماذا يفسر تطابق السفرين هذا التطابق كلمة بكلمة وحرف بحرف؟ هل نسي كاتب سفر أشعيا أن كاتبًا آخر كان قد سبقه إلى تدوين نفس الكلام في سفر الملوك؟! ! ، وإليك أيضا الكلام المتكرر، فقد تكررت الجملة: (لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.) في مزمور(١٣٦) تحديدًا ٢٦ مرةً.

١ اِحْمَدُوا الرَّبَّ لأَنَّهُ صَالِحٌ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢ احْمَدُوا إِلهَ الآلِهَةِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٣ احْمَدُوا رَبَّ الأَرْبَابِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٤ الصَّانِعَ الْعَجَائِبَ الْعِظَامَ وَحْدَهُ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٥ الصَّانِعَ السَّمَاوَاتِ بِفَهْمٍ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٦ الْبَاسِطَ الأَرْضَ عَلَى الْمِيَاهِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٧ الصَّانِعَ أَنْوَارًا عَظِيمَةً، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٨ الشَّمْسَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٩ الْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٠ الَّذِي ضَرَبَ مِصْرَ مَعَ أَبْكَارِهَا، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١١ وَأَخْرَجَ إِسْرَائِيلَ مِنْ وَسَطِهِمْ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٢ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٣ الَّذِي شَقَّ بَحْرَ سُوفٍ إِلَى شُقَق، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٤ وَعَبَّرَ إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِهِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٥ وَدَفَعَ فِرْعَوْنَ وَقُوَّتَهُ فِي بَحْرِ سُوفٍ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٦ الَّذِي سَارَ بِشَعْبِهِ فِي الْبَرِّيَّةِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٧ الَّذِي ضَرَبَ مُلُوكًا عُظَمَاءَ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٨ وَقَتَلَ مُلُوكًا أَعِزَّاءَ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٩ سِيحُونَ مَلِكَ الأَمُورِيِّينَ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٠ وَعُوجَ مَلِكَ بَاشَانَ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢١ وَأَعْطَى أَرْضَهُمْ مِيرَاثًا، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٢ مِيرَاثًا لإِسْرَائِيلَ عَبْدِهِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٣ الَّذِي فِي مَذَلَّتِنَا ذَكَرَنَا، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٤ وَنَجَّانَا مِنْ أَعْدَائِنَا، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٥ الَّذِي يُعْطِي خُبْزًا لِكُلِّ بَشَرٍ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٦ احْمَدُوا إِلهَ السَّمَاوَاتِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.

* * *

٧ـ شبهة: حول اختلاف المسلمين في أول ما نزل، وآخر ما نزل من القرآن الكريم.

نص الشبهة:

اختلف علماء المسلمين حول أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: المقدمة. وتحتوي على (اختلاف علماء المسلمين جائز شرعًا وعقلًا، ولا يضر؛ لأنه من النوع غير المنهي عنه).

الوجه الثاني: فوائد معرفة أول وآخر ما نزل.

الوجه الثالث: ذكر الأقوال في أول ما نزل، وبيان الراجح منها.

الوجه الرابع: ذكر الأقوال في آخر ما نزل، وبيان الراجح منها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الاختلاف بين العلماء.

إنّ الأصل المتفق عليه والمرجوع إليه أصل واحد، لا يختلف، هو ما جاء عن صاحب الشرعﷺ؛ إما في القران أو في قوله وفعله ﷺ. وأنه المعصوم وحده ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. وإن هؤلاء العلماء رحمهم الله بشر ينسون كما ينسى بقية البشر، وقد يحفظ الرجل الحديث ولا يحضره ذكره حتى يفتي بخلافه. وقد يذكر الفقيه الآية أو الحديث، لكن يتأول فيهما تأويلًا من خصوص نسخ أو معني ما. ولقد كتب العلماء في أسباب الخلاف قديمًا وحديثًا وكان من أجلِّهم **شيخ الإسلام ابن تيمية**- رحمه الله تعالى- في رسالته القيمة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، قال في مقدمته:

وَبَعْدُ: فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ -بَعْدَ مُوَالَاةِ الله تعالى وَرَسُولِهِﷺ- مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ. خُصُوصًا الْعُلَمَاءُ، الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ الله بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ يُهْتَدَى بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، إذْ كُلُّ أُمَّةٍ -قَبْلَ مَبْعَثِ نبيِّنا مُحَمَّدٍﷺ- فَعُلَمَاؤُهَا شِرَارُهَا إلَّا الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ، والمُحيون لِمَا مَاتَ مِنْ سُنَّتِهِ. بِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا.

وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَيسَ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ -الْمَقْبُولِينَ عِنْدَ الْأُمَّةِ قَبُولًا عَامًّا- يَتَعَمَّدُ مُخَالَفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مِنْ سُنَّتِهِ؛ دَقِيقٍ وَلَا جَلِيلٍ.

فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ اتِّفَاقًا يَقِينِيًّا عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَعَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَلَكِنْ إذَا وُجِدَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَوْلٌ قَدْ جَاءَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِخِلَافِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عُذْرٍ فِي تَرْكِهِ. وَجَمِيعُ الْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ:

أَحَدُهَا: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ.

وَالثَّانِي: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ إرَادَةَ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ بِذَلِكَ الْقَوْلِ.

وَالثَّالِثُ: اعْتِقَادُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ مَنْسُوخٌ.

وَهَذِهِ الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ تَتَفَرَّعُ إلَى أَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: أَن لا يَكُونَ الْحَدِيثُ قَدْ بَلَغَهُ. وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الْحَدِيثُ لَمْ يُكَلَّفْ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمُوجَبِهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ بَلَغَهُ -وَقَدْ قَالَ فِي تِلْكَ الْقَضِيَّةِ بِمُوجَبِ ظَاهِرِ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ آخَرَ؛ أَوْ بِمُوجَبِ قِيَاسٍ؛ أَوْ مُوجَبِ اسْتِصْحَابٍ- فَقَدْ يُوَافِقُ ذَلِكَ الْحَدِيثَ تَارَةً وَيُخَالِفُهُ أُخْرَى.

وَهَذَا السَّبَبُ: هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَكْثَرِ مَا يُوجَدُ مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ مُخَالِفًا لِبَعْضِ الْأَحَادِيثِ.

فَإِنَّ الْإِحَاطَةَ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ الْأُمَّةِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَدِّثُ؛ أَوْ يُفْتِي؛ أَوْ يَقْضِي؛ أَوْ يَفْعَلُ الشَّيْءَ؛ فَيَسْمَعُهُ أَوْ يَرَاهُ مَنْ يَكُونُ حَاضِرًا، وَأَمَّا إحَاطَةُ وَاحِدٍ بِجَمِيعِ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهَذَا لَا يُمْكِنُ ادِّعَاؤُهُ قَطُّ.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِأُمُورِ رَسولِ اللهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ وَأَحْوَالِهِ.

السَّبَبُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ قَدْ بَلَغَهُ لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُ، إمَّا لِأَنَّ مُحَدِّثَهُ أَوْ مُحَدِّثَ مُحَدِّثِه أَوْ غَيْرَهُ مِنْ رِجَالِ الْإِسْنَادِ مَجْهُولٌ عِنْدَهُ أَوْ مُتَّهَمٌ أَوْ سَيِّئُ الْحِفْظِ.

وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْهُ مُسْنَدًا، بَلْ مُنْقَطِعًا؛ أَوْ لَمْ يَضبطْ لَفْظَ الْحَدِيثِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَدِيثَ قَدْ رَوَاهُ الثِّقَاتُ لِغَيْرِهِ بِإِسْنَادٍ مُتَّصِلٍ بِأَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ يَعْلَمُ مِنْ الْمَجْهُولِ عِنْدَهُ الثِّقَةَ، أَوْ يَكُونُ قَدْ

رَوَاهُ غَيْرُ أُولَئِكَ الْمَجْرُوحِينَ عِنْدَهُ؛ أَوْ قَدْ اتَّصَلَ مِنْ غَيْرِ الْجِهَةِ الْمُنْقَطِعَة وَقَدْ ضَبَطَ أَلْفَاظَ الْحَدِيثِ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ الْحُفَّاظِ؛ أَوْ لِتِلْكَ الرِّوَايَةِ مِنْ الشَّوَاهِدِ وَالْمُتَابَعَاتِ مَا يُبَيِّنُ صِحَّتَهَا.

السبب الثالث: اعتقاد ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره، مع قطع النظر عن طريق آخر سواء كان الصواب معه أو مع غيره.

وقد شرح -رحمه الله- أسباب الخلاف كلها كما ذكر الأمثلة على ذلك. (١)

الوجه الثاني: فوائد معرفة أول وآخر ما نزل من القرآن.

قال الزرقاني: من فوائد الإلمام بأول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن فوائد، ومنها:

أولًا: تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يغاير الحكم في الأخرى.

ثانيًا: معرفة تاريخ التشريع الإسلامي، ومراقبة سيره التدريجي، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أخذه الناس بالهوادة والرفق والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف سواء في ذلك هدم ما مردوا عليه من باطل وبناء ما لم يحيطوا بعلمه من حق.

ثالثًا: هي إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم حتى عرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل، كما عرف مكيه ومدنيه وسفريه وحضريه إلى غير ذلك، ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثقة به ودليل على سلامته من التغيير والتبديل ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٤)(٢).

الوجه الثالث: ذكر الأقوال في أول ما نزل، وبيان الراجح منها.

اختلف المسلمون في أول ما نزل من القرآن على أقوال:

القول الأول: أن أول ما نزل قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ. . . ﴾.

فعن عائشة قالت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (٨-٢٠).

(٢) مناهل العرفان ١/ ٧٧: ٧٦.

فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ- قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ: " **مَا أَنَا بِقَارِئٍ. . . . . - حَتَّى بَلَغَ-، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ حتى بلغ ﴿**عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. .** ﴾ ". [1]

وقوله: " ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ هَذَا دَلِيل صَرِيح فِي أَنَّ أَوَّل مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآن ﴿ٱقۡرَأۡ﴾،

وَهَذَا هُوَ الصَّوَاب الَّذِي عليهِ الْجَمَاهِير مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف. [2]

وقال ابن بطال في شرحه: وقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ يدل على أنها أول ما نزل من القرآن. [3]

وعن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسي يقرئنا فيجلسنا حلقًا عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ قال: هذه أول سورة أنزلت على محمدﷺ[4]، وهو قول مجاهد[5]، وقول عبيد بن عمير. [6]

القول الثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾.

عن يَحْيَى يَقُولُ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، فَقُلْتُ: أَوْ اقْرَأْ فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) شرح النووي (١/ ٤٨٠).

(٣) شرح ابن بطال (١/ ١٠).

(٤) المستدرك (٢/ ٢٢٠)، وهذا لفظ الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه، وابن أبي شيبة (٧/ ١٩٥) عن وكيع بن الجراح عن قرة بن خالد عن أبي رجاء العطاردي قال: أخذت من أبي موسى، **وإسناده صحيح.**

(٥) ابن أبي شيبة (٣٠٢١٧)**والإسناد إليه صحيح**، ورواه عن مجاهد عبد الله بن أبي نجيح. قال عنه في التقريب: ثقة رمي بالقدر وربما دلس.

(٦) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٨١٣) قال: حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي نجيح عن مجاهد.

﴿١﴾، فَقُلْتُ: أَوْ اقْرَأْ؟ قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: "جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ -يَعْنِي جِبْرِيلَ عليه السلام-، فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي فَصَبُّوا عليّ مَاءً، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾"(المدثر: ١-٤). (١)

وعن جابر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: " فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾". (٢)

قال النووي: وأما قول من قال: إِنَّ أَوَّل مَا أُنْزِلَ قَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾: فَضَعِيف، بَلْ بَاطِل، وَالصَّوَاب أَنَّ أَوَّل مَا أُنْزِلَ عَلَى الْإِطْلَاق ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي حَدِيث عَائِشَة رضي الله عنها. (٣)

وَأَمَّا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، فَكَانَ نُزُولهَا بَعْد فَتْرَة الْوَحْي، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي رِوَايَة الزُّهْرِيّ عَنْ أَبِي سَلَمَة عَنْ جَابِر، وَالدَّلَالَة صَرِيحَة فِيهِ فِي مَوَاضِع مِنْهَا: قَوْله: (وَهُوَ يُحَدِّث عَنْ فَتْرَة الْوَحْي إِلَى أَنْ قَالَ: فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، وَمِنْهَا، قَوْله ﷺ: " فَإِذَا الْمَلَك الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ "، ثُمَّ قَالَ: فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾.

وَمِنْهَا قَوْله: " ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْي "يَعْنِي بَعْد فَتْرَته. فَالصَّوَاب أَنَّ أَوَّل مَا نَزَلَ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وَأَنَّ أَوَّل مَا نَزَلَ بَعْد فَتْرَة الْوَحْي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾. (٤)

---

(١) رواه البخاري (٤٩٢٤)، ومسلم (٢٥٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٨).

(٣) المستدرك (٢٨٧٣)، وتقدم تخريجه.

(٤) شرح النووي على مسلم (١/ ٤٨٥).

وقال السيوطي: أما قول من قال إن أول ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فأجابوا عنه بأجوبة:

أولًا: أن السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة، فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة: (**اقرأ**)، فإنها أول ما نزل منها صدرها.

ثانيًا: أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة.

ثالثًا: أن المراد أولية مخصوصة بالإنذار، وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وأول ما نزل للرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾.

رابعًا: إن المراد أول ما نزل بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، وأما اقرأ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم.

خامسًا: أن جابرًا استخرج ذلك باجتهاده وليس هو من روايته، فتقدم عليه رواية عائشة. (1)

وجمع بعضهم بين القولين الأولين بأن قال: يمكن أن يقال أول ما نزل من التنزيل في تنبيه الله على صفة خلقه ﴿ٱقْرَأْ﴾. وأول ما نزل من الأمر بالإنذار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾. (2)

القول الثالث: سورة الفاتحة.

واستدلوا بحديث عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: " **إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرًا، فقالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا عليه فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد، يا محمد، فأنطلق هاربًا في الأفق، فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل:** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ **حتى بلغ** ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. (1)

---

(1) الإتقان (١/ ٧٠: ٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٧٨).

(2) عمدة القاري (١/ ٦٢).

ويُجاب عنه: بأن الحديث ضعيف لا يثبت ولا يقاوم ما ثبت في الصحيح كما تقدم.

قال النووي: وَأَمَّا قَوْل مَنْ قَالَ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ: أَوَّل مَا نَزَلَ الْفَاتِحَة، فَبُطْلَانه أَظْهَر مِنْ أَنْ يُذْكَر، وَاللهُ أَعْلَم. (٢)

وأبعد من قال أن أول ما نزل الفاتحة، بل هو شاذ. (٣)

القول الرابع: سورة من المفصل.

واستدلوا بحديث عائشة قالت: (**أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ**). (٤)

هَذَا ظَاهِره مُغَاير لِمَا تَقَدَّمَ أَنَّ أَوَّل شَيْء نَزَلَ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْر الْجَنَّة وَالنَّار، فَلَعَلَّ " مِنْ " مُقَدَّرَة أَيْ مِنْ أَوَّل مَا نَزَلَ، أَوْ الْمُرَاد سُورَة الْمُدَّثِّر فَإِنَّهَا أَوَّل مَا نَزَلَ بَعْد فَتْرَة الْوَحْي وَفِي آخِرهَا ذِكْر الْجَنَّة وَالنَّار، فَلَعَلَّ آخِرهَا نَزَلَ قَبْل نُزُول بَقِيَّة سُورَة اِقْرَأْ، فَإِنَّ الَّذِي نَزَلَ أَوَّلًا مِنْ اِقْرَأْ كَمَا تَقَدَّمَ خَمْس آيَات فَقَطْ. (٥)

الخلاصة:

من تحرير الأقوال السابقة يتضح أن القول في أول ما نزل هو:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى الآية الخامسة، ثم فتر الوحي، ثم أنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وقد بينا ذلك بالأدلة وكلام العلماء عليها، والله أعلم.

الوجه الرابع: ذكر الأقوال في آخر ما نزل، وبيان الراجح منها.

القول الأول: آخر ما نزل آية الربا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٥٩: ١٥٨)، وقال: هذا منقطع، فإن كان محفوظًا فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعد ما نزلت عليه﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، والله أعلم، ووجه الانقطاع أن عمرو بن شرحبيل تابعي لم يدرك زمان الرسول ﷺ.

(٢) شرح النووي (١/ ٤٨٥).

(٣) عمدة القاري (١/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (٤٩٩٣).

(٥) فتح الباري (٨/ ٦٥٧)، وانظر الإتقان (١/ ٧١.)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ آيَةُ الرِّبَا.[١]

أورد البخاري هذا الحديث هنا؛ لأنه أَرَادَ أَنْ يَجْمَع بَيْن قَوْلَيْ اِبْن عَبَّاس، فَإِنَّهُ جَاءَ عَنْهُ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْوَجْه، وَجَاءَ عَنْهُ مِنْ وَجْه آخَر: آخِر آيَة نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيّ ﷺ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١).[٢][٣]

وَاعْتَرَضَهُ الدَّاوُدِيُّ فَقَالَ: هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُون وَهْمًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُون اِخْتِلَافًا عَنْ اِبْن عَبَّاس، لِأَنَّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْمُصَنِّف فِي التَّفْسِير عَنْهُ فِيهِ التَّنْصِيص عَلَى أَنَّ آخِر آيَةٍ نَزَلَتْ قَوْله تَعَالَى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾. الْآيَة، قَالَ: فَلَعَلَّ النَّاقِل وَهِمَ لِقُرْبِهَا مِنْهَا.

وَتَعَقَّبَهُ اِبْن التِّين بِأَنَّهُ هُوَ الْوَاهِم؛ لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْبُخَارِيُّ فِي التَّرْجَمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.[٤]، وَهِيَ آخِر آيَةٍ ذَكَرَهَا لِقَوْلِهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وَإِلَيْهَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ.

وَكَأَنَّ الْبُخَارِيَّ أَرَادَ بِذِكْرِ هَذَا الْأَثَر عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِير قَوْل عَائِشَة: (لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَاتُ مِنْ آخِر سُورَةِ الْبَقَرَةِ).[٥]

القول الثاني: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١).

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: آخر شئ نزل من القرآن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.[٦]

واعترض الداودي علي القول الأول وقال: هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُون وَهْمًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُون اِخْتِلَافًا عَنْ اِبْن عَبَّاس، لِأَنَّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْمُصَنِّف فِي التَّفْسِير عَنْهُ فِيهِ التَّنْصِيص عَلَى أَنَّ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٤).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٠٥٧)ثنا الحسين بن حريث، نا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن يزيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، **وإسناده صحيح إلى ابن عباس**.

(٣) فتح الباري (٨/ ٥٣).

(٤) فتح الباري (٨/ ٥٢).

(٥) السابق (٤/ ٣٦٨).

(٦) رواه النسائي في الكبرى (١١٠٥٧)، وقد سبق تخريجه.

آخِرَ آيَةٍ نَزَلَتْ قَوْله تعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾الْآيَةَ، قَالَ: فَلَعَلَّ النَّاقِلَ وَهِمَ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. اِنْتَهى. وَتعقَّبَهُ اِبْن التِّين بِأَنَّهُ هُوَ الْوَاهِمُ. لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْبُخَارِيُّ فِي التَّرْجَمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾الْآيَةَ، وَهِيَ آخِر آيَةٍ ذَكَرَهَا لِقَوْلِهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وَإِلَيْهَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ: هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ. (١)

القول الثالث: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾:

عَنْ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً بَرَاءَةٌ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ خَاتِمَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾. (٢)

قال ابن حجر: أَمَّا الْآيَة فَتقَدَّمَ حَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي سُورَة الْبَقَرَة، وَأَنَّ آخِر آيَة نَزَلَتْ آيَة الرِّبَا، وَيُجْمَع بِأَنَّهُمَا لَمْ يَنْقُلَاهُ، وَإِنَّمَا ذَكَرَاهُ عَنْ اِسْتِقْرَاء بِحَسَبِ مَا اِطَّلَعَا عَلَيْهِ، وَأَوْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَرَادَ آخِرِيَّةً مَخْصُوصَة، وَأَمَّا السُّورَة فَالْمُرَاد بَعْضهَا أَوْ مُعْظَمهَا وَإِلَّا فَفِيهَا آيَات كَثِيرَة نَزَلَتْ قَبْلَ سَنَة الْوَفَاة النَّبَوِيَّة، وَأَوْضَحُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَوَّل بَرَاءَة نَزَلَ عَقِبَ فَتْح مَكَّةَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ عَامَ حَجِّ أَبِي بَكْر وَقَدْ نَزَلَ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، وَهِيَ فِي الْمَائِدَة فِي حَجَّة الْوَدَاع سَنَةَ عَشْرٍ، فَالظَّاهِر أَنَّ الْمُرَاد: مُعْظَمهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ غَالِبهَا نَزَلَ فِي غَزْوَة تَبُوكَ وَهِيَ آخِرُ غَزَوَات النَّبِيِّ ﷺ. (٣)

القول الرابع: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنْ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ جَمِيعًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾، قَالَ: صَدَقْتَ. (٤)

---

(١) فتح الباري (٤/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٦٥٤، ٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٣) فتح الباري (٨/ ١٦٧).

(٤) رواه مسلم (٣٠٢٤).

قال ابن حجر: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِير بَرَاءَة أَنَّهَا آخِر سُورَة نَزَلَتْ. وَالْجَمْع بَيْنهمَا: أَنَّ آخِرِيَّة سُورَة النَّصْر نُزُولهَا كَامِلَة، بِخِلَافِ بَرَاءَة كَمَا تَقَدَّمَ تَوْجِيهه. [1]

فائدة: الجمع بين الأقوال:

مما سبق يتبين أن القول في آخر آية نزلت يدور حوله ثلاثة أقوال:

الأول: آية الربا.

الثاني: آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

الثالث: آية ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

وأما السور فالقول يدور حول قولين:

الأول: سورة براءة.

الثاني: سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾.

وطريقة الجمع هي:

أولًا: بالنسبة للآيات:

وطريق الجمع بين قول: (آية الربا)، وآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

أن آية الربا هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن.

وأما آية ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، فَيُجْمَع بَيْنه وَبَيْن قَوْل اِبْن عَبَّاس بِأَنَّ الْآيَتَيْنِ نَزَلَتَا جَمِيعًا، فَيَصْدُق أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا آخِر بِالنِّسْبَةِ لِمَا عَدَاهُمَا، وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون الْآخِرِيَّةُ فِي آيَة النِّسَاء مُقَيَّدَة بِمَا يَتَعَلَّق بِالْمَوَارِيثِ مَثَلًا، بِخِلَافِ آيَة الْبَقَرَة، وَيَحْتَمِل عكسه، وَالْأَوَّل أَرْجَح لِمَا فِي آيَة الْبَقَرَة مِنْ الْإِشَارَة إِلَى مَعْنَى الْوَفَاة الْمُسْتَلْزِمَة لِخَاتِمَةِ النُّزُول. [2]

وَيُجْمَع أيضًا بين القولين الأولين: بأنهما لَمْ يَنْقُلَاهُ، وَإِنَّمَا ذَكَرَاهُ عَنْ اِسْتِقْرَاء بِحَسَبِ مَا اِطَّلَعَا عَلَيْهِ، وَأَوْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَرَادَ آخِرِيَّةً مَخْصُوصَة. [3]

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٠٦).

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٣).

(٣) السابق (٨/ ١٦٧).

فبذلك نكون قد استبعدنا القول الثالث وهو أن آخر آية نزلت﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ . . ﴾

ويكون الجمع بين القولين الأولين من وجوه:

أولًا: أن آية الربا هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن.

ثانيًا: أن ابن عباس والبراء لم ينقلا هذين القولين، وَإِنَّمَا ذَكَرَاهُ عَنْ اِسْتِقْرَاء بِحَسَبِ مَا اطَّلَعَا عَلَيْهِ.

ثالثا: أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَرَادَ آخِرِيَّةً مَخْصُوصَة.

وقال ابن حجر: وَأَصَحُّ الْأَقْوَال فِي آخِرِيَّةِ الْآيَة قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾. [1]

وهذا هو الراجح إن شاء الله؛ لأن آية الربا هي آخر ما نزل بالنسبة لآيات الربا، أو لعلهما نزلتا جميعًا وتكون﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ بعدها.

وأما القول في آخرية ما نزل من السور

فقلنا أن هذا القول يدور حول قولين: سورة براءة، وسورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾.

قال ابن حجر: وَأَمَّا سُورَة (براءة)فَالْمُرَاد بَعْضهَا أَوْ مُعْظَمهَا، وَإِلَّا فَفِيهَا آيَات كَثِيرَة نَزَلَتْ قَبْلَ سَنَة الْوَفَاة النَّبَوِيَّة، وَأَوْضَحُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَوَّل بَرَاءَة نَزَلَ عَقِبَ فَتْح مَكَّة فِي سَنَةِ تِسْعٍ عَامَ حَجِّ أَبِي بَكْر، وَقَدْ نَزَلَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾، وَهِيَ فِي الْمَائِدَة فِي حَجَّة الْوَدَاع سَنَةَ عَشْرٍ، فَالظَّاهِر أَنَّ الْمُرَاد مُعْظَمُهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ غَالِبهَا نَزَلَ فِي غَزْوَة تَبُوكَ وَهِيَ آخِرُ غَزَوَات النَّبِيّ ﷺ. [2]

فيكون الجمع بين القولين: أن آخرية سورة النصر نزولها كاملة بخلاف براءة كما تقدم توجيهه. [3]

---

(١) السابق (٨/ ١٦٧).

(٢) فتح الباري (٨/ ١٦٧).

(٣) السابق (٨/ ٦٠٦: ٦٠٥).

ويجمع بين هذه الاختلافات إن صحت بأن كل واحد أجاب بما عنده، وهذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبيﷺ، وكل قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن. ويحتمل أن كلًا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو، ويحتمل أيضًا أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسولﷺمع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب. [1]

الخلاصة:

نقول إن القول في آخر ما نزل ليس فيه شئ مرفوع إلي النبيﷺ، وما قاله الصحابة هو ضرب من الاجتهاد وغلبة الظن، وقد رجح ابن حجر بأن آخر ما نزل ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

وقلنا أنه يمكن الجمع بين هذه الآية، وآية الربا كما تقدم. والله أعلم.

* * *

(١) الإتقان (١/ ٨٠: ٧٩).

٨ـ شبهة: حول اختلاف المسلمين في المكي والمدني.

نص الشبهة:

يوجد اختلاف بين المسلمين في المكي والمدني.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: معرفة المكي والمدني وفوائده، وأن الاختلاف في ذلك لا يضر.

الوجه الثاني: سبب الاختلاف في المكي والمدني.

الوجه الثالث: اختلاف العلماء ليس منهيًا عنه في مثل هذه الأمور.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معرفة المكي والمدني وفوائده، وأن الاختلاف في ذلك لا يضر.

أولًا: اصطلاحات العلماء في معنى المكي والمدني:

اعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة:

أشهرها: أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار (وهو الراجح من الأقوال).

الثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، وعلى هذا نثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني.

الثالث: أن المكي ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابًا لأهل المدينة. [1]

ثانيًا: فوائد معرفة المكي والمدني:

قال الزرقاني: من فوائد العلم بالمكي والمدني:

١- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفًا للحكم في غيرها، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظرًا إلى تأخر المدني عن المكي.

٢-ومن فوائده أيضًا معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

---

(١) الإتقان (١/ ٢٣)، والبرهان (١/ ١٨٧).

٣-ومن فوائده أيضًا الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف. ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام؛ حتى لَيَعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، إلى غير ذلك.

فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحدًا يمسُّه ويعبث به، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به أو يحتف بنزوله إلى هذا الحد!. [١]

وقال مناع القطان: وللعلم بالمكي والمدني فوائد، أهمها:

١-الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم. فإنّ معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية، وتفسيرها تفسيرًا صحيحًا، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخًا للمتقدم.

٢-تذوق أساليب القرآن، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالًا، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص الأسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجًا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لبه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحًا جليًا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

٣-الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية. فإن تتابع الوحي على رسول الله ﷺساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد النبوي منذ بدَأ الوحي إلى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالًا

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٦١).

للشك فيما رُوي عن أهل السير موافقًا له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.[١]

الوجه الثاني: سبب الاختلاف في المكي والمدني.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: إنما يُرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين، وكما أنه لا بد في العادة من معرفة معظِّمي العالِم والخطيب، وأهل الحرص على حفظ كلامه ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنفه أولًا وآخرًا، وحال القرآن في ذلك أمثل والحرص عليه أشد، غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول ولا ورد عنه أنه قال: اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا، وبالمدينة كذا وفصَّله لهم، ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر؛ وإنما لم يفعله لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ؛ ليعرف الحكم الذي تضمنهما فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول بعينه، وقوله هذا هو الأول المكي، وهذا هو الآخر المدني، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم لما لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكي والمدني مما لا يسوغ الجهل به لم تتوفر الدواعي على إخبارهم به ومواصلة ذكره على أسماعهم وأخذهم بمعرفته.

وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكي أو مدني، وأن يعملوا في القول بذلك ضربًا من الرأي والاجتهاد، وحينئذ فلم يلزم النقل عنهم ذكر المكي والمدني، ولم يجب على من دخل في الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل آية أنزلت قبل إسلامه: مكية أو مدنية، فيجوز أن يقف في ذلك أو يغلب على ظنه أحد الأمرين، وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته في الناس، ولزوم العلم به لهم ووجوب ارتفاع الخلاف فيه.[٢]

فمما سبق يتبين أن سبب الاختلاف هو:

١- أنه لم يرد نص عن النبيﷺ في تحديد ذلك.

---

(١) مباحث في علوم القرآن (١/ ٥٥).

(٢) البرهان (١/ ١٩٢: ١٩١) نقلًا عن ابن العربي في "الانتصار".

٢- لم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ.

٣- وعلى ذلك الصحابة والتابعون لم تتوفر الدواعي على إخبارهم به، ومواصلة ذكره على أسماعهم وأخذهم بمعرفته.

فائدة: أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقًا.

أن القرآن لم ينزل جملةً واحدة، وإنما نزل مفرقًا على دفعات، فبذلك لم ينزل في مكان واحد، وإنما كان يتعايش مع المسلمين في حياتهم وغزواتهم ومواقفهم، فلا يعقل مثلًا أن تحدث حادثة الإفك في المدينة ثم ينزل القرآن فيها بمكة، فهذا من سوائغ الاختلاف مع سائغ أن النبيﷺ لم ينص نصًا في تحديد المكي والمدني.

الوجه الثالث: أن اختلاف العلماء ليس منهيًا عنه في هذه الأمور.

فإن قيل: إن هناك سورًا بعضها مكي وبعضها مدني، فنقول: إن السورة تشتمل على أكثر من موضوع وموقف وعلى أكثر من حكاية، فلا مانع أن تكون هذه الحادثة حدثت بالمدينة، وحادثة أخرى بمكة وجمعتا في سورة واحدة بأمر من اللهﷻ للنبيﷺ، فتكون بعض الآيات مدنية والأخرى مكية، وهذا في قليل من سور القرآن.

مثال: إن البقرة سورة مدنية إلا ما ذُكر فيها من قصة آدمعليه السلام؛ لأن الغالب على المكي أنه يذكر فيه قصص السابقين، وهناك بعض السور والآيات قد تنزل مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة، مثل الفاتحة، فمن الأقوال فيها أنها نزلت مرتين.

* * *

٩ـ شبهة: اختلاف المسلمين في أسباب النزول.

قالوا: بأن الآية الواحدة قد يرد عليها أكثر من سبب نزول، وادَّعوا أن هذا من التناقض.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: لا نحتج إلا بالحديث الصحيح في أسباب النزول وغيرها.

الوجه الثاني: لا إشكال في تعدد أحاديث أسباب النزول وذلك من وجوه:

الوجه الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا يُحتج إلا بالحديث الصحيح.

نحن لا نأخذ بكل حديث يُروى لنا في كتب التفسير لا في أسباب النزول ولا في غيرها.

قال الواحدي: لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا علي الأسباب، وبحثوا عن علمها، وقد قال محمد بن سيرين: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله القرآن. وقال غيره: معرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا وربما لم يجزم بعضهم فقال: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، كما أخرج الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير ﵁قال: خاصم الزبير رجلًا من الأنصار في شراج الحرة فقال النبي ﷺ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلْ المَاءَ إِلَى جَارِكَ فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ! فَتَلَوَّنَ وَجْهُ نَبِيِّ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا زُبَيْرُ اسْقِ ثُمَّ احْبِسْ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ.

فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَالله إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (النساء: ٦٥). (١)

وإذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا، فإنه حديث مسند، مثال: عن جابر ﵁قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾. (٢)

---

(١) البخاري (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧).

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٨٩، والحديث رواه مسلم (١٤٣٥).

الوجه الثاني: لا إشكال في تعدد أحاديث أسباب النزول.

وفي هذا الوجه مسائل:

المسألة الأولي: وهي: التعدد قد يكون في التفسير وليس في السبب.

أن يعبر أحدهم بقوله: نزلت في كذا، والآخر: نزلت في كذا، وذكر أمرًا آخر. فهذا يراد به التفسير لا ذكر سبب النزول، فلا منافاة بين قولهما إذا كان اللفظ يتناولهما[1].

المسألة الثانية: قد يكون الأول تفسيرًا والآخر سببًا.

كأن يعبر واحد بقوله: نزلت في كذا، ويصرح آخر بذكر سبب خلافه؛ فهو المعتمد وذاك استنباط، مثاله: عن ابن عمر ﷺقال: أنزلت " نساؤكم حرث لكم" في إتيان النساء في أدبارهن، وعن جابر التصريح بذكر سبب خلافه، فالمعتمد حديث جابر؛ لأنه نقل، وقول ابن عمر استنباط منه، فحديث جابر قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله " نساؤكم حرث لكم ". [2]

المسألة الثالثة: قد يكون أحدهما صحيحًا والآخر ضعيفًا.

أن يذكر واحد سببًا وآخر سببًا غيره، فإن كان إسناد أحدهما صحيحًا دون الآخر فالصحيح المعتمد، مثال: عن جندب: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[3].

وعن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول الله ﷺ: أن جروًا دخل بيت النبي ﷺفدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبريل لا يأتيني، فقلت في نفسي: لوهيأت البيت

---

(١) الإتقان ١/ ٩١.

(٢) البخاري (٤٥٢٨)، مسلم (١٤٣٥).

(٣) البخاري (٤٩٥٠).

وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فأنزل الله (والضحى) إلى قوله (فترضى)[1].

قال ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح[2].

مثال آخر: عن ابن عباس أن رسول الله ﷺلما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها بضعة عشر شهرًا وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾. فارتاب من ذلك اليهود وقالوا - ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

وعن ابن عمر قال: نزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في التطوّع.

ومن حديث عامر بن ربيعة قال: كنا في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت.

فالحديث الأول صحيح الإسناد وهو الذي صرح فيه بذكر السبب فهو المعتمد[3].

المسألة الرابعة: أن يستوي الإسنادان في الصحة:

فيرجح أحدهما بكون راويه حاضر القصة أو نحو ذلك من وجوه الترجيحات.

مثال: عن ابن مسعود ﷺقال: كنت أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ علي عسيب، فمر بِنَفَرٍ مِنْ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لو سألتموه! فقالوا: حدثنا عن الروح. فقام ساعة ورفع رأسه، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٦٣٦.

(٢) فتح الباري٨/ ٥٨٠.

(٣) الإتقان١/ ٩٣: ٩١.

ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء: ٨٥)[١].

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ! فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فَأَنْزَلَ الله ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ . . . ﴾[٢].

فهذا يقتضي أنها نزلت بمكة والأول خلافه، وقد رجح بأن ما رواه البخاري أصح من غيره وبأن ابن مسعود كان حاضر القصة[٣].

المسألة الخامسة: أن يكون نزولها عقيب السببين أو الأسباب المذكورة، بشرط ألا تكون معلومة التباعد:

مثال: عن ابن عباس أن هلال ابن أمية قذف امرأته عند النبيﷺبشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: "البينة أو حَدٌّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ فأنزل عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (النور: ٩)"[٤].

وعن سهل بن سعد قال جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: اسأل رسول اللهﷺ: أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا فقتله أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول اللهﷺ، فغاب السائل، فأخبر عاصم عويمرًا فقال: والله لآتين رسول اللهﷺفلأسألنه، فأتاه فقال: أنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآن. . . . الحديث)[٥]، فجمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضًا فنزلت في شأنهما معًا[٦].

المسألة السادسة: تعدد النزول.

ألا يمكن نزولها عقيب السببين أو الأسباب المذكورة فيحمل على تعدد النزول وتكرره:

(١) والحديث أخرجه البخاري. الفتح٨/ ٢٥٣، ومسلم ٤/ ٢١٥٢/ ٢٧٩٤.

(٢) الترمذي٥/ ٣٠٤/ ٣١٤٠ قال الألباني: إسناده صحيح في ظلال الجنة١/ ٣٢٢.

(٣) الإتقان١/ ٩٤: ٩٣.

(٤) البخاري، ٥/ ٣٣٥/ ٢٦٧١ـ فتح، ومسلم: ٢/ ١١٣٤/ ١٤٩٦

(٥) البخاري٩/ ٣٥٤/ ٥٣٠٤ـ فتح، ومسلم٢/ ١١٢٩/ ١٤٩٢

(٦) الإتقان١/ ٩٥: ٩٤

مثال: عن المسيب قال: لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية فقال: أي عم قل لا إله إلا الله أُحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنه، فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾ (التوبة: ١١٣)(١).

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت(٢).

فنجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول(٣).

المسألة السابعة: قد يكون في إحدى القصتين (فتلا) فَيَهِمُ الراوي فيقول (فنزل)، أو تكون بلفظ (فقرأ) وتأتي في الرواية الأخري (فنزل).

مثال: عن ابن عباس قال: مر يهودي بالنبي ﷺ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه، والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ فأنزل الله ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام٩١)(٤).

والحديث في الصحيح بلفظ: (فتلا رسول الله ﷺ) وهو الصواب فإن الآية مكية(٥).

وهذا الحديث عند البخاري بلفظ: (فقرأ رسول الله ﷺ).

الوجه الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول.

قال الزرقاني: لأسباب النزول فوائد متعددة لا فائدة واحدة، ومن تلك الفوائد:

---

(١) البخاري٣/ ٢٦٣. ومسلم١/ ٥٤/ ٣٩.

(٢) الترمذي٥/ ٢٨١/ ٣١٠١ قال الألباني: حسن. تلخيص أحكام الجنائز١/ ٤٨.

(٣) الإتقان١/ ٩٦: ٩٥، والبرهان١/ ٢٩.

(٤) الترمذي٥/ ٣٧١/ ٣٢٤٠، وأصله في البخاري (٤٨١١).

(٥) الإتقان١/ ٩٦.

الأولى: معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن؛ أما المؤمن فيزداد إيمانًا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله، والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحِكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفًا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان، خصوصا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد، وحسبك شاهدًا على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه.

الثانية: الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها.

حتى لقد قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالمسبب يورث العلم بالسبب.

الثالثة: دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر نحو قوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

الرابعة: تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، وبدون معرفة السبب تصير الآية معطلة خالية من الفائدة.

الخامسة: معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها، وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعًا، فيكون التخصيص قاصرا على ما سواه، فلو لم يعرف سبب النزول، لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص مع أنه لا يجوز إخراجه قطعا للإجماع المذكور.

السادسة: معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين حتى لا يشتبه بغيره؛ فيتهم البريء ويبرأ المريب مثلًا؛ ولهذا ردت عائشة على مروان حين اتهم أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر

بأنه الذي نزلت فيه آية ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ (الأحقاف: ١٧)، وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته إلى آخر تلك القصة.

السابعة: تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل أولئك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر[1].

* * *

(١) مناهل العرفان ١/ ٩٢: ٩١.

١٠- شبهة: اختلاف المسلمين في ترتيب السور.

نص الشبهة:

يقولون: إن ترتيب سور القرآن اختلف فيها المسلمون.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الأقوال في ترتيب السور.

الوجه الثاني: الجمع بين الأقوال، وأنه لا تعارض بينها.

الوجه الثالث: ما ورد عن الصحابة من اختلافٍ في ترتيب المصاحف، وتوجيه ذلك.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الأقوال في ترتيب السور.

وأما ترتيب السور على ما هي عليه الآن، فاختُلف: هل هو توقيف من النبي ﷺ، أو من فعل الصحابة، أو بعضه توقيف من النبي ﷺ وبعضه اجتهادي؟ على ثلاثة أقوال: [١]

القول الأول: وهو مذهب الجمهور: أن النبي ﷺ فوَّضَ ذلك إلى أمته من بعده، يعني أن هذا الترتيب من فعل الصحابة.

ومِمَّن ذهب هذا المْذهب الإمام مالكٌ، والقاضي أبو بكر الباقلاني فيما استقر عليه رأيه من قوليه. [٢]

قال الزركشي: قال أبو الحسين أحمد بن فارسٍ في كتاب "المسائل الخمس": جمع القرآن على ضربين: أحدهما: تأليف السور، كتقديم السبع الطُّوال، وتعقيبها بالمْئين، فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة. [٣]

---

(١) هوَّن الزركشي من أمر هذا الخلاف، فقال: والخلاف يرجع إلى اللفظ؛ لأن القائل بالثاني - بأن الترتيب كان عن اجتهاد منهم- يقول: إنه رمز إليهم بذلك، لعلمهم بأسباب نزوله، ومواقع كلماته؛ ولهذا قال الإمام مالك: إنَّما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ، مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم، فآل الخلاف إلى أنه: هل ذلك بتوقيف قولي، أم بِمجرد استناد فعلي، وبحيث بقي لَهم فيه مجال للنظر؟ البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٥٧). قال السيوطي: وسبقه إلى ذلك أبو جعفر بن الزبير. الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٧٧).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٣٢٠

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

وقد استدلوا على مذهبهم بأدلة، منها:

أولًا: أنه لو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ لظهر وفشا ونقل مثله، وفي العلم بعدم ذلك النقل دليلٌ على أنه لم يكن منه ﷺ توقيف فيه.

ثانيًا: أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل جمع القرآن في عهد عثمان، ولو كان الترتيب توقيفيًّا منقولًا عن النبي ﷺما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه. (١)

فمن ذلك أن مصحف أُبيِّ بن كعب قدمت فيه النساء على آل عمران، ثم تلت آل عمران سورة الأنعام، ثم الأعراف ثم المائدة. . . ، ومصحف ابن مسعود كان مبدوءا بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأعراف، ثم الأنعام. . . الخ ما فيهما من خلاف مصاحفنا اليوم، وروي أن مصحف علي كان مرتبًا على النزول، فأوله سورة العلق، ثم المدثر، ثم ق، ثم المزمل ثم تبت، ثم التكوير، وهكذا إلى آخر المكي والمدني. (٢)

ثالثًا: حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى سُورَةِ الأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي، وَإِلَى سُورَةِ بَرَاءَةٌ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ، فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّوَرِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ لَهُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الآيَاتُ قَالَ: ضَعُوا هَذِهِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الآيَةُ قَالَ: ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَكَانَتْ سُورَةُ الأَنْفَالِ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ سُورَةُ بَرَاءَةٌ مِنْ أَوَاخِرِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: فَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهًا بِقِصَّتِهَا، فَظَنَنَّا أَنَّهَا مِنْهَا، وَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَوَضَعْتُهَا فِي

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٨٧). الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٧٦)

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٧٦)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٢٥٩)، ومناهل العرفان (١/ ٢٨٧).

السَّبْعِ الطِّوَالِ. (١)

فقول عثمان: "فَظَنَنَّا أَنَّهَا مِنْهَا، وَقُبِضَ رَسُولُ الله ﷺوَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا" صريحٌ في عدم التوقيف. (٢)

فهذا الحديث يدل عندهم على أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف من النبي ﷺ، بل كان باجتهاد من الصحابة .

رابعًا: عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَكٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها، إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ؟! قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِينِي مُصْحَفَكِ. قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ. قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟. . . قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ. (٣)

ووجه الدلالة فيه أن السائل كان يسأل عن ترتيب السور، بدليل قول عائشة له: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ لأن السلف متفقون على المنع من قراءة القرآن منكوسًا، بأن يقرأ من آخر السورة إلى أولها، ولو كان السائل يسأل عن ترتيب الآي لأنكرت عليه عائشة قراءة القرآن غير مؤلف. (٤)

القول الثاني: أن هذا الترتيب توقيف من النبي ﷺ، وبه قالت طائفة من أهل العلم. (٥)

قال أبو جعفر النحاس: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ. (٦)

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٩٢)، (١/ ١١١)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦).

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن صـ ٨٢.

(٣) البخاري (٤٩٩٣).

(٤) فتح الباري (٨/ ٦٥٥).

(٥) قال البيهقي في المدخل: كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان السابق. قال السيوطي: والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي، إلا براءة والأنفال، ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺسورًا ولاءً على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ لا يَرِدُ حديث قراءته النساء قبل آل عمران؛ لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجبٍ، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز. الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٧٩ : ١٧٧ .

(٦) البرهان (١/ ٢٥٨).

وقال الكِرْماني: ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ. (١)

وقال أبو بكر بن الأنباري: أنزل القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرِّق في بضعٍ وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا لمستخبر، ويقف جبريلُ النبيَّ ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قَدَّم سورة أو أَخَّرَها، فقد أفسد نظم الآيات. (٢)

واستدلوا على ذلك:

أولًا: بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان، ولم يُخالف منهم أحد، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف؛ لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بِمخالفتهم، ولكنهم عدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعًا. (٣)

واستدلوا بأحاديث، منها: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كان يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطه وَالأَنْبِيَاءِ: إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي. (٤)

فذكرها نسقًا كما استقر ترتيبها.

ثانيًا: عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: أُعْطِيتُ مكانَ التَّوراة السبعَ الطِّوالَ، وأُعْطِيتُ مكان الزبور المِئِينَ، وأُعْطِيتُ مكان الإنجيل المثانيَ، وفُضِّلْت بالمفصَّلِ. (٥)

قال ابن النحاس: وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ، وأنه مؤلف من ذلك الوقت. (٦)

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٥٩).

(٢) البرهان (١/ ٢٦٠).

(٣) مناهل العرفان (١/ ٢٨٨).

(٤) البخاري (٤٩٩٤).

(٥) الطيالسي في مسنده (١٠١٢)، والطحاوي في " مشكل الآثار " (٢/ ١٥٤)، أخرجه الطبري في تفسيره وصححه بمجموع طرقه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨٠).

(٦) البرهان (١/ ٢٥٨).

ثالثًا: عَنْ أَوْسِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي الْوَفْدِ الَّذِينَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ أَسْلَمُوا مِنْ ثَقِيفٍ. . . الحديث، وفيه: قُلْنَا مَا أَمْكَثَكَ عَنَّا يَا رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَرَدْتُ أَنْ لا أَخْرُجَ حَتَّى أَقْضِيَه. قَالَ: فَسَأَلْنَا أَصْحَابَ رسول الله ﷺ حِينَ أَصْبَحْنَا، قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: نُحَزِّبُهُ ثَلاثَ سُوَرٍ وَخَمْسَ سُوَرٍ وَسَبْعَ سُوَرٍ وَتِسْعَ سُوَرٍ وَإِحْدَى عَشْرَةَ سُورَةً وَثَلاثَ عَشْرَةَ سُورَةً وَحِزْبَ الْمُفَصَّلِ مِنْ قَافْ حَتَّى يُخْتَمَ. (١)

قال ابن حجر: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ. (٢)

قال السيوطي: ومِمَّا يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاءً، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاءً، بل فصل بين سورها، وفصل بين (طسم) الشعراء و(طسم) القصص بـ (طس) مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديًّا لذكرت المسبحات ولاءً، وأُخِّرت (طس) عن القصص.

وقد سئل ربيعة: لم قُدِّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضعٌ وثمانون سورة بمكة، وإنَّما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قُدِّمتا، وأُلِّف القرآن على علم ممن أَلَّفه به، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مِمَّا يُنْتَهى إليه، ولا يُسْأل عنه. (٣)

القول الثالث: أن ترتيب كثير من السور كان بتوقيف من النبي ﷺ وعلم ذلك في حياته، وأن ترتيب بعض السور كان باجتهاد من الصحابة.

واستدلوا على ذلك بورود أحاديث تفيد ترتيب بعض السور، كالأدلة التي احتج بِها الفريق القائل بالقول الثاني، وورود آثار تصرح باجتهاد الصحابة في ترتيب بعض السور كحديث ابن عباس عن عثمان السابق.

---

(١) أبو داود في (١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥)، وأحمد (٤/ ٩) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي، عن عثمان بن عبد الله بن أوس، عن جده أوس بن حذيفة به.

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٥٨).

(٣) الإتقان (١/ ١٧٩)، مناهل العرفان (١/ ٢٨٨).

واختلف القائلون بهذا القول في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف، والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد:

فقال القاضي أبو محمد بن عطية: إن كثيرًا من السور قد علم ترتيبها في حياة النبي ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصل. وأنّ ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده.

وقال أبو جعفر بن الزبير: الآثار تشهد بأكثر مِمَّا نصَّ عليه ابن عطية، ويبقى منها قليلٌ يُمكن أن يجري فيها الخلاف، واحتج بأحاديث منها: حديث عبد الله بن مسعود، وحديث عبد الله بن عباس السابقة في أدلة القول الأول. (١)

قال ابن حجر: ترتيب بعض السور على بعض، أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيًّا، وإن كان بعضه من اجتهاد بعض الصحابة، واحتج بحديث ابن عباس السابق.

الوجه الثاني: الجمع بين الأقوال.

قال الزركشي: والذي يمال إلى ترجيحه هو القول الثاني القائل بأن ترتيب سور الكتاب العزيز كلها توقيفيٌّ، بما سبق من الأدلة عند حكاية هذا القول.

أما أدلة الفريق القائل بأن ترتيب السور اجتهادي فمردودة بما يأتي:

١ - أما دعواهم أنه لو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ لظهر وفشا ونقل مثله، وأن في العلم بعدم ذلك النقل دليلًا على عدم التوقيف، فيجاب بأن عدم النقل ليس دليلًا على عدم وجود النص؛ بل إن إجماع الصحابة على هذا الترتيب دليلٌ على وجود النص بالتوقيف؛ لأنهم لا يُجمعون على خلاف السنة.

٢ - أما حديث ابن عباس عن عثمان. (٢)

وهو أقوى حججهم، فهو أوهاها إذا نظر إليه بعين التمحيص، ففيه ضعف لا يُنكر سندًا، وفيه الرد على شبهتهم متنًا:

---

(١) الإتقان (١/ ١٧٧)

(٢) وقد سبق قريبًا، وفيه قوله: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى سُورَةِ الأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ المَثَانِي، وَإِلَى سُورَةِ بَرَاءَةٌ وَهِيَ مِنَ المِئِينَ فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ.

أما من ناحية السند فإن مدار الحديث على يزيد الفارسي.

قال الشيخ أحمد شاكر: وفي إسناده نظر كثير، بل هو عندي ضعيف جدًّا، بل هو حديث لا أصل له. (١)

وقد اختلف المُحدِّثون في يزيد هذا، اختلافًا كثيرًا:

قال البخاري في ترجمة يزيد بن هرمز: قال عبد الرحمن بن مهدي: يزيد الفارسي هو ابن هرمز، قال: فذكرته ليحيى فلم يعرفه، قال: وكان يكون مع الأمراء. (٢)

وقال ابن أبي حاتم: يزيد بن هرمز، اختلفوا فيه، هل هو يزيد الفارسي أم لا؟ فقال عبد الرحمن بن مهدي، فيما سمعت أبي يَحكي عن علي بن المْديني عنه أنه قال: يزيد الفارسي، هو يزيد بن هرمز، وكذا قاله أحمد بن حنبل. . . ، وأنكر يحيى بن سعيد القطان أن يكونا واحدًا، فعن علي بن المديني قال: ذكرت ليحيى قول عبد الرحمن بن مهدي: إن يزيد الفارسي هو يزيد بن هرمز، فلم يعرفه.

قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: يزيد بن هرمز هذا، ليس بيزيد الفارسي، هو سواه، وكان يزيد بن هرمز من أبناء الفرس الذين كانوا بالمدينة وجالسوا أبا هريرة، وليس هو بيزيد الفارسي البصري الذي يروي عن ابن عباس، روى عنه عوف الأعرابي. (٣)

وأثبته البخاري في الضعفاء بالاسمين: ابن هرمز والفارسي، (٤) فهما ضعيفان عنده.

فعلى هذا فالحديث ضعيف، إما لضعف يزيد بن هرمز إن كان هو نفسه يزيد الفارسي، أو لجهالة أو ضعف يزيد الفارسي إن كان غير ابن هرمز.

قال العلامة أحمد شاكر: فهذا يزيد الفارسي الذي انفرد برواية هذا الحديث، يكاد يكون مجهولًا، حتى شُبِّه على مثل ابن مهدي وأحمد والبخاري أن يكون هو ابن هرمز أو

---

(١) مسند أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر (١/ ٣٩٩).

(٢) التاريخ الكبير (٢/ ٣٦٧)

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤/ ٢/ ٢٩٣).

(٤) الضعفاء الصغير ترجمة (٤٠٧).

غيره. . . فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي. . . وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك.

ثم قال: فلا علينا إذا قلنا إنه حديث لا أصل له. . . فلا عبرة في هذا الموضع بتحسين الترمذي، ولا بتصحيح الحاكم، ولا بموافقة الذهبي، وإنَّما العبرة للحجة والدليل.(١)

وأما متنًا، فإنه يَحمل تناقضًا ظاهرًا، ويحمل طعنًا في التوقيف في ترتيب الآي.

أما التناقض، فلأنه أثبت للأنفال وبراءة اسمين مختلفين، وفيه مع ذلك أن عثمان ظن أن براءة من الأنفال فقرنَها بِها، وكان الأولى أن يقول: إنهما سورة واحدة.

قال الباقلاني: وقد تضمن ذلك أنَّهما سورتان؛ لأنه سمى كل واحدة باسمها.

وأما الطعن في التوقيف في ترتيب الآي، فلأن قول عثمان: "فظننا أنَّها منها" يدل على أن النبي ﷺ لم يفصح بأمر براءة، فأضافها عثمان إلى الأنفال اجتهادًا منه .

وهذا مخالف لِما لا يُحصى من الأخبار الصحيحة الدالة على التوقيف في ترتيب آي السور، ومخالف للإجماع المنقول عن أهل العلم على أن ترتيب آي السور ليس محلًا للاجتهاد، وإنَّما كان بتوقيف من النبي ﷺ

كما أن قول ابن عباس: "عَمَدْتُمْ إِلَى سُورَةِ الأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي، وَإِلَى سُورَةِ بَرَاءَةٌ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ. . . فَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ" يحمل ما يرد احتجاج هؤلاء بِهذا الحديث، فهو ذا يذكر أن الأنفال من المثاني، وأن براءة من المئين، ويقول: فوضعتموهما في السبع الطوال، وهذا يدل على أن السبع الطوال كانت معلومة توقيفًا قبل الجمع، وكذلك المثاني، وكذلك المئون، وإلا فما وجه استنكار ابن عباس هذا الترتيب؟!

٣ - أما حديث يوسف بن ماهك عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فيرد عليه بأن هذا العراقي إنَّما سأل عن ترتيب السور، وكان مِمَّن يأخذ بقراءة ابن مسعود، وكان ابن مسعود لما حضر مصحف

(١) مسند الإمام أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر (١/ ٣٩٩-٤٠١).

عثمان إلى الكوفة، لم يوافق أول الأمر على الرجوع عن قراءته، ولا على إعدام مصحفه، وكان تأليف مصحفه مغايرًا لتأليف مصحف عثمان، فلذا أطلق العراقي أنه غير مؤلف.(١)

وأما الفريق الثالث القائل بالتفصيل، فيجاب بنفس الأجوبة، إذ لم يأت بدليل جديد، كما يرد عليهم أيضًا بأن العلم بتوقيف البعض يدل على التوقيف في الكل، إذ لو علم الصحابة التوقيف لَمَا فاتَهم أن يسألوا عن كل سورة بعينها، والنبي ﷺ حَيٌّ بين أظهرهم، وإلا لكانوا -وحاشاهم- مقصرين في حفظ القرآن.

الوجه الثالث: ما ورد من اختلاف في ترتيب مصاحف الصحابة.

فإن قيل: كيف يكون الصحابة مجمعين على هذا الترتيب مع أن مصاحفهم كانت مختلفة في ترتيب السور قبل جمع القرآن في عهد عثمان، ولو كان الترتيب توقيفيًّا منقولًا عن النبي ﷺ ما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه، وهو دليلهم الثاني؟(٢)

فيجاب عليه بهذه الوجوه:

الوجه الأول: أن هذا الاختلاف كان قبل العلم بالتوقيف فيه.

بأنهم اختلفوا فيما اختلفوا قبل أن يعلموا التوقيف فيه، ولما جمع عثمان القرآن على هذا الترتيب علموا ما لم يكونوا يعلمونه، ولذلك تركوا ترتيب مصاحفهم وأخذوا بترتيب عثمان.(٣)

قال السيوطي: وقد من الله عليّ بجواب لذلك نفيس وهو أن القرآن وقع فيه النسخ كثيرًا للرسم، حتى لسور كاملة وآيات كثيرة، فلا بِدع أن يكون الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرضة الأخيرة، كالقراءات التي في مصحفه، ولم يبلغ ذلك أبيًّا وابن مسعود، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثماني؛ ولذلك كتب أبيٌّ في مصحفه سورة الحفد والخلع، وهما منسوختان فالحاصل أني أقول:

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٥٥).

(٢) إن هذه الشبهة لا ترد على القائلين بأن ترتيب السور كلها اجتهادي، أما القائلون بأن منه اجتهاديا ومنه توقيفيًا فمن السهل الجواب عنهم: بأن الاختلاف بين الصحابة وقع في القسم الاجتهادي لا التوقيفي. وإنما ترد هذه الشبهة على القائلين بأن ترتيب السور كله توقيفي والجواب كما نبينه.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٣٢٠، مناهل العرفان (١/ ٢٩٢).

ترتيب كل المصاحف بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات العثمانية، ورتب أولئك على ما كان عندهم، ولم يبلغهم ما استقر، كما كتبوا القراءات المنسوخة المثبة في مصاحفهم بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة

الأخيرة على القراءات المنسوخات، ولم يبلغهم النسخ[1].

الوجه الثاني: أن الاختلاف كان في مصاحف فردية.

أن الأمر في اختلاف مصاحفهم أنها كانت مصاحف فردية، لم يكونوا يكتبونها للناس؛ إنما كانوا يكتبونها لأنفسهم، فبَدهي أن الواحد منهم لم يثبت فيها إلا ما وصل إليه بمجهوده الفردي، وقد يفوته ما لم يفت سواه من تحقيق أدق أو علم أوسع.

ولهذا كان يوجد بتلك المصاحف الفردية بعض آيات قد تكون منسوخة، وربما لم يبلغ صاحب ذاك المصحف نسخها.

وقد يهمل صاحب المصحف إثبات سورة لشهرتها وغناها بهذه الشهرة عن الإثبات، كما ورد أن مصحف ابن مسعود لم تكن به الفاتحة.

وقد يكتب صاحب المصحف ما يرى أنه بحاجة إليه من غير القرآن في نفس المصحف كما تقدم ذلك في قنوت الحنفية الذي روي أن بعض الصحابة كان قد كتبه بمصحفه وسماه سورة الخلع والحفد.[2]

الوجه الثالث: أن هذا الاختلاف زال بما اتفقوا عليه في مصحف عثمان.

قال ابن تيمية: ترتيب السور بالاجتهاد لا بالنص في قول جمهور العلماء من الحنابلة والمالكية والشافعية، فيجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف زمن عثمان رضي الله عنهم جميعًا صار هذا مما سنّه الخلفاء الراشدين، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب إتباعها.[3]

* * *

---

(١) أسرار ترتيب القرآن ١/ ٧٣.

(٢) مناهل العرفان (١/ ٢٩٢).

(٣) الناسخ والمنسوخ للكرمي ١/ ٢٣٢، شرح منتهى الإرادات ١/ ١٩١، المبدع ١/ ٤٨٦، الفروع ١/ ٣٦٩.

١١ـ شبهة: اختلاف المسلمين في عدد سور وآيات القرآن.

نص الشبهة:

اختلاف المسلمين في عدد سور وآيات القرآن، أما سوره فمائة وأربع عشرة سورة بإجماع من تعبد به، وقيل وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة، هل تتماشى تلك الأخبار مع آية في سورة النساء: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء: ٨٢)؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى قول الله: ﷻ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾.

الوجه الثاني: سبب اختلاف المسلمين، وهذا الاختلاف لا يضر في القرآن الكريم.

الوجه الثالث: تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾.

قال الطبري : يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله؟ ، فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم؛ لاتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض.[١]

وقال ابن كثير: يقول تعالى آمرًا عباده بتدبر القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضادّ ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد: ٢٤)، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: لو

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ١٧٩).

كان مفتعلًا مختلقًا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ أي: اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا، أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله كما قال تعالى مخبرًا عن الراسخين في العلم، حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧) أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين. (١)

عن أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَبَاحٍ الْأَنْصَارِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ: هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: "**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ**". (٢)

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنْ الْقُرْآنِ فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ وَيَقُولُ: "**مَهْلًا يَا قَوْمِ بِهَذَا أُهْلِكَتْ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمْ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**". (٣)

ودلت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ على وجوب التدبر للقرآن؛ ليعرف معناه. والمعنى: أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفًا غير مختلف، صحيح المعاني، قوي المباني، بالغًا في البلاغة إلى أعلى درجاتها ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٢).

(٢) مسلم (٢٦٦٦).

(٣) رواه أحمد (٦٧٠٢)، وعبد الرزاق (٢٠٣٦٧)، والبغوي في شرح السنة (١٢١)، والبيهقي في الشعب (٢٢٥٨)، والبخاري في خلق أفعال العباد (١٦٥)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٣٧).

﴿غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: تفاوتًا وتناقضًا، ولا يدخل في هذا الاختلاف مقادير الآيات والسور؛ لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت، وعدم المطابقة للواقع، وهذا شأن كلام البشر لا سيما إذا طال، وتعرّض قائله للإخبار بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحًا مطابقًا للواقع إلا القليل النادر. (١)

الوجه الثاني: سبب هذا الاختلاف.

سبب هذا الاختلاف: أن النبي ﷺ كان يقف على رءوس الآي تعليمًا لأصحابه أنها رءوس آي، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلبًا لتمام المعنى، فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي ﷺ فاصلة، فيصلها بما بعدها معتبرًا أن الجميع آية واحدة، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها، وقد علمت أن الخطب في ذلك سهل؛ لأنه لا يترتب عليه في القرآن زيادة ولا نقص.

وأيضًا البسملة نزلت مع السورة في بعض الأحرف السبعة، فمن قرأ بحرف نزلت فيه عدها، ومن قرأ بغير ذلك لم يعدها. (٢)

وقيل: وسبب الاختلاف في عد الكلمات أن الكلمة لها حقيقة، ومجاز، ولفظ، ورسم، واعتبار كل منها جائز، وكل من العلماء اعتبر أحد الجوائز، وتقدم عن ابن عباس عدد حروفه، وفيه أقوال أخر. والاشتغال باستيعاب ذلك مما لا طائل تحته، وقد قال السخاوي: لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة؛ لأن ذلك إن أفاد؛ فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان، والقرآن لا يمكن فيه ذلك. (٣)

وعن أم سلمة أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾. (٤)

---

(١) فتح القدير (١/ ٧٣٤-٧٣٥).

(٢) مناهل العرفان (١/ ٢٧٨)، والبرهان (١/ ٢٥٢).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٩٧).

(٤) رواه أحمد (٦/ ٣٠٢)، وأبو داود (٢/ ٤٠٠١)، وصححه الألباني إرواء الغليل (٢/ ٦٠).

الوجه الثالث: سور القرآن على ثلاثة أقسام.

قال الموصلي: ثم سور القرآن على ثلاثة أقسام: قسم لم يختلف فيه لا في إجمالٍ ولا في تفصيلٍ، وقسم اختلف فيه تفصيلًا لا إجمالًا، وقسم اختلف فيه إجمالًا وتفصيلًا.

فالقسم الأول: أربعون سورة: **يوسف** مائة وإحدى عشرة، **الحجر** تسع وتسعون، **النحل** مائة وثمانية وعشرون، **الفرقان** سبع وسبعون، **الأحزاب** ثلاث وسبعون، **الفتح** تسع وعشرون، **الحجرات والتغابن** ثمان عشرة، **ق** خمس وأربعون، **الذاريات** ستون، **القمر** خمس وخمسون، **الحشر** أربع وعشرون، **الممتحنة** ثلاث عشرة، **الصف** أربع عشرة، **الجمعة والمنافقون والضحى والعاديات** إحدى عشرة، **التحريم** ثنتا عشرة، **ن** اثنتان وخمسون، **الإنسان** إحدى وثلاثون، **المرسلات** خمسون، **التكوير** تسع وعشرون، **الانفطار وسبّح** تسع عشرة، **البروج** اثنتان وعشرون، **الغاشية** ست وعشرون، **البلد** عشرون، **الليل** إحدى وعشرون، **ألم نشرح والتين وألهاكم** ثمان، **الهمزة** تسع، **الفيل والفلق وتبت** خمس، **الكافرون** ست، **الكوثر والنصر** ثلاث.

والقسم الثاني: أربع سور وهم الذين اختلف فيهم تفصيلًا لا إجمالًا، أربع سور: **القصص** ثمان وثمانون، عد أهل الكوفة (طسم)، والباقون بدلها ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾، **العنكبوت** تسع وستون، عد أهل الكوفة (الم)، والبصرة بدلها ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾، والشام ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، **الجن** ثمان وعشرون عد المكي ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، والباقون بدلها ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، **والعصر** ثلاث، عد المدني الأخير ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾دون (والعصر) وعكس الباقون.

والقسم الثالث: الذي اختلف فيه إجمالًا وتفصيلًا، وهم سبعون سورة الباقية من القرآن الكريم.[1]

ويترتب على معرفة الآي وعدها وفواصلها أحكام فقهية:

---

(١) الإتقان (١/ ١٩٠-١٩١).

منها: اعتبارها في الخطبة، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة، وكذا الطويلة على ما أطلقه الجمهور. **ومنها**: اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها، ففي الصحيح أنهﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المائة. (١)

ومنها: اعتبارها في قراءة قيام الليل، ففي أحاديث عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: **"مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْمُقَنْطِرِينَ"**. (٢)

ومنها: اعتبارها في الوقف. وهناك فوائد أخرى **منها**: العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار، **ومنها**: حسن الوقف على رءوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سنة. (٣)

* * *

---

(١) البخاري (٥٤١)، مسلم (٤٦١).

(٢) رواه أبو داود (١٣٩٨)، والدارمي (٣٤٤٤)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٥٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٩)، وصحيح أبي داود (١٣٤٦).

(٣) الإتقان (١/ ١٩٦)، ومناهل العرفان (١/ ٢٧٩).

١٢ـ شبهة: الوحي.

نص الشبهة

دارت شبهات الوحي حول هذه الأمور:

١- كيفية نزول الوحي وما فيها من تناقضات وأمور غريبة. فهذا غير حال أنبياء التوراة الكرام، الذين تكلموا بالحِكَم الإلهية، وأعلنوا الحق أمام الملوك والأمراء والعلماء والفلاسفة، وهم بصحة عقلٍ وجسمٍ وفهم. ولم يرِدْ أن نبيًا منهم كان عند نزول الوحي يُغشى عليه، أو يصير كالسكران، أو تحمرّ عيناه، أو تجزّع الناس من منظره، أو يغط كغطيط البَكر.

٢- حالة النبي ﷺ عند نزول الوحي؛ حيث ادعوا أنه كان إذا نزل عليه الوحي تغير حاله حتى يشبه المصروع.

٣- حال النبي ﷺ قبل نزول الوحي حيث ورد أنه كان يُرقى من العين.

٤- كيف يُشَبِّه الوحي بالجرس وهو تشبيه محمود بمذموم؟

٥- سؤالهم كيف ينزل الوحي في ثوبِ أو في لحاف عائشة؟.

٦- ادعاؤهم نزول الوحي حسب الأهواء كما كان حال عمر رضي الله عنه.

٧- ادعاؤهم أن الوحي انقطع بسبب جروٍ(كلب).

٨- ادعاؤهم أن النبي ﷺ لم يكن يتأكد من الوحي فكانت خديجة تختبره له.

٩- ثمَّ شبهات أخرى تتعلق بالوحي تم الرد عليها مستقلة مفصلة؛ مثل شبهة تفكير النبي ﷺ في الانتحار بسبب انقطاع الوحي، وشبهة شك النبي ﷺ في الوحي، وشبهة نسيان النبي ﷺ للوحي.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: مقدمة لابد منها.

الوجه الثاني: مراتب الْوَحْي مراتب عديدة.

الوجه الثالث: حال النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه، وبيان كذب ما يدّعون.

الوجه الرابع: خصائص الوحي.

الوجه الخامس: المراد بالثقل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾

الوجه السادس: نفي الله ﷻ عن نبينا محمد ﷺ هذه الأمراض.

الوجه السابع: إجماع الأمة على عصمة رسول الله ﷺ من مثل هذه الأمراض.

الوجه الثامن: أعراض مرض الصرع من الناحية الطبية.

الوجه التاسع: الصرع كان معروفًا عند العرب في الجاهلية، فلماذا لم يتهمه المشركون بمثل هذا!

الوجه العاشر: الرد على الشبهات الفرعية المتعلقة بالوحي.

الوجه الحادي عشر: حالة الأنبياء عند نزول الوحي كما في الكتاب المقدس.

واليك التفصيل

الوجه الأول: مقدمة لابد منها.

تعريف الوحي في اللغة والشرع.

قال ابن منظور: الوَحْيُ الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، يقال: وَحَيْتُ إليه الكلام وأَوْحَيْتُ ووَحَى وَحْيًا وأَوْحَى أيضًا، أي: كتب. والوحي: المكتوب والكتاب أيضًا، وعلى ذلك جمعوا فقالوا: وَحِيٌّ مثل حَلْيٌ وحُلِيٌّ. (١)

وقال الراغب: معنى الوحي الإشارة السريعة، ولتضمنّ السرعة قيل: أمر وَحْيٌ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة. ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي. (٢)

أما الوحي فمعناه في لسان الشرع: أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر. (٣)

الوحي الإلهي: هو كلمة الله ﷻ إلى عباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور وهو أصل الدين، إذ يتعلق بكتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ. والوحي في الإسلام ثابت محفوظ بحفظ الله تعالى. والأمة مهيأة لخدمة نصوصه كما تقتضيه ظروف الحياة العلمية لها.

---

(١) لسان العرب: مادة (وحي) ١٥/ ٣٧٩.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن (٥٥٢).

(٣) مناهل العرفان١/ ٤٦.

والوحي: أهم عنصر يميز شخصية النبي أو الرسول، وأكبر الدعائم التي ترتكز عليها حقيقة النبوة، وقد دلت نصوص الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، والسيرة العطرة على عصمة سيدنا محمدﷺ، في تبليغ وحي الله تعالى إلى الأمة، وانعقد إجماع علماء الأمة على ذلك.

إلا أنه يوجد في كل أمة، وفي كل زمان ومكان، من يطعن في عصمة رسول الله ﷺ في تبليغ وحى الله تعالى؛ من أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين، ومن أذيالهم المتسترين بعباءة القرآن الكريم ممن يسمون أنفسهم (القرآنيين).

أما المستشرقون: فشبهاتهم حول الوحي الإلهي قائمة على إنكار نبوة رسول الله ﷺ، إذ لم تكن لدى معظمهم القناعة العلمية، ولا الإيمان الراسخ بهذه النبوة، فنفذوا بشيء من العداء لهذه الشخصية النبوية الكريمة، ودفعوا دفعًا مقصودًا للإيقاع بنبوته، وحملوا حملًا مغرضًا لتجريده من صفاتها، وعلى رأسها صفة العصمة.

فزعموا تارة أن الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ أمر ذاتي من داخل نفسه الصافية، وعقله العبقري. وتارة ثانية، يزعمون أنه عبارة عن أمراض عقلية ونفسية، وهم بذلك يتناقضون مع أنفسهم؛ إذ كيف يجتمع الضدان، صفاء النفس، والعقل العبقري، مع الإصابة بالأمراض النفسية والعقلية؟! وتارة ثالثة، يزعمون أن الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ مقتبس من اليهودية والنصرانية، أو أنه وحي شيطاني بناءًا على فرية الغرانيق، وهذه الطعون في الوحي الإلهي، هي رأي معظم المستشرقين الذين يدرسون ظاهرة الوحي والنبوة، ويخلطون عن عمد بين النبوة والعبقرية، ومعاني البطولة، ومعاني الرسالة، إذا استثنينا أولئك المستشرقين الذين ينحون بتفكيرهم نحو المادية والعلمانية، وينكرون الوحي كله جملة وتفصيلًا.

إن المستشرقين هنا فيما يزعمون كالببغاوات يرددون شبهة إخوانهم أعداء الأنبياء والرسل الذين جعلوا ما يحصل لأنبياء الله مثل الذي يحصل للمجانين والسحرة، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وهي عين الفرية التي رمت بها قريش رسول الله ﷺ، فبرأه الله مما قالوا بقوله سبحانه: ﴿

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ أرأيت كيف يردد المستشرقون شبهة عفا عليها الدهر، وطوتها السنون، وبيَّن الله فسادها قبل خمسة عشر قرنًا من الزمن، ثم جاءوا يلوكونها ويدندنون بها تشويهًا للإسلام، وتشكيكًا في عصمة رسول الله ﷺ في عقله وبدنه. (١)

الوجه الثاني: مَرَاتِب الْوَحْيِ مَرَاتِب عَدِيدَة

بيّن القرآن الكريم أنواع الوحي بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ (الشُّورَى: ٥١).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا وحيًا يوحي الله إليه كيف شاء، أو إلهامًا، وإما غيره﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يقول: أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى نبيه ﷺ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يقول: أو يرسل الله من ملائكته رسولًا إما جبرائيل ﷺ، وإما غيره﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يقول: فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ما يشاء، يعني: ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهي، وغير ذلك من الرسالة والوحي. (٢)

وقد بينت لنا السنة هذه المراتب.

إحْدَاهَا: الرُّؤْيَا الصّادِقَةُ وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِه ﷺ وَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصّبْحِ. عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الوحي الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُو التَّعَبُّدُ - الليالي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ؟ قَالَ: " **مَا أَنَا بِقَارِئٍ** ". قَالَ: " **فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدَ، ثُمَّ أرسلني** " فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: " **مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فغطني الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدَ، ثُمَّ أرسلني** فَقَالَ:

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة (١/ ٣٧٨).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ١٦٢).

اقْرَأْ؟ فَقُلْتُ: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ فأخذني فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أرسلني فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾، فَرَجَعَ بِهَا رَسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ﵂ فقَالَ: " زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ". فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: " لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نفسي ". فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَءًا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ العبرانيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ - فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ الله عَلَى مُوسَى ﵇ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِى أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَوَمُخْرِجِي هُمْ "؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عودي، وَإِنْ يدركني يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الوحي.(١)

الثانية: مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رَوْعِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ كَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ: **" إِنّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطّلَبِ، وَلاَ يَحْمِلَنّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ الله، فَإِنّ مَا عِنْدَ الله لاَ يُنَالُ إِلّا بِطَاعَتِهِ ".**(٢)

الثالثة: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُخَاطِبُهُ حَتّى يَعِيَ عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصّحَابَةُ أَحْيَانًا.

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﵁: قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا

---

(١) رواه البخاري (٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ١٢٩، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦).

أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النبي ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أخبرني عَنِ الإِسْلاَمِ.... الحديث وفيه: ثُمَّ قَالَ لِي: " **يَا عُمَرُ أَتَدْرِى مَنِ السَّائِلُ؟** ". قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ.** "(١)

الرابعة: أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيْهِ فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّى إنّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصّدُ عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشّدِيدِ الْبَرْدِ.

عَنْ عَائِشَةَ أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الوحي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " **أَحْيَانًا يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ – وَهُو أَشَدُّهُ عَلَيَّ – فَيُفْصَمُ عَنِّى وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فيكلمني فَأَعِى مَا يَقُولُ** ". قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوحي في الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا.(٢)

قال النووي: قَالَ الْعُلَمَاء: وَالْحِكْمَة فِي ذَلِكَ أَنْ يَتَفَرَّغَ سَمْعُهُ ﷺ، وَلَا يَبْقَى فِيهِ وَلَا فِي قَلْبه مَكَان لِغَيْرِ صَوْت الْمَلَك.(٣)

قال ابن الجوزي: إنما شبهه بالجرس؛ لأنه صوت متدارك لا يفهمه في أول وهلة حتى يتثبت ولذلك قال: "**وهو أشده علي**"، وقوله: " **فيفصم عني** " أي يقلع عني وينجلي ما يغشاني منه. وأصله من الفصم وهو القطع، وقولها: (وإن جبينه) للإنسان جبينان والجبهة بينهما، وقوله: (ليتفصد) بمعنى: يسيل عرقًا كما يفصد العرق، وكان ﷺ يلقى مشقة شديدة لثقل ما يلقى عليه من القرآن، فيعتريه ما يعتري المحموم، وكان ذلك من هيبة الكلام، وتعظيم المتكلم، وجمع الفهم للوعي، وخوف التحريف لنقص العقول من غير

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٩)عن أبي هريرة، ومسلم (١٠٢) واللفظ له.

(٢) البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

(٣) شرح مسلم للنووي٨/ ٤٦.

قصد، وقد خُوِّف من هذا بقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤)﴾ (الحاقة: ٤٤)، إلى غير ذلك من الأمور المزعجة التي تضعف عن إطاقتها البشرية.(١)

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَرَى الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ الله أَنْ يُوحِيَهُ وَهَذَا وَقَعَ لَهُ مَرَّتَيْنِ، كَمَا ذَكَرَ الله ذَلِكَ فِي النَّجْمِ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦)﴾ (النجم ١٣: ١٦).

السَّادِسَةُ: مَا أَوْحَاهُ الله وَهُوَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

السَّابِعَةُ: كَلَامُ الله لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةِ مَلَكٍ كَمَا كَلَّمَ الله مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ ثَابِتَةٌ لِمُوسَى قَطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَثُبُوتُهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ هُوَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ.(٢)

الوجه الثالث: حال النبي عند نزول الوحي عليه وبيان كذب ما يدّعون.

١- في قصة الإفك، قالت عائشة: فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء؛ حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل الوحي الذي نزل عليه.(٣)

٢- عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يَأْتِيكَ الوحي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " **أَحْيَانًا يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ - وَهُو أَشَدُّهُ عَلَيَّ - فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فيكلمني فأعي مَا يَقُولُ** "، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوحي فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا.(٤)

قال ابن حجر: يُفْهَم مِنْهُ أَنَّ الْوَحْي كُلّه شَدِيد، وَلَكِنَّ هَذِهِ الصِّفَة أَشَدّهَا، وَهُوَ وَاضِح؛ لِأَنَّ الْفَهْم مِنْ كَلَامٍ مِثْل الصَّلْصَلَة أَشْكَل مِنْ الْفَهْم مِنْ كَلَام الرَّجُل بِالتَّخَاطُبِ

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ١١٩٧.

(٢) زاد المعاد ١/ ٧.

(٣) البخاري (٤٤٧٣)، مسلم (٢٧٧٠).

(٤) البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

المَعْهُود، وَالحِكْمَة فِيهِ أَنَّ الْعَادَة جَرَتْ بِالمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْقَائِل وَالسَّامِع، وَهِيَ هُنَا إِمَّا بِاتِّصَافِ السَّامِع بِوَصْفِ الْقَائِل بِغَلَبَةِ الرُّوحَانِيَّة وَهُو النَّوْع الْأَوَّل، وَإِمَّا بِاتِّصَافِ الْقَائِل بِوَصْفِ السَّامِع وَهُو الْبَشَرِيَّة وَهُو النَّوْع الثَّانِي، وَالْأَوَّل أَشَدّ بِلَا شَكّ. وَقَالَ شَيْخنَا شَيْخ الْإِسْلَام الْبُلْقِينِيّ: سَبَب ذَلِكَ أَنَّ الْكَلَام الْعَظِيم لَهُ مُقَدِّمَات تُؤْذِن بِتَعْظِيمِهِ لِلاهْتِمَامِ بِهِ، قَالَ: وَقَالَ بَعْضهمْ: وَإِنَّمَا كَانَ شَدِيدًا عَلَيْهِ لِيَسْتَجْمِع قَلْبه فَيَكُون أَوْعَى لِمَا سَمِعَ ا هـ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَنْزِل هَكَذَا إِذَا نَزَلَتْ آيَة وَعِيد أَوْ تَهْدِيد، وَهَذَا فِيهِ نَظَر. وَالظَّاهِر أَنَّهُ لَا يَخْتَصّ بِالْقُرْآنِ. وفِي حَدِيث يَعْلَى بْن أُمَيَّة فِي قِصَّة لَابِس الْجُبَّة الْمُتَضَمِّخ بِالطِّيبِ فِي الْحَجّ، فَإِنَّ فِيهِ أَنَّهُ "رَآهُ ﷺ حَال نُزُول الْوَحْي عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَغِطّ"، وَفَائِدَةُ هَذِهِ الشِّدَّة مَا يَتَرَتَّب عَلَى الْمَشَقَّة مِنْ زِيَادَة الزُّلْفى، وَالدَّرَجَات. [(١)]

٣- عن عروة بن عبد الرحمن بن عبد القاري، سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدويِّ النحل، وذكر تمام الحديث في نزول ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾. [(٢)]

٤- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كربه ذلك وتربد وجهه. [(٣)]

٥- عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم فلما أتلي عنه رفع. [(٤)]

---

(١) فتح الباري١/ ٢٠.

(٢) ضعيف. رواه الترمذي (٣١٧٣)، وأحمد (١/ ٣٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧١٧) والنسائي في الكبرى (١٤٣٩) وقال: هذا حديث منكر لا نعرف أحدًا رواه غير يونس بن سليم، ولا نعرفه. وعبد الرزاق في مصنفه (٦٠٣٨)، قال أبوحاتم الرازي: روى عبد الرزاق هذا الحديث مرة أخرى، فقال: عن يونس بن سليم عن يونس بن يزيد ويُونُس بنُ سُليمٍ لا أعرِفُهُ، ولا يُعرفُ هذا الحدِيثُ مِن حدِيثِ الزُّهرِيِّ. علل الحديث (١٧٣٦). وضعفه الألباني في فقه السيرة (٩٧).

(٣) مسلم (١٦٩٠)، (تربد: تغير لون وجهه).

(٤) مسلم (٢٣٣٥). (أتْلِيَ): ارتفع عنه الوحي.

٦- وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ! وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى، فَأَنْزَلَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي؛ فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾. (١)

٧- وعن يعلى بن أمية قال: قال لي عمر: أيسرك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه؟ فرفع طرف الثوب عن وجهه وهو يوحى إليه بالجعرانة، فإذا هو محمر الوجه. وهو يغط كما يغط البَكْر. (٢)

٨- عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَمَا ضُرِبَ الْحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا؛ فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ أَمَا وَالله مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ؟ قَالَتْ: فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً وَرَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ، فَدَخَلَتْ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ وَإِنَّ الْعَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ فَقَالَ: " **إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ** ". (٣)

٩- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ قال: " **نعم أسمع صلاصل ثم أثبت عند ذلك، وما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض منه** ". (٤)

---

(١) البخاري (٢٦٧٧)، ومسلم نحوه (١٨٩٨). (ترض) من الرض وهو الدق وكل شيء كسرته فقد رضضته.

(٢) البخاري (١٤٦٣)، ومسلم (١١٨٠) البَكْرِ [الإبل].

(٣) البخاري (٤٥١٧) واللفظ له، ومسلم (٢١٧٠).

قال ابن كثير: فدل هذا على أنه لم يكن الوحي يغيب عنه إحساسه بالكلية، بدليل أنه جالس ولم يسقط العرق أيضًا من يده صلوات الله وسلامه دائمًا عليه.

(٤) **إسناده ضعيف**. أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢، وأورده الهيثمي في المجمع٨/ ٢٥٩، وقال رواه الطبراني وأحمد، وإسناده حسن. وضعف إسناده الألباني في الضعيفة (٢٧٧٨)لعمرو بن الوليد – السهمي المصري – مجهول،

١٠- عن الفلتان بن عاصم رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ وأنزل عليه، وكان إذا أنزل عليه دام بصره وعيناه مفتوحة وفرغ سمعه وقلبه لما يأتيه من الله عز وجل. (١)

١١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي صدع وغلف رأسه بالحناء. (٢)

١٢- عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقله تدق عضد الناقة. (٣)

وبعد سرد هذه الأحاديث التي تبين حال النبي ﷺ عند نزول الوحي والتي ليس فيها ما ادعوه على رسول الله ﷺ من صرع، وغير هذه الأمراض المنفرة، يتبين لنا أن ادعاء الكذب هو سبيل هؤلاء للنيل من شخص رسول الله ﷺ، وإنما الذي كان يعتري النبي ﷺ بسبب ثقل الوحي، وقد أخبرنا رب العالمين بذلك حيث قال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، وسيأتي معناها مفصلًا كي يزول اللبس بإذن الملك جل جلاله.

الوجه الرابع: خصائص الوحي. (٤)

وابن لهيعة لسوء حفظه، وهو كما قال، وإن كان قوله: " **أسمع صلاصل**" له أصل في الصحيح كما مر في حديث الحارث بن هشام.

(١) **صحيح**. أخرجه ابن حبان (٤٧١٢)، ومسند أبي يعلى (١٥٨٣)، الآحاد والمثاني (١٠٣٩، ٢٥٩٣) ومشكل الآثار للطحاوي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٥١٠، ٧/ ٦٦، رواه أبو يعلى رجاله ثقات، وقال البوصيرى في الزوائد (٤٢٨٧)(باب النية في الجهاد) هذا إسناد رواته ثقات، وصححه الألباني في فقه السيرة (١٠٨).

(٢) **ضعيف**. الطبراني في الأوسط (٥٦٢٩)، وابن عدي في الكامل٢/ ١٠، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق٧/ ٢٥٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٥/ ١٦٠: رواه البزار وفيه الأحوص بن حكيم وقد وثق وفيه ضعف كثير وأبو عون لم أعرفه، قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء٤/ ١٣٤، وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم. وقال ابن كثير في السيرة النبوية١/ ٤٢٤: هذا حديث غريب جدًا. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٩٩٣٠).

(٣) مسند أحمد٦/ ٤٥٥، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١٠٩).

(٤) هذا الوجه مأخوذ من كتاب "وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة نقض مزاعم المستشرقين" د/ حسن ضياء الدين عتر صـ١٢٣-١٣٥ بتصرف يسير.

١ـ الوحي حدث مفاجئ:

إنه حدث تلقائي فجائي طرأ على حياة من اصطفاه الله للرسالة أو النبوة دون سابق توقع أو تطلع، فهذا محمد ﷺ في عزلته عن العالم فاجأه ملك الوحي في غار حراء، وأخذ يعتصره بقوة حتى أجهده وأضناه، فعل ذلك به ثلاثًا، حتى ارتجف فؤاده، وخاف على نفسه، فانطلق لتوه إلى زوجته خديجة رضي الله عنها مرتاعًا، فلما سكن أخبرها الخبر مستغربًا وجلًا، ثم انطلق معها ليفسر عنه ويتعرف عليه.

وبينما كان ﷺ ماشيًا طرق سمعه صوت من السماء فرفع بصره إليه، فشاهد جبريل جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، ففزع منه ورجع إلى بيته يتزمل ثانيةً، لكن الوحي لم يدعه يركن إلى التزمل والتدثر، فها هو ذا يستنهضه مرة إثر أخرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾، هذا وغيره من صور الوحي، أفاد أن الرسول لم يستشرف الوحي ولم يتأهب له، بل لقد طرق الوحي حياة الرسول ﷺ طروقًا مباغتًا لم يكن في حسبانه، حتى كان يفاجئه ليلًا ونهارًا في سفر أو حضر راكبًا أو جالسًا.

٢ـ الوحي حدث إلزامي: ونستبين ذلك من ناحيتين:

أولاهما: الأعراض الجسدية:

ولقد ينزل عليه الوحي فتعتريه أعراض إلزامية، كاحمرار الوجه، وتتابع الأنفاس، مع تحول الوعي عما حوله إلى ملك الوحي، وينجلي عنه الوحي في اليوم القارس البرد، وإن كان العرق ليتقاطر غزيرًا من جبينه، وإن جسم رسول الله ﷺ ليثقل من شدة الوحي، حتى تكاد فخذه ترض فخذ زيد دونها، وحتى تثقل ناقته فتبرك على الأرض، وتزخر أذناه بأصوات حادة كصلصلة الجرس، يجد الصحابة لها دويًا كدوى النحل.

وواضح لكل ذي لب أن هذه الأعراض إلزامية مفاجئة، فليس في طوق أحد من البشر افتعالها، وأن مسببها -بلا مراء- ذات أخرى تغاير الذات المحمدية، ويزيد القضية جلاءً، أن هذه الأعراض غير الإرادية ما كانت تعتري رسول الله ﷺ قط إلا في الفترة

الوجيزة التي يتلقى فيها القرآن، فاقتران هذه الأعراض العضوية بهذا الحدث الوحي برهان جلي على براءة ظاهرة(الوحي) من شوائب الذات الإنسانية الصحيحة أو العليلة.

ثانيهما: الأحوال النفسية:

لقد انتاب الخوف رسول الله ﷺ من ملك الوحي في جولاته الأولى، حتى خشي على نفسه الهلاك، وكان الأمر مبهمًا بالنسبة إليه حتى راح يستفسر عنه، ثم عرض له فأرعبه حتى لاذ منه بالفرار، والتجأ إلى التدثر والتزمل ليسكن فؤاده، ويدفع عن نفسه مشاهدة الملك، ووميض الوحي، فلم يجده ذلك شيئًا، فإذا بلغ الوحي أشده وقرع صليله مسامع الرسول، اتجه وعيه كلية إلى ملك الوحي، حتى يقتضي مقالته، فمحمد ﷺ أراد أن يتملص طواعية من ملك الوحي، لكن سلطان وحي الله لم يترك له مناصًا من الإذعان والتلقي، إن مقاومته تلك تدل على التعارض بين وجهته التي اتخذها بدافع من سجيته الشخصية وبين حتمية النبوة التي طوقت إرادته وهيمنت على ذاته، وفي هذه القرائن دلائل قوية للنظرة الموضوعية في نبوة محمد ﷺ.

٣ـ الوحي مستقل عن ذات النبي ﷺ وإرادته.

يظهر لك من الخصيصتين السابقتين أن الوحي خارج عن ذات رسول الله ﷺ، فهو تلقائي فجائي إلزامي، والأعراض الجسدية والأحوال النفسية تفيد استقلاله عن إرادة النبي ﷺ وعجزه عن دفعه عن نفسه، وتفيد القرائن أيضًا عجزه عن استحضاره؛ فإن الوحي قد انقطع بعد أن جاءه الملك في غار حراء أول مرة، فلما عرف النبي ﷺ جلية الأمر أقض مضجعَه فتورُ الوحي، فقد خاف أن يكون حُرم نعمة النبوة، فلما شاهد الملك على كرسي بين السماء والأرض فزع إلى أهله يتدثر ويتزمل، وفي فترة الوحي هذه حكم إلهية جلية منها:

١ - أنه ﷺ لما فَجَأَهُ ملك الوحي أول مرة في الغار هاله لقاؤه، ونفر منه طبعه البشري لمخالفته المألوف الإنساني، ولم يتمكن بالتالي من التأمل في تلك الحال، فجاءت فترة الوحي تعطي رسول الله ﷺ فسحة لإنعام النظر، واطمئنانًا إلى تلقي الوحي وألفةً للملك عليه السلام،

فيذهب عنه الروع ويحصل له التشوق إلى عودة الوحي، فالله تبارك وتعالى يعد الرسول ﷺ ويقويه ويحوطه بعنايته الخاصة، ليتحمل الوحي، لكنه لا يسلخه عن طباعه البشرية.

٢- أن هذه الفترة قد حملت الرسول ﷺ على التعجب والتساؤل والبحث، وانتشر الخبر بين طائفة يعز عندها محمد بن عبد الله، فخلف انقطاع الوحي يقينًا بأن هذه الظاهرة خارجة عن ذات النبيﷺ، فصار مع من حوله متثبتين من إلهية ظاهرة الوحي، وقد استبطأ رسول الله ﷺ جبريلؑ فحثه على الإكثار من زيارته، فنزل الجواب آية من القرآن تبين أنه مأمور من الله تعالى، وأن الله لا ينسى رسولهﷺ، فعن ابن عباسؓ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِجبْرِيلَ: " **مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا** " فَنَزَلَتْ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا**﴾.

ولقد كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه غريزيًا أثناء تلقي الوحي حرصًا على الدقة في استحفاظ القرآن، فأتاه الأمر بالاستسلام الكامل للوحي قلبًا وفكرًا وجارحةً، ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧)**﴾ (القيامة ١٦- ١٧)، ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا**﴾ (طه: ١١٤).

وهكذا يجد الباحث أن الوحي ينقطع عن رسول الله ﷺ على الرغم من شدة طلبه وحرارة لهفته إليه، وإنه فجائي إلزامي، يأمره بالتسليم التام، ولهذا دلالة بليغة على أن حدوث الوحي مستقل عن تدخل ذات النبي ﷺ وإرادته، وأنه لا سبيل له إلى دفعه أو استحضاره، وهذا مما يقوي اليقين بصدق صاحبه، والاطمئنان إلى ربانية مصدره.

٤ـحصول الوحي وفق الاصطفاء الإلهي.

اشرأبت أعناق المشركين إلى مقام النبوة بعد أن سمعوا آيات الله الباهرات، ورأوا ما أجراه على يد محمد ﷺ من معجزات قاهرات، وتملك الحسد قلوبهم، كيف تكون النبوة بمحمدﷺ، وفيهم من الزعماء من تعظمهم قبائل العرب؟ اندفع أكابر مجرمي مكة يطالبون أن ينزل الله عليهم الوحي كما أنزله على المرسلين فكشفوا عن عنادهم

واستكبارهم عن الحق المبين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، بل بلغ بالقوم الحمق واللجاج بالباطل، أن ابتغى كل منهم حصول الوحي له كما أخبر الله عنهم﴿ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المدثر: ٥٢)، فكبح الله جماح غرورهم ولجاجهم، إذ أشار إلى عظم أمر النبوة، وأنها تكون لصاحب الأهلية واللياقة للتلقي عن الله ﷻ، فلا قيمة للاعتبارات الاجتماعية والمالية والسياسية البشرية، وإنما العبرة كل العبرة لنبل الخلق وشرف النفس، وصفاء السريرة، وطيب الطوية، وهذا لا يعلمه علم اليقين إلا الله رب العالمين، فهو يصطفي من يشاء ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ والنبوة رحمة إلهية للناس جميعًا، فلما قضت حكمة الله ظهورها في زمانٍ ما؛ شرف سبحانه بها حسب مشيئته وحكمته من كان أهلًا لها ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (آل عمران: ٧٤)، أما الذين اقترفوا بتجبرهم وتكبرهم جريمة الإعراض عن رسالة الله، ودفعهم الغل والحسد إلى تنفير الناس من رسالة الله، فسلكوا ذلك الأسلوب من المكر والخداع والمراوغة؛ فإنهم لهذه الأوصاف الخسيسة، ليسوا أهلًا للنبوة، ولكنهم جديرون أن يجازوا على تجبرهم، وتطاولهم وتعاليهم بالضد، بالذل والهوان والتحقير ويعاقبوا على مكرهم وكفرهم بالعذاب الأليم﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وتقلب مجرمًوا مكة بين أنواع الكفر، ومن ذلك زعمهم أن أمر الوحي والنبوة إنما يليق برجل كثير المال، عظيم الجاه من مكة أو الطائف.

٥ـ قوة يقين النبي بالوحي:

يجب أن نضيف إلى معارفنا عن الوحي رأي الذات المحمدية نفسها فيه، ولابد لنا في سبيل ذلك من عودة الذاكرة إلى أوصاف هذه الذات، فإنها أخلاقية رفيعة تنعم بقدر

عظيم من الفطانة ورجاحة العقل، ذات منزهة عن الصغائر والسفاسف لا ترقى إليها الظنون، وقد سبق الحديث عنها، ثم لننظر عَلَامَ استقر رأي هذه الذات؟ وهل تمت قناعتها اعتباطًا أم باستخدام كامل الطاقة الفكرية؟.

انطلق فكر محمد ﷺ في دراسة بادرة الوحي إلى غايتها تدريجيًا فرؤى بذلك نزوع عقله الراجح، وإلى رغبته الملحة في الوصول إلى اليقين في هذه الظاهرة، لقد جاءه الملك في غار حراء فجأة يأمره بفعل ما لا يقدر عليه ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ثم هو يغطه ويرسله أمر فجائي إلزامي خارج عن ذاته، بعيد كل البعد عن سوانح فكره، راح بحال مضطربة فناجى خديجة رضي الله عنها بالذي جرى، وعبر عن عمق تأثره بقوله ﷺ: " **لقد خشيت على نفسي** " أصدر قوله هذا بداهة فجاء إقرارًا عفويًا دالًا على حقيقة أمره، حدث عجيب لم يعرفه ولم تعرفه خديجة! ! أثار في نفسه التساؤل فانطلق معها إلى ورقة، ثم فتر الوحي ويلوح له الملك على كرسي بين السماء والأرض، حدث لم يخطر من قبل بباله، يفزع إلى التدثر والتزمل بعدًا عنه، فيوافيه على الرغم من إرادته، أدى كل ذلك إلى تنشئة يقينه بالوحي، ونموه وتعاظمه، وكانت كل حالة من أحوال الملك شاهدًا جديدًا على حقيقة الوحي، واستقلاله عن ذاته، وشاهدًا على صدوره عن الذات الإلهية العلية. لقد استقر به مطاف التعجب والاستفسار إلى هذه القناعة الذاتية القاطعة، والمعرفة اليقينية، وتتوالى عليها الأيام وأحداث الوحي فما تزيدها إلا قوةً ورسوخًا.

٦ـ معارف الوحي فوق مطامح الذات الإنسانية وإمكانها. في بيئة الجهالة القاتمة بعث الله محمدًا ﷺ، فجاء قومَه بعقيدة وأحكام تنافي ما أقاموا عليه من وثنية وتقاليد عفنة نتنة، وقاوم عقائد القوم بحدة وصلابة حتى أزعجهم وأقلقهم، هذا نهج لا ينصرف إليه ذهن مترعم، وإنما يجيء الوحي به إلى النبي ﷺ ويأمره بالتزامه، على الرغم مما يلقى من عنت القوم؛ عرف ورقة بن نوفل هذه الحقيقة قبل وقوعها، فأعلم محمدًا ﷺ بقوله: (إذ يخرجك قومك، فقال: " **أوَ مخرجِيّ هم؟** " قال: نعم، إذ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا

عودي. . .)، وها هم أولاء زعماء الشرك قد مشوا إلى أبي طالب فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ إِنّ ابْنَ أَخِيك قَدْ سَبّ آلِهَتَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَسَفّهَ أَحْلَامَنَا، وَضَلّلَ آبَاءَنَا؛ فَإِمّا أَنْ تَكُفّهُ عَنّا، وَإِمّا أَنّ تُخَلّي بَيْنَنَا وَبَيْنَه، وإذ لم يكف عن دعوته، عادوا إلى أبي طالب يتذمرون ثانية حتى قالوا: وَإِنّا وَالله لَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا، حَتّى تَكُفّهُ عَنّا، أَوْ نُنَازِلَهُ وَإِيّاكَ فِي ذَلِكَ حَتّى يَهْلِكَ أحد الفريقين.

فالوحي يُلْقِي إلى النبي ﷺ عقيدة متميزة ليناهض بها العقيدة الشعبية السائدة الراسخة، ويغير القيم والمفاهيم، ويقلب الأوضاع، وهذا أمر لا تستحسنه الذات الإنسانية، ولا تسعى إليه إن تعلقت بزعامة، أو حرصت على جاه.

وحمي الوحي وتتابع نزوله بالقرآن، فتزاحمت في وعي الرسول الأمين حقائق إلهية، ودينية، وتاريخية، وكونية، واجتماعية، لم يخط منها قبل شيء في لوحة إدراكه وذاكرته، فكانت خارجة عن إطار ذاته، بل عن معلومات عصره أيضًا، وقد اشتمل القرآن على عقيدة الوحدانية الصحيحة ودلائلها، وعلى أركان العقيدة الإسلامية العظيمة، ثم على أحكام الشريعة الغراء، وعلى حقائق من التاريخ ممحصة، تصحح ما ورد في الكتب السماوية الأخرى من زيف وتشويه، وعلى أخبار غيبية مستقبلة صدقتها وقائع الدهر، وعلى وعود أنجزها الله لعباده المسلمين. . . وغير ذلك من أوجه إعجاز القرآن الكريم، وكل ذلك أفكار منتظمة في أسلوب منطقي يسهل استيعابه، وإنّ دراسة هذه الأفكار وصلة بعضها ببعضٍ، ما تقدم في النزول منها وما تأخر؛ لتبرهن على خروجها عن نطاق فعالية الذات المحمدية وعبقريتها، وإن هذه المعلومات والأفكار والأحكام خارجة أيضًا عن حدود الفكر الإنساني عامة في العصر المحمدي؛ بل يستحيل أن ينشئها أي فكر إنساني على كر الدهور ومر العصور، ويكشف ذلك بدون أدنى ريب عن صدورها عن قدرة إلهية خلاقة منظمة.

الوجه الخامس: المراد بالثقل في قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وهو القرآن، وفي معنى ثِقَله ستة أقوال:

أحدها: أنه كان يثقُل عليه إذا أوحي إليه، وهذا قول عائشة قالت: (ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه {يعني يتخلص عنه}، وإن جبينه ليتفصّد عرقًا.

والثاني: أن العمل به ثقيل في فروضه وأحكامه، قاله الحسن، وقتادة.

والثالث: أنه يثقل في الميزان يوم القيامة، قاله ابن زيد.

والرابع: أنه المهيب، كما يقال للرجل العاقل: هو رزين راجح، قاله عبد العزيز بن يحيى.

والخامس: أنه ليس بالخفيف ولا السفساف؛ لأنه كلام الرب ﷻ، قاله الفراء.

والسادس: أنه قول له وزن في صحته وبيانه ونفعه، كما تقول: هذا كلام رصين، وهذا قول وزن: إذا استجدته، ذكره الزجاج. [1]

قال الآلوسي: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ أي سنوحي إليك، وإيثار الإلقاء عليه لقوله تعالى: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وهو القرآن العظيم؛ فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين، سيما على الرسول ﷺ؛ فإنه ﷺ مأمور بتحملها وتحميلها للأمة، وهذه الجملة المؤكدة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي لتسهيل ما كلفه ﷺ من القيام كأنه قيل: إنه سيرد عليك في الوحي المنزل تكاليف شاقة، هذا بالنسبة إليها سهل، فلا تبال بهذه المشقة، وتمرن بها لما بعدها.

الوجه السادس: نفي الله ﷻ عن نبينا محمد ﷺ هذه الأمراض.

أما عن قولهم: إن هذه الأعراض التي كانت تصيب النبي ﷺ فيها دلالة على أنه كان يصاب بالصرع، فقد نفي رب العالمين ذلك كله عن نبيه لما ادعى أعداؤه مثل ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ (الأعراف: ١٨٤).

قال الرازي: واعلم أن بعض الجهال من أهل مكة كانوا ينسبون إليه الجنون لوجهين:

الأول: أن فعله ﷺ كان مخالفًا لفعلهم؛ وذلك لأنه ﷺ كان معرضًا عن الدنيا مقبلًا على الآخرة، مشتغلًا بالدعوة إلى الله، فكان العمل مخالفًا لطريقتهم، فاعتقدوا فيه أنه مجنون. [2]

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٢) تفسير الرازي (١٥/ ٧٥).

قال السعدي: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي: أَوَ لَمْ يُعْمِلُوا أفكارهم، وينظروا: هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفي عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودلّه وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر. (١)

ولهذا قال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

لقد كان ﷺ أكمل الرجال عقلًا، وأشدهم فطنة، وأصوبهم قولًا، وأحكمهم فعلًا. وقد تحدى الله المشركين الذين عرفوه وعايشوه وخبروا حاله أن يثبتوا عليه جنونًا أو اختلال عقل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ: ٤٦) ففي قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي جنون، مستأنف منه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كاف في ترجيح صدقه؛ والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيماء، أن حاله معروف مشهور بينهم؛ لأنه نشأ بين أظهرهم معروفًا بقوة العقل، ورزانة الحلم، وسداد القول والفعل ﷺ. (٢)

فالآية الكريمة تقول لهم: ها هو ذا تاريخ محمد ﷺوأحاديثه، وسننه، وآدابه، وأخلاقه، وشريعته، تحت أنظاركم فانظروا وتفكروا من غير هوى ولا عصبية في جوانب ذلك كله، واستخرجوا منه - ولن تستطيعوا - ما يقيم عوج دعواكم، وإفك أباطيلكم، ولكنكم علمتم أن محمدًا ﷺ معصوم بعصمة الله ﷻ، الذي أرسله ليقوض بنيان الكفر والنفاق. (٣)

---

(١) تفسير السعدي (٦٨٣).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ١٤/ ٣٤.

(٣) الرد على شبهات عصمة النبي (شبهة أن الوحي عبارة عن أمراض نفسية وعقلية ١ / ٤٣٦.

الوجه السابع: إجماع الأمة على عصمة رسول الله ﷺ من مثل هذه الأمراض

قَالَ الْقَاضِي: وَاعْلَمْ أَنَّ الأمة مُجْتَمِعَة عَلَى عِصْمَة النَّبِيّ ﷺ مِنْ الشَّيْطَان فِي جِسْمه وَخَاطِره وَلِسَانه، وسائر الأنبياء قبله من سائر الأمراض المنفرة، فرسول الله ﷺ وكافة الرسل قبله، قد اشتهروا بالتعقل والنباهة والفطنة قبل النبوة وبعدها. [1] وبالجملة: فإن دلائل عصمته ﷺ في عقله وبدنه، يشهد بها كتاب الله والسنة المطهرة، والسيرة العطرة[2]

الوجه الثامن: أعراض مرض الصرع من الناحية الطبية

الصرع هو: مجموعة من الأمراض المميزة باضطرابات متكررة في الوظائف العصبية للمخ نتيجة اضطراب مستوى الكهربية في المخ، وأسباب الصرع تختلف باختلاف الأعمار وتنقسم إلى:

٠: ٢ years infant
٢: ١٢ years child
١٢: ١٨ years adolescent
١٨: ٣٥ years young adult
above ٣٥ years old adult، وهذا هو المقصود.

وتتلخص أسباب الصرع في هذا السن فيما يعرف بـcerebrovascular strock

وهى تعرف على أنها فقدان للوعي بصورة جادة نتيجة لانسداد أحد الشرايين المغذية للمخ المتبوعة بشلل أحد الأطراف أو كلها.

وهي في أبسط صورها تنتج عن شلل نصفي، كما أن عدة نوبات من الصرع على مدى ٢٣ عام بدون أي مضاعفات: ككسور أو عض اللسان أو ما شابه شيء لا يصدق كما أن الموت في هذه الحالات بدون علاج يحدث أثناء إحدى النوبات.

إن ثمة فرقًا واضحًا بين صور الوحي الذي كان يتلقاه النبي ﷺ وبين أعراض مرض الصرع الذي زعمه هؤلاء المستشرقون غير المنصفين، فصور الوحي قد وقفتَ عليها من قبل عند الحديث عن كيفياته بما لم أر بك حاجة إلى إعادة الحديث عنها هنا.

---

(١) الشفا ٢/ ١١٧.

(٢) الرد على شبهات عصمة النبي ﷺ١/ ٤٣٦

وأما أعراض مرض الصرع، فهو كما جاء في كتاب (الموسوعة العربية الميسرة) أن يرى المريض شبحًا، ويسمع صوتًا، أو يشم رائحة، ويعقب ذلك وقوع المريض صارخًا على الأرض، وفاقدًا وعيه ثم تتملكه رعدة تشنجية، تتصلب فيها العضلات، وقد يتوقف فيها التنفس مؤقتًا، ويعقب النوبة خور في القوى، واستغراق في النوم يصحو منه المريض خالي الذهن من تذكر ما حدث له. (١)

فإذا كان هذا هو الثابت علميًا فهو بخلاف أمر رسول الله ﷺ، فلا يظهر عليه شيء مما ذكر من أعراض هذا المرض عند نزول الوحي عليه، بل يظل في تمام وعيه، وكامل قوته العقلية، قبل وأثناء وبعد الوحي، كما قال ﷺ، لما سُئل: كيف يأتيك الوحي؟ قال: **"أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه علي، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال."**(٢)

وقد كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ في صورة الرجل فيحادثه أمام جمع من الحضور وهم يشاهدون ذلك، كما ثبت في حديث جبريل المشهور الذي سأل فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان... وكما جاء في حديث ابن عمر من إتيان جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ، في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه.

لقد عاش النبي ﷺ طيلة حياته في صحة نفسية وعصبية وعقلية دائمة، لم يطرأ عليه أي خلل في عقله أو أعصابه في يوم من الأيام، بل كان ﷺ بشهادة القرآن والسنة والتاريخ، وديعًا صبورًا حليمًا، بل كان عظيم الصبر، واسع الحلم والصدر حتى أنه ﷺ وسع الناس جميعًا ببسطه وخلقه.

وبالجملة: كان كمال عقله وخلقه ﷺ مضرب الأمثال لعصمة الله له، ولكل منصف أن يتساءل: هل يتفق هذا المرض وما هو معروف عن النبي ﷺ من أنه كان أمة وحده، في أخلاقه، وثباته، وحلمه، وسلامة جسمه وقوة بنائه؟.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ليوسف إلياس سركيس (حرف الصاد)، مادة صرع؛ نقلًا من الرد على شبهات عصمة النبي ﷺ.

(٢) البخاري (٢).

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء، وما انتدب له رسول الله ﷺ من تكوين شموسٍ أبِيّة، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقي، مع أنها أمة صحراوية النفوس، صخرية الطباع؟!.

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة، إلى درجة جعلت تلك الأمة، بعد قرن واحد من الزمان، هي أمة الأمم، وصاحبة العلم، وربة السيف والقلم.

فهل المريض المتهوس الذي لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة، ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش؟.

ثم ما رَأْي هؤلاء الطاعنين وفيهم من ينتمي إلى بعض الأديان في أنهم لا ينالون من نبوة وعصمة سيدنا محمد ﷺ وحده؛ وإنما ينالون من جميع أنبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب أو صحف، أُوحي بها من عند الله سبحانه.

فهل تطيب نفوس المقرين بالأديان منهم أن يخربوا بيوتهم قبل أن يخربوا بيوت غيرهم؟ فما رأيهم فيما جاء في كتب العهد القديم والجديد، من إيحاءات ونبوءات؟.

وهل يقولون في وحى نبي الله موسى وعيسى - عليهما السلام - ما يقولون في وحى نبينا محمد رسول الله ﷺ؟.

إن الرسول ﷺ، ليس بدعًا من الرسل في باب الوحي، إنه أوحي إليه كما أوحي إليهم، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ (النساء: ١٦٣).

اللهم إن هذا الطعن لا يقول به إلا أحد رجلين: إما رجل مخرف، وإما رجل مخرب مدمر يريد هدم الأديان. (١)

قلت: فلا نبينا ﷺ، ولا أحد من إخوانه من الأنبياء أصيب بمثل هذه الأمراض المنفرة، لعصمة ربهم لهم، وإنما المرضى - حقيقة - هم أعداؤهم من كل أمة.

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ١/ ٢٧٩، ٢٧٨.

فالثابت علميًا أن المصروع يتعطل تفكيره وإدراكه تعطلًا تامًا، فلا يدري أثناء نوبته عما يدور حوله، ولا يجيش في نفسه ويغيب عن صوابه، وتعتريه تشنجات تتوقف فيها حركة الشعور عنده، ويصبح المريض بلا إحساس، وأبرز سمة عنده تكون النسيان، ولكن الرسول ﷺ لم يكن يظهر عليه شيء من ذلك، فكان يبقى في تمام وعيه قبل وخلال وبعد حالة الوحي، فكان يفصم عنه وقد وعى كل ما قاله له جبريل عليه السلام من آيات بينات وتشريعات محكمات وعظات بليغات وأخلاق عظيمة، وكلام بلغ الغاية القصوى في الفصاحة والبلاغة والإعجاز حتى طأطأ لإعجازه أقدر الناس فصاحة وبلاغة فرادًا أو مجتمعين وفي كل الأزمان.

أسبابه:

أثبتت وسائل الطب الحديث والأجهزة المتقدمة في التشخيص والعلاج أن نوبات الصرع ناتجة عن تغيرات فسولوجية عضوية في المخ، حيث أمكن تسجيل تغيرات كهربائية في المخ أثناء النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجي، كما أثبت الطب الحديث أن هناك مظاهر عديدة ومختلفة لنوبات الصرع وذلك تبعًا لمراكز المخ التي تبدأ فيها التغيرات الكهربائية، وتبعًا لطريقة انتشارها وسرعته، وأهم نوبات الصرع، النوبات الصرعية النفسية.

وفي هذه الحالة من نوبات الصرع؛ فإنها تمر بذهن المريض ذكريات قديمة، وأحلام مرئية أو سمعية أو الاثنان معًا، وتسمى (بالهلاوس) وهذه الذكريات يكون قد عاشها المريض نفسه ثم احتفظ بها في مخه في ثناياه، استدعتها للخروج من مكانها الحالة الصرعية التي انتابته، وقد أمكن طبيًا إجراء عملية التنبيه لها بواسطة تيار كهربائي صناعي سُلط على جزء خاص في المخ فشعر المريض بنفس (الهلاوس) التي تنتابه في أثناء نوبة الصرع، وبتطبيق ما قرره الطب الحديث في حقائق الصرع على ما كان يعتري النبيﷺ، نجده يردد آيات لم يسمعها من قبل في حياته أخبره بها الله ﷻ، ولما كانت هذه الأحاديث والآيات والأحوال لم تمر به ﷺ من قبل، فهي إذا لم تُختزن بالتالي في مخه لتثيرها وتخرجها نوبات صرعية فيتذكرها وينطق بها.

فيظهر جليًا أن ما كان يعتري رسول الله ﷺ هي حالة نفسية وجسدية لتلقي وحي الله سبحانه، فبالتالي فهناك فرق شاسع بين الحالتين: حالة الصرع التي تنتاب المصروعين، وحالة الوحي التي تعتري أنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم- ولا شك أن الطعن في الوحي الذي نزل على محمد ﷺ طعن في كل ما نزل على أنبياء الله من قبل، وهذا لا يكون من مؤمن بالله وأنبيائه، ولا يكون إلا من ملحد لا ديني أحيل بين قلبه وبين الإيمان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. [١]

يرد فريتهم أن الوحي أثر لمرض الهستريا الذي هو كما بينه الأساتذة(كريكيه)، (الأندوز)، و(شاركو) أنه مرض عصبي عضال، وهو وراثي أكثر إصابته في النساء، ومن أعراضه شذوذ في الخلق، وضيق في التنفس إلى حد الاختناق، ويظهر عليه ضيق في الصدر واضطراب في الهضم، وقد تصحب هذه الأعراض كذلك بحركة واضطراب في اليدين والرجلين إلى حد الشلل في بعض الأعضاء؛ فإذا تابع المرض تقدمه جاء دور التشنج فيسبقه بكاء وعويل، وكرب عظيم وهذيان، ينتهي إلى حد الإغماء، فإذا تجاوز هذه المرحلة فإن المريض يرى أشباحًا تهدده وتسخر منه، وأعداء تحاربه، ويسمع أصواتًا لا وجود لها في الحس والواقع.

وفي هذا الدور يقع المريض بحركة مضطربة، وقفز من مكان لمكان على صورة تلقي الذعر في قلب كل من يراه. [٢]

هذا الوصف لأعراض هذا المرض لم يكن يظهر منه شيء على رسول الله ﷺ الذي كان يتمتع بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء بصحة جيدة، وعقل رصين، ونفس هادئة، وخلق كريم، وحركات متزنة، ويشهد لصحته وقوته صرعه ركانة بن عبد يزيد، الذي كان أقوى عصره[٣]، ويشهد لرجاحة عقله وسلامته فصله في خصومة قريش في شرف

---

(١) آراء المستشرقين حول القرآن، انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم (١٠٨ : ١٠٣).

(٢) انظر القرآن والمستشرقون، رابح جمعة (٢٧)، ومناهل العرفان للزرقاني (١/ ٧٤).

(٣) الاستيعاب في تمييز الأصحاب (١/ ٥١٥، ٥١٦).

وضع الحجر الأسود في مكانه(١)، والطب لم يخرج لنا مريضًا واحدًا مصابًا بمثل هذا المرض وقال كلامًا معقولًا وآراء راجحة.

الوجه التاسع: الصرع كان معروفًا عند العرب في الجاهلية فلماذا لم يتهمه المشركون بمثل هذا؟.

فضلًا عن هذا فالصرع كان مرضًا معروفًا لعرب الجاهلية، ولم يكن ليغيب عنهم كون رسول الله ﷺ مصابًا به لو كان حقًا. إذ لو كان مصابًا بمثل هذا لأخذ عليه المشركون مثل هذا، والدليل على هذا رواية المرأة السوداء الشهيرة في الصحيحين عن عَطَاء بْن أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: "**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**"، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ "**فَدَعَا لَهَا**". (٢)

فهذا كله فيه دليل على كون الصرع مرضًا معروفًا للعرب الجاهليين، ولم يكن يخفي عليهم إصابة الرسول ﷺ به لو كان كذلك خاصةً مع وجود العديد من الصحابة ثاقبي النظر المعروفين بالفراسة، ودقة النظر، والذين لم تكن تخفى عليهم أدق الملاحظات كعمر بن الخطاب رضي الله عنه مثلًا.

لو كان النبي ﷺ مصابًا بمرض الصرع، لذكر ذلك أصحابه الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا نقلوها عنه، أو ذكره أعداؤه في ذلك العصر، هؤلاء الذين كانوا يتربصون بالنبي ﷺ الدوائر، ويودون أن يظفروا منه ولو بشيء نذر يسير يعيرونه به.

أليس هم القائلون: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ فأقصى ما عابوه فيه - كما ترى - أنه فقير ومثله في نظرهم لا يحق أن يكون نبيًا.

فلو كان ﷺ مريضًا بالصرع كما زعم هؤلاء الحاقدون؛ لوجد أعداؤه في ذلك فرصة سانحة للطعن عليه؛ لكن ما حدث ممن خلصت ضمائرهم بعض الوقت، وكانوا مع أنفسهم صادقين قبل ما يطرأ عليهم من إرهاب فكرى من أمثال الوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث الذي نفى في

---

(١) السيرة النبوية للذهبي (٣٣: ٣٢).

(٢) البخاري (٥٣٢٨)، مسلم (٢٥٧٦).

إشارة بليغة عن رسول الله ﷺ وما جاء به؛ السحر، والكهانة، والشعر، والجنون، حيث إنهم يعلمون علم اليقين حقيقة هذه الألفاظ، واعترف النضر بن الحارث بإقرار صناديد قريش، أن رسول الله ﷺ وما جاء به، بعيدان كل البعد عن حقيقة الألفاظ السابقة.

وهنا يحق لنا أن نتساءل: إذا لم يذكر لنا التاريخ أن النبي ﷺ أصيب بهذا النوع من الأمراض المنفرة؛ فليأتنا أعداء الإسلام بما يكذب ذلك؟ ولكن أنّى لهم ذلك! اللهم إلا ما كان من هؤلاء المأفونين من المستشرقين الذين زعموا هذا الزعم بناءً على تصورهم للحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي عليه، وهي حالة واحدة من حالات متعددة كان يأتيه عليها الوحي كما علمت، وبينها وبين ما تصوروه عنها بُعد المشرقين.

يقول المستشرق ماكس مايرهوف[1]: أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلًا مصابًا بمرض عصبي أو بداء الصرع، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره، ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول[2].

وأتساءل أيضًا: هل الذين آمنوا برسول الله ﷺ منذ خمسة عشر قرنًا، واتبعوا الدين الذي جاء به من قادة الفكر على امتداد العصور، كلهم أغبياء مغرورون لم يميزوا بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والصحة والمرض، والكمال والنقص؟!.

الوجه العاشر: حالة الأنبياء عند نزول الوحي كما في الكتاب المقدس.

أولًا: دانيال خاف وخر على وجهه:

وَسَمِعْتُ صَوْتَ إِنْسَانٍ بَيْنَ أُولاَيَ فَنَادَى وَقَالَ: يَا جِبْرَائِيلُ فَهِّمْ هَذَا الرَّجُلَ الرُّؤْيَا. ١٧فَجَاءَ إِلَى حَيْثُ وَقَفْتُ. وَلَمَّا جَاءَ خِفْتُ وَخَرَرْتُ عَلَى وَجْهِي. فَقَالَ لِي: افْهَمْ (دانيال٨/ ١٧: ١٦).

ثانيًا: حزن وفزع:

---

(١) مستشرق ألماني، من كبار أطباء العيون العالميين، وفي طليعة مؤرخي الطب العربي، تعد اكتشافاته فيه، وكتابته عنه، بالفرنسية والإنجليزية والألمانية، مرجعًا دقيقًا وافيًا، سكن مصر، وانتخب نائبًا لرئيس المعهد المصري، والجمعية الطبية المصرية. توفي بالقاهرة سنة ١٩٤٥م. الأعلام للزركلي ٥/ ٢٥٦، ٢٥٧

(٢) ينظر: الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب لأحمد بوطامي (١٦٢).

أَمَّا أَنَا دانيال فَحَزِنَتْ رُوحِي فِي وَسَطِ جِسْمِي وَأَفْزَعَتْنِي رُؤَى رَأْسِي.

ثالثًا: فزع وتغيرت هيئته:

إِلَى هُنَا نِهَايَةُ الأَمْرِ. أَمَّا أَنَا دانيال فَأَفْكَارِي أَفْزَعَتْنِي كَثِيرًا وَتَغَيَّرَتْ عَلَيَّ هَيْئَتِي وَحَفِظْتُ الأَمْرَ فِي قلبي.

رابعًا: لم يفهم معنى الوحي:

وَكَانَ لَمَّا رَأَيْتُ أَنَا دانيال الرُّؤْيَا وَطَلَبْتُ الْمَعْنَى إِذَا بِشِبْهِ إِنْسَانٍ وَاقِفٍ قُبَالَتِي (دانيال٨/ ١٥).

خامسًا: خر على وجهة أمام جبريل:

وَإِذْ كَانَ يَتكَلَّمُ مَعِي كُنْتُ مُسَبَّخًا عَلَى وَجْهِي إِلَى الأَرْضِ فَلَمَسَنِي وَأَوْقَفَنِي عَلَى مَقَامِي. (دانيال٨/ ١٨).

سادسًا: ضعف وأصبح نحيلًا غير فاهم لعدة أيام:

وَأَنَا دانيال ضَعُفْتُ وَنَحَلْتُ أَيَّامًا ثُمَّ قُمْتُ وَبَاشَرْتُ أَعْمَالَ الْمَلِكِ. وَكُنْتُ مُتَحَيِّرًا مِنَ الرُّؤْيَا وَلاَ فَاهِمَ. (دانيال٨/ ٢٧).

سابعًا: ناح ثلاثة أسابيع ولم يأكل ولم يدهن:

فِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَنَا دانيال كُنْتُ نَائِحًا ثَلاَثَةَ أَسَابِيعِ أَيَّامٍ ٣لَمْ آكُلْ طَعَامًا شَهِيًّا وَلَمْ يَدْخُلْ فِي فَمِي لَحْمٌ وَلاَ خَمْرٌ وَلَمْ أَدَّهِنْ.

ثامنًا: يرى الرؤيا وحده لا يراها الناس:

فَرَأَيْتُ أَنَا دانيال الرُّؤْيَا وَحْدِي وَالرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا مَعِي لَمْ يَرُوا الرُّؤْيَا.

تاسعًا: راحت قوته ونضارته وتحولت إلى فساد وخر بوجهه على الأرض: فَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي وَرَأَيْتُ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْعَظِيمَةَ. وَلَمْ تَبْقَ فِيَّ قُوَّةٌ وَنَضَارَتِي تَحَوَّلَتْ فِيَّ إِلَى فَسَادٍ وَلَمْ أَضْبِطْ قُوَّةً. ٩وَسَمِعْتُ صَوْتَ كَلاَمِهِ. وَلَمَّا سَمِعْتُ صَوْتَ كَلاَمِهِ كُنْتُ مُسَبَّخًا عَلَى وَجْهِي وَوَجْهِي إِلَى الأَرْضِ.

عاشرًا: وجهه على الأرض لا يتكلم أثناء الوحي:

فَلَمَّا تَكَلَّمَ مَعِي بِمِثْلِ هذا الكلام جَعَلْتُ وَجْهِي إِلَى الأَرْضِ وَصَمَتُّ.

وكل ما سبق يبين أعراض نزول الوحي على النبي دانيال، ولكن لم ننتهي بعد، انظر بقية الأنبياء.

اليك إبراهيم عليه السلام(**تك ١٥: ١**):

بَعْدَ هَذِهِ الأُمُورِ صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا: لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا.

وموسى في (**خروج ٣: ٦.**)

فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ.

وموسى في العبرانيين٢١: ١٢:

وَكَانَ الْمَنْظَرُ هَكَذَا مُخِيفًا حَتَّى قَالَ مُوسَى: «أَنَا مُرْتَعِبٌ وَمُرْتَعِدٌ!».

و هذا إيليا الملوك الأول ١٩: ١٢:

وَدَخَلَ هُنَاكَ الْمَغَارَةَ وَبَاتَ فِيهَا. وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ: [مَا لَكَ هَهُنَا يَا إِيلِيَّا؟] فَقَالَ: [قَدْ غِرْتُ غَيْرَةً لِلرَّبِّ إله الْجُنُودِ، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَرَكُوا عَهْدَكَ وَنَقَضُوا مَذَابِحَكَ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِالسَّيْفِ، فَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي. وَهُمْ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لِيَأْخُذُوهَا]. ١١فَقَالَ: [اخْرُجْ وَقِفْ عَلَى الْجَبَلِ أَمَامَ الرَّبِّ]. وَإِذَا بِالرَّبِّ عَابِرٌ وَرِيحٌ عَظِيمَةٌ وَشَدِيدَةٌ قَدْ شَقَّتِ الْجِبَالَ وَكَسَّرَتِ الصُّخُورَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي الرِّيحِ. وَبَعْدَ الرِّيحِ زَلْزَلَةٌ، وَلَمْ يكن الرب فِي الزَّلْزَلَةِ. وَبَعْدَ الزَّلْزَلَةِ نَارٌ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي النَّارِ. وَبَعْدَ النَّارِ صَوْتٌ مُنْخَفِضٌ خَفِيفٌ. فَلَمَّا سَمِعَ إِيلِيَّا لَفَّ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ وَخَرَجَ وَوَقَفَ فِي بَابِ المغارة.

وهذا إشعيا (**إشعيا ٦: ٦-٧**):

فِي سَنَةِ وَفَاةِ عُزِّيَّا الملك رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ. بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ وَبِاثْنَيْنِ يَطِيرُ. وَهَذَا نَادَى ذَاكَ: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ». فَاهْتَزَّتْ أَسَاسَاتُ الْعَتَبِ مِنْ صَوْتِ الصَّارِخِ وَامْتَلأَ الْبَيْتُ دُخَانًا. فَقُلْتُ: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رأتا الملك رَبَّ الْجُنُودِ». ٦فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى

الْمَذْبحِ. وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ». ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدِ: «مَنْ أُرْسِلُ وَمَنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِنَا؟ » فَأَجَبْتُ: «هَئَنَذَا أَرْسِلْنِي». فَقَالَ: »اذْهَبْ وَقُلْ لِهَذَا الشَّعْبِ: اسْمَعُوا سَمْعًا وَلاَ تَفْهَمُوا وَأَبْصِرُوا إِبْصَارًا وَلاَ تَعْرِفُوا.

وحزقيال (٣: ١٢)

هَئَنَذَا قَدْ جَعَلْتُ وَجْهَكَ صُلْبًا مِثْلَ وُجُوهِهِمْ وَجَبْهَتَكَ صُلْبَةً مِثْلَ جِباهِهِمْ، ٩قَدْ جَعَلْتُ جَبْهَتَكَ كَـالْمَاسِ أَصْلَبَ مِنَ الصَّوَّانِ، فَلاَ تَخَفْهُمْ وَلاَ تَرْتَعِبْ مِنْ وُجُوهِهِمْ لأَنَّهُمْ بَيْتٌ متمرد، وقال لِي: [يَاابْنَ آدم كُلُّ الْكَلاَمِ الَّذِي أُكَلِّمُكَ بِهِ أَوْعِهِ فِي قَلْبِكَ وَاسْمَعْهُ بأُذُنَيْكَ. وَامْضِ إلى مَسْبِيِّينَ إِلَى بَنِي شَعْبِكَ وَكَلِّمْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ: هَكَذَا قال السيد الرَّبُّ، إِنْ سَمِعُوا وَإِنِ امْتَنَعُوا». ١٢ثُمَّ حَمَلَنِي رُوحٌ فَسَمِعْتُ خَلْفِي صَوْتَ رَعْدٍ عَظِيمٍ: [مُبَارَكٌ مَجْدُ الرَّبِّ مِنْ مَكَـانِهِ». ١٣وَصَوْتَ أَجْنِحَةِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَلاَصِقَةِ الْوَاحِدُ بِأَخِيهِ وَصَوْتَ الْبَكَرَاتِ مَعَهَا وَصَوْتَ رَعْدٍ عَظِيمٍ. فَحَمَلَنِي الرُّوحُ وَأَخَذَنِي، فَذَهَبْتُ مُرًّا فِي حَرَارَةِ رُوحِي، وَيَدُ الرَّبِّ كَانَتْ شَدِيدَةً عَلَيَّ. ١٥فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْبِيِّينَ عِنْدَ تَلِّ أَبِيبَ، السَّاكِنِينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ. وَحَيْثُ سَكَنُوا.

وهذا شاول في صمويل (١٦: ١٤ـ ٢٠).

وَذَهَبَ رُوحُ الرَّبِّ مِنْ عِنْدِ شَاوُل، وَبَغَتَهُ رُوحٌ رَدِيءٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ. ١٥فَقَالَ عَبِيدُ شَاوُلَ لَهُ: »هُوَذَا رُوحٌ رَدِيءٌ مِنْ قِبَلِ الله يَبْغَتُكَ. فَلْيَأْمُرْ سَيِّدُنَا عَبِيدَهُ قُدَّامَهُ أَنْ يُفَتِّشُوا عَلَى رَجُلٍ يُحْسِنُ الضَّرْبَ بِالْعُودِ. وَيَكُونُ إِذَا كَانَ عَلَيْكَ الرُّوحُ الرَّدِيءُ مِنْ قبل الله أَنَّهُ يَضْرِبُ بِيَدِهِ فَتَطِيبُ.

وهذا النص يثبت دخول روح رديئة (من قبل الرب) في شاول النبي وتأمل طريقة خروج هذه الروح الرديئة باستعمال الضرب على العود.

الرد على الشبهات الفرعية المتعلقة بالوحي.

١ـ شبهة رقية النبي ﷺ من العين

نص الشبهة:

كان النبي ﷺ يُرْقَى من العين وفي ذلك إثبات أنه كان مصابًا كما رواه ابن إسحاق.

قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن أبي جعفر قال: كان رسول الله ﷺ تصيبه العين بمكة، فتسرع إليه قبل أن ينزل عليه الوحي، فكانت خديجة بنت خويلد تبعث إلى عجوز بمكة ترقيه، فلما نزل عليه القرآن فأصابه من العين نحو مما كان يصيبه، فقالت له خديجة: يا رسول الله ألا أبعث إلى تلك العجوز فترقيك؟ فقال: " **أما الآن فلا** ". (١)

عن ابن إسحاق قال: كانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ، فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد من كل بر عاهد وكل عبد رائد، يرود غير رائد فإنه عبد الحميد الماجد حتى أراه قد أتى المشاهد. . . الحديث. (٢)

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: الحديثان لا يصحان، وعليه فلا يجوز الاحتجاج بهما.

الوجه الثاني: على فرض صحة الحديثين فليس فيهما ما ينافي عصمة النبي ﷺ فكل ما فيهما أنه كان يرقى من العين.

فَعَلَ النبيُّ ﷺ ذلك، وبيَّن أن ذلك سنة الأنبياء.

---

(١) مُرسل. أخرجه ابن إسحاق في ا لسيرة النبوية ١/ ٤٠، وهو حديث لا يصح حيث لم يرد إلا من هذا الطريق وفيه انقطاع حيث إن أبا جعفر وهو محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب من الطبقة الرابعة التي تلي الوسطى من التابعين (التقريب ٦٤٠٣).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة معلقًا بدون إسناد١/ ٩، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ١/ ٢١، وابن عساكر في تاريخ دمشق٣/ ٨٢، وهو معضل، فابن اسحق بينه وبين هذه الحكاية مفاوز، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٩٨من طريق الواقدي، ومن طريقه ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٢٠٦، والواقدي متروك الحديث كما هو معلوم. وعليه فالحديث باطل.

ودليلنا في ذلك كما في الحديث عن ابن عباس ﷺ قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: " **إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ** "(1).

فها هو إبراهيم ﷺ كان يعيز أولاده بكلمات الله التامة، وليس بهما شيء، وأيضًا فعل النبي ﷺ للحسن والحسين، فذلك من باب الرقية.

٢ـ تشبيه الوحي بالجرس

نص الشبهة:

كيف يشبه الوحي بالجرس وهو تشبيه محمود بمذموم كما في حديث عائشة؟ وهو مناقض أيضًا لحديث: لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس.

والرد على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها، بل يكفى اشتراكهما في صفة ما.

الوجه الثاني: المقصود هنا بيان الجنس حيث ذكر ما ألف السامعون سماعه تقريبا لأفهامهم.

فصَل ذلك ابن حجر فقال:

فإن قيل: المحمود لا يشبه بالمذموم، إذ حقيقة التشبيه إلحاق ناقص بكامل، والمشبه الوحي وهو محمود، والمشبه به صوت الجرس وهو مذموم لصحة النهي عنه والتنفير من مرافقة ما هو معلق فيه والإعلام بأنه لا تصحبهم الملائكة كما أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما، فكيف يشبه ما فعله الملك بأمر تنفر منه الملائكة؟.

والجواب: أنه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها، بل ولا في أخص وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنا بيان الجنس، فذكر ما ألف السامعون سماعه تقريبا لأفهامهم. والحاصل أن الصوت له جهتان: جهة قوة وجهة طنين، فمن حيث القوة وقع التشبيه به، ومن حيث الطرب وقع التنفير عنه؛ وعلل بكونه

(١) البخاري (٣٣٧١).

مزمار الشيطان، ويحتمل أن يكون النهي عنه وقع بعد السؤال المذكور وفيه نظر. قيل: والصلصلة المذكورة صوت الملك بالوحي قال الخطابي يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد، وقيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي، فلا يبقى فيه مكان لغيره، ولما كان الجرس لا تحصل صلصلته إلا متداركة وقع التشبيه به دون غيره من الآلات[١].

٣ـ شبهة نزول الوحي في ثوب عائشة.

نص الشبهة:

كيف ينزل الوحي على النبي ﷺ وهو في ثوب عائشة، أوفي لحافها مخاطبًا أم سلمة رضي الله عنها كما في الحديث: "**لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلَّا عَائِشَةَ**".

وفي لفظ: **فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا**"[٢]

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: حرف في بمعنى على. نعلم أولًا أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، والسنة تفسر بعضها بعضًا، والسنة أيضًا تفسر القرآن كما كان يفعل الرسول ﷺ، وحرف (في) هوالذي يسبب اللبس عند البعض بسبب ضعفهم اللغوي، فقد قال فرعون عن السحرة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ (طه: ٧١)، ومن الطبيعي ألا يقول عاقل: إن السحرة صلبهم فرعون في داخل النخل، بل (في) هنا تعني على النخل.

الوجه الثاني: كلمة لباس تطلق على الرجل والمرأة.

أطلق القرآن على النساء والرجال لفظ لباس: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ (البقرة: ١٨٧)، ولا يعنى هذا أن المرأة قميص للرجل أو أن الرجل قميص للمرأة؛ بل إن لفظ (لباس) بمعنى الستر كما تستر الملابس الجسد؛ فإن المرأة تستر زوجها من الزنا والمعاصي، وكذلك الرجل يستر على زوجته ويعفها.

الوجه الثالث: الرواية الأخرى تبين المعنى الصحيح.

(١) فتح الباري١/ ٢٠.

(٢) البخاري (٢٥٨١)، (٣٧٧٥).

لكي نفهم معنى (في ثوب عائشة) لا بد من البحث عن القصة بكل ملابساتها وظروفها في أحاديث أخرى في النقاش الذي كان بين الرسول ونسائه، وهنا يتضح لنا المقصود والمعنى، فبعض الأحاديث وردت بلفظ لباس، وبعضها بلفظ لحاف، ومن هنا يتضح أن المقصود باللباس هو اللحاف وهو الغطاء أو السترة؛ لأن كل نساء النبي ﷺ لهن سترة، ولكن لم يأت الوحي إلا في بيت عائشة وهذا لفضلها ومن مناقبها رضي الله عنها.

الوجه الرابع: بيان فضل عائشة من خلال الحديث.

وعلى هذا نفهم من الحديث أن أم المؤمنين السيدة عائشة هي الوحيدة من زوجات النبي ﷺ التي كان ينزل الوحي عليه وهو نائم بجانبها في الفراش، أو بمعنى آخر في فراشها دون وضع جماع، وفي اللغة العربية من الممكن التعبير بالجزء عن الكل إذا اعتبرنا أن الثياب ملازم للمرء وملامس لجسده، وكذلك الفرش واللحاف لا يستغنى عنه المرء، ودائمًا ما يتردد عليه المرء للنوم، ويكون مهاد ورداء لجسده.

٤ـ شبهة موافقة عمر رضي الله عنه لربه.

نص الشبهة: في قول عمر رضي الله عنه (وافقت ربي في ثلاث)، يقولون: إن الوحي ينزل على حسب أهواء الناس، وفي الحديث شبهة أخرى ألا وهي: ادعاؤهم أن عمر رضي الله عنه كان يطلع على عورات نساء النبي ﷺ.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الوحي حاشاه أن يوافق أهواء الناس.

من الأسباب في نزول الحجاب ما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قالَ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَذِهِ الْآيَةِ آيَةِ الْحِجَابِ؛ لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رضي الله عنها إِلَى رَسُولِ الله ﷺ كَانَتْ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، صَنَعَ طَعَامًا وَدَعَا الْقَوْمَ فَقَعَدُوا يَتَحَدَّثُونَ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فَضُرِبَ الْحِجَابُ وَقَامَ الْقَوْمُ.(١)

وفي رواية عن أنس قال: أَوْلَمَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ بَنَى بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَأَشْبَعَ النَّاسَ خُبْزًا وَلَحْمًا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حُجَرِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ صَبِيحَةَ بِنَائِهِ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيُسَلِّمْنَ عَلَيْهِ وَيَدْعُو لَهُنَّ وَيَدْعُونَ لَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ رَأَى رَجُلَيْنِ جَرَى بِهِمَا الْحَدِيثُ، فَلَمَّا رَآهُمَا رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلَانِ نَبِيَّ الله ﷺ رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ وَثَبَا مُسْرِعَيْنِ، فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ بِخُرُوجِهِمَا أَمْ أُخْبِرَ، فَرَجَعَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ وَأَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ(٢).

قال ابن حجر: وَمُحَصِّل الْقِصَّة أَنَّ الَّذِينَ حَضَرُوا الْوَلِيمَة جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، وَاسْتَحْيَا النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَأْمُرهُمْ بِالْخُرُوجِ، فَتَهَيَّأَ لِلْقِيَامِ لِيَفْطِنُوا لِمُرَادِهِ فَيَقُومُوا بِقِيَامِهِ، فَلَمَّا أَلْهَاهُمْ الْحَدِيث عَنْ ذَلِكَ قَامَ وَخَرَجَ فَخَرَجُوا بِخُرُوجِهِ، إِلَّا الثَّلَاثَة الَّذِينَ لَمْ يَفْطِنُوا لِذَلِكَ لِشِدَّةِ شُغْل بَالهمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الْحَدِيث، وَفِي غُضُون ذَلِكَ كَانَ النَّبِيّ ﷺ يُرِيد أَنْ يَقُومُوا مِنْ غَيْر مُوَاجَهَتهمْ بِالْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ لِشِدَّةِ حَيَائِهِ، فَيُطِيل الْغَيْبَة عَنْهُمْ بِالتَّشَاغُلِ بِالسَّلَامِ عَلَى نِسَائِهِ وَهُمْ فِي شُغْل بَالهمْ، وَكَانَ أَحَدهمْ فِي أَثْنَاء ذَلِكَ أَفَاقَ مِنْ غَفْلَته فَخَرَجَ وَبَقِيَ الِاثْنَانِ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ وَوَصَلَ النَّبِيّ ﷺ إِلَى مَنْزِله فَرَآهُمَا فَرَجَعَ، فَرَأَيَاهُ لَمَّا رَجَعَ، فَحِينَئِذٍ فَطِنَا فَخَرَجَا، فَدَخَلَ النَّبِيّ ﷺ، وَأُنْزِلَتْ الْآيَة فَأَرْخَى السِّتْر بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنَس خَادِمه أَيْضًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْد بِذَلِكَ(٣).

وإنما أوردت هذه الأسباب تبيينًا أن الحجاب لم ينزل موافقًا لرأي عمر وحده، أو أن الوحي يوافق أهواء الناس، بل هناك أسباب أخرى تقتضي مثلًا نزول الحجاب، وهناك أسباب غير ما أشار به عمر فيما وافق فيه ربه، وإنما هذه مجرد كرامات الأولياء يلقيها الله ﷻ

(١) البخاري (٤٧٩٢)، مسلم (١٤٢٨).

(٢) البخاري (٤٧٩٤).

(٣) فتح الباري (٨/ ٦٢٠).

على ألسنة أوليائه والملازمين لقرآنه وسنة نبيهم ﷺ جزاءً لهم على ما قدموا للإسلام والمسلمين.

قال في الدليل إلى المتون العلمية: وهي من فوائد مجالسة العلماء إذ يفتح للمتعلم بين أيديهم مالا يفتح له دونهم، ويبقى ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا في متابعة معلمهم، وتأدبهم معه واقتدائهم به، فهذا الطريق نافع على كل تقدير(١). **وهذا أولًا.**

ثانيًا: أن عمر ﷺ كان ملهمًا مُحَدَّثًا، وهذه نعمة من الله تبارك وتعالى على عبده الذي دافع عن الإسلام والمسلمين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ(٢).

ثالثًا: هذا اجتهاد من عمر ﷺ ووافقه الله تعالى بقدره؛ لأنه رأى الصواب وألهمه الله ﷻ الصواب في ذلك، فليس معنى أن الوحي يوافق كلامه أن الوحي ينزل على هوى الناس، ويؤيد ذلك حديث: (إِنَّ الله جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ)، وقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ أَوْ قَالَ (ابْنُ الْخَطَّابِ) فِيهِ - شَكَّ خَارِجَةُ - إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ(٣).

فمن قول ابن عمر أيضًا: (فقالوا فيه. . .) يدل على أن باب الاجتهاد مفتوح، وأنه ليس عمر وحده الذي يجتهد، ولكن تشريفًا لعمر أجرى الله الصواب على لسانه، وما قال عمر كان سينزله الله سواءً قاله عمر أو لم يقله.

رابعًا: أن كلام الله ﷻ من صفاته تعالى، وهي صفات أزلية، فالله لم يزل ولا يزال متكلمًا، وكلام عمر وفعله حادث لاحق.

---

(١) الدليل إلى المتون العلمية لعبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم (١/ ٣٧).

(٢) البخاري (٣٦٨٩)، مسلم (٢٣٩٨).

(٣) سنن الترمذي من حديث ابن عمر (٣٦٨٢)، مسند أحمد (٢/ ٤٠١، ٥٣)، قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٠٨).

قال الملا علي القاري: قال الطيبي: ما أحسن هذه العبارة وما ألطفها حيث راعى فيها الأدب الحسن ولم يقل وافقني ربي، مع أن الآيات إنما نزلت موافقة لرأيه واجتهاده(١).

الوجه الثاني: المعنى الصحيح للحديث.

عَنْ أَنَسٍ ﷺقال: قَالَ عُمَرُ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَواتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وَآيَةُ الْحِجَابِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَوأَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ؛ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ. وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

هذه رواية البخاري، أما رواية مسلم فقال: في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر(٢).

قال ابن حجر: قَوْلُه: (وَافَقْت رَبِّي فِي ثَلَاث)، أَيْ: وَقَائِع، وَالْمَعْنَى: وَافَقَنِي رَبِّي فَأَنْزَلَ الْقُرْآن عَلَى وَفْق مَا رَأَيْت، لَكِنْ لِرِعَايَةِ الْأَدَب أَسْنَدَ الْمُوَافَقَة إِلَى نَفْسه، أو أَشَارَ بِهِ إِلَى حُدُوث رَأْيه وَقِدَم الْحُكْم، وَلَيْسَ فِي تَخْصِيصه الْعَدَد بِالثَّلَاثِ مَا يَنْفِي الزِّيَادَة عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ حَصَلَتْ لَهُ الْمُوَافَقَة فِي أَشْيَاء غَيْر هَذِهِ مِنْ مَشْهُورهَا قِصَّة أَسَارَى بَدْر، وَقِصَّة الصَّلَاة عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَهُمَا فِي الصَّحِيح.

وقال ابن رشيد: اجْتَهَدَ عُمَر فِي أَنْ اخْتَارَ أَنْ يَكُون الْمُصَلَّى إِلَى مَقَام إِبْرَاهِيم الَّذِي هُوَ فِي وَجْه الْكَعْبَة، فَاخْتَارَ إِحْدَى جِهَات الْقِبْلَة بِالِاجْتِهَادِ، وَحَصَلَتْ مُوَافَقَته عَلَى ذَلِكَ فَدَلَّ عَلَى تَصْوِيب اجْتِهَاد الْمُجْتَهِد إِذَا بَذَلَ وُسْعه وَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ(٣).

قال النووي رحمه الله: هَذَا مِنْ أَجَلِّ مَنَاقِب عُمَر وَفَضَائِله، وَلَيْسَ فِي لَفْظه مَا يَنْفِي زِيَادَة الْمُوَافَقَة. وَالله أَعْلَمُ، وَجَاءَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة: (وَافَقْت رَبِّي فِي ثَلَاثٍ)، وَفَسَّرَهَا بِهَذِهِ الثَّلَاث. وَجَاءَ فِي رِوَايَة أُخْرَى فِي الصَّحِيح: (اجْتَمَعَ نِسَاء رَسُول الله ﷺ عَلَيْهِ فِي الْغَيْرَة.

(١) مرقاة المفاتيح (كتاب مناقب عمر، الفصل الثالث).

(٢) البخاري (٤٠٢)، مسلم (٢٣٩٩) عن ابن عمر.

(٣) فتح الباري (١/ ٥٩٣: ٥٩٢).

..)، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ مُسْلِم بَعْد هَذَا مُوَافَقَته فِي مَنْعِ الصَّلَاة عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَنُزُول الْآيَة بِذَلِكَ(١)، وَجَاءَتْ مُوَافَقَته فِي تَحْرِيم الْخَمْر(٢).

قال ابن رجب: وقول عمر: (وافقت ربي في ثلاث)، ليس بصيغة حصر، فقد وافق في أكثر من هذه الخصال الثلاث والأربع. ومما وافق فيه القرآن قبل نزوله: النهي عن الصلاة على المنافقين(٣). وقوله لليهود: من كان عدوا لجبريل، فنزلت الآية.

وقوله للنبي ﷺ لما اعتزل نساءه ووجد عليهن: يا رسول الله، إن كنت طلقتهن، فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك(٤).

قال عمر: وقل ما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، فنزلت آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ (التحريم: ٥)(٥).

وهذا من الموافقة من باب المفاعلة التي تدل على مشاركة اثنين في فعلٍ يُنسب إلى أحدهما متعلقًا بالآخر، والمعنى في الأصل: وافقني ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت، ولكنه راعى الأدب فأسند الموافقة إلى نفسه لا إلى الرب جل وعز، والتخصيص بالعدد لا يدل على نفي الزائد(٦).

الوجه الثالث: فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإبطال ما رُمِيَ به من أنه يطلع على عورات زوجات النبي ﷺ.

عمر بن الخطاب الملهم:

لعمر فضائل جمة ومناقب لا تحصى، تكفيه أن يصل إلى هذه المرتبة وهي أن يوافق كلامه كلام الوحي من الله تعالى بإذن الله ﷻ، وليس في هذا اتهام للوحي أنه ينزل موافقًا

---

(١) مسلم (٢٤٠٠).

(٢) شرح النووي (٩/ ١٨٠).

(٣) البخاري (١٣٦٦)، مسلم (٢٤٠٠).

(٤) مسلم (١٤٧٩).

(٥) فتح الباري لابن رجب (٣/ ١٥٣)، وأما موافقته في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]، فرواه: أبو جعفر الرازي، عن حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى، عن عمر ورواه: داود، عن الشعبي، عن عمر، وهما منقطعان.

(٦) عمدة القاري (٤/ ١٤٣).

لآراء الناس، ولكن يُلقي اللهﷻ على لسان أمثال عمر ما يوافق كلامهﷻ الذي سينزله على خلقه تشريفًا لصاحب هذا اللسان.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الأمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ"**.

زَادَ زَكَرِيَّاءُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ سَعْدٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّﷺ: " **لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ يُكَلَّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ** "(١).

قَالَ أَبُو عِيسَى: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِ سفْيَانَ قَالَ: قَالَ سفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ مُحَدَّثُونَ يَعْنِي مُفَهَّمُونَ(٢).

قَوْله: (مُحَدَّثُونَ) بِفَتْحِ الدَّال جَمْع مُحَدَّث، وَاخْتُلِفَ فِي تَأْوِيله فَقِيلَ: مُلْهَم، قَالَهُ الْأَكْثَر قَالُوا: الْمُحَدَّث بِالْفَتْحِ هُوالرَّجُل الصَّادِق الظَّنّ، وَهُوَ مَنْ أُلْقِيَ فِي رُوعه شَيْء مِنْ قِبَل الْمَلَأ الْأَعْلَى فَيَكُون كَالَّذِي حَدَّثَهُ غَيْره بِهِ، وَقِيلَ: مَنْ يَجْرِي الصَّوَاب عَلَى لِسَانه مِنْ غَيْر قَصْد، وَقِيلَ مُكَلَّم أَيْ تُكَلِّمهُ الْمَلَائِكَة بِغَيْرِ نُبُوَّة.

وقال ابن حجر: وَيَحْتَمِل رَدّه إِلَى الْمَعْنَى الْأَوَّل أَيْ تُكَلِّمهُ فِي نَفْسه، وَإِنْ لَمْ يَر مُكَلِّمًا فِي الْحَقِيقَة فَيَرْجِع إِلَى الْإِلْهَام، وَفَسَّرَهُ اِبْن التِّين بِالتَّفَرُّسِ، وَوَقَعَ فِي مُسْنَد "الْحُمَيْدِيّ " عَقِب حَدِيث عَائِشَة: " الْمُحَدَّث الْمُلْهَم بِالصَّوَابِ الَّذِي يُلْقَى عَلَى فِيهِ"(٣).

وَفِي رِوَايَة الْإِسْمَاعِيلِيّ " قَالَ إِبْرَاهِيم – يَعْنِي: اِبْن سَعْد: رِوَايَة قَوْله: مُحَدَّث، أَيْ يُلْقَى فِي رُوعه "(٤)، وَيُؤَيِّدهُ حَدِيث " إِنَّ الله جَعَلَ الْحَقّ عَلَى لِسَان عُمَر وَقَلْبه ".

---

(١) البخاري (٣٦٨٩)، مسلم (٢٣٩٨) عن عائشة، ورواه أحمد عن عائشة (٦/ ٥٥).

(٢) الترمذي (٥/ ٦٢٢).

(٣) مسند الحميدي (٢٥٣).

(٤) فتح الباري (٧/ ٥٨).

وقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ أَوْ قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ فِيهِ ـ شَكَّ خَارِجَةُ ـ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ[١]. قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون[٢].

وقال البخاري: يجري الصواب على ألسنتهم، وقال النووي: وفي الحديث إثبات كرامات الأولياء[٣].

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما له في الجنة:

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ، وَسَمِعْتُ خَشَفَةً فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا بِلَالٌ. وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ لِعُمَرَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ. فَقَالَ عُمَرُ بِأَبِي وأمي يَا رَسُولَ الله أَعَلَيْكَ أَغَارُ "**[٤].

وهذه شهادة من النبي ﷺ بأن عمر في الجنة، وقد قال في حديث العشرة (وعمر في الجنة)[٥].

عمر بن الخطاب رضي الله عنه العالم:

عن عروة أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ شَرِبْتُ يَعْنِي اللَّبَنَ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الرِّيِّ يَجْرِي فِي ظُفُرِي أَوْ فِي أَظْفَارِي ثُمَّ نَاوَلْتُ عُمَرَ فَقَالُوا فَمَا أَوَّلْتَهُ يا رسول الله؟ قَالَ: الْعِلْمَ**[٦].

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: الدِّينَ**[٧].

---

(١) سنن الترمذي من حديث ابن عمر (٣٦٨٢)، مسند أحمد (٢/ ٤٠١، ٥٣)، قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٠٨).

(٢) شرح النووي (٨/ ١٨٠: ١٧٦).

(٣) شرح النووي (١/ ١٨٠)، وانظر عمدة القاري (٤/ ١٤٣).

(٤) البخاري (٣٦٧٩)، مسلم (٢٣٩٥) عن أبي هريرة.

(٥) الترمذي (٣٧٤٧)، أبو داود (٤٦٤٩)، ابن ماجه (١٣٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣١٩).

(٦) البخاري (٣٦٨١)، مسلم (٢٣٩١).

قَالَ أَهْلُ الْعِبَارَةِ: الْقَمِيصُ فِي النَّوْمِ الدِّين، وَجَرُّهُ يَدُلُّ عَلَى بَقَاء آثَاره الْجَمِيلَة وَسُنَنه الْحَسَنَة فِي الْمُسْلِمِينَ بَعْد وَفَاته لِيُقْتَدَى بِهِ. وَأَمَّا تَفْسِير اللَّبَن بِالْعِلْمِ فَلِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَثْرَة النَّفْع، وَفِي أَنَّهُمَا سَبَب الصَّلَاح، فَاللَّبَن غِذَاء الْأَطْفَال، وَسَبَب صَلَاحهمْ، وَقُوتٌ لِلْأَبْدَانِ بَعْد ذَلِكَ، وَالْعِلْم سَبَبٌ لِصَلَاحِ الْآخِرَة وَالدُّنْيَا[٢].

الشيطان يخاف من عمر ﷺ:

عن سعد بن أبي وقاص: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِيهًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ[٣].

فيه فضيلة عظيمة لعمر تقتضي أن الشيطان لا سبيل له عليه[٤].

العزة بعمر ﷺ: قال عَبْدُ الله بن مسعود ﷺ: مَازِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ[٥].

لزومه للنبي ﷺ: يقول ابن عباس ﷺ: وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ[٦].

عمر ﷺ الشهيد:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ وقَالَ: اثْبُتْ أُحُدُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْشَهِيدَانِ.

توفي عنه النبي ﷺ وهو راض عنه: قال ابن عباس وكأنه يجزعه لما طعن: لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ[٧].

فهل يقال في مثل ذلك الرجل: أنه يطلع على عورات زوجات النبي ﷺ؟.

---

(١) مسلم (٢٣٩٠).

(٢) شرح النووي (٨/ ١٧٧).

(٣) البخاري (٣٦٨٣).

(٤) فتح الباري (٧/ ٥٣).

(٥) البخاري (٣٦٨٤).

(٦) البخاري (٣٦٨٥)، مسلم (٢٣٨٩).

(٧) البخاري (٣٦٩٢).

الوجه الرابع: عمر حاشاه أن يطلع على عورات زوجات النبيﷺ.

إن في الحديث نفسه ما يدل على غيرة عمرﷺ على نساء النبيﷺ، فكيف يطلع على العورات؟ حيث قال: (يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَو أمرت أمهات الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ فَأَنْزَلَ الله آيَةَ الْحِجَابِ)(١).

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَمَا ضُرِبَ الْحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً لَا تَخْفَي عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا، فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ أَمَا وَالله مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ؟ ، قَالَتْ فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً وَرَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ فَدَخَلَتْ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ وَإِنَّ الْعَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ(٢).

قال ابن حجر: وَالْحَاصِل أَنَّ عُمَر ﷺ وَقَعَ فِي قَلْبه نُفْرَة مِنْ اِطِّلَاع الْأَجَانِب عَلَى الْحَرِيم النَّبَوِيّ، حَتَّى صَرَّحَ بقوله لَهُ ﷺ: "احْجُبْ نِسَاءَك "، وَأَكَّدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ نَزَلَتْ آيَة الْحِجَاب، ثُمَّ قَصَدَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ لَا يُبْدِينَ أَشْخَاصهنَّ أَصْلًا وَلَوْ كُنَّ مُسْتَتِرَات، فَبَالَغَ فِي ذَلِكَ فَمَنَعَ مِنْهُ، وَأَذِنَ لَهُنَّ فِي الْخُرُوج لِحَاجَتِهِنَّ دَفْعًا لِلْمَشَقَّةِ وَرَفْعًا لِلْحَرَجِ(٣).

قال النووي: وَفِي هَذَا الْحَدِيث مَنْقَبَة ظَاهِرَة لِعُمَر اِبْن الْخَطَّاب ﷺ، وَفِيهِ تَنْبِيه أَهْل الْفَضْل وَالْكِبَار عَلَى مَصَالِحهمْ، وَنَصِيحَتهمْ، وَتَكْرَار ذَلِكَ عَلَيْهِمْ(٤).

---

(١) البخاري (٤٧٩٠)، مسلم (٢٣٩٩).

(٢) البخاري (٤٧٩٥)، مسلم (٢١٧٠).

(٣) فتح الباري (٨/ ٦٢٢).

(٤) شرح النووي (٧/ ٤٠٧).

٥ـ شبهة: ادعاؤهم انقطاع الوحي بسبب جرو.

نص الشبهة: انقطاع الوحي بسبب جرو فأنزلت الآية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

فجوابه من وجوه:

الوجه الأول: بيان ضعف حديث الجرو الذي ذكر أنه سبب في نزول هذه الآية

عن خولة، وكانت خادمة رسول الله ﷺ، أن جروًا دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي الله ﷺأيامًا لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيتي؟ جبريل عليه السلاملا يأتيني، قالت خولة: لو هيأتُ البيت وكنستُه، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شيء ثقيل، فلم أزل حتى أخرجته فإذا هو جرو ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار، فجاء نبي الله ﷺترعد لحياه، وكان إذا نزل الوحي استقبلته الرعدة فقال: يا خولة دثريني، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ .[1]

قال ابن حجر: وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب بل شاذ مردود بما في الصحيح والله أعلم.[2]

الوجه الثاني: بيان السبب الصحيح للآية

ورد للآية أكثر من سبب نزول صحيح منها:

١- عن جندب البجلي قال: اشتكى النبي ﷺفلم يقل ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد! ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ .[3]

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٤٣)، والطبراني في الكبير ٢٤/ ٢٤٩، وأبو نعيم في معرفة الصحابة من طريق الطبراني (٧٦٥٣)، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (١٥٩) كلهم من طريق واحد عن حفص بن سعيد القرشي الأعور، قال: حدثتني أمي عن أمها خولة. . . به.

قلت: وفي الحديث أم حفص وهي مجهولة؛ قال ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٣٩٣، وليس إسناد حديثها في ذلك مما يحتج به، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٤١: رواه الطبراني، وأم حفص لم أعرفها. وقال البوصيري في الزوائد: ٨/ ١٩٨ وهذا إسناد ضعيف.

(٢) فتح الباري ٨/ ٧١٠.

(٣) البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (١٧٩٧).

٢- وعنه أيضًا: قالت امرأة يا رسول الله ما أرى صاحبك إلا أبطأك فنزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾. (١)

٣- وعنه أيضا: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ (٢)

الوجه الثالث: بيان أن الوحي تأخر ولم ينقطع مع ذكر سبب تأخره.

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: وَاعَدَ رَسُولَ الله ﷺ جِبْرِيلُ عليه السلام في سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ، وَفِي يَدِهِ عَصًا فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ وَقَالَ: « مَا يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ وَلاَ رُسُلُهُ »، ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا جَرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ فَقَالَ: « يَا عَائِشَةُ مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَا هُنَا؟ »، فَقَالَتْ: وَالله مَا دَرَيْتُ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ؛ فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « وَاعَدْتَنِى فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ ». فَقَالَ: منعني الْكَلْبُ الذي كَانَ في بَيْتِكَ، إِنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ. (٣)

قال النووي: قال العلماء: سبب امتناعهم من بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة، وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالى. وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب؛ لكثرة أكله النجاسات، ولأن بعضها يسمى شيطانا كما جاء به الحديث، والملائكة ضد الشياطين، ولقبح رائحة الكلب والملائكة تكره الرائحة القبيحة، ولأنها منهي عن اتخاذها؛ فعوقب متخذها بحرمانه دخول الملائكة بيته، وصلاتها فيه، واستغفارها له، وتبريكها عليه وفي بيته، ودفعها أذى للشيطان.

وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتا فيه كلب أو صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون في كل بيت، ولا يفارقون بني آدم في كل حال؛ لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم، وكتابتها. قال الخطابي: وإنما لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة مما يحرم اقتناؤه من الكلاب والصور، فأما ما ليس بحرام من كلب الصيد والزرع

---

(١) البخاري (٤٦٦٨).

(٢) مسلم (١٧٩٧).

(٣) مسلم (٢١٠٤).

والماشية والصورة التي تمتهن في البساط والوسادة وغيرهما فلا يمتنع دخول الملائكة بسببه، وأشار القاضي إلى نحو ما قاله الخطابي. والأظهر أنه عام في كل كلب، وكل صورة، وأنهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الأحاديث، ولأن الجرو الذي كان في بيت النبي ﷺ تحت السرير كان له فيه عذر ظاهر؛ فإنه لم يعلم به، ومع هذا امتنع جبريل عليه السلام من دخول البيت، وعلل بالجرو، فلو كان العذر في وجود الصورة والكلب لا يمنعهم لم يمتنع جبريل. والله أعلم[١].

٦ـ شبهة امتحان خديجة للوحي:

نص الشبهة:

أن النبي ﷺكان لايعرف من يأيتيه، واستُدل على ذلك بامتحان خديجة للوحي عن طريق خلع خمارها كما في الحديث، قالت: " قلت: يا رسول الله يا ابن عمي، هل تستطيع إذا جاءك الذي يأتيك أن تخبرني به؟ فقال لي رسول الله ﷺ: نعم يا خديجة، قالت خديجة: فجاءه جبريل ذات يوم وأنا عنده فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة هذا صاحبي الذي يأتيني قد جاء، فقلت له: قم فاجلس على فخدي الأيمن فقام فجلس على فخدي الأيمن، فقلت له: هل تراه؟ قال: نعم، فقلت له: تحول فاجلس على فخدي الأيسر فجلس، فقلت: هل تراه؟ قال: نعم، فقلت له: فتحول فاجلس في حجري فجلس، فقلت له: هل تراه؟ قال: نعم، قالت خديجة: فتحسرت وطرحت خماري، وقلت له: هل تراه؟ قال: لا، فقلت له: هذا والله ملك كريم لا والله ما هذا شيطان، قالت خديجة: فقلت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزي بن قصي ذلك كما أخبرني به محمد رسول الله، فقال ورقة: حقًا يا خديجة". [٢]

الجواب على ذلك من وجوه

الوجه الأول: الحديث لا يصح. [٣]

---

(١) شرح النووي ١٤/ ٨٤.

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق (١/ ١١٣)، الطبري في التاريخ (١/ ٥٣٣)، الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٨٧)، البيهقي في الدلائل (٢/ ١٥١).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (١/ ١١٣)، ومن طريقه الطبري في التاريخ (١/ ٥٣٣)، الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٨٧)، البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٥١)، كلهم من طريق إسماعيل بن أبي حكيم، والحديث فيه أكثر من علة، فيه:

الوجه الثاني: افتراض أن القصة ثابتة:

هذا شيء كانت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصنعه تستثبت به الأمر احتياطًا لدينها وتصديقها، فأما النبي ﷺ فقد كان قد وثق بما قال له جبريل وأراه من الآيات التي ذكرناها مرة بعد أخرى، وما كان من تسليم الشجر والحجر عليه، وما كان من إجابة الشجر لدعائه، وذلك بعدما كذبه قومه وشكاهم إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأراد أن يطيب قلبه. (١)

* * *

أ- الحارث بن محمد الفهري.

قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٤٦): مجهول، وقال ابن عبد الهادي في تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق (٣/ ٢٤): لا يعرف، مجهول، وهذه العلة تكفي لإسقاط الطريق.

ب- يحيى بن سليمان بن نضلة المدني.

قال أبو حاتم في الجرح والتعديل (٩/ ١٥٤): شيخ حدث أيامًا ثم توفي، وقال عبد الرحمن بن خراشي في الكامل لابن عدي (٧/ ٢٥٦): لا يساوي فلسًا، وقال ابن حبان في الثقات (٩/ ٢٦٩): يخطئ ويهم.

ج-النضر بن سلمة.

قال أبو حاتم في الجرح والتعديل (٨/ ٤٨٠): كان يفتعل الحديث، وقال ابن حجر في الإصابة (٤/ ٢٦٢): كذاب، وفي موضع آخر: متروك.

ومن طريق آخر أخرجه ابن إسحاق أيضًا في السيرة (١/ ٤٣)، ومن طريقه الطبري في التاريخ (١/ ٥٣٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٥١)، وعلته الانقطاع بين فاطمة وخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حيث إن فاطمة بنت الحسين من الطبقة الرابعة طبقة تلي الوسطى من التابعين (تقريب التهذيب (٨٦٥٢)، وهي بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، والحسين لم يلق خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لأن خديجة ماتت قبل الهجرة (الإصابة لابن حجر٢/ ٧٦)، تهذيب الكمال (٦/ ٣٩٦)، وضعف الألباني القصتين، ونقل تضعيف القصة عن شيخ الإسلام ابن تيمية كما في رسالة لباس المرأة المسلمة، انظر الضعيفة (٦٠٩٧).

(١) البيهقي في الدلائل (٢/ ١٥٢).

١٣ـ شبهة: ادعاؤهم أن القرآن من تأليف النبي محمد ﷺ.

نص الشبهة:

هذا الطعن من أقدم الطعون وقد ذكر في القرآن كما في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (النحل: ١٠١) أي أنك متقول على الله تعالى.

وكما قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ (الفرقان: ٤)، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (السجدة: ٣)، ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ (سبأ: ٨)، ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سبأ: ٤٣).

ولا زال الطاعنون يرددون هذه الشبهة إلى اليوم[1]:

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الرد الصريح من القرآن على هذه الفرية.

الوجه الثاني: عجز البشر أن يأتوا بمثله دليلٌ أنه من عند الله.

الوجه الثالث: آيات العتاب.

الوجه الرابع: تبرؤ محمد ﷺ من نسبة القرآن إليه ليس ادعاء يحتاج بينة، بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه.

الوجه الخامس: موقف الرسول ﷺ من النص القرآني موقف المفسر الذي يتلمس الدلالات، ويأخذ بأرفق احتمالاتها.

الوجه السادس: ما نزل بعد طول انتظار.

---

(١) راجع كلام الطاعنين كما نقله صاحب كتاب: "دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم" (١٨٣: ١٨١).

الوجه السابع: حال النبي ﷺ لتثبيت القرآن عند نزوله.

الوجه الثامن: عجز الرسول ﷺ عن الإتيان ببدل له.

الوجه التاسع: نسبة محمد ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالًا منه لبسط نفوذه، وإلا لَمْ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله.

الوجه العاشر: آية المباهلة.

الوجه الحادي عشر: توقف الرسول ﷺ أحيانًا في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان.

الوجه الثاني عشر: الغيبيات التي ذكرت في القرآن.

الوجه الثالث عشر: بقاء القرآن محفوظًا دليلٌ على أنه من عند الله.

الوجه الرابع عشر: أوقات نزول القرآن على النبي ﷺ.

الوجه الخامس عشر: الآيات التي تجرد الرسول ﷺ من نسبتها إليه.

الوجه السادس عشر: الفرق بين كلام الله ﷻ وبين كلام النبي محمد ﷺ.

وإليك التفصيل (1)

الوجه الأول: الرد الصريح من القرآن على هذه الفرية كقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

فَصَلَ الله تعالى هذه القضية بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (يونس: ٣٧).

قال ابن كثير: هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحَلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في

---

(١) اعلم – هداني الله وإياك – أن هذه الوجوه التي ستذكر كافية لإثبات أن القرآن من عند الله ولم يؤلفه بشر لا نبي، ولا قس، ولا راهب، ولا هو مقتبس من التوراة والإنجيل أو غير ذلك، إلا أنه قد خص في هذا المبحث الرد على من زعم أن القرآن من تأليف النبي محمد ﷺ، على أن يخصص للرد على ما سبق ذكره في مسائل مستقلة. والله المستعان.

ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنا عليها، ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بيانًا شافيًا كافيًا حقًا لا مرية فيه من الله رب العالمين.[١]

لقد علم الناس أجمعون - علمًا لا يخالطه شك - أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي، ولد بمكة في القرن السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض.

أما بعد؛ فمن أين جاء به محمد بن عبد الله ﷺ؟ أَمِنْ عند نفسه ومن وحي ضميره، أم من معلم؟ ومَن هو ذلك المعلم؟

نقرأ في هذا الكتاب أنه ليس من عمل صاحبه، وإنما هو قول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثَمَّ أمين: ذلكم هو جبريل عليه السلام، تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم نزله بلسان عربي مبين على قلب محمد ﷺ، فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًا من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا:

١) الوعي والحفظ. ٢) ثم التبليغ.

٣) ثم البيان والتفسير. ٤) ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شيء إن هو إلا وحيٌ يوحى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٦٨.

هكذا سماه القرآن حيث يقول: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ (الأعراف: ٢٠٣)، ويقول: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (يونس: ١٥) وأمثال هذه النصوص كثيرة في شأن إيحاء المعاني، ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف: ٢)، ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ (الأعلى: ٦)، ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة: ١٦ -١٩)، ﴿ اقْرَأْ ﴾ (العلق: ١)، ﴿ وَاتْلُ ﴾ (الكهف: ٢٧)، ﴿ وَرَتِّلِ ﴾ (المزمل: ٤) فانظر كيف عبر بالقرآن بالقراءة والإقراء، والتلاوة والترتيل، وتحريك اللسان، وكون الكلام عربيًا، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحتة.

القرآن إذًا صريح في أنه "لا صنعة فيه لمحمدﷺ، ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه"، والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمدﷺ[1].

الوجه الثاني: عجز البشر أن يأتوا بمثله دليلٌ أنه من عند الله.

لو كان القرآن من تأليف النبيﷺ، لاستطاع العرب أن يأتوا بمثله، مع حرصهم الشديد على معارضته، لكن النبيﷺكان يتحداهم دائمًا ويكرره عليهم كثيرًا، ومع هذا لم يطق أحد منهم معارضته.

قال الشوكاني: قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي: إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدًا افتراه، فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وجودة الصناعة، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام ﴿ وَادْعُوا ﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتُم ﴾ دعاءه والاستعانة به، من قبائل العرب، ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله. وقوله: ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ متعلق ب ﴿ وَادْعُوا ﴾: أي ادعوا

(١) النبأ العظيم لعبد الله دراز (٤٩-٥٠).

من سوى الله من خلقه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أن هذا القرآن مفترى.

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها، وأظهرها للعقول، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية، قال لهم: هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم، ليس عليكم إلا أن تأتوا، وأنتم الجمع الجمّ، بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، أو من غيرهم من بني آدم، أو من الجنّ، أو من الأصنام، فإن فعلتم هذا بعد اللتيا والتي، فأنتم صادقون فيما نسبتموه إليّ وألصقتموه بي. فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف، والتنزّل البالغ، بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب، وتشبثوا بأذيال العناد البارد، والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدّي البالغ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ فأضرب عن الكلام الأوّل، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن، قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه، وما اشتمل عليه، وهكذا صُنع من تصلب في التقليد، ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، ويعلم مبناه، كما تراه عيانًا وتعلمه وجدانًا. والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة، والبرهان الواضح، قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب، إلا مجرد كونه جاهلًا لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب مناديًا على نفسه بالجهل بأعلى صوت، ومسجلًا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه.[1]

ومن هنا نعلم والتاريخ يشهد أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد كما يقول أولئك الملاحدة؛ لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه بما أوتوا من ملكة النقد، وما وهبوا من نباهة الحس والذوق ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطًا قريبًا إن لم يمكنهم مجاراته شوطًا بعيدًا، لا

(١) فتح القدير ٢/ ٦٤٦.

سيما أن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل أقصر سورة أي بمثل ثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المؤلفة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز، وأنت خبير بأن هؤلاء لم تكن لتعييهم تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان، وأئمة الفصاحة والبيان لو كان الأمر من صناعة محمد وإنشائه كما يزعم أولئك الخراصون، فما بالك وقد خرست ألسنتهم وخشعت أصوات الأجيال كلها من بعدهم، ومعلوم أن النابغة الفذ في أي عصر من العصور يستطيع أقرانه بيسر وسهولة أن يحاكوه مجتمعين ومنفردين في الشيء القليل على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو الشيء الكثير. (١)

الوجه الثالث: آيات العتاب.

ومعنى هذا أن القرآن سجل في كثير من آياته بعض الوقائع التي اجتهد فيها النبي ﷺ ووُجِّه إليه بسببها عتابًا، نشعر بلطفه تارة وبعنفه أخرى. ولا ريب أن العقل المنصف يحكم جازمًا بأن هذا القرآن كلام الله وحده؛ ولو كان كلام محمد ما سجل على نفسه هذه المواقف وهذا العتاب يتلوهما الناس؛ بل ويتقربون إلى الله بتلاوتها حتى يوم المآب. (٢)

لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية من مخالفة القرآن في عدة مواطن لاجتهاده الشخصي ولطبعه الخاص، ومعاتبته على بعض اجتهاداته:

مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال ٦٧: ٦٨).

عن ابْنِ عَبَّاسٍ قال: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: " لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي. . . -الحديث وفيه-: فَلَمَّا أَسَرُوا الأَسَارَى قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: « مَا تَرَوْنَ فِي

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٦٢- ٦٣.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٢ بتصرف يسير.

هَؤُلَاءِ الأَسَارَى؟ » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً؛ فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ »، قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عُقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ - نَسِيبًا لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ »شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ"[1].

وتأمل آية الأنفال المذكورة، تجد فيها ظاهرة عجيبة؛ فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بُدئت بالعتاب على هذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها، وتطييب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها. فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول الكلام - لو كان عن النفس مصدره - يمكن أن يصدر عنها آخره، ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضا والاستحسان؟ كلا، وإنَّ هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين، لكان الثاني منهما إضرابًا عن الأول ماحيًا له، ولرجع آخر الفكر وفقًا لما جرى به العمل.

فأي داعٍ دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله، على ما فيه من تقريعٍ علني بغير حق، وتنغيصٍ لهذه الطعمة- المكسب- التي يراد جعلها حلالًا طيبًا؟ إنَّ الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن هاهنا البتة شخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت

(١) مسلم (١٧٦٣).

سيد يقول لعبده: لقد أسأتَ ولكني عفوت عنك وأذنت لك[١].

الوجه الرابع: تبرؤ محمد ﷺ من نسبة القرآن إليه ليس ادعاءً يحتاج بينة، بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه.

في الحقيقة إن هذه القضية لو وجدت قاضيًا يقضي بالعدل، لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بينه، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخًا؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم، فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله، وغلت قيمته وأمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأبواب المستعارة؛ أمَّا أن أحدًا ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد[٢].

الوجه الخامس: موقف الرسول ﷺ من النص القرآني موقف المفسر الذي يتلمس الدلالات، ويأخذ بأرفق احتمالاتها.

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها، لوجدتها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه ﷺ كان إذا ترجح بين أمرين ولم يجد فيهما إثمًا، اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه، وأبعدهما عن الغلظة والجفاء، وعن إثارة الشُبه في دين الله. لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحًا، أو جاوزه خطأ ونسيانًا، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيرًا فتخير. هَبْهُ مجتهدًا أخطأ باختيار خلاف الأفضل، أليس معذورًا ومأجورًا؟

---

(١) النبأ العظيم (٥٥).

(٢) النبأ العظيم (٥١).

على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية، وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية، هل ترى في ذلك ذنبًا يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟.

توفي عبد الله بن أُبَيْ كبير المنافقين، فكفنه النبي ﷺ في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال عمر ﷺ: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: إنما خيَّرني ربي فقال:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ (التوبة: ٨٠) وسأزيدُه على السبعين، وصلَّى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ (التوبة: ٨٤) فترك الصلاة عليهم[1].

اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين، وانظر ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع، وقد اتخذ من القرآن دستورًا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر النص الأول تخييرًا له بين طريقين، فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع، وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها، تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة، ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة، وتجلى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض، بل تصدع بالبيان فرقانًا بين الحق والباطل، وميزانًا للخبيث والطيب، أحب الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين، ولا تنقصها معصية العاصين، فترى بين المقامين ما بينهما، وشتان ما بين سيد ومسود، وعابد ومعبود[2].

الوجه السادس: ما نزل بعد طول انتظار.

ومعنى هذا أن في القرآن آيات كثيرة تناولت مهمات الأمور، ومع ذلك لم تنزل إلا بعد تلبث وطول انتظار؛ فدلَّ هذا على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد؛ لأنه لو كان كلام

---

(١) البخاري (١٣٠٠)، مسلم (٢٤٠٠).

(٢) النبأ العظيم (٥٧: ٥٦).

محمد ما كان معنًى لهذا الانتظار، فإن الانتظار في ذاته شاق وتعلقه بمهمات الأمور يجعله أشق خصوصًا على رجل عظيم يتحدى قومه بل تحدى العالم كله. (١)

ولبيان هذا الوجه نمثل بأمثلة:

أولها: تحويل القبلة:

لقد كان النبي ﷺ يتحرق شوقًا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، ولكن رب القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآنًا، على الرغم من تلهف رسوله الكريم إليه إلا بعد قرابة عام ونصف العام(٢).

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ. . .)(٣).

ولو كان الوحي من تأليف النبي ﷺ، لما تأخر كل هذه المدة لشيء يحبه ويشتهيه ويتشوف إليه ويتحرق شوقا له، ولكنه وحي الله ولا ينزل إلا بأمر الله وإذنه.

ثانيها: حادث الإفك:

وهو من أخطر الأحداث وأشنعها، لم ينزل القرآن فيه إلا بعد أن مضى على الحادث قرابة أربعين يومًا على حين أنه يتصل بعِرِض الرسول وعِرِض صديقه الأول أبي بكر، وقام على اتهام أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ورميها بأقذر العار، وهو عار الزنى فلو كان القرآن كلام محمد، ما بخل على نفسه بتلك الآيات التي تنقذ سمعته وسمعة زوجه الحَصَان الطاهرة، ولما انتظر يومًا واحدًا في القضاء على هذه الوشايات الحقيرة الآثمة التي تولى كبرها أعداء الله المنافقون، اقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ

---

(١) مناهل العرفان٢/ ٢٨٥.

(٢) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (٥٦).

(٣) البخاري (٣٩٠)، ومسلم (٥٢٥).

عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ في سورة النور، ثم حدثني بعد قراءتها ألم يكن الواجب على محمد ﷺ أن يعجل الحكم بهذه البراءة لو كان الأمر إليه، خصوصا أنه قد علم الناس وجوب الدفاع عن العرض ولو بالنفس؟ ثم أخبرني ألا ترى فارقا كبيرا بين هذه اللغة الجريئة القاطعة، المنذرة والمبشرة، التي صيغت بها آيات البراءة وبين لغة الرسول الحذرة المتحفظة التي رويت عنه في هذه الحادثة؟ إن كنت في شك فأمامك آيات البراءة وهاك كلمتين مما أثر عنه في هذا الأمر الجلل ورد أنه قال حين طال الانتظار وبلغت القلوب الحناجر: "إني لا أعلم إلا خيرًا " وورد أنه قال قبيل الساعة التي نزلت فيها آيات البراءة: "يا عائشة، أما إنه قد بلغني كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله".

فهل يجوز في عقل عاقل أن يكون صاحب هذا الكلام هو صاحب آيات البراءة؟ دع عنك الأسلوبين ولكن تأمل النفسيتين المتميزتين في الكلامين، تميز السيد من المسود، والعابد من المعبود!. (١)

الوجه السابع: حال النبي ﷺ لتثبيت القرآن عند نزوله.

وبيان ذلك أن النبي ﷺكان في أول عهده بالوحي يتعجل في تلقفه ويحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيحائه إليه؛ وذلك للإسراع بحفظه والحرص على استظهاره حتى يُبَلِّغه للناس كما أنزل، وكان ﷺ يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التي يحسها من نزول الوحي عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن جسمه ليثقل بحيث يحس ثقله من بجواره وحتى أن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط. روى مسلم أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك، وتربد وجهه الشريف؛ فاقتضت رحمة الله بمصطفاه أن يخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٧-٢٨٨، وانظر النبأ العظيم (٥٣).

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، وبهذا اطمأن الرسول ثقة بأن الله قد تكفل له بأن يجمع القرآن في صدره، وأن يقرأه على الناس كاملا لا ينقص كلمة ولا حرفا، وأن يبين له معناه فلا تخفى عليه خافية منه كذلك قال الله في سورة الأعلى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال له مرة ثالثة في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

ألا ترى في هذا كله نورًا يهدي إلى أن القرآن كلام الله وحده، ومحال أن يكون كلام محمد وإلا لما احتاج إلى هذا العناء الذي كان يعانيه في نزول القرآن عليه، ولكان الهدوء والسكون والصمت أجدى في إنضاج الفكرة وانتقاء ألفاظها لديه، ولما كان ثمة من داع إلى أن يطمأن على حفظه وتبليغه وبيان معانيه. أضف إلى ذلك أن هذه الحال التي كانت تعروه ﷺعند الوحي لم تكن من عادته في تحضير كلامه لا قبل النبوة ولا بعدها، ولم تكن من عادة أحد من قومه بل كان ديدنهم جميعًا تحضير الكلام في نفوسهم وكفى.[1]

الوجه الثامن: عجز الرسول عن الإتيان ببدل له

وذلك أن أعداء الإسلام طلبوا من النبي ﷺأن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو أن يبدله فلم يفعل؛ وما ذاك إلا لأن القرآن ليس كلامه؛ بل هو خارج عن طوقه، آت من فوقه، ولو كان كلامه لاستطاع أن يأتي بغيره، وأن يبدله حين اقترحوا عليه، وحينئذ يكتسب أنصارًا إلى أنصاره ويضم أعوانا إلى أعوانه، ويكون ذلك أروج لدعوته التي يحرص على نجاحها؛ لكنه أعلن عجزه عن إجابة هذه المقترحات، وأبدى مخاوفه إن هو أقدم على هذا الذي سألوه، وتنصَّل من نسبة القرآن إليه مع أنه الفخر كل الفخر، وألقمهم حجرًا في أفواههم بتلك الحجة التي أقامها عليهم وهي أنه نشأ فيهم لا يعرف ولا يعرفون عنه ذلك الذي جاء به وهو القرآن، اقرأ إن شئت هاتين الآيتين في سورة يونس﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٩- ٢٩٠، وانظر: النبأ العظيم (٦١)، والمستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (٥٢)، ودعاوى الطاعنين في القرآن الكريم (٢٠٤).

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٥-١٦).

والمعنى أن القرآن فوق طاقتي وليس من مقدوري، وما أنا إلا ناقل له أتبع ما يوحى إلي منه، وإني أخاف سطوة صاحب هذا الكتاب إذا أنا تلاعبت بنصوصه أو غيرت فيه، فالقرآن كلامه ولو أراد ألا أكون رسولًا بينه وبينكم ما كانت لي حيلة إلى أن أتلو هذا الكتاب عليكم وتأخذوه عني؛ فقد نشأتُ بينكم، ومكثتُ أكثر من أربعين سنة قبل نزوله وهو عمر طويل، وأنتم لا تعرفون مني هذا الاستعداد الأعلى، ولا تسمعون مني مطلقًا مثل هذا الكلام المعجز، ولم تأخذوا عليَّ قط أني كذبت مرة على عبد من عباد الله، فكيف أكذب على الله بعد هذا العمر الطويل أفلا تعقلون؟! ، يا لها كلمة فيها من لذعة التعنيف والتخجيل بمقدار ما فيها من لفت النظر إلى قوة الدليل.[1]

الوجه التاسع: نسبة محمد ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالًا منه لبسط نفوذه، وإلا لِمَ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله[2].

ولو أننا افترضناه افتراضًا لما عرفنا له تعليلًا معقولًا ولا شبه معقول، اللهم إلا شيئًا واحدًا قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في (نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي) ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم، ونفاذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه.

وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه؛ أما أنه فاسد في ذاته، فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه، والكلام المنسوب إلى الله تعالى؛ فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصةٍ من لزوم طاعته شيئًا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدةٍ فيها شيئًا، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتها في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٩١-٢٩٢.

(٢) شبهات حول القرآن وتفنيدها، د. غازي عناية (٢١) نقلًا من دعاوي الطاعنين.

كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبنيٌّ على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يَعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإنّ من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأنّ ذلك كان أخص شمائله، وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (يونس: ١٦)(١).

الوجه العاشر: آية المباهلة.

وذلك أن القرآن دعا إلى المباهلة، وهي مفاعلة من الابتهال والضراعة إلى الله بحرارة واجتهاد فأبى المدعوون وهم النصارى من أهل نجران أن يستجيبوا لها، وخافوها ولاذوا بالفرار منها مع أنها لا تكلفهم شيئًا سوى أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم ويأتي الرسول بأبنائه ونسائه ثم يجتمع الجميع في مكان واحد يبتهلون إلى الله، ويضرعون إليه بإخلاص وقوة أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذبا من الفريقين، قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، ونقول: أليس هذا دليلًا ماديًا على أن القرآن كلام القادر على إنزال اللعنة، وإهلاك الكاذب، ثم أليس قبول محمد ﷺ لهذه المباهلة مع امتناع أعدائه دليلًا على أن صدقه في نبوته كان أمرًا معروفًا مقررًا حتى في نفوس مخالفيه من أهل الكتاب.(٢)

الوجه الحادي عشر: توقف الرسول ﷺ أحيانًا في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان.

(١) النبأ العظيم ٥١، ٥٢.

(٢) مناهل العرفان ٢/ ٢٩٠.

لقد كان يجيئه الأمر أحيانًا بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله، حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد. قل لي بربك: أي عاقل توحي إليه نفسه كلامًا لا يفهم هو معناه، وتأمره أمرًا لا يعقل هو حكمته؟.

أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟.

وإليك مثال على ذلك: مسلكه في قضية الحديبية:

اقرأ في صحيح البخاري(١) وغيره قضية الحديبية، ففيها آية بينة: أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه، فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠) فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذرًا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع، ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشًا قد جمعت جموعها على مقربة منهم، فلم يثن ذلك من عزمهم؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة، بل زادهم ذلك استبسالًا وصمموا على المضي إلى البيت، فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد نهكتها الحروب، فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه. وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بَرَكت راحلة النبي ﷺ، وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا: خلأت القصواء - أي حرنت الناقة - فقال النبي ﷺ: " ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل "، يعني أن الله الذي اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين، هو الذي اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة. وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بادئين ولا مكافئين، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى، فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالًا لهذه الإشارة الإلهية، التي لا يعلم حكمتها، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلًا: « والذي نفسي

---

(١) القصة عند البخاري (٢٥٨٣).

بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » ولكن قريشًا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربًا ولا مسالمًا، وأملت عليه شروطًا قاسية بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسالمًا، وألا ترد هي أحدًا يجيئها من المدينة تاركًا لدينه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا. فلا تسل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيئ في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضًا ذهولًا وغمًا، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعونه هو نفسه قائلين: لِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ وهكذا كاد الجيش يتمرد على إمرة قائده ويفلت حبله من يده. أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار الصحابة، حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول، حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها؟ ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر: " إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري "يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقًا بنصره قريبًا أو بعيدًا، وهكذا ساروا راجعين، وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح، فبينت لهم الحكم الباهرة والبشارات الصادقة فإذا الذي ظنوه ضيمًا وإجحافًا في بادئ الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ

ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٤-٢٧). (١)

الوجه الثاني عشر: الغيبيات التي ذكرت في القرآن.

إخباره في هذا الكتاب بأمور تحصل بعد موته وعلوم لم تكن في عصره، وقد قيل: يمكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكن لا يمكن أن تخدع كل الناس كل الوقت.

فلنفرض أن النبي ﷺ استطاع أن يخدع كل من كان في زمنه، ألا يخشى أن ينكشف بعد ذلك إذا ازداد الناس علما، فهو يخبر بأمور فلكية وأخرى طبية وأمور جغرافية، ويخبر بأحداث سوف تقع بعد موته، ويتكلم بعلوم لم يعرفها أهل زمانه، كل هذا وهو مطمئن القلب لصدق نفسه، ثم لا يأتي الواقع إلا مطابقا لما قال، ولا يأتي العلم -على تقدمه الكبير- إلا بتأكيد كلامه وتأييد آرائه، أليس في هذا دليل أنه لا يتحدث من قبل نفسه، بل من قبل من يعلم السر والنجوى الذي لا تخفى عليه خافية.

أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال، أن يقوم من الطبيعة شاهدٌ بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟.

فلينظر العاقل: هل كان هذا النبي الأمي (أهلًا بمقتضى وسائله العلمية، لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟.

سيقول الجهلاء من الملحدين: نعم. فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء، والحسن القبيح من الأخلاق، والخير والشر من الأفعال، حتى لو أن شيئًا في السماء تناله الفراسة، أو تلهمه الفطرة، أو توحي به الفكرة، لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل وتأملاته الصادقة.

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله، ولكننا نسأل: هل كل ما في القرآن مما

---

(١) النبأ العظيم (٦٠: ٥٧).

يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور؟ اللهم كلا.

طبيعة المعاني القرآنية ليست كلها مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة فمن ذلك:

أ - أنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقي:

ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة، التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالتلقي؛ ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق، وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع؟ أيقولون: إن التاريخ يمكن وضعه أيضًا بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون: إن محمدًا قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك، لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٤)، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢)، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (القصص: ٤٤)، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت: ٤٨)، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ (هود: ٤٩)، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ (يوسف: ٣).

لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية، وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين؛ فإن هذه النتف اليسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر؛ لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون

الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين، ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررًا في القرآن، حتى الأرقام طبق الأرقام: فترى مثلًا في قصة نوح ﷺ في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥)، وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية؛ قاله الزجاج: يعني بتكميل الكسر.

فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الأمي مُعْجِزَةً　　فِي الجَاهِلِيَّةِ والتَّأْدِيبِ فِي اليُتْمِ

نعم إنها لعجيبة حقًا: رجل أمي بين أظهر قوم أميين، يحضر مشاهدهم - في غير الباطل والفجور - ويعيش معيشتهم مشغولًا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيًا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها، فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم؟ أفي مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العملي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر آخر يُلتمس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة، وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلًا لهذه الظاهرة، وأقرب فهمًا لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا: إنه لابد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة؛ فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ (الأنعام: ١٠٥)، ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ (الفرقان: ٥)، ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على الروح الأمين، واكتتبها، ولكن من صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهره، بأيدي سفرةٍ كرامٍ برره ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦).

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها.

أما سائر العلوم القرآنية فقد يقال: إنها من نوع ما يدرك بالعقل، فيمكن أن ينالها الذكي بالفراسة والروية. وهذا كلام قد يلوح حقًا في بادئ الرأي، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختبار، ذلك أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه، وحدٌّ محدود تقف عنده ولا تتجاوزه، فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مركوزًا في غريزة النفس، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول، إما بسرعة كما في الحَدْسِ، وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات، لا يمكن أن تناله يد العقل بحال، وإنما سبيله الإلهام، أو النقل عما جاءه ذلك الإلهام.

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات في نظر العقل؟ ، ذلك ما سيأتي نبأه بعد حين، ولكننا نعجل لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد:

أحدهما: قسم العقائد الدينية.

والثاني: قسم النبوءات الغيبية.

ب - الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها:

فأما أمر الدين؛ فإنَّ غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دبره، وأنه لم يخلقه باطلًا، بل

وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة؛ فلابد أن يعيده كرةً أخرى؛ لينال كل عامل جزاء عمله، إن خيرًا وإن شرًا.

هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين، ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة؛ بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها، كأنهما رأي عين، حتى إنه ليحصي عدة الأبواب، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب، فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية، وتلك الأوصاف التحديدية؟ إن ذلك ما لا يوحي به العقل البتة؛ بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين، وإما حق فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين، لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستيقنه أهلها ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ ﴾ (المدثر: ٣١)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ (الشورى: ٥٢)، ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (ص: ٦٩)، ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (يونس: ٣٧).

ج -أنباء المستقبل قد تستنبط بالمقايسة الظنية، ولكنها لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق:

وأما النبوءات الغيبية، فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحًا يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة، جاعلًا الشاهد من هذه مقياسًا للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكمًا محاطًا بكل تحفظ وحذر، قائلًا: (ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها، ولم يقع ما ليس في الحسبان). أما أن يبت الحكم بتًا، ويحدده تحديدًا، حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين:

إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه صدق أو كذب، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرافين والمنجمين. وإما رجل اتخذ عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده، وتلك

هي سنة الأنبياء والمرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجلًا روى أخباره عن واحد منهما.

فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام، وما سيكون أبد الدهر، وما لن يكون أبد الدهر؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطًا من الصدق والكذب، والصواب والخطأ. بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه، يجيئه عفوًا ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفًا واحدًا مما ينبئ به ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤١-٤٢). (١)

قال الزرقاني: ومعنى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد ﷺ بها ولا سبيل لمثله أن يعلمها مما يدل دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب لا يعقل أن يكون نابعا من نفس محمد ولا غير محمد من الخلق؛ بل هو كلام علام الغيوب وقيوم الوجود الذي يملك زمام العالم وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، من ذلك قصص عن الماضي البعيد المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد ﷺ إلى رؤيته ومعرفته فضلًا عن التحدث به، وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء. وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل، وتفصيل ما فصل، وأنه إن اخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ، وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء وما يَجِدُّ في العالم من تجارِب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام. (٢)

الوجه الثالث عشر: بقاء القرآن محفوظًا دليلٌ على أنه من عند الله.

---

(١) النبأ العظيم (٦٥-٧٠) بتصرف، وانظر دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم (٢٠٣-٢١٠).

(٢) مناهل العرفان ٢/ ٣٣٧.

ولنسرد لك هاهنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابساتها التاريخية؛ لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحي به الفراسة والألمعية؟ مثال ذلك:

ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧)، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٥)، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩)، أتعلم متى وأين صدرت هذه البشارات المؤكدة، بل العهود الوثيقة؟ إنها آيات مكية من سور مكية، وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية في مكة؟

ثلاث عشرة سنة كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآن، وصد لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شِعب من شِعاب مكة، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه، فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك، الذي طوله عشرة أعوام، شعاعًا ولو ضئيلًا من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم؟ ولو شام المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته، لا في أفق الحوادث، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربوا في نفسه الأمل حتى يصير حكمًا قاطعًا؟ وهَبْهُ امتلأ رجاء بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدها بنفسه، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك، وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح، فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح! وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عَفَت ودرست آثارها! وكم من نبي قتل! وكم من كتابٍ فُقد أو انتُقص أو بُدِّل! وهل

كان محمدﷺممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبيًا يوحى إليه﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (القصص: ٨٦)، ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظًا لديه ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ (الإسراء: ٨٦-٨٧)؛ فلابد إذًا من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه، ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت؟ إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها، والذي قدر مبدأها ومنتهاها، وأحاط علمًا بمجراها ومرساها، فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما في الآية الآنفة، لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن. سل التاريخ: كم مرةٍ تنكر الدهر لدول الإسلام، وتسلط الفجار على المسلمين، فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أممًا منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد؛ وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كلًا أو بعضًا كما فعل بالكتب قبله؛ لولا أن يد العناية تحرسه، فبقي في وسط هذه المعامع رافعًا راياته وأعلامه، حافظا آياته وأحكامه، بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا القرآن، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء ثم لا يظفر أهلُها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الأنفال: ٣٦)، ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ذلك بأن الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ

وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (التوبة: ٣٣)، والله بالغ أمره ومتم نوره، فظهر، وسيبقى ظاهرًا لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله[1].

الوجه الرابع عشر: أوقات نزول القرآن على النبي ﷺ.

من الأدلة على أن القرآن ليس من النبي ﷺ: أوقات نزوله؛ فليس للنبي ﷺ اختيار فيما ينزل أو متى ينزل، فقد يأتيه وهو في الفراش مع أهله، أو وهو نائم، أو مع أصحابه، أو وهو سائر، أو على البعير، وقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر بكثرته عليه له، وقد يفتر عنه حتى يشتاق إليه، بل قد يمرض من تأخره عليه.

فقد روي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ الله تَعَالَى تَابَعَ عَلَى رَسُولِهِ الْوَحْيَ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تَوَفَّاهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ ثُمَّ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدُ[2].

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ الله ﷺ كُنَّ حِزْبَيْنِ: فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ، وَحَفْصَةُ، وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ، وَالْحِزْبُ الْآخَرُ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ الله ﷺ. . . الحديث، وفيه فَقَالَ: " لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ؛ فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلَّا عَائِشَةَ "[3].

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: " أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ. فَقَرَأَ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾﴾ ثُمَّ قَالَ: « أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ. . . "[4].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِجِبْرِيلَ: " أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾ الْآيَةَ[5].

---

(١) النبأ العظيم (٧٢: ٧٠).

(٢) البخاري (٤٩٨٢)، ومسلم ٣٠١٦).

(٣) البخاري (٢٥٨١).

(٤) مسلم (٤٠٠).

(٥) البخاري (٣٢١٨)، للاستزادة انظر: حال النبي عند نزول الوحي في شبهة الوحي.

الوجه الخامس عشر: الآيات التي تجرد الرسول ﷺ من نسبة القرآن إليه.

وذلك أنك تقرأ القرآن فتجد فيه آيات كثيرة تجرد الرسول محمدًا ﷺ من أن يكون له فيها حرف أو كلمة، وتصفه بأنه كان قبل نزول القرآن لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وتمتن عليه بأنَّ الله آتاه الكتاب والحكمة بعد أن كان بعيدا عنهما وغير مستعد لهما، ولم يكن عنده رجاء من قبل لأنْ يكون منهل هذا الفيض، ولا مشرق ذلك النور اقرأ قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٣)، وقوله في ختام سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾، وقوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

بل كان ﷺ يخاف انقطاع هذا المدد الفياض عنه، فإذا فتر الوحي عراه من الحزن على فترته، والتلهف على عودته ما يجعله يمشي في الشعاب والجبال كأنه يتلمسه؛ لولا أن طمأنه الله عليه. وأكثر من هذا وذاك أنه كان يخاف أن ينزع الله من قلبه ما أنزل عليه وحفظه إياه ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ (الإسراء: ٨٦).

قل لي ـ وربك ـ هل يتصور منصف على وجه الأرض أن القرآن كلام محمد، بعد ما قصصنا عليك من هذه الآيات التي تجرده من إنشائه ووضعه، بل تجرده من رجاء نزوله عليه قبل مبعثه، ومن رجاء بقائه لديه بعد نزوله عليه؟ وهل يصح في الأذهان أن أحدًا يبتكر بعبقريته أمرًا هو مفخرة المفاخر ومعجزة المعجزات ثم يقول للعالم في صراحة: ليس هذا الفخر فخري، وما هو من صنعي، وما كان لديَّ استعداد أن آتي بشيء منه، وأنتم تعرفونني وتعرفون استعدادي من قبل؟

ألا إن هذا يخالف العقل والمنطق، ويجافي العرف والعادة، وينافي مقررات علم النفس وعلم الاجتماع؛ فإن النفوس البشرية مجبولة على الرغبة في جلائل الأمور ومعاليها، مطبوعة على حب كل ما يخلد ذكرها ويرفع شأنها، لا سيما إذا كان ذلك نابعًا منها وصادرًا عنها، وكان صاحب هذه النفس صدوقًا ما كذب قط، رافعًا عقيرته بزعامة الناس ودعوتهم إلى الحق. وليس شيء أجل شأنًا ولا أخلد ذكرًا من القرآن الكريم، الذي جمع الله به شمل أمة، وأقام به خير ملة، وأسس به أعظم دولة؛ فما كان لمحمد أن يزهد في هذا المجد الخالد، ولا أن يتنصل من نسبته إليه لو كان من وصفه وصنعه، وهو يدعو الخلق إلى الإيمان به وبما جاء به!

وأي وجه لمحمد في أن يتنصل من نسبة القرآن إليه وهو صاحبه؟ إنه إن كان يطلب الوجاهة والعلو والمجد، فليس شيء أوجه له ولا أعلى ولا أمجد من أن يكون هذا القرآن كلامه، وإن كان يطلب هداية الناس؛ فالناس يسرهم أن يأخذوا الهداية مباشرة ممن يُعجِزُ الجن والإنس بكلامه، ويتحدى كل جيل وقبيل ببيانه، ويقهر كل معارض ومكابر ببرهانه. ولو كان القرآن من تأليف محمد ﷺ لأثبت به ألوهيته بدلًا من نبوته؛ لأن هذا القرآن لا يمكن أن يصدر إلا عن إله كما بينا في الوجوه السالفة للإعجاز، وإذن لكانت تلك الألوهية أبلغ في نجاح دعوته، وأَرْجى في ترويج ديانته؛ لأن الناس تبهرهم الألوهية أكثر مما تبهرهم النبوة، ويشرفهم أنهم أتباع إله أكثر من أن يشرفهم أنهم أتباع رسول لم يخرج ولن يخرج يومًا من أرض العبودية، ولم يرتق ولن يرتقي يومًا إلى سماء الربوبية:

العبد عبد وإن تعالى ... والمولى مولى وإن تنزل

ولهذا كان أعداء الرسل كثيرًا ما يعظم عليهم أن يخضعوا لرجل منهم، وكانوا يعجبون أن يُوحى إلى بشر مثلهم، ويقترحون أن يروا الله جهرة أو تنزل لهم الملائكة عيانًا. فلو كان محمد ﷺ صاحب هذا التنزيل، لخرج عن مستوى الخلق جملة، ولظهر في أفق الألوهية، يطل على العالم بعظمة تنقطع دونها الأعناق وتخضع لها الرقاب، وأن يحقق كل ما اقترحه معارضوه من الآيات؛ ولكنه اعترف بعبوديته حينذاك، وتبرأ من حوله وقوته إزاء هذا

الكتاب وغيره من المعجزات وخوارق العادات. اقرأ في سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (الإسراء٩٠: ٩٤). [١]

الوجه السادس عشر: الفرق بين كلام الله ﷻ وبين كلام النبي محمد ﷺ.

ومما يفيد في هذا المقام ويدفع التلبيس، أن تعرف بُعد ما بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي الشريف. ولا أدلَّ على ذلك من أن بين يدي التاريخ إلى يوم الناس هذا آلافا مؤلفة من كتب السنة، تملأ دور الكتب في الشرق والغرب، وتنادي كل من له إلمام وذوق في البيان العربي: أن هَلُمَّ لتحس بحاستك البيانية، المدى البعيد بين أسلوبي القرآن والحديث، ولتؤمن عن وجدان بأن أسلوب التنزيل أعلى وأجل من أسلوب الأحاديث النبوية، علوا خارقا للعادة، خارجًا عن محيط الطاقة البشرية، وإن بلغ كلام الرسول ﷺ في جودته وروعته وجلالته، ما جعله خير بيان لخير إنسان. غير أن هذه الفوارق ـ كما قلنا ـ فوارق فنية لا يدركها إلا الذين أوتوا حظًا عظيمًا من معرفة اللسان العربي والذوق العربي. ولقد نزل القرآن أول ما نزل على أمة العرب وهم مطبوعون على اللغة الفصحى، منقطعون لإحيائها وترقيتها؛ وكانوا يتفاضلون بينهم بالتفوق في علو البيان وفصاحة اللسان، حتى بلغ في تقديسهم لهذا أنهم كانوا يقيمون المعارض العامة للتفاخر والتفاضل بفصيح المنظوم وبليغ المنثور، وحتى إن القبيلة كان يرفعها بيت واحد من الشعر يكون رائعًا في مدحها، ويضعها بيت يكون لاذعًا في ذمها. ولقد كان هؤلاء العرب يعرفون نبي الإسلام ويعرفون مقدرته الكلامية من قبل أن يوحى إليه، فلم يخطر ببال منصف منهم أن يقول: إن هذا القرآن كلام محمد ﷺ، وذلك لما يرى من المفارقات الواضحة بين لغة القرآن ولغة الرسول ﷺ.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٩٣-٢٩٤.

يضاف إلى هذا أنه لم يعرف في نشأته بينهم بالخطابة ولا بالكتابة ولا بالشعر، ولم يؤثر أنه شاركهم في معارضهم وأسواقهم العامة التي كانوا يقيمونها للتسابق في البيان؛ بل كان مقبلا على شأنه، زاهدًا في الظهور، ميالًا إلى العزلة. وكل ما اشتهر به قبل النبوة أنه كان صادقا لم يجربوا عليه كذبا، أمينًا ما خان أبدًا، ميمون النقيبة عالي الأخلاق علوا ممتازا! فهل يعقل أن رجلًا سلخ عهد شبابه وكهولته على هذا النمط، يجيء في سن الشيخوخة فينافس العالم كله ويتحداه بشيء من لدنه، وهو الذي ما نافس أحدا قبل ذلك ولا تحداه؛ بل كان من خُلُقه الحياء والتواضع وعدم الاستطالة على خلق الله؟ (١)

ثم ليعلم أن القرآن لو كان كلام محمد كالحديث الشريف؛ لكان أسلوبهما واحدًا ضرورة أنهما على هذا الفرض صادران عن شخص واحد، استعداده واحد، ومزاجه واحد، ولكن الواقع غير ذلك، فأسلوب القرآن ضربٌ وحده، تظهر عليه سمات الألوهية التي تجل عن المشابهة والمماثلة، وأسلوب الحديث النبوي ضربٌ آخر لا يجل عن المشابهة والمماثلة؛ بل هو محلق في جو البيان، يعلو أساليب الناس في جملته دون تفصيله، ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن. (٢)

* * *

(١) مناهل العرفان٢/ ٢٤٤.

(٢) مناهل العرفان٢/ ٣١٤.

١٤ـ شبهة: اقتباس القرآن من الشعر.

نص الشبهة:

ادعى مَنْ عادى الإسلام أن القرآنَ الكريم اقتبس من شعر امرئ القيس عدة فقرات، وضَمَّنَهَا آياتِه، ولم يحدث هذا في آية أو آيتين، بل في عدة آيات، وإذا كان الأمر كذلك، لم يكن لما يُدندن حوله المسلمون من بلاغة القرآن وإعجازه مكان؛ بل هو في ذلك معتمد على بلاغة من سبقه من فحول الشعراء وأساطين البلاغة. ومثال ذلك: ما قاله المناوي: " وقد تكلم امرؤ القيس بالقرآن قبل أن ينزل، فقال:

يتمنى المرء في الصيف الشتاء حتى إذا جاء الشتاء أنكره
فهو لا يرضى بحال واحد قتل الإنسان ما أكفره

وقال:

إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها
تقوم الأنام على رسلها ليوم الحساب ترى حالها

وقال بعضهم إن امرئ القيس قال:

دنت الساعة وانشق القمر غزال صاد قلبي ونفر
مر يوم العيد بي في زينة فرماني فتعاطى فعقر
بسهام من لحاظ فاتك فر عني كهشيم المحتظر
وإذا ما غاب عني ساع كانت الساعة أدهى وأمر. [(١)]

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ (سورة الزلزلة: ١، ٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾، وقوله تعالى ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلِ

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/ ١٨.

ﵟٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّﵞ.

والرد من وجوه: (١)

الوجه الأول: تحدي القرآن للعرب، وعجز فصحائهم عن الإتيان بمثل القرآن، وإقرارهم بأنه ليس من قبيل الشعر.

الوجه الثاني: موقف القرآن والسنة من الشعر والشعراء.

الوجه الثالث: سيرته ﷺ تشهد على قلة معرفته للشعر، واستحالة تأليفه له.

الوجه الرابع: اتخاذ النبي ﷺ شعراء يردون على أعدائه دليل أنه لم يكن شاعرًا.

الوجه الخامس: إن امرؤ القيس وغيره من الشعراء قد نُحلت عليهم العديد من القصائد فضلًا عن الأبيات.

الوجه السادس: ولأن الأبيات من الشعر المولد؛ فإن صاحبها اقتبس كلماتها من القرآن الكريم.

الوجه السابع: أن المتقدمين من أهل اللغة والأدب كانوا يذكرون في كتبهم قضية اقتباس الشعراء من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

الوجه الثامن: لو افترضنا صحة نسبة الأبيات إلي امرئ القيس، فإن ذلك يشهد للقرآن بالفصاحة والبلاغة والبيان.

الوجه التاسع: منافاة أسلوب القرآن لأسلوب الشعر عامة.

---

(١) سيتم الرد على مسألة اقتباس القرآن من الشعر عامةً بذكر الدلائل الواضحات على فساد هذا الكلام، وضرب المثال المفصل على شعر امرئ القيس، وأمر ادعاء أن آيات من سورة القمر توافق أشعارًا لامرئ القيس الشاعر الجاهلي؛ ليكون ذلك ردًا على كل من يدعي أن القرآن قد اقتبس من شعره، أو من شعر غيره، كما نسب الأعداء القرآن لشعر امرئ القيس نسبوه لشعر أمية بن أبي الصلت. انظر مقال " الرد على خرافة اقتباس القرآن من شعر أميّة بن أبى الصلت " بقلم د. إبراهيم عوض في " المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام " وهذا دأبهم. أما أُميَّة فقد عاش بعد الإسلام طويلًا، وشعره الديني الصحيح النسبة إليه اقتبسه من القرآن، فتم التمثيل بشعر امرئ القيس؛ لأنه جاهلي ما عاصر الإسلام فهو مُشْكَلٌ على مَنْ قلَّ علمه ويقينه، كما أنه يستدل به على غيره من الشعراء.

الوجه العاشر: إن فساد معاني الأبيات بما لا يقتضيه واقع العرب وعقيدتها الجاهلية يفضح كذب ادعائها على الشعر الجاهلي كله.

الوجه الحادي عشر: مخالفة الشبهة لمقتضى العقل وانعدام المنهج العلمي في تقريرها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تحدي القرآن للعرب وعجز فصحائهم عن الإتيان بمثل القرآن، وإقرارهم بأنه ليس من قبيل الشعر.

لو كان هناك مطعن في القرآن من حيث لغته ودلالته، أو بيانه وبلاغته، أو ألفاظه ومعانيه، لكان أعداء القرآن من مشركي العرب أتوا به قبل أن يتحداهم القرآن. . . إذ قد اجتمع في كفار قريش أقوى عامِلَين للتشكيك في القرآن الكريم.

العامل الأول: كونهم أهل اللغة، وفصحائها، وفيهم فطاحل الشعراء والخطباء. (1)

العامل الثاني: رغبتهم الجامحة في إطفاء نور الله تعالى، والحرص على جحده وتكذيبه بعد أن عاب آلهتهم، وسفه أديانهم وأحلامهم. بل زاد الأمر عليهم حين تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة أو آية من مثله، فلم يأتوا بشئ.

قال تعالى ـ أول ما تحداهم ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ (الطور: ٣٣، ٣٤)، فلما انقطعوا قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟

---

(١) **يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير ٢/ ١١٥، ١٢٠**: كانوا في معرفة اللغة، والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية؛ إذ مفارقة الأوطان والعشيرة وبذل النفوس والمهج من أقوى ما يدل على ذلك. وكانوا في الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل! فإذا انضاف إليه مثل هذا التقريع وهو قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ فلو كان في وسعهم وإمكانهم الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه لأتوا به، فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتًا معتادًا فهو إذن تفاوت ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزًا.

ويقول الزرقاني في مناهل العرفان ٢/ ٢٧٨: القرآن معجز خصوصًا أن النبي ﷺ تحدى به؛ فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية، وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشد عجزا وأفحش عيا.

بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود: ١٣، ١٤)، فلما عجزوا هذه المرة أيضا طاولهم مرة أخرى وقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤)

يقول القاضي عياض: فلم يزل يقرعهم النبي ﷺ أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والإغراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا إلا قول البشر، إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر وإفك افتراه، وأساطير الأولين. . . ، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾فما فعلوا ولا قدروا، ومَنْ تعاطَى ذلك من سُخَفَائِهِم كمسيلمة كُشِفَ عَوَارُهُ لِجَمِيْعِهِم[1].

ويقول: تحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع، وهو أبلغ في التعجيز، وأحرى بالتقريع، والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم، وهو أبهر آية، وأقمع دلالة، وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال بل صبروا على الجلاء والقتل، وتجرعوا كاسات الصغار والذل، وكانوا من شموخ الأنف، وإباءة الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا، ولا يرضونه إلا اضطرارا، وإلا فالمعارضة لو كانت من قدرهم والشغل بها أهون عليهم وأسرع بالنجح وقطع العذر وإفحام الخصم لديهم وهم ممن لهم قدرة على الكلام وقدوة في المعرفة به لجميع الأنام[2].

ويقول ابن عاشور: الله تعالى تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته، اعترافا بالحق وربئا بأنفسهم عن التعريض بالنفس إلى الافتضاح، مع أنهم

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٢٦١.

(٢) السابق ١/ ٢٦٧.

أهل القدرة في أفانين الكلام نظما ونثرا، وترغيبا وزجرا، قد خُصوا من بين الأمم بقوة الذهن، وشدة الحافظة، وفصاحة اللسان، وتبيان المعاني، فلا يستصعب عليهم سابق من المعاني، ولا يجمح بهم عسير من المقامات(1).

وقال مالك بن نبي: لم يذكر التاريخ أن أحدًا قد أجاب على هذا التحدي، وبهذا يمكن أن نستخلص أنه قد ظل دون تعقيب وإن إعجازه الأدبي قد أفحم فعلا عبقرية ذلك العصر. فكان عجزُهم بعد ذلك أشنعَ وأبشعَ وسَجَّلَ الله عليهم الهزيمة أبد الدهر فلم يفعلوا ولن يفعلوا فافتضح أمرهم.

فكفار قريش الذين عجزوا كانوا أعلم الناس بأشعار العرب وأحفظهم له، وأعرفهم بمداخله ومخارجه، وقد كانوا مع ذلك أحرص الناس على بيان كذب النبي ﷺ، وأنه ما هو إلا ساحر أو كاهن أو شاعر، والله تعالى ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الحاقة: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (يس ٦٩: ٧٠)، فلم يستطيعوا تكذيب كلام الله تعالى، ولم يقدروا على أن يأتوا بدليل على كلامهم من كونه شاعرا إلا التهويش والتكذيب، ثم لو كان اقتبس في القرآن من ذلك الشعر المنسوب لامرئ القيس، لكان كفار قريش ـ وهم الحفاظ لشعره ـ أولَ من يستعين بذلك في رد كلام الله تعالى.

بل ولم يستطيعوا أن يخفوا أو ينكروا إعجاز القرآن وبلاغته وقوته، كما سيأتي بعد قليل. وإن من أعجب العجب أن يخرج علينا الأعجمي الذي لم يرضع اللسان العربي والذي لا يطيق الإبانة عن نفسه بلسان عربي، فيُخَطِّئُ ـ ما عجزت عنه العرب قاطبة ـ أحْكَمَ القَولِ وأبلغَهُ، يخطِّئُ الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، بلسان عربي مبين.

---

(1) التحرير والتنوير ١/ ١٠٦.

إن هؤلاء الأعاجم الأغتام أخذوا يفتعلون الأسباب لتنقص القرآن وإلحاق المعابة به، أنه لم يكن سابقًا في بلاغته؛ بل اعتمد على بلاغة مَن سبقه من الشعراء والفصحاء كامرئ القيس وغيره، وأرادوا بذلك نفي أنه كلام الله وأنه صنع بشري يستعين بمَن سبق. [1]

قال السيوطي: لما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه؛ على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادى عليهم بإظهار العجز، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨) هذا وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره، وإخفاء أمره فلو كان في مقدرتهم معارضته، لعدلوا إليها قطعا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه؛ بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى. . . . ، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم، واستباحة أموالهم وقد كانوا آنف شيء وأشده حمية، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم[2].

وقال أيضًا: قال الجاحظ: بعث الله محمدا أكثر ما كانت العرب شاعرًا وخطيبًا، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر، وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب، ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحًا ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحديًا لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستورًا، وظهر منه ما كان خفيًّا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات فلم يرم

---

(١) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي صـ١٨٩.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٣١٢.

ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولا طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكايد فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته؛ لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى عَلَى مَنْ هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال أكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة؟ وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثًا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه[1].

بل حدث منهم نقيض ذلك؛ فكان العرب الفصحاء يدركون هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب؛ فالوليد بن المغيرة شهد على نفسه وقومه من قبل بأن القرآن الكريم ليس من جنس شعر العرب، فضلًا عن أن يكون مقتبسًا منه.

وكما روى إسحاق بن راهويه بسنده عن ابن عباس: أن الوليدَ بنَ المغيرة جَاءَ إلى رسول الله ﷺ فَقَرأَ عليه القرآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أبا جهل فأتاه فقال: "يا عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برَجَزه ولا

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٣.

بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) ﴾(١).

وروى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ ومسلم عن عبد الله بن الصامت واللفظ لمسلم: أن أنيسًا أخا أبي ذرٍّ، قال لأبي ذرٍّ: لقيت رجلًا بمكة على دينك. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْرَاءِ الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

وفي رواية البخاري: فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاما ما هو بالشعر(٢).

وروى مسلم أن ضماد بن ثعلبة الأزدي قال لرسول الله ﷺ: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر(١).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٠، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٥٦، ودلائل النبوة ٢/ ١٩٨، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية صـ١٥٨.

(٢) رواه البخاري (٣٦٤٨)، ومسلم (٦٥١٣)، (٦٥١٦).

يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٣/ ٦٢: لقد ظهرت حكمة علام الغيوب في ذلك؛ فإن المشركين لما سمعوا القرآن ابتدروا إلى الطعن في كونه منزّلًا من عند الله بقولهم في الرسول: هو شاعر، أي أن كلامه شعر حتى أفاقهم من غفلتهم عقلاؤهم مثل الوليد بن المغيرة، وأُنيس بن جُنادة الغفاري، وحتى قرعهم القرآن بهذه الآية: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩)﴾ وبعد هذا، فإن إقامة الشعر لا يخلو الشاعر فيها من أن يتصرف في ترتيب الكلام تارات بما لا تقضيه الفصاحة مثل ما وقع لبعض الشعراء من التعقيد اللفظي، ومثل تقديم وتأخير على خلاف مقتضى الحال فيعتذر لوقوعه بعذر الضرورة الشعرية، فإذا جاء القرآن شعرًا قصَّر في بعض المواضع عن إيفاء جميع مقتضى الحال حقّه.

وفي قصة عتبة بن ربيعة حين جاء يفاوض النبي ﷺ على أن يترك دعوته، ويعرض عليه المال والملك والسلطان، فقرأ عليه ﷺ شيئًا من القرآن، فلما رجع إلى قومه وجلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم[٢].

بل إن العرب عجزت والتزمت الصمت وما انبست لها شفة، ولا قالوا مثلا: قد كان يمكن لفصحائنا القدماء أن يأتوا بمثل هذا القرآن إنما علموا أن ذلك ليس من قبيل الكلام المعروف.

يقول الجاحظ: وهو يذكر إعجازَ القرآن: ولو أن رجلًا قرأ على رجلٍ منْ خُطبائِهم وبلغائِهم سورةً قصيرةً أو طويلةً؛ لتبيَّنَ له في نظامِها ومَخْرجها منْ لفظِها وطابَعِها أنه عاجزٌ عن مثلِها، ولو تحدَّى بها أَبْلَغَ العربِ لأظهرَ عجزَه عنها. [٣]

ويقول عبد القاهر الجرجاني: المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف، وطبائعهم التي لا تَتَبدَّل، أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلًا إلى دفعها، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم كيف، وإن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أنَّ بأقصى الإقليم الذي هو فيه من يَبْأَي بنفسه[٤]، ويُدِلُّ بشعرٍ يقوله، أو

(١) صحيح مسلم (٨٦٨). قال النووي في شرح مسلم (٦ / ١٥٧): ضبطناه بوجهين أشهرهما: ناعوس بالنون والعين هذا هو الموجود في أكثر نسخ بلادنا، والثاني: قاموس بالقاف والميم. . . ، وقال أبو عبيد: قاموس البحر: وسطه، وقال بن دريد: لجته، وقال صاحب كتاب العين: قعره الأقصى، وقال الحربي قاموس البحر: قعره، وقال أبو مروان بن سراج: قاموس فاعول من قمسته إذا غمسته، فقاموس البحر: لجته التي تضطرب أمواجها ولا تستقر مياهها، وهي لفظة عربية صحيحة.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٧٩، السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

(٣) رسائل الجاحظ ٣/ ٢٢٩، وانظر البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ٢٩.

(٤) (بأى عليه يبأى بأوًا): فخر عليه وأظهر الكبر. لسان العرب (١٤ / ٦٣، مادة: بأي).

خطبة يقوم بها، أو رسالة يعملها، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته، وإلى أن يُظْهِر ما عنده من الفضل، ويبذُلَ ما لديه من المُنَّة، حتى إنه ليتوصَّل إلى أن يكتب إليه، وأن يعرض كلامه عليه، ببعض العِلَل وبنوع من التَّمَحُّل، هذا وهو لم ير ذلك الإنسان قط، ولم يكن منه إليه ما يَهُزُّ ويُحَرِّك ويَهيجُ على تلك المعارضة، ويدعو إلى ذلك التَعَرُّض.

وإن كان المُدَّعِي بمرًاى منه ومسمع، كان ذلك أَدعى له إلى مُباراته، وإلى إظهار ما عنده، وإلي أن يعرف الناس أنه لا يُقصِّر عنه، أو أَنَّه منه أفضلُ.

فإن انضافَ إلى ذلك أن يَدْعُوَه الرجلُ إلي مُماتَنَتِه، ويُحَرِّكه لُمقاوَلته، فذلك الذي يُسهر ليله ويَسلُبُه القرار، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه، ويبلغ أقصى الحدِّ في مناقضته.

وإذا كان هذا واجبًا بين نَفْسين لا يَرُومُ أحدُهما من مُباهاةِ صاحبه إلا ما يَجْرِي على الألسُن من ذِكْرِه بالفضل فقط، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب، وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبيَّة والهمم العليَّة، والأَنَفَة والحمية مَنْ يدَّعي النبوة، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كَافَّة، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار، وأنه قد نَسَخَ به كل شريعةٍ تقدَّمته، ودِينٍ دان به الناس شَرْقًا وغربًا، وأنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده، إلى سائر ما صدع به ﷺ، ثم يقول: وحجتي أن الله تعالى قد أنزل كتابًا عربيًا مبينًا، تعرفون ألفاظه، وتفهمون معانيه، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله، ولا بعشر سور منه، ولا بسورة واحدة، ولو جَهدتم جَهْدكم، واجتمع معكم الجن والإنس ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه، ويُبَيِّنوا سَرَفَه في دعواه، مع إمكان ذلك، ومع أنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثله أو قريب منه؟ أم هل يجوز أن يخرج خارجٌ من الناس على قوم لهم رياسة، ولهم دين ونِحلة، فَيُؤَلِّبَ عليهم الناس، ويُدَبِّرَ في إخراجهم من ديارهم وأموالهم، وفي قَتْلِ صناديدهم وكبارهم، وسَبْي ذراريهم وأولادهم، وعُمْدتُه التي يجد بها السبيل إلى تَألُّفِ

مَنْ يَتَأَلَّفُهُ، ودُعاءٍ من يدعوه، دَعْوى له في تلك الدعوى، ولا يُشْتَغَل بإبطالها، مع إمكان ذلك، ومع أنه ليس بمتعذِّر ولا ممتنع؟ [١]

من ثَمَّ فإن أي تشكيك بعدهم في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، إنما هو ضرب من الهذيان، إذ إن أولى الناس بهذا التشكيك كفارَ قريش، فقد وقفوا حائرين أمام عبارات القرآن وآياته، وكان حالهم على نحو ما ذكر عبد القاهر منذ قليل.

الوجه الثاني: موقف القرآن والسنة من الشعر والشعراء.

الإسلام وقف من الشعر موقف الحذر، فالشعر جائز إذا خلا عن الكذب والرياء وهجو ما لا يجوز هجوه، وعن ذكر الفسق ومدحه والتغني به، وأن يخلو من آفات المدح مع عدم الاستكثار منه، والتجرد له حتى يشغله عن بعض الواجبات والسنن، وقلما يخلو الشعر عن هذه الآفات.

فإذا كانت حال الشعر بهذه المثابة، والإسلام يبيح منه قسما، ويُحَرِّمُ آخر فكيف يستقيم أن يقتبس منه في كتابه الكريم الخالد؟ بل وكيف يقتبس من الشعر الجاهلي الذي قبله وأغراضه معلومة؟

وللبيان نقول ما هو الشعر؟

الشعر في اللغة: واحد الأشعار، وهو في اصطلاح الأدباء كما قال ابن خلدون: "الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تتكون أوزانه كلها على رويٍّ واحد وهو القافية".

وقال: "وأساليب الشعر تناسبها خلط الجد بالهزل، والإطناب في الأوصاف، وضرب الأمثال، وكثرة التشبيهات والاستعارات"[٢].

ويقول صديق حسن: الشعر: هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به. [١]

---

(١) "الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني من صـ٥٧٦: ٥٨٠ باختصار.

(٢) في المقدمة ص٥٣٢.

بدء الشعر عند العرب

الشعر من أعظم ما جادت به ألسنة العرب، وهو عنوان لغتها وبلاغتها، وسجل حوادثها وتاريخها، وترجمان أخلاقها وعاداتها، وكان أحب إليهم من غيره، وأرفع قدرًا وأعظم شأنًا، والشعر عند العرب صفة قديمة لهم ولا يمكن تحديد بدء ظهوره.

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: ومما يدل على أن الشعر قديم العهد قول امرئ القيس:

عودا على الطلل القديم لعلنا   نبكي الديار كما بكى ابن حزام

وقول عنترة: هل غادر الشعراء من متردّم[٢]

الشعر والشعراء في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء ٢٢٤: ٢٢٧)

يقول ابن كثير: قال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس، ولهذا فئَامٌ من الناس، فأنزل الله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون. وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها، مرة في شتمة فلان، ومرة في مدحة فلان. وقال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطل، ويذم قومًا بباطل.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فقال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه.

---

(١) أبجد العلوم ١/ ٢٩٦.

(٢) في تاريخ الأدب العربي ص٢٨.

وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر؛ فإن الشعراء يتبجَّحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم[١].

قال الماوردي: قال أهل التأويل: يريد بالشعراء، الذين إذا قالوا كذبوا، وإذا غضبوا سبوا[٢].

موقف السنة من الشعر والشعراء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لأن يمتلئ جوف الرجل قيحا يَرِيه خير من أن يمتلئ شعرًا"[٣].

وفي رواية مسلم عن أبي سعيد قال: "بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله: "خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان؛ لأن يمتلئ جوف رجل قيحًا خير من أن يمتلئ شعرًا"[٤].

فهذا الحديث في ظاهره يدل على التنفير من الشعر والحث على هجره واجتنابه؛ بل على تحريم تعاطيه. وصدّر البخاري ترجمته بقوله: باب ما يكره أن يكون الغالبُ على الإنسان الشعر حتى يصُدّهُ عن ذكر الله والقرآن.

قال ابن الأثير: هو مَوْرِيٌّ إذا أصاب جوفه الداء.

قال الأزهري: الوَرْيُ مثَال الرَّمْي: دَاء يُداخل الجَوف. يقال: رَجُلٌ مَوْرِيٌّ غير مهموز. وقال الفرّاء: هُو الوَرَى بفتح الراء. وقال ثَعْلب: هو بالسُّكون: المَصْدَرُ وبالفَتْح: الاسم. وقال الجوهري: وَرَى القَيْحُ جَوْفَهُ يَرِيه وَرْيًا: أكَلَه.[٥]

وقال النووي: قالوا؛ بل الصواب أن المراد أن يكون الشعر غالبًا عليه، مستوليًا عليه، بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى، وهذا مذموم من أي شعر كان، فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه فلا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١٧٣، ١٧٤.

(٢) الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠٣) ومسلم (٦٠٣٠).

(٤) صحيح مسلم (٦٠٣٢).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٣٩٠.

يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئا شعرا والله أعلم(١).

ويقول ابن الجوزي: هذا الحديث محمول على من جعل جميع شغله الشعر، فلم يحفظ شيئًا من القرآن ولا من العلم؛ لأنه إذا امتلأ الجوف بالشيء لم يبق فيه سعة لغيره. وقال أحمد بن حنبل: أكره من الشعر الهجاء والرقيقَ الذي يشبب بالنساء، فأما الكلام الجاهلي فما أنفعه! (٢)

ويقول ابن عبد البر: أحسن ما قيل في تأويل هذا الحديث والله أعلم، أنه الذي قد غلب الشعر عليه، فامتلأ صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذكر غيره، ممن يخوض به في الباطل ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من الهذر واللغط والغيبة وقبيح القول ولا يذكر الله كثيرا. وهذا كله مما اجتمع العلماء على معنى ما قلت منه؛ ولهذا قلنا فيما روي عن ابن سيرين والشعبي ومن قال بقولهما من العلماء: الشعر كلام؛ فحسنه حسن وقبيحه قبيح أنه قول صحيح، وبالله التوفيق(٣).

وبَعد ما ذُكِرَ نعلم أن التحقيق أن الحديث الصحيح المصرّح بأن امتلاء الجوف من القيح المفسد له خير من امتلائه من الشعر، محمول على من أقبل على الشعر، واشتغل به عن الذكر، وتلاوة القرآن، وطاعة الله تعالى، وعلى الشعر القبيح المتضمّن للكذب والباطل، كذكر الخمر ومحاسن النساء الأجنبيّات، ونحو ذلك.

يقول ابن بطال: الشعر والرَجَز والحُداء كسائر الكلام، فما كان فيه ذكر تعظيم لله ووحدانيته وقدرته وإيثار طاعته وتصغير الدنيا والاستسلام له تعالى، فهو حسن مرغب فيه، وهو الذي قال فيهﷺ: "إن من الشعر حكمة"، وما كان منه كذبًا وفحشًا فهو الذي ذمه الله ورسوله"(٤).

ما يرخص فيه من الشعر:

(١) شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٤.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين لأبي الفرج ابن الجوزي ١/ ١٦٩.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٢٢/١٩٦، وانظر الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٨ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٥٠، ١٣/ ١٥١.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/ ٣١٩.

ما ورد في ذم الشعر والشعراء في القرآن أو في السنة، فإنما يُذَمُّ مَنْ أَسَرَفَ وكَذَبَ، فالغالب أن الشعراء يقولون الكذب، فيقذفون المحصنات، ويهجون الأبرياء، فوقع الذم على الأغلب، واستثنى الله منهم من لا يفعل ذلك، كما في آيات سورة الشعراء. وما ورد في السنة من ذم حفظ الشعر فالمقصود به الإكثار من ذلك حتى يشغله عن القرآن والسنة والتفقه في الدين، أو ما كان فيه تشبيب بالنساء ونحوه.

أما الشعر الذي فيه نصرٌ للحق وأهله، ودفاع عن الرسول ﷺوشرعه، ففيه تنزل نصوص مدح الشعر والشعراء، ومنها دعائه ﷺ لحسان: "يا حسان! أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس"[(١)].

ودليل ذلك أيضًا ما أخرجه الإمام البخاري عن أبي بن كعب أخبره أن رسول الله ﷺ قال: إن من الشعر حكمة[(٢)].

قال ابن حجر: قوله: إن من الشعر حكمة؛ أي قولًا صادقًا مطابقًا للحق، وقيل: أصل الحكمة المنع، فالمعنى: أن من الشعر كلاما نافعا يمنع من السفه[(٣)].

وقال السندي: (من) تبعيضية يريد أن الشعر لا دخل له في الحسن والقبح، ولا يعتبر به حال المعاني في الحسن والقبح، والمدار إنما هو على المعاني لا على كون الكلام نثرًا أو نظمًا، فإنهما كيفيتان لأداء المعنى وطريقان إليه، ولكن المعنى: إن كان حسنًا وحكمة فذلك الشعر حكمة، وإذا كان قبيحًا فذلك الشعر كذلك، وإنما يذم الشعر شرعًا بناء على أنه غالبًا يكون مدحًا لمن لا يستحقه وغير ذلك[(٤)].

وروى البخاري في الأدب المفرد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: "الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام"[(١)].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢)، مسلم (٢٤٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٥٧٩٣).

(٣) فتح الباري ١٠/ ٥٤٠.

(٤) حاشية السندي على سنن ابن ماجة ٧/ ١٥٣.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: الشعر منه حسن ومنه قبيح؛ خذ بالحسن ودع القبيح. ولقد رُويت من شعر كعب بن مالك أشعارًا منها القصيدة فيها أربعون بيتا ودون ذلك(٢).

وقد أنشد كثير من الصحابة الشعر بحضرة الرسول ﷺ، فروى مسلم عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ رَدِفْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: " هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِى الصَّلْتِ شَيْئًا ». قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: « هِيهِ ». فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ: « هِيهِ ». ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ: « هِيهِ ». حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ". (٣)

وأخرج بن أبي شيبة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم فإذا أريد أحدهم على شيء من دينه دارت حماليق عينيه(٤).

وقال الماوردي: وقد استشهد عبد الله بن عباس رضي الله عنه فيما سأله نافع بن الأزرق في معاني القرآن بأشعار العرب، ودل به على معانيه وقال: الشعر ديوان العرب، فما أنكره أحد منهم من الصحابة والتابعين(٥).

وقال ابن الجوزي: قال حبيب بن أبي ثابت: كان ابن عباس يعجبه شعر زهير ويقضي له، وكان معاوية يعجبه شعر عدي ويقضي له، وكان ابن الزبير يعجبه شعر عنترة ويقضي له، قال: وإنما اختار ابن عباس شعر زهير؛ لأنه كان يختار من الشعر أكثره أمثالًا وأدله على العلم والخير، واختار معاوية شعر عدي؛ لأنه كان كثير الأخبار، واختار ابن الزبير شعر عنترة لشجاعته(٦).

---

(١) الأدب المفرد (٨٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٦)، وقال ابن حجر في الفتح١٠/ ٥٤٠: سنده حسن. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٧٣١.

(٣) صحيح مسلم (٦٠٢٢).

(٤) ابن أبي شيبة (٤٠٥)، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح١٠/ ٥٤٠.

(٥) الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٣.

(٦) كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ١٦٩.

قال الماوردي: قال الشافعي: والشعر حكمه كلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيحه. (١)

وقال ابن تيمية: إن الأمثلة المنظومة والمنثورة إذا كانت حقا مطابقا فهي من الشعر الذي هو حكمة، وإن كان فيها تشبيهات شديدة وتخيلات عظيمة أفادت تأليفا وتنفيرًا(٢).

قال ابن قدامة: وليس في إباحة الشعر خلاف، وقد قاله الصحابة والعلماء، والحاجة تدعو إليه لمعرفة اللغة العربية والاستشهاد به في التفسير، وتعرف معاني كلام تعالى وكلام رسوله ﷺ، ويستدل به أيضًا على النسب والتاريخ وأيام العرب. (٣)

فالشعر أنواع: فما كان فيه حكمة، أو موعظة حسنة، أو دفاع عن حق، أو إبطال لباطل، أو نحو ذلك من وجوه الخير فهو خير وهو مشروع. وما كان فيه كذب، أو شرك، أو لهو، أو مجون، أو إغراء بشرٍّ أو نصر لباطل، أو إبطال لحق، أو ثناء على أهل الشر، أو ذم لأهل الخير، أو نحو ذلك فهو شر وهو ممنوع، وبالجملة فحكمه حكم ما اشتمل عليه.

يقول ابن حجر: الذي يتحصل من كلام العلماء في حد الشعر الجائز أنه إذا لم يكثر منه في المسجد، وخلا عن هجوٍ وعن الإغراق في المدح والكذب المحض والتغزل بمعين لا يحل، وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على جوازه إذا كان كذلك(٤).

الوجه الثالث: سيرته ﷺ تشهد على قلة معرفته للشعر، واستحالة تأليفه له.

من أين للنبي ﷺ أن يعرف الشعر أو أن يقوله؟ والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩). ويقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء ٢٢٤: ٢٢٦).

(١) الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦٥١.

(٣) المغني لابن قدامة ٢٣/ ١٨٨، وانظر الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٢: ٢١٠. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٤٧.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٥٣٩.

قَالَ المُشْرِكُونَ: إنَّ مُحَمَّدًا لَشاعرٌ، وقالوا: إن القرآنُ شِعْرٌ؛ فأنزَلَ الله تعالى هذهِ الآيَة الكريمةَ يُرُدُّ بها على افْتِرَائِهِمْ هَذا، ويقولُ لهمْ: إنَّ القرآنَ فيما حَواه من حِكَمٍ وأحْكَامٍ، وفي أُسْلُوبِه يَتَنَاقَضُ مع الشِّعْرِ. وإنَّ حَالَ مُحَمَّدٍ يَتَنَافَى مَعَ حَالِ الشُّعْراءِ، فهوَ لا يَنْطِقُ إلا بالحَقِّ والحِكْمَةِ، والصِّدْقِ، ويَتَّبِعُهُ الصَّادِقُونَ المُخْلِصُونَ. والشُّعَراءُ يقولونَ الباطِلَ والزُّورَ، ولا يَتَّبِعُهُمْ إلا الضَّالُّونَ.

والشُّعَرَاءُ يَخُوضُونَ في كُلِّ لغْوٍ، ألم تر أنهم في كل واد من أودية القول يهيمون على وجوههم، في كلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الكَلاَمِ، فلا يهتدون إلى الحق؟ فَهُمْ يَخُوضُونَ مرةً في شَتيمةِ فلانٍ، ومَرةً في مَدِيحِ فُلانٍ، فلا يَهْتَدُونَ إلى الحَقِّ.

والشُّعَرَاءُ يقُولُونَ مَا لاَ يَلْتَزِمُونَ بِهِ في عَمَلِهِمْ، ويَتَبَجَّحُونَ بأقْوَالٍ وأَفْعَالٍ لمْ تَصْدُرْ عَنْهُمْ ولا مِنْهُمْ، فَيتكَثَّرُونَ بِمَا ليسَ لهُمْ، والرَّسُولُ الذي أُنْزِلَ عليهِ القُرآنُ ليسَ بِكَاهِنٍ، ولا شَاعِرٍ لأنَّ حالَهُ مُنَافٍ لِحَالِ الشُّعَراءِ مِنْ وُجُوهٍ ظَاهِرَةٍ فهو ينطق بالحكمة، وهم ينطقون بالزور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاهُوَبِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ يظهر منه أن الله تولى الدفاع عن حبيبه ونبيه ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم: ٢) نفي لقولهم هو شاعر إذ الشعراء يتبعهم الغاوون[1].

يقول محمد الأمين الشنقيطي: أما دعواهم أنه ﷺ شاعر، فقد ذكره تعالى في قوله عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء: ٥)، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ (الصافات: ٣٦)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (الطور: ٣٠). وأمّا تكذيب الله لهم في ذلك، فقد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (الحاقة: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس: ٦٩)، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ٣٦، ٣٧)؛ لأن قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾، تكذيب لهم في قولهم إنه شاعر مجنون[1].

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد (الشعراء ٢٢٤: ٢٢٦) بتصرف.

يقول ابن كثير عن آية سورة (يس): يقول تعالى مخبرًا عن نبيه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبِلَّته؛ ولهذا وَرَدَ أنه، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتًا على وزنٍ منتظم، بل إن أنشده زَحَّفه أو لم يتمه.

ويقول: قال أبو زُرْعة الرازي: حُدِّثت عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبي أنه قال: ما وَلَد عبد المطلب ذكرًا ولا أنثى إلا يقول الشِّعر، إلا رسول الله ﷺ[٢].

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر، تمثل فيه ببيت طَرَفَة: ويَأْتِيكَ بالأخْبار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[٣]

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٦/ ١٠٤

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٦/ ٥٨٨، ويقول عبد العزيز القارئ في مقالة (شعر أهل الحديث) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد ١٠ صـ٢٩٣: من المجمع عليه أنه ﷺ لم يكن شاعرًا ولم ينظم الشعر، بل طبعه الله ﷻ على خلاف سجية الشعراء ومنع عنه ملكة الشعر. . حتى ما كان يستقيم في لسانه في الغالب، وإن كان يجري على لسانه أحيانًا، إلا أن المنفي عنه بالجملة أن يكون شاعرًا، فإذا جرى على لسانه بيت أو بيتان مستقيمان فإن ذلك لا يعني أنه قال شعرًا، لأن جريان كلام منظوم بغير قصد لنظمه وعنايته بإيجاده موزونًا، يجري على كل الألسنة ولا يعتبر شعرًا.

ويقول صـ٢٩٤: وكون الرسول أميًا لم يعن مذمة الكتابة والقراءة. . وكذلك كونه ليس شاعرًا لا يعني ذم الشعر. . فلا يفهم من قوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ إلا أن الشعر مع مقام الوحي لم يكن مناسبًا، كما أن الأمية كانت مناسبة، والدليل على أن المقصود هو تأكيد أن القرآن ليس بشعر أن الآية جاءت في معرض هذا المعنى حيث يقول بعدها: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾فيكون المعنى وما ينبغي أن يكون القرآن شعرًا؛ لأنه كتاب إرشاد وتعليم وموعظة للناس، والشعر ليس محلا للتفصيل والتبيين والإيضاح بل هو محل الإجمال والإشارة. . فهذا الكلام ليس من نوع الشعر ولكنه (قرآن مبين).

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣١، ١٤٦، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩٦)، وفي السنن الكبرى (١٠٨٣٤)، عن الشعبي، عن عائشة، وأخرجه الترمذي (٢٨٤٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩٧)أيضًا، وأحمد ٦/ ١٣٨: من حديث المقدام بن شريح بن هانئ، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها كذلك، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٥٧).

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن عائشة: كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله. فقال أبو بكر ليس هكذا، فقال: رسول الله ﷺ: "إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي"(١).

ومع فصاحته ﷺ كان يبغض الشعر، روى الإمام أحمد عن أبي نوفل قال: سألتُ عائشة: أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبغض الحديث إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك. (٢)

يقول ابن عاشور: تقدير المعنى: نحن علمناه القرآن وما علمناه الشعر، فالقرآن موحىً إليه بتعليم من الله والذي أوحى به إليه ليس بشعر، وإذن فالمعنى: أن القرآن ليس من الشعر في شيء. ودل على أن هذا هو المقصود من قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ قوله عقبه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي ليس الذي علمناه إياه إلا ذكرًا وقرآنا وما هو بشعر. والتعليم هنا بمعنى الوحي، أي وما أوحينا إليه الشعر فقد أطلق التعليم على الوحي في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ (النجم ٤: ٥) وقال ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣)(٣).

يقول: وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين أي ما يتأتّى له الشعر، قُصِدَ منها اتباع نفي أن يكون القرآن الموحَى به للنبي ﷺ شعرًا بنفي أن يكون النبي ﷺ شاعرًا فيما يقوله من غير ما أوحى به إليه، أي فطر الله النبي ﷺ على النفرة بين ملكته الكلامية والملكة الشاعرية، أي لم يجعل له ملكة أصحاب قرض الشعر؛ لأنه أراد أن يقطع من نفوس المكذّبين دابر أن يكون النبي ﷺ شاعرا وأن يكون قرآنه شعرًا؛ ليتضح بهتانهم عند من له أدنى مسكة من تمييز للكلام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٥٩٠، ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١١٧) عن معمر عن قتادة، به.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤)، والطيالسي في المسند (١٥٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى(١٠/ ٢٤٥)، وابن أبي شيبة (٢٦٦١٥) وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٢٠: رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٥٩).

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ٥٧. وانظر أيضا: نظم الدرر ٦/ ٢٧٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٩.

ومعنى كون الشعر لا ينبغي له: أن قول الشعر لا ينبغي له؛ لأن الشعر صنف من القول له موازين وقوافٍ، فالنبي ﷺ منزّه عن قرض الشعر وتأليفه، أي ليست مِن طباع ملكته إقامة الموازين الشعرية، وليس المراد أنه لا ينشد الشعر؛ لأن إنشاد الشعر غير تعلّمه، وكم من راوية للأشعار ومن نَقَّادٍ للشعر لا يستطيع قول الشعر، وكذلك كان النبي ﷺ قد انتقد الشعر، ونبه على بعض مزايا فيه، وفضّل بعض الشعراء على بعض، وهو مع ذلك لا يقرض شعرًا. وربما أنشد البيت فغفل عن ترتيب كلماته فربما اختلّ وزنه في إنشاده، وذلك من تمام المنافرة بين ملكة بلاغته وملكة الشعراء، ومنها جانب قوام الشعر ومعانيه فإن للشعر طرائق من الأغراض كالغزل والنسيب والهجاء والمديح والمُلَح، وطرائق من المعاني كالمبالغة البالغة حدّ الإغراق وكادّعاء الشاعر أحوالًا لنفسه في غرام أو سير أو شجاعة هو خِلوٌ من حقائقها فهو كذب مغتفر في صناعة الشعر. وذلك لا يليق بأرفع مقام لكمالات النفس، وهو مقام أعظم الرسل صلوات الله عليه وعليهم فلو أن النبي ﷺ قَرَضَ الشعر، ولم يأت في شعره بأفانين الشعراء لَعُدَّ غضاضة في شعره، وكانت تلك الغضاضة داعية للتناول من حُرمة كماله في أَنْفُسِ قومه يستوي فيها العدوّ والصديق. على أن الشعراء في ذلك الزمان كانت أحوالهم غير مرضية عند أهل المروءة والشرف لما فيهم من الخلاعة والإقبال على السُكر والميسر والنساء، فلو جاء الرسول ﷺ بالشعر أو قاله لرمقه الناس بالعين التي لا يرمق بها قدره الجليل وشرفه النبيل، فتنزيه النبي ﷺ عن قول الشعر من قبيل حياطة معجزة القرآن وحياطة مقام الرسالة مثل تنزيهه عن معرفة الكتابة[1].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٦٢، ٦٣، ٦٤ بتصرف. ويقول أحمد المراغي في تفسيره٢٣/ ٣٠: لأن الشعر يسير مع العواطف والأهواء وليس مع ما يمليه العقل الصحيح، فكان مستقر المبالغات والأراجيف والمدائح والتفاخر ومبني على الركون إلى الأهواء تبعًا لفائدة ترجى، أو شفاء للنفس من ضغائن الصدور، والشرائع والأحكام تنزه عن مثل هذا.

والخلاصة: إن الله تعالى كما جعل رسوله أميا لتكون الحجة أتم والبرهان على المشركين أقوم كذلك منعه قول الشعر حتى لا يكون لهم حجة أن يدَّعو عليه أن القرآن من المفتريات التي يتقولها، والأباطيل التي ينمقها، وليس بوحي من عند ربه.

ومن شهد للنبي ﷺ بذلك ضماد الأزدي كما في صحيح مسلم عن ابن عباس: (أَنَّ ضمادًا قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون. فقال لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه، فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: " إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله أما بعد". قال: فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر. قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه. [1]

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر: كلمات قلائل تذوقها ضماد ﷺ، ولم يصبر حتى يتلى عليه بعض ما نزل من القرآن يومئذ بمكة وقطع الحديث ليستعيد ما سمع، ونحن اليوم نسمعها من كل منبر في كل يوم جمعة ونحن في غفلة عن تذوقها تذوق ضماد. كانت هذه الكلمات التي سمعها ضماد يومئذ هي وحدها دليله على نبوة صديقه الذي كان يعرفه ويعرف كلامه بالأمس في الجاهلية؛ لأنه وصل بتذوقها إلي صميم الفرق بين كلام صاحبه بالأمس وكلامه في هذا اليوم، وأسرعت به إلي البيعة على الإسلام قبل أن يسمع كلام الله! فأي دقة في التذوق! ! وأي رجال كان هؤلاء الذين فوض إليهم التفريق بين كلام رب العالمين وكلام عبيده من البشر؟!. [2]

الوجه الرابع: اتخاذ النبي ﷺ شعراء يردون على أعدائه دليل أنه لم يكن شاعرًا.

وقد كان المقتضى أن يقوم هو بالرد على الأعداء؛ فيكون ذلك أبلغ في النكاية بالقوم، وحتى لا يقولوا عجز عن الرد، فاستعان بهؤلاء النفر من أصحابه، ولكن كما سبق ما له وللشعر ﷺ وكان على الشعر العبء الأكبر في تأجيج نار الخصومة والمجاهرة بها، فقام الصحابة رضوان الله عليهم بهذا الدور.

---

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٤٥)، وأحمد ١/ ٣٠٢.

(٢) قضية الشعر الجاهلي صـ٦٢، ٦١.

قال الماوردي: وقد كان للنبي ﷺ شعراء، منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكانوا ينشدون الشعر تارة ابتداء ويأمرهم به أخرى ليردوا على من هجاه[(١)].

فهم وأمثالهم من الذين استثناهم الله تعالى من الشعراء بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

وهم الشعراء الذين أغلب أحوالهم تحري الحق والصدق ممن دافعوا عن الرسالة والرسول ونافحوا عن الإسلام، ودافعوا عن القيم الفاضلة، فدخلوا في حزب المؤمنين، فعملوا بأعمالهم الصالحة وذكَرُوا الله كَثِيرًا في أشعارهم ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ أراد بذلك الانتصار لله، ولرسوله، ولدين الله، وللمؤمنين. فذلك عمل صالح، وعُدَّةٌ من عُدَدِ الحرب، وقوام الدين.

كما كان يقع من شعراء النبيّ ﷺ، فإنهم كانوا يهجون من يهجوه، ويحمون عنه ويذبون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم.

قال ابن سيرين: كان كعب بن مالك يخوفهم الحرب، وكان حسان يقبل على الأنساب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر[(٢)].

أما حسان فهو: ابن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار. شاعر رسول الله ﷺ عاش مائة وعشرين سنة: ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام.

روى البخاري: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة أنشدك الله هل سمعت النبي ﷺ يقول يا حسان أجب عن رسول الله ﷺ: اللهم أيده بروح القدس؟ قال أبو هريرة: نعم[(٣)].

وقال ﷺ لحسان بن ثابت " اهجهم يعني قريشًا فو الله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام، في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات.

---

(١) الحاوي في فقه الشافعي ١٧/ ٢٠٤

(٢) أسد الغابة في ترجمة: كعب بن مالك.

(٣) رواه البخاري (٤٤٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

وعَنْ الْبَرَاءِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِحَسَّانَ: اهْجُهُمْ، أَوْ قَالَ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ[(١)].

وروى البخاري ومسلم: عن عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: " اهْجُوا قُرَيْشًا فإنه أَشَدُّ عليها من رَشْقٍ بِالنَّبْلِ، فَأَرْسَلَ إلى بن رَوَاحَةَ فقال: اهْجُهُمْ فَهَجَاهُمْ فلم يُرْضِ، فَأَرْسَلَ إلى كَعْبِ بن مَالِكٍ ثُمَّ أَرْسَلَ إلى حَسَّانَ بن ثَابِتٍ فلما دخل عليه قال حَسَّانُ: قد آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إلى هذا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ ادلع لِسَانَهُ، فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ فقال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ فقال رسول الله ﷺ لَا تَعْجَلْ؛ فان أَبَا بَكْرٍ أعلم قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا، وإن لي فِيهِمْ نَسَبًا حتى يُلَخِّصَ لك نَسَبِي، فأتاه حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ فقال: يا رَسُولَ الله قد لَخَّصَ لي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ من الْعَجِينِ. قالت عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول لِحَسَّانَ إن رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ ما نَافَحْتَ عن الله وَرَسُولِهِ. وَقَالَتْ سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى "، قال حَسَّانُ:

هجوتَ محمداً، فأجبتُ عنهُ ... وعندَ الله في ذاكَ الجزاءُ
أتَهْجُوهُ، وَلَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ ... فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِداءُ
هجوتَ مباركاً، براً، حنيفاً ... أمينَ الله، شيمتهُ الوفاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهَّ مِنْكُمْ ... ويمدحهُ، وينصرهُ سواءُ
فَإنّ أبي وَوَالِدَهُ وَعِرْضي ... لعرضِ محمدٍ منكمْ وقاءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ، ... وَبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ الّدلاءُ[(٢)]

قال ابن حجر: قال أبو عبيدة: فُضِّلَ حسان بن ثابت على الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في أيام النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام[(٣)].

أما ابن رواحة فهو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري

(١) صحيح البخاري (٥٦٨٧).

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٤٩٠) واللفظ لمسلم.

(٣) الإصابة في أخبار الصحابة ٢/ ٦٣.

الخزرجي يكنى أبا محمد، وهو أحد النقباء، شهد العقبةَ وبدرًا وأحدًا والخندق والحديبية وعمرة القضاء، والمشاهد كلها إلا الفتح وما بعدها؛ لأنه قتل يوم مؤتة شهيدا، وهو أحد الأمراء في غزاة مؤتة، وأحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ إِنَّ أَخًا لَكُمْ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ يَعْنِي بِذَاكَ ابْنَ رَوَاحَةَ قَالَ:

وَفِينَا رَسُولُ الله يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنْ الْفَجْرِ سَاطِعُ

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ ... مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ. [(١)]

وفي الصحيحين أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة، ولكن تبعًا لقول أصحابه، فإنهم يرتجزون وهم يحفرون، فيقولون:

اللهمَّ لوْلا أنت مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنزلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّت الأقْدَامَ إنْ لاقَيْنَا

إنّ الألى قَدْ بَغَوا عَلَيْنَا ... إذَا أرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا. [(٢)]

ويرفع صوته بقوله: "أبينا" ويمدها.

أما كعب فهو: كعب بن مالك ابن أبي كعب، واسم أبي كعب: عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب ابن سلمة الأنصاري، الخزرجي العقبي الأحدي. أحد شعراء رسول الله ﷺ الذين كانوا يردون الأذى عنه، وكان مجودًا مطبوعًا قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر، وعرف به ثم أسلم وشهد العقبة ولم يشهد بدرًا وشهد أحدًا والمشاهد كلها حاشا تبوك، فإنه تخلَّف عنها. وقد قيل: إنه شهد بدرًا فالله تعالى أعلم. وهو أحد الثلاثة الأنصار الذين قال الله فيهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ (التوبة: ١١٨). [(٣)]

---

(١) صحيح البخاري (٥٦٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٢٨٧٠) وصحيح مسلم (٤٧٧١).

(٣) انظر الاستيعاب ١/ ٤١١.

عن ابن المنكدر، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن مالك: " ما نسي ربك لك – وما كان ربك نسيًا – بيتًا قلته ". قال: ما هو؟ قال: " أنشده يا أبا بكر "، فقال:

زعمت سُخينة أنْ ستغلب ربها ... وليُغلَبَنَّ مغالب الغلاب(١)

وله أشعار حسان جدًا في المغازي وغيرها.

قال ابن سيرين: فبلغني أن دوسا إنها أسلمت فرقا من قول كعب بن مالك:

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ثم أغمدنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن: دوسا أو ثقيفا

فقالت دوس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف(٢).

ومن شعراء النبي ﷺ: كعب بن زهير، والأعشى أعشى بني مازن اسمه عبد الله بن الأعور ويقال عبد الله بن عمرو من بني تميم، وغيرهم الكثير وما ذُكر إشارة على اتخاذه ﷺ للشعراء.

فالرسول ﷺ يستعين بهم، ويوظفهم في مقاومته أهلَ مكَّةَ وشعرائها، الذين هجوه وآذوا دعوته وصدوا عنها فهو ﷺ استخدم أسلحة قريش في الرد عليهم، حيث استعمل الأنساب والأيام والمثالب، والشعر الذي دار في الهجاء بين شعراء المسلمين والمشركين يمثل الصورة.

يقول الشيخ عبد الحي الكتاني: قال الشهاب البربير في كتاب الشرح الجلي: الصحابة كانوا معدن الشعر ومنبعه منهم: النابغة الجعدي، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك، والزبرقان، والعباس بن مرداس، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن رواحة، وضرار بن الخطاب، والعباس عمهﷺ، وابنه عبد الله بن عباس، ولبيد، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبوه أبو سفيان، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم.

قلت: الشعراء من الصحابة الذين مدحوه ﷺ بين رجال ونساء جمعهم الحافظ فتح الدين محمد بن محمد الأندلسي المعروف بابن سيد الناس المتوفى عام ٧٣٤ في قصيدة ميمية ثم شرحها في مجلد سماه: "منح المدح أو فتح المدح" ورتبهم على حروف المعجم قارب بهم المائتين(١).

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٠/ ١٩٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٧٠).

(٢) أسد الغابة في ترجمة: كعب بن مالك.

ومن الوجوه المفحمة في رد هذه الفرية: إبطال نسبة هذه الأبيات إلى عصر الجاهلية من عدة وجوه، وما هي إلا أبيات مولدة في العصور الإسلامية اقتبس صاحبها بعض الأساليب والكلمات من القرآن الكريم على ما درج عليه أهل الأدب قديما وحديثا فلا شبهة في هذا ولا اقتباس وإليك الكلام مفصلًا في:

الوجه الخامس: إن امرئ القيس وغيره من الشعراء قد نحلت عليهم العديد من القصائد فضلا عن الأبيات.

بل نُحل على بعضهم قصص كاملة لا خطم لها ولا أزمة، وقضية نحل الشعر ونسبته لقدماء الشعراء أمر معروف لا يستطيع أحد إنكاره.

النحل في اللغة: قال ابن منظور: انْتَحَل فلانٌ شِعْر فلانٍ إِذا ادّعاه أَنه قائلُه. وتَنَحَّلَه: ادَّعاه وهو لغيره، ويقال: نُحِل الشاعرُ قصيدةً إِذا نُسِبَت إِليه وهي من قِيلِ غيره[٢].

وقال الرازي: نَحَلَهُ القول من باب قطع أي أضاف إليه قولًا قاله غيره وادَّعاه عليه، وانْتَحَل فُلان شِعْر غيره، أو قول غيره إذا ادَّعاه لنفسه، وتَنَحّل مثله وفُلان يَنْتَحِلُ مذهب كذا وقبيلة كذا إذا انتسب إليه[٣].

يقول محمد بن سلام الجمحي: وفى الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير، لا خير فيه ولا حجة في عربيةٍ ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي.

وقد اختلف العلماء بعدُ في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه[١].

---

(١) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدرابة ١/ ٢١١.

(٢) لسان العرب مادة: (ن ح ل).

(٣) مختار الصحاح، مادة: (ن ح ل).

ويقول: فلما راجَعَتِ العَرَبُ رِوَايةَ الشِّعْرِ وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قومٌ قَلَّتِ وقائعُهم وأشعارُهم فأرادوا أن يَلْحَقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت. وليس يُشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون[٢].

وقال: وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار[٣].

وسبب ذلك ما يقول الأستاذ محمود محمد شاكر: الشعر الجاهلي المحض له مشكلة قائمة برأسها، يشركه في بعضها الشعر في صدر الإسلام. وكلاهما يعتمد اعتمادًا يكاد يكون تامًّا على الرواية المتسلسلة في بوادي الجاهلية وحواضرها، ثم في بوادي الإسلام وحواضره إلى أن يصل إلى عهد رواية العلماء، وتقييد ما يَرْوُونَه كتابة في بعض الأحيان أو إملاءً على أصحابهم وتلاميذهم أحيانًا أخرى. وهذه الفترة واقعة ما بين سنة ١٥٠ قبل الهجرة تقريبا إلى نحو سنة ثمانين بعد الهجرة. وهذه فترة طويلة جدا، مئتان وثلاثون سنة أو تزيد تُعَرِّضُ الرواية المتنقلة عن طريق السماع والحفظ، لعيوب لا يمكن اتقاؤها. [٤]

وثمة عوامل خلال هذه السنين تُعَرِّض هذا المنقول للنسيان أو الزيادة والنقصان أو التحريف والتبديل.

يقول الأستاذ شاكر: جاء عصر الرواة العلماء، وجعلوا همهم تتبع الشعر والشعراء في قبيلة بعد قبيلة وحي بعد حتى لقوا في رحلتهم عوارض في تلقِّي الشعر: فقُرب عهد الشاعر أو بُعدُه من زمان العلماء الرواة له أثر في الرواية، وكذلك طول القصيدة أو قصرها له أثر آخر،

---

(١) في كتابه " طبقات فحول الشعراء " ١/ ٥.

(٢) السابق ١/ ٤٦.

(٣) السابق ١/ ٤٨.

(٤) نمط صعب ونمط مخيف صـ٣٨.

وشهرة الشاعر لها أثر، كما عرضت للعلماء أنفسهم عوارض فيما سمعوه فحفظوه أو قيدوه من نسيانٍ لبعض ما حفظ، ومن لحوق الضياع أو التلف ببعض ما قيدوه وكتبوه، ومن تباعد الأيام أو تدانيها من وقت روايتهم، ثم إن القصيدة الواحدة قد رواها عدد مختلف من العلماء الرواة القدماء عن رواة مختلفين من رواة البادية في أماكن مختلفة من بلاد العرب، وفي أحوال يختلف بعضها عن بعض فإذا قدرنا العوارض التي ذكرناها آنفا لم نجد مناصًا من أن يلحق هذه القصيدة ضرب أو ضروب من الاختلاف، فيختلف عدد أبياتها تقديمًا وتأخيرًا، وتختلف نسبتها أحيانًا، فتنسب إلى شاعرين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك، من قبيلة واحدة أو من قبائل مختلفة. بل ربما دخلت في بعض رواياتها أبيات لشاعر آخر على وزنها وقافيتها من قبيلته أو غير قبيلته، على قدر ما يتميز به كل راو من الدقة والضبط أو الغفلة والنسيان[1].

قال ابن عبد ربه: وكان خَلفٌ الأحمرُ أَروَى الناسِ للشِّعرِ وَأَعْلَمَهُمْ بِجَيِّدِهِ. . . . وكان خلف مع روايته وحِفظه يقول الشعر فيُحسن، وينَحله الشعراء. . . وكذلك كان يفعل حمّادٌ الرواية، يَخلط الشعر القديم بأبيات له، قال حماد: ما مِن شاعر إلا قد زِدْتُ في شعره أبياتًا فجازت عليه إلا الأعشى، أعشى بكر، فإني لم أزد في شعره قطُّ غيرَ بيت فأفسدتُ عليه الشعر، قيل له: وما البيتُ الذي أدخلته في شعر الأعشى؟ فقال:

وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ　　　من الحوادث إلا الشَّيبَ والصلعَا[2]

وقال السيوطي: قال ابنُ فارس:. . . عن الخليل قال: إن النَّحَارير ربَّما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللَّبس والتَّعنيت[3].

وقال أبو الطيب في مراتب النحويين: أخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا محمد بن يزيد قال: كان خلف الأحمر يُضْرَب به المثلُ في عَمل الشعر، وكان يعمل على أَلْسنة الناس فيشبه كلَّ

(١) السابق من صـ٣٩: صـ٤٢ ملخصًا بتصرف.

(٢) العقد الفريد ٢/ ٣١٩، وانظر تفاصيل نسبة شعر ابن أخت تأبّط شَرًّا مع ذكر الراجح فيها والفوائد الغزيرة في كتاب نمط صعب ونمط مخيف من صـ٤٤: صـ٦١.

(٣) في كتاب " المزهر في علوم اللغة " ١/ ١٣٥

شعر يقوله بشعر الذي يضَعُه عليه، ثم نَسَك فكان يختم القرآن في كلّ يوم وليلة، فلما نَسك خرج إلى أهل الكوفة فعرَّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا له: أنتَ كنتَ عندنا في ذلك الوقت أوثقَ منك الساعة فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم(١).

وقال الصفدي: خلف الأحمر الشاعر صاحب البراعة في الآداب، حمل عنه ديوانه أبو نواس، وتوفي في حدود الثمانين ومائة. وكان راوية ثقة علاّمة، لم يكن فيه ما يعاب به إلا أنه كان يعمل القصيدة يسلك فيها ألفاظ العرب القدماء، وينحلها أعيان الشعراء، كـ أبي داود، والإيادي، وتأبَّط شرًا، والشنفرى وغيرهم، فلا يفرَّق بين ألفاظه وألفاظهم، ويرويها جلَّة العلماء لذلك الشاعر الذي نحله إيّاها، فمّما نحله الشّنفرى القصيدة المعروفة بلامية العرب:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم فإني إلى قوم سواكم لأميل(٢).

وقال أبو الحسن الجرجاني: وهو يناقش من يعترض عليه بأن شعر المتقدمين كان فيه من متانة الكلام، وجزالة المنطق وفخامة الشعر، ما يصعب معه أن ينسج على منواله، ولو حاول أحد أن يقول قصيدة أو يقرضَ بيتًا يُقارب شعر امرئ القيس وزهير، في فخامته، وقوة أسْره، وصلابة معجَمه لوجده أبعد من العيّوق مُتناولًا، وأصعبَ من الكبريت الأحمر مطلبًا!

فرد على المعترض قائلًا: أحلتك على ما قالت العلماء في حمّاد وخلَف وابن دأْب وأضرابِهم، ممن نحلَ القدماءَ شعره فاندمج في أثناء شعرهم، وغلب في أضعافه، وصعُب على أهل العناية إفرادُه، وتعسّر، مع شدة الصعوبة حتى تكلّف فلْي الدواوين، واستقراءُ القصائد فنُفِي منها ما لعلّه أمتن وأفخم، وأجمع لوجوه الجوْدة وأسباب الاختيار مما أثبت وقُبِل(٣).

إن هذه النقولات تثبت أن وقوع النحل في شعر العرب أمر حاصل، وقد مرَّ كلامُ المتقدمين، الذين عرفوا كلام العرب وأشعارهم، وسبقوا المُحْدَثِينَ والمستشرقين.

(١) المزهر ١/ ١٤٠. ١٣٩ وبعدها فصَّل السيوطي وذكر الأمثلة على هذا المصنوع المنسوب لكبار الشعراء.
(٢) الوافي بالوفيات للصفدي في ترجمة خلف الأحمر: ٤/ ٣٧٤. ومعجم الأدباء لياقوت الحموي: ٤/ ١٧٩.
(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني صـ٢٤.

ومما جاء في إنكار بعض أبيات الشبهة المفتراة صراحة ما **قال محمود الآلوسي** رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (عبس: ١٧) قال الإمام: إن الجملة الأولى تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفًا، والثانية تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعا، ولم يسمع ذلك قبل نزول القرآن، وما نسب إلى امرئ القيس "قتل الإنسان ما أكفره "فلا أصل له، ومن له أدنى معرفة بكلام العرب لا يجهل أن قائل ذلك مولد أراد الاقتباس لا جاهلي[١].

فهذا كلام من ذاق أشعار العرب، وأَلِف أساليبهم، حيث لم يخف عليه ركاكة الألفاظ وضعف السبك.

وإنَّ امرأَ القيس خاصة لما له من قِدَم السبق والإجادة في ميدان الشعر والبيان تمَّ نحله الكثير من الشعر.

قال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم: استفاضت أخباره على ألسنة الرواة، وزخرت بها كتب الأدب والتراجم والتاريخ، ونسجت حول سيرته القصص، وصيغت الأساطير، واختلط فيها الصحيح بالزائف، وامتزج الحق بالباطل، وتناول المؤرخون والأدباء بالبحث والنقد والتحليل، وخاصة في العصر الحديث. . . وفي جميع أطوار حياته منذ حداثته وطراءة سنه، إلى آخر أيامه، قال الشعر وصاغ القريض. . . وأصبح عند الناس قدر وافر من قصيده، فنحلوه كل شعر جُهِلَ قَائِلُهُ، أو خَمُلَ صَاحِبُهُ، من جيد يعسر تمييزه عن شعره، ورديء سفساف مهلهل النسج، سقيم المعنى.

وللعلماء من القدماء حول هذا الشعر وتحقيق نسبته إليه أقوال معروفة مشهورة[٢].

وإنه إذا نُسِبَت الأبيات موضع الشبهة إلى امرئ القيس أو إلى ديوانه دون سند أو

(١) روح المعاني ٣٠/ ٤٤.

(٢) في مقدمة دراسته عن امرئ القيس وشعره.

برهان، فلا شك حينئذ في أنها منحولة ومكذوبة عليه، ومع ذلك فإنه حتى في المنحول الذي يذكره مَنْ جَمَعَ شِعْرَ امْرِئِ القَيْسِ وَمَا نُحِلَ عَلَيهِ لَا يَذْكُرُها.

بل إن بعض أبيات الشبهة جاء منسوبا بالفعل إلى غير امرئ القيس، وغاية ما ذكر في كتب بعض المتقدمين بيتان فقط منسوبان لامرئ القيس وافقت ألفاظهما لفظ القرآن الكريم:

قال الإمام الذهبي: قال ابن النّجّار: كان كاتبًا[1] سديدًا بليغًا وحيدًا، فاضلًا، أديبًا، مقتدرا على الارتجال. . . وله يد باسطة في النّحو واللّغة، إلى أن قال: أنشدني عبد العظيم بن عبد القويّ المنذري، أخبرنا عليّ بن ظافر الأزدي، أنشدني الوزير مؤيّد الدّين القمّي النائب في الوزارة الناصرية لنفسه:

يشتهي الإنسان في الصّيف الشّتا   فإذا ما جاءه أنكره

فهو لا يرضى بعيشٍ واحد   قتل الإنسان ما أكفره.[2]

فهذا الذهبي يروي البيتين منسوبين للوزير محمد القمي.

وكذلك فعل **التيفاشي** (ت ٦٥١ هـ) أيضًا: فنَسَبَ البيتين إلى يحيى بن صاعد.[3]

فهذان إمامان متقدمان على المناوي قد نسبا البيتين إلى غير امرئ القيس.

ومن أبيات الشبهة التي جاءت منسوبة إلى امرئ القيس:

أنا منْ قومٍ كرامٍ يطعمونَ الطيباتِ   بجفانٍ كالجوابي وقدورٍ راسياتِ

فهذان البيتان فقط ذكرهما بعض الأدباء منسوبين إلى امرئ القيس، ومع ذلك فقد أنكروهما وشككوا في صحة نسبتها إليه، فذكر ابن أبي الأصبع عندما تكلم عن الإيداع أو التضمين، وما قيل من وقوع ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ (سبأ: ١٣) قال: على أن بعض الرواة ذكر أنه وضعه بعض الزنادقة، وتكلم على الآية الكريمة، وأن امرأ القيس لم يصح أنه تلفظ به[4].

---

(١) يعني (محمد بن محمد بن عبد الكريم بن برز المعروف بمؤيد الدين القمي) والنص المذكور من ترجمته.

(٢) تاريخ الإسلام ٤٥/ ٤٠٨ و٤٠٩ في ترجمة القمي.

(٣) سرور النفوس بمدارك الحواس الخمس ١/ ٢٣٩.

(٤) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر صـ٤٨٦.

ونقل عبد الرحيم العباس قول ابن أبي الأصبع، وأقره ثم أعقبه بقوله: " قلت: وقد تصفحت ديوانه على اختلاف رُواته، فلم أجد فيه قصيدة على هذا الوزن والرويّ "[(١)].

فهذه كتب الأدباء والعلماء، وأساطين اللغة والشعر الذي اطلعوا على أشعار العرب ودواوين امرئ القيس حتى نهاية القرن العاشر الهجري، لا ينسبون إلى امرئ القيس أي شيء من هذا القبيل، ولو اطلعوا على غيرها من الأبيات لذكروه، سواء صحت نسبته أم لم تصح.

لذا فإن اعتماد هؤلاء المرجفين على أشعار " فيض القدير " للمناوي مغالطة كبيرة؛ إذ إن المناوي رحمه الله، كان اهتمامه في كتابه شرح أحاديث " الجامع الصغير" فلم يعتن بجمع الشعر، أو تمحيص رواياته، وكتابه (فيض القدير) ليس كتابًا معتمدًا في نقل الشعر أو نسبته، هذا فضلًا عن كونه من المتأخرين، حيث توفي سنة ١٠٢٩هـ، فكيف يصبح كلامه مقدمًا على كلام من سبقه من أساطين اللغة، وعلماء الأدب والبيان، خاصة وأنه لم يذكر لهذه الأبيات سندًا ولا مصدرًا.

بل كيف يسوق أبياتًا مكسورة؟! فالبيت الأول في (دنت الساعة وانشق القمر) غير مستقيم من ناحية الوزن الشعري، فالشطر الأول مكسور، إلا لو أبدلنا (اقتربت) بـ (دنت)، وعلى ذلك بقية الأبيات[(٢)]، وحينئذ يتبين أن المناوي لم يكن له عناية في كتابه بذكر الشعر أو تحقيقه.

الوجه السادس: ولأن الأبيات من الشعر المولد؛ فإن صاحبها اقتبس كلماتها من القرآن الكريم.

إنه ليس لأحد من الناس أن يدعي قولًا وينسبه لرجل مات بلا برهان ولا بينة، وسبيلُ نسبة قولٍ لشاعرٍ جاهلي، معرق في القدم كامرئ القيس أن يكون هذا القول مأخوذًا من ديوان شعره أو من روايات هذا الديوان المتعددة والمتكاثرة المطبوعة، أو يذكر هذا القول منسوبًا لامرئ القيس في كتب التراث الأدبي من المجاميع الشعرية " كالكامل" و" الفاضل " و" الوحشيات " جميعها للمبرد، أو كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أو"

---

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص صـ ٢٢٩٧.

(٢) وانظر: الوجه العاشر من وجوه الرد على هذه الشبهة ففيه تفصيل.

الأمالي " لأبي علي القالي أو الحماسة لأبي تمام أو كتب مختارات الأدباء والشعراء أو كتب تراجم الأدباء إلى آخر ما هنالك من قضايا تحقيق نسبة الشعر لأصحابه[1].

وإن أي باحث في الأدب العربي يعلم أن شعر امرئ القيس قد وجد عناية خاصة، وتضافرت جهود القدماء والمحدثين على جمعه وروايته ونشره، وهناك العديد من النسخ المشهورة لديوانه كنسخة الأعلم الشنتمري، ونسخة الطوسي، ونسخة السكري، ونسخة البطليوسي، ونسخة ابن النحاس وغيرها، ولا يوجد أي ذكر لهذه الأبيات في هذه النسخ، على الرُّغْم من أنها تذكر ما نُحِلَ عليه لتنقده، وكذلك كان أمر الدراسات المعاصرة التي عنيت بشعر امرئ القيس وما نسب إليه وخبر دواوينه، لم تذكر شيئًا من هذه الأبيات لا على أنها من قوله، ولا على أنها مما نحل عليه. ومنها دراسة للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في أكثر من خمسمائة صفحة حول امرئ القيس وشعره، وقد ذكر فيه ما صحت نسبته إليه وما لم يصح، وما نحل عليه ومَن نحله، ولم يذكر مع ذلك بيتًا واحدًا من هذه الأبيات السابقة.

فهل كان الأعاجم أصحاب هذه الشبهات أعلمَ بامرئ القيس وشعره من هؤلاء جميعًا الذين عنوا بجمعه وتمحصيه ونقده؟! !

الوجه السابع: أن المتقدمين من أهل اللغة والأدب كانوا يذكرون في كتبهم قضية اقتباس الشعراء من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وعلى عكس كلامهم في اقتباس القرآن، فإن ابن داود الظاهري الأصفهاني (ت: ٢٢٧هـ) عقد في كتابه (الزهرة) فصلًا لما استعانت به الشعراء من كلام الله تعالى، وكان مما ذكر عن قوله سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ أن الخنساء ضمنته في أبيات لها فقالت:

أبعدَ ابن عمرو من آل الشّريد ... حلَّتْ به الأرضُ أثقالها

فخر الشّوامِـخُ من فَقْدِه ... وزُلزلتِ الأرضُ زلزالها.[1]

---

(١) قواعد رواية الشعر ونسبته لأصحابه مع التطبيق العملي على ذلك تجدها مفصلة في كتاب (نمط صعب ونمط مخيف) للأستاذ محمود محمد شاكر.

وهذا مما يدل على أن أول من نطق بهذه العبارة هو القرآن الكريم؛ لأنه لو كان امرؤ القيس قد قالها قبل القرآن الكريم، لما كان للفصل الذي عقده فائدة، ولكانت الخنساء قد ضمنت أبيات امرئ القيس في شعرها، لا آيات القرآن الكريم، ولكان القرآن الكريم نفسه قد ضمن أبيات امريء القيس. وثَمَّ أمر مهم وهو أن هذه الأبيات المفتراة لو بلغت علماءنا المتقدمين، فلماذا لم يثيروا قضية التشابه بين القرآن الكريم وشعر امرئ القيس؟

الوجه الثامن: لو افترضنا صحة نسبة الأبيات إلي امرئ القيس ـ وهو أمر مستحيل ـ وافترضنا أن هناك تشابه في الكلمات بين ألفاظ القرآن وهذه الأشعار فإن ذلك يشهد للقرآن بالفصاحة والبلاغة والبيان.

إذ إن كلاهما باللسان العربي والكلمات المشتركة جاءت في القرآن على أفصح ما يكون الكلام وأبلغه، بينما هي في الأبيات المكذوبة جاءت في غاية السخافة والسفول، ثم إنه لا غضاضة في أن يحصل تشابهٌ في بعض الكلمات، وجاء القرآن بما تعهده العرب في كلامها من أمثلة واستعارات وغير ذلك من ضروب البلاغة.

ثم إن القرآن الكريم نزل ليتحدى كفار قريش، قائلًا لهم: إنكم تنطقون بهذه الأحرف، وتقولون تلك الكلمات، لكنكم مع ذلك عاجزون عن أن تأتوا بمثل القرآن من جهة القوة والإحكام والإتقان، هذا ومعلوم أن التشابه في بعض الكلمات والتراكيب لا يعني الاقتباس والنقل.

وسوف يترتب على فرض صحة نسبة الأبيات للجاهلية؛ تساؤل هو: لماذا لم يواجه فصحاء قريش النبي ﷺ بهذا التشابه وهم أحفظ للشعر من مستشرقي عصرنا؟ ولماذا عندما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل آية منه لم يقتبسوا من هذه الأشعار كما اقتبس هو؟ [٢]

يقول أبو بكر الباقلاني: الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعرًا ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم - لبادروا إلى معارضته؛ لأن الشعر مُسخَّر لهم مُسهَّل عليهم، ولهم فيه ما علمت من التصرف العجيب والاقتدار اللطيف؛ فلما لم نرهم

---

(١) الزهرة ١/ ٢٣٤.

(٢) وانظر الوجه الأول من وجوه الرد على الشبهة.

اشتغلوا بذلك ولا عولوا عليه - علم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئا مما يقدره الضعفاء في الصنعة، والمرمدون في هذا الشأن، وإن استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم وزعمه أنه قد ظفر بشعر في القرآن، وقد ذهب أولئك النفر عنه، وخفي عليهم مع شدة حاجتهم عندهم إلى الطعن في القرآن، والغض منه، والتوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه، فلن

يجوز أن يخفي على أولئك وأن يجهلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيق(١).

فالقرآن لم يخرج عن معهود لغة العرب؛ فمن حروفهم ركبت كلماته، ومن كلماتهم ألفت جمله وآياته، وهذا من إعجاز القرآن وإفحامه للعالمين أجمعين؛ إذ حروف اللغة وكلماتها موجودة ملك الجميع لكن من ذا الذي يؤلف بينها؟.

يقول عبد الله دراز: صنعةُ البيان مثلُ صنعةِ البنيان، فالمهندسون البَنَّاءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدرانًا مرفوعًا، وسقفًا موضوعًة، ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار أمتن المواد وأَكَنِّها للناس من الحَرِّ والقَرِّ وفي الانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة، فمنهم من يفي بذلك، ومنهم من يخل بشيء منه، كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتي يتفاوت حظها في الحسن والقبول، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة، وليست كل هذه الطرائق تجمل في كل موطن أو تقبح في كل موطن إذًا لأصبحت البلاغة في لسان الناس طعمًا واحدًا. . . والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الطرائق فضلًا عن حسن الاختيار فيها إلى أن يتكون الأسلوب الخاص بكل إنسان وعلى حسب ذلك يقع التفاوت في درجات الكلام.

فالجديد في لغة القرآن، أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير أشرف المواد، وأمسها بالمعني المراد، وأجمعها للشوارد، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها

(١) إعجاز القرآن للباقلاني صـ٥٣.

وهي أحق به: بحيث لا يجد المعني في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين[1]، لا يومًا أو بعض يوم؛ بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلًا، ولا الساكن يبغي عن منزله حولًا. . . . وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان. . . . فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام، فسبيلك أن تأخذ الحكم مسلمًا عن أهله، وتقنع فيه بشهادة العارفين به، فها هو الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن رقَّ له، فقال رَادًّا على أبي جهل: وماذا أقول؟! والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته[2].

هذا وإن بيان وبلاغة آيات القرآن الكريم تأبى وتتنافى ودعوى الأخذ من هذه الأشعار المتكلفة الضعيفة.

كما أنا لو سلمنا جدلًا بأن القرآن اقتبس في عشر آيات منه، من عشرة أبيات، فمن أين أتى القرآن بأكثر من ستة آلاف آية أخرى؟!

الوجه التاسع: منافاة أسلوب القرآن لأسلوب الشعر عامة.

ولو تنزلنا مرة أخرى مع القوم حسب عقولهم، وافترضنا صحة نسبة الأبيات إلي امرئ القيس؛ فإننا جميعًا سوف نصطدم بالاختلاف البائن بين أسلوب القرآن الكريم كلام رب العالمين وبين هذه الأشعار كلام المخلوقين.

وقد بوَّب الإمام البيهقي قبل رواية حديث الوليد الآنف الذكر فقال: باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، وأنه لا يشبه شيئًا من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان[3].

---

(١) سبق قول ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩: وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام.

(٢) النبأ العظيم صـ١١٣ : ١١٦ (ملخصًا) وقد مرَّ قول الوليد محققًا في الوجه الأول.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٩٨.

ويقول القاضي عياض: من إعجاز القرآن صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه؛ بل حارت فيه عقولهم، وتدلَّهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر. . . ، وإنه مما جُمع في قوة جزالته، ونصاعة ألفاظه، وحسن نظمه وإيجازه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها كإحياء الموتى، وقلب العصا، وتسبيح الحصا(١).

ويقول ابن حزم: إن القرآن ليس من نوع بلاغة الناس(٢).

ويقول: وأنه ليس من نوع كلام المخلوقين، لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من أوسطه، وأنَّ آية ذلك الأقسام التي في أوائل السور، والحروف المقطعة التي لا يعرف أحد معناها، قال: وبرهان هذا أن إنسانا لو أدخل في رسالة له أو خطبة أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجًا عن البلاغة المعهودة بلا شك، فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلًا(٣).

هذا وان البون شاسع بين القرآن والشعر والفروق بينهما كثيرة، ودليل ذلك في الأمور التالية:

الأول: لم ينزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب، فلم يأت على أسلوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة ولا نظم القصيد، فأسلوب وطريقة الشعر معروفة في الشكل العمودي للقصيدة العربية مع اتحاد القافية وتساوي الأشطر واتحاد بحر القصيدة، وليس شئ من هذا في القرآن فهو لم يكن شعرًا ولا نثرًا مرسلًا ولا سجعًا ولا مزاوجةً بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ومبائن للمألوف من مناهج كلامهم، ينصرف على وجوه مختلفة، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأمثال، وترغيب وترهيب وأمر ونهي ووعد

(١) الشفا ١/ ٢٦٤، ٢٦٧.

(٢) الفصل في الملل والنحل ١/ ٨٧.

(٣) السابق نفسه ٣/ ١٢.

ووعيد وتبشير وتخويف وهو أثناء ذلك يتردد بين الإيجاز والإطناب، فما أجملَ القرآنَ فيما اشتمل عليه من دقة التصوير، وجمال الوصف، مع سمو التعبير، وعظمة التأثير، وروعة الإيجاز وبلاغة التكرار، وليس الشعر يبلغ في هذا فتيلًا[(١)].

قال أبو بكر بن العربي: القرآن خرج عن أنواع كلام العرب، وخصوصا عن وزن الشعر؛ ولذلك قال أخو أبي ذر لأبي ذر: "لقد وضعتُ قوله على أقوال الشعراء فلم يكن عليها"[(٢)]، ولا دخل في بحور العروض الخمسة عشر، ولا في زيادات المتأخرين عليها؛ لأن تلك البحور تخرج من خمس دوائر: إحداها دائرة المختلف ينفك منها ثلاثة أبحر: وهي الطويل، والمديد، والبسيط؛ ثم تتشعب عليها زيادات كلها منفكة. الدائرة الثانية دائرة المؤتلف ينفك منها بحر الوافر، والكامل، ثم يزيد عليها زيادات لا تخرج عنها. . . وهكذا الدوائر الخمس ولقد اجتهد المجتهدون في أن يُجروا القرآن أو شيئا منه على وزن من هذه الأوزان فلم يقدروا، فظهر عند الولي والعدو أنه ليس بشعر[(٣)].

يقول الطاهر بن عاشور: كيف يكون القرآن شعرًا والشعر كلام موزون مقفّى له معان مناسبة لأغراضه التي أكثرها هزل وفكاهة؟ فأين الوزن في القرآن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتجها الشعراء، وأين نظم كلامهم من نظمه، وأساليبهم من أساليبه؟

---

(١) " القرآن معجزة العصور " لمحمد عبد المنعم خفاجي وآخرين من صـ ١١٢: ١١٦ بتصرف. ويقول د. **مصطفى مسلم** في (مباحث في إعجاز القرآن) صـ١٤٢: الآية في النظم القرآني ليست بيت شعر، وجملة نثر، ومقطع سجع، بل هي قطعة من القرآن لها بداية ونهاية متضمنة في سورة، ولكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة، وليست هذه الفاصلة قافية شعر، ولا حرف سجع، وإنما هي شاهد قرآني لا يوجد إلا فيه، ولا يعتدل في كلام غيره.

إن النظم القرآني البديع بهر العرب بحسن مبادئ الآي والمقاطع، وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب؛ بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس واحد منهم موضع طمع، حتى خرست الألسن أن تدَّعي وتتقول.

(٢) صحيح مسلم (٦٥١٦)

(٣) أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩، ١٦١٠

وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل لا يجعلها موازية للقوافي كما يعلمه أهلُ الصناعة منهم وكُلُّ مَنْ زَاولَ مَبَادِئَ القَافية مِنَ المولدين، ولا أحسبهم دَعوهُ شعرًا إلا تعجلًا في الإِبطال، أو تمويهًا على الإِغفال، فأشاعوا في العرب أن محمدًا ﷺ شاعر، وأن كلامه شعر[1].

الثاني: إن الأشعار الشهيرة ومنها المعلقات ـ فخر العرب ـ تخلو من كل قيمة فكرية أو إنسانية أو روحية أو أمر أو نهي أو إرشادٍ إلى خير بخلاف القرآن العظيم، فالأوامر فيه تصل إلى الألف آية وكذلك النواهي، ويحض على فعل كل خير وينهى عن كل شرٍّ، ويرشد ويهدي إلى كل صلاح ونفع في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر أبو بكر الباقلاني فصلًا جيدًا عن الشعر الحسن الذي يحلو لفظه وتقل فوائده[2].

وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب الله. فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧).

فالقرآن الكريم حوى علمَ الأولينَ والآخرين فهو أصل العلوم كلها، فعلم الكلام من القرآن، وعلم الفقه وأصول الفقه وعلم النحو واللغة، وعلوم مثل التاريخ والطب والجدل وأصول الصنائع وغيرها الكثير. واشتمل على علم الزهد في الدنيا وأخبار الآخرة ومنها أهوال يوم القيامة وأحوال الناس فيه، كما يفصل أخبار مآلهم ففريق في الجنة وفريق في السعير، ثم ينتقل إلى وصف الجنة ونعيم أهلها وإلى وصف النار وجحيم أهلها إلى ما هنالك مما لا يعلم إلا عن طريق الوحي وهذا كثير جدا في القرآن.

يقول القاضي عياض: ومن إعجازه جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة بمعرفتها ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقليات،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٥٧، ٥٨ مختصرًا.

(٢) في كتابه إعجاز القرآن صـ ١٦٠.

والرد على فِرَق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بينة سهلة الألفاظ، موجزة المقاصد، رام المتحذلقون بعدُ أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (يس: ٨١) وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (يس: ٧٩) وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) إلى ما حواه من علوم السير، وأنباء الأمم والمواعظ والحكم، وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم، قال الله جل اسمه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٢٢). وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الزمر: ٢٧)[١].

بل إن من خصائص القرآن الإخبار عن مستقبل الناس في الدنيا، وما سيحدث لهم من انتصار وتمكين لبعضهم، أو خزي وذلٍّ لبعض آخر، إلى آخر ما هو ليس في طوق البشر. ومَن تعاطى ذلك من المتنبئين والشعراء افْتُضِحَ فِي حِيْنِه، وما جاء في القرآن كان هو الحق المبين، فَمَنْ أصدقُ مِنَ الله حَدِيثًا. ومن إخبار القرآن عن ذلك وهو كثير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ (الروم١: ٥).[٢]

---

(١) الشفا ١/ ٢٧٧.

(٢) يقول الزرقاني في مناهل العرفان ٢/ ٣٠٧، ٣٠٨: معنى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد ﷺ بها. . . ، من ذلك قصص عن الماضي البعيد المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد إلى رؤيته ومعرفته فضلا عن التحدث به، وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء. وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل وتفصيل ما فصل، وأنه إن اخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ، وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء وما يجد في العالم من تجارب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام.

وهذا القرآن قد جاء بما حدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير من بدء الخليقة إلى حين بعثة النبي ﷺ مع كونه ﷺ أميا لا يعرف شيئا من كتب السابقين وأنبائهم.

فالقرآن ليس كتاب قصص، وليس كتاب متعة وتسلية على نحو دواوين الشعراء فهو ليس شعرا أو أدبا أو حكمة أو تاريخا أو اجتماعا، إنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية، فهو كتاب الإنسانية كلها، وصحيفة البشرية قاطبة[1].

يقول السيوطي: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء؛ أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها[2].

وظهر أثر هذا الأمر في القرآن في المجتمعات التي سلَّمت له وآمنت به، كيف أثَّر فيها وغير من الأخلاق الرديئة، وأرسى الأخلاق الحميدة مع الدعوة إلى الحق والعدل والعلم، ورسم المثل الإنسانية العليا وأهداف الأفراد والشعوب وتحديد الفلاح في الدنيا والآخرة.

الثالث: هذه القصائد الجاهلية العالية الحبْك والصياغة، لا تخلو من أخطاء تندُّ عن

فمن غيوب الماضي أن يخبر عن تلك القصص الرائعة للأنبياء إخبار مَن حضرها قال تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ). (هود ٤٩) كذكر بدء الخلق وقصص أصحاب الكهف وذي القرنين، ومن غيوب الحاضر ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن وفضح المنافقين في عصر النبي ﷺ. ومن غيوب المستقبل إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين، وبأن النبي ﷺ لن يُقتل؛ لأن الله عاصمه كما قال تعالى: (والله يعصمك من الناس) وتحققت نبوءة القرآن فلم يتمكن أحد من أعدائه أن يقضي عليه مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم، وإخبار القرآن عن القرآن بأنه لن يُحرَّف قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ولم يحدث مع تطاول السنين ولن يحدث، وما جاء في مقام التحدي بأن الإنس والجن لن يأتوا بمثل القرآن قال ﷻ: (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) ولم يحدث أن جاء أحد بمثل سورة منه. بتصرف.

وهذا بخلاف المعجزات التي يكشف عنها العلم الحديث من وقت لآخر، وتفصيلها في باب الإعجاز من هذه الموسوعة.

(١) " القرآن معجزة العصور " لمحمد عبد المنعم خفاجي وآخرين صـ١١٤.

(٢) انظر الإتقان للسيوطي ٤/ ٢٥: ٣٣ ففيه تفصيل.

الشاعر، ومن ذلك ما ذكره أبو بكر الباقلاني إذ درس في كتابه[1] معلقة امرئ القيس المشهورة فأبان ما اشتملت عليه من أخطاء لغوية وفنية وغيرها.

قال ابن عطية: فالله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة. . . ، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطي لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام[2].

الرابع: فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم[3].

الخامس: أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق، وتنزه عن الكذب في جميعه، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيدًا، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي، فالشعر يعتمد على المبالغة والتهويل حتى قالوا أعذب الشعر أكذبه، وليس شيء من هذا في القرآن الكريم، وكيف يكون ذلك وهو كلام الله وحده لا كلام مخلوق سواه؟!

---

(١) إعجاز القرآن من صـ٢٤١: ٣٢٢

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ١/ ٤٩.

(٣) من النقطة الرابعة إلى الثامنة في هذا الوجه من التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/ ١١٦، ١١٥ بتصرف وزيادات.

يقول القلقشندي: لم ينزل الله القرآن على صفة نظم الشعر؛ بل نزهه عنه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الحاقة: ٤١) وحرم نظمه على نبيه محمد؛ تشريفا لمحله وتنزيها لمقامه منبها على ذلك بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ (يس: ٦٩)؛ وذلك أن مقاصد الشعر لا تخلو من الكذب، والتحويل على الأمور المستحيلة، والصفات المجاوزة للحد، والنعوت الخارجة عن العادة، وقذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، وسب الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس، فكيف بالنبي ﷺ ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله؟ [١].

وقال الراغب: قال بعض الكفار عن النبي ﷺ: إنه شاعر! فقيل: لِما وقع في القرآن من الكلمات الموزونة والقوافي، وقيل: أرادوا أنه كاذب؛ لأنه أكثر ما يأتي به الشاعر كذب، ومِنْ ثَمَّ سموا الأدلة الكاذبة شعرا، وقيل في الشعر: أحسنه أكذبه ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾[٢].

السادس: إن الكلام الفصيح البليغ إنما يتفق في القصيدة: في البيت والبيتين والباقي لا يكون، وليس كذلك القرآن؛ لأنه كله فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته.

يذكر الباقلاني فصاحة القرآن فيقول: ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١/ ٩١.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٣٨.

﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)، وقوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء: ٨٢)، فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال.

ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام ولذلك ضُرِبَ المَثَلُ بِامرِئِ القَيسِ إِذَا رَكِبَ والنابغةِ إذا رَهِبَ وبِزُهَيرٍ إذا رَغِبَ ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فإذا جاء إلى غيره قَصُرَ عنه ووَقَفَ دُونَه، . . . ، ثم نجد من الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصد أصلًا ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر تقصيرًا عجيبًا، . . . ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فإذا أتى بالموزون قَصَّرَ وَنَقَصَ نُقْصَانا بَيِّنا ومنهم من يوجد بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة؛ فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتًا بينًا ويختلف اختلافًا كبيرًا، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة؛ فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت؛ بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة؛ فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر(١).

(١) إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني من صـ٣٥: ٣٧.

يقول عبد القاهر الجرجاني: يقول ابنُ مسعودٍ في صفةِ القرآن: " لا يَتْفَهُ ولا يَتَشانُّ "[١] وقال: " إِذا وقعتُ في آلِ حم وقعتُ في رَوضات دَمِثاتٍ أتأنَّقُ فيهم " أي أَتتبَّع محاسنَهن. قال ذلك من أجلِ أوزان الكلمات ومن أجل الفواصلِ في أواخرِ الآيات[٢].

السابع: أن كل من قال شعرًا فصيحًا في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول، وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة بل ولم يظهر التفاوت أصلًا.

الثامن: أنه اقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحث على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة؛ لذا يبتعد الشعر عنها وتقل في الشعر الجاهلي خاصةً.

التاسع: ما يقوله القاضي عياض: ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا، ويودون انقطاعه لكراهتهم له، وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته تُولِيه انجذابًا لميل قلبه إليه وتصديقه به، قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير ٢/ ١١٦: إنهم قالوا: إن شعر امرئ القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل، وشعر النابغة عند الخوف، وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء، وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن فإنه يضعف كلامه في غير ذلك الفن، أما القرآن فإنه جاء فصيحًا في كل الفنون على غاية الفصاحة ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال في الترغيب: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. (سورة السجدة: ١٧) وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾. (سورة الزخرف: ٧١) وقال في الترهيب: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ الآيات (الإسراء: ٦٨).

(١) هذا الأثر في مسند الإمام أحمد ١/ ٤٠٥ من حديث طويل: (إن هذا القرآن لا يختلف، ولا يستشن ولا يتفه لكثرة الرد) وذكر هذا الأثر بهذا اللفظ أبو عبيد القاسم بن سلام في (غريب الحديث) ٣/ ١٥٣، ٤/ ٥٥. و(يتشان): لا يخلق، وهو مأخوذ من (الشن) وهو الجلد الخلق البالي. و(يستشن): يصير شنا باليا. و(يتفه) من الشئ (التافه)، أي لا يبتذل حتى يلحق بالخسيس.

(٢) دلائل الإعجاز صـ٣٨٨.

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣) وقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١) ويدل على أن هذا شيء خُصَّ القرآن به أنه يَعْتَرِي مَنْ لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روى عن نصراني أنه مر بقارئ، فوقف يبكى. فقيل له: مم بكيت؟ قال: للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده فمنهم من أسلم لها لأول وَهْلَةٍ، ومنهم من كفر، فَحُكِيَ في الصحيح عن جبير بن مطعم قال سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾إلى قوله: ﴿ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ كاد قلبى أن يطير للإسلام[1].

وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم: ﴿ حمٓ ﴾ فصلت إلى قوله: ﴿ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾فأمسك عتبة بيده على فِي النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف، وفى رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعتبة مصغ ملق يديه خلف ظهره معتمد عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي ﷺ وقام عتبة لا يدرى بم يراجعه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم، وقال: والله لقد كلمني بكلام، والله ما سمعت أذناى بمثله قط فما دريت ما أقول له[2].

وقال مالك بن نبي: وهناك شهادات سجلتها لنا السيرة في ذلك العصر، تقدم لنا معلومات واسعة عن التأثير الغلاب الذي كان لآيات القرآن على النفس البدوية.

فعمر رضي الله عنه يتحول إلى الإسلام بفعل هذا التأثير، على حين قد عبر الوليد بن المغيرة الذي كان مثالا في الفصاحة والفخر الأدبي عن رأيه في (سحر القرآن) بقول: والله. . . ، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه.

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٧٦).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢٧٣.

هذه اللغة التي لم تعبر حتى تلك اللحظة - قبيل الرسالة - إلا عن ذكاء بدو الصحراء، تحتاج بقدر ما أن تثري لكي تشبع رغبات عقل واجهته -منذ ذلك الحين- المشاكل الغيبية والشرعية والاجتماعية بل العلمية أيضا. (١)

العاشر: ما يقوله القاضي عياض: ومنها مشاكلة بعض أجزائه بعضا، وحسن ائتلاف أنواعها والتئام أقسامها، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى أمر ونهي، وخبر واستخبار، ووعد ووعيد، وإثبات نبوة وتوحيد وتفريد، وترغيب وترهيب إلى غير ذلك من فوائده دون خلل يتخلل فصوله. والكلام الفصيح إذا اعتوره مثل هذا ضعفت قوته، ولانت جزالته، وقل رونقه، وتقلقلت ألفاظه؛ فتأمل أول (ص) وما جمع فيها من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، وما ذكر من تكذيبهم بمحمد ﷺ وتعجبهم مما أتى به والخبر عن اجتماع ملئهم على الكفر، وما ظهر من الحسد في كلامهم وتعجيزهم وتوهينهم ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة، وتكذيب الأمم قبلهم، وإهلاك الله لهم، ووعيد هؤلاء مثل مصابهم، وتصبير النبي ﷺ على أذاهم وتسليته بكل ما تقدم ذكره، ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء، كل هذا في أوجز كلام وأحسن نظام(٢).

الحادي عشر: ما يقوله **أبو بكر الباقلاني**: كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع، ألا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وُصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه؛ حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيء، وإنما اتفق له في مواضع معدودة خُروجٌ يُرْتَضَى، وتَنَقُّلٌ يُسْتَحْسَنُ، أما القرآن فإنه على اختلاف فنونه، وما يتصرف

---

(١) الظاهرة القرآنية صـ١٩١.

(٢) الشفا ١/ ٢٨٠.

فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف(١).

الثاني عشر: إنه لا يزال الناس قديما وحديثا إذا سُرُّوا مِن كلامٍ أو أسلوبٍ وأعجبهم جماله حَاكُوه وقَلَّدُوه.

يقول الباقلاني: الناس إذا استحسنوا شيئًا اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلة. وكذلك رأينا أصحاب هذا الصناعة يتبع بعضهم بعضا فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدركَ اللَّاحِقُ السَّابِقَ وأَرْبَى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلا مناهل موروردة، ومسالك معبدة، تؤخذ بالتعلم، وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم، وهم شرع في استحسان طريقته، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟

وما ذاك إلا لأن فيه من غريب تأليفه في بنيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته وجُمله وآياته، من نظام له سمتٌ وحده، وطابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظام تعاطاه الناس أو يتعاطونه. فلا جرم لم يجدوا له مثالًا يحاذونه به، ولا سبيلًا يسلكونه إلي تذليل منهجه. يقول ابن عطية: لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد.

وآية ذلك أن أحدًا لو حاول أن يدخل عليه شيئًا من كلام الناس من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين؛ لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قارئ، ويجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذًا لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل

---

(١) إعجاز القرآن صـ٣٨.

دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد[1] ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤٢).

الثالث عشر: أن الشعر قاله ويقوله الناس ـ منذ أن نطق الإنسان ـ المجيدون منهم الآلاف بل يزيدون، فضلا عن غيرهم، بل إن الشعراء المجيدين يفاضل الناس بينهم فيقولون: فلان أَشْعَرَ من فلان أو فلان أشعر الناس في الهجاء، وفلان أشعر الشعراء في الوصف، وآخر في الرثاء إلى غير ذلك.

وليس شيء من هذا في القرآن في دبير أو نفير، فإذا كان امرؤ القيس أشعر الشعراء؛ فإن ذلك لم يكن مسلما به حتى في زمانه.

يقول عبد القاهر الجرجاني: في حديث علقمة الفحل أنه لما قال له امرؤ القيس، وقد تناشدا: أَيُّنَا أَشعرُ؟ ، قال: أنا، غيرَ مُكْتَرِثٍ ولا مُبالٍ، حتى قال امرؤ القيس: فقُلْ وَانْعَتْ فَرَسَكَ وناقتَك، وأقولُ وأَنْعَتُ فرسي وناقتي.

فقال علقمة: إني فاعل، والحكَمُ بَيْني وبَينك المرأةُ من ورائك، يعني أُمَّ جُنْدُب امرأة امرئ القيس، فقال امرؤ القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ ... نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وقال عَلْقمة:

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ في كُلِّ مَذْهَبِ ... وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ

وتحاكما إلى المرأة، ففَضَّلَت علقَمة.

ويقول **عبد القاهر**: وقالوا: كان الأوائل لا يفضلون على زهير أحدا في الشعر ويقولون: ((قد ظلمه حقَّه من جعله كالنابغة)). قالوا: ((وعامة أهل الحجاز على ذلك)).

(١) الوجه الثاني عشر جاء ملخصًا من كتاب (النبأ العظيم) للدكتور: عبد الله دراز صـ١٣٤ وانظر تفصيل إعجاز أسلوب القرآن وخصائصه في الكتاب نفسه من صـ١٣٥ : ١٦، وليس منها شيء في أسلوب الشعر.

ورُوِيَ عن أبي عبيدة أنه قال: أشعرُ الناس ثلاثةٌ: امرؤ القيس بن حجر، وزهير بن أَبي سُلْمَى، والنابغة الذبياني، ثم اختلفوا فيهم.

ورُوي عن يحيى بن سليمان الكاتب أنه قال: بَعَثني المنصور إلى حَمّادٍ الراوية أسأله عن أشعر الناس، فأتيتُه وقلت: إن أمير المؤمنين يسألك عن أشعر الناس.

فقال: ذاك الأعشى صَنَّاجُها.

ويقول: ويزيد الأمر بيانًا أنا رأيناهم حين طبَّقوا الشعراءَ جعلوا امرأَ القيس بنَ حجر، وزهيرًا، والنابغة والأعشى في طبقة، فأعلموا بذلك أنهم أَكفاءٌ ونُظَراء، وأن فضلًا إن كان لواحدٍ منهم، فليس بالذي يُوئِسُ الباقين من مُدَاناتِه، ومن أن يستطيعوا التعلق به والجري في مَيْدَانه ويمنعهم أن يدَّعوا لأنفسهم أو يُدَّعَى لهم أنهم ساوَوهُ في كثير مما قالوه أو دَنَوْا منه، وأنهم جَرَوا إلى غايَتِه أو كادوا، وإذا كان هذا صورة الأمر، كان من العَمَى التعلُّقُ به، ومن الخَسَار الوُقوعُ في الشُّبْهَة. (١)

ونحن أمام قرآن عظيم ما قال بمثله ولا بمثل سورة منه إنس ولا جان فهو ليس كالشعر الذي يقوله الكثير، ثم يُفاضل بينهم.

الوجه العاشر: إن فساد معاني الأبيات بما لا يقتضيه واقع العرب وعقيدتها الجاهلية يفضح كذب ادعائها على الشعر الجاهلي كله.

ولنتساءل كيف تكون تلك الأبيات لامرئ القيس المشهور؟! ثم يأتي رسول الله ﷺ بكلام مسروق من شعره يعرضه على قريشٍ التي هي أفصح العرب وأحفظهم لشعر الشعراء، وبلغ منهم أن عظَّموا القصائد وعلقوها على الكعبة، ولا يخرج رجل واحد منهم حافظ للشعر، ويقول له: أنت يا محمد نقلت تلك الأبيات من امرؤ القيس، ثم يأت فلان العجمي بعد ألف وأربعمائة سنة ليقول لنا: خذوا تلك أبيات امرؤ القيس التي نقلها نبيكم في القرآن!.

---

(١) "الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني من صـ٥٩١: ٥٩٥ باختصار.

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله تعالى- في (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية): إن لكلام الله تعالى أسلوبًا خاصًّا يعرفه أهله ومن امتزج القرآن بلحمه ودمه، وأما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الألفاظ وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون.

هذا ما يخالف العقل من جوانبه، ولو افترضنا مرة أخرى ثبوت الأبيات، فإن أي نقد يوجه إليها يوضح ضعف سبكها، وسقم معناها، وسخف بعض التراكيب فيها بما لا يتناسب مع شاعر جزل كامرئ القيس؛ بل يشعر المرءُ بمجرد قراءة تلك الأبيات أنها أقرب إلى النظم المفتعل الذي وضع صاحبه أمام عينيه آيات القرآن الكريم وأَخَذَ يجتهدُ في تضمينها أبياته، فالكلامُ مهلهلٌ، وغير مستوٍ، وفيه فجوات يملؤها الناظم كيفما اتفق.

فمن الأبيات التي ذكرها المناوي قوله:

إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها

تقوم الأنام على رسلها ليوم الحساب ترى حالها

وهي أبيات لا يمكن أن تصدر عن امرئ القيس، فليست هي من معهود شعره، كما أن أهل الجاهلية لم يكونوا يؤمنوا بالبعث، فضلًا عن أن يذكروا تفاصيل إخراج الأرض لأثقالها، وقيام الأنام لربهم، مع حضور الرسل ليوم الحساب، إضافة إلى مشهد حساب الله تعالى للخلائق، إلا ما نقل عن الحنفاء الذين عرف اتصالهم بأهل الكتاب، ووجد في شعرهم شيء من ذلك كزيد بن عمرو بن نفيل، وامرؤ القيس ليس منهم قطعًا.

والبيت الأول لا يستقيم في ميزان الشعر ألبتة، فالتاء زائدة وكاسرة للوزن، وليس هناك رواية مكذوبة أخرى لتصحح هذا الخلل، مما يدلك على أن أصل نسبة تلك الأبيات خطأ محض.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء المتخبطين في أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم، أنهم يحسبون أن العلماء المسلمين يجدون في بحث تلك الأبيات وصبًا واصبًا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية، ولا يلهمهم الذوق الأدبي أن نظرة واحدة كافية لليقين بدحض نسبتها إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية[1].

(١) (إسلاميات) من صـ ٥١: ٥٣ – ط دار الشعب. ويقول الأستاذ يحيى مراد في (ردود على شبهات المستشرقين) صـ٢٥٦: ماذا في الاعتراف بأن تكون بعض التعبيرات العربية التي استخدمها العرب في الشعر والنثر وردت كلاما من القرآن؟ والقرآن جاء بلسان عربي مبين، وكان أحيانا ينزل بنص كلمات تحدث بها الصحابة من أمثال عمر رضي الله عنهم وأرضاهم، وهناك فرق كبير بين (دنت الساعة) وبين. . (اقتربت الساعة). . .

وردَّ عليهم العلامة محمد رشيد رضا: لولا أن في القراء بعض العوام، لما كنتَ في حاجة إلى التنبيه على أن هذه القصيدة يستحيل أن تكون لعربي، فهي في ركاكة أسلوبها، وضعف موضوعها بريئة من شعر العرب فكيف يصح أن تكون لحامل لوائهم، وأبلغ بلغائهم؟!

فما معنى: "دنت الساعة " في البيت؟ إن كان المراد بالساعة يوم القيامة، فالجاهليون لم يكونوا يؤمنوا بالمعاد، فضلًا عن أن يذكروه في أشعارهم أو يضعوه في قصائدهم، وإن كان المراد ساعة لقاء الحبيبة كما قد يُفهم، فما المراد حينئذ بقوله (وانشق القمر)؟ فإن كان المراد انشقاق القمر فعلًا، فهذا كذب، إذ لم ينشق القمر في عهدهم أبدًا؛ بل انشق على عهد النبي ﷺ كما جاء في القرآن والروايات، وإن كان المراد بالقمر ذكر المحبوبة، فليس من عادة العرب التعبير عن جمال المحبوبة بانشقاق القمر، وما وجه الحسن في انشقاقه ليشبه به المحبوبة، وقد دأب العرب على تشبيه حسن النساء بالبدر حين اكتماله، لا بانشقاق القمر، فأي ركاكة في أسلوب هذا البيت؟!

هذا التفسير العقلي المبسط يجعلنا نفهم أن قوله: (دنت الساعة وانشق القمر) قد ألصق إلصاقا بالقصيدة فأدى إلى معنًى مستشنع يدلُّ على أنه غريب عن بقية الأبيات. . . ، تماما الحال بالنسبة لبقية الأبيات المشبهة بآيات القرآن.

و البيت الذي فيه:

مَرَّ يوم العيد بي في زينة   فرماني فتعاطى فعقر

فأَيُّ عيد كان عند الجاهلية يمر فيه الغلمان متزينين؟ وأليس يوم العيد احتفالًا إسلاميًا؟ فكيف يكون هذا كلام امرئ القيس الجاهلي وَيَذْكُرُ فيه يوم العيد وهو من مات قبل مولد نبينا ﷺ بثلاثين عامًا أو أكثر، فهل هذا الشعر جاهليًا؟

وهل يسمح لك ذوقك بأن تصدق أن امرأ القيس يقول ذلك؟ كما يظهر من ركاكة الأسلوب، قوله: (فتعاطى) إذ جاء بعد قوله: (فرماني) فإذا كان قد رماه، فأي شيء تعاطاه، والتعاطي هو تناول الشيء، فلماذا يتعاطى شيئا بعد أن رماه! وكان المفترض أن

يتعاطى شيئًا، ثم يرميه به، وليس في القرآن (فرماني فتعاطى فعقر) ومعناه في الآية: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ (القمر: ٢٩) أنه تناول رمحًا، أو خنجرًا، فعقر الناقة به، والإبل تعقر في نحورها، والعُشَّاق إنما يرمون باللحاظ في قلوبهم، فهل يقول العربي بعد ما قال إن محبوبه رماه: إنه تعاطى بعد ذلك فعقر؟ وقد جاء بعد هذا قوله: (بسهام من لحاظ) أي: أنه قد رماه بسهام من سهام العيون، وإذا كان الأمر كذلك، فما فائدة قوله: فتعاطى فعقر. إلا الزيادة في قبح الأسلوب ورداءة المعنى؟

الوجه الحادي عشر: مخالفة الشبهة لمقتضى العقل وانعدام المنهج العلمي في تقريرها.

هذا القرآن العظيم الحكيم الذي أعجز الخلق أجمعين في كل شيء من خصائصه ما كان يمنع محمدًا أن ينسبه إلي نفسه إن كان يبغي سيطرةً وسلطانًا وهو من جمعه وأَلَّفَهُ مِنْ شِعر مَن سبقه، ثم هو ﷺ ينسبه لغيره، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (يونس: ١٥).

يقول الدكتور عبد الله دراز: والذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسْطُون علي آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خَفَّ حملُه، وغَلَت قِيمتُه، وأُمِنَتْ تُهْمَتُه حتى أن منهم من يَنبِشُ قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج علي قومه في زينةٍ من تلك الأثواب المستعارة. أما أن أحدًا يَنسِبُ لغيره أَنْفَسَ آثارِ عَقْلِهِ وأغلي ما تجود به قريحته فهذا مَا لَم يَلِدْهُ الدَّهْرُ بعد.

ويقول: أيُّ مصلحة للعاقل الذي يدّعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدي الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول: أيُّ مصلحةٍ له في أن ينسب بضاعته لغيره وينسلخ منها انسلاخًا؟ علي حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه[1].

هذا وإن العرب مع حرصهم الشديد على معارضة النبي ﷺ وكثرة تحديه الدائم لهم لم يطق أحد منهم أن يعارض القرآن، ولا يقال: إن النبي ﷺ بلغ من العبقرية مبلغا بحيث لم

(١) النبأ العظيم صـ ١٧ بتصرف.

يستطع أحد أن يأتي بمثل ما قال؛ لأنه يمكن للمخالفين أن يجتمعوا فيألفوا قرآنا، ومعلوم أن الجماعة تبدع وتبتكر أكثر من الإنسان الواحد.

ولنا أن نتسائل كيف يكون القرآن الكريم قد أخذ من الشعر؟ فمن هو الآخذ، ومن هو الشاعر المأخوذ من شعره، وأين هذا المأخوذ، وكيف كان الأخذ ومتى حدث؟

بل يستحيل في العقل وفي العادة أن يكون على فرض أولئك الأقوام أن يكون الله تعالي خالق الكون والإنس والجن ولغاتهم هو الآخذ، فهم لا يعنون بذلك إلا محمدًا ﷺ أخذ من شعر العرب الجاهليين الأميين، والقرآن حاوي العلوم جميعها فلا يكون الجهل مصدرا للعلم أبدا ومن هو المأخوذ منه؟ يقولون: امرؤ القيس فيكون بعد ذلك يقول فيه الرسول ﷺ: هو حامل لواء الشعراء إلي النار. وكيف هي المؤهلات التي عند امرئ القيس وشعره حتى يؤخذ منه القرآن وإن شعره مليء بالغريب والأخطاء الفنية والأدبية علي نحو ما ذكر الباقلاني في إعجاز القرآن[1]، بل قد مَرَّ في الوجه التاسع أنَّ اقتباسَ القرآن من الشعر يستحيل للبعد الشاسع بينهما في الموضوعات والمعاني والأسلوب وفي كل شيء.

ثم أين هو شعر امرئ القيس؟ يقول الأصمعي: كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفًا سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء.

فما نحل عليه كثير وكل الذي نحل عليه هو مما صنعه المولدون في عصور الإسلام فاقتبسوا في الشعر المنحول بعض آيات وكلمات القرآن الكريم.

ولو قلنا إن غرض هؤلاء الملفقين لهذه الشبهات التحري والوصول إلى الحقيقة خدمة للإنسانية ووقع لهم أن هذه الأبيات لامرئ القيس، فَلِمَ جزموا أنها للشاعر الجاهلي والقرآن كلام رب العالمين قد أخذ منها ولم يسألوا أنفسهم أنها ربما كانت لشاعر إسلامي اسمه (امرئ القيس) قد أخذ واقتبس في أبياته ألفاظ القرآن الكريم على عادة كثير من الشعراء الإسلاميين.

---

(١) إعجاز القرآن (١٥٨: ١٨٠).

فكم عدد الشعراء اللذين تَسَمَّوا بامرئ القيس؟ فيكون الجواب أنهم كُثْرٌ، فأَيُّهُم صاحب تلك الأبيات لو قلنا أنها لامرئ القيس؟

وهل وجد شاعر منهم بعد النبي ﷺ؟ الأمر الذي يعني أن هذا الشاعر هو مَن اقتبس مِن القرآن الكريم، لقد كان المنهج العلمي والتحري في معرفة الحقائق يتطلب منهم هذه المباحث فنقول لهم الشعراء الذين تَسَمَّوا بامرئ القيس كالآتي:

الأول: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، الشاعر الجاهلي، وأشهر الشعراء على الإطلاق، وهو أَوَّلُ مَن قَصَّدَ القَصَائِدَ، وذكر الوقائع، ولم يكن لأوائل العرب إلا أبياتا يقولها الرجل في حاجته وتعزيته وتاريخه وغير ذلك. عاش من سنة ١٣٠ قبل الهجرة الى سنة ٨٠ قبل الهجرة وهو الذي قصده المستشرقون الحاقدون.

الثاني: امرؤ القيس بن جبلة السكوني وهو جاهلي، مِمَّنْ لم يصلنا الكثير من شعره.

الثالث: امرؤ القيس الكلبي وهو امرؤ القيس بن حمام بن مالك بن عبيدة بن عبد الله وهو شاعر جاهلي عاصر المهلهل بن ربيعة.

الرابع: امرؤ القيس الزهيري وهو امرؤ القيس بن بحر الزهيري شاعر جاهلي أيضا وهو ممن وصلنا القليل من شعره.

الخامس: امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس، وفد إلى النبي ﷺ فأسلم وثبت على إسلامه، ولم يكن فيمن ارتد من كندة، وكان شاعرًا نزل الكوفة، وهو الذي خاصم الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فقال للحضرمي: بينتك وإلا فيمينه. قال: يا رسول الله، إن حلف ذهب بأرضي. فقال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مالًا لقي الله وهو عليه غضبان. فقال امرؤ القيس: يا رسول الله ما لمن تركها وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة " قال: فأشهدك أني قد تركتها له[1].

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٩١، والطبراني في الكبير ١٧/ ١٣٧ (٣٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٧٨، وفي شعب الإيمان ٤/ ٢١٦، وقال الهيثمي في المجمع ٤/ ٣١٩: رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات.
ولفظ الحديث بدون قصة امرئ القيس في صحيح البخاري (٦٢٨٣).

ومن شعر امرئ القيس هذا:

قف بالديار وقوف حابس وتأن إنك غير آيس

لعبت بهن العاصفات الرائحات من الروامس

ماذا عليك من الوقوف بهالك الطللين دارس

فلو قلنا: إن الأبيات التي توافق سورة القمر ليست من شعر الإسلاميين فلنقل إنها لهذا الشاعر، ونَظَمَ تلك الأبيات واقتبس فيها من القرآن الكريم حبًا في كلام الله أن يضع منه في قصائده وليس كفرًا منه أو تحديًا.

فالجزم أن امرأ القيس الشاعر الجاهلي المشهور، الذي بُعِثَ النبي ﷺ بعد موته بما يصل إلى سبعين سنة[1]، هو صاحب تلك الأبيات افتراء لا مرية في ذلك.

والنبي ﷺ باعتراف خصومه: كما ولد أميا نشأ أميًا وعاش أميًا فما كان يتلو من قبل القرآن من كتاب ولا يخطه بيمينه فكيف يأخذ من شعر السابقين؟ فلابد أن يكون المعلم له حيا يعلمه عن طريق التلقين لا عن طريق الكتابة والتدوين فمن هو ذلك المعلم؟ سَمُّوهُ لَنَا.

يقول درازـ ردا علي من قال أنه يُعلِّمه بشر ـ:

يقال له كما قيل للذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم في الخيال والوهم﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ (الرعد: ٣٣)

بل نقول هل ولد هذا النبي في المريخ، أو نشأ في مكان قصي عن العالم فلم يهبط علي قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوي ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه إلا لمامًا؟ ألم يولد في حجورهم؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم ويصبحهم ويمسيهم؟ ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حله ورحيله؟ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المؤمنون: ٦٩). طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، ولكن هل تراهم كانوا في هذه الكلمة جادين؟ كان كل

(١) مات امرؤ القيس سنة ثمانين قبل الهجرة (انظر: الأعلام للزركلي).

همهم أن يدرءوا عن أنفسهم معرة السكوت والإفحام بأي صورة تتفق لهم من صور الكلام بالصدق أو بالكذب؟ ومن هو ذلك البشر الذي قالوا أنه يعلمه؟

ما اجترءوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم؟ كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهل من أن يعلموا رجلًا جاءهم بما لم يعرفوا ولا آباؤهم. . . وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصًا يتحقق فيه شرطان: أحدهما: أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملي عليه بكرةً وأصيلًا[١].

وثانيهما: أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال إن عنده علم ما لم يعلموا. وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها، أتدري أين وجدوها؟. . في حداد رومي! !

نعم وجدوا في مكة غلامًا تعرفه الحوانيت والأسواق، ولا تعرفه تلك العلوم في قليل ولا كثير. غير أنه لم يكن أميًا ولا وثنيًا مثلهم، بل كان نصرانيًا يقرأ ويكتب. فكان من أجل ذلك خليقًا في زعمهم أن يكون أستاذًا لمحمد، وبالتالي لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغًا لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها، ورد متشابهها إلي محكمها؟ وهل كان مزودًا في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم؟. . . لعرفت أنه كان حدادًا منهمكًا في مطرقته وسندانه، وأنه كان عامي الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أماني، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه. لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذي منحوه إياه علي رغم أنف الحاسدين! وهكذا فمن ضاقت به دائرة الجد، لم يسعه إلا فضاء الهزل، وهكذا أمعنوا في هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل، فكان مثلهم كمثل من يقول: إن العلم يستقي من الجهل، وإن الإنسان يتعلم كلامه من الببغاء! وكفي بهذا هزيمة وفضيحة لقائله ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى

---

(١) لقد كان كفار قريش يُحْكِمون الكَذِبَ لِيروجَ عَنْهم، فكانوا أَسَدَّ رأيًا وأحكَمَ عَقْلًا مِنْ مُسْتشرقي عصرنا، إذ لم يستجيبوا لنداء الفطرة والعقل فيكونوا مع حزب الله المؤمنين ولم يقتدوا بالقرشيين الكاذبين، فأصبحوا أضحوكة للعالمين ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا.

يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣)[(١)].

ويقول دراز: هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس علي خصومته، وأدري الناس بأسفاره ورحلاته، وأحصاهم لحركاته وسكناته، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره. فما للملحدين اليوم وقد مضي نيف وثلاثة عشر قرنًا انفضت فيها سوق الحوادث، وجفت الأقلام، وطويت الصحف، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قمامات التاريخ، وفي الناحية التي أنف قومه أن ينبشوها؟

ألا فليريحوا أنفسهم من عناء البحث، فقد كفتهم قريش مئونته. وليشتغلوا بغير هذه الناحية التي قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل. فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام في وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبيناته[(٢)].

* * *

(١) النبأ العظيم للدكتور عبد الله دراز صـ ٧٩: ٨١ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص ٨٣.

١٥ـ شبهة: ادعاؤهم اقتباس محمد الوحي من ورقة بن نوفل.

لقد دأب المستشرقون من عهد بعيد على اتهام سيدنا رسول اللهﷺ بالأخذ عن أشخاص من أهل زمانه، فكان من ذلك: زعمهم أنه تلقى عن ورقة بن نوفل، ذهب إلى ذلك قديمًا (درمنغام) وغيره، وذهب إليه حديثًا البروفيسور(مونتكمري واط) ويوسف إلياس الحداد وغيرهما.

قالوا: السر الكبير في ثقافة محمد الكتابية والإنجيلية وجود العالِم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد ابن عم السيدة خديجة في جوار النبيﷺ، وهو الذي زوجه ابنة عمه، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصر، وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية، فهو إذن عالم مسيحي كبير، وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عامًا قبل مبعثه، ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد الله لكي يأخذ عنه شيئًا من علوم التوراة والإنجيل، وينصُّ صحيح البخاري على أن ورقة هو الذي ثبَّتَ محمدًا في دعوته وبعثته لما عاد خائفًا من غار حراء، وعلى أن الوحي فتر لما توفي ورقة، وحاول محمد الانتحار مرارًا لفقده وفتوره.

وقالوا: إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراتية مسيحية يهودية، والقرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين ومقتبس منها، والقرآن كتاب توراتي إنجيلي في موضوعه ومصادره وقصصه وجدله، وكان محمد متأثرًا إلى أبعد الحدود باليهود والنصارى، حتى كأنه واحد منهم مع غلبة المسحة المسيحية[1].

والرد على الشبهات كما يلي:

أولًا: بذكر ردود إجمالية ومنها:

١- إثبات نبوة النبي محمد ﷺ وخصائص وأسباب اصطفائه.

٢- إثبات حال العرب قبل الإسلام وعلى أي دين كانوا يدينون.

ثانيًا: ذكر ردود تفصيلية، وذلك بأن نفصِّل الشبهات الدائرة حول ورقة بن نوفل، فهناك عدة شبهات تتعلق بكل مطلب من هذه المطالب:

١-طبيعة تدين ورقة بالنصرانية.

---

(١) انظر القرآن والمبشرون (٩٤-٩٥).

٢- تعليم ورقة لمحمدﷺ.

٣- اللقاءات بين ورقة ومحمدﷺ.

٤-موقف قريش من ورقة.

٥-دور ورقة من زواج محمد ﷺ بخديجة.

٦-ادعائهم أن لخديجة وأبي طالب دور لتنصير محمد كَوكَلاء عن ورقة.

٧- القرآن وورقة.

٨- ترجمة ورقة للكتاب المقدس وتحويل الترجمة إلى قرآن.

٩- محاولة انتحار محمد ﷺ بعد موت ورقة حيث فتر الوحي.

١٠- ادعاؤهم أن ورقة قام بتنظيم مؤلف من: أبي بكر وسلمان الفارسي وصهيب وغيرهم.

١١-أخت ورقة ودورها مع عبد الله والد النبيﷺ.

١٢-ادعاء أن من حاضنات النبي ﷺ من كن نصرانيات كأم أيمن وحليمة.

١٣- ادعاؤهم أن الجزيرة العربية كانت على الديانة النصرانية.

وإليك التفصيل

أولًا: ذكر ردود إجمالية ومنها:

١ـ إثبات نبوة النبي محمدﷺ، وخصائصه، وأسباب اصطفائه.

إجراء المعجزات على يد النبي ﷺ:

قال ابن تيمية: جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر؛ بل وعن مقدور جنس الحيوان، وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن؛ مثل قتل الساحر وتمريضه لغيره، فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر، وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية وغير ذلك حتى تطير به، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد هذا فعل مقدور للحيوان؛ فإن الطير يفعل ذلك والجن تفعل ذلك، وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وهذا تصرف في أعراض الحي فإن الموت والمرض والحركة أعراض، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه

الأعراض ليس في هذا قلب جنس إلى جنس، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه ولا ما تختص به الملائكة، وكذلك إحضار ما يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب أو غير ذلك من الغيب، وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان وهذا تفعله الإنس والجن، لكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك، وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيرًا بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يُزادها فهذا لا يقدر عليه إنسي ولا جني. (١)

معرفة النبي محمد ﷺ أمورًا غيبية من لدن الله:

قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الجن: ٢٦، ٢٧).

قال ابن تيمية: فهذا غيب الرب الذي اختص به الرسول؛ مثل علم الرسول بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله، والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة؛ كالذي يسترقه الجن من السماء مع ما في الجن من الكذب فلا بد لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس، وأما ما يخبر به الرسول من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلًا مثل إخباره إنكم تقاتلون الترك صغار الأعين، ذلف الأنوف، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجانُّ المطرقة، وقوله: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، ونحو ذلك فهذا لا يقدر عليه جني ولا إنسي، والمقصود أن ما يخبر به غيرُ النبي من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس فهو من جنس المقدور لهم، وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء؛ فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾.

قال: وكذلك الإخبار ببعض الأمور الغائبة مع الكذب في بعض الأخبار فهذا تفعله الجن كثيرًا مع الكهان وهو معتاد لهم مقدور. . . والكهان لا بد لهم من الكذب، والرب

(١) النبوات١/ ٦.

قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الأمور الغائبة؛ لكن ذكر الفرق فقال: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾، كذلك مسرى الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الرب من آياته، فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة؛ بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به، فهذا لا يقدر عليه الجن وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة، وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾؛ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به؛ وهذا كما قال في الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾، ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان به فلابد أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن، فلابد أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الإنس والجن، وما يأتي به الكاهن من خبر الجن وغايته أنه سمعه الجني لما استرق السمع مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون. (١)

انتشار دينه: عن أبي أسماء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض". (٢)

استحالة كذب النبي ﷺ، وإثبات أن أخلاقه موافقة لأخلاق الأنبياء:

عن عَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ -وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ- فِي الْمُدَّةِ التي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ

---

(١) النبوات١/ ٦.

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٩).

قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نبي، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّى، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا؛ قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّى كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ، فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ

تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَي هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ. (١)

اللسان العربي الذي سيكون لغة وحي الله الخاتم هل هذا اللسان تتوفر فيه مميزات وفضائل غير متوفرة في غيره من اللهجات واللغات؟

قال ابن تيمية: فإن الله تعالى خص العرب ولسانهم بأحكام تميزوا بها، ثم خص قريشًا على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة. (٢)

٢ـ إثبات حال العرب قبل الإسلام وعلى أي دين كانوا يدينون:

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: " أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ ". (٣)

كنيسة صنعاء:

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: ثُمّ إنّ أَبْرَهَةَ بَنَى الْقُلّيْس بِصَنْعَاءَ، فَبَنَى كَنِيسَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا فِي زَمَانِهَا بِشَيْءٍ مِنْ الْأَرْضِ، ثُمّ كَتَبَ إلَى النّجَاشِيّ: إنّي قَدْ بَنَيْتُ لَك أَيّهَا الْمَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَك، وَلَسْت بِمُنْتَهٍ حَتّى أَصْرِفَ إلَيْهَا حَجّ الْعَرَبِ، فَلَمّا تَحَدّثَتْ الْعَرَبُ بِكِتَابِ

---

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (٤٧٠٧).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٥٤.

(٣) مسلم (٧٣٨٦).

أَبْرَهَةَ ذَلِكَ إِلَى النَّجَاشِيِّ غَضِبَ رَجُلٌ مِنْ النَّسَأَةِ أَحَدُ بَنِي فُقَيْمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَامِرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إلْيَاس مِنْ مُضَرَ. قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَخَرَجَ الْكِنَانِيّ حَتّى أَتَى الْقُلّيْس فَقَعَدَ فِيهَا -قَالَ ابْنُ هِشَامٍ يَعْنِي أَحْدَثَ فِيهَا-، ثُمّ خَرَجَ فَلَحِقَ بِأَرْضِهِ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ أَبْرَهَةُ فَقَالَ مَنْ صَنَعَ هَذَا؟ فَقِيلَ لَهُ: صَنَعَ هَذَا رَجُلٌ مِنْ الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الّذِي تَحُجّ الْعَرَبُ إلَيْهِ بِمَكّةَ لَمّا سَمِعَ قَوْلَك: " أَصْرِفُ إلَيْهَا حَجّ الْعَرَبِ " غَضِبَ فَجَاءَ فَقَعَدَ فِيهَا، أَيْ: أَنّهَا لَيْسَتْ لِذَلِكَ بِأَهْلٍ. فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَةُ وَحَلَفَ لَيَسِيرَن إلَى الْبَيْتِ حَتّى يَهْدِمَهُ، ثُمّ أَمَرَ الْحَبَشَةَ فَتَهَيّأَتْ وَتَجَهّزَتْ، ثُمّ سَارَ وَخَرَجَ مَعَهُ بِالْفِيلِ وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ الْعَرَبُ، فَأَعْظَمُوهُ وَفَظِعُوا بِهِ، وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ حِينَ سَمِعُوا بِأَنّهُ يُرِيدُ هَدْمَ الْكَعْبَةِ بَيْتِ الله الْحَرَامِ.[1]

ثانيًا: الردود التفصيلية:

المطلب الأول: حياة ورقة بن نوفل ومراحلها.

الشبهات في هذا المطلب مآلها إلى الآتي:

١-المدة الزمنية لحياة ورقة النصرانية: فعندهم أنه كان قسيسًا قبل ولادة النبي ﷺ، وكان يتفطن في من سيلد محمدًا ﷺ، ويستعد ورقة لتهيئة الظروف المواتية لإعداد محمد ﷺ قبل أن يأتي إلى الدنيا.

٢- ورقة كان ملازمًا لمحمد دائمًا في جميع مراحل حياته كما يلازم الظل الجسد.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ورقة لم يعرف النصرانية إلا متأخرًا فكيف يقال: كان قسيسًا قبل ولادة النبي ﷺ

ورقة بن نوفل لم يكن قد تنصر قط في حياة عبد الله والد نبينا محمد ﷺ فضلًا عن أن يكون قسًا وعالمًا نصرانيًا مستبحرًا في علوم ديانته. فإنه تنصر عندما ذهب للشام بعد ما كان في الحبشة، فعندما علم بقرب ظهور النبي الخاتم وهو بالشام ذهب إلى مكة مرة أخرى، فعند

---

(١) سيرة ابن هشام١/ ٤٣، الروض الأنف١/ ١١٥، السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٠.

اقتراب بعثة النبي ﷺ كان الرُّهبان يتناقلون مقولتهم الشهيرة، حيث قد قالها أحدهم لزيد بن عمرو: فقال له الراهب: إنك لتطلب دينًا ما تجد من يحملك عليه، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية، فلما قال له ذلك رجع يريد مكة[1].

والروايتان السابقتان توضحان بجلاء أن ورقة بن نوفل ظل مشركًا إلى ما بعد ولادة النبي محمدﷺ، ثم إنه لم يتنصر إلا بعد عدة سنوات من سفرٍ هنا وهناك حتى استقر بالشام، وبعض الروايات توضح أنه تهود قبل أن يتنصر، وظل ورقة بالشام فترة من الواضح أنها كانت طويلة تكفي لتعلمه النصرانية وتبحره في دراستها، حتى أن النبي ﷺ تزوج من خديجة ومازال ورقة بالشام، وهذا ما سيتضح أيضًا في الوجه الثالث.

الوجه الثاني: مكث ورقة يتعلم النصرانية وفي نفس الوقت جاء الوحي للنبي ﷺ

ورقة ظلَّ فترة في الشام ليتعلم النصرانية، وفي هذه الفترة كان نبينا محمد ﷺ قد كبر واشتد عوده وأتته إرهاصات النبوة في حالة كونه غلام، وكان بعد ذلك على الحنيفية في تعبده وأخلاقه ومعاملاته، فأين ورقة من كل ذلك؟!

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺأَنَّ النبي ﷺ لقي زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحَ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النبي ﷺ الوحي فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِي ﷺ سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلاَ آكُلُ إِلاَّ مَا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ، وَإِنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا الله، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ الله إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ[2].

قال السهيلي: فِي هذا الحديث سُؤَالٌ يُقَالُ: كَيْفَ وَفَّقَ الله زَيْدًا إِلَى تَرْكِ أَكْلِ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَمَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ الله عَلَيْهِ، وَرَسُولُ الله ﷺ كَانَ أَوْلَى بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِمَا ثَبَّتَ الله؟ فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٥٧.

(٢) رواه البخاري (٣٨٢٦).

أحدهما: أَنّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ حِينَ لَقِيَهُ بِبَلْدَحَ، فَقُدّمَتْ إلَيْهِ السّفْرَةُ أَنّ رَسُولَ الله ﷺ أَكَلَ مِنْهَا، وَإِنّمَا فِي الْحَدِيثِ أَنّ زَيْدًا قَالَ حِينَ قُدّمَتْ السّفْرَةُ: لَا آكُلُ مِمّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ الله عَلَيْهِ.

ثانيهما: أَنّ زَيْدًا إنّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِرَأْيٍ رَآهُ لَا بِشَرْعٍ مُتَقَدّمٍ، وَإِنّمَا تَقَدّمَ شَرْعُ إبْرَاهِيمَ بِتَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ لَا بِتَحْرِيمِ مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ الله، وَإِنّمَا نَزَلَ تَحْرِيمُ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ وَبَعْضُ الْأُصُولِيّينَ يَقُولُونَ: الْأَشْيَاءُ قَبْلَ وُرُودِ الشّرْعِ عَلَى الْإِبَاحَةِ، فَإِنْ قُلْنَا بِهَذَا وَقُلْنَا: إنّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَأْكُلُ مِمّا ذُبِحَ عَلَى النّصُبِ فَإِنّمَا فَعَلَ أَمْرًا مُبَاحًا، وَإِنْ كَانَ لَا يَأْكُلُ مِنْهَا فَلَا إشْكَالَ، وَإِنْ قُلْنَا أَيْضًا: إنّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْإِبَاحَةِ وَلَا عَلَى التّحْرِيمِ وَهُوَ الصّحِيحُ فَالذّبَائِحُ خَاصّةٌ لَهَا أَصْلٌ فِي تَحْلِيلِ الشّرْعِ الْمُتَقَدّمِ كَالشّاةِ وَالْبَعِيرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمّا أَحَلّهُ الله تَعَالَى فِي دِينِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، وَلَمْ يَقْدَحْ فِي ذَلِكَ التّحْلِيلِ الْمُتَقَدّمِ مَا ابْتَدَعُوهُ حَتّى جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَأَنْزَلَ الله سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٢١)، أَلَا تَرَى كَيْفَ بَقِيَتْ ذَبَائِحُ أَهْلِ الْكِتَابِ عِنْدَنَا عَلَى أَصْلِ التّحْلِيلِ بِالشّرْعِ الْمُتَقَدّمِ وَلَمْ يَقْدَحْ فِي التّحْلِيلِ مَا أَحْدَثُوهُ مِنْ الْكُفْرِ وَعِبَادَةِ الصّلْبَانِ، فَكَذَلِكَ كَانَ مَا ذَبَحَهُ أَهْلُ الْأَوْثَانِ مُحِلًا بِالشّرْعِ الْمُتَقَدّمِ حَتّى خَصّهُ الْقُرْآنُ بِالتّحْرِيمِ[1].

فهذا دليل واضح أن زيد بن عمرو ترك ورقة في الشام يتعلم النصرانية، وعندما رجع إلى مكة كان النبي محمد ﷺ شابًا، بل قد تزوج النبي من خديجة؛ لأن زيد بن حارثة قد وهبته خديجة لمحمد بعد زواجهما، فما أتى ورقة إلى مكة إلا بعد زواج محمد ﷺ من خديجة وقرب بعثة محمد ﷺ للنبوة.

ومن الإرهاصات التي أتت للنبي ﷺ ولم يكن ورقة مشرفًا عليها مثل:

١- شق الصدر في الصغر.

٢- تسليم الحجر والشجر على محمد ﷺ.

(١) الروض الأنف ١/ ٣٨٢.

لذلك نقول بجلاء: إنه ليس لورقة علاقة بتمهيد وتسهيل النبوة لمحمد ﷺ، وليس له دور في تكوين شخصية محمد ﷺ، بل إن ربَّه ربَّاه كما ربَّى موسى على عينه.

الوجه الثالث:

عودة ورقة من الشام إلى مكة كانت قرب وفاته وقرب وفاة زيد بن عمرو، وكان ذلك قرب سنة بناء الكعبة؛ فوقتئذٍ كان عُمْرُ النبي ﷺ اقترب من السابعة والثلاثين، ولم يصل ورقة إلى مكة بعد تنصره، قال زيد بن حارثة: ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يبعث رسول الله ﷺ[(١)].

ومن قريب أثبتنا أن زيد بن عمرو رجع من رحلته من الشام وثبت على ملة إبراهيم ﵇، وبعد ذلك كله قابل محمدًا ﷺ ومعه زيد بن حارثة وذلك كان بعد زواج محمد ﷺ من خديجة، وفي كل هذا الوقت كان ورقة لا يزال بالشام.

ورجوع زيد بن عمرو من رحلته-التي لم تكن طويلة-كان ذلك عند اقتراب بعثة محمد ﷺ، ففي مسند الطيالسي: خرج ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد بن عمرو بن نفيل: من أين أقبلت يا صاحب البعير؟ قال: من بيت إبراهيم، قال: وما تلتمس؟ قال: ألتمس الدين، قال: ارجع؛ فإنه يوشك أن يظهر الذي تطلب في أرضك[(٢)].

---

(١) **صحيح**. رواه البيهقي في دلائل النبوة (٤٣١)، (٤٣٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٤)، وأبو يعلى (٧٠٥٦)، والحاكم (في المستدرك ٤٩٤٥)، والطبراني (في المعجم الكبير٤٦٦٣)-جميعًا عن: محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أسامة بن زيد، عن زيد بن حارثة به.
والإسناد رجاله رجال البخاري ومسلم غير يحيى بن عبد الرحمن: فمن رجال مسلم.

(٢) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٣٢)، وعنه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٥٠)، وابن عساكر١٩/ ٥٠٠، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٠)من طريق عبد الله بن رجاء- جميعًا عن المسعودي، عن نفيل بن هاشم بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي عدي قريش، عن أبيه، عن جده.
قال البوصيري: هذا إسناد رجاله ثقات؛ نفيل وهشام ذكرهما ابن حبان في الثقات، والباقي على شرط مسلم إلا أن المسعودي اختلط بآخره، وممن روى عنه بعد الاختلاط أبو داود الطيالسي ويزيد بن هارون كما أوضحته في تبيين حال المختلطين؛ اتحاف الخيرة المهرة١/ ١٥.

فهذا دليل واضح أن زيدًا ترك ورقة واستمع لكلام الراهب فرجع إلى مكة على الفور لانتظار اقتراب ظهور هذا النبي ﷺ.

وهو دليل واضح أيضًا على أن ورقة لم يكتمل تعلمه للنصرانية إلا والنبي محمد ﷺ اقترب سنه من الأربعين.

الوجه الرابع: وفاة زيد ووفاة ورقة.

قال الزهري: ولقد توفي زيد وبقي ورقة بعده كما يزعمون سنتين[1].

وبغض النظر عن كون الفارق بين وفاتهما سنتين أو يزيد قليلًا، فهذا يبين أن كليهما لم يعمِّرا حتى بداية دعوة النبي ﷺ قومه إلى الإسلام، ووفاة زيد بن عمرو كانت بعد بناء الكعبة.

الدليل على أن وفاة زيد كانت بعد بناء الكعبة:

قال ابن حجر: مات زيد بن عمرو قبل البعثة بخمس سنين. . وعند ابن سعد عن الواقدي بسند له أن سعيد بن زيد قال: توفي أبي وقريش تبني الكعبة، قال مصعب الزبيري: حدثني الضحاك بن عثمان، عن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة: بلغنا أن زيد بن عمرو بلغه مخرج النبي ﷺ فأقبل يريده فقتله أهل مبقعة موضع بالشام. [2]

إن زيدًا كان عندما رجع من رحلته للبحث عن الدين الحق ثم وصل إلى مكة ورأته أسماء بنت أبي بكر وهو يسند ظهره للكعبة، ولربما أثناء بناء الكعبة استغرق ذلك وقتًا ما لبنائها بحيث إن أجزاءً منها وجدرانًا لها يمكن أن يُسند زيد ظهره إليها.

فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلى

قلت: وقد تابع عبد الله بن رجاء أبو داود الطيالسي، ومن المحتمل الغالب أن عبد الله بن رجاء بن عمر الغدانى قد روى عن المسعودي قبل الاختلاط؛ وذلك لأنه بصري، وقد قال عبد الله بن أحمد: قال أبي: وإنما اختلط المسعودي ببغداد، ومن سمع منه بالبصرة والكوفة فسماعه جيد؛ شرح علل الترمذي ١/ ٢٢٨.

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٠).

(٢) الإصابة ٢/ ٦١٥.

الكعبة[١]. وكان هذا لا يتأتى له قبل بناء الكعبة.

قال ابن إسحاق: وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى إليها كل يوم، فتتشرق على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون؛ وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فاهها؛ فكانوا يهابونها، فبينما هي يومًا تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله عليها طائرًا فاختطفها فذهب بها. فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضي ما أردنا -أي: بناء الكعبة- عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية[٢].

فلهذه العلاقة نقول: إن زيد بن عمرو عندما ترك ورقة بالشام ثم رجع إلى مكة بطريقة غير مباشرة كان باستطاعته أن يصل للكعبة ويسند ظهره إليها، ولا يتم ذلك إلا بعد بناء الكعبة أو حين بنائها وذهاب الحية عنها.

قال حسني الأطير: فهذه الصورة المزعجة لحال الكعبة حال تصدعها قبل الهدم، وإعادة بنائها، ترينا كيف كان القرشيون لا يستطيعون أن يدخلوا الكعبة، ولا حتى أن يقتربوا منها، الأمر الذي بلغ حد أن يعطلهم عن هدمها لإعادة بنائها[٣].

والحاصل من الأخبار السابقة: أن كلًا من زيد بن عمرو، وورقة كانت وفاتهما قريبة من بعضهما، وكانت أيضًا قبل دعوته لعشيرته للإسلام، وإن ورقة لم يمكث بعد بعثة النبي ﷺ إلا فترة يسيرة.

---

(١) المستدرك (٥٨٩٣)، السيرة النبوية لابن كثير١/ ١٥٤، الروض الأنف١/ ٣٨٢، سيرة ابن هشام١/ ٢٢٤، قال الحاكم: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا الحسن بن علي بن عفان، ثنا أبو أسامة، ثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء به.

قلت: إسناده حسن -من أجل الحسن بن علي، وأبو أسامة هو: حماد بن أسامة؛ وقد قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) السيرة النبوية١/ ٢٧٦، سيرة ابن هشام١/ ١٩٢.

(٣) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل (١٧٥).

الوجه السادس: ورقة ليس عنده يقين في الكيفية الصحيحة لعبادة الله، ولكن ما يغلب على ظنه يفعله:

فعن يونس بن بكير: عن ابن إسحاق، حدثني هشام، عن أبيه، عن أسماء: أن ورقة كان يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحته[1].

فهل ورقة الذي ليس عنده يقين في أمر النصرانية يكون داعيًا ومحرضًا لها؟ فمن الواضح من سيرة ورقة أنه اتخذ النصرانية لنفسه انتظارًا لنبي آخر الزمان لا أنه أراد أن يستمر على نصرانيته حتى ولو ظهر نبيٌّ يدعوه لغيرها.

المطلب الثاني: طبيعة تدين ورقة بالنصرانية.

الشبهة التي تندرج تحت هذا المطلب: أن ورقة قسيس نصراني (أبيوني) المذهب؛ له كهنوت بمكة، وله تأثير على محمد في تأليف الإسلام.

فالشبهات في هذا المطلب مآلها إلى الآتي:

١ - اعتقاد ورقة بأنه أبيوني المذهب لذلك أشار بتكفير النصارى في القرآن، وادعى أن المسيح ما هو إلا بشر رسول.

٢ - ورقة مبشر قسيس؛ فقام بالدعوة لدينه.

الشبهة الأولى: ورقة أبيوني المذهب.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تعريف الأبيونية عند غير المسلمين.

قال المؤرخ موشيم في المجلد الأول من تاريخه:

إن الفرقة الأبيونية التي كانت في القرن الأول كانت تعتقد أن عيسى عليه السلام إنسان فقط تولد من مريم ويوسف النجار مثل الناس الآخرين، وطاعة الشريعة الموسوية ليست منحصرة في حق اليهود فقط؛ بل تجب على غيرهم أيضًا والعمل على أحكامه ضروري للنجاة، ولما كان بولس ينكر وجوب هذا العمل ويخاصمهم في هذا الباب مخاصمة شديدة كانوا يذمونه ذمًا شديدًا ويحقرون تحريراته تحقيرًا بليغًا.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٥، السيرة لابن كثير ١/ ١٥٤، سير أعلام النبلاء (١/ ١٢٩)ورجاله ثقات.

وقال جامعو تفسير (هنري واسكات):

سبب فقدان النسخة العبرانية أن الفرقة الأبيونية التي كانت تنكر ألوهية المسيح حرفت هذه النسخة وضاعت بعد فتنة (يروشالمن)، وقال البعض إن: الناصريين أو اليهود الذين دخلوا في الملة المسيحية حرفوا الإنجيل العبراني، وأخرجت الفرقة الأبيونية فقرات كثيرة منه.

ويشير أبو موسى الحريري في كتابه "قس ونبي" إلى عقائد بعض الفرق الأبيونية الهرطوقية التي ادعت أن المسيح يتحول برضاه من صورة إلى صورة، فقد ألقى في صلبه شبهه على سمعان، وصُلب سمعان بدلًا عنه، فيما هو ارتفع إلى السماء حيًا إلى الذي أرسله، ماكرًا بجميع الذين مكروا للقبض عليه؛ لأنه كان غير منظور للجميع[1].

الوجه الثاني: اعتقاد الأبيونيين ليس كاعتقاد ورقة ولا المسلمين.

اعتقاد الطائفة الأبيونية وكذلك سائر عقائد النصارى في هذا الوقت يختلف عن اعتقاد ورقة ومحمدﷺ.

هذه هي عقيدة الأبيونية وبعض الفرق الأخرى التي ظهرت في القرن الثاني الميلادي التي اعتقد البعض أن الإسلام أخذ منها عقيدته:

١ – فالأبيونيون وغيرهم كانوا يؤمنون بأن المسيح ولد ولادة طبيعية من علاقة جنسية مباشرة بين مريم ورجل (سواء كان هذا الرجل هو يوسف النجار أو بانتيرا أو غيرهما)، وكانوا يتجنبون ذِكر هل هذه العلاقة كانت عن زواج أم زنى؟

وذلك الاعتقاد عند الأبيونيين (ويُسمون بالأبيونيين المتشدِّدين) والكيرنثيين والكسائيين في ذلك، بينما اختلفوا في الرجل الذي باشر مريم.

وأما الناصريون (ويُسمون بالأبيونيين المعتدلين)فأقروا بالولادة العذراوية للمسيح؛ أي: أن مريم فتاة عذراء لم يقتحمها ذكر، وأن المسيح له طبيعة مغايرة لسائر الأنبياء، سواء كانت طبيعة ملائكيًا أو غير ذلك.

---

(١) قس ونبي (١٢٩).

أما عند المسلمين فيؤمنون بما جاء في القرآن بأن المسيح خلق من روح مخلوقة، أنزلها الله مع جبريل لتُجعل في مريم؛ فيتكون المسيح من بعد ذلك بداخلها، فلم يكن هناك مباشرة بين رجل وامرأة، ولا أن المسيح له طبيعة ملائكية؛ بل له طبيعة بشرية، وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (مريم٢٢: ١٥).

فإن الأبيونيين نفوا ألوهية المسيح لإنكارهم ميلاده العذراوي، وكانوا يفترضون أنه لو صح لديهم ميلاده العذراوي لجاز لهم احتمال تأليهه.

أما القرآن فينفي أي احتمالات على ألوهية المسيح، مع التأكيد على أنه لم يكن هناك مباشرة بين رجل وامرأة لإنجابه[1].

٢- الإقرار بصلب المسيح وقتله. وشاركهم الكيرنثون، والكسائيون، والناصريون في ذلك. أما عند المسلمين فيؤمنون بما جاء في القرآن بنفي صلب المسيح وبنفي قتله[2].

وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (النساء ١٥٧: ١٥٨).

٣- إنكار قيامة المصلوب بعد موته، وأنكروا عقيدة الفداء أو الخلاص أو الكفارة عن خطيئة آدم بدم المصلوب، وهذا عند: الأبيونيين، والكيرنثيين، والكسائيين في ذلك، أما الناصريون فأقروا بقيامة المصلوب بعد موته.

---

(١) انظر بحث (ألوهية المسيح) في هذه الموسوعة.

(٢) انظر بحث (الصلب والفداء) في هذه الموسوعة.

أما القرآن فلا يثبت الصلب أصلًا.

٤- تحريم الذبائح في القربان: عند الأبيونيين، والكيرنثيين، والكسائيين، والناصريين.

أما في الإسلام فأباح تلك الذبائح وأمر بها في الشعائر.

٥- الاغتسال الكامل للبدن كل يوم لأداء الطقوس: عند الأبيونيين، والكيرنثيين، والكسائيين، والناصريين.

وهذا يختلف عن الوضوء عند المسلمين، فما يُغسل في الوضوء إلا بعضُ الأعضاء وهي: الوجه، واليدان إلى المرفقين، والرجلان إلى الكعبين، ويُمسح بالرأس، أما عندهم فيُغسل جميع البدن.

٦-المسيح نبي لا إله ولا ابن الإله؛ وذلك عند الأبيونيين والكيرنثيين، إلا ما كان عند الكسائيين والناصريين من اختلافٍ في طبيعة المسيح.

مما سبق يتضح أنه إن كان ورقة أبيوني متشدد، وصاغ لمحمد القرآن من الإنجيل ووافق عقائدهم فيتبين خطأ ذلك الادعاء بوضوحٍ عند المقارنة المجردة ما بين العقائد التي أتى بها القرآن وعقائد الفرق النصرانية المختلفة، فنؤكد على أنه لا يوجد اتفاق تام بين العقائد التي أتى بها القرآن وأي عقيدة أخرى بشرية أرضية أو إلهية تم تحريفها من قِبل البشر كما حدث لليهودية والنصرانية.

وإن كان هناك حق في الأديان الأخرى المخالفة للإسلام، فليس معنى ذلك أنه خطأ، بل إن الإسلام يقرُّ بكل حق أيًّا كان قائله أو كاتبه.

الوجه الثالث: ورقة لم يكن أبيونيًا بل كان يبحث عن الحق في النصرانية، وحاول جاهدًا أن يتتبع الحق فيها ويترك ما فيها من باطل.

نحن المسلمين نعتقد أن دين النصارى قد حُرِّف[١]، فكان ممن يريد اتباع الحق من النصارى يتلاشى ما يغلب على ظنه أن به تحريفًا، ويتبع ما كان يوافق منهج الأنبياء في التوحيد والإصلاح وما يصل إليه من خلال بحثه فيعتقد أنه الحق الذي لم يحرف.

قال المناوي: والظاهر أن ورقة لم يكن متمسكًا بالمبدل من النصرانية بل بالصحيح منها الذي هو الحق[٢].

قال عبد القادر البغدادي: وحاصل ما ذكره البقاعيِّ في شأن ورقة بن نوفل: أنه ممن وحّد الله في الجاهلية، فخالف قريشًا وسائر العرب في عبادة الأوثان وسائر أنواع الإشراك، وعرف بعقله الصحيح أنهم أخطئوا دين أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام، ووحّد الله تعالى واجتهد في تطلب الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ليعرف أحب الوجوه إلى الله تعالى في العبادة.

فلم يكتف بما هداه إليه عقله، بل ضرب في الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم بكتب الله المنزلة من عنده، الضابطة للأديان، فأداه سؤاله أهلَ الذكر الذين أمر الله بسؤالهم إلى أن اتبع الدين الذي أوجبه الله في ذلك الزمان، وهو الناسخ لشريعة موسى عليه السلام دين النصرانية، ولم يتبعهم في التبديل؛ بل في التوحيد، وصار يبحث عن النبي ﷺ الذي بشر به موسى وعيسى -عليهما السلام[٣].

وحتى لو كان ورقة أبيوني المذهب فهل هذا هو الداعي لكرهه للنصارى؛ حيث إنه كتب ما يسبهم في القرآن-كما تدعون-فللرد على ذلك نقول:

١- القرآن ذمَّ أناسًا من النصارى ومدح أناسًا آخرين منهم؛ فهذا يدل على إنصاف القرآن، وأن ورقة لو كان هو الذي كتبه لتعرض بالسب واللعن لهم جميعًا بسبب أو بدون سبب لينصر مذهبه؛ قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ

(١) انظر بحث (تحريف الكتاب المقدس) في هذه الموسوعة.

(٢) فيض القدير ٦/ ٤٠١.

(٣) خزانة الأدب ١/ ٤٣٧

﴿ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (المائدة٨٣: ٨٢)[١].

٢- القرآن يثبت أن المسيح ﷺ وأتباعه كانوا على الحق، والحقائق العلمية التاريخية تثبت أن الكتاب المقدس تم تحريفه بعد هذا العصر المبارك، فإنكار القرآن هو على من اتبعوا الكلمات المحرفة وتركوا كلمات الله الصادقة[٢].

الوجه الرابع:

ورقة متعلق بدين زيد بن عمرو فإنه أخذ النصرانية من رهبانيِّ الشام وتأثر بتوحيد زيد بن عمرو:

عن جابر رضي الله عنه قال: سألنا رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل فقلنا: يا رسول الله، إنه كان يستقبل القبلة ويقول: ديني دين إبراهيم وإلهي إله إبراهيم، وكان يصلي ويسجد! قال: "ذاك أمة وحده، يحشر بيني وبين يدي عيسى ابن مريم"، وسئل عن ورقة بن نوفل، وقيل: يا رسول الله، إنه كان يستقبل القبلة ويقول: إلهي إله زيد، وديني دين زيد، وكان يتوجه ويقول:

رشدت فأنعمت ابن عمرو فإنما ... عنيت تنورًا من النار حاميا

بدينك دينًا ليس دين كمثله ... وتركك حنان الجبال كما هيا

قال: "رأيته يمشي في بطنان الجنة عليه حلة من سندس"[٣].

---

(١) انظر بحث (ثناء القرآن للتوراة والإنجيل) في هذه الموسوعة.

(٢) انظر بحث (إثبات تحريف الكتاب المقدس)في موسوعتنا.

(٣) **حسن بطرقه وشواهده.** رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٠٢)، والبيهقي في دلائل النبوة١/ ٨١، وفي الأسماء والصفات (٦٠٤)، وابن عساكر في تاريخه (٦٣/ ٢٢) عن يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص الأموي قال: نا مجالد بن سعيد، عن الشعبي (وهو عامر بن شراحيل)، عن جابر رضي الله عنه، وأبو يعلى (٢٠٤٧)، وابن عساكر في تاريخه (٦٣/ ٢٣)، وابن عدى في الكامل (١/ ٣١٩، ترجمة ١٤٣ إسماعيل بن مجالد بن سعيد) جميعًا مختصرًا: عن إسماعيل بن مجالد بن سعيد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله، وذكره السهيلي في الروض الأنف (١/ ٣٨٩).

قال ابن حجر: وَتَفَرَّدَ بِهِ مُجَالِدٌ وَفِيهِ ضِعْفٌ؛ المطالب العالية٢/ ١٥٧.

* إسماعيل بن مجالد وإن كان من رجال البخاري فقد تكلم فيه بعضهم من قبل حفظه، وقال الذهبي في " الكاشف": " صدوق "، وكذا قال الحافظ في " التقريب ". وزاد: " يخطئ "، قال الألباني: وهذا أصح،

وعن أسماء ابنة أبي بكر قالت: قال زيد بن عمرو بن نفيل ﷺ:

عزلت الجن والجنان عني كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيه ولا أطم بني طسم أدير

ولا غنما أدين وكان رب إلى الدهر إذ حلمي صغير

فرب واحد أو ألف رب أدين إذا أنقسمت الأمور

ألم تعلم بأن الله أفنى رجالًا كان شأنهم الفجور

وأبقى آخرين بعد قوم قبروا منهم الطفل والصغير

وأوشك أن يعيش المرء يومًا كما يتروح الغصن النضير

وقال ورقة بن نوفل لزيد بن عمرو بن نفيل:

فمثله وسط؛ يدور حديثه بين أن يكون حسنًا لذاته، أو حسنًا لغيره، فإن توبع لم يتوقف الباحث عن تحسينه؛ السلسلة الصحيحة٦/ ١٥٦. قلت: وكذلك مجالد يحتاج إلى متابعة أو شواهد.

ولفظة: (رأيته يمشي في بطنان الجنة عليه حلة من سندس) لها شواهد فيحكم عليها بالحسن؛ فمن تلك الشواهد:

أنه في رِوَايَةِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَسُبُّ وَرَقَةَ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْت أَنِّي رَأَيْت لِوَرَقَةِ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ؟)؛ أخرجه الحاكم (٤٢١١)، وابن عساكر (٦٣/ ٢٤)، والديلمي (٧٢٩٧).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ رِوَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَقَّاصِيِّ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺسُئِلَ عَنْ وَرَقَةَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَانَ صَدَّقَك وَلَكِنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: رَأَيْت وَرَقَةَ فِي الْمَنَامِ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيَاضٌ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَكَانَ عَلَيْهِ لِبَاسٌ غَيْرُ ذَلِكَ)؛ أخرجه الترمذى (٢٢٨٨)، والحاكم (٤/ ٤٣٥)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَعُثْمَانُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ.

قال زَيْنُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيُّ: وَقَدْ رَوَاهُ مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ مُرْسَلًا لَيْسَ فِيهِ عَائِشَةُ، وَهُوَ مُرْسَلٌ صَحِيحٌ؛ رَوَاهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ هَكَذَا.

ثم حكم العراقي على اللفظة المذكورة فقال: فَهَذَا مَعَ حَدِيثِ عَائِشَةَ مَعَ مُرْسَلِ عُرْوَةَ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا؛ طرح التثريب١/ ٢٧٧. لذلك قال الألباني: ورواه أبو يعلى عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله: وإسناده حسن؛ (صحيح السيرة النبوية٩٤).

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما توقيت تنورًا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك جنان الجبال كما هيا
يقول إذ جاورت أرضًا مخيفة حنانيك لا تظهر علي إلا عاديا
أدين لربي يستجيب ولا أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا
أقول إذا صليت في كل مسجد تباركت قد أكثرت باسمك داعيا(١)

فما وصل إليه زيدٌ من التوحيد هو لتتبعه أقوال وأفعال إبراهيم عليه السلام التي تحصَّل عليها من نتاج بحثه، وما وصل إليه ورقة من حق إنما كان لتتبعه بعض ما كان عليه زيد، وما وصل إليه محمد ﷺ إنما هو من قِبَل الوحي.

الوجه الخامس: ورقة لم يكن مُوَفَّقًا في اتباعه النصرانية كما وُفِق زيد بن عمرو في إتباع الحنفية:

قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: وقد كان نفر من قريش: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وعبد الله بن جحش -حضروا قريشًا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، فقال قائلهم: تعلمن والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع؟ فابتغوا لأنفسكم.

فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم(٢).

---

(١) **حسن لغيره**. رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٧٧٣)؛ قال ابن أبي عاصم: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، ثنا ابن أبي أويس، عن ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء ابنة أبي بكر.

ورجال إسناده على شرط البخاري.

وعبد الرحمن بن أبى الزناد: هو من رجال مسلم، وذكره البخاري في تعليقاته. قال ابن معين: هو أثبت الناس في هشام بن عروة (الكاشف٣١٩٣)

وإسماعيل بن عبد الله بن عبد الله بن أويس. قال أبو حاتم: مغفل محله الصدق، وضعفه النسائي (الكاشف٣١٩٣) قال ابن حجر: صدوق أخطأ في أحاديث من حفظه (التقريب ٤٦٠)

قلت: والحديث السابق يعتبر شاهد له فيحسن.

(٢) الروض الأنف ١/ ٣٧٩، وسيرة ابن هشام ١/ ٢٤٢، والمنتق ١٧٥-١٧٦.

قال ابن كثير: ولم يكن فيهم -أي: في الأربعة الباحثين عن الحقيقة- أعدل أمرًا وأعدل ثباتًا من زيد بن عمرو بن نفيل، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين الحنيفية دين إبراهيم، يوحد الله ويخلع من دونه، ولا يأكل ذبائح قومه فأذاهم بالفراق لما هُم فيه(١).

فتنصروا كلهم؛ لأنهم وجدوه أقرب الأديان إذ ذاك إلى الحق، إلا زيد بن عمرو بن نفيل؛ فإنه رأي فيه دخلًا وتخبيطًا وتبديلًا وتحريفًا وتأويلًا، فأبت فطرته الدخول فيه أيضًا، وبشره الأحبار والرهبان بوجود نبي قد أزف زمانه واقترب أوانه، فرجع يتطلب ذلك، واستمر على فطرته وتوحيده، لكن اخترمته المنية قبل البعثة المحمدية(٢).

وهذا يدل على أن ابن كثير احتج بهذه الرواية الموجودة في سيرة ابن إسحاق، لذلك نقول: إننا لو افترضنا أن ورقة اتبع النصرانية التي ليس بها شرك، ولكن اتباع زيد بن عمرو للحنفية كان أرشد، وهذا لإقرار ورقة فقد قال: رشدت وأنعمت ابن عمرو، وذلك بعد مقتل زيد بن عمرو، بل أشار ورقة أن زيدًا كان على العقيدة الصحيحة من توحيد الله وترك الشرك بجميع أنواعه، فَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ يَبْكِيهِ:

رَشَدْت وَأَنْعَمْت ابْنَ عَمْرٍو وَإِنّمَا ... تَجَنّبْت تَنّورًا مِنْ النّارِ حَامِيَا
بِدِينِك رَبّا لَيْسَ رَبّ كَمِثْلِهِ ... وَتَرْكِك أَوْثَانَ الطّوَاغِي كَمَا هِيَا
وَإِدْرَاكِك الدّينَ الّذِي قَدْ طَلَبْته ... وَلَمْ تَكُ عَنْ تَوْحِيدِ رَبّك سَاهِيَا
فَأَصْبَحْت فِي دَارٍ كَرِيمٍ مُقَامُهَا ... تُعَلّلُ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ لَاهِيَا
تُلَاقِي خَلِيلَ الله فِيهَا، وَلَمْ تَكُنْ ... مِنْ النّاسِ جَبّارًا إلَى النّارِ هَاوِيَا
وَقَدْ تُدْرِكُ الْإِنْسَانَ رَحْمَةُ رَبّهِ ... وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ سَبْعِينَ وَادِيَا(٣)

فكان الذي ينبغي على ورقة أن يتبع ما سار عليه زيد للتمسك بالحنفية وذلك لعدة أمور:

(١) السيرة النبوية ١/ ١٥٥.

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٩٦.

(٣) سبق تخريجه.

١- أن دين الجزيرة العربية قبل انتشار الشرك هو اتباع ملة إبراهيم، وورقة من الجزيرة، فلماذا اتبع دين النصارى الذين قابلهم في الشام، وترك دين إبراهيم أبي الحنفاء؟ ونحن المسلمون نعتقد أن المسيح بُعث إلى بني إسرائيل لا إلى العرب.

ففي الكتاب المقدس:

هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: «إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا، [٦] بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. (متى ١٠/ ٦: ٥)

فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «اصْرِفْهَا، لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!» [٢٤] فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»(متى ١٥/ ٢٤: ٢٣).

٢- البدع والضلالات التي فشت في دين النصارى في هذه الفترة مما أطفأ بهاء هذا الدين.

٣- إن ورقة وزيدًا وغيرهما كانوا يبحثون عن دين الحنيفية لا النصرانية، فالعجيب أن ورقة لم يُكمل بحثه فضعفت عزيمته، بينما قويت عزيمة زيد فانتهى أمره إلى اتباع الحنيفية، وهذه هي الحقيقة التي ينتهي إليها العقل فيستسلم لها، ففي قول ابن إسحاق السابق: (فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون الحنفية دين إبراهيم)، فنقول بأن ورقة لو استكمل البحث عن الدين الحق لانتهى إلى ما انتهى إليه زيد.

لذلك نقول: ما كان الله ليختار لنبيه محمدًا إلا الدين الصحيح الخالي من أي شكوك، وهو دين إبراهيم، لذلك كان محمدٌ يفتخر بذلك فيقول بما قال الله له: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ (البقرة: ١٣٥).

الشبهة الثانية: كون ورقة مبشرًا للنصرانية:

والرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: لم نعثر في روايات العلماء على ما يُشار إلى أن ورقة كان داعية إلى النصرانية.

قال حسن ضياء الدين: لقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عرف عن ورقة بن نوفل مما له سند صحيح وما ليس له سند صحيح، فلم نعثر في رواياتهم على ما يشير إلى أنه

كان داعية إلى النصرانية، ورواية الإمام البخاري وهي أوثق رواية في أوثق مصدر تاريخي، وكذا رواية ابن إسحاق لدى الطبري وابن هشام، وغير ذلك من الروايات -أفادت أن نصرانية ورقة كانت قاصرة على نفسه، ولم تكن لديه حماسة التعليم ولا القدرة عليه والتفرغ له، وإلا لكان أنشأ مدرسة لها سمعتها ومشاكلها في الحياة الجاهلية الوثنية، لا تخفى ولا تغيب أخبارها عن أحد أبدًا.

وها أنت ذا تجد أن ورقة يقف مستطلعًا نبأ ما حصل لمحمد، ولم يكن ورقة يومها ولا قبلها معلمًا ولا ملقنًا، ولو كان له بعض ذلك لأعلن ابتهاجه بأن غرسه قد أثمر، لكنه أعلن أن وصف محمد ﷺ لملك الوحي مطابق لما عنده من صفات ملك الوحي الذي أنزله الله على موسى؛ إذ قال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى، ولتكَذبنَّه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنَّ الله نصرًا يعلمه.

أعلن ورقة بصراحة قوية مجلجلة أن هذا الحدث إلهي المصدر، والسبب خارج عن طاقة محمد ﷺ المخلوق وتصرفه وإرادته، وأن مشيئة الله اختارت محمدًا رسولًا إلى العالمين دون علم سابق منه ودون إرادته أو تطلعه وسعيه، ولكن لماذا أعلن ورقة أن الملك هو ملك الوحي الذي بعثه الله إلى موسى ولم يقل: إلى عيسى؛ علمًا بأن ورقة نفسه يقيم على شيء من النصرانية؟!

ذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن ورقة أعلن بهذا أن الملك الذي لقيه محمد ﷺ في غار حراء هو ملك الوحي الذي أجمع أهل الديانتين اليهودية والنصرانية على الإيمان بنزوله على موسى، ولم يقل ورقة: (إنه الذي نزل على عيسى) لأن اليهود ينكرون نبوة عيسى وصلته بوحي الله.

قلت: ورأي اليهود هذا معروف في الجزيرة لاستيطانهم بعضها، فقلد احتاط ورقة فنسب الملك إلى موسى ليكون أبلغ في إعلان اليقين، والتأكيد بأنه ملك الوحي، وأقطع حكمًا بنبوة محمدﷺ، وأنفى للشك وأبعد للاحتمال والتأويل الذي يجر إليه قذف الموضوع

في لُجة الخلاف بين اليهود والنصارى، وهذا غاية ما يمكن أن يعبر به ورقة عن يقينه بإلهية رسالة محمدﷺ[١].

الوجه الثاني:

ذكرنا في المطلب الأول وهو(حياة ورقة بن نوفل ومراحلها): حيث إن ورقة عندما رجع من الشام إلى مكة ظل فترة وجيزة لا تتجاوز ثلاث سنوات حتى أتته المنية، وقبل وفاته قد عمي بصره، فأين الفترة التي بشر فيها بالنصرانية حتى أصبح القسيس المعظم لدى مكة، الذي يُطاع فيها أمر؟!

الوجه الثالث:

هناك من العلماء من له وجهة أخرى في أمر نصرانية ورقة، فيقول: إن نصرانيته لم تكن بكهنوت يتبعه كما يلتزم النصارى بطقوسهم باختلاف طوائفهم، ولم يلتزم الكنائس والأديرة، فكم ممن يقرأ كتبًا لديانة ما وربما اتَّبع بعض ما فيها، ولكنه يتوقف في أمور كثيرة منها، وأن الأدلة من السنة التي تشير إلى أنه كان نصرانيًا إن هذا فيما يبدو لأهل مكة؛ لأنهم عندهم من ترك دينهم والتمس أي دين فينسبونه إلى هذا الدين الذي التمسه سواء أكان لم يقتنع تماما به أو غير ذلك، فقد تكون نسبة اتباعه لهذا الدين الجديد ضئيلة، ولكن لأنه بمجرد أنه ترك دينهم فقد صَبِئ، أما الأدلة التي تشير إلى أنه استحكم في النصرانية فهي ضعيفة.

أدلة هؤلاء العلماء:

أولًا: قولُ" ابن مَنِّ الله" في حديقة البلاغة في رده على ابن غرسية: وكانت فيهم (أي: العرب) الملّة الحنيفية الإسلامية، والشريعة الإبراهيمية، ومن أهلها كان قس بن ساعدة الإيادي، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو من بني عدى[٢].

فقالوا: من هذا النص يتضح لنا أن ورقة كان على دين إبراهيم عليه السلام.

ثانيًا: شرح الروايات التي أتت في أمر تَنَصُّر ورقة:

---

(١) وحي الله حقائقه وخصائصه (٨٨: ٩٠).

(٢) نوادر المخطوطات (١/ ٣٢٧).

روى البخاري في صحيحه بخصوص ورقة بن نوفل: كان امرءًا تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى[1].

وأخرجه البخاري في كتاب الأنبياء بلفظ: وكان رجلًا تنصر يقرأ الإنجيل بالعربية[2].

وقال ابن إسحاق في السيرة: فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علمًا من أهل الكتاب[3].

وفي تاريخ الطبري: وكان ورقة قد تنصر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل[4].

قالوا: هل تدل هذه الروايات على أن ورقة كان راهبًا ومهرطقًا وصاحب كنيسة ... إلخ؟! بالطبع لا.

يقول د. عويد المطرفي: فإن كان قد تنصر، ففي أي المدارس؟ وكم دام تحصيله لها؟

ونحن إذا طلبنا إجابات عن هذه الأسئلة المُلحّة التي طرحناها بشأن ما تنسبه الروايات الحديثية والتاريخية إلى ورقة بن نوفل من الدخول في النصرانية، والاستحكام فيها، واتباع كتبها من أهلها في الجاهلية، لم نجد لأي من هذه الأسئلة جوابًا محددًا ولا غير محدد يوضح متى تنصّر ورقة بن نوفل؟ ولا كيف تنصر؟ كما لم يُذكر في أي من هذه الروايات، ولا في غيرها من الأخبار الصحيحة الإسناد، ولا غير الصحيحة مَنْ دعاه إلى الدخول في النصرانية، بل لم يكن أبدًا أن أحدًا من الناس دعاه إلى الدخول في النصرانية ولا رَغّبَهُ فيها، وحبّبَهُ فيها، ولا كيف تعلمها، ولا ذكرت أسماء أشخاصٍ لا معروفين ولا غير معروفين تلقّاها عنهم، ولا شيوخ لا من الرهبان ولا ممن هم دونهم درسها عليهم، أو سمع أخبارها منهم.

كما لم يُذكر في هذه الروايات، ولا في غيرها اسمٌ لبلدٍ تعلم فيه ورقة بن نوفل النصرانية

---

(١) صحيح البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠، ٢٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٢١٢).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٣).

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٣٠٢).

لا مدرسة، ولا معهد، ولا كنيسة، ولا أي مؤسسة من مؤسسات النصارى التي كانوا ينشرون نصرانيتهم من خلالها(١).

ثالثا: ويجيبون على قول القائل: فما معنى الروايات المذكورة في البخاري وغيره أن ورقة تنصر واستحكم في النصرانية؟

فيُجيب د. عويد المطرفي إذ يقول: قول الرواية (تنصر في الجاهلية) لا ينهض دليلًا قاطعًا ولا شبه قاطع على تديّنه بالنصرانية، لا من قريب ولا من بعيد لأمور منها:

١- أن الإخبار عنه بالتنصر إخبار باعتناق دين النصرانية، وهي انتماء ديني، وأمر عقدي، وكلاهما فعل قلبي لا يتأكد إلا بأمور منها:

أهمها: التصريح الحقيقي في حال اليسر والعسر ممن نُسب إليه ذلك الانتماء والاعتقاد بأنه قد دان بذلك الدين أو المذهب الذي دان بدين من الأديان التي كان الناس يدينون بها في حياته وبعد مماته حتى وقتنا الحاضر، والمعلوم المعروف من ورقة بن نوفل أنه لم يُصرح في يوم من الأيام أنه يدين بالنصرانية؛ بل على العكس من ذلك كان يصرح بأنه على الحنيفية فإن ديدنه وهِجِّيراه في حياة صديقه ونديمه زيد بن عمرو بن نفيل، وبعد مماته أن يقول: إلهي إله زيد وديني دين زيد.

بل إن مما يدل على بُعد ورقة بن نوفل عن النصرانية أنه حين ذكر لخديجة بنت خويلد ﵂ تصديقه لرسول الله ﷺ، وفرحه بمبعثه، واستبشاره به أيما استبشار -فإنه لم يذكر عيسى ابن مريم في الروايات الصحيحة في البخاري ومسلم -رحمهما الله- الذي جاء بالنصرانية فلم يقل: هذا هو الناموس الذي نزّل الله على عيسى ﵇ مثلًا؛ بل قال: (هذا هو الناموس الذي نزّل الله على موسى)(٢). مما يدل على أن استحضار قلبه لذكر موسى أسرع من استحضاره لذكر عيسى عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) ورقة بن نوفل في بطنان الجنة (٥٨، ٥٩) صادر عن رابطة العالم الإسلامي.

(٢) البخاري (٣٢١٢)، مسلم (٢٥٢).

ولم يُعلم لورقة بن نوفل كلمة واحدة في الدفاع عن النصرانية، ولا عن رجالها، ولا في الدعوة إليها، ولا في ترغيب أحد فيها، وهذا يدل على أنه لا علاقة بينه وبينها ولا صلة له بها ولا برجالها، ولا بالبلدان التي تنتشر فيها هذه الديانة الغريبة عنه وعن أسرته وعشيرته، وبلده، وقومه القرشيين. ولا رأوا له مكانًا يرتاده يُشبه معابد النصارى، لا في بيته الذي كان يقع تحت أنظار عموم الناس من أهل مكة وغيرهم غربي الكعبة بينه وبينها تسعة أذرع، تفيء الكعبة على دارهم بالضحى، وتفيء دارهم على الكعبة بالعشي، حتى إن الدوحة التي كانت في دارهم ربما تعلّق بعض أفنانها بأثواب بعض الطائفين بالكعبة لقرب دارهم منها[1]. ولا رأوا له شيئًا من ذلك -أيضًا- في بلده مكة؛ لا في جبالها، ولا في كهوفها مع سعتها وكبر مساحتها، وتوفر كل ذلك فيها لو أراد عمل شيء منه[2].

رابعًا: ويجيبون عن رواية(استحكم في النصرانية)، يقول الدكتور المطرفي:

إنها مردودة من وجهين:

١- أنها لم تثبت بإسناد صحيح، بل لم يذكر ابن إسحاق في السيرة لها أصلًا.

٢- على فرض أن ورقة بن نوفل استحكم في النصرانية فليس معنى استحكامه فيها أنه قد دان بها، بل معناه أنه علمها حق العلم بها، وعرف حقائقها، وأسرارها وتاريخها بأخذ كُتبها من أهلها.

وإن لم يفعل ذلك لقيل -جدلًا-: إنه لم يطلع حق الاطلاع على النصرانية، بل إنه هو قد تحدثه نفسه بأن النصرانية المعاصرة له قد تكون على شيء من التوحيد الذي يبحث عنه هو، وزملاؤه الآخرون، ولكنه لرجاحة عقله، وقوة فهمه وحسن تبصّره في أمره، وتحققه في بحثه عن الحنيفية ملة أبيه إبراهيم حصل على كتب أهل الكتاب من أهلها، فرأى-بلا ريب- أن النصرانية ليست على شيء من دين إبراهيم دين التوحيد الخالص لله تعالى، فهل يعقل أن يُقال: إن ورقة بن نوفل بعد اطلاعه على كتب النصرانية تلك وتحققه مما فيها من

(١) أخبار مكة للفاكهي (٣/ ٣٠٧).

(٢) ورقة بن نوفل في بطنان الجنة (٦٦)؛ صادر عن رابطة العالم الإسلامي.

تناقضات وتحريفات ووثنية الثالوث قد رضيها دينا لنفسه، وهو الذي رفض الوثنية من أصلها بما فيها من فكرة تعدد الآلهة؟!. [١]

ويعقب الدكتور المطرفي شارحًا موضوع(استحكم في النصرانية):

(هناك الكثير من الرهبان ومن هم في معناهم من أهل النصرانية اليوم يحفظون القرآن الكريم، لا ليدينوا به، ولا ليتبعوا أحكامه، وشرائعه، وآدابه؛ بل لأغراض أخرى انطوت عليها أنفسهم، وقلوبهم الحاقدة على الإسلام، والمسلمين، وعلى رسول الله ﷺ بوجه خاص.

فهل يقال: إنهم باستحكامهم في حفظ القرآن ومعرفة الشرائع، وتاريخه قد دانوا بالإسلام؟ هذا مالم يقل به أحد لا منَّا ولا منهم[٢].

خامسًا: تفسيرهم لكلمة: قس.

وحتى لا يستشكل أحد ويقول لقد ذكر ابن القيم أن ورقة (قس)، فإننا نقول: إن قس لا تعني نصراني، وإنما تعنى: تتبع الشيء وتطلّبه، والقُسس: هم العقلاء، والساقة الحذاق[٣].

سادسًا: إن ورقة هناك مَنْ عدَّه مِن الصحابة.

فقد ذكره الطبري، وابن قانع، وابن السكن، وغيرُهم في الصحابة، وقال الحافظ العراقي: "ينبغي أن يقال: إن أول مَن آمن من الرجال ورقةُ بن نوفل، لحديث الصحيحين في بدء الوحي "[٤]. ومن الأدلة على ذلك:

١- أن ورقة بن نوفل قال للنبيﷺ: (إن يدركني يومُك أنصرك نصرًا مؤزرًا).

قال الحافظ ابن كثير: فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديق بما وجد، وإيمان بما حصل من الوحي ونية صالحة للمستقبل[٥].

---

(١) ورقة بن نوفل في بطنان الجنة ٧٠، ٧١؛ صادر عن رابطة العالم الإسلامي.

(٢) ورقة بن نوفل في بطنان الجنة ٧٣؛ صادر عن رابطة العالم الإسلامي.

(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩)، لسان العرب (٦/ ١٧٤)، والقاموس المحيط (٧٢٩).

(٤) ينظر تدريب الراوي (٢/ ٢٢٩).

(٥) البداية والنهاية (٣/ ٩).

وقال ابن حجر: فهذا ظاهره أنه أقر بنبوته.

وقال أبو زرعة العراقي : قَالَ وَالِدِي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي نُكَتِ ابْنِ الصَّلَاحِ: يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: إنَّ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنْ الرِّجَالِ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ لِهَذَا الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّ فِيهِ أَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ فِي حَيَاةِ وَرَقَةَ، وَأَنَّهُ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، وَذَكَرَهُ فِي الصَّحَابَةِ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ مَنْدَهْ؛ وَقَالَ: اُخْتُلِفَ فِي إسْلَامِهِ قَالَ وَالِدِي: وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ الْأَحَادِيثِ يَدُلُّ عَلَى إسْلَامِهِ[(١)].

٢- وعن الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: (سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وَرَقَةَ فَقَالَ: أَبْصَرْته فِي بُطْنَانِ الْجَنَّةِ عَلَيْهِ السُّنْدُسُ)[(٢)].

٣-عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين[(٣)].

٤- عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: «كان ورقة بن نوفل يمر ببلال وهو يعذب على الإسلام، وهو يقول: أحد أحد، فيقول ورقة: أحد أحد والله يا بلال[(٤)].

---

(١) طرح التثريب٥/ ٢٢٠.

(٢) رواه أبو يعلى (٢٠٤٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٠٢)، قال الألباني: إسناده حسن.

(٣) أخرجه الحاكم (٤٢١١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن عساكر (٦٣/ ٢٤)، وأخرجه أيضًا: الديلمي (٧٢٩٧). قال البوصيري: رُوي من حديث عائشة مرفوعًا بسند صحيح؛ إتحاف الخيرة المهرة١/ ١٥، قال الألباني: (صحيح)؛ صحيح الجامع (٧٣٢٠).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٥٨٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء١/ ١٤٨، وذُكر في سيرة ابن هشام١/ ٣١٧، ورواه الذهبي بإسناده عن هشام؛ (انظر سير أعلام النبلاء١/ ١٢٨ ترجمة: سعيد بن زيد)، وذكره السهيلي في الروض الأنف٢/ ٨٣.

وإن ترجيح الذهبي أقوى من ترجيح ابن حجر في مسألة وفاة ورقة قبل دعوة النبي ﷺ للإسلام، فلقد قال الحافظ ابن حجر: " وهذا مرسل جيد يدل على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم بلال "؛ الإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٦٠٧)، وقد رجحنا قول الذهبي؛ لأنه مرسل كما قال ابن حجر، وأنه معارض لروايات أخرى صحيحة قد ذكرناها في هذا البحث، فإنه يُرجح ما في الصحيح لأن ما في الصحيح أصح، ويقال: يكفي في إيمانه وتصديقه ما جاء في الصحيح كما تقدم عن الحافظين ابن كثير وابن حجر، وإن كان هناك محاولة للجمع بين هذه الروايات المتعارضة لكن لا يسلم هذا الجمع من انتقاضات. فلقد قال ابن حجر: " فلعل الراوي لم يحفظ لورقة ذكرًا بعد ذلك في أمر من الأمور فجعل هذه القصة انتهاء أمره بالنسبة إلى علمه لا إلى ما هو الواقع؛ فتح الباري (١/ ٢٧).

وهذا الأثر وإن كان يدل على إسلام ورقة ولكنه لا يصح سندًا ولا متنًا.

قال الذهبي: هذا مرسل، وورقة لو أدرك هذا لعد من الصحابة، وإنما مات الرجل في فترة الوحي بعد النبوة وقبل الرسالة كما في الصحيح(١).

٥- حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّ خَدِيجَةَ سَأَلَتْ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ فَقَالَ: " قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَابُ بَيَاضٍ فَأَحْسِبُهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثِيَابَ بَيَاضٍ "(٢).

قوله: لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير؛ لأنه آمن بي وصدقني، وفي هذا الإسناد انقطاع.

وقد ألف أبو الحسن برهان الدين إبراهيم البقاعي الشافعي تأليفًا في إيمان ورقة بالنبي وصحبته له.

قال البغدادي: ولقد أجاد في جمعه وشدد الإنكار على من أنكر صحبته، وجمع فيه الأخبار التي نقلت عن ورقة رضي الله عنه بالتصريح بإيمانه بالنبي ﷺ، وسروره بنبوته، والأخبار الشاهدة له بأنه في الجنة(٣).

ولعل في قصة ورقة والرسول ﷺ ما يدلل على أن ورقة كان مسلمًا، إذ قد سأل ورقة للرسول عن أمر الوحي: يابن أخي ماذا ترى؟ ، فأخبره الرسول ﷺ خبر ما رأي، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك.

يعلق الدكتور المطرفي على هذا الحديث ودلالته بما يلي:

أولًا: إن ورقة بن نوفل قد عرف مما أخبره رسول الله ﷺ به أنه ﷺ، وهو الرسول الذي أخبره علماء أهل الكتاب في بحثه عن الملة الحنيفية هو وزيد بن عمرو بن نفيل أنه قد أظل زمانه، وأن ما نزّل الله عليه هو الناموس الذي نزّله الله على موسى عليه السلام.

---

(١) سير أعلام النبلاء١/ ١٢٨؛ ترجمة: سعيد بن زيد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/ ٦٥، قال ابن كثير في السيرة النبوية١/ ٣٩٧: " وهذا إسناد حسن، لكن رواه الزهري وهشام عن عروة مرسلًا ".

(٣) خزانة الأدب (٣/ ٣٩١).

ثانيًا: ثم أيد ورقة بن نوفل تصديقه لرسول الله ﷺ وإيمانه به بما هو شاهد على ما استقر في قلبه، واطمأنت إليه نفسه، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه وجه الخطاب لرسول الله ﷺ بقوله له: ياليتني فيها جذعًا.

قال الزمخشري: أراد ليتني في نبوّته شابًا أقوى على نصرته، أو ليتني أدركتها في عصر الشبيبة، حتى كنت على الإسلام لا على النصرانية.[1]

الوجه الثاني: أن قوله له: ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، ومعناه أنه تمنى لنفسه طول العمر، بعد تمنيه لها الشباب وقوته لا ليحقق لنفسه بذلك مصالح ذاتية، ولا ليتمتع بطول العمر وملذّات الحياة كما هي تمنيات الناس؛ بل ليسخر حياته وشبابه وقوته لنصر رسول الله ﷺ، ونشر الحق الذي جاء به من عند الله، وشد أزره، وتأييد دينه، وقمع أعدائه، ومنعهم من الوصول إليه بأي أذى حتى يتفرغ رسول الله ﷺ لنشر دعوته وتبليغ رسالته – دليل ظاهر على إيمانه برسول الله ﷺ، واتباعه له، وامتلاء قلبه بحبه، وعقله بالعمل على نصره، ومنع الأذى عنه بأظهر الوسائل، وأقواها أثرًا[2].

لقد اعتنق ورقة الإسلام وتوفي بعد بعثة الرسول ﷺ بعام، وله الكثير من الأشعار يمتدح فيه المصطفي ﷺ وأصحابه.

المطلب الثالث: تعليم ورقة لمحمد ﷺ.

نص الشبهة:

ورقة كان له باع في تعليم محمد للتوراة والإنجيل لتكوين القرآن معًا.

الوجه الأول:

الروايات الصحيحة لم تذكر أن ورقة ألقى إلى الرسول عظة أو درسًا في العقائد أو التشريع، ولا أن الرسول ﷺ كان يتردد عليه:

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر (١/ ٦٤).

(٢) المصدر السابق (١٠٦: ١٠٤).

قال الزرقاني: نقرر أنه لا دليل عندهم على هذا الذي يتوهمونه ويوهمون الناس به، بل الدليل قائم عليهم؛ فإن الروايات الصحيحة لم تذكر أن ورقة ألقى إلى الرسول عظة أو درَّس له درسًا في العقائد أو التشريع، ولا أن الرسول كان يتردد عليه كما يتوهمون أو يوهمون، فأنى لهم ما يقولون؟ وأي مُنصف يسمع كلمة ورقة هذه ولا يفهم منها أنه كان يتمنى أن يعيش حتى يكون تلميذًا لمحمد ﷺ وجنديًا مخلصًا في صفه؛ ينصره ويدافع عنه في وقت المحنة، ولكن القوم ركبوا رؤوسهم على رغم ذلك، وحاولوا قلب الأوضاع، وإيهام أن ورقة هو الأستاذ الخصوصي الذي استقى منه محمد ﷺ دينه وقرآنه، ألا ساء ما يحكمون[(١)].

الوجه الثاني: موقف ورقة يدل على اعتقاده ربانية الوحي إلى رسول الله ﷺ:

قال حسن ضياء الدين: وذلك لما يأتي:

أ ـ أن ورقة بن نوفل وقف من محمد ﷺ مستطلعًا مستفهمًا كشأن الراهب بحيرا تمامًا، فأين هو التعلم والتلقي؟

ب ـ زد على ذلك أنه أنبأ رسول الله بأن قومه المشركين سيكافئونه على الهداية بالأذى والعداء والاضطهاد الشديد، وأن حاله معهم كحال رسل الله قبله مع أقوامهم، ويمضي ورقة في إعلانه إلهية هذه الرسالة ويقينه بها، فيندفع على كبر سنه بالتطوع للتضحية مناصرة لدعوة الله وردًا لأعدائها الكائدين.

ج ـ إن ورقة نفسه لم يدِّعِ النبوة، ولم يطلب لنفسه مكانَة واعتبارًا في الدعوة الجديدة كدليل ومرشد لها، أرأيت لو كان ورقة مصدر معارف محمد ﷺ أكان يقف منه موقف التابع المصدق المؤيد المناصر؟![(٢)]

الوجه الثالث: ورقة لم يكن لديه علم بكون محمد ﷺ هو خاتم النبيين؛ فقد استيأس من ظهوره وهو حي.

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ٣١١.

(٢) وحي الله حقائقه وخصائصه (٩٣).

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان ابن عمها، وكان نصرانيًا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامُها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه، فقال ورقة: لئن كان هذا حقًّا يا خديجة إن محمدًا لنبي هذه الأمة. قال ورقة لخديجة: قد عرفت أنه كائن بهذه الأمة نبي يُنتظر هذا زمانه-أو كما قال- فجعل ورقة يستبطئ الأمر.

وله في ذلك أشعار منها ما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق:

أتبكر أم أنت العشية رائح ... وفي الصدر من إضمارك الحزن قادح

لفرقة قوم لا أحب فراقهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازح

وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصح

بأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح

وظني به أن سوف يبعث صادقًا ... كما أرسل العبدان نوح وصالح[1]

قلت: فقوله: (فجعل ورقة يستبطئ الأمر) دليل على عدم علمه بأمر تقدير الله لنبيه محمد ﷺ بالنبوة قبل إخبار خديجة له.

الوجه الرابع: إسلام ورقة دليل على استعداده للاستسلام لأوامر الرسول، فكيف للمعلّم أن يخضع لأوامر تلميذه؟!

قال المناوي: ذهب جمع من أهل العلم أن ورقة أسلم عند ابتداء الوحي[2].

فلعلم ورقة أن محمدًا نبي كان عليه أن يستسلم لأوامره، فمن قال: إن ورقة هو المعلم الأول لمحمد كان من المفترض أن لا يرضى إلا أن يكون على الأقل استشاريَّ النبي لا مجرد تابع، فأنتم تقولون: إنه هو الذي أَلَّف لمحمد القرآن وهو الذي علمه، فلازم قولكم أن ورقة ينبغي أن لا يرضى أن يكون مثله مثل باقي الأتباع لمحمد، بل كان عليه أن يشترط على محمد شروطًا مثل الشروط الجزائية التي تُعقد بين شركة وبين مندوب مبيعات هذه

(١) عيون الأثر (١/ ٧٤)؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة، خزانة الأدب١/ ٤٣٧).

(٢) فيض القدير٦/ ٤٠١.

الشركة، فأنتم قلتم: إن ورقة أنتج الإسلام ومحمد وزَّعه ونشره بين العرب، فمِن صالح الشركة أن تضع اسمها على المنتج وأن تنسب هذا المنتج إلى نفسها.

فلماذا ورقة لم يكتب اسمه على المصحف الذي ألَّفه لمحمد؟ ولا نقول: إن عليه أن يدعي أن المصحف هو الذي ألَّفه حتى لا تنكشف الخطة، بل نقول: كان عليه أن يكتب على المصحف: نسخة ورقة بن نوفل، كما هو مكتوب على كتبكم المقدسة: نسخة الملك جيمس، أو نسخة الفانديك، أو النسخة الياسوعية، وغير ذلك؛ كمسألة تشريفية له.

فهل هذا يدل على أن ورقة متفانٍ في الإخلاص حتى إنه لا يريد ذكر اسمه، فعلى الأقل يذكر اسمه حتى يترحم عليه المسلمون!

ونرى أن محمدًا ﷺ يُحث المسلمين على ذكر اسمه هو ففي القرآن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وفي الأحاديث: يَقُولُ محمدﷺ: " إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ "[١].

فإذا قلتم: نعم، إن ورقة متفانٍ في الإخلاص لذلك لم يذكر اسمه على المصحف، فنقول لكم: إذن هو لم يحسن اختيار محمد، ولم يحسن تعليمه وتربيته؛ لأن محمدًا لم يكن أبدًا ليعترف أن كل خير هو فيه بسبب ورقة، بالرغم من أنه اعترف لغيره بالفضل والشكر. مَن أكثر مرافقة للنبي ورقة أم أبي بكر؟

بالطبع أبو بكر، فلماذا ادعيتم أن ورقة هو الذي علَّم محمدًا؟! مع أن أبا بكر هو الأكثر صحبة لمحمد وذلك قبل بعثته حتى وفاته، فلماذا لم ترد الشبهة باحتمال ذلك؟ هل هذا لأن ورقة نصرانيٌ فتريدون أن تنسبوا الإنجازات التي حققها الإسلام للدين النصراني، أم لأن ورقة كبيرٌ في السن، والرجل قد يُصاب بالخرف عند كبره؟!

---

(١) مسلم (٨٧٥).

الوجه الخامس:

إن محمدًا ﷺ حتى ولو أنه قابل ورقة أوغيره فمع ذلك لم يتخذهم قدوة له يأتمر بأمرهم وينتهي بنهيهم، ولم يكن هو كالتلميذ وهم كالمعلِّمين؛ قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (الأنعام: ٩٠). فهذه الآية أمرٌ من الله لنبيه بأن يهتدي بهُدى الأنبياء من قبله، فقبل هذه الآية ذكر الله عددًا منهم: كنوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وغيرهم، فالسؤال كيف يقتدي بهم وقد ماتوا؟!

والإجابة: وذلك بأن يتتبع أحوالهم وأخبارهم في القرآن، فقد لا يجد المرء أفضل من الاقتداء بسيرة الأموات؛ فإنه لا يُؤمَن على حي فتنة، فكما تزعمون أن ورقة له تأثير عظيم في حياة محمد ﷺ فكان يقتدي به ويأتمر لأمره، فلماذا لم يُذكر ورقة ضمن الذين أُمر محمد بالاقتداء بهم فهذا من باب رد الفضل لأهل الفضل؟!.

فإن قلتم: إن ورقة كان يُخفي شخصيته، قلنا: فهذا دليل على أن ورقة يخطط لأمورٍ يخاف المجتمع منها سواءً كان حكامًا أو محكومين، والعجيب أنكم تدَّعون أن ورقة كانت له كلمة مسموعة في مكة وغيرها، وتدَّعون أن مجتمع الجزيرة العربية كانت النصرانية منتشرة في معظم أنحائه، فلماذا يخطط بهذه السرية؟!.

قال ابن عاشور: لم يسبق للنّبي ﷺ اقتداء بأحد ممّن تحنّفوا في الجاهليّة أو تنصَّروا أو تهوّدوا، فقد لقي النّبي ﷺ زيدَ بن عَمْرو بن نُفَيْلٍ قبل النّبوءة في بَلْدَح، وعَرض عليه أن يأكل معه من سُفْرته، فقال زيد: (إنّي لا آكل ممّا تذبحون على أنصابكم) توهّمًا منه أنّ النبي يدين بدين الجاهليّة، وألهم الله محمّدًا السكوت عن إجابته إلهامًا لحفظ السِرّ المدَّخر، فلم يقل له: إنّي لا أذبح على نُصُب. ولقي ورقةَ بن نوفل غير مرّة بمكّة، ولَقِي بحيرا الرّاهبَ، ولم يقتد بأحد من أولئك، وبقي على الفطرة إلى أن جاءته الرّسالة[1].

الوجه السادس: أين باقي تلاميذ ورقة؟

---

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٢٣.

السؤال الأول الذي نوجِّهه لكل من يتلفظ بهذه الشبهات ألا وهو: لماذا اختار ورقة محمدًا لأمر النبوة مع أن محمدًا كان أميًا[١]، وكان فقيرًا، ولم يكن رئيس قبيلة؟.

فكان من الأحرى لورقة أن يختاره غنيًا حتى لا يتحجج كفار مكة؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الزخرف٣١: ٣٣).

الوجه السابع: لم يرد ثناء من النبي ﷺ على ورقة لأنه علمه.

بالرغم من أنه دافع عن عرضه، وذكر كرامته في الآخرة؛ عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "لا تسبوا ورقة بن نوفل فإني قد رأيت له جنة أو جنتين"[٢].

ويوضح قول النبي ﷺ ذلك ما في زيادات المغازي ليونس بن بكير؛ أخرجه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: سابَّ أخ لورقة رجلًا، فتناول الرجل ورقة فسبه فبلغ النبيﷺ، فقال: هل علمت أني رأيت لورقة جنة أو جنتين، فنهى عن سبه[٣].

فكان من المتوقع أن يقول: لا تسبوا ورقة بن نوفل فإن له فضلًا علي؛ علمني بعد جهلي، فإن النبي عندما كان هناك شيء بين أبي بكر وعمر، فَسَأله أبو بكر أَنْ يَغْفِرَ له فَأَبى عمر، قال: فَقَالَ النبي ﷺ: " إِنَّ الله بعثني إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وواساني بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صاحبي"[٤].

المطلب الرابع: عدد اللقاءات بين ورقة ومحمدﷺ.

شبهة كون محمد ﷺ كان ملازمًا تمامًا لورقة؛ لأنه تلميذ يتلقى العلم من أستاذه، وقد

---

(١) انظر بحث أمية الرسول.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الإصابة٦/ ٦٠٩.

(٤) رواه البخاري (٣٤٦١).

عاش محمد في جواره خمسة عشر عامًا قبل مبعثه؛ ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد ابن عبد الله لكي يأخذ عنه شيئًا من علوم التوراة والإنجيل.

وللرد على الشبهة في الوجوه التالية:

الوجه الأول: حصر اللقاءات التي تمت بين ورقة والنبي محمدﷺ.

لنحدد عدد اللقاءات التي تمت روايتها في كتب الحديث والسيرة، وهل فيها ثبت أن محمدًا ﷺ كان في هذه اللقاءات يقوم ورقة بتحفيظ محمد ﷺ القرآن كما كان يفعل جبريل.

أولًا: ورقة وطفولة النبيﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَزَعَمَ النّاسُ فِيمَا يَتَحَدّثُونَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنّ أُمّهُ السّعْدِيّةَ لَمّا قَدِمَتْ بِهِ مَكّةَ أَضَلّهَا فِي النّاسِ وَهِيَ مُقْبِلَةٌ بِهِ نَحْوَ أَهْلِهِ، فَالْتَمَسَتْهُ فَلَمْ تَجِدْهُ فَأَتَتْ عَبْدَ الْمُطّلِبِ، فَقَالَتْ لَهُ: إنّي قَدْ قَدِمْت بِمُحَمّدٍ هَذِهِ اللّيْلَةَ فَلَمّا كُنْت بِأَعْلَى مَكّةَ أَضَلّنِي، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَيْنَ هُوَ؟ فَقَامَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَرُدّهُ، فَيَزْعُمُونَ أَنّهُ وَجَدَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدٍ وَرَجُلٌ آخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَتَيَا بِهِ عَبْدَ الْمُطّلِبِ، فَقَالَا لَهُ: هَذَا ابْنُك؟ وَجَدْنَاهُ بِأَعْلَى مَكّةَ، فَأَخَذَهُ عَبْدُ الْمُطّلِبِ، فَجَعَلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ يُعَوّذُهُ وَيَدْعُو لَهُ ثُمّ أَرْسَلَ بِهِ إلَى أُمّهِ آمِنَةَ(١).

وروى البيهقي عن عبد الله بن عباس عن حليمة بنت أبي ذؤيب أنها قالت: فخفت أن يبلغ الخبر عبد المطلب قبلي، فقصدت قصده، فلما نظر إليَّ قال: أسعد نزل بك أم نحوس؟ قالت: قلت: بل نحس الأكبر، ففهمها مني، وقال: لعل ابنك قد ضل منك؟ قالت: قلت: نعم، بعض قريش اغتاله فقتله، فسل عبد المطلب سيفه وغضب، وكان إذا غضب لم يثبت له أحد من شدة غضبه، فنادى بأعلى صوته: يا يسيل؛ وكانت دعوتهم في الجاهلية. قال: فأجابته قريش بأجمعها، فقالت: ما قصتك يا أبا الحارث؟ فقال: فُقد ابني محمد، فقالت قريش: اركب نركب معك، فإن سبقت خيلًا سبقنا معك، وإن خضت بحرًا خضنا معك. قال: فركب وركبت معه قريش، فأخذ على أعلى مكة، وانحدر على أسفلها، فلما أن لم يرَ شيئًا ترك الناس،

(١) الروض الأنف١/ ٢٩٤، سيرة ابن هشام١/ ١٦٧، البداية والنهاية٢/ ٣٣٨.

واتشح بثوب، وارتدى بآخر، وأقبل إلى البيت الحرام فطاف أسبوعًا، ثم أنشأ يقول:

يا رب إن محمدًا لم يوجد		فجميع قومي كلهم متردد

فسمعنا مناديًا ينادي من جو الهواء: معاشر القوم، لا تصيحوا؛ فإن لمحمد ربًا لا يخذله ولا يضيعه، فقال عبد المطلب: يا أيها الهاتف، من لنا به؟ قالوا: بوادي تهامة عند شجرة اليمنى. فأقبل عبد المطلب، فلما صار في بعض الطريق تلقاه ورقة بن نوفل، فصارا جميعًا يسيران، فبينما هم كذلك إذا النبي ﷺ قائم تحت شجرة يجذب أغصانها، ويعبث بالورق، فقال عبد المطلب: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال عبد المطلب: فدتك نفسي، وأنا جدك عبد المطلب، ثم احتمله، وعانقه، ولثمه، وضمه إلى صدره، وجعل يبكي، ثم حمله على قربوس* سرجه، ورده إلى مكة، فاطمأنت قريش، فلما اطمأن الناس نحر عبد المطلب عشرين جزورًا، وذبح الشاء والبقر، وجعل طعامًا، وأطعم أهل مكة.

قالت حليمة: ثم جهزني عبد المطلب بأحسن الجهاز وصرفني، فانصرفت إلى منزلي وأنا بكل خير دنيا؛ لا أحسن وصف كنه خيري، وصار محمد عند جده.

قالت حليمة: وحدثت عبد المطلب بحديثه كله، فضمه إلى صدره وبكى، وقال: يا حليمة، إن لابني شأنًا، وددت أني أدرك ذلك الزمان(١).

توجيه هذه الروايات:

على فرض التسليم بصحة الرواية فأين التعليم والتلقين وورقة لم يكن معلم كتاب يجمع الصبيان عنده كما يفعل المعلمون، غايته أنه وجده في الطريق فسلمه لجده عبد المطلب، ثم إن ورقة لم يدخل في النصرانية حينذاك، وإنما كان مشركًا من جملة مشركي مكة، فحتى لو بقي عنده أسبوعًا فما عند ورقة من علم يؤديه لغيره.

---

* القَرَبُوس حِنْوُ السَّرْج، والقُرْبُوس لغة فيه؛ لسان العرب لابن منظور (قربس).

(١) دلائل النبوة للبيهقي٤٦، ومن طريقه أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٤٧٤، ٤٧٩؛ وقال: هذا حديث غريب جدًا وفيه ألفاظ ركيكة لا تشبه الصواب، ويعقوب بن جعفر غير مشهور في الرواية، والمحفوظ من حديث حليمة ما تقدم قبل من رواية عبد الله بن جعفر.

قال حسني الأطير: لم ينكر أحد من عرب مكة معرفة ورقة وآل ورقة بمحمد وآل محمد، والجميع مُجمِعون على وجود قرابة بعيدة تجمع بينهم، حيث يلتقون في الجد الرابع لمحمد ﷺ(١).

معرفة ورقة لمحمد منذ طفولته:

قال حسني الأطير: العرب أمة قبلية تهتم بتعليم أطفالها أنسابَهم وأصولَهم منذ الصغر، فما يدَّعونه-أي: مِنْ أن محمدًا كان يعرف ورقة في صغره- لا يقدم ولا يؤخر(٢).

* ورقة كان مشركًا في هذه الفترة كما قلنا، فهو يُعتبر فردًا عاديًا في قومه، فقد راح يبحث عن محمد عندما فُقد، فلم يكن له صومعة يعتكف فيها عن باقي الناس، بل كان مشاركًا معهم في جميع تقاليدهم من تقديم القرابين للأصنام وغير ذلك حتى هداه الله للحق.

* أين كان ورقة من طفولة محمد؟ فلو كان حقًا أراد تكوين شخصية محمد لكان عليه أن يكفله كما كفل زكريا مريمَ، بل تركه يتربى في الصحراء مع أهل البادية، ثم تركه يُضَيِّع وقته في البحث عن العمل من رعي للغنم وتجارة، فكان ينبغي على ورقة أن يحتفظ بمحمد دائمًا أمام عينه لعدة أسباب منها: خوفُه عليه من اليهود الذين يعلمون من كتبهم مواصفات محمد؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة: ١٤٦).

* لو كان ورقة هو الذي لقيه بمفرده لقيل ربما كان يُعلِّمه النصرانية في هذه الفترة الوجيزة إلى أن يأتي إليه من يبحث عنه، ففي الرواية السابقة: (وَجَدَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدٍ، وَرَجُلٌ آخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ).

* ورقة كان من ضمن المستجيبين لأوامر عبد المطلب للبحث عن محمد، فكان من المفترض أن ورقة هو الذي يُعطي الأوامر لقريش؛ لأنه هو صاحب الكهنوت بمكة وصاحب الكلمة المسموعة -كما يزعمون-، ومن المفترض أن ورقة يخاف على محمد أكثر من خوف عبد المطلب عليه، لكنه لم يوجد من ورقة أي مسارعة وانزعاج إلا بعد ما

(١) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل (٢٥).

(٢) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل (٢٦).

ذَكرت الرواية السابقة من أمر عبد المطلب.

ثانيًا: ورقة والنبي ﷺ في شبابه:

عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق بن يسار قال: « وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد؛ وكان ابن عمها؛ وكان نصرانيًا؛ قد تبع أهل الكتاب؛ وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامُها ميسرة من قول الراهب، وما كان رأى منه إذ كان الملكان يظلانه. فقال ورقة: لئن كان هذا حقًا يا خديجة إن محمدًا لنبي هذه الأمة، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه. أو كما قال. فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى؟ فكان فيما يذكرون يقول أشعارًا يستبطئ فيها خبر خديجة ويستريث ما ذكرت خديجة، فقال ورقة بن نوفل:

أتبكر أم أنت العشية رائح	وفي الصدر من إضمارك الحزن فادح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم	كأنك عنهم بعد يومين نازح
وأخبار صدق خبرت عن محمد	يخبرهما عنه إذا غاب ناصح
بفتاك الذي وجهت يا خير حرة	بغور وبالنجدين حيث الصحاصح
إلى سوق بصرى والركاب التي غدت	وهن من الأحمال قعص دوالح
يخبرنا عن كل حبر بعلمه	وللحق أبواب لهن مفاتح
كأن ابن عبد الله أحمد مرسل	إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظني به أن سوف يبعث صادقًا	كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له	بها ومنشور من الذكر واضح
ويتبعه حيا لؤي جماعة	شبابهم والأشيبون الجحاجح
فإن أبقَ حتى يدرك الناس دهره	فإني به مستبشر الود فارح
وإلا فإني يا خديجة فاعلمي	عن أرضك في الأرض العريضة سائح[1]

(١) دلائل النبوة للبيهقي١/ ٤٩١، عيون الأثر ١/ ٧٤، خزانة الأدب١/ ٤٣٧، سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٦٠، البداية والنهاية ٢/ ٢٩٧.

بيان حال الرواية:

١- لا يشترط أن خديجة أخبرت ورقة بما حدث لمحمد مما تحدَّث به ميسرة أنه موقف مغاير لما حدثته بأمر الناموس، فهناك تشابه بين الروايتين مثل قول ابن إسحاق: (وكان ابن عمها، وكان نصرانيا، قد تبع الكتب)، وقوله:

فإن أبق حتى يدرك الناس دهره فإني به مستبشر الود فارح

وإلا فإني يا خديجة فاعلمي عن أرضك في الأرض العريضة سائح

فإخبار خديجة ورقة بما حدث من أمر الملكين اللذين يظلانه، وأمر الناموس؛ كان كل هذا في موقف واحد.

٢- فعندما أخبر ميسرةُ خديجة أنه رأي ملكين يظلان محمدًا، وقال لها ما قاله الراهب، احتفظت خديجة هذا الخبر في ذاكرتها إلى أن تزوجت من محمد، فعندما نزل عليه الناموس أيضًا وخافت على زوجها أخبرت ورقة بما حدث لمحمد في الماضي والحاضر لتعرف هل سيكون عليه خطورة في المستقبل؟

فإننا أثبتنا أن ورقة ما زال مشركًا قبل زواج محمد ﷺ من خديجة، وهذه الرواية يقول فيها: (قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه) فذلك دليل على أن ورقة قال ذلك الكلام بعد قدومه من الشام.

وقال أيضًا:

لَجِجْت وَكُنْت فِي الذّكْرَى لَجُوجًا لِهَمّ طَالَمَا بَعَثَ النّشِيجَا

وَوَصْفٍ مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍ فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَا خَدِيجَا

بِبَطْنِ الْمُكّتَيْنِ عَلَى رَجَائِي حَدِيثَك أَنْ أَرَى مِنْهُ خُرُوجَا

بِمَا خَبّرْتنَا مِنْ قَوْلِ قَسّ مِنْ الرّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجَا

بِأَنّ مُحَمّدًا سَيَسُودُ فِينَا وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَجِيجَا

وَيُظْهِرُ فِي الْبِلَادِ ضِيَاءَ نُورٍ يُقِيمُ بِهِ الْبَرّيّةَ أَنْ تَمُوجَا

فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَارًا وَيَلْقَى مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجَا

فَيَا لَيْتِي إِذَا مَا كَانَ ذَاكُمْ شَهِدْت فَكُنْت أَوَّلَهُمْ وُلُوجَا
وُلُوجًا فِي الَّذِي كَرِهَتْ قُرَيْشٌ وَلَوْ عَجَّتْ بِمَكَّتِهَا عَجِيجًا
أُرَجِّيَ بِالَّذِي كَرِهُوا جَمِيعًا إِلَى ذِي الْعَرْشِ إِنْ سَفَلُوا عُرُوجَا
وَهَلْ أَمْرُ السَّفَالَةِ غَيْرُ كُفْرٍ بِمَنْ يَخْتَارُ مِنْ سُمْكِ الْبُرُوجَا
فَإِنْ يَبْقَوْا وَأَبْقَ تَكُنْ أُمُورٌ يَضِجّ الْكَافِرُونَ لَهَا ضَجِيجَا
وَإِنْ أَهْلِكْ فَكُلّ فَتًى سَيَلْقَى مِنْ الْأَقْدَارِ مَتْلَفَةً خَرُوجَا(١)

قال ابن كثير: فشعره يدل على إضماره الإيمان وعقده عليه وتأكده عنده(٢).

ثالثا: لقاء ورقة بمحمد ﷺ عند نزول الوحي:

الوجه الأول: جمع الروايات التي تشير إلى لقاء ورقة بمحمد ﷺ عند نزول الناموس عليه.

تُحدثنا كتب الحديث الصحاح عن لقاء تم بين محمد ﷺ وبين ورقة، بعد أن بلغ من الكبر عتيًا فعمي، وذلك حين تنزل على محمد ملكُ الوحي في غار حراء، وقد حملت محمدًا زوجُه خديجةُ على لقيا ورقة ليستفسر عن حقيقة هذا الذي دخل عليه الغار بتلك الطريقة المهيبة، (فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَأي، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ الله عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟! قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ(٣).

ولا أحب الاقتصار على رواية أصح الكتب بعد القرآن وهو صحيح الإمام البخاري، بل أسرد من المصادر التي يحتج بها المستشرقون عادة، ومنهم (واط) وهي كتب التاريخ،

---

(١) الروض الأنف١/ ٣٢٩، سيرة ابن هشام١/ ١٩١، سبل الهدى والرشاد٢/ ١٦٠.

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٩٩.

(٣) البخاري (٣).

وفي مقدمتها تاريخ الطبري.

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في رواية في تاريخه: أن خديجة طمأنت زوجها. ثم قال: فأتت خديجة ورقة بن نوفل فأخبرته الخبر، فقال: لئن كنت صادقة إن زوجك لنبي، وليلقين من أمته شدة، ولئن أدركته لأؤمنن به(١).

وروى الطبري في رواية أخرى طويلة: أن خديجة بعد أن طمأنت زوجها (انطلقت إلى ورقة ابن نوفل بن أسد؛ وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأي وسمع، فقال ورقة: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر -يعني بالناموس: جبريل عليه السلام الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول ورقة فسهَّل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما كان يصنع وبدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت فقال: يابن أخي، أخبرني بما رأيت أو سمعت، فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه فقبل يأفوخه*، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله، وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتًا، وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهم(٢).

ونصت رواية ابن سعد أن خديجة ذهبت لوحدها إلى ورقة بن نوفل، فأعلن إيمانه ويقينه بأن هذا الحدث هو وحي الله، وتعهد بنصرة الرسول وتأييده، فلم يترك بذلك مجالًا لتوهم الأخذ عنه، وليس امرؤ لديه علم بدين الله تعالى وهو على حافة القبر يستسيغ أن

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٦٢).

* اليأْفوخ حيث التقى عظم مقدَّم الرأْس وعظم مؤخره؛ لسان العرب لابن منظور (أفخ). واليَأفوْخُ: مقَدَّمُ الرَّأس؛ المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (أفخ).

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٥٣٣.

يكذب على الله في أقدس الأمور؛ في وحي الله ورسالته. جاء في رواية ابن سعد: ثم أتت خديجة ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال: إن يك صادقًا فهذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن يبعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأؤمن به[١].

الوجه الثاني: الجمع بين روايات كتب الحديث والسيرة:

قال حسن ضياء الدين: أما اللقاء الذي تم بين سيدنا محمد ﷺ وبين ورقة فإنه تم في زمن متأخر بعد مجيء ملك الوحي المرة الأولى، واستثاره عجب الرسول واستفساره؛ هذا أمر أجمعت عليه جميع المصادر، لكنها اختلفت في زيارة خديجة لورقة، هل كانت لوحدها أم بصحبة محمدﷺ؟ وأرى أن الجمع بين روايات السيرة ورواية الإمام البخاري يفيد أن خديجة ذهبت أول مرة وحدها لتسأل ورقة تأويل هذا الحدث، ثم ذهبت أيضًا مع محمد ﷺ إلى ورقة وحضرت هذا اللقاء وشهدته، وإذا كانت رواية ابن سعد قد أوردت زيارة خديجة لورقة منفردة، فإن رواية ابن إسحاق لم تنفِ هذا الحضور ولم تثبته، بينما جمعت رواية الإمام الطبري بين الزيارتين في سياق واحد، فكانت أوفي تعبيرًا عن الحادثة، ولا يغيب عن بالك أن خديجة هي المرأة الشهيرة بفطنتها ورزانتها ورجاحة عقلها[٢].

قال عبد المحسن المطيري: لم تذكر كتب السيرة في رواياتها الصحيحة أن النبي ﷺ التقى بورقة إلا تلك المرة، فكيف يزعم أنه لازمه خمس عشرة سنة؟ فيكفي في الرد على هذا الكلام أنها دعوى لا دليل عليها[٣].

الوجه الثالث:

النصوص تنفي أي صلة سابقة بين ورقة ومحمدﷺ، فلو افترضنا وجود لقاءات بينهما فلا يشترط وجود تأثيرات لأحدهما على الآخر.

(١) طبقات ابن سعد١/ ١٩٥.

(٢) وحي الله حقائقه وخصائصه صـ ٨٨.

(٣) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين١/ ٦٤.

قال حسن ضياء الدين: إن اللقاء بين محمد ﷺ وبين ورقة بن نوفل قد تم في زمن متأخر بعد مجيء الوحي المرة الأولى إلى رسول الله ﷺ، وقد دلت النصوص على عدم وجود صلة سابقة بين محمد ﷺ وبين ورقة بن نوفل، حتى إن فكرة الاتصال بورقة لم تطرأ على بال الرسول الكريم سعيًا لإزالة الإشكال عن نفسه، بل كانت الفكرة من اقتراح خديجة، فلو كانت هناك صلة سابقة كما زعم بغير دليل(واط) المستشرق لتبادرت إلى ذهن الرسول سريعًا فكرة استفتاء ورقة، أما وإن الفكرة وليدة خاطر خديجة؛ فأمر طبيعي أن تعلم المرأة من قريباتها وأقربائها أحوال ابن عمها واتجاهه الديني الذي خالف به أهل الجاهلية، ولكن زعمه أن خديجة وقعت تحت تأثير ورقة فزعم مجرد لا دليل عليه إطلاقًا؛ بل الدليل قائم على عكسه تمامًا.

شبهة: موقف قريش من ورقة ومحمد ﷺ.

مساندة قريش بقيادة أبي طالب لورقة لتنفيذ فكرته.

الرد على الشبهة:

الوجه الأول: موقف قريش يثبت عزلة محمد ﷺ عن ورقة وعدم تأثره به.

قال حسن ضياء الدين: إن قريشًا لم تتوان لحظة في تصيد أدنى مطعن محتمل وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ، فقد بالغت في ذلك وأفرطت حتى زعمت أنه مجنون، وزعمت أنه يُعَلَّمُ من فتىً أعجمي رومي رقيق لديهم، فلو كان هناك أقل قدر من التواصل بين محمد ﷺ وورقة لافترضته قريش ولبنت مزاعمها عليه، ومثل هذه الصلات الدينية لا تخفى في مجتمع وثني قديم ضيق مكشوف بعضه بعضه تجاه بعض، لكن قريشًا مع إفراطها في العداء والبهتان لما لم تورد شيئًا من هذا القبيل دل ذلك على عدمه أصلًا، وعلى أن القول به باطل مفضوح لا طائل وراءه، بل لو كان شيءٌ من ذلك محتملًا لمالت قريش على ورقة ليعلم شبابها فيناهضوا بذلك دعوة محمد ﷺ[1].

(١) وحي الله حقائقه وخصائصه (٩٣).

فأين قريش من بحيرا وورقة؟ ولماذا لم يحضروهما ليكونا دليلين بين أيديهم على بشرية مصدر القرآن الكريم؟!

الوجه الثاني: افتراض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم لا يتفق مع الحقيقة التاريخية.

فالحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله ﷺ في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛ لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات[١].

الوجه الثالث: لماذا لم يُعذِب كفار قريش ورقة على اعتباره أنه هو الذي ألَّف الدين لمحمد؟!

فكما تساءلنا عن أنه لو كان ورقة كاهنًا مسموعة كلمته في مكة؛ فلماذا عذَّب أهل مكة محمدًا وأتباعه الذين تدعون أنهم في الأصل أتباع ورقة؟

فكذلك نتساءل لماذا كان محمدٌ وأتباعه يتعرضون للأذى والتعذيب من كبيرهم إلى صغيرهم ومن ذكرهم إلى أنثاهم؟! فهذا ياسر كبير السن هو وزوجته يُعذَّبان حتى الموت، فلو كان ورقة كبير السن فإن كفار قريش لن يرحموه خصوصًا بعد زعمكم أنه هو مُنشئ الإسلام؟ نعم، إن محمدًا كان عمه وغيره ممن يحمونه يمنعونه من بعض الأذى كأبي بكر، ولكننا لا ننسى ما حدث له في الطائف وفي مواقف أخرى كثيرة.

فهل ورقة كان مستترًا لا يلوح بنفسه خوفًا من الموت؟ ثم هو يودي بمحمد وأتباعه إلى الهلاك؟ فالجواب: لا؛ لأنه إذا كان كذلك فلا بد أن قريشًا علمت بأن ورقة يؤيد الإسلام ولم تتعرض له؛ إما لأنه مات قبل صدوع محمد بالدعوة، وإما لأنه مجرد تابع لمحمد، وليس له كبير أثر في الدعوة لكبر سنه الذي ألزمه الفراش كثيرًا، فكانت قولته الشهيرة: يا ليتني فيها جذعًا إذ يخرجك قومك. أي: يا ليْتَني كنْتُ شابًّا عند ذلك.

الوجه الرابع: إن قريشًا أحرص من المنصِّرين على إثبات بشرية مصدر الوحي.

---

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن لمحمد باقر الحكيم (٤٣).

ولكنهم ـ وهم الأكثر دراية بحاله وتحركاته ـ لم يرصدوا أنه ذهب إلى معلم كتابي واحد، ولم يفضحه رفاقه في السفر بأنه التقى بأي حبر أو كاهن، ومن غير الممكن أن يتردد سيدنا محمد إلى بيت معلم يعلمه دون أن يلاحظ ذلك أحد، فمكة المكرمة مدينة صغيرة المساحة؛ أحياؤها بل بيوتها معروفة لكل واحد من أهلها.

شبهة :القرآن وورقة والنصارى ونسبة تأليفهم له .

قالوا: ورقة ألَّف القرآن، ونسبه هو ومحمد إلى الله.

والرد على الشبهة كما يلي:

الوجه الأول: إثبات أن القرآن من عند الله.

لخص ابن كثير هذه المسألة في بداية تفسيره تحت هذه الآيات من سورة البقرة، فقال: قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطبًا للكافرين: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارِضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

قال ابن عباس: ﴿ شُهَدَاءَكُم ﴾ أعوانكم، أي: قومًا آخرين يساعدونكم على ذلك.

وقال السدي عن أبي مالك: شركاءكم أي: استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم.

وقال مجاهد: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم ﴾ قال: ناس يشهدون به يعني: حكام الفصحاء.

وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (القصص: ٤٩)،

وقال أيضًا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقال في سورة هود: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (هود: ١٣)، وقال في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (يونس: ٣٧، ٣٨) وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم الله تعالى بذلك أيضًا في المدينة فقال في هذه الآية: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ ﴾ أي: (في) شك ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ يعني: من مثل (هذا) القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير بدليل قوله: ﴿ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾ (هود: ١٣)، وقوله: ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ يعني: من رجل أمي مثله. والصحيح الأول؛ لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾"ولن": لنفي التأبيد أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه -أيضًا-معجزة أخرى، وهي أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدًا وكذلك وقع الأمر؛ لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وَأَنَّى يَتَأَتَّى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى؛ قال الله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ (هود: ١)، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت

طبق ما أخبر سواءً بسواءٍ، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر؛ كما قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (الأنعام: ١١٥) أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدىً؛ ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء، أو الخيل، أو الخمر، أو في مدح شخص معين، أو فرس، أو ناقة، أو حرب، أو كائنة، أو مخافة، أو سبع، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئًا إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيها بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواءً كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواءً تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا؛ لا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وَعَدَ أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن؛ كما قال في الترغيب: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة: ١٧)، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الزخرف: ٧١)، وقال في الترهيب: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ (الإسراء: ٦٨)، ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ (الملك: ١٦، ١٧) وقال في الزجر: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ (العنكبوت: ٤٠)، وقال في الوعظ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ

أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ (الشعراء: ٢٠٥ -٢٠٧) إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة. وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾فأوعها سمعك فإنه خيرٌ ما يأمر به أو شرٌ ينهى عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم؛ بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ، قال: "ما من نبي من الأنبياء إلا قد أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة" لفظ مسلم، وقوله: "وإنما كان الذي أوتيته وحيًا" أي: الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة (عند كثير من العلماء)، والله أعلم. وله ﷺ من الآيات الدالة على نبوته، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، ولله الحمد والمنة.[1]

الوجه الثاني: لقد شهد المنصفون من المستشرقين بضد قول المشككين.

يقول المستشرق الإنجليزي لايتنر: (بقدر ما أعرف من دِينَي اليهود والنصارى أقول

(١) تفسير ابن كثير تفسير الآية.

بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا بل قد أوحى إليه ربه، ولا ريب بذلك)[١].

ويقول هنري دي كاستري: (ثبت إذن أن محمدا لم يقرأ كتابًا مقدسًا، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه)[٢].

الوجه الثالث: أسباب النزول واستحالة كون ورقة وغيره مع الرسول.

ومن لطائف الاستدلال على أنه لم ينقل من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول أن دلالته على إعجاز القرآن وأنه من الله تعالى من ناحية الارتجال، فنزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين، أو من كتب السابقين، ذكر هذه الفائدة الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير[٣].

فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده، وينظر ماذا تقول في هذه المسألة ثم يجيب، ولكن النبي ﷺ لم يكن يفعل؛ بل يسأله الرجل فيعطيه الجواب الموافق للصواب، الذي لم يكن قرأه ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها، وهناك أدلة ووقائع كثيرة تدل على صدق النبي ﷺ.

الوجه الرابع: مناقشة مسألة ورقة ومعاصرة القرآن.

فنقول: لم يعاصر ورقة التسلسل الزمني للحوادث الواردة في القرآن الكريم على مدى ثلاث وعشرين (٢٣) سنة من نزوله، إذ أنه قد توفي في أول البعثة، فأين ورقة من سؤال يسأله المشركون أو اليهود أو غيرهم للرسول ﷺ فنرى الإجابة قد وُجدت في حينها، وجاء القرآن يشرحها ويحدد موقفه منها كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، وكقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾، كثيرًا ما كان يسأل المؤمنون أو اليهود أو المنافقون أو المشركون؛ يسألون عن أشياء يريدون فهمها، أو

(١) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده لماضي (١٤٩).

(٢) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده لماضي (١٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥٠).

عن أشياء يريدون تعجيز الرسول وإظهاره بمظهر عدم العارف ليضعفوا من شخصيته ومهابته، وكان نزول القرآن مفرقًا يتيح للرسول أن يتلقى الرد عليهم من جبريل بما يريد الله، ولذلك تجد كثيرًا في القرآن (يسألونك)، أو(يسألك الناس)، وتجد الرد بعد ذلك حتى بلغ (يسألونك) نحو خمسة عشر سؤالًا وجهت للرسول في أوقات متباعدة، ونزل القرآن للرد عليها فأين هو ورقة بن نوفل من هذه الأسئلة؟ وهو الذي لم يعاصر التسلسل الزمني للحوادث الواردة في القرآن الكريم على مدى ٢٣ سنة من نزوله إذ أنه قد تُوفي في أول البعثة؟ أين ورقة من أحداث تمت بعد وفاته وقد تحدث عنها القرآن الكريم؟

فليخبرنا هؤلاء هل عاصر ورقة غزوة الأحزاب التي تحدث عنها القرآن الكريم؟

هل عاصر ورقة يوم حنين الذي تحدث عنه القرآن؟ هل عاصر ورقة قصة زيد التي تحدث عنها القرآن الكريم؟ هل عاصر ورقة حادثة الإفك التي تحدث عنها القرآن؟ هل عاصر ورقة قدوم وفد نجران والدعوة للمباهلة؟.

الوجه الخامس

إذا كان النبي ﷺ أخذ من النصارى الذين خالطهم من أمثال سلمان وصهيب وورقة، فلِمَ لم يفضحوه عندما كفَّر النصارى وأظهر عيوبهم في كتابه في عدة آيات، حتى إن سورة المائدة وهي من آخر السور نزولًا كانت من أكثر السور تكفيرًا للنصارى[1].

وهل كانوا جميعًا على مذهب واحد من النصرانية، مع أن كلًا منهم له قصة في اتباعه للحق بعيدة عن الآخر.

الوجه السادس:

وجود بعض الشرائع في القرآن تتفق مع ما في التوراة والإنجيل أو حتى مع ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها، فالقرآن لم يأتِ لهدم كل شيء؛ بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق، فالصدق، والشجاعة، والكرم، والحلم، والرحمة، والعزة؛ كل هذه

(١) الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي ونقده لماضي ١٤٨، الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/ ٢٥)، (٤/ ٥٧).

المعاني موجودة عند كفار مكة ومع هذا جاء الإسلام ولم يغير منها شيئًا بل باركها وحث عليها، لذلك قال النبيﷺ: " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ "[1].

إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآن بعض الشرائع سواءً في الكتب السابقة السماوية أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره[2].

وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ٣٧).

الوجه السابع: لقد ثبت أن النبي محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب[3].

فكيف يستطيع أن يشارك ورقة في مسألة ترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغة العربية، ثم بعد ذلك تحويل هذه الترجمة إلى كلام منسق بصياغة أخرى؛ مع وجود تغيرات أخرى وزيادات وحذف، ووضع مسائل جديدة غيبية، وذكر أحكام فقهية جديدة وتغييرات جذرية مما يصعب على رجلين القيام بذلك أحدهما أمي[4].

شبهة: ترجمة ورقة للكتاب المقدس وتحويل الترجمة إلى قرآن.

نص الشبهة:

محمد كان بجوار ورقة أثناء ترجمة الإنجيل.

فقد كان ورقة يترجم الإنجيل إلى العربية وهذا الإنجيل المترجم كان يلقيه على تلميذه محمد فأصبح قرآنًا.

(١) صحيح. أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٨١، البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، الحاكم في المستدرك٢/ ٦٧٠؛ وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٤٣: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥).

(٢) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن للحكيم٦١.

(٣) انظر بحث أمية الرسول.

(٤) انظر بحثنا في اقتباس القرآن من التوراة والإنجيل.

ودليلهم على ذلك ما في الصحيحين: "وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ"(١).

والرد على ذلك كما يلي:

الوجه الأول: الفارق بين القرآن وبين التوراة والإنجيل واضح وبَيِّنٌ، فكيف حوَّل الإنجيل المحرف إلى قرآن بهذه الصورة.

الوجه الثاني: الإنجيل لم يترجمه إلى العربية أحد في عصر النبوة ولا قبله.

فهذه الحقيقة نشرتها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ومجلس كنائس الشرق الأوسط في كتابهم المليء بصور فلسطين - عدا المسجد الأقصى -، وعنوان الكتاب: المرشد إلى الكتاب المقدس؛ طبعة ١٩٩٦م؛ أول ترجمات الإنجيل إلى العربية يقول ص ٧٩: عام ٦٣٩م طلب القائد العربي عمر بن سعد بن أبي وقاص من البطريرك اليعقوبي يوحنا أن يضع ترجمة للإنجيل في اللغة العربية ربما تم ذلك حوالى ذلك التاريخ عام ٨٦٧م أعمال الرسل والرسائل كلها؛ مكتبة سانت كاترين؛ سيناء.

حوالي سنة ٩٣٠م أسفار التوراة الخمسة وأشعيا؛ قام بها العالم اليهودي سعيد الفيومي.

وأول ترجمة كاملة للكتاب المقدس بعهديه تمت في روما، وعرفت بالبروباغاندا.

هل مجلس الكنائس أصدق؟ أم من ادعى أن ورقة بن نوفل هو أول من ترجم الكتاب المقدس؟ ولماذا لم يشر مجلس الكنائس العالمي إلى ورقة ولو بإشارة؟

الوجه الثالث: الآثار توضح أن ورقة كان قد عمي حين ذهب إليه النبي ﷺ ليخبره بأمر الوحي.

فعن عائشة ﵂: ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي؛ وهو ابن عم خديجة ابن أخي أبيها، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان

(١) البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

يكتب الكتاب العربي، يكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله ﷻ أن يكتب، وكان شيخا كبيرًا قد عمي. . ثم لم ينشب ورقة أن توفي.

قال زَيْنُ الدِّينِ الْعِرَاقِيُّ: قَوْلُهَا (أَيْ) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ حَرْفُ نِدَاءٍ لِلْبَعِيدِ مَسَافَةً أَوْ حُكْمًا، فَنَادَتْهُ خديجة نِدَاءَ الْبَعِيدِ مَعَ قُرْبِهِ؛ لِأَنَّهُ فِي حُكْمِ الْبَعِيدِ لِضَرُورَةٍ فَإِنَّهُ كَانَ أَعْمَى كَمَا فِي الْحَدِيث[1].

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. [2]

فلم تقل له اقرأ علينا من كتابك المقدس عن خبر النبي الخاتم الذي كنت تحدثنا به كثيرًا، وذلك لعلمها بأنه أعمى في ذلك الوقت.

الوجه الرابع: العهد القديم لم يكن مترجمًا إلى اللغة العربية قبل الإسلام.

وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم، فهذا (جوتين) يقول عن صحائف اليهود: (إن تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية)[3].

وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي، وكانت بأحرف عبرية(٥٥٨).

كيف إذن أخذ النبي ﷺ منها؟ لابد على المستشرقين أن يفتروا كذبة جديدة، وهي أن النبي ﷺ درس لغة التوراة فكان يترجمها للقرآن؟.

الوجه الخامس: كان ورقة يفسر بعض نصوص الإنجيل؛ لا أنه يترجمها للعربية لتكون قرآنًا.

قال السمرقندي: وكان ورقة يقرأ الإنجيل ويفسره[1].

---

(١) طرح التثريب٥/ ٢١٢.

(٢) البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢) (١٦٠).

(٣) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لمحمود ماضي، (ص: ١٤٧).

وفي لفظ الحديث: (فيكتب من الإِنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب) تدل على التبعيض؛ لا أنه كتب وترجم وفسر كل نصوص الإنجيل.

قال زَيْنُ الدِّينِ الْعِرَاقِيُّ: (وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ) فَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ؛ هَكَذَا هُوَ فِي رِوَايَتِنَا، وَرِوَايَةِ مُسْلِمٍ، وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ فِي أَوَّلِ صَحِيحِهِ: يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ: وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ وَحَاصِلُهُمَا أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَةِ دِيْنِ النَّصَارَى بِحَيْثُ صَارَ يَتَصَرَّفُ فِي الْإِنْجِيلِ فَيَكْتُبُ أَيَّ مَوْضِعٍ شَاءَ مِنْهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ إِنْ شَاءَ وَبِالْعَرَبِيَّةِ إِنْ شَاءَ[٢].

فإن قيل: لماذا أشاد ورقة بموسى فقال: (ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى)؟ فهذا دليل على أنه كان مطلعًا على التوراة.

نقول: هذا مما علمه من سماع من رهبان الشام، وليس فيه إثبات صريح على اطلاعه على التوراة، وكذلك فإن لموسى ذكر في الإنجيل.

الرد على شبهة: اختلاف القرآن المكي والمدني لموت ورقة.

الوجه الأول: إن هذه الدعوى مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه الدعاوى لا تُقبل ما دامت غير موافقة للتحقيق العلمي، وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد من ورقة؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟

الوجه الثاني: إن الإسلام بدأ من غار حراء حيث كان يتعبد النبي ﷺ كل ليلةٍ معتزلًا عن الناس ومفاتنهم وشهواتهم، متفكرًا في ملكوت السموات والأرض مثل نبي الله إبراهيم عليه السلام، ولم يبدأ من الكنائس، ولم نسمع أن محمدًا قبل الأربعين قد اعتنق أي دين، ولم توجد لدى أحدٍ أي صحيفة مترجمة، وهناك أيضًا الكثير من الأسئلة التي تدحض افتراءات من يفتري على وحي الله لرسوله منها:

---

(١) بحر العلوم٤/ ٤٢١.

(٢) طرح التثريب٥/ ٢١٥.

متى مات ورقة؟ وهل يختلف القرآن المدني عن المكي نتيجة وفاة ورقة؟ وما علاقة موت ورقة بانتشار الإسلام في مكة والمدينة؟ وكم نسبة قرآن ورقة إلى القرآن الكريم؟ وهل محمد (القرشي الأمـي) كان أفضل من ورقة بن نوفـل (النصراني المؤمن)في ادعاء الإسلام؟.

فإن كان ورقة هو الأب الروحي السري للوحي، فلماذا لم تتأثر السور والآيات المكية بعقيدة الثالوث أو بغيرها من الروايات المقدسة حول الأنبياء، ولم يلتزم بالإطار العام في سر القدرة الإلهية والإيحاءات فيها وعلاقة الشيطان برسالة الله في خلقه؟

الوجه الثالث: كيف يمكن اعتبار التوراة والإنجيل من أهم مصادر القرآن مع أن القرآن خالفها في كثير من الأشياء؛ ففي بعض الأحداث التاريخية نجد القرآن يذكرها بدقة متناهية، ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الأقل تفاديًا للاصطدام بالتوراة والإنجيل)[1].

الوجه الرابع: يقال لهم: لقد خالف القرآن الكريم التوراة والإنجيل في أعظم وأخطر قضية وهي الوحدانية لله تعالى، فالقرآن يؤكد على وحدانية الله وكماله وتفرده بالعظمة والخلق والجلال والجمال، بينما نصوص التوراة والإنجيل تؤكد على الثالوث: الأب، والابن، وروح القدس، وتنسب إلى الله النقائص، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

١- في جانب التشريع نجد أن الإنجيل يحرم الزواج بالمطلقة، ويعتبره زنىً، فقد جاء فيه: (من تزوج مطلقة فقد زنا)، أما القرآن فإنه يعتبر ذلك مكرمة للمرأة، ويراه أمرًا حسنًا، وقد تزوج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها بعد أن طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه.

٢- إنك إذا قارنت بين أسلوب القرآن وبلاغته وفصاحته وبين نصوص العهدين وجدت الفرق العظيم، فنصوص العهدين تغلب عليها الركاكة في الأسلوب، وأما القرآن فقد أعيا أساطين البلاغة إلى اليوم أن يأتوا ولو بسورة أو بآية مثله، فكيف يقال: إنه قد صيغ من كتب أولئك الذين لا يستطيعون الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا؟

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (ص: ٤٦).

الوجه الخامس: إن اتفق شيء مما تبقى من عقائد وشرائع الأنبياء السابقين مع الموجود في القرآن الكريم فهو من أدلة وحدة مصدرها، وإن تفوق القرآن الكريم عليها بكونه كله قطعي الثبوت.

أما الجاحدون من أهل الكتاب ـ لا سيما دعاة النصرانية في هذا الزمان ـ فهم يقولون فيما وافق القرآن به كتبهم: إنه مأخوذ منها بدليل موافقته لها، وفيما خالفها: إنه غير صحيح بدليل أنه خالفها، وفيما لم يوافقها ولم يخالفها به: إنه غير صحيح؛ لأنه لم يوجد عندنا، وهذا منتهى ما يُكابر به مُناظِرٌ مناظرًا، وأبطل ما يرُدُّ به خصمٌ على خصم[1].

الوجه السادس: لم يصدر عن أيٍّ من ملوك النصارى العرب، أو الروم، أو القبط، أو الأحباش؛ الذين وصلتهم رسالة الإسلام، أن ما في القرآن الكريم مستفاد مستقىً من عندهم.

الوجه السابع: هل كان لدى ورقة بن نوفل أي حصيلة علمية أو معرفية، تؤهله ليكون مصدر القرآن الكريم؟ فقد ظل فترة طويلة على الشرك فقصر الوقت الذي شاهدهما فيه، فما في القرآن من عقائد وشرائع وقصص تحتاج إلى فترة زمنية طويلة، بل المنطق يقول: إن أي إنسان عادي لن يستطيع تأليف قوانين وشرائع مماثلة لتلك الموجودة في القرآن الكريم إلا بعد مكث سنوات طويلة من التعلم.

فقد كان عمره ﷺ عندما قابل بحيرا أول مرة تسعة أعوام، ولما تاجر لخديجة كان عمره خمسة وعشرين عامًا، وفي الأولى كان معه عمه، وفي الثانية ميسرة غلام خديجة[2].

الوجه الثامن: عدم موافقة القرآن لعقيدة النصارى. ففي القرآن الكريم آيات لا توافق عقيدة المسيحية فكيف يكتبها ورقة؟ فعلى سبيل المثال: إذا كان القرآن مصدره ورقة، وورقة شخص نصراني فكيف ينكر القرآن صلب المسيح؟.

أيضًا في القرآن الكريم آيات لا توافق اليهود ومعتقداتهم وآيات تندد بهم، فكيف يكون كاتبها يهودي؟ وإذا كان معلم الرسول يهوديًا فكيف اعترف محمد بنبوة عيسى؟

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣/ ٢٤٩.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٢٣، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٩٥.

واليهود لا يعترفون بنبوة عيسى عليه السلام!

الوجه التاسع: المعجزات الحسية.

نقول لهؤلاء: إذا كان ورقة هو مصدر هذا القرآن المعجز فماذا عن مصدر تلك المعجزات الحسية التي صنعها النبي ﷺ بيده أمام قومه؟ ومنهم من يقول: إنه لا يصح كون نبي من الأنبياء لا يكون له معجزات حسية(١).

الوجه العاشر: خدمتهم ضلالات الكنيسة بالاختلاق على الرسول زورًا وبهتانًا.

قال حسن ضياء الدين: ماذا قصد المؤلف من زعمه استمرار حياة ورقة ثلاث سنين بعد الوحي الأول، ومن اختلاقه اتصالات دينية تلقى فيها محمد من ورقة منذ وقت مبكر؟ إن بيت القصيد من هذه المزاعم وأمثالها هو الإيهام بأن الإسلام فيه كثير من أفكار ورقة، ولكن أفكار ورقة المتنصر مستمدة من الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) المقرر لدى الكنيسة؛ إذن الإسلام مقتبس من المسيحية، وهذا ما يعبر المستشرقون المحدَثون عنه: بالعلاقة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية أو بين الوحيين كما قال (واط) ههنا: ولهذا فمن الأفضل الافتراض بأن محمدًا كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة بن نوفل منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة بأفكار ورقة، وهذا ما يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له.

لا ريب أن هذا الزعم يحتاج إلى دليل، فإنَّ المقارنة الموضوعية بين التعاليم الإسلامية والمسيحية التي تكشف عن التأثر أو عن الاقتباس، كلام بدون دليل مصيره الإهمال، إن مقارنة المعلومات عند الطرفين تكشف استحالة اقتباس الإسلام من إصدار المستشرق(واط) هذا الحكم اعتباطًا، ولا شك أنه سيعطي الكاتب وأمثاله رتبتهم الحقيقية ويعرف مستوى أبحاثهم وحقيقة أغراضهم، فالمثقف العادي من المسلمين يدرك يقينًا أن الإسلام يختلف جذريًا مع المعترف به عند أهل الديانتين اليهودية والمسيحية، والاختلاف

(١) انظر بحث معجزات النبي ﷺ.

قائم على أشده في العقيدة والشريعة والأخلاق والقصص[1].

شبهة: ورقة ودعوة الإسلام.

نص الشبهة:

تدعيم ورقة لمحمد بالتثبيت ونشر الدعوة.

الوجه الأول: هل ورقة هو الذي ثَبَّت محمدًا حقًا؟

فللرد على قولهم: (إن ورقة هو الذي ثَبَّتَ محمدًا في دعوته وبعثته لما عاد خائفًا من غار حراء).

قال عبد المحسن المطيري: قد نص الحديث أن التي ثبتته هي خديجة ﵂، وأما ورقة فقد خوفه فقال: ليتني فيها، جَذِعًا، يا ليتني أكونُ فيها حيًا حين يخرج قومك، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ "؟! قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا أُوذِيَ؛ في رواية: عُودِيَ.

وإذا كان ورقة يعرف حال النبي ﷺ، وأنه لازمه خمس عشرة سنة، وأخذ منه القرآن، فلماذا يقول: (هذا الناموس -يعني: الوحي- الذي أنزل على موسى)، ويقول: (وإن يدركني يومك حيًا أنصرك نصرًا مؤزرًا)؟ أليس في هذا تصديق له وإثبات صحة نبوته؟

أم أنهم يأخذون من الحديث ما يوافق هواهم ويعرضون عن غيره[2].

الوجه الثاني: ورقة له دور في الإسلام وهو دور مُعَزِّز لا دور مخطط:

قد يُقال: لماذا تذكر كُتب السيرة ورقة بن نوفل؟ أليس هذا دليلًا على دوره في الإسلام؟

قلنا: لا ندعي أن ورقة ليس له أي فاعلية لتأييد الإسلام؛ بل هذا أمر واجب عليه، فمن عرف الحق وجب عليه أن يوضح للناس أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه خصوصًا إذا كان هذا الحق هو أمر الرسالة الخاتمة. قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

قال ابن عاشور: ومعنى: عزروه: أيدوه وقَوَّوْه، وذلك بإظهار ما تضمنته كتبهم من البشارة بصفاته، وصفات شريعته، وإعلان ذلك بين الناس، وذلك شيء زائد على الإيمان

(١) وحي الله حقائقه وخصائصه ١٠١.

(٢) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين ١/ ٦٤.

به، كما فعل عبد الله بن سَلاَم، وكقول ورقة بن نوفل: «هذا الناموس الذي أنزل على موسى»، وهو أيضًا مغاير للنصر؛ لأن النصر هو الإعانة في الحرب بالسلاح، ومن أجل ذلك عطف عليه (ونصروه).

الوجه الثالث: هناك قساوسة علموا بإرهاصات تدل على أن محمدًا ﷺ سيكون هو النبي الخاتم، فلذلك تركوا الأمور تجري كما يريد الله لنبيه واكتفوا بالبشارة بكونه النبي الخاتم، فلماذا لم يصنعوا من الحِيل كما صنع ورقة -كما تزعمون- ليستغلوا فرصة الشهرة ليشير الناس إليهم بأنهم هم الذين صنعوا النبي محمدًا ﷺ؟.

قال ابن سيد الناس: وروينا عن أبي الربيع بن سالم قال: وذكر الواقدي بإسناد له إلى نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية، قال: وقد رويناه أيضًا من طريق أبي علي بن السكن، وحديث أحدهما داخل في حديث الآخر مع تقارب اللفظ، وربما زاد أحدهما الشيء اليسير على الآخر، وكلاهما ينمي إلى نفيسة قالت: "فخرج محمد مع غلام خديجة ميسرة حتى قدم الشام، فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب يقال له: نسطورا، فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه، فقال: يا ميسرة، من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم قال له: في عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم، لا تفارقه، قال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج، فوعى ذلك ميسرة، ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلفْ باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخلا به: يا ميسرة، هذا نبي والذي نفسي بيده، وإنه لهو تجده أحبارنا منعوتا في كتبهم فوعى ذلك ميسرة"(١).

الوجه الرابع: من ذكر أن ورقة عاش لِما بعد البعثة، فإذا افترضنا صحة ذلك؛ فإنه لم

(١) عيون الأثر ١/ ٦٩؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة، الروض الأنف١/ ٣٢١.

يكن له أثر كبير في الدعوة الإسلامية مثل أثر أبي بكر وغيره من الصحابة.

فالسؤال: لماذا لم يشارك ورقة النبي ﷺ في الدعوة بقوة كما صنع أبو بكر، فلم يسلم أحد على يد ورقة، بينما كل من أسلم كان له دور في دعوة غيره للإسلام؟.

وادعاء أن ورقة كان دوره هو تثبيتهم على الدين لا يحقق وجه مقارنة بين اهتمام ورقة قبل البعثة وبعدها.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدّثَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ يَمُرّ بِهِ وَهُوَ يُعَذّبُ بِذَلِكَ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ، فَيَقُولُ: أَحَدٌ أَحَد وَالله يَا بِلَالُ، ثُمّ يُقْبِلُ عَلَى أُمَيّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَمَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِهِ مِنْ بَنِي جُمَحَ فَيَقُولُ: أَحْلِفُ بِالله لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا لَأَتّخِذَنّهُ حَنَانًا*، حَتّى مَرّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ ﷺيَوْمًا وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ بِهِ وَكَانَتْ دَارُ أَبِي بَكْرٍ فِي بَنِي جُمَحَ، فَقَالَ لِأُمَيّةِ بْنِ خَلَفٍ: أَلَا تَتّقِي الله فِي هَذَا الْمِسْكِينِ؟ حَتّى مَتَى؟ قَالَ أَنْتَ الّذِي أَفْسَدْته، فَأَنْقِذْهُ مِمّا تَرَى، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَفْعَلُ؛ عِنْدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وَأَقْوَى عَلَى دِينِك، أُعْطِيكَهُ بِهِ، قَالَ: قَدْ قَبِلْت، فَقَالَ: هُوَ لَك، فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ﷺ غُلَامَهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ فَأَعْتَقَهُ[1].

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال، وهو يعذب على الإسلام، وهو يقول: أحد أحد، فيقول ورقة: أحد أحد؛ والله يا بلال. وبإسناده عن عروة: أن أبا بكر الصديق ﷺ أعتق ممن كان يعذب في الله سبعة فذكرهم وذكره، ثم ذكر منهم الزنيرة، قال: فذهب بصرها وكانت ممن يعذب في الله على الإسلام، فتأبى إلا الإسلام، وقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كلا والله ما هو كذلك، فَرَدَّ الله عليها بصرها[2].

* الحَنانُ: الرحمةُ والعطفُ، والحَنانُ الرِّزْقُ والبركةُ، أَراد لأَجْعَلَنَّ قَبْرَه موضعَ حَنانٍ أَي: مَظِنَّةً منْ رحمة الله تعالى فأَتَمَسَّحُ به متبرّكًا كما يُتمسَّح بقبور الصالحين الذين قُتلوا في سبيل الله من الأُمَمِ الماضية فيرجع ذلك عارًا عليكم وسُبَّةً عند الناس؛ لسان العرب (حنن).

(١) الروض الأنف ٢/ ٨٣.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٤/ ١٤٤.

شبهة: دور سلمان الفارسي لتكوين نبوة محمد ﷺ.

نص الشبهة:

سلمان عضو في التنظيم الذي يرأسه ورقة!!

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: لقاء سلمان مع النبي ﷺ لم يكن قط إلا بعد البعثة بثلاثة عشر عامًا وقت هجرته للمدينة[1].

فلا يُعقل أن يكون اشترك مع ورقة قبل بعثة محمد ﷺ رسولًا.

عن ابن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي قال: كنت رجلًا فارسيًا من أهل أصبهان؛ من أهل قرية منها يقال لها: جي، وكان أبي دهقانها. وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل بي حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، فاجتهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يومًا، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني ببعض ما يريد، فخرجت، ثم قال: لا تحتبس علي، فإنك إن احتبست عليَّ كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري. فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس بحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت إليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلواتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. قال: ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قلت: يا أبة، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قلت: كلا، والله

---

(١) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل ٣٠.

إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدًا، ثم حبسني في بيته. قال: وبعثت إلى النصارى فقلت: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، فقدم عليهم ركب من الشام، قال: فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة فأخبروني، قال: ففعلوا، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام. فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك، قال: فادخل، فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئًا اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا رجل سوء؛ يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتم بها كنزها لنفسه، ولم يعطِ المساكين، وأريتهم موضع كنزه سبع قلال مملوءة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا، فصلبوه ثم رموه بالحجارة. ثم جاؤوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيت رجلًا – يعني: لا يصلي الخمس- أرى أنه أفضل منه؛ أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهارًا، ما أعلمني أحببت شيئًا قط قبله حبه، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان، قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئًا قط حبك، فماذا تأمرني وإلى من توصيني؟ قال لي: يا بني، والله ما أعلمه إلا رجلًا بالموصل، فائته، فإنك ستجده على مثل حالي. فلما مات وغيب، لحقت بالموصل، فأتيت صاحبها، فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهد، فقلت له: إن فلانًا أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك، قال: فأقم أي بني، فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة، فقلت له: إن فلانا أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني به؟ قال: والله، ما أعلم أي بني إلا رجلا بنصيبين، فلما دفناه، لحقت بالآخر، فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت، فأوصى بي إلى رجل من أهل عمورية بالروم، فأتيته فوجدته على مثل حالهم، واكتسبت حتى كان لي غنيمة

وبقيرات، ثم احتضر فكلمته إلى من يوصي بي؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوه، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانُه، فلما واريناه أقمت حتى مرَّ بي رجال من تجار العرب من كلب، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم غنيمتي وبقراتي هذه؟ قالوا: نعم، فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاؤوا بي وادي القرى، ظلموني، فباعوني عبدا من رجل يهودي بوادي القرى.

فو الله لقد رأيت النخل، وطمعت أن يكون البلد الذي نعت لي صاحبي، وما حقت عندي حتى قدم رجل من بني قريظة وادي القرى، فابتاعني من صاحبي، فخرج بي حتى قدمنا المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفت نعتها، فأقمت في رقي، وبعث الله نبيه ﷺ بمكة لا يذكر لي شيء من أمره مع ما أنا فيه من الرق، حتى قدم رسول الله ﷺ قباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له، فوالله إني لفيها إذ جاءه ابن عم له، فقال يا فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لفي قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبي، فوالله ما هو إلا أن سمعتها فأخذتني العرواء يقول: الرعدة- حتى ظننت لأسقطن على صاحبي، ونزلت أقول: ما هذا الخبر؟ فرفع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة، وقال: مالك ولهذا، أقبل على عملك، فقلت: لا شيء، إنما سمعت خبرًا، فأحببت أن أعلمه. فلما أمسيت وكان عندي شيء من طعام، فحملته وذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فقلت له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحابًا لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة فرأيتكم أحق مَنْ بهذه البلاد، فهاك هذا، فكل منه، قال: فأمسك، وقال لأصحابه: كلوا، فقلت في نفسي: هذه خلة مما وصف لي صاحبي. ثم رجعت، وتحول رسول الله إلى المدينة، فجمعت شيئًا كان عندي ثم جئته به فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية، فأكل رسول الله ﷺ وأكل أصحابه، فقلت: هذه خلتان.

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعلي شملتان لي وهو في أصحابه، فاستدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف، فلما رآني استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي: تحول، فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه. ثم شغل سلمانَ الرقُ حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد. ثم قال رسول الله ﷺ: كاتب يا سلمان، فكاتبت صاحبي على ثلاث مئة نخلة أحييها له بالفقير وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: " أعينوا أخاكم "، فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاث مئة ودية، فقال: اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعها بيدي، ففقرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها، جئته وأخبرته، فخرج معي إليها نقرب له الودي، ويضعه بيده، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي عليَّ المال. فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: "ما فعل الفارسي المكاتب"؟ فدعيت له، فقال: " خذها فأدِّ بها ما عليك "قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك، فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرًا، ثم لم يفتني معه مشهد[(١)].

الوجه الثاني: من تناقضِهم زعمُهم أن النبي ﷺ أخذ القرآن من سلمان وصهيب النصرانيين وابن سلام اليهودي وغيرهم ممن أسلم من أهل الكتاب[(٢)]، وحقيقة الأمر أن إسلام هؤلاء حجة عليهم، إذ لو كان النبي ﷺ أخذ القرآن والشريعة من أهل الكتاب، فلماذا يتركون الأصل ويذهبون إلى الفرع؟

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٤١ - ٤٤٤، وابن الأثير الجزري في " أسد الغابة " ٢/ ٤١٧ - ٤١٩، وابن هشام ١/ ٢١٤ - ٢٢١، والطبراني في " الكبير " (٦٠٦٥)، والخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " ١/ ١٦٤ - ١٦٩ . ورجاله ثقات وإسناده قوي؛ فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث عند أحمد وابن هشام وغيرهما.

(٢) انظر القرآن والمستشرقون لنقرة (٣٥).

دور صهيب، وسلمان، وكعب ﭫ:

١- فصهيب لم يكن من الأثرياء، بل كان فقيرًا معدمًا مستضعفًا[(١)].

نعم: ذكروا أنه ترك ماله ليهاجر، وأن أهل مكة لم يسمحوا له حتى ترك كل ماله، ولكن لم يذكروا أن هذا المال كان كثيرًا بحيث كان من الأثرياء، وحتى لو كان فلماذا ترك هذا الثراء وتبع النبيﷺ؟ ألا يدل هذا أن صهيبًا عرف صحة نبوة محمدﷺ؟ ، وسلمان لم يكن مسيحي الأصل بل كان مجوسيًا، ثم تنصر، ثم أسلم بعد وصية الراهب النصراني له بذلك؛ انظر حديثه الطويل في قصة إسلامه في مسند أحمد[(٢)]. وعبد الله بن سلام لم يكن الوحيد الذي أسلم من اليهود، فهناك الغلام اليهودي جار النبي ﷺ الذي عاده من مرضه فأسلم، وصفية بنت حيي بن أخطب وغيرهم[(٣)].

وفي شرح الحديث المتفق عليه: "لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي يهود" حيث قال: (الْمُرَاد عَشَرَة مُخْتَصَّة وَإِلَّا فَقَدْ آمَنَ بِهِ أَكْثَر مِنْ عَشَرَة، وَوَقَعَ عِنْد اِبْن حِبَّان قِصَّة إِسْلَام جَمَاعَة مِنْ الْأَحْبَار كَزَيْدِ بْن سَعَفَة مُطَوَّلًا، وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ أَنَّ يَهُودِيًّا سَمِعَ النَّبِيّ (يَقْرَأ سُورَة يُوسُف فَجَاءَ وَمَعَهُ نَفَر مِنْ الْيَهُود فَأَسْلَمُوا كُلّهمْ) اهـ بتصرف واختصار. وكعب الأحبار لم يدرك النبي ﷺ، بل هو من التابعين[(٤)].

الوجه الثالث: نبوة محمد ﷺ أمر أزلي وليس تنظيمًا مدبرًا. فالنبوة وكرم الأخلاق لا تأتي بالتخطيط والتوقع؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ (القصص: ٨٦)، فنبوة محمد أمر أزلي، وهذا ما يعلمه ورقة فلماذا كل هذا التعب من ورقة لجعل محمد نبيًا؟ فورقة قام بمخطط مدروس ومصمم قبل أن

(١) انظر ترجمته في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر٣/ ٤٤٩.

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٣٢٢٥) وتقدم تخريجه في الشبهة السابقة.

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٢٢).

(٤) انظر كتاب الأعلام للزركلي (٥/ ٢٨٨).

يولد محمد ﷺ -كما تدعون- أو لم يقمْ فلا يقدم ولا يؤخر في أمر نبوة محمد ﷺ[1].

الوجه الرابع: يقولون إن محمدًا ضحية لتنظيم خُطط له من قِبَل ورقة (رئيس التنظيم)، وخديجة، وأبي طالب، وبحيرا، وسلمان، وعدَّاس، وأبي بكر، و. . .

* هل معنى ذلك أنكم تدافعون عن محمد، وأنه ضحية لهذا التنظيم؟ فكيف بكم إذًا تتهمونه بتهم كثيرة في شرفه وعقله وفكره؟! فأوقاتٌ تصفونه وكأنه مسلوب الإرادة، وأوقاتٌ تصفونه بالماكر المدبر!

* أطراف مختلفة في التخطيط من أماكن مختلفة، وكأننا في حرب عالمية تشترك فيها عدة دول لتحقيق هدف واحد، فهذا ورقة نصراني من مكة، وهذا بحيرا قسيس من الشام، وهذه خديجة كانت امرأة مشغولة بالتجارة، وهذا أبو طالب من كفار قريش لم يسلم حتى بعد البعثة، وهذا أبو بكر قد آمن بمحمد، وهذا سلمان كان مجوسيًا، فكيف تتوافق أفكار هؤلاء لتحقيق هدف واحد؟ ولماذا لم يستقل أبو طالب بالأمر ليكون له شرف السبق لتحقيق نبوة ابن أخيه؟

* العرب لم ينتشر فيهم المخططات السرية المليئة بالدسائس، بل كان هذا منتشرًا لدى الفرس والروم، فقد كان عندهما قتل الولد لوالده ليعتلي عرش الملك بدلًا منه، وتدبير الأخ لأخيه المكايد ليفتك به، ولكن العرب كانت الأمور لديهم واضحة المعالم؛ شخصياتهم مليئة بالصراحة، وعدم الكذب والخيانة، ولا أوضح من موقف أبي سفيان من النبي عند هرقل؛ حيث قال: فَوَاللهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ[2].

نعم، إن في الحرب خدعة، ولكن لم تكن التنظيمات السرية لقلب نظام الحكم أو لتغيير مسار الجزيرة العربية معروفة لدى العرب.

* هل محمد يخطط له كل هذا التخطيط من قِبَل هذا العدد من المخططين، ثم هو لا يدري من ذلك شيء؟! فهذا لا يتوافق مع كونهم اختاروه لأن له ذكاءً وفطنةً، ولو كان

(١) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل (٢٧) بتصرف.

(٢) البخاري (٧)، ومسلم (٤٧٠٧).

يعلم ما يخططون إليه لوفَّر عليهم الكثير: فبدلًا من إقناع أبي طالب له للعمل عند خديجة كمقدمة لكي يرغب في الزواج منها، لكان على الفور طلب الزواج منها، فكل هذا يهدم مسألة وجود تخطيطٍ لتحضير محمد للنبوة.

لماذا لم يتحوَّل محمد ﷺ قبل البعثة إلى اتباع أي طائفة من طوائف اليهود أو النصارى؟

فليس هناك تصريح من محمد ﷺ بأنه كان متبعًا لمذهب ما أو طائفة ما من طوائف اليهود أو النصارى قبل البعثة.

الوجه الخامس: أمور كونية لا علاقة لورقة ولا لغيره فيها. ولبيان ذلك أمور:

الأمر الأول: ما الذي فعله ورقة حتى ينزل الناموس على محمدﷺ:

فربُّ العالمين قد اصطفى نبينا محمد ﷺ بالرسالة ومهدها له، وكان ذلك من قبل ولادته كالإرهاصات، ومن بعد الولادة أشياء كثيرة منها شق صدره، وخاتم النبوة الذي ولد به، وغيرها كثير فهل كان لورقة دخل في مثل هذه الأمور.

الأمر الثاني: الرؤية الصالحة كانت توطئة لنبوة محمد وليس لورقة تدخل في الرؤيا.

فالرؤيا الصالحة الأصل فيها أنها تكون للأنبياء، ثم لباقي الناس جزءٌ من ذلك، فمن العلامات التي جعلها الله خاصة بالأنبياء: أنهم لا يرون رؤيا إلا وهي تتحقق؛ فكان هذا للنبي ﷺ بمثابة توطئة لنبوته، وقد ذكر ابن كثير قصة نزول الناموس على محمد ﷺ، ثم قال: فهذا كالتوطئة لما جاء بعده من اليقظة، كما تقدم من قول عائشة رضي الله عنها: فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح(١).

ويحتمل أن هذا المنام كان بعد ما رآه في اليقظة صبيحة ليلتئذٍ، ويحتمل أنه كان بعده بمدة(٢).

فالسؤال: هل كون ورقة أخبر خديجة بنزول الناموس على محمد أن ذلك هو الأمر الوحيد الذي جعل محمدًا نبيًا؟ أم أن هناك مبشرات وإخبارات أخرى تؤكد لمحمد ﷺ أنه نبي؟ بالطبع هناك مبشرات كثيرة لذلك، فهل كان لورقة تدخل في هذه المبشرات؟!

---

(١) البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢، ١٦٠).

(٢) السيرة النبوية١/ ٤٠٤.

بالطبع لا، فالرؤيا ليس لورقة أدنى تدخل فيها؛ بل ولا الشيطان؛ لأن الشيطان لا يعلم الغيب حتى يأتي لمحمد في منامه ليخبره ما سيحدث، وفي الكتاب المقدس إقرار بأن الرؤيا الصالحة كانت من المبشرات الدالة على صدق الأنبياء: "سَتَأْتِي مُصِيبَةٌ عَلَى مُصِيبَةٍ، وَيَكُونُ خَبَرٌ عَلَى خَبَرٍ، فَيَطْلُبونَ رُؤْيَا مِنَ النَّبِيِّ، وَالشَّرِيعَةُ تُبَادُ عَنِ الْكَاهِنِ، وَالْمَشُورَةُ عَنِ الشُّيُوخِ". (سفر حزقيال: ٧/ ٢٦).

"تَاخَتْ فِي الأَرْضِ أَبْوَابُهَا. أَهْلَكَ وَحَطَّمَ عَوَارِضَهَا. مَلِكُهَا وَرُؤَسَاؤُهَا بَيْنَ الأُمَمِ. لاَ شَرِيعَةَ. أَنْبِيَاؤُهَا أَيْضًا لاَ يَجِدُونَ رُؤْيَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ"(سفر مراثي أرميا: ٢/ ٩).

فثابتٌ عند المسلمين أن الرؤيا الصالحة وباقي المبشرات كانت من التوطئة لنبوة محمد، فلا يحق لغير المسلمين أن ينكروا ما ثبت بالأخبار الصحيحة والأسانيد المتصلة.

فإن قال قائل: فما سبب ذهاب محمد لورقة مع أنه رأي مبشرات أخرى غير الناموس تبين أنه نبي؟ قيل له: إما لأن المبشرات التي رآها النبي كانت بعد نزول الناموس؛ وإما لأن الإنسان إذا رأي في المنام رؤيا حتى ولو كانت تتحقق في الواقع قد لا ينزعج بقدر ما يرى أشياءً لم يرها من قبل فيفاجأ بها أمام عينيه، فموسى عندما كلَّمه الله لم يفزع بقدر ما فزع من تحول العصا لثعبان.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ (القصص ٣١: ٢٩).

فالنبي محمد لو أنه رأي رؤيا توضح له أنه نبي أو أن الله كلَّمه ليخبره بأنه نبي ما كان ليفزع بقدر ما فزع من رؤية الناموس، فمحمد كان في الغار ولا يوجد أحد يصل إلى الغار إلا هو، فقد اختار غار حراء ليعتزل فيه عن الناس، وفجأة وجد جبريل أمام عينيه بالرغم من أنه لم

يسمع بصوت أقدام تتسلق الجبل؛ لتُعَرِّفه بأن أحدًا ما يريد الصعود للغار، ثم إن جبريل أمره بالقراءة وضمه، وكل ذلك أمورٌ عجيبة تستحق أن يفزع منها محمد ويخاف على نفسه.

شبهة: خطبة ورقة بن نوفل أثناء زواج النبيﷺمن خديجة.

الشبهة تتعلق بقولهم: (وخطب القس ورقة ولي أمر خديجة وقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضّلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يردُّ أحدٌ من الناس فخركم ولا شرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا يا معشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله).

كما تكلم عمُّها عمرو بن أسد فقال: (اشهدوا عليّ يا معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد وشهـد على ذلك صناديد قريش).

إذن القس ورقة لم يكن فقط حاضرًا حفلة الزواج ومتقدمًا على الحاضرين؛ بل كان محتفلًا بالعقد ومكللًا، فهو الذي أبرم العقد وشهد عليه وأعلن على الحضور ما جرى؛ فهو المحتفل الأول بالعقد أو قل هو الكاهن الذي ربط باسم الله ما لا يحل إنسان بحسب تعاليم الأبيونيين؛ كاهن نصراني يبارك الزواج فعلى أي دين يكون الزوجان إذن؟ ودليل واضح على تخطيط ورقة لإ نجاح مهمة محمد فيها بعد، فالقس دبَّر، والزوجة نفذت، والعم عضد، والنبي استسلم لإرادة الله؛ على هؤلاء قامت الدعوة الجديدة.

الردود على الشبهة من عدة وجوه:

١-الروايات الموثقة في الكتب المعتمدة لم تتعرض لمسألة خُطبة ورقة بن نوفل، ولا توكيله في عقد زواج النبي مع خديجة إلا ما في السيرة الحلبية[1]، ولكن نقول إذا تفرد

(١) السيرة الحلبية: يعتمد مؤلفها وهو علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي على كتاب عيون الأثر لابن سيد الناس واختصر منه الأسانيد، ومن سيرة الشمس للشامي، وحلّى كتابه بتوزيع همزية البوصيري بحسب أحداث السيرة، كما يذكر شيئًا من أبيات تائية السبكي، وأبيات ابن سيد الناس في ديوان: بشرى اللبيب بذكرى الحبيب، وكثيرًا ما ينسب النقول إلى قائليها وكتبهم، والأحاديث إلى مخرجيها وأحيانًا يحكم عليها، وقد أطال في آخر

كتاب من كتب السيرة برواية ليس لها إسناد صحيح، وكانت هذه الرواية غير مشهورة في كتب السيرة، فهذا دليل على عدم قبول هذه الرواية، فنقول: إن خطبة ورقة بن نوفل المشار إليها غير مقبولة من ناحية التحقيق العلمي.

٢- وحتى لو اعتمدنا على روايات السيرة الحلبية فسنجد أنها لا تدعم فكرة صاحب الشبهة بكون مخططٍ دُبِّرَ لجعل محمد نبيًا، خصوصًا أن كتاب عيون الأثر لم يذكر تلك الخطبة[1].

٣-جاء في السيرة الحلبية: " أن خديجة -رضي الله تعالى عنها- قالت للنبي ﷺ: اذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة، فلما جاءها معه رسول الله ﷺ قالت له: يا أبا طالب تدخل على عمي فكلمه يزوجني من ابن أخيك محمد بن عبد الله، فقال أبو طالب: يا خديجة، لا تستهزئي، فقالت: هذا صنع الله، فقام فذهب وجاء مع عشرة من قومه إلى عمها، وخطب أبو طالب يومئذ فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد - أي: معدنه -، وعنصر مضر- أي: أصله-، وجعلنا حَضَنة بيته -أي: المتكفلين بشأنه-، وسُوَّاس حرمه -أي: القائمين بخدمته-، وجعله لنا بيتا محجوجًا وحرمًا آمنا، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفًا ونبلًا وفضلًا وعقلًا، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل وعارية مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشرة أوقية ونشًا -وهو عشرون درهمًا والأوقية أربعون درهمًا-، وعند ذلك قال عمها عمرو بن أسد: هو الفحل لا يقدع كلاهما، وأنكحها منه. وقيل: قائل ذلك ورقة بن نوفل؛ أي: فإنه بعد أن

الكتاب الكلام على سرايا النبي وشمائله وخصائصه وصفاته. . . إلا أن الحلبي تصرف في روايات وزاد في كتابه من الحشو المذموم؛ حيث تم إدخال روايات أخرى ليس لها أصل في الكتب المعتمدة في سيرته.

و للشيخ أكرم ضياء العمري مقالة وجيزة عن الكتاب نصها:

. . . ومنها (السيرة الحلبية) لبرهان الدين الحلبي ت ٨٤١ هـ، فيه حشو وقصص إسرائيلية (أحال الدكتور العمري هنا إلى كتاب: تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي)، وقد حذف الحلبي أسانيد الروايات، واكتفي بذكر راوي الخبر، وشرح بعض الغريب، وإضافة تعليقات أخرى.

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ١/ ٦٩؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة.

خطب أبو طالب بما تقدم خطب ورقة فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله وذكر المهر، فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليَّ معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وأولم عليها ﷺ ونحر جزورًا[١].

٤- ادعاء أن ورقة هو ولي أمر خديجة، وهذا ما تنفيه كل كتب السيرة، كيف يكون ورقة ولي أمرها وعمها موجود؟

قال ابن سيد الناس: وذكر ابن إسحاق أن أباها خويلد بن أسد هو الذي أنكحها من رسول الله ﷺ، وكذلك وجدته عن الزهري وفيه: وكان خويلد أبوها سكران من الخمر، فلما كلم في ذلك أنكحها فألقت عليه خديجة حلة وضمخته بخلوق، فلما صحا من سكره قال: ما هذه الحلة والطيب فقيل له: أنكحت محمدًا خديجة وقد ابتنى بها فأنكر ذلك ثم رضيه وأمضاه.

وقال محمد بن عمر: الثبت عندنا المحفوظ من أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار، وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ.

ورأيت ذلك عن غير الواقدي، وقد قيل: إن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي أنكحها منه، والله أعلم[٢].

والراجح أن عمها الذي أنكحها:

قال محمد بن يوسف الصالحي الشامي: ما تقدم من أن عمها هو الذي زوجها رسول الله ﷺ ذكره أكثر علماء أهل السير.

قال السهيلي: وهو الصحيح؛ لما رواه الطبري عن جبير بن مطعم وابن عباس وعائشة كلهم قال: إن عمرو بن أسد هو الذي أنكح خديجة رسول الله ﷺ وإن خويلد كان قد

(١) السيرة الحلبية ١/ ٢٢٦، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي للعصامي ١/ ١٨٦.

(٢) (عيون الأثر ١/ ٧٢؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة).

هلك قبل الفجار.

ورجحه الواقدي وغلَّط من قال بخلافه.

وقال عمر بن أبي بكر المؤملي: المجتمَع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه.

٥- والذي يؤكد ذلك أن أبا طالب رفض حديث ورقة (الذي تكلم بصفته عضوًا في الوفد ليس أكثر)، والدليل على استياء أبي طالب من حديث ورقة قوله بعد أن أنهى ورقة حديثه؛ قال أبو طالب: " قد أحببتُ أن يشركك عمها " ولهذا لم يتم عقد الزواج إلا بعد موافقة عمها الصريحة.

٦- اشتراط موافقة ولي أمر خديجة (عمها)، والمهر دليل على أن الزواج لم يكن حسب شريعة النصارى.

٧- لاحظوا النص الذي ذكره: (أرسلت خديجة إلى أعمامها فحضروا) وورقة ليس من أعمامها بل لم يُذكر (رغم حضوره مع الوفد)؛ لأن وجوده أقل أهمية من وجودهم.

٨- ليس لورقة كل تلك القداسة والمهابة والاحترام لدى قريش بل ولدى أقاربه.

٩-أخفى صاحب الشبهة قول ورقة: " ولا يردُّ أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم "، بل حوّر الكلام بحيث يصبح الشرف والمكانة لورقة وأهله أسمى مما لبني هاشم كما هو متواتر في التاريخ.

١٠-كما حذف صاحب الشبهة اعتراض أبي طالب على حديث ورقة، فكيف دبر أمر الزواج إذن؟ ولماذا حذفه؟!

١١- هل التكليل لأمر الزواج يتم في بيت خديجة أم في الكنيسة؟

١٢-لماذا أصر أبو طالب أن يصدر الموافقة على الزواج من عم خديجة.

١٣- لا يوجد في كلام ورقة أي حرف يدل على النصرانية، وأين اختفت عبارات التكليل المعروفة؟

١٤- هل المهر والصداق المتقدم والمتأخر موجود عند النصارى؟ فهذا يبطل ادعاء أن ورقة كان قسًا وأنه مارس كهنوته من خلال زواج محمد من خديجة.

١٥-هل سأل الكاهن المكلل الحاضرين: من له اعتراض على الزواج فليتكلم، أو ليصمت إلى الأبد؟

١٦- القول بأن الزواج كان نصرانيًا، ودليلهم على زواج محمد من خديجة يتناقض مع قول بعض النصارى إن الإسلام مأخوذ عن النصرانية بدليل أن الهراطقة تمانع تعدد الزوجات؟

١٧- ومما قد يعكر أيضًا على ثبوت خطبة ورقة أن هناك إحدى الروايات تشير لعدم وجوده في زواج محمد من خديجة، ففي كتاب الكامل للمبرد قال: ويروى أن رسول الله ﷺ لما خطب خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ذُكر لورقة بن نوفل فقال: محمد بن عبد الله يخطب خديجة بنت خويلد الفحل لا يقدع أنفه[1].

فهذا يدل على أن الزواج حدث ثم أُخبر ورقة بذلك، وأنه لم يحضر لعارض حدث له من سفر أو مرض، وقيل: لم يحضر؛ لأنه كان يريد الزواج من خديجة فاستحيا من الحضور وبالرغم من ذلك لم يُسقط من قدر النبي ﷺ.

شبهة: دور أبي طالب في زواج النبي ﷺ.

نص الشبهة: تتعلق بخطبة أبي طالب أثناء زواج النبي ﷺمن خديجة؛ حيث ألح أبو طالب على سيدنا محمد أن يعمل عند خديجة رضي الله عنها، وذلك لتأثير أبي طالب على سيدنا محمدﷺ، وهذا هو المخطط الذي يُنفذ على يد أبي طالب وخديجة، ويَكمُن اشتراكُ أبي طالب في ذلك قوله: (وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل) فهذا التوقع يدل على تواطئه مع ورقة، إذن لم تبخل علينا كتب السير والأخبار فيما كان عليه القس والعم والزوجة، لقد كان لكل منهم دوره فيما دبَّر الله على أيديهم.

---

(١) الكامل في اللغة والادب١/ ٤٢، زهر الأكم في الأمثال والحكم١/ ٢٧٤.

قال اليوسي: أي: كريم يروم كريمة، فلا سبيل إلى التعرض له دونها وصده عنها، وهو أشرف أكفائها؛ زهر الأكم في الأمثال والحكم (١/ ٢٧٤).

والرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: افتراء المعتدين.

إن هذا القول ما هو إلا سراب وأوهام ألقاها الشيطان في قلوب أعداء الدين، فبنوا أقوالهم على غير أصل، وكذبوا كذبة ثم صدقوها، وعلى أساسها وقعت الشبهة عندهم، ووالله لولا أن بعض هؤلاء نطق بهذا السخف وشغّب به ما كنا نلتفت إلى رده وقمعه، ولكن ماذا نصنع مع قلوب عمي، وآذان صم، ورحم الله من قال:

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل.

الوجه الثاني: هل أبو طالب مكلف من ورقة لإقناع النبيﷺ بالزواج من خديجة؟

فإن أبا طالب كان مشركًا، كيف بمشرك يحقق الأهداف التي يرمي إليها القس ورقة لتنصير محمدﷺ، هل القساوسة يحققون أهدافهم الدينية عن طريق المشركين؟! نعم، قد يساعدك مشرك في أمور الدنيا، ولكن لا يمكن أن يشاركك أهدافك الدينية وغاياتك الأساسية، فالنبي ﷺ لم يقبل أن يشاركه أحد المشركين في الجهاد، والنبي ﷺ لم يكلف أبا طالب بالدفاع عنه، ثم دفاعه هذا لم يقصد به دفاعًا عن الدين ولكنه كان دفاعًا عن العصبية.

الوجه الثالث: قول أبي طالب: (وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل).

يدل على أن أبا طالب كان يتفرس في النبي ﷺ بأنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ؛ بغض النظر عن هذا الشأن أنه سيكون له بسبب كونه سيصير نبيًا أو ملكًا أو غير ذلك.

ففي هذه الرواية -بافتراض صحتها-ليس فيها تخصيص صريح بأن هذا الشأن هو النبوة؛ لذلك لا نستطيع أن نبني عليه حكمًا.

* أبو طالب كان يتفرس في النبي ﷺ بأنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ منذ صغره، فمن العرب من كان يتفرس في المولود الرضيع مثل تفرس الأعرابي في معاوية أنه سيكون مَلِكًا.

ولعل أوضح مثال على ذلك تفرس عبد المطلب في أنه سيكون للنبي شأنٌ، فقد كان يجلسه على أريكته ولم يفعل ذلك مع أولاده لا في صغرهم ولا كبرهم.

قال ابن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله قال: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة وكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، وكان رسول الله ﷺ يأتي حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه فيقول جده: دعوا ابني، فيمسح ظهره ويقول: إن لابني هذا لشأنًا.

وروى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنه مثله؛ وزاد: دعوا ابني يجلس فإنه يحس من نفسه بشيء، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده.

وروى ابن سعد وابن عساكر عن الزهري ومجاهد ونافع وابن جبير قالوا: كان النبي ﷺ يجلس على فراش جده فيذهب أعمامه ليؤخروه فيقول عبد المطلب: دعوا ابني ليؤنس ملكًا. وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب: احتفظ به فإنا لم نرَ قدمًا أشبه بالقدم التي في المقام منه. وقال عبد المطلب لأم أيمن: يا بركة احتفظي به، لا تغفلي عنه؛ فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة[1].

فهل عبد المطلب ومن كان من قوم بني مدلج: كلهم متواطئون مع ورقة بن نوفل.

الوجه الرابع: سبب عمل النبي ﷺ عند خديجة.

عمل النبي ﷺ عند خديجة لا لأنه يريد الزواج منها، ولا لأن أبا طالب ألحَّ عليه لخطة مرسومة؛ ولكن لضعف الحالة الاقتصادية في مكة، مما ألجأ الكثير من أهلها للعمل في التجارة؛ قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ (قريش١: ٢)، فما كان لمحمد ﷺ أن يظل مشتغلًا بالرعي تلك المهنة قليلة الدخل التي يستطيع الطفل أن يشتغل بها، لذلك نرى كثيرًا من أطفال أهل البادية يسرحون بقطيع من الغنم ولا يجدون صعوبة بالغة في ذلك.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٧٠، دلائل النبوة لأبي نعيم١/ ١١٩، الخصائص الكبرى للسيوطي١/ ١٣٧، سبل الهدى والرشاد٢/ ١٢٩ في كفالة عبد المطلب.

عن أم سعد بن الربيع عن نفيسة بنت أمية أخت يعلى سمعتها تقول: لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين؛ لما تكاملت فيه من خصال الخير. قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة ليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالًا من قومك في عيراتها؛ فيتجرون لها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك؛ لما يبلغها من طهارتك، وإني كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بدًا، وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة، وتبعث بها إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجل وتدفع إليه المال مضاربة، وكانت قريش قومًا تجارًا من لم يكن تاجرًا فليس عندهم بشيء، قال رسول الله ﷺ: فلعلها أن ترسل إليَّ في ذلك. قال أبو طالب: إني أخاف أن تُولي غيرك؛ فتطلب أمرًا مدْبرًا، فافترقا فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما دريت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه فقالت: إنه قد دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلًا من قومك، ففعل رسول الله ﷺفلقي أبا طالب فقال له ذلك فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك[1].

الوجه الخامس: ورد في السيرة أن أبا طالب قال لخديجة لما أخبرته بعزمها الزواج من سيدنا محمدﷺ: أن خديجة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: اذهب إلى عمك فقل له: عجل إلينا بالغداة، فلما جاء قالت له: يا أبا طالب، ادخل على عمرٍو عمي فكلمه يزوجني من ابن أخيك محمد بن عبد الله، فقال أبو طالب: يا خديجة لا تستهزئي، فقالت: هذا صنع الله، فقام أبو طالب مع عشرة من قومه[2].

فقول أبي طالب: يا خديجة لا تستهزئي دليل على أنه لم يكن من (المخططين) لهذا الزواج.

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ١٠٥، نهاية الأرب في فنون الأدب٤/ ٢٤٢، عيون الأثر لابن سيد الناس ١/ ٦٩؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة.

(٢) السيرة الحلبية ١/ ٢٢٦، سبل الهدى والرشاد٢/ ١٦٤ (الباب الرابع عشر في نكاحه ﷺ خديجة بنت خويلد.

شبهة: دور أخت ورقة بن نوفل لتنصير عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ

نص الشبهة:

إن عبد الله أَبا النبي ﷺ مرّ بأُختِ ورَقَةَ بن نَوْفَلٍ، وهي تَنْظُرُ وتَعْتافُ فرأَتْ في وجهه نُورًا فدعته إِلى أَن يَسْتَبْضِعَ منها وتُعْطِيَهُ مائةً من الإِبل فأَبى.

فهذا دليل على استمالة ورقة بن نوفل لأخته لإعداد النبي محمد.

الرد على الشبهة:

الوجه الأول: ذكر روايات القصة:

١-**قال الطبري**: حدثني على بن حرب الموصلي، قال حدثنا محمد بن عمارة القرشي، قال: حدثنا الزنجي بن خالد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: خرج عبد المطلب بعبد الله ليزوجه، مر به على كاهنة من خثعم يقال لها فاطمة بنت مر، متهودة من أهل تبالة قد قرأت الكتب، فرأت في وجهه نورًا، فقالت له: يا فتى، هل لك أن تقع عليَّ الآن وأعطيك مائة من الإبل، فقال: أما الحرام فالمات دونه، والحل لا حل فأستبينه، فكيف بالأمر الذي تبغينه؟! ثم قال: أنا مع أبي ولا أقدر أن أفارقه، فمضى به فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فأقام عندها ثلاثًا ثم انصرف، فمر بالخثعمية فدعته نفسه إلى ما دعته إليه، فقال لها: هل لك فيما كنت أردت؟ فقالت: يا فتى، إني والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نورًا فأردت أن يكون فيَّ، وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد فما صنعت بعدي؟ قال: زوجني أبي آمنة بنت وهب، فأقمت عندها ثلاثًا فأنشأت فاطمة بنت مر تقول:

إني رأيت محيلة لمعت فتلألأت بحناتم القطر

فلمأتها نورًا يضيء له ما حوله كإضاءة البدر

فرجوتها فخرًا أبوء به ما كل قادح زنده يورى

يورى لله ما زهرية سلبت ثوبيك ما استلبت وما تدرى

وقالت أيضًا:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم أمينة إذ للباه يعتركان

كما غادر المصباح عند خموده فتائل قد ميهت له بدهان

وما كل ما يحوي الفتى من تلاده لعزم ولا ما فاته لتوان

فأجمل إذا طالبت أمرًا فإنه سيكفيكه جدان يعتلجان

سيكفيكه إما يد مقفعلة وإما يد مبسوطة ببنان

ولما حوت منه أمينة ما حوت حوت منه فخرًا ما لذلك ثان(١)

٢- عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، قال: ثم انصرف عبد المطلب آخذًا بيد عبد الله، فمر به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي، وهي عند الكعبة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ فقال: مع أبي، قالت: لك عندي من الإبل مثل التي نحرت عنك، وقَعْ عليَّ الآن فقال لها: إن معي أبي الآن؛ لا أستطيع خلافه ولا فراقه، ولا أريد أن أعصيه شيئًا، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة؛ ووهب يومئذ سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وهي لبرة بنت عبد العزى بن عثمان ابن عبد الدار بن قصي، وأم برة: أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، وأم حبيب بنت أسد: لبرة بنت عوف بن عبيد؛ يعني: ابن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي. قال: وذكروا أنه دخل عليها حين ملكها مكانه، فوقع عليها عبد الله، فحملت برسول الله ﷺ، قال: ثم خرج

---

(١) **إسناده ضعيف.** أخرجه الطبري في تاريخه ٢/ ٦، وأبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في عيون الأثر١/ ٧٥، السيرة لابن كثير١/ ٢٠٤ كلاهما عن علي بن حرب به. قال أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: تفرد به محمد بن عمارة القرشي عن مسلم بن خالد الزنجي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس.

الإرشاد في معرفة علماء الحديث لأبي يعلى الخليلي٢/ ٢٤. ومحمد بن عمارة القرشي: ثقة؛ مسلم بن خالد الزنجي: ضعفه أبوداود وغيره؛ تهذيب الكمال، الجرح والتعديل (٢٦٦٤).

وابن جريج لم يسمع من عطاء، وإن قيل: إن إسناد ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: في صحيح البخاري، قيل له؛ لأن البخاري اشترط السماع، فقد تخير رواية المدلسين عن مشايخهم، فتخير الروايات التي سمعوها منهم حتى ولو ذكروها بالعنعنة- فأثبتها وترك الروايات التي لم يسمعوها.

من عندها حتى أتى المرأة التي قالت له ما قالت، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهي في مجلسها، فجلس إليها، وقال لها: ما لك لا تعرضين علي اليوم مثل الذي عرضت أمس؟ فقالت: قد فارقك النور الذي كان فيك، فليس لي بك اليوم حاجة، وكانت فيما زعموا تسمع من أخيها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر واتبع الكتب؛ يقول: إنه لكائن في هذه الأمة نبي من بني إسماعيل، فقالت في ذلك شعرًا، واسمها أم قتال بنت نوفل بن أسد:

آلآن وقد ضيعت ما كنت قادرًا عليه ... وفارقك الذي كان جاءكا

غدوت عليّ حافلًا قد بذلته ... هناك لغيري فالحقن بشانكا

ولا تحسبني اليوم خلوًا وليتني ... أصبت جنينًا منك يا عبد داركا

ولكن ذاكم صار في آل زهرة ... به يدعم الله البرية ناسكا

وقالت أيضًا:

عليك بآل زهرة حيث كانوا ... وآمنة التي حملت غلاما

ترى المهدي حين ترى عليه ... ونورا قد تقدمه أماما

وذكرت أبياتًا، وقالت فيها:

فكل الخلق يرجوه جميعًا ... يسود الناس مهتديًا إماما

براه الله من نور صفاء ... فأذهب نوره عنا الظلاما

وذلك صنع ربك إذ ... حباه إذا ما سار يوما أو أقاما

فيهدي أهل مكة بعد كفر ... ويفرض بعد ذلكم الصياما

قلت: وهذا الشيء قد سمعته من أخيها في صفة رسول الله ﷺ، ويحتمل أن كانت أيضًا امرأة عبد الله مع آمنة[1].

٣- **قال ابن إسحاق**: انصرف عبد المطلب آخذًا بيد عبد الله، فمرَّ به - فيما يزعمون - على امرأةٍ من بني أسد ابن عبد العزى بن قصي، وهي عند الكعبة، فقالت له حين نظرت

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٢، السيرة النبوية لابن كثير ١/ ١٧٦، وإسناده معضل ابن إسحق لم يدرك القصة.

إلى وجهه - فيما يذكرون -: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك عندي مثل الإبل التي نحرت عنك وقَعْ عليَّ الآن، فقال: إن معي أبي الآن؛ ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، ولا أريد أن أعصيه شيئًا، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، ووهب يومئذٍ سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وهي لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي، وأم برة: أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، وأم حبيب بنت أسد لبرة بنت عوف بن عبيد بن كعب بن لؤي.

قال ابن إسحاق: فذكروا أنه دخل عليها حين مَلَكها مكانه، فوقع عليها عبد الله، فحملت برسول الله ﷺ، فخرج من عندها حتى أتى المرأة التي قالت له ما قالت؛ وهي أخت ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى؛ وهي في مجلسها، فجلس إليها، وقال: مالك لا تعرضين عليَّ اليوم مثل الذي عرضت عليَّ أمس؟ قالت: فارقك النور الذي كان فيك، فليس لي بك اليوم حاجة.

قال ابن إسحاق: وكانت فيما ذكروا تسمع من أخيها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر واتبع الكتب، ويقول: إنه لكائن في هذه الأمة نبي من بني إسماعيل، فقالت في ذلك شعرًا، واسمها أم قبال ابنة نوفل بن أسد، كذا قال: أم قبال:

الآن وقد ضيعت ما كنت قادرًا ... عليه وفارقك الذي كان جابكا
غدوت عليَّ حافلًا قد بذلته ... هناك لغيري فالحقن بشأنكا
ولا تحسبني اليوم جلوا وليتني ... أصبت حبيبًا منك يا عبد داركا
ولكن ذاكم صار في آل زهرة ... به يدعم الله البرية ناسكا

فأجابها عبد الله فقال:

تقولين قولًا لست أعلم ما الذي ... يكون وما هو كائن قبل ذلك
فإن كنت ضيعت الذي كان بيننا ... من العهد والميثاق في ظل دارك
فمثلك قد أصبت عند كل حله ... ومثلي لا يستام عند الفوارك

فقالت له أيضًا أم قبال:

عليك بآل زهرة حيث كانوا ... وآمنة التي حملت غلاما
يرى للمهدي حين يرى ... عليه ونور قد تقدمه أماما
فيمنع كل محصنة حر يد ... إذا ما كان مرتديًا حساما
وتحقره الشمال وبان منها ... رياح الجدب تحسبه قتاما
فأنجبه ابن هاشم غير شك ... وءادته كريمته هماما
فكل الخلق يرجوه جميعًا ... يسود الناس مهتديًا إماما
براه الله من نور مصفي ... فأذهب نوره عنا الظلاما
وذلك صنع ربك إذ حباه ... إذا ما سار يومًا أو أقاما
فيهدي أهل مكة بعد كفر ... ويفرض بعد ذلكم الصياما

وقال عبد المطلب:

دعوت ربي مخفيًا وجهرا ... أعلنت قولي وحمدت الصبرا
يا رب لا تنحر بني نحرًا ... وفاده بالمال شفعًا ووترا
أعطيتك من كل سوام عشرًا ... أو مائة دهما وكمتا وحمرا
معروفة أعلامها وصحرا ... لله من مالي وفاء ونذرا
عفوا ولم تشمت عيونًا خزرا ... بالواضح الوجه المزين عذرا
فالحمد لله الأجل شكرا ... أعطاني البيض بني زهرا
ثم كفاني في الأمور أمرا ... قد كان أشجاني وهد الظهرا
فلمست والبيت المغطى سترا ... واللات والركن المحاذى حجرا

منك لأنعمك إلهي كفرا ... ما دمت حيًا وأزور القبرا(١)

٤- قال الزبير: وكان عبد الله أحسن رجل مرئي في قريش قط، وكان أبوه عبد المطلب قد مرَّ به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى، وهي أخت ورقة بن نوفل وهي عند الكعبة فقالت له: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك ـ وكانت مائة ـ وقَعْ علي الآن قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه وأنشد بعض أهل العلم في ذلك لعبد الله بن عبد المطلب:

أما الحرام فالمات دونه ... و الحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه(٢)

٥- عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني والدي إسحاق بن يسار، قال: حدثت أنه: «كان لعبد الله بن عبد المطلب امرأة مع آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فمر بامرأته تلك وقد أصابه أثر من طين عمل به، فدعاها إلى نفسه، فأبطأت عليه لما رأت من أثر الطين، فدخل، فغسل عنه أثر الطين، ثم دخل عامدًا إلى آمنة، ثم دعته صاحبته التي كان أراد إلى نفسها، فأبى للذي صنعت به أول مرة، فدخل على آمنة، فأصابها، ثم خرج، فدعاها إلى نفسه، فقالت: لا حاجة لي بك، مررت بي وبين عينيك غرة، فرجوت أن أصيبها منك، فلما دخلت على آمنة ذهبت بها منك. قال ابن إسحاق: فحدثت أن امرأته تلك كانت تقول: مر بي وإن بين عينيه لنورًا مثل الغرة، ودعوته له رجاء أن يكون لي، فدخل على آمنة، فأصابها، فحملت برسول الله ﷺ»(٣).

الوجه الثاني: كيف يليق بالقس أن يُحَفِز أخته أن تزني بعبد الله والد محمد؟!

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق (١/ ٨)، تاريخ الرسل والملوك١/ ٣٦٧، ذكره الواقدي (١/ ٣٥).

(٢) عيون الأثر١/ ٧٥، والسيرة لابن كثير١/ ٢٠٤.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢٣)، سيرة ابن هشام١/ ١٥٦.

ويبدو من بعض النصوص السابقة أنها كانت من بغايا المعابد الوثنية كما في هذه الرواية: (قد مر به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى وهي أخت ورقة بن نوفل وهي عند الكعبة فقالت له: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك ـ وكانت مائة ـ وقَعْ علي الآن[١]).

فهذه الرواية توضح جرأتها الشنيعة بأنها طلبت منه الزنا وهي عند الكعبة، وهذا الأمر لا تفعله إلا امرأة قد استحلَّت الزنا فصارت لا تعبأ بالوقوع فيه حتى ولو كانت عند الكعبة.

الوجه الثالث: فبافتراض أن عبد الله استمع لأمر أخت ورقة وجامعها لإنجاب محمد، فهل يليق برجل يؤهله ورقة لأمر النبوة أن يكون قد أتى من سفاح؟! وكيف يليق هذا بامرأة كانت تقرأ الكتاب المقدس، وتأتمر بأمر القس، وتدَّعي أنها من الراهبات المتطلعات لظهور نبي آخر الزمان؟!

فإحدى الروايات تقول: (مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب)[٢].

كيف يليق بها أن تُعَرِّض نفسها للزنا؟ أهذا من تعاليم الكتاب المقدس وتطبيق محكم لنشيد الإنشاد؟!

فالواضح من الرواية أنها طلبت من عبد الله الفاحشة فأبى، وفي اليوم التالي عرض هو عليها فأبت، وعللت إباءها بأن النور الذي كان في وجهه قد زال، وفي هذا اتهام لعبدالله، وفلسفة للفاحشة بأنها كانت رغبة في النور! وليس نور النبوة إفراز عضو ولا إشراقة وجه! والرواية ظاهرة الاختلاق، وهي ذم في صورة مدح، هذا وقد جاء بعدُ أنها طلبت منه الزواج.

الوجه الرابع: النص يوضح أن والد محمد بعد ما فرغ من جماع آمنة، رجع لأخت ورقة، ألم يكتفِ بالجماع من سيدة قريش؟ أيرضى بالدون بعد ما شَرُف بزواجه منها؟! فهذا لايليق برجل يتفطن فيه ورقة أنه سيكون والد نبيه، والعجيب أن رواية تصفه بأنه يتعفف عن الزنا، ورواية أخرى تدل على أنه ما منعه عن الزنى إلا لوجود عبد المطلب معه.

---

(١) عيون الأثر ١/ ٧٥، السيرة لابن كثير ١/ ٢٠٤.

(٢) عيون الأثر ١/ ٧٥، السيرة لابن كثير ١/ ٢٠٤.

الوجه الخامس: فهذه الروايات السابقة تدحض ما يدَّعيه النصارى من قداسة القس ورقة وأخته، فتدل بصراحة أن هناك قاعدة لديهما وهي الغاية تبرر الوسيلة، ففِعل الزنا طالما أنه يهدف لغاية حميدة فلا بأس به، وهذا ما لا يرضاه كل عاقل من النصارى فضلًا عن قساوستهم، فلا يَشرُف لهم أن يدَّعو بأن دعوة ورقة دعوة مسيحية.

الوجه السادس: وهو الاختلاف في اسم المرأة التي دعت عبد الله لنفسها، فهناك رواية تذكر أنها كاهنة من أهل تبالة متهودة يقال لها: فاطمة بنت مر الخثعمية[1].

الوجه السابع: مسألة النور الذي رأته أخت ورقة، لماذا لم تره أخريات من الراهبات في مكة؟ فأنتم تدَّعون أن مكة كانت معقلًا للنصارى، وكان منهم من علم باقتراب ظهور النبي الخاتم، وكان من الطبيعي أن يتفرسوا أهل مكة واحدًا واحدًا.

الوجه الثامن: من الواضح أن عبد المطلب لم يكن متواطئًا مع ورقة كما تدعون، أو أن عبد المطلب كان نصرانيًا أو كان على علاقة وطيدة مع النصارى، فالسؤال: لماذا لم يُحرِّض عبد المطلب ابنه عبد الله على الزواج من أخت ورقة، كما ادعيتم أن أبا طالب حرَّض محمدًا للزواج من خديجة، وذلك كله لكي يتم الهدف المنشود وهو النبوة؟

الوجه التاسع: وعلى افتراض صحة رواية طلب المرأة الفاحشة من والد النبي، فنقول كما قال ابن كثير: وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ، فإنه كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾. وقد تقدم الحديث المروي من طريق جيد أنه

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ٢/ ٦، وأبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في عيون الأثر١/ ٧٥، السيرة لابن كثير١/ ٢٠٤؛ وهي أصح من الرواية التي تقول أنها أخت ورقة بن نوفل؛ عيون الأثر١/ ٧٥، السيرة لابن كثير١/ ٢٠٤، السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق١/ ٨)، تاريخ الرسل والملوك١/ ٣٦٧، ذكره الواقدي (١/ ٣٥).

قال النويري: قد اُختلف في هذه المرأة، فمنهم من يقول: هي قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهي أخت ورقة بن نوفل. قال السهيلي: اسمها: رقيقة بنت نوفل تكنى أم قتال، وهي أخت ورقة بن نوفل. ومنهم من يقول: هي فاطمة بنت مر الخثعمية، وقيل غيرها. . . فأما عبد الملك بن هشام فقال: فمر به على امرأةٍ من بني أسد، وهي أخت ورقة بن نوفل، وقال الواقدي: هي قتيلة بنت نوفل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها امرأةٌ من بني أسد، وهي أخت ورقة. نهاية الأرب في فنون الأدب٤/ ٢٣٠.

قال ﷺ: " وُلدت من نكاح لا من سفاح "[١].

وإننا نعيب أولًا على أخت ورقة، فإن عبد الله كان مشركًا ليس لديه دين يُوضح حرمة الزنا، وكان الزنا معلنًا به عند أصحاب الرايات.

شبهة: دور أم أيمن في نبوة محمد ﷺ.

نص الشبهة:

أم أيمن واسمها بركة، وهي حبشية مسيحية، وهي حاضنة محمد، لها دور في تنصير محمد " فكان محمد طفلًا في حضانة مسيحية ".

الرد على الشبهة:

١ - التعريف بأم أيمن:

أم أيمن الحبشية، مولاة رسول الله ﷺ، وحاضنته، ورثها من أبيه، ثم أعتقها، اسمها: بركة. وقد تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي، فولدت له: أيمن. ولأيمن هجرة وجهاد، استشهد يوم حنين. ثم تزوجها زيد بن حارثة ليالي بعث النبي ﷺ، فولدت له أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَجْعَلُ للنبي ﷺ النَّخلاَتِ حَتَّى افْتَتَحَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ، وَإِنَّ أَهْلِي أَمَرُونِي أَنْ آتِيَ النبي ﷺ فَأَسْأَلَهُ الَّذِينَ كَانُوا أَعْطَوْهُ أَوْ بَعْضَهُ. وَكَانَ النبي ﷺ قَدْ أَعْطَاهُ أُمَّ أَيْمَنَ، فَجَاءَتْ أُمُّ أَيْمَنَ فَجَعَلَتِ الثَّوْبَ في عنقي تَقُولُ: كَلاَّ والذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، لاَ يُعْطِيكَهُمْ وَقَدْ أَعْطَانِيهَا، أَوْ كَمَا قَالَتْ، والنبي ﷺ يَقُولُ « لَكِ كَذَا » وَتَقُولُ كَلاَّ وَالله،

---

(١) السيرة النبوية١/ ٢٠٤، وحديث (خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمي فأنا خيركم نفسًا وخيركم أبًا)رواه الحاكم في تاريخه، والبيهقي في الدلائل وضعفه، والديلمي، وابن عساكر عن أنس).

وأخرجه البيهقي في الدلائل (١/ ١٧٤) وقال: تفرد به أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي، وله عن مالك وغيره أفراد لم يتابع عليها، وابن عساكر (٣/ ٤٧)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٥٥): حديث غريب جدًا من حديث مالك تفرد به القدامي وهو ضعيف، وقد ضعفه الذهبي في الميزان (٢/ ٤٨٨).

حَتَّى أَعْطَاهَا، حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: « عَشَرَةَ أَمْثَالِهِ »[(١)].

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فَنَاوَلَتْهُ إِنَاءً فِيهِ شَرَابٌ -قَالَ- فَلاَ أَدْرِي أَصَادَفَتْهُ صَائِمًا أَوْ لَمْ يُرِدْهُ، فَجَعَلَتْ تَصْخَبُ عَلَيْهِ وَتَذَمَّرُ عَلَيْهِ.[(٢)]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله ﷺ لِعُمَرَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالاَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا.[(٣)]

وفي ذلك دليل على حسن إسلام أم أيمن وتضحياتها من أجل هذا الدين لا من أجل النصرانية كما يزعمون.

٢-هل من المعقول أن يُسلِّم النصارى أبناءهم إلى المسيحيين الذين قتّلوهم وأجبروهم على الرحيل إلى صحراء العرب بدعوى أنهم هراطقة؟!

٢- لم يُذكر في ترجمة أم أيمن في كتب التاريخ والسير المعتمدة أنها كانت نصرانية، فالذي ذُكر أنها حبشية، وليس كل حبشي نصراني.

٣-نبينا محمد ﷺ وهو في حضانة أم أيمن كان متعلقًا بماء زمزم لا بماء التعميد:

عن أم أيمن رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ شكا صغيرًا ولا كبيرًا جوعًا ولا عطشًا، كان يغدو فيشرب من ماء زمزم فأعرض عليه الغداء فيقول: لا أريده أنا شبعان»[(٤)].

شبهة: تغلغل النصرانية في شبه الجزيرة العربية في العهد الجاهلي.

نص الشبهة: نَجِدُ في المدينة في معية محمد حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت أو سايرت الإسلام، نجد بلالًا الحبشي مؤذن النبي، وصهيبًا الرومي المسيحي الثري، وسلمان الفارسي

(١) البخاري (٣١٢٨، ٤٠٣٠، ٤١٢٠)، ومسلم (١٧٧١).

(٢) مسلم (٦٤٧١).

(٣) مسلم (٦٤٧٢).

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد١/ ١٦٨.

المسيحي الأصل، وعبد الله بن سلام اليهودي الوحيد الذي أسلم في المدينة مع كعب الأحبار، وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة سوى التوراة والإنجيل؟

إن ذلك حجة قاطعة على أن بيئة النبي والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها، وذلك بمعزل عن الوحي والتنزيل)[١].

الرد على الشبهة:

الوجه الأول: إن هذه الحاشية المسيحية واليهودية-كما يزعمون- التي قد أسلمت؛ لدليل واضح على أن الديانات قبل الإسلام حُرِّفت، فلذا لم يسعْ هؤلاء بعد أن عرفوا الحق إلا أن يتركوا ما هم عليه من الباطل ويتبعوا هذا النبي.

قال رسول الله ﷺ لزيد بن عمرو: ما لي أرى قومك قد شنفوا لك، فقال: أما والله، إن ذلك لبغير نائرة كانت مني إليهم ولكني أراهم على ضلالة، فخرجت أبتغي هذا الدين حتى قدمت على أحبار يثرب، فوجدتهم يعبدون الله، ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت حتى أقدمت على أحبار خيبر فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت حتى قدمت على أحبار فدك فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، خرجت حتى أقدمت على أحبار أيلة فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فقال لي حبر من أحبار الشام: أتسل عن دين ما تعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخًا بالجزيرة، فخرجت فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجت له، فقال: إن كل من رأيت في ضلال؛ إنك تسأل عن دين هو دين الله ودين ملائكته، وقد خرج في أرضك نبي أو هو خارج يدعو إليه، ارجع فصدقه واتبعه وآمن بما جاء به. [٢]

الوجه الثاني: نفى (نِلسُن) أن تكون اليهودية أو المسيحية قد أثَّرتا في وجود التوحيد عند العرب، ففي رأيه أن اليهود كان إلههم الخاص بهم ولم يكن إلهًا عالميًا، كما أن المسيحية التي ظلت حتى عصر

---

(١) القرآن والمبشرون (ص: ٩٤-٩٥).

(٢) حديث صحيح سبق تخريجه.

محمد ﷺ لم تكن توحيدية بل كانت متعددة الآلهة، فالمسيح وأمه كانا يُقدسان كإلهين[١].

الوجه الثالث: من أهم ما يرد عليهم أن ورقة عندما أراد أن يتنصر ويتعلم دين النصرانية ذهب إلى الشام، وهذا لعدم توفر ذلك في الجزيرة العربية، فكان على الشرك قبل هذا؛ لأنه نشأ في بيئة وثنية.

الوجه الرابع: الواقع يشهد أن ديانة العرب المنتشرة في الجزيرة هي الشرك.

والسؤال هو: أين دليلهم على أن الجزيرة كانت على النصرانية؟

١- قال المستشار نجيب وهبة (النصراني، المستشار بمجمع اللغة العربية سابقًا): كانت كثرةُ العرب في الجاهلية وثنيةً تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبث في الكواكب ومظاهر الطبيعة[٢].

ثم قال: نجران أهم مواطن المسيحية، ثم ذكر عدة أسماء للقبائل التي تنصرت في شبه الجزيرة، ولم يفصل في وجود كنائس أو قبائل نصرانية في مكة[٣].

٢- وجود ثلاثمائة وستين صنمًا عند الكعبة[٤]، فإن عمرو بن لحي الخزاعي قد جلب الأصنام إلى مكة وغيرها، ودعا الناس إلى عبادتها، ومنها: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرًا.

ثم اتخذ العرب أصنامًا أخرى ومنها: صنم مناة بقديد، واللات بالطائف، والعزى بوادي نخلة، وهبل في جوف الكعبة، وأصنام حول الكعبة، وأصنام في بيوتهم، واحتكم الناس إلى الكهان والعرافين والسحرة[٥].

فالذي يهمنا هي مكة موطن محمد ومبعثه، التي تؤكد كتب التاريخ أن غالب أهلها كانوا على الشرك.

الوجه الرابع: قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي[٦].

---

(١) التاريخ العربي القديم: نلسن ديتلف وآخرون؛ ترجمة فؤاد حسنين وزكي محمد-نقلًا من كتاب: ورقة بن نوفل مبشر الرسول لغسان عزيز حسن (٢٨).

(٢) إشراقة شمس المسيحية في شبه الجزيرة العربية ٦١.

(٣) المصدر السابق صـ١٣١.

(٤) ابن الأثير في ذكر فتح مكة ١/ ٣٣٢.

(٥) فتاوى الإسلام سؤال وجواب ١/ ٥٦٨.

(٦) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

فإذا كان محمد نصرانيًا، وإذا كان المجتمع نصرانيًا، فلماذا حدث العداء، فلم يصدِّقوه بل حاربوه، حتى إن القبائل النصرانية بالجزيرة العربية -التي يشهد التاريخ الصحيح بأنها نصرانية- لم تنطوِ له بسهولة.

الوجه الخامس: الحركة الدينية اليهودية والنصرانية في مكة لم تكن مزدهرة؛ بل كان الشرك هو المسيطر: لم يظهر بين يهود الجزيرة العربية مَنْ اشتهر بعلم أو فقه أو فلسفة، وهذا يدل بالضرورة على عدم ازدهار الحركة الفكرية والثقافية عندهم، فهم آثروا البقاء منعزلين عن العالم، مكتفين بأبسط أنواع الحياة[١].

الوجه السادس: من الأدلة على ضعف الحركة الدينية اليهودية والنصرانية في مكة عدم استغلال النصارى للشعر لتقوية موقفهم في مكة ونشر دينهم، فإن هذا كان أهم وسيلة لنشر دينهم، فلا يختلف الشعر النصراني عن شعر الشعراء الوثنيين بشيء، فمن الصعب على الباحث أن يجد فرقًا كبيرًا بين شعر الشعراء النصارى وشعر الشعراء الوثنيين، ولهذا ذهب بعض المستشرقين إلى أن من الصعب التحدث عن وجود شعر نصراني عربي له ميزات امتاز بها عن الشعر الوثني قبل الإسلام[٢].

الوجه السابع: من حكمة الله تعالى وتقديره، أنه لم يُعلم في مكة يهودي واحد، واليهود استقبلوا محمدًا ﷺ بعد الهجرة بالعداوة صراحة.

الوجه الثامن: لم يكن في مكة أي كتاب ديني مدون، ولا مدرسة، ولا فلاسفة كما كانت عليه حضارات اليونان والصين وفارس والهند. كما أنه لم يُعرف عن اليهود في كل الجزيرة العربية نبوغٌ فكريٌ ورقيٌ حضاريٌ، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ولم يكن النصارى أحسن حالًا منهم، بل كانوا لا يملكون حتى التميز بشعر خاص بهم -على الأقل-، وهذا ما يؤكده المستشرقون من أتباع دينهم.

* * *

(١) انظر العرب قبل الإسلام د/ جواد علي ٦/ ٨، ود/ إسرائيل ولفنسون؛ تاريخ اليهودية في بلاد العرب ٤٢.

(٢) انظر العرب قبل الإسلام د/ جواد علي.

١٦ـ شبهة: ادعاؤهم تلقي النبي الوحي من بحيرى.

نص الشبهة:

زعموا أنه من الممكن أن يكون رسول الله ﷺ تلقَّف الوحي من بحيرى الراهب.

فالنصارى يرون أن الإسلام ما هو في حقيقة الأمر إلا دعوى مسيحية! فعندهم أن الراهب بحيرى اختار محمدًا ليكون نبيًا للعرب وفق مسوّدة أعمال كان قد أعدها بالاتفاق مع "القس" ورقة بن نوفل وبالاشتراك مع خديجة أيضًا!

والرد على هذه الشبهة من وجوه[1]:

الوجه الأول: بيان بطلان الروايات التي أشارت إلى مقابلة النبي لأحد الرهبان.

الوجه الثاني: بحيرى ليس له أصل في الروايات الصحيحة، وذلك عند التحقيق العلمي للروايات، بل هو شخصية مجهولة، ولم يُذكر اسمه إلا في الروايات الموضوعة والمقطوعة.

الوجه الثالث: إذًا؛ إنها دعوى مجردة من الدليل.

الوجه الرابع: التعريف ببحيرى في كتب التاريخ مع العلم بأن الروايات التي ذكرت اسمه ضعيفة.

الوجه الخامس: بحيرى ليس من الصحابة.

الوجه السادس: تضعيف من ظن أن لبحيرى أحاديث سمعها من النبيﷺ.

الوجه السابع: تضعيف آثار لا تثبت تتحدث عن فضائل بحيرى.

الوجه الثامن: هل زار بحيرى مكة أو المدينة؟

الوجه التاسع: لا يليق أبدًا بقسٍّ كبحيرى أن يحلف باللات والعزى حتى ولو كان يختبر محمداًﷺ.

الوجه العاشر: إن اللقاء بين محمد ﷺ وبحيرى لا يعدو الساعة أو الساعتين في كلا اللقاءين ولو حدثت قصة اللقاء لأثارت جدلًا في قريش.

---

(١) راجع ما ذُكر في الرد على شبه الاقتباس من ورقة، والتوراة وغيرهما.

الوجه الحادي عشر: يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته في لقاءين ليجعله ذلك أستاذ العالم كله.

الوجه الثاني عشر: حتى ولو أثبتنا أن بحيرى لقي النبيﷺ، فإنه لم يثبت ذكر تعلُّمِ النبي ﷺ من بحيرى.

الوجه الثالث عشر: بحيرى مُبشر لا مُعلم.

الوجه الرابع عشر: ذكر خبر بحيرى في كتب السيرة تدل على الأمانة العلمية عند علماء السيرة.

الوجه الخامس عشر: هل يصح لراهب أن يكذب؟

الوجه السادس عشر: لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز هو بحيرى لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة.

الوجه السابع عشر: الأديان التي كانت في عصر نزول القرآن ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة؛ بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة.

الوجه الثامن عشر: لو كانت روايتى لقاء النبي ﷺ ببحيرى صحيحة لما خاف محمد ﷺ يوم ظهر له جبريل.

الوجه التاسع عشر: لو ثبت لقاء بحيرى للنبي ﷺ لكان أرجى في قبول أبي طالب الإسلام.

الوجه العشرون: أين ذكر بحيرى في كتب النصارى؟.

الوجه الحادي والعشرون: بحيرى لم يكلم النبي مباشرة، إنما كان يتكلم مع الناس عنه.

الوجه الثاني والعشرون: لو كان سجود الشجر للنبي ﷺ صحيحًا وقد رآه الناس لما حدث من اعتراضات للمشركين على النبي ﷺ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان بطلان الروايات التي أشارت إلى مقابلة النبي لأحد الرهبان.

جميع الروايات التي تذكر مقابلة النبي ﷺ لرجل من الرهبان باطلة، إلا رواية واحدة اختلف العلماء فيها، ألا وهي رواية أبي موسى الأشعري: وهي تصف مقابلة الراهب مع النبي ﷺ في صغره، أما الروايات التي تصف مقابلته والنبي شابًا فهي روايات ضعيفة،

وقد وضعتُ كل الروايات الضعيفة -المجمع على ضعفها- في آخر البحث.

رواية أبي موسى الأشعري:

عن قراد أبي نوح قال: أنبأ يونس بن أبي إسحاق، عَنْ أَبِى بَكْرِ بْنِ أَبِى مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النبي ﷺ في أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلاَ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَلْتَفِتُ. قَالَ: فَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ؛ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَبْعَثُهُ الله رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلاَ حَجَرٌ إِلاَّ خَرَّ سَاجِدًا وَلاَ يَسْجُدَانِ إِلاَّ لنبي، وإني أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ. ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الإِبِلِ قَالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ. قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لاَ يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ فَإِنَّ الرُّومَ إِذَا رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ فَالْتَفَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: جِئْنَا أَنَّ هَذَا النبي خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلاَّ بُعِثَ إِلَيْهِ بِأُنَاسٍ وَإِنَّا قَدْ أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ بُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا. فَقَالَ هَلْ خَلْفَكُمْ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟ قَالُوا إِنَّمَا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ بِطَرِيقِكَ هَذَا. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ الله أَنْ يَقْضِيَهُ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ؟ قَالُوا لاَ. قَالَ فَبَايَعُوهُ وَأَقَامُوا مَعَهُ. قَالَ أَنْشُدُكُمُ الله أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟ قَالُوا: أَبُو طَالِبٍ فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلاَلًا وَزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الْكَعْكِ وَالزَّيْتِ. (١)

---

(١) منكر. أخرجه ابن أبي شيبة(٧/ ٤٣٠)، والترمذي في سننه (٤/ ٤٩٦) وأبو نعيم في " دلائل النبوة " ١/ ٥٣، وابن حبان في الثقات١/ ٤٤: ٤٢، والبزار في البحر الزخار(٣٠٩٦)، والخطيب في تاريخه١٠/ ٢٥٢، والحاكم في " المستدرك " (٢/ ٦١٥ - ٦١٦)، وابن عساكر في " تاريخ دمشق " ٦/ ١٨٧ - ١٨٨، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٤، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ١٢٠، من طرق عن قراد أبي نوح بنحوه.

قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه إلا يونس بن إبي إسحاق، ولا عن يونس إلا عبد الرحمن بن غزوان المعروف بقراد. مسند البزار ٣٠٩٦.
قال الترمذي: حسن غريب لا يُعرف إلا من هذا الوجه، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي قائلًا: أظنه موضوع، فبعضه باطل، قلت: ورجال إسناده ثقات، لكن الحديث استنكره جماعة عن قراد.
قال الخطيب: قال الأصم: سمعت العباس –أي الدوري- يقول: ليس في الدنيا يحدث به غير قراد أبي نوح، وسمع هذا أحمد ويحيى بن معين من قراد.
وزاد ابن عساكر بعد أن ساق هذا القول فقال: وقالا: إنما سمعناه من قراد؛ لأنه من الغرائب والأفراد التي تفرد بروايتها عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه.
وقد استنكر كثير من النقاد هذا الحديث جملة ومشاه آخرون ولكن ضعفوا الزيادة التي فيها ذكر بلال وأبي بكر.
وقال الذهبي في تعليقه على المستدرك ٢/ ٦١٥: أظنه موضوعًا فبعضه باطل، وقال في تاريخ الإسلام١/ ١٣: وهو حديث منكر جدًا.
وقال السخاوي: ووقع في خروج النبيﷺ مع عمه إلى الشام وقصة بحيرى الراهب مما أورده ابن إسحق معضلًا، وقراد أبي نوح واسمه عبد الرحمن بن غزوان وهو ممن خرج له البخاري ووثقه جماعة من الأئمة الحفاظ، ولم أر فيه جرحًا، ومع هذا ففي حديثه هذا غرابة، ولذا قال الترمذي: إنه حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يحدث به غيره وقد سمعه منه أحمد وابن معين لغرابته وانفراده به، حكاه البيهقي وابن عساكر، وأبو موسى: إما أن يكون تلقاه من النبي ﷺفيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة أو كان مشهورًا أخذه بطريق الاستفاضة، وبالجملة فلم تذكر الغمامة في حديث أصح من هذا. المقاصد الحسنة١/ ٣٥.
وضعَّف القصة الدكتور: أكرم ضياء العمري: قال:
وقصة بحيرى لا تثبت أمام النقد الحديثي (انظر: مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات صـ ٣٠)، وأبطلها عبد العزيز راشد (أصول السيرة المحمدية صـ٢٢)
وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢١٣، ٢٦٦: "فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة، فإن أبا موسى الأشعري راوي الحديث إنما قدم في سنة خيبر، سنة سبع من الهجرة، ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق في جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة. وعلى كل تقدير فهو مرسل. وقال أيضًا: وهو إسناد صحيح، ولكن في متنه غرابة قد بسط الكلام عليه في موضع آخر، وفيه ذكر الغمامة ولم أرها ذكرًا في حديث ثابت أعلمه سواه. الفصول١/ ١١٦.
وقال ابن سيد الناس: ليس في إسناد هذا الحديث إلا من خرج له في (الصحيح) وعبدالرحمن بن غزوان أبو نوح ثقة وقد انفرد به البخاري ويونس بن أبي إسحق تفرد به مسلم ومع ذلك فيه نكارة وهي إرسال أبي بكر

ومع سقوط إسناد هذه الرواية كما هو مبين في الحاشية فكذلك في متنها نكارة.

قال الذهبي:

١ - فأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف.

٢-وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث ولم يكن ولد بعد.

٣- وأيضًا فإذا كان عليه غمامة تظله كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟ لأن ظل الغمامة يعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها.

٤-ولم نر النبي ﷺذكر أبا طالب قط بقول الراهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ مع توفر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك فلو وقع لاشتهر بينهم أيما اشتهار.

٥-ولبقي عنده ﷺ حس من النبوة؛ ولما أنكر مجيء الوحي إليه أولًا بغار حراء وأتى خديجة خائفا على عقله.

مع النبي ﷺبلالا فكيف وأبو بكر حينئذ لم يبلغ العشر سنين؟) (عيون الأثر ١/ ٤٣)وذكر الألباني أن قول ابن سيد الناس هذا يوافق قول من ذهب إلى تصحيح الخبر، إلا أن ذكر أبا بكر وبلال خطأ في الرواية وعليه فباقي الحديث صحيح. فقال: والحقيقة أن كلام ابن سيد الناس مطابق لكلامي تمام المطابقة كما يظهر بداهة. دفاع عن الحديث النبوي والسيرة١/ ٧٠.

قال ابن القيم في زاد المعاد: وقع في كتاب الترمذي وغيره أنه بعث معه بلالًا وهو من الغلط الواضح فإن بلالًا إذ ذاك لعله لم يكن موجودًا وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر، وذكر البزار في مسنده هذا الحديث ولم يقل: وأرسل معه عمه بلالًا ولكن قال رجلًا.

وقال ابن حجر: وحديث أبي موسى الأشعري أخرجه الترمذي وغيره ولم يسم فيها الراهب وزاد فيها لفظة منكرة وهي قوله: وأتبعه أبو بكر بلالًا وسبب نكارتها أن أبا بكر حينئذ لم يكن متأهلًا ولا اشترى يومئذ بلالًا، وقد وردت هذه القصة بإسناد رجاله ثقات إلا أن يحمل على أن هذه الجملة الأخيرة مقتطعة من حديث آخر أدرجت في هذا الحديث. وفي الجملة هي وهم من أحد رواته. الإصابة١/ ١١٨، وفتح البارى٨/ ٥٨٧.

وقال البيهقي هذه قصة مشهورة عند أهل المغازي، وقال السيوطي: ولها شواهد عدة تقضي بصحتها. انظر: (الخصائص الكبرى١/ ١٤٠)، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة١/ ٧٠، وجامع الأحاديث (٣٥/ ٤٦٥)، وكشف الخفاء١/ ١٤١).

٦-وأيضًا فلو أثر هذا الخوف في أبي طالب ورده كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجرا لخديجة؟.

٧-وفي الحديث ألفاظ منكرة تشبه ألفاظ الطّرقيّة مع أن ابن عائذ قد روى معناه في مغازيه دون قوله: وبعث معه أبو بكر بلالًا إلى آخره فقال: ثنا الوليد بن مسلم أخبرني أبو داود سليمان بن موسى فذكره بمعناه. (١)

قلت: وبالنسبة لمن صحح الحديث من المتقدمين، إذا أردنا تفنيد أقوالهم لا يصفو لنا إلا قول ابن حجر، وهو معترف بوجود خلل ما في الحديث، حيث قال عن اللفظة المنكرة في الحديث: الجملة الأخيرة مقتطعة من حديث آخر أدرجت في هذا الحديث. وفي الجملة هي وهم من أحد رواته. (٢)

أما بالنسبة للحاكم، والترمذي فقد تساهلا في الحكم على هذا الحديث كما تساهلا في الحكم على غيره، وهذا معلوم عند علماء مصطلح الحديث.

وأما قول البيهقي: هذه قصة مشهورة عند أهل المغازي، فشهرة القصة في كتب التاريخ لا تقضي حتمًا بصحتها. (٣)

رواية أبي مجلز:

عن أبي مجلز أن عبد المطلب أو أبا طالب -شك خالد- قال: لما مات عبد الله عطف على محمد ﷺ قال فكان لا يسافر سفرًا إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزله فأتاه فيه راهب، فقال: إن فيكم رجلًا صالحًا، فقال: إن فينا من يقري الضيف ويفك الأسير ويفعل المعروف، أو نحوًا من هذا، ثم قال: إن فيكم رجلًا صالحًا، ثم قال: أين أبو هذا الغلام؟ قال: ها أنا ذا وليه، أو قيل. هذا وليه، قال. احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به

(١) تاريخ الإسلام ١/ ١٣.

(٢) الإصابة١/ ١١٨، وفتح البارى ٨/ ٥٨٧.

(٣) وفيها أيضًا قوله: إن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه. فإذا كان قد أتى بدين نصراني فلماذا يقتله النصارى وفي دعوته امتداد لدينهم.

إلى الشام، إن اليهود حُسَّدٌ، وإني أخشاهم عليه، قال: ما أنت تقول ذاك، ولكن الله يقول، فرده، قال: اللهم إني أستودعك محمدًا، ثم إنه مات[(١)].

رواية: عبد الله عن عبد الله بن محمد بن عقيل:

عن عبد الله بن جعفر الرقي قال: أنبأنا أبو المليح عن عبد الله عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: أراد أبو طالب المسير إلى الشام فقال له النبي ﷺ: "أي عم إلى من تخلفني ها هنا فما لي أم تكفلني ولا أحد يؤويني؟ قال: فَرَقَّ له ثم أردفه خلفه فخرج به فنزلوا على صاحب دير، فقال صاحب الدير: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما هو بابنك ولا ينبغي أن يكون له أب حي قال: ولم؟ قال: لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي. قال: وما النبي؟ قال: الذي يوحى إليه من السماء فينبئ به أهل الأرض. قال: الله أجل مما تقول. قال: فاتق عليه اليهود. قال: ثم خرج حتى نزل براهب أيضًا صاحب دير. فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما هو ابنك وما ينبغي أن يكون له أب حي. قال: ولم ذاك؟ قال: لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي. قال: سبحان الله! الله

أجل مما تقول، وقال يا ابن أخي ألا تسمع ما يقول. قال: أي عم لا تنكر لله قدره". [(٢)]

رواية: داود بن الحصين:

---

(١) **منقطع**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٢٠)، وابن عساكر في تاريخه(٣/ ٩)، قلت: وأبو مجلز لم يدرك القصة فهي معضلة.

قال الألباني: وهذا إسناد مرسل صحيح؛ فإن أبا مجلز واسمه لاحق بن حميد تابعي ثقة، جليل، احتج به الشيخان في صحيحيهما، وبقية أصحاب الكتب الستة، وأخذ الحديث عن جماعة من الصحابة منهم: عمران بن حصين، وأم سلمة زوج النبي ﷺ، وأنس، وجندب بن عبد الله، وغيرهم، ومن بينه وبين ابن سعد كلهم عدول ثقات، احتج بهم مسلم في صحيحه. دفاع عن الحديث النبوى (٦٢ - ٧٢).

(٢) **ضعيف معضل**. أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٥٣، وابن عساكر (في تاريخ دمشق٣/ ٤٣٥).

قلت: وهو كسابقه من المعضلات، وابن عقيل ضعيف الرواية، وقد أرسلها هنا. قال ابن حجر: صدوق فى حديثه لين، ويقال تغير بآخره، ضعفه أحمد، وابن معين، وابن عيينة، وابن المديني، وابن خزيمة، ذكره محمد بن سعد فى الطبقة الرابعة من أهل المدينة، وأرّخ ابن قانع وفاته سنة اثنتين وأربعين ومئة.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا محمد بن صالح بن دينار وعبد الله بن جعفر الزهري قال: وحدثنا ابن أبي حبيبة، داود بن الحصين قالوا: لما خرج أبو طالب إلى الشأم وخرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فلما نزل الركب بصرى من الشأم، وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه، فلما نزلوا بحيرى وكان كثيرًا ما يمرون به لا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام، ونزلوا منزلًا قريبًا من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعامًا ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة واخضلت أغصان الشجرة على النبي ﷺ حين استظل تحتها، فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتي به وأرسل إليهم، فقال: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش، وأنا أحب أن تحضروه كلكم، ولا تخلفوا منكم صغيرًا ولا كبيرًا، حرًا ولا عبدًا، فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأنًا يا بحيرى، ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم؟ قال: فإني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه، ليس في القوم أصغر منه في رحالهم، تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى إلى القوم فلم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم، ويراها متخلفة على رأس رسول الله ﷺ. قال بحيرى: يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلف أحد إلا غلام هو أحدث القوم سنًا في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر طعامي فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم! فقال القوم: هو والله أوسطنا نسبًا وهو ابن أخي هذا الرجل، يعنون أبا طالب، وهو من ولد عبد المطلب، فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام، والغمامة تسير على رأسه،

وجعل بحيرى يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته، فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك، فقال رسول الله ﷺ: لا تسألني باللات والعزى فو الله ما أبغضت شيئًا بغضهما! قال: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده، قال فقبل موضع الخاتم، وقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرًا، وجعل أبو طالب، لما يرى من الراهب، يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني، قال ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، قال: فابن أخي: قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبًا، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبْغُنَّه عنتًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة. فلما فرغوا من تجاراتهم خرج به سريعًا، وكان رجال من يهود قد رأوا رسول الله ﷺوعرفوا صفته فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرى فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهي وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل، فصدقوه وتركوه، ورجع به أبو طالب فما خرج به سفرًا بعد ذلك خوفًا عليه.

أخبرنا محمد بن عمر حدثني يعقوب بن عبد الله الأشعري عن جعفر ابن أبي المغيرة عن سعيد ابن عبد الرحمن بن أبزى، قال الراهب لأبي طالب: لا تخرجن بابن أخيك إلى ما ههنا؛ فإن اليهود أهل عداوة، وهذا نبي هذه الأمة، وهو من العرب، واليهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل، فاحذر على ابن أخيك. (١)

رواية ابن إسحاق:

(١) معضل. الطبقات الكبرى، ١/ ١٥٣ وهو كسابقيه، وفي إسناده الواقدي وهومتروك الحديث.

قال محمد بن إسحاق: وكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جده كان إليه ومعه، ثم إن أبا طالب خرج في ركب إلى الشام تاجرًا، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير ضب به رسول الله ﷺ فأخذ بزمام ناقته، وقال: " يا عم، إلى من تكلني؟ لا أب لي ولا أم لي"، فرق له أبو طالب، وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا، أو كما قال، قال: فخرج به معه، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له: بحيراء في صومعة له، وكان أعلم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة قط راهب يصير علمهم عن كتاب فيه، فيما يزعمون، يتوارثونه كابرا عن كابر فلما نزلوا ذلك العام ببحيراء، وكانوا كثيرا مما يمرون به قبل ذلك لا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى إذا كان ذلك العام، نزلوا به قريبا من صومعته، فصنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك فيما يزعمون، عن شيء رآه وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة بيضاء تظله من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وشمرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيراء نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام فصنع، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، وأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وحركم وعبدكم فقال له رجل منهم: يا بحيراء، إن لك اليوم لشأنًا ما كنت تصنع هذا فيما مضى، وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم؟ فقال له بحيراء: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة. فلما نظر بحيراء في القوم ولم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال: يا معاشر قريش، لا يتخلف أحد منكم عن طعامي هذا، فقالوا له: يا بحيراء ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنًا، تخلف في رحالهم قال: فلا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى، إن هذا للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب

عن الطعام من بيننا. قال: ثم قام إليه فاحتضنه، ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم فلما رآه بحيراء جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده في صفته حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا، قام بحيراء فقال له: يا غلام، أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيراء ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما وزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسلني باللات والعزى شيئًا، فو الله ما أبغضت بغضهما شيئًا قط. فقال له بحيراء: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيراء من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده قال: فلما فرغ منه أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: هل هذا الغلام منك؟ فقال: ابني، فقال له بحيراء: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات، وأمه حبلى به. قال: صدقت. قال: ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبْغُنَّه شرًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن، فأسرع به إلى بلاده فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام فزعموا فيما يتحدث الناس أن زبيرًا وتمامًا ودريسًا، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب أشياء، فأرادوه فردهم عنه بحيراء، وذكرهم الله، وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا بما أرادوا لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا وقال أبو طالب في ذلك أبياتًا منها:

فما رجعوا حتى رأوا من محمد ... أحاديث تجلو غم كل فؤاد

وحتى رأوا أحبار كل مدينة ... سجودا له من عصبة وفراد

زريرا وتماما وقد كان شاهدا ... دريسا وهمو كلهم بفساد

فقال لهم قولا بحيرى وأيقنوا ... له بعد تكذيب وطول بعاد

كما قال للرهط الذين تهودوا وجاهدهم في الله كل جهاد
فقال ولم يترك له النصح رده فإن له أرصاد كل مصاد
فإني أخاف الحاسدين وأنه لفي الكتب مكتوب بكل مداد[١]

رواية ابن عباس:

عن ابن عباس «أن أبا بكر الصديق، ﷺ صحب رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان عشرة، والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في تجارة، حتى إذا نزلوا منزلًا فيه سدرة، قعد رسول الله ﷺفي ظلها، ومضى إلى راهب يقال له بحيرى، يسأله عن شيء، فقالوا له: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال له: ذاك محمد بن عبد الله. فقال: هذا والله نبي، ما استظل تحتها بعد عيسى إلا محمد عليهما السلام، فوقع من ذلك في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فلما نُبِئ النبي ﷺ اتبعه». [٢]

رواية نفيسة بنت أمية أخت يعلى:

عن نفيسة بنت أمية أخت يعلى سمعتها تقول: لما بلغ رسول الله ﷺخمسًا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين؛ لما تكاملت فيه من خصال الخير قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة، ليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث

---

(١) **معضل**. دلائل النبوة للبيهقي١/ ٤٠٧. قال الألباني: هذه الرواية معلقة بدون إسناد وهي عند الآخرين مسندة فالاعتماد عليهم-أي الروايات الأخرى- أولى. دفاع عن الحديث النبوي والسيرة١/ ٦٣.

(٢) موضوع. معرفة الصحابة لأبي نعيم٤/ ١٣١ -رقم ١٢٠٢، وكذلك في دلائل النبوة ١/ ٤٥، وابن منده، وابن عساكر كما عند السيوطي كلهم من طرق عن محمد بن عمر الواقدي، قال السيوطي: وموسى بن عبد الرحمن الصنعاني دجال قال ابن حبان وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتابًا في التفسير. جامع الأحاديث٣٥/ ٤٦٦، وضعفه ابن حجر حيث قال: أخرجه ابن منده من تفسير عبد الغني بن سعيد الثقفي أحد الضعفاء المتروكين بأسانيده عن ابن عباس (الإصابة١/ ١١٨).

وقال: فهذا الخبر إن صح يحتمل أن يكون في سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب. الإصابة في معرفة الصحابة١/ ١١٨.

رجالا من قومك في عيراتها فيتجرون لها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك؛ لما يبلغها من طهارتك وإني كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من اليهود ولكن لا نجد من ذلك بدًا، وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة وتبعث بها إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجل وتدفع إليه المال مضاربة، وكانت قريش قوما تجارا من لم يكن تاجرًا فليس عندهم بشيء. قال رسول الله ﷺ: فلعلها أن ترسل إليَّ في ذلك. قال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك؛ فتطلب أمرًا مدبرًا. فافترقا فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فقالت: ما دريت أنه يريد هذا. ثم أرسلت إليه فقالت: إنه قد دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلًا من قومك. ففعل رسول الله ﷺفلقي أبا طالب فقال له ذلك فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك. فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم الشام فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان يقال له نسطورا قال: فتطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال: من قريش من أهل الحرم. قال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ثم قال: أفي عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه قط. قال الراهب: هذا هو، وهو آخر الأنبياء ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج. فوعى ذلك ميسرة ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة فقال له الرجل: احلف باللات والعزى! فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط وإني لأمر بهما فأعرض عنهما، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخلا به: يا ميسرة هذا نبي والذي نفسي بيده إنه لهو هو ويجده أحبارنا منعوتا في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعًا وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا

كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره. وقال: وقدم رسول الله ﷺ بتجارتها قد ربحت ضعف ما كانت تربح وأضعفت له ما سمته له.

قال الشيخ: وما تضمن هذا الفصل من أحوال رسول الله ﷺ من حين تزوجت آمنة وحملها ووضعها به واسترضاعه وحضانة حليمة ظئره إلى أن بلغ خمسا وعشرين سنة المقرونة بالآيات دلالة على نبوة رسول الله ﷺ بخروجها عن المتعارف والمعتاد مع توسم أهل الكتب وغيرهم الأمارات التي دونتها الكتب المتقدمة والأخبار السالفة بالبشارات به فترقبهم لمبعثه ومخرجه علامات ودلائل لمن أراد به الإيمان وصار به مؤمنا موقنا ولنبوته محققًا. (١)

الوجه الثاني: بحيرى ليس له أصل في الروايات الصحيحة، وذلك عند التحقيق العلمي للروايات، بل هو شخصية مجهولة، ولم يُذكر اسمه إلا في الروايات الموضوعة والمقطوعة.

إنَّ من صحح رواية أبي موسى الأشعري قال بعدم صحة ذكر بحيرى في الروايات:

قال الألباني: إن الراهب بحيرى لم يسم مطلقًا في رواية أبي موسى، وإنما سمي في رواية ابن إسحاق التي هي ضعيفة معضلة، وسُمي في رواية أخرى فيها الواقدي الكذاب. (٢)

قلت: فالمذكور في الروايات التي صححها بعض العلماء أن النبي ﷺ مر على راهب في صومعته.

الوجه الثالث: إذًا؛ إنها دعوى مجردة من الدليل.

قال الزرقاني: يقولون إن محمدًا لقي بحيرى الراهب فأخذ عنه وتعلم منه، وما تلك المعارف التي في القرآن إلا ثمرة هذا الأخذ وذاك التعلم.

وندفع هذا: بأنها دعوى مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه الدعاوى لا تقبل ما دامت غير مدللة وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد من بحيرى الراهب ومتى كان ذلك وأين كان؟ (٣)

---

(١) معضل، دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ١/ ١٢٥-١٠٥. قلت: وإسناده ضعيف، وفيه الواقدي وهو متروك.

(٢) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ١/ ٦٩.

(٣) مناهل العرفان ٢/ ٣٠٦.

الوجه الرابع: التعريف ببحيرى في كتب التاريخ مع العلم بأن الروايات التي ذكرت اسمه ضعيفة.

فوجود اسمه في كتب التاريخ ليس شرطًا في صحة وجوده عند التحقيق العلمي.

قال ابن حجر: بحيرى الراهب ذكره ابن منده، وتبعه أبو نعيم وقصته معروفة في المغازي وما أدري أدرك البعثة أم لا؟ وقد وقع في بعض السير عن الزهري أنه كان من يهود تيماء وفي " مروج الذهب " للمسعودي أنه كان نصرانيًا من عبد القيس يقال له جرجيس. (١)

قال ابن كثير: قصة بحيرى حكى السهيلي عن سِير الزهري أن بحيرى كان حبرًا من أحبار يهود، قلت: والذي يظهر من سياق القصة أنه كان راهبًا نصرانيًا.

وعن المسعودي أنه كان من عبد القيس وكان اسمه جرجيس. وفي كتاب المعارف لابن قتيبة: سُمع هاتف في الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة، بحيرى، ورئاب بن البراء الشني، والثالث المنتظر وكان الثالث المنتظر هو الرسول ﷺ. (٢)

فإن كان هناك روايات صريحة أن ورقة بن نوفل كان نصرانيًا، لكن ليس هناك أدلة يقينية على أن بحيرى كان نصرانيًا، بل كل ما ورد أنه إما يهوديًا أو نصرانيًا، فقد اختلف العلماء في نصرانيته.

الوجه الخامس: بحيرى ليس من الصحابة.

قال ابن حجر: وإنما ذكرته في هذا القسم-أي من كتاب الإصابة في معرفة الصحابة- لأن تعريف الصحابي لا ينطبق عليه وهو: مسلمٌ لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك. فقولنا: مسلم، يخرج من لقيه مؤمنًا به قبل أن يبعث كهذا الرجل والله أعلم. (٣)

الوجه السادس: تضعيف من ظن أن لبحيرى أحاديث سمعها من النبي ﷺ:

قال بحيرى الراهب قال رسول الله ﷺ: "إذا شرب الرجلُ كأسًا من خمر ...". (١)

---

(١) الإصابة في معرفة الصحابة١/ ١١٨.

(٢) البداية والنهاية٢/ ٣٤٩، وله ترجمة في أسد الغابة ١/ ٣٥٥، وتجريد أسماء الصحابة ١/ ٤٤.

(٣) الإصابة في معرفة الصحابة١/ ١١٨.

الوجه السابع: تضعيف آثار لا تثبت تتحدث عن فضائل بحيرى:

منها أن الله أودع علمه ونوره عند آدم وذريته من بعده من الأنبياء والصالحين إلى أن أتى مرعيدا ثم بحيرى:

قال أبوالشيخ الأصبهاني حدثني محمد بن يوسف، عن محمد بن جعفر قال: فلما أراد الله تعالى أن يقبض مرعيدًا أوحى إليه أن يستودع علم الله تعالى ونوره بحيرى الراهب ففعل، فعند ذلك ملك هرمز بن كسرى فملك اثنتي عشرة سنة، وولي أمرَ الله ﷻ بحيرى الراهب وأصحابه المؤمنون، فعند ذلك ملك يزدجر بن كسرى فملك أربع سنين، فعند ذلك بعث الله تعالى محمدًا ﷺ تسليمًا كثيرًا وعلى آله وعلى جميع الأنبياء والرسل، والحمد لله رب العالمين. (٢)

الوجه الثامن: هل زار بحيرى مكة أو المدينة؟

لم يَزُر بحيرى مكة ولا المدينة قبل أو أثناء البعثة النبوية، فكيف له أن يعرف ظروف بيئة الرسولﷺ، وأحداثًا قبل الهجرة في مكة كموقف المشركين من الدعوة، وغيرها من أسباب نزول الآيات المكية. وبعد الهجرة: كالغزوات والعلاقة مع المنافقين. . وغيرها من أسباب نزول الآيات المدنية؟ (٣).

---

(١) منكر. أخرجه ابن عدى (٣/ ٤١٢ ترجمة ٨٤٠ سعيد بن عقبة أبو الفتح)، قال: ثنا أحمد بن حفص، ثنا سعيد بن عقبة أبو الفتح الكوفي، ثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن بحيرى الراهب. . . ثم قال ابن عدى: هذا حديث منكر الإسناد والمتن، ولم أسمع بذكر بحيرى أنه يسند عن رسول الله ﷺشيئًا إلا في هذا الإسناد، وسعيد بن عقبة هذا لم يبلغني عنه من الحديث غير ما ذكرت وهو مجهول غير ثقة.

وأورده الذهبي في الميزان (٣/ ٢٢٢، ترجمة ٣٢٤٦)، والحافظ في اللسان (٣/ ٣٨، ترجمة ١٤٢) كلاهما في ترجمة سعيد ابن عقبة، قال الحافظ: هذا باطل بحيرى لم يدرك المبعث. لكنه قال في الإصابة (١/ ٢٧١، ترجمة ٥٩٨ بحيرى الراهب): أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب تقدم ذكره فى أبرهة (١/ ٢٢، ترجمة ١٦).

قال السيوطي: وظن بعضهم أن صاحب الحديث هو بحيرى الراهب الذي لقي النبي (قبل البعثة مع أبى طالب، وليس بصواب بل إن صح الحديث فهو الذي ذكروا قصته في أبرهة. جامع الأحاديث للسيوطي(٣/ ٢٧٠-٢١٧٨).

وقال ابن حجر في الإصابة: ليس هو بحيرى الذي لقي النبي (قبل البعثة مع أبى طالب كما يظن بعضهم بل هو أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة).

(٢) العظمة٣/ ٧٩، وهو حديث منقطع، بل معضل، فأنَّى لمحمد بن جعفر هذا الحديث؟.

(٣) نقلا من المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام٦/ ١٢٢.

٢- الراهب بحيرى لم يكن من سكان مكة بل قد كان يسكن على مسافة بعيدة عنها، فكيف تمكن من تعليم محمد ﷺ وهو صبي كتابًا ضخمًا في زيارة واحدة؟! ولماذا انتقى بحيرى محمدًا بالذات وأعطاه هذا التشريع، ولم يعطه لابنه أو قريبه أو يدَّعيه لنفسه؟! ولماذا لم يحدث ذلك قبل حياة محمد ﷺ؟ هل نفهم أن النصارى بقوا بدون كتاب لمئات من السنين؟.

٣-فكل آية نزلت بعد وقوع حدث معين، وهذا ما يسمى في التفسير بأسباب النزول، يعني كان بحيرى مستخفيًا في مكة ثم في المدينة وظل يملي عليه القرآن عند وقوع كل حدث.

٤- ولا يعقل أن يكون محمد ﷺ قد أخذ عنه، وهو فى هذه السن شيئًا. . . وأنى "لبحيرى" وما حواه الوحي الإلهي قرآنًا وسنة، من علوم وأخبار ماضية ومستقبلة؟ هذا لو فرضنا أنه يمكن أن يكون قد أخذ عنه شيئًا.

إن الباحث المنصف لو استنطق التاريخ، ما زاد على أن يقول له: إن الراهب "بحيرى" لما رآه تظله سحابة من الشمس، ورأى فيه بعض أمارات النبوة ذكر لعمه، أنه سيكون له شأن، وحذره أن تناله اليهود بأذى. (١)

الوجه التاسع: لا يليق أبدًا بقس كبحيرى أن يحلف باللات والعزى حتى ولو كان يختبر محمدًا ﷺ

جاء في قصة بحيرى الراهب أنه استحلف النبي ﷺ باللات والعزى حينما لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبى طالب وهو صبى، لما رأى فيه علامات النبوة، فقال بحيرى للنبي ﷺ: (يا غلام أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فقال له النبي ﷺ: "لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فو الله ما أبغضت بغضها شيئًا قط". (٢)

وهو من قول ابن إسحاق. وذلك ردًا على من يأخذ بقول ابن إسحاق ليرد علينا.

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبى ١/ ٤٤٦.

(٢) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ١٧٢ رقم ١١٠، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٦ - ٢٩، كلاهما من طريق ابن إسحاق. وذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٣٦.

فهذا يدل على أن بحيرى لا يصلح كمعلم يعلم تلميذه العقيدة الصحيحة، فكان من الأفضل للمربي أن يسأل تلميذه فيقول له هل أنت تحلف باللات والعزى؟ فإن قال: لا، فهو ما كان يرمي إليه بحيرى؟.

المبدأ التعليمي السابق الذي ركن إليه بحيرى يختلف تمامًا عن المبدأ التعليمي الذي ركن إليه النبي محمد ﷺ لتعليم أصحابه، مما يؤكد أن محمدًا لم يتعلم على يد بحيرى، فقد كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينبه على خطأ يفعله أحد الصحابة فإنه ينهى عن ذلك بأسلوب صريح.

عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهْوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: "أَلاَ إِنَّ الله يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله وَإِلاَّ فَلْيَصْمُتْ". (١)

الوجه العاشر: إن اللقاء بين محمد ﷺ وبحيرى لا يعدو الساعة أو الساعتين في كلا اللقاءين، ولو حدثت قصة في اللقاء لأثارت جدلًا في قريش.

ولو افترضنا جدلًا أنها وقعت؛ فإن اللقاء بينهما لا يعدو الساعة أو الساعتين، وعمر النبيّ ﷺ اثنتا عشرة سنة، ولو حدثت قصة في اللقاء لأثارت جدلًا في قريش. لكننا لا نجد صدًى لها مما يؤكد بطلانها. وماذا يتحمل صبي في الثانية عشر من عمره عن بحيرى؟ وقد اجتمع به بحضور قريش ساعة من زمان؟. (٢)

عندما قابل النبي ﷺبحيرى كان عمره ﷺتسع سنين، ومع جماعة من قومه، وفي أثناء تجارته بمال خديجة رضي الله عنها، ولم يفارقه غلامها ميسرة، فضلا عن بعد المسافة بين بصرى ومكة ولا يتم هذا في جلسة أو جلستين؛ بل حتى يعلمه النبوة كان من المفترض أن يكون ملازمًا له، فيكثر اللقاءات بينهما حتى يتم لهما ما ينبغي أن يُخططوا له.

الوجه الحادي عشر: يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته في لقاءين ليجعله ذلك أستاذ العالم كله.

---

(١) البخاري (٦١٠٨).

(٢) مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين (صـ٢٥).

قال الزرقاني: إنه يستحيل في مجرى العادة أن يُتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف بحيث يصبح أستاذ العالم كله لمجرد أنه لقي مصادفة واتفاقًا راهبًا من الرهبان مرتين! على حين أن التلميذ كان في كلتا المرتين مشتغلًا عن التعليم بالتجارة، وكان أميا لا يعرف القراءة والكتابة، وكان صغيرا تابعا لعمه في المرة الأولى، وكان حاملًا لأمانة ثقيلة في عنقه لا بد أن يؤديها كاملة في المرة الثانية وهي أمانة العمل والإخلاص في مال خديجة وتجارتها. (١)

الوجه الثاني عشر: حتى ولو أثبتنا أن بحيرى لقي النبيﷺ، فإنه لم يثبت ذكر تعلُم النبي ﷺ من بحيرى.

إن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه سافر إلى الشام في تجارة مرتين: مرة في طفولته ومرة في شبابه، ولم يسافر غير هاتين المرتين ولم يجاوز سوق بصرى فيهما، ولم يسمع من بحيرى ولا من غيره شيئًا من الدين ولم يك أمره سرًا هناك؛ ، بل كان معه شاهد في المرة الأولى وهو عمه أبو طالب، وشاهد في الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التي خرج الرسول بتجارتها أيامئذ؛ وكل ما هنالك أن بحيرى الراهب رأى سحابة تظلله من الشمس فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن، ثم حذره عليه من اليهود وقد رجع به عمه خوفًا عليه ولم يتم رحلته. كذلك روي هذا الحادث من طرق في بعض أسانيدها ضعف ورواية الترمذي ليس فيها اسم بحيرى وليس في شيء من الروايات أنه سمع من بحيرى أو تلقى منه درسا واحدا أو كلمة واحدة لا في العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق فأنى يؤفكون. (٢)

الوجه الثالث عشر: بحيرى مُبشر لا مُعلم.

إن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد؛ لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي

---

(١) مناهل العرفان٢/ ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق.

يزفها ثم ينصب نفسه أستاذا لصاحبها الذي سيأخذ عن الله ويتلقى عن جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين وهادي الهداة والمرشدين وإلا كان هذا الراهب متناقضًا مع نفسه. [1]

الوجه الرابع عشر: ذكر خبر بحيرى في كتب السيرة تدل على الأمانة العلمية عند علماء السيرة.

وللأمانة العلمية كان من المفترض أن رواة الأحاديث يُنكرون أمر بحيرى وغيره حتى لا يتشكك أحد فيقول: إن محمدًا قد علّمه بحيرى ولكن لأمانتهم ذكروا ذلك، فذكروا أنه ما قابل بحيرى إلا مرتين، ومنهم من قال مرة واحدة، فكما أنهم صدَقوا في إثبات أمر بحيرى ولم يخافوا من قول المتشككين كذلك صدقوا في ذِكر عدد اللقاءات بين بحيرى والنبي ﷺ أنهما لا تعدو عن مرتين، بغض النظر عن ضعف روايتهما.

الوجه الخامس عشر: هل يصح لراهب أن يكذب؟

كيف يقول بحيرى إن القرآن من عند الله نزل على قلب محمد وهو من عنده؟ كيف يرضى أصحاب الشبهة هذه أن يكون عالم دينهم كذاب؟ وخلاصة القول: إن من المفيد إلقاء نظرة على الملاحظات الحيادية لبعض المستشرقين.

يقول جون ب. نوس، وديفيد س. نوس في كتابهم الشهير " أديان الرجل": (. . . . إن من الواجب إدراج الحديث الشريف الذي يقول إن محمدًا ﷺ تعلم اليهودية والنصرانية خلال رحلاته مع القافلة التجارية المتجهة للشام، وكانت الأولى بصحبة عمه أبي طالب عندما كان في سن الثانية عشر، والثانية عندما كان عمره ٢٥ عامًا كموظف لخديجة التي تزوجها فيما بعد، على أنه حديث غير مقبول).

ويقول توماس كارلايل: لا أعرف ماذا أقول بشأن سيرجيوس [بُحيرى أو بَحيرى، مهما كان اللفظ، وقد أُطلق عليه أيضًا اسم سرجيوس]، الراهب النسطوري الذي قيل إنه تحادث مع أبي طالب، أو كم من الممكن أن يكون أي راهب قد علم صبيًا في مثل تلك السن، لكنني أعرف أن حديث الراهب النسطوري مبالغ فيه بشكل كبير، فقد كان عمر

---

(١) المصدر السابق.

محمد ﷺ ١٤ عامًا [كان عمره إما ٩أو ١٢ عامًا على أكثر تقدير] ولم يعرف لغةً غير لغته، وكان معظم ما في الشام غريبًا وغير مفهوم بالنسبة له.

الوجه السادس عشر: لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز هو بحيرى لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة.

إن بحيرى الراهب لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم. (١)

الوجه السابع عشر: الأديان التي كانت في عصر نزول القرآن ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة؛ بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة:

إن أصحاب هذه الشبهة من الملاحدة يقولون: إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل، فإذا كانوا صادقين في هذه الكلمة فإننا نحاكمهم في هذه الشبهة إلى القرآن نفسه، وندعوهم أن يقرؤوه ولو مرة واحدة بتعقل ونَصَفَة؛ ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتابها في عصره؟ وليعلموا أنها ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة؛ بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة، إنهم إن فعلوا ذلك فسيستريحون ويريحون الناس من هذا الضلال والزيغ، ومن ذلك الخبط والخلط. هدانا وهداهم الله؛ فإن الهدي هداه ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

فإن طبيعة الدين الذي ينتمي إليه الراهب بحيرى تأبى أن تكون مصدرًا للقرآن وهداياته خصوصًا بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف. (٢)

وفي الحديث: "وَإِنَّ الله نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ"(٣).

قال النووي: الْمَقْت: أَشَدّ الْبُغْض، وَالْمُرَاد بِهَذَا الْمَقْت وَالنَّظَر: مَا قَبْل بَعْثَة رَسُول الله ﷺ، وَالْمُرَاد بِبَقَايَا أَهْل الْكِتَاب: الْبَاقُونَ عَلَى التَّمَسُّك بِدِينِهِمْ الْحَقّ مِنْ غَيْر تَبْدِيل(١).

(١) مناهل العرفان٢/ ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مسلم(٢٨٦٥).

قال ابن القيم: فكان أهل العقول كلهم في مقته إلا بقايا متمسكين بالوحي فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبادة الأوثان، أو الصلبان، أو النيران، أو الكواكب والشمس والقمر، أو الحيرة والشك، أو السحر، أو تعطيل الصانع والكفر به، فاستفادوا بها مقت الرب سبحانه لهم وإعراضه عنهم فأطلع الله شمس الرسالة في تلك الظلم سراجًا منيرًا، وأنعم بها على أهل الأرض في عقولهم وقلوبهم[٢].

الوجه الثامن عشر: لو كانت روايتى لقاء النبي ﷺ ببحيرى صحيحة لما خاف محمد ﷺ يوم ظهر له جبريل.

فنتساءل: إن كان بحيرى الراهب قد قال لمحمد ومن معه أنه سيكون رسول الله، فلماذا تشكك واضطرب محمد ﷺ يوم ظهر له جبريل وخاف على نفسه؟.

فقد قال ﷺ عند نزول الوحي لخديجة: «أي خَدِيجَةُ مَا لي، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نفسي» فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ. قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ أَبْشِرْ، فَوَ الله لاَ يُخْزِيكَ الله أَبَدًا[٣].

الوجه التاسع عشر: لو ثبت لقاء بحيرى للنبي ﷺ لكان أرجى في قبول أبي طالب الإسلام.

قال ابن حجر: ذكر ابن التين أن في شعر أبي طالب -أي شعره في مدح محمد ﷺ- هذا دلالة على أنه كان يعرف نبوة النبي ﷺ قبل أن يبعث لما أخبره به بحيرى أو غيره من شأنه، وفيه نظر لما تقدم عن ابن إسحاق أن إنشاء أبي طالب لهذا الشعر كان بعد المبعث، ومعرفةُ أبي طالب بنبوة رسول الله ﷺ جاءت في كثير من الأخبار، وتمسك بها الشيعة في أنه كان مسلمًا، ورأيت لعلي بن حمزة البصري جزءًا جمع فيه شعر أبي طالب، وزعم في أوله أنه كان مسلمًا، وأنه مات على الإسلام، وأن الحشوية تزعم أنه مات على الكفر، وأنهم لذلك يستجيزون لعنه، ثم بالغ في سبهم والرد عليهم واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه[٤].

---

(١) شرح النووي ١٧/ ١٩٧.

(٢) الصواعق المرسلة ٣/ ١٠٦٨.

(٣) البخاري(٤٩٥٣)، ومسلم(٤٢٢).

(٤) فتح الباري ٢/ ٤٩٦.

فعن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ الله فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ الله بْنَ أَبِى أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ الله لأَبِى طَالِبٍ: " يَا عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله ". فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِى أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله[1].

الوجه العشرون: أين ذكر بحيرى في كتب النصارى؟.

لو كان بحيرى حقًا عالمًا عظيمًا وبارعًا لدرجة أنه خطط لنبوة محمد ﷺ، فإن من المفروض أن يوجد له في السجلات النصرانية أدب كثير، ومجلدات عن حياته وأعماله، ولكننا لا نجد عنه شيئًا إلا في الروايات الضعيفة التي ذكرناها.

ففي كتب النصارى والمستشرقين- كتاريخ الكنيسة ودائرة المعارف- ذُكر أن بحيرى كان في القرن الرابع، بل ظاهر كلام النصارى عند التحقيق في كتبهم التاريخية أنهم لا يعرفون عنه شيئًا مما يتعلق بتاريخ حياته في أرض العرب.

قال الألباني:

١- إن كتاب تاريخ الكنيسة أثبت أن الراهب بحيرى كان في القرن الرابع من الميلاد، وهي دعوى عارية عن الصحة إذ ليس لذلك حجة علمية يستطاع بها إثباتها، وكل ما كان من الحجة تاريخ الكنيسة! فيا لله العجب كيف يوثق بهذا التاريخ هذه الثقة البالغة إلى درجة أن يُعارض به تاريخ المسلمين؟ مع أن تاريخهم - مهما كان في بعض حوادثه نظر من الوجهة الحديثية خاصة - أصح وأنقى بكثير من تاريخ الكنيسة الذي تعجز الكنيسة نفسها عن إثبات صحة كتابها المقدس الذي هو أصل دينها، فكيف تستطيع أن تثبت تاريخها الذي هو بحق " أمشاج من الروايات التي لا سند لها ".

(١) البخاري(١٣٦٠).

٢- إنني رجعت إلى دائرة المعارف الإسلامية تأليف جماعة من المستشرقين، وإلى دائرة المعارف للبستاني، وإلى: " المنجد " فلم أجدهم ذكروا ما عزاه الأستاذ المصري إلى تاريخ الكنيسة؛ بل ظاهر كلامهم أنهم لا يعرفون عنه شيئًا مما يتعلق بتاريخ حياته في أرض العرب، إلا مما جاء في مصادرنا الإسلامية، وخاصة ما يتعلق منه بقصة اتصاله بالنبي ﷺحسبما تقدم تخريجه، وإن كانوا يعتبرونها " من الأساطير التي أحاطت بسيرة النبي محمد ﷺ" حسبما تقدم تخريجه، وذلك في " دائرة المعارف الإسلامية ".

٣- لنفترض أن ما عُزِيَ إلى تاريخ الكنيسة صحيح ثابت، وهو أن بحيرى الراهب كان في القرن الرابع من الميلاد، فذلك لا ينفي أن يأتي شخص آخر على شاكلته في الترهب سمي باسمه منذ ولادته على عادة النصارى وغيرهم من التسمي بأسماء الصالحين عندهم، أو لقب به بعد؛ لظهور شبه فيه به، هذا كله جائز ليس في العقل السليم ما ينفيه، وإذا كان الأمر كذلك، فبإمكان الأستاذ أن يعتقد وجود شخصين في زمنين متباينين باسم واحد (بحيرى) وبذلك يستطيع أن يوفق بين ثقته بالتاريخ الكنسي، وثقته بالتاريخ الإسلامي ولا يقع في هذه المغالطة التي كتبها بقلمه: " فكيف التقى الزمان القرن الرابع والقرن السادس والتقى المكان؟ "[1].

الوجه الحادي والعشرون: بحيرى لم يكلم النبي مباشرة، إنما كان يتكلم مع الناس عنه.

من الغريب ملاحظته في هذا الحديث الذي وبالرغم من أنه كله ملفق، إلا أنه أقوى من جميع الأحاديث التي تناولت حادثة بحيرى، لكن الراهب لم يخاطب محمدًا ﷺوهو صبي في أي وقت من الأوقات، وبإمكان الشخص ملاحظة ذلك من خلال قراءته للحديث ليرى بنفسه تلك الظاهرة الغريبة. لا يوجد في الحديث ضمير غائب بديلًا لمحمد ﷺ، لقد استعمل الراهب في كل مرة شخصًا ثالثًا أو ضمير إشارة. فتراه يتكلم عن محمد

---

(١) " مجلة المسلمون " العدد الثامن من سنة ١٣٧٩ (صـ ٣٩٣ – ٣٩٧) فليرجع إليه من أراد زيادة في التثبت. هامش فقه السيرة للغزالى (٦٨)، ودفاع عن الحديث النبوى (٦٢ – ٧٢).

كشخص بعيد عنه، فيتكلم مع القوم عنه، لا يحاوره بمحاورات مباشرة، فهل هذا يدل على أن الراهب لم يعتبر أن محمدًا ﷺ وهو صبي أمي يمكنه أن يفهم ما يقول عنه؟.

والروايات التي تبين أن الراهب وهو يخاطب محمدًا ﷺ وهو صبي بشكل مباشر اتفق العلماء على تضعيفها؛ لأنه من الطبيعي أن لا يتصور أن صبيًا في مثل عمره قد لا يلتفت لتلك المحادثة التي فيها إخبار بأمر النبوة.

الوجه الثاني والعشرون: لو كان سجود الشجر للنبي صحيحًا وقد رآه الناس لما حدث من اعتراضات للمشركين على النبي ﷺ

١- اختار بحيرى نبي المستقبل وفي حضور كبار رجال قريش قال: إن محمد ﷺ وهو صبي سيصبح نبي رب العالمين ورحمة للعالمين. وبذلك يكون رجال قريش شهودًا على تلك الحادثة غير عادية، وينقلونها إلى أهل مكة عند عودتهم إليها وبذلك تصبح حديث الناس، ومن الطبيعي أنه لو حدث شيء يتعلق بنبي المستقبل فإن أولئك الرجال ومن سمع الحادثة منهم سيعودون للحديث عن تلك الحادثة، لقد ظهر محمد في الصباح الباكر في البيت الحرام بعد ذلك ببضعة سنوات، حيث حل النزاع حول وضع الحجر الأسود، كان من المفروض حسب الحديث أن يصيح الناس " لقد وصل رسول رب العالمين، وظهر رحمة العالمين، ونحن نؤيده ونقبل رأيه ". لكن كتب التاريخ لم تذكر شيئًا من هذا القبيل، بل تذكر أنهم قالوا "جاء الأمين-الصادق-إلخ" ومرة أخرى عندما أعلن النبي المنتظر أنه اختير لأداء المهمة، كان من المفترض حسب الحديث أيضًا أن يعلن كل من اعتنقوا الإسلام أنهم كانوا يعرفون ذلك وينتظرونه، فإننا نجد أن ذلك لم يحدث.

* * *

١٧ـ شبهة: دعوى أن القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل.

نص الشبهة:

الشبهة التي تمسكوا بها: وُرُودُ مواضع بينها تشابهٌ في كل من التوراة والقرآن الكريم. ومن أبرزها الجانب القصصي. وبعض المواضع التشريعية تمسكوا بها، وقالوا: إن القرآن مقتبس من التوراة، وبعضهم يضيف إلى هذا أن القرآن اقتبس مواضع أخرى من " الأناجيل ".

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لقد تكفل الله تعالى بالرد على هذه الشبهة.

الوجه الثاني: معرفة كيفية تحقق الاقتباس عمومًا، وذلك بالتحقيق العلمي لمسألة كون القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل أم لا؟

الوجه الثالث: حقيقة التشابه بين القرآن من جهة وبين التوراة والإنجيل.

الوجه الرابع: حقيقة النصرانية عند العرب، ولماذا لم يتأثروا بها كما تأثروا بالإسلام؟

الوجه الخامس: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية يبين هيمنة القرآن على غيره، وضعف القول بأن اليهودية والنصرانية هما اللتان أثَّرتا في القرآن.

الوجه السادس: تأثير الإسلام لم يكن قاصرًا على العقيدة في المسيحية فحسب، بل يمتد إلى الشريعة. والكتب المقدسة كذلك، فإن تأثير الإسلام تناول اليهودية إلى جانب المسيحية.

الوجه السابع: تأثر الشرائع النصرانية بالعقيدة الوثنية.

الوجه الثامن: اختلافات ما بين القرآن وعقيدة جميع الطوائف النصرانية واليهودية القديمة والحديثة.

الوجه التاسع: دلائل تهافت الدعوى بأن القصص القرآني تكرار لقصص التوراة والإنجيل.

الوجه العاشر: تباين أهداف القصص في القرآن والتوراة والإنجيل.

الوجه الحادي عشر: القصص الذي انفرد به القرآن.

الوجه الثاني عشر نتائج المقارنة بين القصص المتناظر في القرآن والتوراة والإنجيل.

الوجه الثالث عشر: العهد القديم لم يكن مترجمًا إلى اللغة العربية قبل الإسلام.

الوجه الرابع عشر: لو كان محمدﷺ ينقل كتابه من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده.

الوجه الخامس عشر: التحدي أن يأتي بمثله.

الوجه السادس عشر: هذه الأصول المأخوذة من التوراة والإنجيل والكتب السابقة التي يزعمون أن محمدًا ﷺقد نقل عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود.

الوجه السابع عشر: القرآن لم يأت لهدم كل شيء، بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق.

الوجه الثامن عشر: الطعن في القرآن طعن في التوراة والإنجيل إن صح القول بالاقتباس.

الوجه التاسع عشر: مثال أخير فيها ذكره القرآن وما ذكرته التوراة والإنجيل عن عصمة الأنبياء، والبون الشاسع بينهما.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لقد تكفل الله تعالى بالرد على هذه الشبهة.

وبالسبر والتقسيم يكون هناك احتمالات لمسألة إثبات ألوهية القرآن ألا وهي: أن القرآن يمكن أن يأتي إلى النبي ﷺعن أربع طرق: من عند نفسه، من عند شخص، من كتاب، من الله تعالى، أما من عند نفسه فقد تقدم معنا الرد على هذه الشبهة[(١)]

-أما من عند شخص؛ فمن هو هذا الشخص؟ أكثر الطاعنين على أنهم نصارى أو يهود، فردَّ الله تعالى عليهم أن لسان أولئك القوم ولغتهم أعجمية، ولكن لغة هذا القرآن عربي مبين، فكيف للأعجمي أن يأتي بأعلى الفصاحة وذروة البلاغة في اللغة العربية؟ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النحل: ١٠٣). [(٢)]

---

(١) انظر: بحث شبهة أن القرآن من تأليف محمد ﷺ من هذه الموسوعة.

(٢) انظر: شبهة ورقة بن نوفل- وبحيرى وقد تقدمتا.

-أما من كتاب، فالنبي ﷺلا يقرأ ولا يكتب: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨). [١] فلم يبق إلا أنه من الله تعالى[٢].

الوجه الثاني: معرفة كيفية تحقق الاقتباس عمومًا، وذلك للتحقيق العلمي لمسألة كون القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل أم لا؟

١- الاقتباس عملية فكرية لها ثلاثة أركان:

الأول: الشخص المُقتبَس منه.

الثاني: الشخص المُقتبِس (اسم فاعل).

الثالث: المادة المُقتبَسَة نفسها (اسم مفعول).

والشخص المُقتبَس منه سابق إلى الفكرة، التي هي موضوع الاقتباس، أما المادة المُقتبَسَة فلها طريقتان عند الشخص المُقتبِس، إحداهما: أن يأخذ المقتبس الفكرة بلفظها ومعناها كلها أو بعضها. والثانية: أن يأخذها بمعناها كلها أو بعضها كذلك ويعبر عنها بكلام من عنده.

والمقتبِس في عملية الاقتباس أسير المقتبَس منه قطعًا ودائر في فلكه؛ إذ لا طريق له إلى معرفة ما اقتبس إلا ما ذكره المقتبَس منه. فهو أصل، والمقتبِس فرع لا محالة.

٢- وعلى هذا فإن المقتبِس لابد له وهو يزاول عملية الاقتباس من موقفين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن يأخذ الفكرة كلها بلفظها ومعناها أو بمعناها فقط.

وثانيهما: أن يأخذ جزءًا من الفكرة باللفظ والمعنى أو بالمعنى فقط.

ويمتنع على المقتبِس أن يزيد في الفكرة المقتبسة أية زيادة غير موجودة في الأصل؛ لأننا قلنا: إن المقتبِس لا طريق له لمعرفة ما اقتبس إلا ما ورد عند المقتبَس منه، فكيف يزيد على الفكرة والحال أنه لا صلة له بمصادرها الأولى إلا عن طريق المقتبَس منه؟

---

(١) انظر: شبهة أمية الرسول في هذه الموسوعة.

(٢) الرد على الطاعنين ١/ ٤٦.

٣- إذا جرى الاقتباس على هذا النهج صدقت دعوى من يقول إن فلانًا اقتبس منى كذا. أما إذا تشابه ما كتبه اثنان، أحدهما سابق والثاني لاحق، واختلف ما كتبه الثاني عما كتبه الأول مثل:

أ- أن تكون الفكرة عند الثاني أبسط وأحكم ووجدنا فيها ما لم نجده عند الأول.

ب- أو أن يصحح الثاني أخطاء وردت عند الأول، أو يعرض الوقائع عرضًا يختلف عن سابقه.

في هذه الحال لا تصدق دعوى من يقول إن فلانًا قد اقتبس مني كذا.

ورَدُّ هذه الدعوى مقبول من المدعى عليه؛ لأن المقتبِس (اتهامًا) لما لم يدر في فلك المقتبَس منه (فرضًا) بل زاد عليه وخالفه فيما ذكر من وقائع؛ فإن معنى ذلك أن الثاني تخطى ما كتبه الأول حتى وصل إلى مصدر الوقائع نفسها واستقى منها ما استقى. فهو إذن ليس مقتبِسًا وإنما مؤسس حقائق تلقاها من مصدرها الأصيل ولم ينقلها عن ناقل أو وسيط.

٤- وسوف نطبق هذه الأسس التي تحكم عملية الاقتباس على ما ادعاه القوم هنا وننظر:

هل القرآن عندما اقتبس كما يدعون من التوراة كان خاضعًا لشرطي عملية الاقتباس وهما: نقل الفكرة كلها، أو الاقتصار على نقل جزء منها فيكون بذلك دائرًا في فلك التوراة، وتصدق حينئذ دعوى القوم بأن القرآن (معظمه) مقتبس من التوراة؟

أم أن القرآن لم يقف عند حدود ما ذكرته التوراة في مواضع التشابه بينهما؟ بل:

أ- عرض الوقائع عرضًا يختلف عن عرض التوراة لها.

ب- أضاف جديدًا لم تعرفه التوراة في المواضع المشتركة بينهما.

ج- صحح أخطاء خطيرة وردت في التوراة في مواضع متعددة.

د- انفرد بذكر مادة خاصة به ليس لها مصدر سواه.

٥- في حالة اختلافه مع التوراة حول واقعة يكون الصحيح هو ما ذكره القرآن. والباطل ما جاء في التوراة بشهادة العقل والعلم إذا كان الاحتمال الأول هو الواقع فالقرآن مقتبس من التوراة.

أما إذا كان الواقع هو الاحتمال الثاني فدعوى الاقتباس باطلة ويكون للقرآن في هذه الحالة سلطانه الخاص به في استقاء الحقائق، وعرضها فلا اقتباس لا من توراة ولا من إنجيل ولا من غيرهما.

لا أظن أن القارئ يختلف معنا في هذه الأسس التي قدمناها لصحة الاتهام بالاقتباس عمومًا. وما علينا بعد ذلك إلا أن نستعرض بعض صور التشابه بين التوراة والقرآن، ونطبق عليها تلك الأسس المتقدمة تاركين الحرية التامة للقارئ سواء أكان مسلمًا أو غير مسلم في الحكم على ما سوف تسفر عنه المقارنة، أنحن على صواب في نفي الاقتباس عن القرآن أم لا؟.

والمسألة بعد ذلك ليست مسألة اختلاف في الرأي يصبح فيها كل فريق موصوفًا بالسلامة، وأنه على الحق أو شعبة من حق. وإنما المسألة مسألة مصير أبدي، من ورائه عقيدة صحيحة توجب النجاة لصاحبها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، أو عقيدة فاسدة تُحل قومها دار البوار، يوم يقدم الله إلى ما عملوا من عمل فيجعله هباءًا منثورًا. [1]

الوجه الثالث: حقيقة التشابه بين القرآن من جهة وبين التوراة والإنجيل:

إذا كان هناك تشابه بين القرآن والتوراة والإنجيل فهذا أمر طبيعي؛ لأن المصدر واحد وهو الوحي، أما التناقض فيرجع إلى تحريف اليهود والنصارى للوحي المنزل على موسى وعيسى عليهما السلام.

إنما يُوجد تشابه بين القرآن والتوراة والإنجيل في أمور كثيرة، مع هيمنة القرآن عليهما هيمنة كاملة شاملة مقرونة بالإعجاز والتحدي. وهذا التشابه سببه وِحدة المصدر الإلهي؛ فبما أن الله تعالى هو منزل كل الكتب السماوية، والدين عنده واحد هو الإسلام، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩)فمن البديهي والطبيعي، ومن الضروري أيضا أن يُوجد تشابه بين كل الكتب السماوية. [2]

الوجه الرابع: حقيقة النصرانية عند العرب، ولماذا لم يتأثروا بها كما تأثروا بالإسلام؟

---

(١) حقائق الإسلام وشبهات المشككين ص- ١٣٩

(٢) أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي١/ ٢٠٥.

إن العرب ما عرفوا من النصرانية إلا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، فلو تأثر الإسلام بما عليه دين النصارى من الباطل، لشعُر العرب أن الإسلام لم يأتِ بجديد، وكان جديرًا لهم أن يتبعوا النصرانية بدلًا عن الإسلام.

إن الهجرة إلى الحبشة ما جعلت هناك دواعي لتأثر الإسلام بالنصرانية؟ فإنه لم تكن الحبشة النصرانية قادرة في تلك المرحلة على أن تعطي شيئًا للإسلام أو لغير الإسلام؟ بل لم تكن النصرانية عمومًا في الحبشة وغيرها قادرة على أن تعطي الإنسانية شيئًا؟ وقد كان عمر ﷺ يُقَالُ له القبيلة الفلانية اعتنقت النصرانية في الجاهلية والقبيلة الفلانية اعتنقت النصرانية فيقول رضوان الله عليه بسخرية ذات معنى عميق يقول: (إن العرب ما عرفوا من النصرانية إلا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير)[(١)]؛ وعمر ﷺكان يتحدث عن العرب ولا يجهل أن النصرانية عمومًا بين العرب وغير العرب ما عرفت في تلك الأيام إلا شرب الخمر وأكل الخنزير والاعتداء على المحرمات، هذا واقع يشهد به تاريخ الحبشة في ذلك الزمان.[(٢)]

الوجه الخامس: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية يبين هيمنة القرآن على غيره، وضعف القول بأن اليهودية والنصرانية هما اللتان أثرتا في القرآن.

قال د. عبد الراضي محمد عبد المحسن: لعل هذا الوجه من أبرز دلائل تهافت المزاعم التنصيرية حول تلفيق القرآن من اليهودية والنصرانية؛ لأن واقع الأمر وحقيقة الحال أن اتجاه التأثير كان عكسيًّا، من اللاحق إلى السابق، وليس من السابق إلى اللاحق، وهذا الاتجاه التأثيري العكسي وإن كان على غير المألوف إلا أن له ما يسوغه، حيث جاءت اليهودية والنصرانية دعوة مرحلية لجماعات قبلية محدودة من البشر، فلمّا أرادت تجاوز طبيعتها وأهداف رسالتها احتاجت إلى عناصر تمكنها من ملاءمة الدائرة الزمانية والمكانية والثقافية الجديدة التي أرادتها لنفسها، ولمّا كانت تفتقد إلى تلك العناصر التي لم تتوفر إلا

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٧٢، لكنه من قول علي ﷺ، وإسناده صحيح.

(٢) موسوعة البحوث والمقالات العلمية -بحث رقم١٣ ص٤.

للإسلام بحكم طبيعة رسالته العالمية الخاتمة، فإن اليهودية والنصرانية تلمّستا تلك العناصر في الإسلام واقتبستها منه.

حتى إننا لا ندري إلى أيّ مدًى يمكن أن تكون ثورات الفكر المسيحي منذ الحركة الألبية حتى حركة الإصلاح البروتستانتي محسوبة كنتائج مباشرة أو غير مباشرة لمفهوم العقيدة في القرآن. (١)

يقول قاموس "برتلس مان" لديانات العالم: ((لقد أثَّر الإسلام تأثيرًا عظيمًا في العقيدة المسيحية والفلسفة، وقاد على سبيل المثال إلى نقاش جديد حول عبادة الصور وتقديسها في المسيحية)). (٢)

الوجه السادس: تأثير الإسلام لم يكن قاصرًا على العقيدة في المسيحية فحسب، بل يمتد إلى الشريعة والكتب المقدسة، كذلك فإن تأثير الإسلام تناول اليهودية إلى جانب المسيحية.

وذلك في عدد من الجوانب يمكن إجمالها فيما يلي:

١ -المبادئ الثلاثة عشر التي جعلها موسى بن ميمون أساس الدين اليهودي وأركان الإيمان فيه، فصاغها على غرار أصول الإيمان في الإسلام، وأدرج فيها بعض أصول الإيمان الإسلامية مما لم يكن معروفًا في اليهودية من قبل أو مدرجًا في العهد القديم، كالاعتقاد بأن الله عالم، وبالثواب والعقاب في الآخرة، والاعتقاد في بعث الموتى. (٣)

وقد أقر ابن كمونة بعدم ذكر الثواب والعقاب الأخروي في التوراة وراح يعتذر عن ذلك ويحاول تسويغه. (٤) وهذا يؤكد اقتباس ابن ميمون هذه الأصول من الإسلام.

(١) الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم ١/ ٧٢، والظاهرة القرآنية، مالك بن نبي ص ١٩٢.

(٢) نقلًا من الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم ١/ ٧٢.

(٣) راجع المبادىء الثلاثة عشر في: Moses ben Maimone: Sein Leben، Seine Werke und sein Einfluss، Hrsg von: W. Bacher. Leipzig ١٩٠٨، S: ١١٢، نقلًا من الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم ١/ ٧٣.

(٤) تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمونة ص ٤٠ - ٤٣، نقلا من الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم ١/ ٧٤.

٢ – تحديد مفهوم النبوة والمعجزة لأول مرة في اليهودية، والذي جاء إما متأثرًا بنظرية الفلاسفة المشائين كالفارابي وابن سينا، وإما متابعًا لجمهور علماء الإسلام في استدلالهم على هذه المعتقدات بالنصوص القرآنية. (١)

٣ – نقد التوراة، يقول ((واكسمان)) صاحب كتاب ((الأدب اليهودي)): ((في القرن الحادي عشر دخلت الفلسفة اليهودية مرحلة جديدة متأثرة بالمؤلفات الفلسفية الإسلامية والأفكار الإسلامية، وكان من أثر هذا أن بدأ الشك في التلمود، وبدأت تظهر أفكار حرة، ولم يقتصر الهجوم والنقد الذي قام به القراءون والطوائف المتصلة بهم على التلمود، بل شمل الكتاب المقدس أعظم إنتاج عقلي في الدين اليهودي)). (٢)

٤ – إقرار المسيحية بالوظيفة النبوية للمسيح الأرضي عيسى عليه السلام والتي لم تجد لها مكانًا في وثائق الكنيسة إلا في قرار مجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥م. (٣)

٥ – دعوة البروتستانت إلى حرية قراءة الكتاب المقدس ورفض احتكار الكنيسة تفسيره والتي فتحت الباب أمام حركة نقد الكتاب المقدس في الغرب، تلك الحركة المنهجية التي تدين بالفضل لعلماء الإسلام كابن حزم والقرطبي وابن تيمية وابن القيم، وغيرهم.

٦ – تحريم البروتستانت لعبادة الأيقونات، ومنع وضعها في الكنائس؛ لأنها عمل وثني.

الوجه السابع: تأثر الشرائع النصرانية بالعقيدة الوثنية، وأن هناك ألفاظ ذُكرت في الكتاب المقدس مأخوذة من ديانات أخرى، والإسلام جاء ليقضي على العقيدة الوثنية، فكيف يأخذ الإسلام الشرائع النصرانية بما فيها من وثنية؟ (٤)

الوجه الثامن: اختلافات ما بين القرآن وعقيدة جميع الطوائف النصرانية واليهودية القديمة والحديثة:

---

(١) الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم١/ ٧٤.

(٢) الأثر العربي في الفكر اليهودي. ص ١٤٤، إبراهيم موسى هنداوي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م.

(٣) Katechismus der katholischen kirche. Leipzig - schwens ١٩٩ نقلًا من الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم ١/ ٧٤.

(٤) انظر تفصيل ذلك في شبهة ادعاؤهم أن أعمال الحج من بقايا الوثنية.

وثَمَّ شبهة تقول بأن الإسلام لم يأخذ عقيدته من الكنيسة الكاثوليكية ولا الأرثوذوكسية ولكنه أخذها من الأبيونية وممن كان يُنادي من النصارى بأن المسيح هو نبي وليس إله، وأن القرآن انتقد الطوائف الأخرى إلا هذه الطائفة التي أخذ منها عقيدته:

وهذا تم الرد عليه بالتفصيل في شبهة أن ورقة بن نوفل كان أبيونيًا، وأن محمدًا ﷺ أخذ منه هذه العقيدة، وبيَّنا أن هناك اختلافات كبيرة بين الأبيونية ومن كان يُنادي من النصارى بأن المسيح هو نبي وليس إله من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى. (١)

الوجه التاسع: دلائل تهافت الدعوى بأن القصص القرآني تكرار لقصص التوراة والإنجيل. (٢)

لن يجدي في رد هذه الشبهة سوى منهج نقد النصوص المقارن لإبراز جوانب التباين بين مرويات القصص القرآني ومنهجها، وبين القصص التوارتي والإنجيل.

وبواسطة هذا المنهج أمكن الوقوف على أربعة دلائل تتهافت معها دعوى تكرار القرآن لقصص التوراة والإنجيل، وهي:

الدليل الأول: اختلاف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل.

يختلف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل من عدة جوانب منها:

١ - مصدر القصص، حيث إن الذي يقصُّ في القرآن هو الله تبارك وتعالى، فهو المتكلم بالكلمة القرآنية، يقول تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣).

ويقول تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف: ١٣).

أما في التوراة والإنجيل فالله تعالى متحدَّث عنه بطريق الحكاية لتعريف الناس به. (٣)

(١) انظر شبهة ادعاؤهم اقتباس محمدﷺالوحي من ورقة بن نوفل.

(٢) هذا الوجه وما يليه من ثلاثة وجوه نقلا بتصرف يسير من كتاب الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم للدكتور عبد الراضي محمد عبد المحسن ص- ٧٤- ٩١.

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن للتهامي النقرة، ، ص- ٨٠.

٢ - الخيال القصصي، بينما يقوم الخيال القصصي في التوراة والإنجيل بأكبر الأدوار في صياغة وتأليف قصصها، وهو ما كشفت عنه دراسات حديثة تعد مرجعيات في هذا الباب، مثل دراسة: جيمس فريزر عن الفلكلور في العهد القديم. (١)

ودراسة: ((زينون كاسيدوفسكي)) عن الحقيقة والأسطورة في التوراة والتي لخّص فيها مكانة الخيال والخرافة في القصص التوراتي، بقوله: ((تناقل اليهود تراثهم الديني من جيل إلى جيل، وساهم الطابع الفلكلوري لنقل الروايات الحقيقية بتطعيمها بكثرة من الخرافات والأساطير والأمثال والأقصوصات، جعلت من الصعب الآن التمييز بين الواقع والخرافة فيها)). (٢)

أما القرآن الكريم فلا يعرف الخيال القصصي طريقًا إلى مادة مروياته، حيث يلجأ القرآن في قصصه إلى الاحتكام لمعياره النقدي في الأخبار: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ (الحجرات: ٦).

فهو يطالب قارئ قصصه بتلمس دلائل واقعيتها وصدقها التاريخي في آثارها الماثلة للعيان: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ (آل عمران: ١٣٧). وقد وقف الأثريون على آثار القصص القرآني الشاهدة على الصدق التاريخي، مثل آثار سيل العرم الذي هدّم سد مأرب باليمن، فلا زالت آثار الجنتين الواقعتين عن يمين السد وشماله ماثلة حتى اليوم تؤكد صحة قصة سبأ: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ﴾ (سبأ: ١٥-٢١).

وكذلك اكتشف علماء الآثار النقوش الثمودية في أرض تبوك ومدائن صالح وتيماء ولا زالت مزارًا سياحيًّا حتى اليوم. (٣)

---

(١) الفلكلور في العهد القديم لجيمس فريزر، بترجمة نبيلة إبراهيم.

(٢) الحقيقة والأسطورة في التوراة لزينون كاسيدوفسكي، ص ٥٢.

(٣) مصادر التاريخ صـ ١٦، لسيدة إسماعيل كاشف.

ولذلك يصف القرآن قصصه بأنه: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣)، لما توافر له من علم ومعاينة: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ (الأعراف: ٧)، وما اتسم به من حقيقة وصدق: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢).

٣ - التشخيص البياني، وهو التعبير بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات الشعورية والمشاهدات والأحداث الحقيقية، وهذا النهج التشخيصي هو الأداة المفضلة في القصص القرآني.

٤ - التصريح والتلميح، في الوقت الذي يهتم القرآن بإبراز أدق التفاصيل النفسية والشعورية لأشخاص قصصه، فإنه يكتفي بذلك التشخيص معرضًا عن التصريح بالأسماء كما في قصة (العبد الصالح)، (الفتى) مع موسى، وكما في قصة ثمود ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢﴾ (الشمس: ١٢)، وكما في مؤمن آل فرعون.

وقد يكون هذا التلميح إلى جانب ملاءمته للمنهج القصصي الذي يهتم بإبراز الحدث وقيمته ومغزاه لكونه الهدف من القصّ، فإنه يناسب طبيعة التشريع الإسلامي فيما يخصُّ أسماء النساء مثلا: امرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون، وكذلك زوجة إبراهيم هاجر وسارة، وأسماء زوجات النبيﷺ، والمجادِلة في زوجها[1].

٥ - التجريد الزماني والمكاني، حيث لا يحدد القرآن زمن الحدث أو مدته أو مكانه إلا ما كان محوريًّا في الحدث أو مسرحًا له كمصر في قصة يوسف، أو المسجد الحرام والمسجد الأقصى في الإسراء والمعراج، أو مدة رسالة نوح، أو مدة لبث أهل الكهف في نومهم، أو المدة التي أماتها الله للمارّ على القرية الخاوية[2].

وترجع أسباب التجريد في الزمان والمكان في قصص القرآن إلى أمرين:

(١) القرآن ونظرية الفن حسين علي محمد، ص ١١٢.

(٢) سيكلوجية القصة في القرآن، ص ـ٩٧ التهامي نقرة، القرآن ونظرية الفن، حسين علي محمد، صـ ١١٣.

أولهما: عناية القصة بالحدث وتقرير الحقائق الدائمة المستقلة عن الأشخاص، والتي يمكن الإفادة من حكمتها ومغزاها في كل زمان ومكان بما يتلاءم مع عالمية رسالة القرآن واستمرارها، فما الأشخاص في القصص القرآني والحال كذلك إلا أمثلة لتلك الحقائق المقصودة لذاتها. (١)

الثاني: تحقيق الإيجاز غير المُخِلّ. (٢)

٦ - التنويع بين الإجمال والتفصيل، ففي مواضع: التحذير من العناد والتكذيب والإصرار على الباطل، والتخويف من مصائر المكذبين، يكون الإيجاز والفواصل القصيرة دون ذكر للأسماء أو للمحاورات(٣).

فيورد القرآن -مثلًا- في تسع آيات من سورة الفجر ثلاث قصص لمكذبي الرسل تشمل أعمالهم وعقابهم. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)** ﴾ (الفجر: ٦-١٤). وهذا ما لا نظير له في التوراة أو الإنجيل.

٧ - عاقبة القصص، يأتي ختام القصة في القرآن بعكس ختام قصص التوراة والإنجيل حيث تختم القصة مع نهاية السفر أو الإصحاح، ففي قصة يوسف مثلًا يفترض أن تكون الخاتمة في لقاء يوسف بأبيه يعقوب الذي صوَّرته التوراة على النحو التالي: **فَشَدَّ يُوسُفُ مَرْكَبَتَهُ وَصَعِدَ لاسْتِقْبَالِ إِسْرَائِيلَ أَبِيهِ إِلَى جَاسَانَ. وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا. ٣٠فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «أَمُوتُ الآنَ بَعْدَ مَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ أَنَّكَ حَيٌّ بَعْدُ»**(سفر التكوين ٤٦: ٢٩ - ٣٠).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ٢١٧).

(٢) أدب القصة في القرآن الكريم، لعبد الجواد المحص، ص ٢٥٥

(٣) سيكلوجية القصة في القرآن للتهامي نقرة ص ٩١.

وعلى الرغم من أن عبارة يعقوب لم تمس سبب العقدة الأصلية في القصة وهي رؤيا يوسف وتآمر إخوته عليه، فإن القاصّ في التوراة يكمل الأحداث بعد هذا اللقاء ليصف لقاء يعقوب بالفرعون، والمكان الذي أقطعه لبني إسرائيل، ومرض يعقوب وموته.

أما ختام القصص في القرآن فيكون غالبًا في شكل عبرة، أو عظة، أو حكمة، أو تقرير موجز.[1]

كما في قصة السامري مع العجل: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ (طه: ٩٨)، وفي قصة أهل الكهف: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ (الكهف: ٢٦)، وفي قصة يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (يوسف: ١٠٠)، وفي قصة مريم وابنها المسيح: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ (مريم: ٣٤-٣٥).

الوجه العاشر: تباين أهداف القصص في القرآن والتوراة والإنجيل.

تختلف أهداف القصة في التوراة والإنجيل عنها في القرآن، وذلك على النحو التالي:

أ - أهداف القصة في التوراة والإنجيل.

يمثل العهد القديم والجديد سجلا تاريخيًّا لحياة الشعب الإسرائيلي والنصراني، فهو كتاب تاريخ وتأريخ للاعتقاد والرؤساء والأنساب والتقاليد والنظم الاجتماعية والعلاقات الشخصية؛ لذلك جاءت عناوين الأسفار ملخّصة لمضمون تاريخها، مثل سفر التكوين الذي يؤرخ لبدء الخليقة، وسفر الخروج الذي يؤرخ لخروج اليهود من مصر،

(١) القرآن ونظرية الفن لحسين محمد علي ص ١١٣.

وسفر العدد الذي يحصي أعدادهم، وسفر اللاويين الذي يؤرخ لأحكام الكهنة من بني لاوي، وسفر التثنية الذي يعيد الأحكام والفروض والوصايا.

ولما كان الهدف من الكتابين التأريخ جاءت القصص فيهما في إطار الهدف العام، فجاءت سردية تأريخية متنوعة ما بين التأريخ للأنساب كما في الإحصاءات التي يقوم بها العهد القديم لأعداد بني إسرائيل الداخلين إلى مصر والخارجين منها والداخلين إلى فلسطين والمهجّرين منها. . . . إلخ.

وكذلك التأريخ لنسب المسيح كما في شجرتي النسب الشهيرتين لدى متى ولوقا في العهد الجديد.

وما بين التأريخ للسير الذاتية والتيارات الأدبية، كما في خطابات بولس الشخصية لأصدقائه. تيموتاوس العهد الجديد، رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس، فيلمون، وكما في التأريخ لقصائد داود في المناسبات المختلفة. [1]

وما بين القصص التأريخي للأحداث، مثل إنجيل لوقا الذي يصرح مؤلفه أن قصصه تأريخ لأحداث جرت بذكرها الألسنة. يقول لوقا(١/ ١ – ٥): **١إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، ٢كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، ٣رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، ٤لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ.**

وفي سفر أعمال الرسل يخبر الكاتب أن قصصه تكملة لمشروع القصص التأريخي الذي بدأه في كتابه إلى ثاوفيلس وتوقف فيه عند رفع المسيح. [2] وربما يكون هذا الهدف التأريخي أحد أهم أسباب مجيء القصص التوراتي والإنجيلي سرديًّا باردًا غير مؤثر وجدانيًّا في المتلقي أو مشوق له.

ب – أهداف القصص القرآني:

---

(١) العهد القديم، سفر المزامير، مزمور رقم: ٤٥، ٥٢، ٥٤، ٨٥، ٨٩.

(٢) العهد الجديد، سفر أعمال الرسل (١/ ١ – ٩).

القصص القرآني ليس مسوقًا لذاته، بل لأجل غايات وأهداف كثيرة يمكن إدراكها بالتفكير والتأمل في القصص؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٦). ومن هذه الأهداف:

١ - الاستدلال على التوحيد، وهو من أهم أهداف القصص القرآني، كما في قصص إبراهيم مع قومه، ونوح مع قومه، وموسى مع فرعون. . . . إلخ.

٢ - تثبيت الرسول والمؤمنين على الحق الذي يدعون إليه رغم ما يلقونه من مشقة ويتكبدونه من تضحيات، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠).

٣ - الحكم والفصل في مواضع الاختلاف والتضارب في قصص التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (النمل: ٧٦)، ولعل هذا الهدف الذي حدده القرآن لقصصه أبلغ رد وأوقع دليل على تهافت دعوى الجدليات التنصيرية بأن القرآن تكرار للقصص في التوراة والإنجيل؛ لأنه يتضمن التفسير المقنع لمواضع التشابه بين القصص القرآني وقصص الكتب السابقة، فما جاءت به الكتب السابقة في مقام ادعاء المدعي، أما قصص القرآن فهو حقيقة الحدث الذي جرى يحكيه القاضي الفاصل في دعوى المدّعي، مبيِّنا به وجه الخطأ والصواب في مزاعم الادعاء ومقررًا الحقيقة التاريخية في الحدث لكل العالمين.

٤ - العظة والاعتبار، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)، ويمكن القول: إن معظم قصص القرآن يُقصد به العظة والاعتبار من باب: إما قياس الطرد وإما قياس العكس، فما يحيق بالمشركين وبمخالفي الرسل هو جزاء كل من جاء بمثل فعلهم، أما من جاء بعكس فعلهم فله عكس جزائهم.

ولذلك حينما يورد القرآن قصص الفساد الأخلاقي لدى الأمم السابقة، يقرن ذلك بما تلاه من جزاء ومصير ناله المفسدون، ويصدّر ذلك بطلب النظر والتأمل في التلازم بين

الذنب والعقاب للاعتبار والتخويف. يقول تعالى عقب قصة قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأعراف: ٨٤).

ويعقّب القرآن على قصة ثمود بالترهيب من جزاء من يفعل السيئات مثلهم، وبالترغيب في ثواب من آمن واتقى من قوم صالح. قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (النمل: ٥١-٥٣).

٥ - الحجة والإقناع، وذلك بإيراد القصة المناسبة للموقف بما تتضمنه من حوار تبرز فيه دعاوى المخالفين القدامى ضد أنبيائهم، ثم تأتي ردود الأنبياء الإقناعية وكأنها ردود من النبي محمد ﷺ على قومه، أو ردود من كل داعية إلى الإسلام على مخالفيه في كل زمان ومكان، من ذلك مثلا الحوار الذي جرى بين نوح وقومه. قال تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (هود: ٣١).

٦ - إظهار قدرة الله المطلقة، وذلك في باب الخلق من عدم كقصة خلق آدم، أو الخلق من أم بلا أب كقصة مريم وابنها المسيح عيسى، أو إثبات القدرة على إحياء الموتى كقصة إبراهيم مع الطير، أو البعث والنشور كقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه.

الوجه الحادي عشر: القصص الذي انفرد به القرآن.

يعد هذا الدليل من أبرز أدلة (نقد النص) وأهمها في بيان تهافت دعوى تكرار القرآن لقصص التوراة والإنجيل، بسبب كون المصدر المزعوم الإفادة منه يفتقد مادة المرويات القصصية ويجهل كل شيء عنها، وذلك في حالة القصص الكاملة التي انفرد بها القرآن، ويزيد الأمر قوة في الإثبات والإفحام عندما تتعلق المرويات ببعض التفاصيل الدقيقة التي أتى بها القرآن في القصص المتناظرة مما لم تذكره كتب العهدين.

ومن القصص الذي انفرد به القرآن ما يلي: -

أ - القصص الكاملة مثل قصص: صالح، هود، شعيب، الخضر، ذي القرنين.

ب - تفاصيل دقيقة في القصص المتناظر انفرد بها القرآن أو خالف فيها كتب التوراة والإنجيل مثل:

١ - ما جاء في القرآن الكريم من أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وامتناع إبليس عن هذا السجود.

٢ - ما ورد في القرآن الكريم من قصص الخليل ﷺ مع قومه وتحطيمه لأصنامهم ونظرته في النجوم، وحجاجه مع قومه، ومحاولتهم إحراقه في النار، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله الحرام، واشتراكه هو وابنه إسماعيل في رفع القواعد من البيت وبناء الكعبة.

٣ - ما قصه علينا القرآن الكريم من محاورة بين نوح وابنه الكافر، وعدم ركوب هذا في السفينة وغرقه، ومحاورة نوح مع الله في ذلك.

٤ - ما قصه علينا القرآن الكريم من تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف، وحديث النسوة ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن.

٥ - ما قصه القرآن الكريم عن خبرة سحرة فرعون والتقام العصا التي انقلبت حية لحبالهم وعصيهم وسجودهم وإيمانهم برب هارون وموسى، ومحاورتهم مع فرعون.

٦ - الشخص الثاني الذي أراد سيدنا موسى ﷺ أن يبطش به من عدوه، في حين أن العهد القديم يدعي أن هذا الشخص عبراني.

٧ - السامري الذي صنع العجل لبني إسرائيل في حين أن التوراة تذكر أنه هارون ﷺ.

٨ - ما قصه القرآن الكريم عن الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، ودافع عن موسى حين هموا بقتله، وذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى فنصح موسى بالخروج من أرض مصر.

٩ - القرآن الكريم يذكر أن بنات الشيخ المديني اثنتان، في حين أن التوراة تذكر أنهن سبع.

١٠ – ما ورد في القرآن الكريم من محاورة بين فرعون وهامان لأجل بناء صرح ليطلع إلى إله موسى.

١١ – ما جاء في القرآن الكريم من خبر أمر موسى قومه بذبح بقرة ومحاورته معهم.

١٢ – أمر الله لقوم موسى بدخول الباب سجدًا ومخالفتهم لهذا الأمر.

١٣ – قصة أصحاب السبت ومسخهم قردة بعد أن اعتدوا فيه.

١٤ – ما قصه القرآن الكريم من تسخير الله الشجر والطير والحديد لداود عليه السلام.

١٥ – تسخير الجن والريح لسليمان عليه السلام.

١٦ – قصة الهدهد، وكتاب سليمان لملكة سبأ وإسلامها وإحضار عرشها بلمح البصر من قبل الذي عنده علم الكتاب.

١٧ – كلام عيسى عليه السلام في المهد.

١٨ – صنع عيسى من الطين كهيئة الطير وصيرورته طيرًا بإذن الله.

١٩ – قصة المائدة(١).

الوجه الثاني عشر: نتائج المقارنة بين القصص المتناظر في القرآن والتوراة والإنجيل.

لا شك أن المقابلة بين نصوص القصص القرآني ونصوص القصص في التوراة والإنجيل تُعَدُّ معيارًا موضوعيًّا في بيان تهافت مزاعم الجدليات التنصيرية بتكرار القصص القرآني لقصص العهد القديم والجديد، وذلك لما يكشف عنه هذا المنهج المقارن للنصوص من اختلافات وفوارق تفصيلية وجوهرية بين متون القصص في الكتب الثلاثة، مما يحسم بشكل جليّ وقاطع أمر الاقتباس والمتابعة، وذلك في ضوء الاعتبارات التالية: قصة هابيل وقابيل ابني آدم، قصة الطوفان، قصة يوسف، بشارة زكريا ب "يحيى"(٢).

الوجه الثالث عشر: العهد القديم لم يكن مترجما إلى اللغة العربية قبل الإسلام.

---

(١) أباطيل الخصوم حول القصص القرآني لعبد الجواد المحص، صـ ٤٦ – ٤٨.

(٢) انظر شبهة قصة ابني آدم، قصة يوسف في هذه الموسوعة.

وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم، فهذا (جوتين) يقول عن صحائف اليهود (إن تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية) وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي، وكانت بأحرف عبرية[(١)].

كيف إذن أخذ النبي ﷺ منها، لابد على المستشرقين أن يفتروا كذبة جديدة، وهي أن النبي ﷺ درس لغة التوراة فكان يترجمها للقرآن؟! !. [(٢)]

الوجه الرابع عشر: لو كان محمد ﷺ ينقل كتابه من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده.

ومن لطائف الاستدلال على أنه لم ينقل من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول أن دلالته على إعجاز القرآن، وأنه من الله تعالى من ناحية الارتجال، فنزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين، أو من كتب السابقين[(٣)]، فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده، وينظر ماذا تقول في هذه المسألة ثم يجيب، ولكن النبي ﷺ لم يكن يفعل، بل يسأله الرجل فيعطيه الجواب الموافق للصواب، الذي لم يكن قرأه ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها، وقد ذكرت في مبحث أدلة صدق النبي وقائع كثيرة تدل على هذا المعنى.

الوجه الخامس عشر: التحدي أن يأتي بمثله:

من أوضح الأدلة على رد دعوى النقل من غيره التحدي أن يأتي بمثله.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣)[(٤)].

الوجه السادس عشر: هذه الأصول المأخوذة من التوراة والإنجيل والكتب السابقة التي يزعمون أن محمدًا ﷺ قد نقل عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى

---

(١) دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه د. جوتين، نقلا عن كتاب الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لمحمود ماضي صـ: ١٤٧.

(٢) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري ص- ٢٢٣المطلب الثاني: نقله من غيره، والرد عليهم.

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥٠).

(٤) انظر بحث إعجاز القرآن، وشبهة تأليف القرآن

الناس بشيء موجود؟

لو كان القرآن مأخوذًا من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، لما استطاع محمد ﷺ أن يتحدى الناس ويقدم على هذا الخطأ الفادح؛ لأن هذه الأصول المنقول عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود، ألا يخشى أن يقوم بعض الناس بالرجوع إلى مراجعه والعمل مثل عمله، فينكشف؟.

ثم هذه الأساطير والمراجع ليست خاصة بمحمد ﷺ، بل هي كتب متداولة بيد الجميع، فلماذا لا تحضرون لنا هذه الكتب التي نقل منها؟.

وعلى فرض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛ لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات[1].

الوجه السابع عشر: القرآن لم يأت لهدم كل شيء؛ بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق.

إن وجود بعض الشرائع في القرآن، التي تتفق مع ما في التوراة والإنجيل، أو حتى ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها، فالقرآن لم يأت لهدم كل شيء؛ بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق، فالصدق والشجاعة والكرم والحلم والرحمة والعزة كل هذه المعاني موجودة عند كفار مكة ومع هذا جاء الإسلام ولم يغير منها شيئا بل باركها وحث عليها، لذلك قال النبي ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ"[2]، ولم يقل: لأنشئها؛ إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل، أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآن بعض الشرائع، سواء في الكتب السابقة السماوية، أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره، وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ

(١) الرد على الطاعنين ص-٢٢٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٨١عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩).

ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ٣٧).

الوجه الثامن عشر: الطعن في القرآن طعن في التوراة والإنجيل إن صح القول بالاقتباس.

إذا كان القرآن مأخوذ من التوراة والإنجيل فلماذا هذا الطعن في كتاب مأخوذ منهما؟ ولماذا إذن هذه الحرب الشعواء عليه؟ أليس حقيقة هذا الأمر أنه طعن في الأصل المأخوذ منه؟.

أم أن هؤلاء الطاعنين علموا في قرارة أنفسهم أنه كتاب عظيم منزل من الله تعالى، وأنه ناسخ للشرائع السابقة؛ فهالهم هذا الأمر وحاولوا تنفير الناس منه بأي طريق، فأخذوا يتكلمون بأي كلام، لا لشيء إلا بغضا لهذا الكتاب، فجرفهم الحماس حتى قالوا كلاما طعنوا به في التوراة والإنجيل -التي يدينون بها- وهم لا يشعرون(١).

لقد شهد المنصفون من المستشرقين بضد ذلك:

يقول المستشرق الإنجليزي لايتنر: (بقدر ما أعرف من دِينَي اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا، بل قد أوحى إليه ربه، ولا ريب بذلك).

ويقول هنري دي كاستري: (ثبت إذن أن محمدا لم يقرأ كتابا مقدسا، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه). (٢)

الوجه التاسع عشر: مثال أخير فيما ذكره القرآن وما ذكرته التوراة والإنجيل عن عصمة الأنبياء، والبون الشاسع بينهما.

فصفات الأنبياء في القرآن: أنهم معصومون، أما في الكتاب المقدس فلهم رذائل لم يتوبوا منها:

نوح عليه السلام في التوراة: فقد تحدثت التوراة عن سكر نوح وتعريه داخل خبائه فأبصره ابنه الصغير حام، وأخبر أخويه بما رأى فجاءا بظهريهما وسترا أباهما، فلما أفاق من سكرته وعرف ما فعل ابنه حام الصغير قال: "ملعون كنعان (ابن الجاني حام)، عبد العبيد يكون لإخوته... وليكن كنعان عبدًا لهم".

فبدلًا من أن يوجه ابنه الصغير للتصرف الصحيح مع الوالد حين سكره وعربدته، صب لعناته على كنعان ابن حام، كنعان الذي لعله لم يخلق بعد، فما ذنب هذا! بل وما ذنب أبيه الذي

---

(١) الرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري ص-٢٢٨.

(٢) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده ص-١٤٩. نقلًا من الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري ص- ٢٢٨ المطلب الثاني: نقله من غيره، والرد عليهم.

لم يكن ليستحق هذا كله؟ وماذا عن الأب الذي شرب الخمر. ما الذي يستحقه؟ ؟

لوط عليه السلام: وأما لوط عليه السلام النبي الذي حارب الشذوذ، فتذكر التوراة أنه لما أهلك الله قومه لجأ إلى مغارة مع ابنتيه فسقتاه الخمر، وضاجعتاه ولم يعلم بذلك، وولد من هاتين الفاحشتين عمي ومؤاب، ومنهما انحدر العمويون والمؤابيون أعداء بني إسرائيل، كما في (التكوين ١٩: ٣٠ - ٣٧).

ويذكر السفر تبريرًا لهذه الفاحشة أن الكبيرة منهما قالت لأختها: " أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. . . . نحيي من أبينا نسلًا " (التكوين ١٩: ٣١ - ٣٢) فيصور النص الأرض وقد خلت من الرجال، أو أن المغارة سيمكث فيها لوط وابنتاه إلى الأبد.

موسى وهارون عليهما السلام: كما تسيء التوراة إلى موسى أعظم أنبياء بني إسرائيل، وتذكر كلمات لا يمكن أن تصدر من موسى لما فيها من إساءة أدب مع الله، منها: " فقال موسى للرب: لماذا أسأت إلى عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب علي؟ ألعلي حبلت بجميع هذا الشعب؟ أو لعلي ولدته. . فإن كنت تفعل بي هكذا فاقتلني قتلًا، إن وجدتُ نعمة في عينيك فلا أرى بليتي " (العدد ١١: ١٠ - ١٥)، فهل يتحدث عبد مع ربه بمثل هذا؟.

سليمان عليه السلام: وحين يذكر اليهود سليمان عليه السلام، يذكره كثير منهم، على أنه ملك أو ساحر، كما في جرأة اليهود على رسول الله ﷺ بقولهم (ألا تعجبون لمحمد يزعم أن سليمان بن داود كان نبيًا! والله ما كان إلا ساحرًا) كما في بعض نصوص التوراة[(١)].

قال ابن تيمية: فإن كثيرًا من اليهود والنصارى يطعنون فيه منهم من يقول: كان ساحرًا وأنه سحر الجن بسحره، ومنهم من يقول سقط عن درجة النبوة فيجعلونه حكيمًا لا نبيًا. [(٢)]

قال ابن كثير: وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان. [(٣)]

وذمهم الله باتباعهم السحر ثم نسبته إلى نبي الله سليمان عليه السلام، واختلف هل المذموم اليهود

(١) انظر: القران والتوراة حسن الباش ١/ ٣٤٠.

(٢) الجواب الصحيح ٣/ ٣٨.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٦٠).

الذين كانوا على عهد سليمان ﷺ، أم المعاصرين لنبينا ﷺ، والصواب أنه للجميع؛ "لأن المتبعة ما تلته الشياطين في عهد سليمان ﷺ وبعده إلى أن بعث الله نبيه ﷺ بالحق وأمر السحر لم يزل في اليهود. وكل متبع ما تلته الشياطين على عهد سليمان من اليهود داخل في معنى الآية. "(١)

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (البقرة: ١٠٢).

فقد جعلته التوراة عابدًا لأصنام نسائه اللاتي بلغن ألفًا، كما بنى المعابد لعبادتها، فغضب عليه الرب وسخط، تقول التوراة: "وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. ٤وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. ٥فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. ٦وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ. ٧حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ. ٨وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ. ٩فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. " (الملوك (١) ١١: ٣-١١). (٢)

* * *

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٤٨ باختصار.

(٢) الأنبياء في التوراة١/ ١٤، وانظر تفصيل ذلك في محله.

١٨ـ شبهة: الناسخ والمنسوخ.

نص الشبهة:

اعترضوا على مسألة الناسخ والمنسوخ خاصةً في القرآن الكريم، وانقسموا إلى فريقين: قسم أنكره، وقسم أثبته، وكلٌّ له غرضه:

الأول: وَهم الذين أنكروه وهم يحاولون بزعمهم أن يثبتوا هذه الدعوى، ويقولون بأن النسخ في القرآن يتعارض مع بعض آياته مثل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ (فصلت٤٢)، بزعمهم أن النسخ من الباطل، وأيضًا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر٩).

كيف يُحفظ مع أنه يقول في آية النسخ ﴿أَوْ نُنسِهَا ﴾.

ويقولون: أن النسخ يدل على إثبات البداء لله، وهو مستحيل عليه؛ لأنه يستلزم الجهل والعبث، وأن النسخ شيء استخدمه النبي ﷺ والصحابة للخروج من مأزق التناقض في القرآن، وغير ذلك من الافتراءات، ويزعمون بأن النسخ لا يوجد إلا في شريعة النبي ﷺ، ولم يكن موجودًا قبل ذلك، وأن الكتاب المقدس لا يوجد فيه شيء من ذلك، ويحاولون أن يتمسكوا بهذه الأكاذيب التي نسبوها إلى أنبياء الله حيث يقولون: إن موسى عليه السلام أخبر أن شريعته لا تُنسخ حيث إنه قال لهم: "هذه شريعة مؤبدة ما دامت السماوات والأرض"، وأن عيسى عليه السلام قال: "السماء والأرض تزولان وكلامي لا يزول"، وهم بذلك يريدون أن يثبتوا أن النسخ من مساوئ هذه الشريعة، وهو يدل على عدم حفظ القرآن.

الثاني: وهم الذين أثبتوه، وكان لهم غرض آخر، فقد أثبتوا النسخ في القرآن، واتخذوا ذلك ذريعة للقول بالبداء على الله تعالى، ووصفوه بالجهل والعبث في أحكامه تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: مقدمة حول الناسخ والمنسوخ.

وهي تشتمل على هذه المباحث:

المبحث الأول: تعريف النسخ.

المبحث الثاني: أدلة وقوع النسخ.

المبحث الثالث: أهمية علم الناسخ والمنسوخ.

المبحث الرابع: الحكمة من النسخ.

المبحث الخامس: شروط النسخ.

المبحث السادس: معرفة تقدم الناسخ والمنسوخ.

المبحث السابع: الأشياء التي يدخلها النسخ والتي لا يدخلها.

المبحث الثامن: أنواع النسخ في القرآن.

المبحث التاسع: أنواع الناسخ.

المبحث العاشر: النسخ بالإجماع والقياس.

المبحث الحادي عشر: الفرق بين النسخ والبداء.

الوجه الثاني: الرد على الشبهات المتعلقة بالناسخ والمنسوخ.

الوجه الثالث: الناسخ والمنسوخ في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: مقدمة حول الناسخ والمنسوخ

تشتمل هذه المقدمة على بعض المباحث المتعلقة بالناسخ والمنسوخ وهي:

المبحث الأول: تعريف النسخ:

أولًا: تعريف النسخ لغةً

نسخ الشيءَ ينسَخُه نَسْخًا وانتسَخَه واستنسَخَه: اكتتبه عن معارضه.

التهذيب: النَّسْخ اكتتابك كتابًا عن كتاب حرفًا بحرف.

والنَّسْخ إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه. وفي التنزيل ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ والآية الثانية ناسخة والأُولى منسوخة.

قال ابن الأعرابي: النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره، ونَسْخ الآية بالآية: إِزالة مثل حكمها، والنسخ نقل الشيء من مكان إِلى مكان وهو هو. . . ، الفرّاء وأَبو سعيد: مَسَخه الله قردًا ونسخه قردًا بمعنى واحد. ونسخ الشيء بالشيء ينسَخه وانتسخه أَزاله به وأَداله، والشيء ينسخ الشيء نَسْخًا أَي يزيله ويكون مكانه(١).

قال الليث: النسْخ أَن تزايل أَمرًا كان من قبلُ يُعْمَل به ثم تنسخه بحادث غيره.

قال الفرّاء: النسخ أَن تعمل بالآية ثم تنزل آية أُخرى فتعمل بها وتترك الأُولى(٢).

وعلى هذا فيطلق في اللغة على معنيين:

المعنى الأول: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، فتارة يفهم منه الإزالة وتارة يفهم منه الإثبات قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ والعرب تقول نسخت الشمس الظل: أي أذهبت الظل وحلت محله.

المعنى الثاني: نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو، وفي التنزيل قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، والنسخ اكتتاب كتاب عن كتاب حرفًا بحرف والأصل نسخة والمكتوب عنه نسخة؛ لأنه قام مقامه. (٣)

ثانيًا: تعريف النسخ شرعًا:

أولًا: تعريف النسخ في اصطلاح المتقدمين.

لم يكن النسخ عند السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم – على وجه التقريب- مميزاً عن غيره من أساليب البيان، فقد كانوا يطلقون النسخ على تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتفصيل المجمل، وإيضاح المبهم، ونحو ذلك كما كانوا يطلقونه على النسخ بمعناه المعروف عند الأصوليين، بعد تحديد المصطلحات العلمية، ولقد سجل العلماء ذلك:

---

(١) لسان العرب (٣/ ٦١).

(٢) لسان العرب (٦/ ٤٤٠٧)، وانظر العين (١/ ٣٠٨)، تهذيب اللغة(٧/ ١٨٢: ١٨١).

(٣) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٤٤)، روضة الناظر (١/ ٢١٨)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ١٠١).

قال ابن تيمية: والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف العام كل ظاهر تُرك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق. (١)

وقال أيضًا: إن لفظ النسخ مجمل، فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه من عموم أو إطلاق أو غير ذلك. (٢)

قال ابن القيم: ومراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ رفع الحكم بجملته تارة وهو اصطلاح المتأخرين، ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة؛ إما بتخصيص أو تقييد أو حمل مطلق على مقيد وتفسيره وتبيينه، حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ؛ بل بأمر خارج عنه ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر. (٣)

قال الشاطبي: وذلك أن الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين، فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخًا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخًا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخًا كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخًا؛ لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرًا، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به.

وهذا المعنى جار في تقييد المطلق؛ فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده فلا إعمال له في إطلاقه؛ بل المعمل هو المقيد فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئًا فصار مثل الناسخ والمنسوخ، وكذلك العام مع الخاص إذ كان ظاهر العام يقتضي شمول الحكم لجميع ما يتناوله اللفظ فلما جاء الخاص أخرج حكم ظاهر العام عن الاعتبار فأشبه الناسخ المنسوخ

(١) مجموع الفتاوى(١٣/ ٢٧٢).

(٢) المصدر السابق (١٤/ ١٠١).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٣٥).

إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة، وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص وبقي السائر على الحكم الأول والمبين مع المبهم كالمقيد مع المطلق فلما كان كذلك استسهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها إلى شيء واحد. (١)

ثانيًا: تعريف النسخ في اصطلاح الأصوليين

اختلفت عبارات الأصوليين في تعريف النسخ، (٢) ومن أهمها: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر (متراخ) عنه. (٣)

قال الزرقاني: وإني أوجه نظرك في هذا التعريف إلى نقاط أربع:

أولاها: أن التعبير برفع الحكم يفيد أن النسخ لا يمكن أن يتحقق إلا بأمرين:

أحدهما: أن يكون هذا الدليل الشرعي متراخيًا عن دليل ذلك الحكم الشرعي المرفوع، والآخر: أن يكون بين هذين الدليلين تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما وإعمالهما معًا، أما إذا انتفى الأمر الأول ولم يكن ذلك الدليل الشرعي متراخيًا عن دليل الحكم الأول فلا نسخ وذلك كقوله تعالى: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، فإن الغاية المذكورة وهي قوله ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ تفيد انتهاء حكم الصوم وهو وجوب إتمامه بمجرد دخول الليل، ولكن لا يقال لهذه الغاية الدالة على انتهاء هذا الحكم إنها نسخ وذلك لاتصالها بدليل الحكم الأول، وهو قوله ثم أتموا الصيام بل تعتبر الغاية المذكورة بيانًا أو إتمامًا لمعنى الكلام وتقديرًا له بمدة أو شرط فلا يكون رافعًا، وإنما يكون رافعا إذا ورد الدليل الثاني بعد أن ورد الحكم مطلقًا واستقر من غير تقييد بحيث يدوم لولا الناسخ ولهذا زاد بعضهم تقييد الدليل الشرعي في تعريف الناسخ بالتراخي وزاد بعضهم كلمة

---

(١) الموافقات (٣/ ١٠٨).

(٢) تراجع هذه التعريفات في النسخ والمفارقة بينها في النسخ في القرآن الكريم مصطفى زيد (١/ ١١٧: ٦١)، مقدمة الناسخ والمنسوخ للنحاس دراسة وتحقيق سليمان بن إبراهيم (١/ ١١٤: ١٠٧)، مقدمات النسخ د/ أسامة عبد العظيم.

(٣) شرح مختصر ابن الحاجب للأصفهاني(٢/ ٤٨٩)، الموافقات (٣/ ١٠٧)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٢٦)، إرشاد الفحول(١٨٥)، روضة الناظر (١/ ٢١٩)، منا هل العرفان (٢/ ١٤٧).

على وجهٍ لولاه لكان الحكم الأول ثابتًا، وقد علمت من هذا الذي ذكرناه أنه لا حاجة إلى هاتين الزيادتين بل هما تصريح بما علم من التعبير في التعريف بكلمة رفع.

وأما إذا انتفى الأمر الثاني بأن لم يكن بين الدليلين تعارض حقيقي فإنه لا نسخ؛ لأن النسخ ضرورة لا يصار إليها إلا إذا اقتضاها التعارض الحقيقي، دفعًا للتناقض في تشريع الحكيم العليم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحيث لا تعارض هناك على الحقيقة فلا حاجة إلى النسخ؛ لأنه لا تناقض. ولا ريب أن إعمال الدليلين ولو بنوع تأويل خير من إعمال دليل وإهدار آخر.

ثانيتها: أن التعريف المذكور يفيد أن النسخ لا يتوجه إلا إلى الحكم وهو كذلك في الواقع ونفس الأمر، وتقسيمهم النسخ إلى نسخ تلاوة ونسخ حكم تقسيم صوري للإيضاح فحسب؛ لأن ما أسموه نسخ تلاوة لم يخرج عن كونه نسخ حكم إذ إن نسخ تلاوة الآية لا معنى له في الحقيقة إلا نسخ حكم من أحكامها، وهو رفع الإثابة على مجرد ترتيلها وصحة الصلاة بها ونحوهما.

ثالثتها: أن هذا التعريف يشمل النسخ الواقع في الكتاب وفي السنة جميعًا، سواء أكانت السنة قولية أم فعلية أو وصفية أم تقريرية، وسواء منها ما كان نبويًا وما كان قدسيًا؛ لأنها كلها وحي بالفعل أو بالقوة، والرسول أقامه الله في محراب الإمامة لخلقه، وجعله الأسوة الحسنة لعباده، وأمر الجميع باتباعه، فهو إذن لا يمكن أن يصدر فيما يشرع لأمته ابتداء أو نسخًا إلا عن إيحاء الله إليه تصريحًا أو تقريرًا.

رابعتها: أن الإضافة في كلمة رفع الحكم الشرعي الواردة في تعريف النسخ من قبيل إضافة المصدر لمفعوله والفاعل مضمر وهو الله تعالى وذلك يرشد إلى أن الناسخ في الحقيقة هو الله كما يدل عليه قوله سبحانه ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦)، ويرشد أيضًا إلى أن المنسوخ في الحقيقة هو الحكم المرتفع، وقد يطلق الناسخ على الحكم الرافع، فيقال: وجوب صوم رمضان نسخ وجوب صوم عاشوراء. وقد يطلق النسخ على دليله

كذلك، فيقال: آية المواريث نسخت آية الوصية للوالدين، ويقال: خبر أكل الرسول من الشاة ولم يتوضأ ناسخ لخبر وضوئه مما مست النار وهلم جرا، والخطب في ذلك جد يسير.

ما لا بد منه في النسخ:

ولعلك تدرك مما سبق أنه لا بد في تحقق النسخ من أمور أربعة:

أولها: أن يكون المنسوخ حكمًا شرعيًا.

ثانيها: أن يكون دليل رفع الحكم دليلًا شرعيًا.

ثالثها: أن يكون هذا الدليل الرافع متراخيًا عن دليل الحكم الأول غير متصل به كاتصال القيد بالمقيد والتأقيت بالمؤقت.

رابعها: أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقي.[1]

المبحث الثاني: أدلة وقوع النسخ:

أولًا: الدليل من القرآن

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (البقرة: ١٠٦). ووجه الدلالة: أن الله تعالى بين أنه سبحانه إذا نسخ آية أورد مكانها آية أخرى، وكلام الله صدق.

الدليل الثاني: قال تعالى ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (النحل ١٠١).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكمًا آخر، والله أعلم بما ينزل يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه، قالوا: إنما أنت مفتر يقول: قال المشركون بالله، المكذبون لرسوله ﷺ لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر: أي مكذب تخرص بتقوّل الباطل على الله، يقول الله تعالى بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر جهال، بأنّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقة صحته[1].

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٥٠: ١٤٨).

قال الرازي: والتبديل يشتمل على رفع وإثبات، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم، فكيف كان فهو رفع ونسخ[٢].

الدليل الثالث: قال تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾ (الرعد: ٣٩).

قال السعدي: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه؛ فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.[٣]

الدليل الرابع: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)﴾ (النساء: ١٦٠)، ووجه الدلالة فيها أنها تفيد تحريم ما أحل من قبل وما ذلك إلا نسخ، وكلمة ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يفهم منها أن الحكم الأول كان حكمًا شرعيًا لا براءة أصلية[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٧٦).

(٢) تفسير الرازي(٣/ ٢٣٠).

(٣) تفسير السعدي (٤٢٠: ٤١٩).

(٤) مناهل العرفان(٢/ ١٦١).

الدليل الخامس: الآيات الواردة في القرآن الكريم الدالة على وقوعه ومن هذه الآيات:

١- نسخ وجوب التربص حولًا كاملًا عن المتوفي عنها زوجها بالتربص أربعة أشهر وعشرًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، ثم قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة٢٣٤).

٢- نسخ وجوب ثبات الواحد للعشرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأنفال: ٦٥).

نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الأنفال: ٦٦)، والأمثلة في ذلك كثيرة.

ثانيًا: الدليل من السنة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﷺ أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ، وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ، وَذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ لاَ أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾[(١)].

قال ابن حجر: قوله: (وقد قال الله تعالى. . الخ)، هو مقول عمر محتجًا به على أبي بن كعب ومشيرًا إلى أنه ربما قرأ ما نسخت تلاوته لكونه لم يبلغه النسخ، واحتج عمر لجواز وقوع ذلك بهذه الآية. وقال: واستُدل بالآية المذكورة على وقوع النسخ خلافًا لمن شذ فمنعه[(٢)].

ثالثا: الدليل من الإجماع:

أجمع المسلمون على جواز النسخ. [(١)]

(١) البخاري (٤٤٨١)

(٢) فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٧).

قال ابن النجار: وَيَجُوزُ النَّسْخُ عَقْلًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الشَّرَائِعِ. (٢)

قال الآمدي: وقد اتفق أهل الشرائع على جواز النسخ عقلًا، وعلى وقوعه شرعًا. (٣)

قال ابن الجوزي: اتفق جمهور علماء الأمم على جواز النسخ عقلًا وشرعًا.

وقال أيضًا: انعقد إجماع العلماء على هذا (إثبات أن في القرآن منسوخًا) إلا أنه قد شذ من لا يُلتفت إليه، فحكى أبو جعفر النحاس أن قومًا قالوا: ليس في القرآن ناسخ ولا منسوخ، وهؤلاء قوم لا يُقرون؛ لأنهم خالفوا نص الكتاب وإجماع الأمة. (٤)

قال ابن كثير: والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحِكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه. وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله هذا ضعيف مردود مرذول. (٥)

قال الشوكاني: النسخ جائز عقلًا، واقع سمعًا بلا خلاف في ذلك بين المسلمين إلا ما يُروى عن أبي مسلم الأصفهاني فإنه قال: إنه جائز غير واقع، وإذا صح هذا عنه فهو دليل على أنه جاهل بهذه الشريعة المحمدية جهلًا فظيعًا، وأعجب من جهله بها حكاية من حكى عنه الخلاف في كتب الشريعة؛ فإنه إنما يعتد بخلاف المجتهدين لا بخلاف من بلغ في الجهل إلى هذه الغاية. (٦)

هذا وقد نقل كثير من أهل العلم الإجماع على ذلك. (٧)

رابعًا: أدلة وقوعه عقلًا:

---

(١) الإبهاج (٥/ ١٦٣٧).

(٢) شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٣٣).

(٣) الأحكام للآمدي (٣/ ١٠٦).

(٤) نواسخ القرآن (٧٨).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤).

(٦) إرشاد الفحول (١٨٥).

(٧) روضة الناظر (١/ ٢١٦)، المحصول (٣/ ٤٤١)، لباب المحصول (١/ ٢٦٧)، تفسير القرطبي (٢/ ٥٦)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٠)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٦٠).

الدليل الأول: الله تعالى له أن يفعل ما يشاء كما يشاء، وأيضًا اختلاف المصالح باختلاف الأزمنة؛ فلا يكون النسخ ممتنعًا.

قال الآمدي: والدليل على الجواز العقلي؛ العقل والسمع. أما العقل؛ فهو أن المخالف لا يخلو إما أن يكون ممن يوافق على أن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء كما يشاء من غير نظر إلى حكمة وغرض، وإما أن يكون ممن يعتبر الحكمة والغرض في أفعاله تعالى؛ فإن كان الأول، فلا يمتنع عليه تعالى أن يأمر بالفعل في وقت، وينهى عنه في وقت، كما أمر بالصيام في نهار رمضان، ونهى عنه في يوم العيد؛ وإن كان الثاني، فمع بطلانه على ما عرفناه في كتب الكلام، فلا يمتنع أن يعلم الله استلزام الأمر بالفعل في وقتٍ معين للمصلحة، واستلزام النهي عنه للمصلحة في وقت آخر، فإنّ المصالح مما يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال حتى إن مصلحة بعض الأشخاص في الغنى أو الصحة أو التكليف، ومصلحة الآخر في نقيضه؛ فكذلك جاز أن تختلف المصلحة باختلاف الأزمان، حتى أن مصلحة بعض أهل الأزمان في المداراة والمساهلة، ومصلحة أهل زمان آخر في الشدة والغلظة عليهم، إلى غير ذلك من الأحوال.

وإذا عرف جواز اختلاف المصلحة باختلاف الأزمان، فلا يمتنع أن يأمر الله تعالى المكلف بالفعل في زمان لعلمه بمصلحته فيه، وينهاه عنه في زمن آخر لعلمه بمصلحته فيه، كما يفعل الطبيب بالمريض، حيث يأمره باستعمال دواء خاص في بعض الأزمنة، وينهاه عنه في زمن آخر بسبب اختلاف مصلحته عند اختلاف مزاجه، وكما يفعل الوالد بولده من التأديب له وضربه في زمان، واللين له والرفق به في زمان آخر على حسب ما يتراءى له من المصلحة. ولهذا خص الشارع كل زمان بعبادة غير عبادة الزمن الآخر، كأوقات الصلوات والحج والصيام، ولولا اختلاف المصالح باختلاف الأزمنة لما كان كذلك.

ومع جواز اختلاف المصالح باختلاف الأزمنة لا يكون النسخ ممتنعًا[1].

الدليل الثاني:

---

(١) الأحكام للآمدي ٣/ ١٠٧، نواسخ القرآن ٨٠، مناهل العرفان ٢/ ١٥٨.

وهو دليل إلزامي للمنكرين أن النسخ لو لم يكن جائزًا عقلًا وواقعًا سمعًا، لما جوزوا أن يأمر الشارع عباده بأمر مؤقت ينتهي بانتهاء وقته لكنهم يجوزون هذا عقلا ويقولون بوقوعه سمعا؛ فليجوزوا هذا؛ لأنه لا معنى للنسخ إلا انتهاء الحكم الأول لميقات معلوم عند الله بيد أنه لم يكن معلوما لنا من قبل ثم أعلمنا الله إياه بالنسخ وهذا ليس بفارق مؤثر.

فقول الشارع مثلًا أول يوم من رمضان صوموا إلى نهاية هذا الشهر مساوٍ لأن يقول أول يوم من رمضان صوموا من غير تقييد بغاية حتى إذا ما انتهى شهر رمضان قال: أول يوم من شوال أفطروا، وهذا الأخير نسخ لا ريب فيه وقد جوز منكروه المثال الأول فليجوزوا هذا المثال الثاني؛ لأنه مساويه والمتساويات يجب أن يتحد حكمهما وإلا لما كانا متساويين[1].

الدليل الثالث:

أن الدلالة القاطعة دلت على نبوة محمد ﷺ، ونبوته لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله فوجب القطع بالنسخ.

قال الزرقاني: إن النسخ لو لم يكن جائزًا عقلًا وواقعًا سمعًا لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي يطول شرحها؛ إذن فالشرائع السابقة ليست باقية؛ بل هي منسوخة بهذه الشريعة الختامية، وإذن فالنسخ جائز وواقع. أما ملازمة هذا الدليل فنبرهن عليها بأن نسخه لو لم يكن جائزًا وواقعًا؛ لكانت الشرائع الأولى باقية، ولو كانت باقية ما ثبتت رسالته إلى الناس كافة[2].

الدليل الرابع:

أنه لا يمتنع عقلًا أن يأمر الله بالشيء ثم ينسخ، سواء نسخ قبل الفعل، أو بعده للامتحان والابتلاء، فمن فعل الشيء قبل نسخه، أو عزم على فعله، أو استعد للامتثال، أو ظهرت عليه أي علامة تدل على استعداده لامتثال الأمر قبل أن ينسخ: فإنه يثاب[3].

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ١٥٨.

(٢) مناهل العرفان ٢/ ١٥٨.

(٣) المهذب في علم أصول الفقه ٢/ ٥٤٣.

قال ابن حزم: إن النفس إذا مرنت على أمر ألفته، فإذا نقلت عنه إلى غيره شق عليها لمكان الاعتياد المألوف، فظهر منها بإذعان الانقياد لطاعة الأمر(١).

الدليل الخامس:

أنه إذا جاز أن يخلق الله -تعالى- خلقا على صفة، ثم ينقله إلى صفة أخرى: مثل أن يخلقه طفلًا، ثم ينقله إلى الشباب، ثم إلى الكهولة، ثم إلى الشيخوخة، ثم إلى الموت من غير اختيار للعبد، ولم يكن ذلك قبيحًا في شرع ولا عقل، فوجب أن يجوز - هنا- أن يكلف الله خلقه بعبادة ثم ينقلهم عنها. (٢)

المبحث الثالث: أهمية علم الناسخ والمنسوخ.

قال ابن حزم: ثم اعلم أن هذا الفن من العلم من تتمات الاجتهاد؛ إذ الركن الأعظم في باب الاجتهاد معرفة النقل، ومن فوائد النقل معرفة الناسخ والمنسوخ؛ إذ الخطب في ظواهر الأخبار يسير، وتحمل كلفها غير عسير؛ وإنما الإشكال في كيفية استنباط الأحكام من خفايا النصوص، ومن التحقيق فيها معرفة أول الأمرين وآخرهما إلى غير ذلك من المعاني. (٣)

قال القرطبي: معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام. (٤)

وقد جمع الزرقاني فوائد علم الناسخ والمنسوخ، **فقال رحمه الله:**

لهذا المبحث أهمية خاصة وذلك من وجوه خمسة:

أولها: أنه طويل الذيل، كثير التفاريع، متشعب المسالك.

ثانيها: أنه تناول مسائل دقيقة كانت مثارًا لخلاف الباحثين من الأصوليين الأمر الذي يدعو إلى اليقظة والتدقيق، وإلى حسن الاختيار مع الإنصاف والتوفيق.

---

(١) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ص٨.

(٢) المهذب في علم أصول الفقه ٢/ ٥٤٣.

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ص٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٦٢.

ثالثها: أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين قد اتخذوا من النسخ في الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة، طعنوا بها في صدر الدين الحنيف، ونالوا من قدسية القرآن الكريم، ولقد أحكموا شراك شبهاتهم، واجتهدوا في ترويج مطاعنهم حتى سحروا عقول بعض المتسببين إلى العلم والدين من المسلمين؛ فجحدوا وقوع النسخ وهو واقع، وأمعنوا في هذا الجحود الذي ركبوا له أخشن المراكب من تمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة.

رابعها: أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ بكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامي، ويُطلع الإنسان على حكمة الله في تربيته للخلق، وسياسته للبشر، وابتلائه للناس مما يدل دلالة واضحة على أن نفس محمد النبي الأمي لا يمكن أن تكون المصدر لمثل هذا القرآن، ولا المنبع لمثل هذا التشريع إنما هو تنزيل من حكيم حميد.

خامسها: أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام، وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام خصوصًا إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض بينها إلا بمعرفة سابقها من لاحقها، وناسخها من منسوخها؛ ولهذا كان سلفنا الصالح يعنون بهذه الناحية يحذقونها ويلفتون أنظار الناس إليها ويحملونهم عليها[1].

ولهذا فقد حذر السلف من تفسير القرآن إلا بعد معرفة الناسخ والمنسوخ.

قال ابن حزم: لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول في شيء من القرآن والسنة: هذا منسوخ إلا بيقين؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤)، وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (الأعراف: ٣)، فكل ما أنزل الله تعالى في القرآن أو على لسان نبيه ففرض اتباعه، فمن قال في شيء من ذلك إنه منسوخ؛ فقد أوجب ألا يطاع ذلك الأمر، وأسقط لزوم اتباعه، وهذه معصية لله تعالى مجردة، وخلاف مكشوف، إلا أن يقوم برهان على صحة قوله، وإلا فهو مفتر مبطل.

---
(١) مناهل العرفان ٢/ ١٤٦: ١٤٥.

ومن استجاز خلاف ما قلنا؛ فقوله يؤول إلى إبطال الشريعة كلها؛ لأنه لا فرق بين دعواه النسخ في آية ما أو حديث ما، وبين دعوى غيره النسخ في آية أخرى، وحديث آخر، فعلى هذا لا يصح شيء من القرآن والسنة، وهذا خروج عن الإسلام. وكل ما ثبت بيقين فلا يبطل بالظنون، ولا يجوز أن تسقط طاعة أمر أمرنا به الله تعالى ورسوله إلا بيقين نسخ لا شك فيه[1].

قال الزركشي: قال الأئمة ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ[2].

المبحث الرابع: الحكمة من النسخ.

أولًا: حكمة نسخ الشرائع السابقة بشريعة النبي ﷺ:

الحكمة الأولى: أن الأعمال البدنية إذا واظبوا عليها خلفًا عن سلف صارت كالعادة عند الخلق، وظنوا أن أعيانها مطلوبة لذاتها، ومنعهم ذلك من الوصول إلى المقصود، وهو معرفة الله وتمجيده، فإذا غُيِّر ذلك الطريق إلى نوع من الأنواع، وتبين أن المقصود من هذه الأعمال رعاية أحوال القلب والأرواح في المعرفة والمحبة انقطعت الأوهام عن الاشتغال عن تلك الصور والظواهر إلى علام السرائر.

الحكمة الثانية: أن الخلق طُبعوا على الملالة من الشيء، فوضع في كل عصر شريعة جديدة؛ لينشطوا في أدائها.

الحكمة الثالثة: بيان شرف نبينا ﷺ، فإنه نسخ بشريعته شرائعهم، وشريعته لا ناسخ لها.

الحكمة الرابعة: أن النوع الإنساني يتقلب كما يتقلب الطفل في أدوار مختلفة، ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه غير الحال التي تناسب دورًا غيره. فالبشر أول عهدهم بالوجود كانوا كالوليد أول عهده بالوجود سذاجة وبساطة وضعفًا وجهالةً ثم أخذوا يتحولون من هذا العهد رويدًا رويدًا، ومروا في هذا التحول أو مرت عليهم أعراض متباينة من ضآلة العقل وعماية الجهل وطيش الشباب وغشم القوة على تفاوت في ذلك

(١) الإحكام لابن حزم ٤/ ٤٨٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٩.

بينهم اقتضى وجود شرائع مختلفة لهم تبعا لهذا التفاوت، حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستوائه وربطت مدنيته بين أقطاره وشعوبه؛ جاء هذا الدين الحنيف ختامًا للأديان، ومتممًا للشرائع، وجامعا لعناصر الحيوية، ومصالح الإنسانية، ومرونة القواعد جمعا وَفَّق بين مطالب الروح والجسد، وآخى بين العلم والدين، ونظَّم علاقة الإنسان بالله وبالعالم كله من أفراد وأسر وجماعات وأمم وشعوب وحيوان ونبات وجماد مما جعله بحق دينًا عامًا خالدًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثانيًا: حكمة نسخ الأحكام التكليفية في الشريعة الإسلامية:

الحكمة الأولى: رحمة المكلفين والتخفيف عنهم.

قال الشافعي: وأنزل عليهم الكتاب تبيانًا لكل شئ وهدى ورحمة، وفرض فيهم فرائض أثبتها وأخرى نسخها؛ رحمة لخلقه بالتخفيف عنهم، وبالتوسعة عليهم زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم جنته، والنجاة من عذابه فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ فله الحمد على نعمه. (١)

الحكمة الثانية: حفظ مصالح العباد. (٢)

الحكمة الثالثة: التدرج في الأحكام على الأمة حتى لا تنفر ويسهل عليها تقبله.

كما حصل في الخمر فقد تدرج القرآن فيه على مراحل؛ أولاها: الإشارة إلى أنه ليس من الرزق الحسن، كما في قوله تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا. . . ﴾ (النحل: ٦٧)، والواو تقتضي المغايرة، ثم بيان أن فيه ضررًا وشرًا كبيرًا من غير التعرض لمنعه كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . ﴾ (البقرة: ٢١٩)، ثم تحريمه في أوقات الصلاة كما في قوله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟

---

(١) الرسالة ١/ ١٠٦.

(٢) إرشاد الفحول ١٨٥، الأصول في علم الأصول لابن العثيمين ٤٤، مقدمات النسخ د/ أسامة محمد عبد العظيم ٧٣.

مَا نَقُولُونَ . . ﴾ (النساء: ٤٣).

ثم تحريمه تحريمًا تامًا في كل الأوقات في سورة المائدة -التي هي من أواخر السور نزولا- في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (المائدة: ٩٠).

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فَنَزَلَتْ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ... ﴾، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فنَزَلَتْ الَّتِي فِي النِّسَاءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فَنَزَلَتْ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ .. ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا. ومثل الخمر في هذا الميسر والفاحشة.

عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَكٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِينِي مُصْحَفَكِ. قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ. قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا. وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ (القمر: ٤٦) وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ[1].

الحكمة الرابعة: كثرة الثواب وعظم الأجر.[2]

(١) دعاوي الطاعنين ص ٢٦٨: ٢٧٠، راجع شبهة الخمر في هذه الموسوعة، الأصول في علم الأصول لابن العثيمين ص٤٤، مقدمات النسخ ص٧٤.

(٢) إرشاد الفحول(١٨٥)، مقدمات النسخ د/ أسامة محمد عبد العظيم (٧٤).

قال الطبري: في تفسير قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾، ما نبدل من حكم آية فنغيره، أو نترك تبديله فنقره بحاله نأت بخير منها لكم من حكم الآية التي نسخنا فغيرنا حكمها، إما في العاجل لخفته عليكم من أجل أنه وضع فرض كان عليكم فأسقط ثقله عنكم، وذلك كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل ثم نسخ ذلك فوضع عنهم فكان ذلك خيرا لهم في عاجلهم لسقوط عبء ذلك وثقل حمله عنهم، وإما في الآجل لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله وثقل عبئه على الأبدان كالذي كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة فنسخ وفرض عليهم مكانه صوم شهر كامل في كل حول؛ فكان فرض صوم شهر كامل كل سنة أثقل على الأبدان من صيام أيام معدودات غير أن ذلك وإن كان كذلك فالثواب عليه أجزل، والأجر عليه أكثر؛ لفضل مشقته على مكلفيه من صوم أيام معدودات. فذلك وإن كان على الأبدان أشق فهو خير من الأول في الآجل؛ لفضل ثوابه وعظم أجره الذي لم يكن مثله لصوم الأيام المعدودات. (١)

الحكمة الخامسة: الاختبار وتثبيت المؤمنين. (٢)

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢) أي ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا؛ حكم لهم بثباتِ القَدَم في الدين، وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب(٣).

الحكمة السادسة: رعاية أحوال القلب.

وذلك أن الأعمال البدنية إذا تواطأ عليه الخلق خلفا عن سلف، صارت كالعادة عندهم، وظنوا أن أعيانها مطلوبة لذاتها، ومنعهم ذلك عن الوصول إلى المقصود من معرفة الله وتمجيده، فإذا غيرت بعض طرقها إلى نوع من الأنواع وتبين أن المقصود من هذه

---

(١) جامع البيان(١/ ٣٨٢).

(٢) معالم أصول الفقه(٢٥٤)، الأصول في علم الأصول لابن العثيمين(٤٤)، مقدمات النسخ د/ أسامة عبد العظيم(٧٤).

(٣) تفسير الرازي (٥/ ٣٥٣).

الأعمال رعاية أحوال القلب والأرواح في المعرفة والمحبة انقطعت الأوهام عن الاشتغال بتلك الظواهر إلى علام السرائر(١).

الحكمة السابعة: بشارة المؤمنين برفع الخدمة عنهم، وبأن رفع مؤنتها عنهم في الدنيا مؤذن برفعها في الجنة(٢).

الحكمة الثامنة: فيه دلالة على بعض صفات الله كالعلم، فهو سبحانه عالم بأحوال الناس جملةً وتفصيلًا، وعالم بما يصلحهم وينفعهم والطريقة التي تصلح لهم، وفيه دلالة على صفة الحكمة والرحمة(٣).

الحكمة التاسعة: من الحكم التذكير بنعمة الله لاسيما في بعض أنواع النسخ الذي يكون فيها النسخ من أثقل إلى أسهل، كما هو الحال في عدة المتوفاة عنها زوجها وغير ذلك(٤).

المبحث الخامس: شروط النسخ.

الشرط الأول:

أن يكون الحكم في الناسخ والمنسوخ متناقضان بحيث لا يمكن العمل بهما جميعًا، أي أنهما متعارضان تعارضًا حقيقيًا لا سبيل إلى تلافيه بإمكان الجمع بينهما على أي وجه من وجوه التأويل(٥).

الشرط الثاني: أن يكون الحكم المنسوخ مشروعًا؛ أعني أنه ثبت بخطاب الشرع، فأما إن كان ثابتًا بالعادة والتعارف لم يكن رافعه ناسخًا(٦).

الشرط الثالث: أَنْ يَكُونَ النَّاسِخُ مُنْفَصِلًا عَنْ الْمَنْسُوخِ مُتَأَخِّرًا عَنْهُ(١).

---

(١) إرشاد الفحول (١٨٥)، مقدمات النسخ د/ أسامة محمد عبد العظيم(٧٥).

(٢) إرشاد الفحول (١٨٥).

(٣) دعاوي الطاعنين(٢٧٠: ٢٦٨)، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام(٧/ ٣٩١).

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير الطبري (٣/ ١٤٩)، نواسخ القرآن لابن الجوزي (٩٥)، مناهل العرفان (٢/ ١٧٣)، معالم أصول الفقه للجيزاني (٢٥٠)، فتح المنان في نسخ القرآن علي حسن العريض(٥٧).

(٦) نواسخ القرآن(٩٦)، البحر المحيط (٤/ ٧٨)، الإحكام للآمدي(٣/ ١٠٦).

الشرط الرابع: أَنْ يَكُونَ النَّسْخُ بِخِطَابٍ شَرْعِيٍّ، فَارْتِفَاعُ الْحُكْمِ بِمَوْتِ الْمُكَلَّفِ أَوْ جُنُونِهِ لَيْسَ بِنَسْخٍ، وَإِنَّمَا هُوَ سُقُوطُ التَّكْلِيفِ جُمْلَةً(٢).

الشرط الخامس: أَنْ لَا يَكُونَ المنسوخ مُقَيَّدًا بِوَقْتٍ(٣).

الشرط السادس: أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَشْرُوعًا، وَأَنْ لَا يَكُونَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ التَّوْقِيتَ نَسْخًا، مَعَ كَوْنِهِ مَشْرُوعًا.

فَلَا يَدْخُلُ النَّسْخُ أَصْلَ التَّوْحِيدِ بِحَالٍ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَكَذَا مَا عُلِمَ بِالنَّصِّ أَنَّهُ يَتَأَبَّدُ وَلَا يَتَأَقَّتُ فَلَا يَدْخُلُهُ نَسْخٌ، كَشَرِيعَتِنَا هَذِهِ(٤).

المبحث السادس: معرفة تقدم المنسوخ عن الناسخ. (٥)

لمعرفة تقدم المنسوخ عن الناسخ طرق هي:

الطريق الأول: النطق الصريح وهو أربعة أنواع:

الأول: قول من الله تعالى، وله ثلاثة أنحاء:

أولها: أن يدل على رفع الحكم من غير بدل، كقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة: ١٣)، بعد الأمر بتقديم الصدقة في قوله سبحانه: ﴿إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة: ١٢).

ثانيها: أن يدل على ثبوت نقيض الحكم السابق، كقوله تعالى: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، فإنه يدل على عدم حرمة المباشرة التي كانت ثابتة من قبل.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البحر المحيط (٤/ ٧٩)، إرشاد الفحول(١٨٦)، معالم أصول الفقه (٢٥٠).

(٥) نواسخ القرآن لابن الجوزي (٩٦)، شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٦٣٣)، لباب المحصول (١/ ٣٢٢، الأحكام لابن حزم (١/ ٤٨٨)، روضة الناظر (١/ ٢٧٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٦٠)، إرشاد الفحول(١٩٧)، مناهل العرفان (٢/ ١٥٠)، مذكرة الشنقيطي (١١٠)، معالم أصول الفقه (٢٥٠).

ثالثها: أن يدل على ثبوت ضد الحكم السابق، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ (الأنفال: ٦٦)، فإنه يدل على ثبوت ضد الحكم السابق، وهو وجوب ثبات الواحد للعشرة المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ (الأنفال: ٦٥).

الثاني: قول من النبي ﷺ:

مثل قوله ﷺ: "نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها"(١)، فإنه يدل على أن الإذن بالزيارة ناسخ للحظر المدلول عليه بالنهي السابق.

الثالث: إجماع الصحابة:

على حكمٍ أنه ناسخ، وعلى آخر أنه منسوخ كالإجماع على أن وجوب صوم رمضان ناسخ لوجوب صوم عاشوراء، والاستدلال بالإجماع يعني أن معه خبرًا وقع به النسخ؛ لأن الإجماع لا ينسخ به، وذلك أن الأمة قد ضبطت الأخبار، فإذا رأينا خبرًا يخالف إجماعهم استدللنا بإجماعهم على نسخه(٢).

الرابع: قول الصحابي:

رخص رسول الله ﷺ في كذا؛ لأن الغالب أن الرخصة لا تكون إلا بعد النهي، مثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه: توضؤا مما مست النار.(٣)

الطريق الثاني: فعله ﷺ يعني إذا تأخر عن القول مخالفًا له، فإنه يدل على أن القول منسوخ، مثاله: اقتصاره ﷺ على رجم ماعز من غير جلد.

فإنه يدل قوله ﷺ: "الثيب بالثيب جلد مائة والرجم"(٤). قد نسخ، والفعل بين ذلك.

الطريق الثالث: معرفة التاريخ وله صور.

---

(١) مسلم (٩٧٧).

(٢) العدة (٨٢٦)، وانظر المبحث العاشر من هذا البحث.

(٣) مسلم (٣٥٢).

(٤) مسلم(١٦٩٠).

الأولى: النص على التأخير:

كقول جابر رضي الله عنه: كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار. (١)

الثانية: النص على سنة الورود أو النزول:

مثاله: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول يوم الفتح -وهو بمكة- "إن الله ورسوله حرم بيع الخمر". (٢)

الثالثة: النص على الغزوة: مثاله: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية. (٣)

الرابعة: أن يكون أحد الحديثين برواية من مات قبل رواية الحديث الآخر؛ فيدل على تأخر الحديث الثاني.

الخامسة: نقل الصحابي لتقدم أحد الحكمين وتأخر الآخر.

كأن يقول: هذه الآية نزلت قبل تلك، أو هذا الحديث سابق على ذلك؛ لعدالة الصحابة وكونه منزلًا منزلة المرفوع، إذ لا دخل للاجتهاد فيه. (٤)

المبحث السابع: الأشياء التي يدخلها الناسخ والمنسوخ والتي لا يدخلها.

يدخل الناسخ والمنسوخ في الأوامر والنواهي ولا يدخل في الأخبار. (٥)

قال ابن عبد البر: وهذا (الناسخ والمنسوخ) إنما يكون في الأوامر والنواهي من الكتاب والسنة، وأما في الخبر عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ فلا يجوز النسخ في الأخبار البتة بحال؛ لأن المخبر عن الشيء أنه كان أو يكون إذا رجع عن ذلك لم يخل من السهو أو الكذب،

---

(١) أبو داود (١٥٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٧).

(٢) البخاري(٢٢٣٦)، مسلم(١٥٨١).

(٣) البخاري (٤٢١٩)، مسلم (١٩٤١).

(٤) مقدمات النسخ د. أسامة عبد العظيم (٦٢: ٥٩).

(٥) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ص ٨، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٥٨)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٦١)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٣)، المهذب في علم أصول الفقه (٢/ ٥٥٤: ٥٥٣) مقدمات النسخ (٤١: ٤٦).

وذلك لا يعزى إلى الله ولا إلى رسوله فيما يخبر به عن ربه في دينه، وأما الأمر والنهي فجائز عليهما النسخ للتخفيف ولما شاء الله من مصالح عباده وذلك من حكمته لا إله إلا هو.

وقال أيضًا: والنسخ لا يجوز إلا فيما يصح وقوعه على وجهين كالصوم والصلاة وغيرهما من العبادات الشرعية، فأما ما لا يجوز أن يكون إلا على وجه واحد مثل التوحيد وصفات الله تعالى الذاتية كعلمه وقدرته وما عدا ذلك من صفاته فلا يصح فيه النسخ، وكذلك ما أخبر الله تعالى عنه من أخبار القرون الماضية والأمم السالفة فلا يجوز فيها النسخ، وهكذا ما أخبر عن وقوعه في المستقبل كخروج الدجال ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ﷺ إلى الأرض ونحو ذلك فإن النسخ فيه لا يجوز(١).

ومن قال بأن النسخ يدخل في الأخبار فيقصد الخبر الذي يراد به الأمر والنهي.

قال ابن الجوزي: فأما الأخبار فهي على ضربين:

الأول: ما كان لفظه لفظ الخبر ومعناه معنى الأمر كقوله تعالى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ (الواقعة: ٧٩)، فهذا لا حق بخطاب التكليف في جواز النسخ عليه.

والثاني: الخبر الخالص فلا يجوز علي؛ لأنه يؤدي إلى الكذب وذلك محال وقد حكى جواز ذلك عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والسدي وليس شئ يعول عليه. وقال أبو جعفر النحاس: وهذا القول عظيم جدًا يؤول إلى الكفر؛ لأن قائلًا لو قال: قام فلان ثم قال: لم يقم، فقال: نسخته لكان كاذبًا. وقال ابن عقيل: الأخبار لا يدخلها النسخ؛ لأن نسخ الأخبار كذب وحوشى القرآن من ذلك(٢).

المبحث الثامن: أقسام (أنواع) النسخ في القرآن.

النسخ الواقع في القرآن يتنوع إلى أنواعٍ ثلاثة:

---

(١) التمهيد (٣/ ٢١٥)، الفقيه والمتفقه (١/ ٢٥٥).

(٢) نواسخ القرآن لابن الجوزي(٩٣)، وانظر الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٤٠٤).

نسخ التلاوة والحكم معا، ونسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم[1].

القسم الأول: نسخ الحكم والتلاوة جميعًا:

وذلك مثل التحريم بعشر رضعات. عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ. ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ.[2]

القسم الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم.

وذلك كنسخ آية الرجم، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وفيه أنه قال: (إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ وَاللهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ[3].

وكذلك التحريم بخمس رضعات.

قال الزركشي: هنا سؤال وهو أن يقال ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم، وهلاَّ أبقيت التلاوة؛ ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وأجاب صاحب الفنون فقال: إنما كان كذلك؛ ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق

---

(١) نواسخ القرآن(١١٠)، الفقيه والمتفقه(١/ ٢٤٨: ٢٤٥)، روضة الناظر (١/ ٢٣٠)، شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٢٨٥)، البرهان في أصول الفقه(١/ ٢٥٦)، التمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٧٧: ٢٧٥)، شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٥٨: ٥٥٣)، الأحكام للآمدي (٣/ ١٢٨)ومابعدها، البرهان في علوم القرآن(٢/ ٤٠: ٣٥)، معالم أصول الفقه(٢٥٨)، مناهل العرفان (٢/ ١٧٩: ١٧٧).

(٢) صحيح مسلم (١٤٥٢) (وهن فيما يقرأ) معناه: أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدًا حتى إنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآنًا متلوًا؛ لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى. شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٢٨٦).

(٣) البخاري(٦٨٣٠)، مسلم (١٦٩١).

الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي[١].

القسم الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة.

فيدل على وقوعه آيات كثيرة منها: أن آية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ منسوخة بقوله سبحانه ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ (المجادلة: ١٣) على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية مع أن تلاوة كلتيهما باقية.

قال الزركشي: وهنا سؤال وهو أن يسأل ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به، فيتلى لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

وثانيهما: أن النسخ غالبًا يكون للتخفيف فأبقيت التلاوة تذكيرًا بالنعمة ورفع المشقة، وأما حكمة النسخ قبل العمل كالصدقة عند النجوى فيثاب على الإيمان به وعلى نية طاعة الأمر[٢].

قال الزرقاني: أما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم فتسجل تلك الظاهرة الحكيمة ظاهرة سياسة الإسلام للناس حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق، وأن نبيه نبي الصدق، وأن الله هو الحق المبين العليم الحكيم الرحمن الرحيم. يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب

---

(١) البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٧).

(٢) المصدر السابق.

على هذه التلاوة، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة، ومن قيام معجزات بيانية أو علمية أو سياسية بها[١].

المبحث التاسع: أنواع الناسخ.

ينقسم النسخ بالنظر إلى دليله إلى أقسام متعددة، يمكن جمعها في قسمين: قسم متفق على جوازه، وقسم مختلف فيه.

أولًا: القسم المتفق على جوازه وهو:

١- نسخ القرآن بالقرآن.

٢- نسخ السنة المتواترة والأحادية بالسنة المتواترة.

٣- نسخ الآحاد من السنة بالآحاد وبالمتواتر.

لا خلاف في جواز نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السنة المتواترة بالسنة المتواترة، وجواز نسخ الآحاد بالآحاد، ونسخ الآحاد بالمتواتر[٢].

ثانيًا: القسم المختلف فيه

فيمكن بيانه في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: نسخ القرآن بالسنة.

ذهب جمهور الأصوليين إلى أنه يجوز نسخ القرآن بالسنة[٣].

وذهب الإمام الشافعي وأحمد في رواية إلى أنه لا يجوز نسخ القرآن بالسنة[٤].

قال الجصاص: وَقَدْ احْتَجَّ بَعْضُ النَّاسِ فِي امْتِنَاعِ جَوَازِ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسَّنَةِ؛ لِأَنَّ السَّنَةَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَتْ لَا تَكُونُ خَيْرًا مِنْ الْقُرْآنِ، وَهَذَا إغْفَالٌ مِنْ قَائِلِهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: "بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي التِّلَاوَةِ وَالنَّظْمِ" لِاسْتِوَاءِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ فِي

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٦٣).

(٢) نواسخ القرآن(٩٧)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٥٩)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٢).

(٣) الإبهاج شرح المنهاج (٥/ ١٦٩٩)، الأحكام للآمدي (٣/ ١٣٨)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٦٣)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٥٨)، إرشاد الفحول (١٩١).

(٤) الرسالة (١٠٦)، روضة الناظر (١/ ٢٥٧)، نواسخ القرآن(٩٧).

إِعْجَازِ النَّظْمِ، وَالْآخِرُ اتِّفَاقُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ النَّظْمَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ فِيهِ عَلَى أَحَدِ الْمَعْنَيَيْنِ إمَّا التَّخْفِيفُ أَوْ الْمَصْلَحَةِ.

وَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ بِالسُّنَّةِ كَمَا يَكُونُ بِالْقُرْآنِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنَّهُ أَرَادَ التِّلَاوَةَ، فَدَلَالَةُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى جَوَازِ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ أَظْهَرُ مِنْ دَلَالَتِهَا عَلَى امْتِنَاعِ جَوَازِهِ بِهَا. وَأَيْضًا فَإِنَّ حَقِيقَةَ ذَلِكَ إنَّمَا تَقْتَضِي نَسْخَ التِّلَاوَةِ، وَلَيْسَ لِلْحُكْمِ فِي الْآيَةِ ذِكْرٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ وَالْآيَةُ إنَّمَا هِيَ اسْمٌ لِلتِّلَاوَةِ، وَلَيْسَ فِي نَسْخِ التِّلَاوَةِ مَا يُوجِبُ نَسْخَ الْحُكْمِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: " مَا نَنْسَخْ مِنْ تِلَاوَةِ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا لَكُمْ مِنْ مُحْكَمٍ مِنْ طَرِيقِ السُّنَّةِ أَوْ غَيْرِهَا"[1].

قال القرطبي: وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة...وهو ظاهر مسائل مالك.

وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي، والأول أصح، بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء.[2]

وأختم بهذا الكلام النفيس:

قال ابن حزم: اختلف الناس في هذا (نسخ القرآن بالسنة والسنة بالقرآن) بعد أن اتفقوا على جواز نسخ القرآن بالقرآن، وجواز نسخ السنة بالسنة، فقالت طائفة: لا تنسخ السنة بالقرآن ولا القرآن بالسنة، وقالت طائفة: جائز كل ذلك، والقرآن ينسخ بالقرآن وبالسنة، والسنة تنسخ بالقرآن وبالسنة.

قال ابن حزم: وبهذا نقول وهو الصحيح، وسواء عندنا السنة المنقولة بالتواتر والسنة المنقولة بأخبار الآحاد، كل ذلك ينسخ بعضه بعضًا، وينسخ الآيات من القرآن، وينسخه الآيات من القرآن، وبرهان ذلك ما بيناه في باب الأخبار من هذا الكتاب، من وجوب الطاعة لما جاء عن النبي ﷺ، كوجوب الطاعة لما جاء في القرآن ولا فرق، وأن كل ذلك من عند الله

(١) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٦٠: ٥٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن(٢/ ٥٨).

بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ فإذا كان كلامه وحيا من عند الله عز وجل، والقرآن وحي، فنسخ الوحي بالوحي جائز؛ لأن كل ذلك سواء في أنه وحي[١].

قال الشوكاني: ولا يخفاك أن السنة شرع من الله ﷻ كما أن الكتاب شرع منه سبحانه، وقد قال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ وأمر سبحانه باتباع رسوله في غير موضع في القرآن فهذا بمجرده يدل على أن السنة الثابتة عنه ثبوتًا على حد ثبوت الكتاب العزيز حكمها حكم القرآن في النسخ وغيره، وليس في العقل ما يمنع من ذلك ولا في الشرع.[٢]

المسألة الثانية: نسخ السنة بالقرآن.

ذهب جمهور الأصوليين إلى أنه يجوز نسخ السنة بالقرآن.[٣]

وذهب الإمام الشافعي في رواية إلى أن السنة لا تنسخ بالقرآن، حيث قال في باب ابتداء الناسخ والمنسوخ: (لا يَنْسخ كتابَ الله إلا كتابُه كما كان المبتدئ لفرضه فهو المُزيلُ المثبت لِما شاء منه جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه)[٤].

وبهذا الكلام أخذ من نقل عن الشافعي أن السنة لا تنسخ بالكتاب.[٥]

---

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ٥٠٥).

(٢) إرشاد الفحول(١٩١).

(٣) شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٥٩)، مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي(١٠٠).

(٤) الرسالة (١٠٦).

(٥) قال السبكي: قال إمام الحرمين (قطع الشافعي جوابه بأن الكتاب لا ينسخ بالسنة وتردد في قوله في نسخ السنة بالكتاب) قلت: وهذا هو الذي قاله في(الرسالة)فإنه قال في باب ابتداء الناسخ والمنسوخ ما نصه: (ولا ينسخ كتاب الله إلا كتابه كما كان المبتدي بفرضه فهو المزيل المثبت لما شاء منه جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه) اهـ.

ثم قال ما نصه: (وهكذا سنة رسول الله ﷺ لا ينسخها إلا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أحدث الله لرسوله في أمر سن فيه غير ما سن فيه رسول الله ﷺ لسن فيما حدث الله إليه حتى يبين للناس أن له سنة ناسخة للتي قبلها مما يخالفها)اهـ.

ومن صدر هذا الكلام أخذ من نقل عن الشافعي رحمه الله أن السنة لا تنسخ بالكتاب، وليس بجيد، وإنما مراد الشافعي رحمه الله أن النبي ﷺ إذا سن سنة ثم أنزل الله في كتابه ما ينسخ ذلك الحكم فلا بد أن يسن النبي

والراجح هو القول الأول.

المسألة الثالثة: نسخ المتواتر(قرآن وسنة) بالآحاد:

ذهب الجمهور من الأصوليين إلى أنه لا يجوز شرعا نسخ المتواتر بالآحاد(١).

وذهب البعض إلى أنه يجوز نسخ المتواتر بالآحاد(٢).

قال الشوكاني: ومما يرشدك إلى جواز النسخ بما صح من الآحاد لما هو أقوى متنًا أو دلالةً منها: أن الناسخ في الحقيقة إنما رافعًا لاستمرار حكم المنسوخ ودوامه وذلك ظني، وإن كان دليله قطعيًا فالمنسوخ إنما هو هذا الظني لا ذلك القطعي فتأمل هذا(٣).

المبحث العاشر: النسخ بالإجماع والقياس

أولًا: النسخ بالإجماع

قال الخطيب البغدادي: ولا يجوز نسخ إجماع المسلمين؛ لأن الإجماع لا يكون إلا بعد موت رسول الله ﷺ، والنسخ لا يجوز بعد موته(٤).

وإذا وجد في كلام العلماء أن الإجماع نسخ نصًا، فالمراد بالإجماع الناسخ النص الذي استند إليه الإجماع لا نفس الإجماع، فيكون من قبيل نسخ النص بنص مثله.

ﷺ سنة أخرى موافقة للكتاب تنسخ سنته الأولى لتقوم الحجة على الناس في كل حكم بالكتاب والسنة جميعا ولا تكون سنة منفردة تخالف الكتاب. وقوله ولو أحدث الله إلى آخره صريح في ذلك.

فهذا هو معنى القول المنسوب إلى الشافعي أعني أنه لا بد أن يسن النبي ﷺ سنة أخرى وأكثر الأصوليين الذين تكلموا في ذلك لم يفهموا مراد الشافعي وليس مراده إلا ما ذكرناه. الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٧٠٥: ١٧٠٣).

قلت: ولو فهم كلام الشافعي على ظاهره فهو خلاف الراجح، وكل يؤخذ منه ويُرد(نص بذلك الشافعي نفسه وغيره من الأئمة).

(١) الإحكام للآمدي (٣/ ١٣٤: ١٣٢)، روضة الناظر (١/ ٢٦٣)، إرشاد الفحول (١٩٠).

(٢) الإحكام لابن حزم (١/ ٥٠٥)، إرشاد الفحول (١٩٠)، مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي(١٠٣).

(٣) إرشاد الفحول(١٩١)، الفقيه والمتفقه(١/ ٢٥٦)، البحر المحيط(٤/ ١٢٨).

(٤) الفقيه والمتفقه(١/ ٢٥٦)، وانظر روضة الناظر (١/ ٢٦٥)، الأحكام للآمدي (٣/ ١٤٤)، البحر المحيط(٤/ ١٢٨)، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٥٩).

قال ابن قدامة: فإن قيل: فيجوز أن يكونوا ظفروا بنصٍ كان خفيًا هو أقوى من النص الأول أو ناسخ له. قلنا: فيضاف النسخ إلى النص الذي أجمعوا عليه لا إلى الإجماع. (١)

ثانيًا: النسخ بالقياس

قال الخطيب البغدادي: ولا يجوز نسخ القياس؛ لأن القياس تابع للأصول، والأصول ثابتة فلا يجوز نسخ تابعها. (٢)

المبحث الحادي عشر: الفرق بين النسخ والبداء

أولًا: تعريف البداء. (٣)

البَداء: بفتح الباء يطلق في لغة العرب على معنيين متقاربين:

أحدهما: الظهور بعد الخفاء، ومنه قوله الله تعالى ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر: ٤٧) وقال تعالى ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٣﴾ (الجاثية: ٣٣) ومنه قولهم: بدا لنا سور المدينة.

والآخر: نشأة رأي جديد لم يك موجودًا، قال في القاموس: وبَدَا له في الأمرِ بَدْوًا وبَدَاءٌ وبداةً: نَشَأَ له فيه رَأْيٌ. ومنه قول الله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾ (يوسف: ٣٥) أي نشأ لهم في يوسف رأي جديد هو أن يسجن سجنًا وقتيًا بدليل قوله: ليسجننه حتى حين(٤).

ثانيًا: الفرق بين النسخ والبداء.

---

(١) روضة الناظر (١/ ٢٦٦)، وانظر إرشاد الفحول(١٩٣)، معالم أصول الفقه (٢٤٨).

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٥٦)، شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٧١)وما بعدها، إرشاد الفحول(١٩٣).

(٣) البَدائي: بفتح الباء الموحدة والدال المهملة وفي آخرها الياء آخر الحروف، هذه النسبة إلى البدائية وهم جماعة من غلاة الروافض وهم الذين أجازوا البداء على الله ﷻ، وزعموا أنه يريد الشيء ثم يبدو له، وأول ظهور هذا القول من جهة المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي غلب على الكوفة وأعمالها، وقتل قتلة الحسين ﷺ، وقيل: إن المختار أخذ هذا القول عن مولى لعلي ﷺيقال له كيسان، وفي إجاز البداء على الله تعالى إجازة الندم عليه، وهذا كفر. الأنساب للسمعاني (١/ ٢٩٥)، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٤٦).

(٤) النهاية في غريب الأثر (١/ ٢٧١)، التعريفات (٦٢)، الإحكام للآمدي(٣/ ١٠٢).

قال ابن الجوزي: فأما الفرق بين النسخ والبداء فذلك من وجهين:

الأول: أن النسخ تغيير عبادة أُمر بها المكلف وقد علم الآمر حين الأمر أن لتكليف المكلف بها غاية ينتهي الإيجاب إليها ثم يرتفع بنسخها.

والبداء أن ينتقل الأمر عن ما أمر به وأراده دائما بأمر حادث لا بعلم سابق.

والثاني: أن سبب النسخ لا يوجب إفساد الموجب لصحة الخطاب الأول.

والبداء يكون سببه دالًا على إفساد الموجب لصحة الأمر الأول مثل أن يأمره بعمل يقصد به مطلوبا، فيتبين أن المطلوب لا يحصل بذلك الفعل، فيبدو له ما يوجب الرجوع عنه، وكلا الأمرين يدل على قصور في العلم، والحقُّ عز وجل منزه عن ذلك[1].

قال ابن حزم: الفرق بينهما لائح وهو: أن البداء هو أن يأمر بالأمر، والآمر لا يدري ما يؤول إليه الحال، والنسخ هو أن يأمر بالأمر والآمر يدري أنه سيحيله في وقت كذا ولا بد، قد سبق ذلك في علمه وحتمه من قضائه، فلما كان هذان الوجهان معنيين متغايرين مختلفين، وجب ضرورة أن يعلق على كل واحد منها اسم يعبر به عنه غير اسم الآخر؛ ليقع التفاهم، ويلوح الحق، فالبداء ليس من صفات الباري تعالى، ولسنا نعني الباء والدال والألف، وإنما نعني المعنى الذي ذكرنا من أن يأمر بالأمر لا يدري ما عاقبته، فهذا مبعد من الله ﷻ، وسواء سموه نسخا أو بداء أو ما أحبوا. وأما النسخ فمن صفات الله تعالى من جهة أفعاله كلها، وهو القضاء بالأمر قد علم أنه سيحيله بعد مدة معلومة عنده ﷻ، كما سبق في علمه تعالى.

ولسنا نكابر على النون والسين والخاء، وإنما نعني المعنى الذي بينّا، وسواء سموه نسخًا أو بداء أو ما أحبوا من الأسماء، ولكن اسمه عندنا النسخ، وبهذه العبارة نعبر عن هذا المعنى الذي لا يخلو لله تعالى فعل منه أصلًا في دار الابتلاء، وكل شيء منها كائن فاسد، وهذا هو النسخ، وهو نوع من أنواع الكون والفساد الجاريين في طبيعة العالم بتقدير خالقه ومخترعه ومدبره ومتممه لا إله إلا هو.

---

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي(٨٣)، وانظر الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٤٤١).

واسم الصفة الأولى عندنا البَدَاء، فيها يعبر عن هذا المعنى الذي هو من صفات المختارين من الإنس والجن وسائر الحيوان، وهو خلق مذموم؛ لأنه نتيجة الملل والندم والسآمة، وهذه الأخلاق منفية عن الملائكة بنص القرآن، فكيف عن الباري تعالى. [1]

الوجه الثاني: الرد على بعض الشبهات حول النسخ في القرآن.

الشبهة الأولى:

قالوا: بأن النسخ يتعارض مع قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٢)، حيث إن هذه الآية تفيد أن أحكام القرآن لا تبطل أبدًا، والنسخ فيه إبطال لحكم سابق.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان معنى الآية.

الآية تحتمل عدة معانٍ:

الأول: أي: لا يستطيع الشيطان أن ينقص منه حقا، ولا يزيد فيه باطلا قالوا: والباطل هو الشيطان.

عن قتادة ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ الباطل: إبليس لا يستطيع أن ينقص منه حقا، ولا يزيد فيه باطلًا[2].

الثاني: أن المراد أن هذا الكتاب لم يتقدمه من كتب الله ما يبطله ولا يأتيه من بعده أيضًا ما يبطله[3].

الثالث: النسخ ليس باطلًا، إذ هو حق وذلك أن الله أضافه إلى نفسه في قوله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٦)، ولا ينسب الله إلى نفسه باطلا، والباطل يضاد الحق فوجب حمل الباطل على غير النسخ. [4]

الوجه الثاني: أن معنى الباطل في الآية ما خالف الحق، والنسخ حق.

---

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ٤٧١).

(٢) إسناده صحيح. أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٢٥) من طريق يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة به.

(٣) الرازي في تفسيره (٣/ ٢٣٠)، الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٦٥٨).

(٤) الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٦٥٨)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (١/ ٥٧).

ومعنى الآية أن عقائد القرآن موافقة للعقل وأحكامه، مسايرة للحكمة وأخباره، مطابقة للواقع، ألفاظه محفوظة من التغيير والتبديل، ولا يمكن أن يتطرق إلى ساحته الخطأ بأي حال قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء: ١٠٥)، ولعلك تدرك معي أن تفسير الآية بهذا المعنى يجعلها أقرب إلى إثبات النسخ ووقوعه منها إلى نفيه وامتناعه؛ لأن النسخ كما قررنا تصرفٌ إلهيٌّ حكيم تقتضيه الحكمة وترتبط به المصلحة[١].

الوجه الثالث: الآية تدل على نوع خاص من النسخ.

لو كان معنى الباطل في الآية هو متروك العمل به مع بقاء قرآنيته؛ لكان دليله قاصرًا عن مدعاه؛ لأن الآية لا تفيد حينئذ إلا امتناع نوع خاص من النسخ وهو نسخ الحكم دون التلاوة، فإنه وحده هو الذي يترتب عليه وجود متروك العمل في القرآن، أما نسخ التلاوة مع الحكم أو مع بقائه فلا تدل الآية على امتناعه بهذا التأويل[٢].

الوجه الرابع: إنكار وتشديد القول من أهل العلم على من قال بهذا القول[٣]، مما يدل على بطلان قوله.

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٧٢).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ١٧٢)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (١/ ٥٧)

(٣) يرى أبو مسلم أن النسخ (إبطال)؛ لأن فيه إلغاء الحكم بالمنسوخ، فلو وقع في القرآن لأتاه الباطل، وفي ذلك تكذيب لخبر الله تعالى، والكذب محال في خبره.

وأبو مسلم هذا قد اختلف العلماء في اسمه على تسعة أقوال أشهرها: محمد بن علي، وكان أديبًا مترسلًا بليغًا متكلمًا، وهو مفسر معتزلي. واختلف الباحثون في تبيين حقيقة ما ذهب إليه في النسخ لاضطراب النقل عنه، فحُكي عنه منع النسخ بين الشرائع، وحُكي عنه منع النسخ في القرآن وغير ذلك، وقيل إنه كان يخالف العلماء في النسخ من ناحية اللفظ، فكان يسميه تخصيصًا، وقد أنكر أن يكون في القرآن نسخًا، وأتى على الآيات التي تتحدث عن وجود النسخ في القرآن بتأويلات عقلية، ونقلها عنه الرازي في تفسيره، ورد عليها. وقد جمع أبو مسلم هذه الآيات في كتابه الشهير (جامع التأويل لمحكم التنزيل)، غير أن الشيخ سعيد الأنصاري رد عليه في تأويله للآيات في كتابه المشهور (ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل).

قال الجصاص: زعم بعض المتأخرين من غير أهل الفقه أنه لا نسخ في شريعة نبينا محمد ﷺ، وأن جميع ما ذكر فيها من النسخ؛ فإنما المراد به نسخ شرائع الأنبياء المتقدمين كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب؛ قال: لأن نبينا عليه السلام آخر الأنبياء، وشريعته ثابتة باقية إلى أن تقوم الساعة.

وقد كان هذا الرجل ذا حظ من البلاغة وكثير من علم اللغة، غير محظوظ من علم الفقه وأصوله، وكان سليم الاعتقاد غير مظنون به غير ظاهر أمره، ولكنه بَعُدَ من التوفيق بإظهار هذه المقالة؛ إذ لم يسبقه إليها أحد، بل قد عقلت الأمة سلفها وخلفها من دين الله وشريعته نسخ كثير من شرائعه، ونقل ذلك إلينا نقلا لا يرتابون به ولا يجيزون فيه التأويل، كما قد عقلت أن في القرآن عاما وخاصا ومحكما ومتشابها، فكان دافع وجود النسخ في القرآن والسنة كدافع خاصة وعامه، ومحكمة ومتشابهه؛ إذ كان ورود الجميع ونقله على وجه واحد، فارتكب هذا الرجل في الآي المنسوخة والناسخة وفي أحكامها أمورا خرج بها عن أقاويل الأمة مع تعسف المعاني واستكراهها، وما أدري ما الذي ألجاه إلى ذلك؟

وأكثر ظني فيه أنه إنما أتى به من قلة علمه بنقل الناقلين لذلك، واستعمال رأيه فيه من غير معرفة منه بما قد قال السلف فيه ونقلته الأمة(١).

قال أبو جعفر النحاس: فمن المتأخرين من قال: ليس في كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ وكابر العيان واتبع غير سبيل المؤمنين(٢).

قال ابن كثير: وقال أبو مسلم الأصفهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن. وقوله هذا ضعيف مردود مرذول. وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ. (٣)

مقدمات النسخ د. أسامة عبد العظيم (٧٦: ٧٩)، (شرح الكوكب المنير٣/ ٥٣٥) (الحاشية).

(١) أحكام القرآن (١/ ٥٩).

(٢) الناسخ والمنسوخ (١/ ٤٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير(١/ ١٤٥).

قال الشوكاني: النسخ جائز عقلا واقع سمعًا بلا خلاف في ذلك بين المسلمين إلا ما يروى عن أبي مسلم الأصفهاني فإنه قال: إنه جائز غير واقع. وإذا صح هذا عنه فهو دليل على أنه جاهل بهذه الشريعة المحمدية جهلًا فظيعًا، وأعجب من جهله بها حكاية من حكى عنه الخلاف في كتب الشريعة؛ فإنه إنما يعتد بخلاف المجتهدين لا بخلاف من بلغ في الجهل إلى هذه الغاية. (1)

الشبهة الثانية: إنكار لبعض الآيات التي تثبت النسخ بتأويلات غير صحيحة

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (البقرة: ١٠٦)، فقد سلكوا مسلكًا آخر يقصدون به إبطال دلالة الآية على وقوع النسخ. واستدلوا بوجوه من عندهم وهي:

الأول: أن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل، كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب مما وضعه الله تعالى عنا وتعبدنا بغيره؛ فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأبطل الله عليهم ذلك بهذه الآية.

الثاني: المراد من النسخ نقله من اللوح المحفوظ وتحويله عنه إلى سائر الكتب وهو كما يقال: نسخت الكتاب.

الثالث: الآية لا تدل على وقوع النسخ؛ بل على أنه لو وقع النسخ لوقع إلى خير منه(2).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الآيات إذا أطلقت فالمراد بها آيات القرآن؛ لأنه هو المعهود عندنا. والمعنى أن العرب لم يستعملوا كلمة آية بمعنى شريعة، وأن القرآن الكريم أيضًا لم يستعملها في أداء هذا المعنى بدليل خُلو معجم القرآن، ومعاجم اللغة منه فتفسير الآية بالشريعة تفسير لا يستقيم(1).

---

(١) إرشاد الفحول (١٨٥).

(٢) الرازي في تفسيره(٣/ ٢٣٠).

الوجه الثاني: بأن نقل القرآن من اللوح المحفوظ لا يختص ببعض القرآن، وهذا النسخ مختص ببعضه.

والمعنى أننا قد بينا أن معنى النسخ في اللغة يدور بين الإزالة والنقل، وأن الأصل فيه الإزالة، وأسلوب الآية يقتضي ذلك؛ فإنه صريح في إفادة الإتيان بالبدل حين ينسخ، ولما كان البدل لا يجتمع مع المبدل منه؛ فإن تقرير الإتيان به – أي البدل – يستلزم أن يكون المبدل منه قد أزيل، وهذا هو معنى نسخه. وكون النسخ قد ورد في القرآن بمعنى النقل لا يسوغ تفسيره بالنقل في كل موضع ورد فيه(٢).

الوجه الثالث: الرد على قوله أن الآية لا تدل على وقوع النسخ، بل لو وقع لوقع إلى خير منه.

قال د. مصطفى أبو زيد: فهو يلتقي معنا كما هو واضح في تفسير النسخ، والآية. غير أنه يتشبث بشرطية الجملة؛ لأنه يجد فيها المخرج. وقد اقتضاه هذا أن يسلم بجواز النسخ شرعًا، لكنه ـ فيما يبدو ـ لم يبال بهذا، ما دامت شرطية الجملة هنا قد مكنته من القول بأنها لا تفيد الوقوع! وأما نحن فحسبنا أن تدل الآية لجواز النسخ؛ لأن وقوعه قد تكلفت بالدلالة عليه آية سورة النحل. (٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٣٩).

ولذا قال ابن كثير في تفسير قوله تعالي: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من

(١) تفسير الرازي (٣/ ٢٣٠)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد(١/ ٢٥١، ٢٧٣).
(٢) الرازي في تفسيره (٣/ ٢٣٠)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (١/ ٢٧٣).
(٣) النسخ في القرآن الكريم (١/ ٢٧٣).

يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. . فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -لعنهم الله -في دعوى استحالة النسخ إما عقلًا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرًا، وإما نقلًا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكًا.

وقال الطبري: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطابا لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه[1].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر كما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، قالوا:

(١) تفسير ابن كثير(٢/ ١٣).

الاعتداد بالحول ما زال بالكلية؛ لأنها لو كانت حاملًا ومدة حملها حول كامل لكانت عدتها حولًا كاملًا، وإذا بقي هذا الحكم في بعض الصور كان ذلك تخصيصًا لا ناسخًا.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ذهب جمهور المفسرين والأصوليين إلى أنها منسوخة بقوله (أربعة أشهر وعشرًا). [1]

قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قَدْ نَسَخَتْهَا الآيَةُ الأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا أَوْ تَدَعُهَا؟ قَالَ: يَا ابْنَ أخي، لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ[2].

ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها[3].

الوجه الثاني: عدة الحمل تنقضي بوضع الحمل سواء حصل وضع الحمل بسنة أو أقل أو أكثر.

قال ابن كثير: هذا أمر من الله للنساء اللاتي يُتَوّفى عنهن أزواجهن: أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عُمُوم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي: أن ابن مسعود سُئِل عن رجل تزوّج امرأة فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مرارًا في ذلك، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكُن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: أرى لها الصداق كاملًا. وفي لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شَطَط، وعليها العدّة،

---

(١) الطبري في تفسيره (٢/ ٥٨٢: ٥٨٠)، ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٨)، الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٦٥٠)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٥٧).

(٢) البخاري (٤٥٣٠).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٤٢)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٠).

ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ قَضى به في بَرْوَع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحًا شديدًا. وفي رواية: فقام رجال من أشجع، فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به في بَرْوَع بنت وَاشِق[١].

ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدّتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٤)، وكان ابن عباس ﷺ يرى: أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي، لولا ما ثبتت به السنة في حديث سبيعة الأسلمية، المخرج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك، فقال لها: ما لي أراك مُتَجَمِّلة؟ لعلك ترجين النكاح. والله ما أنتِ بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعَشْر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺفسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حلَلَتُ حين وضعتُ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي[٢].

قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سُبَيعة، يعني لما احُتج عليه به. قال: ويصحح ذلك عنه: أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة، كما هو قول أهل العلم قاطبة.

وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال، على قول الجمهور[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٢١٤)، والترمذي (١١٤٥)، وصححه الألباني في الإرواء (١٩٣٨).

(٢) البخاري (٥٣١٩)، مسلم (١٤٨٤).

(٣) تفسير ابن كثير(٢/ ٣٧٧: ٣٧٩).

قال النووي: فَأَخَذَ بِهَذَا (حديث سبيعة) جَمَاهِير الْعُلَمَاء مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف، فَقَالُوا: عِدَّة الْمُتَوَفَّى عَنْهَا بِوَضْعِ الْحَمْل، حَتَّى لَوْ وَضَعَتْ بَعْد مَوْت زَوْجهَا بِلَحْظَةٍ قَبْل غَسْله اِنْقَضَتْ عِدَّتهَا وَحَلَّتْ فِي الْحَال لِلْأَزْوَاجِ. هَذَا قَوْل مَالِك وَالشَّافِعِيّ وَأَبِي حَنِيفَة وَأَحْمَد وَالْعُلَمَاء كَافَّة[١].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ (النساء: ١٥)، قالوا: المراد بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ السحاقات، وحدُّهن الحبس إلى الموت، وبقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ (النساء: ١٦) أهل اللواط، وحدهما الأذى بالقول والفعل، والمراد بالآية المذكورة في سورة النور: الزنا بين الرجل والمرأة، وحده في البكر الجلد، وفي المحصن الرجم.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: إجماع أهل العلم على أن الآية منسوخة.

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾، فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك.

قال ابن عباس‏رضي الله عنهما: كان الحكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد، أو الرجم. وكذا رُوي عن عِكْرِمة، وسَعيد بن جُبَيْر، والحسن، وعَطاء الخُراساني، وأبي صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والضحاك: أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه.[٢]

وأجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور.[٣]

---

(١) شرح النووي على مسلم (٥/ ٣٦٧).

(٢) تفسير ابن كثير(٣/ ٣٨٤).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٢٢)، تفسير الخازن (١/ ٣٥٣).

الوجه الثاني: أن هذا قول لم يقله أحد من المفسرين المتقدمين فكان باطلًا. (١)

الوجه الثالث: أنه جاء في الحديث أنه ﷺ قال: " قد جعل الله لهن سبيلا، الثيب ترجم والبكر تجلد. (٢)

وهذا يدل على أن هذه الآية نازلة في حق الزناة وليست في السحاق واللواط. (٣)

الوجه الرابع: أن الصحابة اختلفوا في أحكام اللواط، ولم يتمسك أحد منهم بهذه الآية، فعدم تمسكهم بها مع شدة احتياجهم إلى نص يدل على هذا الحكم من أقوى الدلائل على أن هذه الآية ليست في اللواطة. (٤)

الوجه الخامس: أن تأويله للآية الثانية على أنها في اللواط، لا يستند إلى أساس سليم، فإن الحديث الذي ذكره تأييدًا لتسمية اللواط زنًا-وهو قوله ﷺ: "إذا أتى الرجلُ الرجل فهما زانيان"(٥) ضعيف لا يصح. (٦)

والوجه السادس: أنه لا يسوغ لغة أن تذكر الفاحشة في الآية الأولى بمعنى المساحقة، ثم يعاد الضمير عليها بمعنى اللواطة في الآية الثانية، مع أن العقوبة التي تشرعها الآيتان مختلفة(٧).

والوجه السابع: أن هذا التأويل لا يبطل واقعة النسخ، على فرض قبوله والتسليم بصحته، فقد صح عن النبي ﷺ (برواية عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، عنه) أنه قال: (من وجدتموه

(١) الرازي في تفسيره (١٠/ ٢٣١).

(٢) مسلم (١٦٩٠).

(٣) الرازي في تفسيره (١٠/ ٢٣١).

(٤) المصدر السابق.

(٥) **ضعيف**. أخرجه الآجري في ذم اللواط (١٦). والحديث ضعفه الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٥) والألباني في الإرواء (٢٣٤٩). ويراجع شبهة اللواط من هذه الموسوعة.

(٦) النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (٢/ ٣٦٨).

(٧) المصدر السابق.

يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)[١]، مع أن الآية تأمر بإيذاء اللذين يأتيان الفاحشة، لا بقتلهما، فيجب إذن أن تكون الآية-على تأويلهم - منسوخة بالسنة، مع أنهم لم يتكلفوا في تأويل الآية كل هذا التكلف إلا ليتفادوا القول بأنها منسوخة. [٢]

والوجه الثامن: أنه لا يعقل ولا يتصور أن تكون عقوبة المساحقة الحبس حتى الموت، وعقوبة اللواط مجرد الإيذاء، مع أن جريمة اللواط أخطر على كيان المجتمع من المساحقة، ومع أن المساحقة لم يشرع لها حد، وشرع للواط قتل الفاعل والمفعول به، ومع أن الله ﷻ قد خسف الأرض بمرتكبيها، واستأصلهم بالعذاب بكرهم وثيبهم، ولم يوقع بالمساحقات بعض هذا[٣].

الوجه التاسع: هذه الدعاوي ليست صحيحة: أما ما ادعوه من أن إفراد النساء بالنص عليهن في الآية الأولى يقتضي أن يكون المراد بقوله(واللذان) الذكرين، لا الذكر والأنثى تغليبًا، فغير صحيح؛ لأن النساء إنما أفردن بالذكر لأنهن يتفردن بعقوبة الحبس، لا بارتكاب الفاحشة وحدهن دون مشاركة من الرجال. وأما ما زعموه من التكرار إذا فسرت الفاحشة في كل من الآيتين بالزنا فهو أيضًا غير صحيح؛ لأن الآية الثانية تبين العقوبة المشتركة بعد أن بينت الآية الأولى ما يخص النساء من عقوبة الحبس، ثم إنه لا مكان لادعاء التكرار، مع أن الذي في الثانية هو ضمير الفاحشة المذكورة في الأولى.

---

(١) **صحيح**. أخرجه أبو داود(٤٤٦٢)، والترمذي(١٤٥٦)، وابن ماجه(٢٥٦١)، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي(١٢٧)، والآجري في ذم اللواط(٢٧)، وابن الجارود(٨٢٠)، والبيهقي(٨/ ٢٣١)، وعبد بن حميد(٥٧٣)، وابن عدي في الكامل(٤/ ٣٣٩)، وعبد الرزاق(١٣٤٩٢)، وأحمد (١/ ٣٠٠)، الطبراني(١١٥٦٨)، عن عكرمة، عن ابن عباس به. والحديث صححه الألباني في الإرواء(٢٣٥٠)، ويراجع تفصيل هذا الحديث في شبهة اللواط من هذه الموسوعة.

(٢) النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (٢/ ٣٦٩).

(٣) المصدر السابق.

وأما ما غالطوا به من تفسير السبيل بأنها السبيل إلى قضاء الشهوة بطريق النكاح، فإن القرآن قد أنكره على المؤمنين في قوله: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٣)، فكيف تكون السبيل التي يشرعها الله لهن موضع إنكار وتحريم في آية أخرى؟ ، ثم ما قيمة تلك الشهوة التي وقعن بسببها في الفاحشة، حتى يهتم القرآن بإشباعها فيهن، وبالسبيل التي تيسر لهن إشباعها؟.

أكل هذا من أجل أنه قال: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ﴾ ولم يقل عليهن؟ ، ولكن ألا يقال للمخلص من الشئ هو سبيل له، سواء كان أخف أو أثقل؟. (١)

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المجادلة: ١٢، ١٣).

قالوا: إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات، وإن قومًا من المنافقين تركوا النفاق وآمنوا ظاهرًا وباطنًا إيمانًا حقيقيًا، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى؛ ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيمانًا حقيقيًا عمن بقي على نفاقه الأصلي، وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة لذلك الوقت، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت. وحاصل قولهم: أن ذلك التكليف كان مقدرًا بغاية مخصوصة، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة، فلا يكون هذا نسخًا.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: لو كان كذلك لكان من لم يتصدق منافقًا، وهو باطل؛ لأنه (جاء في الخبر)أنه لم يتصدق غير علي ﷺ. (١)

---

(١) المصدر السابق.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ (المجادلة: ١٣)[٢].

الوجه الثاني: الإجماع على أنها منسوخة. [٣]

الوجه الثالث: بيان معنى الآية.

قال ابن كثير: قول تعالى آمرًا عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ، أي: يساره فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، ثم قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها.

ثم قال: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول، ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فنسخ وجوب ذلك عنهم[٤].

قال الشوكاني: وليس في الآية ما يدلّ على تقصير المؤمنين في امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم فالأمر واضح، وأما من عداهم من المؤمنين، فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة فمن ترك المناجاة، فلا يكون مقصرًا في امتثال الأمر بالصدقة، على أن في الآية ما يدل على أن الأمر للندب[٥].

الوجه الرابع: بيان الفائدة من هذا التكليف.

هذا التكليف وهو الصدقة قبل مناجاة النبي ﷺ كان له عدة فوائد منها:

١ - إعظام الرسول ﷺ وإعظام مناجاته.

---

(١) تفسير الطبري(٢٨/ ٢٠)، من طريق (ابن أبي نجيح، ليث) عن مجاهد **قال: نهوا عن مناجاة النبيّ ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا عليّ بن أبي طالب ﷺ قدم دينارًا فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة في ذلك.**

(٢) تفسير الرازي (٣/ ٢٣٠)، النسخ في القرآن د. مصطفى زيد (١/ ٢٨٩).

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج(٥/ ١٦٥٣).

(٤) تفسير ابن كثير(١٣/ ٤٦٢).

(٥) فتح القدير(٥/ ٢٧١).

٢- نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة.

٣- تخفيف عن النبي ﷺ من المشقة، فقد أكثروا مناجاته.

٤- التمييز بين قوي الإيمان وضعيف الإيمان، وبين محب الآخرة ومحب الدنيا. (١)

الشبهة الثالثة: يقولون: لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكمًا من أحكامه؛ لكان ذلك إما لحكمة ظهرت له كانت خافية عليه، وإما لغير حكمة وكل هذين باطل.

أما الأول: فلأنه يستلزم تجويز البداء والجهل بالعواقب على علام الغيوب.

وأما الثاني: فلأنه يستلزم تجويز العبث على الحكيم العليم اللطيف الخبير.

والبداء والعبث مستحيلان عليه سبحانه بالأدلة العقلية والنقلية فما أدى إليهما وهو جواز النسخ محال.

والجواب على هذه الشبهة:

الوجه الأول: أن الله لا يُسأَلُ عما يفعل.

قال ابن حزم: ما الفرق بين أن يأمرنا الله بشيء في وقت ما، ويبينه لنا، ويعلمنا أنه إذا أتى وقت كذا وجب الانتقال إلى شئ آخر، وبين أن يأمرنا ولا يعلمنا أنه سينقلنا إلى شئ آخر؟ وهذا ما لا سبيل إلى وجود فرق فيه أبدا لذي تمييز وعقل؛ لأنه ليس لنا على الله تعالى شرط، ولا عليه أن يطلعنا على علمه، ولا يتقمن(٢) مسارنا، ولا أن يأخذ آراءنا في شيء، ومدَّعِي هذا ملحد في دين الله ﷻ، كافر به، مفتر عليه، وقد نص تعالى على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وبقوله ﷻ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ (الجن: ٢٦، ٢٧). (٣)

الوجه الثاني: النسخ مبنيٌّ على حكمةٍ يعلمها الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير الرازي (٢٩/ ٢٧١) بتصرف.

(٢) قال في لسان العرب ١٣ / ٣٤٧: تقَمَّنْتُ في هذا الأَمر مُوافقَتَك أَي: تَوَخَّيْتُها.

(٣) الأحكام لابن حزم(١/ ٤٧٢).

قال الزرقاني: إن نسخ الله تعالى ما شاء من أحكامه مبني على حكمة كانت معلومة له أولًا، ظاهرة لم تخف عليه ولن تخفى عليه أبدًا؛ غاية الأمر أن مصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، وأسراره وحكمه سبحانه لا تتناهى، ولا يحيط بها سواه. فإذا نسخ حكمًا بحكم، لم يخل هذا الحكم الثاني من حكمة جديدة غير حكمة الحكم الأول هي مصلحة جديدة للعباد في الحكم الجديد، أو هي غير تلك؛ وسبحان من أحاط بكل شي علما. وإذن فلا يستلزم نسخ الله لأحكامه بداءً ولا عبثًا[1].

الوجه الثالث: الالتباس وقع لتشبيههم علم المخلوق بعلم الله، وبينهما بون عظيم.

وبيان هذا أنه ما دام قد أمكن النسخ على احتمال لا يأباه العقل فمن الخطأ الحكم باستحالته عقلًا، وما في النسخ من جديد ـ على هذا ـ إنما يعتبر جديدًا بالنسبة لنا نحن، أما بالنسبة لله فقد سبق به علمه، ثم جاء النسخ تحقيقًا لهذا العلم، لا اعتراضًا عليه. ولو أنه تعالى حين شرع الحكم الأول حدد مدة العمل، وشرع معه الحكم الذي سينسخه حين يجيء أوان النسخ لاستقبل الناس هذا دون أن يثير في نفوسهم تساؤلًا أو استنكارًا، فلماذا التساؤل والاستنكار حين يخفى عنا الناسخ حتى يجيء أوانه؟ وهل النسخ إلا هذا؟ وهل ننكره لشيء إلا لأنه يشرع لنا حكمًا جديدًا علينا؟.

على أننا نلحظ هذا الجديد كل يوم في جميع شئون الحياة، ولا نجد فيه دليلا ولا شبه دليل على أن الله تعالى يمكن أن يوصف بالبداء أو بالعبث. فالصحيح الجسم قد ينتابه المرض، ومن يعاني مرضًا قد يسبغ الله عليه ثوب العافية، ولم يقل أحد إن الله ﷻ قد تغير علمه، أو إنه قد بدا له، فابتلى الصحيح بالمرض، وأنعم على المريض بالصحة.

والغنى والفقر يتعاوران الناس، فالغني يصاب بالفقر، والفقير يبتلى بالغنى، ولم يفهم أحد أن الله تعالى قد تبدل، أو أنه ﷻ قد بدا له، فبدل الغني بغناه فقرًا، وبدل الفقير غنى بفقره.

---

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٦٥).

وكل حي فمصيره إلى الموت لا محالة، طال عمره أو قصر، ولم يزعم أحد حين مات إنسان أن موته تغير في علم الله، أو أنه تعالى قد بدا له فأماته.

أفيقال إن النسخ يستلزم البداء أو العبث مع أنه لا جديد فيه بالنسبة لله ﷻ، ومع أن كلًا من الحكمين الأول والثاني قد شرع لحكمة، فكان هو الصواب، وهو المحقق للمصلحة في وقته؟.

وحين يعالج الطبيب مريضًا، فيرى أن المرحلة التي يجتازها من مراحل مرضه يصلح لها دواء معين، فيصف له هذا الدواء وهو يعلم المدة التي سيتناوله في أثنائها، وأنه لا يصلح له بعد هذه المدة، ثم يصف له في المرحلة التالية الدواء الذي كان يعلم من أول الأمر أنه يصلح له في هذه المرحلة لا يوصف عادة بأن علمه قد تغير، أو أنه قد بدا له. فهل يسوغ أن نصف الله ﷻ بالبداء، لا لشيء إلا لأنه-وهو يَطِبُّ للنفوس من أدوائها- قد شرع في كل وقت ما يحقق المصلحة، وهو يعلم كل شئ قبل أن يقع؟ وهل يمكن أن يوصف بالعبث حكم لم يشرع إلا حين اقتضته الحكمة، وإن سبق في علم الله تعالى أزلًا أنه سيشرع؛ ليحل محل حكم آخر قد رُفع؟ ، سبحانه، وله المثل الأعلى!. [(١)].

الشبهة الرابعة: يقولون: لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكما بحكم، للزم على ذلك أحد باطلين: جهله جل وعلا، وتحصيل الحاصل.

وبيان ذلك أن الله تعالى إما أن يكون قد علم الحكم الأول المنسوخ على أنه مؤبد، وإما أن يكون قد علمه على أنه مؤقت. فإن كان قد علمه على أنه مستمر إلى الأبد، ثم نسخه وصيره غير مستمر؛ انقلب علمه جهلًا، والجهل عليه تعالى محال. وإن كان قد علمه على أنه مؤقت بوقت معين ثم نسخه عند ذلك الوقت؛ ورد عليه أن المؤقت ينتهي بمجرد انتهاء وقته، فإنهاؤه بالنسخ تحصيل للحاصل، وهو باطل.

والجواب على هذه الشبهة

الوجه الأول: أن النسخ لا يتعارض مع علم الله ﷻ.

---

(١) النسخ في القرآن د. مصطفى زيد(١/ ٣٥).

قال الزرقاني: إن الله تعالى قد سبق في علمه أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد، ولكنه عَلِم بجانب ذلك أن تأقيته إنما هو بورود الناسخ لا بشيء آخر كالتقييد بغاية في دليل الحكم الأول، وإذن فعلمه بانتهائه بالناسخ لا يمنع النسخ؛ بل يوجبه. وورود الناسخ محقق لما في علمه لا مخالف له شأنه تعالى في الأسباب ومسبباتها، وقد تعلق علمه بها كلها، ولا تنس ما قررناه ثمة من أن النسخ بيان بالنسبة إلى الله، رفع بالنسبة إلينا[1].

الشبهة الخامسة.

يقولون: لو جاز النسخ للزم أحد باطلين تحصيل الحاصل، وما هو في معناه. وبيان ذلك أن الحكم المنسوخ إما أن يكون دليله قد غياه بغاية ينتهي عندها أو يكون قد أَبَّدَه نصًا؛ فإن كان قد غياه بغاية فإنه ينتهي بمجرد وجود هذه الغاية، إذ لا سبيل إلى إنهائه بالنسخ وإلا لزم تحصيل الحاصل. وإن كان دليل الحكم الأول قد نص على تأبيده ثم جاء الناسخ على رغم هذا التأبيد لزم المحال من وجوه ثلاثة:

أولها: التناقض؛ لأن التأبيد يقتضي بقاء الحكم ولا ريب أن النسخ ينافيه.

ثانيها: تعذر إفادة التأبيد من الله للناس؛ لأن كل نص يمكن أن يفيده تبطل إفادته باحتمال نسخه، وذلك يفضي إلى القول بعجز الله وعِيِّه عن بيان التأبيد لعباده فيما أبده لهم ـ تعالى الله ـ عن ذلك.

ثالثها: استلزام ذلك لجواز نسخ الشريعة الإسلامية مع أنها باقية إلى يوم القيامة عند القائلين بالنسخ.

والجواب على هذه الشبهة:

الوجه الأول: إن حصر الحكم المنسوخ في هذين الوجهين اللذين ذكرهما المانع غير صحيح؛ لأن الحكم المنسوخ يجوز ألا يكون مؤقتًا ولا مؤبدًا؛ بل يجيء مطلقا عن التأقيت وعن التأبيد كليهما، وعليه فلا يستلزم طرو النسخ عليه شيئا من المحالات التي ذكروها،

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٦٥).

وإطلاق هذا الحكم كاف في صحة نسخه؛ لأنه يدل على الاستمرار بحسب الظاهر وإن لم يعرض له النص.

الوجه الثاني: أن ما ذكروه من امتناع نسخ الحكم المؤبد غير صحيح أيضا وما استندوا إليه منقوض بوجوه ثلاثة:

أولها: أن استدلالهم بأنه يؤدي إلى التناقض مدفوع بأن الخطابات الشرعية مقيدة من أول الأمر بألا يرد ناسخ، كما أنها مقيدة بأهلية المكلف للتكليف، وألا يطرأ عليه جنون أو غفلة أو موت وإذن فمجيء الناسخ لا يفضي إلى تناقض بينه وبين المنسوخ بحال.

ثانيها: أن استدلالهم بأنه يؤدي إلى أن يتعذر على الله بيان التأبيد لعباده مدفوع بأن التأبيد يفهمه الناس بسهولة من مجرد خطابات الله الشرعية المشتملة على التأبيد، وهو ما يشعر به كل واحد منا، وذلك لأن الأصل بقاء الحكم الأول، وما اتصل به من تأقيت أو تأبيد وطرو الناسخ احتمال مرجوح، واستصحاب الأصل أمر يميل إليه الطبع كما يؤيده العقل والشرع.

ثالثها: أن جواز نسخ الشريعة الإسلامية إن لزمنا معاشر القائلين بالنسخ فإنه يلزمنا على اعتبار أنه احتمال عقلي لا شرعي بدليل أننا نتكلم في الجواز العقلي لا الشرعي، أما نسخ الشريعة الإسلامية بغيرها من الناحية الشرعية فهو من المحالات الظاهرة؛ لتضافر الأدلة على أن الإسلام دين عام خالد ولا يضير المحال في حكم الشرع أن يكون من قبيل الجائز في حكم العقل. (١)

الشبهة السادسة: يقولون إن النسخ يستلزم اجتماع الضدين، واجتماعهما محال.

وبيان ذلك أن الأمر بالشيء يقتضي أنه حسن وطاعة ومحبوب لله، والنهي عنه يقتضي أنه قبيح ومعصية ومكروه له تعالى، فلو أمر الله بالشيء ثم نهى عنه، أو نهى عن الشيء ثم أمر به لاجتمعت هذه الصفات المتضادة في الفعل الواحد الذي تعلق به الأمر والنهي.

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الله سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة.

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٦٧: ١٦٦).

قال ابن حزم: إن منكري النسخ قالوا: ليس من الحكمة أن يأمر الله تعالى بشيء أمس ثم ينهى عن مثله اليوم، وهذا من نظائر قول أصحابنا بالعلل، وهؤلاء قوم يتعقبون على ربهم تعالى، فيقال لهم: أخبرونا أي حكمة وجبت عليه تعالى أن يأمر أمس بما أمر به؟ أترى لو لم يأمر تعالى بما أمر به لكانت تبطل حكمته؟ أو لو أمر بغير ما أمر به لكانت تبطل حكمته؟ أو ترون إذ قدس الأرض المقدسة، ولعن أريحا، ولعن أورشليم أكان ذلك مفسدا لحكمته؟ وإذ حظر العمل في السبت وأباحه في الأحد، أرأيتم لو عكس الأمر أكان ذلك مبطلا لحكمته؟ فإن راموا فرقًا بين شيء من ذلك لحقوا بالمجانين، وجاهروا بما لا يفهم وبما يعلم بطلانه.

ثم يُقال لهم: أليس الله تعالى قد ملّك قومًا من الكفار العصاة الظلمة ومكّنهم، وأذل قومًا من الكفار العصاة الظلمة وملّك غيرهم رقابهم، وملك قومًا صالحين فضلاء مؤمنين، ومكنهم وبسط أيديهم، وأذل قومًا صالحين فضلاء مؤمنين وملك غيرهم رقابهم، ومد أعمار قوم كفار طغاة، واخترم آخرين منهم قبل بلوغ الاكتهال، وفعل مثل ذلك بقوم مؤمنين أفاضل، ومكّن قومًا عصاة مردة من البيان والكلام في العلوم حتى أضلوا أمما من الخلق، وجعل آخرين منهم بلداء أغبياء، وفعل مثل ذلك أيضًا بالمؤمنين سواء بسواء، فما الذي جعل هذا حكمه دون عكس كل ذلك؟ وما الفرق بين هذا من أفعاله تعالى وبين أن يأمر اليوم بأمر ثم ينهى عن مثله غدا؟ وما يفرق بين كل ما ذكر إلا عديم عقل أو وقح سخيف.[1]

الوجه الثاني: الذي يحكم بالحسن والقبح هو الله.

فإن الحُسن والقبح وما اتصل بهما ليست من صفات الفعل الذاتية حتى تكون ثابتة فيها لا تتغير؛ بل هي تابعة لتعلق أمر الله ونهيه بالفعل وعلى هذا يكون الفعل حسنًا وطاعة ومحبوبًا لله ما دام مأمورًا به من الله، ثم يكون هذا الفعل نفسه قبيحًا ومعصية

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ٤٧٠).

ومكروهًا له تعالى ما دام منهيًا عنه منه تعالى. والقائلون بالحسن والقبح العقليين من المعتزلة يقرون بأنها يختلفان باختلاف الأشخاص والأوقات والأحوال، وبهذا التوجيه ينتفي اجتماع الضدين؛ لأن الوقت الذي يكون فيه الفعل حسنا غير الوقت الذي يكون فيه ذلك الفعل قبيحا؛ فلم يجتمع الحسن والقبح في وقت واحد على فعل واحد[(١)].

الشبهة السابعة: يقولون إن التوراة التي أنزلها الله على موسى، لم تزل محفوظة لدينا منقولة بالتواتر فيما بيننا وقد جاء فيها: (هذه شريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض).

وجاء فيها أيضًا، (الزموا يوم السبت أبدًا) وذلك يفيد امتناع النسخ؛ لأن نسخ شيء من أحكام التوراة لا سيما تعظيم يوم السبت إبطال لما هو من عنده تعالى.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه

الوجه الأول: هذا الخبر المنقول عن موسى عليه السلام لا يصح.

قال ابن الجوزي: وأما دعوى من ادعى أن موسى عليه السلام أخبر أن شريعته لا تنسخ فمحال ويقال: إن ابن الراوندي[(٢)] علَّمهم أن يقولوا: إن موسى قال: لا نبي بعدي.

---

(١) الإبهاج في شرح المنهاج(٥/ ١٦٤٦)، البرهان في أصول الفقه(١/ ٢٥٠)، مناهل العرفان (٢/ ١٦٧)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (١/ ٤٠: ٣٥).

(٢) ابن الراوندي الزنديق، وهو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي، نسبة إلى قرية ببلاد قاشان ثم نشأ ببغداد، كان بها يصنف الكتب في الزندقة، وكانت لديه فضيلة، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة، -وهو-أحد مشاهير الزنادقة، كان أبوه يهوديا فأظهر الإسلام، ويقال إنه حرف التوراة، كما عادى ابنه القرآن بالقرآن، وألحد فيه، وصنف كتابًا في الرد على القرآن سماه الدامغ. وكتابًا في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سماه الزمردة، وكتابًا يقال له التاج في معنى ذلك.

وله كتاب الفريد، وكتاب إمامة المفضول الفاضل، وقد انتصب للرد على كتبه هذه جماعة منهم الشيخ أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة في زمانه وقد أجاد في ذلك، وكذلك ولده أبو هاشم عبد السلام ابن أبى على، قال الشيخ أبو علي: قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي، فلم أجد فيه إلا السفه، والكذب، والافتراء، قال: وقد وضع كتابًا في قدم العالم ونفي الصانع، وتصحيح مذهب الدهرية والرد على أهل التوحيد، ووضع كتابًا في الرد على محمد رسول الله ﷺ في سبعة عشر موضعا ونسبه إلى الكذب يعنى: النبي ﷺ، وطعن على القرآن ووضع كتابًا لليهود والنصارى وفضل دينهم على المسلمين

ويدل على ما قلنا: أنه لو صح قولهم لما ظهرت المعجزات على يد عيسى عليه السلام؛ لأن الله تعالى لا يصدق بالمعجزة من كذب موسى، فإن أنكروا معجزة عيسى لزمهم ذلك في معجزة موسى، فإن اعترفوا ببعض معجزاته لزمهم تكذيب من نقل عن موسى عليه السلام لأنه قال: لا نبي بعدي[1].

قال الآمدي: وما ذكروه من قول موسى، فمختلق لم تثبت صحته عن موسى عليه السلام.

وقد قيل: إن أول من وضع ذلك لهم ابن الراوندي؛ ليعارض به دعوى الرسالة من محمد ﷺ، لما ظهر من تسمحه في الدين.[2]

الوجه الثاني: أن اليهود ما كانوا يحتجون على نبينا محمد ﷺ بشيء من هذا خاصةً من أسلم منهم، فلو كانت هذه الدعوى صحيحة لحاجُّوا بها أفضل الرسل ﷺ.

قال ابن الجوزي: ومما يدل على كذبهم فيما ادعوا أن اليهود ما كانوا يحتجون على نبينا محمد ﷺ بكل شيء، وكان نبينا مصدقًا لموسى عليه السلام، وحكم عليهم بالرجم عملًا بما في

والإسلام يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد ﷺ إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الإسلام، نقل ذلك ابن الجوزي عنه.

قال ابن الجوزي: وإنما ذكرته ليعرف قدر كفره، فإنه معتمد الملاحدة والزنادقة. - وقد ذكر ابن الجوزي طرفًا من كلامه في معارضته للقرآن في كتابه الدامغ، ثم قال بعدها: وقد ذكر الملعون أشياء من هذا الجنس مزجها بسوء الأدب، والانبساط القبيح، والذكر للخالق سبحانه وتعالى بما لا يصلح أن يذكر به أحد العوام، وما سمعنا أن أحدًا عاب الخالق وانبسط كانبساط هذا اللعين قبله ويلومه لو جحد الخالق كان أصلح له من أن يثبت وجوده، ثم يخاصمه ويعيبه وليس له في شيء مما قاله شبهة، فضلًا عن حجة فتذكر ويجاب عنها، وإنما هو خذلان فضحة الله تعالى به في الدنيا، والله تعالى يقابله يوم القيامة مقابلة تزيد على مقابلة إبليس، وإن خالف، لكنه احترم في الخطاب كقوله: " بعزتك " ولم يواجه بسوء أدب كما واجه هذا اللعين، جمع الله بينهما، وزاد هذا من العذاب. المنتظم (١٣/ ١١٧: ١٠٨)، وانظر: الوافي بالوفيات (٣/ ١٠١)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٢: ٥٩)، ولسان الميزان (١/ ٣٢٣).

(١) نواسخ القرآن (٨٢).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٣/ ١١٤).

شريعة موسى فهلا احتجوا عليه بذلك، ولو احتجوا لشاع نقل ذلك فدل على أنه قول ابتُدع بعد نبينا محمد ﷺ. (١)

قال الآمدي: ويدل على ذلك أن أحبارهم ككعب الأحبار، وابن سلام، ووهب بن منبه وغيرهم كانوا أعرف من غيرهم بما في التوراة، وقد أسلموا ولم يذكروا شيئًا من ذلك: ولو كان ذلك صحيحًا لكان من أقوى ما يتمسك به اليهود في زمن النبي ﷺ في معارضته، ولم ينقل عنهم شئ من ذلك، ثم إنهم مختلفون في نفس متن الحديث، فإن منهم من قال الحديث: إن أطعتموني لما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، ثبت ملككم، كما ثبتت السموات والأرض. وليس في ذلك ما يدل على إحالة النسخ(٢).

الوجه الثالث: على القول بصحته فلا تعارض.

قال الآمدي: وإن سلمنا صحة ما نقلوه، فيحتمل أنه أراد بالشريعة؛ التوحيد. ويحتمل أنه أراد بقوله (مؤبدة) ما لم تنسخ بشريعة نبي آخر، ومع احتمال هذه التأويلات، فلا يعارض قوله ما ظهر على يد النبي ﷺ من المعجزات القاطعة الدالة على صدقه في دعواه الرسالة ونسخ شريعة من تقدم(٣).

الوجه الرابع: التأبيد في التوراة لم يرد به الدوام.

قال الآمدي: كيف وإنَّ لفظ التأبيد قد ورد في التوراة، ولم يرد به الدوام، كقوله: إن العبد يستخدم ست سنين، ثم يعتق في السابعة، فإن أبى العتق، فلتثقب أذنه ويستخدم أبدًا. وكقوله في البقرة التي أُمِروا بذبحها: هذه سنة لكم أبدًا، وكقوله: قربوا كل يوم خروفين قربانا دائمًا، (هذه سنة لكم أبدًا) وكقوله: (قربوا كل يوم خروفين قربانًا دائمًا)، مع أن هذه الأحكام قد نسخت باعتراف اليهود أنفسهم، على رغم التصريح فيها بما يفيد

(١) نواسخ القرآن(٨٢).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام(٣/ ١١٤)، مناهل العرفان (٢/ ١٦٩).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام(٣/ ١١٤).

التأبيد كما ترى[١].

الوجه الخامس: زعمهم أن التوراة محفوظة في أيديهم كلام باطل.

إننا لا نسلم لهم ما زعموه من أن التوراة لم تزل محفوظة في أيديهم حتى يصح استدلالهم بها؛ بل الأدلة متضافرة على أن التوراة الصحيحة لم يعد لها وجود، وأنه أصاب من التغيير والتبديل ما جعلها في خبر كان.

من تلك الأدلة أن نسخة التوراة التي بأيدي السامريين تزيد في عمر الدنيا نحوًا من ألف سنة على ما جاء في نسخة العنانيين، وأن نسخة النصارى تزيد ألفًا وثلاثمائة سنة.

ومنها أنه جاء في بعض نسخ التوراة ما يفيد أن نوحًا أدرك جميع آبائه إلى آدم، وأنه أدرك من عهد آدم نحوًا من مائتي سنة، وجاء في بعض نسخ أخرى ما يفيد أن نوحًا أدرك من عمر إبراهيم ثمانيًا وخمسين سنة وكل هذا باطل تاريخيًا.

ومنها أن نسخ التوراة التي بأيديهم تحكي عن الله وعن أنبيائه وملائكته أمورًا ينكرها العقل ويمجها الطبع ويتأذى بها السمع مما يستحيل معه أن يكون هذا الكتاب صادرًا عن نفس بشرية مؤمنة طاهرة فضلًا عن أن ينسب إلى ولي فضلًا عن أن ينسب إلى نبي فضلًا عن أن ينسب إلى الله رب العالمين.

من ذلك أن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم، وأنه بكى حتى رمدت عيناه، وأن يعقوب صارعه - جل الله عن ذلك كله - ومن ذلك أن لوطًا شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه، ومنه أن هارون هو الذي اتخذ العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته من دون الله.

ومن الأدلة أيضًا على فساد دعوى بقاء التوراة وحفظها ما ثبت بالتواتر عند المؤرخين بل عند اليهود أنفسهم من أن بني إسرائيل وهم حملة التوراة وحفاظها قد ارتدوا عن الدين مرات كثيرة، وعبدوا الأصنام، وقتلوا أنبياءهم شر تقتيل. ولا ريب أن هذه مطاعن شنيعة جارحة لا تبقي لأي واحد منهم أي نصيب من عدالة أو ثقة، ولا تحمل لهذه النسخ

(١) الإحكام في أصول الأحكام(٣/ ١١٤)، مناهل العرفان (٢/ ١٦٩).

التي زعموا أنها التوراة أقل شيء من القيمة أو الصحة ما داموا هم رواتها وحفاظها، وما دامت هي لم تعرف إلا عن طريقهم وبرواياتهم.[1]

الشبهة الثامنة: يقولون إن المسيح ﷺ قال: (السماء والأرض تزولان وكلامي لا يزول) كما قال: (لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ١٨ فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ.) إنجيل متى(٥/ ١٨ : ١٧) وهذا يدل على امتناع النسخ سمعًا.

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: قوله (ما جئت لأنقض بل لأكمل) لا يصح بدليل وقوع النقض (النسخ)، والدليل على ذلك: جاء في العهد القديم ما نصه: (إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ؛ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَق وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، ٢ وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُل آخَرَ، ٣ فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَق وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الَّذِي اتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً، ٤ لاَ يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الَّذِي طَلَّقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لَهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذلِكَ رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ. فَلاَ تَجْلِبْ خَطِيَّةً عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا.) سفر التثنية(٢٤/ ٤ : ١).

وبعد ذلك جاء في العهد الجديد ما ينقضه (ينسخه) وهذا نصه: (وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟ » ٤ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ ٥ وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٦ إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». ٧ قَالُوا لَهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَق فَتُطَلَّقُ؟ » ٨ قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هكَذَا. ٩ وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَب الزِّنَا

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٦٩)، وانظر مبحث (تحريف الكتاب المقدس) من هذه الموسوعة المباركة.

وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي) إنجيل متى(١٩/ ٩: ٣).

الوجه الثاني: الكتاب الذي بين أيديكم محرف، ولا يجوز الاحتجاج به.

قال الزرقاني: إنا لا نسلم أن الكتاب الذي بأيديهم هو الإنجيل الذي نزل على عيسى؛ إنْ هو إلا قصة تاريخية وضعها بعض المسيحيين يبين فيها حياة المسيح وولادته ونشأته ودعوته والأماكن التي تنقل فيها والآيات التي ظهرت على يديه ومواعظه ومناظراته، كما يتحدث فيها عن ذلك الحادث الخيالي حادث الصلب، وعلى رغم أنها قصة فقد عجزوا عن إقامة الدليل على صحتها وعدالة كاتبها وأمانته وضبطه، كما أعياهم اتصال السند وسلامته من الشذوذ والعلة بل ثبت علميا تناقض نسخ هذه القصة التي أسموها الإنجيل مما يدل على أنها ليست من عند ا لله ولو كانت من عند ا لله ما أتاها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وصدق الله في قوله عن القرآن ﴿وَلَوْكَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْفِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢). [١]

إن سياق هذه الكلمة في إنجيلهم يدل على أن مراده بها تأبيد تنبؤاته، وتأكيد أنها ستقع لا محالة أما النسخ فلا صلة لها به نفيًا ولا إثباتًا، وذلك لأن المسيح حدّث أصحابه بأمور مستقبلية، وبعد أن انتهى من حديثه هذا أتى بهذه الجملة التي تشبثوا بها: (**اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ**).

ولا ريب أن لسياق الكلام تأثيره في المراد منه، وهكذا شرحها المفسرون منهم للإنجيل وقالوا: إن فهمها على عمومها لا يتفق وتصريح المسيح بأحكام ثم تصريحه بما يخالفها، من ذلك أنه قال لأصحابه كما جاء في إنجيل متى (**إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. ٦بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ.**)وهذا اعتراف بخصوص رسالته لنبي إسرائيل ثم قال مرة أخرى كما في إنجيل مرقس: (**اذْهَبُوا**

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٧٠).

إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا.) فالقول الثاني ناسخ للأول. (١)

الوجه الثالث: على فرض صحتها إنما تدل على امتناع نسخ شيء من شريعة المسيح عليه السلام فقط.

قال الزرقاني: إن هذه الجملة على تسليم صحتها، وصحة رواته وكتابها الذي جاءت فيه لا تدل على امتناع النسخ مطلقا؛ إنما تدل على امتناع نسخ شيء من شريعة المسيح فقط، فشبهتهم على ما فيه قاصرة قصورًا بيِّنًا عن مدعاهم. (٢)

الشبهة التاسعة: هي الربط بين النسخ والبداء، فقد اتخذوا من إثبات النسخ ووقوعه في القرآن ذريعة إلى وصف الله عز وجل بالبداء.

و تمسحوا في أمرين أولهما قوله سبحانه: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الرعد: ٣٩)، فيقولون: إن مجال المحو والإثبات فيها هو صفة العلم ذاتها، وإنّ علم الله تعالى يتبدل، نتيجة لما يبدو له، أي لما يظهر له بعد أن كان خافيًا عليه.

الأمر الثاني: أنهم تشبثوا بآثار نسبوها إلى أئمة طاهرين، منها أن عليًا رضي الله عنه كان يقول: لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة. ومنها أن جعفر الصادق رضي الله عنه قال: ما بدا الله تعالى في شيء كما بدا له في إسماعيل. ومنها أن موسى بن جعفر قال: البداء ديننا ودين آبائنا في الجاهلية. ويقوم هذا الادعاء على أن أئمة آل البيت كانوا يصفون الله عز وجل بالبداء.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: البداء على الله مستحيل وقد حكم العلماء على من وصف الله به بالكفر.

قال ابن النجار: وَلَا يَجُوزُ الْبَدَاءُ عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ تَجَدُّدُ الْعِلْمِ. وَهُوَ أَيْ الْقَوْلُ بِتَجَدُّدِ عِلْمِهِ جَلَّ وَعَلَا (كُفْرٌ) بِإِجْمَاعِ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ الله: مَنْ قَالَ: إنَّ الله تَعَالَى لَمْ يَكُنْ عَالِمًا حَتَّى خَلَقَ لِنَفْسِهِ عِلْمًا فَعَلِمَ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ(٣).

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٧٠)، وانظر إظهار الحق (٣/ ٦٧٧: ٦٧٦).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ١٧١: ١٧٠).

(٣) شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٣٦)، البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٠).

قال الشوكاني: وقد جوزت الرافضة البداء عليه عز وجل لجواز النسخ، وهذه مقالة الكفر بمجردها[1].

قال الزرقاني: ذانك معنيان متقاربان للبداء (الظهور بعد الخفاء، نشأة رأي جديد لم يك موجودًا) وكلاهما مستحيل على الله تعالى؛ لما يلزمهما من سبق الجهل، وحدوث العلم، والجهل والحدوث عليه محالان؛ لأن النظر الصحيح في هذا العالم دلنا على أن خالقه ومدبره متصف أزلًا وأبدًا بالعلم الواسع المطلق المحيط بكل ما كان وما سيكون وما هو كائن كما هدانا هذا النظر الصحيح إلى أنه تعالى لا يمكن أن يكون حادثا ولا محلا للحوادث، وإلا لكان ناقصًا يعجز عن أن يبدع هذا الكون ويدبره هذا التدبير المعجز ذلك إجمال لدليل العقل.

أما أدلة النقل: فنصوص فياضة ناطقة بأنه تعالى أحاط بكل شيء علما وأنه لا تخفى عليه خافية، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام: ٥٩)، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ (الرعد: ٨-١٠)، إلى غير ذلك من مئات الآيات والأحاديث.

ولكن على رغم أنف هذه البراهين الساطعة من عقلية ونقلية ضل أقوام سفِهوا أنفسهم فأغمضوا عيونهم عن النظر في الكون الناطق، وصموا آذانهم عن سماع كلام الله وكلام نبيه الصادق، وزعموا أن النسخ ضرب من البداء أو مستلزم للبداء، وهكذا اشتبهوا أو شبهوا على الناس الأمر لولا ظهور مصلحة لله ونشوء رأي جديد له ما نسخ أحكامه وبدل تعاليمه، ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى حين نسخ بعض أحكامه ببعض ما

---

(١) إرشاد الفحول(١٨٥).

ظهر له أمر كان خافيًا عليه، وما نشأ له رأي جديد كان يفقده من قبل؛ إنما كان سبحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أزلًا من قبل أن يشرعهما لعباده؛ بل من قبل أن يخلق الخلق ويبرأ السماء والأرض، إلا أنه جلت حكمته علم أن الحكم الأول المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهي في وقت معلوم، وعلم بجانب هذا أن الناسخ يجيء في هذا الميقات المعلوم منوطا بحكمة وبمصلحة أخرى، ولا ريب أن الحكم والمصالح تختلف باختلاف الناس وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم، وأن الأحكام وحكمها والعباد ومصالحهم والنواسخ والمنسوخات كانت كلها معلومة لله من قبل، ظاهرة لديه لم يخف شيء منها عليه، والجديد في النسخ إنما هو إظهاره تعالى ما علم لعباده، لا ظهور ذلك له على حد التعبير المعروف: شؤون يبديها ولا يبتديها، وما كان ربك نسيًا.

اجتمعت اليهود والرافضة على هذه الضلالة، ضلالة استلزام النسخ للبداء؛ لكنهم افترقوا بعد ذلك إلى ناحيتين خطيرتين: فاليهود أنكروا النسخ وأسرفوا في الإنكار لاستلزامه في زعمهم البداء وهو محال، وسنناقشهم الحساب فيما بعد إن شاء الله. أما الرافضة فأثبتوا النسخ ثم أسرفوا في إثبات هذا البداء اللازم له في زعمهم ونسبوه إلى الله في صراحة ووقاحة سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا[1].

قال الغزالي: - في معرض الرد على منكري النسخ وأنه يستلزم البداء:

وأما الجواب عن الخامس وهو لزوم البداء، فهو فاسد؛ لأنه إن كان المراد أنه يلزم من النسخ أن يحرم ما أباح، وينهى عما أمر فذلك جائز ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ ولا تناقض فيه، كما أباح الأكل بالليل وحرمه بالنهار، وإن كان المراد أنه انكشف له ما لم يكن عالما به فهو محال، ولا يلزم ذلك من النسخ؛ بل يعلم الله تعالى أنه يأمرهم بأمر مطلق، ويديم عليهم التكليف إلى وقت معلوم، ثم يقطع التكليف بنسخه عنهم، فينسخه في الوقت الذي علم نسخه فيه، وليس فيه تبين بعد جهل.

---

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٥١: ١٥٢).

فإن قيل: فهم مأمورون في علمه إلى وقت النسخ أو أبدًا؟

فإن كان إلى وقت النسخ، فالنسخ قد بين وقت العبادة كما قاله الفقهاء، وإن كانوا مأمورين أبدا فقد تغير علمه ومعلومه.

قلنا: هم مأمورون في علمه إلى وقت النسخ، الذي هو قطع الحكم المطلق عنهم، الذي لولاه لدام الحكم، كما يعلم الله ـ تعالى ـ البيع المطلق مفيدا للملك، إلى أن يقطع بالفسخ، ولا يعلم البيع في نفسه قاصرا على مدة؛ بل يعلمه مقتضيا لملك مؤبد بشرط، أن لا يطرأ قاطع، لكن يعلم أن الفسخ سيكون، فينقطع الحكم لانقطاع شرطه، لا لقصوره في نفسه.

فليس إذًا في الفسخ لزوم البداء، ولأجل قصور فهم اليهود عن هذا أنكروا النسخ، ولأجل قصور فهم الروافض عنه ارتكبوا البداء، ونقلوا عن علي ﷺ أنه كان لا يخبر عن الغيب مخافة أن يبدو له تعالى فيه فيغيره، وحكوا عن جعفر بن محمد أنه قال: ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل، أي: في أمره بذبحه.

وهذا هو الكفر الصريح ونسبة الإله ـ تعالى ـ إلى الجهل والتغير(١).

الوجه الثاني: الآية حجة عليهم، وأن التغير في المعلوم لا في العلم.

قال الزرقاني: قوله سبحانه: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، والجواب: أنه لا مستند لهم في الآية الكريمة؛ بل هي ترد عليهم كما ردت على أشباههم ممن عابوا النسخ على النبي ﷺ، ومعناها أن الله يغير ما شاء من شرائعه وخلقه على وفق علمه وإرادته وحكمته، وعلمه سبحانه لا يتغير ولا يتبدل إنما التغير في المعلوم لا في العلم بدليل قوله: ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي وعنده المرجع الثابت الذي لا محو فيه ولا إثبات، وإنما يقع المحو والإثبات على وفقه فيمحو سبحانه شريعةً ويثبت مكانها أخرى، ويمحو حكمًا ويثبت آخر، ويمحو مرضًا، ويثبت صحة، ويمحو فقرًا ويثبت غنىً،

(١) المستصفى (١/ ٢١٥).

ويمحو حياة ويثبت موتًا، وهكذا تعمل يد الله في خلقه وتشريعاته تغييرًا وتبديلًا، وهو الحق وحده لا يعروه تغيير ولا تبديل، ولا يتطرق إلى علمه محو ولا إثبات.

وخلاصة هذا التوجيه أن النسخ تبديل في المعلوم لا في العلم، وتغيير في المخلوق لا في الخالق، وكشف لنا وبيان عن بعض ما سبق به علم الله القديم المحيط بكل شيء، ولهذا ذهب كثير من علمائنا إلى تعريف النسخ بأنه بيان انتهاء الحكم الشرعي الذي تقرر في أوهامنا استمراره بطريق التراخي، ثم قالوا: توجيهًا لهذا الاختيار، إن هذا التعريف دفعًا ظاهرًا للبداء وتقريرًا لكون النسخ تبديلًا في حقنا بيانًا محضًا في حق صاحب الشرع[1].

الوجه الثالث: بيان معنى المحو والإثبات في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ (الرعد: ٣٩).

والمحو والإثبات في الآية على قولين:

القول الأول: أن الآية عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر السياق.

قال ابن عطية: وتخبط الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتخلص به مشكلها: أن نعتقد أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل، وعلمها بحال ما لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي ثبتت في ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وسبق بها القضاء، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي قد أخبر الله تعالى أنه يبدل فيها وينقل كعفو الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها -ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رد الأمر للقضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبت ما ثبت. وجاءت العبارة مستقلة بمجيء الحوادث، وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان فينتظر البشر ما يمحو أو ما يثبت وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم[2].

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٥٣: ١٥٢).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٣١٧).

قال الشوكاني: وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر، أو خير أو شرّ، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء: ٢٣)[1].

القول الثاني: أن هذه الآية خاصة في بعض الأشياء دون البعض.

وعلى هذا التقرير ففي الآية وجوه:

أحدها: يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يغيران، قاله ابن عباس ومجاهد.

الثاني: يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء في كتابٍ سوى أُم الكتاب، وهما كتابان أحدهما: أم الكتاب لا يغيره ولا يمحو منه شيئًا كما أراد، قاله عكرمة.

الثالث: أن الله ﷻ ينسخ ما يشاء من أحكام كتابه، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه أي الناسخ والمنسوخ، فيمحو المنسوخ، ويثبت الناسخ، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد.

الرابع: أنه يمحو مَنْ قد جاء أجلُه ويثبت من لم يأت أجلُه، قاله الحسن.

الخامس: يغفر ما يشاء من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره، قاله سعيد بن جبير.

السادس: أنه الرجل يقدم الطاعة ثم يختمها بالمعصية فتمحو ما قد سلف، والرجل يقدم المعصية ثم يختمها بالطاعة فتمحو ما قد سلف، وهذا القول مأثور عن ابن عباس أيضًا.

السابع: أن الحفظة من الملائكة يرفعون جميع أقواله وأفعاله، فيمحو الله ﷻ، منها ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب، قاله الضحاك. وثم أقوال أخرى ذكرها أهل العلم.[2]

والقول الأول هو الراجح.

فإن قال قائل: ألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الأمر بأنف،

---

(١) فتح القدير (٣/ ١٢٤)، تفسير الرازي(١٩/ ٦٤)، تفسير القرطبي (٩/ ٣٤٠)، تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٥).

(٢) تفسير الطبري(١٣/ ١٧٠: ١٦٥)، النكت والعيون(٣/ ١١٨: ١١٧).

فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والإثبات؟

قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضًا مما جف به القلم فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه[(١)].

الوجه الرابع: هذه الآثار مكذوبة على أئمة آل البيت.

وندفع هذا بأنها مفتريات وأكاذيب كان أول من حاك شباكها الكذاب الثقفي (المختار بن أبي عبيد)[(٢)] الذي كان ينتحل لنفسه العصمة وعلم الغيب، فإذا ما افتضح أمره وكذبته الأيام

---

(١) تفسير الرازي (١٩/ ٦٥)، فتح القدير (٣/ ١٢٥).

(٢) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، أبو إسحاق، كان من أهل الطائف، وانتقل مع أبيه إلى المدينة في زمن عمرﷺ، وفيها انقطع إلى بني هاشم، وتزوج عبد الله بن عمر أخته صفية، ثم كان مع علي بالعراق، وسكن البصرة بعده، ولما قُتل الحسين سنة ٦١هـ انحرف عن ابن زياد أمير البصرة حينذاك، فقُبض عليه هذا وجلده وحبسه، ثم نفاه بشفاعة ابن عمر إلى الطائف، ولما طالب عبد الله بن الزبير في المدينة بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية سنة٦٤هـ ذهب إليه المختار وعاهده، وشهد معه بداية حرب الحصين بن نمير، ثم استأذنه في التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته، فوثق به وأرسله ووصى عليه، غير أنه كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا الحسين وقتلوه، فدعا إلى إمامة محمد بن الحنفية، ولكن هذا تبرأ منه، ومع ذلك بايعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سرًا، وقد خرج بهم على والي الكوفة، فعظم شأنه بعد أن استولى عليها وعلى الموصل وتتبع قتلة الحسين، فقتل منهم شمر بن ذي الجوشن الذي باشر قتل الحسين، وخولي بن يزيد الذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي حاربه، وأرسله إبراهيم بن الأشتر في عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد الذي جهز الجيش لقتال الحسين فقتله، وقتل كثيرًا ممن كان لهم ضلع في تلك الجريمة، غير أنه انحرف بعد ذلك فادعى أنه يوحى إليه، وقال بجواز البداء على الله سبحانه، ثم كانت نهاية أمره أن قاتله مصعب بن الزبير أمير البصرة من قبل أخيه، حتى حصره في قصر الكوفة، وقتله ومن كان معه، بعد أن أقام نفسه أميرًا عليها ستة عشر شهرًا.

وواضح أن الكذاب الثقفي لم يفتر إلا على الإمام علي، من بين هؤلاء الأئمة الثلاثة، أما الإمام جعفر وابنه موسى فإن الذين افتروا عليهما هم أتباعه الذين عاصروهما، ذلك أن الإمام جعفرًا لم يولد إلا عام ٨٠ للهجرة، مع أن الكذاب توفي سنة٦٦هـ فكيف بموسى وهو ابن جعفر؟.

(أما إن) هذه الكلمات مفتراة، ومنسوبة زورًا إلى آل البيت فحسبنا في إثبات هذا أمر الله تعالى لنبيهﷺ بأن يقول: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وهذه الآية

قال: إن الله وعدني ذلك غير أنه بدا له، فإذا أوجس في نفسه خيفة من أن يؤاخذه الناس وينتقموا منه على هذا الكفر الشنيع نسب تلك الكفريات إلى أعلام بيت النبوة وهم منها براء، وهكذا كان اللعين وأشياعه يحتجون بكفر على كفر، ويستدلون بكذب على كذب، ويعالجون داء بداء، ومن يضلل الله فما له من هاد نسأل الله السلامة بمنه وكرمه آمين[1].

الوجه الخامس: ماذا قال الكتاب المقدس عن الرب في وصفه بالبداء.

سفر القضاة (٢: ١٨)(وَحِينَمَا أَقَامَ الرَّبُّ لَهُمْ قُضَاةً، كَانَ الرَّبُّ مَعَ الْقَاضِي، وَخَلَّصَهُمْ مِنْ يَدِ أَعْدَائِهِمْ كُلَّ أَيَّامِ الْقَاضِي، لأَنَّ الرَّبَّ نَدِمَ مِنْ أَجْلِ أَنِينِهِمْ بِسَبَبِ مُضَايِقِيهِمْ وَزَاحِمِيهِمْ.)، سفر صموئيل الأول (١٥/ ٣٥) (وَلَمْ يَعُدْ صَمُوئِيلُ لِرُؤْيَةِ شَاوُلَ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهِ، لأَنَّ صَمُوئِيلَ نَاحَ عَلَى شَاوُلَ. وَالرَّبُّ نَدِمَ لأَنَّهُ مَلَّكَ شَاوُلَ عَلَى إِسْرَائِيلَ.)، (سفر يونان ٣/ ١٠)(فَلَمَّا رَأَى الله أَعْمَالَهُمْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا عَنْ طَرِيقِهِمِ الرَّدِيئَةِ، نَدِمَ الله عَلَى الشَّرِّ الَّذِي تَكَلَّمَ أَنْ يَصْنَعَهُ بِهِمْ، فَلَمْ يَصْنَعْهُ.)، (سفر التكوين ٦/ ٧: ٦) (فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ»)، (سفر صموئيل الأول ١٥/ ١١: ١٠) (وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى صَمُوئِيلَ قَائِلًا: ١١«نَدِمْتُ عَلَى أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكًا، لأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِي وَلَمْ يُقِمْ كَلاَمِي». فَاغْتَاظَ صَمُوئِيلُ وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ اللَّيْلَ كُلَّهُ.)، فهذا عين البداء الذي ينسبونه إلى الرب.

الشبهة العاشرة: قالوا بأن النبي ﷺ هو الذي كان يدَّعِي النسخ. ويتشبثون بقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ (النحل ١٠١).

والجواب عليهم من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان المعنى الصحيح للآية

مع الدليل العقلي كافيان شافيان. المنتظم(٦/ ٦٧)، الإصابة(٦/ ٣٥٢: ٣٤٩)، البداية والنهاية (٨/ ٢٧٨: ٢٧٥)، نقلًا من النسخ د/ مصطفى زيد.

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٥٣).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكم أخرى، والله أعلم بما ينزل: يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه، قالوا: إنما أنت مفتر. يقول: قال المشركون بالله، المكذبوا رسوله لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر: أي مكذب تخرص بتقوّل الباطل على الله، يقول الله تعالى؛ بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر جهال، بأنّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقة صحته(1).

قال الآلوسي: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي إذا نزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلًا منها بأن نسخناها بها، والظاهر على ما في البحر أن المراد نسخ اللفظ والمعنى، ويجوز أن يراد نسخ المعنى مع بقاء اللفظ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من المصالح، فكل من الناسخ والمنسوخ منزل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة؛ فإن كل وقت له مقتضى غير الآخر، فكم من مصلحة تنقلب مفسدة في وقت آخر لانقلاب الأمور الداعية إليها، ونرى الطبيب الحاذق قد يأمر المريض بشربة ثم بعد ذلك ينهاه عنها ويأمره بضدها، وما الشرائع إلا مصالح للعباد وأدوية لأمراضهم المعنوية فتختلف حسب اختلاف ذلك في الأوقات وسبحان الحكيم العليم. والجملة إما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم. وفي الالتفات إلى الغيبة مع الإسناد إلى الاسم الجليل ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض، أو حالية كما قال أبو البقاء وغيره، وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو ﴿يُنْزِلُ﴾ من الإنزال ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ متقول على الله تعالى، تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه، وقد بالغوا -قاتلهم الله- تعالى في نسبة الافتراء إلى حضرة الصادق المصدوق ﷺ حيث وجهوا الخطاب إليه ﷺ، وجاءوا بالجملة الاسمية مع التأكيد بإنما، وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان

---

(1) تفسير الطبري (١٤/ ١٧٦).

بأنه فكرة ناشئة من نزغات الشيطان وأنه وليهم[1].

الوجه الثاني: تكملة الآية وما بعدها يرد عليهم.

حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾، فهي لا تكاد تحكي قولتهم المتهورة في اتهام النبي ﷺ حتى تلحقها بما يثبت خطأها وبطلانها، وذلك قوله ﷻ فيه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وكأن هذين الأسلوبين في الرد عليهم لا يكفيان؛ فإن الآية التالية تأتي بالجواب القاطع قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢).

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (يونس: ١٥).

الوجه الثالث: سباق ولحاق الآية ينكر هذه الدعوى.

قال د/مصطفى زيد: ولا نمضي مع الردود الأخرى التي تضمنها سياق الآيات من بعد، فإن علينا قبل هذا أن نعود إلى السياق لنرى ماذا كان قبل الآية: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل٩٨: ١٠٠).

وكون المتحدث عنه في أولها هو القرآن، ووجوب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءته واضح وضوحًا شديدًا، فليس في حاجة إلى أن ننبه عليه، وإنما نرى أن ننبه على ما عالجته بعد ذلك، من نفي سلطان الشيطان على المؤمنين المتوكلين على ربهم، وهو نكرة وقع في سياق النفي فيعم، ومن حصر لهذا السلطان الذين يتخذونه وليًا، فيطيعونه

---

(١) تفسير الآلوسي(١٤/ ٢٣١).

ويشركون بالله، ذلك أن من مظاهر طاعتهم له ونتائجها هذا الاتهام لمحمد ﷺ بالافتراء، إذا نسخ الله ﷻ آية من كتابه بآية.

إنه واقع حدث منهم، نتيجة لسلطان الشيطان عليهم، وماذا عسى أن تكون وسوسة الشيطان إلا خطأً وباطلًا وجهلًا؟ غير أنهم بسبب تسلطه غافلون عن هذا كله، فسرعان ما يرمون بالافتراء أصدق الناس وأوثقهم وآمنهم.

ولكن هناك واقعًا آخر كله صدق وحق وحكمة، وهذا الواقع هو النسخ، فقد نسخ الله ﷻ من كتابه الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه آيات بآيات أخرى، وكان ذلك لحكمة اقتضته وإن جهلناها نحن أحيانًا غير أن الله ﷻ -وهو أعلم بما ينزل- يعلمها منذ الأزل، وقد جاء النسخ -حين جاء- تحقيقًا لهذه الحكمة، ولم يكن اعتراضًا عليها.

ونعود لمتابعة السياق مرة أخرى بعد آية التبديل والآية التالية لها- وفيها الرد الذي يجب أن يجابههم به الرسول- فنجد أن الله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (النحل١٠٧: ١٠٣).

وفي هذه الآية حكاية لدعواهم الباطلة: أن الذي يعلم رسول الله ﷺ إنما هم بشر، لكن بطلان هذه الدعوى وكذبها وخطأها -هو أيضًا- واضح شديد الوضوح، فإن الذي ينسبون إليه أنه هو الذي يُعلِّم النبي ﷺ أعجمي اللسان، والقرآن الذي يزعمون أنه من تعليم هذا الأعجمي عربي اللسان، بل هو عربي مبين: في بلاغة، وقوة، وإعجاز. فكيف يصدر مثله عن مثل ذلك الأعجمي؟.

وإنهم ليكذبون بما تدل عليه آيات الكتاب الحكيم: من حجج على وجود الله، وعلى علمه، وعلى قدرته، وعلى أنه المنزل لكتابه: الناسخ والمنسوخ منه وغيره، فكيف يهتدون؟ وكيف ينجون من العذاب الأليم؟ على أن الذي يكذب على الله ليس هو محمدًا وأصحابه الذين آمنوا به، وإنما يكذب ويفتري ويختلق على الله: من ينكر وحدانية الله ولا يؤمن بآياته، من يكفر بالله ولا يطمئن قلبه بالإيمان، من استحب الحياة الدنيا لزخرفها الباطل وغرورها وخداعها، فآثرها لهذا السبب على الآخرة.

فهم الذين افتروا ويفترون على الله إذن؛ بإنكارهم للنسخ، وبادعائهم أن محمدًا يفتري على ربه، وبزعمهم أنه إنما يعلمه بشر، أما محمد فلم يفتر على الله شيئًا، وما كان ليفتري وهو الصادق الأمين[1].

الشبهة الحادية عشرة: قالوا: إن النسخ يدل على وجود التحريف والتبديل في القرآن وأنه لم يحفظ؛ بل حصل فيه كثير من التغيير.

فقد ثبت أن كثيرًا من الآيات المنسوخة كانت تتلى بعد الرسول ﷺ، مثل حديث عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: النسخ موجود في الشرائع السابقة؛ فمن طعن في القرآن من هذا الباب فهو يطعن في جميع الشرائع المنزلة.

فقد نسخت التوراة إباحة تزوج الأخوة والأخوات كما كان في عهد آدم عليه السلام، ونصها في سفر اللاويين (١٨/ ١٤: ١٣) "عَوْرَةَ أُخْتِ أُمِّكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أُمِّكَ. ١٤ عَوْرَةَ أَخِي أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِلَى امْرَأَتِهِ لاَ تَقْتَرِبْ. إِنَّهَا عَمَّتُكَ. "، ونسخ إباحة الجمع بين الأختين كما كان ذلك في عهد يعقوب ﷺفإنه كان يجمع بين ليا وراحيل ابنتي خاله،

(١) النسخ في القرآن د/ مصطفى زيد(١/ ٢٤٥: ٢٤٨).

وقصته مذكورة في سفر التكوين الإصحاح التاسع والعشرين، ودليل النسخ ما جاء في سفر اللاويين (١٨/ ١٨)" وَلاَ تَأْخُذِ امْرَأَةً عَلَى أُخْتِهَا لِلضِّرِّ لِتَكْشِفَ عَوْرَتَهَا مَعَهَا فِي حَيَاتِهَا. "، ونسخت إباحة أكل جميع الحيوانات كما كان في عهد نوح ﷺففي سفر التكوين الإصحاح التاسع خطابًا لنوح وبنيه "كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع "، ودليل النسخ ما جاء في سفر اللاويين، الإصحاح الحادي عشر من تحريم الجمل والأرنب والخنزير وغير ذلك، فهذا قليل من كثير مما نسخته التوراة من أحكام الشرائع السابقة.

وأما الإنجيل فقد نسخ إباحة الطلاق كما كان ذلك في الشريعة الموسوية بأي سبب كان زنا أو غيره، وإباحة تزوج المطلقة، ففي سفر التثنية (٢٤/ ٣: ١)" إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَق وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، [٢] وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُل آخَرَ، "، فحرم الإنجيل الطلاق إلا بعلة الزنا، وحرم تزوج المطلقة، ونص متى في ذلك الإصحاح الخامس "وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب الطلاق، وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني "، ونسخ حرمة أكل الحيوانات التي كانت محرمة في شريعة موسى، وتقدمت الإشارة إلى بعضها ... إلى آخر تلك النصوص.

الوجه الثاني: أن النسخ من محاسن القرآن لا من المطاعن فيه.

إن النسخ من محاسن القرآن لا من مساوئه كما تقدم في ذكر طرف من هذه الحكم، وأكثر ما يدندن عليه الطاعنون هو نسخ الحكم وبقاء التلاوة أو العكس، وهي قضية نسخ التلاوة وبقاء الحكم، فيقولون: ما فائدة بقاء الآية إذا ذهب حكمها ونسخ، وكيف يقال إن هذه الآية نسخت وحكمها باق؟ ولم يعلموا أن لهذا حكما كثيرة.

فمن حكم نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

أ- التذكير بنعمة الله تعالى حيث إن غالب الآيات المنسوخة الحكم لا التلاوة فيها تخفيف على الأمة، مثل نسخ عدة المتوفاة من سنة إلى أربعة أشهر وعشرًا، وفي الصحيحين قَالَتْ زَيْنَبُ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ تَقُولُ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدْ اشْتَكَتْ عَيْنَهَا أَفَتَكْحُلُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَا، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، كلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا، ثمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ) قَالَ حُمَيْدٌ: فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ: وَمَا تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ؟ فَقَالَتْ زَيْنَبُ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ حِفْشًا وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا وَلَمْ تَمَسَّ طِيبًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَائِرٍ فَتَفْتَضُّ بِهِ فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَى بَعَرَةً فَتَرْمِي ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدُ مَا شَاءَتْ مِنْ طِيبٍ أَوْ غَيْرِهِ، سُئِلَ مَالِكٌ مَا تَفْتَضُّ بِهِ قَالَ: تَمْسَحُ بِهِ جِلْدَهَا).(١)

ب- أن نسخ حكم الآية التكليفي لا يبطل كل الأحكام المتعلقة بالآية مثل الأجر لمن قرأها، فقارئها له ثواب التلاوة، وكذلك الاستفادة من الآية في الأحكام البلاغية والنحوية والتجويدية، ومن قيام معجزات بيانية أو علمية أو سياسية فيها.

٣- أن العقل لا يمنع أن يقول الملك لرعيته: افعلوا كذا، وهو يقصد أن يهيئهم لأمر آخر، فإذا تهيئوا قال: افعلوا كذا، وكما يقول الطبيب لمدمن التدخين مثلًا: قلل من شرب الدخان، فإذا تجاوز هذه المرحلة قال له: اقطع التدخين.

وأما نسخ التلاوة وبقاء الحكم فله حِكَم كثيرة منها:

١- الابتلاء؛ لمعرفة كمال اتباع الناس للنصوص، فالمؤمن كامل الإيمان يسلم، والمنافق يجادل، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَلَسَ عُمَرُ عَلَى الْمِنْبَرِ يوم الجمعة فَلَمَّا سَكَتَ الْمُؤَذِّنُونَ قَامَ فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا لَا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لَا

(١) البخاري (٥٠٢٤)، مسلم (١٤٨٩).

يَعْقِلَهَا فَلَا أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ؛ إِنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّدًا (بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ الله آيَةُ الرَّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا رَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ وَالله مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ الله فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتْ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ. . .)(١).

٢- بيان فضل هذه الأمة؛ إذ بلغ من كمال إتباعها أنها تتبع حتى ما نسخ لفظه ولا تجده في المصحف.

قال الزركشي: وهنا سؤال وهو أن يقال ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم وهلا أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وأجاب صاحب الفنون فقال: إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شئ كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي). (٢)

٣-لنفرض جدلًا أن هذه الأحكام التي نسخ لفظها لا يجوز العمل بها؛ لأن ما نسخ لفظه فقد نسخ حكمه، فإن ثبوتها في السنة يكفي للعمل بها. (٣)

الوجه الثالث: كتابكم غير محفوظ.

والأدلة على ذلك كثيرة جدًا ومن أهم هذه الأدلة هي ضياع أسفار ليست موجودة في كتابكم.

فقد تكلم الرب عن أسفار نسخها بنفسه، أو فقدت أو حرفها الكتبة والكهنة منهم:

١-سفر حروب الرب وقد جاء ذكره في (العدد ٢١: ١٤).

٢- سفر ياشر وقد جاء ذكره في (يشوع ١٠: ١٣ وصموئيل الثاني ١: ١٧).

---

(١) البخاري (٦٤٤٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٧)، الإتقان للسيوطي (٣/ ٧٢).

(٣) دعاوي الطاعنين، د/ عبد المحسن بن زبن المطري (٢٧٢: ٢٧٩)، وانظر آراء المستشرقين حول القرآن، د/ عمر بن إبراهيم رضوان(٢/ ٦٣٢: ٦٢٨).

٣- سفر أمور سليمان جاء ذكره في (الملوك الأول١١: ٤١).
٤-سفر مرثية إرميا على يوشيا ملك أورشليم (أخبار الأيام الثاني ٣٥: ٢٥)
٥- سفر أمور يوشيا (أخبار الأيام الثاني٣٥: ٢٥)
٦- سفر مراحم يوشيا (أخبار الأيام الثاني٣٥: ٢٥)
٧- سفر أخبار ناثان النبي (أخبار الأيام الثاني٩: ٢٩)
٨- سفر أخيا النبي الشيلوني(أخبار الأيام الثاني ٩: ٢٩)
٩- وسفر رؤيا يعدو الرائي وجاء ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٩: ٢٩)
١٠- سفر أخبار جاد الرائي وقد جاء ذكره في(أخبار الأيام الأول ٢٩: ٢٩-٣١).
١١- سفر أخبار أيام ملوك يهوذا: ورد ذكره في (ملوك الثاني ٢٤/ ٥ و٢١: ٢٥).
١٢- سفر تاريخ إسرائيل ويهوذا: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٢٧: ٧).
١٣- سفر تاريخ عدو الرائى: ذكر في (أخبار الأيام الثاني ١٢: (١٥و(١٣: ٢٢).
١٤- سفر تاريخ شمعيا النبي: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني١٢/ ١٥).
١٥- سفر كتاب إشعياء النبي عن الملك عزّيا: ذكر في (أخبار الأيام الثاني ٢٦: ٢٢).
١٦-سفر تاريخ الملوك: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٢٤/ ٢٧).
١٧- سفر أخبار الأنبياء: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٣٣: ١٩).
١٨-سفر الرب: ورد ذكره في اشعياء (٣٤: ١٦).
١٩- سفر تاريخ ياهو بن حناني: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٢٠: ٣٤).
٢٠-سفر تاريخ ملوك إسرائيل ويهوذا: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٣٦: ٨).
٢١-سفر سنن الملك: ورد ذكره في (صموئيل الأول١٠: ٢٥).
٢٢- سفر أخبار أيام ملوك إسرائيل: ورد ذكره في (ملوك الأول ١٤/ ١٩ و١٦/ ٥) و(١٦/ ١٤).
٢٣-سفر شريعة الله (يشوع ٢٤: ٢٦).
٢٤-سفر توراة موسى (يشوع ٨: ٣١).

٢٥- سفر شريعة موسى (يشوع ٢٣: ٦).

٢٦- سفر أخبار الأيام: ورد ذكره في (نحميا ١٢: ٢٣).

٢٧- سفر يسوع (تسالونيكى الثانية) (١/ ٨).

٢٨- سفر أخبار صموئيل الرائي (أخبار الأيام الأول ٢٩: ٢٩).

٢٩- سفر حياة الخروف (رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٣: ٨ و٢١: ٢٧).

٣٠- كتاب العهد لموسى عليه السلام (الخروج ٢٤: ٧).

٣١- رسالة بولس إلى أهل اللاذقية: ورد ذكرها ف. ي(كولسي٤/ ١٦).

٣٢- رسالة بولس الأولى إلى أهل فيلبي: ورد ذكرها في (فيلبي ٣: ١). الموجودة في العهد الجديد. . (انظر العهد الجديد (بولس باسيم) هامش صفحة ٧٧١).

٣٣- رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: ورد ذكرها في كورنثوس الثانية ٧: ٨).

٣٤- وتقول دائرة المعارف الكتابية (كلمة أبوكريفا): إن هناك رسالة مفقودة إلى الكورنثيين: ففي (كورنثوس الأولى ٥: ٩) يذكر الرسول رسالة إلى الكورنثيين يبدو أنها قد فقدت.

الشبهة الثانية عشر: قالوا: إن النسخ حيلة ابتدعها المسلمون للخروج من مأزق التناقض بين الآيات.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: النسخ كان في زمن النبي ﷺ وليس مبتدعًا بعده، وكان الصحابة رضي الله عنهم لا يأذنون لأحد بالفتوى حتى يتعلم الناسخ والمنسوخ.

عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ: أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه أَتَى عَلَى قَاص فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَعْلَمُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ. [1]

(١) **صحيح**. أخرجه أبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ (٣)، وابن الجوزي في نواسخ القرآن (١٠٥)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقة (٢٣٩)، والبيهقي في السنن الكبرى(١٠/ ١١٧) من طريق شعبة، وأخرجه ابن أبي شيبة فى المصنف ٦/ ١٩٦، وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ (٢)، والحازمي في

الوجه الثاني: أن النسخ موجود في كل الشرائع كما تقدم.

الوجه الثالث: أن بعض الآيات تدل هي ذاتها على النسخ من غير تدخل من أحد، مثل قوله تعالى في آيات المصابرة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا . . ﴾ (الأنفال: ٦٦).

الوجه الرابع: أن النسخ قد تم الإجماع على وقوعه والأمة لا تجتمع على ضلالة.

الوجه الخامس: أن الحكم على آية أو حديث بالنسخ له شروط شديدة لابد أن تتوفر حتى يحكم على هذا النص بالنسخ، فلا يمكن لأي أحد التلاعب في النصوص بحجة النسخ، فمن هذه الشروط:

١-أن يكون النسخ حكما شرعيًا.

٢-أن يكون الناسخ دليلا شرعيًا.

٣-أن يكون الناسخ متراخيًا عن المنسوخ.

٤-أن يكون بين النصين تعارض حقيقي، فلا يصار إلى النسخ مع إمكان الجمع بينهما.

٥-أن النسخ لا يكون في الأخبار كما تقدم.[1]

الشبهة الثالثة عشر: اعتراضهم على قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ (البقرة/١٠٦)

فقالوا: بأن الكلام فيه مفاضلة، وهذه الخيرية تتعارض مع النسخ بالأثقل فكيف تكون الخيرية إذن.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: المراد بالخيرية في الآية التخفيف أو المصلحة وليست في التلاوة.

قال الجصاص: فَحَصَلَ مِنْ اتِّفَاقِ الْجَمِيعِ أَنَّ الْمُرَادَ"خَيْرٌ لَكُمْ إمَّا فِي التَّخْفِيفِ أَوْ فِي الْمَصْلَحَةِ "وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ: خَيْرٌ مِنْهَا فِي التِّلَاوَةِ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُقَالَ: إنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ خَيْرٌ مِنْ بَعْضٍ فِي مَعْنَى التِّلَاوَة وَالنَّظْمِ؛ إذْ جَمِيعُهُ مُعْجِزٌ كَلَامُ الله[1].

الاعتبار (٤٨)من طريق سفيان الثوري. كلاهما (شعبة وسفيان) عن أبي حصين عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ عن علي به وإسناده صحيح.

(١) دعاوي الطاعنين (٢٧٩: ٢٧٢)، آراء المستشرقين حول القرآن (٢/ ٦٣٢: ٦٢٨).

قال ابن أبي زمنين: هذه الآية الناسخة خير في زماننا هذا لأهلها، وتلك الأولى المنسوخة خير لأهلها في ذلك الزمان، وهي مثلها بعد في حقها وصدقها.(٢)

الوجه الثاني: الخيرية في كلام الله ثابتة فهذا كلامه سبحانه وهو الذي حكم بذلك.

قال ابن تيمية: وأيضًا فإن الناس متنازعون في صفاته: هل بعضها أفضل من بعض مع أنها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه؟ وهل بعض كلامه أفضل من بعض مع كمال الجميع؟.

والسلف والجمهور على أن بعض كلامه أفضل من بعض وبعض صفاته أفضل من بعض مع كونها كلها كاملة لا نقص فيها كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦)، وكقوله ﷺ حاكيًا عن ربه: "إن رحمتي تغلب غضبي" وفي لفظ: "سبقت غضبي"(٣).

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (الإخلاص: ١) تعدل ثلث القرآن(٤).

وقوله في فاتحة الكتاب: لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، فنفى أن يكون لها مثل، وقوله عن آية الكرسي أنها أعظم آية في القرآن، وقوله ﷺ **"أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"**(٥).

وقوله: **"يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع"**(٦).

---

(١) أحكام القرآن (١/ ٥٩).

(٢) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ١٦٨)، وانظر النكت والعيون (١/ ١٧١)، تفسير الرازي (٣/ ٢٣٢)، تفسير الخازن (١/ ٦٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٢).

(٣) البخاري (٣١٩٤)، مسلم (٢٧٥١).

(٤) البخاري (٥٠١٣)، مسلم (٨١١).

(٥) مسلم (٤٨٦).

(٦) البخاري (٤٦٨٤).

فأخبر أن الفضل بيده اليمنى، والقسط بيده الأخرى مع أن كلا يديه يمين كما في الصحيح عن النبي ﷺ: "إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا"(١).

فإذا كانت صفاته كلها كاملة لا نقص فيها، وبعضها أفضل من بعض لم يمتنع أنه هو العالي علوًا مطلقًا، وإن كان منه ما هو أعلى من غيره(٢).

وقال أيضًا: والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض، هو القول المأثور عن السلف وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم(٣).

الوجه الثالث: الجمهور على وقوع البدل إلى أثقل.

قال ابن حزم: قال قوم من أصحابنا ومن غيرهم: لا يجوز نسخ الأخف بالأثقل. وقد أخطأ هؤلاء القائلون.

وجائز نسخ الأخف بالأثقل والأثقل بالأخف، والشيء بمثله، ويفعل الله ما يشاء ولا يسأل عما يفعل، وإن احتج محتج بقوله الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وبقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، فلا حجة لهم في شئ من ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، فنعم، دين الله كله يسر، والعسر والحرج هو ما لا يستطاع، أما ما استطيع فهو يسر، وأما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ﴾ منه، ولا ثقيل البتة إلا وهو خفيف بالإضافة إلى ما هو أثقل منه هذا أمر يعلم حسًا ومشاهدةً، ولا يشك ذو عقل أن الصلوات الخمس المفروضة علينا أخف من خمسين صلاة، وأنها لو كانت صلاة واحدة

(١) مسلم (١٨٢٧).

(٢) درء التعارض (٣/ ٢٩٣).

(٣) مجموع الفتاوى(١٧/ ١٣)، وانظر مجموع الفتاوى(١٧/ ٩) وما بعدها.

كانت أخف علينا من الخمس، وقد خفف الله تعالى عن المسافر فجعلها ركعتين وعن الخائف فجعلها ركعة واحدة، ولو شاء ألا يكلفنا صلاة أصلًا لكان أخف بلا شك.

وقد نص الله تعالى في الصلاة على أنها كبيرة إلا على الخاشعين، ولا يشك ذو عقل وحس أن صيام شهر أخف من صيام عام، وأن صيام ساعة أخف من صيام يوم، فكل ما كلفنا الله تعالى فهو يسر وتخفيف بالإضافة إلى ما هو أشد مما حمله من كان قبلنا، كما قال الله تعالى آمرا لنا أن ندعوه فنقول: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

وكما نص تعالى أنه وضع بنبيه ﷺ الإصر الذي كان عليهم، والأغلال التي كانوا يطوقونها، إذ يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، فهذا هو عين اليسر وعين التخفيف وإسقاط الحرج، وأين يقع ما كلفناه نحن مما كلفه بعض قوم موسى، من قتل أنفسهم بأيديهم، فكل شئ كلفناه يهون عند هذا، وكذلك ما في شرائع اليهود من أنه من خطر على ميت تنجس يوما إلى الليل، وسائر الثقائل التي كلفوا وحرم عليهم، وخفف عنا ذلك كله. ولله الحمد والمنة.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، فإنما معناه بخير منها لكم، وكلام الله لا يتفاضل في ذاته، فمعناه أكثر أجرًا.

ولو احتج بهذه الآية من يستجيز أن يقول: لا ننسخ الأخف إلا بالأثقل لكنا أقوى شغبًا ممن خالفه؛ لأنه لا خلاف أن الأثقل فاعله أعظم أجرًا، وقد قال ﷺ لعائشة في العمرة: هي على قدر نصبك ونفقتك، كانت الناسخة أعظم أجرًا، فلا يكون ذلك إلا لثقلها، فهذه الآية عليهم لا لهم فسقط احتجاجهم بكل ما شغبوا به.

ثم نقول: إن من قال: إن الله تعالى إنما يلزمنا أخف الأشياء: فإنه يلزمه إسقاط الشرائع كلها؛ لأنها كلها ثقال بالإضافة إلى ترك عملها، والاقتصار على عمل جزء من كل عمل منها، وهذا شئ يعلم بالحس والمشاهدة.

فصار قول من خالفنا مؤديًا إلى الخروج عن الإسلام جملة، ولا عمل في الدنيا إلا وفيه كلفة ومشقة. وقد قال الشاعر:

هل الولد المحبوب إلا تعلة وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل

وفي الأكل والشرب مشقة، فلو أن الإنسان يصل إلى ذوق الطعوم المستطابة والشبع، دون تكلف تناول ومضغ وبلع، لكان أخف عليه وأقل مشقة وأيسر غررا، فرب مختنق بأكله كان في ذلك حتفه، أو الإشراف على الحتف.

ورب متأذ بما يدخل من ذلك في جوفه، وبما يدخل بين أضراسه، ومغث لمعدته فيتقيأ فيألم لذلك، ومن ملوث لثوبه بما يسقط من يده ولو تتبعنا ما في اللذات من عسر ومشقة لطال ذلك جدا، فكيف بالأعمال المكلفة.

ولكن العسر والمشقة تتفاضل، فإنما رفع الله ﷻ عنا في بعض المواضع ما لا نطيق، وخفف تعالى في بعضها تخفيفا أكثر من تخفيف آخر.

وقد جاء في الأثر: "حُفت الجنة بالمكاره" فبطل بهذا الحديث نصًا قول من قال: إن الله تعالى لا ينسخ الأخف بالأثقل.

وصح أن الله تعالى يفعل ما يشاء فينسخ الأخف بالأثقل، والأثقل بالأخف، والشيء بمثله، والشيء بإسقاطه جملة، ويزيدنا شريعة من غير أن يخفف عنا أخرى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل.

فإن اعترضوا بقوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾، فهذه حجة عليهم بينة لا محيد عنها؛ لأن التخفيف لا يكون إلا بعد تثقيل، فإذا ثقل علينا تعالى أولا فما الذي يمنع من أن يثقل علينا آخرا إن شاء.

وقد كنا برهة خالين من ذلك التثقيل الأول ثم ثقلنا به، فما المانع من أن يعود علينا ثانية كما كان أولا وأن نزاد تثقيلا آخر أشد منه، ويكفي من هذا كله وجودنا ما لا سبيل لهم إلى دفع نسخه تعالى أشياء خفافا بأشياء ثقال.

فمن ذلك نسخه تعالى صيام يوم عاشوراء بصيام شهر رمضان، ونسخ إباحةالإفطار في رمضان، وإطعام مساكين - بدل ما يفطر من أيامه - بوجوب صيامه فرضًا على كل حاضر صحيح بالغ عاقل عالم بالشهر، ولزوم الصيام فيه، ونسخ سقوط الغسل عن المولج العامد الذاكر لطهارته بإيجاب الغسل عليه، ونسخ تعالى إباحة الكلام للمصلي بعد أن كان حلالا بتحريمه، وقد كان الكلام فيها فيما ناب الإنسان أخف بلا شك، ونسخ تعالى سقوط فرض الجهاد وبيعة المسلمين لرسول الله ﷺ على بيعة النساء بإيجاب القتال، وحرم الخمر بعد إحلالها وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾، فصح أنه تعالى حرم عليهم أشياء كانت لهم حلالًا وقد كان المنسوخ من كل ما ذكرنا أخف من الناسخ بالحس والمشاهدة.

وقد بين الله تعالى ذلك بإخباره أن في الخمر والميسر منافع للناس، فأبطل تعالى علينا تلك المنافع ولا يشك ذو عقل أن عدم المنفعة أثقل من وجودها، ونسخ تعالى الأذى والحبس عن الزواني والزناة والرجم والتغريب، ولا شك عند من له عقل أن الحجارة والسياط أثقل من السب والسجن(١).

الشبهة الرابعة عشر: قالوا بأن النسخ يتعارض مع قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] لأن الآية هنا تثبت الحفظ، وفي آية النسخ تثبت النسيان حيث يقول الله تعالى: ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾.

والجواب على هذه الشبة من هذه الوجوه:

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٩٧: ٤٩٣)، وانظر: الفقيه والمتفقه (١/ ٢٥٠)، روضة الناظر (١/ ٢٥١)، الإحكام للآمدي (٣/ ١٢٥)، تفسير القرطبي (٢/ ٥٩).

الوجه الأول: القرآن محفوظ بحفظ الله تعالى فالله له الحكمة البالغة

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (النحل١٠١: ١٠٢).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكم أخرى، والله أعلم بما ينزل: يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه، قالوا: إنما أنت مفتر يقول: قال المشركون بالله، المكذبو رسوله لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر: أي مكذب تخرص بتقوّل الباطل على الله، يقول الله تعالى بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر جهال، بأنّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقة صحته. [١]

ولذا قال الله تعالى عقب هذه الآية (آية سورة البقرة): ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (البقرة١٠٧: ١٠٦).

قال ابن كثير: يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. . فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٧٦).

لعنهم الله - في دعوى استحالة النسخ إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكًا.

قال الطبري: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطابا لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل.

قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نُسخ حِلُّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباح لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها. وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، وكما في كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر بإتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته، عليه الصلاة والسلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مُغَيَّاة إلى

بعثته ﷺ فلا يسمى ذلك نسخًا كقوله: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه معين؛ لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدا بالله تبارك وتعالى.

ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، ردا على اليهود، عليهم لعائن الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤)(١).

الوجه الثاني: بيان معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾.

الآية فيها قراءتان:

أولًا: قراءة (ننسأها)وعلى هذا تكون بمعنى التأخير، فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ننسأها)(٢)، وَ" نَنْسَأهَا " مِنْ التَّأْخِيرِ، يُقَالُ: نَسَأْت الشَّيْءَ: أَخَّرْته، وَالنَّسِيئَةُ: الدَّيْنُ الْمُتَأَخِّرُ. وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يَعْنِي تَأْخِيرَ الشُّهُور، وَأَمَّا مَعْنَى قِرَاءَةِ "أَوْ نَنْسَأْهَا" فَإِنَّمَا هُوَ بِأَنْ يُؤَخِّرَهَا فَلَا يُنَزِّلُهَا وَيُنَزِّلُ بَدَلًا مِنْهَا مَا يَقُومُ مَقَامَهَا فِي الْمَصْلَحَةِ أَوْ يَكُونُ أَصْلَحَ لِلْعِبَادِ مِنْهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُؤَخِّرَ إنْزَالَهَا إلَى وَقْتٍ يَأْتِي فَيَأْتِي بَدَلًا مِنْهَا لَوْ أَنْزَلَهَا فِي الْوَقْتِ الْمُتَقَدِّمِ فَيَقُومَ مَقَامَهَا فِي الْمَصْلَحَةِ(٣).

قال مكي بن أبي طالب: "جعلاه - أبو عمرو وابن كثير - من التأخير على معنى: أو نؤخر نسخ لفظها نأت بخير منها، فهو من: نسأ الله في أجلك، أي أخر فيه. وتأخر النسخ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٢: ١٤)، تفسير الطبري (١/ ٤٨١)، الكشاف (١/ ١٧٦).

(٢) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (٣٦)، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها لأبي محمد مكي بن أبي طالب (١/ ٢٥٨)التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو(٦٤) الموضح في وجوه القراءات لابن أبي مريم (١/ ٢٩٦)، النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٠).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٥٩)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/ ١٦٨) النكت والعيون (١/ ١٧١)، تفسير البغوي (١/ ١٠٤)، تفسير الرازي(٣/ ٢٢٦).

على وجهين: أحدهما: أن يؤخر التنزيل للآية فلا ينزل من اللوح المحفوظ، والثاني: أن ينزل القرآن فيتلى، ويعمل به. ثم يؤخر فينسخ العمل به دون اللفظ أو ينسخ العمل به واللفظ، أو ينسخ اللفظ ويبقى العمل.[(١)]

ثانيًا: قراءة (ننسها)

وهي قراءة الجمهور وتحمل معنيين:

الأول: الترك.

(أو ننسها) من النسيان الذي هو بمعنى الترك، فيكون المعنى: ما ننسخ من آية أو نتركها بلا نسخ نأت بخير منها أو مثلها، وقدر بعض العلماء هنا مقدر وهو (حكم)، فالمعنى ما ننسخ من حكم آية أو نترك حكمها نأت بخير منها أو مثلها.

ويرد على هذا إيراد وهو: كيف تكون الآية باقية(أي متروكة لم تُنسخ)، ويُقال نأت بخير منها أو مثلها؟ وللإجابة على ذلك وجوه:

أولها: أن المراد بننسها نثبت لفظها ونترك حكمها.

ثانيها: أن المراد بالآية: الآية من آيات التوراة، فالمعنى ما ننسخ من آية من آيات التوراة نأت بآية في القرآن مثلها أو خير منها، لكن هذا القول لم يقل به هنا إلا قلة قليلة من أهل العلم (أعني القول بأن المراد بالآية آية التوراة).

القول الثاني:

أن المراد بقوله تعالى (ننسها) أي: نرفع لفظها فلا يستقر منها في القلوب والأذهان شيء، (وهو من النسيان المعهود لدى الناس)، ومثال ذلك ما صح عن أنس بن مالك من وجوه أن الذين قُتلوا ببئر معونة أنزل الله فيهم قرآنًا يتلى (أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) ثم نُسخ ذلك بعد.

ومثال ذلك أيضًا في صحيح مسلم من حديث أبي الأسود: بَعَثَ أَبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ إِلَى قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلاثُمِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَقَالَ: أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها (١/ ٢٥٨).

الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ فَاتْلُوهُ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ. وَكُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا بِإِحْدَى الْمُسَبِّحَاتِ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢)، فَتُكْتَبُ شَهَادَةً فِي أَعْنَاقِكُمْ فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. [١]

قال ابن عطية: وهذه القراءات لا تخلو كل واحدة منها أن تكون من النسء أو الإنساء بمعنى التأخير، أو تكون من النسيان. والنسيان في كلام العرب يجيء في الأغلب ضد الذكر، وقد يجيء بمعنى الترك، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات، فما كان منها يترتب في لفظة النسيان الذي هو ضد الذكر.

فمعنى الآية: ما ننسخ من آية أو نقدر نسيانك لها فتنساها حتى ترتفع جملة وتذهب فإنا نأتي بما هو خير منها لكم أو مثله في المنفعة، وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان:

أحدها: ما ننسخ على وجوه النسخ أو نترك غير منزل عليك فإنا لا بد أن ننزل رفقًا بكم خيرًا من ذلك أو مثله حتى لا ينقص الدين عن حد كماله.

والمعنى الثاني: أو نترك تلاوته وإن رفعنا حكمه فيجيء النسخ على هذا رفع التلاوة والحكم.

والمعنى الثالث: أو نترك حكمه وإن رفعنا تلاوته فالنسخ أيضًا، على هذا رفع التلاوة والحكم.

والمعنى الرابع: أو نتركها غير منسوخة الحكم ولا التلاوة، فالنسخ على هذا المعنى هو على جميع وجوهه، ويجيء الضميران في ﴿مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ عائدين على المنسوخة فقط، وكان الكلام إن نسخنا أو أبقينا فإنا نأتي بخير من المنسوخة أو مثلها.

---

(١) التسهيل لتأويل التنزيل تفسير سورة البقرة (٢/ ١٨٦)، تفسير الطبري(١/ ٤٧٩)، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها(١/ ٢٥٨)، النكت والعيون (١/ ١٧١).

وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى التأخير؛ فإن الآية معه تترتب فيها المعاني الأربعة التي في الترك، أولها ما ننسخ أو نؤخر إنزاله، والثاني ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر حكمه وإن أبقينا تلاوته، والثالث: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر تلاوته وإن أبقينا حكمه، والرابع: ما ننسخ أو نؤخره مثبتًا لا ننسخه، ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك، وبعض هذه المعاني أقوى من بعض، لكن ذكرنا جميعها؛ لأنها تحتمل، وقد قال « جميعها » العلماء إما نصًا وإما إشارة فكملناها.

وقال الزجاج: إن القراءة «أو نُنْسِها» بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك؛ لأنه لا يقال أنسأ بمعنى ترك، وقال أبو علي وغيره: ذلك متجه؛ لأنه بمعنى نجعلك تتركها، وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر، وقال: إن هذا لم يكن للنبي ﷺ ولا نسي قرآنًا، وقال أبو علي وغيره: ذلك جائز وقد وقع ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ أو بتنسئة، واحتج الزجاج بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (الإسراء: ٨٦) أي لم نفعل، قال أبو علي معناه لم نذهب بالجميع.

قال ابن عطية: على معنى إزالة النعمة كما توعد، وقد حكى الطبري القول عن أقدم من الزجاج، ورد عليه، والصحيح في هذا أن نسيان النبي ﷺ لما أراد الله، تعالى أن ينساه ولم يرد أن يثبت قرآنًا جائز.

فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي ﷺ معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر؛ لأنه قد بلغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث حين أسقط آية، فلما فرغ من الصلاة قال: أفي القوم أبيّ؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: فلم لم تذكرني؟ قال: حسبت أنها رفعت، فقال النبي ﷺ: لم ترفع ولكني نسيتها[1].

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٩٤: ١٩٣).

وعلى قول الجمهور بأن المراد بقوله (نُنْسِهَا)النسيان الذي هو ضد الذكر، فالذي نسيه النبي ﷺ إنما هو بقدر الله ﷻقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى ٦: ٧).

قال الطبري: بل إنما ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه، وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه، وقد قال الله تعالى ذكره: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى٦: ٧)، فأخبر أنه ينسي نبيه منه ما شاء. فالذي ذهب منه الذي استثناه الله[1].

الشبهة الخامسة عشر: يقولون بأن النسخ يوجد في القرآن بكثرة وهذا يدل على عدم الحفظ.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: عند التحقيق النسخ قليل جدًا في القرآن.

قال السيوطي: الضرب الثاني: ما نسخ حكمه دون تلاوته، وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة، وهو على الحقيقة قليل جدًا، وإن أكثر الناس من تعديد الآيات فيه فإن المحققين منهم كالقاضي أبي بكر بن العربي بين ذلك وأتقنه.

والذي أقوله: إن الذي أورده المكثرون أقسام: قسم ليس من النسخ في شيء ولا من التخصيص ولا له علاقة بهما بوجه من الوجوه، وذلك مثل قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، ونحو ذلك، قالوا: إنه منسوخ بآية الزكاة، وليس كذلك هو باق، أما الأولى فإنها خبر في معرض الثناء عليهم بالإنفاق، وذلك يصلح أن يفسر بالزكاة على الأهل وبالإنفاق في الأمور المندوبة كالإعانة والإضافة، وليس في الآية ما يدل على أنها نفقة واجبة غير الزكاة، والآية الثانية يصلح حملها على الزكاة وقد فسرت بذلك.

وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ (التين: ٨)، قيل: إنها مما نسخ بآية السيف، وليس كذلك؛ لأنه تعالى أحكم الحاكمين أبدًا، لا يقبل هذا الكلام النسخ وإن

---

(١) جامع البيان (١/ ٤٧٩)، ويراجع في ذلك بحث حول نسيان النبي ﷺ في هذه الموسوعة.

كان معناه الأمر بالتفويض وترك المعاقبة، وقوله في البقرة: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة: ٨٣)، عده بعضه من المنسوخ بآية السيف، وقد غلطه ابن الحصار بأن الآية حكاية عما أخذه على بني إسرائيل من الميثاق فهو خبر فلا نسخ فيه وقس على ذلك.

وقسم هو من قسم المخصوص لا من قسم المنسوخ. وقد اعتنى ابن العربي بتحريره فأجاد كقوله ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا. ﴾ (العصر ٣: ٢) ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (الشعراء ٢٢٤، ٢٢٧)، ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (البقرة: ١٠٩)، وغير ذلك من الآيات التي خصت باستثناء أو غاية. وقد أخطأ من أدخلها في المنسوخ، ومنه قوله ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ (البقرة: ٢٢١) قيل إنه نسخ، بقوله ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (المائدة: ٥)، وإنما هو مخصوص به. وقسم رفع ما كان عليه الأمر في الجاهلية أوفي شرائع من قبلنا أوفي أول الإسلام ولم ينزل في القرآن، كإبطال نكاح نساء الآباء، ومشروعية القصاص والدية، وحصر الطلاق في الثلاث، وهذا إدخاله في قسم الناسخ قريب، ولكن عدم إدخاله أقرب، وهو الذي رجحه مكي وغيره، ووجهوه بأن ذلك لو عُدَّ في الناسخ لعُدَّ جميع القرآن منه إذ كله أو أكثره رافع لما كان عليه الكفار وأهل الكتاب.

قالوا: وإنما حق الناسخ والمنسوخ أن تكون آية نسخت آية ا هـ.

نعم النوع الآخر منه وهو رافع ما كان في أول الإسلام إدخاله أوجه من القسمين قبله، إذا علمت ذلك فقد خرج من الآيات التي أوردها المكثرون الجم الغفير مع آيات الصفح والعفو إن قلنا إن آية السيف لم تنسخها، وبقي مما يصلح لذلك عدد يسير.

فقد لخص رحمه الله جملة هذه الآيات المنسوخة في هذه الأبيات فقال:

قد أكثر الناس في المنسوخ من عدد وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر
وهاك تحرير آي لا مزيد لها عشرين حررها الحذاق والكبر
آي التوجه حيث المرء كان وأن يوصي لأهليه عند الموت محتضر
وحرمة الأكل بعد النوم من رفث وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيما صح من أثر وفي الحرام قتال للألي كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها وأن يدان حديث النفس والفكر
والحلف والحبس للزاني وترك أولى كفروا شهادتهم والصبر والنفر
ومنع عقد لزان أو لزانية وما على المصطفى في العقد محتظر
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ ـواه كذاك قيام الليل مستطر
وزيد آية الاستئذان من ملكت وآية القسمة الفضلى لمن حضروا[1]

الوجه الثاني: موقف العلماء من النسخ.

قال الزرقاني: العلماء في موقفهم من الناسخ والمنسوخ يختلفون بين مقصر ومقتصد وغال، فالمقصرون هم الذين حاولوا التخلص من النسخ إطلاقا سالكين به مسلك التأويل بالتخصيص ونحوه.

والمقتصدون هم الذين يقولون بالنسخ في حدوده المعقولة فلم ينفوه إطلاقًا ولم يتوسعوا فيه جزافًا كالغالين، بل يقفون به موقف الضرورة التي يقتضيها وجود التعارض الحقيقي بين الأدلة مع معرفة المتقدم منها والمتأخر، والغالون هم الذين تزيدوا فأدخلوا في النسخ ما ليس منه بناء على شبه ساقطة، ومن هؤلاء أبو جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ، وهبة الله بن سلامة، وأبو عبد الله محمد بن حزم وغيرهم فإنهم ألفوا كتبا في النسخ أكثروا فيها من ذكر الناسخ والمنسوخ اشتباها منهم وغلطا. ومنشأ تزيدهم هذا أنهم انخدعوا بكل ما نقل عن السلف أنه منسوخ، وفاتهم أن السلف لم يكونوا يقصدون

(١) الإتقان في علوم القرآن(٣/ ٦٣: ٦٨).

بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحي؛ بل كانوا يقصدون به ما هو أعم منه مما يشمل بيان المجمل وتقييد المطلق ونحوها.[١]

قال د/مصطفى زيد: لم يُهلنا الأمر عندما وجدنا أن قضايا النسخ كما تجمعت لدينا قد أربى عددها على مائتين وتسعين قضية، فنحن نعلم أن من بين هذه القضايا دعاوى نسخ في آيات إخبارية لا تشريع فيها على الإطلاق، ودعاوى أخرى في أحكام لم يشرع الإسلام غيرها في موضوعها، ودعاوى في آيات ليس فيها إلا تخصيص العام أو تقييد المطلق، أو بيان المبهم، أو تفصيل المجمل، ودعاوى لم تقم أصلًا إلا على سوء الفهم للنص القرآني المنسوخ أو الناسخ أو كليهما بسبب تجاهل سبب النزول أو دلالة السياق، أو بسبب القصور عن إدراك الأسلوب القرآني وإعجازه البليغ، أو بسبب آخر غير هذا وذاك.

ومن هنا أيضًا لم يدهشنا أن ينزل السيوطي في الإتقان بهذا العدد الكبير إلى أقل من عُشره، حين قرر أن عدد الآيات المنسوخة في القرآن لا يتجاوز عشرين آية، فقد تكشف مناقشتنا لدعاوى النسخ في هذه الآيات عن رفض بعض هذه الدعاوى، وتنزل بهذا العدد الذي حدده السيوطي إلى ما دون نصفه: ربعه أو نحوه.[٢]

ثم قال: وينبغي أن يكون معلومًا أن العدد الذي عرضه كل مصنف في كتابه ليس تحديدًا دقيقًا لعدد وقائع النسخ عنده، فهو لا يعدو في جملته أن يكون قضايا كما عبرنا، ومن بين هذه القضايا كثير حكوا في نسخه خلافًا، ومن بين هذه القضايا التي اختلفوا في نسخها قليل انتهوا من مناقشة دعوى النسخ فيه إلى إثبات أنه محكم، ومن بينها كذلك قضايا أثبتت مناقشتها أنها ناسخة وليست منسوخة، حتى عندهم.[٣]

وقال أيضًا: فهاهنا تنتهي مناقشتنا للآيات التي ادعى عليها النسخ وليست منسوخة عرضنا منها حسبما مرتبًا:

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ٢١٠.

(٢) النسخ في القرآن (١/ ٤٢٢).

(٣) المصدر السابق (١/ ٤٣٠).

خمسًا وسبعين آية بطلت دعوى النسخ عليها؛ لأنها أخبار.

وثماني وعشرين آية بطلت دعوى النسخ عليها؛ لأنها للوعيد.

وثلاثًا وستين ادعى عليها النسخ خطأً بآية السيف، مع أنها جميعًا محكمة.

وثماني وأربعين ادعى عليها النسخ مع أن علاقة نواسخها بها إنما هي التخصيص بأنواعه، أو التقييد أو التفسير أو التفصيل.

وثلاثًا وستين لم تصح دعوى النسخ عليها لعدم التعارض بينها وبين نواسخها.

وستًا لم تصح دعوى النسخ عليها مع أن المؤلفين في الناسخ والمنسوخ يجمعون عليها، والأصوليون يمثلون ببعضها على أن النسخ فيها مسلم.

ولقد أحسسنا ونحن نعالج كل مجموعة من هذه المجموعات أن بعضها يتداخل في بعضها الآخر، فليس كل منها تقسيمًا لغيره بالمعنى الدقيق المفهوم للتقسيم، لكنا كنا نشعر منذ بدأنا نعالج أن هذا التداخل واقع لا مفر منه، وأنه لا مانع على الإطلاق من أن تبطل دعوى النسخ على آية؛ لأنها خبر، ولأنه لا تعارض بينها وبين الآية الناسخة لها على زعمهم، ولأنها لا تعدو أن تكون من الأولى بمنزلة الخاص من العام، أو المقيد من المطلق، أو المفسر من المبهم، أو المفصل من المجمل، وأنها مع هذا سيقت لتدل على الوعيد، ثم ادعى عليها النسخ بعد هذا كله بآية السيف. [1]

وأخيرًا: فقد عرض في فصل وحيد وقائع النسخ التي صحت، بعد ترتيبها ترتيبًا موضوعيًا فقهيًا، وهي خمس وقائع في ست آيات:

واقعة وجوب التهجد في نسخه، في سورة المزمل.

وواقعة فرض الصدقة بين يدي نجوى الرسول ثم رفعه، في سورة المجادلة.

وواقعة وجوب الثبات في القتال أمام عشرة أمثالهم من الكفار، ثم نسخه بوجوب الثبات أمام مثليهم فقط في سورة الأنفال.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٣٥).

وواقعة عقوبة الزنا في آيتي سورة النساء، ونسخها بالحد في آية سورة النور.

وواقعة نسخ مفهوم قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ . . . ﴾ (النساء: ٤٣)، بالأمر باجتناب الخمر مطلقًا عن القيود في سورة المائدة.[١]

قال الشيخ محمد أشرف الملباري: – بعد دراسة وتحقيق كتاب نواسخ القرآن لابن الجوزي–:

ابن الجوزي أكثر المؤلفين إيرادًا لوقائع النسخ مع أنه أقلهم قبولًا لها، فقد بلغ عدد القضايا التي قيل فيها بالنسخ عنده ٢٤٧ قضية في ٦٢ سورة. ومن خلال استعراضه لقضايا النسخ، يختار ابن الجوزي وقوعه في عدد ضئيل من الآيات، وبالتحديد لم يقل بوقوع النسخ إلا في ٢٢ واقعة فحسب، بينما يرى الإحكام في حوالي ٢٠٥ واقعة، وفي الآيات الباقية وقف موقف الحياد. ويلاحظ أن ابن الجوزي لم يصرح في كتابه بالنسخ في جميع هذه الوقائع، وإنما صرح به في سبع وقائع فقط.[٢]

كذلك نجد أن أبا جعفر النحاس، رجح وقوع النسخ في القرآن في ٢٥ أو ٢٦ واقعة أيضًا.[٣]

كذلك نجد أن الدهلوي، رجح وقوع النسخ في القرآن في ٥ آيات.[٤]

كذلك نجد أن الزرقاني، ذكر كلام السيوطي، رجح وقوع النسخ في القرآن في ٩ آيات.[٥]

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٨٣: ٣٨٤).

(٢) نواسخ القرآن لابن الجوزي؛ دراسة وتحقيق محمد أشرف الملباري (٥١٥).

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس؛ دراسة وتحقيق د/ سليمان بن إبراهيم اللاحم (١/ ٢٤٥)، دراسات في التفسير وعلوم القرآن محمد بكر إبراهيم آل عابد(٧٦).

(٤) نواسخ القرآن لابن الجوزي دراسة وتحقيق محمد أشرف الملباري (٢٤)، دراسات في التفسير وعلوم القرآن محمد بكر إبراهيم آل عابد(٧٦).

(٥) مناهل العرفان(٢/ ٢١٥)، النسخ في القرآن د/ مصطفى زيد (٢/ ٢٨٣)، دراسات في التفسير وعلوم القرآن محمد بكر إبراهيم آل عابد(٧٦).

الوجه الثالث: بيان منشأ غلط المتزايدين في النسخ.

قال الزرقاني: ونستطيع أن نرد أسباب هذا الغلط إلى أمور خمسة:

أولها: ظنهم أن ما شرع لسبب ثم زال سببه من المنسوخ، وعلى هذا عدوا الآيات التي وردت في الحث على الصبر وتحمل أذى الكفار أيام ضعف المسلمين وقلتهم منسوخة بآيات القتال مع أنها ليست منسوخة؛ بل هي من الآيات التي دارت أحكامها على أسباب، فالله أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال في أيام ضعفهم وقلة عددهم لعلة الضعف والقلة ثم أمرهم بالجهاد في أيام قوتهم وكثرتهم لعلة القوة والكثرة، وأنت خبير بأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، وأن انتفاء الحكم لانتفاء علته لا يعد نسخا بدليل أن وجوب التحمل عند الضعف والقلة لا يزال قائما إلى اليوم، وأن وجوب الجهاد والدفاع عند القوة والكثرة لا يزال قائما كذلك إلى اليوم.

ثانيها: توهمهم أن إبطال الإسلام لما كان عليه أهل الجاهلية من قبيل ما نسخ الإسلام فيه حكما بحكم كإبطال نكاح نساء الآباء، وكحصر عدد الطلاق في ثلاث، وعدد الزواج في أربع بعد أن لم يكونا محصورين مع أن هذا ليس نسخًا؛ لأن النسخ رفع حكم شرعي، وما ذكروه من هذه الأمثلة ونحوها رفع الإسلام فيه البراءة الأصلية وهي حكم عقلي لا شرعي.

ثالثها: اشتباه التخصيص عليهم بالنسخ كالآيات التي خصصت باستثناء أو غاية مثل قوله سبحانه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧)، ومثل قوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩).

رابعها: اشتباه البيان عليهم بالنسخ في مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فإن منهم من توهم أنه ناسخ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ مع أنه ليس ناسخا له، وإنما هو بيان لما ليس بظلم، وببيان ما ليس بظلم يعرف الظلم وبضدها تتميز الأشياء.

خامسها: توهم وجود تعارض بين نصين على حين أنه لا تعارض في الواقع وذلك مثل قوله تعالى ﴿أَنفِقُواْمِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ وقوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فإن بعضهم توهم أن كلتا الآيتين منسوخة بآية الزكاة لتوهمه أنها تعارض كلا منهما على حين أنه لا تعارض ولا تنافي؛ لأنه يصح حمل الإنفاق في كلتا الآيتين الأوليين على ما يشمل الزكاة وصدقة التطوع ونفقة الأهل والأقارب ونحو ذلك، وتكون آية الزكاة معهما من قبيل ذكر فرد من أفراد العام بحكم العام، ومثل هذا لا يقوى على تخصيص العام فضلا عن أن ينسخه وذلك لعدم وجود تعارض حقيقي لا بالنسبة إلى كل أفراد العام حتى يكون ناسخا ولا بالنسبة إلى بعضها حتى يكون مخصصًا[1].

الوجه الثالث: النسخ في الكتاب المقدس. [2]

وسنتكلم في هذا الوجه بشيء من البيان حول النسخ في الكتاب المقدس في ثلاثة عناصر:

أولًا: النسخ في العهد القديم.

ثانيًا: النسخ في العهد الجديد.

ثالثًا: نسخ العهد الجديد للعهد القديم.

أولًا: الناسخ والمنسوخ في العهد القديم

الأول: السماح بالزواج من الأخت الشقيقة:

فقد تزوج قايين بأخته شقيقته بعد أن قتل أخاه هايين (تكوين ٤: ١٧)

ونسخها: سفر اللاويين (عَوْرَةَ أُخْتِكَ بِنْتِ أَبِيكَ أَوْ بِنْتِ أُمِّكَ الْمَوْلُودَةِ فِي الْبَيْتِ أَوِ الْمَوْلُودَةِ خَارِجًا لاَ تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا.) سفر الأويين(١٨: ٩).

الثاني: السماح بالزواج من الأخت غير الشقيقة:

تزوج إبراهيم أخته من أبيه (وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّي فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً.) تكوين (٢٠: ١٢).

---

(١) مناهل العرفان(٢/ ٢١٠: ٢١٢).

(٢) إظهار الحق (٣/ ٦٤١: ٦٨٠)، الناسخ والمنسوخ في الكتاب المقدس؛ علاء أبو بكر (٢١: ١٢٤).

ونسخها: سفر اللاويين(عَوْرَةَ أُخْتِكَ بِنْتِ أَبِيكَ أَوْ بِنْتِ أُمِّكَ الْمَوْلُودَةِ فِي الْبَيْتِ أَوِالْمَوْلُودَةِ خَارِجًا لاَ تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا.) سفر الأويين(٩/ ١٨) (إِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ أُخْتَهُ، ابْنَةَ أَبِيهِ أَوِ ابْنَةَ أُمِّهِ، فَذَلِكَ عَارٌ، وَيَجِبُ أَنْ يُسْتَأْصَلاَ عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ شَعْبِهِ، لأَنَّهُ قَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أُخْتِهِ، وَيُعَاقَبُ بِذَنْبِهِ) سفر اللاويين (١٧/ ٢٠)، (مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ يُضَاجِعُ أُخْتَهُ ابْنَةَ أُمِّهِ أَوِ ابْنَةَ أَبِيهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِين.) سفر التثنية (٢٧: ٢٢).

فلو لم يكن هذا النكاح جائزًا في شريعة آدم وإبراهيم عليهما السلام يلزم أن يكون الناس كلهم أولاد الزنا، والناكحون زانين وواجبي القتل وملعونين، فكيف يظن هذا في حق الأنبياء عليهم السلام؟ فلا بد من الاعتراف بأنه كان جائزًا في شريعتهما ثم نسخ.

الثالث: الجمع بين الأختين فقد تزوج يعقوب الأختين ليئة وراحيل: (وَكَانَ فِي الْمَسَاءِ أَنَّهُ أَخَذَ لَيْئَةَ ابْنَتَهُ وَأَتَى بِهَا إِلَيْهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا. وَأَعْطَى لاَبَانُ زِلْفَةَ جَارِيَتَهُ لِلَيْئَةَ ابْنَتِهِ جَارِيَةً. وَفِي الصَّبَاحِ إِذَا هِيَ لَيْئَةُ. فَقَالَ لِلاَبَانَ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي! أَلَيْسَ بِرَاحِيلَ خَدَمْتُ عِنْدَكَ؟ فَلِمَاذَا خَدَعْتَنِي؟ » فَقَالَ لاَبَانُ: «لاَ يُفْعَلُ هكَذَا فِي مَكَانِنَا أَنْ تُعْطَى الصَّغِيرَةُ قَبْلَ الْبِكْرِ. أَكْمِلْ أُسْبُوعَ هذِهِ فَنُعْطِيَكَ تِلْكَ أَيْضًا بِالْخِدْمَةِ الَّتِي تَخْدُمُنِي أَيْضًا سَبْعَ سِنِينٍ أُخَرَ». فَفَعَلَ يَعْقُوبُ هكَذَا. فَأَكْمَلَ أُسْبُوعَ هذِهِ فَأَعْطَاهُ رَاحِيلَ ابْنَتَهُ زَوْجَةً لَهُ. وَأَعْطَى لاَبَانُ رَاحِيلَ ابْنَتَهُ بَلْهَةَ جَارِيَتَهُ جَارِيَةً لَهَا. فَدَخَلَ عَلَى رَاحِيلَ أَيْضًا. وَأَحَبَّ أَيْضًا رَاحِيلَ أَكْثَرَ مِنْ لَيْئَةَ. وَعَادَ فَخَدَمَ عِنْدَهُ سَبْعَ سِنِينٍ أُخَرَ.) (تكوين ٢٩: ٢٣: ٣٠).

وقد نسخها سفر اللاويين ١٨: ١٨ (وَلاَ تَأْخُذِ امْرَأَةً عَلَى أُخْتِهَا لِلضِّرِّ لِتَكْشِفَ عَوْرَتَهَا مَعَهَا فِي حَيَاتِهَا).

الرابع: أثبت سفر الخروج إباحة الزواج بالعمة:

(وَأَخَذَ عَمْرَامُ يُوكَابَدَ عَمَّتَهُ زَوْجَةً لَهُ. فَوَلَدَتْ لَهُ هَارُونَ وَمُوسَى. وَكَانَتْ سِنُو حَيَاةِ عَمْرَامَ مِئَةً وَسَبْعًا وَثَلاَثِينَ سَنَةً) سفر الخروج(٦: ٢٠)

ونسخها: سفر اللاويين: (عَوْرَةَ أُخْتِ أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أَبِيكَ) (اللاويين١٨: ١٢).

الخامس: أثبت سفر التكوين إباحة الزواج بابنة الأخ: وَهَذِهِ مَوَالِيدُ تَارَحَ: وَلَدَ تَارَحُ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ. وَوَلَدَ هَارَانُ لُوطًا.) (تكوين ١١: ٢٧)، واتَّخَذَ أَبْرَامُ وَنَاحُورُ لَهُمَا امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ امْرَأَةِ أَبْرَامَ سَارَايُ وَاسْمُ امْرَأَةِ نَاحُورَ مِلْكَةُ بِنْتُ هَارَانَ أَبِي مِلْكَةَ وَأَبِي يِسْكَةَ.) (تكوين ١١: ٢٩).

إذًا فقد تزوج ناحور ابنة أخيه هاران (أخت لوط)، أى تزوجت مِلْكَة عمها.

ونسخها: اللاويين: (عَوْرَةَ أُخْتِ أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أَبِيكَ. عَوْرَةَ أُخْتِ أُمِّكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أُمِّكَ. عَوْرَةَ أَخِي أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِلَى امْرَأَتِهِ لاَ تَقْتَرِبْ. إِنَّهَا عَمَّتُكَ.) (سفر اللاويين ١٨/ ١٢-١٤).

وأثبتها مرة أخرى سفر القضاة: (فَقَالَ كَالِبُ: «الَّذِي يَضْرِبُ قَرْيَةَ سَفِرٍ وَيَأْخُذُهَا، أُعْطِيهِ عَكْسَةَ ابْنَتِي امْرَأَةً». فَأَخَذَهَا عُثْنِيئِيلُ بْنُ قَنَازَ أَخُو كَالِبَ الأَصْغَرِ مِنْهُ. فَأَعْطَاهُ عَكْسَةَ ابْنَتَهُ امْرَأَةً) (قضاة١: ١٢-١٣).

السادس: أباح الرب لنوح وقومه كل حيوانات الأرض: (وَلْيَكُنْ كُلُّ حَيٍّ مُتَحَرِّكٍ طَعَامًا لَكُمْ، فَتَأْكُلُونَ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا تَأْكُلُونَ الْبُقُولَ الْخَضْرَاءَ الَّتِي أَعْطَيْتُكُمْ.) (تكوين ٩/ ٣).

ونسخ: هذا الحكم فى الشريعة الموسوية، وحرمت حيوانات كثيرة: منها الجمل والوبر والأرنب والخنزير: (أَمَّا الْحَيَوَانَاتُ الْمُجْتَرَّةُ فَقَطْ، أَوِ الْمَشْقُوقَةُ الظِّلْفِ فَقَطْ، فَلاَ تَأْكُلُوا مِنْهَا، فَالْجَمَلُ غَيْرُ طَاهِرٍ لَكُمْ لأَنَّهُ مُجْتَرٌّ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَشْقُوقِ الظِّلْفِ، وَكَذَلِكَ الْوَبْرُ نَجِسٌ لَكُمْ لأَنَّهُ مُجْتَرٌّ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَشْقُوقِ الظِّلْفِ، أَمَّا الأَرْنَبُ فَإِنَّهُ مُجْتَرٌّ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَشْقُوقِ الظِّلْفِ، لِذَلِكَ هُوَ نَجِسٌ لَكُمْ، وَالْخِنْزِيرُ أَيْضًا نَجِسٌ لَكُمْ لأَنَّهُ مَشْقُوقُ الظِّلْفِ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُجْتَرٍّ. لاَ تَأْكُلُوا مِنْ لَحْمِهَا وَلاَ تَلْمِسُوا جُثَثَهَا لأَنَّهَا نَجِسَةٌ لَكُمْ.) سفر اللاويين (١١/ ٤ – ٨).

السابع: شريعة أنبياء بنى إسرائيل كلهم أن يتزوج كل منهم من نفس سبطه وسبط أبيه: فقد أمر نبى الله إبراهيم أن يُزوِّج ابنه من بنت من بنات عشيرته، وقد كان عمر ابنه لم يتعد

بضعة أيام: (وَوَلَدَتْ سَارَةُ امْرَأَةُ سَيِّدِي ابْنًا لِسَيِّدِي بَعْدَ مَا شَاخَتْ فَقَدْ أَعْطَاهُ كُلَّ مَا لَهُ. وَاسْتَحْلَفَنِي سَيِّدِي قَائِلًا: لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ فِي أَرْضِهِمْ. بَلْ إِلَى بَيْتِ أَبِي تَذْهَبُ وَإِلَى عَشِيرَتِي وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي) (تكوين ٢٤/ ٣٦-٣٨).

إلا أن الرب سمح لموسى أن يتزوج من امرأة ليست من أهله أو سبطه: (وَتَكَلَّمَتْ مَرْيَمُ وَهَارُونُ عَلَى مُوسَى بِسَبَبِ الْمَرْأَةِ الْكُوشِيَّةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا (لأَنَّهُ كَانَ قَدِ اتَّخَذَ امْرَأَةً كُوشِيَّةً) (سفر العدد١٢/ ١) وتم إلغائها فيما بعد: (وَكُلُّ بِنْتٍ وَرِثَتْ نَصِيبًا مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيل تَكُونُ امْرَأَةً لِوَاحِدٍ مِنْ عَشِيرَةِ سِبْطِ أَبِيهَا لِيَرِثَ بَنُو إِسْرَائِيل كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَ آبَائِهِ.) (سفر العدد ٣٦: ٨).

إلا أن الرب نسخ هذا الحكم وسمح لشمشون أن يتزوج من امرأة فلسطينية: (وَنَزَلَ شَمْشُونُ إِلَى تِمْنَةَ وَرَأَى امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، ٢فَصَعِدَ وَأَخْبَرَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، فَالآنَ خُذَاهَا لِي امْرَأَةً«. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ: «أَلَيْسَ فِي بَنَاتِ إِخْوَتِكَ وَفِي كُلِّ شَعْبِي امْرَأَةٌ حَتَّى أَنَّكَ ذَاهِبٌ لِتَأْخُذَ امْرَأَةً مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ الْغُلْفِ؟ » فَقَالَ شَمْشُونُ لأَبِيهِ: «إِيَّاهَا خُذْ لِي لأَنَّهَا حَسُنَتْ فِي عَيْنَيَّ». ٤وَلَمْ يَعْلَمْ أَبُوهُ وَأُمُّهُ أَنَّ ذلِكَ مِنَ الرَّبِّ لأَنَّهُ كَانَ يَطْلُبُ عِلَّةً عَلَى الْفِلِسْطِينِيِّينَ. وَفِي ذلِكَ الْوَقْتِ كَانَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ مُتَسَلِّطِينَ عَلَى إِسْرَائِيلَ.) (قضاة ١٤/ ١-٤)، ثم نُسِخَ مرة أخرى: (ولعل من أجل ذلك ساقكما الله إليّ حتى تتزوج هذه بذى قرابتها على حسب شريعة موسى) (طوبيا ٧: ١٤).

(ولما أن صار رجلًا اتخذَ له امرأة من سبطه اسمها حنه) (طوبيا ١: ٩).

الثامن: قرَّرَ الرب أخذ كل بكر من بنى إسرائيل ومن البهائم: (وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَدِّسْ لِي كُلَّ بِكْرٍ كُلَّ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْبَهَائِمِ. إِنَّهُ لِي» (خروج١٣/ ٢: ١).

وقد **نسخه** بأن أخذَ اللاويين من بنى إسرائيل بدل كل بكر«وَهَا إِنِّي قَدْ أَخَذْتُ اللاوِيِّينَ مِنْ بَيْنِ بَنِي إِسْرَائِيل بَدَل كُلِّ بِكْرٍ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فَيَكُونُ اللاوِيُّونَ

لِي. لأَنَّ لِي كُل بِكْرٍ. يَوْمَ ضَرَبْتُ كُل بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَدَّسْتُ لِي كُل بِكْرٍ فِي إِسْرَائِيل مِنَ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ. لِي يَكُونُونَ. أَنَا الرَّبُّ». (عدد ٣/ ١٢-١٣).

التاسع: كانت خدمة اللاويين فى بداية التيه تبدأ من سن الثلاثين إلى الخمسين: (وَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «خُذْ عَدَدَ بَنِي قَهَاتَ مِنْ بَيْنِ بَنِي لاوِي حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ مِنِ ابْنِ ثَلاثِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا إِلى ابْنِ خَمْسِينَ سَنَةً كُلِّ دَاخِلٍ فِي الجُنْدِ لِيَعْمَل عَمَلًا فِي خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ. هَذِهِ خِدْمَةُ بَنِي قَهَاتَ فِي خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ: قُدْسُ الأَقْدَاسِ.) (عدد ٤/ ١-٤).

ثم **نسخت** وانخفضت إلى الخامسة والعشرين: (وَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَذَا مَا لِلاوِيِّينَ: مِنِ ابْنِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا يَأْتُونَ لِيَتَجَنَّدُوا أَجْنَادًا فِي خِدْمَةِ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ. وَمِنِ ابْنِ خَمْسِينَ سَنَةً يَرْجِعُونَ مِنْ جُنْدِ الخِدْمَةِ وَلا يَخْدِمُونَ بَعْدُ.) (عدد ٨/ ٢٣-٢٥).

ثم **نسخت** وانخفضت مرة أخرى بعد أن استقروا فى كنعان إلى سن العشرين: (ثُمَّ بَعْدَ الوَبَإِ أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى وَأَلِعَازَارَ بْنَ هَارُونَ الكَاهِنِ: «خُذَا عَدَدَ كُلِّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيل مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ كُلِّ خَارِجٍ لِلجُنْدِ فِي إِسْرَائِيل».) (عدد ٢٦/ ١-٢).

العاشر: حكم سفر اللاويين على من اضطجع مع فتاة عذراء مخطوبة أن يُؤدَّبا فقط ويُغفر للفاعل إذا قدَّمَ ذبيحة إثم: (وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ اضْطِجَاعَ زَرْعٍ وَهِيَ أَمَةٌ مَخْطُوبَةٌ لِرَجُلٍ وَلَمْ تُفْدَ فِدَاءً وَلاَ أُعْطِيَتْ حُرِّيَّتَهَا فَلْيَكُنْ تَأْدِيبٌ. لاَ يُقْتَلاَ لأَنَّهَا لَمْ تُعْتَقْ. وَيَأْتِي إِلَى الرَّبِّ بِذَبِيحَةٍ لإِثْمِهِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ: كَبْشًا ذَبِيحَةَ إِثْمٍ. فَيُكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ بِكَبْشِ الْإِثْمِ أَمَامَ الرَّبِّ مِنْ خَطِيَّتِهِ الَّتِي أَخْطَأَ فَيُصْفَحُ لَهُ عَنْ خَطِيَّتِهِ الَّتِي أَخْطَأَ)سفر الاويين (١٩/ ٢٠-٢٢).

إلا أنه **نسخ** هذا الحكم فى سفر التثنية وجعل عقوبته القتل رجمًا بالحجارة: «إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ عَذْرَاءُ مَخْطُوبَةً لِرَجُلٍ فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي المَدِينَةِ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا. فَأَخْرِجُوهُمَا كِليْهِمَا إِلى بَابِ تِلكَ المَدِينَةِ وَارْجُمُوهُمَا بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا. الفَتَاةُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا لمْ تَصْرُخْ فِي المَدِينَةِ وَالرَّجُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَل امْرَأَةَ صَاحِبِهِ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ.) (تثنية ٢٢/ ٢٤: ٢٣).

الحادي عشر: حكم من اضطجع مع امرأة طامث: يكون نجسًا سبعة أيام: (وَإِنِ اضْطَجَعَ مَعَهَا رَجُلٌ فَكَانَ طَمْثُهَا عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا.) (سفر الاويين ١٥/ ٢٤).

إلا أنه **نسخ** بقوله: (وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ طَامِثٍ وَكَشَفَ عَوْرَتَهَا عَرَّى يَنْبُوعَهَا وَكَشَفَتْ هِيَ يَنْبُوعَ دَمِهَا يُقْطَعَانِ كِلاَهُمَا مِنْ شَعْبِهِمَا.) (سفر الاويين ٢٠/ ١٨).

الثاني عشر: نال فينحاس وذريته ميثاق الكهنوت إلى الأبد:

(فَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى: «فِينَحَاسُ بْنُ أَلِعَازَارَ بْنِ هَارُونَ الكَاهِنُ قَدْ رَدَّ سَخَطِي عَنْ بَنِي إِسْرَائِيل بِكَوْنِهِ غَارَ غَيْرَتِي فِي وَسَطِهِمْ حَتَّى لمْ أُفْنِ بَنِي إِسْرَائِيل بِغَيْرَتِي. لِذَلِكَ قُل هَئَنَذَا أُعْطِيهِ مِيثَاقِي مِيثَاقَ السَّلامِ. فَيَكُونُ لهُ وَلِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِيثَاقَ كَهَنُوتٍ أَبَدِيٍّ لأَجْلِ أَنَّهُ غَارَ للهِ وَكَفَّرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيل».) عدد ٢٥/ ١٠-١٣.

ثم يتراجع الرب في وعده قائلًا: (٣٠لِذَلِكَ يَقُولُ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: إِنِّي قُلْتُ إِنَّ بَيْتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ يَسِيرُونَ أَمَامِي إِلَى الأَبَدِ. وَالآنَ يَقُولُ الرَّبُّ: حَاشَا لِي!) (صموئيل الأول ٢/ ٣٠).

الثالث عشر: حرَّمَ الرب أكل الوحوش والزَّحَّافات على بني إسرائيل: «وَهَذِهِ تَكْرَهُونَهَا مِنَ الطُّيُورِ. لاَ تُؤْكَلْ. إِنَّهَا مَكْرُوهَةٌ: النَّسْرُ وَالأَنُوقُ وَالْعُقَابُ. وَالْحِدَأَةُ وَالْبَاشِقُ عَلَى أَجْنَاسِهِ. وَكُلُّ غُرَابٍ عَلَى أَجْنَاسِهِ. وَالنَّعَامَةُ وَالظَّلِيمُ وَالسَّأَفُ وَالْبَازُ عَلَى أَجْنَاسِهِ. وَالْبُومُ وَالْغَوَّاصُ وَالْكُرْكِيُّ. وَالْبَجَعُ وَالْقُوقُ وَالرَّخَمُ. وَاللَّقْلَقُ وَالْبَبْغَاءُ عَلَى أَجْنَاسِهِ وَالْهُدْهُدُ وَالْخُفَّاشُ. وَكُلُّ دَبِيبِ الطَّيْرِ الْمَاشِي عَلَى أَرْبَعٍ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ) (سفر اللاويين ١١/ ١٣-٢٠).

وقد **نسخت** فى سفر الأعمال: يحكى لنا سفر أعمال الرسل أنه نزل على بطرس من عند الله ملاءة مليئة بالطيور وغيره من الوحوش والزَّحَّافات، وصوت الرب من السماء يقول له («قُمْ يَا بُطْرُسُ اذْبَحْ وَكُلْ».): (فَرَأَى السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَإِنَاءً نَازِلًا عَلَيْهِ مِثْلَ مُلاَءَةٍ عَظِيمَةٍ مَرْبُوطَةٍ بِأَرْبَعَةِ أَطْرَافٍ وَمُدَلاَّةٍ عَلَى الأَرْضِ. وَكَانَ فِيهَا كُلُّ دَوَابِّ الأَرْضِ وَالْوُحُوشِ وَالزَّحَّافَاتِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. وَصَارَ إِلَيْهِ صَوْتٌ: « قُمْ يَا بُطْرُسُ اذْبَحْ وَكُلْ». فَقَالَ بُطْرُسُ:

«كَلاَّ يَا رَبُّ لأَنِّي لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئًا دَنِسًا أَوْ نَجِسًا». فَصَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا صَوْتٌ ثَانِيَةً: «مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تُدَنِّسْهُ أَنْتَ! «وَكَانَ هَذَا عَلَى ثَلاَثِ مَرَّاتٍ ثُمَّ ارْتَفَعَ الإِنَاءُ أَيْضًا إِلَى السَّمَاءِ.) (أعمال الرسل ١٠/ ١١-١٦) وأيضا (١١/ ٥-١٠).

الرابع عشر: حرَّم الرب على الكاهن أن يتزوج امرأة زانية: (وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِلْكَهَنَةِ بَنِي هَارُونَ:. . . اِمْرَأَةً زَانِيَةً أَوْ مُدَنَّسَةً لاَ يَأْخُذُوا وَلاَ يَأْخُذُوا امْرَأَةً مُطَلَّقَةً مِنْ زَوْجِهَا. لأَنَّهُ مُقَدَّسٌ لإِلَهِه. . . هَذَا يَأْخُذُ امْرَأَةً عَذْرَاءَ. أَمَّا الأَرْمَلَةُ وَالْمُطَلَّقَةُ وَالْمُدَنَّسَةُ وَالزَّانِيَةُ فَمِنْ هَؤُلاَءِ لاَ يَأْخُذُ بَلْ يَتَّخِذُ عَذْرَاءَ مِنْ قَوْمِهِ امْرَأَةً.) (اللاويين ٢١/ ١-١٤).

ونسخ الرب كلامه بأن أمر نبيه هوشع أن يتزوج الزوجة الأولى زانية: (أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ! «. فَذَهَبَ وَأَخَذَ جُومَرَ بِنْتَ دِبْلاَيِمَ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا.) (سفر هوشع ١/ ٢-٣).

الخامس عشر: نسخ الرب أمره لحزقيال بأكل الخراء الآدمي إلى أكل خراء البقر: (وَتَأْكُلُ كَعْكًا مِنَ الشَّعِيرِ. عَلَى الْخُرْءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ تَخْبِزُهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ». وَقَالَ الرَّبُّ: [هَكَذَا يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ خُبْزَهُمُ النَّجِسَ بَيْنَ الأُمَمِ الَّذِينَ أَطْرُدُهُمْ إِلَيْهِمْ«. فَقُلْتُ: آهِ يَا سَيِّدُ الرَّبُّ، هَا نَفْسِي لَمْ تَتَنَجَّسْ. وَمِنْ صِبَايَ إِلَى الآنَ لَمْ آكُلْ مِيتَةً أَوْ فَرِيسَةً وَلاَ دَخَلَ فَمِي لَحْمٌ نَجِسٌ». فَقَالَ لِي: اُنْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ لَكَ خِثْيَ الْبَقَرِ بَدَلَ خُرْءِ الإِنْسَانِ فَتَصْنَعُ خُبْزَكَ عَلَيْهِ) (حزقيال ٤/ ١٢-١٥).

ثانيًا: النسخ في العهد الجديد:

الأول: فى أخلاق الحرب والقصاص: (لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلًا وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ. . أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ) (متى ٥/ ٣٩- ٤٤).

نسخت بقوله: (لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. فَإِنِّي جِئْتُ لِأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ وَالاِبْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا) (متى ١٠/ ٣٤-٤٠).

وبقوله: (جِئْتُ لأُلْقِيَ نَارًا عَلَى الأَرْضِ. أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ؟ كَلاَّ أَقُولُ لَكُمْ! بَلِ انْقِسَامًا. لأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الآنَ خَمْسَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ مُنْقَسِمِينَ: ثَلاَثَةٌ عَلَى اثْنَيْنِ وَاثْنَانِ عَلَى ثَلاَثَةٍ. يَنْقَسِمُ الأَبُ عَلَى الاِبْنِ وَالاِبْنُ عَلَى الأَبِ وَالأُمُّ عَلَى الْبِنْتِ وَالْبِنْتُ عَلَى الأُمِّ وَالْحَمَاةُ عَلَى كَنَّتِهَا وَالْكَنَّةُ عَلَى حَمَاتِهَا» (لوقا ١٢/ ٤٩-٥٣).

ثالثا: نسخ العهد الجديد للعهد القديم:

الأول: أوحى الرب أن الزناة لا يدخلون ملكوت السموات.

(لا يَدْخُل مَخْصِيٌّ بِالرَّضِّ أَوْ مَجْبُوبٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. لا يَدْخُلِ ابْنُ زِنىً فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الجِيلِ العَاشِرِ لا يَدْخُل مِنْهُ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. لا يَدْخُل عَمُّونِيٌّ وَلا مُوآبِيٌّ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الجِيلِ العَاشِرِ لا يَدْخُل مِنْهُمْ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ إِلى الأَبَدِ) (تثنية ٢٣/ ١-٣)، والمقصود بالجيل العاشر هنا هو إلى الأبد.

ونسخ هذا بقوله: (فَأَيُّ الاِثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الأَبِ؟ » قَالُوا لَهُ: «الأَوَّلُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ الله) (متى ٢١/ ٣١).

الثاني: حرَّمَ الرب القيام بأى عمل فى الأعياد المقدسة وفرض فيها الراحة والتعبد لله فقط:

(لاَ تَأْكُلُوا مِنَ الْغَلَّةِ الْجَدِيدَةِ، لاَ دَقِيقًا مَخْبُوزًا وَلاَ فَرِيكًا وَلاَ سَوِيقًا إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي تُحْضِرُونَ فِيهِ قُرْبَانَ إِلهِكُمْ، فتكُونُ هَذِهِ عَلَيْكُمْ فَرِيضَةً دَائِمَةً جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ) (الاويين ٢٣/ ١٤).

وَتُخَصِّصُونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَيْنَهُ لِيَكُونَ مَحْفَلًا مُقَدَّسًا لَكُمْ، تَتَعَطَّلُ فِيهِ جَمِيعُ الأَعْمَالِ، فتكُونُ عَلَيْكُمْ فَرِيضَةً دَائِمَةً حَيْثُ تُقِيمُونَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ)(اللاويين ٢٣/ ٢١).

(إِيَّاكُمُ الْقِيَامَ بِعَمَلٍ مَا. إِنَّهَا فَرِيضَةٌ دَائِمَةٌ عَلَيْكُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ حَيْثُ تُقِيمُونَ. إِنَّهُ سَبْتُ رَاحَةٍ لَكُمْ تَتَذَلَّلُونَ فِيهِ، فَتَسْتَرِيحُونَ مِنْ مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ حَتَّى مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّالِي) (اللاويين ٢٣/ ٣١-٣٢).

(أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ فِي السَّنَةِ مِنَ الشَّهْرِ السَّابعِ تَحْتَفِلُونَ بِهِ عِيدًا لِلرَّبِّ. وَيَكُونُ هَذَا فَرِيضَةً دَائِمَةً عَلَيْكُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ) (اللاويين ٢٣: ٤١).

ثم نسخ بولس هذه الأحكام: (فَلاَ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ فِي قَضِيَّةِ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، أَوْ فِي الْقَضَايَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِالأَعْيَادِ وَرُؤُوسِ الشُّهُورِ وَالسُّبُوتِ؛ فَهَذِهِ كَانَتْ ظِلاَلًا لِمَا سَيَأْتِي، أَيْ لِلْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ الْمَسِيحُ.) رسالة بولس إلى أهل كلوسي (٢/ ١٦-١٧).

الثالث: سمحت الشريعة الموسوية بزواج المطلقة: (إِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْ فَتَاةٍ وَلَمْ تَرُقْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لأَنَّهُ اكْتَشَفَ فِيهَا عَيْبًا مَا، وَأَعْطَاهَا كِتَابَ طَلاقٍ وَصَرَفَهَا مِنْ بَيْتِهِ، فَتَزَوَّجَتْ مِنْ رَجُلٍ آخَرَ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ طَلِيقَةً، فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاقٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الذِي اتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً لا يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الذِي طَلقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذَلِكَ رِجْسٌ لدَى الرَّبِّ. فَلا تَجْلِبْ خَطِيَّةً عَلى الأَرْضِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا.) (التثنية ٢٤/ ١-٤).

ونسختها الشريعة الإنجيلية: (وَقِيلَ أَيْضًا: مَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ، فَلْيُعْطِهَا وَثِيقَةَ طَلاَقٍ. أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ لِغَيْرِ عِلَّةِ الزِّنَى، فَهُوَ يَجْعَلُهَا تَرْتَكِبُ الزِّنَى. وَمَنْ تَزَوَّجَ بِمُطَلَّقَةٍ، فَهُوَ يَرْتَكِبُ الزِّنَى.)(متى ٥/ ٣١-٣٢).

الرابع: أقر الله الختان ليكون عهد أبدى بينه وبين شعبه: فكان الأنبياء وقومهم لا يُختنون قبل نبي الله إبراهيم، وقد رضي الله بذلك حتى بلغ إبراهيم من العمر ٩٩ سنة. ثم أبدل الرب ذلك، وأخذ عهدًا يكون أبديا فى إبراهيم ونسله:

وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ. فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ فَيَكُونُ عَلامَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا.) (تكوين ١٧/ ٩-١٢).

وقد اختُتِنَ جميع الأنبياء: (وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ جَاءُوا لِيَخْتِنُوا الصَّبِيَّ وَسَمَّوْهُ بِاسْمِ أَبِيهِ زَكَرِيَّا. ٦٠فَقَالَتْ أُمُّهُ: «لاَ بَلْ يُسَمَّى يُوحَنَّا».)(لوقا ١/ ٥٩-٦٠).

وكذلك عيسى ﷺ: (وَلَمَّا تَمَّتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ لِيَخْتِنُوا الصَّبِيَّ سُمِّيَ يَسُوعَ كَمَا تَسَمَّى مِنَ الْمَلاَكِ قَبْلَ أَنْ حُبِلَ بِهِ فِي الْبَطْنِ.) (لوقا ٢: ٢١).

وقد ألغاها بولس في رسالته إلى أهل غلاطية بقوله: (هَا أَنَا بُولُسُ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ إِنِ اخْتَتَنْتُمْ لاَ يَنْفَعُكُمُ الْمَسِيحُ شَيْئًا! لكِنْ أَشْهَدُ أَيْضًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مُخْتَتِنٍ أَنَّهُ مُلْتَزِمٌ أَنْ يَعْمَلَ بِكُلِّ النَّامُوسِ. قَدْ تَبَطَّلْتُمْ عَنِ الْمَسِيحِ أَيُّهَا الَّذِينَ تَتَبَرَّرُونَ بِالنَّامُوسِ. سَقَطْتُمْ مِنَ النِّعْمَةِ.) (غلاطية ٥/ ٤: ١).

وأيضًا بقوله: (لأَنَّهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئًا وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ.) (غلاطية٦/ ١٥).

الخامس: أقر سفر التثنية القسم بالله وحده: (الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي وَإِيَّاهُ تَعْبدُ وَبِاسْمِهِ تَحْلِفُ) (تثنية ٦/ ١٣)، وأقرها يسوع: (وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ الْقَائِلُونَ: مَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِذَهَبِ الْهَيْكَلِ يَلْتَزِمُ! أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلذَّهَبُ أَمِ الْهَيْكَلُ الَّذِي يُقَدِّسُ الذَّهَبَ؟ وَمَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِالْقُرْبَانِ الَّذِي عَلَيْهِ يَلْتَزِمُ! أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلْقُرْبَانُ أَمِ الْمَذْبَحُ الَّذِي يُقَدِّسُ الْقُرْبَانَ؟ فَإِنَّ مَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِكُلِّ مَا عَلَيْهِ. وَمَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِالسَّاكِنِ فِيهِ. وَمَنْ حَلَفَ بِالسَّمَاءِ فَقَدْ حَلَفَ بِعَرْشِ اللهِ وَبِالْجَالِسِ عَلَيْهِ!) (متى ٢٣/ ١٦-٢٢).

وأقرها متى: فقد استحلفه رئيس الكهنة وأجابه: (وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتًا. فَسَأَلَهُ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟ » قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ قُلْتَ! وَأَيْضًا أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ».) (متى ٢٦: ٦٣).

وحلف بطرس: (وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَ الْقِيَامُ وَقَالُوا لِبُطْرُسَ: «حَقًّا أَنْتَ أَيْضًا مِنْهُمْ فَإِنَّ لُغَتَكَ تُظْهِرُكَ! » فَابْتَدَأَ حِينَئِذٍ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ الرَّجُلَ! » وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدِّيكُ.) (متى٢٦/ ٧٤: ٧٣)، وحلف بولس: (وَلَكِنِّي أَسْتَشْهِدُ الله عَلَى نَفْسِي أَنِّي إِشْفَاقًا عَلَيْكُمْ لَمْ آتِ إِلَى كُورِنْثُوسَ.) (كورنثوس الثانية ١/ ١٢).

(وَالَّذِي أَكْتُبُ بِهِ إِلَيْكُمْ هُوَذَا قُدَّامَ الله أَنِّي لَسْتُ أَكْذِبُ فِيهِ.) (غلاطية ١/ ٢٠).

نسخها: (أَيْضًا سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَحْنَثْ بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لكم: لاَ تَحْلِفُوا الْبَتَّةَ لاَ بِالسَّمَاءِ لأَنَّهَا كُرْسِيُّ الله وَلاَ بِالأَرْضِ لأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ وَلاَ بِأُورُشَلِيمَ لأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. وَلاَ تَحْلِفْ بِرَأْسِكَ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ. بَلْ لِيَكُنْ كَلاَمُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ لاَ لاَ. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشِّرِّيرِ.) (متى ٦: ٣٣-٣٧).

الخامس: أباح الرب كل حيوانات الأرض ما عدا بعض الحيوانات: (وَلَكِنْ لاَ تَأْكُلُوا الْحَيَوَانَاتِ الْمُجْتَرَّةَ غَيْرَ مَشْقُوقَةِ الظِّلْفِ، كَالْجَمَلِ وَالأَرْنَبِ وَالْوَبْرِ، فَإِنَّهَا تَجْتَرُّ وَلَكِنَّهَا غَيْرُ مَشْقُوقَةِ الظِّلْفِ، لِذَلِكَ هِيَ نَجِسَةٌ لَكُمْ، وَالْخِنْزِيرِ لأَنَّهُ مَشْقُوقُ الظِّلْفِ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُجْتَرٍّ، لِذَلِكَ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. فَلاَ تَأْكُلُوا مِنْ لَحْمِ جَمِيعِ هَذِهِ الْبَهَائِمِ وَلاَ تَلْمَسوا جُثَثَهَا.) (تثنية ١٤/ ٧-٨).

ثم نسخه بولس بقوله: (كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لَكِنْ لَيْسَ كُلُّ الأَشْيَاءِ تُوافِقُ. كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لَكِنْ لاَ يَتَسَلَّطُ عَلَيَّ شَيْءٌ.)(كورنثوس الأولى ٦/ ١٢).

السادس: أُثبِتَ الطلاق فى شريعة موسى عليه السلام: (إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ٢ وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُلٍ آخَرَ. فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الذِي اتَّخَذَهَا لهُ زَوْجَةً. لا يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الذِي طَلقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. .) (التثنية ٢٤/ ٤: ١).

وقد **نسخها** متى: (وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟ » فَأَجَابَ: «أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ » وَقَالَ: «مِنْ أَجْلِ هَذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونُ الاِثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ الله لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». فَسَأَلُوهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَقٍ فَتُطَلَّقُ؟ » قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلَكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَبِ الزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي» (متى ١٩/ ٩: ٣).

أما قول متى (إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلَكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا) متى ٩/ ٨ فيدل على أنه قبل موسى كان الطلاق محرمًا، فنسخت شريعة موسى هذا التحريم، ثم نُسِخَ مرة أخرى في كلام متى.

السابع: أمر عزرا بعد العودة من السبي الكهنة واليهود أن يهجروا زوجاتهم الوثنيات حتى لا يزيدوا إثم بني إسرائيل ولنيل رضا الرب عليهم. (عزرا١٠/ ١١: ٢).

وقد **نسخها** بولس في كورنثوس الأولى بسماحه لليهودي أن يستمر في حياته الزوجية مع الوثنية، وللمسيحية أن تستمر في زواجها مع الوثني: (وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَأَقُولُ لَهُمْ أَنَا لاَ الرَّبُّ: إِنْ كَانَ أَخٌ لَهُ امْرَأَةٌ غَيْرُ مُؤْمِنَةٍ وَهِيَ تَرْتَضِي أَنْ تَسْكُنَ مَعَهُ فَلاَ يَتْرُكْهَا. وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَهَا رَجُلٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ وَهُوَ يَرْتَضِي أَنْ يَسْكُنَ مَعَهَا فَلاَ تَتْرُكْهُ. لأَنَّ الرَّجُلَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ مُقَدَّسٌ فِي الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةُ غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ مُقَدَّسَةٌ فِي الرَّجُلِ - وَإِلاَّ فَأَوْلاَدُكُمْ نَجِسُونَ. وَأَمَّا الآنَ فَهُمْ مُقَدَّسُونَ) (كورنثوس الأولى ٧/ ١٤: ١٢).

* * *

١٩ـ شبهات عن الأحرف السبعة، والقراءات

ويقوم هذا البحث على ثلاثة مباحث وهي:

المبحث الأول: الأحرف السبعة.

١-الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف.

٢- معنى الأحرف السبعة.

٣-الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف.

٤- هل المصاحف العثمانية مشتملة على الأحرف السبعة أم لا؟.

المبحث الثاني: القراءات ونشأتها

١ – تعريف القراءات.

٢- نشأة القراءات.

٣- ضوابط القراءة الصحيحة.

٤- القراءة الشاذة معناها، وأنواعها.

٥- حكم الاحتجاج بالقراء الشاذة.

٦- الذي يقبل من القراءات والذي لا يقبل.

٧- الوجوه السبعة التي يقع فيها التغاير في القرآن ولا تخرج القراءات عنها.

٨- فائدة اختلاف القراءات وتنوعها، وعلى أي شيء يتوجه اختلاف القراءات.

٩- سبب الاقتصار على قراءة الأئمة المشهورين.

١٠- معنى إضافة القراءة إلى من قرأ بها.

١١- دور المصحف، والرسم العثماني في القراءات.

المبحث الثالث: الرد على الشبهات

الشبهة الأولى: ادعاؤهم أن نشأة القراءات كان بسبب خلو المصحف من النقط، والشكل.

الشبهة الثانية: الاختلاف في القراءات يوقع في شك وريب من القرآن.

الشبهة الثالثة: نزول القرآن على سبعة أحرف يخالف قول الله (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا).

الشبهة الرابعة: معنى الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن هي القراءات السبع.

الشبهة الخامسة: نزول القرآن على سبعة أحرف ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها.

الشبهة السادسة: اتهام بعض القراء بالضعف كـ (عاصم، وحفص)؛ فكيف يقبل منهم القرآن؟!

وإليك التفصيل

المبحث الأول: الأحرف السبعة.

١ـ الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﵁ يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا، وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ، ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا، فَقَالَ لِي: **"أَرْسِلْهُ"**، ثُمَّ قَالَ لَهُ: **"اقْرَأْ"**، فَقَرَأَ. قَالَ: **" هَكَذَا أُنْزِلَتْ "**. **ثُمَّ قَالَ لِي: " اقْرَأْ "، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: " هَكَذَا أُنْزِلَتْ. إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ "**(١).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ قَالَ: **فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ** ﵇ **فَقَالَ:** إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: **"أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ،**

(١) البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨).

فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا"(١).

وفي رواية أخرى عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قَرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنْ التَّكْذِيبِ وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي ضَرَبَ فِي صَدْرِي فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللهِ ﷻ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: **"يَا أُبَيُّ، أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنْ اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللهمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ ﷺ**"(٢).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **"أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى حَرْفٍ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ"**(٣).

وعَنْ زِرٍّ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **"لَقِيتُ جِبْرِيلَ عليه السلام عِنْدَ أَحْجَارِ الْمِرَاءِ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُرْسِلْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ- الرَّجُلُ، وَالْمَرْأَةُ، وَالْغُلَامُ، وَالْجَارِيَةُ، وَالشَّيْخُ الْفَانِي الَّذِي لَا يَقْرَأُ كِتَابًا قَطُّ. قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**(٤).

قال السيوطي: وَرَدَ حديث "**نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ** " من رواية جمع من الصحابة، وعدهم إلى أن قال: فهؤلاء أحد وعشرون صحابيًا، وقد نص أبو عبيد على تواتره(٥).

---

(١) مسلم (٨٢١).

(٢) مسلم (٨٢٠).

(٣) البخاري (٣٢١٩)، ومسلم (٨١٩).

(٤) حسن. أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٠٠، ٤٠٥)، والطيالسي في مسنده (٥٤٣)، والترمذي في سننه (٢٩٤٤)، والبزار في مسنده (٢٩٠٨)، وأبو عمرو في الأحرف السبعة (٦) كلهم من طرق عن عاصم عن زر عن حذيفة به. قال الترمذي: حسن صحيح. قلت: هو حسن من أجل عاصم، وهو صدوق.

(٥) الإتقان (١/ ١٣١).

٢ـ معنى الأحرف السبعة

اختلف العلماء كثيرًا في المراد بالأحرف السبعة المذكورة في الأحاديث المذكورة التي تقدم ذكرها[١]، وهذا لا يعني أن كل هذه الأقوال صحيحة؛ بل بعضها ضعيف وهو أكثرها، وبعضها يدخل في بعض. وعلى هذا فيمكن تقسيم هذه الأقوال إلى أربعة طوائف وهي: [٢]

الطائفة الأولي: وهم الذين أولوا مدلول الأحرف السبعة ولهم قولان:

الأول: أن هذا الحديث من المشكل المتشابه الذي لا يُعلم معناه، وذلك أن الحرف مشترك لفظي يصدق علي معانٍ كثيرة، و لم يعين المراد منها في الحديث.

الثاني: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، و إنما هو رمز لما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد.

الطائفة الثانية: رأت أن هذه الأحرف تتعلق بالمعاني وليس بالألفاظ، ثم اختلفوا في تحديد هذه المعاني إلى أقوال كثيرة منها:

١ـ أمر، وزجر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه.

٢ـ وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال.

٣ـ ناسخ، ومنسوخ، وخصوص، وعموم، وقصص وغير ذلك.

الطائفة الثالثة: رأت أن المراد بالأحرف السبعة: الوجوه التي يقع بها التغاير والاختلاف في الكلمات القرآنية وهي سبع وجوه، وقد ذهب إلى هذا القول كثير من أهل العلم: ابن قتيبة، والباقلاني، والرازي، ومكي بن أبي طالب، وابن الجوزي، وغيرهم، واختلفوا في تحديد هذه الوجوه على أقوال نذكرها بعد ونجمع بينها إن شاء الله.

الطائفة الرابعة: رأت أن المراد بالأحرف السبعة هي سبع لغات من لغات العرب، وإلى هذا ذهب ابن جرير، والطحاوي، وسفيان، وأبو عبيد وغيرهم.

---

(١) الأحرف السبعة لأبي عمرو (٢٧)، والإبانة عن معاني القراءات لمكي بن أبي طالب (٥٣)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢١٢)، والإتقان للسيوطي(١/ ١٣٠)، ومناهل العرفان (١/ ١٣٠)، وغيرهم كثير.

(٢) هذا التقسيم مقتبس من دراسات في علوم القرآن د/ فهد الرومي (٣٧٦-٣٩٣).

وقد اختلفوا في هذه السبع لغات على أقوال:

١ـ أنها سبع لغات من لغات العرب يدل عليها القرآن بمعنى: أن كلمات القرآن لا تخرج عن سبع لغات هي أفصح لغات العرب.

٢ـ سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد على معنى: أنه إذا اختلفت لغة العرب في كلمة جاء القرآن بسبع لغات منها.

هذا هو مجمل أقوال العلماء في هذه الأحرف.

وبعد البحث تبين أن الأقرب للصواب قول الطائفة الثالثة والرابعة وكلامهما يتداخل مع بعضهما.

قال ابن حجر: يمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد الأحرف تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى مع انحصار ذلك في سبع لغات[1].

٣ـ الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف.

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف في أمور:

١ – تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين، لكل قبيل منهم لسان، ولا عهد لهم بحفظ الشرائع فضلًا عن أن يكون ذلك مما ألفوه.

قال أبو عمرو الداني: وأما وجه إنزال القرآن هذه السبعة أحرف، وما الذي أراد تبارك اسمه بذلك؟ فإنه إنما أنزل علينا توسعة من الله تعالى على عباده، ورحمة لهم، وتخفيفًا عنهم عند سؤال النبي ﷺ إياه لهم، ومراجعته له فيه لعلمه ﷺ بما هم عليه من اختلاف اللغات، واستصعاب مفارقة كل فريق منهم الطبع والعادة في الكلام إلى غيره، فخفف تعالى عنهم وسهل عليهم بأن أقرهم على مألوف طبعهم وعادتهم في كلامهم[2].

ويدل على ذلك:

---

(١) فتح الباري٨/ ٦٤٧.

(٢) الأحرف السبعة(٣١)، وانظر: الإبانة لمكي بن أبي طالب (٥٩)، وشرح مسلم للنووي (٣/ ٣٦٢)، وفتح الباري(٣/ ٦٤٣).

٢- إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب. فتعدد مناحي التأليف الصوتي للقرآن تعددًا يكافئ الفروع اللسانية التي عليها فطرة اللغة في العرب حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ولهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به الرسول ﷺ، ومع اليأس من معارضته لا يكون إعجازًا للسان دون آخر، وإنما يكون إعجازًا للفطرة اللغوية عند العرب.

٣- إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه. فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التي تجعل القرآن ملائمًا لكل عصر(١).

٤- الأحرف السبعة من خصائص القرآن الكريم.

قال الطبري: وذلك أنّ كل كتاب تقدَّم كتابَنا نزولُه على نبيّ من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، فإنما نزل بلسان واحد، متى حُوِّل إلى غير اللسان الذي نزل به، كان ذلك له ترجمة وتفسيرًا لا تلاوةً له على ما أنزلهُ الله، وأنزل كتابنا بألسُن سبعة، بأيِّ تلك الألسن السَّبعة تلاه التالي، كان لهُ تاليًا على ما أنزله الله لا مترجِمًا ولا مفسِّرًا(٢).

٤ـ هل المصاحف العثمانية مشتملة على الأحرف السبعة أم لا؟

لقد اختلف العلماء في المسألة، وذهبوا فيها إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: بقي من الأحرف السبعة ما يحتمله رسم المصحف.

قال ابن الجزري: وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبرائيل عليه السلام، متضمنة لها لم تترك حرفًا منها(٣).

---

(١) مباحث في علوم القرآن/ مناع القطان (١٦٠، ١٦١)، وانظر: مناهل العرفان (١/ ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٠).

(٣) النشر في القراءات العشر(١/ ٣١)، ومناهل العرفان (١/ ١٤٢)، والمصحف الشريف- أبحاث في تاريخه وأحكامه -للشيخ عبد الفتاح القاضي (٧٩)، ودراسات في علوم القرآن د/ فهد الرومي (٣٩٣).

قال أبو شامة: والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله المقطوع به المكتوب بأمر النبي ﷺ، وفيه بعض ما اختلف فيه الأحرف السبعة لا جميعها(١).

قال مكي بن أبي طالب: هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم، وصحت رواياتها عن الأئمة، إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

وقال أيضًا: فالمصحف الذي كتب على حرف واحد، وخطه محتمل لأكثر من حرف؛ إذ لم يكن منقوطًا ولا مضبوطًا، فذلك الاحتمال الذي احتمل الخط هو من الستة أحرف الباقية(٢).

قال ابن الجزري: وهذا القول هو الذي يظهر صوابه؛ لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له(٣).

القول الثاني: بقاء حرف واحد من الأحرف السبعة.

ذهب البعض إلى أنها لا تشتمل إلا على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن عليها وهو حرف قريش خاصة.

وذهب إلى هذا القول الطبري، والطحاوي، وابن عبد البر، وابن حبان وغيرهم(٤).

الأدلة على ذلك:

واستدلوا على ذلك بقول عثمان ﷺ للقرشيين الثلاثة: (إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شيء مِنَ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ)(٥).

واحتجوا: بأن الأحرف السبعة نزلت في صدر الإسلام؛ للتيسير على الأمة ورفع الحرج والمشقة عنها في أمر القراءة، ولما ذللت الألسنة ومرنت على لغة قريش أمرت جميع القبائل بالقراءة بلغة قريش، كما أن القراءة باللغات الكثيرة كانت مثار نزاع وخلاف بين

(١) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٤٧).

(٢) الإبانة عن معاني القراءات (٢٣-٢٤).

(٣) النشر في القراءات العشر (١/ ٣١).

(٤) مناهل العرفان(١/ ١٤٢)، والمصحف الشريف -أبحاث في تاريخه وأحكامه للشيخ عبد الفتاح القاضي (٧٨)، ودراسات في علوم القرآن د/ فهد الرومي (٣٩٣)، وجمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين للسندي (١/ ٥٩).

(٥) البخاري (٣٥٠٦).

المسلمين، لذلك اقتصر عثمان ﷺ على لغة واحدة، وهي لغة قريش، أما القراءات الموجودة اليوم - على كثرتها وتعددها - فهي كلها تمثل حرفًا واحدًا فقط.

قال الطبري: ...والآثار الدالة على أن إمامَ المسلمين وأميرَ المؤمنين عثمانَ بن عفان ﷺ جمع المسلمين نظرًا منه لهم، وإشفاقًا منه عليهم، ورأفة منه بهم، حِذارَ الردّةِ من بعضهم بعدَ الإسلامِ، والدّخولِ في الكفر بعد الإيمان؛ إذ ظهر من بعضهم بمحضَره وفي عصره التكذيبُ ببعض الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، مع سماع أصحاب رسول الله ﷺ من رسول الله ﷺ النهيَ عن التكذيب بشيء منها، وإخباره إياهم أنّ المِراء فيها كفر- فحملهم رحمةُ الله عليه، إذْ رأى ذلك ظاهرًا بينهم في عصره، ولحَداثة عهدهم بنزول القرآن، وفراق رسول الله ﷺ إياهم بما أَمِنَ عليهم معه عظيم البلاء في الدين من تلاوة القرآن - على حرف واحد.

وجمعهم على مصحف واحد، وحرف واحد، وخَرَّق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه. وعزم على كل من كان عنده مُصحفٌ مخالفٌ المصحفَ الذي جمعهم عليه، أن يخرقه. فاستوسقت (اجتمعت) له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أنّ فيما فعلَ من ذلك الرشدَ والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامُها العادلُ في تركها، طاعةً منها له، ونظرًا منها لأنفسها ولمن بعدَها من سائر أهل ملتها، حتى دَرَست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيلَ لأحد اليوم إلى القراءة بها، لدثورها وعُفُوِّ آثارها، وتتابعِ المسلمين على رفض القراءة بها، من غير جحود منها صحتَها وصحةَ شيء منها، ولكن نظرًا منها لأنفسها ولسائر أهل دينها. فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيقُ الناصحُ، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية[1].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨)، وقد أورد الطبري إشكالًا على هذا القول ثم أجاب عليه فقال: فإن قال بعضُ من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم تَركُ قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ، وأمرهم بقراءتها؟

قيل: إنَّ أمرَه إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمرَ إباحة ورخصة؛ لأنّ القراءة بها لو كانت فرضًا عليهم، لوجب أن يكونَ العلمُ بكل حرف من تلك الأحرف السبعة، عند من تقوم بنقله الحجة، ويقطع خبرهُ العذر، ويزيل الشك من قَرَأة (جمع قاريء) الأمة. وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل

قال ابن تيمية: فَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَنَّهَا حَرْفٌ مِنْ الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ؛ بَلْ يَقُولُونَ: إنَّ مُصْحَفَ عُثْمَانَ هُوَ أَحَدُ الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ للعرضة الْآخِرَةِ الَّتِي عَرَضَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى جِبْرِيلَ وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ الْمَشْهُورَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ(١).

القول الثالث: **بقاء الأحرف السبعة كلها**.

ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أنها كانت مشتملة على جميع الأحرف السبعة(٢).

واحتجوا على ذلك بأنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الحروف السبعة التي نزل القرآن بها، وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر وعمر، وإرسال كل مصحف منها إلى مصر من أمصار المسلمين، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك. قال هؤلاء: ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة، ولا أن يجمعوا على ترك شيء من القرآن(٣).

والجواب عليهم:

بما قاله الطبري: وهو أن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان ذلك جائزًا لهم ومرخصًا فيه(٤).

على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين، بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمة من تجبُ بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة.

وإذْ كان ذلك كذلك، لم يكن القوم بتركهم نقلَ جميع القراءات السبع، تاركين ما كان عليهم نقله؛ بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا. إذْ كانَ الذي فعلوا من ذلك، كان هو النَّظرَ للإسلام وأهله. فكان القيامُ بفعل الواجب عليهم بهم أولى من فعل ما لو فعلوه، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة من ذلك. تفسير الطبري ١/ ٢٨.

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٩٥.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٣١، ومناهل العرفان ١/ ١٤٢، ومجموع الفتاوى ١٣/ ٣٩٦، وفتح الباري ٨/ ٧٤٦، والإتقان ١/ ١٤٢.

(٣) النشر في القراءات العشر ١/ ٣١.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٢٨، وقد تقدم ذكره في الهامش.

والراجح بعد عرض هذه الأقوال: هو القول الأول. والقول الثاني ينطوي تحته(١).

المبحث الثاني: القراءات ونشأتها

١ – تعريف القراءات

القراءة لغة: يقال قرأ الكتاب قراءة وقرآنًا أي: تتبع كلماته نظرًا ونطق به، أوتتبع كلماته ولم ينطق، وقرأ الآية من القرآن أي نطق بألفاظها عن نظر وعن حفظ، والقراءة مصدر لقرأ.

اصطلاحًا: والتعريف الاصطلاحي مبني على معرفة علم القراءات لذا نبدأ بتعريف علم القراءات وهو: علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًا لناقله، خرج بذلك النحو واللغة والتفسير وما أشبه ذلك(٢).

القراءة: مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفًا به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها(٣).

قال الزركشي: واعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان. فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما(٤).

٢ـ نشأة القراءات: لما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومضى الناس يقرءون القرآن، ويقرئ بعضهم بعضًا بالحروف التي تلقوها عن الرسول ﷺ أو عن الحفظة المتقنين من الصحابة، وكان هؤلاء الحفظة يختلفون في بعض الأداء حسب سماعهم من رسول الله ﷺ وتفرق الصحابة في الأمصار، فأخذ هذا الخلاف في الأداء يشتد، فأمر عثمان بكتابة عدة

---

(١) النشر في القراءات العشر١/ ٢٨، المصحف الشريف -أبحاث في تاريخه وأحكامه- للشيخ عبد الفتاح القاضي (٨٤).

(٢) منجد المقرئين لابن الجزري (٤٩).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٣٣٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١٨.

نسخ من المصاحف على حرف قريش، وأمر بإحراق ما عدا هذه المصاحف حتى لا يدع فرصة لأي خلاف ممكن، وأمر المقرئين في كل الأمصار أن يقرئوا الناس على حروفها وأطاعته الأمة وأجمعت على ما تضمنته نسخ مصحف مهملة ما خالفها[(١)].

من ثَمَّ تتجلى لنا الحكمة في الترخيص للناس بشتى انتماءاتهم بقراءة القرآن بقدر ما تسعفهم به لهجاتهم، ثم الترخيص في العامين الأخيرين من عمر الرسالة المحمدية بعد أن كان الجميع يقرأ بحرف واحد. هذا التشريع البالغ الحكمة هو الذي ولد الولاء للقرآن في نفس كل مسلم، حتى إذا جاءت لحظة الخطر سنة ٣٠هـ سارع الناس بالتنازل عن الرخصة طائعين مختارين في سبيل الحفاظ على هوية القرآن والذي أصبح هوية لكل فرد منهم، وهذا هو السبب الجوهري في هذا الإجماع العبقري[(٢)].

٣ـ **ضوابط القراءة الصحيحة**. فالقراءة الصحيحة هي كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا، وصح سندها[(٣)] عند ابن الجزري ومن وافقه، أو تواترت[(٤)] عند جمهور القراء والأصوليين.

قال برهان الدين الجعبري[(٥)]: ضابط كل قراءة تواتر نقلها، ووافقت العربية، ورسم المصحف ولو تقديرًا، فهي من الأحرف السبعة المتفق عليه[(٦)].

وقال أبو شامة في شرح الشاطبية[(١)]: وذكر المحققون من أهل العلم بالقراءة ضابطًا حسنًا في تمييز ما يعتمد عليه من القراءات وما يطرح فقالوا: كل قراءة ساعدها خط المصحف، مع صحة النقل فيها، ومجيئها على الفصيح من لغة العرب فهي قراءة صحيحة معتبرة[(٢)].

---

(١) راجع مقدمة كتاب السبعة لابن مجاهد للدكتور شوقي ضيف (١٠-١١)، باختصار وتصرف يسير، وراجع الموضوع بالتفصيل في مقدمة الجمع (مبحث جمع عثمان).

(٢) إعجاز القراءات القرآنية (٥٥) باختصار وتصرف.

(٣) النشر (١/ ٩).

(٤) القول الجاذ لمن قرأ بالشاذ (٥٧).

(٥) هو الإمام إبراهيم بن عمر الجعبري الخليلي ت(٧٣٢هـ).

(٦) شرح الجعبري للشاطبية المسمى- كنز المعاني في شرح حرز الأماني (٣٠).

ومما سبق يتبين لنا أن ضوابط القراءة الصحيحة هي إجمالًا:

١- موافقة اللغة العربية بوجه من الوجوه سواء أكان أفصح، أم فصيحًا، راجحًا، أو مرجوحًا.

٢- أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا.

٣- على قولين: التواتر، أو صحة السند.

الشرح والبيان:

الضابط الأول: يشترط في القراءة الصحيحة أن توافق اللغة العربية سواء كانت هذه الموافقة لما هو شائع على ألسنة العرب، أو ما يسمى بالأفصح، أو كان أقل شيوعًا على ألسنتهم وهو الفصيح.

وقال ابن الجزري رحمه الله[٣]: وقولنا في الضابط: ولو في وجه، نريد به وجهًا من وجوه النحو، سواء كان أفصح، أم فصيحًا مجمعًا، أم مختلفًا فيه اختلافًا لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما ذاع وشاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم؛ بل أجمع الأئمة المقتدى بهم على قبولها كإسكان (بارئْكم) و(يأمرْكم). . . قال الحافظ أبو عمرو الداني[٤] في كتابه (جامع البيان[٥]) بعد ذكره إسكان (بارئْكم) و(يأمرْكم))[٦]لأبي عمرو[٧]، وحكاية إنكار

(١) هو الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان أبو شامة المقدسي الشافعي ت سنة٦٦٥هـ.

(٢) القول الجاذ (٦٠)، والمرشد الوجيز(٣٨٣).

(٣) هو الإمام الحافظ المقرئ المحقق أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري شمس الدين الدمشقي الشافعي، ونسبته إلى جزيرة ابن عمر قرب الموصل توفي سنة ٨٣٣هـ.

(٤) هو الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني صاحب كتاب التيسير في القراءات توفي سنة ٤٤٤هـ.

(٥) جامع البيان (٢/ ٥ ١).

(٦) يقصد إسكان الهمزة في بارئكم، والراء في يأمركم.

(٧) هو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان أبو عمرو البصري توفي سنة ١٥٤ ليس في القراء السبعة أكثر شيوخًا منه.

سيبويه[١] له، فقال ـ أعني الداني ـ: والإسكان أصح في النقل وأكثر في الأداء وهو الذي أختاره وآخذ به. ثم لما ذكر نصوص رواته قال: و أئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة؛ لأن القراءة سنَّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها. [٢]، وكما قال صاحب حرز الأماني: والمقصود بموافقة العربية موافقة ما كان مستعملًا في زمن النزول ولو كان أقل شيوعًا من غيره، وليس المقصود موافقة القواعد النظرية المجردة، حيث إن العلماء استمدوها من القرآن الكريم؛ لأنه أفصح الكلام قاطبة ثم من بقية كلام العرب، وقد حدث ذلك بعد موت النبي ﷺ واكتمال نزول القرآن، وعليه فالقرآن سابق لتدوين القواعد ولا يمكن للاحق أن يكون حكمًا على السابق، وفي هذا رد على شبهة أذاعها أعداء الدين وتبعهم بعض المتشككين الجاهلين.

الضابط الثاني: أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية التي أمر عثمان ﷺ بكتابتها وإرسالها إلى الأمصار على خلاف في عددها، وقد تمت كتابة هذه المصاحف بأمر من عثمان ﷺ؛ سدًا للفتنة التي ظهرت بوادرها، ورأي طرفًا منها حذيفة بن اليمان ﷺ في فتح أرمينية فأفزعه ما رأى، فأشار على عثمان أن يتدارك الأمر[٣].

يقول ابن الجزري: ويعني بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتًا في بعضها دون بعض كقراءة ابن عامر[٤]، قالوا ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ في البقرة بغير واو ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ بزيادة الباء في الاسمين ونحو ذلك، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في الموضع الأخير من سورة براءة بزيادة (من) فإن ذلك ثابت في المصحف المكي[١].

---

(١) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر صاحب الكتاب وتلميذ الخليل توفي سنة ١٨٠هـ.

(٢) جامع البيان لأبي عمرو الداني (٢/ ٥ب). وانظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١ / ٢٠.

(٣) الحديث بطوله أخرجه البخاري(٤٩٨٧).

(٤) هو عبدالله بن عامر اليحصبي: أحد القراء السبعة أخذ القراءة عن المغيرة ابن أبي شهاب المخزومي عن عثمان ﷺ، إمام القراءة بالشام. توفي ١١٨هـ.

وموافقة الرسم تأتي على ثلاثة أنواع:

أ- الموافقة التحقيقية، وهي الصريحة الموافقة للفظ القياسية التي لا يتطرق إليها الاحتمال مثل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ففي قراءة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ تكون موافقة للرسم تحقيقًا إذ الأصل عدم النقط وكذا ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

ب-الموافقة التقديرية، وهي الموافقة الاصطلاحية، وهي ما خالف اللفظ، ومخالفة الرسم للفظ محصورة في خمسة أقسام وهي:

١-الدلالة على البدل. نحو ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾.

٢-الدلالة على الزيادة. نحو ﴿ مَٰلِكِ﴾.

٣-الدلالة على الحذف. نحو ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ﴾.

٤-الدلالة على الفصل. نحو ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

٥-الدلالة على أن الأصل الوصل. نحو ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ﴾.

ج-الموافقة الاحتمالية، وهي ما وافق الرسم احتمالًا، ويدخل فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة والسكون مثل(القدْس) بسكون الدال وتحريكها، والتخفيف والتشديد مثل (يَنْشُرُكُمْ) بيونس فتقرأ هكذا، وتقرأ ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، و بعضهم أدخل بعض هذه الأنواع في بعض[2].

الضابط الثالث: اختلف أهل العلم في هذا الضابط على قولين:

القول الأول: التواتر وهو قول جمهور أهل العلم من القراء والأصوليين والفقهاء؛ بل نقل بعضهم الإجماع على ذلك كما سيأتي. والمقصود بالتواتر هو ما قاله ابن الجزري: ما

(١) انظر النشر ١/ ١٦.

(٢) انظر النشر لابن الجزري(١/ ١٧)حيث عد هذه الأنواع نوعين، وانظر شرح أبي القاسم النويري (ت ٨٥٧) على طيبة النشر(١/ ١١٥-١١٧)، وكذلك الترمسي على الطيبة (١٠)، و شرح الرميلي على الدرة(٨)، وإتحاف فضلاء البشر للبنا الدمياطي(١٥-١٦) حيث زاد بعض أقسام مخالفة الرسم للفظ، وشرح الجعبري للشاطبية(٣٠)، وراجع المرشد الوجيز لأبي شامة (٣٨٣).

رواه جماعة عن جماعة كذا إلى منتهاه تفيد العلم من غير تعيين عدد، وقيل بالتعيين، واختلفوا فيه فقيل: ستة، وقيل: اثنا عشر، وقيل: عشرون، وقيل: أربعون، وقيل: سبعون، والذي جمع في زماننا هذه الثلاثة هو قراءة الأئمة العشرة[١].

بعض أقوال العلماء في هذا:

قال أبو القاسم النويري: أجمع الأصوليون كافة على أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر[٢].

وقال ابن حجر: صرح أئمة الفقه والأصول بأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والمراد به: الاتفاق من مجتهدي كل عصر على أن ذلك قرآن فما حصل الاتفاق عليه حصل فيه الشرط[٣].

قال السرخسي: اعلم بأن الكتاب هو القرآن المنزل على رسول الله ﷺ، المكتوب في دفات المصاحف، المنقول إلينا على الأحرف السبعة المشهورة نقلًا متواترًا؛ لأن ما دون المتواتر لا يبلغ درجة العيان، ولا يثبت بمثله القرآن مطلقًا[٤].

وقال ابن النجار الحنبلي: القرآن لا يكون إلا متواترًا[٥].

وقال ابن تيمية: والعادة والشرع أوجبا أن ينقل القرآن نقلًا متواترًا كما نقلت جمل الشريعة نقلًا متواترًا مثل إيجاب الصلوات الخمس، وأن صلاة الحضر أربع إلا المغرب والفجر. [٦]

وقال ابن قدامة في تعريفه للقرآن: وهو ما نقل إلينا بين دفتي المصحف نقلًا متواترًا[٧]

وقال ابن الصلاح: لا يجوز القراءة إلا بما تواتر نقله واستفاض وتلقته الأمة بالقبول. [٨]

هذه بعض نصوص أهل العلم في اشتراط التواتر[١].

---

(١) منجد المقرئين (٨٠)، وانظر شرح الشاطبية للجعبري (٣٠-٣١)، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطي(٨).

(٢) انظر القول الجاذ لمن قرأ بالشاذ (٥٧) ملحق بالجزء الأول من شرحه للطيبة.

(٣) فتوى للحافظ ابن حجر عن القراءات ملحق بكتاب المنجد لابن الجزري (٢٤١).

(٤) أصول السرخسي(١/ ٢٩١).

(٥) شرح الكوكب المنير(٢/ ١٢٦).

(٦) رسالة للشيخ ابن تيمية في تواتر القراءات مخطوطة منها جزء مطبوع ملحق بكتاب منجد المقرئين (٢٣٧).

(٧) روضة الناظر(١/ ١٩٩).

(٨) فتاوى ابن الصلاح (٨٥) ومنجد المقرئين(٨٥).

القول الثاني: صحة السند والاستفاضة والقبول من جموع الأمة من غير نكير، وهذا ما ذهب إليه ابن الجزري ونسبه إلى بعض المتقدمين من أهل العلم، قال ابن الجزري: وقولنا: وصح سندها فإنا نعني به: أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله كذا حتى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ بها بعضهم، وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن ولم يكتف فيه بصحة السند، وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وأن ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به قرآن.

وتعقب أصحاب القول الأول بقوله: هذا مما لا يخفى ما فيه؛ فإن التواتر إذًا لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من الرسم وغيره؛ إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواترًا عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآنًا سواء وافق الرسم أم خالفه، وإذا اشترطنا التواتر في كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم. ولقد كنت قبلُ أجنح إلى هذا القول ثم ظهر فساده وموافقة أئمة السلف والخلف. قال الإمام الكبير أبو شامة في مرشده: وقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين أن القراءات السبع كلها متواترة أي في كل فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السبعة، قالوا: والقطع بأنها منزلة من عند الله واجب، ونحن بهذا نقول ولكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق، واتفقت عليه الفرق من غير نكير له مع أنه شاع واشتهر واستفاض فلا أقل من اشتراط ذلك إذا لم يتفق التواتر في بعضها.

وقال الجعبري: الشرط واحد وهو صحة النقل ويلزم الآخران[٢].

وقال أبو شامة أيضًا: فكل قراءة ساعدها خط المصحف مع صحة النقل فيها ومجيئها على الفصيح من لغة العرب فهي قراءة صحيحة معتبرة[١].

---

(١) من أراد المزيد فليراجع: القول الجاذ (٦٠)، وجامع البيان والمنخول للغزالي (٢٨٢)، والبرهان للزركشي (١/ ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣)، والمجموع للنووي(٣/ ٣٤٣، ٣٩٢)، والبحر المحيط (١/ ٤٦٦) و المنتقى شرح الموطأ للباجي(٦/ ٢٢).

(٢) النشر ١/ ١٣، و المرشد الوجيز(٣٩١).

قال ابن الجزري:

فَكُلِ مَا وَافَق وَجْه نَحْوِ وَكَانَ للرّسْمِ احْتِمالاً يَحْوِى
وَصَحَّ إسْناداً هُوَ الْقُرآنُ فَهَذِهِ الثَّلاثَةُ الأَرْكَانُ[٢]

مناقشة هذا الشرط:

تعقب النويري[٣] شيخه ابن الجزري في قوله: وَصَحَّ إسْناداً. . . ، فقال: ظاهره أن القرآن يكتفي في ثبوته مع الشرطين المتقدمين بصحة السند فقط ولا يحتاج إلى تواتر، وهذا قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم كما ستراه إن شاء الله.

نقول: كأن النويري أراد باشتراط التواتر سد الذريعة لعدم التساهل مع كتاب الله تعالى لذا أكمل فقال: ولقد ضل بسبب هذا القول قوم فصاروا يقرءون أحرفًا لا يصح لها سند أصلًا، ويقولون: التواتر ليس بشرط وإذا طولبوا بسند صحيح لا يستطيعون ذلك! ولا بد لهذه المسألة من بعض بسط، فأقول: القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة هو ما نقل بين دفتي المصحف نقلًا متواترًا[٤].

خلاصة القول:

اختلف العلماء على فريقين: فريق قال باشتراط التواتر، وفريق قال باشتراط صحة السند مع الاستقامة والقبول وعدم النكران، وظاهر القولين التعارض ولكن يمكن الجمع ودفع التعارض بينهما على النحو التالي:

قول الجمهور باشتراط التواتر. أي تواتر مجمل القرآن وليس كل حروفه وأفراده؛ إذ إن ذلك غير حاصل، فكم من قراءة متواترة كما قال اشتملت على حروف لم تبلغ درجة

---

(١) المرشد الوجيز (٣٨١)، وانظر العواصم من القواصم لابن العربي(٣٦١).

(٢) طيبة النشر لابن الجزري، وانظر المرشد الوجيز أيضًا (٣٤٥)، ورجح الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ٢٤٩)، و إرشاد الفحول (٣١) قول ابن الجزري في مناقشته هذا الشرط.

(٣) رده الشوكاني في نيل الأوطار(٢/ ٢٤٩)، ورجح كلام ابن الجزري وأبي شامة بالخبرة بالفن والكثرة.

(٤) شرح النويري على طيبة النشر(١/ ١١٩-١٢٠)، وأشار إليه الدمياطي في إتحاف فضلاء البشر(٨)، وشرح الترمسي على الطيبة(١١)، وراجع البحر المحيط للزركشي(١/ ٤٦٧).

التواتر، و لذلك اعترض أبو شامة على من قال بتواتر كل فرد من أفراد القراءة الصحيحة كما سبق في كلامه.

قوله: وقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين أن القراءات السبع كلها متواترة أي: كل فرد فرد، وبهذا نفهم ما نص عليه ابن الجزري أكثر من مرة في كتبه باشتراط التواتر، فقال في كتابه منجد المقرئين: كل قراءة وافقت العربية مطلقًا، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرًا، وتواتر نقلها؛ هذه القراءة المتواترة المقطوع بها[1].

وهذا دفع لشبهة التعارض في كلام ابن الجزري.

ثم إن ابن الجزري وأبا شامة اشترطا مع صحة السند الاستفاضة والقبول والشهرة وعدم النكير، إذن فالصحة المجردة عن هذه الضوابط لا تكفي في قبول القراءة[2].

قال أبو شامة: بل تكفي الآحاد الصحيحة مع الاستفاضة وموافقة خط المصحف بمعنى أنها لا تنافيه مع عدم المنكرين لها نقلًا وتوجيهًا من حيث اللغة[3].

فكأن الاستفاضة تجبر النقص الذي في الآحاد الصحيح الذي لم يبلغ حد التواتر، فالاستفاضة درجة بين الآحاد والمتواتر كما قال إمام الحرمين في البرهان.

قال الأستاذ أبو إسحاق: المستفيض واسطة بين التواتر والآحاد[4].

وبهذا يجتمع القولان ويزول التعارض، والله أعلم.

قال الزرقاني: إنما اكتفى القراء في ضابط القراءة المشهورة بصحة الإسناد مع الركنين الآخرين ولم يشترطوا التواتر: مع أنه لا بد منه في تحقق القرآنية لأسباب ثلاثة: -

---

(١) منجد المقرئين (٧٩)، وانظر: النشر (١/ ١٣).

(٢) انظر النشر (١/ ١٣).

(٣) المرشد الوجيز (ص٣٨١)

(٤) نقلًا من نفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي (٧/ ٣٠٤٨)، وانظر: نحوه في البرهان وتعقيب أبي المعالي عليه (٢٢٣).

أحدها: أن هذا ضابط لا تعريف. والتواتر قد لوحظ في تعريف القرآن على أنه شطر أو شرط على الأقل. ولم يلحظ في الضابط؛ لأنه يغتفر في الضوابط ما لا يغتفر في التعاريف. فالضوابط ليست لبيان الماهية والحقيقة.

ثانيها: التيسير على الطالب في تمييز القراءات المقبولة من غيرها. فإنه يسهل عليه بمجرد رعايته لهذا الضابط أن يميز القراءات المقبولة من غير المقبولة. أما إذا اشترط التواتر فإنه يصعب عليه ذلك التمييز؛ لأنه يضطر في تحصيله إلى أن يصل إلى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الرواية. وهيهات أن يتيسر له ذلك.

ثالثها: أن هذه الأركان الثلاثة تكاد تكون مساوية للتواتر في إفادة العلم القاطع بالقراءات المقبولة. بيان هذه المساواة: أن ما بين دفتي المصحف متواتر ومجمع عليه من الأمة في أفضل عهودها وهو عهد الصحابة، فإذا صح سند القراءة، ووافقت قواعد اللغة، ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة هذه الرواية للعلم القاطع وإن كانت آحادًا.

ثم قال: وهذا التوجيه الذي وجهنا به الضابط السالف يجعل الخلاف أنه لفظي، ويسير بجماعات القراء على جدد الطريق في تواتر القرآن، ومن سلك الجدد أمن العثار[١].

٤ - **القراءة الشاذة معناها، وأنواعها**.

سبق تعريف القراءة لغةً، أما الشاذ في اللغة فهو ما انفرد عن الجمهور وندر، فهو شاذ.

وأشذه غيره، وشذا الرجل إذا انفرد عن أصحابه، وكذلك كل شيء منفرد فهو شاذ.

وقيل: الشاذ المتفرد أو الخارج عن الجماعة، والشاذ ما خالف القاعدة أو القياس والشاذ من الناس خلاف السوي[٢].

القراءة الشاذة اصطلاحًا:

هي ما نقل قرآنًا من غير تواتر واستفاضة متلقاة بالقبول من الأمة[١].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ٣٤٦).

(٢) انظر لسان العرب والمعجم الوسيط مادة (شذذ).

وتخرج القراءة بالمعنى التي لم تنقل على أنها قرآن، فليس ذلك من القراءات الشاذة أصلًا، والمجترئ على ذلك مجترئ على عظيم وضال ضلالًا بعيدًا[٢].

وقال أبو شامة بعد ما ذكر ضوابط القراءة الصحيحة: فإن اختلت هذه الأركان الثلاثة أطلق على تلك القراءة أنها شاذة وضعيفة. أشار إلى ذلك كلام الأئمة المتقدمين[٣].

و قال ابن الجزري: ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن من هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف، صرح بذلك الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ونص عليه في غير موضع الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب، وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه. [٤]

وقال ابن الجزري في طيبته:

وَحَيْثُمَا يَخْتَلَّ رُكْنٌ أَثْبِتِ ... شُذُوذَهُ لَوْ أَنَّهُ فِي السَّبْعَةِ

أنواع القراءات الشاذة:

مما تقدم يمكن أن نحصر القراءات الشاذة في الأنواع التالية:

١ – الآحاد، وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، ولم يتواتر.

٢ – الشاذ، وهو ما فقد أحد الأركان الثلاثة أو معظمها.

٣– المدرج، وهو ما يزيد في القراءات على وجه التفسير.

٤ – الموضوع، وهو ما ينسب إلى قائله من غير أصل.

٥ – المشهور، وهو ما صح سنده، ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم.

قال الشيخ الترمسي في شرح الطيبة: القراءات أنواع:

---

(١) منجد المقرئين (٨٥)، وتقريب النشر (٢٧) نقله عن ابن الصلاح في فتاواه، انظر: فتاوى ابن الصلاح (٨٦)، والبرهان(١/ ٣٣٢).

(٢) المصادر السابقة.

(٣) المرشد الوجيز (٣٨١-٣٨٢)، والبحر المحيط (١/ ٤٧٤).

(٤) النشر (١/ ٩)، و انظر القول الجاذ (٥٧-٥٨).

الأول المتواتر: وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه، وغالب القراءات كذلك.

والثاني المشهور: وهو ما صح سنده، ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ كغالب ما اختلف الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض عنهم دون بعض، وهي كثيرة في فرش الحرف من كتب الخلاف في القراءات كهذا المتن (يقصد طيبة النشر)و غيره.

والثالث الآحاد: وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، ولم يشتهر الاشتهار المذكور كقراءة (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقَرِيٍّ حِسَانٌ)، (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّاتِ أَعْيُنٍ)، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ) بفتح الفاء.

الرابع الشاذ: وهو ما لم يصح سنده كقراءة (مَلَكَ يَوْمَ) بصيغة الماضي ونصب يوم.

الخامس الموضوع: كقراءة الخزاعي وزيد.

السادس: وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير للآية[1]، كقراءة سعد بن أبي وقاص (وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِن أُم) وقراءة ابن عباس (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَّبِّكُمْ في مواسِم الحج)[2].

والخلاصة: أن كل ما خرج عن القراءات العشر التي يقرأ بها اليوم عن القراء العشرة، فهي القراءة الشاذة، واتفق أئمة الفقه والأصول وجمهور القراء على ذلك، ولا يلتفت إلى من يخالف ذلك؛ لأن من شذ لم يقبل[3].

٥ـ حكم الاحتجاج بالقراء الشاذة:

اختلف أهل العلم في ذلك، وأجمل السيوطي فقال:

---

(١) تكلم السيوطي عن القراءة المدرجة في الإتقان (١/ ١١٩).

(٢) غنية الطلبة في شرح الطيبة للشيخ محمد محفوظ الترمسي (١/ ١١، ١٢).

(٣) راجع فتوى الحافظ ابن حجر ملحق بآخر البحث، وحاشية كتاب دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد الرومي(٣٥٨).

اختلف في العمل بالقراءة الشاذة، فنقل إمام الحرمين في البرهان عن ظاهر مذهب الشافعي أنه لا يجوز، وتبعه أبو نصر القشيري، وجزم به ابن الحاجب؛ لأنه نقله على أنه قرآن ولم يثبت، وذكر القاضيان أبو الطيب والحسين والروياني والرافعي العمل بها تنزيلًا لها منزلة خبر الآحاد، وصححه ابن السبكي في جمع الجوامع وشرح المختصر، وقد احتج الأصحاب على قطع يمين السارق بقراءة ابن مسعود، وعليه أبو حنيفة أيضًا واحتج على وجوب التتابع في صوم كفارة اليمين بقراءته (مُتَتابِعَاتٍ)، ولم يحتج بها أصحابنا لثبوت نسخها(1).

التفصيل

القول الأول: إنها ليست حجة ولا يثبت بها حكم، وهذا ظاهر مذهب الشافعي والذي قاله أئمة المذهب، والمالكية وظاهر كلام ابن حزم ورواية عن أحمد.

قال إمام الحرمين الجويني: ظاهر مذهب الشافعي أن القراءة الشاذة التي لم تنقل تواترًا لا يسوغ الاحتجاج بها، ولا تنزل منزلة الخبر الذي ينقله آحاد من الثقات، ولهذا نفى التتابع واشتراطه في صيام الأيام الثلاثة في كفارة اليمين، ولم ير الاحتجاج بما نقله الناقلون من قراءة ابن مسعود في قوله تعالى (فَصِيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتتابِعَات). (2)

وقال الغزالي: القراءة الشاذة المتضمنة لزيادة في القرآن مردودة كقراءة ابن مسعود في آية كفارة اليمين (فَصِيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتتابِعَات)، فلا يشترط التتابع. (3)

وقال النووي: مذهبنا أن القراءة الشاذة لا يحتج بها، ولا يكون لها حكم الخبر عن رسول الله ﷺ(4).

---

(١) الإتقان للسيوطي (١/ ٢٢٨)، و أشار إلي هذا الاختلاف شيخ الإسلام في الفتاوى (٤/ ٤٢-٤٣)، وانظر: البحر المحيط للزركشي (١/ ٤٧٥)، وشرح الكوكب المنير لابن النجار (٢/ ١٣٩)، والمغني لابن قدامة (١١/ ٢٧٣)، والغزالي في المنخول(٢٨١-٢٨٢)، والمهذب في علم أصول الفقه المقارن د/ عبد الكريم النملة (٢/ ٤٨٢)، والبرهان للجويني (١/ ٢٥٧)، والحاوي الكبير (١٩/ ٣٨٩-٣٩٠)، والتبيان في آداب حملة القرآن للنووي(٤٧).

(٢) البرهان للجويني (١/ ٢٥٧).

(٣) المنخول للغزالي(٢٨٢).

(٤) شرح مسلم(٥/ ١٣١).

وقال ابن العربي: والقراءة الشاذة لا ينبني عليها حكم؛ لأنه لم يثبت لها أصل[(١)].

وقال أبو الوليد الباجي: القرآن لا يثبت إلا بالخبر المتواتر، وأما خبر الآحاد فلا يثبت به القرآن، وإذا لم يثبت بمثله قرآن؛ فمن مذهبنا أن من ادعى فيه أنه قرآن وتضمن حكمًا، فإنه لا يثبت ذلك الحكم إلا أن يثبت بما يثبت به القرآن من الخبر المتواتر؛ لأن ذلك الحكم ثبوته فرع عن ثبوت الخبر قرآنًا. [(٢)]

وقال ابن حزم: في معرض الرد على من قال: إن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر: من العجب احتجاجكم بهذه الزيادة ـ يعني زيادة صلاة العصر ـ التي أنتم مجمعون معنا على أنها لا يحل لأحد أن يقرأ بها ـ ولا أن يكتبها في مصحفه، وفي هذا بيان أنها روايات لا تقوم بها حجة. [(٣)]

وقال الشوكاني: لكونه كلام الرب سبحانه، وكونه مشتملًا على الأحكام الشرعية، وكونه معجزًا، وما كان كذلك فلا بد أن يتواتر، فما لم يتواتر، فليس بقرآن. هكذا قرر أهل الأصول التواتر، وقد ادعي تواتر كل واحدة من القراءات السبع، ثم ذكرها وادعى أيضًا تواتر القراءات العشر وذكرها، ثم قال: وليس على ذلك أثارة من علم؛ فإن هذه القراءات كل واحدة منها منقولة نقلًا آحاديًا كما يعرف ذلك من يعرف أسانيد هؤلاء القراء لقراءاتهم، وقد نقل جماعة من القراء الإجماع على أن في هذه القراءات ما هو متواتر، وفيها ما هو آحاد، ولم يقل أحد منهم بتواتر كل واحدة من السبع فضلًا عن العشر، وإنما هو قول قاله بعض أهل الأصول، وأهل الفن أخبر بفنهم[(٤)].

تعقيب:

تعقب جمال الدين الإسنوي الجويني والنووي وغيرهما ممن نقل أن الشافعي لا يحتج بالقراءة الشاذة، فقال: وما قالوه جميعه خلاف مذهب الشافعي وخلاف قول جمهور أصحابه، فقد نص الشافعي في موضعين من مختصر البويطي على أنها حجة، ذكر ذلك في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي(١/ ٧٩).

(٢) المنتقى شرح الموطأ للباجي(٦/ ٢٢).

(٣) المحلى(٤/ ٢٥٥).

(٤) إرشاد الفحول(٣٠-٣١).

باب الرضاع، وفي باب تحريم الحج، وجزم به الشيخ أبو حامد في الصيام وفي الرضاع، والماوردي في الموضعين أيضًا، والقاضي أبو الطيب في موضعين من تعليقاته: أحدهما: الصيام، والثاني: في باب وجوب العمرة، والقاضي الحسين في الصيام، والمحاملي في الأيام من كتابه المسمي- عدة المسافر وكفاية الحاضر-، وابن يونس شارح التنبيه في كتاب الفرائض في الكلام على ميراث الأخ لأم، وجزم به الرافعي في باب حد السرقة، والذي وقع للإمام فقلده فيه النووي مستنده عدم إيجابه التتابع في كفارة اليمين بالصوم مع قراءة ابن مسعود السابقة، وهو منع عجيب! ؛ فإن عدم الإيجاب يجوز أن يكون لعدم ثبوت ذلك عن الشافعي، أو لقيام معارض(١).

ولم نقف على ما ذكره الإسنوي من النصوص عن الشافعي وأصحابه إلا ما ذكره المزني في مختصره، فقال عن الشافعي، وقال في كتاب الصيام: إن صيام كفارة اليمين متتابع، والله أعلم(٢).

وذكره الماوردي نقلًا عن المزني وذكره أحد القولين للشافعي في أن التتابع في صيام الكفارة عن اليمين شرط، وقال: واختاره المزني، فإن صام متفرقًا لم يجزه استدلالًا بقراءة ابن مسعود (فَصِيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتتابِعَات)، وقراءة أُبيٍّ (فَصِيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتَتابِعَة)(٣).

حجة أصحاب هذا القول:

قال إمام الحرمين: إن القرآن قاعدة الإسلام، وقطب الشريعة، وإليه رجوع جميع الأصول، ولا أمر في الدين أعظم منه، وكل ما يحل خطره ويعظم وقعه لاسيما في الأمور الدينية فأصحاب الأديان يتناهون في نقله وحفظه، ولا يسوغ في اضطراد الاعتبار رجوع الأمر فيه إلى نقل الآحاد مادامت الدواعي متوفرة، والنفوس إلى ضبط الدين متشوقة.

إن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعوا في زمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ على ما بين

---

(١) التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للإسنوي أبي محمد الشافعي(١٤٢-١٤٣).

(٢) مختصر المزني(٢٩٣).

(٣) الحاوي الكبير للماوردي (ت: ٤٥٠)، وهو يشرح فيه مختصر المزني(١٩/ ٣٨٩).

الدفتين وطرحوا ما عداه، وكان ذلك عن اتفاق منهم، وكل زيادة لا تحويها الأم ولا تشتمل عليها الدفتان، فهي غير معدودة في القرآن[١].

قال الغزالي: ومعتمدنا شيئان: أحدهما: أن الشيء إنما يثبت من القرآن إما لإعجازه[٢]، و إما لكونه متواترًا، ولا إعجاز ولا تواتر (أي في القراءة الشاذة)، ومناط الشريعة وعمدتها تواتر القرآن، ولولاه لما استقرت النبوة وما يبني على الاستفاضة لتوفر الدواعي على نقله كيف يقبل فيه رواية شاذة؟ [٣].

المسلك الثاني: مبنانا فيما نأتي ونذر الاقتداء بالصحابة ﷺ، وقد كانوا لا يقبلون القراءة الشاذة[٤].

ولذلك جمع عثمان ﷺ المسلمين على مصحف واحد، ورد وأحرق كل ما سواه مما كان فيه قرآن، ومن المعلوم أن عثمان ﷺ ممن أمرنا باتباع سنتهم، ولذلك قال ابن عبد البر: وأجمع العلماء أن ما في مصحف عثمان بن عفان ﷺ، وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كان هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، ولا تحل الصلاة لمسلم إلا بما فيه، وأن كل ماروي من القراءات في الآثار عن النبي ﷺ أو غيرهم من الصحابة مما يخالف مصحف عثمان المذكور لا يقطع بشيء من ذلك على الله ﷻ[٥].

قال النووي: لأن ناقلها لم ينقلها إلا على أنها قرآن، والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر بالإجماع[٦]، و إذا لم يثبت قرآنًا لا يثبت خبرًا[٧].

---

(١) البرهان للجويني(١/ ٢٥٧)

(٢) هذا كلام فيه نظر؛ لأن ظاهره أنه إذا ثبت الإعجاز ولم يكن متواترًا فيسمى قرآنًا، ثم ما هو ضابط الإعجاز إذ تتفاوت الأفهام وتختلف العقول فما يكون معجزًا عند بعضهم لا يكون عند الآخر كذلك، و إنما نزل القرآن معجزًا لكل الخلق.

(٣) المنخول (٢٨٢).

(٤) السابق.

(٥) التمهيد (٤/ ٢٧٨-٢٧٩، ٢٩٩). .

(٦) خالفه في ذلك ابن الجزري ومن معه وقد سبق.

(٧) شرح مسلم (٥/ ١٣١).

و قال ابن عبد البر: وإنما حل مصحف عثمان ﷺ هذا المحل؛ لإجماع الصحابة وسائر الأمة عليه، ولم يجمعوا على ما سواه، ويبين لك هذا أن من دفع شيئًا ممن في مصحف عثمان كفر ومن دفع ما جاء في هذه الآثار وشبهها من القراءات لم يكفر.

القول الثاني: قال أصحابه إنها حجة، تثبت بها الأحكام وتعامل معاملة خبر الواحد، ذهب إلى ذلك الحنفية والحنابلة والشافعي في رواية البويطي، وبعض المالكية ورجحه الشوكاني في إرشاد الفحول[١].

قال ابن النجار الحنبلي في أثناء كلامه عن القرآن: وما صح منه أي مما لم يتواتر حجة عند أحمد وأبي حنيفة والشافعي فيما حكاه عنه البويطي في باب الرضاع وفي تحريم الجمع، وعليه أكثر أصحابه[٢]. وقالوا لأنه إما قرآن، أو خبر، وكلاهما موجب للعمل[٣].

قال ابن قدامة: فأما ما نقل نقلًا غير متواتر كقراءة ابن مسعود ﷺ (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَات) فقد قال قوم ليس بحجة؛ لأنه خطأ قطعًا؛ لأنه واجب على الرسول تبليغ القرآن طائفة من الأمة تقوم الحجة بقولهم، وليس له مناجاة الواحد به، وإن لم ينقله على أنه من القرآن احتمل أن يكون مذهبًا، واحتمل أن يكون خبرًا ومع التردد لا يعمل به، والصحيح أنه حجة؛ لأنه يخبر أنه سمعه من النبي ﷺ، فإن لم يكن قرآنًا فهو خبر، فإنه ربما سمع الشيء من النبي ﷺ تفسيرًا فظنه قرآنًا، ففي الجملة لا يخرج عن كونه مسموعًا من النبي ﷺ ومرويًا عنه فيكون حجة كيف ما كان، وقولهم: يجوز أن يكون مذهبًا له؟ قلنا: لا يجوز ظن مثل هذا بالصحابة ﷺ، فإن هذا افتراء على الله تعالى وكذب عظيم؛ إذ جعل رأيه ومذهبه الذي ليس هو عن الله تعالى ولا عن رسوله قرآنًا، والصحابة ﷺلا يجوز

(١) إرشاد الفحول(٣١).

(٢) وهذا موافق لما قاله الإسنوي.

(٣) شرح الكوكب المنير(٢/ ١٣٨).

نسبة الكذب إليهم في حديث النبي ﷺ ولا في غيره، فكيف يكذبوه في جعل مذاهبهم قرآنًا؟! هذا باطل يقينًا[(١)].

قال ابن مفلح: قال الخصم: لم يصرح بكونه قرآنًا، ثم لو صرح فعدم شرط القراءة لا يمنع صحة سماعه فيقول: هو مسموع من الشارع وكل قوله حجة وهذا واضح[(٢)].

وكأن ابن مفلح يرد على النووي ومن تابعه أو قال بمثل قوله في شرح مسلم حيث قال: لأن ناقلها لم ينقلها إلا علي أنها قرآن، والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر بالإجماع، وإذا لم يثبت قرآنًا يثبت خبرًا، والمسألة محررة في أصول الفقه وفيها خلاف بيننا وبين أبي حنيفة رحمه الله[(٣)].

وقال الماوردي: والقراءة الشاذة تقوم مقام خبر الواحد في وجوب العمل؛ لأنها منقولة عن الرسول ﷺ فأما قراءة ابن مسعود وأُبيٍّ فإنها تجري في وجوب العمل بها مجرى خبر الواحد إذا أطلقت جرت مجرى التأويل دون التنزيل، ثم لو سلمت لحملت على الاستحباب وإطلاقها على الجواز[(٤)].

و قال أبو بكر السرخسي: وعندنا شرط التتابع فيه (صيام الفدية للحاج)ليس بحمل المطلق على المقيد؛ بل بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَات)، وقراءته لا تكون دون خبر يرويه وقد كان مشهورًا إلى عهد أبي حنيفة رحمه الله، وبالخبر المشهور تثبت الزيادة على النص[(٥)].

قال ابن قدامة: إن كان قرآنًا فهو حجة؛ لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن لم يكن قرآنًا فهو رواية عن النبي ﷺ تفسيرًا، فظنَّاه قرآنًا فتثبت له رتبة

---

(١) روضة الناظر(١/ ٢٠٣-٢٠٥)، و انظره بنحوه في شرح الكوكب المنير(٢/ ١٣٩).

(٢) شرح الكوكب المنير (٢/ ١٣٩-١٤٠).

(٣) شرح مسلم(٥/ ١٣٠).

(٤) الحاوي (١٩/ ٣٨٩-٣٩٠)، وراجع البحر المحيط(١/ ٤٧٨).

(٥) أصول السرخسي(١/ ٢٨٠).

الخبر ولا ينقص عن درجة تفسير النبي ﷺ للآية، وعلى التقدير فهو حجة يصار إليه(١).

تعقيب للغزالي على من قال: تعامل معاملة خبر الواحد. قال: فإن قيل: لا ينحط عن خبر الواحد فليعمل به، قلنا: العمل به ينبني على كونه من القرآن، وبطل ذلك، ثم مستندنا في العمل بخبر الواحد سيرة الصحابة وهم لم يعملوا به(٢).

قال الزركشي: ويخرج من كلام أبي الحسين في المعتمد مذهب رابع فإنه قال في باب الأخبار: القرآن المنقول بالآحاد إما أن يظهر فيه الإعجاز أولا؛ فإن لم يظهر جاز أن يعمل بما تضمنه من عمل إذا نقل إلينا بالآحاد كقراءة ابن مسعود متتابعات، وإن ظهر فهو حجة للنبوة ولا يكون حجة إلا وقد علم أنه لم يعارض في عصر النبيﷺ مع سماع أهل عصره له ولا يعلم ذلك إلا وقد تواتر نقل ظهوره في ذلك العصر(٣).

الذي يقبل من القراءات والذي لا يقبل.

قال مكي بن أبي طالب: فإن سأل سائل فقال: فما الذي يقبل من القرآن الآن فيقرأ به، وما الذي لا يقبل ولا يقرأ به، وما الذي يقبل ولا يقرأ به؟

فالجواب أن جميع ما روي في القرآن على ثلاثة أقسام:

قسم يقرأ به اليوم، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال، وهي أن ينقل عن الثقات عن النبيﷺ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعًا، ويكون موافقًا لخط المصحف. فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرئ به، وقطع على مغيبه وصحته وصدقه؛ لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خط المصحف وكفرَ من جحده.

---

(١) المغني (١١/ ٢٧٣).

(٢) المنخول (٢٨٣).

(٣) البحر المحيط (١/ ٤٧٨).

والقسم الثاني ما صح نقله عن الآحاد وصح وجهه في العربية، وخالف لفظه خط المصحف؛ فهذا يقبل ولا يقرأ به لعلتين(١):

إحداهما: أنه لم يوجد بإجماع، إنما أخذ بأخبار الآحاد، ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد.

والعلة الثانية: أنه مخالف لما قد أجمع عليه فلا يقطع على مغيّبه وصحته، وما لم يقطع على صحته لا يجوز القراءة به، ولا يكفر من جحده وبئسما ما صنع إذا جحده.

والقسم الثالث: هو ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية.

فهذا لا يقبل، وإن وافق خط المصحف، قال: ولكل صنف من هذه الأقسام تمثيل تركنا ذكره اختصارًا(٢).

ثم انبرى المحقق ابن الجزري لذاك التمثيل الذي تركه مكي اختصارًا فقال:

ومثال القسم الأول: (مَالِكِ وَمَلِكِ)، (وَيَخْدَعُونَ وَيُخَادِعُونَ)، (وَأَوْصَى وَوَصَّى)، (و يَطَّوَّعْ وتَطَوَّع) ونحو ذلك من القراءات المشهورة.

مثال القسم الثاني: قراءة عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء: (الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) في ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ - بحذف لفظ ما خلق-، وقراءة ابن عباس (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا) - بإبدال كلمة (أمام) من كلمة (وراء)، وبزيادة كلمة(صالحة)، وأما الغلام فكان كافرا بزيادة كلمة (كافرًا)، ونحو ذلك مما ثبت بروايات الثقات.

(١) ومعنى هذا: أنه يقبل على اعتبار أنه خبر شرعي يصح الاحتجاج به عند من يرى ذلك وهم الحنفية دون الشافعية، ولا يقرأ به على أنه قرآن، ولا ليوهم القارئُ أحدًا أنه قرآن. قال النويري: " اعلم الذي استقرت عليه المذاهب وآراء العلماء أن من قرأ بها أي ـ الشواذ ـ غير معتقد أنها قرآن ولا موهم أحدًا ذلك لما فيها من الأحكام الشرعية عند من يحتج بها أو الأحكام الأدبية؛ فلا كلام في جواز قراءتها. وعلى هذا يحمل حال من قرأ بها عند المتقدمين. وكذلك أيضا يجوز تدوينها في الكتب والتكلم على ما فيها. وإن قرأها باعتقاد قرآنيتها أو لإيهام قرآنيتها حرم ذلك. ونقل ابن عبد البر في تمهيده إجماع المسلمين عليه اهـ. مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ٣٤٤).

(٢) الإبانة عن معاني القراءات ٤٠: ٣٩.

ومثال القسم الثالث: مما نقله غير ثقة كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف، كقراءة ابن السميفع وأبي السمال وغيرهما في ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ (نُنَحِّيكَ): بالحاء المهملة. ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ (يونس: ٩٢) بفتح سكون اللام (خَلَفَك)، وكالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي وغيره فإنها لا أصل لها، قال أبو العلاء الواسطي: إن الخزاعي وضع كتابًا في الحروف نسبه إلى أبي حنيفة فأخذت خط الدارقطني وجماعة أن الكتاب موضوع لا أصل له.

قلت: وقد رويت الكتاب المذكور ومنه (إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءَ) برفع الهاء ونصب الهمزة. وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلف توجيهها، وإن أبا حنيفة لبرئ منها.

ومثال ما نقله ثقة ولا وجه له في العربية ولا يصدر مثل هذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط ويعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون، وهو قليل جدًا؛ بل لا يكاد يوجد، وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع (مَعَائِش) بالهمز.

وما رواه ابن بكار عن أيوب عن يحيى عن ابن عامر من فتح ياء (أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ) مع إثبات الهمزة، وهي رواية زيد وأبي حاتم عن يعقوب. **وما رواه** أبو علي العطار عن العباس عن أبي عمرو (سَاحِرَانِ تَظَّاهَرَا) بتشديد الظاء، والنظر في ذلك لا يخفى[1].

قال ابن الجزري: وبقي قسم مردود أيضًا: وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة، فهذا رده أحق، ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر، وقد ذكر جواز ذلك عن أبي بكر محمد بن الحسن بن مقسم البغدادي المقري النحوي وكان بعد الثلاثمائة.

قال الإمام أبو طاهر بن أبي هاشم في كتابه البيان: وقد نبغ نابغ في عصرنا فزعم أن كل من صح عنده وجه في العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف؛ فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها، فابتدع بدعة ضل بها عن قصد السبيل.

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ١٦: ١٥)، وانظر مناهل العرفان (١/ ٣٤٤).

قلت: وقد عقد له بسبب ذلك مجلس ببغداد حضره الفقهاء والقراء وأجمعوا على منعه، وأوقف للضرب؛ فتاب ورجع وكتب عليه بذلك محضر كما ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد وأشرنا إليه في الطبقات[١].

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ١٧).

موقف العلماء من محمد بن الحسن بن يعقوب، وابن شنبوذ:

أولًا: محمد بن الحسن.

قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: كان ابن مقسم من أحفظ الناس لنحو الكوفيين، وأعرفهم بالقراءات، وله في التفسير ومعاني القرآن كتاب جليل سماه كتاب (الأنوار)، وله أيضًا في القراءات وعلوم النحو تصانيف عدة، ومما طُعن عليه به أنه عمد إلى حروف من القرآن فخالف الإجماع فيها، وقرأها وأقرأها على وجوه ذكر أنها تجوز في اللغة والعربية، وشاع ذلك عند أهل العلم فأنكروه عليه، وارتفع الأمر إلى السلطان فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء فأذعن بالتوبة وكتب محضر بتوبته، وأثبت جماعة من حضر ذلك المجلس خطوطهم فيه بالشهادة عليه، وقيل: إنه لم ينزع عن تلك الحروف وكان يُقرئ بها إلى حين وفاته، وقد ذكر حاله أبو طاهر بن أبي هاشم المقرئ صاحب أبي بكر بن مجاهد في كتابه الذي سماه كتاب (البيان) فقال: فيما أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر المقرئ قال: أنبأنا أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبي هاشم قال: وقد نبغ نابغ في عصرنا هذا فزعم أن كل ما صح عنده وجه في العربية لحرف من القرآن يوافق خط المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها! ، فابتدع بقيله ذلك بدعة ضل بها عن قصد السبيل، وأورط نفسه في مذلة عظمت بها جنايته على الإسلام وأهله، وحاول إلحاق كتاب الله من الباطل مالا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه؛ إذ جعل لأهل الإلحاد في دين الله بسيء رأيه طريقًا إلى مغالطة أهل الحق بتخير القراءات من جهة البحث والاستخراج بالآراء دون الاعتصام والتمسك بالأثر المفترض، وقد كان أبو بكر شيخنا نضر الله وجهه نشله من بدعته المضلة باستتابته منها، وأشهد عليه الحكام والشهود المقبولين عند الحكام بتركه ما أوقع نفسه فيه من الضلالة بعد أن سئل البرهان على صحة ما ذهب إليه؛ فلم يأت بطائل، ولم يكن له حجة قوية ولا ضعيفة، واستوهب أبو بكر ﷺ تأديبه من السلطان عند توبته وإظهاره الإقلاع عن بدعته، ثم عاود في وقتنا هذا إلى ما كان ابتدعه واستغوى من أصاغر المسلمين ممن هو في الغفلة والغباوة دونه ظنًا منه أن ذلك يكون للناس دينًا وأن يجعلوه فيما ابتدعه إمامًا، ولن يعدو ما ضل به مجلسه؛ لأن الله قد أعلمنا أنه حافظ كتابه من لفظ الزائفين وشبهات الملحدين بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾، ثم ذكر أبو طاهر كلامًا كثيرًا وقال بعده: وقد دخلت عليه شبهة لا تخيل بطولها وفسادها على ذي لب وفطنة صحيحة، وذلك أنه قال: لما كان لخلف بن هشام، وأبي عبيد، وابن سعدان أن يختاروا

وكان ذلك لهم مباحًا غير منكر كان ذلك لي أيضًا مباحًا غير مستنكر، فلو كان حذا حذوهم فيما اختاروه وسلك طريقًا كطريقهم كان ذلك مباحا له ولغيره غير مستنكر، وذلك أن خلفًا ترك حروفًا من حروف حمزة، واختار أن يقرأ على مذهب نافع، وأما أبو عبيد وابن سعدان فلم يتجاوز واحد منهما قراءة أئمة القراءة بالأمصار، ولو كان هذا الغافل نحا نحوهم كان مسوغًا لذلك غير ممنوع منه ولا معيب عليه؛ بل إنما كان النكير عليه شذوذه عما عليه الأئمة الذين هم الحجة فيما جاءوا به مجتمعين مختلفين. (تاريخ بغداد٢/ ٢٠٨).

ثانيًا: ابن شنبوذ.

وعُقد مجلس آخر لاستتابة ابن شنبوذ الذي كان يقرأ بحروف مخالفة لرسم المصحف وأعلن توبته ورجوعه، وإليك قصته بالتفصيل لما فيها من الفوائد:

هو الإمام محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شنبوذ المقرئ كان من مشاهير القراء وأعيانهم، وتفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب فأنكرت عليه، وبلغ ذلك الوزير أبا علي محمد بن مقلة الكاتب المشهور، فاعتقله واستحضر الوزير المذكور القاضي أبا الحسين عمر بن محمد وأبا بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المقرئ وجماعة من أهل القرآن، وأحضر ابن شنبوذ المذكور، ونوظر بحضرة الوزير ابن مقلة، ثم أوقفوه على الحروف التي قيل إنه يقرأ بها، فأنكر ما كان شنيعًا، وقال فيما سواه: إنه قرأ به قوم، فاستتابوه فتاب، وقال: إنه قد رجع عما كان يقرؤه، وإنه لا يقرأ إلا بمصحف عثمان بن عفان ﷺ وبالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس، فكتب عليه الوزير محضرًا بما قاله، وأمره أن يكتب خطه في آخره، فكتب ما يدل على توبته؛ ونسخة المحضر: سئل محمد بن أحمد المعروف بابن شنبوذ عما حكي عنه أنه يقرؤه، وهو (. . . إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ)، فاعترف به، وعن (وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)، فاعترف به، وعن (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ)، فاعترف به، وعن (. . . كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ)، فاعترف به، وعن (فَالْيَوْمَ نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ)، "فاعترف به، وعن (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا)، فاعترف به، وعن (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا حولًا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)، فاعترف به، وعن (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى)، فاعترف به، وعن (فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)، فاعترف به، وعن (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ فِئَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسْتَعِينُونَ اللهَ عَلَى مَا أَصَابَهُم أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، فاعترف به، وعن (إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ)، فاعترف به، وكتب الشهود الحاضرون شهاداتهم في المحضر حسبما سمعوه من لفظه.

وكتب ابن شنبوذ بخطه ما صورته: يقول محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ: ما في هذه الرقعة: صحيح، وهو قولي واعتقادي، وأشهد الله ﷻ وسائر من حضر على نفسي بذلك؛ وكتب بخطه: فمتى خالفت ذلك أو بان مني غيره، فأمير المؤمنين في حل من دمي وسعة.

٧ـ الوجوه السبعة التي يقع فيها التغاير في أحرف القرآن ولا تخرج القراءات عنها.

فقد ذهب فيها العلماء إلى ثلاثة مذاهب:

مذهب ابن قتيبة ومن وافقه.

الأول: الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركات بقائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها نحو ﴿**البُخْل**﴾ و﴿**البَخَل**﴾ و﴿**مَيْسَرَة**﴾ و﴿**ميسُرة**﴾ ﴿**وهُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ و﴿**أَطْهَرَ لَكُمْ**﴾ ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ**﴾ ﴿**وَهَلْ يُجَازَي إِلاَّ الْكَفُورَ**﴾، وهو كثير يقرأ منه بما صحت روايته، وصح وجهه في العربية؛ لأنه غير مخالف للخط.

الثاني: الاختلاف في إعراب الكلمة في حركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب نحو ﴿**رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾ و﴿**رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾، وهو كثير يقرأ به لما صحت روايته ووافق العربية.

الثالث: الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو ﴿**كَيْفَ نُنْشِزُهَا**﴾ و﴿**نُنْشِرُهَا**﴾ و﴿**فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾ و﴿**فَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾ و﴿**يَقُصُّ الْحَقَّ**﴾ و﴿**يَقْضِ الْحَقَّ**﴾، وهو كثير يقرأ به إذا صح سنده ووجهه لموافقته لصورة الخط في رأي العين.

الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها ومعناها، نحو: ﴿**إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً**﴾ و(إلا زقية واحدة) و﴿**كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**﴾ و(كالصَّوف المنقوش)، فهذا يقبل إذا صحت روايته ولا يقرأ به اليوم لمخالفته لخط المصحف، ولأنه إنما ثبت عن آحاد.

الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها ومعناها، نحو: ﴿**طَلْحٍ مَنْضُودٍ**﴾ و﴿**طَلْعٍ مَنْضُودٍ**﴾، فهذا لا يقرأ به أيضًا لمخالفته الخط، ويقبل منه ما لم يكن فيه تضاد لما عليه المصحف.

ومن الطريف أنه قد انعقد المجلسان بأمر شيخ القراء ابن مجاهد الذي هو أول من جمع القراءات السبع، وكان ابن مجاهد قد أخذ القراءة عن شاذان الرازي الذي عنه أخذ أيضًا كل من ابن مقسم وابن شنبوذ، ولكن اشتراك الثلاثة في التلقي عن شيخ واحد لم يمنع ابن مجاهد من التشدد مع زميليه لإجماع القراء في عهده على الأخذ بالأثبت في الأثر والأصح في النقل، وليس الأفشى في اللغة والأقيس في العربية.

السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ)، فهذا يقبل لصحة معناه إذا صحت روايته، ولا يقرأ به لمخالفته المصحف، ولأنه غير واحد.

السابع: الاختلاف بالزيادة والنقص في الحروف والكلم، نحو: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (وَمَا عَمِلَتْ)، و(نَعْجَةً أُنْثَى)، ونظائره فهذا يقبل منه ما لم يحدث حكمًا لم يقله أحد، ويقرأ منه ما اختلفت عليه المصاحف في إثباته وحذفه نحو﴿تَجْرِي تَحْتَهَا﴾ في براءة عند رأس المائة و﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ و﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ في الحديد و﴿فَإِنَّ اللهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ونحو ذلك مما اختلف فيه المصاحف التي وجَّه بها عثمان إلى الأمصار فيقرأ به إذ لم يخرج عن خط جميع المصاحف. ولا يقرأ منه – ما لم تختلف فيه المصاحف- لا يزاد شيء لم يزد في شيء من المصاحف، ولا ينقص شيء لم ينقص في شيء من المصاحف. [١]

مذهب الرازي: الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف:

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث.

ويمكن التمثيل للوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء. بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ قرئ هكذا: ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ جمعًا، وقرئ﴿لِأَمَانَتِهِم﴾ بالإفراد.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر.

ويمكن التمثيل للوجه الثاني وهو اختلاف تصريف الأفعال بقوله سبحانه: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرئ هكذا بنصب لفظ ﴿رَبَّنَا﴾ على أنه منادى، وبلفظ ﴿بَاعِدْ﴾، و﴿بَعِّدْ﴾ فعل أمر، وبعبارة أنسب بالمقام فعل دعاء.

وقرئ هكذا: ﴿رَبُّنَا بَاعَدَ﴾ برفع رب على أنه مبتدأ وبلفظ﴿بَعَّدَ﴾ فعلًا ماضيًا مضعف العين جملته خبر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

(١) تأويل مختلف الحديث(٩٢: ٩٤) بتصرف، والإبانة عن معاني القراءات (٥٥: ٥٨)، والنشر في القراءات العشر(١/ ٢٧)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٣٣٤).

ويمكن التمثيل للوجه الثالث وهو اختلاف وجوه الإعراب بقوله سبحانه: ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ قرئ بفتح الراء وضمها؛ فالفتح على أن لا ناهية فالفعل مجزوم بعدها والفتحة الملحوظة في الراء هي فتحة إدغام المثلين. أما الضم فعلى أن لا نافية فالفعل مرفوع بعدها.

ومثل هذا المثال قوله سبحانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ قرئ برفع لفظ المجيد وجره. فالرفع على أنه نعت لكلمة ذو، والجر على أنه نعت لكلمة العرش. فلا فرق في هذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب في اسم أو فعل كما رأيت.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

ويمكن التمثيل للوجه الرابع: وهو الاختلاف بالنقص والزيادة. بقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾

قرئ بهذا اللفظ. وقرئ أيضًا (والذكر والأنثى) بنقص كلمة ما خلق.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير.

ويمكن التمثيل للوجه الخامس- وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير- بقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، وقرئ: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ).

السادس: الاختلاف بالإبدال.

ويمكن التمثيل للوجه السادس- وهو الاختلاف بالإبدال- بقوله سبحانه: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ بالزاي، وقرئ ﴿نُنْشِرُهَا﴾ بالراء، وكذلك قوله سبحانه ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ بالحاء، وقرئ ﴿وَطَلْعٍ﴾ بالعين. فلا فرق في هذا الوجه أيضًا بين الاسم والفعل.

السابع: اختلاف اللغات ـ يريد اللهجات ـ كالفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام، ونحو ذلك، غير أن النقل كما ترى لم يشفع بتمثيل فيما عثرنا.

ويمكن التمثيل للوجه السابع- وهو اختلاف اللهجات- بقوله سبحانه: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ تقرأ بالفتح والإمالة في: أتى، ولفظ: موسى، فلا فرق في هذا الوجه أيضًا بين الاسم والفعل. والحرف مثلهما نحو﴿بَلَى قَدِرِينَ﴾ (القيامة: ٤)قرئ بالفتح

والإمالة في لفظ بلى. [١]

مذهب ابن الجزري: قال: تتبعت القراءات صحيحها، وشاذها، وضعيفها، ومنكرها؛ فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها وذلك:

١- إما في الحركات بلا تغيير في المعنى والصورة: نحو (البخل) بأربعة (ويحسب) بوجهين.

٢- أو بتغير في المعنى فقط نحو ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾. ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، و(أَمَة).

٣- وإما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو (تبلوا، وتتلوا، وننحيك(بالحاء) ببدنك لتكون لمن خلفك، وننجيك(بالجيم)ببدنك).

٤- أو عكس ذلك نحو (بصطة، وبسطة، والصراط، والسراط).

٥- أو بتغيرهما نحو (أشد منكم، ومنهم، ويأتل، ويتأل، و-فامضوا، اسعوا إلى ذكر الله).

٦- وإما في التقديم والتأخير نحو (فيقتلون، ويقتلون، وجاءت سكرت الحق بالموت).

٧- أو في الزيادة والنقصان نحو (وأوصى، ووصى، والذكر والأنثى) فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها. [٢]

وهذه المذاهب بينها عموم وخصوص ويدخل بعضها في بعض، ولذا قال ابن حجر عن مذهب الرازي: إنه أخذ كلام ابن قتيبة ونقَّحه. [٣]، وهذا لا يؤدي إلى الخلاف الكبير، بدليل أن الإمام مكي بن أبي طالب بيَّن الذي يُقرأ من ذلك والذي لا يقرأ من هذه الوجوه. [٤]، وهذا التغاير أيضًا في حدود القراءات العشر المتواترة التي أجمع عليها أهل العلم. وإذا خرج عنها وجه من هذه الوجوه فلا يقرأ به.

٨- فائدة اختلاف القراءات وتنوعها، وعلى أي شيء يتوجه اختلاف القراءات.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ١٣٢: ١٣٣)، والنشر في القراءات العشر(١/ ٢٧)، وفتح الباري(٨/ ٦٤٦).

(٢) النشر في القراءات العشر(١/ ٢٦).

(٣) فتح الباري(٨/ ٦٤٦).

(٤) الإبانة عن معاني القراءات (٥٥: ٥٨).

أولًا: فائدة اختلاف القراءات.

فإن في ذلك فوائد غير ما قدمناه من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة.

ومنها: ما في ذلك من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف ما كان في ذلك من التطويل.

ومنها: ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة؛ إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف؛ بل كله يُصدِّق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد، وما ذلك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به ﷺ.

ومنها: سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة؛ إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإنه من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه وأدعى لقبوله من حفظه جملًا من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفات لا سيما فيما كان خطه واحدًا؛ فإن ذلك أسهل حفظًا وأيسر لفظًا.

ومنها: إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يفرغون جهدهم؛ ليبلغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسراره وخفي إشاراته، وإنعامهم النظر وإمعانهم الكشف عن التوجه والتعليل والترجيح، والتفصيل بقدر ما يبلغ غاية علمهم، ويصل إليه نهاية فهمهم ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ١٩٥)، والأجر على قدر المشقة.

ومنها: بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي، وإقبالهم عليه هذا الإقبال، والبحث عن لفظة لفظة، والكشف عن صيغة صيغة، وبيان صوابه، وبيان تصحيحه، وإتقان تجويده، حتى حموه من خلل التحريف، وحفظوه من الطغيان والتطفيف، فلم يهملوا تحريكًا ولا تسكينًا، ولا تفخيمًا ولا ترقيقًا،

حتى ضبطوا مقادير المدات وتفاوت الإمالات، وميزوا بين الحروف بالصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم، ولا يوصل إليه إلا بإلهام بارئ النسم.

ومنها: ما ادخره الله من المنقبة العظيمة، والنعمة الجليلة الجسيمة لهذه الأمة الشريفة، من إسنادها كتاب ربها، واتصال هذا السبب الإلهي بسببها خصيصة الله تعالى هذه الأمة المحمدية، وإعظامًا لقدر أهل هذه الملة الحنيفية، وكل قارئ يوصل حروفه بالنقل إلى أصله، ويرفع ارتياب الملحد قطعًا بوصله، فلو لم يكن من الفوائد إلا هذه الفائدة الجليلة لكفت، ولو لم يكن من الخصائص إلا هذه الخصيصة النبيلة لوفت.

ومنها: ظهور سر الله في توليه حفظ كتابه العزيز وصيانة كلامه المنزل بأوفى البيان والتمييز، فإن الله تعالى لم يخل عصرًا من الأعصار، ولو في قطر من الأقطار، من إمام حجة قائم بنقل كتاب الله تعالى وإتقان حروفه ورواياته، وتصحيح وجوهه وقراءاته، يكون وجوده سببًا لوجود هذا السبب القويم على ممر الدهور، وبقاؤه دليلًا على بقاء القرآن العظيم في المصاحف والصدور[1].

ثانيًا: على أي شيء يتوجه اختلاف هذه السبعة.

فإنه يتوجه على أنحاء ووجوه مع السلامة من التضاد والتناقض، فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض؛ فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢).

أولاً: **فمنها**: ما يكون لبيان حكم مجمع عليه كقراءة سعد بن أبي وقاص وغيره (**وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ**- من أُم)؛ فإن هذه القراءة تبين أن المراد بالأخوة هنا هو الإخوة للأم، وهذا أمر مجمع عليه.

ثانيًا: **منها**: ما يكون مرجحًا لحكم اختلف فيه كقراءة ﴿**أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**﴾ في كفارة اليمين، ففيها ترجيح لاشتراط الإيمان فيها كما ذهب إليه الشافعي وغيره، ولم

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٥٢: ٥٤).

يشترطه أبو حنيفة رحمه الله.

ثالثًا: منها: ما يكون للجمع بين حكمين مختلفين ﴿يَطْهُرْنَ﴾ و﴿يَطَّهَّرْنَ﴾ بالتخفيف والتشديد ينبغي الجمع، وهو أن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها وتطهر بالاغتسال.

رابعًا: منها: ما يكون لأجل اختلاف حكمين شرعيين كقراءة ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالخفض والنصب، فإن الخفض يقتضى فرض المسح، والنصب يقتضي فرض الغسل فبينهما النبي ﷺ، فجعل المسح للابس الخف، والغسل لغيره.

خامسًا: منها: ما يكون لإيضاح حكم يقتضى الظاهر خلافه كقراءة (فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ الله) فإن قراءة ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ يقتضى ظاهرها المشي السريع وليس كذلك، فكانت القراءة الأخرى موضحة لذلك ورافعة لما يتوهم منه.

سادسًا: منها: ما يكون مفسرًا لما لعله لا يعرف مثل قراءة (كالصُّوفِ المنفُوشِ).

سابعًا: منها: ما يكون حجة لأهل الحق ودفعًا لأهل الزيغ كقراءة ﴿وَمَلِكًا كَبِيرًا﴾ بكسر الكلام، وردت عن ابن كثير وغيره وهي من أعظم دليل على رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

ثامنًا: منها: ما يكون حجة بترجيح لقول بعض العلماء كقراءة ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ﴾ إذ اللمس يطلق على الجس والمس كقوله تعالى ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: مسوه.

تاسعًا: منها: ما يكون حجة لقول بعض أهل العربية كقراءة ﴿وَالْأَرْحَامِ﴾ بالخفض ﴿وَلِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ على ما لم يسم فاعله مع النصب[1].

والخلاصة: أن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات. وذلك ضرب من ضروب البلاغة يبتدئ من جمال هذا الإيجاز وينتهي إلى كمال الإعجاز.

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ، فإن هذه الاختلافات في

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٨).

القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد ولا إلى تهافت وتخاذل؛ بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم. وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف.

ومعنى هذا: أن القرآن يُعجز إذا قرئ بهذه القراءة، ويُعجز أيضًا إذا قرئ بهذه القراءة الثانية، ويُعجز أيضًا إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة، وهلم جرًا. ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف.

ولا ريب أن ذلك أدل على صدق محمد؛ لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناح جمة في الإعجاز وفي البيان على كل حرف ووجه وبكل لهجة ولسان. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

سبب الاقتصار على قراءة الأئمة المشهورين:

فإن قيل: فهذا سبب الخلاف وأصله مستمد من الوحي، فما السبب في الاقتصار على قراءة هؤلاء القراء؟ فهذا جوابه:

١ـ اشتهارهم بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به والاتفاق على الأخذ عنه.

لما جمع عثمان ﷺ الناس على حرف واحد، وأمر بأن يرسل للآفاق مصاحف على ما جمعه، كما تقدم، وكانت كتابتها مجردة من الشكل والنقط، فقرأ أهل كل مصر في مصحفهم وتلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ. . .

ثم لما كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد قراءته وفاقًا لبدعهم كمن قال من المعتزلة ﴿وَكَلَّمَ-اللهَ- مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤) بالنصب على الهاء - رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف أئمةً مشهورين بالثقة، والأمانة بالنقل، وحسن كمال الدين، وكمال العلم، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء واشتهر أمرهم. . . ولم

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ١٢٧).

تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم، فمنهم بالمدينة أبو جعفر وشيبة ونافع، وبمكة: عبد الله بن كثير وابن محيصن والأعرج، وبالكوفة يحيى بن وثَّاب وعاصم والأعمش وحمزة والكسائي، وبالشام عبد الله بن عامر وعطية بن قيس الكلابي ويحيى بن الحارث الزماري، وبالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق وأبو عمرو بن العلاء وعاصم الجحدري ويعقوب الحضرمي.

ثم إن القراء بعد ذلك تفرقوا في البلاد، وخلفهم أمم بعد أمم. إلا أنهم كان فيهم المتقن وغيره. فلما كثر الاختلاف، وعسر الضبط، وشق الائتلاف، وظهر التخليط، وانتشر التفريط، واشتبه متواتر القراءات بفاذِّها، ومشهورها بشاذِّها، فمن ثَمّ وضع الأئمة لذلك ميزانًا يرجع إليه، ومعيارًا يعول عليه، وهو السند والرسم والعربية فكل ما صح سنده، واستقام وجهه في العربية، ووافق لفظه خط مصحف الإمام فهو من السبعة المنصوصة، فعلى هذا الأصل بني قبول القراءات على سبعة كانوا أو سبعة آلاف، ومتى سقط شرط من هذه الثلاثة فهو شاذ(١).

والسبب في الاقتصار على السبعة مع أن في أئمة القراء من هو أجلّ منهم أو مثلهم إلى عدد أكثر من السبعة هو أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرين جدًا، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا -مما يوافق خط المصحف- على ما يسهل حفظه، وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به والاتفاق على الأخذ عنه، فأفردوا من كل مصر إمامًا واحدًا ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه غير الأئمة هؤلاء من القراءات ولا القراءة بها، كقراءة يعقوب الحضرمي وأبي جعفر المدني وشيبة وغيرهم.

ولقد أسهم المؤلفون في القراءات في الاقتصار على عدد معين؛ لأنهم إذ يؤلفون مقتصرين على عدد مخصوص من أئمة القراء يكون ذلك من دواعي شهرتهم، وإن كان غيرهم أجل منهم قدرًا فيتوهم الناس بعدُ أن هؤلاء الذين اقتصر التأليف على قراءتهم هم الأئمة المعتبرون في القراءات، وقد صنف ابن جبر المكي كتابًا في القراءات، فاقتصر على خمسة اختار من كل مصر إمامًا(٢).

---

(١) محاسن التأويل(١/ ٢٩٥: ٢٩٦) باختصار.

(٢) فتح الباري لابن حجر(٨/ ٦٤٨)، و الإتقان(١/ ٢٢٤)، والإبانة لمكي بن أبي طالب (٤٦: ٦٣).

٢ـ تم ترشيح هؤلاء القراء السبعة للأخذ عنهم دون غيرهم على أساس من الموثوقية والحيادية المطلقة.

قال ابن مجاهد وهو يبين منهجه في اختيار القراء السبعة: اختلف الناس في القراءة كما اختلفوا في الأحكام، ورويت الآثار بالاختلاف عن الصحابة والتابعين توسعة ورحمة للمسلمين وبعض ذلك قريب من بعض.

وحَمَلَةُ القرآن متفاضلون في حمله، ولنقلة الحروف منازل في نقل حروفه، وأنا ذاكر منازلهم، ودال على الأئمة منهم، ومخبر عن القراءة التي عليها الناس بالحجاز والعراق والشام، وشارح مذاهب أهل القراءة، ومبين اختلافهم واتفاقهم إن شاء الله وإياه أسأل التوفيق بمنه. [١]

فبين هنا أن الأئمة من القراء هم أصحاب القراءة التي عليها الناس، ثم قال مؤكدًا فكرته[٢]: فمن حملة القرآن المعرب، العالم بوجوه الإعراب والقراءات، العارف باللغات ومعاني الكلمات، البصير بعيب القراءات، المنتقد للآثا، ر فذلك الإمام الذي يفزع إليه حفاظ القرآن في كل مصر من أمصار المسلمين، ومنهم من يعرب ولا يلحن ولا علم له بغير ذلك؛ فذلك كالأعرابي الذي يقرأ بلغته ولا يقدر على تحويل لسانه، فهو مطبوع على كلامه.

ومنهم من يؤدي ما سمعه ممن أخذ عنه ليس عنده إلا الأداء لما تعلم، لا يعرف الإعراب ولا غيره فذلك الحافظ فلا يلبث مثله أن ينسى إذا طال عهده، فيُضَيِّعُ الإعرابَ لشدة تشابهه، وكثرة فتحه وضمه وكسره في الآية الواحدة؛ لأنه لا يعتمد على علم بالعربية، ولا بصر بالمعاني يرجع إليه، وإنما اعتماده على حفظه وسماعه، وقد ينسى الحافظ فيضيع السماع، وتشتبه عليه الحروف؛ فيقرأ بلحن لا يعرفه، وتدعوه الشبهة إلى أن يرويه عن غيره ويبرئ نفسه، وعسى أن يكون عند الناس مصدقًا، فيحمل ذلك عنه قد نسيه ووهم فيه وجسر على لزومه والإصرار عليه، أو يكون قد قرأ على من نسى وضيع الإعراب ودخلته الشبهة فتوهم، فذلك لا يقلد القراءة ولا يحتج بنقله.

---

(١) السبعة (١/ ٤٥).

(٢) إعجاز القراءات القرآنية – دراسة في تاريخ القراءات واتجاهات القراء – تأليف/ صبري الأشوح (٦٩: ٧٠).

فهو هنا يؤكد على شرط من شروط القراءة وهو: موافقة العربية، ثم يشير إلى الشرط الآخر، وهو: صحة السند **بقوله:**

ومنهم من يعرب قراءته ويبصر المعاني ويعرف اللغات، ولا علم له بالقراءات واختلاف الناس والآثار، فربما دعاه بصره بالإعراب إلى أن يقرأ بحرف جائز في العربية لم يقرأ به أحد من الماضين، فيكون بذلك مبتدعًا.

ويكشف لنا ابن مجاهد عن أن اختيار الناس لم يكن مجرد تبعية أو تقليدًا أو انسياقًا أعمى؛ بل كان انتقاءً واعيًا وبصيرة نافذة فيقول: [(١)]

وأما الآثار التي رويت في الحروف فكالآثار التي رويت في الأحكام، منها المجتمع عليه السائر المعروف، ومنها المتروك المكروه عند الناس المعيب من أخذ به، وإن كان قد روى وحفظ، ومنها ما توهم فيه من رواه فضيع روايته ونسى سماعه لطول عهده فإذا عرض على أهله عرفوا توهمه وردوه على من حمله، وربما سقطت روايته لذلك بإصراره على لزومه وتركه الانصراف عنه، ولعل كثيرًا ممن تُرك حديثه واتُهم في روايته كانت هذه علته، وإنما ينتقد ذلك أهل العلم بالأخبار والحرام والحلال والأحكام، وليس انتقاد ذلك إلى من لا يعرف الحديث ولا يبصر الرواية والاختلاف، كذلك ما روى من الآثار في حروف القرآن منها المعرب السائر الواضح، ومنها المعرب الواضح غير السائر، ومنها اللغة الشاذة القليلة، ومنها الضعيف المعنى في الإعراب غير أنه قد قرئ به، ومنها ما توهم فيه فغلط به، فهو لحن غير جائز عند من لا يبصر من العربية إلا اليسير، ومنها اللحن الخفي الذي لا يعرفه إلا العالم النحرير، وبكلٍّ قد جاءت الآثار في القراءات.

ويقول ابن مجاهد أيضًا مؤكدًا على أن اختياره لم يكن سوى اختيار الناس الخاصة منهم والعامة: والقراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام هي القراءة التي تلقوها عن أوليهم تلقيًا، وقام بها في كل مصر من هذه الأمصار رجل ممن أخذ عن

---

(١) إعجاز القراءات القرآنية(٧٠).

التابعين أجمعت الخاصة والعامة على قراءته، وسلكوا فيها طريقه، وتمسكوا بمذهبه على ما رُوي عن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعروة بن الزبير ومحمد بن المنكدر وعمر بن عبد العزيز وعامر الشعبي، ثم ساق بإسناده عن هؤلاء بألفاظ متقاربة قولهم: قراءة القرآن سنة يأخذها الآخر عن الأول. وفي رواية: القراءة سنة فاقرءوا كما قرأ أولكم.

وقال ابن مجاهد- وهو يترجم للقراء السبعة الذين أجمعت الأمة على قبول قراءتهم ويبين مكانتهم-: على قراءة نافع اجتمع الناس بالمدينة العامة منهم والخاصة(١).

وكان الإمام الذي انتهت إليه القراءة بمكة وائتم به أهلها في عصره عبد الله بن كثير. (٢)

وأول من أقرأ بالكوفة القراءة التي جمع عثمان ﷺ الناس عليها أبو عبد الرحمن السلمي، واسمه: عبد الله بن حبيب. فجلس في المسجد الأعظم ونصب نفسه لتعليم الناس القرآن، ولم يزل يقرئ بها أربعين سنة فيما ذكر(٣)، فلما مات أبو عبد الرحمن رحمه الله تعالى خلفه في موضعه أبو بكر عاصم بن أبي النجود(٤).

وكان عاصم مقدمًا في زمانه مشهورًا بالفصاحة معروفًا بالإتقان(٥).

ثم بيَّن ابن مجاهد العلة في عدم انتشار قراءة عاصم في زمانه فقال: وإلى قراءة عاصم صار بعض أهل الكوفة، وليست بالغالبة عليهم؛ لأن أضبط من أخذ عن عاصم أبو بكر بن عياش فيما يقال؛ لأنه تعلمها منه تعلما خمسًا خمسًا، وكان أهل الكوفة لا يأتمون في قراءة عاصم بأحد ممن يثبتونه في القراءة عليه إلا بأبي بكر بن عياش، وكان أبو بكر لا يكاد

---

(١) السبعة في القراءات(١/ ٦٢).

(٢) السابق(١/ ٦٤).

(٣) السابق (١/ ٦٧).

(٤) السابق (١/ ٦٩).

(٥) السابق(١/ ٧٠)، وإن كنا نجد من القراء كحفص من هو في عداد المجروحين عند المحدثين، ولكن تجريح حفص وعدم قبول هؤلاء القراء لجرح المحدثين لأكبر دليل علي عدم التفاتهم لهذا الأمر؛ بل وانتشار قراءة حفص في الآفاق ـ وهو ضعيف عند المحدثين ـ لأبلغ رد علي المحدثين بأن أصولهم لا تسير على معشر القراء.

يمكن من نفسه من أرادها منه، فقلَّت بالكوفة من أجل ذلك، وعز من يحسنها، وصار الغالب على أهل الكوفة إلى اليوم قراءة حمزة بن حبيب الزيات[1].

وكان حمزة ممن تجرد للقراءة ونصب نفسه لها.

وكان علي بن حمزة الكسائي قد قرأ على حمزة ونظر في وجوه القراءات، وكانت العربية علمه وصناعته، واختار من قراءة حمزة وقراءة غيره قراءة متوسطة غير خارجة عن آثار من تقدم من الأئمة، وكان حمزة إمام أهل الكوفة في عصره، وكان إمام الناس في القراءة في عصره، وكان يأخذ الناس عنه ألفاظه بقراءته عليهم.

وأما البصرة فقام بالقراءة بها بعد التابعين جماعة منهم أبو عمرو بن العلاء.

قال أبو بكر: وكان مقدمًا في عصره عالمًا بالقراءة ووجوهها، قدوة في العلم باللغة، إمام الناس في العربية، وكان مع علمه باللغة وفقهه بالعربية متمسكًا بالآثار، لا يكاد

---

(١) وهنا يثور التساؤل عن السبب الذي حدا بابن مجاهد أن يخالف القاعدة التي وضعها لنفسه فيختارقراءة عاصم على الرغم من أن غالبية أهل الكوفة تركتها إلى قراءة حمزة؟.

والإجابة هنا تشهد لابن مجاهد ولا تشهد عليه، ذلك أن اختياره الوحيد الذي خالف فيه القاعدة التي وضعها لنفسه يدل على أنه ليس من ذلك النوع من البشر الذي يسير مغمض العينين ومغيب العقل على القواعد، إذ لكل قاعدة استثناء، فلقد أكد ابن مجاهد أنه كان ينشد الحق أينما وُجد، فإن وافق اختيار الناس، وإلا فهو يختار لهم.

وهذا عين ما حدث عند اختياره لقراءة عاصم، فلقد أدرك- وهو الخبير بالقراءات - فضل هذه القراءة الذي لا يُنكر، ثم بحث في أسباب انصراف غالب أهل الكوفة عنها، فوجدها أسبابًا ذاتية غير موضوعية، ذلك أن الإمام العظيم عاصم بن أبي النجود كان إذا تكلم كاد يدخله خيلاء، فلعل هذا ما جعل العامة ينصرفون عن قراءته، فإذا أضفنا إلى هذا السبب أن شعبة وهو أحد راويي عاصم، والذي كان الناس في الكوفة يأتمون بروايته عن عاصم، كان هو الآخر لا يكاد يمكن نفسه من أرادها منه، ووصل إلى أن الناس لم ينكروا لقراءة عاصم فضلها، إلا أنهم حين سعوا إليها وجدوا نوعًا من الاستعلاء ربما جرح كبرياءهم فانصرفوا عنها إلى غيرها غير منكرين لفضلها.

من هنا اعتبر ابن مجاهد انصراف أهل الكوفة عن قراءة عاصم لقراءة حمزة. . . . وأن عاصم كان يتمتع بذاكرة حافظة ليس لها نظير، قال عاصم: مرضت سنتين، فلما قرأت القرآن فما أخطأت حرفًا.

إذا علمنا ذلك كله أدركنا السر وراء تمسك ابن مجاهد بقراءة عاصم - خلافًا لقاعدة الشهرة – فأثبت أنه كان عقلًا فذًا مستقلًا. (إعجاز القراءات القرآنية٧٥: ٧٧).

يخالف في اختياره ما جاء عن الأئمة قبله متواضعًا في علمه، قرأ على أهل الحجاز وسلك في القراءة طريقهم، ولم تزل العلماء في زمانه تعرف له تقدمه وتقر له بفضله وتأتم في القراءة بمذهبه.

وأما أهل الشام فيسندون قراءتهم إلى عبد الله بن عامر اليحصبي. [١]

فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام خلفوا في القراءة التابعين، وأجمعت على قراءتهم العوام من أهل كل مصر من هذه الأمصار التي سميت وغيرها من البلدان التي تقرب من هذه الأمصار إلا أن يستحسن رجل لنفسه حرفًا شاذًا فيقرأ به من الحروف التي رويت عن بعض الأوائل منفردة، فذلك غير داخل في قراءة العوام ولا ينبغي لذي لب أن يتجاوز ما مضت عليه الأئمة والسلف بوجه يراه جائزًا في العربية أو مما قرأ به قارئ غير مجمع عليه[٢].

وبهذا الاجتهاد الطويل والمراجعة المتأنية يكون ابن مجاهد قد استطاع أن يستخلص تلك القراءات راضيًا مغتبطًا بما أدى من هذا الواجب العظيم، وتبعه جمهور العلماء والقراء في الأمة وارتضوا اجتهاده في تقديمهم[٣].

١٠ـ معنى إضافة القراءة إلى من قرأ بها:

قال أبو عمرو: وأن معنى إضافة كل حرف مما أنزل الله تعالى إلى من أضيف من الصحابة كأُبي، وعبد الله، وزيد، وغيرهم من قِبَل أنه كان أضبط له، وأكثر قراءة، وإقراءًا به، وملازمة له وميلًا إليه لا غير ذلك. وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة بالأمصار، المراد بها أن ذلك القارئ، وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة، وآثره على غيره، وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر، وعرف به، وقصد فيه، وأُخذ عنه، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء. وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم، لا إضافة

(١) القراءات السبعة١/ ٧٤: ٨٥.

(٢) السبعة في القراءات (١/ ٨٧).

(٣) مقدمة السبعة في القراءات باختصار وتصرف (٢٢: ٢٣).

اختراع ورأي واجتهاد. [١]

١٠ـ دور المصحف، والرسم العثماني في القراءات.

أولًا: دور المصحف العثماني في القراءات

وهكذا جاء المصحف العثماني؛ ليضع حدًا لمرحلة ويبدأ مرحلة جديدة في تاريخ القرآن والقراءات، فقد ضيق المصحف العثماني من إطار استخدام رخصة الأحرف السبعة والتي كانت مفتوحة على مصراعيها من قبل[٢].

ويبين لنا ابن هشام تلميذ ابن مجاهد إمام القراءات كيفية ولادة القراءات ولادة شرعية من الأحرف السبعة قائلًا: إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التي وجهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل، قال: فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعًا عن الصحابة بشرط موافقة الخط، وتركوا ما يخالف الخط امتثالًا لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن، فمن ثَمَّ نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار مع كونهم متمسكين بحرف واحد من السبعة. وقال مكي بن أبي طالب: هذه القراءات التي يقرأ بها اليوم وصحت رواياتها عن الأئمة جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ثم ساق نحو ما تقدم[٣].

المصحف الإمام نقلة حضارية كبرى في توثيق المعلومات

لأن الفكرة الجوهرية التي تمحور حولها المصحف العثماني كانت الإجماع. [٤] وهو بلا شك أقوى وأعلى من التواتر.

المصحف الإمام كان سببًا في ظهور مصطلح القراءات الشاذة في القاموس الإسلامي:

---

(٣) الأحرف السبعة (٦١).

(٢) إعجاز القراءات القرآنية (٥٢).

(٣) فتح الباري(٩/ ٣١).

(٤) إعجاز القراءات القرآنية (٥٩)، وراجع ما سبق تسطيره عن عوامل التحري والتوثيق في كتابة المصحف العثماني.

وأغلب ما وصف بالشذوذ من القراءات كان بسبب مخالفة الرسم العثماني أو بسبب عدم توافر النقل[(١)]، وليس من أجل مخالفة العربية، إلا في النادر، مما نقله ثقة ولا وجه له في العربية، ولا يصدر مثل هذا إلا سهوًا بشريًا، وقد نبه عليه المحققون والقراء الضابطون[(٢)].

مع أن القرآن دُوِّن في مصحف عثمان لم يتحول الأساس في تلاوته يومًا إلى الاعتماد على المصحف المكتوب؛ بل ظل الاعتماد منذ وجود الرسول ﷺعلى الرواية بالسند الصحيح المتواتر عنه، فالأساس دائمًا الرواية عن الرسول ﷺ، وقد تلقاه شفويًا عنه صحابته[(٣)]، وعنهم تلقاه التابعون، وتوالى ذلك بالسند المتواتر جيلًا بعد جيل[(٤)].

وقد كان التعويل في ذلك على أن القرآن محفوظ في الصدور قبل أن يحفظه كونه محفوظًا في مصحف، وأن القراءة الصحيحة لن تكون أي نطق محتمل لخط المصحف؛ بل لابد أن تكون رواية عن رسول الله ﷺ[(٥)].

ومن ثم ظهر نوع آخر من القراءات الشاذة التي سببها عدم صحة السند، أو عدم وجوده أصلًا، فتكون القراءة إما من قبيل الخطأ والسهو، أو من قبيل الكذب والافتراء، وهذا كله يندرج تحت القراءات الشاذة اصطلاحًا، ووجه الشذوذ هنا أن القارئ لم يخالف من هو أوثق منه؛ بل خالف الأمة كلها[(٦)].

ثانيًا: مزايا الرسم العثماني:

---

(١) انظر فيما سبق شروط القراءة الصحيحة.

(٢) المنهاج في الحكم على القراءات د. **إبراهيم بن سعيد الدوسري**(١/ ١٨)، إعجاز القراءات القرآنية (٥٩).

(٣) هذه العبارة فيها تجوز؛ لأنه ليس كل واحد من الصحابة تلقى كل آية من القرآن من النبي ﷺ وفي حياته؛ بل من الصحابة من تلقى منه ﷺ بعض السور وتلقى البعض الآخر من غيره من الصحابة، ومنهم من حفظ القرآن كله في حياته، ومنهم من أتم حفظه بعد وفاته ﷺ، فالحاصل: أن مجموع الصحابة حفظ جميع القرآن، وليس جميع الصحابة حفظ جميع القرآن منه وفي حياته ﷺ. راجع شبهة (لم يحفظ القرآن إلا أربعة).

(٤) مقدمة السبعة للدكتور شوقي ضيف (١١).

(٥) إعجاز القراءات القرآنية (٦٠).

(٦) راجع في ذلك مزايا جمع عثمان ﷺ.

لهذا الرسم مزايا وفوائد:

الفائدة الأولى: الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان، وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر. فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خلاف الأصل؛ وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل. وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رسمت به. مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (طه: ٦٣) رسمت في المصحف العثماني هكذا: (إن هدان لساحران) من غير نقط، ولا شكل، ولا تشديد، ولا تخفيف في نوني إن وهذان، ومن غير ألف، ولا ياء بعد الذال من هذان.

ومجيء الرسم كما ترى كان صالحًا عندهم لأن يقرأ بالوجوه الأربعة التي وردت كلها بأسانيد صحيحة.

أولها: قراءة نافع ومن معه إذ يشددون نون-إنَّ ويخففون-هذَان- بالألف.

ثانيها: قراءة ابن كثير وحده إذ يخفف النون في- إنْ- ويشدد النون-في هذان.

ثالثها: قراءة حفص إذ يخفف النون في -إنْ- وهذان بالألف.

رابعها: قراءة أبي عمرو بتشديد -إنَّ- وبالياء وتخفيف النون في- هذين، فتدبر هذه الطريقة المثلى الضابطة لوجوه القراءة لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظرًا وأهدى سبيلًا.

الفائدة الثانية: إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة، وذلك نحو قطع كلمة أم في قوله تعالى: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٠٩)، ووصلها في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢) إذ كتبت هكذا ﴿أَمَّن﴾ بإدغام الميم

الأولى في الثانية وكتابتها ميمًا واحدة مشددة فقط؛ أم الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة التي بمعنى بل، ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك.

الفائدة الثالثة: الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة "أيد" من قوله تعالى: ﴿**السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ**﴾ إذ كتبت هكذا ﴿**بِأَيْيدٍ**﴾، وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي:

(ويدعو الإنسان)، (يمحو الله الباطل)، (يوم يدعو الداع)، (سندعوا الزبانية) فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ ﴿يَوْمَ يَـدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، ولكن من غير نقط ولا شكل في الجميع.

قالوا: والسر في حذفها من ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ هو الدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير؛ بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير. والسر في حذفها من {وَيَمْحُ الله الْبَاطِلَ} الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله.

والسر في حذفها من ﴿يَوْمَ يَـدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ الإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين. والسر في حذفها من ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش. ويجمع هذه الأسرار قول المراكشي: والسر في حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل، وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود.

الفائدة الرابعة: الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء في قوله سبحانه ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إذ تكتب هكذا ﴿وإيتاءى ذي القربى﴾، ومثل كتابة الضمة واوًا في قوله سبحانه: ﴿**سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾ إذ كتبت هكذا ﴿**سأوريكم دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾

ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف، نحو الصلاة والزكاة إذ كتبا هكذا: الصلَوة الزكَوة؛ ليفهم أن الألف فيهما منقلبة عن واو. من غير نقط ولا شكل كما سبق.

الفائدة الخامسة: إفادة بعض اللغات الفصيحة، وذلك مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة في بعض المواضع؛ للإيذان بجواز الوقف عليها بالتاء على لغة (طيئ) نحو: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الأعراف، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ في التحريم، ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في الأنفال، ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ في الدخان.

ومثل: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ . .﴾ في الكهف، كتبت كلمة ﴿نَبْغِ﴾ بحذف الياء على لغة هذيل التي تحذف لام الفعل المضارع المعتل من غير دخول جازم عليه.

ومثل قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ كتبت بحذف الياء هكذا ﴿يَأْتِ﴾ للدلالة على لغة هذيل.

الفائدة السادسة: حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، ولا يتكلوا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة. وينضوي تحت هذه الفائدة مزيتان.

إحداهما: التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده. فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابته. فقد تخطئ المطبعة في الطبع، وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده كالقلقلة، والإظهار، والإخفاء، والإدغام، والروم، والإشمام ونحوها فضلًا عن خفاء تطبيقها.

ولهذا قرر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها؛ بل لا بد من التثبت في الأداء والقراءة بالأخذ عن حافظ ثقة. وإن كنت في شك فقل لي بربك: هل يستطيع المصحف بأي رسم يكون أن يدل قارئًا أيًا كان على النطق الصحيح بفواتح السور

الكريمة؟ مثل ﴿كهيعص، حم، عسق، طسم﴾؟ ، ومن هذا الباب الروم والإشمام في قوله سبحانه ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ من كلمة ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾.

المزية الثانية: اتصال السند برسول الله ﷺ، وتلك خاصة من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم.

قال ابن حزم: نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل. وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد في كثير من كتب اليهود ولكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ؛ بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصرًا. إنما يبلغون إلى شمعون ونحوه، ثم قال: وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق. وأما النقل المشتمل على طريق فيه كذاب أو مجهول العين فكثير في نقل اليهود والنصارى. وأما أقوال الصحابة والتابعين فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب نبي أو تابعي، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص[1].

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ٣٠٦: ٣٠٩) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عدد ٣٢، تاريخ القرآن الكريم لـ محمد طاهر الكردي(١/ ١٢٠).

المبحث الثالث: الرد على الشبهات:

الشبهة الأولى: ادعاؤهم أن نشأة القراءات كان بسبب خلو المصحف من النقط والشكل

نص الشبهة:

يقولون بأن سبب اختلاف القراءات وتنوعها وتعددها؛ إنما هو خاصية الخط العربي الذي كتبت به المصاحف العثمانية، تلك الخاصية هي خلوه من إعجام الحروف ونقطها الذي يدل على ذاتها، وخلوه من شكل الكلمات الذي يدل على إعرابها، فلما كان الأمر كذلك كانت محتملة لقراءات، وأوجه متنوعة. فكان كل قارئ يختار من هذه القراءات ومن هذه الأوجه ما يروق في نظره.

والجواب على هذه الشبة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: القراءات نزلت من عند الله وليست ناشئة من خلو المصاحف من النقط والشكل.

الوجه الثاني: القراءات مصدرها التلقي والسماع وليس للاجتهاد والتشهي.

الوجه الثالث: أن سيدنا عثمان لما أرسل المصاحف أرسل مع كل مصحف معلمًا يعلم المسلمين القراءة؛ ليكون الأصل التلقي.

الوجه الرابع: في القرآن الكريم كلمات تكررت في مواضع كثيرة، ورُسمت برسم واحد في جميع المواضع، ولكنها في بعض المواضع وردت فيها القراءات، والبعض الآخر لم تتنوع فيها القراءات التي يحتملها رسمها، فدل على أن الأصل التلقي، وليس لخلو المصحف من النقط والشكل.

الوجه الخامس: في القرآن الكريم كلمات رسمت غير معجمة ولا مشكولة ورسمها يحتمل أكثر من قراءة واللغة العربية تجيز فيها هذه القراءات، ومع ذلك ليس فيها إلا قراءة واحدة.

الوجه السادس: لو كان الأمر على خلو المصحف من النقط والشكل فهذا لا يستقيم مع حكمة الله في حفظه للقرآن.

الوجه السابع: لو كان الأمر على خلو المصحف من النقط والشكل وعلى حسب الاختيار لما يحتمله الرسم؛ لكان القرآن من كلام البشر والله وعد بحفظه.

الوجه الثامن: التبديل في القرآن الكريم يستوجب عقابًا من الله.

الوجه التاسع: من القراء العشر من كان إمامًا في النحو، ومع ذلك كان يخالف مذهبه في النحو لأجل القراءة مما يدل على أن الأصل التلقي لا لخلو المصحف من الشكل والنقط.

الوجه العاشر: أجمع المسلمون على تواتر قراءات الأئمة العشرة، وثبوتها عن رسول الله ﷺ بطريق القطع واليقين.

الوجه الحادي عشر: القراءة ليست على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القراءات نزلت من عند الله وليست ناشئة من خلو المصاحف من النقط والشكل.

قال أبو عمرو الداني: وهذه القراءات كلها، والأوجه بأسرها من اللغات، هي التي أنزل القرآن عليها، وقرأ بها رسول الله ﷺ، وأقرأ بها، وأباح الله تعالى لنبيه ﷺ القراءة بجميعها، وصوب الرسول ﷺ من قرأ ببعضها دون بعض. (١)

ومما يدل على ذلك الأحاديث الدالة على نزول القرآن على سبعة أحرف.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **"أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ"**. (٢)

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُها عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قَرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ، دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُها عَلَيْهِ، و دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَرَأَ. فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا. فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنْ التَّكْذِيبِ وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي. ضَرَبَ فِي صَدْرِي. فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى الله ﷻ

---

(١) الأحرف السبعة (٥٣)، وانظر القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي (٧٢).

(٢) رواه البخاري (٤٩٩٢)، ومسلم (٨١٨).

فَرَقًا. فَقَالَ لِي: "يَا أُبَيُّ! أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنْ اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ. فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللهمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ ﷺ"[1].

الوجه الثاني: القراءات مصدرها التلقي والسماع وليس الاجتهاد والتشهي

قال ابن حجر: وتتمة ذلك أن يقال: إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، أي إن كل أحد منهم يغير الكلمة بمرادفها في لغته؛ بل المراعى في ذلك السماع من النبي ﷺ، ويشير إلى ذلك قول كلٍ من: عمر وهشام في حديث الباب أقرأني النبي ﷺ[2].

قلنا يشير إلى حديث عمر بن الخطاب قال: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ! ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ. فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: كَذَبْتَ. فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ. فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَرْسِلْهُ. اقْرَأْ يَا هِشَامُ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ. ثُمَّ قَالَ: اقْرَأْ يَا عُمَرُ. فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ. إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**"[3].

فيؤخذ التلقي والمشافهة والسماع من قول عمر لما سمع هشامًا يقرأ: (فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ). ومن قول هشام لعمر: (أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ) هكذا إلى آخر الحديث،

(١) رواه مسلم (٨٢٠).

(٢) فتح الباري(٨/ ٦٤٤).

(٣) رواه البخاري (٤٩٩٢)، ومسلم (٨١٨).

فقد تكرر لفظ الإقراء مما يدل على أن القراءات إنما تثبت بالتوقيف والتلقين والتلقي. [١]

عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: القراءة سنة. [٢]

قال البيهقي: وَإِنَّمَا أَرَادَ -وَالله أَعْلَمُ- أَنَّ اتِّبَاعَ مَنْ قَبْلَنَا فِي الْحُرُوفِ، وَفِي الْقِرَاءَاتِ سنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، لاَ يَجُوزُ مُخَالَفَةُ الْمُصْحَفِ الذي هُوَ إِمَامٌ، وَلاَ مُخَالَفَةُ الْقِرَاءَاتِ التي هي مَشْهُورَةٌ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ سَائِغًا فِي اللُّغَةِ أَوْ أَظْهَرَ مِنْهَا. [٣]

قال أبو شامة: -في شرحه للشاطبية عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ (الحج: ٢٣)، ورسم بالألف في الحج خاصة دون فاطر، والقراءة نقل؛ فما وافق منها ظاهر الخط كان أقوى وليس اتباع الخط بمجرده واجبًا؛ ما لم يعضده نقل، فإن وافق فبها ونعمت، وذلك نور على نور، قال الشيخ السخاوي- تلميذ الشاطبي- وهذا الموضع أدلَّ دليل على اتباع النقل في القراءة؛ ؛ لأنهم لو اتبعوا الخط وكانت القراءة إنما هي مستندة إليه لقرءوا هنا- الحج- بألف، وفي الملائكة- فاطر- بالخفض.

قال أبو عبيد: ولولا الكراهة لخلاف الناس لكان اتباع الخط أحبَّ إليَّ، فيكون هذا – في الحج- بالنصب، والآخر- في فاطر – بالخفض. [٤]

قال ابن تيمية: وأما قول السائل: ما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف؟ فهذا مرجعه إلى النقل واللغة العربية لتسويغ الشارع لهم القراءة بذلك كله؛ إذ ليس لأحد أن يقرأ قراءة بمجرد رأيه؛ بل القراءة سنة متبعة، وهم إذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب في المصحف الإمامي، وقد قرأ بعضهم بالياء وبعضهم بالتاء لم

---

(١) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي (٤١) بتصرف.

(٢) حسن. أخرجه سعيد بن منصور في سننه(٢/ ٢٦٠)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢١٨)، وابن مجاهد في السبعة (٤٩)، والطبراني في الكبير(٥/ ١٣٣) من طرق عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي(٢/ ٣٨٥).

(٤) إبراز المعاني من حرز الأماني (٢/ ٣٠٠).

يكن واحد منهم خارجًا عن المصحف. ومما يوضح ذلك أنهم يتفقون في بعض المواضع على ياء أو تاء ويتنوعون في بعض كما اتفقوا في قوله تعالى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ في موضع وتنوعوا في موضعين، وقد بينا أن القراءتين كالآيتين، فزيادة القراءات كزيادة الآيات؛ لكن إذا كان الخط واحدًا واللفظ محتملًا كان ذلك أخصر في الرسم. والاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب لا على المصاحف. اهـ[1].

الوجه الثالث: أن سيدنا عثمان لما أرسل المصاحف أرسل مع كل مصحف معلم يعلم المسلمين القراءة؛ ليكون الأصل التلقي.

لما كُتبت المصاحف العثمانية وأُرسلت إلى الأمصار الإسلامية، لم يكتف الخليفة عثمان بإرسالها إلى الأمصار وحدها، لتكون الملجأ والمرجع؛ بل أرسل مع كل مصحف عالمًا من علماء القراءة، يعلم المسلمين القرآن وفق هذا المصحف، وعلى مقتضاه، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدينة، وبعث عبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام، وعامر بن قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يقرئ أهل مصره بما تعلمه من القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ بطريق التواتر التي يحتملها رسم المصحف دون الثابتة بطريق الآحاد والمنسوخة، وإن كان يحتملها رسم المصحف، فالمقصود من إرسال القارئ مع المصحف، تقييد بما يحتمله الرسم من القراءات بالمنقول منها تواترًا، فلو كانت القراءات مأخوذة من رسم المصحف وساغ لكل إنسان أن يقرأ بكل قراءة يحتملها رسم المصحف سواء كانت ثابتة بطريق التواتر أم بطريق الآحاد أم كانت منسوخة أم لم يكن لها سند أصلًا لم يكن ثمَّ حاجة إلى إرسال عالم مع المصحف، فإيفاد عالم مع المصحف دليل واضح على أن القراءة إنما تعتمد على التلقي، والنقل، والرواية، لا على الخط، والرسم، والكتابة[2].

الوجه الرابع: في القرآن الكريم كلمات تكررت في مواضع كثيرة، ورُسمت برسم واحد في جميع المواضع، ولكنها في بعض المواضع وردت فيها القراءات، والبعض الآخر لم تتنوع فيها القرءات التي يحتملها رسمها؛ فدل على أن الأصل التلقي، وليس لخلو المصحف

---

(١) الفتاوى (١٣/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي (٤٣: ٤٢).

من النقط والشكل.

لو كان خلو المصاحف من الشكل والإعجام سببًا في تنوع القراءات واختلافها؛ أي أن هذا الاختلاف نتيجة حتمية لخلو المصاحف من الشكل والإعجام؛ لكانت كل قراءة يحتملها رسم المصحف صحيحة معتبرة من القرآن، وليس كذلك، فإن ما يحتمله رسم المصاحف من القراءات أربعة أقسام:

القسم الأول: ما ثبت بطريق التواتر، وهو جلُّ القراءات ومعظمها كالقراءات في كلمة(وَنُخْرِجُ)، في قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء: ١٣)، فإن كلمة ﴿وَنُخْرِجُ﴾ فيها ثلاث قراءات:

الأولى: بنون مضمومة مع كسر الراء. [١] ﴿وَنُخْرِجُ﴾.

الثانية: بياء مثناة تحتية مضمومة مع فتح الراء. [٢] ﴿وَيُخْرَجُ﴾

الثالثة: بياء مثناة تحتية مفتوحة مع ضم الراء. [٣] ﴿وَيَخْرُجُ﴾

والقراءات الثلاثة ثابتة بطريق التواتر، والرسم يحتملها كلها.

القسم الثاني: ما ثبت بطريق الآحاد وصح سنده بنقل العدل الضابط عن مثله، وهكذا إلى نهاية السند، واستفاض نقله عن أئمة الأداء، واشتهر ذكره بين شيوخ الإقراء وتلقاه علماء القراءة بالرضا والقبول، كقراءة ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ (الأعراف: ٥٨) بضم الياء وكسر الراء في ﴿يُخْرِجُ﴾[٤].

وقراءة ﴿أَجَعَلْتُمْ سُقَاةَ الْحَاجِّ وَعَمَرَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (التوبة: ١٩) بضم السين

(١) قراءة الجمهور عدا أبي جعفر ويعقوب. (النشر ٢/ ٣٠٦).

(٢) قراءة أبي جعفر. النشر (٢/ ٣٠٦).

(٣) قراءة يعقوب. النشر (٢/ ٣٠٦).

(٤) ابن وردان بخلف عنه. (النشر ٢/ ٢٧٠).

وحذف الياء[١] -جمع ساق مثل رماة جمع رام، وعمرة بفتح العين والميم مع حذف الألف بعدها جمع عامر، مثل: صنعة جمع صانع، فهاتان القراءتان مع ثبوتهما بطريق الآحاد قد صح سندهما وذاع بين القراء خبرهما، وتلقوهما بالقبول، ورسم المصحف يحتملهما، وحكم هذين القسمين واحد، وهو: أن يكون كل واحد منهما يعتبر قرآنًا ويُتعبد بتلاوته في الصلاة وغيرها، فيجب قبوله ولا يحل إنكار شيء منه، ومن أنكر شيئًا منه فهو كافر حلال الدم.

القسم الثالث: ما ثبت بطريق الآحاد وصح سنده، ولكنه لم يشتهر ولم يظهر بالذيوع والاستفاضة، ولم يتلقاه علماء القراءة بالقبول كقراءة ﴿وكان عبدًا لله وجيهًا﴾ بفتح العين وباء تحتية موحدة ساكنة بعد العين مع نصب الدال وتنوينها. [٢] بدلًا من ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب: ٦٩)، وهذا القسم شاذ تُمنع القراءة به منع تحريم في الصلاة وخارج الصلاة، ولا يحل التعبد بتلاوته.

القسم الرابع: ما لم يصح سنده أو لم يُعرف له سند أصلًا كقراءة بعضهم ﴿**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا- أباه**﴾ (التوبة: ١١٤)، بهمزة مفتوحة وباء موحدة تحتية مفتوحة بدلًا من ﴿إِيَّاهُ﴾ إياه بكسر الهمزة وياء مثناة تحتية مفتوحة مشددة، وهذا القسم لا يُعتبر قرآنًا، ولا يسوغ التعبد بتلاوته بحال، فتحرم القراءة به بإجماع المسلمين، ورسم المصحف يحتمل هذين القسمين الثالث والرابع.

وأزيد هذا الدليل إيضاحًا فأقول: في القرآن الكريم كلمات تكررت في مواضع كثيرة ورُسمت برسم واحد في جميع المواضع، ولكنها في بعض المواضع وردت فيها القراءات التي يحتملها رسمها، فاختلف فيها القراء وتنوعت فيها قراءاتهم، وفي بعض المواضع اتفق القراء على قراءتها بوجه واحد؛ لأن غيره لم يصح به النقل، ولم تثبت به الرواية مع أن الرسم يحتمله، وهاك أمثلة لما ذكرنا:

---

(١) ابن وردان بخلف عنه. (النشر ٢/ ٢٧٨).

(٢) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني(٢/ ١٨٥).

المثال الأول: كلمة (مُلك).

ذُكرت في القرآن على أنها صفة أو في حكم الصفة في ثلاثة مواضع ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٤)، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ (آل عمران: ٢٦) ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس: ٢)، ورُسمت هذه الكلمة برسم واحد في المواضع الثلاثة، وهو حذف الألف بعد الميم ولكن اختلفوا في قراءتها في موضع الفاتحة فقط، فمنهم من قرأها فيه بحذف الألف[1]، ومنهم من قرأها فيه بإثباتها[2].

أما موضع آل عمران، فقد اتفقوا على قراءتها فيه بإثبات الألف مع أنه لو قُرئت الكلمة في هذا الموضع بحذف الألف لكان ذلك سائغًا لغةً ومعنى، ولكن لم تُقرأ بالحذف في هذا الموضع لعدم ثبوت الرواية فيه بالحذف.

وأما موضع سورة الناس فقد اتفق القراء على قراءة الكلمة فيه بحذف الألف مع أنه لو قُرئت هذه الكلمة في هذا الموضع بإثبات الألف لكان ذلك سائغًا لغةً ومعنى، ولكن لم تُقرأ الكلمة في هذا الموضع بالإثبات لعدم ثبوت النقل فيه بالإثبات، فلو كانت القراءات بالرأي والاجتهاد لا بالتلقي والتوقيف، وكان تنوع القراءات تابعًا لرسم المصحف لم يكن اختلاف القراء مقصورًا على موضع الفاتحة؛ بل كان يتناول الموضعين الآخرين، لكنهم اختلفوا في موضع الفاتحة واتفقوا في موضعي آل عمران والناس، فدل هذا على أن القراءات لم تكن بالاختيار والاجتهاد، ولم يكن تنوعها تابعًا للخط والرسم، وإنما هو تابع للسند والرواية والنقل.

المثال الثاني: كلمة ﴿غِشَـٰوَةٌ﴾.

وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في موضعين:

الأول: في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَـٰرِهِمۡ غِشَـٰوَةٌ﴾ (البقرة: ٧).

---

(١) الجمهور. النشر (١/ ٢٧١).

(٢) عاصم والكسائي ويعقوب وخلف البزار (النشر ١/ ٢٧١).

الثاني: في سورة الجاثية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ (الجاثية: ٢٣)، وهذه الكلمة مرسومة في جميع المصاحف العثمانية بحذف الألف بعد الشين في الموضعين معًا، ومع ذلك اتفق القراء على قراءتها في موضع البقرة بكسر الغين وفتح الشين وإثبات ألف بعدها، واختلفوا في قراءتها في موضع الجاثية، فقرأها بعضهم بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها[(١)]، وقرأها بعضهم بفتح الغين وسكون الشين -من غير ألف-[(٢)]، ولو قُرئ موضع البقرة بفتح الغين وسكون الشين لكان ذلك صحيحًا لغةً ومعنى، ولكن لم يقرأ أحد بهذه القراءة في هذا الموضع لعدم ثبوتها فيه، وهذا يدل على أن القراءة إنما تُؤخذ بالمشافهة والسماع ولا تُؤخذ من خط المصحف ورسمه.

المثال الثالث: كلمة ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.

ذُكرت هذه الكلمة معرفة ومنكرة في القرآن الكريم في ستة مواضع:

الأول: في سورة البقرة ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥).

الثاني: في سورة النساء ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾ (النساء: ١٥٣).

الثالث والرابع: في قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ (فصلت: ١٣).

الخامس: في سورة فصلت أيضًا ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (فصلت: ١٧).

السادس: في سورة الذاريات: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٤).

وهذه الكلمة مرسومة في جميع المصاحف العثمانية في المواضع الستة بدون ألف بعد صاد، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها في المواضع الخمسة الأولى بإثبات الألف بعد الصاد مع كسر العين، واختلفوا في الموضع السادس، فقرأها بعضهم فيه بإثبات الألف بعد

(١) الجمهور. النشر (٢/ ٣٧٢).

(٢) حمزة والكسائي وخلف البزار. (النشر ٢/ ٣٧٢).

الصاد مع كسر العين[1]، وقرأها بعضهم بحذف الألف مع سكون العين[2]، ومعنى القراءتين واحد، فلو كان تنوع القراءات تابعًا للرسم لاختلف القراء في الموضع الخمسة كما اختلفوا في الموضع السادس، ولكنهم اتفقوا في المواضع الخمسة واختلفوا في السادس، فكان ذلك دليلًا على أن العمدة في ثبوت القراءة التوقيف والرواية لا الرسم والكتابة[3].

الوجه الخامس: في القرآن الكريم كلمات رسمت غير معجمة ولا مشكولة، ورسمها يحتمل أكثر من قراءة، واللغة العربية تجيز فيها هذه القراءات، ومع ذلك ليس فيها إلا قراءة واحدة

في القرآن الكريم كلمات أخرى رسمت غير معجمة ولا مشكولة، ورسمها كذلك يجعلها محتملة لقراءات متعددة، واللغة العربية تجيز فيها هذه القراءات، ومع ذلك لم يختلف فيها القراء ولم تتعدد فيها القراءات؛ بل اتفقوا على قراءة واحدة فيها؛ لأنه لم يرو فيها بالسند القوي والأثر الثابت والنقل الموثوق، إلا هذه القراءة، وأما غيرها من القراءات التي يحتملها رسم المصاحف فليس له سند يُعتمد عليه، وأصل يُرد إليه فلم يقرأ به أحد، وهاك أمثلة لذلك:

١ -(خَطِفَ- يخطَفُ) جاء في لغة العرب أن فيها لغتين، خَطِفَ يخطَفُ من باب عَلِمَ يعلَم، وخَطِفَ يخطِفُ من باب عمَدَ يعمِد، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها بكسر الطاء في الماضي وفتحها في المضارع.

٢- ﴿مُكْثٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ (الإسراء: ١٠٦).

اللغة تجيز فيها تثليث الميم ورسمها يحتمل الأوجه الثلاثة، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها بضم الميم، فلو كانت القراءات بالرأي والاختيار وكان خلو الكلمات من الشكل

(١) الجمهور. (النشر ٢/ ٣٧٧)

(٢) الكسائي. النشر (٢/ ٣٧٧).

(٣) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي (٤٩: ٤٣) باختصار. وقد ضرب أمثلة كثيرة على هذا المنوال فراجعه.

سببًا في اختلاف القراءات وتنوعها؛ لاختلف القراء في قراءة الكلمات السابقة، فكان منهم من يقرأ: خطف يخطف من باب علم يعلم، وكان منهم من يقرأ مكث بضم الميم، ومنهم من يقرأ بفتحها، ومنهم من يقرأ بكسرها، والمعنى لا يختلف، واللغة تسيغ جميع هذه القراءات، ولكن القراء اتفقوا على قراءة خطف بالكسر يخطف بالفتح، وعلى قراءة (مُكْثٍ) بالضم، فحينئذ لا تكون القراءات بالرأي والاختيار ولا بالهوى والاجتهاد، ولا يكون تجرد المصاحف من الشكل سببًا في تنوع القراءات واختلافها سببًا في تنوع القراءات واختلافها، إنها سبب التنوع والاختلاف

الروايات الصحيحة والأسانيد الموصولة والنقول الصريحة والتوقيف والتلقي والسماع[1].

الوجه السادس: لو كان الأمر على خلو المصحف من النقط والشكل فهذا لا يستقيم مع حكمة الله في حفظه للقرآن

ينجم عن رأي جولد زيهر ومن شايعه من الملاحدة وهو أن منشأ القراءات تجرد المصاحف من النقط والشكل، أن يكون القرآن الكريم قد قُرئ في خير العهود -عهد النبي ﷺ وعهد الصحابة وعهد التابعين- بقراءات وأوجه لا يُعرف الصحيح منها من غيره، ولا المنزل منها من غير المنزل، ولا المتواتر منها من غير المتواتر، وبداهة العقل قاضية ببطلان هذا وفساده، ثم إنه لا يستقيم في حكمة الحكيم ﷻ أن يكل أمر القرآن وهو أعظم دستور سماوي إلى العباد يقرؤه كل واحد منهم حسب ميله وهواه، وحسب رغبته واختياره، ويعبر كل منهم في نطاق قدرته على التعبير والأسلوب، والناس في هذا متفاوتون تفاوتًا شاسعًا.

أقول: لا يستقيم هذا في حكمة الحكيم؛ لأن فيه تعريضًا لنصوص القرآن للتناقض والتعارض والتخاذل والتهافت والتغيير والتحريف والخطأ والتصحيف[2].

---

(١) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٦٥: ٦٦ باختصار وقد ضرب أمثلة كثيرة على هذا المنوال فراجعه.

(٢) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٧٢: ٧٣.

الوجه السابع: لو كان الأمر على خلو المصحف من النقط والشكل، وعلى حسب الاختيار لما يحتمله الرسم؛ لكان القرآن من كلام البشر والله وعد بحفظه.

لو كان مبعث اختلاف القراءات وتنوعها خلو المصاحف من النقط والشكل، وكان كل قارئ يقرأ بقراءة يختارها من تلقاء نفسه إذا كان الرسم محتملًا لها، ولم يكن مبعثها الوحي والمشافهة والتلقي من فيه ﷺ لكان القرآن من كلام البشر، ولم يكن كله وحيًا سماويًا منزَّلًا من عند الله تعالى، ولو كان كذلك لذهبت أعظم خاصية من خصائصه، تلك الخاصية التي امتاز بها القرآن عن سائر الكتب السماوية السابقة وهو الإعجاز، ولو ذهبت عنه صفة الإعجاز لم يكن للتحدي به -بجميع قراءاته ورواياته- وجه، ولم يكن لعجز العرب عن معارضته سر -حيث إن بعضه من وضع جنسهم- ولم يكن للإيمان به والتعبد بتلاوته معنى أصلًا، لكن الله تعالى أمرنا بالإيمان به، والتعبد بتلاوته، وتحدى به سائر العرب، فعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله؛ بل بأقصر سورة من سوره، فحينئذ تكون صفة الإعجاز ملازمة له لا تفارقه ولا تنفك عنه.

إذًا لم يكن بعضه من كلام البشر؛ بل كله من كلام الله ﷻ، فلا يكن مبعث القراءات خلو المصاحف من النقط والحركات، بل مبعثها الوحي والتلقي والمشافهة من فيه ﷺ، وهو المطلوب[1].

إن الله تعالى وعد بحفظ كتابه من أن تمتد إليه يد العبث والتحريف التي امتدت إلى ما سبقه من الكتب السماوية.[2] فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢)، ولا شك أن قراءته بالرأي والاختيار تفضي - من قريب أو من بعيد - إلى تعريض نصوصه للتغيير والتصحيف، وذلك ينافي الوعد بحفظه، ووصفه بأنه ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾.

---

(١) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٧٣: ٧٤.

(٢) راجع مسألة حفظ القرآن في بحث جمع القرآن في هذه الموسوعة.

الوجه الثامن: التبديل في القرآن الكريم يستوجب عقابًا من الله.

إن القرآن الكريم سجل على رسول الله ﷺ أنه لا يستطيع أن يبدل في القرآن الكريم كلمة بكلمة أو حرفًا بآخر، وأشار إلى أن هذا التبديل معصية يترتب عليها العقاب الأخروي الشديد، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (يونس: ١٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤ - ٤٦).

فإذا كان الرسول ﷺ لا يستطيع أن يبدل في القرآن الكريم شيئًا، فهل يملك غيره صحابيًا كان أم تابعيًا أم غيرهما، أن يضع كلمة مكان كلمة، أو حرفًا في موضع حرف[(١)].

الوجه التاسع: من القراء العشر من كان إمامًا في النحو، ومع ذلك كان يخالف مذهبه في النحو لأجل القراءة، مما يدل على أن الأصل التلقي لا لخلو المصحف من الشكل والنقط.

إن من القراء العشرة قد بلغ الذروة في العربية، وكان فيها إمامًا يُرحل إليه ويؤخذ عنه، وله مذهب خاص اشتهر به، ومع ذلك كان في القراءة لا يتعدى ما نقله عن أئمته، وتلقاه عن شيوخه ولو خالف مذهبه في العربية، من هؤلاء الإمام أبو عمرو ابن العلاء البصري.

قال الأصمعي: قال لي أبو عمرو: لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قُرئ لقرأت كذا وكذا من الحروف، كذا وكذا[(٢)].

فكان أبو عمرو يخالف مذهبه في النحو اتباعًا للأثر.

---

(١) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٧٤.

(٢) حسن. أخرجه ابن مجاهد في السبعة صـ٤٨، صـ ٨٢ من طريق نصر بن علي قال أخبرنا الأصمعي قال سمعت أبا عمرو يقول لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قد قرىء به لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا.

قال ابن خالويه: أدغم أبو عمرو وحده الراء في اللام من ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وما شاكله في القرآن وهو ضعيف عند البصريين[1].

وورد عن الكسائي مثل ما ورد عن أبي عمرو، فكانت قراءته في بعض المواضع تخالف مذهبه في النحو، وليس هناك تفسير لذلك إلا أن هؤلاء الأئمة كانوا يستندون في قراءتهم إلى النقل والرواية لا إلى القواعد والدراية.

قال سفيان الثوري: ما قرأ حمزة حرفًا من كتاب الله تعالى إلا بأثر. [2]

وكان ليحيى بن سلام اختيار في القراءة، ولكن من طريق الآثار، وكان الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام يختار من القراءات ما يوافق العربية والأثر جميعًا[3].

الوجه العاشر: أجمع المسلمون على تواتر قراءات الأئمة العشرة، وثبوتها عن رسول الله ﷺ بطريق القطع واليقين.

قال القرطبي: وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات فاستمر الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما.

قال ابن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءات السبعة وبها يصلى؛ لأنها ثبتت بالإجماع[4].

قال عبد الوهاب بن السبكي: الحمد لله، القراءات السبع التي اقتصر عليها الشاطبي، والثلاث التي هي قراءة أبي جعفر وقراءة يعقوب، وقراءة خلف متواترة معلومة من الدين

---

(١) الحجة في القراءات السبع صـ ٨٠

(٢) حسن. أخرجه ابن مجاهد في السبعة في القراءات صـ ٧٦ حدثني مطين محمد بن عبد الله قال حدثنا عقبة بن قبيصة بن عقبة قال حدثني أبي كنا عند سفيان الثوري فجاءه حمزة فكلمه فلما قام قال سفيان أترون هذا ما قرأ حرفا من كتاب الله إلا بأثر.

(٣) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٧٨: ٧٧.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٦٤.

بالضرورة، وكل حرف انفرد به واحد من العشرة معلوم من الدين بالضرورة أنه مُنزل على رسول الله ﷺ لا يكابر في شيء من ذلك إلاَّ جاهل وليس تواتر شيء منها مقصورًا على من قرأ بالروايات؛ بل هي متواترة عند كل مسلم يقول: أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله، ولو كان مع ذلك عاميًا جلفًا لا يحفظ من القرآن حرفًا، ولهذا تقرير طويل، وبرهان عريض لا يسع هذه الورقة شرحه، وحظ كل مسلم وحقه أن يدين الله تعالى ويجزم بأن ما ذكرناه متواتر معلوم باليقين، لا يتطرق الظنون ولا الارتياب إلى شيء منه، والله أعلم[1].

الوجه الحادي عشر: القراءة ليست على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل

قال أبو عمرو: وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها.[2]

قال ابن الجزري: ومن ثم امتنعت القراءة بالقياس المطلق، وهو الذي ليس له أصل في القراءة يرجع إليه، ولا ركن وثيق في الأداء يعتمد عليه كما روينا عن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت رضي الله عنهما من الصحابة، وعن ابن المنكدر، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، وعامر الشعبي من التابعين أنهم قالوا: القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول فاقرؤوا كما علمتموه. ولذلك كان الكثير من أئمة القراءة كنافع وأبي عمرو يقول: لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرأت لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا. (أما) إذا كان القياس على إجماع انعقد أو عن أصل يعتمد فيصير إليه عند عدم النص وغموض وجه الأداء؛ فإنه مما يسوغ قبوله ولا ينبغي رده لا سيما فيما تدعو إليه الضرورة؛ وتمس الحاجة مما يقوي وجه الترجيح ويعين على قوة التصحيح؛ بل قد لا يسمى ما كان كذلك قياسًا على الوجه الاصطلاحي؛ إذ هو في الحقيقة نسبة جزئي إلى كلي كمثل ما اختير في تخفيف بعض الهمزات لأهل الأداء، وفي إثبات

---

(١) نقله عنه ابن الجزري في النشر ١/ ٤٦.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ١٠.

البسملة وعدمها لبعض القراء، ونقل (كتابيه إني) وإدغام (ماليه هلك) قياسًا عليه، وكذلك قياس (قال رجلان. وقال رجل) على (قال رب) في الإدغام كما ذكره الداني وغيره ونحو ذلك مما لا يخالف نصًا ولا يرد إجماعًا ولا أصلًا مع أنه قليل جدًا. [١]

الشبهة الثانية: الاختلاف في الأحرف يوقع في شك وريب من القرآن

نص الشبهة:

يقولون: إن هذا الاختلاف في القراءات يوقع في شك وريب من القرآن، خصوصًا إذا لاحظنا في بعض الروايات معنى تخيير الشخص أن يأتي من عنده باللفظ وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى كحديث أبي بكرة وفيه: كلها شاف كاف ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب نحو قولك: تعال وأقبل وهلم واذهب وأسرع وعجل. جاء بهذا اللفظ من رواية أحمد بإسناد جيد، ومثله حديث أُبي بن كعب.

وأكثر من ذلك ما جاء أن عبد الله بن مسعود أقرأ رجلًا: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ فقال الرجل: طعام اليتيم فردها عليه فلم يستقم بها لسانه. فقال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر قال: نعم. قال: فافعل.

أولًا: تخريج النصوص وبيان صحتها:

فعَن أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، قَالَ مِيكَائِيلُ عليه السلام: اسْتَزِدْهُ فَاسْتَزَادَهُ قَالَ: اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، قَالَ مِيكَائِيلُ: اسْتَزِدْهُ فَاسْتَزَادَهُ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ. قَالَ: كُلٌّ شَافٍ كَافٍ مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ نَحْوَ قَوْلِكَ تَعَالَ وَأَقْبِلْ وَهَلُمَّ وَاذْهَبْ وَأَسْرِعْ وأعجل. وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَرَأْتُ آيَةً وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ خِلَافَهَا فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: أَلَمْ تُقْرِئْنِي آيَةَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: بَلَى، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَلَمْ تُقْرِئْنِيهَا كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: بَلَى، كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ مُجْمِلٌ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ، فَضَرَبَ صَدْرِي فَقَالَ: يَا أُبَيُّ بْنَ كَعْبٍ! إِنِّي أُقْرِئْتُ الْقُرْآنَ، فَقِيلَ لِي: عَلَى حَرْفٍ أَوْ عَلَى حَرْفَيْنِ؟ قَالَ

---

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ١٧: ١٨.

فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعِي: عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقُلْتُ: عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقَالَ: عَلَى حَرْفَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ؟ فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعِي: عَلَى ثَلَاثَةٍ. فَقُلْتُ: عَلَى ثَلَاثَةٍ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ لَيْسَ مِنْهَا إِلَّا شَافٍ كَافٍ، إِنْ قُلْتَ: غَفُورًا رَحِيمًا أَوْ قُلْتَ: سَمِيعًا عَلِيمًا أَوْ عَلِيمًا سَمِيعًا فَاللهُ كَذَلِكَ، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ(١).

عن همام بن الحارث، أن أبا الدرداء كان يُقرئ رجلًا ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. (٢)

عن عون بن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلًا ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ فقال الرجل: طعام اليتيم، فرددها عليه فلم يستقم بها لسانه، فقال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: نعم. قال: فافعل. (٣)

ثانيا: توجيه النصوص من وجوه:

الوجه الأول: أن اختلاف القراءات لا يوقع في شك ولا ريب ما دام الكل نازلا من عند الله.

الوجه الثاني: أمّا هذه الروايات التي اعتمدت عليها الشبهة فلا نسلم أنه يفهم منها معنى تخيير الشخص أن يأتي من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى حتى يوقع ذلك في ريب من هذا التنزيل؛ بل قصارى ما تدل عليه هذه الروايات أن الله تعالى وسَّع على عباده خصوصا في مبدأ عهدهم بالوحي أن يقرؤوا القرآن بما تلين به ألسنتهم. وكان من جملة هذه التوسعة القراءة بمترادفات من اللفظ الواحد للمعنى الواحد، مع ملاحظة أن الجميع نازل من عند الله نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ١٢٤، وأبو داود في سننه (١٤٧٧)، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/ ١٥١: رواه أحمد والطبراني في المعجم الكبير بنحوه إلا أنه قال: وذهب وأدبر، وفيه على بن زيد بن جدعان، وهو سيء الحفظ، وقد توبع، وبقيه رجال أحمد رجال الصحيح. قال الألباني: إسناده صحيح. الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ٢/ ٩١.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٣ بإسناد صحيح.

(٣) الدر المنثور٩/ ١٢٩ بإسناد فيه ضعف فإن عون بن عتبة روايته عن ابن مسعود مرسلة كما قال الدار قطني.

وقرأه الرسول على الناس على مكث، وسمعوه منه ثم نسخ الله ما شاء أن ينسخ بعد ذلك، وأبقى ما أبقى لحكمة سامية تستقبلك في مبحث النسخ. يدل على أن الجميع نازل من عند الله تعالى قولُه ﷺ لكل من المتنازعين المختلفين في القراءة من أصحابه: "هكذا أنزلت" وقول كل من المختلفين لصاحبه: أقرأنيها رسول الله ﷺ. وقول الله تعالى لرسوله جوابا لمن سأله تبديل القرآن: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وليس بعد كلام الله ورسوله كلام. كذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر في نظم هذا القرآن لا من ناحية أسلوبه ولا من ناحية ألفاظه؛ بل ولا من ناحية قانون أدائه، فمن يخرج على هذا الإجماع ويتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيرًا.

وها نحن أولًا قد رأينا القرآن في تلك الآية يمنع الرسول من محاولة ذلك منعًا باتًا مشفوعًا بالوعيد الشديد ومصحوبًا بالعقاب الأليم. فما يكون لابن مسعود ولا لأكبر من ابن مسعود بعد هذا أن يبدل لفظًا من ألفاظ القرآن بلفظ من تلقاء نفسه.

أما هذه الرواية المنسوبة إلى ابن مسعود من أنه أقرأ الرجل بكلمة الفاجر بدلًا من كلمة الأثيم في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ فتدل على أن ابن مسعود سمع الروايتين عن رسول الله ﷺ، ولما رأى الرجل قد تعسر عليه النطق بالأولى أشار عليه أن يقرأ بالثانية وكلاهما منزل من عند الله.

وكذلك حديث أبي بكرة السابق لا يدل على جواز تبديل الشخص ما شاء من القرآن بما لا يضاده كما زعم الواهم؛ إنما ذلك الحديث وأشباهه من باب الأمثال التي يضربها الرسول ﷺ للحروف التي نزل عليها القرآن؛ ليفيد أن تلك الحروف على اختلافها ما هي إلا ألفاظ متوافقة مفاهيمها، متساندة معانيها، لا تخاذل بينها ولا تهافت، ولا تضاد ولا تناقض، ليس فيها معنى يخالف معنى آخر على وجه ينفيه ويناقضه كالرحمة التي هي

خلاف العذاب وضدها، وتلك الأحاديث بهذا الوجه تقرير؛ لأن جميع الحروف نازلة من عند الله ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾.

وهاك برهانًا آخر ذكره صاحب التبيان في مثل هذا المقام إذ يقول: إن النبي ﷺ علم البراء بن عازب دعاءً فيه هذه الكلمة (ونبيك الذي أرسلت) فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال: ورسولك الذي أرسلت فلم يوافقه النبي ﷺ على ذلك؛ بل قال له: "لا. ونبيك الذي أرسلت"[1]. وهكذا نهاه ﷺ أن يضع لفظة رسول موضع لفظة نبي مع أن كليهما حق لا يحيل معنى إذ هو ﷺرسول ونبي معًا، ثم قال: فكيف يسوغ للجهال المغفلين أن يقولوا: إنه ﷺ كان يجيز أن يوضع في القرآن الكريم مكان عزيز حكيم غفور رحيم أو سميع عليم. وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآنًا والله يقول مخبرًا عن نبيه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ ولا تبديل أكثر من وضع كلمة مكان أخرى؟[2].

الوجه الثالث: أن ذلك كان رخصة لعسر تلاوته بلفظ واحد على الأميين ثم نسخ وإلا لجازت روايته بالمعنى، ولذهب التعبد بلفظه، ولا تسع الخرق، ولفات كثير من الأسرار والأحكام وهذا يستدعي نسخ الحديث وفيه بعد؛ بل لا قائل به[3].

---

(١) الحديث عند البخاري (٢٤٤)، ونصه: عن البراء بن عازب، قال: قال النبي ﷺ: "إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به". قال: فرددتها على النبي ﷺ، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: "لا، ونبيك الذي أرسلت".

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥.

(٣) روح المعاني ١/ ٢٠.

وقال القرطبي: ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزيغ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبًا للمتعلم، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله ﷺ. (١)

وقال الملا علي القاري: قال كثيرون من الأئمة: إنما كان ذلك، أي جواز تغيير اللفظ بمرادفه، رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد؛ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ، فالقرشي يشق عليه تخفيف الهمزة، واليمني تركه فلذلك سهل على كل قبيلة أن تقرأ بلغتها، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الكتابة والحفظ. (٢)

وقال الزركشي: إن ضرورة اختلاف لغات العرب ومشقة نطقهم بغير لغتهم؛ اقتضت التوسعة عليهم في أول الأمر، فأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه، أي على طريقته في اللغة إلى أن انضبط الأمر في آخر العهد، وتدربت الألسن، وتمكن الناس من الاقتصار على الطريقة الواحدة، فعارض جبريل النبي ﷺ القرآن مرتين في السنة الآخرة، واستقر على ما هو عليه الآن، فنسخ الله سبحانه تلك القراءة المأذون فيها بما أوجبه من الاقتصار على هذه القراءة التي تلقاها الناس مراعاة التخفيف على العجوز والشيخ الكبير(٣).

الوجه الرابع: إن هذا قد نسخ.

قال القاضي ابن الطيب: وإذا ثبت هذه الرواية - يريد حديث أُبَيٍّ - حُمل على أن هذه كان مطلقًا ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسمًا لله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف(٤).

الوجه الخامس: هذا خاص لمعان متفق مفهومها، مختلف مسموعها.

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٩.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١ / ٤٥٥.

(٣) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢١٣.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٤٤.

قال ابن عبد البر: إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها أنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافًا ينفيه ويضاده، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده وما أشبه ذلك(١).

الوجه السادس: هذا خاص بالنبي ﷺ.

قال صاحب عون المعبود: هَذَا يُفِيدُ أَنَّهُ كَمَا رَخَّصَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي اللُّغَات السَّبْع كَذَلِكَ رَخَّصَ لَهُ ﷺ فِي رُءُوس الْآيَات بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَام مِنْ أَسْمَاء الله تَعَالَى مِنْ غَيْر تَقْيِيدٍ بِبَعْضٍ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ هَذَا التَّغَيُّرُ وَالتَّبَدُّل لِكُلِّ أَحَد، وَلَمْ يُرَخِّصْ فِي ذَلِكَ عُمُومًا؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَقْتَصِرَ فِي الْقِرَاءَة عَلَى مَا ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَيْهِ أَكْثَر الْأَئِمَّة مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف وَالله أَعْلَمُ(٢).

الوجه السابع: هذا الحكمُ إنما كان قبل الإجماع على ترتيب القرآن في المصحف العثماني

إن هذا الحكم إنما كان قبل الإجماع على ترتيب القرآن في المصحف العثماني، فلما وقع الإجماع على منع تغيير الناس القرآن لم يجُز لأحد أن يجْعل موضع "سميع عليم" مثلا "عزيزًا حكيمًا"، ونحو ذلك قصدًا وعمدًا، ولكن إذا جرى على لسانه من غير قصدٍ إلى التغيير فلا بأس بذلك، حتى لو كان في الصلاة لا تفسدُ صلاته(٣).

الوجه الثامن: كانوا يفعلون ذلك قبل العرضة الأخيرة.

قال ابن تيمية: هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي ﷺ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الآخرة، فإنه قد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن جبريل عليه السلام

---

(١) التمهيد ٨/ ٢٨٤، الإتقان في علوم القرآن ١/ ٥٢.

(٢) عون المعبود ٣/ ٤٠٨.

(٣) شرح أبي داود للعيني ٥/ ٣٩٣.

كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه مرتين، والعرضة الآخرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف، وكتبها أبو بكر وعمر في خلافة أبي بكر في صحف. أمر زيد بن ثابت بكتابتها، ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالها إلى الأمصار، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة. [١]

الوجه التاسع: المقصد من الزيادة بيان المعنى.

قال ابن عادل: المقصود من الزيادة بيان المعنى فقط. [٢]

الشبهة الثالثة: نزول القرآن على سبعة أحرف يخالف قول الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

نص الشبهة:

يقولون: إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (٨٢)﴾، وذلك تناقض ولا ندري أيهما يكون الصادق.

والجواب: الاختلاف هنا بمعنى التنويع في طرق الأداء، اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتنافر وتناقض[٣].

إن الاختلاف الذي تثبته تلك الأحاديث غير الاختلاف الذي ينفيه القرآن. وهذا كاف في دفع التناقض فكلاهما صادق. وبيان ذلك أن الأحاديث الشريفة تثبت الاختلاف بمعنى التنويع في طرق أداء القرآن والنطق بألفاظه في دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف، وبشرط التلقي فيها كلها عن النبي ﷺ، أمَّا القرآن فينفي الاختلاف بمعنى التناقض

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٩٥.

(٢) تفسير اللباب لابن عادل ١٦/ ٣٦.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢/ ٨٧).

والتدافع بين معاني القرآن وتعاليمه مع ثبوت التنويع في وجوه التلفظ والأداء السابق، ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف لا يلزم منه تناقض، ولا تخاذل، ولا تضاد، ولا تدافع بين مدلولات القرآن ومعانيه، وتعاليمه ومراميه بعضها مع بعض؛ بل القرآن كله سلسلة واحدة متصلة الحلقات، محكمة السور والآيات، متآخذة المبادئ والغايات مهما تعددت طرق قراءته، ومهما تنوعت فنون أدائه[1].

ولابن الجزري كلام نفيس يتصل بهذا الموضوع قال: وأما حقيقة اختلاف هذه السبعة الأحرف المنصوص عليها من النبي ﷺوفائدته؛ فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض؛ فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾، وقد تدبرنا اختلاف القراءات كلها فوجدناها لا تخلو من ثلاثة أحوال:

(أحدها) اختلاف اللفظ والمعنى واحد. (الثاني) اختلافهما جميعًا مع جواز اجتماعهما في شيء واحد. (الثالث) اختلافهما جميعًا مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد؛ بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد.

فأما الأول: كالاختلاف في (الصراط، وعليهم، ويؤده، والقدس، ويحسب) ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط.

وأما الثاني: فنحو (مالك، وملك) في الفاتحة؛ لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى؛ لأنه مالك يوم الدين وملكه، وكذا (يكذبون، ويكذبون) لأن المراد بهما هم المنافقون؛ لأنهم

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥، و تاريخ القرآن الكريم لمحمد طاهر الكردي ١/ ٨٣، وقال الكردي: فاختلاف هذه الأحرف إنما هو اختلاف ألفاظ وتلاوة، لا اختلاف معان موجبة لاختلاف أحكامه (مثال ذلك) ما رواه ابن فارس بسنده عن هانئ قال: كنت عند عثمان ﷺ وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها " لم يتسن " و" فأمهل الكافرين " و" لا تبديل للخلق " قال فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب " لخلق الله " ومحا فأمهل وكتب " فمهل " وكتب " لم يتسنه " ألحق فيها هاء والقراءة في المصاحف على هذا الإصلاح.

يكذِّبون بالنبي ﷺ ويَكذِبون في أخبارهم، وكذا(كيف ننشرها) بالراء والزاي؛ لأن المراد بها هي العظام وذلك أن الله أنشرها أي أحياها، وأنشزها أي رفع بعضها إلى بعض حتى التأمت فضمن الله تعالى المعنيين في القراءتين.

وأما الثالث: فنحو (وظنوا أنهم قد كذبوا) بالتشديد والتخفيف، وكذا (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) بفتح اللام ورفع الأخرى وبكسر الأولى وفتح الثانية، وكذا (للذين هاجروا من بعد ما فتنوا) بالتسمية والتجهيل، وكذا قال (لقد علمت) بضم التاء وفتحها، وكذلك ما قرئ شاذًا (وهو يطعم ولا يطعم) عكس القراءة المشهورة، وكذلك (يطعم ولا يطعم) على التسمية فيهما؛ فإن ذلك كله وإن اختلف لفظًا ومعنى وامتنع اجتماعه في شيء واحد؛ فإنه يجتمع من وجه آخر يمتنع فيه التضاد والتناقض، فأما وجه تشديد (كذبوا) فالمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، ووجه التخفيف: وتوهم المرسَل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به فالظن في الأولى يقين والضمائر الثلاثة للرسل، والظن في القراءة الثانية شك والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم. وأما وجه فتح اللام الأولى ورفع الثانية من (لتزول) فهو أن يكون أن مخففة من الثقيلة أي: وإن مكرهم كان من الشدة بحيث تقتلع منه الجبال الراسيات من مواضعها، وفي القراءة الثانية إن نافية أي: ما كان مكرهم وإن تعاظم وتفاقم ليزول منه أمر محمد ﷺ ودين الإسلام ففي الأولى تكون الجبال حقيقة وفي الثانية مجازًا. وأما وجه (من بعد ما فتنوا) على التجهيل فهو إن الضمير يعود للذين هاجروا وفي التسمية يعود إلى (الخاسرون). وأما وجه ضم تاء علمت فإنه اسند العلم إلى موسى حديثًا منه لفرعون حيث قال: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾، فقال موسى على نفسه: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾، فأخبر موسى عليه السلام عن نفسه بالعلم بذلك أي أن العالم ذلك ليس بمجنون، وقراءة فتح التاء أنه أسند هذا العلم لفرعون مخاطبة من موسى له بذلك على وجه التقريع لشدة معاندته للحق بعد علمه، وكذلك وجه قراءة الجماعة

(يطعم) بالتسمية (ولا يطعم) على التجهيل أن الضمير في "وهو" يعود إلى الله تعالى، أي: والله تعالى يرزق الخلق ولا يرزقه أحد، والضمير في هذه القراءة يعود إلى الولي أي: والوالي المتخذ يرزق أحدًا، والضمير في القراءة الثالثة إلى الله تعالى أي: والله يطعم من يشاء ولا يطعم من يشاء. فليس في شيء من القراءات تناف وتضاد ولا تناقض. وكل ما صح عن النبي ﷺ من ذلك فقد وجب قبوله ولم يسع أحدًا من الأمة رده ولزم الإيمان به وأن كله منزل من عند الله؛ إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علمًا وعملًا، ولا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظنًا أن ذلك تعارض وإلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: "لا تختلفوا في القرآن ولا تتنازعوا فيه؛ فإنه لا يختلف ولا يتساقط"، ألا ترون أن شريعة الإسلام فيه واحدة، حدودها وقراءتها وأمر الله فيها واحد، ولو كان من الحرفين حرف يأمر بشيء ينهى عنه الآخر كان ذلك الاختلاف ولكنه جامع ذلك كله، ومن قرأ على قراءة فلا يدعها رغبة عنها؛ فإنه من كفر بحرف منه كفر به كله".

قلت: وإلى ذلك أشار النبي ﷺحيث قال لأحد المختلفين "أحسنت" وفي الحديث الآخر "أصبت" وفي الآخر "هكذا أنزلت" فصوب النبي ﷺقراءة كل من المختلفين، وقطع بأنها كذلك أنزلت من عند الله، وبهذا افترق اختلاف القراء من اختلاف الفقهاء؛ فإن اختلاف القراء كل حق وصواب نزل من عند الله وهو كلامه لا شك فيه، واختلاف الفقهاء اختلاف اجتهادي والحق في نفس الأمر فيه واحد، فكل مذهب بالنسبة إلى الآخر صواب يحتمل الخطأ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب في نفس الأمر نقطع بذلك ونؤمن به، ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم إنما هو من حيث إنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به، وملازمة له، وميلًا إليه، لا غير ذلك. وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة ورواتهم المراد بها أن ذلك القارئ وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما

قرأ به، فآثره على غيره، وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر وعُرف به، وقُصد فيه، وأُخذ عنه، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد(١).

الشبهة الرابعة: معنى الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن هي القراءات السبع

نص الشبهة:

يقولون: إنه لا معنى للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن إلا تلك القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء.

هذه شبهة تعرض كثيرا للعامة ومن في حكمهم ممن لم يأخذوا من علوم القرآن والحديث بحظ ولا نصيب. فإن ذلك المعنى الذي زعموه غير صحيح:

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: مقدمة

قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل.

وقال أبو العباس بن عمار: لقد نقل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أنَّ هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد؛ ليزيل الشبهة. ووقع له أيضًا في اقتصاره عن كل إمام على راويين أنه صار من سمع قراءة راو ثالث غيرهما أبطلها، وقد تكون هي أشهر وأصح وأظهر، وربما بالغ من لا يفهم فخطأ أو كفر(٢).

وقال أبو بكر بن العربي: ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبي جعفر، وشيبة، والأعمش، ونحوهم؛ فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم، وكذا قال غير واحد، منهم مكي، وأبو العلاء الهمذاني، وآخرون من أئمة القراء. وقال مكي: من ظن أن قراءة

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ٦٦.

(٢) الإتقان ١/ ٢١٥.

هؤلاء القراء كنافع، وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطًا عظيمًا، قال: ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة وغيرهم ووافق خط المصحف ألا يكون قرآنًا، وهذا غلط عظيم؛ فإن الذين صنفوا القراءات من الأئمة المتقدمين كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني، وأبي جعفر الطبري، وإسماعيل القاضي قد ذكروا أضعاف هؤلاء، وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع، واستمروا على ذلك فلما كان على رأس الثلاثمائة أثبت ابن مجاهد اسم الكسائي وحذف يعقوب، قال: والسبب في الاقتصار على السبعة مع أن في أئمة القراء من هو أجل منهم قدرا ومثلهم أكثر من عددهم أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرا جدا، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه، وتنضبط القراءة به؛ فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه؛ فأفردوا من كل مصر إمامًا واحدًا ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات، ولا القراءة به كقراءة يعقوب وأبي جعفر وشيبة وغيرهم. قال: وقد صنف ابن جبير المكي قبل ابن مجاهد كتابًا في القراءات فاقتصر على خمسة اختار من كل مصر إمامًا وإنما اقتصر على ذلك؛ لأن المصاحف التي أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار، ويقال: إنه وجه بسبعة هذه الخمسة، ومصحفا إلى اليمن، ومصحفا إلى البحرين لكن لما لم يسمع لهذين المصحفين خبر وأراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف استبدلوا من مصحف البحرين واليمن قارئين كمل بهما العدد فصادف ذلك موافقة العدد الذي ورد الخبر به فوقع ذلك لمن لم يعرف أصل المسألة، ولم تكن له فطنة فظن أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع، والأصل المعتمد عليه صحة السند في السماع، واستقامة الوجه في العربية، وموافقة الرسم. وأصح القراءات سندًا نافع وعاصم، وأفصحها أبو عمرو والكسائي.

وقال القراب في الشافي: التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر، وأوهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك، وذلك لم يقل به أحد.

وقال الكواشي: كل ما صح سنده واستقام وجهه في العربية ووافق خط المصحف الإمام فهو من السبعة المنصوصة ومتى فقد شرط من الثلاثة فهو الشاذ.

وقد اشتد إنكار أئمة هذا الشأن على من ظن انحصار القراءات المشهورة في مثل ما في التيسير والشاطبية، وآخر من صرح بذلك الشيخ تقي الدين السبكي فقال في **"شرح المنهاج"**: قال الأصحاب: تجوز القراءة في الصلاة وغيرها بالقراءات السبع، ولا تجوز بالشاذة. وظاهر هذا يوهم أن غير السبع المشهورة من الشواذ، وقد نقل البغوي الاتفاق على القراءة بقراءة يعقوب وأبي جعفر مع السبع المشهورة وهذا القول هو الصواب. [(١)]

قال القرطبي: وقد قيل: إن المراد بقوله ﷺ: "انزل القرآن على سبعة أحرف" القراءات السبع التي قرأ بها القراء السبعة؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله ﷺ، وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه. لذا قال كثير من علمائنا كالداودي، وابن صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النحاس وغيره. [(٢)]

قال ابن تيمية: لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن (الأحرف السبعة) التي ذكر النبي ﷺأن القرآن أُنزل عليها ليست هي قراءات القراء السبعة المشهورة؛ بل أول من جمع قراءات هؤلاء هو الإمام أبو بكر بن مجاهد، وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد، فإنه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام؛ إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها عِلْم النبوة من القرآن وتفسيره، والحديث والفقه من الأعمال الباطنة

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٢١٥.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٤٦.

والظاهرة، وسائر العلوم الدينية، فلما أراد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من أئمة قراء هذه الأمصار؛ ليكون ذلك موافقًا لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة هي الحروف السبعة، أو أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم، ولهذا قال من قال من أئمة القراء: لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة، وإمام قراء البصرة في زمانه في رأس المائتين.

ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده؛ بل قد يكون معناها متفقًا أو متقاربًا، كما قال عبد الله بن مسعود: إنما هو كقول أحدكم: أقبِل، وَهَلُمَّ، وَتَعَال، وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر، لكن كلا المعنيين حق، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض، وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي ﷺفي هذا حديث: (أنزل القرآن على سبعة أحرف، إن قلت: غفورًا رحيمًا، أو قلت: عزيزًا حكيمًا فالله كذلك، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة). وهذا كما في القراءات المشهورة ﴿ربنا بَاعَد﴾و﴿بَاعِدْ﴾ (سبأ: ١٩)، ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا﴾ (البقرة: ٢٢٩) و(إلا أن يُخافا ألا يقيما)، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ ـ و(ليزول) (إبراهيم: ٤٦)، و﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ و﴿بل عجبتُ﴾ (الصافات: ١٢) ونحو ذلك. .[1]

الوجه الثاني: بيان الفرق بين القرآن والقراءات.

قال الزركشي: إن القرآن غير القراءات، فالقرآن: هو الوحي المنزَّل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات: هي اختلاف في كيفية النطق بألفاظ الوحي، من تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك[2]، قال أبو شامة: "ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل.[1]

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٣٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١٨.

الوجه الثالث: أن السبعة لم يكونوا قد خلقوا ولا وجدوا حين نطق الرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف.

قال ابن الجزري: فينبغي أن لا يتوهم متوهم في قوله ﷺ: "أنزل القرآن على سبعة أحرف" أنه منصرف إلى قراءة سبعة من القراء الذين ولدوا بعد التابعين؛ لأنه يؤدي أن يكون الخبر متعريًا عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء الأئمة السبعة فيؤخذ عنهم القراءة، ويؤدي أيضًا إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به، وهذا تجاهل من قائله، قال: وإنما ذكرت ذلك؛ لأن قومًا من العامة يقولونه جهلًا، ويتعلقون بالخبر، ويتوهمون أن معنى السبعة الأحرف المذكورة في الخبر اتباع هؤلاء الأئمة السبعة، وليس ذلك على ما توهموه؛ بل طريق أخذ القراءة أن تؤخذ عن إمام ثقة لفظًا عن لفظ إمامًا عن إمام إلى أن يتصل بالنبي ﷺ، والله أعلم بجميع ذلك. [٢]

قال الزرقاني: ومحال أن يفرض الرسول على نفسه، وعلى أصحابه ألا يقرؤوا بهذه الأحرف السبعة النازلة إلا إذا علموا أن هؤلاء القراء السبعة قد اختاروا القراءة بها، على حين أن بين العهدين بضعة قرون، وعلى حين أن هؤلاء القراء وسواهم إنما أخذوا عن النبي ﷺ من طريق أصحابه ومن أخذ عنهم إلى أن وصلوا إليهم. فهذه الشبهة تستلزم الدور الباطل فهي باطلة. وتستلزم أيضًا أن يبقى قول الرسول ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" عاريًا عن الفائدة غير نافذ الأثر حتى يولد القراء السبعة المعروفون وتؤخذ القراءة عنهم. وذلك باطل أيضًا يكذبه الواقع من قراءة النبي صلوات الله وسلامه عليه، وقراءة أصحابه وتابعيه بالأحرف السبعة من قبل أن يولد القراء السبعة المعروفون[٣].

الوجه الرابع: لو كانت القراءة محصورة بسبع روايات لسبعة من القراء؛ لوجب أن لا

---

(١) مباحث في علوم القرآن ١/ ١٦٧.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٦٢.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥.

يؤخذ عن كل واحد منهم إلا رواية وهذا لا قائل به[١].

الوجه الخامس:

أن الأحرف التي نزل بها القرآن أعم من تلك القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة القراء عموما مطلقا، وأن هذه القراءات أخص من تلك الأحرف السبعة النازلة خصوصًا مطلقًا.

ذلك؛ لأن الوجوه التي أنزل الله عليها كتابه تنتظم كل وجه قرأ به النبي ﷺ وأقرأه أصحابه، وذلك ينتظم القراءات السبع المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة القراء، كما ينتظم ما فوقها إلى العشرة وما بعد العشرة، وما كان قرآنا ثم نسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء جميعا، ولهذا نصوا في المذهب المختار على أنه يشمل كل وجوه القراءات صحيحها وشاذها ومنكَرِها كما سبق[٢].

الشبهة الخامسة: نزول القرآن على سبعة أحرف ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها.

نص الشبهة:

يقولون: إن نزول القرآن على سبعة أحرف ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان قدر لغة قريش.

كانت لغة قريش أرجح اللغات فاقتصر عليها[٣]، وأيضا رفعا للحرج والمشقة في ابتداء الأمر؛ فرأى أن الحاجة إلى ذلك انتهت فاقتصر على لغة واحدة. [٤]

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ٦٢.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم (١٦٤).

(٤) فتح الباري ٩/ ٢١.

قال إسماعيل بن أبي عُبَيد الله: أجمَعَ علماؤنا بكلام العرب، والرُّواةُ لأشعارهم، والعلماءُ بلُغاتهم وأيامهم ومَحالِّهم أن قُرَيشًا أفصحُ العرب ألْسنةً وأصْفاهم لغةً. وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبيَّ الرحمة محمدًا ﷺ، فجعل قُريشًا قُطَّان حَرَمِه، وجيران بيته الحرام، ووُلاتَهُ. فكانت وُفود العرب من حُجاجها وغيرهم يَفِدون إِلَى مكة للحج، ويتحاكمون إِلَى قريش فِي أُمورهم. وَكَانَتْ قريش تعلّمهم مَناسكَهم وتحكُمُ بَيْنَهم. ولن تزل العرب تَعرِف لقريش فضلها عليهم وتسمّيها أهل الله؛ لأنهم الصَّريح من ولد إسماعيل عليه السلام، لَمْ تَشُبْهم شائبة، وَلَمْ تنقُلْهم عن مناسبهم ناقِلَة، فضيلةً من الله ﷻ لهم وتشريفًا؛ إذ جعلهم رَهط نبيّه الأدْنَيْنَ، وعِتْرته الصالحين، وَكَانَتْ قريش مع فصاحتها وحُسن لغاتها ورِقَّة ألسنتها، إِذَا أتتهُم الوُفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع مَا تخيّروا من تِلْكَ اللغات إِلَى نَحائرهم وسَلائقهم الَّتِي طُبعوا عَلَيْهَا. فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لا تجد فِي كلامهم عَنْعَنَة تَميم، ولا عَجْرفيّة قَيْس، ولا كَشْكَشَة أَسَد، ولا كَسْكَسة رَبيعةَ، ولا الكَسْر الَّذِي تسمَعه من أسدَ وقَيْس مثل: " تعلِمون " و" نِعلَم " ومثل " شِعير " وبِعير ".[1]

الوجه الثاني: الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم واقعةٌ كلها في لغة قريش.

فلقد اشتملت لهجة قريش على خصائص كثيرة من لهجات القبائل الأخرى.

قال البخاري: بَاب نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2]، ثم أخرج عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ عُثْمَانَ دَعَا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ. وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنْ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ

(١) الصاحبي في فقه اللغة ١/ ٧.

(٢) البخاري ١١/ ٣٢٥.

قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ فَفَعَلُوا ذَلِكَ[١].

أولًا: قوله ﴿فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ﴾ أَيْ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ. قَالَ الْقَاضِي اِبْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْبَاقِلَّانِيِّ: مَعْنَى قَوْلِ عُثْمَانَ: نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ. أَيْ: مُعْظَمُهُ، وَأَنَّهُ لَمْ تَقُمْ دَلَالَةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أَنَّهُ نَزَلَ بِجَمِيعِ أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ أَرَادَ مُضَرَ دُونَ رَبِيعَةَ، أَوْ هُمَا دُونَ الْيَمَنِ، أَوْ قُرَيْشًا دُونَ غَيْرِهِمْ، فَعَلَيْهِ الْبَيَانُ؛ لِأَنَّ اِسْمَ الْعَرَبِ يَتَنَاوَلُ الْجَمِيعَ تَنَاوُلًا وَاحِدًا، وَلَوْ سَاغَتْ هَذِهِ الدَّعْوَى لَسَاغَ لِلْآخَرَانِ. وَيَقُولُ: نَزَلَ بِلِسَانِ بَنِي هَاشِمٍ مَثَلًا؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ نَسَبًا مِنْ سَائِرِ قُرَيْشٍ[٢].

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ قَوْلُهُ: "سَبْعَةُ أَحْرُفٍ": يَعْنِي سَبْعَ لُغَاتٍ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَرْفِ الْوَاحِدِ سَبْعَةُ أَوْجُهٍ، هَذَا مَا لَمْ يُسْمَعْ بِهِ قَطُّ، وَلَكِنْ يَقُولُ هَذِهِ اللُّغَاتُ السَّبْعُ مُتَفَرِّقَةٌ فِي الْقُرْآنِ، فَبَعْضُهُ نَزَلَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، وَبَعْضُهُ بِلُغَةِ هَوَازِنَ، وَبَعْضُهُ بِلُغَةِ هُذَيْلٍ، وَبَعْضُهُ بِلُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ اللُّغَاتِ وَمَعَانِيهَا فِي هَذَا كُلِّهِ وَاحِدٌ، وَمِمَّا يُبَيِّنُ لَكَ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ فَذَكَرَهُ. قَالَ: وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ سِيرِينَ إِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِكَ: هَلُمَّ وَتَعَالَ وَأَقْبِلْ. ثُمَّ فَسَّرَهُ ابْنُ سِيرِينَ فَقَالَ: فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنْ كَانَتْ إِلاَّ زَقْيَةً وَاحِدَةً، وَفِي قِرَاءَتِنَا (صَيْحَةً وَاحِدَةً) وَالْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ، وَعَلَى هَذَا سَائِرُ اللُّغَاتِ.[٣]

عناية المسلمين بتوجيه القراءات في ضوء العربية خدمةً للقرآن:

ثمة ارتباط وثيق بين القراءات القرآنية ولهجات القبائل العربية، وقد كان مِنْ حكمة نزول هذه القراءات أن يَسَّرَتْ تلاوة الوحي الكريم والتعامل معه، على الرغم من أن اللسان العربي تتعدَّد لهجاته على نحوٍ واسع. وفي الفترة التي سبقت نزول القرآن كان للهجة قريش السيادة على اللهجات العربية الأخرى في شبه الجزيرة العربية. وقد بلغَتْ قريش هذه المنزلة بعد

(١) البخاري(٣٢٤٤).

(٢) تحفة الأحوذي ٧/ ٤٢٧.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي ٢/ ٣٨٥.

مراحل عديدة من احتكاك اللهجات العربية بها، وذلك بفضل موقعها الديني؛ فهي المشرفة على خدمة الكعبة المشرفة، وتَهْفو إليها أفئدة العرب جميعًا، وبفضل النشاط التجاري الذي كانت قريش تعقده في حواضرها، وكانت اللهجة القرشية تستقي من لهجات القبائل ما تحتاج إليه من صفوة اللغات، حتى تمَّ تكوينُها قُبَيْل نزول الوحي وقد اشتملت لهجة قريش على خصائص كثيرة من لهجات القبائل الأخرى؛ إذ استوعبت صفوة العناصر الحميدة لهذه اللهجات. فإذا قلنا: إن القرآن نزل بلغة قريش، فليس معنى هذا أننا نَغُضُّ الطرف عن تأثير اللغات الأخرى في مفردات القرآن ونسيجه الصوتي، وإنما نقصد أن لغة قريش هي اللغة النموذجية العالية التي تكوَّنَتْ عبر مراحل عديدة، واشتملَتْ على خصائص لهجات العرب الأخرى، وقد تكفَّلَت كتب (لغات القبائل) بإسناد كل مفردة قرآنية إلى أصل قبيلتها التي انحدرت منها، على نحو ما تبيَّن لنا في موضوع اللغة. والحق أنَّ هذا التطور التاريخي للهجة قريش التي نزل بها القرآن كان مَحْمَدة لصالح العرب جميعًا؛ وذلك لأنَّ هذه اللهجة أصبحت لغة الأدب والشعر وقاسمًا مشتركًا لدى جميع القبائل، ولو كانت لهجة قريش مقصورةً عليها غير معهودة عند العرب لما استطاعت هذه القبائل أن تحقِّق الانتفاع بالقرآن الكريم والتعامل معه؛ لأنه بلهجةٍ غيرِ لهجتها، وبذلك صار تحدِّي القرآن للعرب جميعًا يقوم بغرضه الذي سِيق من أجله، فهو معجزٌ بالإضافة إلى قبائلهم كلها، ولو كان التحدي مُوَجَّهًا إلى قبيلة قريش وحدها؛ لقيل: إن القرآن جاء بما لا قدرةَ للعرب على جنسه. وقد بذل النحاة جهدًا فائقًا لخدمة القرآن بمختلف قراءاته المتواترة والشاذة، فوجَّهوها بالتعليل المستند إلى الأصول المعتمدة عندهم، واستشهدوا على ذلك بالشواهد الفصيحة التي جمعوها من البوادي عبر رحلاتهم العلمية المديدة، وقد استندوا إلى هذه القراءات في تأصيل قواعدهم، وإرساء معالم الصناعة النحوية والصرفية، وضبط مفردات اللغة. ومن المعلوم أن للقراءات الصحيحة شروطًا ومعايير تجعلها مقبولة، وقد اعتمدها النحاة واللغويون والبلاغيون، واستنبطوا منها

الأصول التي بَنَوْا عليها علومهم، وما خالف شروط القراءة الصحيحة عَدُّوه شاذًّا. [١]

قال الزرقاني: لا منافاة ولا ضياع للوحدة؛ فإن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن الكريم واقعة كلها في لغة قريش. ذلك أن قريشا كانوا قبل مهبط الوحي والتنزيل، قد داوروا بينهم لغات العرب جميعًا وتداولوها، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها ووقائعها وحجها وعمرتها، ثم استعملوه وأذاعوه بعد أن هذبوه وصقلوه. وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة. وكان هذا سببًا من أسباب انتهاء الزعامة إليهم واجتماع أوراع العرب عليهم. ومن هنا شاءت حكمة الحكيم العليم أن يطلع عليهم القرآن من هذا الأفق، وأن يطل عليهم من هذه السماء سماء قريش ولغتها التي أعطوها مقادتهم، وولوا شطرها وجوههم، فخاطبهم بهذا اللسان العام لهم؛ ليضم نشرهم ولينظم نثرهم. وقد تم له ما أراد بهذه السياسة الرشيدة التي جاءتهم بالإعجاز البياني عن طريق اللغة التي انتهت إليها أفصح اللغات، وباللسان الذي خضعت له وتمثلت فيه كافة الألسنة العربية. ولو نزل القرآن بغير لغة قريش هذه؛ لكان مثار مشاحنات وعصبيات، ولذهب أهل كل قبيلة بلغتهم، ولعلا بعضهم على بعض، ولما اجتمع عليه العرب أبدًا؛ بل لو نزل القرآن بغير لغة قريش لراجت شبهتهم وافتراؤهم عليه أنه سحر وكهانة وما إليها نظرا إلى أنه قد دخل عليهم من غير بابهم فلا يستطيعون القضاء فيه، ولا إدراك الفوارق البعيدة بينه وبين الحديث النبوي مما يجعلهم يذوقون الإعجاز ويلمسونه كما تذوقوه بوضوح حين نزل بلسانهم. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٢].

الوجه الثالث: يَحْتَمِل أنْ يَكُون قَوْله "نَزَلَ بِلِسَانِ قُرَيْش" أيْ اِبْتِدَاء نُزوله، ثُمَّ أُبِيحَ أنْ يُقْرَأ بِلُغَةِ غَيْرهمْ.

---

(١) عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم ١/ ٦٣.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥.

فلما جمع عثمان الناس على حرف واحد رأى أن الحرف الذي نزل القرآن أولًا بلسانه أولى الأحرف؛ فحمل الناس عليه لكونه لسان النبي ﷺ، ولما له من الأولية المذكورة، وعليه يحمل كلام عمر لابن مسعود أيضًا. [1]

الوجه الرابع: أو يكون مراد عثمان أن معظمه وأكثره نزل بلغة قريش. [2]

الشبهة السادسة: اتهام بعض القراء بالضعف كـ (عاصم، وحفص)؛ فكيف يقبل منهم القرآن؟

نص الشبهة:

كيف يكون حفص إمامًا في القراءات وهو ضعيف في الحديث؟.

والرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: التعريف به وثناء العلماء عليه وخاصة في تحمله وأدائه لكتاب الله ﷻ.

أولًا: التعريف بحفص:

هو حفص بن سليمان بن المغيرة أبو عمر بن أبي داود الأسدي الكوفي المقرئ الإمام مولاهم الغاضري البزاز ويعرف بحفيص، أخذ القراءة عرضًا وتلقينًا عن عاصم وكان ربيبه ابن زوجته.

مولده: قال خلف بن هشام ولد سنة تسعين.

قال الداني: وهو الذي أخذ قراءة عاصم عن الناس تلاوة، ونزل بغداد فأقرأ بها وجاور بمكة فأقرأ أيضًا بها، وقال يحيى بن معين: الرواية الصحيحة التي رويت عن قراءة عاصم رواية أبي عمر حفص بن سليمان.

وقال أبو هاشم الرفاعي: كان حفص أعلمهم بقراءة عاصم.

وقال الذهبي: أما القراءة فثقة ثبت ضابط لها بخلاف حاله في الحديث، قلت: يشير إلى أنه تُكلم فيه من جهة الحديث. قال ابن المنادى: قرأ على عاصم مرارًا، وكان الأولون يعدونه في

(١) فتح الباري ٩/ ٩، ١٤/ ١٨٩.

(٢) المدخل لدراسة القران الكريم (١٦٤)

الحفظ فوق أبي بكر بن عياش، ويصفونه بضبط الحروف التي قرأ على عاصم، وأقرأ الناس دهرًا وكانت القراءة التي أخذها عن عاصم ترتفع إلى علي بن أبي طالب ﷺ(١).

قلت: يشير إلى ما روينا عن حفص أنه قال: قلت لعاصم: أبو بكر يخالفني. فقال: أقرأتك بها أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب، وأقرأته بها أقرأني زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود.

وفاته: توفي سنة ثمانين ومائة على الصحيح، وقيل: بين الثمانين والتسعين، فأما ما ذكره أبو طاهر بن أبي هاشم وغيره من أنه توفي قبل الطاعون بقليل، وكان الطاعون سنة إحدى وثلاثين ومائة فذاك حفص ابن سليمان المنقري بصري من أقران أيوب السختياني قديم الوفاة فكأنه تصحيف عليهم والله أعلم(٢).

ثانيًا: ثناء العلماء عليه:

قال وكيع: كان ثقة(٣)، قال محمد بن سعد العوفي، حدثنا أبي، حدثنا حفص بن سليمان، وكان ينزل سُوَيْقَةَ نصر، لو رأيته لَقَرَّتْ عَيْنُكَ به علمًا وفهمًا.

قال أحمد: هو صالح. وفي رواية: ما كان بحفص بن سليمان المقرئ بأس(٤).

قال الذهبي: فأما في القراءة فثبتٌ إمام، وأما في الحديث فحسن الحديث. (٥) وقال في السير: حجة في **القراءة**، **لين في الحديث**. (٦)

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري١/ ١٧٩.

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ١١١، وتراجم القراء ١/ ٢٥.

(٣) وقول وكيع هذا مهم جدًا في توثيق حفص لسببين: الأول: كونه من الكوفة، وأهل الكوفة أعرف بعلمائهم، والثاني: كونه معاصرًا لحفص، وما رَاءٍ كمَنْ سَمِعَ.

(٤) موسوعة أقوال الإمام أحمد في الجرح والتعديل ٢/ ١٦٤.

(٥) معرفة القراء الكبار ١/ ١٤٠-١٤١.

(٦) تاريخ الإسلام ٨/ ٤٩٧.

وقال في السير أيضًا: كان ثبتًا في القراءة، واهيًا في الحديث. [(١)]

ولا نستطيع أن نجزم بأن رواية حفص لا يفوقها أو يساويها في الفصاحة رواية أخرى، وذلك لأن فصحاء العرب الأقحاح لم يذكروا مزية لرواية حفص على غيرها من جهة الفصاحة، فالإمام أحمد بن حنبل الشيباني وكان عربيًا فصيحًا قرأ بقراءة عاصم، وبقراءة أبي عمرو، وبقراءة نافع، ومع ذلك قال: عليك بقراءة أبي عمرٍو لغة قريش وفصحاء العرب. وقال الإمام مكي بن أبي طالب: وربما جعلوا الاختيار على ما اتفق عليه نافع وعاصم، فقراءة هذين الإمامين أوثق القراءات وأصحها سندًا، وأفصحها في العربية، ويتلوهما في الفصاحة خاصة: قراءة أبي عمرو والكسائي رحمهم الله. [(٢)]

وقال في التذكرة: إمامًا في القراءة، تالف في الحديث. [(٣)]

وقال الحافظ ابن حجر: متروك الحديث مع إمامته في القراءة. [(٤)]

الوجه الثاني: إن القائلين بضعف رواية حفص في الحديث اجتمعوا على صدقه في قراءة القران الكريم.

قال ابن تيمية: وقد اتفق أهل العلم بالحديث على الطعن في حديث حفص هذا، دون قراءته[(٥)].

الوجه الثالث: إن رواية حفص في القرآن لها العديد من الطرق غير حفص

فيوافقه أحيانا كثير من الرواة والقراء. والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى وراجع كتب القراءات وغيرها ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم ﴾ ـ بالياء ـ ابن عامر وحفص ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ ﴾

(١) تاريخ الإسلام ٥/ ٢٦٠.

(٢) الإبانة في معاني القراءات (٤٨).

(٣) التذكرة(١٠٣١).

(٤) تقريب التهذيب (١٤٠٥).

(٥) منهاج السنة النبوية ٥/ ١٤٦ – ١٤٧.

بالنصب، نافع والكسائي وحفص. ﴿ خُطُوَٰتِ ﴾ بضم الطاء حيث وقع، ابن عامر والكسائي وقنبل وحفص[١].

الوجه الرابع: أن سبب الضعف متعلق بالضبط في رواية الأحاديث لا بالعدالة

فليس هو بالقوي، ويضعف في الحديث لكنه في قراءة القران الكريم إمام من أئمة المسلمين بلا نزاع.

وإليك ذكر بعض من ضعفه، وتوجيه أقوالهم:

أولًا: توجيه قول يحي بن معين في وصفه لحفص بالكذب من وجوه: [٢]

---

(١) العنوان في القراءات السبع ١/ ٩.

(٢) أخرج الأثر ابن عدي في الكامل: أنا الساجي ثنا أحمد بن محمد البغدادي، قال: سمعت يحيى بن معين يقول: كان حفص بن سليمان وأبو بكر بن عيا ش من أعلم الناس بقراءة عاصم، وكان حفص أقرأ من أبي بكر، وكان أبو بكر صدوقا، وكان حفص كذابا. الكامل في ضعفاء الرجال ٢/ ٣٨٠ والرد من وجوه:
الوجه الأول: أن الكذب هنا هو الإخبار بخلاف الواقع خطًأ وسهوًا وليس عن تعمد، وكذلك قولهم لا يصدق يحمل على أنه يخبر بخلاف الصواب عن خطأ وسهو بسبب قلة ضبطه للحديث، لا أنه يتعمد الكذب، مع ملاحظة أن من يصفه أئمة الجرح والتعديل بأنه يكذب ليس بالضرورة أنه يضع متونًا من تأليفه وينسبها إلى الرسول ﷺ، وإنما يقصد بها أحيانًا أنه يرفع الموقوفات أو العكس ويسند المرسلات أو العكس، ويركب أسانيد أحاديث على متون أحاديث أخرى ونحو هذا، ومثل هذه الأمور قد تقع بسبب قلة الضبط وعدم العناية بالحديث لا بسبب تعمد الكذب، وهذا الذي ينبغي أن يحمل عليه حال حفص، وبهذا نوفق بين ثناء أئمة القراءة على دين حفص وخلقه وإتقانه للقراءة وإفنائه عمره في تعلم القرآن وتعليمه، وبين وصف من وصفه من أئمة الحديث بالكذب، والله أعلم. قال ابن حبان في (الثقات ٦/ ١١٤): (أهل الحجاز يسمون الخطأ كذبًا). كما يُفسر تكذيب أبي داود لابنه عبد الله الحافظ الشهير. قال الذهبي في السير (١٣/ ٢٣١): (لعل قول أبيه فيه إن صح أراد الكذب في لهجته لا في الحديث فإنه حجة فيما ينقله، أو كان يكذب ويوري في كلامه، ومن زعم أنه لا يكذب أبدًا فهو أرعن نسأل الله السلامة من عثرة الشباب ثم إنه شاخ وارعوى ولزم الصدق والتقى). قال ابن عدي: هو مقبول عند أهل الحديث، وأما كلام أبيه فيه فما أدري أيش تبين له منه. الكامل (٤/ ٢٦٦). قال الإمام مسلم رحمة الله عليه في مقدمة الصحيح (١٩)حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن مغيرة عن الشعبي قال: حدثني الحارث الأعور الهمداني وكان كذابا. قال الذهبي رحمه الله تعالى في سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٣، فأما قول الشعبي: الحارث كذاب محمول على أنه عنى بالكذب الخطأ لا التعمد، وإلا فلماذا يروي عنه ويعتقده يتعمد الكذب في الدين.

ثانيًا: توجيه قول ابن خرا ش:

قال ابن خراش: كذاب، متروك يضع الحديث، وبيانه من وجوه: (١)

الوجه الثاني: إن أكثر العلماء لم يتلفظوا بهذا حسب الاستقراء والتتبع فقط، قالوا: هو متروك الحديث أو ضعيف.

الوجه الثالث: أن ابن معين قد يستخدم إطلاق الكذب عند التفرد بها لا يُحتمل من الراوي. . وأقرب مثال يحضرني على هذا ما رواه الحاكم قال: سمعت أبا علي الحافظ، سمعت أحمد بن يحيى التستري، يقول: لما حدث أبو الأزهر بهذا (يعني حديث عن ابن عباس قال نظر رسول الله ﷺ إلى علي، فقال: أنت سيد في الدنيا سيد في الآخرة. . .) في الفضائل، أُخبر يحيى بن معين بذلك، فبينا هو عنده في جماعة أصحاب الحديث إذ قال: من هذا الكذاب النيسابوري الذي حدث بهذا عن عبد الرزاق؟ فقام: أبو الأزهر، فقال: هو ذا أنا، فتبسم يحيى بن معين، وقال: أما إنك لست بكذاب، وتعجب من سلامته، وقال: الذنب لغيرك فيه.

الوجه الرابع: ربما أطلق الكذب على الراوي لروايته الكذب ولو لم يكن هو الذي اختلقه وصنعه. . كما في الحديث الشريف: "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين".

(١) الوجه الأول: أن قول ابن خرا ش هذا فيه تحامل، والتحامل سمة من سمات ابن خراش، قال الذهبي في أهل الجرح والتعديل: فمنهم من نَفَسُهُ حادٌّ في الجَرْح، ومنهم من هو معتدِل، ومنهم من هو متساهل. فالحادُّ فيهم: يحيى بنُ سعيد، وابنُ معين، وأبو حاتم، وابنُ خرا ش. الموقظة في علم مصطلح الحديث ١/ ٢٠.

الوجه الثاني: ابن خرا ش أصلا متكلم فيه، قال الذهبي في: مَنِ الَّذِي يُصَدِّقُ ابْنَ خراش ذَاكَ الرَّافِضِيُّ فِي قَوْلِهِ؟ سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٨٧). وقال ابن حجر: ابن خراش مذكور بالرفض والبدعة فلا ينظر إليه. مقدمة فتح الباري/ ٣٨٦. وقال السخاوي: عبد الرحمن بن يوسف ابن خرا ش المحدث الحافظ فإنه من غلاة الشيعة؛ بل نسب إلى الرفض فيتأنى في جرحه لأهل الشام للعداوة البينة في الاعتقاد. فتح المغيث (٣/ ٣٦٢)

الوجه الثالث: أن أقوال ابن خرا ش يتوقف فيها إذا انفرد فكيف إذا خالف؟ فابن خراش رافضيٌّ لا يقبل قوله إذا خالف أو انفرد.

الوجه الرابع: إمّا أن تكون عدالة الرّاوي أرجح من عدالة الجارح له أو مثلها أو دونها.

قال ابن الوزير: لا يخلو إمّا أن تكون عدالة الرّاوي أرجح من عدالة الجارح له أو مثلها أو دونها، إن كانت عدالة الرّاوي أرجح وأشهر من عدالة الجارح؛ لم نقبل الجرح؛ لأنّا إنّما نقبل الجرح من الثّقة لرجحان صدقه على كذبه، ولأجل حمله على السّلامة، وفي هذه الصّورة كذبه أرجح من صدقه، وفي حمله على السّلامة إساءة الظّنّ بمن هو خير منه وأوثق وأعدل وأصلح. وأكثر ما يقول أئمة هذا الشّأن في أهل هذه الطّبقة إذا سُئلوا عنهم: أنا أُسأل عن فلان؟ بل هو يُسأل عنّي. وأمّا إن كان مثله في العدالة، فيجب الوقف لتعارض أمارتي صدق الجارح وكذبه، فإنّ عدالة الجارح أمارة صدقه، وعدالة المجروح أمارة كذبه، وهما على سواء، وليس أحدهما بالحمل على السّلامة أولى من الآخر، فإن انضم إلى عدالة المجروح مُعدّل كان وجهًا لترجيح عدالته.

ثالثا: توجيه قول الحاكم:

قال الحاكم رحمه الله تعالى: ذاهب الحديث. لم يذكر التوجيه.

الوجه الخامس: هناك فرق بين التوثيق للحديث والتوثيق للقراءة.

قال الذهبي في ترجمة عاصم: وما زال في كل وقت يكون العالم إمامًا في فن مقصرًا في فنون(١).

فقد يكون الإمام متقنًا لفن من الفنون، ومُبَرِّزًا في علم من العلوم؛ لكونه أنفق فيه جل حياته، واعتنى بطلبه وتدريسه عناية فائقة، بينما يكون مقصرًا في فن آخر؛ لعدم إعطائه تلك العناية، فيكون عمدة في فنه الذي ضبط معرفته وأتقنه، وتنزل مرتبته فيما قصّر فيه؛ بل قد يكون فيه غير معتمد.

ومن ضوابط الترجيح بين الجرح والتعديل عند التعارض من المسائل التي شغلت بال المشتغلين بالحديث ومصطلحه تنازع الجارحين والمعدلين في الراوي الواحد. فيجتمع فيه جرح الجارحين وتعديل المعدلين، وقد تكلم علماؤنا في مثل هذا، فقالوا: إذا اجتمع في شخص جرح وتعديل، فالجرح مقدم؛ لأن المعدل يخبر عما ظهر من حاله، والجارح يخبر عن باطن خفي على المعدل(٢).

من هذه الضوابط: اعتبار ما إذا كان للراوي تميز واختصاص في نوع من علوم الشرع فيوثق في ذلك العلم خاصة دون غيره. إذا لم يثبت عليه ما يسقط روايته مطلقًا، وأما في سوى ذلك فقد تقصر درجته عن الاحتجاج أو حتى عن الاعتبار.

مثال ذلك: عاصم بن أبي النجود المقرئ المشهور وأحد القراء السبعة. يقول فيه الذهبي: (كان عاصم ثبتا في القراءة، صدوقا في الحديث، وقد وثقه أبو زرعة، وجماعة. وقال أبو حاتم: محله الصدق، وقال الدار قطني: في حفظه شيء. يعني: للحديث لا

وأمّا إن كانت عدالة الرّاوي أضعف من عدالة الجارح، فإنّ الجرح هنا يقبل إلا أن تقتضي القرائن والعادة والحال -من العداوة ونحوها- أنّ الجارح واهم في جرحه أو كاذب. الروض الباسم لابن الوزير ٢/ ٢١٦.

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٠.

(٢) مقدمة ابن الصلاح(٢٢٤).

للحروف. فقد يكون إمامًا في القراءات ولكنه غير قوي في الحديث: وكذلك جماعة من القُرّاء أثباتٌ في القراءة دون الحديث كنافع، والكسائي، وحفص فإنهم نهضوا بأعباء الحروف وحرّروها، ولم يصنعوا ذلك في الحديث. وكذلك أبو بكر بن عياش الأسدي إمام في القراءات أما الحديث فيأتي بغرائب ومناكير. [1]

وكذلك عمر بن هارون بن يزيد الثقفي البلخي.

قال الذهبي:

ولا ريب في ضعفه، وكان إمامًا حافظًا في حروف القراءات[2].

وقال: والنقاش مجمع على ضعفه في الحديث لا في القراءات[3].

وكذلك الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي: كان رأسًا في القراءات معمرًا بعيد الصيت صاحب حديث ورحلة وإكثار، وليس بالمتقن له ولا المجود؛ بل هو حاطب ليل[4].

وقد يكون إمامًا في التفسير ولكنه غير قوي في الحديث:

مثال: الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، قال عنه الذهبي: صاحب التفسير. . . . وليس بالمجود لحديثه[5].

قد يكون ثبتًا في الحديث ضعيفًا في القراءات:

وكذلك الأعمش كان ثبتًا في الحديث لينًا في الحروف والقراءات. قال الذهبي: وكان الأعمش بخلافه- أي حفص - كان ثبتًا في الحديث، لينًا في الحروف، فإن للأعمش قراءة منقولة في كتاب "المنهج" وغيره لا ترتقي إلى رتبة القراءات السبع، ولا إلى قراءة يعقوب وأبي جعفر والله أعلم. [6]

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٠٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٤١.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٠٦.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٣.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٨.

(٦) سير أعلام النبلاء٥/ ٢٦٠.

وقد يكون إمامًا في المغازي غير مجود في الحديث:

مثال ابن إسحاق: قال الذهبي: فله ارتفاع بحسبه ولا سيما في السير، وأما في الأحاديث فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن، إلا فيما شذ فإنه يعد منكرًا. وقال أيضًا: قد كان في المغازي علّامة. [١]

وكذلك سلمة بن الفضل الرازي، قال عنه الذهبي: كان قويًا في المغازي، وقد سمع منه ابن المديني وتركه[٢].

وقال البخاري: عنده منا كير، وقال النسائي: ضعيف.

وكذلك الواقدي. قال عنه الذهبي: لا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم. وقال النسائي: ليس بثقة، وقال مسلم وغيره: متروك الحديث.

وقد يكون إمامًا في الفقه ضعيفًا في الحديث:

الإمام أبو حنيفة: إليه المنتهى في الفقه، والناس عليه عيال في الفقه، قال الذهبي: الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام، وهذا أمر لا شك فيه[٣]، وضعفه من جهة حفظه في الحديث النسائي وابن عدي والخطيب.

قال النسائي: ليس بالقوي في الحديث. [٤]

إمام الحرمين الشافعي الجو يني: يقول الذهبي: كان هذا الإمام مع فرط ذكائه وإمامته في الفروع والأصول وقوة مناظرته لا يدري الحديث كما يليق به، لا متنًا ولا إسنادًا. [٥]

محمد بن عبد الله الإشبيلي المالكي: قال الذهبي: وكان كبير الشأن، انتهت إليه رئاسة الحفظ في الفتيا، وقُدم للشورى من سنة إحدى وعشرين، وعظم جاهه، ونال دنيا

---

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٧.

(٢)المصدر ا لسابق ٩/ ٥٠.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٤٠٣.

(٤) الضعفاء والمتروكون(٢٣٧)

(٥) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧١.

عريضة، ولم يكن يدري فن الحديث، وكان فقيه عصره. (١)

وكذلك الخصيب بن جحدر البصري؛ قال الذهبي: وكان من الفقهاء لكنه متروك الحديث. (٢)

وقد يكون إماماً في الحديث ضعيفًا في الفقه:

سعيد بن عثمان التجيبي: قال الذهبي: وكان ورعًا زاهدًا حافظًا، بصيرًا بعلل الحديث ورجاله، لا علم له بالفقه. (٣)

وقد يكون إمامًا في اللغة ضعيفًا في الحديث:

عمر بن حسن بن دحية: قال الذهبي: كان الرجل صاحب فنون وتوسع ويد في اللغة، وفي الحديث على ضعف فيه. (٤)

وقد يكون إمامًا في الحديث ضعيفًا في اللغة:

إبراهيم بن يزيد النخعي: قال الذهبي: لا يحكم العربية، وربما لحن. (٥)

الوجه السادس: كثرة من روى عنه القراءة دلالة على ثقته.

وروى القراءة عنه عرضًا وسماعًا أناس كثيرون، منهم: حسين بن محمد المروزي، وحمزة بن القاسم الأحول، وسليمان بن داود الزهراني، وحمدان بن أبي عثمان الدقاق، والعباس بن الفضل الصفار، وعبد الرحمن بن محمد بن واقد، ومحمد بن الفضل زرقان، وخلف الحداد، وعمرو بن الصباح، وعبيد بن الصباح، وهبيرة بن محمد التمار، وأبو شعيب القواس، والفضل بن يحيى بن شاهي بن فراس الأنبا ري، وحسين بن علي الجعفي، وأحمد بن جبير الأنطاكي، وسليمان الفقيمي(٦).

---

(١) المصدر السابق ٢١/ ١٧٨.

(٢) تاريخ الإسلام وفيات (١٢٥).

(٣) المصدر السابق (١٥٩).

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٩١.

(٥) ميزان الاعتدال ١/ ٧٥، راجع المقترح ١/ ٣، تحرير علوم الحديث ١/ ٢٩٢، محاضرات الدكتور محمد الطرهوني ٦/ ٩.

(٦) تراجم القراء ١/ ٢٥، ومعرفة القراء الكبار ١/ ١٤٠-١٤١.

ذكر المزي في (تهذيب الكمال) سبعة وعشرين شيخًا روى عنهم الحديث حفص بن سليمان القارئ، وقد تتبعتهم في "**تقريب التهذيب**" لابن حجر فوجدته يصف خمسة عشر منهم بـ(ثقة)، وعشرة منهم بـ (صدوق)، وواحد بـ (لا بأس به)، وواحد وصفه بمجهول، وهو كثير بن زاذان، الذي سأل عثمان بن سعيد الدار مي يحيى بن معين عنه، فقال: " قلت يروي (أي حفص القارئ) عن كثير بن زاذان من هو؟ قال: لا أعرفه"، لكن ابن حجر ذكره في "**التهذيب**" وقال: كثير بن زاذان النخعي الكوفي، وذكر جماعةً من الرواة الذين رووا عنه سوى حفص، وذكر نقلًا عن الخطيب البغدادي أنه كان مؤذن النخع.

وذكر المزي خمسة وثلاثين راويًا أخذوا عن حفص بن سليمان القارئ، وقد تتبعت ما قاله فيهم ابن حجر في "**تقريب التهذيب**"، وابن أبي حاتم في "**الجرح والتعديل**"، فوجدت أن معظمهم موصوف بأنه (ثقة) أو (صدوق).

وإذا نظرنا إلى حال شيوخ حفص القارئ، وحال معظم تلامذته من حيث وصفهم بالثقة والصدق؛ فإن من المناسب أن يكون حفصٌ كما وصفه وكيع بأنه: ثقة، أو كما وصفه الإمام أحمد بأنه: صالح. [1]

الوجه السابع: تفرغ حفص لتعليم قراءة شيخه وتنقله بين الأمصار.

قال أبو عمرو الداني: وهو الذي أخذ قراءة عاصم على الناس تلاوة، ونزل بغداد فأقرأ بها، وجاور بمكة فأقرأ بها أيضًا. [2]

الوجه الثامن: الطباعة.

وقد يكون للطباعة شأن في التمكين لرواية حفص، فأقدم مصحف طبع في مدينة هامبورج بألمانيا سنة ١٦٩٤ م كان مضبوطًا برواية حفص عن عاصم[3].

واشتهر من خطاطي الدولة العثمانية الحافظ عثمان الذي كتب بخطه خمسة وعشرين

---

(١) حفص بن سليمان المقرئ ومرويا ته بين القبول والرد (١١).

(٢) غاية النهاية ١/ ٢٥٤.

(٣) ينظر: كتاب رسم المصحف (٥٠٨).

مصحفًا[١].

واشتهرت المصاحف التي خطها الحافظ عثمان في العالم الإسلامي شهرة واسعة.

وقد طُبِعَ مصحفه مئات الطبعات في مختلف الأقطار الإسلامية، وانتشر في العالم الإسلامي، وفاق الطبعات السابقة واللاحقة ". [٢]

وهذا قبل ظهور مصحف الأزهر ومصحف المدينة طبعًا. وطباعة المصاحف برواية حفص عن عاصم كانت تعكس واقع الحال في بلدان المشرق الإسلامي، فلولا انتشار هذه القراءة في هذه البلدان لما أقبل الناشرون على طبع المصاحف بهذه الرواية، لكن الطباعة في الوقت نفسه أسهمت في التمكين لها، وساعدت على دخولها في بقاع جديدة من أرض الإسلام.

الوجه التاسع: إتقان حفص لروايته عن عاصم.

قال الشاطبي:

فَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعَاصِمٌ اسْمُـــهُ   فَشُعْبَةُ رَاوِيهِ الْمُبَرِّزُ أَفْضَلاَ

وَذَاكَ ابْنُ عيا ش أَبُو بَكْرٍ الرِّضَا   وحفص وَبِالإِتْقَانِ كانَ مُفضَّلا

وذلك أن حفصًا كان ابن زوجة شيخه عاصم بن أبي النجود، وكان معه في دار واحدة. [٣]

قال الزرقاني: وأما حفص فهو أبو عمرو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز كان ربيب عاصم، تربى في حجره وقرأ عليه وتعلم منه كما يتعلم الصبي من معلمه، فلا جرم كان أدق إتقانًا من شعبة. توفي سنة ١٨٠ هـ ثمانين ومائة. [٤]

الوجه العاشر: استحالة اجتماع الأمة على رواية حفص وهو غير ضابط لها
لأن الأمة لا تجتمع إلا على الحق.

* * *

(١) ينظر: تاريخ الخط العربي (٣٣٩).

(٢) تراجم خطاطي بغداد لوليد الأعظمي (١٣١).

(٣) حرز الأماني ١/ ١٥.

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٤٥٩.

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد الخامس

شبهات عن القرآن وعلومه

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

٥

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري
falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢ - الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم
للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

تابع
شبهات علوم القرآن

٢٠ـ شبهات جمع القرآن.

الباب الأول: مقدمة جمع القرآن.

وتشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: بيان معنى جمع القرآن الكريم.

المبحث الثاني: كيف حفظ الله القرآن؟

المبحث الثالث: مراحل جمع القرآن، والفرق بين كل مرحلة.

الباب الثاني: الرد على الشبهات.

الفصل الأول: الطعن في الإجماع على جمع القرآن.

الشبهة الأولى: عدم مشاركة علي بن أبي طالب ﷺ في الجمع.

الشبهة الثانية: اعتراض ابن مسعود على كيفية جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ.

الشبهة الثالثة: حرق المصاحف، واختلاف مصاحف الصحابة.

الفصل الثاني: الطعن في التوثيق في صحة الجمع.

الشبهة الأولى: لماذا لم يُجمع القرآن في عهد النبي ﷺ؟

الشبهة الثانية: لم يَجمع القرآن إلا أربعة.

الشبهة الثالثة: حول اختلاف ألحان العرب في المصاحف، وألحان اللغات.

الشبهة الرابعة: حول أول من جمع القرآن.

الشبهة الخامسة: تخطئة ابن عباس، وعائشة، وسعيد بن جبير للكُتَّاب.

الفصل الثالث: شبهات تطعن في سقوط شيء من القرآن:

الشبهة الأولى: شبهة قتل القُرَّاء.

الشبهة الثانية: سورتي الخلع والحفد.

الشبهة الثالثة: آية الرجم.

الشبهة الرابعة: آيتي التوبة والأحزاب.

الشبهة الخامسة: شبهة لو أن لابن آدم واديًا.

الشبهة السادسة: محو ابن مسعود المعوذتين والفاتحة من المصحف.

وإليك التفصيل

الباب الأول: مقدمة جمع القرآن.

المبحث الأول: بيان معنى جمع القرآن الكريم.

معنى الجمع في اللغة: الجَمْع: مصدر الفعل "جَمَع"، قال الراغب الأصفهاني: الجمع: ضم الشيء بتقريب بعضِهِ من بعض، يقال: جمعته فاجتمع[١].

وقال ابن منظور: جَمَعَ الشيءَ عن كل تفرقة يجمعه جمعا، واستجمع السيل: اجتمع من كل موضع، وجمعت الشيء: إذا جئت به من ههنا وههنا، وتجمَّع القوم: اجتمعوا أيضا من ههنا وههنا[٢].

قال ابن فارس: الجيم والميم والعين أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على تضامِّ الشيء[٣].

معنى جمع القرآن في الاصطلاح؛ يطلق جمع القرآن:

تارة على حفظه في الصدور، وتارة على كتابته. [٤]

ثم إن علماء الشرع أطلقوا جمع القرآن على أربعة معانٍ؛ وهي:

١ - حفظ القرآن في الصدور.

٢ - تأليف سور القرآن الكريم.

٣ - تأليف الآيات في السورة الواحدة من القرآن الكريم.

٤ - كتابة القرآن الكريم في الصحف والمصاحف.

أما الإطلاق الأول؛ فقد حصل في عصر النبي ﷺ حيث حفظ القرآنَ الكريمَ عن ظهر قلبِ النبيُّ ﷺ وجمعٌ من أصحابه ﷺ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ[٥].

---

(١) المفردات (٩٦).

(٢) لسان العرب ٨/ ٥٣ مادة "جمع".

(٣) مقاييس اللغة ١/ ٤٧٩.

(٤) تاريخ القرآن الكريم١/ ٢٠.

(٥) البخاري (٥).

وعن قَتَادَةُ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَس بْنَ مَالِكٍ: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ أَرْبَعَةٌ، كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ: أُبَيٌّ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. قُلْتُ لأَنَسٍ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ؟ قَالَ: أَحَدُ عُمُومَتِي. (١)

وأما الإطلاقان الثاني والثالث، فقال الزركشي: قال أبو الحسين أحمد بن فارسٍ في كتاب المسائل الخمس: جمع القرآن على ضربين: أحدهما: تأليف السور، كتقديم السبع الطُّوال، وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة ﷺ. وأما الجمع الآخر؛ فضمُّ الآي بعضها إلى بعضٍ، وتعقيب القصة بالقصة، فذلك شيءٌ تولاَّه رسول الله ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه(٢).

وأما الإطلاق الرابع، فيتضمن مرحلتين: الأولى جمع متفَرِّقِهِ في صحفٍ، وهو ما حدث في عصر الصِّدِّيق. والثانية: جمع تلك الصحف في مصحفٍ واحدٍ، وهو ما حدث في عصر عثمان ابن عفان(٣).

المبحث الثاني: كيف حفظ الله القرآن؟

والجواب أن الله حفظ القرآن بعدة أمور منها:

الأول: العناية بحفظ كتاب الله تعالى في السماء ثم في الأرض.

أولا: حفظ القرآن الكريم في السماء:

لقد حظي كتاب الله ﷻ بالحفظ والعناية منذ أن كان في السماء حيث أودعه الله كتابًا مكنونًا، وأقسم الله تعالى على هذه الحقيقة بقسم عظيم فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الواقعة: ٧٥: ٨٠)، وقال ﷻ: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٣، ١٦).

(١) البخاري (٣٨١٠)، مسلم (٢٤٦٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٥٩: ٢٣٧.

(٣) جمع القران في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث ١/ ١١.

﴿فِي صُحُفٍ﴾ يتعلق بقوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، وهذا يؤيد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن. [١]

يعني: أنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ في السماء. أو مرفوعة المقدار ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين، لا يمسها إلا أيدي ملائكة مطهرين[٢]، وذلك كله حفظ من الله لكتابه.[٣] ويؤكد الله تعالى وصفه بكونه محفوظًا في قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١، ٢٢). من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو: اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء، وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم[٤].

ثانيًا: حفظ القرآن الكريم في طريقه إلى الأرض:

لما بيَّن تعالى كمال القرآن وجلالته، نزَّهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس فقال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ ﴾ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ذلك.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ قد أُبعِدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل عليه السلام، أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[٥]. فحفظه بالحرس الأقوياء من الملائكة، وبالكواكب التي تحرق وتمنع من أراد استراق السمع قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (الجن: ٨-١٠)، يخبر تعالى عن

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٠٣.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٩١١، الكشاف ٧/ ٢٣٤.

(٤) تفسير السعدي ١/ ٩١٨.

(٥) تفسير السعدي ١/ ٥٩٨.

الجن حين بعث الله رسوله محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء مُلئت حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن. فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⁽٨⁾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه وقال ﷻ: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ⁽٧⁾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⁽٨⁾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⁽٩⁾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (الصافات: ٧- ١٠).

ثالثا: حفظ القرآن الكريم على الأرض والعناية بحفظه في عهد النبي ﷺ:

لقد حفظ الله ﷻ القرآن الكريم على الأرض بواسطة رسول الله ﷺ الذي استقبله فأحسن الاستقبال، وحفظه أتم حفظ، وقام به خير قيام، وبلّغه أحسن بلاغ والشواهد على ذلك كثيرة منها:

١-بلغ من حرص النبي ﷺ على استظهار القرآن وحفظه أنه كان يحرك لسانه فيه في أشد حالات حرجه وشدته؛ وهو يعاني ما يعانيه من الوحي وسطوته، وجبريل في هبوطه عليه بقوته، يفعل الرسول كل ذلك استعجالا لحفظه وجمعه في قلبه، مخافة أن تفوته كلمة أو يفلت منه حرف، وما زال كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه. فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما؛ فحرك شفتيه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ⁽١٦⁾

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه[(١)].

قال ابن كثير: هذا تعليم من الله لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملَك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن، كما قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

ثم قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾أي: في صدرك، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله ﷻ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا[(٢)].

٢- إخبار الله ﷻ ووعده للنبي ﷺ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى: ٦)[(٣)].

٣- حرص النبي ﷺ على تلاوة القرآن الكريم وترتيله في كل أوقاته، فكان يحيي الليل بتلاوة آيات القرآن في الصلاة عبادةً، وتلاوةً، وتدبرًا لمعانيه، حتى تفطرت قدماه الشريفتان[(٤)] من كثرة القيام امتثالًا لأمر الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ

---

(١) البخاري (٥)، مسلم (٤٤٨).

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٧٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٧٩.

(٤) البخاري (٤٥٥٧)، مسلم (٧٣٠٢).

﴿أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ١ - ٤).

٤- مدارسة جبريل ﷺ القرآن للرسول ﷺ ومع تكفل الله ﷻ للنبي ﷺ بحفظه وجمعه في صدره حتى لا يضيع منه شيء، فإن جبريل ﷺ لم يكتف بتبليغ الرسول ﷺ القرآن، بل كان يقرأه النبي ﷺ على جبريل ﷺ في كل عام مرة حتى يزداد ثبات قلب النبي ﷺ به، وليطمئن جبريل ﷺ أكثر على ما بلغه به. أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "كان النبي ﷺ أجودَ الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يَعْرِضُ عليه رسولُ الله ﷺ القرآنَ، فإذا لقيه جبريلُ كان أجودَ بالخير من الريح المرسلة".[(١)]

وعندما دنا أجل النبي ﷺ عارضه جبريل بالقرآن مرتين. فعن عائشة، عن فاطمة: "أسَرّ إليَّ النبيُّ ﷺ أن جبريل يُعارضُني بالقرآن كلَّ سنة، وأنَّه عارضني العام مرتين، ولا أُراهُ إلاّ حضر أجلي"[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " كان يَعْرِضُ على النبي ﷺ القرآن كل عام مرةً، فعرضَ عليه مرتين في العام الذي قبض، وكان يعتكف كلَّ عام عشرًا، فاعتكف عشرين في العام الذي قُبض"[(٣)].

٥- قراءة النبي ﷺ القرآن على غيره من الصحابة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: " قال النبي ﷺ لأُبيٍّ: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: وسماني؟ قال "نعم" قال، فبكى "، وفي لفظ قال: " الله سماني لك؟ قال: " الله سماك" فجعل أُبيٌّ يبكي ".[(٤)]

٦- تعليم النبي ﷺ القرآن بنفسه؛ فقد باشر النبي ﷺ تعليم المسلمين القرآن بنفسه، وأمره الله ﷻ بأن يقرأه على الناس على مُكْثٍ، أي: تؤدَة وتمهل؛ كي يحفظوا لفظه ويفقهوا معناه. كما قال تعالى ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

---

(١) البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٦٢٦٤).

(٣) البخاري (٤٧١٢).

(٤) البخاري(٤٩٦٠)، مسلم (٧٩٩).

وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال: والله لقد أَخذتُ من في رسولِ الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة[١].

وعنه أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ وأنْزِلتْ عليه والمرسلات، وإنا لنتلقَّاها من فِيه[٢].

وعن ابن عمر ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يعلمنا القرآن، فإذا مَرّ بسجود القرآن سجد وسجدنا معه"[٣].

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال: "كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنا التشهد كما يُعَلِّمنا السورة من القرآن"، وفي رواية ابن رُمْح "كما يُعَلِّمنا القرآن"[٤].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: " كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُنا الاستخارة في الأمور كما يُعَلِّمُنا السورة من القرآن".[٥]

ومن هنا كان النبيُّ ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفاظ في عصره المنيف، ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن، وكان يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه، وكان يحيي به الليل ويزين الصلاة[٦].

٧- الحث على تعلم القرآن وتعليمه: القرآن صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وهو كلامه الذي خاطب به نبينا محمدًا ﷺ، ولا يزال خطابه مستمرًا لنا، ومن هنا تنبع أهميته. ورتب الله الأجر العظيم والجزاء الجزيل على تلاوة القرآن، وعلى تدبره، وعلى تعلمه وتعليمه. فعن عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"خيركم من تعلم القرآن وعلمه"**[٧].

---

(١) البخاري ٦/ ١٠٢.

(٢) البخاري (١١٠٩).

(٣) أحمد ٢/ ١٥٧، وإسناده صحيح.

(٤) مسلم (٤٠٣).

(٥) البخاري ٢/ ٥١.

(٦) مناهل العرفان ١/ ٢٤١.

(٧) البخاري (٥٠٢٧).

قال ابن كثير: وقد كان أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السُلَمِي الكوفي أحد أئمة الإسلام ومشايخهم ممن رغب في هذا المقام، فقعد يعلم الناس من إمارة عثمان إلى أيام الحجاج، قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث يعلم فيه القرآن سبعين سنة رحمه الله، وأثابه، وآتاه ما طلبه ورامه آمين[(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"**[(٢)].

٨ – الترغيب في حفظ القرآن عن ظهر قلب: وإذا ثبتت الفضيلة لقارىء القرآن فلا شك أن حفظ القرآن عن ظهر قلب أعلى مرتبة وأشرف منزلة؛ لأن القرآن قد استقر في قلب حافظه، يقرؤه في كل مكان وزمان لا يشعر من حوله بقراءته، فيسلم بإذن الله من الوقوع في الرياء.

عن عائشة عن النبي ﷺ قال: **"مثل الذي يقرأ القرآن -وهو حافظ له- مع السفرة الكرام البررة"**[(٣)].

٩ – تشجيعه ﷺ على تلاوة القرآن وحفظه: لَمَّا كان ﷺ مهتمًا بتلاوة القرآن وحفظه – وكان ذلك شغله الشاغل- وجَّه أتباعه إلى ذلك، وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على ذلك. منها قوله ﷺ: **"اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه"**[(٤)].

وقوله ﷺ: **"يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأ بها"**[(٥)].

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير (١٣٢).

(٢) مسلم(٧٠٢٨).

(٣) البخاري (٤٦٥٣)، مسلم (١٨٩٨).

(٤) مسلم (١٨٢٥).

(٥) أحمد ٢/ ١٩٢، وأبو داود(١٤٦٤)، والترمذي(٢٩١٤)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة(٢٢٤٠).

وقوله ﷺ: **"الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران"**[1]، وقوله ﷺ: **"من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف"**[2].

١٠ - أمره ﷺ لمن حفظ القرآن أن يتعاهده حتى لا يتفلت منه: فكما أمر ورغب ﷺ في حفظ القرآن - كما سبق- أمر ﷺ بتعهد القرآن ومراجعة حفظه باستمرار، حتى لا يتفلت ويُنسى، ومما ورد في ذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه عنه ابن عمر رضي الله عنه: **" إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعَقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت "**[3]، وفي رواية لمسلم من حديث موسى بن عقبة رضي الله عنه: **" وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره وإذا لم يقم به نسيه "**[4].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"بئس ما لأحدهم يقول: نسيت آية كَيت وكَيت، بل هو نُسِّي، استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًّا من صدور الرجال من النَّعَمِ بعقلها"**. [5]
(أي: تفلُّتًا وتخلصًا). [6]

١١ – ترغيبه ﷺ بتحسين الصوت بالقراءة: حُسن الصوت بالقراءة مطلوب، وتزيين الصوت بالقراءة سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ ولكن ينبغي ألا يتجاوز هذا التحسين الحد المطلوب، ومما ثبت عن الرسول ﷺ في الحث على تحسين الصوت بالقراءة والتغني بالقرآن ما يلي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **"ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به "**[7].

---

(١) مسلم (٧٩٨).
(٢) الترمذي (٢٩١٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٢٧).
(٣) البخاري (٥٠٣١)، ومسلم (٧٨٩).
(٤) مسلم (٧٨٩).
(٥) البخاري(٥٠٣٣)، ومسلم(٧٩١).
(٦) فَصَى الشيء من الشيء: فصله، وفصَّيتُه: خلَّصتُه. لسان العرب لابن منظور ١٥/ ١٥٦.
(٧) البخاري(٧٥٤٤)، ومسلم(١٧٩٥).

وعن أبي بُرْدة، عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"يا أبا موسى لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود"**[١].

وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم فيه حِرص النبي ﷺ على استماع القراءة بالصوت الحسن، فعن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ لأبي موسى، لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة، لقد أوتيتَ مزمارًا من مزاميرآل داود[٢].

ولقد كان صوته ﷺ حسنًا؛ بل أحسن الأصوات بقراءة القرآن الكريم، وذلك كما جاء في رواية البراء ﷺ قال: "سمعت رسول الله ﷺ قرأ في العشاء بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فما سمعت أحدًا أحسن منه صوتًا"[٣].

١٢ – حرص الصحابة ﷺ على كثرة قراءته: كان النبي ﷺ يتلوا الآيات على الصحابة ﷺ فور نزولها، وكانوا يحفظونها ويتلونها في الصلوات ومختلف العبادات مرارًا وتكرارًا في آناء الليل وأطراف النهار. كما في قصة تزويج عمرو بن العاص لابنه عبد الله وفيه أن النبي ﷺ سأله قائلا: "كيف تصوم؟ " قال: قلت: أصوم كل يوم. قال: "وكيف تختم؟ " قال: كل ليلة، قال: "صم في كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر"، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: "صم ثلاثة أيام في الجمعة" قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: " أفطر يومين وصم يومًا، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: "صم أفضل الصوم، صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة"، فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذاك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أيامًا وأحصى، وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئًا فارق النبي ﷺ عليه"[٤].

---

(١) البخاري (٥٠٤٨).

(٢) مسلم (٧٩٢).

(٣) البخاري (٧٥٤٦)، ومسلم (٤٦٤).

(٤) البخاري (٥٠٥٢).

ولعل نهي الرسول ﷺ هذا بسبب أنه يخشى على أمته من الملل، فإذا طال العمر دبَّ الوهن إلى جسم الإنسان وقد يصيبه الفتور، ولكن القليل الدائم خير من الكثير المنقطع.

ومما يدل على أن الرسول ﷺ إنما نهى عن الإسراع في القراءة خوفًا على أتباعه من الملل، ما ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **"يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل"**(١).

١٣- حرص الصحابة على تعلم القرآن من النبي ﷺ وتلاوته وتعليمه: فعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا: أنهم يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يُخلِّفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلّمنا القرآن والعمل جميعًا.(٢)

وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا عجز أحدهم عن تفريغ وقت لتحصيل القرآن الكريم مباشرة من فم رسول الله ﷺ أناب عنه من يحصل عنه. فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلتُ جئتهُ بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعلَ مثل ذلك.(٣)

وكان من نتيجة ذلك أنْ كثُرَ الحفاظ في عهد النبي ﷺ.

وكانوا يعرضون على النبي ﷺ القرآن ويقرؤونه عليه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: "اقرأ عليَّ، قلتُ: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فإني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١) قال: أمسك، فإذا عيناه تذرفان "(٤).

---

(١) مسلم (١١٥٩).

(٢) أحمد٥/ ٤١٠. وإسناده حسن.

(٣) البخاري (٨٩)، مسلم(١٤٧٩).

(٤) البخاري (٤٣٠٦)، مسلم(٨٠٠).

وكان مسجده ﷺ عامرًا بتلاوة القرآن يضج بأصوات الحفاظ فأمرهم ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[١].

عن البياضي أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: إن المصلي يناجي ربه فلينظر بما يناجيه به، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن[٢].

وكان كل حافظ للقرآن ينشر ما حفظه، ويعلمه للأولاد والصبيان والذين لم يشهدوا نزول الوحي، امتثالًا لأمره ﷺ: "بَلِّغوا عني ولو آية"[٣]، فشاع حفظه بين الرجال والنساء، حتى إن المرأة المسلمة كانت ترضى سورة من القرآن أو أكثر مهرًا لها، ومما ورد في ذلك حديث سهل بن سعد ﷺ قال: "أتت النبيَّ ﷺ امرأةٌ فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله ﷺ، فقال: ما لي في النساء من حاجة، فقال رجل: زوجنيها، قال: أعطها ثوبًا، قال لا أجد، قال: أعطها ولو خاتمًا من حديد، فاعتلَّ له، فقال: ما معك من القرآن؟ قال: كذا وكذا، قال فقد زوجتكها بما معك من القرآن"[٤].

وخير دليل على كثرة الحفاظ في زمن الرسول ﷺ أنه قُتل منهم في بئر معونة المعروفة بـ "سرية القراء" سبعون رجلًا[٥]، كما قُتل منهم يوم اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه سبعون قارئًا، وذكر أبو عبيد في كتابه "القراءات" عددًا كبيرًا من القراء أصحاب النبي ﷺ، فذكر كثيرًا من المهاجرين، وكثيرًا من الأنصار، وبعض أزواج النبي ﷺ[٦].

وقد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب جم غفير من الصحابة، منهم الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكذلك أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود،

---

(١) جمع القرآن الكريم حفظًا وكتابةً (٢١) د. علي بن سليمان العبيد.

(٢) مالك ٢/ ١٠٩: ١١٠، أحمد ٤/ ٣٤٤، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٠٣).

(٣) البخاري (٣٢٧٤).

(٤) البخاري (٤٧٤١).

(٥) البخاري(٢٦٤٧)، مسلم(٦٧٧).

(٦) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٤٢، والإتقان في علوم القرآن ١/ ١٩٥.

وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك، ومجمَّع بن جارية، وأبو زيد الأنصاري، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم(١).

هؤلاء بعض من عُرفوا واشتهروا ومن لم يُعرف أكثر وأكثر. فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ، وَذَكْوَانُ، وَعُصَيَّةُ، وَبَنُو لِحْيَانَ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ، يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ، وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، فَانْطَلَقُوا بِهِمْ، حَتَّى بَلَغُوا بِئْرَ مَعُونَةَ، غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَبَنِي لِحْيَانَ(٢).

وثبت أنه قُتل في وقعة اليمامة كثير من القراء، ويدل على ذلك قول عُمَرَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ(٣).

لم يكن هم الصحابة حفظ ألفاظ القرآن فحسب؛ بل جمعوا إلى حفظ اللفظ فهم المعنى المراد، وتدبر الآيات، والعمل بمقتضى ما تضمنه من الأحكام والآداب. قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.(٤)

ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة الواحدة، وهذا هو السر فيما رُوي أن ابن عمر رضي الله عنهما أقام على حفظ سورة البقرة ثمان سنين(٥).

ويتبين من هذا أن الله ﷻ حفظ القرآن على الأرض بواسطة رسول الله ﷺ، ثم أصحابه رضوان الله عليهم، والتابعين، وكافة المؤمنين بعد ذلك.

---

(١) راجع غاية النهاية في طبقات القراء.

(٢) البخاري (٣٠٦٤).

(٣) البخاري (٤٧٠١).

(٤) أحمد ٥/ ٤١٠، وإسناده حسن.

(٥) البخاري (٤٧٠٤).

رابعًا: ثبوت القرآن مكتوبًا في عهد النبي ﷺ.

كُتابة القرآن الكريم:

كانت الكتابة قليلة بين أصحاب النبي ﷺ ولكن ثبت أن عددًا منهم تعلموا القراءة والكتابة، وكتبوا القرآن، فمنهم من كتب صحيفة لنفسه، وتجردت منهم طائفة لكتابة القرآن الكريم في حياة الرسول ﷺ وهم كَتَبة الوحي الذين أرصدهم لذلك، ومن أشهر هؤلاء؛ بل هو إمام الكُتَّاب وسيدهم: زيد بن ثابت ﷺ، فقد ثبت عن البراء: لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: "ادع لي زيدًا، وليجئ باللوح والدواة والكتف أو الكتف والدواة" ثم قال: "اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾"[(١)].

وفي الصحيح كذلك أن أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- اختاراه لجمع القرآن وكتابته. قال زيد ﷺ: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه[(٢)]. قال ابن حجر رحمه الله: نعم قد كتب الوحي لرسول الله ﷺ جماعة غير زيد بن ثابت. أما بمكة فلجميع ما نزل بها؛ لأن زيد بن ثابت إنما أسلم بعد الهجرة، أي أن جميع ما نزل قبل الهجرة كتبه كتاب آخرون غير زيد الأنصاري المدني الذي أسلم بالمدينة. وقال ابن حجر: وأما بالمدينة فأكثر ما كان يكتب زيد، ولكثرة تعاطيه ذلك أطلق عليه: الكاتب بلام العهد. . . وقد كتب له قبل زيد بن ثابت: أبيُّ بن كعب وهو أول من كتب له بالمدينة، وأول من كتب له من قريش بمكة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وممن كتب له في الجملة الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وأَبَّان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وحنظلة بن الربيع الأسدي، ومُعَيقيب بن أبي فاطمة، وعبد الله بن الأرقم الزهري، وشُرَحبيل ابن حسنة، وعبد الله بن رواحة ﷺ.[(٣)]

ومن كلام ابن حجر هذا يتبين لنا كثرة عدد من كتب للنبي ﷺ.

---

(١) البخاري (٤٩٩٠).

(٢) البخاري(٤٩٨٦).

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٣٩ بتصرف.

ومزيدًا في التحفظ، والاحتياط للقرآن، ولئلا يختلط به غيره من الكلام نهى ﷺ عن كتابة شيء عنه غير القرآن الكريم:

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمْحه، وحدثوا عني ولا حرج"(١).

قال ابن كثير: أي لئلا يختلط بالقرآن، وليس معناه أن لا يحفظوا السنة ويرووها، والله أعلم. فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن ما أداه الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إلينا ولله الحمد والمنة(٢).

ومزيدًا في التحري والدقة في الكتابة مراجعته ﷺ للكُتَّاب بعد كتابتهم لما ينزل، قال زيد بن ثابت ﷺ: "كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يُملي عليَّ، فإذا فرغتُ، قال: اقرأه، فأقرأه، فإن كان فيه سقط أقامه"(٣).

ومما يدل على أن القرآن كان مكتوبًا في العهد النبوي ما ورد من الأحاديث الدالة على وجود القرآن الكريم مكتوبا في عهد النبي ﷺ. ومن ذلك، حديث ابن عمر ﷺ "أن رسول الله ﷺ نهى أن يُسَافر بالقرآن إلى أرض العدو"(٤).

وفي لفظ أن رسول الله ﷺ قال: "لا تسافروا بالقرآن، فإني لا آمنُ أن يناله العدو"(٥).

وغير ذلك من الأخبار الدالة على أن القرآن الكريم كان مكتوبا في عهده ﷺ.

الأمر الثاني: خصائص للقرآن دعت إلى حفظه.

ولعل من أبرز دواعي حفظه - غير تكفل الله ﷻ بحفظه - ما يلي:

---

(١) مسلم (٣٠٠٤).

(٢) فضائل القرآن(٣٢).

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني في الكبير(٤٨٨٩)، والأوسط(١٩١٣)، والخطيب في الجامع(١٤٠٦) من طريق سعيد بن سليمان، عن أبيه سليمان بن زيد، عن زيد به. وإسناده ضعيف. فيه سليمان بن زيد: مقبول، وهذا حيث يتابع وإلا فهو لين، ولم يتابعه أحد.

(٤) البخاري (٢٩٩٠)، مسلم(١٨٦٩).

(٥) مسلم (١٨٦٩).

١-سهولة حفظ القرآن الكريم وتيسيره، فكان من رحمة الله على خلقه أن يسر لهم حفظ القرآن الكريم، ليجعل من ذلك سببًا مانعًا من ضياع شيء منه، فكما قال ﷻ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩). فقد قال أيضًا ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧).[١]

٢-مجيء القرآن الكريم معجزًا متميزًا في نظمه، فريدًا في أسلوبه، لا يطاوله كلام البلغاء، ولا تدنو منه فصاحة الفصحاء، وكان الصحابة ينتظرونه بشغف ويتمنون أن يتلقوه فور نزوله، كما كان أعداء الرسول ﷺ يحرصون على سماعه، إما للبحث عن نقط ضعف فيه تعينهم على مغالبته أو مهاجمته، وإما لإشباع حاجتهم الملحة في التذوق الأدبي، ويمكننا أن نتصور إذن مدى الاهتمام الذي كان يثيره القرآن في نفوس المؤمنين والكافرين على السواء.[٢]

٣- تشريع قراءة القرآن الكريم في الصلاة فرضًا كانت أم نفلًا، سرًّا أم جهرًا، مما جعلهم يحرصون على حفظ القرآن الكريم لأداء هذه العبادة. عن حذيفة ﷺ قال: "صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلًا، إذا مَرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مَرّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع"[٣].

٤- ارتباط القرآن الكريم بالتشريعات؛ فإن كثيرًا من آياته تحوي أحكامًا في العبادات: كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وأحكامًا في المعاملات كالبيع والشراء والدَّين، وأحكاما في سائر أمور الحياة، فلا بد أن يستظهروه ليعملوا بمقتضاه[٤].

(١) جمع القرآن الكريم حفظًا وكتابةً ١/ ٢٦.

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم (٣٤)، وأضواء على سلامة المصحف الشريف من النقص والتحريف (٢٨: ٣٦).

(٣) مسلم (٧٧٢).

(٤) انظر أضواء على سلامة المصحف الشريف من النقص والتحريف (٢٨: ٢٩).

مما سبق يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن القرآن أصبح مظهرًا عظيمًا من مظاهر المجتمع الإسلامي ملأ على المسلمين حياتهم، يتلونه آناء الليل وآناء النهار في صلواتهم، وخلواتهم، ويحتكمون إليه في معاملاتهم، ويورثونه لمن بعدهم جيلًا بعد جيل. فعن الأعمش، قال: مر أعرابي بعبد الله بن مسعود، وهو يقريء قومًا القرآن، أو قال: وعنده قوم يتعلمون القرآن، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: يقتسمون ميراث محمد ﷺ(١).

وعن أبي هريرة ﷺ: أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله يقسم وأنتم ها هنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد. فخرجوا سراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا يا أبا هريرة: فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئًا يقسم، فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحدًا، قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ(٢).

وبهذا نستطيع أن نقول: إن القرآن لم تتوقف تلاوته، ولم تنقطع كتابته على وجه الأرض يومًا أو بعض يوم منذ أنزله الله وشرع قراءته في الصلاة؛ فهو يتلى آناء الليل وآناء النهار، في المحاريب والكتاتيب، ويدون بالمحابر والدفاتر، فأنّى له أن يصير منه حرف في نطاق العدم أو تزل به قدم.

الأمر الثالث: طرق تحمل القرآن في أعلى درجات التوثيق.

وطرق الأخذ والتحمل تأتي على أنواعٍ، ذكر المحدثون أنها ثمانية وهي باختصار:

السماع من لفظ الشيخ، القراءة على الشيخ، الإجازة، المناولة، المكاتبة، الإعلام، الوصية، الوجادة.

ولكل واحد من هذه الأقسام عند علماء الحديث مبحث خاص وأمثلة ليس هذا محل ذكرها.

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ١/ ١٠.

(٢) المعجم الأوسط ٢/ ١١. وحسن إسناده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٩.

والذي يعني القراء من هذه الأقسام ثلاثة وهي: السماع من لفظ الشيخ، والقراءة على الشيخ، والإجازة وهو ما سنوضحه إن شاء الله تعالى.

الأول: العرض على الشيخ.

وهو قراءة الطالب على الشيخ، وعرض القارئ على المقرئ[١].

وهو سنة عن رسول الله ﷺ كما ثبت في الحديث "أنه ﷺ كان يقرأ على جبريل ويعارضه القرآن في كل رمضان فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه القرآن مرتين"[٢].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِأُبَيٍّ: "**إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ. قَالَ: الله سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: الله سَمَّاكَ لِي. قَالَ: فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي**"[٣].

قال أبو عبيد: معنى هذا الحديث عندنا أن رسول الله ﷺ إنما أراد بذلك العرض على أُبَيٍّ أن يتعلم منه القراءة ويتثبت فيها، وليكون عرض القرآن سنة، وليس هذا على أن يستذكر النبي ﷺ منه شيئًا بذلك العرض[٤].

وعرض عبد الله بن مسعود ﷺ على رسول الله ﷺ حينما طلب منه الرسول ﷺ أن يقرأ عليه كما تقدم.

قال أبو عبيد: وإنما نرى القراء عرضوا القراءة على أهل المعرفة بها، ثم تمسكوا بما علموا منها مخافة أن يزيغوا عما بين اللوحين بزيادة أو نقصان، ولهذا تركوا سائر القراءات التي تخالف الكتاب، ولم يلتفتوا إلى مذاهب العربية فيها إذا خالف ذلك خط المصحف،

---

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح (٦٢)، تقريب النووي (٢).

(٢) البخاري (٦٢٨٦)، مسلم (٢٤٥٠): أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ وَلاَ أراني إِلاَّ قَدْ حَضَرَ أَجَلِي.

(٣) البخاري (٣٨٠٩)، مسلم (٧٩٩).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيدص ٢١٥.

وإن كانت العربية فيها أظهر بيانا من الخط، ورأوا تتبع حروف المصاحف، وحفظها عندهم كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعداها(١).

وعرض آخرون من الصحابة على رسول الله ﷺ ذكرهم الذهبي في طبقاته(٢).

وهكذا فإن من طالع كتب تراجم القراء يرى أن منهج العرض هو منهج الطلبة النابهين، والقراء المنتهين فلا يعدلون به عن السماع من الشيخ إلا عند تعذره كأن يكون الشيخ على سفر أو ازدحم عليه الطلبة.

الثاني: السماع من لفظ الشيخ.

وهو أن يقرأ الشيخ، والطالب يستمع، وبهذه الطريق تلقى رسول الله ﷺ القرآن عن جبريل عليه السلام عن الله ﷻ، فكان جبريل يقرأ ورسول الله ﷺ يستمع فإذا فرغ جبريل أعاد رسول الله ﷺ ما سمع عرضًا على جبريل، فتحصل له مرتبتان:

مرتبة الاستماع للفظ الشيخ، ومرتبة العرض والقراءة على الشيخ.

وطريق كهذا هو في أعلى مراتب الأخذ والتحمل. قال تعالى مبينا كيفية تلقي نبيه للقرآن: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة١٩: ١٧)، وكان ﷺ يتلو ما نزل عليه على أصحابه ويعلمهم إياه قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران ١٦٤)، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

وقد تقدم قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تأويل قول الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾.

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام صـ ٢١٧.

(٢) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي.

ولا تعارض بين ما اختاره القراء من تقديم طريقة العرض على الشيخ وبين صنيع رسول الله ﷺ في تعليم أصحابه وإقرائهم ما نزل عليه وتلقي بعض التابعين عن طريق التلقين والسماع من الشيخ.

فأصحاب رسول الله ﷺ كانت فصاحتهم وطباعهم السليمة تقتضي قدرتهم على الأداء ومحاكاة رسول الله ﷺ في كل ما سمعوا منه؛ لأنهم هم الذين نزل القرآن بلغتهم[(١)].

فلما فسد اللسان وغلبت العجمة، وتعذر مع التلقين أن يأتي الطالب للقراءة بالكيفية والهيئة التي سمع من الشيخ إلا بعد دربة ومران وجهد رجح علماء القراءات العرض على السماع.

قال ابن الجزري: ولا يجوز له أن يقرئ إلا بما سمع أو قرأ. فإن قرأ الحروف المختلف فيها أو سمعها؛ فلا خلاف في جواز إقرائه القرآن العظيم بشرط أن يكون ذاكرًا كيفية تلاوته به حال تلقيه من شيخه مستصحبًا ذلك.

الثالث: الإجازة.

وهي: إذْنُ الشيخ للطالب في الرواية عنه مروياته التي لم يقرأها ولم يسمعها منه[(٢)].

وهي أنزل من طريقي العرض و السماع بلا خلاف.

قال ابن الجزري: جوز العمل بها الجعبري مطلقًا، قال: وعندي أنه لا يخلو إما أن يكون تلا بذلك، أو سمعه؛ فأراد أن يعلي السند، أو يكثر الطرق فجعلها متابعة، أولا؛ فإن كان فجائز حسن، فعل ذلك العلامة أبو حيان في كتابه التجريد وغيره عن أبي الحسن ابن البخاري وغير متابعة. ومنعها من القراء: الحافظ أبو العلاء الهمذاني وجعله من أكبر الكبائر، قال القسطلاني: كأنه أراد بذلك المنع إن لم يكن الشيخ أهلا؛ لأن في القراءات أمورا لا تحكمها إلا المشافهة.

قلت: ما ذهب إليه الحافظ ابن الجزري من تقييد جواز الرواية بها بكمال الأهلية هو

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية ٧٠/ ٣٦٥

(٢) انظر تفصيلاً الكفاية ١/ ٣١١، المحدث الفاصل ١/ ٤٣٥، الإلماع ١/ ٨٨، فتح المغيث ٢/ ٦٥، تدريب الراوي ٢/ ٢٩، الباعث الحديث ١/ ١٠.

الصواب، فإن من أحكم القراءة، وأتقن الرواية، وضبط الخلاف، وعُرف عنه التمكن في ذلك إن طلب الإجازة ممن لم يقرأ عليه أو قرأ عليه البعض ولم يكمل ليعلو إسناده أو لتكثر طرقه فله أن يروي بها متى أجيز.

وقد اقتصر علماء القراءات على هذه الأنواع الثلاثة من طرق الأخذ والتحمل دون غيرها مما ذكره علماء الحديث، وإن وجد فلا اعتداد به ولا اعتبار له عندهم ولم يأخذوا به[١].

هذا وإن المطالع لمقدمات كتب القراءات المعتبرة الجامعة للروايات والطرق التي تلقى بها أولئك الأئمة يقف مشدودا أمام ذلك الكم الهائل من الأسانيد التي أحيطت بالعناية والرعاية حتى تصل إلى منتهاها؛ بل إن علماء القراءات مازالوا يحتفظون بأسانيدهم المتصلة إلى الرسول ﷺ حتى الآن.

ومثل هذا التحري يقال في التحريرات أيضًا؛ لأنّ المحررين مجمعون على تواتر ما في كتاب النشر جملة إلاّ أنّ حرصهم على عدم الخلط بين الروايات والطرق جعلهم يختلفون في بعض المسائل، وهذا يدلّ على بلوغهم أعلى مراتب الحرص والاعتناء بالقرآن الكريم ولا يزيد ذلك إلاّ شرفاً للأمّة المحمدية، ولا شكّ أنّ المبالغة في الاعتناء أولى من التساهل.

المبحث الثالث: مراحل جمع القرآن، والفرق بين كل مرحلة.

جُمِع القرآن ثلاث مرات وهي:

المرحلة الأولى: جمع القرآن في عهد النبي ﷺ.

كتب القرآن كله في عهد رسول الله ﷺ لكن لم يجمع في موضع ولم ترتب سوره.

قال الحاكم: جُمع القرآن ثلاث مرات. إحداها: بحضرة النبي ﷺ، ثم أخرج بسنده عن زيد بن ثابت ﷺ، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، نؤلف القرآن من الرقاع. الحديث[٢].

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية ٧٠/ ٣٧٠- ٣٧٩.

(٢) الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٦٨، مسند أحمد ٥/ ١٨٤، و الترمذي (٣٩٥٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٩٥٤)، وانظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٦٦.

قال البيهقي: وهذا يشبه أن يكون أراد به تأليف ما نزل من الكتاب الآيات المتفرقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ، ثم كانت مثبتة في الصدور، مكتوبة في الرقاع واللِّخَاف والعسب، فجمعها منها في صحف بإشارة أبي بكر وعمر، ثم نسخ ما جمعه في الصحف، في مصاحف بإشارة عثمان بن عفان ﷺ على ما رسم المصطفى ﷺ، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى رفيقه الأعلى إلا والقرآن كله كان مكتوبًا، مرتب الآيات في سورها، غير أنه لم يكن مرتب السور، ولا مجموعًا في مصحف واحد، ولا موجودًا في مكان واحد، بل كان مفرقًا لدى الصحابة، وكان ذلك لما كان يتوقع من نزول ناسخٍ لآية حكمًا أو تلاوة[١].

المرحلة الثانية: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق.

لما تُوفي الرسول ﷺ سار خلفاؤه الراشدون على منهجه واستنوا بسنته، وسلكوا طريقته في العناية بالقرآن الكريم، واتجهت جهودهم أفرادًا وجماعات للعناية بالقرآن الكريم، ومن ذلك جمعه وترتيبه وكان ذلك في عهدَيّ أبي بكر الصديق ﷺ، وعثمان بن عفان ﷺ.

تاريخ هذا الجمع:

وكان هذا الجمع بعد معركة اليمامة، في السنة الثانية عشر من الهجرة. وتدلنا الروايات التي وردت حول وقعة اليمامة وحديث جمع القرآن الكريم على مدى العناية والاهتمام من الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن الكريم، فكان حفظ القرآن الكريم شعارًا لهم في وقعة اليمامة، حيث كانوا يتنادون به، ويشجعون أنفسهم أمام قوة عدوهم بعبارات تدل على حفظهم للقرآن الكريم، وكان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة (يا أصحاب سورة البقرة)[٢].

وعن سالم مولى أبي حذيفة، أنه كان معه لواء المهاجرين يوم اليمامة، فقيل له: إنا نخاف عليك. كأنهم يعنون الفرار، فقال: "بئس حامل القرآن أنا إذًا"[٣].

وقول أبي حذيفة: "يا أهل القرآن: زينوا القرآن بالفعال"[١].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٨/ ٢٣٢، وانظر الإتقان في علوم القرآن١/ ١٦٤.

(٢) عبد الرزاق ٥/ ٢٣٢(٩٤٦٥)، وابن أبي شيبة٦/ ٥٤٧ (٣٣٧٢٤).

(٣) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ١/ ١١٢، أسد الغابة١/ ٤١٠.

فدلَّ ذلك على مدى اهتمامهم بالقرآن الكريم حيث جعلوه من أولويات عملهم، وهذا الحرص من الصحابة رضوان الله عليهم لم يقتصر على عهد رسول الله ﷺ، بل تعداه وأشد إلى ما بعد وفاته ﷺ.

بواعث الجمع وأسبابه:

بعدما تولى أبو بكر رضي الله عنه إمارة المسلمين واجهته أحداث جسيمة، خصوصًا ما كان من قِبَلِ أهل الردة، وما دار بعد ذلك من حروب طاحنة ومعارك عنيفة، خصوصًا ما كان في موقعة اليمامة. حيث استشهد فيها عدد كبير من الصحابة، منهم أكثر من سبعين من قراء الصحابة، فاشتد ذلك على الصحابة، ولا سيما على عمر رضي الله عنه فاقترح على أبي بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن خشية ضياعه بموت الحفاظ وقتل القراء، فتردد أبو بكر لأول الأمر ثم شرح الله صدره لما شرح له صدر عمر رضي الله عنه، فكان هو أول من جمع القرآن بين اللوحين وكان أحد الذين حفظوا القرآن كله ويتضح ذلك من الحديث الذي صح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه وكان من كُتَّاب الوحي، وقال فيه: "أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بكرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليمامةِ وعندهُ عُمرُ، فقالَ أبو بكرٍ: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامةِ بالنّاس، وإنِّي أخشَى أن يستَحرَّ القَتْلُ بالقرّاءِ في المواطن، فيذْهبَ كثيرٌ من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمعَ القرآن. قال أبو بكر قلتُ لعمرَ: كيفَ أفعلُ شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ. فقال عمرُ: هو والله خيرٌ. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالسٌ لا يتكلم. فقال أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ، عاقلٌ، ولا نتهمك، كنتَ تكتبُ الوحي لرسول الله ﷺ. فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبلٍ من الجبال ما كانَ أثقلَ عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلتُ: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خيرٌ. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرحَ الله له صدر أبي بكرٍ وعمر. فقمتُ فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والأكتاف، والعسُبِ، وصدور الرجال، حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين مع

(١) تاريخ الطبري٢/ ١٥٩، الكامل في التاريخ ١/ ٣٧٤، البداية والنهاية٦/ ٣٢٤.

خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحدٍ غيره ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ (التوبة: ١٢٨) إلى آخرهما وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفّاه الله، ثم عند عمر حتى توفّاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر".(١)

وعلى هذا، فقد بدأ جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ سنة ١٢ هـ.

سبب تردد أبي بكر الصديق في قبول عرض عمر ﷺ بجمع القرآن.

نلحظ في الحديث الذي رواه البخاري أن أبا بكر الصديق ﷺ تردد - في أول الأمر - في قبول عرض عمر بن الخطاب ﷺ بجمع القرآن الكريم. ولعل السبب في ذلك أن أبا بكر ﷺ ظن أن جمع القرآن الكريم كله في مصحف واحد بدعة في الدين، فخاف أن يحدث فيه ما لم يفعله الرسول ﷺ أو يأمر به، ولذلك قال ﷺ: "كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ ".

قال ابن بطال: إنما نفر أبو بكر أولًا، ثم زيد بن ثابت ثانيًا؛ لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله، فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ﷺ(٢).

ولكن عمر بن الخطاب ﷺ أخذ يقنع أبا بكر بصواب الفكرة، وأن في هذا الأمر خيرًا، ولم يزل به حتى اقتنع بأهمية ذلك، ولذا قال: "فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك".

وبنفس الطريقة اقتنع زيد في آخر الأمر حيث قال: "لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ﷺ".

قال ابن حجر: وقد تسول لبعض الروافض أنه يتوجه بالاعتراض على أبي بكر بما فعله من جمع القرآن في المصحف، فقال: كيف جاز أن يفعل شيئًا لم يفعله الرسول ﷺ؟

والجواب: أنه لـم يفعل ذلك إلاّ بطريق الاجتهـاد السائـغ الناشئ عـن النصح منه لله

---

(١) البخاري (٤٣١١، ٤٦٠٣، ٦٦٥٤).

(٢) فتح الباري ٩/١١.

ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وقد كان النبي ﷺ أذن في كتابة القرآن، ونهى أن يكتب معه غيره، فلم يأمر أبو بكر إلاّ بكتابة ما كان مكتوبًا. ثم قال: وإذا تأمل المنصف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم بأنه يعد من فضائله، وينوه بعظيم منقبته لثبوت قوله ﷺ: "**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها**" فما جمع القرآن أحد بعده إلاّ وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة[(١)].

ومن هنا يتبين أن عمل أبي بكر رضي الله عنه لم يكن بدعة في الدين، ويكفي دليلًا على ذلك إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على استحسان عمله ومشاركتهم فيه، وقد عبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذلك بقوله: "أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمعه بين اللوحين[(٢)].

أسباب اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذا الجمع.

ترجع أسباب اختيار أبي بكر وعمر لزيد بن ثابت رضي الله عنه لأمور منها:

١ - أنَّه كان من حُفَّاظ القرآن الكريم في حياة الرسول ﷺ.

٢ - أنَّه شهد العَرضة الأخيرة للقرآن الكريم، ذكر البغوي، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِي أنه قال: قرأ زيد بن ثابت عن رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين إلى أن قال عن زيد بن ثابت أنه شهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاه عثمان كَتبة المصاحف رضي الله عنهم. [(٣)]

٣ - أنه من كُتَّاب الوحي للرسول ﷺ؛ بل هو أشهرهم وأكثرهم كتابة للوحي.

٤ - خصوبة عقله، وشدة ورعته، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وعِظم أمانته ويشهد

(١) فتح الباري ١٠/ ٩.

(٢) ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ١٦٨، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٠، ٣٥٤ وأبو عبيد في فضائل القرآن (١٥٥)، وابن أبي داود في المصاحف ١/ ١٦٦، وحسن إسناده الحافظ في الفتح ٩/ ١٢ وأورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٥ وقال عنه: إسناده صحيح. وانظر: أضواء على سلامة المصحف الشريف من النقص والتحريف ٤٥-٤٧، جمع القرآن الكريم حفظا وكتابةً ١/ ٤٣.

(٣) ذكر ذلك البغوي في شرح السنة ٤/ ٥٢٥، ٥٢٦، والسيوطي في الإتقان ١/ ٥٩.

لذلك قول أبي بكر ﷺ له: "إنك رجل شاب، عاقل، لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ". وقول زيد بن ثابت ﷺ: "فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن". فما أحراه بجمع القرآن وأولاه.

خطة الجمع: استثقل زيد بن ثابت المهمة، إلا أنه حينما شرح الله له صدره باشر بها، وبدأ بجمع القرآن بوضع خطة أساسية للتنفيذ، اعتمادًا على مصدرين هامين:

الأول: ما كُتب أمام الرسول ﷺ وبإملاء منه، وكان زيد نفسه من كُتَّاب الوحي.

الثاني: ما كان محفوظًا لدى الصحابة، وكان هو أيضًا من حفاظه في حياته ﷺ وكان لا يقبل شيئًا من المكتوب، أو المحفوظ حتى يجتمع فيه شرطان:

١ - أنه مما كتب بين يدي الرسول ﷺ، وذلك بشهادة شاهدين عدلين[1].

٢ - أنه مما ثبت في العرضة الأخيرة، ولم تنسخ تلاوته. [2]

---

(١) الإتقان١/ ٥٨.

(٢) يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ١/ ١٧١ من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال: أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن، فقام في الناس، فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعُسُب، وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان، فقتل وهو يجمع ذلك إليه، فقام عثمان بن عفان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به. وكان لا يقبل من ذلك شيئا حتى يشهد عليه شاهدان، فجاء خزيمة بن ثابت فقال: إني قد رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما. قالوا: وما هما؟ قال: تلقيت من رسول الله ﷺ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ إلى آخر السورة، قال عثمان: فأنا أشهد أنهما من عند الله فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: اختم بها آخر ما نزل من القرآن فختمت بها براءة، وإسناده ضعيف. يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب لم يسمع من عمر.

وله شاهد أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ١/ ١٥٧ عن هشام بن عروة عن أبيه، أن أبا بكر قال لعمر، ولزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه. وإسناده فيه انقطاع، قال الحافظ: رجاله ثقات مع انقطاعه. الفتح ٩/ ١٤.

ويشهد له أيضًا ما أخرجه البخاري في قصة الجمع في عهد عثمان. عن ابن شهاب عن خارجة بن زيد أن زيد ابن ثابت ﷺ قال: نسخت الصحف في المصاحف ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ=

قال الحافظ: وكأن المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن. [1]

قال أبو شامة: وكان غرضهم أن لا يُكتب إلا من عين ما كُتب بين يدي النبي ﷺ، لا من مجرد الحفظ. ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده، ولذلك قال في الحديث الذي أوردناه عن البخاري سابقًا، إنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة، أي: لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، مع أن زيدًا كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة، زيادة في التوثق، ومبالغة في الاحتياط[2].

وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن في صحف بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة، وأجمعت الأمة على ذلك دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف، ولعمر في الاقتراح، ولزيد في التنفيذ، والصحابة في المعاونة والإقرار.

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده مدة حياته، ثم حفظها عمر بعده حتى شهادته، ثم حفظتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة والدها، حتى طلبها منها عثمان ﷺ ليستنسخ منها مصاحفه اعتمادًا عليها، ثم ردها إليها إيفاء بالعهد الذي أعطاها إياه، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم حينما ولي المدينة فأبت، ثم لما توفيت ﵂ سنة ٤٥هـ، حضر مروان جنازتها، ثم طلب من أخيها

= يقرأ بها فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين وهو قوله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (البخاري: ٢٦٥٢). ففي التنبيه على أن شهادة خزيمة تعدل شهادة رجلين إشارة إلى أنهم اشترطوا هذا الشرط لا سيما والقائم بالجمع في العهدين واحد وهو زيد. وبهذه الشواهد يرتقي إلى الحسن والله أعلم.

(١) فتح الباري ٩/ ١٤، ١٥، الإتقان ١/ ١٦٢.

(٢) الإتقان ١/ ١٦٢.

عبد الله بن عمر ﷺ فبعث بها إليه فأخذها مروان وأمر بإحراقها[١].

سمات جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق ﷺ.

كان من نتائج الجمع في العهد البكري أن سجل كامل القرآن الكريم وقيد بالكتابة، وزال الخوف من ضياعه بوفاة حملته وقرائه. وحفظ كله في موضع واحد، بعد ما كان مبعثرًا في أماكن متفرقة. وأجمع الصحابة كلهم على ما سجل فيه. وأصبح بمنزلة وثيقة وسجل يُرجع إليه وقت الضرورة. وزالت شبهة بدعة الجمع من أذهان كثير من الصحابة[٢].

لذلك اتسم جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق بعدة سمات من أبرزها:

أولًا: جمع القرآن على أدق وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول التثبيت العلمي.

ثانيًا: أنه اقتصر فيه على ما لم تنسخ تلاوته، وتجريده مما ليس بقرآن. [٣]

ثالثًا: أنه جمع في مصحف واحد.

رابعًا: موافقته لما ثبت في العرضة الأخيرة.

خامسًا: إجماع الصحابة على صحته ودقته، وعلى سلامته من الزيادة والنقصان، وتلقيهم له بالقبول والعناية، حتى قال علي بن أبي طالب ﷺ: "أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، فإنه أول من جمع بين اللوحين". [٤]

سادسًا: أنّ هذا الجمع كان مرتب الآيات باتفاق. واختلف العلماء في السور أكانت مرتبة في هذا الجمع أم أن ترتيبها كان في عهد عثمان ﷺ؟.

سابعًا: اتفق العلماء على أنه كُتبَ نسخة واحدة من القرآن في هذا الجمع حفظها أبو بكر؛ لأنه إمام المسلمين.

---

(١) المصاحف: ١/ ١٧٧: ١٧٩، الفتح: ٩/ ١٦، ٢٠، مناهل العرفان: ١/ ٢٥٢.

(٢) جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين د. عبد القيوم عبد الغفور السندي ١/ ٣٣.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن١/ ١٧٨.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

ثامنًا: تسميته بالمصحف، بعد أن أتم زيد جمع القرآن الكريم أطلق على هذا المجموع "المصحف" فالمصحف يطلق على مجموع الصحائف المدون فيها القرآن الكريم، أما القرآن فهو الألفاظ ذاتها.

تاسعًا: أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها. ولا يطعن في ذلك التواتر ما مر عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند خزيمة أو أبي خزيمة، كما لا ينافي ذلك أن الصحابة كانت لهم صحف أو مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبي بكر. [1]

خبر هذا المصحف.

دل الحديث الذي أخرجه البخاري على أن الصحف التي جمع فيها القرآن سُلمت إلى أبي بكر الصديق ﷺ فحفظها عنده، حتى توفي سنة ١٣هـ، ثم آلت إلى أمير المؤمنين من بعده عمر بن الخطاب ﷺ، حتى توفي سنة ٢٣هـ، وبعد وفاته بقيت عند ابنته حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها؛ لأن عمر ﷺجعل أمر الخلافة من بعده شورى، فبقيت عندها إلى أن طلبه عثمان بن عفان ﷺ لنسخها ثم أعادها إليها مرة أخرى.

وبقيت عندها حتى أرسل مروان بن الحكم يسألها إياها فامتنعت، ولما توفيت سنة ٤٥هـ أرسل مروان إلى أخيها عبد الله بن عمر ﷺ ساعة رجعوا من جنازة حفصة رضي الله عنها ليُرْسِلَنّ إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه، فأمر بها مروان فشققت، فقال مروان: "إنما فعلتُ هذا؛ لأن ما فيها قد كتب، وحفظ بالمصحف فخشيت إن طال بالناس زمان أن يَرْتاب في شأن هذه الصحف مرتاب، أو يقول: إنه قد كان شيء منها لم يكتب"[2].

المرحلة الثالثة: جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان ﷺ.

أسباب جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان ﷺ:

١- اتسعت الفتوحات في زمن عثمان، واستبحر العمران الإسلامي، وتفرق المسلمون في

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن١/ ١٧٨، وسوف يأتي الرد والبيان لهذه الشبهة بالتفصيل.

(٢) المرشد الوجيز (٥٢)، فتح الباري٩/ ٢٠.

الأمصار والأقطار، ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجوه القراءة، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن، أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف؛ بل كان هذا الشقاق أشد لبُعد عهد هؤلاء بالنبوة، وعدم وجود الرسول بينهم يطمئنون إلى حكمه، ويصدرون جميعًا عن رأيه، واستفحل الداء حتى كفَّر بعضُهم بعضًا، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، ولم يقف هذا الطغيان عند حد؛ بل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة، وأصاب الصغار والكبار على سواء. أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال: لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضا، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: أنتم عندي تختلفون فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافًا(١).

وصدق عثمان فقد كانت الأمصار النائية أشد اختلافًا ونزاعًا من المدينة والحجاز(٢).

٢ - غزو أرمينية وأذربيجان: في عام خمس وعشرين من الهجرة النبوية اجتمع أهل الشام وأهل العراق في غزو أرمينية وأذربيجان.

قال الذهبي: وفيها جاشت الروم حتى استمد أمراء الشام من عثمان مددًا فأمدهم بثمانية آلاف من العراق، فمضوا حتى دخلوا إلى أرض الروم مع أهل الشام، وعلى أهل العراق سلمان بن ربيعة الباهلي، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة الفهري(٣).

وكان حذيفةُ بن اليمان من جملة من غزا معهم، وكان على أهل المدائن من أعمال العراق.

---

(١) ابن أبي داود في المصاحف ١/ ٢٠٤ وأورده عنه الحافظ في الفتح ٩/ ١٨ وإسناد رجاله ثقات إلا أن أبا قلابة كثير الإرسال ولم يصرح بمن حدثه. يراجع ترجمته في تهذيب الكمال ١٨/ ٤٠١، تهذيب التهذيب ٥/ ٢٢٦، التقريب ٢/ ٣٠٤.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٢١٦ – ٢١٧.

(٣) تاريخ الإسلام ٣/ ٣٠٩.

وكان أهل الشام يقرؤن بقراءة أبي بن كعب، وكان أهل العراق يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، فتنازع أهل الشام وأهل العراق في القراءة، حتى خطَّأ بعضهم بعضًا، وأظهر بعضهم إكفار بعضٍ، والبراءة منه، وكادت تكون فتنة عظيمة. وكان السبب وراء هذا الخلاف عدم مشاهدة هؤلاء نزولَ القرآن، وبُعْدهم عن معاينة إباحة قراءته بأوجه مختلفة، فظنَّ كلٌّ منهم أن ما يقرأ به غيره خطأ لا يجوز في كتاب الله، فكادت تكون تلك الفتنة[١].

قال مكي بن أبي طالب: وكان قد تعارف بين الصحابة ﷺ على عهد النَّبيّ ﷺ، فلم يكن ينكر أحدٌ ذلك على أحدٍ لمشاهدتهم من أباح ذلك، وهو النَّبيّ ﷺ. فلمَّا انتهى ذلك الاختلاف إلى ما لم يعاين صاحبَ الشرع، ولا علِم بِما أباح من ذلك، أنكر كلُّ قومٍ على الآخرين قراءتَهم، واشتد الْخصام بينهم[٢].

رأى هذا الخلاف العظيم حذيفة بن اليمان ﷺ، إضافةً إلى ما رآه من الاختلاف بين الناس في القراءة في العراق، ففزع إلى عثمان بن عفان ﷺ، وأنذره بالخطر الداهم، وانضم ذلك إلى ما عاينه عثمان من الخلاف بين المعلمين وكذلك بين الغلمان، فصدّق ذلك ما كان استنبطه من أن من كان أبعد من دار الخلافة بالمدينة فهو أشدُّ اختلافًا.

عن ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ حَدَّثَهُ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ﷺ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ ﷺ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشام فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ فِي الْقِرَاءةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلاَفَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى[٣].

وعن زيد بن ثابت: أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ مِنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا، فَلَمْ يَدْخُل بَيْتَهُ حَتَّى أَتَى عُثْمَانَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ النَّاسَ! فَقَالَ عُثْمَانُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: غَزَوْت فَرْجَ أَرْمِينِيَةَ، فَحَضَرَهَا أَهْلُ الْعِرَاقِ، وَأَهْلُ الشَّامِ، فَإِذَا أَهْلُ الشَّامِ يقرءون بِقِرَاءةِ أُبَيٍّ، فَيَأْتُونَ

(١) مناهل العرفان ١/ ١٧٨، تحفة الأحوذي ٨/ ٤١٠ بتصرف يسير.

(٢) الإبانة عن معاني القراءات (٤٨-٤٩).

(٣) البخاري(٤٩٨٧).

بِمَا لَمْ يَسْمَعْ أَهْلُ الْعِرَاقِ، فَيُكَفِّرُهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ، وَإِذَا أَهْلُ الْعِرَاقِ يقرؤون بِقِرَاءةِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَيَأْتُونَ بِمَا لَمْ يَسْمَعْ أَهْلُ الشَّامِ، فَيُكَفِّرُهُمْ أَهْلُ الشَّامِ. قَالَ زَيْدٌ: فَأَمَرَنِي عُثْمَانُ أَنْ أَكْتُبَ لَهُ مُصْحَفًا(١).

فكانت هذه الحادثة هي أهم الأسباب التي بعثت على جمع القرآن في زمن عثمان، فقد أكدت ما ظنه من أن أهل الأمصار أشد اختلافًا مِمَّن كان بدار الخلافة بالمدينة وما حولها(٢).

لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع، وأن يستأصل الداء قبل أن يعز الدواء، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة، ووضْع حد لذلك الاختلاف، وحسم مادة هذا النزاع، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها وألا يعتمدوا سواها، وبذلك يرأب الصدع، ويجبر الكسر، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادي في ظلام هذا الاختلاف، ومصباحهم الكشاف في ليل تلك الفتنة، وحَكَمهم العدل في ذاك النزاع والمراء، وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء. (٣)

خطة الجمع.

أولا: مصادر هذا الجمع.

١ – أمر عثمان بإحضار كل ما كان موجودًا في أيدي الناس مما كتب بين يدي النبي ﷺ، أخرج ابن أبي داوود في المصاحف عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن، وتقولون قراءة أبي، وقراءة عبد الله. يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك؛ فأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن،

---

(١) رواه الطحاوي في تأويل مشكل الآثار ٤/ ١٩٣، وذكره الحافظ في الفتح٨/ ٦٣٣، وأصله في البخاري (٤٣١١).

(٢) جمع القرآن (١٠٣ – ١٠٦).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٢١٦ – ٢١٧.

حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلًا رجلًا فناشدهم لسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك؟ فيقول: نعم[(١)].

٢- تم العرض والمقابلة بعد ذلك على الصحف التي جمعت في عهد أبي بكرﷺ، حيث أمر عثمان بن عفان ﷺ بإحضارها من حفصة بنت عمر أم المؤمنين حيث قال لها: "أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك"[(٢)].

وفي رواية الطحاوي للحديث ما يدل على أن المقابلة كانت تابعة لعملية الجمع قال زيد: ثم عرضته، يعني المصحف، عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئا، وأرسل عثمان إلى حفصة أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليردنها إليها، فأعطته، فعرضت المصحف عليها فلم يختلفا في شيء، فردها عليها وطابت نفسه، وأمر الناس أن يكتبوا المصاحف[(٣)].

ثانيًا: اختيار لجنة الجمع في العهد العثماني.

١-كان المعيار الأول في ترشيح واختيار لجنة الجمع هو الإتقان والدقة، فلما فرغ عثمان من جمع ما كان في أيدي الناس قال: " من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت قال: فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمل سعيد وليكتب زيد، فكتب زيد، وكتب مصاحف ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب محمد يقول: قد أحسن"[(٤)].

وفي رواية الطحاوي، قال زيد: فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفًا، وقال: إني جاعل معك رجلًا لبيبًا فصيحًا[(٥)].

---

(١) المصاحف لابن أبي داود ١/ ٢٠٨من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق السبيعي، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس. ومن طريق غيلان عن أبي إسحاق قال: سمع عثمان قراءة أبي وعبد الله ومعاذ. بنحوه. وقال الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن ١/ ٣٩: إسناده صحيح.

(٢) البخاري (٤٩٧٨).

(٣) مشكل الآثار للطحاوي ٧/ ١٣٧.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

(٥) سبق تخريجه.

٢- لم تقتصر اللجنة على هذين الرجلين فقد صح أن عثمان ﷺ اختار أربعة من الصحابة لنسخ المصاحف هم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثلاثة من قريش(١).

وقيل: إن عثمان اختار اثني عشر رجلًا من قريش والأنصار منهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت(٢).

قال ابن حجر: وكأن ابتداء الأمر كان لزيد وسعيد للمعنى المذكور فيهما في رواية مصعب ثم احتاجوا إلى من يساعد في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق، فأضافوا إلى زيد من ذُكر، ثم استظهروا بأُبيٍّ بن كعب في الإملاء(٣).

قلت: ويشهد لهذا الجمع ما أخرجه الطحاوي عن زيد ﷺ قال: ثم عرضته، يعني المصحف، عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئًا، وأرسل عثمان إلى حفصة أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليردنها إليها، فأعطته، فعرضت المصحف عليها فلم يختلفا في شيء، فردها عليها وطابت نفسه، وأمر الناس أن يكتبوا المصاحف.(٤)

ثالثًا: منهج الجمع.

١- الأصل أن تتفق اللجنة بالإجماع على ما يكتب، أما عند الاختلاف في كتابة شيء فإنهم يكتبونه بحرف قريش. حيث قال عثمان بن عفانﷺ للرهط القرشيين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم"(٥).

فالمقصود بالاختلاف هنا من حيث الرسم والكتابة، لا من حيث الألفاظ والكلمات، ويدل عليه قوله "فاكتبوه" فيكون المعنى: إذا اختلفتم أنتم وزيد في رسم كلمة، فاكتبوها

---

(١) البخاري (٤٩٨٧).

(٢) وقد ذكر الحافظ ابن حجر نقلًا عن ابن أبي داود أسماء تسعة من أعضاء هذه اللجنة ممن صرح بأسمائهم. الفتح ٩/ ١٩، جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين (٢١).

(٣) فتح الباري ٩/ ١٩.

(٤) المشكل ٧/ ١٣٧.

(٥) البخاري (٣٥٠٦).

بالرسم الذي يوافق لغة قريش ولهجتها[١].

٣- الإشراف المباشر من عثمان بن عفان ﷺ على الجمع حيث كان يتفقد اللجنة باستمرار، ويتعاهدهم على الدوام.

عن كثير بن أفلح أنه قال: وكان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارءوا في شيء أخروه، قال محمد، فقلت لكثير - وكان فيمن يكتب-: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا، قال محمد: فظننت ظنًا إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهدًا بالعرضة الآخرة فيكتبونها على قوله[٢].

٤- رجوع اللجنة إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فيما يحتاجون إليه للتأكد من كتابته وكيفية ذلك. قال زيد: فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفا، وقال: إني جاعل معك رجلًا لبيبًا فصيحًا، فما اجتمعتما فيه فاكتباه، وما اختلفتما فيه فارفعاه إليَّ، فجعل معه أبان بن سعيد بن العاص فلما بلغ: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت. قال زيد: "فقلت أنا: التابوه، وقال أبان: التابوت، فرفعنا ذلك إلى عثمان فكتب: التابوت. [٣]

وأخرج البخاري أن ابن الزبير (أحد أعضاء اللجنة) قال: قلت لعثمان بن عفان ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا﴾ (البقرة: ٢٤٠). قال: قد نسختها الأخرى، قلت: فلِمَ تَكْتُبُها؟ أَوَتَدَعُها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئًا من مكانه"[٤].

٤- استيثاق اللجنة مما يكتبونه وبخاصة فيما تعددت فيه القراءة حيث كانوا يسألون مشاهير الصحابة عن كيفية القراءة به لا عن قرآنيته، فإن ذلك عرف في جمع أبي بكر؛ لأن عثمان ﷺ أراد أن تكتب المصاحف في مجموعها على جميع القراءات التي قرأها الرسول ﷺ

(١) المقنع في رسم المصاحف للداني، في رحاب القرآن ١/ ١٥٣، معجم القراءات القرآنية ١/ ٤٥، جمع القرآن الكريم حفظا وكتابةً (٥٩).

(٢) كتاب المصاحف١/ ١٠٥، وابن كثير في فضائل القرآن ١/ ٣٩، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) الترمذي(٣١٠٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) البخاري (٤٥٣٠).

ليقضي على الفتنة التي حدثت بين المسلمين؛ بسبب جهلهم هذه القراءات. يدل على ذلك ما أخرجه الطحاوي عن أبي قلابة قال: حدثني رجل من بني عامر يقال له أنس بن مالك ﷺ قال: "اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون، فبلغ عثمان فقال: "عندي تكذبون به وتختلفون فيه فمن نأى عني كان أشد تكذيبًا، وأكثر لحنًا "، وقال لأصحاب محمد ﷺ: اجتمعوا فاكتبوا للناس، قال: فكتبوا، قال: فحدثني أنهم إذا تدارءوا في آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلانًا، فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة، فيقال: " كيف أقرأك رسول الله ﷺكذا وكذا؟ ، فيقول: كذا، وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لها مكانا". قال الطحاوي: فهذا في التوكيد فوق ما في حديث خارجة، والله نسأله التوفيق[1].

أي أن مهمة الجمع لم تكن قاصرة على أعضاء اللجنة الأربعة المنصوص عليهم في حديث خارجة بن زيد فحسب؛ بل تتسع الدائرة حتى تشمل كل من سمع من رسول الله شيئًا ولو قليلًا زيادة في التوكيد.

٥- كتبت المصاحف على اللفظ الذي استقر عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله ﷺ كما صرح به غير واحد من أئمة السلف كمحمد بن سيرين، وعبيدة السلماني، وعامر الشعبي[2].

٦- الكتابة تمت بشكل يجمع ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة في العرضة الأخيرة، وقد ساعد على ذلك عدم التشكيل، وعدم التنقيط. قال ابن الجزري "وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل ﷺ، متضمنة لها لم تترك حرفًا منها" إلى أن قال "وهذا القول هو الذي يظهر صوابه؛ لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له"، ثم قال: "فكتب الصحابة المصاحف على لفظ لغة قريش والعرضة الأخيرة، وجردوا المصاحف عن النقط والشكل لتحتمله صورة ما بقي من الأحرف السبعة"[1]، ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي ﷺ[2].

---

(١) مشكل الآثار ٧/ ١٣٨.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ١٦.

٧- إحراق ما عدا هذه النسخ: كما في حديث حذيفة ﷺ:"فرد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق"(٣).

وأخيرًا: الفرق بين جمع القرآن في مراحله الثلاثة.

تستطيع مما سبق أن تفرق بين مرات جمع القرآن في عهوده الثلاثة: عهد النبي ﷺ، وعهد أبي بكر ﷺ، وعهد عثمان ﷺ، فالجمع في عهد النبي ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من سورها ولكن مع بعثرة الكتابة وتفرقها بين عسب، وعظام، وحجارة، ورقاع، ونحو ذلك حسبما تتيسر أدوات الكتابة، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن وإن كان التعويل يومئذ على الحفظ والاستظهار. أما الجمع في عهد أبي بكر ﷺ فقد كان عبارة عن نقل القرآن، وكتابته في صحف مرتب الآيات أيضًا مقتصرًا فيه على ما لم تنسخ تلاوته مستوثقًا له بالتواتر والإجماع، وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعًا مرتبًا خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفاظه. وأما الجمع في عهد عثمان ﷺ فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية، ملاحظا فيها تلك المزايا السالف ذكرها، مع ترتيب سوره وآياته جميعا، وكان الغرض منه إطفاء الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا في قراءة القرآن، وجمع شملهم، وتوحيد كلمتهم، والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل(٤).

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣١.

(٢) المصدر السابق ١/ ٤٥.

(٣) البخاري (٤٧٠٢).

(٤) مناهل العرفان١/ ٢٦٢.

الباب الثاني: الرد على الشبهات.

ويشتمل على هذه الفصول:

الفصل الأول: الطعن في الإجماع على جمع القرآن.

ويشتمل على هذه الشبهات:

الشبهة الأولى: عدم مشاركة علي بن أبي طالب ﷺ في الجمع.

الشبهة الثانية: اعتراض ابن مسعود ﷺ على كيفية جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ.

الشبهة الثالثة: حرق المصاحف، واختلاف مصاحف الصحابة.

الشبهة الأولى: عدم مشاركة علي بن أبي طالب ﷺ في الجمع.

نص الشبهة:

يقولون: لماذا لم يشارك علي ﷺ في جمع القرآن، مع أن له من المؤهلات ما تجعله أولى بهذه المهمة الجليلة من غيره؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المسألة تقديرية، ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان لزيد أصدق.

الوجه الثاني: زيد لم يكن وحده الذي قام بالمهمة.

الوجه الثالث: هذا السؤال لا محل له من الإعراب.

الوجه الرابع: جمع القرآن في مرحلتيه بعلم وإقرار من علي ﷺ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن المسألة تقديرية ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ لزيد ﷺ أصدق.

إن المسألة تقديرية، ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ لزيد ﷺ أصدق، وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد أهلية وكفاية للنهوض بما أسند إليه، وإن كان هو في نظر نفسه أكفأ وأجدر، كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة المؤهلات والمزايا التي توافرت

في زيد حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية؟[١].

الوجه الثاني: زيد ﷺ لم يكن وحده الذي قام بالمهمة.

أضف إلى ذلك أن عثمان ﷺ ضم إليه ثلاثة، ثم كان هو وجمهور الصحابة مشرفين عليهم مراقبين لهم، وناهيك في عثمان ﷺ أنه كان من حفاظ ومعلمي القرآن[٢].

الوجه الثالث: هذا السؤال لا محل له من الإعراب.

هذا السؤال لا محل له من الإعراب؛ لأنه لو فُرض أن عليًا ﷺ أدرج اسمه ضمن فريق العمل في جمع القرآن لكان السؤال قائمًا: لماذا لم يدرج فلان وفلان من الصحابة وهلم جرًا؟ ، فلا ينبغي أن يسأل هذا السؤال؛ لأن المهم أن الجمع كان بمثابة فرض كفاية على الأمة، فقام به بعض فلا حرج على الباقين، والصحابة كلهم عدول.

الوجه الرابع: جمع القرآن في مرحلتيه بعلم وإقرار من علي ﷺ.

كان جمع القرآن في مرحلتيه بعلم وإقرار من علي ﷺ، ولو كان في الأمر أدنى ريبة لأبدى نصحه، وسجل اعتراضه نصحًا للأمة، ولكن صح عن على أنه قال: أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمعه بين اللوحين[٣].

وأخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح من طريق سويد بن غفلة قال: قال علي ﷺ: لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا[٤].

الشبهة الثانية: اعتراض ابن مسعود ﷺ على كيفية جمع القرآن في عهد عثمان

نص الشبهة:

يقولون: ورد أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: يا معشر المسلمين أُعزل عن نسخ المصاحف، ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سبق تخريجه في مقدمة جمع القرآن.

(٤) المصاحف ١/ ٢٠٥ وراجع الفتح٩/ ١٨.

قالوا: وهو يعني بهذا الرجل زيد بن ثابت، ويريد بذلك الكلام الطعن على جمع القرآن، وهذا يدل بالتالي على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقة، ولم يبلغ حد التواتر(١).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول. كلام ابن مسعود لا يدل على الطعن، وإنما يدل على أنه أحق بهذا من غيره.

الوجه الثاني: مبررات ترشيح زيد دون ابن مسعود.

الوجه الثالث: لم يوافق ابنَ مسعود على غل المصاحف وإخفائها أحدٌ من الصحابة.

الوجه الرابع: إذا سلمنا أن ابن مسعود أراد الطعن في صحة جمع القرآن لا نسلم أنه داوم على هذا الطعن والإنكار.

الوجه الخامس: إنكار ابن مسعود كان شهادة لحرفه بالصحة.

الوجه السادس: على تسليم كلام ابن مسعود وأنه داوم عليه ولم يرجع عنه، لا يدل على إبطال تواتر القرآن.

الوجه السابع. قول ابن مسعود: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ؛ هذا اعتقاده.

وإليك التفصيل

الوجه الأول. كلام ابن مسعود لا يدل على الطعن، وإنما يدل على أنه أحق بهذا من غيره.

إن كلام ابن مسعود هذا لا يدل على الطعن في جمع القرآن؛ إنما يدل على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع؛ لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزيد في هذا الباب.

ومما يشهد لذلك: ما صح عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: لما أمر عثمان ﵁ في المصاحف بما أمر به، قام عبد الله بن مسعود خطيبًا، فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (آل عمران: ١٦١) ثم قال: على قراءة من تأمروني أن أقرأ؟ " أتأمروني أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت، فو الذي نفسي بيده، لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، وزيد بن ثابت عند ذلك يلعب مع الغلمان، وَالله لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النبي ﷺ

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٧.

أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ، ـ ثم استحيى مما قال ـ فقال: وما أنا بخيرهم، ولو أعلم أن أحدًا أعلم مني لرحلت إليه ثم نزل. قال شقيق: فجلست في حِلَق أصحاب محمد ﷺ فما سمعت أحدًا يرد ذلك عليه ولا يعيبه"(١).

وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد أهلية وكفاية للنهوض بما أسند إليه، وإن كان هو في نظر نفسه أكفأ وأجدر، غير أن المسألة تقديرية ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان لزيد أصدق من تقدير ابن مسعود له، كيف وقد كان لزيد مؤهلات، ومزايا توافرت فيه حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية، أضف إلى ذلك أن عثمان ضم إليه ثلاثة، ثم كان هو وجمهور الصحابة مشرفين عليهم مراقبين لهم، وناهيك في عثمان أنه كان من حفاظ ومعلمي القرآن، وخلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود كان منصبًا على طريقة تأليف لجنة الجمع لا على صحة نفس الجمع مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يكبر زيدًا بزمن طويل إذ كان عبد الله مسلمًا وزيد لا يزال ضميرًا مستترا في صلب أبيه، وليس هذا بمطعن في زيد فكم ترك الأول للآخر، ولو كان الأمر بالسن لاختل كثير من نظام الكون، ثم إن كلمة ابن مسعود ربما يفهم منها الطعن في زيد من ناحية أن أباه كان كافرًا ولكن هذا ليس بمطعن فكثير من أكابر الصحابة كانوا في مبدأ أمرهم كفارًا وخرجوا من أصلاب آباء كافرين والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، ويقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: ٣٨)(٢).

فقول ابن مسعود هذا؛ لا يدل على عدم جواز جمع القرآن في المصحف، ولا على أنه كان مخالفًا في الجمع، وكل ما يدل عليه أنه يرى أنه أحق من زيد بجمع القران لسوابقه في الإسلام، مع كمال ثقته في زيد وأهليته للنهوض بما أسند إليه. (٣)

---

(١) البخاري (٥٠٠٠)، مسلم (٢٤٦٢).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٧.

(٣) المدخل لدراسة القران الكريم لأبي شهبة (٢٥٦).

الوجه الثاني: مبررات ترشيح زيد دون ابن مسعود.

قال ابن حجر: والعذر لعثمان في ذلك أنه فعله بالمدينة وعبد الله بالكوفة، ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر. وأيضًا؛ فإن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وأن يجعلها مصحفًا واحدًا، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت كما تقدم لكونه كان كاتب الوحي فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره. (١)

قال الذهبي: قلت: إنما شق على ابن مسعود لكون عثمان ما قدمه على كتابة المصحف، وقدم في ذلك من يصلح أن يكون ولده، وإنما عدل عنه عثمان لغيبته عنه بالكوفة، ولأن زيدًا كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فهو إمام في الرسم، وابن مسعود إمام في الأداء، ثم إن زيدًا هو الذي ندبه الصديق لكتابة المصحف وجمع القرآن فهلا عتب على أبي بكر؟ ، وفي مصحف ابن مسعود أشياء أظنها نسخت، وأما زيد فكان أحدث القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ عام توفي على جبريل(٢).

الوجه الثالث: لم يوافق ابنَ مسعود على غل المصاحف وإخفائها أحدٌ من الصحابة

قال الزهري: فبلغني أن ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب النبي ﷺ(٣).

وعن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: أتى عليَّ رجل وأنا أصلي، فقال: ثكلتك أمك ألا أراك تصلي، وقد أمر بكتاب الله أن يمزق كل ممزق، قال: فتجوزت في صلاتي وكنت أجلس فدخلت الدار ولم أجلس، ورقيت فلم أجلس، فإذا أنا بالأشعري وحذيفة وابن مسعود يتقاولان، وحذيفة يقول لابن مسعود: ادفع إليهم هذا المصحف. قال: والله لا أدفعه إليهم أقرأني رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة ثم أدفعه إليهم والله لا أدفعه إليهم(٤).

---

(١) فتح الباري ٩/ ١٩.

(٢) سير أعلام النبلاء١/ ٤٨٨، وراجع تاريخ مدينة دمشق ٣٣/ ١٤٠.

(٣) الترمذي (٣١٠٤)، وهذا جزء من حديث الزهري، عن أنس عن حذيفة في قصة جمع عثمان للقرآن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٢٤٧، وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروي عن مسروق أنه قال: كان عبد الله وحذيفة وأبو موسى في منزل أبي موسى، فقال حذيفة: أما أنت يا عبد الله بن قيس فبُعثت إلى أهل البصرة أميرًا ومعلمًا، فأخذوا من أدبك ومن لغتك ومن قراءتك، وأما أنت يا عبد الله بن مسعود فبُعثت إلى أهل الكوفة معلمًا فأخذوا من أدبك ومن لغتك ومن قراءتك. فقال عبد الله: أما أني إذا لم أضلهم وما في كتاب الله آية إلا أعلم حيث نزلت، وفيمن نزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغنيه الإبل لرحلت إليه[1].

ولا يستشكل على هذا قول أبي وائل: فجلست في حلق أصحاب محمد ﷺ، فما سمعت أحدًا يرد ذلك عليه ولا يعيبه؛ لأن نفي سماعه هو لا يستلزم ثبوت النفي مطلقًا.

الوجه الرابع: إذا سلمنا أن ابن مسعود أراد الطعن في صحة جمع القرآن لا نسلم أنه داوم على هذا الطعن والإنكار.

بل قال هذا وقت غضبه، فلما سكت عنه الغضب أدرك حسن اختيار عثمان ومن معه من الصحابة لزيد بن ثابت؛ قال الذهبي: وقد ورد أن ابن مسعود رضي وتابع عثمان ولله الحمد[2].

وبدليل ما صح عنه من قراءات متواترة عنه[3].

الأدلة على رجوع ابن مسعود عن رأيه في جمع عثمان.

أخرج ابن أبي داوود في المصاحف: - باب رضاء عبد الله بن مسعود بجمع عثمان رضي الله عنه المصاحف- قال: حدثنا عبد الله بن سعيد، و محمد بن عثمان بن حسان العامري عن فلفلة الجعفي قال: فزعت فيمن فزع إلى عبد الله في المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنّا لم نأتك زائرين ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: إن القرآن أنزل على

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٤١) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٣/ ١٣٤. والطبراني في الكبير (٨٤٣١) كلهم من طريق إسماعيل بن بهرام الكوفي عن سعيد عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق به. وتوبع سعيد بن الخمس تابعه أبو عوانة اليشكري عند البزار في مسنده (١٩٦٩) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣/ ١٣٤). وإسناده صحيح لكنه موقوف.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٨٨.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٧.

نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف -أو حروف- وإن الكتاب قبلكم كان ينزل -أو نزل- من باب واحد على حرف واحد معناهما واحد[١].

ومما يشهد لهذا الأثر ما ذكره ابن الأثير في التاريخ: عن موقف الأمة من جمع عثمان قال: فكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي ﷺ، وإن أصحاب عبد الله ومن وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس، فقام فيهم ابن مسعود وقال: ولا كل ذلك، فإنكم والله قد سبقتم سبقًا بينًا فأربعوا على ظلعكم (أي لا تتنكبوا ما لا تطيقون) ولما قدم علي الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس علي المصحف فصاح وقال: اسكت فعن ملأ منا فعل ذلك فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله[٢].

الوجه الخامس: إنكار ابن مسعود كان شهادة لحَرْفِه بالصحة.

لأنه أخذه عن رَسُول الله ﷺ، وليس في ذلك طعنٌ على حرف زيد من حيث هو، وإنَّما غاية ما هنالك أنه لا يرى ترك حرفه لحرف أحدٍ غيره. قال الباقلاني: ليست شهادة عبد الله

---

(١) المصاحف لاين أبي داود (٦٩)

قال ابن كثير في فضائل القرآن ١/ ٣٩: وهذا الذي استدل به أبو بكر رحمه الله على رجوع ابن مسعود فيه نظر من جهة أنه لا تظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه والله أعلم. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٤٩: على أن ابن أبي داود ترجم باب رضي ابن مسعود بعد ذلك بما صنع عثمان لكن لم يورد ما يصرح بمطابقة ما ترجم به، فالله أعلم.

قلت: ولعل وجه الدلالة من ذلك أن ابن مسعود حين شُكي إليه ما صنع عثمان لم يزد على أن بين للسائلين سنة الله في إنزال الكتب السابقة على حرف واحد، وأن القرآن خرج عن هذه السنة فنزل على سبعة أحرف؛ تخفيفًا عن هذه الأمة، وبهذا يكون ما صنعه عثمان ليس بدعًا من الأمر؛ لأنه أعاد القرآن إلى سيرة الكتب الأولى، وهذا إقرار من ابن مسعود بصحة ما فعل عثمان، وإلا لسجل اعتراضه في هذا المقام، وهذا استدلال عميق يدل على عمق فقه ابن أبي داود رحمه الله في تبويبه.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٩.

لحرفه وأنه أخذه من فم رَسُول الله طعنًا على حرف غيره، ولكنه عنده حجةٌ في أنه لا يَجِب عليه تركه، وتحريق مصحف هو فيه[١].

أخرج ابن أبي داوود في المصاحف عن عبد الله قال: " لقد قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، أفأنا أدع ما أخذت من في رسول الله ﷺ؟". [٢]

الوجه السادس: على تسليم كلام ابن مسعود وأنه داوم عليه ولم يرجع عنه، لا يدل على إبطال تواتر القرآن.

لا نسلم أنه يدل على إبطال تواتر القرآن؛ فإن التواتر يكفي في القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بشروطه، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف حتى يقدح في تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود ما دام جم غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو في عهد أبي بكر مرة وفي عهد عثمان مرة أخرى[٣].

الوجه السابع. قول ابن مسعود: لَوْ أَعْلَمُ أنَّ أحدًا أعْلَمُ مِنّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ، هذا اعتقاده.

إن قول ابن مسعود: وَلَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسولِ الله أَنِّي أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ الله، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ. ليس قطعًا على أنه ليس فيهم من هو أعلم منه بكتاب الله، وإنما هو اعتقاد ابن مسعود ﷺ، وهو غير معصوم في هذا الاعتقاد(٤).

الشبهة الثالثة: حرق المصاحف واختلاف مصاحف الصحابة.

نص الشبهة:

يقولون إن عثمان ﷺ حرق المصاحف التي في أيدي الناس وهذا يدل على عدم الثقة به.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن عثمان ﷺ حرق المصاحف الأخرى؛ لئلا يقع بسببها اختلاف.

---

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن (٣٦٤).

(٢) المصاحف ١/ ١٨٣، وهو صحيح بشواهده. يراجع المصدر نفسه (١٨٤) وما بعدها.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن١/ ١٩٧.

(٤) نكت الانتصار لنقل القرآن (٣٦٤).

الوجه الثاني: عثمان ﷺ ما فعل هذا من رأيه مجردًا؛ بل استشار أولًا.

الوجه الثالث: لم ينكر عليه أحد في هذا العمل؛ بل قبلوه.

الوجه الرابع: استجابة الصحابة لعثمان ﷺ.

الوجه الخامس: عثمان ﷺ من الخلفاء الراشدين فوجب اتباع سنته كما أمر النبي ﷺ.

الوجه السادس: مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن عثمان ﷺ حرق المصاحف الأخرى؛ لئلا يقع بسببها اختلاف

بعد أن تم نسخ المصاحف العثمانية، أمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ بإرسالها إلى الأقطار الإسلامية الشهيرة، وأرسل مع كل مصحف مقرئًا من الذين توافق قراءته في أغلبه قراءة أهل ذلك القطر، وذلك لأن التلقي أساس في قراءة القرآن، وأمر أن يحرق كل ما عداها من الصحف أو المصاحف الشخصية الموجودة لدى الصحابة مما تخالفها؛ ليستأصل بذلك سبب الخلاف والنزاع بين المسلمين في قراءة كتاب الله، فاستجاب لذلك الصحابة ﷺ، فجمعت المصاحف والصحف وحرقت أو غسلت بالماء. [(١)]

ففي الحديث أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشام في فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ في الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا في الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا في الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا في الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ في شيء مِنَ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ في الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ

(١) مناهل العرفان: ١/ ٢٦١.

فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ(١).

قال الجعبري: ونزل تحريقه ما سواها على مصاحف الصحابة ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يكتبون فيها التفسير الذي يسمعونه من النَّبِيِّ ﷺ، ويحتمل ذلك نحو الرقاع؛ لئلا ينقلها من لا يعرف ترتيبها، فيختلَّ، لا الصحف، لاحتمال الرجوع إليها. (٢)

والمصاحف التي أحرقها فيها أشياء من منسوخ التلاوة وقد أبقاه بعض الصحابة، وترتيب السور على غير الترتيب الذي في العرضة الأخيرة التي عرضها جبريل ﷺ على النبي ﷺ، وفي بعض المصاحف تفسيرات لبعض الصحابة؛ لذلك أمر عثمان بإحراق تلك المصاحف، وكتب المصحف الوحيد وفيه القراءات، ولم يلغ القراءات الثابتة عن النبي ﷺ(٣).

قال الزركشي: ولقد وفق لأمر عظيم، ورفع الاختلاف، وجمع الكلمة، وأراح الأمة(٤).

والمصاحف التي حرقها عثمان هي مصاحف قد أودعت ما لا يحل قراءته(٥).

---

(١) البخاري(٤٩٨٧).

قال ابن حجر فتح الباري٨/ ٦٣٧: فِي رِوَايَة الْأَكْثَر "أَنْ يُخْرَق" بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَة، وَلِلْمَرْوَزِيّ بِالْمُهْمَلَةِ وَرَوَاهُ الْأَصِيلِيّ بِالْوَجْهَيْنِ، وَالْمُعْجَمَة أَثْبَت. وَفِي رِوَايَة الْإِسْمَاعِيلِيّ "أَنْ تُمْحَى أَوْ تُحْرَق" وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَة شُعَيْب عِنْد اِبْن أَبِي دَاوُدَ وَالطَّبَرَانِيِّ وَغَيْرهمَا "وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُحَرِّقُوا كُلّ مُصْحَف يُخَالِف الْمُصْحَف الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ، قَالَ: فَذَلِكَ زَمَان حُرِّقَتْ الْمَصَاحِف بِالْعِرَاقِ بِالنَّارِ" وَفِي رِوَايَة سُوَيْد بْن غَفَلَةَ عَنْ عَلِيّ قَالَ: "لَا تَقُولُوا لِعُثْمَان فِي إِحْرَاق الْمَصَاحِف إِلَّا خَيْرًا" وَفِي رِوَايَة بُكَيْر بْن الْأَشَجّ "فَأَمَرَ بِجَمْعِ الْمَصَاحِف فَأَحْرَقَهَا، ثُمَّ بَثَّ فِي الْأَجْنَاد الَّتِي كَتَبَ" وَمِنْ طَرِيق مُصْعَب بْن سَعْد قَالَ: "أَدْرَكْت النَّاس مُتَوَافِرِينَ حِين حَرَّقَ عُثْمَان الْمَصَاحِف، فَأَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ - أَوْ قَالَ - لَمْ يُنْكِر ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَد" وَفِي رِوَايَة أَبِي قِلَابَةَ "فَلَمَّا فَرَغَ عُثْمَان مِنْ الْمُصْحَف كَتَبَ إِلَى أَهْل الْأَمْصَار: إِنِّي قَدْ صَنَعْت كَذَا وَكَذَا وَمَحَوْت مَا عِنْدِي، فَامْحُوا مَا عِنْدكُمْ" وَالْمَحْو أَعَمّ مِنْ أَنْ يَكُون بِالْغَسْلِ أَوْ التَّحْرِيق، وَأَكْثَر الرِّوَايَات صَرِيح فِي التَّحْرِيق فَهُوَ الَّذِي وَقَعَ، وَيَحْتَمِل وُقُوع كُلّ مِنْهُمَا بِحَسَبِ مَا رَأَى مَنْ كَانَ بِيَدِهِ شَيْء مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ جَزَمَ عِيَاض بِأَنَّهُمْ غَسَلُوهَا بِالْمَاءِ ثُمَّ أَحْرَقُوهَا مُبَالَغَة فِي إِذْهَابهَا.

(٢) جمع القرآن في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث: محمد شرعي أبو زيد ١/ ١٦٤.

(٣) مجلة الراصد ١ – ٣٥.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣٩.

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٤٠.

وفي الجملة إنه إمام عدل غير معاند ولا طاعن في التنزيل، ولم يحرق إلا ما يجب إحراقه[(١)].

الوجه الثاني: عثمان ﷺ ما فعل هذا من رأيه مجردًا؛ بل استشار أولا.

لم يفعل ما فعل من هذا الأمر الجلل إلا بعد أن استشار الصحابة واكتسب موافقتهم؛ بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم وشكرهم.

عن العيزار بن جرول الحضرمي قال: لما خرج المختار كنا هذا الحي من حضرموت أول من تسرع إليه، فأتانا سويد بن غفلة الجعفي فقال: إن لكم عليَّ حقًا، وإن لكم قرابة، والله لا أحدثكم اليوم إلا شيئًا سمعته من المختار، أقبلت من مكة وإني لأسير، إذ غمزني غامز من خلفي، فإذا المختار فقال لي: يا شيخ ما بقي في قلبك من حب ذلك الرجل - يعني عليًا -؟ ، قلت: إني أشهد الله أني أحبه بسمعي وقلبي وبصري ولساني. قال: ولكني أشهد الله أني أبغضه بقلبي وسمعي وبصري ولساني. قال: قلت: أبيت والله إلا تثبيطًا عن آل محمد ﷺ، وترثيثًا في إحراق المصاحف، (أو قال حراق، هو أحدهما يشك أبو داود)، فقال سويد: والله لا أحدثكم إلا شيئًا سمعته من علي بن أبي طالب ﷺ سمعته يقول: " يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيرًا (أو قولوا له خيرًا) في المصاحف وإحراق المصاحف، فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعًا، فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفرًا، قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت. قال: فقيل: أي الناس أفصح، وأي الناس أقرأ؟ قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرأهم زيد بن ثابت، فقال: ليكتب أحدهما ويمل الآخر، ففعلا وجمع الناس على مصحف " قال: قال علي: والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل[(٢)].

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٤٠.

(٢) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٧٧)، وأخرجه البيهقي في سننه ٢/ ٤٢ من طرق عن محمد بن أبان عن علقمة بن مرثد عن العيزار بن جرول به. وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ٦/ ٦٣٥.

رضي الله عن الجميع وجزاهم أحسن الجزاء على هذا الصنيع[(١)].

الوجه الثالث: لم ينكر عليه أحد في هذا العمل؛ بل قبلوه.

لم ينكر عليه أحد ذلك؛ بل رضوه وعدُّوه من مناقبه حتى قال علي ﷺ: لو وليت ما ولى عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل.

عن مصعب بن سعد قال: "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك، وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد"[(٢)].

الوجه الرابع: استجابة الصحابة لعثمان ﷺ.

فحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا جميعًا على المصاحف العثمانية حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولًا مصاحف عثمان، وأنه أبى أن يحرق مصحفه رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية، واجتماع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها. وبعدئذ طهر الجو الإسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع وأصبح مصحف ابن مسعود، ومصحف أبي بن كعب، ومصحف عائشة، ومصحف علي، ومصحف سالم مولى أبي حذيفة أصبحت كلها وأمثالها في خبر كان، مغسولة بالماء، أو محروقة بالنيران، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا.

وعثمان ﷺ فقد أرضى -بذلك العمل الجليل- ربه، وحافظ على القرآن، وجمع كلمة الأمة، وأغلق باب الفتنة، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم، ولن يقدح في عمله هذا أنه أحرق المصاحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية فقد علمت وجهة نظره في ذلك[(١)].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٢.

(٢) **صحيح**. أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن صـ١٥٦، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٣٥٠، وابن أبي داود في المصاحف (٤١) من طرق عن شعبة. وأخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٨٢) من طريق إسرائيل. وأخرجه ابن أبي داود أيضًا في المصاحف (٨٣) من طريق غيلان. كلهم عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد به وإسناده صحيح.

قال عبد الرحمن بن مهدي: "خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر، صبره نفسه حتى قتل مظلومًا، وجمعه الناس على المصحف"(٢).

عن ثابت بن عمارة الحنفي قال: سمعت غُنَيْم بن قيس المازني قال: "قرأت القرآن على الحرفين جميعًا، والله ما يسرني أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ما له قال: قلنا له: يا أبا العنبر، لم؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرءون الشعر"(٣).

الوجه الخامس: عثمان ﷺ من الخلفاء الراشدين فوجب اتباع سنته كما أمر النبي ﷺ.

في حديث العرباض بن سارية ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ"**(٤).

الوجه السادس: مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ" إن كان منْ الذُنوب.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ. قَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ - وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي - فِي كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَيَنْثُرُهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: **"مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ"**(٥).

أي فَلا عَلَى عُثْمَانَ بَأْسٌ الَّذِي عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ مِنْ الذُّنُوبِ فَإِنَّهَا مَغْفُورَةٌ مُكَفَّرَةٌ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ: **"لَعَلَّ اللهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْت لَكُمْ"**(١).

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٢.

(٢) صحيح. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٤٤).

(٣) المصاحف لابن أبي داود بإسناد صحيح (١/ ٤٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، والترمذي (٢٦٦٧)، وقال الترمذي: حديث صحيح. وانظر السلسلة الصحيحة (٢٧٣٥).

(٥) حسن. الترمذي (٣٧٠١) قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وحسنه الألباني في المشكاة (٦٠٦٤)

الفصل الثاني: الطعن في التوثيق في صحة الجمع.

وفيه شبهات:

الشبهة الأولى: لماذا لم يجمع القرآن في عهد النبي ﷺ؟

الشبهة الثانية: لم يجمع القرآن إلا أربعة.

الشبهة الثالثة: حول اختلاف ألحان العرب في المصاحف وألحان اللغات.

الشبهة الرابعة: أن أول من جمع القرآن هو علي رضي الله عنه.

الشبهة الخامسة: تخطئة ابن عباس، وعائشة، وسعيد بن جبير للكُتَّاب.

الشبهة الأولى: لماذا لم يجمع القرآن في عهد النبي ﷺ؟

نص الشبهة:

إذا كان جَمْعُ القرآن فضيلة فلماذا لم يجمعه رسولكم؟ ولِمَ لمْ يأمر أحدًا من أصحابه بجمعه، غاية ما في الأمر أنَّ جمعه كان جهدًا شخصيًا من بعض أصحابه وفي بعض المناسبات، لذا كان الاختلاف كبيرًا بين الصحابة في جمعه وترتيبه. وقال السيوطي في الإتقان: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شئ. وحيث إن رسولكم لم يفعل ذلك دلَّ على أن كتابكم كتاب كبقية الكتب يصيبه ما أصابها.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: العمدة على الحفظ الصدري.

الوجه الثاني: أن الله قد حفظ نبيه من نسيان القرآن.

الوجه الثالث: نزول القرآن مفرقًا في زمن طويل يمنع جمعه في مكان واحد.

الوجه الرابع: عدم استقرار ترتيب الآيات والسور في زمن النبي ﷺ.

الوجه الخامس: نزول الوحي على النبي ﷺ بالنسخ.

الوجه السادس: أن المدة بين آخر ما نزل وبين وفاته ﷺ قصيرة جدًا.

---

(١) البخاري (٣٠٠٧)، مسلم(٢٤٩٤).

الوجه السابع: أن جمع القرآن زمن أبي بكر الصديق ﷺ وعثمان بن عفان ﷺ قد كان له ما يدعو إليه.

الوجه السابع. مواد الكتابة في ذلك العهد لم تكن متوفرة، والموجود منها عَسِر الاستعمال.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **العمدة على الحفظ الصدري**.

بَادِئ ذِي بَدْءٍ لابُدَّ أنْ نَعْلَمَ أنَّ القرآنَ كُلَّهُ كان مجموعًا في صدر النبي ﷺ، ويدل على ذلك ما رواه الإمام مسلم عن حذيفة ﷺ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى فقلت: يركع بها ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد، فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريبا من قيامه[(١)].

فهذا هو شأن رسول الله ﷺ يحفظ القرآن كله و يعلمه أصحابه؛ بل وكان هناك الحفاظ من الصحابة الكثير، وكان حفظهم متقنًا عن ظهر قلب، وعقد البخاري لذلك كتابا فقال: (باب القراءة عن ظهر القلب)[(٢)]، ثم أخرج حديث المرأة الواهبة نفسَهَا لرسول الله ﷺ وفيه فقام رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها فقال: هل عندك من شيء؟. فقال: لا والله يا رسول الله، قال: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئًا؟. فذهب، ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله ما وجدت شيئا. قال: انظر ولو خاتمًا من حديد. فذهب، ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتمًا من حديد ولكن هذا إزاري - قال سهل ما له رداء - فلها نصفُه. فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك، إن لبسَته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسْته لم يكن عليك شيء؟!. فجلس الرجل حتى طال مجلسه، ثم قام، فرآه رسول الله ﷺ موليًا، فأمر به فدعي فلما جاء قال:

---

(١) مسلم (٧٧٢).

(٢) انظر فتح الباري ٨/ ٦٩٦.

ماذا معك من القرآن؟. قال: معي سورة كذا وسورة كذا وسورة كذا عَدَّهَا قال: أتقرَؤُهُن عن ظهر قلبك؟. قال: نعم(١).

هذا هو الشاهد، ولاشك أن في هذا الحفظ المتقن أمانًا من الضياع، خاصة مع انتشار ذلك الحفظ في عدد وفير من المهاجرين الأوائل والأنصار، فالقرآن جمع في صدورهم كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٩)، ومَنْ كان يحفظ بعضه فإن عنده من السور التي يحفظها ما لا يشترط أن تكون هي التي يحفظها أخوه، فربما يحفظ مواضعًا أخرى من القرآن الكريم، هذا بخلاف العدد الكبير من الصحابة الذين كانوا يجمعون القرآن كله في صدورهم.

بل وكان القرآن مكتوبًا كله على العسب والأكتاف، مفرقًا في الصحف عند الصحابة، عند كل واحد منهم الأوراق العديدة، ويعتنون بها عناية خاصة، ولم يكن مجموعًا في مكان واحد.

الوجه الثاني: أن الله قد حفظ نبيه من نسيان القرآن.

إن الله قد أمن نبيه ﷺ من النسيان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ (الأعلى٦، ٧) أي: ما شاء أن يرفع حكمه بالنسخ، فلا خوف إذن أن يذهب شيء من القرآن الكريم، وأما بعد وفاته ﷺ؛ فإن النسيان قد يقع، فبادر المسلمون إلى جمعه في مصحف واحد(٢).

الوجه الثالث: نزول القرآن مفرقًا في زمن طويل يمنع جمعه في مكان واحد

إن من أسباب عدم جمع القرآن الكريم في مصحف واحد في زمن النبي ﷺ أن القرآن لم ينزل مرة واحدة، و إنما نزل مفرقًا منجمًا، ولا سبيل إلى جمعه ما لم يكتمل نزوله و يتمَّ.

وكان ينزل فيما ينزل من أمور تجدُّ على النبي ﷺ و أصحابه وبحسب الحوادث والأسباب هذا مع تباعد الأزمان فنزل القرآن فيما يزيد على عشرين سنة.عن عائشة، وابن عباس ﷺ

---

(١) البخاري (٥٠٣٠).

(٢) دراسات في علوم القرآن الكريم د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي صـ ٨٢.

قالا: لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن و بالمدينة عشر سنين. (١)

فنزل القرآن على هذه الحال لحكم كثيرة من الله العليم الحكيم الخبير، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢) ومن تيسير حفظه في الصدور وفهمه ومسايرة الحوادث و التدرج في التشريع. (٢)

فكتابة القرآن و الحالة هذه في موضع واحد إن لم تكن مستحيلة فهي متعذرة في كتاب ينزل في سنين طويلة وانظر الوجه التالي.

الوجه الرابع: عدم استقرار ترتيب الآيات والسور في زمن النبي ﷺ.

إن من أسباب عدم جمع القرآن في حياة النبي ﷺ أن ترتيب الآيات و السور لم يكن قد استقرَّ، ولم يكن على حسب النزول فهناك من الآيات و السور الكثيرة التي هي من أواخر ما نزل، بينما ترتيبها في القرآن العظيم في أوائل السور الكريمة. كما في سور ة البقرة، وسورة آل عمران. (٣)

بل إن القرآن ما كان ينزل على رسول الله ﷺ على هذا الترتيب الذي في المصحف فعلى هذا فإن كثيرًا من السور التي هي من أواخر ما نزل في المدينة تكون في المصحف قبل التي نزلت أول البعثة بمكة.

بل إنه من المعلوم أن الآية الناسخة تنزل متأخرة عن الآية المنسوخة فتنسخها إما حكمًا، وإما تلاوةً، وإما حكمًا و تلاوة معا، على الرغم من ذلك فإن الناسخة قد تتقدم في ترتيب المصحف على المنسوخة.

يقول الشيخ محمد أبو شهبة: وذلك مثل آية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرًا، فإنها ناسخة لآية الاعتداد بحول، مع أن الأولى مكتوبة في المصاحف قبلها و هي متأخرة في

---

(١) البخاري (٤٤٦٤).

(٢) انظر مقدمة جمع القرآن حول الحكمة من نزول القرآن منجمًا.

(٣) انظر التبيان في علوم القرآن للصابوني (٥٥).

النزول عنها قطعا لوجوب تأخر الناسخ عن المنسوخ[١].

وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما شرحنا لكان عرضة لتغيير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ أو حدث سبب[٢].

الوجه الخامس: نزول الوحي على النبي ﷺ بالنسخ.

إن النبي ﷺ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات نزلت من قبل فكيف يكون جمع الآيات كلها في مصحف واحد ويتعرض بعضها لنسخ التلاوة؟

قال الخطابي: يحتمل أن يكون ﷺ إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه، أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء لوعد الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية زادها الله شرفًا، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق رضي الله عنه بمشورة عمر رضي الله عنه[٣].

قال الزركشي: وإنما ترك جمعه في مصحف واحد؛ لأن النسخ كان يرد على بعض، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض؛ لأدى إلى الاختلاف واختلاط الدين فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين. [٤]

وأما ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله: ﷺ **"لا تكتبوا عني شيئًا غير القرآن"**[٥] الحديث، فلا ينافي ذلك؛ لأن الكلام في كتابةٍ مخصوصةٍ على صفةٍ مخصوصةٍ. [٦] وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور.

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة (٢٤٢).

(٢) مناهل العرفان ١/ ١٧٣.

(٣) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦٢٩.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣٥.

(٥) مسلم (٣٠٠٤).

(٦) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦٢٩.

قلت: فهذه أوجه تخص طبيعة النص القرآني، وما سيأتي من الوجوه تتحدث عن الظروف التي أحاطت بالنص القرآني الكريم وحالت دون جمعه.

الوجه السادس: إن المدة بين آخر ما نزل وبين وفاته ﷺ قصيرة جدًا.

من أسباب عدم جمع القرآن في حياة النبي ﷺ أن المدة بين نزول آخر ما نزل، وبين وفاته ﷺ قصيرة جدًا، وعلى رأي أكثر العلماء أن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ (البقرة: ٢٨١) هو آخر ما نزل. [١] وقد انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه بعد نزولها بتسع ليال فالمدة إذا قصيرة، ولا يمكن جمعه قبل تكامل النزول. [٢]

الوجه السابع: أن جمع القرآن زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعثمان بن عفان رضي الله عنه قد كان له ما يدعو إليه.

يقول الزرقاني: وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات ... أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر رضي الله عنه حتى كتبه في صحف، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان رضي الله عنه حتى نسخه في مصاحف.

فالمسلمون وقتئذ بخير، والقراء كثيرون، والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد، والفتنة مأمونة، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة، وأدوات الكتابة غير ميسورة، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتُوفي على الغاية حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها[٣].

ثم كان الرسول ﷺ بين أظهرهم يستفتونه في كل ما يهمهم من أمرهم.

الوجه الثامن: مواد الكتابة في ذلك العهد لم تكن متوفرة، والموجود منها عسر الاستعمال.

إنَّ لمواد الكتابة عامل في تيسير جمع المكتوب من القرآن في مكان أو في مصحف واحد، و كان أصحاب النبي ﷺ يستعملون في كتابة القرآن كل ما توفر في بيئتهم و تيسر لهم من أدوات الكتابة.

---

(١) انظر شبهة حول آخر ما نزل من القرآن.

(٢) التبيان في علوم القرآن للصابوني (٥٥).

(٣) مناهل العرفان للزرقاني ١/ ١٧٣.

فكما عند البخاري عن زيد بن ثابت ﷺ قال: فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب(١).

وفي رواية عند البخاري زاد (واللخاف) (٢).

وفي رواية عند ابن أبي داود زاد: (ومن الأضلاع) (٣).

وزاد: (والأقتاب)(٤)

هذا كما كانت الكتابة على الجلود و صفائح الخشب، فهذه الآثار و غيرها تدلنا على عظيم بلاء الصحابة في كتابة القرآن، وما تحملوه من المشاق، حيث إن مواد الكتابة في ذلك العهد لم تكن متوفرة كما أن الموجود منها كان عسر الاستعمال، ويحتاج إلى جهد كبير في إعداده و تجهيزه.

وبقي القرآن مكتوبًا على هذه الأدوات محفوظًا عند النبي ﷺ و أصحابه ولم يجمع في مصحف واحد في ذلك العهد.

قال القسطلاني: وقد كان القرآن كله مكتوبًا في عهده، لكن غير مجموع في موضع واحد، ولا مرتب السور(١).

---

(١) الرقاع: هي التي يكتب فيها وهي من جلد أو كاغد. لسان العرب (رقع).

والأكتاف: جمع كتف وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان. كانوا يكتبون فيها لقلة القراطيس عندهم. النهاية ٤/ ١٥٠.

والعُسُبُ: جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص و يكتبون في الطرف العريض. النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٣٤. وانظر الحديث في البخاري (٤٦٧٩).

(٢) هي صفائح الحجارة البيض الرقاق، فيها عرض ودقة، وقيل: هي الخزف يصنع من الطين المشوي. فتح الباري.١٣/ ١٩٥. وانظر الحديث في البخاري (٧١٩١).

(٣) الأضلاع: جمع ضلع وهي عظام الجنبين، والضلع محنية الجنب. لسان العرب (ضلع)، كتاب المصاحف لابن أبي داود (٥٤، ٥٦-٩٣)

والأقتاب: جمع (قتب) وهو الخشب يوضع على ظهر البعير ليركب عليه. فتح الباري ٨/ ٦٣٠.

(٤) كتاب المصاحف لابن أبي داود(٥٦-٩٣).

وكثرة أدوات الكتابة وتنوعها لا يؤثر في جمع القرآن إذ كان التعويل على الحفظ والتلقي قبل كل شيء، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده.

فلا جرم كان في الحفظ والكتابة معا، ضمان للنظام والترتيب والضبط و الحصر. (٢)

الشبهة الثانية: لم يجمع القرآن إلا أربعة.

نص الشبهة:

مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. حيث استند هؤلاء بما صح عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: مَاتَ النبي ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ(٣). قَالَ: وَنَحْنُ وَرِثْنَاهُ. قَالَ قَتَادَةُ: قُلْتُ لأَنَسٍ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ؟ قَالَ: أَحَدُ عُمُومَتِي(٤).

والرد من وجوه:

الوجه الأول: الحصر الذي ذكره أنس ﷺ هو حصر نسبي (إضافي) وليس حصراً حقيقياً.

أي أن قول أنس ﷺ (أَرْبَعَةٌ) لا مفهوم له؛ وليس الحصر في كلامه حقيقيًّا، بل هو حصر إضافي، أي: بالإضافة إلى غيرهم، فالحصر الذي تلمحه فيه حصر نسبي وليس حصرًا حقيقيًا حتى ينفي أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله ﷺ، والدليل على أن هذا الحصر إضافي لا حقيقي ما يلي:

---

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٧/ ٤٤٦، ودليل الحيران شرح مورد الظمآن في رسم القرآن للمارغني صـ١٧، و جمع القرآن في مراحله التاريخية لمحمد شرعي أبو زيد صـ٤٤.

(٢) مناهل العرفان للزرقاني ١/ ٢٣٠.

(٣) اختلف في تعيينه، قال النووي: هُوَ سَعْد بْن عُبَيْد بْن النُّعْمَان الْأَوْسِيّ مِنْ بَنِي عَمْرو بْن عَوْف، بَدْرِيّ يُعْرَفُ بِسَعْدٍ الْقَارِي، اُسْتُشْهِدَ بِالْقَادِسِيَّةِ سَنَة خَمْس عَشْرَة فِي أَوَّل خِلَافَة عُمَر بْن الْخَطَّاب ﷺ.
قَالَ اِبْن عَبْد الْبَرّ: هَذَا هُوَ قَوْل أَهْل الْكُوفَة، وَخَالَفَهُمْ غَيْرهمْ، فَقَالُوا: هُوَ قَيْس بْن السَّكَن الْخَزْرَجِيّ مِنْ بَنِي عَدِيّ بْن النَّجَّار بَدْرِيّ. قَالَ مُوسَى بْن عُقْبَة: اُسْتُشْهِدَ يَوْم جَيْش أَبِي عُبَيْد بِالْعِرَاقِ سَنَة خَمْس عَشْرَة أَيْضًا. شرح مسلم (٨/ ٢٢١).

(٤) البخاري (٥٠٠٤).

الدليل الأول: اختلاف الرواية عن أنس ﷺ في تحديد الأربعة.

فمِمَّا يدل على إرادة الحصر الإضافي اختلاف الرواية عن أنس ﷺ في تحديد الأربعة، ففي رواية؛ قَالَ: مَاتَ النبي ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ: أَبُو الدَّرْدَاءِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ. قَالَ وَنَحْنُ وَرِثْنَاهُ.(١) وفي رواية أخرى أن قتادة سأل أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النبي ﷺ؟ قَالَ: أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، و مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ(٢).

قال الزرقاني: فأنت ترى أن أنسًا في هذه الرواية ذكر من الأربعة أبي بن كعب بدلًا من أبي الدرداء في الرواية السابقة. وهو صادق في كلتا الروايتين؛ لأنه ليس بمعقول أن يكذب نفسه، فتعين أنه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي بأن يقال: إن أنسا ﷺ تعلق غرضه في وقت ما بأن يذكر الثلاثة، ويذكر معهم أبي بن كعب دون أبي الدرداء، حاصرًا الجمع فيهم، ثم علق غرضه في وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبا الدرداء دون أبي بن كعب، وهذا التوجيه وإن كان بعيدًا إلا أنه يتعين المصير إليه جمعا بين هاتين الروايتين وبينهما وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء(٣).

والاختلاف في تحديد المعدود المحصور يدل على عدم إرادة الحصر الحقيقي(٤).

الدليل الثاني: استحالة إحاطة أنس بحال كل الصحابة، وأنَّهم لم يجمعوا القرآن كله.

قال المازري: لا يلزم من قول أنس لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك؛ لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة، وتفرقهم في البلاد، وهذا لا يتم إلا إن كان لقي كل واحد منهم على انفراده، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، وهـذا فـي غاية البعـد فـي

(١) البخاري (٥٠٠٤).

(٢) البخاري (٥٠٠٣)، مسلم (٢٤٦٥).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٢٠٠.

(٤) كتاب جمع القران ١/ ٣٨.

العادة، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك. [١]

الدليل الثالث: كثرة الحفاظ من الصحابة.

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: ذُكِرَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو فَقَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ لاَ أَزَالُ أُحِبُّهُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ: "**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ -فَبَدَأَ بِهِ- وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ**". [٢]، وثبت أنه قُتِل يوم بئر معونة سبعون من القراء[٣].

وثبت أن عبد الله بن عمرو كان يختم كل ليلة[٤].

وبتقدير مراد أنس ﷺ بالحصر الإضافي فالمعنى من هذه الوجوه التالية أيضًا:

الوجه الثالث: ذهب بعضهم إلى أن المراد به الجمع بوجوه القراءات كلها. [٥]

الوجه الرابع: لم يجمع ما نسخ منه وأزيل رسمه بعد تلاوته؛ مع ما ثبت رسمه وبقي فرض حفظه وتلاوته إلا تلك الجماعة[٦].

الوجه الخامس: أن المْراد بجمعه: تلَقِّيهِ من فِي رسول الله ﷺ بغير واسطة، بخلاف غيرهم، فيحتمل أن يكون تلقى بعضه بالواسطة[٧].

الوجه السادس: أنهم تصدوا لإلقائه وتعليمه فاشتهروا به، وخفي حال غيرهم عمَّن

---

(١) فتح الباري ٨/ ٦٦٩، وانظر المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٤٥ فقد ذكره مختصرًا.

(٢) البخاري (٣٨٠٨)، مسلم(٢٤٦٤).

(٣) عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ وَعُصَيَّةُ وَبَنُو لِحْيَانَ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ. قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ، يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، فَانْطَلَقُوا بِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا بِئْرَ مَعُونَةَ غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِى لِحْيَانَ. البخاري(٣٠٦٤)، مسلم (٦٧٧).

(٤) مر الحديث سابقًا.

(٥) فتح الباري ٨/ ٦٦٨، البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٢٤٢، الإتقان للسيوطي ١/ ١٩٣.

(٦) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٤٢، وانظر فتح الباري ٨/ ٦٦٨.

(٧) فتح الباري ٨/ ٦٦٨.

عرف حالهم فحصر ذلك فيهم بحسب علمه، وليس الأمر في نفس الأمر كذلك، أو يكون السبب في خفائهم أنهم خافوا غائلة الرياء والعجب وأمن ذلك من أظهره[١].

الوجه السابع: المراد بالجمع الكتابة فلا ينفى أن يكون غيرهم جمعه حفظا عن ظهر قلب، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب.[٢]

المراد أن أحدا لم يفصح بأنه جمعه بمعنى أكمل حفظه في عهد رسول الله ﷺ إلا أولئك بخلاف غيرهم فلم يفصح بذلك؛ لأن أحدا منهم لم يكمله إلا عند وفاة رسول الله ﷺ حين نزلت آخر آية منه، فلعل هذه الآية الأخيرة وما أشبهها ما حضرها إلا أولئك الأربعة ممن جمع جميع القرآن قبلها، وإن كان قد حضرها من لم يجمع غيرها الجمع البين.[٣]

وعدم الإفصاح كان لأسباب منها ما ذُكر، ومنها ما **قاله المازري** حيث قال:

ويحتمل أن يراد به أنه لم يذكر أحد عن نفسه أنه أكمله في حياة النبي ﷺ سوى هؤلاء الأربعة؛ لأن من أكمله سواهم كان يتوقع نزول القرآن مادام ﷺ حيًا فقد لايستجيز النطق بأنه أكمله واستجازه هؤلاء، ومرادهم أنهم أكملوا الحاصل منه.

ويحتمل أيضًا أن يكون سواهم لم ينطق بإكماله خوفًا من المراءاة به، واحتياطًا على النيات كما يفعل الصالحون في كثير من العبادات، وأظهر هؤلاء الأربعة ذلك؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم، أو لرأيٍ اقتضى ذلك عندهم[٤].

وعلى تقدير الحصر في كلام أنس ﷺ فالجواب من هذه الوجوه التالية أيضًا.

الوجه الثامن:

أنه ليس فيه تصريح بأن غير الأربعة لم يجمعه، فقد يكون مراده: الذين علمهم من الأنصار أربعة، وأما غيرهم من المهاجرين والأنصار الذين لا يعلمهم فلم ينفهم، ولو نفاهم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٤٥.

كان المراد نفي علمه، ومع هذا فقد روى غير مسلمٍ حفظ جماعات من الصحابة في عهد النبي ﷺ، وذكر منهم المازري خمسة عشر صحابيًا، وثبت في الصحيح أنه قتل يوم اليمامة سبعون ممن جمع القرآن، وكانت اليمامة قريبا من وفاة النبي ﷺ فهؤلاء الذين قتلوا من جامعيه يومئذ فكيف الظن بمن لم يقتل ممن حضرها ومن لم يحضرها وبقي بالمدينة أو بمكة أو غيرهما؟[1].

الوجه التاسع: هذا الخبر ليس على ظاهره.

لم يذكر في هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من كبار الصحابة الذين يبعد كل البعد أنهم لم يجمعوه، مع كثرة رغبتهم في الخير وحرصهم على ما دون ذلك من الطاعات، وكيف نظن هذا بهم ونحن نرى أهل عصرنا حفظه منهم في كل بلدة ألوف، مع بعد رغبتهم في الخير عن درجة الصحابة؟ مع أن الصحابة لم يكن لهم أحكام مقررة يعتمدونها في سفرهم وحضرهم إلا القرآن وما سمعوه من النبي ﷺ، فكيف نظن بهم إهماله؟ فكل هذا وشبهه يدل على أنه لا يصح أن يكون معنى الحديث أنه لم يكن في نفس الأمر أحد يجمع القرآن إلا الأربعة المذكورون.[2]

قال المازري: وأنَّا نعلم أن القرآن كان عندهم من البلاغة بحيث هو، وكان الكافرون في الجاهلية يعجبون من بلاغته، ويحاورون فيها حتى ينسبونها تارة إلى السحر، وتارة إلى أساطير الأولين، ونحن نعلم من عادة العرب شدة حرصها على الكلام البليغ وتحفظها له، ولم يكن لها شغل ولا صنعة سوى ذلك. فلو لم يكن للصحابة باعث على حفظ القرآن سوى هذا الذي ذكرناه لكان أول الدلائل على أن الخبر ليس على ظاهره.[3]

الوجه العاشر: أنه لو ثبت أنه لم يجمعه إلا الأربعة لم يقدح في تواتره، فإن أجزاءه حفظ كل جزء منها خلائق لا يحصون، يحصل التواتر ببعضهم، وليس من شرط التواتر أن ينقل

---

(١) شرح النووي على مسلم ٨/ ٢٥٧، وانظر المعلم ٢/ ٣٤٤، فضائل القرآن لابن كثير صـ ٩٣.

(٢) شرح النووي على مسلم ٨/ ٢٥٧، وانظر المعلم ٢/ ٣٤٤.

(٣) المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٤٤.

جميعهم جميعه؛ بل إذا نقل كل جزء عدد التواتر، صارت الجملة متواترة بلا شك، ولم يخالف في هذا مسلم ولا ملحد. (١)

الشبهة الثالثة: حول اختلاف ألحان العرب في المصاحف وألحان اللغات.

نص الشبهة:

عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي قال: لما فُرغ من المصحف، أُتي به عثمانُ فنظر فيه فقال: " قد أحسنتم، وأجملتم، أرى فيه شيئًا من لحنٍ ستقيمه العرب بألسنتها "(٢)

وعن عكرمة الطائي قال: لما أُتي عثمان ﷺ بالمصحف رأي فيه شيئًا من لحن فقال: "لو كان المملي من هذيل، والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا". (١)

---

(١) شرح النووي على مسلم ٨/ ٢٥٨، البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٢٤٣.

(٢) ضعيف. فقد جاء عن عثمان ﷺ من ثلاثة طرق.

الطريق الأول: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (١٠٤، ١٠٥)، وابن أَشْتَه في المصاحف كما في الإتقان للسيوطي ٢/ ٢٧٢، وابن شبه في تاريخ المدينة ٣/ ١٠١٣. من طرق عن إسماعيل ابن علية، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي قال: لما فرغ من المصحف أتي به عثمان فنظر فيه فقال. فذكره، وإسناده منقطع. عبد الأعلى بن عبد الله لم يدرك عثمان ﷺ؛ قال ابن حجر: مقبول. التقريب١/ ٣٢٤.

الطريق الثاني: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (١٠٦)من طريق بكر - يعني ابن بكار - قال: حدثنا أصحابنا، عن أبي عمرو، عن قتادة، أن عثمان ﷺ لما رفع إليه المصحف قال. . فذكره.

قلت: وإسناده ضعيف، قتادة لم يسمع عثمان ﷺ، وشيوخ بكار مجاهيل.

الطريق الثالث: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف(١٠٧، ١٠٨)، وابن شبه في تاريخ المدينة ٣/ ١٠١٣، وأبو عمرو في المقنع صـ ٣٦، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٢ من طرق عن عمران بن داود القطان، عن قتادة، عن نصر بن عاصم الليثي، عن عبد الله بن فطيمة، عن يحيى بن يعمر قال: قال عثمان ﷺ. . . فذكره.

قلت: وإسناده ضعيف. يحيى بن يعمر من الثالثة. قال أبو داود: لم يسمع من عائشة، قلت – الذهبي- فما الظن باللذين قبلها. قال أبو بكر بن أبي عاصم: لم يسمع من عمار بن ياسر. وعثمان ﷺ مات قبلهما. التقريب ٢/ ٦٦٨، تذكرة الحفاظ١/ ٧٥، جامع التحصيل ١/ ٢٩٩.

وعبد الله بن فطيمة عن يحيى بن يعمر روى قتادة عن نصر بن عاصم. منقطع. انظر التاريخ الكبير للبخاري٥/ ١٧٠.

والرد على ذلك من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن ذلك لا يصح عن عثمان ﷺ.

الوجه الثاني: هذا الخبر مما يستحيل عقلًا وشرعًا وعادةً.

الوجه الثالث: اللحن المراد به هنا هو: اللغة.

الوجه الرابع: أن ذلك محمولًا على الرمز والإشارة ومواضع الحذف.

الوجه الخامس: أنه مؤول على أشياء خالف لفظُها رسمَها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن ذلك لا يصح عن عثمان ﷺ.

وذلك من وجوه:

أولًا: إسناده ضعيف. [٢]

قال السخاوي: إنه ضعيف، والإسناد فيه اضطراب وانقطاع. [٣]

قال أبو عمرو الداني: هذا الخبر عندنا لا يقوم بمثله حجة، ولا يصح به دليل، لما فيه تخليط في إسناده، واضطراب في ألفاظه، ومع ذلك فهو مرسل؛ لأن ابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان شيئًا ولا رأياه. [٤]

ثانيًا: أن فيه اضطرابًا.

فغير خفي على المتأمل ما في الروايتين من اضطراب وتناقض؛ فإن قوله: "أحسنتم وأجملتم". مدح وثناء، وقوله: "إن فيه لحنًا" يشعر بالتقصير والتفريط، فكيف يصح في

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن صـ ١٥٩، ومن طريقه أبو عمرو في المقنع صـ ٣٦، وأخرجه ابن أبي داود في المصاحف (١١٠) عن هارون بن موسى، عن الزبير بن الخريت، عن عكرمة الطائي، قال: لما أتي عثمان ﷺ بالمصحف رأي فيه شيئا من لحن فقال. . . فذكره. وعكرمة هذا لا يعرف ولم أجد له ترجمة، والأثر انتقده الأئمة كما سيأتي.

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) تفسير الآلوسي ٦/ ١٥، التحرير والتنوير ٢/ ١١٤.

(٤) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ١/ ٣٥.

العقول أن يمدحهم على التقصير، والتفريط؟.

ثالثا: أن عثمان كان يُرفع الخلاف إليه الواقع من الناسخين ليحكم بالحق، فكيف يترك لحنًا فيه؟ والدليل على ذلك ما يلي:

١ـ **قال ابن الأنباري**: فكيف يُدَّعي عليه أنه رأى فسادًا فأمضاه، وهو يوقَف على ما كتب، ويُرفع الخلاف إليه الواقع من الناسخين ليحكم بالحق، ويُلزمهم إثبات الصواب وتخليده[١].

٢- أنه قد ثبت أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب التابوت بالهاء على لغة الأنصار فمنعوه من ذلك، ورفعوه إلى عثمان ﷺ وأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش[٢].

٣- عن مولى عثمان قال: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف شاة إلى أُبي بن كعب، فيها "لم يتسن"، وفيها "لا تبديل للخلق"، وفيها "فأمهل الكافرين". قال: فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين، وكتب ﴿لِخَلْقِ اللهِ﴾، ومحا "فأمهل"، وكتب ﴿فَمَهِّلِ﴾، وكتب ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾ ألحق فيها الهاء.[٣]

رابعًا: أن عثمان لم يستقل بجمع المصحف؛ بل شاركه الصحابة في جمعه وكتابته، ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر ﷺ، فلم يتداوله المسلمون إلا وهو بإجماع الصحابة موافق تمام الموافقة للعرضة الأخيرة التي عرض فيها النبي ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام.

الوجه الثاني: هذا الخبر مما يستحيل عقلا وشرعًا وعادةً.

ومما يدل على ذلك الآتي:

أولا: كيف يُظن بالصحابة أنهم يلحنون في الكلام فضلًا عن القرآن؟ وهم الفصحاء اللد، فكيف يظن بهم اللحن في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ، كما أنزل، وحفظوه وضبطوه وأتقنوه؟.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٧٢.

(٢) الترمذي (٣١٠٤)، وراجع مسألة جمع القرآن من هذه الموسوعة.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن صـ ١٥٩.

ثانيًا: كيف يُظن بهم اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته؟.

ثالثًا: كيف يظن بهم عدم تنبيههم ورجوعهم عنه، ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهي عن تغييره، ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ، وهو مروي بالتواتر خلفًا عن سلف؟ هذا مما يستحيل عقلًا وشرعًا وعادة(١).

رابعا: إن الصحابة ﷺ كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات، فكيف يقرون اللحن في القرآن مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته؟.

خامسًا: إن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح في الكلام، فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف؟!.

سادسًا: إن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم؛ لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي(٢).

سابعًا: إن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان ﷺ لما فيه من الطعن عليه، مع محلّه من الدين، ومكانه من الإسلام، وشدّة اجتهاده في بذل النصيحة، واهتباله بما فيه الصلاح للأمة، فغير ممكن أن يتولى لهم جمع المصحف مع سائر الصحابة الأتقياء الأبرار ليرتفع الاختلاف في القرآن بينهم ثم يترك لهم فيه مع ذلك لحنًا وخطأً يتولى تغييره من يأتي بعده، ممن لا شك أنه لا يدرك مداه ولا يبلغ غايته ولا غاية من شاهده. هذا مالا يجوز لقائل أن يقوله، ولا يحل لأحدأن يعتقده.

وقال ابن الأنباري في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان: في الأحاديث المروية عن عثمان في ذلك لا تقوم بها حجة؛ لأنها منقطعة غير متصلة، وما يشهد عقل بأن عثمان وهو إمام الأمة الذي هو إمام الناس في زمنه يجمعهم على المصحف الذي هو الإمام فيتبين فيه خللًا، ويشاهد في خطه زللًا فلا يصلحه، كلا والله ما يتوهم عليه هذا ذو إنصاف وتمييز، ولا يعتقد أنه أخر الخطأ في الكتاب ليصلحه من بعده، وسبيل الجائين من بعده

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٧٠.

(٢) كتاب المصاحف لابن أبي داود ١/ ٢٣٤ الحاشية.

البناء على رسمه، والوقوف عند حكمه. ومن زعم أن عثمان أراد بقوله أرى فيه لحنًا: أرى في خطه لحنًا إذا أقمناه بألسنتنا كان لحن الخط غير مفسد ولا محرف من جهة تحريف الألفاظ، وإفساد الإعراب، فقد أبطل ولم يصب؛ لأن الخط منبئ عن النطق، فمن لحن في كتبه فهو لاحن في نطقه، ولم يكن عثمان ليؤخر فسادًا في هجاء ألفاظ القرآن من جهة كتب ولا نطق، ومعلوم أنه كان مواصلًا لدرس القرآن، متقنًا لألفاظه، موافقًا على ما رسم في المصاحف المنفذة إلى الأمصار والنواحي(١).

ثامنًا: إن عثمان ﷺ لم يأمر بكتابة مصحف واحد؛ إنما كتب بأمره عدة مصاحف، ووجَّه كلا منها إلى مصر من أمصار المسلمين، فماذا يقول أصحاب هذا القول فيها؟ أيقولون إنه رأى اللحن في جميعها متفقًا عليه فتركه لتقيمه العرب بألسنتها، أم رآه في بعضها؟.

فإن قالوا: في بعض دون بعض، فقد اعترفوا بصحة البعض، ولم يذكر أحد منهم ولا من غيرهم أن اللحن كان في مصحف دون مصحف، ولم تأت المصاحف مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءات وليس ذلك بلحن.

وإن قالوا: رآه في جميعها، لم يصح أيضًا؛ فإنه يكون مناقضًا لقصده في نصب إمام يقتدى به على هذه الصورة، وأيضًا فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم سادات الأمة وعلماؤها فكيف يقيمه غيرهم؟ (٢)

وعلى تقدير صحة الرواية فيجاب عنها بهذه الوجوه التالية أيضًا.

الوجه الثالث: اللحن المراد به هنا هو: اللغة.

قال أبو بكر بن أبي داود: هذا عندي يعني بلغتها، وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعًا لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرءونه.

قلت: ولذا فقد فسر رحمه الله ما بوب به على هذا الفصل، فقد بوب بابًا: اختلاف ألحان العرب في المصاحف ثم قال موضحًا معنى الألحان فقال: والألحان: اللغات. (١)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٧١.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٥١٩، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي٢/ ٢٧٠.

واللَّحَنُ يأتي بمعنى: اللغة. [٢]

الوجه الرابع: أن ذلك محمولا على الرمز والإشارة ومواضع الحذف.

وذلك نحو: الكتاب، والصابرين وما أشبه ذلك. [٣]

الوجه الخامس: أنه مؤول على أشياء خالف لفظها رسمها.

كما كتبوا (لا أوضعوا) (لا أذبحنه) بألف بعد لا، و(جزاؤا الظالمين) بواو وألف، و(بأييد) بياءين. فلو قرئ ذلك بظاهر الخط لكان لحنًا. [٤]

قال أبو عمرو الداني: المقصد أن يكون عثمان ﷺ أراد باللحن المذكور فيه: التلاوة دون الرسم، إذ كان كثير منه لو تُلي على رسمه لانقلب بذلك معنى التلاوة، وتغيرت ألفاظها ألا ترى قوله "أولاأذبحنّه" و "لاأوضعوا" و "من نبأي المرسلين" و "سأوريكم" و "الربوا" وشبهه مما زيدت الألف والياء والواو في رسمه، لو تلاه تالٍ لا معرفة له بحقيقة الرسم، على صورته في الخط، لصير الإيجاب، ولزاد في اللفظ ما ليس فيه ولا من أصله، فأتى من اللحن بما لا خفاء به على من سمعه، مع كون رسم ذلك كذلك جائزًا مستعملًا. فأعلم عثمان ﷺ إذ وقف على ذلك أن من فاته تمييز ذلك، وعزبت معرفته عنه ممن يأتي بعده سيأخذ ذلك عن العرب؛ إذ هم الذين نزل القرآن بلغتهم فيُعرِّفونه بحقيقة تلاوته، ويدلُّونه على صواب رسمه؛ فهذا وجهه عندي والله اعلم[٥].

الشبهة الرابعة: حول أول من جمع القرآن.

نص الشبهة:

أثار هؤلاء شبهة في بعض الآثار التي ظاهرها التعارض في ذكر أول من جمع القرآن، حيث قيل: إنه علي بن أبي طالب ﷺ، وقيل: عمر بن الخطاب، وقيل سالم مولى أبي حذيفة.

(١) المصاحف ١/ ٢٣٢: ٢٣٣.

(٢) لسان العرب ٥/ ٤٠١٣، غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٦١، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٤٦٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي٢/ ٢٧١، تفسير الألوسي ٦/ ١٥.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٧١.

(٥) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ١/ ٣٦.

والرد على هذه الشبهة في هذه المباحث:

المبحث الأول: ما ورد أن عليًا ﷺ أول من جمع القرآن.

المبحث الثاني: ما ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ أول من جمع القرآن.

المبحث الثالث: ما جاء أن أول من جمع القرآن سالم مولى أبي حذيفة ﷺ.

المبحث الأول: ما ورد أن عليًا أول من جمع القرآن.

١- عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي ﷺ أقسم عليٌّ أن لا يرتدي برداء إلا لجُمعة حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل. فأرسل إليه أبو بكر بعد أيام: أَكَرِهْتَ إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: "لا والله إلا أني أقسمت أن لا أرتدي برداء إلا لجمعة، فبايعه ثم رجع"[(١)].

٢ - عن عكرمة، فيما أحسب قال: لما كان بعد بيعة أبي بكر ﷺ، قعد علي بن أبي طالب في بيته. فقيل لأبي بكر: قد كره بيعتك. فأرسل إليه فقال: أَكَرِهْتَ بيعتي؟ فقال: لا والله. قال: ما أقعدك عني؟ قال: رأيت كتاب الله يزاد فيه، فحدثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه. فقال أبو بكر: فإنك نعم ما رأيت[(٢)].

٣- عن عبد خير، عن علي قال: لما قبض رسول الله ﷺ أقسمت أو حلفت أن لا أضع ردائي

---

(١) **ضعيف**. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٣١) من طريق أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي ﷺ أقسم عليٌّ. فذكره. فيه أشعث بن سوار: وهو ضعيف كما في التقريب ١/ ٥٧.

ثم فيه إعضال بين ابن سيرين وعلي في ذكر قصة الجمع؛ لذا قال الحافظ ابن حجر: إسناده ضعيف لانقطاعه. فتح الباري٨/ ٦٢٩

(٢) **ضعيف**. فضائل القرآن لمحمد بن الضريس(٢١) من طريق أبي علي بشر بن موسى قال: حدثنا هوذة بن خليفة، قال: حدثنا عوف، عن محمد بن سيرين، عن عكرمة به. فيه انقطاع بين عكرمة وعلي. فعكرمة وُلِدَ سنةَ خمسٍ وعشرين من الهجرة. تهذيب الكمال٢٠/ ٢٩١-٢٩٢.

والحادثة المذكورة من تأخر عليٍّ في بيعة أبي بكر وقعت سنة إحدى عشرةَ، ولذا شك عكرمة في روايته فقال: فيما أحسب، ثم إن هوذة بن خليفة حديثه عن عوف الأعرابي خاصة ضعيف. نص على ذلك ابن معين، وانظر تهذيب الكمال، وعوف الأعرابي ثقة لكنه كان يتشيع، والحديث فيه موافقة لقول الشيعة بتحريف القرآن إذ قال: رأيت كتاب الله يزاد فيه. وهي علة كافية لرد الأثر.

عن ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي عن ظهري حتى جمعت القرآن. (١)

وتوجيه ذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: هذه الروايات ضعيفة كما سبق في التخريج وكلام أهل العلم عليها فلا يستدل بها.

الوجه الثاني: **شهادة عليٍّ بأن أبا بكر هو أول من جمع القرآن.**

عن عبد خير، عن علي، قال: "رحم الله أبا بكر، كان أول من جمع القرآن"(٢).

وفي لفظ: (أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر. . .).

الوجه الثالث: **وعلى تقدير أن يكون محفوظًا فمراده بجمعه: حفظه في صدره.** (٣)

قال أبو بكر ابن أبي داود: أجمع القرآن يعني: أتم حفظه. فإنه يقال للذي يحفظ القرآن قد جمع القرآن. (٤)

الوجه الرابع: أو يحمل على أنه أراد أن يجرِّد مصحفه مِمَّا ليس من القرآن، كالتفسير والأحكام.

الوجه الخامس:

كما أنه قد قيل: إنَّ جَمْعَ عليٍّ كان أشبه بكتاب علم، جمع فيه غير القرآن مع القرآن، وإذن فصُورتُه غير صورة الجمع البكري، وغرضُه غير غرضِهِ. فقد روى هذا الخبر ابن أشتة في كتاب المصاحف من وجه آخر عن ابن سيرين، وفيه أنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ، وأن ابن سيرين قال: فطلبتُ ذلك الكتاب، وكتبتُ فيه إلى المدينة، فلم أقدر عليه(١).

---

(١) ضعيف جدًا. أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٦٧، ومن طريقه الذهبي في السير ١٤/ ٢٢ من طريق إبراهيم بن محمد بن ميمون ثنا الحكم بن ظهير، عن السدي، عن عبد خير به.

فيه الحكم بن ظهير: متروك. التقريب ١/ ١٣٣.

(٢) حسن. أخرجه أبو عبيدة في فضائل القرآن صـ١٥٥، وابن أبي داود في المصاحف (من حديث ١٤: ١٨)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢٨٠)، (٥١٣)، (٥١٤) من زيادات ابنه والقطيعي، وابن سعد في الطبقات ٣/ ١٩٣ . كلهم من طرق عن سفيان، عن السدي، عن عبد خير، عن علي به. . وحسن إسناده ابن حجر في الفتح ٨/ ٦٢٩.

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٢٩.

(٤) المصاحف ١/ ١٨١.

المبحث الثاني: ما ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من جمع القرآن.

١ـ عن الحسن، أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله؟ فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة فقال: " إنا لله، وأمر بالقرآن فجمع، وكان أول من جمعه في المصحف"[١][٢].

الرد على هذا الأثر من وجوه:

الوجه الأول: إسناد هذا الأثر منقطع؛ لأن الحسن لم يسمع من عمر بن الخطاب، فقد ولد لسنتين بقيتا من خلافته[٣].

الوجه الثاني: الظن أنَّها لا تعدو رواية البخاري التي أسلفناها، والتي تقرِّر أنَّ عمر هو فعلًا صاحب فكرة الجمع الأول، وأنه أشار بِها على أبي بكر، ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره لها.

قال ابن حجر: وهذا منقطع، فإن كان محفوظًا حُمل على أن المراد بقوله: فكان أول من جمعه، أي: أشار بجمعه في خلافة أبي بكر، فنُسِب الجمع إليه لذلك[٤].

٢- عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن، فقام في الناس فقال: "من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شهيدان. فقتل وهو يجمع ذلك إليه، فقام عثمان بن عفان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئًا حتى يشهد عليه شهيدان، فجاء خزيمة بن ثابت، فقال: إني قد رأيتكم

---

(١) الإتقان١/ ١٦٦.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٣٢) من طريق يزيد- بن هارون - قال: أخبرنا مبارك، عن الحسن، أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله الأثر. الحسن لم يسمع عمر. جامع التحصيل في أحكام المراسيل للعلائي ١/ ١٦٢. قال ابن حجر: وهذا منقطع. الفتح ٨/ ٦٢٩. كذلك مبارك بن فضالة يدلس ويسوي ولم يصرح هنا بالسماع.

(٣) انظر التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢٨٩، تهذيب الكمال٦/ ٩٥-٩٧، وقال السيوطي إسناده منقطع. انظر الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٦٦.

(٤) فتح الباري ٨/ ٦٢٩.

تركتم آيتين لم تكتبوهما. قالوا: وما هما؟ قال: تلقيت من رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى آخر السورة. قال عثمان: فأنا أشهد أنهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: اختم بها آخر ما نزل من القرآن، فختمت بها براءة"[1].

الرد على هذا الأثر من وجوه:

الأول: أنه ضعيف كما بينا فلا يستدل به.

الثاني: المتن فيه نكارة -فيما يظهر والله أعلم- إذ يدل على أن عمر بن الخطاب ﷺ هو الذي قال بجمع المصحف فقتل ولم يتم ذلك حتى أكمله عثمان ﷺ بعد ذلك، فأتاه خزيمة ابن ثابت بخاتمة براءة، وهذا مخالف لما هو المعروف الثابت إذ الراجح أن الذي أتى بخاتمة براءة هو أبو خزيمة - كما في شبهة آيتي التوبة والأحزاب- وأيضًا كان ذلك في خلافة الصديق ﷺ إلا أن عمر كان هو القائم على هذا الجمع بأمر الصديق له في ذلك.[2]

المبحث الثالث: ما جاء أن أول من جمع القرآن سالم مولى أبي حذيفة.

قال السيوطي: ومن غريب ما ورد في أول من جمعه ما أخرجه ابن أشته في كتاب المصاحف من طريق كهمس عن ابن بريدة قال: أول من جمع القرآن في مصحفٍ سالم مولى أبي حذيفة، أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه.

والرد على هذا الأثر من هذه الوجوه:

---

(١) إسناده ضعيف لانقطاعه.

أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٣٣) من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال: أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن. الأثر.

فيه يحيى بن عبد الرحمن لم يسمع من عمر. قال ابن معين: بعضهم يقول سمع من عمر وهذا باطل؛ إنما يروي عن أبيه عن عمر ﷺ. جامع التحصيل ١/ ٢٩٨. وقد تقدم تخريجه، وذكرنا له شاهدين على الشهادة في الجمع، وليس في شواهده صدر الأثر بذكر: أنه أول من جمع.

(٢) حاشية كتاب المصاحف لابن أبي داود. د/ محب الدين عبد السبحان واعظ ١/ ١٨٢.

الوجه الأول: قال السيوطي: إسناده منقطع(١).

الوجه الثاني: وعلى تقدير أن يكون محفوظًا فمراده بجمعه حفظه في صدره. كما قاله ابن أبي داود وابن حجر فيما سبق(٢).

والصواب -والله أعلم- أن أوَّلية أبي بكر في جمع القرآن أولية خاصةٌ، إذ قد كان للصحابة مصاحف كتبوا فيها القرآن قبل جمع أبي بكر، وهذا لا يعكر صفو القول بأن أول من جمع القرآن هو الصدِّيق؛ لأن مصاحف الصحابة الأخرى إنَّما كانت أعمالًا فردية، لم تظفر بِما ظفر به مصحف الصدِّيق من دقَّة البحث والتحرِّي، ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغها حدَّ التواتر، ومن إجماع الأمة عليها، إلى غير ذلك من المْزايا التي كانت لمصحف الصدِّيق. فلا يضير مع كل هذه المْزايا أن يُروى أن عليًّا أو عمر أو سالِمًا كان أول من جمع القرآن، فقُصارى تلك الروايات أنَّها تثبت أن بعض الصحابة كان قد كتب القرآن في مصحف، ولكنها لا تُعطي هذا المصحف تلك الصفة الإجماعية، ولا تخلع عليه تلك المزايا التي للمصحف الذي جمع على عهد أبي بكر. (٣)

(١) الإتقان في علوم القرآن١/ ١٦٦.

قال السيوطي على فرض صحته: هو محمول على أنه كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر.

وتعقبه الآلوسي بقوله: وهي عثرة منه، لا يقال لصاحبها لعًا؛ لأن سالمًا هذا قتل في وقعة اليمامة، كما يدل عليه كلام الحافظ ابن حجر في إصابته، ونص عليه السيوطي نفسه في إتقانه بعد هذا المبحث بأوراق، ولا شك أن الأمر بالجمع وقع من الصديق بعد تلك الوقعة، وهي التي كانت سببًا له كما يدل عليه حديث البخاري الذي قدمناه فسبحان من لا ينسى. تفسير الآلوسي١/ ٢٢.

(٢) المصاحف ١/ ١٨١، فتح الباري ٨/ ٦٢٩.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن١/ ٢٥٤-٢٥٥.

الشبهة الخامسة: شبهات حول تخطئة ابن عباس، وعائشة للكُتَّاب.

المبحث الأول: تخطئة ابن عباس للكُتَّاب.

وفي ذلك شبهات:

الأولى: يقولون: ألا يكفي في الطعن على جمع القرآن ورسمه، ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ﴾ أنه قال: إن الكاتب أخطأ والصواب: حتى تستأذنوا.

والجواب على ذلك من رد إجمالي ووجوه.

الرد الإجمالي: دفع عام عن ابن عباس ﷺ.

كل ما روي عن ابن عباس في تلك الشبهات يمكن دفعه دفعًا عامًا بأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وهما كانا في جمع المصاحف. وزيد بن ثابت كان في جمع أبي بكر أيضًا. وكان كاتب الوحي، وكان يكتب ما يكتب بأمر النبي ﷺ وإقراره. وابن عباس كان يعرف ذلك ويوقن به، فمحال إذن أن ينطق لسانه بكلمة تحمل رائحة اعتراض على جمع ورسم القرآن، وإلا فكيف يأخذه عن زيد وأبي بن كعب ثم يعترض على جمعهما ورسمهما؟! [(١)].

وإليك الوجوه:

الوجه الأول: أن هذا كان على سبيل التفسير.

عن ابن عباس أنه فسر ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ فقال: أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها يعني أصحاب البيوت[(٢)].

الوجه الثاني: المقصود بالخطأ عدم اختيار الأولى.

أجاب ابن أشته عن جميع ذلك بأن المراد: الخطأ في الاختيار، وترك ما هو الأولى بحسب ظنه ﷺ لجميع الناس عليه من الأحرف السبعة؛ لأن الذي كُتب خطأ خارج عن القرآن.

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٢) **صحيح**. أخرجه الطبري في التفسير ١٩/ ١٤٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٠، وغيرهما من طرق عن ابن عباس به. وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٧/ ٤٤٥.

واختار الجلال السيوطي هذا الجواب وقال: هو أولى وأقعد من جواب ابن الأنباري، ولا يخفى عليك أن حمل كلام ابن عباس على ذلك لا يخلو عن بعد لما أن ما ذُكر خلاف ظاهر كلامه، وأيضًا ظن ابن عباس أولوية ما أجمع سائر الصحابة ﷺ على خلافه، مما سمع رسول الله ﷺ في العرضة الأخيرة بعيد، وكأنهم رأوا أن التزام ذلك أهون من إنكار ثبوت الخبر عن ابن عباس مع تعدد طرقه وإخراج الضياء إياه في مختارته، ويشجع على هذا الإنكار اعتقاد جلالة ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وثبوت الإجماع على تواتر خلاف ما يقتضيه ظاهر كلامه فتأمل[1].

الوجه الثالث: أنه معارض للقاطع المتواتر.

وهو قراءة: تستأنسوا، والقاعدة: أن معارض القاطع ساقط، وأن الرواية متى خالفت رسم المصحف فهي شاذة لا يلتفت إليها ولا يعول عليها.[2]

واعلم أن هذا القول من ابن عباس فيه نظر؛ لأنه يقتضي الطعن في القرآن الذي نقل بالتواتر، ويقتضي صحة القرآن الذي لم ينقل بالتواتر، وفتح هذين البابين يطرق الشك إلى كل القرآن وأنه باطل[3].

الوجه الرابع: أن الصحابة أجمعوا على إطلاق لفظ الخطأ في الاجتهاد.

فمن ذلك ما روي عن أبي بكر أنه قال: أقول في الكلالة برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان. ومن ذلك ما روي عن عمر أنه حكم بحكم فقال رجل حضره: هذا والله الحق. فقال عمر: إن عمر لا يدري أنه أصاب الحق لكنه لم يأل جهدًا. وروي عنه أنه قال لكاتبه: اكتب هذا ما رأى عمر فإن يكن خطأ فمنه، وإن يكن صوابًا فمن الله، وأيضًا قوله في جواب المرأة التي ردت عليه النهي عن المبالغة في المهر: أصابت امرأة وأخطأ عمر، ومن ذلك ما روي عن علي ﷺ أنه قال في المرأة التي استحضرها عمر فأجهضت ما

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٣/ ٣٩٥-٣٩٦، الإتقان للسيوطي ١/ ٥٤٣.

(٢) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٣) تفسير الرازي ١١/ ٢٩٥.

في بطنها، وقد قال له عثمان وعبد الرحمن بن عوف: إنما أنت مؤدب لا نرى عليك شيئًا، إن كانا قد اجتهدا فقد أخطأ، وإن لم يجتهدا فقد غشَّاك، أرى عليك الدية. ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود أنه قال في المفوضة: أقول فيها برأيي فإن كان صوابًا فمن الله ورسوله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، ومن ذلك ما روي أن عليًا وابن مسعود وزيدًا ﷺ خطئوا ابن عباس في ترك القول بالعول، وأنكر عليهم ابن عباس قولهم بالعول، بقوله: من شاء أن يباهلني باهلته، إن الذي أحصى رمل عالج عددًا لم يجعل في مال واحد نصفًا ونصفًا وثلثًا، هذان نصفان ذهبا بالمال فأين موضع الثلث؟. ومن ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: ألا يتقي الله زيد بن ثابت يجعل ابن الابن ابنًا، ولا يجعل أبا الأب أبًا. إلى غير ذلك من الوقائع ولم ينكر بعضهم على بعض في التخطئة فكان ذلك إجماعًا على أن الحق من أقاويلهم ليس إلا واحدًا. (1)

الوجه الخامس: يحتمل أن يكون ذلك كان في القراءة الأولى ثم نسخت تلاوته يعني: ولم يطلع ابن عباس على ذلك. (2)

وهو من القراءات التي نسخت وتركت، ولعل القارئ بها لم يطلع على ذلك؛ لأن جميع الصحابة ﷺ أجمعوا على كتابة: تستأنسوا في جميع نسخ المصحف العثماني، وعلى تلاوتها بلفظ: تستأنسوا، ومضى على ذلك إجماع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في مصاحفهم وتلاوتهم من غير نكير. والقرآن العظيم تولى الله تعالى حفظه من التبديل والتغيير، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) وقال فيه ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢). وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٦: ١٧)(3).

الثانية: ما روي عن ابن عباس أيضًا أنه قرأ "أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا". فقيل له: إنها في المصحف ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقال: أظن

(١) الإحكام في أصول القرآن ١/ ٤٢٤.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٩ نقلًا عن البيهقي.

(٣) أضواء البيان للشنقيطي ٥/ ٤٩٣.

الكاتب كتبها وهو ناعس.[١]

ونجيب على هذه الشبهة بما سبق أيضًا، ونضيف هنا.

قال الزمخشري: وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتًا بين دفتي الإمام، وكان متقلبًا في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله، المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء؟ وهذه والله فرية ما فيها مرية.[٢]

قال أبو بكر الأنباري: وهو باطل عن ابن عباس؛ لأن مجاهدًا وسعيد بن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس[٣].

الثالثة: يقولون: ومن وجوه الطعن أيضًا ما روي عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣). إنما هي: ووصى ربك التزقت الواو بالصاد وكان يقرأ: ووصى ربك. ويقول: أمر ربك. إنهما واوان التصقت إحداهما بالصاد، وروي عنه أنه قال: أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم. ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه. فلصقت إحدى الواوين بالصاد فقرأ الناس: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد[٤].

والجواب:

أولًا: الأثر لا يصح عن ابن عباس.

ثانيًا: أن هذه الروايات معارضة للمتواتر القاطع وهو قراءة وقضى؛ ومعارض

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٧٦)، قال ابن حجر: إسناده صحيح. فتح الباري (٨/ ٣٧٣).

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥١.

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٣٢٠.

(٤) **ضعيف جدًا**. أخرجه أحمد بن منيع في مسنده كما في المطالب العالية من طريق الفرات بن السائب، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس به. فيه الفرات بن السائب: منكر الحديث. التاريخ الكبير ٧/ ١٢٩، الجرح والتعديل ٧/ ٨٠.

القاطع ساقط.

ثالثا: أن ابن عباس نفسه وقد استفاض عنه أنه قرأ: وقضى، وذلك دليل على أن ما نسب إليه في تلك الروايات من الدسائس الرخيصة التي لفقها أعداء الإسلام.

قال القرطبي: ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك.

وقال: لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (الإسراء: ٢٣) معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت: ١٢) يعني خلقهن.

والقضاء بمعنى الحكم، كقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ (طه: ٧٢) يعني: احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ، كقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١) أي: فرغ منه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٠٠).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ (الجمعة: ١٠).

والقضاء بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧)، والقضاء بمعنى العهد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ (القصص: ٤٤). فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك؛ لأن الله تعالى لم يأمر بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء[١].

قال أبو حيان: والمتواتر هو ﴿وَقَضَىٰ﴾ وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة بمعنى أمر. وقال ابن مسعود وأصحابه: بمعنى وصى[٢].

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٣٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣٢.

إذن رواية وقضى هي التي انعقد الإجماع عليها من ابن عباس وابن مسعود وغيرهما، فلا يتعلق بأذيال مثل هذه الرواية الساقطة إلا ملحد ولا يرفع عقيرته بها إلا عدو من أعداء الإسلام[١].

الرابعة: يقولون: إن ابن عباس روي عنه أيضًا أنه كان يقرأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ (الأنبياء: ٤٨) ويقول خذوا هذه الواو واجعلوها في ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾. وروي عنه أيضًا أنه قال: انزعوا هذه الواو واجعلوها في ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾[٢].

والجواب:

أولًا: أنها معارضة للقراءة المتواترة المجمع عليها فهي ساقطة.

ثانيًا: أن بلاغة القرآن قاضية بوجود الواو لا بحذفها؛ لأن ابن عباس نفسه فسر الفرقان في الآية المذكورة بالنصر، وعليه يكون الضياء بمعنى التوراة أو الشريعة. فالمقام للواو لأجل هذا التغاير[٣].

الخامسة: يقولون: روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أنه قال: هي خطأ من الكاتب. هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة. إنما هي: مثل نور المؤمن كمشكاة[٤].

والجواب عن ذلك:

أولًا: بأنها رواية معارضة للقاطع المتواتر فهي ساقطة.

ثانيًا: أنه لم ينقل عن أحد من القراء أن ابن عباس ﷺ قرأ: مثل نور المؤمن، فكيف يقرأ بما يعتقد أنه خطأ ويترك ما يعتقد أنه صواب؟ ألا إنها كذبة مفضوحة، ولو أنهم

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٧٦.

(٣) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٧٦.

نسبوها لأبي بن كعب لكان الأمر أهون؛ لأنه روي في الشواذ أن أبي بن كعب قرأ: مثل نور المؤمن. والذي ينبغي أن تحمل عليه هذه الروايات أن أبيًا ﷺ. أراد تفسير الضمير في القراءة المعروفة المتواترة وهي مثل نوره. فهي روايات عنه في التفسير لا في القراءة بدليل أنه كان يقرأ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾[1].

المبحث الثاني: ما جاء عن تخطئة عائشة رضي الله عنها للكتاب.

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: سألت عائشة عن لحن القرآن، ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (طه: ٦٣)، وعن قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النساء: ١٦٢) وعن قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ (المائدة: ٦٩)، فقالت: "يا ابن أختي، هذا عمل الكُتَّاب أخطأوا في الكتاب"[2].

وروي عن مَوْلَى بَنِي جُمَحٍ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي سَقِيفَةِ زَمْزَمَ لَيْسَ فِي الْمَسْجِدِ ظِلٌّ غَيْرَهَا، فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِأَبِي عَاصِمٍ يَعْنِي: عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَوْ تُلِمَّ بِنَا؟ فَقَالَ: أَخْشَى أَنْ أُمِلَّكِ، فَقَالَتْ: مَا كُنْتَ تَفْعَلُ، قَالَ: جِئْتُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله ﷻ؛ كَيْفَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرَؤُهَا؟ فَقَالَتْ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ فَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ (المؤمنون: ٦٠) أَوْ (الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا) فَقَالَتْ: أَيَّتُهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَإِحْدَاهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا جَمِيعًا أَوْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، قَالَتْ: أَيَّتُهُمَا. قُلْتُ: الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا. قَالَتْ أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَذَلِكَ كَانَ يَقْرَؤُهَا، وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، أَوْ قَالَتْ: أَشْهَدُ لَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرَؤُهَا وَلَكِنَّ الْهِجَاءَ حَرْفٌ[3].

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن(٤٩٦)، وسعيد بن منصور في سننه ٤/ ١٥٠٧، وابن أبي داود في المصاحف (٩١) من طريق أبي معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: سألت عائشة فذكره. وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٩٥، ١٤٤، والبخاري في التاريخ الكبير٨/ ٢٨، وابن ابي حاتم في الجرح والتعديل

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إن عروة لم يسأل عائشة فيه عن حروف الرسم التي تزاد فيها لمعنى وتنقص منها لآخر تأكيداً للبيان وطلبا للخفّة، وإنما سألها فيه عن حروف من القراءة المختلفة الألفاظ المحتملة الوجوه على اختلاف اللغات التي أذن الله ﷻ لنبيّه ﷺ ولأُمّته في القراءة بها، واللزوم على ما شاءت منها؛ تيسيرا لها وتوسعة عليها. وما هذا سبيله وتلك حاله فعن اللحن والخطأ والوهم والزلل بمعزل؛ لفشّوه في اللغة ووضوحه في قياس العربية، وإذا كان الأمر في ذلك كذلك فليس ما قصدته فيه بداخل في معنى المرسوم، ولا هو من سببه في شيء، وإنما سمّى عروة ذلك لحنا وأطلقت عائشة على مرسومه كذلك الخطأ على جهة الاتّساع في الأخبار وطريق المجاز في العبارة؛ إذ كان ذلك مخالفا لمذهبهما وخارجا عن اختيارهما، وكان الأوجه والأولى عندهما، والأكثر والأفشى لديهما لا على وجه الحقيقية والتحصيل، فالقطع لما بيّناه قبل من جواز ذلك وفشوه في اللغة واستعمال مثله في قياس العربية مع انعقاد الإجماع على تلاوته كذلك دون ما ذهبا إليه إلا ما كان من

٦/ ٣٦٦، من طريق صخر بن جويرية، عن إسماعيل المكي، عن أبي خلف مولى بني جمح. باللفظ المذكور.
وفيه أبو خلف المكي مولى بني جمح لا يعرف. كما قال ابن حجر في تعجيل المنفعة(١٢٦٥).
وأخرجه ابن راهويه في مسنده (١٦٤٤)والحاكم في الكنى كما في تعجيل المنفعة ١/ ٥٣٩، والطبري في تفسيره ١٨/ ٣٣ من طريق طلحة بن عمرو المكي، عن أبي خلف قال: دخلت مع عبيد بن عمير على عائشة، فسألها عبيد، كيف نقرأ هذا الحرف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾؟ فقالت: (يَأْتُونَ مَا أَتَوْا). وكأنها تأولت في ذلك: والذين يفعلون ما يفعلون من الخيرات وهم وجلون من الله. وفيه طلحة بن عمرو المكي: متروك.
وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٣٥ من طريق يحيى بن راشد، عن خالد الحذاء، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾؟ قالت: أيهما أحب إليك؟ قلت: أحدهما أحب إلي من حمر النعم. قالت: أيهما؟ قلت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ قالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها.
وأخرجه من نفس الطريق أنه قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾؟ قالت: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقرأها يؤتون.
ومدار هذا الطريق على يحيى بن راشد وهو ضعيف.

شذوذ أبي عمرو بن العلاء في " إن هذين " خاصّة هو الذي يُحمل عليه هذا الخبر ويتأوّل فيه دون أن يقطع به. على أن أم المؤمنين رضي الله عنها مع عظيم محلّها، وجليل قدرها، واتّساع علمها ومعرفتها بلغة قومها لَحّنت الصحابة، وخطأت الكتبة؛ وموضعهم من الفصاحة والعلم باللغة موضعهم الذي لا يجهل ولا ينكر، هذا مالا يسوغ ولا يجوز[1].

الوجه الثاني: ولو كانت ترى ذلك لِمَ لَمْ تنكره وتأمر بتغييره ولكن سكتت على هذا اللحن حتى جاء ابن أختها وهو من التابعين، فهذا مستبعد جدًا.

الوجه الثالث: اتفاق مصحفنا ومصحف أبيٍّ في ذلك، ما يدل على أنّ الذي في مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ، مع أن ذلك لو كان خطأً من جهة الخطِّ، لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يُعلِّمون من علَّموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه بألسنتهم، ولقَّنوه الأمة تعليمًا على وجه الصواب. وفي نقل المسلمين جميعًا ذلك قراءةً على ما هو به في الخط مرسومًا، أدلُّ الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صنع في ذلك للكاتب.[2]

الوجه الرابع: وقد تأوّل بعض علمائنا قول أمّ المؤمنين أخطأوا في الكتاب، أي: أخطئوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة بجمع الناس عليه لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز؛ لأن ما لا يجوز مردود بإجماع وإن طالت مدّة وقوعه وعظم قدر موقعه، وتأوّل اللحن أنه القراءة واللغة كقول عمر رضي الله عنه: أبيٌّ أقرؤنا وإنا لندع بعض لحنه. أي قراءته، فهذا بين وبالله التوفيق.[3]

وهذا غير مستبعد فقد ثبت أن كبار الصحابة خطَّأ بعضهم بعضا؛ لعدم علمهم ببعض الأحرف التي أنزل عليها القرآن.

---

(١) المقنع في رسم المصاحف صـ ١٣٢.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٣٩٣.

(٣) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ١٣٢.

الوجه الخامس: أن هذه الروايات مهما يكن سندها صحيحًا فإنها مخالفة للمتواتر القاطع، ومعارض القاطع ساقط مردود فلا يلتفت إليها ولا يعمل بها، ثم إنه قد نص في كتاب إتحاف فضلاء البشر على أن لفظ (هذان) قد رسم في المصحف من غير ألف ولا ياء؛ ليحتمل وجوه القراءات الأربع فيها كما شرحنا ذلك سابقا في فوائد رسم المصحف؛ وإذن فلا يعقل أن يقال: أخطأ الكاتب. فإن الكاتب لم يكتب ألفًا ولا ياءً، ولو كان هناك خطأ تعتقده عائشة ما كانت تنسبه للكاتب؛ بل كانت تنسبه لمن يقرأ بتشديد (إن) وبالألف لفظا في هذان، ولم ينقل عن عائشة ولا عن غيرها تخطئة من قرأ بها ذكر، وكيف تنكر هذه القراءة وهي متواترة مجمع عليها؛ بل هي قراءة الأكثر ولها وجه فصيح في العربية لا يخفى على مثل عائشة.

ذلك هو إلزام المثنى الألف في جميع حالاته وجاء منه قول الشاعر العربي:

واها لسلمى ثم واها واها   يا ليت عيناها لنا وفاها

وموضع الخلخال من رجلاها   بثمن يرضى به أباها

إن أباها وأبا أباها   قد بلغا في المجد غايتاها

فبعيد عن عائشة أن تنكر تلك القراءة ولو جاء بها وحدها رسم المصحف(١).

الوجه السادس: أن ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها من تخطئة رسم المصحف في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالياء مردود بما ذكره أبو حيان في البحر إذ يقول ما نصه: وذكر عن عائشة رضي الله عنها وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب المصحف، ولا يصح ذلك عنهما؛ لأنهما عربيان فصيحان، وقطع النعوت مشهور في لسان العرب، وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره.

وقال الزمخشري: لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب يريد كتاب سيبويه، ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٢٧١.

في النصب على الاختصاص من الافتنان، وخفي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام، وذب المطاعن عنه، من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة يسدها من بعدهم، وخرقًا يرفوه من يلحقهم.

الوجه السابع: أن قراءة والصابئون ـ بالواو ـ لم ينقل عن عائشة أنها خطأت من يقرأ بها، ولم ينقل أنها كانت تقرأ بالياء دون الواو، فلا يعقل أن تكون خطأت من كتب بالواو.

الوجه الثامن: أن كلام عائشة في قوله تعالى ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ لا يفيد إنكار هذه القراءة المتواترة المجمع عليها؛ بل قالت للسائل: أيهما أحب إليك ولم تحصر المسموع عن رسول الله فيما قرأت هي به؛ بل قالت: إنه مسموع ومنزل فقط، وهذا لا ينافي أن القراءة الأخرى مسموعة ومنزلة كتلك خصوصًا أنها متواترة عن النبي ﷺ، أما قولها: ولكن الهجاء حُرِّف، فكلمة حُرِّف مأخوذة من الحرف بمعنى القراءة واللغة، والمعنى أن هذه القراءة المتواترة التي رسم بها المصحف لغة ووجه من وجوه الأداء في القرآن الكريم، ولا يصح أن تكون كلمة حُرِّف في حديث عائشة مأخوذة من التحريف الذي هو الخطأ وإلا كان حديثا معارضا للمتواتر ومعارض القاطع ساقط[1].

الفصل الثالث: شبهات تطعن في سقوط شيء من القرآن.

ويشتمل على هذه الشبهات:

الشبهة الأولى: شبهة قتل القراء.

نص الشبهة:

عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: " بعث إليَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال: إن عمر بن الخطاب أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ بقراء القرآن يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن نأمر بجمع القرآن. فقال أبو بكر لعمر: كيف أفعل شيئا لم

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٢٧١.

يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري بها شرح له صدر عمر، ورأيت الذي رأى. قال زيد بن ثابت: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب لرسول الله ﷺ الوحي فتتبع القرآن. فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ من ذلك، قلت: فكيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر هو والله خير، فلم يزل يراجعني في ذلك أبو بكر وعمر حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدرهما (صدر أبي بكر وعمر)، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف (يعني: الحجارة) وصدور الرجال فوجدت آخر سورة التوبة(براءة) مع خزيمة بن ثابت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾(١).

وعَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: مَا نَعْلَمُ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَكْثَرَ شَهِيدًا أَعَزَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ سَبْعُونَ وَيَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ سَبْعُونَ وَيَوْمَ الْيَمَامَةِ سَبْعُونَ. قَالَ وَكَانَ بِئْرُ مَعُونَةَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَيَوْمُ الْيَمَامَةِ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ(٢).

ففي ذلك دلالة على ضياع كثير من القرآن بسبب قتل القراء.

الرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: حَفِظ القرآن كثير غير هؤلاء الذين قتلوا.

الوجه الثاني: ما روي من أنه لم يعلم ولم يكتب ولم يوجد مع أحد بعدهم، فكل هذا من البلاغات، والبلاغات نوع من أنواع الحديث الضعيف المنقطع فلا حجة فيه والعبرة بالموصول.

الوجه الثالث: على فرض صحة البلاغات فالمراد منه الآيات المنسوخة.

وإليك التفصيل

(١) البخاري (٤٦٠٣).

(٢) البخاري (٣٧٧٠).

الوجه الأول: حفظ القرآن كثير غير هؤلاء الذين قتلوا.

لا يسلم لهم؛ لأن نفس ما كان يحفظه الشهداء من القراء كان يحفظه كثيرٌ من الأحياء الذين لم يستشهدوا ولم يموتوا، بدليل قول عمر: وأخشى أن يموت القراء من سائر المواطن. ومعنى هذا أن القراء لم يموتوا كلهم؛ إنما المسألة مسألة خشية وخوف، ومعلوم أن أبا بكر كان من الحفاظ وكذلك عمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وغيرهم، وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن في الصحف، وعاش منهم من عاش حتى نسخ في المصاحف، وحينئذ فكتابة زيد ما كتبه هي كتابة لكل القرآن لم تفلت منه كلمة ولا حرف وكان القرآن كله مكتوبًا؛ حتى إن الصحابة في جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معًا دون الاكتفاء بأحدهما، وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يتأكدون من أنه كتب بين يدي النبي ﷺ، ويطلبون على ذلك شاهدين كما سلف إيضاحه[(١)].

الوجه الثاني: ما روي من أنه لم يعلم ولم يكتب ولم يوجد مع أحد بعدهم، فكل هذا من البلاغات، والبلاغات نوع من أنواع الحديث الضعيف المنقطع فلا حجة فيه، والعبرة بالموصول الصحيح.

عن ابن شهاب قال: "بلغنا أنه كان أنزل قرآن كثير، فقتل علماؤه يوم اليمامة، الذين كانوا قد وعوه، فلم يعلم بعدهم ولم يكتب، فلما جمع أبو بكر وعمر وعثمان القرآن ولم يوجد مع أحد بعدهم، وذلك فيما بلغنا، حملهم على أن يتبعوا القرآن فجمعوه في الصحف في خلافة أبي بكر خشية أن يقتل رجال من المسلمين في المواطن معهم كثير من القرآن، فيذهبوا بما معهم من القرآن، ولا يوجد عند أحد بعدهم، فوفق الله عثمان فنسخ تلك الصحف في المصاحف، فبعث بها إلى الأمصار، وبثها في المسلمين"[(٢)].

قال الثوري: وبلغنا أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺكانوا يقرؤن القرآن، أصيبوا يوم

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٠.

(٢) المصاحف (٦٣).

مسيلمة، فذهبت حروف من القرآن[١].

الوجه الثالث: على فرض صحة البلاغات فالمراد منه الآيات المنسوخة.

يشهد لهذا أننا لم نجد فيما نعلم أحدًا أخرجه غير عبد الرزاق، وقد ساقه في كتاب الحدود، باب الرجم والإحصان، وساق قبله في الباب نفسه حديث آية الرجم، والتي حكم العلماء بأنها منسوخة.

الشبهة الثانية: سورتي الخلع و الحفد.

نص الشبهة:

أن أصل القرآن موجود، ولكنه زيد فيه أو نقص، وتقول دائرة المعارف الإسلامية:

القرآن لم يسجل كله عند نزوله، بل كثير من الوحي المتقدم النزول لم يسجل؛ لأن المسلمين لم يكونوا منتبهين لأهمية ما يتلوه الرسول، فضاع كثير من القرآن.

ويقول جولدتسهير: لا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافًا عقديًا على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله، مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في النص القرآني، ويقول نصر أبو زيد: لم ينج القرآن من عمليات المحو والإثبات. [٢]

ونص سورتي الخلع والحفد.

سورة الخلع هي: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، ونثني عليك الخير (في رواية: كله) (في رواية: ونشكرك) ولا نكفرك(وفي رواية: ونؤمن بك ونخضع لك)(وفي أخرى: ونتوكل عليك)، ونخلع(في رواية: ونخنع) ونترك من يفجرك، (وفي رواية: من يكفرك).

وسورة الحفد هي: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك(في رواية: ربنا)، ونخاف عذابك(وفي رواية: نخشى

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٣٣٦٤).

(٢) الطعن في القرآن الكريم و الرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري١/ ٤٩.

نقمتك)، إن عذابك، (وفي رواية: الجد) بالكفار(وفي رواية: بالكافرين) ملحق (وفي أخرى: لمن عاديت ملحق). [١]

والرد على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: هذا الدعاء لم يصح مسندًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ.

وفيما يلي تخريج ودراسة لأسانيد هذا الدعاء المأثور في دواوين الإسلام المشهورة، من صحاح وسنن ومسانيد وغيرها. فقد ورد مسندًا من حديث عدة من الصحابة، والتابعين، مرفوعًا وموقوفًا.

أولًا: ذِكرُ ما ورد مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ.

رُوي من حديث علي بن أبى طالب رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وخالد بن أبى عمران التجيبي مرسلًا رضي الله عنه.

١ـ حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عن عبد الله بن زرير قال: قال لي عبد الملك بن مروان: ما حملك على حب أبي تراب إلا أنك أعرابي جاف، فقلت: والله لقد قرأت القرآن قبل أن يجتمع أبويك، لقد علمني سورتين علمهما إياه رسول الله ﷺ، ما علمتهما أنت ولا أبوك: اللهم إنا نستعينك الحديث. [٢]

٢ـ حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

عن عطاء بن السائب قال: كان أبو عبد الرحمن يقرئنا: اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، الحديث. وزعم أبو عبد الرحمن أن ابن مسعود كان يقرئهم إياها، ويزعم أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم إياها. [٣]

---

(١) تحفة الوفد بما ورد في سورتي الخلع والحفد ١/ ٢ بحث لأبي يعلى البيضاوي.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبراني في الدعاء (٧٥٠) من طريق يحيى بن يعلى الأسلمي، عن ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الله بن زرير به. وإسناده ضعيف. فيه ابن لهيعة: ضعيف. ويحيى بن يعلى الأسلمي الكوفي: ضعيف شيعي. التقريب ١/ ٥٩٨. وقال في نتائج الأفكار في أمالي الأذكار ٢/ ١٦٠: هذا حديث غريب.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٨/ ٦٩٧ لمحمد بن نصر المروزي، وفيه عطاء بن السائب، قال الحافظ في التقريب ١/ ٣٩١: صدوق اختلط. انتهى. ولم نقف على سنده حتى ننظر في الراوي عنه هل هو ممن ذكر العلماء أنه أخذ عن عطاء قبل اختلاطه أم بعده.

٣ـ حديث خالد بن أبى عمران التجيبي.

عن خالد بن أبي عمران قال: بينا رسول الله ﷺ يدعو على مضر، إذ جاءه جبريل، فأومأ إليه أن اسكت. فسكت، فقال: يا محمد، إن الله لم يبعثك سبابًا، ولا لعَّانًا، وإنما بعثك رحمة، ولم يبعثك عذابا، ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٨)، قال ثم علمه هذا القنوت: اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، ونؤمن بك، ونخضع لك، ونخلع ونترك من يكفرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، واليك نسعى و نحفد"[(١)].

ثانيًا: ما ورد موقوفًا على الصحابة ﷺ.

١ـ أثر عمر بن الخطاب ﷺ. [(٢)]

قلت: والأثر عن عبد الله في مصنف ابن أبي شيبة (٦٨٩٣) قال حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن قال علمنا ابن مسعود أن نقول في القنوت يعني في الوتر: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، ونرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق.

وإسناده ضعيف. فيه عطاء بن السائب: اختلط. ومحمد بن فضيل روى عنه بعد الاختلاط. نهاية الاغتباط صـ٢٤٨. ثم إن الأثر موقوفًا على ابن مسعود.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المراسيل ١/ ٨٢، وسحنون المالكي في المدونة١/ ١٠٣، والحازمي في الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار(٦٤)، والبيهقي في سننه الكبرى ٢/ ٢١٠ كلهم من طريق معاوية بن صالح، عن عبد القاهر، عن خالد به.

قلت: وفيه علتان، الأولى: أنه مرسل؛ خالد بن أبي عمران من الخامسة ولم يدرك النبي ﷺ.

والثانية: عبد القاهر بن عبد الله: مجهول كما قال الحافظ في التقريب ١/ ٣٦٠.

وقد أعله البيهقي، والحازمي بالإرسال، قال البيهقي: هذا مرسل. السنن الكبرى ٢/ ٢١٠.

(٢) ورد عنه من ثمانية طرق.

الأول: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن عمر ﷺ " أنه كان يقنت في صلاة الصبح بسورتين، اللهم إنانستعينك. . . واللهم إياك نعبد. . . . " أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار١/ ٢٥٠، وعبد الرزاق في المصنف(٤٩٧٢، ٤٩٧٨)، والطبري في كتابه تهذيب الآثار(١٠١٧)، (١٠١٨)، (١٠١٩)، (١٠٢٠)، (١٠٢١)، (١٠٨١)، (١٠٨٢)، (١٠٨٣)، (١٠٩١)، من طرق عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس به، وإسناده حسن.

٢ـ أثر عثمان بن عفان ﷺ:

وهو مذكور ضمن أثر عمر ﷺ السابق من رواية عثمان بن زياد.

٣ـ أثر علي بن أبي طالب ﷺ.

أن عليًا كان يقنت بهاتين السورتين في الفجر غير أنه يقدم الآخرة ويقول: اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك، إن عذابك بالكافرين ملحق، اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونثني عليك الخير كله، ونشكرك ولا نكفرك، ونؤمن بك ونخلع ونترك من يفجرك[1].

الثاني: عن عبيد بن عمير أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(٤٩٦٩)، وأخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه (٧٠٢٧و٧٠٣١ و ٢٩٧١٤و ٢٩٧١٩)، ومحمد بن نصر المروزي في صلاة الوتر(٢٩٢) والطحاوي في معاني الآثار١/ ٢٤٩، والبيهقي في سننه الكبرى(٣١٤٣)، وابن جرير في تهذيب الآثار ٢/ ٢٣ وفيه زيادة في أوله، وذكر أنه بلغه أنهما سورتان من القرآن في مصحف ابن مسعود، وأنه يوتر بهما كل ليلة، وذكر أنه يجهر بالقنوت في الصبح، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص ٢/ ٢٤، ٢٥: قال البيهقي هذا عن عمر صحيح موصول.

قال العلامة الألباني رحمه الله في إرواء الغليل (٢/ ١٧٠): هذا إسناد رجاله كلهم رجال الشيخين، ولولا عنعنة ابن جريج لكان حريًا بالصحة. قلت: وقد توبع فهو صحيح.

الثالث: عن عبد الرحمن بن أبزى عنه. أخرجه البيهقى في سننه ٢/ ٢١١، وابن أبى شيبة في المصنف (٧٠٢٨)، والطحاوي في شرح المعاني (١/ ٢٥٠/ رقم ١٤٧٦)، وابن جرير الطبري في تهذيب الآثار (١٠٨٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٩٥) لابن الضريس، كلهم من طريق عبيد بن عمير، قال الشيخ الألباني رحمه الله في الإرواء (٢/ ١٦٥) إسناده صحيح.

الرابع: عن أبي رافع عنه أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ١١٠/ رقم ٤٩٦٨).

وأخرجه أيضًا محمد بن نصر في قيام الليل برقم (٢٩٣)، قال الحافظ في الأمالي(٢/ ١٦١): أخرجه عبد الرزاق بسند حسن.

الخامس: عن عثمان بن زياد عنه أخرجه ابن أبى شيبة في المصنف (٧٠٣٢)، (٢٩٧١٦)

السادس: عن معبد بن سيرين عنه أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (١٠٩٣)، (١٠٩٤).

السابع: عن عبد الله بن شداد عنه أخرجه ابن جرير الطبري في تهذيب الآثار (١٠٩٥).

الثامن: عن محمد بن أبي ليلى. أخرجه محمد بن نصر المروزي عزاه له السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٦٩٦).

(١) روي عنه من طريقين.

٤ـ أثر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: علمنا ابن مسعود أن نقرأ في القنوت: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك. الحديث.

وفي رواية عبيد بن عمير قال: القنوت قبل الركعة الآخرة من الصبح، وذكر أنه بلغه أنهما سورتان من القرآن في مصحف ابن مسعود، وأنه يوتر بهما كل ليلة. (١)

٥ـ أثر أبي بن كعب رضي الله عنه.

عن ميمون بن مهران قال: في قراءة أبي بن كعب: اللهم إنا نستعينك. . . الحديث.

وعن محمد بن سيرين عنه قال: كتب أبي بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب، والمعوذتين، واللهم إنا نستعينك. الحديث.

وعن محمد بن إسحاق بن يسار، قال: قد قرأت في مصحف أبي بن كعب بالكتاب الأول العتيق: بسم الله الرحمن الرحيم، قل هو الله أحد إلى آخرها، بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الفلق إلى آخرها، بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الناس إلى آخرها، بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك. . . . الحديث. (٢)

الأول: عن عبد الرحمن بن سويد الكاهلي عن علي به. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤٩٧٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧٠٢٩، ٢٩٧١٧)، وابن سعد في طبقاته٦/ ٢٤١.

الثاني: عن عبد الله بن زرير الغافقي. عزاه الحافظ في أمالي الأذكار٢/ ١٦٠لمحمد بن نصر المروزي وانظر حديث علي رضي الله عنه المرفوع المتقدم، فقد اختلف على علي رضي الله عنه في رفعه ووقفه، ورجح الحافظ (ابن حجر) في أماليه الرواية الموقوفة.

(١) روي عنه من طريقين.

الأول: عن أبي عبد الرحمن السلمي، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦٨٩٣، ٢٩٧٠٨)، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن به. وعطاء: اختلط وروى عنه محمد بن فضيل بعد الاختلاط. وتقد بيانه في المرفوع.

الثاني: عن عبيد بن عمير. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(٤٩٦٩) وهو طرف من أثر عمر السابق من رواية عبيد، وأخرجه محمد بن نصر في كتاب الوتر(٢٩٢)وهذا كما ترى بلاغ ولم يذكر من أبلغه.

(٢) له تسعة طرق.

٦، ٧ـ أثر أبي موسى الأشعري ﷺ، و عبد الله بن عباس ﷺ:

تقدما ضمن أثر أبي بن كعب ﷺ من رواية عبد الرحمن بن أبي أبزي.

٨ـ أثر أنس بن مالك ﷺ:

عن أبان بن أبي عياش قال: سألت أنس بن مالك ﷺ عن الكلام في القنوت فقال: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك. الحديث، وفيه: قال أنس: والله إنْ أنزلتا إلا من السماء. [(١)]

ثالثا: المقطوع على التابعين.

وهو مروي عن جماعة من التابعين، وهم كالتالي:

١ – أثر الحسن البصري، قال: القنوت في الوتر والصبح: اللهم إنا نستعينك. الأثر[(٢)].

أولها: عن ميمون بن مهران عنه. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٩٧٠)، وابن أبى شيبة في المصنف (٧٠٣٠ و ٢٩٧١٨) قال الألباني رحمه الله في الإرواء (٢/ ١٧١): رجال إسناده ثقات، ولكن ابن مهران لم يسمع من أبي، فهو منقطع.

الثاني: عن عروة بن الزبير عنه أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١١٠٠)، قال الشيخ الألباني في صحيح ابن خزيمة: إسناده صحيح.

الثالث: عن سلمة بن كهيل عنه أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الوتر(٢٩٤).

الرابع: عن حماد عنه ذكره السيوطي في الدر المنثور(٨/ ٦٩٥).

الخامس: عن الشعبي عنه عزاه السيوطي في الدر المنثور(٨/ ٦٩٧) لمحمد بن نصر المروزي.

السادس: عن محمد بن سيرين أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام عزاه له السيوطي في الإتقان (٨٤٤)

السابع: عن عبد الرحمن بن أبزي أورده السيوطي في الإتقان بسند ابن الضريس (٨٤٩).

الثامن: عن محمد بن إسحاق بن يسار أخرجه محمد بن نصرفي الوتر(٢٩٥).

التاسع: عن عطاء بن أبي رباح أخرجه محمد بن نصر في كتاب الوتر(٢٩٦).

(١) **ضعيف جدًا.** ذكره الإمام عبد الكريم بن محمد الرافعي في تاريخه التدوين في أخبار قزوين (١/ ١٧٤) في ترجمة: محمد بن أحمد أبو سليمان الجاباري القزويني، وقال: أبان بن أبي عياش أبو إسماعيل البصري يروى عن شعبة إساءة القول فيه. اهـ.

ونقله السيوطي في الدر المنثور(٨/ ٦٩٥)، قلت: وقول أنس ﷺ (والله إن أنزلتا إلا من السماء) يدل على أن الحديث من المرفوع، فإن الصحابي لا يقدم على الجزم إلا إذا كان عنده من النبي ﷺ شيء، ولكن السند ضعيف جدًا، فأبان بن أبى عياش قال الحافظ في التقريب١/ ٨٧: متروك.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف(٤٩٨٢)، وأخرجه محمد بن نصر في الوتر(٢٩٨) ولفظه مختصر.

٢- إبراهيم بن يزيد النخعي، كان يستحب أن يقول في قنوت الوتر بهاتين السورتين الحديث[(١)].

٣- طاووس بن كيسان اليماني. [(٢)]

٤- سعيد بن المسيب قال: (يبدأ في القنوت فيدعو على الكفار، ويدعو للمؤمنين والمؤمنات، ثم يقرأ السورتين: اللهم إنا نستعينك... واللهم إياك نعبد...). [(٣)]

٥- أمية بن عبد الله بن خالد بن أمية. [(٤)]

٦- محمد بن مسلم بن شهاب الزهري. [(٥)]

٧- سفيان بن سعيد الثوري قال: كانوا يستحبون أن يجعلوا في قنوت الوتر هاتين السورتين: اللهم إنا نستعينك، ونستغفرك، الحديث. [(٦)]

٨- مكحول الشامي. [(٧)]

٩- عبد الملك بن جريج. [(٨)]

وبهذا تبين جليًا أن دعاء القنوت هذا والمعروف بسورتي (الخلع و الحفد) لم يصح

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤٧٩٧) عن الثوري، عن الزبير بن عدي، عن إبراهيم، وأخرجه ابن نصر في الوتر مختصرًا (٣٠١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٨٣) قال: وروي عن ابن جريج، ومعمر، عن ابن طاووس، عن أبيه.

(٣) أخرجه محمد بن نصر في الوتر(٢٩٧) عن سعيد بن المسيب.

(٤) أخرجه أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير(٨٦٠) قال: ثنا محمد بن إسحاق بن راهويه، ثنا أبي، ثنا عيسى بن يونس، حدثني أبي، عن جدي قال: أَمَّنَا أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بخراسان، فقرأ بهاتين السورتين، إنا نستعينك ونستغفرك. وجد يونس هو أبو إسحاق السبيعي، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٥٧ باب فيما نسخ: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وقال السيوطي في الإتقان (٨٥٠): بسند صحيح.

(٥) أخرجه محمد بن نصر في الوتر (٢٩٩).

(٦) أخرجه ابن نصر في صلاة الوتر (٣٠٩).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٩٨٩).

(٨) أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق١١/ ٣٥٦.

مسندًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ من طريق صحيح ولا حسن خالية من علة أو جرح، وإنما صح موقوفًا عن بعض الصحابة الكرام وبمثل هذه الموقوفات -وإن تعددت- لا يمكن إثبات قرآنية هذا الدعاء.

الوجه الثاني: أنه مِمَّا يدل على ضعف هذا الخبر عن أُبَيٍّ، ما عُلِم من أن عثمان تشدد في قبض المصاحف المخالفة لمصحفه وتحريقها، والعادة توجب أن مصحف أُبَيٍّ كان من أول ما يُقبض، وأن تكون سرعة عثمان إلى مطالبته به أشدَّ من سرعته إلى مطالبة غيره بِمصحفه؛ لأنه كان مِمَّن شارك في ذلك الجمع. وقد صحت الرواية بِما يدل على أن عثمان قد قبض مصحف أُبَيٍّ، فعن محمد بن أُبَيٍّ أن ناسًا من أهل العراق قدموا إليه، فقالوا: إنَّما تحمَّلْنا إليك من العراق، فأخْرِجْ لنا مصحفَ أُبَيٍّ. قال محمدٌ: قد قبضَه عثمان. قالوا: سبحان الله! أخْرِجْه لنا. قال: قد قبضَه عثمان[1].

الوجه الثالث: عدم تواترها، فكل رواية أحادية لا تقبل في إثبات شيء من القرآن.[2]

الوجه الرابع: أن الصحابة ﷺ كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن، ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر، وردوا كل ما لم يثبت تواتره؛ لأنه غير قطعي، ويأبى عليهم دينهم وعقولهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي؛ بل شرط أن يتواتر عند مجموع الأمة، كما هو حال ما بين دفتي المصحف الكريم، كما نص على ذلك العلماء، والتواتر كما عرفوه هو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى منتهاه، وهذا مما لم يتوفر في نقل هذا الدعاء المأثور.

وقال السيوطي: ولا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواترًا في أصله، وأجزائه، وأما محل وضعه وترتيبه فكذلك عند محققي أهل السنة، للقطع بأن العادة تقضي بالتواتر في تفاصيل مثله؛ لأن هذا المعجز العظيم الذي هو أصل الدين القويم، والصراط المستقيم مما تتوفر الدواعي على نقل جمله وتفاصيله، فما نقل آحادًا ولم يتواتر يقطع بأنه

(١) رواه ابن أبي داود في كتاب المصاحف باب جمع عثمان المصاحف (٣٢-٣٣)، انظر: جمع القران. شرعي أبو زيد(١٨١).

(٢) المدخل إلى دراسة القرآن الكريم(٢٦٠).

ليس من القرآن قطعًا.

وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله، وليس بشرط في محل وضعه وترتيبه؛ بل يكثر فيها نقل الآحاد. قيل: وهو الذي يقتضيه صنع الشافعي في إثبات البسملة من كل سورة. ورُدَّ هذا المذهب بأن الدليل السابق يقتضي التواتر في الجميع، ولأنه لو لم يُشترط لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر، وثبوت كثير مما ليس بقرآن، أما الأول: فلأنا لو لم نشترط التواتر في المحل جاز أن لا يتواتر كثير من المكررات الواقعة في القرآن، مثل ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣) وأما الثاني: فلأنه إذا لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل جاز إثبات ذلك البعض في الموضع بنقل الآحاد[١].

وقال أبو بكر في الانتصار: ذهب قوم من الفقهاء والمتكلمين إلى إثبات قرآنٍ حكما لا علما بخبر الواحد دون الاستفاضة، وكره ذلك أهل الحق، وامتنعوا منه. وقال قوم من المتكلمين: إنه يسوغ إعمال الرأي والاجتهاد في إثبات قراءة، وأوجه، وأحرف، إذا كانت تلك الأوجه والأحرف صوابا في العربية، وإن لم يثبت أن النبي ﷺ قرأ بها، وأبى ذلك أهل الحق، وأنكروه، وخطئوا من قال به.

قال صاحب الانتصار ما نصه: إن كلام القنوت المروي أن أبي بن كعب أثبته في مصحفه لم تقم الحجة بأنه قرآن منزل؛ بل هو ضرب من الدعاء، وأنه لو كان قرآنا لنقل إلينا نقل القرآن وحصل العلم بصحته، ثم قال: ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآنا منزلا ثم نسخ وأبيح الدعاء به، وخلط بها ليس بقرآن، ولم يصح ذلك عنه؛ إنما روي عنه أنه أثبته في مصحفه، وقد أثبت في مصحفه ما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل، وهذا الدعاء هو القنوت الذي أخذ به السادة الحنفية. وبعضهم ذكر أن أُبيًّا رضي الله عنه كتبه في مصحفه وسماه سورة الخلع والحفد؛ لورود مادة هاتين الكلمتين فيه، وقد عرفت توجيه ذلك[٢].

---

(١) الإتقان للسيوطي ١/ ٢٠٨- ٢٠٩.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٨، المدخل على دراسة القرآن الكريم(٢٦٠).

الوجه الخامس: كل رواية أحادية تخالف المتواتر من القرآن لا تقبل، ويضرب بها عرض الحائط، وعلى فرض التسليم بأن أُبيًّا كان يرى أن القنوت من القرآن، وأنه استمر على ذلك الرأي، فليس ذلك بِمطعنٍ في صحة نقل القرآن، فإنه على هذا الفرض كان منفردًا بذلك الرأي، ويدل على ذلك عدم إثباته في مصحف أبي بكر، ولا في مصاحف عثمان، إذ كانت كتابة القرآن في عهد أبي بكر في غاية الدقة والالتزام، بحيث لم تقبل قراءة إلا بشاهدين، فلما كانت قراءته فردية لم تقبلْ، كما رُدَّت قراءة عمر في آية الرجم. فلو سلَّمنا أن أُبيًّا ظنَّ دعاء القنوت قرآنًا، فأثبته في مصحفه، فإن ذلك لا يطعن في تواتر القرآن؛ لأنه انفرد به، وقد حصل الإجماع على ما بين الدفتين وتواتره، فلا يضر بعد ذلك مخالفة من خالف[1].

الوجه السادس: **إنهما قد نسختا**.

قال الزركشي: النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب: الأول: ما نسخ في تلاوته وبقي حكمه فيعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول، ذكر الإمام المحدث أبو الحسين أحمد بن جعفر المنادي في كتابه الناسخ والمنسوخ مما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه: سورتا القنوت في الوتر. قال: ولا خلاف بين الماضين والغابرين أنهما مكتوبتان في المصاحف المنسوبة إلى أبي بن كعب، وأنه ذكر عن النبي ﷺ أنه أقرأه إياهما، وتسمى سورتي الخلع والحفد. وهنا سؤال وهو أن يقال: ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم؟ وهلا أبقيت التلاوة؛ ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وأجاب صاحب الفنون فقال: إنما كان كذلك؛ ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي[2].

الوجه السابع.

قال الزرقاني: والخلاصة أن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم في مصحف أو مصاحف خاصة بهم ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن مما يكون تأويلًا لبعض ما

(١) انظر جمع القران شرعي أبو زيد ١٨٦.
(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣٧.

غمض عليهم من معاني القرآن، أو مما يكون دعاء يجري مجرى أدعية القرآن في أنه يصح الإتيان به في الصلاة عند القنوت أو نحو ذلك، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن ولكن ندرة أدوات الكتابة وكونهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم هون عليهم ذلك؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره؛ فظن بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن مع أن الحقيقة ليست كذلك؛ إنما هي ما علمت. أضف إلى ذلك أن النبي أتى عليه حين من الدهر نهى عن كتابة غير القرآن؛ إذ يقول فيما يرويه مسلم: لا تكتبوا عني ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه. وذلك كله مخافة اللبس والخلط والاشتباه في القرآن الكريم[(١)].

الوجه الثامن: نقل عن أبي بن كعب قراءته التي رواها نافع وابن كثير وأبو عمرو، وغيرهم، وليس فيها سورتا الحفد والخلع، فلو سلَّمنا أن أُبيًّا كان يعتقد أن القنوت من القرآن، فقد ثبت أنه رجع إلى حرف الجماعة، واتفق معهم، والدليل على ذلك قراءته التي رواها نافع وابن كثير وأبو عمرو، وغيرهم، وليس فيها سورتا الحفد والخلع -كما هو معلوم، كما أن مصحفه كان موافقًا لمصحف الجماعة. قال أبو الحسن الأشعري: قد رأيت أنا مصحف أنسٍ بالبصرة، عند قوم من ولدِه، فوجدتُه مساويًا لمصحف الجماعة، وكان ولد أنسٍ يروي أنه خطُّ أنسٍ وإملاء أُبَيٍّ[(٢)].

الوجه التاسع: **قصور نظمه عن القرآن.**

يعلم أهل البلاغة والفصاحة، قصور نظمه عن القرآن فلعل أُبيًّا ﷺ إن كان قال ذلك أو كتبه في مصحفه أو رقاع كان يكتب فيها القرآن؛ إنما قاله وفعله سهوا، ثم أثبته واستدرك[(٣)].

الوجه العاشر: بالنظر في الروايات الواردة عن الصحابة والتابعين نرى أن بينها اختلافًا في بعض الألفاظ[(١)]، كما هو شأن رواة الأحاديث والآثار في استجازة الرواية بالمعنى، ولو كان

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٨.

(٢) انظر جمع القران شرعي أبو زيد (١٨٥).

(٣) تحفة الوفد بما ورد في سورتي الخلع والحفد صـ٣٠، وانظر: الانتصار للباقلاني ١/ ٢٧٣.

هذا قرآنا لاتفقت ألفاظه وحروفه في جميع الروايات، وحملة الأخبار أخبر بها من غيرهم، وأيضا تبويب العلماء اللذين خرجوا هذا الحديث قاطبة، منهم من وضعه في باب القنوت في الفجر أو في الوتر؛ كما هو في معظم الروايات السابقة، ومنهم من وضعه في باب المنسوخ من القرآن كما فعل الحازمي والزركشي والسيوطي وغيرهم؛ مما يدل على فهم هؤلاء العلماء ومعرفتهم لرتبة هذا الدعاء وهل هو من نصوص الكتاب أو السنة أم لا؟ ، وأما تسميتها بالسورتين فهذا باعتبار ما كان أي أنهما كانتا سورتين ثم نسختا.

الشبهة الثالثة: آية الرجم.

نص الشبهة: يقولون بعدم حفظ القرآن الكريم من خلال ما حدث في جمع القرآن، والدليل على ذلك هو سقوط آية الرجم (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)، فقد كانت موجودة، ويقرؤها الصحابة في سورة الأحزاب. فأين هي الآن؟! وهي تخالف في نصها الحكم الثابت في أن الرجم على الإحصان والآية رتبته على الشيخوخة. ثم إن عمر رضي الله عنه أراد أن يكتبها كآية في المصحف لولا خشية الناس، فهذا الذي منعه من كتابتها.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن القرآن محفوظ بحفظ الله عز وجل له دون سائر الكتب.

الوجه الثاني: آية الرجم مما نسخ تلاوته وبقي حكمه.

الوجه الثالث: بيان معنى قوله: (الشيخ والشيخة) وأن هذا لا ينافي الحكم الثابت بالإحصان، وبيان الحكمة من هذا اللفظ.

الوجه الرابع: بيان معنى قول عمر رضي الله عنه: لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللهِ لَكَتَبْتُهَا.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن القرآن محفوظ بحفظ الله عز وجل له دون سائر الكتب[2].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩)

---

(١) راجع على سبيل المثال كلام الحافظ ابن حجر على تخريج أثر عمر من طريق عبيد بن عمير. تلخيص الحبير ٢/ ٢٥.

(٢) راجع شبهة حول حديث الداجن في هذا الموسوعة ففيها تفصيل لمعنى الحفظ.

قال صديق حسن خان: ثم أنكر سبحانه على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم المذكور، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ الذي أنكروه ونسبوك بسببه إلى الجنون وهو القرآن، واعتقدوا أنه مختلق من عندك، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك، فالقرآن محفوظ من هذه الأشياء كلها، لا يقدر واحد من جميع الخلق من الإنس والجن أن يزيد فيه أو ينقص منه حرفًا واحدًا أو كلمة واحدة.

وهذا مختص بالكتاب العزيز، بخلاف سائر الكتب المنزلة، فإنه قد دخل على بعضها تلك الأشياء، ولما تولى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصونًا على الأبد، محروسًا من الزيادة والنقصان وغيرهما، وفيه دليل على أنه مُنزّل من عنده آية؛ إذ لو كان من البشر لتطرق إليه الزيادة والنقصان كما يتطرق إلى كل كلام سواه، وقيل: المعنى نزله محفوظًا من الشياطين، وقيل: حفظه بأن جعله معجزة باقية إلى آخر الدهر، وقيل: حفظه من المعارضة، فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارض ولو بأقصر آية.

وقيل: أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه، فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه إلى آخر الدهر؛ لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده، فلم يقدروا على ذلك بحمد الله، ومن أسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في أبواب إفساده وإبطاله وتحريفه وتصحيفه وزيادته ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان وأصول الحديث والفقه والتفسير، وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشأن.

وعن عياض عن النبي ﷺعن ربه تعالى: وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ[1] [1].

---

(١) مسلم (٢٨٦٥)، من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا. . . أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ.

قال النووي: أَمَّا قَوْله تَعَالَى: (لَا يَغْسِلهُ الْمَاء) فَمَعْنَاهُ: مَحْفُوظ فِي الصُّدُور، لَا يَتَطَرَّق إِلَيْهِ الذَّهَاب، بَلْ يَبْقَى عَلَى مَرّ الْأَزْمَان. وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: (تَقْرَأهُ نَائِمًا وَيَقْظَان) فَقَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ يَكُون مَحْفُوظًا لَك فِي حَالَتَيْ النَّوْم وَالْيَقَظَة، وَقِيلَ: تَقْرَأهُ فِي يُسْر وَسُهُولَة. شرح النووي٩/ ٢١٧.

فإن الله سبحانه لم يحفظ كتابًا من الكتب كذلك؛ بل استحفظها ﷻ الربانيين والأحبار فوقع فيها ما وقع، وتولى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظًا أولًا وآخرًا، فقد أنزل الله ﷻ القرآن على قلب النبي ﷺ، وتكفل الله بجمعه في قلب النبي ﷺ وعدم نسيانه إياه، وأرشده إلى عدم الاستعجال في هذا الأمر، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة١٩ : ١٦).

قال ابن كثير: هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[٢].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ فَكَانَ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْهُ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ أَخْذَهُ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ فَتَقْرَؤُهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ[٣].

وتكفل الله بعدم نسيانه إياه، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى٦: ٧)، والمعنى: سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه إلا ما شاء الله، ومعنى الاستثناء في هذا الموضع على النسيان، ومعنى الكلام: فلا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه وتذكره، وهذا ما نسخه الله من القرآن، فرفع حكمه وتلاوته، وقيل: النسيان في هذا

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ٧/ ١٤٨: ١٤٩.

(٢) تفسير ابن كثير١٤/ ١٩٦.

(٣) البخاري(٤٩٢٩)، مسلم(٤٤٨) واللفظ له.

الموضع الترك، والمعنى: سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما ننسخه.

قال الطبري: والقول الذي هو أولى بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن ذلك أظهر معانيه[١].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ للنبي ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِى مُحَمَّدٌ إِلاَّ مَا كَتَبْتُ لَهُ، فَأَمَاتَهُ الله فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقُوهُ. فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ. فَحَفَرُوا لَهُ، وَأَعْمَقُوا لَهُ فِى الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ[٢].

الوجه الثاني: آية الرجم مما نسخ تلاوته وبقى حكمه.

أولًا: إثباتها آية قبل النسخ.

(والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم)[٣].

---

(١) تفسير الطبري١٥/ ١٥٤، تفسير القرطبي٢٠/ ٢٢.

(٢) البخاري (٣٦١٧)، مسلم (٢٧٨١).

(٣) جاءت عن غير واحد من الصحابة:

أ- عمر بن الخطاب.

أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه٥/ ٢٣٩، وأخرجه البخاري (٦٨٢٩)، ومسلم (١٦٩١) ولم يسق لفظه، وابن ماجه(٢٥٥٣)، وأخرجه النسائي في الكبرى(٧١٥٦)، وأبو عوانة في مستخرجه(٦٠٥٩)، وابن الجارود في المنتقى (٨١٢)، كلهم من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس عن عمر به، غير أن البخاري لم يذكر هذه اللفظة، ولعله حذفها عمدًا كما قال الحافظ في الفتح.

وقد خالف سفيان في هذا الحديث جماعة ولم يذكروا هذه اللفظة كآية، منهم:

١ -**معمر بن راشد**: أخرجه البخاري(٧٣٢٣)، وعبد الرزاق في مصنفه(١٣٣٢٩)، والحميدي في مسنده (٢٥).

٢- **يونس**: أخرجه أبو عوانة في مستخرجه(٥٠٥٨)، مسلم(١٦٩١)، البيهقي٨/ ٢١١.
٣- **مالك بن أنس**: أخرجه الشافعي في الأم٥/ ١٥٤، مسند أحمد١/ ٤٠، الدارمي في سننه (٢٣٢٢)، النسائي في الكبرى(٧١٥٧)، ابن عبد البر في التمهيد٢٣/ ٩٥، الطحاوي في مشكل الآثار ٣/ ٢.
٤- **صالح بن كيسان**: البخاري(٦٨٣٠)، أبو عوانة في مستخرجه(٥٠٦١)، الطحاوي في مشكل الآثار٣/ ٣.
٥- **عبيد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم**: النسائي في الكبرى(٧١٥٩).
٦- **هشيم**: أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٩١)، أبو داود(٤٤١٨).
٧- **سعد بن إبراهيم**: أخرجه النسائي في الكبرى(٧١٥٣).
وغيرهم من الحفاظ، فلم يذكروا نص الآية، وهذا مما جعل النسائي يقول: لا أعلم أن أحدًا ذكر في هذا الحديث الشيخ والشيخة فارجموهما البتة غير سفيان، وينبغي أنه وهم والله أعلم. (سنن النسائي٤/ ٢٧٣).
قلنا: وقد جاء هذا الحديث عن عمر من رواية سعيد بن المسيب عنه بهذه الزيادة.
أخرجها مالك في الموطأ باب ما جاء في الرجم، وأحمد في مسنده١/ ٤٣، وابن سعد في الطبقات الكبرى٣/ ٣٣٤، من طريق يزيد بن هارون، وأخرجه أحمد ١/ ٣٦ من طريق يحيى القطان، كلهم عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن ابن المسيب به.
وهذا إسناد صحيح على خلاف في سماع سعيد من عمر، فهو شاهد للزيادة التي تفرد بها ابن عيينة، كما قال الألباني في السلسلة الصحيحة٦/ ٩٧٤، وهذه الزيادة لها شواهد أخرى غير ذلك منها:
ب- عن زيد بن ثابت:
أخرجه الدارمي في سننه(٢٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (٧١٤٥)، وأحمد في مسنده ٥/ ١٨٣، وابن قانع في معجمه ١/ ٢٢٩، والحاكم في مستدركه٤/ ٣٦٠، والبيهقي في سننه ٨/ ٢١١، كلهم من طرق عن شعبة، عن قتادة، عن يونس بن جبير، عن كثير بن الصلت، عن زيد بن ثابت. وإسناده صحيح.
ج- عن أبيّ بن كعب:
أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(١٣٣٦٣)، وأحمد بن منيع كما في إتحاف الخيرة(٧٧٩١)، والطبراني في الأوسط(٤٣٥٢)، والنسائي في الكبرى(٧١٥٠)، والحاكم ٤/ ٣٥٩، ابن حبان في صحيحه(٤٤٢٨)، والبيهقي في سننه ٨/ ٢١١، والطيالسي في مسنده (٥٤٠)، وعبد الله في زوائده على المسند٥/ ١٣٢، كلهم من طرق عن عاصم بن بهدلة. وأخرجه أيضًا من طريق يزيد بن أبي زياد، كلاهما (عاصم، يزيد) عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأين تقرؤن سورة الأحزاب؟ قال: قلت: إما ثلاث وسبعين، وإما أربعًا وسبعين، قال: أقط؟ إن كانت لتقارب سورة البقرة، أو لهي أطول منها، وإن كانت فيها آية الرجم، قال: قلت: أبا المنذر! وما آية الرجم؟ قال: " إذا زنيا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله، والله عزيز حكيم ". وإسناده حسن.

ثانيًا: إثبات أنها مما نسخ تلاوته وبقى حكمه.

النسخ الواقع في القرآن يتنوع إلى أنوع ثلاثة: نسخ التلاوة والحكم معا، ونسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم. وآية الرجم مما نسخ تلاوته وبقى حكمه، ولذا نجد أن معظم من تكلم في الناسخ والمنسوخ يذكر آية الرجم في هذا الباب[١].

قال البيهقي: إن آية الرجم حكمها ثابت وتلاوتها منسوخة وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا[٢].

قال الشنقيطي: فآية الرجم المقصود منها إثبات حكمها، لا التعبد بها، ولا تلاوتها، فأنزلت وقرأها الناس، وفهموا منها حكم الرجم، فلما تقرر ذلك في نفوسهم نسخ الله تلاوتها، والتعبد بها، وأبقى حكمها الذي هو المقصود[٣].

الوجه الثالث: بيان معنى قوله: (الشيخ والشيخة) وأن هذا لا ينافي الحكم الثابت بالإحصان، وبيان الحكمة من هذا اللفظ.

د- من حديث العجماء خالة أبي أمامة:

أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن(١٩١)، والنسائي في الكبرى(٧١٤٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٣٤٤)، من طريق الليث، عن خالد بن يزيد. والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٩، ، والطبراني في الكبير٢٥/ ١٨٥ من طريق عبد الله بن وهب، عن الليث بن سعد. كلاهما (خالد، الليث) عن سعيد بن أبي هلال، عن مروان بن عثمان، عن أبي أمامة، عن خالته (العجماء) قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺآية الرجم: " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة".

وإسناده ضعيف. فيه مروان بن عثمان وهو ضعيف (التقريب٢/ ٥٧٧).

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي (١١٠)، الناسخ والمنسوخ للنحاس ١/ ٤٣٤، قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن للكرمي ١/ ٢٥، الناسخ والمنسوخ لابن سلامة١/ ٢٢، الفقيه والمتفقه(١/ ٢٤٥: ٢٤٨)، روضة الناظر (١/ ٢٣٠)، شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٢٨٥)، البرهان في أصول الفقه(١/ ٢٥٦)، التمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٧٥: ٢٧٧)، شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٥٣: ٥٥٨)، الأحكام للآمدي (٣/ ١٢٨)ومابعدها، البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٥: ٤٠)، فتح الباري لابن حجر ١٢/ ١٥٣ معالم أصول الفقه(٢٥٨)، مناهل العرفان (٢/ ١٧٧: ١٧٩).

(٢) سنن البيهقي الكبرى ٨/ ٢١١.

(٣) أضواء البيان٦/ ١٢.

قوله: (الشيخ والشيخة) عام أريد به الخاص، وهو المحصن من الشيوخ، وإلى هذا أشار جماعة من السلف.

قال الإمام مالك: قوله: (الشيخ والشيخة) يعني: الثيب والثيبة. [١]

قال ابن حزم: معناه المحصن والمحصنة. [٢]

ولذا قال ابن حجر: السَّبَب فِي نَسْخ تِلَاوَتهَا لِكَوْنِ الْعَمَل عَلَى غَيْر الظَّاهِر مِنْ عُمُومهَا[٣].

قال ابن الحاجب في أماليه -وقد سئل: ما الفائدة في ذكر الشيخ والشيخة؟ وهلا قيل المحصن والمحصنة؟

هذا من البديع في باب المبالغة أن يعبر عن الجنس في باب الذم بالأنقص الأخس، وفي باب المدح بالأكثر والأعلى. فيقال: لعن الله السارق يسرق ربع دينار فيقطع يده. والمراد يسرق ربع دينار فصاعدا إلى أعلى ما يسرق، وقد يبالغ فيذكر ما لا يقطع به تقليلا كما في الحديث "**لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ**"[٤].

وقد علم أنه لا يقطع بالبيضة. [٥]

الوجه الرابع: بيان معنى قول عمر ﷺ لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللهِ لَكَتَبْتُهَا.

١ - هذه الزيادة كحاشية توضيحية.

قال الماوردي: وَلَوْلَا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عَمَرُ فِي الْقُرْآنِ لَكَتَبْتُهَا فِي حَاشِيَةِ الْمُصْحَفِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْمَتْلُوِّ لَكَتَبْتُهَا مَعَ الْمَرْسُومِ الْمَتْلُوِّ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِكتابَتِهَا فِي الْحَاشِيَةِ، لِئَلَّا يَنْسَاهَا النَّاسُ، ثُمَّ لَمْ يَفْعَلْ لِئَلَّا تَصِيرَ مَتْلُوَّة[١].

---

(١) مالك كتاب الحدود باب ما جاء في الرجم.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ١/ ٩.

(٣) فتح الباري ١٢/ ١٤٨.

(٤) البخاري (٦٧٨٣) عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ.

(٥) شرح سنن ابن ماجه ١/ ١٨٤ للسيوطي وآخرين.

ويؤيد ذلك أنه قال: (ولولا أني أكره أن أزيد في القرآن لكتبت في آخر ورقة أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجم أبو بكر وأنا رجمت)[٢].

٢- أَنَّ مُرَادَهُ كَانَ إِشَاعَتَهُ وَإِظْهَارَهُ لِيَسْتَفِيضَ نَقْلُهُ لَا أَنَّهُ مِنْ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ سَيَجِيءُ قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: سَيَجِيءُ قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِالرَّجْمِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إلَّا بِطَرِيقِ الْوَحْيِ.[٣]

ولذا قال عمر ﷺ: فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله.[٤]

الشبهة الرابعة: آيتي التوبة والأحزاب.

نص الشبهة:

يقولون بأن جمع زيد للقرآن كان ناقصًا ولم يكن تامًا، والدليل على ذلك وجود آيات لم تكن إلا مع خزيمة بن ثابت أتى بآخر سورة براءة في عهد أبي بكر الصديق، وأتى بآية في سورة الأحزاب في عهد عثمان، وكيف كانت الآيات مفقودة حتى كان عهد عثمان والكاتب واحد؟ وكيف يكون صحابيًا واحدًا عنده الآية في الموضعين، وكيف يأخذ بقوله، وهذا يدل على أخذهم القرآن بخبر الواحد، وهل كانت الآية مع خزيمة أو مع الحارث بن خزيمة، وكيف تكون آية الأحزاب مفقودة منذ جمع أبي بكر؟.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الذي وُجد معه آخر التوبة بخلاف الذي وُجد معه آية الأحزاب.

(١) الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١١/ ٣٦٣.

(٢) الحلية لأبي نعيم ٢/ ١٧٤من طريق عبد الوهاب بن عطاء، قال: ثنا داود بن أبي هند، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب به.

(٣) الفصول في الأصول للجصاص ٢/ ٢٥٨.

(٤) البخاري (٦٨٢٩)، مسلم (١٦٩١).

الوجه الثاني: بيان معنى قوله، لم أجدها مع أحد غيره.

الوجه الثالث: هذا لا يعني أنه أخذ القرآن بخبر الواحد.

الوجه الرابع: الرد على بعض الاعتراضات في ذلك.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الذي وُجد معه آخر التوبة بخلاف الذي وُجد معه آية الأحزاب

قال القرطبي: وأن أبا خزيمة[١] الذي وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار، وقد عرفه أنس وقال: نحن ورثناه، والتي في الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت[٢] فلا تعارض، والقضية غير القضية لا إشكال فيها ولا التباس.[٣]

قال ابن حجر: ومراده- البخاري - أن أصحاب إبراهيم بن سعد اختلفوا فقال بعضهم مع أبي خزيمة، وقال بعضهم: مع خزيمة، وشك بعضهم. والتحقيق ما قدمناه عن موسى بن إسماعيل أن آية التوبة مع أبي خزيمة وآية الأحزاب مع خزيمة[٤].

وقال أيضًا: وأن الذي وجد معه آخر سورة التوبة غير الذي وجد معه الآية التي في الأحزاب فالأول اختلف الرواة فيه على الزهري: فمن قائل مع خزيمة، ومن قائل مع أبي خزيمة، ومن شاك فيه يقول: خزيمة أو أبي خزيمة. والأرجح أن الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة بالكنية، والذي وجد معه الآية من الأحزاب خزيمة.[٥]

---

(١) أبو خزيمة قيل: هو بن أوس بن يزيد بن أصرم مشهور بكنيته دون اسمه، وقيل هو الحارث بن خزيمة. الاستيعاب ١/ ٣٥٢، ٤/ ٢٠٥، أسد الغابة ١/ ٤٤٣.

(٢) خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمي الأنصاري من بني خطمة من الأوس، يعرف بذي الشهادتين جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين، يكنى أبا عمارة شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد وكانت راية خطمة بيده يوم الفتح، وكان مع علي ﷺ بصفين، فلما قتل عمار جرد سيفه فقاتل حتى قتل وكانت صفين سنة سبع وثلاثين. الاستيعاب في معرفة الأصحاب٢/ ٣٠، تهذيب الكمال للمزي ٨/ ٢٤٣، أسد الغابة ١/ ٦٩٦، الإصابة لابن حجر ٢/ ٢٧٨.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٧٣.

(٤) فتح الباري ٨/ ١٩٦.

(٥) المصدر السابق ٨/ ٦٣١.

الوجه الثاني: بيان معنى قوله، لم أجدها مع أحد غيره.

أي: مكتوبة. لما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة. (١)

وقال الزركشي: فأما قوله وجدت آخر براءة مع خزيمة بن ثابت ولم أجدها مع غيره، يعني: ممن كانوا في طبقة خزيمة ممن لم يجمع القرآن، وأما أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل فبغير شك جمعوا القرآن. (٢)

الوجه الثالث: هذا لا يعني أنه أخذ القرآن بخبر الواحد.

ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبي ﷺ، وإنما كان زيد يطلب التثبت عمن تلقاها بغير واسطة، ولعلهم لما وجدها زيد عند أبي خزيمة تذكروها كما تذكرها زيد، وفائدة التتبع المبالغة في الاستظهار، والوقوف عندما كتب بين يدي النبي ﷺ.

وخزيمة ﷺ لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما، ولذلك قال: فقدت آيتين من آخر سورة التوبة، ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئًا أولا،؟ فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده. (٣)

قال الزرقاني: إن كلام زيد بن ثابت هذا - لم أجدها مع أحد غيره - لا يبطل التواتر، وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة لم تثبت قرآنيتهما بقول أبي خزيمة وحده؛ بل ثبتت بأخبار كثرة غامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم.

ومعنى قول زيد: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره؛ أنه لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي خزيمة، فالذي انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما لا حفظهما، وليس الكتابة شرطا في المتواتر؛ بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، ولو لم يكتبه واحد منهم فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثقا واحتياطا فوق ما يطلبه التواتر ويقتضيه فكيف نقدح في التواتر بانفراده بها؟

---

(١) التوضيح شرح الجامع الصحيح ٢٢/ ٤٤٣، ١٧/ ٣٨٣، فتح الباري ٨/ ٣٧٨، الإتقان للسيوطي ١/ ١٦٧.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣٩.

(٣) التوضيح شرح الجامع الصحيح ٢٢/ ٤٤١، تفسير القرطبي ١/ ٧٣، فتح الباري ٨/ ٦٣١، البرهان للزركشي ١/ ٢٣٤.

ويدل على أن هذا هو المعنى الذي أراده زيد بعبارته تلك قول زيد نفسه: فقدت آية من سورة الأحزاب. . إلخ، فإن تعبيره بلفظ فقدت يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية، وأنها كانت معروفة له غير أنه فقد مكتوبها فلم يجده إلا مع خزيمة، وإلا فمن الذي أنبأ زيدًا أنه فقد آية.

وقال أيضًا: إن كلام زيد فيما مضى من ختام التوبة وآية الأحزاب لا يدل على عدم تواترهما حتى على فرض أنه يريد انفراد أبي خزيمة وخزيمة بذكرهما من حفظهما، غاية ما يدل عليه كلامه أنهما انفردا بذكرهما ابتداء ثم تذكر الصحابة ما ذكراه، وكان هؤلاء الصحابة جمعا يؤمن تواطؤهم على الكذب، فدونت تلك الآيات في الصحف والمصحف بعد قيام هذا التواتر فيها(١).

الوجه الرابع: الرد على بعض الاعتراضات في ذلك.

الرد على قولهم: أنهم لا يعرفون هل آية التوبة كانت مع أبي خزيمة أم مع الحارث بن خزمة؟

الوجه الأول: الأثر لا يصح فكيف يستدل به؟

عن عباد بن عبد الله بن الزبير قَالَ: أَتَى الْحَارِثُ بْنُ خَزْمَةَ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ بَرَاءَةَ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: مَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: لاَ أَدْرِى، وَالله إني أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهَا مِنْ رَسولِ الله ﷺ وَوَعَيْتُهَا وَحَفِظْتُهَا. فَقَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ لَوْ كَانَتْ ثَلاَثَ آيَاتٍ لَجَعَلْتُهَا سُورَةً عَلَى حِدَةٍ فَانْظُرُوا سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَضَعُوهَا فِيهَا، فَوَضَعْتُهَا فِي آخِرِ بَرَاءَةَ.(٢)

قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف لانقطاعه. عباد بن عبد الله بن الزبير: ثقة كما قلنا، ولكنه لم يدرك قصة جمع القرآن؛ بل ما أظنه أدرك الحارث بن خزمة، ولئن أدركه لما

---

(١) مناهل العرفان١/ ١٩٨: ١٩٩.

(٢) **ضعيف**. أخرجه أحمد في مسنده ١/ ١٩٩، وابن أبي داود في المصاحف (٩٦) محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير به.

فيه محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، وعباد بن عبد الله لم يدرك قصة الجمع. وهذا الأثر ضعفه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٧١٥).

كان ذلك مصححًا للحديث إذ لم يروه عنه؛ بل أرسل القصة إرسالًا، وقال ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة الحارث هذا: وقد ذكر ابن منده أن الحارث بن خزمة هو الذي جاء إلى عمر بن الخطاب ﷺبالآيتين خاتمة سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة؛ وهذا عندي فيه نظر.

وأما حديث عباد بن عبد الله بن الزبير الذي هنا فإنه حديث منكر شاذ مخالف للمتواتر المعلوم من الدين بالضرورة: أن القرآن بلَّغه النبيﷺ لأمته سورًا معروفة مفصلة، يفصل بين كل سورتين منها البسملة إلا في أول براءة، ليس لعمر ولا لغيره أن يرتب فيه شيئًا، ولا أن يضع آية مكان آية، ولا أن يجمع آيات وحدها فيجعلها سورة، ومعاذ الله أن يجول بشيء من هذا في خاطر عمر.

ثم قال: فهذا الحديث ضعيف الإسناد منكر المتن. [١]

الوجه الثاني: آية التوبة كانت مع أبي خزيمة ولم تكن مع الحارث بن خزيمة.

وهذا ما قاله القرطبي وابن حجر، والأرجح أن الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة بالكنية[٢].

الوجه الثالث: وعلى فرض صحة الأثر.

قال ابن حجر: فهذا إن كان محفوظًا احتمل أن يكون قول زيد بن ثابت: وجدتها مع أبي خزيمة لم أجدها مع غيره. أي: أول ما كتبت ثم جاء الحارث بن خزيمة[٣] بعد ذلك. أو أن أبا خزيمة هو الحارث بن خزيمة لا ابن أوس. [٤]

الرد على قولهم: أن آية الأحزاب كان فقدها في جمع أبي بكر.

---

(١) مسند أحمد ٣/ ١٦٣: ١٦٤.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٧٣، فتح الباري ٨/ ١٩٦، ٨/ ٦٣١.

(٣) الصحيح أنه الحارث بن خزمة، وليس خزيمة كما ذكر ذلك الحافظ.

(٤) فتح الباري ٨/ ٦٣٢.

الوجه الأول: أن ما استندوا إليه مخالف لما في الصحيح الثابت.

قال ابن حجر: وَظَاهِر حَدِيث زَيْد بْن ثَابِت هَذَا أَنَّهُ فَقَدَ آيَة الْأَحْزَاب مِنْ الصُّحُف الَّتِي كَانَ نَسَخَهَا فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر حَتَّى وَجَدَهَا مَعَ خُزَيْمَةَ بْن ثَابِت.

وَوَقَعَ فِي رِوَايَة إِبْرَاهِيم بْن إِسْمَاعِيل بْن مُجَمِّع عَنْ اِبْن شِهَاب أَنَّ فَقْده إِيَّاهَا إِنَّمَا كَانَ فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر، وَهُوَ وَهْم مِنْهُ، وَالصَّحِيح مَا فِي الصَّحِيح وَأَنَّ الَّذِي فَقَدَهُ فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر الْآيَتَانِ مِنْ آخِر بَرَاءَة، وَأَمَّا الَّتِي فِي الْأَحْزَاب فَفَقَدَهَا لَمَّا كَتَبَ الْمُصْحَف فِي خِلَافَة عُثْمَان، وَجَزَمَ اِبْن كَثِير بِمَا وَقَعَ فِي رِوَايَة اِبْن مُجَمِّع(١)، وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَم. (٢)

قال ابن الملقن: آية التوبة وجدها أيام الصديق، وأن آية الأحزاب وجدها أيام عثمان كما صرح به أحمد بن خالد في مسنده وغيره. (٣)

قال القرطبي: فسقطت الآية الأولى من آخر " براءة " في الجمع الأول، على ما قاله البخاري والترمذي، وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة " الأحزاب ".

وحكى الطبري: أن آية براءة سقطت في الجمع الأخير، والأول أصح والله أعلم. (٤)

الوجه الثاني: الحديث فيه ما يدل على أنها كانت في جمع عثمان.

ومما يدل على أن فقدها كان في جمع عثمان قوله في الحديث: قَالَ نَسَخْتُ الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، فَفَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الأَحْزَابِ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا. (٥)

وأيام الصديق ﷺ لم تكن صحف مجموعة؛ إنما كانت في خلافة عثمان ﷺ.

ثم طول العهد بين جمع الصديق وجمع عثمان وفي هذه المدة كانت الصحف تنقل من

---

(١) قال ابن كثير: وأما ما رواه الزهري عن خارجة عن أبيه في شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها في سورتها فذكره لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر. وإنما هذا كان حال جمع الصديق الصحف. فضائل القرآن (٥٠).

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٣٨.

(٣) التوضيح شرح الجامع الصحيح ٢٢/ ٤٣٧، فتح الباري ٨/ ٦٣٨.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٦٩.

(٥) البخاري (٢٨٠٧).

مكان لآخر كما قال زيد: فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِى بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ الله ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ ﷺ. إلى أن جمعه عثمان حين قدم حذيفة بن اليمان عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِى أَهْلَ الشَّأْمِ فِى فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ فِى الْقِرَاءَةِ؛ فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِى الْكِتَابِ اخْتِلاَفَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِى إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِى الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ. فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِى الْمَصَاحِفِ(١).

الشبهة الخامسة: شبهة لو أن لابن آدم واديًا.

نص الشبهة

يقولون بعدم حفظ القرآن؛ والدليل على ذلك اعتراف الصحابة بأنهم كانوا يحفظون آيات ولا توجد الآن في المصحف، ومثال لذلك قول أبي موسى الأشعري: وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا في الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّى قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا (لَوْ كَانَ لاِبْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ). ومن ثم فأين هي الآن؟ ولذلك اختلف الصحابة هل هي من القرآن أم من الحديث النبوي أو القدسي؟

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: اختلاف أهل العلم في قوله: (لو أن لابن آدم) هل هو حديث نبوي، أو حديث قدسي، أو قرآن منسوخ التلاوة؟.

الوجه الثاني: مع كونه قرآنًا فهذا مما نسخ تلاوته وبقي حكمه.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: اختلاف أهل العلم في قوله: (لو أن لابن آدم) هل هو حديث نبوي، أو حديث قدسي، أو قرآن منسوخ التلاوة؟

القول الأول: بأنه حديث نبوي:

ويستدلون بالآتي:

(١) البخاري (٤٩٨٧).

١ - الأحاديث الواردة بإخبار الصحابة أنهم سمعوه من قول النبي ﷺ.

عَنْ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى الْمِنْبَرِ بِمَكَّةَ فِي خُطْبَتِهِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ النبي ﷺ كَانَ يَقُولُ: **"لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلاَ يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ"**(١).

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"لو أن لابن آدم واديان من مال لتمنى إليهما الثالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب"**(٢).

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ مَالٍ لَتَمَنَّى وَادِيَيْنِ وَلَوْ أَنَّ لَهُ وَادِيَيْنِ لَتَمَنَّى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ"**(٣).

٢ - الأحاديث الواردة بإخبار الصحابة أنهم لا يدرون أهي من القرآن أم لا؟

عن ابن عباس قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ **"لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ مِثْلَ وَادٍ مَالًا لأَحَبَّ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلَهُ، وَلاَ يَمْلأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ"**. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلاَ أَدْرِى مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ أَمْ لاَ(٤).

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ"**.

في لفظ عند مسلم. "فَلاَ أَدْرِى أَشيء أُنْزِلَ أَمْ شيء كَانَ يَقُولُهُ"(٥).

٣- حديث أُبيّ أنه قَالَ: كُنَّا نرى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. (١)

---

(١) البخاري (٦٤٣٨).

(٢) صحيح. أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٤٧٣) قال: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، قال: نا حامد ابن يحيى، قال: نا سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن سعد به.

(٣) حسن. أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٣٤٠، ٣٤١، وابن حبان في صحيحه (٣٢٣٤) من طريق أبي الزبير، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٢٣٢)، والبزار في كشف الأستار (٣٦٣٦)، وأبو يعلى في مسنده (١٦٩٤)من طريق أبي سفيان (طلحة بن نافع). جميعا عن جابر به.

(٤) البخاري (٦٤٣٧)، مسلم (١٠٤٩).

(٥) مسلم (١٠٤٨).

قوله نرى: بضم النون أي نظن[٢]. والقرآن لا يثبت بالظن، وإنما يثبت بالتواتر.

القول الثاني: أنه من القرآن الذي كان يتلى.

ويستدلون بالآتي:

١- حديث أبي بن كعب. وقد جاء عنه من طريقين:

الطريق الأول:

عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **إِنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ وَقَرَأَ عَلَيْهِ: إِنَّ دَأْبَ الدِّينِ عِنْدَ اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ لاَ الْمُشْرِكَةُ وَلاَ الْيَهُودِيَّةُ وَلاَ النَّصْرَانِيَّةُ، وَمَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرُوهُ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ لاَبْتَغَى إِلَيْهِ ثَانِيًا وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا لاَبْتَغَى إِلَيْهِ ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**[٣].

الطريق الثاني:

عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى عمر يسأله فجعل ينظر إلى رأسه مرة وإلى رجليه أخرى لما يرى به من البؤس. فقال له عمر: كم مالك؟ قال: أربعون من الإبل. قال: فقال ابن عباس، فقلت: صدق الله ورسوله (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما الثالث ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب) قال: فقال لي عمر: ما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٠) قال: وقال لنا أبو الوليد، وأخرجه الطبري في تفسيره ٣٠/ ٢٧٤، والطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٤٢٠ من طريق ابن أبي داود.

(٢) فتح الباري ١١/ ٢٦٢.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٥٣٩)، ومن طريقه الترمذي (٣٧٩٣)، وأخرجه أحمد ٥/ ١٣١، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢١٤ كلهم من طريق شعبة.

وأخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب الأمثال في الحديث النبوي (٧٩) من طريق ثابت.

كلاهما (شعبة، ثابت)عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش به.

قال ابن حجر: إسناده جيد. فتح الباري ١١/ ٢٦٢. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة(٢٩٠٨).

تقول؟ قال: قلت: هكذا أقرأنيها أبي بن كعب. قال: فقم بنا إليه. قال: فأتاه فقال: ما يقول هذا؟ قال أبي: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ(١).

٣- عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: لَقَدْ كُنَّا نَقْرَأُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ: "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ لابْتَغَى إِلَيْهِمَا آخَرَ وَلاَ يَمْلأُ بَطْنَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَاب"(٢).

٤- عَنْ أَبِى حَرْبِ بْنِ أَبِى الأَسْوَدِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ إِلَى قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلاَثُمِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَقَالَ أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ فَاتْلُوهُ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّى قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ. . .)(٣).

٥- عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْت النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ: "لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ لَتَمَنَّى وَادِيًا ثَانِيًا وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا لَتَمَنَّى وَادِيًا ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ"(٤).

القول الثالث: أنه حديث قدسي.

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ١١٧، وابن حبان في صحيحه (٣٢٣٧) جميعًا عن أبي معاوية، عن أبي إسحاق الشيباني، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس به. صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٠٩).

(٢) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٣٦٨، وابن حبان في صحيحه (٥٠٣٢)، والبزار في كشف الأستار (٣٦٣٩) من طرق عن يوسف بن صهيب، عن حبيب بن يسار، عن زيد بن أرقم به. وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩١٠).

(٣) مسلم (١٠٥٠).

(٤) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٤١٩، والبزار في كشف الأستار(٣٦٣٤) من طريق عن عبد العزيز بن مسلم: حدثنا صبيح أبو العلاء عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: فذكره. وجود إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩١١).

وهؤلاء جمعوا بين القولين (الأول والثاني)أخذوا بحجج القول الأول على أنه ليس من القرآن؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر.

وأجابوا عن القول الثاني (الذي يقول بأنه من القرآن) بأنه يحتمل أن يكون النبي ﷺ أخبر به عن الله تعالى على أنه من القرآن، ويحتمل أن يكون من الأحاديث القدسية(١).

والراجح من هذه الأقوال

هو القول الثاني الذي يقول بأنه من القرآن الذي كان يتلى. ويدل على ذلك ما تقدم من قول أبي سعيد الخدري لقراء البصرة (إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً)، ولحديث بريدة (سَمِعْت النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ) ولغيرها.

وأما عن قول أبي: كُنَّا نرى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

فالجواب عليه من هذه الوجوه:

الأول: قوله نرى: بفتح النون أي: نعتقد(٢).

وهذا ما صوبه الألباني فقال: بل الصواب الذي لا يجوز سواه لما سيأتي عنه وعن غيره من الصحابة الجزم به. ولا ينافيه قوله: حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، لأنه يعني: فنسخت هذه تلك. (٣)

الثاني: ما صح عنه من طريقين (ابن عباس، زر) تقدم ذكرهما من أنها من القرآن.

الثالث: على قراءة نُرى بضم النون أي نظن؛ فهذا احتمال ولم يستفصل فبقي الكلام على الأصل وأنه من القرآن.

قال ابن حجر: أنه يحتمل أن يكون أبي لما قرأ عليه النبي ﷺ لم يكن، وكان هذا الكلام في آخر ما ذكره النبي ﷺ احتمل عنده أن يكون بقية السورة، واحتمل أن يكون من كلام

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٦٣ بتصرف.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٢٦٢.

(٣) السلسلة الصحيحة ٦/ ٩٦٣.

النبي ﷺ ولم يتهيأ له أن يستفصل النبي ﷺ عن ذلك حتى نزلت ألهاكم التكاثر فلم ينتف الاحتمال. (١)

وأما عن قول ابن عباس ﷺ: (فَلاَ أَدْرِى مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ أَمْ لاَ) ومثله عن أنس ﷺ.

قال الألباني: ولا يخفى على البصير أن القولين لا يدلان على شيء مما سبقت الإشارة إليه (القول بأنه حديث نبوي أو قدسي)؛ لأنه اعتراف صريح بعدم العلم، ولكنه مع ذلك فيه إشعار قوي بأنه كان من المعلوم لدى الصحابة أن هناك شيئًا من القرآن رفع ونسخ، ولذلك لم يكتب في المصحف المحفوظ. (٢)

وأما عن قولهم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وهذا ظن.

فالجواب عليه، نعم القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وهذا في حق القرآن المثبت بين دفتي المصحف الآن.

قال الألباني -ردًّا على من يعترض بشرط التواتر-:

ومن الواضح أنه لا يفرق بين القرآن المثبت بين الدفتين الذي يشترط فيه التواتر الذي ذكر، وبين منسوخ التلاوة كهذا الذي نحن في صدد الكلام حوله؛ بل حكمه حكم الأحاديث النبوية

والأحاديث القدسية، فإنه لا يشترط فيها التواتر، وإن كان فيها ما هو متواتر. (٣)

الوجه الثاني: مع كونه من القرآن فهذا مما نسخ تلاوته وبقي حكمه.

قال ابن حجر: فهو مما نسخت تلاوته جزما وإن كان حكمه مستمرًا. (٤)

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٨)

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٦٢.

(٢) السلسلة الصحيحة ٦/ ٩٦٢.

(٣) السلسلة الصحيحة ٦/ ٩٧٠.

(٤) فتح الباري ١١/ ٢٦٣، وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٣٥، السلسلة الصحيحة للألباني ٦/ ٩٧١.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي: وإنه لحب الخير -وهو: المال- لشديد. وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال.

والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال. وكلاهما صحيح(١).

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ"**(٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **"قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ طُولُ الْحَيَاةِ وَحُبُّ الْمَالِ"**(٣).

قلنا: فدلت هذه الأدلة -وغيرها كثير- على أن الآية مما نسخ تلاوته وبقي حكمه. وهذا خلاف ممن قال بنسخ التلاوة والحكم. (٤)

الشبهة السادسة: محو ابن مسعود المعوذتين، والفاتحة من المصحف.

نص الشبهة:

يقولون كان عبد الله بن مسعود يحك المعوذتين من مصاحفه، ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله تبارك وتعالى. ويزعمون بذلك القدح في المصاحف والتواتر.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ثبت عن النبي ﷺ أنهما من القرآن الذي نزل عليه، وكان يقرأ بهما في الصلاة.

الوجه الثاني: أن الصحابة ﷺ لم يقروا ابن مسعود ﷺعلى قوله هذا ومنهم أبي بن كعب ﷺ.

الوجه الثالث: أن تلاميذ ابن مسعود ﷺ وبالأخص الأسود بن يزيد لم يوافقوه على رأيه هذا.

الوجه الرابع: صحة ما أثر عن ابن مسعود، وتأويل مراده بذلك على أمور:

---

(١) تفسير ابن كثير ١٤/ ٤٣٧.

(٢) البخاري (٦٤٢١)، مسلم (١٠٤٧).

(٣) البخاري (٦٤٢٠)، مسلم (١٠٤٦).

(٤) وممن قال بنسخ التلاوة والحكم؛ الطحاوي مشكل الآثار ٢/ ٤١٧، البيهقي في الدلائل إثر حديث (٣٠٨٤)، وابن الجوزي في نواسخ القرآن ١/ ٣٤.

الأول: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف.

الثاني: لم يكتب عبد الله المعوذتين؛ لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما، وهذا لا يدل على الإنكار.

الثالث: ظن ابن مسعود أنهما دعاء تعوذ به، وليستا من القرآن.

الرابع: أنه خفي عليه التواتر وأن مخالفته لا تقدح في التواتر.

الخامس: يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ ولم تتواترا عنده فتوقف في أمرهما.

السادس: أن إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين كان قبل علمه بذلك.

السابع: رجوع ابن مسعود عن هذا القول.

الوجه الخامس: ذكر بعض أهل العلم بعدم التسليم بصحة ما جاء عن ابن مسعود في هذا الباب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ثبت عن النبي ﷺ أنهما من القرآن الذي نزل عليه، وكان يقرأ بهما في الصلاة

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: أُنْزِلَ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ.(١)

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: بَيْنَا أَقُودُ بِرَسُولِ الله ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النِّقَابِ، إِذْ قَالَ: أَلاَ تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ؟ فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ؟ فَأَشْفَقْتُ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً، فَنَزَلَ وَرَكِبْتُ هُنَيْهَةً، وَنَزَلْتُ وَرَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أُعَلِّمُكَ سورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ فَأَقْرَأَنِي ﷺ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَتَقَدَّمَ فَقَرَأَ بِهِمَا، ثُمَّ مَرَّ بِي فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ؟ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَقُمْتَ(٢).

---

(١) مسلم (٨١٤).

(٢) حسن. أخرجه النسائي ٨/ ٢٥٢، وابن خزيمة في صحيحه (٥٣٥) والحاكم في مستدركه ١/ ٣٦٦ من طرق عن معاوية بن صالح، عن العلاء بن الحارث.

وفي لفظ: أنه سأل رسول الله ﷺ عن المعوذتين. قال: فأمنا بهما رسول الله ﷺ في صلاة الفجر.

عَنْ أَبِى الْعَلاَءِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِى سَفَرٍ، وَالنَّاسُ يَعْتَقِبُونَ، وَفِى الظَّهْرِ قِلَّةٌ فَحَانَتْ نَزْلَةُ رَسُولِ الله ﷺ ونزلتي فلحقني مِنْ بَعْدِى فَضَرَبَ منكبي فَقَالَ: قُلْ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَقُلْتُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فقرأها رَسُولُ الله ﷺ وَقَرَأْتُهَا مَعَهُ ثُمَّ قَالَ: قُلْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَقَرَأْتُهَا مَعَهُ قَالَ: "إِذَا أَنْتَ صَلَّيْتَ فَاقْرَأْ بِهِمَا"[(١)].

الوجه الثاني: أن الصحابة ﷺ لم يقروا ابن مسعود على قوله هذا ومنهم أبي بن كعب ﷺ.

عَنْ زِرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ قُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؛ إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَقَالَ أُبَيٌّ: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ لِي: قِيلَ لِي فَقُلْتُ قَالَ: فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ[(٢)].

وفي لفظ عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: قُلْتُ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ لاَ يَكْتُبُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ. فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أخبرني أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لَهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَقُلْتُهَا. فَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَقُلْتُهَا. فَنَحْنُ نَقُولُ مَا قَالَ النبي ﷺ[(٣)].

وأخرجه النسائي ٨/ ٢٥٣، وابن خزيمة في صحيحه (٥٣٤) من طرق عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن ابن يزيد. كلاهما (العلاء، عبد الرحمن) عن القاسم أبي عبد الرحمن عن عقبة به باللفظ الأول. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٤٦، والنسائي ٨/ ٢٥٢، والحاكم في مستدركه ١/ ٣٦٦، وابن خزيمة في صحيحه (٥٣٦)، وابن حبان في صحيحه (١٨١٨) من طرق عن سفيان الثوري، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه، عن عقبة بن عامر به مختصرًا على اللفظ الثاني. والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن النسائي (٥٤٣٧).

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٤، والنسائي في الكبرى (٧٨٥٩) من طريق إسماعيل بن علية. وأخرجه أحمد ٥/ ٧٨من طريق شعبة. كلاهما (إسماعيل وشعبة) عن الجُرَيري، عن أبي العلاء قال: قال رجل: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر والناس يعتقبون. فذكره. قال ابن حجر: **إسناده صحيح**. الفتح ٨/ ٦١٥

(٢) البخاري (٤٩٧٧).

(٣) **حسن**. أخرجه أحمد ٥/ ١٢٩ من طريق حماد بن سلمة، قال: أنا عاصم بن بهدلة، عن زر به.

الوجه الثالث: أن تلاميذ ابن مسعود ﷺ وبالأخص الأسود بن يزيد لم يوافقوه على رأيه هذا.

عن إبراهيم النخعي قال: قلت للأسود: مِنَ القرآن هما؟ قال: نعم، يعني المعوذتين[١].

الوجه الرابع: صحة ما أثر عن ابن مسعود، وتأويل مراده بذلك على أمور.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ الله يَحك الْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنْ مَصَاحِفِهِ، وقال: لاَ تَخْلِطُوا فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ[٢].

عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: قُلْتُ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ لاَ يَكْتُبُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ في مُصْحَفِهِ. فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أخبرني أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لَهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فَقُلْتُهَا. فَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَقُلْتُهَا. فَنَحْنُ نَقُولُ مَا قَالَ النبي ﷺ[٣].

لكنه يحمل على أكمل أحواله ﷺ من هذه الوجوه:

الأول: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف.

قال الحافظ: وقد تأول القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب (الانتصار) وتبعه عياض وغيره ما حُكي عن ابن مسعود فقال: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى أن لا يكتب في المصحف شيئًا إلا إن كان النبي ﷺ أذن في كتابته فيه، وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك. قال: فهذا تأويل منه وليس جحدا لكونهما قرآنا. وهو تأويل حسن إلا أن الرواية الصحيحة الصريحة التي ذكرتها تدفع ذلك حيث جاء فيها ويقول: (أنهما ليستا من كتاب الله) نعم يمكن حمل لفظ كتاب الله على المصحف فيتمشى التأويل المذكور[١].

---

(١) **صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٤٦ قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم به.

(٢) **صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٤٦، وعبد الله في زوائد المسند ٥/ ١٢٩، والطبراني في معجمه ٩/ ٢٣٤ من طرق عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد به، وإسناده صحيح.

(٣) **حسن**. أخرجه أحمد ٥/ ١٢٩ من طريق حماد بن سلمة أنا عاصم بن بهدلة عن زر به. وأصله في صحيح البخاري كما سبق. وقد سبق حديث علقمة عن عبد الله أيضًا.

الثاني: لم يكتب عبد الله المعوذتين؛ لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما. وهذا لا يدل على الإنكار.

قال ابن قتيبة: وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه فليس لظنه أنها ليست من القرآن ـ معاذ الله ـ ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان.

ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة في مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان والزيادة والنقصان(٢).

كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يشك في حفظه وإتقانه لها.

وسبيل كل ركعة أن تكون المقدمة فيها قبل ما يقرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها صحيح، وليس من السور ما يجري في هذا المعنى مجراها، ولا يسلك به طريقها.

الثالث: ظن ابن مسعود أنهما دعاء تعوَّذ به، وليستا من القرآن.

قال ابن قتيبة: وسببه في تركه إثباتها في مصحفه أنه كان يرى النبي ﷺ يعوذ بها الحسن والحسين ويعوذ غيرهما، كما كان يعوذهما بأعوذ بكلمات الله التامة؛ فظن أنهما ليستا من القرآن فلم يثبتهما في مصحفه(٣).

ويدل على ذلك: عن علقمة عن عبد الله، أَنَّهُ كَانَ يَحُكُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنَ الْمُصْحَفِ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُتَعَوَّذَ بِهِمَا، وَكَانَ عَبْدُ الله لاَ يَقْرَأُ بِهِمَا(٤).

الرابع: أنه خفي عليه التواتر، وأن مخالفته لا تقدح في التواتر.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦١٥.

(٢) مناهل العرفان ١/ ١٩٢.

(٣) تأويل مختلف الحديث ١/ ٢٦.

(٤) **حسن**. أخرجه البزار في مسنده (١٥٨٦)من طريق محمد بن أبي يعقوب الكرماني. وأخرجه أبو يعلى كما في الإتحاف للبوصيري (٣٩٤٦)، والطبراني في معجمه الكبير ٩/ ٢٣٥ من طريق الأزرق بن علي. كلاهما (محمد، الأزرق) عن حسان بن إبراهيم، عن الصلت بن بهرام، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله. **وإسناده حسن.**

قال الزرقاني: إننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة؛ بل أنكر القرآن كله فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شيء؛ لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر. ولم يقل أحد في الدنيا إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف وإلا لأمكن من هدم كل تواتر، وإبطال كل علم قام عليه بمجرد أن يخالف فيه مخالف ولو لم يكن في العير ولا في النفير. [١]

قال البزار: وَهَذَا الْكَلامُ لَمْ يُتَابِعْ عَبْدَ الله عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ بِهِمَا فِي الصَّلاةِ وَأُثْبِتَتَا فِي الْمُصْحَفِ[٢].

ولا شكَّ أن إجماع الصحابة على قرآنيتهما كافٍ في الردِّ على هذا الطعن، ولا يضرُّ ذلك الإجماع مخالفة ابن مسعود، فإنه لا يُعقل تصويب رأي ابن مسعودٍ وتخطئة الصحابة كلهم؛ بل الأمة كلها[٣].

الخامس: يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ ولم تتواترا عنده فتوقف في أمرهما.

قال ابن حجر: قال ابن الصباغ: إنه لم يثبت عنده القطع بذلك، ثم حصل الاتفاق بعد ذلك. وقد استشكل هذا الموضع الفخر الرازي فقال: إن قلنا: إن كونهما من القرآن كان متواترا في عصر ابن مسعود لزم تكفير من أنكرهما، وإن قلنا: إن كونهما من القرآن كان لم يتواتر في عصر ابن مسعود لزم أن بعض القرآن لم يتواتر، قال: وهذه عقدة صعبة. وأجيب باحتمال أنه كان متواترا في عصر ابن مسعود لكن لم يتواتر عند ابن مسعود فانحلت العقدة بعون الله تعالى[٤].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٩٢، وانظر روح المعاني ٣٠/ ٢٧٩، التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ٣/ ٣٣.

(٢) مسند البزار ١/ ٢٦٨.

(٣) كتاب جمع القران١/ ١٧٦.

(٤) فتح الباري ٨/ ٦١٦.

وإنما لم يُنكر ذلك عليه؛ لأنه كان بصدد البحث والنظر، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر(١).

قال ابن كثير: وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء: أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ، ولم يتواترا عنده، ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة، رضي الله عنهم، كتبوهما في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنة(٢).

فإن قيل: ولِمَ لَمْ ينكر عليه الصحابة؟ يجاب بأنَّهم لم ينكروا عليه؛ لأنه كان بصدد البحث والتثبت في هذا الأمر(٣).

السادس: أن إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين كان قبل علمه بذلك.

يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته كان قبل علمه بذلك، فلما تبين له قرآنيتهما بعد، وتم التواتر، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن(٤).

السابع: رجوع ابن مسعود عن هذا القول.

ويدل على ذلك الآتي:

أولًا: أن عاصمًا وهو أحد القراء السبعة قرأ القرآن كله وفيه المعوذتان بأسانيد صحيحة بعضها يرجع إلى ابن مسعود نفسه.

ذلك أن عاصمًا قرأ على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، وقرأ على أبي مريم زر بن حبيش الأسدي، وعلى سعيد بن عياش الشيباني، وقرأ هؤلاء على ابن مسعود نفسه، وقرأ ابن مسعود على رسول الله ﷺ.

ثانيها: أن حمزة وهو من القراء السبعة أيضًا قرأ القرآن كله بأسانيده الصحيحة وفيه

---

(١) مناهل العرفان ١/ ١٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٤/ ٥١٧.

(٣) مناهل العرفان ١/ ١٩٢، كتاب جمع القران. محمد شرعي أبو زيد ١/ ١٧٦.

(٤) مناهل العرفان ١/ ١٩٢.

المعوذتان عن ابن مسعود نفسه.

ذلك أن حمزة قرأ على الأعمش أبي محمد سليمان بن مهران، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى على علقمة الأسود، وعبيد بن نضلة الخزاعي، وزر بن حبيش، وأبي عبد الرحمن السلمي وهم قرؤوا على ابن مسعود على النبي ﷺ.

ولحمزة سند آخر بهذه القراءة إلى ابن مسعود أيضًا.

ذلك أنه قرأ على أبي إسحاق السبيعي، وعلى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعلى الإمام جعفر الصادق، وهؤلاء قرؤوا على علقمة بن قيس، وعلى زر بن حبيش، وعلى زيد بن وهب، وعلى مسروق، وهم قرؤوا على المنهال وغيره وهم على ابن مسعود وأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وهما على النبي ﷺ.

ثالثًا: أن الكسائي قرأ القرآن وفيه المعوذتان بسنده إلى ابن مسعود أيضًا.

ذلك أنه قرأ على حمزة الذي انتهى بين يديك سنده إلى ابن مسعود من طريقين.

رابعها: أن خلفًا يقرأ المعوذتين في ضمن القرآن الكريم بسنده إلى ابن مسعود أيضًا وذلك أنه قرأ على سليم وهو على حمزة.

وهذه القراءات كلها التي رويت بأصح الأسانيد وبإجماع الأمة فيها المعوذتان والفاتحة على اعتبار أن هذه السور الثلاث أجزاء من القرآن وداخلة فيه. فالقول ببقاء ابن مسعود على إنكار قرآنية هذه السورة محض افتراء عليه[1].

كما سقناه بين يديك عن أربعة من القراء السبعة بأسانيد هي من أصح الأسانيد المؤيدة بها تواتر واستفاض، وبما أجمعت الأمة عليه من قرآنية الفاتحة والمعوذتين منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يوم الناس هذا.

إذًا فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود جمعا بين الروايتين.

وما يقال في نقل إنكاره قرآنية المعوذتين، يقال في نقل إنكاره قرآنية الفاتحة؛ بل نقل إنكاره

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٢٧.

قرآنية الفاتحة أدخل في البطلان وأغرق في الضلال، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن، وأنها السبع المثاني، التي تثنى وتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة على لسان كل مسلم ومسلمة.

فإنه لا يجوز لمسلمٍ أن يَظُن خفاء قرآنية الفاتحة على ابن مسعود، فضلًا عن أن يَظُنَّ به إنكار قرآنيتها، وكيف يُظَن به ذلك، وهو من أشد الصحابة عناية بالقرآن، وقد أوصى النَّبِيُّ ﷺ بقراءة القرآن على قراءته.

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: ذُكِرَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، فَقَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ لاَ أَزَالُ أُحِبُّهُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ -فَبَدَأَ بِهِ- وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِى حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ**"[(١)].

عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ الله، أَنَّ النبي ﷺ أَتَاهُ بَيْنَ أَبِى بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعَبْدُ الله يُصَلِّى فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ فَسَحَلَهَا، فَقَالَ النبي ﷺ: "**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**". ثُمَّ تَقَدَّمَ يَسْأَلُ فَجَعَلَ النبي ﷺ يَقُولُ: "**سَلْ تُعْطَهْ سَلْ تُعْطَهْ سَلْ تُعْطَهْ**". فَقَالَ فِيمَا سَأَلَ اللهمَّ إِني أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لاَ يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لاَ يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ في أَعَلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ. قَالَ: فَأَتَى عُمَرُ عَبْدَ الله لِيُبَشِّرَهُ، فَوَجَدَ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَهُ. فَقَالَ: إِنْ فَعَلْتَ لَقَدْ كُنْتَ سَبَّاقًا بِالْخَيْرِ[(٢)].

كما أن ابن مسعود ﷺ من السابقين إلى الإسلام، ولم يزل يسمع النَّبِيَّ ﷺ يقرأ بالفاتحة في الصلاة، ويقول: مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فهي خِدَاجٌ"[(٣)].

فكان سبب عدم كتابتها في مصحفه وضوح أنَّها من القرآن، وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان، والزيادة والنقصان.

وقصارى ما نقل عنه أنه لم يكتبها في مصحفه، وهذا لا يدل على الإنكار[(٤)].

---

(١) البخاري (٣٨٠٨)، مسلم (٢٤٦٤).

(٢) حسن. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ١٨٤، وأحمد ١/ ٤٥٤، وأبو يعلى في مسنده (١٦)، وابن ماجه (١٣٨)من طرق عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش به. وانظر الصحيحة للألباني (٢٣٠١).

(٣) مسلم (٣٩٥).

(٤) مناهل العرفان ١/ ١٩٢، وانظر جمع القرآن محمد شرعي أبو زيد ١/ ١٧١.

الوجه الخامس: ذكر ما قاله بعض أهل العلم من عدم التسليم بصحة ما جاء عن ابن مسعود في هذا الباب.

قال ابن حزم: وَكُلُّ ما رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ من أَنَّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَأُمَّ الْقُرْآنِ لم تَكُنْ في مُصْحَفِهِ؛ فَكَذِبٌ مَوْضُوعٌ لاَ يَصِحُّ، وَإِنَّمَا صَحَّتْ عنه قِرَاءَةُ عَاصِمٍ عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَفِيهَا أُمُّ الْقُرْآنِ والمعوذتان[1].

قال النووي: أجمع المسلمون علي أن المعوذتين، والفاتحة، وسائر السور المكتوبة في المصحف قرآن، وأن من جحد شيئًا منه كفر، وما نقل عن ابن مسعود في الفاتحة والمعوذتين باطل، ليس بصحيح عنه(٢).

قال الفخر الرازى: الأغلب على الظن أن هذا النقل عن ابن مسعود كذب باطل[3].

ولكن هذا المسلك فيه نظر.

قال الحافظ: والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل؛ بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل، والإجماع الذي نقله إن أراد شموله لكل عصر فهو مخدوش، وإن أراد استقراره فهو مقبول، وقد استشكل هذا الموضع الفخر الرازي فقال: إن قلنا إن كونها من القرآن كان متواترا في عصر ابن مسعود لزم تكفير من أنكرهما، وإن قلنا: إن كونها من القرآن كان لم يتواتر في عصر ابن مسعود، لزم أن بعض القرآن لم يتواتر. قال: وهذه عقدة صعبة. وأجيب باحتمال أنه كان متواترا في عصر ابن مسعود لكن لم يتواتر عند ابن مسعود فانحلت العقدة بعون الله تعالى[4].

* * *

---

(١) المحلى ١/ ١٣.

(٢) المجموع ٣/ ٣٩٦.

(٣) الفتح ٨/ ٧٤٣.

(٤) فتح الباري ٨/ ٧٤٣.

شبهات عن القرآن الكريم

على ترتيب المصحف الشريف

سورة الفاتحة

وفيها:

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

نص الشبهة:

قول المسلمين: إن القرآن هو كلام الله نزله على محمد، فهل يقول الله: إياك نعبد وإياك نستعين، وهل يطلب الله من نفسه ولنفسه أن يهتدي الصراط المستقيم، ولمن يوجه الله هذا الدعاء؟

ألا يعني هذا أن الفاتحة هي كلام محمد ودعاؤه إلى الله طالبًا الهداية؟ ألم يكن من الأفضل أن يقول: بك نستعين بدلًا من: إياك نستعين؟.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

الوجه الثاني: كلام المفسرين عن هذا الالتفات بلاغةً، ومعنًى، وأسرارًا.

الوجه الثالث: أسلوب أقصر وأبلغ في الحصر والتخصيص.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إن من أكثر الأمور المعينة على فهم كتاب الله هو تعلم علم البلاغة، الذي به يطلع القارئ على كثير من الإعجاز اللغوي الموجود في كلام رب العالمين، الذي لا يشبهه كلام أبدًا، ولا حتى كلام نبيه ﷺ، وإذا عرف هذا فإن لكل فنٍّ أهلٌ، وفن البلاغة له جهابذة يؤخذ منهم، فلا عقل لمن يتكلم في شيء لا يحسنه؛ لذا قال رب العالمين: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، وامتثالًا لأمر ربنا نرجع إلى أصحاب هذا الباب فنجد أن ما لم يفهمه المعترض هو نوع من أنواع البلاغة يقال له: الالتفات، فنحن ننقل بعض ما عندهم في هذا، وإلا فالأمر طويل، والمقام عن جمعه قصير وإليك البيان:

قال ابن الأثير: وهذا النوع وما يليه خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن، وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل

فيه عن صيغة، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلا.

ويسمى أيضًا (شجاعة العربية) وإنما سمي بذلك؛ لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات.

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

اعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها، وهذا القول هو عكاز العميان، كما يقال، ونحن إنما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله.

وقال: والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب، لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك لفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها، فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه وسأوضح ذلك في ضرب من الأمثلة الآتي ذكرها.

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، فكقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هذا

رجوع من الغيبة إلى الخطاب وبما يختص الكلام من الفوائد قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: (الحمد لك)، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فخاطب بالعبادة إصراحًا بها وتقربًا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة، فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ عطفًا على الأول؛ لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظا، وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا، فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لا تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها، وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب؛ لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة، لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضا؛ لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه، فانبغى أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها. اهـ[1]

قال النويري: وأما ابن المعتز فقال: الالتفات انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، ومثاله في القرآن العزيز: الإخبار بأن الحمد لله رب العالمين ثم قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومثاله في الشعر قول جرير:

متى كان الخيام بذي طلوح   سقيت الغيث أيتها الخيام

أو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ

(١) المثل السائر (١/ ١٤٨-١٤٩) تحت عنوان الالتفات.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ومثال ذلك في الشعر قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

ثم قال مخبرًا عنها:

كيف المزار وقد تربع أهلها ... بعنيزتين وأهلها بالغيلم

أو انصراف المتكلم من الإخبار إلى المتكلم كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ أو انصراف المتكلم من التكلم إلى الإخبار كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم: ١٩، ٢٠)، وقد جمع امرؤ القيس الالتفاتات الثلاثة في ثلاث أبيات متواليات، وهي قوله:

تطاول ليلك بالإثمد ... ونام الخلي ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد

وذلك من نبأ جاءني ... وخبرته عن أبي الأسود

يخاطب في البيت الأول، وانصرف إلى الأخبار في البيت الثاني، وانصرف عن الأخبار إلى التكلم في البيت الثالث على الترتيب.[1]

الوجه الثاني: كلام المفسرين عن هذا الالتفات بلاغةً، ومعنًى، وأسرارًا

قال الطبري: فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؟ أحَمِد الله نفسه -جلّ ثناؤه- فأثنى عليها، ثم علَّمنَاه لنقول ذلك كما قال ووصَف به نفسه؟ فإن كان ذلك كذلك، فما وجه قوله تعالى ذكره إذًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهو عزّ ذكرُه معبودٌ لا عابدٌ؟ أم ذلك من قِيلِ جبريلَ أو محمدٍ رَسول الله ﷺ؟ فقد بَطل أن يكون ذلك لله كلامًا.

قيل: بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه، ولكنه جلّ ذكره حَمِد نفسه، وأثنى عليها بما هو له أهلٌ، ثم علَّم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته، اختبارًا منه لهم وابتلاءً، فقال لهم

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب (٢/ ٣٠١ – ٣٠٢).

قولوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقولوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مما علمهم -جلّ ذكره- أن يقولوه ويَدينُوا له بمعناه، وذلك موصول بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وكأنه قال: قولوا هذا وهذا.

فإن قال: وأين قوله: (قولوا)، فيكونَ تأويلُ ذلك ما ادَّعَيْتَ؟.

قيل: قد دللنا فيما مضى أن العرب من شأنها ـ إذا عرفتْ مكان الكلمة، ولم تَشكَّك أنّ سامعها، يعرف بما أظهرت من منطقها، ما حذفت ـ حذفُ ما كفى منه الظاهرُ من منطقها، ولاسيما إن كانت تلك الكلمة التي حُذفت، قولا أو تأويلَ قولٍ، كما قال الشاعر:

وأَعْلَمُ أَنّني سَأَكُونُ رَمْسًا إذَا سَارَ النَّوَاعِجُ لا يَسِيرُ

فَقَالَ السّائلون: لِمَنْ حَفَرْتُمْ فَقَالَ الْمُخْبِرُون لَهُمْ: وزيرُ

قال أبو جعفر: يريد بذلك، فقال المخبرون لهم: الميِّتُ وزيرٌ، فأسقَط الميت، إذ كان قد أتى من الكلام بما دلّ على ذلك. وكذلك قول الآخر:

وَرأَيتِ زَوْجَكِ في الوغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمحا

وقد علم أنّ الرمح لا يُتَقَلَّد، وإنما أراد: وحاملًا رمحًا، ولكن لما كان معلومًا معناه، اكتفى بما قد ظَهر من كلامه، عن إظهار ما حذف منه. وقد يقولون للمسافر إذا ودَّعوه: "مُصاحَبًا مُعافَى"، يحذفون "سر، واخرج"، إذ كان معلومًا معناه، وإن أسقط ذكره.

فكذلك ما حُذف من قول الله ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، لَمَّا عُلم بقوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ما أراد بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، من معنى أمره عبادَه، أغنتْ دلالةُ ما ظُهر عليه من القول عن إبداء ما حُذف. اهـ[1]

٢ـ ومما يؤكد صحة ما قاله الطبري ما قاله البقاعي:

قال: ومن أنفع الأمور في ذوق هذا المشرب استجلاء الحديث القدسي الذي رواه مسلم في صحيحه وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

(١) تفسير الطبري (١/ ١٣٩-١٤١).

يقول: "قال الله ﷻ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولبعدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله: مجدني عبدي" وقال مرة: "فوض إليّ عبدي، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل" والله أعلم.[1]

وقال الآلوسي: البحث الرابع: في سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقد ازدحمت فيه أذهان العلماء بعد بيان نكتته العامة؛ وهي التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر؛ تطرية له وتنشيطًا للسامع، فقيل: لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك؛ ليكون أدل على الاختصاص، والترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، وكأن المعلوم صار عيانًا، والمعقول مشاهدًا والغيب حضورًا.

وقيل: لما شرح الله تعالى صدر عبده، وأفاض على قلبه وقالبه نور الإيمان والإسلام من عنده؛ ترقى بذريعة الحمد المستجلب لمزيد النعم إلى رتبة الإحسان وهو: «أن تعبد الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وأيضًا، حقيقة العبادة انقياد النفس الأمارة لأحكام الله تعالى، وصورته وقالبه الإسلام، ومعناه وروحه الإيمان، ونوره الإحسان وفي ﴿نَعۡبُدُ﴾ والالتفات تتم الأمور الثلاثة. وأيضًا لما تبين أنه ملك في الأزل ما في أحايين الأبد علم أن الشاهد والغائب والماضي والمستقبل بالنسبة إليه على حد سواء؛ فلذلك عدل عن الغيبة إلى الخطاب، ويحتمل أن يكون السر أن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء، والثناء في الغيبة أولى ومن هنا إلى الآخر دعاء.

وقيل: إنه لما كان الحمد لا يتفاوت غيبة وحضورًا؛ بل هو مع ملاحظة الغيبة أدخل وأتم، وكانت العبادة إنما يستحقها الحاضر الذي لا يغيب كما حكى سبحانه عن

---

(١) نظم الدرر (١/ ٨).

إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ (الأنعام: ٧٦) لا جرم عبر سبحانه وتعالى عن الحمد بطريق الغيبة، وعنها بطريق الخطاب إعطاءً لكل منهما ما يليق من النسق المستطاب. وأيضًا من تشبه بقوم فهو منهم، فالعابد لما رام ذلك سلك مسلك القوم في الذكر، ومزج عبادته بعبادتهم، وتكلم بلسانهم وساق كلامه على طبق مساقهم عسى أن يصير محسوبًا في عدادهم مندرجًا في سياقهم:

إن لم تكونوا منهم فتشبهوا   إن التشبه بالكرام فلاح

وأيضًا فيه إشارة إلى أن من لزم جادة الأدب والانكسار، ورأى نفسه بعيدًا عن ساحة القرب لكمال الاحتقار، فهو حقيق أن تدركه رحمة إلهية، وتلحقه عناية أزلية إلى حظائر القدس، وتطلعه على سرائر الأنس؛ فيصير واطئًا على بساط الاقتراب، فائزًا بعز الحضور وسعادة الخطاب. وأيضًا إنه لما لم يكن في الحمد مزيد كلفة بخلاف العبادة؛ فإن خطبها عظيم، ومن دأب المحب تحمل المشاق العظيمة في حضور المحبوب؛ قرن سبحانه العبادة بما يشعر بحضوره؛ ليأتي بها العابد خالية عن الكلال، عارية عن الفتور والملال، مقرونة بكمال النشاط، موجبة لتمام الانبساط:

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي   فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

وأيضًا: إن الحمد ليس إلا إظهار صفات الكمال على الغير، فما دام للأغيار وجود في نظر السالك فهو يواجههم بإظهار مزايا المحبوب عليهم، ويخاطبهم بذكر مآثره الجميلة لديهم، وأما إذا آل أمره بملازمة الأذكار إلى ارتفاع الحجب والأستار، واضمحلال جميع الأغيار لم يبق في نظره سوى المعبود الحق، والجمال المطلق، وانتهى إلى مقام الجمع وصار في مقعد ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ (البقرة: ١١٥) فبالضرورة لا يصير توجيه الخطاب إلا إليه، ولا يمكن إظهار السر إلا لديه؛ فينعطف عنان لسانه إلى جنابه، ويصير كلامه منحصرًا في خطابه، وثم وراء الذوق معنى يدق عن مدارك أرباب العقول السليمة، وعندي وهو من نسائم الأسحار، أن الله سبحانه بعد أن ذكر يوم الدين وهو يوم القيامة

التفت إلى الخطاب للإشارة إلى أنه إذا قامت القيامة على ساق، وكان إلى ربك يومئذ المساق، هنالك يفوز المؤمن بلذة الحضور، ويتبلج جبينه بأنوار الفرح والسرور، ويخلو به الديان وليس بينه وبينه ترجمان، ويكشف الحجاب، وتدور بين الأحباب كؤوس الخطاب، فتأمل في عظيم الرحمة كيف قرن سبحانه هذا الترهيب برحمتين فصرح قبل يوم الدين بما صرح ورمز بعد ذكره بما رمز ولن يغلب عسر يسرين. (١)

وقال الرازي: لقائل أن يقول: قوله: "الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين" كله مذكور على لفظ الغيبة، وقوله: "إياك نعبد وإياك نستعين" انتقال من لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، فما الفائدة فيه؟ قلنا فيه وجوه:

الأول: أن المصلي كان أجنبيًا عند الشروع في الصلاة، فلا جرم أثنى على الله بألفاظ المغايبة إلى قوله مالك يوم الدين، ثم إنه تعالى كأنه يقول له حمدتني، وأقررت بكوني إلهًا ربًا رحمانًا رحيمًا مالكًا ليوم الدين، فنعم العبد أنت؛ قد رفعنا الحجاب، وأبدلنا البعد بالقرب، فتكلم بالمخاطبة وقل: إياك نعبد.

الوجه الثاني: أن أحسن السؤال ما وقع على سبيل المشافهة، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ (الأعراف: ٢٣)، و﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ (آل عمران: ١٤٧)، و﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ (آل عمران: ٣٨)، و﴿رَبِّ أَرِنِيٓ﴾ (لأعراف: ١٤٣) والسبب فيه: أن الرد من الكريم على سبيل المشافهة والمخاطبة بعيد. وأيضًا العبادة خدمة، والخدمة في الحضور أولى.

الوجه الثالث: أن من أول السورة إلى قوله: "إياك نعبد" ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن قوله: إياك نعبد وإياك نستعين إلى آخر السورة دعاء، والدعاء في الحضور أولى.

الوجه الرابع: العبد لما شرع في الصلاة، وقال: نويت أن أصلي تقربًا إلى الله، فينوي حصول القربة، ثم إنه ذكر بعد هذه النية أنواعًا من الثناء على الله، فاقتضى كرم الله إجابته في

---

(١) روح المعاني (١/ ٦٦-٦٨).

تحصيل تلك القربة، فنقله من مقام الغيبة إلى مقام الحضور، فقال: إياك نعبد وإياك نستعين. (١)

وقال ابن عادل: قال ابن الخطيب: إن الانتقال من لفظ الغيبة، إلى لفظِ الحضور، يدلُّ على مزيد التقريب. (٢)

وقال أبو السعود: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. (سر تكرار الفاتحة في الصلاة) التفات من الغَيْبة إلى الخطاب، وتلوينٌ للنظم من باب إلى باب، جارٍ على نهج البلاغة في افتنان الكلام، ومسلَكِ البراعة حسبما يقتضي المقام، لما أن التنقلَ من أسلوب إلى أسلوب، أدخلُ في استجلاب النفوسِ واستمالةِ القلوب يقع من كل واحدٍ من التكلم والخطاب والغَيبة إلى كل واحد من الآخَرَيْن، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾ إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردةِ في التنزيل لأسرارٍ تقتضيها، ومزايا تستدعيها، ومما استأثر به هذا المقام الجليلِ من النُكت الرائقةِ الدالةِ على أن تخصيصَ العبادةِ والاستعانةِ به تعالى لما أُجريَ عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكملَ تميّز، وأتمَّ ظهورٍ، بحيث تبدّل خفاءُ الغَيبة بجلاءِ الحضور، فاستدعى استعمالَ صيغةِ الخطاب، والإيذانَ بأن حقّ التالي بعد ما تأمل فيما سَلَف من تفرّده تعالى بذاته الأقدس، المستوجبِ للعبودية، وامتيازِه بذاته عما سواه بالكلية، واستبدادِه بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميِّزة له عن جميع أفرادِ العالمين، وافتقارِ الكلِّ إليه في الذات والوجودِ ابتداءً وبقاءً، على التفصيل الذي مرَّت إليه الإشارةُ أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقلَ من عالم الغَيبة إلى معالم الشهود، ويلاحظَ نفسَه في حظائر القدْسِ حاضرًا في محاضر الأنس، كأنه واقفٌ لدى مولاه ماثلٌ بين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرَعُ بالضَّراعة بابَ المناجاة قائلًا: يا من هذه شوؤنُ ذاتِه وصفاتِه، نخصُّك بالعبادة والاستعانة، فإن ما سواك كائنًا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود، فضلًا عن استحقاق أن يُعبد ويُستعان، ولعل هذا هو

(١) تفسير الرازي (١/ ٢٣١ - ٢٣٢).
(٢) اللباب (٨/ ٤٤٥).

السرُ في اختصاص السورةِ الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعةٍ من الصلاة التي هي مناجاةُ العبدِ لمولاه ومِنّتُه للتبتل إليه بالكلية.[١]

وقال ابن عاشور: قال السكاكي في (المفتاح) بعد أن ذكر أن العرب يستكثرون من الالتفات: (أَفتراهم يحسنون قِرى الأشباح؛ فيخالفون بين لون ولون، وطَعْم وطَعْم، ولا يحسنون قِرى الأرواح؛ فيخالفون بين أسلوب وأسلوب). فهذه فائدة مطردة في الالتفات. ثم إن البلغاء لا يقتصرون عليها غالبًا؛ بل يراعون للالتفات لطائف ومناسبات، ولم يزل أهل النقد والأدب يستخرجون ذلك من مغاصه.

وما هنا التفاتٌ بديع؛ فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاهَا، فتخيل نفسه في حضرة الربوبية، فخاطب ربه بالإقبال.

وقال: ومما يزيد الالتفات وقعًا في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء، ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تخلصًا يجيء بعده: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ** ﴾ ونظيره في ذلك قول النابغة في رثاء النعمان الغساني:

أبى غفلتي أَني إذا ما ذكرته ... تحرك داء في فُؤَادِيَ داخل
وأن تِلاَدِي إنْ نظرتُ وشكَّتِي ... ومُهري وما ضَمَّت إليَّ الأنامل
حِباؤُك والعيسُ العتاقُ كأنها ... هِجان المَهى تُزْجى عليها الرحائل[٢]

الوجه الثالث: أسلوب أقصر وأبلغ في الحصر والتخصيص.

قد أسلفنا وما زلنا نكرر أن الكلام عن أساليب اللغة العربية لا ينبغي إلا لمن له بكلام العرب ولغتهم كبير دراية، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قدم المفعولين لنعبد ونستعين، وهذا التقديم للاختصاص؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده له العبادة، لذا لم يقل نعبدك ونستعينك؛ لأنها لا تدل على التخصيص بالعبادة لله تعالى، أما

---

(١) تفسير أبو السعود (١/ ١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٥- ٣٦).

قول ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ فتعني تخصيص العبادة لله تعالى وحده، وكذلك في الاستعانة ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ تكون بالله حصرًا ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (الممتحنة آية ٤) كلها مخصوصة لله وحده حصرًا فالتوكل والإنابة والمرجع كله إليه سبحانه ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم: ١٢)، ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ (الملك: ٢٩) تقديم الإيمان على الجار والمجرور هنا؛ لأن الإيمان ليس محصورًا بالله وحده فقط؛ بل علينا الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقضاء والقدر لذا لم تأت به آمنا، أما في التوكل فجاءت وعليه توكلنا، لا توكلنا عليه؛ لأن التوكل محصور بالله تعالى.

ثم اعلم أن العرب من عادتها أن تختصر الكلام وتتقلل فيه باستخدام أقصر العبارات المعبرة عن المراد. فلو أردت أن تنسق الجملة بشكل آخر لتعطي معنى الاختصاص فكنت ستقول: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، فأي التعبيرين أقصر وأبلغ إن كنتم تعقلون؟ ثم إنه لم يقل نستعين بك؛ لأن هناك علة بلاغية أخرى غير التخصيص، فالفعل استعان يتعدى بنفسه وبالباء.

والقاعدة أن الفعل إذا كان يتعدى بنفسه وبغيره؛ فإن الأفصح أن يتعدى بنفسه على قاعدة العرب في أساليبها.

* * *

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

نص الشبهة:

يقولون: إن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى، وقد قال القرآن عن اليهود ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ ومثل ذلك في الإنجيل عند النصارى، فكيف يكون ذلك؟

ألم يكن من الأفضل أن يكون المغضوب عليهم والضالون هم الكافرون أو المنافقون.

والجواب عن هذه الشبهة من عدة وجوه:

الوجه الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ الآيات.

الوجه الثاني: أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟

الوجه الثالث: معنى المغضوب عليهم والضالين.

الوجه الرابع: الوصفان ليسا مقصورين عليهما.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾.

كما هو معلوم من الدين بالضرورة أنه لا ينبغي أن يُفهم نص من دين الله بمعزل عن النصوص الأخرى، فالله جل وعلا ذم ذلك وأخبر أنه سبيل الذين في قلوبهم زيغ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٧). ومدح طريق الراسخين في العلم في فهم الدين فقال: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

ومما سبق يتضح أن الاستدلال بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ على أن اليهود ليسوا هم المغضوب عليهم، وأن النصارى ليسوا هم الضالين استدلال غير

صحيح؛ لأنه اقتطاع لنص من سياقه الذي يفهم من خلاله، ولمزيد بيان نوضح تفسير هذه الآية فنقول: جاءت هذه الآية في سياق الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤١-٤٤).[١]

قال ابن كثير: نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله. وهؤلاء كلهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: يستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٠).

وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنْهُونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلا، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه.

والصحيح أنها نزلت في اليهوديَّيْن اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحْصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبيﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

قلت: ثم استدل بمجموعة من النصوص نكتفي بنص واحد منها لعدم الإطالة:

عن البراء بن عازب ﷺ قال: مر على رسول الله ﷺ يهودي محمَّم مجلود، فدعاهم فقال: "أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ " فقالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم فقال: "أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم؟" فقال: لا والله، ولولا أنك نَشَدتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئًا نقيمه على الشريف والوَضِيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال النبي ﷺ: "اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه". قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: ائتوا محمدًا، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

قال: في اليهود إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قال: في اليهود ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال: في الكفار كلها.[١]

قال ابن كثير: فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله ﷻ إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم، مما تراضوا على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع عَملهم على خلافه، بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به؛ لهذا قالوا ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ والتحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي: اقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ أي: من قبوله واتباعه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.[٢]

الوجه الثاني: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

لقد ذم الله اليهود في كونهم كانوا يعملون ببعض ما في كتابهم، ولا يعملون بالبعض الآخر؛ فقال الله عن ذلك ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وكان في ذلك تحذيرًا لأمة النبي ﷺ من أن يقعوا فيما وقعت فيه يهود.

فنحن نقول إننا نؤمن بالكتاب كل من عند ربنا، فالقرآن الذي جاء فيه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا

---

(١) مسلم (١٦٩٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٦).

﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ (المائدة: ٤٤)، هو الذي جاء فيه أيضًا عن اليهود ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥). وهو الذي جاء فيه أيضًا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وكذا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

فلماذا يحتج المعترض بآية من القرآن ويعرض عن الباقي؟ هذا سبيل من وقع الزيغ في قلبه ولم يرد إلى الهدى سبيلًا.

إذن فالثناء على التوراة لا يقتضي الثناء على اليهود إلا إذا امتثلوا، وكذلك يقال في النصارى. ولا يقتضي أيضًا أن ما في أيدي اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل هي التي وصفت بأن فيها هدى ونور؛ لأن هذه المعاصرة قد ثبت تحريفها ومخالفتها للأصل الذي أنزل.

الوجه الثالث: معنى المغضوب عليهم والضالين.

إن وصف اليهود بأنهم مغضوب عليهم، والنصارى بأنهم هم الضالون لا يفهم جيدًا إلا إذا فهم معنى هذين الوصفين في لغة العرب، وبالتالي سيفهمون أن معناهما يدل على اليهود والنصارى دلالة مطابقة:

١-فالمغضوب عليهم هم المائلون عن كل خلق واعتقاد إلى طرف التفريط، ومنهم اليهود، والمفرط في الشيء هو المعرض عنه. ويقال أيضًا: هم الذين عرفوا الحق وتركوه، فاليهود فرطوا في شأن نبي الله ولم يطيعوه، وآذوه حتى قالوا بعد أن نجاهم الله من عدوّهم وعرفوا أنه إله واحد ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

وقالوا ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ (البقرة: ٥٥)، يعلمون أن موسى رسول الله حقًّا ومع ذلك يؤذونه فيقولون له ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾ يرزقهم الله المن والسلوى فيقولون ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾، يريهم الله الآيات العظام ويحيى لهم الموتى، ثم تكون النتيجة

عكس كل ما هو متوقع، فتقسوا قلوبهم؛ بل تفوق الحجارة في القسوة كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤).

يعلمون أن سليمان نبي من عند الله، ومع ذلك يتبعون ما قالته الشياطين فيرمونه عليه السلام بالسحر وأنه ليس بنبي، أليس قد وقع منهم الميل عن كل خلق واعتقاد إلى طرف التفريط أي أعرضوا عن شرع الله وما أمروا به.

والضالون هم المائلون إلى طرف الإفراط ومنهم النصارى، والإفراط هو مجاوزة حد الاعتدال. ويقال أيضًا الذين تركوا الحق على جهل وضلال، فهذا حال النصارى أفرطوا وقالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣).

فلا حال يجلي الضلال من حال قوم عبدوا بشرًا، خرج من مخرج الطمث، واستضعفه خلقه حتى صلبوه، وحواه التراب الذي يزعمون أنه خلقه.

وكلام ابن القيم يذكر بعضًا من ضلالهم فيقول:

" المثلثة " أمة الضلال وعباد الصليب، الذين سبوا الله الخالق مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، ولم يجعلوه أكبر من كل شيء؛ بل قالوا فيه ما ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها: أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته وأن المسيح ابنه، وأنه نزل عن كرسي عظمته والتحم ببطن الصاحبة، وجرى له ما جرى إلى أن قتل ومات ودفن، فدينها عبادة الصلبان، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان، يقولون في دعائهم: يا والدة الإله ارزقينا، واغفري لنا وارحمينا، فدينهم شرب الخمور وأكل الخنزير، وترك الختان، والتعبد بالنجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة، والحلال ما حلله القس والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، وهو الذي يغفر لهم الذنوب، وينجيهم من عذاب السعير[1]".

---

(١) هداية الحيارى (صـ ٨).

الوجه الرابع: الوصفان ليسا مقصورين عليهما.

تفسير الشيء ببعض أفراده لا يقتضي تخصيصه به، ولا قصره عليه فقول الله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ له تفسير عام قد أسلفناه، وبينا أن المعنى شمل اليهود والنصارى لانطباق الصفات عليهم، فمن يشاركهم في هذه الصفات يدخل معهم سواء كان من الملحدين أم من المشركين أم من المنافقين. والنبي ﷺ عندما فسر المغضوب عليهم والضالين باليهود والنصارى لم يحصر ذلك فيهما؛ بل قال: (فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال). [(١)]

* * *

(١) الترمذي (٢٩٥٤) من حديث عدي بن حاتم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٢٠٢).

وراجع تفصيل هذه الشبهة في شبهة: "ثناء القرآن والإنجيل على التوراة والإنجيل" من شبهات العقيدة.

سورة البقرة

وفيها:

١- شبهة: حول الحروف المقطعة في أوائل السور.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

٣- شبهة: ادعاؤهم اعتراض الملائكة على الله تعالى.

٤- شبهة: حول سجود الملائكة لآدم.

٥- شبهة: حول نفي الشفاعة.

٦- شبهة: حول تحليل الانتقام.

٧- شبهة: ادعاؤهم أن الله ـ تعالى ـ يحلل الكذب للناس.

٨- شبهة: حول أعظم آية في القرآن الكريم.

٩- شبهة: حول معاصرة إبراهيم للنمرود، وادعاؤهم أن النمرود كان سابقًا لإبراهيم عليه السلام بـ ٣٠٠ سنة.

١٠- شبهة: حول الرجل الذي مات مائة سنة.

١١- شبهة: حول شك إبراهيم عليه السلام.

١- شبهة: حول الحروف المقطعة في أوائل السور.

نص الشبهة:

وفي ذلك اعتراضات:

أولًا: ما معنى هذه الكلمات؟ وهل يعطي الله طلاسم وكلامًا غير مفهوم؟

ثانيًا: يحتاج إلى مفسرين وجهابذة لكي نعرف ماذا يقصد بكلمة آلم أو آلر؟

ثالثًا: ماذا يفعل الذين يقطنون في أماكن نائية وليس عندهم مفسرين للُّغة؟

رابعًا: ماذا يفعل غير العرب عندما يقرءون هذه الكلمات؟

خامسًا: كيف تُفَسَّرُ إلى الإنجليزية أو الفرنسية؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أقوال أهل العلم في هذه المسألة.

الوجه الثاني: ما ذكره أهل العلم في معانيها.

الوجه الثالث: هذه الأحرف حجةٌ على من عارض القرآن.

الوجه الرابع: هذه الأحرف دالة على صدق النبوة.

الوجه الخامس: هذه الأحرف تدل على أن هذا الكتاب من عند الله تعالى.

الوجه السادس: لو كانت هذه الأحرف طلاسم-كما يزعمون-لطعن في ذلك اليهود والمشركون.

الوجه السابع: على التسليم بأنها غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيان للناس.

الوجه الثامن: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

الوجه التاسع: توضيح أهل العلم لها من معان وأسرار يدل على أنها ليست من الطلاسم.

الوجه العاشر: الرد على قولهم ماذا يفعل الذين يقطنون في أماكن نائية وليس عندهم مفسرين للغة؟

الوجه الحادي عشر: الرد على قولهم: هل يحتاجون إلى مفسرين وجهابذة في اللغة لكي نعرف ماذا يقصد بكلمة آلم، آلر، كهيعص؟

واليك التفصيل

الوجه الأول: أقوال أهل العلم في هذه المسألة.

للعلماء فيها قولان:

القول الأول: لا نخوض في تأويلها؛ لأن هذا علمٌ مستورٌ، وسِرٌّ محجوبٌ، استأثر الله تبارك وتعالى به، ولا يجب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونُمِرُّها كما جاءت.

القول الثاني: لنا أن نفسرها ونلتمس ما فيها من المعاني.

قال ابن عطية: والصواب ما قاله الجمهور أن تُفَسَّرَ هذه الحروفُ ويُلتَمَسَ لها التأويل[(١)].

والدليل على هذا القول – الثاني –:

أما الآيات فأربعة عشر:

أحدها: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤) أَمَرَهُمْ بالتدبر في القرآن، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه؟

ثانيها: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) فكيف يأمرهم بالتدبر فيه لمعرفة نفي التناقض والاختلاف مع أنه غير مفهوم للخلق؟

ثالثها: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥) فلو لم يكن مفهومًا بطل كون الرسول ﷺ منذرًا به، وأيضًا قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ يدل على أنه نازل بلغة العرب، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون مفهومًا.

رابعها: قوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) والاستنباط منه لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه.

خامسها: قوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩) وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٦).

سادسها: قوله: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) وغير المعلوم لا يكون هدى.

سابعها: قوله: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ (القمر: ٥) وقوله: ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧) وكل هذه الصفات لا تحصل في غير المعلوم.

ثامنها: قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١٥).

تاسعها: قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥١) وكيف يكون الكتاب كافيًا، وكيف يكون ذكرى مع أنه غير مفهوم؟.

عاشرها: قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ فكيف يكون بلاغًا، وكيف يقع الإنذار به مع أنه غير معلوم؟ وقال في آخر الآية: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم: ٥٢) وإنما يكون كذلك لو كان معلومًا.

الحادية عشرة: قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤) فكيف يكون برهانًا ونورًا مبينًا مع أنه غير معلوم؟

الثانية عشر: قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤) فكيف يمكن اتباعه والإعراض عنه غير معلوم؟

الثالثة عشر: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩) فكيف يكون هاديًا مع أنه غير معلوم؟.

الرابعة عشر: قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) إلى قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٥) والطاعة لا تمكن إلا بعد الفهم فوجب كون القرآن مفهومًا.

وأما الأخبار: فقوله ﷺ: "إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنّتي". [(١)]

فكيف يمكن التمسك به وهو غير معلوم؟.

الاحتجاج بالمعقول:

أما المعقول فمن وجوهٍ:

الأول: أنه لو ورد شيء لا سبيل إلى العلم به؛ لكانت المخاطبة به تجري مجرى مخاطبة العربي باللغة الزنجية، ولما لم يجز ذاك فكذا هذا.

والثاني: أن المقصود من الكلام الإفهام، فلو لم يكن مفهومًا لكانت المخاطبة به عبثًا وسفهًا، وأنه لا يليق بالحكيم.

والثالث: أن التحدي وقع بالقرآن، وما لا يكون معلومًا لا يجوز وقوع التحدي به. [(٢)]

قلت: فهي على هذا لابد أن لها معنى، وجهل البعض بالمراد منها لا يضر؛ فإن الراسخين في العلم يعلمونه.

الوجه الثاني: ما ذكره أهل العلم في معانيها.

التمس أهل العلم لهذه الأحرف جملة من المعاني، منها:

الأول: أن يقال: إنها أسماءٌ للسور، وهو قول أكثر المتكلمين واختيار الخليل وسيبويه.

الثاني: اسم من أسماء القرآن.

الثالث: فواتح يفتح الله بها القرآن.

الرابع: اسم الله الأعظم.

الخامس: قَسَمٌ أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه.

السادس: هي حروف مقطعة من أسماء وأفعال، كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر.

السابع: هي حروف يشتمل كل حرف منها على معانٍ شتى مختلفة.

---

(١) الترمذي (٣٧٨٦).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٣: ٤).

الثامن: هي حروف من حساب الجمل. (١)

وبعد أن ذكر الطبري – رحمه الله – هذه الأقوال؛ قال:

والصواب من القول عندي في تأويل مفاتح السور التي هي حروف المعجم: أن الله ﷻ جعلها حروفًا مقطعةً، ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف؛ لأنه ﷻ أراد بلفظه الدلالة بكل حرف منها على معانٍ كثيرةٍ لا على معنى واحد. (٢)

وهذا مضمون ما قاله الشوكاني – رحمه الله – حيث قال:

والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله ﷻ، ولا تبلغها عقولنا، ولا تهتدي إليها أفهامنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك فلا تجاوزه(٣).

وإجمال القول في هذا المقام: أن هذه الأحرف لم يرد في تأويلها شيء صحيح من المعصوم ﷺ فيما علمنا، ولم يجمع أهل العلماء في تأويلها على وجهة معينة، فالأمر على ما ذكره بعض أهل العلم حيث قالوا: فمن ظهر له بعض الأقوال بدليلٍ فعليه اتباعه، وإلا فالوقف أولى(٤).

الوجه الثالث: هذه الأحرف حجةٌ على من عارض القرآن.

حيث قال المبرد واختاره جمع عظيم من المحققين: إن الله تعالى إنما ذكرها احتجاجًا على الكفار، وذلك أن الرسول ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف؛ تنبيهًا على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن ـ هذا مع أنه مركب من الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ـ فلما عجزتم عنه دل

---

(١) تفسير الطبري (٨٦– ٨٩)، تفسير الرازي (٢/ ٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٩٣).

(٣) فتح القدير (١/ ٤٢: ٤٣).

(٤) التسهيل لتأويل التنزيل (سورة البقرة ١/ ١٤٨).

ذلك على أنه من عند الله لا من البشر. [١]

وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. [٢]

وأقره الزمخشري ونصره أتم نصر. [٣]

و إليه ذهب الشيخ العلامة أبو العباس ابن تيمية وأبو الحجاج المزي. [٤]

قال ابن كثير: قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت؛ ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن، وجاء منها على حرف واحد كقوله: ﴿صٓ﴾ ﴿نٓ﴾ ﴿قٓ﴾، وحرفين ﴿حمٓ﴾، وثلاثة مثل ﴿الٓمٓ﴾، وأربعة مثل: ﴿الٓمٓرٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾، وخمسة مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ﴾ لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف واحد، وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة لا أكثر من ذلك.

وقال أيضًا: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١ - ٢)، ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ (آل عمران: ١-٣) وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة هذا الوجه لمن أمعن النظر. [٥]

الوجه الرابع: هذه الأحرف دالة على صدق النبوة.

قال الزرقاني: إن هذه الحروف من أعجب المعجزات، والدلالات على صدق

---

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٧٦).

(٣) الكشاف للزمخشري (١/ ٢٨).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٦).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٦: ٢٥٧)، الكشاف (١/ ٣٠)، أضواء البيان (٣/ ٥).

النبي ﷺ. وهذا مما ترضاه النفوس. ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة. وهذا النبي الأمي ﷺ قد نطق بها. والذي في أول السور أربعة عشر حرفًا منها، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفًا إن لم تعد الألف حرفًا برأسه، فالأربعة عشر نصفها، وقد جاءت في تسع وعشرين سورة، وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدت فيها الألف. وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهي: (فحثه شخص سكت) بنصفها، هي الحاء، والهاء، والصاد، والسين، والكاف.

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة ـ أي يضعف الاعتماد عليها ـ وهي ما تقدم، وإما مجهورة، وهي ثمانية عشر، نصفها ـ وهو تسعة ـ ذكرت في فواتح السور، ويجمعها (لن يقطع أمر).

والحروف الشديدة ثمانية، وهي (أجدت طبقك) أربعة منها في الفواتح، وهي (أقطك) إلى أخر الحروف بأصنافها.

ثم قال: فانظر كيف أتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية، إن لم تعدّ الألف، وجعلها في تسع وعشرين سورة عدد الحروف، وفيها الألف؟ وكَيف أتى بنصف المهموسة، ونصف المهجورة. ونصف الشديدة، ونصف الرخوة، ونصف المطبقة، ونصف المنفتحة.

ثم قال: وإني موقن أن المتعلم لو طُلِبَ منه أن يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة، فكيف يراعي الحروف الشديدة؟ وكيف يراعي نصف المجهورة في نفس العدد؟

إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة ﷺ، وهذا الوجه فيه إعجاز للعقول، وحيرة.

فيقال: كيف تنصف الحروف الهجائية، وتنصف أنواعها من مهموسة، وشديدة. . إلخ وهذه الأنواع لم يدرسها أحدٌ في العالم أيام النبوة! ثم لما ظهرت تلك الدراسات، وافقت تلك الحروف بأنصافها!

إن ذلك ليعطي العقول مثلًا من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون؛

فإذًا هو من الوحي، ومن دلائل صدق النبي ﷺ[1].

الوجه الخامس: هذه الأحرف تدل على أن هذا الكتاب من عند الله تعالى

قال الزرقاني: إن الله تعالى خلق العالم منظمًا محكمًا، متناسقًا متناسبًا، والكتاب السماوي إذا جاء مطابقًا لنظامه، موافقًا لإبداعه، سائرًا على منهاجه، دلّ ذلك على أنه من عنده، وإذا جاء الكتاب السماوي مخالفًا لنهجه، منافرًا لفعله، منحرفًا عن سننه كان ذلك الكتاب مصطنعًا، مفتعلًا، منقولًا، مكذوبًا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وذكر على ذلك أمثلة من العالم مبينًا بذلك أن لهذه الفواتح معاني في ضوء الوجوه السابقة، وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعاني فليس ذلك عيبًا في القرآن؛ إنما هو عيبٌ في استعداد بعض أفراد الإنسان. وكتاب الله خوطب به الخواص كما خوطب به العوام، فلا بدع أن يكون فيه ألفاظ لا يفهمها إلا الخاصة دون العامة[2].

قلت: فثبت بما ذُكر من معاني لهذه الحروف المقطعة عند أهل العلم أن لها معنى معلومًا، وليست من الطلاسم والكلام الذي لا يفهم.

فإذا مثلهم في ذلك كأعمى خرج ليلة البدر؛ فقال: إن القمر لا وجود له، أو جاء في وسط النهار، وقال: إن الشمس لم تطلع مع كونها طالعةً ظاهرةً، فهل يضر الشمس والقمر عمى هذه الأبصار؟!

الوجه السادس: لو كانت هذه الأحرف طلاسم -كما يزعمون- لطعن في ذلك اليهود والمشركون.

إن اليهود لم يُعْرَفْ عنهم الطعنُ في القرآن بمثل هذا، ولو كان هذا مطعنًا عندهم لكانوا أول الناس جهرًا به وتوجيهًا له؛ لأنهم كانوا أشد الناس عداوةً للنبي ﷺ والمسلمين، وهم يتمنون أن يجدوا في القرآن مغمزًا من أي نوعٍ يكون؛ ليهدموا به دعوة

---

(١) المناهل (١/ ١٩١: ١٩٢)، الكشاف (١/ ٢٩).

(٢) المناهل (١/ ١٩٢: ١٩٤).

الإسلام. كيف وهم يكفرون به حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق؟ [(١)].

قال السيوطي: لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولًا متداولًا عنهم؛ لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ؛ بل تلا عليهم ﴿حمٓ﴾ و ﴿صٓ﴾ وغيرها فلم ينكروا ذلك؛ بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوقهم إلى عثرة، وحرصهم على زلة، فدل على أنه كان أمرًا معروفًا بينهم لا إنكار فيه[(٢)].

الوجه السابع: على التسليم بأنها غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيان للناس.

قال الزرقاني: إن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيانٌ للناس وهدى ورحمة؛ فإن هذه الأوصاف يكفي في تحققها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه، ولا ريب أن الكثرة الغامرة في القرآن كلها بيان للتعاليم الإلهية، وهداية للخلق إلى الحق، ورحمة للعالم من وراء تقرير أصول السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا الجواب مبني على أحد رأيين للعلماء في فواتح تلك السور، وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا؛ بل هو من الأسرار التي استأثر الله بعلمها، ولم يُطْلِعْ عليها أحدًا من خلقه؛ وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية، وهي ابتلاؤه سبحانه وتمحيصه لعباده حتى يميز الخبيث من الطيب، وصادق الإيمان من المنافق، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ودلائل هدايته وشواهد رحمته في غير تلك الفواتح من كتابه بين آيات وسور كثيرة لا تعتبر تلك الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر أو غيضًا من فيض، فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم ولو لم يفهموا معناها، ولم يدركوا مغزاها ووسع علمه كل شيء عرفه الخلق، أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٥).

---

(١) مناهل العرفان (١/ ١٨٦).

(٢) الإتقان (٣/ ٢٧).

ونظير ذلك أن تكون أستاذًا معلمًا، وتريد أن تقف على مدى انتباه تلاميذك، ومبلغ ثقتهم فيك، وفي علمك، بعد أن زودتهم منك بدراسات واسعة، وتعاليم واضحة، فإنك تختبرهم في بعض الأوقات بكلمات فيها شيء من الألغاز والخفاء؛ ليظهر الذكي من الغبي؛ والواثق بك الوامق لك من المتشكك فيك، المتردد في علمك وفضلك، فأما الواثق فيك فيعرف أن تلك الألغاز والمعميات صدرت عن علم منك بها وإن لم يعلم هو تفسيرها، ويعرف أن لك حكمة في إيرادها على هذه الصورة من الخفاء وهي الاختبار والابتلاء، وأما المتشكك فيك فيقول: ماذا أراد بهذا؟ وكيف ساغ له أن يورده؟ وما مبلغ العلم الذي فيه؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التي زودته بها من قبل ذلك، وكلها من أعلام العلم وآيات الفضل.

ولا يفوتنَّك في هذا المقام أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه أن يعلم سبحانه ما كان جاهلًا منهم ـ حاشاه حاشاه ـ فقد وسع كل شيء علمًا؛ إنما المقصود منه إظهار مكنونات الخلق، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم فلا يتهمون الله في عدله وجزائه إذا جعل من الناس أهلًا لثوابه وآخرين لعقابه. [1]

الوجه الثامن: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾.

قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧)

فقولهم آمنا به كل من عند ربنا دليل على الاستسلام والخضوع التام لما جاء من عند الله تعالى حتى لو لم تبلغه العقول، وهذه أسمي الغايات وأحسن الحكم.

وذلك أن الأفعال التي كلفنا بها قسمان: منها ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا: كالصلاة والزكاة والصوم؛ فإن الصلاة تواضع محض وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة. ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه: كأفعال الحج فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات، والسعي

(١) المناهل (١/ ١٨٦-١٨٨).

بين الصفا والمروة، والرمل، والاضطباع، ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني؛ لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه، أما الطاعة في النوع الثاني فإنه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم؛ لأنه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال فلم لا يجوز أيضًا أن يكون الأمر كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمرنا الله تعالى تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر؛ بل فيه فائدة أخرى، وهي أن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه متلفتًا إليه أبدًا، ومتفكرًا فيه أبدًا، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله تعالى والتفكر في كلامه، فلا يبعد أن يعلم الله تعالى أن في بقاء العبد ملتفت الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبدًا مصلحة عظيمة له، فيتعبده بذلك تحصيلًا لهذه المصلحة(١).

الوجه التاسع: توضيح أهل العلم لها من معان وأسرار يدل على أنها ليست من الطلاسم

فقد بوب أهل العلم في علوم القرآن بابا مخصوصا حول أسرار الفواتح، والتمسوا لها المعاني.

قال ابن القيم: تأمل سر (الم) كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولًا كانت همزة وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط المخارج وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفتين، وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية، فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا؛ فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٥).

مع تضمنها سرًا عجيبًا وهو أن الألف البداية، واللام التوسط، والميم النهاية فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه، فمشتملة على تخليق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة، وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم.

وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن؛ فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي: الجهر والشدة والاستعلاء والإطباقآ، والسين مهموس رخو مستفل صفيري منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف.

وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف؟ فمن ذلك "ق" والسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة، وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح.

وإذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة "ص" من الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار مع النبي أجعل الآلهة لها واحد إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانيًا في شأن بنيه، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل

اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير ص وسورة ق غير حرفها؟ وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف والله أعلم(١).

قلت: فظهر بما ذكرنا من الأوجه أن هذه الحروف لها معان تكلم فيها أهل العلم، فليست من الطلاسم ولا من الكلام الذي لا يفهم وبظهور المعني تظهر الحكمة.

الوجه العاشر: الرد على قولهم: ماذا يفعل الذين يقطنون في أماكن نائية، وليس عندهم مفسرين للغة؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أننا لا نسلم بوجود أماكن نائية لدرجة أنه لا يمكنها أن تتصل بأهل العلم أو تسمع منهم، وبخاصة في هذه الأيام التي صار العالم فيها كقرية صغيرة بسبب هذا التقدم العلمي ووسائل الاتصال والنشر الحديثة.

الوجه الثاني: أن هؤلاء الذين هم في الأماكن النائية نقول لهم هل وصلكم القرآن أم لا؟

والظاهر أنه وصلهم؛ لأنهم يسألون عن التفسير، ومادام القرآن وصلهم فإننا نقول لهم: الجهة التي أوصلت إليكم القرآن والإسلام قبل ذلك توصل إليكم ما غمض عنكم من التفسير والأحكام إن شاء الله تعالى.

الوجه الثالث: نحن نسأل هذا المتكلم، أين هذه الأماكن النائية التي انعدمت صلتها بنا ونحن أمام الله مسئولون عن توصيل الدعوة بما تحتاجه إليهم، فما عليكم إلا أن تقولوا لنا أين هذه الأماكن؟

الوجه الرابع: وعلى التسليم بوجود أماكن بهذا الوصف؛ فإما أن يكون بلغها الإسلام أو لا، فإن لم يكن الإسلام بلغهم، ولم يعلموا عنه لا اسمًا ولا رسمًا، فكيف يسألون عن القرآن وعن فهمه؟ وأيضًا ماداموا كذلك وماتوا ولم يصلهم الإسلام؛ فإن الله تعالى قال في محكم كتابه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩٣)، البرهان في علوم القرآن (١/ ١٦٨).

وإن كان الإسلام وصلهم فإما أن يكونوا دخلوا فيه أو لا، فإن لم يكونوا دخلوا في الإسلام، فإن في المحكم الواضح الدلالة من كتاب الله؛ بل في الكون وفي أنفسهم ما يدعوهم إلى الإسلام، فإن دخلوا فيه وأرادوا أن يعرفوا معني هذه الكلمات فإن هذا باب من أبواب العلم.

لكن هل يجب عليهم ذلك؟ والجواب لا يجب؛ لأن العلم منه ما هو فرض ومنه ما هو فرض كفايه.

قال أبو عمر: قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع. واختلفوا في تلخيص ذلك، والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه، نحو: الشهادة باللسان، والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له لا شبه له، ولا مثل، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، خالق كل شيء، و إليه مرجع كل شيء. [1]

قلت: فثبت أن معرفة تفسير هذه الحروف ليس واجبًا متعينًا على جميع الأفراد، وإنما يقوم به البعض بمعرفته؛ لينذر قومه ويزيل عنهم الشبهة.

لكن كيف يتعلم هذا البعض معني هذه الكلمات؟

والجواب عن ذلك في القرآن حيث قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ **وكيف يسأل؟**

والجواب من وجوه:

١- يرحل إلى العلماء.

٢- أن يدعو العلماء إلى بلادهم.

٣- المراسلة.

---

(١) مختصر جامع بيان العلم وفضله (١٢-١٥).

٤- القراءة في كتب التفسير.

الوجه الخامس: قال الله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فهذا الذي يسكن الأماكن النائية، ويحتج له على القرآن بأنه لا يفهم الحروف المقطعة.

وأقول: وهو أيضًا لايفهم كثيرًا من الأحكام وكثيرًا من الآيات، فهل هذا عيب في الأحكام أو سائر الآيات؟! أم أنه يجب عليه أن يطلب العلم بوسائله المشروعة، وأيضًا فإنه يجهل كثيرًا من أمور دنياه ومن الحقائق العلمية ولا يستطيع تفسيرها ولا الوصول إليها. فهل هذا عيب على الحقائق العلمية؟ أم يقال: إن هؤلاء الناس يحتاجون إلى تعلم ودراسة ونحو ذلك. فالذي ينبغي على هؤلاء أن يطلبوا الحق ويقبلوه، وعلامة ذلك أن تكون قاعدتهم في القبول والرد لا على حسب الأهواء.

والرد على قولهم ماذا يفعل غير العرب؟

فجوابه في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ أي سهلناه للحفاظ، وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب علم لحفظه فيعان عليه أو هيأناه للذكر؟

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتابٌ يقرأ كله ظاهرًا إلا القرآن. . . فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذَّكَّروا ما فيه، أي يفتعلوا الذكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم. وقوله ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قارئ يقرؤه، أو فهل من طالب خير و علم فيعان عليه؟ [1].

فهذا تنويه بشأن القرآن، وأنه من عند الله، وأن الله يسره وسهله لتذكر الخلق بما تحتاجونه من التذكير مما هو هدي وإرشاد وهذا التيسير ينبئ بعناية الله تعالى به مثل قوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ تبصرة للمسلمين ليزدادوا إقبالًا على مدارسته وتعريضًا

(١) القرطبي (١١/ ١٣٠، ١٣١).

للمشركين عسي أن عن صدودهم عنه كما أنبأ عنه قوله ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ وتأكيد الخبر باللام وحرف التحقيق مراعي فيه حال المشركين الشاكين في أنه من عند الله، والتيسير إيجاد اليسر في الشيء كقوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ أو قول كقوله ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ واليسر السهولة وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيء.

وإذ كان القرآن كلامًا فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يُراد من الكلام وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به بدون كلفة على السامع ولا إغلاق كما يقولون: يدخل للأذن بلا إذن. وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني؛ فأما من جانب الألفاظ فلذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخف حفظها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني، فبوضوح انتزاعها من التراكيب ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له.

هذا وقد فرض الله على علماء القرآن تبيينَه تصريحًا كقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، وتعريضًا كقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾، فإن هذه الأمة أجدر بهذا الميثاق. وفي الحديث: " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلُون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلتْ عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده ". (١)

قلت: فظهر بهذه الآية أن الله وعد وأخبر أن القرآن ميسر كله لكل أجناس البشر الذين يطلبون الحق ولهذا نري في الناس من لا يحسن العربية شيًا لكن يقرأ القرآن قراءة صحيحة فسبحان من يسر القرآن للذكر.

فإن قال هذا صعب فالجواب من وجوه:

الأول: أنه تلزمه القراءة هكذا ولا يجوز له أن يترجم القرآن ترجمة حرفية ومن دخل

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٨، ١٨٩).

ديننا تعلم لغة كتابنا. [١]

الثاني: أن الأجر يزداد مع المشقة وقد أخبر النبي ﷺ أن الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران. [٢]

الثالث: أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها وقد قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

قولهم كيف تفسر إلى اللغات الأخرى؟

فقد بينا في المقدمة أنه يقوم عالم من العلماء بصياغة تفسير سهل يختار فيه القول الراجح عنده ثم يترجم هذا التفسير وهذا في سائر القرآن ومنه هذه الحروف. [٣]

وعلى هذا فقد ظهر لنا وللسائل معني هذه الكلمات عند أهل العلم والحكمة منها حتى لو لم يكن المعني ظاهر.

وكيف يفعل الذين يسكنون الأماكن النائية وغير العرب وكيف تفسر إلى اللغة الانجليزية أو غيرها وبهذا تثار هذه الشبهة إن شاء الله على أصحابها لأن الكلمات لها معني وهي من القرآن السهل الميسر، غير أنه بقيت مسألة.

الوجه الحادي عشر: الرد على قولهم: هل يحتاجون الى مفسرين وجهابذة في اللغة لكي نعرف ماذا يقصد بكلمة الم، الر، كهيعص. [٤]

فجوابه أولًا: إنهم لا يحتاجون إلى الجهابذة والخبراء في فواتح السور فحسب بل يحتاجون إليهم في فهم أكثر كلمات القرآن الكريم لأن ذلك علم من علوم القرآن بل من

(١) انظر المقدمة.

(٢) الحديث عند البخاري (٤٦٥٣)، ومسلم (٧٩٨).

(٣) انظر المقدمة.

(٤) قلت: هذا من أعجب العجب فليقل لنا هذا المتكلم عن أي كتاب ألفه فاضل في فن من الفنون وعمل فيه جهده وخبرته ثم فهمه غير أهل العلم هذا الفن من غير استشراح لكله أو لبعضه. فكيف إذا كان الكتاب كلام الله رب العالمين فهل يحيط هؤلاء بمعانيه من غير رجوع إلى أهل الفن والخبرة أمثال ابن عباس الذي دعا له النبي ﷺ فقال "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" وهؤلاء أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم.

علوم الإسلام العظيمة وهو علم التفسير والتأويل.

وهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية. (١)

نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة عن تجربة ولا سهلة متيسرة ولا رائعة مدهشة إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم خالقه الحكيم وبديهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره.

وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن وهو ما نسميه بعلم التفسير خصوصًا في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم.

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر وإنقاذ الناس وإعزاز العالم، وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن وتوفروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها. وهنا تلمح السر في تأخر مسلمة هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف في أيديهم ووجود ملايين الحفاظ بين ظهرانيهم وعلى رغم كثرة عددهم واتساع بلادهم في حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحًا مدهشا كان وما زال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين مع أن أسلافنا أولئك كانوا في قلة من العدد وضيق من الأرض وخشونة من العيش ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ومع أن حفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة.

أجل إن السر في ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية وملكاتهم السليمة العربية من ناحية وبما يشرح رسول الله ﷺ ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله كما قال سبحانه

---

(١) المناهل (٢/ ٦).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)].

ثانيًا: فإن القرآن نزل بلسان عربي في زمان أفصح العرب فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي ﷺ مثل قولهم: وأينا لم يظلم نفسه حينما نزل قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ففسره النبي ﷺ بالشرك واستدل بقوله إن الشرك لظلم عظيم[(٢)].

ومما تقدم يتبين أن فائدة التفسير هي التذكر والاعتبار ومعرفة هداية الله في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وسمي علم التفسير لما فيه من الكشف والتبين[(٣)].

قلت: وهذا التفسير لابد له من جهابذة يقومون به شأن سائر العلوم والتخصصات ومن ينكر هذا؟!.

ورد عن ابن عباس أنه قال: إن التفسير أربعة: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته وتفسير تفسره العرب بألسنتها وتفسير تفسره العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله.

قال الزركشي: وهذا تقسيم صحيح:

١- فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم وذلك شأن اللغة والإعراب فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسميات أسمائها ولا يلزم ذلك القارئ ثم إن كان ما تتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم كفي فيه خبر الواحد والاثنين والاستشهاد بالبيت والبيتين وإن كان مما يوجب العلم لم يكف ذلك بل لا بد أن يستفيض ذلك اللفظ وتكثر شواهده من الشعر وأما الإعراب فما كان اختلافه محيلا للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه ليتوصل المفسر إلى معرفة الحكم وليسلم القارئ من اللحن وإن لم يكن محيلًا للمعنى وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن ولا يجب على المفسر

---

(١) المناهل (٢/٨-١٠).

(٢) البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).

(٣) المناهل (٢/ ١١).

ليتوصل إلى المقصود دونه على أن جهله نقص في حق الجميع إذا تقرر ذلك فما كان من التفسير راجعا إلى هذا القسم فسبيل المفسر التوقف فيه على ما ورد في لسان العرب وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين.

٢- وأما مالا يعذر واحد بجهله وهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد وكل لفظ أفاد معنى واحدًا جليًا لا سواه يعلم أنه مراد الله تعالى فهذا القسم لا يختلف حكمه ولا يلتبس تأويله إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى فاعلم أنه لا إله إلا الله وأنه لا شريك له في إلهيته وإن لم يعلم أن لا موضوعة في اللغة للنفي وإلا للإثبات وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر. فما كان من هذا القسم لا يقدر أحد يدعي الجهل بمعاني ألفاظه لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة.

٣- وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجرى مجرى الغيوب نحو الآي المتضمنة قيام الساعة ونزول الغيث وما في الأرحام وتفسير الروح والحروف المقطعة وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف من أحد ثلاثة أوجه:

إما نص من التنزيل، أو بيان من النبي ﷺ، أو إجماع الأمة على تأويله فإذا لم يرد فيه توقيف من هذه الجهات علمنا أنه مما استأثر الله تعالى بعلمه.

٤- ما يرجع إلى اجتهاد العلماء وهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل وهو صرف اللفظ إلى ما يئول إليه فالمفسر ناقل والمؤول مستنبط وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه.

وقال أيضًا: والحق أن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ومنه ما لا يتوقف قوله ويكفي في تحصيله التفقه على الوجه المعتبر.

ثم قال: واعلم أن القرآن قسمان احدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره وقسم لم يرد.

والأول ثلاثة أنواع، إما أن يرد التفسير عن النبي ﷺ أو عن الصحابة، أو عن رءوس التابعين فالأول يبحث في عن صحة السند والثاني ينظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتمادهم وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك وإن تعذر قدم ابن عباس لأن النبي ﷺ بشره بذلك حيث قال اللهم علمه التأويل. وقد رجح الشافعي قول زيد في الفرائض لقوله ﷺ أفرضكم محمد زيد فإن تعذر الجمع جاز للمقلد أن يأخذ بأيها شاء وأما الثالث وهم رءوس التابعين إذا لم يرفعوه إلى النبي ﷺ ولا إلى أحد من الصحابة ﷺ فحيث جاز التقليد فيما سبق فكذا هنا وإلا وجب الاجتهاد.

والثاني ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين وهو قليل وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق وهذا يعتني به الراغب كثيرًا في كتاب المفردات فيذكر قيدًا زائدًا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتصه من السياق. والذي يجب على المفسر البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه وهو كتحصيل اللبن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه. وليس ذلك في علم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع وغيره وهو كما قالوا إن المركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته لأن الجزء سابق على الكل في الوجود من الذهبي والخارجي فنقول النظر في التفسير هو بحسب أفراد الألفاظ وتراكيبها[١].

قلت: وبهذا يظهر أن الحاجة إلى العلماء المتخصصين في فهم القرآن أمر لا يطعن في القرآن ولا في هدايته، والله أعلم.

* * *

(١) البرهان للزركشي (٢/ ١٦٤ – ١٧٤)، والإتقان (٢/ ١٤١ – ٢٥٩).

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦).

١ـ لما ضرب محمدﷺ المثل بالذباب والعنكبوت وذكر النحل والنمل، قال المعارضون: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة! إننا لا نعبد إلهًا يذكر هذه الأشياء، فقال محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ فأجابهم من جنس قولهم ولم يأت بجديد.

٢ـ كان ينبغي أن يقول بعوضة فما تحتها لا بعوضة فما فوقها، فما تحتها هو الصحيح في مثل هذا الموقف، وقد حاول علماء المسلمين تفسير هذا فقالوا: أي دونها في الصغر[1].

الجواب على هذه الشبهة بعون الله تعالى من وجوه:

الوجه الأول: الآية حوت علمًا وبلاغة عظيمة.

الوجه الثاني: أين الأمانة في النقل؟

الوجه الثالث: بلسان عربي مبين.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية حوت علمًا وبلاغة عظيمة.

قول المعترض: إن محمدًا ﷺ لم يأت بجديد، فهذا غير صحيح؛ بل إن الآية إنما حوت علمًا وبلاغة عظيمة نذكر من ذلك:

١ـ إثبات صفة الحياء لله ﷻ على الوجه الذي يليق به سبحانه، وهذا مما لا يعرف بالعقل.

٢ـ بيان شيء من علل ضرب الأمثال بالشيء دق أو عظم، وهو ابتلاء، وذلك يتضح في بقية الآية من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (البقرة: ٢٦).

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٦).

٣ـ كونكم تقولون: إن ما ردَّ به النبيﷺ هو من جنس قولهم! فهذا لا يقال بسببه: إن القرآن ليس من عند الله؛ لأن من استعظم أمر الأمثال إنها سأل فأجابه القرآن، ومعلوم بداهة أن الإجابة تحوي جزءًا من السؤال الذي تجاوب عليه، ومثل هذا جاء كثيرًا في كتاب الله، فالنبيﷺ قد طُرح عليه أكثر من عشرات الأسئلة، وقد جاءت الإجابة في الكتاب أو السنة أو كليهما معًا مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾، فأي جديد يريد المعترض؟! أن يُسأل عن أمر فتكون الإجابة عن أمر آخر، أو بلغة أخرى حتى يكون قد أتى بجديد! !

الوجه الثاني: أين الأمانة في النقل؟

نَقْلُ المعترض عن الطبري فيه شيء من عدم الدقة والأمانة العلمية للنقل، فأصول النقل العلمية تقتضي عدم تقطيع الكلام بشكل يوهم غير ما أراده قائله، أو بشكل يعبر عن وجهة نظر لم يردها القائل، وذلك يتضح في نقل المعترض عن الطبري تفسير- فما فوقها ـ بما دونها في الصغر، وترك تعليق الطبري إذ قال: (وهذا - أي التفسير بما دونها في الصغر - قول خلاف تأويل أهل العلم الذين ترتضى معرفتهم بتأويل القرآن). (١)

الوجه الثالث: بلسان عربي مبين.

إن لغة العرب التي خاطبنا الله ﷻ بها في كتابه وخاطبنا بها النبيﷺ محفوظةٌ -ولله الحمد- فقول المعترض: ولقد حاول علماء المسلمين تفسير هذه الآية بما دونها في الصغر، كلام لازمه أن أي أحدٍ له أن يُدْخِلَ في لغة العرب ما يشاء، وهذا معلوم بطلانه بالضرورة عند كل من له أدنى مسكة من علم في اللغة.

إذن المرجع في فهم قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا ﴾ هي اللغة العربية وإليك بيان ذلك:

قال ابن قتيبة: من ذلك فَوْق؛ تكونُ فوق، وتكون بمعنى دون، ومنه قوله تعالى:

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٠٦).

﴿بعوضة فما فوقها﴾؛ أي فما دُونها. [١]

قال الجاحظ: في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ يريد فما دونها، وهو كقول القائل: فلان أسفل الناس، فتقول: وفوق ذلك! تضع قولك فوق مكان قولهم: هو شر من ذلك، وقال الفراء: فما فوقها في الصغر. [٢]

قال ابن منظور: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ قال أبو عبيدة: فما دونها، كما تقول إذا قيل لك: فلان صغير تقول: وفَوْقَ ذلك؛ أي أصغر من ذلك، وقال الفراء: فما فَوْقَها؛ أي أعظم منها يعني الذُّباب والعَنْكبوت[٣].

وحاصل القول ما قاله الآمدي: وليس لهذه اللغة عندهم إلا وجهان:

أحدهما: أن يكون (فما فوقها) بمعنى فما هو أكبر منها؛ لأن البعوضة غاية في الصغر، فيكون المعنى: أنهﷻ لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بين هذا الشيء الذي هو نهاية الصغر إلى ما هو فوقه أي: ما زاد عليه وتجاوز.

والوجه الآخر: أن يكون (فما فوقها) بمعنى فما فوقها في الصغر، وهذا قول أبي العباس محمد بن يزيد المبرد وأبي إسحاق الزجاج والكسائي من قبلهما وأبي عبيدة وما أظن غير هؤلاء (من النحويين) يقول إلا مثل قولهم. [٤]

قال الزمخشري: فيه – أي في قوله "فما فوقها" – معنيان:

أحدهما: فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلًا، وهو القلّة والحقارة، نحو قولك لمن يقول: فلان أسفل الناس وأنذلهم: هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة.

---

(١) المزهر (١/ ١٢٢).

(٢) فقه اللغة ١/ ٨٥.

(٣) لسان العرب (١٠/ ٣١٥).

(٤) الموازنة (١/ ٤٢).

والثاني: فما زاد عليها في الحجم، كأنه قصد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت؛ لأنهما أكبر من البعوضة، كما تقول لصاحبك ـ وقد ذمّ من عرفته يشح بأدنى شيء ـ فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان كأنك قلت: فضلًا عن الدرهم والدرهمين.[١]

ولقد أحسن ابن عاشور فقال: وأصل فوق، اسم للمكان المعتلي على غيره فهو اسم مبهم فلذلك كان ملازمًا للإضافة؛ لأنه تتميز جهته بالاسم الذي يضاف هو إليه، فهو من أسماء الجهات الملازمة للإضافة لفظًا أو تقديرًا، ويستعمل مجازًا في المتجاوز غيره في صفة تجاوزًا ظاهرًا تشبيهًا بظهور الشيء المعتلي على غيره على ما هو معتل عليه، ففوق في مثله يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة؛ سواء كانت من المحامد أو من المذام، يقال: فلان خسيس وفوق الخسيس، وفلان شجاع وفوق الشجاع، وتقول: أُعطِيَ فلان فوق حقه أي زائدًا على حقه، وهو في هذه الآية صالح للمعنيين؛ أي ما هو أشد من البعوضة في الحقارة وما هو أكبر حجمًا، ونظيره قول النبي ﷺ: "ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة"[٢]، يحتمل أقل من الشوكة في الأذى مثل نَخْبة النملة كما جاءَ في حديث آخر، أو ما هو أشد من الشوكة مثل الوخز بسكين، وهذا من تصاريف لفظ فوق في الكلام ولذلك كان لاختياره في هذه الآية دون لفظ أقل ودون لفظ أقوى مثلًا موقع من بليغ الإيجاز[٣].

* * *

(١) الكشاف (١/ ٧١ – ٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٨٣).

٣- شبهة: ادعاؤهم: اعتراض الملائكة على الله تعالى.

نص الشبهة:

يقول المعترض: قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

تقول هذه العبارة: إن الله استشار الملائكة قبل خلق آدم فاعترضوا عليه، وهو غير معقول؛ فإن الله غني عن ذلك، يَا لَعُمْقِ غِنَى الله وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاءِ! «لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ؟ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيرًا؟ أَوْ مَنْ سَبَقَ فَأَعْطَاهُ فَيُكَافَأَ؟ ». لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. (رومية ١١/ ٣٣-٣٦). فالله غني عن الاستشارة؛ لأنه عالم بكل شيء.

ويعلمنا كتاب الله أن الملائكة هم عباده المعصومون عن الخطأ والزلل، أما عبارة القران فتفيد أن الملائكة اقترفوا أربع معاصٍ وهي:

١ـ اقترفوا الغيبة في حق من يجعله الله خليفة بأن ذكروا عيوبه.

٢ـ في كلامهم العُجب وذكر محاسن النفس.

٣ـ قالوا ما قالوه من نسبة الإفساد والسفك رجمًا بالظن، وإلا شاركوا الله في علم الغيب.

٤ـ فيه إنكار على الله فيما يفعله وهو من أعظم المعاصي[1].

ولما رأى علماء المسلمين هذا الخطأ في القرآن قسموا الملائكة إلى قسمين: قسم في السماء وقسم في الأرض، وقالوا: إن الذين في الأرض هم الجن وقد أفسدوا، فإذا سلمنا بصدق قولهم فلا يصح أن الله يستشيرهم.

ولما رأوا أنه لا يجوز أن يتصف الملائكة بعلم الغيب قالوا: إن الله أخبرهم بما سيكون من بني آدم من سفك الدماء، أو أنهم رأوا أن آدم خلق من أخلاط مركبة علموا أنه يكون

(١) الرازي في تفسير البقرة (٢/ ٣٠).

فيه الحقد والغضب؛ ومنهما يتولد الفساد وسفك الدماء، مع أن التوراة تخبرنا أن الله خلق آدم في البر والطهارة والقداسة منزها عن الحقد وباقي الرذائل.

لقد تضمنت هذه الشبهة عدة اعتراضات:

١ـ كيف يستشير الله الملائكة في خلق آدم وهو الغني عن ذلك؟

٢ـ كيف نسب القرآن للملائكة هذه الأخطاء مع أنهم معصومون؟

٣ـ الغيبة لآدم عليه السلام.

٤ـ العجب بالنفس.

٥ـ وصفوا ذرية آدم بالإفساد في الأرض بمجرد الظن.

٦ـ أنكروا على الله تعالى هذا الأمر.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: فضل الملائكة في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: الرد على الاعتراض الأول.

الوجه الثالث: بيان عصمة الملائكة، والرد على الاعتراضات الأخرى.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل الملائكة في القرآن والسنة.

أولًا: الملائكة كرام بررة:

وصف الله تعالى الملائكة بأنهم كرام بررة: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ (عبس: ١٥: ١٦) أي: القرآن، بأيدي سفرة أي: الملائكة؛ لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بأنهم كرام بررة أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارَّة طاهرة كاملة.

ثانيًا: استحياء الملائكة: من أخلاق الملائكة التي أخبرنا الرسول ﷺ بها الحياء، فعن عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي، كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه،

فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه - قال محمد ولا أقول ذلك في يوم واحد - فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة"(١).

ثالثا: علم الملائكة:

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه، ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة: ٣١- ٣٢)، فالإنسان يتميز بالقدرة على معرفة الأشياء واكتشاف سنن الكون، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقي المباشر عن الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: مُنظّمون في كل شؤونهم:

الملائكة منظمون في عبادتهم لله تعالى، وقد حثنا الرسول ﷺ على الاقتداء بهم في ذلك، فعن جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: "مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس؟ اسكنوا في الصلاة"، قال: ثم خرج علينا فرآنا حلقًا فقال: ما لي أراكم عزين؟ قال: ثم خرج علينا فقال: "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ " فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: "يتمون الصفوف الأُول ويتراصون في الصف"(٢).

وفي يوم القيامة يأتون صفوفًا منتظمة: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر:٢٢) ويقفون صفوفًا بين يدي الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٠١).

(٢) مسلم (٤٣٠).

﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ (النبأ: ٣٨).

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك"[1].

خامسًا: طاعتهم لله تعالى: وأدلة ذلك كثيرة منها:

الأول: قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠)، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ (الصافات: ١٦٦)، والله تعالى ما كذبهم في ذلك فثبت بها مواظبتهم على العبادة.

الثاني: مبادرتهم إلى امتثال أمر الله تعظيمًا له وهو قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (الحجر: ٣٠).

الثالث: أنهم لا يفعلون شيئًا إلا بوحيه وأمره؛ وهو قوله: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنبياء: ٢٧).

فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: "ألا تزورنا أكثر مما تزورنا"، قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا﴾ (مريم: ٦٤) الآية[2].

سادسًا: وصف قدرتهم وذلك من وجوه:

الأول: أن حملة العرش وهم ثمانية يحملون العرش والكرسي، ثم إن الكرسي الذي هو أصغر من العرش أعظم من جملة السموات السبع لقوله سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فانظر إلى نهاية قدرتهم وقوتهم.

الثاني: أن علوَّ العرش شيء لا يحيط به الوهم؛ ويدل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿تَعۡرُجُ

---

(١) مسلم (١٩٧)، عالم الملائكة لعمر الأشقر (١٩).

(٢) البخاري (٣٠٤٦).

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ (المعارج: ٤)، ثم إنهم لشدة قدرتهم ينزلون منه في لحظة واحدة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨)، فصاحب الصور يبلغ في القوة إلى حيث إن بنفخة واحدة منه يصعق مَنْ في السموات والأرض، وبالنفخة الثانية منه يعودون أحياء.

والرابع: أن جبريل عليه السلام بلغ في قوته إلى أن قلع جبال آل لوط وبلادهم دفعة واحدة.[1]

الخامس: عظم سرعتهم: فأعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء، فهو ينطلق بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية الواحدة، أما سرعة الملائكة فهي فوق ذلك، وهي سرعة لا تقاس بمقياس البشر، فكان السائل يأتي إلى الرسول ﷺ فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة سبحانه وتعالى، واليوم لو وجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى مليار سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في الآفاق.[2]

سابعًا: وصف خوفهم ويدل عليه وجوه:

الأول: أنهم مع كثرة عباداتهم وعدم إقدامهم على الزلات البتة يكونون خائفين وجلين حتى كأن عباداتهم معاصٍ؛ قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠)، وقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

الثاني: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ (سبأ: ٢٣)[3].

الوجه الثاني: الرد على الاعتراض الأول

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ١٥١).

(٢) عالم الملائكة لعمر الأشقر (٢٢).

(٣) الرازي (٢/ ١٥١).

زعم المعترض أن قول الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ كان على سبيل الاستشارة، وللرد عليه نقول وبالله تعالى التوفيق:

أولًا: إن أمور الغيب التي أخفاها الله تعالى عنا، والحِكم المرجوة من العبادات لا نستطيع الاطلاع عليها، أو معرفتها إلا بما عَلَّمَنا الله تعالى إياه في كتابه الكريم، أو ورد في السنة الصحيحة عن المعصوم ﷺ، أو عن أحد الصحابة المكرمين بشرط ثبوت الإسناد عنه، ويكون هذا الوارد عن هذا الصحابي الجليل من قبيل الاستئناس وليس من قبيل الجزم به، فطالما أن هذا الأمر لم يرد لا في كتاب ولا سنة صحيحة فنحن متوقفون فيه، ونَكِلُ علمه إلى الله تعالى، ولا نتكلم فيه برأينا، ونقول: الله أعلم، ولا ينقص هذا الأمر من عظمة ديننا ولا من إيماننا بربنا ونبينا؛ بل هو على العكس تمامًا هو من أساس العبودية والتسليم لله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧)، على أننا ننفي تمامًا أن يكون الله تعالى قد استشار الملائكة في خلق آدم عليه السلام، والاستشارة دائمًا تكون لطلب رأي ليس عندك أو لزيادة الاطمئنان؛ وفي كلتا الحالتين يدل هذا على عدم العلم بالأمور، ونحن نعتقد يقينًا أن الله تعالى منزه عن هذا، كيف وهو القائل في نفس الآية: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فنحن أشد تنزيهًا وتعظيمًا لله تعالى من غيرنا، ولله الحمد والمنة.

ثانيًا: استنبط بعض المفسرين أسبابًا لقول الله تعالى هذا الأمر للملائكة، وكلها من قبيل الاجتهاد فلا نجزم بشيء منها، ومن هذه الأقوال:

١- ليسألوا ذلك السؤال ويُجابوا بما أُجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانةً لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم.

٢- ليعلِّم عبادَه المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيًا عن المشاورة.[1]

٣- أن الله تعالى علم في نفس إبليس كبرًا، فأحب أن يُطلع الملائكة عليه، وأن يظهر ما

---

(١) الزمخشري (١/ ١٥٣)، وتفسير الرازي (٢/ ١٥٢).

سبق إليه في علمه؛ رواه الضحاك عن ابن عباس.[١]

٤- أنه أراد أن يبلو طاعة الملائكة؛ قاله الحسن.

٥- أنه لما خلق النار خافت الملائكة، فقالوا: ربنا، لمن خلقت هذه؟ قال: لمن عصاني، فخافوا وجود المعصية منهم، وهم لا يعلمون بوجود خلق سواهم، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)؛ قاله ابن زيد.[٢]

٦- أنه أراد إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه، فأخبرهم حتى قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها؟ فأجابهم: إني أعلم ما لا تعلمون.

٧- أنه أراد تعظيم آدم بذكره بالخلافة قبل وجوده؛ ليكونوا معظمين له إن أوجده.

٨- أنه أراد إعلامهم بأنه خلقه ليسكنه الأرض، وإن كان ابتداء خلقه في السماء[٣].

وكما سبق لا نستطيع الجزم بواحد منها خشية القول على الله تعالى بلا علم، فهذا مما حرَّمه الله تعالى علينا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف/ ٣٣).

الوجه الثالث: بيان عصمة الملائكة، والرد على الاعتراضات الأخرى.

كيف نَسَبَ الله تعالى للملائكة هذه الأخطاء الشنيعة مع أنهم معصومون؟

والجواب: الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب، والأدلة على ذلك من عدة أوجه:

الأول: قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦) إلا أن هذه الآية مختصة بملائكة النار، فإذا أردنا الدلالة العامة تمسكنا بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥٠) فقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يتناول جميع

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٥٧)، وهو ضعيف للانقطاع بين الضحاك وابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٦٦)، وقال أحمد شاكر: ضعيف جدًّا.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٥٠).

فعل المأمورات وترك المنهيات؛ لأن المنهي عن الشيء مأمور بتركه، فإن قيل: ما الدليل على أن قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يفيد العموم؟ قلنا: لأنه لا شيء من المأمورات إلا ويصح الاستثناء منه، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل.

والثاني: قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٧) فهذا صريح في براءتهم عن المعاصي وكونهم متوقفين في كل الأمور إلا بمقتضى الأمر والوحي.

والثالث: أنه تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في البشر بالمعصية ولو كانوا من العصاة لما حسن منهم ذلك الطعن.

الرابع: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومن كان كذلك امتنع صدور المعصية منه.[1]

وعلى هذا الأصل نجيب على الاعتراضات واحدًا واحدًا.

وأولها: الغيبة لآدم عليه السلام، **نقول وبالله تعالى التوفيق:**

١- إن محل الإشكال في خلق بني آدم إقدامهم على الفساد والقتل، ومن أراد إيراد السؤال وجب أن يتعرض لمحل الإشكال لا لغيره، فلهذا السبب ذكروا من بني آدم هاتين الصفتين وما ذكروا منهم عبادتهم وتوحيدهم؛ لأن ذلك ليس محل الإشكال[2].

٢-ولأن ذلك العالم ليس عالم تكليف، ولأنه لا غيبة في مَشُورة ونحوها كالخِطبة والتجريح؛ لتوقف المصلحة على ذكر ما في المستشارِ في شأنه من النقائص، ورجحان تلك المصلحة على مفسدة ذكر أحدٍ بما يَكْره، ولأن الموصوف بذلك غيرُ معين إذ الحكم على النوع، فانتفى جميع ما يترتب على الغيبة من المفاسد في واقعة الحال فلذلك لم يحجم عنها الملائكة[3].

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢/ ١٥٣) بتصرف يسير.

(٢) الرازي (٢/ ١٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٠).

الثاني: العُجْب بالنفس والمدح لها، ونقول:

١- أن مدح النفس غير ممنوع منه مطلقًا لقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١)، وأيضًا فيحتمل أن يكون قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ليس المراد مدح النفس؛ بل المراد بيان أن هذا السؤال ما أوردناه لنقدح به في حكمتك يا رب، فإنا نسبح بحمدك ونعترف لك بالإلهية والحكمة، فكأن الغرض من ذلك بيان أنهم ما أوردوا السؤال للطعن في الحكمة والإلهية؛ بل لطلب وجه الحكمة على سبيل التفصيل[1].

وأيضًا فيه إعلان بالتنزيه للخالق عن أن يخفي عليه ما بدا لهم من مانع استخلاف آدم، وبراءةٌ من شائبة الاعتراض، والله تعالى وإن كان يعلم براءتهم من ذلك إلا أن كلامهم جرى على طريقة التعبير عما في الضمير من غير قصد إعلام الغير[2].

٢-أو يكون الغرض من قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهامَ عِلمهم فيما أشاروا به كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أسَدُّ منه رأيًا وأرجح عقلًا فيشير ثم يفوض، كما قال أهل مشورة بِلْقِيس إذ قالت: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: الرأي أن نحاربه ونصده عما يريد من قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل: ٣١-٣٣)، وكما يفعل التلميذ مع الأستاذ في بحثه معه ثم يصرح بأنه مَبْلغ علمه، وأن القول الفصل للأستاذ.[3]

ثالثًا: أنكروا على الله تعالى هذا الأمر، ونقول:

١- نحن نجزم يقينًا بأن سؤال الملائكة هذا لم يكن اعتراضًا على أمر الله تعالى ولا إنكارًا له، كيف وهم المعصومون من ذلك؟: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦)، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول؛ أي: لا يسألونه شيئًا لم يأذن

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ١٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٠) بتصرف يسير.

لهم فيه، وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقًا؛ قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؛ أي: نصلي لك كما سيأتي؛ أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبًا لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها مالا تعلمون أنتم[1].

ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه بأن جعل من نسله من أوليائه، وأحبائه، ورسله، وأنبيائه، من يتقرب إليه بأنواع التقرب، ويبذل نفسه في محبته ومرضاته، يسبح بحمده أناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة، ولا بلاء، ولا فقر، ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة، وغلبات الهوى، وتعاضد الطباع لأحكامها، ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصده ذلك عن عبادته، وشكره، وذكره، والتقرب إليه، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

٢- وأيضًا فإنه سبحانه أراد أن يظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر، فذلك الخير وهذا الشر كامن في نفوس لا يعلمونها، فلابد من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كل منهما بما يليق به.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٧)، وانظر: تفسير الطبري (١/ ٤٧٠) فإنه رجح هذا القول وانتصر له، تفسير البغوي (١/ ٣١)، التحرير والتنوير (١/ ٣٨٨).

٣- وأيضًا فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارًا وأصنافًا، وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلًا، جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم، أعني: العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا، ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني يخيره بين أن يكون عبدًا رسولًا أو ملكًا نبيًا، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدًا رسولًا، وذكره سبحانه بأتمِّ العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله؛ كمقام الدعوة، والتحدي، والإسراء، وإنزال القرآن: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ (الجن: ١٩)، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: ١٩)، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ١)، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ (الفرقان: ١)، فأثنى عليه ونوه الله لعبوديته التامة له، ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله؛ وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها كان من أعظم الحكمة أن أُخرجوا إلى دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية، وأسبابها، وشروطها، وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة تنكيلًا لهم وإتمامًا لنعمته عليهم؛ مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى، فإنه يحب إجابة الدعوات، وتفريج الكر بات، وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلات، وتكفير السيئات، ودفع البليات، وإعزاز من يستحق العز، وإذلال من يستحق الذل، ونصر المظلوم، وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر فضله وتخصيصه فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على الشيء لا بد منه، وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة، كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل[1].

ولو قدر أنه على وجه الاعتراض فهو دليل على علمهم أنه لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، فلما رأوا

---

(١) شفاء العليل لابن القيم(١/ ٢٤٢).

أن خلق هذا الخليقة منافٍ للحكمة في الظاهر سألوه عن ذلك، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فأجابهم بأن حكمته وعلمه يأبى أن يضع رسالاته في غير محلها وعند غير أهله.[1]

رابعًا: وصفوا ذرية آدم بهذا الوصف المذموم بمجرد الظن والتخمين، ونقول:

هذا الاعتراض كان من المفترض أن يكون هكذا: كيف علمت الملائكة أن آدم سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

والجواب عن هذا السؤال من الصعب الجزم بإجابة معينة له؛ لأنه لم يرد نص صحيح يبين كيف علمت الملائكة أن الإنسان سيفسد في الأرض أو يسفك الدماء؟ فالسؤال موجه أيضًا للملائكة أنفسهم كتعقيب على ردهم، وكما سبق لا نستطيع الخوض في مثل هذه الأمور طالما أنه لم يرد النص على ذلك[2].

وقد قالت العلماء من أهل التأويل في ذلك أقوالًا، ونحن نذكر أقوالهم في ذلك:

القول الأول: أنه بتوقيف من الله تعالى، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء، فهناك إضمار في الكلام تقديره أنه قال لهم: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: ربنا ما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضًا، فقالوا ما قالوا.

وروي هذا القول عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة الكرام في خبر طويل[3].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٠٣).

(٢) الإنسان وبداية الكون لمحمود عبد الرازق (٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٥٨ رقم٦٠٧)، والإسناد الذي جاء به هذا الأثر ضعفه الطبري نفسه فقال في ص٣٥٤ من الجزء الأول عقب أثر آخر جاء بهذا الإسناد قال: (ولست أعلمه صحيحًا إذ كنت بإسناده مرتابًا)، وأعله أيضًا أحمد شاكر، وانظر بحثه حول هذا الإسناد (١/ ١٥٦ أثر رقم ١٦٨) و (ص٣٤٨ أثر رقم ٤٥٢)، وقال ابن كثير: (ويقع فيه- يقصد في هذا الخبر - إسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أوأنهم أخذوا من بعض الكتب المتقدمة)، والله أعلم.

وأعلَّه الطبري أيضا بمعناه فقال: (وهذا إذا تدبّره ذو الفهم، علم أن أوّله يفسد آخرَه، وأن آخره يُبطل معنى أوله؛ وذلك أن الله -جل ثناؤه- إن كان أخبر الملائكة أن ذرّيّة الخليفة الذي يجعله في الأرض تفسد فيها وتسفك الدماء، فقالت الملائكة لربها: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فلا وجه لتوبيخها على أن أخبرت عمن أخبرها الله عنه أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء بمثل الذي أخبرها عنهم ربُّها. . .) وقال بهذا القول أيضًا قتادة[١].

القول الثاني: أن الملائكة علمت ذلك من الجن؛ لأنهم كانوا أسبق من الإنس فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء.

روي هذا القول عن ابن عباس[٢].

قال الطبري: وإنما تركنا القول بهذا في تأويل ذلك، لأنه لا خبر عندنا بالذي قالوه من وجه يَقطعُ مجيئُه العذرَ، ويُلزمُ سامِعَه به الحجة، والخبر عما مضى وما قد سلف لا يُدرك علمُ صحته إلا بمجيئه مجيئًا يمتنع مَعه التشاغب والتواطؤ، ويستحيل مَعه الكذب والخطأ والسهو[٣].

وقال صاحب المنار: وليس لهم في الإسلام سند يحتج به على هذه القصص. [٤]

القول الثالث: وإنما ظنوا هذا الظن بهذا المخلوق من جهة ما استشعروه من صفات هذا المخلوق المستخلف بإدراكهم النوراني لهيئة تكوينه الجسدية، والعقلية، والنطقية؛ إما بوصف الله لهم هذا الخليفة؛ أو برؤيتهم صورة تركيبه قبل نفخ الروح فيه وبعده، والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجبلة إلى الاكتساب، وعن الامتثال إلى العصيان، فإن العقل يشتمل على شاهية، وغاضبة، وعاقلة، ومن مجموعها ومجموع بعضها تحصل تراكيب من التفكير نافعة وضارة، ثم إن القدرة التي في الجوارح

---

(١) أخرجه الطبري (١/ ٤٦٤) وإسناده صحيح، أخرجه الطبري (١/ ٤٦٤) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وانظر: أضواء البيان للشنقيطي (١/ ٥٨)، والبرهان في علوم القرآن (٣/ ١٩٥) وجعل هذا مثالًا لحذف الجمل.

(٢) أخرجه الطبري (١/ ٤٥٥) وإسناده منقطع، وروي أيضًا عن عبد الله بن عمرو، أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٧٧).

(٣) تفسير الطبري (٤٧١)، وانظر: تفسير البغوي (١/ ٣١).

(٤) تفسير المنار ١/ ٢١٥.

تستطيع تنفيذ كل ما يخطر للعقل وقواه أن يفعله، ثم إن النطق يستطيع إظهار خلاف الواقع وترويج الباطل؛ فيكون من أحوال ذلك فساد كبير، ومن أحواله أيضًا صلاح عظيم. وإن طبيعة استخدام ذي القوة لقواه قاضية بأنه سيأتي بكل ما تصلح له هذه القوى خيرها وشرها فيحصل فعل مختلط من صالح وسيء، ومجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب المراد جعله خليفة في الأرض كافٍ في إحاطتهم بما يشتمل عليه من عجائب الصفات على نحو ما سيظهر منها في الخارج؛ لأن مداركهم غاية في السمو لسلامتها من كدرات المادة، وإذا كان أفراد البشر يتفاوتون في الشعور بالخفيات، وفي توجه نورانية النفوس إلى المعلومات، وفي التوسم والتفرس في الذوات بمقدار تفاوتهم في صفات النفس جِبِلِّيَّة واكتسابية ولدنية التي أعلاها النبوة، فما ظنك بالنفوس الملكية البحتة؟ [1].

وثَمَّ أقوالٌ أُخَرُ لا نُعَرِّجُ عليها لظهور ضعفها وتهافتها، فها أنت ترى اختلاف المفسرين في كيفية علم الملائكة بهذا الأمر، وحُقَّ لهم الاختلاف؛ والسبب الواضح هو أننا متعبَّدون بالدليل فطالما أنه لم يرد في قرآن ولا سنة، وسكت عنه نبيناﷺ فإننا نسكت عنه، ونقول كما قالت الملائكة لربها: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ويسعنا السكوت كما وسع من سبقنا.

* * *

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨٨)، وانتصر له وضعف غيره، الرازي (٢/ ١٥٦)، نظم الدرر للبقاعي (١/ ٨٨)، ابن كثير (١/ ٣٣٧).

٤- شبهة: حول سجود الملائكة لآدم.

نص الشبهة:

في سورة البقرة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣١-٣٤)، وجاء في سورة الأعراف(١١)، والحجر(٢٨)، وغيرها ما في هذا المعنى.

قال المعترض: في أول الأمر علم الله آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة، فعجزوا عن التسمية، واعترفوا بالعجز؛ فكيف يمتحن الله الملائكة فيما لا يعرفونه، ويعطي الإجابات لآدم ليعلم ما لا يعلمون؟ وكيف أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم؟ وحاشا لله القدوس أن يأمر بالسجود لغير ذاته العلية! قال الله في الخروج (٣٤: ١٤): فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لإِلهٍ آخَرَ، لأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيُورٌ. إِلهٌ غَيُورٌ هُوَ.

الجواب عن هذه الشبهة من عدة وجوه:

الوجه الأول: دلالة صيغ الأمر في لغة العرب التي نزل بها القرآن.

الوجه الثاني: السجود بين شرعنا وشرع من سبقنا.

الوجه الثالث: حكمة بالغة.

الوجه الرابع: السجود في الكتاب المقدس!

وإليك التفصيل

الوجه الأول: دلالة صيغ الأمر في لغة العرب التي نزل بها القرآن.

اعلم أن علماء البلاغة ينصُّون على قاعدة وهي: كلٌّ من صِيَغِ الأمرِ وصيغةِ النهي قد تخرج عن دلالَتَيْهِما بقرائنِ حاليّة أو قوليّة إلى معانٍ كثيرة، منها ما يلي:

(الدعاء - الالتماس - الإرشاد - التمنّي - الترجّي - التيئيس - التخيير - التسوية -

التعجيز - التهكّم و الإِهانة -الإِباحة- التوبيخ والتأنيب والتقريع - الندب - التهديد - الامتنان - الاحتقار والتقليل من أمر الشيء -الإِنذار- الإِكرام -التكوين- التكذيب - المشورة - الاعتبار - التعجّب أو التعجيب) إلى غير ذلك من معان[1].

وبهذا نفهم أن أمر الله للملائكة الإخبار عن أسماء المسميات ليس من باب التكليف بما لا يطاق، وإنما هو من باب تجلية مصالح أعظم من مجرد الإخبار بمسميات الأشياء نذكر من هذه المصالح:

١ـ تبكيتًا للملائكة عليهم السلام (والتبكيت يعني الغلبة بالحجة والإلزام بالسكوت للعجز عن الجواب) وإظهارًا لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءَهم من أمرِ الخلافةِ حيث قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾، فإن أدنى مراتب استحقاق الخلافة هو الوقوف على أسماء من في الأرض، فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء وأسماءها لا يستحق أن يكون خليفة عليها وكأنه أراد أن يقول لهم: إذا عجزتم عن معرفة هذه الأشياء مع مشاهدتكم لها فأنتم عن معرفة الأمور المغيبة عنكم أعجز[2].

مع الإقرار التام بأنهم ما قالوا هذا الكلام الذي بُكِّتُوا من أجله إلا لرغبتهم في الوصول إلى كل سبيل يزدادون به إلى الله تقربا فهم كما أخبر الله عنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

٢ـ تبيين لفضل آدم وأنه ليس كما ظنوا به فلما كان قولهم ﷺ، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى، أن يبين لهم من فضل آدم، ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه[3].

٣ـ الجمع لهم بين الأسلوب العلمي والعملي في التعليم حيث أجابهم أولًا بقوله: ﴿إِنِّيٓ

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها (١/ ١٧٥).

(٢) الجواهر (١/ ٦٣) بتصرف، أبو السعود (١/ ١١٤) بتصرف، تفسير الرازي (١/ ١٩٥).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٤).

أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم أراهم ذلك عمليًا أن رفع آدم عليهم بعلم علمه له وحجبه عنهم، فالذي جعلهم يظنون أنهم أحق من الخليفة بالخلافة هو امتلاكهم لصفاتٍ اللهُ حباهم بها، وهو الذي يملك رفعهم على أحد أو رفع أحد عليهم؛ لذلك لما تلقنوا الدرس زادوا إقرارا وتنزيهًا لله بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الوجه الثاني: السجود بين شرعنا وشرع من سبقنا.

كان السجود فيما سبق من الشرائع يُقصد به أمران:

١) العبودية: وهذه لا تكون إلا لله جل وعلا.

٢) الاحترام والتقدير والتعظيم: وهذه تجوز في حق البشر.

فنسخ جواز كونها للاحترام والتقدير والتعظيم للبشر في شرعتنا؛ لأنها الشرعة الخاتمة، وتستلزم من سد الذرائع ما لا تستلزمه الشرائع السابقة، وبقيت العبودية هي المقصود الوحيد للسجود.

وهذا يتضح من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺقال: قدم معاذ اليمن، أو قال: الشام، فرأى النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها فرأ ى (أي فكر) في نفسه أن رسول الله ﷺ أحق أن يُعظم، فلما قدم قال يا رسول الله: رأيت النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها فرأيت في نفسي أنك أحق أن تعظم. فقال: لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولا تؤدي المرأة حق الله ﷻعليها كله حتى تؤدي حق زوجها عليها كله حتى لو سألها نفسها وهي على ظهر قتب لأعطته إياها) وفي حديث قيس بن سعد نهاهم عن السجود لغير الله وقال: (لا تفعلوا). [١]

الوجه الثالث: حكمة بالغة.

ما أعظمَ حكمةَ الله! إذ أمر الملائكة الكرام بالسجود تكريما لآدم عليه السلام؛ لعلم الله سبحانه أن أمره هذا سيترتب عليه من المصالح ما فيه نفع لبني آدم أجمع إلى قيام الساعة نذكر منها:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٩٤٠٣).

١ـ لما أنبأ آدمُ الملائكةَ بالأسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم ربهم بالسجود له؛ اعترافًا بفضل آدم وأداءً لحقه من الاحترام، واعتذارًا عما ظنوا من تفضيل أنفسهم عليه[1].

٢ـ إظهارًا لما في نفس إبليس من سوء الطوية وإضمار الشر.

ثم إنه لا ينبغي أبدًا أن يساء الظن بالله، وأنه لم يسد على الخلق أبواب الشبهات، ولم يبين لهم الحق في مثل هذه الآيات، والحق في ذلك أن الله أعلم بالخلق من أنفسهم لما أخبر أولًا عن جعل الخليفة قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ فناسب ذكر الربوبية من خلقه ورضيه ليجعله في الأرض خليفة وهنا في قوله: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ المقام مقام إيراد أمر يناسب العظمة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ﴾ فأضاف القول لنون العظمة؛ ليرسخ في أذهان السامعين الفرق بين عظمة الخالق وعظمة المخلوق، وليبين لهم أنه وإن كان في السجود لآدم تعظيم له فهذا لا يعدوا إلا أن يتناسب مع كونه تعظيم لمخلوق لا يداني أبدًا تعظيم الله جل وعلا، فلما أمر سبحانه بالسجود تكريمًا وتعظيمًا لغيره أشار إلى كبريائه وعظمته وغناه عن الشرك، ولأن القول هنا تضمن أمرا بفعل فيه غضاضة على المأمور وهو السجود لآدم فناسب إظهار عظمة الآمر، وأنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه فهذا ليس بسجود عبادة؛ بل هو سجود تكريم واحترام وتعظيم. ولقد فهم الملائكة ذلك بل إنما حمل إبليس على عصيان الأمر والاستكبار أن فهم أن هذا السجود علته التكريم؛ فقال مخاطبًا ربه بعد أن طُرد من رحمته ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

الوجه الرابع: السجود في الكتاب المقدس!

سجود إخوة يوسف له: (التكوين٤٢/ ٦): **وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الْمُسَلَّطَ عَلَى الأَرْضِ، وَهُوَ الْبَائِعَ لِكُلِّ شَعْبِ الأَرْضِ. فَأَتَى إِخْوَةُ يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الأَرْضِ.**

(التكوين٤٣/ ٢٦): **فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ الَّتِي فِي أَيَادِيهِمْ إِلَى**

---

(١) الخطيب الشربيني (١/ ٥٦).

(٢) تفسير الآلوسي (١/ ٢٦٩).

الْبَيْتِ، وَسَجَدُوا لَهُ إِلَى الأَرْضِ.

سجود سليمان لأمه بثشبع:

الملوك الأول (٢/ ١٩): فَدَخَلَتْ بَثْشَبَعُ إِلَى الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ لِتُكَلِّمَهُ عَنْ أَدُونِيَّا. فَقَامَ الْمَلِكُ لِلِقَائِهَا وَسَجَدَ لَهَا وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ.

لوط يسجد للملكين؛ بل إن الأمر هنا قد يفوق سجود التكريم لوصفه نفسه بقوله لهما عبدكما:

(التكوين١٩/ ١): فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ. وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ، مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلاَ أَرْجُلَكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا.

إبراهيم يسجد للشعب: (التكوين ٢٣/ ٧): فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الأَرْضِ، لِبَنِي حِثَّ.

يوسف وغيره يسجدون لعيسو:

١- (التكوين ٣٣/ ١-٧): وَرَفَعَ يَعْقُوبُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا عِيسُو مُقْبِلٌ وَمَعَهُ أَرْبَعُ مِئَةِ رَجُل، فَقَسَمَ الأَوْلاَدَ عَلَى لَيْئَةَ وَعَلَى رَاحِيلَ وَعَلَى الْجَارِيَتَيْنِ. ٢ووَضَعَ الْجَارِيَتَيْنِ وَأَوْلاَدَهُمَا أَوَّلًا، وَلَيْئَةَ وَأَوْلاَدَهَا وَرَاءَهُمْ، وَرَاحِيلَ وَيُوسُفَ أَخِيرًا. ٣وَأَمَّا هُوَ فَاجْتَازَ قُدَّامَهُمْ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ سَبْعَ مَرَّاتٍ حَتَّى اقْتَرَبَ إِلَى أَخِيهِ. ٤فَرَكَضَ عِيسُو لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ، وَبَكَيَا. ٥ثُمَّ رَفَعَ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ وَقَالَ: «مَا هؤُلاَءِ مِنْكَ؟ » فَقَالَ: «الأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ بِهِمْ عَلَى عَبْدِكَ». ٦فَاقْتَرَبَتِ الْجَارِيَتَانِ هُمَا وَأَوْلاَدُهُمَا وَسَجَدَتَا. ٧ثُمَّ اقْتَرَبَتْ لَيْئَةُ أَيْضًا وَأَوْلاَدُهَا وَسَجَدُوا. وَبَعْدَ ذلِكَ اقْتَرَبَ يُوسُفُ وَرَاحِيلُ وَسَجَدَا.

وأخيرًا: أقول على المعترض أن ينظر في هذه النصوص من التوراة والإنجيل، فإن كان يقول: إن السجود لا يكون إلا عبادة لله؛ فهذا يلزمه أن لوطًا ويوسف وإخوته ويعقوب وسليمان وغيرهم ممن ذكروا عبدوا غير الله. وإن كان يقر أن هناك سجود تكريم واحترام وتعظيم؛ فلا ينبغي أن يتطاول على الكتاب الذي أنزل على الرسول الخاتم ﷺ، والذي هو ناسخ لجميع الشرائع السابقة ومنها شريعته؛ لأن القرآن هو الكتاب الوحيد المحفوظ من قبل رب العالمين ! !

* * *

٥- شبهة: حول نفي الشفاعة.

نص الشبهة:

قالوا: إن آيات القرآن الكريم تنفي الشفاعة مطلقًا، أو تجعلها بإذن الله أو تخصها بالله، فما هذا التعارض في ذكر أمر الشفاعة؟

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ذكر معنى الشفاعة عند أهل اللغة.

الوجه الثاني: ثبوت الشفاعة بالقرآن الكريم.

الوجه الثالث: ذكر الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة، وتوجيهاتها.

الوجه الرابع: الرد على المستدل بإنكار الشفاعة بالجمع بين الآيات التي ظاهرها التعارض.

الوجه الخامس: ذكر الآيات التي تدل على أن الشفاعة بإذن الله ورضاه، لمن يشاء.

الوجه السادس: إثبات أن الشفاعة نوعان، وأن الإنسان يكون له نصيب من شفاعته سواء في الدنيا أو في الآخرة.

الوجه السابع: إثبات الشفاعة بالسنة الصحيحة.

الوجه الثامن: أصل عقيدة النصارى مبنية على الشفاعة " الفداء والصلب".

واليك التفصيل

الوجه الأول: بيان معنى الشفاعة عند أهل اللغة.

قال الفارسي: استشفعه: طلب منه الشفاعة أي قال له: كن لي شافعًا.

وفي التنزيل قول الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ (النساء: ٨٥).

والشفاعة بمعنى الدعاء أيضًا. والشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره. [١]

فالشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر سواء؛ كانت الوساطة بطلب

(١) لسان العرب (٨/ ١٨٣: ١٨٤) بتصرف.

من المنتفع بها، أم كانت بمجرد سعي المتوسط. (١)

الوجه الثاني: ثبوت الشفاعة بالقرآن الكريم.

قال الله تعالى وقد أخبر أن الملائكة قالت لأهل الكفر: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾ (المدثر: ٤٢: ٤٨). وقال الله ﷻ في أهل الكفر لما علموا أن الشفاعة لغيرهم: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (الأعراف: ٥٣)، وقال ﷻ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: ٩٤-١٠١).

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: فوالله لقد شهدت تنزيل هذا على رسول الله ﷺ، ولقد شهدت تأويله من رسول الله ﷺ، وإن الشفاعة في كتاب الله ﷻ لمن عقل، قلنا وأين الشفاعة؟ قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾. (٢)

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾ (الزمر٤٤)، والمعنى أنه تعالى مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذونًا له وكلاهما مفقودان ههنا.

واستُدِلَّ بهذه الآية على وجود الشفاعة في الجملة يوم القيامة؛ لأن الملك أو الاختصاص الذي هو مفاد اللام هنا يقتضي الوجود فالاستدلال بها على نفي الشفاعة مطلقًا في غاية الضعف(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٨٦).

(٢) الشريعة (٣/ ١٢٠١).

(٣) روح المعاني (٢٤/ ١٠).

فقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ دليل على صحة الشفاعة للمذنبين، وذلك أن قومًا من أهل التوحيد عذبوا بذنوبهم ثم شفع فيهم فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة؛ فأخرجوا من النار وليس لكفار شفيع يشفع فيهم(١).

فهذا أمر الشفاعة قد ثبت بها تدَّعون أنه نفاها، أو تعارضت آياته في أمرها، والحق الواضح لمن له عقل أنه لا تعارض البتة في كتاب الله ﷻ

الوجه الثالث: الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة، وتوجيهاتها.

كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ١٢٣) خرج مخرجًا عامًّا في التلاوة.

فإن المراد بها خاص في التأويل لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"(٢)، وأنه قال: "ليس من نبي إلا وقد أعطى دعوة، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئًا". (٣)

فقد تبين بذلك أن الله ﷻ ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد ﷺ لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم، وأن قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ إنما لمن مات على كفره غير تائب إلى الله ﷻ(٤).

فهذا لفظ عام لمعنى خاص، والمراد الذين قالوا من بني إسرائيل نحن أبناء الله وأبناء أنبيائه وإنهم يشفعون لنا عند الله فرد عليهم ذلك وأويسوا منه لكفرهم(٥).

---

(١) القرطبي (١٩/ ٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، والترمذي (٢٤٣٥)، وقال الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٤٠٠): إسناده جيد.

(٣) البخاري (٧٤٧٤)، مسلم (١٩٨).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٢٦٨).

(٥) البحر المحيط (١/ ٣٤٨).

فتأويل الآية إذًا: واتقوا يومًا لا تقضي نفس عن نفس حقًّا لزمها لله -جل ثناؤه- ولا لغيره، ولا يقبل الله منها شفاعة شافع فيترك ما لزمها من حق.

وقيل: إن الله ﷻ خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها؛ لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيتشفع لنا عنده آباؤنا، فأخبرهم الله ﷻ أن نفسًا لا تجزي عن نفسًا شيئًا في القيامة، ولا يقبل منها شفاعة أحد فيها حتى يستوفي لكل ذي حق منها حقه[1].

وعلى هذا تكون النفس الأولى مؤمنة والثانية كافرة، والكافر لا تنفعه شفاعة لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ يعني من الكافرين كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.[2]

إن المكذب بالشفاعة أخطأ في تأويله خطأ فاحشًا خرج به عن الكتاب والسنة، وذلك أنه عمد إلى آيات من القرآن نزلت في أهل الكفر أخبر الله ﷻ أنهم إذا دخلوا النار أنهم غير خارجين منها فجعلها المكذب بالشفاعة في الموحدين، ولم يلتفت إلى أخبار رسول الله ﷺ في إثبات الشفاعة أنها إنما هي لأهل الكبائر، والقرآن يدل على هذا، فخرج بقوله السوء عن جملة ما عليه أهل الإيمان واتبع غير سبيلهم قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).

فاعلموا يا معشر المسلمين أن أهل الكفر لما دخلوا النار، ورأوا العذاب الأليم، وأصابهم الهوان الشديد، نظروا إلى قوم من الموحدين معهم في النار فعيروهم بذلك وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم في الدنيا وأنتم معنا في النار! فزاد أهل التوحيد من المسلمين حزنًا وغمًا، فاطلع الله ﷻ على ما نالهم من الغم بتعيير أهل الكفر لهم؛ فأذن الله في الشفاعة، فيشفع الأنبياء

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٦٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٤).

والملائكة والشهداء والعلماء والمؤمنون في من دخل النار من المسلمين فأخرجوا منها على حسب ما أخبرنا رسول الله ﷺ على طبقات شتى فدخلوا الجنة، فلما فقدهم أهل الكفر ودُّوا حينئذ لو كانوا مسلمين، وأيقنوا أنه ليس شافع يشفع لهم ولا صديق حميم يغني عنهم من عذابهم شيئًا، قال الله ﷻ في أهل الكفر لما نضجوا بالعذاب وعلموا أن الشفاعة لغيرهم قالوا: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (الأعراف: ٥٣)، وقال ﷻ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: ٩٤-١٠١)، وقال ﷻ في سورة المدثر وقد أخبر الملائكة قال لأهل الكفر: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٢-٤٨). هذه كلها أخلاق فقال ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ فدل على أنه لابد من شفاعة، وأن الشفاعة لغيرهم لأهل التوحيد خاصة. وقال ﷻ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ١-٢)، وإنما الكفار لو كانوا مسلمين عندما رأوا معهم في النار قوما من الموحدين فعيروهم.

وقالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار من أهل التوحيد ففقدهم أهل الكفر، فسألوا عنهم؛ فقيل: شفع فيهم الشافعون؛ لأنهم كانوا مسلمين، فعندها ودوا لو كانوا مسلمين؛ حتى تلحقهم الشفاعة[1].

الوجه الرابع: الرد على منكر الشفاعة بإزالة التعارض بين الآيات التي ظاهرها التعارض، وإمكانية الجمع بينهما.

---

(١) الشريعة (٣/ ١٢٠٥-١٢٠٨).

إن نفي الشفاعة في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ (البقرة: ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾. ليس في الاثنين دليل لمنكري الشفاعة؛ لأن قوله: ﴿يَوۡمٗا﴾ أخرجه مُنكَّرًا، ولا شك أن في القيامة مواطن، ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زمانًا للشفاعة، وبعضها هو الوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر -عليه أفضل الصلاة والسلام- وقد وردت آي كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها، منه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾ (المؤمنون: ١٠١) مع قوله: ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ ﴾ (الصافات: ٢٧)، فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتين متغايرين: أحدهما محل للتناول، والآخر ليس محلًا له، وكذلك الشفاعة وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة، رزقنا الله الشفاعة وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة[1].

ويمكن حمل هذه الآيات أيضًا على ما يلي:

١-يحتمل أن تكون هذه الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة إنما وردت في أقوامٍ لا يجدون شفيعًا تقبل شفاعته لعجز المشفوع فيه. [2]

٢- يحتمل أن يكون هذه الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة أن يكون معناها لا يجيب الشافع المشفوع فيه إلى الشفاعة وإن كان لو شفع لشفع. [3]

٣- يحتمل أن يكون معنى هذه الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة، إنما معناها يرد حيث لم يأذن الله في الشفاعة للكفار، ولا بد من إذن الله بتقدم الشافع بالشفاعة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٣٠٣).

(٢) البحر المحيط (١/ ٣٤٨).

(٣) المصدر السابق.

قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ (سبأ: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

٤- يحتمل أن يكون المعنى في هذه الآيات التي ظاهرها نفي الشفاعة أن طاعة المطيع لتقضي عن العاصي ما كان واجبًا عليه، فلا تقضي نفس عن نفس حقًّا لازمًا لله جل ثناؤه ولا لغيره، ولا يقبل الله منها شفاعة شافع فيترك ما لزمها من حق(١).

٥- أن الشفاعة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الزمر: ٤٤)، هذه الشفاعة خاصة بالله وحده، أو أن الشفاعة كلها خاصة بالله وحده، ولا يستطيع أحد أن يشفع لأحد إلا بشرطين هما:

١-أن يكون المشفوع له مرتضى.

٢-وأن يكون الشفيع مأذونًا له.

وهنا الشرطان مفقودان جميعًا لقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الزمر: ٤٣) أي يشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون؟ أي ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئًا قط حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم(٢).

فيقول تعالى ذامًا للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان لديهم على ذلك، وهي لا تملك شيئا من الأمر؛ بل وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به؛ بل هي جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير، قل: أي يا رسول الله لهؤلاء الزاعمين إنَّ ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٦٧)، تفسير الخازن (١/ ٤٣).

(٢) الكشاف (٤/ ١٣١).

يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الله ملك السموات والأرض أي هو المتصرف في جميع ذلك ثم إليه ترجعون أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلًّا بعمله[1].

فقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الزمر: ٤٣-٤٤). فـ(أم) منقطعة وهي للاضطراب الانتقالي انتقالًا من تشنيع إشراكهم إلى إبطال معاذيرهم في شركهم، ذلك أنهم لما دمغتهم حجج القرآن باستحالة أن يكون لله شركاء تمحلوا تأويلًا لشركهم فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ كما حكى عنهم في أول هذه السورة، فلما استوفيت الحجج على إبطال الشرك أقبل هنا على إبطال تأويلهم منه ومعذرتهم.

والاستفهام الذي تشعر به (أم) في جميع مواقعها هو هنا للإنكار بمعنى أن تأويلهم وعذرهم منكر كما كان المعتذر عنه منكرًا فلم يقضوا بهذه المعذرة وطرًا.

وأمر الله رسولهﷺ بأن يقول لهم مقالة تقطع بهتانهم وهي ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فالواو في (أولو كانوا) عاطفة كلام المجيب على كلامهم، وهو من قبيل ما سمي بعطف التلقين في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ (البقرة: ١٢٤) ولك أن تجعل الواو للحال كما هو المختار في نظيره وتقدم في قوله: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ (آل عمران: ٩١) وصاحب الحال مقدر دل ما قبله من قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ والتقدير: أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئًا؟ والظاهر أن حكم تصدير الاستفهام قبل واو الحال كحكم تصديره قبل واو العطف، وأفاد تنكير (شيئًا) في سياق النفي عموم كل ما يُمْلَكُ فيدخل في عمومه جميع أنواع الشفاعة، ولما كانت الشفاعة أمرًا معنويًا كان معنى ملكها تحصيل إجابتها والكلام تهكم إذ كيف يشفع من لا يعقل، فإنه لعدم عقله لا يتصور خطورة معنى الشفاعة عنده فضلًا عن أن تتوجه إرادته إلى الاستشفاع فاتخاذهم شفعاء من الحماقة، ولما نفي أن يكون لأصنامهم شيء

---

(١) تفسير ابن كثير (١٢/ ١٣٤).

من الشفاعة في عموم نفي ملك شيء من الموجودات عن الأصنام قوبل بقوله (لله الشفاعة) أي الشفاعة كلها لله، وأمر الرسول ﷺ بأن يقول ذلك لهم ليعلموا أن لا يملك الشفاعة إلا الله أي هو مالك إجابة شفاعة الشفعاء الحق.

وتقديم الخبر المحرر وهو "لله" على المبتدأ لإفادة الحصر، واللام للملك أي قصر ملك الشفاعة على الله تعالى لا يملك أحد الشفاعة عنده. و"جميعًا" حال من الشفاعة مفيدة للاستغراق أي لا يشذ جزئي من جزئيات حقيقة الشفاعة عن كونه ملكًا لله، وقد تأكد بلازم هذه لحال ما دل عليه الحصر من انتفاء أن يكون شيء من الشفاعة لغير الله. وجملة (له ملك السموات والأرض) لتعميم انفراد الله بالتصرف في السماوات والأرض الشامل للتصرف في مؤاخذة المخلوقات وتسيير أمورهم، فموقعها موقع التذييل المفيد لتقرير الجملة التي قبله وزيادة، والمراد الملك بالتصرف بالخلق وتصريف أحوال العالمين ومن فيها، فإذا كان ذلك الملك له فلا يستطيع أحد صرفه عن أمر أراد وقوعه إلى ضد ذلك الأمر في مدة وجود السماوات والأرض، وهذا إبطال لأن تكون لآلهتهم شفاعة لهم في أحوالهم في الدنيا، وعطف عليه (ثم إليه ترجعون) للإشارة إلى ثبات البعث، وإلى أنه لا يشفع أحد عند الله بعد الحشر إلا من أذن الله بذلك. و(ثم) للترتيب الرتبي كشأنها في عطف الجمل، ذلك لأن مضمون "إليه ترجعون" أن لله ملك الآخرة كما كان له ملك الدنيا وملك الآخرة أعظم لسعة مملوكاته وبقائها، وتقديم "إليه" على "ترجعون" للإهتمام والتقوى والرعاية الفاصلة[1].

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: ٤٣ - ٤٤). فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحده فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦: ٢٨).

له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ (البقرة: من الآية٤٨) وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأنعام: ٥١)، وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ (السجدة: ٤).

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه؛ بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ (يونس: ٣)، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه؛ بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور، فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ويقول: اشفع في فلان ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد، وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (طـه: ١٠٩)، فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له وإذنه للشافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن

المشفوع له وإذنه للشافع فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم وأمره لهم ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا فهم مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وتعالي وما يجب له ويمتنع عليه فإن هذا محال ممتنع تشبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي.

والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق والرب والمربوب والسيد والعبد والمالك والمملوك والغني والفقير والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره، فالشفعاء عند المخلوقين: هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس. فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم لهم ويذهبون إلى غيرهم فلا يجدون بدًا من قبول شفاعتهم على الكره والرضى فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته وكل من في السموات والأرض عبيد له مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (المائدة: ١٧)، وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: ٤٤).

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه فإنه ليس بشريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدينا بعضهم عند بعض فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه. وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه فإنه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله: (فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوه ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه)، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٤٣- ٤٤)، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يونس: ١٨).

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم وإنما تحصل بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقًا ولا أمرًا ولا إذنًا، بل هو سبب محرك له من خارج كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما

يوافقه كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه وقد يكون عنده ما يخالفه كمن يشفع إليه في أمر يكرهه ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعة الشافع، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد وبين الشفاعة التي تقتضي القبول فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله: هي سعى في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به ولو على كره منه فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل إما بقوة وسلطان وإما بما يرغبه فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويحبها منه ويرضى عن الشافع لم يمكن أن توجد والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه ولا لرهبته منه ولا لرغبته فيما لديه وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له فهو مأمور بالشفاعة مطيع بامتثال الأمر فإن أحدا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى وخلقه فالرب سبحانه وتعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبده فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه: من رزق أو نصر أو غيره فكل منهما محتاج إلى الآخر. ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته تبين له حقيقة التوحيد والشرك والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

الوجه الخامس: ذكر الآيات التي تدل على أن الشفاعة بإذن الله ورضاه لمن يشاء.

مثل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، فهذه صفة من صفات الله تعالى

توضح مقام الألوهية ومقام العبودية، فالعبيد جميعًا يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية لا يتعدونه ولا يتجاوزونه، يقفون مقام العبد الخاشع الخاضع الذي لا يقدم بين يدي ربه ولا يجرؤ على الشفاعة عنده إلا بعد أن يؤذن له؛ فيخضع للإذن ويشفع في حدوده، وهم يتفاضلون فيما بينهم ويتفاضلون في ميزان الله ولكنهم يقفون عند الحد الذي لا يتجاوزه عبد. إنه الإيحاء بالجلال والرهبة في ظل الألوهية الجليلة العلية، يزيد هذا الإيحاء عمقًا صيغة الاستفهام الاستنكارية التي توحي بأن هذا أمر لا يكون، وأنه مستنكر أن يكون، فمن هذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟

وفي ظل هذه الحقيقة تبدو سائر التصورات المنحرفة للذين جاءوا من بعد الرسل؛ فخلطوا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فزعموا لله سبحانه خليطًا يمازجه أو يشاركه بالنبوة أو بغيرها من الصور في أي شكل وفي أي تصور، أو زعموا له سبحانه أندادًا يشفعون عنده فيستجيب لهم حتما، أو زعموا له سبحانه من البشر خلفاء يستمدون سلطانهم من قرابتهم له، في ظل هذه الحقيقة تبدو تلك التصورات كلها مستنكرة مستبعده، لا تخرج عن الذهن ولا تجول في الخاطر ولا تلوح بظلها في خيال، وهذه هي النصاعة التي يتميز بها التصور الإسلامي فلا تدع مجالًا لتلبيس أو وهم أو اهتزاز في الرؤية، الألوهية ألوهية، والعبودية عبودية، ولا مجال لالتقاء طبيعتهما أدنى التقاء، والرب رب والعبد عبد ولا مجال لمشاركة في طبيعتهما ولا التقاء. فأما صلة العبد بالرب، ورحمة الرب للعبد والقربى والود والمدد، فالإسلام يقررها ويسكبها في النفس سكبًا، ويملأ بها قلب المؤمن ويفيضها عليه فيضًا، ويدعه يعيش في ظلالها الندية الحلوة دون ما حاجة على خلط طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية، و دون ما حاجة إلى الغبش والركام والزغللة والاضطراب الذي لا تتبين فيه صورة واحدة واضحة ولا ناصعة ولا محددة[1].

وقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ (يونس: ٣)، فالأمر كله له والحكم كله

(١) الظلال (١/ ٢٨٨).

عليه، وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى، وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة وفقًا لتدبيره وتقديره، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح لا بمجرد التوسل بالشفعاء. وهذا يواجه ما كانوا يعتقدونه من أن للملائكة التي يعبدون تماثيلها شفاعة لا ترد عند الله.(١)

ولأن المشركين جعلوا آلهتهم شفعاء فإذا أنذروا بغضب الله يقولون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨) أي حماتنا من غضبه، فبعد أن وصف الإله الحق بما هو منتف عن آلهتهم نفى آلهتهم وصف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليهم منه، وأكد النفي بـ(من) التي تقع بعد حرف النفي لتأكيد النفي، وانتفاء الوصف عن جميع أفراد الجنس الذي دخلت (من) على اسمه بحيث لم تبق لآلهتهم خصوصية. وزيادة ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ احتراس لإثبات شفاعة محمدﷺ بإذن الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ والمقصود من ذلك نفي الشفاعة لآلهتهم من حيث إنهم شركاء لله في الألوهية فشفاعتهم عنده نافذة كشفاعة الند عند نده(٢).

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ (مريم: ٨٧). يقول تعالى ذكره لا يملك هؤلاء الكافرون بربهم يا محمد ـ يوم يحشر الله المتقين إليه وفداً ـ الشفاعةَ حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض إلا من اتخذ منهم عند الرحمن في الدنيا عهدًا بالإيمان وتصديق رسوله والإقرار بما جاء به والعمل بما أمر به.

فالعهد: شهادة أن لا إله إلا الله ويتبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجوا إلا الله(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ (طه: ١٠٩)، يقول تعالى: ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أي عنده إلا من أذن له الرحمن ورضي له

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٧٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٨٨).

(٣) الطبري (١٦/ ١٢٨).

قولا كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وقال: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ (النبأ: ٣٨).

وعن أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنهَا نَهْسَةً فَقَالَ: "أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقونَ وَمَا لاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ. اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّى غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسلِ إِلَى الأَرْضِ وَسَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقولُ لَهمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نفسي نفسي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ الله، فَضَّلَكَ الله بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ،

وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نفسي نفسي اذْهَبوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا - نفسي نفسي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ الله، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أمتي أمتي. فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، وَالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى". (١)

فجملة ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ كجملة ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ﴾ في معنى التفريع على ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي لا يتكلم الناس بينهم إلا همسًا، ولا يجرؤون على الشفاعة لمن يهمهم نفعه، والمقصود من هذا أن جلال الله والخشية منه يصدان عن التوسط عنده لنفع أحد إلا بإذنه، وفيه تأييس للمشركين من أن يجدوا شفعاء لهم عند الله، واستثناء من أذن له الرحمن من عموم الشفاعة باعتبار أن الشفاعة تقتضي شافعًا؛ لأن المصدر فيه معنى الفعل فيقتضي فاعلا أي لا أن يشفع من أذن له الرحمن في أن يشفع فهو استثناء تام وليس بمفرغ، واللام في (أذن له) تعدية فعل "أذن" مثل قوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ وتفسير هذا ما ورد في حديث الشفاعة من قول النبي ﷺ "فيقال لي: سل تعطه واشفع تشفع"، وقوله: ﴿ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ عائد إلى ﴿ مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ وهو

(١) البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (٣٢٢).

الشافع، واللام الداخلة على ذلك الضمير لام التعليل أي رضي الرحمن قول الشافع لأجل الشافع أي إكرامًا له كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ (الشرح: ١).

فإن الله ما أذن للشافع بأن يشفع إلا وقد أراد قبول شفاعته، فصار الإذن بالشفاعة وقبولها عنوانًا على كرامة الشافع عند الله تعالى.[١]

الوجه السادس: إثبات أن الشفاعة نوعان، وأن الإنسان يكون له نصيب من شفاعته سواء في الدنيا أو في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ۝٨٥﴾ (النساء: ٨٥) ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً ﴾ أي يتوسط في أمر فيترتب عليه خير من دفع ضر أو جلب نفع ابتغاء لوجه الله تعالى. ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾، وهي ما كانت بخلاف الحسنة بأن كانت في أمر غير مشروع ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: نصيب من وزرها الذي ترتب على سيئة مساوٍ لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء. المقصود مع ذلك الترغيب في التوسط في الخير والترهيب من ضده، والشفاعة الوساطة في إيصال خير أو دفع شر سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا.

وفي الآية فوائد:

١- في الآية مدح الشفاعة، وذم السعاية، وهي الشفاعة السيئة وذكر الناس عند السلطان بالسوء وهي معدودة من الكبائر.

٢- روي في فضل الشفاعة أحاديث كثيرة، منها عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجه أقبل على جلسائه فقال: "اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب"[٢].

وفي الحديث الحض على الخير بالفعل، وبالتسبب إليه بكل وجه، والشفاعة إلى الكبير

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٣١٠-٣١١).

(٢) البخاري (٦٠٢٧)، ومسلم (٢٦٢٧).

في كشف كربة ومعونة ضعيف؛ إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى الرئيس، ولا التمكن منه ليلج عليه أو يوضح له مراده ليعرف حاله على وجهه، وإلا فقد كانﷺ لا يحتجب، فيستحب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووال ونحوهما، أم إلى واحد من الناس، وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كف ظلم أو إسقاط تعزير أو تخليص عطاء لمحتاج أو نحو ذلك.

وأما الشفاعة في الحدود فحرام، فلا يستثنى منه الوجوه التي تستحب فيها إلا الحدود، وإلا فما لأحد فيه تجوز الشفاعة فيه، ولا سيما من وقعت منه الهفوة أو كان من أهل الستر والعفاف، وأما المصرون على فسادهم المشتهرون في باطلهم فلا يشفع فيهم ليزجروا عن ذلك، فالشفاعة في تتميم باطل أو إبطال حق ونحو ذلك فهي حرام[1].

٣- نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض، فما يجوز في الدين أن يشفع فيه فهو شفاعة حسنة، وما لا يجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيئة.

فمن يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر وإن لم يشفع؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَن يَشْفَعْ﴾ ولم يقل (ومن يُشَفَّعْ) ويتأيد هذا بقولهﷺ: "اشفعوا تؤجروا ".

٤- الشفاعة الحسنة هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وابتغى بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز.

٥- نكتة اختيار النصيب في الحسنة، والكفل في السيئة وذلك أن النصيب يشمل الزيادة؛ لأن جزاء الحسنات يضاعف، وأما الكفل فأصله المركب الصعب ثم استعير للمثل المساوي فلذلك اختير إلى لطفه بعباده إذا لم يضاعف السيئات كالحسنات، ويقال: إنه وإن كان معناه المثل لكنه غلب في الشر وندر في غيره[2].

فهذا أمر الله لعباده بالشفاعة في الدنيا وهم في الآخرة أشد احتياجًا لها، فهل يحرمهم

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤٦٥-٤٦٦)، وشرح مسلم للنووي (٨/ ٤٢٦).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٣٣١-٣٣٤)، والتحرير والتنوير (٥/ ١٤٤).

منها سبحانه وتعالى وهو أرحم بعباده من الأم بولدها؟ فلا تعارض بين الأديان إطلاقًا.

الوجه السابع: إثبات الشفاعة بالسنة الصحيحة.

فعن حماد بن زيد قال: قلت لعمرو بن دينار: يا أبا محمد أسمعت جابر بن عبد الله يحدث عن النبي ﷺ " أن الله ﷻ يخرج من النار قومًا بالشفاعة"؟ فقال: نعم[(١)].

وعن عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ: "يخرج من النار قومٌ بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين. [(٢)]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ الله: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرَجُونَ قَدِ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ- أَوْ قَالَ- حَمِيَّةِ السَّيْلِ "وَقَالَ النبي ﷺ "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً"[(٣)].

كل هذه الأحاديث في أقوامٍ يخرجون من النار فيدخلون الجنة بشفاعة النبي ﷺ وشفاعة المؤمنين، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أمتي"[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي إلى يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله لمن مات من أمتي لايشرك بالله شيئًا ". [(٥)]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن جماعة من التابعين جاءوا يريدون سماع حديث الشفاعة منه، فتشفعوا بثابت البناني، فاستأذنا عليه فأذن له، فقال ثابت: يا أبا حمزة إخوانك من

---

(١) البخاري (٦٥٥٨)، ومسلم (١٩١).

(٢) البخاري (٦٥٦٦)، وأحمد (٤/ ٤٣٤).

(٣) البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤).

(٤) أحمد (٣/ ٢١٣)، والترمذي (٢٤٣٥)، وقال الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٤٠٠): إسناده جيد.

(٥) البخاري (٧٤٧٤)، ومسلم (١٩٨).

أهل البصرة جاءوا يسألونك عن حديث الشفاعة فقال: قالﷺ: "إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍﷺ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا. فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّى فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمتي أمتي. فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أمتي أمتي. فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أمتي أمتي. فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ". فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهْوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِى خَلِيفَةَ فَحَدَّثَنَا بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا: لَهُ يَا أَبَا سَعِيدٍ جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ هِيهِ، فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَقَالَ هِيهِ، فَقُلْنَا: لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا. فَقَالَ لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهْوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلاَ أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا، قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولاً، مَا ذَكَرْتُهُ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ، حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ قَالَ: "ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ،

وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله"(١).

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعًا: "فَيَقُولُ اللهﷻ: شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ". (٢)

لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحدُّ له حدًا.

وفي هذا الحديث وغيره من الأحاديث التي سقناها دليل واضح علي ثبوت الشفاعة للملائكة والأنبياء والمؤمنون، وأن الله يأذن بالشفاعة لمن يشاء من خلقه يوم القيامة.

الوجه الثامن: أصل عقيدة النصارى مبنية على الشفاعة " الفداء والصلب".

بسؤال يوجه إلى النصارى: لماذا صُلب المسيح؟.

والجواب مختصر كي يفدي من آمن به بالدخول الجنة، وهذه مسألة بطلانها بيِّن، إذ لا صلب ولا فداء كما بينا بالأدلة في محله. (٣)

* * *

(١) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣، ٣٢٦).

(٢) مسلم (١٨٣).

(٣) راجع شبهة " الصلب والفداء " .

٦- شبهة: تحليل الانتقام.

نص الشبهة:

قالوا: جاء في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤)، ونحن نرى الأثر السيئ لمبدأ الأخذ بالثأر متفشيًا بسبب هذا القول، وكم تعب رجال الشرطة من نتائجه، وبحت أصوات المعلمين في التعليم ضده؟ وهل الاعتداء على مَنْ اعتدى علاج للجريمة؟ إن العنف يولد المزيد من العنف.

قال المسيح: (**أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ**) (متى ٥: ٤٤)، وقال أيضًا: (**سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. ٣٩ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا**) (متى ٥: ٣٨، ٣٩). ، وقال الرسول بولس: (**لاَ تَنْتَقِمُوا لأَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، بَلْ أَعْطُوا مَكَانًا لِلْغَضَبِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «لِيَ النَّقْمَةُ أَنَا أُجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ. ٢٠فَإِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ. وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ. لأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ هذَا تَجْمَعْ جَمْرَ نَارٍ عَلَى رَأْسِهِ». ٢١لاَ يَغْلِبَنَّكَ الشَّرُّ بَلِ اغْلِبِ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ**) (رومية ١٢: ١٩-٢١)، وقال بطرس الرسول: (**فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ لأَجْلِنَا، تَارِكًا لَنَا مِثَالاً لِكَيْ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِهِ. ٢٢«الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ»، ٢٣الَّذِي إِذْ شُتِمَ لَمْ يَكُنْ يَشْتِمُ عِوَضًا، وَإِذْ تَأَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يُهَدِّدُ بَلْ كَانَ يُسَلِّمُ لِمَنْ يَقْضِي بِعَدْلٍ**) (بطرس ٢: ٢١-٢٣).

الجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤).

الوجه الثاني: نبذة عن القصاص.

الوجه الثالث: دين الإسلام يحث على العفو والصفح، وينهى عن العنف وعن العدوان ولو في أخذ الحق مِنْ مَنْ بدأ بالاعتداء.

الوجه الرابع: فقه التعامل مع المعتدين.

الوجه الخامس: مراعاة الشريعة لاختلاف أحوال المعتدى عليهم.

الوجه السادس: القصاص في الكتاب المقدس.

الوجه السابع: وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾.

إن من أساسات فهم أو دراسة أي كلام أو كتاب أن يهتم بالسياق الذي يأتي فيه الكلام حتى يفهم مراد قائله، فلا ننسب إليه شيئًا ما أراده، ولكن سبب هذا أننا فهمنا بعض كلامه بمعزل عن البعض الآخر، وإذا كنا نحرص على أن لا ننسب إلى أحد من الخلق شيئًا لم يُرده أو معنىً لم يُشر إليه، فمن باب أولى أن يقال ذلك في حق كلام رب العالمين، فالآية وردت في سياق ينبغي أن تفهم في إطاره وهو: يقول الله تعالى في الآيات السابقة لهذه الآية: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ ثم قال: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (البقرة: ١٩٠-١٩٤) فالآيات كما ترون جاءت في معرض الحديث عن قتال الكفار المعتدين، وبيان كيفية مواجهة اعتدائهم بدون ظلم، وبالنظر إلى الآية في هذا السياق تجد أن قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ (البقرة: ١٩٠) وأن معناه: فمن اعتدى عليكم في الحَرَم فقاتَلكم فاعتدوا عليه بالقتال

نحو اعتدائه عليكم بقتاله إياكم؛ لأني قد جعلتُ الحُرمات قصاصًا، فمن استحلَّ منكم أيها المؤمنون من المشركين حُرْمةً في حَرَمي، فاستحلوا منه مثله فيه[1].

ويبدو أن عدم فهم المراد بقوله: ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ والنظر إليه مجردًا كما أسلفت هو الذي سبب هذا الفهم الخاطئ. فكأنهم فهموا أن قوله: ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ أمر من الله بالظلم، فقد يقال: إذا كانت الآيات نزلت لتبين كيف يرد على عدوان المشركين وغيرهم، فلماذا جاء فيها ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ أليس الاعتداء من الظلم؟

نقول وبالله التوفيق: ولا يراد بالاعتداء هنا الظلم، وإنما سمي جزاء الظالمين عدوانًا مشاكلة كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤).

فإن قال قائل: وهل يجوز الاعتداء على الظالم كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟

فيقال: إن المعنى في ذلك على غير الوجه الذي إليه ذهبتَ، وإنما ذلك على وَجه المجازاة لما كان من المشركين من الاعتداء، يقول: افعلوا بهم مثل الذي فعلوا بكم؛ كما يقال: (إن تَعاطيتَ مني ظلما تعاطيته منك)، والثاني ليس بظلم.

كما قال عمرو بن شأس الأسديّ:[2]

جَزَيْنَا ذَوِى العُدْوَانِ بِالأَمْسِ قَرْضَهُمْ قِصَاصًا، سَواءً حَذْوَكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ.

وهذا يوضح أن من أساليب كلام العرب أسلوب يقال له المشاكلة اللفظية.[3]

إذن سَمَّاه اعْتِداء؛ لأنه مُجازاةُ اعْتِداءٍ بمثْل اسمه؛ لأَن صورة الفِعْلين واحدةٌ وإِن كان أَحدُهما طاعة والآخر معصية، والعرب تقول: ظَلَمني فلان فظلَمته؛ أَي: جازَيْتُه بظُلْمِه، لا وَجْه للظُّلْمِ أَكثرُ من هذا، والأَوَّلُ ظُلْم والثاني جزاءٌ ليس بظلم؛ وإن وافق اللفظُ اللفظَ

---

(١) الطبري (٣/ ٥٨١) بتصرف يسير، والشوكاني في فتح القدير (١/ ٢٥٢) بتصرف.

(٢) راجع ترجمته في طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٦).

(٣) الطبري (٣/ ٥٧٣).

مثل قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ السيئة الأُولى سيئة، والثانية مُجازاة وإن سميت سيئة، ومثل ذلك في كلام العرب كثير. . . الخ. [1]

الوجه الثاني: نبذة عن القصاص.

إن القصاص يبين حكمة الشارع سبحانه في نشر الأمن والتآلف بين أفراد المجتمع الإسلامي وهاك شيء من البيان:

١. المقصود به: أن يفعل بالجاني مثل ما فعل بالمجني عليه، فإن قَتله قُتل، وإن قطع منه عضوًا أو جرحه فُعل به مثل ذلك إن أمكن ما لم يؤدِ إلى وفاة الجاني، والنظر في ذلك يرجع إلى أهل الاختصاص.

٢. الحكمة منه بالنظر في العقوبات الإسلامية عامة والقصاص على وجه الخصوص نجد أنها تتسم بسمتين متكاملتين:

الأولى: صرامة هذه العقوبات وشدتها، وذلك للردع عن الجريمة ومحاصرتها بصرامة، وهذا لحفظ الأمن العام وتقليل معدل الإجرام نظرًا لصرامة العقوبة، فالقاتل الذي يعلم أنه سيقتل، والسارق الذي يعلم أنه ستقطع يده، والمعتدي على العرض والأسرة الذي يعلم أنه سيرجم أو يجلد مائة سوط؛ سيفكر في نتائج الجريمة قبل الإقدام عليها، بينما إذا علم أنه سيحبس فقط لأشهر أو سنوات قد لا يبالي بالعقوبة؛ وبالتالي لا يقلع عن الجرم.

الثانية: التشديد في وسائل إثبات هذه الجرائم، وبالتالي التقليل من فرص تنفيذ هذه العقوبات، وحماية المتهمين بها، وفي هذا السياق يأتي مبدأ درء الجرائم بالشبهات وتفسير أي شبهة في صالح المتهم، وفتح باب التوبة واعتبارها مسقطة للحد في بعض الحدود (كالحرابة)، وجواز العفو كما في القصاص؛ بل الندب إليه والحث عليه.

ويأتي التكامل بين هذين العنصرين من حيث إنه يجمع بين محاصرة الإجرام، وحماية المجتمع منه، وصيانته حق الفرد المتهم، وعدم أخذه بالظن والتهمة وكفله أفضل

---

(١) لسان العرب (١٥/ ٣١).

الضمانات لعدالة الحكم عليه وإنقاذه من العقوبة ما أمكن، وبذلك يمتنع الناس -أو معظمهم على الأقل- عن هذه الجرائم لصرامة العقوبة، ولا تنفذ هذه العقوبات عمليًا إلا في النادر، وبذلك يتحقق الأمن العام، وتصان حرمات الأفراد على حد سواء.

٣. أهم قواعده:

١) أن القصاص لا يُستحق إلا في القتل العمد أو الجرح العمد، أما الخطأ فلا يستحق فيه القصاص؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ ﴾.

٢) أن جرائم الاعتداء على الأشخاص قد جعل الإسلام لإرادة المجني عليه أو أوليائه دورًا أساسيًا في منع وقوع العقاب على الجاني؛ حيث قرر جواز العفو وأنه من حق المجني عليه؛ بل ندبه إلى ذلك وأجزل له الثواب في الآخرة: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾ فله أن يعفو عنه إلى الدية أو مطلقًا من غير عوض دنيوي؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

٣) إن توقيع العقاب وتنفيذه تتولاه السلطة العامة، ولا يتولاه أولياء الدم، وعلى هذا فرجال الشرطة لا يتعبهم أمر القصاص -ليس كما قال المعترض- لأنهم من السلطة العامة؛ لأن ما نص الإسلام عليه هو أن توقيع القصاص تتولاه السلطة العامة ولا يتولاه أولياء الدم ولا المُتعدَى عليهم.

٤) وهنا قد يرد استشكال: قد يقول قائل: كيف تقولون إن الإسلام دين الرحمة وفيه شريعة القصاص، أهذا من الرحمة؟

نقول مستعينين بالله: الرحمة ليست حنانًا لا عقل معه، وليست شفقةً تتنكر للعدل والنظام، كلا؛ بل إنها خُلُق يرعى الحقوق كلَّها، قد تأخذ الرحمةُ صورةَ الحزم حين يُؤْخَذُ الصغيرُ إلى المدرسة من أجل التربية وطلب العلم، فيُلزم بذلك إلزامًا، ويُكَفُّ عن اللعب كفًا، ولو تركوه وما أراد لم يحسنوا صنعًا، ولم يبنوا مجدًا.

والطبيب يمزِّق اللحم، ويهشم العظم، ويبتر العضو؛ وما فعل ذلك إلا رحمة بالمريض ولعلاجه، ناهيكم بإقامة الحدود، والأخذ على أيدي السفهاء، وأَطْرِهِمْ على الحق أطرًا، فهي الرحمة في مآلاتها، والحياة في كمالاتها: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٩).

والشفقة على المجرمين تخفي أشدَّ أنواع القسوة على الجماعة، إنها تشجّع الشواذ على الإجرام، والشفقة على المجرمين سمَّاها القرآن الكريم رأفة، ولم يسمها رحمة، فقال في عقاب الزناة والزواني: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ (النور: ٢).

إن القسوة التي استنكرها الإسلام جفاف في النفس، لا ترتبط بتحقيق عدل، ولا بمسلك إنصاف، ولكنها شدةٌ وانحراف في دائرة مجردة وهوى مضلٍّ.

والحق أن الإسلام قد جاء بالرحمة العامة، لا يُستثنى منها إنسان ولا دابة ولا طير، بيد أن هناك من الناس والدواب من يكون مصدر خطر ومَثار رُهب؛ فيكون من رعاية مصلحة الجماعة كلها أن يُحبس شره ويُكف ضرره؛ بل إن الشدة معه رحمةٌ به وبغيره.

الوجه الثالث: دين الإسلام يحث على العفو والصفح، وينهى عن العنف وعن العدوان ولو في أخذ الحق ممن بدأ بالاعتداء.

وهذا كثير في شرعة الإسلام قرآنًا وسنة نذكر من ذلك:

١ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت: ٣٤)، يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ادفع، يا محمد، بحلمك جهل من جهل عليك، وبعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم ويلقاك من قِبلهم.

عن سعيد بن المسيب قال: وضع عمر بن الخطاب للناس أحد عشرة كلمة حِكَمٌ كلها، قال: ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه[1].

---

(١) الطبري (٢١/ ٤٧١).

وقال ابن عباس: أمر بالصبر عند الغضب، وبالحلم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة. [١]

٢- وقال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ (النساء: ١٤٩) يعني بذلك: أن الله لم يزل ذا عفو عن عباده مع قدرته على عقابهم على معصيتهم إيّاه، يقول: فاعفوا، أنتم أيضًا أيها الناس عمن أتى إليكم ظلمًا، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإن قدرتم على الإساءة إليه، كما يعفو عنكم ربكم مع قدرته على عقابكم، وأنتم تعصونه وتخالفون أمره[٢].

فقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ ﴾ (النساء: ١٤٩) أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه. [٣]

٣ـ وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٢) كان أبو بكرﷺ ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، فقال: والله لا أنفق عليه أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور: ٢٢) فقال أبو بكر: والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح بالنفقة التي كان ينفق عليه فقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. [٤]

تدبر رحمة رب العالمين؛ يأمر أبا بكر بالصفح عن من وقع في عرض ابنته، فأي عفو وأي رحمة أوسع من التي جاءت في شرع العفو الرحيم سبحانه؟!

٤ـ وقال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣) وهذا أمر من الله ﷻ نبيّه محمدًاﷺ بالعفو عن هؤلاء القوم الذين همّوا أن يبسطوا

(١) تفسير البغوي (٧/ ١٧٤).

(٢) الطبري (٩/ ٣٥١).

(٣) السعدي (١/ ٢١٢).

(٤) البخاري (٤٩٤).

أيديهم إليه من اليهود، يقول الله ـ جل وعز ـ له: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هَمُّوا بما هَمُّوا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جُرْمهم بترك التعرُّض لمكروههم، فإني أحب من أحسنَ العفو والصَّفح إلى من أساء إليه، ما لم يَنْصِبُوا ـ أي اليهود ـ حربًا دون أداء الجزية، ويمتنعوا من الأحكام اللازمَة منهم. [(١)]

قلت: وهذا ليس صفحًا عاديًّا؛ فإن اليهود من أشد الناس عداوة للنبيﷺ وللذين آمنوا، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ (المائدة: ٨٢). فإذا أمرت بالصفح عن من أساء إليك فهذا عين الخير، لكن إن أمرت به تجاه عدوك فهذا ذروة سنامه. وقال: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩)، وقال: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التغابن: ١٤)، وقال: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٢٤).

والوقوف مع بقية المواطن التي حثت على ذلك طويل جدًّا لكننا نشير إشارات تغني بإذن الله عن طول عبارات يضيق المقام بها.

وفي السنة المطهرة أيضا من ذلك كثير:

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ ـ أي الموت ـ قَالَ: ﴿وَعَلَيْكُم﴾، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ الله وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهﷺ: "مَهْلًا، يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ أَوِ الْفُحْشَ"، قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! قَالَ: "أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟، رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ". [(٢)]

وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ الله عِزًّا". [(٣)]

---

(١) الطبري (١٠/ ١٣٤).

(٢) البخاري (٥٦٨٣).

(٣) مسند أحمد ٤/ ٢٣١، والترمذي (٢٣٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٦٩).

بل تعالوا نتدبر حال النبي ﷺ وكيف كان العفو له سجية:

يُؤذَى أشد الإيذاء من قومه فيُضرب، ويُعذب، ويُلقى على ظهره سلا الجزور، ويُسام أصحابه سوء العذاب، ويُحاصر هو وأهله في شِعب أبي طالب بلا طعام، ولا شراب لمدة ثلاث سنوات، ثم يكون من حاله ما جاء في الحديث الآتي:

عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ لِلنَّبِي ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[١].

أما عن إيذاءه وضربه ﷺ في يوم أحد الذي سألت عنه عائشة فكان حاله كالآتي:

عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: "رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ"[٢].

وعنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه جبذةً شديدةً، ورجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت به حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[٣].

فأيُّ عنف ينسب إلى شريعةٍ هذه نصوصها وهذا خلق نبيها ﷺ! !

---

(١) البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (١٧٩٢).

(٣) البخاري (٢٩٨٠)، ومسلم (١٠٥٧).

الوجه الرابع: فقه التعامل مع المعتدين.

من الخطأ أن يعامل الناس كلهم بأسلوب واحد؛ لأن أصناف الناس متباينة، فهناك مَنْ إذا عفوت عنه دفعه الحياء إلى عدم معاودة اعتدائه، ومن الناس من إذا عفوت عنه زاده العفو بغيًا واعتداءً؛ فمثل هذا لا يكون العفو في حقه مندوبًا؛ بل الانتصار منه أصلح له. وبيان ذلك كالآتي:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الشورى: ٣٩)، فالله ﷻ حمد كل منتصر بحق ممن بغى عليه، فإن قال قائل: وما في الانتصار من المدح؟ قيل: إن في إقامة الظالم على سبيل الحق وعقوبته بما هو له أهل تقويمًا له، وفي ذلك أعظم المدح[1].

فمراعاة أصناف الناس وما يُصْلِحُ حالهم يحتاج إلى فقه، مَن الذي ينتفع بالعفو؟ ومن الذي ينتفع بالعقوبة؟

فالعبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة، فَمِنَ الناس من إن عفوتَ عنه تمادى وظن هذا ضعفًا. وبيانًا لفقه المسألة نقول: إن التعامل مع من اعتدى يرجع إلى حالتين:

إحداهما: أن يكون الباغي معلنًا بالفجور، وقحًا في الجمهور، مؤذيًا للصغير والكبير فيكون الانتقام منه أفضل، وفي مثله قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

الثانية: أن تكون الفلتة أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة، فالعفو هاهنا أفضل وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٧)، وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ (المائدة: ٤٥)، وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور: ٢٢). [2]

الوجه الخامس: مراعاة الشريعة لاختلاف أحوال المعتدى عليهم.

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٥٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٣٥).

وكما جاءت الشريعة لتصلح حال المعتدين، إما بالزجر أو بالعفو، ولتقضي على الجريمة في المجتمع الإسلامي؛ جاءت أيضًا مراعية لأحوال الناس في الإيمان؛ فهم يتفاوتون، فقد يُعتدى على مؤمن قوي الإيمان، قوي النفس، عظيم الصبر، وقد يُعتدى على مؤمن ضعيف الإيمان، ضعيف الصبر، سريع الغضب. ورب العالمين هو الذي خلق الخلق جميعًا، وهو الذي يعلم أحوالهم؛ لذلك قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك: ١٤) فجاءت الشريعة تناسب أحوال المؤمنين كلها.

لذلك جعل الله المؤمنين صنفين: صنف يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الشورى: ٣٧)، وصنف ينتصرون من ظالمهم، ثم بين حدَّ الانتصار بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠) فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي.[1]

وعلى هذا فقد وضح رب العالمين مراتب العقوبة فحرَّم منها، وأحل، وندب، قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٣٦-٤٣).

ذكر الله تعالى في هذه الآي مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم. فأباح مرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٣٦).

وندب إلى مرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، يجزيه أجرًا عظيمًا وثوابًا كثيرًا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه؛ ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته؛ فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جَعْلِ أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وحرم مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته؛ فالزيادة ظلم. [١]

قال ابن كثير: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ وكقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾. فَشَرَعَ العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث "وما زاد الله تعالى عبدًا بعفو إلا عزًّا" وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة. [٢]

الوجه السادس: القصاص في الكتاب المقدس.

في سفر(اللاويين٣٥/ ٢١: ١٦): إِنْ ضَرَبَهُ بِأَدَاةِ حَدِيدٍ فَمَاتَ، فَهُوَ قَاتِلٌ. إِنَّ الْقَاتِلَ يُقْتَلُ. ١٧وَإِنْ ضَرَبَهُ بِحَجَرِ يَدٍ مِمَّا يُقْتَلُ بِهِ فَمَاتَ، فَهُوَ قَاتِلٌ. إِنَّ الْقَاتِلَ يُقْتَلُ. ١٨أَوْ ضَرَبَهُ بِأَدَاةِ يَدٍ مِنْ خَشَبٍ مِمَّا يُقْتَلُ بِهِ، فَهُوَ قَاتِلٌ. إِنَّ الْقَاتِلَ يُقْتَلُ. ١٩وَلِيُّ الدَّمِ يَقْتُلُ الْقَاتِلَ. حِينَ

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٦٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١).

يُصَادِفُهُ يَقْتُلُهُ. ٢٠وَإِنْ دَفَعَهُ بِبُغْضَةٍ أَوْ أَلْقَى عَلَيْهِ شَيْئًا بِتَعَمُّدٍ فَمَاتَ، ٢١أَوْ ضَرَبَهُ بِيَدِهِ بِعَدَاوَةٍ فَمَاتَ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الضَّارِبُ لأَنَّهُ قَاتِلٌ. وَلِيُّ الدَّمِ يَقْتُلُ الْقَاتِلَ حِينَ يُصَادِفُهُ.

الوجه السابع: وشهد شاهد من النصارى على مثله.

وهذه كلمة قالها القس شنودة الثالث- كتاب التسامح في الحضارة الإسلامية- ص: (٢٥-٣١) حول سماحة الإسلام ألقاها في القاهرة في المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في الفترة من ٨ – ١١ ربيع الأول سنة ١٤٢٥ هـ الموافق ٢٨ إبريل - ١ مايو ٢٠٠٤ م، وكان موضوع المؤتمر: (التسامح في الحضارة الإسلامية):

الأستاذ الدكتور/ عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء. الإمام الأكبر الدكتور/ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر. باسم الإله الواحد الذي نعبده جميعًا، نظرة الإسلام إلى السلام: يكفي أن السلام هو اسم من أسماء الله، وقد ورد في سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ (سورة الحشر: الآية٢٣)، وورد في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ (سورة البقرة: ٠٨)، وفي سورة النساء: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ (سورة النساء: ٤) أول مرحلة من السلام كانت في تاريخ الإسلام هي العهود والمواثيق الشهيرة، لعل في مقدمتها الميثاق الذي أُعطي لنصارى نجران، والميثاق الذي أعطي لقبيلة تغلب، ووصية الخليفة أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد، والوصية التي قدمها الخليفة عمر بن الخطاب قبل موته، والميثاق الذي أعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق، والميثاق الذي أعطاه عمرو بن العاص لأقباط مصر. وفي هذه المواثيق أَمَّن المسيحيين على كنائسهم، وصوامعهم، ورهبانيتهم، وأملاكهم، وأرواحهم.

ونذكر هنا في مصر أنه عندما أتى عمرو بن العاص إلى مصر كان البابا القبطي بنيامين منفيًا ثلاثة عشر عامًا بعيدًا عن كرسيه، فأمَّنه عمرو بن العاص وأعاده إلى كرسيه وأسلمهُ كنائسه التي أخذها منه الروم، وعاش معه في سلام.

ونذكر أيضًا بعض نواحي محبة وتعاون؛ فمثلًا في الدول الإخشيدية كان محمد بن طغج الإخشيدي يحتفل مع الأقباط بعيد الغطاس في جزيرة في النيل، وقد أوقدوا حوله ألف قنديل. وفي الدولة الطولونية نعرف أن جامع أحمد بن طولون بناه سعيد بن كاتب الفرغاني؛ وهو مهندس مسيحي، طلب منه أحمد بن طولون أن يبني مسجده بغير عمدٍ تمنع النظر. وفي الدولة الفاطمية كانت العلاقة طيبة جدًّا بين المسيحيين والمسلمين حتى إن يعقوب بن كلس اليهودي كان الوزير الوحيد في عهد المعز، وعيسى بن نسطورس النصراني كان كذلك في عهد العزيز بن المعز، مما يدل على أن غير المسلمين وصلوا إلى درجات كبيرة في الدولة. نرى أيضًا من سماحة الإسلام: ما قيل من كلمات طيبة عن أهل الكتاب في آيات القرآن، ففي سورة آل عمران: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣: ١١٤)، ولاشك أن هذه الكلمات كان لها تأثير في المجتمع الإسلامي، وفي العلاقة الطيبة بين المسيحيين والمسلمين وفي سورة الأنبياء: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٧)، وفي سورة المائدة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة المائدة: ٨٢)، وفي الحديث عن السيد المسيح في سورة الحديد: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (سورة الحديد: ٢٧).

ومن التسامح الإسلامي أيضًا الأحاديث التي وردت عن أهل الذمة، فقد قيل (في المأثورات الإسلامية): "من آذى ذميًا فليس منا، العهد لهم ولأبنائهم عهد أبدي لا يُنقض، يتولاه ولي الأمر ويرعاه" لا ننسى العلاقة الطيبة التي قدم لها مثالًا الخليفة عمر بن الخطاب عندما دُعي للصلاة في كنيسة القدس فاعتذر عن ذلك، وقال: (لئلا يأتي المسلمون من بعدي،

ويأخذوها منكم، ويقولون: هنا سجد عمر)، وصلى بعد رمية حجر من الكنيسة، وأنشئ في ذلك المكان جامع عمر، إنها روح طيبة عاش بها الإسلام مع غير المسلمين، ولعل من النقاط البارزة في القرآن مبدأ هام هو أنه لا إكراه في الدين، فقد ورد في سورة البقرة: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٦)، وفي سورة يونس: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ (سورة يونس: ٩٩- ١٠٠). ولذلك عندما جمع هذا المبدأ – مبدأ لا إكراه في الدين – المبدأ الذي يقول: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ كما في (سورة المائدة: ٩٩)، وأيضًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ (سورة المائدة: ١٠٥)، وفي سورة الشورى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ (الشورى: ٤٨)، وفي سورة النحل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (النحل: ٨٢)، لذلك كان من المبادئ الإسلامية القرآنية المعروفة بعدم الإكراه في الدين، وما على الرسول إلا البلاغ، وأيضًا ما ورد في سورة الغاشية: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الغاشية: ٢١ - ٢٢)، حتى بالنسبة للكافرين ورد في سورة الكافرون: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (الكافرون: ١-٦) ولهذا كان من مبادئ التسامح تلك الآية التي تقول: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) من أجل هذا كانت المجادلة في أمور الدين تكون بالتي هي أحسن، وهذا مبدأ من مبادئ التسامح كما في سورة العنكبوت: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ . . ﴾ (العنكبوت: ٤٦)

وجاء في سورة النحل: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥) لذلك إن حدث في يوم من الأيام إكراه في الدين يكون هذا خروجًا على تعاليم الإسلام التي سجلها القرآن، غير أن هناك بعض آيات خاصة بالقتال والحرب لا تعمم على الجميع، منها ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠) إذ هي موجهة في حالة الحرب وموجهة إلى أعداء الله وأعداء البلد، ومع ذلك جاء في نفس الآية: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٦١) وأيضًا يقول القرآن ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الممتحنة: ٨) إذ المسائل الخاصة بالحرب والقتال والخاصة بالأعداء الذين يخرجونكم من دياركم أو يضلونكم في دينكم شيء آخر، ولكن في غير ذلك يعيش الناس في محبة تبرونهم وتقسطون إليهم، إن الله يحب المقسطين.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأحقاف: ١٠).

* * *

٧- شبهة: إدعاؤهم أن الله - تعالى - يحلل الكذب للناس.

نص الشبهة:

قالوا: إله الإسلام يحلل الكذب، و إنكار ذات الله واحتجوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ (البقرة: ٢٢٥)، وبقول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المائدة: ٨٩)، بقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٦).

والجواب عن ذلك من وجوه:

الأول: مشروعية الحلف.

الثاني: من حلف فلا يحلف إلا بالله.

الثالث: آية الإكراه.

الرابع: ماذا عن الإله عند النصارى؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: مشروعية الحلف.

الله تبارك وتعالى شرع الأيمان والقسم للناس؛ لأن بها يحصل التصديق والبر بينهم. وهو شيء جار على عادتهم، فنهاهم الله تعالى عن الحلف والقسم بغير اسمه أو صفته أو ذاته.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " أَلا مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلا يَحْلِفْ إِلا بِاللهِ، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَحْلِفُ بِآبَائِهَا، فَقَالَ: لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ"[1].

---

(١) البخاري (٣٥٤٩).

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلا بِآبَائِكُمْ(١).

وقد شدد النبي ﷺ في النهي عن الحلف بغير الله تعالى، فعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رَجُلا يَحْلِفُ: لا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ". (٢) وهذا من الشرك الأصغر.

الوجه الثاني: من حلف فلا يحلف إلا بالله.

عَنْ عَبْدِ الله ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ"(٣).

والحلف بالله تعالى له ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحلف بالله كاذبًا.

وهذا ما يسمى باليمين الغموس، وقد توعد النبي ﷺ من فعل ذلك، فقد روى البخاري عَنْ عَبْدِ الله ﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ"، فَأَنْزَلَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. (٤)

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: "الإِشْرَاكُ بِالله"، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ"، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "الْيَمِينُ الْغَمُوسُ"، قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: "الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ". (٥)

القسم الثاني: اليمين اللغو:

وهو اليمن الذي يحلف به الإنسان دون عقد القلب، فقد عفا الله ﷻ عنه، وليس هذا من باب الكذب، وإنما الكذب هو أن يحلف بما يخالف الحقيقة.

---

(١) مسلم (٣١٠٨).

(٢) أبو داود (٢٨٢٩)، والترمذي (١٤٥٥)، وصححه الألباني (٢٧٨٧).

(٣) البخاري (٢٤٨٢).

(٤) البخاري (٢١٨٥).

(٥) البخاري (٦٤٠٩).

مثال: كأن يقول قائل: والله سأذهب إلى مكان كذا، أو سأفعل كذا، دون عقد القلب على ذلك، فهذا لا يؤاخذه الله تعالى به. قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ (البقرة: ٢٢٥).

القسم الثالث: وهو اليمين المنعقدة:

وهو أن يؤكد الإنسان على أنه سيفعل كذا أو سيذهب إلى كذا وأشباهه، وهذا نوعان:

النوع الأول: أن يبر بقسمه فلا شيء عليه.

النوع الثاني: أن يحنث في قسمه، فهذا عليه الكفارة.

قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المائدة: ٨٩).

هذه هي أنواع الأيمان كما جاءت في الآيتين السابقتين، ليس فيها أمر بالكذب كما يدعي المعترضون.

الوجه الثالث: آية الإكراه.

والإكراه: هو حمل الغير على فعل لا يرضاه تحت تهديد بالضرب أو إفساد أموال ونحوه. فهذا قد أباحه الله تعالى في حقه حفظا على نفس المؤمن قال تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٦)، فمن وقع تحت وطأة الأعداء، وأمروه بالكفر وخيروه بين ذلك وبين قتله، فله أن يقول بلسانه ما ليس في قبله حرصا على حفظ نفسه من القتل. ولا يجوز الإكراه في قتل المسلم بإجماع، وفي الزنا على قول الجمهور. فأين الكذب في هذه الآية؟! !.

الوجه الرابع: ماذا عن الإله عند النصارى؟

١ ـ الرب كذاب ولص: كما جاء في سفر الخروج: (١ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: ضَرْبَةً

وَاحِدَةً أَيْضًا أَجْلِبُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى مِصْرَ.... ٢تَكَلَّمْ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ أَنْ يَطْلُبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ صَاحِبِهِ وَكُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ صَاحِبَتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ) (سفر الخروج ١١: ١-٢). فقد أمر بالكذب لسرقة المصريين.

٢ ـ الشيطان أصدق من الرب: (وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلًا: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ) (سفر التكوين ٢/ ١٦-١٧).

أما الشيطان المتمثل في صورة الحية فقال: (فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ الله عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَالله عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ) (سفر التكوين٣/ ٤).

وبالفعل لم يميتهما الله؛ بل عاقبهما بأن أنزلهما إلى الأرض للعمل والشقاء (سفر ا لتكوين ٣/ ١٦- ١٩) وكذلك لم يمتهما الرب؛ بل مات آدم عن عمر يناهز ٩٣٠ سنة.

٣ ـ الرب يأمر بالسرقة: (وَأُعْطِي نِعْمَةً لِهَذَا الشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ. بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الْمِصْرِيِّينَ) (سفر الخروج ٣: ٢١-٢٢).

وكذلك أيضًا (وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى، طَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا، وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عيون الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارُوهُمْ، فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ) (سفر التكوين ١٢: ٣٥-٣٦).

٤ ـ الرب يُغْوِي: (وَقَالَ: فَاسْمَعْ إِذًا كَلاَمَ الرَّبِّ: قَدْ رَأَيْتُ الرَّبَّ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَكُلُّ جُنْدِ السَّمَاءِ وُقُوفٌ لَدَيْهِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، فَقَالَ الرَّبُّ: مَنْ يُغْوِي أَخْآبَ فَيَصْعَدَ وَيَسْقُطَ فِي رَامُوتَ جِلْعَادَ؟ فَقَالَ هَذَا هَكَذَا وَقَالَ ذَاكَ هَكَذَا، ثُمَّ خَرَجَ الرُّوحُ وَوَقَفَ أَمَامَ الرَّبِّ وَقَالَ: أَنَا أُغْوِيهِ، وَسَأَلَهُ الرَّبُّ: بِمَاذَا؟ فَقَالَ: أَخْرُجُ وَأَكُونُ رُوحَ كَذِبٍ فِي أَفْوَاهِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ تُغْوِيهِ وَتَقْتَدِرُ، فَاخْرُجْ وَافْعَلْ هَكَذَا) (الملوك الأول ٢٢: ١٩-٢٢).

* * *

٨- شبهة: حول أعظم آية في القرآن الكريم.

نص الشبهة:

يقول المعترض: يعتبر المسلمون هذه الآية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ أعظم آيات القرآن، وقد ورد في تفسير ابن كثيرٍ عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس فلقيه رجل من الجن فقال: هل لك أن تصارعني فإن صرعتني علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه فصرعه فقال: إني أراك ضئيلًا شخيتًا (نحيف الجسم) كأن ذراعيك ذراعا كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم أم أنت من بينهم؟ فقال: إني بينهم لضليع، فعاودني فصارعه، فصرعه الإنسي فقال: تقرأ آية الكرسي فإنه لا يقرأ أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خيخ (ضراط) الحمار. فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر!.[1]

ونحن نقول: إن الوحي أبعد من أن تَعْلَمَه الشياطين، فالله لا يسمح للشياطين أن يحملوا كلامه للبشر.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه وهي:

الوجه الأول: فضل آية الكرسي.

الوجه الثاني: وهل الإخبار عن التجربة يقال فيه: إن الشيطان جاء بالوحي؟

الوجه الثالث: هذا فضل لا يثبت.

الوجه الرابع: وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل آية الكرسي.

ثبت فضل هذه الآية العظيمة، وأنها حقًّا أعظم آية في كتاب الله - وكتاب الله كله عظيم – من عدة نصوص نذكر منها:

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٧٥).

١-عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: " يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ " قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ "، قَالَ: قُلْتُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صدري وَقَالَ: "وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ"(١).

٢- وعن أبي أمامة قال: قال رسول اللهﷺ: "من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت". (٢)

٣-وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: "وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ". فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهﷺ. قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهﷺ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ". فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا. قُلْتُ مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهﷺ: "مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ". قُلْتُ: يَا

---

(١) مسلم (٨١٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٩٩٢٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٧٢).

رَسُولَ اللهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ، يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: "مَا هِيَ؟". قُلْتُ قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيءٍ عَلَي الْخَيْرِ. فَقَالَ النبي ﷺ: " أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ " قَالَ: لاَ، قَالَ: "ذَاكَ شَيْطَانٌ"[1].

وهذا النص الأخير لا يقال فيه: إننا علمنا هذا الفضل بإخبار الشيطان؛ لأنه لولا إقرار النبيﷺ بقوله: "إما إنه صدقك وهو كذوب" ما عد ذلك دليلًا يستخرج منه فضل يعمل المسلمون من أجل أن ينالوه.

الوجه الثاني: وهل الإخبار عن التجربة يقال فيه: إن الشيطان جاء بالوحي؟

مما سبق من النصوص يلزمنا أن نُسَلِّمَ أولًا أن فضل آية الكرسي، واعتقاد أنها أعظمُ آية في القرآن العظيم ثبت من كلام أمين مَنْ في السماءعليه السلام لأمين من في الأرض ﷺ، ثم نقول ثانيًا: إن إخبار الشيطان عن هذا الفضل أمرٌ لا سبيل له أن يعلمه إلا بالتجربة.

فالصحابة معلوم حرصهم على كثرة تلاوة كتاب الله ﷻ وخصوصًا الآيات التي ثبت لها فضل، وهذا معناه أن يمروا على آية الكرسي في القراءة كثيرًا، فينزل الملك بمجرد قراءتها، والشيطان يرى ذلك فيعلم، ثم هو في هذا النص يخبر. فأين العجب هنا؟ فهل كل صاحبِ علمٍ عن تجربةٍ يقال عنه: إنه يوحَى إليه، أو إنه للغيب عالم؟!

الوجه الثالث: هذا فضل لا يثبت.

الفضل الذي جاء في النص الذي استدل به المعترض ليس لدينا ما يثبته بهذه الصورة، ولولا أنه ثبت من النصوص الآتية ما أثبتناه؛ وذلك لأن النص الذي استَدَلَّ به المعترض ضعيفٌ.

وبيان ذلك فيما يلي:

١ـ جاء من طريق عامر الشعبي عن ابن مسعود عند الدارمي (٣٣٨١) والطبراني في

---

(١) البخاري (٢١٨٧).

الكبير (٩/ ١٦٦) وغيرهم بسند رجاله ثقات، لكنه **ضعيف**؛ لأن عامرًا لم يسمع من ابن مسعود، فهو **منقطع**. نص على ذلك ابن معين وغيره.[1]

٢ـ لكن **تابع** عامرًا زر بن حُبَيْشٍ فيما أخرجه البيهقي في الدلائل (٣٠٤٧) من طريق سعيد بن سالم عن محمد بن أبان عن عاصم بن أبي النجود عن زر عن ابن مسعود، وهي متابعة واهية؛ فيها أكثر من علة:

أـ سعيد بن سالم، قال ابن حجر: صدوق يهم. (التقريب ٢٣١٥).

ب ـ محمد بن أبان الجعفي؛ ضعفه أبو داود، وابن معين، وقال البخاري: ليس بالقوي. (ميزان الاعتدال ٧١٢٨).

جـ ـ عاصم بن أبي النجود صدوق له أوهام (التقريب ٣٠٥٤).

د ـ اختُلِفَ على عاصمٍ؛ فرواه الطبراني في الكبير (٨٨٢٤) من طريق أسد بن موسى عن المسعودي، عن عاصمٍ عن شقيقٍ عن ابن مسعودٍ؛ والمسعودي صدوقٌ اختلط قبل موته (التقريب ٣٩١٩).

ورواية أسدٍ عنه غير منصوصٍ عليها؛ أهي قبل الاختلاط أم بعده؟

وعلاوة على ذلك قال ابن معين: (كان يغلط فيما يحدث عن عاصم بن بهدلة)[2].

وقد علق الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٧٤) على هذين السندين فقال: رواهما الطبراني بإسنادين، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعودٍ ولكنه أدركه. ورواة الطريق الأولى فيهم المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي والله أعلم.

قلت: رحمك الله هذا قد يسلم به لولا الاختلاف الذي على عاصم، وما أثبت من غلط في رواية المسعودي عن عاصم، وعاصم لا يتحمل تعدد المشايخ. والله أعلم.

لكن تابع عاصمًا عبد الملك بن عمير فيما أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٤/ ٨٨)

---

(١) انظر جامع التحصيل (١/ ٢٠٤).

(٢) شرح علل الترمذي (٥٧١).

ولكنها أوهى من أن تذكر ففيها محمد بن عبدة بن حرب.

قال البرقاني وغيره: هو من المتروكين.

وقال ابن عدي: كذاب، حدث عمن لم يرهم.

وقال الدارقطني: لا شيء، كان آفة، سمعت السبيعي يقول: انكشف أمره. (١)

ويزيد ذلك وهنًا خلافٌ ثالث رواه أبو جعفر البختري.

من طريق همام بن يحيى عن عاصم عن زرٍّ أن عمر بن الخطاب. . . .

فخلاصة الحديث أن له طريقين:

الأول: من طريق عامر الشعبي عن ابن مسعود وهو منقطع.

والثاني: مداره على عاصم، واختلف عليه بما لا يتحمله، فيبدوا أنه اضطرب فيه. والله أعلم.

ثم حتى لو ثبت سماعُه، فإن الفضل المذكور هو محض إخبار جن قد يصدق وقد يكذب، ولا إقرار فيه من النبيﷺ كما سبق في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري يعلمنا صدقه، ولكن نقول: إنه ثبت قريبٌ من هذا لفضل فيما يلي، وانظر إلى إقرار النبيﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحَى.

١- عن أبي أيوب الأنصاريﷺ أنه كانت له سهوةٌ فيها تمرٌ، وكانت تجيء الغول فتأخذ منه، قال: فشكا ذلك إلى النبيﷺ، فقال: "اذهب فإذا رأيتها، فقل: باسم الله، أجيبي رسول الله، قال: فأخذها، فحَلَفَتْ أن لا تعود، فأرسلها، فجاء إلى رسول اللهﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حَلَفَتْ أن لا تعود، قال: كَذَبَتْ، وهي معاودة للكذب، قال: فأخذها مرة أخرى، فحَلَفَتْ أن لا تعود، فأَرْسَلَهَا، فجاءَ إلى النبيِّﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حلفت أن لا تعود، فقال: "كَذَبَتْ، وهي معاودة للكذب" فأخذها، فقال: ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النبيﷺ فقالت: إني ذاكرة لك شيئًا؛ آية الكرسي، اقرأها في بيتك؛ فلا يقربك شيطان، ولا غيره، فجاء إلى النبيﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟

(١)انظر ميزان الاعتدال (٣/ ٦٣٤).

قال فأخبره بما قالت، قال: صَدَقَتْ، وهي كذوب"(١).

تدبر قول النبي ﷺ كذبت مرتين، ثم قوله: "صدقت" فالمعول عليه **إقرار النبي** ﷺ، وليس إخبار الجن أو الشياطين.

٢- عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ، أن أباه أخبره أنه كان لهم جرين فيه تمر، وكان مما يتعاهد فيجده ينقص فَحَرَسَهُ ذاتَ ليلةٍ، فإذا هو بدابة كهيئة الغلام المحتلم، قال: فسلم فرد عليه السلام، فقلت: ما أنت؛ جن أم إنس؟ قال: جن، فقلت: ناولني يدك، فإذا يد كلب، وشعر كلب، فقلت: هذا خلق الجن؟ فقال: لقد عَلِمَتْ الجن أن ما فيهم مَن هو أشدُّ مني، فقلت: ما يحملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك تحب الصدقة؛ فأحببت أن أصيب من طعامك، فقلت: ما الذي يحرزنا منكم؟ قال: هذه الآية؛ آية الكرسي، قال: فتركته، وغدا أبي إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: صدق الخبيث". (٢)

الوجه الرابع: وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (التوبة: ٣٣)، ومن إظهاره لدينه سبحانه أن يستعمل من يشاء في نشره فيستعمل البَرَّ ويثيبه، وكذا إذا شاء استعمل من هو لهذا الدين مبغض محارب ولا يعود إلا بالخسارة؛ لأن ثبوت الأجر يلزمه التوحيد والإيمان، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الزمر: ٦٥)، وإن الحالة التي تعجب منها المعترض هي من النوع الثاني فالشيطان يعمل جاهدًا ليصد عن دين الله، ويحادد بذلك الملك لكن هيهات، فكيده مردود في نحره؛ بل ويقع في إخبار أسرار لا يعلم أن الله قدرها لحفظ دينه وتحصين عباده، ولا عجب فالملك

---

(١) ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٢٠)، والترمذي (٣١٢١)، وقال الألباني: (صحيح لغيره) في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٩).

(٢) أخرجه الحارث في مسنده (زوائد الهيثمي ١٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٩٦)، والحاكم في مستدركه (٥/ ١٣٠)، والبيهقي في الدلائل (٨/ ١٧٣)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٠): صحيح.

يصنع في ملكه ما يشاء، وإليك بعض الأمثلة غير هذا:

أ-استعمال اليهود كي يكونوا سببًا في إسلام الأنصار: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة: ٨٩)

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وكان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم من الكتب التي أنزلها الله قبل الفرقان كفروا به وكانوا من قبل يستفتحون بمحمدﷺ، ومعنى الاستفتاح الاستنصار يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل مبعثه أي من قبل أن يبعث.

قلت: أي إن اليهود كانوا إذا اختلفوا مع المشركين من أهل المدينة قبل أن يأتيهم رسول اللهﷺ قالوا: إنه قد أطل زمان نبي جديد فسيبعث وسنقاتلكم معه قتل عاد وإرم. وقدر الله ذلك ليحفز المشركين من أهل يثرب أن يسبقوا اليهود في الإيمان بالنبيﷺ، فلما حج بعض المشركين من أهل يثرب ورأوا النبيﷺ قالوا: هذا الذي كانت تعيركم به يهود لا يسبقونكم إليه فسارعوا إلى الإيمان به.

فانظر كيف يستعمل الله أعداءه في خدمة دينه والدعوة إليه، وهم لا يلحقهم من الخير شيء؛ لأنهم ما قصدوا ذلك إنما الله جل وعلا ينصر دينه بما شاء وكيف شاء.

ب-استعمال أبي جهل في إقامة الحجة على المشركين ونشر معجزة الإسراء، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: "لما كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِي بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِي" فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ عَدُوُّ الله أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهﷺ: "نَعَمْ" قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: "إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ؟ " قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ" قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "نَعَمْ"

فَقَالَ: هَيَا يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍ، حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ" قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قُلْتُ: "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ" قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ –زَعَمَ– قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ، - قَالَ - فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عَقِيلٍ فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ " قَالَ: وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ، قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ"[1].

تدبر، كيف ألقى الله على لسان أبي جهل سؤال النبي ﷺ بعد أن جاء وجلس إلى جوار النبي ﷺ دون أن يناديه أو يطلب منه فيقول: (هل من شيء؟) يقولها كالمستهزيء، لكن الله يجعل كيده في نحره فيستعمله في نداء القوم، هو يظن أنه ينادي للقضاء على الدِّين، والله يقدِّر ذلك لينعت النبي ﷺ بيت المقدس أمام القوم وهم يعلمون أنه ما سبق له زيارته، فتقام الحجة ويقع التصديق في القلوب، فيقترب كثير منهم للإسلام والإذعان بصدق نبوة النبي العدنان ﷺ.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٢٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٧).

٩- شبهة: معاصرة إبراهيم للنمرود، وادعاؤهم أن النمرود كان سابقًا لإبراهيم عليه السلام بـ٣٠٠سنة.

نص الشبهة: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

أجمع علماء الإسلام على أن الذي حاجَّ إبراهيم هو نمرود بن كنعان الجبار، والتوراة تقول: إن إبراهيم كان خليل الله، وإنه أبو المؤمنين، وإن الله اصطفاه، ولكنها لم تقل إنه أُلقي في النار، وإنه فعل المعجزات المنسوبة إليه هنا.

ولم يكن نمرود معاصرًا لإبراهيم؛ بل كان سابقًا لإبراهيم بنحو ٣٠٠ سنة، كما يقول سفر التكوين.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأدلة الشرعية المتفق على حجيتها في الإسلام.

الوجه الثاني: نبذةٌ عن الإجماع.

الوجه الثالث: نبذةٌ عن علم الغيب واعتقاد المسلمين فيه.

الوجه الرابع: وهل سماه القرآن أو سمته السنة؟

الوجه الخامس: الأدلة التي احتج بها الخصم.

الوجه السادس: موقف دين الإسلام من الكتب السابقة وصحة الاحتجاج عليه بها.

الوجه السابع: التواريخ في التوراة تتكلم.

الوجه الثامن: وهل تمنع الثلاثمائة عامٍ من التعاصر؟

الوجه التاسع: وعلى الفرض بأن الذي حاجه اسمه نمرود، هل هناك ما يمنع وجود نمرودٍ آخر؟.

الوجه العاشر: عن أي نسخةٍ من التوراة تتحدثون؟ وبأي التورايخ تأخذون؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأدلة الشرعية المتفق على حجيتها في الإسلام.

لمناقشة احتجاج المعترض بقوله: أجمع علماء الإسلام، ينبغي أن نعطي نبذةً أصوليةً هامةً عن الأدلة الشرعية المتفق على حجيتها في الإسلام؛ وهي إجمالًا:

القرآن الكريم. السنة النبوية الصحيحة. الإجماع. القياس. وذلك من حيث الجملة. (١)

قال الشافعي: وجهة العلم الخبر في الكتاب، أو السنة، أو الإجماع، أو القياس. (٢)

وهذه الأدلة لا تختلف؛ إذ يوافق بعضها بعضًا ويصدق بعضها بعضًا؛ لأن الجميع حقٌّ، والحق لا يتناقض. (٣)

وهي كذلك متلازمةٌ، لا تفترق؛ فجميع هذه الأدلة ترجع إلى الكتاب(٤)، والكتاب قد دل على حجية السنة والكتاب، والسنة دلت على حجية الإجماع، وهذه الأدلة الثلاثة دلت على حجية القياس. (٥)

قلت: وما سوى هذه الأدلة منازَعٌ فيه مختلَفٌ في حجيته غيرُ ملزم على إطلاقه.

وبهذا يتبين أن القرآن والسنة هما أصل الأدلة الأربعة المتفق عليها؛ فلا يقوم إجماعٌ، ولا قياسٌ بدون مستندٍ من الكتاب أو السنة أو من كليهما.

الوجه الثاني: نبذة عن الإجماع.

ومن الجدير أن نفصل أمر الدليل الثالث وهو من الإجماع لاحتجاج المعترض في اعتراضه به.

فنقول: الإجماع لغة: يطلق على العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ (يونس: ٧١).

ويطلق على الاتفاق ومنه قولهم: أجمع القوم على كذا؛ أي اتفقوا عليه.

---

(١) معالم أصول الفقه (١/ ٧٠).

(٢) الرسالة (١/ ٣٩)، وانظر منه (ص ٥٠٨).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٣٣).

(٤) الرسالة (٢٢١).

(٥) معالم أصول الفقه (٦٨).

وفي الاصطلاح: هو اتفاق مجتهدي عصرٍ من العصور من أمة محمد ﷺ بعد وفاته على أمرٍ ديني.

وقد اشتمل هذا التعريف على خمسة قيودٍ:

الأول: أن يصدر الاتفاق عن كل العلماء المجتهدين؛ فلا يصح اتفاق بعض المجتهدين، وكذلك لا يصح اتفاق غير المجتهدين كالعامة، أو من لم تكتمل فيهم شروط الاجتهاد.

أي يشترط في صحة الإجماع أن يكون قولَ جميع المجتهدين، ولا يُعْتَدُّ بقول الأكثر- الجمهور- فإذا خالفَ واحدٌ أو اثنان من المجتهدين فإن قولَ الباقين لا يُعْتَبَرُ إجماعًا.

الثاني: المراد بالمجتهدين مَن كان موجودًا منهم دون من مات، أو لم يولد بعدُ، وهذا هو المقصود بقيد (عصرٍ من العصور).

الثالث: لا بد أن يكون المُجْمِعُون من المسلمين، ولا عبرةَ بإجماع الأمم غير المسلمة.

الرابع: الإجماع إنما يكون حجةً بعد وفاة النبيِّ ﷺ ولا يقع في حياته.

الخامس: أن تكون المسألةُ المجمَعُ عليها من الأمور الدينية، ويخرج بذلك الأمور الدنيوية والعقلية وغيرها[(١)].

وقد ذهب بعض العلماء إلى القول باشتراط انقراض العصر، ولعل هؤلاء أرادوا بهذا الاشتراط زيادة التثبت في نسبة قول المجمعين إليهم، وشدة التأكد من استقرار أهل المذاهب على مذاهبهم.

وعلى كل حالٍ فلا بد في هذه المسألة من تحرير قضيةٍ مهمةٍ:

ألا وهي التثبت في نقل الاتفاق والتأكد من حصول الإجماع؛ وذلك بمعرفة أقوال المجمعين والاطلاع على أحوالهم للعلم باستقرارهم على مذاهبهم[(٢)].

قلت: أما في حالة نقل الاتفاق دون التأكد من موافقة جميع المجتهدين فالإجماع المنقول لا يكون صحيحًا، ثم إن هناك شرطًا أساسيًا كما أسلفنا، وهو أن يستند الإجماع إلى دليلٍ شرعيٍّ ولا يمكن إجماع الأمة عن هوًى أو قولٍ على الله بغير علم.

---

(١) معالم أصول الفقه (١٦١- ١٦٢).

(٢) المصدر السابق (١٧٠).

قاعدة مهمة: لا يوجد مسألةٌ يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نصٌّ، ويقال أيضًا: لا يوجد قط مسألةٌ مُجْمَعٌ عليها إلا وفيها بيانٌ من الرسولﷺ(١).

وأما العلم بثبوت الإجماع في مسألةٍ لا نص فيها فهذا لا يقع(٢).

الوجه الثالث: نبذة عن علم الغيب واعتقاد المسلمين فيه.

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦-٢٧)، قال العلماء -رحمة الله عليهم-: لما تَمَدَّحَ سبحانه بعلم الغيب وأستأثر به دون خلقه، كان فيه دليلٌ على أنه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوتهم(٣).

فمن الثوابت في عقيدة المسلمين أن علم الغيب خاصٌّ بالله تعالى، ووراء طور البشر:

فالاطلاع على الغيب يختص بالله تعالى، فهو يملكه ويتصرف فيه كما يشاء، وهي صفته الدائمة، ولم يجعل لولي أو نبي، أو جني أو ملك، أو شيخ أو شهيد، أو إمام، أو سليل إمام، ولا لعفريت ولا لجنية أن يطلعوا على الغيب متى شاءوا، إن الله قد يطلع من يشاء على ما يشاء متى يشاء، لا يجاوز علمه ما أراد الله إطلاعه عليه مثقال ذرة، وكان ذلك خاضعا لإرادة الله تعالى، لا لهواهم.(٤)

وهذا ليس مقررًا في عقيدة المسلمين فقط؛ بل في كل رسالة ونبوة؛ لأن الله استأثر بعلم الغيب، لذلك لما سأل فرعون موسى عن شيء من الغيبيات رد علمها إلى من لا يعلمها في الأصل إلا هو سبحانه، قال تعالى حاكيًا قول فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (طه: ٥١) ثم حكى إجابة موسى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ (طه: ٥٢) وكذا في أمر الاختلاف في عدد أصحاب الكهف يقول الله جل وعلا:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٥).

(٢) المصدر السابق (١٩/ ٢٧٠).

(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨).

(٤) رسالة التوحيد (١/ ٦٥).

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (الكهف: ٢٢).

وقال عن المدة التي لبثوها في الكهف: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٥-٢٦).

لذا لا يُستفتى في الغيب إلا من يعلمه؛ وهو الله أو من علمه الله ﷻ وهم أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم وسلم؛ وذلك عن طريق الوحي إليهم بذلك؛ لذا أطلع رب العالمين نبيه ﷺ على بعض أخبار الأمم السابقة، فقال رب العالمين: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر: ٧٨)، وقال تعالى بعد أن قص على النبي ﷺ نبأ مريم بنت عمران: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٤) أي أنه لا سبيل لك أن تعلم نبأهم؛ لأنك لم تشهد هذا الأمر فهو لك غيبٌ لا قِبَلَ لك أن تعلمه بدون تعليم الله إياك. وكذا قال تعالى بعد أن قص على النبي ﷺ نبأ نوح وقومه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (هود: ٤٩). وكرر ذلك بعد أن قص عليه قصة يوسف عليه السلام.

ومما سبق نخلص بالنتيجة الآتية:

١- أن الله ﷻ استأثر بعلم الغيب سواء ما كان شهادةً لقومٍ، ثم صار غيبًا لآخرين كأخبار السابقين، أو ما هو غيبٌ للجميع وهو خبر كل ما يُسْتَقْبَلُ.

٢- أن الله تعالى يطلع خلقه على ما يشاء من الغيب كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

٣- أن سبيل إطلاع الله لخلقه على الغيب هو الوحي، والوحي لا يكون إلا لمن اصطفاهم الله للنبوة والرسالة.

٤- إذن لا سبيل لعلم الغيب في أمتنا إلا بنصٍّ من كتاب الله أو من سنة نبيه محمد ﷺ؛ لأنه لا يوحى إليه في هذه الأمة إلا هو، والغيب لا يكون إلا بالوحي كما أسلفنا.

٥- كل من نقل شيئًا من خبر الغيب سواء مما سبق وقوعه، أو مما يستقبل دون مستند من كتاب أو سنة فقوله لا يجزم به ولا يحتج به؛ لأنه لن يعدوا إلى أن يكون عن أحد طريقين وهما:

أ- ما نقل عن بني إسرائيل أو ما نقل عن المؤرخين وهذا ليس بحجة قطعًا كما أسلفنا.

ب- ما يكون تخرُّصًا وادعاءً، وهذا رجمٌ بالغيب كما أخبر الله حينما حكى مثل ذلك عن من اختلفوا في عدة أصحاب الكهف.

تنبيهٌ هامٌّ:

من المعلوم أن القرآن والسنة نُقِلُوا إلينا عن طريق أصحاب محمد ﷺ إذن فهم عاينوا التنزيل إخبارًا وإنشاءً، ولهذا كان إخبارهم عن الأمور التي لا مجال للاجتهاد فيها على قول أكثر العلماء له حكم الرفع أي أن النبي ﷺ أخبرهم به وإن لم يصرحوا هم بذلك.

فما له حكم الرفع في من تفسير الصحابي هو ما صح عنه من أسباب النزول و ألحقوا بـ(تفسير الصحابي) الذي له حكم الرفع ما لا يدخله الاجتهاد، مثل: أن يخبر عن أمر ماضٍ، أو أن يخبر عن مغيبٍ آتٍ، أو عن أمرٍ مستقبلٍ -يعني- عن المغيبات، أو أن يخبر عن أي شيءٍ لا يدخله الاجتهاد، فيفسر الآية بشيءٍ لا يدخله الاجتهاد، واشترطوا لهذا ألا يكون معروفًا بالأخذ عن بني إسرائيل، أو عن الإسرائيليات، فإن بعض الصحابة ﷺ تجوزوا وإن لم يكن هذا كثيرًا، فمتى كثر هذا؟ وفي عهد من؟ في عهد التابعين، بعض الصحابة تجوز التحديث عن بني إسرائيل؛ أخذًا من قوله ﷺ: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" أو يعني بعض الصحابة مثل: عبد الله بن عمرو بن العاص، عُرِفَ عنه أنه أخذ

عن بعض أهل الكتاب. فمثل هذا التفسير، وكذلك قول الصحابي عمومًا، إذا لم يدخل في الاجتهاد، يقولون: إن له حكم الرفع.[(١)]

ومثالُ المرفوعِ مِن القولِ حُكمًا لا تَصْريحًا أَنْ يقولَ الصَّحابيُّ - الَّذي لم يأْخُذْ عَنِ الإِسرائيليَّاتِ - ما لا مجالَ للاجْتِهادِ فيهِ، ولا لهُ تعلُّقٌ ببيانِ لُغةٍ أَو شرحِ غريبٍ؛ كالإِخْبارِ عنِ الأمورِ الماضيةِ مِن بَدْءِ الخَلْقِ وأَخْبارِ الأنبياءِ -عليهم الصلاة والسلام- أَو الآتيةِ كالملاحمِ والفِتَنِ وأَحوالِ يومِ القيامةِ[(٢)].

إذن المعتبر قولهم فرادى أو إجماعًا ويحتج به في الأمور الغيبية هم الصحابة للسبب السالف ذكره بالقيد السالف ذكره أيضًا، وهو أن لا يكون معروفًا بالأخذ عن بني إسرائيل، أما من دونهم فلا يعتبر قولهم في الغيبيات وإن أجمعوا لسببين:

أ- أن صلتهم بمصدر الغيب منقطعة.

ب- أنه كثر فيهم الأخذ عن بني إسرائيل.

إذن فبحث الإجماع سيكون في الطبقة التي يعتد بقولهم وإخبارهم عن الغيبيات مما لم يرفع تصريحًا. فنقول مستعينين بالله:

الوجه الرابع: وهل سماه القرآن أو سمته السنة؟

كما أسلفنا أن الأدلة المعتبرة لا بد أن تقوم على نصٍّ من القرآن أو السنة أو من كليهما معًا، والقرآن الكريم لم يسم الملك الذي حاج إبراهيم في ربه ولا سمته السنة؛ لأن قصد القرآن من القَصص هو مضمون المحاجّة، والعبرة منها. واسم الملك لا يقدم ولا يؤخر في المضمون والعِبرة. أما تسمية هذا الملك ـ الذي حاجّه إبراهيم ـ بـ (النّمروذ) والاختلاف في نطق اسمه، ومدة ملكه، فجميعها قصص تاريخي، أورده المفسرون. فهو غير مُلْزِمٍ للقرآن الكريم. ومن ثَمَّ لا يصح أن يورد ذلك كشبهة تثار ضد القرآن. فليس لدينا في

(١) شرح اختصار علوم الحديث (١/ ١٢٦) بتصرفٍ.

(٢) نُزْهَةُ النظَر (١/ ٢٨).

التاريخ الموثق والمحقق ما يثبت أو ينفي أن اسم الملك الذي حاجّ إبراهيم الخليل في ربه هو (النّمروذ)، وإنما هو قصص تاريخي يحتاج إلى تحقيق.

الوجه الخامس: مناقشة الأدلة التي احتجوا بها.

مما سبق لا يسوغ لنا أن نبحث عن هذا الإجماع إلا في عصر الصحابة؛ لأنهم هم الذين يُعْتَدُّ بكلامهم في الغيبيات بالقيد السالف ذكره؛ إذ إنهم أورع من أن يتكلموا في ذلك إلا بتوقيفٍ أو إباحة ذكر قصص عن بني إسرائيل.

أقول: قد نُقِلَ عن بعض الصحابة القول بأن الذي حاج إبراهيم في ربه هو النمروذ بن كنعان، وبيان ذلك كالآتي:

١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (الْكَلِمَاتُ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهِنَّ إِبْرَاهِيمُ فَأَتَمَّهُنَّ: فِرَاقُ قَوْمِهِ فِي اللهِ حِينَ أُمِرَ بِفِرَاقِهِمْ، وَمُحَاجَّتُهُ نَمْرُودَ فِي اللهِ حِينَ وَقَفَهُ عَلَى مَا وَقَفَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَطَرِ الأَمْرِ الَّذِي فِيهِ خِلافُهُمْ، وَصَبْرُهُ عَلَى قَذْفِهِ إِيَّاهُ فِي النَّارِ لِيُحَرِّقُوهُ فِي اللهِ عَلَى هَوْلِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَالْهِجْرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَطَنِهِ وَبِلادِهِ فِي اللهِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ عَنْهُمْ، وَمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الضِّيَافَةِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا، وَمَالُهُ وَمَا ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ ذَبْحِ وَلَدِهِ حِينَ أَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، فَلَمَّا مَضَى عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ اللهِ كُلِّهِ وَأَخْلَصَهُ الْبَلاءَ، قَالَ اللهُ لَهُ: أَسْلِمْ، قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. عَلَى مَا كَانَ مِنْ خِلافِ النَّاسِ وَفِرَاقِهِمْ).

قلت: وإسناده ضعيف وفيه أكثر من عله كما هو مبين في الحاشية[1].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٢٣) من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عنه قلت: وفيه أكثر من علة:

العلة الأولى: محمد بن أبي محمد الأنصاري مولى زيد بن ثابت، مدني، روى عن سعيد بن جبيرٍ وعكرمة، وعنه محمد ابن إسحاق. ذكره ابن حبان في الثقات.

قلت: وقال الذهبي: لا يعرف. تهذيب التهذيب (٩/ ٣٨٤).

قال الحافظ: مجهولٌ تفرد عنه ابن إسحاق. تقريب التهذيب (٦٢٧٦).

العلة الثانية: عنعنة محمد بن إسحاق، وهو مدلس يلزمه التصريح بالسماع. طبقات المدلسين (١/ ٥١).

العلة الثالثة: سلمة بن الفضل الأبرش قاضي الري يكنى أبا عبد الله.

وهناك رواية أخرى عنه:

عن ابن عباس قال لما هرب إبراهيم من كوثي، وخرج من النار ولسانه يومئذ سرياني، فلما عبر الفرات من حران غير الله لسانه فقيل: عبراني حيث عبر الفرات، وبعث نمروذ في أثره، وقال لا تدعوا أحدًا يتكلم بالسريانية إلا جئتموني به، فلقوا إبراهيم فتكلم بالعبرانية فتركوه ولم يعرفوا لغته.

وهذا سند أيضًا لا يصح به نقل عن ابن عباس مسلسل بالعلل كما هو مبين[1].

ضعفه ابن راهويه. وقال البخاري: في حديثه بعض المناكير. وقال ابن معين: كتبنا عنه، وليس في المغازي أتم من كتابه. وقال النسائي: ضعيف. وقال ابن عدى: لم أجد لسلمة ما جاوز الحد في الإنكار. وقال ابن المدينى: ما خرجنا من الري حتى رمينا بحديث سلمة.

وروى عباسٌ، عن ابن معينٍ، قال: سلمة الأبرش رازي يتشيع، قد كتب عنه، وليس به بأس. وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال أبو زرعة: كان أهل الري لا يرغبون فيه لسوء رأيه وظلم فيه. وقيل: كان حافظًا يحفظ من مرة. ميزان الاعتدال (٢/ ١٩٢).

فأقل ما يقال في حاله أنه صدوقٌ كثير الخطأ كما قال الحافظ. التقريب (٢٥٠٥).

فبهذا يتبين أن النقل عن ابن عباس لا يصح.

(١) الطبقات الكبرى (١/ ٤٦) من طريق هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح عنه به.

قلت: وهذا سند أيضًا لا يصح به نقل عن ابن عباس؛ مسلسل بالعلل، وإليك البيان:

العلة الأولى: هشام بن محمد بن السائب الكلبي.

قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب، ما ظننت أن أحدًا يحدث عنه. وقال الدارقطني وغيره: متروك. وقال ابن عساكر: رافضي، ليس بثقة. ميزان الاعتدال (٤/ ٣٠٤)

العلة الثانية: أبو النضر محمد بن السائب الكلبي.

قال سفيان: قال الكلبي: قال لي أبو صالح: انظر كل شئ رويت عنى عن ابن عباس فلا تروه.

وقال البخاري: أبو النضر الكلبي تركه يحيى وابن مهدى. ثم قال البخاري: قال علي: حدثنا يحيى، عن سفيان، قال لي الكلبي: كل ما حدثتك عن أبي صالح فهو كذب.

وقال ابن معين: قال يحيى بن يعلى، عن أبيه، قال: كنت أختلف إلى الكلبي أقرأ عليه القرآن، فسمعته يقول: مرضت مرضة فنسيت ما كنت أحفظ، فأتيت آل محمدﷺ فتفلوا في فيَّ، فحفظت ما كنت نسيت.

فقلت: لا والله، لا أروي عنك بعد هذا شيئًا، فتركته. ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٧).

قلت: وهذا يدل على رفضه وخبث مذهبه.

قال ابن عدي: وقد حدث عن الكلبي سفيان وشعبة وجماعة، ورضوه في التفسير، وأما في الحديث فعنده مناكير، وخاصة إذا روى عن أبي صالح، عن ابن عباس.

وقال ابن حبان: كان الكلبي سبائيًّا من أولئك الذين يقولون: إن عليًا لم يمت، وإنه راجع إلى الدنيا ويملؤها عدلًا كما ملئت جورًا، وإن رأوا سحابةً قالوا: أمير المؤمنين فيها.

قال التبوذكي: سمعت همامًا يقول: سمعت الكلبي يقول: أنا سبائي.

قال الحسن بن يحيى الرازي الحافظ، حدثنا علي بن المديني، حدثنا بشر بن المفضل، عن أبي عوانة، سمعت الكلبي يقول: كان جبرائيل يملي الوحي على النبيﷺ، فلما دخل النبيﷺ الخلاء جعل يملي على علي.

وقال ابن معين: الكلبي ليس بثقة. وقال الجوزجاني وغيره: كذاب. وقال الدارقطني وجماعة: متروك.

وقال ابن حبان: مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه.

يروي عن أبي صالح، عن ابن عباس التفسير.

وأبو صالح لم ير ابن عباس، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف، فلما احتيج إليه أخرجت له الأرض أفلاذ كبدها. لا يحل ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به! ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٩).

العلة الثالثة: أبو صالح باذام، ضعفه البخاري. وقال النسائي: باذام ليس بثقة. وقال ابن معين: ليس به بأس.

وقال ابن عدى: عامة ما يرويه تفسير. وقال يحيى القطان: لم أر أحدًا من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ.

وقال زكريا بن أبي زائدة: كان الشعبي يمر بأبي صالح فيأخذ بأذنه فيهزها، ويقول: ويلك! تفسر القرآن وأنت لا تحفظ القرآن.

وقال إسماعيل بن أبى خالد: كان أبو صالح يكذب، فما سألته عن شيء إلا فسره لي.

وروى ابن إدريس، عن الأعمش، قال: كنا نأتي مجاهدًا فنمر على أبي صالح وعنده بضعة عشر غلامًا، ما نرى أن عنده شيئًا. وقال سفيان: قال الكلبي: قال لي أبو صالح: كل ما حدثتك كذب.

وروى مفضل بن مهلهل، عن مغيرة، قال: إنما كان أبو صالح صاحب الكلبي يعلم الصبيان وضعف تفسيره.

وقال ابن معين: إذا روى عنه الكلبي فليس بشئ.

وقال عبد الحق في أحكامه: ضعيف جدًّا، فأنكر هذه العبارة عليه أبو الحسن بن القطان. ميزان الاعتدال (١/ ٢٩٦)

وقال العقيلي: قال مغيرة: إنما كان أبو صالح يعلم الصبيان، وكان يضعف تفسيره، وقال: كتب أصابها ويعجب ممن يروي عنه، ولما قال عبد الحق في الاحكام: إن أبا صالح ضعيف جدا أنكر عليه ذلك ابن القطان في كتابه وقد قال الجوزقاني: إنه متروك، ونقل ابن الجوزي عن الأزدي أنه قال: كذاب، وقال الجوزجاني: كان يقال له ذو رأي غير محمود، وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي عندهم. تهذيب التهذيب (١/ ٣٦٥)

العلة الرابعة: الانقطاع بين أبي صالح وابن عباس.

٢- عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا، يقول: (الَّذِي حَاجَّ إِبْرَهِيمَ فِي رَبِّهِ: نُمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ).

وهذا لا يثبت عن علي بن أبي طالب؛ وعلته أن فيه رجلًا من بني أسدٍ وهو مجهولٌ فالإسناد ضعيفٌ.[1]

وبهذا يتضح أنه لم يصح عن واحدٍ من الصحابة القول بأن (نمرود) هو الذي حاج إبراهيم في ربه فضلًا عن أن يجتمعوا على هذا القول.

إذن فنقل الإجماع عن الصحابة في هذا الأمر لا يصح.

الوجه السادس: موقف دين الإسلام فيما نقل عن الكتب السابقة.

عند النظر إلى هذا الاعتراض نجد أن هناك سؤالًا يطرح نفسه: ما موقف الإسلام من الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) وكيف يتعامل معها؟ وهل يصح اعتبارها مصدرًا للتشريع، أو سبيلًا للمعرفة -لا سيما فيما يتعلق بأخبار آخر الزمان وأوله-؟

فنقول -وبالله التوفيق-: إن شرعنا لم يغفل هذه القضية ولم يغض الطرف عنها، فالتوراة والإنجيل في نظر الشرع كتبٌ سماوية طرأ عليها التحريف والتبديل؛ لأن الله لم يتكفل بحفظها، ولكن مع تحريفها فقد بقي فيها بعض الحق - كثيرًا أو قليلًا- وهي بذلك لم تفقد قدسيتها بالكامل، لذلك فقد كان موقف الشرع متوازنًا مع هذا الواقع.

فبعد أن صحح الشرع النظرة إلى هذه الكتب، وبَيَّنَ أنها كتبٌ فيها الحق والباطل، جاء بميزان الله الذي لا يحيد عن العدل، فجعل ما في تلك الكتب على قسمين:

قال ابن حبان: لم يسمع من ابن عباس. جامع التحصيل (١/ ١٤٨).

فلا شيء نعلمه ثبت عن ابن عباس في ذلك.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٢٧١) وهذا لا يثبت عن علي بن أبي طالب وعلته أن فيه رجل من بني أسد وهو مجهول فالإسناد ضعيف.

ولا يُقْبَلُ حديثُ المُبْهَمِ ما لم يُسَمَّ؛ لأنَّ شرطَ قَبولِ الخَبَرِ عدالَةُ راويهِ، ومَن أُبْهِمَ اسمُه لا تُعْرَفُ عَيْنُهُ، فكيفَ تُعْرَفُ عدالَتُهُ؟! نُزْهَةِ النَّظَر (١/ ٢٦).

الأول: الأحكام، وهذه لا يعني مخالفتُها لما عندنا بطلانَها، فقد يكون الاختلاف ناتجا عن كونها منسوخة في شرعنا، ثابتة في شرع من قبلنا، إلا أن ينص القرآن على نفي ذلك الحكم من كتاب سابق كالتوراة مثلًا، فيكون وجوده في التوراة ناتجا عن عملية تحريف متعمد.

الثاني: الأخبار والقصص، وهذه لما كان النسخ لا يجري فيها، فقد قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما جاء موافقا لشرعنا، فهذه يحكم بصدقها، لشهادة شرعنا لها بذلك، كالبشارات المتعلقة ببعثة سيدنا محمدﷺ، في الكتابين التوراة والإنجيل.

القسم الثاني: ما جاء مخالفا لشرعنا، فهذه يحكم ببطلانها، كزعمهم أن نبي آخر الزمان سيكون من نسل داود عليه السلام يريدون بذلك الطعن في نبي الإسلام ﷺ. وكالأخبار التي يوردونها عن الله ﷻ كقولهم: إن الله تعب بعد أن خلق السموات فارتاح في يوم السبت، وكطعنهم في الأنبياء -عليهم السلام- بإيرادهم قِصصًا تنتقص من قدرهم، أو تطعن في عصمتهم. أو في أخبارٍ عن السابقين مخالفةٍ لما جاء في شرعنا الحنيف.

القسم الثالث: ما لم يشهد لها شرعنا لا بالموافقة ولا بالمخالفة، فهذه يُتوقف فيها، فلا نصدقها خشية أن تكون مما أدخلته يدُ التحريف، ولا نكذبها خشية أن تكون من وحي الله ﷻ، وعلى هذا القسم يُنزَّلُ قولُ النبيِّ ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم"، و ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٦). [(١)]

إذن نستخلص قاعدةً هامةً وهي من أهم أصول الاحتجاج والمناظرة: لا تناقش فرعًا مرتبطًا بأصل والفرع لا يوافقك فيه.

الوجه السابعَ: التواريخ في التوراة تتكلم.

نقول: إن حجة المعترض أن إبراهيم ونمرود لم يتعاصرا بدليل أن النمرود جاء قبل

(١) البخاري (٤٢١٥).

إبراهيم بـ ٣٠٠ سنة لا يصح، والتورايخ في التوراة تقول ذلك وإليك البيان:

بدراسة أجدادهما منذ خلق آدم لتبين الفرق بينهما يتضح الآتي:

أولًا: ينص سفر التكوين على أن نمرود وإبراهيم يشتركان في جدهما نوح؛ لأن نمرود هو ابن كوش بن حام بن نوح (تكوين ١٠/ ٦-٨).

وإبراهيم هو ابن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح (لوقا ٣/ ٣٤-٣٦)

وقد يقول قائلٌ: إن بُعْدَ المسافة بين إبراهيم ونوح وقربَها بين نمرود ونوح تُعَبِّرُ عن بعد المسافة الزمنية بين إبراهيم ونمرود.

ولكن سفر التكوين الذي أخذ منه ذلك يقول غير هذا وإليك البيان:

الاسم	سن الوالد عند ميلاده	الزمن من خلق أدم	الموضع من سفر التكوين
آدم	خلق ولم يولد	٠	٥/ ١
شيث	١٣٠	١٣٠	٥/ ٣
أنوش	١٠٥	٢٣٥	٥/ ٦
قينان	٩٠	٣٢٥	٥/ ٩
مهللئيل	٧٠	٣٩٥	٥/ ١٢
يارد	٦٥	٤٦٠	٥/ ١٥
أخنوخ	١٦٢	٦٢٢	٥/ ١٨
متوشالح	٦٥	٦٨٧	٥/ ٢١
لامك	١٨٧	٨٧٤	٥/ ٢٥
نوح	١٨٢	١٠٥٦	٥/ ٢٨
سام وحام ويافث	٥٠٠	١٥٥٦	٥/ ٣٢
ملحوظة هامة: جاء في سفر التكوين (٧/ ٦) ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض، وهنا يحدث تفرع النسل فنمرود من ذرية حام وإبراهيم من ذرية سام			

أولًا: نمرود			
الاسم	سن الوالد عند ميلاده	الزمن من خلق آدم	الموضع من سفر التكوين
كوش	حوالي مئة أو أكثر	١٦٥٦	١/١٠
نمرود			
ثانيًا: إبراهيم			
أرفكشاد	١٠٠	١٦٥٨	١٠/١١
شالح	٣٥	١٦٩٣	١٢/١١
عابر	٣٠	١٧٢٣	١٤/١١
فالج	٣٤	١٧٥٧	١٦/١١
رعو	٣٠	١٧٨٧	١٨/١١
سروج	٣٢	١٨١٩	٢٠/١١
ناحور	٣٠	١٨٤٩	٢٢/١١
تارح	٢٩	١٨٧٨	٢٤/١١
إبراهيم	٧٠	١٩٤٨	٢٦/١١

والجدول السابق يوضح أن الفارق بين مولد إبراهيم ومولد كوش – أبو نمرود – (١٩٤٨-١٦٦٦) =٢٨٢ سنة.

ومما تبين أن أقل أعمار أباء كوش هو ٣٦٥ (تك ٥/ ٢٣) وتصل إلى ٩٦٩ (تك ٥/ ٢٧) فلا يبعد أبدا أن يكون إبراهيم أدرك أبا نمرود فكيف ننفي معاصرة إبراهيم لابن كوش (النمرود)؟

ثم إن القول أن النمرود كان سابقًا لإبراهيم بـ ٣٠٠ سنة يعطينا معلومةً جديدةً وهو أن الابن قد يولد قبل أبيه!

الوجه الثامن: وهل تمنع الثلاثمائة عام من التعاصر.

وعلى القول بأن نمرود كان سابقًا لإبراهيم بـ٣٠٠ سنة فهذا يعكر عليه بما يلي:

١-أنه ليس هناك ما يمنع أن يُعَمَّرَ النمرودُ أكثرَ من ٣٠٠ سنة وخصوصًا أنها لم تنص على موت النمرود قبل مجيء إبراهيم عليه السلام.

٢-أن الأعمار الكبيرة ليست غريبة في التوراة؛ ففي سفر التكوين يوضح الإصحاح الخامس كله أن الأعمار من لدن آدم إلى نوحٍ عليه السلام تتراوح بين ٧٧٧ سنة (عمر لامك) (تك ٥/ ٣١) إلى ٩٦٩ سنة (عمر أبي لامك يدعى متوشالح) (٥/ ٢٧).

فالذي جعل آدم يعاصر لامك لأنه كما يوضح الجدول من أنه ولد بعد خلق آدم ب ٨٧٤ سنة وآدم مات وعمره ٩٣٠ سنة وهذا يقال أيضًا في أحفاده مما يجعلنا نقول: لا مانع أبدًا من تعاصر نمرود، بل وأبوه مع إبراهيم عليه السلام.

إذن فتعمير النمرود مثل آبائه ليس بدعًا من القول.

الوجه التاسع: و على الفرض بأن الذي حاجه اسمه نمرود، هل هناك ما يمنع وجود نمرودٍ آخر؟

إن التسمي بأسماء العظماء والمشاهير من الصالحين أو الجبابرة ليس بجديدٍ، بل ذلك سمة كل عصرٍ وحينٍ، فما الذي منع من وجود ثانٍ وثالثٍ ورابعٍ يتسمى بنمرود؟

وخصوصًا وأنه صاحب سابقة في المجد الملكي بدأ تكوين أول مملكة في العالم من نسل حام (التكوين ٩: ٢٥ - ٢٧).

والذي يؤيد ذلك أن ماورد في كتب التفاسير من أن الذي حاج إبراهيم في ربه هو نمرود لم يقل أحدٌ: إنه بن كوش بن حام.

بل قيل: إنه نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وقيل: إنه نمرود بن فالخ بن

عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.[(١)]

الوجه العاشرَ: عن أي نسخةٍ من التوراة تتحدثون، وبأي التورايخ تأخذون؟

من المعلوم أن للتوراة ثلاث نسخٍ: العبرانية، واليونانية، والسامرية. فبأي نسخةٍ منها تتعبدون؟ وعلى أيها في تورايخكم تعتمدون؟

إذا قارنا بين النسخ الثلاث فيما اتفقت في ذكره من أخبارٍ وقِصص نجد بينها اختلافًا كبيرًا، وسنضرب المثال فيما يتعلق بهذا الاعتراض -وهو أمر التواريخ- وللاستزادة يراجع الجزء المتعلق بتحريف الكتاب المقدس. بعقد مقارنةٍ يسيرةٍ بين ما ورد في النسخ الثلاث في أعمار من ذُكِرُوا حين وُلِدَ لهم أولُ مولودٍ تتبين اختلافات واضحة، فمن ذلك:

الاسم	النسخة العبرانية	النسخة السامرية	النسخة اليونانية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥
آنوش	٩٠	٩٠	١٩٠
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠
يارد	١٦٢	٦٢	٢٦٢
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٨٧
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٥).

الزمان من خلق آدم إلي الطوفان	١٦٥٦	١٣٠٧	٢٢٦٢

فهذه أمثلةٌ تدل على التحريف والتناقض وعدم إمكانية الجمع أبدًا، فكيف يُحتَجُّ بكتابٍ هذا حالُه على الكتاب الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)

ولا حرج أن نزيد ببعض الأمثلة التي تعكس الصورة مجسمةً بأبعادها كلِّها. نذكر من ذلك مثالين وهما:

١- اختلاف المدة من الطوفان إلى ولادة إبراهيم عليه السلام: في العبرية ٢٩٢ سنة. في اليونانية ١٠٧٢ سنة. في السامرية ٩٤٢ سنة.

٢- اختلاف المدة من خلق آدم إلى ميلاد عيسى عليه السلام: في العبرية ٤٠٠٤ سنة. في اليونانية ٥٨٧٢ سنة. في السامرية ٤٧٠٠ سنة.

وخلاصة هذا البحث أن القرآن الكريم لا يمكن أن يتحاكم إلى التاريخ القديم، ولا التوراة، ولا الإنجيل؛ إذ ثبت-أي القرآن- أنه الثقة الحجة، و أنه هو الذي يهيمن على ما سواه، و أن قَصصه هو الحق الذي لا شك فيه.

* * * *

١٠- شبهة: الرجل الذي مات مائة سنة.

نص الشبهة:

قال المعترض: قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة: ٢٥٩)

وقد اختلف علماء الإسلام في الذي مر، فروي عن مجاهد أنه كان كافرًا شك في البعث، وهذا قول ضعيف؛ لقوله: كم لبثت؟ والله لا يخاطب الكافر، ولقوله: آية للناس، وهذا لا يقال في الكافر وإنما يقال في الأنبياء.

وقال قتادة وعكرمة والضحاك والسدي: هو عزير بن شرخيا، وإنه لما رجع إلى منزله كان شابا وكان أولاده شيوخًا، فإذا حدثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة، ولما قال لهم: أنا عزير كذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ، ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك، وقالوا هو ابن الله، وأمره الله أن ينظر إلى حماره كيف تفرقت عظامه، أو قال له: انظر إليه سالما كما ربطته حفظناه بلا ماء وعلف، كما حفظنا الطعام والشراب من التغيير.

وقال وهب بن منبه: هو إرميا بن حلقيا من سبط هارون.

واختلفوا في القرية: فقيل هي بيت المقدس، وقيل هي دير سابر أباد في فارس، وقيل: سلما باد قرية من نواحي جرجان، وقيل: هي دير هرقل بين البصرة وعسكر مكرم.

ونقول: لو كان لهذه القصة أصل في كتب الوحي الإلهي لذكر اسم الشخص، ووفر على المفسرين الظن والتخمين.

ومن تأمل في التوراة والإنجيل، لا يجد فيها شيئًا من ذلك، ولكن نجد لها أصلا في كتب اليونان القديمة، وهي حكاية أبيمنيدس الكاهن والشاعر اليوناني، وأدرجه البعض

في سلك علماء اليونان السبعة عوضا عن بriاندر، ولد في كريت في القرن السابع قبل المسيح، فروى قومه وهم وثنيون أنه نام نحو٥٧ سنة في مغارة، وفي أثنائها نزل عليه الوحي، فلما استيقظ (أولما بعث كما قال القرآن) انذهل من تغير أحوال وطنه، وقيل: إنه عاش نحو١٩٩ سنة، وفي سنة ٥٦٩ ق م سافر إلى أثينا بدوة من سكانها الذين تضايقوا من الحرب والطاعون، فأخبرهم أئمة ديانتهم أن سبب ذلك هو أنهم قتلوا أنصار سولون في هيكل آلهتهم، والواجب أن يكفروا عن ذنبهم، فاستدعوا أبيمنيدس المشهور بالحكمة والصلاح ليستعطف الآلهة، فأتى وقدم الذبائح وأجرى الرسوم الدينية، فوقف الطاعون، ثم عاون سولون على تنقيح نظامات أثينا، ولما عزم على العودة إلى وطنه لم يرض أن يقبل الهدايا، ولم يطلب سوى غصن شجرة زيتون.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أهداف القصة في القرآن الكريم.

الوجه الثاني: أسباب إبهام الأسماء في القرآن الكريم.

الوجه الثالث: أقوال علماء الإسلام في اسم القرية واسم المار وترجيح الصحيح.

الوجه الرابع: ليس كل ما ذكر في القرآن أصله في التوراة والإنجيل.

الوجه الخامس: من أين أتيتم بهذه القصة من كتب اليونان؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أهداف القصة في القرآن الكريم.

نقول: إن للقصة في القرآن الكريم أهدافًا ومقاصد أعلى مما يتخيله هؤلاء، وبالتالي يتعرض القرآن في القصة لأشياء خاصة ويخفي أشياء أخرى، وفيما يلي نحاول أن نؤصل هذا الأصل قبل الإجابة على الاعتراضات المذكورة، فنقول وبالله تعالى التوفيق.

أولا: قصص القرآن ثلاثة أقسام:

١ – قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

٢ – وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة

مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغير ذلك.

٣- وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

ثانيا: وللقصص في القرآن حكم وفوائد عظيمة: منها:

١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ (القمر: ٤) ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ (القمر: ٥)

٢- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (هود: ١٠١)

٣- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ (القمر: ٣٤ - ٣٥)

٤- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ (فاطر: ٢٥) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ (فاطر: ٢٦)

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذا علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أمروا بالجهاد، لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء: ٨٨) وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ (محمد: ١٠).

٧- إثبات رسالة النبي ﷺفإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (هود: ٤٩) وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (إبراهيم: ٩)[١].

الوجه الثاني: أسباب الإبهام في القرآن الكريم.

والإبهام معناه: الإخفاء، فقد يخفي القرآن الكريم أسماء أشخاص أو أماكن، لا لغفلة أو نسيان، وإنما لسبب من الأسباب الآتية:

أولًا: الاستغناء ببيانه في موضع آخر كقوله: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفاتحة: ٧)، فإنه مبين في قوله: ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩).

الثاني: أن يتعين لاشتهاره كقوله: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥) ولم يقل: حواء؛ لأنه ليس له غيرها.

الثالث: قصد الستر عليه؛ ليكون أبلغ في استعطافه نحو ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (البقرة: ٢٠٤) الآية. هو الأخنس بن شريق وقد أسلم بعد وحسن إسلامه.

الرابع: ألا يكون في تعيينه كبير فائدة نحو: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ (البقرة: ٢٥٩) ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

الخامس: التنبيه على العموم وأنه غير خاص بخلاف ما لو عُيِّن نحو: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا ﴾ (النساء: ١٠٠).

---

(١) أصول في التفسير لابن عثيمين (٤٧).

السادس: تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم نحو: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ﴾ (النور: ٢٢)، ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزمر: ٣٣) ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ (التوبة: ٤٠) والمراد الصديق في الكل.

السابع: تحقيره بالوصف الناقص نحو: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣).

واعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض لا مجال للرأي فيه.

فمن خلال هذا الأصل نتبين لماذا لم يسم القرآن الكريم اسم القرية أو الرجل الذي مر عليها؟ ، وستأتي أقوال العلماء في ذلك. [(١)]

الوجه الثالث: أقوال علماء الإسلام في اسم المار واسم القرية وترجيح الصحيح.

اختلف علماء الإسلام في اسم المار على القرية، واسم القرية أيضا وهذا شيء بدهي أن يقع بينهم الاختلاف في مثل هذا الشيء لعدم ورود النص القاطع عن المعصوم ﷺ في تعيينه، وإليك هذه الأقوال مشفوعة بحجج كل قول ومن قال به ثم الترجيح، والله المستعان.

أولا: اسم المار، وفيه قولان:

الأول: أنه مؤمن واختلفوا في تعيينه على قولين:

الأول: أنه عزير.

وقال بهذا القول علي بن أبي طالب ﷺ. [(٢)]

والثاني: أنه أرمياء.

وقال بهذا القول وهب بن منبه. [(٣)]

وحجة من قال: إنه كان مؤمنًا وكان نبيًا وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يدل على أنه كان عالمًا بالله، وعلى أنه

---

(١) الإتقان للسيوطي (٢/ ٢٨٢)، وهو مختصر من البرهان للزركشي (١/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٥/ ٤٤٠/ رقم ٥٨٩٢) بإسناد جيد، ومجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير أخرجه عنه الطبري (٥/ ٤٤١/ ٥٨٩٥) بإسناد حسن.

كان عالمًا بأنه تعالى يصح منه الإحياء في الجملة؛ لأن تخصيص هذا الشيء باستبعاد الإحياء إنما يصح أن لو حصل الاعتراف بالقدرة على الإحياء في الجملة، فأما من يعتقد أن القدرة على الإحياء ممتنعة لم يبق لهذا التخصيص فائدة.

الثاني: أن قوله: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ لا بد له من قائل، والمذكور السابق هو الله تعالى؛ فصار التقدير: قال الله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ فقال ذلك الإنسان: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ ومما يؤكد أن قائل هذا القول هو الله تعالى قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ ومن المعلوم أن القادر على جعله آية للناس هو الله تعالى، ثم قال: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ ولا شك أن قائل هذا القول هو الله تعالى؛ فثبت أن هذه الآية دالة من هذه الوجوه الكثيرة على أنه تكلم معه، ومعلوم أن هذا لا يليق بحال هذا الكافر.

فإن قيل: لعله تعالى بعث إليه رسولًا أو ملكًا حتى قال له هذا القول عن الله تعالى.

قلنا: ظاهر هذا الكلام يدل على أن قائل هذه الأقوال معه هو الله تعالى، فصرف اللفظ عن هذا الظاهر إلى المجاز من غير دليل يوجبه غير جائز.

الثالث: أن إعادته حيًا وإبقاء الطعام والشراب على حالهما، وإعادة الحمار حيًا بعد ما صار رميمًا مع كونه مشاهدًا لإعادة أجزاء الحمار إلى التركيب وإلى الحياة إكرام عظيم وتشريف كريم، وذلك لا يليق بحال الكافر له.

الرابع: أنه تعالى قال في حق هذا الشخص: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ وهذا اللفظ إنما يستعمل في حق الأنبياء والرسل قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩١) فكان هذا وعدًا من الله تعالى بأنه يجعله نبيًا، وأيضًا فهذا الكلام لم يدل على النبوّة بصريحه فلا شك أنه يفيد التشريف العظيم، وذلك لا يليق بحال من مات على الكفر وعلى الشك في قدرة الله تعالى.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد من جعله آية أن من عرفه من الناس شابًا كاملًا إذا شاهدوه بعد مائة سنة على شبابه وقد شاخوا أو هرموا، أو سمعوا بالخبر أنه كان مات منذ زمان وقد عاد شابًا صح أن يقال لأجل ذلك إنه آية للناس؛ لأنهم يعتبرون بذلك ويعرفون به قدرة الله تعالى، ونبوّة نبي ذلك الزمان؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ إخبار عن أنه تعالى يجعله آية، وهذا الاخبار إنما وقع بعد أن أحياه الله، وتكلم معه، والمجعول لا يجعل ثانيًا، فوجب حمل قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ على أمر زائد عن هذا الإحياء، وأنتم تحملونه على نفس هذا الإحياء فكان باطلًا.

والثاني: أن وجه التمسك أن قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ يدل على التشريف العظيم، وذلك لا يليق بحال من مات على الكفر والشك في قدرة الله تعالى.

الخامس: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول الآية قال: إن بختنصر غزا بني إسرائيل فسبى منهم الكثيرين، ومنهم عزير وكان من علمائهم، فجاء بهم إلى بابل، فدخل عزير يومًا تلك القرية ونزل تحت شجرة وهو على حمار، فربط حماره وطاف في القرية فلم ير فيها أحدًا فعجب من ذلك وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لا على سبيل الشك في القدرة؛ بل على سبيل الاستبعاد بحسب العادة، وكانت الأشجار مثمرة، فتناول من الفاكهة التين والعنب، وشرب من عصير العنب ونام، فأماته الله تعالى في منامه مائة عام وهو شاب، ثم أعمى عن موته أيضًا الإنس والسباع والطير، ثم أحياه الله تعالى بعد المائة ونودي من السماء: يا عزير ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ بعد الموت؟ فقال: ﴿يَوْمًا﴾ فأبصر من الشمس بقية فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ من التين والعنب وشرابك من العصير لم يتغير طعمهما، فنظر فإذا التين والعنب كما

شاهدهما ثم قال: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فنظر فإذا هو عظام بيض تلوح وقد تفرقت أوصاله، وسمع صوتًا أيتها العظام البالية إني جاعل فيك روحًا فانضم أجزاء العظام بعضها إلى بعض، ثم التصق كل عضو بما يليق به الضلع إلى الضلع والذراع إلى مكانه ثم جاء الرأس إلى مكانه ثم العصب والعروق ثم أنبت طراء اللحم عليه، ثم انبسط الجلد عليه، ثم خرجت الشعور عن الجلد، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو قائم ينهق فخر عزير ساجدًا، وقال: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ثم إنه دخل بيت المقدس فقال القوم: حدثنا آباؤنا أن عزير بن شرخياء مات ببابل، وقد كان بختنصر قتل ببيت المقدس أربعين ألفًا ممن قرأ التوراة وكان فيهم عزير، والقوم ما عرفوا أنه يقرأ التوراة، فلما أتاهم بعد مائة عام جدد لهم التوراة، وأملاها عليهم عن ظهر قلبه لم يخرم منها حرفًا، وكانت التوراة قد دفنت في موضع فأخرجت وعورض بها أملاه فما اختلفا في حرف، فعند ذلك قالوا: عزير بن الله، وهذه الرواية مشهورة فيما بين الناس، وذلك يدل على أن ذلك المار كان نبيًا. (وهذا من الإسرائيليات)[1].

ورد آخرون هذا القول ومنهم ابن القيم -رحمه الله- فقال:

ويظن بعض الناس أن عزيرًا هو الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أني يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، ويقول: إنه نبي، ولا دليل على هاتين المقدمتين ويجب التثبت في ذلك نفيًا وإثباتًا[2].

والثاني: أنه رجل كافر شك في البعث، وحجة هذا القول وجوه:

الأول: أن الله حكى عنه أنه قال: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ وهذا كلام من يستبعد من الله الإحياء بعد الإماتة، وذلك كفر.

فإن قيل: يجوز أن ذلك وقع منه قبل البلوغ.

---

(١) تفسير الرازي (٧/ ٢٦ – ٢٨) بتصرف.

(٢) هداية الحيارى (١/ ٢١٣) بتصرف يسير.

قلنا: لو كان كذلك لم يجز من الله تعالى أن يعجب رسوله منه؛ إذ الصبي لا يتعجب من شكه في مثل ذلك، وهذه الحجة ضعيفة لاحتمال أن ذلك الاستبعاد ما كان بسبب الشك في قدرة الله تعالى على ذلك؛ بل كان بسبب اطراد العادات في أن مثل ذلك الموضع الخراب قلما يصيره الله معمورًا، وهذا كما أن الواحد منا يشير إلى جبل، فيقول: متى يقلبه الله ذهبًا، أو ياقوتًا؟ لا أن مراده منه الشك في قدرة الله تعالى؛ بل على أن مراده منه أن ذلك لا يقع ولا يحصل في مطرد العادات، فكذا هاهنا.

الثاني: قالوا: إنه تعالى قال في حقه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ وهذا يدل على أنه قبل ذلك لم يكن ذلك التبين حاصلًا له، وهذا أيضًا ضعيف؛ لأن تبين الإحياء على سبيل المشاهدة ما كان حاصلًا له قبل ذلك، فأما إن تبين ذلك على سبيل الاستدلال ما كان حاصلًا فهو ممنوع.

الثالث: أنه قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا يدل على أن هذا العالم إنما حصل له في ذلك الوقت، وأنه كان خاليًا عن مثل ذلك العلم قبل ذلك الوقت، وهذا أيضًا ضعيف؛ لأن تلك المشاهدة لا شك أنها أفادت نوع توكيد وطمأنينة ووثوق، وذلك القدر من التأكيد إنما حصل في ذلك الوقت، وهذا لا يدل على أن أصل العلم ما كان حاصلًا قبل ذلك.

الرابع: أنه انتظم مع نمروذ في سلك واحد وهو ضعيف أيضًا؛ لأن قبله وإن كان قصة نمروذ، ولكن بعده قصة سؤال إبراهيم، فوجب أن يكون نبيًا من جنس إبراهيم، (وأيضًا مما يؤيد ذلك ما بين قصته وقصة إبراهيم الآتية بعد من التناسب المعنوي؛ فإنَّ كليهما طلبا معاينة الإحياء مع أن ما جرى له في القصة مما يبعد أن يجري مع كافر، وإذا انضم إلى ذلك تحريه الظاهر في الاحتراز عن الكذب في القول الصادر قبل التبيين الموجب لإيمانه على زعم من يدعي كفره قوى المعارض جدًّا)[1].

وبعد عرض هذه الأقوال وذكر حجج كل لا نستطيع الجزم بترجيح واحد منها على

---

(١) أفاد هذه الزيادة الآلوسي في روح المعاني (٢/ ٢١)، ورجح صاحب المنار أنه ليس كافرًا (٣/ ٤١)، ذكر هذه الوجوه كلها الرازي في تفسيره (٧/ ٢٦)، وانظر الكشاف (١/ ٣٣٤).

الآخر، والسبب معروف ولطالما كررناه أننا لا نستطيع قول شيء بغير بينة ودليل وخاصة في الأمور الغيبية.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله ـ تعالى ذكره ـ عجَّب نبيه ﷺ ممن قال - إذ رأى قرية خاوية على عروشها- "أنى يحيي هذه الله بعد موتها"، مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أنى يحييها الله بعد موتها! ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصح من قِبَلِهِ البيان على اسم قائل ذلك. وجائز أن يكون ذلك عزيرا، وجائز أن يكون أورميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه؛ إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت - من قريش، ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب - وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺمن يهود بني إسرائيل، بإطلاعه نبيه محمدا ﷺ على ما يزيل شكهم في نبوته، ويقطع عذرهم في رسالته، إذ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيه محمدﷺ في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومه، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهم؛ بل كان أميا وقومه أميون، فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجَرِه، أن محمدا ﷺ لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبة عليه نصبا يقطع العذر ويزيل الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قِيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه. (١)

قلت: ما أحسن هذا الكلام وأجمله وأقطعه لكل اعتراض وشبهة.

ثانيا: اسم القرية، وفيها قولان:

الأول: أنها بيت المقدس لما خربه بختنصر، وهو المشهور.

---

(١) الطبري (٥/ ٤٤١).

قال بهذا القول: وهب بن منبه[١]

والثاني: أنها التي خرج منها الألوف حذر الموت. [٢]

وكما هو واضح لا دليل على تعيين اسم القرية، ووقع الخلاف بين المفسرين في التعيين (وهو اختلاف لا طائل تحته؛ إذ لم يثبت فيه شيء عن معصوم؛ والمقصود العبرة بها في هذه القصة - لا تعيين الرجل، ولا القرية - ومثل هذا الذي يأتي مبهمًا، ولم يعين عن معصوم، طريقنا فيه أن نبهمه كما أبهمه الله ﷻ). [٣]

الوجه الرابع: ليس كل ما ذكر في القرآن موجود أصله في التوراة والإنجيل

عجيب حقًّا أمر هؤلاء، يدَّعون أنه ينبغي أن نرجع إلى كتبهم لكي نفهم ما في القرآن الكريم ومتى حصل ذلك؟ وفي أي قضية كان هذا؟.

إن الله ﷻ قد أنزل القرآن مهيمنا على الكتب السابقة له، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة/ ٤٨) فالقرآن لا يحتاج إلى شيء من كتبكم لكي تفهم معانيه وألفاظه. [٤]

الوجه الخامس: من أين أتيتم بهذه القصة من كتب اليونان؟

ومن أين أتيتم بكتب اليونان واستخرجتم منها هذه القصة، أين مكانها؟ وما هو المصدر الذي نقلتم عنه بالضبط؟ أليس هذا من أصول البحث العلمي، عزو الأقوال إلى مصادرها؟ أم تكتفون فقط بإلقاء الكلام على عواهنه دون خطام أو زمام؟ نبئونا بعلم إن كنتم صادقين؟ [٥].

* * *

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٤٣٢) وإسناده جيد، وروي عن قتادة (المصدر السابق، وإسناده حسن) وروي عن الربيع بن أنس (المصدر السابق، وإسناده فيه مجهول)، وانظر: التحرير والتنوير (٢/ ٥٠٨)، تفسير أبي السعود (١/ ٣٠١)، عمدة القاري (١٨/ ١٢٧).

(٢) قال بهذا القول ابن زيد، أخرجه الطبري (٥/ ٤٤٤) وإسناده ضعيف. زاد المسير (١/ ٢٦٥).

(٣) كتب ورسائل للعثيمين (١٠/ ٢٢٦).

(٤) انظر: شبهة أن القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل.

(٥) انظر: بحث (تحريف الكتاب المقدس).

١١- شبهة: شك إبراهيم عليه السلام.

نص الشبهة:

قال المعترض: يقول تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

قالوا: مهما حاول المفسرون الاعتذار عن شك إبراهيم في قدرة الله على إحياء الموتى، فعبارة القرآن ناطقة بوقوع الشك منه في قدرة الله، وإلا لما قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، وعن أبي هريرة أن محمدًا قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن، قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي".

وكتاب الله (يقصد كتابه المقدس) يعلمنا أن إبراهيم لم يشك في قدرة الله؛ بل يُضرب بإيمانه المثل، ولذا سمي أبو المؤمنين، ولما أمره الله أن يذبح ابنه الوحيد أطاع الأمر، مع أنه كان هرما وامرأته متقدمة في السن.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: فضل إبراهيم في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: اليقين عند إبراهيم عليه السلام.

الوجه الثالث: المقصود من سؤال إبراهيم عليه السلام لربه.

الوجه الرابع: ماذا قال الكتاب المقدس عن إبراهيم عليه السلام؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل إبراهيم عليه السلام في القرآن والسنة.

١- كان قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليه السلام.

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولًا، واتخذه خليلًا في كبره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي أهلًا لذلك.

٢- فبدأ إبراهيم بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (العنكبوت ١٦: ٢٧).

٢- ووصفه الله تعالى بأنه كان صديقًا نبيًا، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئا أو تفعل به خيرًا من رزق أو نصر؟ فقال تعالى عنه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾

يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾ (مريم ٤١: ٤٨).

٣- وإبراهيم هداه الله تعالى، وناظر قومه وغلبهم. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ (الأنعام ٧٥: ٨٣).

٤- وهدم إبراهيم الأصنام التي كانت تعبد من دون الله غضبًا لله تعالى، ولم يخش في الله لومة لائم، قال تعالى عنه في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ

لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (الأنبياء ٥١: ٧٠).

وقال في سورة الشعراء: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الشعراء ٦٩: ٨٣).

وقال في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (الصافات ٨٣: ٩٨).

٥- وحكى القرآن الكريم مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل في إزار العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ

﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة: ٢٥٨)[١].

الوجه الثاني: اليقين عند إبراهيم عليه السلام.

ولقد حقق إبراهيم عليه السلام اليقين الكامل بالله تعالى وذلك من خلال الاختبارات التي نجح فيها إبراهيم عليه السلام منها:

أولًا: أنه لما أمسكه قومه، وأرادوا إحراقه بالنار، ووضعوه في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ (آل عمران ١٧٣: ١٧٤)[٢].

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

ثانيًا: لما هاجر إلى مصر، وحصل ما حصل من أمر الجبار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتان منهم في ذات الله قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (١٦٢).

(٢) البخاري (٤٢٨٧).

تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعى الله لي ولا أضرك فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم؟ فقالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة ﷺ: فتلك أمكم يا بني ماء السماء[1].

ثالثا: ولما أمره الله تعالى بالهجرة بزوجته هاجر وولدها إسماعيل، استسلم لأمر الله تعالى ووضعهما في أرض مكة ولم يكن بها إذ ذاك حياة ولا أنيس ولا ونيس.

عن ابن عباس ﷺ قال: أو لما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي

---

(١) البخاري (٣١٧٩)، ومسلم (٢٣٧١).

تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا فعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: "لذلك سعى الناس بينهما".

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه- تريد نفسها- ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث- فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: " يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا، قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله". [(١)]

رابعًا: ولما أمر ببناء البيت استجاب إبراهيم وولده إسماعيل لأمر الله تعالى:

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ يمينه وعن شماله، ولما قدم إبراهيم على إسماعيل قال له: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك به ربك قال: وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت وجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة: ١٢٧).

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(١) البخاري (٣١٨٤).

خامسًا: ولما أمر بذبح ولده إسماعيل، بعد الانتظار الطويل، وبعد أن جاءه الولد على كبر العمر، وتشوق نفسه له، أسرع إبراهيم في تنفيذ الأمر ولم يتوان لحظة واحدة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾ (الصافات ٩٩: ١١٣).

وهذا اختبار من الله ﷻ لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد فقر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر الله في ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه فجعل الله لهما فرجًا ومخرجًا ورزقهما من حيث لا يحتسبان.

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته.

ثم عرض ذلك على ولده؛ ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من أن يأخذه قسرًا ويذبحه قهرا: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ . . .﴾ (الصافات: ١٠٢)، فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ قيل: "أسلما" أي استسلما لأمر الله وعزم على ذلك. وقيل: وهذا من المقدم والمؤخر والمعنى: "تله للجبين" أي ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا

يشاهده في حال ذبحه، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقا بالأرض. "وأسلما" أي سمى إبراهيم وكبر وتشهد الولد للموت. قال السدي وغيره: أمرَّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئًا. ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس، والله أعلم.

فعند ذلك نودي من الله ﷻ: ﴿أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلت ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان! ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي الاختبار الظاهر البين.

وقوله: ﴿وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: جعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة في ثبير، فأخذه إبراهيم وذبحه عوضا عن ولده إسماعيل.

هذا هو الظاهر من القرآن؛ بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرۡنَـٰهُ بِإِسۡحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(١).

الوجه الثالث: المقصود من سؤال إبراهيم عليه السلام لربه ﷻ.

أولًا: قال الجمهور: إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًا في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة.

وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام. وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به، يدلك على ذلك قوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٨) فالشك يبعد على من ثبتت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوءة والخلة؟

(١) قصص الأنبياء (١٥٥).

ثانيًا: والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعًا، وإذا تأملت سؤاله ﷺ وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكًا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو عن حال شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول. نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا، ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله، وقد تكون ﴿كَيْفَ﴾ خبرًا عن شيء شأنه أن يستفهم عنه، ﴿كَيْفَ﴾ نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحي، و ﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبر عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح، مثال ذلك أن يقول مدع: أنا أرفع هذا الجبل، فيقول له المكذب: أرني كيف ترفعه؟ فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه أرني كيف؟ فلما كان في عبارة الخليل ﷺ هذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك وحمله على أن يبين الحقيقة فقال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾، فكمل الأمر وتخلص من كل شك، ثم علل ﷺ سؤاله بالطمانينة[1].

ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك، فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث. وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه، وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل: فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ (الإسراء: ٦٥). وقال اللعين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (الحجر: ٤٠)، وإذا لم يكن له عليهم سلطنة، فكيف يشككهم؟ ، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، واتصال الأعصاب، والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله:

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٣٥٢)، وانظر فصل: عصمة الأنبياء في المقدمة.

﴿أَرِنِي كَيْفَ﴾ طلب مشاهدة الكيفية. (١)

ثالثًا: وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ معناه إيمانًا مطلقًا دخل فيه فصل إحياء الموتى، والواو واو حال دخلت عليه ألف التقرير، و﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾ معناه ليسكن عن فكره، والطمأنينة اعتدال وسكون على ذلك الاعتدال فطمأنينة الأعضاء معروفة، كما قال ﷺ: " ثم اركع حتى تطمئن راكعًا "، الحديث، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد. والفكر في صورة الإحياء غير محظورة، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها؛ بل هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين، فتذهب فكره في صورة الإحياء، إذ حركه إلى ذلك إما أمر الدابة المأكولة، وإما قول النمرود: أنا أحيي وأميت، وقال الطبري: معنى ﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾ ليوقن. وحكي نحو ذلك عن سعيد بن جبير، وحكي عنه ليزداد يقينًا وقاله إبراهيم وقتادة. وقال بعضهم: لأزداد إيمانًا مع إيماني. (٢)

رابعًا: وقال آخرون سأل ذلك ربه؛ لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى. و عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن آية أرجى عندي منها، وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ وذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم".

وهذا مردود فأما قول ابن عباس رضي الله عنه: هي أرجى آية فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا، وليست مظنة ذلك، ويجوز أن يقول: هي أرجى آية لقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟ أي إن الإيمان كاف لا يحتاج بعده إلى تنقير وبحث، وأما قول عطاء بن أبي رباح: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فمعناه من حب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت، به، ولهذا قال النبي ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة »، وأما قول النبي ﷺ: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"فمعناه: أنه لو كان شك لكنا نحن

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٣٥٣).

أحق به ونحن لا نشك، فإبراهيم ﷺ أحرى أن لا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم[١].

الوجه الرابع: ماذا قال الكتاب المقدس عن إبراهيم؟.

إبراهيم يكذب:

ففي سفر التكوين(١٢/ ١٣: ١١): وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. ١٢فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. ١٣قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ.

* * *

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٣٥٢).

سورة آل عمران

وفيها:

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

٢- شبهة: حول كفالة زكريا لمريم.

٣- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾.

٤- شبهة: حول وفاة عيسى عليه السلام.

٥- شبهة: وجاهة المسيح في الدنيا والآخرة.

٦- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾.

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

نص الشبهة:

قيل: إذا كان في القرآن ما يخالف ما في التوراة والإنجيل من النسخ وغيره فكيف يقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾؟ (آل عمران: ٣).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الآية دليل على تحريف الكتاب المقدس.

الوجه الثاني: المعنى الصحيح للآية.

الوجه الثالث: من الأدلة على تحريف الكتاب المقدس.

الوجه الرابع: القرآن جاء مهيمنًا على كل الكتب السابقة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية دليل على تحريف الكتاب المقدس.

إن هذه الآية دليل على التحريف لا على عدم التحريف وبيان ذلك:

أن هذا المتكلم إن استدل بهذه الآية، فلا بد أن تكون أصول الكتابين متفقة حتى يكون القرآن مصدقًا للكتاب المقدس بعهديه، والواقع أن ما في القرآن مخالف في أغلبه وأكثره أصولًا وفروعًا لما في الكتاب المقدس.

إذا ثبت هذا: فإما أن يكون القرآن محرفًا وهذه الآية خطأ وهذا باطل، وقد قامت الأدلة على ضد ذلك. وإما أن يكون الكتاب المقدس قد حرف وغُير؛ لأن ما في القرآن يختلف معه وهو ما تدل عليه هذه الآية وهو المراد، والله أعلم.

الوجه الثاني: المعنى الصحيح للآية.

قول الله ﷻ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران: ٣).

فالقرآن نزل مصدقًا لما تقدمه من الكتب وخاصة إذا كانت هذه الكتب مبشرة بالقرآن وبالرسول، ودالة على أن أحكامها تثبت إلى حين بعثه، وأنها تصير منسوخة عند نزول

القرآن كانت موافقة للقرآن، فكان القرآن مصدقًا لها، وأما فيما عدا الأحكام فلا شبهة في أن القرآن مصدقٌ لها؛ لأن دلائل المباحث الإلهية لا تختلف في ذلك فهو مصدق لها في الأخبار الواردة في التوراة والإنجيل(١).

فالقرآن مصدق لما معكم أي: موافق بالتوحيد وصفة محمد ﷺ ونعته وبعض الشرائع لما معكم من الكتاب، فأمرهم الله -سبحانه وتعالى- بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة؛ لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه نظير الذي من ذلك في الإنجيل والتوراة، ففي تصديقهم بما أنزل على محمد تصديق منهم لما معهم في التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة، وتقييد المنزل بكونه مصدقًا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال، فإذا إيمانهم بما معهم مما يقتضي الإيمان بما يصدقه قطعًا(٢).

فاعلموا أن كل ما عورض به الحق المتيقن ليبطل به أو عورض به دون الكذب المتيقن ليصحح به؛ فإنما هو شغب وتمويه وتخييل فاسد بلا شك؛ لأن اليقين لا يمكن البتة في البينة أن يتعارضا أبدًا.

أما إقرارنا بالتوراة والإنجيل فنعم، وأي معنى لتمويهكم بهذا ونحن لم ننكرهما قط؛ بل نُكفر من أنكرها، إنما قلنا: إن الله ﷻأنزل التوراة على موسى ﵇ حقًا، وأنزل الزبور على داود ﵇ حقًا، وأنزل الإنجيل على عيسى ﵇ حقًا، وأنزل الصحف على إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ حقًا، وأنزل كتبًا لم تسم لنا على أنبياء لم يسمو لنا حقًّا نؤمن بكل ذلك؛ قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ (الأعلى: ١٩)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾ (الشعراء: ١٩٦).

وقلنا ونقول: إن كفار بني إسرائيل بدلوا التوراة والزبور فزادوا ونقصوا، وأبقى الله ـ

---

(١) تفسير الرازي (٧/ ١٥٨).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ١١٥).

تعالى - بعضها حجة عليهم كما شاء: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء: ٢٣)، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ (الرعد: ٤١).

وبدل كفار النصارى الإنجيل كذلك فزادوا ونقصوا وأبقى الله - تعالى - بعضها حجة عليهم كما شاء: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، فدرس ما بدلوا من الكتب المذكورة ورفعه الله تعالى، كما درست الصحف وكتب سائر الأنبياء جملة، فقول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ (النساء: ٤٧) نعم هذا عموم قام البرهان على أنه مخصوص، وأنه تعالى إنما أراد مصدقًا لما معكم من الحق لا يمكن غير هذا؛ لأننا بالضرورة ندري أن معهم حقًّا وباطلًا ولا يجوز تصديق الباطل البتة، فصح أنه إنما أنزله تعالى مصدقًا لما معهم من الحق.

وقد قلنا: إن الله ﷻ أبقى في التوراة والإنجيل حقًّا ليكون حجة عليهم وزائدًا في خزيهم وبالله ﷻ التوفيق، فبطل تعلقهم بشيء مما ذكرنا، والحمد لله رب العالمين[1].

الوجه الثالث: من الأدلة على تحريف الكتاب المقدس.

بما أنهم استدلوا من القرآن الكريم على صحة الكتاب المقدس، وأن القرآن جاء مصدقًا لهذا الكتاب، فكذلك جاء القرآن بذكر تحريف الكتاب المقدس وبالأصح الكتب السابقة، فهنا آيات من القرآن الكريم ذكر الله ﷻ وبين فيها تحريف الكتب السابقة ومن هذه الآيات:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ

(١) الفصل في الملل والنحل (١/ ٢٠٥، ٢٠٩).

يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٥-٧٩).

أي: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. . . ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون؛ وذلك إخبار من الله ـ جل ثناؤه ـ عن إقدامهم على البهت، ومناجاتهم العداوة لرسوله موسى ﷺ، وأن بقاياهم من مناجاتهم العداوة لله ولرسوله محمد ﷺ بغيًا وحسدًا على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى عليه السلام[1].

فهذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالاتهم لا تقتضي الطمع فيهم فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه فيضعون له معاني ما أرادها الله؛ ليوهموا الناس أنها من عند الله وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمانهم لكم؟ فهذا من أبعد الأشياء، فحال المنافقين من أهل الكتاب أنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾، فأظهروا لهم الإيمان قولًا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم؛ قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: تظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي أفلا يكون لكم عقل فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين؛ فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٩٤).

سرهم وعلنهم فيظهر لعباده ما أنتم عليه ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن أهل الكتاب ﴿أُمِّيُّونَ﴾ أي: عوام ليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: ليس لهم حظ من كتاب إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم. فذكر في هذه الآيات علماءهم، وعوامهم، ومنافقيهم، ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم لا بصيرة عندهم فلا مطمع لكم في الطائفتين.

ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

توعد تعالى المحرفين للكتاب الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق؛ وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس فظلموهم من وجهين:

من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق؛ بل إبطال الباطل أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (آل عمران: ٧٨).

إن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن موضعه، ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به؛

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٦).

ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله. وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله[1].

الوجه الرابع: القرآن جاء مهيمنًا على كل الكتب السابقة.

كما ذكر في القرآن أنه جاء مصدقًا للكتب السابقة فكذلك ذكر في القرآن أنه جاء مهيمنًا على الكتب السابقة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ . . ﴾ (المائدة: ٤٨).

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول ـ تعالى ذكره ـ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد الكتاب وهو القرآن الذي أنزله عليه، ويعني بقوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالصدق ولا كذب فيه، ولا شك أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ يقول: أنزلناه بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها إلى أنبيائه ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾؛ يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد مصدقًا للكتب قبله وشهيدًا عليها أنها حق من عند الله أمينًا عليها حافظًا لها، وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده قد هيمن فلان عليه فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن[2].

فاسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله. جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكماليات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾. [3]، والقرآن جاء مهيمنًا على الكتب؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٣٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٨).

منسوخًا البتة ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف على ما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

و إذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق صدق، باقية أبدًا فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبدًا. (١)

* * * *

(١) تفسير الرازي (٦/ ٧٣).

٢- شبهة: كفالة زكريا لمريم.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ (آل عمران: ٣٧).

قالوا: إن زكريا هو الذي كفل مريم، ووضعها في محراب، وكان يغلق عليها سبعة أبواب، فإذا دخل عليها المحراب وجد عندها فاكهة في غير وقتها، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وقالوا: كان يأتيها رزقها من الجنة، فيقول زكريا: يامريم أنى لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله، تكلمت وهي صغيرة في المهد كما فعل ولدها عيسى عليه السلام.

وقال محمد بن إسحاق: أصابت بني إسرائيل أزمة حتى ضعف زكريا عن حملها وكفالتها، فاقترعوا على كفالتها فوقعت القرعة على نجار يقال له يوسف، فعرفت مريم في وجهه شدة، فقالت له: يا يوسف، أحسن بالله الظن، فإنه سيرزقنا، فإذا أتاها بشيء أنماه الله وزاده، فيدخل زكريا عليها فيقول: يا مريم أني لك هذا؟ فتقول هو من عند الله.

فنقول:

١- من تتبع جدول نسب مريم العذراء يجد أنها من نسل داود، أي من النسل الملوكي، فقول القرآن أن زكريا كان يكفلها خطأ.

٢-أخطأ أيضًا في قوله: إن الله كان يأتيها بفاكهة في غير أوانها من الجنة، فإن الجنة ليست محل أكل وشرب، ونعيمها لا يقوم بالملاذ المادية الجسدية، بل كل شهواتها روحية.

٣-يخبرنا الكتاب المقدس أن القديسة مريم كانت مخطوبة ليوسف، فوجدت حبلى من الروح القدس قبل أن يجتمعا، فظهر له الله في رؤيا وأخبره أن الذي حبل به فيها هو الروح القدس، وسيدعى اسمه يسوع؛ لأنه يخلص شعبه من خطاياهم(متى: ١).

٤-كان الشرع اليهودي يحرم وجود امرأة داخل الهيكل، ولكنهم يقولون: إن مريم كانت مقيمة بالهيكل، وهذا خطأ لا يقع فيه من كان على علم بحقائق الشريعة اليهودية.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الدليل على أن زكريا هو الذي كفل مريم.

الوجه الثاني: لماذا خص زكريا ﷺ بكفالة مريم عليها السلام؟

الوجه الثالث: بيان ضعف ما ذكره ابن إسحاق من أن جريجاً كفل مريم.

الوجه الرابع: بعض فضائل السيدة مريم عليها السلام.

الوجه الخامس: الرد على قولهم: إن مريم كانت مخطوبة ليوسف النجار.

الوجه السادس: وماذا قالوا عن مريم في الكتاب المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الدليل على أن زكريا هو الذي كفل مريم.

الأول: تصريح القرآن بذلك؛ قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ (آل عمران: ٣٧).

الثاني: عن طريق الاستهام؛ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٤).

قال الطبري: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ مشددة"الفاء" بمعنى: وكفَّلها الله زكريا، بمعنى: وضمها الله إليه؛ لأن زكريا أيضًا ضمها إليه بإيجاب الله له، ضمَّها إليه بالقُرْعة التي أخرجها الله له، والآية التي أظهرَها لخصومه فيها، فجعله بها أولى منهم، إذ قَرَعَ فيها من شاحَّه فيها، وذلك أنه بلغنا أن زكريا وخصومَه في مريم إذ تنازعوا فيها أيهم تكونُ عنده، تساهموا بقِدَاحهم، فرموا بها في نهر الأردنّ. فقال بعض أهل العلم: ارْتزّ قدح زكريا، فقام ولم يجر به الماء، وجرى بقدَاح الآخرين الماء، فجعل الله ذلك لزكريا علَمًا أنه أحق المتنازعين فيها بها.

وقال آخرون: بل اصّاعدَ قدح زكريا في النهر، وانحدرت قداحُ الآخرين مع جرية الماء وذهبت، فكان ذلك له علمًا من الله في أنه أولى القوم بها.

قال أبو جعفر: وأيّ الأمرين كان من ذلك، فلا شك أن ذلك كان قضاءً من الله بها لزكريا على خصومه، بأنه أولاهم بها، وإذْ كان ذلك كذلك فإنما ضمها زكريا إلى نفسه بضمّ الله إياها إليه بقضائه له بها على خصومه عند تَشاحِّهم فيها، واختصامهم في أولاهم بها[(1)].

قال ابن كثير: ثم قال تعالى لرسوله ﷺ بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي: ما كنت عندهم يا محمد فَتُخْبرهم عنهم معاينة عما جرى؛ بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرًا وشاهدًا لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

قلت: وذكر أثرًا عن عكرمة، ثم قال: وقد ذكر عكرمة أيضًا، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس، وغير واحد -دخل حديث بعضهم في بعض- أنهم دخلوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فيه فأيهم ثبت في جَرْية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا ثبت، ويقال: إنه ذهب صُعُدًا يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم، وعالمهم وإمامهم ونبيهم ﷺ وعلى سائر النبيين والمرسلين.[(2)]

قال قتادة: قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾، كانت مريم ابنة إمامهم وسيّدهم، فتشاحّ عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا فيها بسهامهم أيُّهم يكفلها، فقَرَعهم زكريا، وكان زوجَ أختها، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾

(١) جامع البيان (٣/ ٢٤١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٢).

﴿فكفَّلها زكريا﴾؛ يقول: ضمها إليه.[(١)]

الوجه الثاني: لماذا خص زكريا عليه السلام بكفالة مريم عليها السلام؟

١. **لتنال شرف العلم.**

قال ابن كثير: وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علما جما نافعًا وعملا صالحًا.[(٢)]

٢. **لصلة القرابة (من النسب).**

فهما من ذرية واحدة وهي ذرية سليمان بن داود[(٣)].

٣. **لصلة القرابة (من المصاهرة).**

(**فهو زوج أختها**): عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: "ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح"[(٤)]. **وبه قال قتادة**[(٥)]، وهو قول الجمهور[(٦)].

(**وقيل: كان زوج خالتها**) وعلى هذا كانت في حضانة خالتها، والخالة بمنزلة الأم.

وقيل: إن زكريا عليه السلام كان زوج خالتها.

فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، والخالة بمنزلة الأم.

---

(١) إسناده صحيح. أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٤٠٤)، ومن طريقه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٥٠٢)، وأخرجه الطبري في التفسير (٣/ ٢٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٤٠).

(٤) البخاري (٣٤٣٠)، مسلم (١٦٢).

(٥) إسناده صحيح. أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٤٠٤)، ومن طريقه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٥٠٢)، وأخرجه الطبري في التفسير (٣/ ٢٦٨).

(٦) قصص الأنبياء (٣٦٨).

عن البراء بن عازب ﷺ: لما خرج النبي ﷺ من مكة في صلح الحديبية تَبِعَتْهُم ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادِي يَا عَمِّ! يَا عَمِّ! ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عليها السلام: " دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ احْمِلِيهَا. فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ، وَزَيْدٌ، وَجَعْفَرٌ، قَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَخَذْتُهَا وَهِيَ بِنْتُ عَمِّي، وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي، وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي، فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ لِخَالَتِهَا؛ وَقَالَ: "الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ، وَقَالَ لِعَلِيٍّ: أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ، وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي، وَقَالَ لِزَيْدٍ: أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا"[١].

قال ابن حجر: قَوْله: (وَخَالَتُهَا تَحْتِيّ) أَيْ: زَوْجَتِي، وَقَالَ: الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ، أَيْ فِي هَذَا الْحُكْمِ الْخَاصِّ؛ لِأَنَّهَا تَقْرُبُ مِنْهَا فِي الْحُنُوِّ وَالشَّفَقَةِ وَالِاهْتِدَاءِ إِلَى مَا يُصْلِحُ الْوَلَدَ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاق، وهي بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ لَا أَنَّهَا أُمٌّ حَقِيقِيَّةٌ[٢].

وعن قتادة قال: كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم. قال: فتشاحَّ عليها أحبارُهم، فاقترعوا فيها بسهامهم أيُّهم يكفلها. قال قتادة: وكان زكريا زوجَ أختها فكفلها، وكانت عنده وَحضَنَها[٣].

وعن ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما، وناس من الصحابة: أن الذين كانوا يكتبون التوراة إذا جاؤا إليهم بإنسان يحبرونه اقترعوا عليه أيهم يأخذه فيعلمه، وكان زكريا أفضلهم يومئذ وكان نبيهم، وكانت أخت مريم تحته، فلما أتوا بها قال لهم زكريا: أنا أحقكم بها تحتي أختها فأبوا، فخرجوا إلى نهر الأردن فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها أيهم يقوم قلمه فيكفلها، فجرت الأقلام وقام قلم زكريا على قرنته كأنه في طين فأخذ الجارية[٤].

قوله: (خالتها) يعني زوجته (إيشاع) أخت حنة، لكن تقدم أنها أخت مريم، وقال ﷺ

(١) البخاري (٢٦٩٩) مطولًا، مسلم (١٧٨٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ٥٧٩).

(٣) رواه الطبري (٣/ ٢٤٣) وفيه أبو جعفر الرازي التميمي؛ قال ابن حجر: صدوق سيء الحفظ (تقريب التهذيب ٢/ ٧٠٦).

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٨٦)، وابن جرير (٣/ ٢٤٣)، والدر المنثور (٢/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٩) وفيه أبو صالح بازان: ضعيف يرسل من الثالثة (تقريب التهذيب ١/ ٦٦).

في يحيى وعيسى: "هما ابنا خالة"، وعند أبي السعود قيل في تأويل ذلك: إن الأخت كثيرًا ما تطلق على بنت الأخت الأخرى؛ فجرى الحديث على ذلك، وقيل: إن (إيشاع) أخت حنة من الأم، وأخت مريم من الأب؛ بأن نكح عمران أم حنة فولدت (إيشاع)، ثم نكح حنة، ثم نكح ربيبته فولدت مريم بناء على حِل نكاح الربائب عندهم[١].

وقال الشيخ مصطفي العدوي: هذا القول في حال ثبوته يمكن توجيهه بأن يقال: إن خالة الأم يطلق عليها خالة أيضًا، وعلى ذلك يكون يحيى ومريم ابني خالة، ومن ثم يكون يحيى وعيسى ابني خالة؛ لكون يحيى ابن خالة أمه مريم، والله تعالى أعلم[٢].

وقال أبو حيان الأندلسي: والذي عليه الناس أن زكريا إنما كفلها بالاستهام، ولم يدل القرآن على أن غير زكريا كفلها، وكان زكريا أولى بكفالتها؛ لأنه من أقربائها من جهة أبيها، ولأن خالتها أو أختها تحته، على اختلاف القولين، ولأنه كان نبيًا، فهو أولى بها لعصمته[٣].

الرد على اعتراضهم أنه وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف والعكس، وأن هذا من الجنة.

أولًا: لم يصح في ذلك شيء مرفوع إلى النبي ﷺ.

ثانيًا: الصحيح ما جاء عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ قال: وجد عندها ثمرة في غير زمانها[٤].

ثالثًا: لم يصح في تحديد نوع الثمرة شيء.

رابعًا: لم يصح أنها كانت من ثمار الجنة، وأما ما جاء عن ابن عباس في ذلك فلا يصح[٥].

خامسًا: على قول جمهور المفسرين أنه كان عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فما المانع من ذلك؟ فقد اصطفاها الله سبحانه وتعالى وكرمها الله ببعض

---

(١) مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان؛ مطبوع بحاشية الكشاف (١/ ٣٥٧).

(٢) التسهيل لتأويل التنزيل (آل عمران: ١٢٥).

(٣) البحر المحيط (٢/ ٤٦٠).

(٤) عبد الرزاق في التفسير (٣٩٣).

(٥) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في التفسير (٣/ ٢٤٦) فيه الحسين بن داود (سنيد) وهو ضعيف.

الكرامات وهذه منها.

الوجه الثالث: بيان ضعف ما ذكره ابن إسحاق من أن جريجًا كفل مريم.

قال محمد بن إسحاق: كفلها بعد هلاك أمها فضمها إلى خالتها أم يحيى، حتى إذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنَذْر أمها الذي نذرت فيها، فجعلت تنبت وتزيد. قال: ثم أصابت بني إسرائيل أزْمة وهي على ذلك من حالها، حتى ضعف زكريا عن حملها، فخرج على بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل، أتعلمون؛ والله لقد ضعفتُ عن حَمل ابنة عمران، فقالوا: ونحن لقد جُهِدنا وأصابنا من هذه السنة ما أصابكم، فتدافعوها بينهم، وهم لا يرون لهم من حملها بُدًا، حتى تقارعوا بالأقلام، فخرج السّهم بحملها على رجل من بني إسرائيل نجار يقال لهُ جريج، قال: فعرفت مريم في وجهه شدة مؤنة ذلك عليه، فكانت تقول له: يا جريج، أحسن بالله الظن؛ فإن الله سيرزقنا فجعل جريج يرزق بمكانها، فيأتيها كلّ يوم من كسبه بما يُصلحها، فإذا أدخله عليها وهي في الكنيسة، أنماه الله وكثَّره، فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلًا من الرزق، وليس بقدر ما يأتيها به جُريج، فيقول: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[(١)].

الوجه الرابع: بعض فضائل السيدة مريم عليها السلام.

١ـ الاصطفاء والطهارة.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم: ١٢)

٢ ـ الحفظ والرعاية.

قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في التفسير٣/ ٢٤٦) وفيه سلمة بن الفضل صدوق كثير الخطأ، وابن حميد أجمع أهل بلده على تضعيفه. الجرح والتعديل (٧/ ٢٣٢)، الكاشف (٢/ ١٦٦).

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (آل عمران: ٣٥: ٣٧).

عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها". ثم يقول أبو هريرة ﷺ: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[(١)].

٣ ـ وصفها بالصدق.

قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥).

٤ ـ وصفها بالكمال والخيرية.

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** ". [(٢)]

وعن عَلِيٍّ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "**خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ**"[(٣)].

الوجه الخامس: الرد على قولهم: إن مريم كانت مخطوبة ليوسف النجار.

قال الآلوسي: وزعم بعض النصارى ـ قاتلهم الله تعالى ـ أنها بعد أن ولدت عيسى تزوجت بيوسف النجار وولدت منه ثلاثة أبناء، والمعتمد عليه عندهم أنها كانت في حال الصغر خطيبة يوسف النجار وعقد عليها ولم يقربها، ولما رأى حملها بعيسى ﷺ هم

---

(١) البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٢) البخاري (٣٧٦٩)، مسلم (٢٤٣١).

(٣) البخاري (٣٤٣٢)، مسلم (٢٤٣٠).

بتخليتها فرأى في المنام ملكًا أوقفه على حقيقة الحال، فلما ولدت بقيت عنده مع عيسى عليه السلام فجعل يربيه ويتعهده مع أولاد له من زوجة غيرها، فأما هي فلم يكن يقربها أصلًا، والمسلمون لا يسلمون أنها كانت معقودًا عليها ليوسف، ويسلمون أنها كانت خطيبته، وأنه تعهدها وتعهد عيسى عليه السلام، ويقولون: كان ذلك لقرابته منها.

قال القرطبي: وذكر أيضًا من قصصها أنها خرجت فارة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار، كان يخدم معها في المسجد وطوَّل في ذلك.

قال الكلبي: قيل ليوسف - وكانت سميت له أنها حملت من الزنى - فالآن يقتلها الملك، فهرب بها، فهم في الطريق بقتلها فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: إنه من روح القدس، قال ابن عطية: وهذا كله ضعيف.

الوجه السادس: وماذا قالوا عن مريم في الكتاب المقدس؟

مريم نبية ومع ذلك تضرب بالدف:

(الخروج٥/ ٢٠): أَخَذَتْ مَرْيَمُ النَّبِيَّةُ أُخْتُ هَارُونَ الدُّفَّ بِيَدِهَا، وَخَرَجَتْ جَمِيعُ النِّسَاءِ وَرَاءَهَا بِدُفُوفٍ وَرَقْصٍ.

أقول: أنا أعتقد أن اليهود حينما سخروا من مريم ـ عليها السلام ـ أم المسيح فقالوا لها: يا أخت هارون، أعتقد أنهم كانوا يهزءون بها ويشبهونها بمريم التي هي أخت هارون فعلًا، والتي أخطأت فجزاها الله بمرض البرص، والقرآن حينما يتحدث عن قول اليهود لها: يا أخت هارون؛ كانوا يشبهونها بأخت هارون وموسى التي أخطأت، ويشبهون خطيتها بخطية مريم التي أبوها عمران وأمها يوكابد (التي هي عمة أبوها) أخت موسى عليه السلام وهارون عليه السلام، وهذا ظني، والله تعالى أعلى وأعلم.

* * *

٣- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾.

نص الشبهة:

يقول: في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ (آل عمران: ٤٥) فجاء ضمير الهاء في اسمه مذكرًا، وهو عائد على(كلمة) المؤنثة.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: قال تعالى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ فذكَّر، ولم يقل اسمها فيُؤنِّث، والكلمة مؤنثة؛ لأن (الكلمة) غير مقصود بها قصدُ الاسم الذي هو بمعنى "فلان"، وإنما هي بمعنى البشارة. [١] أي: أن الضمير جاء مذكرًا من أجل المعنى إذ "الكلمة": عبارة عن ولد[٢]. أي: لأن المسمى بها مذكرًا[٣].

الوجه الثاني:(ما يضاف من المذكر إلى المؤنث فيحمل مرة على لفظ المذكر فيذكر، ومرة على لفظ المؤنث فيؤنث).

من ذلك ما جاء في أشعار العرب من هذا الباب قول الأعشى[٤].

وتَشْرَق بالقَوْلِ الذي قَدْ أذَعْتَه   كما شَرِقتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

فقال ابنُ سِيده: إنما أَنَّثَهُ على المعنى؛ لأنّ صَدْرَ القَناةِ من القَناةِ وهو كقَوْلهم: ذَهَبتْ بعضُ أصابِعِه؛ لأنهم يُؤَنِّثُونَ الاسمَ المضافَ إلى المُؤَنَّثِ. والصُّدْرَةُ بالضَّمّ: الصَّدْرُ أو صُدْرَةُ الإِنْسَانِ: ما أَشْرَفَ من أعلاَه. أي أعْلَى صَدْرِه وعليه اقتصرَ الأَزْهَرِيّ قال: ومنه الصُّدْرَةُ التي تُلْبَسُ وهو(ثَوبٌ،)أي معروف[٥].

* * *

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٦/ ٤١٢).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٣٥).

(٣) التفسير الكبير للرازي (٨/ ٥٠).

(٤) هذا البيت استشهد به سيبويه في الكتاب (١/ ٥٢).

(٥) تاج العروس للزَّبيدي (١/ ٣٠٥١).

٤- شبهة: حول وفاة عيسى ﷺ.

نص الشبهة:

يقول: في الآية: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ ﴾.

والسؤال: كيف توفاه الله ورفعه؟ ، وفي الآية دليل على مسألة الصلب.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان المعاني التي ذُكرت في الوفاة.

الوجه الثاني: الرد على من قال بأن الوفاة في الآية بمعنى الموت.

الوجه الثالث: بطلان قضية الصلب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان المعاني التي ذكرت في الوفاة.

أولًا: الوفاة بمعنى: المنية، والوفاة: الموت، وتُوفي فلان، وتوفاه الله إذا قبض نفسه أو روحه، وقيل: توفي: استيفاء مدته التي وفيت له وعدد أيامه وشهوره وأعوامه في الدنيا، وتوفيت المال منه واستوفيته: إذا أخذته كله، وتوفيت عدد القوم: إذا عددتهم كلهم، وأنشد أبو عبيدة كمنظور الوبري:

إن بني الأدرم ليسوا من أحد ولا توفاهم قريش في العدد

أي: لا تجعلهم قريش تمام عددهم ولا تستوفي بهم عددهم؛ ومن هذا قول الله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي: يستوفي مدد آجالهم في الدنيا، وقيل: يستوفي تمام عددهم إلى يوم القيامة، وأماتوفي النائم فهو استيفاء وقت عقله وتمييزه إلى أن نام.

قال الزجاج في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ قال: هو من توفية العدد أي: يقبض أرواحكم أجمعين فلا ينقص واحد منكم؛ كما تقول: قد استوفيت من فلان وتوفيت منه مالي عليه، تأويله: أي لم يبق عليه شيء.

وأما الموافاة: فهي مأخوذة من قولك: أوفيته حقه ووفيته حقه ووافيته حقه؛ كل ذلك

بمعنى أفعلت وفعلت في حروف بمعنى واحد.

قال بشر بن أبي حازم:

كأن الأتحمية قام فيها لحسن دلالها رشأ موافي

قال الباهلي: موافي مثل مفاجي، وأنشد:

وكأنما وافاك يوم لقيتها من وحش وجرة عاقد متربب[١]

ثانيًا: قول الله ﷻ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . .﴾

قيل: إن هذا فيه تقديم وتأخير ﴿إِنِّي﴾ عطف و﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . .﴾ على التقديم والتأخير؛ إذ الواو لا تفيد ترتيب الزمان أي: إني رافعك إلي ثم متوفيك بعد ذلك[٢].

أي: إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إلي، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا؛ فيكون هذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم[٣].

ثالثًا: إن الوفاة في اللغة تطلق أيضًا على النوم:

ويحتمل أن الوفاة بمعنى النوم فيكون المعنى: إني منيمك ورافعك في نومك، فيطلق التوفي على النوم مجازًا بعلاقة المشابهة؛ في نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: والتي لم تمت الموت المعروف فيميتها في منامها موتًا شبيهًا بالموت التام كقوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ فالكل إماتة في التحقيق وإنما فصل بينهما العرف والاستعمال؛ ولذلك فرع بالبيان بقوله: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فالكلام منتظم غاية

(١) تهذيب اللغة (١٥/ ٥٨٤)، والصحاح (٥/ ٢٠٠٢)، لسان العرب (١٥/ ٤٠٠-٤٠١).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٩٠).

(٣) تفسير ابن عاشور (٣/ ٢٥٨)، تفسير الرازي (٨/ ٦٧).

الانتظام وقد اشتبه نظمه على بعض الأفهام[١].

رابعًا: ويحتمل أن تكون الوفاة بمعنى قابضك.

أي: قابضك من الأرض فرافعك إلي، فيقال: توفيت من فلان مالي عليه بمعنى: قبضته واستوفيته، فمعنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . ﴾ أي: قابضك من الأرض حيًا إلى جواري، وآخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك.[٢]

خامسًا: ويحتمل أن تكون الوفاة بمعنى: إني متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾؛ وذلك لأن من لم يصر فانيًا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضًا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة.[٣]

سادسًا: ويحتمل أني متوفيك أي: أجعلك كالمتوفى؛ لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.[٤]

سابعًا: ويحتمل أن يقدر فيه حذف المضاف، والتقدير: متوفي عملك بمعنى: مستوفي عملك ورافعك إليَّ، أي: عملك إليَّ، وهو كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه، وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه.[٥]

ثامنًا: ويحتمل أن تكون الوفاة بمعنى: استيفاء مدة الإقامة أي: مستوفي مدة إقامتك بين قومك، والتوفي كما يطلق على الإماتة كذلك يطلق على استيفاء الشيء[٦].

الوجه الثاني: الرد على من قال بأن الوفاة في الآية بمعنى الموت.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٩٠)، وابن عاشور (٣/ ٥٩)، وفتاوى ابن تيمية (٤/ ٢٢٣)

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٩١).

(٣) تفسير الرازي (٨/ ٦٨).

(٤) المصدر السابق (٨/ ٦٨).

(٥) المصدر السابق (٨/ ٦٨).

(٦) تفسير الرازي (٨/ ٦٨)، ومحاسن التأويل (٤/ ١٠٧).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾ فهذا دليل على أنه لم يعنِ بذلك الموت؛ إ ذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين، فإن الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ولو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء، وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٥٧ - ١٥٩)، وقوله هنا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات.

الوجه الثالث: بطلان قضية الصلب.

إن كان قد تُوفي فالوفاة لا تستلزم أن تكون بالصلب والقتل، وبهذه الوجوه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ وغيرها حجة علينا لإفادتها وفاته ﷺ أي: بالصلب ثم رفعه إلى السماء؛ أعني: قيامه حيًا بعد وفاته على زعمهم من أنه مات بجسده، وأقام على الصليب إلى وقت المغرب من يوم الجمعة، ثم أنزل ودفن في أول ساعة من ليلة السبت، وأقام في القبر إلى صبيحة الأحد ثم انبعث حيًا وتراءى للنسوة اللاتي جئن إلى قبره زائرات، وقد استندوا في هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع، وشهادة تلاميذه الشفاهية في العالم ثم أتباعهم، وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتيًا، ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه في معنى الآية مما لا يبقى معه أدنى ارتياب[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (٤/ ١١٠). وانظر: شبهة " الصلب والفداء " في هذه الموسوعة.

٥- شبهة: وجاهة المسيح في الدنيا والآخرة.

نص الشبهة:

يقولون: يشهد القرآن بوجاهة المسيح في الدنيا والآخرة، فجاء في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران: ٤٥).

ويقولون: جاء في تفسير الجلالين: ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والدرجات العلا ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله.

فلماذا يخص القرآن المسيح بالوجاهة في الدنيا والآخرة؟

ويقولون: جاء في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة: ٤)، فلماذا لم يعط الله سلطانًا لأحد من البشر بالشفاعة إلا المسيح؟ أليس لأنه ابن الله المتجسد والوسيط الوحيد بين الله والناس، وهو الذي يحيي الأموات والقلوب؛ لأنه حياة أجسادنا؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى كلمة (وجيهًا).

الوجه الثاني: التفسير الصحيح للآية.

الوجه الثالث: شروط الشفاعة.

الوجه الرابع: الشفاعة ليست خاصة بالأنبياء فقط.

الوجه الخامس: الرسول ﷺ صاحب الشفاعة.

الوجه السادس: عيسي عليه السلام ليس وحده الموصوف بهذا الوصف.

الوجه السابع: عيسى عليه السلام يبرأ من الشفاعة يوم القيامة لهول ذلك اليوم.

الوجه الثامن: بعض فضائل عيسى عليه السلام.

الوجه التاسع: ماذا قال الكتاب المقدس عن المسيح؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى كلمة (وجيهًا).

قال ابن قتيبة: الوجيه ذو الجاه، يقال: وجه الرجل يوجه وجاهة.

وقال ابن دريد: الوجيه المحب المقبول.

وقال الأخفش: الشريف ذو القدر والجاه.

وقيل: الكريم على من يسأله؛ لأنه لا يرده لكرم وجهه. [١]

وعلى هذا يكون المراد بقوله: ﴿وَجِيهًا﴾ ذا وَجْهٍ ومنزلة عالية عند الله، وشرفٍ وكرامة[٢].

الوجه الثاني: التفسير الصحيح للآية.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران: ٤٥).

والمعنى: ﴿وَجِيهًا﴾ أي: شريفًا ذا جاه وقدر. [٣]

والسبب في ذلك:

أولًا: الوجاهة في الدنيا:

١- بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب (يعنى النبوة)[٤].

٢-بقبول دعائه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص[٥].

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٨٢)، وروح المعاني للآلوسي (٣/ ١٦٢).

(٢) الطبري في تفسيره (٣/ ٢٧٠)، والزجاج في معاني القرآن (١/ ٤١٢)، والرازي (٨/ ٥٠)، التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٦)، وتفسير المنار (٣/ ٣٠٦).

(٣) الطبري (٣/ ٢٤٥)، و القرطبي (٤/ ٩٦)، و الخازن (١/ ٢٤٥).

(٤) الكشاف (١/ ٢٦٤)، و الرازي (٨/ ٥٠)، والمحرر الوجيز (١/ ٤٣٦).

(٥) الرازي (٨/ ٥٠)، والخازن (١/ ٢٤٥)، والبحر المحيط (٢/ ٢٨٢)، وروح المعاني (٣/ ١٦٢).

٣- بسبب أنه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها[١].

٤- جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب[٢].

ثانيًا: الوجاهة في الآخرة.

١- يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٣].

٢- علو الدرجة في الجنة[٤].

ثالثا: من المقربين.

١-أي: عند الله -سبحانه وتعالى- قاله قتادة[٥].

والمعنى أي: يسكنه في جواره ويدنيه منه[٦].

٢-إشارة إلى رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة[٧].

٣- من الناس بالقبول والإجابة[٨].

الوجه الثالث: شروط الشفاعة.

إن للشفاعة شرطين لا بد وأن يتحققا؛ لأن الشفاعة عند الله ﷻ تختلف عن الشفاعة عند غيره، فهو يقبل الشفاعة ممن يريد وممن يأذن له، ولا يتقبلها في كل من يشفع لهم؛ بل

---

(١) الرازي (٨/ ٥٠)، و روح المعاني (٣/ ١٦٢).

(٢) السعدي (١٣١).

(٣) الكشاف (١/ ٣٦٤)، و الرازي (٨/ ٥٠)، والنسفي (١/ ١٥٨)، والبحر المحيط (٢/ ٢٨٢)، و أبو السعود (٢/ ٣٧)، وابن كثير (٣/ ٦٣)، وروح المعاني (٣/ ١٦٣).

(٤) الكشاف (١/ ٣٦٤)، والرازي (٨/ ٥٠)، والخازن (١/ ٢٤٥)، والنسفي (١/ ١٥٨).

(٥) أخرجه الطبري (٣/ ٢٧١) بإسناد صحيح.

(٦) الرازي (٨/ ٥٠)، و أبو السعود (٢/ ٣٧)، و روح المعاني (٣/ ١٦٣).

(٧) الكشاف (١/ ٣٦٤)، والرازي (٨/ ٥٠)، والخازن (١/ ٢٤٦)، والنسفي (١/ ١٥٨).

(٨) روح المعاني (٣/ ١٦٣).

يقبلها سبحانه وتعالى فيمن يريد من عباده.

وهذان الشرطان هما:

أولًا: إذن الله سبحانه وتعالى للشافع بأن يشفع.

ومما يدل على هذا الشرط قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ (سبأ: ٢٣).

ومن السنة حديث الشفاعة الطويل عن أنس رضي الله عنه وقد ورد فيه: "فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها"(١).

ثانيًا: رضا الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له بأن يكون من أهل التوحيد المتبعين لأوامر الله ﷻ المجتنبين لنواهيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ (طه: ١٠٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

يقول العلامة ا السعدي: وكل أحد من الملائكة فما دونهم، خاضعون لهيبته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته، وأوصافه، وأفعاله، الذي له كل كمال، وكل جلال، وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه(٢).

ولا يرضى الله إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب، أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: "لا إله إلا الله خالصا من قلبه".

فالشفاعة يوم القيامة لا تكون إلا لمن أذن له الله ﷻ وارتضاه شفيعًا، فيلهمه الله بأن يشفع، فيشفعه الله في من يشاء من عباده.

الوجه الرابع: الشفاعة ليست خاصة بالأنبياء فقط.

---

(١) البخاري (٧٥١٠)، مسلم (١٨٣) واللفظ له.

(٢) تفسير السعدي (٦٧٩).

يقول السفاريني: يجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ من سائر الرسل والأنبياء والملائكة والصحابة والشهداء والصديقين والأولياء على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم يشفعون، وبقدر جاههم ووجاهتهم يشفعون؛ لثبوت الأخبار بذلك وترادف الآثار على ذلك، وهو أمر جائز غير مستحيل، فيجب تصديقه والقول بموجبه لثبوت الدليل(١).

أولًا: شفاعة الأنبياء:

ودليل هذه الشفاعة: ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺالسابق أيضا، وفيه: "فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون"(٢).

ثانيًا: شفاعة الملائكة عليهم السلام:

والدليل من القرآن: قول الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ (النجم: ٢٦) ونحوها من الآيات.

والدليل من السنة: ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري الطويل مرفوعا وفيه: فيقول الله ﷻ: "شفعت الملائكة، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط"(٣).

ثالثًا: شفاعة المؤمنين:

ومن الأدلة على هذه الشفاعة: ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ السابق، وفيه: "حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فو الذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي

(١) لوامع الأنوار (٢/ ٢٠٩)، كما في مجلة البحوث الإسلامية (٦٤/ ١٤٩: ١٥٠).

(٢) رواه مسلم (١٨٣).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا ".

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لا تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (النساء: ٤٠)، فيقول الله ﷻ: "شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين"[١].

فالمؤمنون يشفعون يوم القيامة، وكلما كان المؤمن أكثر إيمانًا وتقى كان أحرى بالشفاعة لإخوانه المؤمنين، والعكس بالعكس.

ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي الدرداء ﷺأن النبي ﷺقال: " إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة ". [٢]

رابعًا: شفاعة الشهداء:

ومن الأدلة على هذه الشفاعة: حديث المقدام بن معد يكرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " للشهيد عند الله ست خصال. "

وجاء في آخر الحديث: "ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه ". [٣]

خامسًا: شفاعة أولاد المؤمنين لآبائهم يوم القيامة:

من الأدلة على هذه الشفاعة:

ما جاء عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن

---

(١) مسلم (١٨٣).

(٢) مسلم (٢٥٩٨).

(٣) الترمذي (١٦٦٣)، ابن ماجه (٢٧٩٩)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٨٣٤).

رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا، عن موتانا؟ قال: نعم صغارهم دعاميص الجنة، يتلقى أحدهم أباه - أو قال أبويه فيأخذ بثوبه أو قال: بيده - كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهى - أو قال: فلا ينتهي - حتى يدخله الله وأباه الجنة"(١).

ومنها: حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله وإياهم بفضل رحمته الجنة، وقال: يقال: لهم ادخلوا الجنة، قال: فيقولون:

حتى يجيء أبوانا، قال: ثلاث مرات: فيقولون: مثل ذلك، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم"(٢).

الوجه الخامس: الرسول ﷺ صاحب الشفاعة.

يقول ابن تيمية: فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين، لكن ما له فيها ﷺ أفضل مما لغيره؛ فإنه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ﷻ، وله من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين(٣).

١ - الشفاعة العظمى:

هي الشفاعة الأولى الخاصة بالنبي محمد ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وذلك حين يتوسل الناس يوم القيامة إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام من أجل الشفاعة عند الله؛ لإراحة الخلائق من هول وشدة ذلك اليوم العصيب بتعجيل حسابه وفصل القضاء بينهم بين يدي الله تبارك وتعالى، وهو أحكم

---

(١) مسلم (٢٦٣٥).

الدعاميص: جمع دعموص، أي صغار أهلها، وأصل الدعموص: دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي أن هذا الصغير في الجنة لا يفارقها.

(صنفة ثوبك) أي طرفه. شرح النووي لصحيح مسلم (٨/ ٤٣٢).

(٢) رواه النسائي (٤/ ٢٥)، وأحمد (٢/ ٥١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٨٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٣).

الحاكمين بقسطه وعدله حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيشفع عند ربه ﷻ لأهل الموقف.

وهذه الشفاعة أعظم الشفاعات كلها، ولهذا تسمى الشفاعة العظمى، فهي شفاعة عامة لجميع أهل الموقف، على اختلاف أديانهم.

وهذه الشفاعة أجمع عليها أهل الإسلام. وعلى هذه الشفاعة يدل قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (الإسراء: ٧٩).

ومن الأدلة على هذه الشفاعة:

١-حديث عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺقال: "لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم. . . إلى أن قال: إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ. فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم". (١)

وحديثه الآخر أيضًا أنه قال ﷺ: " إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود". (٢)

٢-أيضًا حديث أبي هريرة ﷺ قال: أُتي رسول الله ﷺ يومًا بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، فقال: " أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس،. . . ، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني فيقولون: - يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي، ثم

---

(١) البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠) واللفظ له.

(٢) البخاري (٤٧١٨).

يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى"(١).

٢ - الشفاعة في دخول أهل الجنة الجنة بعد الفراغ من حسابهم:

من الأدلة على هذه الشفاعة حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد"(٢).

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٣).

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن النبي ﷺ أول الشفعاء لأهل الجنة في دخولها.

٣ - الشفاعة في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب:

ومن الأدلة على هذه الشفاعة:

١-حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: " هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ"(٤).

٢- حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ، كعبيه، يغلي منه دماغه"(١).

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠).

(٢) رواه مسلم (١٩٦).

(٣) رواه مسلم (١٩٨).

(٤) رواه البخاري (٦٢٠٨).

فهذه الأحاديث تبين أن سبب شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه هو دفاعه عن الرسول ﷺ ونصرته له، و هو مات كافرًا، والله -سبحانه وتعالى- أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولكن شفاعة الرسول ﷺ لعمه شفاعة خاصة، حتى ورد أنه أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة.

وهذه الأنواع الثلاثة من الشفاعة خاصة بنبينا محمد ﷺ.

وهناك شفاعات أخرى منها:

١-الشفاعة في رفع درجات بعض أهل الجنة، الشفاعة في دخول بعض المؤمنين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

٢- الشفاعة في أهل الكبائر من أمته ممن دخلوا النار بذنوبهم أن يخرجوا منها.

٣- شفاعته ﷺ في أقوام قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

٤-الشفاعة في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم بأن يدخلوا الجنة.

يقول ابن تيمية: أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة، ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنن من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته، ويشفع أيضا لعموم الخلق[٢].

الوجه السادس: عيسي عليه السلام ليس وحده الموصوف بهذا الوصف.

قلت: هذا لأن الله وصف موسى عليه السلام بهذا الوصف كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأحزاب: ٦٩)

فلماذا خصصوا هذا الوصف لعيسى عليه السلام دون سائر الأنبياء عليهم السلام؟.

الوجه السابع: عيسى عليه السلام يبرأ من الشفاعة يوم القيامة لهول ذلك اليوم.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٤)، ومسلم (٢١٠) واللفظ له.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٣)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام اللالكائي (٦/ ١١٦٠) فما بعدها.

ومن الأدلة:

١- حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك. فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا. قال: فيأتون آدم ﷺ فيقولون: أنت آدم أبو الخلق.... . ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم. ولكن ائتوا محمدًا ﷺ، عبدًا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال: قال رسول الله ﷺ: " فيأتوني فأستأذن على ربي فيؤذن لي. . . ". [(١)]

٢- حديث أبي هريرة ﷺ قال: أتي رسول الله ﷺ يومًا بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، فقال: "أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر. . . فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول عيسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - لم يذكر ذنبا- نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. . . "[(٢)].

٣- حديث أَبِى هُرَيْرَةَ و حُذَيْفَةَ ﷺ قَالاَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " يَجْمَعُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. اذْهَبُوا إِلَى ابْنِى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الله. قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِى كَلَّمَهُ الله تَكْلِيمًا. فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ

(١) رواه البخاري (٦٥٦٥) ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ الله وَرُوحِهِ. فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّداً ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ. . . "(١).

الوجه الثامن: بعض فضائل عيسى عليه السلام.

لقد كرم الله سبحانه وتعالي عيسى عليه السلام في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، كما لم يكرمه أي كتاب آخر، والمسلمون يحبون سيدنا عيسي عليه السلام وأمه ولا يقولون فيهما إلا ما قال الله - سبحانه وتعالي- أن سيدنا عيسي عليه السلام هو من الرسل الخمس أولي العزم، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام، وهذا من أساس عقيدتنا كمسلمين، كل مسلم يؤمن أن المسيح نبي مكرم، ومن المقربين، وأنه من أولي العزم، وأن المسيح نبي كريم أرسله الله سبحانه وتعالى.

أولاً: من القرآن:

١- **وجيها شريفًا(ذا جاه وشرف).**

كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (آل عمران: ٤٥ - ٤٩).

٢- **عيسى ابن مريم عليه السلام نبي ورسول من عند الله عز وجل.**

كغيره من الأنبياء والمرسلين، جاء ليدعو إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى، ويصحح انحراف اليهود عن دينهم، وبعدهم عن شريعتهم، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (المائدة: ٧٥)، وقوله

---

(١) رواه مسلم (١٩٥).

تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) ﴾ (الزخرف: ٦٣).

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾ (البقرة: ٢٥٣) وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ (الحديد: ٢٧).

٣- الحفظ والرعاية.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) ﴾ (آل عمران: ٥٥).

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان.

٤-حسن الخلق.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) ﴾ (مريم: ٣٠-٣٥).

ثانيا: من السنة:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان. إلا ابن مريم وأمه " ثم قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦)[١].

٢- عن عبادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"[٢].

٣- عن أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ. فَقَالَ لَهُ عِيسَى: سَرَقْتَ؟ قَالَ كَلا. وَالَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ. فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِالله وَكَذَّبْتُ نَفْسِى "[٣].

٤- عن أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ في الأُولَى وَالآخِرَةِ. قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: " الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ ""[٤].

الوجه التاسع: ماذا قال الكتاب المقدس عن المسيح؟ وبماذا تردون على هذه السفاهة التي في كتابكم؟.

١- المسيح يشتم:

فَقَالَ لَهُمُ: «امْضُوا وَقُولُوا لِهذَا الثَّعْلَبِ: هَا أَنَا أُخْرِجُ شَيَاطِينَ، وَأَشْفِي الْيَوْمَ وَغَدًا، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أُكَمَّلُ. (لوقا ١٣/ ٣٢).

فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ، قَالَ لَهُمْ: «يَاأَوْلاَدَ الأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟ (متى ٣/ ٧).

٢- المسيح يكذب على إخوته:

اِصْعَدُوا أَنْتُمْ إِلَى هذَا الْعِيدِ. أَنَا لَسْتُ أَصْعَدُ بَعْدُ إِلَى هذَا الْعِيدِ، لأَنَّ وَقْتِي لَمْ يُكْمَلْ بَعْدُ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٤٣٥).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨) واللفظ له.

(٤) رواه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) واللفظ له.

(يوحنا ٧/ ١٠: ٨).

٣ - **المسيح يشجع علي الرذيلة:**

لكِنْ عِنْدِي عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّكَ تُسَيِّبُ الْمَرْأَةَ إِيزَابَلَ الَّتِي تَقُولُ إِنَّهَا نَبِيَّةٌ، حَتَّى تُعَلِّمَ وَتُغْوِيَ عَبِيدِي أَنْ يَزْنُوا وَيَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ (يوحنا ٢/ ٢٠).

كل هذه الخطايا والأفعال المشينة نسبها الكتاب المقدس ليسوع ويقولون: إنه بلا خطيئة وبلا ذنب؟ ثم يأتي النصارى ويبحثون عن خطيئة الآخرين، وتناسوا تمامًا ما هو موجود في كتابهم عن المسيح ﷺ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * * *

٦- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾.

نص الشبهة:

حول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ (آل عمران: ١٠٥).

يقولون: ألا يعني هذا الكلام أن اليهود والمسيحيين اختلفوا بين بعضهم، لكن الكتاب الموجود بين أيديهم الذي هو-البينات- هو صحيح لا لبس فيه، ولهم عذاب عظيم؛ لأنهم ابتعدوا عنه، وواجب محمد هنا أن يردهم إليه لا أن يعطيهم كتابًا آخر.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

الوجه الثاني: النبيﷺ مكلف بالتبليغ بالقرآن الكريم، ولم يكلفه الله أن يرد المختلفين من أهل الكتاب إلى كتابهم؛ لأن القرآن فيه بيناتهم وزيادة:

١- القرآن بلاغ للناس.

٢- القرآن إنذار للأحياء جميعًا.

٣- النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى.

٤- نهي الله ﷻ نبيه أن يتهاون في تبليغ القرآن.

٥- كل الرسل الذين جاءوا من قبل نبينا كانوا يبينون للناس مااختلفوا فيه من قبل، ويأتونهم بكتاب جديد.

الوجه الثالث: الإسلام جاء ناسخًا للكتب السماوية الأخرى.

واليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ (آل عمران: ١٠٥).

قال أبو جعفر الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾يا معشر الذين آمنوا: ﴿ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴾ من أهل الكتاب ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في دين الله وأمره ونهيه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، من حجج الله، فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه فتعمدوا خلافه، وخالفوا أمر الله، ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على الله ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾، يعني: ولهؤلاء الذين تفرقوا، واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم ﴿عَذَابٌ﴾ من عند الله ﴿عَظِيمٌ﴾، يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا، يا معشر المؤمنين، في دينكم تفرُّق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم ما لهم. (١)

وقال ابن كثير: ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم. (٢)

وعن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: "تفَرَّقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتفرقت النَّصَارَى إِحْدَى أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً". (٣)

قال صاحب عون المعبود: هَذَا مِنْ مُعْجِزَاته ﷺ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ غَيْب وَقَعَ. قَالَ الْعَلْقَمِيّ: قَالَ شَيْخنَا أَلَّفَ الْإِمَام أَبُو مَنْصُور عَبْد الْقَاهِر بْن طَاهِر التَّمِيمِيّ فِي شَرْح هَذَا الْحَدِيث كِتَابًا قَالَ فِيهِ: قَدْ عَلِمَ أَصْحَاب الْمَقَاوَلَات أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُرِدْ بِالْفِرَقِ الْمَذْمُومَة الْمُخْتَلِفِينَ فِي فُرُوع الْفِقْه مِنْ أَبْوَاب الْحَلَال وَالْحَرَام، وَإِنَّمَا قَصَدَ بِالذَّمِّ مَنْ خَالَفَ أَهْل الْحَقّ فِي أُصُول التَّوْحِيد، وَفِي تَقْدِير الْخَيْر وَالشَّرّ وَفِي شُرُوط النُّبُوَّة وَالرِّسَالَة، وَفِي مُوَالَاة الصَّحَابَة وَمَا جَرَى مَجْرَى هَذِهِ الْأَبْوَاب؛ لِأَنَّ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهَا قَدْ كَفَّرَ بَعْضهمْ بَعْضًا بِخِلَافِ النَّوْع الْأَوَّل فَإِنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٥).

(٣) رَوَاهُ أبو داود (٦٢٤٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، وعند ابن ماجه (٣٩٩٣) عن أنس بن مالك وإسناده صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٩٢، ٢٠٣).

غَيْر تكْفِير، وَلَا تَفْسِيق لِلْمُخَالِفِ فِيهِ؛ فَيَرْجع تَأْوِيل الْحَدِيث فِي اِفْتِرَاق الْأُمَّة إِلَى هَذَا النَّوْع مِنْ الِاخْتِلَاف، وَقَدْ حَدَثَ فِي آخِر أَيَّام الصَّحَابَة خِلَاف الْقَدَرِيَّة مِنْ مَعْبَد الْجُهَنِيّ وَأَتْبَاعه، ثُمَّ حَدَثَ الْخِلَاف بَعْد ذَلِكَ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ تَكَامَلَتْ الْفِرَق الضَّالَّة اِثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَالثَّالِثَة وَالسَّبْعُونَ هُمْ أَهْل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة، وَهِيَ الْفِرْقَة النَّاجِيَة(١).

وقال في تحفة الأحوذي: المراد من أمتي الإجابة(٢)، وهذا من معجزاتهﷺ. (٣)

ومما جاء في ذم التفرق والحث على الجماعة:

عن ابن عمرﷺ قال: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺفِينَا، فَقَالَ: "أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ. أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ. عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ. مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ"(٤).

قال في تحفة الأحوذي: قَوْلُهُ: "خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ "خُطْبَةُ عُمَرَ هَذِهِ مَشْهُورَةٌ، خَطَبَهَا بِالْجَابِيَةِ وَهِيَ قَرْيَةٌ بِدِمَشْق فَقَالَ أَيْ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ "أَيْ: التَّابِعِينَ "ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ " أَيْ: أَتْبَاع التَّابِعِينَ. وَقَوْلُهُ: "بِأَصْحَابِي"، وَلَيْسَ مُرَادُهُ بِهِ وُلَاةَ الْأُمُورِ " ثُمَّ يَفْشُوالْكَذِبُ " أَيْ: يَظْهَرُ وَيَنْتَشِرُ بَيْنَ النَّاسِ بِغَيْرِ نَكِيرٍ" حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ " أَيْ: لَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْحَلِفُ لِجُرْأَتِهِ عَلَى الله "وَيَشْهَدُ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ "

---

(١) عون المعبود (٦/ ٢٢).

(٢) الإجابة: أمة النبي نوعان: أمة إجابة، وأمة دعوة؛ فأمة الدعوة هم من كفر بالنبيﷺ، وأمة الإجابة هم من آمن به.

(٣) تحفة الأحوذي (٧/ ٣٣٢).

(٤) رَوَاهُ الترمذي (٢١٦٥) وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوقَةَ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّﷺ.
وأحمد (١/ ٢٦). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦)، وفي الصحيحة (٤٣٠).

قَالَ التِّرْمِذِيُّ فِي أَوَاخِرِ الشَّهَادَاتِ: الْمُرَادُ بِهِ شَهَادَةُ الزُّورِ " أَلَا " بِالتَّخْفِيفِ حَرْفُ تَنْبِيهٍ " لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ " أَيْ: أَجْنَبِيَّةٍ "إِلَّا كَانَ ثَالِثُهُمَا الشَّيْطَانَ " بِرَفْعِ الْأَوَّلِ وَنَصْبِ الثَّانِي، وَيَجُوزُ الْعَكْسُ وَالِاسْتِثْنَاءُ مُفَرَّغٌ، وَالْمَعْنَى: يَكُونُ الشَّيْطَانُ مَعَهُمَا يُهَيِّجُ شَهْوَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا حَتَّى يُلْقِيَهُمَا فِي الزِّنَا " عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ " أَيْ الْمُنْتَظِمَةِ بِنَصْبِ الْإِمَامَةِ" وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ" أَيْ: اِحْذَرُوا مُفَارَقَتَهَا مَا أَمْكَنَ. وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: " مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ"[(١)].

وفي حديث حذيفة ﷺ قال: " تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ "[(٢)].

وأما قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ ليس إخبار الله عن الكتب السابقة أنها بينات يلزم منه أنها مازالت بينات بعد تحريفكم إياها؛ بل كانت إلى أن حرفتموها وبدلتموها بأقوال من عندكم.

الوجه الثاني: كلف الله ﷻ النبي محمدًا ﷺ بتبليغ القرآن الكريم ولم يكلفه أن يرد المختلفين من أهل الكتاب إلى كتابهم؛ لأن القرآن فيه بيناتهم وزيادة.

١- يقول تعالى عن القرآن إنه بلاغ للناس لإنذارهم: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ (إبراهيم: ٥٢).

٢-ويأمر الله رسوله بتبليغ الرسالة وعدم التقصير في أدائها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي

---

(١) رَوَاهُ مسلم (١٨٤٨).

(٢) رَوَاهُ البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة: ٦٧).

٣-ويقول سبحانه: إن مابين يدى النبيﷺ هو قرآن وذكر من عند الله؛ لينذر به الأحياء جميعًا: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (يس: ٦٩-٧٠).

٤-ويزكي القرآن النبيﷺفي أنه يبلغ القرآن بكل أمانة؛ فهو لا ينطق عن الهوى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ (النجم: ٣).

٥- ولو لبى النبي ﷺ طلب هؤلاء وأمثالهم حيث طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا، أو قال على الله ما لم يقله الله-وحاشاه ذلك-سيصير الأمر إلى ما تدل عليه الآيات: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس: ١٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ (الحاقة ٤٤: ٤٥). ولا شك أن وظيفة النبيﷺهي تبيين الذكر للناس، وتبيين ما اختلف فيه أهل الكتاب وإنذارهم به، فما عليهﷺ إلا البلاغ، قال تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (النحل: ٦٤)، وقال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: ١٩).

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ

نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (المائدة: ١٥).وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (التغابن: ١٢).

٦- ثم إن الرسل الذين جاءوا من قبل النبي محمدﷺكانوا يبينون للناس ما اختلفوا فيه من قبل، ويأتيهم بكتاب جديد من قبل الله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٦٣-٦٤). وقال تعالى عمن يكفر بهذه البينات: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (البقرة: ٩٩).

فالله ﷻ نزَّل على رسوله ﷺ الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشري للمسلمين، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل: ٨٩-٩٠).

الوجه الرابع: الإسلام جاء ناسخًا للكتب السماوية الأخرى.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨).

القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها. ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: إنزالًا بالحق، ومشتملًا على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه. ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقًا لخبرها.

﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي: مشتملًا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه[1].

فإذا اختلف البشر أو تفرقوا، وجب الرجوع إلى الدين الخاتم لجميع الأديان، لا أن يُرد إلى كتبٍ حرّفها أصحابها، وابتعدوا عن منهجها! ، ولذا كان الرجوع إلى الكتاب الحق -وهو القرآن- هو الأصل.

* * *

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٣٤).

سورة النساء

وفيها:

١- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾.

١- **شبهة: حول قوله تعالى:** ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

نص الشبهة:

يقولون: جاء في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١).

لم تكتفِ الآية بنعت المسيح بالرسالة؛ بل شهدت أنه كلمة الله، ولكي لا نتوهم خلاف المقصود بلفظ (كلمة الله) أتبعها بما يزيل الشك وهو (روح منه) لنفهم أن المسيح ليس مجرد رسول عادي؛ بل ابن مرسل من أبيه إلى عالم الدنيا كأشعة الشمس المنبعثة إلى الأرض من الشمس، وما الفرق بين القول: إن المسيح نور من نور إله، حق من إله حق، والقول روح الله أو روح من الله؟ أليس أنه من ذات الله ومن جوهره؟

وهم يريدون بذلك إثبات البنوة لعيسى ﷺ وأنه جزء من الله، كذلك في قوله: (كلمة منه)

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى ما أضيف إلى الله.

الوجه الثاني: أن يضاف الشيء إليه لما خصه الله به من معنى يحبه ويرضاه ويأمر به.

الوجه الثالث: بيان معنى الكلمة في قوله: (وكلمته).

الوجه الرابع: بيان اختصاص المسيح بإطلاق الكلمة عليه.

الوجه الخامس: بيان معنى الروح في الآية (وروح منه).

الوجه السادس: الحكمة من وصفه بهذه الصفة (الروح).

الوجه السابع: بيان معنى قوله: (منه) وأن الإضافة للتشريف وليست للتبعيض.

الوجه الثامن: الحكمة من وصف عيسى بهذين الوصفين.

الوجه التاسع: الأدلة على أن عيسى عبد الله ورسوله.

الوجه العاشر: بعض الأدلة على أن الله واحد لا شريك له، وأنه لم يتخذ ولدًا.

الوجه الحادي عشر: على زعمكم - الباطل - فآدم أولى بعيسى من ذلك.

الوجه الثاني عشر: في كتابكم من أطلق عليه روح الله، فلماذا خص عيسى وحده بالبنوة؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **بيان معنى ما أضيف إلى الله.**

أولًا: إن (كلمة الله) مركبة من جزئين (كلمة) و(الله) فهي مركبة من مضاف ومضاف إليه، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإما أن نقول: إن كل مضاف لله تعالى هو صفة من صفاته، أو نقول: إن كل مضاف لله ليس صفة من صفاته، وبعبارة أخرى إما أن نقول: إن كل مضاف لله مخلوق، أو إن كل مضاف لله غير مخلوق.

وإذا قلنا: إن كل مضاف لله صفة من صفاته وهو غير مخلوق؛ فإننا سنصطدم بآيات في القرآن، وكذلك بنصوص في الإنجيل يضاف فيها الشيء إلى الله، وهو ليس صفة من صفاته؛ بل هو مخلوق من مخلوقاته، كما في قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ (الأعراف: ٧٣) وكما نقول: بيت الله، وأرض الله، وغير ذلك.

وإذا عكسنا القضية وقلنا: إن كل مضاف لله مخلوق؛ فإننا كذلك سنصطدم بآيات ونصوص أخرى؛ كما نقول: علم الله، وحياة الله، وقدرة الله.

إذن لابد من التفريق بين ما يضاف إلى الله؛ فإذا كان ما يضاف إلى الله شيئًا منفصلًا قائمًا بنفسه، كالناقة والبيت والأرض فهو مخلوق، وتكون إضافته إلى الله تعالى من باب التشريف والتكريم؛ أما إذا كان ما يضاف إلى الله شيئًا غير منفصل؛ بل هو صفة من صفاته، فيكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ومن البديهي أن يكون هذا غير مخلوق، إذن فالصفة تابعة للموصوف ولا تقوم إلا به، فلا تستقل بنفسها بحال.

وإذا عدنا إلى الجزء الذي معنا هنا فإننا نجد أن (كلمة الله) هي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فـ(الكلمة) هي صفة الله تعالى، وليست شيئًا خارجًا عن ذاته حتى يقال إن: المسيح هو الكلمة، أو يقال: إنه جوهر خالق بنفسه كما يزعم النصارى.

فخلاصة هذا الوجه أن (كلمة الله) صفة من صفاته، وكلامه كذلك، وإذا كان الكلام صفة من صفاته فليس هو شيء منفصل عنه، لما تقرر آنفًا من أن الصفة لا تقوم بنفسها؛ بل لا بد لها من موصوف تقوم به، وأيضًا فإن (كلمة الله) ليست هي بداهة جوهر مستقل، فضلًا عن أن تتجسد في صورة المسيح، كما يزعم النصارى.

قال ابن تيمية: إن المضاف إذا كان معنى لا يقوم بنفسه، ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمًا به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عينًا قائمة بنفسها كعيسى وجبريل وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، فقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وقوله في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ يمتنع أن يكون شيء من هذه الأعيان القائمة بنفسها صفة لله تعالى، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين: أحدهما أن تضاف إليه من جهة كونه خلقها وأبدعها فهذا شامل لجميع المخلوقات كقولهم: سماء الله وأرض الله، ومن هذا الباب فجميع المخلوقين عباد الله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت والنوق لله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصه الله به من معنى يحبه ويرضاه ويأمر به.

كما خص البيت العتيق بعبادة تكون فيه لا تكون في غيره، وكما خص المساجد بأن يفعل فيها ما يحبه ويرضاه من العبادات، وأن تصان عن المباحات التي لم تشرع فيها فضلًا عن المكروهات، وكما يقال عن مال الفيء والخمس: هو مال الله ورسوله[(١)].

ثانيًا: إن أبى المعرضون ما سبق، وقالوا: بل المسيح هو (الكلمة) وهو الرب، وهو خالق وليس بمخلوق، إذ كيف تكون الكلمة مخلوقة؟

فالجواب: إذا سلمنا بأن المسيح هو (الكلمة) وهو الخالق، فكيف يليق بالخالق أن يُلقى؟! إن الخالق حقيقة لا يلقيه شيء؛ بل هو يلقي غيره، فلو كان خالقًا لَما أُلقي، ولَمَا قال

(١) درء تعارض العقل مع النقل (٧/ ٢٦٥).

الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ﴾؟

الوجه الثالث: بيان معنى الكلمة في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾.

المعنى الأول: أنها كلمة التكوين وهي كلمة (كن).

والمعنى: أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران: ٥٩).

والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان صادرًا عنه[١].

وبه قال قتادة[٢]. وشَاذُّ بْنُ يَحْيَى قال: **ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى**[٣].

قَالَ الْهَرَوِيُّ: سُمِّيَ كَلِمَةً؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَنْ الْكَلِمَة فَسُمِّيَ بِهَا كَمَا يُقَال لِلْمَطَرِ: رَحْمَةٌ[٤].

فسماه الله ﷻ كلمته؛ لأنه كان عن كلمته كما يقال لما قدر الله من شيء: هذا قدر الله وقضاؤه يعني به: هذا عن قدر الله وقضائه حدث، وكما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧، الأحزاب: ٣٧) يعني به: ما أمر الله به وهو المأمور به الذي كان عن أمر الله ﷻ[٥].

فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: (كن) فكان عيسى ﷺ بكن، فعيسى ليس هو الكن ولكن بالكن كان، فالكن من الله قول وليس الكن مخلوقًا، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذات الله كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب؟

---

(١) البغوي (١/ ٥٠٢)، الكشاف (١/ ٥٩٣)، المحرر الوجيز (٢/ ١٣٩).

(٢) إسناده صحيح. أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٦٥٨)، ومن طريقه ابن أبي حاتم في التفسير (٦٣٠٩)، وأخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٢٠).

(٣) إسناده صحيح. أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٦٣١٠).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ٢٦٣).

(٥) تفسير الطبري (٣/ ٢٦٩).

قلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة، وأما قول الله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ يقول: من أمره كان الروح فيه كقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ يقول: من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها: أنها روح يملكها الله خلقها الله كما يقال: عبد الله، وسماء الله، وأرض الله(١).

المعنى الثاني: المراد بالكلمة كلمة البشارة.

يعني برسالة من الله، وخبر من عنده وهو من قول القائل: ألقى فلان إليَّ كلمة سرني بها بمعنى: أخبرني خبرًا فرحت به كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ (النساء: ١٧١) يعني: بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها.

فتأويل الكلام: وما كنت يا محمد عند القوم؛ إذ قالت الملائكة لمريم: يا مريم، إن الله يبشرك ببشرى من عنده؛ هي ولد لك اسمه المسيح عيسى ابن مريم(٢).

الوجه الرابع: بيان اختصاص المسيح بإطلاق الكلمة عليه.

يقول محمد رشيد رضا: لماذا خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه؟ وأجيب عن ذلك:

١- بأن الأشياء تنسب في العادة والعرف العام في البشر إلى أسبابها، ولما فقد في تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سببًا للعلوق، وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البيوض التي يتكون منها الجنين، أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله، وأطلقت الكلمة على المكون إيذانًا بذلك أو جعل كأنه نفس الكلمة مبالغة، وهذا هو الوجه المشهور.

٢- أنه أطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرفه قومه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين ماديًا محضًا؛ قاله الرازي. وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بظل الله ونور الله، لما أنه سبب لظهور ظل العدل ونور الإحسان قال: فكذلك كان عيسى سببًا لظهور كلام الله ﷻ بسبب كثرة بياناته له، وإزالة الشبهات

---

(١) الرد على الزنادقة للإمام أحمد (٣٢)، درء تعارض العقل مع النقل (٧/ ٢٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٦٩).

والتحريفات عنه(١).

قال ابن تيمية: ثم يقال للنصارى: فلو قدر أن المسيح نفس الكلام، فالكلام ليس بخالق؛ فإن القرآن كلام الله وليس بخالق، والتوراة كلام الله وليست بخالقة، وكلمات الله كثيرة وليس منها شيء خالق، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقًا، فكيف وليس هو الكلام وإنما خلق بالكلمة وخص باسم الكلمة؟ فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذي خلق عليه غيره؛ بل خرج عن العادة، فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة في البشر(٢).

الوجه الخامس: بيان معنى الروح في الآية (وَرُوحٌ مِنْهُ).

المعنى الأول: الروح بمعنى: النفخ.

معنى قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ ونفخة منه؛ لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في دِرْع مريم بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى أنه (روح من الله)؛ لأنه بأمره كان. قال: وإنما سمي النفخ ﴿رُوحًا﴾ لأنها ريح تخرج من الرُّوح، واستشهدوا على ذلك من قولهم بقول ذي الرمة في صفة نار نعتها:

فَلَمَّا بَدَتْ كَفَّنْتُها، وَهْيَ طِفْلَةٌ بِطَلْسَاءَ لَمْ تَكْمُلْ ذِرَاعًا وَلا شِبْرَا

وَقُلْتُ لَهُ: ارْفَعْهَا إِلَيْكَ، وَأَحْيِهَا بِرُوحِكَ، وَاقْتَتْهُ لَهَا قِيتَةً قَدْرَا

وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ الشَّخْتِ، وَاسْتَعِنْ عَلَيْهَا الصَّبَا، وَاجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَلَمَّا تَنَمَّتْ تَأْكُلُ الرِّمَّ لَمْ تَدَعْ ذَوَابِلَ مِمَّا يَجْمَعُونَ ولا خُضْرَا

فَلَمَّا جَرَتْ فِي الْجَزْلِ جَرْيًا كَأَنَّهُ سَنَا البَرْقِ، أَحْدَثْنَا لِخَالِقِهَا شُكْرَا

وقالوا: يعني بقوله: أحيها بروحك؛ أي: أحيها بنفخك(٣).

المعنى الثاني: الروح بمعنى الرحمة.

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٠٤).

(٢) الجواب الصحيح (٤/ ٦٧).

(٣) انظر ديوانه: ١٧٦، واللسان (روح)، الطبري في التفسير (٦/ ٣٥)، النكت والعيون (١/ ٥٤٦).

معنى قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ورحمة منه، كما قال جل ثناؤه في موضع آخر: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (سورة المجادلة: ٢٢) قالوا: ومعناه في هذا الموضع: ورحمة منه، قالوا: فجعل الله عيسى رحمة منه على من اتبعه وآمن به وصدّقه؛ لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد[١].

المعنى الثالث: الروح بمعنى مخلوقة من عند الله.

وروح من الله خلقها فصورها، ثم أرسلها إلى مريم، فهي روح مخلوقة من عند الله[٢].

المعنى الرابع: الروح بمعنى جبريل.

معنى: "الروح" ههنا جبريل عليه السلام، قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها أيضًا إليها روح من الله، قالوا: فـ"الروح" معطوف به على ما في قوله: "ألقاها" من ذكر الله، بمعنى: أنّ إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله، ثم من جبريل عليه السلام[٣].

المعنى الخامس: الروح بمعنى رسول.

عَنْ مُجَاهِدٍ: "وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ" قال: "رَسُولٌ مِنْهُ"[٤].

الوجه السادس: الحكمة من وصفه بهذه الصفة (الروح).

الأول: جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة، قالوا: إنه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونًا من النفخ لا من النطفة وصف بالروح[٥].

الثاني: أنه كان سببًا لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روح، قال تعالى في صفة القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢)[٦].

---

(١) الطبري في التفسير (٦/ ٣٦)، البغوي (١/ ٥٠٢)، زاد المسير (٢/ ٢٦١).

(٢) الطبري في التفسير (٦/ ٣٦)، النووي شرح صحيح مسلم (١/ ٢٦٣).

(٣) الطبري في التفسير (٦/ ٣٦)، البغوي (١/ ٥٠٢)، زاد المسير (٢/ ٢٦١).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم في التفسير (٦٣١١).

(٥) الآلوسي في التفسير (٦/ ٢٥).

(٦) النكت والعيون (١/ ٥٤٦)، الرازي في التفسير (١١/ ١١٥)، زاد المسير (٢/ ٢٦٢).

الثالث: وقوله عن المسيح: وروح منه خص المسيح بذلك؛ لأنه نفخ في أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر، فامتاز بأن حبلت به من نفخ الروح فلهذا سمى روحًا منه[1].

الوجه السابع: بيان معنى قوله: (منه) وأن الإضافة للتشريف وليست للتبعيض.

أولا: المعنى لقوله روح منه.

أي كائنة منه بتخليقه وتكوينه، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية١٣)[2].

ثانيًا: هذه الإضافة للتشريف.

قال ابن كثير: وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله، في قوله: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ (هود: ٦٤)، وفي قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ (الحج: ٢٦)[3].

ثالثا: (من) لابتداء الغاية وليست للتبعيض.

أما قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ فلفظة (مِنْ) ليست للتبعيض ههنا؛ إذ لو كان كذلك لكان الله تعالى متجزئًا متبعضًا متحملًا للاجتماع والافتراق، وكل من كان كذلك فهو محدث وتعالى الله عنه؛ بل المراد من كلمة (مِنْ) ههنا ابتداء الغاية، وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر فكان كونه كلمة (الله) مبدأ لظهوره ولحدوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى من الحلولية.

وقد ذكر أن طبيبًا نصرانيًا حاذقًا للرشيد ناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ذات

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٧١).

(٢) القرطبى في التفسير (٦/ ٢٦)، النسفي في التفسير (١/ ٢٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٩)، زاد المسير (٢/ ٢٦١)، الرازي في التفسير (١١/ ١١٥).

يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى؛ وتلى هذه الآية، فقرأ الواقدي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣) فقال: إذن يلزم أن يكون جميع الأشياء جزءًا منه سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا فانقطع النصراني فأسلم، وفرح الرشيد فرحًا شديدًا، ووصل الواقدي بصلة فاخرة[1].

وعلى هذا يكون معنى الآية:

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: إنما هو عبد من عباد الله وخَلقٌ من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم؛ أي: خَلقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل فكان عيسى بإذن الله عز وجل وصارت تلك النفخة التي نفخها في جَيْب درعها، فنزلت حتى وَلَجت فرجها بمنزلة لقاح الأبِ الأمَّ، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولَّد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن فكان. والروح التي أرسل بها جبريل؛ قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران: ٥٩) وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ (الأنبياء: ٩١) وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ (التحريم: ١٢) وقال تعالى إخبارًا عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ (الزخرف: ٥٩)[2].

(١) الرازي في التفسير (٨/ ٤٩)، البحر المحيط (٣/ ٤١٧).

(٢) ابن كثير في التفسير (٤/ ٣٨٨- ٣٨٩).

الوجه الثامن: الحكمة من وصف عيسى بهذين الوصفين.

قال ابن عاشور: فإن قلت: ما حكمة وقوع هذين الوصفين هنا على ما فيهما من شبهة ضلّت بها النّصارى، وهلّا وُصف المسيحُ في جملة القصر بمثل ما وصف به محمّد ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠) فكان أصرح في بيان العبوديّة، وأنفي للضلال.

قلت: الحكمة في ذلك أنّ هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل أو في كلام الحواريّين وصفًا لعيسى عليه السلام، وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذٍ، فلمّا تغيّرت أساليب اللّغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرّب الضلال إلى النّصارى في سوء وضعهما، فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل؛ أي أنّ قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة الله وبروح الله، وليس في شيء من ذلك ما يؤدّي إلى اعتقاد أنّه ابن الله وأنّه إله، وتصدير جملة القصر بأنّه ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ينادي على وصف العبوديّة؛ إذ لا يُرسل الإله إلهًا مثله، ففيه كفاية من التنبيه على معنى الكلمة والروح[١].

الوجه التاسع: الأدلة على أن عيسى عبد الله ورسوله.

أولًا من القرآن:

قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ (النساء: ١٧٢).

قال الطبري: أخبر جل ثناؤه عباده أن عيسى وأمّه ومن في السموات ومن في الأرض؛ عبيدُه وإماؤه وخلقه وأنه رازقهم وخالقهم، وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه احتجاجًا منه بذلك على من ادّعى أن المسيح ابنه، وأنه لو كان ابنه كما قالوا لم يكن ذا حاجة إليه، ولا كان له عبدًا مملوكًا[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٥٣).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٢).

قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ (مريم: ٢٩، ٣٠).

قال الرازي: اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع:

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

الفائدة الثانية: أنه لما أقر بالعبودية فإن كان صادقًا في مقاله فقد حصل الغرض، وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية؛ بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينصْ على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى، فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد، واعلم أن مذهب النصارى متخبط جدًّا[1].

ثانيًا من السنة:

عَنْ عُبَادَةَ رضي الله عنه عَنِ النبي ﷺ قَالَ: "مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ

(١) تفسير الرازي (٢١/ ٢٠٩).

وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» قَالَ الْوَلِيدُ حدثني ابْنُ جَابِرٍ، عَنْ عُمَيْرٍ، عَنْ جُنَادَةَ وَزَادَ: «مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، أَيَّهَا شَاءَ"(١).

الوجه العاشر: بعض الأدلة على أن الله واحد لا شريك له، وأنه لم يتخذ ولدًا.

أولًا: من القرآن.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٣).

قال ابن كثير: يقول تعالى حاكمًا بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله؛ تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوًا كبيرًا.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ إلى أن قال: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾ (مريم: ٣٠-٣٦) وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (النساء: ٤٨، ١١٦). (٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ

---

(١) البخاري (٣٤٣٥)، مسلم (٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٧).

وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ (النساء: ١٧١).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ليس له أجزاء ولا أقانيم، ولا هو مركب ولا متحد بشيء من المخلوقات ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد كما تقولون في المسيح أنه ابنه، وأنه هو عينه؛ فإنه تبارك وتعالى ليس له جنس فيكون له منه زوج يقترن بها فتلد له ابنًا، والنكتة في اختيار لفظ الولد في الرد عليهم على لفظ الابن الذي يعبرون به هي بيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولدًا؛ أي: مولود من تلقيح أبيه لأمه، وهذا محال على الله تعالى، وإن أرادوا أنه ابن مجازًا لا حقيقة كما أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وعلى صانعي السلام وغيرهم من الأخيار، فلا يكون له دخل في الألوهية، ولا يعد من باب الخصوصية.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليس له ولد خاص مولود منه، يصح أن يسمى ابنه حقيقة؛ بل له كل ما في السموات والأرض -المسيح من جملتها- خلق كل ذلك خلقًا، وكل ذي عقل منها وإدراك يفتخر بأن يكون له عبدًا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ لا فرق في هذا بين الملائكة المقربين والنبيين الصالحين، كما صرحت به الآية التالية لهذه، ولا بين من خلقه ابتداءً من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم، ومن خلق من أصل واحد كحواء وعيسى، ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى كلهم بالنسبة إليه ـ تعالى ـ سواء، عبيد له من خلقه محتاجون دائمًا إلى فضله، وهو يتصرف فيهم كما يشاء.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: به الكفاية لمن عرفه، وعرف سننه في خلقه إذا وكلوا إليه

أمورهم، ولم يحاولوا الخروج عن سننه وشرائعه بسوء اختيارهم[1].

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ (الأنعام: ١٠١).

قال ابن كثير: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولدًا عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم: ٨٨ -٩٥).

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة: ١١٦، ١١٧).

هذا أيضًا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٨٧، ٨٨).

رؤوس الأشهاد.

ثانيا: من السنة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي ﷺ أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله ﷺ قَالُوا: " يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « نَعَمْ ». . . . وهو حديث الرؤية وفيه قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ؛ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ؛ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ. . . "[١].

الوجه الحادي عشر: على زعمكم - الباطل- فآدم أولى بعيسى من ذلك.

ما دمتم تقرّون أنه ليس ثمة أحد يحمل صفات الألوهية أو البنوة لله تعالى إلا المسيح ﵇ وتستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فحينئذ يلزمكم أن تقولوا: إن آدم ﵇ أحق بالبنوة من عيسى؛ حيث قال الله في آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر: ٢٩) ولا شك أن القول بهذا حجة عليكم لا لكم، فإذا كان قوله سبحانه: ﴿مِن رُّوحِي﴾ في حق آدم معناه الروح المخلوقة، وأن هذه الروح ليست صفة لله ﷻ فهي كذلك في حق عيسى؛ إذ اللفظ واحد؛ بل إن الإعجاز في خلق آدم بلا أب ولا أم أعظم من الإعجاز في خلق عيسى بأم بلا أب، وحسب قولكم يكون آدم حينئذ أحق بالبنوة والألوهية من عيسى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وبعد ما تقدم نقول: إن القرآن الكريم في هذا الموضع وفي غيره يقرر بشرية

---

(١) البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

المسيح عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله، وأنه ليس له من صفة الألوهية شيء، وقد قال تعالى في نفس الآية التي معنا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهو ابن مريم، وليس ابن الله، وهو رسول الله، وليس هو الله.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٢)، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣)، وقال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ (النساء: ١٥٦).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠).

فهل بعد هذا الاستدلال العقلي والبيان القرآني يبقى متمسك بشبهات أوهى من بيت العنكبوت؟[1].

الوجه الثاني عشر: في كتابكم من أطلق عليه روح الله، فلماذا خص عيسى وحده بالبنوة؟

قال الآلوسي: وعلى العلات لا حجة للنصارى على شيء مما زعموا في تشريف عيسى عليه السلام بنسبة الروح إليه إذ لغيره عليه السلام مشاركة له في ذلك، ففي «إنجيل لوقا» قال يسوع لتلاميذه: إنَّ أباكم السماوي يعطي روح القدس الذين يسألونه، وفي «إنجيل متى»: إن يوحنا المعمداني امتلأ من روح القدس وهو في بطن أمه، وفي «التوراة»: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: اختر سبعين من قومك حتى أفيض عليهم من الروح التي عليك فيحملوا عنك ثقل هذا النعت، ففعل فأفاض عليهم من روحه فتبنوا لساعتهم، وفيها في حق يوسف عليه السلام: يقول الملك: هل رأيتم مثل هذا الفتى الذي روح الله تعالى عز وجل حالٌّ فيه، وفيها أيضًا: إن روح الله تعالى حلت على دانيال إلى غير ذلك[2].

وهذه بعض الأمثلة:

(١) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٣/ ٤٠).

(٢) روح المعاني (٦/ ٢٥).

فَخَلَّصَهُمْ، عُثْنِيئِيلَ بْنَ قَنَازَ أَخَا كَالِبَ الأَصْغَرَ. ١٠فَكَانَ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ (سفر القضاة ٣/ ١٠: ٩).

وَلَبِسَ رُوحُ الرَّبِّ جِدْعُونَ (سفر القضاة ٦٣/ ٣٤).

فَكَانَ رُوحُ الرَّبِّ عَلَى يَفْتَاحَ (سفر القضاة ٦٣/ ٣٤).

فَحَلَّ رُوحُ الله عَلَى شَاوُلَ (صموئيل الأول ١١/ ٦).

وَكَانَ رُوحُ الله عَلَى عَزَرْيَا بْنِ عُودِيدَ (أخبار الأيام الثاني١٥/ ١).

فكل من أطلق عليه روح الله أو الرب يصبح إلهًا أو ابنًا على زعمكم، إذن فالإله والأبناء كثيرون!.

* * *

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾.

نص الشبهة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ (النساء: ١٥٩) كيف يصح ذلك والكثير منهم مات على كفره؟!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إيمان أهل الكتاب بعيسى عليه السلام بعد نزوله وقبل موته.

الوجه الثاني: إيمان الكتابي قبل موت الكتابي نفسه.

الوجه الثالث: إيمان الكتابي بمحمد ﷺ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إيمان أهل الكتاب بعيسى عليه السلام بعد نزوله وقبل موته.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾

لما أنجز الكلام إلى أمر عيسى عليه السلام على هذا المنهاج البديع بما ذكر في نصائح اليهود، وقبائح أفعالهم، وأنهم قصدوا قتله عليه السلام فخاب قصدهم، ورد عليهم بغيهم، وحصل له بذلك أعلى المناصب، وأولى المراتب، قال محققًا لما أثبته في الآية قبلها من القطع بكذبهم، مثبتًا أنهم في مبالغتهم في عداوته سيكونون من أتباعه المصدقين بجميع أمره الذي منه التصديق بمحمد ﷺ، مؤكدًا له أشد التأكيد لما عندهم من الإنكار له (وإنَّ) أي: والحال أنه ما (من أهل الكتاب) أي أحد يدرك نزوله في آخر الزمان إلا وعزتي ليؤمنن بعيسى عليه السلام(قبل موته) أي موت عيسى عليه السلام إي إنه لا يموت حتى ينزل في آخر الزمان، يؤيد الله دين الإسلام حتى يدخل فيه جميع أهل الملل إشارة إلى أن موسى عليه السلام إن كان قد أيده الله تعالى بأنبياء كانوا يجددون دينه زمنًا طويلًا، فالنبي الذي نسخ شريعة موسى وهو عيسى عليه السلام هو الذي يؤيد الله به هذا النبي العربي في تجديد شريعته، وتمهيد أمره، والذب عن

دينه، ويكون من أمته بعد أن كان صاحب شريعة مستقلة، وأتباع مستكثرة، أمر قضاه الله في الأزل فأمضاه، فأطيلوا أيها اليهود أو اقصروا، فيكون المعنى إذن والله أعلم:

أنه ما من أحد من أهل الكتاب المختلفين في عيسى ﷺ على شك إلا وهو يوقن بعيسى ﷺ قبل موته بعد نزوله من السماء أنه ما قتل وما صلب، ويؤمن به عند زوال الشبهة، والله أعلم.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، وإمامًا عادلًا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها" وفي رواية: "وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين" وفي رواية: "حتى يهلك الله الملل كلها غير الإسلام" فيهلك الله في أمانه الملل كلها إلا الإسلام، يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ موت عيسى ﷺ ـ ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات ـ ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعوه إلى المال فلا يقبله أحد" وفي رواية: "يفيض المال حتى لا يقبله أحد"[1]، ولمسلم عنه ﷺ: "كيف بكم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟ "وفي رواية: "فأمّكم منكم".

قال الوليد بن مسلم أحد رواة الحديث: قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت تخبرني قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ.[2]

ولمسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال سمعت النبي ﷺ يقول: "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قَالَ- فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لاَ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الأُمَّةَ"[3].

الوجه الثاني: إيمان الكتابي قبل موت الكتابي نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٢، ٢٤٧٦)، ومسلم (٢٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٧)، انظر تفسير الطبري (٩/ ٣٨٣).

قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ والمعنى: ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى، وبأنه عبد الله ورسوله، يعني: إذا عاين قبل أن تزهق روحه قبل موته، أي: قبل موت الكتابي نفسه، وذلك؛ لأن من نزل به الموت من أهل الكتاب لا يموت حتى يتجلى له ما كان جاهلًا فيؤمن عند ذلك بعيسى عليه السلام، فما من أهل الكتاب أحد يحضره الموت إلا آمن عند الموت قبل خروج روحه بعيسى عليه السلام، وأنه عبد الله وابن أمته، ولكن لا ينفعه هذا الإيمان؛ لأنه في حضرة الموت وحالة النزع، وتلك الحالة لا حكم لما يفعل أو يقال فيها، فلا يصح فيها إسلام، ولا كفر، ولا وصية، ولا بيع، ولا عتق، ولا غير ذلك من الأقوال؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ (النساء: ١٨)

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ٨٤ - ٨٥)، وكذلك لما أدرك فرعون الغرق قال: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠)، فقال تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ (يونس: ٩١)، فما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف.

فعن شهر بن حوشب: قال لي الحجاج آية ما قرأتها إلا تخالج في نفسي شي منها – يعني هذه الآية– وقال: إني أُوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع من ذلك؟ فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه، وقالوا: يا عدو الله، أتاك موسى نبيًا فكذبت به؟ فيقول: آمنت أنه عبد نبي، وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبيًا فزعمت أنه الله أو ابن الله؟ فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه.

وعن ابن عباس قال: هي في قراءة أُبي: (قبل موتهم) فليس يهودي يموت أبدًا حتى يؤمن بعيسى، قيل لابن عباس: أرأيت إن خرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي، فقيل: أرأيت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يتلجلج به لسانه، وقال أيضًا: كل صاحب كتاب ليؤمنن به - بعيسى- قبل موت صاحب الكتاب، لو ضربت عنقه لم تخرج حتى يؤمن بعيسى، وقال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ابن مريم وإن ضرب بالسيف يتكلم به، وإن هو يتكلم به وهو يهوي، وقال: لو أن يهوديًا وقع من فوق البيت لم يمت حتى يؤمن بعيسى. ﷺ وقال: ليس من يهودي ولا نصراني يموت حتى يؤمن بعيسى ابن مريم، فقال له رجل من أصحابه: كيف والرجل يغرق أو يحترق أو يسقط عليه الجدار أو يأكله السبع؟ فقال: لا تخرج روحه من جسده حتى يقذف فيه الإيمان بعيسى[1].

وفائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم الوعيد، ويكون علمهم بأن لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة وأن ذلك لا ينفعهم بعثًا لهم وتنبيهًا على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزامًا للحجة لهم[2].

الوجه الثالث: إيمان الكتابي بمحمد ﷺ.

قول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ يحتمل أن يكون المعنى: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي.

قال عكرمة: لا يموت النصراني واليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ.

فمن فسر هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع،

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٠)، والتفسير الكبير (١١/ ١٠٤)، وابن كثير (٤/ ٣٤٢)، والآلوسي (٦/ ١٢)، والكشاف (١/ ٥٨٨).

(٢) الكشاف (١/ ٥٨٩).

وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلًا به فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيمانًا نافعًا له إذا كان قد شاهد الملك كما قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ (النساء: ١٨)، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (غافر: ٨٤ - ٨٥) ولا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أن يصير بذلك مسلمًا. . . الأثر - إلى قول ابن عباس -: ولو تردى من شاهق، أو ضُرب بسيف، أو افترسه سبع؛ فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى، فالإيمان به في مثل هذه الحالات ليس بنافع، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمنا، والله أعلم[1].

* * * *

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢١)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٥).

سورة المائدة

وفيها:

١- شبهة: حول الأسباب التي منعت قوم موسى عليه السلام من دخول الأرض المقدسة.

٢- شبهة: حول قصة ابني آدم عليه السلام.

٣- شبهة: حول طلب الحواريين نزول المائدة. وبعدها نبذة عن العشاء الرباني.

١- شبهة: حول الأسباب التي منعت قوم موسى ﷺ من دخول الأرض المقدسة.

نص الشبهة:

أن القرآن ذكر أن قوم موسى رفضوا دخول الأرض المقدسة لأسباب وهي:

أن فيها قومًا جبارين.

وأنهم طلبوا من موسى أن يخرج أهلها أولًا حتى يدخلوها.

وكذلك أنهم قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.

مع أن التوراة لم تذكر شيئًا من ذلك، وكل ما هنالك في هذه القصة وفي هذه الاعتراضات: أنهم تذمروا على موسى وقالوا ليتنا متنا في مصر أو في القفر.. إلخ كما في سفر العدد (١٣، ١٤).

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس على القرآن لأمور.

الوجه الثاني: القرآن كلام الله، وذكره للقصة يكفي ثبوتها.

الوجه الثالث: الكتاب المقدس يذكر دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة بالشروط التي ذكرها القرآن فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس على القرآن لأمور منها:

١- ثبوت تحريف التوراة والإنجيل بالدليل القاطع.

٢- عدم إيماننا بما هو موجود الآن من هذه الكتب المحرفة، وهذه مسألة مفصلة في محلها فلتراجع[1].

ولو سلمنا بعدم التحريف؛ فالقرآن الكريم أتى بزيادة لم تأت بها التوراة فوجب قبولها.

الوجه الثاني: القرآن كلام الله، وذكره للقصة يكفي ثبوتها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ

---

(١) انظر: مبحث "تحريف التوراة والإنجيل".

أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (المائدة: ٢٠-٢٦).

قال أبو جعفر الطبري: وفي قوله ﷻ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ وهذا خبر من الله ﷻ عن جواب قوم موسى ﵇ إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة: أنهم أبوا عليه إجابته إلى ما أمرهم به من ذلك، واعتلّوا عليه في ذلك بأن قالوا: إن في الأرض المقدسة التي تأمرنا بدخولها قومًا جبارين لا طاقة لنا بحربهم ولا قوة لنا بهم، وسموهم ﴿جَبَّارِينَ﴾ لأنهم كانوا لشدة بطشهم وعظيم خلقهم ـ فيما ذكر لنا ـ قد قهروا سائر الأمم غيرهم.

فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾، يعنون: من الأرض المقدسة الجبارين الذين فيها جبنًا منهم وجزعًا من قتالهم، وقالوا له: إنْ يخرج منها هؤلاء الجبارون دخلناها، وإلا فإنا لا نُطيق دخولها وهم فيها؛ لأنه لا طاقة لنا بهم ولا يَدَ. ثم قال في قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وهذا خبر من الله جل ذكره عن قول الملأ من قوم موسى لموسى إذ رُغِّبوا في جهاد عدوهم، ووعدوا نصر الله إياهم إن هم ناهضوهم، ودخلوا عليهم باب مدينتهم أنهم قالوا: إنا لن ندخلها أبدًا، يعنون إنا لن ندخل مدينتهم أبدًا والهاء والألف من قوله له: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا﴾ من ذكر المدينة، ويعنون بقولهم: ﴿أَبَدٗا﴾ أيام حياتنا،

﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ يعنون: ما كان الجبارون مقيمين في تلك المدينة التي كتبها الله لهم، وأمروا بدخولها، ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لا نجيء معك يا موسى إن ذهبت إليهم لقتالهم؛ ولكن نتركك تذهب أنت وحدك وربك فتقاتلانهم، وكان بعضهم يقول في ذلك: ليس معنى الكلام اذهب أنت وليذهب معك ربك فقاتلا؛ ولكن معناه اذهب أنت يا موسى وليعنك الله ربك وذلك أن الله لا يجوز عليه الذهاب(١).

قال ابن كثير: وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم؛ مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم، وهم ينظرون لتَقَرَّ به أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدّة أهلها وعَدَدِهِمْ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غَيِّهم يترددون، وهم البُغَضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨) فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود(٢).

وإنا لنفخر بما كان عليه صحابة نبينا من طاعتهم لله ورسوله، وعدم إعراضهم عن الجهاد والقتال عمومًا، ويوم استشارهم النبي ﷺ في بدر خصوصًا.

قال ابن كثير: وما أحسن ما أجاب به الصحابة، ﷺ يوم بدر رسول الله ﷺ حين

---

(١) تفسير الطبري بتصرف يسير (٤/ ١٧٣-١٨٠)، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥ ـ ٥٧.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩-٦٠).

استشارهم في قتال النفير، الذين جاءوا لمنع العِير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، في العُدة والبَيْض واليَلب[1]، فتكلم أبو بكر، ﷺ، فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله ﷺ يقول: "أشيروا عليَّ أيها المسلمون". وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ ﷺ كأنك تُعرض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو اسْتَعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخُضناه معك، وما تخلَّف منا رجل واحد، وما نَكْرَه أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبُر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله فَسُرَّ رسول الله ﷺ بِقول سعد، ونَشَّطه ذلك[2].

وقد قال ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَى النبي ﷺ وَهْوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ، وَخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النبي ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ. يَعْنِي قَوْلَهُ[3].

الوجه الثالث: الكتاب المقدس يذكر دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة بالشروط التي ذكرها القرآن، فاعتبروا يا أولي الأبصار!

واقرأ كاملًا ـ إن أردت ـ سفر العدد إصحاح ١٣، ١٤ وفيه (١٣/ ٣١-٣٣): **وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ صَعِدُوا مَعَهُ فَقَالُوا: «لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَصْعَدَ إِلَى الشَّعْبِ، لأَنَّهُمْ أَشَدُّ مِنَّا». ٣٢فَأَشَاعُوا مَذَمَّةَ الأَرْضِ الَّتِي تَجَسَّسُوهَا، فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلِينَ: «الأَرْضُ الَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا هِيَ أَرْضٌ تَأْكُلُ سُكَّانَهَا، وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِي رَأَيْنَا فِيهَا أُنَاسٌ طِوَالُ الْقَامَةِ. ٣٣وَقَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ الْجَبَابِرَةَ، بَنِي عَنَاق مِنَ الْجَبَابِرَةِ. فَكُنَّا فِي أَعْيُنِنَا كَالْجَرَادِ، وَهكَذَا كُنَّا فِي**

---

(١) اليلب: هي الدروع أو التروس "لسان العرب"(٦/ ٤٩٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥).

(٣) البخاري (٣٩٥٢،٤٦٠٩).

أَعْيُنِهِمْ (العدد١٤/ ٧: ١): فَرَفَعَتْ كُلُّ الْجَمَاعَةِ صَوْتَهَا وَصَرَخَتْ، وَبَكَى الشَّعْبُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. ٢وَتَذَمَّرَ عَلَى مُوسَى وَعَلَى هَارُونَ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ لَهُمَا كُلُّ الْجَمَاعَةِ: «لَيْتَنَا مُتْنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ، أَوْ لَيْتَنَا مُتْنَا فِي هذَا الْقَفْرِ! ٣وَلِمَاذَا أَتَى بِنَا الرَّبُّ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ لِنَسْقُطَ بِالسَّيْفِ؟ تَصِيرُ نِسَاؤُنَا وَأَطْفَالُنَا غَنِيمَةً. أَلَيْسَ خَيْرًا لَنَا أَنْ نَرْجعَ إِلَى مِصْرَ؟ » ٤فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «نُقِيمُ رَئِيسًا وَنَرْجعُ إِلَى مِصْرَ». ٥فَسَقَطَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَى وَجْهَيْهِمَا أَمَامَ كُلِّ مَعْشَرِ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ٦وَيَشُوعُ بْنُ نُونَ وَكَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ، مِنَ الَّذِينَ تَجَسَّسُوا الأَرْضَ، مَزَّقَا ثِيَابَهُمَا ٧وَكَلَّمَا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: «الأَرْضُ الَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا جَيِّدَةٌ جدًّا جدًّا.

أليس بعد كل هذا وأنهم ما فعلوا شيئًا إلا أنهم تذمروا، إنهم أبوا، إنهم اعترضوا، إنهم امتنعوا عن الدخول، إنهم ما لبُّوا لنداء الطاعة لله ولرسوله، إنهم أعلنوا العصيان كما هو دأبهم، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

* * *

٢- شبهة: حول قصة ابني آدم عليه السلام.

نص الشبهة:

١-القرآن ذكر أن الغراب علَّم القاتل كيف دفن أخاه، والتوراة لم تذكر ذلك، وذلك من خرافات اليهود القديمة، وهل يعقل أن القاتل كان يجهل مثل هذا الأمر مدة حياته ولم ير طيرًا أو حيوانًا يوارى في التراب فيفعل مثله؟

٢-زعموا أن القرآن ذكر اسم ابني آدم عليه السلام وهما قابيل وهابيل والتوراة ذكرت قابين وهو الأصل، على أن القرآن يراعي السجع؛ والسجع مقدم عنده على الحقائق.

٣-زعموا أن القرآن مقتبس من التوراة، فالقصة ثابتة في التوراة اقتبسها القرآن وأضاف عليها؛ إذن القرآن لم يأت بجديد.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالتوراة والإنجيل على القرآن لأمور.

الوجه الثاني: القرآن ذكر قصة الغراب واضحة وصريحة فلا حجة للمنكر.

الوجه الثالث: القرآن لم يذكر اسمي ابني آدم عليه السلام.

الوجه الرابع: أمر حدث لأول مرة وهو القتل فترتب عليه احتياجه لدفنه، وما كان يعلم ذلك قط فأرسل الله الغراب يُعلم القاتل ما يفعل بالمقتول.

الوجه الخامس: الحكمة من بعث الله الغراب واختصاصه عن الطير.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالتوراة والإنجيل على القرآن لأمور كما تقدم .

الوجه الثاني: القرآن ذكر قصة الغراب واضحة وصريحة فلا حجة للمنكر.

والقصة كلها كما في سورة المائدة قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (المائدة ٢٧ - ٣١).

قال الطبري: فأثار الله للقاتل؛ إذ لم يدر ما يصنع بأخيه المقتول: ﴿غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقول: يحفر في الأرض فيثير ترابها: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ يقول: ليريه كيف يواري جيفة أخيه، وقد يحتمل أن يكون عني بالسوأة الفرج، غير أن الأغلب من معناه ما ذكرت من الجيفة، بذلك جاء تأويل أهل التأويل، وفي ذلك محذوف ترك ذكره استغناءً بدلالة ما ذكر منه وهو: فأراه بأن بحث في الأرض لغراب آخر ميت فواراه فيها، فقال القاتل أخاه حينئذ: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب الذي وارى الغراب الأخر الميت: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي﴾ فواراه حينئذ: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على ما فرط منه من معصية الله ـ عز ذكره ـ في قتله أخاه(١).

الوجه الثالث: القرآن لم يذكر اسمي ابني آدم عليه السلام

قالوا: إن اسم قابيل هو قابين كما هو في التوراة، وإنما قال القرآن قابيل لمراعاة السجع.

والجواب: إنما هذا الكلام يدل على جهل القائل فهو ما استطاع أن يفرق بين القرآن وكلام أهل التفسير على القرآن. فالقرآن لم يذكر اسمي ابني آدم عليه السلام وكذلك السنة الصحيحة، فلم يرد خبر صحيح بتسمية ابني آدم عليه السلام.

وقد قَالَ النبي ﷺ: "لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا" وَذَلِكَ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ(٢).

وإنما هذه التسمية أشيعت بين أهل التاريخ والسير والتفسير. (٣)

ونحن نسأل لم يثبت عندنا في القرآن ولا في السنة اسمي ابني آدم، وعندكم في نسخة لكتابكم يوجد "قايين" بياءين" وفي أخرى "قابين" بياء واحدة فأيها أصح؟

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٩٩).

(٢) البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) وقد تناقل أهل التاريخ والتفسير اسمي ابني آدم بدون دليل على ذلك من القرآن أو السنة. ذكر ذلك (الطبري في تفسيره، وابن كثير وغيرهما).

الوجه الرابع: أمر حدث لأول مرة وهو القتل فترتب عليه احتياجه لدفنه، وما كان يعلم ذلك قط فأرسل الله الغراب يُعلِّم القاتل ما يفعل بالمقتول.

زعموا وقالوا: وهل يعقل أن القاتل كان يجهل مثل هذا الأمر (أي الدفن) مدة حياته ولم ير طيرًا أو حيوانًا يوارى في التراب فيفعل مثله؟

والجواب كما يلي:

إن كان من ناحية الشرع فالآية أوضحت ذلك وهو أنه لم يدر ماذا يفعل بأخيه فبعث الله الغراب فعلمه.

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (المائدة: ٣١)، أما من ناحية العقل فهذا ليس ببعيد؛ إذ هي أول حالة قتل ولا يدري ماذا يفعل فيها. وقياس الإنسان على الحيوان في مسألة الدفن قبل أن يعلم ـ إن سلمنا جدلًا أن الحيوان أو الطير يدفن ـ قياس بعيد، كيف يقاس إنسان على حيوان؟

فهو لو كان يعلم أن الطير أو الحيوان يدفن؛ لكان ذلك أيضًا بعيدًا عليه.

نقول ذلك في حالة إن كان الطير أو الحيوان يدفن، وأيضًا يجاب عن كلامهم أنه في الغالب أن الحيوان والطيور إن ماتت لا تدفن فكيف لا وهي في بداية الحياة؟

فكثير من الأماكن إذا مات عندهم طير أو حيوان تركوه وما دفنوه، تركوه للسباع فيأكلوه.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: لما كان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم عليه السلام، ولما كان هذا النوع من الخلق " أي الإنسان " موكولًا إلى كسبه واختياره في عامة أعماله؛ لم يعرف القاتل كيف يواري جثة أخيه المقتول التي يسوءه أن يراها بارزة ـ فالسوءة ما يسوء ظهوره، ورؤية جسد الميت ولا سيما المقتول يسوء كل من ينظر إليه ويوحشه ـ وأما سائر أنواع الحيوان فتلهم عمل لا تحتاج إليه إلهاما في الأكثر، وقلما يتعلم بعضها من بعض شيئًا. وقد علمنا الله ـ تعالى ـ أن القاتل الأول تعلم دفن أخيه من الغراب.

ويدلنا على أن الإنسان في نشأته الأولى كان في منتهى السذاجة، وأنه لاستعداده الذي يفضل به سائر أنواع الحيوان كان يستفيد من كل شيء علمًا واختبارًا ويرتقي بالتدرج.

ذلك أن الله تعالى بعث غرابًا إلى المكان الذي هو فيه فبحث في الأرض أي حفر برجليه فيها يفتش عن شيء، والمعهود أن الطير تفعل ذلك لطلب الطعام، والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث في الأرض؛ لأنه قال ﴿يَبْحَثُ﴾ ولم يقل بحث؛ لأن المضارع يفيد الاستمرار، فلما أطال البحث أحدث حفرة في الأرض فلما رأى القاتل الحفرة ـ وهو متحير في أمر مواراة سوءة أخيه ـ زالت الحيرة واهتدى إلى ما يطلب؛ وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض، هذا هو المتبادر من الآية.

وقال أبو مسلم: إن من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب فدفن شيئًا فتعلم من ذلك وهذا قريب أيضًا، ولكن جمهور المفسرين قالوا: إن الله بعث غرابين لا واحدًا، وأنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها. [1]

الوجه الخامس: الحكمة من بعث الله الغراب واختصاصه عن الطير.

قال أبو الهيثم: يقال: إن الغراب يبصر من تحت الأرض بقدر منقاره. والحكمة في أن الله ﷻ بعث إلى قابيل لما قتل أخاه هابيل غرابًا ولم يبعث له غيره من الطير، ولا من الوحش أن القتل كان مستغربًا جدًّا، إذ لم يكن معهودًا قبل ذلك فناسب بعث الغراب. [2]

وأخيرًا: أما عن زعمهم أن القصة مقتبسة من التوراة فيجاب عليها بهذه المقارنة بين نص القرآن ونص التوراة في قصة ابني؛ آدم لتجد الفارق بينهما، وأن القرآن له صياغته الإعجازية: [3]

أولًا: نص القرآن: قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٣٤٦).

(٢) نقلًا من حياة الحيوان الكبرى للدميري (٢/ ٣٤).

(٣) راجع شبهة القرآن مقتبس من التوراة.

لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (المائدة: ٢٧ - ٣٢).

ثانيًا نص التوراة: سفر التكوين ٤/٣: ١٦

٨ وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، ٤وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، ٥وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ. ٦فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا اغْتَظْتَ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ ٧إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلاَ رَفْعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا». وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. ٩فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟ » فَقَالَ: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟ » ١٠فَقَالَ: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ. ١١فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. ١٢مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لاَ تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الأَرْضِ». ١٣فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «ذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ. ١٤إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، وَمِنْ وَجْهِكَ أَخْتَفِي وَأَكُونُ تَائِهًا وَهَارِبًا فِي الأَرْضِ، فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي». ١٥فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «لِذلِكَ كُلُّ مَنْ قَتَلَ قَايِينَ فَسَبْعَةَ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ». وَجَعَلَ الرَّبُّ لِقَايِينَ عَلاَمَةً لِكَيْ لاَ يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ. ١٦فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ، وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنٍ.

الفروق بين المصدرين: اتفق المصدران حول نقطتين اثنتين لا ثالث لهما، واختلفا فيما عداهما. اتفقا في مسألة القربان، وفى قتل أحد الأخوين للآخر. أما فيما عدا هاتين النقطتين فإن ما ورد في القرآن يختلف تمامًا عما ورد في التوراة، **وذلك على النحو الآتي**:

القرآن	التوراة
لايسميهما ويكتفي ببنوتهما لآدم كما اكتفى بذكر القربانين ولم يحددهما.	تسمى أحد الأخوين بقابين وهو " القاتل " والثاني " هابيل " كما تصف القربانين وتحدد نوعيهما.
لا يذكر حوارًا حدث بين القاتل وبين الله، ولا يذكر أن القاتل طرده الله من وجهه إلى أرض بعيدة، إذ ليس على الله بعيد.	تروى حوارًا بين قابين والرب بعد قتله أخاه، وتعلن غضب الرب على قابين وطرده من وجه الرب إلى أرض بعيدة.
يذكر الحديث الذي دار بين ابني آدم، ويفصل القول عما صدر من القتيل قبل قتله وتهديده لأخيه بأنه سيكون من أصحاب النار إذا قتله ظلمًا.	التوراة تخلو من أي حوار بين الأخوين.
يذكر مسألة الغراب، الذي بعثه الله لِيُرى القاتل كيف يتصرف في جثة أخيه، ويوارى عورته.	لا مقابل في التوراة لهذه الرواية ولمْ تُبيِّنْ مصير جثة القتيل؟!
يصرح بندم " القاتل " بعد دفنه أخاه وإدراكه فداحة جريمته.	تنسب الندم إلى " قابين " القاتل لما هدده الله بحرمانه من خيرات الأرض، ولا تجعله يشعر بشناعة ذنبه.
يجعل من هذه القصة هدفًا تربويًا ويبنى شريعة القصاص العادل عليها،	لا هدف لذكر القصة في التوراة إلا مجرد التاريخ، فهي معلومات ذهنية خالية

ويلوم بني إسرائيل على إفسادهم في الأرض بعد مجيء رسل الله إليهم.	من روح التربية والتوجيه، أضف إلى هذه ما تحتوى عليه التوراة من سوء مخاطبة " قابين" الرب، فترى في العبارة التي فوق الخط: " أحارس أنا لأخي " فيها فظاظة، لو صدرت من إنسان لأبيه لعد عاقًّا جافًا فظًّا غليظًّا فكيف تصدر من " مربوب " إلى " ربه " وخالقه. . ؟!

ولكن هكذا تنهج التوراة، فلا هي تعرف قدر الرب ولا من تنقل عنه حوارًا مع الرب، ولا غرابة في هذا، فالتوراة تذكر أن موسى أمر ربه بأن يرجع عن غضبه على بنى إسرائيل؛ بل تهديده إياه ـ سبحانه ـ بالاستقالة من النبوة إذا هو لم يستجب لأمره.

وأيضًا هذه بعض الأسئلة:

١-بمقابلة أكثر من نسخة تجد اختلافًا في الألفاظ والكلمات، فبعد هذا الاختلاف يكون كتابًا مقدسًا؟! ؟!!!

مثلًا في أول الكلمات - عرف آدم حواء امرأته فجعلت له - وفي أخرى - وعاشر آدم حواء زوجته فجعلت.

٢- نسخة اسم ابن آدم القاتل قايين " بياءين " وفي أخرى بياء واحدة "قابين" فأيها أصح؟!

والواقع أن ما قصَّهُ علينا القرآن - وهو الحق- من أمر ابني آدم مختلف تمامًا عما ورد في التوراة في هذا الشأن.

فكيف يقال: إن القرآن اقتبس هذه الأحداث من التوراة وصاغها في قالب البلاغة العربية؟!

إن الاختلاف ليس في الصياغة؛ بل هو اختلاف أصيل كما قد رأيت من جدول

الفروق المتقدم.

والحاكم هنا هو العقل، فإذا قيل: إن هذه القصة مقتبسة من التوراة، قال العقل:

* فمن أين أتى القرآن بكلام الشقيق الذي قُتِلَ مع أخيه، وهو غير موجود في نص التوراة التي يُدَّعى أنها مصدر القرآن؟!

* ومن أين أتى القرآن بقصة الغراب الذي جاء ليُري القاتل كيف يواري سوءة أخيه وهي غير واردة في التوراة المُدَّعى أصالتها للقرآن؟!

* ولماذا أهمل القرآن الحوار الذي تورده التوراة بين " الرب " وقابين القاتل، وهذا الحوار هو هيكل القصة كلها في التوراة؟!

* * *

٣- شبهة: حول طلب الحواريين نزول المائدة.

نص الشبهة:

١- طلب الحواريين نزول مائدة من السماء مذكور في القرآن وليس في الكتاب المقدس ما ينص على ذلك.

٢- المائدة التي في القرآن هي القرابين التي تقدم في كل قداس.

٣- هل كان الحواريون يشكون في قدرة الله ﷻ في إنزال مائدة من السماء؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس على القرآن.

الوجه الثاني: قصة طلب الحواريين من عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم ربهم مائدة من السماء ثابتة بالقرآن الكريم.

الوجه الثالث: هل نزلت المائدة على عيسى عليه السلام والحواريين؟

الوجه الرابع: المائدة ليست القرابين التي يقدمونها في كل قداس كما يزعمون.

الوجه الخامس: هل كان الحواريون يشكون في قدرة الله ﷻ على إنزال مائدة السماء؟

واليك التفصيل

الوجه الأول: لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس على القرآن؛ فالكتاب المقدس محرف وهذا ما نؤمن به ولا نشك في ذلك.

فقد قالوا: إن الكتاب المقدس لم يذكر المائدة، والقرآن قد ذكرها، ونحن نقول: الأصل هو الكتاب الذي لم يحرف؛ هذه واحدة، والثانية: أنه لا يجوز الاحتجاج بالكتاب المقدس الموجود الآن؛ لأننا لا نؤمن به لتحريفه.

ومع ذلك فسنبين المواضع التي ذكرها الكتاب المقدس في ذكر المائدة لنبين وجودها، وهذا لا يكون استدلالًا؛ وإنما هو رد على كلامهم.[1]

---

(١) راجع مبحث (لا يجوز للنصارى الاحتجاج بالقرآن)، وكذلك مبحث تحريف الكتاب المقدس وأدلته.

الوجه الثاني: قصة طلب الحواريين من عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم ربهم مائدة من السماء ثابتة بالقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) ﴾ (المائدة: ١١٢ـ ١١٥).

قال ابن كثير: هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: "سورة المائدة". وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه السلام لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة(١).

الوجه الثالث: هل نزلت المائدة على عيسى عليه السلام والحواريين؟

اختلف أهل العلم في نزول المائدة من عدمه، والجمهور على أنها نزلت لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة: ١١٥)، والله سبحانه لا يخلف الميعاد.

قال ابن جرير: بعدما ذكر اختلاف أهل التأويل في"المائدة"، هل أنزلت عليهم، أم لا؟ ، فإن الله عز وجل لا يخلف وعدَه، ولا يقع في خبره الخُلْف، وقد قال ـ تعالى ذكره ـ مخبرًا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى عليه السلام حين سأله ما سأله من ذلك: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وغير جائز أن يقول ـ تعالى ذكره ـ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ثم لا ينزلها؛ لأن ذلك منه -تعالى ذكره -خبر، ، ولا يكون منه خلاف ما يخبر، ولو جاز أن يقول: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم لا ينزلها عليهم، جاز أن يقول: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٠).

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم يكفر منهم بعد ذلك فلا يعذّبه، فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة. وغير جائز أن يوصف ربنا ـ تعالى ذكره ـ بذلك(١).

قال ابن كثير بعدما ذكر الخلاف: ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه ـ تعالى ـ أخبر بنزولها بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: ووعد الله ووعيده حق وصدق، وهذا القول هو ـ والله أعلم ـ الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم.(٢)

قال القرطبي: واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ فالذي عليه الجمهور ـ وهو الحق ـ نزولها لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.(٣)

الوجه الرابع: المائدة ليست القرابين التي يقدمونها في كل قداس كما يزعمون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قالوا: ثم مدح قرابيننا، وتوعدنا إن أهملنا ما معنا، وكفرنا بما أنزل إلينا أن يعذبنا عذابًا أليمًا لم يعذبه أحدًا من العالمين بقوله ذلك في سورة (المائدة: ١١٢ - ١١٥)، فالمائدة هي القربان المقدس الذي يتقرب به في كل قداس.

والجواب أن يقال: هذا كذب ظاهر على القرآن في هذا الموضع كما كذبتم عليه في غير هذا الموضع؛ فإنه ليس في الآيات ذكر قرابينكم البتة، وإنما فيه ذكر المائدة التي أنزلها الله تعالى في عهد المسيح ﷺ. وقولهم المائدة هي القربان الذي يتقرب به في كل قداس هو:

أولًا: قول لا دليل عليه.

وثانيًا: هو قول معلوم الفساد بالاضطرار من دين المسلمين الذين نقلوا هذا القرآن عن محمد لفظه ومعناه، فإنهم متفقون على أن المائدة مائدة أنزلها الله من السماء على عهد المسيح

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٧).

(٣) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٦).

عليه السلام، وقصتها مشهورة في عامة الكتب تعرفها العامة والخاصة، ولم يقل أحد إنها قرابين النصارى، وليس في لفظ الآية ما يدل على ذلك؛ بل يدل على خلاف ذلك؛ فإن الآية تبين أن المائدة منزلة من السماء، وقرابينهم هي عندهم في الأرض لم تنزل من السماء فهذه هي الآيات:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[1].

الوجه الخامس: هل كان الحواريون يشكون في قدرة الله عز وجل على إنزال مائدة السماء؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى السؤال:

أن هذا السؤال ليس شكًا؛ وإنما كان طلبًا أيُجابُ أم لا، وهو طلب للطمأنينة.

قال القرطبي: وقيل: إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري ـ سبحانه ـ؟ ، لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي وقد علمت أنه يستطيع، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني إلى ذلك أم لا؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله ـ تعالى ـ لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر، فأرادوا علم معاينة كذلك، كما قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البقرة: ٢٦٠) وقد كان إبراهيم علم لذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك، ولذلك قال الحواريون: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ١٢٧ـ ١٢٨).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٢).

الوجه الثاني: قرأ الكسائي " هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ" بالتاء فيكون المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك؟ فينفي الشك.

قال الطبري: واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فقرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين﴿هل تَسْتَطِيعُ﴾ بالتاء ﴿رَبُّكَ﴾ بالنصب.

قلت: وهي قراءة الكسائي؛ وهي صحيحة متواترة من القراءات العشر الصحيحة.

بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك؟ وهل تستطيع أن تدعو ربك، أو هل تستطيع وترى أن تدعوه؟ وقالوا: لم يكن الحواريون شاكين أن الله تعالى ذكره قادر أن ينزل عليهم ذلك. إنما قالوا لعيسى عليه السلام: هل تستطيع أنت ذلك؟.[1]

قال ابن أبي مريم: ﴿هل تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ بالتاء والنصب من ربك، قرأها الكسائي وحده، ووجه ذلك أن المراد هل تستطيع سؤال ربك؟ فحذف المضاف، ومعنى سؤالهم عن استطاعته مسألة الله أنه محمول على الاحتجاج منهم على عيسى عليه السلام أي أنك مستطيع فما يمنعك؟ كما تقول لصاحبك هل تستطيع أن تذهب عني فإني مشغول. أي اذهب فإنك غير عاجز عن ذلك، فكذلك قولهم هل تستطيع سؤال ربك؟ أي: إنك مستطيع فاسأل.[2]

الوجه الثالث: قيل إن سؤالهم كان في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل فيكون المعنى هل يقدر ربك؟

قال القرطبي: وقيل المعنى: هل يقدر ربك؟ وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل، ولهذا قال عيسى في الجواب عند غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله ـ تعالى ـ.

قلت ـ أي القرطبي ـ: وهذا فيه نظر؛ لأن الحواريين خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ (الصف: ١٤)، وقال

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٢٩)، و القرطبي (٦/ ٣٤٢).

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم (١/ ٤٥٥).

النبيﷺ: " لكل نبي حواري وحواريّ الزبير "[1]، ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمعرفة الله تعالى، وما يجب له وما يجوز، وما يستحيل عليه، وأن يبلغوا ذلك أممهم، فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله ـ تعالى ـ؟. [2]

قيل: إن الاستطاعة بمعنى الإطاعة، والمعنى: هل يطيعك ويجيب دعاءك ربك إذا سألته ذلك؟. [3]

قال الشيخ محمد رشيد رضا: إن الاستطاعة هنا بمعنى الطاعة، والمعنى: هل يطيعك ويجيب دعاءك ربك إذا سألته ذلك؟ وربما ظن الأكثرون أن هذا الوجه الأخير تكلف بعيد وليس كذلك؛ فالاستطاعة استفعال من الطوع وهو ضد الكره. قال تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (فصلت: ١١)

وفي لسان العرب: الطوع نقيض الكره. طاعه ويطوعه وطاوعه والاسم الطواعة والطواعين.

ثم قال: ويقال: طعت له وأنا أطيع طاعة ولتفعلنه طوعًا أو كرهًا، وطائعًا أو كارهًا وجاء فلان طائعًا غير مكره.

قال ابن سيده: طاع يطاع وأطاع لان وانقاد وأطاعه إطاعة وانطاع له كذلك، فيفهم من هذا أن إطاعة الأمر فعله عن اختيار ورضا، ولذلك عبر به عن امتثال أوامر الدين؛ لأنها لا تكون دينًا إلا إذا كانت عن إذعان ووازع نفسي، والذي أفهمه أن الاستفعال في هذه كالاستفعال في مادة الإجابة فإذا كان (استجاب له) بمعنى أجاب دعاءه أو سؤاله فمعنى استطاعه أطاعه أي: انقاد له وصار في طوعه أو طوعًا له.

والسين والتاء في المادتين على أشهر معانيها وهو الطلب، ولكنه طلب دخل على فعل محذوف دل عليه المذكور المترتب على المحذوف فأصل استطاع الشيء: طلب وحاول أن

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٥).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٢).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ١٢٩)، وانظر وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم.

يكون ذلك الشيء طوعًا له فأطاعه وانقاد له، ومعنى استجاب سُئِلَ شيئًا وطُلِبَ منه أن يُجيب إليه فأجاب.

فبهذا الشرح الدقيق تفهم صحة قول من قال من المفسرين أن (يستطيع) بمعنى يطيع، وأن معنى يطيع يفعل مختارًا راضيًا غير كاره فصار حاصل معنى الجملة، هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلك؟ (١)

الوجه الرابع: قيل: إن هذا من قول من كان مع الحواريين من الجهال.

قال القرطبي: جوز أن يقال: إن ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعراب للنبي ﷺ: " اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط "(٢)، وكما قال من قال من قوم موسى عليه السلام: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾. (٣)

وأخيرًا طلب الحواريين من يسوع مائدة يأكلون منها، وقصة العشاء الرباني كما في الكتاب المقدس عند النصارى.

أولًا: طلب الحواريين من يسوع مائدة يأكلون منها:

في إنجيل يوحنا (٦/ ٣٠: ٣٢) أنهم طلبوا آية من السماء: **فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ ٣١آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا». ٣٢فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ.**

إنهم طلبوا مائدة من السماء؛ لأنهم قالوا: آباؤنا أكلوا المن في البرية بعد قولهم فأية آية تصنع لنرى و نؤمن بك.

واستدلوا على أكل آبائهم للمن بقولهم مكتوب في التوراة: أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا وهذا يدل على أن آبائهم أكلوا المن والسلوى في سيناء.

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٧/ ٢٥١).

(٢) رواه الترمذي (٢١٠٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٤٠٨).

(٣) تفسير القرطبي (٦/ ٣٤٢)، وتفسير المنار (٧/ ٢٥٠).

والنص هو: و أمطر عليهم منا للأكل و بر السماء أعطاهم (مزمور ٧٨/ ٢٤).

فهل نزل المن من السماء وقد سماه داود عليه السلام مائدة في قوله عنهم: قالوا هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية (مزمور ٧٨/ ١٩).

فمعنى نزوله من السماء أنه من جهة الله لا من جهة إله آخر.

ونص إنجيل يوحنا يبين أنهم طلبوا مائدة من السماء، ذلك أنه أعطاهم خبزًا من السماء ليأكلوا. وقول المعترض (ولعل قصة القرآن عن نزول مائدة من السماء. . .) نشأت من عدم فهم بعض آيات الإنجيل الوارد في متى ٢٦/ ٢٠: ٢٩، ومرقس ١٤/ ١٧: ٢٥، يوحنا ١٣/ ١: ٣٠

قصة العشاء الرباني الذي رسمه المسيح تذكارًا لصلبه.

ولعل الكلام السابق الذي ذكرناه يرد على قوله هذا.

وثم أمر آخر وهو كأنه يريد أن يصرف المسلمين وغيرهم عن موضع المائدة في الأناجيل؛ لأنها كلام صدر عن المسيح في شأن نبينا محمد ﷺ[١] كما في إنجيل يوحنا.

وأخيرًا كيف ينكرون المائدة مع أنهم يحتفلون بها ولهم عيد يسمى بعيد المائدة؟ [٢]

قال ابن تيمية: الخميس الذي يسمونه الخميس الكبير يزعمون أن في مثله نزلت المائدة التي ذكرها الله في القرآن حيث قال: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (المائدة: ١١٤) فيوم الخميس هو يوم عيد المائدة. [٣]

ثانيًا: قصة العشاء الرباني. [٤]

---

(١) راجع إنجيل يوحنا الإصحاح السادس.

(٢) في الأسبوع الأخير من صيامهم يعظمون هذا الأسبوع فيسمون الخميس بالخميس الكبير والجمعة بالجمعة الكبيرة.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢١٤).

(٤) باختصار من كتاب (تأثر المسيحية بالأديان الوضعية) د/ أحمد علي عجيبة.

العشاء الرباني من أهم أسرار المسيحية، ولذلك دعي عندهم سر الأسرار، وسمِّي أسرار الكنيسة، ولقد أطلق النصارى على هذا السر أسماء كثيرة فهو (سر الشكر)، (العشاء الرباني) (العشاء السري)، (العشاء الإلهي)، (مائدة الرب)، (مائدة المسيح)، (والمائدة السرية)، (خبز الرب)، (وكأس الحياة الخلاصية)، إلى غير ذلك من الأسماء.

وأنسب العبارات للإشارة إلى هذا السر في كلام الإنجيليين: (عشاء الرب)، أو(العشاء الرباني)، أو(مائدة الرب)، وكسر الخبز.

بينما أنسب العبارات بالنسبة للكاثوليك (الأفخارستيا)، وعند الأرثوذكس(القربان)، أو (التناول)، أو (الشكر).

وهذا السر يعرف عند النصارى بتعريفات مختلفة، والاختلاف راجع إلى اختلافهم حول غاية العشاء الرباني.

الإنجيليون يعرفونه بأنه سر يدل على موت المسيح بإعطاء خبز وخمر، وقبولها حسبما رسم المسيح، والقابلون باستحقاق يتناولون جسده ودمه مع جميع فوائده لا تناولًا جسميًا أو جسديًا؛ بل تناولًا روحيًا بالإيمان.

أما الكاثوليك فيعرفونه بأنه سر حضور ربهم يسوع حضورًا حقيقيًا بجسده ودمه ونفسه ولا هوته تحت أعراض الخبز والخمر، والخبز في نظرهم يتحول إلى جسد المسيح، والخمر إلى دمه.

أما الأرثوذكس فيعرفونه بتعريف يشبه تعريف الكاثوليك، وذلك لأنهم متفقون في الغاية من العشاء الرباني.

فالإنجيليون يرون أن حضور المسيح وقت تناول العشاء الرباني حضورًا روحيًا، أما الكاثوليك والأرثوذكس فيرون أن المسيح يحضر هذا السر وقت الاحتفال به حضورًا حقيقيًا، وأن الخبز يتحول إلى جسد المسيح، والخمر يتحول إلى دمه تحولًا حقيقيًا، وذلك أمر غريب في العقل لا يستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهوله؛ بل لا يستطيع أن

يستسيغه قط؛ إذ كيف يتحول الخبز لحمًا، وكيف يصير لحم شخص معين معروف؟ وكيف تتحول الخمر دمًا وتصير دم شخص معين معروف؟

ذلك غريب؛ بل مستحيل التصور والقبول في العقل.

- **العناصر التي تستعمل في العشاء الرباني:**

الخبز والخمر هما عنصرا العشاء الرباني، وقد اختارهما المسيح في نظرهم؛ لأنهم هما مادتان بسيطتان تشيران إلى جسده ودمه.

وقد استدل المسيحيون على ذلك بما جاء في إنجيل متى: وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز بارك و كسر و أعطى التلاميذ، و قال: **خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي**». ٢٧**وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلًا:** «**اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ**. (متى ٢٦/ ٢٦: ٢٧).

وقد اختلفت الكنائس حول استعمال الفطير في العشاء الرباني بدلًا من الخبز، ونشأت بينها منازعة شديدة حول هذا الموضوع في القرن الحادي عشر فالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية رفضت؛ لأنه حُسِبَ عندها من الموائد اليهودية التي ليسوا هم ملتزمين بها بعد.

أما الكنيسة الغربية (الكاثوليك) فقد حكمت بمناسبة استعمال الفطير بأنه النوع الوحيد الجائز استعماله باعتبار قانون الكنيسة، غير أن استعمال خبز الخمير يجوز بمعنى أن ذلك لا يفسد السر.

ولم يزل كل منهما باعتقاده القديم إلى اليوم.

- **فاعلية تناول العشاء الرباني في نظر النصارى.**

اشتهر في تاريخ الكنيسة في هذه المسألة أربعة أقوال، وهي بإيجاز:

أولًا: تعليم زوينكلي، وهو أن العشاء الرباني مجرد علامة محسوسة تشير إلى موت المسيح بدون أن يكون فيه أدنى فاعلية في حد ذاته، ولا يحضر فيه المسيح على الإطلاق لا جسديًا ولا روحيًا؛ فيكون بذلك تذكارًا لموت المسيح وشهادة الإيمان المشترك.

ثانيًا: تعليم مارتن لوثر، وهو أن العشاء الرباني له فاعلية حقيقية ذاتية، وتأثير فاعلي

في كل من يقبله، وهذا القول ناتج عن القول بحلول المسيح جسديًا بكيفية خارقة للعادة في الخبز والخمر.

وهذا لا يعقل ولذا يقال لهم. هل المسيح الإله هو الذي حل في الخبز والخمر أم المسيح الإنسان؟

إذا كان المسيح الإله فيلزمكم على هذا القول أن يشار إلى الخبز والخمر على أنهما قديمان حديثان؟ وهو محال، ويلزمكم أيضًا على إثبات القدم للخبز والخمر، فيكونوا قد قالوا: لا بثلاثة أقانيم بل خمسة أقانيم، أما إذا قالوا إن المسيح الإنسان هو الذي حل في الخبر والخمر؛ فهو باطل أيضًا إذ لا يمكن أن يحل جسد المسيح ودمه في الخبز والخمر في أماكن متعددة في وقت واحد.

ثالثًا: تعليم الكنيسة الكاثوليكية وتشاركها الأرثوذكسية مع اختلاف يسير، وهو أن العشاء الرباني نعمة ذاتية لا إشارة إليها وأنه واسطة فعالة في إيصال النعمة إلى قلوب المشتركين (فعلًا ومفعولًا)، وأن نوال الفائدة لا يتوقف على إيمان المشترك؛ بل إنما يقتضي عدم مقاومته لذلك السر. وهذا القول ناتج عن القول بأن الخبز والخمر يستحيلان بطريقة حقيقية إلى جسد المسيح ودمه.

فهم يعتقدون أيضًا أن العشاء الرباني بجانب أنه سرفهو أيضًا ذبيحة تقدم لله بمعنى أنه تكرار ذبيحة المسيح بتقديم جسده ودمه كفارة عن الخطيئة.

ولقد ثار أحد النصارى على هذا التعليم، فقال: إنني أتساءل كيف يتصور إنسان عاقل أن خدام الله يذبحون سيدهم؟ إن الوثنية بكل شرورها وانحرافها وما وصلت إليه من حالة مزرية ومؤسفة لم تعلم مثل هذه التعاليم. [1]

رابعًا: تعليم كلفن، يرى أن قوته وفاعليته روحيه.

- **تأثر النصارى بالأديان الوضعية في العشاء الرباني**

كان الوثنيون يمارسون طقوسًا كثيرة من بينها فكرة (الوليمة المقدسة)يدعون فيها بالأكل من لحوم ألهتهم والشرب من دمائهم لكي تكون فيهم. (أي في أجسادهم صفات

---

(١) وقد رد الشيخ رحمت الله الهندي في كتاب إظهار الحق على هذا التعليم بردود قوية فلتراجع (٣٢٦: ٣٣٧).

وقوة آلهتهم) فكانت فكرة التناول منتشرة بين: الهنود، والفارسيين، واليونانيين، والرومانيين، وغيرهم، ولذلك يمكن القول أن العشاء الرباني أصله شعيرة وثنية استقته المسيحية من الأديان الوثنية الشرقية واليونانية، والتي كانت منتشرة وقت ظهور المسيحية، وهي التي كان يطلق عليها اسم الأديان السرية، وذلك بواسطة بولس وأتباعه.

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن الاسم نفسه مأخوذ من الوثنية.

يقول أرنولد توينبي: والعشاء الرباني المسيحي قد استعير اسمه من أحد الطقوس الرومانية الوثنية حين ينذر المجند نفسه للجيش الروماني. [1]

* * *

(١) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية د/ أحمد علي عجيبة من (٦١٠ - ٦٢١) باختصار وبتصرف يسير.

سورة الأنعام

وفيها:

١- شبهة: حول خلط الأسماء.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾.

٣- شبهة: حول التهرب من المعجزات.

١- شبهة: حول خلط الأسماء.

نص الشبهة:

جاء في سورة الأنعام (٨٤-٨٦) قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

والسؤال: كيف صُفت هذه الأسماء بلا نظام، ولا ترتيب، بما فيها من تقديم وتأخير يدعو للتشويش والخلط؟ فما الداعي لذكر داود وسليمان قبل أيوب ويوسف وموسى وهارون، وما الداعي لذكر زكريا ويحيي وعيسى قبل إلياس؟ وما الداعي لذكر إسماعيل بعد إسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس، وما الداعي لذكر اليسع ويونس قبل لوط؟ مع أن الترتيب التاريخي معروف قبل القرآن بمئات السنين، وهو: أيوب في بلاد عوص. وإبراهيم وابن أخيه لوط وابناه إسماعيل وإسحاق وحفيده يعقوب وابن حفيده يوسف ومن بعدهم موسى وهارون. ومن بعدهم داود وسليمان ابنه. ومن بعدهما إلياس واليسع تلميذه. ومن بعدهما يونس. هؤلاء كلهم في العهد القديم ومن بعدهم زكريا ويحيى وعيسى في العهد الجديد.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن حرف الواو لا يوجب الترتيب.

الوجه الثاني: أنه يوجد في هذه الآية ترتيب.

الوجه الثالث: خلط الأسماء في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: حرف الواو لا يوجب الترتيب.

إن حرف الواو لا يوجب الترتيب، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية؛ فإن

حرف الواو حاصل ههنا مع أنه لا يفيد الترتيب البتة، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان[(١)].

الوجه الثاني: يوجد في هذه الآية ترتيب

يوجد في هذه الآية ترتيب، وذلك لأن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل.

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك والسلطان والقدرة، والله تعالى قد أعطي داود وسليمان من هذا الباب نصيبًا عظيمًا.

المرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية.

المرتبة الثالثة: من كان مستجمعًا لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه السلام، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

المرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات، وكثرة البراهين، والمهابة العظيمة، والصولة الشديدة، وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقرب العظيم، والتكريم التام وذلك كان في حق موسى وهارون.

المرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وترك مخالطة الخلق وذلك كما في حق زكريا ويحيي وعيسى وإلياس، ولهذا السبب وصفهم الله تعالى بأنهم من الصالحين.

المرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم بين الخلق أتباع، وأشياع، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط.

فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا الوجه الذي شرحناه. [(٢)]

الوجه الثالث: خلط الأسماء في الكتاب المقدس.

نبدأ بخلط أسماء في نسب يسوع نفسه الذي يعتبرونه إلهًا أو أُقنومًا أو كليهما، والله المستعان:

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٣/ ٦٤)، وانظر تفسير القاسمي (٦/ ٦١٣).

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٣/ ٦٤)، وانظر البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ١٧٦)، ومحاسن التأويل (٦/ ٦١٣)، و تفسير المنار (٧/ ٥٨٧)، والخازن (٢/ ١٣٢).

و نبدأ بسؤال: هل للإله نسب؟

و الإجابة: نعم، يكون للإله نسب إذا كان إلهًا مزيفًا من صنع البشر مثل اللات، و هبل، و قيصر، وفرعون، كل هؤلاء لهم نسب الآلهة الباطلة ممكن أن يكون لها نسب، في حالة المسيح ـ كما سنرى ـ فإن له أكثر من نسب، والأمر واضح إذا وجدت من يكتب نسبًا لربه فاعرف مباشرة أن هذا الرب مزيف، لا يحترمه من يكتب له نسبًا؛ بل أظن أنه في داخله لا يؤمن أنه إله على الإطلاق.

وتناقضات نسب المسيح و خلط الأسماء مذكورة في كتب كثيرة سنذكر واحد منها فقط هنا:

١ـ متّى يقول: يوسف بن يعقوب، و لوقا يقول: يوسف بن هالي.

لاحظ أن الشخص المذكور نسبه المتناقض هنا هو يوسف النجار رجل مريم، وهذا من أفحش الأخطاء و أشنعها، يبدأ بذكر نسب المسيح وينتهي بيوسف النجار؛ فأي تخبط أسوأ من هذا؟

ولا ندرى كيف يمكن "لابن الله" أن يكون ابن داود من ناحية زوج أمه؟ ألا يعزز هذا اتهام اليهود لأمه والعياذ بالله، عليهم جميعًا من الله ما يستحقون.

و لوقا أو بمعنى أدق كاتب إنجيل لوقا تنبه لهذا العجب فحاول تصحيحه فجاء كما يقول المثل: (يكحلها فعماها) أو زاد الطين بلة، فقال: "على ما كان يظن ابن يوسف" و لا ندري من هم الذين ظنوا ذلك إلا اليهود أعداء المسيح الذين اتهموه بأنه ابن غير شرعي ليوسف النجار، و بناء على هذا الاتهام الفاسد ينسبه لوقا إلى يوسف ويتبع كلامهم كأنه يريد أن يثبت التهمة ـ يعنى لوقا ـ يقول: هذا نسب المسيح على حسب ظن الناس، و بديهي أنه لا يمكن الأخذ برواية أيٍّ من متى أو لوقا عن النسب المزعوم هذا، و لو اعتبرنا أحدهما صحيحًا لكان الآخر مخطئًا بلا شك.

التناقض: يقول البطريرك شنودة في كتاب سنوات مع أسئلة الناس (٦٣) باختصار: إن هالي هو أخو يعقوب الذي مات، وتزوج يعقوب أخوه امرأته و أنجب يوسف، ويذكر

دليلًا من الكتاب المقدس على وجهة نظره هذه وأن متى أخذ النسب الطبيعي، و لوقا أخذ النسب الشرعي.

وكذلك يقول القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره، و يوافق البابا تمامًا ويضيف: أن هذا النسب حسب الدم واللحم (في صفحة(٤١)، و هذا باطل فلا علاقة دم، ولحم بين يوسف و المسيح على الإطلاق، و موضوع النسب الطبيعي و النسب الصناعي تحتاج إلى فهامة، و اعتقد أنها لا تنطلي على أحد.

و منيس عبد النور يختلف معهما ويقول: إن هالي هو والد مريم (في صفحة ٢٥٦)؛ لأن الشخص الواحد يحمل اسم أبوين أحدهما بالميلاد الطبيعى و الآخر بالمصاهرة، و يذكر دليلًا من العهد القديم هو أيضًا.

أما الدكتور إبراهيم سعيد في تفسير بشارة لوقا (٨٠) أوضح أن مريم حفيدة هالي طبقا لشهادة التلمود.

و في التفسير التطبيقي (٢٠٧٥)يقول: إن نسب متى هو من يوسف الأب الرسمي ليسوع وليس الأب الحقيقي، و نسب لوقا هو من مريم، ويضيف كاتب التفسير التطبيقي: لعل لوقا نقل هنا عن لسان مريم.

و في التفسير الحديث للكتاب المقدس لإنجيل متى بقلم ر. ت. فرانس (٧٠) يقول: "بالنسبة لما قيل من أن سلسلة نسب لوقا هي نسب مريم هو أمر غير محتمل "، و لم يوضح كيف يحل هذا التناقض.

والخلاصة: هناك من يقول: هالى أو يعقوب عم يوسف، وهناك من يقول جد مريم، وهناك من يقول والد مريم. أي أن تفسيرهم للتناقضات أصبح هو نفسه متناقض، و كل واحد من النصارى ينضح بعصارة مخه و تحليلاته الموثقة بما جاء في العهد القديم، لاحظ أن هذا تناقض واحد في خلط الأسماء في نسب يوسف النجار الذي ليس له علاقة أصلًا بالمسيح إلا في مخ متى و لوقا، و من نصدق! البابا، أو منيس عبد النور، أو التفسير

الحديث، أو إبراهيم سعيد؟! و ما فائدة ذكر نسب يوسف النجار في كتاب مقدس؟ ولماذا لا توحي الروح القدس لمتى هذا، أو لوقا بنسب المسيح من مريم مباشرة دون لف ودوران و أخطاء و تبريرات للأخطاء تزيد الموقف تعقيدًا؟ ثم تجد أحدهم يتحدث عن خلط الأسماء و لا يستحي.

و نستمر مع خلط الأسماء:

نجد في النصوص العبرية الواحدة اختلفت الأسماء واختلطت؛ بل حتى لتجد في إصحاحين متتابعين خلطاً شديداً في الأسماء، لنبدأ بعون الله:

ورد في يشوع (١ :٧) اسم "عخان" بالنون، بينما في أخبار واحد(٢: ٧) ورد هكذا"عخار" بالراء بدل النون.

ولنقارن الآن الأسماء:

في إصحاح ٨ من صموئيل الثاني وإصحاح ١٨ من أخبار الأول: - هدد عزر - هدرعزر -باطح -طبحة -بيروثاي - خون - توعي - توعو -يورام هدورام - آرام - أدوم - أخيمالك بن أبياثار - أبيمالك بن أبياثار - سرايا ثم شوشا فما رأي النصارى بهذا الخلط والتضارب؟ ؟ سرايا يتحول إلى شوشا؟ ؟

لنتابع: في أسماء الذين عادوا من السبي لو حللنا المسألة قليلاَ - بغض النظر عن القول بالتعارض - نلاحظ أن:

- بني حاريف في نحميا(٧: ٢٤) هم بنو يورة في عزرا (٢ :٨)
- بني سيعا في (٤٧ :٧) هم بنو بنو سيعها في عزرا (٢: ٤٢)

فلا ندري من اختلط عليه الأمر هنا، هل هو عزرا أم نحميا؟ ؟

والآن المصيبة الكبرى: ففي سفر الأخبار الأول نجد أن الإصحاح ٨ يختلف مع الإصحاح الذي يليه أي مع الإصحاح ٩، لنتابع سويًا:

٣١-وجدور واخيو وزاكر. في الإصحاح الثامن.

٣٧-وحدور واخيو وزكريا ومقلوث. في التاسع.

نلاحظ هنا أنه قال: "حدور" بالحاء بدل"جدور" بالجيم.

ونلاحظ أنه قال: "زكريا" بدل "زاكر.

فهل يوجد من يشرح لنا لماذا هذا الاختلاف والخلط؟ ؟

٣٢ـ ومقلوث ولد شماة.

٣٨-ومقلوث ولد شمآم. هل تلاحظوا، مرة "شماة" ومرة "شمآم"؟ ؟

٣٥-وبنو ميخا فيثون ومالك وتاريع وآحاز.

٤١-وبنو ميخا فيثون ومالك وتحريع وآحاز.

كذلك نفس الخلط المستمر، مرة يقول: "تاريع" ومرة يقول: "تحريع. . . .

٣٦ -وآحاز ولد يهوعدّة ويهوعدة ولد علمث وعزموت وزمري. وزمري ولد موصا

٤٢- وآحاز ولد يعرة ويعرة ولد علمث وعزموت وزمري. وزمري ولد موصا نفس المسلسل، "يهوعدة" أصبح "يعرة". لنكمل. . .

٣٧ -وموصا ولد بنعة ورافة ابنه والعاسة ابنه وآصيل ابنه

٤٣ -وموصا ولد بنعا ورفايا ابنه والعسة ابنه وآصيل ابنه.

هنا يقول مرة: "رافة" ومرة: "رفايا"، وسوف نغض النظر عن بنعة والعسة بالرغم من اختلافهم في العبرية، والذي يلفت النظر هنا أن الاختلاف هنا موجود بلغة واحدة وسفر واحد وفي إصحاحين متتاليين، أليس غريبًا هذا الخلط؟ ؟

* * *

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ (الأنعام: ٩٣). فهل أوحي إليه ولم يوح إليه؟

والرد عليها من وجوه:

الوجه الأول: الآية لا يصح فيها سبب نزول.

الوجه الثاني: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الوجه الثالث: القرآن يتحدى أهل الفصاحة.

الوجه الرابع: عقوبة من يفتري على الوحى.

الوجه الخامس: نبذة عن عبد الله بن سعد بن أبي السرح.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية لا يصح فيها سبب نزول.

اختلف أهل العلم في سبب نزول هذه الآية علي أربعة أقوال:

القول الأول: نزلت في شأن مسيلمة الكذاب والأسود العنسي(صدر الآية)، وعبد الله ابن أبي السرح (ختام الآية).

وقد جاء هذا من ستة طرق لا يخلو طريق منها من ضعف:

الطريق الأول: طريق ابن عباس رضي الله عنه[1]

الطريق الثاني: طريق شرحبيل بن سعد. [2]

الطريق الثالث: طريق السدي. [1]

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا.** أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٢٧) من طريق محمد بن سعد بن عطية (العوفي)، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (٤٤٨، ٤٤٩) من طريق الكلبي وهو متروك الحديث، (تهذيب الكمال٢٥/ ٢٤٦).

(٢) **إسناده ضعيف.** أخرجه الحاكم (٣/ ٤٥)، والواحدي في أسباب النزول (٤٥٠) فيه: أحمد بن عبد الجبار، ضعيف (التقريب١/ ١٧).

الطريق الرابع: قتادة بن دعامة. [٢]

الطريق الخامس: طريق أبي خلف الأعمى. [٣]

الطريق السادس: طريق عكرمة. [٤]

هذا هو القول الأول في سبب نزول الآية، لا يصح فيه طريق إلا في طريق قتادة، وعلى صحته فهو مرسل.

القول الثاني: نزلت في المختار بن أبي عبيد. [٥]

القول الثالث: نزلت في النضر بن الحارث. [٦]

القول الرابع: نزلت في عبد الله بن أبى بن سلول. [٧]

الوجه الثاني: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٣)، و ابن أبي حاتم (٧٦٢٦) فيه: أسباط بن نصر، صدوق كثير الخطأ يغرب (التقريب١/ ٤٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٦٢٧)، ومن طريقه ابن أبي حاتم (٧٦٢٥)، والطبري من طريق معمر (٧/ ٢٧٤)، ومن طريق سعيد (٧/ ٢٧٣)، و ابن أبي حاتم (٧٦٢٥) من طريق شيبان، جميعًا (معمر، سعيد، شيبان) عن قتادة به.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٢٤) فيه: معان بن رفاعة، ضعفه يحيي بن معين وابن عدي (تهذيب الكمال٢٨/ ١٥٨)، (الكامل٦/ ٣٢٨)، وقال ابن حبان: روي عنه أهل بلده، منكر الحديث، يروي مراسيل كثيرة ويحدث عن أقوام مجاهيل، لايشبه حديثه حديث الأثبات فلما صار الغالب علي روايته ماتنكر القلوب؛ استحق ترك الاحتجاج به. (المجروحين٣/ ٣٦).

(٤) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري (٧/ ٢٧٣) وزاد نسبته إلى أبي الشيخ، السيوطي في الدر (٣/ ٣١٧) فيه: ابن جريج ثقة لكنه عنعن وهو مدلس، وفيه الحسين (سنيد) ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٢٣) إسناده ضعيف، فيه عمرو بن عبد الملك لم يسمع من عبد الله بن مسعود (جامع التحصيل٢٤٧)، ومسهر بن عبد الملك: لين الحديث (التقريب١/ ٥٨٤).

(٦) **إسناده ضعيف**. ذكره السيوطي في الدر (٧/ ٣١٨) وعزاه إلى عبد بن حميد، وذكره القرطبي في تفسيره (٧/ ٤٣)، وفيه حفص بن عمر العدني: ضعيف (التقريب١/ ١٣١).

(٧) **إسناده ضعيف جدًا**. أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٢٨) فيه جابر الجعفي: متروك الحديث.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ (الأنعام: ٩٣). ولا تمانع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: إني قد قلت مثل ما قال محمد، وأنه ارتد عن إسلامه ولحق بالمشركين، فكان لا شك بذلك من قيله مفتريًا كذبًا، وكذلك لا خلاف بين الجميع أن مسيلمة والعنسي الكذابين ادعيا على الله كذبًا أنه بعثهما نبيين، وقال كل واحد منهما: إن الله أوحى إليه، وهو كاذب في قيله؛ فإذا كان ذلك كذلك؛ فقد دخل في هذه الآية كل من كان مختلقًا على الله كذبًا وقائلًا في ذلك الزمان وفي غيره: أوحى الله إلي، وهو في قيله كاذب لم يوح الله إليه شيئًا؛ فأما التنزيل فإنه جائز أن يكون نزل بسبب بعضهم، وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم، وجائز أن يكون عنى به جميع المشركين من العرب؛ إذ كان قائلو ذلك منهم فلم يغيروه؛ فعيرهم الله بذلك، وتوعدهم بالعقوبة على تركهم نكير ذلك، ومع تركهم نكيره هم بنبيه محمد ﷺ مكذبون، ولنبوته جاحدون، ولآيات كتاب الله وتنزيله دافعون؛ فقال لهم جل ثناؤه: ومن أظلم ممن ادعى علي النبوة كاذبًا وقال: ﴿أوحي إلي﴾ ولم يوح إليه شيء، ومع ذلك يقول: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فينقض قوله بقوله، ويكذب بالذي تحققه، وينفي ما يثبته، وذلك إذا تدبره العاقل الأريب علم أن فاعله من عقله عديم. (١)

وقال القرطبي: ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن، فيقول: وقع في خاطري كذا أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم، ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص

(١) الطبري (٧/ ٢٧٤)، وانظر: أيضًاالمحرر الوجيز (٢/ ٣٢٢)، والرازي (١٣/ ٨٤)، والخازن (٢/ ١٣٦)، والتحرير والتنوير (٧/ ٣٧٤: ٣٧٥).

فلا يحتاجون لتلك النصوص، وقد جاء فيما ينقلون "استفت قلبك وإن أفتاك المفتون"(١) ويستدلون على هذا بالخضر وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم، وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هد الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ(٢).

الوجه الثالث: القرآن يتحدى أهل الفصاحة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن قال: سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ الله، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ (الأنفال: ٣١)، وقد بين الله تعالى كذبهم في افترائهم هذا حيث تحدى جميع العرب بسورة واحدة منه، كما ذكره تعالى في البقرة بقوله: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣)، وفي يونس بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ (يونس: ٣٨)، وتحداهم في هود بعشر سور مثله في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ (هود: ١٣)، وتحداهم به كله في الطور بقوله: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور: ٣٤).

ثم صرح في سورة بني إسرائيل بعجز جميع الخلائق عن الإتيان بمثله في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)، فاتضح بطلان دعواهم الكاذبة.(٣)

الوجه الرابع: عقوبة من يفترى على الوحى.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِى مُحَمَّدٌ إِلاَّ مَا كَتَبْتُ لَهُ، فَأَمَاتَهُ الله فَدَفَنُوهُ،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٢٨)، وقال الألباني: إسناده حسن (صحيح الترغيب٢/ ١٥١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٤١: ٤٢).

(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٢/ ١٨١: ١٨٢).

فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوهُ. فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا؛ فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ. فَحَفَرُوا لَهُ، وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ. (١)

الوجه الخامس: نبذة عن عبد الله بن سعد بن أبي السرح.

عبد الله بن سعد بن أبي السرحﷺ يكنى أبا يحيى كذا قال ابن الكلبي: في نسبه حبيب بن جذيمة بالتخفيف. وقال محمد بن حبيب: حبيب بالتشديد، وكذا قال أبو عبيدة، أسلم قبل الفتح وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد مشركًا وصار إلى قريش بمكة.

وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ أيام الفتح فحسن إسلامه، ولم يظهر منه ما ينكر عليه بعد ذلك، وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش، وفارس بني عامر بن لؤي المعدود فيهم، ثم ولاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين، وفتح على يديه إفريقية سنة سبع وعشرين، وغزا منها الأساود من أرض النوبة سنة إحدى وثلاثين، وهو هادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم، وغزا الصواري من أرض الروم سنة أربع وثلاثين؛ فلما رجع من وفادته منعه ابن أبي حذيفة من دخول الفسطاط فمضى إلى عسقلان فأقام فيها حتى قتل عثمان ﷺ. وقيل: بل أقام بالرملة حتى مات فارا من الفتنة ودعا ربه فقال: اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح فتوضأ ثم صلى فقرأ في الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات، وفي الثانية بأم القرآن وسورة ثم سلم عن يمينه ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه، ذكر ذلك كله يزيد بن أبي حبيب وغيره، ولم يبايع لعلي ولا لمعاوية رضي الله عنهما، وكانت وفاته قبل اجتماع الناس على معاوية. وقيل: إنه توفي بإفريقية والصحيح أنه توفي بعسقلان سنة ست أو سبع وثلاثين. (٢)

* * * *

(١) البخاري (٣٦١٧)، و مسلم (٢٧٨١).

(٢) الاستيعاب (١/ ٢٧٩)، أسد الغابة (١/ ٦١٧).

٣- شبهة: حول التهرب من المعجزات.

نص الشبهة:

في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (يونس: ٢٠).

السؤال: يطلب الناس من النبي محمد آية حتى يؤمنوا به كغيره من الأنبياء، فيرد أن الغيب لله؛ فجوابه لا دخل له بالسؤال، والسائلون يعلمون أن الغيب لله، والغيب لا دخل له في صنع العجائب والسؤال؛ أليس هذا تهربًا منه لعدم قدرته على صنع العجائب؟ ، وللآية نظائر منها قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٩) وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ (الرعد: ٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الرعد: ٢٧).

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى الآية يفهمك العلة من هذا الرد عليهم.

الوجه الثاني: لماذا كان هذا الجواب الذي خالف السؤال في ظاهره؟.

الوجه الثالث: آية الإسراء أظهرت العلة من عدم إنزال الآية التي طلبوها.

الوجه الرابع: عدم نزول الآية التي طلبوها استجابة لرسول الله ﷺ.

الوجه الخامس: الله أنزل آيات ولكنهم لم يؤمنوا.

الوجه السادس: بعض معجزات النبي ﷺ التي فاقت سائر المعجزات.

الوجه السابع: لا يلزم على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى الآية يفهمك العلة من هذا الرد عليهم.

قال ابن كثير: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أي: ويقول هؤلاء الكفرة الملحدون المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه؛ يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهبًا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ (الفرقان: ١٠، ١١) وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩). يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا، وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله عليه الصلاة والسلام، بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرةﷺ ولهذا قال تعالى إرشادًا لنبيه إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادًا وتثبّتًا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعنتًا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (يونس: ٩٦، ٩٧)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١١١)،

ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر١٤، ١٥)، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ (الطور: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام: ٧)، فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوه؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾. [1]

قال الزمخشري: وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات. وجعلوا نزولها كلا نزول، فكأنه لم ينزل عليه قط حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد، وإنهماكهم في الغي فقل ﴿إنما الغيب لله﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به، لا علم لي ولا لأحدٍ به. يعني: أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو سبحانه، فانتظروا نزول ما اقترحتموه إني معكم من المنتظرين بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحدكم الآيات. [2]

وقال ابن عطية: آية من ربه، آية تضطر الناس إلى الإيمان، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط، ولا من المعجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة النظر ليهتدي قوم ويضل آخرون، فقل: إنما الغيب لله إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، لا يطلع على غيبه في ذلك أحد. وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ وعيد، وقد صدقه الله تعالى بنصرته محمدًاﷺ. [3].

وقيل: الآية التي اقترحوا أن ينزل ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٨).

(٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٣٧).

(٣) تفسير ابن عطية (٣/ ١١٢).

تَفۡجُرَ لَنَا﴾، وقيل: آية كآية موسى وعيسى كالعصا واليد البيضاء، وإحياء الموتى، طلبوا ذلك على سبيل التعنت. (١)

و قال الشوكاني: قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ذكر سبحانه هاهنا نوعًا رابعًا من مخازيهم، وهو معطوف على قوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾، وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه. قيل: والقائلون هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفي به دليلًا بينًا ومصدّقًا قاطعًا: أي: هلا أنزلت عليه آية من الآيات التي نقترحها عليه، ونطلبها منه، كإحياء الأموات، وجعل الجبال ذهبًا، ونحو ذلك؟ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ أي: أن نزول الآية غيب، والله هو المختص بعلمه، المستأثر به، لا علم لي ولا لكم، ولا لسائر مخلوقاته ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها، وقيل: المعنى: انتظروا قضاء الله بيني وبينكم بإظهار الحق على الباطل. (٢)

الوجه الثاني: لماذا كان هذا الجواب الذى خالف السؤال في ظاهره؟.

قال الفخر الرازى: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (يونس: ٢١).

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن القوم لما طلبوا من رسول الله ﷺآية أخرى سوى القرآن، وأجاب الجواب الذي قررناه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ (يونس: ٢٠) ذكر جوابًا آخر وهو المذكور في هذه الآية، وتقريره من وجهين:

الوجه الأول: أنه تعالى بين في هذه الآية أن عادة هؤلاء الأقوام المكر، واللجاج،

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان الأندلسي (٥/ ١٣٩).

(٢) فتح القدير (٢/ ٦٠٧).

والعناد، وعدم الإنصاف، وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إنزال معجزات أخرى، فإنهم لا يؤمنون؛ بل يبقون على كفرهم وجهلهم، فنفتقر ههنا إلى بيان أمرين: إلى بيان أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد، ثم إلى بيان أنه متى كان الأمر كذلك لم يكن في إظهار سائر المعجزات فائدة.

أما المقام الأول: فتقريره أنه روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء، وعلى التقديرين فهو مقابلة للنعمة بالكفران. فقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ المراد منه تلك الأمطار النافعة. وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ المراد منه ذلك القحط الشديد. وقوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ المراد منه إضافتهم تلك المنافع الجليلة إلى الأنواء والكواكب أو إلى الأصنام.

واعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ (يونس: ١٢) إلا أنه تعالى زاد في هذه الآية التي نحن في تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها في تلك الآية، وتلك الدقيقة هي أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة، ويطلبون الغوائل، وفي الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة، فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل.

وأما المقام الثاني: وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك فلا فائدة من إظهار سائر الآيات، لأنه تعالى لو أظهر لهم جميع ماطلبوه من المعجزات الظاهرة فإنهم لا يقبلونها؛ لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في طلب الدين، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية، والامتناع من المتابعة للغير، والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم وسلط البلاء عليهم، ثم أزالها عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات، فهم مع ذلك

استمروا على التكذيب والجحود، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها، فظهر بما ذكرنا أن هذا الكلام جواب قاطع عن السؤال المتقدم.

الوجه الثاني في تقرير هذا الجواب: أن أهل مكة قد حصل لهم أسباب الرفاهية وطيب العيش، ومن كان كذلك تمرد وتكبر كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ (العلق: ٦، ٧) وقرر تعالى هذا المعنى بالمثال المذكور، فإقدامهم على طلب الآيات الزائدة والاقتراحات الفاسدة؛ إنما كان لأجل ما هم فيه من النعم الكثيرة والخيرات المتوالية، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا ﴾ كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم، ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة، والله أعلم.[1]

الوجه الثالث: آية الإسراء أظهرت العلة من عدم إنزال الآية التى طلبوها.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء٥٩).

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذبة سألوا ذلك مثل سؤالهم، فلما أتاهم ما سألوا منه كذبوا رسلهم، فلم يصدقوا مع مجيء الآيات فعوجلوا، فلم نرسل إلى قومك بالآيات؛ لأنّا لو أرسلنا بها إليها فكذبوا بها سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها. وبالذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.[2]

قال ابن كثير: قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك؛ فإنه سهل علينا، يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ

(١) تفسير الفخر الرازي (١٧/ ٦٤).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٧).

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة: ١١٥) قال تعالى عن ثمود حين سألوا آيةً ناقةً تخرج من صخرة عينوها فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوه، فلما ظلموا بها أي كفروا بمن خلقها وكذبوا رسوله وعقروها فقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود: ٦٥)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: ٥٩)؛ أي دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي كفروا بها، ومنعوها شربها، وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون. ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره، ثم قال ـ يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا". [١][٢]

الوجه الرابع: عدم نزول الآية التي طلبوها استجابة لرسول الله ﷺ.

الله تبارك وتعالى أنزل آيات كثيرات ومع ذلك كذبوا واستكبروا كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنعام: ٤)، ومع ذلك طلبوا آيات كالتي نزلت على الأنبياء السابقين، وذلك كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله

(١) البخاري (٩٩، ١٠٠٠)، ومسلم (٩٠١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٠).

عنهما قال: سأل أهل مكة النبيﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا؛ فإن كفروا أُهلكوا كما أهلكت من قبلهم. قال: لا، بل أستأني بهم؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾[1].

الوجه الخامس: الله أنزل آيات ولكنهم لم يؤمنوا.

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن الكفار في قولهم: ﴿لَوۡلَا﴾ أي: هلا يأتينا محمد بآية من ربه أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ (طه: ١٣٣) يعني القرآن الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٠-٥١).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: " مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2]، وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها ﷺ وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد (١/ ٢٥٨)، والحاكم (٢/ ٣٩٤)، وصححه، والطبراني في الكبير (١١٢٩٠)، وعبد بن حميد في مسنده (٧٠٠)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ١٥٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٦)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرةﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ أي لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ (يونس: ٩٧) كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ وقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ الآية وقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾[1]

الوجه السادس: بعض معجزات النبي ﷺ التي فاقت سائر المعجزات.

١- معجزة القرآن:

أعطى الله ﷻ كل نبي من الأنبياء عليهم السلام معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه وأهل زمانه، فلما كان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، بعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار، وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العزيز الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبعثه الله في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد؟ وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك نبينا بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء، فأتاهم بكتاب من عند الله ﷻ، فاتهمه أكثرهم أنه اختلقه وافتراه من عنده، فتحداهم

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٦).

ودعاهم أن يعارضوه ويأتوا بمثله، وليستعينوا بمن شاءوا؛ فعجزوا عن ذلك كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨) وكما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الطور: ٣٣ - ٣٤).

ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في (سورة هود): ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

ثم تنازل إلى سورة فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس: ٣٨)، وكذلك في سورة البقرة وهي مدنية أعاد التحدي بسورة منه، وأخبر تعالى أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا لا في الحال ولا في المآل فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة البقرة: ٢٣-٢٤). وهكذا وقع، فإنه من لدن رسول الله ﷺ وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبدًا؛ فإنه كلام رب العالمين الذي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فأنى يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق؟.

وقد انطوى كتاب الله العزيز على وجوه كثيرة من وجوه الإعجاز: ذلك أن القرآن الكريم معجز في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف، ولا يتفاوت ولا تختلف خصائصه، معجز في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها، فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تتناسب وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية دون أن تصطدم بالفطرة الإنسانية، معجز في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها.

٢ـ انشقاق القمر:

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ (القمر: ١). أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه. (١)

وعن أنس بن مالك ﷺ "أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسولَ الله ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ"(٢).

وفي رواية عبد الله بن مسعود ﷺ "قال: انشق القمر على عهد النبي ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة قال: فقالوا: انتظروا ما تأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال: فجاء السفار فقالوا: ذاك.

وسيأتي تفصيل هذه المعجزة في إثبات المعجزات للنبى الاكرم ﷺ.

٣- الإسراء والمعراج.

٤- نبع الماء من بين أصابعه ﷺ

٥- تكثير الطعام ببركته ودعاءه.

٦ - كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

٧- حنين الجزع لفراق النبى ﷺ.

٨ - تسليم الحجر على النبى ﷺ.

٩- إخبار الشاة له ﷺ بأنها مسمومة.

١٠ - إبراءه للمرضى ﷺ.

١١ - إجابة دعائه ﷺ.

١٢ - إخباره ﷺ بالأحداث التى لم تقع وقد وقعت.

---

(١) الشفا القاضي عياض (٢٨٩).

(٢) البخاري (٣٨٦٨)، ومسلم (٢٨٠٢).

وغيرها كثير من المعجزات التي أجراها الكريم ﷻ -إذ الفضل منه وإليه- على يدي النبي المعصوم ﷺ ولكن من استكبر وعاند طلب أكثر من ذلك، ماذا طلب؟ إنه طلب العذاب، طلب أن ينزل الله عليه آية من السماء كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢)، ولكن الله استجاب لنبيهﷺ كما في الحديث "أَنَّ رَسولَ الله ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بني مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ ﷺ: " سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فأعطاني ثِنْتَيْنِ ومنعني وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أمتي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا"[1].

وقد ذكر الحقﷻ العلة من عدم إ جابته لسؤال هؤلاء القوم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء٥٩)، وقد سبق بيان ذلك، ولكننا نثبت أن الله تبارك وتعالى أجرى معجزات كثيرة على يد نبيه ﷺ وسيأتي تفصيل ذلك في بابه فلتراجع فإنها مهمة.

الوجه السابع: لا يلزم على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون كما في الكتاب المقدس. [2]

فكما تبين من فهم الآيات السابقة نفي المعجزة المقترحة، ولا يلزم من هذا النفي، نفي المعجزات مطلقًا، ولا يلزم على الأنبياء أن يظهروا معجزة كلما طلبها المنكرون؛ بل هم لا يظهرون إذا طلب المنكرون عنادًا أو امتحانًا أو استهزاء، وأورد لهذا الأمر شواهد من **العهد الجديد:**

(١) صحيح مسلم (٢٨٩٠).

(٢) هذا الوجه من كتاب إظهار الحق للهندي (٢/ ٣٧٧)، وراجع أيضا ما كتب في شبهتي: محمد لا يستطيع عمل المعجزات، وإنكار معجزة انشقاق القمر.

(**الأول**) في الباب الثامن من إنجيل مرقص(١٢: ١١): هكذا: فَخَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَابْتَدَأُوا يُحَاوِرُونَهُ طَالِبِينَ مِنْهُ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يُجَرِّبُوهُ. ١٢فَتَنَهَّدَ بِرُوحِهِ وَقَالَ: «لِمَاذَا يَطْلُبُ هذَا الْجِيلُ آيَةً؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَنْ يُعْطَى هذَا الْجِيلُ آيَةً!.

فالفريسيون طلبوا معجزة من عيسى عليه السلام على سبيل الامتحان، فما أظهر معجزة، ولا أحال في ذلك الوقت إلى معجزة صدرت عنه فيما قبل، ولا وعد بإظهارها فيما بعد أيضًا؛ بل قوله لن يعطى هذا الجيل آية، يدل على أن المعجزة لا تصدر عنه فيما بعد هذا البتة؛ لأن لفظ الجيل يشمل الجميع الذين كانوا في زمانه.

(**الثاني**) في الباب الثالث والعشرين من إنجيل لوقا(١١ : ٨): وَأَمَّا هِيرُودُس فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ فَرِحَ جِدًّا، لأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَنْ يَرَاهُ، لِسَمَاعِهِ عَنْهُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَتَرَجَّى أَنْ يَرَى آيَةً تُصْنَعُ مِنْهُ. ٩وَسَأَلَهُ بِكَلاَمٍ كَثِيرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ. ١٠وَوَقَفَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ بِاشْتِدَادٍ، ١١فَاحْتَقَرَهُ هِيرُودُسُ مَعَ عَسْكَرِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسًا لاَمِعًا، وَرَدَّهُ إِلَى بِيلاَطُسَ.

فعيسى عليه السلام ما أظهر معجزة في ذلك الوقت، وقد كان هيردوس يترجى أن يرى منه آية، والأغلب أنه لو رأى لألزم اليهود على اشتكائهم ولما احتقر مع عسكره ولما استهزأ.

(**الثالث**) في الباب الثاني والعشرين من إنجيل لوقا(٦٥: ٦٣): ٦٣وَالرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا ضَابِطِينَ يَسُوعَ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَهُمْ يَجْلِدُونَهُ، ٦٤وَغَطَّوْهُ وَكَانُوا يَضْرِبُونَ وَجْهَهُ وَيَسْأَلُونَهُ قَائِلِينَ: «تَنَبَّأْ! مَنْ هُوَ الَّذِي ضَرَبَكَ؟ » ٦٥وَأَشْيَاءَ أُخَرَ كَثِيرَةً كَانُوا يَقُولُونَ عَلَيْهِ مُجَدِّفِينَ.

ولما كان سؤالهم استهزاء وتوهينًا، ما أجابهم عيسى عليه السلام.

(**الرابع**) في الباب السابع والعشرين من إنجيل متى هكذا: وَكَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ ٤٠قَائِلِينَ: «يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ! ». ٤١وَكَذلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَيْضًا وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ مَعَ الْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ قَالُوا: ٤٢«خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا!

إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الآنَ عَنِ الصَّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ! ٤٣قَدِ اتَّكَلَ عَلَى اللهِ، فَلْيُنْقِذْهُ الآنَ إِنْ أَرَادَهُ! لأَنَّهُ قَالَ: أَنَا ابْنُ اللهِ! ». ٤٤وَبِذلِكَ أَيْضًا كَانَ اللِّصَّانِ اللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ يُعَيِّرَانِهِ.

فما خلص نفسه عيسى عليه السلام في هذا الوقت، وما نزل عن الصليب وإن عيره المجتازون، ورؤساء الكهنة، والكتبة، والشيوخ، واللصان. ورؤساء الكهنة، والكتبة، والشيوخ كانوا يقولون: إنه إن نزل عن الصليب نؤمن به، فكان عليه لدفع العار، ولإلزام الحجة أن ينزل مرة عن الصليب ثم يصعد. . ولكنهم لما كان مقصودهم العناد، والاستهزاء، ما أجابهم عيسى عليه السلام.

(**الخامس**) في الباب الثاني عشر من إنجيل متى(٤٠: ٣٨): حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ. ٤٠لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ.

فطلب الكتبة والفريسيون معجزة، فما أظهرها عيسى عليه السلام في هذا الوقت، وما أحالهم إلى معجزة صدرت عنه فيما قبل هذا السؤال؛ بل سبهم وأطلق عليهم لفظ الفاسق والشرير، ووعد بالمعجزة التي لم تصدر عنه؛ لأن قوله كما كان يونان في بطن الحوت الخ، غلط بلا شبهة كما علمت في الفصل الثالث من الباب الأول، وإن قطعنا النظر عن كونه غلطًا، فمطلق قيامه لم ير الكتبة، والفريسيون بأعينهم، ولو قام عيسى عليه السلام من الأموات، كان عليه أن يظهر نفسه على هؤلاء المنكرين الطالبين آية ليصير حجة عليهم، ووفاء بالوعد. وهو ما أظهر نفسه عليهم، ولا على اليهود الآخرين، ولو مرة واحدة، ولذلك لا يعتقدون هذا القيام؛ بل هم يقولون من ذاك العهد إلى هذا الحين، إن تلاميذه سرقوا جثته من القبر ليلًا.

(**السادس**) في الباب الرابع من إنجيل متى(٧: ٣): فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرِّبُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ خُبْزًا». ٤فَأَجَابَ وَقَالَ: «مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ

وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ». ٥ثُمَّ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَوْقَفَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ، ٦وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلَ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لاَ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ». ٧قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَكْتُوبٌ أَيْضًا: لاَ تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلهَكَ.

فطلب إبليس على سبيل الامتحان من عيسى عليه السلام معجزتين، فما أجاب بواحدة منهما، واعترف في المرة الثانية أنه لا يليق بالمربوب أن يجرب ربه، بل مقتضى العبودية مراعاة الأدب وعدم التجربة.

(**السابع**) في الباب السادس من إنجيل يوحنا (٣١: ٢٩): ٢٩ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «هذَا هُوَ عَمَلُ اللهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ». ٣٠ فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ ٣١ آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا.

فاليهود طلبوا معجزة فما أظهرها عيسى عليه السلام، ولا أحال إلى معجزة فعلها قبل هذا السؤال؛ بل تكلم بكلام مجمل، لم يفهمه أكثر السامعين؛ بل ارتد كثير من تلاميذه بسببه. كما هو مصرح به في الآية السادسة والستين من الباب المذكور، وهي في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا: (ومن هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه). وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٣٥: (ومن ثم ارتد كثير من تلاميذه على أعقابهم ولم يماشوه بعد ذلك أبدًا).

(**الثامن**) في الباب الأول من الرسالة إلى أهل قورنيثوس(٢٣: ٢٢): فإن اليهود يسألون معجزة، واليونانيون يطلبون حكمة، ونحن نكرز بالمسيح المصلوب وذلك معثرة لليهود وحماقة لليونانيين.

فاليهود كما كانوا يطلبون المعجزة من المسيح عليه السلام كانوا يطلبونها من الحواريين أيضًا، وأقر مقدسهم بولس بأنهم يطلبون المعجزة ونحن نكرز بالمسيح المصلوب.

فظهر من هذه العبارات المنقولة أن عيسى عليه السلام والحواريين ما أظهروا معجزة بين أيدي الطالبين في الأوقات التي طلبوا المعجزات فيها، ولا أحالوا المنكرين إلى معجزة فعلوها قبل هذه الأوقات، فلو استدل أحد بالآيات المذكورة على أن عيسى عليه السلام والحواريين ما كان لهم قدرة على إظهار أمر خارق للعادات، وإلا لصدر عنهم في الأوقات المذكورة وأحالوا المنكرين إلى أمر خارق صدر عنهم قبل هذه الأوقات. فلما لم يظهر منهم أحد الأمرين ثبت أنهم ما كان لهم قدرة على إظهاره، يكون هذا الاستدلال عند القديسين محمولًا على الاعتساف ويكون قوله خلاف الإنصاف، فكذا قول القسيسين عندنا بالتمسك ببعض الآيات القرآنية التي عرفت حالها خلاف الإنصاف وعين الاعتساف، كيف لا؟ والمعجزات المحمدية مصرح بها في القرآن والأحاديث الصحيحة. كما سبق بيان ذلك.

* * *

سورة الأعراف

وفيها:

١- شبهة: حول اللباس والريش.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾.

٣- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٤- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾.

١- شبهة: حول اللباس والريش.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٦) تُرى ما هو ذلك اللباس الذي يواري السوءات؟ وما هو الريش ولباس التقوى؟ فالقرآن لا يشرح لنا شيئًا عن ذلك؛ مع أنه في غاية الأهمية لستر الإنسان الذي أذله الشيطان وعراه وفضحه، ولكن القرآن جاء فيه لأصحابه: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٤٣)، فإن سفر التكوين في التوراة يقول لنا: إن آدم و حواء لم يفلحا في ستر نفسيهما وهما يخصفان عليهما من ورق الجنة، فصنع الرب الإله لآدم و امرأته أقمصة من جلد و ألبسهما (تكوين٢١: ٣) إذن كانت هناك ذبيحة سفك دمها وأخذ جلدها لستر آدم وحواء، لقد فداهما الله بذبح عظيم؛ لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة (العبرانيين ٢٢: ٩)، وهذا رمز للمسيح المخلص الآتي الذي هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم (يوحنا٣٦، ٢٩: ١)، ويقول نبي الله إشعياء في التوراة: فرحًا أفرح بالرب تبتهج نفسي ياإلهي؛ لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص كساني رداء البر. (إشعياء١٠: ٦١).

و الجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: سبب نزول هذه الآية.

الوجه الثاني: تفسير الآية.

الوجه الثالث: معنى اللباس.

الوجه الرابع: معنى قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

الوجه الخامس: اللباس في الكتاب المقدس، وبطلان عقيدة الصلب والفداء.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: سبب نزول هذه الآية.

عن عكرمة في قوله: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ قال: نزلت في الحمس من قريش، ومن كان يأخذ مأخذها من قبائل العرب الأنصار: الأوس، والخزرج، وخزاعة، وثقيف، وبني عامر بن صعصعة، وبطون كنانة بن بكر كانوا لا يأكلون اللحم، ولا يأتون البيوت إلا من أدبارها، ولا يضطربون وبرًا ولا شعرًا؛ إنما يضطربون الأدم ويلبسون صبيانهم الرهاط، وكانوا يطوفون عراة إلا قريشًا، فإذا قدموا طرحوا ثيابهم التي قدموا فيها، وقالوا: هذه ثيابنا التي تطهرنا إلى ربنا فيها من الذنوب والخطايا، ثم قالوا لقريش: من يعيرنا مئزرًا؟ فإن لم يجدوا طافوا عراة، فإذا فرغوا من طوافهم أخذوا ثيابهم التي كانوا وضعوا.

وقال قتادة: كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أُحله

فأمر الله سبحانه بالستر فقال: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ يستر عوراتكم[(١)].

معنى قوله تعالى ﴿وَرِيشٗا﴾:

قال أهل اللغة: (ريش) الرِّيشُ كِسْوةُ الطائر، والجمع: أَرياش ورِياشٌ، وقُرئ: (ورِياشًا ولِباسُ التَّقْوى).

والرِّيشُ والرِّياشُ: الخِصْبُ والمعاشُ والمالُ والأَثاثُ واللِّباسُ الحسَنُ الفاخرُ وفي التنزيل العزيز: ﴿وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، وقد قرئ: (رِياشًا) على أَن ابن جني قال: رِياشٌ قد يكون جمعَ ريش كلِهْبٍ ولِهابٍ.

وقال محمد بن سَلامٍ: سمعت سلامًا أَبا مُنْذِرٍ القارئ يقول: الرِّيشُ الزِّينةُ، والرِّياشُ كلُّ اللباس، قال: فسأَلت يونسَ فقال: لم يقل شيئًا هما سواءٌ؛ الرِّيشُ والرِّياشُ ما ظهَر من اللباس، والرِّياشُ القِشْرُ وكلُّ ذلك من الرِّيشِ[(٢)].

---

(١) الدر المنثور (٣/ ٤٣١-٤٣٤)، والبغوي في التفسير (٢/ ١٥٤).

(٢) لسان العرب (٦/ ٣٠٨)، والصحاح (٣/ ٨٤٧)، والقاموس المحيط (١/ ٨١١).

وقال الأزهري: وقال القتيبي: الرِّيش والريَاش واحد، وهما ما ظهر من اللباس، وريش الطائر ما ستره الله تعالى به[(١)].

وقال ابن عاشور: والرّيش لباس الزّينة الزائد على ما يستر العورة، وهو مستعار من ريش الطّير لأنّه زينته، ويقال للباس الزّينة: رِياش[(٢)].

وقال ابن عباس‏ﷺ: وريشًا: المال، وصله ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: (ورياشًا) قال: مالًا، ومن طريق مجاهد والسدي وعروة بن الزبير والضحاك فرقهما قال في قوله: ﴿وَرِيشًا﴾ قال: المال[(٣)].

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال[(٤)].

وقال ابن جرير: والرياش في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر منها من المتاع والثياب مما يلبس، والريش إنما هو المتاع والأموال عندهم[(٥)].

الوجه الثاني: تفسير الآية.

قال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأعراف: ٢٦).

يقول جل ثناؤه للجهلة من العرب الذين كانوا يتعرَّون للطواف، اتباعًا منهم أمرَ الشيطان، وتركًا منهم طاعةَ الله، فعرفهم انخداعهم بغروره لهم، حتى تمكن منهم فسلبهم مِنْ ستر الله الذي أنعمَ به عليهم، حتى أبدى سوءاتهم وأظهرها من بعضهم لبعض، مع

---

(١) تهذيب اللغة (١١/ ٤٠٩).

(٢) التحرير و التنوير (٨/ ٧٥).

(٣) صحيح البخاري (٨/ ١٤٨)، وتفسير الطبري (٨/ ٢٤٨) وابن أبي حاتم (٥/ ٨٣٣١) وابن كثير (٦/ ٢٧٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨/ ١٤٨) وابن كثير (٦/ ٢٧٧)، وفيه عبد الرحمن بن زيد (ضعيف) كما في تقريب التهذيب (١/ ٣٩٧٤).

(٥) جامع البيان ٨/ ١٤٧، وذكر البناء في (إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ٢٨١) قراءة (ورياشًا) عن الحسن البصري.

تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دلاهما بغرور حتى سلبهما ستر الله الذي كان أنعم به عليهما حتى أبدى لهما سوءاتهما فعرّاهما منه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ يعني بإنزاله عليهم ذلك: خلقَه لهم ورزقَه إياهم، واللباس: ما يلبسون من الثياب، ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم، فهذه منة يمتن الله بها على عباده، بما جعل لهم من اللباس والرياش، فاللباس المذكور ها هنا لستر العورات وهي السوآت[1].

الوجه الثالث: معنى اللباس.

قال ابن منظور: اللُّبْسُ بالضم مصدر قولك: لبست الثوب أَلْبَس. . واللِّبَاسُ ما يُلْبَس وكذلك المَلْبَس، واللِّبْسُ بالكسر مثلُه. ابن سيده: لَبِسَ الثوب يَلْبَسُه لُبْسًا، وأَلْبَسَه إياه، وأَلْبَس عليك، ثوبَك، وثوب لَبِيس إذا كثر لُبْسُه. .

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ (الأنبياء: ٨٠)، يعني: الدروع، وتلبس بالأمر وبالثوب، ولابست الأمرَ: خالطته، ولابست فلانًا: عرفت باطنه، وما في فلان ملبس أي: مستمتع، والتبس عليه الأمر أي: اختلط واشتبه.

ولباس كل شيء: غشاؤه، ولِباس الرجل امرأَتُه، وزوجُها لِباسُها، وقوله تعالى في النساء: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) أَي: مثل اللِّباسِ.

والعرب تسَمِّي المرأَة لِباسًا وإِزارًا. . ولباس التقوى: الحياء هكذا جاء في التفسير، ويقال: الغليظ الخشن القصير[2].

وقال ابن عاشور: واللّباس اسم لمايلبَسه الإنسان أي: يستُر به جزءًا من جسده، فالقميص لباس، والإزار لباس، والعمامة لباس، ويقال: لبس التّاج ولبس الخاتم؛ قال تعالى:

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٦)، والخازن (٢/ ١٩٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٦).

(٢) لسان العرب (٦/ ٢٠٢)، والصحاح (٢/ ٨٢٠)، والقاموس المحيط (١/ ٧٨٣).

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل: ١٤)، ومصدر لبس: اللُّبس بضمِّ اللاّم[١].

وقال ابن عرفة: اللباس من الملابسة أي: الاختلاط والاجتماع[٢].

الوجه الرابع: معنى قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

قال ابن الأنباري: لباس التقوى: هو اللباس الأول؛ وإنما أعاده إخبارًا أنَّ ستر العورة من التقوى وذلك خير، وقيل: إنما أعاده لأجل أن يخبر عنه بأنه خير؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت، فأخبر أن ستر العورة في الطواف هو لباس التقوى وذلك خير.

وقال زيد بن علي - رحمه الله تعالى-: لباس التقوى آلات الحرب التي يتقى بها في الحروب كالدروع و المغفر ونحو ذلك. وقيل: لباس التقوى هو الصوف والخشن من الثياب التي يلبسها أهل الزهد والورع، وقيل: هو ستر العورة في الصلاة؛ قاله ابن زيد[٣].

ومن حمله على معناه المجازي: فجمهور مفسري السلف على أنه اللباس المعنوي المجازي، فعن عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقال: هو خير مما يلبس أهل الدنيا. [٤] وقال قتادة: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإيمان[٥]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: يتقي الله فيواري عورته؛ ذلك: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وعن زيد بن علي تفسيره: بالإسلام، ومنهم من قال: إنه الحياء؛ وهو قول الحسن، وعن عروة ابن الزبير﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: خشية الله[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٦٤).

(٢) تاج العروس (١/ ٤١٢٠).

(٣) الخازن (٢/ ١٩١)، والبغوي (٢/ ١٥٥) وابن الجوزي (٣/ ١٨٣)، والشوكاني (٢/ ٢٧٩).

(٤) **إسناده حسن**. رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٥/ ٨٣٤١).

(٥) **إسناده صحيح**. أخرجه ابن جرير (٨/ ١٤٩).

(٦) ابن جرير (٨/ ١٤٩)، وابن كثير (٦/ ٢٧٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٥٨).

وقيل: هو ما يظهر على الإنسان من السكينة والإخبات والعمل الصالح، وقيل: هو العفاف والتوحيد(١).

وأما المختار من هذه الأقوال فقد قال ابن جرير في تفسيره:

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: استشعار النفوس تقوى الله، في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان، والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسمتَ الحسن؛ لأن مَنْ اتقى الله كان به مؤمنًا، وبما أمره به عاملًا، ومنه خائفًا، وله مراقبًا، ومن أن يُرَى عند ما يكرهه من عباده مستحييًا، ومَنْ كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه فحسن سَمْته وهَدْيه، ورُئِيَتْ عليه بهجة الإيمان ونوره(٢).

وقال الشوكاني: والمراد بلباس التقوى: لباس الورع، واتقاء معاصي الله؛ وهو الورع نفسه والخشية من الله، فذلك خير لباس وأجمل زينة، وقال: وهو الأولى؛ وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال(٣).

وكذا قال القرطبي في تفسيره(٤).

الوجه الخامس: اللباس في الكتاب المقدس، وبطلان عقيدة الصلب والفداء.

قصة آدم في الكتاب المقدس:

يعتقد النصارى أن بسبب خطيئة آدم ﷺ أبي البشر في أكله من الشجرة التي نهاه الله عنها في الجنة -قامت نظرية الصلب والفداء، وتعني صلب المسيح ﷺ نيابة عن الجنس البشري وفداءً له؛ إذ كان على الله بمقتضى صفة العدل أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة المشار إليها والتي ارتكبها أبوهم، لكن بمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئاتهم،

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ١٥٥)، وفتح البيان (٤/ ٣٢٣)، والتفسير الكبير (١٤/ ٥٢).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٥١).

(٣) فتح القدير (٢/ ٢٧٩).

(٤) تفسير القرطبي (٧/ ١٨٤).

ولم يكن هناك طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط المسيح ابن الله -في اعتقادهم-، وقبوله أن يظهر في شكل إنسان، وأن يعيش كما يعيش الناس، ثم يُقتل ويُصلب ظلمًا؛ وذلك ليكفر خطيئة آدم أبي البشر في ذريته، وهذا ما يعبر عنه النصارى بالخلاص، وهنا تمت المصالحة بين الله والناس. والرد على هذا الكلام يسير طبقًا للآتي:

أولًا: أين كان عدل الله ورحمته إذًا منذ طرد آدم من الجنة حتى صُلب المسيح في زعمهم؟ فهل كان الله حائرًا بين العدل والرحمة آلاف السنين حتى قبل مجيء المسيح منذ ألف عام فقط حتى يُصلب للتكفير عن خطيئة آدم عليه السلام؟!

ثانيًا: من عدل الله عز وجل ألا ينقص أحدًا من حسناته، ولا يعاقبه إلا بذنبه، ولا يجوز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنب أبيهم.

ثالثًا: الزعم بأن خطيئة آدم قد عمت سائر أولاده، وأنه لا يطهرهم عن خطاياهم إلا قتل المسيح! ! التوراة والنبوات ترد هذه المقالة الشوهاء كما في كتابهم المقدس: (لاَ يُقْتَلُ الآبَاءُ عَنِ الأَوْلاَدِ، وَلاَ يُقْتَلُ الأَوْلاَدُ عَنِ الآبَاءِ، كُلُّ إِنْسَانٍ بِخَطِيَّتِهِ يُقْتَلُ) (التثنية ٢٤/ ١٦).

إن آدم عليه السلام قد ارتكب خطيئة وأخذ جزاءه، وهو الخروج من الجنة، ثم أدرك خطأه فتاب لله فقبل الله توبته واجتباه؛ قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ (طه: ١٢١-١٢٢).

والرد على عقيدة الصلب والفداء وبطلانها من الناحية العقلية:

إذا كان الله سبحانه لم يرد الانتقام من آدم عليه السلام لمعصية، فمن باب أولى أن يتوب على صاحب الذنب ويعفو عنه، ولا يحمِّله لغيره من باب العدل الإلهي.

النصارى تقول: إن عيسى إله! فكيف وقع على الناسوت فقط؟ وهم يقولون: إن الناسوت في اللاهوت كالماء في اللبن جوهران أصبحا جوهرًا واحدًا، فكيف يُعقل هذا؟!

إذا كان عيسى عليه السلام إلهًا قد صُلب ودُفن كما يقولون، فمن الذي أمسك السموات من

السقوط؟ والأرض أن تميد؟ ومن دبر شئون الخلق في هذه اللحظات التي غاب فيها الإله؟!

لماذا لم تذكر التوراة أمر لصوق الخطيئة ببني آدم وفيهم الأنبياء، وقد ذكرت ما هو أدنى من ذلك مع أن هذا الأمر من الأهمية بمكان؟ وكيف لا وهو قد حكم على جميع بني آدم حتى الأنبياء بتوارثهم خطيئة أبيهم آدم، حتى جاء عيسى عليه السلام ليخلصهم بذلك.

وأيضًا نقول: إن النص في سفر التكوين: (وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا). يدل على غفران الله لذنبهما، فالرب بنفسه صنع لهما هذه الأقمصة، فلو لم يغفر لهما لتركهما يصطادان ويعالجان الجلد ليصنعا لأنفسهما هذه الأقمصة إمعانًا في إجهادهما، وتنفيذًا لوعيده لهما أن يشقيا في الأرض.

وبذلك يتضح لنا بطلان عقيدة الصلب والفداء، يحاولون أن يستدلوا على عقيدة باطلة بأن المسيح مات على الصليب فداءً لخطايا البشر بأن ذبح، ويقولون: إن أي ذبح هو إشارة لدم المسيح؛ كقوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾، أو غير ذلك من الآيات التي يحاولون تفسيرها بما يليق بمعتقدهم الفاسد، فلا المسيحُ صُلب، ولا الذبيحُ كان، ولا الخلاص لهم تم على الصليب كما يزعمون[1].

* * *

(١) انظر شبهة: (الصلب والفداء وبطلانها).

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾.

نص الشبهة:

ما كان جواب قومه؟ جواب قوم لوط في سورة الأعراف مختلف عن سورة العنكبوت ففي سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ (الأعراف: ٨٣).

وفي الموضع الآخر قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ (العنكبوت: ٢٨-٢٩).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

كان نبي الله لوط عليه السلام ثابتًا على الإرشاد مكررًا عليهم التغيير والنهي والوعيد، فقالوا أولًا: ائتنا، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوا، ثم إن لوطًا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فإن الله لا يحب المفسدين: حتى ينجز النصر[1].

زيادة وتوضيح:

لما أنكر لوط عليه السلام ما كانوا يفعلونه أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي ما أجابوا بشيء إلا بهذا القول رجوعًا منهم إلى التكذيب واللجاج والعناد وقد تقدم في سورة النمل:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٥/ ٥٨)، وانظر البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ١٤٦).

وتقدم في سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾

وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطًا كان ثابتًا على الإرشاد ومكررًا للنهي لهم والوعيد عليهم، فقالوا له أولًا: ائتنا بعذاب الله كما في الآية، فلما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوهم كما في سورة الأعراف والنمل، وقيل: إنهم قالوا أولًا: أخرجوهم من قريتكم ثم قالوا ثانيًا: ائتنا بعذاب الله[1].

(**فائدة**): في آية العنكبوت اختلف فيها الجواب عن سورة الأعراف وهي: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ومتى كان الكلام مفهومًا كان صحيحًا فصيحًا وإن أشكل على جامدي النحاة إعرابه.

فإن قيل: إن في حكاية الجوابين تعارضًا في المعنى محكيًا بصيغة النفي والإثبات فيهما فكيف وقع هذا في كتاب الله تعالى وما الذي يدفع هذا التعارض؟ قلنا: إنه لا تعارض ولا تنافي بين الجوابين لحملها على الوقوع في وقتين، ولا شك أنه كان ينهاهم كثيرًا فكان يسمع في كل وقت كلامًا ممن حضر منهم، وقد قلنا: إن قصص القرآن لم يقصد بها سرد حوادث التاريخ؛ بل العبرة والموعظة فيما يذكر في كل سورة من القصة الواحدة من المعاني والمواعظ مالا يذكر في الأخرى، ومجموعها هو كل ما أراد الله تعالى أن يعظ به هذه الأمة. فمن المعهود أن الرسل عليهم السلام -وَكَذَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْوُعَّاظِ الذين ينهون الضالين والمجرمين عن المنكر -يُكَرِّرُونَ لهم الوعظ بمعان متقاربة. وقد حكى الله تعالى من قول رسوله لوط عليه السلام لقومه في سورة العنكبوت ما لم يحكه في سورتي الأعراف والنمل فزاد على إتيانهم الرجال قطع السبيل، وإتيانهم المنكر في النادي الحافل والمجلس الحاشد، فكأنهم ضاقوا به ذرعًا واستعجلوا العذاب الذي أنذرهم إذا أصروا على عصيانه. والأظهر أن هذا كان بعد أمرهم بإخراجه وأن

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٨٢).

التوعد بالإخراج كان قبل الأمر به والله أعلم[١].

نكته بلاغية:

حصر الله جوابه في هذا المعنى المؤدي بهذا اللفظ لا ينافي آية العنكبوت القائلة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن إطلاق الجواب على هذا يجوز، والمعنى: فما كان قولهم في جوابه إلا إتيانهم بما لا يصلح جوابًا، وذلك مضمون هذا القول وغيره مما لا يتعلق بالجواب، أو أن هذا الجواب لما كان فيه من التكذيب والإيذان بالإصرار والإغلاظ لرسول الله ﷺ مستلزمًا للعذاب، كانوا كأنهم نطقوا به فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ جعل نطقهم بالسبب نطقًا بالمسبب، أو أنهم استعملوا لكل مقام مقالًا، ويؤيده أن المعنى لما اتحد هنا وفي سورة النمل: حصر الجواب في هذا، أي: فما كان جوابهم هذا القول إلا هذا، ولما زادهم في العنكبوت في التقريع فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أتوه بأبلغ من هذا تكذيبًا واستهزاء فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[٢].

* * * *

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٨/ ٥١٢).

(٢) نظم الدرر لأبي الحسن البقاعي (٣/ ٦٤).

٣- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ من القائل؟ فرعون أم الملأ؟

قال الله تعالى في سورة (الأعراف: ١٠٩): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾، وقال الله في سورة(الشعراء: ٣٤): ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

والرد عليه من وجوه

الوجه الأول:

لا يمتنع أنه قد قاله هو وقالوه هم، فذكر الله تعالى قوله ثَمَّ، وقولهم ههنا[١].

الوجه الثاني:

أن فرعون قاله ابتداء فتلقته منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه للناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة للعامة.

نكتة بلاغية:

في سورة الشعراء أسند الله هذا الكلام إلى فرعون؛ لأن السياق كله لتخصيصه بالخطاب لما تقدم، ونظرًا إلى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤).

لأن خضوعه هو خضوع من دونه، فدلالته على ذلك أظهر، ولا ينفي ذلك أن يكون قومه قالوه إظهارًا للطواعية كما مضي في الأعراف[٢].

* * *

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٣٩)، وانظر التفسير الكبير للرازي (١٤/ ١٩٦)، وأنموذج جليل لأبي بكر الرازي (١٥٣)، والبحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٣٥٨).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ٣٥٧).

٤- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾.

نص الشبهة:

جاء في سورة (الأعراف)قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾، ومعروف أن موسى كتب الشريعة على اللوحين كتب الوصايا العشر فقط وليس كل شيء.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: هذه المعرفة المدعاة ليست بلازمة فقد ثبت تحريف كتابكم فلا حجة فيه على ما عندنا

عن ابن عباس قال: أعطى الله موسى عليه السلام التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء، وموعظة التوراة مكتوبة من يديه فتحطمت، وأقبل على هارون فأخذ برأسه، فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبعًا. (١)

الوجه الثاني: إنما سماها الله تعالى ألواحًا على مذهب العرب في إيقاع الجمع على التثنية(٢).

الوجه الثالث: جاءت ألواح على صيغ الجمع؛ لأنهما كانا مكتوبين على كلا وجهيهما، كما يقتضيه الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج فكانا بمنزلة أربعة ألواح(٣).

فَانْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ: لَوْحَانِ مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا. مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا كَانَا مَكْتُوبَيْنِ. (سفر الخروج ٣٢/ ١٥).

الوجه الرابع: اعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه.

* * * *

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٣).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٢٥٨)، وانظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٧٥).

(٣) السابق (٩/ ٩٦).

سورة الأنفال

وفيها:

١- شبهة: حول الطمأنينة، ووجل القلوب.

٢- شبهة: حول متى يُستجاب للرسول ﷺ؟

٣- شبهة: حول هل الإنسان يحمل وزر الآخرين؟

٤- شبهة: حول نفي العذاب وإثباته.

٥- شبهة: حول العشرون والمائة.

٦- شبهة: حول آيات متعارضة بين سورتي الأنفال والتوبة في نفي وإثبات الولاية.

١- شبهة: حول الطمأنينة، ووجل القلوب.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢)، وهذه الآية لها نظائر منها قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٣)، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨)، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، تدل على أن وجل القلوب عند سماع ذكر الله من علامات المؤمنين، وقد جاءت في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك، وهي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، فالمنافاة بين الطمأنينة ووجل القلوب ظاهرة.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى الوجل الذي في الآية.

الوجه الثاني: جمع الله بين المعنيين في آية واحدة ليتضح المراد.

الوجه الثالث: قد يحمل الوجل عند ذكر وعيده، ويحمل الاطمئنان عند ذكر وعده.

الوجه الرابع: أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى.

الوجه الخامس: أن المراد: أن علمهم يكون القرآن معجزًا يوجب حصول الطمأنينة لهم.

الوجه السادس: أنه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى الوجل الذي في الآية.

قال القرطبي: "الوجل": الخوف[1].

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٩).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: قال الراغب: "الوجل" استشعار الخوف يعني ما يجعل القلب يشعر به بالفعل وعبر غيره عنه بالفزع والخوف.[(١)]

قال القنوجي: "وجلتا" أي فزعت وخضعت وخافت ورقت قلوبهم لذكر الله استعظامًا له وتهيبٌ من جلاله، والوجل: الخوف والفزع ويقال بإثبات الواو في المضارع، والمراد أن حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان المخلصين لله[(٢)].

الوجه الثاني: جمع الله بين المعنيين في آية واحدة ليتضح المراد

فقال الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣).

قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار لما يفهمون منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات -القينات- أي المغنيات. . .

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا و بكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ (الأنفال: ٢)، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ۝٧٣﴾ (الفرقان: ٧٣)؛ أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليه فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٨٩).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ١٢٩).

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ﷺعند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم؛ بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك. (١)

قال القرطبي: وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)؛ أي تسكن من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله، فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطَّغَام. (٢)

الوجه الثالث: قد يحمل الوجل عند ذكر وعيده، ويحمل الاطمئنان عند ذكر وعده

قال الشيخ محمد رشيد رضا: فيقابل بين هذه الآية - أي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وما في معناها وبين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ (الرعد: ٢٨)، فيظن أن بينهما تعارضًا، فيحاول التقصي منه بحمل هذا على ذكر الوعد والآخر على ذكر الوعيد، ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ففي كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال، وذكر آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق اطمئنان للقلوب بالإيمان بالله تعالى والثقة بما عنده. (٣)

قال صاحب فتح البيان: فإن قيل قال هنا: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾، فكيف الجمع بينهما؟

قلت: الاطمئنان بذكره بصفات الجمال، والوجل إنما هو بذكر وعيده. (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٩)، والرازي (١٥/ ١١٨).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٥٩٠).

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ١٣٠).

قال الرازي: إنهم إذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصي، فهناك وصفهم بالوجل، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم إلى ذلك، وأحد الأمرين لا ينافي الآخر؛ لأن الوجل هو بذكر العقاب، والطمأنينة بذكر الثواب، ويوجد الوجل في حال فكرهم في المعاصي، وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات. (١)

الوجه الرابع: أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى. (٢)

فكلما ذكر المؤمن ربه كلما اطمئن قلبه وانشرح صدره إلى الحق، ومعرفة التوحيد، ومعرفة شرائع الله جل وعلا، وهذه حاله تنتابه، وإذا ذكر ربه أيضًا وجل وخاف أن يقع في المعصية، أو يبعد عن الرشاد والهدى، وقد أشارت آيات كثيرة إلى مثل هذا، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨)، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

قال القاضي عبد الجبار: وجوابنا: أن الطمأنينة المذكورة هاهنا المراد بها المعرفة وسكون النفس إلى المجازاة مع الوجل والخوف من المعاصي؛ فالكلام متفق عليه؛ لأن المؤمن ساكن النفس إلى معرفة الله تعالى، وإلى المجازات على الطاعات، ومع ذلك خائف مما يخشاه من التقصير ووجل القلب، فظن في مثل ذلك أنه مختلف إذ قد نادى على نفسه بقلة المعرفة، ولذا قال تعالى بعده: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ (الرعد: ٢٩). (٣)

الوجه الخامس: أن المراد: أن علمهم بكون القرآن معجزًا يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمد ﷺ نبيًا حقًّا من عند الله؛ أما شكهم في أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل في قلوبهم. (٤)

---

(١) تفسير الرازي (١٩/ ٤٩).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١٠٣).

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار (٢٢٩).

(٤) تفسير الرازي (١٩/ ٤٩).

الوجه السادس: أنه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده وأن محمد ﷺ صادق في كل ما أخبر عنه، إلا أنه حصل الوجل والخوف في قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب، أم لا؟ و هل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا؟. (١)

* * *

(١) تفسير الرازي (١٩/ ٤٩).

٢- شبهة: حول متى يُستجاب للرسول ﷺ؟

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٤)

وهذه الآية تدل بظاهرها على أن الاستجابة للرسول ﷺ - التي هي طاعته- لا تجب إلا إذا دعانا لما يحيينا ونظيرها: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾، وقد جاء في آيات أخرى ما يدل على وجوب اتباعه مطلقًا من غير قيد كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾، وقوله: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾، وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾﴾.

والجواب على ذلك كما يلي:

الوجه الأول: معنى الآية تدل على عموميتها.

الوجه الثاني: أن آيات الإطلاق مبينة أنه ﷺ لا يدعونا إلا لما يحيينا من خيري الدنيا والآخرة.

الوجه الثالث: حديث أبي سعيد بن المعلي وغيره يدلُّ على أن الحكم عام وغير مخصوص بشرط معين.

الوجه الرابع: لا يمكن حمل الحياة ها هنا على نفس الحياة لأمور.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى الآية تدل على عموميتها.

بعد أن ذكر أقوالًا كثيرة لمعنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾.

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال في الصواب قول من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة إذا دعاكم لما يحييكم من الحق، وذلك أن ذلك إذا كان معناه كان داخلًا

فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب، أما في الدنيا فيقال الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها(١).

قال البخاري: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ أي أجيبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم(٢).

الوجه الثاني: أن آيات الإطلاق مبينة أنه ﷺ لا يدعونا إلا لما يحيينا من خيري الدنيا والآخرة.

فالشرط المذكور في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ متوفر في دعاء النبي ﷺ لمكان عصمته كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤)، والحاصل أن آية: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مبينة أنه لا طاعة إلا لمن يدعو إلى ما يرضي الله، وأن الآيات الأخر بينت أن النبي ﷺ لا يدعوا أبدًا إلا إلى ذلك، صلوات الله وسلامه عليه(٣).

الوجه الثالث: حديث أبي سعيد بن المعلي وغيره يدلُ على أن الحكم عام وغير مخصوص بشرط معين. (٤)

قال ابن عاشور: فالآية تقتضي الأمر بالامتثال لما يدعو إليه الرسل سواء دعا حقيقة بطلب القدوم أم طلب عملًا من الأعمال، فلذلك لم يكن قيد لما يحييكم مقصودًا لتقييد الدعوة ببعض الأحوال؛ بل هو قيد كاشف، فإن الرسول ﷺ لا يدعوهم إلا وفي حضورهم لديه حياة لهم، ويكشف عن هذا المعنى في قيد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ما رواه أهل الصحيح عن أبي سعيد بن المعلي قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي فقال: " ألم يقل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢١٤).

(٢) البخاري (٤/ ١٧٣٤).

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (١٠٣).

(٤) تفسير الرازي (١٥/ ١٤٦).

ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ الحديث. [١]، فوقفه على قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ يدل على أن: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ قيد كاشف.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يَا أُبَيُّ». وَهُوَ يُصَلِّي، فَالْتَفَتَ أُبَيٌّ وَلَمْ يُجِبْهُ، وَصَلَّى أُبَيٌّ فَخَفَّفَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ! مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ؟ ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ فِي الصَّلاَةِ. قَالَ: « أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ أَنِ ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ ". قَالَ: بَلَى وَلاَ أَعُودُ إِنْ شَاءَ اللهُ. قَالَ: « تُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا». قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلاَةِ؟ ». قَالَ: فَقَرَأَ أُمَّ الْقُرْآنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ ". [٢]

ثم ذكر ابن عاشور أمثلة أخرى في مثل هذا ثم قال: فتكون عدة قضايا متماثلة، ولا شك أن القصد منها التنبيه على هذه الخصوصية لدعاء الرسول ﷺ[٣].

الوجه الرابع: لا يمكن حمل الحياة ها هنا على نفس الحياة

وذلك لأمور؛ منها: أن إحياء الحي محال؛ فوجب حمله على شيء آخر وهو الفوز بالثواب، وكل ما دعا الله إليه ورغب فيه، فهو مشتمل على الثواب، فكان هذا الحكم عامًا في جميع الأوامر، وذلك يقيد المطلوب. [٤]

* * *

(١) البخاري (٤٦٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٧٨)، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند (٢/ ٤١٢)، والنسائي في الكبرى (١١٢٠٥)، وابن خزيمة (٨٦١).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٣١٣).

(٤) تفسير الرازي (١٥/ ١٤٦).

٣- شبهة: هل الإنسان يحمل وزر الآخرين؟

نص الشبهة:

كيف يتفق قول الله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ (الأنفال: ٢٥)، وحديث " **إن الله لايعذب العامة بعمل الخاصة. . .** "[1] مع آية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾، وآية: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأصل أنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾.

الوجه الثاني: استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الوجه الثالث: العقاب أو الفتنة التي تنزل على الكل أو العامة طهرة للمؤمنين، نقمة للفاسقين.

الوجه الرابع: أن ذلك على سبيل التحذير حتى لا يكون جزاء من خالف العقوبة.

الوجه الخامس: أن الله إذا أنزل العقوبة على من أذنب ومن لم يذنب بعث كل واحد على نيته.

الوجه السادس: قد تنزل العقوبة على العوام؛ لأنهم سبب في نشر المعاصي والفتن.

الوجه السابع: الفتنة سببها الإنسان فيضر المفسد الصالح، وهي في ذلك ابتلاء للطائع والعاصي.

الوجه الثامن: إن الله تعالى قد ينزل الموت والفقر والعمى والزمانة بعبده ابتداء.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأصل أنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾.

قال ابن كثير: أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جان إلا على نفسه كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾[1].

---

(١) وتكملته" حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة ". رواه أحمد (٣٨/ ٢٣٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٨)، وفي سنده مولى لبني عدي، وهو مجهول، وقال في مجمع الزوائد (٧/ ٥ ٢): رواه الطبراني ورجاله ثقات. وحسن إسناده ابن حجر (فتح الباري١٣/ ٤)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣١١٠).

قال القرطبي: ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية في الآخرة، فأما التي في الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجرم بعض[٢].

قال الطبري: ولا تأثم نفس آثمة بإثم أخرى غيرها، ولكنها تأثم بإثمها وعليه تعاقب دون إثم أخرى غيرها. [٣]

قال البيضاوي: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾. [٤]

قال ابن عاشور: فمعنى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا تحمل حاملة، أي لا تحمل نفسٌ حين تحمل حمل أي نفس أخرى غيرها، فالمعنى: لا تغني نفس عن نفس شيئًا تحمله عنها أي: كل نفس تزر وزر نفسها، فيفيد أن وزر كل أحد عليه، وأنه لا يحمل غيره عنه شيئًا من وزره الذي وزره، وأنه لا يتبعه أحد من وزر غيره من قريب أو صديق، ولا تتبع نفس بإثم غيرها، فهي إن حملت لا تحمل حمل غيرها، وهذا إتمام لمعنى المشاركة[٥].

الوجه الثاني: **استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. [٦]

قال الكرخي: واستشكل هذا ـ أي قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

وأجيب: بأن الناس إذا تظاهروا بالمنكر، فالواجب على كل من رآه أن يغيره إذا كان قادرًا على ذلك، فإذا سكت فكلهم عصاه هذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل الله بحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة، وعلامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٥٤).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ١١٣).

(٤) تفسير البيضاوي (١/ ٢٢١).

(٥) تفسير ابن عاشور (٨/ ٢٠٧).

(٦) فتح الباري (٥/ ٣٤٩).

بالمنكر فنقمة العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار[١].

وقال ابن العربي: فقد أخبرنا ربنا أن كل نفس بما كسبت رهينة، وأنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد، وإنما تتعلق كل عقوبة بصاحب الذنب بيد أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عنه فكلهم عاص، هذا بفعله وهذا برضاه به، وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم الذنب بالعقوبة ولم يتعد موضعه، وهذا نفيس لمن تأمله. [٢]

وقد بينت سنة النبي ﷺ هذا الأمر، وهو أن المنكر إذا ظهر ولم ينكره الناس أنزل الله العقاب من عنده.

عن زينب بنت جحش أنها سألت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون! قال: " نعم إذا كثر الخبث". [٣]

وقد أوضح النبي ﷺ ذلك بالمثال كما في حديث النعمان بن البشير قال ﷺ: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ. فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا"[٤].

قال ابن حجر: وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف. [٥]

وعن أبي بكر ﷺ أنه قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾، وإني سمعت رسول الله يقول: إن الناس إذا

---

(١) نقلًاعن فتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ١٦٠).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٨٤٧)، و تفسير القرطبي (٧/ ٣٧٥).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٨٠).

(٤) البخاري (٢٣٦١).

(٥) فتح الباري (٥/ ٣٤٩).

رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه[١].

قال النووي: وأما قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾، فليس مخالفًا لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن المذهب الصحيح في معنى الآية أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصيركم غيركم، مثل قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، وإذا كان كذلك مما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا فعله لم يمتثل المخاطب، فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه.

وقد وضح النبي ﷺ هذا الأمر في حديث آخر فقال: " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"[٢].

ولذا ذم الله بني إسرائيل ولعنهم بسبب أنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (المائدة: ٧٨-٧٩).

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داوود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم على خلقه.

ثم قال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ . . . .﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليُحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.[٣]

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٤٩)، والحديث صححه الألباني في المشكاة (٥١٤٢).

(٢) الترمذي (٢١٦٩)، وقال حديث حسن.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١١٦، ١١٧).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: وَقَدْ بَيَّنَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - ذَلِكَ الْعِصْيَانَ وَسَبَبَ اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى تَعَدِّي حُدُودِ اللهِ وَإِصْرَارَهُمْ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أَيْ كَانُوا لَا يَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ مُنْكَرٍ مَا مِنَ الْمُنْكَرَاتِ، مَهْمَا اشْتَدَّ قُبْحُهَا وَعَظُمَ ضَرَرُهَا، وَإِنَّمَا النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ حِفَاظُ الدِّينِ وَسِيَاجُ الْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ، فَإِذَا تُرِكَ تَجَرَّأَ الْفُسَّاقُ عَلَى إِظْهَارِ فِسْقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَمَتَى صَارَ الدَّهْمَاءُ يَرَوْنَ الْمُنْكَرَاتِ بِأَعْيُنِهِمْ، وَيَسْمَعُونَهَا بِآذَانِهِمْ، تَزُولُ وَحْشَتُهَا وَقُبْحُهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ يَتَجَرَّأُ الْكَثِيرُونَ أَوِ الْأَكْثَرُونَ عَلَى اقْتِرَافِهَا. فَالْإِخْبَارُ بِهَذَا الشَّأْنِ مِنْ شُئُونِهِمْ إِخْبَارٌ بِفُشُوِّ الْمُنْكَرَاتِ فِيهِمْ، وَانْتِشَارِ مَفَاسِدِهَا بَيْنَهُمْ ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْعِلَّةِ يَقْتَضِي وُجُودَ الْمَعْلُولِ، وَلَوْلَا اسْتِمْرَارُ وُقُوعِ الْمُنْكَرَاتِ لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ تَرْكُ التَّنَاهِي شَأْنًا مِنْ شُئُونِ الْقَوْمِ، وَدَأْبًا مِنْ دَءُوبِهِمْ. (١)

الوجه الثالث: العقاب أو الفتنة التي تنزل على الكل أو العامة طهرة للمؤمنين نقمة للفاسقين. (٢)

وفي ذلك وردت أحاديث عامة عن النبي ﷺ منها قوله: " مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ". (٣)

ولذلك قال النبي ﷺ لما سألته زينب بنت جحش: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم "إذا كثر الخبث". (٤)

قال النووي: معنى الحديث: إن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون. (٥)

وفي الحديث " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها. . . "(٦)

(١) تفسير المنار (٦/ ٤٩٠).

(٢) قاله القرطبي في تفسيره (٧/ ٣٧٤).

(٣) رواه البخاري (٥٣١٨)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٤) رواه مسلم (٢٨٨٠).

(٥) شرح النووي (٩/ ٢٣١).

(٦) رواه البخاري (٢٣٦١).

وقال ابن حجر: قال المهلب وغيره: في هذا الحديث تعذيب العامة بذنب الخاصة، وفيه نظر؛ لأن التعذيب المذكور إذا وقع في الدنيا على من لا يستحقه فإنه يكفر من ذنوب من وقع به أو يرفع من درجته.(١)

الوجه الرابع: أن ذلك على سبيل التحذير حتى لا يكون جزاء من خالف العقوبة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: أمرهم باتقاء نوع من أنواع الفتنة الاجتماعية التي تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطلي بناره فعلًا، وبين المؤاخذ به لتقصيره في درئه وإقراره على فعله فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ أي: واتقوا وقوع الفتن القومية والملية العامة التي من شأنها أن تقع بين الأمم في التنازع على مصالحها العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشريعة والانقسام إلى الأحزاب الدينية: كالمذاهب، والسياسة: كالحكم، فإن العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة.(٢)

الوجه الخامس: أن الله إذا أنزل العقوبة على من أذنب ومن لم يذنب بعث كل واحد على نيته.

ففي حديث عائشة: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ». قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ. ؟ قَالَ: « يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ ". (٣)

قال ابن حجر: أي: يخسف بالجميع لشؤم الأشرار ثم يعامل كل أحد عند الحساب بحسب قصده، قال المهلب في هذا الحديث: إن من كثر سواد قوم في المعصية مختارًا أن العقوبة تلزمه معهم(٤).

الوجه السادس: قد تنزل العقوبة على العوام؛ لأنهم سبب في نشر المعاصي والفتن. (٥)

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٤٩).

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٩/ ٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).

(٤) فتح الباري (٤/ ٣٩٩).

(٥) تفسير السعدي (الآية).

قال القرطبي: فمن كان إمامًا في الضلالة ودعا إليها، وأُتبع عليها، فإنه محمل وزر من أضله من غير أن ينقص من وزر المضل شيء.[(١)]

ثم قال: يحملون وزر من أضلوه ولا ينقص من إثم المضل شيء، وفي الخبر عن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا"[(٢)].

ومن للجنس لا للتبعيض، فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم وقوله: ﴿بغير علم﴾ أي يضلوا من الخلق جهلًا منهم بما يلزمهم من الآثام؛ إذ لو علموا لما أضلوا[(٣)].

الوجه السابع: الفتنة سببها الإنسان فيضر المفسد الصالح، وهي في ذلك ابتلاء للطائع والعاصي.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها مقتل عمر ﷺ، ومقتل عثمان ﷺ في الفتنة، ومقتل علي ﷺ بسبب الفتن، ومقتل كثير من الأخيار بسبب الفتنة وإليك تفصيل ذلك:

أ- قُتل عمر ﷺ، وكان معروفًا بالعدل أمير المؤمنين الخليفة الراشد وله من الفضائل الكثيرة[(٤)]، ومع ذلك نزلت الفتنة؛ فكانت سببًا في مقتله على يد أبي لؤلؤة المجوسي، فكانت هذه الفتنة شهادة لعمر ﷺ، ووبالًا على هذا الكافر الذي مات على كفره، وإليك قصة مقتله التي فيها دروس كثيرة تبين فضل وورع وعدل عمر ﷺ:

عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُصَابَ بِأَيَّامٍ بِالْمَدِينَةِ وَقَفَ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، قَالَ: كَيْفَ فَعَلْتُمَا أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَمَّلْتُمَا الأَرْضَ مَا لاَ تُطِيقُ؟ قَالاَ: حَمَّلْنَاهَا أَمْرًا هِي لَهُ مُطِيقَةٌ، مَا فِيهَا كَبِيرُ فَضْلٍ. قَالَ: انْظُرَا أَنْ

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٥٤).

(٢) مسلم (٢٦٧٤).

(٣) القرطبي (٧/ ١٥٤).

(٤) انظر فضائل ومناقب عمر ﷺ في البخاري مع الفتح المجلد السابع، وصحيح مسلم ـ باب فضائل عمر ـ وترجمة عمر بن الخطاب في سير أعلام النبلاء الجزء الأول.

تَكُونَا حَمَّلْتُمَا الأَرْضَ مَا لاَ تُطِيقُ، قَالَ: قَالاَ: لاَ؛ فَقَالَ عُمَرُ لَئِنْ سَلَّمَنِي الله لأَدَعَنَّ أَرَامِلَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لاَ يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا. قَالَ: فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ رَابِعَةٌ حَتَّى أُصِيبَ. قَالَ: إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَالَ اسْتَوُوا، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ، أَوِ النَّحْلَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ، فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَنِي - أَوْ أَكَلَنِي - الْكَلْبُ. حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ لاَ يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلاَ شِمَالًا إِلاَّ طَعَنَهُ حَتَّى طَعَنَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ. . . . . الحديث"(١).

ب- وعثمان ﷺ الذي له من الفضائل الكثيرة، ومن الخير الوافر الكبير، ولما كان يوم مقتله بعد ما حاصره السبئيون، وأراد الصحابة أن يدافعوا عن أميرهم عثمان بن عفان، فأبى إخمادًا للفتنة، وتضحية بنفسه، فقد قال: عزمت على أحد كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل، فاستسلم الصحابة لكلام أميرهم وطاعة خليفتهم، فدخل عليه من أرادوا قتله؛ فقام عليه الأفاكون الآثمون وقتلوه، فسقطت قطرة من دمه على المصحف على قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فكان بعد ذلك أن بعث الله على قتلة

عثمان من قتلهم جميعًا، ولعل الآية تشير إلى هذا الانتقام(٢).

فسبحان الله العلي القدير الذي أمر بالصبر عند البلاء وعند الفتنة، فنادى أهل الإيمان قائلًا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، وبيّن النبيُّ ﷺ ذلك فقال عن حال المؤمن: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خير له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خير له. . . "(٣).

(١) البخاري (٣٧٠٠).

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٨٠-١٩٠)، والعواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي من (١٤٠-١٥٠).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ﷺ.

قال ابن القيم: الصبر في البلاء يكون بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وبذكر سوالف النعم، ثم قال: وأجمع عقلاء الأمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإن قدر التعب تكون الراحة ". (١)

أما عن المفسد الذي يكون سببًا في هذه الفتنة، فسينال جزاءه –قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧ – ٨).

الوجه الثامن: إن الله تعالى قد ينزل الموت والفقر والعمى والزمانة بعبده ابتداء، إما لأنه يَحْسُن منه تعالى ذلك بحكم المالكية: (٢)

قال رب العالمين في كتابه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٦).

قال الطبري: يعني بذلك: يا الله، يا مالك الملك، يا من له ملك الدنيا والآخرة خالصًا دون غيره، تعز من تشاء بإعطائه الملك والسلطان وبسط القدرة له، وتذل من تشاء بسلبك ملكه وتسليط عدو عليه، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾أي: كل ذلك بيدك وإليك، لا يقدر على ذلك أحد؛ لأنك على كل شي قدير دون سائر خلقك ودون من اتخذه المشركون من أهل الكتاب والأميين من العرب إلهًا، وربًا يعبدونه من دونك، كالمسيح والأنداد التي اتخذها الأُمِّيون ربًا(٣).

قال الفخر الرازي: أما قوله ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، فقال الجبائي في تفسيره: إنه تعالى إنما يذل أعداءه في الدنيا والآخرة، ولا يذل أحدًا من أوليائه، وإن أفقرهم وأمرضهم وأحوجهم إلى غيرهم؛ لأنه تعالى إنما يفعل هذه الأشياء ليعزهم في الآخرة؛ إما بالثواب

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٦).

(٢) تفسير الرازي (٨/ ٨).

(٣) ذكره الطبري (٣/ ٢٢٢).

وإما بالعوض فصار ذلك كالفصد والحجامة؛ فإنهما وإن كانا يؤلمان في الحال إلا أنهما لما كانا يستعقبان نفعًا عظيمًا لا جرم لا يقال فيهما: إنهما تعذيب. قال: وإذا وصف الفقر بأنه ذل فعلى وجه المجاز سمى الله تعالى لِين المؤمنين ذُلًّا بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. [1]

* * * *

(١) تفسير الرازي (٨/ ٨).

٤- شبهة: حول نفي العذاب وإثباته.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنفال: ٣٣ - ٣٤).

والسؤال:

- كيف يصح أن ينفي العذاب أولًا، ثم يثبته آخرًا؟
- كيف يجد النبي ﷺ عذرًا لقومه خاصة، وأنهم طلبوا العذاب مع أن الأنبياء قبل ذلك لم يحاولوا أن يجدوا أعذارًا للكفار من قومهم؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الآية فيها أن الله أمَّنهم من العذاب في أحد الحالين.

الوجه الثاني: أن المراد بقوله ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة.

الوجه الثالث: أن المراد بقوله ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾أي: المشركين.

الوجه الرابع: أن معنى ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يسلمون.

الوجه الخامس: قيل: إن العذاب الأول غير العذاب الثاني.

الوجه السادس: قيل: إن الآية الثانية ناسخة للأولى.

الوجه السابع: ماذا عن حال الأنبياء في الكتاب المقدس؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية فيها أن الله أمَّنهم من العذاب في أحد الحالين.

فالنبي ﷺ خرج مهاجرًا، واستغفارهم معدوم لإصرارهم على الكفر، فاستحقوا الوعيد الآخر، أو أنه تعالى نفى ذلك -أي العذاب- بشرطٍ وأثبته مع فقد الشرط[1].

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦/ ٢٣٦)، " تنزيه القرآن عن المطاعن"للقاضي عبد الجبار (١٨٤).

قال الطبري: معنى ذلك: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد، وما كان الله معذب المشركين وهم يستغفرون، أي: لو استغفروا. قالوا: ولم يكونوا يستغفرون، فقال جل ثناؤه: إذ لم يكونوا يستغفرون ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ونقل ذلك بسنده عن قتادة، والسدي وابن زيد فقال عن قتادة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قال: إن القوم لم يكونوا يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا، وكان بعض أهل العلم يقول: هما أمانان أنزلهما الله فأما أحدهما فمضي نبي الله، وأما الآخر فأبقاه الله رحمة بين أظهركم، الاستغفار والتوبة[1].

فالعذاب لا يتنزل بهم في حالة استغفارهم لو استغفروا، ولا في حالة وجود نبيهم فيهم، لكنه خرج من بين أظهرهم، ولم يستغفروا لكفرهم، ومعلوم أن الحال قيد لعاملها، وصْف لصاحبها، فالاستغفار مثلًا قيد في نفي العذاب، لكنهم لم يأتوا بالقيد، فتقرير المعنى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ لو استغفروا، وبعد انتفاء الأمرين عذبهم بالقتل والأسر يوم بدر[2].

وقد رجح هذا الوجه ابن جرير الطبري في تفسيره فقال: وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب قول من قال: تأويله، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد، وبين أظهرهم مقيم، حتى أخرجك من بين أظهرهم؛ لأني لا أهلك قرية وفيها نبيها، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم، وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك؛ بل هم مصرون عليه فهم للعذاب مستحقون، كما يقال: ما كنت لأحسن إليك وأنت تسيء إليَّ - يراد بذلك لا أحسن إليك، ولكن أحسن إليك؛ لأنك لا تسيء إلي وكذلك ذلك، ثم قيل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بمعنى: وما شأنهم وما

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٦)، والأثر عن قتادة.

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (١٠٤)، وانظر تفسير الرازي (١٥/ ١٥٨).

يمنعهم أن يعذبهم الله وهم لا يستغفرون الله من كفرهم، فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام.

وإنما قلنا هذا القول أولى بالأقوال في ذلك بالصواب؛ لأن القوم – أعني مشركي مكة- كانوا استعجلوا العذاب فقالوا: اللهم إن كان ما جاء به محمد هو الحق، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فقال الله لنبيه: ما كنت لأعذبهم وأنت فيهم، وما كنت لأعذبهم لو استغفروا، وكيف لا أعذبهم بعد إخراجك منهم، وهم يصدون عن المسجد الحرام، فأعلمه جل ثناؤه أن الذين استعجلوا العذاب حائق بهم ونازل، وأعلمهم حال نزوله بهم، وذلك بعد إخراجه إياه من بين أظهرهم، ولا وجه لإبعادهم العذاب في الآخرة، وهم مستعجلوه في العاجل، ولا شك أنهم في الآخرة إلى العذاب صائرون؛ بل في تعجيل الله لهم ذلك يوم بدر الدليل الواضح على أن القول في ذلك ما قلنا(١).

قال ابن الجوزي: المعنى: لو استغفروا لما عذبهم الله، ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب، وهذا كما تقول العرب: ما كنت لأهينك وأنت تكرمني؛ يريدون ما كنت لأهينك لو أكرمتني، فأما إذا لست تكرمني، فإنك مستحق لإهانتي(٢).

الوجه الثاني: أن المراد بقوله ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة.

فلما هاجر النبي ﷺ وخرج المؤمنون الذين كانوا يستغفرون وبسببهم دفع العذاب، استحق الكفار العذاب بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

قال ابن الجوزي: وما كان الله معذبهم يعني المشركين وهم – يعني المؤمنين الذين بينهم – يستغفرون، قال ابن الأنباري: وصفوا بصفة بعضهم؛ لأن المؤمنين بين أظهرهم، فأوقع العموم على الخصوص كما يقال قتل أهل المسجد رجلًا، وأخذ أهل البصرة فلانًا، ولعله لم يفعل ذلك إلا رجل واحد(١).

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٨).

(٢) زاد المسير (٣/ ٣٢٠).

قال الشنقيطي: المراد بقوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة، وعليه فالمعنى: أنه بعد خروجه ﷺ، كان استغفار المؤمنين سببًا لرفع العذاب الدنيوي عن الكفار المستعجلين للعذاب بقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢).

وعلى هذا القول فقد أسند الاستغفار إلى مجموع أهل مكة الصادق بخصوص المؤمنين منهم، ونظير الآية عليه قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ مع أن العاقر واحد منهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (نوح: ١٥-١٦) أي: جعل القمر في مجموعهن الصادق بخصوص السماء التي فيها القمر؛ لأنه لم يجعل في كل سماء قمرًا، وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ (الأنعام: ١٣٠) أي: من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس على الأصح إذا ليس من الجن رسل.

وأما تمثيل كثير من العلماء لإطلاق المجموع مرادًا بعضه بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢) زاعمين أن قوله ﴿مِنْهُمَا﴾ أي من مجموعهما الصادق بخصوص البحر الملح؛ لأن العذب لا يخرج منه لؤلؤ ولا مرجان، فهو قول باطل بنص القرآن العظيم.

فقد صرح تعالى باستخراج اللؤلؤ والمرجان من البحرين كليهما حيث قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (فاطر: ١٢).

فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ نص صريح في إرادة العذب والملح معًا، وقوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هي اللؤلؤ والمرجان، وعلى هذا القول، فالعذاب الدنيوي يدفعه الله عنهم

(١) زاد المسير (٣/ ٣٥٠).

باستغفار المؤمنين الكائنين بين أظهرهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بعد خروج المؤمنين الذين كان استغفارهم سببًا لدفع العذاب الدنيوي، فبعد خروجهم عذّب الله أهل مكة في الدنيا بأن سلط عليهم رسولهﷺ حتى فتح مكة، ويدل لكونه تعالى يدفع العذاب الدنيوي عن الكفار بسبب وجود المسلمين بين أظهرهم ما وقع في صلح الحديبية كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فقوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي: لو تزيل الكفار من المسلمين لعذبنا الكفار بتسليط المسلمين عليهم، ولكنا رفعنا عن الكفار هذا العذاب الدنيوي لعدم تميزهم من المؤمنين، كما بينه بقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾، ونقل ابن جرير هذا القول عن ابن عباس والضحاك وأبي مالك وابن أبزي، وحاصل هذا القول أن كفار مكة لما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنزل الله قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، ثم لما هاجر النبي ﷺ بقيت طائفة من المسلمين بمكة أنزل الله قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أي شيء ثبت لهم يدفع عنهم عذاب الله، وقد خرج النبي ﷺ والمؤمنون من بين أظهرهم فالآية على هذا كقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[1].

الوجه الثالث: أن المراد بقوله ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: المشركين.

فيكون أن الله تعالى يرد عنهم العذاب الدنيوي بسبب استغفارهم، أما عذاب الآخرة فهو واقع بهم لا محالة، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: في الدنيا في حالة استغفارهم، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: في الآخرة وقد كانوا كفارًا في الدنيا[2].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (١٠٥، ١٠٦).

(٢) المصدر السابق (١٠٧).

روى الطبري بسنده عن ابن عباس قال: إن المشركين كانوا يطوفون بالبيت يقولون: لبيك لا شريك لك لبيك، فيقول النبي ﷺ: قد قد، فيقولون: لا شريك لك إلا شريكٌ هو لك تملكه، وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فقال ابن عباس: كان فيهم أمانان نبي الله والاستغفار، قال: فذهب النبي وبقى الاستغفار ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فهذا عذاب الآخرة قال: وذاك عذاب الدنيا[1].

قال الشنقيطي: وعلى هذا القول فعمل الكافر ينفعه في الدنيا، كما فسر به جماعة قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: أثابه من عمله الطيب في الدنيا[2].

الوجه الرابع: أن معنى ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يسلمون.

قال الشنقيطي: فيكون المعنى أي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وقد سبق في علمه أن منهم من يسلم ويستغفر الله من كفره، وعلى هذا القول فقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الذين سبقت لهم الشقاوة لأبي جهل وأصحابه الذين عذبوا بالقتل يوم بدر[3].

وقد ذكره الطبري بإسناده عن عكرمة: قال سألوا العذاب فقال: لم يكن ليعذبهم وأنت فيهم، ولم يكن ليعذبهم وهم يدخلون في الإسلام[4].

وبإسناده أيضًا عن مجاهد قوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ قال: بين أظهرهم، وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال يسلمون. [5]

الوجه الخامس: قيل: إن العذاب الأول غير العذاب الثاني.

---

(١) رواه الطبري بإسناده في تفسيره (٦/ ٢٣٥).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١٠٦).

(٣) المصدر السابق (١٠٧).

(٤) أورده الطبري في تفسيره (٦/ ٢٣٦)، وإسناده صحيح.

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٧).

فقيل: إن العذاب الثاني قتل بعضهم يوم بدر، والأول استئصال الكل، فلم يقع الأول لما قد علم من إيمان بعضهم وإسلام بعض ذراريهم ووقع الثاني، أو أن العذاب الأول عذاب الدنيا، والثاني عذاب الآخرة، فيكون المعنى، وما كان الله معذب المشركين لاستغفارهم في الدنيا، وما لهم ألا يعذبهم الله في الآخرة. (١)

الوجه السادس: قيل: إن الآية الثانية ناسخة للأولى. (٢)

قال الطبري: بل معنى ذلك: وما كان الله ليعذب المشركين وهم يستغفرون. قالوا: ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(٣).

وهذا مردود.

قال ابن الجوزي: وفيه بُعد؛ لأن النسخ لا يدخل على الأخبار باتفاق أهل العلم(٤).

قال ابن جرير: لا وجه لقول من قال ذلك منسوخ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لأن قوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ خبر، والخبر لا يجوز أن يكون فيه نسخ، وإنما يكون النسخ للأمر والنهي(٥).

أما عن سؤالهم كيف يجد النبي ﷺ عذرًا لقومه خاصة، وأنهم طلبوا العذاب مع أن الأنبياء قبل ذلك لم يحاولوا أن يجدوا أعذارًا للكفار من قومهم؟.

والجواب على ذلك نقول:

إن في ذلك إعلام بكرامة الرسول ﷺ عند الله، حينما يرفع الله العذاب عن الأمة بسبب نبيه محمد ﷺ.

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٣٥٢)

(٢) ذكره الطبري في التفسير (٦/ ٢٣٨)، وابن الجوزي (٣/ ٣٥٠).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٨).

(٤) زاد المسير (٣/ ٣٥٠).

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٢٣٨)، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١٠٧).

قال ابن عاشور: فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ كناية عن استحقاقهم، وإعلام بكرامة رسوله ﷺ عنده؛ لأنه جعل وجوده بين ظهراني المشركين، مع استحقاقهم العقاب سببًا في تأخير العذاب عنهم، وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ، فجعل وجوده في مكان مانعًا من نزول العذاب على أهله، فهذه الآية إخبار عما قدره الله فيما مضى.

ثم قال: وفي توجيه الخطاب بهذا إلى النبي ﷺ، واجتلاب ضمير خطابه بقوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لطيفة من التكرم؛ إذ لم يقل: وما كان الله ليعذبهم وفيهم رسوله.[(١)]

وقولهم: إن الأنبياء لم يحاولوا أن يجدوا أعذرًا للكفار من قومهم، كلام خطأ، حيث كان النبي يدعو قومه ولا ييأس معهم، وهم معرضون حتى يأمر الله بهلاكهم، والنبي ينذرهم وهم معرضون، والأمثلة على ذلك بدليل واضح من القرآن، وأيضًا من الكتاب المقدس.

ها هو نبي الله نوح عليه السلام دعا قومه لعبادة الله وهم يعرضون، يدعو وهم يعرضون أكثر، وهذه رحمة الأنبياء التي وصفوا بها، قال تعالى في سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١) قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا (٥) فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا (٩) فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا (١٠) يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا (١١) وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا (١٢) مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا (١٣) وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا (١٤) أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا (١٥) وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا (١٩) لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا (٢٠) قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٣٣).

لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ (نوح: ١-٢٨).

وشعيب عليه السلام يدعو قومه ويسترسل معهم في الدعوة إلى الله تعالى وهم معرضون في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ (هود: ٨٤-٩٥).

وهكذا جميع الآيات التي تتحدث عن دعوة الأنبياء مع أقوامهم تبين أن الأنبياء كانوا رحمة للقوم، وكان النبي يسترسل معهم في الدعوة حتى يأبوا ويعرضوا إعراضًا تامًا حتى يأذن الله بهلاكهم بسبب عدم استجابتهم لأنبيائهم.

الوجه السابع: ماذا عن حال الأنبياء في الكتاب المقدس؟

أما عن الكتاب المقدس ففيه أيضًا دليل على مثل هذا، ولكن مع إيماننا الكامل الذي لا نشك فيه بتحريف هذا الكتاب، والذي فيه ما فيه من الأمور العظام التي تقدح في الأنبياء باتهامهم بشرب الخمر، وبالزنا، وبالجور، وبالفواحش ما ظهر منها وما بطن، وهذا لا يليق بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام أجمعين.

ففي سفر التكوين: في صلاة إبراهيم من أجل سدوم: وَقَالَ الرَّبُّ: «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جدًّا. ٢١أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ صُرَاخِهَا الآتِي إِلَيَّ، وَإِلاَّ فَأَعْلَمُ». ٢٢وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ. فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «أَفَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ؟ ٢٤عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَفَتُهْلِكُ الْمَكَانَ وَلاَ تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟ ٢٥حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ، فَيَكُونُ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلًا؟ » ٢٦فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنْ وَجَدْتُ فِي سَدُومَ خَمْسِينَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ، فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ». ٢٧فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ. ٢٨رُبَّمَا نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَارًّا خَمْسَةً. أَتُهْلِكُ كُلَّ الْمَدِينَةِ بِالْخَمْسَةِ؟ » فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ». ٢٩فَعَادَ يُكَلِّمُهُ أَيْضًا وَقَالَ: «عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ أَرْبَعُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ مِنْ أَجْلِ الأَرْبَعِينَ». ٣٠فَقَالَ: «لاَ يَسْخَطِ الْمَوْلَى فَأَتَكَلَّمَ. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ ثَلاَثُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ ثَلاَثِينَ». ٣١فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ عِشْرُونَ». فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ مِنْ أَجْلِ الْعِشْرِينَ». ٣٢فَقَالَ: «لاَ

يَسْخَطِ الْمَوْلَى فَأَتَكَلَّمَ هذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ عَشَرَةٌ». فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ مِنْ أَجْلِ الْعَشَرَةِ». ٣٣وَذَهَبَ الرَّبُّ عِنْدَمَا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ، وَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَانِهِ. (التكوين ١٨/ ٢٦: ٣٢).

وأيضًا في الكتاب المقدس لما تذمر بنو إسرائيل على موسى، وكاد الله أن يلاشيهم غير أن موسى صلى صلاة طويلة بأن لا يؤاخذ بني إسرائيل على شرهم وعنادهم(العدد ١٣، ١٤).

وفيه (١٤/ ١٩): اِصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ هذَا الشَّعْبِ كَعَظَمَةِ نِعْمَتِكَ، وَكَمَا غَفَرْتَ لِهذَا الشَّعْبِ مِنْ مِصْرَ إِلَى ههُنَا». ٢٠فَقَالَ الرَّبُّ: «قَدْ صَفَحْتُ حَسَبَ قَوْلِكَ.

* * *

٥- شبهة: حول: العشرون والمائة.

نص الشبهة: قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ ظاهر الآية أن الواحد من المسلمين يجب عليه مصابرة عشرة من الكفار، وقد جاء في الآية التي بعدها خلاف ذلك فقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ. . . ﴾ (الأنفال: ٦٦).

والجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن الأول منسوخ بالثاني.

الوجه الثاني: أن الثاني تخفيف للأول.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن الأول منسوخ بالثاني.

دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[1].

الوجه الثاني: أن الثاني تخفيف للأول.

قال أبو جعفر النحاس: وهذا شرح بَيِّنَ حُسْنَ أن يكون هذا تخفيف لا نسخًا؛ لأن معنى النسخ رفع حكم المنسوخ، ولم يرفع حكم الأول؛ لأنه لم يقل فيه: لا يقاتل الرجل عشرة؛ بل إن قدر على ذلك فهو الاختيار له[2].

والراجح الوجه الأول على أن الأول منسوخ بالثاني؛ لأنه رفع حكم استقر، وهو وجوب مصا برة الواحد للعشرة بحكم آخر، وهو وجوب مصا برته للاثنين فقط، وهذا هو النسخ بعينه وفي ضمنه التخفيف كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، وهذا نسخ الأثقل بالأخف[3].

* * * *

---

(١) دفع إيهام الاضطراب (١٠٧)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ٣٨٧)، وتفسير الطبري (١٠/ ٤١).

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣/ ٣٨٨).

(٣) راجع شبهة النسخ ففيها الفائدة.

٦- شبهة: حول آيات متعارضة بين سورتي الأنفال والتوبة في نفي وإثبات الولاية.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأنفال: ٧٢)، هذه الآية تدل على أن من لم يهاجر لا ولاية بينه وبين المؤمنين حتى يهاجر، وقد جاءت آية أخرى يفهم منها خلاف ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: ٧١)، فإنها تدل على ثبوت الولاية بين المؤمنين وظاهرها العموم.

والجواب على هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: أن الولاية المنفية هي ولاية الميراث، والولاية المثبتة هي ولاية النصر لا المؤازرة.

الوجه الثاني: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي: لا نصيب لكم في المغانم ولا في خمسها إلا فيما حضرتم في القتال.

واليك التفصيل

الوجه الأول: أن الولاية المنفية هي ولاية الميراث.

والولاية المثبتة هي ولاية النصر لا المؤازرة وهذه الولاية لم تقصر بالنفي في قوله ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾.

قال الطبري: فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض، فكانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر ورثه الأنصاري بالولاية في الدين، وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي في قول الله تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾، وكان حقًّا على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قاتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم

وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذين لا ميثاق لهم، ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذي رحم برحمه من المؤمنين الذين هاجروا والذين آمنوا ولم يهاجروا، فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيبًا مفروضًا بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وبقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[(١)].

وساق الطبري ـ بسنده - إلى ابن عباس فقال: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام قال الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ يقول: مالكم من ميراثهم من شيء، وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في الميراث فنسخت التي قبلها، وصار الميراث لذوي الأرحام[(٢)].

قال الشنقيطي: فدل على أن الولاية المنفية غير ولاية النصر فظهر أن الولاية المنفية غير الولاية المثبتة فارتفع الإشكال[(٣)].

الوجه الثاني: معنى ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

أي: لا نصيب لكم في المغانم ولا في خمسها إلا فيما حضرتم في القتال.

قال ابن كثير: في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا فيما حضروا فيه القتال، كما روى بريده بن الحصيب الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش أوصاه في نفسه بتقوى الله وبمن

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٥٢). والأثر عن ابن عباس وإسناده ضعيف.

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٥٢) والإسناد ضعيف.

(٣) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (١٠٨)، والبحر المحيط (٤/ ٥١٧)، وتفسير القرطبي (٨/ ٥٧).

معه من المسلمين خيرًا، " اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تَمْثُلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلاَلٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَىْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ"[١][٢].

قال الشنقيطي بعد ذكر هذا الوجه: وعليه فلا إشكال في الآية، ولا مانع من تناول الآية للوجهين، فيكون المراد بها نفي الميراث بينهم، ونفي القسم لهم في الغنائم والخُمس، والعلم عند الله. [٣]

* * *

(١) مسلم (١٧٣١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٧).

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي (١٠٩).

سورة التوبة

شبهة: حول محبة الله.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

والسؤال: هل يعني هذا الكلام أن الذي يفضل البشر والأمور الزمنية على الله ويخاف فقدانها، عليه أن ينتظر فتوى من الله أو أمرًا منه، كيف يكون هذا التعليم وما هذا الإيمان المادي؟ كيف أن الله يساوم البشر هكذا على الإيمان؟

و في الكتاب المقدس يقول: **مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي.**

كيف أن الله يغير رأيه هكذا ويعطي تعليمًا يناقض شخصه؟ ونجد أن القرآن يعطي تعليمًا يناقض شخصه، ثم يقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، من يهدي إذًا القوم المؤمنين؟

والسائل يستنكر ما ورد في الآية وغيرها من الآيات عن الله ﷻ بأنه لا يهدي القوم الظالمين، وأنه سبحانه لا يهدي القوم الفاسقين، ويتعجب السائل: هل المؤمنون هم المحتاجون للهداية أم العصاة والمذنبون؟! ويري أن ذلك مناقضًا لما ورد في كتابهم المقدس بأن الله لا يهدي الأبرار، إنما يتوجه بالهداية إلى العصاة.

ويتلخص الرد على هذه القضية في هذه الوجوه:

الوجه الأول: تصحيح الفهم.

الوجه الثاني: معنى الآية.

الوجه الثالث: اتفاق معنى الآية مع شرح ما ورد من تعاليم في كتابهم المقدس.

الوجه الرابع: الفارق بين محبة الله ﷻ عند أهل الإسلام والنصارى.

الوجه الخامس: الهداية على أنواع؛ وليست هداية واحدة.

الوجه السادس: الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم.

الوجه السابع: كيفية تبرئة الخطاة عند النصارى، والوصول إلى الهداية عندهم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **تصحيح الفهم**.

السائل يفهم الآية على غير معناها، ويترتب على ذلك أن يستنبط ويتصور أمورًا منها ليست فيها، فإن الأمر ليس فيه مساومة بين الله ﷻ وخلقه كما يدَّعي السائل أن الآية تقصد ذلك؛ إنما غاية الأمر أن الله ﷻ يحذر ويتوعد الخلق (البشر) الذين يؤثرون الأشياء (الأباء، الأبناء، المساكن) على محبة الله ﷻ ويركنون إلى الدنيا بأن تحل عليهم عقوبته سبحانه وتعالى.

الوجه الثاني: **معنى الآية**.

إن معنى الآية هكذا ليس فيه تعارض وبين ما ورد في كتابهم المقدس الذين يخبرون فيه أن الله يقول: (من أحب أبًا أو أمًا أو إخوةً أو حقولًا أكثر مني لا يستحقني)، فالمعنى متطابق ولا تناقض ولا تعارض، فإنه هنا ينفي الاستحقاق للمحبة والرضا للذي يُؤْثِرُ محبة شيء من الدنيا على محبة الله ﷻ، ويتضح المعنى بجلاء عندما نذكر بعض ما ورد في تفاسير أهل الإسلام لمعاني هذه الآية، ونذكر منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التوبة: ٢٤).

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: (قل) يا رسول الله، للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام، المقيمين بدار الشرك: إن كان المُقام مع آبائكم، وأبنائكم، وإخوانكم، وأزواجكم، وعشيرتكم، وكانت (أموالٌ اقترفتموها) أي اكتسبتموها، (وتجارةٌ تخشون كسادها) بفراقكم بلدَكم، (ومساكنُ ترضونها) فسكنتموها (أحبَّ إليكم) من الهجرة إلى الله ورسوله، من دار الشرك، وأحب إليكم من الجهاد في سبيله، يعني: في نصرة دين الله الذي ارتضاه (فتربصوا) يعني: فتنظَّروا؛ أي: انتظروا (حتى يأتي الله بأمره) حتى يأتي الله بفتح مكة (والله لا يهدي القوم الفاسقين)، أي: والله لا يوفِّق للخير الخارِجين عن طاعته المنغمسين في معصيته[1].

فأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله تعالى وعلى رسوله وجهاد في سبيله؛ أي: إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه و نكاله بكم[2].

هذه آية شديدة، لا نرى أشد منها، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقدة الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه: هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء، والأبناء، والإخوان، والعشائر، والمال، والمساكن، وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أي طرفيه أطول، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيَّره. [3]

الوجه الثالث: اتفاق معنى الآية مع شرح ما ورد من تعاليم في كتابهم المقدس.

لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ، مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا، ٣٥ فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا، ٣٦ وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ

---

(١) جامع البيان للطبري (١٠/ ٩٩: ٩٨).

(٢) تفسير القرآن لابن كثير (٧/ ١٦٤).

(٣) محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي (٨/ ١٥٢).

أَهْلُ بَيْتِهِ، ٣٧ مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، ٣٨ وَمَنْ لاَ يَأْخُذُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي (متى ١٠/ ٣٤: ٣٨).

قد يفرق الالتزام المسيحي بين الأصدقاء والأحباء، ولم يكن الرب يسوع في قوله هذا يشجع عصيان الوالدين أو الصراع في البيت؛ بل بالحري أراد أن يبين أن وجوده يستلزم قرارًا، وحيث إن البعض سيتبعونه والبعض الآخر لن يتبعوه، فلا بد أن ينشب الصراع، فحالما نحمل صليبنا ونتبعه، فإن قيمنا وأخلاقياتنا وأهدافنا وغايتنا المختلفة لابد أن تفصلنا عن الآخرين، يجب ألا تهمل عائلتك، كما يجب ألا تهمل دعوتك العليا؛ إذ يجب أن يكون لله الأولوية المطلقة في حياتك.

ويدعونا المسيح إلى رسالةٍ أسمى في الحصول على الراحة والهدوء في هذه الحياة؛ فمحبة العائلة وصية من وصايا الله، ولكن هذه المحبة يمكن أن تكون لخدمة الذات، ومبررًا لعدم خدمة الله أو إنجاز عمله، لكي نحمل صليبنا ونتبع المسيح يلزم أن نطرح عنا كل الهموم والأولويات الأخرى، فعندئذٍ فقط نبدأ فقط في تحقيق التزامنا للمسيح، يجب أن نستسلم تمامًا لله في استعداد كامل لمواجهة أي شيء، ولو كان الموت والألم من أجله. (١)

قلت: فإنه بقراءة شرح عبارة كتابهم المقدس يتطابق معنى الآية وتفسيرها في أنه يجب أن يكون لله الأولوية المطلقة في حياتك، فلا تؤثر محبة شيء في الدنيا على محبة الله ﷻ.

الوجه الرابع: الفارق بين محبة الله ﷻ عند أهل الإسلام والنصارى.

و لكن هناك فارق بين أهل الإسلام والنصارى في المراد من (محبة الله).

فعند أهل الإسلام: محبة الله هي توجب عبوديتَه وطاعتَه وتَتَبُّعَ مرضاته واستفراغَ الجهد في التعبد له والإنابةِ إليه، وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها حتى لو فُرِضَ تجرده عن الأمر والنهي والثواب والعقاب استفرغ الوسع واستخلص القلب للمعبود الحق. (٢)

---

(١) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس (١٩٠٥: ١٩٠٦).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٤٤١).

فهو سبحانه يستحق غاية الحب، والطاعة، والثناء، والمجد، والتعظيم لذاته ولما له من أوصاف الكمال، ونعوت الجلال، وحبه و الرضى به وعنه، والذل له والخضوع، والتعبد هو غاية سعادة النفس وكمالها، والنفس إذا فقدت ذلك كانت بمنزلة الجسد الذي فقد روحه وحياته.[1]

فعبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسولهﷺ.

بينما (محبة الله) عند النصارى تعني: أن الذي دفع الله إلى قتل المسيح على الصليب هو محبته للعالم، وفي ذلك هم يقولون: إن موت المسيح كان إعلانًا لمحبة الله، وأن الله هو الذي أخذ الخطوة الأولى في عملية الفداء، وذلك محبته للإنسان: (لأن الله كان في محبته لنا ونحن بعدُ خطاةٌ مات المسيح لأجلنا)، ثم (أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ، وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ، دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ) رومية (٨/ ٣). ، ثم (اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟). (رومية٨/ ٣٢).

فمحبة الله التي تظهر في ذبيحة المسيح هي الأساس الذي يبني عليه الرسول (بولس) فكره اللاهوتي كله.

فانظر، هل يُعقل أن يحب الله البشر الخطاة أكثر من حبه للمسيح البار؛ فيضحي به من أجلهم؟! وهو لم يرتكب ذنبًا، فيُضرب ويُشتم ويُهان ويُعذب ويُصلب! ! ، وهم يقولون: إن الله فعل ذلك محبةً، فالمسألة إذن أن النصارى وإن كانوا يتفقون معنا في أن المؤمن يجب أن يؤثر محبة الله وأمره على كل شيء؛ إلا أنهم يختلفون معنا في المقصود بمحبة الله، فهم يعتقدون أن محبة الله تعني أنه مات وصُلب من أجل خطية آدم فداءً للبشر الخطاة.

بينما المسلمون يعنون بمحبة الله: تعظيمه وطاعته وتنفيذ أوامره، عبودية بكمال الحب والخضوع والذل، وبالتالي فإن النصارى يرفضون أي قول يخالف معتقدهم، ويحاولون

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٤١٦).

التشكيك أو التحريف لمعاني الآيات؛ وذلك لتوافق مذهبهم الباطل.

الوجه الخامس: الهداية على أنواع؛ وليست هداية واحدة.

١- هداية مشتركة بين جميع المخلوقات: بأن أعطى الله ﷻ كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال.

٢- هداية البيان والتعريف والدلالة لطريق الخير والشر: وهي التي يقدر عليها الرسل وأتباعهم، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام؛ فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا لا ينبغي الهدى معها.

٣- هداية التوفيق والإلهام: وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، وهذه الهداية تفرد بها الله ﷻ، وهي تجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب.

٤- الهداية إلى الجنة والنار: المراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المؤدية إليها؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤-٥).

وسنذكر هذه الأنواع بشيء من التفصيل لتتضح الصورة-إن شاء الله-:

أولًا: إن المقصود والمراد من قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤)، وما شابهها من الآيات هو أن الله ﷻ نفى عن هؤلاء القوم الظالمين والقوم الفاسقين حصول هداية التوفيق والإلهام والتأييد منه -سبحانه وتعالى- لهم، والتي تجيء بمعنى خلق الإيمان في قلوبهم، فمنعهم الله ﷻ هذه الهداية لخروجهم عن طاعته سبحانه وتعالى؛ ولظلمهم ولفسقهم، وإن كان لم يمنعهم الله ﷻ هداية البيان والدلالة التي تقوم بها على عباده في طاعتهم لله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

والقول بأن المؤمنين غير محتاجين إلى الهداية هذا قول غير صحيح أيضًا، فإن المؤمن يسأل ربه الهداية دومًا وباستمرار؛ ولذا يتوجه بهذا الدعاء في كل صلاة لحاجته إلى ذلك ولجهله بكثير مما يصلحه، وحاجته إلى عونه سبحانه في تحصيل ماينفعه، وأن يُثبِّته على الحق، وأن يزيده الله هدى ويلهمه رشده، وأن الله ﷻ هدى هؤلاء القوم الظالمين

والفاسقين هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا؛ فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولًا بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه.

فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طـه: ٥٠) أي: أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له؛ فله هداية تليق به كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به؛ فَهَدَى الرِجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين، ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر، وأول وهلة، وأحسن طريق، وأشدها اختصارًا، وأبعدها من كل شبهة؛ فإنه لم يهمل هذه الحيوانات سدًى، ولم يتركها معطلة؛ بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه مهمَلًا، وسدًى معطَّلًا، لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته؟! هل يتركه معطَّلًا، لا يأمره، ولا ينهاه، ولا يثيبه، ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا منافٍ لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله؟!

ولهذا أَنْكَرَ ذلك على مَنْ زَعَمَه، ونَزَّهَ نفسه عنه، وبَيَّنَ أنه يستحيل نسبةُ ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى

ﵟٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖﵞ (المؤمنون: ١١٥-١١٦)، فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانُه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع وكما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فَهِمَ هذا فَهِمَ سرَّ اقتران قوله تعالى: ﵟوَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨ﵞ (الأنعام: ٣٨) بقوله: ﵟوَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَﵞ (الأنعام ٣٧: ٣٨) وكيف جاء ذلك في مَعْرِضِ جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأَنَّ مَنْ لم يهمل أمرَ كلِّ دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه؛ بل جعلها أُممًا، وهداها إلى غاياتها ومصالحها، وكيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟ فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنَجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينتفي الهدى معها كقوله تعالى: ﵟوَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰﵞ (فصلت: ١٧). أي: بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، ومنها قوله: ﵟوَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖﵞ (الشورى: ٥٢).

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﵟفَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُﵞ (فاطر: ٨)، وقوله تعالى: ﵟإِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّﵞ (النحل: ٣٧)، وفي قول النبي ﷺ: "من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له"[1]، وفي قوله تعالى: ﵟإِنَّكَ

---

(١) النسائي (١٧٠٩)، والبيهقي في الكبرى (١٣٦٠٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٦٠)، وإرواء الغليل (٦٠٨).

﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

النوع الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ (يونس: ٩)، وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ (الأعراف: ٤٣)، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾ (الصافات ٢٣: ٢٢)[1].

والأمر الذي يحتاج إلى التفصيل(النوع الثاني، والثالث).

يقول القرطبي في تفسيره: الهدى هديان: هدى دلالة؛ وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦)، فالهدى على هذا يجيء بمعنى: خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٥)، وقوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (يونس: ٢٥).

مرتبة البيان العام:

وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه بحيث يصير مشهودًا للقلب كشهود العين للمرئيات، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدًا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ (التوبة: ١١٥)، فهذا

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣٥: ٣٧).

الإضلال عقوبة منه لهم حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم ولم يعملوا به فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عَرفْت هذا عَرفْت سرَّ القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله مَنْ يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

فالأول كفر عناد، والثاني كفر طبع، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾، فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له، فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، فهذا هدى بعد البيان والدلالة وهو شرط لا موجب، فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء وهو هدى التوفيق والإلهام. وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية؛ وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله، وأسمائه، وصفاته، وكماله، وصدق ما أخبرت به رسلُه عنه؛ ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكير في آياته المشهودة، ويحضهم على التفكر في هذه وهذه، وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضلُّ الله مَنْ يشاء؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾، فالرسل تبين والله هو الذي يضل مَنْ يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

البيان الخاص:

وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة؛ وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلف عنه الهداية البتة؛ قال تعالى في هذه

المرتبة: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾، فالبيان الأول شرط وهذا موجب؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (فاطر ١٩: ٢٣).

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ؛ فإن ذلك حاصل لهم وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الآذان والقلب وتعلق بهما؛ فسماع لفظه حظ الأذن وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن؛ قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنبياء ٢: ٣)، وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه؛ بل يخرج السامع قائلًا للحاضر معه: ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (محمد: ١٦)، والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن؛ ومرتبة الإفهام أعم فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه؛ ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته، ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب، ويترتب على هذا السماع سماع القبول فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة[1].

---

(١) مدارك السالكين لابن القيم (١/ ٤٤).

الوجه السادس: الهدى والضلال ومراتبهما، والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم

هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال. وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم، وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه، ولا بد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن، فأما مراتب الهدى فأربع:

إحداها: الهدى العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى: البيان والدلالة و التعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى، وإرادته يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

المرتبة الرابعة: الهداية إلى طريق الجنة والنار يوم القيامة.

المرتبة الأولي: الهداية العامة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ (الأعلى١: ٣)، فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية، وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير؛ قال عطاء: خلق فسوى: أحسن ما خلقه وشاهده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (السجدة: ٧)، فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يُخِلُّ بالتناسب والاعتدال، وهذه الهداية العامة هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده، قال تعالى إخبارًا عن فرعون أنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ (طه ٤٩: ٥٠)، قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان، وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى؛ قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته، وقال الحسن: أعطى كل شيء صلاحه، والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته، ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه؛ هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: (قدر فهدي)، فالله سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته[1].

المرتبة الثانية: هداية الإرشاد والبيان للمكلفين:

وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شرط فيه أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب؛ بل قد يتخلف عنه المقتضى؛ إما لعدم كمال السبب، أو لوجود مانع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ (التوبة: ١١٥)، فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولًا بعد أن عرفوا الهدى، فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه، وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها، فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٣٥)، وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤) أي: جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها، وقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا

---

(١) شفاء العليل لابن القيم (١٤٠: ١٦٥).

﴿يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (آل عمران: ٨٦).

وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ونفى عنه ملك الهداية الموجبة؛ وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ (يونس: ٢٥)، فجمع سبحانه بين الهداء يتبين العامة والخاصة، فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلًا، وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلًا، وهذه المرتبة أخص من التي قبلها؛ فإنها هداية تخص المكلفين، وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامتها عليه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، وقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الزمر٥٦: ٥٧).

وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾﴾ (الملك ٨: ٩).

فإن قيل: كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه؟ قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى وبيان الرسل لهم، وأراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانًا، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرًا وباطنًا، ولم يَحُلْ بينهم وبين تلك الأسباب، ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه، نعم قطع عنهم توفيقه ولم يُرِدْ من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فما حال بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا

يقدرون عليه وهو فعله ومشيئته وتوفيقه فهذا غير مقدور لهم وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه، فتأمل هذا الموضع، وأعرف قدره والله المستعان.

المرتبة الثالثة: هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل.

وهذه المرتبة أخص من التي قبلها، وهذه المرتبة تستلزم أمرين: أحدهما فعل للرب تعالى وهو الهدى، والثاني فعل العبد وهو الاهتداء؛ وهو أثر فعله سبحانه، فهو الهادي والعبد المهتدي؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾، ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد؛ قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ (النحل: ٣٧).

وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس لهﷺ ولو حرص عليه، ولا إلى أحد غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبدًا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته؛ كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الجاثية: ٢٣)، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ (السجدة: ١٣).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣)، ولم يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم؛ بل الهدى كله منه، ولولا هدايتُه لهم لما اهتدوا وقال تعالى:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ (الزمر ٣٧: ٣٦).[1]

يتضح مما سبق: أن المقصود بالهداية في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وما شابههما من الآيات المقصود منها هداية التوفيق والإلهام والتأييد.

والهدى هنا يجيء بمعني: خلق الإيمان في القلب، وهذا لايكون إلا لله ﷻ وحده، وقد استحق هؤلاء القومُ الظالمون والفاسقون ذلك لخروجهم عن طاعة الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قولان: الأول: فتح مكة، الثاني: العقاب[2].

وقال الحسن: بعقوبة آجلة أو عاجلة، أي: بقضائه، وهذا تهديد وتخويف[3].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ يعني: الخارجين عن طاعته، وفي هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلمين ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا[4].

ولما كان من آثر حب شيء من ذلك على حبه تعالى، كان مارقًا من دينه راجعًا إلى دين من آثره، وكان التقدير: فيصيبكم بقارعة لا تطيقونها ولا تهتدون إلى دفعها بنوع حيلة؛ لأنكم اخترتم لأنفسكم منابذة الهداية، ومعلوم أن من كان كذلك فهو مطبوع في الفسق، عطف عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: الجامع لصفات الكمال، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ أي: لا يخلق الهداية في قلوب ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي: الذين استعملوا ما عندهم من قوة القيام فيما يريدون من الفساد حتى صار

(١) شفاء العليل لابن القيم (١٦٩: ١٧١).

(٢) تفسير زاد المسير (٣/ ٤١٣).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٩١).

(٤) تفسير الخازن (٢/ ٣٤٤).

الفسق - وهو الخروج مما حقه المكث فيه و التقيد به وهو هنا الطاعة - خلقًا من أخلاقهم ولازمًا من لوازمهم؛ بل يَكِلُهم إلى نفوسهم فيخسروا الدنيا والآخرة(١).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ونحوها من الآيات، ومعلوم أنه لم ينفِ هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة؛ فإنه حجته على عباده، وتأويل بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها: هداية البيان والتعريف لا خلق الهدى في القلب؛ فإن الله سبحانه لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة، وهذا التأويل من أبطل الباطل؛ فإن الله سبحانه يخبر أنه قسم هدايته قسمين: قسمًا لا يقدر عليه غيره، وقسمًا مقدورًا للعباد فقط، في القسم المقدور للغير: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وقال في غير المقدور للغير: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، وقال: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾، ومعلوم قطعًا أن البيان والدلالة قد تحصل له ولا تُنفى عنه، وكذلك قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ لا يصح حمله على هداية الدعوة والبيان؛ فإن هذا يُهدى وإن أضله الله بالدعوة والبيان؛ قال ابن مسعود: ﷺ "علمنا رسول الله ﷺ التشهد في الصلاة، والتشهد في الحاجة: إن الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ويقرأ ثلاث آيات: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾(٢).

وعند أبي داود عن عبد الله بن الحارث قال: خطب عمر بن الخطاب بالجابية، فحمد الله وأثنى عليه، وعنده جاثليق يترجم له ما يقول، فقال: من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، فنفض جبينه كالمنكر لما يقول، قال عمر: ما يقول؟

قالوا: يا أمير المؤمنين، يزعم أن الله لا يضل أحدًا، قال عمر: كذبت أي عدو الله؛ بل

(١) تفسير نظم الدرر للبقاعي (٣/ ٢٩٢).

(٢) الترمذي (١١٠٥) قال الترمذي: حديث صحيح، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٢٥٥).

الله خلقك وقد أضلك ثم يدخلك النار، أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك، إن الله ﷻ خلق أهل الجنة وما هم عاملون، وخلق أهل النار وما هم عاملون، فقال: هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه، قال: فتفرق الناس وما يختلفون في القدر(١).

حاجة المؤمن للهداية:

قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (المائدة: ١٦) أمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها وأمور هُدِيَ إلى أصلها دون تفصيلها أو هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدىً، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خالٍ عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية، وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة(٢).

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾؛ قال ابن كثير: أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها وألهمهم رشدهم(٣).

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ فالهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان

---

(١) شفاء الغليل لابن القيم (١٧٤: ١٧٨).

(٢) شفاء العليل (١٧٢).

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٧.

والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه وتزيينه في القلب وجعله مؤثرًا له راضيًا به راغبًا فيه، وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام(١).

فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة؛ لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه(٢).

الوجه السابع: كيفية تبرئة الخطاة عند النصارى، والوصول إلى الهداية عندهم.

النصارى يرون أن سبيل الحصول على الخلاص من الخطية هو الإيمان بالمسيح مخلصًا، وأنه مات على الصليب فداءً للبشر من خطية آدم، وهم يشرحون طريقة الخلاص كالآتي:

التبرير(٣): هو إعلان البر: أي إعلان لا ذنب لمن اعتُبر مذنبًا. . وهو قبول الإنسان لنعمة بها يمنحه الله مغفرة ذنوبه ومصالحته معه، وتدل اللفظة على أن الإنسان المذنب يتقبل برَّ الله فيصبح بارًا بفعل شاءته نعمة الله، فيحصل على دينونة لصالحه، مع أن هذا ليس أمرًا عاديًا، ولا يمكن للإنسان أن يتوقعه.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٢).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٦١).
(٣) انظر المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم (٣١٥ وما بعدها).

مراحل التبرير:

بما أن الخطيئة (أكل آدم من الشجرة) التي هي تمرد على مشيئة الله تسود العالم- قرر الله أن يحرر الإنسان من العبودية ومن لعنة الخطيئة؛ هذا هو السبب (في نظر المسيحي) الذي لأجله أرسل الله ابنه الذي يتم فداء الإنسان من يد الشر (موت المسيح على الصليب فداءً لخطايا البشر كما يزعمون).

هذا يسمى سر الفداء، فالله بالمسيح يظهر في نعمته بره الذي يتلاقى مع حبه، به يعطي الله حقًّا بره للإنسان.

يليق بالإنسان أن يتقبل في ذاته نعمة الفداء، والطريقة التي بها يدرك نداءه وخلاصه هي التبرير بحصر المعنى، وهكذا يكون للمؤمن البَرِّ الذي يقدم له، بما أنه يؤمن فهو يدخل في مخطط الله ويعلن اتفاقه مع الله من أجل تحقيق خلاصه.

وتحصل حركة أخيرة في الإنسان الذي تأكد الآن من خلاصه؛ فالذي يعرف أنه تبرر بالمسيح يحس بنفسه مدفوعًا ليعبر بدوره عن امتنانه وحبه بأعمال تبرهن على أنه ارتبط بمشروع الله؛ هذا ما يسمى التقديس.

والتقديس يعني: أن المؤمن انفتح على قداسة الحياة، بهذه الطريقة يكتمل عمل خلاص الله، ونحن عارفون أن هذه الحركات الثلاث تتداخل من وجهة الله فتكوِّن وحدةً واحدةً.

فالله (يفتدي) لكي (يبرر)، ويبرر لكي يقدِّس، فهدفه واحد، وهو يفعل في الإنسان بحيث يخلصه.

* * *

سورة يونس

وفيها:

١- شبهة: حول نجاة فرعون من الغرق.

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١- شبهة: حول نجاة فرعون من الغرق.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَـٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ (القصص: ٤٠)، ذكرت آية أن فرعون غرق، وفي الأخرى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ (يونس: ٩٢) أي: أنه لم يغرق، ثم إن التوراة لم تذكر خبرًا عن غرق فرعون، وقد أيدت التواريخ أن فرعون موسى لم يغرق؛ لأنه لم يخرج مع جيشه.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: معنى ننجيك ببدنك.

الوجه الثاني: الجمع بين الآيتين.

الوجه الثالث: تأييد العلم الحديث ما أخبر به القرآن عن غرق فرعون.

الوجه الرابع: تناقض في التوراة حول غرق فرعون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ (يونس: ٩٢)

إن المعترض على الآية الكريمة فهم منها أن الآية تخاطب فرعون بأنك اليوم ستنجو ببدنك من الغرق؛ بمعنى: أنك لن تموت غريقًا مع جنودك-هكذا ظن-، في حين أن الآية الأخرى تثبت له الغرق مع جنوده، ولو دقق النظر في هذه الآية لما استشكل فهمها عليه، وقد ذكر المفسرون عدة معاني لهذه الآية الكريمة منها:

(١) يقول تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نَجْوةٍ من الأرض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ ينظر إليك هالكًا من كذَّب بهلاكك، والنجوة: الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض[1].

(٢) ويجوز أن يكون المعني: نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ولكن بعد أن تغرق[1].

---

(١) تفسير الطبري١١/ ١٦٤ بتصرف، تفسير الرازي١٧/ ١٥٦، فتح الباري٨/ ١٩٩.

(٣) ويجوز أن يكون المعنى على سبيل التهكم، كما قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ كأنه قيل له: ننجيك لكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال: نعتقك ولكن بعد الموت، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت[٢].

ولعل في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي: في تنصيص الآية على كلمة ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ ما يشير إلى أنه قد مات بعد أن أغرقه الله؛ لأنه لا تكون النجاة بغير البدن، فإذا نجا الإنسان فلا حاجة إلى القول (نجا ببدنه)، فلما نص تعالى على كلمة ﴿بِبَدَنِكَ ﴾ علم أنه نجا البدن بغير روح، إذا كان جائزًا أن ينجيه بهيئته حيًا[٣].

الوجه الثاني: الجمع بين الآيتين.

وبعد أن عرضنا للمعاني المتنوعة للآية الأولى - وهي معانٍ متوافقة وليست متعارضة- يمكن الآن الجمع بين الآيتين:

فالأولى التي في سورة القصص: ﴿ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ تبين الغرق للجميع لفرعون وجنوده؛ وهو كذلك، وتؤيده الآية الثانية أن فرعون غرق مع الغارقين إلا أنه تميز عنهم بأنه نجا ببدنه بعد أن فارقته الروح، ولكن الآخرين لم يعثر لهم على أثر، وسبب نجاة بدن فرعون ذكرته الآية الكريمة: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ فكان في نجاة فرعون ببدنه ووجود بدنه إلى عصرنا هذا أكبر آية على قدرة الله تعالى وإهلاكه للظالمين، وفيه آية لمن اتعظ واعتبر.

وعن ابن عباس ﷺ قال: فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف في المدائن من قوم

---

(١) تفسير الرازي١٧/ ١٥٦.

(٢) تفسير الرازي ١٧/ ١٥٧.

(٣) الطبري١١/ ١٦٦، الرازي١٧/ ١٥٦ بتصرف يسير.

فرعون: ما غرق فرعون ولا أصحابه، ولكنهم في جزائر البحر يتصيدون، فأوحي إلى البحر أن الفظ فرعون عريانًا، فلفظه عريانًا أصلع أخيبس قصيرًا، فهو قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾(١).

الوجه الثالث: تأييد العلم الحديث ما أخبر به القرآن عن غرق فرعون.

وها أنا أنقل هذه القصة بنصها عن أشهر الجراحين الفرنسيين (موريس بوكاي) رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس، اعتنق الإسلام عام (١٩٨٢م)، وكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة قلبت حياته وغيرت كيانه وهي:

(اشتهر عن فرنسا أنها من أكثر الدول اهتمامًا بالآثار والتراث، وعندما تسلم الرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام (١٩٨١م) طلبت فرنسا من (مصر) في نهاية الثمانينات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة، فتم نقل جثمان أشهر طاغوت عرفته مصر، وهناك وعلى أرض المطار اصطف الرئيس الفرنسي منحنيًا هو ووزراؤه وكبار المسؤولين في البلد عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور (موريس بوكاي)، وكان البروفيسور(موريس بوكاي) يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني، وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائي، لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقًا، وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فورًا، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه، لكن ثمة أمرًا غريبًا مازال يحيره؛ وهو كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٦٨) بإسناد ضعيف، وانظر في هذا (دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر)٣٢٧.

استخرجت من البحر؟! كان (موريس بوكاي) يُعد تقريرًا نهائيًا عما كان يعتقده اكتشافًا جديدًا في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم في أذنه قائلًا: لا تتعجل فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء، ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر واستغربه، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة، فقال له أحدهم: إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق، فازداد ذهولًا وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا؟ وهذه المومياء لم تكتشف أصلًا إلا في عام (١٨٩٨) ميلادية أي: قبل مائتي عامٍ تقريبًا، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟! وكيف يستقيم في العقل هذا والبشرية جمعاء وليس العرب فقط لم يكونوا يعلمون شيئًا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط؟

جلس (موريس بوكاي) ليلته محدقًا بجثمان فرعون يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق، بينما كتابهم المقدس (إنجيل متى ولوقا) يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة. . . وأخذ يقول في نفسه: هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟! وهل يعقل أن يعرف محمدُهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه؟!

لم يستطعْ (موريس) أن ينام، وطلب أن يأتوا له بالتوراة فأخذ يقرأ في سفر الخروج من التوراة قوله: (فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ) (الخروج: ١٤/ ٢٨)، وبقي (موريس بوكاي) حائرًا، حتى الإنجيل لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر يليق بمقام فرعون،

ولكن (موريس) لم يهنأ له قرار، ولم يهدأ له بال منذ أن هزَّه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة.

فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين، وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق. . . فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (يونس: ٩٢).

لقد كان وقع الآية عليه شديدًا، ورجت له نفسه رجةً جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: (لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن).

رجع (موريس بوكاي) إلى فرنسا بغير الوجه الذى ذهب به، وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثًا مع القرآن الكريم، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢).

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها الفرنسي موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هزَّ الدول الغربية قاطبة، ورج علماءها رجًا، لقد كان عنوان الكتاب: (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. . . دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة). . . فماذا فعل هذا الكتاب؟ من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات[1].

الوجه الرابع: تناقض في التوراة حول غرق فرعون.

فقد ورد في التوراة أن فرعون لم يغرق، وأنه موجود فيها مايدل على غرقه، وهذا هو التناقض الذي نسبه إلى القرآن، ونسأله هو أن يوفق بين المعنيين المتناقضين، وما يجيب به في التوفيق يكون إجابةً لنا.

---

(١) (رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا) لعبد الرحمن محمود.

ففي الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج (١٤/ ٢٨): (فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ) وفي الإصحاح الخامس عشر من نفس السفر: (**تُغَطِّيهِمُ اللُّجَجُ. قَدْ هَبَطُوا فِي الأَعْمَاقِ كَحَجَرٍ**).

وفي التوراة ما نصه: (ولا سبيل لنا هنا إلى الحكم بغرق فرعون، إذ لا دلالة عليا في هذا النبأ، ولا من قول المرنم) (مزمور ٥٣: ٧٨، ١١: ١٠٦)، وساق المفسرون أربع حجج على عدم غرقه، ومعنى قوله: إن قول المرنم لا يدل على غرقه هو أن داود ﷺ في المزمور٧٨ والمزمور١٠٦ قال كلامًا عن فرعون لا يدل صراحةً على غرقه؛ ونص(٣: ٧٨) هو: (أما أعدائهم فغمرهم البحر)، ونص(١١: ١٠٦)هو: (وَغَطَّتِ الْمِيَاهُ مُضَايِقِيهِمْ. وَاحِدٌ مِنْهُمْ لَمْ يَبْقَ.).

هذا عن عدم غرق فرعون، أما عن غرقه ففي المزمور(١٥: ١٣٦): (ودفع فرعون قوته في بحر يوسف، لأبه إلى الأبد رحمته)، وفي ترجمة أخرى: (أغرق فرغون وجيشه في البحر الأحمر إلى الأبد رحمته)، و مفسروا الزبور - وهم أنفسهم الذين صرحوا بعدم غرق فرعون- كتبوا عن فرعون: (فإن هذا الأخير قد حاول جهد المستطاع أن يرجع الإسرائيليين إلى عبوديتهم، فما تم له ما أراد، بل اندحر شر اندحار).

فنحن نطالب المعترض أن يجيب أولًا عن هذا التناقض الموجود في كتابه الذي يؤمن به ثم يعترض على القرآن.

* * * *

٢- شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

نص الشبهة:

قال تعالى في سورة (يونس: ٩٤): ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

والسؤال: هذا حال كل مسلم عندما يرى الاختلافات بين القرآن والكتاب المقدس ويتساءل أين الحقيقة؟ عليه حسب هذه الوصية أن يسأل الذين يقرءون الكتاب أي: أهل الكتاب؟ وهذه وصية لا تطاع عند المسلمين، وكررها أيضًا في (الأنبياء: ٧): ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ثم إذا كان الله يتكلم إلى نبي الإسلام، لماذا يعطيه كلامًا فيه شك؟ وإذا سأل أهل الكتاب وقالوا له الحقيقة المغايرة لما كتب في القرآن ماذا يفعل؟!

والرد من وجوه:

الوجه الأول:

ليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلًا؛ فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾. (١)

وقد يتعلق الحكم بشرط ممتنع لبيان حكمه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الأنعام٨٨).

فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون مع انتفاء الشرك عنهم؛ بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا، ولأن الأنبياء معصومون من الشرك، وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٦)، تفسير البحر المحيط (٥/ ١٩٠).

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (الزمر٦٥)، والنبي ﷺ لم يكن شاكًا ولا سأل أحدًا منهم[١].

وقد روي عن قتادة مرسلًا عن النبي ﷺ قال: "والله لا أشك ولا أسأل"[٢].

الوجه الثاني:

ذكر المفسرون أن الخطاب في الآية الكريمة إما أنه للنبي ﷺ، وإما أنه لغير النبي ﷺ، **فإذا كان الخطاب للنبي ﷺ يكون المعنى على أوجه:**

الأول: أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (الرعد: ٤٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٠). وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ٩٧) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ (الأنعام: ٢٠)

فالمقصود: بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه:

(**أحدها**) أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك، فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف: ٤٥).

(**ثانيها**) أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرًا مثلهم؛ لم يرسل ملكًا، فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكًا، أو بشرًا معه ملك، ويتعجبون من

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٢١١).

إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٤) وغيرها من الآيات الكثيرة. . . فأمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشرًا أم كان ملكًا ليقيم الحجة بذلك على مَنْ أنكر إرسال بشر كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ (الأنبياء).

(**ثالثها**) أنه أمر بسؤال أهل الكتب عما جرى للرسل مع أممهم، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

(**رابعها**) أنهم يسألون أهل الكتاب عن الدين الذي بعث الله به رسله وهو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل، كالأمر بالتوحيد والصدق والعدل، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والنهي عن الشرك، والظلم والفواحش.

(**خامسها**) أنهم يسألون أهل الكتاب عما وصف به الرسل ربهم، هل هو موافق لما وصفه به محمد ﷺ أم لا؟

وهذه الأمور المسئول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه، وليس إذا كان مثل هذا معلومًا لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلومًا لهم بالتواتر.

(**سادسها**) أنهم يسألون أيضًا عما عندهم من البشارات والشهادات بنبوة محمد ﷺ، وقد أخبر الله بذلك في القرآن فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وقال تعالى عن مَنْ أثنى عليه من النصارى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (المائدة: ٨٣).

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم، وكان أهل الكتاب قبل أن يبعث النبي ﷺ تجري حروب بين العرب وبين أهل الكتاب فيقول أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتبعناه وقتلناهم معه شر قتلة، فلما بعث النبي ﷺ كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر به[١].

الثاني: أن الخطاب للنبي ﷺ في الظاهر، والمراد غيره ممن شك، وعندئذ يكون معنى الآية:

قل يا محمد: يا أيها الإنسان الشاك إن كنت في شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا محمد ﷺ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب يخبروك بصحته[٢].

ويشبه هذا الخطاب آيات كثيرة في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وكقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ومن الأمثلة المشهورة: (إياك أعني واسمعي يا جارة).

والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه:

(**أولها**): قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح.

(**ثانيها**): أن الرسول لو كان شاكًا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية.

(**ثالثها**): أن بتقدير أن يكون شاكًا في نبوة نفسه، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم في الأكثر كفار؟ وإن حصل فيهم من كان مؤمنًا إلا أن قوله ليس بحجة لا سيما وقد تقرر أن ما في أيديهم من التوراة والإنجيل، فالكل مصحف محرف، فثبت

---

(١) الجواب الصحيح (١/ ٢٩٤-٢٩٧)، وممن قال بهذا المعنى أيضًا ابن حزم في الملل والنحل (١/ ٢٧٠).

(٢) تفسير الخازن (٢/ ٤٦٤)، تفسير القرطبي (٨/ ٣٥٢)، زاد المسير (٤/ ٦٣).

أن الحق هو أن هذا الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ إلا أن المراد هو الأمة، ومثل هذا معتاد فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع؛ فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه إليهم؛ بل يوجه ذلك الخطاب إلى ذلك الأمير الذي جعله أميرًا إليهم؛ ليكون ذلك أقوى تأثيرًا في قلوبهم(١).

الوجه الثالث: أنه تعالى علم أن الرسول ﷺ لم يشك في ذلك؛ فيكون المراد بهذا التهييج إنه ﷺ إذا سمع الكلام يقول: لا أشك يا رب، ولا أسأل أهل الكتاب، بل أكتفي بما أنزلته عليَّ من الدلائل الظاهرة(٢).

ونظيره قول الله تعالى للملائكة: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ (سبأ: ٤٠)، والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤١)، وكما قال لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦)، والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذلك هنا(٣).

وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٨٧) ولزيادة التثبيت والعصمة(٤).

الوجه الرابع: هو أن محمدًا ﷺ كان من البشر، وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة في قلبه من الجائزات، وتلك الخواطر لا تندفع إلا بإيراد الدلائل وتقرير البينات، فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ

---

(١) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٠-١٦١).

(٢) تفسير الخازن (٢/ ٤٦٤).

(٣) تفسير الرازي (١٧/ ١٦١).

(٤) تفسير الكشاف (٢/ ٣٧٠).

صَدْرُكَ﴾ (هود: ١٢)، وتمام التقرير في هذا الباب أن قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ فافعل كذا وكذا قضية شرطية، والقضية الشرطية لا إشعار فيها البتة بأن الشرط وقع أو لم يقع، ولا بأن الجزاء وقع أولم يقع، بل ليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمه لماهية ذلك الجزاء فقط.

والدليل على هذا أنك إذا قلت: إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين، فهو كلام حق؛ لأن معناه أن كون الخمسة زوجًا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين، ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا ها هنا هذه الآية، تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا، فأما إن كان هذا الشك وقع أو لم يقع، فليس في الآية دلالة عليه.

والفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول ﷺ أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر، ولهذا السبب أكثر الله في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة[1].

الوجه الخامس: أن المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الإيمان، وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى، بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات، وذلك الاستحياء صار مانعًا لهم عن قبول الإيمان، فقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل، يعني أولى الناس بأن لا يشك في نبوته هو نفسه، ثم مع هذا إن طلب هو من نفسه دليلًا على نبوته هو نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فإنه ليس فيه عيب، ولا يحصل بسببه نقصان فإذا لم يستقبح منه ذلك في حق نفسه فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى.

فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الحياء عنهم في تكثير المناظرات[1].

---

(١) تفسير الرازي (١٧/ ١٦١)، فتح البيان (٦/ ١٢٣).

الوجه السادس: أن الشك في الآية ضيق الصدر؛ أي: إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم. والشك في اللغة أصله الضيق، يقال: شك الثوب أي: ضمه بخلال حتى يصير كالوعاء، وكذلك السفرة تمد علائقها حتى تنقبض، فالشك يقبض الصدر، ويضمه حتى يضيق(٢).

الوجه السابع: هو أن لفظ (إن) في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ للنفي أي: ما كنت في شك قبل، يعني: لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك، لكن لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى يقينًا(٣).

الوجه الثامن: أنه كنى بالشك عن العجب أي: فإن كنت في تعجب من عناد فرعون، ومناسبة المجاز أن التعجب فيه تردد، كما أن الشك تردد بين أمرين(٤).

الوجه التاسع: أن (إن) في هذه الآية ليست التي بمعنى الشرط؛ لأن من المحال العظيم الذي يتمثل في فهم من له مسكة من فهم أن يكون إنسان يدعو إلى دين يقاتل عليه، وينازع فيه أهل الأرض، ويدين به أهل البلاد العظيمة ثم يقول لهم: إني في شك مما أقاتلكم عليه أيها المخالفون، ولست على يقين مما أدعوكم إليه وأحققه لكم أيها التابعون، وإنما معنى (إن) هنا: الجحد، فهي هنا بمعنى: (ما) وهذا المعنى هو أحد موضوعاتها في اللغة العربية، كما قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨) بمعنى: ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون، كما ذكر الله ﷻ عن الأنبياء أنهم قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (إبراهيم: ١١) وكما قال تعالى مخبرًا عن النسوة إذ رأين يوسف عليه السلام فقلن: ﴿إِنْ

---

(١) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٢).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٣٥٢)، فتح البيان (٦/ ١٢٣).

(٣) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٢)، زاد المسير (٤/ ٦٣)، الكشاف (٢/ ٣٧١).

(٤) تفسير البحر المحيط (٣/ ١٩١).

﴿هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١) بمعنى: ما هذا إلا ملك كريم، وكما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٧) أي: ما كنا فاعلين، فعلى هذا المعنى خاطب نبيه ﷺ: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ (يونس: ٩٤) بمعنى: ولا أعدائك الذين يقاتلونك من الذين أوتوا الكتاب من قبلك ما هم أيضًا في شك مما أنزلنا إليك؛ بل هم موقنون بصحة قولك وإنك نبي حق رسول الله ﷺ، لا شك عندهم في أن الذي جاءك الحق، ومثل هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦) تهوينًا له، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف: ٨١) بمعنى: ما كان للرحمن ولد، فأنا أول الجاهدين لا يكون له ولد[1].

الوجه العاشر: أن يكون التقدير أنك لست شاكًا البتة، ولو كنت شاكًا لكان لك طرق كثيرة في إزالة ذلك الشك كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ والمعنى: أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعًا لزم منه المحال الفلاني فكذا هاهنا.

ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع إلى التوراة والإنجيل لتعرف بهما أن هذا الشك زائل، وهذه الشبهة باطلة[2].

الوجه الحادي عشر: إن كنت في شك أن هذا عادتهم مع الأنبياء؛ فسلهم كيف كان صبر موسى عليه السلام حين اختلفوا عليه؟ [3].

الوجه الثاني عشر: المعنى أن الله ﷻ خاطب النبي ﷺ وذلك الخطاب شامل للخلق، فالمعنى: إن كنتم في شك فاسألوا، والدليل على ذلك قوله في آخر السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

(١) رسالة لابن حزم في الرد على ابن الفريلة اليهودي (٣/ ٥٣-٥٤).
(٢) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٢)، فتح البيان (٦/ ١٢٣).
(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٩١) نقلًا عن الكسائي.

﴿ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ (يونس: ١٠٤).

فأعلم أن الله ﷻ خاطب النبي ﷺ ليس في شك، وأمره أن يتلو عليهم ذلك، والدليل على أن المخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة للناس قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقال: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ ولفظ أول الخطاب للنبي ﷺ وحده[1].

الوجه الثالث عشر: أن معنى الآية الكريمة: أن الله ـ تعالى ذكره ـ يقول لنبيه ﷺ: فإن كنت يا محمد في شك من حقيقية ما أخبرناك وأنزل إليك من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن تبعث رسولًا إلى خلقه؛ لأنهم يجدونك عندهم مكتوبًا، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتابهم في التوراة والإنجيل؛ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك من أهل التوراة والإنجيل كـ(عبد الله بن سلام) ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك منهم دون أهل الكذب والكفر بك منهم. وبهذا المعنى قال ابن عباس، وابن زيد، ومجاهد، والضحاك.

فإن قال قائل: أَوَ كان رسول الله ﷺ في شك من خبر الله أنه حق يقين حتى قيل له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (يونس: ٩٤)؟

قيل: لا، وبهذا قال جماعة من أهل العلم مثل: سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

فإن قال: فما وجه مخرج الكلام إذن إن كان الأمر على ما وصفت؟

قيل: قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا استجازة العرب قول القائل منهم لمملوكه:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٢)، ولكن نقل الرازي في تفسيره عن القاضي ردًا على قول الزجاج السابق فقال (يعني القاضي): هذا بعيد؛ لأنه متى كان الرسول ﷺ داخلًا تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال، سواءً أريد معه غيره أو لم يرد وإن جاز أن يراد هو مع غيره، فما الذي يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر، تفسير الرازي (١٧/ ١٦٢).

إن كنت مملوكي فانته إلى أمري، والعبد المأمور بذلك لا يشك سيده القائل له ذلك أنه عبده، كذلك قول الرجل منهم لابنه: إن كنت ابني فَبِرَّنِي، وهو لا يشك في ابنه أنه ابنه، وإن ذلك من كلامهم صحيح مستفيض فيهم، وذكرنا ذلك بشواهد، وأن منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وقد علم جل ثناؤه أن عيسى لم يقل ذلك، وهذا من ذلك لم يكن ﷺ شاكًا في حقيقة خبر الله وصحته، والله تعالى بذلك من أمره كان عالمًا، ولكنه جل ثناؤه خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضًا؛ إذ القرآن بلسانهم نزل[(١)].

وإذا كان الخطاب لغير رسول الله ﷺ: فيكون المعنى: أن الناس في زمانه ﷺ كانوا فرقًا ثلاثة: المصدقون به، والمكذبون له، والمتوقفون في أمره الشاكون فيه، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وإنما وجد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ⁦(٦)⁩﴾ وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ ولم يرد في جميع هذه الآيات إنسانًا بعينه؛ بل المراد هم الجماعة فكذا ههنا، ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ⁦(٩٥)⁩﴾[(٢)].

* * *

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٦٧-١٦٩)، المنار (١١/ ٤٨٠).

(٢) تفسير الرازي (١٧/ ١٦٣)، التحرير والتنوير (١٠/ ٢٨٤)، الخازن (٢/ ٤٦٤).

سورة هود

شبهة: حول ضيوف إبراهيم.

نص الشبهة:

ضيوف إبراهيم أكلوا، وأنه لم يخف من شيء، وكيف لامرأته أن تصك وجهها، وكيف لها أن تخدمهم وتجلس معهم؟ وكذلك القرآن لم يذكر عدد الضيوف؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآيات.

الوجه الثاني: الرد على إنكارهم أن الضيوف لم يأكلوا، وأنه لم يخف من شيء.

الوجه الثالث: الرد على إنكارهم خدمتها لهم.

الوجه الرابع: الرد على إنكارهم لصك امرأة إبراهيم وجهها، وأن القرآن لم يذكر عدد الضيوف.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآيات.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ (هود: ٦٩- ٧١).

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ من الملائكة، وهم فيما ذُكر كانوا جبريل وملكين آخرين، وقيل: إن الملكين الآخرين كانا ميكائيل وإسرافيل معه، ﴿بالبشرى﴾ يعني بالبشارة بإسحاق[١]. وقال بعضهم: هي البشارة بهلاك قوم لوط[٢].

---

(١) وهذا الراجح لقوله بعد ذلك: (فبشرناها بإسحاق. . .)، وانظر أضواء البيان (٣/ ٢٥- ٢٦).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٦٨).

قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ ﴾: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنت هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ؛ وهي ابنة عم إبراهيم، ﴿قَآئِمَةٞ﴾ قيل: كانت قائمة من وراء الستر تسمع كلام الرسل وكلام إبراهيم ﷺ، وقيل: كانت قائمة تخدُم الرسل، وإبراهيم جالسٌ مع الرسل(١).

وقوله: ﴿ فَضَحِكَتۡ ﴾: اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ وفي السبب الذي من أجله ضحكت، وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بالصواب قولُ من قال: معنى قوله: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ فعجبت من غفلة قوم لوط عما قد أحاط بهم من عذاب الله وغفلتهم عنه، وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب؛ لأنه ذكر عقيب قولهم لإبراهيم: ﴿تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ (هود: ٧٠)، فإذا كان ذلك كذلك، وكان لاوجه للضحك والتعجب من قولهم لإبراهيم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ كان الضحك والتعجب إنما هو من أمر قوم لوط(٢).

الوجه الثاني: الرد على إنكارهم أن الضيوف لم يأكلوا، وأنه لم يخف من شيء.

أما قولهم: إن الرجال في الحقيقة أكلوا، فهذا خلاف ما جاء في القرآن، واحتجاجهم بالتوراة لا يجوز؛ لأنها محرفة، فالضيوف لم يأكلوا وأصاب إبراهيم من ذلك خوف؛ لأن العرب كانت إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم، ظنوا أنه لم يجئ بخير، وأنه يحدِّث نفسه بشرّ(٣).

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ. . . ﴾ دليل على أنهم لم يأكلوا، ولأنهم في الأصل ملائكة؛ وهم لا يشربون، ولا يأكلون، ولا ينامون، ولا يتزوجون، ولا يتغوطون.

الوجه الثالث: الرد على إنكارهم خدمتها لهم.

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٧١).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٧٤).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٧١).

وأما قولهم: إن عبارة القرآن تفيد أنها كانت مع الضيوف تخدمهم فعبارة القرآن: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ فلعلها كانت قائمة من وراء الستر تستمع كلامهم(١).

وإن كانت معهم تخدمهم فليس هذا عيب، فلا بد أنها كانت بحجابها، ثم هي امرأة عجوز من القواعد، ثم إن إبراهيم ﷺ رجل مسن لا يستطيع أن يخدمهم بنفسه، وقد ورد حديث عن سهل بن سعد قال: دعا أبو أسيد الساعدي رسول الله ﷺ في عرسه، فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهي العروس، قال سهل: أتدرون ما سقت رسول الله ﷺ؟ أنقعت له تمرات من الليل في تور، فلما أكل سقته إياه(٢).

وترجم له البخاري " باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس ".

قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في عرسها، وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه، ويستخدمهن لهم، ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب، والله أعلم(٣).

قال ابن حجر: وَفِي الْحَدِيث جَوَاز خِدْمَة الْمَرْأَة زَوْجهَا وَمَنْ يَدْعُوهُ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ مَحَلّ ذَلِكَ عِنْد أَمْن الْفِتْنَة وَمُرَاعَاة مَا يَجِب عَلَيْهَا مِنْ السِّتْر، وَجَوَاز اِسْتِخْدَام الرَّجُل اِمْرَأَته فِي مِثْل ذَلِكَ، وَشُرْب مَا لَا يُسْكِر فِي الْوَلِيمَة، وَفِيهِ جَوَاز إِيثَار كَبِير الْقَوْم فِي الْوَلِيمَة بِشَيْءٍ دُون مَنْ مَعَهُ(٤).

وقال أبو حيان: وكانت نساؤهم لا تحتجب كعادة الأعراب، ونازلة البوادي والصحراء، ولم يكن التبرج مكروهًا، وكانت عجوزًا، وخدمة الضيفان مما يعد من مكارم الأخلاق(٥).

الوجه الرابع: الرد على إنكارهم لصك امرأة إبراهيم وجهها.

وأما قولهم: إن امرأته لم تقبل في صرة، ولم تصك وجهها، وأن هذا لا يليق وغير جائز.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٧٦-٥١٨٢)، مسلم (٢٠٠٦).

(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٧١).

(٤) فتح الباري (٩/ ١٦٠).

(٥) البحر المحيط (٥/ ٢٤٣).

فقد قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أقبلت على أهلها، وذلك لأنها كانت في خدمتهم، ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي: صيحة، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئًا من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب، ويحتمل أن يقال: تلك الصيحة كانت بقولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ تدل عليه الآية التي في سورة (هود: ٧٢) وصك الوجه أيضًا من عادتهن، واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما:

أحدهما: كبر السن، والثاني: العقم؛ لأنها كانت لا تلد في صغر سنها، وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست فاستبعدت[1].

ثم هي ليست بمعصومة، ثم إن الأمر في غاية العجب.

وقال أيضًا أبو حيان: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمته، وكذلك كما يفعله من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه، وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء[2].

وأما قولهم: إن القرآن لم يذكر عدد ضيوف إبراهيم.

فنقول: وما الفائدة من ذكر عدد الضيوف؟ هذا الأمر لا يقدم ولا يؤخر، بل هذا تنطع، وعلينا أن نسكت عما سكت عنه القرآن، ولم يرد في السنة تحديد عددهم، خاصةً عند عدم الفائدة.

فالقرآن يقص علينا نبأ المرسلين للعبرة والعظة، وأما ما لا منفعة فيه فالقرآن منزه عن ذلك، ولكن القوم تعودوا من كتابهم المحرف ذكر القصص التي لا منفعة فيها، وإليك أمثلة على ذلك:

فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. (التكوين ٣/ ١٤).

---

(١) تفسير الرازي (٢٨/ ٢١٤- ٢١٥).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٤٣).

(لوقا١٤/ ١٩): وَقَالَ آخَرُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ خَمْسَةَ أَزْوَاجِ بَقَرٍ، وَأَنَا مَاضٍ لأَمْتَحِنَهَا. أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِيَنِي.

السمك المجاني: قَدْ تَذَكَّرْنَا السَّمَكَ الَّذِي كُنَّا نَأْكُلُهُ فِي مِصْرَ مَجَّانًا، وَالْقِثَّاءَ وَالْبَطِّيخَ وَالْكُرَّاثَ وَالْبَصَلَ وَالثُّومَ. (سفر العدد١١/ ٥).

كلام غريب: وَيَدْخُلُ مَاءُ اللَّعْنَةِ هذَا فِي أَحْشَائِكِ لِوَرَمِ الْبَطْنِ، وَلإِسْقَاطِ الْفَخْذِ. فَتَقُولُ الْمَرْأَةُ: آمِينَ، آمِينَ. (سفر العدد٥/ ٢٢).

وفي سفر(الرؤيا ٦/ ٦): وَسَمِعْتُ صَوْتًا فِي وَسَطِ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَائِلًا: «ثُمْنِيَّةُ قَمْحٍ بِدِينَارٍ، وَثَلاَثُ ثَمَانِيِّ شَعِيرٍ بِدِينَارٍ. وَأَمَّا الزَّيْتُ وَالْخَمْرُ فَلاَ تَضُرَّهُمَا

وفي(الرؤيا ١٧/ ٦): وَرَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ. فَتَعَجَّبْتُ لَمَّا رَأَيْتُهَا تَعَجُّبًا عَظِيمًا!

* * * *

سورة يوسف

وفيها:

١- شبهات عن يعقوب و يوسف عليهما السلام.

٢- شبهة: أن يوسف همَّ بالفساد.

٣- شبهة: يوسف عليه السلام استغاث بغير الله تعالى.

٤- شبهة: أن تعبير يوسف عليه السلام للرؤيا لم يكن على الحقيقة، بدليل قوله تعالى: ﴿ظَنَّ﴾.

٥- شبهة: حول قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

٦- شبهة: أن الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربه عز وجل.

٧- شبهة: كيف يطلب يوسف عليه السلام الولاية؟.

٨- شبهة: يوسف عليه السلام يزكي نفسه.

٩- شبهة: حول عمل يوسف عليه السلام عند الكفار.

١٠- شبهة: حول إيواء يوسف أبويه قبل الدخول، وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بعد دخولهم عليه.

١١- شبهة: حول السجود للآدمي.

١- شبهات عن يعقوب ويوسف عليهما السلام.

الشبهة الأولى: كيف يفضل يعقوب عليه السلام بعض أولاده على بعض؟

والرد عليها كما يلي:

١- أن يعقوب عليه السلام ما فضلهما (يوسف وأخوه) على سائر الأولاد إلا في المحبة، والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورًا.

٢- أن أمهما ماتت وهما صغار.

٣-كان يعقوب عليه السلام يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد.

٤-لعل يوسف عليه السلام وإن كان صغيرًا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع الخدمة أشرف وأعلى بما كان يصدر عن سائر الأولاد.

فهذه المسألة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس، وموجبات الفطرة، فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين في دين الآخر أو في عرضه(١).

فحب يعقوب عليه السلام ليوسف وأخيه لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الصغير هي فطرة البشر، وقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يبرأ. (٢)

٥- واعلم - هداك الله -: إن دعواهم أنّ يوسف عليه السلام وأخاه أحبّ إلى يعقوب عليه السلام منهم يجوز أن تكون دعوى باطلة أثار اعتقادها في نفوسهم شدّةُ الغيرة من أفضليّة يوسف عليه السلام وأخيه عليهم في الكمالات، وربّما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف عليه السلام وأخيه في أعمال تصدر منهما، أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما، أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمّهما، فتوهّموا من ذلك أنّه أشدّ حبًّا إيّاهما منهم توهمًا باطلًا. ويجوز أن تكون دعواهم مطابقة للواقع وتكون زيادة محبّته إيّاهما أمرًا لا يملك صرفه عن نفسه لأنّه وجدان، ولكنّه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات، والأمور الظاهريّة، ويكون أبناؤه قد علموا فرط محبّة أبيهم

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٩٣).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢٢١).

إيّاهما من التوسّم، والقرائن، لا من تفضيلهما في المعاملة فلا يكون يعقوب ﷺ مؤاخذًا بشيء يفضي إلى التباغض بين الإخوة.

وجملة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ في موضع الحال من ﴿أَحَبُّ﴾ أي: ونحن أكثر عددًا، والمقصود من الحال التعجّب من تفضيلهما في الحبّ في حال أنّ رجاء انتفاعه من إخوتهما أشدّ من رجائه منهما بناءً على ما هو الشائع عند عامّة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة، فظنوا مدارك يعقوب ﷺ مساوية لمدارك الدّهماء، والعقولُ قلما تدرك مراقي ما فوقها، ولم يعلموا أنّ ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل غير ما ينظره مَن دونهم[1].

وقارن بين أدب يوسف وهو يقص على أبيه الرؤيا وهو يقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وبين قولهم عن أبيهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لتعلم الفرق الذي من أجله أحب يعقوب ﷺ يوسف ﷺ أكثر منهم فلم يكن تفضيله إياه عن هوى نفس، أو إعجاب بهيئة، وجمال ظاهر، أو تفضيل زوجة على زوجة أخرى بتفضيل أولادها، فإن نبي الله منزه عن ذلك، إنما كان تفضيله ليوسف ـ إن كان حدث التفضيل ـ لما رأى من صفات النجابة، وحسن الأدب، وكمال العقل، وعلامات الاجتباء، والاصطفاء، ودلائل التفضيل الإلهي، والإعداد لوراثة النبوة.

ولا شك أن المؤمن يحب في الله من يراه أكثر طاعة، وموافقته لدين الله الذي يحبه ويرضاه سبحانه لعباده، والأب الذي يفضل في المحبة ابنه المطيع على ابنه العاصي ليس بظالمٍ، ولا معتدٍ، وإنما الجور الذي حذر منه النبي ﷺ هو في العطية الدنيوية، فلا يجوز تفضيل بعض الأولاد فيها على بعض بغير سبب كمرض، أو أمانة، أو فقر، أو حاجة وسمى النبي ﷺ تفضيل بعض الولد في العطية جورًا، فقال للبشير والد النعمان بن بشير

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٥).

لما أراد أن يخصه بهبة: "لا تشهدني على جور»[(١)]، وقال ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم"[(٢)]، وظاهر هذه الأحاديث وجوب العدل بين الأولاد والتسوية بينهم في العطية.

والمقصود أن التفضيل في المحبة بناءً على الصفات والأخلاق ليس من التفضيل المنهي عنه لذلك لم يكن يعقوب عليه السلام مخطئًا، ولا مخالفًا للأولى في شدة محبته ليوسف عليه السلام وأخيه على بقية أبنائه[(٣)].

الشبهة الثانية: كيف يفعل إخوة يوسف هذا الكذب والحسد وتضييع الأخ، وكل هذا يقدح في عصمتهم ونبوتهم، فكيف يليق هذا بهم وهم أنبياء؟

والرد عليها كم يلي:

١- الأمر كما ذكرتم، إلا أن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام في وقت حصول النبوة، وأما قبلها فذلك غير واجب، والله أعلم.

٢- وقيل إنهم كانوا في هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين.

٣- وقيل أن هذا الفعل من باب الصغائر[(٤)].

٤- أين الدليل على أنهم أنبياء؟ اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف عليه السلام، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوَى قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ (البقرة: ١٣٦)، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب. يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٠)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٣) تأملات في سورة يوسف (ص: ٣٥، ٣٦).

(٤) تفسير الرازي (٩/ ٢).

دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم[١].

واعلم أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم، مقرين بكونه رسولًا حقًّا من عند الله تعالى، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالًا مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم في ذلك الاجتهاد، وذلك لأنهم كانوا يقولون: هما صبيان ما بلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما في السن، والعقل، والكفاية، والمنفعة، وكثرة الخدمة، والقيام بالمهمات، وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل[٢].

الشبهة الثالثة: كيف يصف أولاد يعقوب عليه السلام أباهم بالضلال المبين في القرآن؟

والرد عليها كما يلي:

الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- في هذه الآية الكريمة إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي.

ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ (يوسف: ٩٥) وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (الضحى: ٧) أي: لست عالمًا بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهداك إليها، وعلمكها بما أوحي إليك من هذا القرآن العظيم، ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بدلًا أراها في الضلال تهيم

يعني: أنها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنه يبغي بها بدلًا وهو لا يبغي بها بدلًا.

ولم يرد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنما مرادهم

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢).

(٢) التفسير الكبير (٨/ ٤٩٨).

أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به، حيث آثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعًا له، وأقدر على القيام بشؤونه، وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين: أحدهما: الضلال في الدين، أي: الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وهذا أشهر معانيه في القرآن، ومنه بهذا المعنى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ (الصافات: ٧١)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (يس: ٦٢) إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة من قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك فيه، ولذلك تسمي العرب الدفن إضلالًا؛ لأنه تغيب في الأرض يؤول على استهلاك عظام الميت فيها، لأنها تصير رميمًا وتمتزج بالأرض، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (السجدة: ١٠).

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٣) أي: غاب واضمحل.

ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

فقوله: (مضلوه) يعني: دافنيه، وقوله: (بعين جلية) أي: بخبر يقين، والجولان: جبل دفن عنده المذكور.

ومن الضلال بمعنى: الغيبة والاضمحلال قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكدر مزبد قذف الأتي به فضل ضلالا

وقول الآخر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحي المضلل أين ساروا[١]

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٢: ٥٤).

فهذه الأنواع من الضلال أخف من الضلال الذي يكون في أصول الدين عمدًا، ولا عن تأويل، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ (إبراهيم: ٢- ٣)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران: ١٦٤)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ (الملك: ٩).

فهذا النوع من الضلال هو ضلال الكفر العمدي الذي ليس شيء أكبر منه وعلامته: أن يوصف بوصف بعيد، أو كبير، أو مبين، وما يشبه ذلك مما يشير إلى عظمه في باب الكفر، وإنما وصف أبناء يعقوب عليه السلام ضلال أبيهم بأنه مبين تشددًا في البذاءة وغلوا في السفاهة على جناب والدهم عليه السلام[(١)].

والخلاصة: أن مقصد أولاد يعقوب عليه السلام بالضلال أمور.

١- أن يعقوب عليه السلام لفي خطأ من رأيه، وأخطئ مسلك الصّواب، وإنّما: أراد وأخطأ التّدبير للعيش لا الخطأ في الدين والاعتقاد، والتخطئة في أحوال الدّنيا لا تنافي الاعتراف للمخطئ بالنبوءة.

٢- أن يعقوب عليه السلام لفي شقاء.

٣- لفي ضلال عن طريق الصواب الذي يقتضي تعديل المحبة بيننا لأن نفعنا له أعم[(٢)].

٤- جملة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ تعليلًا للتعجّب وتفريعًا عليه، لا وصفًا على الحقيقة ظهر عفوًا عند الغضب[(٣)].

---

(١) تفسير سورة يوسف (١/ ٢٧٦).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٨٣)، التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٦) بتصرف.

وقولهم: كيف يصف أولاد يعقوب إياه بالضلال؟

ولم ينظر أصحاب الكتاب المقدس في كتابهم، وما فيه من صفات للأنبياء بل للرب.

وفي سفر الملوك الأول أن إيليا (إلياس) النبي خاطب الله.

يقول السفر (وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي، أَأَيْضًا إِلَى الأَرْمَلَةِ الَّتِي أَنَا نَازِلٌ عِنْدَهَا قَدْ أَسَأْتَ بِإِمَاتَتِكَ ابْنَهَا؟ » (الملوك الأول ١٧: ٢٠).

في سفر الخروج (٥/ ٢٢: ٢٣): فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى هذَا الشَّعْبِ؟ لِمَاذَا أَرْسَلْتَنِي؟ ٢٣ فَإِنَّهُ مُنْذُ دَخَلْتُ إِلَى فِرْعَوْنَ لأَتَكَلَّمَ بِاسْمِكَ، أَسَاءَ إِلَى هذَا الشَّعْبِ. وَأَنْتَ لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ».

في سفر إشعياء (٦٣/ ١٧) أن إشعياء النبي خاطب الله قائلًا: لِمَاذَا أَضْلَلْتَنَا يَا رَبُّ عَنْ طُرُقِكَ، قَسَّيْتَ قُلُوبَنَا عَنْ مَخَافَتِكَ؟ ارْجعْ مِنْ أَجْلِ عَبِيدِكَ، أَسْبَاطِ مِيرَاثِكَ.

ونحن نسأل إذا كان الأنبياء بهذه الوقاحة وهم حملة كلمة الله الهادية فماذا بقي للفساق والسفهاء؟

بل وفي كتابكم المقدس وصف الأنبياء بالزنى وأما هذا هو عين الضلال أم هذا عبادة عندكم فإن كان ذلك فما الفرق بينكم وبين من ليس لهم كتاب؟ وهذه بعض النقاط من كتابكم عن الأنبياء.

نبي الله حزقيال يشجع النساء على الزنى والفجور (حزقيال ١٦/ ٣٣: ٣٤)

نبي الله رأوبين يزني بزوجة أبيه بلهة (تكوين ٣٥/ ٢٢، ٤٩/ ٣: ٤)

شمشون يذهب إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها (قضاة ١٦/ ١) لوط يسكر ويزني بابنتيه (تكوين ١٩/ ٣٠: ٣٨).

الشبهة الرابعة: كيف ترك يوسف عليه السلام الاستثناء؟

فإن الأحسن أن يقول: (إني حفيظ عليم إن شاء الله) بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف: ٢٣- ٢٤).

والرد عليها كما يلي:

أولا: لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنها ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء[1].

فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجبًا عليه لوجوه:

الأول: أنه كان رسولًا حقًّا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

والثاني: وهو أنه ﷺ علم بالوحي أنه سيحصل القحط، والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك، ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين، ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه ﷺ كان مكلفًا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فكان هذا الطريق واجبًا عليه ولما كان واجبًا سقطت الأسئلة بالكلية[2].

* * *

(١) التفسير الكبير (٩/ ٦٣)، واللباب (٦/ ٢٤٢).

(٢) اللباب (٦/ ٢٤٢).

٢- شبهة: أن يوسف همَّ بالفساد.

نص الشبهة:

جاء في سورة يوسف (٢٤): ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: قصدت مخالطته وقصد مخالطتها، والهمُّ بالشيء قصده والعزم عليه، ومنه الهَمَام وهو الذي إذا قصد شيئًا أمضاه، وهذا القول يناقض التاريخ المقدس الذي يقول: إنها لما طلبت إليه الشر استنكر طلبها وقال: كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟ (ولما أمسكت بثوبه تركه معها وهرب) (تكوين ٣٩: ٩)؟

والرد على هذه الفرية من وجوه:

الوجه الأول: منزلة يوسف في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: معنى: (هَمَّ بها).

الوجه الثالث: الأدلة على براءة يوسف عليه السلام.

الوجه الرابع: مقارنة بين القصة في التوراة والقرآن.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل نبي الله يوسف عليه السلام من القرآن والسنة.

فضل يوسف عليه السلام في القران والسنة:

أولًا: في القرآن الكريم:

فقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم لِيُتَدَبَّرَ ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم؛ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ. . .﴾ يوسف (١: ٤). [(١)]

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (١/ ٢٠٠).

ثانيًا: في السنة النبوية:

١-فعن ابن عمر ﷺ: عن النبي ﷺ أنه قال: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"

٢- عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبث في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي"(١).

ففي هذا الحديث يبين النبي ﷺ طول صبر يوسف ﷺ، وأنه لو كان مكانه ودعي إلى الخروج من السجن لأجاب على الفور، ولا شك أنه قاله تواضعًا ﷺ.

٣- وفي رحلة المعراج قال ﷺ: "ثم عُرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، و إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير"(٢).

الوجه الثاني: معاني قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾:

المعنى الأول: أن يوسف ﷺ لم يقع منه همٌّ البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، وكأن معنى الآية الكريمة: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، فكان موجدًا لهمَّ على انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم.

وهذا المعنى مبني على قاعدة نحوية وهي: أن جواب (لولا) في الآية الكريمة محذوف يدل عليه ما قبله كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: (أنت ظالم إن فعلت) فيقررونه (إن فعلت فأنت ظالم) ولا يدل قوله: (أنت ظالم) على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (١٦٢) واللفظ له.

ولهذه القاعدة نظائر في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم[٢].

المعنى الثاني: أن معنى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ المقصود به خطرات النفس فالهم: اسم جنس تحته نوعان؛ كما قال الإمام أحمد: (الهم) همان: هم خطرات، وهم إصرار، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال: "إن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب حسنة ولا تكتب عليه سيئة"، ويوسف عليه السلام هم همًّا تركه لله، وكذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله، فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[٣].

وهذا مثل الصائم الذي يميل بطبعه إلى الماء البارد مع أن تقواه تمنعه من الشراب وهو صائم. .

ونظير هذا في القرآن أيضًا هَمُّ بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد فقال تعالى عنهم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ لأن قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الهم ليس معصية؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراء على المعصية[٤].

والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة، فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا يشتهيه: (هذا ما يهمني)، ويقول فيما يحبه ويشتهيه: هذا أهم الأشياء إلي، بخلاف هم امرأة العزيز؛

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٢٩٤، ٢٩٥)، تفسير القاسمي (٩/ ٢١٢).

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٥٣)، وانظر أيضًا المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٢٣٥).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٤) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٥٢).

فإنه هَمٌّ عزمٍ وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه، ومثل هذا التصميم على المعصيةِ معصيةٌ يؤاخذ بها صاحبُها؛ بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه ﷺ من حديث أبي بكرة: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه"، فصرح النبي ﷺ بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصيةٌ أدخله الله بسببها النار(١).

المعنى الثالث: أن المراد بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح؛ لأن الهم هو القصد، فوجب أن يحمل في حق كل أحد على القصد الذي يليق به، فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع، ثم إنها أيضًا همت أن تبطش به إذ عصى أمرها وخالف مرادها وهي سيدته وهو عبدها، وقد استذلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه بمراودته عن نفسه وكان الهم منه امتنع عنها واستكبر على أمرها معتزًا عليها بالديانة والأمانة والترفع عن الخيانة وحفظ شرف سيده وهو سيدها. . . ، وهم بها لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ولكنه رأى من ربه في سريرة نفسه ما جعله يمتنع من مصاولتها واللجوء إلى الفرار منها(٢). فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة؟

قلنا: بل فيه أعظم الفوائد، وبيانه من وجهين:

الأول: أنه سبحانه وتعالى أَعْلَمَ يوسف أنه لو هَمَّ بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله، فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صونًا للنفس عن الهلاك.

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٣)، وانظر أيضًا زاد الميسر لابن الجوزي (٤/ ٢٠٤)، والتفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٩).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ١١٨)، وانظر أيضًا تفسير المنار (١٢/ ٢٧٧: ٢٧٩) ومن (٢٨٠: ٢٨٦)، تفسير المراغي (١٢/ ١٣٠)، والبرهان في علم القرآن للزركشي (٣/ ١٥٤).

الثاني: أنه ﷺ لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به، فكان تمزيق ثوبه من قدام، وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن، ولو كان ثوبه ممزق من الخلف لكانت المرأة هي الخائنة، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى، فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربًا عنها، حتى صارت شهادة الشاهد حجة على براءته عن المعصية(١).

المعنى الرابع: أن يكون معنى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: اشتهاها، وهذا مستعمل في اللغة الشائعة، يقول القائل فيما لا يشتهيه: ما يهمني هذا، وفيما يشتهيه: هذا أهم الأشياء إلي، فسمى الله تعالى شهوة يوسف ﷺ همًا. إذن فمعنى الآية الكريمة: ولقد اشتهته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل في الوجود(٢).

والشاهد على صحة هذا التأويل قيامُ الدلالة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يعزمون على الفواحش، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ والصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الآدميين: الدعاء، وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فالشهادة من الله تعالى إخبار وبيان، ومنهم إقرار(٣).

المعنى الخامس: وإما أن يكون معنى: الهم أنه هم بالإيقاع بها وضربها كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ . . .﴾ وكما يقول القائل: لقد هممت بك. لكنه ﷺ امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها، وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته على مظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بقد القميص(٤).

(١) تفسير الرازي (١٨/ ١١٨).

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٨، ١١٩)، تفسير الماوردي (٣/ ٢٤).

(٣) الفروق اللغوية (٥٥٨)، أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٧٠).

(٤) الفصل في الملل والهواء والنحل لابن حزم (٤/ ١٠)، وهو مذهب ابن الأنباري، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٠٦).

المعنى السادس: [١] أن معنى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ﴿هم بها﴾ ما نقل عن ابن عباس وهو ما قاله الطبري: [حدثنا أبو كريب وسفيان بن وكيع وسهل بن موسى الرازي قالوا: ثنا ابن عيينة، عن عثمان بن أبي سليمان عن ابن أبي مليكة] عن ابن عباس أنه سُئل عن هم يوسف ما بلغ؟ قال: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن[٢].

وكذا نُقِلَ نفسُ المعنى عن تلاميذ ابن عباس: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، والقاسم بن أبي بزة بأسانيد صحيحة أو حسنة عنهم[٣]: (فكان همه من جنس همها، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن وغيره. . .).

وقال ابن قتيبة: لا يجوز في اللغة: هممت بفلان، وهم بي، وأنت تريد اختلاف الهمين. . . قالوا: ورجوعه عما هم به من ذلك خوفًا من الله تعالى يمحو عنه سيء الهم، ويوجب له علو المنزلة، ويدل على هذا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: "أن ثلاثة خرجوا فلجئوا إلى غار، فانطبق عليهم صخرة، فقالوا: ليذكر كل واحد منكم أفضل عمله، فقال أحدهم: اللهم، إنك تعلم أنه كانت لي ابنة عم فراودتها عن نفسها فأبت إلا بمائة دينار، فلما أتيتها بها، وجلست منها مجلس الرجل من المرأة، أرعدت، وقالت: إن هذا العمل ما عملته قط، فقمت عنها وأعطيتها المائة الدينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فزال ثلث الحجر"[٤]. وقد رَدَّ على هذا القول أئمة العلماء المحققين وضعفوه وإليك أقوالهم:

قال ابن تيمية: وأما ما ينقل من أنه حل سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًا على يديه، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ﷺ، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على

(١) هذا المعنى غير صحيح، وإنما ذكرناه لبيان بطلانه كما هومبين في أعلاه.

(٢) إسناده صحيح. تفسير الطبري (١٢/ ١٨٣).

(٣) وانظر تفسير الطبري (١٢/ ١٨٣، ١٨٤).

(٤) زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).

الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحدٌ عن نبينا ﷺ حرفًا واحدًا[١].

وقال ابن حزم: وقال بعض المتأخرين: إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة، ومعاذ الله أن يظن هذا برجل من صالحي المسلمين أو مستوريهم! فكيف برسول الله ﷺ؟ فإن قيل: إن هذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنه من طرق جيدة الإسناد؟ قلنا: نعم، ولا حجة في قول أحد إلا فيما صح عن رسول الله ﷺ فقط، والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عمن دون ابن عباس، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك؛ إذ إنما أخذه عمن لا يدري من هو ولا شك في أنه شيء سمعه فذكره لأنه رضي الله عنه لم يحضر ذلك، ولا ذكره عن رسول الله ﷺ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به[٢].

وقال الشنقيطي: وهذه الأقوال التي رأيت نسبتها إلى هؤلاء العلماء منقسمة إلى قسمين:

- قسم لم يثبت نقله عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال في سقوطه.
- وقسم ثبت عن بعض من ذكر، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك.

فالظاهر الغالب على الظن المزاحم لليقين أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات؛ لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يُرفع منه قليلٌ ولا كثيرٌ إليه ﷺ، وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بأنه جلس بين رجلي كافرة أجنبية، يريد أن يزني بها، اعتمادًا على مثل هذه الروايات، مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهن لا يبالي بها؛ لأن ذلك على فرض صحته فيه أكبر زاجر لعوام الفساق فما ظنك بخيار الأنبياء![٣].

وقال ابن الجوزي: ولا يصح ما يروى عن المفسرين أنه حل السراويل وقعد منها مقعد

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٧).

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٤/ ١٠).

(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٦٠).

الرجل، فإنه لو كان هذا دل على العزم والأنبياء معصومون من العزم على الزنا[١].

وقال ابن عطية: ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكة ونحو ذلك؛ لأن العصمة مع النبوة[٢].

وقال القاسمي: هذا وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات ما تلقفوه من أهل الكتاب ومن المتصولحين من تلك الأقاصيص المختلفة على يوسف عليه السلام في همه التي أنزه تأليفي عن نقلها بردها. . .[٣].

وقال ابن كثير: وأكثر أقوال المفسرين ها هنا مُتَلَقًّى من كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا، والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه، وبرأه، ونزهه عن الفاحشة، وحماه عنها، وصانه منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[٤].

وقال أبو السعود: فُسّر همُّه عليه السلام بأنه عليه السلام حلَّ الهَمَيان وجلس مجلسَ الخِتان. . . ، وقيل: رؤيتُه للبرهان بأنه سمع صوتًا: إياك وإياها فلم يكترثْ. . . ، وقيل: إنْ كلَّ ذلك إلا خرافاتٌ وأباطيلُ تمجُّها الآذانُ، وتردُّها العقول والأذهانُ، ويلٌ لمن لاكها ولفّقها أو سمعها وصدّقها[٥].

الوجه الثالث: الأدلة على براءة يوسف عليه السلام.

الدليل الأول: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (يوسف: ٥٣) فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٠٥).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٢٣٤) بتصرف.

(٣) تفسير القاسمي (٩/ ٢١٤).

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير (قصة يوسف عليه السلام).

(٥) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٦٧، ٢٦٦)، وانظر إلى بحث: "الاسرائيليات" من هذه الموسوعة.

يرتاب فيها من تدبر القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٢) ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾ (يوسف: ٥٠: ٥٣).

فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه، ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٢)﴾ أي: لم أخنه في حال مغيبه عني، وإن كنت في حال شهوده راودته فحينئذ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)﴾ وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول. وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه[(١)].

الدليل الثاني: وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤)﴾ فصح عنه أنه قط لم يصبُ إليها[(٢)].

الدليل الثالث: أن الله تعالى لم يذكر عنه ذنبًا، فلم يذكر ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل إن من الباطل الممتنع أن يظن ظانٌّ أن يوسف عليه السلام هَمَّ بالزنا وهو يسمع قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فنسأل من خالفنا: الهم بالزنا بسوء هو أم غير سوء؟ لا بد أنه سوء، وقد صرف الله عنه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٨).

(٢) الفصل لابن حزم (٤/ ١١).

السوء، ولو قال: إنه ليس بسوء لعاند الإجماع، فإذًا هو سوء فقد صرف عنه الهم بيقين[١].

الدليل الرابع: شهادة الجميع له ببراءته: شهد بذلك رب العالمين ﷻ، وشهد يوسف عليه السلام، وتلك المرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود، وإبليس اللعين؛ أقروا ببراءة يوسف من المعصية، فليس للمسلم توقف في هذا الباب[٢].

- أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

- أما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾، وأيضًا قالت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١).

- وأما بيان أن زوج المرأة أقرَّ بذلك فهو قوله: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾.

- وأما الشهود فقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الآيات[٣].

- وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات:

أولها: قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

---

(١) مجموع فتاوى بن تيمية (١٠/ ٢٩٦)، وانظر الفصل لابن حزم (٤/ ١١)، والتفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٥، ١١٦)، قاعدة في المحبة لابن تيمية (صـ٧٧)، قصص الأنبياء لابن كثير (قصة يوسف عليه السلام).

(٢) نقلًا من التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٦: ١١٧) بتصرف.

(٣) وأشار إلى هذا المعنى ابن حزم في الفصل (٤/ ١١) فقال: فَصَحَّ أنها كذبت بنص القرآن، وإذا كذبت بنص القرآن فما أراد بها قط سوءًا، فما هَمَّ بالزنا، ولو أراد بها الزنا لكانت من الصادقين، وهذا بَيِّنٌ جدًّا.

ثانيها: قوله: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ أي: كذلك نصرف عنه السوء والفحشاء.

ثالثها: قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾﴾.

ورابعها: قوله: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل [المُخْلِصِين] وأخرى باسم المفعول [المُخْلَصِين]، فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص، وو روده باسم المفعول يدل على أنه تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه.

- وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته، فلأنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص٨٢: ٨٣) فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فكان هذا إقرارًا من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى، وعند هذا نقول لهؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى: فليتقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه في السفاهة.

كما قال الخوارزمي:

وكنت امرءًا من جند إبليس فارتقى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أُحْسِنُ بعده ... طرائقَ فسق ليس يحسنها بعدي

فثبتت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريءٌ عما يقوله الجهال[1].

الدليل الخامس: أن الله تعالى لم يذكر عنه توبة:

أن يقال إن الله تعالى لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر توبته منه. . . كما ذكر قصة آدم، وموسى، وداود، وغيرهم من الأنبياء. . . ويوسف عليه السلام لم يذكر الله تعالى عنه في

(١) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٦، ١١٧)، أضواء البيان (٣/ ٤٩، ٥١).

القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلًا، وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها، مثل ما يقولون أنه حل السراويل وقعد منها مقعد الخاتن ونحو هذا، وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ، ولا مستندَ لهم فيه إلا النقلُ عن بعض أهل الكتاب، وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضهم منهم كما قالوا في سليمان ما قالوا، وفي داود ما قالوا، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه؟!

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصرًّا وإما تائبًا، والإصرار ممتنع، فتعين أن يكون تائبًا، والله لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفارًا كما ذكر عن غيره من الأنبياء، فدلك ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة، والمساعي المشكورة، كما أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

الدليل السادس: أن الزنا من منكرات الكبائر، والخيانة في معرض الأمانة أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضًا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضًا من منكرات الذنوب، وأيضا الصبي إذا تربى في حضن إنسان وبقي مكفيَّ المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته - فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال، إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع، ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/ ١٤٧: ١٤٩) بتصرف، تفسير الرازي (١٨/ ١١٦).

لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول ﷺ المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة[١]؟!!!

الدليل السابع: ونقول: هب أن هذه الآية وهي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ لا تدل على نفي هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة، ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح و الأثنية عقيب أن حكي عنه ذلك الذنب العظيم، فإنه مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه، فإن ذلك يستنكر جدًّا، فكذا هاهنا، والله أعلم[٢].

الوجه الرابع: مقارنة بين نص القصة في التوراة والقرآن.

أولًا: نص القصة في التوراة:

(وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ امْرَأَةَ سَيِّدِهِ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى يُوسُفَ وَقَالَتِ: «اضْطَجعْ مَعِي». ٨ فَأَبَى وَقَالَ لامْرَأَةِ سَيِّدِهِ: «هُوَذَا سَيِّدِي لاَ يَعْرِفُ مَعِي مَا فِي الْبَيْتِ، وَكُلُّ مَا لَهُ قَدْ دَفَعَهُ إِلَى يَدِي. ٩ لَيْسَ هُوَ فِي هذَا الْبَيْتِ أَعْظَمَ مِنِّي. وَلَمْ يُمْسِكْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَكِ، لأَنَّكِ امْرَأَتُهُ. فَكَيْفَ أَصْنَعُ هذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللهِ؟ ». ١٠ وَكَانَ إِذْ كَلَّمَتْ يُوسُفَ يَوْمًا فَيَوْمًا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا أَنْ يَضْطَجعَ بِجَانِبِهَا لِيَكُونَ مَعَهَا. ١١ ثُمَّ حَدَثَ نَحْوَ هذَا الْوَقْتِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ فِي الْبَيْتِ. ١٢ فَأَمْسَكَتْهُ بِثَوْبِهِ قَائِلَةً: «اضْطَجعْ مَعِي! ». فَتَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ. ١٣ وَكَانَ لَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ، ١٤ أَنَّهَا نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا، وَكَلَّمَتْهُمْ قَائِلَةً: «انْظُرُوا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا بِرَجُل عِبْرَانِيٍّ لِيُدَاعِبَنَا! دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجعَ مَعِي، فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ. ١٥

(١) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٥).

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٨/ ١١٦).

وَكَانَ لَمَّا سَمِعَ أَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ». ١٦ فَوَضَعَتْ ثَوْبَهُ بِجَانِبِهَا حَتَّى جَاءَ سَيِّدُهُ إِلَى بَيْتِهِ. ١٧ فَكَلَّمَتْهُ بِمِثْلِ هذَا الْكَلاَمِ قَائِلَةً: «دَخَلَ إِلَيَّ الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَيْنَا لِيُدَاعِبَنِي. ١٨ وَكَانَ لَمَّا رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ». ١٩ فَكَانَ لَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلاَمَ امْرَأَتِهِ الَّذِي كَلَّمَتْهُ بِهِ قَائِلَةً: «بِحَسَبِ هذَا الْكَلاَمِ صَنَعَ بِي عَبْدُكَ»، أَنَّ غَضَبَهُ حَمِيَ. ٢٠ فَأَخَذَ يُوسُفَ سَيِّدُهُ وَوَضَعَهُ فِي بَيْتِ السِّجْنِ، الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ أَسْرَى الْمَلِكِ مَحْبُوسِينَ فِيهِ. وَكَانَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ السِّجْنِ) (سفر التكوين٣٩/ ٧: ٢٠).

ثانيًا: الفروق بين نص القصة في التوراة والقرآن:

- في التوراة:

فالمراودة حدثت مرارًا ونصحُ يوسف لامرأة سيده كان قبل المرة الأخيرة.

أما في القرآن:

المراودة حدثت مرة واحدة اقترنت بعزم المرأة على يوسف لينفذ رغبتها.

- في التوراة:

تخلو من الإشارة على تغليق الأبواب، وتقول: إن يوسف ترك ثوبه بجانبها وهرب، وانتظرت هي قدوم زوجها، وقصت عليه القصة بعد أن أعلمت بها أهل بيتها.

أما في القرآن:

يشير إلى تغليق الأبواب، وأن يوسف هم بالخروج فقدَّت ثوبه من الخلف، وحين وصلا على الباب فوجئا بالعزيز يدخل عليهما فبادرت المرأة بالشكوى في الحال.

- في التوراة:

لم يكن يوسف موجودًا حين دخل العزيز، ولم يدافع يوسف عن نفسه لدى العزيز.

أما في القرآن:

يوسف كان موجودًا حين قدم العزيز، وقد دافع عن نفسه بعد وشاية المرأة، وقال: هي راودتني عن نفسي.

- في التوراة:

تخلو من حديث الشاهد، وتقول: إن العزيز حمى غضبه على يوسف بعد سماع المرأة.

أما في القرآن:

يذكر تفصيلًا شهادة الشاهد، كما يذكر اقتناع العزيز بتلك الشهادة، ولومه لامرأته، وتذكيرها بخطئها، وتثبيت يوسف على العفة والطهارة.

- في التوراة:

تقول: إن العزيز في الحال أمر بوضع يوسف في السجن، ولم يعرض أمره على رجال حاشيته.

أما في القرآن:

يشير إلى أن القرار بسجن يوسف كان بعد مداولة بين العزيز وحاشيته.

- في التوراة:

تخلو من حديث النسوة اللاتي لُـمْنَ المرأة على مراودتها فتاها عن نفسه، وهي فجوة هائلة في نص التوراة.

أما في القرآن:

يذكر حديث النسوة بالتفصيل، كما يذكر موقف امرأة العزيز منهن، ودعوتها إياهن ملتمسة أعذارها لديهن، ومصرة على أن ينفذ رغبتها.

هذه الستة فروق بارزة بين ما يورده القرآن الأمين، وما ذكرته التوراة - التي كانت أمينة قبل أن تعيث أيديهم فيها بالتحريف-.

والنظر الفاحص في المصدرين يرينا أنهما لم يتفقا إلا في أصل الواقعة من حيث هي واقعة وكفى، ويختلفان بعد هذا في كل شيء، على أن القرآن قام هنا بعملين جليلي الشأن:

أولهما: أنه أورد جديدًا لم تعرفه التوراة ومن أبرزه:

١- حديث النسوة، وموقف المرأة منهن.

٢- شهادة الشاهد الذي هو من أهل امرأة العزيز.

ثانيهما: تصحيح أخطاء وقعت فيها التوراة ومن أبرزها:

١-لم يترك يوسف ثوبه لدى المرأة بل كان لابسًا إياه ولكن قُطع من الخلف.

٢- غياب يوسف حين حضر العزيز، وإسقاطها – أي: التوراة- دفاعه عن نفسه.

اعتراض وجوابه: قد يقول قائل: لماذا تفترض أن الخطأ هو ما في التوراة، وأن الصواب هو ما في القرآن؟ أليس ذلك تحيزًا منك للقرآن؛ لأنه كتاب المسلمين وأنت مسلم؟ ولماذا لا تفترض العكس؟! وإذا لم تفترض أنت العكس، فقد يقول به غيرك، وما تراه أنت لا يطابق ما يراه الآخرون؟!!! هذا الاعتراض وارد في مجال البحث، إذن فلا بد من الإيضاح.

والجواب: لم نتحيز للقرآن لأنه قرآن، ولأنه كتابنا نحن المسلمين، ولنا في هذا الحكم داعيان:

(الأول) لم يرد في القرآن قط ما هو خلاف الحق؛ لأنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾، وقد ثبتت هذه الحقيقة في كل مجالات البحوث التي أجريت على مفاهيم القرآن العظيم في كل العصور، وهذا الداعي وحده كافٍ في تأييد ما ذهبنا إليه.

(الثاني) وهو منتزع من الواقعة نفسها موضوع المقارنة وإليك البيان:

كل من التوراة والقرآن متفقان على (عفة يوسف) وإعراضه عن الفحشاء، ثم اختلفا بعد ذلك، فالتوراة تقول: إن يوسف ترك ثوبه كله لدى المرأة وهرب.

والقرآن يقول: إنه لم يترك الثوب بل أمسكته المرأة من الخلف، ولما لم يتوقف يوسف عليه السلام اقتطعت قطعة منه وبقيت ظاهرة في ثوبة.

فأيُّ الروايتين أليق بعفة يوسف المتفق عليها بين المصدرين؟! أن يترك ثوبه كله؟ أم أن يُخرق ثوبه من الخلف؟!

إذا سلمنا برواية التوراة أنه ليس (عفيفًا) والمرأة على حق في دعواها؛ لأن يوسف لا يخلع ثوبه هكذا سليمًا إلا إذا كان هو الراغب وهي الآتية، ولا يقال: إن المرأة هي التي أخلعته ثوبه لأن يوسف رجل وهي امرأة، فكيف تتغلب عليه وتخلع ثوبه بكل سهولة؟ ثم لما يمتنع تحتفظ هي بالثوب كدليل ماديٍّ على جنايته المشينة؟! وهل خرج يوسف (عريانًا) وترك ثوبه لدى غريمته. . . ؟!

والخلاصة: أن رواية التوراة فيها إدانة صريحة ليوسف عليه السلام وهذا ينافي مع العفة التي وافقت فيها القرآن الأمين.

أما رواية القرآن فهي إدانة صريحة لامرأة العزيز، وبراءة كاملة ليوسف عليه السلام.

لقد دعته المرأة إلى نفسها ففر منها، فأدركته و أمسكته من الخلف بفعل المرأة، والثانية إلى الأمام بحركة يوسف فانقطع ثوبه من الخلف، وهذا يتفق تمامًا مع العفة المشهود بها ليوسف في المصدرين ولهذا قلنا: إن القرآن صحح هذا الخطأ الوارد في التوراة.

فهل القرآن مقتبس من التوراة؟

وهل تنطبق على القرآن أسس الاقتباس أم هو ذو سلطان خاص به فيما يقول ويقرر؟

المقتبس لابد من أن ينقل الفكرة كلها أو بعضها، وها نحن قد رأينا القرآن يتجاوز هذه الأسس؛ فيأتي بجديد لم يذكر فيما سواه، ولم يذكر فيما زعموا أنه نقل منه، ويصحح خطأً وقع فيه ما سواه.

فليس الاختلاف فيها اختلاف حبكٍ وصياغة، وإنما هو اختلاف يشمل الأصول والفروع، هذا بالإضافة إلى إحكام البناء وعفة الألفاظ وشرف المعاني.

إن الذي روته التوراة هنا لا يصلح ولن يصلح أن يكون أساسًا للذي ذكره القرآن، وإنما أساس القرآن هو الوحي الصادق الأمين، ذلك هو مصدر القرآن"ا لوضيء" وسيظل ذلك هو مصدره، تتساقط بين يديه دعاوى الباطل ومفتريات المفترين في كل عصر ومصر[1].

* * *

(١) موقع وزارة الأوقاف المصرية على الإنترنت.

٣- شبهة: يوسف عليه السلام استغاث بغير الله تعالى.

نص الشبهة:

يُستدلُّ من القرآن على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أنه استغاث بغير الله، فكيف يقع ذلك منه؟!

والردُّ على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذا من الأخذ بالأسباب المشروعة، ولا ينافي التوكل على الله.

الوجه الثاني: أرسل إلى الملك ليتوصل إلى دعوته إلى الله.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: هذا من الأخذ بالأسباب المشروعة، ولا ينافي التوكل على الله.

في هذه الآية دليل على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة وإن كان مشركًا، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾، وقوله حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وفي الحديث: (والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه)[1]، وجلي أن ذلك من نظام الكون والعمران البشري، ولذلك ميز الإنسان بالنطق، وهذا من يوسف عليه السلام على سبيل الاستعانة والتعاون في تفريج كربه وجعله بإذن الله وتقديره سببًا للخلاص، كما كان رسول الله ﷺ يطلب من يحرسه، ففعلُ يوسفَ عليه السلام دليل على جواز السعي و التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلًا، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب، فإن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلةً وركب بعضها على بعض، فتحريكها سنة، والتعويل على المنتهى يقين.

فاعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله و السعي في إزالة الظلم لا ينافي التسليم لقضاء الله، فإن التسليم الواجب هو التسليم لحكم الله وقضائه الشرعي الديني.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

أما القضاء والحكم القدري الكوني فإنه ثلاثة أنواع:

القسم الأول: الحكم الكوني الذي لا قدرة للإنسان فيه لا على أخذ الأسباب أو دفعها؛ مثل كونه ولد بصفة معينة، أوفي زمن معين، أو لأبوين معينين، ومثل كونه ذكرًا أو أنثى، ومثل موت بعض أحبابه وأقاربه، ومثل مرضه مرضًا لا يعرف له دواء ولا يرجى منه شفاء، فهذا قدر لابد فيه من التسليم المحض، وعدم المنازعة وعدم الفرار منه؛ إذ لا سبيل إلى ذلك، وترك التسليم ووجود المنازعة إنما هو السخط والشك، والاعتراض على الربوبية، وجرأة الإقدام، ووقاحة الاقتراح بأنه كان ينبغي غير ما كان و العياذ بالله.

القسم الثاني: الحكم الكوني الذي جعل الله للعباد على أخذ الأسباب أو دفعها قدرة و إرادة وكسبًا، و كونه ﷻ جعل لهم قدرة و إرادة تتعلق بالأسباب تكسبًا:

لا ينافي أنه إنما يوجبه حكمه الكوني، فليست إرادة العباد موجبة وقدرتهم في الحقيقة أثرهم؛ إنما هو من آثار قدرة الله ﷻ فهو الذي شاء أن يشاؤا، وهو الذي أقدرهم؛ فهذا النوع من الحكم القدري يشرع فيه وجوبًا واستحبابًا أخذ الأسباب المباحة و المشروعة. فمن ابتلاه الله بقدر من الجوع دفعه بقدر من الأكل، ومن ابتلاه الله بقدر من العطش فرَّ منه إلى قدر من الشرب، ومن أصابه قدر من المرض نازعه بقدر من التداوي؛ مصداق ذلك قول النبي ﷺ: (لما سئل عن الأدوية التي يتداوون بها ترد من قدر الله شيئًا فقال: "هي من قدر الله")[1].

ومن ذلك قول عمر لأبي عبيدة: (أتفرُّ من قدر الله؟! قال: نعم، أفر من قدر الله إلى قدر الله)[2].

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي (٢١٤٨، ٢٠٦٥)، وابن ماجه (٣٤٣٧)، أحمد (١٥٠٤٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٥٩) وضعيف ابن ماجة (٣٤٣٧) وحسنه الألباني في مشكلة الفقر (١١) بلفظ: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله». أما اللفظ المذكور فضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٧)، مسلم (٢٢١٩).

ومن هذا ما فعله يوسف عليه السلام، فحين أصابه قدر من الظلم والسجن شرع في دفعه بقدر طلب الشفاعة العادلة لدى الملك الذي أقدره الله على أن يرفع الظلم عنه، ويتأكد أخذ الأسباب في هذا النوع من الحكم الكوني القدري إذا كان في الذي تفر إليه طاعة لله و عبودية محبوبة له، وقد يكون واجبًا أن يأخذ بالأسباب، فمن ترك نفسه للجوع حتى هلك مع قدرته على الأكل كان آثمًا، ومن ترك أولاده بلا نفقة وهو قادر على الكسب برغم التسليم بالقدر كان آثمًا؛ مصداق قول النبي ﷺ: "وكفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت". (١)

القسم الثالث: من الحكم الكوني الحكم على العبد بالمعصية والخذلان، فهذا يجب عليه أن يفر منه وينازعه بقدر من الطاعة والتوبة و الإنابة و التضرع إلى الله أن يأخذ بناصيته إليه، وأن يوفقه لما يحب ويرضى، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وبهذا يحقق العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وفي هذا النوع بعد تحقيق التوبة والإنابة والإصلاح ما استطاع - يكون القدر بالنسبة إلى ما قد دفع في الماضي بالفعل ولا قدرة على تغيير هذا الماضي، بل قدرته في إزالة آثاره وقد فعل؛ يكون القدر في هذه الحالة عذرًا للعبد وحجة يحتج بها (كما حَجَّ آدمُ موسى بذلك). (٢)

وكما قال كعب بن مالك رضي الله عنه بعد توبته وقبولها: (فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت، غير أنه لم يقدر له ذلك). (٣) فهو باقٍ على ندمه على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ويتمنى أن لو كان لم يقع في الذنب، وهذا من كمال الندم، ولكنه يسلي نفسه ويعزيها بالقدر كما أنه في النوع الثاني؛ وهو الحكم الكوني الذي للعبد فيه قدرة على الأسباب - يكون الاستسلام للقدر مأمورًا به بعد استفراغ الوسع في أخذ الأسباب، وقد لا تثمر ثمرتها

---

(١) أخرجه مسلم (٩٩٦) بلفظ (كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يقوت)، وأبو داود (١٦٩٢)، وأحمد (٦٤٥٩)، وحسنه الألباني في الجامع (٤٤٨١)، وأخرجه الطيالسي (٢٢٨١) وغيرهم من طرق عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا.

وفيه وهب بن جابر: قال ابن حجر: مقبول؛ كما في التقريب (٢/ ٦٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٩)، مسلم (٢٦٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) بلفظ: (ثم لم يقدر)، وأحمد (١٥٣٦٣).

ولا تؤتي نتيجتها فقد نسي الرجل الساقي أن يذكر أمر يوسف للملك، فما كان من يوسف إلا التسليم والرضا بقضاء الله، فإن الأسباب ليست موجبة لنتائجها، فلا يحزن العبد ولا يغتم ولا يهتم، فقد جعل الله الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط، فلابد من التسليم والتفويض والتوكل على الله والثقة به سبحانه وتعالى.

أطلنا الكلام على هذه المسألة المهمة؛ لأن البعض قد فسر الآية الكريمة على أن يوسف عليه السلام لطلبه من الذي علم أنه ناجٍ من صاحبيه في السجن أن يذكره عند ربه، وأنه لو لم يفعل لما لبث فى السجن ما لبث، ويجعل ذلك حجة في ترك الأسباب زاعمًا أنها منافية للتسليم والرضا بالقدر، ومعلوم أن هدي الأنبياء جميعًا و سنتهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فإن جاء ما يعجز العبد وما لا قدرة له عليه وغلبه أمرٌ قال: قدر الله وما شاء فعل، وسلم الأمر لله وقضائه، فأخذ الأسباب ابتغاء الفرج من عند الله.

ولو وقع إنسان في بئر مثلًا وكان يستطيع أن ينادي مَنْ بالطريق بجوار البئر ليخرجه لزمه ذلك كما يلزمه إمساك الحبل لمن ألقاه إليه؛ خلافًا للمنقول عن بعض المتقدمين مِنْ تركه النداء أرسل الله إليه من ألقى إليه الحبل، فهل كان ترك النداء توكلًا و الإمساك بالحبل نقصًا في التوكل؟!

فالمسألة واحدة في الأمرين؛ كلاهما سبب.

إذن فطلب الشفاعة في الحق أمر مشروع لا ينافي كمال التوكل مع ثقة القلب به وكمال توكله عليه، وهذا هو الظن الواجب بيوسف عليه السلام. (١)

واحتياج الإنسان للواسطة في قضاء حاجته أورفع الظلم عنه عادة قديمة، وفي الغالب لا يكون إلا إذا كانت الحكومات ظالمة مستبدة لا يعمل فيها بموجب الشرائع و الأنظمة؛ ولكن بالرأي الفردي وبحسب الشهوة، وهذه الحالة السيئة كما كانت في تلك الحكومات المصرية الهكسوسية، فهي سائدة في جميع الأمم بنسب تتفاوت تبعًا للتربية و الأخلاق.

---

(١) تأملات إيمانية في سورة يوسف عليه السلام (١٢٥: ١٢٢).

وأذكر أنه مرة سألني سائل فقال: إن الشريعة كما حصرت العبادة في الله تعالى فقد حصرت الاستعانة فيه أيضًا؛ إذ ورد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، فكما أمرنا الله تعالى أن لا نعبد غيره لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره؛ فكذلك أمرنا أن لا نستعين بغيره أيضًا؟.

فأجبته: إن كل عمل يعمله الإنسان تتوفق ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤداة إليه؛ وعلى انتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه.

وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم و القوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب وحجب عنه البعض الآخر، فيجب علينا أن نقول بها في استطاعتنا من ذلك ونبذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول و قوة، وأن نتعاون ويساعد بعضُنا بعضًا على ذلك ثم نفوض الأمر فيما وراء ذلك إلى القادر على كل شيء، و نلجأ إليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل و الموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه؛ إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ورب الأرباب.

فقول يوسف ﷺ ههنا: ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ هو من قبيل الاستعانة بالأسباب التي نصبها الله تعالى و جعلها بتوفيقه ذريعة للمقصود، وهذا الضرب لا مانع منه كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، ولنضرب لذلك مثلًا: الزارع يبذل جهده في الحرث، والغرس، وتسميد الأرض، وريها، يفعل ذلك بنفسه، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أوالأرضية، وإشراق الشمس، وإنزال المطر الكافي على سبيل التعانت بين الشمس و المطر بمقدار اللزوم، فالاستعانة بالعبد على القسم الأول جائزة طبعًا وشرعًا، وأما الاستعانة على القسم الثاني فإنما هي بالله وحده[(١)].

الوجه الثاني: أرسل إلى الملك ليتوصل إلى دعوته إلى الله.

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٧٨٢: ٧٨١).

وقيل: إن هذه ليست استعانة، وإنما قال يوسف لساقي الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقى ورفيقه. (١)

بدليل قوله تعالى على لسان يوسف لما أرسل له الملك الرسول قال له يوسف عليه السلام: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٠)، ولم يتعجل و يخرج إلى الملك، بل لا فرق عنده بين السجن و بين خارج السجن؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

* * *

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٧٩).

٤- شبهة: أن تعبير يوسف ﷺ للرؤيا لم يكن على الحقيقة، بدليل قوله تعالى: (ظن).

نص الشبهة: قالوا: أن يوسف حينما عبَّر عن رؤيا الملك لم يكن على الحقيقة، بل كان ظن.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الظن أقوى من الشك، وقد يكون بمعنى اليقين كما في الآية.

الوجه الثاني: الظن في الآية بمعنى: (اليقين).

الوجه الثالث: الظن وإن كان خلاف اليقين، فهذا في حال الناس، أما في حال الأنبياء فهو على اليقين.

الوجه الرابع: بيان الحكمة من التعبير بهذا اللفظ القرآني.

واليك التفصيل

الوجه الأول: الظن أقوى من الشك، وقد يكون بمعنى اليقين كما في الآية

فالظن: مصدر من باب (قتل)، وهو خلاف اليقين؛ قاله الأزهري وغيره، وقد يستعمل بمعنى: اليقين كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾.

الظن: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم ظنون وأظانين، وقد يوضع موضع العلم، الظن العلم دون يقين أو بمعناه، وبابه (رد)، وتقول: ظننتك زيدًا وظننت زيدًا إياك، تضع الضمير المنفصل موضع المتصل، وفى التهذيب: الظن يقين وشك، وأنشد أبو عبيدة:

ظنى بهم كعسى وهم بتنوفة يتنازعون جوائز الأمثال

يقول: اليقين منهم كعسى، وعسى شك، وقال شمر: قال أبو عمرو معناه: ما يظن بهم من الخير فهو واجب، وعسى من الله واجب.

وقال المناوي: الظن الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ويستعمل في اليقين والشك، وقال الراغب: (الظن) اسم لما يحصل من أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت لم تجاوز حد الوهم، ومتى قوى أو تصور بصورة القوى استعمل معه أن المشددة أو المخففة، ومتى ضعف استعمل معه أن المختصة بالمعدومين من القول والفعل.

وقال الجوهري: الظن معروف (وقد يوضع العلم) قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بالقى مدجج   سراتهم في الفارسى المسرد

أي: استيقنوا وإنما يخوف عدوه باليقين لا بالشك، وفى حديث أسيد بن حضير: وظننا أن لم يجد عليهما أي: علمنا، وفى حديث عبيدة عن أنس سألته عن قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فأشار بيده، فظننت ما قال أي علمت، وقال الراغب: في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ أنه استعمل فيه الظن بمعنى: العلم. وفى البصائر: وقد ورد الظن في القرآن مجملاً على أربعة أوجه بمعنى: اليقين، وبمعنى: الشك، وبمعنى: التهمة، وبمعنى: الحسبان(١).

الوجه الثاني: الظن في الآية بمعنى: (اليقين).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ الظن هاهنا بمعنى: اليقين؛ لأن ما تقدم من قول: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ يلزم ذلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود، و(ظن) هنا بمعنى: اليقين؛ هو قول أكثر المفسرين، وفسره قتادة على الظنِّ الذي هو خلاف اليقين، قال: إنما ظن يوسف نجاته، لأن العابر يظن ظنًا وربك يخلق ما يشاء.

الوجه الثالث: الظن وإن كان خلاف اليقين، فهذا في حال الناس، أما في حال الأنبياء فهو على اليقين.

والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء، وأن ما قاله للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظنًا في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع(٢).

قال الطبري: وهذا الذي قاله قتادة، من أن عبارة الرؤيا ظن، فإن ذلك كذلك من غير الأنبياء، فأما الأنبياء فغير جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائنٌ ثم لا يكون، أو أنه غير كائن ثم يكون، مع شهادتها على حقيقة ما أخبرت عنه أنه كائن أو غير كائن، لأن ذلك لو جاز عليها في أخبارها، لم يُؤمَن مثل ذلك في كل أخبارها، وإذا لم يؤمن ذلك في أخبارها، سقطت

(١) المصباح المنير (٢/ ٢٨٦)، مختار الصحاح (٦/ ٤٠٧)، تاج العروس (١/ ٨١٠٢).
(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٢٠٠).

حُجَّتها على من أرسلت إليه، فإذا كان ذلك كذلك كان غير جائزٍ عليها أن تخبر بخبرٍ إلا وهو حق وصدق. فمعلومٌ إذ كان الأمر على ما وصفت أن يوسف لم يقطع الشهادة على ما أخبر الفتيين اللذين استعبراه أنه كائن، فيقول لأحدهما: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾، ثم يؤكد ذلك بقوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، عند قولهما: (لم ترَ شيئًا) إلا وهو على يقين أن ما أخبرهما بحدوثه وكونه، أنه كائن لا محالة لا شك فيه. وليقينه بكون ذلك، قال للناجي منهما: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، فبيِّنٌ إذًا بذلك فسادُ القول الذي قاله قتادة في معنى قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾[1].

الوجه الرابع: بيان الحكمة من التعبير بهذا اللفظ القرآني.

قال الآلوسي: جاء على صيغة الماضي مبالغة في الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، وهو السر في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يُقال للذي ظنه ناجيًا منهما من صاحبيه، وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيدًا لمناط التوصية بالذكر بما يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك.

والظان: هو يوسف عليه السلام لا صاحبه؛ لأن التوصية المذكورة لا تدور على ظن الناجي بل على ظن يوسف، وهو بمعنى: اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾، ولعل التعبير به من باب إرضاء الظانِّ والتأدب مع الله تعالى، فالتعبير بالوحي كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، وقيل: هو بمعناه، والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضًا اجتهادي، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: سيدك وصِفْنِي له بصفتي التي شاهدتها[2].

* * * *

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٢).

(٢) روح المعاني (١٢/ ٢٤٧).

٥- شبهة: حول قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

نص الشبهة:

هل هناك رب غير الله مع أن الرب واحد.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الرب في اللغة يطلق على غير الله إذا كان مضافًا.

الوجه الثاني: خاطَبَهم على المُتعارَفِ عندهم، وهذا من عرفهم.

الوجه الثالث: الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ وقول النبي: ﷺ"وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّى وَلْيَقُلْ سَيِّدِى مَوْلاَىَ"(١).

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الرب في اللغة يطلق على غير الله إذا كان مضافًا.

الرَّبُّ هو الله ﷻ، هو رَبُّ كلِّ شيءٍ؛ أَي: مالكُه، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخَلْق لا شريك له، وهو رَبُّ الأَرْبابِ ومالِكُ المُلوكِ والأَمْلاكِ، ولا يقال: الربُّ في غَيرِ الله إلاّ بالإِضافةِ.

قال: ويقال الرَّبُّ بالأَلِف واللام لغيرِ الله، وقد قالوه في الجاهلية للمَلِكِ، قال الحارث بن حِلِّزة:

وهو الرَّبُّ والشَّهِيدُ عَلى يَوْمِ   الحِيارَيْنِ والبَلاءُ بَلاءُ

والاسْم الرِّبابةُ قال:

يا هِنْدُ أَسْقاكِ بلا حِسابَهْ   سُقْيَا مَلِيكٍ حَسَنِ الرِّبابهْ

وربُّ كلِّ شيءٍ: مالِكُه ومُسْتَحِقُّه، وقيل: صاحبُه، ويقال: فلانٌ رَبُّ هذا الشـيءِ، أَي: مِلْكُه له، وكُلُّ مَنْ مَلَك شيئًا فهو رَبُّه، يقال: هو رَبُّ الدابةِ، ورَبُّ الدارِ، وفلانٌ رَبُّ البيتِ، وهُنَّ رَبَّاتُ الحِجالِ.

والرَّبُّ يُطْلَق في اللغة على المالكِ، والسَّيِّدِ، والمُدبِّر، والمُربِّي، والقَيِّم، والمُنْعِمِ، ولا يُطلَق غيرَ مُضافٍ إلاّ على الله تعالى، وإذا أُطْلِق على غيرِه أُضِيفَ؛ فيقالَ: ربُّ كذا، وقد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، مسلم (٢٢٤٩).

جاءَ في الشِّعْر مُطْلَقًا على غيرِ الله تعالى وليس بالكثيرِ، ولم يُذْكَر في غير الشِّعْر.

والعرب تقول: لأَنْ يَرُبَّنِي فلان أَحَبُّ إِلَيَّ من أَنْ يَرُبَّنِي فلان؛ يعني: أَن يكونَ رَبًّا فَوْقِي وسَيِّدًا يَمْلِكُنِي.

قال ابن الأنباري: الرَّبُّ يَنْقَسِم على ثلاثة أَقسام: يكون الرَّبُّ المالِكَ؛ ويكون الرَّبُّ السّيدَ المطاع؛ قال الله تعالى: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أَي: سَيِّدَه؛ ويكون الرَّبُّ المُصْلِحَ، رَبَّ الشيءَ أي: أَصْلَحه، وأَنشد:

يَرُبُّ الذي يأْتِي منَ العُرْفِ إنه إِذا سُئِلَ المَعْرُوفَ زادَ وتَمَّا[1]

الرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام، ويقال: ربه ورباه ورببه، فالرب مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرب مطلقًا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ: ١٥)، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ (آل عمران: ٨٠) أي: آلهة، وتزعمون أنهم الباري مسبب الأسباب، والمتولي لمصالح العباد، وبالإضافة يقال له ولغيره نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ١)، و﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الصافات: ١٢٦).

ويقال: رب الدار، ورب الفرس لصاحبها، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ (يوسف: ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٥٠)، وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ (يوسف: ٢٣). قيل: عنى به الله تعالى، وقيل: عنى به الملك الذي رباه. وهو قول أكثر المفسرين، ويرجحه قوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ والأول أليق بقوله[2].

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ١٧٧: ١٧٦، تاج العروس١/ ٥٠٤، النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٧٩، لسان العرب٣/ ١٥٤٧: ١٥٤٦.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٣٧٥) بتصرف.

الوجه الثاني: خاطَبهم على المُتعارَفِ عندهم، وهذا من عرفهم.

فأَما قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فإنه خاطبَهم على المُتعارَفِ عندهم، وعلى ما كانوا يُسَمُّونَهم به، ومنه قَولُ موسى عليه السلام للسامِرِيّ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أَي: الذي اتَّخَذْتَه إِلهًا.

وكانوا يطلقون "الرب" على السيد والكبير والملوك وهذا من عرفهم، حكم عليه بالربوبية؛ كما يقال: رب الدار ورب الثوب(١).

الوجه الثالث: الجمع بين قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ وقول النبي ﷺ: **"ولاَ يقُلْ أحَدُكمْ ربِّى وَلْيَقُلْ سَيِّدِى مَوْلاَى"**(٢).

قال القرطبي: قال العلماء: قوله ﷺ: "لا يقل أحدكم، وليقل" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى، لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم، ولأنه قد جاء عنه ﷺ: "أن تلد الأَمَةُ ربها"؛ أي: مالكها وسيدها، وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ، فكان محل النهي في هذا الباب ألا نتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن.

وقد قيل: إن قول الرجل عبدي وأمتي يجمع معنيين: أحدهما: أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى، ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمتي تعظيم عليه، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه، وذلك غير جائز.

والثاني: أن المملوك يدخله من ذلك شيء في استصغاره بتلك التسمية، فيحمله ذلك على سوء الطاعة. وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون ذلك جائزًا في شرع يوسف عليه السلام(٣).

قال ابن حجر: وَفِيهِ نَهْي الْعَبْد أَنْ يَقُول لِسَيِّدِهِ: رَبِّي، كَذَلِكَ نَهْي غَيْره فَلَا يَقُول لَهُ أَحَد: رَبّك، وَيَدْخُل فِي ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ السَّيِّدُ ذَلِكَ عَنْ نَفْسه، فَإِنَّهُ قَدْ يَقُول لِعَبْدِهِ: اِسْقِ رَبّك، فَيَضَعُ الظَّاهِرَ مَوْضِع الضَّمِير عَلَى سَبِيل التَّعْظِيم لِنَفْسِهِ، وَالسَّبَب فِي النَّهْي أَنَّ حَقِيقَة الرُّبُوبِيَّة لله

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٧٩، تفسير الرازي ١٨/ ١٤٤، تفسير ابن كثير ٨/ ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، مسلم (٢٢٤٩).

(٣) تفسير القرطبي٩/ ٢٠١: ٢٠٠.

تَعَالَى؛ لِأَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمَالِك وَالْقَائِم بِالشَّيْءِ فَلَا تُوجَدُ حَقِيقَةُ ذَلِكَ إِلَّا لله تَعَالَى.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: سَبَب الْمَنْع أَنَّ الْإِنْسَان مَرْبُوبٌ مُتَعَبَّدٌ بِإِخْلَاصِ التَّوْحِيد لله وَتَرْك الْإِشْرَاك مَعَهُ، فَكَرِهَ لَهُ الْمُضَاهَاة فِي الِاسْم لِئَلَّا يَدْخُل فِي مَعْنَى الشِّرْك، وَلَا فَرْق فِي ذَلِكَ بَيْن الْحُرّ وَالْعَبْد، فَأَمَّا مَا لَا تَعَبُّد عَلَيْهِ مِنْ سَائِر الْحَيَوَانَات وَالْجَمَادَات فَلَا يُكْرَهُ إِطْلَاق ذَلِكَ عَلَيْهِ عِنْد الْإِضَافَة، كَقَوْلِهِ: رَبّ الدَّار وَرَبّ الثَّوْب. وَقَالَ اِبْن بَطَّال: لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَال لِأَحَدٍ غَيْر الله: رَبّ، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَال لَهُ: إِلَه، وَالَّذِي يَخْتَصُّ بِالله تَعَالَى إِطْلَاق الرَّبّ بِلَا إِضَافَةٍ، أَمَّا مَعَ الْإِضَافَة فَيَجُوزُ إِطْلَاقُهُ؛ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى حِكَايَة عَنْ يُوسُف عليه السلام: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، وَقَوْله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وَقَوْله ﷺ فِي أَشْرَاط السَّاعَة: "أَنْ تَلِدَ الْأَمَة رَبَّهَا"(١)، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ النَّهْي فِي ذَلِكَ مَحْمُول عَلَى الْإِطْلَاق، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ لِلتَّنْزِيهِ، وَمَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فَلِبَيَانِ الْجَوَاز.

وَقِيلَ: هُوَ مَخْصُوص بِغَيْرِ النَّبِيّ ﷺ وَلَا يَرُدّ مَا فِي الْقُرْآن، أَوْ الْمُرَاد النَّهْي عَنْ الْإِكْثَار مِنْ ذَلِكَ وَاِتِّخَاذ اِسْتِعْمَال هَذِهِ اللَّفْظَة عَادَة، وَلَيْسَ الْمُرَاد النَّهْي عَنْ ذِكْرهَا فِي الْجُمْلَة.

قَوْله: "وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلَايَ" فِيهِ جَوَاز إِطْلَاق الْعَبْد عَلَى مَالِكه سَيِّدِي.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْن الرَّبّ وَالسَّيِّد؛ لِأَنَّ الرَّبَّ مِنْ أَسْمَاء الله تَعَالَى اِتِّفَاقًا، وَاخْتُلِفَ فِي السَّيِّد، وَلَمْ يَرِد فِي الْقُرْآن أَنَّهُ مِنْ أَسْمَاء الله تَعَالَى. فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاء الله تَعَالَى فَالْفَرْقُ وَاضِحٌ إِذْ لَا اِلْتِبَاس، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ فَلَيْسَ فِي الشُّهْرَة وَالِاسْتِعْمَال كَلَفْظِ الرَّبّ فَيَحْصُلُ الْفَرْق بِذَلِكَ أَيْضًا، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيُّ، وَأَحْمَد، وَالْمُصَنِّفُ فِي (الْأَدَب الْمُفْرَد) مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن الشِّخِّير رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: "السَّيِّدُ الله"(٢).

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّمَا أَطْلَقَهُ لِأَنَّ مَرْجِعَ السِّيَادَة إِلَى مَعْنَى الرِّيَاسَة عَلَى مَنْ تَحْت يَده، وَالسِّيَاسَة لَهُ وَحُسْنُ التَّدْبِير لِأَمْرِهِ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الزَّوْج سَيِّدًا، قَالَ: وَأَمَّا الْمَوْلَى فَكَثِير

---

(١) أخرجه مسلم (٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٥) من طريق قتادة، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢١١)، وأبو داود في سننه (٤٨٠٦) من طريق أبي نضرة؛ كلاهما (قتادة و أبو نضرة) عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه به. والحديث صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٥٥).

التَّصَرُّف فِي الْوُجُوهُ الْمُخْتَلِفَة مِنْ وَلِيّ وَنَاصِر وَغَيْر ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا يُقَالُ: السَّيِّد وَلَا الْمُوْلَى عَلَى الْإِطْلَاق مِنْ غَيْر إِضَافَة إِلَّا فِي صِفَة الله تَعَالَى.

وَفِي الْحَدِيث جَوَاز إِطْلَاق مَوْلَايَ أَيْضًا، وَأَمَّا مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِم، وَالنَّسَائِيّ، مِنْ طَرِيق الْأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فِي هَذَا الْحَدِيث نَحْوه وَزَادَ: "وَلَا يَقُلْ أَحَدكُمْ: مَوْلَايَ فَإِنَّ مَوْلَاكُمْ الله، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: سَيِّدِي"، فَقَدْ بَيَّنَ مُسْلِم الِاخْتِلَاف فِي ذَلِكَ عَلَى الْأَعْمَش، وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الزِّيَادَة، وَمِنْهُمْ مَنْ حَذَفَهَا، وَقَالَ عِيَاض: حَذْفُهَا أَصَحُّ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: الْمَشْهُور حَذْفُهَا، قَالَ: وَإِنَّمَا صِرْنَا إِلَى التَّرْجِيح لِلتَّعَارُضِ مَعَ تَعَذُّرِ الْجَمْع وَعَدَم الْعِلْم بِالتَّارِيخِ. وَمُقْتَضَى ظَاهِر هَذِهِ الزِّيَادَة أَنَّ إِطْلَاق السَّيِّد أَسْهَلُ مِنْ إِطْلَاق الْمَوْلَى، وَهُوَ خِلَاف الْمُتَعَارَف، فَإِنَّ الْمَوْلَى يُطْلَقُ عَلَى أَوْجُهٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا الْأَسْفَل وَالْأَعْلَى، وَالسَّيِّد لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى الْأَعْلَى، فَكَانَ إِطْلَاق الْمَوْلَى أَسْهَل وَأَقْرَب إِلَى عَدَم الْكَرَاهَة، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ رَوَاهُ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ فَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِلَفْظِ الْمَوْلَى إِثْبَاتًا وَلَا نَفْيًا؛ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيّ، وَالْمُصَنِّف فِي" الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ " بِلَفْظِ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَلَا أَمَتِي، وَلَا يَقُلْ الْمَمْلُوك: رَبِّي وَرَبَّتِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ الْمَالِك: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَالْمَمْلُوك: سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي؛ فَإِنَّكُمْ الْمَمْلُوكُونَ وَالرَّبُّ الله تَعَالَى»[1].

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَاد النَّهْي عَنْ الْإِطْلَاق كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَام الْخَطَّابِيّ، وَيُؤَيِّدُ كَلَامه حَدِيثُ اِبْن الشِّخِّير الْمَذْكُور، وَالله أَعْلَم. وَعَنْ مَالِك تَخْصِيص الْكَرَاهَة بِالنِّدَاءِ فَيُكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدِي، وَلَا يُكْرَهُ فِي غَيْر النِّدَاء[2].

* * * *

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٤٢٣، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٧٢)، وأبو داود في سننه (٤٩٧٥) من طريق مُحَمَّد بْن سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة به. والحديث صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٥٤).

(٢) فتح الباري ٥/ ٢١٣: ٢١٢، وانظر شرح صحيح مسلم للنووي ٨/ ١٠: ٩.

٦- شبهة: أن الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربه عز وجل.

نص الشبهة:

جاء في القرآن في سورة يوسف: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، فيوسف عليه السلام نسي ربه، واستعان بالمخلوق، واعتصم به؛ فعوقب بذلك بأن بقي في السجن وقتًا طويلًا.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ عائد على ساقي الملك؛ وهو الصواب.

الوجه الثاني: عدم صحة الحديث المروي في حمل النسيان على يوسف عليه السلام.

الوجه الثالث: أن قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ لا ينافي التوكل؛ لأن يوسف عليه السلام كان ذاكرًا لربه في كل أحواله.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ عائد على ساقي الملك؛ وهو الصواب.

اختلف علماء التفسير في الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ على قولين:

الأول: أنه عائد على يوسف عليه السلام أي: أنساه الشيطان ذكرَ الله سبحانه وتعالى، فقال لساقي الملك حين علم أنه سينجو و يعود إلى حالته الأولى مع الملك: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، نسى في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بالمخلوق فعوقب باللبث في السجن بضع سنين(١).

الثاني: أنه عائد على ساقي الملك الناجي فهو الناسي، أي: أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه(٢).

قلنا: و الصواب القول الثاني للوجوه الآتية:

١- الضمير في لغة العرب يعود إلى أقرب مذكور، ما لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك.

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٣: ٢٢٢)، تفسير الرازي (١٨/ ١٤٥)، تفسير القرطبي (٩/ ٢٠١).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٥)، روح المعاني (١٢/ ٢٤٨).

٢- أن يوسف عليه السلام لم ينسْ ذكر ربه، بل كان دائمًا ذاكرًا له.

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا. . .﴾ (يوسف: ٤٥، ٤٦) دليل واضح وبرهان لائح على أن ساقي الملك هو الناسي، ولذلك لما رأى الملك رؤيا وعجز جلساؤه عن تعبيرها تذكر ساقي الملك الناسي يوسفَ عليه السلام فولى وجهه نحو السجن يسأل يوسف عن تعبيرها، فالمراد أن ساقي الملك عندئذ تذكر يوسف، وقد كان قبل ذلك ناسيًا لوصية يوسف له عند الخروج من السجن.

وقد فصل شيخ الإسلام هذا المقام تفصيلًا حسنًا فقال: وقال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ قيل: أنسى يوسف ذكر ربه لما قال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، وقيل: بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه؛ وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾؛ قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، والضمير يعود إلى القريب إذ لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك، ولأن يوسف لم ينس ربه بل كان ذاكرًا لربه.

وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه، وقال لهما: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يوسف: ٣٩، ٤٠)، وقال لهما قبل ذلك: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ أي: في الرؤيا ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ يعني: التأويل، ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (يوسف: ٣٧، ٣٨).

فبدأ يذكر ربه عز وجل، فإن هذا مما علمه ربه، لأنه ترك ملة قوم مشركين، لا يؤمنون بالله،

وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة، واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه، ثم بعد هذا عبر الرؤيا فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرًا﴾ (يوسف: ٤١)، ثم لما قضى تأويل الرؤيا: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢)، فكيف يكون قد أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكر ربه؟! وإنما أنسى الشيطانُ الناجيَ ذكرَ ربه؛ أي: الذكر المضاف إلى ربه و المنسوب إليه وهو أن يذكر عنده يوسف.

والمقصود أن يوسف عليه السلام لم يفعل ذنبًا ذكره الله عنه، وهو سبحانه لا يذكر من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر استغفارًا منه، ولم يذكر عن يوسف استغفارًا من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفارًا من مقدمات الفاحشة، فعلم أنه لم يفعل ذنبًا في هذا ولا هذا، بل همَّ همًّا تركه لله فأثيب عليه حسنة، كما قُدم بسطُ هذا في موضعه، وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات فذلك جوزي به صاحبه بالمصائب المكفرة، كما في قوله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا هم، ولا حزن، ولا غم، ولا أذى؛ إلا كفر الله به خطاياه»[(١)].

ولما أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣) قال أبو بكر: يا رسول الله، جاءت قاصمة الظهر وأيُّنا لم يعمل سوءًا؟! فقال: " ألست تحزن؟ ألست تنصب؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك مما تجزون به"[(٢)].

فتبين أن قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: نسي الفتى ذكر ربه؛ أن يذكر هذا لربه، ونسي ذكرَ يوسفَ ربه، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر ربه، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه هذا الذكر الخاص، فإنه وإن كان يسقي ربه خمرًا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه، وأنساه الشيطان تذكر ربه وإذكار ربه لما قال: ﴿

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٣٩)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٣٦)، مسند أبي يعلى (١/ ٢٩) (٣٠/ ٢١)، وغيرهم كثير بسند ضعيف، لكن الحديث صحيح بشواهده، وانظر (عجالة الراغب المتمني ١/ ٤٤٦: ٤٤٥).

﴿ٱذْكُرْنِي﴾ أمره بإذكار ربه فأنساه الشيطان إذكار ربه، فإذكار ربه أن يجعله ذاكرًا، فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرًا ليوسف، والذكر: هو مصدر وهو اسم، فقد يضاف من جهة كونه اسمًا فيعم هذا كله أي: أنساه الذكر المتعلق بربه والمضاف إليه، ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف بعد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ (يوسف: ٤٥)، وقوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ دليل على أنه كان ناسيًا فادكر[1].

قال محمد رشيد رضا: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: أنسى الساقي تذكر ربه، وهو أن يذكر يوسف عنده على حد: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ (الكهف: ٦٣)، ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ منسيًا مظلومًا، والفاء على هذا للسببية، وهو المتبادر من السياق والجاري على نظام الأسباب، ويؤيده قوله تعالى الآتي قريبًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تَذَكَّرَ، إلا أن هذا الاستعمال يحتاج إلى حذف وتقدير، ووجهوه بأنه أضاف المصدر إليه لملابسته له، وأنه على تقديرك: (ذكر إخبار ربه) من حذف المضاف وهو كثير، كما أن الإضافة لأدنى ملابسة كثير في كلامهم.

وقيل: إن المعنى: أن أنسى يوسف ﷺ ذكر ربه وهو الله ﷻ، فعاقبه الله تعالى بإبقائه في السجن بضع سنين. وقالوا: إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب أنه توسل إلى الملك لإخراجه ولم يتوكل على الله ﷻ، وجاءوا عليه بروايات لا يقبل في مثلها إلا الصحيح المرفوع أو المتواتر منه؛ لأنها تتضمن الطعن في نبي مرسل، وهو خلاف الظاهر من وجوه:

الأول: عطف الإنساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه، ومفهومه أنه كان ذاكرًا لله تعالى قبله إلى أن قاله، فلو كان قوله ذنبًا عوقب عليه لوجب أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه؛ أي: في تلك الحال، فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه فاستحق عقابه تعالى بإطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده.

(١) دقائق التفسير (٣/ ٢٦٣: ٢٥٩).

الثاني: أن اللائق بمقامه أن لا يقول ذلك القول إلا من باب مراعاة سُنة الله تعالى في الأسباب والمسببات كما وقع بالفعل، فإنه ما خرج من السجن إلا بأمر الملك، وما أمر الملكُ بإخراجه إلا بعد أن أخبره الساقي بخبره، وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف، فإذا كان قد وصاه بذلك ملاحظًا أنه من سنن الله في عباده متذكرًا ذلك وهو اللائق به؛ فلا يعقل أن يعاقبه ربه – تعالى- عليه، وعطفُ الإنساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية، فلا تكون هي ذنبًا ولا مقترنة بذنب فيستحق عليها العقاب.

الثالث: إذا قيل: سلمنا أنه كان ذاكرًا لربه عندما أوصى الساقي ما أوصاه به، ولكنه نسيه عقب الوصية.

قلنا: إن زعمتم أنه نسي ذلك في الحال واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمتها -كنتم قد اتهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لا تليق بأضعف المؤمنين إيمانًا، ولا بدَّ عليها من دليل، بل يبطلها وصف الله بأنه من المحسنين ومن عباده المخلصين المصطفين، وبأنه غالب على أمره، وأنه حذف عنه السوء والفحشاء وكيد النساء، وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له ﷻ وذكره فهذا النسيان القليل لا يستحق هذا العقاب الطويل، ولم يعصم من مثله نبي من الأنبياء كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس.

الرابع: جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، فالتذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى.

الخامس: إن النسيان ليس ذنبًا يعاقب الله تعالى عليه، وقد قال تعالى لخاتم النبيين ﷺ: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٦٨) يعني: الذين أمره بالإعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله[1].

(١) تفسير المنار (١٢/ ٣١٤: ٣١٢).

الوجه الثاني: الآثار التي تمسكوا بها على أن الناسي هو يوسف عليه السلام ضعيفة سندًا ومتنًا.

وقد تمسكوا بحديثين وبعض الآثار الموقوفة عن الصحابة؛ وهي ضعيفة:

أولًا: من ناحية السند:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "لو لم يقل يوسف - يعني: الكلمة التي قال- ما لبث في السجن طول ما لبث" يعني: حيث يبتغي الفرج من عند غير الله(١).

قال ابن كثير: وهذا الحديث ضعيف جدًّا؛ لأن سفيان بن وَكِيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد -هو الخُوزي- أضعف منه(٢).

وقال أيضًا: والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه؛ تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي وهو متروك(٣).

الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن ما لبث"(٤).

قال ابن كثير: فإنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها، والذي في الصحيحين يشهد بغلطها(٥).

وقد جاء مثل هذا مرسلًا عن:

(١) ضعيف جدًّا. أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٢٣)، وابن أبي الدنيا في (العقوبات١٦٠)، الطبراني في الكبير (١١/ ١١٦٤٠) من حديث عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس به، وفيه إبراهيم بن يزيد: متروك الحديث (التقريب١/ ٣٥)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ١٤٦)، ميزان الاعتدال (١/ ٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦).

(٣) البداية والنهاية (١/ ٢١٣).

(٤) منكر. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٦٣٤)، ابن حبان في صحيحه (٦٢٠٦) من حديث مسدد: ثنا خالد ابن عبد الله، ثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به. فيه محمد بن عمرو؛ قال ابن حجر: صدوق له أوهام (التقريب٢/ ٥٤٤)، وقد انفرد بالحديث، وعُدّ هذا الحديثُ من أوهامه.

(٥) البداية والنهاية (١/ ٢١٣).

١- عكرمة. قال: قال رسول الله ﷺ: "لولا أنه- يعني: يوسف- قال الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث"(١).

٢- قتادة. قال: قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: "لو لم يستعنْ يوسفُ على ربّه ما لبث في السجن طول ما لبث"(٢).

٣- الحسن. قال: قال نبيُّ الله ﷺ: "رحم الله يوسف لولا كلمته ما لبث في السجن طولَ ما لبث» يعني قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾. قال: ثم يبكي الحسن فيقول: نحن إذا نزل بنا أمرٌ فزعنا إلى الناس(٣).

قال ابن كثير: وقد رُوي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كل منهما، وهذه المرسَلات هاهنا لا تُقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن(٤).

وقد جاء موقوفًا عن أنس بن مالك ﷺ قال: أُوحي إلى يوسف: (يا يوسف، مَنْ استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه؟ قال: أنت يا رب. قال: من استنقذك من القتل إذ هَمَّ إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا رب. قال: فما لك نسيتني وذكرت آدميًا؟ قال: جزعًا بذنبي، وكلمة تكلم بها لساني. قال: وعزتي لأخلدنك السجن بضع سنين) قال: فلبث فيه سبع سنين(٥).

---

(١) **مرسل ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٢٣) من طريق ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة به.

(٢) **ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٢٣) من طريق سعيد، تفسير عبد الرزاق (١٣١٠) من طريق معمر؛ كلاهما (سعيد ومعمر) عن قتادة به.

(٣) **ضعيف**. أخرجه أحمد في الزهد (١٠٣)، تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٣)، تفسير ابن أبي حاتم (١١٦٣٥) من طريق يونس، وأخرجه الطبري من طريق أبي رجاء، كلاهما (يونس وأبو رجاء) عن الحسن به.

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦).

(٥) **ضعيف**. تفسير ابن أبي حاتم (١١٦٤٢)، وعبد الله بن أحمد في الزوائد على الزهد (١٠٤) من حديث محمد بن أبي المقدمي، عن سلام بن أبي الصهباء، عن ثابت، عن أنس به.

فيه سلام بن أبي الصهباء؛ قال البخاري: منكر الحديث. وضعفه ابن معين. قال ابن حبان: لا يحتج به إذا انفرد. قال أبو حاتم: شيخ - قوله: (هو شيخ) ليس هو عبارة جرح. . . ولكنها أيضًا ما هي عبارة توثيق،

ثانيًا: ضعف الأحاديث من ناحية المتن:

فلأن طلب الشفاعة لأخذ الحق ليس ابتغاءً للفرج من عند غير الله، وإلا لما قال النبي ﷺ: لأصحابه إذا أتاه صاحب حاجة: "اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أراد"(١).

فأخذ الأسباب ابتغاء الفرج من عند الله، ولو وقع إنسان في بئر مثلًا وكان يستطيع أن ينادي مَنْ بالطريق بجوار البئر ليخرجه لزمه ذلك، كما يلزمه إمساك الحبل لمن ألقاه إليه خلافًا للمنقول عن بعض المتقدمين من تركه النداء حتى يرسل الله إليه الحبل، فهل كان ترك النداء توكلًا والإمساك بالحبل نقصًا في التوكل، فالمسألة واحدة في الأمرين؛ كلاهما سبب(٢).

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب؛ وإن كان فإن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلة وركب بعضها على بعض، فتحريكها سنة، والتعويل على المنتهى يقين، والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر، وهذا بَيِّنٌ فتأملوه(٣).

وقال الرازي: واعلم أن الاستعانة بالناس جائزة في الشريعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذا وإن كان جائزًا لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب(٤).

الوجه الثالث: أن قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، لا ينافي التوكل؛ لأن يوسف عليه السلام كان ذاكرًا لربه في كل أحواله.

والذين قالوا ذلك القول قالوا: كان الأولى أن يتوكل على الله، ولا يقول: ﴿ٱذْكُرْنِي

وبالاستقراء يلوح لك أنه ليس بحجة) من له رواية في كتب الستة للذهبي- التاريخ الكبير (٤/ ١٣٥)، الجرح والتعديل (٤/ ٢٥٧)، لسان الميزان (٣/ ٥٨).

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، مسلم (٢٦٢٧).

(٢) تأملات إيمانية في سورة يوسف (١٢٦: ١٢٥).

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٠٤: ٢٠٣.

(٤) تفسير الرازي ١٨/ ١٤٤.

عِندَ رَبِّكَ﴾، فلما نسى أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين؟

فيقال: ليس في قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما يناقض التوكل بل قد قال يوسف: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ كما أن قول أبيه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ (يوسف: ٦٧) لم يناقض توكله، بل قال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف٦٧).

وأيضًا فيوسف عليه السلام قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصًا مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركًا لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣)، فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده؟

وقوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مثل قوله لربه – أي: ملك مصر-: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٥)، فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضًا للتوكل، ولاهو من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مناقضًا للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس، ولهذا بعد أن طُلِبَ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ قال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٠)، فيوسف يذكر ربه في هذه الحال كما ذكره في تلك ويقول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ فلم يكن في قوله له: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ترك الواجب ولا فعل المحرم حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظلمًا له مع علمهم ببراءته من الذنب؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ (يوسف: ٣٥)، ولبثه في السجن كان

كرامة من الله في حقه ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال، ولهذا قال: ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠)، ولو أنه لم يصبرْ ويتقِ بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعًا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس.

وجاء في مؤتمر تفسير سورة يوسف: ونسيان الفتى الناجي ذكر يوسف للملك وأسبابه هذا ولم يكن إلا مسافة الطريق، حتى أنسى الشيطانُ الساقيَ أن يذكر يوسف للملك بدليل قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، فإن الإدكار إنما يكون بعد النسيان، هذا هو الصواب، ولا يجوز لأحد أن يقول غيره إلا أن يكون قد اعتزل العقل والذوق؛ بحيث هو لا يعرفهما وهما لا يعرفانه، وإنما نسي الساقي ذكر يوسف للملك لوسوسة الشيطان إليه بما شغله عن ذكره له حتى ذهب عنه، وزال عن قلبه ذكره. فقربه من الملك أنساه بوعده السابق، وقصر الملك أنساه السجن، وأيام السعادة أنسته أيام الشقاء، وأصحابه في البلاط أنسوه صاحبه في حبسه، وحالة السعة والعز جعلته ينسى حالة الضيق والذل، وبعبارة أخرى فرحه بالولائم التي كانت تقام له بعد خروجه وبأهله وذويه، وحصوله على منزلته الأولى عند الملك أصبح شغله الشاغل، هذه هي الوسائط التي استعملها الشيطان حتى غفل الساقي عن يوسف، ولكون هذه الأشياء وما إليها هي آلات للشيطان نسب الإنساء إليه، ولو أن يوسف عليه السلام استقبل من أمره ما استدبر لما كان قدم للساقي رجاءه ولكن لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل.

وهذا النوع من النسيان معهود وليس ببدع ولا مستبعد، بل هو كثير في تاريخ الأصدقاء، فكأيٍّ مَنْ يصحبك حال شدته وضيقه وينساك يوم الرخاء و الفرج، بل كثيرًا ما ينسى الناس خالقهم في أيام الرغد و الرخاء، فلا عجب من أن ينسى الساقي المصري (يوسف العبراني) العبد السجين، وكثيرًا من الأولاد لا يذكرون أتعاب والدتهم عليهم في صغرهم، والأصدقاء ينسون أصدقاءهم متى أسندت لعدتهم عمالة ما، كما أن كثيرًا من الأصحاب الفقراء إذا اغتنوا

وأيسروا نسوا من كان يألفهم في المنزل الخشن، ونرى كثيرًا من أهل الأمراض متى صحوا وشفوا ينسون طبيبهم، كما نرى متعلمين متى تعلموا وأخذوا الشهادات نسوا أساتذهم إلى آخر ما هنالك من الضروب والأشكال، وقد قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ (العلق: ٦، ٧)، و قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ (عبس: ١٧)، ثم إني لا أنسى من الأسباب الأساسية لنسيان الساقي ذكر (يوسف) للملك معاطاته شرب الخمر، فإن شربه كما يعمل تأثيرًا سيئًا في الأخلاق، والصحة، والإجرام، وفي المال، وفي قوة الإنتاج؛ فكذلك يسبب ضعف الذاكرة عند الإنسان، وكم ظهرت للعقلاء هذه المضار؟ وكم هالهم أن تكون المسكرات سببًا لإصابات الجنون؟

وهذا، وإن (الفاء) في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ ليست تفريعية، بمعنى: أن الإنساء كان نتيجة عن كون يوسف استعان بغير الله في كشف ما كان فيه، بل هي عاطفية خلافًا للمفسرين، إذن المعنى على ما نفهم أنه حصل: أن يوسف قال كذا وكذا، ثم فورًا حصل أن الساقي نسي ما تكلم به معه، هذا هو المعنى اللائق بمقام يوسف عليه السلام، والمناسب للواقع لا أقل ولا أكثر، فكن لما ذكرناه من الحافظين، وإياك من أن تعرج ههنا على كلام المفسرين[1].

* * * *

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف (٢/ ٧٧٧: ٧٧٦).

٧- شبهة: كيف يطلب يوسف عليه السلام الولاية؟.

نص الشبهة:

كيف يطلب نبي الله يوسف عليه السلام الولاية في قوله للملك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع أن الإسلام نهى عن ذلك.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأصل في الإسلام أن لا يطلب الإنسان الولاية.

الوجه الثاني: جواز طلب الولاية لمن كان لها أهلًا أو تعينت عليه.

الوجه الثالث: بيان لماذا طلب يوسف عليه السلام الولاية؟

الوجه الرابع: وقيل: طلبُ يوسف عليه السلام الولاية خاصٌ بشريعته.

الوجه الخامس: أن يوسف عليه السلام طلب الولاية بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأصل في الإسلام أن لا يطلب الإنسان الولاية.

عَنْ أَبِى ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خزي وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"(١).

وعنه أيضًا أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ"(٢).

قال النووي: هَذَا الْحَدِيث أَصْل عَظِيم فِي اِجْتِنَاب الْوِلَايَات، لَا سِيَّمَا لِمَنْ كَانَ فِيهِ ضَعْف عَنْ الْقِيَام بِوَظَائِفِ تِلْكَ الْوِلَايَة، وَأَمَّا الْخِزْي وَالنَّدَامَة فَهُوَ حَقّ مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهَا، أَوْ كَانَ أَهْلًا وَلَمْ يَعْدِل فِيهَا فَيُخْزِيه الله تَعَالَى يَوْم الْقِيَامَة وَيَفْضَحهُ، وَيَنْدَم عَلَى مَا فَرَّطَ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْوِلَايَةِ وَعَدَلَ فِيهَا فَلَهُ فَضْل عَظِيم، تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة كَحَدِيثِ: "سَبْعَة

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٦).

يُظِلّهُمْ الله. . . "، وَالْحَدِيث الْمُذْكُور هُنَا عَقِب هَذَا: "أَنَّ الْمُقسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُور. . . " وَغَيْر ذَلِكَ، وَإِجْمَاع الْمُسْلِمِينَ مُنْعَقِد عَلَيْه، وَمَعَ هَذَا فَلِكَثْرَةِ الْخَطَر فِيهَا حَذَّرَهُ ﷺ مِنْهَا، وَكَذَا حَذَّرَ الْعُلَمَاء، وَامْتَنَعَ مِنْهَا خَلَائِق مِنْ السَّلَف، وَصَبَرُوا عَلَى الْأَذَى حِين اِمْتَنَعُوا(١).

فعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: "يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"(٢).

قال الشوكاني: وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ طَلَبَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُكْمِ مَكْرُوهٌ، فَيَدْخُلُ فِي الْإِمَارَةِ الْقَضَاءُ وَالْحِسْبَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَأَنَّ مَنْ حَرَصَ عَلَى ذَلِكَ لَا يُعَانُ وَيُعَارِضُ ذَلِكَ فِي الظَّاهِرِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَذْكُورُ فِي آخِرِ الْبَابِ – يعني: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: "مَنْ طَلَبَ قَضَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَنَالَهُ ثُمَّ غَلَبَ عَدْلُهُ جَوْرَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ غَلَبَ جَوْرُهُ عَدْلَهُ فَلَهُ النَّارُ"(٣).

قَالَ الْحَافِظُ: وَيُجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ لَا يُعَانُ بِسَبَبِ طَلَبِهِ أَنْ لَا يَحْصُلَ مِنْهُ الْعَدْلُ إذَا وَلِيَ؛ أَوْ يُحْمَلَ الطَّلَبُ هُنَا عَلَى الْقَصْدِ وَهُنَاكَ عَلَى التَّوْلِيَةِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِذَا كَانَ الطَّالِبُ مَسْلُوبَ الْإِعَانَةِ تَوَرَّطَ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ وَخَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، فَلَا تَحِلُّ تَوْلِيَةُ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ رُبَّمَا كَانَ الطَّالِبُ لِلْإِمَارَةِ مُرِيدًا بِهَا الظُّهُورَ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالتَّنْكِيلَ بِهِمْ، فَيَكُونُ فِي تَوْلِيَتِهِ مَفْسَدَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ ابْنُ التِّينِ: مَحْمُولٌ عَلَى الْغَالِبِ وَإِلَّا فَقَدْ قَالَ يُوسُفُ ﷺ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾، وَقَالَ سُلَيْمَانُ: ﴿وَهَبْ لِي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٢)، مسلم (١٦٥٢).

(٣) ضعيف. أخرجه أبو داود (٣٥٧٥)، ومن طريقه البيهقي (١٠/ ٨٨) من طريق موسى بن نجدة، عن جده يزيد بن عبد الرحمن و هو أبو كثير قال: حدثني أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال: فذكره.

و هذا إسناد ضعيف. فيه: موسى بن نجدة؛ قال الذهبي: " لا يعرف "، و قال الحافظ: " مجهول "، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٨٦).

مُلْكًا﴾، قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قُلْت: ذَلِكَ لِوُثُوقِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَنْفُسِهِمْ بِسَبَبِ الْعِصْمَةِ مِنْ الذُّنُوبِ، وَأَيْضًا لَا يُعَارِضُ الثَّابِتُ فِي شَرْعِنَا مَا كَانَ فِي شَرْعِ غَيْرِنَا، فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الطَّلَبُ فِي شَرْعِ يُوسُفَ عليه السلام سَائِغًا، وَأَمَّا سُؤَالُ سُلَيْمَانَ فَخَارِجٌ عَنْ مَحَلِّ النِّزَاعِ؛ إذْ مَحَلُّهُ سُؤَالُ الْمَخْلُوقِينَ لَا سُؤَالُ الْخَالِقِ، وَسُلَيْمَانُ عليه السلام إنَّمَا سَأَلَ الْخَالِقَ[(١)].

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: "إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ"[(٢)].

وعَنْ أَبِى مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِي ﷺ أَنَا وَرَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَمِّى فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ الله، أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلاَّكَ الله عز وجل، وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: " إِنَّا وَالله لاَ نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلاَ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ"[(٣)].

قال ابن حجر: قال المهلب: الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها؛ حتى سفكت الدماء، واستبيحت الأموال والفروج، وعظم الفساد في الأرض بذلك، ووجه الندم أنه قد يقتل، أو يعزل، أو يموت؛ فيندم على الدخول فيها؛ لأنه يطالب بالتبعات التي ارتكبها، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته.

قال: ويستثنى من ذلك من تعين عليه، كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره، وإذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال.

قلت: وهذا لا يخالف ما فرض في الحديث الذي قبله من الحصول بالطلب أو بغير طلب؛ بل في التعبير بالحرص إشارة إلى أن مَنْ قام بالأمر عند خشية الضياع يكون كمن أعطى بغير سؤال لفقد الحرص غالبًا عمن هذا شأنه، وقد يغتفر الحرص في حق مَنْ تعين عليه لكونه يصير واجبًا عليه[(١)].

---

(١) نيل الأوطار (٩/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٤٩)، مسلم (١٧٣٣).

الوجه الثاني: جواز طلب الولاية لمن كان لها أهلًا أو تعينت عليه.

لقد دلت الآية على جواز أن يطلب الإنسان عملًا يكون له أهلًا، فإن قيل: فقد روى مسلم عن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"[٢].

فالجواب: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية؛ لأنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق، ويهدم ما أمكنه من الباطل، وطلب ذلك لنفسه، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها، ترغيبًا فيما يرومه، وتنشيطًا لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه، وجعلها منوطة به، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها أو حرص عليها[٣].

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره؛ لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة، وقد علم يوسف عليه السلام أنه أفضل الناس هنالك؛ لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فهو لإيمانه بالله يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب - عليهم السلام-، فلا يعارض هذا ما جاء في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة؛ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها"؛ لأن عبد الرحمن ابن سمرة لم يكن منفردًا بالفضل من بين أمثاله ولا راجحًا على جميعهم.

ومن هذه الآية أخذ فقهاءُ المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل، وأنه إن لم يُول ضاعت الحقوق.

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٢)، مسلم (١٦٥٢).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٠).

قال المازري: يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعيُّ في طلب القضاء إن علم أنه إن لم يَلِهِ ضاعت الحقوق، أو وليه من لا يحل أن يولى، وكذلك إن كان وليه من لا تحل توليته ولا سبيل لعزله إلا بطلب أهله(١).

الوجه الثالث: بيان لماذا طلب يوسف عليه السلام الولاية؟

أولًا: طلب يوسف عليه السلام الولاية ليتوصل إلى إمضاء حكم الله.

فإنما طلب يوسف عليه السلام هذه الولاية ليتوصل إلى إمضاء حكم الله، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد؛ ولعلمه أن غيره لا يقوم مقامه في ذلك(٢).

قال القرطبي: طلبَ الولايةَ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم؛ لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك مَنْ يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك؛ كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك مَنْ يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقول صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن: "لا تسأل الإمارة. . . "، وأيضًا فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "وكل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها ولخوفه من التقصير في حقوقها فرَّ منها، ثم إن ابتُلي بها فيرجى له التخلص منها؛ وهو معنى قوله: "أُعين عليها". (٣)

ثانيًا: أن التصرف في أمور الخلق كان واجبًا عليه فتعينت عليه الولاية.

فالأصل أن التصرف في أمور الخلق كان واجبًا عليه؛ فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان، إنما قلنا: إن ذلك التصرف كان واجبًا عليه لوجوه:

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٩.

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٤)، الكشاف (٣/ ١٨٤).

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٢١.

الأول: أنه كان رسولًا حقًّا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان.

والثاني: هو أنه عليه السلام علم بالوحي أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذي ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك، ويأتي بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم -أمر مستحسن في العقول، وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان مكلفًا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ فكان هذا الطريق واجبًا عليه، ولما كان واجبًا سقطت الأسئلة بالكلية(١).

فوجه الجمع بين أدلة النهي عن طلب الإمارة وبين طلب يوسف عليه السلام الولاية: أن الولاية إذا تعينت على شخص لعدم صلاحية غيره لها ولم يقدمه غيرُه لها؛ فالحاجة داعية إلى طلبها، فعند ذلك يجوز وربما وجب عليه طلبُها إذا لم يكن هناك سبيل إلى تولية القوى الأمين إلا بذلك، و المجتمع الإسلامي الأصل فيه أن العلم و العمل هما اللذان يبرزان الكفاءات حتى يقدمها أهل الحل و العقد، ويوسف عليه السلام لم يكن في هذا المجتمع المسلم، ولا يوجد مَنْ يقدمه؛ ولذا طلب الولاية، فلا ينبغي اعتماد هذا دليلًا على مشروعية نظام الترشيح و الانتخاب الغربي في بلاد الإسلام؛ هذا النظام الذي يقوم على ذكر حسنات النفس وتزكيتها، وعيب الآخرين ونقصهم، ولا شك أن هذه الصورة ليست هي الصورة الصحيحة، ولا عرفها المسلمون عبر عصورهم المختلفة، فلا يجوز أن يُقال: إن الديمقراطية هي الشورى في الإسلام خصوصًا أن مردَّ الأمر عندهم إلى العامة والدهماء ممن لا يعرف صفات الولاة الواجبة ومَنْ يستحقها.

وإنما يعتمدون على العصبيات، والقرابات، والمصالح، والأموال؛ فما أقبحها من صورة تضع فيها الأمانات، ويوسد فيها الأمر إلى غير أهله! فلو اضطر بعض المسلمين إلى

(١) تفسير الرازي ١٨/ ١٦١، تفسير القرطبي ٩/ ٢٢٢.

طلب الولاية بالشـرط الذي ذكرنا من تعينها ووجود الحاجة إلى الطلب- فلا يجعل هذا أصلًا شرعيًا يستمر عليه أو يعتمده المسلمون كنظام لحياتهم ومجتمعهم ووظائفهم[١].

ثالثًا: طلب يوسف عليه السلام الولاية لثقته من نفسه بما آتاه الله من العصمة.

يحتمل أن يكون النهي عن تولي الولاية والنهي عن طلبها في غير الأنبياء، وذلك لوثوق الأنبياء من أنفسهم بسبب العصمة من الذنوب[٢].

الوجه الرابع: وقيل: طلبُ يوسف عليه السلام الولاية خاصٌ بشريعته.

فلا يعارض الثابت في شرعنا ما كان في شرع غيرنا، فيمكن أن يكون الطلب في شرع يوسف عليه السلام سائغًا[٣].

الوجه الخامس: أن يوسف عليه السلام طلب الولاية بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

لم يقل يوسف عليه السلام: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال، وأنه وصف نفسه بالأمانة والكفاءة؛ وهما مقصود الملوك ممن يُوَلُّونه؛ إذ هما يعمان وجوه التثقيف والحياطة، ولا خلل معهما لقائل[٤].

* * *

(١) تأملات إيمانية في سورة يوسف (١٥٤: ١٥٣).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٢٦).

(٣) تأملات إيمانية في سورة يوسف (١٥٤).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٠٩٢).

٨- شبهة: يوسف عليه السلام يزكي نفسه.

نص الشبهة:

يقولون أن الله قد نهى أن يزكِّي الإنسان نفسه، ولكن نبي الله يوسف عليه السلام قد زكَّى نفسه حينما قال للملك ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: يوسف عليه السلام ما كان يقصد المدح لذاته، فما قال: إني حسيب جميل، وإنما قال: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

الوجه الثاني: الملك زكى يوسف عليه السلام قبل أن يزكي يوسف عليه السلام نفسه.

الوجه الثالث: يوسف عليه السلام وصف نفسه بهذا الوصف حتى يعلم الملك أنه يفي بهذه المهمة.

الوجه الرابع: الأصل في التزكية الامتناع، وإن كان لضرورة أو حاجة فهو مباح.

الوجه الخامس: أن هذا خاصٌّ بالأنبياء لعصمتهم.

الوجه السادس: لأنه كان يعيش في مجتمع لا تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: يوسف عليه السلام ما كان يقصد المدح لذاته، فما قال: إني حسيب جميل، وإنما قال: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

لم يقل يوسف عليه السلام: إني حسيب كريم، وإن قال كما قال النبي ﷺ: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم"، ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال، وأنه وصف نفسه بالأمانة والكفاءة

وهما مقصود الملوك ممن يولونه، إذ هما يعمان وجوه التثقيف والحياطة، ولا خلل معهما لقائل[1].

قال ابن عاشور: واقتراح يوسف عليه السلام ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٢، الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٨٢.

سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعلم في المصالح، ولذلك لم يسأل مالًا لنفسه، ولا عَرَضًا من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة، ليحفظ الأموال، ويعدل في توزيعها، ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها، وعلّل طلبه ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ المفيد تعليل ما قبلها لوقوع (إنّ) في صدر الجملة، فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بل كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولاه، ليعلم الملك أن مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما، وأنه حقيق بهما لأنه متصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقّق للائتمان، وصفة العلم المحقق للمكانة. وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي الناس إلى إتباعه وهذا من قبيل الحِسبَة[(١)].

الوجه الثاني: الملك زكى يوسف عليه السلام قبل أن يزكي يوسف عليه السلام نفسه.

قال ابن كثير: يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرْضه مما نسب إليه، قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أي: أجعله من خاصّتي وأهل مشورتي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة[(٢)].

قال الرازي: إن الملك عظم اعتقاده في يوسف لوجوه:

أحدها: أنه عظم اعتقاده في علمه، وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مال الطبع إليه.

وثانيها: أنه عظم اعتقاده في صبره وثباته؛ وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج ما أسرع إلى الخروج، بل صبر وتوقف وطلب أولًا ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم.

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٨، ٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٥١)، تفسير القرطبي (٩/ ٢١٦).

وثالثها: أنه عظم اعتقاده في حسن أدبه؛ وذلك لأنه اقتصر على قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف: ٥٠)، وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها، وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء وهذا من الأدب العجيب.

ورابعها: براءة حاله عن جميع أنواع التُّهم، فإن الخصم أقرَّ له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم.

وخامسها: أن الشرابي – الذي كان يسقي الملك- وصف له جدَّه في الطاعات واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن.

وسادسها: أنه بقي في السجن بضع سنين. وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد في الإنسان، فكيف مجموعها؟ فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله شيئًا جمع أسبابه وقواها.

واعلم أن قوله: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب، وذلك لأنه لا بد في كونه مكينًا من القدرة والعلم، أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة، وأما العلم فلأن كونه متمكنًا من أفعال الخير لا يحصل إلا به إذ لو لم يكن عالمًا بما ينبغي وبما لا ينبغي لا يمكنه تخصيص ما ينبغي بالفعل، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك، فثبت أن كونه مكينًا لا يحصل إلا بالقدرة والعلم. أما كونه أمينًا فهو عبارة عن كونه حكيمًا لا يفعل الفعل لداعي الشهوة، بل إنما يفعله لداعي الحكمة، فثبت أن كونه مكينًا أمينًا يدل على كونه قادرًا، وعلى كونه عالمًا بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وعلى كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لا لداعية الشهوة، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه. فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة إثبات أنه تعالى لا يفعل القبيح قالوا: إنه تعالى لا يفعل القبيح؛ لأنه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيًا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح، قالوا: وإنما يكون غنيًا عن القبيح إذا كان قادرًا، وإذا كان منزهًا عن داعية السفه[1].

---

(١) تفسير الرازي (١٨/ ١٥٩).

الوجه الثالث: يوسف عليه السلام وصف نفسه بهذا الوصف حتى يعلم الملك أنه يفي بهذه المهمة.

قال الرازي: لا نسلم أنه مدح نفسه- تفاخرًا- لكنه بين كونه موصوفًا بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب؛ وبين البابين فرق، وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف؛ لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالـمًا بأنه يفي بهذا الأمر (١).

الوجه الرابع: الأصل في التزكية الامتناع، وإن كان لضرورة أو حاجة فهو مباح.

لما خلا مدحُه لنفسه من بغي وتكبر، وكان مراده به الوصول إلى حق يقيمه وعدل يُحييه وجور يبطله، كان ذلك جميلًا جائزًا، فهب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس إنما يكون مذمومًا إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ (النجم: ٣٢) المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أما إذا كان الإنسان عالمًا بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه، والله أعلم (٢). فدلت الآية أيضًا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل.

قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله، فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله فيجوز للرجل مدح نفسه إذا جهل أمره للحاجة والرخصة والضرورة (٣).

وقد دلَّ على الرخصة في موضع الحاجة والضـرورة قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، وذلك أن الملك كان لا يعرف فيه القدرة على الحفظ والضبط لبيت المال، وطرق

---

(١) التفسير الرازي (١٨/ ١٦١).

(٢) زاد المسير٣/ ٢٤٥، تفسير الرازي ١٨/ ١٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن١٨/ ٢٢٢، النكت والعيون ٣/ ٥٢، محاسن التأويل٦/ ٢٤٣.

حفظ الغلال ونحو ذلك، فاحتاج إلى البيان، وكما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣﴾ (مريم: ٤٣)، وذلك لترغيب أبيه وحثه على متابعة دين الحق، وكقول النبي ﷺ: "إني لأعلمكم بالله، وأشدكم منه خشية".[١]

وقوله: "أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر"[٢]، وذلك ليعلم الناس الاعتقاد الواجب فيه ﷺ، وأنه أعلم الخلق بالله وأخشاهم له، وليحذرهم من الغلو المذموم في العبادة بتحريم ما أحل الله، أو إيجاب ما لم يوجبه، وكقول عائشة رضي الله عنها: (على الخبير سَقَطّتَ)[٣].

وقول ابن مسعود رضي الله عنه: (لو أعلم أحدًا مني بكتاب الله تضرب إليه أكباد الإبل لذهبت إليه)[٤]، ونحو ذلك للترغيب في طلب العلم وأخذه عنه.

وعلى أي حال، فالأصل في هذا الباب الامتناع من مدح النفس و تزكيتها، و الحذر على النفس من ذلك، وهؤلاء الأفاضل منهم الأنبياء المعصومون، ومنهم الأولياء المتقون المشهود لهم بالفضل من النبي ﷺ، فمن يشهد للمادحِ نَفْسَهُ-منهم- مِنْ غيرهم؟! ومن يضمن له حسن نيته وهي تتقلب على المرء في الساعة الواحدة مرات؟ والسلامة لا يعدلها شيء، و الفرق بين الحق و الباطل في مثل هذا المقام ربما كان أدق من الشعرة وأحد من السيف، وربما تخفي حظوظ النفس على صاحبها ويوهم نفسه بأنه يعمل المباح، وحقيقة الأمر العجب المحرم و الغرور المذموم، فما لأمثالنا وتزكية نفوسهم ومدحها وذكر فضائلها؟

وما أكثر من تغره نفسه في الفضائل التي هي عارية عنها! وإنما هي دعوى وتشبع بما لم يعط، فإذا كان مدح الإنسان نفسه بما يتيقن من فضائلها الأصل فيه المنع، و الجواز فيه على قدر الضرورة والحاجة مع شروط سلامة النية وحسن القصد و الإخلاص الذي هو أعز شيء، والشرك في هذا المقام أخفى من دبيب النمل، فكيف بما يشك فيه أهو في النفس أم

---

(١) أخرجه البخاري(٦١٠١)، مسلم (٦٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٣٤٩).

(٤) أخرجه البخاري(٤٧١٥)، مسلم (٢٤٦٣).

لا؟ فكيف بما يعلم أنه دعوى؟ فكيف بما يعلم أن النية فيه لغير الله؟ فنسأل الله العافية ونعوذ به من الكبروالعجب والغرور.

وعندما ينظر المرء إلى المجتمعات المعاصرة والنظم التي اختارتها لنفسها في تولية الولايات وهي تزعم أنها في قمة الحضارة وأرقى ما وصلت إليه الإنسانية من الحرية و العدالة - يرى كيف يزكون أنفسهم بما ليس فيهم لنيل حظ من حظوظ الدنيا، ويغتابون غيرهم وينمون لإفساد صورتهم عند الناس ليصرفوهم عن اختيارهم، فتكون ما يسمونه بـ (المعارك الانتخابية)، وقد تسفك فيها الدماء، وقطعًا تنفق فيها الملايين من الأموال وتشترى الذمم والولاءات، عندما يرى المرء ذلك يعلم صدق ما قال رسول الله ﷺ في أشراط الساعة: "وأن ترى الصم البكم ملوك الأرض"(١)، ويرى كيف يتسبب جهل الناس بالشرع ومخالفتهم لهديه في تضييع الأمانة، وأن يوسد الأمر إلى غير أهله فيكون ذلك سببًا في خراب الدنيا وقرب نهايتها، كما قال رسول الله ﷺ: "إذ ضيعت الأمانة فانتظر الساعة"، قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: "إذا وُسِّدَ -أي: أسند- الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(٢)، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فعلى المرء المسلم أن يربأ بنفسه عن التمرغ في وحل هذه الأنظمة الجاهلية، ودنس المشاركة فيها، أو إضفاء الشرعية عليها، والله المستعان(٣).

الوجه الخامس: أن هذا خاصٌ بالأنبياء لعصمتهم.

وهذا مفصل في محله.

الوجه السادس: لأنه كان يعيش في مجتمع لا تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس.

وقيل: مدح يوسف عليه السلام نفسه لأنه لم يكن يعيش في مجتمع تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية، كما أنه كان يرى أن

---

(١) أخرجه مسلم (١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩).

(٣) تأملات إيمانية في سورة يوسف (١٧٤: ١٧٣).

الظروف تمكن له من أن يكون حاكمًا مطاعًا لا خادمًا في وضع جاهلي، وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه، وقد توارى العزيز وتوارى الملك تمامًا[1].

* * *

(١) الظلال (١٣/ ٢٠١٣).

٩- شبهة عمل يوسف عليه السلام عند الكفار.

نص الشبهة:

كيف يعمل يوسف عليه السلام عند الكفار وتحت ولايتهم؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأصل جواز ذلك العمل بضوابط الشريعة.

إن في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر؛ بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه فيصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك[1].

فيجوز عمل الرجل الصالح للرجل الفاجر بما يقتضيه الشرع والعدل، لا بما يختاره ويشتهيه مما لا يسيغه الشرع.[2]

والأصح أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه؛ كالصدقات والزكوات، فيجوز توليته من جهة الظالمين؛ لأن النص على مستحقيه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التنفيذ.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به، ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال الفيء، فلا يجوز توليته من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حقٍ ويجتهد فيما لا يستحق.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهله وللاجتهاد فيه مدخل؛ كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد فيه محلول، فإن كان النظر تنفيذًا لحكم بين متراضيين أو توسطًا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز[3].

الوجه الثاني:

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٢٥٦)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٢٢٠).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٦/ ٢١٩).

(٣) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٣/ ٢٤٢).

وقيل: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز. [(١)]

الوجه الثالث:

فرعون يوسف عليه السلام كان صالحًا، وإنما الطاغي الكافر هو فرعون موسى [(٢)].

الوجه الرابع:

أن شرع يوسف عليه السلام لم يكن شريعة عامة تلزم جميع الناس في زمنه، وإنما هو ملتزم بها مع أبناء يعقوب، وإنما كانت دعوته لأهل مصر إلى التوحيد والإيمان، ولا دليل على وجود شريعة ملزمة أرسل بها يوسف إليهم، وكانت لازمة لهم فردوها ولم يعملوا بها، ولا يتم الاستدلال بجواز تولي الولايات للكفرة والظلمة وممارسة الظلم فضلًا عن الكفر إلا بإثبات ذلك، وإثبات أن يوسف بعد ردهم للشـريعة ظلَّ يطبق فيهم شرعتهم الباطلة المخالفة لشـرع الله، ولا سبيل إلى إثبات ذلك بوجه من الوجوه [(٣)].

الوجه الخامس: أن الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام في هذه المسألة مبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه.

فلو سلمنا أن يوسف كان يباشر مخالفة الشرع والظلم - وحاشاه من ذلك عليه السلام، ونحن بحمد الله لا نسلم بذلك ولا نقره- لما كان في ذلك حجة؛ لأن شرعنا ورد بخلاف ذلك في مواطن مختلفة من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "سيكون بعدي أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، ويقربون شرار الناس، فمن أدرك ذلك فلا يكونن لهم عريفًا، ولا شرطيًا، ولا خازنًا، ولا جابيًا" [(٤)].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢٠).

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ٢٤٢).

(٣) تأملات في سورة يوسف (١٥٦).

(٤) صحيح ابن حبان (٥٤٨٦)، وسكت عنه المنذري، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٦٠).

فمنع من هذه الوظائف لما تشتمل عليه من ظلم وعدوان ومباشرة للحرام، وامتناع السلف من تولي القضاء وغيره من الولايات للظلمة كثير مشهود مذكور في فضائلهم، فشرعُنا ينهى عن الإعانة على الظلم فضلًا عن مباشرة شيء من ذلك(١).

الوجه السادس: أن الشريعة التي بعث بها محمد ﷺ عامة باقية للأحمر و الأسود.

والكفار مخاطبون بفروعها – الشريعة المحمدية- على الصحيح من أقوال العلماء، فلا يسع أحدًا الخروج على شيء منها، وهي شريعة شاملة لكل الأمور والمسائل، لا يوجد أمر في دين أو دنيا ويخرج عن حكم من أحكامها، بخلاف ما سبقها شرائع الأنبياء السابقين، فقد كان يسع البعض الذين لم يرسل إليهم النبي أن يخرج عليها، ولم تكن شرائعهم شاملة لكل الأحكام، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾، فليس هناك ما يدل على أن يوسف كان ملزمًا أن يحكم في أهل مصر بشريعة يعقوب عليه السلام أو غيرها، وليس هناك ما يدل على أن عمل يوسف عليه السلام على خزائن الأرض يتضمن مخالفة لشريعة يعقوب عليه السلام، وليس هناك ما يدل على أن أهل مصر في ذلك الوقت كانوا مكلفين

بفروع شريعة إلهية زيادة على ما أُمروا به من توحيد الله وعبادته، و الله أعلم.

ولهذه الوجوه نرى عدم صحة الاستدلال بقصة يوسف عليه السلام على هذه المسألة أصلًا، ومثلها في عدم صحة الاستدلال قضية النجاشي، وأنه بقي في ملكه على مملكة الحبشة بعد إسلامه مع بقائهم على دينهم وشريعتهم؛ وذلك لأنه ليس هناك ما يدل على بلوغ تفاصيل الشريعة للنجاشي خلال مدة حكمه، فمعلوم أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وأن الأحكام التفصيلية إنما نزلت في المدينة بعد الهجرة، ولم يبلغ المسلمين في الحبشة ظهور النبي ﷺ فضلًا عن تفاصيل الشرائع إلا في السنة السابعة من الهجرة حين قدم جعفر ومن معه رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وقد فتح خيبر، وأولى أن لا

---

(١) تأملات في سورة يوسف (١٥٦).

يصل إلى النجاشي تفاصيل الأحكام الشرعية حتى يلزمه العمل بها، فإن العمل يجب مع التمكن من العلم و القدرة على العمل، فإذا لم يتمكن من العلم أو كان عاجزًا عن العمل لم يجب عليه، والله المستعان(١).

الوجه السابع:

وقيل: إن يوسف ﷺ نظر له في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه(٢).

الوجه الثامن: حكم السفر والعمل مع الكفار في بلاد الكفر.

إن السفر والإقامة في بلاد الكفار لا تجوز إلا بشـروط بَيَّنها أهلُ العلم، وملخصها:

١- أن يأمن الإنسان على دينه، بحيث يكون عنده من العلم والإيمان ما يبعده عن الانحراف.

٢- أن يكون مضمرًا لعداوة الكافرين وبغضهم، مبتعدًا عن موالاتهم ومحبتهم.

٣- أن يتمكن من إظهار دينه من الصلاة وغيره.

٤- أن يكون بقاؤه هناك لضرورة أو مصلحة؛ كالدعوة إلى الله تعالى، أو تعلم علم لا يوجد في بلده.

قال ابن عثيمين: وأما الإقامة في بلاد الكفار فإن خطرها عظيم على دين المسلم، وأخلاقه، وسلوكه، وآدابه، وقد شاهدنا وغيرُنا انحرافَ كثير ممن أقاموا هناك فرجعوا بغير ما ذهبوا به؛ رجعوا فساقًا، وبعضهم رجع مرتدًا عن دينه، وكافرًا به وبسائر الأديان والعياذ بالله؛ حتى صاروا إلى الجحود المطلق والاستهزاء بالدين وأهله السابقين منهم واللاحقين، ولهذا كان ينبغي بل يتعين التحفظ من ذلك ووضع الشروط التي تمنع من الهوي في تلك المهالك.

فالإقامة في بلاد الكفر لا بد فيها من شرطين أساسين:

الشرط الأول: أَمْنُ المقيم على دينه؛ بحيث يكون عنده من العلم والإيمان وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات على دينه والحذر من الانحراف والزيغ، وأن يكون مضمرًا لعداوة

(١) تأملات في سورة يوسف (١٥٧، ١٥٦).

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ٢٤٢).

الكافرين وبغضهم، مبتعدًا عن موالاتهم ومحبتهم، فإن موالاتهم ومحبتهم مما ينافي الإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (المائدة: ٥١).

الشرط الثاني: أن يتمكن من إظهار دينه؛ بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع، فلا يمنع من إقامة الصلاة والجمعة والجماعات إن كان معه من يصلي جماعة ومن يقيم الجمعة، ولا يمنع من الزكاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تَجُزْ الإقامةُ لوجوب الهجرة حينئذ.

وبعد تمام هذين الشرطين الأساسيين تنقسم الإقامة في دار الكفر إلى أقسام:

القسم الأول: أن يقيم للدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه؛ فهذا نوع من الجهاد، فهي فرض كفاية على من قدر عليها، بشرط أن تتحقق الدعوة، وأن لا يوجد من يمنع منها، أو من الاستجابة إليها؛ لأن الدعوة إلى الإسلام من واجبات الدين.

القسم الثاني: أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين والتعرف على ما هُمْ عليه من فساد العقيدة، وبطلان التعبد، وانحلال الأخلاق، وفوضوية السلوك؛ ليُحذر الناسَ من الاغترار بهم، ويبين للمعجبين بهم حقيقة حالهم، وهذه الإقامة نوع من الجهاد أيضًا؛ لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه؛ لأن فساد الكفر دليل على صلاح الإسلام، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

القسم الثالث: أن يقيم لحاجة الدولة المسلمة وتنظيم علاقاتها مع دولة الكفر كموظفي السفارات؛ فحكمها حكم مَنْ أقام من أجله، فيحصل بإقامته مصلحة كبيرة، ويندرئ بها شر كبير.

القسم الرابع: أن يقيم لحاجة خاصة مباحة كالتجارة والعلاج، فتباح الإقامة بقدر الحاجة، وقد نص أهل العلم - رحمهم الله- على جواز دخول بلاد الكفار للتجارة، وأثروا ذلك عن بعض الصحابةﷺ.

القسم الخامس: أن يقيم للدراسة وهي من جنس ما قبلها إقامة لحاجة، وأن يكون العلم الذي سيتعلمه لا يوجد أو غير متاح في بلده.

القسم السادس: أن يقيم للسكن؛ وهذا أخطر مما قبله وأعظم، لما يترتب عليه من المفاسد بالاختلاط التام بأهل الكفر، وشعوره بأنه مواطن ملتزم بما تقتضيه الوطنية من مودة، وموالاة، وتكثير لسواد الكفار، ويتربى أهلُه بين أهل الكفر فيأخذون من أخلاقهم وعاداتهم، وربما قلدوهم في العقيدة والتعبد، وكيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلن فيها شعائر الكفر؛ ويكون الحكم فيها لغير الله ورسوله، وهو يشاهد ذلك بعينه، ويسمعه بأذنيه، ويرضى به؟!

بل ينتسب إلى تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده، ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين، مع ما في ذلك من الخطر العظيم عليه وعلى أهله وأولاده في دينهم وأخلاقهم[١].

* * * *

(١) "شرح الأصول الثلاثة" للشيخ ابن عثيمين؛ ضمن مجموع الفتاوى له (٦/ ١٣٢).

١٠- شبهة: إيواء يوسف أبويه قبل الدخول، وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بعد دخولهم عليه.

نص الشبهة:

كيف يقول يوسف ﷺ: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بعد الدخول؟ وما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى الإيواء.

الوجه الثاني: ما قيل في معنى هذا الاستثناء.

الوجه الثالث: قال لهم ذلك بعدما دخلوا عليه.

الوجه الرابع: أن يوسف ﷺ تلقاهم قبل دخولهم مصر.

الوجه الخامس: تعلقت المشيئة بالدخول مكيفًا بالأمن.

الوجه السادس: معنى الدخول أي: الإقامة والتمكن والاستقرار.

الوجه السابع: يوسف ﷺ استقبلهم في بيت، ثم قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان معنى الإيواء.

إن الإيواء يطلق في اللغة على عدة معاني فتقول: أويت منزلي وإلى منزلي، وأويت وتأويت وأتويت كله بمعنى: عدت، لقوله ﷺ: «أما أحدهم: فأوى إلى الله»[1] أي: رجع إليه.

قال لبيد:

بصبوح صافية وجدت كرينة بموتر تأتي له إبهامها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦)، مسلم (٢١٧٦)، واللفظ عند البخاري: عَنْ أَبِي وَاقِدٍ الليثي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ: "بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ في المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى الله فَآوَاهُ الله، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا الله مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عَنْهُ".

قال الجوهري: المأوى كل مكان يأوي إليه شئ ليلًا أو نهارًا، وآونا أي: ردنا، وأوى إليه أويه وأية ومأوية ومأواة أي: رق ورثى له، قال زهير:

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا

وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يخوي في سجوده حتى كنا نأوي له بمنزلة.

وقولك: كنا نرثي له ونشفق عليه من شدة إقلاله بطنه عن الأرض ومدة ضبعيه على جنبه، وفي حديث آخر كان يصلي حتى كنت آوي له، أي: أرق له وأرثي، وفي حديث المغيرة: لا تأوي من قلة؛ أي: لا ترحم أوجهًا ولا ترق عند الإعدام.

فأنت ترى أن لفظة الإيواء عند تصريفها تطلق على عدة معانٍ أو عند إدخالها في جملة فتفيد معنى: الرجوع، والعود، والضم، والإحاطة، والنصرة، والإشفاق، والرثاء، والرحمة، فإطلاقها بمعنى: دخول المنزل لا دليل عليه، وحتى لو كان المقصود بالإيواء هو ما يفهمونه، فانظر إلى آخر الوجوه في الرد[1].

الوجه الثاني: ما قيل في معنى هذا الاستثناء.

إن الاستثناء وهو قول: ﴿إِن شَاء الله﴾ فيه قولان:

الأول: أنه عائد إلى الأمن لا إلى الدخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٧).

الثاني: وقيل إنه عائد إلى الدخول[2]. وحاصل ذلك أن في قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أربعة أقوال: **أحدها**: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا.

والثاني: أن الاستثناء يعود إلى الأمن، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه لم يثق بانصراف الحوادث عنهم. والثاني: أن الناس كانوا فيما خلا يخافون من ملوك مصر، فلا يدخلون إلا بجوارهم.

والثالث: أنه يعود إلى دخول مصر؛ لأنه قال هذا حين تلقَّاهم.

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٥٦١)، غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٠٠).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ١١٢).

والرابع: أنَّ (إنْ) بمعنى: (إذ) كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (النور: ٣٣)[(١)].

قال الشوكاني: والتقييد بالمشيئة عائد إلى الأمن، ولا مانع من عوده إلى الجميع؛ لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه، كما أنهم لا يكونون آمنين إلاّ بمشيئته[(٢)].

الوجه الثالث: قال لهم ذلك بعدما دخلوا عليه.

ما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ وضمَّنه: اسكنوا مصر: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط[(٣)].

الوجه الرابع: أن يوسف عليه السلام تلقاهم قبل دخولهم مصر.

إن يعقوب إنما دخل على يوسف هو وولده، وآوى يوسف أبويه إليه قبل دخول مصر، قالوا: وذلك أن يوسف تلقَّى أباه تكرمةً له قبل أن يدخل مصر، فآواه إليه، ثم قال له ولمن معه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ بها قبل الدخول، وقال السُّدي: فحملوا إليه أهلهم وعيالهم، فلما بلغوا مصر، كلَّم يوسف الملك الذي فوقه، فخرج هو والملوك يتلقَّونهم، فلما بلغوا مصر قال: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[(٤)].

الوجه الخامس: تعلقت المشيئة بالدخول مكيفًا بالأمن.

ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلا عليه القبة، فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه، وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر، فإن قلت: بم تعلقت المشيئة؟ قلت: بالدخول مكيفًا بالأمن، لأن القصد إلى اتصافهم

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٢٧٩).

(٢) فتح القدير (٣/ ٧٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٣).

(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٦٦) من طريق عمرو. تفسير ابن أبي حاتم (١١٩٨٦) من طريق عامر، كلاهما (عمرو، عامر) عن أسباط عن السدي به، فيه أسباط بن نصر: صدوق كثير الخطأ يُغرب (التقريب١/ ٤٠).

بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله. ونظيره قولك للغازي: ارجع سالمًا غانمًا إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقًا، ولكن مقيدًا بالسلامة والغنيمة، مكيفًا بهما. والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال(١).

الوجه السادس: معنى الدخول أي: الإقامة والتمكن والاستقرار.

أي: أقيموا بها آمنين، سمى الإقامة دخولًا لاقتران أحدهما بالآخر، ويقال أيضًا: أي ادخلوا مصر تمكنوا منها واستقروا منها بعد أن دخلا عليه مصر(٢).

الوجه السابع: يوسف ﷺ استقبلهم في بيت، ثم قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

كأنه حين استقبلهم نزل في بيت هناك أو خيمة، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه، ثم قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾(٣).

وعلى هذا فالدخول نوعان:

قال الآلوسي: وكأنه ﷺ ضرب في الملتقى خارج البلد مضربًا فنزل فيه فدخلوا عليه فيه فآواهما إليه ثم طلب منهم الدخول في البلدة فهناك دخولان: أحدهما: دخول عليه خارج البلدة، والثاني: دخول في البلدة(٤).

* * *

(١) الكشاف (٢/ ٥٠٥).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١١)، المحرر الوجيز (٣/ ٢٨١)، البحر المحيط (٥/ ٣٤١).

(٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٠٥)، تفسير الرازي (١٨/ ٢١١)، فتح القدير (٣/ ٨٨).

(٤) روح المعاني (١٣/ ٥٧).

١١- شبهة: السجود للآدمي.

نص الشبهة:

كيف يسجدون للآدمي وقد نهى الإسلام عن ذلك؟ وكيف يسجد الأب لولده ويقبله الولد؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: كان السجود لله.

الوجه الثاني: كانت تحية الملوك على هذه الهيئة.

الوجه الثالث: كانت تحية فيهم ولم تكن عبادة.

الوجه الرابع: هذا السجود كان تحية لا عبادة، وقد نُسخ ذلك في شريعتنا.

الوجه الخامس: أنهم جعلوا يوسف عليه السلام كالقبلة.

الوجه السادس: أن الضمير في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ غير عائد إلى الأبوين.

الوجه السابع: قد يسمى التواضع سجودًا.

الوجه الثامن: كان السجود تربية لأخوة يوسف عليه السلام.

الوجه التاسع: سجدوا لحكمة خفية.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: كان السجود لله.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾، وفي هاء ﴿لَهُۥ﴾ قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف. قال الجمهور: فكان سجودهم كهيأة الركوع كما يفعل الأعاجم.

والثاني: أنها ترجع إلى الله. فالمعنى: وخرُّوا لله سجدًّا، فيكون المعنى: أنهم سجدوا شكرًا لله إذ جمع بينهم وبين يوسف. [1]

(١) زاد المسير (٤/ ٢٩٠).

فالمراد بهذه الآية أنهم خروا له؛ أي: لأجل وجدانه سجدًا لله تعالى، وحاصل الكلام: أن ذلك السجود كان سجودًا للشكر فالمسجود له هو الله، إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير، ثم سجدوا له، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل في التواضع، فإن قالوا: فهذا التأويل لا يطابق قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾، والمراد منه قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤). قلنا: بل هذا مطابق، ويكون المراد من قوله: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ لأجلي، أي: أنها سجدت لله لطلب مصلحتي وللسعي في إعلاء منصبي، وإذا كان هذا محتملًا سقط السؤال. (١)

الوجه الثاني: كانت تحية الملوك على هذه الهيئة.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾، يقول: وخرَّ يعقوب وولده وأمّه ليوسف سُجدًا... تحمّل يعني: يعقوب بأهله حتى قدموا على يوسف، فلما اجتمع إلى يعقوب بنوه، دخلوا على يوسف، فلما رأوه وقعوا له سجودًا، وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان أبوه وأمه وإخوته. (٢)

قال ابن عاشور: وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذٍ ممنوعًا في الشرائع وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقًا لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية؛ ولذلك فلا يعدّ قبوله السجودَ من أبيه عقوقًا لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم(٣).

الوجه الثالث: كانت تحية فيهم ولم تكن عبادة.

إن السجود كان تحية بينهم، أن ذلك كان منهم على الخُلُق، لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض، ومما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديمًا قبل الإسلام على غير

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٢).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٥٨).

وجه العبادة من بعضهم لبعض، قول أعشى بني ثعلبة:

فَلَمَّا أَتَانَا بُعَيْدَ الكَرَى   سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا العَمَارَا(١)

فكانت تحية من قبلنا، كان يحيي بعضهم بعضًا، فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة كرامة من الله تبارك وتعالى عجلها لهم نعمة منه، فسجودهم جارٍ مجرى التحية والتكرمة كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد، ونحوها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير.(٢)

الوجه الرابع: هذا السجود كان تحية لا عبادة، وقد نسخ ذلك في شريعتنا.

قال ابن العربي: قَالَ الْعُلَمَاءُ: كَانَ هَذَا سُجُودَ تَحِيَّةٍ لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ، وَهَكَذَا كَانَ سَلَامُهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَهُوَ الِانْحِنَاء، وَقَدْ نَسَخَ الله فِي شَرْعِنَا ذَلِكَ، وَجَعَلَ الْكَلَامَ بَدَلًا عَنْ الِانْحِنَاءِ وَالْقِيَامِ(٣).

قال القرطبي: وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة(٤).

قال ابن كثير: وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى ﷺ فحرم هذا في هذه الملة، وجُعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى؛ هذا مضمون قول قتادة وغيره(٥).

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٦٩).

(٢) تفسير الآلوسي (١٣/ ٥٨).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١١٠٦).

(٤) تفسير القرطبي (٩/ ٢٧١)، وهذا الأثر عن قتادة صحيح، أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٣٤١)، تفسير الطبري (١٣/ ١٦) من طريق معمر، تفسير الطبري (١٣/ ٦٨) من طريق سعيد بن أبي عروبة، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٩٩٦) من طريق سعيد بن بشير، ثلاثتُهم (معمر، سعيد بن أبي عروبة، سعيد بن بشير) عن قتادة به.

(٥) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٤).

ومما يدل على تحريم السجود للآدمي حديث: "لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا"(١).

الوجه الخامس: أنهم جعلوا يوسف عليه السلام كالقبلة.

ثم سجدوا لله شكرًا لنعمة وجدانه، وهذا التأويل حسن فإنه يقال: صليت للكعبة كما يقال: صليت إلى الكعبة. قال حسان:

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن(٢)

الوجه السادس: أن الضمير في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ غير عائد إلى الأبوين.

فلو كان عائد إلى الأبوين لقال: وخروا له ساجدين، بل الضمير عائد إلى إخوته، وإلى سائر من كان يدخل عليه لأجل التهنئة، والتقدير: ورفع أبويه على العرش مبالغة في

---

(١) صحيح بشواهده. وقد ورد من حديث جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (١١٥٩)، صحيح ابن حبان (٤١٦٢)، البيهقي في "الكبرى"(٧/ ٢٩١) من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به.

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٩)، النسائي في "الكبرى"(٩١٤٧)، أبو نعيم في الدلائل (٣٣٠)، من طريق خلف بن خليفة، عن حفص، عن أنس به.

حديث عائشة رضي الله عنها: أخرجه ابن ماجه (١٨٥٢)، مسند أحمد (٦/ ٧٦) من طريق علي بن زيد، عن سعيد ابن المسيب، عن عائشة به.

حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٧) من طريق الأعمش عن أبي ظبيان عن معاذ به.

حديث قيس بن سعد رضي الله عنه: أخرجه أبو داود (٢١٤٠)، الحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٧)، البيهقي في" الكبرى"(٧/ ٢٩١) من طريق شريك عن حصين عن الشعبي عن قيس به.

حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٤/ ٣٨١)، ابن ماجة (١٨٥٣)، ابن حبان (٤١٧١)، البيهقي في "الكبرى"(٧/ ٢٩٣) من طريق أيوب عن القاسم الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى به. وبالجملة: فالحديث صححه الألباني في الإرواء (١٩٩٨).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٢).

تعظيمها، وأما الإخوة وسائر الداخلين فخروا له ساجدين. فإن قالوا: فهذا لا يلائم قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾.

قلنا: إن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقًا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه، فسجود الكواكب والشمس والقمر تعبير عن تعظيم الأكابر من الناس له، ولا شك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان إلى مصر لأجله في نهاية التعظيم له، فكفى هذا القدر في صحة الرؤيا، فأما أن يكون التعبير مساويًا لأصل الرؤيا في الصفة والصورة فلم يوجبه أحد من العقلاء[1].

الوجه السابع: قد يسمى التواضع سجودًا.

كقوله: ترى الأكم فيها سجدًا للحوافر. . . وكان المراد ههنا التواضع إلا أن هذا مشكل؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ والخرور إلى السجدة مشعر بالإتيان بالسجدة على أكمل الوجوه، وأجيب عنه: بأن الخرور قد يعني به المرور فقط قال تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ (الفرقان: ٧٣) يعني: لم يمروا[2].

الوجه الثامن: كان السجود تربية لأخوة يوسف عليه السلام.

فلعل إخوته حملتهم الأنفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع، وعلم يعقوب عليه السلام أنهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببًا لثوران الفتن ولظهور الأحقاد القديمة بعد كمونها، فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الأبوة والشيخوخة والتقدم في الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود، حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببًا لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم، ألا ترى أن السلطان الكبير إذا نصب محتسبًا فإذا أراد

---

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٣).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٢).

ترتيبه مكّنه في إقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببًا في أن لا يبقى في قلب أحد منازعة ذلك المحتسب في إقامة الحسبة، فكذا ههنا(١).

الوجه التاسع: سجدوا لحكمة خفية.

فالسجود كان لحكمة خفية، فلعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو، ويوسف ما كان راضيًا بذلك في قلبه، إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت. (٢)

قال ابن زيد: ذلك السجود تشريفة كما سجدت الملائكة لآدم تشريفة ليس بسجود عبادة. (٣)

* * *

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٣).

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٢١٣).

(٣) صحيح. أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٦٩) من حديث يونس: أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد به.

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد السادس

شبهات عن القرآن

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

٦

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم

للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

تابع
شبهات عن القرآن

سورة الحجر

وفيها:

١- شبهة: حول الورود على الصراط.

٢- شبهة: حول تبشير إبراهيم عليه السلام.

١- شبهة: حول الورود على الصراط.

نص الشبهة:

أن الله تعالى قال في سورة(الحجر: ٤٣ -٤٤): ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، وقال في سورة (مريم: ٧١): ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

فقالوا: هذه الآيات تشير بأن الله حكم على جميع الناس بورودهم جهنم، بارهم وفاجرهم، تقيهم وعاصيهم، موحدهم ومشركهم، فقالوا: فما هي قيمة التوبة والغفران؟ وما هو الفرق بين الطائع والعاصي؟!.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان المعنى الصحيح لآية الحجر، وأنها خاصة في الكفار.

الوجه الثاني: بيان المعنى الصحيح للورود، وأن الراجح هو المرور على الصراط.

الوجه الثالث: بيان المعتقد الصحيح في أن النار لا يخلد فيها إلا الكافرون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان المعنى الصحيح لآية الحجر وأنه خاص في حق الكفار.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

قال ابن كثير: أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ (هود: ١٧)، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قد كُتِبَ لكل باب منها جزءٌ من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَك بقدر فعله، فدل ذلك على أن المقصود بقوله ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من أتباع إبليس، والدليل: أن الله ذكر بعدها حال المتقين فقال سبحانه ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (الحجر:

٤٥)، وقد ذكر الله عز وجل حال أهل الجنة – المتقين – ليظهر التباين، والضمير في قوله ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ عائد على قوله﴿اتَّبَعَكَ﴾.[١]

الوجه الثاني: بيان معاني الورود.

الورود لغة: قال ابن سيده: وورد الماء وغيره وردًا ووروداً وورد عليه: أشرف عليه دخله أو لم يدخله، وكل من أتى مكانًا منهلًا أو غيره فقد ورده، وفي اللغة: ورد بلد كذا وماء كذا، إذا أشرف عليه، دخله أو لم يدخله، قال: فالورود: بالإجماع ليس بالدخول[٢].

الورود شرعًا: المعنى الأول: الورود هو الدخول، ولكن عنى به الكفار دون المؤمنين:

قال القرطبي: وقالت فرقة: المراد ب﴿مِّنكُمْ﴾: الكفرة، والمعنى: قل لهم يا محمد، وهذا التأويل أيضًا سهل التناول، والكاف في ﴿مِّنكُمْ﴾ راجعة إلى الهاء في ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء، فقد عرف ذلك في قوله ﷻ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ (الإنسان: ٢١ – ٢٢) معناه: كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهاء[٣].

وقد خرج الطبري بإسناده إلى ابن عباس كان يقرؤه ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ فقد يعني الكفار، قال: لا يردها مؤمن.[٤]

وأسنده أيضًا إلى عكرمة كان يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني: الكفار.[٥]

ورد على هذا القول بأن الله قال بعدها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ فدل ذلك على أن الورود ليس خاصًا بالكفار.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٢٥٩)، انظر الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٥).

(٢) لسان العرب (٦/ ٤٨١٠– ٤٨١١)، تهذيب اللغة (١٤/ ١٦٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٤٤)، زاد المسير (٥/ ٢٥٤: ٢٥٥).

(٤) جامع البيان (١٩/ ١١٠)، وهو ضعيف لأجل الانقطاع بين عبد الله بن السائب وابن عباس.

(٥) جامع البيان (١٩/ ١١١) وهو صحيح عن عكرمة.

استدلوا بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠١)، قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها.

والجواب عليه: قالوا: إن معنى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ أي: أنهم مبعدون عن العذاب فيها، والاحتراق بها، فمن دخلها وهو لا يشعر بها، ولا يحس منها وجعا، ولا ألمًا فهو مبعد عنها. (١)

المعنى الثاني: الورود بمعنى المرور – يعني على الصراط –، والدليل:

١. ما رواه الطبري بإسناده عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم. (٢)

٢. ما رواه الطبري بإسناده عن قتادة من طريقين:

الأول: قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ يعني: جهنم، مرّ الناس عليها.

الثاني: في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: هو المرّ عليها. (٣)

المعنى الثالث: المراد بالورود: هو عام لكل مؤمن وكافر، غير أن ورود المؤمن المرور، وورود الكافر الدخول.

الدليل: قال ابن زيد في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾: ورود المسلمين المرور على الجسر

---

(١) فتح البيان (٨/ ١٨٧).

(٢) جامع البيان (١٩/ ١١٠) إسناده صحيح.

(٣) جامع البيان (١٦/ ١١٠) إسناده صحيح، سعيد بن أبي عروبة: ثقة حافظ كثير التدليس اختلط بآخره من أثبت الناس في قتادة (التقريب١/ ٢١٠) قلت أما عن تدليسه، فقد ذكره ابن حجر في طبقات المدلسين في الطبقة الثانية، وهذه الطبقة أخرج لهم في الصحيحين، لإمامتهم، وقلة تدليسهم في جنب ما رووا، أو كان لا يدلس إلا عن ثقة، أضف إلى ذلك أن سعيدًا من أثبت الناس في حديث قتادة، فلا يضر العنعنة هنا، ويزيد بن زريع: ثقة ثبت (التقريب ٢/ ٦٧١) وهو ممن روى عن سعيد قبل الاختلاط، بل هو من أثبت الناس في سعيد –نهاية الاغتباط (١٣٩ -١٤٧)، وبشر بن معاذ صدوق – التقريب (١/ ٧١).

بين ظهريها، وورود المشركين أن يدخلوها، قال: وقال النبي ﷺ: "الزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط الجسر سماطان من الملائكة دعواهم يومئذ يا الله سلم سلم ". (١)

المعنى الرابع: الورود بمعنى ما يصاب به المؤمن في الدنيا من حمّى ومرض:

والدليل على ذلك: ١. حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجل من أصحابه وبه وعك وأنا معه فقال رسول الله ﷺ: "إن الله يقول هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار في الآخرة "(٢).

(١) الطبري (٨/ ٣٦٤) وإسناده صحيح، أما الحديث ففي شعب الإيمان (١/ ٣٣١)، وضعفه البيهقي من حديث أنس.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والترمذي (٢٠٨٨)، والحاكم (١/ ٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ١١٧)، وابن ماجه (٣٤٧٠) كلهم من طريق أبي أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن إسماعيل ابن عبيد الله، عن أبي صالح الشعري عن أبي هريرة. . . . الحديث، أبو صالح الأشعري: قال أبو زرعه لا يعرف اسمه، وقال أبو حاتم لا بأس به (تهذيب الكمال ٣٣/ ٤١٣: ٤١٤)، وقال ابن حجر: مقبول (التقريب ٢/ ٧٣٢)، والحديث صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٧٩٤) ولفظ الترمذي: "هي ناري أسلطها على عبدي المذنب لتكون حظه من النار".

١. عند أحمد (٥/ ٢٥٢، ٢٦٤)، والطبراني في الكبير (٧٤٦٨)، والبيهقي في الشعب (٩٨٤٣) كلهم من طريق محمد بن مطرف، عن أبي إمامة مرفوعًا قال رسول الله ﷺ" الحمى كي من جهنم فما أصاب المؤمن كان حظه من النار". وفيه: أبو الحصين مروان بن رؤية التغلبي: قال ابن حجر: مقبول (التقريب ٢/ ٥٧٧).

٢. وعند العقيلي في الضعفاء (١٥٠٢) من حديث الفضل بن حماد الواسطي ثنا عبد الله بن عمران القرشي ثنا مالك بن دينار عن معبد الجهني عن عثمان مرفوعًا: قال رسول الله ﷺ " الحمى حظ كل مؤمن من النار" ميزان الاعتدال (٤/ ١٤١، ٣/ ٤٢٦)، وفيه فضل بن حماد الواسطي وهو مجهول.

٣. وعند الشهاب مسنده (٦٢)، وفيه صالح بن أحمد الهروي، قال أبو أحمد الحاكم: فيه نظر: ذكره الشيخ حمدي السلفي في تعليقه على مسند الشهاب (١/ ٧١)، وفيه أحمد بن رشد الهلالي، قال الذهبي أتي غير باطل عن بني العباس ميزان الاعتدال (١/ ٩٧)، وذكره ابن حبان في الثقات، وأما ابن طاهر فأعله بالحسن بن صالح لكن الحسن ثقة واحتج به مسلم وغيره، وقال الألباني: ضعيف جدًّا (السلسلة الضعيفة ٣٥٣٢) وله كلام نفيس في السلسة الضعيفة رقم (٦١٤٣).

٤. وفي الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٣٢٢): أخبرنا الفضل بن دكين، قال: أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدي، قال: أخبرنا أبو المتوكل: أن نبي الله ﷺ ذكر الحمى فقال " من كانت به حمى فهي حظه من النار"

قال: فسألها سعد فلزمته ولم تفارقه حتى فارق الدنيا. وفيه أبو المتوكل، هو علي بن داود أبو المتوكل الناجي البصري مشهور بكنيته ثقة من الثالثة، قاله ابن حجر في التقريب (١/ ٤١٣)، وهو مرسل.

٥. وفي الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٧٥٤٠)، قال: حدثنا محمد بن إبراهيم العسال، نا سليمان بن داود الشاذكوني، نا عبيس بن ميمون، حدثني قتادة، عن انس، قال: قال رسول الله ﷺ "الحمى حظ المؤمن من النار "، وقال لم يرو هذا الحديث عن قتادة، إلا عبيس بن ميمون تفرد به الشاذكوني، سليمان بن داود الشاذكوني وهو متروك، قاله أبو حاتم، وقال النسائي: ليس بثقة، وكذبه ابن معين، وقال البخاري: فيه نظر. انظر ميزان الاعتدال (٢/ ٢٠٥)، عيسى بن ميمون، قال أحمد والبخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين وأبو داود: ضعيف، وقال الفلاس: متروك، والنسائي: ليس بثقة (ميزان الاعتدال ٣/ ٢٧).

٦. وفي البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٨٤٦)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٦٨)، عن أبي ريحانه مرفوعًا قال: قال رسول الله ﷺ "الحمى من فيح جهنم وهي نصيب المؤمن من النار". وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف.

٧. وفي كشف الأستار (٧٦٥) من طريق عثمان بن مخلد، عن هشيم عن المغيره عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: "الحمى حظ كل مؤمن من النار" وقال عقبه: لا نعلم أسنده عن هشيم إلا عثمان، وعثمان بن مخلد لم يذكر له ابن أبي حاتم جرحًا ولا تعديلًا (٦/ ١٧٠)، وفيه هشيم، وهو مدلس، وقد عنعن في السند، قال الدارقطني في علله: عثمان بن مخلد الواسطي، لا بأس به، لكنه خولف في رفع هذا الحديث، فأخرجه مندل بن علي عن هشيم به موقوفًا، وهو المحفوظ. نقلًا من تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للذيلعي (٢/ ٣٣٥).

٨. جامع البيان (١٦/ ١١١)، وفيه يحيى بن يمان، قال أحمد: ليس بحجة، وقال يحيى بن معين: ليس بثبت، وقال مرة: أرجو أن يكون صدوقا، وقال مرة: ليس به بأس، ابن المديني قال: صدوق، وكان فلج فتغير حفظه، قال النسائي: ليس بالقوي – تهذيب الكمال (٣٢/ ٥٥: ٥٩)، والحديث كما في الطبري بإسناده، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾.

وبالجملة فقد صحح الشيخ الألباني حديث الحمى هذا نظرًا للشواهد، كما في السلسلة الصحيحة (١٨٢١: ١٨٢٢).

أما ابن حجر – رحمه الله– قال (في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف – بذيل تفسيرالكشاف ٣/ ٣٥): وكلها ضعيفة وهي بمعناه لا بلفظه.

وفي أضواء البيان (٤/ ٣٨٠): وعلى فرض صحة الحديث؛ الجواب على هذا الاستدلال قالوا: لا دليل فيه لمحل النزاع، لأن السياق صريح في أن الكلام في النار في الآخرة وليس في حرارة منها في الدنيا، لأن أول الكلام اقوله تعالى ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ إلى قوله ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾. (مريم ٦٨: ٧١)، فدل على أن كل ذلك في الآخرة، لا في الدنيا كما ترى.

المعنى الخامس المراد بالورود: الإشراف عليها، والقرب منها، والاطلاع عليها.

الدليل: ١-احتجوا بقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القصص: ٢٣)، قالوا: فهذا ورود مقاربة، وإشراف عليه.

٢-قوله تعالى ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (يوسف: ١٩).

٣-من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فلما وردن الماء زرقا جمامة   وضعنا عصا الحاضر المتخيم

والعرب تقول: وردت القافلة البلد وإن لم تدخله ولكن قربت منه. (١)

المعنى السادس: الورود هو الدخول للمؤمنين والكافرين:

١. والدليل على ذلك: عَنْ أَبِى سُمَيَّةَ، قَالَ: اخْتَلَفْنَا هَا هُنَا فِى الْوُرُودِ، فَقَالَ بَعْضُنَا: لاَ يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ، وَقَالَ بَعْضُنَا: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعا، ثُمَّ يُنَجِّى الله الَّذِينَ اتَّقَوْا، فَلَقِيتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا اخْتَلَفْنَا هَا هُنَا فِى الوُرُودِ، فَقَالَ: يَرِدُونَهَا جَمِيعًا. وَقَالَ سُلَيْمَانُ مَرَّةً يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا، فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا اخْتَلَفْنَا فِى ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُنَا: لاَ يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ، وَقَالَ بَعْضُنَا: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا، فَأَهْوَى بِأُصْبُعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَالَ: صُمَّتَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ "الْوُرُودُ الدُّخُولُ لاَ يَبْقَى بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إِلاَّ دَخَلَهَا فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلاَمًا كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ - أَوْ قَالَ إِنَّ لِجَهَنَّمَ - ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ، ثُمَّ يُنَجِّى الله الَّذِينَ اتَّقَوْا وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا" »(٢)

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣٧٧)، البحر المحيط (٦/ ١٩٧)، فتح البيان (٨/ ١٨٧).

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٩) من حديث أبي سمية، قال الذهبي: مجهول (الميزان ٤/ ٥٣٤)، وقال ابن حجر في التقريب: مقبول، وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٨٧) من حديث مسه الأزدية، عن عبد الرحمن بن شيبة، عن جابر (تحريف في المطبوع إلى منيه وسقط جابر (انظر الاتحاف (٣/ ٢٢٩)، قال الدارقطني: لا يحتج بها (ميزان الاعتدال ٤/ ٦١٠)، قال ابن حجر: مقبولة (التقريب ٢/ ٨٧٦) والحديث ضعيف، قال ابن كثير: غريب ولم يخرجوه (التفسير٩/ ٢٧٩).

٢. ما رواه الطبري، في تفسيره، بإسناده إلى ابن عيينة، عن عمرو، قال: أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود: الدخول، وقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أورودٌ هو أم لا؟ وقال ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ أورود هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، قال: فضحك نافع.[1]

٣. ما رواه الطبري في تفسيره، بإسناده إلى عطاء بن أبي رباح، قال: قال أبو راشد الحروري: ذكروا هذا فقال الحروري: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال ابن عباس: ويلك أمجنون أنت؟ أين قوله تعالى﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾، وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالمًا، وأدخلني الجنة غانمًا[2].

٤. ما رواه الطبري في تفسيره، بإسناده إلى ابن عباس في قوله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ قال: يعني البرّ والفاجر، ألم تسمع إلى قول الله تعالى لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾، وَقَالَ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ فسمى الورود في النار دخولا وليس بصادر[3].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٨، ١٠٩) وهو ضعيف فيه رجل مبهم.

(٢) جامع البيان (١٩/ ١٠٩) وفيه: الحسين بن داود المصيصي - (سنيد) صاحب تفسير- وهاه النسائي (ميزان الاعتدال ١/ ٥٣٤)، وضعفه ابن حجر في التقريب (١/ ٢٣٢)، وقال أبو حاتم: صدوق (الجرح والتعديل ٤/ ٣٢٦)، وقال النسائي: ليس بثقة (تهذيب الكمال ١٢/ ١٦٤).

(٣) جامع البيان (١٦/ ١٠٩)، وفي إسناده: محمد بن سعد - شيخ الطبري - وهو محمد بن سعد بن محمد ابن الحسن بن عطية العوفي قال الخطيب: كان لينا في الحديث، وروى الحاكم عن الدارقطني أنه قال: لا بأس به (ميزان الاعتدال ٣/ ٥٦٠)، الأنساب (٤/ ٢٥٨).

٥. قال خالد بن معدان: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهي خامدة.

قال ابن عرفة، قال مروان بن معاوية، قال بكار بن أبي مروان، أو قال: جامدة. [(١)]

٦. إن في نفس الآية قرينة دالة على تفسير الآية، وهي أنه تعالى لما خاطب جميع الناس بأنهم سيردون النار، برهم وفاجرهم، بقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ بين مصيرهم ومآلهم بعد ذلك الورود المذكور بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾ أي: نترك الظالمين فيها- دليل على أن ورودهم لها دخولهم فيها- إذ لو لم يدخلوها لم يقل: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾، بل يقول: ونُدخل الظالمين، وهذا واضح كما ترى وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ دليل على أنهم وقعوا فيما من شأنه أنه هلكة، ولذا عطف على قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾. [(٢)]

ونعقب هذا القول بالآتي:

١. بأن الأحاديث والآثار السابقة مختلف في صحتها، فلا يستدل بها.

٢. **قال ابن عاشور:** فليس الخطاب في قوله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ لجميع النّاس مؤمنهم وكافِرهم على معنى ابتداء كلام، بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النّار مع الكافرين، ثم يَنْجوَن من عذابها، لأنّ هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة، ولأنّ فضل الله على المؤمنين بالجنّة، وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مَساقًا واحدًا، كيف وقد صدّر الكلام بقوله﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ (مريم: ٨)، وقال تعالى﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم: ٨٥، ٨٦)، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين.

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٠٩)، وهو ضعيف: وفيه بكار بن أبي مروان لم أقف على ترجمته فيمن روى عن خالد بن معدان، ولا من شيوخ مروان بن معاوية. ومروان ثقة حافظ، كان يدلس في أسماء الشيوخ، قاله ابن حجر في التقريب (٢/ ٥٧٧).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٣٧٨).

فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر: ٤٣)عقب قوله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (الحجر: ٤٢)، فلا يتوهم أن جهنّم موعد عباد الله المخلصين مع تقدّم ذكره، لأنّه ينبو عنه مقام الثناء.

وقال أيضًا: وجملة ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ زيادة في الارتقاء بالوعيد بأنّهم خالدون في العذاب، فليس ورودهم النّار بموقّت بأجل.

و(ثمّ) للترتيب الرتبي تنويهًا بإنجاء الذين اتّقوا وتشويهًا بحال الذين يبقون في جهنم جُثيًّا. فالمعنى: وعلاوة على ذلك؛ ننجي الذين اتّقوا من ورود جهنم. وليس المعنى: ثمّ ينجي المتقين من بينهم، بل المعنى أنهم نَجَوْا من الورود إلى النّار. وذكر إنجاء المتقين - أي المؤمنين - إدماج ببشارة المؤمنين في أثناء وعيد المشركين. وجملة ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا﴾ عطف على جملة ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، والظالمون: المشركون[1].

قلت: ومن قال بأن دخول النار يكون للناس جميعًا يقولون: بأن المؤمنين يدخلون النار من غير خوف وضرر البتة بل مع الغبطة والسرور وذلك لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ (الأنبياء: ١٠٣)، ولأن الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز في دار التكليف، إلى أن قال: وكيف يدفع عنهم الضرر في النار.

وقال بعضهم: البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون في خلالها ما لا نار فيه، ويكون من المواضع التي يسلك فيها إلى دركات جهنم، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكل في جهنم فالمؤمنون يكونون في تلك المواضع الخالية عن النار، والكفار يكونون في وسط النار. وثانيها: أن الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يردونها كأنها إهالة» وعن جابر بن عبد الله: " أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا بأن نرد النار فيقال لهم: قد وردتموها وهي

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٥٠).

خامدة "، وثالثها: أن حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها الله بردًا وسلامًا عليهم). (١)

قلت: وهذا على صحة الأدلة التي ذكروها ولكن فيها كلام تقدم ذكره.

المعني السابع: الورود بمعني يراها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون بأعمالهم.

والدليل علي ذلك:

١-حديث ابن مسعود: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال رسول الله ﷺ "يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون منها بأعمالهم". (٢)

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٢١/ ٢٤٣: ٢٤٤) بتصرف، وانظر: الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٤٥) وإليه ذهب القرطبي.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي (٣١٦٠)، والطبري في التفسير (١٩/ ١١١) من حديث يحيي بن سعيد، وأخرجه أحمد (١/ ٤٣٣)، الترمذي (٥/ ٣١٧) من حديث عبدالرحمن بن مهدي، كلاهما-يحيي بن سعيد وعبدالرحمن بن مهدي- عن شعبة عن السدي عن مرة الهمداني عن عبدالله بن مسعود ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: يردونها، ثم يصدرون منها بأعمالهم).

ومن طريق يحيي، وطريق عبدالرحمن بن مهدي قال: (يدخلونها، أو يلجونها، ثم يصدرون منها بأعمالهم) موقوفًا. أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥) من حديث عبد الرحمن بن مهدي، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٥)، والترمذي (٣١٥٩)، والدارمي (٢٨١٠) من حديث عبيدالله بن موسي كلاهما-عبدالرحمن بن مهدي وعبيدالله بن موسي- عن اسرائيل، عن السدي، قال: سألت مُرَّة الهمداني عن قول الله عز وجل﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فحدثني أن عبدالله بن مسعود حدثهم، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ ثُمَّ كَالرِّيحِ ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ ثُمَّ كَمَشْيِهِ"هذا حديث عبيدالله بن موسي مرفوعًا. قلت: فالحديث جاء مرفوعًا من حديث إسرائيل، وموقوفًا من حديث شعبة، وقد أخرجه عبدالرحمن بن مهدي علي الوجهين، وقال لشعبة: إن إسرائيل رفعه، قال شعبة: وقد سمعته من السدي مرفوعًا، ولكني عمدًا أدعه-جامع الترمذي (٥/ ٣١٧)، وقال الترمذي عن المرفوع هذا حديث حسن. قلت: لأن مدار الحديث على السدي- وهو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة- وهوصدوق يهم كما قال الحافظ بن حجر في التقريب (١/ ٥٢).

٢-ما رواه الطبري بإسناده عن مجاهد قال: (كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يُقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا. [(١)]

قلت: وأولي هذه الأقوال: أن الورود هو المرور على الصراط، والصراط على متن جهنم، فينجي الله الناس من على الصراط بأعمالهم، والأدلة علي ذلك:

١-حديث أبي هريرة مرفوعًا في الصحيحين في حديث الرؤية والشفاعة وفيه"وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ، أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. . . ". [(٢)]

٢-حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا وفيه"ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجِسْرِ، فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، قُلْنَا يَا رَسُولَ الله وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خطا طيف، وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مسلم، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا. . . "[(٣)].

٣-حديث أبي هريرة، وحذيفة معًا في حديث استفتاح باب الجنة عن النبيﷺ وفيه: "وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا! قَالَ: وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ. . . "[(٤)].

---

(١) جامع البيان (٩/ ١١١)، وإسناده ضعيف فيه عنعنة عبدالملك بن جريج، وهو مدلس

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، مسلم (١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٥).

٤- حديث جابر بن عبدالله ﷺ، رواه مسلم في صحيحه، من حديث أَبِي الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله يُسْأَلُ عَنْ الْوُرُودِ فَقَالَ: نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا، انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ، الْأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟ فَيَقُولُونَ نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ، وَحَسَكٌ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ الله، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَاء نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ كَذَلِكَ. . .)[1].

٥-حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله" ﷺ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَدْخُلَ النَّارَ- إِنْ شَاءَ الله- أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَلَيْسَ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، قَالَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا ﴾[2].

قال أبو هريرة: إذا كان يوم القيامة، يجتمع الناس نادى مناد: ليلحق كل أناس بما كانوا يعبدون، فيقوم هذا إلى الحجر، وهذا إلى الفرس، وهذا إلى الخشبة حتى يبقى الذين يعبدون الله، فيأتيهم الله، فإذا رأوه قاموا إليه، فيذهب بهم فيسلك بهم على الصراط، وفيه عليق، فعند ذلك يؤذن بالشفاعة، فيمرّ الناس، والنبيون يقولون: اللهمّ سلم سلم. قال بكير: فكان ابن عميرة يقول: فناج مسلم ومنكوس في جهنم ومخدوش، ثم ناج[3].

وهذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك:

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١).

(٢) أحمد (٦/ ٣٦٢)، الطبري في التفسير (٩/ ١١٢)، ابن ماجه (٤٢٨١)، الفاكهي في أخبار مكة (٢٨٧٤) من حديث الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن أم مبشر، عن حفصة، قالت: قال رسول الله ﷺ. . . . الحديث. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٥٤)، وأصله في مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر، أنها سمعت النبيﷺ يقول عند حفصة"لايدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها".

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١١٢) إسناده صحيح. بسر بن سعيد ثقة (تقريب التقريب١/ ٦٨)، بكير بن عبدالله الأشج ثقة (تقريب التقريب١/ ٧٥)، عمرو بن الحارث بن يعقوب ثقة (تقريب التقريب١/ ٤٣٧).

قال ابن حجر: وَاخْتَلَفَ السَّلَف فِي الْمُرَاد بِالْوُرُودِ فِي الْآيَة، فَقِيلَ هُوَ الدُّخُول، وَقِيلَ الْمُرَاد بِالْوُرُودِ الْمَمَرّ عَلَيْهَا، وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ أَصَحّ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنَافِي بَيْنهمَا، لِأَنَّ مَنْ عَبَّرَ بِالدُّخُولِ تَجَوَّزَ بِهِ عَنْ الْمُرُور، وَوَجْهه أَنَّ الْمَارّ عَلَيْهَا فَوْق الصِّرَاط فِي مَعْنَى مَنْ دَخَلَهَا، لَكِنْ تَخْتَلِف أَحْوَال الْمَارَّة بِاخْتِلَافِ أَعْمَالهمْ، فَأَعْلَاهُمْ دَرَجَة مَنْ يَمُرّ كَلَمْعِ الْبَرْق، ثم قال: وَفِي هَذَا بَيَان ضَعْف قَوْل مَنْ قَالَ: الْوُرُود مُخْتَصّ بِالْكُفَّارِ، وَمَنْ قَالَ: مَعْنَى الْوُرُود الدُّنُوّ مِنْهَ، وَمَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ الْإِشْرَاف عَلَيْهَا، وَمَنْ قَالَ: مَعْنَى وُرُودهَا: مَا يُصِيب الْمُؤْمِن فِي الدُّنْيَا مِنْ الْحُمَّى، عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَخِير لَيْسَ بِبَعِيدٍ، وَلَا يُنَافِيه بَقِيَّة الْأَحَادِيث، وَالله أَعْلَم[1].

قال النووي: وَالصَّحِيح أَنَّ الْمُرَاد بِالْوُرُودِ فِي الْآيَة: الْمُرُور عَلَى الصِّرَاط، وَهُوَ جِسْر مَنْصُوب عَلَى جَهَنَّم، فَيَقَع فِيهَا أَهْلهَا، وَيَنْجُو الْآخَرُونَ[2].

قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار، وورودهما هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمُكَدَّسٌ فيها[3].

قال الشوكاني: ولا يخفى أن القول بأن الورود هوالمرور على الصرط، أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنّة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك[4]

الوجه الثالث: بيان المعتقد الصحيح في أن النار لا يخلد فيها إلا الكفار

أن النار لا يخلد فيها إلا الكافرون والجنة لا يخلد فيها إلا المؤمنون، وأما العصاة من المسلمين فأمرهم إلي الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم وأمرهم في النهاية إلي الجنة. وهذا بدليل الكتاب والسنة والإجماع:

أولًا: من الكتاب: فقد بين الله سبحانه وتعالي جزاء المؤمنين والكافرين أحق بيان، ففي المؤمنين قال الله تعالي ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

---

(١) فتح الباري (٣/ ١٤٩)، باب: فضل من مات له ولد فاحتسب.

(٢) شرح صحيح مسلم (٨/ ٢٩٦)، وانظر: الاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٣٣٠: ٣٢٦).

(٣) جامع البيان (٩/ ١١٢).

(٤) فتح القدير (٣/ ٤٨٧)، فتح البيان (٨/ ١٨٧).

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ (النساء: ٥٧)، وقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ (النساء: ١٢٢)، وقال أيضا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾ (الكهف١٠٧: ١٠٨)، وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ ﴾ (البينة٧: ٨)، والآيات في الباب كثيرة.

وفي حق الكافرين قال الله تعالي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ (النساء ١٦٨: ١٦٩)، وقال تعالي: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ (فاطر: ٣٦)، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ (البينة: ٦)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ (البقرة ١٦١: ١٦٢)، وقال فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ (المائدة ٣٦: ٣٧)، والآيات في الباب كثيرة.

فأخبرنا تعالي في هذه الآيات، وأمثالها، أن أهل النار الذين هم أهلها، خلقت لهم وخلقوا لها، وأنهم خالدون فيها أبد الآبدين، ودهر الداهرين لا فكاك لهم منها، ولا خلاص، ولات حين مناص. فأخبر الله عن أبديتهم فيها بقوله﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ونفي تعالي خروجهم منها بقوله﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ونفي تعالي انقطاعها عنهم بقوله تعالي ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ﴾ ونفي فناءهم فيها بقوله تعالي ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.

ثانيًا: من السنة: وهذه بعض الأدلة من السنة علي أن الجنة للموحدين، والنار للمشركين.

١-حديث عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَخَلَ الْجَنَّةَ". (١)

٢-حديث أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ " أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله لَا يَلْقَى الله بِهِمَا، عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ"(٢).

٣-حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله، وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ)(٣).

٤-حديث معاذ بن جبل ﷺ قال: أن رسول الله ﷺ قال: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله أَفَلَا أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ إِذًا يَتَّكِلُوا، فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا"(٤).

وأخيرًا: حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَن فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُن ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (٥)

فهذا كله يوضح لنا أن النار لا يخلد فيها إلا الكافرون، وأن الجنة لايدخلها ولا يخلد فيها إلا المؤمنون، وأما العصاة من المسلمين الذين ماتوا علي الإسلام فأمرهم إلي الله، إن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، مسلم (٢٨)، واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (١٢٨)، مسلم (٣٢)، واللفظ له.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، مسلم (٢٨٤٩).

شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن عذبهم فأدخلهم النار فلا يخلدون فيها، لكن علي قدر ذنوبهم فهم يطهرون، وإليك بعض الأدلة علي ذلك:

١- حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ" أَمَّا أَهْلُ النَّارِ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ- أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ- فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ". (١)

٢-حديث أبي هريرة ﷺ -حديث معرفة الرؤية- وفيه قول النبي ﷺ "حَتَّى إِذَا فَرَغَ الله مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ. . . وَقَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ.. ". (٢)

٣-حديث جابر بن عبدالله ﷺ وفيه" ثُمَّ تَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَشْفَعُونَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً فَيُجْعَلُونَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ.. (٣)

٤-حديث أنس أن النبي ﷺ قال: "يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً". (٤)

وعنه أيضا: أن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة"**ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا** فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله قَالَ لَيْسَ ذَاكَ لَكَ أَوْ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥)، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، مسلم (١٨٢) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (١٩١).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٣).

ثالثًا: الإجماع:

قال النووي: وَأَمَّا حُكْمه ﷺ عَلَى مَنْ مَاتَ يُشْرِك بِدُخُولِ النَّار وَمَنْ مَاتَ غَيْر مُشْرِك بِدُخُولِهِ الْجَنَّة فَقَدْ أَجْمَع عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ. فَأَمَّا دُخُول الْمُشْرِك النَّار فَهُوَ عَلَى عُمُومه فَيَدْخُلهَا وَيُخَلَّد فِيهَا وَلَا فَرْق فِيهِ بَيْنَ الْكِتَابِيِّ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ وَبَيْن عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ الْكَفَرَةِ. وَلَا فَرْق عِنْد أَهْل الْحَقِّ بَيْنَ الْكَافِرِ عِنَادًا وَغَيْره، وَلَا بَيْن مَنْ خَالَفَ مِلَّة الْإِسْلَام وَبَيْن مَنْ اِنْتَسَبَ إِلَيْهَا. ثُمَّ حُكِمَ بِكُفْرِهِ بِجَحْدِهِ مَا يَكْفُر بِجَحْدِهِ وَغَيْر ذَلِكَ. وَأَمَّا دُخُول مَنْ مَاتَ غَيْر مُشْرِك الْجَنَّة فَهُوَ مَقْطُوع لَهُ بِهِ لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِب كَبِيرَة مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا دَخَلَ الْجَنَّة أَوَّلًا، وَإِنْ كَانَ صَاحِب كَبِيرَة مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ تَحْت الْمَشِيئَة، فَإِنْ عُفِيَ عَنْهُ دَخَلَ أَوَّلًا وَإِلَّا عُذِّبَ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْ النَّار، وَخُلِّدَ فِي الْجَنَّة. (١)

أقوال بعض الأئمة:

قال النووي: وَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَب أَهْل السُّنَّة، وَمَا عَلَيْهِ أَهْل الْحَقّ مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف، أَنَّ مَنْ مَاتَ مُوَحِّدًا دَخَلَ الْجَنَّة قَطْعًا عَلَى كُلّ حَال، فَإِنْ كَانَ سَالِمًا مِنْ الْمَعَاصِي كَالصَّغِيرِ، وَالْمَجْنُون وَالَّذِي اِتَّصَلَ جُنُونه بِالْبُلُوغِ، وَالتَّائِب تَوْبَة صَحِيحَة مِنْ الشِّرْك، أَوْ غَيْره مِنْ الْمَعَاصِي، إِذَا لَمْ يُحْدِث مَعْصِيَة بَعْد تَوْبَته، وَالْمُوَفَّق الَّذِي لَمْ يُبْتَلَ بِمَعْصِيَةٍ أَصْلًا، فَكُلّ هَذَا الصِّنْف يَدْخُلُونَ الْجَنَّة، وَلَا يَدْخُلُونَ النَّار أَصْلًا، لَكِنَّهُمْ يَرِدُونَهَا عَلَى الْخِلَاف الْمَعْرُوف فِي الْوُرُود، وَالصَّحِيح أَنَّ الْمُرَاد بِهِ الْمُرُور عَلَى الصِّرَاط وَهُوَ مَنْصُوب عَلَى ظَهْر جَهَنَّم- أَعَاذَنَا الله مِنْهَا وَمِنْ سَائِر الْمَكْرُوه- وَأَمَّا مَنْ كَانَتْ لَهُ مَعْصِيَة كَبِيرَة، وَمَاتَ مِنْ غَيْر تَوْبَة فَهُوَ فِي مَشِيئَة الله تَعَالَى: فَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّة أَوَّلًا وَجَعَلَهُ كَالْقِسْمِ الْأَوَّل، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ الْقَدْرَ الَّذِي يُرِيدهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى، ثُمَّ يُدْخِلهُ الْجَنَّة، فَلَا يُخَلَّد فِي النَّار أَحَد مَاتَ عَلَى التَّوْحِيد وَلَوْ عَمِلَ مِنْ الْمَعَاصِي مَا عَمِلَ. كَمَا أَنَّهُ لَا يَدْخُل الْجَنَّة أَحَد مَاتَ عَلَى الْكُفْر وَلَوْ عَمِلَ مِنْ أَعْمَال الْبِرّ مَا عَمِلَ.

هَذَا مُخْتَصَر جَامِع لِمَذْهَبِ أَهْل الْحَقّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَة، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ أَدِلَّة الْكِتَاب وَالسُّنَّة وَإِجْمَاع مَنْ يُعْتَدّ بِهِ مِنْ الْأُمَّة عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَة، وَتَوَاتَرَتْ بِذَلِكَ نُصُوص تُحَصِّل الْعِلْم الْقَطْعِيّ. (٢)

---

(١) شرح صحيح مسلم (١/ ٣٧٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (١/ ٢٥٦: ٢٥٥).

وقال الطحاوي: وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ في النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله عَارِفِينَ. وَهُمْ في مَشِيئَتِه وَحُكْمِه، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِه، كَمَا ذَكَرَ ﷻ في كِتَابِه: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء٤٨)، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ في النَّارِ بِعَدْلِه، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِه وَشَفَاعَة الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِه، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلى جَنَّتِه، وَذَلِكَ بِأَنَّ الله تعالى مَوَلَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِه، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ في الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نَكَرَتِه، الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِه، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وِلَايَتِه. [١]

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ومن لقي الله بذنب يجب له به النار تائبا غير مصر عليه؛ فإن الله ﷻ يتوب عليه، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ومن لقيه وقد أقيم عليه حد ذلك الذنب في الدنيا؛ فهو كفارته، كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ، ومن لقيه مصرًا غير تائب من الذنوب التي قد استوجب بها العقوبة؛ فأمره إلى الله ﷻ، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له ومن لقيه كافرًا؛ عذبه ولم يغفر له. [٢]

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٥٢٤).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ١٨٢) للالكائي، وهو معتقد علي بن المديني أيضًا.

٢- شبهة: حول تبشير إبراهيم عليه السلام.

نص الشبهة:

قال تعالى في سورة الحج ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الحجر: ٥٣)، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ (هود: ٧١).

قالوا هذا اضطراب في القرآن:

١. الأولى بشروا إبراهيم، والثانية بشروا زوجته.

٢. فهم أن البشارة في الآية: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ (هود: ٧٤) هي: إهلاك قوم لوط، وقالوا: ولكننا نعلم أن الأنباء بإهلاك (سدوم) هي بخلاف البشارة بميلاد إسحاق.

والجواب عن هذا من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن هذا ليس بتعارض، فالولد لهما جميعًا فبشروه أولًا، ثم بشروها.

الوجه الثاني: بيان الحكمة في تخصيص سارة بالبشارة.

الوجه الثالث: في بيان معنى البشرى، وأن المراد بها البشرى بإسحاق.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: أن هذا ليس بتعارض.

إذ إن الولد لإبراهيم عليه السلام ولزوجته، فالبشرى لهما أو لأحدهما بشرى للجميع، فبشروه أولًا، ثم بشروها ثانيًا، فالأصل هي البشرى لإبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ (الحجر ٥٣: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات: ١١٢)، وقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات ٢٨: ٢٩).

ثم كانت البشرى لزوجته، قال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١ ﴾ (هود: ٧١).

وفي هذه الآيات- من سورة هود- يتضح الأمر أن البشرى له، ثم لها أيضًا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ۝٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١ ﴾ (هود ٦٩: ٧١).

الوجه الثاني: الحكمة في تخصيص سارة بالبشرى.

وفي تعيين سارة -زوجة إبراهيم عليه السلام- بالبشرى أسباب، منها:

١-إيذان بأن ما بشر به يكون منها، إذ إن إبراهيم عليه السلام له زوجة أخرى. (١)

٢-لكونها عقيم، وحريصة على الولد، وقد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته. (٢)

٣- لعظم فرحها بالولد ولربما زاد على فرح الزوج في هذه الحالة . (٣)

٤-مكافأة لها على خدمتها. (٤)

الوجه الثالث: في بيان معنى البشرى.

القول الأول: البشرى(إسحاق):

قال الطبري: فلما ذهب عن إبراهيم الخوفُ الذي أوجسه في نفسه من رسلنا، حين رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، وأمن أن يكون قُصِد في نفسه وأهله بسوء ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ بإسحاق، ظلّ ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل:

عن قتادة: قوله ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ ﴾ يقول: ذهب عنه الخوف ﴿ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ بإسحاق(٥).

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ١٤٩)، فتح القدير (٢/ ٧١٣).

(٢) روح المعاني (١٢/ ٩٩)، تفسير أبي السعود (٤/ ٣٢٥)، فتح البيان (٦/ ٢١٣).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٤٣).

(٤) النكت والعيون (٢/ ٧٣: ٧٤).

(٥) جامع البيان (١٢/ ٧٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٠٣٥)، ورجاله ثقات.

وعن ابن إسحاق: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق، ويعقوب ولد من صلب إسحاق، وأمن مما كان يخاف، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾[1].

القول الثاني: البشرى إهلاك قوم لوط.

وقد ذكره الطبري في تفسيره، وصدره بقوله: قيل، وممن قال به قتادة ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ قال: حين أخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، وأنهم ليسوا إياه يريدون.[2]

قلت: وكأن الصحيح عن قتادة أن المراد بالبشرى إسحاق، بدليل أن معمر قال: وقال آخرون بشر بإسحاق.[3]

القول الثالث: البشرى نبوته.

عن عكرمة -يعني قوله ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ قال: بشر بنبوته[4].

وهذا القول مردود لأسباب:

أولًا: ضعف الخبر.

ثانيًا: أن نبوة إبراهيم عليه السلام كانت قبل ذلك بكثير.

القول الرابع: أنهم بشروه بإخراج محمد ﷺ من صلبه، وأنه خاتم الأنبياء.[5]

ورد هذا القول: بأن البشرى جاءت مصرحة في بعض الآيات، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الذريات: ٢٨)، وقال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الحجر: ٥٣).

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٧٧)، وإسناده ضعيف.

(٢) جامع البيان (١٢/ ٧٧)، ابن أبي حاتم (١١٠٣٦)، وعبد الرزاق في تفسيره (١٢١٩)، إسناده صحيح، والطبري، وابن أبي حاتم، من طريق محمد بن عبد الأعلى، ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة. . ، وأخرجه عبد الرزاق عن معمر به، ومحمد بن عبد الأعلى: ثقة- التقريب (٢/ ٥٣٣)، ومحمد بن ثور: ثقة. التقريب (٢/ ٥١٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٢٢٠)، جامع البيان (١٢/ ٧٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٣) حديث (١١٠٠٥).

(٥) النكت والعيون (٢/ ٤٨٢)، زاد المسير (٤/ ١٢٧).

قلت: الراجح أن البشرى كانت بإسحاق عليه السلام، وذلك للآتي:

أولًا: صحة الدليل عليه.

ثانيًا: سياق القصة يدل عليه.

ثالثًا: أن البشرى قد حصلت قبل أن يخبروه بأنهم أُرسلوا إلى قوم لوط ولو كانت البشرى هي إهلاك قوم لوط فلماذا سألهم عن حالهم وماذا يريدون لقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ ﴾ (الحجر: ٥٧).

رابعًا: لو كانت البشرى بإهلاك قوم لوط؛ فلماذا كان يجادل الملائكة في أمرهم بعد ذلك؟

وهذا بعض كلام أهل العلم في معني البشري:

قال الشنقيطي: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (هود: ٦٩)، لم يبين هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها الرسل - الملائكة - إبراهيم، ولكنه أشار بعد هذا إلى أنها البشارة بإسحاق ويعقوب في قوله: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود: ٧١)؛ لأن البشارة بالذرية الطيبة شاملة للأم والأب، كما يدل لذلك قوله: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الصافات: ١١٢)، وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٨)، وقوله: ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ (الحجر: ٥٣).

وقيل: البشرى هي إخبارهم له بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط، وعليه فالآيات المبينة لها: كقوله هنا في هذه السورة: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (هود: ٧٠)، وقوله: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ (الحجر: ٥٨، ٥٩)، وقوله: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ ﴾ (الذاريات ٣٢، ٣٣)، وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣١).

والظاهر القول الأول، وهذه الآية الأخيرة تدل عليه؛ لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى؛ لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي(لما)كما ترى. [1]

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٥، ٢٦).

قال الشوكاني: والبشرى التي بشروه بها هي بشارته بالولد، وقيل بإهلاك قوم لوط، والأول أولى. (١)

قال ابن عطية: وهذه الآية تقضي باشتراكهم في البشارة بإسحاق، وقالت فرقة- وهي الأكثر-: ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي بإسحاق، وقالت فرقة: ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي بإهلاك قوم لوط. (٢)

قال السعدي: ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق. (٣)

* * *

(١) فتح القدير (٢/ ٧١١)، فتح البيان (٦/ ٢١٠).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٨٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٥).

سورة النحل

شبهة: الإكراه على الكفر.

نص الشبهة:

يقولون: جاء في سورة النحل قول الله تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقد نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه؛ وذلك لأن المشركين أخذوه وأباه وأمه وغيرهم فعذبوهم وقتلوا أباه وأمه، وأما عمار فوافقهم وكفر بمحمد وقلبه كاره، فأتى عمارُ محمدًا ﷺ وهو يبكي، فقال له محمد: كيف وجدت قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، فجعل النبي يمسح عينيه وقال: "إن عادوا فعد لهم بما قلت"، يعني: يجوز الكفر باللسان إذا كان في القلب الإيمان؟

وهذا تعليم فاسد، فهل يرضى الله بالشرك به باللسان؟ وهل من الأمانة أن يُزَوِّرَ الإنسانُ في عقيدته وينكر إلهه في سبيل إرضاء الناس؟

قال المسيح: لاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ، وَبَعْدَ ذلِكَ لَيْسَ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ أَكْثَرَ. بَلْ أُرِيكُمْ مِمَّنْ تَخَافُونَ: خَافُوا مِنَ الَّذِي بَعْدَمَا يَقْتُلُ، لَهُ سُلْطَانٌ أَنْ يُلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ. . . وَمَنْ أَنْكَرَنِي قُدَّامَ النَّاسِ، يُنْكَرُ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللهِ. (متى ١٠/ ٢٨، ٣٣).

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: معنى الآية وسبب النزول.

الوجه الثاني: التفصيل في مسألة الإكراه على الكفر.

الوجه الثالث: الحكمة من جواز التلفظ بكلمة الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان.

الوجه الرابع: بيان الكفر البواح في الكتاب المقدس خاصةً مع الأنبياء.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى الآية وسبب نزولها.

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غَضب عليه؛ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهدِ الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئًا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئًا، فهم غافلون عما يراد بهم، ﴿ لا جَرَمَ ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة. وأما قوله: ﴿ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مُكْرَهًا لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.[1]

وقد نقل أهل التفسير أن الآية نزلت في عمار بن ياسر؛ قال ابن عباس: وذلك أن المشركين أصابوا عمار بن ياسر فعذّبوه، ثم تركوه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فحدّثه بالذي لقي من قريش والذي قال: فأنزل الله تعالى عذره: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وعن قتادة قال: ذُكِر لنا أنها نزلت في عمار بن ياسر، أخذه بنو المغيرة فغطوه في بئر ميمون وقالوا: اكفر بمحمد، فتابعهم على ذلك وقلبه كاره، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي: من أتى الكفر على اختيار واستحباب ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر؛ قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذّبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئنًا بالإيمان، قال النبيّ ﷺ: «فإنْ عادُوا فَعُدْ»[2].

الوجه الثاني: التفصيل في مسألة الإكراه.

١ـ جواز التلفظ بكلمة الكفر.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٥٧).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٣٠٤).

أجمع أهل العلم على أن من أُكره على الكفر حتى خَشِيَ على نفسه القتل أنه لا يأثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تَبِينُ منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر(١).

٢ـ شروط الإكراه أربعة:

الأول: أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به والمأمور عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار.

الثاني: أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

الثالث: أن يكون ما هدده به فوريًا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا لا يعد مكرهًا، ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًّا أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

الرابع: أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره كمن أكره على الزنا فأولج وأمكنه أن ينزع ويقول: أنزلت فيتمادى حتى ينزل، وكمن قيل له: طلق ثلاثًا فطلق واحدة، وكذا عكسه، ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور(٢).

٣ـ استعمال المعاريض.

قال المحققون من العلماء: إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، ومتى لم يكن كذلك كان كافرًا لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها مثاله: أن يقال له: اكفر بالله، فيقول: باللاهي، فيزيد الياء، وكذلك إذا قيل له: اكفر بالنبي، فيقول: هو كافر بالنبي – مشددًا- وهو المكان المرتفع من الأرض، ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة؛ فيقصد أحدهما بقلبه ويبرأ من الكفر، ويبرأ من إثمه، فإن قيل له: اكفر بالنبيء مهموزًا فيقول: هو كافر بالنبيء؛ يريد بالمخبر أيَّ مخبرٍ كان كطليحة ومسيلمة الكذاب، أو يريد به النبيء الذي قال فيه الشاعر:

فأصبح رتما دقاق الحصى مكان النبيء من الكاث(٣)

الصبر على العذاب أفضل من التلفظ بالكفر.

أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر وإن اختار القتل فهو أعظم أجرًا عند

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٦٠)، المغني لابن قدامة (١٠/ ٩٧)، وفتح الباري (١٦/ ٧٨).

(٢) فتح الباري (١٦/ ٧٨).

(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ١٦٠)، تفسير الرازي (٢٠/ ٩٧).

الله ممن اختار الرخصة ويدل عليه وجوه:

أحدها: أنا روينا أن بلالًا صبر على ذلك العذاب، وكان يقول: أحد أحد، ولم يقل رسول الله ﷺ: بئس ما صنعت بل عظمه عليه، فدل ذلك على أنه لا يجب التكلم بكلمة الكفر.

وثانيها: ما رُوي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟

فقال: رسول الله، فقال: ما تقول في؟ قال: أنت أيضًا، فخلاه وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: ما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثًا، فأعاد جوابه فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق، فهنيئًا له» وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين: الأول: أنه سمى التلفظ بكلمة الكفر رخصة. والثاني: أنه عظم حال من أمسك عنه حتى قتل. وثالثها: أن بذل النفس في تقرير الحق أشق؛ فوجب أن يكون أكثر ثوابًا لقوله ﷺ: «أفضل العبادات أحمزها» أي: أشقها. ورابعها: أن الذي أمسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر، أما الذي تلفظ بها فهب أن قلبه طاهر عنه إلا أن لسانه الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة؛ فوجب أن يكون حال الأول أفضل، والله أعلم[1].

واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له.

فقال أصحابُ مالكٍ الأخذَ بالشدة في ذلك، واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة. روى خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلت: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» فوصفه ﷺ هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم والصبر على المكروه في ذات الله، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتبطنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن

(١) تفسير الرازي (٢٠/ ٩٨).

أنفسهم وهذه حجة من آثر الضرب والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان(١).

٤ـ حد الإكراه: يجب ههنا بيان الإكراه الذي عنده يجوز التلفظ بكلمة الكفر؛ وهو أن يعذبه بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل، ومثل الضرب الشديد والإيلامات القوية. قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وبلال، وعمار، وسمية. أما الرسول ﷺ فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأُخذ الآخرون وأُلبسوا دروع الحديد، ثم أُجلسوا في الشمس فبلغ منهم الجهد بِحَرِّ الحديد والشمس، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية، ثم طعن الحربة في فرجها. وقال الآخرون: ما نالوا منهم غير بلال؛ فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول: أحد أحد، حتى ملوا، فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلًا من ليف ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه فتركوه. قال عمار: كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال، فهانت عليه نفسه فتركوه.

قال خباب: لقد أوقدوا لي نارًا ما أطفأها إلا ودك ظهري(٢).

الوجه الثالث: الحكمة من جواز التلفظ بالكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان.

يقول المعترض: إن هذا تعليم فاسد، وهل يرضى الله أن يشرك به باللسان، وكيف يزور الإنسان في عقيدته من أجل إرضاء الناس؟

وللإجابة عن ذلك نقول وبالله تعالى التوفيق والسداد:

وإنما أجاز الإسلام هذا الأمر من باب دفع الضرر عن أبنائه، والمحافظة عليهم، والإبقاء على حياتهم، وليس معناه أن من فعله أو أخذ بالرخصة أنه قد كره الإسلام أو أنكر الحق الذي يعتقده، وإنما هذا من باب ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وليست العبرة فقط بما يقوله اللسان، فكم من منافق كان على عهد النبي ﷺ يعلن الشهادتين بل ويصلي مع النبي ﷺ في المسجد وهو من ألد أعداء هذا الدين، حيث كان يبطن في قلبه الكفر والبغض للإسلام ونبي الإسلام، وكان النبي ﷺ يقبل منهم ظاهرهم ويكل باطنهم إلى الله تعالى، ومن سمات الإسلام الواضحة والظاهرة لكل ذي عينين أنه

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٦٠).

(٢) تفسير الرازي (٢٠/ ٩٩).

دين الرحمة والوسطية وليس دين التشدد والغلو، فأباح لأبنائه التلفظ بكلمة الكفر عند تعرضهم للإكراه عليها، والله عليم ببواطنهم وما تنطوي عليه نفوسهم.

الوجه الرابع: بيان الكفر البواح في الكتاب المقدس خاصةً مع الأنبياء.

وهذا الذي نقل عن المسيح ﷺ إن كان قد صح عنه فهو من الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة والتي وضعها الله عنا كما في أواخر سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

أي: لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم التي بعثتَ نبيَك محمدًا ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيف السهل السمح. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "قال الله: نعم"[(١)].

ولم يرد أبدًا لا في القرآن ولا في الحديث الشريف ولو كلمة واحدة تمس نبيًا أو رسولًا من رسل الله بما يسيء إليه أو ينتقص من حقه، فلم يقل القرآن أبدًا عن نبي أو رسول أنه زنا مع بناته، أو أنه لص، أو أنه كفر وسجد لغير الله؛ حاش لله أن يكون أنبياء الله بهذا الوصف وهذا القبح الذي يصف به كتاب النصارى رسل الله وأنبياءه وهم مبرؤن منه.

فمن ذلك: سليمان كفر وهو ابن زنا كما يزعمون:

فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠ وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١ فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ (الملوك الأول ١١/ ١١: ٩).

وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ (الأيام (٢)/ ٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٥).

بولس يُكفِّرُ النصارى: وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ وَأَبْدَلُوا مَجْدَ الله الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ. ٢٤لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ الله أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِم. ٢٥الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ الله بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ (رومية ١/ ٢١-٢٥).

ويُعلم الردة: وَقَدْ أُخْبِرُوا عَنْكَ أَنَّكَ تُعَلِّمُ جَمِيعَ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَيْنَ الأُمَمِ الارْتِدَادَ عَنْ مُوسَى، قَائِلًا أَنْ لاَ يَخْتِنُوا أَوْلاَدَهُمْ وَلاَ يَسْلُكُوا حَسَبَ الْعَوَائِدِ (أعمال الرسل ٢١: ٢١).

* * *

سورة الكهف

وفيها:

١- شبهة: ادعاؤهم أن قصة أهل الكهف من الخرافات.

٢- شبهة: مغيب الشمس في بئر.

١ـ شبهة: ادعاؤهم أن قصة أهل الكهف من الخرافات.

نص الشبهة:

قالوا: في سورة الكهف (٩: ١٠) ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾.

كيف يكون هذا الكلام وحيًا من عند الله؟ ، والقاصي والداني يعلم أن قصة أهل الكهف قصة خرافية اخترعها المسيحيون أثناء الاضطهاد لكي يشجعوا المؤمنين؟

والرد عليه من وجوه:

الوجه الأول: من فوائد القصص في القرآن.

الوجه الثاني: معرفة اليهود بهذه القصة.

الوجه الثالث: عدم حجية الكتاب المقدس.

الوجه الرابع: شهادة علم التاريخ و الآثار على وقوع هذه القصة.

الوجه الخامس: العثور على قرائن ومعالم للكهف.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: من فوائد القصص في القرآن.

عرف علماؤنا القرآن الكريم بأنه: كلام الله المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه، المعجز بتلاوته، والمنقول إلينا بالتواتر.

وهذا التعريف له دلالته في وصف القرآن الكريم، فكل ما ورد فيه من قصص وأخبار وأحكام وعقائد وغيرها قاله الله سبحانه يقينًا وأوحي به على قلب محمد ﷺ.

والقصة القرآنية كما هو معروف تمتاز بالصدق، والواقعية والدعوة للتوحيد والهدايات الربانية، وقد جاء ذكر كثير من هذا القصص بشكل أو بآخر في الكتب القديمة ولم يستطع علم التاريخ الحديث أن يبطل واحدة من هذه القصص بإقامة أدلة على عكس ما ذكره القرآن الكريم، بل قد عجز عن التوصل إلى معرفة خفايا كثير منها.

الوجه الثاني: معرفة اليهود بهذه القصة.

هذه القصة كانت معروفة عند اليهود في عهد رسول الله ﷺ، حيث أوعزوا لنفر من

قريش منهم النصر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْط، وغيرهما أن يسألوا محمدًا ﷺ عن ثلاثة أمور لا يعلمها إلا نبي مرسل:

عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور وأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد: أخبرنا فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أخبركم عما سألتم عنه غدًا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله تعالى إليه في ذلك وحيًا ولا يأتيه جبريل ﷺ حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدًا واليوم خمس عشرة ليلة وقد أصبحنا فيها لا ينجزنا بشيء مما سألناه عنه حتى حزن رسول الله ﷺ ومكث الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ثم جاء جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبة إياه على حزنه، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف. يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾[1].

فلو كانت هذه قصة غير صحيحة لما اقترحها يهود، ولاعترضوا عليها عندما سمعوها منه، ولأظهروا بطلانها، فعندما سمعوها ولم يعترضوا عليها دل ذلك على صدقها، وبطلان زعم هؤلاء أنها قصة خرافية.

الوجه الثالث: عدم حجية الكتاب المقدس.

أما حجتهم بعدم ذكرها في الكتاب المقدس فليس بدليل لهم؛ لأن هذا الكتاب دخله الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل وما فيه من اضطراب يزعزع الثقة فيه كما هو حال رسائل بولس مع الأناجيل الأربعة، ومع سبق ذكره من الأدلة علي ذلك.

ومسألة تحريف الكتاب الذي بين أيدي النصارى الآن تكاد تكون متواترة.

---

(١) سيرة ابن إسحاق (١/ ١٧٨)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٥٢).

ولقد اعترف بعض النصارى بهذا التحريف، وألقاه على عاتق اليهود ومن هؤلاء (مرقيون)، وهو هرطوقي في نظر الكنيسة، عاش في القرن الثاني الميلادي مقتنعًا بأن اليهود قد حرفوا إنجيل المسيح الأصلي، ولذلك كان لا يعترف بأناجيل متى ومرقس ويوحنا.

وهذا يدل على أن ما ورد في الأناجيل ليس بحجة، وعدم وجود شيء فيها لا يدل على عدم وجوده ولا على عدم حدوثه.

وتكرار القصة في ديانتين أو أكثر فذلك لوحدة المصدر ولأن القصص في الديانات السماوية يتكرر ذكره لمصلحة الناس آنذاك وتأييدًا لنبي تلك الفترة، وإذا كان هؤلاء صادقين فيما يذكرونه فليثبتوا عكس ما أثبته القرآن الكريم. (١)

الوجه الرابع: شهادة علم التاريخ و الآثار على وقوع هذه القصة.

ذكرت المصادر النصرانية هذه القصة وأنها موجودة في كتب معتمدة.

قال الأستاذ محمد تيسير ظبيان/ في كتابه (أهل الكهف): لدى مراجعة المصادر المسيحية القديمة والحديثة تبين أن أول من كتب قصة أصحاب الكهف بالسريانية هو (جيمس الساورغي)، وكان كاهنًا لمقاطعة (ساروغ) في العراق، وقد ولد سنة (٤٥٢م) ومات سنة (٥١٨ م) أي بعد وفاة الإمبراطور (أثيودوسيس الثاني) المعروف بالأصغر.

وقد نقلت عنه القصة إلى اللغة اللاتينية بعناية (غريغوري) حوالي القرن السادس الميلادي كما تشير إلى ذلك موسوعة (chamfeus of tours).

ويقول الأستاذ/ رفيق الدجاني عالم الآثار الأردني، والذي كان له اليد الطولى في حفريات الكهف، أنه (أي الساروغي) عاصر الإمبراطور (جستينوس الأول) الذي حكم من سنة (٥١٨م) إلى (٥٢٧م) وفي زمانه بنيت الصومعة فوق الكهف، كما ثبت ذلك بالمكتشفات الأثرية التي عثر عليها كنقوده التي وجدت عند قواعد البنيان.

وقد نقلت هذه القصة من السريانية إلى اليونانية واللاتينية والحبشية والهندية والفارسية، ثم إلى العربية وإليها استند المفسرون والمؤرخون المسلمون في سرد تفاصيل هذه القصة.

* وجاء في دائرة المعارف للأخلاق والديانات تعقيبًا على هذه القصة: إن قصة النائمين السبعة

(١) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ـ د/ عمر بن إبراهيم رضوان (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

من أكبر القصص التي تروي عن القديسين من حيث المتعة العقلية، والذيوع في الآفاق، ومما يذكر أن ذكرى هؤلاء الفتية حفظت في اجتماعات العشاء الرباني في الشرق المسيحي.

وقال (رفيق الجاني): وأخبرني أحد رجال الكهنوت في عمان أن لديهم صلاة خاصة تحمل اسم (الرقيم) نسبة إلى جبل الرقيم الذي يوجد في الكهف. (١)

ويقول محمد رضا صاحب كتاب (محمد رسول الله ﷺ) نقلًا عن الدكتور (ولفنسون الإسرائيلي) مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية ودار العلوم فقال في رسالته (تاريخ اليهود في بلاد العرب) ما يأتي: وينفي بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن إليه، والحق أن من العسر إنكار الرواية تاريخيًا كانت سببًا في نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذي القرنين، وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل(٢) أن تكون واقعية وهي أن في التلمود قصة مشهورة تشبهه قصة أهل الكهف، أخذ أحبار اليهود الأسئلة التي وجهوها للرسول بواسطة وفد بني قريش، ويؤيد هذه القصة ما ذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود، إذ لو وجد منهم في مكة ما أوفد قريش وفدهم إلى المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن شأن النبي ﷺ، وإذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم. (٣)

الوجه الخامس: العثور على قرائن ومعالم للكهف.

ومما يدحض الاتهامات والأباطيل اكتشاف معالم الكهف، والعثور على قرائن وأدلة وبيانات تاريخية وأثرية تؤيد ما ورد في القرآن الكريم أعظم اكتشاف تاريخي وأثري في القرن العشرين، حيث أظهرت المعجزة القرآنية الكبرى بإخبار عن غيب ينكره هؤلاء، والأدلة والشواهد على حصول هذه القصة كثيرة، وهو أمر يتجاهله الكثير من النصارى اليوم. (٤)

*　　*　　*

(١) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ـ د/ عمر بن إبراهيم رضوان (١/ ٢٩٣-٢٩٤) نقلًا عن كتاب (أهل الكهف) لمؤلفه: محمد تيسير ظبيان.

(٢) قوله من المحتمل تعبير ضعيف، بل هي واقعية ليس في ذلك أدنى شك.

(٣) محمد رسول الله لمحمد رضا (١٢١).

(٤) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره (١/ ٢٩٥).

٢ـ شبهة: مغيب الشمس في بئر.

نص الشبهة:

قالوا: جاء في سورة الكهف (٨٣-٨٦) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾.

والسؤال: إذا كانت الشمس أكبر من الأرض مليونًا وثلاثين ألف مرة، فكيف تغرب في بئر رآها ذو القرنين ورأى ماءها وطينها ورأى الناس؟.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا﴾.

الوجه الثاني: معنى حرف الجر (في).

الوجه الثالث: تعدد معاني (في) في الكتاب المقدس.

الوجه الرابع: معنى (عين).

الوجه الخامس: تحريفهم لما نقلوه عن البيضاوي.

الوجه السادس: معاني الآية الكريمة.

الوجه السابع: آيات سورة (يس) تزيل الإشكال.

الوجه الثامن: وماذا عن الكتاب المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا﴾.

معنى ﴿وَجَدَهَا﴾: يحكي القرآن الكريم نبأ ﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

ونريد الآن أن نفهم معنى الفعل الماضي ﴿وَجَدَهَا﴾ ونستطيع أن ندرك معنى هذا الفعل عن طريق هذا السؤال لما يسأل الواحد منا عن صحته فيقال له: كيف تجدك اليوم؟ أي: كيف حالك؟ ، فيجيب قائلًا: أجدني بخير وعافية، وقد يكون هذا القائل

مريضًا لكنه لا يدري، لأن أعراض المرض ليست من الوضوح، أو لأنه في اندماجه في حياته اليومية بحيث لا ينتبه لحالته الصحية الحقيقية.

وبالمثل قد يقول الواحد منا (صادقًا فيما يظن) إنه وجد فلانًا يضرب ابنه عند البيت، بينما الحقيقة أنه كان يداعبه، أو كان يضرب ابن الجيران مثلًا لكن المتكلم توهم الأمر على ما قال.

وقديمًا قال المتنبي الشاعر:

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرًا به الماء الزلالا

فهذا يعني أن الإنسان قد يجد الشيء على وضع ولا يعني هذا أنه على هذا الوضع في الحقيقة والواقع.

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ (الكهف: ٧٧).

وليس هناك في الدنيا جدار يريد لأنه من الجمادات، وأيضًا فإن المفسرين قد قالوا إن الآية لو قالت: إن الشمس كانت تغرب في العين فعلًا لكان ثم سبيلًا لانتقادها، أما قولها إن ﴿ذا القرنين﴾ وجدها تغرب في العين فمعناه: أن ذلك هو إدراكه للأمر لا حقيقته الخارجية.

ولقد صرح البيضاوي بذلك حيث قال: ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء، ولذا قال: وجدها تغرب، ولم يقل: كانت تغرب[1].

وهذا الذي صرح به المفسرون هو الصواب، وفي الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى شيء مثل ذلك ومنه هذان الشاهدان:

١-(وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب) (تكوين ٦: ٨)

٢-(فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية. على العين التي في طريق شور) (تكوين ١٦: ٧)، فالنعمة لا تجد في عين الرب على سبيل الحقيقة، كما أن المرأة التي وجدها ملاك الرب لم تكن على العين بل- عند العين-: أي أن الحقيقة الخارجية في كلا الشاهدين لم تكن على حرفية ما جاء في العبارتين.

٣-وعلى ضوء ما سبق يمكننا أن نقرأ الشواهد الشعرية التالية:

---

(١) تفسير البيضاوي (٤١١).

قال الأسعر الجعض:

إني وجدت الخيل عزًا ظاهرًا تنجي من الغمى ويكشفن الدجى

وقال مالك بن عمرو:

متى تفخر بزرعه أو بحجر تجد فخرًا يطير به السناء

وقال الحصين بن حمام الفزاري:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

ذلك أن وجدانك الشيء على وضع من الأوضاع، إنما يعني إدراكك له على هذا الوضع رؤية أو سماعًا أو شمًا أو لمسًا أو شعورًا باطنيًا أو استدلالا عقليًا كما في العبارات الآتية: (نظرت فوجدته قائمًا) أو (حينما اقتربت من الحجرة وجدته يقرأ) أو (قربت الزهرة من نفى فوجدتها مسكية العبير) أو (احتكت يدي بالحائط فوجدته خشن الملمس) أو (وجدت وقع إهانته عليَّ عنيفًا) أو (أعاد العلماء النظر في هيئة الأرض فوجدوها أقرب إلى شكل الكرة) ثم سواء عليك بعد هذا أكان هو فعلًا في الواقع والحقيقة كذلك أم لا.

٤-وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نقرأ قول الزبيدي صاحب (تاج العروس):

وقال المصنف في البصائر نقلًا عن أبي القاسم الأصبهاني:

الوجود أضرُب: **وجود** بإحدى الحواس الخمس، نحو: وجدت زيدًا ووجدت طعمه ورائحته وصوته وخشونته، **ووجود** بقوة الشهوة: وجدت الشبع، **ووجود** أيده الغضب نحو: وجود الحرب والسخط، **ووجود** بالعقل أو بوساطة العقل: كمعرفة الله تعالى ومعرفة النبوة، وما نسب إلى الله تعالى من الوجود فبمعنى العلم المجرد، إذ كان الله تعالى منزهًا عن الوصف بالجوارح والآلات، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾. وكذا المعدوم يقال على ضد هذه الأوجه، ويعبر عن التمكن من الشيء بالوجود، نحو قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي حيث رأيتموهم، وقوله تعالى ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، وقوله ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ وقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ ووجود بالبصيرة، وكذا قوله

﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ وقوله ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ أي إن لم تقدروا على الماء. [1]

الوجه الثاني: معنى حرف الجر (في).

حروف الجر ينوب بعضها عن بعض:

فمن المعروف عند علماء اللغة أن هناك توسعًا في استعمال حروف الجر، بحيث يؤدي هذا الحرف معاني غيره من الحروف الأخرى، ولنأخذ مثالًا على ذلك، فحرف الجر الذي معنا في هذه الآية وهو (في) لنرى ماذا يقول النحاة في استعمالاته:

قال ابن هشام: (في) حرف جر، له عشرة معاني:

١- الظرفية: وهي إما مكانية أو زمانية وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ (الروم: ١-٤).

أو مجازية: نحو ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، ومن المكانية (أدخلت الخاتم في إصبعي، والقلنسوة في رأسي).

٢- المصاحبة، نحو قوله تعالى ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي معهم.

٣- التعليل، نحو قوله تعالى ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾ وقال ﷺ" إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها". أي بسبب.

٤- الاستعلاء، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾

٥- مرادفة الباء: كقول الشاعر:

ويركب يوم الروع منا فوارس   يصيرون في طعن الأباهر والكلى

والشاهد قوله: يصيرون في طعن، حيث جاءت (في) بمعنى الباء.

٦- مرادفة (إلى) نحو قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: مد الكفار أيديهم إلى أفواه الرسل ليمنعوهم من الدعوة إلى الهدى والنور.

---

(١) تاج العروس للزبيدي (١/ ٢٣١٩).

٧- مرادفة (من).

٨- المقايسة: وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٩-التعويض: وهي الزائدة عوضًا من (في) أخرى محذوفة، كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، والمقصود أن كلًا منهم يضع طرف إصبع واحدة من أصابعه عند فتحة الأذن، لا في داخلها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولم يجعل المولى الإنسان خليفة في الأرض، أي في باطنها بل على سطحها، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي تحاجوننا بشأن الله، وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: صواب نواحي السماء وليس في السماء فعلًا.

ونقرأ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ والإنسان لا ينفق ماله في الرقاب وإنما لعتق الرقاب، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي: مقابلة جريمة القتل وتعويضًا لأهل القتيل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ ومعلوم أنهم ليسوا في الأنهار، إنما تجري الأنهار من تحتهم.

١٠- التوكيد وهي الزائدة لغير التعويض[1].

الوجه الثالث: تعدد معاني (في) في الكتاب المقدس.

وكذلك في الكتاب المقدس أمثلة كثيرة على ما نقول، وهذه هي طبيعة اللغة، سواء في كتاب الله ﷻ أو في كلام أهل الكتاب أو في أي كلام آخر، وإليك بعض هذه الأمثلة:

(**كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الأَرْضِ**) (تكوين/ ٢: ٥).

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ٢٢٥) بتصرف.

(وَكَانَ قَايِنُ عَامِلًا فِي الأَرْضِ) (تكوين/ ٤: ٢)، (وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَي الرَّبِّ) (تكوين/ ٦: ٨)، (كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًّا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ) (تكوين/ ٦: ٩). (إِنْ كُنْتَ تُنْجِحُ طَرِيقِي الَّذِي أَنَا سَالِكٌ فِيهِ) (تكوين/ ٢٤: ٤٢)، (فَوَضَعْتُ الخِزَامَةَ فِي أَنْفِهَا) (تكوين/ ٢٤: ٧)، (فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عِيسُوَ لأَنَّ فِي فَمِهِ صَيْدًا) (تكوين/ ٢٥: ٢٨) (فَتَعَاظَمَ الرَّجُلُ وَكَانَ يَتَزَايَدُ فِي التَّعَاظُمِ) (تكوين ٢٦: ١٣)، (فَالآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي فِي مَا أَنَا آمُرُكَ بِهِ) (تكوين ٨: ٢٧)، (وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ) (تكوين ٢٨: ١٤)، (وَخَلَعَ فِرْعَوْنُ خَاتِمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ بُوصٍ، وَوَضَعَ طَوْقَ ذَهَبٍ فِي عُنُقِهِ) (تكوين ٤١: ٤٢)، (١٩فَتَقَدَّمُوا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي عَلَى بَيْتِ يُوسُفَ، وَكَلَّمُوهُ فِي بَابِ الْبَيْتِ) (تكوين ٤٣: ١٩).

وكغيرها كثير بالمئات إن لم تكن بالآلاف.

الوجه الرابع: معنى العين.

قال في لسان العرب (والعينُ: عين الماء، والعين التي يخرج منها الماء، والعين: ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري. . . ، وعين الركبة: مفجر مائها ومنبعها، وعين القبلة: حقيقتها، والعين: مطر أيام لا يقلع، قال الرعي:

وأناءُ حيٍ تحت عين مطيرةٍ عظام البيوت ينزلون الروابيا

يعني بحيث لا تخفى بيوتهم، يريدون أن تأتيهم الأضياف، والعين: الناحية، والعين: عين الركبة، ويعن الركبة: نقرة في مقدمها. . .). [1]

وغيرها كثير مما يدل على أن قول هؤلاء إن الشمس تغرب في بئر كلام غير صحيح لأن معنى كلمة العين تصدق على البحر والسحاب والمطر وغير ذلك.

الوجه الخامس: تحريفهم لما نقلوه عن البيضاوي.

إن ما نقله عن البيضاوي أنه قال: (إنها تغرب في بئر) فيه كذب وتدليس وقد سبق نقل قول البيضاوي في تفسيره للآية وها أنا ذا أعيد نقله ثانية ليتضح للقارئ كذب وتدليس هؤلاء.

قال البيضاوي: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ذات حمأ من حمأت البئر إذا صارت

(١) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٣١٩٧، ٣١٩٨).

ذات حمأ وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ﴿حَامِيَةٍ﴾ أي: حارة، ولا تنافي بينهما لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين على أن ياءها مقلوبة عن الهمزة لكسر ما قبلها ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء وكذلك وجدها تغرب ولم يقل كانت تغرب.

وقيل: إن ابن عباس سمع معاوية يقرأ ﴿حَامِيَةٍ﴾ فقال: ﴿حَمِئَةٍ﴾، فبعث معاوية إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب، قال: في ماء وطين كذلك نجده في التوراة[(١)].

الوجه السادس: معاني الآية الكريمة.

المعنى الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعًا في المغرب، ولم يبق بعده شيئ من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عينٍ وهي مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر. [(٢)]

إذن فالكلام هنا على الرؤية البصرية، ولا شك أن حديث العينين عن الأفلاك

والشمس والقمر قديمًا وحديثًا يختلف عن حديث الفكر والعلماء، ومن الغباء أو الخداع الخلط بينهما، وينقل بيان الله تعالى في القرآن حوارًا بين سيدنا إبراهيم والنمرود الذي كان يدعي الربوبية، كثيرًا ما وصف من قبل المتصنعين للنقد العلمي بأنه دليل على سذاجة واضعي القرآن وعدم إطلاعهم على بديهيات علم الفلك، والحقيقة أن نقدهم هو الدليل الواضح على سذاجتهم أو على تصنعهم لنقد علمي لا معنى له ولا وجود له.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

أي: فإن الذي تراه العينان من كل إنسان أن الشمس تقبل من جهة الشرق إلى الغرب، فالمتحدي ينبغي أن يطالبه بالعكس بأن يأتي بها من جهة الغرب في الصباح، وهذا الذي يجري

---

(١) تفسير البيضاوي (٤١١).

(٢) تفسير الرازي (٢١/ ١٦٦)، فتح الباري (٨/ ٤٠٣).

فيه الحوار مما تراه العين، لا علاقة له بما وراء ذلك مما يقرر ه العلم أو العقل، إذ لكل منهما مجاله، والخلط بينهما تفاهة لا يقرها العلم، ويشمئز منها الذوق، فأنت تقول لصاحبك: مهما كنت خبيرًا بعلم الفلك وعلاقة الشمس بالأرض هاهي الشمس بازغة تطلع، وهاهي ذي توشك أن تغيب، ولا تقول: هاهي ذي الأرض قد دنت من الشمس حتى بدت للعيان. (١)

المعنى الثاني: أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار، ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهي حامية وهي أيضًا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إشارة إلى أن الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة. (٢)

المعنى الثالث: ويجوز أن تكون هذه العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرفة الصفة مقام صاحبه والله أعلم. (٣)

المعنى الرابع: ويجوز أن يكون المعنى أن ذا القرنين هو كان في العين الحمئة، والحامية حمية من حماتها، حامية من استحرارها، كما تقول رأيتك في البحر تريد أنك إذ رأيته كنت أنت في البحر، وبرهان هذا: أن مغربها الشتوي إذا كانت من آخر رأس الجدي إلى آخر مغربها الصيفي إذا كانت من رأس السرطان مرئي مشاهد ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك، وهو يوازي من الأرض كلها بالبرهان الهندسي أقل من مقدار السدس، يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيف، وهذه المساحة لا يقع عليها في اللغة اسم عين البتة، لاسيما أن تكون عينًا حمية حامية، وباللغة العربية خوطبنا، فلما تيقنا بأنها عين بإخبار الله ﷻ الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، علمنا يقينًا أن ذا القرنين انتهى به السير في الجهة التي مشي فيها من المغارب إلى العين المذكورة، وانقطع له إمكان المشي بعدها لاعتراض البحار له هناك، وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا، ومن هذه صفته فلا يجوز أن يحيط

(١) لا يأتيه الباطل، لمحمد سعيد البوطي (ص٦٧، ص٦٩).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢١/ ١٦٧).

(٣) تفسير القرطبي (١١/ ٥٤) نقلًا عن القتبي.

بصره من الأرض كما يظن أهل الجهل، ولا بد أن يلقى خط بصره من حدبة الأرض أو من نشز من أنشازها ما يمنع الخط من التمادي، إلا أن يقول قائل إن تلك العين هي البحر فلا يجوز أن يسمى البحر في اللغة عينًا حمئة ولا حامية، وقد أخبر الله ﷻ أن الشمس تسبح في الفلك، وأنها إنما هي في الفلك سراج، وقول الله تعالى هو الصدق الذي لا يجوز أن يختلف أو يتناقض، فلو غابت في عين من الأرض كما يظن أهل الجهل أو في البحر لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك، وهذا هو الباطل المخالف لكلام الله ﷻ حقًا، نعوذ بالله من ذلك.[1] ولا سيما مع ما قام البرهان عليه أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض.

برهان آخر قاطع: وهو قول الله ﷻ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وقرئ ﴿حَامِيَةٍ﴾، ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس، ومن كان عند العين فهو في العين.[2]

الوجه السابع: آيات سورة (يس) تزيل الإشكال.

ولا شك أن هذا الذي يدندن حول هذه الشبهة الواهية في سورة الكهف، قد قرأ سورة يس بحثًا عن شبهات أخرى، ولا ريب أنه وجد منها هذه الآيات الكريمات:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس: ٣٧-٤٠)، فليته أصغى السمع على هذا الكلام الذي يتنزل من عند الله الكريم، عن الليل والنهار والشمس والقمر والنظام الذي بثه الله في كل منها، فلا ريب أنه تلقى من هذه الآيات الجواب الشافي عن شبهته، وإنه لجواب مقنع حقًا لكل منصف.

ولكن آفة هذا العصر أن فيه من يحترف البحث عن المشكلات فإن لم يجدها اختلقها، ويحترف الفرار من حلولها وأجوبتها، فإن ووجه بها تصامم عنها أو تغابى عن فهمها،

---

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١/ ٣٠٧) (قلت): وملخص هذا المعنى أن قوله ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ حال من صاحبها وهو ذو القرنين ويكون المعنى: وجدها تغرب حالة وجوده في العين الحمئة.

(٢) المصدر السابق.

فيقرأ في القرآن الآيات التي استشكلها ولم يعرج على الآيات التي تجيب عنها.(١)

الوجه الثامن: وماذا عن الكتاب المقدس.

ففي الكتاب المقدس عبارات كثيرة من نوع الآية القرآنية التي بين أيدينا، فنراه قد أوغل في مضمار الاستخدامات المجازية، ومن الشواهد على هذا الكلام:

أَمَا هُمَا فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ، وَرَاءَ طَرِيقِ غُرُوبِ الشَّمْسِ فِي أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي الْعَرَبَةِ، مُقَابِلَ الْجِلْجَالِ، بِجَانِبِ بَلُّوطَاتِ مُورَةَ؟ (قضاة٥: ٣١).

هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: **هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ** (صموئيل: ٢/ ١٢: ١١) (**قُدَّامَ الشَّمْسِ يَمْتَدُّ اسْمُهُ**) (مزامير ٧٢: ١٧)، (**ثُمَّ رَجَعْتُ وَرَأَيْتُ كُلَّ الْمَظَالِمِ الَّتِي تُجْرَى تَحْتَ الشَّمْسِ**) (الجامعة ٤/ ١)، (**وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ الله، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا**) (تكوين ٦: ١١)، (**وَأُدْخِلُكُمْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي أَنْ أُعْطِيَهَا لإِبْرَاهِيمَ**) (خروج ٦: ٨)، (**دَوْرٌ يَمْضِي وَدَوْرٌ يَجِيءُ، وَالأَرْضُ قَائِمَةٌ إِلَى الأَبَدِ**) (جامعة ١: ٤).

ومن الواضح أن هذا كله على خلاف الواقع وينبغي ألا يأخذه القارئ مأخذًا حرفيًا، إلا لم يكن للكلام معنى، فمثلًا ليس هناك للشمس **تحت** ولا فوق، وإنما هو تعبير بشري، فنحن أينما كنا على الأرض نتصور أن الشمس فوقنا، ومن ثم فنحن تحتها، على حين أنه لو كان الأمر كذلك لكان ينبغي إذن أن نكون فوق الشمس بعد ستة أشهر من ذلك حين تدور الأرض نصف دورتها السنوية، وهذا لا يصير، كذلك فليس للشمس عين ولا أذن ولا أنف أصلًا حتى نكون أو لا نكون في عينها، كما أنها ليس لها طريق تسير فيه الأرض، ودعك من أننا يمكن أن نسير فيه نحن.

وبالنسبة لقول هابيل إنه هرب في الأرض فهو مجرد تعبير بشري، وإلا فقولنا: في الأرض، إنما يعني حرفيًا داخل الأرض وهو ما لا يقصده قابيل ولا أي إنسان آخر في مثل موضعه، وهكذا.

* * *

(١) (لا يأتيه الباطل) لمحمد سعيد البوطي (٧١).

سورة مريـــم

وفيها:

١- شبهة: زكريا عليه السلام يخشى من الموالي.

٢- شبهة: انتباذ مريم عليها السلام.

٣- شبهة: صيام مريم عليها السلام.

٤- شبهة: تكلم المسيح عليه السلام في المهد.

٥- شبهة: عن إسماعيل عليه السلام.

٦- شبهة: نزول جبريل عليه السلام.

١ـ شبهة: زكريا عليه السلام يخشى من الموالي.

نص الشبهة:

جاء في القرآن على لسان زكريا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ لماذا خاف زكريا من الموالي (عصبته وبني عمه)، هل لأنه صاحب مال فخشى توريث ماله لمواليه؟ مع أنه مكتوب في التوراة أنه كان وزوجته بارَّين ولم يخشيا أحدًا؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: العلة من سؤال زكريا ربه.

الوجه الثاني: سبب خوف زكريا.

الوجه الثالث: زهد الأنبياء.

الوجه الرابع: الأنبياء لا يورثون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: العلة من سؤال زكريا ربه.

إن زكريا عليه السلام خشي من الموالي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا، فسأل الله ولدًا يكون نبيًا من بعده، لِيُسَوِّسَهُمْ بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك[1].

إذن كان سبب خوف زكريا وخشيته سببًا دينيًا لا سببًا دنيويًا، وفي مثل هذا يُمدح الرجال ويعظمون.

الوجه الثاني: سبب خوف زكريا.

إذن سبب خشيته منهم دينيٌّ، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده أن يأنف من وراثة عصابته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونه دونهم.[2]

الوجه الثالث: زهد الأنبياء.

أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٢١٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٩/ ٢١٥).

مالًا؛ ولا سيما الأنبياء - عليهم السلام- فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا[١].

الوجه الرابع: الأنبياء لا يورثون.

قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: "لا نورث ما تركنا صدقة"، وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: "نحن معشر الأنبياء لا نورث" وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة؛ إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة"[٢].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٢١٦: ٢١٥)، وانظر تفسير القرطبي (١١/ ٨٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٢٣).

٢ـ شبهة: انتباذ مريم عليها السلام.

نص الشبهة:

قال المعترض: جاء في سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾﴾ (مريم٢٢: ١٦).

ولم يذكر القرآن لنا لماذا انتبذت مريم العذراء من أهلها مكانًا شرقيًا، واتخذت من دونهم حجابًا قبل أن تبشر بالمسيح، هل كانت في مشاجرة مع أهلها؛ وهم المشهورون بالتقوى؟

ولماذا تسكن فتاة عذراء بعيدًا عن أهلها، مع أن القرآن يقول: إنها كانت في المحراب في كفالة زكريا؟ ويقول الإنجيل: إن مريم كانت في الناصرة وهي مخطوبة ليوسف النجار (لوقا: ١/ ٢٧).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: من إعجاز القرآن الإجمال فيما لا فائدة من ذكره.

الوجه الثاني: ذكر الآراء في سبب الانتباذ.

الوجه الثالث: انتباذ مريم كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: من إعجاز القرآن الإجمال فيما لا فائدة من التفصيل فيه.

فمن إعجاز القرآن الكريم أنه يُجمل فيما لا فائدة من التفصيل فيه، وذلك كذكر أسماء إخوة يوسف، وعدة أصحاب الكهف، وغيرها من الآيات التي أجملت ما لا فائدة منه، وإنما المقصودُ أخذُ العظةِ والعبرةِ من القصة، فهو المقصود الأول من ذكر القصص في القرآن الكريم، كما قال تعالى في آخر سورة يوسف: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾، فهل المطلوب من القرآن الكريم أن يذكر كل شيء عن حياة الشخص الذي يتحدث عنه؟!

ربما لم يذكر القرآن سبب انتباذها لأنه لن يفيد شيئًا في سياق القصة، أو للاختصار، أو لأي سبب نحو ذلك، والبحث في ذلك ليس وراءه كبيرُ نفعٍ، أو تعلق الذكر بما نتج عن هذا الانتباذ، ومولد نبي الله عيسى عليه السلام.

الوجه الثاني: ذكر الآراء في سبب الانتباذ.

قد ذكر المفسرون أسبابًا عدة لانتباذ مريم عليها السلام، أسوق بعضها مع عدم الجزم بصحة واحد منها؛ إذ لم يرد فيها نص صحيح عن نبينا المعصوم ﷺ، وأيضًا هذا مما لم نُكلف بالبحث عنه.

السبب الأول: أنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة[1].

السبب الثاني: لحيض أصابها[2].

السبب الثالث: لتفلي رأسها[3].

وغيرها من الأقوال التي ليس عليها دليل صحيح يشجعنا لأن نجزم به دون غيره، وإنما نقول في مثل هذا: الله أعلم.

الوجه الثالث: انتباذ مريم كما في الكتاب المقدس.

وليس معنى انتباذ مريم أنها خرجت من بينهم بعد مشاجرة مع قومها، أو خصام معهم، وانظر إلى ما ورد في الإنجيل في معنى الانتباذ: " وَفِي ذلِكَ الْوَقْتِ وُلِدَ مُوسَى وَكَانَ جَمِيلًا جدًّا، فَرُبِّيَ هذَا ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ فِي بَيْتِ أَبِيهِ. ٢١ وَلَمَّا نُبِذَ، اتَّخَذَتْهُ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ وَرَبَّتْهُ لِنَفْسِهَا ابْنًا. " (أعمال الرسل ٧/ ٢١: ٢٠).

قوله: " ولما نبذ " لا يدل على أن أهله كرهوه، وإنما يدل على أنهم وضعوه في التابوت، وهم لوضعه كارهون. ومن ينتبذ عن قوم، لا يدل انتباذه عنهم على كره لهم، وإنما يدل

(١) التفسير الكبير للرازي (٢١/ ١٩٦)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٩/ ٢٢٥)، وزاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢١٦).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٢١٦).

على ابتعاده عنهم لسبب أو لأسباب أو لطلب العزلة فقط، وإذا صح وثبت أن ابتعادها كان لعبادة الله؟ يثبت أنها لم تنبذ لمشاجرة[١].

أمّا قوله: أن القرآن ذكر أنها كانت في أورشليم، مع أن الإنجيل ذكر أنها سكنت الناصرة فالجواب:

١ـ جاء في إنجيل يعقوب: أن مريم وهى في سن الثالثة: ذهبت بها أمها بصحبة أبيها إلى "أورشليم" وسلماها إلى كهنة هيكل سليمان، وكانت علامات السرور تبدو عليها. ثم تركاها ورجعا إلى أورشليم، وعاشت مع الراهبات المنذورات إلى أن حبلت.

٢ ـ وإن أنت نظرت في خريطة فلسطين. تجد (حبرون) أسفل (أورشليم) وقريبة منها، وتجد الناصرة على نفس الخط وبعيدة عن (أورشليم). فتكون أورشليم غرب الناصرة، وشرق (حبرون).

٣. وقد تبين أن "الناصرة" من نصيب سبط (زبولون) ـ وهو من أسباط (السامريين) ـ وهى من سبط (يهوذا) ـ على حد زعمه! ـ فكيف تكون من سكان الناصرة؟!

وإذا كانت من سكان (الناصرة) فلماذا أتت إلى أورشليم لتعدّ مع سكانها، وسكان أورشليم من سبطى (يهوذا) (وبنيامين)؟! فالحق ما قاله القرآن أنها كانت (هارونية). ومعلوم أن زكريا وامرأته ويوحنا المعمدان كانوا من التابعين لأهل (أورشليم)[٢].

* * *

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (صـ٤٧٥).

(٢) المصدر السابق (صـ٤٧٤).

٣ـ شبهة: صيام مريم عليها السلام.

نص الشبهة:

قالوا: جاء في سورة مريم (٢٢-٢٦): ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

ولنا في هذه الآيات ثلاثة أسئلة:

١- لقد ولدت مريم السيد المسيح في بيت لحم كما تنبأ أنبياء التوراة قبل حدوثه بمئات السنين، وليس بجوار جذع نخلة، ولكن وضعت مريم وليدها في المذور (لوقا٢/ ٢٤: ٥).

٢- وغريب أن يكلمها وليدها من تحتها: بأن تهز جذع النخلة، وتأكل من البلح، وتشرب من الجدول.

٣- وبعدما تأكل من البلح وتشرب من الجدول إذا مر بها أحد تقول: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فأين الصوم؟ وهي الآكلة الشاربة المتكلمة!

والرد على ذلك في ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: ولادة مريم لعيسى عليه السلام.

الوجه الثاني: من المنادي في الآية؟.

الوجه الثالث: معنى الصوم في الآية.

واليك التفصيل

الوجه الأول: ولادة مريم لعيسى عليه السلام.

١- لا مانع من أن تلد مريم عيسى عليه السلام ببيت لحم ويكون تحت جذع نخلة، فلا غرابة في ذلك[1]. وليس عندنا من الآيات أو الأحاديث الصحيحة ما ينفي ذلك أو يثبت أنه ولد ببيت لحم أولًا، المهم أنه ولد تحت جذع نخلة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٢٣٢).

٢- ولادة المسيح في بيت لحم – كما قال المؤلف– تدل على أن مريم من سكان الخليل التي هي (حبرون)، ولا تدل على أنها من سكان (الناصرة). ففي خريطة فلسطين تجد (بيت لحم) تحت أورشليم وبعدها (حبرون). وعلى هذا تكون مريم بعد حملها بالمسيح وإحساسها بدنو الوضع قد اتجهت إلى حبرون ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ عند (بيت لحم)، وكانت من (الناصرة) وعندئذ يكون الوضع في مكان بين (أورشليم) وبين (الناصرة). فقولهم بالمخاض في (بيت لحم) يصدق القرآن في أنها كانت من نسل هارون الساكنين في (حبرون).

٣- وقول المعترض: إن التوراة تنبأت بولادة المسيح في (بيت لحم)، يقصد به ما جاء في سفر مخيا وهو: **أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمَ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا، فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ، مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ** (ميخا ٥: ٢).

والنبوءة موضوعة وليست من النص الأصلي بدليل: أن المسيح ﷺ كان من الهارونيين من جهة أمه، وبيت لحم من مدن سبط يهوذا، ولو كان له أب لأمكن للنصارى نسبته إلى سبط أبيه ولكنه لا أب له، فكيف ينتسب ليهوذا أو غير سبط يهوذا؟.

وبدليل: أن المتسلط على إسرائيل وهو النبي الأمي الآتي على مثال موسى يكون ملكًا وفاتح بلاد، ولم يكن المسيح ملكًا ولا فاتح بلاد.

وبدليل: أن سفر ميخا مرفوض من السامريين، وبدليل أن شرح سفر ميخا يصرحون بالتناقض فيه، والنبوءة من مواضع التناقض التي صرحوا بها.

يقول الشراح: "هناك تعليمان متشابكان في كتاب ميخا:

١- الله يدين شعبة ويعاقبه (ف ١: ٦: ٣-١، ٧: ٧).

٢- الله يعد شعبه بالخلاص (ف٤-٥، ٢٠-٨: ٧) حين يعيده إلى حاله السابقة ويجعله بقيادة رئيس من نسل داود (٥: ٤-١).

٣- وقد جاء من إنجيل متى الأبوبكريفي معجزة النخلة. [١]

الوجه الثاني: من المنادي في الآية؟.

(١) حقائق الإسلام في مواجهة المشككين (٤٧٧-٤٧٦).

أولًا: وقع اختلاف بين المفسرين في الـمُنادي الذي ناداها من تحتها على قولين:

١- إما أنه جبريل عليه السلام وقال بهذا القول: ابن عباس، وعمرو بن ميمون، والضحاك والسدي.

٢- وإما أنه المسيح عيسى عليه السلام وقال بهذا القول: مجاهد، والحسن، وقتادة.

والراجح والله أعلم أنه عيسى عليه السلام للآتي:

١-لأنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل، فرده على الذي هو أقرب إليه أولى من رده على الذي هو أبعد منه، ألا ترى في سياق قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ يعني به: فحملت عيسى فأنتبذت به، ثم قيل: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ نسقًا على ذلك من ذكر عيسى، والخبر عنه.

٢- ولعلة أخرى وهي قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ولم تشر إليه إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك، والذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وما أخبر الله عنه أنه قال لها: أشيري للقوم إليه، ولو كان ذلك قولًا من جبرائيل لكان خليقًا أن يكون في ظاهر الخبر، مبينًا أن عيسى سينطق ويحتج عنها للقوم، وأمرًا منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله[1].

ثانيًا: وما الغرابة في ذلك أن يكون عيسى هو المتكلم؟ "أليس الذي خلقه من غير أب قادر على أن ينطقه في المهد؟! أليس الله على كل شيء قدير؟

ثالثا: "في نطق عيسى عليه السلام معجزة ظاهرة قوية على أن أمه بريئة من الزنا؛ لأنه نطق أول ما نطق بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فهل يتصور أن يكون نبيًا من أم زانية؟!

وفيه أيضًا: إشارة إلى أنه سيكون له شأنٌ آخر غير البشر الآخرين.

رابعًا: كلام المسيح في المهد جاء في (برنابا)، وفى إنجيل (الطفولية العربي) وجاء في تاريخ "يوسطيوس""[2].

الوجه الثالث: معنى الصوم في الآية.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٦٩).

(٢) حقائق الإسلام (٤٧٧).

المقصود بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: كلي واشربي من الرزق الذي رزقكم الله إياه، فإما ترين من البشر أحدًا فقولي: إني نذرت للرحمن صمتًا، فهي صامت فقط عن الكلام لا عن الأكل والشرب بدليل قولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ولم تقل: فلن آكل[1].

* * *

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٧٤، ٧٥)، حقائق الإسلام (٤٧٨) بتصرف.

٤ـ شبهة: تكلم المسيح ﷺ في المهد.

نص الشبهة:

قال المعترض: يقول تعالى في سورة (مريم٣٢: ٢٩): ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

قالوا: هذا هو حديث المسيح في المهد كما صوره القرآن، غير أن الإمام الرازي اعترض على هذه الرواية القرآنية بقوله: اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى تكلم في زمان الطفولة، واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوفر الدعاوى على نقلها، فلو وجدت لنقلت بالتواتر، ولو كان ذلك لعرفه النصارى، لاسيما وهم من أشد الناس غلوا فيه، حتى زعموا كونه إلهًا، ولا شك أن الكلام في الطفولة من المناقب العظيمة والفضائل التامة، فلما لم تعرفه النصارى، مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أدلة إثبات الكلام لعيسى ﷺ في المهد.

الوجه الثاني: بيان الحكمة في كلام عيسى في المهد.

الوجه الثالث: الرد على من زعم أن عيسى لم يتكلم في المهد.

الوجه الرابع: بيان الحق في كلام الرازي.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أدلة إثبات الكلام لعيسى ﷺ في المهد.

أولًا من القرآن: ١- قال تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾(آل عمران٤٦: ٤٥).

٢- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ (المائدة: ١١٠).

٣- قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ (مريم ٣٠: ٢٩).

فهذه الآيات تدل دلالة ظاهرة على أن عيسى تكلم في المهد.

ثانيًا من السنة:

١- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى. . . "[١].

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: أُتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: "أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك؟. . . فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيًا، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبًا- نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ ". [٢]

والشاهد في الحديث قول الناس: "يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيًا" ففيه أيضًا إثبات الكلام لعيسى في المهد.

ثالثا من المعقول: قال الرازي أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم، فإنه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها، ففي تركهم لذلك دلالة على أنه عليه السلام تكلم في المهد[٣].

الوجه الثاني: بيان الحكمة في كلام عيسى في المهد.

١ـ دلالةً على براءَة أمه مما قَذفها به المفترون عليها[٤].

٢ـ دلالة على نبوته[٥].

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، مسلم (٢٥٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٣) تفسير الرازي (٢١/ ٢١٦).

(٤) الطبري في التفسير (٣/ ٣٧٢)، النكت والعيون (١/ ٣٩٤)، الرازي في التفسير (٨/ ٥٢).

(٥) الطبري في التفسير (٣/ ٣٧٢)، النكت والعيون (١/ ٣٩٤)، التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٧).

الوجه الثالث: الرد على من زعم أن عيسى لم يتكلم في المهد.

قال الآلوسي: وزعمت النصارى أنه عليه السلام لم يتكلم في المهد ولم ينطق ببراءة أمه صغيرًا، بل أقام ثلاثين سنة واليهود تقذف أمه بيوسف النجار. وهذا من أكبر فضائحهم الصادحة برد ما هم عليه من دعوى الألوهية له عليه السلام، وكذا تنقله في الأطوار المختلفة المتنافية؛ لأن مَنْ هذا شأنه بمعزل عن الألوهية، واعترضوا بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور فلو كان لنُقل ولو نُقل لكان النصارى أولى الناس بمعرفته؟

وأجيب: بأن الحاضرين إذ ذاك لم يبلغوا مبلغ التواتر، ولما نقلوا كُذبوا فسكتوا، وبقي الأمر مكتومًا إلى أن نطق القرآن به، وهذا قريب على قول ابن عباس: (إنه لم يتكلم إلا ساعة من نهار)، وعلى القول الآخر: وهو أنه بقي يتكلم يُقال: إن الناس اشتغلوا بعد بنقل ما هو أعجب من ذلك من أحواله: كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن الغيوب، والخلق من الطين كهيئة الطير، حتى لم يذكر التكلم منهم إلا النزر، ولا زال الأمر بقلة حتى لم يبق مخبر عن ذلك، وبقي مكتومًا إلى أن أظهره القرآن.

وبعد هذا كله لك أن تقول: لا نسلم إجماع النصارى على عدم تكلمه في المهد، وظاهر الأخبار وقد تقدم بعضها يشير إلى أن بعضهم قائل بذلك، وبفرض إجماعهم نهاية ما يلزم الاستبعاد وهو بعد إخبار الصادق لا يسمن ولا يغني من جوع عند من رسخ إيمانه وقوي إيقانه، وكم أجمع أهل الكتابين على أشياء نطق القرآن الحق بخلافها والحق أحق بالاتباع، ولعل مرامهم من ذلك أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)[(١)].

الوجه الرابع: بيان الحق في كلام الرازي.

زعم المعترض أن الرازي - رحمه الله - أنكر كلام عيسى في المهد، وأنقل الآن كلام الرازي في تفسيره، ونرى هل صحيح ما ذكره عنه هؤلاء أم هو الكذب والتدليس؟. [(٢)]

قال الرازي: اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع:

---

(١) روح المعاني (٣/ ١٦٣).

(٢) قال الرازي (٢١/ ١٧٨).

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وفيه فوائد:

-الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام، وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

- الفائدة الثانية: أنه لما أقرَّ بالعبودية فإن كان صادقًا في مقاله، فقد حصل الغرض وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية، بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

-الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

- الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن الله سبحانه لا يخصُّ الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة. وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد.

قلت: ثم راح الرازي يعدد صفات عيسى عليه السلام التي وصف نفسه بها صفة صفة، ويتكلم عليها ويجيب عن الإشكالات التي تعرض عليها، مما يدل دلالة قاطعة على أنه أثبت الكلام له عليه السلام.

ثم قال في آخر حديثه عن هذه الآيات:

(المسألة الثالثة: قال القاضي: (السلام) عبارة عما يحصل به الأمان ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات، فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى، ولا بُدَّ في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة، وأعظم أحوال الإنسان احتياجًا إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة؛ وهي: يوم الولادة، ويوم الموت، ويوم البعث، فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصونًا عن الآفات والمخافات في كل الأحوال.

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية، واحتجوا

عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدواعي على نقلها، فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى، لا سيما وهم من أشد الناس بحثًا عن أحواله وأشد الناس غلوًا فيه، حتى زعموا كونه إلهًا، ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة، فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد، ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه ﷺ تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا أنه ما تكلم، أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم، فإنه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها، ففي تركهم لذلك دلالة على أنه ﷺ تكلم في المهد، وأجابوا عن الشبهة الأولى بأنه: ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين، فلذلك لم يشتهر. وعن الثاني: لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله)[1].

وقد قال الرازي قبل هذا: أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة (من أنكر كلامه في المهد). قالوا: إن كلام عيسى ﷺ في المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعًا قليلين، فالسامعون لذلك الكلام كان جمعًا قليلًا، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير: أن يذكروا ذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضًا قد سكتوا لهذه العلة، فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتومًا مخفيًا إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ بذلك، وأيضًا فليس كل النصارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب: لما قرأ على النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام بذرة[2].

فأنت تلحظ من كلامه – أي: الرازي- أنه مجرد حاكٍ لكلام اليهود والنصارى وليس مقرًا له بدليل قوله: **(أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فإنه لولا كلامه الذي. .) فوضح الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.**

* * *

(١) الرازي في التفسير (٢١/ ٢١٦: ٢١٣).

(٢) الرازي في التفسير (٨/ ٥٢).

٥ـ شبهة: عن إسماعيل عليه السلام.

نص الشبهة:

قال المعترض: يقول تعالى في سورة مريم: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾ (مريم٥٥: ٥٤)، وتُعلمنا التوراة في سفر التكوين (١٦/ ١٢) أن إسماعيل يكون وحشيًا يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه، والقرآن جعله رسولًا ونبيًا. وادَّعوا أنه أرسل إلى جرهم؛ وهم قبيلة من عرب اليمن، ولم يسمع أن الله أرسل رسولًا إلى العرب، وبماذا وعد إسماعيل وصدق؟ فما هي وعوده؟ وما هي رسالته وبماذا تنبأ؟ فلا الكتاب المقدس ذكر هذا ولا حتى القرآن!

أم أن هذا الكلام لتحسين سمعة إسماعيل لأنه حسب التوراة: (إبراهيم طرده مع أمه)، وحسب العهد الجديد يقول: وَأَمَّا نَحْنُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَنَظِيرُ إِسْحَاقَ، أَوْلاَدُ الْمَوْعِدِ. ٢٩وَلكِنْ كَمَا كَانَ حِينَئِذٍ الَّذِي وُلِدَ حَسَبَ الْجَسَدِ يَضْطَهِدُ الَّذِي حَسَبَ الرُّوحِ، هكَذَا الآنَ أَيْضًا. ٣٠لكِنْ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟ «اطْرُدِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّهُ لاَ يَرِثُ ابْنُ الْجَارِيَةِ مَعَ ابْنِ الْحُرَّةِ». ٣١إِذًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ لَسْنَا أَوْلاَدَ جَارِيَةٍ بَلْ أَوْلاَدُ الْحُرَّةِ.

والردُ على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: فضل إسماعيل عليه السلام في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: الجواب عن الشبهات المذكورة.

الوجه الثالث: ذكر إسماعيل في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل إسماعيل عليه السلام في القرآن والسنة.

١- أثنى الله تعالى عليه في القرآن الكريم فقال: ﴿إنه كان صديقًا نبيًا﴾.

٢- استسلامه لأمر الله عز وجل لما أخبره والده إبراهيم بأمر الله له بذبحه، فاستسلم وأطاع، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (الصافات: ١٠٢)

٣- طاعته لوالده لما كلفه الله تعالى برفع قواعد البيت، وطلب من ابنه أن يعينه فقال: (وأعينك)[١].

الوجه الثاني: الجواب عن الشبهات المذكورة.

١- أما قولهم: أن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلى العرب. فهذا مما لا شك فيه أنه سينكره أهل الكتاب، حتى لا تثبت النتيجة المسلمة التي بعدها، وهي أن محمدًا من نسل إسماعيل، وهو رسول من العرب إلى الناس كافة، ولكن ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢).

٢- ما هي وعوده؟

أقول: هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل – عليهما السلام– وهو والدُ عربِ الحجاز كلهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾.

قال ابن جريج: لم يَعِدْ ربه عدةً إلا أنجزها، يعني: ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها[٢].

وأيضًا كان ﷺ إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده فآتاه تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه وعد صاحبًا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة. ووعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به، حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[٣].

٣- أما ما هي رسالته؟ وبماذا تنبأ؟

فالجواب هو: أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته، أو أن الله تعالى وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم[٤].

وأزيد فأقول: لا يشترط أن يذكر الله تعالى عن كل نبي رسالته وما أنزل عليه؟ أو بماذا تنبأ؟ ففي القرآن الكريم ذكرٌ لأنبياء ورسل لم تُذكر رسالتهم ولا نبؤاتهم، ففي القرآن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٩/ ٢٥٧).

(٣) تفسير الرازي (٢١/ ٢٣٣).

(٤) تفسير فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٧٨).

الكريم يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٥). ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (الأعراف: ٧٣)، وغير هؤلاء من الأنبياء الكرام.

وكذلك في التوراة: ذكر أنبياء ولم تذكر لهم رسالات ولا نبؤات، فهل معنى هذا أنهم ليسوا بأنبياء؟!!!

والسؤال الآن لك أيها المعترض: ما هي رسالة لوط، وما هي رسالة يعقوب؟ وإسحاق؟ وإشعيا؟ وغيرهم من الأنبياء المذكورين عندكم؟

جوابك هو نفس جوابي عن سؤالك!

٤- أما أن إبراهيم طرد إسماعيل وأمه، فهذا من كيسكم أنتم ليظهر لكل ذي العينين مدى الحقد والحسد، الذي في قلوبكم على إسماعيل جد العرب والذي منه خرج النبي محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء.

أما القصة عندنا: قال ابن عباس: (أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ رَبِّ: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ -، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا،

فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا". فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَهٍ - تُرِيدُ نَفْسَهَا- ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ: ﷺ "يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ- لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا". قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا: الْمَلَكُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ؛ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ؟ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ؟ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ

مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ؟ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ؟ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ: قَالَتْ: المَاءُ، قَالَ: اللهمَّ، بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ، قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ". قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ - وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ- فَسَأَلَنِي عَنْكَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا - وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا-، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

فهكذا القصة عندنا، لم يطرد إبراهيمُ إسماعيلَ وأمَّه، بل كل ما في الأمر هو أن سارة غارت من هاجر – ككل نساء العالمين– أن رزقها الله بالولد ولم ترزق هي، فأخذهما إبراهيم وبأمر من الله – تعالى– إلى مكان سيكون عنده البيت الحرام، ويعيش هناك إسماعيل، ويتربى، ويتزوج من قبيلة جرهم التي استوطنت المكان لوجود الماء، ويتزوج منهم، ويولد له أولاد، ومن ذريته خرج النبي العربي الخاتم محمد رسول الله ﷺ.

فلم الإنكار علينا؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

٥- أما قولهم عن أنفسهم: (نحن أبناء الحرة وأنتم أبناء الجارية) فلعمري (تلك شكاة ظاهر عنك عارها).

الوجه الثالث: ذكر إسماعيل عليه السلام في الكتاب المقدس.

(٢٠وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً) (تكوين: ٢٠: ١٧).

وفي الترجمة الكاثوليكية الرهبانية اليسوعية (تكوين: ٢٠: ١٧): (وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه، وهاءنذا أباركه وأنميه وأكثره جدًّا، ويلد اثنى عشر رئيسًا، وأجعله أمة عظيمة).

وأما قول الأفاك الأثيم: (وتعلمنا التوراة في تكوين (١٦/ ١٢) أن إسماعيل: **وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ**).

فالذي في (التكوين١٢: ١٦): (ويكون إنسانًا وحشيًا يعادي الجميع والجميع يعادونه، ويعيش مستوحشًا متحديًا كل إخوته).

وفي الترجمة الكاثوليكية الرهبانية اليسوعية (تكوين١٢: ١٦): (ويكون حمارًا وحشيًا بشريًا يده على الجميع ويد الجميع عليه، وفي وجه جميع إخوته يسكن).

فأقول: بأي هذه النصوص نقول؟ وبأيها نأخذ؟ فإن أخذناها كلها فهي متناقضة، وإن أخذنا بعضها فعلى أي أساس نأخذها؟ فدل هذا التناقض على التحريف.

* * *

٦ـ شبهة: نزول جبريل عليه السلام.

نص الشبهة:

قال المعترض: جاء في القرآن في سورة مريم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ (مريم: ٦٤).

قيل: احتبس جبريل عن محمد حين سأله اليهود عن أمر الروح، وأصحاب الكهف وذي القرنين، فقال: أخبركم غدًا، ولم يقل: إن شاء الله، حتى شق ذلك عليه، ثم نزل جبريل بعد أيام فقال له محمد ﷺ: أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك، فقال له جبريل: وإني كنت أشوق إليك، ولكني عبد مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

والحقيقة هي أن اليهود كانوا يوقفون محمدًا في المسائل، فكان يعجز عن الإجابة إلى أن يستفهم من هذا وذاك، ثم يقول: إن جبريل علمه، وحاشا لجبريل أن يلقنه الأخطاء أو يتأخر عليه ليفضحه.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: السبب الصحيح لنزول الآية.

الوجه الثاني: أسئلة اليهود للنبي ﷺ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: السبب الصحيح لنزول الآية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: "ألا تزورنا أكثر مما تزورنا". قال فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية. قال: كان هذا الجواب لمحمد ﷺ[1].

وأما السبب المذكور في الشبهة فقد أخرجه ابن إسحاق في سيرته، قال: حدثني رجل من أهل مكة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. . . وذكر القصة، وكما هو مُلاحظ في الإسناد أن شيخ ابن إسحاق مجهول، فلا تصح القصة[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٦).

الوجه الثاني: أسئلة اليهود للنبي ﷺ.

ومن خلال تتبع سنة النبي ﷺ، نجد أن هناك محاورات وأسئلة حصلت بين النبي واليهود، أسوق بعضها لنعلم هل كان يقف النبي ﷺ عند كل سؤال فعلًا كما يدعيه هؤلاء ليسأل هذا وذاك، أم هو الوحي والنبوة؟!

١- عن أنس ﷺ قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟

فقال رسول الله: ﷺ "خبرني بهن آنفًا جبريل». قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقال رسول الله ﷺ: (أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت. وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها).

قال أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: (أي رجل فيكم عبد الله بن سلام)؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا. فقال رسول الله ﷺ: (أفرأيتم إن أسلم عبد الله). قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه"[(٢)].

٢- عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: "كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: إن اسمي (محمد) الذي سماني به أهلي. فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ: أينفعك شيء إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه

---

(١) وانظر: أسباب النزول للواحدي (٤٩٣)، وأسباب النزول للسيوطي (٢٦٨)، والصحيح المسند من أسباب النزول، تأليف: مقبل بن هادي الوادعي.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥١).

فقال: سل. فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: هم في الظلمة دون الجسر. قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقراء المهاجرين. قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال زيادة كبد النون. قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها. قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمى سلسبيلًا. قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: ينفعك إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني. قال جئت أسألك عن الولد؟ قال: ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنَّثا بإذن الله. قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي ثم انصرف فذهب. فقال رسول الله ﷺ: لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به"[1].

٣- عن أبي سعيد الخدري ﷺ: قال النبي ﷺ: "تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلًا لأهل الجنة. فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «بلى». قال: تكون الأرض خبزة واحدة - كما قال النبي ﷺ-. فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالامُ[2] ونون. قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا "[3].

٤- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم: لبعض سلوه عن الروح؟ وقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه. فقال بعضهم: لنسألنه. فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت. فقلت: إنه يوحى إليه فقمت. فلما انجلى عنه فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ

(١) أخرجه مسلم (٣١٥).

(٢) بالام: الثور معربة عن العبرانية.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٧٩٢).

ﭐلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٨٥)"[١].

٥- عن أبي هريرة ﷺ قال: "لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم فقال النبي ﷺ: (اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود)، فجمعوا له فقال: (إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟) فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: (من أبوكم؟) قالوا: فلان فقال: (كذبتم بل أبوكم فلان). قالوا: صدقت. قال: (فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟)، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: (من أهل النار؟). قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: (اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا) ثم قال: (هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه). فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: (هل جعلتم في هذه الشاة سمًا؟)، قالوا: نعم، قال: (ما حملكم على ذلك؟). قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح وإن كنت نبيًا لم يضرك"[٢].

٦- قال عبد الله: "جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك. فرأيت النبي ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾"[٣].

٧- عن البراء بن عازب قال: "مر على النبي ﷺ بيهودي محممًا مجلودًا فدعاهم ﷺ فقال: (هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائهم فقال: (أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٥)، مسلم (٢٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٧٨)، و مسلم (٢٧٨٦).

(اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه) فأمر به فرجم فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ (المائدة: ٤١) يقول: ائتوا محمدًا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤) ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥) ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧) في الكفار كلها"[1].

٨-عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله. فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر. قالوا: صدقت. فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: اشتكى عرق النسا فلم يجد شيئًا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها قالوا صدقت؟ ". [2]

٩- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ يومًا فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. قال: (سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه لئن حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام). قالوا: فذلك لك. قال: (فسلوني عما شئتم؟). قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن، أخبرنا أيَّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ قال: (فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني) قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: (فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضًا شديدًا، وطال سقمه فنذر لله نذرًا لئن شفاه

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٠)، (محمما) أي: مسود الوجه من الحممة الفحمة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١١٧) و قال هذا حديث حسن غريب، والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٥٣).

الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها)، قالوا: اللهم نعم، قال: (اللهم أشهد عليهم. فأنشدكم بالله الذي لا إله الا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرًا بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله) قالوا: اللهم نعم، قال: (اللهم أشهد عليهم. فأنشدكم بالذي انزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه). قالوا: اللهم نعم، قال: (اللهم أشهد). قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: (فإن وليي جبريل ﷺولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه)، قالوا: فعندها نفارقك لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: (فما يمنعكم من أن تصدقوه؟)، قالوا: أنه عدونا قال فعند ذلك قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعند ذلك ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ ". [(١)]

١٠- عن زيد بن أرقم ﵁ قال: "أتى النبي ﷺ رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم، ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقر لي بهذه خصمته. قال: فقال رسول الله: ﷺ: بلى والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب، والشهوة والجماع. قال: فقال له اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: حاجة أحدهم عرق يفيض من جلودهم مثل ريح المسك، فإذا البطن قد ضمر[(٢)].

* * *

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٧٨ (٢٥١٤))، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٦/ ١٣٠١٢).

(٢) مسند أحمد بن حنبل (٤/ ٣٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٧).

سورة طــه

وفيها:

١- شبهة: الأقوال المختلفة في القصة الواحدة.

٢- شبهة: خروج موسى عليه السلام.

٣- شبهة: إضلال السامري.

١ـ شبهة: الأقوال المختلفة في القصة الواحدة.

نص الشبهة:

قالوا: في نفس القصة الوحدة نجد اختلافًا في نصوصهما: ففي سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ (طه: ١٠، ٩).

وفي سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾، وفي سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ من هنا نجد أن أقوال موسى لأهله مختلفة عن بعضها البعض تمامًا. في نفس الموقف الواحد الغير متكرر.

فهل قال موسى لأهله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؟ أم قال لهم: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ (طه: ١٠)؟ أم قال لهم: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص: ٢٩).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

حكى الله عن موسى هذا المعنى بزيادة ونقصان في الألفاظ المنسوبة إليهم، وهذه الواقعة ما وقعت إلا مرة واحدة؛ لأن الله حكى ذلك عنهم باللغة العربية فمرة حكاه مطابقًا للفظهم في الترجمة رعاية للفظ، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جريًا على عادة العرب التفنن في الكلام والمخالفة بين أساليبه لئلا يمل إذا تمحض تكراره[1].

---

(١) تفسير الرازي (١٥٤)، وأصل هذا الكلام ذكره الرازي تحت قصة سيدنا موسى في سورة الأعراف، وعزا الكلام في سورة طه إلى سورة الأعراف.

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿بِقَبَسٍ﴾ أي: شهاب، بدليل قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وذلك هو المراد بالجذوة في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها؟ لأنهم كانوا ضلوا الطريق والزمن زمن برد[1].

تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز، كما أن المبارز إذا خرج من الصفّ قال: نزال نزال هل من مبارزة؟ هل من مبارز؟ مكررًا ذلك، ولهذا أسمى الله القرآن: (مثاني) لأنه تثنت فيه الأخبار والقصص.

* * *

(١) أضواء البيان لمحمد الشنقيطي (٤/ ٣١٤)، تفسير ابن كثير (٩/ ٣١٥).

٢ـ شبهة: خروج موسى عليه السلام.

نص الشبهة:

يقول المعترض: في سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٥٧﴾ (طه: ٥٧) وواضح أن هذا الكلام من قول فرعون، وهذا غير معقول، فكتاب الله يعلمنا أن موسى لم يأتِ لمصر ليخرج فرعون وقومه منها، بل جاء ليخرج بني إسرائيل؛ لأن مصر كانت أرض عبودية لهم.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: حكاية الله تعالى أقوال المخالفين ليس معناه إقرارها.

الوجه الثاني: لماذا قال فرعون (لتخرجنا) بضمير الجمع؟

الوجه الثالث: من الذي خرج من مصر؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: حكاية الله تعالى أقوال المخالفين ليس معناه إقرارها.

وقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة من هذا النوع، منها:

١ - في قصة أصحاب الكهف يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾ (الكهف: ٢١).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم.

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: "لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" يحذر ما فعلوا[١].

والشاهد من الآية: أن الله تعالى ذكر قول الذين غلبوا على أمرهم بأن يبنوا على قبورهم مسجدًا، مع أنه مناقض للشرع الحنيف.

٢- ذكرُ الله تعالى لقول إبليس في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف: ١٢) فهذا ليس إقرارًا وتأييدًا من الله تعالى لقول إبليس.

٣- ومنها أيضًا ذكر الله تعالى لأقوال اليهود ثم التعقيب عليها مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة: ١١١)، وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (المائدة: ٦٤).

الوجه الثاني: لماذا قال فرعون: (لتخرجنا) بضمير الجمع؟

لقد ذكر المفسرون عدة أوجه لقول فرعون هذا الكلام منها:

الأول: أنه قصد أن يخرجهم من أرضهم قياسًا منه على الذين يقومون بدعوة ضد الملوك أنهم إنما يبغون بذلك إزالتهم عن الملك وحلولهم محلّهم، يعني أن موسى غرّته نفسه فحسب أنه يستطيع اقتلاع فرعون من ملكه؛ أي: حسبتَ أنّ إظهار الخوارق يطوّع لك الأمة فيجعلونك ملكًا عليهم وتخرجني من أرضي، فضمير المتكلم المشارك مستعمل في التعظيم لا في المشاركة؛ لأنّ موسى لم يصدر عنه ما يشمّ منه إخراجهم من أرضهم[٢].

الثاني: ويجوز أن يكون ضمير المتكلم المشارك مستعملًا في الجماعة تغليبًا، ونزّل فرعون نفسه واحدًا منها، وأراد بالجماعة جماعة بني إسرائيل حيث قال له موسى: ﴿فَأَرْسِلْ

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٤).

﴿مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (طه: ٤٧) أي: جئت لتخرج بعض الأمة من أرضنا وتطمع أن يتبعك جميع الأمّة بما تظهر لهم من سحرك(١).

الثالث: أنه قال ذلك ليحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل من أيديهم بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه إلى إتباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة؛ إذ الإخراج من الوطن أخو القتل كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ (النساء: ٦٦)(٢).

الوجه الثالث: من الذي خرج من مصر؟

الظاهر من آيات القرآن الكريم أن هدف موسى عليه السلام من دخوله مصر كان هو إخراج بني اسرائيل لينجيهم من عبودية فرعون إلى عبودية الواحد الأحد قال تعالى: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك؛ فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين(٣).

* * * *

(١) المصدر السابق.

(٢) روح المعاني للآلوسي (٨/ ٥٢٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ١٣٧).

٣ـ شبهة: إضلال السامري.

نص الشبهة:

جاء في سورة طه (٨٨: ٨٥): ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾.

وقالوا: السامرة مدينة في فلسطين لم يكن لها وجود لما خرج بنو إسرائيل من مصر وسافروا في سيناء فعمل لهم هارون العجل الذهبي كطلبهم، فكيف نتخيل سامريًا يصنع لهم العجل قبل أن يكون للسامريين وجود؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

قبل الخوض في التفاصيل أنبه إلى أن الكتاب المقدس ليس حكمًا على القرآن، وهذا أمر مرفوض تمامًا؛ لأننا نحن المسلمين نؤمن ونقطع بتحريف الكتاب المقدس وتبديله، وعلى ذلك لا نقبل أن يجعلوه حكمًا على القرآن الكريم، ولا نسلم بصحة معلوماته التاريخية، فكيف نقبل بكتاب نؤمن بتحريفه أن يكون حكمًا على القرآن الكريم المحفوظ الخاتم؟.

الوجه الثاني: أنه ليس نسبًا إلى شيء إنما اسمه هكذا.

ويجوز أن تكون الياء من (السامري) غير ياء النسب؛ بل حرفًا من اسم مثل ياء: علي وكرسي، فيكون اسمًا أصليًا أو منقولًا في العبرانية، وتكون اللام في أوله زائدة[(١)].

الوجه الثالث: أنه نسب لطائفة من اليهود.

واعلم أن السامريين لقب لطائفة من اليهود؛ يقال لهم أيضًا: السامرة، لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهودية في أصول الدين، فهم لا يعظمون بيت المقدس، وينكرون نبوءة أنبياء بني إسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع، وما كانت هذه

---

(١) التحرير و التنوير (١٦/ ٢٨٠).

الشذوذات فيهم إلا من بقايا تعاليم الإلحاد التي كانوا يتلقونها في مدينة السامرة المبنية على التساهل والاستخفاف بأصول الدين، والترخص في تعظيم آلهة جيرتهم الكنعانيين أصهار ملوكهم، ودام ذلك الشذوذ فيهم إلى زمن عيسى عليه السلام ففي إنجيل متى (إصحاح ١٥) وفى إنجيل لوقا (إصحاح ٩) ما يقتضي أن بلدة السامريين كانت منحرفة على اتباع المسيح، وأنه نهى الحواريين عن الدخول إلى مدينتهم[١].

الوجه الرابع: (السامري) نسب إلى قرية اسمها السامرة.

ويحتمل أن يكون (السامري) نسبًا إلى قرية اسمها السامرة من قرى مصر، كما قال بعض أهل التفسير، فيكون فتى قبطيًا أندس في بني إسرائيل لتعلقه بهم في مصر أو لصناعة يصنعها لهم[٢]، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر[٣].

الوجه الخامس:

يظن المعترض أن اسم (السامري) مقتبس من مدينة تسمى (السامرة)، وأيضًا يظن أن السامرة هي أول شيء أطلق عليه سامرة، وفي هذا خطأ جسيم.

لعدة أسباب:

أولًا: اسم السامرة (شومرون) بالعبري، مشتق من سامر؛ وهو (شامر) بالعبرية الذي معناه: (الحارس)، والأسماء مثل ذلك ينطق بها العبريون هكذا: (موشى، يشوع، شبت، شامر)، ومعني السامرة هو مركز (الحارس).

ثانيًا: وبنيت هذه المدينة على جبل اسمه (جبل السامرة)، وهذا الجبل كان يمتلكه رجل اسمه (شامر).

وفي أيام حكم الملك عمري (ملك يهوذا) اشترى الملك الجبل من شامر، ثم بنى المدينة عليه ولهذا دعيت المدينة (مدينة السامرة) نسبة إلى شامر الذي كان يمتلك الجبل الذي

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ويراجع تفسير القاسمي (١١/ ١٨٤)، تاج العروس (١/ ٢٩٦٧)، لسان العرب (٤/ ٣٧٦)، القاموس المحيط (١/ ٥٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٨٠).

(٣) تفسير القرطبي (١١/ ٢٤٩)، ويراجع (الكشاف) للزمخشري (٣/ ٨١).

بنيت عليه، واقرأ في سفر الملوك الأول (١٦: ٢٣، ٢٤): فِي السَّنَةِ الْوَاحِدَةِ وَالثَّلاَثِينَ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ عُمْرِي عَلَى إِسْرَائِيلَ اثْنَتَيْ عَشَرَةَ سَنَةً. مَلَكَ فِي تِرْصَةَ سِتَّ سِنِينَ. ٢٤وَاشْتَرَى جَبَلَ السَّامِرَةِ مِنْ شَامِرَ بِوَزْنَتَيْنِ مِنَ الْفِضَّةِ، وَبَنَى عَلَى الْجَبَلِ. وَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَاهَا بِاسْمِ شَامِرَ صَاحِبِ الْجَبَلِ «السَّامِرَةَ».

فمن هذا نستخلص الآتي: أن اسم (السامرة) لم يوجد لأول مرة زمن وجود المدينة، بل كان هذا الاسم موجودًا قبل وجود المدينة، فلا يمنع أن يكون هذا الاسم قديمًا، وأن يكون هناك قبل (شامر) صاحب الجبل بمئات السنين من تسمى بهذا الاسم[1].

الوجه السادس:

١- أنه ليس في فلسطين مدينة تسمى بمدينة السامرة، وإنما كان للسامريين مملكة في فلسطين عاصمتها (نابلس) المسماة قديمًا (شكيم)، وكانت هذه المملكة مكونة من عشرة أسباط، وكان للسبطين مملكة في فلسطين عاصمتها (القدس) المسماة قديمًا (أورشليم).

٢- ولما صعد موسى عليه السلام إلى جبل الطور وتلقى التوراة، نزل فوجد اليهود يعبدون عجلًا جسدًا له خوار، فسأل عن ذلك، فدلوه على من أغراهم بعبادتهم، فأمسك به وسأله: (ما خطبك ياسامري؟) أي: ما هذا الذي فعلت أيها المضل؟ لأن كلمة (سامري) تطلق على المضل، ولا تطلق على شخص كاسم من الأسماء.

وبهذا المعنى لايكون الذي أضلهم رجل مسمى بالسامري، حتى يتوجه الإشكال، وإلا يلزم أن يكون السامري من أسماء المسيح عيسى عليه السلام، فإن اليهود قالوا: (**إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ**) (يوحنا ٨: ٤٨)[2].

الوجه السابع:

وأخيرًا نقول لهذا المعترض: أجب عن هذا الاعتراض منا على ما ورد في كتابكم؟

(١) للمزيد انظر: موسوعة اليهود واليهودية د/ عبد الوهاب المسيري الباب السابع من المجلد الرابع باسم " العبرانيون ".

(٢) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (٤٦٤).

وهذا الاعتراض: هو أن كون الملك عمري أول من بني مدينة (السامري)، أمر ليس مقطوعًا بصحته، بل ذهب قاموس (الكتاب المقدس) إلى احتمال أن الملك عمري أصلح بناء المدينة وهذا يقول الكتاب المقدس، فماذا تقول أنت؟

السامرة: اسم عبراني معناه: (مركز الحارس).

١- عاصمة الأسباط العشرة أثناء أطول مدة في تاريخهم وقد بنيت المدينة أو أصلح بناؤها أيام عمري بن آخاب ملك إسرائيل (٨٧٦ - ٨٤٢) ق. م على ما تل اشتراه بوزنتين من الفضة (أي: نحو ألف جنيه مصري) وكان صاحب الأرض اسمه (شامر) الذي يعني: (مراقب) أو حارس، فقوله: (بنيت) أو أصلح بناؤها يفيد احتمالًا وهو أن المدينة موجودة من قبل، وربما كانت مهدمة أو قديمة فأعاد الملك بناءها.

والذي يدل على أن المدينة قديمة وموجودة قبل الملك عمري هذا النص في سفر الملوك الأول (١٣/ ٣٢) لأنه تمامًا سيتم الكلام الذي نادى به بكلام الرب نحو المذبح الذي في بيت إيل، ونحو جميع بيوت المرتفعات التي في مدن السامرة، وهذا الكلام ذكر قبل ثلاثة إصحاحات من ذكر بناء الملك عمري للمدينة، فكيف يقول: (في مدن السامرة) ولم تكن المدينة قد بنيت بعد.

فإما أن يقولوا: إن هذا تحريف في الكتاب المقدس أو يقروا أن المدينة موجودة قبل الملك عمرى ولا يعرف زمن بنائها ولا يستطيع أحد أن يحدد في هذا الاحتمال أن المدينة لم تكن موجودة في زمن موسى ﷺ، ولربها أنها موجودة قبل موسى ﷺ أيضًا وهذا مالا يمكن الجزم به.فإذن سقط الاعتراض من أساسه. . . والحمد لله[1].

* * *

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، وانظر: التحرير والتنوير (٦/ ٢٨٠: ٢٧٧).

سورة الأنبياء

وفيها:

١- شبهة: حكم وعلم لوط عليه السلام.

٢- شبهة: حكم داود وسليمان عليهما السلام.

٣- شبهة: حصب جهنم.

١ـ شبهة: حكم وعلم لوط عليه السلام.

نص الشبهة:

يقول المعترض: في سورة (الأنبياء: ٧٤): ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

ونحن نتساءل: ما هي الحكمة التي كانت عند لوط، وبماذا يمكننا أن نستفيد منها؟ فلا الكتاب المقدس تكلم عنه بشيء حسن، ولا هنا نعلم ما هي حكمته، ولا حتى عن علمه، ثم يقول إنه نجاه من القرية، فما هي هذه القرية وأين تقع وما اسمها؟ وحتى لم يقل من هو لوط، هل كالعادة نحتاج إلى الكتاب المقدس لكي نفهم القرآن؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: فضل نبي الله لوط عليه السلام في القرآن والسنة.

الوجه الثاني: معنى الحكم والعلم الذي أعطيه لوط عليه السلام.

الوجه الثالث: ومتى احتجنا إلى كتابكم المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل نبي الله لوط عليه السلام في القرآن والسنة.

ورد ذكر قصة نبي الله لوط عليه السلام في عدة سور من القرآن الكريم منها المطول، والمختصر، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأعراف٨٤: ٨٠).

وقال تعالى في سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ

إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ (هود٨٣: ٦٩).

وورد في السنة من فضل لوط عليه السلام: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال " نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾. ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبث في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي ". (١)

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن تبارك وتعالى قال: قال رسول الله ﷺ "لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم جاءني الداعي لأجبته إذ جاءه الرسول فقال: ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ ورحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ما إن

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٢) ومسلم (١٥١).

بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه قال محمد الثروة الكثرة والمنعة. (١)

الوجه الثاني: معنى الحكم والعلم الذي أعطيه لوط عليه السلام.

التعريف بنبي الله لوط عليه السلام: هو: لوط بن هاران بن تارح - وهو آزر - ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور أخوة.

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له، وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أمّ تلك المحلة ولها أرض، ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله عن النسوان لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسابهم، وجعلهم مثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين. (٢)

وأما الحكم والعلم الذي أوتيه لوط عليه السلام:

قال الطبري: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾، يقول تعالى ذكره: وآتينا لوطا حكمًا، وهو فصل القضاء بين الخصوم، وعلما: يقول: وآتيناه أيضًا علمًا بأمر دينه، وما يجب عليه لله من فرائضه. وقوله ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ يقول: ونجيناه من عذابنا الذي أحللناه بأهل القرية التي كانت تعمل الخبائث،

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٠٥)، والترمذي (٣١١٦)، وابن حبان (٦٢٠٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦١٧).

(٢) قصص الأنبياء (٢٢٨) لابن كثير.

وهي قرية سَدُوم التي كان لوط بعث إلى أهلها، وكانت الخبائث التي يعملونها: إتيان الذكران في أدبارهم، وخَذْفهم الناس، وتضارطهم في أنديتهم، مع أشياء أخرَ كانوا يعملونها من المنكر، فأخرجه الله حين أراد إهلاكهم إلى الشام[١].

و أصل الحكم في اللغة: المنع كما هو معروف. فمعنى الآيات: أن الله آتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعتريها الخلل. والقرية التي كانت تعمل الخبائث: هي سدوم وأعمالها، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله:

منها اللواط، وأنهم هم أول من فعله من الناس، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾. ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديهم، وقطعهم الطريق، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾. ومن أعظم خبائثهم: تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن. كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾إلى غير ذلك من الآيات. وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه: أنه أهلكهم فقلب بهم بلدهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ والآيات بنحو ذلك كثيرة. والخبائث: جمع خبيثة، وهي الفعلة السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك[٢].

وأما مكان القرية فقد ورد في كتب البلدان:

سدوم: قصبة قرى قوم لوط. وهي بين الحجاز والشام. كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهًا، وأشجارًا، وحبوبًا وثمارًا، والآن عبرة للناظرين. وتسمى الأرض المقلوبة لا زرع

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٤٩).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٦٤٨).

بها ولا ضرع ولا حشيش، وبقيت بقعة سوداء فرشت فيها حجارة، ذكر أنها الحجارة التي أمطرت عليهم وعلى عامتها كالطابع(١).

الوجه الثالث: ومتى احتجنا إلى كتابكم المقدس؟

أقول لصاحب الكتاب المقدس افتح معي كتابك هذا لكي تفهم ـ كما تزعم ـ ماذا حكى عن لوط وابنتيه؟

لوط يزني بابنتيه:

وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. ٣١وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. ٣٢هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». ٣٣فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. ٣٤وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». ٣٥فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، ٣٦فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. ٣٧فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. ٣٨وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ. التكوين (١٩/ ٣٨: ٣٠).

* * *

(١) آثار البلاد وأخبار العباد (١/ ٨٠) للقزويني، وانظر: معجم البلدان لياقوت الحموي

٢ـ شبهة: حكم داود وسليمان عليهما السلام.

نص الشبهة:

يقول المعترض: في سورة الأنبياء: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٨ -٧٩).

قال ابن عباس وغيره: إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب زرع والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن غنم هذا دخلت زرعي ليلًا فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيئًا فأعطاه رقاب الغنم بالزرع فخرجا فمرا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه، فقال سليمان لو رأيت أمركما لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود فدعا سليمان واستفهم منه عن الأرفق بالفريقين، فقال: أدفع الغنم للمزارع ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الأرض مثل حرثه فإذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيت وكان عمر سليمان يوم حكم إحدى عشرة سنة. ولا يعقل أن سليمان كان يتعقب أحكام والده، ووالده من الرجال المدربين، هذا فضلا عما خصه الله به من الوحي الإلهي؟ وكيف يعجز عن الحكم في هذه القضية ويرضى بتغير الحكم أمام رعيته؟ ولكن هذا خلط أبشالوم بسليمان، جاء في (٢ صموئيل ١٥: ٦١) إن أبشالوم لما دبر للانقلاب الفاشل ضد والده، كان يستميل رجال بني إسرائيل، ويقول من يجعلني قاضيًا في الأرض، لأنصف المظلوم؟ وكان يقبل ويكرم طرفي النزاع، فاستمال الأفئدة وثار على والده.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: فضل داود وسليمان في القرآن والسنة

الوجه الثاني: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الوجه الثالث: ماذا قالت التوراة عن داود وسليمان.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضل داود وسليمان في القرآن والسنة.

أولًا: داود عليه السلام:

ألان الله له الحديد:

١ - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سبأ: ١٠ - ١١).

٢ -وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٧٩ - ٨٠).

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة.

قال الحسن البصري و قتادة و والأعمش: كان الله قد ألان له الحديث حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة.

أعطاه الله القوة في العبادة: وقال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ (ص: ١٧ - ٢٠).

قال ابن عباس ومجاهد: الأيد القوة في الطاعة يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح قال قتادة: أعطي قوة في العبادة وفقها في إسلام قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: "أحب الصلاة إلي الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا"[(١)].

أعطاه الله الصوت الحسن: وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ (ص: ١٨ -١٩) كما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ (سبأ: ١٠)

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٩)، ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

أي سبحي معه قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرةً وعشيًا عليه السلام.

رزقه الله السرعة في قراءة الزبور: وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزبور، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: " خفف على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده". [(١)]

له القربى من الله يوم القيامة: قال الله تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ (ص: ٢٥)، أي إن له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت في حديث " إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا". [(٢)]

زاد الله في عمره من عمر آدم عليه السلام : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله فحمد الله بإذنه فقال له ربه: رحمك الله يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملإ منهم جلوس فقل السلام عليكم قالوا: وعليك السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك؛ فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة قال: يا رب زده في عمره قال: ذاك الذي كتبت له قال: أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة؟ قال: أنت وذاك قال: ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها فكان آدم يعد لنفسه قال: فأتاه ملك الموت فقال له

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

آدم: قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال: بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته قال: فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود. (١)

ثانيًا: سليمان عليه السلام:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل: ١٦) أي ورثه في النبوة والملك وليس المراد ورثه في المال.

٢- وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ (النمل: ١٦) يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادته، ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (النمل: ١٧-١٩).

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يومًا في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس يسيرون معه، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي نقباء - يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، وابن حبان (١٤-٤٠-٦١٦٧)، والحاكم (١-١٣٢-٢١٤)، وأبو يعلى (١١-٢٦٣-٦٣٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٩).

سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (النمل: ١٨) فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره.

وقال الله عز وجل: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (النمل: ٢٠-٣٧).

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة ألتي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه

من محل خدمته: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي ماله مفقود من هاهنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه والمقصود حاصل على تقدير: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة تنجيه من هذه الورطة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها: ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي بخبر صادق: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلي الباهر، ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات.

فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ﴾ أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي واقدموا علي سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة فلما جاءها الكتاب مع الطير ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى تكل البطاقة كانت مع سائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في

خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولًا: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ثم قرأته: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل: ٣٠-٣١)، ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ (النمل: ٣٢) تعني ما كنت لأبت أمرا إلا وأنتم حاضرون: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (النمل: ٣٣) يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين: ﴿و﴾ مع هذا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم.

فكان رأيها أتم وأشد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلي ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا علي: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفًا ولا عدلًا لأنهم كافرون وهم وجنوده عليهم قادرون، ولهذا: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ يقول ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد من بها فإن عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلي من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من

هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا مما نعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلادهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار.

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (النمل: ٣٨-٤٤).

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ (النمل: ٣٩) يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال؛ ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أي وإني لذو قدرة على إحضاره إليه وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قيل: معناه قبل أن تبعث رسولًا إلى أقصى ما ينتهي

إليه طرفك من الأرض، ثم يعود إليك، وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد ما تراه من الناس، وقيل: قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك، وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته، وهذا أقرب ما قيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي فلما رأى عرش بلقيس مستقرًا عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي هذا من فضل الله علي وفضله على عبيده ليخبرهم على الشكر أو خلافه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين.

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلي هذا العرش وينكّر لها لتختبر فهمها وعقلها ولهذا قال: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ (النمل: ٤١- ٤٢)، وهذا من فطنتها وغزارة فهمها؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها؛ لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحدًا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب. قال الله تعالى إخبارًا عن سليمان وقومه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (النمل: ٤٢-٤٣)، أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله إتباعا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حادهم على ذلك.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء وجعل عليه سقفًا من زجاج وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (النمل: ٤٤).

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)﴾ (ص ٣٠: ٤٠).

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ثم أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع مطيع لله ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة الجياد وهي المضمرة السراع: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ يعني الشمس، وقيل: الخيل على ما سنذكره من القولين: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ قيل: مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف، وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر.

والذي عليه أكثر السلف الأول؛ فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وعلى ما سنذكره من القولين: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قيل: مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف، وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر.

والذي عليه أكثر السلف الأول؛ فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس.

وفي سنة النبي ﷺ.

عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ: "أن سليمان بن داود سأل الله تبارك وتعالى ثلاثًا فأعطاه اثنتين وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة سأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله حكمًا يواطىء حكمه، فأعطاه إياه وسأله من أتى هذا البيت - يريد به بيت المقدس - لا يريد إلا الصلاة فيه أن يخرج منه كيوم ولدته أمه؛ فقال رسول الله ﷺ: "وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالث". (١)

(١) إسناده صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦، ٦٦٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٧١).

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنبياء: ٨٧ -٧٩)، وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين أي رعته بالليل فأكلت شجرة فأكلت فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لك نبي الله؟ فقالوا: بكذا وكذا فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجًا ودرًا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال: آتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها"[(١)]

ولعل كل من الحكمين كان سائغًا في شريعتهم وكان ما قاله سليمان أرجح، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه بعد ذلك إياه فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنبياء: ٧٩-٨٠).

ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي وسخرنا لسليمان الرحي عاصفة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ (الأنبياء: ٨١-٨٢).

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة- سبعمائة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٧)، ومسلم (١٧٢٠).

بمهور وثلاثمائة سراري، وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء-، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرًا عظيمًا جدًّا.

عن أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺ قال: " قال سليمان بن داود ﷺ: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه: إن شاء الله فلم يقل فلم تحمل شيئًا إلا واحدًا ساقطًا أحد شقيه؛ فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله". [1]

الوجه الثاني: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

نقول وما المانع إذا كان الله قد علم سليمان بعض الأشياء التي غابت عن أبيه داود ولا يعني ذلك تفضيل سليمان على داود عليهما السلام فما زال الصغير يستدرك على الكبير وما يزال المفضول يقف على ما لم يقف عليه الفاضل ولا يعني هذا أنه أفضل منه، ثم إن القضية التي حكم فيها داود وسليمان من الأمور الاجتهادية التي يجتهد فيها البشر.

وعندنا في الإسلام كما ورد في السنة من هذا القبيل الشيء الكثير، منها أن عمر ﷺ كان يدخل ابن عباس وهو صغير في مجالس الكبار من مشايخ الصحابة وأحب عمر ﷺ أن يثبت لهم، فسألهم مرة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ (سورة النصر).

فقال ابن عباس: القول الصحيح فيها بأنه أجل النبي ﷺ أعلمه الله إياه، وصوبه عمر ﷺ، والأمثلة على ذلك كثيرة، ثم إن سليمان ﷺ كان نبيًا مثل أبيه، وقال الله تعالى عنه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ (النمل: ١٥-١٦).

وقد قرر العلماء أن الصحيح أن ميراث سليمان من أبيه كان ميراث النبوة وليس ميراث المال. ثم إن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وما المانع أن يرجع النبي داود إلى الحق والصواب متى استبان له ذلك فليس هذا فيه أدنى طعن في النبي داود ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٤)، ومسلم (١٦٥٤).

الوجه الثالث ماذا قالت التوراة عن داود وسليمان؟

داود يزني ويقتل وينجب من الزنا سليمان

(صمويل الثاني ١١/ ١٦: ٢): وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. ٣فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ». ٤فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». ٦فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: «أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ». فَأَرْسَلَ يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. ٧فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. ٨وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ». فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ.وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ. ١٤وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. ١٥وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ». ١٦وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ.

سليمان كفر وهو ابن زنا كما يزعمون

(الملوك الأول ١١/ ١١: ٩): فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ (صمويل الأول ١١/ ٢٤): وَعَزَّى دَاوُدُ بَثْشَبَعَ امْرَأَتَهُ، وَدَخَلَ إِلَيْهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا فَوَلَدَتِ ابْنًا، فَدَعَا اسْمَهُ سُلَيْمَانَ، وَالرَّبُّ أَحَبَّهُ.

* * *

٣ـ شبهة: حصب جهنم.

نص الشبهة:

قال المعترض: يقول تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ (الأنبياء: ٩٨).

قال مفسرو المسلمين: إن محمدًا لما تلا هذه الآية، سأله عبد الله بن الزبعرى: ألم تقل إن اليهود عبدوا عزيرًا، والنصارى عبدوا المسيح، وبني مليح عبدوا الملائكة، والصابئين الكواكب؟ فهل هؤلاء وقود النار؟ (الرازي في تفسير هذه الآية)

وقد اعتذر الرازي عن ذلك بقوله: إنه كان يخاطب العرب فقط بدليل قوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ ولكن القرآن في مواضع كثيرة استخدم نفس اللفظ للجميع، فقال في سورة مريم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١)، فهل يعني العرب فقط؟ ثم إن العرب كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب والنجوم، فهل كل هذه في النار؟.

وقد اعتذر الرازي بقوله: إن لفظ (ما) تستخدم لغير العاقل، نقول جاء في القرآن: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس ٧: ٨)، فهل (ما) هنا لغير العاقل؟.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: تحقيق الرواية المذكورة عن ابن الزبعري.

الوجه الثاني: الرد على الاعتراض.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تحقيق الرواية.

وردت هذه الرواية من أربعة طرق عن ابن عباس:

الأولى: من طريق يحيى بن آدم قال: حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن أبي رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس ﵄قال: آيَةٌ فِي كِتَابِ الله ﷻ لَا يَسْأَلُنِي النَّاسُ عَنْهَا وَلَا أَدْرِي، أَعَرَفُوهَا فَلَا يَسْأَلُونِي عَنْهَا أَمْ جَهِلُوهَا فَلَا يَسْأَلُونِي عَنْهَا؟ قِيلَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: آيَةٌ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى

أَهْلِ مَكَّةَ وَقَالُوا: شَتَمَ مُحَمَّدٌ آلِهَتَنَا؛ فَقَامَ ابْنُ الزِّبَعْرَى فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا: شَتَمَ مُحَمَّدٌ آلِهَتَنَا قَالَ: وَمَا قَالَ؟ قَالُوا قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قَالَ: اُدْعُوهُ لِي فَدُعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى: يَا مُحَمَّدُ هَذَا شَيْءٌ لِآلِهَتِنَا خَاصَّةً أَمْ لِكُلِّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ الله؟ قَالَ: بَلْ لِكُلِّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: فَقَالَ: خَصَمْنَاهُ وَرَبِّ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ يَا مُحَمَّدُ! أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى عَبْدٌ صَالِحٌ، وَعُزَيْرًا عَبْدٌ صَالِحٌ، وَالْمَلَائِكَةَ عِبَادٌ صَالِحُونَ قَالَ: بَلَى قَالَ: فَهَذِهِ النَّصَارَى يَعْبُدُونَ عِيسَى، وَهَذِهِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَهَذِهِ بَنُو مَلِيحٍ تَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ قَالَ: فَضَجَّ أَهْلُ مَكَّةَ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ عِيسَى وَعُزَيْرٌ وَالْمَلَائِكَةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قَالَ: وَنَزَلَتْ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾[1].

الثانية: أخرجها الطحاوي في مشكل الآثار (٦١١٢)، قال: حدثنا أبو أمية، حدثنا محمد بن الصلت، وأخرج الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٤٠) قال: حدثنا ابن سنان القزاز، قال: حدثنا الحسن بن الحسين الأشقر، كلاهما (محمد والحسن) قالا: حدثنا أبو كدينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الْآيَةَ.

قَالَ الْمُشْرِكُونَ فَإِنَّ عِيسَى ﷺ يُعْبَدُ وَعُزَيْرٌ ﷺ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ عِيسَى وَعُزَيْرٌ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا[2].

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٦١١٣ تحفة الأخيار)، والواحدي في أسباب النزول (ص٤٩٩) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٣٢٩) وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٢٧٣٩) بنفس الإسناد إلا أنه أسقط أبا يحيى.

قلت: إسناده ضعيف وآفته أبو يحي مصدع وضعفه ابن حبان وجهله ابن معين وقال الحافظ: مقبول.

(٢) إسناد ضعيف، عطاء بن السائب: ثقة إلا أنه اختلط. أبو كدينة: وثقه ابن معين وأبو داود والنسائي والعجلي. ولكن سماعه من عطاء لم يذكر قبل أو بعد الاختلاط، والظاهر أنه بعده.

الثالثة: أخرجها الطحاوي في مشكل الآثار (٦١١٥ تحفة الأخيار)، قال: حدثنا أحمد بن داود، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، حدثنا يزيد بن أبي حكيم، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: « جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، فقد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى صلوات الله عليهم، أوكل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ ، فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾، ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾. [1]

الرابعة: أخرج الحاكم في المستدرك (٣٤٤٩) حدثنا أبو العباس قاسم بن القاسم السياري ثنا محمد بن موسى بن حاتم ثنا علي بن الحسن بن شقيق ثنا الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ فقال المشركون: الملائكة و عيسى و عزير يعبدون من دون الله فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها قال، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ عيسى و عزيز و الملائكة وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. [2]

وللحديث شواهد:

منها ما أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٩) قال: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: جلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوما مع الوليد بن المغيرة، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم

---

(١) **إسناده يحسن**. الحكم بن أبان: وثقه ابن معين والنسائي والعجلي، وضعفه ابن حبان، وقال: ربما أخطأ وكذا ابن عدي، وقال ابن حجر: صدوق عابد وله أوهام.

(٢) **إسناده حسن**. يزيد النحوي: وثقه ابن معين وأبو زرعة والنسائي، وقال أبو حاتم: صالح الحديث الحسين بن واقد: وثقه ابن معين، وقال أبو زرعة والنسائي وأحمد: ليس به بأس. علي بن الحسين بن شقيق: قال أحمد: لم يكن به بأس، وقال الحافظ: ثقة حافظ.

رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، وكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرى بن قيس بن عديّ السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزِّبَعْرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدا: أكلّ من عبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزَيرا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان في المجلس من قول عبد الله بن الزِّبَعْرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزِّبَعْرى، فقال: رسول الله ﷺ: "نعم كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبد، إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته"، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ . . . إلى ﴿خَالِدُونَ﴾[1].

ومنها: ما أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (باب ذكر أبواب المسجد الحرام)

قال: حدثنا أحمد بن سليمان الصفار قال: ثنا زيد بن المبارك قال: ثنا ابن ثور، عن ابن جريج قال: دخل النبي ﷺ المسجد فطاف سبعًا، وقريش جلوس بين باب بني مخزوم وباب بني جمح، فقال ﷺ بيده وأشار إليهم وإلى أوثانهم: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، ثم خرج ﷺ، فجاء ابن الزبعرى، وإذا قريش تسبه، فقال: ما لكم؟ فقالوا: إن ابن أبي كبشة سبنا وسب أوثاننا، فلما أن كان من العشي لقي ابن الزبعرى، فقال: يا محمد، أهي لنا ولآلهتنا خاصة دون الأمم، أو هي لجميع الأمم؟ قال: " « بل هي لكم ولجميع الأمم»، قال ابن الزبعرى: خصمتك ورب الكعبة؛ فإنك تثني على عيسى وأمه خيرًا، وقد

(١) **إسناده ضعيف**. شيخ الطبري محمد بن حميد ضعيف وقد أخرجه ابن إسحق مرسلًا والمرسل من أقسام الضعيف.

عبد، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾"[1].

الوجه الثاني: الرد على الاعتراض.

والجواب من أوجه:

الأول: أن هذه الآية لم تتناول الملائكة ولا عيسى لتعبيره ب (ما) الدالة على غير العاقل وَ﴿مَا﴾ فَإِنَّمَا تُقَالُ لِغَيْرِ بَنِي آدَمَ وَيُقَالُ مَكَانَهَا لِبَنِي آدَمَ (مَنْ) كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُرِيدُ بِهِ بَنِي آدَمَ، وَقَالَ فِي سِوَى بَنِي آدَمَ: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ لِغَيْرِ بَنِي آدَمَ وَفِيمَا رَوَيْتُمُوهُ وَأَضَفْتُمُوهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا قَدْ ذَكَرْتُمُوهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ وَفِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَلَوْتُمُوهَا فِيهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أُرِيدَ بِهِ بَنُو آدَمَ فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ وَعَوْنِهِ أَنَّ (مَنْ) وَ (مَا) فِي الْأَكْثَرِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ يَخْرُجَانِ عَلَى مَا ذُكِرَ وَقَدْ تَسْتَعْمِلُ الْعَرَبُ أَيْضًا فِي كَلَامِهَا فِي بَنِي آدَمَ (مَا) كَمَا تَسْتَعْمِلُ (مَنْ) وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَسْتَعْمِلُهُ فِيهِمْ كَثِيرًا كَمَا تَسْتَعْمِلُ فِيهِمْ (مَنْ) وَمِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ مَكَانَ إِلَّا مَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وقَوْله تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ يَعْنِي آدَمَ ﷺ وَمَا وَلَدَ.[2]

الثاني: أن الملائكة وعيسى نص الله على إخراجهم من هذا دفعا للتوهم ولهذه الحجة الباطلة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١).[3]

---

(١) مرسل ومراسيل ابن جريج واهية والخلاصة: أن الحديث بطرقه وشواهده يحسن إسناده مما يدل على أن للحديث أصلًا.

(٢) مشكل الآثار للطحاوي (٨/ ٤٣٩، تحفة الأخيار)، دفع إيهام الاضطراب (٢٠٣).

(٣) دفع إيهام الاضطراب (٢٠٣، ٢٠٤)، الروض الأنف (٢/ ١٤٣).

الثالث: ورد في الحديث أن النبي ﷺ رد على المعترض فقال: إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرهم بعبادته" فأنزل الله تعالى تصديقًا لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١-١٠٣).

فانظر إلى هذا الجواب المفحم الذي لم يترك للمجادل مجالًا للتمادي بالباطل، حيث أعلمه أن من ذكر لم يأمروهم بعبادتهم، وأنهم إنما يعبدون الشياطين، وأنهم لو أمروهم بذلك أو حبذوا ذلك منهم لكان الحكم عامًا فيهم.[1]

* * * *

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ (١/ ١٢٦) تأليف: عماد الشربيني.

سورة الحـــج

وفيها :

١- شبهة الغرانيق

٢- شبهة: ادعاؤهم أن الحج شعائره وثنية.

١ـ شبهة الغرانيق

نص الشبهة:

تحت عنوان: (وحي من الشيطان) كتب أعداء الإسلام ما يلي:

جاء في سورة الحج: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ (الحج: ٥٢)، حيث قالوا: قال المفسرون: إن محمدًا ﷺ لما كان في مجلس قريش أنزل الله عليه سورة النجم فقرأها حتى بلغ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾، فألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه - وهو: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فلما سمعت قريش فرحوا به، ومضى محمدﷺ في قراءته، فقرأ السورة كلها، وسجد في آخرها، وسجد المسلمون بسجوده، كما سجد جميع المشركين. ، وقالوا: لقد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقد عرفنا أن الله يحيي ويميت؛ ولكن آلهتنا تشفع لنا عنده!.

قالوا: ونحن نسأل: كيف يقر محمد ﷺ لوحدانية الله ﷻ ويمدح آلهة قريش ليتقرب إليهم، ويفوز بالرياسة عليهم بالأقوال الشيطانية؟ وما الفرق بين النبي الكاذب والنبي الصادق إذا كان الشيطان ينطق على لسان كليهما؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن القصة من جهة الإسناد لا تثبت عن النبي ﷺ.

الوجه الثاني: الراجح عند أهل العلم أن المرسل ليس بحجة.

الوجه الثالث: الأدلة من القرآن على بطلان هذه القصة.

الوجه الرابع: الأدلة من السنة على بطلان واستحالة هذه القصة.

الوجه الخامس: الأدلة من المعقول على بطلان القصة.

الوجه السادس: في ذكر بعض كلام المحققين على هذه القصة.

الوجه السابع: ولكن أهل العلم أجابوا عنها على فرض صحتها، وقد أعاذنا الله من صحتها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن القصة من جهة الإسناد لا تثبت عن النبي ﷺ.

فالطريق المسندة عن ابن عباس ﷺشديدة الضعف وبقية الطرق مرسلة، وإليك بيان كل طريق وما فيه من علة.

أولا الرواية المسندة: عن ابن عباس ﷺأن رسول الله ﷺ قرأ النجم فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ **ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وشفاعتهم ترتجى فلما بلغ آخرها سجد، وسجد المسلمون، والمشركون فأنزل الله ﷻ** ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ **إلى قوله** ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ **يوم بدر.** [١]

---

(١) ضعيف جدًا، وله طرق عن ابن عباس ﷺ:

الطريق الأول: أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٤٥٠)، ، ومن طريقه الضياء في المختارة (٨٤)من طريق الحسين بن إسحاق التستري، وعبدان بن أحمد.

وأخرجه الضياء في المختارة (٨٣)من طريق ابن مردويه، عن محمد بن أحمد بن إبراهيم عن علي بن الحسين بن الجنيد، عن أحمد بن محمد بن عاصم، وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣/ ٧٢)من طريق يوسف بن حماد، جميعهم (الحسين، وعبدان، وأحمد بن محمد بن عاصم، ويوسف بن حماد) عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب وذكره بهذا الشك فيه واختلف على شعبة في وصل الحديث وأرسله، فأخرجه عنه أمية بن خالد كما تقدم متصلًا، وخالفه جماعة فرووه عن شعبة بهذا الإسناد إلى ابن جبير مرسلًا وها هم:

١-محمد بن جعفر (وهو أثبت الناس في شعبة) أخرجه الطبري في تفسير سورة الحج آية (٥٢) من طريق محمد بن بشار، عن محمد بن جعفر، عن شعبة به مرسلًا.

٢-عبد الصمد، أخرجه الطبري من طريق ابن المثنى، حدثني عبد الصمد، عن شعبة به مرسلًا.

٣-أبو داود الطيالسي، أخرجه ابن أبي حاتم كما ذكره ابن كثير من طريق يونس بن حبيب، عن أبي داود عن شعبة به، فهؤلاء أصحاب شعبة الأثبات فيه، ومحمد بن جعفر هو ربيب شعبة، وهو المشهور بغندر، قال ابن المبارك: إذا اختلف الناس في حديث شعبة فكتاب غندر حكم بينهم.

قلت: وتابعه اثنان من الأثبات على الإرسال، فثبت شذوذ أمية بن خالد ووهمه في الرواية.

الطريق الثاني: أخرجه الضياء في المختارة، فقال: أخبرنا أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم الخباز، أن أبا الخير محمد بن رجاء بن إبراهيم أخبرهم ابن أحمد بن عبد الرحمن ابن أحمد بن موسى بن مردويه حدثني إبراهيم بن

محمد حدثني أبو بكر محمد بن علي المقرئ البغدادي، ثنا جعفر بن محمد الطيالسي، ثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة، ثنا أبو عاصم النبيل، ثنا عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وهذا إسناد ضعيف فيه أبو بكر المقريء؛ واسمه محمد بن على بن الحسن أبو بكر المقريء ترجم له الخطيب في التاريخ (٣/ ٦٨)ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وقال الألباني: مجهول الحال واختلف على عثمان بن الأسود، فأخرجه عنه أبو عاصم النبيل كما سبق متصلًا وأخرجه عنه يحيى القطان مرسلًا.

أخرجه الواحدي في أسباب النزول (١/ ٢٠٩)فقال: أخبرنا أبو بكر الحارثي، قال: أخبرنا أبو بكر بن حيان قال: أخبرنا أبو يحيى الرازي قال: أخبرنا سهل العسكري قال: أخبرنا يحيى (هو القطان)عن عثمان بن الأسود، عن سعيد بن جبير به مرسلًا.

وإسناده صحيح إلى سعيد بن جبير، والقطان أحفظ من أبي عاصم ورواية أبي عاصم مقدمة على روايته، ثم إن إسناد الطريق الأول ضعيف.

الطريق الثالث: أخرجه الطبري فقال: حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس بنحوه،

فال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري١/ ٢٦٣: هو إسناد مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة، إن صح هذا التعبير! وهو معروف عند العلماء بـ "تفسير العوفي"، لأن التابعي -في أعلاه- الذي يرويه عن ابن عباس، هو"عطية العوفي". اهـ

ففي الإسناد محمد بن سعد قال الخطيب: كان لينًا (التاريخ ٥/ ٣٢٢، ٣٢٣)

والده سعد بن محمد بن الحسن بن عطية العوفي ضعيف (تاريخ بغداد ٩/ ١٢٦)

وعمه الحسين بن الحسن بن عطيه متفق على ضعفه (تاريخ بغداد ٨/ ٢٩)

وأبوه الحسن بن عطيه وجده عطية العوفي ضعيفان مشهوران بالضعف (تهذيب التهذيب ٢/ ٢٧٢). فالطريق واهي لا يصلح للاعتبار.

الطريق الرابع: أخرجه ابن مردويه -نقلًا عن فتح الباري ٨/ ٤٣٩من طريق عباد بن صهيب عن يحيى بن كثير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وقال البزار: وإنما يروى هذا عن أبي صالح عن ابن عباس.

قلت: وإسناده ضعيف جدًا، والكلبي متهم بالكذب ورمي بالرفض كما قال الحافظ في التقريب (٥٩٠١)، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

الطريق الخامس: عن ابن عباس ذكرها الحافظ بعد ذكر الطريق السابقة فقال فيما يعزوه لابن مردويه: وعن أبي بكر الهذلي، وأيوب عن عكرمة، عن ابن عباس.

وهذا إسناد ضعيف جدًا أبو بكر الهذلي إخباري متروك الحديث؛ كما في التقريب (٨٢٨٣)

ثانيًا: الروايات المرسلة:

أولًا: مرسل سعيد بن جبير وهو صحيح إليه، وقد سبق تخريجه مع طريق ابن عباس.

ثانيًا: مرسل محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس قالا: " جلس رسول الله ﷺ في ناد من أندية قريش كثير أهله فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه فأنزل الله عليه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾ (النجم: ١، ٢) فقرأها رسول الله ﷺحتى بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ⑲ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ⑳﴾ (النجم: ١٩، ٢٠) ألقى عليه الشيطان كلمتين: تلك الغرنقة العلى وإن شفاعتهن لترتجى فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعا معه ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود فرضوا بما تكلم به وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت وهو الذي يخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك قالا: فلما أمسى أتاه جبرائيل عليه السلام فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين فقال رسول الله ﷺ: افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ (الإسراء: ٧٣) إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٧٥) فما زال مغمومًا مهمومًا حتى نزلت عليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑤②﴾ قال: فسمع من كان من المهاجرين بأرض

وأيوب هو السختياني والظاهر أن الراوي قرن أيوب مع أبي بكر في رواية أصل الحديث لا في هذه الزيادة ومما يبين ذلك أن البخاري أخرج رواية أيوب للحديث برقم (٤٨٦٢: ١٠٧١) من غير ذكر ولا إشارة لقصة الغرانيق فظهر بهذا أنها ليست من رواية أيوب ولكن الراوي قرنه معه في قصة السجود فقط.

الطريق السادس: ذكرها الحافظ وعزاها لابن مردويه من طريق سليمان التيمي عمن حدثه عن ابن عباس به، وهذه رواية ظاهرة الانقطاع ومن ثم قال الحافظ في الفتح ٨/ ٤٣٩بعد ذكر هذه الطرق: وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإلا منقطع.

وكلام ابن حجر هذا يؤيد ما رجحناه من شذوذ الطريق الموصولة، وأن المحفوظ الطريق المرسل.

الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا: هم أحب إلينا فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان"(١)

ثالثا: مرسل محمد بن كعب القرظي:

قال: لما رأى رسول الله ﷺ تولي قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من عند الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه وكان يسره مع حبه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما غلظ عليه من أمرهم حين حدث بذلك نفسه وتمنى وأحبه فأنزل الله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ (النجم ٢: ١)، فلما انتهى إلى قول الله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾ (النجم٢٠: ١٩) ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتضى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقًا لما جاء به واتباعًا لأمره وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة فإنه كان شيخًا كبيرًا فلم يستطع فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون: قد ذكرنا محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقد زعم فيما يتلو أنه الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتضى وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٩/ ١٧٤، قال: حدثنا القاسم بن الحسن ثنا الحسين بن داود ثنا حجاج عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس به.

وهو مع الإرسال إسناده ضعيف فيه أبو معشر اسمه نجيح بن عبد الرحمن السندي قال الحافظ في التقريب (ت٧١٠٠): ضعيف من السادسة أسن واختلط والحسين بن داود المصيصي يلقب سُنَيد ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٢٣٦) وقال: قال النسائي: الحسين بن داود ليس بثقة، وقال أبو داود لم يكن بذاك.

والقاسم بن الحسن ذكره صاحب معجم شيوخ الطبري (٤٧)وقال: لم أعرفه. ولم يعرفه الشيخ أحمد شاكر.

ﷺ وقيل: أسلمت قريش فنهضت منهم رجال وتخلف آخرون وأتى جبرائيل النبي ﷺ فقال: يا محمد ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت مل لم يقل لك فحزن رسول الله ﷺعند ذلك وخاف من الله خوفًا كبيرًا فأنزل الله تبارك وتعالى عليه وكان به رحيمًا يعزيه ويخفض عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله رسول ولا نبي تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه ﷺ فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته أي فأنت كبعض الأنبياء والرسل فأنزل الله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ الآية فأذهب الله عن نبيه الحزن وأمنه من الذي كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم أنها الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتضى يقول الله حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إلى قوله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ (النجم: ٢٦)أي فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده فلما جاءه من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه قالت قريش: ندم محمد على ما كان من منزلة آلهتكم عند الله فغير ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شرًا إلى ما كانوا عليه ". (١)

رابعًا: **مرسل أبي العالية** قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنما جلساؤك عبد بني فلان ومولى بني فلان فلو ذكرت آلهتنا بشيء جالسناك فإنه يأتيك أشارف العرب فإذا رأوا

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٩/ ١٧٤، فقال: حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق عن يزيد بن زياد المدني عن محمد بن كعب به.

قلت: وإسناده ضعيف جدًّا، وفيه محمد بن حميد بن حيان الرازي (ضعفه جمهور النقاد)، قال أبو نعيم بن عدي: سمعت أبا حاتم الرازي في منزله وعنده ابن خراش وجماعة من مشايخ أهل الري وحفاظهم فذكروا ابن حميد فأجمعوا على أنه ضعيف في الحديث جدًا وأنه يحدث بما لم يسمعه وأنه يأخذ أحاديث أهل البصرة والكوفة فيحدث بها عن الرازيين وقال النسائي: ليس بشيء، وقال مرة: كذاب، وقال ابن حجر: حافظ ضعيف. اهـ من تهذيب التهذيب ٩/ ١١٤، وتقريب التهذيب (٥٨٣٤)، وفيه أيضًا محمد بن إسحاق: مدلس؛ وقد عنعن.

جلساءك أشراف قومك كان أرغب لهم فيك قال: فألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترجى مثلهن لا ينسى قال: فسجد النبي ﷺ حين قرأها وسجد معه المسلمون والمشركون، فلما علم الذي أجري على لسانه كبر ذلك عليه فأنزل الله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ .[1]

خامسًا: مرسل الضحاك قال الضحاك في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الآية: أن نبي الله ﷺ وهو بمكة أنزل الله عليه في آلهة العرب فجعل يتلو اللات والعزى ويكثر ترديدها فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم ففرحوا بذلك ودنوا يستمعون فألقى الشيطان في تلاوة النبي ﷺ: " تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فقرأها النبي ﷺكذلك فأنزل الله عليه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾ إلى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .[2]

سادسًا: مرسل أبي بكر بن عبد الرحمن: عن ابن شهاب أنه سئل عن قوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾، قال ابن شهاب: ثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قرأ عليهم ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ (النجم: ١)، فلما بلغ

---

(١) **مرسل صحيح الإسناد.** أخرجه الطبري ٩/ ١٧٤، فقال حدثنا ابن عبد الأعلى، قال ثنا المعتمر، قال: سمعت داود (هو ابن أبي هند)، عن أبي العالية به.

وأخرجه من وجه آخر عن حماد بن سلمة، عن داود به، وإسناده صحيح إلى أبي العالية، وأبو العالية هو رفيع بن مهران ثقة من الطبقة الثانية وهو كثير الإرسال والمرسل كما هو معلوم ضعيف لكن ثبت هذا القول إلى أبي العالية ولم يتعده.

(٢) **موضوع.** أخرجه الطبري٩/ ١٧٤، قال: حُدِّثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك، وذكره.

وهذا إسناد منقطع فالطبري لم يذكر شيخه، والحسين هو ابن الفرج يعرف بابن الخياط، قال ابن معين: كذاب يسرق الحديث، وقال في رواية ابن أبي حاتم: كذاب صاحب سكر شاطر، وقال أبو زرعة: ذهب حديثه اهـ وقال ابن حجر: وقال ابن أبي حاتم: كتب عنه أبي بالبصرة أيام أبي الوليد ثم تركه وقول الذهبي مشاه غيره ما علمت من عنى. اهـ من لسان الميزان (٢/ ٣٠٧).

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم: ١٩ - ٢٠)، قال: إن شفاعتهن ترتجى وسها رسول الله ﷺ فلقيه المشركون الذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا بذلك فقال لهم: إنما ذلك من الشيطان فأنزل الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ حتى بلغ فينسخ الله ما يلقي الشيطان. (١)

سابعًا: مرسل ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم، والشر، وكان رسول الله ﷺ اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال: وإنهن لهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا: إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع على كفه ترابا فسجد عليه فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ولم يكن المسلمون سمعوا الآية الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله ﷺ وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين عثمان بن مظعون، وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم

---

(١) **مرسل صحيح الإسناد**. إلى قائله أخرجه الطبري ٩/ ١٧٥، قال: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب به، وهذا إسناد صحيح، وأبو بكر تابعي من الطبقة الثالثة مرسله واهي. ومراسيل الزهري واهية كما قال ابن أبي حاتم.

وصلوا مع رسول الله ﷺ وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة فأقبلوا سراعًا، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه من الفرية، وقال الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم، وعداوتهم المسلمين واشتدوا عليهم.(١)

ثامنًا: عن موسى بن عقبة في قصة الذين خرجوا إلى أرض الحبشة وفيها:

وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل ما يذكر به آلهتنا من الشتم والشر، وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله هو وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنته ضلالتهم وكان يتمنى هداهم، فلما أنزل الله عز وجل سورة النجم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله ﷻ آخر الطواغيت فقال: وإنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى.

وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد، وسجد كل من حضر من مسلم أو مشرك، غير أن الوليد بن المغيرة وكان شيخًا كبيرًا رفع ملء كفيه ترابًا فسجد عليه، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود بسجود رسول الله ﷺ؛ فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين، ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان على ألسنة المشركين، وأما المشركون

(١) **مرسل**. أخرجه ابن أبي حاتم (كما قال ابن كثير في التفسير ٣/ ٣٠٨): فقال: حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا محمد بن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب به. قلت: ومراسيل ابن شهاب واهية.

فاطمأنت أنفسهم إلى النبي ﷺ وأصحابه لما ألقي في أمنية النبي ﷺ وحدثهم الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السجدة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم، وفشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة، ومر بها من المسلمين عثمان بن مظعون وأصحابه، وحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه، وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة، فأقبلوا سراعًا وقد نسخ الله ﷻ ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظها من الباطل، فقال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ فلما بين الله ﷻ قضاءه وبرأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين واشتدوا عليهم.(١)

تاسعًا: مرسل قتادة: أن النبي ﷺ كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين فألقى الشيطان في أمنيته فقال: إن الآلهة التي تدعي أن شفاعتها لترتجي وإنها للغرانيق العلى فنسخ الله ذلك وأحكام الله آياته ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ حتى بلغ ﴿مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ (النجم: ٢٣)، قال قتادة: لما ألقى الشيطان ما ألقى قال المشركون: قد ذكر الله آلهتهم بخير ففرحوا بذلك فذكر قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾.(٢)

---

(١) **معضل، وإسناده حسن إلى موسى بن عقبة.** أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، ببغداد قال: أنبأنا أبو بكر بن عتاب قال: حدثنا القاسم بن عبد الله بن المغيرة قال: أخبرنا إسماعيل بن أبي أويس قال: أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبة في كتاب المغازي، وذكره مطولًا.

قلت: وموسى بن عقبة من الطبقة الخامسة، فجُلّ روايته عن التابعين وأتباع التابعين، فأنَّى له برواية مثل هذا، وقد حدّث بهذا على طريقة الإخباريين وأصحاب المغازي، ولم يسند ما قاله، فالإعضال في الرواية شديد.

(٢) **معضل، وهو صحيح الإسناد إليه.** أخرجه الطبري من طريق ابن عبد الأعلى، عن أبي ثور. ومن طريق الحسن، عن عبد الرزاق كلاهما – أبو ثور، وعبد الرزاق – عن معمر، عن قتادة به، وإسناده إلى قتادة ظاهره الصحة ولكنه مرسل، وقتادة من الطبقة الرابعة ومراسيله واهية.

عاشرًا: مرسل عروة بن الزبير: عن عروة بن الزبير في قصة مهاجري الحبشة قال: وقال المشركون من قريش: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه، وأصحابه فإنه لا يذكر أحدًا ممن خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر به آلهتنا من الشتم والشر، فلما أنزل الله ﷻ السورة التي يذكر فيها والنجم وقرأ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان فيها عند ذلك ذكر الطواغيت فقال: وإنهن لمن الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى، وذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك، وذلت بها ألسنتهم، واستبشروا بها، وقالوا: إن محمدًا ﷺ قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة التي فيها النجم سجد، وسجد معه كل من حضر من مسلم ومشرك غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلًا كبيرًا فرفع على كفه ترابًا فسجد عليه فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ فأما المسلمون فعجبوا من سجود المشركين على غير إيمان ولا يقين، ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان على ألسنة المشركين، وأما المشركون فاطمأنت أنفسهم إلى النبي ﷺ، وأصحابه لما سمعوا الذي ألقى الشيطان في أمنية النبي ﷺ، وحدثهم الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السجدة فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة في الناس، وأظهرها الشيطان حتى بلغت الحبشة فلما سمع عثمان بن مظعون، و عبد الله بن مسعود، ومن كان معهم من أهل مكة أن الناس قد أسلموا وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه أقبلوا سراعًا، وكبر ذلك على رسول الله ﷺ، فلما أمسى أتاه جبريل ؑ فشكا إليه، فأمره فقرأ عليه فلما بلغها تبرأ منها جبريل ؑ وقال: معاذ الله من هاتين ما أنزلهما ربي ولا أمرني بهما ربك، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ شق عليه وقال: أطعت الشيطان، وتكلمت بكلامه، وشركني في أمر الله فنسخ الله ﷻ ما ألقى الشيطان وأنزل عليه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾، فلما برأه الله من سجع الشيطان، وفتنته انقلب المشركون بضلالهم، وعدواتهم، وبلغ المسلمين ممن كان بأرض الحبشة، وقد شارفوا مكة فلم يستطيعوا الرجوع من شدة البلاء الذي أصابهم، والجوع، والخوف خافوا أن يدخلوا مكة فيبطش بهم فلم يدخل رجل منهم إلا بجوار. . . . الحديث. [(١)]

الحادي عشر: مرسل المطلب بن عبد الله بن حنطب ومحمد بن فضالة الظفري

قالا: رأى رسول الله ﷺ من قومه كفًا عنه فجلس خاليًا فتمنى فقال ليته لا ينزل علي شيء ينفرهم عني وقارب رسول الله ﷺ قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يومًا مجلسًا في نادٍ من تلك الأندية حول الكعبة، فقرأ عليهم ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ حتى إذا بلغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ ألقى الشيطان كلمتين على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فتكلم رسول ﷺ بهما ثم مضى فقرأ السورة كلها، وسجد وسجد القوم جميعًا، ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخًا كبيرًا لا يقدر على السجود، ويقال إن أبا أحيحة سعيد بن العاص أخذ ترابًا فسجد عليه رفعه إلى جبهته، وكان شيخًا كبيرًا فبعض الناس يقول إنما الذي رفع التراب الوليد، وبعضهم يقول أبو أحيحة، وبعضهم يقول كلاهما جميعًا فعل ذلك فرضوا بما تكلم به رسول الله ﷺ، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، وأما إذ جعلت لها نصيبًا فنحن معك، فكبر ذلك على رسول الله ﷺ من قولهم حتى جلس في البيت فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة فقال جبريل: جئتك بهاتين الكلمتين فقال رسول الله

---

(١) **ضعيف مع إرساله.** أخرجه الطبراني في الكبير (٨٣١٦)فقال: حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحراني، ثنا أبي، ثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة به. قلت: وإسناده ضعيف، وفيه علتان: الإرسال، وابن لهيعة ضعيف، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٢): أخرجه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة ولا يحتمل هذا من ابن لهيعة.

ﷺقلت على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾.[١]

الثاني عشر: مرسل أبي صالح

قال السيوطي: وأخرج عبد بن حميد، من طريق السدي، عن أبي صالح، قال: قام رسول الله ﷺ، فقال المشركون: أن ذكر آلهتنا بخير ذكرنا آلهته بخير فألقى الشيطان في أمنيته ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ إنهن لفي الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى قال: فأنزل الله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾، فقال ابن عباس رضي الله عنه: أن أمنيته أن يسلم قومه.[٢]

ومن خلال ما مر نعرف أن القصة لاتصح مسندة وما صح إسناده منها فهو مرسل والمرسل من أنواع الضعيف، وإليك بيان كلام العلماء عليه بشيء من التفصيل.

الوجه الثاني: الراجح عند أهل العلم أن المرسل ليس بحجة.
وبيان ذلك مايلي:

الحديث المرسل: هو الذي يرويه المحدث بأسانيد متصلة إلى التابعي فيقول التابعي: قال رسول الله ﷺ.[٣]

حكمه: الحديث المرسل ضعيف لا يحتج به عند جمهور المحدثين وكثير من الفقهاء، وأصحاب الأصول والنظر، وذلك للجهل بحال الساقط من السند فإنه يحتمل أن يكون

---

(١) **ضعيف جدًا**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٠٥)، فقال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني يونس ابن محمد بن فضالة الظفري عن أبيه، قال: وحدثني كثير بن زيد، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب به. وهو مع إرساله من طريق الواقدي وهو متروك الحديث.

(٢) هكذا أورده السيوطي رحمه في الدر المنثور (٦/ ٦٥)، وهو على أحسن أحواله مرسل، وأبو صالح هو ذكوان من التابعين.

(٣) معرفة علوم الحديث للحاكم (١/ ٦٧)، والنكت على ابن الصلاح للزركشي (١/ ٤٤٧).

غير صحابي، وإذا كان كذلك فيحتمل أن يكون ضعيفًا، وإن اتفق أن يكون المرسل لا يروي إلا عن ثقة فالتوثيق مع الإبهام غير كاف. [١]

وقال بعض الأئمة الحديث المرسل صحيح يحتج به، وقيد ابن عبد البر ذلك بما إذا لم يكن مرسله ممن لا يحترز، ويرسل عن غير الثقات فإن كان فلا خلاف في رده.

وقال أبو داود في رسالته إلى أهل مكة: وأما المراسيل فقد كان يحتج بها العلماء فيما مضى مثل سفيان الثوري، ومالك، والأوزاعي حتى جاء الشافعي فتلكم فيها، وتابعه على ذلك أحمد بن حنبل، وغيره، فإذا لم يكن مسند غير المراسيل، ولم يوجد المسند، فالمرسل يحتج به، وليس هو مثل المتصل في القوة.

وقال الطبري: أجمع التابعون بأسرهم على قبول المرسل ولم يأت عنهم إنكاره، ولا عن أحد من الأئمة بعدهم إلى رأس المئتين.

قال ابن عبد البر: كأنه يعني أن الشافعي أول من رده.

وقد انتقد بعضهم قول من قال إن الشافعي أول من ترك الاحتجاج بالمرسل، فقد نقل ترك الاحتجاج عن سعيد بن المسيب، وهو من كبار التابعين، ولم ينفرد هو بذلك بل قال به من بينهم ابن سيرين والزهري. [٢]

وقد أخرج مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قيل: سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[٣].

وقد ترك الاحتجاج بالمرسل ابن مهدي، ويحيى القطان، وغير واحد ممن قبل الشافعي، والذي يمكن نسبته إلى الشافعي في أمر المرسل هو زيادة البحث عنه والتحقيق فيه، وأخرج في الحلية من طريق ابن مهدي، عن ابن لهيعة أنه سمع شيخًا من الخوارج يقول بعدما تاب إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمرًا صيرنا له حديثًا.

---

(١) توجيه النظر إلى أصول الأثر (٢/ ٥٥٩)، وفتح المغيث (١/ ١٤٢).

(٢) توجيه النظر إلى أصول الأثر ٢/ ٥٥٩.

(٣) صحيح مسلم ١/ ١٢.

قال ابن حجر: هذه والله قاصمة الظهر للمحتجين بالمرسل إذ بدعة الخوارج كانت في مبدأ الإسلام والصحابة متوافرون ثم في عصر التابعين فمن بعدهم وهؤلاء إذا استحسنوا أمرًا جعلوه حديثًا وأشاعوه، فربما سمع الرجل الشيء فحدث به ولم يذكر من حدثه به تحسينًا للظن فيحمله عنه غيره ويجيء الذي يحتج بالمنقطعات فيحتج به مع كون أصله ما ذكرت.[1]

وأما مراسيل الصحابة فحكمها حكم الموصول على المشهور الذي ذهب إليه الجمهور قال ابن الصلاح ثم إنا لم نعد في أنواع المرسل ونحوه ما يسمى في أصول الفقه مرسل الصحابي مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصحابة عن النبي ﷺ ولم يسمعوه منه لأن ذلك في حكم الموصول المسند لأن

روايتهم عن الصحابة والجهالة بالصحابي غير قادحة لأن الصحابة كلهم عدول.

قال الحافظ العراقي: وفي قوله: لأن روايتهم عن الصحابة نظر، والصواب أن يقال لأن غالب روايتهم إذ قد سمع جماعة من الصحابة من بعض التابعين.[2]

ولم يذكر ابن الصلاح خلافًا في مرسل الصحابي وفي بعض كتب الأصول أنه لا خلاف في الاحتجاج به، وليس بجيد فقد قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني إنه لا يحتج به، والصواب ما تقدم من الاحتجاج به.

وأما مراسيل من أُحضر إلى النبي ﷺغير مميز كعبيد الله بن عدي بن الخيار فلا يمكن أن يقال إنها مقبولة كمراسيل الصحابة لأن رواية الصحابة إما أن تكون عن النبي ﷺ أو عن صحابي والكل مقبول، واحتمال كون الصحابي الذي أدرك، وسمع يروي عن التابعين بعيد بخلاف مراسيل هؤلاء فإنها عن التابعين بكثرة فقوي احتمال أن يكون الساقط غير صحابي، وجاء احتمال كونه غير ثقة.[3]

وقال ابن حزم: المرسل من الحديث هو الذي سقط بين أحد رواته وبين النبي ﷺ ناقل واحد فصاعدًا وهو المنقطع أيضًا وهو غير مقبول، ولا تقوم به حجة لأنه عن مجهول، وقد

---

(١) فتح المغيث (١/ ١٤٤).

(٢) التقييد والإيضاح (١/ ٧٥)، والشذا الفياح (١/ ١٥١).

(٣) توجيه النظر إلى أصول الأثر (٢/ ٥٦١).

قدمنا أن من جهلنا حاله ففرض علينا التوقف عن قبول خبره وعن قبول شهادته حتى نعلم حاله، وسواء قال الراوي حدثنا الثقة أو لم يقل لا يجب أن نلتفت إلى ذلك إذ قد يكون عنده ثقة من لا يعلم من جرحته ما يعلم غيره وقد قدمنا أن الجرح أولى من التعديل.

وقد وثق سفيان الثوري جابرًا الجعفي، وجابر قد عرف من حاله ما عرف، ولكن قد خفي أمره على سفيان فقال بما ظهر منه إليه، ومرسل سعيد بن المسيب، ومرسل الحسن البصري وغيرهما سواء لا يؤخذ منه شيء.

ثم قال رحمه الله: فواجب على كل أحد أن لا يقبل إلا من عرف اسمه وعرفت عدالته وحفظه، فما أحد ينصح نفسه يثق بحديث مرسل أصلًا. (١)

وقال ابن تيمية: قد تنازع الناس في قبول المراسيل وفي ردها، وأصح الأقوال أن منها المقبول ومنها المردود ومنها الموقوف فمن علم من حاله أنه لا يرسل إلا عن ثقة قبل مرسله ومن عرف أنه يرسل عن الثقة وغير الثقة كان إرساله رواية عمن لا يعرف حاله فهذا موقوف، وما كان من المراسيل مخالفًا لما رواه الثقات كان مردودًا، وإذا كان المرسل قد ورد من وجهين وكان كل من الراويين قد أخذ العلم عن غير شيوخ الآخر فهذا يدل على صدقه فإن من أخبر بمثل ما أخبر به الآخر مع العلم بأن واحدًا منهما لم يستفد ذلك من الآخر فإنه يعلم أن الأمر كذلك. (٢)

وفي رسالة الشافعي أنه سئل: فهل تقوم بالحديث المنقطع حجة على مَن علمه؟

وهل يختلف المنقطع؟ أو هو وغيره سواءٌ؟

فقال: المنقطع مختلف فمن شاهد أصحاب رسول الله ﷺ من التابعين فحدث حديثًا منقطعًا عن النبي ﷺ اعتبر عليه بأمور:

١-منها: أن ينظر إلى ما أرسل من الحديث فإن شركه فيه الحفاظ المأمونون فأسندوه إلى رسول الله ﷺ بمثل معنى ما روى كانت هذه دلالة على صحة ما قبل عنه وحفظه.

وإن انفرد بإرسال حديث لم يَشركه فيه من يُسنده قُبِل ما ينفرد به من ذلك ويعتبر عليه بأن:

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ١٤٣).

(٢) منهاج السنة (٧/ ٤٣٥).

١-ينظر هل يوافقه مرسل غيره ممن قبل العلم عنه من غير رجاله الذين قبل عنهم فإن وجد ذلك كانت دلالة تقوي له مرسله وهي أضعف من الأولى.

٢-وإن لم يوجد ذلك نظر إلى بعض ما يروى عن بعض أصحاب النبي ﷺ - قولًا له فإن وجد يوافق ما روى عن النبي ﷺ كانت في هذا دلالة على أنه لم يأخذ مرسله إلا عن أصل إن شاء الله تعالى.

٣-وكذلك إن وجد عوام من أهل العلم يفتون بمثل معنى ما روى عن النبي ﷺ.

٤-ثم يعتبر عليه بأن يكون إذا سمى من روى عنه لم يسم مجهولًا ولا مرغوبًا عن الرواية عنه فيستدل بذلك على صحته فيما يروي عنه.

٥-ويكون إذا شرك أحدًا من الحفاظ في حديث لم يخالفه فإن خالفه ووجد أنقص كانت في هذه دلائل على صحة مخرج حديثه.

ومتى خالف ما وصفت أضر بحديثه حتى لا يسع أحدًا منهم قبول مرسله قال وإن وجدت الدلائل لصحة حديثه بما وصفت أحببنا أن نقبل مرسله ولا نستطيع أن نزعم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالمتصل وذلك أن معنى المنقطع مغيب يحتمل أن يكون حمل عمن يرغب عن الرواية عنه إذا سمي وأن بعض المنقطعات وإن وافقه مرسل مثله فقد يحتمل أن يكون مخرجهما واحدا من حديث من لو سمي لم يقبل.

وإن قول بعض أصحاب رسول الله ﷺ إذا قال برأيه لو وافقه لم يدل على صحة مخرج الحديث دلالة قوية إذا نظر فيها ويمكن أن يكون إنما غلط به حين سمع قول بعض أصحاب رسول الله ﷺ يوافقه ويحتمل مثل هذا فيمن وافقه من بعض الفقهاء.

قال: فأما من بعد كبار التابعين الذين كثرت مشاهدتهم لبعض أصحاب النبي ﷺ فلا أعلم أحدا منهم يقبل مرسله لأمور:

أحدها: أنهم أشد تجوزا فيمن يروون عنه.

والآخر: أنهم توجد عليهم الدلائل فيما أرسلوا بضعف مخرجه.

والآخر: كثرة الإحالة في الأخبار وإذا كثرت الإحالة كان أمكن للوهم وضعف من يقبل عنه. اهـ(١)

ثم إن السقوط من السند قد يكون واضحا يشترك في معرفته كثيرون من أهل الفن ولا يخفى عليهم وذلك في مثل ما إذا كان الراوي لم يعاصر من روى عنه وقد يكون خفيًا لا يدركه إلا الأئمة الحذاق المطلعون على طرق الأحاديث وعلل الأسانيد والأول يدرك بمعرفة التاريخ لتضمنه التعريف بأوقات مواليد الرواة ووفياتهم وطلبهم وارتحالهم وغير ذلك.

وقد ادعى أناس الرواية عن شيوخ أظهر التاريخ كذب دعواهم فيها ولذا عني المحدثون بالتاريخ كثيرًا.

ويقال للإسناد الذي يكون السقوط فيه واضحًا المرسل الجلي وللإسناد الذي يكون السقوط فيه خفيا المدلس بالفتح إن كان الإسقاط صادرًا ممن عرف لقاؤه لمن روى عنه والمرسل الخفي إن كان الإسقاط صادرًا ممن عرف معاصرته له ولم يعرف إنه لقيه وهذا على قول من فرق بينهما وجعلهما متباينين وأما من جعل المرسل الخفي داخلًا في المدلس فإنه يعرف المدلس بأنه هو الإسناد الذي يكون السقوط فيه خفيًا. (٢)

وقال النووي: مذهب الشافعي والمحققين أن الحديث المرسل إذا روى من جهة أخرى متصلًا احتج به وكان صحيحًا وتبينا برواية الاتصال صحة رواية الإرسال ويكونان صحيحين. (٣)

وقال النووي: الحديث المرسل لا يحتج به عندنا وعند جمهور المحدثين وجماعة من الفقهاء وجماهير أصحاب الأصول والنظر وحكاه الحاكم أبو عبد الله بن البيع عن سعيد بن المسيب ومالك وجماعة أهل الحديث وفقهاء الحجاز: وقال أبو حنيفة ومالك في المشهور عنه واحمد وكثيرون من الفقهاء أو أكثرهم يحتج به ونقله الغزالي عن الجماهير: وقال أبو عمر بن عبد البر وغيره ولا خلاف انه لا يجوز العمل به إذا كان مرسله غير متحرز يرسل عن غير الثقات.

---

(١) الرسالة (٤٦١).

(٢) توجيه النظر إلى أصول الأثر لطاهر الجزائري (٢/ ٥٥٨-٥٦٧).

(٣) شرح مسلم للنووي (١٨/ ٢٣).

ودليلنا في رد المرسل مطلقًا أنه إذا كانت رواية المجهول المسمى لا تقبل لجهالة حاله فرواية المرسل أولي لأن المروى عنه محذوف مجهول العين والحال: ثم إن مرادنا بالمرسل هنا ما انقطع إسناده فسقط من رواته واحد فأكثر وخالفنا في حده أكثر المحدثين، فقالوا: هو رواية التابعي عن النبي ﷺ: قال الشافعي رحمه الله وأحتج بمرسل كبار التابعين إذا أسند من جهة أخرى أو أرسله من أخذ عن غير رجال الأول ممن يقبل عنه العلم أو وافق قول بعض الصحابة أو أفتى أكثر العلماء بمقتضاه قال ولا أقبل مرسل غير كبار التابعين ولا مرسلهم إلا بالشرط الذي وصفته هذا نص الشافعي في الرسالة وغيرها وكذا نقله عنه الائمة المحققون من أصحابنا الفقهاء والمحدثين كالبيهقي والخطيب البغدادي وآخرين: ولا فرق في هذا عنده بين مرسل سعيد بن المسيب وغيره هذا هو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون:

قال الغزالي: والمختار رده، والدليل أنه لو ذكر شيخه، ولم يعدله وبقي مجهولا عندنا لم نقبله فإذا لم يسمه فالجهل أتم فمن لا يعرف عينه كيف تعرف عدالته. (١)

وقال الترمذي: ومن ضعف المرسل فإنه ضعف من قبل أن هؤلاء الأئمة حدثوا عن الثقات وغير الثقات، فإذا روى أحدهم حديثًا وأرسله لعله أخذه عن غير ثقة قد تكلم الحسن البصري في معبد الجهني ثم روى عنه حدثنا بشر بن معاذ البصري حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار حدثني أبي، وعمي قالا سمعنا الحسن يقول إياكم، ومعبد الجهني فإنه ضال مضل قال أبو عيسى: ويروى عن الشعبي حدثنا الحارث الأعور، وكان كذابا، وقد حدث عنه، وأكثر الفرائض التي ترونها عن علي وغيره هي عنه وقد قال الشعبي: الحارث الأعور علمني الفرائض، وكان من أفرض الناس قال: وسمعت محمد بن بشار يقول: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ألا تعجبون من سفيان بن عيينة لقد تركت لجابر الجعفي بقوله لما حكى عنه أكثر من ألف حديث ثم هو يحدث عنه قال محمد بن بشار: وترك عبد الرحمن بن مهدي حديث جابر الجعفي.

وقد احتج بعض أهل العلم بالمرسل أيضًا حدثنا أبو عبيدة بن أبي السفر الكوفي حدثنا سعيد بن عامر عن شعبة عن سليمان الأعمش قال قلت لإبراهيم النخعي أسند لي عن

(١) المستصفى (١/ ١٣٥).

عبد الله بن مسعود فقال إبراهيم إذا حدثتك عن رجل عن عبد الله فهو الذي سميت وإذا قلت قال عبد الله فهو عن غير واحد عن عبد الله. [١]

وقال ابن حجر: بعد أن ذكر المرسل في أنواع المردود: (وإنما ذكر في قسم المردود للجهل بحال المحذوف لأنه يحتمل أن يكون صحابيًا، ويحتمل أن يكون تابعيًا وعلى الثاني يحتمل أن يكون ضعيفًا ويحتمل أن يكون ثقة، وعلى الثاني يحتمل أن يكون حمل عن صحابي، ويحتمل أن يكون حمل عن تابعي، وعلى الثاني فيعود الاحتمال السابق، ويتعدد أما بالتجويز العقلي فإلى ما لا نهاية، وأما بالاستقراء فإلى ستة أو سبعة، وهو أكثر ما وجد في رواية بعض التابعين عن بعض). [٢]

ومن قال بالعمل به من أهل العلم نص على شرط، وهو أن لايكون في الباب شيء يدفعه قال ابن القيم رحمه الله في ذكر أصول الإمام أحمد: الأصل الرابع الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه. [٣]

وفي صدر (صحيح مسلم): المرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة وابن عبد البر - حافظ المغرب - ممن حكى ذلك عن جماعة أصحاب الحديث والاحتجاج به مذهب (مالك) و(أبي حنيفة) وأصحابهما - رحمهم الله - في طائفة والله أعلم. [٤]

وخلاصة هذا البحث: أن الراجح الذي عليه العمل عند جمهور المحدثين أن المرسل من أنواع الضعيف وأن الخلاف في الاحتجاج بالمرسل إنما هو في أحكام الفروع، ولا يمكن أن يكون جاريًا في أصول العقائد، لأنها لا تثبت إلا بدليل صحيح، وأن تقويته لابد فيها من شروط سبق ذكرها عن الإمام الشافعي وهذه الشروط لا تتفق على ما صح من الطرق المرسلة لهذه القصة.

---

(١) العلل الصغير (١/ ٧٥٤).

(٢) نزهة النظر ص٤٣-٤٤.

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد (١١٦)، وإعلام الموقعين ١/ ٣١، وانظر معرفة علوم الحديث (١/ ٦٧).

(٤) المقدمة (١/ ٣١)، والتقييد والإيضاح (١/ ٥٢).

فأما الشرط الأول: وهو أن يكون المرسل أسند من وجه آخر فهذا لا يتفق مع هذه القصة لأن الرواية المسندة شاذة في أصح طرقها وبقية الطرق شديدة الضعف والشاذ وما لم يرو سواء لأن الرواي أخطأ فيه، ومن الواضح أن سبب رد العلماء للشاذ إنما هو ظهور خطأها بسبب المخالفة المذكورة وما ثبت خطؤه فلا يعقل أن يقوى به رواية أخرى في معناها فثبت أن الشاذ والمنكر مما لا يعتد به ولا يستشهد به، بل إن وجوده وعدمه سواء)[١].

وأما شديد الضعف لايزيد الضعيف إلا ضعفًا كحال المريض يستعين بمحتضر فهل يعينه؟

فإذا عدم الشرط الأول فإنه يقبل بشروط أما الأول: فهو أن يأتي مرسلًا عمن أخذ العلم عن غير رجال الأول والذي صح من مراسيل هذا القصة ما يلي:

١-مرسل سعيد بن جبير ٢- مرسل أبي العالية ٣-مرسل أبي بكر بن عبد الرحمن ٤- مرسل الزهري ٥-مرسل موسى بن عقبة ٦- مرسل قتادة.

فأما مرسل أبي العالية: فقال العلائي رحمه الله: ومرسلات أبي العالية ضعيفة روى ابن عدي عن ابن سيرين قال كان ههنا ثلاثة يصدقون كل من حدثهم الحسن وأبو العالية وسمى آخر فبهذا ونحوه تقصر مرتبة المرسل وأن اعتضد بغيره. [٢]

وأما مرسل الزهري، وقتادة: فقال القطان مرسل الزهري شر من مرسل غيره لأنه حافظ وكلما قدر أن يسمي سمى وإنما يترك من لا يستجيز أن يسميه وروى عباس الدوري عن يحيى بن معين قال مراسيل الزهري ليست بشيء. [٣] وكان يحيى بن سعيد القطان لا يرى إرسال الزهري وقتادة شيئًا ويقول هو بمنزلة الريح. [٤]

وأما مرسل موسى بن عقبة: فهذا معضل وليس بمرسل فحسب.

(١) إرواء الغليل (٣/ ٣٥١).

(٢) جامع التحصيل (٤٥).

(٣) جامع التحصيل (١/ ٩٠).

(٤) الجرح والتعديل (١/ ٢٤٥).

وأما مرسل سعيد: فهو من الثالثة مات سنة (٩٥هـ)، وقال علي بن المديني: سمعت يحيى بن سعيد يقول مرسلات سعيد بن جبير أحب إلي من مرسلات عطاء. (١) وهذا لا يعني أنها صحيحة لأن مرسلات عطاء ضعيفة عندهم قال ابن المديني: كان عطاء يأخذ من كل ضرب. (٢)

وعليه فهذا من باب ضعيف وأضعف. والله أعلم.

وأما مرسل أبي بكر بن عبد الرحمن فهو من الثالثة سنة (٩٤هـ)فهو من نفس طبقة سعيد بن جبير فلا يبعد أن يكون شيخهما واحد ومع قيام هذا الاحتمال لا يتحقق شرط الشافعي في كون المرسل أخذ العلم عن غير شيوخ الأول.

وأما بقية الشروط: فلا يتفق منها شيئ كذلك وها هي:

١-وإن لم يوجد ذلك نظر إلى بعض ما يروى عن بعض أصحاب النبي ﷺ - قولا له فإن وجد يوافق ما روى عن النبي ﷺ كانت في هذا دلالة على أنه لم يأخذ مرسله إلا عن أصل إن شاء الله تعالى.

قلت: ولا يصح عن أحد من الصحابة شيء في هذا الأمر فأين كانوا عن مثل هذه القصة على شدة خطرها حتى لم يروها إلا التابعون ولا تصح تسمية صحابي واحد فيها وابن عباس على ضعف الرواية عنه وشذوذها لم يكن ولد عند نزول السورة.

٢-وكذلك إن وجد عوام من أهل العلم يفتون بمثل معنى ما روى عن النبي ﷺ قلت: والموجود عكس ذلك حيث أنكرها أكثر أهل العلم كما سيأتي عنهم.

٣-ثم يعتبر عليه بأن يكون إذا سمى من روى عنه لم يسم مجهولا ولا مرغوبا عن الرواية عنه فيستدل بذلك على صحته فيما يروي عنه.

قلت: ولايوجد مثل هذا في أحد ممن أرسل هذه القصة كما سبق بيانه. (٣)

---

(١) جامع التحصيل (١/ ٣٧).

(٢) نفس المصدر.

(٣) المصدر السابق

ثم قال الشافعي رحمه الله بعد هذه الشروط: ومتى ما خالف ما وصفت أضرَّ بحديثه حتى لا يسع أحدًا منهم قبول مرسله.

قال: وإذا وجدت الدلائل بصحة حديثه بما وصفت أحببنا أن نقبل مرسله ولا نستطيع أن نزعُم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالمتَصِل. وذلك أن معنى المنقطع مُغَيَّب يحتمل أن يكون حُمِل عن من يُرغب عن الرواية عنه إذا سُمّي وإن بعض المنقطعات - وإن وافقه مرسل مثله - فقد يحتمل أن يكون مخرجها واحدًا من حيث لو سمي لم يُقبل وأن قول بعض أصحاب النبي ﷺ- إذا قال برأيه لو وافقه - يدل على صحة مَخرج الحديث دلالةً قوية إذا نُظر فيها، ويمكن أن يكون إنما غلِط به حين سمِع قول بعض أصحاب النبي يوافقه ويحتمل مثل هذا فيمن وافقه من بعض الفقهاء. [١]

قال السيوطي بعد هذا الشروط: فإن فقد شرط مما ذكر لم يقبل مرسله فإن وجدت قبل. [٢]

ومع التسليم بتحقق هذا الشرط في المرسل: وهو ليس بالأمر الهين فإنه لو تحققنا من وجوده فقد يرد إشكال آخر وهو أنه يحتمل أن يكون كل من الواسطتين أو أكثر ضعيفا وعليه يحتمل أن يكون ضعفهم من النوع الأول الذي ينجبر بمثله الحديث على ما سبق نقله عن ابن الصلاح ويحتمل أن يكون من النوع الآخر الذي لا يقوى الحديث بكثرة طرقه ومع ورود هذه الاحتمالات يسقط الاستدلال بالحديث المرسل وإن تعددت طرقه. [٣]

قال الألباني: وبالجملة فالمانع من الاستدلال بالحديث المرسل الذي تعدد مرسلوه أحد الاحتمالين:

الأول: أن يكون مصدر المرسلين واحدًا.

الثاني: أن يكونوا جمعًا ولكنهم جميعًا ضعفاء ضعفًا شديدًا، وعليه فلو ألقينا النظر على روايات هذه القصة لألفيناها كلها مرسلة حاشا حديث ابن عباس ولكن طرقه كلها واهية شديدة الضعف لا تنجبر بها تلك المراسيل فيبقى النظر في هذه المراسيل وهي كما

(١) الرسالة (١/ ٤٦٣)

(٢) التدريب (١/ ١٩٩)

(٣) نصب المجانيق (٤٤).

علمت سبعة صح إسناد أربعة منها وهي مرسل سعيد بن جبير وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبي العالية ومرسل قتادة وهي مراسيل يرد عليها أحد الاحتمالين السابقين لأنهم من طبقة واحدة: فوفاة سعيد بن جبير سنة (٩٥) وأبي بكر بن عبد الرحمن سنة (٩٤) وأبي العالية - واسمه رفيع مصغرًا - سنة (٩٠) وقتادة سنة بضع عشرة ومائة والأول كوفي والثاني مدني والأخيران بصريان.

فجائز أن يكون مصدرهم الذي أخذوا منه هذه القصة ورووها عنه واحدا لا غير وهو مجهول وجائز أن يكون جمعا ولكنهم ضعفاء جميعًا فمع هذه الاحتمالات لا يمكن أن تطمئن النفس لقبول حديثهم هذا لا سيما في مثل هذا الحدث العظيم الذي يمس المقام الكريم فلا جرم تتابع العلماء على إنكارها، بل التنديد ببطلانها ولا وجه لذلك من جهة الرواية إلا ما ذكرنا. [1]

وأخيرًا نؤكد على مسألة دقيقة في قبول المرسل حتى عند من يقبله لو صح إسناده وهي أن العلماء اشترطوا فيه أن لا يكون مخالفًا لأصول الدين المتفق عليها وهذا إعلال من المتن لايتوصل إليه إلا بعد البحث في نصوص الباب واستقصاء البحث فيما ورد في المسألة.

قال الزيلعي بعد أن رجح مذهبه في قبول المرسل: ومن شروط قبول الأخبار عند الحنفية مسندة كانت أو مرسلة أن لا تشذ عن الأصول المجتمعة عندهم وذلك أن هؤلاء الفقهاء بالغوا في استقصاء موارد النصوص من الكتاب والسنة وأقضية الصحابة إلى أن أرجعوا النظائر المنصوص عليها والمتلقاة بالقبول إلى أصل تتفرع هي منه وقاعدة تندرج تلك النظائر تحتها، وهكذا فعلوا في النظائر الأخرى إلى أن أتموا الفحص والاستقراء فاجتمعت عندهم أصول - موضع بيانها كتب القواعد والفروق - يعرضون عليها أخبار الآحاد[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وهذا ليس على عمومه لأن الخبر لو صح عن النبي ﷺ فهو عن الله متواتر كان أو آحادًا إلا إذا كان فيه علة خفية في المتن أو الإسناد وما سوى ذلك من التعارض بين النصوص والأصول فسببه إما فساد الأصل أو ضعف النص.

فإذا ندت الأخبار عن تلك الأصول وشذت يعدونها مناهضة لما هو أقوى ثبوتا منها وهو الأصل المؤصل من تتبع موارد الشرع الجاري مجرى خبر الكافة والطحاوي كثير المراعاة لهذه القاعدة في كتبه ويظن من لا خبرة عنده أن ذلك ترجيح منه لبعض الروايات على بعضها بالقياس وآفة هذا الشذوذ المعنوي في الغالب كثرة اجتراء الرواة على الرواية بالمعنى بحيث تخل بالمعنى الأصلي وهذه قاعدة دقيقة يتعرف بها البارعون في الفقه مواطن الضعف والنتوء في كثير من الروايات فيرجعون الحق إلى نصابه بعد مضاعفة النظر في ذلك ولهم أيضا مدارك أخرى في علل الحديث دقيقة لا ينتبه إليها دهماء النقلة وللعمل المتوارث عندهم شأن يختبر به صحة كثير من الأخبار. (١)

وفي مقدمة شرح مسند أبي حنيفة: ذكر من أصوله قبول مرسلات الثقات إذا لم يعارضها ما هو أقوى منها. (٢)

وقال ابن اللحام: واعتبر الشافعي في المتن أن يسند الحفاظ المأمونون عن النبي ﷺ من وجه آخرمعنى ذلك المرسل أو يرسله غيره وشيوخهما مختلفة أو يعضده قول صحابي أو قول عامة العلماء، وكلام أحمد في المرسل قريب من كلام الشافعي. (٣)

وقال ابن تيمية: وما كان من المراسيل مخالفًا لما رواه الثقات كان مردودًا. (٤)

وإذا كان الأمر كذلك فحري أن نذكر النصوص الشرعية من القرآن والسنة التي تخالف هذا المرسل وهو الوجه الثالث.

الوجه الثالث: الأدلة من القرآن على بطلان هذه القصة.

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة:)

وثانيها: قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ (يونس: ١٥).

---

(١) نصب الراية (١/ ٢٢).

(٢) شرح مسند أبي حنيفة (١/ ٣).

(٣) المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٩٦)

(٤) منهاج السنة (٧/ ٤٣٥)وتوجيه النظر إلى أصول الأثر (٢/ ٥٦٤)

وثالثها: قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم: ٣: ٤) فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلي لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ ﴾ (الإسراء: ٧٣) وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل، وقال عياض رحمه الله: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ الآيتين، وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلًا فكيف كثيرا وهم يرون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال ﷺ: " افتريت على الله وقلت ما لم يقل " وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له؟ وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾، وقد روى عن ابن عباس كل ما في القرآن كاد فهو ما لا يكون قال الله تعالى ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ولم يذهب وأكاد أخفيها ولم يفعل، قال القشيري القاضي: ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل فما فعل ولا كان ليفعل، قال ابن الأنباري: ما قارب الرسول ولا ركن وقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخر ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله ترد سفسافها فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته بما كاده به الكفار وراموا من فتنته، ومرادنا من ذلك تنزيه وعصمته ﷺوهو مفهوم الآية، وأما المأخذ الثاني فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح وقد أعاذنا الله من صحته.

وخامسها: قوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (الإسراء: ٧٤) وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل لأنه نفى المقاربة للركون فضلا عن الركون.

وسادسها: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان: ٣٢).

وسابعها: قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾.

وثامنها: ومن أصرح الأدلة القرآنية في بطلانها أن النبي ﷺ قرأ بعد ذلك في سورة النجم قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ فلو فرضنا أنه قال تلك الغرانيق العلى ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ فكيف يفرح المشركون بعد هذا الإبطال والذم التام لأصنامهم بأنها أسماء بلا مسميات وهذا هو الأخير وقراءته ﷺ سورة النجم بمكة وسجود المشركين ثابت في الصحيح ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرانيق.

وتاسعها: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (النحل: ٩٩-١٠٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين﴾ (الحجر: ٤٢) وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (سبأ: ٢١) الآية وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) الآية. وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأي سلطان له أكبر من ذلك.

وذكر غير واحد أنه يلزم على القول بأن الناطق بذلك النبي ﷺ بسبب إلقاء الشيطان الملبس بالملك أمور. منها تسلط الشيطان عليه عليه الصلاة والسلام وهو ﷺ بالإجماع معصوم من الشيطان لا سيما في مثل هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد.

العاشرة: قوله: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٢)

الحادية عشرة: وقوله في القرآن العظيم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩).

الثانية عشرة: وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤١-٤٢) فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم[1].

الثالثة عشرة: أن الله تعالى أخبر أن بيان القرآن على لسان النبي ﷺ موكول إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه وكان يعرف منه فأنزل الله الآية التي في ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾. قال علينا أن نجمعه في صدرك ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ علينا أن نبينه بلسانك. قال فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعد الله.[2]

وإذا كان البيان موكولًا إلى الله تعالى فهذا يجعل صحة هذه القصة أمرًا مستحيلًا.

وقال الشنقيطي: والحاصل: أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه ﷺ لما ذكر شرعًا، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان. فتبين أن نطق النَّبي ﷺ بذلك الكفر، ولو سهوًا مستحيل شرعًا، وقد دل القرآن على بطلانه، وهو باطل قطعًا على كل حال.[3]

الوجه الرابع: الأدلة من السنة على بطلان واستحالة هذه القصة.

---

(١) تفسير الرازي سورة الحج آية ٥٢، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١/ ٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٥) معلقًا.

(٣) أضواء البيان.

١-عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: " تَسَمَّوْا بِاسْمِى وَلاَ تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِى، وَمَنْ رَآنِى فِى الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِى، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ فِى صُورَتِى، وَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ". [١]

ومنع الشيطان أن يتصور في خلقته لئلا يكذب على لسانه في النوم كما خرق الله تعالى العادة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمعجزة وكما استحال أن يتصور الشيطان في صورته في اليقظة[٢].

فقوله: " ولا يتمثل الشيطان بي "، قال القسطلاني: هو كالتتميم للمعنى والتعليل للحكم أي لا يحصل له أي للشيطان مثال صورتي ولا يتشبه بي فكما منع الله الشيطان أن يتصور بصورته الكريمة في اليقظة كذلك منعه في المنام لئلا يشتبه الحق بالباطل. [٣]

وقال الآلوسي: وإذا لم يتمثل منامًا فلأن لا يتمثل يقظة من باب أولى، وعلله الشراح بلزوم اشتباه الحق بالباطل. اهـ[٤]

قلت: فإذا منع الشيطان من التشبه به فمن ذلك صوته وقراءته في تبليغ الوحي للناس فلو حدث لكان فيه أعظم التلبيس على الناس فلأن يمنع الشيطان من ذلك من باب أولى والله أعلم.

٢-عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب ﷺ: " وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"[٥].

والحديث محمول على ظاهره أن الشيطان متى رأى عمر سالكا فجا هرب هيبة من عمر، وفارق ذلك الفج، وذهب في فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئا

(١) أخرجه البخاري (١١٠).

(٢) عمدة القاري (٢/ ١٥٥).

(٣) عون المعبود (١٣/ ٢٥٠)، وفيض القدير (٦/ ١٣١)

(٤) روح المعاني (١٣/ ١١١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، مسلم (٢٣٩٦).

قال القاضي، ويحتمل أنه ضرب مثلًا لبعد الشيطان وإغوائه منه، وأن عمر في جميع أموره سالك طريق السداد خلاف ما يأمر به الشيطان. (١)

قال الحافظ ابن حجر: فيه فضيلة عظيمة لعمر تقتضي أن الشيطان لا سبيل له عليه لا أن ذلك يقتضي وجود العصمة إذ ليس فيه إلا فرار الشيطان منه أن يشاركه في طريق يسلكها ولامنع ذلك من وسوسته له بحسب ما تصل إليه قدرته فإن قيل عدم تسليطه عليه بالوسوسة يؤخذ بطريق مفهوم الموافقة لأنه إذا منع من السلوك في طريق فالأولى أن يلابسه بحيث يتمكن من وسوسته له فيمكن أن يكون حفظ من الشيطان، ولا يلزم من ذلك ثبوت العصمة لأنها في حق النبي واجبة وفي حق غيره ممكنة ووقع في حديث حفصة عند الطبراني في الأوسط بلفظ إن الشيطان لا يلقى عمر منذ أسلم إلا خر بوجهه وهذا دال على صلابته في الدين واستمرار حاله على الجد الصرف والحق المحض. (٢)

قلت: وإذا كان هذا لعمر رضي الله عنه وهو ليس بمعصوم فرسول الله به أولى لأنه معصوم من الله عز وجل، والله أعلم

٣ـومما يؤكد ذلك هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة قال: " إن الشيطان عرض لي فشد علي ليقطع الصلاة علي فأمكنني الله منه فذعته ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكرت قول سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ ﴾. فرده الله خاسئًا. (٣)

وإذا أمكنه الله منه في الصلاة فأن يحفظه منه في إبلاغ الوحي من باب أولى.

٤ـ عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: وإياي؛ إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير"(٤)

(١) شرح مسلم للنووي (١٥/ ١٦٦).

(٢) تحفة الأحوذي (١٠/ ١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٢)ومسلم (٥٤٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

قال النووي: فأسلم برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال معناه أسلم أنا من شره وفتنته ومن فتح قال إن القرين أسلم من الإسلام وصار مؤمنا لايأمرني إلا بخير.[١]

وإذا كان النبي ﷺ سلم من شره فهذا منه ولابد.

الوجه الخامس: الأدلة من المعقول على بطلان القصة.

وها هي من وجوه:

أحدها: أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان.

وثانيها: أنه ﷺ ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنًا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلًا أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم.

وثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة.

دون أن يقفوا على حقيقة الأمر، فكيف أجمعوا على أنه عظَّم آلهتهم حتى خروا سجدًا مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم.

ورابعها: قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنًا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلًا أولى.

وخامسها: وهو أقوى الوجوه أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ (المائدة: ٦٧) فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة[١].

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٧/ ١٥٧).

وسادسها: أنه يمتنع في حق النبي ﷺ أن يتمنى أن ينزل عليه شيء من القرآن في مدح آلهة غير الله لأن ذلك كفر. كما يمتنع في حقه أن يتسود الشيطان عليه، ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل ذلك.

وسابعها: ويقول العالم الهندي محمد علي: إن قراءة الآيات متسلسلة تظهر أن ليس من المعقول أن تحشر بينها آيات مناقضة لها في أصل العقيدة الإسلامية. وصلب دعوة محمد ﷺ، دعوة التوحيد. (٢)

وثامنها: استحالة هذه القصة نظراً، وعرفا، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم متخاذل التأليف، والنظم، ولماكان النبي ﷺ ومن بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن لايخفى عليه ذلك وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان فصيح الكلام علمه.

وتاسعها: أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة، وكذلك ما روى في قصة القضية، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت فما روى عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة فدل على بطلها واجتثاث أصلها ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس، أو الجن هذا الحديث على بعض المحدثين ليلبسن به على ضعفاء المسلمين. (٣)

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي الموضع السابق.

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حمود (٢٥٢٧).

(٣) الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٢٧

وعاشرها: أن هناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئًا كهذا، وأن يكون مدلوله حادثًا مفردًا وقع للرسول ﷺ فالنص يقرر أن هذه القاعدة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾، فلا بد أن يكون المقصود أمرًا عامًا يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعًا، بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل.[1]

الوجه السادس: في ذكر بعض كلام المحققين على هذه القصة:

١ـ قال ابن كثير: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغَرَانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظَنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.[2]

٢ـ قال الآلوسي: وقد أنكر كثير من المحققين هذه القصة.

فقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل.

وقال القاضي عياض في الشفاء: يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون. والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وذكر الشيخ أبو منصور الماتريدي في كتاب حصص الأتقياء الصواب أن قوله: تلك الغرانيق العلا من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية.

وذكر غير واحد أنه يلزم على القول بأن الناطق بذلك النبي ﷺ بسبب إلقاء الشيطان الملبس بالملك أمور.

١ -منها تسلط الشيطان عليه ﷺوهو ﷺ بالإجماع معصوم من الشيطان لا سيما في مثل هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ

---

(١) الظلال ٥/ ٢٠٦.

(٢) تفسيرابن كثير سورة الحج آية: ٥٢

سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (النحل: ٩٩) إلى غير ذلك.

٢-ومنها زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه وذلك مما يستحيل عليه ﷺ لمكان العصمة.

٣-ومنها اعتقاد النبي ﷺ ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه بعيد الإلتئام متناقضًا ممتزج المدح بالذم وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يتساهل في نسبته إليه ﷺ.

٤-ومنها أنه إما أن يكون ﷺعند نطقه بذلك متعقدًا ما اعتقده المشركون من مدح آلهتهم بتلك الكلمات وهو كفر محال في حقه ﷺ وإما أن يكون معتقدًا معنى آخر مخالفًا لما اعتقدوه ومباينًا لظاهر العبارة ولم يبينه لهم مع فرحهم وادعائهم أنه مدح آلهتهم فيكون مقرًا لهم على الباطل وحاشاهﷺ أن يقر على ذلك.

٥-ومنها كونه ﷺ اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه عليه الملك وهو يقتضي أنه عليه ﷺ على غير بصيرة فيما يوحى إليه، ويقتضي أيضًا جواز تصور الشيطان بصورة الملك ملبسًا على النبي ولا يصح ذلك كما قال في الشفاء لا في أول الرسالة ولا بعدها والاعتماد في ذلك دليل المعجزة.

وقال ابن العربي: تصور الشيطان في صورة الملك ملبسًا على النبي كتصوره في صورة النبي ملبسًا على الخلق وتسليط الله تعالى له على ذلك كتسليطه في هذا فكيف يسوغ في لب سليم استجازة ذلك.

٦-ومنها التقول على الله تعالى إما عمدًا أو خطأ أو سهوًا. وكل ذلك محال في حقه ﷺ، وقد اجتمعت الأمة على ما قال القاضي عياض على عصمته صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ من الأقوال عن الأخبار بخلاف الواقع لا قصدًا، ولا سهوًا.

٧-ومنها الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يؤمن فيه التبديل والتغيير، ولا يندفع كما قال البيضاوي بقوله تعالى: ﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾ (الحج: ٥٢) لأنه أيضًا يحتمل إلى غير ذلك. وذهب إلى صحتها الحافظ ابن حجر.

وأجاب عما يلزم على تقدير كون الناطق بذلك النبي ﷺ (بكلام أذكره لبيان ضعفه وتهافته بعد ذكره إن شاء الله تعالى.

١-أما عن الأول فبأن السلطان المنفي عن العباد المخلصين هو الإغواء أعني التلبيس المخل بأمر الدين وهو الذي وقع الإجماع على أن النبي ﷺ معصوم منه وأما غير المخل فلا دليل على نفيه ولا إجماع على العصمة منه وما هنا غير مخل لعدم منافاته للتوحيد كما يبين إن شاء الله تعالى بل فيه تأديب وتصفية وترقية للحبيب الأعظم ﷺ لأنه ﷺ تمنى هدى الكل ولم يكن ذلك مرادًا لله تعالى والأكمل في العبودية فناء إرادته في إرادة الحق سبحانه فليس عليه ﷺ الإلقاء حالة تمني هدى الكل المصادم للقدر والمنافي لما هو الأكمل ليترقى إلى الأكمل، وقد حصل ذلك بهذه المرة، ولذا لم يقع التلبيس مرة أخرى بل كان يرسل بعد من بين يديه ومن خلفه رصد ليعلم أن قد أبلغوا رسالة ربه سبحانه، وفي ترتيب الإلقاء على التمني ما يفهم العتاب عليه!

وأما عن الثاني: فبأن المستحيل المنافي للعصمة أن يزيد ﷺ فيه من تلقاء نفسه أي يزيد فيه ما يعلم أنه ليس منه، وما هنا ليس كذلك لأنه ﷺ إنما تبع فيه الإلقاء الملبس عليه في حالة خاصة فقط تأديبًا أن يعود لمثل تلك الحالة.

وأما عن الثالث: فبأنه يجوز أن يكون النبي ﷺ نطق به على فهم أنه استفهام إنكاري حذف منه الهمزة أو حكاية عنهم بحذف القول، وحينئذٍ لا يكون بعيد الالتئام، ولا متناقضًا، ولا ممتزج المدح بالذم، ولا بد من التزام أحد الأمرين على تقدير صحة الخبر لمكان العصمة، والنكتة في التعبير كذلك إيهام الذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم أنه ﷺ مدح آلهتهم ويحصل ذلك مراد الله تعالى المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿ لِّيَجۡعَلَ﴾ (الحج: ٥٣) الخ.

وأما عن الرابع: فبأنا نختار الشق الثاني بناءً على أنه استفهام حذف منه الهمزة أو حكاية بحذف القول، وعلى التقديرين يكون ﷺ معتقدًا لمعنى مخالف لما اعتقدوه؛ ولا يلزم منه التقرير على الباطل لأنه بين بطلان معتقدهم بقوله تعالى بعد: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ (النجم: ٢٣) فإن ما لم ينزل الله تعالى به

سلطانًا لا ترجى شفاعته إذ لا شفاعة إلا من بعد إذن إلهي لقوله تعالى بعد: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢٦).

وأما عن الخامس: فبأن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكون ﷺ على غيربصيرة فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة.

وأما قول القاضي عياض: لا يصح أن يتصور الشيطان بصورة الملك ويلبس عليه ﷺفإن أراد به أنه لا يصح أن يلبس تلبيسًا قادحًا فهو مسلم لكنه لم يقع وإن أراد مطلقًا ولو كان غير مخل فلا دليل عليه، ودليل المعجزة إنما ينفي الاشتباه المخل بأمر النبوة المنافي للتوحيد القادح في العصمة وما ذكر غير مخل بل فيه تأديب بما يتضمن تنقية وترقية إلى الأكمل في العبودية. وأما ما ذكر ابن العربي فقياس مع الفارق لأن تصور الشيطان في صورة النبي مطلقًا منفي بالنص الصحيح وتصوره في صورته ملبسًا على الخلق إغواء يعم وهو سلطان منفي بالنص عن المخلصين، وأما تصوره في صورة الملك في حالة خاصة ملبسًا على النبي بما لا يكون منافيًا للتوحيد لما يريد الله تعالى بذلك تأديبًا ولإيهامه خلاف المراد فتنة لقوم فليس من السلطان المنفي ولا بالتصور الممنوع لعدم إخلاله بمقام النبوة.

وأما عن السادس: فبأن التقول تكلف القول ومن لا يتبع إلا من يلقى إليه من الله تعالى حقيقة أو اعتقادًا ناشئًا من تلبيس غير مخل لا تكلف للقول عنده فلا تقول على الله تعالى أصلًا؛ وما أشبه هذه القصة بما تضمنه حديث ذي اليدين فالتلبيس عليه ﷺ في الإلقاء في حالة التمني تأديبًا كإيقاع السهو عليه ﷺ في الصلاة باعتقاد التمام تشريعًا، والنطق بما ألقاه الشيطان في حالة خاصة مما لا ينافي التوحيد على أنه قرآن بناءً على اعتقاد أن الملقى ملك تلبيسًا للتأديب كالنطق بالسلام ثم بلم أنس معتقدًا أنه مطابق للواقع بناءً على اعتقاد التمام سهوًا، ووقوع البيان على لسان جبريل عليه السلام ثم النسخ والإحكام كوقوع البيان على لسان الصحابي ثم التدارك وسجود السهو فكما أن السهو للتشريع غير قادح في منصب النبوة كذلك الاشتباه في الإلقاء للتأديب غير قادح، وكما أن النطق بلم أنس مع تبين أنه ﷺ قد نسي صدق بناء على اعتقاد التمام سهوًا كذلك النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة على أنه قرآن بناءً على اعتقاد

أن الملقى ملك صدق ولا شيء من الصدق بالتقول فلا شيء من النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة به، وما ذكر عن القاضي عياض من حكاية الإجماع على عدم جواز دخول السهو في الأقوال التبليغية كما قال الحافظ ابن حجر متعقب.

وأما عن السابع: فبأنه لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا لأن وثوق كل منهما تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين فإذا جزم بشيء أنه كذا جزموا به وإذا رجع عن شيء بعد الجزم رجعوا كما هو شأنهم في نسخ غير هذا من الآيات التي هي كلام الله تعالى لفظًا ومعنى إذ قبل نسخ ما نسخ لفظه كانوا جازمين بأنهم متعبدون بتلاوته وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم متعبدين بتلاوته، وما نسخ حكمه كانوا جازمين بأنهم مكلفون بحكمه وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم مكلفين به، فقول البيضاوي: إن ذلك لا يندفع بقوله تعالى: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ ﴾ (الحج: ٥٢) الخ لأنه أيضًا يحتمله ليس بشيء، وبيانه أنه إن أراد أنه يحتمله عند الفرق الأربع المذكورة في الآيات وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والذين أوتوا العلم والذين آمنوا فهو ممنوع لدلالة قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ (الحج: ٥٤) على انتفاء الاحتمال عند فريقين من الفرق الأربع بعد النسخ والإحكام، وإن أراد أنه يحتمله في الجملة أي عند بعض دون بعض فهو مسلم وغير مضر لعدم إخلاله بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا، وأما إخلاله بالنسبة إلى الفريقين الآخرين فهو مراد الله ﷻ.

١ -الرد على الجواب الأول

١ -إن التلبيس بحيث يشتبه الأمر على النبي ﷺ فيعتقد أن الشيطان ملك مخل بمقام النبوة، ونقص فيه فإن الولي الذي هو دونه ﷺ بمراتب لا يكاد يخفى عليه الطائع من العاصي فيدرك نور الطاعة وظلمة المعصية فكيف بمن هو سيد الأنبياء ونور عيون قلوب الأولياء يلتبس عليه من هو محض نور بمن محض ديجور، واشتباه جبريل عليه السلام عليه ﷺ في بعض المرات حتى لم يعرفه إلى أن ذهب فقال: « والذي نفسي بيده ما شبه علي منذ أتاني قبل مرتي هذه وما عرفته حتى ولى » إذا صح ليس من قبيل اشتباه الشيطان به عليه السلام إذ يجوز أن يكون من اشتباه ملك بملك وكل منهما نوراني، وقد كان يأتيه ﷺ غير جبريل عليه السلام من الملائكة الكرام.

٢-وأيضًا قال المحققون: إن الأنبياء عليهم السلام ليس لهم خاطر شيطاني، وكون ذلك ليس منه بل كان مجرد إلقاء على اللسان دون القلب ممنوع ألا ترى أنه قال تعالى: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ (الحج: ٥٢) دون ألقى الشيطان على لسانه، وتسمية القراءة أمنية لما أن القارئ يقدر الحروف في قلبه أولًا ثم يذكرها شيئًا فشيئًا.

٣-وأيضًا حفظه ﷺ لذلك إلى أن أمسى كما جاء في بعض الروايات فنبهه عليه جبريل عليهما السلام يبعد كون الإلقاء على اللسان فقط، على أنا لو سلمنا ذلك وقلنا: إن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ولم يلق في قلبه كما هو شأن الوحي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤) وقلنا: إن ذلك مما يعقل للزم أن يعلم ﷺ من خلو قلبه واشتغال لسانه أن ذلك ليس من الوحي في شيء ولم يحتج إلى أن يعلمه جبريل عليه السلام.

٤- والقول بأنه لبس الحال عليه ﷺ للتأديب والترقية إلى المقام الأكمل في العبودية وهو فناء إرادته ﷺ في إرادة مولاه عز وجل حيث تمنى إيمان الكل وحرص عليه ولم يكن مراد الله تعالى مما لا ينبغي أن يلتفت إليه لأن القائل به زعم أن التأديب بذلك كان بعد قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ (الأنعام: ٣٥) ولا شك أن التأديب به لم يبق، ولم يذر، ولم يقرن بما فيه تسلية أصلًا فإذا قيل، والعياذ بالله تعالى: إن ذلك لم ينجع فكيف ينجع ما دونه، وأيضًا أية دلالة في الآية على التأديب وهي لم تخرج مخرج العتاب بل مخرج التسلية على أبلغ وجه عما كان يفعل المشركون من السعي في إبطال الآيات، ولا نسلم أن ترتيب الإلقاء على التمني مع ما في السباق والسياق مما يدل على التسلية عن ذلك يجدي نفعًا في هذا الباب كما لا يخفى على ذوي الألباب.

٥-ويرد على قوله: إنه بعد حصول التأديب بما ذكر كان يرسل من بين يديه ومن خلفه رصد يحفظونه من إلقاء الشيطان أنه لم يدل دليل على تخصيص الإرسال بما بعد ذلك بل الظاهر أن ذلك كان في جميع الأوقات فقد أخرج عبد بن حميد. وابن جرير عن الضحاك

بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ (الجن: ٢٧) قال: كان النبي ﷺ إذا بعث إليه الملك بالوحي بعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان بالملك، وقد ذكروا أن كان في ذلك للاستمرار.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة، وهذا صريح في ذلك ولا شك أن هذا الإلقاء عند من يقول به كان عند نزول الوحي، فقد أخرج ابن جرير. وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أن النبي ﷺ بينما هو يصلي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب فجعل يتلوها فسمعه المشركون فقالوا: إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير فدنوا منه فبينما هو يتلوها وهو يقول: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم: ١٩، ٢٠) ألقى الشيطان تلك الغرانيق العلا منها الشفاعة ترتجى فعلى هذا ونحوه يكون الرصد موجودًا مع عدم ترتب أثره عليه؛ والقول بأن جبريل عليه السلام ومن معه تنحوا عنه حتى ألقى الشيطان ما ألقى بناءً على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في آية الرصد: كان النبي ﷺ قبل أن يلقي الشيطان في أمنيته يدنون منه فلما ألقى الشيطان في أمنيته أمرهم أن يتنحوا عنه قليلًا فإن المراد من قوله: فيه فلما ألقى فلما أراد أن يلقى في حيز المنع وكذا صحة هذا الخبر، ثم أية فائدة في إنزال الرصد إذا لم يحصل به الحفظ بل كيف يسمى رصدًا.

ومما ذكر في هذا الاعتراض يعلم ما في الجواب الثاني من الاعتراض وهو ظاهر:

٢-وقد يقال: إن إعجاز القرآن معلوم له ﷺ ضرورة كما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري، بل قال القاضي: إن كل بليغ أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة يعلم ضرورة إعجازه، وذكر أن الإعجاز يتعلق بسورة أو قدرها من الكلام بحيث يتبين فيه تفاضل قوى البلاغة فإذا كانت آية بقدر حروف سورة وإن كانت كسورة الكوثر فهو معجز، وعلى هذا يمتنع أن يأتي الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا بمقدار أقصر سورة منه تشبهه في البلاغة ومتى أتى أحد بها يزعم فيه ذلك لم تنفق سوقه عند رسول الله ﷺ وكذا عند كل بليغ محيط بما تقدم ولم يخف على الرسول ﷺ ولا على ذلك البليغ عدم

إعجازه فلا يشتبه عنده بالقرآن أصلًا، ولا شك أن ما ألقى الشيطان على ما في بعض الروايات حروفه بقدر حروف سورة الكوثر بل أزيد إن اعتبر الحرف المشدد بحرفين وهو وإنهن لهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجي الوراد فيما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب.

وجاء في رواية ابن جريروابن المنذر وابن أبي حاتم بسند قال السيوطي: هو صحيح عن أبي العالية أنه ألقى تلك الغرانيق العلا وشفاعتهن ترتجى وترتضى ومثلهن لا ينسى وحروفه أزيد من حروفها إذا لم يعتبر الحرف المشدد في شيء منهما بحرفين أما إذا اعتبر فحروفها أزيد بواحد فإن كان ما ذكر مما يتعلق به الإعجاز فإن كان معجزًا لزم أن يكون من الله تعالى لا من إلقاء عدوه ضرورة عجزه كسائر الجن والإنس عن الإتيان بذلك، وإن لم يكن مما يتعلق به الإعجاز فهو كلام غير يسير يتنبه البليغ الحاذق إذا سمعه أثناء كلام فوقه بمراتب لكونه ليس منه فيبعد كل البعد أن يخفى عليه ﷺقصور بلاغته عن بلاغة شيء من آيات القرآن سواء قلنا بتفاوتها في البلاغة كما اختاره أبو نصر القشيري وجماعة أم قلنا بعدم التفاوت كما اختاره القاضي فيعتقد أنه قرآن حتى ينبهه جبريل عليه السلاملا سيما وقد تكرر على سمعه الشريف سكر الآيات ومازجت لحمه ودمه، والواحد منا وإن لم يكن من البلاغة بمكان إذا ألف شعر شاعر وتكرر على سمعه يعلم إذا دس بيت أو شطر في قصيدة له أن ذلك ليس له وقد يطالب بالدليل فلا يزيد على قوله: لأن النفس مختلف، وهذا البعد متحقق عندي على تقدير كون الملقى ما في الرواية الشائعة وهو تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهم لترتجى أيضًا لا سيما على قول جماعة: إن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره من الجمل المفيدة لقوله تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ (الطور: ٣٤).

٣-والقول بأن النبي ﷺ خفي عليه ذلك للتأديب فيه ما فيه، ولا يبعد استحقاق قائله للتأنيب.

ثالثا: وما ذكره في الجواب عن الثالث من أنه لا بد من حمل الكلام على الاستفهام أو حذف القول وهو دون الأول إذا صح الخبر صحيح لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاء عارفون بالغث والسمين من الإخبار وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه فلم يرووه إلا مردودًا وما ألقى الشيطان إلى

أوليائه معدودًا وهم أكثر ممن قال بقبوله ومنهم من هو أعلم منه، ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين وفات ذلك القائل بالقبول، ولعمري أن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة ثم وفق الله تعالى جمعًا من خاصته لإبطاله أهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ثم نسخه سبحانه وتعالى لا سيما وهو مما لم يتوقف على صحته أمر ديني ولا معنى آية ولا ولا سوى أنها يتوقف عليها حصول شبه في قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد، ويؤيد عدم الثبوت مخالفته لظواهر الآيات فقد قال سبحانه في وصف القرآن: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت: ٤٢)، والمراد بالباطل ما كان باطلًا في نفسه وذلك الملقى كذلك وإن سوغ نطق النبي ﷺ به تأويله بأحد التأويلين، والمراد ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ﴾ استمرار النفي لا نفي الاستمرار.

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩) فجيء بالجملة الاسمية مؤكدة بتأكيدين ونسب فيها الحفظ المحذوف متعلقة إفادة للعموم إلى ضمير العظمة وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بأمر القرآن ما فيه.

وقد استدل بالآية من استدل على حفظ القرآن من الزيادة والنقص وما علينا ما قيل في ذلك، وكون الإلقاء المذكور لا ينافي الحفظ لأنه نسخ ولم يبق إلا زمانًا يسيرًا لا يخلو عن نظر، والظاهر أنه وإن لم يناف الحفظ في الجملة لكنه ينافي الحفظ المشار إليه في الآية على ما يتقضيه ذلك الاعتناء، ثم إن قيل: بما روي عن الضحاك من أن سورة الحج كلها مدنية لزم بقاء ما ألقى الشيطان قرآنًا في اعتقاد رسول الله ﷺ والمؤمنين زمانًا طويلًا والقول بذلك من الشناعة بمكان، وقال ﷻ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم: ٤) والظاهر أن الضمير لما ينطق به عليه ﷺ مما يتعلق بالدين، ومن هنا أخرج الدارمي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: كان جبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن.

والمتبادر من لحن الخطاب أن جميع ما ينطق به ﷺ من ذلك ليس عن إلقاء شيطاني كما أنه ليس عن هوى، وبقيت آيات أخر في هذا الباب ظواهرها تدل على المدعي أيضًا،

وتأويل جميع الظواهر الكثيرة لقول قلة قليلة بصحة الخبر المنافي لها مع قول جم غفير بعد الفحص التام بعدم صحته مما لا يميل إليه القلب السليم ولا يرتضيه ذو الطبع المستقيم، ويبعد القول بثبوته أيضًا عدم إخراج أحد من المشايخ الكبار له في شيء من الكتب الست مع أنه مشتمل على قصة غريبة وفي الطباع ميل إلى سماع الغريب وروايته ومع إخراجهم حديث سجود المشركين معه ﷺ حين سجد آخر النجم، فقد روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي، وغيرهم عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺقرأ ﴿والنجم﴾ (النجم: ١) فسجد فيها وسجد كل من كان معه غير أن شيخًا من قريش أخذ كفًا من حصى أو تراب ورفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا.

وروى البخاري أيضًا والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس إلى غير ذلك، وليس لأحد أن يقول: إن سجود المشركين يدل على أنه كان في السورة ما ظاهره مدح آلهتهم وإلا لما سجدوا لأنا نقول: يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ (النجم: ٥٠-٥٤) إلى آخر الآيات فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم، ولعلهم لم يسمعوا قبل ذلك مثلها منه ﷺ وهو قائم بين يدي ربه سبحانه في مقام خطير وجمع كثير وقد ظنوا من ترتيب الأمر بالسجود على ما تقدم أن سجودهم ولو لم يكن عن إيمان كاف في دفع ما توهموه، ولا تستبعد خوفهم من سماع مثل ذلك منه ﷺ.

ويمكن أن يقال على بعد: إن سجودهم كان لاستشعار مدح آلهتهم ولا يلزم منه ثبوت ذلك الخبر لجواز أن يكون ذلك الاستشعار من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (النجم: ١٩، ٢٠) بناءً على أن المفعول محذوف وقدروه حسبما يشتهون أو على أن المفعول ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (النجم: ٢١) وتوهموا أن مصب الإنكار فيه كون المذكورات إناثًا والحب للشيء يعمي ويصم، وليس هذا بأبعد من حملهم تلك الغرانيق

العلا وإن شفاعتهن لترتجى على المدح حتى سجدوا لذلك آخر السورة مع وقوعه بين ذمين المانع من حمله على المدح في البين كما لا يخفى على من سلمت عين قلبه عن الغين.

رابعًا: واعترض على الجواب الرابع بأن سجودهم كان مع رسول الله ﷺ آخرًا بعد سماع قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ (النجم: ٢٣) فكان ينبغي التنبيه بعد السجود، ولعلهم أرجعوا ضمير ﴿هِىَ﴾ للأسماء وهي قولهم اللات والعزى ومناة كما هو أحد احتمالين فيه ذكرهما الزمخشري، فيكون المعنى ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتم بها بهواكم وشهوتكم ليس لكم على صحة التسمية بها برهان تتعلقون به، وحينئذٍ لا يكون فيه دليل على رد ما فهموه مما ألقى الشيطان من مدح آلهتهم بأنها الغرانيق العلا، ويحتمل أنهم أولوه على وجه آخر وباب التأويل واسع.

واعترض على قوله في الجواب الخامس: إن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكونﷺ على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة بأن المعترض لم يرد أنه إذا اشتبه الأمر عليه ﷺمرة يلزم أن يكون على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غيرها بل أراد أن اللائق بمقام النبي ﷺ أن يكون على بصيرة في جميع ما يوحى إليه وأنه متى اشتبه عليه ﷺ في حالة من الأحوال لم تبق الكلية كلية وهو خلاف المراد.

وفي التنقيح أن الوحي إما ظاهر أو باطن أما الظاهر فثلاثة أقسام، الأول: ما ثبت بلسان الملك فوقع في سمعه ﷺ بعد علمه بالمبلغ بآية قاطعة والمراد بها كما قال ابن مالك: العلم الضروري بأن المبلغ ملك نازل بالوحي من الله تعالى والقرآن من هذا القبيل.

والثاني: ما وضح له ﷺ بإشارة الملك من غير بيان بالكلام كما قال ﷺ: " إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها. . . "[1]، وهذا يسمى خاطر الملك.

والثالث: ما تبدى لقلبه الشريف بلا شبهة بإلهام من الله تعالى بأن أراه بنور من عنده كما قال تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥) وكل ذلك حجة مطلقًا بخلاف الإلهام للولي فإنه لا يكون حجة على غيره.

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٢٠١٠٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٦٦).

وأما الباطن فما ينال بالرأي والاجتهاد وفيه خلاف إلى آخر ما قال، وهو ظاهر في أنه ﷺعلى بصيرة في جميع ما يوحى إليه من القرآن لأنه جعله من القسم الأول من أقسام الوحي الظاهر، ويعلم منه عدم ثبوت تكلمه ﷺ بما ألقى الشيطان لأنه عند زاعمه يكون قد اعتقده ﷺقرآنًا ووحيًا من الله تعالى فيجب على ما سمعت أن يكون ﷺقد علم ذلك علمًا ضروريًا فحيث أنه ليس كذلك في نفس الأمر يلزم انقلاب العلم جهلًا، واستثناء هذه المادة من العموم مما لا دليل عليه عند الزاعم سوى الخبر الذي زعم صحته وبنى عليه تفسير الآية بما فسرها به وذلك أول المسألة.

ودعوى أن التأديب بذلك على غير التمني مما لا تقتضيه الحكمة فلا يمكن وقوعه مما لم يقم عليه دليل، وقصارى ما تفيده الآية أن الإلقاء مشروط بالتمني أو في وقته بناءً على الخلاف في أن ﴿إِذَا﴾ للشرط أو لمجرد الظرفية وعند انتفاء ذلك الشرط أو عدم تحقق ذلك الوقت يبقى الإلقاء على العدم الأصلي إن لم يكن هناك ما يقوم مقام ذلك الشرط أو ذلك الوقت.

ولا شك أن صدور خلاف الأكمل لا سيما إذا كان كالتمني أو فوقه أو وقت صدوره مما يقوم مقام ذلك فيما يقتضيه فيلزم حينئذ أن يكون ﷺ في كل وحي متوقفًا غير جازم بأن وحي لا تلبيس إلى أن يتضح له ﷺعدم صدور خلاف الأكمل بالنسبة إليه منه وفي ذلك من البشاعة ما فيه.

واعترض على قوله في الجواب أيضًا: إن ما قاله ابن العربي قياس مع الفارق الخ بأنه غير حاسم للقيل والقال إذ لنا أن نقول: خلاصة ما أشار إليه ابن العربي أنه قد صح بل تواتر قوله ﷺ: « من رآني في المنام فقد رآني حقًا فإن الشيطان لا يتمثل بي » والظاهر أنه لا يتمثل به ﷺ أصلًا لا للمخلصين ولا لغيرهم لعموم من ولزوم مطابقة التعليل المعلل وإذا لم يتمثل منامًا فلأن لا يتمثل يقظة من باب أولى، وعلله الشراح بلزوم اشتباه الحق بالباطل.

والنبي ﷺ خلق للهداية فلو ساغ ظهور إبليس بصورته لزال الاعتماد ﷺ فلذلك عصمت صورته ﷺ عن أن يظهر بها شيطان، ولا شك أن نسبة جبريل عليه السلام إليه ﷺ وكذا إلى سائر إخوانه الأنبياء عليهم السلام نسبة النبي ﷺ إلى الأمة فإذا استحال تمثل الشيطان

بالنبي يقظة أو منامًا لأحد من أمته مخلصًا أو غير مخلص خوف الاشتباه وزوال الاعتهاد وكمال التضاد فليقل باستحالة تمثله بجبريل عليه السلام لذلك ومن ادعى الفرق فقد كابر.

وتعقب ما ذكره في الجواب السادس بأن كون المتتبع لما يعتقده وحيًا للتلبيس غير منقول صحيح إلا أن القول باعتقاد ما ليس قرآنًا للتلبيس الناشيء عن إرادة التأديب بسبب تمني إيمان الجميع غير المراد له تعالى ليس به، وكون التلبيس للتأديب كالسهو في الصلاة للتشريع لا يخفى ما فيه.

وأورد على قوله في الجواب السابع: إنه لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذي آمنوا لأن وثوق كل منهما تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين ﷺ أنه إذا فتح باب التلبيس لا يوثق بالوثوق في شيء أصلًا لجواز أن يكون كل وثوق ناشئًا عن تلبيس كالوثوق بأن تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى قرآن فلما تطرق الاحتمال الوثوق جاز أن يتطرق الرجوع ولا يظهر فرق بينهما فلا يعول حينئذ على جزم ولا على رجوع. وقوله فيما ذكره البيضاوي عليه الرحمة: ليس بشيء ليس بشيء لأن منع الاحتمال عند الفرق الأربع بعد القول بجواز التلبيس مكابرة والآية التي ادعى دلالتها على انتفاء الاحتمال عند فريقين بعد النسخ والأحكام فيها أيضًا ذلك الاحتمال، والحق أنه لا يكاد يفتح باب قبول الشرائع ما لم يسد هذا الباب.

ولا يجدي نفعًا كون الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ آبية عن بقاء التلبيس فلا أقل من أن يتوقف قبول معظم ما يجيء به النبي ﷺ إلى أن يتبين كونه ليس داخلًا في باب التلبيس مع أنا نرى الصحابة رضي الله عنهم يسارعون إلى امتثال الأوامر عند إخباره ﷺ إياهم بوحي الله تعالى إليه بها من من غير انتظار ما يجيء بعد ذلك فيها مما يحقق أنها ليست عن تلبيس فافهم والله تعالى الموفق.

وتوسط جمع في أمر هذه القصة فلم يثبتوها كما أثبتها الكوراني عفا الله تعالى عنه من أنه ﷺ نطق بما نطق عمدًا معتقدًا للتلبيس أنه وحي حاملًا له على خلاف ظاهره ولم ينفوها بالكلية كما فعل أجلة إثبات وإليه أميل بل أثبتوها على وجه غير الوجه الذي أثبته

الكوراني واختلفوا فيه على أوجه تعلم مما أسلفناه من نقل الأقوال في الآية وكلها عندي مما لا ينبغي أن يلتفت إليها.

وأقبح الأقوال التي رأيناها في هذا الباب وأظهرها فسادًا أنه ﷺ أدخل تلك الكلمة من تلقاء نفسه حرصًا على إيمان قومه ثم رجع عنها، ويجب على قائل ذلك التوبة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: ٥)، وقريب منه ما قيل إنها كانت قرآنًا منزلًا في وصف الملائكة عليهم السلام فلما توهم المشركون أنه يريد ﷺ مدح آلهتهم بها نسخت، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ (الحج: ٥٢) الخ لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة، وأقرب ما قيل في تفسيرها على القول بعدم الثبوت ما قدمناه، وقيل: هو بعيد صدقوا لكن عن إيهام الإخلال بمقام النبوة ونحو ذلك، واستفت قلبك إن كنت ذا قلب سليم. [(١)]

٣ـ**قال الشوكاني رحمه الله بعد ذكر القصة مجملة**: ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه. وقال أيضًا: والحاصل: أن جميع الروايات في هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها. [(٢)]

٤ـ **وقال ابن الجوزي**: قال العلماء المحققون: وهذا لا يصح، لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا، ولو صح، كان المعنى أن بعض شياطين الإنس قال تلك الكلمات، فإنهم كانوا إذا تلا لغطوا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ (فصِّلت: ٢٦). [(٣)]

٥ـ **وقال الرازي**: هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول. [(٤)]

---

(١) روح المعاني مع تصرف يسير سورة الحج آية ٥٢.

(٢) فتح القدير سورة الحج آية ٥٢.

(٣) زاد المسير سورة الحج آية ٥٢.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي سورة الحج آية ٥٢.

٦ـ وقال البيضاوي: وهو مردود عند المحققين، وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه.(١)

٧ـ وقال ابن عاشور: وهي قصة يجدها السامع ضِغثًا على إبَالة، ولا يلقي إليها النِّحرير بالَه. وما رُويت إلا بأسانيد واهية ومنتهاها إلى ذكر قصة، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبي ﷺ وسندها إلى ابن عباس سندٌ مطعون على أنّ ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبي ﷺ وهي أخبار آحاد(٢) تعارض أصول الدين لأنها تخالف أصل عصمة الرسول ﷺ للإلتباس عليه في تلقي الوحي. ويكفي تكذيبًا لها قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم: ٣) وفي معرفة الملكَ. فلو رووها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مُسكة من عقل أن يجْتمع في كلام واحد تسفيهِ المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ (النجم: ١٩) إلى قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ (النجم: ٢٣) فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها «الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى». وهل هذا إلا كلام يلعنُ بعضُه بعضًا. وقد اتفق الحاكون أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم كلها حتى خاتمتِها ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ (النجم: ٦٢) لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون، فدلّ على أنهم سمعوا السورة كلها وما بين آية ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ (النجم: ١٩) وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين، وتزييف كثير لعقائد المشركين فكيف يصحّ أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم.(٣)

فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإن تأويلها: أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعُزّى فُرصة للدخَل لاختلاق كلمات في مدحهنّ، وهي هذه الكلمات وروّجُوها بين الناس تأنيسًا لأوليائهم من المشركين وإلقاء للريب في قلوب ضعفاء الإيمان وفي «شرح الطيبي على الكشاف» نقلًا عن بعض المؤرّخين: أن كلمات «الغرانيق. . . » (أي

(١) تفسير البيضاوي سورة الحج آية ٥٢.

(٢) قدمنا أن خبر الآحاد مقبول إن ثبت فيه شروط الصحة، وراجع شبهة (حديث الآحاد).

(٣) التحرير والتنوير سورة الحج آية ٥٢.

هذه الجمل) من مفتريات ابن الزِّبعرى. ويؤيد هذا ما رواه الطبري عن الضحاك: «أن النبي ﷺ أنزل عليه قصةُ آلهة العرب، أي قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ (النجم: ١٩) الخ؛ فجعَل يتلو: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ (أي الآية المشتملة على هذا) فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم ففرحوا ودنوا يستمعون فألقَى الشيطان تلك الغرانيق العُلَى مِنها الشفاعة ترتجَى» فإن قوله: «دنوا يستمعون فألقى الشيطان» الخ يؤذن بأنهم لم يسمعوا أول السورة ولا آخرها وأن شيطانهم ألقى تلك الكلمات. ولعل ابن الزبعرى كانت له مقدرة على محاكاة الأصوات وهذه مقدرة توجد في بعض الناس. وكنت أعرف فتى من أترابنا ما يحاكي صوت أحد إلا ظنه السامع أنه صوتُ المُحاكَى.

وأما تركيب تلك القصة على الخبر الذي ثبت فيه أنّ المشركين سَجدوا في آخر سورة النجم لما سجد المسلمون، وذلك مروي في الصحيح، فذلك من تخليط المؤلفين.

وكذلك تركيب تلك القصة على آية سورة الحجّ. وكم بين نزول سورة النجم التي هي من أوائل السور النازلة بمكة وبين نزول سورة الحج التي بعضها من أول ما نزل بالمدينة وبعضها من آخر ما نزل بمكة.

وكذلك ربط تلك القصة بقصة رجوع من رَجع من مهاجرة الحبشة. وكم بين مدّة نزول سورة النجم وبين سنة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة. [1]

٩ـ **وقال ابن حزم**: (والحديث الذي فيه: وأنهن الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن لترجى. فكذب بحت لم يصلح من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد). [2]

١٠ـ **قال الشريف الجرجاني**: ولقد أخطأ المفسرون في إيداعها في تفاسيرهم إلا من عصمه الله تعالى. [3]

---

(١) التحرير والتنوير سورة الحج آية ٥٢.

(٢) نقلًا من الإسلام بين الإنصاف والجحود.

(٣) المختصر في أصول الحديث؛ باب تحمل الحديث.

١١ـ قال القاضي عياض: يكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكي حيث قال لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته فقائل يقول إنه في الصلاة، وآخر يقول قالها في نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول بل حدث نفسه فيها، وآخر يقول إن الشيطان قالها على لسانه وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال والله ما هكذا نزلت، إلى غير ذلك من اختلاف الرواة، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة وذكر القصة.

قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا ولم يسنده عن شعبة الا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضي الله عنه فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار رحمه الله والذي منه في الصحيح أن النبي ﷺقرأ والنجم وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس، هذا توهينه من طريق النقل.

فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلاموذلك كله ممتنع في حقه ﷺأو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمدًا – وذلك كفر – أو سهوا وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين والإجماع

عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدًا ولا سهوًا أو أن يتشبه عليه ما يلقيه الملك مما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو أن يتقول على الله لا عمدا ولا سهوا ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ (الحاقة: ٤٤)، وقال تعالى ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ (الإسراء: ٧٥).

١٢ـ قال ابن العربي: اعلموا أنار الله أفئدتكم بنور هداه، ويسر لكم مقصد التوحيد ومغزاه؛ أن الهدى هدى الله، فسبحان من يتفضل به على من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، وقد بينا معنى الآية في فصل تنبيه الغبي على مقدار النبي بما نرجو به عند الله الجزاء الأوفى، في مقام الزلفى، ونحن الآن

نجلو بتلك الفصول الغماء، ونرقيكم بها عن حضيض الدهماء، إلى بقاع العلماء في عشر مقامات:

المقام الأول: أن النبي ﷺ إذا أرسل الله إليه الملك بوحيه، فإنه يخلق له العلم به، حتى يتحقق أنه رسول من عنده، ولولا ذلك ما صحت الرسالة، ولا تبينت النبوة، فإذا خلق الله له العلم به تميز عنده من غيره، وثبت اليقين، واستقام سبيل الدين، ولو كان النبي إذا شافهه الملك بالوحي لا يدري أملك هو أم إنسان، أم صورة مخالفة لهذه الأجناس ألقت عليه كلاما، وبلغت إليه قولا لم يصح له أن يقول: إنه من عند الله، ولا ثبت عندنا أنه أمر الله، فهذه سبيل متيقنة، وحالة متحققة، لا بد منها، ولا خلاف في المنقول ولا في المعقول فيها، ولو جاز للشيطان أن يتمثل فيها، أو يتشبه بها ما أمناه على آية، ولا عرفنا منه باطلًا من حقيقة؛ فارتفع بهذا الفصل اللبس، وصح اليقين في النفس.

المقام الثاني: أن الله قد عصم رسوله من الكفر، وأمَّنه من الشرك، واستقر ذلك من دين المسلمين بإجماعهم فيه، وإطباقهم عليه؛ فمن ادعى أنه يجوز عليه أن يكفر بالله، أو يشك فيه طرفة عين، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه؛ بل لا تجوز عليه المعاصي في الأفعال، فضلًا عن أن ينسب إلى الكفر في الاعتقاد؛ بل هو المنزه عن ذلك فعلًا واعتقادًا.

المقام الثالث: أن الله قد عرف رسوله بنفسه، وبصره بأدلته، وأراه ملكوت سمواته وأرضه، وعرفه سنن من كان قبله من إخوته، فلم يكن يخفى عليه من أمر الله ما نعرفه اليوم، ونحن حثالة أمته؛ ومن خطر له ذلك فهو ممن يمشي مكبا على وجهه، غير عارف بنبيه ولا بربه.

المقام الرابع: تأملوا فتح الله أغلاق النظر عنكم إلى قول الرواة الذين هم بجهلهم أعداء على الإسلام، ممن صرح بعداوته أن النبي ﷺ لما جلس مع قريش تمنى ألا ينزل عليه من الله وحي، فكيف يجوز لمن معه أدنى مُسكة أن يخطر بباله أن النبي ﷺ آثر وصل قومه على وصل ربه، وأراد ألا يقطع أنسه بهم بما ينزل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه، وأنس وحشته، وغاية أمنيته.

وكان رسول الله ﷺ أجود الناس؛ فإذا جاءه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة فيؤثر على هذا مجالسة الأعداء.

المقام الخامس: أن قول الشيطان تلك الغرانقة العلا، وإن شفاعتها ترتجى للنبي ﷺ قبله منه؛ فالتبس عليه الشيطان بالملك، واختلط عليه التوحيد بالكفر، حتى لم يفرق بينهما.

وأنا من أدنى المؤمنين منزلة، وأقلهم معرفة بما وفقني الله له، وآتاني من علمه، لا يخفى علي وعليكم أن هذا كفر لا يجوز وروده من عند الله.

ولو قاله أحد لكم لتبادر الكل إليه قبل التفكير بالإنكار والردع، والتثريب والتشنيع، فضلا عن أن يجهل النبي ﷺ حال القول، ويخفى عليه قوله، ولا يتفطن لصفة الأصنام بأنها الغرانقة العلا، وأن شفاعتها ترتجى.

وقد علم علمًا ضروريًا أنها جمادات لا تسمع ولا تبصر، ولا تنطق ولا تضر، ولا تنفع ولا تنصر ولا تشفع، بهذا كان يأتيه جبريل الصباح والمساء، وعليه انبنى التوحيد، ولا يجوز نسخه من جهة المعقول ولا من جهة المنقول، فكيف يخفى هذا على الرسول؟ ثم لم يكف هذا حتى قالوا: إن جبريل عليه السلام لما عاد إليه بعد ذلك ليعارضه فيما ألقى إليه الوحي كررها عليه جاهلًا بها تعالى الله عن ذلك فحينئذ أنكرها عليه جبريل، وقال له: ما جئتك بهذه.

فحزن النبي ﷺ لذلك، وأنزل عليه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾، فيا لله والمتعلمين والعالمين من شيخ فاسد وسوس هامد، لا يعلم أن هذه الآية نافية لما زعموا، مبطلة لما رووا وتقولوا.

وهوالمقام السادس: وذلك أن كاد يكون كذا: معناه قارب ولم يكن؛ فأخبر الله في هذه.

وهو المقام السابع: ولم يفتر، ولو فتنوك وافتريت لاتخذوك خليلا، فلم تفتتن ولا افتريت، ولا عدوك خليلًا. ولولا أن ثبتناك.

وهو المقام الثامن: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه ثبته، وقرر التوحيد والمعرفة في قلبه، وضرب عليه سرادق العصمة، وآواه في كنف الحرمة. ولو وكله إلى نفسه، ورفع عنه ظل عصمته لحظة لألممت بها راموه، ولكنا أمرنا عليك بالمحافظة، وأشرقنا بنور الهداية فؤادك، فاستبصر وأزح عنك الباطل، وادحر.

فهذه الآية نص في عصمته من كل ما نسب إليه، فكيف يتأولها أحد؟ عدوا عما نسب من الباطل إليه.

المقام التاسع: قوله: فما زال مهمومًا حتى نزلت عليه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ ﴾ (الحج: ٥٢).

فأما غمه وحزنه فبأن تمكن الشيطان مما تمكن، مما يأتي بيانه؛ وكان ﷺ يعز عليه أن ينال الشيطان منه شيئا وإن قل تأثيره.

المقام العاشر: أن هذه الآية نص في غرضنا، دليل على صحة مذهبنا، أصل في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه أنه قاله عندنا، وذلك أنه قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه أنهم إذا قالوا عن الله قولا زاد الشيطان فيه من قبل نفسه، كما يفعل سائر المعاصي، كما تقول: ألقيت في الدار كذا، وألقيت في الكيس كذا.

فهذا نص في أن الشيطان زاد في الذي قاله النبي ﷺ لا أن النبي قاله؛ وذلك أن النبي ﷺ كان إذا قرأ تلا قرآنًا مقطعًا، وسكت في مقاطع الآي سكوتًا محصلًا، وكذلك كان

حديثه مترسلا متأنيا، فيتبع الشيطان تلك السكتات التي بين قوله: ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾، فقال يحاكي صوت النبي ﷺ: وإنهن الغرانقة العلا، وإن شفاعتهن لترتجى.

فأما المشركون، والذين في قلوبهم مرض لقلة البصيرة وفساد السريرة فتلوها عن النبي ﷺ ونسبوها بجهلهم إليه، حتى سجدوا معه اعتقادا أنه معهم، وعلم الذين أوتوا العلم والإيمان أن القرآن حق من عند الله فيؤمنون به، ويرفضون غيره، وتجيب قلوبهم إلى الحق، وتنفر عن الباطل؛ وكل ذلك ابتلاء من الله ومحنة. فأين هذا من قولهم وليس في القرآن إلا غاية البيان بصيانة النبي ﷺ في الإسرار والإعلان عن الشك والكفران.

وقد أوعدنا إليكم توصية أن تجعلوا القرآن إمامكم، وحروفه أمامكم، فلا تحملوا عليها ما ليس فيها، ولا تربطوا فيها ما ليس منها، وما هدي لهذا إلا الطبري بجلالة قدره، وصفاء فكره، وسعة باعه في العلم، وشدة ساعده وذراعه في النظر؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض، وصوب على هذا المرمى فقرطس بعدما ذكر في ذلك روايات كثيرة كلها باطلة، لا أصل لها، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها، ولكنه فعال لما يريد، عصمنا الله وإياكم بالتوفيق والتسديد، وجعلنا من أهل التوحيد بفضله ورحمته. (١)

١٢ـ قال الألباني رحمه الله بعد ذكر روايات القصة وردها: بيان بطلان القصة متنًا: تلك هي روايات القصة وهي كلها كما رأيت معلة بالإرسال والضعف والجهالة فليس فيها ما يصلح للاحتجاج به لا سيما في مثل هذا الأمر الخطير. ثم إن مما يؤكد ضعفها بل بطلانها ما فيها من الاختلاف والنكارة مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة، وإليك البيان:

أولًا: في الروايات كلها أو جلها أن الشيطان تكلم على لسان النبي ﷺ بتلك الجملة الباطلة التي تمدح أصنام المشركين " تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى.

ثانيًا: وفي بعضها: " والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاء به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ وهم " ففي هذا أن المؤمنين سمعوا ذلك منه ﷺ ولم يشعروا بأنه من إلقاء الشيطان

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي سورة الحج الآية الرابعة عشرة.

بل اعتقدوا أنه من وحي الرحمن بينما تقول الرواية السادسة: " ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان " فهذه خلاف تلك

ثالثا: وفي بعضها كالرواية: أن النبي ﷺ بقي مدة لا يدري أن ذلك من الشيطان حتى قال له جبريل: " معاذ الله لم آتك بهذا هذا من الشيطان "

رابعًا: وفي بعضها أنه ﷺ سها حتى قال ذلك فلو كان كذلك أفلا ينتبه من سهوه؟

خامسًا: وفي بعضها: أن ذلك ألقي عليه وهو يصلي

سادسًا: وفي بعضها أنه ﷺ تمنى أن لا ينزل عليه شيء من الوحي يعيب آلهة المشركين لئلا ينفروا عنه.

سابعًا: وفي الرواية (٤ و٦ و٩) أنه ﷺ قال عندما أنكر جبريل ذلك عليه " افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل وشركني الشيطان في أمر الله "

فهذه طامات يجب تنزيه الرسول منها لا سيما هذا الأخير منها فإنه لوكان صحيحا لصدق فيه ﷺ - وحاشاه - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ (الحاقة٤٦: ٤٤). فثبت مما تقدم بطلان هذه القصة سندا ومتنا. والحمد لله على توفيقه وهدايته. [١]

١٣ـ قال ابن حزم رحمه الله: وأما الحديث الذي فيه وأنهن الغرانيق العلى وأن شفاعتها لترتجى فكذب بحت موضوع لأنه لم يصح قط من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد. [٢]

وهذه الاضطرابات في متنها تدل على ضعفها.

الوجه السادس: الاضطراب في متن الرواية

كما أشار إليه القاضي عياض في كلامه السابق، وكذا الألباني وقد سبق النقل عنهما، وإذا ثبت ضعف الرواية إسنادًا وردها من جهة المتن لعلة الاضطراب فلا حاجة للتأويل.

(١) نصب المجانيق (٣٥، ٣٦)

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٨)

الوجه السابع: ولكن أهل العلم أجابوا عنها على فرض صحتها وقد أعاذنا الله من صحتها وهذه أجوبتهم عنها على فرض الصحة

الأول: أن هذه الشائعة التي أشيعت بين المشركين في أول الإسلام، إنما هي من اختلاقات المستهزئين من سفهاء الأحلام بمكة مثل ابن الزبعرى، وأنهم عمدوا إلى آية ذُكرت فيها اللات والعُزّى ومناةَ فركّبوا عليها كلمات أخرى لإلقاء الفتنة في الناس وإنما خَصُّوا سورة النجم بهذه المرجَفة لأنهم حَضروا قراءتها في المسجد الحرام وتعلقت بأذهانهم وتطلبًا لإيجاد المعذرة لهم بين قومهم على سجودهم فيها الذي جعله الله معجزة ﷺ. (١)

الثاني: أنه ﷺ سكت عند قوله ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلًا بقراءة النبي ﷺ فوقع عند بعضهم أنه ﷺ هو الذي تكلم بها، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبيﷺ وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي ﷺ ويسمع كلامه، فقد رُوي أنه نادى يوم أحد ألا إن محمدًا قد قتل، وقال يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨). (٢)

وقال عياض: والذى يظهر ويترجح في تأويله عندالمحققين على تسليمه أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا، ويفصل الآى تفصيلا في قراءته كما رواه الثقات عنه فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات، ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار فظنوها من قول النبي ﷺ، وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان، وعيبها عرف منه وقد حكى موسى بن عقبة في مغازيه نحو هذا، وقال إن المسلمين لم يسمعوها، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين، وقلوبهم، ويكون ما روى من حزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة، والشبهة، وسبب هذه الفتنة وقد قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الآية فمعنى تمنى:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧٩٧).

(٢) تفسير النسفي ٣/ ١٠٩.

تلا، قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أي تلاوة وقوله (﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي يذهبه ويزيل اللبس به ويحكم آياته. (١)

الثالث: أن يكون النبي ﷺ قاله تقريرًا وتوبيخًا للكفار كقول إبراهيم عليه السلام هذا ربى على أحد التأويلات وكقوله بل فعله كبيرهم هذا بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ثم رجع إلى تلاوته وهذا يمكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد وأنه ليس من المتلو. (٢)

الرابع: أن يكون المراد بالغرانقة العلى الملائكة

قال القاضي عياض: وبهذا فسر الكلبي الغرانقة أنها الملائكة وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله كما حكى الله عنهم، ورد عليهم في هذه السورة بقوله ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ فأنكر الله كل هذا من قولهم ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم وليس عليهم الشيطان ذلك وزينه في قلوبهم، وألقاه إليهم نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين، وجد الشيطان بهما سبيلا للإلباس كما نسخ كثير من القرآن، ورفعت تلاوته، وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة وفى نسخة حكمة ليضل به من يشاء، ويهدى من يشاء، وما يضل به إلا الفاسقين، و﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. (٣)

الخامس: وقيل إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة وبلغ ذكرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى خاف الكفار أن يأتي بشئ من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا في تلاوة النبي ﷺ وبشنعوا عليه على عادتهم وقولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه وأشاعوا ذلك وأذاعوه وأن النبي ﷺ

---

(١) الشفاء (٢/ ١٣٠)

(٢) نفس المصدر.

(٣) الشفاء (٢/ ١٣١).

قاله فحزن لذلك من كذبهم، وافترائهم عليه فسلاه الله تعالى بقوله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ ﴾ الآية، وبين للناس الحق من ذلك من الباطل، وحفظ القرآن، وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو كما ضمنه تعالى من قوله ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾. (١)

السادس: أن الذي قال ذلك رجل منهم قلد صوته ﷺ عند التلاوة فظنوها من كلامه ﷺ

وكان ذلك بحضرة الجمع الكثير من قريش في المسجد الحرام فقال سائر الكفار الذين كانوا بالبعد منه إن محمدا قد مدح آلهتنا وظنوا أن ذلك كان في تلاوته فأبطل الله ذلك من قولهم وبين أن النبي ﷺلم يتله وإنما تلاه بعض المشركين وسمى الذي القى ذلك في حال تلاوة النبي ﷺشيطانا لأنه كان من شياطين الإنس كما قال تعالى شياطين الإنس والجن والشيطان اسم لكل متمردعات من الجن والإنس. (٢)

السابع: أن يكون صدور مثل هذا وإتباعه بنسخه مع بيان الكل من النبي ﷺ دليل على صدقه وأمانته لأنه لم يكتم مثل هذا.

قال ابن تيمية رحمه الله: ومن جوز ذلك قال إذا حصل البيان ونسخ ما ألقى الشيطان لم يكن في ذلك محذور وكان ذلك دليلًا على صدقه وأمانته وديانته وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق كفعل طالب الرياسة المصر على خطئه وإذا كان نسخ ما جزم بأن الله أنزله لا محذور فيه فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور(٣)، وعلى هذا فالعصمة المتفق عليها أنه لا يقر على خطأ في التبليغ بالإجماع. (٤)

ومما تقدم يتبين أن روايات قصة الغرانيق ليست صحيحة وأنه ليس للشيطان سلطان أن يلقي على لسان النبي ﷺ شيئا من الباطل فيتلوه أو يتكلم به، وربما ألقى الشيطان قولا أثناء تلاوة النبيﷺيتكلم به الشيطان ويسمعه الحاضرون، أو يوسوس الشيطان وساوس

---

(١) الشفاء (٢/ ١٣٢).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٤).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ٣٦).

(٤) منهاج السنة (٢/ ٤١٠)، ومجموع الفتاوى (١٥/ ١٩١).

يلقيها في نفوس الكفار ومرضى القلوب من المنافقين فيحسبها أولئك من الوحي وليست منه فيبطل الله ذلك القول الشيطاني ويزيل الشبه ويحكم آياته.

فإن قيل إذا كان الأمر على ما وصفت فما هو معنى الآية؟ وما هو سبب النزول؟ فالجواب من كلام العلما ء ما يلي:

١ـ**قال الشوكاني**: وإذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قرأ وتلا، كما قدّمنا من حكاية الواحدي لذلك عن المفسرين. وكذا قال البغوي: إن أكثر المفسرين قالوا معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: تلا، وقرأ كتاب الله، ومعنى ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي في تلاوته وقراءته. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، ويؤيد هذا ما تقدّم في تفسير قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ (البقرة: ٧٨). وقيل: معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: حدّث، ومعنى ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في حديثه، روي هذا عن ابن عباس، وقيل: معنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قال. فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ، ولا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ، أي لا يهولنك ذلك ولا يحزنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين، والأنبياء، وعلى تقدير أن معنى ﴿تَمَنَّى﴾: حدّث نفسه كما حكاه الفرّاء والكسائي فإنهما قالا: تمنى إذا حدّث نفسه، فالمعنى: أنه إذا حدّث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه. قال ابن عطية: لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة.[١]

٢ـ **وأوضح من هذا ما قاله الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى**: والتمنّي: كلمة مشهورة، وحقيقتها: طلب الشيء العسير حصولُه. والأمنية: الشيء المتمنّى. وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلُّهم صالحين مهتدين، والاستثناءُ من عمومِ أحوال تابعة لعموم أصحابها وهو ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾، أي ما أرسلناهم في حال من الأحوال

(١) فتح القدير ٣/ ٦٦٠.

إلاّ في حالِ إذا تمنّى أحدُهم أمنية ألقى الشيطان فيها الخ، أي في حال حصول الإلقاء عند حصول التمني لأنّ أماني الأنبياء خيرٌ محض والشيطان دأبُه الإفساد وتعطيل الخير.

والقصر المستفاد من النفي والاستثناء قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي دون أن نرسل أحدًا منهم في حال الخلو من إلقاء الشيطان، ومكره.

والإلقاء حقيقته: رمي الشيء من اليد. واستعير هنا للوسوسة، وتسويل الفساد تشبيهًا للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ (طه: ٨٧) وقوله: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ (النحل: ٨٦) وكقوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ (طه: ٩٦) على ما حققناه فيما مضى.

ومفعول ﴿أَلْقَى﴾ محذوف دل عليه المقام لأنّ الشيطان إنما يلقي الشر والفساد، فإسناد التمني إلى الأنبياء دل على أنه تمنّي الهدى والصلاح، وإسناد الإلقاء إلى الشيطان دلّ على أنه إلقاء الضلال، والفساد. فالتقدير: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد.

ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول إلقاء ما يضادُّها، كمن يمكر فيلقى السمّ في الدّسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب، والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروّج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البُرهان، والله تعالى يُعيد الإرشاد ويكرّر الهدي على لسان النبي، ويفضح وساوس الشيطان وسوءَ فعله بالبيان الواضح كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٧) وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: ٦). فالله بهديه، وبيانه ينسخ ما يُلقِي الشيطان، أي يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانًا، وذلك هو إحكام آياته، أي تحقيقها، وتثبيت مدلولها، وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رِين على قلبه، وقد فسر كثيرٌ من المفسرين ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى قَرَأ، وتبعهم أصحاب كتب اللغة وذكروا بيتًا نسبوه إلى حسّان

بن ثابت وذكروا قصة بروايات ضعيفة سنذكرها. وأيًا ما كان فالقول فيه هو، والقول في تفسير التمني بالمعنى المشهور سواءٌ، أي إذا قرأ على الناس ما أنزل إليه ليهتدوا به ألقَى الشيطان في أمنيته، أي في قراءته، أي وسوس لهم في نفوسهم ما يناقضه وينافيه بوسوسته للناس التكذيب والإعراض عن التدبر. فشبه تسويل الشيطان بوسوسته للكافرين عدمَ امتثال النبي بإلقاء شيء في شيء لخلطه وإفساده.

وعندي في صحة إطلاق لفظ الأمنية على القراءة شك عظيم، فإنه وإن كان قد ورد تمنّى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسّان بن ثابت إن صحت رواية البيت عن حسان على اختلاف في مصراعه الأخير:

تمنى كتاب الله أولَ ليله   تمنيَ داوود الزبورَ على مَهل

فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية.

وجه آخر في معنى الآية: ويجوز أن يكون المعنى أن النبي إذا تمنّى هدْي قومه أو حرَص على ذلك فلقي منهم العناد، وتمنّى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم عسى أن يُقْصر النبيءُ من حرصه أو أن يضجره، وهي خواطر تلوح في النفس ولكن العصمة تعترضها فلا يلبث ذلك الخاطر أن ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كلّف به من الدأب على الدعوة والحرص على الرشد. فيكون معنى الآية على هذا الوجه ملوّحًا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأنعام: ٣٥).

و﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ للترتيب الرتبي، لأنّ إحكام الآيات وتقريرها أهمّ من نَسخ ما يُلقي الشيطان إذ بالإحكام يتضح الهُدى ويزدادُ ما يلقيه الشيطان نسخًا. وجملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ معترضة.

ومعنى هذه الآية: أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله ويعظونهم ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة حتى يظنوا أن أمنيتهم

قد نجحت ويقترب القوم من الإيمان، كما حكى الله عن المشركين قولهم: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (الفرقان: ٤٢) فيأتي الشيطان فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار فينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس ضروب شتى من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حُكيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسك أهل الضلالة بدينهم ويصدّون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان: ٤٢) وقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ (ص: ٦). وكلما أفسد الشيطان دعوة الرّسل أمرَ الله رسلَه فعاودوا الإرشاد وكرروه وهو سبب تكرر مواعظ متماثلة في القرآن، فبتلك المعاودة يُنسخ ما ألقاه الشيطان وتُثبت الآيات السالفة. فالنسخ: الإزالة، والإحكام: التثبيت. وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي ينسخ آثارَ ما يُلقي الشيطان، ويُحكم آثارَ آياته.[1]

وهناك وجه ثالث أورده صاحب الظلال فقال: إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند الله فيتبعوه. . ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة. والرسل بشر محدودو الأجل. وهم يحسون هذا ويعلمونه. فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق. . يودون مثلًا لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات، وتقاليد، وموروثات، فيسكتوا عنها مؤقتًا لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذ دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة! ، ويودون مثلًا لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة! ، ويودون. من مثل هذه الأماني، والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها. . ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فالكسب

---

(١) التحرير والتنوير سورة الحج آية (٥٢).

الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر، وتقديرهم هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق. فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش، مستقيمة لا عوج فيها، ولا انحناء.

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات، فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس. . ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة. كما حدث في بعض تصرفات الرسول ﷺ وفي بعض اتجاهاته، مما بين الله فيه بيانًا في القرآن.

بذلك يبطل الله كيد الشيطان، ويحكم الله آياته، فلا تبقى هنالك شبهة في الوجه الصواب والله عليم حكيم. اهـ[1]

* * * *

(١) الظلال ٥/ ٢٠٧.

٢ـ شبهة: ادعاؤهم أن الحج شعائره وثنية.

نص الشبهة:

يقولون: إن أعمال الحج التي يفعلها المسلمون هي من الطقوس الوثنية العربية القديمة التي أقرها الإسلام مراعاة لحال العرب، وما هو إلا تعبير عن الحنين إلى أسطورة العود الأبدي، وإعادة إحياء لتلك التجربة الجنسية الدينية المقدسة التي تمت بين آدم وحواء، والحج العربي العاري في الجاهلية يؤكد المشاركة في الجنس بين الألوهية والبشر، وليس من الضروري أن يقام بطقوسه المعروفة إذ يغني عنه الحج العقلي أو الحج الروحي، وهكذا تُمَيَّع كل الشعائر الإسلامية وتعتبر طقوسًا وثنية تحدرت إلى القرآن من البيئات والأمم السابقة والجاهلية.

١- فما هي الحكمة في الاجتماع على تقبيل الحجر الأسود إذا عرفنا أنه حجر لا يضر ولا ينفع ولا يخفى ما في ذلك من المظاهر الوثنية؟

٢- ما الحكمة في رمي الجمار ؟

٣- ما الحكمة في الهرولة بين الصفا والمروة؟

٤- الوقوف في سهل عرفات من أهم مناسك الحج، فالحج بدون الوقوف باطل في الإسلام، وإنما يفسّر هذا الأمر بأنه أثر لفكرة جاهلية، وهناك علاقة بين هذا الوقوف وبين إقامة بني إسرائيل على جبل سينا. فهؤلاء يعدّون أنفسهم لهذه الإقامة بالامتناع عن النساء وبغسل ثيابهم، وبذلك يقفون أمام الرب، وعلى هذا النحو لا يقرب المسلمون النساء ويرتدون ثياب الإحرام ويقفون أمام الخالق في سفح جبل مقدّس.

٥- ما المقصد في ذبح الذبائح على كثرتها، وفي ذلك ما فيه من النتائج الوخيمة التي تصدر من تعفن اللحوم؛ إذ تنتشر الأوبئة منها؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الإسلام جاء ليُحافظ على جناب التوحيد، ويقضي على الشرك خاصةً في الحج.

الوجه الثاني: أن الله ﷻ هو الذي أمر بهذه الأعمال فكيف تكون وثنية؟! !

الوجه الثالث: لا ينبغي دائمًا البحث عن الحكمة من وراء العبادة بل الأصل السمع والطاعة.

الوجه الرابع: توضيح حقيقة العبادة وماهيتها.

الوجه الخامس: الوثنية ليست أمرًا أصليًا عند العرب، بل هي أمر طارئ على العرب والأصل ملة إبراهيم.

الوجه السادس: أعمال الحج عند الأنبياء عليهم السلام.

الوجه السابع: مخالفة النبي ﷺ لأمور الجاهلية في بعض أعمال الحج يدل على أن أعمال الحج محض عبادة.

الوجه الثامن: النبي ﷺ يلغي أمور الجاهلية في حجته ﷺ.

الوجه التاسع: التماس الحكمة من بعض أعمال الحج.

الوجه العاشر: مقارنة بين الحج في اليهودية والنصرانية والإسلام.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الإسلام جاء ليُحافظ على جناب التوحيد، ويقضي على الشرك خاصةً في الحج.

خلق الله تعالى الثقلين وأمرهم بعبادته، وجعل للعبادة شرطًا لا تقبل بدونه، وهو الإخلاص والتوحيد، فالإسلام بشعائره وفرائضه كلها مرتبط غاية الارتباط بكلمة التوحيد. ومن تلك الشعائر شعيرة الحج، والتي هي من أعظم الشعائر التي تقوي وتحيي في قلب العبد توحيد المعبود سبحانه وتعالى؛ لكثرة الأعمال التي توقف الإنسان مع ربه موحدًا متفكرًا تائبًا من أي تقصير أو زلل.

ويدل على ذلك:

١- قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦).

فيها الأمر بإخلاصهما لله تعالى، وهذا يدل على أنها ليست من أعمال الوثنية.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ (النمل: ٩١)، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ (قريش: ٣).

فبين الله ﷻ أن العبادة لرب البيت وهو الله ﷻ وليست للبيت.

والمعنى: إنما أمرت أن أخص الله بالعبادة وحده لا شريك له. (١)

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها. (٢)

والإشارة إلى البيت في هذا النظم تفيد التعظيم فإنه سبحانه تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول: (يا عبادي) (العنكبوت: ٥٦) وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول: (وإلهكم) (البقرة: ١٦٣)، كذا في البيت (تارة) يضيف نفسه إلى البيت وهو قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ (البقرة: ١٢٥). (٣)

٣- عن قتيلة امرأة من جهينة: (أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون: تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت). (٤)

فيه النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة.

وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه.

فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ دَخَلَ النبي ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ كَانَ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: **(جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)**. (٥)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما- أَنَّ النبي ﷺ لَمَّا رَأَى الصُّوَرَ فِي الْبَيْتِ لَمْ يَدْخُلْ، حَتَّى أَمَرَ بِهَا فَمُحِيَتْ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلامُ - بِأَيْدِيهِمَا الأَزْلامُ فَقَالَ « قَاتَلَهُمُ الله، وَالله إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالأَزْلامِ قَطُّ ». (١)

---

(١) فتح القدير ٤/ ٢٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٣.

(٣) تفسير الرازي ٣٢/ ١٠٨.

(٤) صحيح. أخرجه النسائي في سننه ٧/ ٦ من طريق مسعر، عن معبد بن خالد، عن عبد الله بن يسار، عن قتيلة به، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٧٨)، مسلم (١٧٨١).

الوجه الثاني: أن الله ﷻ هو الذي أمر بهذه الأعمال فكيف تكون وثنية؟.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج: ٢٩)، ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: ١٢٥)، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٥٨)، إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن أعمال الحج من عند الله وليست من أعمال الوثنية.

والجاهل الذي لا يعرف حكم الإسلام ولا يعرف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قد ينطلي عليه مثل هذا الكلام - أن أعمال الحج من الوثنية -لأن القائل نفسه يعلم أنه باطل، وأن مقصوده به التشويه، وكذلك يقصد به أن ينفر عن الإسلام من لا يعرفه، وإلا فإن أهل الإسلام يعلمون أن الكعبة مبنية من الحجر وغيره ، وأنها لا تضر ولا تنفع أحدًا، وإنما يمتثلون أمر ربهم حيث أمرهم بقصدها والطواف عليها وبالتوجه إليها بالصلاة والدعاء.

فهذا مثلما ذكر الله جل وعلا أنه أمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم فسجدوا طاعة لله وليس عبادة لآدم، فكذلك المسلمون يذهبون إلى الكعبة ويطوفون بها طاعة لله جل وعلا، ويعبدون رب الكعبة وليست الكعبة هي المعبودة، وإنما المعبود ربها الذي أمر بتعظيمها وبقصدها وبالطواف عليها.

أما التمسح بالكعبة فليس مشروعًا بل لا يجوز وهو من المحرمات، وإذا وقع فإنما يقع من الجهلة الذين لا يعرفون الحكمة، وإنما الذي يمسح هو الحجر الأسود والركن اليماني فقط، وأما غير ذلك فلا يجوز التمسح كما يقول هؤلاء، وإنما يفعلون ما أمروا تعبدًا لله جل وعلا وتقربًا.

وأما الوقوف بعرفات فهو عبادة أمروا بها تعبدًا لله، وكذلك المبيت بمزدلفة، ورمي الجمار وسائر مواقف الحج والمشاعر، كلها عبودية للقلب وللبدن؛ فالقلب أولًا يخضع لله جل وعلا ممتثلًا أمره وليس لهذه المظاهر التي يزعم الأعداء أنها من بقايا الوثنية، إذ إنهم إما جاهلون بالحكم وبالواقع، أو أنهم عرفوا الحكم فكذبوا على الله وعلى رسوله ﷺ وعلى المسلمين، فعليهم جريمة الكذب وجريمة معاداة الحق. [٢]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٢).

(٢) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان.

الوجه الثالث: لا ينبغي دائمًا البحث عن الحكمة من وراء العبادة بل الأصل السمع والطاعة.

لا يجب على الإنسان أن يعلم الحكمة في جميع ما شرعه الله ﷻ ورسوله ﷺ، فإن ذلك ليس في قوى البشر، ولا في وسعهم وطاقتهم، وإنما يجب هذا على الأعيان الذين أهَّلهم الله لمعرفة ما أنزله الله، وأطلعهم عليه، وأما من كان عاجزًا عن ذلك، وليس في طاقته ووسعه معرفة ذلك والاطلاع عليه، فالواجب عليه أن يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ إيمانًا عامًا مجملًا، وأن يعمل بما أمر الله به رسوله ﷺ، سواء عرف الحكمة في ذلك أو لم يعرفها.

فإذا وعى الإنسان ذلك كان نورًا بين يديه يبصر به حكم سائر مناسك الحج والأمور التي تَعَبَّدَنا الله تعالى بها لتغذية إيماننا بالطاعة والامتثال سواء عرفنا سبب كل عمل منها وحكمته أم لا، وأنها إحياء لدين إبراهيم أبي الأنبياء وإمام الموحدين المخلصين، وتذكير بنشأة الإسلام ومعاهده الأولى، وإن لاستحضار ذلك لتأثيرًا عظيمًا في تغذية الإيمان وتقوية الشعور به، والثقة بأنه دين الله الخالص الذي لا يقبل غيره، فإن جهلنا سبب شرع بعض تلك الأعمال أو حكمتها لا يضرنا ذلك، ولا يثنينا عن إقامتها كما إذا ثبت لنا نفع دواء من الأدوية مركب من عدة أجزاء، وجهلنا سبب كون بعضها أكثر من بعض، فإن ذلك لا يثنينا عن استعمال ذلك الدواء والانتفاع به، ولا يدعونا إلى التوقف وترك استعماله إلى أن نتعلم الطب ونعرف حكمة أوزان تلك الأجزاء ومقاديرها.

قال ابن القيم: إن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر، ولا أكثرها بل لا نسبة لما علموه إلى ما جهلوه فيها، لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خفي عنهم منها كانت كنقرة عصفور في البحر، وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لم يعرف، ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه؛ بل أعظم وأدق، وما مثل هؤلاء الحمقى النوكى إلا كمثل رجل لا علم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب، بل ولا الحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعتهم فخفيت عليه فجعل كل ما خفي عليه منها شيء قال هذا لا فائدة فيه، وأي حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صنائعهم، ويفوقهم فيها. فما الظن بمن

بهرت حكمته العقول الذي لا يشاركه مشارك في حكمته، كما لا يشاركه في خلقه، فلا شريك له بوجه، فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عيارًا عليها فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين ولله في كل ما خفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لا تدفع ولا تنكر.[1]

فعلّة الأسباب الإيمانية ليست في أن نفهمها أو نعرف الحكمة منها، ولكن علة الأشياء في أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بها.

فالواجب على المسلم أن يمتثل ما أمر الله ورسوله مما شرعه في أعمال الحج وأن لا يدع ما أمر الله به ورسوله ﷺ لعدم علمه بالحكمة في ذلك لأن ترك العمل بذلك- إلا بعد العلم بالحكمة فيه- من شأن أهل البدع المارقين المتعنتين بالأسئلة والتشكيكات والمعارضة الباطلة لما شرعه الله ورسوله ﷺ - كما نبه على ذلك أهل العلم.

الوجه الرابع: توضيح حقيقة العبادة وماهيتها.

إذا كان هؤلاء يعدّون تقبيل الحجر الأسود والسجود تجاه الكعبة والطواف والسعي بين الصفا والمروة عبادة لهم من دون الله، فلابد إذًا أن نبدأ ببيان حقيقة العبادة وماهيّتها.

إن من يعبد شيئًا مهما كانت طبيعته فإنه يعتقد أن له سلطة غيبية ينعكس تأثيرها على الواقع، وبالتالي فإن العابد يتقرّب إلى معبوده رجاءً للنفع أو دفعًا للضرّ، وهو في الوقت ذاته يعتقد أن التقصير في حق هذا المعبود أو ترك عبادته يترتّب عليه حصول الضرر ووقوعه كنوع من العقاب، ومثل هذا مُشاهدٌ حتى في واقع الناس اليوم من أتباع الديانات الوثنية المنتشرة في أرجاء الأرض، إذ يلاحظ في أتباع تلك الديانات خضوعًا لمعبوداتهم رغبةً في جلب المنافع المختلفة، أو دفع المضارّ من القحط والجفاف ونحوه، مع تعلّق قلوبهم بهذا المعبود خشية منه ورهبة من سلطانه.

وهذه السلطة الغيبية قد تكون في نظرهم سلطة ذاتية، بمعنى أن العابد يرى استقلال معبوده بالنفع والضرّ، وهذا كالذين يعبدون الشمس والكواكب لاعتقادهم بتأثيرها على نواميس الكون وتسييرها للخلائق، أو أن تكون السلطة غير ذاتية بأن يعتقد أن معبوده

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٧٢.

يشكّل واسطة بينه وبين قوّة علوية لها قدرة ذاتية مستقلة في النفع والضرّ، فيؤدي ذلك إلى عبادته رجاء شفاعته عند من يقدر على النفع والضرّ، كما هو الحال مع كفار قريش الذين كانوا يعتقدون أن الأصنام والأوثان التي يعبدونها تقربهم إلى الله جلّ وعلا، وتشفع لهم عنده، يقول الله ﷻ مبينا ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣)، وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يونس: ١٨).

وبناءً على ما سبق، فإن المسلمين لم يعبدوا الحجر الأسود ولا غيره، لأنهم لا يرون أن أحدًا يملك الضرّ والنفع غير الله تعالى، فهم ينفون وجود أية سلطة ذاتية في المخلوقات مهما كانت، كما أنهم يرون أن علاقة المخلوق بالخالق علاقة مباشرة ليس فيها وسيط، وأن العباد لا يحتاجون إلى شفيعٌ يقصدونه بالتقرّب دون الله ﷻ، بل إنهم يعدّون ذلك من الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام، لأنهم يرون أن العبادات لا يجوز صرفها لأي مخلوق، سواء أكان ملكًا مقرّبًا أم نبيًّا مرسلًا، فضلًا عن كونه حجرًا لا يضرّ ولا ينفع.

ويقرّر ذلك الصحابيّ الجليل عمر بن الخطاب ﷺ في مقولته الشهيرة: " إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك "[(١)]، فقد أراد أن يبيّن للناس أن هذا الفعل هو محض إتباع للنبي ﷺ، وليس لأن الحجر ينفع أو يضرّ، وعليه فإنه لا قدسية لأحجار الكعبة بذاتها، وإنما اكتسب الحجر الأسود هذه المزية لأمر الله تعالى بتقبيله، ولو لم يرد ذلك الأمر لم يكن لأحد أن يقوم بتقديسه أو تقبيله.

ثم إن رحى العبادة تدور على قضيّتين أساسيّتين: تمام المحبة مع غاية الذلّ والخضوع، فمن أحبّ شيئًا ولم يخضع له فليس بعابد له، ومن خضع لشيء دون أن يحبّه فهو كذلك ليس بعابد له، ومعلوم أن تقبيل الحجر الأسود هو فعلٌ مجردٌ من الخضوع والذلّ لذلك الحجر.

ومن المناسب أن نقول: إن من يعبد شيئًا فلا شكّ أنه يرى في معبوده أنه أعلى منه وأفضل

---

(١) البخاري (١٥٩٧)، مسلم (١٢٧٠).

منه؛ لأن العابد لا يعبد من يرى أنه مثله أو أدنى منه منزلةً وقدرًا، ونحن نعلم أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة، بل أعظم من حرمة الدنيا بأسرها فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: "لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم ". [(١)]

وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: (مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ). [(٢)]

فما سبق يبيّن لنا نظرة الشرع للمسلم في كونه أعظم حرمةً من الكعبة بما فيها الحجر الأسود، فكيف يصحّ أن يقال إن المسلمين يعبدون هذا الحجر أو يعبدون البيت؟. [(٣)]

الوجه الخامس: الوثنية ليست أمرًا أصليًا عند العرب ـ ظلوا عليه آلاف السنين منذ نشأتهم ـ حتى يخاف محمد ﷺ خوفًا شديدًا على تغييرها في الحج وغيره، بل هي أمر طارئ على العرب والأصل ملة إبراهيم.

فدخول الوثنية إلى بلاد العرب كانت علي يد عمرو بن لحي الخزاعي، ومحمدﷺجاء ليُرجعهم إلى ما كانوا عليه من التوحيد:

قال الكلبي: وكان عمرو بن لحي كاهنًا وكان يكنى أبا ثمامة، له رئى من الجن فقال: له عجل المسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة ائت صفا جده تجد فيها أصنامًا معدة فأوردها تهامة ولا تهب ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب فأتى نهر جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد بها تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات فدفع إليه ودًا فحمله فكان بوادي القرى بدومة الجندل وسمي ابنه عبد ود فهو أول من سمى به وجعل عوف ابنه عامرًا سادنًا له فلم يزل بنوه يدينون به حتى جاء الله بالإسلام. [(٤)]

---

(١) **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه (١٣٩٥)، والنسائي في سننه ٧/ ٨٢، والبيهقي في سننه ٨/ ٢٢، وغيرهم من طرق عن شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو به موقوفا ومرفوعا والموقوف صححه الترمذي، والبيهقي. وإن صح موقوفا فله حكم الرفع

(٢) **حسن**. أخرجه الترمذي في سننه (٢٠٣٢) من حديث الحسين بن واقد عن أوفى بن دلهم عن نافع عن ابن عمر به. وقال الألباني: حسن صحيح. صحيح الترغيب (٢٣٣٩)

(٣) نقلًا من المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام.

(٤) تلبيس إبليس ١/ ٦٩.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ النبي ﷺ: " رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الخزاعي يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ "(١)

الوجه السادس: أعمال الحج عند الأنبياء عليهم السلام.

نبين في هذا الوجه أن الله ﷻ علَّم إبراهيم عليه السلام هذه المناسك، وفعلها الأنبياء من بعده والنبي ﷺ قد أمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وهذا يدل على أن أعمال الحج ليست من الوثنية بل لها أصل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧، ١٢٨).

عن قتادة قوله: "وأرنا مناسكنا" فأراهما الله مناسكهما: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، حتى أكمل الله الدين - أو دينه. (٢)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَمَرَرْنَا بِوَادٍ فَقَالَ: « أي وَادٍ هَذَا؟ ». فَقَالُوا: وادي الأَزْرَقِ. فَقَالَ: « كأني أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعْرِهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ إِلَى الله بِالتَّلْبِيَةِ مَارًّا بِهَذَا الوادي ». قَالَ: « ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ. فَقَالَ: « أي ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ ». قَالُوا: هَرْشَى أَوْ لِفْتٌ. فَقَالَ: « كأني أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ مَارًّا بِهَذَا الوادي مُلَبِّيًا ». (٣)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ، وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ. . . فذكر القصة وفيها: فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوادي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ، الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوادي رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٩٠١).

(٢) الطبري في تفسيره (١/ ٦٠٢)، قال: حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة به.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٦).

حَتَّى جَاوَزَتِ الوادي، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النبي ﷺ: " فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا ". (١)

عن ابن عباس رفعه قال: لما أتى إبراهيم خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، قال ابن عباس: الشيطان ترجمون وملة أبيكم تتبعون. (٢)

وعن يزيد بن شيبان قال: كُنَّا في مَوْقِفٍ لناَ بِعَرَفَةَ يُبَاعِدِهُ عمرو بن دينارٍ مِنْ مَوْقِفِ الإِمَامِ جدًا فأتاناَ ابْنُ بزيغ الأَنْصَارِيُّ فقال لنا: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ إليكُمْ إِنَّ رَسُولَ الله يأمُرُكُمْ أَنْ تَقِفُوا عَلَى مَشَاعِرِكُم هذه فإنَّكُمْ على إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أبيكُمْ إبْرَاهِيمَ عليه السلام. (٣)

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٧)﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧)، وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ (الحج: ٢٧).

قال ابن كثير: ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها، وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٣٨، ومن طريقه البيهقي ٥/ ١٥٣ من طريق إبراهيم بن طهمان ثنا الحسن ابن عبد الله، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس به. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١١٥٦).

(٣) حسن. أخرجه الشافعي في مسنده صـ ٢٤١، والحميدي في مسنده (٥٧٧) وأحمد في مسنده ٤/ ١٣٧، أبو داود (١٩١٩)، ابن أبي شيبة في مصنفه ٣/ ٣٤٥، والنسائي في سننه ٥/ ٢٥٥، والترمذي في سننه (٨٨٣) كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن عبد الله بن صفوان عن يزيد بن شيبان به. صححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٨٨).

سجود إلا بعد قيام. وفي ذلك -أيضًا-رَدّ على من لا يحجه من أهل الكتابين: اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟ وقد حَجَّ البيتَ موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم السلام، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم: ٤). (١)

وجملة القول أن مناسك الحج من شريعة إبراهيم وقد أبطل الإسلام كل ما ابتدعته الجاهلية فيها من وثنيتها وقبيح عملها كطوافهم بالبيت عراة وغير ذلك مما سنبينه. ومبنى العبادات على الاتباع لا على الرأي.

الوجه السابع: مخالفة النبي ﷺ لأمور الجاهلية في بعض أعمال الحج يدل على أن أعمال الحج محض عبادة.

لقد كانت مواقف الجاهلية في الحج مواقف مخزية، إنما هي خليط ممزوج من الأضداد والمتناقضات. . يظهر ذلك جليًا في بعض المواقف المنكرة. والتي خالفها النبي ﷺ ومنها:

التلبية: فكانت تلبيتهم في الحج التي يخلطون معها الشرك، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكهُ وما لك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك قال فيقول رسول الله ﷺ: ويلكم قدٍ قدٍ، فيقولون إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت. (٢)

فكان النبي ﷺ يقول: "لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ"(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٩.

(٢) أخرجه مسلم (١١٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٤٩)، مسلم (١١٨٤).

الطواف عرايا: فكان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض ولا يأخذونها أبدا ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى ويسمى اللقاء حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة ونهى عن الطواف عرايا.

قَالَ عُرْوَةُ: كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إِلاَّ الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، وَكَانَتِ الْحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ عَلَى النَّاسِ يُعْطِى الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا، وَتُعْطِى الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الْحُمْسُ طَافَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا، وَكَانَ يُفِيضُ جَمَاعَةُ النَّاسِ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَيُفِيضُ الْحُمْسُ مِنْ جَمْعٍ. قَالَ وَأَخْبَرَنِى أَبِى عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في الْحُمْسِ ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾، قَالَ: كَانُوا يُفِيضُونَ مِنْ جَمْعٍ فَدُفِعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ. (١)

عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافا؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١). (٢)

فعن حُمَيْد بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه بَعَثَهُ فِي الْحَجَّةِ الَّتي أَمَّرَهُ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَوْمَ النَّحْرِ في رَهْطٍ يُؤَذِّنُ في النَّاسِ « أَلاَ لاَ يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ »(٣)

الوقوف بعرفة: ففي حديث جابر الطويل في سياق حجة الوداع أنه قال: (وَكَانَتِ الْعَرَبُ يَدْفَعُ بِهِمْ أَبُو سَيَّارَةَ عَلَى حِمَارٍ عُرْيٍ فَلَمَّا أَجَازَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ بِالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ. لَمْ تَشُكَّ قُرَيْشٌ أَنَّهُ سَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ وَيَكُونُ مَنْزِلُهُ ثَمَّ فَأَجَازَ وَلَمْ يَعْرِضْ لَهُ حَتَّى أَتَى عَرَفَاتٍ فَنَزَلَ). (٤)

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٦٥)، مسلم (١٢١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٦٢٢)، مسلم (١٣٤٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٦).

معنى الحديث أن قريشًا كانت قبل الإسلام تقف بالمزدلفة وهي من الحرم ولا يقفون بعرفات وكان سائر العرب يقفون بعرفات وكانت قريش تقول نحن أهل الحرم فلا نخرج منه فلما حج النبي ﷺ ووصل المزدلفة اعتقدوا أنه يقف بالمزدلفة على عادة قريش فجاوز إلى عرفات لقول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ (البقرة: ١٩٩).

المكاء، والتصدية: قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٥)، أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويصفِّقون ويَصْفِرُون ويضعون خدودهم بالأرض، فجاء الإسلام وبين أن الطواف لذكر الله.

فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "إنما جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ الله". [1]

قال السعدي: يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾أي: صفيرًا وتصفيقًا، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟ ، فبأي: شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة. [2]

ولو فقه المسلمون هذا المعنى العظيم في الحج لما كان في كثير من بلاد المسلمين قبور وأضرحة تعبد من دون الله تعالى؛ فيطاف بها، وينذر لها، ويدعى عندها، ويصرف لها ما لا يجوز صرفه إلا لله تعالى من المحبة والتعظيم والخوف والرجاء، فما أشد غربة التوحيد في

---

(١) **صحيح**. أخرجه أبو داود في سننه (١٨٨٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٨٨٢)، وابن الجارود في المنتقى (٤٥٧)، والترمذي في سننه (٩٠٢)، وأخرجه الدارمي في سننه (١٨٥٣)، وأخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٦٤، والبيهقي في الشعب (٤٠٨١) من طرق عن عبيد الله بن أبي زياد، عن القاسم، عن عائشة به.

(٢) تفسير السعدي صـ٣٢٠.

كثير من بلاد المسلمين؟!

فكيف يكون الحج رمزًا من رموز الجاهلية؟ وقد أبطل النبي ﷺ كل هذه المخالفات التي كانت في الجاهلية والتي تتناقض مع نقاء الإسلام وطُهرِهِ. . ومن المعلوم أن كل العبادات وما جاء فيها من أوامر ونواه كلها أمور توقيفية. . لا دخل للاجتهاد فيها؛ كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من الأمور التي جاء بها الشرع الحكيم. فهذا يدلنا على أن الإسلام أراد بالحج تثبيت التوحيد لا إدخال طقوس الشرك.

الوجه الثامن: النبي ﷺ يلغي أمور الجاهلية في حجته ﷺ.

من أجل ذلك- حفاظًا على الإسلام - ألغى النبي ﷺ كل أمور الجاهلية. . وفي خطبة عرفات قال ﷺ في جزء من الخطبة القيمة: ، فكان مما قال فيها: "أَلاَ كُلُّ شيء مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قدمي مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا في بني سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ"(١).

فكيف يكون الحج رمزًا من رموز الجاهلية؟ وقد أبطل النبي ﷺكل هذه المخالفات التي كانت في الجاهلية والتي تتناقض مع نقاء الإسلام وطُهرِهِ. ومن المعلوم أن كل العبادات وما جاء فيها من أوامر ونواه كلها أمور توقيفية. لا دخل للاجتهاد فيها؛ كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من الأمور التي جاء بها الشرع الحكيم. (٢)

الوجه التاسع: التماس بعض الحكم من أعمال الحج.

تقبيل الحجر:

قال السعدي: فمن تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فإن ذلك من الشرك، ومن أعمال المشركين فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها. فإن هذا التبرك غلو فيها وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم انطباق الحد عليه، وهذا عام في كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبي ﷺوصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) الصواعق السماوية علي منكري آيات الكتاب وصحيح السنة (راشد بن عبد المعطي بن محفوظ) ١/ ٢٤.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد. فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذلك تعظيم للمخلوق وتأله له.

فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد، والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد. (١)

فقد اتفق العلماء على أنه لا يشرع تقبيل شيء من الأحجار واستلامه إلا الحجر الأسود خاصة، وأجمعوا على حرمة الطواف بالقبور وأنه من وسائل الشرك إلا إن كان يقصد بطوافه التقرب والتعبد للمقبور فهو شرك أكبر، وأجمعوا على حرمة الطواف بالمساجد المبنية بعرفة أو منى. (٢)

ولقد انعقد إجماع الأمة على مشروعية تقبيل الحجر الأسود، وعليه فمن يدعي أن ذلك ينافي دعوة الإسلام لنبذ الأوثان فدعواه باطلة فشتان بين من يأتي ذلك طاعة لله ورسوله معتقدًا أن الحجر لا ينفع ولا يضر وبين من يقدس الأوثان التي نهى الله عن الاقتراب منها، فطواف المسلم بالكعبة المشرفة وصلاته إليها إنما هي عبادة لله لا لها.

الرمي: قال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في بيان أسرار الحج من الإحياء: وأما رمي الجمار فليقصد به الانقياد للأمر إظهارًا للرق والعبودية، وانتهاضًا لمجرد الامتثال، من غير حظ للعقل والنفس في ذلك؛ ثم ليقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية، فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردًا له وقطعًا لأمله، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي، ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه، وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به؟

فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي، فبذلك ترغم أنف الشيطان. واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقصم به ظهره،

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد ١/ ١٥.

(٢) الإجماع العقدي ١/ ٧.

إذا لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيمًا له بمجرد الأمر، من غير حظ للنفس والعقل فيه. (١)

القصد بذبح الذبائح أيام منى، وفي عيد الأضحى في سائر الأمصار هو طاعة الله، وامتثال ما أمر به، وما سنه رسول الله ﷺ وشرعه لأمته، وتقوى الله سبحانه وتعالى في هذا كله، لأن ذلك من شعائر الله، وتقوى الله سبحانه وتعالى في هذا كله، لأن ذلك من شعائر الله، فإنها من تقوى القلوب - أي أوامره - فإنها من تقوى القلوب، ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن.

ومن القصد بالذبائح أيام منى إظهار نعمة الله بالتوسعة على فقراء المسلمين، وإحياء سنة الخليل إبراهيم عليه السلام، وإذا كان من المعلوم المستقر عند الخلق أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضاة المحبوب، فالمحبوب الحق -الذي لا تنبغي المحبة إلا له، وكل محبة سوى محبته فالمحبة له باطلة - أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذي هو غاية ما يتقربون به إلى إلههم وربهم.

وكانت قرابين من قبلهم من الأمم ذبائحهم وقرابينهم تقديم أنفسهم للذبح في الله مولاهم الحق، فأي حسن يزيد على حسن هذه العبادة، ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء، وأكمل الأمم، عقلًا وتوحيدًا، ومحبة لله.

وأما الضحايا والهدايا فقربان إلى الخالق سبحانه تقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للتلف فدية وعوضًا وقربانًا إلى الله، وتشبها بإمام الحنفاء، وإحياء لسنته، أن فدى الله ولده بالقربان، فجعل ذلك في ذريته باقيًا أبدًا.

وتأمل حكمة الرب تعالى في أمره إبراهيم خليله ﷺ بذبح ولده، لأن الله اتخذه خليلًا، والخلة منزلة تقتضي إفراد الخليل بالمحبة، وأن لا يكون له فيها منازع أصلًا، بل قد تخللت محبته جميع أجزاء القلب والروح، فلم يبق فيها موضع خال من حبه، فضلًا عن أن يكون محلًا لمحبة غيره. (٢)

فلما سأل إبراهيمُ الولدَ وأعطيَه، أخذ شعبةً من قلبه، كما يأخذ الولد شعبة من قلب والده، فغار المحبوب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبح الولد ليخرج حبه من قلبه،

---

(١) مجلة المنار ١٦/ ٦٧٥.

(٢) إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل ١/ ٢٦.

ويكون الله أحب إليه، وآثر عنده، ولا يبقى في القلب سوى محبته، فوطن نفسه على ذلك، وعزم عليه، فخلصت المحبة لوليها ومستحقها، فحصلت مصلحة المأمور به من العزم عليه، وتوطين النفس على الامتثال، فبقي الذبح مفسدة، لحصول المصلحة بدونه، فنسخه في حقه لما صار مفسدة، وأمر به لما كان عزمه عليه، وتوطين نفسه مصلحة لهما، فأي حكمة فوق هذا، وأي لطف وبر وإحسان يزيد على هذا، وأي مصلحة فوق هذه المصلحة بالنسبة إلى هذا الأم ونسخه.

وإذا تأملت الشرائع الناسخة والمنسوخة وجدتها كلها بهذه المنزلة، فمنها ما يكون وجه المصلحة فيه ظاهرًا مكشوفًا، ومنها ما يكون ذلك فيه خفيًا لا يدرك إلا بفضل فطنة وجودة إدراك.

الوجه العاشر: مقارنة بين الحج في اليهودية والنصرانية والإسلام.

الحج في اليهودية:

وقت (أعياد) الحج عندهم.

لو أننا يممنا وجوهنا شطر شعيرة الحج في اليهودية والنصرانية لتبين لنا بوضوح الفروق الجوهرية بين الشعيرة في الرسالات الثلاث، بل لا نغالي إذا قلنا: إن الحج كشعيرة لا وجود له في اليهودية والنصرانية المحرفتين، فليس في اليهودية حج بالمعنى الذي يسبق إلى الذهن، وإنما مجرد أعياد مرتبطة بمواسم الحصاد، وكلمة «أعياد» تقابلها في العبرية كلمة «حَجِّيم» (مفردها «حَج»)، ويقابلها أيضًا «موعيد» أو «يوم طوف». وتُستخدَم كلمة حجيم للإشارة إلى عيد الفصح وعيد الأسابيع وعيد المظال

جاء في سفر (الخروج٢٣/ ١٩: ١٤): ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تُعَيِّدُ لِي فِي السَّنَةِ. ١٥ تَحْفَظُ عِيدَ الْفَطِيرِ. تَأْكُلُ فَطِيرًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرْتُكَ فِي وَقْتِ شَهْرِ أَبِيبَ، لأَنَّهُ فِيهِ خَرَجْتَ مِنْ مِصْرَ. وَلاَ يَظْهَرُوا أَمَامِي فَارِغِينَ. ١٦ وَعِيدَ الْحَصَادِ أَبْكَارِ غَلاَّتِكَ الَّتِي تَزْرَعُ فِي الْحَقْلِ. وَعِيدَ الْجَمْعِ فِي نِهَايَةِ السَّنَةِ عِنْدَمَا تَجْمَعُ غَلاَّتِكَ مِنَ الْحَقْلِ. ١٧ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ يَظْهَرُ جَمِيعُ ذُكُورِكَ أَمَامَ السَّيِّدِ الرَّبِّ. . . . أَوَّلَ أَبْكَارِ أَرْضِكَ تُحْضِرُهُ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ.

وفي سفر (التثنية١٦/ ١٧: ١٦): «ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ يَحْضُرُ جَمِيعُ ذُكُورِكَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخْتَارُهُ، فِي عِيدِ الْفَطِيرِ وَعِيدِ الأَسَابِيعِ وَعِيدِ الْمَظَالِّ. وَلاَ يَحْضُرُوا أَمَامَ الرَّبِّ فَارِغِينَ. ١٧ كُلُّ وَاحِدٍ حَسْبَمَا تُعْطِي يَدُهُ.

وهذا الحضور أو الظهور أمام الرب ثلاث مرات في السنة هو حج الإسرائيليين، وهو خاص بالذكور دون الإناث.

وقت الحج في الإسلام: الحج في الإسلام مرتبط بالأشهر القمرية، وهو يعني أنه يأتي صيفًا ويأتي شتاءً ويمر داخل السنة الشمسية، فيمر بكل تقلباتها المختلفة، وهو من حكمة الخالقﷻ، ودقيق صنعه لعباده، وهو ما كان من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولكن أهل مكة بدلوا وغيروا، ونعى الله عليهم ذلك في القرآن الكريم (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا)(التوبة: ٣٧)، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسؤوا أي: أَخَّروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع، هكذا شهرًا بعد شهر.

ويقول الرازي: إن القوم علموا أنهم لو رتبوا حسابهم على السنة القمرية، فإنه يقع حجهم تارة في الصيف وتارة في الشتاء، وكان يشق عليهم الأسفار ولم ينتفعوا بها في المرابحات والتجارات، لأن سائر الناس من سائر البلاد ما كانوا يحضرون إلا في الأوقات اللائقة الموافقة، فعلموا أن بناء الأمر على رعاية السنة القمرية يخل بمصالح الدنيا، فتركوا ذلك واعتبروا السنة الشمسية. (١)

فما فعله المشركون كان خروجًا على ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وجاء الإسلام ليصحح الخطأ، وأسواق العرب لم تكن فقط بسبب جني البلح كما اعتقد (فنسنك)، لأنه بحسب أصل الشعيرة كما هي في ملة إبراهيم عليه السلام كان الحج يقع صيفًا وشتاءً.

الأضحية عند اليهودية: إن هوس المستشرقين بنسبة كل شعائر الإسلام إلى اليهودية والنصرانية أو إلى أي مصدر آخر أي أن تكون وحي موحى بها من عند الله جعلهم يقعون في أغلاط تاريخية واضحة، فمسألة الضحية أو التضحية ليست قاصرة على اليهود، بل هي من

(١) تفسير الرازي سورة التوبة ٣٧.

الشعائر التي عرفتها الإنسانية حتى قبل الخليل عليه السلام، فإن نحر الحيوانات ضحية معروفة في الأديان القديمة، وكان معروفًا عند الكنعانيين قبل أن يروا اليهود، أو على الأصح قبل أن يفد إبراهيم إلى تخوم فلسطين، والإسلام يستعمل ضحايا عيد الضحية للصدقة والبر بالفقراء، وهو عمل يتقرب به إلى الله تعالى، سواء من المذنبين ذوي الخطايا الكبيرة ومن الأطهار الأبرار على السواء، وكان العرب يعرفون القرابين الحيوانية ويذبحونها لأسباب كثيرة، ومشهور أن عبد المطلب جد النبي ﷺ افتدى ابنه عبد الله بمائة من الإبل.

بل وأبعد من ذلك في تاريخ الأديان ما جاء عن شعائر الديانة السومرية أن الأضاحي فيها كانت بالدرجة الأساس أضاحٍ نباتية وحيوانية، أما الأضاحي النباتية فكانت تُقدم بكثرة إلى المعابد لإطعام الآلهة والكهنة، ومنها الفاكهة، والحيوانية كانت تتألف من الثيران والماشية والماعز والغزلان والأسماك والخنازير وأنواع الطيور.

وفي الآرامية: كان القربان يسمى (قرين)وكان يُقدم للآلهة نذرًا أو تقدمة، ولكننا لا نعرف على وجه الدقة ما نوع الحيوانات التي كانت تُقدم كنذور، وما هي الحيوانات المحرم تقديمها، كذلك يصعب علينا معرفة القرابين النباتية والبشرية من عدم وجودها، وكان وعاء الأضاحي يسمى الدورق (أدقور)، وهو وعاء لرش السائل أو الماء، وهناك أيضًا المجامر التي كانت ترافق تقديم القرابين والأضاحي.

وهذه الطقوس هي ما يمارسه اليهود والنصارى اليوم في تقديم الذبائح والقرابين، فليس لليهود فضل في هذه الشعيرة، بل هي التي شوهت شعائر الله، والتاثت عقائدها بعقائد الوثنية، ففهمت أن القرابين والتضحيات ينال منها الله تعالى، ولقد جاء القرآن الكريم يضرب بباطلهم وجوههم، ويرد عن شعائر الله لوثات الوثنية﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحج: ٣٧)، وإنما هي بقايا ما ورث الناس من الدين الحق، وإن أخطأ الناس ممارستها وتقربوا بها إلى غير مستحقها سبحانه وتعالى.

وعلى الرغم من ذلك فإن القربان والتضحية في اليهودية -كما هو ممارَس عندهم- بينه وبين نظيره في الإسلام بون شاسع وفروق كبيرة، فالقربان في اليهودية يكون تارة من بواكير الزرع، وتارة من بواكير الحيوان في مواسم الحصاد أو النتاج، وتكون التضحية أو القربان ثمنًا للغفران من الله أو رشوة لتسكين الغضب واستجلاب الرضى والرعاية، بل يكون القربان الأكبر طعامًا مقدمًا إلى الله لأنه يستسيغه ويشعر بالسرور لاشتمامه، ويكون في كل حال هدية منتقاة من أطايب الذبيحة لكهان الهيكل وخدامه المنتسبين إليه.

ففي سفر (اللاويين١/ ٩: ١): وَدَعَا الرَّبُّ مُوسَى وَكَلَّمَهُ مِنْ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ قَائِلًا: ٢«كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِذَا قَرَّبَ إِنْسَانٌ مِنْكُمْ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ مِنَ الْبَهَائِمِ، فَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ تُقَرِّبُونَ قَرَابِينَكُمْ. ٣إِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ مُحْرَقَةً مِنَ الْبَقَرِ، فَذَكَرًا صَحِيحًا يُقَرِّبْهُ. إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ يُقَدِّمُهُ لِلرِّضَا عَنْهُ أَمَامَ الرَّبِّ. ٤وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ الْمُحْرَقَةِ، فَيُرْضَى عَلَيْهِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْهُ. ٥وَيَذْبَحُ الْعِجْلَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيُقَرِّبُ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ الدَّمَ، وَيَرُشُّونَهُ مُسْتَدِيرًا عَلَى الْمَذْبَحِ الَّذِي لَدَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. ٦وَيَسْلَخُ الْمُحْرَقَةَ وَيُقَطِّعُهَا إِلَى قِطَعِهَا. ٧وَيَجْعَلُ بَنُو هَارُونَ الْكَاهِنِ نَارًا عَلَى الْمَذْبَحِ، وَيُرَتِّبُونَ حَطَبًا عَلَى النَّارِ. ٨وَيُرَتِّبُ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ الْقِطَعَ مَعَ الرَّأْسِ وَالشَّحْمِ فَوْقَ الْحَطَبِ الَّذِي عَلَى النَّارِ الَّتِي عَلَى الْمَذْبَحِ. ٩وَأَمَّا أَحْشَاؤُهُ وَأَكَارِعُهُ فَيَغْسِلُهَا بِمَاءٍ، وَيُوقِدُ الْكَاهِنُ الْجَمِيعَ عَلَى الْمَذْبَحِ مُحْرَقَةً، وَقُودَ رَائِحَةِ سُرُورٍ لِلرَّبِّ.

فهم يتصورون تصورًا باطلًا أن الله تعالى يأكل، ومن ثَمَّ فالقربان له على الحقيقة كما جاء في سفر (التكوين١٨/ ٨: ١): وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ، ٢فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَال وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ، ٣وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ. ٤لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، ٥فَآخُذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ، لأَنَّكُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ». فَقَالُوا: «هكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ». ٦فَأَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْخَيْمَةِ إِلَى سَارَةَ، وَقَالَ: «أَسْرِعِي بِثَلاَثِ كَيْلاَتٍ دَقِيقًا سَمِيذًا. اعْجِنِي وَاصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ». ٧ثُمَّ رَكَضَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْبَقَرِ وَأَخَذَ عِجْلًا

رَخْصًا وَجَيِّدًا وَأَعْطَاهُ لِلْغُلاَمِ فَأَسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ. ^٨ ثُمَّ أَخَذَ زُبْدًا وَلَبَنًا، وَالْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَوَضَعَهَا قُدَّامَهُمْ. وَإِذْ كَانَ هُوَ وَاقِفًا لَدَيْهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَكَلُوا.

هذا المشهد المحرف يعرضه القرآن الكريم في صورة من الجلال والكمال اللائق بقدسية الوحي الإلهي حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (هود٧٠: ٦٩)، ويقول تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ (الذاريات٢٨: ٢٤)، فالذين جاءوا ملائكة وليس الله، وهو لم يعرفهم كما جاء في القرآن الكريم، وهم لم يأكلوا وهو الأمر الذي يتناسب مع طبيعتهم كملائكة.

وأما هذه الصورة الكئيبة التي عرضتها التوراة المحرفة فليست إلا من صنع الكهان ورجال الدين الذين أعملوا يد الإثم في وحي الله، والفارق كبير بين المشهدين، ففي التوراة صورة لا تتفق مع نزاهة التوحيد، وفي القرآن نزاهة وبيان لعصمة الملائكة، وأعجب من هذا ما ورد في سفر (اللاويين١٦/ ٨: ٥): وَمِنْ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَأْخُذُ تَيْسَيْنِ مِنَ الْمَعْزِ وَيَأْخُذُ التَّيْسَيْنِ وَيُوقِفُهُمَا أَمَامَ الرَّبِّ لَدَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. ^٨ وَيُلْقِي هَارُونُ عَلَى التَّيْسَيْنِ قُرْعَتَيْنِ: قُرْعَةً لِلرَّبِّ وَقُرْعَةً لِعَزَازِيلَ.

جاء في قاموس الكتاب المقدس: عزازيل ورد في سفر اللاويين ويراد به الشيطان، أو الجن في الصحاري والبراري، أو ملاك ساقط بحسب سفر أخنوخ ومعظم المفسرين الحديثيين، ولئن حاول المفسرون المحدثون تفسيره بملاك ساقط من السماء فهو تفسير واه، لأن المقصود به روح الشر المقابلة للإله في اعتقادهم وهو الشيطان، وإنما تقدم التضحية له لتسكن غضبه، وهي شعيرة تبدو فيها الوثنية الطاغية والتأثر بالمذاهب القائلة بآلهة الخير وآلهة الشر.

الأضحية في الإسلام: ونحن لا نعيب الذبح من حيث هو، لأننا نؤمن بالتضحية كشعيرة إلهية يتقرب بها العبد لربه سبحانه وتعالى، وهو لون من ألوان الاستسلام

والامتثال لأمر الله، ولكننا نعيب التحريف والطقوس الوثنية التي شابت هذه الشعيرة، وامتزاجها بأفكار مشوشة في الإله تعالى، وإسقاط صفات المخلوقين عليه، وهو الأمر الذي جاء الإسلام بتصحيحه ورد الشعيرة إلى صورتها اللائقة بجناب الله تعالى، فليس القربان الإسلامي طعامًا للرب ولا طعمًا لأحد الوسطاء بين العبد وربه باسم الدين. . . وليس فيه معنى من معاني التقريب للظواهر الطبيعية في مواسمها المعروفة للحصاد والنتاج، قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الحج: ٣٦)، والمعنى: إن اتقيت الله في هذه البُدن، وعملت فيها لله، وطلبت ما قال الله تعظيمًا لشعائر الله ولحرمات الله، فإنه قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾، قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾، قال: وجعلته طيبًا، فذلك الذي يتقبل الله. فأما اللحوم والدماء، فمن أين تنال الله؟.

وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله، فأنزل الله هذه الآية، قال مجاهد: أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيمًا لها وتقربًا إليه تعالى فنزلت هذه الآية.

هذه الفروق الجوهرية بين صورة التضحية في الإسلام ونظيرتها في اليهودية والمسيحية هي ذات الفروق بين الإسلام كوحي إلهي وبين اليهودية والمسيحية كديانتين محرفين طالتهما أيدي التشويه الآدمي القاصر.

الحج في المسيحية: ما قيل في اليهودية يقال في المسيحية فليس في المسيحية الحالية شعيرة يمكن أن يطلق عليها اسم الحج كما هو الحال في شعيرة الحج في الإسلام في كمالها وشمولها ووضوح معالمها وأبعادها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والروحية والتربوية، فلم يرد أي نص بالحج في كتبها المقدسة، وما نراه من حج المسيحيين الكاثوليك إلى روما، وما نشاهده من حج المسيحيين على اختلاف طوائفهم وفرقهم إلى القدس لم يرد في الديانة المسيحية وأسفارها المقدسة لدى المسيحيين، وإنما هو تقليد اتبع فيما يعد المسيح بقرون.

والحج المسيحي إلي القدس ليس فريضة من الفرائض المنصوص عليها في المسيحية وإنما نشأ بعد الإمبراطورة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين. وقد زارت القدس سنة ٣٢٤. وعثرت علي الصليب الحقيقي كما تذكر بعض الروايات الضعيفة وصعدت هيلانة إلى مرتبة القداسة فعرفت بالقديسة.

وليس لهذا الحج طقوس أو مناسك، وإنما يقصدها المسيحيون كما يقصدها غيرهم من السائحين فيزورون مولد المسيح وغيره من الأماكن التي تردد عليها كما يزورون الكنائس القائمة في القدس وبيت لحم، والحج بهذه الصورة السابقة في المسيحية عبارة عن سياحة دينية وزيارة لبعض الأماكن التي يعتقدون قدسيتها وقدسية هذه الأماكن ليست بنص في كتبهم، وإنما هي من وضع الرهبان ورجال الدين النصراني، ولا علاقة لها بالمسيح عليه السلام.

مزارات الحج المسيحي: في المسيحية عدة أماكن يقصدها المسيحيون لحجهم:

(١)الحج إلى مدينتي القدس وروما:

وهي من أعظم مزارات الحج المسيحي باعتبار مولد صاحب الديانة والمركزية الدينية لهذه الديانة، وهي أسباب بشرية لا تدعمها نصوص ولا ترجع إلى فعل المسيح عليه السلام، وإذا كان قد سبق معنا أن الحج إلى القدس -وهو الحج الأساس في النصرانية- ليس فريضة ولا مناسك له، فالحج أيضًا إلى روما ليس فريضة مقدسة، ولكن زيارة روما مستحبة، وبدأت منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ويظهر أن روما استأثرت بالعدد الأكبر من الحجاج وقطعت الطريق إلى بيت المقدس، وإن لم ينقطع المسيحيون عن الزيارة إليها، وهناك فارق بين روما والقدس في الحج، فروما خاصة بالكاثوليك، والقدس محجة كل المسيحيين.

وسبب ازدحام روما أنها أصبحت معقل المسيحية وبها قبر بطرس وقبر بولس وعشرات من مقابر القديسين والزهاد والنصارى، وكان نصارى غرب أوروبا يخرجون إلى الحج في احتفال عظيم، وكان الرئيس الديني لكل بلد يزود كل حاج بعصا ورداء من الصوف الخشن يرتديه عند تسلمه إياه، وكانت لهم في طريقهم إلى القدس أربطة وتكايا ينزلون بها، وإذا وصلوا اغتسلوا بنهر الأردن وتطهروا لدخول بيت المقدس، فإذا حجوا

رجعوا إلى بلادهم وعرفوا بأنهم حجاج، وهي مجرد عادات واختراعات من رجال الدين ليوظفوا هذا الحدث الارتجالي الذي لا أصل له في دينهم.

(٢)الحج إلى مدينة (تريفس):

وهي مدينة ألمانية يعتقد أن بها قميص المسيح الذي كان يرتديه، وقد جذبت هذه الإشاعة ملايين المسيحيين حتى بلغ عدد حجاجهم إليها سنة ١٨١٤م أكثر من مليون، وما يزالون يقصدونها حتى الآن، فالشائعات تصنع المناسك وهي تضاف إلى الخبرات الوثنية والتجارب الأممية التي أدخلت طقوسها في هذه الأديان.

(٣)الحج إلي كنيسة (لودره) بفرنسا:

والحج إليها ناتج عن إشاعة تقول أن العذراء ظهرت لاثنين من رعاة مدينة لودره، وعلى مقربة من الكنيسة عين ماء يعتقدون أنه ماء مبارك يشفي المرضى وذوي العاهات، فيشربون منه ويرسلونه إلى كل أقطار الأرض ليتبرك به الشاربون ويستشفي به المرضى، وهي تشبه الخرافات التي أشاعها بعض جهلة المسلمين حول بعض مقابر أولياء الله الصالحين، وبناءً عليه أقاموا طقوسًا وعادات يأتكلون منها مستغلين عواطف البسطاء وحبهم الفطري لأهل الله، فإن حب الصالحين وأولياء الله واحترامهم من الدين، ولكن ما يقام لهم من احتفالات هي في أصلها مخالفة جوهرية لدين الإسلام، وهو أمر لا يقبله عقل ولا يسانده نص من دين الله.

مقارنة بين الحج في اليهودية والنصرانية والإسلام:

يحسن بنا أولًا أن نقرر في هذا الصدد مسألة محورية في فهم شعيرة الحج في الإسلام، فالحج في الإسلام شعيرة بدنية ومالية جوهرها الانصياع الكامل لأوامر الله ونواهيه يطوف المسلم حيث أمر الله، ولا يطوف حيث نهى ويقبل حيث أمر ولا يقبل حيث نهى، إن القضية ليست قضية جنس حتى يقال إنها إحياء وثنيات قديمة ولا هي قضية تقليد، فليس عند القوم مثل هذه الشعيرة، إنما هو التجرد الكامل والانصياع التام حيث الفعل حين نؤمر والترك حيث ننهى، وفيما يلي مقارنة بين الحج في الإسلام وما يسمى بالحج في اليهودية والنصرانية:

١- وأول الفوارق التي يتبين منها مدى هذا التطور أن الحج في بني إسرائيل إنما كان وسيلة لتدعيم سلطان الهيكل وكهانه، وإنما كان في أهم مناسكه فرصة لتزويد أولئك

الكهان بالضرائب والإتاوات والقرابين، وقد صرحت بذلك مأثوراتهم كما رووها في العهد القديم، وفيه: وَإِذَا قَرَّبَ أَحَدٌ قُرْبَانَ تَقْدِمَةٍ لِلرَّبِّ، يَكُونُ قُرْبَانُهُ مِنْ دَقِيق. وَيَسْكُبُ عَلَيْهَا زَيْتًا، وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا لُبَانًا. ٢وَيَأْتِي بِهَا إِلَى بَنِي هَارُونَ الْكَهَنَةِ، وَيَقْبِضُ مِنْهَا مِلْءَ قَبْضَتِهِ مِنْ دَقِيقِهَا وَزَيْتِهَا مَعَ كُلِّ لُبَانِهَا، وَيُوقِدُ الْكَاهِنُ تَذْكَارَهَا عَلَى الْمَذْبَحِ، وَقُودَ رَائِحَةِ سَرُورٍ لِلرَّبِّ. ٣وَالْبَاقِي مِنَ التَّقْدِمَةِ هُوَ لِهَارُونَ وَبَنِيهِ (اللاويين٢/ ٢: ١).

والحج في الإسلام ليس لجمع الإتاوات ولا لإثراء رجال الدين، إنما هو سياحة روحية وبدنية لبيت الله الحرام وتلبية لنداء الحق على لسان إبراهيم﷣ ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ (الحج: ٢٧)، فهو إحياء للحنيفية الحقة وإقصاء ما علق بها من شوائب الوثنية الجاهلية.

فالحج في الإسلام إحياء الحنيفية الحقة وإحياء لحج الأنبياء من قبل، فلسنا بدعًا في الحج فهو شريعة الله لرسله، ولكن اليهود والنصارى ضيعوا شريعة الله وألبسوها ثوب الزور والبهتان.

٢-ومن أكبر الفوارق بين الحج كما دان به بنو إسرائيل وبين فريضته التي دان بها الإسلام أن مواسم الحج الإسرائيلية كلها مواسم زرع وحصاد. . . وفي جميع هذه الزيارات تؤدى الإتاوة لكهان الهيكل (ولا تظهروا أمامي فارغين).

٣- ومن سخافات المبشرين والمستشرقين أنهم يأخذون على الإسلام رمي الجمرات وينسون أن شعائر الضحية كما يرتبها الكهان الإسرائيليون تتجاوز الاعتراف بوجود الشيطان إلى تقديم القربان إليه، فإذا كان يوم الكفارة جاءوا بجديين وفضلوا أحدهما بالقرعة فتقربوا به إلى الله ثم تقربوا بالآخر إلى عزازيل أي الشيطان، وأبعد من ذلك عن نزاهة التوحيد أنهم يتصورون الذبيحة طعامًا للإله﷿، فيقولون إنه سبحانه يتنسم رائحة الرضى وإنها سرور له ومتاع، ومحال أن يدخل في عقل عاقل أن من التشريع الإسلامي أن يتقرب العبد بقربانين، أحدهما للإله والآخر لروح الشر المناوئة للإله، فإن الإسلام رفض

الذبح لغير الله تعالى، وجعله من المحرمات ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، فكيف وهم يذبحون لعزازيل وهو الشيطان بزعمهم.

خصوصية الحج في الإسلام:

وهذا يتضح بجلاء من خلال معاينة النقاط التالية:

١-لقد خطا الإسلام بالضمير الإنساني شوطًا بعيدًا في جميع المناسك والعبادات، فالمسلم لا يحج إلى الكعبة ليعزز فيها سلطان الكهان أو ليقدم إليهم القرابين والإتاوات، وإنما هي فريضة للأمة وفي مصلحة الأمة، وعلى شريعة المساواة بين أبناء الأمة، وهي بهذه المثابة فريضة اجتماعية تعلن فيها الأمم الإسلامية وحدتها، والمساواة بين الكبير والصغير أمام الله وعند بيت الله.

أي جاذبية تلك التي تجمع هذا العدد العظيم من الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم؟ ، وعلى الرغم من هذا يتحد تفكيرهم بعد المجيء إلى مكة، فالكل يسير نحو هدف مشترك حتى إنه ليبدو أن هناك مغناطيسًا ربانيًا يجذب كل هؤلاء إلى نقطة واحدة مشتركة، وهذا التوحد والانصهار إنما يعيد صياغة المسلم بقوة واقتدار، فيريه جنسيته الحقيقية، إنه مسلم، وهذه جنسيته الحقيقية التي منحه إياها الإسلام، وهذا الوطن المعنوي الذي يحتل الأرض كلها والسماء له عليه حقوق، وإخوانه في هذه الجنسية لهم عليه حقوق، وهذا الفهم يحدث اتساعًا في مدارك المسلم بقدر اتساع آفاق الإسلام.

٢-إن هؤلاء اليهود والنصارى يعيبون شعيرة الرجم في الإسلام ويعيبون تقبيل الحجر الأسود ويعتبرون ذلك من بقايا الوثنية، والإسلام بريء من افتراءاتهم، فإن تعظيم المسلم للمناسك وأماكنها تعظيم لله تعالى، وهم على الرغم من ذلك يبعدون النجعة في فهمهم لمعنى الضحية، فيقدمون ضحيتين إحداهما لله والأخرى لروح الشر التي يمثلها عزازيل، فإن التضحية ليست في الإسلام طعامًا للكهان أو طعامًا للإله أو قربانًا لكسب الرضى من عزازيل، ولكنها صدقة أو سخاء من النفس في سبيل العبادة، يشير بها الإنسان إلى واجب الضحية بشيء من الدنيا في سبيل الدين متجشمًا لذلك مشقة الرحلة وتكاليفها جهد المستطيع، وهي في الإسلام تطهير النفس وطعمة للفقراء والمساكين، فإنها تعني إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار،

فليست التضحية سلبية تعني اتقاء قوى الشر، ولكنها في الإسلام تتعدى هذا المعنى السلبي إلى معنى أجل وأرفع، وهو مقاومة الشر والرذيلة والتضحية في سبيل ذلك.

٣- والحج في الإسلام شحنة روحية متقدة لا تخبو، تريه ماضي دينه العريق وحاضره الخصب ومستقبله المأمول، وتربطه بمشاعر الحب والأخوة والمسئولية فتملأ جوانحه خشية وتقى لله، وعزمًا على طاعته وندمًا على معصيته، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسول الله ﷺ ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه، وتوقظ فيه مشاعر الأخوة لأبناء دينه في كل مكان وتوقد صدره شعلة الحماسة لدينه والغيرة على حرماته، وهذه الدلالة الروحية في الإسلام لا ترتبط بموسم الزرع والحصاد، فإنه يتفق في جميع المواسم والمواعيد ويأتي في الشتاء أو الصيف كما يأتي في الربيع، وهو بهذا المعنى علاقة سماوية روحية تناسب مقصدها الأسمى من تحقيق الرابطة بين الأمم التي تدين بعقيدة واحدة في أرجاء الكرة الأرضية على تباعد مواقعها واختلاف أجوائها وفصولها، فهو رابطة من روابط السماء تؤمن بها أمم وحدتها العقيدة السماوية، وإن فرقت بينها شتى المطارح والبقاع.

٤-الحج في الإسلام هو فريضة الله الباقية في صورتها الشاملة الكاملة كما نزل بها الوحي على محمد ﷺ بعد أن ضيع اليهود والنصارى هذه الشعيرة واستبدلوا بها شعائر ما نزَّل الله بها من سلطان، بل وضعها كهنتهم ورجال دينهم، ولقد طال بحث المؤرخين الغربيين عن أصول الحج إلى الكعبة قبل الإسلام وتواترت الأقوال بتعدد الأبنية التي كانت من قبليها في الجزيرة العربية، ومنها كعبة صنعاء التي يقال إنها كانت في موضع مسجد غمدان وكعبة نجران التي كشفها الرحالة المعروف الشيخ عبد الله فلبي سنة١٩٣٦م، وغير هاتين الكعبتين مما ورد في بعض الأخبار الضعاف بغير سند من دلائل الثقات، وأيًا كان القول الفصل في تاريخ الماضي فالحج الإسلامي في عصرنا هذا هو الفريضة الوحيدة الباقية من قبيلها في جميع الأديان الكتابية.

فهيكل بيت المقدس قد تهدم منذ القرن الأول للميلاد، ولم يرد في الأناجيل المسيحية نص على مكان مقدس مفروض على المسيحيين أن يحجوا إليه، وكل ما عرف بعد القرون الأولى فإنما اتبع فيه الخلف سنة الملكة (هيلانة) أم الإمبراطور قسطنطين التي قيل إنها وجدت

الصليب الأصيل في فلسطين عندما توجهت إليها لزيارة آثار السيد المسيح، وهي قصة يكفي للدلالة على قيمتها التاريخية أن رواتها جميعًا نقلوها بعد عصر الملكة (هيلانة)، وأن مؤرخ العصر الأكبر (يوسيبيوس) لم يشر إليها بكثير أو قليل على شدة اهتمامه باستقصاء الأخبار التي لا تُدرك بالقياس إلى هذا الخبر العظيم، أما فريضة الحج الإسلامي قد بقيت لها رسالتها التي لا عبث فيها ولا موضع للمكر والدسيسة من ورائها، وإن رسالتها اليوم في العالم الإسلامي لأعظم وألزم من رسالتها في جميع الأزمنة لأنا العهد المجدد في كل عام بين شعوب الإسلام في عصر هم أحوج ما يكونون فيه إلى الوفاق والوئام.

فنحن الآن أمام فريضة إلهية وتنزلات سماوية، لا تدخُّل فيها لبشر، ولا إضافة ولا حذف، بل هي وحي الله عز وجل لنبيه ﷺ لم تَشُبْه لوثات الجاهلين ولا افتراءات المضللين.[1]

* * *

(١) شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام د. ناصر السيد صـ٤٠٨-٣٨٣ باختصار.

سورة الفرقان

وفيها:

١- شبهة: أساطير الأولين.

٢- شبهة: إنكار أصحاب الرس.

٣- شبهة: غرفة أم غرفات.

١ـ شبهة: أساطير الأولين.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الفرقان: ٥ – ٦).

فقالوا: اتهم المشركون محمدًا بأنه يورد أساطير الأولين في القرآن، وأن القرآن لم يرد على هذه الشبهة؟ لكنه فقط ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد، واستدلوا على ذلك في زعمهم بتعجب الإمام (الرازي) من رد القرآن، وموافقته لهذه القضية.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: إثبات كذب هؤلاء في هذا الزعم من نفس كلامهم في الآية.

الوجه الثاني: أن الضمير في قوله ﴿أَنزَلَهُ﴾ لا يعود على أساطير الأولين، وإنما هو عائد إلى القرآن.

الوجه الثالث: أن الآية جوابًا وإنكارًا، وليست إقرارًا، بل ترد على الشبهة.

الوجه الرابع: بيان كذبهم على الإمام (الرازي)، وأن هذا ليس من الأمانة في نقل الأخبار.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إثبات كذبهم في هذا الادعاء من نفس كلامهم في الآية.

فإنهم قالوا اكتتبها، ومعلوم أن النبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته كل أحد يعلم منهم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة، وهم عرفوا مدخله ومخرجه، وصدقه وبره وأمانته، ونزاهته من الكذب والفجور، وسائر الأخلاق الرذيلة حتى أنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بعث إلا ب (الأمين) لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة والبغضاء، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا في ماذا يقذفون به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون،

وتارة يقولون: كذاب، قال الله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٩)، وقال تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨)، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧: ١٥٨).[1]

الوجه الثاني: الضمير عائد على القرآن، وليس إلى أساطير الأولين حتى نقول أنه أثبت ذلك.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) ﴾ (الفرقان: ٦). أي أن الله أنزل هذا القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارًا حقًا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج ماضيًا ومستقبلًا.[2]

الوجه الثالث: أن في الآية جوابًا وإنكارًا، وردًا على هذه الشبهة.

فإن الله سبحانه تكلم في هذه السورة عن التوحيد، لأنه أقدم وأهم، ثم تكلم في النبوة لأنها الواسطة، ثم في المعاد لأنه الخاتمة، فلما فرغ من بيان التوحيد، وتزييف مذاهب المشركين، شرع في ذكر شبهة منكري النبوة، فالشبهة الأولى ما حكاه عنهم بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ (الفرقان: ٤). فرد الله عليهم بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾، ثم ذكر الشبهة الثانية فقال: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) ﴾ (الفرقان: ٥)، فأجاب الله سبحانه عن

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢٨٦)، وزاد المسير (٦/ ٧٣)، والقرطبي (١٣/ ٨).

هذه الشبهة بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٦)، أي: ليس ذلك مما يفترى ويفتعل بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة، وأخبار الأولين بل هو أمر سماوي أنزله الذي يعلم كل شيء، لا يغيب عنه شيء من الأشياء، فلهذا عجزتم عن معارضته، ولم تأتوا بسورة منه، وخص السر للإشارة إلى إنطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر.[١]

الوجه الرابع: بيان كذبهم على الإمام الرازي، وأن هذا ليس من الأمانة في نقل الأخبار.

ولا عجب من ذلك فهذا صنيعهم إذا كانوا حرفوا كتاب الله، فمن باب أولى أن يحرفوا كلام البشر، ولو قرؤوا كلام الرازي بتدبر لفهموا كلامه، إذ إن الإمام الرازي بين أولًا أنها جوابًا على الشبهة، ثم ذكر بعض مباحث عن الجواب ورد عليها أيضًا.

وهذا هو كلامه كاملًا: فقال:

(الشبهة الثانية لهم) قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ (الفرقان: ٥) **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: الأساطير ما سطره المتقدمون كأحاديث رستم واسفنديار، جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة: ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ انتسخها محمدﷺ من أهل الكتاب يعني عامرًا ويسارًا وجبرًا، ومعنى اكتتب ههنا أمر أن يكتب له كما يقال احتجم وافتصد إذا أمر بذلك: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي تقرأ عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أمي فهي تلقي عليه من كتابه ليحفظها لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب.

أما قوله: ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾، قال الضحاك: ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية، وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة.

البحث الثاني: قال الحسن قوله: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ كلام الله ذكره جوابًا عن قولهم كأنه تعالى قال إن هذه الآيات تملى عليه بالوحي حالًا بعد حال، فكيف

---

(١) فتح القدير (٤/ ٨٩)، والجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٨)، و أضواء البيان (٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

ينسب إلى أنه أساطير الأولين.

وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم، وأرادوا به أن أهل الكتاب أملوا عليه في هذه الأوقات هذه الأشياء ولا شك أن هذا القول أقرب لوجوه:

أحدها: شدة تعلق هذا الكلام بما قبله، فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الأولين فهي تملى عليه

وثانيها: أن هذا هو المراد بقولهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

وثالثها: أنه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾.

قال الزمخشري[1]: وقول الحسن إنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار وحق الحسن أن يقف على: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الفرقان: ٦) وفيه أبحاث:

البحث الأول: في بيان أن هذا كيف يصلح أن كون جوابًا عن تلك الشبهة؟ ، وتقريره ما قدمنا أنه ﷺ تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها، ولو كان ﷺ أتى بالقرآن بأن استعان بأحد، لكان من الواجب عليهم أيضًا أن يستعينوا بأحد، فيأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله وكلامه، فلهذا قال: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾، وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لابد وأن يكون عالمًا بكل المعلومات ظاهرها وخافيها وليس ذلك إلا الله.

وبيانه من وجوه:

أحدها: أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

ثانيها: أن القرآن مشتمل على الإخبار عن الغيوب، وذلك لا يأتي إلا من العالم بكل المعلومات.

ثالثهما: أن القرآن مبرأ عن النقص، وذلك لا يأتي إلا من العالم على ما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ (النساء: ٨٢).

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣/ ٢٦٤).

رابعها: اشتماله على الأحكام التي هي مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد، وذلك لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات.

خامسها: اشتماله على أنواع العلوم، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس إلا كلام العالم بكل المعلومات لا جرم أكتفي في جواب شبهتهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ ﴾[1].

قلت: وهذا هو الكلام الصحيح الذي لا غبار عليه. فتراه أقر بأن الآية جوابًا في أولها وفي منتصفها وفي خاتمتها، ورد على كل الشبهات المتعلقة، فرحمه الله.

وكان محل كلامنا في عرضه للشبهة الثانية لهم، والرد عليها.

* * * *

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٤/ ٥١، ٥٢).

٢ـ شبهة: إنكار أصحاب الرس.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٨)

قالوا: بعد أن ذكروا اختلاف أهل العلم فيهم ما هذا الرس وفي أي البلاد وفي أي زمن؟! ولماذا لم يوضح القرآن ذلك؟

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: قصة أصحاب الرس ثابتة بالقرآن.

الوجه الثاني: تحقيق القول في أصحاب الرس.

الوجه الثالث: القصة وبيان أهميتها في القرآن.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: قصة أصحاب الرس ثابتة بالقرآن.

قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (ق ١٢: ١٤).

فهذه من قصص القرآن التي ذكرها الله في كتابه فيجب الإيمان والتصديق بها؛ لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد وصف الله أخباره عن القصص بصفة الحق، كما قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ (الكهف: ١٣)، وقال تعالى: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (القصص: ٣).

وإذا كان هذا هو الحق عن ذلك فلا يجوز فيه النسخ أو التبديل أو التحريف.

وإذا كان النبي ﷺ أخبر بذلك فهذا بوحي من الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٤).

ثم إن الله ﷻ قد أرسل الرسل فمنهم من ذكر خبره في القرآن، ومنهم من لم يذكر خبره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ

وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (غافر: ٧٨)، وكذلك الأمم فمنهم من ذكر خبره ومنهم من لم يذكر، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ (إبراهيم: ٩).

وقصة وأصحاب الرس مما ذكر القرآن أشار إليها فوجب الإيمان والتصديق بها حتى وإن كنا لا نعلم من هو الذي أرسل إليهم؟ وكيف كانت سيرتهم؟!

الوجه الثاني: تحقيق القول في أصحاب الرس.

القول الأول: أنهم في اليمن على آبار.

فعن قتادة قال: (وأصحاب الرس) كانوا بحجر بناحية اليمامة على آبار. (١)

القول الثاني: قرية من ثمود. قال ابن عباس ﷺ: "أنهم قال قرية من ثمود". (٢)

القول الثالث: أنهم أصحاب يس.

فعن عكرمة قال: أصحاب الرس بفلج هم أصحاب يس. (٣)

وعن الضحاك قال: بئر قتل فيه صاحب يس. (٤)

وقد استبعد ابن الجوزي هذا القول. (١)

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٩٥١) بإسناد صحيح، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤) عن قتادة أنه قال: قرية اليمامة يقال لها الفلج. بإسناد ضعيف فيه جرير بن حازم ثقة لكن في حديثه عن قتادة ضعف. التقريب (١/ ٨٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥١٧٦) بإسناد صحيح عن قتادة قال: كانوا أهل فلج، وآبار كانوا عليها.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٣) حدثنا القاسم؛ قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جُرَيج، قال: قال: ابن عباس وإسناده ضعيف فيه (ابن جريج) وهو عبد العزيز والد عبد الملك، وهو "لين الحديث"التقريب (١/ ٣٥٧)، والحسين هو ابن داود، والمصيصي (سنيد) ضُعِّف مع أمانته ومعرفته. التقريب (١/ ٢٣٢). وهذا الأثر لا يصح.

(٣) جامع البيان (١٩/ ١٤) بإسناد ضعيف فيه ابن جريج وهو مدلس، و لم يسمع من عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٥٤) بإسناد ضعيف. فيه (أبو معاذ) الفضل بن خالد. ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٧/ ٦١)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، (ومثله مجهول الحال). وفيه إبهام شيخ الطبري؛ حيث قال: حُدثت عن الحسين.

القول الرابع: أصحاب الرس بئر بأزربيجان.

فعن ابن عباس: في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ بئر بأزربيجان(٢)

قال ابن عاشور: ولا أحسب أنه المراد في هذه الآية، ولعله من تشابه الأسماء. (٣)

القول الخامس: عن مجاهد قال: "الرس بئر كان عليها قوم". (٤)

القول السادس: عن قتادة أنه قال: "إن أصحاب الأيكة، وأصحاب الرس كانتا أمتين، فبعث الله إليهم نبيًا واحدًا شعيبًا، وعذبها الله بعذابين". (٥)

---

(١) المنتظم لابن الجوزي (٢/ ٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥١٧٣) حدثنا أحمد بم عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثني أبي أنبأ شبيب بن بشير، عن عكرمة عن ابن عباس. . . وإسناده ضعيف فيه:

أ- شبيب بن بشير"صدوق يخطئ " التقريب (١/ ٢٤٠) و لا يروي عنه إلا الضحاك بن مخلد.

ب - أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل قال: حدثني أبي (الضحاك بن مخلد كما بينه ابن كثير في تفسيره).

قلت: الضحاك بن مخلد ولد سنة (١٢٢) هـ، وتوفى سنة (٢١٢) هـ، و أحمد بن عمرو أبي عاصم ولد (٢٠٦) هـ، وتوفى (٢٨٧) هـ، وعلى هذا كان عمر أحمد بن عمرو يوم وفاة جده ست سنوات وهذا يحتمل، لكن قالت عاتكة بنت أحمد بن عمرو: ولد أبي في شوال سنة ست ومئتين، فسمعته يقول: ما كتبت الحديث حتى صار لي سبع عشرة سنة، وذلك أني تعبدت وأنا صبي، فسألني إنسان عن حديث، فلم أحفظه، فقال لي: ابن أبي عاصم لا تحفظ حديثًا؟! ، فاستأذنتُ أبي، فأذن لي، فارتحلت. سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٣١). وهذا في تفسيره يدل على أنه لم يسمع من جده.

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤) من حديث محمد بن عمارة، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥١٧٤) من حديث أبي سعيد الأشج كلاهما (محمد، أبو سعيد) عن عبيد بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد قال: الرس بئر كان عليها قوم. و الإسناد ضعيف فيه أبو يحيى القتات لين الحديث، وروى عنه إسرائيل أحاديث كثيرة منكرة جدًا. تهذيب الكمال (٣٤/ ٤٠٢).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٥٤) حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عمرو بن عبد الله، عن قتادة أنه قال: وذكره وفيه عمرو بن عبد الله (لم أقف عليه فيمن روى عن قتادة، ولا فيمن روى عنه سعيد بن أبي هلال) فمثل هذا يتوقف فيه.

القول السابع: هم قوم رسوا نبيهم في بئر. فعن عكرمة قال: "كان الرس بئرًا رسَّوا فيها نبيهم ". [١]

القول الثامن: أصحاب الرس هم أصحاب العبد الأسود. فعن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: " إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود "[٢]

قال ابن كثير: وفيه غرابة ونكارة ولعل فيه إدراجًا. [٣]

قال الطبري: غير أن هؤلاء في هذا الخبر يذكر محمد بن كعب عن النبيّ ﷺ أنهم آمنوا بنبيهم واستخرجوه من حفرته، فلا ينبغي أن يكونوا المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ لأن الله أخبر عن أصحاب الرّسّ أنه دمرهم تدميرا، إلا أن يكونوا دمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم الذي استخرجوه من الحفرة وآمنوا به، فيكون ذلك وجهًا. [٤]

هذه هي الأقوال التي ذكرت مسنده في أصحاب الرس.

وقد قيل في ذلك أقوال أخرى غير مسنده منها:

١ـ هم أصحاب البئر المعطلة وقصر مشيد.

٢ـ هم أصحاب حنظله بن صفوان.

٣ـ هم أصحاب الأخدود.

٤ـ قومًا كانوا يعبدون شجرة الصنوبر.

٥ـ أنهم قومًا أرسل إليهم نبيًا فأكلوه! ، وهم أول من عمل نساءهم السحر.

٦ـ قوم كانت لهم قرية على شاطئ النهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى إليهم نبيًا من ولد يهود ابن يعقوب فكذبوه.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥١٧٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٤: ١٥)، وهو (مرسل ضعيف) فيه محمد بن كعب (ثقة عالم)، من الثالثة، ولد ستة أربعين على الصحيح التقريب (٢/ ٥٤٩) ومحمد بن إسحاق (مدلس وقد عنعن).

(٣) تفسير القرآن لابن كثير (٦/ ١٢٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٥).

٧ـ هن اللواتي كن على عهد (تُبع) يفعلن السحاق.[١]

وملخص أصحاب الرس أنهم قوم أهلكهم الله تعالى بتكذيب من أرسل إليهم، وأن الله أهلكهم بسبب كفرهم.[٢]

وقد اختار ابن جرير الطبري أنهم أصحاب الأخدود حيث قال: والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرّسّ في كلام العرب: كلّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك، ولا أعلم قومًا كانت لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود، فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ فإنا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبرا؛ إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رَسوا نبيهم في حفرة".[٣]

قال ابن كثير: وقد اختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف؛ وذلك لأن أصحاب الرس في خبرهم ما يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك، وأما أصحاب الأخدود حيث توعدهم بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ولم يذكر هلاكهم، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس.[٤]

الوجه الثالث: القصة في القرآن وأهميتها.

وفي هذا الوجه نذكر صفة القصص في القرآن، وأقسامه، وأهميته.

أولًا: صفة القصص في القرآن:

١ـ أصدق القصص كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧)، وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

٢ـ أحسن القصص كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣)، وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

---

(١) النكت والعيون (٤/ ١٤٥ـ١٤٦)، و زاد المسير (٦/ ٩٠)، و الرازي (٢٤/ ٨٢).

(٢) الرازي (٢٤/ ٨٣)، وروح المعاني (١٩/ ٢٠).

(٣) جامع البيان (١٩/ ١٤).

(٤) قصص الأنبياء (١/ ٣٧٥) بتصرف.

٣ـ أنفع القصص كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: الآية١١١)، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

٤ـ موسوم بوسام الحق: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢).

وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ (الكهف: ١٣) وهذا معناه أنه لا يتبدل ولا يتغير.

ثانيًا: أقسام القصص في القرآن:

وهي على ثلاثة أنوع:

الأول: قصص الأنبياء:

وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين.

الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة وأفراد وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة.

كقصة مريم ولقمان وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين وقارون وأصحاب الكهف وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل وأصحاب السبت ونحو ذلك.

الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي حدثت في زمن رسول الله ﷺ وأقوام على عهده.

كغزوة بدر وأحد والأحزاب وغيرها من الغزوات، وحادث الهجرة والإسراء، وقصة زيد بن حارثة مع زوجته، وأبي لهب وغير ذلك. [1]

ثالثا: أهمية (فوائد) القصص:

١ - تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين به:

قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (فاطر ٢٥: ٢٦).

٢ - تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله:

---

(١) مباحث في علوم القرآن مناع القطان (١-٣) أصول في التفسير محمد بن صالح العثيمين (٥٧).

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠).

٣- دليل على صدق رسالة النبي ﷺ: فإن الأخبار عن الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله ﷻ، والنبي ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨). وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: ٤٩).

٤ – العظة والعبرة:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١).

٥ـ تسلية الشخص المصاب وتعزيته بأهل الفضل والصلاح:

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٣).

٦ـ ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذا علموا نجاة السابقين المؤمنين وانتصار من أمروا بالجهاد:

قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٨). وكما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧)

٧ـ تحذير للكافرين وأصحاب المعاصي من الاستمرار على ذلك: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ (محمد: ١٠).

٨ ـ إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي، فهي منهج دعوي لأصحاب الدعوة:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

٩ ـ منهج تربوي في جميع المجالات.[١]

* * * *

(١) أصول في التفسير لابن عثيمين (٥٧ - ٥٨)، ومباحث في علوم القرآن للقطان (٣٠١ - ٣٠٢).

٣ـ شبهة: غرفة أم غرفات.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ (الفرقان: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ: ٣٧)، في الآية الأولى (الغرفة)، وفي الثانية (الغرفات)، فكيف يكون الرد؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذا ليس بتعارض، فذكر المفرد وإرادة الجمع هذا من أساليب القرآن المعجز.

الوجه الثاني: بيان معاني الغرفة وأنها درجة عالية رفيعة في الجنة.

الوجه الثالث: بيان الحكمة من الإفراد والجمع في الآيتين.

الوجه الرابع: بيان أوجه القراءات في قوله: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر المفرد ويراد به الجمع، هذا أسلوب من أساليب القرآن المعجز وهذا منه.

قال الشنقيطي: الذي يظهر لي من استقراء اللغة العربية التي نزل بها القرآن، هو أن من أساليبها أن المفرد إذا كان اسم جنس يكثر إطلاقه مرادًا به الجمع مع تنكيره، وتعريفه بالألف واللام، وبالإضافة فمن أمثلته في القرآن مع التنكير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي: وأنهار بدليل قوله تعالى: ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾، وقوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي: أئمة، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ أي: أنفسًا، وقوله تعالى: ﴿ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي سامرين، وقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: بينهم، وقوله تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ أي: رفقاء، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ أي: مجنبين أو أجنابًا، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: مظاهرون. ومن أمثلة ذلك مع التنكير في كلام العرب قول عقيل بن علفة المري:

وكان بنو فزارة شرّ عم ... وكنتُ لهم كشر بني الأَخينا

يعني: شر أَعمام.

وقول قعنب ابن أم صاحب:

ما بال قوم صديق ثم ليس لهم ... دين وليس لهم عقل إذا ائتمنوا

يعني: ما بال قوم أصدقاء.

وقول جرير:

نصبن الهوى ثم ارتمين قلوبنا ... بأعين أعداء وهن صديق

يعني: صديقات.

وقول الآخر:

لعمري لئن كنتم على النأي والنوى ... بكم مثل ما بي إنكم لصديق

أي لسن لي بأمراء، ومن أمثلته في القرآن واللفظ مضاف قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي أصدقائكم: وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي أوامره: وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي نعم الله، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ أي أضيافي، ونظير ذلك من كلام العرب قول علقمة بن عبدة التميمي:

بها جيف الحسرى فأما عظامها ... فبيض وأما جلدها فصليب

أي: وأما جلودها فصليبة، وقول الآخر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا ... فإن زمانكم زمن خميص

أي: بطونكم. وهذا البيت والذي قبله أنشدهما سيبويه في كتابه مستشهدًا بهما لما ذكرنا.

ومن أمثلة ذلك قول العباس بن مرداس السلمي:

فقلنا أسلموا إنا أخوكم ... وقد سلمت من الأحسن الصدور

أي: إنا إخوانكم.

وقول جرير:

إذا آباؤنا وأبوك عدوًا ... أبان المقرفات من العراب

أي: إذا آباؤنا وآباؤك عدوًا

وهذا البيت، والذي قبله يحتمل أن يراد بهما جمع التصحيح للأب وللأخ، فيكون الأصل: أبون وأخون فحذفت النون للإضافة، فصار كلفظ المفرد.

ومن أمثلته جمع التصحيح في جمع الأخ بيت عقيل بن علفة المذكور آنفًا، حيث قال فيه: كشربني الأخينا ومن أمثلة تصحيح جمع الأب قول الآخر:

فلما تبين أصواتنا بكين وفديننا بالأبينا

ومن أمثلة ذلك في القرآن: واللفظ معرف بالألف واللام قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بالكتب كلها، بدليل قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: الغرف بدليل قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا﴾، أي: الملائكة بدليل قوله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الأطفال، وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ أي الأعداء، ونحو هذا كثير في القرآن، وفي كلام العرب: وهو في النعت بالمصدر مطرد، كما تقدم مرارًا.

ومن أمثلة ذلك قول زهير:

متى يَشْتَجِر قومٌ يقل سرواتهم هم بيننا هم رضي وهم عدل

أي عدول مرضيون[1].

الوجه الثاني: بيان معاني الغرفة، وأنها درجة عالية في الجنة.

فقد تعددت أقوال أهل العلم في تفسير معني الغرفة، وهاهي:

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٣٢: ٢٩).

القول الأول: الغرفة هي الدرجة العالية الرفيعة في الجنة. وهي من أعلى منازل الجنة وأفضلها(١). وعليه فلا إشكال، فالجنة درجات وكل على حسب عمله فهم في الجنة، والجنة درجات وغرف وكل على حسب رحمة الله وفضله. وكل علي حسب عمله، فكما أن الناس متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة. هذا في الغرفات في أعلي الدرجات وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ (طـه: ٧٥)، وقد قال ﷺمن حديث أبي هريرة ﷺ: " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. . . "(٢)، وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال ﷺ: " إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ. . . "(٣).

القول الثاني: الغرفة هي الجنة، وهذا الأثر قاله الضحاك(٤).

وهو اختيار ابن كثير(٥).

القول الثالث: الغرفة هي غرف الدرر والزبرجد واللؤلؤ والياقوت في الجنة(٦).

أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن سهل بن سعد عن النبيﷺفي قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ قال: هي ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء أو درة بيضاء ليس فيها فصم ولا وصم(٧).

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٥٤)، والبغوي (٣/ ٣٧٩)، والمحرر الوجيز (٤/ ٢٢٣)، والرازي (٢٤/ ١١٥)، والقرطبي (١٣/ ٩٠)، والخازن (٣/ ٣٢٠)، وأبو السعود (٦/ ٢٣١)، وفتح القدير (٤/ ١٢٨)، والقاسمي (١٢/ ٢٨٤)، وروح المعاني (١٩/ ٥٣)، وفتح البيان (٩/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٤٩٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٨٠)، فيه جويبر (أبوسعيد الأزدي) ضعيف جدًّا، التقريب (١/ ٩٤).

(٥) تفسير القرآن (١٠/ ٣٣٤).

(٦) الخازن (٣/ ٣٢٠)، والدر المنثور (٦/ ٢٨٥).

(٧) ضعيف. انظر ضعيف الجامع (٣٩٢٥).

وبعد هذا التحقيق تبين أن المراد بالغرفة هي منزلة علية رفيعة في الجنة، وهي من أعلى منازل الجنة وأفضلها، والحكمة من ذلك هي: كما أن الغرفة أكرم شيء فيما اعتاد الناس في البيوت في هذه الأرض فيستقبلون فيها الأضياف، فكذلك لعباد الرحمن أولئك الكرام الذين سبقت صفاتهم وسماتهم يستقبلون في أعلي المنازل وأشرفها.

الوجه الثالث: بيان الحكمة في الجمع والإفراد في الآيتين.

الحكمة في الجمع: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ لأنها رتبت علي الإيمان والعمل الصالح ولا خفاء في تفاوت الناس فيهما وعلى ذلك تتفاوت الأجزية.

الحكمة في الإفراد هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ رتبت على مجموع الأوصاف الكاملة فلذا جيء بالواحد دلالة على أن الغرف لا تتفاوت[1].

الوجه الرابع: بيان أن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ تقرأ ﴿وهمْ فِي الغرفة آمِنُونَ﴾فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ (سبأ: ٣٧) قرأها حمزة وحده (الغرفة) على الإفراد والوجه، وأن المراد بالغرفة هنا الجنس والكثرة فهو جمع في المعني وإن كان بلفظ الواحد كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾، وقرأها الباقون بالجمع (في الغرفات)، والوجه أن الغرفات جمع غرفة، وإنما جاءت على لفظ الجمع لأن المعنى على الجمع. وإذا كانت الكلمة في حال الوحدة يراد بها الجمع، كان الأولى بها أن تكون بلفظ الجمع لتوافق المراد لفظًا ومعنًى، قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ (الزمر: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ (العنكبوت٥٨)، فجاء بها علي الجمع[2].

قلت: وعلى قراءة الجمهور بالجمع فيحمل على ماذكرنا من الوجوه المتقدمة.

* * * *

(١) روح المعاني (١٩/ ٥٣).

(٢) الموضح في وجوه القراءات وعللها (٣/ ١٠٥٦)، ويراجع التيسير لأبي عمرو الداني (١٤٧).

سورة النمل

وفيها:

١- شبهة: آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار.

٢- شبهة: سليمان والجن والطير.

٣- شبهة: هل الهدهد أعلم من سليمان النبي.

٤- شبهة: خروج الدابة.

١ـ شبهة آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار.

نص الشبهة:

اختلاف واضح في قوله تعالى: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (النمل: ٧)، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (القصص: ٢٩).

ففي الآية الأولى تأكيد بأنه سيأتيهم منها ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا﴾ أما الآية الأخرى نرى أنه غير متأكد ويدلل على هذا بقوله: ﴿لَّعَلِّي﴾.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول.

فإن قلت: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ و﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ كالمتدافعين، لأن أحدهما ترجٍ والأخر تيقن.

قلت: قد يقول الراجي إذا قوى رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

كيف جاء بسين التسويف؟ قلت: عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة.

فإن قلت: فلم جاء بـ (أو) دون الواو؟ قلت: بني الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعًا لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعًا وهما العزَّان: عز الدنيا وعز الآخرة.

زيادة وتوضيح: كان الطريق قد اشتبه على سيدنا موسى والوقت بارد والسير في ليل، فتشوقت نفسه إذ رأى النار إلى زوال ما لحق من إضلال الطريق وشدة البرد، فقال: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: مِنْ موقدها بخبر يدل على الطريق أو ﴿آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي: إن لم يكن هناك مَنْ يخبر فإني استصحب ما تدفؤون به منها، وهذا الترديد بـ (أو) ظاهر؛ لأنه كان مطلوبه أولًا أن يلقى على النار من يخبره الطريق فإنه مسافر ليس بمقيم، فإن لم يكن

أحد فهو مقيم، فيحتاجون لدفع ضرر البرد وهو أن يأتيهم بما يصطلون، فليس محتاجًا للشيئين معًا بل لأحدهما؛ الخبر إن وجد مَنْ يخبره فيرحل، أو الاصطلاء إن لم يجد وأقام.

فمقصوده إما هداية الطريق وإما اقتباس النار، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ (طه: ١٠).

وجاء هنا: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ وهو خبر، وفي سورة طه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾، وفي القصص: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ (القصص: ٢٩)، وهو ترجٍ؛ ومعنى الترجي مخالف لمعنى الخبر ولكن الرجاء إذا قوى جاز للراجي أن يخبر بذلك وإن كانت الخيبة يجوز أن تقع، وأتى بسين الاستقبال إما لأن المسافة كانت بعيدة، وإما لأنه قد يمكن أن يبطىء لما قد أنه قد يعرض له ما يبطنه(١).

توضيح: قال ابن باشاذ: الغالب على (سوف) استعمالها في الوعيد والتهديد، وعلى السين استعمالها في الوعد، وقد تستعمل سوف في الوعد، والسين في الوعيد(٢).

السين للوعد كقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾(٣)، وإذا فهمنا ذلك علمنا أن سيدنا موسى عليه السلام وعد ولم يؤكد.

بعض معاني (لعل) في اللغة العربية:

١-التوقع: وهو ترجي المحبوب والإشفاق من المكروه نحو: لعل الحبيب قادم، ولعل الرقيب حاصل. وتختص بالممكن، وقول فرعون ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (غافر: ٣٦- ٣٧) إنما قاله جهلًا أو مخرقة وإفكًا.

٢-التعليل: أثبته جماعة منهم الأخفش والكسائي، وحملوا عليه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ ومن لم يثبت ذلك يحمله على الرجاء ويصرفه للمخاطبين أي: اذهبا على رجائكما.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ٥٣)، وانظر تفسير الرازي (٢٤/ ١٨١).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٩٨)، وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/ ٢٨٣).

(٣) دراسات لأسلوب القرآن لمحمد عبد الخالق عضيمة (٢/ ١٧٢).

٣-الاستفهام[1]: نحو: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: ١).

إذن من معاني (لعل) التوقع، وعلى هذا المعنى تندرج الآيه الكريمة.

* * *

(١) مغنى اللبيب لابن هشام (١/ ٥٥١).

٢ـ شبهة: سليمان والجن والطير.

نص الشبهة: قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ (النمل: ١٦- ١٩).

(١) لقد خصّ الله الإنسان فقط بالنطق والعقل والبيان، وعليه يكون سليمان كذب على الناس والطيور، أو يكون ما نُسب إليه هو الكذب.

(٢) هل كانت الطيور والحشرات في عصره تعقل وتدرك، ثم جرّدها الله من العقل الآن؟

(٣) لم يكن لسليمان جنود من الجنّ، بل كانت جنوده من بني إسرائيل فقط.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: أن الإنجيل والتوراة محرفان.

الوجه الثاني: أقوال المفسرين في الآيات.

الوجه الثالث: منطق الطير، وفيه مسائل:

الوجه الرابع: الجن من جنود سليمان عليه السلام.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة والإنجيل محرفان.

لا يجوز الاحتجاج بما فيهما، وقدثبت تحريفهما بالأدلة كما سبق[1].

الوجه الثاني: أقوال المفسرين في الآيات.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا

---

(١) راجع بحث إثبات تحريف التوراة والإنجيل.

يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ (النمل: ١٦ - ١٩).

قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: ورثه في العلم والملك الذي خص الله به داود على سائر قومه[١].

وهو إرث علم ونبوة، ودعوة إلى الله والقيام بدينه، لا إرث مال، ويدل لذلك ماجاء من الأدلة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يورث عنهم المال، وإنما يورث عنهم العلم، فمن ذلك حديث أبي بكر الصديق ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ"[٢].

وعنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ"[٣].

فهذه الأحاديث وأمثالها ظاهرة في أن الأنبياء لا يورث عنهم المال، بل العلم والدين[٤]، وقوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ يعني: فهمنا كلامها، وجعل ذلك من الطير كمنطق الرجل من بني آدم إذ فهمه عنها[٥].

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطير في مسير لهم، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يرد أولهم على آخرهم[٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ التفاتة مؤمن؛ أي: من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نمله فما فوقها إلا

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٤١).

(٢) أخرجه البخاري (١٢/ ٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٢/ ٧).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٢٢٦).

(٥) تفسير الطبري (١٩/ ١٤١).

(٦) تفسير الطبري (١٩/ ١٤٢: ١٤١).

بألا يشعروا، وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها، ولذلك أكد التبسم بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون: تبسم تبسم الغضبان، وتبسم تبسم المستهزئين، وتبسُّمُ الضحكِ إنما هو عن سرور، ولا يسر نبي بأمر دنيا، وإنما سُر بما كان من أمر الآخرة والدين.

وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى الدين والعدل والرأفة، ونظير قول النملة في جند سليمان ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قول الله تعالى في جند محمد ﷺ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ التفاتًا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن[١].

الوجه الثالث: منطق الطير.

وفيه مسائل:

أولًا: أقوال المفسرين:

الآية صريحة الدلالة على أن سليمان وأباه عَلِما منطق الطير ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها[٢]، وسمي صوت الطير منطقًا لحصول الفهم منه، كما يفهم من كلام الناس[٣].

وسليمان يدعو الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور. والمنطق: كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف، المفيد وغير المفيد. وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بـ (إصلاح المنطق) وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم، وقالت العرب: نطقت الحمامة، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته، والذي علمه سليمان من منطق الطير: هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨٠).

(٢) قصص الأنبياء (٢/ ٢٨٦).

(٣) تفسير البغوي (١٩/ ٤٠٩).

(٤) الكشاف للزمخشري (٣/ ٣٥٣).

و﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ استعارة لما يسمع منها من الأصوات، وهو حقيقة في بني آدم، لما كان سليمان يفهم منه ما يفهم من كلام بني آدم، كما يفهم بعض الطير من بعض، أطلق عليه منطق[(١)]، وكلام الطير كالمنطق إذا فهم[(٢)]، ولا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول، وقد قال الشافعي: الحمام أعقل الطير.

قال ابن عطية: والنمل حيوان فطن قويّ شمام جدًّا يدخر القِرى، ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت شقين، ويأكل في عامه نصف ما جمع، ويستبقي سائره عُدَّة[(٣)].

قال ابن العربي: وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها[(٤)].

ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات، ووحدانية الإله، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا، أما أنا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية[(٥)].

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام: الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها، إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها، ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأُعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذلك له، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان، وليظهر أيضًا فضيلة التمييز والاختصاص، ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها، ولم يكن يطيقها لولا تسخيره، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٨).

(٢) زاد المسير (٦/ ١٥٩).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٢٥٣).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤٩).

(٥) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨٥).

﴿١٣﴾ أي: مطيقين ضابطين، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾، فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلا منقادًا، ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ولفصله عضوًا عضوًا، فسل المعطل من الذي ذلَّله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده، فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال؛ لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم، فأعينوا بهذه الحيوانات مع مالهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء، والشراب، والدواء، واللباس، والأمتعة، والآلات، والأواني، والركوب، والحرث، والمنافع الكثيرة، والجمال[1].

ثانيًا: تنزيه سليمان عليه السلام عن الكذب.

١- فضل سليمان عليه السلام في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . . .﴾ (البقرة: ١٠٢)، **وقال تعالى:** ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: ٨٤)، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩)، ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨١)، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٧١).

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٥ - ١٨)، فشهدت نملة لسليمان بالعدل والرحمة بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل: ٣٦)، فانظر إلى تحدثه بنعمة الله.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٢ - ١٣)، ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ (ص: ٣٠)، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالى له[1].

٢ـ فضل سليمان عليه السلام في السنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ، وَقَالَتْ الْأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَام- فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا فَقَالَتْ الصُّغْرَى: لَا يَرْحَمُكَ اللهُ؛ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِهَا"[2].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ فَقَالَ: "مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ»؟ قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ»؟ قَالَتْ:

---

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (٣/ ١٣٤٤).

فَرَسٌ. قَالَ: «وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ»؟ قَالَتْ: جَنَاحَانِ. قَالَ: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ»؟ قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ"[١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا"[٢].

٣ـ وما العجب في أن يتكلم غير الإنسان؟

فإن الذي أعطى القدرة لقطعة اللحم لا حول لها ولا قوة (وهي اللسان) على التحدث والنطق بأكثر من لغة، قادر على أن يعطي هذه القدرة وهذه الملكة لغير الإنسان، فـ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الزمر: ٦٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤).

وإن كان كلام الطير مما يتعجب منه أو شئ لا يصدق، فهذا هو حال المعجزات، فهي معجزة لسليمان ﷺ كما حدث لنبينا من ذلك الكثير، كحنين الجزع[٣]، وتسبيح الطعام بين يديه ﷺ[٤].

ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ (فصلت: ٢٠- ٢١)، ففي هذه الآيات إثبات الكلام مع انعدام الجارحة، فالسمع والبصر والجلود ليس عندهم جارحة الكلام، ومع ذلك عندما أراد الله أن ينطقهم نطقوا وقالوا: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (النور: ٢٤).

٤ـ كل الكائنات تسبح بحمده.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢)، وصححه الألباني في صحيح آداب الزفاف (١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، مسلم (٥٤١)، أحمد (٢/ ٢٩٨).

(٣) حديث حنين الجزع عند البخاري (٣٣١٨).

(٤) كما عند البخاري (٣٣١٤).

قال ابن كثير: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء: ٤٤)، يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلّه وتكبره، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم.

وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل[١][٢].

وقال السعدي: قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجماد وحي وميت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ بلسان الحال ولسان المقال ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، بل يحيط بها علام الغيوب[٣].

الوجه الرابع: الجن من جنود سليمان عليه السلام.

أولًا: من القرآن: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٢)، وقال سبحانه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ (النمل: ١٧)، وقال سبحانه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩: ٥٨).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٤٥٨).

عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ (النمل: ٣٨- ٤٠).

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ (سبأ: ١٢- ١٣)، ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨﴾ (ص: ٣٦-٣٨).

ثانيًا: من السنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي الله مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا"[1].

* * * *

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، مسلم (٥٤١).

٣ـ شبهة: الهدهد أعلم من سليمان النبي.

نص الشبهة:

كيف أن الهدهد يخبر سليمان عليه السلام ما ليس له به علم مع أنه نبي من عند الله؟

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة و الإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: تفسير الآيات، وأن ما حدث من الهدهد وملكة سبأ صحيح ثابت.

الوجه الثالث: هل الهدهد أعلم من سليمان عليه السلام؟

الوجه الرابع: بيان مدى علم سليمان عليه السلام.

الوجه الخامس: سليمان عليه السلام في القرآن والسنة، وسليمان عليه السلام في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن التوراة و الإنجيل محرفان.

فلا يجوز الاحتجاج بهما، وقد ثبت ذلك بالأدلة كما سبق[1].

الوجه الثاني: تفسير الآيات، وبيان أن ما حدث من الهدهد وملكة سبأ صحيح.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ

---

(١) راجع بحث إثبات تحريف التوراة و الإنجيل.

تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل: ٢٠-٤٤).

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ دلَّ هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور، والنظر هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية.

ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها؟ ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة؛ ولو كان كذلك لذكره الله؛ لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي فلو أُريد هذا المعنى لقال -في غير القرآن-: وطلب الهدهد لينظر له الماء. فلما فقده قال ما قال، ولم يَقُلْ: فتش عن الهدهد، أو: بحث عنه، ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها، وأيضًا فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد،

فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ، وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك- يحتاج إلى الهدهد؟

وقوله: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به، لكونه خفيًا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبًا من غير إذني ولا أمري؟ فحينئذ تغيظ عليه وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه، وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمنًا كثيرًا، ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: عندي العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلى درجتك فيه، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: خبر متيقن[1].

الوجه الثالث: هل الهدهد أعلم من سليمان عليه السلام؟

والرد من أوجه:

أولها: قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ففيه تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علمًا بما لم يحط به، فيكون ذلك لطفًا في ترك الإعجاب، والإحاطة بالشيء علمًا أن يعلم من جميع جهاته[2].

ثانيها: فإن قيل: كيف يجوز أن يُقال إن سليمان لم يعلم به، وكانت أرض سبأ قريبة منه، وهناك ملك لم يعلم به سليمان؟

(١) تفسير السعدي (١٩/ ٦٠٣-٦٠٤).

(٢) تفسير الرازي (٢٤/ ١٩٠).

قيل له: علم به سليمان، ولكنه لم يعلم أنهم يسجدون للشمس، ويقال: إنه علم بها، ولكنه لم يعلم أن ملكها قد بلغ هذا المبلغ، وعلم أنهم أهل الضلالة[١].

ويقال أيضًا: وما العجب أن يعلم الهدهد شيئًا لم يعلمه سليمان عليه السلام؟

فإن الأنبياء لا يعلمون الغيب، وهذا غيب عن سليمان عليه السلام، وأيضًا ليس علم الهدهد بهذه المملكة يدل على أنه أعلم من سليمان[٢].

وقد قال موسى للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦) وقد استفاد موسى من الخضر ثلاث مسائل، وهو أفضل منه[٣].

ثالثها: ألهم الله ﷻ الهدهد، فكافح سليمان بهذا الكلام، مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمَّة ابتلاءً له في علمه[٤].

رابعها: أن سليمان عليه السلام لمّا توعد الهدهد بأن يعذبه عذابًا شديدًا أو يذبحه، إنما نجا منه بالعلم وأقدم عليه في خطابه له بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ خبرًا، وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم[٥].

الوجه الرابع: بيان مدى علم سليمان عليه السلام.

كفي بمقام النبوة علمًا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي (تفسير الآية).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ١٩١).

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٨/ ٢٧٤).

(٤) تفسير النسفي (٣/ ٢٠٨).

(٥) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٧٣).

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النمل: ١٥-١٦)، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النمل: ١٩)، فكلامه دليل على علمه بالله وورعه عليه السلام.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهَا إذ عدا الذِّئْبُ، فأخذ ابْنِ إِحْدَاهُمَا فتنازعتا في الآخر، فَقَالَتْ الكبرى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتْ الْصغرَى: بل إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَحكم بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ عليه السلام فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ نصفين لكل واحدة منكما نصفه، فَقَالَتْ الصُّغْرَى: يَرْحَمُكَ الله هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لها"[1].

قوله: "فَحكم بِهِ لِلْكُبْرَى" كان ذلك على سبيل الفتيا لا الحكم، ولذلك ساغ لسليمان أن ينقضه، والذي ينبغي أن يقال إن داود عليه السلام قضى به للكبري لسبب اقتضى به عنده ترجيح قولها، إذ لا بينة لواحدة منهما، وكونه لم يعين في الحديث اختصارًا لا يلزم منه عدم وقوعه، فيحتمل أن يقال: إن الولد الباقي كان في يد الكبرى وعجزت الأخرى عن إقامة البينة، قال: وهذا تأويل حسن جار على القواعد الشرعية

وليس في السياق ما يأباه ولا يمنعه، فإن قيل فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه؟

فالجواب أنه لم يعمد إلى نقض الحكم، وإنما احتال بحيلة لطيفة أظهرت ما في نفس الأمر، وذلك أنهما لما أخبرتا سليمان عليه السلام بالقصة، فدعا بالسكين ليشقه بينهما، ولم يعزم على ذلك في الباطن وإنما أراد استكشاف الأمر فحصل مقصوده لذلك لجزع الصغرى الدال على عظيم الشفقة، ويحتمل أن يكون سليمان ممن يسوغ له أن يحكم بعلمه.

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (١٧٢٠).

ودلت هذه القصة على أن الفطنة والفهم موهبة من الله لا تتعلق بكبر سن ولا صغره، وفيها استعمال الحيل في الأحكام لاستخراج الحقوق، ولا يتأتى ذلك إلا بالمزيد الفطنة وممارسة الأحوال[١].

الوجه الخامس: سليمان عليه السلام في القرآن والسنة، وسليمان عليه السلام في الكتاب المقدس.

أما سليمان عليه السلام في القرآن والسنة فقد سبق بيان ذلك[٢].

وأما سليمان في الكتاب المقدس: فيقولون أنه كفر، وهو ابن زنا: فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، "وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. " فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. (الملوك١١/ ٩-١١).

وَعَزَّى دَاوُدُ بَثْشَبَعَ امْرَأَتَهُ، وَدَخَلَ إِلَيْهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا فَوَلَدَتِ ابْنًا، فَدَعَا اسْمَهُ سُلَيْمَانَ، وَالرَّبُّ أَحَبَّهُ (صمويل ٢٤: ١٢).

فَقَالَتْ لَهُ: «أَنْتَ يَا سَيِّدِي حَلَفْتَ بِالرَّبِّ إِلهِكَ لأَمَتِكَ قَائِلًا: إِنَّ سُلَيْمَانَ ابْنَكِ يَمْلِكُ بَعْدِي وَهُوَ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّي. (الملوك١٧: ١).

ولا حول ولا قوة إلا بالله، كيف يُفترى هذا الكلام على أنبياء الله عز وجل؟

* * * *

(١) فتح الباري (٦/ ٥٣٥-٥٣٦).

(٢) انظر شبهة آية ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾.

٤ـ شبهة: خروج الدابة.

نص الشبهة:

كيف تخرج دابة تكلم الناس؟ وكيف تكون تلك الدابة بهذه الأوصاف؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن الإنجيل والتوراة محرفان.

الوجه الثاني: إثبات خروج الدابة من القرآن.

الوجه الثالث: إثبات خروج الدابة من السنة.

الوجه الرابع: ما ورد في صفة الدابة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة والإنجيل محرفان.فكيف يحتج بهما !.

الوجه الثاني: أن الدابة ستخرج وتكون من علامات الساعة بنص القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ خارجة ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون، وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يأتِ دليل يدل على كيفيتها ولا من أي: نوع هي، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه والله أعلم[1].

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أقوال كلها متقاربة، فمن ذلك: إذا وجب الغضب عليهم، وقيل: إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم، وقيل: ﴿

---

(١) تفسير السعدي (٦١٠).

وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ موت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن[١]، وقيل: حين فساد الناس، وتركهم أوامره وتبديلهم دينه الحق قرب مجيء الساعة[٢]، وقيل: المراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها[٣].

أما ما جاء في وصف الدابة والمبالغة في طولها وعرضها وزمان خروجها ومكانه مما لا يركن إليه، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم ﷺ[٤].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأنعام: ١٥٨).

وجاء في تفسير هذه الآية حديثٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: "ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ"[٥].

الوجه الثالث: إثبات خروج الدابة من السنة.

١- فعن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسولِ الله ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْته يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا"[٦].

وَأَمَّا الدَّابَّة الْمَذْكُورَة فِي هَذَا الْحَدِيث وغيره فَهِيَ الْمَذْكُورَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وَعَنْ اِبْن عَمْرو بْن الْعَاصِ أَنَّهَا الْجَسَّاسَة الْمَذْكُورَة فِي حَدِيث الدَّجَّال[٧].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٣).

(٢) تفسير المراغي (٢٠/ ٢٢).

(٣) تفسير الرازي (٢٤/ ٢١٨).

(٤) تفسير المراغي (٢٠/ ٢٢).

(٥) أخرجه مسلم (١٥٨).

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٤١).

(٧) شرح النووي (٩/ ٢٥٦)، عون المعبود (٦/ ٢٨٧)، تحفة الأحوذي (٦/ ٣٤٤).

٢- وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوْ الدُّخَانَ، أَوْ الدَّجَّالَ، أَوْ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ"(١).

٣- عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، و الدجال، و الدخان، و دابة الأرض، وخويصة أحدكم، و أمر العامة"(٢).

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ"(٣).

٥- عن حذيفة بن أسيد ﷺقال: كنا نتحدث في ظل غرفة لرسول الله ﷺ فارتفعت أصواتنا، فأشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفته فقال: "عم يتساءلون، أو عم يتحدثون؟ » قلنا: ذكر الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الساعة لن تكون أو لن تقوم حتى يكون قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، وعيسى ابن مريم، والدخان، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن فتسوق الناس إلى المحشر"(٤).

الوجه الرابع: ما ورد في صفة الدابة.

ما جاء في وصف الدابة والمبالغة في طولها وعرضها وزمان خروجها، ومكانه مما لا يركن إليه، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم ﷺ(٥).

وقد وردت آثار في ذلك منها: ما جاء عن ابن عمر ﷺ قال: تخرج الدابة من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٠٥٦)، وقال الألباني في الصحيحة (٧٥٩): حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (١٥٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٠١)، السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٤٢٤).

(٥) تفسير المراغي (٢٠/ ٢٢).

وعن حُذيفة بن أسيد الغفاري قال: إن الدابة حين تخرج يراها بعض الناس فيقولون: والله لقد رأينا الدابة، حتى يبلغ ذلك الإمام، فيطلب فلا يقدر على شيء، قال: ثم تخرج فيراها الناس، فيقولون: والله لقد رأيناها، فيبلغ ذلك الإمام فيطلب فلا يرى شيئًا، فيقول: أما إني إذا حدث الذي يذكرها قال: حتى يعدّ فيها القتل، قال: فتخرج، فإذا رآها الناس دخلوا المسجد يصلون، فتجيء إليهم فتقول: الآن تصلون، فتخطم الكافر، وتمسح على جبين المسلم غرّة، قال: فيعيش الناس زمانًا يقول هذا: يا مؤمن، وهذا: يا كافر[٢].

عن حُذيفة بن أسيد، في قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ قال: للدابة ثلاث خرجات: خرجة في بعض البوادي ثم تكمن، وخرجة في بعض القُرى حين يهرَيق فيها الأمراء الدماء، ثم تكمن، فبينا الناس عند أشرف المساجد وأعظمها وأفضلها، إذ ارتفعت بهم الأرض، فانطلق الناس هرابا، وتبقى طائفة من المؤمنين، ويقولون: إنه لا ينجينا من الله شيء، فتخرج عليهم الدابة تجلو وجوههم مثل الكوكب الدرّيّ، ثم تنطلق فلا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، وتأتي الرجل يصلي، فتقول: والله ما كنت من أهل الصلاة، فيلتفت إليها فتخطمه. قال: تجلو وجه المؤمن، وتخطم الكافر، قلنا: فما الناس يومئذٍ؟ قال: جيران في الرباع، وشركاء في الأموال، وأصحاب في الأسفار[٣].

وعن حُذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ يقول: وذكر الدابة، فقال حُذيفة: قلت: يا رسول الله، من أين تخرج؟ قال: "مِنْ أَعْظَمِ المَساجِدِ حُرْمَةً عَلى الله، بَيْنَما عِيسَى يَطُوفُ بالبَيْتِ وَمَعَهُ المُسْلِمُونَ، إذْ تَضْطَرِبُ الأرْضُ تحْتَهُمْ، تُحَرُّكَ القِنْديلِ، وَيَنْشَق الصَّفا ممَّا يَلِي المَسْعَى، وَتَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنَ الصَّفا، أوَّلُ ما يَبْدُو رأْسُها، مُلَمَّعَةٌ ذَاتُ وَبَرٍ وَرِيشٍ، لَمْ يُدْرِكْها طالبٌ، وَلَنْ يَفُوتَها هاربٌ، تَسِمُ النَّاسَ مُؤْمِنٌ وكافِرٌ، أمَّا المُؤْمِنُ فَتَتْرُكَ وَجْهَهُ كأنَّهُ

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٤)، وهذا أثر ضعيف إلى ابن عمر، فقد أخرجه عن ابن عمر عطية العوفي، قال عنه في التقريب: صدوق يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًا مدلسًا، وقال الذهبي: ضعفوه.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ١٤)، وإسناده ضعيف، فيه عثمان بن مطر؛ قال في التقريب: ضعيف. وقال الذهبي: ضعيف، ضعفوه.

كَوْكَبٌ دُرّيّ، وتَكْتُبُ بينَ عَيْنَيْهِ مُؤْمِنٌ، وأمَّا الكافِر فتَنْكُتُ بينَ عَيْنَيْهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاء كافِرٌ"[1].

فمن ذلك يتضح أنه لم يثبت في وصف الدابة شيء، فعلينا السكوت عما سكت عنه الشرع، ونؤمن أن من علامات الساعة دابة تخرج تكلم الناس أنهم كانوا بآيات الله لا يوقنون.

* * *

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٥)، وإسناده ضعيف،؛ فيه رواد بن الجراح ضعيف، كما قال في لسان الميزان، لينه الحاكم.

سورة القصص

وفيها:

١- شبهة: قتل الصبيان واستحياء النساء.

٢- شبهة: فرعون و هامان.

٣- شبهة: من التي التقطت موسى من اليم.

٤- شبهة: وجود امرأتين عند البئر.

٥- شبهة: قارون.

١ـ شبهة: قتل الصبيان واستحياء النساء.

نص الشبهة:

قال تعالي: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (القصص: ٤).

فاعترضوا على ذلك بقولهم: هنا يأمر فرعون بقتل الصبيان واستحياء البنات الذين آمنوا مع موسي عندما جاءهم بالحق. وفي التوراة أن فرعون أمر بقتل الصبيان قبل ولادة موسي؟

والجواب علي هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: كتابكم محرف فلا يجوز الاعتراض به علي القرآن.

الوجه الثاني: القرآن أثبت أن القتل كان مرتين، وبيان الحكمة من ذلك.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن كتابكم محرف فلا يجوز الاعتراض به علي القرآن.

ومن ذلك أن التاريخ يأتي في موضع ويأتي في نفس الموضع أو غيره ما يناقضه، هذا من ناحية. ومن ناحية أخري أن عندهم في كتابهم أن فرعون كان يأمر بقتل الأولاد (الذكور) من بني إسرائيل لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم، أو أنهم ينضمون إلي أعداء فرعون إذا حدث حرب سفر الخروج (١/ ١١: ٩). وكل هذا عنهم كان قبل ولادة موسي عليه السلام.

وهذا كما قال ابن كثير: فيه نظر بل هو باطل[1]. وذلك لأن هذا القتل إنما كان بعد بعثة موسي عليه السلام. وأيضًا فما الدافع من قتل الولدان إلا إذا كان خوفًا من ظهور موسي الغلام الذي يزول ملك فرعون علي يده، وهو موسي عليه السلام.

وكيف يخاف فرعون من بني إسرائيل وهو أيضًا قد سخرهم في أعماله وليست لهم شوكة.

الوجه الثاني: القرآن أثبت أن القتل كان مرتين وبيان الحكمة من ذلك.

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٦).

الموضع الأول: فكان قبل ولادة موسي عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾ (القصص: ٤). وكان هذا الأمر لأجل الاحتراز من وجود موسي أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عدوهم أو لمجموع الأمرين.

الموضع الثاني: فكان بعد ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذي استنصروا بهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)﴾ (الأعراف: ١٢٧). وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)﴾ (غافر: ٢٥). وكان الغرض من هذا الأمر لإهانة هذا الشعب والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون على القبط بسببها وليتشاءموا بموسي عليه السلام.

وهذا هو قول جمهور المفسرين[١]. وممن قال بهذا القول قتادة رضي الله عنه حيث قال في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)﴾ (غافر ٢٥).

قال ـ رحمه الله ـ: هذا بعد القتل الأول. وفي لفظ هذا قتل غير القتل الأول الذي كان[٢].

* * *

(١) جامع البيان للطبري (١٤/ ٥٦)، والرازي (٢٧/ ٥٤)، والقرطبي (١٥/ ٢٩٢)، وابن كثير (١٢/ ١٨٤)، وفتح القدير (٤/ ٦٨٥)، وروح المعاني (٢٤/ ٦٢)، والتحرير والتنوير (٢٤/ ١٢٣).

(٢) عبد الرزاق في تفسيره (٢٦٧٠) من حديث معمر عن قتادة وإسناده صحيح، وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٥٦) من حديث سعيد بن أبي عروبة عنه.

٢ـ شبهة: فرعون وهامان.

نص الشبهة:

قال تعالي: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (القصص: ٦) فقالوا: القرآن يقول إن هامان كان وزيرًا لفرعون في مصر، مع أن التوراة تثبت أن هامان كان وزيرًا لأحشويرش ملك الفرس كما في سفر إستير. وذكروا أن الإمام الرازي أقر ذلك في تفسير سورة غافر.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الكتاب الذي بأيديكم محرف فلا يجوز الاعتراض به علي القرآن المعجز.

الوجه الثاني: الإمام الرازي لم يقر هذا الكلام وإنما هو سوء فهم وتلبيس على الناس.

الوجه الثالث: هامان كان في زمن فرعون بالقرائن الواضحة من القرآن والسنة.

الوجه الرابع: هامان لقب وليس اسمًا لشخص.

الوجه الخامس: الرموز الهيروغلوفية تثبت أن هامان كان في زمن فرعون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الكتاب الذي بأيديكم محرف فلا يجوز الاعتراض به علي القرآن المعجز المتواتر.

وذلك أن التاريخ يأتي في موضع ويأتي في نفس الموضع أو في غيره ما يناقضه. وهذا ليس بغريب عليهم؛ فإن الله عز وجل أثبت التحريف عليهم. وقد يطعن بعض اليهود بل كلهم في الآية بأن تواريخ بني إسرائيل تدل على أن هامان لم يكن موجودًا في زمان موسي وفرعون، وإنما ولد بعدهما بزمان طويل. ولو كان مثل هذا الشخص موجودًا في عصرهما لتوفرت الدواعي علي نقله.

والجواب: أن الطعن بتاريخ اليهود المنقطع الوسط لكثرة زمان الفترة أولي من الطعن في القرآن المعجز المتواتر أولًا ووسطًا و آخرًا. [1]

---

(١) روح المعاني (٢٤/ ٦١).

الوجه الثاني: الإمام الرازي لم يقر هذا الكلام كما زعموا.

ولكنه ذكره من ضمن شبه اليهود. وقد رد علي هذه الشبهة ولم يقرها. وإليك كلامه بتمامه:

قال الرازي: قالت اليهود: أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودًا البتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر، فالقول بأن هامان كان موجودًا في زمان فرعون خطأ في التاريخ، وليس لقائل أن يقول إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم في زمانه، قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجودًا في زمان فرعون ما كان شخصًا خسيسًا في حضرة فرعون بل كان كالوزير له، ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية فلو كان موجودًا لعرف حاله، وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجودًا في زمان فرعون؛ وإنما جاء بعده بأدوار- علم أن غلطًا وقع في التواريخ، قالوا ونظير هذا أنا نعرف في دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد ﷺ فلو أن قائلًا ادعى أن أبا حنيفة كان موجودًا في زمان محمد ﷺ وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو يسمى بأبي حنيفة، فإن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا.

والجواب: أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد في هذا الباب، فكان الأخذ بقول الله تعالى أولى بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة فإن هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هي مضبوطة فظهر الفرق بين البابين. [(١)]

الوجه الثالث: هامان كان في زمن فرعون بالقرائن الواضحة البالغة من القرآن والسنة.

قلت وذلك للأدلة الآتية:

أولًا: لفظ هامان لا يذكر في القرآن إلا مقرونًا بفرعون وفي قصة موسي عليه السلام مع فرعون. وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن في ستة مواضع هي:

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ٦٦).

١ - ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٦).

٢ - ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص: ٨).

٣ - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ (القصص: ٣٨).

٤ - ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ (العنكبوت: ٣٩).

٥ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾ (غافر: ٢٤-٢٣).

٦ - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦)﴾ (غافر: ٣٦).

ثانيًا: هو قول جمهور أهل العلم بالتفسير والتاريخ.

ثالثًا: أن الآيات تليت على اليهود في زمن النبي ﷺ فيهم العلماء والأحبار فلم ينكر أحد منهم هذا الأمر. ومنهم من أسلم ودخل في دين الله ولم يتكلموا بشيء من ذلك.

رابعًا: لفظ هامان أيضًا ذكر في السنة مقرونًا بفرعون وقارون كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: "**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ لَهُ نُورًا وَلاَ نَجَاةً وَلاَ بُرْهَانًا، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ**"(1).

الوجه الرابع: هامان لقب وليس اسمًا لشخص.

(١) أخرجه عبد بن حميد (٣٥٣)، والدارمي (٢٧٢١)، وأحمد (٢/ ١٦٩)، وابن حبان (١٤٦٧)، والمروزي (تعظيم قدر الصلاة٥٨)، و الإبانة الكبرى لابن بطة (٨٩٥)، والبيهقي في الشعب (٢٨٢٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٢٢٩). والحديث قال فيه الذهبي: سنده جيد (تنقيح التحقيق١٠٦٦)، وقال ابن عبدالهادي: جيد (تنقيح التحقيق: ٩١٥)، و البوصيري، و أخرجه أحمد بإسناد جيد (إتحاف٢/ ٢٧).

فمعلوم أن لقب الملك كان لرئيس المصريين في زمن يوسف عليه السلام. وأن لقب فرعون كان لرئيس المصريين في زمن موسي عليه السلام وهامان لقب لكل نائب عن الملك لا اسم شخص. فإنه يصح أن يطلق علي النائب عن فرعون أو عن أي ملك من الملوك.

قال ابن عاشور: (هامان) قال المفسرون: هو وزير فرعون. وظاهر آيات هذه السورة يقتضي أنه وزير فرعون وأحسب أن هامان ليس باسم علم ولكنه لقب خطة مثل فرعون وكسرى وقيصر ونجاشي. فالظاهر أن هامان لقب وزير الملك في مصر في ذلك العصر. وجاء في كتاب «أستير» من كتب اليهود الملحقة بالتوراة تسمية وزير (أحشويروش) ملك الفرس (هامان) فظنوه علمًا فزعموا أنه لم يكن لفرعون وزير اسمه هامان واتخذوا هذا الظن مطعنًا في هذه الآية. وهذا اشتباه منهم فإن الأعلام لا تنحصر وكذلك ألقاب الولايات قد تشترك بين أمم وخاصة الأمم المتجاورة، فيجوز أن يكون (هامان) علمًا من الأمان فإن الأعلام تتكرر في الأمم والعصور، ويجوز أن يكون لقب خطة في مصر فنقل اليهود هذا اللقب إلى بلاد الفرس في مدة أسرهم.(١)

وعلى القول بأنه لقب أو اسم شخص فإن الألقاب والأسماء تتكرر ومشتركة، فلا وجه للاعتراض.

الوجه الخامس: الرموز الهيروغلوفية تثبت أن هامان كان في زمن فرعون.

جاء في كتاب (اليهود بين القرآن والتوراة ومعطيات العلم الحديث) للأستاذ عبد الرحمن غنيم، تحت عنوان -هامان وفرعون تحت قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (القصص: ٣٨). قال: تدل هذه الآية علي عدة إعجازات غيبية.

وذكر منها: أما الإعجاز الثالث هو الإشارة إلى أحد أعوان فرعون باسمه -هامان- فقد وجد علماء الآثار هذا الاسم مكتوبًا على نصب أحد فراعنة مصرالقديمة و هذا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٢).

النصب موجود في متحف (هوف بفينا) كما يؤكد هذا النص أن هامان كان مقربًا من فرعون و قد ورد أيضًا اسم هامان في (قاموس أسماء الأشخاص في المملكة الجديدة)
(Dictionary of Personal names of the New Kingdom)
وهو القاموس المستند على مجموعة المعلومات المستقاة من الكتابات المصرية القديمة ووردت الإشارة إلى هامان على أنه رئيس البناءين في معامل نحت الحجارة، و هذا يتوافق مع القرآن الذي يشير إلى هامان على أنه المسؤول عن تشييد الصروح في مملكة فرعون.

* * *

٣ـ شبهة: من التي التقطت موسى من اليم.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ (القصص: ٩).

فاعترض على ذلك بقوله:

ويعلمنا الكتاب المقدس أن ابنة فرعون هي التي نزلت إلى نهر النيل لتغتسل لأنهم كانوا يعتبرونه إلهًا يطهرهم من النجاسة فرأت فسطاطًا من البردي بين الحلفاء ففتحته وإذا هو صبي يبكي فأخذته ابنة فرعون ابنًا لها، ولكنها لم تكن زوجة فرعون.

ووجه الاعتراض: أنه قال القرآن يقول إن امرأة فرعون هي التي التقطت موسى عليه السلام، وأن التوراة تقول أن الملتقطة له هي ابنة فرعون وليست امرأته.

والرد على هذا من وجوه:

الوجه الأول: التوراة التي بين أيديكم محرفة فلا يجوز الاحتجاج بها.

الوجه الثاني: القرآن لم يثبت أن امرأة فرعون هي التي التقطته كما زعم.

الوجه الثالث: تحقيق القول فيمن التقطه من البحر.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة التي بين أيديكم محرفة فلا يجوز الاحتجاج بها.

وذلك إن كلمات التوراة مشكوك فيها والدليل على ذلك أن اسم الرجل في موضع يأتي في موضع آخر باسم غيره. وكذلك المرأة وهذا يتكرر كثيرًا. وعلى سبيل المثال:

الشيخ الكبير في أرض مدين مختلف في اسمه.

في سفر الخروج اسمه رعوئيل. (سفر الخروج ٢/ ١٨).

وفي سفر الخروج نفسه اسمه يترو. (سفر الخروج ٤/ ١٨، ١٨/ ١).

رئيس جيش هدد عازر مختلف في اسمه.

في سفر صموئيل الثاني اسمه شوباك. (سفر صموئيل الثاني ١٠/ ١٦).

وفي سفر الأخبار الأول اسمه شوفاك. (سفر الأخبار الأول ١٩/ ١٦).

وهذا على سبيل المثال لا الحصر فكيف يحتج علينا بما هو محرف.

الوجه الثاني: القرآن لم يثبت أن امرأة فرعون هي التي أخذته من البحر.

فقد اعترض علينا بفهم خاطئ للآية فالله ﷻ قال: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ (القصص: ٩).

فالآية لا تتحدث عن الذي أخذه من البحر؛ وإنما هي في موقف آخر لما أراد فرعون أن يقتله. كذلك القرآن لم يثبت صراحة أن امرأة فرعون هي التي أخذته كما ادعى وإنما الله عز وجل يقول: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ (القصص: ٨).

فمن هم آل فرعون كما في الآية، والجواب عليه في الوجه الثالث.

الوجه الثالث: من الذي التقطه من آل فرعون؟

وقد اختلف أهل العلم في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول جواري امرأة فرعون:

الدليل:

١-كما في حديث الفتون الطويل وهو حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه " فانتهى الماء به حتى أوفي به عند فرضه مستقى جواري امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه. . . . . "[1].

قال ابن كثير: هكذا رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيريهما كلهم من حديث يزيد بن هارون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه (ابن عباس رضي الله عنهما) مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضًا.[1]

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦)، وأبو يعلى في مسنده (٢٦١٠)، والطبري في تفسيره (١٦/ ١٦٤)، كلهم من حديث يزيد بن هارون أنبأنا أصبع بن يزيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس. . . . . . الحديث. وهو حديث حسن، فيه أصبع بن يزيد صدوق يغرب.

٢- **قال السدي:** أقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية وظنن أن فيه مالًا فلما نظرت إليه آسية وقعت عليها رحمته فأحبته فلما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه فلم تزل آسية تكلمه حتى تركه لها قال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل وأن يكون هذا الذي على يديه هلاكنا فذلك قول الله: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾(٢).

القول الثاني: بنت فرعون.

محمد بن قيس قال: كانت بنت فرعون برصاء فجاءت إلى النيل فإذا التابوت في النيل تخفقه الأمواج فأخذته بنت فرعون فلما فتحت التابوت فإذا هي بصبي فلما اطلعت في وجهه برأت من البرص فجاءت به إلى أمها فقالت: إن هذا الصبي مبارك لما نظرت إليه برئت فقال فرعون: هذا من صبيان بني إسرائيل هلم حتى أقتله فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾. (٣)

القول الثالث: أعوان فرعون.

عن ابن إسحاق قال: لما ولدت موسى أمه أرضعته حتى إذا أمر فرعون بقتل الولدان من سنته تلك عمدت إليه فصنعت به ما أمرها الله تعالى جعلته في تابوت صغير ومهدت له فيه ثم عمدت إلى النيل فقذفته فيه، وأصبح فرعون في مجلس له كان يجلسه على شفير النيل كل غداة فبينا هو جالس إذ مر النيل بالتابوت فقذف به وآسية ابنة مزاحم امرأته جالسة إلى جنبه فقال: إن هذا لشيء في البحر فأتوني به فخرج إليه أعوانه حتى جاءوا به

---

(١) تفسير ابن كثير (٩/ ٣٣٧) والحديث أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير مختصرًا كما أشار (١٦٧٣٥).

(٢) الطبري في تفسيره (٢٠/ ٣١ - ٣٢) فيه أسباط: صدوق كثير الخطأ يغرب.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري في التفسير (٢٠/ ٣٢) فيه محمد بن قيس ضعيف أبو معشر نجيح ضعيف وقال البخاري: منكر الحديث.

ففتح التابوت فإذا فيه صبي في مهده فألقى الله عليه محبته وعطف عليه نفسه قالت امرأته آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. (١)

وبعد هذا العرض تبين أن الراجح هو القول الأول أن الذي أخذه من البحر جواري امرأة فرعون.

الوجه الرابع: التوراة لم تثبت أن ابنة فرعون هي التي التقطته وإنما أثبت أن الجواري هن اللواتي أخذنه.

فقد ادعو أن الكتاب عندهم يثبت أن ابنة فرعون هي التي أخذته من النهر وهذا خطأ ولكن الذي في الكتاب عندهم هو: **فَنَزَلَتِ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى النَّهْرِ لِتَغْتَسِلَ، وَكَانَتْ جَوَارِيهَا مَاشِيَاتٍ عَلَى جَانِبِ النَّهْرِ. فَرَأَتِ السَّفَطَ بَيْنَ الْحَلْفَاءِ، فَأَرْسَلَتْ أَمَتَهَا وَأَخَذَتْهُ** (سفر الخروج ٢/ ٥).

قال ابن كثير: وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى -دربتة- ابنة فرعون، وليس لامرأته ذكر بالكلية، وهذا من غلطهم على كتاب الله ﷻ. (٢)

* * * *

(١) الطبري في تفسيره (٢٠/ ٣٢) من حديث ابن حميد، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٠٠) من حديث عبد الرحمن بن سلمة كلاهما (ابن حميد وعبد الرحمن) ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق. وهو ضعيف جدًّا.

(٢) قصص الأنبياء (٢٧٩).

٤ـ شبهة: وجود امرأتين عند البئر.

نص الشبهة:

إنكار وجود امرأتين عند البئر وصفة صداق موسى ﷺ كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (القصص: ٢٧).

قالوا: وتعلمنا التوراة أنه لما فعل موسى عملًا جميلًا مع بنات كاهن مديان وكن سبعًا- لا اثنتين- أعطاه إحداهن زوجة بدون أن يخدمه ثماني سنوات لا عشرًا والذي خدم حماه على امرأته يعقوب خدمه سبع سنين.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: الكتاب الذي بين أيديكم محرف فلا يجوز الاحتجاج به.

الوجه الثاني: القرآن أثبت أنهما امرأتين والعبرة بما في القرآن دون غيره.

الوجه الثالث: الآثار الواردة في الباب تدل على أنهما امرأتين.

الوجه الرابع: قد يكون له أكثر من بنت، ولكن اثنتان منهما هما اللتان كانتا تسقيان.

الوجه الخامس: القرآن الكريم أثبت صفة الصداق فالعبرة به لا بغيره.

الوجه السادس: السنة النبوية دلت على ما دل عليه القرآن الكريم من صفة الصداق.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الكتاب الذي بين أيديكم محرف فلا يجوز الاحتجاج به.

وهذا مما لا يخفى؛ فالكلمات مشكوك فيها، والدليل على ذلك أن العدد يكون في موضع ويأتي في موضع آخر ويأتي في نفس المصدر أو غيره ما ينقضه، وهذا يتكرر كثيرًا.

وعلى سبيل المثال: عدد بني إسرائيل:

في سفر صموئيل الثاني (٢٤/ ٩) (وكان عدد بني إسرائيل ثمانمائة ألف رجل بطل يضرب بالسيف ورجال يهوزا عدتهم خمسمائة ألف رجل مقاتلة).

وفي السفر الأول من أخبار الأيام (٢١/ ٥) (وكان عدد كل إسرائيل ألف ألف ومائة ألف رجل جاذب سيف ويهوذا أربعمائة وسبعون ألف رجل مقاتله).

عمر يوياكين:

وفي سفر الملوك الثاني (٢٤/ ٨) (وكان يوم ملك ابن ثمانية عشر سنة).

وفي السفر الثاني من أخبار اليوم (٣٦/ ٩) (ابن ثمانية سنين كان يوياكين حين ملك) وهذا على سبيل المثال وللمزيد يراجع كتاب إظهار الحق[1].

الوجه الثاني: القرآن أثبت أنهما امرأتان، والعبرة بما في القرآن، ولا عبرة بالمحرف الذي وقع في التوراة.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (القصص ٢٣: ٢٧).

وهنا نلاحظ الآتي:

١- التصريح بذكر العدد في قوله امرأتين وهذا من أوضح الأدلة.

٢- الخطاب بضمير المثنى سواء كان ما بين موسى والمرأتين أو موسى وصاحب مدين كما في قوله: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ﴿قَالَتَا﴾ ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ ﴾.

٣- جمهور أهل العلم بالتفسير على أنهما اثنتين.

الوجه الثالث: الآثار الواردة في الباب تدل على أنهما امرأتان.

أثر ابن عباس رضي الله عنه: في قوله: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين ووجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان فقالتا له: ماء. "[2]

---

(١) انظر بحث (تحريف الكتاب المقدس).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٦٨٢٤)، وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط لكن يشهد له حديث الفتون عن ابن عباس أيضًا، والشاهد منه " فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ فقالتا:. . . " بخطاب المثني، والحديث أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) بسند حسن.

أثر عمر بن الخطاب ﷺ: أن موسى ﷺلما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما؟. . . . . "[1]

الوجه الرابع: قد يكون له أكثر من بنت، ولكن اثنتان منهماهمااللتان كانتا تسقيان.

قال ابن كثير: وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات، وهذا أيضا من الغلط، ولعلهن كن سبعًا، ولكن إنما كان تسقى اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظًا، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين[2].

الوجه الخامس: القرآن الكريم أثبت صفة الصداق فالعبرة بما في القرآن

قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ (القصص: ٢٧ -٢٩)

وهذه الصفة: وهي أن صاحب مدين طلب من موسى أن يرعى له ثمان سنوات على أن يزوجه إحدى ابنتيه، فإن تبرع بزيادة سنتين فهو لموسى ﷺ وإلا ففي ثمانية كفاية، وقد رعى موسى ﷺ أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما. وهذا ما عليه جمهور أهل العلم بالتفسير[3].

الوجه السادس: السنة النبوية دلت على ما دل عليه القرآن الكريم من صفة الصداق.

ابن عباس ﷺ:

---

(١)أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٥٤)، ومن طريقه أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٦٨٢٧) وفيه عنعنة أبي إسحاق السبيعي، وصحح إسناده ابن كثير في التفسير (١٠/ ٤٥٠).

(٢) قصص الأنبياء (٢٨٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٠/ ٦٥)، القرطبي (١٣/ ٢٧٧: ٢٩١)، فتح القدير (٤/ ٢٣٦: ٢٤٢).

سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل.[١]

قال ابن حجر: وهو في حكم المرفوع لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب.[٢]

* * * *

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٤) من رواية سالم الأفطس عن سعيد، وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ٦٨) من رواية عطاء بن السائب كلاهما موقوفًا. ويشهد له حديث الفتون كما عند النسائي في السنن الكبرى بسند حسن (١١٣٢٦).

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٤٣)، قلت: ويؤيده ما جاء في رواية عكرمة عن ابن عباس في نفس الحديث السابق لكنها مرفوعة عند الحميدي في المسند (٥٣٥)، والطبري في التفسير (٢٠/ ٦٨)، والبزار كشف الأستار (٢٢٤٥) وقد صححها الألباني بطرقها كما في السلسلة الصحيحة (١٨٨٠).

٥ـ شبهة: حول قارون.

نص الشبهة:

إنكار أن يكون قارون هو الذي خسف به وإنما هو قورح، وأن قارون لم يكن في زمن موسى عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ (القصص: ٧٦).

والرد عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الكتاب الذي بأيديكم محرف فلا يجوز الاعتراض به.

الوجه الثاني: قورح واحد أم اثنان؟

الوجه الثالث: القرآن الكريم أثبت أنه قارون، فالعبرة بما في القرآن.

الوجه الرابع: لا فرق بين قارون وقورح.

الوجه الخامس: من هو قارون؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الكتاب الذي بأيديكم محرف فلا يجوز الاعتراض به على القرآن.

وذلك أن الأسماء تكون في موضع ويأتي في موضع نفسه أو غيره ما يناقضه، وكذلك التاريخ في موضع ويأتي في الموضع نفسه أو غيره ما ينقضه، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

أولًا في الأسماء:

١-ففي سفر صمويل الثاني (٢٣: ٨): هذِهِ أَسْمَاءُ الأَبْطَالِ الَّذِينَ لِدَاوُدَ: يُشَيْبَ بَشَّبَثُ التَّحْكَمُونِيُّ رَئِيسُ الثَّلاَثَةِ. هُوَ هَزَّ رُمْحَهُ عَلَى ثَمَانِ مِئَةٍ قَتَلَهُمْ دَفْعَةً وَاحِدَةً.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول (١١: ١١): **وَهذَا هُوَ عَدَدُ الأَبْطَالِ الَّذِينَ لِدَاوُدَ: يَشُبْعَامُ بْنُ حَكْمُونِي رَئِيسُ الثَّوَالِثِ. هُوَ هَزَّ رُمْحَهُ عَلَى ثَلاَثِ مِئَةٍ قَتَلَهُمْ دُفْعَةً وَاحِدَةً.**

٢-سفر صمويل الثاني ٨/ ٣: ١٧: " هدد عزر ": " توعي الملك. . . . هدد عزر "يورام " " وأخيمالك. . . . وسرايا الكاتب ".

سفر أخبار الأيام الأول ١٨/ ١٧: ٣: " هدر عزر " " توعو ملك. . . . . هدر عزر " " هدورام "، " وأبيمالك. . . . وشوشا كاتب ".

ثانيًا في التاريخ:

١-ففي سفر الملوك الأول (١٥: ٣٣): **فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لآسَا مَلِكِ يَهُوذَا، مَلَكَ بَعْشَا بْنُ أَخِيَّا عَلَى جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ فِي تِرْصَةَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً.**

ولكن سفر أخبار اليوم الثاني (١٦: ١): **فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ وَالثَّلاَثِينَ لِمُلْكِ آسَا صَعِدَ بَعْشَا مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَلَى يَهُوذَا، وَبَنَى الرَّامَةَ لِكَيْلاَ يَدَعَ أَحَدًا يَخْرُجُ أَوْ يَدْخُلُ إِلَى آسَا مَلِكِ يَهُوذَا.**

٢-وفي إنجيل متى: (٨/ ١: ١٤): (أولًا شفاء الأبرص بعد وعظ الجبل ثم شفاء عبد قائد المائة بعدما دخل عيسى عليه السلام كفر ناحوم ثم شفاء حماه بطرس).

ولكن في إنجيل لوقا (أولًا شفاء حماه بطرس ثم في باب الخامس شفاء الأبرص ثم في الباب السابع شفاء عبد قائد المئة) (٤/ ٣٨، ٥/ ١٢: ١٤، ٧/ ١: ١٠).

وعلى هذا فقد تبين أن الأسماء عندهم وكذلك التاريخ فيهما تناقض عجيب وظاهر بين في الدلالة، وقصة قارون عندهم من هذا القبيل فقد يكون قارون هو قورح على ما يأتي أو يكون هو قارون لكنهم حرفوا الاسم وليس هذا ببعيد عنهم. ثم اعتراضهم على تاريخ وجوده مع موسى فقد تبين أن التاريخ عندهم متناقض وعلى فرض صحته، فأي قورح يكون هل الذي في زمن يعقوب أم الذي في زمن موسى؟ ؟ ؟! والعبرة بما في القصة من دروس وعبر لا في اسمه.

الوجه الثاني: قورح واحد أم اثنان؟

وجوابًا على هذا السؤال نجد أن الكتاب عندهم يخبر بأن قورح عندهم اثنان.

الأول: كان هو قورح بن عيسو بن إسحاق بن إبراهيم. (سفر التكوين ٣٦/ ١: ٤٣)

الثاني: قورح بن يصهار بن قهاث بن لاوي. (سفر العدد ١٦/ ١: ٥٠)

فإن كان الأول فهذا مستحيل لأنه كان قبل موسى بزمان، وإن كان الثاني فالقرآن أثبت أنه قارون وهذا هو المعلوم يقينا والعبرة في أحداث القصة لا في الاسم كما سنبين.

الوجه الثالث: القرآن أثبت أنه قارون فالعبرة بما في القرآن.

فقد أثبت القرآن الكريم قصة قارون مع نبي الله موسى عليه السلام في غير موضع، ومع ذلك لم يتغير الاسم فبين القرآن أنه من قوم موسى.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (القصص: ٧٦)، وبين القرآن الكريم أن موسى عليه السلام أُرسل إليه وأنه كذب بالرسالة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ (غافر٢٣ -٢٤). وبين القرآن الكريم عاقبة تكذيبه وعناده واستكباره في الأرض ففي سورة القصص قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٨١).

وقال تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (العنكبوت: ٣٩ - ٤٠)

الوجه الرابع: لا فرق بين قارون وقورح هما واحد.

(قارون) اسم معرب أصله في العبرانية (قورح) بضم القاف مشبعة وفتح الراء، وقع في تعريبه تغيير بعض حروفه للتخفيف، وأجري وزنه على متعارف الأوزان العربية مثل طالوت، وجالوت، فليست حروفه حروف اشتقاق من مادة قرن. [١]

الوجه الخامس: من هو قارون؟

والإجابة عن هذا السؤال في مبحثين:

المبحث الأول: نبذة عنه.

قارون على وزن فاعول، اسم أعجمي يمتنع من الصرف للعجمية والعلمية وليس بعربي، مشتق من قرنت قال الزجاج لو كان قارون من قرنت الشيء لا نصرف.

وهو بالإجماع كان رجل من بني إسرائيل كان ممن آمن بموسى وحفظ التوراة وكان من أقرأ الناس لها، ثم إنه لحقه الزهو و الإعجاب فبغى على قومه بأنواع من البغي فنافق

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٧٥).

كما نافق السامري وخرج عن طاعة موسى عليه السلام فكانت النتيجة أن خسف الله به وبداره الأرض وأصبح من الهالكين. (١)

المبحث الثاني: درجة قرابته من موسى عليه السلام.

واختلف في قرابته من موسى عليه السلام على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه ابن عم موسى عليه السلام.

قال قتادة: كنا نتحدث أنه كان ابن عمة أخي أبيه، وكان يسمى المنور من حسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي. (٢)

قال إبراهيم النخعي: كان قارون ابن عم موسى عليه السلام. (٣)

القول الثاني: أنه عم موسى عليه السلام.

قاله ابن إسحاق. (٤)

القول الثالث أنه ابن خالة موسى عليه السلام.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. (٥) والراجح القول الأول.

قال ابن جرير الطبري: وأما أهل العلم من سلف أمتنا ومن أهل الكتابين على أنه ابن عم موسى عليه السلام(٦).

وهذا ما ذهب إليه ابن حجر(٧).

*　*　*

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٢٩٨)، و البحر المحيط (٧/ ١٢٦)، وفتح البيان (١٠/ ١٤٧).

(٢) **حسن**. أخرجه الطبري في التاريخ (١/ ٢٦٢) وفي التفسير (٢٠/ ١٠٦) وابن أبي حاتم في التفسير (١٧٠٧٥).

(٣) حسن. أخرجه الطبري في التاريخ (١/ ٢٦٢) وفي التفسير (٢٠/ ١٠٦).

(٤) **ضعيف جدًا**. أخرجه الطبري في التفسير (٢٠/ ١٠٥)، والتاريخ (١/ ٢٦٢)، وفيه محمد بن حميد الرازي أجمع أهل الري على أنه ضعيف جدًّا.

(٥) زاد المسير (٦/ ٢٣٩)، وتفسير الرازي (٢٥/ ١٣)، وروح المعاني (٢٠/ ١١٠).

(٦) الطبري في التاريخ (١/ ٢٦٢).

(٧) فتح الباري (٦/ ٥١٦).

سورة العنكبوت

شبهة: قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

نص الشبهة:

جاء في سورة العنكبوت (٣٩) ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾، وجاء في سورة غافر (٢٥: ٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

يتبادر إلى الذهن من هذه الآيات أن قارون وهامان مصريان من قوم فرعون وأنهما مع فرعون قاوموا موسى في مصر ولكن هذا خطأ لأن قَارون إسرائيلي لا مصري، ومن قوم موسى لا من قوم فرعون كما جاء في سورة القصص ٧٦: ٢٨ ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إثبات أن قارون من قوم موسى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (القصص: ٧٦)، يقول الله تعالى ذكره (إن قارون) وهو قارون بن يصهر بن قامث بن لاوي بن يعقوب ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يقول: كان من عشرة موسى بن عمران النبي ﷺ وهو ابن عمه لأبيه وأمه وذلك أن قارون هو قارون بن يصهر بن قامث، وموسى: موسى بن عمران بن قامث.[1]

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠/ ١٠٥)، وانظر ابن كثير (١٠/ ٤٨).

الوجه الثاني:أن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا ووضح في علة الجمع بينهم هو الاستكبار في الأرض فقال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: فاستكبروا في الأرض عن التصديق بالبينات من الآيات، وغي اتباع موسى ﷺ.(١)

الوجه الثالث

أن الله ﷻقبل هذه الآية ذكر قوم عاد وثمود وجمع بينهم اختلاف البلاد فقال ﷻ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم الله وتنوع في عذابهم فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قرية قريبة من حضر موت ببلاد اليمن وثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرى وكانت العرب تعرف مساكنها جيدًا وتمر عليها كثيرًا، وقارون صاحب الأموال ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزير هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾: أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم: عاد ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم فرعون ووزيره هامان.

وهذا الذي ذكرناه ظاهر لسياق الآية، وهو من باب اللف والنشر وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي من هؤلاء المذكورين(٢).

الوجه الرابع.

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠/ ١٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٥١١).

أن الله ﷻ حين جمع في الآية الكريمة بين قارون وهامان فرعون جمع بينهم من جهة أن الرسول الذي أرسل إليهم هو رسول الله ﷺ واحد منهم وهو نبينا موسى عليه السلام، فالجمع إذًا من جهة أن الرسول واحد.

فائدة مهمة:

معنى العطف: الاشتراك في تأثير العامل. [1]

ومعنى العطف: مطلق الجمع، فتعطف الشيء على مصاحبه نحو ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ (العنكبوت: ١٥).

وعلى سابقة نحو ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وعلى لاحقه نحو ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ (الشورى: ٣).

ويجوز أن يكون بين متعاطفيها تقارب أو تراخ، نحو ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فإن الرد بعيد إلقائه والإرسال على أربعين سنة، وتنفرد الواو عن سائر أحرف العطف بأمور منها:

احتمال معطوفها للمعاني الثلاثة السابقة. [2]

فأعطف بواو لاحقًا أو سابقًا ... في الحكم أو مصاحبًا موافقًا[3]

* * *

(١) شرح المفصل لابن يعيش (٣/ ٧٤).

(٢) مغني اللبيب لابن هشام (١/ ٢٢٦).

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/ ٢٢٦).

سورة لقمان

شبهة: إنكار شخصية لقمان الذي ذكر في القرآن.

نص الشبهة:

يقولون: إن محمدًا اتخذ شخصية خيالية من الجاهلية ليجعل منها نبيًا حكيمًا يعظ ابنه.

وقد قال البيضاوي: إن اسمه لقمان بن عوراء من أولاد أزر ابن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه.

والسؤال: فكيف يكون لقمان هذا نبيًا؟ وكيف يعتبره البيضاوي يعاصر أيوب ويعاصر داود؛ وبين أيوب وداود ما يقرب من ٩٠٠ سنة؟ وأين بلاد عوص حيث عاش أيوب من بلاد فلسطين حيث عاش داود؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: القرآن أثبت قصة لقمان فوجب الإيمان بها.

الوجه الثاني: لا يجوز الاحتجاج بالتوراة والإنجيل وقد ثبت تحريفهما.

الوجه الثالث: الصحيح أن لقمان كان حكيمًا وليس نبيًا، ولم يثبت عن حاله أو حياته أو تاريخه شيء سوى ما قصه علينا القرآن.

الوجه الرابع: وماذا عن لقمان الذي في الإنجيل واسمه (لوكيوس).

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن أثبت قصة لقمان فوجب الإيمان بها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ

فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان: ١٢- ١٩).

فهذه قصة من القصص التي ذكرها القرآن لنأخذ منها الدروس والعبر التي يسير عليها المسلم في حياته، فالقصة دعت إلى توحيد الله وإلى طاعة الله تبارك وتعالى وإلى جملة من المواعظ والآداب التي إذ ا ما تحلى بها المسلم سعد في دنياه وأخراه.

الوجه الثاني: لا يجوز الاحتجاج بالتوراة و الإنجيل وقد ثبت تحريفهما.

١- ثبت بالأدلة القاطعة أن الكتاب المقدس محرف، ومن ثم لا يجوز الاحتجاج به.

٢- ولو سلمنا بعدم التحريف فالقرآن قد أتى بزيادة لم تأتِ بها الكتب الأخرى فوجب الإيمان بها.

٣- هل معنى أن التوراة والإنجيل لم تذكر القصة أنها ليست حقيقية؟ وهل استوعب الكتاب المقدس جميع أحداث التاريخ والقصص؟ والجواب: أن هذا محال.

الوجه الثالث: الصحيح أن لقمان كان حكيمًا وليس نبيًا، ولم يثبت عن حاله أو حياته أو تاريخه شيء سوى ما قصه علينا القرآن.

قال ابن كثير: اختلف السلف في لقمان عليه السلام هل كان نبيًا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة؟ على قولين الأكثرون على الثاني[١].

قال الشوكاني: اختُلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي مشتق من اللقم؟ فمن قال إنه عجمي منعه للتعريف والعجمة، ومن قال إنه عربي منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون، واختلفوا أيضًا هو نبي أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي، وحكا الواحدي عن عكرمة والسدي والشعبي أنه كان نبيًا والأول أرجح[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٥).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٣٢).

ثم قال: وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء، ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله، وقد حكا الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الوضع وفيه كفاية، وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز وقطيعة للوقت، ولم يكن نبيًا حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناد ما رُوي عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التي هي ضالة المؤمن[1].

الوجه الرابع: وماذا عن لقمان الذي في الإنجيل واسمه (لوكيوس).

لقد جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ. . . ﴾ (لقمان: ١٢) ونقل عن البيضاوي المفسر أنه كان معاصرًا لداود ؏، وحرَّف المشكك قول البيضاوي وهو أنه من أولاد أزر بن أخت أيوب إلى أن لقمان كان معاصرًا لأيوب، ووجه نقده على هذا بقوله: كيف يكون معاصرًا لأيوب وداود؛ وبين أيوب وداود ما يقرب من ٩٠٠ سنة؟

وها هو كلام البيضاوي بنصه: "لقمان بن باعوراء أولاد آزر ابن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود ؏، وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه، والجمهور على أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًا".

قلت: وليس هناك ما يدل على هذا النسب وهذه المعاصرة، وما يهمنا هو إثبات هذه الشخصية كما قررها القرآن الكريم.

والبيضاوي لا يقصد معاصرته وإنما يقصد نسبه، ولم يقل البيضاوي: كان نبيًا، ولم يقل القرآن ذلك؛ وإنما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ولكن صاحب الشبهة وجه الإشكال على النبوة؛ **فقال: كيف يكون لقمان نبيًا؟** إنه قال: كيف يكون لقمان نبيًا؟ وليس في القرآن أنه كان نبيًا ـ كما بينا ـ وإنما كان حكيمًا، واسمه "لوكيوس" في اليوناني، و"لقمان" في العبرانية، وفي سفر أعمال الرسل (١٣/ ١): "وَكَانَ فِي أَنْطَاكِيَةَ فِي الْكَنِيسَةِ هُنَاكَ أَنْبِيَاءُ

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٣٧).

وَمُعَلِّمُونَ: بَرْنَابَا، وَسِمْعَانُ الَّذِي يُدْعَى نِيجَرَ، وَلُوكِيُوسُ الْقَيْرَوَانِيُّ، وَمَنَايِنُ الَّذِي تَرَبَّى مَعَ هِيرُودُسَ رَئِيسِ الرُّبْعِ، وَشَاوُلُ.

وفي سفر الرسالة إلى أهل روما: أنه كان معاصرًا لبولس، وصديقًا له: **يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ تِيمُوثَاوُسُ الْعَامِلُ مَعِي، وَلُوكِيُوسُ وَيَاسُونُ وَسُوسِيبَاتْرُسُ أَنْسِبَائِي** (رومية ١٦/ ٢١)

واللغة اليونانية تضيف حرف السين في آخر الاسم مثل يوسيفوس ـ هيرودس ـ أغسطس قيصر، بير كلينوس وهو اسم أحمد رسول الله في إنجيل يوحنا. وفي العبرانية "يونان" بالألف والنون، وفي اليونانية "يونس". أما قولهم: إن بين أيوب وداود ما يقرب من ٩٠٠ سنة.

فهذا كلام ليس عليه دليل من كتب التاريخ. [١]

ولو سلمنا بصحته فإن كلام البيضاوي ليس فيه أنه عاصر أيوب، وما قال أحد بذلك وإنما قيل إنه عاصر داود عليه السلام[٢].

* * * *

(١) انظر كتاب (مروج الذهب ١/ ١٨)، والمفصل في تاريخ العرب (١/ ٣٣٩).

(٢) انظر المراجع السابقة.

سورة الأحزاب

وفيها:

١- شبهة: مخاطبة الله ﷻ لنساء النبي ﷺ في القرآن.

٢- شبهة: النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ.

٣- شبهة: كيف يضع الرسول ﷺ نفسه مع الله ﷻ.

١- شبهة: مخاطبة الله ﷻ لنساء النبي ﷺ في القرآن.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (الأحزاب: ٣٠) فيه اتهام لهن أنهن وقعن في الفاحشة، ولماذا يخاطبهن بهذا الكلام؟!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآيات.

الوجه الثاني: لماذا يطلب الله ﷻ من نساء النبي ﷺ مثل هذه الأمور.

الوجه الثالث: فضل نساء النبي ﷺ على سائر النساء، فهذه الأوامر في حقهن من باب أولى.

الوجه الرابع: أن الله ﷻ خصهن بهذه الأوامر زيادة في حجابهن وحيائهن.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآيات.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ (الأحزاب: ٣٠، ٣١).

قال ابن كثير: يقول تعالى واعظًا نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن [وتخصيصهن] دون سائر النساء، بأن مَنْ يأت منهن بفاحشة مبينة، قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع[1].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ومن يطع الله ورسوله منكن، وتعمل بما أمر الله به ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ يقول: يعطها الله ثواب عملها، مثلي ثواب عمل غيرهن من سائر نساء الناس، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ يقول: وأعتدنا لها في الآخرة عيشًا هنيئًا في الجنة[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥١).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ١).

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٣) أي: اِلْزَمْنَ بيوتكن، فلا تخرجن لغير الحاجة، ومن الحوائج الشرعية: الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: "لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله[1]، وَلَكِنْ لِيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلاَتٌ[2]"، وفي رواية: "وبيوتهن خير لهن"[3].

وفيه دليل على أنه لا يجوز للمرأة أن تتطيب في غير بيتها بطيب على حال من الأحوال، وإذا تطيبت في بيتها فلا تخرج، ولما كان الأصل ألا تخرج امرأة إلا تفلة، وكان الوقت المعروف لتطيب النساء للرجال، إنما هو بالليل؛ لأن الليل يجمع بين الرجل وامرأته لإقباله من مصرفه إلى بيته ليسكن إلى أهله في ليله فتطيب امرأته، قيل لهن: من تطيب منكن قبل شهود العشاء فلا تشهد العشاء[4].

والتفلة: هي غير المتطيبة؛ لأن التفل نتن الريح، يقال: امرأة تفلة إذا كانت متغيرة الريح بنتن أو ريح غير طيبة[5].

أما قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ (الأحزاب: ٣١) بَيَّنَ الله تَعَالَى أَنَّهُ كَمَا يُضَاعَفُ بِهَتْكِ الْحُرُمَاتِ الْعَذَابُ كَذَلِكَ يُضَاعَفُ بِصِيَانَتِهَا الثَّوَابُ، وقَوْلُهُ: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، يَعْنِي: فِي الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ فَإِنَّهُنَّ وَإِنْ كُنَّ مِنَ الآدَمِيَّاتِ فَلَسْنَ كَإِحْدَاهُنَّ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ- وَإِنْ كَانَ مِنْ الْبَشَرِ جِبِلَّةً - فَلَيْسَ مِنْهُمْ فَضِيلَةً وَمَنْزِلَةً، وَشَرَفُ الْمَنْزِلَةِ لا يَحْتَمِلُ الْعَثَرَاتِ، فَإِنَّ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ وَتُرْفَعُ مَنْزِلَتُهُ عَلَى الْمَنَازِلِ جَدِيرٌ بِأَنْ يَرْتَفِعَ فِعْلُهُ عَلَى الأَفْعَالِ، وَيَرْبُو حَالُهُ عَلَى

(١) أخرجه البخاري مع الفتح (٢/ ٩٠٠).

(٢) أبو داود (٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥٢٩).

(٣) المستدرك للحاكم (١/ ٢٠٩).

(٤) الاستذكار (٧/ ٢٤٩).

(٥) التمهيد (٢٤/ ١٧٤).

الْأَحْوَالِ. قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أَمَرَهُنَّ الله تَعَالَى أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُنَّ جَزْلًا، وَكَلَامُهُنَّ فَصْلًا، وَلَا يَكُونُ عَلَى وَجْهٍ يُحْدِثُ فِي الْقَلْبِ عَلَاقَةً بِمَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِنْ اللِّينِ الْمُطْمِعِ لِلسَّامِعِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُنَّ مَعْرُوفًا.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣) قَالَ الْقَاضِي: الَّذِي عِنْدِي أَنَّهَا جَاهِلِيَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ وَهِيَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا وُصِفَتْ بِالْأُولَى؛ لِأَنَّهَا صِفَتُهَا الَّتِي لَيْسَ لَهَا نَعْتُ غَيْرِهَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وَهَذِهِ حَقِيقَتُهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَحْكُمُ إلَّا بِالْحَقِّ(١).

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ الله أَنْ يُخَيِّرَ أَزْوَاجَهُ، فَبَدَأَ بِي رَسُولُ الله ﷺفَقَالَ: " إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الله قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ. فَقُلْتُ لَهُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ، فَإِنِّي أُرِيدُ الله وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ"(٢).

وفي الحديث الذي بعده قالت عائشة رضي الله عنها ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ(٣).

وفي الحديث ملاطفة النبي ﷺ لأزواجه وحلمه عنهن، وصبره على ما كان يصدر منهن من إدلال وغيره مما يبثه عليهن الغيرة.

الوجه الثاني: لماذا يأمر الله زوجات النبي ﷺ بهذه الأمور؟

أولا: الشرط لا يقتضي وقوع الفعل.

قال تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ..﴾ (الأحزاب: ٣٠)، وهذا أسلوب شرط، والشرط لا يقتضي وقوع الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٣٤، ١٥٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٨٥)، مسلم (١٤٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٨٦).

أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الزخرف: ٨١)، وقوله: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ. . . ﴾ (الزمر: ٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ (الإسراء: ٧٤، ٧٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ (الحاقة: ٤٤).

فهذه الصيغة التي وردت بها الآيات قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها، ألا ترى أن قولك: لو كانت الخمسة زوجًا لكانت منقسمة بمتساويين. قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق، قال الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما فسدتا[١].

ثانيًا: أن هذا على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها[٢].

ثالثًا: هذا خطاب لهن والمراد به غيرهن[٣].

أي: أن هذا من باب التعريض لغير نساء النبي ﷺ، أي: أنه خطاب لنساء الأمة[٤].

رابعًا: هذا الخطاب للتحذير والإنذار، والتحذير ليس معناه أَنْ وقع المخاطب في المحذور.

خامسًا: أن هذا الكلام من الله ﷻ أدب لهن، وتهديد لغيرهن من نساء الأمة[٥].

سادسًا: خاطبهن الله ﷻ بذلك ليعرف من دونهن أن هذه الأعمال فيها مضاعفة للعذاب حتى لو وقعت من نساء النبي ﷺ.

سابعًا: أنه كما أن طاعتهن أفضل من طاعات غيرهن، فكذلك القبائح التي تصدر عنهن، فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ. . . ﴾.

---

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ١٣).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٦٥).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٢١).

(٤) فتح القدير (٤/ ٦٦٥).

(٥) تفسير البغوي (٤/ ٦٥).

واعلم أن الله لما قدم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١].

ثامنًا: أراد الله أن ينبه الأمة أن من فعل ذلك عذب وضوعف لها العذاب حتى ولو كان كريمًا عند الله[٢].

الوجه الثالث: فضل نساء النبي ﷺ على سائر النساء.

١- قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢)﴾ يَعْنِي: فِي الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ، فَإِنَّهُنَّ وَإِنْ كُنَّ مِنْ الْآدَمِيَّاتِ فَلَسْنَ كَإِحْدَاهُنَّ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَإِنْ كَانَ مِنْ الْبَشَرِ جِبِلَّةً، فَلَيْسَ مِنْهُمْ فَضِيلَةً وَمَنْزِلَةً، وَشَرَفُ الْمَنْزِلَةِ لَا يَحْتَمِلُ الْعَثَرَاتِ، فَإِنَّ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ، وَتُرْفَعُ مَنْزِلَتُهُ عَلَى الْمَنَازِلِ جَدِيرٌ بِأَنْ يَرْتَفِعَ فِعْلُهُ عَلَى الْأَفْعَالِ، وَيَرْبُو حَالُهُ عَلَى الْأَحْوَالِ[٣].

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة، والاحترام، والإكرام، والتوقير، والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سَمَّى بعضُ العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم[٤].

٢- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، والله ﷻ قال هذا بعد الأوامر التي أمرهن بها والنواهي التي نهاهن عنها، وكأنه يقول: أنا ما آمركم ولا أنهاكم عن هذه الأمور إلا لأطهركن وأذهب عنكم الرجس.

---

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ١٣).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي في تفسير قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . .﴾.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٣٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣٤).

وقال أيضًا: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥).

وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: (يغزو الرجال، ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . . .﴾.

قال مجاهد: فأنزل فيها: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ . . .﴾، وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة)[٢].

وعن أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت[٣].

ومن فضائل زوجات النبي ﷺ أنهن كن يؤثرن على أنفسهن، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَبْتَغِي بِذَلِكَ رِضَا رَسُولِ الله"[٤].

الوجه الرابع: لماذا لم تخاطب زوجات الأنبياء من قبل بمثل هذه الأمور؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٢٢) قال أبو عيسى: هذا حديث مرسل، وأخرجه عن بعضهم عن أبي نجيح عن مجاهد مرسل؛ أن أم سلمة قالت. . . وهو عند أحمد (٦/ ٣٠٥، ٣٠١)، وقال الألباني: صحيح الإسناد (صحيح الترمذي٣٠٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢١١) قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، وإنما يعرف هذا الحديث من هذا الوجه. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٩٣)، مسلم (١٤٦٣).

فنقول: أولًا إن الأمر للتشريف لا للإهانة، فعندما يأمرهن الله ﷻ وينهاهن عن أشياء فهذا تشريف لهن ورفعة لمكانتهن، ثم إنه مَنْ قال: إن الله لم يخاطب النساء قبل ذلك بمثل هذه الأشياء؟ أليس قد قال لمريم: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ (آل عمران: ٤٣)، أليس قد ذم امرأة نوح وامرأة لوط لعدم استجابتهما لشرع الله فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠).

فانظر لصنيع سودة رضي الله عنها وابتغائها رضا رسول الله ﷺ، وإيثاره على نفسها وعلى ما فيه سعادتها. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: في (حديث الإفك): "من يعذرنا في رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت من أهل بيتي إلا خيرًا"[١].

وبعدُ، فأي امرأة في الكتاب المقدس تشرفت بهذا الذكر بما تشرفت به نساء النبي ﷺ، ونساء المؤمنين عامةً، ولكنك حينما تنظر في هذا الكتاب - المحرف- تجد فيه إهانةً للمرأة، وإذلالًا، واحتقارًا، وغير ذلك للأهمية[٢].

انظر كيف كان عيسى يخاطب أمه في أكثر كلامه، كان يقول لأمه: (يا امرأة)، كما في إنجيل يوحنا (٢/ ٥: ٣): (وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ، قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ. ٤قَالَ لَهَا يَسُوعُ: مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ؟ لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ. ٥قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ: مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ).

* * * *

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣٧).

(٢) راجع (شبهات حول المرأة) في هذه الموسوعة، وما ذُكِرَ عن المرأة في الكتاب المقدس.

٢ـ شبهة: النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ.

نص الشبهة:

أمر الله ﷻ الصحابة بعدم دخول بيت النبي ﷺ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ. . . ﴾ (الأحزاب: ٥٣) والآية تدل على ما يلي:

١- تصرفات زوجاته مع الرجال.

٢- النبي ﷺ لا يستطيع أن يهتم بزوجاته.

٣- الصحابة كانوا يستغيبون النبي ﷺ و يدخلون بيوت نسائه.

٤- أن الوحي يشتغل بمثل هذه الأمور، وهل هذا كان في اللوح المحفوظ؟

و الرد من ذلك وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

الوجه الثاني: ١- سبب نزول آية الحجاب (السبب الصحيح).

٢- سبب نزول: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وأن السبب المذكور باطل سندًا ومتنًا.

الوجه الثالث: الرد على دعواهم كما في نص الشبهة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

يقول تعالى ذكره لأصحاب رسول الله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تدخلوا بيوت نبي الله ﷺ، إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ يعني: غير منتظرين إدراكه وبلوغه، ولكن إذا دعاكم رسول الله ﷺ فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم

الطعام الذي دعيتم لأكله فانتشروا؛ يعني: فتفرقوا واخرجوا من منزله، ولا متحدثين بعد فراغكم من أكل الطعام إيناسًا من بعضكم لبعض به؛ لأن دخولكم بيوت النبي من غير أن يؤذن لكم وجلوسكم فيها مستأنسين للحديث بعد فراغكم من أكل الطعام الذي دعيتم له - كان يؤذي النبي فيستحي منكم أن يخرجكم منها إذا قعدتم فيها للحديث بعد الفراغ من الطعام، أو يمنعكم من الدخول إذا دخلتم بغير إذن مع كراهيته لذلك منكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أن يبيّن لكم وإن استحيا نبيكم فلم يبين لكم كراهية ذلك حياءً منكم، وإذا سألتم أزواج رسول الله ﷺ ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج متاعًا ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾ يقول: من وراء ستر بينكم وبينهن، ولا تدخلوا عليهن بيوتهن ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يقول: وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله، وما يصلح ذلك لكم، وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا، فإن أذاكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده عند الله عظيم من الإثم(١).

قال ابن كثير: هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ﷺ كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث: فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ (البقرة: ١٢٥). وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ: لما تمالئن عليه في الغيرة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ (التحريم: ٥) فنزلت كذلك(٢).

فقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله

---

(١) الطبري (٢٢/ ٣٤-٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٢)، مسلم (٢٣٩٩).

لهذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: "إياكم والدخول على النساء"[١].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب، عُرسًا كان أو غيره"[٢]، وقال النبي ﷺ: "لو دُعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ كُراع لقبلت، فإذا فَرَغتم من الذي دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض"[٣].

والمراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه السلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجرَكم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب[٤].

وقال الرازي: إن حال الأمة مع النبي على وجهين أحدهما: في حال الخلوة والواجب هناك عدم إزعاجه وبيّن ذلك بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ وثانيهما: في الملأ والواجب هناك إظهار التعظيم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)، و لما بيّن الله من حال النبي أنه داع إلى الله بقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ قال ههنا: لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعني كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، مسلم (٢١٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٦٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ فيه لطيفة وهي أن العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن: لا تدخلها إلا بإذن! يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلًا لا بالدعاء ولا بغير الدعاء، فقال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم: لا تدخلوا! لا تدخلوا، وإذا قيل: لكم ادخلوا! فادخلوا، ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أدبًا، وكون النبي حليمًا بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن ذلك حق وأدب، وقوله كان إشارة إلى تحمل النبي ﷺ.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يعني العين روزنة القلب، فإذا لم ترَ العين لا يشتهي القلب، أما إن رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر، ثم إن الله – تعالى- لما عَلَّمَ المؤمنين الأدب أكده بما يحملهم على محافظته، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه[1].

وقال السعدي: في قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ فالأمر الشرعي ولو كان يتوهم أن في تركه أدبًا وحياءً فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه، ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كائنًا ما كان، فهذا أدبُهم في الدخول في بيوته، وأما أدبُهم معه في خطاب زوجاته فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك أو لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه فلا حاجة إليه؛ والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يسألن متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها فإنهن يُسألن ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[2].

الوجه الثاني: سبب نزول هذه الآية.

الأمر الأول: سبب نزول الحجاب:

السبب الأول: روي عن أنس ﷺ في الصحيح وغيره قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِجَنَبَاتِ أُمِّ سُلَيْمٍ دَخَلَ عَلَيْهَا فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَرُوسًا بِزَيْنَبَ. فَقَالَتْ لِي أُمُّ سُلَيْمٍ: لَوْ أَهْدَيْنَا لِرَسُولِ الله ﷺ هَدِيَّةً! فَقُلْتُ لَهَا: افْعَلِي. فَعَمَدَتْ إِلَى تَمْرٍ وَسَمْنٍ وَأَقِطٍ، فَاتَّخَذَتْ حَيْسَةً

(١) تفسير الرازي (٢٥/ ٢٢٤).

(٢) تفسير السعدي (٦٧٠).

فِي بُرْمَةٍ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا مَعِي إِلَيْهِ، فَانْطَلَقْتُ بِهَا إِلَيْهِ. فَقَالَ لِي: "ضَعْهَا" ثُمَّ أَمَرَنِي فَقَالَ: "ادْعُ لِي رِجَالًا" سَمَّاهُمْ "وَادْعُ لِي مَنْ لَقِيتَ" قَالَ: فَفَعَلْتُ الَّذِي أَمَرَنِي، فَرَجَعْتُ فَإِذَا الْبَيْتُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى تِلْكَ الْحَيْسَةِ، وَتَكَلَّمَ بِهَا مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرَةً يَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُ لَهُمْ: "اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ وَلْيَأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِمَّا يَلِيهِ" قَالَ: حَتَّى تَصَدَّعُوا كُلُّهُمْ عَنْهَا فَخَرَجَ مِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ، وَبَقِيَ نَفَرٌ يَتَحَدَّثُونَ، قَالَ: وَجَعَلْتُ أَغْتَمُّ، ثُمَّ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَ الْحُجُرَاتِ وَخَرَجْتُ فِي إِثْرِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ قَدْ ذَهَبُوا، فَرَجَعَ فَدَخَلَ الْبَيْتَ، وَأَرْخَى السِّتْرَ وَإِنِّي لَفِي الْحُجْرَةِ وَهوَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ. . .﴾ قَالَ أَنَسٌ إِنَّهُ خَدَمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ[1].

قال ابن حجر: وَفِي الْحَدِيث مِنْ الْفَوَائِد: مَشْرُوعِيَّة الْحِجَاب لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عِيَاض: فَرْض الْحِجَاب مِمَّا اِخْتَصَصْنَ بِهِ، فَهُوَ فُرِضَ عَلَيْهِنَّ بِلَا خِلَاف فِي الْوَجْه وَالْكَفَّيْنِ، فَلَا يَجُوز لَهُنَّ كَشْف ذَلِكَ فِي شَهَادَة وَلَا غَيْرهَا، وَلَا إِظْهَار شُخُوصهنَّ وَإِنْ كُنَّ مُسْتَتِرَات؛ إِلَّا مَا دَعَتْ إِلَيْهِ ضَرُورَة مِنْ بِرَاز. ثُمَّ اِسْتَدَلَّ بِمَا فِي "الْمُوَطَّأ" أَنَّ حَفْصَة لَمَّا تُوُفِّيَ عُمَر سَتَرَهَا النِّسَاء عَنْ أَنْ يُرَى شَخْصهَا، وَأَنَّ زَيْنَب بِنْت جَحْش جَعَلَتْ لَهَا الْقُبَّة فَوْق نَعْشهَا لِيَسْتُر شَخْصهَا. وَلَيْسَ فِيمَا ذَكَرَهُ دَلِيل عَلَى مَا ادَّعَاهُ مِنْ فَرْض ذَلِكَ عَلَيْهِنَّ، وَقَدْ كُنَّ بَعْدَ النَّبِيّ ﷺ يَحْجُجْنَ وَيَطُفْنَ، وَكَانَ الصَّحَابَة وَمَنْ بَعْدَهُمْ يَسْمَعُونَ مِنْهُنَّ الْحَدِيث وَهُنَّ مُسْتَتِرَات الْأَبْدَانِ لَا الْأَشْخَاص[2].

السبب الثاني: ما روي عن عروة عن عائشة: أن أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا تَبَرَّزْنَ إِلَى الْمَنَاصِعِ؛ وَهُوَ صَعِيدٌ أَفْيَحُ. فَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: احْجُبْ نِسَاءَكَ، فَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْعَلُ، فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنْ اللَّيَالِي عِشَاءً؛ وَكَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةً، فَنَادَاهَا عُمَرُ: أَلَا قَدْ عَرَفْنَاكِ يَا سَوْدَةُ، حِرْصًا عَلَى أَنْ يَنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ الْحِجَابَ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٦٣)، مسلم (١٤٢٨) وهذه لفظ البخاري، وقد ذكر ابن العربي لفظ الترمذي، وانظر البخاري أيضًا (٤٧٩١-٤٧٩٢-٤٧٩٣-٤٧٩٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٢١).

قال ابن حجر: قَوْله: (اُحْجُبْ) أَيْ: اِمْنَعْهُنَّ مِنْ الْخُرُوج مِنْ بُيُوتهنَّ؛ بِدَلِيلِ أَنَّ عُمَر بَعْد نُزُول آيَة الْحِجَاب قَالَ لِسَوْدَةَ مَا قَالَ كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون أَرَادَ أَوَّلًا الْأَمْر بِسَتْرِ وُجُوههنَّ، فَلَمَّا وَقَعَ الْأَمْر بِوَفْقِ مَا أَرَادَ أَحَبَّ أَيْضًا أَنْ يَحْجُب أَشْخَاصهنَّ مُبَالَغَة فِي التَّسَتُّر، فَلَمْ يُجَبْ لِأَجْلِ الضَّرُورَة. وَهَذَا أَظْهَر الِاحْتِمَالَيْنِ. وَقَدْ كَانَ عُمَر يَعُدّ نُزُول آيَة الْحِجَاب مِنْ مُوَافَقَاته، وَعَلَى هَذَا فَقَدْ كَانَ لَهُنَّ فِي التَّسَتُّر عِنْد قَضَاء الْحَاجَة حَالَات: أَوَّلهَا بِالظُّلْمَةِ لِأَنَّهُنَّ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ دُون النَّهَار كَمَا قَالَتْ عَائِشَة فِي هَذَا الْحَدِيث: "كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ"، ثُمَّ نَزَلَ الْحِجَاب فَتَسَتَّرْنَ بِالثِّيَابِ، لَكِنْ كَانَتْ أَشْخَاصهنَّ رُبَّمَا تَتَمَيَّز؛ وَلِهَذَا قَالَ عُمَر لِسَوْدَةَ فِي الْمَرَّة الثَّانِيَة بَعْد نُزُول الْحِجَاب: أَمَا وَالله مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا، ثم قال: وسبب نزول هذا الحديث قصة زينب بنت جحش[٢].

ثم أورد البخاري حديثًا ليبين أنه يجوز لهن الخروج لقضاء حوائجهن، عن عائشة عن النبيﷺ: "قد أذن أن تخرجن في حاجتكن"[٣].

السبب الثالث: روى أنس أن عُمَرُ ﷺ قال: يَا رَسُولَ الله، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ؛ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ. فَأَنْزَلَ الله آيَةَ الْحِجَابِ.[٤]

قلت: وفي المسألة أقوال وروايات أخرى فيها ضعف، واكتفينا بما ثبت.

الأمر الثاني: **سبب نزول قوله**: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ . . . ﴾.

عن ابن عباسﷺ قال: قال رجل من أصحاب النبي ﷺ: لو قد مات رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة أو أم سلمة. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا . . . ﴾[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦)، مسلم (٢١٧) واللفظ لمسلم.

(٢) فتح الباري (١/ ٣٠٠-٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٧٣).

(٥) السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٦٩) (١٣١٩٦) وهذا حديث باطل فيه محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، وفيه مهران بن أبي عمر قال في التقريب: صدوق له أوهام سيء الحفظ.

وما كان لأحد من أصحاب النبي ﷺ أن يتلفظ بمثل هذا، وإلا ما عد من أصحابه، وأنَّى لهذا الذي ترغب فيه واحدة من أزواج النبي بعد النبي ﷺ.

فالحديث باطل متنًا و سندًا.

الوجه الثالث: الرد على مزعوماتهم الباطلة.

أولًا: يقولون: لماذا هذا الكلام؟ أليس يدل على تصرفات زوجاته مع الرجال بأمور لا تليق؟

ونقول: ألا لعنة الله على الظالمين، ألمجرد توجيه وَجَّهَهُ الله ﷻ للأمة كي يتأدبوا مع النبي ﷺ عندما يكون في خلوته يؤول بهذا التأويل وتقولون أن هذا يدل تصرفات غير سليمة بين زوجاته الطاهرات العفيفات و بين أصحابه المؤمنين الصادقين؟! ! ! فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما النهي من الله فلأمور:

١- الله ﷻ نهي الصحابة عن ذلك لعلمه أن نبيه ﷺ كان أشد الناس حياءً، وعن أبي سعيد الخدري قال: "كان النبي ﷺ أشد حيَاء من العذراء في خدرها"، فالنبي ﷺ يستحي أن ينهاهم عن ذلك بنفسه، لكن عندما يكون من الله ﷻ، فالله لا يستحي من الحق.

٢- أنه لابد أن يعامل القدوة باحترام و توقير، على غير معاملة العوام فهو له الفضل على الجميع، فما بالكم لو كان ذلك رسول الله ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾، فأهل الفضل لابد أن يميزوا في المعاملة كما خص زوجاته – رضي الله عنهن- بألا يتزوجهن أحد بعد النبي ﷺ ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

٣- هذا أدب من الله ﷻ للصحابة؛ ليبين لهم كيف يتعاملون مع نبيهم في الخلوة؟ كما بين لهم كيف يتعاملون معه في الملأ؟ فقال: ﴿ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات ٢).

٤- أراد الله أن يبين لهم أن الذي يتوهم أن الأمر الشرعي تركه أدبًا وحياء، فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه، ليس من الأدب الشرعي، والله

تعالى لا يستحي أن يأمركم، بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان[١].

٥- وأراد سبحانه وتعالى أن يبين لهم أدبهم مع زوجاته ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

٦- ليس أمرُ الله لنساء النبي بالحجاب عن الصحابة و غيرهم من الرجال اتهام لهن أنهن قبل الحجاب كُنَّ يتصرفن بما لا يليق كما زعم الملحدون، بل هذا الأمر عصمة لهن و عصمة للصحابة وحفاظًا من الله ﷻلحياء هذه الأمة.

٧- هذا الأمر من الله لهن بالحجاب ليفعلنه و تفعلنه باقي نساء الأمة، فلو كانت الفتنة مأمونة بين نساء النبي وبين صحابته فهي ليست مأمونة مع غيرهن، فلكي لا يحتجَّ محتجٌ أن نساء النبي لم يكن متحجبات أمرهن الله ﷻ بالحجاب سدًا للذريعة، وحفظًا من خدش حياء هذه الأمة.

٨- إن من أسباب الحجاب أن عمر قال لسودة زوج النبي ﷺ: انظري ياسودة كيف تخرجين، فوالله لا تخفين علينا[٢].

وقد قال للنبي ﷺ: "لو أمرت نساءك بالحجاب؟ فنزلت آية الحجاب"[٣]، وكذلك حرصًا من عمر على نزول الحجاب، فكيف تقولون بعد ذلك أن هناك تصرفات لا تليق بين زوجات النبيﷺ وأصحابه؟ ألا سحقًا لكم وبعدًا.

٩- لا يخفى على أحد خطورة التبرج، وأن التحجب أطهر لقلوب الرجال والنساء، وأبعد عن الفاحشة وأسبابها، وأشار سبحانه إلى أن السفور وعدم التحجب خبث و نجاسة، وأن التحجب طهارة وسلامة، ولا شك أن من الناس البر والفاجر، والطاهر والعاهر؛ فالحجاب يمنع بإذن الله من الفتنة، ويحجز دواعيها، ولما علم الله ﷻ المفاسد التي تترتب على اختلاط النساء بالرجال حرم ذلك، وأمر أن يكون هناك حجاب أو ساتر حين يريد رجل مقابلة امرأة أجنبية لطلب متاع أو سؤال حاجة، والعلة من فرض الحجاب طهارة قلوب

---

(١) تفسير السعدي (٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦)، مسلم (٢١٧٠)

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٩٠).

الرجال والنساء، فصار الحجاب على نساء المؤمنين من باب أولي من فرضه على أمهات المؤمنين وهن الطاهرات المبرآت من كل عيب و نقيصة.

ثانيًا: يقولون: إن النبي ﷺ لا يستطيع أن يقوم بالاهتمام بزوجاته جميعًا في آن واحد؛ فلا بد أن يحصل ما لا يحمد عقباه.

ونقول: إن هذا الادِّعاء و الافتراء مبني على الادعاء السابق؛ وهو أن هذا الكلام من الله ﷻ لصحابته وزوجات النبي ﷺ يدل على تصـرفات لا تليق– زعموا- وقد أبطلنا هذا الادعاء، و الحمد لله، وما بُني على باطل فهو باطل، فنرد على هذه الفرية بما رددنا به على الفرية الأولى، و نزيد الأمر وضوحًا بأن نبين اهتمام النبي ﷺ بزوجاته، وكيف كان يعيش معهن و يشاورهن في الأمور العضال؟ وكيف كان في خدمة أهله ﷺ؟ إن نبينا ﷺ مثال للزوج الذي يقوم على شئون أكثر من زوجة في آنٍ واحد، وحسبه أنه مؤيد من عند ربه ﷻ.

فعن عائشة سُئلت: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ – تَعْنِي: خِدْمَةَ أَهْلِهِ– فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ[١].

قال ابن حجر: وفيه الترغيب في التواضع، وترك التكبر، وخدمة الرجلِ أهلَه[٢].

وعن عائشة أنها سُئلت: ماكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، ويَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ ما يَعْمَلُ الرجال في بيوتهم[٣].

قَالَ اِبْن بَطَّال: مِنْ أَخْلَاق الْأَنْبِيَاء التَّوَاضُع، وَالْبُعْد عَنْ التَّنَعُّم، وَامْتِهَان النَّفْس لِيُسْتَنّ بِهِمْ، وَلِئَلَّا يَخْلُدُوا إِلَى الرَّفَاهِيَة الْمَذْمُومَة، وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى ذَمّهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾[٤].

ولا يخفى حديث أم زرع الذي أورده البخاري تحت [باب حسن المعاشرة مع الأهل[١]]، والذي قصت فيه حديث عائشة على النبي ﷺ قصة إحدى عشرة امرأة مع

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦).

(٢) فتح الباري (٢/ ١٩١).

(٣) مسند أحمد (٦/ ١٢١).

(٤) فتح البارى (١٠/ ٥٢٠)، وإسناده صحيح إلى عائشة.

أزواجهن، وهو حديث طويل، فانظر كيف جلس النبي ﷺ مع عائشة ولم يتأذ من سردها هذه القصة الطويلة، مع ما هو فيه من حمل هَمِّ الرسالة وهَمِّ الدعوة ﷺ، ثم بعد ذلك يُقال: إنه لا يستطيع أن يقوم بشئون أهله ويحافظ عليهن.

وقال النووي: فيه استحباب حسن المعاشرة للأهل(٢).

وعن عائشة أيضًا قالت: كَانَ الْحَبَشُ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ فَسَتَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ وَأَنَا أَنْظُرُ، فَمَا زِلْتُ أَنْظُرُ حَتَّى كُنْتُ أَنَا أَنْصَرِفُ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ تَسْمَعُ اللهوَ(٣).

قال النووي رحمه الله: وَفِيهِ جَوَاز نَظَر النِّسَاء إِلَى لَعِب الرِّجَال مِنْ غَيْر نَظَر إِلَى نَفْس الْبَدَن. وَأَمَّا نَظَر الْمَرْأَة إِلَى وَجْه الرَّجُل الْأَجْنَبِيّ فَإِنْ كَانَ بِشَهْوَةٍ فَحَرَام بِالِاتِّفَاقِ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ شَهْوَة وَلَا مَخَافَة فِتْنَة فَفِي جَوَازه وَجْهَانِ لِأَصْحَابِنَا: تَحْرِيمه لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ وَلِقَوْلِهِ ﷺ: لِأُمِّ سَلَمَة وَأُمّ حَبِيبَة: "اِحْتَجِبَا عَنْهُ"(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه حدثهم: "أن نبي الله ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحد، وله يومئذ تسع نسوة"(٥)، وفي رواية عند البخاري: قال قتادة لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نحدث أنه أعطي قوة ثلاثين(٦).

فكيف من له قوة مثل هذه أن تكون نساؤه كما قلتم، أو أنه لا يستطيع أن يهتم بهن؟!

ثالثًا: يقولون: إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يستغيبون النبي و يدخلون بيوت نسائه.

وسبحان الله أهؤلاء الأطهار يفعلون ذلك؟! و إن فعلوا هل تسمح لهم زوجات النبي ﷺ؟ والناظر إلى فعلهم رضي الله عنهم فإنهم ما كانوا يدخلون بدون إذن حتي بعد موت النبي ﷺ وليس هذا مع بيوت النبي فقط، بل مع كل البيوت.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، مسلم (٢٤٤٨).

(٢) شرح النووي (٨/ ٢٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٩٠)، مسلم (٨٩٢).

(٤) شرح النووي (٣/ ٢٨٨).

(٥) أخرجه البخاري (٩٢١٥).

(٦) أخرجه البخاري (٢٦٨).

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ؟ قُلْتُ: اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ؛ وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ" فَقَالَ: وَالله، لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بِبَيِّنَةٍ، أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: وَالله، لَا يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ الْقَوْمِ. فَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَلِكَ"(١).

وعن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَا أَنْفَقَتْ مِنْ نَفَقَةٍ عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ يُؤَدَّى إِلَيْهِ شَطْرُهُ"(٢).

وكانوا يستأذنون حتى بعد موته ﷺ، والدليل على ذلك أن عائشة حُدِّثَتْ أَنَّ عَبْدَ الله ابْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ: وَالله، لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لَأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا! فَقَالَتْ: أَهُوَ قَالَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَتْ: هُوَ للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ لَا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا. فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا حِينَ طَالَتْ الْهِجْرَةُ. فَقَالَتْ: لَا وَالله، لَا أُشَفِّعُ فِيهِ أَبَدًا، وَلَا أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي. فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ كَلَّمَ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ - وَهُمَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ- وَقَالَ لَهُمَا: أَنْشُدُكُمَا بِالله لَمَّا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ؛ فَإِنَّهَا لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي. فَأَقْبَلَ بِهِ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلَيْنِ بِأَرْدِيَتِهِمَا حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَا: السَّلَامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ؛ أَنَدْخُلُ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: ادْخُلُوا. قَالُوا: كُلُّنَا؟ قَالَتْ: نَعَم، ادْخُلُوا كُلُّكُمْ - وَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ-. فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجَابَ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ، وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي، وَطَفِقَ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلَّا مَا كَلَّمَتْهُ، وَقَبِلَتْ مِنْهُ، وَيَقُولَانِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الْهِجْرَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا نَذْرَهَا وَتَبْكِي وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ؛ وَالنَّذْرُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، مسلم (٢١٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٥)، مسلم (١٠٢٦).

شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزَالَا بِهَا حَتَّى كَلَّمَتْ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَأَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا[1].

رابعًا: يقولون: إنه لا يجوز للوحي أن يشتغل بمثل هذه الأمور، وهل هذا كان في اللوح المحفوظ؟

إن الوحي: هو كلمة الله ﷻ إلى عباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو أصل الدين؛ إذ يتعلق بكتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، والوحي في الإسلام ثابت محفوظ بحفظ الله تعالى.

وغاية الوحي والرسالة هي تحقيق مصالح الخلق جميعًا في الدنيا والآخرة، فهي شريعة ربانية عالمية متوازنة واقعية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، وإن من أهم وظائفها تطهير الأمة من الأدران ورواسب الجاهلية؛ وذلك لأن الله هو خالق البشر، وهو وحده يعلم ما ينفعهم وما يضرهم، فأنزل إليهم شرعه ليتحاكموا به بينهم.

* * * *

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٥: ٦٠٧٣).

٣ـ شبهة: كيف يضع الرسول ﷺ نفسه مع الله ﷻ.

نص الشبهة:

ذكروا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧)﴾ (الأحزاب: ٥٧)، وقالوا: كيف يضع نفسه مع الله؟! وقالوا: إن المسيح كان يعفو عن المسيئين له ولم يلعنهم.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية، ومعنى الأذى.

الوجه الثاني: ذكر بعض الأمثلة من أذى المشركين للنبي وذكر عقوبتهم.

الوجه الثالث: رحمة النبي ﷺ بأعدائه وبأمته، ورحمته في دعوته، وأنه ﷺ كان يتحمل الأذى إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله ﷻ.

الوجه الرابع: المسيح والمهتدون في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية، ومعنى الأذى.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٧).

أولًا: قال قتادة: يا سبحان الله، ما زال أناس من جهلة بني آدم حتى تعاطوا أذى ربهم، وأما أذاهم رسول الله ﷺ فهو طعنهم عليه، وقوله: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: أبعدهم الله من رحمته في الدنيا، وأعد لهم في الآخرة عذابًا يهينهم فيه بالخلود فيه[(١)].

وقال قتادة في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ (الأحزاب: ٥٨)، فإياكم وأذى المؤمنين فإن الله ﷻ يحوطه ويغضب له ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ زورًا وكذبًا وفرية شنيعة[(٢)].

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٥).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٥).

ومما روي في أذية الله ﷻ: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره"(١).

قَوْله: (**وأنا الدَّهْر**)

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنَا صَاحِب الدَّهْر، وَمُدَبِّر الْأُمُور الَّتِي يَنْسُبُونَهَا إِلَى الدَّهْر، فَمَنْ سَبَّ الدَّهْر مِنْ أَجْل أَنَّهُ فَاعِل هَذِهِ الْأُمُور عَادَ سَبّه إِلَى رَبّه الَّذِي هُوَ فَاعِلهَا، وَإِنَّمَا الدَّهْر زَمَان جُعِلَ ظَرْفًا لِمَوَاقِع الْأُمُور. وَكَانَتْ عَادَتهمْ إِذَا أَصَابَهُمْ مَكْرُوه أَضَافُوهُ إِلَى الدَّهْر فَقَالُوا: بُؤْسًا لِلدَّهْرِ، وَتَبًّا لِلدَّهْرِ(٢).

وقال ابن كثير: ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا. فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر، ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي، وأبو عبيد، وغيرهما من العلماء، رحمهم الله.

والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: "قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة"(٤).

وقال ابن حجر: وَقَوْله: «وَمَنْ ذَهَبَ» أَيْ: قَصَدَ، وَقَوْله: «يَخْلُق كَخَلْقِي» نَسَبَ الْخَلْق إِلَيْهِمْ عَلَى سَبِيل الِاسْتِهْزَاء أَوْ التَّشْبِيه فِي الصُّورَة فَقَطْ، وَقَوْله: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّة أَوْ شَعِيرَة» أَمْر بِمَعْنَى: التَّعْجِيز؛ وَهُوَ عَلَى سَبِيل التَّرَقِّي فِي الْحَقَارَة أَوْ التَّنَزُّل فِي الْإِلْزَام، وَالْمُرَاد بِالذَّرَّةِ إِنْ كَانَ النَّمْلَة فَهُوَ مِنْ تَعْذِيبهمْ وَتَعْجِيزهمْ بِخَلْقِ الْحَيَوَان تَارَة، وَبِخَلْقِ الْجَمَاد أُخْرَى، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى: الْهَبَاء فَهُوَ بِخَلْقِ مَا لَيْسَ لَهُ جِرْم مَحْسُوس تَارَة، وَبِمَا لَهُ جِرْم أُخْرَى(٥).

ثانيًا: وقال بعضهم: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يؤذون أولياء الله كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٧٤)، وانظر النووي (٨/ ٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٠٠).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

(٥) فتح الباري (١٣/ ٦٠٦).

ﱡﭐﭑﱠ أي: أهل القرية.

وقد قال رسول الله ﷺ: "قال الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب". [(١)]

قال البغوي: ومعنى الأذى: هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه، ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم، والله ﻷ منزه عن أن يلحقه أذى من أحد. و (إيذاء الرسول) قال ابن عباس: هو أنه شج في وجهه وكسرت رباعيته، وقيل: شاعر، ساحر، معلَّم، مجنون.

ومعنى اللعنة: الطرد والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا والآخرة لتشملهم فيهما بحيث لا يبقى وقت من الأوقات مماتهم ومحياهم إلا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك اللعن ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة لما يفيده معنى: الإعداد من كونه في الدار الآخرة[(٢)].

وقال الرازي: وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ إشارة إلى بعدٍ لا رجاءَ للقربِ معه؛ لأن المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة، فإذا أبعد في الآخرة فقد خاب وخسر؛ لأن الله إذا أبعده وطرده فمن الذي يقربه يوم القيامة، ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه في الإبعاد؛ بل أوعده بالعذاب بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فاللعن جزاء الله؛ لأن من آذى الملك يبعده عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول؛ لأن الملك إذا آذى بعض عبيده كبير يستوفي منه قصاصه، لا يقال: فعلى هذا من يؤذي الله ولا يؤذي الرسول لا يعذب؛ لأنا نقول: انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال؛ لأن من آذى الله فقد آذى الرسول. وأما على الوجه الآخر وهو أن من يؤذي النبي ﷺ ولا يؤذي الله كمن عصى من غير إشراك، كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر، فقد آذى النبي ﷺ غير أن الله تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه بكونه يبعده عن الباب[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ٥٤٣).

(٣) تفسير الرازي (٢٥/ ٢٢٨).

لما كان الله تعالى مصليًا على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه، فإن من آذى الله فقد آذى الرسول، فبين الله للمؤمنين أنكم إن أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه لا ينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول، فيأثم من يؤذيكم لكون إيذائكم إيذاء الرسول، كما أن إيذائي إيذاؤه، وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك إيذاء أحد منهم عن إيذاء الآخر؛ كما يكون حال الأصدقاء الصادقين في الصداقة[1].

وقال أحمد بن يوسف: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٥٧) أي: يقولون فيه ما صورته أذى، وإن كان سبحانه وتعالى لا يلحقه ضرر ذلك حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله: من اتخاذ الأنداد، ونسبة الولد، والزوجة إليه، وأن يكون على حذف مضاف أي: أولياء الله، وقيل: أتى بالحالة تعظيمًا، والمراد: يؤذون رسولي[2].

والله ﷻ أثبت الأذية في القرآن، ونفى الضر عن نفسه سبحانه. نفى الله ﷻ عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ (آل عمران: ١٧٦)، وفي الحديث القدسي: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني"[3][4].

وهذا ممكن، ألا ترى الرجل يتأذى برائحة البصل ونحوه، و لا يتضرر بها[5].

ومعنى: ﴿أذى الله﴾ أن الله سبحانه وتعالى يبغض ذلك ويكرهه؛ لأنه تنقص لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى يتأذى ببعض أفعال عباده وأقوالهم التي فيها إساءة في حقه، ولكنه لا يتضرر بذلك، ولأن الله لا يضره شيء.

وكذلك من الأحاديث: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله"[6].

---

(١) تفسير الرازي (٢٥/ ٢٢٩).

(٢) الدر المصون في علم الكتاب المكنون لأحمد يوسف المعروف بـ (السمين الحلبي) (الآية).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) القول المفيد.

(٥) انظر شرح الواسطية لابن عثيمين.

(٦) أخرجه البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١).

الوجه الثاني: ذكر بعض الأمثلة من أذية المشركين للنبي ﷺ، وذكر عقوبتهم.

تقولون: كيف يضع النبي ﷺ نفسه مع الله في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ . . .﴾؟.

١- هذا القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى، والذي وضع النبي ﷺ في هذه المنزلة إنما هو الله سبحانه وتعالى، والله ﷻ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

٢- ثم إن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ هم حاملوا رسالة ربهم رسالة التوحيد، فالله ﷻ هو الذي استأمنهم على ذلك، وكيف بعد ذلك لا يدافع عنهم؟! وكيف لا تكون أذيتهم من أذية الله ﷻ، أليسوا يبلغون دعوته؟!

٣- ثم إن الله ﷻ أخبرنا أنه يدافع عن كل من يدعو إليه، وكل من سار على نهج أنبيائه والمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ (الحج: ٣٨)، ثم إن الله تبارك وتعالى بعد ذكره عقوبة من آذاه وآذى رسوله ﷺ ثنى بذكر عقوبة من آذى المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ (الأحزاب: ٥٨).

ومن قبل هذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٦٣).

٤- ثم إن النبي ﷺ أشرف الخلق وأفضل الأنبياء، فكيف لا تكون أذيته من أذية الله ﷻ[1]؟

فالاجتراء على نبي من أنبياء الله ﷻ اجتراء على الله، وإيذاء النبي هو إيذاء لله ﷻ، يُنزل الله به غضبه ولعناته، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ (النساء: ١١٥)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن

---

(١) انظر بحث: الصلاة على النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾.

﴿يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ (محمد: ٣٢)، وقال ﷻ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (الحجر: ٩٤)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣).

ثم إن هذه الآية تخص الذين يؤذون النبي ﷺ بالكفر به أو بسبه أو بضربه من المشركين، والكافرين، ومع ذلك فإن من فعل ذلك ثم آمن وتاب وعمل صالحًا فإن الله ﷻ يعفو عنه ويسامحه النبي ﷺ، كما سنبين إن شاء الله.

ومن أمثلة أذى المشركين للنبي ﷺ:

١ - عن عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: "بينما النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَرَسُولُ الله ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَع رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللهمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: «اللهمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ»، وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ الله ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ"(١).

وقال ابن حجر: وقوله: "عليك بقريش" أي: بإهلاك قريش، والمراد الكفار منهم أو من سمى منهم، فهو عام أريد به الخصوص(٢).

وقوله: "صرعى في القليب" وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَام الدُّعَاءِ الْمَاضِي فَيَكُونُ فِيهِ عَلَمٌ عَظِيم مِنْ أَعْلَام النُّبُوَّة، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أُلْقُوا فِي الْقَلِيبِ وَزَاد شُعْبَةُ فِي رِوَايَتِهِ: (إِلَّا أُمَيَّة فَإِنَّهُ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ) زَادَ: (لِأَنَّهُ كَانَ بَادِنًا). قَالَ الْعُلَمَاء: وَإِنَّمَا

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٤)، ومسلم (١٧٩٤).

(٢) فتح الباري (١/ ٤١٦).

أَمَرَ بِإِلْقَائِهِمْ فِيهِ لِئَلَّا يَتَأَذَّى النَّاس بِرِيحِهِمْ وَإِلَّا فَالْحَرْبِيّ لَا يَجِبُ دَفْنه، وَالظَّاهِر أَنَّ الْبِئْرَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَاءٌ مَعِينٌ.

وَفِي الْحَدِيثِ: تَعْظِيم الدُّعَاء بِمَكَّةَ عِنْدَ الْكُفَّار، وَمَا ازْدَادَتْ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا تَعْظِيمًا.

وَفِيهِ مَعْرِفَة الْكُفَّار بِصِدْقِهِ ﷺ؛ لِخَوْفِهِمْ مِنْ دُعَائِهِ، وَلَكِنْ حَمَلَهُمْ الْحَسَد عَلَى تَرْك الِانْقِيَاد لَهُ.

وَفِيهِ حِلْمُهُ ﷺ عَمَّنْ آذَاهُ؛ فَفِي رِوَايَةِ الطَّيَالِسِيّ، عَنْ شُعْبَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ اِبْن مَسْعُود قَالَ: (لَمْ أَرَهُ دَعَا عَلَيْهِمْ إِلَّا يَوْمَئِذٍ) وَإِنَّمَا اِسْتَحَقُّوا الدُّعَاءَ حِينَئِذٍ لِمَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنْ الِاسْتِخْفَافِ بِهِ ﷺ حَالَ عِبَادَة رَبّه.

وَفِيهِ اِسْتِحْبَابُ الدُّعَاءِ ثَلَاثًا وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْعِلْم اِسْتِحْبَاب السَّلَام ثَلَاثًا وَغَيْر ذَلِكَ.

وَفِيهِ جَوَازُ الدُّعَاءِ عَلَى الظَّالِم لَكِنْ قَالَ بَعْضهمْ: مَحَلُّهُ مَا إِذَا كَانَ كَافِرًا، فَأَمَّا الْمُسْلِمُ فَيُسْتَحَبُّ الِاسْتِغْفَارُ لَهُ وَالدُّعَاءُ بِالتَّوْبَةِ[(١)].

٢- عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: "كان رجل نصرانيًا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبيﷺ فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه"[(٢)].

٣- عن عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ

(١) فتح الباري (١/ ٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٧).

ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ؛ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"(١).

فانظر لقول النبي ﷺ: "لقد لقيت من قومك" كلمة تحمل الكثير مما عاناه النبي ﷺ وكابده مع هؤلاء المشركين.

٤- عن عروة بن الزبير ﵁ قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم(٢).

فمما ذكرنا تبين أنه قد اشتد الأذى بالنبي ﷺ، وسُبَّ، وخُنق، وسال الدم منه ﷺ، وأوذي أشد الإيذاء، أفلا يكون من المعقول أن يدافع الله ﷻ عنه ويهدد الذين يؤذونه، ويجعل سبحانه أذية رسوله ﷺ من أذيته ﷻ؟.

بلى، إن الله يدافع عن الذين آمنوا، لذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ (الأحزاب: ٥٧).

الوجه الثالث: رحمة النبي ﷺ بأعدائه وبأمته ورحمته في دعوته وأنه ﷺ كان يتحمل الأذى إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، فهو رحمته المهداة لعباده، فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها، وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

وشملت رحمة النبي ﷺ العالمين، والعالمين تشمل الكافر والمؤمن؛ فهو رحمة للبر والفاجر، فمن آمن به أمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن به أمن من عذاب الله في الدنيا وأجلت له العقوبة في الآخرة، مصدقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٨).

ﵟٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡﵞ (الأنفال: ٣٣)، وسنبين بإذن الله ﷻ الآن رحمته ﷺ بأعدائه، ثم رحمته بأمته، ثم رحمته ﷺ في دعوته.

١ـ رحمته ﷺ بأعدائه:

عن أبي هريرة ﷺ قال: (قيل يا رسول الله: ادع على المشركين قال: "إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة"[(١)].

وفي حديث عائشة ﵂ السابق لما جاءه ملك الجبال وقال له: "إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال: «لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا»"[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: "بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بني حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سواري الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ»؟ فَقَالَ: عندي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ»؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ»؟ فَقَالَ: عِنْدِى مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ». فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ: وَالله، مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أخذتني وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لاَ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَلاَ وَالله لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ الله "ﷺ[1].

وقوله: (تقتل ذا دم) أي: صَاحِب دَم؛ لِدَمِهِ مَوْقِعٌ يَشْتَفِي بِقَتْلِهِ قَاتِله، وَيُدْرِك قَاتِله بِهِ ثَأْره، أَيْ: لِرِيَاسَتِهِ وَفَضِيلَته. (وهذا تهديد واضح كما ترى).

قال النووي: وَكَرَّرَ ذَلِكَ ثَلَاثَة أَيَّام؛ هَذَا مِنْ تَأْلِيف الْقُلُوب وَمُلَاطَفَة لِمَنْ يُرْجَى إِسْلَامه مِنْ الْأَشْرَاف الَّذِينَ يَتْبَعهُمْ عَلَى إِسْلَامهمْ خَلْق كَثِير[2].

وقال ابن حجر: تَعْظِيم أَمْر الْعَفْو عَنْ الْمُسِيء؛ لِأَنَّ ثُمَامَة أَقْسَمَ أَنَّ بُغْضه اِنْقَلَبَ حُبًّا فِي سَاعَة وَاحِدَة لِمَا أَسْدَاهُ النَّبِيّ ﷺ إِلَيْهِ مِنْ الْعَفْو وَالْمَنّ بِغَيْرِ مُقَابِل، وفيه أَنَّ الْإِحْسَان يُزِيل الْبُغْض وَيُثْبِت الْحُبّ[3].

٢ـ رحمته ﷺ بأمته:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

قال السعدي: يمتن ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم.

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه.

﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢، ٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) واللفظ له.

(٢) شرح النووي (٦/ ٣٣٢).

(٣) فتح الباري (٨/ ١٠٣، ١٠٤).

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ تلاَ قَوْلَ الله ﷻ في إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ الآيَةَ.

وَقَالَ عِيسَى ﷺ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: "اللهمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى. فَقَالَ الله ﷻ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ فَسَأَلَهُ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ - وَهُوَ أَعْلَمُ- . فَقَالَ الله: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ"[٢].

وقال النووي: وفيه كَمَال شَفَقَة النَّبِيّ ﷺ عَلَى أُمَّته وَاعْتِنَائِهِ بِمَصَالِحِهِمْ، وَاهْتِمَامه بِأَمْرِهِمْ، عِظَم مَنْزِلَة النَّبِيّ ﷺ عِنْد الله ﷻ[٣].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ"[٤].

٣ ـ رحمة النبي ﷺ في دعوته:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

قال السعدي: أي: برحمة الله لك ولأصحابك مَنَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترفقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: قاسيه

---

(١) تفسير السعدي (٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢).

(٣) شرح النووي (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، مسلم (٢٢١).

﴿لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ[(١)].

وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥).

وعن أبي هريرة ﷺ: أن أعرابيًا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به فقال لهم رسول الله ﷺ: "دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء أو سجلًا من ماء فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"[(٢)].

فانظر إلى رحمته ﷺ بهذا الأعرابي حتى علمه وبين له خطأ ما فعل، بعدما انتهى من بوله، وبين له المساجد لا تصلح لهذا.

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السلمي ﷺ قَالَ: "بَيْنَا أَنَا أُصَلِّى مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله، فرماني الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِى لَكِنِّى سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ فبأبي هُوَ وأمي؛ مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ؟ فَوَالله، مَا كَهَرَنِي، وَلاَ ضربني، وَلاَ شتمني؛ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شيء مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[(٣)] أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ".

قال النووي: فِيهِ: بَيَان مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ مِنْ عَظِيم الْخُلُق الَّذِي شَهِدَ الله تَعَالَى لَهُ بِهِ، وَرِفْقه بِالْجَاهِلِ، وَرَأْفَته بِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَته عَلَيْهِمْ[(٤)].

وعن معاذ بن جبل وأبي بردة ﷺ قال لهما رسول الله ﷺ: لما بعثهما إلى اليمن: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا"[(٥)].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما؛ ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء

---

(١) تفسير السعدي (١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٤) شرح النووي (٣/ ٢٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣).

قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله"[١].

قال ابن حجر: قَوْله: (بَيْن أَمْرَيْنِ) أَيْ: مِنْ أُمُور الدُّنْيَا، يَدُلّ عَلَيْهِ قَوْله: (مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا)؛ لِأَنَّ أُمُور الدِّين لَا إِثْم فِيهَا، وَقَوْله: (مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا) أَيْ: مَا لَمْ يَكُنْ الْأَسْهَل مُقْتَضِيًا لِلْإِثْمِ؛ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَخْتَار الْأَشَدّ، وقَوْله: (وَمَا اِنْتَقَمَ لِنَفْسِهِ) أَيْ: خَاصَّة، فَلَا يَرِد أَمْره بِقَتْلِ عُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْط وَعَبْد الله بْن خَطَل وَغَيْرهمَا مِمَّنْ كَانَ يُؤْذِيه؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَنْتَهِكُونَ حُرُمَات الله، وَقِيلَ: أَرَادَتْ أَنَّهُ لَا يَنْتَقِم إِذَا أُوذِيَ فِي غَيْر السَّبَب الَّذِي يُخْرِج إِلَى الْكُفْر، كَمَا عَفَا عَنْ الْأَعْرَابِيّ الَّذِي جَفَا فِي رَفْع صَوْته عَلَيْهِ، وَعَنْ الْآخَر الَّذِي جَبَذَ بِرِدَائِهِ حَتَّى أَثَّرَ فِي كَتِفه[٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"[٣].

وقال النووي: فِيهِ اِحْتِمَال الْجَاهِلِينَ وَالْإِعْرَاض عَنْ مُقَابَلَتهمْ، وَدَفْع السَّيِّئَة بِالْحَسَنَةِ، وَإِعْطَاء مَنْ يُتَأَلَّف قَلْبُهُ، وَالْعَفْو عَنْ مُرْتَكِب كَبِيرَة لَا حَدّ فِيهَا بِجَهْلِهِ، وَإِبَاحَة الضَّحِك عِنْد الْأُمُور الَّتِي يُتَعَجَّب مِنْهَا فِي الْعَادَة، وَفِيهِ كَمَالُ خُلُق رَسُول الله ﷺ وَحِلْمه وَصَفْحه الْجَمِيل[٤].

فبذلك نكون قد بينا رحمة النبي ﷺ، وبينا أذية المشركين له ﷺ، وذكرنا عقوبات من آذاه ﷺ، وأنه ﷺ ما كان ينتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله ﷻ فينتقم لله.

وأما قولهم: إن المسيح ﵇ حصل معه إهانات، وإساءات كان يقابلها بالعفو والغفران فنحن قد بينا حلم النبي ﷺ، وعفوه لمن آذاه؛ طالما أن هذا الأذى بعيد عن حرمات الله ﷻ.

ولم يخلق من لدن آدم إلى قيام الساعة مَنْ هو أرحم من النبي ﷺ، ولا أحلم منه صلوات ربي وسلامه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٦٥/ ٦٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧).

(٤) شرح النووي (٤/ ١٥٩).

الوجه الرابع: المسيح ﷺ والمهتدون في الكتاب المقدس.

يقولون: المسيح ملعون، والناموس لعنة، وكل من لا يعمل بجميع الناموس فهو ملعون، لذلك فالجميع ملعونون: (اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ؛ إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: (مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ)) (رسالة بولس إلى أهل غلاطية٣/ ١٣).

(لأَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَعْمَالِ النَّامُوسِ هُمْ تَحْتَ لَعْنَةٍ؛ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: (مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ لاَ يَثْبُتُ فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهِ)) (رسالة بولس إلى أهل غلاطية٣/ ١٠).

(كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: (أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ، لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ، لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ الله، الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا، لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ)) (رسالة بولس إلى أهل رومية٣/ ١٢: ١٠).

ونجد أيضًا أن الكتاب المقدس به سب صريح لمن يريد أن يدعوهم للهداية: (أَيُّهَا الْغَلاَطِيُّونَ الأَغْبِيَاءُ. . .) (رسالة بولس إلى أهل غلاطية٣/ ١)

ونجد أيضًا أن المسيح يضع نفسه مع الله كهيكلٍ واحد للمدينة: (وَلَمْ أَرَ فِيهَا هَيْكَلًا، لأَنَّ الرَّبَّ الله الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ وَالْخَرُوفُ هَيْكَلُهَا) (رؤيا يوحنااللاهوتي١/ ٢٢).

(لأَنَّ الْخَرُوفَ الَّذِي فِي وَسَطِ الْعَرْشِ يَرْعَاهُمْ، وَيَقْتَادُهُمْ إِلَى يَنَابِيعِ مَاءٍ حَيَّةٍ، وَيَمْسَحُ الله كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ) (رؤيا يوحنا اللاهوتي٧/ ١٧).

(وَكُلُّ خَلِيقَةٍ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ وَتَحْتَ الأَرْضِ، وَمَا عَلَى الْبَحْرِ، كُلُّ مَا فِيهَا، سَمِعْتُهَا قَائِلَةً: (لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخَرُوفِ الْبَرَكَةُ وَالْكَرَامَةُ، وَالْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ)) (يوحنا اللاهوتي٥/ ١٣).

ثم من العجب إنكارهم وضع النبي محمد ﷺ بجوار رب العالمين في الآية، وهم في المقابل يقولون بأن عيسى هو الله، وقد حلّ الإله فيه، والتحم الناسوت باللاهوت، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (المائدة: ١١٦).

* * *

سورة ص

وفيها:

١- شبهة: قصة الخصم مع داود ﷺ.

٢- شبهة: فتنة سليمان ﷺ.

٣- شبهة: ملك سليمان.

٤- شبهة: أيوب ﷺ **في الآية:** ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ .

١ـ شبهة: قصة الخصم مع داود عليه السلام.

نص الشبهة:

اتهام نبي الله داود عليه السلام بالوقوع في الفاحشة.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: ذكر هذه الروايات وبيان ضعفها.

الوجه الثاني: تفسير الآيات، وبيان ضعف القصة التي تثبت أنه زنى وقتل.

الوجه الثالث: داود عليه السلام في القرآن والسنة.

الوجه الرابع: داود عليه السلام في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر هذه الروايات وبيان ضعفها.

١ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول ﷺ يقول: "إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمَّ أن يُجمع على بني إسرائيل وأوصى صاحب البعث، فقال: إذا حضر العدو فقرب فلانًا بين يدي التابوت، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به وبمن قدم بين يدي التابوت، فلم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة، ونزل الملكان يقصان عليه قصته، ففطن داود فسجد ومكث أربعين ليلة ساجدًا حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول في سجوده: «رب زل داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب، رب إن لم ترحم ضعف داود، ولم تغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثًا في الخلق من بعده، فجاءه جبريل من بعد أربعين ليلة فقال: يا داود إنه قد غفر لك الهم الذي هممت به، فقال داود: «إن الرب قادر على أن يغفر لي الهم الذي هممت به، وقد عرفت إن عدل لا يميل، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة، فقال: يا رب دمي الذي عند داود، فقال جبريل: ما سألت ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن، فقال: نعم، فعرج جبريل وسجد داود، فمكث ما شاء ثم نزل جبريل، فقال: سألت يا داود عن الذي أرسلتني فيه،

فقال: قل لداود إن يجمعكما يوم القيامة، فيقول له: هب لي دمك الذي عند داود، فيقول: هو لك يا رب، فيقول: إن لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضًا عنه"(١).

٢ـ عن الأحنف بن قيس: «أن داود حدث نفسه إن ابتُلي أن يعتصم فقيل له: إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك فقيل له: هذا اليوم الذي تبتلى فيه فأخذ الزبور فوضعه في حجره، وأغلق باب المحراب، وأقعد منصفًا على الباب، وقال: «لا تأذن لأحد علي اليوم» فبينما هو يقرأ الزبور؛ إذ جاء طائر مذهّب كأحسن ما يكون الطير، فيه من كل لون، فجعل يدرج بين يديه، فدنا منه، فأمكن أن يأخذه، فتناوله بيده ليأخذه فاستوفزه من خلفه، فأطبق الزبور وقام إليه ليأخذه، فطار فوقع على كوة من المحراب فدنا منه أيضًا ليأخذه، فوقع على حصن فأشرف عليه لينظر أين وقع؟ فإذا هو بالمرأة عند بركتها تغتسل من المحيض فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت جسدها بشعرها فقال داود للمنصف: «اذهب فقل لفلانة تجيء» فأتاها فقال: إن نبي الله يدعوك فقالت: مالي ولنبي الله إن كانت له حاجة فليأتني أما أنا فلا آتيه، فأتاه المنصف فأخبره بقولها، فأتاها وأغلقت الباب دونه فقالت: مالك يا داود! أما تعلم أنه من فعل هذا رجمتموها ووعظته فرجع، وكان زوجها غازيًا في سبيل فكتب داود ﷺ إلى أمير المغزي انظر أوريا فاجعله في حملة التابوت، فقتل فلما انقضت عدتها خطبها فاشترطت

---

(١) **إسناده ضعيف جدًّا.** أخرجها ابن جرير في « تفسيره»٢٣/ ١٥٠، ١٥١، وفي «تاريخه» ١/ ٢٨٥، ومن طريقه الثعالبي في «الكشف والبيان» ١١/ ٣٧٣، ومن طريقه البغوي في « تفسيره» ٤/ ٥٥، ٥٦ عن يونس بن عبد الأعلى الصيرفي، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن أبي صخر، عن يزيد الرقاشي به.

وفيه: يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف. قال ابن كثير: «روى ابن أبي حاتم حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ﷺ ويزيد وإن كان من الصالحين؛ لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى ﷻ؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا» تفسيره١٢/ ٨٢.

وفيه أيضًا أبو صخر: وهو حميد بن زياد، أبى المخارق المدني. قال أحمد: ليس به بأس؛ الجامع في العلل ٢/ ٩٨. وقال الذهبي: مختلف فيه؛ الكاشف ١/ ٢٥٦. وقال ابن حجر: صدوق يهم؛ التقريب ١/ ١٤١. قال القرطبي: «ذكره الماوردي وغيره، ولا يصح. قال ابن العربي: «وهو أمثل ما روي في ذلك» تفسيره ١٥/ ١٦٠. وقال السيوطي: «سند ضعيف» الدر المنثور ٧/ ١٥٦و١٥٧، وذكرها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٢٣٩، ٣٢٤٠ بدون إسناد.

عليه إن ولدت غلامًا أن يجعله الخليفة من بعده، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل وكتبت عليه بذلك كتابًا، فما شعر بفتنته أنه فتن حتى ولدت سليمان وشب، فتسور المكان عليه المحراب فكان من شأنهما ما قص، وخر داود ساجدًا، فغفر له وأناب وتاب عليه فطلقها وجفا سليمان وأبعده، فبينما هو في مسير له وهو في ناحية القوم إذ أتى على غلمان له يلعبون فجعلوا يقولون: يا لا دين يا لادين، فوقف داود فقال: « ما شأن هذا يسمى لادين» فقال سليمان وهو في ناحية القوم: «أما أنه لو سألني عن هذه لأخبرته بأمره» فقيل لداود: إن سليمان قال كذا وكذا فدعاه وقال: «ما شأن هذا الغلام سمي لادين»؟ فقال: «سأعلم لك علم ذلك» فسأل سليمان عن أبيه: كيف كان أمره؟ فقيل: إن أباه كان في سفر له مع أصحاب له وكان كثير المال، فأرادوا قتله، فأوصاهم فقال: إني تركت امرأتي حبلى فإن ولدت غلامًا فقولوا لها تسميه لادين، فبعث سليمان إلى أصحابه فجاؤا فخلا بأحدهم فلم يزل حتى أقر وخلا بالآخرين فلم يزل بهم حتى أقروا كلهم، فرفعهم إلى داود فقتلهم فعطف عليه بعض العطف.

وكانت امرأة عابدة من بني إسرائيل وكانت تبتلت، وكانت لها جاريتان جميلتان، وقد تبتلت المرأة لا تريد الرجال، فقالت إحدى الجاريتين للأخرى: قد طال علينا هذا البلاء أما هذه فلا تريد الرجال ولا نزال بشر ما كنا لها، فلو أنا فضحناها فرجمت فصرنا إلى الرجال، فأخذتا ماء البيض، فأتتاها وهي ساجدة فكشفتا عنها ثوبها ونضحتا في دبرها ماء البيض، وصرختا إنها قد بغت، وكان من زنا منهم حده الرجم، فرفعت إلى داود ﷺ وماء البيض في ثيابها فأراد رجمها فقال سليمان: «أما أنه لو سألني لأنبأته» فقيل لداود: إن سليمان قال كذا وكذا فدعاه فقال: « ما شأن هذه ما أمرها فقال ائتوني بنار؛ فإنه إن كان ماء الرجال تفرق وإن كان ماء البيض اجتمع، فأتي بنار فوضعها عليه فاجتمع، فدرأ عنها الرجم، وعطف عليه بعض العطف وأحبه.

ثم كان بعد ذلك أصحاب الحرث وأصحاب الشياه فقضى داود ﷺ لأصحاب الحرث بالغنم فخرجوا وخرجت الرعاء معهم الكلاب فقال سليمان: « كيف قضى بينكم»؟ فأخبروه فقال: « لو وُليت أمرهم لقضيت بينهم بغير هذا القضاء» فقيل لداود: إن سليمان يقول كذا وكذا، فدعاه فقال: «كيف تقضي»؟ فقال: «ادفع الغنم إلى أصحاب الحرث هذا العام فيكون

لهم أولادها وسلاها وألبانها ومنافعها ويبذر هؤلاء مثل حرثهم فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذ هؤلاء الحرث ودفع هؤلاء إلى هؤلاء الغنم، قال: فعطف عليه.

قال حماد: وسمعت ثابتًا يقول: هو أوريا(١).

٣ـ عن ليث عن مجاهد قال: «لما أصاب داود الخطيئة خر لله ساجدًا أربعين يومًا حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ثم نادى: «رب قرح الجبين، وجمدت العين، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء فنودي: أجائع فتطعم؟ أم مريض فتشفى؟ أم مظلوم فينتصر لك؟ قال: فنحب نحبة هاج كل شيء كان نبت، فعند ذلك غفر له، وكانت خطيئته مكتوبة بكفه يقرؤها، وكان يؤتى بالإناء ليشرب فلا يشرب إلا ثلثه أو نصفه، وكان يذكر خطيئته فينحب النحبة تكاد مفاصله تزول بعضها من بعض، ثم ما يتم شرابه حتى يملأه من دموعه، وكان يقال: إن دمعة داود تعدل دمعة الخلائق ودمعة آدم تعدل دمعة داود ودمعة الخلائق قال: فهو يجيء يوم القيامة خطيئته مكتوبة بكفه فيقول: « رب ذنبي ذنبي قدمني» قال: فيقدم فلا يأمن فيقول: « رب أخرني فيؤخر فلا يأمن»(٢).

٤ـ عن ابن عباس قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ قال إن داود قال: «يا رب قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لوددت أنك أعطيتني مثله قال: «إني ابتليتهم بما لم أبتلك به، فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به، وأعطيتك ما أعطيتهم» قال: «نعم» قال له: «فاعمل حتى أرى بلاءك، فكان ما شاء أن يكون، وطال ذلك عليه فكاد أن

(١) منكر. أخرجه ابن أبي شيبه في «المصنف» (٧/ ٤٦٥، ٤٦٦) قال: حدثنا عفان قال: ثنا حماد بن سلمة قال: ثنا علي بن زيد به قلت: إسناده ضعيف.

وفيه: علي بن زيد بن جدعان، قال الدارقطني: لا يزال عندي فيه لين. العلل٥/ ٣٤٦، وقال الذهبي: أحد الحفاظ، و ليس بالثبت. الكاشف ٢/ ٢٨٥، وقال ابن حجر: ضعيف. التقريب ١/ ٤١٣.

(٢) ضعيف، ومتنه منكر. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٦٥، وابن جرير في «تفسيره» ٢٣/ ١٥٠ و«تاريخه»١/ ٢٨٤و٢٨٥ وهناد بن السري في «الزهد »١/ ٢٦٢ من طرق عن الليث به.

والليث: هو ابن أبي سليم، قال الذهبي: فيه ضعف يسير من سوء حفظه، وبعضهم احتج به. الكاشف٣/ ١٤.

وقال الحافظ: صدوق اختلط جدًا، ولم يتميز حديثه فترك. التقريب ٢/ ٤٩٧، وأخرجه ابن المنذر كما في« الدر» للسيوطي ٧/ ١٥٧.

ينساه، فبينا هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة من ذهب، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فطارت، فاطلع من الكوة فرأى امرأة تغتسل؛ فنزل نبي ﷺ من المحراب فأرسل إليها، فجاءته، فسألها عن زوجها وعن شأنها، فأخبرته أن زوجها غائب، فكتب إلى أمير تلك السرية أن يؤمره على السرايا ليهلك زوجها، ففعل، فكان يصاب أصحابه وينجو وربما نصروا، وإن ﷻ لما رأى الذي وقع فيه داود أراد أن يستنقذه فبينما داود ذات يوم في محرابه إذ تسور عليه الخصمان من قبل وجهه، فلما رآهما وهو يقرأ فزع وسكت، وقال: لقد استضفت في ملكي حتى إن الناس يتسورون علي محرابي! قالا له: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، ولم يكن لنا بد من أن نأتيك فاسمع منا، قال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ أنثى ﴿وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ يريد أن يتمم بها مئة، ويتركني ليس لي شيء ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾ قال: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطشت وبطش كان أشد مني، فذلك قوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾ قال له داود: أنت كنت أحوج إلى نعجتك منه ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾ ونسي نفسه ﷺ، فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال ذلك فتبسم أحدهما إلى الآخر فرآه داود وظن أنما فتن ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أربعين ليلة حتى نبت الخضرة من دموع عينيه ثم شدد له ملكه»[1].

٥ـ عن أسباط عن السدي في قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ قال: كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه لعبادة ربه، ويوم يخلو فيه لنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يُقرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فضل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فلما وجد ذلك فيما يُقرأ من الكتب قال: يا رب، إن الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي فأعطني مثل ما أعطيتهم، وافعل بي مثل ما فعلت بهم، قال: فأوحى إليه: إن آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتلَ بها، ابتُلي إبراهيم بذبح

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا.** قال ابن جرير تفسيره ٢٣/ ١٤٦، ١٤٧: «حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه. وسنده مسلسل بالمجاهيل والضعفاء كما تقدم.

ابنه، وابتلي إسحاق بذهاب بصره، وابتلي يعقوب بحزنه على يوسف، وإنك لم تبتل من ذلك بشيء، قال: يا رب، ابتلني بمثل ما ابتليتهم به، وأعطني مثل ما أعطيتهم، قال: فأوحي إليه: إنك مبتلى فاحترس، قال: فمكث بعد ذلك ما شاء أن يمكث إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلي فمد يده ليأخذه فتنحى، فتبعه فتباعد، حتى وقع في كوة، فذهب ليأخذه فطار من الكوة فنظر أين يطير فيبعث في أثره قال: فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها فرأى امرأة من أجمل الناس خلقًا، فحانت منها التفاتة فأبصرته فألقت شعرها فاستترت به قال: فزاده ذلك فيها رغبة قال: فسأل عنها فأخبر أن لها زوجًا، وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا قال: فبعث إلى صاحب المسلحة أن يبعث أوريا إلى عدو كذا وكذا، قال: فبعثه ففتح له، قال: وكتب إليه بذلك، قال: فكتب إليه أيضًا: أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا؛ أشد منهم بأسًا، قال: فبعثه ففتح له أيضا قال: فكتب إلى داود بذلك قال: فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، فبعثه فقتل المرة الثالثة، قال: وتزوج امرأته، قال: فلما دخلت عليه قال: لم تلبث عنده إلا يسيرًا حتى بعث ملكين في صورة إنسيين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس أن يدخلا، فتسوروا عليه المحراب، قال: فما شعر وهو يصلي إذ هو بهما بين يديه جالسين، قال: ففزع منهما فقالا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إنما نحن ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ يقول: لا تخف، ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ إلى عدل القضاء، قال: فقال: قصا عليّ قصتكما، فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فهو يريد أن يأخذ نعجتي فيكمل بها نعاجه مائةً، قال: فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعًا وتسعين نعجة، ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل بها نعاجي مائة، قال: وهو كاره؟ قال: وهو كاره، قال إذن لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك أو تريد ضربنا منك هذا وهذا وهذا. وفسر أسباط طرف الأنف وأصل الأنف والجبهة، قال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون نعجة (امرأة)، ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل

به تعرضه للقتل حتى قتلته، وتزوجت امرأته، قال: فنظر فلم يرَ شيئًا فعرف ما قد وقع فيه، وما قد ابتلي به، قال: فخر ساجدًا، قال: فبكى، قال: فمكث يبكي ساجدًا أربعين يومًا لا يرفع رأسه إلا لحاجة منها، ثم يقع ساجدًا يبكي، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه، قال: فأوحى إليه بعد أربعين يومًا: يا داود، ارفع رأسك فقد غفرت لك، فقال: يا رب كيف أعلم أنك قد غفرت لي وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء إذا جاءك أوريا يوم القيامة آخذا رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دمًا في قبل عرشك يقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ قال: فأوحى إليه: إذا كان ذلك دعوت أهريا فاستوهبك منه فيهبك لي فأثيبه بذلك الجنة قال: رب الآن علمت أنك قد غفرت لي» قال: فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياءً من ربه حتى قُبض ﷺ»(١).

٦ـ عن الحسن: «أن داود جزَّأ الدهر أربعة أجزاء: يومًا لنسائه، ويومًا لعبادته، ويومًا لقضاء بني إسرائيل، ويومًا لبني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه، فلما كان يوم بني إسرائيل قال: ذاكروا فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبًا؟ فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك، فلما كان يوم عبادته أغلق أبوابه، وأمر أن لا يدخل عليه أحد، وأكب على التوراة، فبينما هو يقرؤها فإذا حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، قد وقعت بين يديه فأهوى إليها ليأخذها، قال: فطارت فوقعت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها، قال: فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خلقها وحسنها، قال: فلما رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها، فزاده ذلك أيضا إعجابًا بها، وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه، فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا، مكان إذا سار

---

(١) **إسناده ضعيف**. من طريق السدي، وهو مرسل من مراسيله، ومراسيله واهية، وقد أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٣/ ١٤٧، وفي تاريخه ١/ ٢٨٣، والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٩٥ من طريق أسباط عن السدي.

وفيه: ١ـ السدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن. سئل أبو زرعة عن إسماعيل السدي فقال: لين. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ١٨٥. قال الذهبي: حسن الحديث. . قال أبو حاتم: لا يحتج به. . الكاشف ١/ ١٢٥. وقال ابن حجر: صدوق يهم، و رمى بالتشيع. التقريب ١/ ٥٢.

٢ـ أسباط: هوا بن نصر الهمداني. قال ابن حجر: صدوق، كثير الخطأ، يغرب. التقريب١/ ٤٠.

إليه لم يرجع، قال: ففعل فأصيب فخطبها فزوجها - قال: وقال قتادة: بلغنا أنها أم سليمان- قال: فبينما هو في المحراب إذ تسور الملكان عليه، وكان الخصمان إذا أتوه يأتونه من باب المحراب، ففزع منهم حين تسوروا المحراب، فقالوا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حتى بلغ: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تمل، ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي: أعدله وخيره، ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ -وكان لداود تسع وتسعون إمرأة- ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ - قال: وإنما كان للرجل امرأة واحدة- ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: ظلمني وقهرني، فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ﴾ فعلم داود أنما صمد له؛ أي: عني به ذلك، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، قال: وكان في حديث مطر أنه سجد أربعين ليلة، حتى أوحى إليه: إني قد غفرت لك، قال: رب وكيف تغفر لي وأنت حكم عدل لا تظلم أحدًا؟ قال: إني أقضيك له، ثم أستوهبه دمك أو ذنبك، ثم أثيبه حتى يرضى، قال: الآن طابت نفسي وعلمت أنك قد غفرت لي»[1].

٨ـ قال الحاكم: أخبرنا إسماعيل بن محمد الفقيه بالري، ثنا أبو حاتم محمد بن إدريس، أنبأ سليمان بن داود الهاشمي، ثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن موسى بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس - رضي عنهما- قال: « ما أصاب داود ما أصابه بعد القدر إلا من عجبٍ عجب به من نفسه، وذلك أنه قال: يا رب ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك يصلي لك، أو يسبح، أو يكبر وذكر أشياء، فكره ذلك، فقال: «يا داود

(١) أخرجها ابن جرير في تفسيره ٢٣/ ١٤٧، ١٤٨، وتاريخه ١/ ٢٨٣. والثعالبي في تفسيره ١١/ ٣٦٦ من طريق سعيد عن مطر به.

وفيه: ١- مطر الوراق: صدوق كثير الخطأ؛ قاله الحافظ في التقريب ٢/ ٥٨٧.

٢- سعيد: هو ابن أبي عروبة؛ قال الذهبي: قال أبو حاتم: هو قبل أن يختلط ثقة؛ الكاشف ١/ ٣٦٨. وقال الحافظ: كثير التدليس، و اختلط؛ التقريب١/ ٢١٠، وأخرجه عبد الرزاق (في تفسيره٣/ ١١٤) عن معمر، عن عمرو بن عبيد به. وإسناده ضعيف جدًّا. عمرو متروك الحديث. وأخرجه ابن المبارك (في الزهد ٤٧٢) عن جرير بن حازم به، وجرير قال عنه الذهبي: ثقة، لما اختلط حجبه ولده؛ الكاشف ١/ ١٨١.

وقال الحافظ: له أوهام إذا حدث مِنْ حفظه؛ التقريب ١/ ٨٧.

إن ذلك لم يكن إلا بي فلولا عوني ما قويت عليه، وجلالي لأكلنك إلى نفسك يومًا، قال: «يا رب فأخبرني به»، فأصابته الفتنة ذلك اليوم»[1].

٩ـ عن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه اليماني قال: لما اجتمعت بنو إسرائيل على داود أنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد فألانه له، وأمر الجبال والطير أن يسبحن معه إذا سبح، ولم يعط فيما يذكرون أحدًا من خلقه مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور فيما يذكرون تدنو له الوحوش حتى يأخذ بأعناقها، وإنها لمصيخة تسمع لصوته، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته، وكان شديد الاجتهاد دائب العبادة، فأقام في بني إسرائيل يحكم فيهم بأمر مستخلفًا، وكان شديد الاجتهاد من الأنبياء كثير البكاء، ثم عرض من فتنة تلك المرأة ما عرض له، وكان له محراب يتوحد فيه لتلاوة الزبور ولصلاته إذا صلى، وكان أسفل منه جنينة لرجل من بني إسرائيل، كان عند ذلك الرجل المرأة التي أصاب داود فيها ما أصابه»[2].

---

(١) **اسناده ضعيف.** المستدرك ٢/ ٤٣٣، ومن طريقة البيهقي في شعب الايمان٥/ ٤٥٣.

وفيه: ١- موسى بن عقبة، أبو محمد المدنى. وصفه الدارقطني بالتدليس أشار إلى ذلك الاسماعيلي.

٢- عبد الرحمن بن أبى الزناد. قال الذهبي: قال أبو حاتم و غيره: لا يحتج به؛ الكاشف ١/ ١٦٤. وقال ابن حجر: صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد، و كان فقيهًا؛ التقريب ١/ ٣٣٥. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وقال شيخ الاسلام: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي " كُتُبِ التَّفْسِيرِ " مِنْ النَّقْلِ عَنْ ابْنِ أبي الزناد شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ وَغَيْرِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَصْحِيحِ النَّقْلِ لِتَقُومَ الْحُجَّةُ؛ فَلْيُرَاجَعْ " كُتُبُ التَّفْسِيرِ " الَّتِي يُحَرَّرُ فِيهَا النَّقْلُ مِثْلُ: تَفْسِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطبري الَّذِي يَنْقُلُ فِيهِ كَلَامَ السَّلَفِ بِالْإِسْنَادِ، وَلْيُعْرَضْ عَنْ تَفْسِيرِ مُقَاتِلٍ وَالْكَلْبِيِّ، وَقَبْلَهُ تَفْسِيرُ بقي بْنِ مخلد الْأَنْدَلُسِيِّ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إبْرَاهِيمَ دحيم الشَّامِيِّ، وَعَبْدِ بْنِ حميد الكشي وَغَيْرِهِمْ، إنْ لَمْ يَصْعَدْ إلَى تَفْسِيرِ الْإِمَامِ إسْحَاقَ بْنِ راهويه، وَتَفْسِيرِ الْإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالتَّفَاسِيرِ الصَّحِيحَةِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، كَمَا هُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعُلُومِ. مجموع الفتاوي٢/ ٥٢.

(٢) **إسناده ضعيف.** أخرجه ابن جرير (في تفسيره ٢٣/ ١٤٩، ١٥٠) حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثني محمد بن إسحاق به. الراوي عن وهب بن منبه مجهول، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن.

١٠- حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه: أن داود حين دخل محرابه ذلك اليوم قال: لا يدخلن علي محرابي اليوم أحد حتى الليل، ولا يشغلني شيء عما خلوت له، حتى أمسي، ودخل محرابه ونشر زبوره يقرؤه، وفي المحراب كوة تطلعه على تلك الجنينة، فبينا هو جالس يقرأ زبوره إذ أقبلت حمامة من ذهب حتى وقعت في الكوة، فرفع رأسه فرآها فأعجبته، ثم ذكر ما كان، قال: لا يشغله شيء عما دخل له فنكس رأسه، وأقبل على زبوره، فتصوبت الحمامة للبلاء والاختبار من الكوه، فوقعت بين يديه فتناولها بيده، فاستأخرت غير بعيد فاتبعها فنهضت إلى الكوة، فتناولها في الكوة فتصوبت إلى الجنينة، فأتبعها بصره أين تقع؟ فإذا المرأة جالسة تغتسل بهيئة أعلم بها في الجمال والحسن والخلق، فيزعمون أنها لما وأته نقضت رأسها فوارت به جسدها منه، واختطفت قلبه ورجع إلى زبوره ومجلسه، وهي من شأنه لا يفارق قلبه ذكرها، وتمادى به البلاء حتى أغزى زوجها، ثم أمر صاحب جيشه فيما يزعم أهل الكتاب أن يقدم زوجها للمهالك، حتى أصابه بعض ما أراد به من الهلاك ولداود تسع وتسعون إمرأة، فلما أصيب زوجها خطبها داود فنكحها، فبعث إليه وهو في محرابه ملكين يختصمان إليه مثلًا يضربه له ولصاحبه، فلم يَرُعْ داود إلا بهما واقفين على رأسه في محرابه، فقال: ما أدخلكما عليّ؟ قالا: لا تخف، لم ندخل لبأس ولا لريبة، ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾، فجئناك لتقضي بيننا ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: احملنا على الحق ولا تخالف بنا إلى غيره، قال الملك الذي يتكلم عن أوريا بن حنانيا زوج المرأة: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ أي: على ديني ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: احملني عليها ثم ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: قهرني في الخطاب وكان أقوى مني هو وأعز؛ فحاز نعجتي إلى نعاجه وتركني لا شيء لي فغضب داود فنظر إلى خصمه الذي لم يتكلم فقال: لئن كان صدقني ما يقول لأضربن بين عينيك بالفأس، ثم ارعوى داود فعرف أنه هو الذي يراد بما صنع في امرأة أوريا، فوقع ساجدًا تائبًا منيبًا باكيًا فسجد أربعين صباحًا صائمًا لا يأكل فيها ولا يشرب حتى أنبت دمعه الخضر تحت وجهه وحتى أندب السجود في لحم

وجهه، فتاب عليه وقبل منه، ويزعمون أنه قال: أي رب هذا غفرت ما جنيت في شأن المرأة، فكيف بدم القتيل المظلوم؟ قيل: يا داود - فيما زعم أهل الكتاب- إن ربك لم يظلمه بدمه ولكنه سيسأله فيعطيه فيضعه عنك فلما فرج عن داود ما كان فيه رسم خطيئته في كفه اليمنى بطن راحته فما رفع إلى فيه طعاما ولا شرابا قط إلا بكى إذا رآها، وما قام خطيبًا في الناس قط إلا نشر راحته فاستقبل بها الناس ليروا رسم خطيئته في يده» .[1]

الوجه الثاني: تفسير الآيات.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (ص: ٢١- ٢٦).

قال كثير من المفسرين إن الخصم كانوا ملكين وفزع منهم لدخولهما عليه من غير الباب الذي كان المدخل عليه، وقيل لأنهما دخلا ليلًا في غير وقت نظره بين الناس[2].

وحديث أنس هذا أخرجه الطبري أن النبي ﷺ قال: "**إِنَّ دَاوُدَ النَّبِيّ ﷺ حِينَ نَظَرَ إِلَى المَرْأَةِ فَأَهَمَّ قَطَعَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَوْصَى صَاحِبَ البَعْثِ، فَقَالَ: إِذَا حَضَرَ العَدُوُّ، فَقَرِّبْ فُلَانًا بَيْنَ**

---

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٣/ ١٥١، ١٥٠.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق به. الراوي عن وهب بن منبه مجهول، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن وابن حميد ضعيف.

وقال شيخ الإسلام: «وَهَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ " كُتُبَ التَّفْسِيرِ " فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ التَّفْسِيرِ مَنْقُولَاتٌ عَنْ السَّلَفِ مَكْذُوبَةٌ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلٌ عَلَى وَرَسُولِهِ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ». مجموع الفتاوي٢/ ٥٢. وانظر: بحث (الإسرائيليات في التفسير) لمعرفة مدى الحكم على هذه الروايات.

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٤١).

يَدَيِ التَّابُوتِ، وَكَانَ التَّابُوتُ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ يُسْتَنْصَرُ بِهِ، وَمَنْ قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ التَّابُوتِ لَمْ يَرْجِعْ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُهْزَمَ عَنْهُ الجَيْشُ، فَقُتِلَ زَوْجُ المَرْأَةِ، وَنزلَ المَلَكَانِ عَلى دَاوُدَ يَقُصَّانِ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ، فَفَطِنَ دَاوُدُ فَسَجَدَ، فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً سَاجِدًا حَتَّى نَبَتَ الزَّرْعُ مِنْ دُمُوعِهِ. . . "[1].

وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى؛ لأن الأنبياء منزَّهون، وهم لا يأتون المعاصي مع العلم[2].

وقال في البحر المحيط: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء ضربنا عن ذكرها صفحًا[3].

وقال البقاعي: تلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام من ذريته ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه[4].

وقال ابن عاشور: واعلم أن سوق هذا النبأ عقب التنويه بداود عليه السلام ليس إلا تتميمًا للتنويه به لدفع مَا قد يُتوهم أنه ينقض ما ذكر من فضائله مما جاء في كتاب «صمويل الثاني» من كتب اليهود في ذكر هذه القصة من أغلاط باطلة تنافي مقام النبوءة فأريد بيان المقدار الصادق منها وتذييله بأن ما صدر عن داود عليه السلام يستوجب العتاب ولا يقتضي العقاب ولذلك ختمت بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠﴾ (ص: ٤٠)[5].

وقال السعدي: وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها[6].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٠)، وقد سبق الحكم عليه

(٢) زاد المسير (٧/ ١١٥)، راجع بحث عصمة الأنبياء.

(٣) البحر المحيط (٧/ ٣٧٥).

(٤) تفسير البقاعي (٦/ ٣٧٦).

(٥) تفسير ابن عاشور (٢٣/ ٢٣٧).

(٦) تفسير السعدي (٧١٢).

وقال الشنقيطي: واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة مما لا يليق بمنصب داود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معوّل عليه[١].

قال الرازي: وأقول للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال أحدها: ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه. وثانيها: دلالتها على الصغيرة. وثالثها: بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة.

فأما القول الأول: فحاصل كلامهم فيها أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبًا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة[٢].

والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورًا لاستنكف منها، والرجل الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه؟

الثاني: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته؛ أما الأول: فأمر منكر، قال ﷺ: "من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبًا بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله"[٣].

وأما الثاني: فمنكر عظيم قال ﷺ: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٤]، وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه.

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٤).

(٢) وقد نسب مثل هذا الكلام الكتابُ المقدسُ لنبي الله داود كما ستعرف في الوجه الأخير.

(٣) **ضعيف**. أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠)، الضعفاء للعقيلي (٤/ ١٤٩٠)، البيهقي في الكبرى (٨/ ٢٢)، وضعّف الحديث: أبو حاتم وأحمد وابن حبان، وغيرهم، انظر الضعيفة للألباني (٥٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (١١، ١٠)، مسلم (٤٢، ٤١، ٤٠).

والثالث: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة، ووصفه أيضًا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفًا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة في البيان.

فنقول أما **الصفات الأولى**: فهي أنه تعالى أمر محمدًا ﷺ بأن يقتدي بداود في المصابرة مع المكابدة، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم امرىء مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدًا أفضل الرسل بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله.

وأما الصفة الثانية: فهي أن وصفه بكونه عبدًا له، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملًا في موقف العبودية تامًا في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة، فحينئذٍ ما كان داود كاملًا في عبوديته لله تعالى بل كان كاملًا في طاعة الهوى والشهوة.

الصفة الثالثة: هو قوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ (ص: ١٧) أي: ذا القوة، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين، لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار، ولا معنى للقوة في الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات، والاجتناب عن المحظورات، وأي قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة في زوجة المسلم؟

الصفة الرابعة: كونه أوابًا كثير الرجوع إلى الله تعالى، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفًا بالقتل والفجور؟

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ (ص: ١٨) أَفَتُرَى أنه سُخرت له الجبال ليتخذها وسيلة إلى القتل والفجور؟!

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ (ص: ١٩)، وقيل إنه كان مُحرمًا عليه صيد شيء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمنًا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه؟

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا، بل المراد أنه تعالى شد ملكه بما يقوي الدين وأسباب سعادة الآخرة، والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك؟.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص: ٢٠) والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علمًا وعملًا، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب.

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشر:

الأولى: قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لائقًا به.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه: أحدها: أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه: أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيابتي، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر.

الثالثة: وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود ﷺ وتعظيمه ومؤخرتها أيضًا دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال: فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب.

والرابعة: وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود ﷺ تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في

النار، وحصل للذبيح من الذبح، وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب، فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء، فأوحى الله إليه أنك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثم وقعت الواقعة.

فنقول: أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة، ويثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها.

الخامسة: أن داود عليه السلام قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا إنه كان موصوفًا بالبغي لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل.

السادسة: حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك، وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك، فقلت له: لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل، ولقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤) ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ الطعن فيه، وأيضًا فبتقدير أنه ما كان نبيًا فلا شك أنه كان مسلمًا، ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول: إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقية صحيحة فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئًا من الثواب؛ لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه، وأن شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت، ولم يذكر شيئًا.

السابعة: أن ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرمًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (النور: ١٩).

الثامنة: لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أما الاحتمال الثاني -على تقدير حدوثه -: وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة، فنقول في كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه: الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه.

الثاني: قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له في هذا ذنب ألبتة، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضًا ذنبًا لأن هذا الميل ليس في وسعه، فلا يكون مكلفًا به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذيًا عظيمًا بسبب قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل.

والثالث: أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضًا أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معروفة، أو أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى، فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان، فقيل له: هذا وإن كان جائزًا في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى.

فأما جعله نائبًا وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق، وثانيها: أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللًا بذلك الوصف، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة، ثم قال بعده: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة؛ ومعلوم أن هذا فاسد، أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذٍ يناسب أن يذكر عقيبه ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (ص: ٢٦) فثبت أن هذا الذي نختاره أولى.

والثالث: وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود ﷺ وتعظيمه ومؤخرتها أيضًا دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب[1].

الوجه الثالث: فضل داود ﷺ في القرآن والسنة.

أولًا: في القرآن: قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ...﴾ (البقرة: ٢٥١)، وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنعام: ٨٤)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (الإسراء: ٥٥).

وقال عز من قائل: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٧٩- ٨٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل: ١٥)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (سبأ ١١: ١٠)، وقال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص: ١٧- ٢٠)، وقال سبحانه في آخر الآيات: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٥- ٢٦).

---

(١) تفسير الرازي (٢٦/ ١٩٣: ١٨٩) بتصرف.

وقد قال ابن كثير رحمه الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها، فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم.

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة(١).

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود - صلوات الله وسلامه عليه- مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال: "لقد أوتي هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود"(٢)(٣).

فضل داود عليه السلام في السنة.

١- عن عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهُ: **"أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى الله صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السلام، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا"**(٤).

٢- وعن عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: "يَا عَبْدَ الله، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ. فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً،

---

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٧٩٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧١٢).

(٤) أخرجه البخاري (١١٣١).

قَالَ: فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ الله دَاوُدَ ﷺ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ. قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ الله دَاوُدَ ﷺ؟ قَالَ: نِصْفَ الدَّهْرِ. فَكَانَ عَبْدُ الله يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ"(١).

٣- عَنْ الْمِقْدَامِ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: "**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**"(٢).

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ ﷺ الْقُرْآنُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"(٣).

وقال ابن حجر: وَفِي الْحَدِيث فَضْل الْعَمَل بِالْيَدِ، وَتَقْدِيم مَا يُبَاشِرهُ الشَّخْص بِنَفْسِهِ عَلَى مَا يُبَاشِرهُ بِغَيْرِهِ، وَالْحِكْمَةُ فِي تَخْصِيصِ دَاوُد بِالذِّكْرِ أَنَّ اِقْتِصَاره فِي أَكْلِهِ عَلَى مَا يَعْمَلُهُ بِيَدِهِ لَمْ يَكُنْ مِنْ الْحَاجَة؛ لِأَنَّهُ كَانَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى، وَإِنَّمَا اِبْتَغَى الْأَكْلَ مِنْ طَرِيقِ الْأَفْضَلِ، وَلِهَذَا أَوْرَدَ النَّبِيُّ ﷺ قِصَّتَهُ فِي مَقَام الِاحْتِجَاج بِهَا عَلَى مَا قَدَّمَهُ مِنْ أَنَّ خَيْرَ الْكَسْبِ عَمَلُ الْيَدِ، وَهَذَا بَعْدَ تَقْرِيرِ أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا وَرَدَ فِي شَرْعِنَا مَدْحُهُ وَتَحْسِينُهُ مَعَ عُمُوم قَوْله تَعَالَى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(٤).

الوجه الرابع: داود وسليمان في التوراة والإنجيل.

داود يزني ويقتل، وينجب من الزنا.

جاء في سفر صموئيل الثاني (١١/ ١٧: ٢): وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. ٣ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ». ٤ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥ وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». ٦ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: «أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ». فَأَرْسَلَ

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٥)، مسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٧).

(٤) فتح الباري (٤/ ٣٥٨).

يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. ٧ فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. ٨ وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ». فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ. ٩ وَنَامَ أُورِيَّا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ جَمِيعِ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْتِهِ. ١٠ فَأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ: «لَمْ يَنْزِلْ أُورِيَّا إِلَى بَيْتِهِ». فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّفَرِ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ؟ » ١١ فَقَالَ أُورِيَّا لِدَاوُدَ: «إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ، وَسَيِّدِي يُوآبُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّحْرَاءِ، وَأَنَا آتِي إِلَى بَيْتِي لآكُلَ وَأَشْرَبَ وَأَضْطَجِعَ مَعَ امْرَأَتِي؟ وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ، لاَ أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ». ١٢ فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَقِمْ هُنَا الْيَوْمَ أَيْضًا، وَغَدًا أُطْلِقُكَ». فَأَقَامَ أُورِيَّا فِي أُورُشَلِيمَ ذلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. ١٣ وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ. وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. ١٥ وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ». ١٦ وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. ١٧ فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوآبَ، فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عَبِيدِ دَاوُدَ، وَمَاتَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا.

وفي صموئيل الثاني (١٢/ ١١: ٩): لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ. ١٠ وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ لَكَ امْرَأَةً. ١١ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجِعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ.

*   *   *   *

٢ـ شبهة: فتنة سليمان عليه السلام.

نص الشبهة:

ما قولكم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ (ص: ٣٤).

و الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة الإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: أقوال المفسرين في معنى الآيات.

الوجه الرابع: بيان مكانة سليمان عليه السلام في الكتاب والسنة، وفي الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا ينبغي أن يحتج بما هو محرف و مبدل.

فالتوراة و الإنجيل لا يحتويان على كلام الله، فلا يجوز الاحتجاج بهما.

الوجه الثاني: لا يجوز للإنسان أن يحتج بما لا يعتقده.

أنتم لا تعتقدون ثبوت القرآن، فكيف تحتجون به؟ (١)

الوجه الثالث: أقوال المفسرين في معنى الآيات.

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾ (ص: ٣٠- ٣٣).

وقوله: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ (٣١) ﴾ يقول تعالى ذكره: إنه تواب إلى الله من خطيئته التي أخطأها إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد، والصافنات: جمع الصافن من الخيل، والأنثى: صافنة، والصافن منها عند بعض العرب: الذي يجمع بين يديه، ويثني طرف سنبك إحدى رجليه، وعند آخرين: الذي يجمع يديه (٢).

---

(١) انظر بحث احتجاج النصارى بالقرآن.

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٤)، وانظر تفسير القرطبي (١٥/ ١٨٤: ١٨٥).

وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ وعنى بالخير في هذا الموضع الخيل، والعرب تسمي الخيل: الخير، والمال أيضًا يسمونه الخير[١].

وقوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: إني أحببت حب الخير حتى سهوت عن ذكر ربي وأداء فريضته، وقيل: إن ذلك كان صلاة العصر[٢].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ يقول: حتى توارت الشمس بالحجاب، يعني: تغيبت في مغيبها، وقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: الخيل التي عرضت عليَّ فشغلتني عن الصلاة[٣].

﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكرامًا منه لها، وليرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله[٤]. والذي عليه أكثر السلف الأول فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس، والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمدًا من غير عذر، اللهم إلا أن يقال: إنه كان سائغًا في شريعتهم فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك[٥].

وعلى ما حدث لنبيناﷺ يوم الخندق يُحْمَلُ فعلُ سليمان ﷺ:

فعن جابرﷺ قال: جَاءَ عمرﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا كِدْتُ أُصَلِّي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرُبُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "والله مَا صَلَّيْتُهَا، فَقُمْنَا إِلَى بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ"[٦].

المسألة الثانية: (ولقد فتنا سليمان).

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٥)، وقد جاء في كيفية إشغال الخيل سليمان ﷺ أخبارٌ كلها متلقاة من الإسرائيليات.

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٥)، و انظر تفسير القرطبي (١٥/ ١٨٧).

(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ١٨٧)، وانظر تفسير البغوي (٢٣/ ٦١)، وقد جاء في هذا أنه قتلها والراجح ماذكرنا عن ابن عباس بإسناد مقبول.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢٥).

(٦) أخرجه البخاري (٥٩٦)، مسلم (٦٣١).

أولًا: بيان معنى: الفتنة وإطلاقاتها.

الفتنة لغةً: قال الأزهري وغيرُه: جِماعُ معنى الفِتْنة الابتلاء والامْتِحانُ والاختبار، وأَصلها مأْخوذ من قولك: فَتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّدِ، والفَتْنُ الإِحْراقُ، ومن هذا قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أَي: يُحْرَقون بالنار، ويسمى الصائغ الفَتَّان، وكذلك الشيطان، ومن هذا قيل للحجارة السُّود التي كأَنها أُحْرِقَتْ بالنار: الفَتِينُ، قال ابن الأَعرابي الفِتْنة الاختبار، والفِتْنة المِحْنة والكُفْرُ واختلافُ الناس بالآراء، و الإِحراق بالنار[1].

الفتنة اصطلاحًا: الفتنة ما يتبين به حال الإنسان من الخير و الشر، يقال: فتنت الذهب بالنار إذا أحرقته بها لتعلم أنه خالص أو مشوب، ومنه الفتان: وهو الحجر الذي يجرب به الذهب والفضة[2].

والفتنة ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك، حيث لا يعلم المحق من المبطل[3].

وهى البَلِيَّة: وهي معاملة تظهر الأمور الباطنة[4].

والفتنة التي وقع فيها سليمان عليه السلام هي التي بمعنى الابتلاء و الاختبار قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾.

ثانيًا: تفسير الآية: أورد الرازي في تفسيره أقوالًا لهذه الآية فقال:

للناس فيه قول، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات:

الأولى: قالوا: إن سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها، وأخذ بنتًا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهًا فاصطفاها لنفسه.

والرواية الثانية: أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكاد يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها، فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله.

---

(١) لسان العرب (٥/ ٣٣٤٤).

(٢) التعريفات للجرجاني (٢١٢).

(٣) ابن حجر فتح الباري (١٣/ ٣٤).

(٤) في التوقيف على مهمات التعريف للمناوي (٢٥٧).

والرواية الثالثة (لهم): قالوا: إن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس؟

فقال: أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه، وقعد هذا الشيطان على كرسيه، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها.

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أن الله تعالى ابتلاه وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه.

والرواية الرابعة: أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وأُلقي على سريره شيطانٌ عقوبة له.

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه:

الأول: أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد، وعيسى، وموسى - عليهم السلام- ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية.

والثاني: أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى.

والثالث: كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح.

والرابع: لو قلنا: إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟

فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء:

الأول: أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش صار مسلطًا علينا مثل أبيه، فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتًا على كرسيه، فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله، فاستغفر ربه وأناب.

الثاني: روي عن النبي ﷺ أنه قال: "قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره، فوالذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرسانًا أجمعون، فذلك قوله: ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾".

الثالث: قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ منه ﴿جَسَدًا﴾ وذلك لشدة المرض، والعرب تقول في الضعيف: إنه لحم على وضم وجسم بلا روح، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى حال الصحة، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه، ولا حاجة البتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة.

الرابع: أقول لا يبعد أيضًا أن يقال: إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف، وأعاد إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب[١].

وقال الآلوسي: أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى؛ ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة، وجاءت بشق رجل، وقد روى ذلك الشيخان وغيرُهما عن أبي هريرة مرفوعًا وفيه: «فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فراسنًا». لكن الذي في «صحيح البخاري» أربعين بدل سبعين، وأن الملك قال له: قل: إن شاء الله، فلم يقل، وغايته ترك الأولى فليس بذنب، وإن عده هو عليه السلام ذنبًا، فالمراد بالجسد ذلك الشق الذي ولد له[٢].

قال الشنقيطي: أخرج الشيخان في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال: "قال سليمان بن داود - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة- (وفي رواية تسعين امرأة، وفي رواية مائة امرأة) تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله»، فقيل له - وفي رواية قال له الملك-: «إن شاء الله» فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد

(١) تفسير الرازي (٢٦/ ٢٠٩: ٢٠٧).

(٢) روح المعاني (٢٣/ ١٩٨)، وانظر محاسن التأويل للقاسمي (٨/ ١٧١).

منهم إلا امرأة واحدة نصف إنسان. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله لم يحنث وكان دركًا لحاجته»، وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرسانا أجمعون".

فإذا علمت هذا فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بيَّنَ معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ (ص: ٣٤)، وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قوله: «إن شاء الله»، وأنه لم يلد من تلك النساء خلا واحدة نصف إنسان، وأن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي أُلقي على كرسيه بعد موته في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ الآية، فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ الآية، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسي سليمان، وطرد سليمان عن ملكه حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطرودًا عن ملكه إلى آخر القصة - لا يخفى أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهي من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة[1].

قال أبو بكر الجزائري: ذكر المفسرون لهذه الفتنة عدة أمور، وهي قصص أشبه بالخرافات الإسرائيلية، أمثلها ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس: اختصم إلى سليمان فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان، وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى، وما في التفسير أصح وأقرب إلى تفسير الآيات[2].

الوجه الرابع: مكانة سليمان عليه السلام في الكتاب والسنة، مقارنة بما جاء عنه في الكتاب المقدس.

سليمان عليه السلام في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ . . . ﴾ (البقرة: ١٠٢)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

(١) أضواء البيان (٤/ ٨٥: ٨٤)، أيسر التفاسير (تفسير الآية).

(٢) أيسر التفاسير (تفسير الآية).

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال عز من قائل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: ٨٤)، وقال: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩).

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨١)، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٥ – ١٨) فشهدت النملة لسليمان بالعدل والرحمة بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ (النمل: ٣٦)، فانظر إلى تحدثه بنعمة الله، وتنزهه عما في أيدي الناس.

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ (سبأ: ١٢ – ١٣)، ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠)، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ (النمل: ١٩)، فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه، وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له[1].

سليمان عليه السلام في السنة:

---

(١) قصص الأنبياء (٢/ ٢٨٧).

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا إذ عدا الذِّئْبُ، فأخذ ابْنَ إِحْدَاهُمَا فتنازعتا في الآخر، فَقَالَتْ الكبرى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتْ الصغرَى: بل إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَحكم بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سليمان ﷺ فقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ نصفين لكل واحدة منكما نصفه، فَقَالَتْ الصُّغْرَى: يَرْحَمُكَ الله هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لها"[1].

وعن عائشة ﷺ قالت: قَدِمَ رَسولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ، فَقَالَ: " مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟ قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟ قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟ قَالَتْ: جَنَاحَانِ، قَالَ: فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟ قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسليمان خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ"[2].

وعن أبي هريرة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي الله مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ إلى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سليمان: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا"[3].

أما سليمان ﷺ في الكتاب المقدس:

فانظر بحث: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ . . . ﴾.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٩)، مسلم (١٧٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢)، صححه الألباني في صحيح آداب الزفاف (١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١-٣١٧٠-٤٤٣٤)، مسلم (٥٤١)، مسند أحمد (٢/ ٢٩٨).

٣ـ شبهة: ملك سليمان.

نص الشبهة:

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص: ٣٥) هذه الآية تتحدث عن طلب سليمان عليه السلام للملك فكيف ذلك؟!

و الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: التفسير الصحيح للآية.

الوجه الرابع: إثبات الملك لسليمان عليه السلام.

الوجه الخامس: لاغرو أن يأتي القرآن بشيء لم يذكره الكتاب المقدس.

الوجه السادس: سليمان عليه السلام في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن التوراة و الإنجيل محرفان.

فلا يجوز الاحتجاج بهما وقد ثبت ذلك بالأدلة كما سبق.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

فأنتم لا تؤمنون بالقرآن، فكيف تحتجون به علينا.

الوجه الثالث: التفسير الصحيح للآية.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ (ص: ٣٥، ٣٨).

قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: لا يسلبنيه أحد من بعدي، وقيل: أي لا يكون لأحد من بعدي[1].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٩)، وانظر أقوال المفسرين جميعًا في هذه الآية.

فإن قلت: أما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطي الله ما لا يعطيه غيره؟ قلت: كان سليمان ﷺ ناشئًا في بيت الملك والنبوّة ووارثًا لهما، فأراد أن يطلب من ربه معجزة، فطلب على حسب ألفه ملكًا زائدًا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حدّ الإعجاز، ليكون ذلك دليلًا على نبوّته قاهرًا للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات، فذلك معنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ﴾ وقيل: كان ملكًا عظيمًا، فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه، كما قالت الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ . . . ﴾ (البقرة: ٣٠).

وقيل: يجوز أن يقال: علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره، وأوجبت الحكمة استيهابه، فأمره أن يستوهبه إياه، فاستوهبه بأمر من الله على الصفة الذي علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده[١].

وقيل: سأل ذلك ليكون علمًا وآية لنبوته، ومعجزة دالة على رسالته ودلالة قبول توبته[٢].

الوجه الرابع: إثبات الملك لسليمان ﷺ من القرآن والسنة.

أولًا: من القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِى بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِى بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنبياء: ٨١، ٨٢).

قوله: ﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ ﴾ مكان الخيل التي شغلته عن الصلاة ﴿ تَجۡرِى بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً ﴾ يعني: رِخوة لينة، وهي من الرخاوة، وقيل: يعني مطيعة لسليمان، وقيل: ليست بعاصفة ولا بطيئة، وقوله: ﴿حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ حيث أراد، من قولهم: أصاب الله بك خيرًا، أي: أراد الله بك خيرًا[٣].

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٩٥).

(٢) تفسير الخازن (٤/ ٣٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦١: ١٦٠).

وقوله: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾ أي: وسخرنا له الشياطين سلطناه عليها مكان ما ابتُليناه بالذي ألقينا على كرسيّه منها يستعملها فيما يشاء من أعماله من بنَّاء وغوَّاص، فالبُناة منها يصنعون محاريب وتماثيل، والغاصة يستخرجون له الحُلِيّ من البحار، وآخرون ينحتون له جِفانًا وقدورًا، والمَردَة في الأغلال مُقَرَّنون[١].

وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ (النمل: ١٦)، وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ. . .﴾ (سبأ: ١٢، ١٣).

ثانيًا: من السنة:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ، فَهَبَّتْ رِيحٌ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟ قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟ قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ قَالَتْ: جَنَاحَانِ قَالَ: فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟ قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ، قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمْكَنَنِي الله مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا.[٣]

الوجه الخامس: لاغرو أن يأتي القرآن بشيء لم يذكره الكتاب المقدس

إن القارئ للكتاب المقدس يجد أنه أخلَّ بأمور كثيرة ما تحدّث عنها يحتاجها قارئه،

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢)، وصححه الألباني في صحيح آداب الزفاف (١١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٣٤)، مسلم (٥٤١)، مسند أحمد (٢/ ٢٩٨).

فانظر على سبيل المثال لا الحصر مسائل العبادات وتفصيلاتها، والمعاملات في البيع والشراء، وغير ذلك.

والسؤال: أين القواعد التي وضعها الكتاب المقدس لأصحابه ليكون لهم منهجًا يسيروا عليه؟

والجواب: هذا ما يفتقده هذا الكتاب بخلاف القرآن الذي فصّل المنهج وبينه ووضّحه وأحكمه، فسبحان مَنْ جعل القرآن للناس يتعبدون به ويسيرون عليه.

الوجه السادس: سليمان عليه السلام في الكتاب المقدس.

ولكن انظر ماذا يقول الكتاب المقدس عن نبي الله سليمان عليه السلام كما في سفر (الملوك الأول١١/ ١٣: ١) ١: وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ ٢ مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: «لاَ تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهؤُلاَءِ بِالْمَحَبَّةِ. ٣ وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. ٤ وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. ٥ فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. ٦ وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ. ٧ حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ. ٨ وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ. ٩ فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠ وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١ فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. ١٢ إِلاَّ إِنِّي لاَ أَفْعَلُ ذلِكَ فِي أَيَّامِكَ، مِنْ أَجْلِ دَاوُدَ أَبِيكَ، بَلْ مِنْ يَدِ ابْنِكَ أُمَزِّقُهَا. ١٣ عَلَى أَنِّي لاَ أُمَزِّقُ مِنْكَ الْمَمْلَكَةَ كُلَّهَا، بَلْ أُعْطِي سِبْطًا وَاحِدًا لابْنِكَ، لأَجْلِ دَاوُدَ عَبْدِي، وَلأَجْلِ أُورُشَلِيمَ الَّتِي اخْتَرْتُهَا».

* * * *

٤ـ شبهة: أيوب عليه السلام حول الآية: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ .

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (ص: ٤٤)، يعني أن امرأة أيوب ذهبت لحاجةٍ وأبطأت، فحلف إنْ بَرِىءَ ليضربنَّها مائة سوط، فحلّل الله يمينه بأن أخذ ضِغْثًا، وهي حزمةٌ صغيرة من الحشيش بها مائة عود ليضربها بها ضربة واحدة فلا تقع يمينه، وهذه القصة من خرافات اليهود، ثَمّ أمر آخر وهو: كيف يصل الغضب إلى هذا الحد مع هذا النبي؟

و الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة و الإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: فضل أيوب عليه السلام في القرآن و السنة.

الوجه الرابع: أقوال المفسرين في آيات سورة (ص)

الوجه الخامس: بيان معنى الغضب، وأنواعه، وأن أيوب عليه السلام بشر مثلنا، يغضب كغضبنا ولا يخرجه غضبه عن الصفة الغالبة عليه وهي الحلم و الصبر.

الوجه السادس: أيوب عليه السلام في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: أيوب عليه السلام في القرآن والسنة.

أولًا: أيوب عليه السلام في القرآن.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا

هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنعام: ٨٤).

فأخبر الله أنه هداه واجتباه، وجعله من المحسنين، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنبياء: ٨٣، ٨٤).

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ (ص: ٤١- ٤٤) فسماه الله ﷻ عبدًا كما يخبر جميع أنبيائه، لأن مقام العبودية هو أشرف المقامات على الإطلاق، ثم إنه في هذه الآيات قال (مسني الشيطان)، وفي الأنبياء قال: (مسني الضر) فلم ينسب الضر إلى الله سبحانه وتعالى أدبًا مع الله ﷻ.

وقال المفسرون: هذا ليس شكاية، إنما هو دعاء؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ على أن الجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق، فأما الشكوى إلى الله ﷻ فلا يكون جزعًا ولا ترك صبر كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦)، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: رد الله ﷻ إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله له وأعطاه مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن[(١)].

ثانيًا: فضل أيوب عليه السلام في السنة:

قال رسول الله ﷺ قال: "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيْدَ في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة"[(٢)].

(١) تفسير البغوي (٤/ ٤٣).

(٢) صحيح. أخرجه النسائي (٧٤٨٢)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٤٨).

وكان أيوب عليه السلام من أشد الناس بلاءً، ولم يزد هذا البلاء كله أيوب عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا، حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة فرفضه القريب و البعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: و ما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أَمُرُّ بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: و كان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها و أوحي إلى أيوب أن: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ (ص: ٤٢)، فاستبطأته فتلقته تنظر و قد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء و هو أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحًا، فقال: فإني أنا هو، و كان له أندران: أندر للقمح و أندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض و أفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض"(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَى رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، و لَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ"(٣).

وقَوْلُهُ: (خَرَّ عَلَيْهِ) أَيْ سَقَطَ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: (رِجْلُ جَرَادٍ) أَيْ: جَمَاعَةُ جَرَادٍ، والْجَرَادُ اِسْمُ جَمْعٍ وَاحِدُهُ جَرَادَةٌ كَتَمْرٍ وَتَمْرَةٍ، و قَوْلُهُ: (فَنَادَاهُ رَبُّهُ) يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِوَاسِطَةٍ أَوْ بِإِلْهَامٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ(١).

---

(١) قصص الأنبياء (١/ ٣٥٩).

(٢) صحيح. تفسير الطبري ٢٣/ ١٦٧، السلسلة الصحيحة للألباني (١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩).

فأكرمه الله ﷻ بأن أفاض عليه بركاته وأغناه، ورد عليه ولده وأهله جزاءً له على صبره على البلاء طيلة هذه المدة، وفي الحديث أن الله ﷻ ناداه وكلمه سواءً بواسطة أو بغير واسطة إكرامًا له عليه السلام، وانظر إلى حسن ظنه بالله تعالى وطمعه في رحمة الله حينما قال: (لا غنى لي عن بركتك)، وبهذا القول يصدق قول الله فيه وفي إخوانه من الأنبياء والصالحين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

الوجه الرابع: أقوال المفسرين في هذه الآية.

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ (ص: ٤٤)، الضغث: هو ما يجمع من شيء مثل حزمة الرُّطْبة، وكملء الكفّ من الشجر أو الحشيش والشماريخ ونحو ذلك مما قام على ساق (فَاضْرِبْ بِهِ): فاضرب زوجتك بالضِّغْث، لتَبرّ في يمينك التي حلفت بها عليها أن تضربها (وَلا تَحْنَثْ) يقول: ولا تحنَثْ في يمينك[2].

وفي ذلك أقوال:

١- وذلك أن أيوب عليه السلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته. قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثًا فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برّت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[3].

٢- ولعل الكفارة لم تكن فيهم وخصنا الله بها مع شرعه فينا ما أرخصه له تشريفًا لنا، وكل هذا إعلامًا بأن الله تعالى ابتلاه عليه السلام في بدنه وولده وماله، ولم يبق له إلا زوجة فوسوس لها الشيطان طمعًا في إيذائها كما آذى آدم وحواء عليهما السلام، إلى أن قارب

(١) فتح الباري (١/ ٤٦١).
(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٨- ١٦٩).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣) وقيل غير ذلك من أقوال ليس لها سند صحيح.

منها بعض ما يريد[١].

قلت: قوله: (إلى أن قارب منها بعض ما يريد) فسره بعض المفسرين أن الشيطان قابلها ودلها على شفاء زوجها، فلما رجعت وأخبرت زوجها غضب عليها وحلف عليها أن يضربها مائة ضربة، فخلصها الله ﷻ بهذه الرخصة[٢].

الوجه الخامس: بيان معنى الغضب ودرجاته، وما يذم منه وملا يذم.

معنى الغضب: الغَضَبُ: نَقِيضُ الرِّضَا وقد غَضِبَ عليه غَضَبًا ومَغْضَبَةً وأَغْضَبْتُه أَنا فَتَغَضَّبَ، وغَضِبَ له غَضِبَ على غيره من أَجله، وذلك إِذا كان حَيًّا فإِن كان ميتًا قلت: غَضِبَ به قال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة يَرْثِي أَخاه عَبْدَالله:

فإِن تُعْقِبِ الأَيامُ والدَّهْرُ فاعْلَمُوا ... بني قَارِبٍ أَنَّا غِضَابٌ بمَعْبَدِ

قال ابن عرفة: الغَضَبُ من المخلوقين شيءٌ يُداخِل قُلُوبَهم ومنه محمود ومذموم؛ فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق[٣].

درجات الغضب: يتفاوت الناس في قوة الغضب على درجات ثلاث وهي: التفريط والإفراط والاعتدال:

أولًا: التفريط: ويكون إما بفقد قوة الغضب بالكلية أو بضعفها، وحينئذ يقال للإنسان: إنه لا حمية له، ويذم جدًّا، ولذلك قال الشافعي - رحمه الله- من استغضب فلم يغضب فهو حمار، وهذا يثمر ثمرات مرة كقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس.

ثانيًا: الإفراط: ويكون بغلبة هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر، وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية: فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان، ويعين على ذلك حرارة مزاج

(١) تفسير البقاعي (٦/ ٣٩٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٨).

(٣) لسان العرب (٥/ ٣٢٦٢).

القلب، وأما الأسباب الاعتيادية: فهو أن يخالط قومًا يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية.

ثالثًا: الاعتدال: وهو المحمود وذلك بأن ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور، واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سَوْرة الغضب، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين؛ وهذا هو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه[1].

ومن الغضب ما يكون محمود، وذلك إذا صدر الغضب من الله ﷻ ومن ذلك غضبه تعالى على أعدائه من اليهود، ومن كان على شاكلتهم من الكفار والمنافقين والطغاة والمتجبرين، قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧)، وقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٦١)، كما يكون الغضب محمودًا إذا كان لله ﷻ عندما تنتهك حرماته، وقد أثبت القرآن ذلك للرسل الكرام في مواضع عديدة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ (الأنبياء: ٨٧).

وكان النبي ﷺ يغضب لله لا لنفسه، فعن عائشة أنها قالت: رَخَّصَ رَسُولُ الله ﷺ فِي أَمْرٍ فَتَنَزَّهَ عَنْهُ نَاسٌ مِنْ النَّاسِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَغَضِبَ حَتَّى بَانَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ فَوَ الله لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً"[2].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: " قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ الصَّلَاةِ فِي الْفَجْرِ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فُلَانٌ فِيهَا فَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ مَا رَأَيْتُهُ غَضِبَ فِي مَوْضِعٍ كَانَ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ"[1].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠١)، مسلم (٢٣٥٦) واللفظ له.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَرْبَعٍ مَضَيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ أَوْ خَمْسٍ، فَدَخَلَ عَلَيَّ وَهُوَ غَضْبَانُ فَقُلْتُ: مَنْ أَغْضَبَكَ يَا رَسُولَ الله أَدْخَلَهُ الله النَّارَ؟ قَالَ: أَوَمَا شَعَرْتِ أَنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِأَمْرٍ فَإِذَا هُمْ يَتَرَدَّدُونَ - قَالَ الْحَكَمُ: كَأَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ، أَحْسِبُ- وَلَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ مَعِي حَتَّى أَشْتَرِيَهُ ثُمَّ أَحِلُّ كَمَا حَلُّوا"(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ، حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ قَالَ وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ فَأَقْبَلَ، حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ الْخَبَرَ قَالَ أَبو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَالله يَا رَسُولَ الله، لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبو بَكْرٍ صَدَقْتَ"(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ؛ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، وَيَقُولُ: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ"(٤).

الوجه السادس: أيوب عليه السلام في الكتاب المقدس.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤)، ومسلم (٤٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٥٧-١٧٥٨-١٧٧٢)، ومسلم (١٢١١) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٤٠).

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٧).

كما هو معروف أن اليهود والنصارى في كتابهم المقدس وصفوا أنبياءهم بأقبح الصفات وأسفل الكلمات واتهموهم بأقبح الجرائم، ووضعوهم في أسوأ الصور، سواء في كلامهم وتصرفاتهم مع الله أو مع غيره، ومن ذلك ما وصفوا به أيوب عليه السلام وفيه:

الشيطان يطلب من الرب أن يمحق البركة من أيوب ويبتليه:

فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «هَلْ مَجَّانًا يَتَّقِي أَيُّوبُ اللهَ؟ أَلَيْسَ أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟ بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَانْتَشَرَتْ مَوَاشِيهِ فِي الأَرْضِ. [١١] وَلكِنِ ابْسِطْ يَدَكَ الآنَ وَمَسَّ كُلَّ مَا لَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ». [١٢] فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هُوَذَا كُلُّ مَا لَهُ فِي يَدِكَ، وَإِنَّمَا إِلَيْهِ لاَ تَمُدَّ يَدَكَ». ثُمَّ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمَامِ وَجْهِ الرَّبِّ (أيوب١/ ١٢: ٩).

أيوب يضجر ويسب اليوم الذي وُلد فيه:

بَعْدَ هذَا فَتَحَ أَيُّوبُ فَاهُ وَسَبَّ يَوْمَهُ، [٢] وَأَخَذَ أَيُّوبُ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ:. . . لِيَلْعَنْهُ لاَعِنُو الْيَوْمِ الْمُسْتَعِدُّونَ لإِيقَاظِ التِّنِّينِ. [٩] لِتُظْلِمْ نُجُومُ عِشَائِهِ. لِيَنْتَظِرِ النُّورَ وَلاَ يَكُنْ، وَلاَ يَرَ هُدُبَ الصُّبْحِ، [١٠] لأَنَّهُ لَمْ يُغْلِقْ أَبْوَابَ بَطْنِ أُمِّي، وَلَمْ يَسْتُرِ الشَّقَاوَةَ عَنْ عَيْنَيَّ. [١١] لِمَ لَمْ أَمُتْ مِنَ الرَّحِمِ؟ عِنْدَمَا خَرَجْتُ مِنَ الْبَطْنِ، لِمَ لَمْ أُسْلِمِ الرُّوحَ؟ [١٢] لِمَاذَا أَعَانَتْنِي الرُّكَبُ، وَلِمَ الثُّدِيُّ حَتَّى أَرْضَعَ؟ [١٣] لأَنِّي قَدْ كُنْتُ الآنَ مُضْطَجِعًا سَاكِنًا. حِينَئِذٍ كُنْتُ نِمْتُ مُسْتَرِيحًا (أيوب٣/ ١٣: ١).

أيوب يسخر من الرب ويسبه:

قَدْ كَرِهَتْ نَفْسِي حَيَاتِي. أُسَيِّبُ شَكْوَايَ. أَتَكَلَّمُ فِي مَرَارَةِ نَفْسِي [٢] قَائِلًا لله: لاَ تَسْتَذْنِبْنِي. فَهِّمْنِي لِمَاذَا تُخَاصِمُنِي! [٣] أَحَسَنٌ عِنْدَكَ أَنْ تَظْلِمَ، أَنْ تُرْذِلَ عَمَلَ يَدَيْكَ، وَتُشْرِقَ عَلَى مَشُورَةِ الأَشْرَارِ؟ [٤] أَلَكَ عَيْنَا بَشَرٍ، أَمْ كَنَظَرِ الإِنْسَانِ تَنْظُرُ؟ [٥] أَأَيَّامُكَ كَأَيَّامِ الإِنْسَانِ، أَمْ سِنُوكَ كَأَيَّامِ الرَّجُلِ، [٦] حَتَّى تَبْحَثَ عَنْ إِثْمِي وَتُفَتِّشَ عَلَى خَطِيَّتِي؟ [٧] فِي عِلْمِكَ أَنِّي لَسْتُ مُذْنِبًا، وَلاَ مُنْقِذَ مِنْ يَدِكَ (أيوب ١٠/ ٦: ١).

* * *

سورة غافر

شبهة: قتل الصبيان واستحياء النساء.

نص الشبهة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (غافر: ٢٣- ٢٥).

فالظاهر من هذا الكلام أن فرعون لم يأمر بقتل أبناء اليهود إلا بعد ما جاءه موسى بالحق ولكنه يقول: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ... ﴾ (طه: ٣٨، ٣٩).

وهذا يعني أن فرعون أمر بقتل أبناء اليهود وموسى طفل ولم يكن الحق قد جاء بعد من عند ربه.

والرد من وجوه:

الوجه الأول:

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ (غافر: ٢٥)، فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وإنما كان قتل فرعون الولدان من بني إسرائيل حذار المولود الذي كان أخبر أنه على رأسه ذهاب ملكه وهلاك قومه، وذلك كان فيما يقال قبل أن يبعث الله موسى نبيًا؟ قيل: إن هذا الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى واستحياء نسائهم، كان أمرًا من فرعون وملئه من بعد الأمر الذي كان من فرعون قبل مولد موسى.

وعن قتادة قال: هذا قتل غير القتل الأول الذي كان حيًا.[1]

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٤/ ٥٦).

توضيح: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ . . . ﴾ وهذا أمر ثانٍ من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل.

أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين.

وأما الأمر الثاني: فالعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ولهذا قالوا: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر[١].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١٢/ ١٨٤)، الكشاف للزمخشري (٤/ ١٦٠).

سورة فصلت

وفيها:

١- شبهة: بأي شيء أُهلكت ثمود.

٢- شبهة اختلاف الشرائع.

١ـ شبهة: بأي شيء أهلكت ثـمود.

نص الشبهة:

يقول القرآن عن قوم ثمود أهلكم الطاغية: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (الحاقة: ٥) ثم يقول: إن ثمود أخذتهم صاعقة العذاب: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (فصلت: ١٧)، ثم يؤكد أن ثمود أهلكوا بصاعقة مثل عاد: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (فصلت: ١٣).

فهل هلك قوم ثمود بالطاغية أم بالصاعقة؟ ، وهل هلك قوم عاد وقوم ثمود بنفس الطريقة أم بطريقتين مختلفين.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ بالصيحة.

الوجه الثاني: (الطاغية) عاقر الناقة، والتاء فيه للمبالغة.

الوجه الثالث: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ أي: بطغيانهم.

الوجه الرابع: قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي: صاعقة.

الوجه الخامس: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي أنذرتكم وقيعة.

الوجه السادس: الصعقة: الهلاك يكون معها في الأحيان قطعة نار.

واليك التفصيل

بداية: لا تعارض في المعنى بين اللفظين، وهذا معنى الطاغية في لغة العرب.

الطغيان، والطغوان لغة فيه، والفعل طغوت وطغيت، والاسم الطغوي، وكل شيء جاوز القدر فقد طغى كما طغى الماء على قوم نوح، وكما طغت الصيحة على ثمود، والريح على قوم عاد، وتقول سمعت طغى فلان: أي صوته.

والطاغية: الأحمق المستكبر الظالم. وطغا البحر إذا علا كل شيء فاجترفه[١]، والطاغية الجبار العنيد[٢] وكذلك معنى -الصاعقة - في لغة العرب.

الصاعقة والصعقة: الصيحة يغشي منها على من يسمعها أو يموت، الصعق: شدة النهيق والصوت، ويقال: أصعقته الصيحة: قتلته، والصواعق: صوت الرعد[٣].

الصاعقة: العذاب، والصعقة الغشية[٤].

(الصاعقة والصعق) في القرآن الكريم:

الصعق: الموت، قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: ٦٨).

والصاعقة: العذاب كقوله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣).

والصاعقة: نار من السحاب، قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ (الرعد: ١٣). وأراها سميت صاعقة، لأنها إذا أصابت قتلت، يقال: صعقتهم: أي قتلتهم[٥].

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾

أي: أهلكوا بالصيحة الطاغية، لأن الله تعالى إنما أخبر عن ثمود بالمعنى الذي أهلكها به، فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾. ولو كان الخبر أيضًا عن عاد كذلك إذ كان ذلك في سياق واحد، وفي إتباعه ذلك بخبره عن عاد بأن هلاكها كان بالريح الدليل الواضح على أن إخباره عن ثمود إنما هو ما بينت[٦].

زيادة توضيح: قال قتادة: أي: بالصيحة الطاغية، أي المجاوزة للحد؛ أي لحد

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (٨/ ١٦٧)، وانظر لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٧).

(٢) لسان العرب (١٥/ ٩).

(٣) تهذين اللغة (١/ ١٧٧).

(٤) لسان العرب (١٠/ ١٩٨).

(٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٤٥٥).

(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٩/ ٤٩).

الصيحات من الهول كما قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ (القمر: ٣١)، والطغيان: هو مجاوزة الحد، ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ (الحاقة: ١١) أي: جاوز الحد[١].

فعلى هذا القول الطاغية نعت محذوف، واختلفوا في ذلك المحذوف فقال: بعضهم: إنها الصيحة المجاوزة في القوة والشدة للصيحات، وقال بعضهم: إنها الرجفة، وقال آخرون: إنها الصاعقة[٢].

الوجه الثاني: (الطاغية) عاقر الناقة، والتاء فيه للمبالغة كرجل راوية وأهلكوا كلهم لرضاهم بفعله. [٣]

والمعنى: أن الطاغية: الفرقة التي طغت من جملة ثمود فتآمروا بعقر الناقة فعقروها، أي: أهلكوا بشؤم فرقتهم الطاغية، ذلك الرجل الواحد الذي أقدم على عقر ناقة وأهلك الجميع لأنهم رضوا بفعله، وقيل: له طاغية كما يقول: فلان راوية الشعر وداهية وعلامة[٤].

الوجه الثالث: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾.

أي: بطغيانهم وكفرهم[٥]، أ ي: فأهلكوا بالطغيان، فهي مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية: أي أهلكوا بطغيانهم وكفرهم. [٦]

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾

أي: قل لهم: أنذرتكم أيها الناس صاعقة تهلككم مثل صاعقة عاد وثمود وقد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة: كل ما أفسد الشيء وغيره عن هيئته. . [٧]

فيكون المعنى: أي: هلاكًا مثل هلاكهم، والصاعقة المهلكة من كل شيء. [١]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨ – ٢٤٧).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٠٣)، وانظر معاني القرآن للزجاج (٥/ ٢١٣).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٣١٦).

(٤) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٠٣)، و تهذيب اللغة (الأزهري) (٨/ ١٦٧)، ومعالم التنزيل للبغوي (٤/ ٣٨٦)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/ ٢٤٧).

(٥) معالم التنزيل (٤/ ٣٨٦).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢١٣)، وانظر التفسير الكبير (٣٠/ ١٠٣)، ومعاني القرآن للزجاج (٥/ ٢١٣).

(٧) تفسير الطبري (٢٤/ ١٠٩)، تفسير القرطبي (١٥/ ٣٣١)، والبحر المحيط (٧/ ٤٦٨).

الوجه الخامس: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.

أي أنذرتكم وقيعة مثل وقيعة عاد وثمود، قال: عذاب مثل عذاب عاد وثمود[٢]، أي: عذاب شديد الواقع كأنه صاعقة[٣].

الوجه السادس: **الصعقة: الهلاك يكون معها في الأحيان قطعة نار**

فشبهت هنا وقعة العذاب بها، لأن عادًا لم تعذب إلا بريح، وإنما هذا تشبيه واستعارة[٤].

زيادة وتوضيح: لما أضيفت صاعقة إلى عاد وثمود، وعادًا لم تهلكهم الصاعقة، وإنا أهلكهم الريح، وثمود أهلكوا بالصاعقة، فقد استعمل الصاعقة هنا في حقيقتة ومجازه، أو هو من عموم المجاز والمقتضى لذلك على الاعتبارين قصد الإيجاز[٥].

خلاصة القول: اعلم أن الله ﷻ تكلم عن الهلاك الذي أهلك به ثمود، بعبارات مختلفة، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ (فصلت: ١٧). وقوله: ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت: ١٣) وعبر عنه أيضًا بالصاعقة في قوله تعالى: ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٣ - ٤٤).

وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه، كقوله تعالى في إهلاكه ثمود: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (هود: ٦٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ (الحجر: ٨٢-٨٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ (القمر: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ (العنكبوت: ٤٠)، يعني به ثمود المذكورين في قوله تعالى:

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ١٠٩)، وانظر زاد المسير (٧/ ٢٤٧).

(٢) جامع البيان للطبري (٢٤/ ١٠٠)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٨).

(٣) الكشاف للزمخشري (٤/ ١٩١).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٣).

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٣٨)، وعبر بالرجفة في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ (الأعراف: ٧٧)، وعبر عنه بالتدمير في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النمل: ٥١).

وعبر عنه بالطاغية في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وعبر عنه بالدمدمة في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ (الشمس: ١٤).

وعبر عنه بالعذاب في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ (الشعراء: ١٥٧-١٥٨).

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، والصيحة الصوت المزعج المهلك وعلى النار المحرقة، وعليهما معًا، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم رجفت أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميرًا واضحًا، وقيل لها طاغية: لأنها واقعة مجاوزة الحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة. (١)

ملخص ما سبق:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ أي فأما ثمود فأهلكهم الله بصيحة جاوزت الحد في الشدة كما جاء في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهي الصاعقة التي جاءت في حم السجدة، والرجفة والزلزلة التي جاءت في سورة الأعراف، فلا تعارض بين الآيات، لأن الهلاك في بعضها نسب إلى السبب القريب، وفي بعضها نسب إلى السبب البعيد. (٢)

* * *

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٢٢).

(٢) تفسير المراغي (٢٩/ ٥١).

٢ـ شبهة اختلاف الشرائع.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (فصلت: ٤٣).

قالوا: إذا كان ما قيل للنبي ﷺ هو نفس ما قيل للرسل من قبله، فما هي فائدة القرآن؟ وهل الله يريد التكرار؟.

والجواب علي ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان التفسير الصحيح للآية.

الوجه الثاني: أصل الدين واحد، والدليل علي اختلاف الشرائع في مباحث:

المبحث الأول: إن الدين عند الله الإسلام.

المبحث الثاني: أهداف الرسالات السماوية.

المبحث الثالث: لكل أمة شرعةً ومنهاجًا.

الوجه الثالث: بعض خصائص القرآن الكريم والإسلام.

الوجه الرابع: بيان بعض أوجه الاتفاق و الاختلاف في الشرائع.

الوجه الخامس: ما هي فائدة الإنجيل بعد التوراة؟ وما هي فائدة تكرار الأناجيل.

واليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآية.

بعد النظر في كتب التفسير وجد تفسيرين للآية، وهما أيضًا غير متضادين أستطيع أن أقول: هما وجهان لعملة واحدة وكلٌّ قيل للرسل جميعًا.

القول الأول: الذي قيل له هو الأذية من قومه هو نفس الذي قيل للرسل سابقًا.

وهو قول الجمهور، قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (فصلت: ٤٣).

والمعني: ما يقال لك من التكذيب والأذى إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك، وهو قول الجمهور[١]. وممن قال به من أئمة التفسير:

قتادة: حيث قال (يعزيه قال: يقول: قد قيل للأنبياء: ساحر وشبه ذلك)[٢].

السدي: حيث قال (مايقولون إلا ماقد قال المشركون للرسل من قبلك)[٣].

وهو قول الحسن[٤].

ويدل علي ذلك قول الله تعالي: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ (الذاريات: ٥٢).

فكما قيل له: ساحر فقد قيل لموسى عليه السلام ساحر كما قال سبحانه على لسان قومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الشعراء: ٣٤). وكما قيل له مجنون فقد قيل لنوح عليه السلام مجنون كما قال سبحانه علي لسان قومه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ (المؤمنون: ٢٥). وكما قيل له كاذب فقد قيل لصالح عليه السلام كذاب كما قال سبحانه على لسان قومه: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ (القمر: ٢٥). وهكذا إذا تتبعنا سيرة الأنبياء مع قومهم.

القول الثاني: الذي قيل له: هو إخلاص العبادة لله وهذا أصل في كل شريعة.

والمعنى: أي ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) الطبري (٢٤/ ١٢٥-١٢٦)، والنكت والعيون (٥/ ١٨٦)، والبغوي (٤/ ١١٦) والكشاف (٤/ ٢٠٢)، والمحرر الوجيز (٥/ ١٩)، وزاد المسير (٧/ ٢٦٣)، والرازي (٢٧/ ١٢٣).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٢٧٢٠) من طريق معمر عنه، وأخرجه الطبري (١٢/ ١٢٦) من طريق سعيد، وذكره ابن أبي حاتم (١٨٤٦١)، وهو صحيح الإسناد إلي عبد الرزاق.

(٣) الطبري (١٢/ ١٢٦) من طريق أسباط عنه.

(٤) قاله ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٦٣).

قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . . ﴾ (الزمر: ٦٥)، أي: لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميع الأنبياء فلا معنى لإنكارهم عليك[1].

قلت ذلك: لأن مامن نبي أرسله الله تعالى إلا دعاهم بإخلاص العبادة لله- عز وجل- وهذا هو أصل الدين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥). وكانت هي على لسان كل نبي إلى قومه كما قال تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (هود: ٥٠). فهذا هو الأصل الذي جاء به كل نبي الذي جاء به كل رسول ولكن التفصيل وبيان المنهج في الدعوة والتشريع فهذا لكل نبي مع قومه.

الوجه الثاني: بيان أن أصل الدين واحد والدليل على اختلاف الشرائع.

وهذا يكون في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: إن الدين عند الله الإسلام.

الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعًا منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير، ولذلك فإنها تمثل صراطًا واحدًا يسلكه السابق واللاحق، ولذا فإننا نجد الإسلام هو الدين الذي دعت إليه الرسل جميعًا من لدن آدم حتى تقوم الساعة قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩).

فهو دين نوح عليه السلام حيث قال الله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٧٢). وهو دين إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ (البقرة: ١٣١). وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران: ٦٧). وقال تعالى على لسان نبيه إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٨). ووصى بها قبل موته حيث قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣٥١)، وفتح القدير (٤/ ٧٢)، وفتح البيان (١٢/ ٢٦٠)، والمحرر الوجيز (٥/ ٢٠).

مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (البقرة: ١٣٢)، وهو دين يعقوب عليه السلام حيث وصي به قبل موته، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (البقرة: ١٣٣)، وهو دين يوسف عليه السلام حيث قال الله تعالى على لسان نبيه يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (يوسف: ١٠١).

وهو دين سليمان عليه السلام حيث قالت ملكة سبأ كما قال تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤) وقد كتب لها كتابًا من قبل فيه كما أخبر سبحانه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل: ٣١). وهو دين موسى عليه السلام حيث قال الله تعالى علي لسان نبيه موسي: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس: ٨٤). وهو دين عيسى عليه السلام قال الحواريون لعيسى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢)، وهو دين الجن المؤمنين حيث قال الله تعالى على لسانهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ (الجن: ١٤).

وهو دين نبينا محمد ﷺ حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وعلى هذا فالدين الوحيد الذي ارتضاه الله لأهل السماء والأرض لا للعرب فحسب بل للبشرية جميعًا إنما هو دين الإسلام، لذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥)[1].

المبحث الثاني: أهداف الرسالات السماوية.

---

(١) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية ١/ ١٨ بتصرف.

إن الناظر بإمعان إلى كتاب الله يستطيع أن يخرج منه بالركائز الأساسية التي ارتكزت عليها دعوة الأنبياء السابقين. وتلك الركائز يسميها علماء الإسلام بالعناصر أو الأركان الأساسية للرسالات السماوية، وهذه العناصر وتلك الأهداف هي:

١-الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لاشريك له.

٢-الإيمان بالبعث والجزاء.

٣-الدعوة إلى العمل الصالح.

أولًا: الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهو توحيد الله.

ولنبدأ بسيدنا نوح عليه السلام: قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٥٩)، وهود عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (الأعراف: ٦٥)، وصالح عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (هود: ٦١). شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ (الأعراف: ٨٥).

إبراهيم عليه السلام وهو يجادل أباه وقومه ويدعوهم إلى ترك ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والتماثيل إلى عبادة فاطر السموات والأرض. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ (مريم: ٤٢). وقال تعالى: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنعام: ٧٩).

يوسف عليه السلام كان داعيًا إلى التوحيد حتى وهو في السجن. قال تعالى: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يوسف: ٣٩-٤٠)، موسى عليه السلام عندما سأله فرعون عن ربه كانت إجابته بإقرار التوحيد لله. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣ - ٢٤).

عيسى عليه السلام أعلنها صراحة كما قال الله تعالى على لسان عيسى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (مريم: ٣٦). وقد قال الله جل في علاه موضحًا لمن اعتقدوا في عيسي أنه دعا إلى غير التوحيد المطلق كذب ادعائهم وبطلان مانسبوه إلي الله تعالى، وأنه قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة: ١١٦-١١٧)، ولذلك قال الله تعالى موضحًا الصورة بأوضح عبارة: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦).

ثانيًا: الإيمان بالبعث والجزاء، وهو الهدف الثاني في دعوة الأنبياء والرسل.

سيدنا نوح عليه السلام: ربط الدعوة إلى التوحيد بالتخويف من عذاب الله يوم القيامة. وهذا دليل علي الإيمان بالبعث والجزاء. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (هود: ٢٥-٢٦)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح: ١٥-١٨).

موسى عليه السلام: وأن الله سبحانه وتعالي يربط بين نعمه على بني إسرائيل واليوم الآخر قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (البقرة: ٤٧-٤٨)، وخير مثال على ذلك ما حدث عيانًا بيانًا على مرأى ومسمع في قصة البقرة التي ساقها الله سبحانه دليلًا عليهم كما في سورة البقرة.

عيسي عليه السلام فالله سبحانه يربط كذلك ربطًا وثيقًا حيث قال: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ . . . ﴾ (آل عمران: ٥٥).

ثالثًا: الدعوة إلي العمل الصالح.

وهذا هو الهدف الثالث في دعوة الأنبياء والرسل. لأن كل نبي كان يأتي لقومه ليعالج مشكلة معينة، ومن خلال معالجته لتلك المشكلة يدعو قومه إلى العمل الصالح.

سيدنا نوح عليه السلام: حيث قال الله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ (نوح: ٣). والتقوى هي: جماع خصال البر.

سيدنا لوط عليه السلام وهو ينفر قومه من ارتكاب جريمة اللواط، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ (الأعراف: ٨٥-٨٦).

ثم يبين لهم الأفضل من ذلك في معرض الكلام: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ (الشعراء: ١٦٦). سيدنا شعيب عليه السلام ينهي قومه عما فشا فيهم من التطفيف في الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم والسعي بالفساد بين الناس وصدهم عن سبيل الله. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ......﴾ (الأعراف: ٨٥). وسيدنا موسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ (الأعراف: ١٢٨).

سيدنا عيسى عليه السلام حيث قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ (مريم: ٣٠).

سيدنا محمد ﷺ التي جمعت شريعته هذه الخصال حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .....﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

ومن هنا يتضح لنا أن الدين واحد وهو الإسلام كما أن أصول الرسالات السماوية واحدة، إلا أن كل نبي يبعث إلى أمة معينة لأهداف معينة استلزمت اختلاف الشرائع التي شرعها الله لكل أمة.

المبحث الثالث: لكل أمة شرعةً ومنهاجًا.

قد قدمنا في المبحثين الأولين أن أصل الدين واحد وهو دين الإسلام، وأن الأهداف التي جاءت بها الرسالات واحدة. فهذا لا يمنع أن تختلف الشرائع وذلك حسب الظروف والأوضاع التي كانت سائدة بها بما يكفل صلاحها ويزيل ما ران في قلوبها من ظلمات. والقرآن الكريم يخبرنا أن الرسل جميعًا حملوا ميزان العدل والقسط، قال تعالي: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥). وأنهم أمروا بأن يكسبوا رزقهم بالحلال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥١)، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨).

فهذا إخبار عن الأمم المختلفة باعتبار مابعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد. فالشرائع مختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس، وخفيفًا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة. وهذا خطاب لجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالي العظيمة التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ منها شيئًا. ولكنه تعالي شرع لكل رسول شرعة علي حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدﷺ الذي ابتعثه إلي أهل الأرض قاطبة وجعله خاتم الأنبياء كلهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (المائدة: ٤٨). أي أنه تعالى شرع لنا الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم. ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله[1].

وممن قال به علي رضي الله عنه قال: الإيمان منذُ بَعث الله تعالى ذكره آدمﷺ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، لكلّ قوم ما جاءَهم من شرعة أو منهاج، فلا يكون المقرُّ

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٧٠)، والمحرر الوجيز (٢/ ٢٠٠)، والقرطبي (٦/ ٢٠١- ٢٠٢)، وابن كثير (٥/ ٤٤٨-٤٤٩)، وفتح البيان (٣/ ٤٤٣-٤٤٥).

تاركًا، ولكنه مُطِيع[(١)].

قال قتادة ﷺ: فإن الدين واحد والشريعة مختلفة. [(٢)]

وقال أيضًا في تفسيرها: سبيلًا وسُنّة. والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيدُ والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل. [(٣)]

والدليل على ذلك من السنة:

حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ"**. [(٤)]

والعلات: بفتح المهملة الضرائر. وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتي.

ومعني الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع[(٥)].

الوجه الثالث: ذكر بعض خصائص القرآن الكريم والإسلام.

١ـ الخلود: بمعنى أن دين الإسلام لا يزاحمه دين أبدًا، لأنه دين الفطرة، دين الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣).

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٧٠) وهو ضعيف، فيه سيف بن عمر التميمي ضعيف الحديث.

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٧٢٠) وعنه الطبري (٦/ ٢٧٠) وابن أبي حاتم (٦٤٨٧) من طريق معمر عن قتادة، وهذا إسناد صحيح.

(٣) الطبري (٦/ ٢٦٩) وابن أبي حاتم (٦٤٨٨) من طريق يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة. وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٩٦) إلي عبد بن حميد وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٥) فتح الباري (٦/ ٥٦٤)، وشرح النووي (٨/ ١٣٢).

أما الرسالات السماوية السابقة فهي موقوتة ومحلية وليست عالمية، ولا أدل على ذلك مما ورد على لسان المسيح نفسه حين قال: **مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ، تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِيًّا تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ**. متى (١٩/ ٢٨).

٢ـ العموم: فرسالات الأنبياء السابقين جميعًا كانت تخاطب أقوامًا بأعينهم وتخصهم بنداء ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فهي رسالات قومية محلية ترتبط بزمان ومكان وقوم.

أما رسالة سيدنا محمد ﷺ عامة. قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ: ٢٨)، ولذا قال النبي ﷺ: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ". (أي إلي الخلق كافة)[1].

وراجع المقدمة ففيها مزيد على ذلك.

فرسالة سيدنا محمد ﷺ غير محدودة بعصر ولا جيل ولا مكان ولا زمان ولا بشعب أو بطبقة بعينها بل هي رسالة الناس جميعًا ومن ثم نستطيع القول بأن رسالة الإسلام رسالة عامة للناس جميعًا وتشريعاتها متناسقة متكاملة توائم الفطرة الإنسانية.

أما الرسالات السابقة فهي خاصة بأقوام بدليل أن كل نبي كان يخاطب قومه ويخصهم بالذكر دون غيرهم. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ . . .﴾ (نوح: ١)، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ. . .﴾ (الأعراف: ٦٥)، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ (الأعراف: ٧٣). ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ . . .﴾ (الأعراف: ٨٥)، ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (إبراهيم: ٥).

ورسالة عيسى عليه السلام خاصة لبني إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ (آل عمران: ٤٩). وقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ (الصف: ٦).

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١) واللفظ له.

٣ـ الوضوح: مما تتميز به رسالة الإسلام في أصولها وقواعدها ومصادرها ومنابعها وأهدافها وغاياتها ومناهجها ووسائلها. وأول ما يبدو لنا واضحًا في أصول الإسلام وقواعده عقيدة التوحيد التي لا مكان فيها لتأليه بشر أو حجر. ولذلك كان نداء الإسلام الأول لأهل الكتاب قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران: ٦٤).

٤ـ حفظ الله للقرآن الكريم: إذا نظرنا نظرة واقعية إلى نصوص الكتب المقدسة قبل نزول القرآن الكريم يتضح أنها متضاربة تختلف في الأمر الواحد وذلك للأسباب الآتية:

١- ضياع النص الأصلي المنزل علي الأنبياء.

٢- فقدان السند.

٣- تعدد الروايات في القضية الواحدة وتضاربها.

٤- تدخل أيدي البشر بالتحريف والتبديل بالزيادة تارة والنقصان تارة أخرى وليس أدل علي تحريفها وتدخلهم في تبديلها وتغييرها من شهادة الله تعالي عليهم وهو خير الشاهدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ (آل عمران: ٧١)، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٩)، وغير ذلك من الآيات.

أما القرآن الكريم فاختص الله بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩)، فضلًا عن أن القرآن الكريم كتاب معجز. [1]

الوجه الرابع: بيان بعض أوجه الاتفاق والاختلاف في الشرائع.

(١) المجلة العلمية لكلية أصول الدين العدد٦ (٢٩٩: ٢٨٧) ملخصًا.

وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافًا كليًا، فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية، وقد سبق ذكر ذلك في الأهداف العامة للرسالات وإنما الاختلاف يكون في بعض التفاصيل (الفروع) فأعداد الصلوات وشروطها وأركانها ومقادير الزكاة ومواضع النسك ونحو ذلك قد تختلف من شريعة إلي شريعة وقد يحل الله أمرًا في شريعة لحكمة ويحرمه في شريعة أخري لحكمة، وهذه بعض الأمثلة:

أولًا: الصلاة

فكانت معروفة عند الرسل السابقين وأتباعهم كما قال الله تعالى بعد ذكر الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وأن الله وهب له إسحاق ويعقوب، قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٣)، ولذا قال إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ (إبراهيم: ٤٠). وفي حق شعيب عليه السلام حيث قال له قومه كما قال سبحانه: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ (هود: ٨٧). وفي حق إسماعيل عليه السلام حيث قال سبحانه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ (مريم: ٥٥). وموسي عليه السلام حيث قال الله تعالي: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ (طه: ١٤). وعيسي عليه السلام حيث قال الله سبحانه علي لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١). وفي حق زكريا عليه السلام قال الله سبحانه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران: ٣٩).

فالصلاة كانت معروفة عند إبراهيم عليه السلام: (**فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إِلَى اللهِ، فَشَفَى الله أَبِيمَالِكَ وَامْرَأَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ.**) تكوين (٢٠/ ١٧).

وإسحاق عليه السلام: (**وَصَلَّى إِسْحَاقُ إِلَى الرَّبِّ لأَجْلِ امْرَأَتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا، فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ، فَحَبِلَتْ**) تكوين (٢٥/ ٢١).

موسى عليه السلام: (**فَخَرَجَ مُوسَى مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ وَصَلَّى إِلَى الرَّبِّ**) خروج (١٠/ ١٨).

سليمان عليه السلام: (وَكَانَ لَمَّا انْتَهَى سُلَيْمَانُ مِنَ الصَّلاَةِ إِلَى الرَّبِّ بِكُلِّ هذِهِ الصَّلاَةِ وَالتَّضَرُّعِ) الملوك الأول (٨/ ٥٤)

وفي شريعة عيسى عليه السلام: (وَكُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ فِي الصَّلاَةِ مُؤْمِنِينَ تَنَالُونَهُ) متى (٢١/ ٢٢).

(وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ خَرَجَ إِلَى الْجَبَلِ لِيُصَلِّيَ. وَقَضَى اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي الصَّلاَةِ لله) لوقا (٦/ ١٢).

(هؤُلاَءِ كُلُّهُمْ كَانُوا يُواظِبُونَ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الصَّلاَةِ وَالطِّلْبَةِ، مَعَ النِّسَاءِ، وَمَرْيَمَ أُمِّ يَسُوعَ، وَمَعَ إِخْوَتِهِ.) أعمال الرسل (١/ ١٤).

(وَصَعِدَ بُطْرُسُ وَيُوحَنَّا مَعًا إِلَى الْهَيْكَلِ فِي سَاعَةِ الصَّلاَةِ التَّاسِعَةِ) أعمال الرسل (٣/ ١).

١ـ الصلاة في الشريعة الإسلامية:

ومن هنا نلاحظ أن الصلاة كانت مفروضة على من قبلنا كما فرضت على النبي ﷺ. لكن الاختلاف في الهيئة والصفة فعندنا في شريعتنا وهي شريعة النبي ﷺ. التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم مع النية بشرائط مخصوصة.

وقد ثبت فرضية الصلاة بالقرآن والسنة والإجماع، قال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقال ﷺ كما في حديث ابن عمر: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"(١). وهي محددة بمواقيت قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣).

وهي خمس صلوات كما عند الجمهور كما جاء في الحديث الأعرابي: أخبرني ما فرض الله علي من الصلوات؟ فقال: "خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ لَا إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ"(٢).

وإنها محددة بعدد ركعات علي ما فيها من سجود وركوع وقيام.

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن صلاة الظهر أربع ركعات يخافت فيها بالقراءة، ويجلس فيها جلستين في كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة العصر أربع كصلاة الظهر لا يجهر فيها بالقراءة، ويجلس فيها جلستين في كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة المغرب ثلاث يجهر في الركعتين الأولتين منها بالقراءة ويخافت في الثالثة، ويجلس في الركعتين الأولتين جلسة للتشهد وفي الآخرة جلسة، وأن عدد صلاة العشاء أربع، يجهر في الركعتين الأولتين منها بالقراءة، ويخافت في الأخريين ويجلس فيها جلستين كل مثنى جلسة للتشهد، وأن عدد صلاة الصبح ركعتان يجهر فيهما بالقراءة ويجلس فيها جلسة واحدة للتشهد هذا فرض المقيم، فأما المسافر ففرضه ركعتان إلا صلاة المغرب؛ فإن فرض المسافر في صلاة المغرب كفرض المقيم(١).

ومن هنا نلاحظ أن الشريعة الإسلامية حددت عدد الصلوات ومواقيت الصلوات وكيفية كل صلاة. هذا بخلاف ما فعله اليهود والنصارى في دينهم فقد بدلوا وغيروا وأضافوا ونقصوا. وإليك بعض الحديث عن ذلك.

الصلاة في المسيحية منها ما هو فردي يقوم به المسيحي وحده ومنها جماعي.

العبادة الفردية: هي العبادة الخاصة التي يكملها شخص أو أكثر في الكنيسة أو في أي مكان ولا تخضع لأي نظام فيكون للمسيحي أن يصلي في البيت أو الشارع أو ساحة المدرسة.

وأما العبادة الجماعية: فهى العبادة العامة التي تكملها الجماعة في الكنيسة على الغالب بقيادة كاهن وحسب ترتيب معين.

التسابيح السبع: تتضمن الخدمة التسبيحية سبع خدم إلهية تقام كل يوم. . . فهي صلاة نصف الليل، صلاة السحر والساعة الأولي، صلاة الساعة الثالثة، السادسة، التاسعة، الغروب، النوم

يقول الدكتور أحمد شلبي: وليس للصلاة المسيحية ترتيب خاص وإنما هي أدعية تختلف من مكان إلي مكان. وغاية ما يلزم أن تحويه أن تكون على نسق الصلاة الربانية.

---

(١) الأوسط لابن المنذر (٢/ ٣١٨).

يقول المستشار الطهطاوي: لا يوجد لدي المسيحيين نص عن عدد معين من الصلوات كل يوم أو مواقيت لها إلا أنهم يتشبهون ويقتبسون من اليهود العدد والوقت للصلاة. لذا قرروا لهم صلاتين إحداهما في الصباح والأخرى في المساء.[١]

وعلى هذا فهم يكثرون من الصلاة ويستندون في ذلك علي ماجاء في لوقا (**وَقَالَ لَهُمْ أَيْضًا مَثَلًا فِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلاَ يُمَلَّ**) لوقا (١٨/ ١).

وكما جاء في آخر رسالة بولس إلى أهل تسالونيكي (صلوا بلا انقطاع). رسالة بولس إلى تسالونيكي (٥/ ١٧).

لذا ازدادوا فيها سبع صلوات في اليوم والليلة وهي كالآتي: صلاة البكور، صلاة الساعة الثالثة، صلاة الساعة السادسة، صلاة الساعة التاسعة، صلاة الساعة الحادية عشر، صلاة الساعة الثانية عشر، صلاة منتصف الليل.[٢]

ثانيًا: الصوم.

١ـ الصوم في الشريعة الإسلامية:

هو الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الشمس إلي غروب الشمس مع نية التعبد لله تعالي. وصيام رمضان فرض على كل مسلم بالغ عاقل صحيح مقيم وهو ركن من أركان الإسلام دل علي وجوبه الكتاب والسنة والإجماع.

أما من الكتاب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

ومن السنة حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: "قَالَ رَسُولُ الله ﷺ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"[٣].

(١) شبهات المستشرقين د. ناصر محمد السيد (١٢٩: ١٢٦).

(٢) النصرانية والإسلام محمد عزت الطهطاوي (٨٧: ٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون على أن الصوم ركن من أركان الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة بحيث يكفر منكره، وأنه لا يسقط علي المكلف إلا بعذر من الأعذار الشرعية المعتبرة(١).

وعلي هذا فقد أصبح الفرض هو شهر رمضان، وأما غيره من الأيام فهو من المستحبات. والصوم كان مفروضًا على من قبلنا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ. . . ﴾ (البقرة ١٨٣).

كما قال قتادة في تفسيرها: كتب شهرُ رمضان على الناس، كما كُتب على الذين من قبلهم. قال: وقد كتب الله على الناس قبل أن ينزل رمضانُ صَوْمَ ثلاثة أيام من كل شهر(٢).

هذا وقد كان النبي ﷺ يصوم يوم عاشوراء؛ فلما ذهب إلي المدينة فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ: "مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى الله بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى قَالَ: فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ"(٣).

فلما فرض رمضان ترك النبي ﷺ الأمر في صيام عاشوراء ولم يأمر الصحابة بذلك وبقي الأمر على الاستحباب(٤).

وكان معروفًا في زمن داود عليه السلام: حيث قال ﷺ: "أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ كان يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا"(٥).

والصوم كان معروفًا قبل النبي ﷺ، وجاء النبي ﷺ ليضع له المعالم ويضبطه بالضوابط وهكذا كما هو معلوم في كتب السنة.

وأما اليهود والنصارى فحرفوا وبدلوا وجعلوه أعيادًا حسب مايراه الأحبار والرهبان وقد ينقلونه إلي أيام أخر إذا تعارض مع المصلحة ويزيدون وينقصون كذلك.

---

(١) المغني (٣/ ٣)، والمجموع (٦/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٧٨) من طريق معمر عن قتادة بإسناد صحيح، والطبري (٢/ ١٣٠) من طريق سعيد عن قتادة.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٠٢)، ومسلم (١١٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

ثالثا: الحج

١ـ الحج في الشريعة الإسلامية:

هو قصد بيت الله الحرام لأداء عبادة مخصوصة في زمن مخصوص بكيفية مخصوصة.

والحج فرض عين علي كل مكلف مستطيع في العمر مرة. وهو ركن من أركان الإسلام وقد ثبت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب: فقد قال سبحانه وتعالي: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

وأما من السنة: فقد وردت أحاديث كثيرة جدًّا بلغت حد التواتر تفيد اليقين والعلم القطعي الجازم بثبوت هذه الفريضة. ومن ذلك حديث ابن عمرأن النبيﷺ قال: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ"[(١)].

وأما الإجماع: فقد أجمعت الأمة علي وجوب الحج (على المستطيع) مرة واحدة في العمر وهو المعلوم بالدين بالضرورة يكفر جاحده[(٢)]

والحج له مواقيت: إما زمانية أو مكانية:

والزمانية: هي كما قال سبحانه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ (البقرة: ١٩٧)، أي: لايصح شيءمن أعمال الحج إلا فيها.

والمكانية: فهي كما في حديث ابن عباس قال: "وقت رسول الله ﷺ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ وَلِأَهْلِ الشَّأْمِ الْجُحْفَةَ وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ وَلِأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ. . . "[(٣)]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها "أن رسول اللهﷺ وقت لأهل العراق ذات عرق"[(٤)].

هذا وللحج أركان لا يصح إلا بها، وهي عند الجمهور أربعة: الإحرام، والوقوف

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) المغني (٣/ ١٥٩)، والمجموع (٧/ ٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٦٢)، ومسلم (١١٨١).

(٤) أخرجه أبو داود (١٧٣٩)، والنسائي (٥/ ١٢٣)، وصححه الألباني في الإرواء (٩٩٩).

بعرفة، وطواف الإفاضة، والسعي بين الصفا والمروة.

وله واجبات وسنن ومحظورات وضحت كتب السنة كل ذلك.

وقد حج النبي ﷺ حجة الوداع، ورواها لنا مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

هذا والحج كان قديمًا قبل بعثة النبي ﷺ فهي دعوة إبراهيم عليه السلام حيث أمره الله بالآذان بالحج، قال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ (الحج: ٢٧)، فكان في شريعة إبراهيم عليه السلام، هذا وكانت مناسك الحج معروفة قديمًا علي عهد الأنبياء قبل نبينا ﷺ. ففي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِوَادِي الْأَزْرَقِ، فَقَالَ: "أَيُّ وَادٍ هَذَا؟ فَقَالُوا هَذَا وَادِي الْأَزْرَقِ. قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطًا مِنْ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى الله بِالتَّلْبِيَةِ، ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى فَقَالَ: أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ قَالُوا ثَنِيَّةُ هَرْشَى قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ وَهُوَ يُلَبِّي"[(١)].

وأهل قريش كانوا يحجون استنادًا إلي ملة إبراهيم غير أنهم كانوا يشركون فكانوا يطوفون عراة يصفقون ويصفرون كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥)، ولذلك أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر في الحجة التي أمّره عليها قبل حجة الوداع أن يؤذن في الناس يوم النحر "لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ"[(٢)]. وكانوا يلبون لكن كانوا يشركون بالله في التلبية كما عند مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: "كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ فَيَقُولُونَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ"[(٣)].

إلى غير ذلك مما يحدث من أمور الشرك، فجاء النبي ﷺ ليوضح لهم شريعة الله في الحج فتعلم الصحابة ونقلوا هذه الشعيرة إلينا كما تعلموها وهكذا ينقلها الخالف عن

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (١١٨٥).

السالف، وهاأنا أوضح كيف بدل وحرف اليهود والنصارى في هذه الشعيرة التي لم تصبح عبادة؛ وإنما صارت عادة نظمها لهم أحبارهم ورهبانهم على حسب الأهواء لنعلم أن الشريعة الإسلامية هي المنهج الأسمى للبشر.

٢ ـ الحج عند اليهودية (العهد القديم):

لو أننا يممنا وجوهنا شطر شعيرة الحج في اليهودية والنصرانية لتبين لنا بوضوح الفروق الجوهرية بين الشعيرة في الرسالات الثلاث بل لا نغالي إذا قلنا: إن الحج كشعيرة لا وجود له في اليهودية والنصرانية المحرفتين، فليس في اليهودية حج بالمعني الذي يسبق إلى الذهن، وإنما هو مجرد أعياد مرتبطة بمواسم الحصاد. فيتعين على كل يهودي أن يحج ثلاث مرات في العام إلى القدس (عيد الفصح، وعيد الأسابيع، وعيد المظال) ولذا تسمي الأعياد (أعياد الحج)، وهذا ماجاء في سفر الخروج، (**ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تُعَيِّدُ لِي فِي السَّنَةِ. ١٥ تَحْفَظُ عِيدَ الْفَطِيرِ. تَأْكُلُ فَطِيرًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرْتُكَ فِي وَقْتِ شَهْرِ أَبِيبَ، لأَنَّهُ فِيهِ خَرَجْتَ مِنْ مِصْرَ. وَلاَ يَظْهَرُوا أَمَامِي فَارِغِينَ. ١٦ وَعِيدَ الْحَصَادِ أَبْكَارِ غَلاَّتِكَ الَّتِي تَزْرَعُ فِي الْحَقْلِ. وَعِيدَ الْجَمْعِ فِي نِهَايَةِ السَّنَةِ عِنْدَمَا تَجْمَعُ غَلاَّتِكَ مِنَ الْحَقْلِ. ١٧ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ يَظْهَرُ جَمِيعُ ذُكُورِكَ أَمَامَ السَّيِّدِ الرَّبِّ**). خروج (٢٣/ ١٧: ١٤)، ويراجع سفر التثنية (١٦/ ١٧: ١).

وكان اليهود يقدمون في حجهم قربانًا مشويًا للهيكل (الشواء) حيث كان يحرق تمامًا، فلا يبقي منه شيء للكهنة، وكان اليهود يحجون إلى مكان غير القدس يسمى (شيلوه)، وحين دخل داود القدس أصبحت مكانًا للعبادة الإسرائيلية والمكان الذي إليه أعضاء جماعة إسرائيل، وقد أسس ملوك المملكة الشمالية هيكلًا حتى لا يحج أحد منها إلى القدس في المملكة الجنوبية، وبعد هد الهيكل توقف الحج وبخاصة في عيد المظال[1].

٣ـ الحج في المسيحية (العهد الجديد):

ما قيل في اليهودية يقال في المسيحية فليس في المسيحية الحالية شعيرة يمكن أن يطلق عليها اسم الحج كما هو الحال في شعيرة الحج في الإسلام في كمالها وشمولها ووضوحها.

(١) موسوعة اليهود واليهودية د/ عبد الوهاب المسيري (١/ ٤١٢: ٤١١). شبهات المستشرقين/ ناصر محمد السيد (٣٩٣: ٣٨٣).

فلم يرو ولم تشر الأناجيل إلى ذلك ولم تظهر هذه العبارة في الكتابات المسيحية الأولي وكبقية العبادات خضعت هذه العبادة أو الشعيرة لاختراعات وابتداعات من قبل اللاهوتيين المسيحيين وخاصة البابا. والحج المسيحي إلي القدس ليس فريضة من الفرائض المنصوص عليها في المسيحية وإنما نشأ بعد الإمبراطورة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين. وقد زارت القدس سنة ٣٢٤. وعثرت علي الصليب الحقيقي كما تذكر بعض الروايات الضعيفة وصعدت هيلانة إلي مرتبة القداسة فعرفت بالقديسة.

وليس لهذا الحج طقوس أو مناسك، وباعتبار أن المسيح عليه السلام قد ولد في فلسطين ورفع إلى السماء منها فقد أنشئت كنيسة في الناصرة وكنيسة القيامة في مدينة القدس وكذلك كنيسة أخرى في بيت لحم. واعتبر المسيحيون كل بقعة تجول فيها المسيح مكانًا مقدسًا. وراح اللاهوتيون مع مرور السنين يفلسفون مفهوم الحج بأنه زيارة واجبة على كل مسيحي إلى تلك الأماكن المقدسة.

وأما مزارات الحج المسيحي: ففي المسيحية عدة أماكن يقصدها المسيحيون لحجهم:

١- الحج إلى مدينتي القدس وروما: وهي من أعظم مزارات الحج المسيحي باعتبار مولد صاحب الديانة والمركزية الدينية لهذه الديانة.

٢- الحج إلى مدينة (تريفس): وهي مدينة ألمانية يعتقد أن بها قميص المسيح الذي كان يرتديه.

٣- الحج إلي كنيسة (لودره) بفرنسا: والحج إليها ناتج عن إشاعة تقول: إن العذراء ظهرت لاثنين من رعاة مدينة لودره، وعلي مقربة من الكنيسة عين ماء يعتقدون أنه ماء مبارك يشفي المرضى.[1]

الوجه الخامس: ما هي فائدة الإنجيل بعد التوراة؟ وما هي فائدة تكرار الأناجيل؟

هذا سؤال يطرح نفسه الآن إذا كنتم تقولون بأن الذي قيل للنبي ﷺ هو نفس الذي قيل للأنبياء من قبله، فما هي فائدة القرآن؟

والجواب: زيادة ما تقدم أقول من نفس سؤالكم: فما هي فائدة الإنجيل بعد التوراة؟

---

(١) العقيدة النصرانية بين القرآن والأناجيل (٢/ ١٨٧: ١٨٢)، شبهات المستشرقين حول العبادات د. ناصر محمد السيد (٣٩٨: ٣٩٤).

مع أن يسوع قال: لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ١٨فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. ١٩فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ) متى (٥/ ١٩: ١٧).

ودقق في هذا اللفظ الذي ذكر عليك. ومع هذا الذي أنقله أيضًا عن يسوع حيث قال: (قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل. . . . وأما أنا فأقول لكم. . . . . . قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن. . . . . . . وأما أنا فأقول لكم. . . . . . . وقد قيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق وأما أنا فأقول لكم. . . . . .). متى (٥/ ٤٨: ٢١).

أظنك لاحظت الفرق، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فما هي فائدة تكرار الأناجيل وبعضها مقتبس من بعض بالحرف والتركيب. . . . . . ؟

ولا أرى مثلًا إلا كما قال سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤).

* * *

سورة الشورى

وفيها:

١- شبهة: استغفار الملائكة للبشر.

٢- شبهة: هل سيُبصر العصاة والظالمون يوم القيامة أم لا؟.

١ـ شبهة: استغفار الملائكة للبشر.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . ﴾ (غافر: ٧)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (الشورى: ٥).

قالوا: كيف يستغفرون لمن في الأرض وفيهم الكفار والمنافقين. ثم قالوا وأنكروا استغفار الملائكة أو شفاعتهم لهم، وإذا صح ذلك فلماذا أرسل الرسل؟ وماهي منافعهم؟

والجواب من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أهمية إرسال الأنبياء والرسل.

الوجه الثاني: علاقة الملائكة بالصالحين من بني آدم.

الوجه الثالث: آية الشورى خصصت بآية غافر فلا تعارض.

الوجه الرابع: الملائكة في سورة الشورى أعم من الملائكة في سورة غافر.

الوجه الخامس: الاستغفار بمعنى طلب الهداية لهم، وليس لمغفرة ذنوبهم.

الوجه السادس: بيان أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين إذا ماتوا على الشرك.

الوجه السابع: علاقة الملائكة بالبشر عندهم في الكتاب المقدس.

واليك التفصيل

الوجه الأول: أهمية إرسال الأنبياء والرسل.

ونتحدث في هذا الوجه على أهمية الأنبياء والحاجة إليهم وهذا في مباحث:

المبحث الأول: حاجة الناس للأنبياء والرسل:

أولًا: لقد خلق الله تعالى الإنسان وزوده بوسائل المعرفة؛ ليكون خليفة في الأرض حتى يعمرها ويسخر ما فيها لمعيشته ومن ثم يتخذها مقرا لعبادة الله تعالى.

ثانيًا: إن الإنسان رغم ما زوده الله تعالى به من وسائل معرفية إلا أنه لا يستطيع

الإحاطة في معرفته إلا بالقدر اليسير من كثير مما حوله في هذا الكون الفسيح المحسوس المرتبط ارتباطا وثيقا بحياته ذلك أن أكثر ما في هذا الكون يدخل في عالم الغيب النسبي أو المطلق بالنسبة للإنسان مما يجعله في حاجة إلى مصدر عليم بأمر الكون حتى يزوده بمعلومات تزيح عنه الستر وتكشف عنه بعض الغيب.

ثالثا: لما كان الإنسان مفطورًا على عبادة الله تعالى، كما أنه مأمور بذلك وجوبًا لزم أن تكون تلك العبادة على علم بالمعبود وهو الله تعالى وهذا العلم لا يمكن الوصول إليه مفصلًا بالعقول المجردة، كما أن العبادة لا يمكن معرفة كيفيتها بالعقول المجردة، وبذلك يكون الإنسان بحاجة دائمة إلى خبر من مصدر موثوق يمكنه من معرفة الله تعالى وكيفية عبادته.

رابعًا: إن الإنسان كائن اجتماعي لا يمكنه العيش منعزلًا عما حوله من كائنات وموجودات، فهو كذلك بحاجة إلى قواعد ونظم لترتيب حياته الفردية والاجتماعية والأسرية وبدون هذه النظم تصبح هذه العلاقات قائمة على الفوضى والتنازع، وارتباط هذه القوانين والنظم بالتشريع الإلهي يضمن لها الثبات والاستقرار؛ لأنها تصدر عن عليم بخلقه مدرك لمصالحهم إدراكًا كاملًا مطلقًا، أضف إلى ذلك أن الإنسان قد استقر في وجدانه أنه لا بد من حياة أخرى يجازى فيها الناس على أعمالهم في هذه الحياة الدنيا فكان مقتضى الحكمة أن يبين الله تعالى ذلك لخلقه.

خامسًا: الاتصال بين الله تعالى والإنسان يكون بواسطة الملائكة، ولكن لما كانت طبيعة الملائكة تختلف اختلافًا كاملًا عن البشر كان لا بد من وجود خصوصية في الصلة بين الملائكة وبين البشر؛ لذا قضى الله تعالى بحكمته البالغة أن يصطفي من البشر أفرادًا ذوي طبيعة خاصة ويعدهم إعدادًا خاصًا للتكيف مع طبيعة الاتصال بالملائكة حتى تتنزل هذه الملائكة عليهم بأحكام الله تعالى عليهم.

قال ابن تيمية: والرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء والرسالة روح العالم ونوره وحياته فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو فى ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام: ١٢٢)، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشى به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات، وسمى الله تعالى رسالته روحًا والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢).

فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور فالروح الحياة والنور النور. وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا ترجى الحياة معه أبدًا أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدًا فلا فلاح إلا بإتباع الرسول فان الله خص بالفلاح إتباعه المؤمنين وأنصاره كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، أي: لا مفلح إلا هم كما قال تعالى، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (آل عمران: ١٠٤).

فخص هؤلاء بالفلاح كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله، وما أنزل من قبله، ويوقنون بالآخرة وبالهدى والفلاح، فعلم بذلك أن الهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجودًا وعدمًا، وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء وبعث به جميع الرسل ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة وكذلك مسخ من مسخ قرده وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذه بأنواع

العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسل وإعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به واتبع غير سبيلهم[١].

قال ابن القيم: ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي وما لجرح بميت إيلام.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[٢].

وهذه الوجوه السابقة مجتمعة تؤكد الحاجة الأساسية لإرسال الرسل حتى يقوموا بتحقيق هذه الغايات.

المبحث الثاني: لماذا كان الرسل من البشر؟.

١- إن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة، وهذه الحكمة تظهر حين التأمل في رسالة أي رسول منهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٩٨/ ٩٣١٩).

(٢) زاد المعاد (١/ ٦٨: ٦٧).

٢- صعوبة رؤية الملائكة نسبة لاختلاف طبيعة الملائكة وطبيعة البشر؛ إذ الاتصال بالملائكة فيه عناء وجهد شديدين لا يحتمله جميع البشر، فقد جاء في الحديث إن الرسولﷺ كان يعاني من التنزيل شدة، وكان إذا نزل عليه الوحي تغير لونه، وتصبب عرقه، وارتعدت فرائصه، وكان من حوله يرون ذلك فيه، فكان إرسال الرسل من البشر ضروريًا كي يتمكنوا من مخاطبتهم، والفقه عنهم والاختلاط بهم، ولو أرسل الله ملائكة لما أمكنهم ذلك.

٣- إن الرسالة تقوم على تكليف المرسل إليهم ودعوتهم لامتثال ما يأمرهم به الرسول، فلو كان الرسول من الملائكة لأمكن الناس أن يحتجوا بعدم قدرتهم على هذه التكاليف نسبة لاختلاف طبيعة الملك المرسل؛ إذ يرون أنهم لا يستطيعون تحمل تلك التكاليف؛ لأنها لا تناسب طبيعتهم، لذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (الإسراء٩٥: ٩٤).

المبحث الثالث: وظائف الرسل:

لقد اصطفى الله تعالى رسله للقيام بوظائف محددة باعتبارهم سفراء الله تعالى إلى عباده وحملة وحيه وتتمثل هذه الوظائف في الآتي:

أولًا: البلاغ المبين: وهذه الوظيفة بالضرورة هي المهمة الأساسية للرسل إذ ما بعثهم الله تعالى إلا لإبلاغ الناس ما نزل إليهم من ربهم وقد جاء في القرآن الكريم ثلاث عشرة آية تنص على أن مهمة الرسول إنما هي (البلاغ) وقال الله تعالى آمرا رسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (المائدة: ٦٧)، والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة وعدم الخوف من الناس، لأن الرسول يأتي بما يخالف أهواء الناس ويهدد مركز قادتهم وكبراءهم المسيطرين على الناس بالباطل ويأمرهم بما يستنكرون ويكرهون لأنه خلاف ما اعتادوه، لذلك امتدح الله تعالى رسله قائلًا: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٩).

والرسول في بلاغه لرسالات الله تعالى مؤتمن في أدائه فلا يزيد فيها ولا ينقص منها ولو كان الأمر متعلقًا به شخصيًا وأوضح مثال على ذلك ما تكرر في القرآن الكريم من عتاب للنبي ﷺفي أكثر من موقف من ذلك حين أعرض عن عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى الذي جاءه يسأله في أمور دينه فأعرض عنه النبي ﷺمنشغلًا بدعوة بعض كبراء قريش فعاتبه الله تعالى في ذلك بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (عبس٢: ١).

ثانيًا: دعوة الناس إلى الدين الحق ببيان ما يجب عليهم: وهذه الوظيفة تعد من كمال البلاغ لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤) لأنه الذي يبين للناس الحق من الباطل ويدعوهم لإتباع الحق. وأعظم الحقائق التي دعت إليها الرسل جميعًا: توحيد الله تعالى وإفراده بالخلق والملك والتدبير والعبادة قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل٣٧)، وقال الله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقد ذكر الله تعالى أن الرسل قالوا لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (هود٥٠)، كما أن الرسل عليهم السلام يقومون بتعريف الناس بإلههم الواحد الأحد وصفاته وقد جاء ذلك في القرآن الكريم بأوجز عبارة في سورة الإخلاص قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

ويقوم الرسل بتصحيح كل ما يخالف هذا الاعتقاد في الله تعالى، مثل جعل شريك له في ملكه أو خلقه أو عبادته، أو جعل صاحبة له أو جعل ولد له، أو نسبة البنات إليه، فقد قال المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لقومه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢)، ولما طلب قوم موسى منه أن يجعل لهم إلها مثل الآلهة الصنمية التي رأوها عند المشركين قال الله تعالى حكاية عنه في ذلك: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (الأعراف ١٤٠ : ١٣٨).

وإضافة إلى ذلك فإن الرسل يقومون بتعليم الناس شئون عباداتهم وشعائرهم من صلاة وصيام وحج وزكاة وأحكام هذه العبادات مع التطبيق العملي النموذجي من الرسول كما قال الرسول ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وقال ﷺ في حجة الوداع التي مات بعدها: "يا أيها الناس خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا "[1].

ولا يقتصر الأمر على تطبيق الشعائر فقط بل يدعوهم إلى إتباعه وتطبيق جميع ما أنزل الله تعالى إليهم دون أن يجعلوا شيئا من تشريعاتهم لغير الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأعراف: ٣)، ثم إن الرسل في جميع ما يدعون الناس إليه يمثلون القدوة الحسنة والمثال المحتذى فهم يلتزمون بكل ما يأمرون الناس به ويجعلونه سلوكًا عامًا لهم في حياتهم لذلك قال الله تعالى بعد أن سرد سيرة كثير من الأنبياء في القرآن الكريم قال مخاطبا رسوله الكريم محمدﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وقال مخاطبا أمة محمد صلى الله عليه وسلم والناس أجمعين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١).

ثالثا: إقامة الحجة: لا أحد أحب إليه العذر من الله فلذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل كي لا يبقى للناس حجة يوم القيامة قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء: ١٦٥)، وفي يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين يأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلغها رسالة ربها وأقام عليها الحجة قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (النساء: ٤١)، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (النحل: ٨٩)، ولذلك فإن الذين يرفضون إتباع

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧).

الرسل لا يملكون إلا الاعتراف بظلمهم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ (الأنبياء١٥: ١٢).

رابعًا: التبشير والإنذار: إن الحياة الدنيا دار عمل ومزرعة للآخرة، وقد أرسل الله تعالى رسله وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وقد بين الله تعالى أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ ولما أنزل الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض هو وإبليس قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ (طه١٢٤: ١٢٣)، فلما كانت الغاية الأساسية من وجود الإنسان في حياته الدنيا هي طاعة أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه وكانت رسل الله تعالى هي المبينة لتلك الأحكام والمبلغة عن الله تعالى لزم أن تكون من مهام الرسل الكرام عليهم السلام مهمة التبشير لمن اتبع أوامر الله تعالى بالفوز الكبير في الدنيا والآخرة، والإنذار لمن خالف أوامره بالوعيد الشديد والعذاب الأليم في الآخرة حتى تقوم الحجة على الناس كما قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (الكهف: ٥٦).

وهذه الوظيفة تقتضيها حكمة الله تعالى وكمال عدله ولطفه بعباده؛ إذ إنه لا يتركهم سدى حتى يبين لهم ما يتقون فلا يؤخذون على حين غرة وغفلة بل كما قال الله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢)، ومن كمال رحمته وعدله أنه تكفل ببيان صنوف النعيم وألوان المتع التي أعدها لعباده المؤمنين كما بين أنواع العذاب المهلك التي أعدها للمجرمين الكافرين.

خامسًا: تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة: لقد خلق الله تعالى عباده حنفاء ولكن جاءتهم الشياطين فاجتالتهم وانحرفوا عن الفطرة السليمة التي كانوا عليها، ولا تزال شياطين الجن والإنس يزينون لهم الباطل ويثيرون فيهم الشبه والضلالات ولأجل ذلك يرسل الله تعالى رحمة منه رسله كلما زاغ الناس عن الطريق المستقيم قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: كان الناس أمة واحدة على التوحيد والإيمان وعبادة الله تعالى وحده فاختلفوا فأرسل الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين. ودعوة الرسل جميعا تقوم على التوحيد الخالص لله تعالى إلا أن كل رسول يختص بتقويم الانحراف الحادث في عصره وموطنه ذلك أن الانحراف على الصراط المستقيم يختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان فنوح عليه السلام أنكر على قومه عبادة الأصنام التي كانت عامة فيهم وكذلك إبراهيم عليه السلام إضافة إلى أنه أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها. وصالح عليه السلام أنكر على قومه الفساد في الأرض وإتباع المفسدين. ولوط عليه السلام حارب الشذوذ الجنسي المتفشي في قومه وشعيب عليه السلام قاوم جريمة الإفساد الاقتصادي المتمثل في تطفيف المكيال والميزان، وموسى عليه السلام وقف في وجه النزعة المادية التي انحرف إليها بنو إسرائيل، ولما كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فقد جاءت رسالته عامة شاملة لكل أسس التقويم والهداية التي جاءت في الكتب السماوية وزائدة عليها حتى تكون صالحة لكل زمان ومكان كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

وقد جاءت رسالة الإسلام - حتى تناسب ختم الرسالات - جاءت مرنة تصلح لكل زمان ومكان وبيان ذلك أن العقائد والعبادات في الإسلام جاءت بها نصوص قطعية مفصلة ثابتة لا تقبل التبديل ولا التعديل؛ لأن العقائد والعبادات في ذاتها لا تتبدل بتبدل الزمان ولا تختلف باختلاف الأعراف كما أن هيئات العبادات مناسبة لكل البشر في جميع العصور. أما الأوضاع الدستورية والمعاملات المادية والأحوال الإرادية التي يؤثر فيها تبدل الزمان والمكان واختلاف الأعراف فقد جاءت بها نصوص عامة كأسس ودعائم،

بينما ترك لاجتهاد الناس أن يضعوا فيما يتعلق بها أحكاما لكل زمان ما يصلح له ويناسبه بشرط المحافظة على هذه القواعد. وسبب آخر لختم الرسالات بالإسلام هو أن الأمم على عهد الرسل الأولين تعيش في عزلة لا تقارب بينهما ولا اتصال إلا على الوسائل البدائية، لكن الوضع تغير كثيرا بعد رسالة محمد ﷺ، فأصبحت المسافات مطوية والاتصال الأممي واقع - لا سيما في العهود المتأخرة- مما جعل حمل الرسالة إلى جميع من في الأرض متاحا فاقتضت حكمة الله تعالى ختم الرسالات بالإسلام كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.

سادسًا: تدبير شئون الأمة عامة وسياسة أمرها: إن المؤمنين بالرسل يكونون جماعة وأمة والجماعة لا يستقيم لها أمر إلا أن تكون تحت إمرة زعيم تدين له بالطاعة وتوكل إليه تدبير شئونها ورعاية مصالحها وتحقيق غاياتها وأهدافها ولما كان الرسول هو رمز الأمة وهاديها في شئون دينها إلى ربها لزم أن يكون قائدها في شئون دنياها حتى لا تنفصم عراها وتهن قواها بالصراع الموهوم بين السلطة الدينية والسلطة السياسية فالرسول يؤسس شئون الأمة جميعًا بهدى من الكتاب منير كما قال الله تعالى لداود ﷺ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ **وقال الله تعالى** ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ وقال رسول الله ﷺ: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي قام نبي "، وقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾.

والأنبياء في سياستهم هذه يمتازون بالآتي:

١- أنهم لا يعبرون بمواقفهم وسياستهم عن أهوائهم وتصوراتهم الخاصة بل هم في ذلك منقادون لوحي الله تعالى العليم الخبير بشئون عباده قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾، وقال الله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ

ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فما يدعون الناس إليه من مثل وقيم ومبادئ وسلوك عملي ليسوا متأثرين برؤيتهم الشخصية كالزعماء والمصلحين العاديين ولا بالقصور البشري الذي يعتري أفهام البشر وسلوكهم.

٢- أنهم لا يتعاملون مع الحلول الجزئية والمشكلات الجزئية وإنما يتعاملون مع الجذور الأصلية العميقة ويبحثون عن مكان الداء لاجتثاثه من أصله فلا يعالجون المشاكل بمعزل عن مثيلاتها ومسبباتها بل ينظرون إلى الأمور نظرة كلية شاملة واضعين في اعتبارهم طبائع النفوس البشرية.

٣- إن الحلول التي يقدمها الرسل ليست حلولًا نظرية أو تصورات عقلية مجردة كما تفعل الفلاسفة وإنما هي مناهج عملية منزَّلة من لدن حكيم خبير عليم بأحوال البشر والمجتمعات البشرية كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ ولذلك قدم الرسل نماذج راقية في قيادة المجتمعات إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة، وهذا النجاح مكفول لكل من سلك سبيل الأنبياء في هديهم وقيادتهم للأمم قال الله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (النور: ٥٥).

٤- إن الأنبياء في سياستهم يمثلون القدوة الصالحة لأممهم حيث تتمثل مبادئهم وقيمهم في سلوكهم وسياستهم فهم يرتفعون عن النقائص والعيوب الشائنة التي تشوب المصلحين العاديين بما فيهم من بذور حب التزعم والسيطرة والاستغلال والتسخير للمصالح الشخصية وغير ذلك من النقائص وقد وصف الله رسوله ﷺ مثنيا عليه وعلى المؤمنين بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

٥- إن الأنبياء وهم يسوسون شعوبهم لا يجعلون حياتهم منصرفة لمتاع الدنيا أو الالتباس الشديد بالماديات غافلين عن النواحي الروحية، بل هم في غمرة السياسة يذكّرونهم بالله تعالى ويربطون قلوب العباد بخالقهم فتسمو نفوسهم وتصفو قلوبهم وترقى غاياتهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ

﴿أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٧٧)، وقد ترسخت هذه القيم العالية والأهداف السامية حتى إن صحابة رسول الله ﷺ جعلوها ضمن أهدافهم عند دعوة عباد الله تعالى في الأرض إلى دين الله تعالى، فهذا ربعي بن عامر حين دخل على كسرى عظيم الروم عندما سأله كسرى: من أنتم؟ فأجابه: لقد بعثنا الله تعالى لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن ظلم الحكام إلى عدل الإسلام، ثم إن خلفاء الرسل يخلفونهم في تولي شئون العباد فيحكمون بمنهج الرسل ويسوسون الناس على سنن من هديهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وأولو الأمر هم العلماء والحكام.

ولكن الذين يتولون الأمر من بعد الرسول يجب عليهم الالتزام بقواعد الشرع في سياساتهم وأن يتبعوا سنة الرسول ﷺ في ذلك كما قال رسول الله ﷺ "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ " فطاعة أولي الأمر ليست طاعة مستقلة، بل هي تبع لطاعة الرسول ﷺ ومقيدة بها كما قال رسول الله ﷺ: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"، وقال ﷺ: " لا طاعة لمن عصى الله"، فهذه القيادة ليست حكما يقوم على مفهوم (الدولة الدينية) المستقرة في أذهان الغرب نتيجة لترسبات تاريخية سابقة عن فترة كنسية مرتبطة بظروفها التاريخية والموضوعية وإنما الدولة في مفهوم الإسلام تقوم على أسس ومبادئ وقيم يلتزم بها كل من الحاكم والمحكوم وليس لحاكم عصمة في أن يفعل مايشاء أو أن يتفرد بسلطة التشريع باسم النيابة عن الله تعالى ولا يتحكم في رقاب العباد باسم الوصاية والولاية على الشعب، بل هو مأمور بالمشاورة وأخذ الرأي في القضايا التي تمس جموع الأمة ويلتزم فيها برأي الجماعة ولو كان رأيهم خلافا لرأيه هو كما قال الله تعالى آمرا رسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

---

(١) الرسل والرسالات لعمر الأشقر (٥٤: ٢٩).

الوجه الثاني: علاقة الملائكة مع الصالحين من بني آدم.

فإن علاقة الملائكة بذرية آدمعليه السلامعلاقة وثيقة فهم يقومون عليه عند خلقه ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ويأتونه بالوحي من الله ويراقبون أعماله وتصرفاته وينزعون روحه إذا جاء أجله. لكن أريد أن أوضح في هذه الوجه علاقة الملائكة مع صالحي بني آدم خصوصًا لأن العلاقة تختلف مع الصالحين وغير الصالحين (العاصين والمنافقين) إلي الكفار. فلا شك أن العلاقة مع الصالحين الموحدين علاقة حب ورحمة. وأما مع غيرهم فهي علاقة بغض وشدة.

وإليك بعض هذه الصور الطيبة للعلاقة الصالحة:

١- استغفارهم للصالحين: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (غافر: ٧)، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الشورى: ٥)، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرةرضي الله عنهعن النبيصلى الله عليه وسلمقال: "صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً. . . . . "، وفيه"وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ يَقُولُونَ اللهمَّ ارْحَمْهُ اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ اللهمَّ تُبْ عليهِ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ"[1].

قلت: فهذا أقوى الأدلة على استغفار الملائكة لصالحي البشر. وفي الباب أيضًا حديث علىرضي الله عنهقال: "ما من رجل يعود مريضًا ممسيًا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة، ومن أتاه مصبحًا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي، وكان له خريف في الجنة"[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧)، مسلم (٦٤٩) واللفظ له.

(٢) حسن وهو في حكم المرفوع. أخرجه أحمد١/ ١٢٢، وأبوداود٣٠٩٨، والحاكم في المستدرك١/ ٣٥٠، والبيهقي٣/ ١٨١، أحمد١/ ١٢٠جميعًا من حديث شعبة، وأخرجه أبوداود (٣١٠٠) من حديث منصور، وفي العلل للدارقطني٢/ ٢٦٩من حديث أبي مريم عبد الغفار بن القاسم كلهم (شعبة ومنصور وعبد الغفار) عن الحكم بن عتيبة عن عبد الله بن نافع عن علي موقوفًا. . . . عبد الله بن نافع صدوق.

٢-شفاعتهم للموحدين عند الله: قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢٦)، وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبيﷺ وهو حديث الرؤية الطويل وفيه"... فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون"[(١)].

٣-محبتهم للمؤمنين: كما في الصحيحين من حديث أبي هريرةرضي الله عنه عن النبيﷺقال: **"إذَا أَحَبَّ الله الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ"**[(٢)].

٤-تسديد المؤمن: فقد دعا النبيﷺلحسان بن ثابت وهو يدافع عن النبيﷺ: "اللهمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ"[(٣)].

٥-يصلون على المؤمنين: قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الأحزاب: ٤٣).

وهم يصلون على النبي ﷺكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وفي حديث البراء بن عازبرضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهﷺيقول: "إِنَّ الله وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ"[(٤)].

٦-التأمين على دعاء المؤمنين: وبهذا يكون الدعاء أقرب إلي الله تعالى. لأنهم لا

وأخرجه أبو داود (٣٠٩٩)، ابن ماجه (١٤٤٢)، أحمد١/ ٨١، الحاكم ١/ ٣٤٩، البيهقي٣/ ٣٨٠ كلهم (أبو معاوية وأبو بكر وأبو شهاب الحناط) عن الأعمش عن الحكم بن عتيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن على... مرفوعًا. غير أن أبا شهاب أوقفه. قال أبو داود: أسند هذا عن على عن النبي ﷺ من غير وجه صحيح.

وقد تكلم الدار قطني عليه بكلام نفيس في العلل٣/ ٢٧٠: ٢٦٧، ورجح الطريق الموقوف.

قلت: وهو في حكم المرفوع خاصة وأن عليًا رضي الله عنه لا يروي الإسرائيليات.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، مسلم (١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، مسلم (٢٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢١٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٩٩٧)، أحمد٤/ ٢٨٥، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨١٦).

يعصون الله ما أمرهم. ففي حديث أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ"(١).

٧- شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم: ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: **"إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا. . ."**(٢).

٨- تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة: كما في الصحيحين من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِى صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِى فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ". (٣)

قلت: فهذا قليل من كثير من أعمال الملائكة وخصوصًا مع المؤمنين وإلا فالأعمال كثيرة. ولذا فإن واجب المؤمن تجاه الملائكة هو عدم إيذاء الملائكة والبعد عن كل ما يؤذي الملائكة من الذنوب والمعاصي وموالاة الملائكة كلهم(٤).

الوجه الثالث: آية الشورى خصصت بآية بغافر فلا تعارض.

والمعني ويستغفرون للمؤمنين لمن في الأرض قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٥) هي خاصة بمن آمن من أهل الأرض. وممن قال به قتادة: حيث قال في تفسيرها(للمؤمنين منهم) (٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٣، ٢٧٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، مسلم (٢٦٨٩) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢١١)، مسلم (٨٥٠).

(٤) للمزيد من الحديث حول الملائكة انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة. وكتاب الحبائك في أخبار الملائك للسيوطي ورسالة عالم الملائكة الأبرار عمر سليمان الأشقر.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٧٢٨) عن معمر عن قتادة بإسناد صحيح، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٣٧) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

والسدي: حيث قال في تفسيرها (للمؤمنين) [١]. والضحاك[٢]، وبهذا القول أكثر أهل العلم بالتفسير على أن الآية خاصة لأهل الإيمان من أهل الأرض[٣].

الوجه الرابع: الملائكة في سورة الشورى أعم من الملائكة في سورة غافر

أي أن حملة العرش هم المخصصون في الاستغفار للمؤمنين خاصة كما في سورة غافر، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (غافر: ٧).

وأما في سورة الشوري فهي تتحدث عن صنف آخر وملائكة الله كثيرون، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض على العموم[٤].

الوجه الخامس: الاستغفار بمعنى طلب الهداية لهم، وليس لمغفرة ذنوبهم

وهو أن الاستغفار من الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالى للكفرة على أن يبقوا كفرة. وإنما استغفارهم لهم بمعني طلب الهداية التي تؤدي إلي الغفران لهم. أي السعي فيما يستدعي المغفرة لهم وتأخير عقوبتهم طمعًا في إيمان الكافر وتوبة الفاسق. فهي في حق الكفار بواسطة طلب الإيمان لهم. وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم[٥].

الوجه السادس: لا يجوز الاستغفار للمشركين إذا ماتوا على الشرك.

والأدلة على ذلك: من القرآن:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ (التوبة ١١٤: ١١٣).

فهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار وتحريم الاستغفار لهم والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرًا من بعد ما ماتوا على الشرك وعبادة الأوثان لأن الله قضي أن لا يغفر لمشرك. فإن

---

(١) تفسير الطبري ٢٥/ ٨.

(٢) القرطبي في تفسيره١٦/ ٨.

(٣) تفسير الطبري في جامعه٢٥/ ٨، الكشاف٤/ ٢٠٩.

(٤) النكت والعيون٥/ ١٩٣، قال: وهو الظاهر من قول الكلبي.

(٥) المحرر الوجيز٤/ ٥٤٨، ٥/ ٢٦.

قالوا: إن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك فلم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه. فلما تبين له وعلم أنه لله عدو خلاه وتركه وترك الاستغفار(١).

الأدلة من السنة:

حديث وفاة أبي طالب عم النبي ﷺ لما أبى أن يقول: لا إله إلا الله، كما دعاه إلي ذلك رسول الله ﷺ وقال آخر ما قال (بل عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) فقال رسول الله ﷺ: "أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ" فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ (التوبة: ١١٣)، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (القصص: ٥٦)(٢).

قال العيني: فرض على جميع الأمة أن لايدعوا لمشرك ولا يستغفروا له إذا مات على الشرك(٣).

قال ابن تيمية: والاستغفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع(٤).

واتفق الفقهاء على أن الاستغفار للكافر محظور بل بالغ بعضهم فقال أن الاستغفار للكافر يقتضي كفر من فعله لأن فيه تكذيبًا للنصوص الواردة التي تدل على أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، وأن من مات على كفره فهو من أهل النار(٥).

الوجه السابع: إثبات علاقة الملائكة بالبشر عندهم من الكتاب المقدس

في هذا الوجه نبين علاقة الملائكة بالبشر عندهم وبيان أن العلاقة قائمة على الحفظ والرعاية والدعاء بالسلامة وغير ذلك، وهذا من خير البراهين على بطلان هذه الدعوي في إنكارهم لعلاقة الملائكة بالبشر على هذه الصورة. وإليك بعض الأدلة:

---

(١) جامع البيان١١/ ٤١: ٤٠، فتح البيان٥/ ٤١١

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، مسلم (٢٤)، واللفظ له.

(٣) عمدة القاري٨/ ١٩٣

(٤) مجموع الفتاوي١٢/ ٤٨٩

(٥) الموسوعة الفقهية٤/ ٤٣

١-البشرى والدعاء بالسلامة لمن في الأرض: وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. ١٠فَقَالَ لَهُمُ الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافُوا! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: ١١أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. ١٢وَهذِهِ لَكُمُ الْعَلاَمَةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً مُقَمَّطًا مُضْجَعًا فِي مِذْوَدٍ». ١٣وَظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ الْمَلاَكِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ الله وَقَائِلِينَ: ١٤«الْمَجْدُ لله فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ (لوقا ٢/ ١٤: ٩).

٢-يشجعون في وقت الخطر: لأَنَّهُ وَقَفَ بِي هذِهِ اللَّيْلَةَ مَلاَكُ الإِلهِ الَّذِي أَنَا لَهُ وَالَّذِي أَعْبُدُهُ، ٢٤قَائِلاً: لاَ تَخَفْ يَا بُولُسُ. يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَقِفَ أَمَامَ قَيْصَرَ. وَهُوَذَا قَدْ وَهَبَكَ الله جَمِيعَ الْمُسَافِرِينَ مَعَكَ. ٢٥لِذلِكَ سُرُّوا أَيُّهَا الرِّجَالُ، لأَنِّي أُومِنُ بِالله أَنَّهُ يَكُونُ هكَذَا كَمَا قِيلَ لِي (أعمال الرسل١٧/ ٢٥: ٢٣).

٣-يقولون الصالحين عند الممات: فَمَاتَ الْمِسْكِينُ وَحَمَلَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ. (لوقا١٦/ ٢٢).

٤-الحفظ والرعاية: لأَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ لِكَيْ يَحْفَظُوكَ فِي كُلِّ طُرُقِكَ. ١٢عَلَى الأَيْدِي يَحْمِلُونَكَ لِئَلاَّ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ. سفر المزامير٩١/ ١٢: ١١).

* * *

٢ـ شبهة: هل سيبصر العصاة والظالمون يوم القيامة أم لا؟.

نص الشبهة:

هناك تعارض في النظر للعصاة والظالمين في هذه الآيات: قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (الشورى: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ (قٓ: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء: ٩٧)، والسؤال: ينظرون، أو لا ينظرون؟.

والجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: الجمع بين قوله في سورة الشورى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وبين سورة ق: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وبيان أن كل آية في موقف آخر.

الوجه الثاني: الجمع في قوله في سورة الشورى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وبين قوله في سورة الإسراء ﴿وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ من هذه الوجوه:

الأول: بيان معنى عميًا وبكمًا وصمًا.

الثاني: بيان معنى من طرف خفي.

الثالث: أن أحوال ومواقف الناس تختلف يوم القيامة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الجمع بين قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ **وبين قوله تعالى:** ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

هو أن آية سورة الشورى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ في أحوال الآخرة، وأما سورة ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ في أحوال الدنيا عند الموت وعلى هذا فلا تعارض.

قلت: والدليل على ذلك سياق الآيات: ففي سورة الشورى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: ٤٤)، هذه الآية تقدمت عن الآية التي قال فيها سبحانه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، وهذا في مشهد يوم القيامة.

وأما عن آية سورة (ق) ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ فقد تقدم هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ (ق: ١٩)[١].

الوجه الثاني: الجمع بين قوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾، **وبين قوله سبحانه:** ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ **وما في الباب من آيات**

أولًا: بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ (الإسراء: ٩٧)، وهذا على قولين:

الأول: عميًا، لا يرون شيئًا يسرهم بكمًا لا ينطقون بحجة صمًا لا يسمعون شيئًا يسرهم[٢]، وهذا قول ابن عباس[٣].

الثاني: عميًا عن النظر إلى ما جعله الله لأوليائه، بكمًا عن مخاطبة الله، ومخاطبة الملائكة المقربين، صمًا عن ثناء الله على أوليائه.[٤]

وعلى كلا المعنيين للآية فُهم المراد وبعد ما ذكر ابن الجوزي هذا القول قال: وهو قول الأكثرين.

ثانيًا: بيان معنى قوله سبحانه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾

المعنى الأول: ذليل.

عن ابن عباس قوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ ذليل.[٥]

عن مجاهد في قوله: ﴿مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ قال: ذليل.[٦]

---

(١) الطبري ٢٥/ ٤١، القرطبي ١٦/ ٤٤، الخازن ٤/ ١٠٣، ابن كثير ١٢/ ٢٩١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥، زاد المسير ٥/ ٩٠، الرازي ٢١/ ٦١، القرطبي ١٠/ ٣٣٩.

(٣) الطبري ١٥/ ١٦٧ بإسناده. وفيه علي بن أبي طلحة صدوق قد يخطئ، قال أبو حاتم: لم يسمع من ابن عباس التفسير. وقال يعقوب بن إسحاق بن محمود: وسئل يعني: صالح بن محمد عن علي ممن سمع التفسير قال: من لا أحد. تهذيب الكمال، التقريب.

(٤) زاد المسير ٥/ ٩٠، الرازي ٢١/ ٦١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٤٩٠)، قال حدثنا أبي حدثنا أبو صالح حدثني معاوية عن علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس به. . . وقد تقدم الكلام في علي بن أبي طلحة في الوجه الأول.

(٦) الطبري ٢٥/ ٤٢ من طريق ابن أبي نجيح عن كمجاهد به. . . وابن أبي نجيح مدلس.

ومن قال بهذا ابن جرير الطبري. [١]

المعنى الثاني: يسارقون النظر إلى النار:

عن قتادة في قوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال يسارقون النظر [٢].

وعن السدي قال: يسارقون النظر [٣].

محمد بن كعب القرظي قال: يسارقون النظر إلى النار. [٤]

المعنى الثالث: أنهم ينظرون إلى النار بقلوبهم لأنهم يحشرون عميًا. [٥]

ونُقل هذا عن مجاهد.

الوجه الثالث: أن أحوال ومواقف الناس تختلف يوم القيامة

وهذا قول ابن عباس لما سأله رجلٌ فقال رأيت قوله ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (طه: ١٠٢)، وأخرى (عميًا)، قال: أن يوم القيامة فيه حالات يكونون في حال زرقًا وفي حال عميً [٦].

قال الشوكاني: وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر [٧].

وأخرج ابن مردويه [٨] عن عبد الله بن الصامت قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أرأيت قول الله: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المرسلات٣٦:

قال ابن حجر أكثر عن مجاهد وكان يدلس عنه وقد ذكره ابن حجر في الطبقة الثالثة، ويعني ذلك أنه لابد أن يصرح بالسماع. وقد عنن في هذه الرواية. طبقات المدلسين، ثم هو لم يسمع التفسير من مجاهد نص عليه القطان كما في التاريخ الكبير ٥/ ٢٣٣، والثقات ٧/ ٥.

(١) جامع البيان ٢٥/ ٤٢.

(٢) ابن جرير الطبري ٢٥/ ٤٢ بإسناد صحيح.

(٣) إسناده ضعيف. الطبري٢٥/ ٤٢ فيه: أسباط صدوق كثير الخطأ. أحمد بن المفضل صدوق سيئ الحفظ.

(٤) الدر المنثور للسيوطي ٧/ ٣٦١، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر

(٥) الطبري ٢٥/ ٤٢، القرطبي ١٦/ ٤٥، فتح القدير ٤/ ٧٦١، فتح البيان ١٢/ ٣١٧.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١٣٥٢٢).

(٧) الفتح القدير ٢/ ٦٤٩.

(٨) الدر المنثور للسيوطي (٨/ ٣٨٦).

٣٥)، قال: إن يوم القيامة يوم له حالات وتارات في حال لا ينطقون، وفي حال ينطقون، وفي حال يعتذرون، لا أحدثكم إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: "إذا كان يوم القيامة ينزل الجبار في ظلل من الغمام، وكل أمة جاثية في ثلاثة حجب مسيرة كل حجاب خمسون ألف سنة، حجاب من نور، وحجاب بن ظلمة، وحجاب من ماء، لا يرى لذلك فيأمر بذلك الماء فيعود في تلك الظلمة، ولا تسمع نفس ذلك القول إلا ذهبت فعند ذلك لا ينطقون".

قلت: وقد جمع الإمام القرطبي صاحب التذكرة في هذا الوجه كلامًا جيدًا فقال تحت باب بعنوان الجمع بين آيات وردت في الكتاب في الحشر ظاهرها التعارض.

منها قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ (يونس: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (الإسراء: ٩٧)، وفي آية ثالثة إنهم يقولون: ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (يس: ٥٢)، وهذا كلام و هو مضاد للبكم و التعارف تخاطب و هو مضاد للصم و البكم معًا، وقال الله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ ﴾ (الأعراف: ٦)، والسؤال لا يكون إلا بالاسماع و إلا لناطق يتسع للجواب، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (طه: ١٠٢)، وقال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ (يس: ٥١)، وقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ (المعارج: ٤٣)، والنسلان والإسراع مخالفان للحشر على الوجوه.

و الجواب: لمن سأل عن هذا الباب أن يقال له إن الناس إذا أحيوا و بعثوا من قبورهم فليست حالهم حالة واحدة و لا موقفهم و لا مقامهم واحدا و لكن لهم مواقف و أحوال و اختلفت الأخبار عنهم لاختلاف مواقفهم و أحوالهم و جملة ذلك أنها خمسة أحوال: **الأولى**: حال البعث من القبور. **والثانية**: حال السوق إلى مواضع الحساب. **والثالثة**: حال المحاسبة. **والرابعة**: حال السوق إلى دار الجزاء. **والخامسة**: حال مقامهم في الدار التي يستقرون فيها.

فأما حال البعث من القبور: فإن الكفار يكونون كاملي الحواس و الجوارح لقول الله تعالى: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ (يونس: ٤٥)، وقوله: ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا

﴿...(١٠٣)﴾ (طه: ١٠٢)، وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨)، وقوله: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢)﴾ إلى قوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون ١١٢: ١١٥).

والحالة الثانية: حال السوق إلى موضع الحساب و هم أيضًا في هذه الحال بحواس تامة لقوله ﷻ: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤)﴾ (الصافات ٢٤: ٢٢)، ومعنى ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ أي: دلوهم، ولا دلالة لأعمى أصم ولا سؤال لأبكم فثبت بهذا أنهم يكونون بأبصار وأسماع و ألسنة ناطقة.

والحالة الثالثة: و هي حالة المحاسبة و هم يكونون فيها أيضا كاملي الحواس ليسمعوا ما يقال لهم و يقرأوا كتبهم الناطقة بأعمالهم و تشهد عليهم جوارحهم بسيئاتهم فيسمعونها وقد أخبر الله تعالى أنهم يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ (الكهف: ٤٩)، وأنهم يقولون لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ (فصلت: ٢١)، وليشاهدوا أحوال القيامة، وما كانوا مكذبين في الدنيا به من شدتها وتصرف الأحوال بالناس فيها.

وأما الحالة الرابعة: وهي السوق إلى جهنم فإنهم يسلبون فيها أسماعهم و أبصارهم وألسنتهم لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ (الإسراء: ٩٧)، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ (٤١)﴾ (الرحمن: ٤١) إشارة إلى ما يشعرون به من سلب الأبصار والأسماع والمنطق.

والحالة الخامسة: حال الإقامة في النار و هذه الحالة تنقسم إلى بدو و مآل: فبدوها: أنهم إذا قطعوا المسافة التي بين موقف الحساب و شفير جهنم عميا وبكما و صما إذلالا لهم تمييزا عن غيرهم ثم ردت الحواس إليهم ليشاهدوا النار و ما أعد الله لهم فيها من العذاب و يعاينوا ملائكة العذاب و كل ما كانوا به مكذبين فيستقرون في النار ناطقين سامعين مبصرين و لهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (الشورى: ٤٥)، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ (الأنعام: ٢٧)، وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا

قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ (الأعراف٣٧: ٣٨)، وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الملك٩: ٨)، وأخبر تعالى أنهم ينادون أهل الجنة فيقولون: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ (الأعراف: ٥٠)، و أن أهل الجنة ينادونهم: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ (الأعراف: ٤٤)، وأنهم يقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فيقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧١)، وأنهم يقولون لخزنة جهنم: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، فيقولون لهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ (غافر: ٥٠).

وأما العقبى و المآل: فإنهم إذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ (المؤمنون: ١٠٧)، فقال الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون: ١٠٨)، و كتب عليهم الخلود بالمثل الذي يضرب لهم و هو أن يؤتى بكبش أملح و يسمى الموت ثم يذبح على الصراط بين الجنة و النار و ينادوا يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت سلبوا في ذلك الوقت أسماعهم و قد يجوز أن يسلبوا الأبصار و الكلام لكن سلب السمع يقين لأن الله تعالى يقول: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٠)، فإذا سلبوا الأسماع صاروا إلى الزفير و الشهيق و يحتمل أن تكون الحكمة في سلب الأسماع من قبل أنهم سمعوا نداء الرب سبحانه على ألسنة رسله فلم يجيبوه بل جحدوه و كذبوا به بعد قيام الحجة عليهم بصحته فلما كانت حجة الله عليهم في الدنيا الاستماع عاقبهم على كفرهم في الأخرى بسلب الأسماع يبين ذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت: ٥)، وقالوا ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ (فصلت: ٢٦)، وإن قوم نوح عليه السلام كانوا يستغشون ثيابهم تسترًا منه لئلا يروه و لا يسمعوا كلامه و قد أخبر الله تعالى عن الكفار في وقت نبينا محمد ﷺ مثله فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ (هود: ٥)،

و إن سلبت أبصارهم فلأنهم أبصروا الغير فلم يعتبروا و النطق فلأنهم أوتوه فكفروا فهذا وجه الجمع بين الآيات على ما قاله علماؤنا، والله أعلم[1].

* * *

(١) التذكرة (١٩٠: ١٨٨)، ويُراجع تفسير الطبري (١٥/ ١٦٧)، النكت والعيون (٥/ ٢٧٥)، وللمزيد من اختلاف أحوال الناس يوم القيامة يُراجع الموسوعة في تفسير سورة حول شبهة (يتساءلون ولا يتساءلون).

سورة النجم

شبهة: حول قول الله ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾.

نص الشبهة:

يقول القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾، واللمم كما قال المفسرون هو: القبلة و الغمزة و المباشرة وكل عمل سوى الإيلاج فكيف يبيح الله هذا مع تواتر الروايات عليه؟.

و الجواب على هذه الشبهة من عدة وجوه:

الوجه الأول: معنى اللمم.

الوجه الثاني: تفسير الآية.

الوجه الثالث: ليس في الآية دليل على الإباحة.

الوجه الرابع: تحذير النبي ﷺ من التهاون في اللمم.

الوجه الخامس: اللمم هي الصغائر دون الإصرار عليها.

الوجه السادس: معنى الآية متكامل.

الوجه السابع: الفواحش واللمم في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى اللمم.

قال ابن منظور: واللَّمَمُ مُقارِبَةُ الذنب وقيل اللّمَم ما دون الكبائر من الذنوب، وأَلَمَّ الرجلُ من اللَّمَمِ وهو صغار الذنوب، ويقال هو مقارَبة المعصية من غير مواقعة، وقال الأَخفش: اللَّمَمُ المُقارَبُ من الذنوب، و قال أبو إسحق: قيل اللّمَمُ نحو القُبْلة والنظْرة وما أَشبهها، وقيل إلاّ اللَّمَمَ إلاّ أن يكونَ العبدُ أَلَمَّ بفاحِشةٍ ثم تاب قال ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ غير أن اللَّمَم أن يكونَ الإنسان قد أَلَمَّ بالمعصية ولم يُصِرَّ عليه، وقال الفراء في قوله إلاّ اللّمَم يقول إلاّ المُتقارَبَ من الذنوب الصغيرة[1].

(١) لسان العرب (١٢/ ٥٤٩).

وقال أيضًا: أن يفعل الإنسان الشئ في الحين لا يكون له عادة.[1]، ويقال أيضًا: أصابت فلانًا من الجن لمة، وهو المس والشئ القليل[2].

الوجه الثاني: تفسير الآية.

قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجًا للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾.[3]

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ يعني ما كبر الوعيد عليه من المناهي، والفواحش يعني ما فحش منها، وقد فسر اللمم بقول النبي ﷺ: " كتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ الله كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ"[4].

قال الماوردي: وأما اللمم المستثنى ففيه ثمانية أقاويل:

١- إلا اللمم الذي ألموا به في الجاهلية من الإثم والفواحش فإنه معفو عنه في الإسلام، قاله زيد بن ثابت.

٢- هو أن يلم بها ويفعلها ثم يتوب منها، قاله الحسن ومجاهد.

---

(١) إعراب القرآن و بيانه (٩/ ٣٥٩).

(٢) مختار الصحاح (٤/ ١٦٤٤)، والقاموس المحيط (٢/ ١٥٢٥)، والمعجم الوسيط (٢/ ٨٧٣).

(٣) تفسير السعدي (٨٢١)، وأيسر التفاسير (٥/ ١٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، مسلم (٢٦٥٧).

٣- هو أن يعزم على المواقعة ثم يرجع عنها مقلعًا وقد روى عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أن النبي ﷺقال: إِنْ تَغْفِرِ اللهمْ تغفر جَمًّا. . . وَأَي عَبْدٍ لَّكَ لاَ أَلَمَّا. [1]

٤- أن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة، قاله ابن مسعود.

٥- أن اللمم الصغائر من الذنوب.

٦- أن اللمم ما لم يجب عليه حد في الدنيا ولم يستحق عليه في الآخرة عذاب، قاله ابن عباس، وقتادة.

٧- أن اللمم النظرة الأولى فإن عاد فليس بلمم، قاله بعض التابعين.

٨- أن اللمم النكاح، قاله أبو هريرة. [2]

الوجه الثالث: ليس في الآية دليل على الإباحة.

ليس معنى الآية أيها المؤمنون لا تفعلوا الكبائر، وافعلوا اللمم الذي هو المباشرة والقبلة والغمزة، إنما هي بمعنى الاستثناء المنقطع، فعلى هذا يكون معنى الكلام: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم الذي ألموا به من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، فإن الله قد عفا لهم عنه فلا يؤاخذهم به.

وهذا ما اختاره ابن جرير: ووجّه معنى الكلام إلى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ بما دون كبائر الإثم، ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فإن ذلك معفوّ لهم عنه، وذلك عندي نظير قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ (النساء٣١)، فهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال، وعد جلّ ثناؤه باجتناب الكبائر، العفو عما دونها من السيئات، وذلك هو اللمم، والله جل ثناؤه أكرم من أن يعود فيما قد عفا عنه[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٨٤) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦١٨)، ومشكاة المصابيح (٢٣٤٩).

(٢) تفسير الماوردي (٥/ ٤٠٠-٤٠١).

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ حذر من التهاون في اللمم وصغار الذنوب، وسماها (محقرات الذنوب).

عن عائشة رضي الله عنها قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا عائشة إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالبًا.[2]

قال السندي: قوله: "فإن لها من الله طالبًا" أي: فإن لها ملكًا يسألك مجئ من الله تعالى، كالمنكر والنكير في القبر مثلًا[3].

وعن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا**[4].

قال السندي: قوله: "ومحقرات الذنوب"بفتح القاف المشددة أي: صغائرها، "يهلكنه": إما لأن اعتيادها يؤدي إلى ارتكاب الكبائر من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه فيكون الهلاك بالكبائر التي تؤدي إليها الصغائر، وإما لأن تكفير الصغائر عند ارتكاب الكبائر جائز لا واجب كما ذكر كثير من أهل العلم، إما لأن اعتيادها يؤدي إلى قلة المبالاة بها، أو يوجب الهلاك، وإما الإصرار على الصغيرة كبيرة وهو محمل الحديث، والأقرب أن الحديث يدل على أن الإصرار على نوع الصغيرة أيضًا كبيرة وإن لم يصر على صغيرة واحدة

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٦٨)، وابن كثير (٢٧٢).

(٢) **صحيح**. أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣)، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، و ابن حبان في الصحيح (٥٥٦٨)، والطبراني في الأوسط (٢٣٧٧-٣٨٧٦)، وقال محققه: تفرد به، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٦٨)، ومسند الشهاب (٩٥٥)، وأخرجه أحمد في المسند (٦/ ٧٠)، و الدارمي (٢٧٢٦)، و صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢١)، و السلسلة الصحيحة (٥١٣-٢٧٣١).

(٣) أخرجه أحمد (٤٠/ ٤٧٨).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، و الطيالسي (٤٠٠)، والبيهقي في الشعب (٢٨٥)، والطبراني في الكبير (١٠٥٠٠)، والحميدي (٩٨)، وعبد الرازق في المصنف (٢٠٢٧٨)، والحديث صححه الألباني وقال: صحيح لغيره، صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٧٠).

بعينها، وهذا هو ظاهر المثل المذكور[١].

وعن أنس ﷺ قال: **إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْمُوبِقَاتِ. قَالَ أَبُو عَبْد الله يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ**[٢].

قال الحافظ ابن حجر: أي تعملون أعمالًا تحسبونها هينة وهي عظيمة، أو تؤول إلى العظم، وقال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كبارًا مع الإصرار[٣].

وكان الصحابة ﷺ يعدون الصغائر من الموبقات لشدة خشيتهم لله ﷻ ولم تكن لهم كبائر[٤].

الوجه الخامس: أن اللمم هي الصغائر دون الإصرار عليها.

لقد وصف الله ﷻ عباده المؤمنين في كتابه العزيز فقال ﷻ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿١٣٥﴾ ﴾ (آل عمران١٣٥)، أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار، وتابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله من قريب، ولم يستمروا على المعصية، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه[٥].

وقال ابن تيمية: وأما اللمم الذي يقترن به التوبة والاستغفار مما يعظم به الإنسان عند أولي الأبصار، وهذا عمر بن الخطاب ﷺ قد علم تعظيم رعيته له، وطاعتهم مع كونه دائما كان يعترف بما يرجع عنه من خطأ وكان إذا اعترف بذلك وعاد إلى الصواب زاد في أعينهم وازدادوا له محبة وتعظيمًا[٦].

---

(١) حاشية مسند أحمد (٦/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٣٧).

(٤) عمدة القاري (٢٣/ ٨١).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٥).

(٦) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٠٧-٤٠٨).

وقال العلماء: رحمهم والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة[١]، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه، قال سعيد بن جبير: قال رجل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار[٢].

وقال ابن تيمية: فإن الزنا من الكبائر وأما النظر والمباشرة فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل أن لا يأتي كبيرة ولا يصر على صغيرة[٣].

الوجه السادس: معنى الآية متكامل.

إن الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإن وقع منهم لمم خطأ وليس إصرارًا فإنه يغفر لهم، نقول للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، فالذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ووقع منهم بعض الصغائر أو لمم خطأ أو سهو أو نسيان فإنه يغفر لهم هذا اللمم، ومصداق ذلك قول الله عز وجل في كتابه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ أي: إن تجتنبوا كبائر الذنوب التي نهاكم الله عنها: ﴿ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ أي: ذنوبكم التي هي صغائر، وحمل السيئات على الصغائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها، وجعل اجتنابها شرطًا لتكفير السيئات، ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا ﴾ أي: مكان دخول، وهو الجنة[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب٥)، أي: وإنما الإثم على مَنْ تعمد الباطل كما قال

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٣٦٤).

(٢) عمدة القاري (٢٢/ ٨٤).

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٢٩٣).

(٤) فتح القدير (١/ ٦٨٤)، ابن كثير (٣/ ٤٤٨)، الطبري (٤/ ٤٤).

تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة٢٢٥) (١).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **" إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"**(٢).

وعن أبي هريرة ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: ما أخشى عليكم الفقر ولكني أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكني أخشى عليكم التعمد(٣).

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺعَنْ النَّبِيِّ ﷺف يما يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻقَالَ: **إِنَّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**(٤).

قال ابن بطال: فِي هَذَا الْحَدِيث بَيَان فَضْل الله الْعَظِيم عَلَى هَذِهِ الْأُمَّة لِأَنَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ كَادَ لَا يَدْخُل أَحَدٌ الْجَنَّة، لِأَنَّ عَمَلَ الْعِبَادِ لِلسَّيِّئَاتِ أَكْثَر مِنْ عَمَلِهِمْ الْحَسَنَاتِ؛ وَيُؤَيِّد مَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيث الْبَاب مِنْ الْإِثَابَة عَلَى الْهَمِّ بِالْحَسَنَةِ وَعَدَم الْمُؤَاخَذَة عَلَى الْهَمِّ بِالسَّيِّئَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة٢٨٦)(٥).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ الله تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ(٦).

الوجه السابع: الفواحش في الكتاب المقدس.

---

(١) تفسير ابن كثير (١١/ ١١٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٢)، و مشكاة المصابيح (٦٢٩٣)، وإرواء الغليل (٨٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٤) وقال صحيح على شرط مسلم لم يخرجه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (٢٢١٦)، والمناوي في القدير (٧٨٠١)، والبيهقي في الشعب (١٠٣١٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، مسلم (١٣١).

(٥) فتح الباري (١١/ ٣٣٦).

(٦) أخرجه البخاري (٢٥٢٨-٥٢٦٩)، مسلم (١٢٧).

في (حزقيال٢٣/ ١١: ١): وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: ٢ «يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، ٣ وَزَنَتَا بِمِصْرَ. فِي صِبَاهُمَا زَنَتَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. ٤ وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا. وَكَانَتَا لِي، وَوَلَدَتَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ. وَاسْمَاهُمَا: السَّامِرَةُ «أُهُولَةُ»، وَأُورُشَلِيمُ «أُهُولِيبَةُ». ٥ وَزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وَعَشِقَتْ مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الأَبْطَالَ ٦ اللاَّبِسِينَ الأَسْمَانْجُونِيَّ وُلاَةً وَشِحَنًا، كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ، فُرْسَانٌ رَاكِبُونَ الْخَيْلَ. ٧ فَدَفَعَتْ لَهُمْ عُقْرَهَا لِمُخْتَارِي بَنِي أَشُّورَ كُلِّهِمْ، وَتَنَجَّسَتْ بِكُلِّ مَنْ عَشِقَتْهُمْ بِكُلِّ أَصْنَامِهِمْ. ٨ وَلَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضًا، لأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا، وَزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عِذْرَتِهَا وَسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ. ٩ لِذلِكَ سَلَّمْتُهَا لِيَدِ عُشَّاقِهَا، لِيَدِ بَنِي أَشُّورَ الَّذِينَ عَشِقَتْهُمْ. ١٠ هُمْ كَشَفُوا عَوْرَتَهَا. أَخَذُوا بَنِيهَا وَبَنَاتِهَا، وَذَبَحُوهَا بِالسَّيْفِ، فَصَارَتْ عِبْرَةً لِلنِّسَاءِ. وَأَجْرَوْا عَلَيْهَا حُكْمًا. ١١ «فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَا أُخْتِهَا.

وفي (إشعياء٢٣/ ١٨: ١٧): وَيَكُونُ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً أَنَّ الرَّبَّ يَتَعَهَّدُ صُورَ فَتَعُودُ إِلَى أُجْرَتِهَا، وَتَزْنِي مَعَ كُلِّ مَمَالِكِ الْبِلاَدِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. ١٨ وَتَكُونُ تِجَارَتُهَا وَأُجْرَتُهَا قُدْسًا لِلرَّبِّ. لاَ تُخْزَنُ وَلاَ تُكْنَزُ، بَلْ تَكُونُ تِجَارَتُهَا لِلْمُقِيمِينَ أَمَامَ الرَّبِّ، لأَكْلٍ إِلَى الشِّبَعِ وَلِلِبَاسٍ فَاخِرٍ.

* * * *

سورة القمر

وفيها:

١- شبهة: إنكار معجزة انشقاق القمر.

٢- شبهة: كيف كان هلاك عاد؟

١ـ شبهة: إنكار معجزة انشقاق القمر.

نص الشبهة:

إنكار وقوع معجزة انشقاق القمر لهذه الأدلة:

١- أن معنى آية: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي سينشق يوم القيامة كما قال بعض المفسرين.

٢- أن في روايات ابن مسعود تَعارُض مع روايات الذين لم يعاصروا هذه المعجزة، فكيف تقبل روايتهم؟.

٣- تعارض هذه المعجزة مع آية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء ٥٩).

٤- لو وقعت ما أهملها تاريخ الأمم الأخرى.

٥-أن هذا مغاير لطبيعة الأفلاك السماوية.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: القرآن أثبت وقوع معجزة انشقاق القمر في عهد النبيﷺ.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ دليل على وقوع هذه المعجزة.

الوجه الثالث: تواتر هذه المعجزة عن النبي ﷺ.

الوجه الرابع: الإجماع على وقوع هذه المعجزة.

الوجه الخامس: ذكر المعجزة في القرآن دليل على ثبوتها.

الوجه السادس: ذكر الكتاب المقدس لأحداث لم يذكرها التاريخ.

الوجه السابع: ماذا عن المعجزات ومعجزات يسوع كما فى الكتاب المقدس؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن أثبت وقوع معجزة انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ١ -٢).

قال الطبري: وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وانفلق القمر، وكان ذلك فيما ذُكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر، آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوّته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمرّ، سحرنا محمد، فقال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ۝٢﴾.

الوجه الثاني: قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾ **دليل على وقوع هذه المعجزة.**

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر. (١)

الوجه الثالث: تواتر هذه المعجزة عن النبي ﷺ.

عن عبد الله بن مسعود ﷺقال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين فقال النبي ﷺ: "اشهدوا". (٢)

وفي لفظ آخر للبخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى فقال: " اشهدوا "، وذهبت فرقة نحو الجبل. (٣)

وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله انشق بمكة وتابعه محمد بن مسلم عن ابن نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله- عن ابن عمرقال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺفلقتين فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبل فقال رسول الله: ﷺ "اللهم اشهد ". (٤)

عن أنس بن مالك ﷺ: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺأن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر. (٥)

عن ابن عباس: أن القمر انشق في زمان النبي ﷺ. (٦)

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٢).

(٦) أخرجه البخاري (٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٢).

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِ: قَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيث جَمَاعَة كَثِيرَة مِنْ الصَّحَابَة، وَرَوَى ذَلِكَ عَنْهُمْ أَمْثَالهمْ مِنْ التَّابِعِينَ، ثُمَّ نَقَلَهُ عَنْهُمْ الْجَمّ الْغَفِير إِلَى أَنْ اِنْتَهَى إِلَيْنَا. (١)

قال القاضي عياض: بعد ما ذكر أن كثيرًا من الآيات المأثورة عنه -معلومة بالقطع- ما نصه: أما انشقاق القمر؛ فالقرآن نص بوقوعه، وأخبر بوجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، فلا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك في قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه. (٢)

الوجه الرابع: الإجماع على وقوع هذه المعجزة.

وقد روى حديث الانشقاق جماعةٌ، منهم: عبد الله بن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعلى هذا جميع المفسرين، إلاّ أن قومًا شذُّوا فقالوا: سيَنْشَقُّ يوم القيامة، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع. (٣)

وقال ابن حجر: أجمع المفسرون وأهل السير على وقوعه. (٤)

الوجه الخامس: ذكر المعجزة في القرآن دليل على ثبوتها.

فلو أن القرآن سجل شيئًا لم يقع، أي: لو أن القمر لم ينشق لكانت الفرصة لكفار قريش ليقولوا: محمد يزعم أن القمر قد انشق وأننا رأيناه، وأننا قد قلنا هذا سحر وما وقع من ذلك شيء، أما المسلمون فكان منهم من سيرتد عن الإسلام إ ذ كيف يكذب عليهم

ويقول وقع انشقاق ولم يقع؟.

ولكن ما الذي حدث؟ الذي حدث أن ثبت المسلمون على إسلامهم واستمروا على إيمانهم وازدادوا إيمانًا، وتحول الكفار من الكفر إلى الإسلام وأصبحوا بعد ذلك من جيش الإسلام.

أما عن قولهم أن المراد بقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: سينشق يوم القيامة:

---

(١) نقلًا عن فتح الباري (٧/ ١٨٦).

(٢) الشفا للقاضي عياض (٢٥٥).

(٣) زاد المسير لابن الجوزى (٨/ ٨٨).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٨٥).

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر[١].

وهذا أمر متفق عليه بين العلماء- أي انشقاق القمر- قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات[٢].

قال ابن الجوزى: وعلى هذا جميع المفسرين- أي انشقاق القمر-، إلاّ أن قومًا شذُّوا فقالوا: سيَنْشَقُّ يوم القيامة. وقد روى عثمان بن عطاء عن أبيه نحو ذلك، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع، ولأن قوله: ﴿وَٱنشَقَّ﴾ لفظ ماض، وحَمْلُ لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل، وليس ذلك موجودًا. وفي قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾ دليل على أنه قد كان ذلك. [٣]

قال الشوكانى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ أي: وقد انشقّ القمر، وكذا قرأ حذيفة بزيادة ﴿قد﴾، والمراد الانشقاق الواقع في أيام النبوّة معجزة لرسول الله ﷺ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. قال الواحدى: وجماعة المفسرين على هذا إلاّ ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى: سينشقّ القمر، والعلماء كلهم على خلافه. قال: وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوّة محمد ﷺ، ونبوّته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة. . . . ثم قال- أى الشوكانى- قال الزجاج: زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله (أن القمر ينشق يوم القيامة)، والأمر بين في الغلط وإجماع أهل العلم علي قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾ يدل على أن هذا كان في الدنيا لا في القيامة، ولم يأت من خالف الجمهور وقال إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد فقال: لأنه لو انشق في زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية والناس في الآيات سواء.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٣).

(٣) زاد المسير لابن الجوزى (٨/ ٨٨).

ويجاب عنه: بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلًا ولا شرعًا ولا عادة، ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر وهذا بمجرده يدفع الاستبعاد ويضرب به في وجه قائله.

والحاصل: أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد أخبرنا بأنه انشق ولم يخبرنا بأنه سينشق وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ واستبعاد من استبعد. [(١)]

أما عن ادعائهم التعارض فى روايتي ابن مسعود ﷺ بقوله انشق القمر ونحن بمنى والأخرى قال فيها بمكة، أومع غيرها من الروايات الأخرى وباقى الصحابة لم يعاصروا هذه المعجزة! أما عن الأولى فأجاب ابن حجر عن ذلك قائلًا: والجمع بين قول ابن مسعود (تارة بمنى وتارة بمكة) إما باعتبار التعدد إن ثبت، وإما بالحمل على أنه كان بمنى، ومن قال: كان بمكة لا ينافيه؛ لأن من كان بمنى كان بمكة من غير عكس، ويؤيده أن الرواية التي فيها بمنى قال فيها: (ونحن بمنى)، والرواية التي فيها بمكة لم يقل فيها (ونحن)، وإنما قال: (انشق القمر بمكة) يعني أن الإنشقاق كان وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة، وبهذا تندفع دعوى الداوودي أن بين الخبرين تضادا، والله أعلم.

وقال: وقد وقع عند ابن مردويه بيان المراد فأخرجه من وجه آخر عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ونحن بمكة قبل أن نصير إلى المدينة فوضح أن مراده بذكر مكة الإشارة إلى أن ذلك وقع قبل الهجرة، ويجوز أن ذلك وقع وهم ليلتئذ بمنى.

ورواية (رأيت القمر على الجبل وقد انشق، فأبصرت الجبل بين فرجتي القمر) ورواية (فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما)، لا تعارض بينهما البتة، وكذا رواية (انشق القمر فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه) فإنها قريبة من معناهما.

فلم يبق إلا ما ظاهره التعارض بين هاتين الروايتين (رأيت القمر منشقًا شقتين؛ شقة على أبي قبيس، وشقة على السويداء)، ورواية (فانشق القمر نصفين؛ نصفًا على الصفا، ونصفًاعلي المروة، وهذا ليس فيه إشكال؛ فإن نظر الإنسان يختلف بحسب الزاوية التي

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٦٩-١٧٠).

ينظر منها، فمرة يرى القمر فوق أبي قبيس، ثم إذا تحرك رآه على الصفا وهكذا، أو هو بحسب اختلاف جهة الناظرين، فبعضهم يراه من زاوية والآخرين من زواية أخرى.

وقال ابن حجر: (رَأَيْت الْقَمَر مُنْشَقًّا شقَّتَيْنِ): شقَّة عَلَى أَبِي قُبَيْس، وَشُقَّة عَلَى السُّوَيْدَاء - وَالسُّوَيْدَاء بِالْمُهْمَلَةِ وَالتَّصْغِير نَاحِيَة خَارِجَة مَكَّة عِنْدهَا جَبَل-، وَقَوْل اِبْن مَسْعُود: عَلَى أَبِي قُبَيْس. يَحْتَمِل أَنْ يَكُون رَآهُ كَذَلِكَ وَهُوَ بِمِنًى، كَأَنْ يَكُون عَلَى مَكَان مُرْتَفِع بِحَيْثُ رَأَى طَرَف جَبَل أَبِي قُبَيْس، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْقَمَر اِسْتَمَرَّ مُنْشَقًّا حَتَّى رَجَعَ اِبْن مَسْعُود مِنْ مِنًى إِلَى مَكَّة، فَرَآهُ كَذَلِكَ وَفِيهِ بُعْد، وَالَّذِي يَقْتَضِيه غَالِب الرِّوَايَات أَنَّ الِانْشِقَاق كَانَ قُرْب غُرُوبه، وَيُؤَيِّد ذَلِكَ إِسْنَادهمْ الرُّؤْيَة إِلَى جِهَة الْجَبَل، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الِانْشِقَاق وَقَعَ أَوَّل طُلُوعه؛ فَإِنَّ فِي بَعْض الرِّوَايَات أَنَّ ذَلِكَ كَانَ لَيْلَة الْبَدْر، أَوْ التَّعْبِير بِأَبِي قُبَيْس مِنْ تَغْيِير بَعْض الرُّوَاة؛ لِأَنَّ الْغَرَض ثُبُوت رُؤْيَته مُنْشَقًّا، إِحْدَى الشِّقَّتَيْنِ عَلَى جَبَل، وَالْأُخْرَى عَلَى جَبَل آخَر، وَلَا يُغَايِر ذَلِكَ قَوْل الرَّاوِي الْآخَر: رَأَيْت الْجَبَل بَيْنهمَا. أَيْ بَيْن الْفِرْقَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتْ فِرْقَة عَنْ يَمِين الْجَبَل، وَفِرْقَة عَنْ يَسَاره مِثْلًا صَدَقَ أَنَّهُ بَيْنهمَا، وَأَيّ جَبَل آخَر كَانَ مِنْ جِهَة يَمِينه أَوْ يَسَاره صَدَقَ أَنَّهَا عَلَيْهِ أَيْضًا. (١)

ولو سلمنا التعارض التام بين هاتين اللفظتين من كل جهة، فهذا لا يضر في أصل الحديث، وأقصى ما فيه أن ابن مسعود ﷺ، أو أحد الرواة عنه كان يهم في اسم الجبلين، فتارة يقول: (شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء)، وتارة (فانشق القمر نصفين، نصفًا على الصفا، ونصفًا المروة)، وأما أصل الحديث وهو الشاهد منه، أن القمر انشق فليس فيها أي اضطراب أو نسيان أو وهم. (٢)

أما عن قولهم إن باقى الصحابة لم يعاصروا وقوع هذه المعجزة وهذه من المراسيل.

قال ابن الصلاح: ثم إنا لم نعد في أنواع المرسل ما يسمى في أصول الفقه مرسل الصحابي، مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصحابة عن رسول الله – ولم

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٨٥، ١٨٤).

(٢) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري لعبد المحسن المطيري (١٩).

يسمعوه منه-؛ لأن ذلك في حكم الموصول المسند. (١)

قال ابن كثير: وقد حكى بعضهم الإجماع على قبول مراسيل الصحابة. (٢)

ثم لو سلمنا بعدم قبول رواية مرسل الصحابي، فقد رواه ابن مسعود مشاهدة، وهو ليس بمرسل في حقه، وكذلك رواه ورآه علي بن أبي طالب، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر. (٣)

أما عن قولهم إن حدوث هذه المعجزة يتعارض مع آية:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا ۝٥٩﴾ (الإسراء: ٥٩).

والجواب على ذلك بما يلي:

١- لقد طلبت قريش من النبي محمد ﷺ آية بعينها فلم تنزل حتى لا يقع العذاب عليهم:

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ في الكلام حذف والتقدير: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم قال معناه قتادة و ابن جريج وغيرهما فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنًا، وقد تقدم في الأنعام وغيرها أنهم طلبوا أن يحول الله لهم الصفا ذهبًا وتتنحى الجبال عنهم فنزل جبريل وقال: إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا وإن شئت استأنيت بهم فقال: "لا بل استأن بهم"، وأن الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم، وأن الثانية في محل رفع، والباء في بالآيات زائدة ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والله تعالى لا يكون ممنوعًا عن شيء فالمعنى: المبالغة في أنه لا يفعل؛ فكأنه قد منع عنه ثم بين ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها. (٤)

٢- أنزل الله الآيات كانشقاق القمر، وطلبوا آيات أخرى فلما لم يؤمنوا منع الله إرسال الآيات.

---

(١) علوم الحديث للحافظ أبي عمرو بن الصلاح (٧٥).

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (١/ ٦).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٨٢).

(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٤٤).

لما أنزل الله الآيات كانشقاق القمر، اجتمع إليه المشركون بعد مدة فسألوه أن يأتي إليهم بالله والملائكة قبيلًا، وسألوه أن يرد لهم أجدادهم الماضين، ويكون فيهم قصي بن كلاب ليسألوه أحق ماأتي به أم لا؟.

وطلبوا منه أن يزحزح عنهم جبال مكة، ويفجر لهم في بطحائها أنهارًا، وسألوه أن يسقط عليهم من السماء كسفًا، وأن يكون له بيت من زخرف ويرقي في السماء، ويأتيهم بكتاب مع الملائكة يشهدون، وهذا كله منصوص في السورة السابعة عشر من القرآن فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣)، وقال تعالي: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ يعني هذه الآيات التي طلبوها منه، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩) يشير إلي تكذيبهم بانشقاق القمر قبل ذلك. وتكذيب الأنبياء من قبله.[1]

وأما انشقاق القمر فإنه آية لم يطلبها المشركون بعينها؛ وإنما طلبوا آية دون تحديد فانشق القمر، كما في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر.

وبهذا يتبين أنه لا تعارض يبن انشقاق القمر ومضمون الآية الكريمة ولله الحمد والمنة.

أما عن قولهم لو وقع ذلك لرآها كثير من الناس وما أهمله أهل التاريخ وتواتر عندهم:

والرد على هذا من وجوه:

الوجه الأول: يكفينا ثبوتها فى القرآن وتواترها في سنة النبي محمد ﷺ وقد سبق بيان ذلك فى أول البحث.

الوجه الثاني: **قال الحافظ ابن حجر**: إِنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَيْلًا وَأَكْثَر النَّاس نِيَام وَالْأَبْوَاب مُغَلَّقَة، وَقَلَّ مَنْ يُرَاصِد السَّمَاء إِلَّا النَّادِر، وَقَدْ يَقَع بِالْمُشَاهَدَةِ فِي الْعَادَة أَنْ يَنْكَسِف الْقَمَر، وَتَبْدُو الْكَوَاكِب الْعِظَام وَغَيْر ذَلِكَ فِي اللَّيْل وَلَا يُشَاهِدهَا إِلَّا الْآحَاد، فَكَذَلِكَ الِانْشِقَاق كَانَ آيَة وَقَعَتْ فِي اللَّيْل لِقَوْمٍ سَأَلُوا وَاقْتَرَحُوا فَلَمْ يَتَأَهَّب غَيْرهمْ لَهَا، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْقَمَر لَيْلَتئِذٍ كَانَ فِي بَعْض الْمَنَازِل الَّتِي تَظْهَر لِبَعْضِ أَهْل الْآفَاق دُون بَعْض كَمَا يَظْهَر

(١) بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي (٢٠٠).

الْكُسُوف لِقَوْمٍ دُون قَوْم. وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: اِنْشِقَاق الْقَمَر آيَة عَظِيمَة لَا يَكَاد يَعْدِلهَا شَيْء مِنْ آيَات الْأَنْبِيَاء، وَذَلِكَ أَنَّهُ ظَهَرَ فِي مَلَكُوت السَّمَاء خَارِجًا مِنْ جُمْلَة طِبَاع مَا فِي هَذَا الْعَالَم الْمُرَكَّب مِنْ الطَّبَائِع، فَلَيْسَ مِمَّا يُطْمَع فِي الْوُصُول إِلَيْهِ بِحِيلَةٍ، فَلِذَلِكَ صَارَ الْبُرْهَان بِهِ أَظْهَر، وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ بَعْضهمْ فَقَالَ: لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمْ يَجُز أَنْ يَخْفَى أَمْره عَلَى عَوَامّ النَّاس لِأَنَّهُ أَمْر صَدَرَ عَنْ حِسّ وَمُشَاهَدَة فَالنَّاس فِيهِ شُرَكَاء وَالدَّوَاعِي مُتَوَفِّرَة عَلَى رُؤْيَة كُلّ غَرِيب وَنَقْل مَا لَمْ يُعْهَد، فَلَوْ كَانَ لِذَلِكَ أَصْل لَخُلِّدَ فِي كُتُب أَهْل التَّسْيِير وَالتَّنْجِيم، إِذْ لَا يَجُوز إِطْبَاقهمْ عَلَى تَرْكه وَإِغْفَاله مَعَ جَلَالَة شَأْنه وَوُضُوح أَمْره. وَالْجَوَاب عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّة خَرَجَتْ عَنْ بَقِيَّة الْأُمُور الَّتِي ذَكَرُوهَا لِأَنَّهُ شَيْء طَلَبه خَاصَّة مِنْ النَّاس فَوَقَعَ لَيْلًا لِأَنَّ الْقَمَر لَا سُلْطَان لَهُ بِالنَّهَارِ وَمِنْ شَأْن اللَّيْل أَنْ يَكُون أَكْثَر النَّاس فِيهِ نِيَامًا وَمُسْتَكِنِّينَ بِالْأَبْنِيَةِ، وَالْبَارِز بِالصَّحْرَاءِ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ يَقْظَان يَحْتَمِل أَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْت مَشْغُولًا بِمَا يُلْهِيه مِنْ سَمَر وَغَيْره، وَمِنْ الْمُسْتَبْعَد أَنْ يَقْصِدُوا إِلَى مَرَاصِد مَرْكَز الْقَمَر نَاظِرِينَ إِلَيْهِ لَا يَغْفُلُونَ عَنْهُ، فَقَدْ يَجُوز أَنَّهُ وَقَعَ وَلَمْ يَشْعُر بِهِ أَكْثَر النَّاس، وَإِنَّمَا رَآهُ مَنْ تَصَدَّى لِرُؤْيَتِهِ مِمَّنْ اِقْتَرَحَ وُقُوعه، وَلَعَلَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ فِي قَدْر اللَّحْظَة الَّتِي هِيَ مَدْرَك الْبَصَر.[1]

الوجه الثالث: جائز أن يستره الله عنهم بغيم أو يشغلهم عن رؤيته ببعض الأمور لضرب من التدبير ولئلا يدعيه بعض المتنبئين في الآفاق لنفسه فأظهره للحاضرين عند دعاء رسول الله ﷺ إياهم واحتجاجه عليهم[2].

الوجه الرابع: أَنَّهُ لَمْ يُنْقَل عَنْ أَحَد مِنْهُمْ أَنَّهُ نَفَاهُ، وَهَذَا كَافٍ، فَإِنَّ الْحُجَّة فِيمَنْ أَثْبَتَ لَا فِيمَنْ يُوجَد عَنْهُ صَرِيح النَّفْي، حَتَّى إِنَّ مَنْ وُجِدَ عَنْهُ صَرِيح النَّفْي يُقَدَّم عَلَيْهِ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ صَرِيح الْإِثْبَات.

الوجه الخامس: إِنَّ زَمَن الِانْشِقَاق لَمْ يَطُلْ وَلَمْ تَتَوَفَّر الدَّوَاعِي عَلَى الِاعْتِنَاء بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ بَعَثَ أَهْل مَكَّة إِلَى آفَاق مَكَّة يَسْأَلُونَ عَنْ ذَلِكَ فَجَاءَتْ السِّفَار وَأَخْبَرُوا بِأَنَّهُمْ عَايَنُوا ذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسَافِرِينَ فِي اللَّيْل غَالِبًا يَكُونُونَ سَائِرِينَ فِي ضَوْء الْقَمَر وَلَا

(١) فتح الباري (٧/ ١٨٥)، وانظر إظهار الحق (٢/ ١٨٧).

(٢) أحكام القران للجصاص (٥/ ٢٩٨)

يَخْفَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ. [(١)]

الوجه السادس: أنها لم تكن متوقع الحصول لأهل العلم لينظروها في وقتها ويروها كما أنهم يرون هلال رمضان والعيدين والكسوف والخسوف في أوقاتها غالبًا لأجل كونها متوقع الحصول، ولا يكون نظر كل واحد إلى السماء في كل جزء من أجزاء النهار أيضًا فضلًا عن الليل. فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة وكذلك من وقع نظره في هذا الوقت إلى السماء كما جاء في الأحاديث الصحيحة أن الكفار لما رأوها قالوا: سحركم ابن أبي كبشة فقال أبو جهل: هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقًا، وذلك لأن العرب يسافرون في الليل غالبًا ويقيمون بالنهار فقالوا: هذا سحر مستمر. وفي المقالة الحادية عشر من تاريخ "فرشته" أن أهل مليبار من إقليم الهند رأوه أيضًا، وأسلم والي تلك الديار التي كانت من مجوس الهند بعد ما تحقق له هذا الأمر.

وقد نقل الحافظ المزى عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناءً قديمًا مكتوبًا عليه: (بني ليلة انشق القمر). [(٢)]

الوجه السابع: أنه قد يحول في بعض الأمكنة وفي بعض الأوقات بين الرائي والقمر، سحاب غليظ أو جبل، ويوجد التفاوت الفاحش في بعض الأوقات في الديار التي ينزل فيها المطر كثيرًا، بأنه يكون في بعض الأمكنة سحاب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر في النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق إلى ساعات متعددة، وكذا لا يرى في الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور. وفي بعض أمكنة أخرى لا أثر للسحاب ولا للمطر وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة، وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج في موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام، فضلًا عن القمر. [(٣)]

---

(١) نقله ابن حجر عن ابن عبد البر، انظر فتح الباري (٧/ ١٨٦)، وإظهار الحق (٢/ ٢٨٨).

(٢) فتح الباري (٧/ ١٨٦)، وإظهار الحق (٢/ ١٨٨).

(٣) الفتح (٧/ ١٨٦)، و إظهار الحق (٢/ ١٨٨).

الوجه الثامن: أن القمر لاختلاف مطالعه ليس في حد واحد لجميع أهل الأرض، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين، فيظهر في بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض، ولذلك نجد الخسوف في بعض البلاد دون بعض، ونجده في بعض البلاد باعتبار بعض أجزاء القمر، وفي بعضها مستوفيًا أطرافه كلها، وفي بعضها لا يعرفها إلا الحاذقون في علم النجوم، وكثيرًا ما يحدث الثقات من العلماء بالهيئة الفلكية بعجائب يشاهدونها من أنوار ظاهرة ونجوم طالعة عظيمة تظهر في بعض الأوقات أو الساعات من الليل، ولا علم لأحد بها من غيرهم. (١)

الوجه التاسع: أنه قلما يقع أن يبلغ عدد ناظري أمثال هذه الحوادث النادرة الوقوع إلى حد يفيد اليقين، وأخبار بعض العوام لا يكون معتبرًا عند المؤرخين في الوقائع العظيمة، نعم يعتبر أخبارهم أيضًا في الحوادث التي يبقى أثرها بعد وقوعها، كالريح الشديد، ونزول الثلج الكثير، والبرد. فيجوز أن مؤرخي بعض الديار لم يعتبروا أخبار بعض العوام في هذه الحادثة، وحملوه على تخطئة أبصار المخبرين العوام، وظنوا أنها تكون نحوًا من الخسوف. (٢)

الوجه العاشر: أن المؤرخين كثيرًا ما يكتبون الحوادث الأرضية ولا يتعرضون للحوادث السماوية إلا قليلًا، لاسيما مؤرخي السلف، وكان في زمان النبي ﷺ في ديار إنكلترة وفرانس شيوع الجهل، واشتهارها بالصنائع والعلوم إنما هو بعد زمانه ﷺ بمدة طويلة. (٣)

الوجه الحادي عشر: أن المنكر إذا علم أن الأمر الفلاني معجزة أو كرامة للشخص الذي ينكره تصدى لإخفائها، ولا يرضى بذكرها وكتابتها غالبًا. (٤)

الوجه السادس: ذكر الكتاب المقدس لأحداث لم يذكرها التاريخ.

وأخيرًا: سلمنا جدلًا أن التاريخ قد أهمل ذكر معجزة انشقاق القمرفلماذا أهمل التاريخ ذكر هذه الحوادث المزعومة فى الكتاب المقدس. (١)

---

(١) إظهار الحق (٢/ ١٨٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) إظهار الحق (٢/ ١٨٩).

(٤) المصدر السابق.

أ - أن حادثة طوفان نوح عليه السلام كانت ممتدة إلى سنة، وفنى فيه كل ذي حياة من الطيور والبهائم والحشرات والإنسان غير أهل السفينة، وما نجا من الإنسان غير ثمانية أشخاص على ما هو مصرح به في الباب السابع والثامن من سفر التكوين.

وفي الآية العشرين من الباب الثالث من الرسالة الأولى لبطرس هكذا: (**إِذْ كَانَ الْفُلْكُ يُبْنَى، الَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِالْمَاءِ**).

والآية الخامسة من الباب الثاني من رسالته الثانية هكذا: (**وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَى الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، بَلْ إِنَّمَا حَفِظَ نُوحًا ثَامِنًا كَارِزًا لِلْبِرِّ، إِذْ جَلَبَ طُوفَانًا عَلَى عَالَمِ الْفُجَّارِ**). وما مضت على هذه الحادثة مدة إلى هذا اليوم على زعم أهل الكتاب إلا مقدار أربعة آلاف ومائتين واثنتي عشرة سنة شمسية ولا يوجد هذا الحال في تواريخ مشركي الهند وكتبهم. وهم ينكرون هذا الأمر إنكارًا بليغًا ويستهزئ به علماؤهم كافة ويقولون: لو قطع النظر عن الزمان السالف ونظر إلى زمان كرشن الأوتار، الذي كان قبل هذا اليوم بمقدار أربعة آلاف وتسعمائة وستين سنة على شهادة كتبهم، لا مجال لصحة هذه الحادثة العامة لأن الأمصار العظيمة الكثيرة من ذلك العهد إلى هذا الحين مغمورة وثبت بشهادة تواريخهم أنه يوجد من ذلك العهد إلى هذا الحين في إقليم الهند مليونات كثيرة في كل زمان من الأزمنة، ويدعون أن حال زمان كرشن لوجود كثرة التواريخ كحال أمس.

وقال ابن خلدون في المجلد الثاني من تاريخه: واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط. انتهى كلامه بلفظه. وقال العلامة تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزي في المجلد الأول من كتابه المسمى بكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: (الفرس وسائر المجوس والكلدانيون أهل بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا لم يكن الطوفان بسوى الشام والمغرب ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يجاوز عقبة حلوان ولا بلغ إلى ممالك المشرق) انتهى كلامه بلفظه.

(١) باختصار من إظهار الحق (٢/ ١٨١-١٨٧).

وأبناء صنف القسيسين ينكرون هذا الطوفان ويستهزئون به. وأنقل كلام جان كلارك الملحد عن رسالته الثالثة المندرجة في كتابه المطبوع سنة ١٨٣٩ في ليدس فقال في الصفحة ٥٤: (هذا) يعني الطوفان، غير صحيح على شهادة علم الفلسفة وأنا أتعجب! أمات الحيتان في ماء هذا الطوفان؟.

ولما كان بحكم الآية الخامسة من الباب السادس من سفر التكوين أفكار قلوب الإنسان ذميمة فلماذا أبقى الله ثمانية أشخاص. لِمَ لَمْ يخلق الإنسان مرة أخرى بعد إهلاك الكل؟ ولماذا أبقى بضاعته القديمة التي بقيت الأفكار الذميمة باقية بسببها؟ لأن الشجرة الرديئة لا تثمر ثمرة جيدة كما قال متى في الآية السادسة عشر من الباب السابع، هل يجتنون من الشوك عنبًا أو من الحسك تينًا؟. ونوح كان شارب الخمر وبهيمة وظالمًا (والعياذ بالله). كما يفهم من الآية ٢١ و ٢٥ من الباب التاسع من سفر التكوين فكيف يرجى منه أن يكون نسله صالحًا.

وانظروا أنه لم يكن صالحًا كما يظهر من الآية الثانية من الباب الثاني من رسالة بولس إلى أهل أفسيس والآية الثالثة من الباب الثالث من رسالته إلى تيطس والآية الثالثة من الباب الرابع من الرسالة الأولى لبطرس والآية (ص ١٩٠) الخامسة من الزبور الحادي والخمسين) انتهى كلامه. ثم استهزأ في هذه الصفحة ٩٣ استهزاءً بليغًا جاوز الحد في إساءة الأدب، فلا أرضى بنقل كلامه القبيح.

ب - أن حادثة وقوف الشمس يومًا كاملًا ليوشع (يشوع بن نون) مذكورة في سفر يشوع ١٠/ ١٢-١٣، وذكر مؤرخو أهل الكتاب ومفسروهم بأنها دامت إلى أربع وعشرين ساعة، فهذه الحادثة العظيمة التي وقعت سنة ١٤٥٠ق. م يجب أن يراها سكان الأرض كلهم؛ لأن السحاب الغليظ لا يمنع العلم بها في المناطق التي كان عليها النهار، وأما سكان المناطق التي كان عليها الليل فلابد أن يعلموا بهذه الحادثة لامتداد ليلهم بمقدار أربع وعشرين ساعة، ومع ذلك فإن مشركي الهند والفرس وأهل الصين ينكرونها ولم تذكر في تواريخهم، وملاحدة أوروبا يستهزئون بها ويوردون عليها اعتراضات، فهل يقبل القسيسون بإنكار الأمم المشرقية لهذه الحادثة وباعتراضات أبنائهم الملاحدة؟!

ج - أن متى روي في إنجيله ٢٧/ ٥١-٥٣ عدة حوادث عظيمة وقعت بعد حادثة الصلب مباشرة، وهي: انشقاق حجاب الهيكل من فوق إلى أسفل، وتزلزل الأرض، وتشقق الصخور، وتفتح القبور، وقيام كثير من أجساد القديسين الموتى، وخروجهم من القبور، ودخولهم القدس، وظهورهم لكثيرين، وهذه الحوادث كاذبة يقينًا لكن نقول: إن هذه الحوادث العظيمة غير مذكورة في كتب الرومان ولا في كتب اليهود، بل لم يذكرها إنجيل يوحنا، وإما إنجيل مرقس وإنجيل لوقا فذكرا انشقاق حجاب الهيكل فقط ولم يذكرا باقي الأمور العظيمة، علمًا أن ذكرها أولى من ذكر صراخ المصلوب وأمور أخرى لا قيمة لها اتفقا على ذكرها، وعلمًا أن بعض الأمور يبقى أثرها بعد الوقوع كتشقق الصخور وتفتح القبور، والعجب من متى أنه لم يذكر أن هؤلاء القديسين بعد خروجهم من قبورهم أحياء أين ذهبوا؟! هل بقوا على قيد الحياة أم رجعوا إلى قبورهم؟! ولذلك استهزأ بعضهم بهذه المبالغات الشنيعة فقال: لعل متى رآها في المنام. ويفهم من عبارة إنجيل لوقا أن انشقاق حجاب الهيكل كان قبل وفاة المصلوب، بينما يفهم من عبارتي متى ومرقس أنه بعد وفاة المصلوب. فكيف يعالج القسيسون هذه المعضلات؟!

د-أنه ورد في إنجيل متى (٣/ ١٦ -١٧) وإنجيل مرقس (١/ ١٠-١١) وإنجيل لوقا (٣/ ٢١-٢٢) أن يحيى عمد عيسى عليه السلام في نهر الأردن، وفي وقت صعود عيسى من الماء، انشقت السماوات وانفتحت ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسيمة في شكل حمامة، وقال صوت من السماوات: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت.

فانشقاق السماوات لم كان في النهار فلابد أن يراه أكثر أهل العالم، وكذا رؤية الحمامة المجسمة وسماع الصوت لا يختص بواحد دون غيره من الحاضرين، ومع ذلك لم يكتب أحد من مؤرخي ذلك الزمان هذه الحادثة غير الإنجيليين الثلاثة، ولذلك صارت سببًا لاستهزاء ملاحدة أوروبا فقالوا: لماذا أبقانا متى محرومين من معرفة الأبواب التي انفتحت في السماوات هل هي أبوابها الكبيرة أم المتوسطة أم الصغيرة؟! وفي أي جانب منها كانت هذه الأبواب؟!

وقساوستنا يضربون رؤوسهم متحيرين في تعيين ذلك. ولماذا لم يخبرنا متى عن الحمامة هل أخذها أحد وحبسها في القفص أم رأوها راجعة إلى السماوات؟!

وإذا رجعت إلى السماوات فهل بقيت أبوابها مفتوحة كل هذه المدة؟! وهل رأوا باطن السماوات بوجه حسن؟! فماذا يقول القسيسون في هذه التساؤلات؟! إذن فالاعتراض على معجزة انشقاق القمر لمحمد ﷺ اعتراض باطل ولا قيمة له.

أما عن قولهم بأن ذلك مغاير للأفلاك،

إضافة إلى ماسبق بيانه من إثبات وقوع هذه المعجزة نقول:

الله أكبر، مَن الذي خلق الأفلاك السماوية أليس الله؟ بلى، إذن هو قادر على أن يغيرها ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، فانشقاق القمر انشقاق حسي، انفلق فرقتين، ورآه الناس وشاهدوه، ولكن المكابر المعاند لا يقبل شيئًا، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ ﴿ءَايَةً﴾ نكرة في سياق الشرط، أي آية يرونها يعرضون عنها ولا يقبلونها.

ونحن نؤمن بأن القادر على أن يطوي السماوات بيمينه كطي السجل للكتب، قادر على أن يفرق القمر فرقتين، ولا شيء يعجزه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر: ٤٤)، ولهذا لا وجه لإنكار من أنكر ذلك. (١)

وأخيرًا: إليكم هذا النبأ الهام من وكالة ناسا الفضائية

أما في عصرنا الراهن فنجد في موقع وكالة ناسا الفضائية الأمريكية على شبكة (الإنترنت) صورة لصدع طولي رهيب على سطح القمر يظهر بوضوح من الصورة في أعلى المقال يمتد لمئات الكيلومترات، عبارة عن حزام من الصخور المتحولة، وكاتب المقال يتساءل:

What could cause along crack on the moon?

أي ما الذي يمكن أن يحدث شقًا بهذا الطول في القمر؟

والكيفية التي طرح بها السؤال تبين بجلاء حيرة العلماء في تفسير تكون هذا الشق، وهو ما ينم عن حدث عظيم تعرض له القمر ترك هذا الأثر المحيّر، ولو كان سببه زلزالًا عاديًا أو بركانًا لما استغلق على العلماء فهمه كل هذه المدة إذ إنه اكتشف منذ أكثر من ٢٠٠ عام كما يذكر موقع وكالة ناسا.

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين (١٢/ ٢).

والطريف في الأمر أن هؤلاء العلماء ليسوا مسلمين ولا علم لهم بنسبة هذه المعجزة لنبينا ﷺ؛ فصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾ (سبأ: ٦).

واليكم صورة انشقاق القمر كما نقلت إلينا:

الوجه السابع: ماذا عن المعجزات ومعجزات يسوع كما فى الكتاب المقدس؟ (١)

المعجزات ليست دليل ألوهية:

(متى٢٤/ ٢٤): لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا.

المسيح لم يقدر ان يصنع معجزات:

(مرقس٥/ ٥): وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلاَ قُوَّةً وَاحِدَةً، غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ فَشَفَاهُمْ.

يسوع ينكر معجزاته:

(١) راجع في هذه المسألة ما كتب في شبهة محمد ﷺ لا يستطيع عمل المعجزات.

(متى١٢/ ٣٩): وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ.

(متى١١/ ٢٧): كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ.

(يوحنا٣/ ٣٥): اَلآبُ يُحِبُّ الابْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ.

(يوحنا٥/ ٣٠): أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

(يوحنا٧/ ٢٨): فَنَادَى يَسُوعُ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ قِائِلًا: «تَعْرِفُونَنِي وَتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا، وَمِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ، بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَق، الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ.

(يوحنا٨/ ٢٨): فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي.

(يوحنا٨/ ٤٢): فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي.

معجزات المسيح من الله:

(متى١١/ ٢٧): كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ.

(متى٨/ ٩): فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا اللهَ الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا.

(يوحنا١٠/ ٢٩): بِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي.

* * * *

٢ـ شبهة: كيف كان هلاك عاد؟

نص الشبهة:

هل كان قوم عاد صرعى (واقعون على الأرض) أم مثل أعجاز نخل خاوية (واقفة) قال الله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾ (القمر: ٢٠)، وقال في موضع آخر ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ (الحاقة: ١٧).

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: لا تعارض بين اللفظين في اللغة (منقعر)، (خاوية) وما تعود عليهما:

الوجه الثاني: لم يقل الله ﷻ (منقعرة).

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ إنما ذكر رعاية للفواصل.

واليك التفصيل

الوجه الأول: لا تعارض بين اللفظين في اللغة (منقعر)، (خاوية) وما تعود عليهما.

معنى المنقعر في اللغة:

قال الله تعالى ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ (القمر ٢٠)، معنى المنقعر المنقلع من أصله، وقال ابن السكيت: يقال قعرت النخلة إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط وقد انقعرت هي. وقال لبيد يرثي أخاه:

وأربَدُ فارسُ الهيجا إذا ما تقعّرت المَشاجر بالفئامِ

أي: انقلبت فانصرعت، وذلك في شدة القتال عند الانهزام.

وعن ابن الأعرابي أنه قال: ضربته فانقعر. . . ، وعن الكسائي: وقَعَرتُ شجرة من أرومتها فانقعرت[1].

وفي الحديث: أَن رجلًا تَقَعَّر عن مال له وفي رواية انْقَعَر عن ماله أَي انْقَلَع من أَصله يقال قَعَرَه إِذا قَلَعَه يعني أَنه مات عن مال له، وفي حديث ابن مسعودﷺ: أَن عمرﷺ لقي شيطانًا فصارَعَه فقعَره أَي قَلَعه، وقيل: كلُّ ما انْصَرَع فقد انْقَعَر وتَقَعَّر.[1]

(١) تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢٢٩)، وانظر لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٠٨).

معنى خاوية في اللغة: خوت الدار تهدمت وسقطت. . . ، وخوى البيت إذا انهدم. . . ، وفي حديث سهل: فإذا هم بدار خاوية على عروشها، خوى إذا سقط وخلا عروشها سقوفها ومنه قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. أعجاز النخل أصولها، وقيل خاوية نعت للنخل لأن النخل يذكر ويؤنث.

وقال ﷻ في موضع آخر ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ المنقعر: المنقلع عن منبته، وكذلك الخاوية معناها معنى المنقلع، وقيل لها إذا انقلعت خاوية لأنها خوت من منبتها الذي كانت تنبت فيه وخوى منبتها منها، ومعنى خوت أي: خلت كما تخوى الدار خويًا إذا خلت من أهلها.[٢]

قلت: من هنا يظهر أن كلمة منقعر وخاوية بنفس المعنى وهو معنى المنقلع المنخلع من أصله، وذلك تشبيهًا بالنخل المنقعر الخاوي من أصوله لبيان شدة الأخذ والعذاب، وأنهم بعد ما خلعوا وانقلعوا أصبحت ديارهم منهم خواء.

شبهة أخرى: هل النخل مذكر أم مؤنث؟

تذكير النخل وتأنيثه: وأهل الحجاز يؤنثون النخل، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾، وأهل نجد يذكرون، قال الشاعر في تذكيره:

كنخل من الأعراض غير مُنَبَّقِ[٣].

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أسافل نخل منقلع من أصله يقال: من النخل وهو النخل فمجازها هنا: لغة من ذكّر وفي آية أخرى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، في لغة من أنث.[٤]

قوله تعالى: ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ النخل يذكر ويؤنث، ويقال: هذا نخل، وهذه نخل فمنقعر على من قال: هذا نخل، ومن قال هذه نخل فمثل قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.[٥]

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٠٩).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٢٤٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/ ٢٤١)، وانظر تفسير القرآن لابن أبي زمنين (٤/ ٣١٩).

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٨٩، ٢١٤).

الوجه الثاني: لم يقل الله ﷻ (منقعرة).

إنما ذكر الصفة لأن الموصوف – وهو النخل – مذكر اللفظ، وليس فيه علامة تأنيث؛ فاعتبروا المعنى وهو كونه جمعًا فقال: أعجاز نخل خاوية.

ويمكن أن يقال النخل لفظه لفظ الواحد كالبقل والنمل ومعناه معنى الجمع فيجوز أن يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات، ونخل: خاوية وخاويات، ونخل خاو وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات فإذا قال قائل منقعر أو خاو أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى.

وإذا قال: منقعرة أو خاوية أوباسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ، وربما قال منقعرة على الافراد من حيث اللفظ وألحق به تاء التأنيث التي في الجماعة إذا عرفت هذا فنقول: ذكر الله- تعالى- لفظ النخل في مواضع ثلاثة ووصفها على الوجوه الثلاثة فقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ فإنها حال منها وهي كالوصف، وقال: ﴿نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ وقال: ﴿نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ فحيث قال: ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ كان المختار ذلك؛ لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول؛ لأنه الذي ورد عليه القعر فهو مقعور، والخاوي والباسق فاعل ومعناه: إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولًا، كما نقول: امرأة كفيل وامرأة كفيلة، وامرأة كبير وامرأة كبيرة، وأما الباسقات فهي فاعلات حقيقة؛ لأن السوق قام بها، وأما الخاوية فهي من باب حسن الوجه؛ لأن الخاوي موضعها فكأنه قال: نخل خاوية المواضع، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ فكان الدليل يقتضي ذلك بخلاف الشاعر الذي يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية. (١)

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ فيه وجوه:

أحدها: نزعتهم فصرعتهم: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾، كما قال: ﴿صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ﴾.

ثانيها: نزعتهم فهم بعد النزع: كأنهم أعجاز نخل وهذا أقرب؛ لأن الانقعار قبل الوقوع، فكأن الريح تنزع الواحد وتقعر فينقعر فيقع فيكون صريعًا، فيخلو الموضع عنه فيخوى، وقوله في الحاقة: ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ إشارة إلى حالة بعد الانقعار الذي هو

---

(١) تفسير الرازي (٤٨٩)، الكشاف للزمخشري (٤/ ٤٣)، وروح المعاني (٢٧/ ١٩٤)

بعد النزع، وهذا يفيد أن الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر إلى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية، فإن حال الانقعار لا يحصل الخلو التام إذ هو مثل الشروع في الخروج والأخذ فيه.

ثالثها: تنزعهم نزعًا بعنف كأنهم أعجاز نخل تقعرهم فينقعروا إشارة إلى قوتهم وثباتهم على الأرض، وفي المعنى وجوه: أحدها: أنه ذكر ذلك إشارة إلى عظمة أجسادهم وطول أقدادهم، ثانيها: ذكره إشارة إلى ثباتهم في الأرض، فكأنهم كانوا يعملون أرجلهم في الأرض ويقصدون المنع به على الريح، وثالثها: ذكره إشارة إلى يبسهم وجفافهم بالريح، فكانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كأنهم أخشاب يابسة. [1]

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي كأنهم أصول نخل خالية الأجواف لا شيء فيها، ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التي قلعت من أصلها، وهو إخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع، أي أن الريح قد قطعتهم حتى صاروا قطعًا ضخامًا كأصول النخل. وأما وصف النخل بالخواء، فيحتمل أن يكون وصفًا للقوم؛ فإن الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف، ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية لأنها إذا بليت خلت أجوافها، فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية. [2]

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ إنما ذكر رعاية للفواصل. [3]

قال ههنا: منقعر فذكر النخل، وقال في سورة الحاقة ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ فأنثها، قال المفسرون في تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضي ذلك لقوله ﷻ ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾، ومنهم ومنتشر، وجواب حسن؛ فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ. [4]

* * * *

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ٤٧).

(٢) السابق (٣٠/ ١٠٥).

(٣) تفسير الرازي (٤٨٩)، وانظر البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ١٧٨).

(٤) تفسير الرازي (٢٩/ ٤٧).

سورة الرحمن

شبهة: تكرار ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

نص الشبهة:

في سورة الرحمن تكررت آية بعينها أكثر من مرة، وأن ذلك غير مفيد، وأنه قد يُختصر.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التكرار في لغة العرب.

الوجه الثاني: التكرار في القرآن.

الوجه الثالث: التكرار في سورة الرحمن.

الوجه الرابع: النظر إلى التكرار في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التكرار في لغة العرب.

يقول ابن منظور:

كرر الشئ: أعاده مرة بعد أخري، والكرة: المرة.

والتكرار أو الإطناب، وضده الحذف أو الإيجاز من مباحث المعاني في البلاغة العربية، فمن فوائد التكرار: التأكيد، التحريض، وتنبيه الأنفس، وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبيﷺ: "ألا هل بلغت، ألا هل بلغت،. . . "، فقد قال ابن عمرﷺ: قال النبي: ﷺ"هل بلغت ثلاثًا"، كما قال النبيﷺ: "ألا وقول الزور، فما زال يكررها)، وعَنْ أَنسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ "أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا؛ حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ؛ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا"[١].

فهذا هو النبيﷺ أبلغ العرب، وكان يخاطبهم، وهذه سنتهم، وتلك طريقتهم. وكلام العرب وأشعارهم كثيرة جدًّا في هذا الباب، ومن ذلك قول مهلهل يرثي كليبا:

(١) فتح الباري (١/ ٢٢٧).

على أن ليس عدلًا من كليب — إذا ماضيم جيران المجير
على أن ليس عدلًا من كليب — إذا رجف العضاة من الدبور
على أن ليس عدلًا من كليب — إذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلًا من كليب — إذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلًا من كليب — إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلًا من كليب — غداة تأثل الأمر الكبير
على أن ليس عدلًا من كليب — إذا ما خار جاش المستجير

وقال الفراء: إن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام، فيقول المجيب: بلى بلى، والممتنع: لالا، وعليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ (التكاثر: ٣، ٤) وأنشد قوله:

كائن وكم عندي لهم من صنيعة — أيادي سنوها على وأوجبوا

وقوله: نعق الغراب ببين ليلى غدوة — كم كم وكم بفراق ليلى ينعق

وقوله: هلا سألت جموع كن — دة يوم ولوا أين أينا

وهو كثير نظمًا ونثرًا[1].

الوجه الثاني: التكرار في القرآن.

لقد جاء التكرار في القرآن الكريم محكمًا، وقد ورد فيه كثيرًا، فليس فيه موضع قد أخذ عليه، دَعْ دعاوى المغالين، فإن بينهم وبين القرآن تارات، فهم له أعداء وإذا أحسنا الفهم لكتاب الله؛ فإن التكرار فيه- مع سلامته من المآخذ والعيوب- يؤدى وظيفتين:

أولاهما: من الناحيةالدينية.

ثانيهما: من الناحية الأدبية.

فالناحية الدينية: باعتبار أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع، لا يخلو منها فن من

(١) روح المعاني (٣٠/ ٢٥١).

فنونه، وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية هو: تقرير المكرر وتوكيده، وإظهار العناية به؛ ليكون فى السلوك أمثل، وللاعتقاد أبين.

أما الناحية الأدبية: فإن دور التكرار فيها متعدد، وإن كان الهدف منه فى جميع مواضعه يؤدى إلى تأكيد المعانى، وإبرازها فى معرض الوضوح والبيان[١].

الوجه الثالث: التكرار في سورة الرحمن.

وفي الدرر والغرر لعلم الهدى سيد المرتضي: التكرار في سورة الرحمن إنما حسن؛ للتقرير بالنعم المختلفة المعددة، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها؛ وبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير؛ لاختلاف ما يقرر به[٢].

قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، فإنها تكررت نيفًا وثلاثين مرة، كل واحدة تتعلق ربما قبلها، ولذلك زادت على ثلاثة، ولو كان عائدًا على شيء واحد لماذا زاد على ثلاثة؟ لأن التأكيد لا يزيد عليها، قاله ابن عبد السلام و غيره، و إن كان بعضها ليس بنعمة فذكر النعمة للتحذير نعمة، وقد سئل أي نعمة في قوله: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾؟ فأجاب بأجوبة أحسنها: النقلة من دار الهموم إلى دار السرور، و إراحة المؤمن من الكافر، و البار من الفاجر، فالتكرير- وهو أبلغ من التأكيد- وهو من محاسن الفصاحة، خلافًا لبعض من غلط.

وله فوائد منها: التقرير، وقد قيل: إن الكلام إذا تكرر تقرر، ومنها: التأكيد، ومنها: التنبيه، ومنها: إذا طال الكلام و حش؛ تناسى الأول، أعيد ثانيًا؛ نظرية له وتجديدًا لعهده، ومنها: التعظيم والتهويل، ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين فيقع التكرير للطول، ومنه ما كان لتعدد المتعلق، بأن يكون المكرر ثانيًا متعلقًا بغير ما تعلق به الأول، وهذا القسم يسمى بالترديد[٣]، ومن مثاله ما وقع بسورة الرحمن.

---

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (٧٧) (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية)، أيضًا مقدمة التكرار في القرآن ضمن هذه الموسوعة.

(٢) روح المعاني للآلوسي (٢٧/ ٩٧).

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/ ٣٤١) وما بعدها.

وكرر سبحانه هذه الآية فى هذه السورة فى أحد وثلاثين موضعًا؛ تقريرًا للنعمة، وتأكيدًا للتذكير بها، على عادة العرب فى الاتساع ثمانية منها: ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، و بدائع صنعه، و مبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار و شدائدها، بعدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقبها؛ لأن من جملة الآلاء: رفع البلاء، و تأخير العقاب، و بعد هذه السبعة ثمانية فى وصف الجنيتن وأهلها، بعدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها في الجنتين اللتين هما دون الجنيتن الأولين، أخذًا من قوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ فمن اعتقد الثمانية الأولى و عمل بموجبها؛ استحق هاتين الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة، أفاده شيخ الإسلام في متشابه القرآن.

قال القتيبي: إن الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين؛ لينبههم على النعم، و يقررهم بها، كما تقول لمن تتابع له إحسانك وهو يكفره: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملًا فعززتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلًا فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانًا فكسوتك أفتنكرهذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا، ومنه قول الشاعر:

لا تقتلي رجلًا إن كنت مسلمة ... إياك من دمه إياك إياك

ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب، و ذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته: من خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وخلق الشمس والقمر، والسماء والأرض، إلى غير ذلك مما أنعم به على خلقه، وخاطب الجن والإنس بالأشياء المذكورة؛ لأنها كلها منعم بها عليهم.

قال الحسين بن فضيل: التكرير طرد للغفلة، وتأكيد للحجة، وذهب جماعة منهم ابن قتيبة إلى أن التكرير لإختلاف النعم، فلذلك كررالتوقيف مع كل واحدة[1].

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ٣١٨) وما بعدها.

* نقل هذا أبو هلال في الصناعتين (ص ١٤٤)، و انظر أمالي المرتضى (١/ ٨٦)، وقد قال المرتضى في (ص٨٨)، فإن قيل: إذا كان الذى حسن التكرار في سورة الرحمن ما عدده من الآيات ومن نعمه، فقد عدد

يقول ابن قتيبة: وأما تكرار: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾، فإنه عدد في هذه السورة نعمائه، و أذكر عباده آلاءه، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه، ثم أتبع ذكر لكل خلة وصفها بهذه الآية، و جعلها فاصلة بين كل نعمتين؛ ليفهمهم النعم، ويقررهم بها[1].

فكما سبق توضيحه لا بد للتكرار من هدف وغرض جاء له، وإلا كان ضربًا لغو الحديث.

وإلى صاحب الشبهة أقول: إن القرآن نزل على العرب، وقرأه النبي ﷺ عليهم، فما استطاع أحد منهم أن يعيب حرفًا واحدًا منه، والعرب بلا شك أعلم الناس بكلامهم وصوره التي يأتي عليها، سواءً كان تكرارًا وإطنابًا وتأكيدًا، أو إيجازًا وحذفًا واختصارًا، ولو كان في القرآن مأخذ؛ لكان بلغائهم هم أول الناس طعنًا فيه وأخذًا عليه، فقد روي أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي ﷺ: اتل علي مما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة (الرحمن) فقال: أعدها، فأعادها ثلاثًا، فقال: والله إن له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة، وأسفله لمغدق، وأعلاه مثمر، وما يقول هذا بشر، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله[2].

ففي الحديث دلالة على إعجاب هذا العربي بالآيات، وهو الخبير بالكلام وصنوفه شعره ونثره، وما عاب تكرارًا أو غيره في السورة، بل طلب إعادتها عليه، كذلك أن ابن مسعود رضي الله عنه جهر بقراءتها في المسجد؛ حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه[3]، ولم يتخذ أحدهم ذلك فرصة للطعن والعيب في القرآن.

في جملة ذلك ما ليس بنعمة، وهو قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ (الرحمن ٣٥)، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ (الرحمن ٤٣-٤٤)، فكيف يحسن أن يقول هذا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وليس هذا من الآلاء والنعم؟ قلنا: الوجه في ذلك أن فعل العقاب- و إن لم يكن نعمة- فذكره ووصفه والإنذار به، من أكبر النعم؛ لأن في ذلك زجرًا عما يستحق به العقاب، وبعثًا على ما يستحق به الثواب، فإنما أشار تعالى بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعد ذكر جهنم والعذاب فيها إلى نعمة بوصفها، والإنذار بعقابها، وهذا مما لا شبهة في كونه نعمة.

(١) تأويل مشكل القرآن (٢٥٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٧).

(٣) انظر تفسير القرطبي لسورة الرحمن، وكذلك فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (عبدالله بن مسعود١٥٣٥).

الوجه الرابع: النظر إلى التكرار في الكتاب المقدس.

إن تكرار القرآن جاء محكمًا مؤديًا غرضه في أبلغ صورة على الإطلاق، لكن عندما ننظر إلى التكرار في الكتاب المقدس نجد شيئًا مغايرًا تمامًا.

لنبدأ بسفر الجامعة تتكرر فيه كلمة " تحت الشمس " ثلاثون مرة فى السفر و بطريقة لا تمت الى البلاغة بصلة و إليك أمثلة:

"مَا الْفَائِدَةُ لِلإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ تَعَبِهِ الَّذِي يَتْعَبُهُ تَحْتَ الشَّمْسِ ١٤ رَأَيْتُ كُلَّ الأَعْمَالِ الَّتِي عُمِلَتْ تَحْتَ الشَّمْسِ وَلاَ مَنْفَعَةَ تَحْتَ الشَّمْسِ و لا جديد تحت الشمس"، و هكذا أكثر من ثلاثين مرة وهنا لنا كلمة عن سفر الجامعة هذا: فهو من الكتب الغريبة فى العهد القديم، ويختلف فى موضوعه وفى روحه الدينية عن بقية الأسفار، و يقدم رؤية فكرية مختلفة، بل مضادة للدين و يعكس موقفًا سلبيًا من الحياة الإنسانية، و يفسر هذه الحياة فى ضوء نظرية عبثية ترى كل الأشياء باطلة، ولا معنى للأشياء سوى التكرار الممل للأحداث، فلا جديد تحت الشمس التي تتكرر بطريقة سمجة ثلاثون مرة.

و هذه كلمة: (سلاه) تكررت أكثر من ٧٠ مرة فى المزامير، والكارثة هنا: أن هذه الكلمة ليس لها معنى على الإطلاق، أو كما يقول القاموس معناها مشكوك فيه، و (البابا شنودة) يقر بذلك ويقول فى كتابه: سنوات مع أسئلة الناس صفحة ٢٦ أن عبارة سلاه وردت ٧١ مرة فى المزامير، ويرجح أنها وقفة لتغيير اللحن إلى طبقة موسيقية مختلفة (يعنى حاجة لزوم الاوركسترا السيمفونى! ! !)، وهذا معناها فى قاموس الكتاب المقدس.

Selah a word frequently found in the Book of Psalms ،and also in Hab. ٣: ٩ ،١٣ ،about seventy-four times in all in Scripture. Its meaning is doubtful. Some interpret it as meaning "silence" or "pause;" others ،"end ،" "a louder strain ،" "piano ،" etc.

و بصرف النظر عن معرفة المعنى الصحيح، ما يهمنا هنا هو: التكرار الذي لا يعجبهم في القرآن الكريم، فما رأيهم فى هذه الكلمة المجهولة المعنى التي تكررت ٧١ مرة؟!

ولم ننتهي بعد لنأخذ (إنجيل لوقا): نجده يحتوى على ١١ فقرة مكررة فيه نفسه في موضعين مختلفين، بل و لعشرة منها نظيرها في (إنجيل مرقص)، وإليك البيان:

أولًا: لوقا (٨: ١٦): وَلَيْسَ أَحَدٌ يُوقِدُ سِرَاجًا وَيُغَطِّيهِ بِإِنَاءٍ أَوْ يَضَعُهُ تَحْتَ سَرِيرٍ، بَلْ يَضَعُهُ عَلَى مَنَارَةٍ، لِيَنْظُرَ الدَّاخِلُونَ النُّورَ.

مثل لوقا (١١: ٣٣): لَيْسَ أَحَدٌ يُوقِدُ سِرَاجًا وَيَضَعُهُ فِي خِفْيَةٍ، وَلاَ تَحْتَ الْمِكْيَالِ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ، لِكَيْ يَنْظُرَ الدَّاخِلُونَ النُّورَ.

مثل مرقص (٤: ٢١): ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ يُؤْتَى بِسِرَاجٍ لِيُوضَعَ تَحْتَ الْمِكْيَالِ أَوْ تَحْتَ السَّرِيرِ؟ أَلَيْسَ لِيُوضَعَ عَلَى الْمَنَارَةِ؟.

ثانيا: لوقا (٨: ١٧): لأَنَّهُ لَيْسَ خَفِيٌّ لاَ يُظْهَرُ، وَلاَ مَكْتُومٌ لاَ يُعْلَمُ وَيُعْلَنُ.

مثل لوقا (١٢: ٢): لأَنْ لَيْسَ مَكْتُومٌ لَنْ يُسْتَعْلَنَ، وَلاَ خَفِيٌّ لَنْ يُعْرَفَ.

مثل مرقص (٤: ٢٢): لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ خَفِيٌّ لاَ يُظْهَرُ، وَلاَ صَارَ مَكْتُومًا إِلاَّ لِيُعْلَنَ.

ثالثا: لوقا (٨: ١٨): فَانْظُرُوا كَيْفَ تَسْمَعُونَ، لأَنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي يَظُنُّهُ لَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ.

مثل لوقا (١٩: ٢٦): لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ.

مثل مرقص (٤: ٢٥): وَقَالَ لَهُمْ: «لاَ تَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ: لاَ عَصًا وَلاَ مِزْوَدًا وَلاَ خُبْزًا وَلاَ فِضَّةً، وَلاَ يَكُونُ لِلْوَاحِدِ ثَوْبَانِ. ٤وَأَيُّ بَيْتٍ دَخَلْتُمُوهُ فَهُنَاكَ أَقِيمُوا، وَمِنْ هُنَاكَ اخْرُجُوا. ٥وَكُلُّ مَنْ لاَ يَقْبَلُكُمْ فَاخْرُجُوا مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، وَانْفُضُوا الْغُبَارَ أَيْضًا عَنْ أَرْجُلِكُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ».

مثل لوقا (١٠: ٣ — ١٢): لاَ تَحْمِلُوا كِيسًا وَلاَ مِزْوَدًا وَلاَ أَحْذِيَةً، وَلاَ تُسَلِّمُوا عَلَى أَحَدٍ فِي الطَّرِيقِ. ٥وَأَيُّ بَيْتٍ دَخَلْتُمُوهُ فَقُولُوا أَوَّلًا: سَلاَمٌ لِهذَا الْبَيْتِ. . . وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَلَمْ يَقْبَلُوكُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَى شَوَارِعِهَا وَقُولُوا: ١١حَتَّى الْغُبَارَ الَّذِي لَصِقَ بِنَا مِنْ مَدِينَتِكُمْ نَنْفُضُهُ لَكُمْ. وَلكِنِ اعْلَمُوا هذَا إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ.

مثل مرقص (٦/ ١١: ٨) وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ غَيْرَ عَصًا فَقَطْ، لاَ مِزْوَدًا وَلاَ خُبْزًا وَلاَ نُحَاسًا فِي الْمِنْطَقَةِ ...وَقَالَ لَهُمْ: «حَيْثُمَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا فَأَقِيمُوا فِيهِ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ. ١١وَكُلُّ مَنْ لاَ يَقْبَلُكُمْ وَلاَ يَسْمَعُ لَكُمْ، فَاخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ وَانْفُضُوا التُّرَابَ الَّذِي تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: سَتَكُونُ لأَرْضِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ.

خامسًا: لوقا (٩: ٢٣)وَقَالَ لِلْجَمِيعِ: إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي.

مثل لوقا (١٤: ٢٧): وَمَنْ لاَ يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَأْتِي وَرَائِي فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا.

مثل مرقص (٨: ٣٤): وَدَعَا الْجَمْعَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي.

سادسًا: لوقا (٩: ٢٤): فإن من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي فهذا يخلّصها.

مثل لوقا (١٧: ٣٣): مَنْ طَلَبَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ أَهْلَكَهَا يُحْيِيهَا.

مثل مرقص (٣٥ :٨): فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا.

والآن قاصمة الظهر يتحدثون عن التكرار انظر الملوك الثاني الإصحاح ١٩ من بدايته

اَلإِصْحَاحُ التَّاسِعُ عَشَرَ

١ فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ حَزَقِيَّا ذلِكَ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ. ٢وَأَرْسَلَ أَلِيَاقِيمَ الَّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشِبْنَةَ الْكَاتِبَ وَشُيُوخَ الْكَهَنَةِ مُتَغَطِّينَ بِمِسْحٍ إِلَى إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ ابْنِ آمُوصَ. ٣فَقَالُوا لَهُ: [هكَذَا يَقُولُ حَزَقِيَّا: هذَا الْيَوْمُ يَوْمُ شِدَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَإِهَانَةٍ، لأَنَّ الأَجِنَّةَ قَدْ دَنَتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلاَ قُوَّةَ لِلْوِلاَدَةِ! ٤لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَكَ يَسْمَعُ جَمِيعَ كَلاَمِ رَبْشَاقَى الَّذِي أَرْسَلَهُ مَلِكُ أَشُّورَ سَيِّدُهُ لِيُعَيِّرَ الإِلهَ الْحَيَّ، فَيُوَبِّخَ عَلَى الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعَهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. فَارْفَعْ صَلاَةً مِنْ أَجْلِ الْبَقِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ٥ .[فَجَاءَ عَبِيدُ الْمَلِكِ حَزَقِيَّا إِلَى إِشَعْيَاءَ، ٦فَقَالَ لَهُمْ إِشَعْيَاءُ: [هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ بِسَبَبِ. . .

وقارن مع إشعيا الإصحاح ٣٧ من أوله: اَلإِصْحَاحُ السَّابعُ وَالثَّلاَثُونَ:

١ فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ حَزَقِيَّا ذلِكَ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ. ٢وَأَرْسَلَ أَلِيَاقِيمَ الَّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشِبْنَةَ الْكَاتِبَ وَشُيُوخَ الْكَهَنَةِ مُتَغَطِّينَ بِمُسُوحٍ إِلَى إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ النَّبِيِّ. ٣فَقَالُوا لَهُ: «هكَذَا يَقُولُ حَزَقِيَّا: هذَا الْيَوْمُ يَوْمُ شِدَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَإِهَانَةٍ لأَنَّ الأَجِنَّةَ دَنَتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلاَ قُوَّةَ عَلَى الْوِلاَدَةِ. ٤لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَكَ يَسْمَعُ كَلاَمَ رَبْشَاقَى الَّذِي

أَرْسَلَهُ مَلِكُ أَشُّورَ سَيِّدُهُ لِيُعَيِّرَ الإِلَهَ الْحَيَّ فَيُوَبِّخَ عَلَى الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعَهُ الرَّبُّ إِلَهُكَ. فَارْفَعْ صَلاَةً لأَجْلِ الْبَقِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ٥ .«فَجَاءَ عَبِيدُ الْمَلِكِ حَزَقِيَّا إِلَى إِشَعْيَاءَ. ٦فَقَالَ لَهُمْ إِشَعْيَاءُ: «هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ.

بماذا يفسر النصارى تطابق السفرين هذا التطابق كلمة بكلمة و حرف بحرف هل نسى كاتب سفر إشعيا أن كاتبًا آخر كان قد سبقه إلى تدوين نفس الكلام فى سفر الملوك وإليك أيضًا الكلام المتكرر فقد تكررت الكلمات "لأن إلى الأبد رحمته" في مزمور ١٣٦ الذي يحوي ٢٦ عدد ٢٦ مرة (١٣٦/ ٢٦: ١):

احْمَدُوا الرَّبَّ لأَنَّهُ صَالِحٌ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. احْمَدُوا إِلهَ الآلِهَةِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
احْمَدُوا رَبَّ الأَرْبَابِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الصَّانِعَ الْعَجَائِبَ الْعِظَامَ وَحْدَهُ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الصَّانِعَ السَّمَاوَاتِ بِفَهْمٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الْبَاسِطَ الأَرْضَ عَلَى الْمِيَاهِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الصَّانِعَ أَنْوَارًا عَظِيمَةً لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الشَّمْسَ لِحُكْمِ النَّهَارِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الَّذِي ضَرَبَ مِصْرَ مَعَ أَبْكَارِهَا لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
وَأَخْرَجَ إِسْرَائِيلَ مِنْ وَسَطِهِمْ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الَّذِي شَقَّ بَحْرَ سُوفٍ إِلَى شُقَقٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. وَعَبَّرَ إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِهِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
وَدَفَعَ فِرْعَوْنَ وَقُوَّتَهُ فِي بَحْرِ سُوفٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. الَّذِي سَارَ بِشَعْبِهِ فِي الْبَرِّيَّةِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الَّذِي ضَرَبَ مُلُوكًا عُظَمَاءَ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. وَقَتَلَ مُلُوكًا أَعِزَّاءَ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
سِيحُونَ مَلِكَ الأَمُورِيِّينَ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. وَعُوجَ مَلِكَ بَاشَانَ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
وَأَعْطَى أَرْضَهُمْ مِيرَاثًا لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. مِيرَاثًا لإِسْرَائِيلَ عَبْدِهِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الَّذِي فِي مَذَلَّتِنَا ذَكَرَنَا لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. وَنَجَّانَا مِنْ أَعْدَائِنَا لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.
الَّذِي يُعْطِي خُبْزًا لِكُلِّ بَشَرٍ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. احْمَدُوا إِلهَ السَّمَاوَاتِ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.

* * *

سورة الواقعة

شبهة: ثلة من الأولين و ثلة من الآخرين.

نص الشبهة:

هناك اختلاف بين قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)﴾ وبين قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآيات.

الوجه الثاني: إبطال هذه الشبهة، وإثبات أنهم أخطأوا في فهمها.

الوجه الثالث: إثبات الفضل والأفضلية للأولين على الآخرين.

الوجه الرابع: التناقض في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآيات.

أولًا: قوله تعالى في الحديث عن السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)﴾:

١ - ثلة: أي جماعة.

٢ - وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣)﴾ وهم جماعة كثيرة من الذين سبقوا لرسوخ إيمانهم وظهور أثره في أعمالهم من العمل الصالح والدعوة إلى الله والصبر على الجهاد في سبيله، إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم، سواء كان ثلة من الأولين السابقين المقصود بهم أنهم من الأمم السابقة أو من القرون الأولى لأمة محمد ﷺ.

٣-وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)﴾: أ- فإذا كان ثلة من الأولين السابقين المقصود بهم أنهم من الأمم السابقة كان قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)﴾أي: من أمة محمد ﷺ؛ وهذا رواية عن مجاهد والحسن البصري رواها عنهما ابن أبي حاتم، وهو اختيار ابن جرير[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦٣).

قال الشوكاني: والمراد بالأولين هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا ﷺ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: من هذه الأمة وسموا قليلًا بالنسبة إلى من كان قبلهم وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة من أجابهم. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا، قال الزجاج: الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبي ﷺ، ولا يخالف هذا ما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ "إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ثم قال: ثلث أهل الجنة ثم قال: "نصف أهل الجنة" لأن قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ إنما هو تفضيل للسابقين فقط كما سيأتي في ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقي هذه الأمة ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، والمقابلة بين الثلتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال: هذه الثلة أكثر من هذه الثلة كما يقال: هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة[1].

وإطلاق قوله: ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ على أمة محمد ﷺ لأنهم آخر الأمم[2].

قال الآلوسي: وحاصل ذلك غلبة مجموع هذه الأمة كثرة على من سواها كقرية فيها عشرة من العلماء ومائة من العوام وأخرى فيها خمسة من العلماء وألف من العوام فخواص الأولى أكثر من خواص الثانية؛ وعوام الثانية ومجموع أهلها أضعاف أولئك، لا يقال يأبى أكثرية تابعي هؤلاء قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الواقعة: ٣٩-٤٠) فإنه في حق أصحاب اليمين وهم التابعون، وقد عبر عن كل بالثلة أي: الجماعة الكثيرة؛ لأنا نقول لأدلة في الآية على أكثر من وصف كل من الفريقين بالكثرة؛ وذلك لا ينافي أكثرية أحدهما فتحصل أن سابقي الأمم السوالف أكثر من سابقي أمتنا، وتابعي أمتنا أكثر من تابعي الأمم، والمراد بالأمم ما يدخل فيه الأنبياء، وحينئذ لا

(١) فتح القدير (٥/ ٢١١).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٦٢٦).

يبعد أن يقال: إن كثرة سابقي الأولين ليس إلا بأنبيائهم فما على سابقي هذه الأمة بأس إذ أكثرهم سابقو الأمم بضم الأنبياء عليهم السلام(١).

ب- وإذا كان ثلة من الأولين السابقين المقصود بهم أنهم من القرون الأولى لأمة محمد ﷺ كان قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: من القرون المتأخرة من أمة محمد ﷺ أيضًا، فالذين جاءوا في الأزمنة التي حدثت فيها الغير، و تبرجت الدنيا لخطابها، ونسي معها سر البعثة، وحكمة الدعوة فما أقل الماشين على قدم النبي ﷺ وأصحابه؛ لاجرم أنهم وقتئذ الغرباء لقلتهم(٢).

ورجح ابن كثير هذا القول ودلل على ذلك بقوله: لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن؛ فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم(٣).

والدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها، ولهذا قال ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى قيام الساعة(٤)"(٥).

ثانيًا: قوله تعالى في الحديث عن أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾ (الواقعة٣٩-٤٠) أي: جماعة وأمة من المتقدمين في الإيمان سواء من الأمم السابقة أو من القرن الأول من أمة محمد ﷺ وممن جاء بعدهم من التابعين بإحسان، والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين في أواخرهم دون السابقين كما بينا أولًا(٦).

---

(١) روح المعاني (٢٠/ ٢٠٧).

(٢) تفسير القاسمي (١٦/ ٧، ٨)، وقيل في ذلك أقوال كثيرة هذا أرجحها إن شاء الله، و انظر ابن كثير (٤/ ٣٧١)، والقرطبي (١٧/ ١٩٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٠، ١٩٢٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٣).

(٦) تفسير القاسمي (١٦/ ١٢).

وعن ابن عباس ﷺ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي؛ فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ"، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيَّنْ لَهُمْ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: "هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ[1].

الوجه الثاني: الرد على القول المزعوم.

فأما من قال: كيف قيل في موضع: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ وقيل في موضع آخر: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾؟

والرد من وجوه:

الأول: أن الموضع الأول كان في الحديث عن السابقين، فالسابقون من أمة النبي ﷺ من الصحابة (أي أول الأمة) خير وأكثر من الذين جاءوا من بعدهم؛ لرسوخ إيمانهم، وظهور أثره في أعمالهم من العمل الصالح، و الدعوة إلى الله، و الصبر على الجهاد في سبيله، إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم.

وأما الموضع الذي قال فيه: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فهذا في الكلام عن أصحاب اليمين، والكثرة فيهم ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين في أواخرهم دون السابقين؛ فلذلك فرق بين الثلتين في السابقين، وسوى بينهما في أصحاب اليمين.

الثاني: قد وصف الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ والذين هم أعلى المنازل في الجنة أنهم ثلة من الأولين أي: كثيرون؛ لأن الأولين قد عاصروا

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، مسلم (٢٢٠).

النبي ﷺ و كانت درجات إيمانهم من أقوى الدرجات، و قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ لأن الأجيال المتأخرة لا يمكن مقارنة إيمانهم بمن عاصروا الرسول ﷺ، ثم و إن اجتهد بعض المتأخرين اجتهاد الأولين، فإنهم عدد قليل، وأما في أصحاب اليمين فكثير من يجتهد ليصل لهذه الدرجة لذلك قال: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

الوجه الثالث: إثبات الأفضلية للأولين على الآخرين.

فعن عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **"خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ"**.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ (الراوي عن عبيدة): وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ[1].

قال ابن حجر: وَقَالَ أَبُو عُمَر بْن عَبْد الْبَرّ: مَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ النَّهْيُ عَنْ مُبَادَرَةِ الرَّجُلِ بِقَوْلِهِ: أَشْهَدُ بِالله وَعَلَى عَهْدِ الله لَقَدْ كَانَ كَذَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَضْرِبونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَصِيرَ لَهُمْ بِهِ عَادَةٌ فَيَحْلِفُوا فِي كُلِّ مَا يَصْلُحُ وَمَا لَا يَصْلُحُ[2].

قَوْله: "تَسْبِق شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ" قَالَ الطَّحَاوِيُّ: أَيْ يُكْثِرُونَ الْأَيْمَانَ فِي كُلّ شَيْء حَتَّى يَصِير لَهُمْ عَادَة، فَيَحْلِف أَحدهمْ حَيْثُ لَا يُرَاد مِنْهُ الْيَمِين وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يُسْتَحْلَف.

وَقَالَ غَيْره: الْمُرَاد يَحْلِف عَلَى تَصْدِيق شَهَادَته قَبْل أَدَائِهَا أَوْ بَعْده، وَهَذَا إِذَا صَدَرَ مِنْ الشَّاهِد قَبْلَ الْحُكْم سَقَطَتْ شَهَادَتُهُ، وَقِيلَ: الْمُرَاد التَّسَرُّعُ إِلَى الشَّهَادَةِ، وَالْيَمِين، وَالْحِرْص عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَدْرِي بِأَيِّهِمَا يَبْدَأ لِقِلَّةِ مُبَالَاتِهِ[3].

وهذا فيه دليل على أفضلية الأولين على الآخرين، وأن الورع يقل كلما مرت هذه القرون الأول، فلذلك ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ في هؤلاء الأخيار ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فيمن يكونون من السابقين.

واتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْقُرُون قَرْنه صَلَّى ﷺ، وَالْمُرَاد أَصْحَابه، وقوله: "خَيْر النَّاس"

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، مسلم (٢٥٣٣).

(٢) فتح الباري (٥/ ٣٠٩).

(٣) فتح الباري (١١/ ٥٥٢).

عَلَى عُمُومهَا، وَالْمُرَاد مِنْهُ جُمْلَة الْقَرْن، وَلَا يَلْزَم مِنْهُ تَفْضِيل الصَّحَابِيّ عَلَى الْأَنْبِيَاء صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِمْ، وَلَا أَفْرَاد النِّسَاء عَلَى مَرْيَم وَآسِيَة وَغَيْرهمَا، بَلْ الْمُرَاد جُمْلَة الْقَرْن بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلّ قَرْن بِجُمْلَتِهِ، والصحيح أن قرنه ﷺ الصحابة، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم[1].

وعن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ"[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ "خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - وَالله أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا- قَالَ: "ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا[3].

قَوْلُهُ: " وَلَا يُؤْتَمَنُونَ "أَيْ: لَا يَثِقُ النَّاسُ بِهِمْ وَلَا يَعْتَقِدُونَهُمْ أُمَنَاءَ بِأَنْ تَكُونَ خِيَانَتُهُمْ ظَاهِرَةً بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لِلنَّاسِ اِعْتِمَادٌ عَلَيْهِمْ، قَوْلهُ: "وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ" يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَاد التَّحَمُّلَ بِدُونِ التَّحْمِيلِ، أَوْ الْأَدَاءَ بِدُونِ طَلَبٍ، وَيُعَارِضُهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِم مِنْ حَدِيثِ زَيْد بْن خَالِد مَرْفُوعًا: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا[4]"

وحاصل الحديثين أَنَّ حديث اِبْن مَسْعُود (الشَّهَادَة فِي حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ)، وَالْمُرَادُ بِحَدِيثِ زَيْدِ بْن خَالِد الشَّهَادَةُ فِي حُقُوقِ الله[5].

وَقَوْلُهُ: "وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ" أَيْ: يُحِبُّونَ التَّوَسُّعَ فِي الْمَآكِل وَالْمَشَارِب وَهِيَ أَسْبَابُ السِّمَنِ بِالتَّشْدِيدِ. قَالَ اِبْن التِّين: الْمُرَادُ ذَمّ مَحَبَّتِهِ وَتَعَاطِيه لَا مِنْ تَخَلَّقَ بِذَلِكَ وَقِيلَ: الْمُرَادُ يَظْهَرُ فِيهِمْ كَثْرَة الْمَالِ. وَقِيلَ: الْمُرَاد أَنَّهُمْ يَتَسَمَّنُونَ أَيْ: يَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، وَيَدَّعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْ الشَّرَفِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ذَلِكَ مرادًا، وَإِنَّمَا كَانَ مَذْمُومًا؛ لِأَنَّ السَّمِينَ

---

(١) شرح النووي (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٣٤)

(٤) أخرجه مسلم (١٧١٩).

(٥) فتح الباري (٥/ ٣٠٧).

غَالِبًا بَلِيد اَلْفَهْم ثَقِيل عَنْ اَلْعِبَادَةِ كَمَا هُوَ مَشْهُور[١].

وقوله في حديث مسلم: "ثُمَّ يَخْلُف قَوْم يُحِبُّونَ السَّمَانَة" وَفِي رِوَايَة: "وَيَظْهَر قَوْم فِيهِمْ السِّمَن" قَالَ جُمْهُور الْعُلَمَاء فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيث: الْمُرَاد بِالسِّمَنِ هُنَا: كَثْرَة اللَّحْم، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكْثُر ذَلِكَ فِيهِمْ، قَالُوا: وَالْمَذْمُوم مِنْهُ مَنْ يَسْتَكْسِبهُ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ فِيهِ خِلْقَة فَلَا يَدْخُل فِي هَذَا، وَالْمُتَكَسِّب لَهُ هُوَ الْمُتَوَسِّع فِي الْمَأْكُول وَالْمَشْرُوب زَائِدًا عَلَى الْمُعْتَاد، وَقِيلَ: الْمُرَاد بِالسِّمَنِ هُنَا أَنَّهُمْ يَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، وَيَدَّعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْ الشَّرَف وَغَيْره[٢].

فمما سبق يتبين الخير في الأولين، و البلادة و السمنة و عدم الورع و الزهد و الإقبال على ما ليس من حق في الآخرين أو في معظمهم إلا من رحم الله سبحانه و تعالى؛ لذلك كان السابقون لدرجة السابقين كثر في الأولين وقليل في الآخرين، فقال تعالى عن السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أما أصحاب اليمين فهي منزلة أقل من منزلة السابقين، فكان السابقون لها في الأولين و الآخرين كثير؛ فلذلك قال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

الوجه الرابع: التناقض في الكتاب المقدس.

هل أنجبت ميكال أم لا؟

(وَلَمْ تُنْجِبْ مِيكَالُ بِنْتُ شَاوُلَ وَلَدًا إِلَى يَوْمِ مَوْتِهَا ((صموئيل الثاني ٦/ ٢٣).

(فَأَخَذَ الْمَلِكُ، أَرْمُونِيَ وَمَفِيبُوشَثَ ابْنَيْ رِصْفَةَ ابْنَةِ أَيَّةَ اللَّذَيْنِ وَلَدَتْهُمَا لِشَاوُلَ، وَأَبْنَاءَ مِيكَالَ ابْنَةِ شَاوُلَ الْخَمْسَةَ الَّذِينَ أَنْجَبَتْهُمْ لِعَدْرِيئِيلَ ابْنِ بَرْزِلاَيَ الْمَحُولِيِّ) (صموئيل الثاني ٢١/ ٨)[٣].

* * *

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٠٨).

(٢) شرح النووي (٨/ ٣٢٨).

(٣) وانظر تفصيل ذلك في بحث (تحريف الكتاب المقدس).

سورة الجمعة

شبهة: لماذا يجتمع المسلمون يوم الجمعة؟

نص الشبهة:

أن اليهود يجتمعون لذكر خلق الله العالم في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، والنصارى يجتمعون الأحد لذكرى قيام المسيح فيه.

والسؤال: لماذا جعل المسلمون يوم الجمعة ليجتمعوا فيه؟

والجواب:

لأن يوم الجمعة كان يسمى في الجاهلية عروبة فسماه كعب بن لؤي بن غالب يوم الجمعة وكان يخطب فيه على قريش وكانت قريش تجتمع إليه في كل جمعة ليسمعوا خطبة (من كتاب بلوغ الأرب في حال العرب) فيوم الجمعة مصدره عرب الجاهلية ومن وضع كعب بن لؤي وليس من وحي السماء.

فلما أراد المسلمون أن يختاروا يومًا كاليهود والنصارى اختاروا يوم الجمعة الذي وضعته عرب الجاهلية.

والجواب على ذلك من وجوه كما يلي،

الوجه الأول:

يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع فهدى الله المسلمين هذا اليوم فكان رزقًا من الله للمسلمين.

وإليك هذه الأحاديث التي بين فيها النبيﷺ فضل يوم الجمعة:

١- عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول الله: ﷺ "نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا هدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد". [(١)]

٢- عن أبي هريرة، وعن ربعي بن حراش ﷺعن حذيفة قالا: قال رسول اللهﷺ: "أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا

(١) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥) واللفظ له.

فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق". [(١)]

٣-عن أبى هريرةﷺ أن النبيﷺ قال: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة". [(٢)]

٤-عن أوس بن أوس قال: قال رسول اللهﷺ: "من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي ". فقالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت -يعنى وقد بليت-؟ قال: "إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء -صلوات الله عليهم-"[(٣)].

٥- وعن أبي هريرة أيضًا عن النبيﷺ قال: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط من الجنة وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهى مسيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه". قال كعب: ذلك في كل سنة يوم. فقلت بل في كل جمعة. فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول اللهﷺ قال أبو هريرة: ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب، قال: قد علمت أية ساعة هي؟ قلت: فأخبِرني بها، قال: هي آخر ساعة في يوم الجمعة. قال أبو هريرة: فقلت: وكيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول اللهﷺ: "لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي". وتلك الساعة ساعة لا يصلَّى فيها، فقال عبد الله بن سلام ألم يقل رسول اللهﷺ: "من

(١) أخرجه مسلم (٨٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٨)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٨) وصححه، وقال: على شرط البخاري ومسلم، وحسنه ابن حجر، وصححه النووي في الأذكار، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٢٧).

جلس مجلسا ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلي". (١)

فهذه بعض فضائل يوم الجمعة التي جعلها الله للمسلمين والتي ذكرها نبينا محمد ﷺ وهي كما بينا لتعرف الفضل الذي هو عند أهل الفضل:

١. أفضل يوم طلعت عليه الشمس.

٢. فيه خُلق آدم عليه السلام.

٣. فيه أدخل الجنة وأخرج منها وفيه تيب عليه وفيه مات.

٤. فيه تقوم الساعة.

٥. فيه ساعة إجابة.

٦. فيه النفخة وفيه الصعقة.

٧. فيه فضل الصلاة على النبي ﷺ في هذا اليوم. . . . وغيرها كثير من فضائل هذا اليوم الذي اختصت به هذه الأمة.

أول من سمى يوم الجمعة وسبب تسميته.

قال البغوي: واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة، منهم من قال: لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه السلام. وقيل: لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء فاجتمعت فيه المخلوقات، وقيل: لاجتماع الجماعات فيه، وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة.

وقيل: أول من سماها جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة: أول من قال: (أما بعد) كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة جمعة، وكان يقال له يوم العروبة.

وعن ابن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة. وقبل أن ينزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة. (٢)

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢٤١)، والترمذي (٤٩١) وقال: حديث حسن صحيح، أبو داود (١٠٤٦) والنسائي (١٤٣٠)، وأحمد (٢/ ٤٨٦) والحاكم (١/ ٢٧٨)، وصحيح ابن حبان (٢٧٧٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٣٥٩).

(٢) تفسير البغوي (٨/ ١١٦).

وقيل: كان كعب عظيم القدر عند العرب، ولهذا أرَّخوا لموته إلى عام الفيل، ثم أرخوا بالفيل. وهو أول من جمع يوم العروبة، وقيل: هو أول من سماها الجمعة، فكانت قريش تجتمع عليه في هذا اليوم فيخطبهم، ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ، ويعلمهم أنه من ولده ويأمرهم باتباعه والإيمان به وينشد فيه هذا:

يا ليتني شاهدًا فحواء دعوته إذا قريش تبتغي الحق خذلانا. (١)

أما عن قولهم: إن المسلمين اختاروا يومًا لمحاكاة اليهود والنصارى أفعالهم.

والجواب:

إن هذا ليس من دأب المسلمين بل وليس ذلك من الشرع فإن الشرع يأمر بمخالفة اليهود والنصارى. حيث كان يذكر دائمًا " خالفوا المشركين. . . . . " الحديث. (٢)

وكان النبي ﷺ يحب مخالفة اليهود والنصارى في كل شيء.

الوجه الثاني: لماذا اختار اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد؟

يذكر اليهود أن يوم السبت هو اليوم الذي استراح فيه الله بعد خلق العالم.

وتذكر النصارى أن يوم الأحد هو اليوم الذي يحفظونه لذكرى قيامة المسيح من قبره.

وكلا الأمرين باطل لا جدال في ذلك.

حيث إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، وما أتعبه ذلك، وما مسه من لغوب كما ذكر القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (ق: ٣٨).

وهل يليق بالله ﷻ أن يتصف بصفة مذمومة كصفة التعب! ! فهذا محال على الله.

---

(١) من كتاب بلوغ الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي (١/ ١٣٣).

فانظر أخي القارئ، هذا هو تمام الكلام الذي نقلوه ليحتج به صاحب الشبهة علينا وهذا هو دأب الحاقدين الذين ليست لهم أدلة يعترضون بها علينا سوى تحريف الكلام عن مواضعه، فيأخذ الكلام ليجعل لنفسه حجة يستند إليها، ويقوم عليها، ولكن هيهات هيهات؛ فالحق واضح جلي لمن أراد أن يعرف الحق، فانتبه أخي القارئ حتى لا تقع في مثل هذه الأمور.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٣)، ومسلم (٢٥٩).

والنصارى يدعون أن يوم الأحد يوم قيامة المسيح، وهذا أيضًا معتقد خاطئ؛ فالمسيح لم يصلب، ولم يدفن ولم يقم من قبره في اليوم الثالث كما يزعمون، ولو سلمنا جدلًا بهذه المسألة لوجدنا أن قيامة المسيح لم تكن بعد ثلاثة أيام حيث يعتمد المسيحيون على بيان أن المسيح مكث في قبره ثلاثة أيام على ما ورد في الأناجيل على لسان المسيح وهو بين تلاميذه.

وذلك حين طلب الكتبة و الفريسيون من المسيح ﷺ: " **حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ. ٤٠لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال.** " (متى ١٢/ ٣٨: ٤٠).

يقول المسيحيون إن هذا إخبار من المسيح بأنه سيمكث في قبره هذه المدة المذكورة. ولكننا إذا رجعنا إلى الأناجيل ورواياتها عن الصلب والقيامة لوجدنا استحالة هذه النبوءة لأنه لكي يتحقق يجب أن يبقى المصلوب في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ولكن إذا رجعنا إلى روايات الأناجيل لوجدنا أن المصلوب أُنزل من على الصليب مساء الجمعة. (مرقس ١٥/ ٤٢: ٤٦).

ولقد اكتشف التلاميذ قيامته فجر الأحد. (متى٢٨/ ١: ٦).

وبعملية حسابية بسيطة نجد أن عدد الأيام التي قضاها الميت في بطن الأرض (في القبر) تساوي يومًا واحدًا (يوم السبت)، وعدد الليالي التي قضاها تساوي ليلتين على أحسن الفروض. [١]

وعلى هذا نقول كيف يعتقد النصارى أن المصلوب قام من قيامته بعد ثلاث أيام فيكون ذلك يوم الأحد ليسمونه يوم القيامة؟.

* * *

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية (١٠١).

سورة المنافقون

شبهة: ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

نص الشبهة:

أن قول الله: ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ينافي الرحمة والشفقة.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: احتجاجكم بالقرآن لا يجوز.

الوجه الثالث: تفسير الآيات، ومن خلالها الرد على هذه الشبهة المزعومة، وإثبات أنهم يستحقون غضب الله عليهم.

الوجه الرابع: من أسباب غضب الله عهليهم.

الوجه الخامس: أن الله لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثاني: لا يجوز احتجاجكم بالقرآن.

الوجه الثالث: تفسير الآيات، ومن خلالها الرد على هذه الشبهة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)﴾ (المنافقون: ٥-٨).

يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المنافقين تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم لووا رءوسهم، يقول حرّكوها وهزّوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره، ورأيتهم يُعْرضون

عما دُعوا إليه بوجوههم ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ يقول وهم مستكبرون عن المصير إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، وإنما عُنِي بهذه الآيات كلها فيما ذُكر، عبدُ الله بن أُبيّ ابن سَلُول، وذلك أنه قال لأصحابه: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله ﷺ، فدعاه رسول الله ﷺ، فسأله عما أخبر به عنه، فحلف أنه ما قاله، وقيل له: لو أتيت رسول الله ﷺ، فسألته أن يستغفر لك، فجعل يلوي رأسه ويحرّكه استهزاء، ويعني ذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه، فأنزل الله ﷻ فيه هذه السورة من أوّلها إلى آخرها(١).

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله ﷺ قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ:

يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ الله: كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ؛ فَقَالَ: " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ، فَسَمِعَهَا عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا! وَالله لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِب عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ. "(٢)

وعن زيد بن أرقم ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله بن أُبيّ ابن سلول: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شئ من ذلك، قال: فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ ، فانطلقت فنمت كئيبًا حزينًا، قال: فأرسل إلي رسول الله ﷺ فقال: "إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ عَذَرَكَ وصَدَّقَكَ " قال: فنزلت الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ حتى بلغ ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾. (٣)

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٠٨)، وابن كثير (٤/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠١).

فبعد كل هذا بعد سبهم لرسول الله ﷺ وكذبهم عليه، وإعراض عبد الله بن أبي بن سلول عن استغفار رسول الله ﷺ قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿سَوَآءٌ﴾ يا محمّد على هؤلاء المنافقين الذين قيل لهم تعالوا يستغفر لكم ر سول الله ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ يقول: لن يصفح الله لهم عن ذنوبهم، بل يعاقبهم عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ يقول: إن الله لا يوفّق للإيمان القوم الكاذبين عليه، الكافرين به الخارجين عن طاعته. [1]

وقال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم، وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: "أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾. [2]

ثم تتابع الآيات في ذكر نفاقهم وإبطانهم الكفر والكره للمسلمين، فقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ يعني المنافقين الذين يقولون لأصحابهم ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ من أصحابه المهاجرين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يقول: حتى يتفرّقوا عنه، لله جميع ما في السموات والأرض من شيء وبيده مفاتيح خزائن ذلك، لا يقدر أحد أن يعطي أحدًا

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١١١: ١١٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١١)، والطبري (٦/ ١٩٨).

شيئًا إلا بمشيئته، ويقول هؤلاء المنافقون الذين وَصف صفتهم قبل: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فيها، ويعني بالأعزّ: الأشدّ والأقوى[1].

الوجه الرابع: أسباب غضب الله على هؤلاء المنافقين.

١- أنهم منافقون يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، والله ورسوله أعلم بذلك، ولكن رسول الله ﷺ قبل منهم علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله، وكان لهم مثل حقوق المسلمين الصادقين من حرمة المال والدم والعرض، ومع ذلك هم أعرضوا ولووا رؤوسهم وتكبروا عن توحيد الله ﷻ، ومما يؤيد هذا المعنى ما جاء في حديث كعب بن مالك ؓ عندما تخلف عن غزوة تبوك، وفيه أن المنافقين الذين تخلفوا عن الغزوة جاءوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، فقال كعب ؓ: فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله. [2]

٢- أنهم لما أشير عليهم بأن يذهبوا لرسول الله ﷺ ليستغفر لهم أعرضوا ولووا رؤوسهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ (المنافقون: ٥)، فهم رفضوا أن يغفر الله لهم، فما بالك بمن يرفض مغفرة الله سبحانه وتعالى؟.

٣- أنهم سبوا النبي ﷺ وقالوا عنه أنه الأذل، ووصفوا أنفسهم بالعزة، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

٤-أنهم أرادوا أن يتحكموا في رزق الله سبحانه، فقالوا لا تنفقوا على المسلمين حتى يتفرقوا عن رسول الله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون: ٧).

٥- من صفاتهم أن في قلوبهم مرض، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٩).

٦-استهزاؤهم بالدين، وادعاؤهم أنهم يخوضوا ويلعبوا، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ

---

(١) المصدر السابق (٦/ ١١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠).

ﭐلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (التوبة: ٦٤-٦٦).

٧- أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، قال تعالى: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ (التوبة: ٦٧).

٨-أنهم يشكون في وعد الله ورسولهﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾﴾ (الأحزاب: ١٢).

الوجه الخامس: أن الله لا يظلم الناس شيئًا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (يونس: ٤٤)، وقال تعالى رحمةً منه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال: ٣٣)، وقال تعالى عدلًا منه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال تعالى في شأن النصارى واليهود الذين نسبوا له الولد وسبوه وهانوه ﷻ وتنزه عن ذلك: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾﴾ (المائدة: ٧٤).

والآيات في ذلك كثيرة والتي تدل على أن الله لا يظلم أحدًا، ولكن الإنسان هو الذي يجر الشر إلى نفسه، وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ . . . ﴾ (التوبة: ٧٤)، فدعاهم إلى التوبة بعد كل ما فعلوه.

* * *

سورة التغابن

شبهة: التقوى.

نص الشبهة:

جاء في سورة التغابن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)﴾ (التغابن: ١٦).

السؤال: كيف يطلب من الناس تقوى الله قدر الاستطاعة؟ وإذا لم تستطع ماذا يحدث؟ كيف أن الله يوحي بكلام يناقض طبيعته، فالله يطلب تقوى كاملة؟

والجواب على هذه الشبهة من عدة أوجه:

الوجه الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

الوجه الثاني: أن الآية الأولى ناسخة للثانية.

الوجه الثالث: آية التغابن بمعزل عن آية آل عمران.

الوجه الرابع: أن قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ محمولة على التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ محمولة على الأعمال.

الوجه الخامس: الإسلام دين يسر وسعة.

الوجه السادس: التكليف بالمستحيل ممنوع شرعًا.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآيتين.

الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ (آل عمران: ١٠٢)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أن يطاع فلا

يُعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. (١)

فمعناها أي حق الله وتقواه وذلك بدوام خشيته ظاهرًا وباطنًا والعمل بموجبها. (٢)

وقال مجاهد: أن تُجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لَوْمَةُ لائمٍ وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم. (٣)

وحق التقوى أيضًا: استفراغُ الوُسعِ في القيام بالموجبات واجتنابِ المحارم. (٤)

وذكر الماوردي في تفسيره هذه الآية أربعة أقاويل:

الأول: هو أن يُطَاع فلا يُعْصى، ويُشْكَر فلا يكفر ويُذْكَر فلا يُنْسي، قاله ابن مسعود، والحسن، وقتادة.

الثاني: اتقاء جميع المعاصي.

والثالث: هو أن يعترفوا بالحق في الأمن والخوف.

والرابع: هو أن يُطَاع، ولا يُتَّقى في ترك طاعته أحدٌ سواه(٥).

أما عن الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ (التغابن: ١٦) أي ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم. (٦)

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: "إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وما نَهَيْتُكُمْ عَنْه فَاجْتَنِبُوهُ". (٧)

---

(١) **إسناده صحيح**. أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٧٩)، وعبد الرزاق في التفسير (١/ ١٢٩)، والطبري في التفسير (٧٥٣٧)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٩)، والحاكم (٢/ ٢٩٤) عن ابن مسعود مرفوعا ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا، والأظهر أنه موقوف. قاله ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٠).

(٢) تفسير القاسمي (٤/ ١٦٨).

(٣) تفسير البغوي (١/ ١٣٣).

(٤) تفسير أبو السعود (٢/ ٦٥)، والكشاف (١/ ٣٩٤)، والبقاعي (٢/ ١٣٠)، والبحر المحيط (٣/ ١٩).

(٥) النكت والعيون (١/ ٤١٣).

(٦) تفسير القنوجي (١٤/ ١٧٢)، والشوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٣٩)، و تفسير ابن كثير (١٤/ ٢٤)، والفخر الرازي (٣٠/ ٢٧)، والمراغي في تفسيره (٢٨/ ١٣١).

(٧) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

أي: ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم. يقول تعالى ذكره: واحذروا الله أيها المؤمنون وخافوا عقابه وتجنبوا عذابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه والعمل بما يقرب إليه ما أطقتم وبلغه وسعكم. (١)

ويُفهم من الآية أن التكليف في حدود الاستطاعة، ويبينه قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٦). (٢)

وفي هذا القيد ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ يتجلى لطف الله بعباده وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته. (٣)

هذا أيضًا من إحسان الله تعالى إلى عباده المؤمنين، إنه لما علمهم أن أموالهم وأولادهم فتنة وحذرهم أن يؤثروهم على طاعة الله ورسوله علم أن بعض المؤمنين سوف يزهدون في المال والولد، والبعض الآخر سوف يعاني مشقة شديدة في التوفيق بين خدمة المصلحتين، فأمرهم أن يتقوه في حدود ما يطيقون فقط، وخير الأمور الوسط فلا يفرط في ولده وماله، ولا يفرط في غاية خلقه وهي عبادة الله تعالى التي خلق لأجلها و عليها مدار نجاته من النار ودخوله الجنة. (٤)

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه فإنه يأتي بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبيﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم". (٥)

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ **ناسخة لقوله تعالى:** ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ١٢٧).

(٢) أضواء البيان (٨/ ٣٤٥).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٩).

(٤) أيسر التفاسير (٥/ ٣٧٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٨٦٨).

وهذا ما ذهب إليه سعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وابن زيد والسدي. [١]

عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: يطاع فلا يعصى ثم أنزل الله ﷻ التخفيف ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت هذه الآية التي في آل عمران[٢].

قال ابن المنير: الظاهر أن قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إنما نسخ حكمه لا فضله وأجره، وقد فسر النبي ﷺ حق تقاته بأن قال: "هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر" فقالوا: أينا يطيق ذلك فنزلت: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وكان التكليف أولا باستيعاب العمر بالعبادة بلا فترة ولا نعاس كما كانت الصلاة خمسين ثم صارت بحسب الاستطاعة خمسًا، والاقتدار منزل على هذا الاعتبار ولم ينحط من درجاته.

وبتعقب هذا الحديث نجد أنه لم يثبت مرفوعًا، بل هو من كلام ابن مسعود رواه النسائي وليس فيه قول الصحابة: (أينا يطيق ذلك)، ونزول قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[٣].

وقال آخرون بأن الآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ليست منسوخة بل هي محكمة، وأن آية ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ مبينة لها ومفسرة لها.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، قال: لم تنسخ ولكن حق تقاته أن تجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا بالقسط ولو على آبائكم وأبنائكم[٤].

وعن طاوس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إن لم تفعلوا ولم تستطيعوا ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. [١]

---

(١) دفع إيهام الاضطراب (٥١)، ابن كثير (٢/ ١٠٠)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (٢٤٢).

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣٠٠)، وفي إسناده محمد بن جعفر الأنباري، ذكره الخطيب ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وبقية رجاله ثقات فيهم الحسين بن محمد المروزي له أوهام.

(٣) البرهان للزركشي (٢/ ٥٨: ٥٧).

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣٠٢)، والطبري (٣/ ٢٩).

قال أبو جعفر: محال أن يقع في هذا ناسخ ولا منسوخ إلا على حيلة وذلك أن معنى نسخ الشيء إزالته والمجيء بضده، فمحال أن يقال: اتقوا الله منسوخ ولا سيما مع قول الرسولﷺ.

فعن معاذ بن جبل، قال: قال لي رسول اللهﷺ: "يا معاذ أتدري ما حق الله ﷻ على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئًا"(٢)، أفلا ترى أنه محال أن يقع في هذا نسخ؟ والذي قلناه قول ابن عباس في الحديث السابق فهل ما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ. (٣)

فالآية محكمة وهذا مذهب طاووس وهو الصحيح لأن التقوى هي اجتناب ما نهى الله عنه ولم ينه عن شيء ولا أمر به إلا وهو داخل تحت الطاقة كم قالﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فالآيتان متوافقتان والتقدير اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم. (٤)

فالتعارض الحقيقي بين الآيتين غير مسلَّم به، فإن تقوى الله حق تقاته المأمور بها في الآية هي الإتيان بها يستطيعه المكلفون من عبادة الله ﷻ دون ماخرج عن استطاعتهم، إذًا فلا تعارض بينها وبين قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وحيث لا تعارض فلا نسخ، والتحديد بالاستطاعة ليس بيانًا للتقوى الحقيقية المطلوبة(٥)، فلا مجال للنسخ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن فهو أولى(٦)، فمن أتى ما يستطيعه من عبادته تعالى وأناب لجلاله وأخلص في أعماله وكان مشفقًا في طاعته فقد اتقى الله حق تقاته.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، مسلم (٣٠).

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ١٣٠).

(٤) نواسخ القرآن لابن الجوزي (٢٤٤).

(٥) فتح المنان علي حسن العريض (٢٩٠).

(٦) محاسن التأويل (٢/ ١٦٩).

قال ابن تيمية: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وهذه مفسرة له ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، ومن قال من السلف هي ناسخة لها، فمعناه أنها رافعة لما يظن من أن المراد من حق تقاته ما يعجز البشر عنه؛ فإن الله لم يأمر بهذا قط ومن قال إن الله أمر به فقد غلط. (١)

وقال الشيخ كمال الدين الزملكاني: وفي كون ذلك منسوخًا نظر، وقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ هو ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إذ به أمر فإن حق تقاته الوقوف على ماأمره ودينه وقد قال بذلك كثير من العلماء. (٢)

الوجه الثالث: أن قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ بمعزل مما دل عليه قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قال بعض المفسرين: إنما عنى بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم، وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، فتتركوا الهجرة ما استطعتم، بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين، ومما يدل على صحة هذا أن قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك. (٣)

أما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ذكر غير واحد من أهل التفسير أن الخطاب بهذه الآية يعم جميع المؤمنين، والمقصود به

---

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٩٠).

(٢) الناسخ والمنسوخ لقتادة (١/ ٣٨).

(٣) الجامع لعلوم القرآن (١٨/ ١٤١-١٤٠)، وأيسر التفاسير (٥/ ١٦٩)، والطبري (١٤/ ١٢٥).

وقت نزولها الأوس والخزرج الذين شجر بينهم بسعاية شاس بن قيس ما شجر. (١)

قال عكرمة: نزلت في الأوس والخزرج حين اقتتلوا وأصلح النبي ﷺ بينهم. (٢)

قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول اللهﷺ إلى المدينة، فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج، فقال الأوسي: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة، ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حميُّ الدبر، ومنّا سعد بن معاذ الذي اهتز له عرش الرحمن ورضي الله بحكمه في بني قريظة. وقال الخزرجي: منّا أربعة أحكموا القرآن: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم، فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا، فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح فأتاهم النبيﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾. (٣)

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ محمول على التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ محمول على الأعمال.

ذكر السيوطي رحمه الله في الإتقان والزركشي في البرهان: أن الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ محمولة على التوحيد ونفي الشرك بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾. (٤)

فلا يقبل الله ﷻ عذر ترك التوحيد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ (النساء: ١١٦).

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٨٢).

(٢) زاد المسير (١/ ٤٣١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٧٤١).

(٣) تفسير البغوي (١/ ٣٣٢)، وتفسير الخازن (١/ ٢٧٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢١)، وتفسير الواحدي (١٠٠)، والدر المنثور (٢/ ٢٨٣)، وابن حجر في بيان الأسباب (٢/ ٧٢٦).

(٤) الإتقان٣/ ٨٥، البرهان٢/ ٥٧.

وقال تعالى حكاية عن لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ (لقمان: ١٣)، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ "يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ؟ " قَالَ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عليهِ؟ " قَالَ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ". [١]

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: (كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: "أَسْلِمْ" فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: "الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ"[٢]، فالآية الأول محمولة على التوحيد.

أما الآية الثانية فمحمولة على الأعمال؛ فمن لم يستطع الوضوء أتى بالتيمم بدلًا منه كما بين ذلك رب العالمين حيث قال في كتابه الحكيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦﴾ (المائدة: ٦)، فعلى ذلك تكون الآية الأولى خاصة بالمحسنين، والثانية خاصة بالمؤمنين.

الوجه الخامس: الإسلام دين يسر و سعة.

إن الدين الإسلامي دين يسر وسعة وليس في شريعة الإسلام شدة وضيق أو حرج، وهذا من محاسن الإسلام، وقد أشارت آيات كثيرة إلى يسر الإسلام وسعته، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦) و (٥٦٥٧).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: "لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ (البقرة: ٢٨٤) قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ الله، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عليكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قَالَ: نَعَمْ، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ". (١)

قال المراغي: وقد قال الصحابة ﷺ ذلك لأنهم قد دخلوا في الإسلام وكثير منهم تربوا في حجر الجاهلية وانطبعت في نفوسهم أخلاقها وأثرت في قلوبهم عاداتها، وكانوا يتطهرون منها بالتدريج بهدي الرسول ﷺ ونور القرآن، فلما نزلت هذه الآية خافوا أن يؤاخذوا على ما كان باقيًا في أنفسهم من العادات الأولي، وكانوا يحاسبون أنفسهم لاعتقادهم النقص وخوفهم من الله ﷻ، فأخبرهم الله تعالى أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولا يؤاخذها إلا على ما كلفها وهم مكلفون بتزكية أنفسهم ومجاهدتها بقدر الطاقة وطلب العفو عما لا طاقة لهم به. (٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٥-٤٥٤٦)، ومسلم (١٩٩).

(٢) تفسير المراغي (٣/ ٨١).

وهذه الآية نص عَلَى أَنَّ الله تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا مَا لَا يَقْدِرُ عليهِ وَلَا يُطِيقُهُ، وَلَوْ كَلَّفَ أَحَدًا مَا لَا يَقْدِرُ عليهِ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لَكَانَ مُكَلِّفًا لَهُ مَا لَيْسَ فِي وُسْعِهِ(١).

وقال الله ﷻ أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (الطلاق: ٧)، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وكثير من الآيات التي تدل على يسر الشريعة الاسلامية ونفي الحرج عن المؤمنين ونفي التكليف بما لا يطاق، وقد وردت أيضًا أحاديث كثيرة في سنة نبينا محمدﷺ تبين هذا الأمر العظيم من أمور الدين الإسلامي منها: عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قال: هم المؤمنون وسع الله عليهم أمر دينهم فقال الله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾. (٢)

ولقد بوب البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح بابًا بعنوان: (الدين يسر وقول النبيﷺ: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة)، وأخرج عن أبي هريرةﷺ عن النبيﷺقال: **"إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ"**. (٣)

وقد وردت السنة عن رسول اللهﷺ أن من لم يستطع الصلاة قائمًا فغير مكلف للقيام بها وهذا من يسر الشريعة الإسلامية، فعن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍﷺ قَالَ: (كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّﷺ عَنْ الصَّلَاةِ فَقَالَ: "صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ". (٤)

هكذا تتجلى الشريعة الإسلامية في يسرها وسماحتها ورفع الحرج عن المكلفين.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٥٣٧).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣٠٨٠)، وتفسير الطبري (٦/ ١٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (١١١٧).

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ في سَفَرٍ فَرَأَى زِحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظُلِّلَ عليهِ فَقَالَ: " مَا هَذَا؟ " فَقَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: "لَيْسَ مِنْ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ". [١]

وقال الله ﷻ في كتابه المبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ ﴾ (البقرة: ١٨٣-١٨٤).

قال ابن حجر: وَقَالَ عَطَاء: يُفْطِر مِنْ الْمَرَض كُلّه كَمَا قَالَ الله تَعَالَى. . . وَقَالَ الْحَسَن وَإِبْرَاهِيم فِي الْمُرْضِع وَالْحَامِل إِذَا خَافَتَا عَلَى أَنْفُسهمَا أَوْ وَلَدهما: تُفْطِرَانِ ثُمَّ تَقْضِيَانِ، وَأَمَّا الشَّيْخ الْكَبِير إِذَا لَمْ يُطِق الصِّيَام فَقَدْ أَطْعَمَ أَنَس بْن مَالِك بَعْدَمَا كَبِرَ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ كُلّ يَوْم مِسْكِينًا خُبْزًا وَلَحْمًا وَأَفْطَرَ. [٢]

الوجه السادس: التكليف بالمستحيل ممنوع شرعًا.

إن شرط الفعل الذي وقع التكليف به أن يكون ممكنًا ومقدورًا عليه لأن المطلوب شرعًا حصول الفعل ولا يمكن حصوله إلا بأن يكون متصور الوقوع، وعلى هذا فلا يجوز التكليف بالمستحيل عند الجمهور وهو الحق وسواء كان مستحيلا بالنظر إلى ذاته أو بالنظر إلى امتناع تعلق قدرة المكلف به. [٣]

وقال ابن تيمية: وَالشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِأَنَّ الْأَفْعَالَ الْمَأْمُورَ بِهَا مَشْرُوطَةٌ بِالِاسْتِطَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: "صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ". [٤]

وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْمُصَلِّيَ إذَا عَجَزَ عَنْ بَعْضِ وَاجِبَاتِهَا: كَالْقِيَام أَوْ الْقِرَاءَةِ أَوْ الرُّكُوعِ أَوْ السُّجُودِ أَوْ سَتْرِ الْعَوْرَةِ أَوْ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ سَقَطَ عَنْهُ مَا عَجَزَ عَنْهُ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عليهِ مَا إذَا أَرَادَ فِعْلَهُ إرَادَةً جَازِمَةً أَمْكَنَهُ فِعْلُهُ وَكَذَلِكَ الصِّيَامُ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٦).

(٢) فتح الباري (٨/ ٢٨).

(٣) إرشاد الفحول للشوكاني (٩)، والمستصفى لأبي حامد الغزالي (٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (١١١٧).

يَسْقُطُ بِالْعَجْزِ عَنْ مِثْلِ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْعَجُوزِ الْكَبِيرَةِ الَّذِينَ يَعْجِزُونَ عَنْهُ أَدَاءً وَقَضَاءً. وَكَذَلِكَ الْحَجُّ فَإِنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الْعَاجِزِ عَنْهُ وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، بَلْ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الِاسْتِطَاعَةَ الشَّرْعِيَّةَ الْمَشْرُوطَةَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَمْ يَكْتَفِ الشَّارِعُ فِيهَا بِمُجَرَّدِ الْمُكْنَةِ وَلَوْ مَعَ الضَّرَرِ بَلْ مَتَى كَانَ الْعَبْدُ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ مَعَ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُ جُعِلَ كَالْعَاجِزِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ الشَّرِيعَةِ: كَالتَّطَهُّرِ بِالْمَاءِ وَالصِّيَامِ فِي الْمَرَضِ وَالْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وهو في الصحيحين عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ، أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ لَمَّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ: "لَا تزرموه" - أَيْ لَا تَقْطَعُوا عليهِ بَوْلَهُ - "فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ"[(١)].

وقال أيضًا: وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْعِبَادَاتِ لَا تَجِبُ إلَّا عَلَى مُسْتَطِيعٍ وَأَنَّ الْمُسْتَطِيعَ يَكُونُ مُسْتَطِيعًا مَعَ مَعْصِيَتِهِ وَعَدَمِ فِعْلِهِ كَمَنْ اسْتَطَاعَ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَلَمْ يَفْعَلْهُ فَإِنَّهُ مُسْتَطِيعٌ بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِقَابِ عَلَى تَرْكِ الْمَأْمُورِ الَّذِي اسْتَطَاعَهُ وَلَمْ يَفْعَلْهُ لَا عَلَى تَرْكِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْهُ.[(٢)]

وقال أبو الحسين البصري: لا يصح شرعًا التكليف بالمستحيل الذي لا يجد المكلف سبيلًا ممكنًا لفعله.[(٣)]

* * *

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٤٣٩ : ٤٣٨)، والبخاري (٢٢٠)، ومسلم (٢٨٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٨٠ : ٤٧٩ .)

(٣) المعتمد في أصول الفقه (١/ ٩٨).

سورة التحريم

وفيها:

١- شبهة: آية التحريم.

٢- شبهة: إسرار النبي ﷺ لبعض أزواجه.

٣- شبهة: مصير امرأة نوح عليه السلام.

١ـ شبهة: آية التحريم.

نص الشبهة:

في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾ (التحريم: ١).

قال البغوي: قال المفسرون: وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها فأذن لها، فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقًا فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقًا، وحفصة تبكي فقال: " ما يبكيك؟ فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أَمَتَكَ بيتي، ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي، أما رأيت لي حرمة وحقًا؟ ما كنت تصنع هذا بامرأةٍ منهنَّ. فقال رسول الله ﷺ: أليست هي جاريتي أحلها الله لي؟ اسكتي فهي حرام عليّ ألتمس بذاك رضاك، فلا تخبري بهذا امرأة منهن. فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت: ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم عليه أمته مارية، وإن الله قد أراحنا منها وأخبرت عائشة بما رأت، وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ، فغضبت عائشة فلم تزل بنبي الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ يعني العسل ومارية: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾". [(١)]

وفي ذلك مسائل:

١ - أن محمداﷺ يحرم ما أحل الله وذلك يؤدى إلى عدم عصمته.

٢ - في القصة أن محمدًا غدر بحفصة.

والجواب على ذلك من وجوه كما يلي:

الوجه الأول: سياق ما ثبت في هذا.

الوجه الثاني: سبب نزول الآية وتعدد السبب.

(١) تفسير البغوي (٤/ ٣٦٣).

الوجه الثالث: القصة المذكورة ليس فيها غدر بحفصة رضي الله عنها.

الوجه الرابع: للرجل حق في أن يجامع زوجته في غير يومها.

الوجه الخامس: خصوصية النبي ﷺ في عدم القسمة بين النساء.

الوجه السادس: عدل النبي ﷺ مع زوجاته

الوجه السابع: الحكمة من عتاب النبي ﷺ وبيان أنه كرامة وقربة وليس ذمًا

واليك التفصيل

الوجه الأول: **سياق ما ثبت في هذا.**

عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ (التحريم: ١) إلى آخر الآية. (١)

وعن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: "لا تخبري أحدًا وإن أم إبراهيم علي حرام فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: فو الله لا أقربها قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة قال: فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾"(٢).

الوجه الثاني: **سبب نزول الآية وتعدد السبب**

للآية أكثر من سبب نزول وهذا لا مانع فيه مطلقًا

١ - تحريم النبي ﷺ مارية على نفسه وقد سبق بيان ذلك.

٢ - تحريم النبي ﷺ على نفسه العسل.

وقد حدث ذلك في أكثر من واقعة:

١ - عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها

---

(١) صحيح. أخرجه النسائي في الكبرى (٨٩٠٧)، وفي الصغرى (٣٩٥٩)، والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح على شرط مسلم، وصححه ابن حجر في الفتح (٩/ ٢٨٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٩٥٩).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٩٥) بإسناده للهيثم بن كليب وقال: وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج.

عسلًا فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد فيك ريح مغافير[1] أكلت مغافير فدخل على إحداهما فقلت له ذلك فقال: "بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة إذ أسر النبي إلى بعض أزواجه. لقوله بل شربت عسلًا". [2]

٢- عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلواء وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس فغرت فسألت عن ذلك؛ فقيل أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل فسقت النبي ﷺمنه شربة؛ فقلت: أما والله لنحتالن له فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولي أكلت مغافير فإنه سيقول لك لا فقولي له ما هذه الريح التي أجد منك؛ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرست نحلة العرفط وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذاك. قالت: تقول سودة: فو الله ما هو إلا أن أقام على الباب فأردت أن أباديه بما أمرتني به فرقا منك فلما دنا منها قالت له سودة يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: لا. قالت فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل. فقالت: جرست نحلة العرفط فلما دار إلي قلت له نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال لا حاجة لي فيه. قالت: تقول سودة: والله لقد حرمناه قلت لها: اسكتي"[3].

---

(١) قال النووي في شرح مسلم (٥/ ٣٣٣) (مغافير) هو جمع مغفور وهو صمغ حلو كالناطف وله رائحة كريهة ينضحه الشجر يقال له العرفط يكون بالحجاز، وقيل: إن العرفط نبات له ورقة عريضة تفترش على الأرض له شوكة حجناء وثمرة بيضاء كالقطن مثل زر القميص خبيث الرائحة قال أهل اللغة: العرفط من شجر العضاة وهو شجر له شوك، وقيل: رائحته كرائحة النبيذ وكان النبي ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٦)، ومسلم (١٤٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (١٤٧٤).

قال ابن حجر: وطريق الجمع بين هذا الاختلاف الحمل على التعدد فلا يمتنع تعدد السبب للأمر الواحد.[١]

الوجه الثالث: القصة المذكورة ليس فيها غدر بحفصة

هل معاشرة رسول الله (ﷺ) لسريته و أم ولده تعتبر خيانة زوجية والعياذ بالله؟

بالطبع لا فهي من نسائه اللاتي أحل الله له، و هذا أمر معروف و لا حرج فيه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام، وكانتا من السراري، رضي الله عنهما[٢].

الوجه الرابع: للرجل حق في أن يجامع زوجته في غير يومها.

والدليل على ذلك:

١ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: " كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسُولَ الله ﷺ ثُمَّ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ ثُمَّ يُصْبِحُ مُحْرِمًا يَنْضَخُ طِيبًا ".[٣]

قال ابن حجر: (فيطوف) كناية عن الجماع.[٤]

٢- عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النبي ﷺ كَانَ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ بِغُسْلٍ وَاحِدٍ.[٥]

٣ـ عنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النبي ﷺ قَالَ: " قَالَ سلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ في سَبِيلِ الله، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ الله. فَلَمْ

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٧)، ومسلم (١١٩٢).

(٤) فتح الباري (١/ ٤٤٩)، وانظر شرح صحيح مسلم للنووي (٤/ ٣٦٠).

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٤)، مسلم (٣٠٩) واللفظ له.

يَقُلْ، وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلاَّ وَاحِدًا سَاقِطًا إِحْدَى شِقَّيْهِ » فَقَالَ النبي ﷺ: « لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا في سَبِيلِ الله". قَالَ شُعَيْبٌ وَابْنُ أَبِى الزِّنَادِ: تِسْعِينَ. وَهْوَ أَصَحُّ. (١)

الوجه الخامس: خصوصية النبي ﷺ في عدم القسمة بين النساء.

قال ابن كثير: في قول آخر لمعنى الآية: المراد بقوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت.

هكذا يروى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأبي رَزين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، ومع هذا كانﷺ يقسم لهن؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبًا عليهﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحدًا. (٢)

فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم.

الوجه السادس: عدل النبي ﷺمع زوجاته

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ، لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قل يوم يأتي إلا وهو يطوف علينا جميعًا فيدنوا من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها(٣) فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"، وهذه الأقوال منه ﷺ تأكيد وبيان لقول رب العزة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهى كلمة جامعة تعنى: التحلي

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٤)، مسلم (١٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥١١)، ومسلم (١٤٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٢١٣٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٠٣)، وقال: صحيح ولم يخرجاه (٢٠٣)، والمعجم الأوسط للطبراني (٥٢٥٤)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٧٩).

بمكارم الأخلاق في معاملة الزوجات، من صبر على ما قد يبدر منهن، أو تقصير في أداء واجباتهن، ومن حلم عن إيذائهن في القول أو الفعل، وعفو وصفح عن ذلك، ومن كرم في القول والبذل، ولين في الجانب، ورحمة في المعاملة، إلى غير ذلك مما تعنيه المكارم الأخلاقية التعاملية الأسرية.

الوجه السابع: الحكمة من عتاب النبي ﷺ وبيان أنه كرامة وقربة وليس ذمًا.

أولًا: إن عتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الوارد في القرآن الكريم، هو في الظاهر عتاب، وفي الحقيقة كرامة وقربة لله عز وجل، وتنبيه لغيرهم ممن ليس في درجتهم من البشر، بمؤاخذتهم بذلك، فيستشعرا الحذر، ويلتزموا الشكر على النعم، والصبر على المحن، والتوبة عند الزلة.

ثانيًا: أن لله تعالى أن يعتب أنبياءه وأصفياءه، ويؤدبهم، ويطلبهم بالنقير والقطمير من غير أن يلحقهم في ذلك نقص من كمالهم، ولا غض من أقدارهم، حتى يتمحصوا للعبودية لله ﷺ.

ثالثًا: أن غاية أقوال الأنبياء وأفعالهم التي وقع فيها العتاب من الله عز وجل لمن عاتبه منهم، أن تكون على فعل مباح، كان غيره من المباحات أولى منه في حق مناصبهم السنية.

رابعًا: المباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح في عصمتهم ومنزلتهم، فهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات، مما يتقون به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أخذ على هذه السبيل التحق طاعة، وصار قربة.

خامسًا: أنه ليس كل من أتى ما يلام عليه يقع لومة، فاللوم قد يكون عتابًا، وقد يكون ذمًا، فإن صح وقوع لومه، كان من الله عتابًا له لا ذمًا، إذ المعاتب محبور (أي مظنة للحبور، وهو السرور) والمذموم مدحور، فاعلم – رحمك الله – صحة التفرقة بين اللوم والذم قال الشاعر:

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقى العتاب

سادسًا: أن العتاب فيما قيل أنه عوتب عليه رسول الله ﷺ، إنما كان على ما حَكَمَ فيه رسول الله ﷺ بالاجتهاد، والاجتهاد محتمل الخطأ، فكان تصحيح الخطأ في اجتهاده من

الله ﷻ، بتوجيهه ﷺ إلى الأخذ بالصواب فعاد الحكم بذلك إلى الوحي.

سابعًا: عدم ورود نهى عما عوتب فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى يكون عتابهم ثمَّ ذم.

ثامنًا: إنه ما من آية ظاهرها عتاب رسول الله ﷺ إلا وهى واردة في مقام المنَّة على رسول الله ﷺ، وبيان عظيم فضله ومكانته عند ربه عز وجل بأعظم ما يكون البيان[١].

الرد على قولهم أن النبي ﷺ حرم ما أحل الله.

وقد أخذوا هذا الكلام من الزمخشري، حيث قال في تفسيره: كان هذا ما حرمه الرسول على نفسه من ملك اليمين أو العسل زلة منه، لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله، لأن الله عز وجل، إنما أحل ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله، فإذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة.[٢]

فإن ما أطلقه الزمخشري، وتابعه فيه خصوم السنة النبوية، والسيرة العطرة، في حق النبي ﷺ تقول وافتراء، والنبي ﷺ مما أطلقوه براء؛ وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين:

الوجه الأول: اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله ﷻ، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الإيمان، وإن صدر! سلب المؤمن حكم الإيمان.

والزمخشري كلامه محمول على هذا المحمل، ومعاذ الله أن يعتقد رسول الله ﷺ تحريم ما أحله الله له، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على الله ورسوله؛ تابعه فيها بعض الجهلاء.[٣]

الوجه الثاني: الامتناع عما أحله الله عز وجل، وهو المعنى الأصلي لمادة حرم في اللغة.[٤]

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ (١/ ٢٢٨).

(٢) الكشاف (٤/ ٥٦٤).

(٣) انظر: رد الشبهات حول عصمة النبي ﷺ لعماد الشربيني.

(٤) فحرمه، وتحريمه، وحرمانًا، وأحرمه، أي منعه. والمحروم: الممنوع عن الخير، ومن لا ينمى له مال، ومنه الصيام إحرام، لامتناع الصائم عما يفسد صومه ينظر: معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٥)، والقاموس المحيط (٤/ ٩٣)، ومختار الصحاح (١٣٢)، والنهاية في غريب الحديث (١/ ٣٥٨).

وقد ورد التحريم بهذا المعنى (الامتناع) في القرآن الكريم في آيات منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ (القصص: ١٢).

أي منعنا موسى المراضع، أن يرتضع منهن إلا من قِبَلِ أمه. [١]

٢- وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢) أي منعه من دخولها.

٣- وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ (آل عمران: ٩٣) أي إلا ما امتنع عنه سيدنا يعقوب عليه السلام عنه من قبل نفسه.

والامتناع عما أحله الله قد يكون مؤكدًا باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف، وحلال محض.

وعلى هذا الوجه الثاني تحمل آية التحريم، والتفسير الصحيح، والحديث الصحيح يعضده فإن النبي ﷺ في العسل قال: فلن أعود له، وقد حلفت. وفي مارية عندما قالت حفصة، كيف تحرم عليك وهى جاريتك حلف لها لا يقربها.

فالتحريم منه ﷺ كان امتناعًا عن العسل أو مارية، وهو امتناع أكده باليمين، مع اعتقاد حله، ولذا نزلت الآيات. [٢]

* * *

(١) جامع البيان للطبري (٢٠/ ٤٠).

(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ(١/ ٢٧٣).

٢ـ شبهة: إسرار النبي ﷺ لبعض أزواجه.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ (التحريم: ٣).

كيف يقول إلى بعض أزواجه، ثم يقول: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ بصيغة المفرد؟

أسر بكلام لها وهي أفشته، ما المغزى الروحي والإفادة الروحية مما حصل؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: كلمة بعض في اللغة.

الوجه الثاني: تفسير الآيات، والمغزى الروحي.

الوجه الثالث: سبب نزول الآيات، وفيه أن الله لم يسكت على هذا الخطأ.

الوجه الرابع: كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: كلمة (بعض) في اللغة.

﴿بَعْضُ﴾ بَعْضُ الشيء طائفة منه، والجمع أَبعاض، قال ابن سيده: حكاه ابن جني. وقيل: بَعْضُ الشيء كلُّه، قال لبيد: أَو يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمامُها، قال ابن سيده: وليس هذا عندي على ما ذهب إِليه أَهل اللغة من أَن البَعْضَ في معنى الكل هذا نقض ولا دليل في هذا البيت؛ لأَنه إِنما عنى ببعض النفوس نَفْسَه، قال أَبو العباس أَحمد بن يحيى: أَجمع أَهل النحو على أَن البعض شيء من أَشياء أَو شيء من شيء، وقوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بالتأْنيث في قراءة من قرأ به، فإِنه أَنث لأَنّ بَعْضَ السيّارة سَيّارةٌ كقولهم: ذهَبتْ بَعْضُ أَصابعه لأَن بَعْضَ الأَصابع يكون أُصبعًا وأُصبعين وأَصابع، وبعضٌ من كل[1].

فلفظة ﴿بَعْضُ﴾ تفيد جزءًا من كل، وقد تفيد كلًا حسب السياق، ولأنه جاء بعده

(١) لسان العرب (٧/ ١١٩).

﴿أَزْوَٰجِهِۦ﴾ جمعًا، فقد أريد بها واحدة منهن، كما أراد لبيد من بعض النفوس نفسه هو، وهي واحدة، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الوجه الثاني: المغزى الروحي من هذه القصة.

ولكي نعرف المغزى والإفادة من إفشاء هذا السر، لابد من التعريج على أغراض هذه السورة، والآيات الأول منها خاصةً:

- وهي أن أحدًا لا يُحَرِّم على نفسه ما أحل الله له لإرضاء أحد؛ إذ ليس ذلك بمصلحة له، ولا للذي يسترضيه.
- تنبيه نساء النبي ﷺ إلى أن غيرة الله على نبيه أعظم من غيرتهن عليه، وأسمى مقصدًا.
- وأن الله يطلعه على ما يخصه من الحادثات.
- أن من حلف على يمينٍ فرأى حنثها خيرًا من برها أن يكفر عنها ويفعل الذي هو خير.
- تعليم الأزواج ألا يكثرن من مضايقة أزواجهن؛ فإنها ربما أدت إلى الملال فالكراهة فالفراق.
- موعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضًا، ووعظ بعضهم بعضًا.

وأتبع ذلك بوصف عذاب الآخرة ونعيمها، وما يقضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيئاتها، وذَيَّلَ ذلك بضرب مثلين من صالحات النساء، وضدهن لما في ذلك من العظة لنساء المؤمنين ولأمهاتهم.(١)

وقد تضمنت الآية عدة معان، منها:

- ﴿بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ هي حفصة بنت عمر بن الخطاب، وعدل عن ذكر اسمها ترفعًا عن أن يكون القصد معرفة الأعيان، وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها مما يجتنب مثله أو يقتدى به، وكذلك طي تعيين المنبَّأة بالحديث وهي عائشة- وذكرت حفصة بعنوان بعض أزواجه للإشارة إلى أن النبي ﷺ وضع سِرّه في موضعه؛ لأن أولى الناس بمعرفة سرّ الرجل زوجهُ، وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سرّه؛ لأن واجب المرأة أن تحفظ سرّ زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله مما يجب حفظه.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/ ٣٤٥).

ولذا فمن الآداب العربية القديمة قولهم: السر أمانة، وقد وافق ذلك التشريع الإسلامي وحث عليه.

- و﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾: هذا تنبيه إلى عناية الله برسولهﷺ وانتصاره له، لأن إطلاعه على ما لا علم له به مما يهمه عناية ونصحًا له.

- ﴿عَرَّفَ﴾: عرّفها النبيﷺ بذلك ليوقفها على مخالفتها واجب الأدب من حفظ سرّ زوجها.

- ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾: إعراض الرسولﷺ عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقهﷺ في معاتبة المفشية وتأديبها، وهذا من كمال خلق النبي ﷺ، فإنه أعرض عن بعض تَكَرُّمًا، قاله السدي، وقال الحسن: ما استقصى كريمٌ قط، قال تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ وقال سفيان: ما زَال التغافل من فعل الكرام.

- والاستفهام في قوله: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ للتحقق من الذي أعلم النبي ﷺ خبرها فلا قبل للرسول ﷺ بعلم ذلك إلا من قبل عائشة أو من طريق الوحي. وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سرّ زوجها زَلة خُلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها، فلم تتمالك عن أن تبشر به خليلتها ونصيرتها ولو تذكرت لتبين لها أن مقتضى كتم سرّ زوجها أقوى من مقتضى إعلامها خليلتها؛ فإن أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة وواجب الإخلاص لرسول الله ﷺ أعلى من فضيلة الإخلاص للخلائل، ولذا كان إنهاء الآية بوصفي: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علمًا وخُبْرًا بكل شيء.

الوجه الثالث: سبب نزول الآيات. [1]

لم يسكت الله ورسوله على هذا الخطأ من حفصة وعائشة: قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (التحريم: ٤).

(١) قد فصلنا ذلك في آية التحريم.

وعن ابن عباس ﷺ، قال: أردت أن أسأل عمر، قريبًا من سنة، عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ طلق حفصة، فكان هذا جزاؤها، ثم راجعها بعد ذلك.

وعن ابن عمر، قال: دخل عمر ﷺ على حفصة وهي تبكي، فقال لها: "ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إنه قد كان طلقك مرة، ثم راجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدًا". (١)

وللحديث شواهد مختصرة عن أنس قال: "لما طلق النبي ﷺ أُمِرَ أن يراجعها فراجعها"(٢).

قال الألباني: وإسناده صحيح. (٣)

وله شاهد عن أنس قال: "طلق النبي ﷺ حفصة تطليقة، فأتاه جبريل ﷺ، فقال: يا محمد، طلقت حفصة وهي صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة"(٤).

الوجه الرابع: كل شيء في اللوح المحفوظ.

كل ما هو كائن، وما يكون، وما سيكون مكتوب وقد علمه الله قبل وقوعه، وقدره قبل الخلق، فالله يعلم ما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، سبحانه وتعالى.

وقد قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ" يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي". (٥)

---

(١) مسند أبي يعلى (١٧٢).

(٢) المستدرك (٦٧٥٤)، الأوسط (١٥١).

(٣) السلسلة الصحيحة (٢٠٠٧)، وانظر صحيح الجامع (٤٣٥١).

(٤) المستدرك (٦٧٥٤)، الأوسط (١٥١)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٣٥١): حسن.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، وصححه الألباني في المشكاة (٩٤).

فالحادثة حدثت بين النبي ﷺ وبين أزواجه، وهي مكتوبة في قدر الله، والقرآن كان باللوح المحفوظ، ثم نزل إلى بيت العزة بالسماء الدنيا، ثم نزل منجمًا تبعًا للحوادث والأسئلة والمواقف، حتى يكون أكثر ارتباطًا بهذه الوقائع التي نزل فيها.[١]

* * *

(١) انظر الإتقان (١/ ١١٧).

٣- شبهة: مصير امرأة نوح عليه السلام.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم: ١٠)، وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الأنبياء: ٧٦)، وقال أيضًا: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ (الصافات: ٧٦).

السؤال: في سورة التحريم يقول: إن امرأة نوح هلكت في الطوفان، وفي الأنبياء والصافات يقول: إنها نجت معه، فأين الحقيقة؟ وإذا طالعنا التوراة نرى أن امرأة نوح نجت معه، والإنجيل يشهد على صحة التوراة، لماذا في الأول أوحى إلى موسى أنها نجت وهنا يقول: إنها هلكت؟ أم سيتهم الكتاب المقدس بالتحريف للهروب من الحقيقة؟.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى كلمة (الأهل).

الوجه الثاني: معنى الأهل في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الوجه الثالث: القرآن بَيَّنَ عاقبة امرأة نوح عليه السلام.

الوجه الرابع: المراد بالخيانة في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

الوجه الخامس: مصير امرأة نوح ولوط -عليهما السلام- في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى كلمة (الأهل).

الأَهْل: أَهل الرجل وأَهْلُ الدار وكذلك الأَهْلة، قال أَبو الطَّمَحان:

وأَهْلةِ وُدٍّ تَبَرَّيتُ وُدَّهم وأَبْلَيْتُهم في الحمد جُهْدي ونَائلي

وقال ابن سيده: أَهْل الرجل عَشِيرتُه وذَوُو قُرْباه، والجمع أَهْلون، وآهَالٌ، وأَهَالٌ، وأَهْلات، وأَهَلات، وتطلق كلمة (أهل) على كثير.

وفي الحديث: "أَهْل القرآن هم أَهْلُ الله وخاصَّته"(١) أَي: حَفَظة القرآن العاملون به هم أَولياء الله والمختصون به اختصاصَ أَهْلِ الإِنسان به، وفي حديث أَبي بكرﷺ في استخلافه عمر أَقول له إِذا لَقِيتُه: اسْتعملتُ عليهم خَيْرَ أَهْلِكَ يريد خير المهاجرين، وكانوا يسمُّون أَهْلَ مكة أَهل الله تعظيمًا لهم، كما يقال بيت الله، ويجوز أَن يكون أَراد أَهل بيت الله؛ لأَنهم كانوا سُكَّان بيت الله.

وأَهْلُ المذهب مَنْ يَدين به، وأَهْلُ الإِسلام مَن يَدِين به، وأَهْلُ الأَمر وُلاتُه، وأَهْلُ البيت سُكَّانه، وأَهل الرجل أَخَصُّ الناس به، وأَهْلُ بيت النبي ﷺ أَزواجُه وبَناته وصِهْرُه أَعني: عليًّاﷺ، وقيل: نساء النبيﷺ والرجال الذين هم آله، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾(٢)، وقوله ﷻ لنوح ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ قال الزجاج: أَراد ليس من أَهْلِك الذين وعدتُهم أَن أُنجيهم، قال: ويجوز أَن يكون ليس من أَهل دينك وأَهْلُ كل نَبيٍّ أُمَّته، ومَنْزِلٌ آهِلٌ أَي: به أَهْلُه، ومكان آهِلٌ له أَهْل.(٣)

الوجه الثاني: معنى الأهل في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

إن المَعْنِيَّ من الأهل في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الأنبياء: ٧٦) جاء على عدة معان؛ منها:

١ـ أهله الذين آمنوا به: قال ابن كثير: يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوحﷺ حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ (القمر: ١٠)، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ (نوح: ٢٧: ٢٦)، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ (الأنبياء: ٧٦) أي: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٥٦).

(٢) القراءة ﴿أَهْلَ﴾ بالنصب على المدح كما قال: بك الله نرجو الفَضْل، وسُبْحانك الله العظيمَ، أَو على النداء كأَنه قال: يا أَهل البيت.

(٣) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٩: ٢٨).

ﭐلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ (هود: ٤٠). [١]

قال ابن عاشور: والمراد بأهله: عائلته إلاّ مَن حق عليه القول منهم، وكذلك المؤمنون من قومه، قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ (هود: ٤٠)، فالاقتصار على أهله هنا لقلة من آمن به من غيرهم.

٢. **أهل دينه**: أو أُريد بالأهل أهل دينه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ (آل عمران: ٦٨). [٢]

الوجه الثالث: القرآن بَيَّنَ عاقبة امرأة نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ (التحريم: ١٠).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: مَثَّل الله مثلًا للذين كفروا من الناس وسائر الخلق امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا، وهما نوح ولوط فخانتاهما. [٣]

قال ابن عاشور: فمعنى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾، أن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيهًا للذين كفروا؛ أي: ليُذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صَارِف، فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيتِه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول ﷺ، فلو كان صارفٌ يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٣٥٧١).

(٣) تفسير الطبري (٢٨/ ١٦٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٧٤).

ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح؛ لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة.

الوجه الرابع: المراد بالخيانة في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

قال ابن كثير: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدَّقاهما في الرسالة، فلم يُجْد ذلك كلُّه شيئًا، ولا دفع عنهما محذورًا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لكفرهما، ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للمرأتين: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وليس المراد: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء[(١)].

قال ابن عادل: قال القشيريُّ: وهذا إجماع من المفسرين أنها كانت خيانتهما في الدين، وكانتا مشركتين، وقيل: كانتا منافقتين، وقيل: خيانتهما النَّميمةُ إذا أوحى الله إليهما شيئًا أفشتاه إلى المشركين؛ قاله الضحاك، وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من إتيان الرجال[(٢)].

قال السعدي: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين؛ بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيًا. [(٣)]

والدليل على صحة ما في القرآن: هو أن قابين لما قتل هابيل ولد حنوك ولد عيراد، وعيراد ولد محويائيل، ومحويائيل ولد متوشائيل، ومتوشائيل ولد لامك، ولامك ولد يابال الذي كان أبًا لساكني الخيام ورعاء المواشي، واسم أخيه يوبال الذي كان أبًا لكل ضارب بالعود والمزمار، واسم أخيه توبال قابين الضارب كل آلة من نحاس وحديد (تكوين: ٤).

قوله عن الثلاثة: الذي كان أبًا لساكني الخيام ورعاء المواشي ـ الذي كان أبًا لكل

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢١).

(٢) تفسير اللباب (١٥/ ٣٦٦).

(٣) تفسير السعدي (٨٧٤).

ضارب بالعود والمزمار ـ الضارب كل آلة من نحاس وحديد؛ يدل على أنه كان من الناجين غير أبناء نوح، ولذلك قال مفسرو التوراة: (وسلالة قابين سلالة الحياة المدنية، وسلالة شعث سلالة الحياة القدسية).

الوجه الخامس: مصير امرأة نوح ولوط ـ عليهما السلام ـ في الكتاب المقدس.

نجد أن الكتاب المقدس لم يذكر أن امرأة نوح كانت خائنة له وأنها من الكافرين به، ففي (التكوين٦/ ١٨): وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ، وفي (التكوين٧/ ١): وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ، لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هذَا الْجِيلِ.

حتى إنها كانت ممن دخل معه أيضًا في الفلك، على عكس ما في القرآن الكريم الذي هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ففي سفر (التكوين٧/ ٧: ٦): وَلَمَّا كَانَ نُوحٌ ابْنَ سِتِّ مِئَةِ سَنَةٍ صَارَ طُوفَانُ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ، [٧] فَدَخَلَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ إِلَى الْفُلْكِ مِنْ وَجْهِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ.

أما امرأة لوط ففيها مثل ما في قصة امرأة نوح إذ إن الملكين اللذين جاءا ليهلكا سدوم التي كان يعيش فيها لوط وأهله يأمرانه بأن يأخذ امرأته مع الناجين من العذاب، ففي سفر (التكوين ١٩/ ١٦: ١٥): وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: (قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ). [١٦] وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ.

ولكن امرأة لوط هلكت في نهاية الأمر، ولكن بطريقة غريبة؛ إذ إنها لما نظرت ورائها تحولت وصارت كعمود ملح، وهذا ما جاء به سفر (التكوين١٩/ ٢٦: ٢٣): وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، [٢٤] فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. [٢٥] وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتَ الأَرْضِ. [٢٦] وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ.

* * *

سورة الحاقة

شبهة: معنى كلمة (الحاقة).

نص الشبهة:

يقولون أن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ (الحاقة٣: ١) كلام ليس له معنى!

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآيات.

الوجه الثاني: علاقتها بما قبلها وما بعدها.

الوجه الثالث: وماذا عن الكلام الغريب الموجود في الكتاب المقدس؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التفسير الصحيح للآيات.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: الساعة﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ التي تحقّ فيها الأمور، ويجب فيها الجزاء على الأعمال، ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ يقول: أيّ شيء الساعة الحاقة، وذُكر عن العرب أنها تقول: لما عرف الحاقة متى والحقة متى، وبالكسر بمعنى واحد في اللغات الثلاث، وتقول: وقد حقّ عليه الشيء إذا وجب، فهو يحقّ حقوقًا.

والحاقة الأولى مرفوعة بالثانية، لأن الثانية بمنزلة الكناية عنها، كأنه عجب منها، فقال ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ما هي، كما يقال: زيد ما زيد، والحاقة الثانية مرفوعة بها، وما بمعنى أي، وما رفع بالحاقة الثانية، ومثله في القرآن﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ فما: في موضع رفع بالقارعة الثانية والأولى بجملة الكلام بعدها، وعن ابن عباس، في قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ قال: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذّره عباده[1].

وعن قتادة قال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ يعني: الساعة أحقت لكل عامل عمله.

---

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٤٧).

وقال عكرمة: يعني القيامة[1].

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾ وأيّ شيء أدراك وعرّفك: أيّ شيء الحاقة؟ وقال قتادة: تعظيم ليوم القيامة كما تسمعون[2].

قال البقاعي: قال تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ (الحاقة٣: ١)، لما قدم سبحانه في (نون) الإنكار الشديد لأن يسوي المسيء بالمحسن، وذكر القيامة وبيّنها بيوم كشف الساق، وزيادة المشاق، وهدد التهديد العظيم بآية الاستدراج الذي لا يدفع بعلاج، وختم بأن القرآن ذكر- أي شرف -، وتذكير، ومواعظ للعالمين في شمولهم كلهم برحمته، أما من بعد إنزاله فبوعيده ووعده، ووعظه وقصه، وأمره ونهيه، وأما من قبل إنزاله فبالشهادة لهم وعليهم، وكان تأويل ذلك وجميع آثاره إنما يظهر ظهورًا تامًا يوم الجمع الأكبر، وكان ذلك اليوم أعظم مذكر للعالمين، وواعظ لهم وزاجر، تنبني جميع الخيرات على تذكره، وتذكر العرض على الملك الديان، والسر في إنزال القرآن هو: التذكير بذلك اليوم الذي هو نظام الوجود، قال واصفًا للقيامة واليوم الذي يكشف فيه عن ساق، واعظًا بذكرها، ومحذرًا من أمرها: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي الساعة التي يكذب بها هؤلاء، وهي أثبت الأشياء وأجلاها، فلا كاذبة لها ولا لشيء عنها، فلا بد من حقوقها، فهي ثابتة في نفسها، ومن إحضار الأمور فيها بحقائقها، والمجازاة عليها بالحق الذي لا مرية فيه لأحد من الخلق، فهي فاعلة بمعنى مفعول فيها، وهي فاعلة أيضًا؛ لأنها غالبة لكل خصم، من حاققته فحققته أحقه أي: غالبته في الحق فغلبته فيه، فهي تحق الحق ولا بد، فتعلو الباطل فتدمغه وتزهقه، فتحق العذاب للمجرمين، والثواب للمسلمين، وكل ما فيها دائر على الثبات والبيان؛ لأن ذلك مقتضى الحكمة، ولا يرضى لأحد من الحكام ترك رعيته بغير إنصاف بينهم- على زعمه- فكيف بالحكيم العليم!

وقصة صاحب الحوت عليه السلام أدل دليل على القدرة عليها.

(١) تفسير الطبري (٢٩/ ٤٨) بإسناد صحيح إلى قتادة، والإسناد ضعيف إلى عكرمة.

(٢) تفسير الطبري (٢٩/ ٤٨).

ولما كان ذلك كله أمرًا رائعًا للعقول، هازًا للقلوب، مزعجًا للنفوس، وكان ربما توقف فيه الجلف الجافي، أكد أمره وزاد في تهويله، وأطنب في تفخيمه وتبجيله، إشارة إلى أن هوله يفوت الوصف بقوله، معلمًا أنه مما يحق له أن يستفهم عنه سائقًا له بأداة الاستفهام مرادًا بها التعظيم للشأن، وأن الخبر ليس كالعيان ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ فأداة الاستفهام: مبتدأ أخبر عنه بالحاقة، وهما خبر عن الأولى، والرابط تكرير المبتدأ بلفظه، نحو: زيدأي ما هو؟ وأكثر ما يكون ذلك إذا أريد معنى التعظيم والتهويل.

ولما كان السياق لترجمة المراد بكشف الساق، عظم التهويل بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾أي في الزمن الماضي، وقصره لتذهب النفس فيه كل مذهب، أي: وأي شيء أعلمك بشيء من الأشياء، مع تعاطيك للبحث والمداورة، ثم زاد التحذير منها بقوله على النهج الأول مستفهمًا، والمراد به التفخيم ومزيد التعظيم: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾أي: إنها بحيث لا يعلم كنهها أحد، ولا يدركها، ولا يبلغها درايته، وكيف ما قدرت حالها، فهي أعظم من ذلك، فلا تعلم حق العلم إلا بالعيان[1].

وقال البغوي: سُمّيت حاقة لأنها حقت فلا كاذبة لها، وقيل: لأن فيها حواق الأمور وحقائقها؛ ولأن فيها يحق الجزاء على الأعمال- أي: يجب-، يقال: حق عليه الشيء؛ إذا وجب يحق حقوقًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الزمر: ٧١)، وقوله: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها كما يقال: زيد ما زيد، على التعظيم لشأنه، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ أي أنك لا تعلمها؛ إذ لم تعاينها ولم تر ما فيها من الأهوال[2].

وقال الشوكاني: قوله: فالقيامة حاقة؛ لأنها تحاق كل محاق في دين الله بالباطل، وتخصم كل مخاصم، وقال في الصحاح: حاقه أي: خاصمه في صغار الأشياء، ويقال: ماله فيها حقّ، ولا حقاق، ولا خصومة، والتحاقّ: التخاصم، والحاقة والحقة والحقّ ثلاث لغات بمعنى. قال الواحدي: هي القيامة في قول كل المفسرين، وسميت بذلك لأنها ذات

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٨/ ١٢٠، ١١٩)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٢٨٥).

الحواقّ من الأمور، وهي الصادقة الواجبة الصدق، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود، قال الكسائي، والمؤرج: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ يوم الحق، وقيل: سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله، وقيل: سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار، وأحقت لقوم الجنة، والمعنى: أيّ شيء هي في حالها أو صفاتها؟ أي: أيّ شيء أعلمك ما هي؟ أي: كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها وتشاهد ما فيها من الأهوال، فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين(١).

الوجه الثاني: علاقتها بما قبلها.

مما سبق بينا فائدة تكرار هذه الكلمة، وفائدة الاستفهام في هذه الآيات؛ ردًا على قولهم أن هذا الكلام ليس له معنى.

وأما قولهم أنها ليس لها رابط بما قبلها، فهو كلام مردود، وقد بينا ذلك في نقلنا لتفسير هذه الآيات من تفسير البقاعي، وقلنا: أن الله تعالى يكمل كلامه الذي بدأه في سورة (ن)، التي حذر فيها الكافرين والمكذبين، وذكر فيها اليوم الذي يكشف فيه عن ساق، ويشتد العذاب على الظالمين، فأكمل كلامه في سورة الحاقة ببيان عظم شأن هذا اليوم، وبيان بعض أهواله التي لا يطيقها أحد- إلا من رحم الله-.

وأما رابطها بما بعدها: فقد بين الله ﷻ بعد ذكره هذه الآيات أهوال هذا اليوم، وذكر أمثالًا من القوم الذين كذبوا بالبعث والنشور، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ (الحاقة: ٤)، والقارعة هي القيامة، ثم ذكر بعض أهوال هذا اليوم فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾ (الحاقة: ١٣)، إلى قوله ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ (الحاقة٣٧: ٣٥)، وسرد في هذه الآيات كيفية بدء هذا اليوم، وذكر فيه حال أصحاب اليمين، وحال أصحاب الشمال، فكيف لا تكون هذه الآيات ليس لها علاقة بما بعدها، إن هذامن سفه العقول، وانعدام الفهم والتدبر.

(١) فتح القدير (٥/ ٣٩٦).

ثم إن الله ﷻ لا يقول شيئًا عبثًا، أو ليس له معنى، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الأنبياء١٨: ١٦).

الوجه الثالث: وماذا عن الكلام الغريب الموجود في الكتاب المقدس؟

جاء في سفر (العدد٥/ ٢٢): وَيَدْخُلُ مَاءُ اللَّعْنَةِ هذَا فِي أَحْشَائِكِ لِوَرَمِ الْبَطْنِ، وَلإِسْقَاطِ الْفَخْذِ. فَتَقُولُ الْمَرْأَةُ: آمِينَ، آمِينَ.

وفي سفر (الرؤيا ٦/ ٦): وَسَمِعْتُ صَوْتًا فِي وَسَطِ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ قَائِلًا: (ثُمْنِيَّةُ قَمْحٍ بِدِينَارٍ، وَثَلاَثُ ثَمَانِيِّ شَعِيرٍ بِدِينَارٍ. وَأَمَّا الزَّيْتُ وَالْخَمْرُ فَلاَ تَضُرَّهُمَا

وفي (الرؤيا ١٧/ ٦): وَرَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ. فَتَعَجَّبْتُ لَمَّا رَأَيْتُهَا تعَجُّبًا عَظِيمًا!.

*　*　*　*

سورة نوح

شبهة: أن نوحًا عليه السلام يدعو للضلال.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ (نوح: ٢٤) فكيف يدعو نوح ربه أن يزيد الناس ضلالًا؟!

والتاريخ المقدس يشهد له: "كان نوح رجلًا بارًا كاملًا في أجياله"(تكوين: ٦/ ٩) ".

وأنه كان كارزًا للبر" (٢بطرس: ٢/ ٥).

كما أن الله ليس مصدرًا للضلال، ونوح نفسه لا يحب الضلال.

والجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: الأصل في دعوة الأنبياء هداية الناس.

الوجه الثاني: مدة دعوة نوح عليه السلام قومه استمرت دعوته تسعمائة وخمسين (٩٥٠) سنة.

الوجه الثالث: بيان معاملة قوم نوح له عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده وطاعته.

الوجه الرابع: شكاية نوح عليه السلام قومه لربه، وبيان إعراضهم مع علم الله بذلك.

الوجه الخامس: بيان تكذيب قوم نوح له، وبيان عاقبة المكذبين.

الوجه السادس: ما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون.

الوجه السابع: أن للآية الكريمة عدة معانٍ يصح حمْلُ الآية على أي معنى منها.

الوجه الثامن: فضل نوح عليه السلام.

الوجه التاسع: دعاء الأنبياء على الظالمين في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأصل في دعوة الأنبياء هداية الناس.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ (الكهف: ٥٦) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥) وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (الأنعام: ٤٩، ٤٨).

الوجه الثاني: مدة دعوة نوح عليه السلام قومه استمرت دعوته تسعمائة وخمسين (٩٥٠) سنة قبل الطوفان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ولم يستجيبوا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ فمكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلًا، ونهارًا، وسرًا، وجهارًا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارًا عن الحق، وإعراضًا عنه وتكذيبًا له، وما آمن معه منهم إلا قليل(١).

وبعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار(٢).

الوجه الثالث: بيان معاملة قوم نوح له عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده وطاعته.

وقد عاملوه بأشياء:

أولها: قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والمعني أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الحجة والبينة.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: تغطوا بها، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه، كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه، وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا؛ فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى.

وثالثها: قوله: ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ والمعنى أنهم أصروا على مذهبهم، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق.

ورابعها: قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: عظيمًا بالغًا إلى النهاية القصوى(٣).

بل كانت مراتب دعوته ثلاث: فبدأ بالمناصحة في السر، فعاملوه بالأمور الأربعة ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾، ثم ثنى بالمجاهرة،

(١) تفسير ابن كثير (١٠/ ٤٩٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٤٩٩).

(٣) تفسير الفخر الرازي (٣٠/ ١٣٧، ١٣٦).

فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان، أو بحسب الرتبة؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الإسرار و الجهار أغلظ من الجهار وحده[1].

ثم بعد ذلك سخروا منه، كانوا يرونه يعمل السفينة، فيقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجارًا[2]، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ (هود: ٣٨).

الوجه الرابع: شكاية نوح عليه السلام قومه لربه، وبيان إعراضهم مع علم الله بذلك.

قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ (نوح: ٢١-٢٥).

يقول تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى، أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام؛ ولهذا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ قال مجاهد: ﴿كُبَّارًا﴾ أي: عظيمًا، وقال ابن زيد ﴿كُبَّارًا﴾ أي: كبيرًا، وأي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى[3].

(وودًّا وَسُوَاعًا وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

وقصتهم ذكرها البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٩٢٠) فدعا على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، وبسبب كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم[4]. فدعاهم إلى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة، فلم يستجيبوا فحكى عنهم

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٠/ ١٣٧، ١٣٦).

(٢) تفسير فتح البيان لصديق حسن خان (٦/ ١٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١٤/ ١٤٢) باختصار.

(٤) تفسير ابن كثير (١٤/ ١٤٤).

أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم، فقال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ وذلك لأنه قال في أول السورة: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ فكأنه قال: قلت لهم أطيعون فهم عصوني، ثم قال‌ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ فذكر في الآية الأولى أنهم عصوه وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، ولم يكتفوا بذلك بل: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ **فالمتبوعين مكروا وقالوا للأتباع:** ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ و﴿كُبَّارًا﴾ مبالغة في الكبر.

المكر الكبار هو أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ فهم منعوا القوم عن التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار، واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم، فقال: الأمر بالشرك كبار في القبح والخزي، فالأمر بالتوحيد والإرشاد وجب أن يكون كبارًا في الخير والدين.

وسمي الله فعلهم ﴿مَكْرًا﴾ لوجهين:

الأول: لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها، كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقًا شديدًا، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفًا لهم عن الدين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم ﴿مَكْرًا﴾.

الثاني: أنه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إن آلهتكم خير من إله نوح، لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئًا لأنه فقير، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح، وهذا مثل مكر فرعون إذ قال:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[1].

ومع كل هذا كان الدعاء على الظالمين، ولو كان في هذا الدعاء إجحافًا لما استجاب الله له، فهل يقر الله الباطل ويعلي شأنه؟

الوجه الخامس: بيان تكذيب قوم نوح له، وبيان عاقبة المكذبين.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الشعراء: ١٠٥)، وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ (الفرقان: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (القصص: ٥٩).

والله ﷻ لا يهلك إلا بالعصيان؛ قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ (الحاقة: ١٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الأنعام: ١٠)، وغير ذلك من الآيات؛ وهي كثيرة.

الوجه السادس: ما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون.

فهذا دعاء عليهم بعدما أعلم الله نوحًا أنهم لا يؤمنون؛ وهو قوله: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ (هود: ٣٦)[2].

الوجه السابع: أن للآية الكريمة عدة معانٍ يصح حملُ الآية على أي معنى منها.

الأول: والضلال، مستعار لعدم الاهتداء إلى طرائق المكر الذي خشي نوح غائلته في قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (نوح: ٢٢) أي حُلْ بيننا وبين مكرهم ولا تزدهم إمهالًا في طغيانهم علينا إلاّ أن تضللهم عن وسائله، فيكون الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده[3].

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٠/ ١٤٢: ١٤١) بتصرف يسير.

(٢) تفسير البغوي (٨/ ٢٣٣)، تفسير الخازن (٤/ ٣٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١١).

ثانيًا: ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: إلا عذابًا، قال ابن بحر: واستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ (القمر: ٤٧)[١].

ويجوز أن يكون الضلال أطلق على العذاب المسبب عن الضلال؛ أي: في عذاب يوم القيامة وهو عذاب الإهانة والآلام[٢].

ثالثًا: يقول نوح عليه السلام: ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم بآياتنا إلا ضلالًا؛ أي: إلا طبعًا على قلبه حتى لا يهتدي للحق[٣].

رابعًا: قيل: إنما الضلال الضياع والهلاك في أمر الدنيا وما يتعلق بها لا في أمر الآخرة[٤].

خامسًا: ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: خذلانًا واستدراجًا[٥]. والمقصود: أن يخذلوا ويمنعوا الألطاف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به، بل لا يحسنَ الدعاء بخلافه[٦].

سادسًا: أو أراد إبهام طرق النفع عليهم حتى تنكسر شوكتهم وتلين شكيمتهم نظير قول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨) وليس المراد بالضلال: الضلال عن طريق الحق والتوحيد لظهور أنه ينافي دعوة نوح قومه إلى الاستغفار والإيمان بالبعث؛ فكيف يسأل الله أن يزيدهم منه[٧].

سابعًا: ويجوز أن تكون جملةً معترضة؛ وهي من كلام الله تعالى لنوح فتكون الواو

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٧)، التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٤٥)، واللباب (١٥/ ٤٨٩).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/ ٢١١).

(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ١٠٠)، والخازن (٤/ ٣٤٧)، والبغوي (٤/ ٤٠٠).

(٤) تفسير الخازن (٤/ ٣٤٧)، البحر المحيط (٨/ ٣٩٦)، تفسير الكشاف (٤/ ٦٢٠)، تفسير الآلوسي (٢٩/ ٧٨)، تفسير أبي السعود (٩/ ٤١).

(٥) تفسير القاسمي (١٦/ ٣٠٠).

(٦) تفسير الكشاف للزمخشري (٤/ ٦٢٠) ورد عليه المعلق بأن هذا مبني على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر ولا يفعله.

(٧) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/ ٢١١).

اعتراضية، ويقدر قول محذوف: وقلنا لا تزد الظالمين، والمعنى: ولا تزد في دعائهم فإن ذلك لا يزيدهم إلاّ ضلالًا، فالزيادة منه تزيدهم كفرًا وعنادًا، وبهذا يبقى الضلال مستعملًا في معناه المشهور في اصطلاح القرآن، فصيغة النهي مستعملة في التأييس من نفع دعوته إياهم، وأعلَمَ الله نوحًا أنه مهلكهم بقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ (نوح: ٢٥) وهذا في معنى قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (هود: ٣٦، ٣٧)[١].

ثامنًا: أن يكون المعنى كما هو على ظاهره. وإنما دعا عليهم بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ (هود: ٣٦)[٢].

وهذا دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨)، وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به[٣]. وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم[٤].

ومع هذا فقد ثبت في حديث الشفاعة في الصحيح أنه يقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة لم أؤمر بها، فإنه وإن لم ينه عنها فلم يأمر بها، فكان أولى أن لا يدعو إلا بدعاء مأمور به واجب أو مستحب، فإن الدعاء من العبادات فلا يعبد الله إلا بمأمور به واجب أو مستحب، وهذا لو كان مأمورًا به لكان شرعًا لنوح، ثم ننظر في شرعنا هل نسخه أم لا؟[٥]

الوجه الثامن: فضل نوح عليه السلام.

١-أنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام[٦].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/ ٢١١).

(٢) تفسير الخازن (٤/ ٣٤٧)، مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ٣٣٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٨).

(٤) تفسير القاسمي (١٦/ ٣٠٠).

(٥) فتاوى ابن تيمية (٨/ ٣٣٦).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٨).

٢-قال عنه رب العالمين: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام لم يبعث الله عز وجل بعده نبيًا إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (العنكبوت: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (الحديد: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ (مريم: ٥٨)[1].

٣-دعوته لقومه لخوفه عليهم ولحب الخير لهم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف: ٥٩).

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء١٠: ٧).

٤-من جزاء الله لنوح عليه السلام ثناء الناس عليه. قال تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الصافات٧٩: ٨١)

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم. ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك، ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: المصدقين الموحدين الموقنين[2].

أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم، ثم إنه

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢)، وانظر تفسير الطبري (٢١/ ٥٩).

تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى: أنا إنما خصصنا نوحًا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسنًا، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا لله مؤمنًا، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته(١).

٦- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس. قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ويرفع كل راع ابن راع. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: ألا أرى عليك لباس من لا يعقل. ثم قال: إن نبي الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٍ عليك الوصية؛ آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله؛ فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر.

قال: قلت أو قيل يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: "«لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا»، قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا»، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا»، قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «سفه الحق وغمص الناس»"(٢).

أما قولهم عن الله: ليس مصدرًا للضلال؛ فهذا حقٌّ أريد به باطل، وقد فصل ذلك في شبه العقيدة فانظره في محله.

الوجه التاسع: دعاء الأنبياء على الظالمين في الكتاب المقدس.

وأخيرًا: فما قولكم في دعاء الأنبياء على الظالمين كما في التوراة.

ففي المزمور الثامن عشر (١٨/ ٤٨)"من الرجل الظالم تنقذني" وأيضًا (١٨/ ٤٢) "مثل طين الأسواق اطرحهم"

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١٣٠).

(٢) مسند أحمد (٢/ ١٦٩)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٢٩٥).

وفي الإنجيل يقول المسيح لله عن الذين آمنوا به في (يوحنا ١٧/ ١١) "أحفظهم في أسمك الذين أعطيتني" ولم يدع للكل.

ثم ماذا عن هذه الأمور التي تزعمون أن نوحًا عليه السلام وقع فيها هل تصدقون أن نوحًا يسكر ويتعرى ويتكلم بالفواحش بل ويقع عليه ابنه الصغير بالفاحشة بل ويلعن كل أولاد كنعان.

والإجابة اقرأ عن هذه المآسي التي يصفون بها نبي الله نوحًا عليه السلام في الكتاب المقدس لتعلم الفارق بين الإسلام وغيره.

ففي سفر التكوين (٩/ ٢١: ٢٧): **"وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. ٢٢ فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. ٢٣ فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. ٢٤ فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، ٢٥ فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». ٢٦ وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَام. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. ٢٧ لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ»**.

انظر إلى هذا السفه الذي تطاولوا به على أنبياء الله ورسله وحاشا وكلا أن يقوم نبي الله نوح عليه السلام بمثل هذه الخبائث التي افتروا به عليه في كتابهم.

لتعلم أيها المنصف أن مثل هذا لا يكون إلا في كتاب حُرِّفَ، حرفه أقوام لا يعرفون شيئًا عن أنبياء الله.

* * *

سورة البلد

شبهة: القسم.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ حيث أخبر ألا يقسم، ثم أقسم في آية أخرى ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾، فكيف توجه هذا التناقض؟

والجواب على ذلك كما يلي من وجوه:

الوجه الأول (**إثبات قراءة**):

قرأ قنبل: (لأقسم بيوم القيامة) بغير ألف بعد اللام، وكذا روى النقاش عن أبي ربيعة عن البزي والباقون بألف ولا خلاف في الثاني. [1]

الوجه الثاني: إن كلمة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ هي نافية على معناها غير أن في الكلام مجازًا تركيبًا، وتقديره أن نقول: (لا) في النفي ههنا كما في قول القائل: لا تسألني عما جرى عليه أعظم من أن يشرح، فلا ينبغي أن يسأله فإن غرضه من السؤال لا يحصل ولا يكون غرضه من ذلك النهي إلا بيان عظمة الواقعة، ويصير كأنه قال: " جرى على أمر عظيم ويدل عليه أن السامع يقول له ماذا جرى عليك ولو فهم من حقيقة كلامه النهي عن السؤال لما قال ماذا جرى عليك فيصح منه أن يقول أخطأت حيث منعتك عن السؤال ثم سألتني وكيف لا وكثيرًا ما يقول ذلك القائل الذي قال لا تسألني عند سكوت صاحبه عن السؤال أولا تسألني ولا تقول ماذا جرى عليك ولا يكون للسامع أن يقول إنك منعتني عن السؤال كل ذلك تقرر في أفهامهم أن المراد تعظيم الواقعة لا النهي.

إذا اعلم هذا فنقول في القسم مثل هذا موجود من أحد وجهين إما لكون الواقعة في غاية الظهور فيقول لا أقسم بأنه على هذا الأمر لأنه أظهر من أن يشهر، وأكثر من أن ينكر، فيقول لا أقسم ويريد به القسم ونفيه وإنما يريد الإعلام بأن الواقعة ظاهرة وإما

(١) التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني (١٧٣)، وانظر الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (٢٣٤)، والسبعة في القرآن لابن مجاهد (٦٦١).

لكون المقسم به فوق ما يقسم به، والمقسم صار الأمير بل برأس السلطان ويقول لا أقسم بكذا أمر مريد لكونه في غاية الجزم.

والثاني: يدل عليه أن هذه الصيغة لم ترد في القرآن والمقسم به هو الله تعالى أو صفة من صفاته وإنما جاءت أمور مخلوقه والأول لا يرد عليه إشكال إن قلنا أن المقسم به في جميع المواضع رب الأشياء(١).

الوجه الثالث: أن (لا) على عادة العرب، فإنها ربما لفظت بلفظة (لا) من غير قصد معناها الأصلي، بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيد كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ يعني: أن تتبعني وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ (طه: ٩٢- ٩٣) أي: أن تسجد.

وكقول أبي النجم: فما اللوم البيض ألا تسخرا لما رأين الشمط القفندرا. (٢)

يعني: أن تسخر.

وقول امرىء القيس:

فلا وأبيك ابنه العامري لا يدعى القوم أني أفر

يعني: وأبيك(٣).

الوجه الرابع:

في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ (القيامة: ١-٢).

وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين، كما في الكلام لا والله ماذا كما تقول، ولو قلت: والله ماذا كما تقول لكان غير أن إدخالك (لا) في الكلام أولا أبلغ في الرد. (٤)

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ١٨٧)، وانظر: الكشاف الزمخشري (٤/ ٦٥٨).

(٢) انظر لسان العرب (٩٢- ٩٣).

(٣) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (٢٦٣)، وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥٦/ ٢٥١)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي زمنين (٥/ ٦٣)، والمقتضب المبرد (١/ ٨٩).

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٢٥٩)، وانظر جامع البيان للطبري (٢٩/ ١٧٥)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٥١)، والحجة في القرآن لابن خالويه (٢٣٤).

زيادة وتوضيح: جاء القرآن بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار فجاء الإقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه، وغير المبتدأ كقولك في الكلام إلا والله لا أفعل ذاك جعلوا (لا) وإن رأيتها مبتدأة ردًا الكلام قد كان مضى، فلو ألقيت (لا) مما ينوى به الجواب لم يكن بين اليمين التي تكون جوابًا واليمين التي تستأنف فرق، ألا ترى أنك تقول مبتدئًا: والله إن الرسول لحق، فإذا قلت: لا والله إن الرسول لحق فكأنك أكذبت قومًا أنكروه فهذه جهة لامع الإقسام وجميع الأيمان في كل موضع ترى فيه (لا) مبتدأ بها، وهو كثير في الكلام. [1]

رد هذا القول بعض العلماء فقال: لا يجوز لأن في ذلك حذف اسم (لا) وخبرها، وليس جوا ب السائل سأل فيحتمل ذلك نحو قوله: لا، لمن قال: هل من رجل في الدار؟[2] ويقال أيضًا: هذا القول ليس بوجيه لقوله تعالى في سورة القيامة: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾: يدل على أنه لم يرد الإثبات المؤتنف بعد النفي بقوله ﴿أُقۡسِمُ﴾. [3]

الوجه الخامس

أنها لام أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف كقوله: (أعوذ بالله من العقراب) يريد من العقرب، وهذا وإن كان قليلًا فقد جاء نظيره في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (إبراهيم: ٣٧) بياء بعد الهمزة وذلك في قراءة هشام، فالمعنى (فلا أقسم) كقراءة الحسن وعيسى. [4]

زيادة وتوضيح: إن الام لام الابتداء، أشبعت فتحتها والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف، والكسرة بياء، والضمة بواو.

فمثاله في الفتحة: قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرًا يمانيًا[5]

فالأصل: كأن لم تر ولكن الفتحة أشبعت.

---

(١) معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٠٧).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٢١٢).

(٣) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (٢٦٥).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٢١٢).

(٥) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٥١٧).

وليس إشباع الفتحة هنا من ضرورة الشعر لتصريح علماء اللغة العربية بأن إشباع الحركة بحرف يناسبها أسلوب من أساليب اللغة العربية، ولأنه مسموع في النثر كقولهم: كلكال، وخاتام يعنون: كلكلًا وخاتمًا.

ومثال إشباع الكسرة بالياء قول قيس بن زهير:

ألم يأتيك والأنباء تنمى   بما لاقت لبون بني زياد. (١)

ويدل لهذا الوجه قراءة قنبل: (لأقسم بهذا البلد) بلام الابتداء. (٢)

الوجه السادس:

(لا) استفتاح كلام بمنزلة (ألا) وأنشدوا على ذلك:

فلا وأبيك ابنة العامري   لا يعلم القوم أني أفر. (٣)

الوجه السابع: (في قراءة لأقسم):

إن اللام من لام توكيد دخلت على الفعل المضارع كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. (٤)

زيادة وتوضيح: (لأقسم) على أن اللام للابتداء، وأقسم خبر مبتدأ محذوف، ومعناه لأنا أقسم ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف واتفقوا في قوله. (٥)

الوجه الثامن: أن اللام لام القسم(٦)، وأقسم فعل حال. (٧)

ورد بعض العلماء هذا الوجه فقال: طعن أبو عبيدة في هذه القراءة وقال: لو كان المراد هذا لقال: لأقسمن، لأن العرب لا تقول لأفعل كذا، وإنما يقولون: لأفعلن كذا. (٨)

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٧٥).

(٢) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (٢٦٦).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٤٠١)

(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن (٢/ ٢٠٧).

(٥) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ٢١٥)، وانظر: معاني القرآن الكريم للفراء (٣/ ٢٠٧)، والكشاف للزمخشري (٤/ ٦٥٩).

(٦) إملاء ما منّ به الرحمن للعكبري (٢/ ٢٧٤).

(٧) البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٢١٣).

(٨) التفسير الكبير للفخر الرازي (٣٠/ ٢١٥).

زيادة وتوضيح: لا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين:

أحدهما: أن حقها أن يقرن بها النون المؤكد والإخلال بها ضعيف قبيح.

الثاني: أن لأفعلن في جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال. [١]

رد بعض العلماء هذا الرد فقالوا: لم تصحبها النون اعتمادًا على المعنى ولأن الله صدق فجاز أن يأتي من غير توكيد. [٢]

إن كان الفعل قد وقع وحلفت عليه لم تزد على اللام، وذلك قولك: والله لفعلت وسمعنا من العرب من يقول: (والله لكذبت، والله لكذب)، فالنون لا تدخل على فعل قد وقع، وإنما تدخل على غير الواجب. [٣]

* * *

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٤٦٨).

(٢) إملاء ما منّ به الرحمن للعكبري (٢/ ٢٧٤)، وانظر البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ١٣).

(٣) الكتاب لسيبويه (٣/ ١٠٥).

سورة الكوثر

شبهة: إن شانئك هو الأبتر

نص الشبهة:

الاعتراض على قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر: ٣)

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر٣: ١).

قالوا: هذه الآية نزلت في العاص بن وائل، وأن هذه السورة بما فيها من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، رد على ما قاله العاص بن وائل وهذا وما شابهها من آيات كما في سورة المسد في قول أبي لهب وأنه من أهل النار وقالوا: كيف يكون الرد بهذه الصورة، وأين تحمل الأذى، وكيف يكيل باللعنات لكل من تعرض لرسوله وأين هو من المسيح في معاملته للناس وأنه إذا شتم لم يشتم عوضًا.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: بيان سبب نزول ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

الوجه الثاني: بيان معنى الأبتر.

الوجه الثالث: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الوجه الرابع: بيان بعض الأدلة على سعة رحمة الله سبحانه وتعالى.

الوجه الخامس: هدي النبي ﷺ فيمن تعرض له بالأذى.

الوجه السادس: أن من تكلم فيه النبي ﷺ بشيء من الذم تحول إلى رحمة وقربة من الله لصاحبه شريطة أن يكون مسلمًا.

الوجه السابع: جزاء من تعرض للنبي ﷺ بالأذى.

الوجه الثامن: بعض النماذج من السنة لمن تعرض للنبي بالأذى، وجزاؤه.

الوجه التاسع: بيان الحكمة في تولي رب العزة الدفاع عن نبيه ﷺ.

الوجه العاشر: بيان بعض صفات الرب في الكتاب المقدس وبعض نماذج الغلظة واللعنات في الحديث بالسب والشتم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **بيان سبب نزول** ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

اختلف أهل العلم بالتفسير في شأن من نزلت فيه هذه الآية على هذه الأقوال:

القول الأول: نزلت في العاص بن وائل. وهذا مروي عن جماعة.

١- ابن عباس قال: هو العاص بن وائل[1].

٢-قتادة، قال: هو العاص بن وائل قال إني شانئ محمدًا وهو أبتر ليس له عقب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾[2].

٣-سعيد بن جبير، قال: هو العاص بن وائل[3].

٤-يزيد بن رومان، قال: كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله ﷺ قال دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ولو هلك انقطع ذكره واسترحت منه، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ إلى آخر السورة[4].

٥-مجاهد، قال: هو العاص بن وائل قال أنا شانئ محمد ومن شنأه الناس فهو الأبتر[1].

---

(١) قلت مروي عنه من ثلاثة طرق:

الأول: من طريق محمد بن سعد قال ثني أبي قال ثني عمر قال ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس محمد بن سعد لين الحديث، إسناد مسلسل بالضعفاء، كما هو معلوم، وقد سبق هذا الإسناد مرارًا.

الثاني: من طريق أبي صالح بازام، وهو ضعيف، وفيه أيضًا الكلبي متهم بالكذب، أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٠٦.

الثالث: من طريق ميمون بن مهران، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ١٢٨ وفيه محمد بن زياد كذاب، والفرات بن السائب منكر الحديث.

(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩) بإسناد صحيح.

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩)، فيه هلال بن خباب صدوق تغير بآخره.

(٤) الواحدي في أسباب النزول (٩٣٥)، فيه أحمد بن عبد الجبار ضعيف.

٦-الكلبي، قال: هو العاص بن وائل قال أنا شانئ محمد وهو الأبتر وأنه ليس له عقب قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ الحقير الرقيق الذليل[(٢)].

القول الثاني: نزلت في جماعة على رأسهم كعب بن الأشرف، ورُوي عن:

١- ابن عباس قال: لما قَدِم كعب بن الأشرف مكة أَتَوْه، فقالوا له: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ قال: بل أنتم خير منه، فنزلت عليه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ قال: وأنزلت عليه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (النساء: ٥٠)[(٣)].

٢- عكرمة، قال في هذه الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤﴾ (النساء: ٥٠)، قال: نزلت في كعب بن الأشرف أتى مكة فقال له أهلها نحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه ونحن أهل الحجيج وعندنا منحر البدن قال: أنتم خير فأنزل الله في هذه الآية، وأنزل في الذين قالوا للنبي ﷺ ما قالوا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾[(٤)].

القول الثالث: نزلت في عمرو بن العاص. عن محمد بن علي قال: كان القاسم بن رسول الله ﷺ قد بلغ أن يركب الدابة، ويسير على النجيب، فلما قبضه الله قال عمرو بن العاص: لقد

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩)، من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، ثقة ربما دلس. قلت: ذكره ابن حجر في طبقات المدلسين في الطبقة الثالثة، وهذا معناه أنه لابد من التصريح بالسماع، وقد عنعن.

قال يحيى القطان لم يسمع التفسير من مجاهد وإنما نظر في كتاب القاسم بن أبي بزة فنسخه ودلسه عنه، التاريخ الكبير (٥/ ٢٣٣)، الثقات لابن حبان (٧/ ٥) طبقات المدلسين.

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣٧٢٠)، والكلبي [محمد بن السائب الكلبي] متهم بالكذب.

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥٤٤٠)، من حديث ابن عدي، والحديث ذكر ابن كثير في تفسيره (١٤/ ٤٨٣) وعزاه إلى البزار وصحح إسناده.

(٤) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩: ٣٣٠) بإسناد صحيح.

أصبح محمد أبتر من ابنه، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ عوضًا يا محمد من نصيبك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[1].

قال البيهقي: كذا روي بهذا الإسناد وهو ضعيف والمشهور أن الآية نزلت في أبيه[2].

القول الرابع: نزلت في عقبة بن أبي معيط، عن شمر بن عطية قال: كان عقبة بن أبي معيط يقول: إنه لا يبقى للنبي ﷺ ولد، وهو أبتر فأنزل الله فيه هؤلاء الآيات: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ عقبة بن أبي معيط ﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[3].

هذه هي الأقوال المسندة في أسباب نزول هذه الآيات وثَم أقوال أخرى قيل نزلت في أبي جهل[4]، وقيل نزلت في أبي لهب[5].

وبعد أن ذكر الإمام الطبري -رحمه الله -جملة الأقوال في سبب نزول الآية:

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن مبغض رسول الله ﷺ هو الأقل الأذل المنقطع عقبه فتلك صفة كل من أبغضه من الناس وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه[6].

قال الرازي: واعلم أنه لا يبعد في كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فإنهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه[7].

---

(١) البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٦٩).

(٢) فيه جابر الجعفي: ضعيف عند الجمهور ثم هو مدلس وقد عنعن، وفيه عمرو بن شمر الكوفي: قال أبو داود والنسائي متروك، وقال يحيى ليس بشيء وقال البخاري: منكر الحديث (ميزان الاعتدال ٣/ ٢٦٨).

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢٩)، وفيه ابن حميد أجمع أهل الرأي على ضعفه.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٥١٦) عن عطاء، تفسير ابن كثير (١٤/ ٤٨٣)، القرطبي (٢٠/ ٢٢٠)، الرازي (٣٢/ ١٣٣)، فتح القدير (٥/ ٧٣٣)، النكت والعيون (٦/ ٣٥٦).

(٥) تفسير ابن كثير (١٤/ ٤٨٣)، تفسير الرازي (٣٢/ ١٣٣)، النكت والعيون (٦/ ٣٥٦).

(٦) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٣٠).

(٧) تفسير الرازي (٣٢/ ١٣٣).

الوجه الثاني: معنى الأبتر:

لغة: الأبتر من الرجال الذي لا ولد له [الذي لا عقب له]، الأبتر من الدواب المقطوع الذنب من أي موضع وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر، والبَتْرُ القطع، والانبتار: الانقطاع[1].

شرعًا: المراد بالأبتر في الآية لا يخرج بعيدًا عن المعنى اللغوي، فقيل هو الحقير والذليل، وقيل هو الفرد الوحيد وقيل هو الذي لا خير فيه وقيل هو الذي لا عقب له أي مات ذكور أولاده.

ورجح غير واحد أن المراد بقوله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أي المقطوع عنه الخير والذي خير فيه.

قال ابن عاشور: ومعنى الأبتر في الآية الذي لا خير فيه وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبي ﷺ فبهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبتر دون المعنى الذي عناه هو حيث لمز النبي ﷺ بأنه أبتر، أي لا عقب له لأن العاصي بن وائل له عقب، فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابن ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي الجليل ولعبد الله عقب كثير. فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبتر لشانيء النبي ﷺ ونفيها عن النبي ﷺ وهو الأبتر بمعنى الذي لا خير فيه.

ولكن لما كان وصف الأبتر في الآية جيء به لمحاكاة قول القائل: محمد أبتر، إبطالًا لقوله ذلك، وكانَ عرفهم في وصف الأبتر أنه الذي لا عقب له تعيّن أن يكون هذا الإبطال ضربًا من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا على أن الأحقَّ غيرُ ما عناه من كلامه كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩)، وذلك بصرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الابن الذكر إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو الناقص حظّ الخير، أي ليس ينقص للمرء أنه لا ولد له لأن ذلك لا يعود على المرء بنقص في صفاته وخلائقه وعقله. وهب أنه لم يولد له البتة وإنما اصطلح الناس على اعتباره نقصًا لرغبتهم في الولد بناء على ما كانت عليه أحوالهم الاجتماعية

(١) لسان العرب ١/ ٢٠٥، القاموس المحيط ١/ ٤٩٤، الصحاح ٢/ ٥٠٩: ٥٠٨.

من الاعتماد على الجهود البدنية فهم يبتغون الولد الذكور رجاء الاستعانة بهم عند الكبر وذلك أمر قد يعرض، وقد لا يعرض أو لمحبة ذِكر المرء بعد موته وذلك أمر وهمي، والنبي ﷺ قد أغناه الله بالقناعة، وأعزّه بالتأييد، وقد جعل الله له لسان صدق لم يجعل مثله لأحد من خلقه، فتمحض أن كماله الذاتي بما علمه الله فيه إذ جعل فيه رسالته، وأن كماله العرضي بأصحابه وأمته إذ جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم[١].

وعلى هذا المعنى فالآية ليست سبًا وشتمًا، وإنما كانت تسلية للنبي ﷺ لما حدث له وليس فيها شيء من السب كما أراد هو أن يسب النبي ﷺ ويعيره.

الوجه الثالث: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالآية تسلية للنبي ﷺ وليست ردًا على الشتم والسب، أي أن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم فيعم خيري الدنيا والآخرة أو الذي لا عقب له أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته.

وظاهر الآية العموم وأن هذا شأن كل من يبغض النبي ﷺ ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد وأوجب الله شرعه على رقاب العباد مستمرا على دوام الآباد إلى يوم الحشر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد[٢].

وعلى هذا فالمعنى: أن الذي قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى، وأما المدح الذي ذكرناه فيك فإنه باق على وجه الدهر، ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد والذي اختاره له ربه وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه. فالآية تدل عن حال ومآل من اتصف بهذا الوصف.

الوجه الرابع: بيان بعض الأدلة على رحمة الله سبحانه وتعالى من القرآن والسنة.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٦: ٥٧٧، تفسير الرازي ٣٢/ ١٣٣، النكت والعيون ٦/ ٣٥٦.

(٢) ابن كثير ١٤/ ٤٨٣، تفسير أبي مسعود ٩/ ٢٠٦: ٢٠٥، فتح القدير ٥/ ٧٣٠، فتح البيان ٣٠/ ٢٤٧، الكشاف ٤/ ٨٠٧، الرازي ٣٢/ ١٣٤، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٢.

أولًا: من القرآن:

فمن رحمته سبحانه وتعالى أن يقبل التوبة والعفو عن العاصين والمضطرين قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة: ٣٧)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ (البقرة: ١٦٠: ١٥٩) قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾﴾ (الأنعام: ٥٤) وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ (النور: ١٤) وقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾ (الروم: ٥٠). [1]

ثانيًا: من السنة:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ " أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ " قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: " **للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا** "[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " **لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي** "[3].

---

(١) للمزيد يراجع موسوعة نضرة النعيم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، مسلم (٢٧٥١).

وعَنْ سَلْمَانَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّ اللهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ "(١).

و عن أبي سعيد الخدري، أن نبي الله ﷺقال: " كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة "(٢).

وعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُّونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَفَعَلُوا بِهِ فَجَمَعَهُ اللهُ ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ قَالَ مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ"(٣).

وعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنْ الله ﷻ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ "(٤).

هذا وفي الباب أدلة كثيرة، وقد ذكرت مثل هذه الأدلة لأبين أن الله سبحانه تعالى يحب أن يعفو ويتجاوز لا يحب أن يأخذ ويبطش فهو العفو الغفور الرحمن الرحيم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، مسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، مسلم (٢٨٠٤).

الوجه الخامس: بيان بعض هدي النبي ﷺ وكيف كان خلقه لمن تعرض له بالأذى وكيف عامله ﷺ.

وفي هذا الوجه أسوق بعض الأمثلة لترى كيف كانت معاملة النبي ﷺ لمن تعرض له بالأذى سواء بالكلام أو بالفعل وتستطيع من خلالها أن ترى خلق النبي ﷺ وأنه كان لا ينتقم لنفسه وكان يصبر ويتحمل الأذى في مقابل دعوة الله ﷻ إلا أن تنتهك محارم الله فكان غضبه لله سبحانه.

النموذج الأول: في رحلته إلى الطائف:

أَنَّ عَائِشَةَ -رَضِيَ الله عَنْهَا- زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ [عروة] أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"(١).

النموذج الثاني: الرجل الذي قال للنبي ﷺ اعدل:

في حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ الله ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ الله ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ قَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ دَعْنِي يَا رَسُولَ الله فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ فَقَالَ مَعَاذَ الله أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"(٢).

النموذج الثالث: الرجل الذي أخذ سيف النبي ﷺ وهدده:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، مسلم (١٠٦٣) واللفظ له.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا قَالَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ قَالَ فَقَالَ رَسولُ الله ﷺ: " إِنَّ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ فَقَالَ لِي مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي قَالَ قُلْتُ الله ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي قَالَ قُلْتُ الله قَالَ فَشَامَ السَّيْفَ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ ". (١)

النموذج الرابع: الرجل الذي جذب النبي ﷺ من ورائه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ ثُمَّ قَالَ مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. (٢)

الوجه السادس: أن من تكلم فيه النبي ﷺ بشيء فيه ذم فقد حول الله ذلك كرامة وقربة لصاحبه شريطة أن يكون مسلمًا، لأنه لا يستحق ذلك اللعن، وهذا من خصوصيته ﷺ.

حديث أبي هريرة ﷺ:

١-من طريق أَبِي صَالِحٍ عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"اللهمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً"**(٣).

٢-من طريق الْأَعْرَجِ عَنْه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **"اللهمَّ إِنِّي أَتَّخِذُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ شَتَمْتُهُ لَعَنْتُهُ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَزَكَاةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**(٤).

٣-من طريق سَالِمٍ مَوْلَى النَّصْرِيِّينَ عنه أن رَسُولَ الله ﷺ قال: **" اللهمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ وَإِنِّي قَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٣٥)، مسلم (٨٤٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، مسلم (١٠٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ كَفَّارَةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١).

من طريق سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "**اللهمَّ فَأَيُّمَا عَبْدٍ مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** "(٢).

حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي ﷻ أَيُّ عَبْدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ شَتَمْتُهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا** "(٣)

حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: كانت عند أم سليم يتيمة، وهي أم أنس، فرأى رسول الله ﷺ اليتيمة، فقال: " آنت هيه؟ لقد كبرت، لا كبر سنك " فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لك؟ يا بنية قالت الجارية: دعا علي نبي الله ﷺ، أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدا، أو قالت قرني فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها، حتى لقيت رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: " ما لك يا أم سليم " فقالت: يا نبي الله أدعوت على يتيمتي قال: " وما ذاك؟ يا أم سليم " قالت: زعمت أنك دعوت أن لا يكبر سنها، ولا يكبر قرنها، قال فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: " يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي على ربي، أني اشترطت على ربي فقلت: **إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه، من أمتي، بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها له طهورا وزكاة، وقربة يقربه بها منه يوم القيامة**". (٤)

حديث عائشة ﵂ قالت: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ رَجُلَانِ فَكَلَّمَاهُ بِشَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ فَأَغْضَبَاهُ فَلَعَنَهُمَا وَسَبَّهُمَا، فَلَمَّا خَرَجَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَصَابَ مِنْ الْخَيْرِ شَيْئًا مَا أَصَابَهُ هَذَانِ، قَالَ: وَمَا ذَاكِ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: لَعَنْتَهُمَا وَسَبَبْتَهُمَا، قَالَ: أَوَ مَا عَلِمْتِ مَا شَارَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّي؛ قُلْتُ: **اللهمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا** "(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، مسلم (٢٦٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠٣).

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٠٠).

الوجه السابع: جزاء من يتعرض بالأذى للنبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٧).

قال ابن كثير: يقول تعالى مهددا ومتوعدا من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وآذى رسوله بعيب أو تنقص، عياذا بالله من ذلك.

ثم قال: والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله ومن أطاعه فقد أطاع الله[١].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (التوبة: ٦١).

قال القاضي عياض: قد تقدم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ وما يتعين من له بر وتوقير وتعظيم وإكرام وبحسب هذا حرم اتلله تعالى أذاه في كتابه وأجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابّه قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣)[٢].

قال القاضى عياض: اعلم ـ وفقنا الله و إياك ـ أن جميع من سب النبي ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه و العيب له فهو ساب له و الحكم فيه حكم الساب يقتل كما نبينه . . . . . و كذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام و هجر و منكر من القول و زور أو عيره بشيء مما جرى من البلاء و المحنة عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ١١/ ٢٤٠.

(٢) الشفا ٢/ ٢٢٥.

أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائز و المعهودة لديه **وهذا كله إجماع** من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلم جر.

و قال أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي ﷺيقتل و ممن قال ذلك مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي.

قال القاضي أبو الفضل: وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه و لا تقبل توبته عند هؤلاء المذكورين وبمثله قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وأهل الكوفة والأوزاعي في المسلم لكنهم قالوا: هي ردة روى مثله الوليد بن مسلم عن مالك.

وحكي الطبري مثله عن أبي حنيفة و أصحابه فيمن تنقصهﷺ أو برئ منه أو كذب، وقال سحنون فيمن سبه: ذلك ردة كالزندقة.

وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته و تكفيره و هل قتله حد أو كفر ... ولا نعلم خلافًا في استباحة دمه بين علماء الأمصار و سلف الأمة، وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله و تكفيره و أشار بعض الظاهرية ـ و هو أبو محمد علي بن أحمد الفارسي إلى الخلاف في تكفير المستخف به.

والمعروف ما قدمناه قال محمد بن سحنون: أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر و الوعيد جار عليه بعذاب الله و حكمه عند الأمة القتل و من شك في كفره و عذابه كفر.

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سحنون: من قال: إن النبي ﷺ كان أسود يقتل. و قال في رجل قيل له: لا و حق رسول الله فقال فعل الله برسول الله كذا و كذا ـ و ذكر كلاما قبيحا فقيل له: ما تقول يا عدو الله؟ فقال أشد من كلامه الأول ثم قال: إنما أردت برسول الله العقرب فقال ابن أبي سليمان للذي سأله: اشهد عليه و أنا شريكك ـ يريد في قتله و ثواب ذلك.

قال حبيب بن الربيع: لأن ادعاءه التأويل في لفظ صراح لا يقبل لأنه امتهان وهو غير معزز لرسول الله ﷺ ولا موقر له فوجب إباحة دمه.

وأفتى أبو عبد الله بن عتاب في عشار قال لرجل: أد واشك إلى النبي ﷺ وقال: إن سألت أو جعلت فقد جهل وسأل النبي ﷺ ـ بالقتل.

وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقه الطليطلي وصلبه بما شهد عليه به من استخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم وختن حيدرة وزعمه أن زهده

لم يكن قصدًا ولو قدر على الطيبات أكلها إلى أشباه لهذا. وأفتى فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاري وكان شاعرًا متفننا في كثير من العلوم وكان ممن يحضر مجلس القاضي أبي العباس بن طالب للمناظرة فرفعت عليه أمور منكرة من هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا ﷺ فأحضر له القاضي يحيى بن عمر وغيره من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه فطعن بالسكين وصلب منكسا ثم أنزل وأحرق بالنار.

وحكى بعض المؤرخين أنه لما رفعت خشبته و زالت عنها الأيدي استدارت و حولته عن القبلة فكان آية للجميع وكبر الناس و جاء كلب فولغ في دمه و قال القاضي أبو عبد الله بن المرابط: من قال: إن النبي ﷺ هزم يستتاب فإن تاب وإلا قتل لأنه تنقص إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته، وقال حبيب بن ربيع القروي: مذهب مالك و أصحابه أن من قال فيه ﷺ: ما فيه نقص ـ قتل دون استتابة، وقال ابن عتاب: الكتاب والسنة موجبان أن من قصد النبي ﷺ بأذى أو نقص معرضا أو مصرحا وإن قل ـ فقتله واجب فهذا الباب كله مما عده العلماء سبا أو تنقصا يجب قتل قائله لم يختلف في ذلك متقدمهم ولا متأخرهم وإن اختلفوا في حكم قتله على ما أشرنا إليه ونبيه بعد وكذلك أقول حكم من غمصه أو عيره برعاية الغنم أو السهو أو النسيان أو السحر أو ما أصابه من جرح أو هزيمة لبعض جيوشه أو أذى من عدوه أو شدة من زمنه أو بالميل إلى نسائه فحكم هذا كله لمن قصد به نقصه القتل[(١)]

حكم الله عليهم بالكفر:

قوله سبحانه: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (التوبة: ٦٤ ـ ٦٦).

وهذا نص في أن الاستهزاء بالله و بآياته و برسوله كفر فالسب المقصود بطريق الأولى

(١) الشفا للقاضي عياض(٢/ ٢٣٢: ٢٢٩)

وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جادًا أو هازلًا فقد كفر[١].

الوجه الثامن: بعض النماذج من السنة لمن تعرض بالأذى للنبي ﷺ وجزاء من تعرض بالأذى.

*قتل كعب بن الأشرف وإذن النبي ﷺ في ذلك لأنه آذى الله ورسوله:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى الله وَرَسُولَهُ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ الله، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ائْذَنْ لِي فَلْأَقُلْ، قَالَ: قُلْ "[٢].

*الإذن في قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق والسبب أيضًا لأنه كان يؤذي النبي ﷺ:

عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: " بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعٍ الْيَهُودِيِّ رِجَالًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ الله بْنَ عَتِيكٍ وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ الله ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ "[٣].

*إسقاط النبي ﷺ دية المرأة التي كانت تسبه لما قتلت:

فعن ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ فَيَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي وَيَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ قَالَ فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْتُمُهُ فَأَخَذَ الْمِغْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا فَوَقَعَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا طِفْلٌ فَلَطَّخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ فَلَمَّا أَصْبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: "أَنْشُدُ الله رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ "، فَقَامَ الْأَعْمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَنَا صَاحِبُهَا كَانَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي وَأَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً فَلَمَّا كَانَ الْبَارِحَةَ جَعَلَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَخَذْتُ الْمِغْوَلَ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلْتُهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " **أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ** "[٤].

وحتى لا يكون هذا الحكم في إسقاط النبي ﷺ دمها عامًا للناس جميعًا بعد موته، فقال

(١) الصارم المسلول صـ (٣١) والمسألة فيها تفصيل. انظر: كتاب الشفا وكتاب الصارم المسلول.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣٧)، مسلم (١٨٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٣٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٦١)، النسائي (٧/ ١٠٨)، والحديث صحيح إسناده الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٧٩٤).

أبو بكر الصديق: ليس هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ[(١)].

*الرجل لفظته الأرض بعد دفنه لأنه افترى على رسول الله ﷺ:

من حديث أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَعَادَ نَصْرَانِيًّا فَكَانَ يَقُولُ مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ فَأَمَاتَهُ الله فَدَفَنُوهُ فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ[(٢)].

قال ابن تيمية: فهذا الملعون الذي افترى على النبي ﷺ أنه ما كان يدري إلا ما كتب له قصمه الله و فضحه بأن أخرجه من القبر بعد أن دفن مرارًا و هذا أمر خارج عن العادة يدل كل أحد على أن هذا كان عقوبة لما قاله و أنه كان كاذبا إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا و أن هذا الجرم أعظم من مجرد الارتداد إذ كان عامة المرتدين يموتون و لا يصيبهم مثل هذا و أن الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه و سبه و مظهر لدينه و لكذب الكاذب إذ لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد[(٣)].

الوجه التاسع: بيان الحكمة في تولي رب العزة الدفاع عن نبيه ﷺ. وأن هذا ليس كلام النبي ﷺ.

قال الرازي: الكفار لما شتموه، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: ٣) وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم، وذكر مثل ذلك في مواضع حين قالوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٦٣)، النسائي ٧/ ١٠٩، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٧)، مسلم (٢٧٨١).

(٣) الصارم المسلول (١١٦ : ١١٧)، ومن أراد المزيد حول هذا فلينظره في هذا الكتاب الماتع.

(سبأ: ٧)، فقال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ (سبأ: ٨) وحين قالوا: هو مجنون أقسم ثلاثًا، ثم قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (القلم: ٢) ولما قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ (الرعد: ٤٣) أجاب فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (يس: ١: ٣) وحين قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (الصافات: ٣٦) رد عليهم وقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ٣٧) فصدقه، ثم ذكر وعيد خصمائه، وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ (الصافات: ٣٨) وحين قال حاكيًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ (الطور: ٣٠) قال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ (يس: ٦٩) ولما حكى عنهم قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٤) سماهم كاذبين بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (الفرقان: ٤) ولما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧) أجابهم فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠) فما أجل هذه الكرامة[1].

الوجه العاشر: بيان بعض صفات الرب في الكتاب المقدس وبعض نماذج الغلظة في الحديث بالسب والشتم.

أولا: صفات الرب:

الرب جاهل: لأَنَّ جَهَالَةَ الله أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ الله أَقْوَى مِنَ النَّاسِ! (الرسالة الأولى إلى كورونثوس ١/ ٢٥)

الرب يسيئ الأمانة: وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرَّبُّ إِلهِي، أَأَيْضًا إِلَى الأَرْمَلَةِ الَّتِي أَنَا نَازِلٌ عِنْدَهَا قَدْ أَسَأْتَ بِإِمَاتَتِكَ ابْنَهَا؟ (الملوك الأول ١٧/ ٢٠)

الرب يسيئ: فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى عَبْدِكَ؟ وَلِمَاذَا لَمْ أَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَنَّكَ وَضَعْتَ ثِقْلَ جَمِيعِ هذَا الشَّعْبِ عَلَيَّ؟ (العدد١١/ ١١)

الرب شتام: فَقَالَ لَهُ الله: يَاغَبِيُّ! هذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ، فَهذِهِ الَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ١٣٤.

تَكُونُ؟ (لوقا ١٢/ ٢٠)

رب ينتقم بالزنا: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. [١٢] لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ (صموئيل الثانى١٢/ ١٢: ١١).

يسوع يأمر بالنفاق: مَعَ الطَّاهِرِ تكُونُ طَاهِرًا، وَمَعَ الأَعْوَجِ تكُونُ مُلْتَوِيًا. (المزامير ١٨/ ٢٦)

ثانيًا: بعض أمثلة في السب والشتم:

* يَا أَغْبِيَاءُ، أَلَيْسَ الَّذِي صَنَعَ الْخَارِجَ صَنَعَ الدَّاخِلَ أَيْضًا؟ لوقا (١١/ ٤٠).

* أَيُّهَا الْغَلاَطِيُّونَ الأَغْبِيَاءُ، مَنْ رَقَاكُمْ حَتَّى لاَ تُذْعِنُوا لِلْحَقِّ؟ أَنْتُمُ الَّذِينَ أَمَامَ عُيُونِكُمْ قَدْ رُسِمَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ بَيْنَكُمْ مَصْلُوبًا! [٢] أُرِيدُ أَنْ أَتَعَلَّمَ مِنْكُمْ هذَا فَقَطْ: أَبِأَعْمَالِ النَّامُوسِ أَخَذْتُمُ الرُّوحَ أَمْ بِخَبَرِ الإِيمَانِ؟ [٣] أَهكَذَا أَنْتُمْ أَغْبِيَاءُ! أَبَعْدَمَا ابْتَدَأْتُمْ بِالرُّوحِ تُكَمَّلُونَ الآنَ بِالْجَسَدِ؟ (بولس الى غلاطية٣/ ٣: ١)

* يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي! كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِالصَّالِحَاتِ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ؟ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ الْفَمُ. (متى ١٢/ ٣٤).

* لأَنَّ شَعْبِي أَحْمَقُ. إِيَّايَ لَمْ يَعْرِفُوا. هُمْ بَنُونَ جَاهِلُونَ وَهُمْ غَيْرُ فَاهِمِينَ. هُمْ حُكَمَاءُ فِي عَمَلِ الشَّرِّ، وَلِعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يَفْهَمُونَ (أرميا ٤/ ٢٢).

هذه بعض الأمثلة في السب والشتم وأسوق هذا النص الآتي في كتابكم ولك أن تحكم.

وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ. (متى ٥/ ٢٢).

سفر اللعنات: وَلكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضِهِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتُدْرِكُكَ: [١٦] مَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمَلْعُونًا تكُونُ فِي الْحَقْلِ. [١٧] مَلْعُونَةً تكُونُ سَلَّتُكَ وَمِعْجَنُكَ. [١٨] مَلْعُونَةً تكُونُ ثَمَرَةُ بَطْنِكَ وَثَمَرَةُ أَرْضِكَ، نِتَاجُ بَقَرِكَ وَإِنَاثُ غَنَمِكَ. [١٩] مَلْعُونًا تكُونُ فِي دُخُولِكَ، وَمَلْعُونًا تكُونُ فِي خُرُوجِكَ. [٢٠] يُرْسِلُ الرَّبُّ عَلَيْكَ اللَّعْنَ وَالاضْطِرَابَ وَالزَّجْرَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ لِتَعْمَلَهُ، حَتَّى تَهْلِكَ وَتَفْنَى سَرِيعًا مِنْ أَجْلِ سُوءِ أَفْعَالِكَ إِذْ تَرَكْتَنِي. [٢١] يُلْصِقُ بِكَ الرَّبُّ الْوَبَأَ حَتَّى يُبِيدَكَ عَنِ

الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا. ٢٢ يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِالسِّلِّ وَالْحُمَّى وَالْبُرَدَاءِ وَالالْتِهَابِ وَالْجَفَافِ وَاللَّفْحِ وَالذُّبُولِ، فَتَتَبَّعُكَ حَتَّى تُفْنِيَكَ. ٢٣ وَتَكُونُ سَمَاؤُكَ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِكَ نُحَاسًا، وَالأَرْضُ الَّتِي تَحْتَكَ حَدِيدًا. ٢٤ وَيَجْعَلُ الرَّبُّ مَطَرَ أَرْضِكَ غُبَارًا، وَتُرَابًا يُنَزِّلُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى تَهْلِكَ. ٢٥ يَجْعَلُكَ الرَّبُّ مُنْهَزِمًا أَمَامَ أَعْدَائِكَ. فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ، وَفِي سَبْعِ طُرُقٍ تَهْرُبُ أَمَامَهُمْ، وَتَكُونُ قَلِقًا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِ الأَرْضِ. ٢٦ وَتَكُونُ جُثَّتُكَ طَعَامًا لِجَمِيعِ طُيُورِ السَّمَاءِ وَوُحُوشِ الأَرْضِ وَلَيْسَ مَنْ يُزْعِجُهَا. ٢٧ يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِقُرْحَةِ مِصْرَ وَبِالْبَوَاسِيرِ وَالْجَرَبِ وَالْحِكَّةِ حَتَّى لاَ تَسْتَطِيعَ الشِّفَاءَ. ٢٨ يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِجُنُونٍ وَعَمًى وَحَيْرَةِ قَلْبٍ، ٢٩ فَتَتَلَمَّسُ فِي الظُّهْرِ كَمَا يَتَلَمَّسُ الأَعْمَى فِي الظَّلاَمِ، وَلاَ تَنْجَحُ فِي طُرُقِكَ بَلْ لاَ تَكُونُ إِلاَّ مَظْلُومًا مَغْصُوبًا كُلَّ الأَيَّامِ وَلَيْسَ مُخَلِّصٌ. ٣٠ تَخْطُبُ امْرَأَةً وَرَجُلٌ آخَرُ يَضْطَجِع مَعَهَا. تَبْنِي بَيْتًا وَلاَ تَسْكُنُ فِيهِ. تَغْرِسُ كَرْمًا وَلاَ تَسْتَغِلُّهُ. ٣١ يُذْبَحُ ثَوْرُكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَلاَ تَأْكُلُ مِنْهُ. يُغْتَصَبُ حِمَارُكَ مِنْ أَمَامِ وَجْهِكَ وَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْكَ. تُدْفَعُ غَنَمُكَ إِلَى أَعْدَائِكَ وَلَيْسَ لَكَ مُخَلِّصٌ. ٣٢ يُسَلَّمُ بَنُوكَ وَبَنَاتُكَ لِشَعْبٍ آخَرَ وَعَيْنَاكَ تَنْظُرَانِ إِلَيْهِمْ طُولَ النَّهَارِ، فَتَكِلاَّنِ وَلَيْسَ فِي يَدِكَ طَائِلَةٌ. ٣٣ ثَمَرُ أَرْضِكَ وَكُلُّ تَعَبِكَ يَأْكُلُهُ شَعْبٌ لاَ تَعْرِفُهُ، فَلاَ تَكُونُ إِلاَّ مَظْلُومًا وَمَسْحُوقًا كُلَّ الأَيَّامِ. ٣٤ وَتَكُونُ مَجْنُونًا مِنْ مَنْظَرِ عَيْنَيْكَ الَّذِي تَنْظُرُ. ٣٥ يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِقَرْحٍ خَبِيثٍ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ وَعَلَى السَّاقَيْنِ، حَتَّى لاَ تَسْتَطِيعَ الشِّفَاءَ مِنْ أَسْفَلِ قَدَمِكَ إِلَى قِمَّةِ رَأْسِكَ. ٣٦ يَذْهَبُ بِكَ الرَّبُّ وَبِمَلِكِكَ الَّذِي تُقِيمُهُ عَلَيْكَ إِلَى أُمَّةٍ لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ، وَتَعْبُدُ هُنَاكَ آلِهَةً أُخْرَى مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ، ٣٧ وَتَكُونُ دَهَشًا وَمَثَلاً وَهُزْأَةً فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَسُوقُكَ الرَّبُّ إِلَيْهِمْ. ٣٨ بِذَارًا كَثِيرًا تُخْرِجُ إِلَى الْحَقْلِ، وَقَلِيلاً تَجْمَعُ، لأَنَّ الْجَرَادَ يَأْكُلُهُ. ٣٩ كُرُومًا تَغْرِسُ وَتَشْتَغِلُ، وَخَمْرًا لاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَجْنِي، لأَنَّ الدُّودَ يَأْكُلُهَا. ٤٠ يَكُونُ لَكَ زَيْتُونٌ فِي جَمِيعِ تُخُومِكَ، وَبِزَيْتٍ لاَ تَدَّهِنُ، لأَنَّ زَيْتُونَكَ يَنْتَثِرُ. ٤١ بَنِينَ وَبَنَاتٍ تَلِدُ وَلاَ يَكُونُونَ لَكَ، لأَنَّهُمْ إِلَى السَّبْيِ يَذْهَبُونَ. ٤٢ جَمِيعُ أَشْجَارِكَ وَأَثْمَارِ أَرْضِكَ يَتَوَلاَّهُ الصَّرْصَرُ. ٤٣ اَلْغَرِيبُ الَّذِي فِي وَسَطِكَ يَسْتَعْلِي عَلَيْكَ مُتَصَاعِدًا، وَأَنْتَ تَنْحَطُّ مُتَنَازِلاً. ٤٤ هُوَ يُقْرِضُكَ وَأَنْتَ لاَ تُقْرِضُهُ. هُوَ يَكُونُ رَأْسًا وَأَنْتَ تَكُونُ ذَنَبًا. ٤٥ وَتَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتَتَبَّعُكَ وَتُدْرِكُكَ حَتَّى تَهْلِكَ، لأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْفَظَ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضَهُ الَّتِي أَوْصَاكَ بِهَا. ٤٦ فَتَكُونُ فِيكَ آيَةً وَأُعْجُوبَةً وَفِي نَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ.

* * *

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

رقم المجلد	عنوان المجلد
المجلد الأول	المقدمة وبطلان ألوهية المسيح
المجلد الثاني	الصلب والفداء والتحريف
المجلد الثالث	شبهات عن العقيدة
المجلد الرابع	شبهات عن علوم القرآن
المجلد الخامس	شبهات عن القرآن الكريم وعلومه
المجلد السادس	شبهات عن القرآن الكريم
المجلد السابع	شبهات عن السنة النبوية والأنبياء
المجلد الثامن	شبهات عن النبي ﷺ
المجلد التاسع	شبهات عن زوجات النبي ﷺ والصحابة
المجلد العاشر	شبهات عن الفقه والمرأة
المجلد الحادي عشر	شبهات عن المرأة
المجلد الثاني عشر	شبهات عن اللغة والإعجاز العلمي

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف
د. سليمان الدريع

المجلد السابع

شبهات عن السنة النبوية والأنبياء

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

٧

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم
للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

شبهات عن السنة النبوية وعلومها

أولًا: شبهات حول علوم السنة

وفيها:

مقدمة عن السنة، ثم شبهات

١- ادعاؤهم وجود تعارض في الشريعة.

٢- شبهة: خبر الواحد.

٣- تدوين السنة.

٤- رواية الحديث بالمعنى.

مقدمة عن السنة وتشتمل على أمور:

١ـ تعريف السنة

في اللغة: السنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة[١]، مرضية كانت أو غير مرضية[٢]. أو: الطريقة المحموده المستقيمة[٣].أو: العادة[٤]. أو معناها: الدوام[٥]. السنة في الأصل: سنة الطريق، ويجوز أن يكون من: سنت الإبل؛ إذا أحسنت رعيتها، والقيام عليها[٦]. أو من: سنت الماء؛ إذا واليت في حبه[٧].

السنة في دواوين العرب:

قال لبيد:

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم أسنة وإمامها[٨]

قال حسان بن ثابت:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع[٩]

إن كلمة السنة استعملها الشعراء في الجاهلية والإسلام بمعناها اللغوي أي: الطريقة المتبعة سواء كانت حسنة أو قبيحة. . .[١٠].

تعريف السنة في الاصطلاح:

أما في اصطلاح العلماء؛ فيختلف معناها باختلاف نوع العلم الذي يشتغلون به[١].

---

(١) لسان العرب ابن منظور (١٣/ ٢٢٥).

(٢) مختار الصحاح الرازي (٣١٧).

(٣) لسان العرب ابن منظور (١٣/ ٢٢٦)، الإبهاج شرح المنهاج تاج الدين السبكي (٥/ ١٧٤٩).

(٤) المصدر السابق.

(٥) البحر المحيط في أصول الفقه الزركشي (٤/ ١٦٣)، إرشاد الفحول، الشوكاني (٣٣).

(٦) لسان العرب ابن منظور (١٣/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٧) لسان العرب (١٣/ ٢٢٧)، البحر المحيط الزركشي (٤/ ١٦٣)، إرشاد الفحول الشوكاني (٣٣).

(٨) شرح المعلقات العشر (٢٢٧)، نقلًا عن دراسات في الحديث النبوي للأعظمي (١/ ٢).

(٩) ديوان حسان بن ثابت، نقلًا عن دراسات الحديث النبوي للأعظمي (١/ ٢).

(١٠) دراسات في الحديث النبوي محمد مصطفى للأعظمي (١/ ٣).

أ) تعريف السنة في الاصطلاح العام:

كل ما نقل عن رسول الله ﷺ أو عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وغيرهم من الأئمة المقتدى بهم، وهو ما جاء في قوله ﷺ: **"فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ** من بعدي؛ **عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذ"**. وهي بذلك تقابل البدعة[٢].

تعريف السنة عند الفقهاء:

- هي ما طلب الشارع فعله طلبًا غير جازم، أو ما في فعلها ثواب، وليس في تركها عقاب[٣]. أو ما رسم ليحتذي استحبابًا[٤]. أو ما يرادف المستحب[٥].

باعتبار أن الفقهاء يبحثون عن حكم أفعال العباد، من الوجوب والندب، والإباحة والحرمة، والكراهة، إلى آخر صفات العباد[٦].

تعريف السنة عند المحدثين:

- هى ما نقل عن رسول الله ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات.

وزاد ابن حجر: وما هم بفعله، وصفاته الخَلْقية والخُلُقية، سواء أكان ذلك قبل البعثة، أم بعدها[٧].

- أو: ما يطلق على الواجب وغيره في عرف أهل اللغة والحديث[٨].

---

(١) بداية المطلب لسبالك (٣٠٦)، شرح الكوكب المنير لابن النجار (٢/ ١٥٩)، الموافقات للشاطبي، (٣١٤)، البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٤/ ١٦٣)، جامع العلوم والحكم لابن رجب (٣٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٧٣٥).

(٣) بداية المطلب لسبالك (٣٠٦)، فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٥٩)، البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٤/ ١٦٣)، إرشاد الفحول للشوكاني (٣٣).

(٤) الفقيه والمتفقه الخطيب للبغدادي (١/ ٢٥٧).

(٥) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٥٩).

(٦) بداية المطلب لسبالك (٣٠٦).

(٧) بداية المطلب لسبالك (٣٠٦)، الموافقات للشاطبي (٤/ ٢)، فتح الباري (١٣/ ٢٥٩).

(٨) البحر المحيط للزركشي (٤/ ١٦٣)، إرشاد الفحول للشوكاني (٣٣).

إذ أن عرض المحدثين: معرفة ما كان عليه النبي ﷺ في أحواله كلها، سواء أفاد حكمًا شرعيًا، أم لم يفد[١].

- أو: ما شرعه النبي ﷺ لأمته؛ فيلزم اتباعه فيه[٢].

السنة عند المشتغلين بتقرير عقيدة السلف في الاعتقاد:

السنة؛ كالشريعة هي: ما سن الرسول وشرعه من العقائد، أو من العمل، وقد يراد به كلاهما[٣].

تعريف السنة في أصول الفقه:

- هي ما نقل عن رسول الله ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير. وزاد بعضهم: جملة مما ليس في القرآن... [٤]. أو: ما صدر من النبي ﷺ من الأفعال، والأقوال التي ليست للإعجاز[٥]. أو: الواجب، والمندوب، والمباح[٦].

٢ـ حجية السنة:

ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظَّ له في الإسلام[٧].

فإن أصول العلم: الكتاب، والسنة[٨].

وأقسام السنة كلها حجة، تصلح أن يحتج بها على ثبوت الأحكام الشرعية[٩].

وقوله ﷺ حجة على من سمعه، أو نقل إليه[١].

---

(١) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد لعثمان بن علي حسن (١/ ٨٢).

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩/ ٣٠٦، ٣٠٧)، بتصرف يسير.

(٤) بداية المطلب لسبالك (٣٠٦)، الموافقات للشاطبي (٤/ ٢)، إرشاد الفحول للشوكاني (٣٣).

(٥) بداية المطلب لسبالك (٣٠٦)، الإبهاج في شرح المنهاج لتقي الدين السبكي (٥/ ١٧٤٩).

(٦) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٤/ ١٦٣).

(٧) إرشاد الفحول الشوكاني (٣٣)، حجية السنة عبد الغني عبد الخالق (٢٤٩).

(٨) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر (٢/ ٣٣).

(٩) شرح الكوكب المنير ابن النجار (٢/ ١٦٧).

وذلك لدلالة المعجز على صدقه، وأمر الله سبحانه بطاعته، وتحذيره من مخالفة أمره[٢].

ومن البديهي بعد هذا أن أقول: إن السنة التي لها هذه الأهمية في التشريع، إنما هي السنة الثابتة عن النبي ﷺ بالطرق العلمية، والأسانيد الصحيحة المعروفة عند أهل العلم بالحديث ورجاله[٣].

ومعنى حجية السنة هو: وجوب العمل بمقتضاها[٤]، وأقسام السنة كلها حجة أي: تصلح أن يحتج بها على ثبوت الأحكام الشرعية[٥].

إجماع السلف على حجية السنة:

أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ؛ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس[٦].

فإن الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا؛ متفقون اتفاقًا يقينًا: على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد، إلا رسول الله ﷺ[٧].

وثبوت حجية السنة المطهرة، واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا منْ لا حظَّ له في دين الإسلام[٨].

٣ـ السنة وحي من الله ﷻ تكفل بحفظها:

قال تعالى واصفًا رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣، ٤). فصح لنا بذلك أن الوحي من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ ينقسم على قسمين:

---

(١) لباب المحصول في علم الأصول ابن رشيق المالكي (١/ ٣٢٤).

(٢) روضة الناظر موفق الدين ابن قدامة (١/ ٢٧٣).

(٣) منتهى الأماني بفوائد مصطلح الحديث للمحدث الألباني أحمد سليمان (٣٢٠).

(٤) حجية السنة عبد الغني عبد الخالق (٢٤٣).

(٥) شرح الكوكب المنير ابن النجار (٢/ ١٦٧).

(٦) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٣٩).

(٧) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ابن تيمية (١١).

(٨) إرشاد الفحول، الشوكاني (٣٣).

أحدهما: القرآن، والثاني: الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩). وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ (الأنبياء: ٤٥).

والذكر: اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيه ﷺ من قرآن، أو من سنة وحي يبيَّن بها القرآن.

فأخبر تعالى أن كلام نبيه ﷺ كله وحي، والوحي بلا خلاف: الذكر، وكله محفوظ بحفظ الله ﷻ، مضمون لنا أنه لا يضيع منه شيء، إذ ما حفظ الله تعالى فهو باليقين لا سبيل إلى أن يضيع منه شيء، فهو منقول إلينا كله[1].

وعن حسان بن عطية: كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣).

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٤)، فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ.

قال الشافعي: وذكر الله مَنَّهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز - والله أعلم- أن يقال الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله؛ وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتم على الناس اتباع أمره؛ فلا يجوز أن يقال لقوله: فرض إلا لكتاب الله، ثم سنة رسوله ﷺ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه، غير رسوله ﷺ[3].

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ابن حزم (١/ ٩٣، ٩٥، ١١٥).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٠٥) بسند صحيح.

(٣) الرسالة الإمام الشافعي (٧٨، ٧٩).

وكان مما ألقي في روعه: سنته، وهي الحكمة التي ذكر الله، وما أنزل به عليه كتاب؛ فهو كتاب الله، وكل جاءه من عند الله كما أراد الله ﷻ[1].

والحكمة: السنة، وهو ما جاء به عن الله بغير تلاوة، ويؤيد ذلك:

قوله في قصة العسيف: "لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ الله" أي بوحيه[2].

وعَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الكندي عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ"**[3]. وفي لفظ: **"أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَما يعدله"**[4].

وهذا يحتمل وجهين من التأويل:

أحدهما: أن يكون معناه أنه أولى من الوحي الباطن غير المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو.

الثاني: ويحتمل أن يكون معناه أنه أوتى الكتاب وحيًا يتلى، وأوتي من البيان، أي: أذن له أن يبين ما في الكتاب، ويعم ويخص، وأن يزيد عليه فيشرع ما ليس له في الكتاب ذكر، فيكون ذلك في وجوب الحكم، ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن، وفي الحديث دليل على أنه حيثما ثبت الحديث عن رسول الله ﷺ؛ كان حجة بنفسه[5].

٤ـ عصمة الرسول ﷺ في التبليغ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة: ٦٧).

---

(١) الرسالة الإمام الشافعي (١٠٣).

(٢) فتح الباري ابن حجر (١٣/ ٣٠٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٣١)، أبو داود (٤٦٠٤)، ابن حبان (١٢)، وغيرهم. وقال الألباني: صحيح (٢٦٤٣)، من صحيح الجامع.

(٤) الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٠٩).

(٥) معالم السنن الخطابي (٤/ ٢٧٦). اقترن لفظ (الكتاب والحكمة) في كثير من الآيات، منها على سبيل المثال البقرة (١٢٩، ١٥١، ٢٣١) آل عمران (١٦٤)، النساء (١١٣)، الأحزاب (٣٤)، الجمعة (٢).

لا نزاع بين المسلمين أن الرسول ﷺ معصوم فيما بلغه عن الله تعالى، فهو معصوم فيما شرعه للأمة بإجماع المسلمين

والكلام في هذا المقام مبنى على أصل وهو: أن الأنبياء -صلوات الله عليهم- معصومون فيما يخبرونه به عن الله تعالى، وفي تبليغ الرسالة باتفاق الأمة، وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة؛ فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين[١].

وأعلم الله رسوله مَنَّه عليه بما سبق في علمه من عصمته إياه من خلقه.

ولما سبق في علمه جل ثناؤه، من إسعاده بعصمته وتوفيقه، وما شهد له به من هدايته، واتباع أمره. . ، والشهادة بتأدية رسالته[٢].

وعليه: فإن أقسام السنة كلها حجة تصلح أن يحتج بها على ثبوت الأحكام الشرعية لثبوت العصمة للنبي ﷺ، ولسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٣].

وقد أعطى الله ﷻ الرسول ﷺ حق التشريع:

. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦).

فاعلم: أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم؛ على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال، وتحريم الحرام، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ" أي أوتيت القرآن، وأوتيت مثله من السنة التي لم ينطق بها القرآن[٤]. لأن الله سبحانه ولاه منصب التشريع عنه ابتداء، كما ولاه منصب البيان لما أراده بكلامه، بل كلامه كله بيان عن الله ﷻ[٥].

(١) مجموع الفتاوى ابن تيمية (٣٣/ ٢٨)، (١٠/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٢) الرسالة الشافعي (٨٥- ٨٨).

(٣) شرح الكوكب المنير ابن النجار (٢/ ١٦٧).

(٤) إرشاد الفحول الشوكاني (٣٣).

(٥) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٧).

وعليه: لا فرق بين قضاء الله، وقضاء رسوله ﷺ[١].

وكل ما سن فقد ألزمنا الله اتباعه، وجعل في اتباعه طاعته، وفي العنود عن اتباعه معصيته التي لم يعذر بها خلقًا، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجًا لما وصفت وما قال رسول الله[٢].

ولو كان رسول الله ﷺ لا يطاع في هذا القسم؛ لم يكن لطاعته معنى، ولسقطت طاعته المختصة به، وإنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن، لا فيما زاد عليه؛ لم يكن له طاعة خاصة تختص به، وقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ (النساء: ٨٠)[٣].

ولهذا كانت فتاويه ﷺ: جوامع الأحكام، ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحد من المسلمين العدول عنها، ما وجد إليها سبيلًا[٤].

أمر الله ﷻ بطاعة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧).

فقد جاء النص، ثم لم يختلف مسلمان في أن ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قاله؛ ففرض اتباعه[٥].

حيث أعلمهم أن الفرض عليهم اتباع أمره وأمر رسوله، وأن طاعة رسوله طاعته[٦].

وأخبر- تعالى- عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه؛ فقد أطاع الله، ومن عصاه؛ فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى[١].

---

(١) منتهى الأماني بفوائد مصطلح الحديث للمحدث الألباني أحمد سليمان صـ (٤٠).

(٢) الرسالة الشافعي (٨٨، ٨٩).

(٣) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٣).

(٤) إعلام الموقعين ابن القيم (١/ ٢٠).

(٥) الإحكام في أصول الأحكام ابن حزم (١/ ٩٩).

(٦) الرسالة، الشافعي (٨٥).

ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه، وطاعة الرسول في التزام سنته، والتسليم لما جاء به[٢]، وكذلك ما أمر به ونهى عنه، مما جاء به، مما ليس في القرآن[٣].

وأمر الله ﷻ عند التنازع بالرجوع لحكم الله ورسولهﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩).

وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه؛ أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة[٤].

وأعاد الفعل؛ إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالًا، من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا، سواء كان ما أمر به في الكتاب، أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه.

فإن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته[٥].

وذلك لأن الله لم يجعل العصمة عند تنازع المسلمين إلا في الرد إلى الكتاب والسنة.

وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (١/ ٧٢٦).

(٢) الشفا القاضي عياض (٢/ ٨).

(٣) الموافقات الشاطبي (٤/ ٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (١/ ٧١٣).

(٥) إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٥٤)، جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر (٢/ ١٩٠)، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (١/ ٩٤).

(٦) مجموع الفتاوى ابن تيمية (٣٢/ ١٢٠).

وعليه فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة؛ فهو الحق، وماذا بعدالحق إلا الضلال[١].

وذلك لأن القرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله تعالى، وحكمها حكم واحد في باب وجوب الطاعة لهما[٢].

فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله[٣].

ومن لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك؛ فليس مؤمنًا بالله، ولا باليوم الآخر[٤].

حيث جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد؛ انتفى الإيمان[٥].

والتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير، وأحسن عاقبة ومآلًا[٦].

وأخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول؛ فقد حكَّم الطاغوت وتحاكم إليه، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة، وهم الصحابة ومن تبعهم[٧].

وعليه لا يسع مسلمًا يقر بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن، والخبر عن رسول الله ﷺ، ولا أن يأتي غيرما وجد فيهما، فإن فَعَل ذلك بعد قيام الحجة عليه؛ فهو فاسق، وأما من فعله مستحلا للخروج عن أمرهما وموجبا لطاعة أحد دونهما؛ فهو كافر[٨].

٥ـ التسليم بقضاء رسول الله ﷺ من الإيمان:

---

(١) تفسير القرآن ابن كثير (١/ ٧١٣)، الرسالة للشافعي (٨٤).

(٢) الإحكام ابن حزم (١/ ٩٤).

(٣) زاد المهاجر إلى ربه ابن القيم (٨٥).

(٤) تفسير القرآن ابن كثير (١/ ٧١٣).

(٥) إعلام الموقعين ابن القيم (١/ ٥٤).

(٦) تفسير القرآن ابن كثير (١/ ٧١٣).

(٧) إعلام الموقعين ابن القيم (١/ ٥٤، ٥٥).

(٨) الإحكام ابن حزم (١/ ٩٥).

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضًا بذلك حتى يسلموا تسليمًا، وينقادوا انقيادًا(١)؛ لأنهم إذا سلموا لحكم رسول الله؛ فإنما سلموا لحكمه بفرض الله؛ لأن حكمه حكمه(٢).

فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله(٣).

وقد أقام الله الحجة على خلقه بالتسليم لحكم رسول الله، واتباع أمره(٤).

فالواجب: كمال التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولا، أو بحمله شبهة، أو شكًا، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل(٥).

وقد حذر المولى ﷻ من مخالفة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣).

وأمر رسول الله ﷺ هو: سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته. (٦)

ومخالفة أمره وتبديل سنته؛ ضلال وبدعة متوعد من الله عليه بالخذلان والعذاب(١).

---

(١) إعلام الموقعين ابن القيم (١/ ٥٥).

(٢) الرسالة الشافعي (٨٤).

(٣) زاد المهاجر ابن القيم (٨٥).

(٤) الرسالة الشافعي (٨٨).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٢٨).

(٦) تفسير القرآن ابن كثير (٣/ ٤٢٢).

فمن جاءه خبر عن رسول الله ﷺ؛ يقر أنه صحيح، وأن الحجة تقوم بمثله، أو قد صحح مثل ذلك الخبر في مكان آخر ثم ترك مثله في هذا المكان لقياس، أو لقول فلان وفلان، فقد خالف أمر الله وأمر رسوله، واستحق الفتنة والعذاب الأليم(٢)، فإن من ردَّ حديث رسول الله ﷺ؛ فهو على شفا هلكة(٣)، بأن تصيبهم فتنة في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، أو يصبهم عذاب أليم في الدنيا بقتل، أو حد، أو حبس(٤)، ومصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول، وتحكيم غيره، والتحاكم إليه(٥).

٦ـ من أقوال السلف في التمسك بالسنة:

١) أبو بكر رضي الله عنه: لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ(٦).

٢) عمر بن الخطاب رضي الله عنه: السنة ما سنه الله ورسوله، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة(٧).

٣) ابن عباس رضي الله عنه: إنما هو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن قال بعد ذلك برأيه؛ فلا أدري أفي حسناته يجد ذلك، أم في سيئاته(٨).

٤) عبد الله بن عمر رضي الله عنه: من ترك السنة كفر(٩).

٥) عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ(١).

---

(١) الشفا القاضي عياض (٢/ ١٧).

(٢) الإحكام ابن حزم (١/ ٩٨).

(٣) منتهى الأماني أحمد سليمان (٦٤).

(٤) تفسير القرآن ابن كثير (٣/ ٤٢٢).

(٥) إعلام الموقعين ابن القيم (١/ ٥٥).

(٦) متفق عليه البخاري (٣٠٩٣)، مسلم (١٧٥٩).

(٧) إعلام الموقعين ابن القيم (١/ ٥٩، ٦٢).

(٨) إعلام الموقعين ابن القيم (١/ ٥٩، ٦٢).

(٩) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة لابن بطة العكبري (١٤٠).

٦) عن أبي حنيفة رحمه الله: إذا صح الحديث فهو مذهبي[٢].

٧) مالك بن أنس رحمه الله: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب؛ فانظروا في رأيي، فكلما وافق الكتاب والسنة؛ فخذوا به، وكلما لم يوافق الكتاب والسنة؛ فاتركوه[٣].

٨) الشافعي رحمه الله: إذا صح الحديث خلاف قولي؛ فاعملوا بالحديث واتركوا قولي[٤]، وفي رواية: فهو مذهبي.

٩) أحمد رحمه الله: من رد حديث رسول الله ﷺ؛ فهو على شفا هلكة[٥].

١٠) عن الزهري: كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة نجاة[٦].

١١) عبد الله الديلمي: إن أول ذهاب الدين ترك السنة، يذهب الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة.

١٢) الأوزاعي: ندور مع السنة حيث دارت، وقال: كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله.

١٣) الفضيل بن عياض: إن لله عبادًا يحيى بهم البلاد، وهم أهل السنة.

١٤) أبو بكر بن عياش: السنة في الإسلام أعز من الإسلام في سائر الأديان.

١٥) عن عون: من مات على الإسلام والسنة فله يشير بكل خير[٧].

٧ـ وظيفة السنة مع القرآن:

---

(١) الشريعة للآجري (١/ ٤٢٣)، جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر (٢/ ٣٤).

(٢) حاشية ابن عابدين (١/ ٤٦).

(٣) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر (٢/ ٣٢).

(٤) المجموع شرح المهذب النووي (١/ ٦٣).

(٥) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلي (٢/ ١٥).

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي (١/ ١٠٤، ١٠٦).

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي (١/ ٧٢، ٧٣، ٧٤، ١٠٤، ١٠٦).

بداية أشير إلى أن القرآن أحوج إلى السنة، من السنة إلى القرآن[١].

ومعنى احتياج القرآن إلى السنة: أنها مبينة له، ومفصلة لمجملاته؛ لأن فيه -لوجازته- كنوزًا تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها؛ فيبررها، وذلك هو المنزل عليه ﷺ[٢].

وذلك لأن جميع كتاب الله إنما نزل بلغة العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي[٣].

لهذا كانت السنة شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح[٤].

حال السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه[٥]:

اتفق أهل العلم أن سنة النبي ﷺ مع القرآن تكون على وجوه؛ فاجتمعوا منها على وجهين[٦]:

الوجه الأول: أن تكون موافقة له من كل وجه[٧].

وهي سنة تأتي بحكم موافق للحكم الوارد في القرآن، مساوٍ له في المعنى، ولم تزد عنه، سواء أكانت قولية أم فعلية[٨].

فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتطافرها[٩].

---

(١) البحر المحيط الرزكشي (٤/ ١٦٧)، الموافقات للشاطبي (٤/ ١٥)، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١٩١).

(٢) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة السيوطي (٤٤).

(٣) الرسالة الشافعي (٤٠، ٤٢).

(٤) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة السيوطي (٤٤).

(٥) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٣).

(٦) الرسالة للشافعي (٩١).

(٧) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٣).

(٨) الواضح في أصول الفقه محمد الأشقر (٩٥، ٩٦).

(٩) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٣).

كأمر النبي ﷺ للصحابة بصيام رمضان وإتمام الحج، كل ذلك موافق لقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣)، وقوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦)، وحكم هذا النوع أنه تطبيق لدلالة القرآن وتأكيد لها، وهو ما يسمى بيان التقرير[1].

الوجه الثاني: أن تكون بيانًا لما أريد بالقرآن، وتفسيرًا له[2].

فهي تفصيل مجمله، وبيان مشكله، وبسط مختصره[3].

وبين رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرضها عامًا أو خاصًا، وكيف أراد أن يأتي به العباد، وكلاهما اتبع فيه كتاب الله[4].

والبيان من النبي ﷺ أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيًا.

الثاني: بيان معناه وتفسيره لمن احتاج ذلك، كما بين أن الظلم المذكور في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢): هو الشرك.

الثالث: بيانه بالفعل، كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن؛ فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوج؛ ة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي، وإن لم يكن قرآنا، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بالخلوق، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة، ويغسل أثر الخلوق.

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر.

السابع: بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له، وعدم نهيهم عن التأسي به.

---

(١) الواضح في أصول الفقه محمد الأشقر (٩٥، ٩٦).

(٢) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٣).

(٣) الموافقات للشاطبي (٤/ ٦).

(٤) الرسالة للشافعي (٩١).

الثامن: بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله، وهو يشاهده، أو يعلمهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحة الشيء عفوا بالسكوت عن تحريمه، وإن لم يأذن فيه نطقا.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف؛ فيحيل الرب سبحانه وتعالى على رسوله في بيانها.

ويضاف إليها: تخصيص القرآن بالسنة، وهو جائز، كما أجمعت الأمة على تخصيص قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ (النساء: ١١) بقوله ﷺ: **"لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ"**[(١)] [(٢)].

فإذا عمل المكلف على وفق البيان؛ أطاع الله فيما أراد بكلامه، وأطاع رسوله في مقتضى بيانه، ولو عمل على مخالفة البيان؛ عصى الله تعالى في عمله على مخالفة البيان؛ إذ صار عمله على خلاف ما أراد بكلامه، وعصى رسوله في مقتضى بيانه[(٣)].

وكذلك الاستدلال بسننه على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله. وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما[(٤)].

أما الوجه الثالث فهو:

ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب[(٥)]، أو: التشريع المبتدأ، حيث تكون السنة موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه[(٦)].

---

(١) البخاري (٤٢٨٣)، مسلم (١٦١٤).

(٢) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٨، ٢٦٩)، جامع بيان العلم عبد البر (٢/ ١٩٠).

(٣) الموافقات الشاطبي (٤/ ١٠).

(٤) الرسالة الشافعي (٩٢، ١٠٥).

(٥) الرسالة الشافعي (٩٢).

(٦) إعلام الموقعين ابن القيم (٢/ ٢٦٣).

مثل حديث: "أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهَدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قِرَاه"[١].

الوجه الرابع: بيان التبديل، أو نسخ السنة للقرآن:

لم يثبت أن شيئًا من القرآن نسخ السنة بلا قرآن، فإن الشافعي وأحمد وسائر الأئمة يوجبون العمل بالسنة المتواترة المحكمة، وإن تضمنت نسخا لبعض آي القرآن لكن يقولون: إنما نسخ القرآن بالقرآن، لا بمجرد السنة، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦)، ويرون من تمام حرمة القرآن أن الله لم ينسخه إلا بقرآن.[٢]

وبعد عرض هذه المقدمة السريعة نبدأ بالرد على الشبهات:

* * *

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٣١)، أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٣).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/ ٣٩٧-٣٩٩). وفي هذه المسألة خلاف، وانظر: الإحكام لابن حزم (٤/ ٥٠٥- ٥١١)، الرسالة للشافعي (١٠٦-١٠٧)، جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ١٩٢)، إرشاد الفحول للشوكاني (١٩٠-١٩٢).

١ـ ادعاؤهم وجود تعارض في الشريعة

نص الشبهة:

ظنوا أن كثيرًا من نصوص الوحي -قرآنًا وسنة- يوجد بينهما تعارض، وهذا مما يفقد مصداقية الوحي.

والرد على ذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: تعريف التعارض.

الوجه الثاني: أركان التعارض.

الوجه الثالث: شروط تحقيق التعارض.

الوجه الرابع: أقسام التعارض

الوجه الخامس: كثرة التعارضات في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: تعريف التعارض.

التعارض لغة: التمانع، ومنه تعارض البينات، والتعارض على وزن: تَفَاعُل، وهذا الوزن يدل على:

١-التشارك بين شيئين أو أكثر، نحو: تَزَاحُم، تَقَاتُل.

٢-المطاوعة: نحو التَبَاعُد.

٣- إظهار ما ليس واقعًا، نحو: التجاهُل، التغافُل، التعالُم.

٤- وقوع الحدث تدريجيًّا، نحو: التفاقُم، التوارُد، التكاثُر.

٥- مجرد وقوع الحدث، نحو: التجاوز.

والمراد هنا الأول، إذ يراد به مشاركة الشريعة في تقابل أدلتها؛ بحيث يمتنع الأخذ بها.

التعارض اصطلاحًا: التعارض بين الأمرين هو: تقابلهما على وجه يمنع كل واحد منهما مقتضى صاحبه. والمعنى: تقابل الدليلين على سبيل الممانعة، وذلك إذا كان أحد الدليلين يدل على خلاف ما يدل عليه الآخر، كأن يدل أحد الدليلين على الجواز والآخر على المنع،

فدليل الجواز يمنع التحريم، ودليل التحريم يمنع الجواز؛ فكل منهما مقابل للآخر، ومعارض له، وممانع له[(١)]

ومرادهم بوقوع التعارض في الشريعة: تقابل الأدلة- القرآن مع القرآن، والسنة مع السنة، والقياس مع القياس، والإجماع مع الإجماع، ثم تقابل كل منها مع الآخر- فالقرآن يقابل السنة والقياس، والسنة تقابل القياس والإجماع، والقياس يقابل الإجماع؛ فيكون مجموع الأدلة المتقابلة عشرة أدلة، بحيث يمنع مدلول أحدها مدلول الآخر، فيستحيل الجمع بينهما بوجه من وجوه الجمع الصحيحة، مثل أن يكون أحد الدليلين مثبت والآخر نافٍ في زمن واحد، في محل واحد، فإذا أثبتوا على الشريعة هذا التناقض؛ امتنع الأخذ بها بأي وجه من الوجوه.

الوجه الثاني: أركان التعارض.

للتعارض ركنان هما:

الأول: كون كل من المتعارضين حجة، أي: دليل شرعي محتَجّ به يصح التمسك به في محل النزاع، ويمكن استنباط الحكم منه، فإذا كان أحد الدليلين دليلًا لا يحتج به كالحديث الضعيف مثلًا، لم يكن ثَمَّ تعارض. وكون هذا ركن واضح من تعريف التعارض بأنه تقابل الدليلين.

الثاني: تقابل الدليلين على وجه التمانع، بحيث لا يمكن الجمع بينهما جمعًا صحيحًا، فإن أمكن الجمع بينهما، أو كان كل واحد منهما ينزل على نوع لم يكن هناك تعارض، وإن كان كل واحد منهما ينزل في زمن من الأزمان لم يكن ثَمَّ تمانع. [(٢)]

الوجه الثالث: شروط تحقيق التعارض.

لابد للحكم على حديثين بالتعارض، وجعلهما من باب مختلف الحديث: أن يكون كل منهما مُحْتَجًّا به، أما إن كان أحدهما لا يُقْبَلُ بحال، فإنه لا يُعَارَضُ به القوي؛ إذ إنه –

---

(١) نهاية السول شرح منهاج الوصول (٢/ ٢٠)، شرح الكوكب المنير (٤/ ٦٠٥) أصول السرخسي (٢/ ١٤)، البحر المحيط (٦/ ١٠٩)، إرشاد الفحول (٦٠٥)، الواضح في أصول الفقه (٢٧٠)، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية د/ محمود عبد المنعم (١/ ٤٦٧، ٤٦٦).

(٢) أصول السرخسي (٢/ ١٤)، تعارض أدلة التشريع وطرق التخلص منه د/ حمدي صبح طه صـ (٤٩).

والحالة هذه - لا أَثَر له.

وقد بين ابن القَيِّم - رحمه الله - ذلك وأكده، فقال: لا يجوز معارضة الأحاديث الثابتة بحديث من قد أجمع علماء الحديث على ترك الاحتجاج به. (١)

وقال: ومعارضة الأحاديث الباطلة للأحاديث الصحيحة لا توجب سقوط الحكم بالصحيحة والأحاديث الصحيحة يصدق بعضها بعضًا. (٢)

الشرط الأول: اتحاد محل الحكمين المستفادين من الدليلين، فإن اختلف المحل فلا تعارض. فالنكاح الصحيح مثلًا يحل ويحرم، ولا تقابل ولا تعارض لاختلاف المحل، فيحل الزوجة، ويحرم أمها، فلا تعارض بين قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، لكونه في الزوجة التي أحلها عقد النكاح وهي محل الحكم، وبين قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ (النساء: ٢٣)، لكونه في الأم التي هي محل التحريم بالعقد على ابنتها، فاختلف محل الحكمين.

الشرط الثاني: اتحاد الجهة، ويُعَبَّر عنه باتحاد الحال أي: الحال المحمول عليه كل من الحكمين التي يتوجه إليها الحكمان المتقابلان، فإن اختلفت الجهة ولو اتحد الحكم فلا تعارض، ومثال ذلك الأمر بحلق الرأس في الحج والعمرة، والنهي عن حلقه فيهما، لاختلاف جهة الحكم، فلا تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ (البقرة: ١٩٦)، وبين قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ (الفتح: ٢٧)، فالآية الأولى فيما يحرمه الإحرام بالحج والعمرة، والآية الثانية في التحلل من الحج والعمرة.

ومثال آخر قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٦).

---

(١) تهذيب السنن ٦/ ٣٢٤.

(٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٢٤).

كلمة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فيها قراءتان إحداهما: بنصب اللام[١] عطفًا على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾، والثانية بجرها[٢] عطفًا على ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، والأولى تقتضي وجوب غسل الرجلين، والثانية تقتضي وجوب مسحهما، والقراءتان بمنزلة دليلين، ومع اختلاف مقتضى القراءتين فإنه لا تعارض لاختلاف الجهة -الحال- إذ إن قراءة الجر المقتضية مسح الرجلين؛ محمولة على حال استتار القدمين بالخفين، وقراءة النصب المقتضية غسل الرجلين؛ محمولة على حال ظهور القدمين.

الشرط الثالث: اتحاد زمن الحكمين، فإن اختلف زمن الحكمين فلا تعارض، وإن اتحد المحل محل الحكم.

ومثال ذلك: الأمر باعتزال الزوجة في المحيض، وإباحة جماعها بعده -الطُّهْر-، فمحل الحكم واحد وهو الزوجة، لكن اختلف زمن الحكمين، فلا تعارض إذا بين قوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾، **وبين قوله**: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ﴾ (البقرة: ٢٢٢).[٣]

الوجه الرابع: أقسام التعارض.

من خلال ما تقدم من تعريف التعارض، وأركانه، وشروطه؛ يمكن تقسيم التعارض إلى قسمين: التعارض الحقيقي، والتعارض الظاهري.

وهذا ما نفصله في المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: التعارض الحقيقي.

وهو التضاد التام بين حجتين: دلالةً، وثبوتًا، وعددًا، ومتحدتين: زمانا، ومحلًا، وهو المراد من تعريف التعارض الذي مَرَّ سابقًا وهو: تقابل الدليلين على وجه يمنع كل واحد منهما مقتضى صاحبه، أي: تقابل الدليلين على سبيل الممانعة.

---

(١) قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي، ويعقوب، وحفص: النشر (٢/ ٢٥٤)

(٢) قراءة الباقين: النشر (٢/ ٢٥٤).

(٣) أصول السرخسي (٢/ ١٤، ١٥)، البحر المحيط (٦/ ١١٠)، إرشاد الفحول (٦٠٥).

والتعارض بهذا المعنى ليس موجودًا في شريعة رب العالمين ولله الحمد والمنة[(١)].

الأدلة على عدم وقوع هذا النوع في الشريعة.

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (النجم ٣، ٤).

وما كان من عند الله تعالى فلا اختلاف فيه ولا تعارض لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢).

قال الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾: أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم- يا محمد- كتاب الله؛ فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك، واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم؛ لاتّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلكٍ لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض. [(٢)]

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قومًا يتدارءون في القرآن؛ فقال: "**إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضًا؛ فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه**". [(٣)]

---

(٢) وهو موجود بيقين في شريعة اليهود والنصارى المحرفة، وقد أثبتنا عليهم التمانع والتناقض والتضاد على المعنى الذي مرَّ، بحيث لا يمكن لهم بحال الجمع بين النصين، فلما رأوا ذلك قذفوا شريعة الإسلام بذلك تطبيقا للمثل: رمتني بدائها وانسلت، وانظر تفصيل هذه القضية في بحث التحريف من هذه الموسوعة.

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٥٦٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٣٦٧)، وأحمد في المسند (٢/ ١٨١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨١٢) والطبراني في الأوسط (٥١٥) من طرق عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، والحديث حسنه الألباني في المشكاة (٢٣٧).

الدليل الثاني: أمر الله تعالى بالرجوع عند التنازع الاختلاف إلى القرآن الكريم والسنة فقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(النساء: ٥٩) أي: القرآن والسنة، وهذا يعني أن الرجوع إليهما يرفع النزاع، ويقطع الخلاف، وهذا لا يتحقق إلا إذا كانا لا اختلاف فيهما، ولا تعارض، إذ لو كان فيهما اختلاف وتعارض؛ لم يحصل بالرجوع إليهما رفع النزاع.

الدليل الثالث: إذا أثبت الشارع حكمًا بدليل يعارضه دليل آخر يقضي خلافه؛ دل ذلك على العجز عن إثباته بدليل سالم عن المعارضة، والله تعالى منزه عن العجز.

الدليل الرابع: إذا وقع التعارض بين دليلين شرعيين في الواقع، وفي نفس الأمر، كأن دل أحدهما على وجوب شيء، ودل الآخر على تحريمه؛ أدى ذلك إلى ثلاثة أمور كلها باطلة:

أولها: العبث، وذلك إذا لم يقصد الشارع بالدليلين تشريع الحكم الذي تضمنه كل منهما، والله تعالى منزه عن العبث.

ثانيها: التكليف بما لا يطاق، وذلك إذا قصد الشارع بهما تشريع الحكم؛ إذ إن إيجاب شيء واحد، وتحريمه بعينه على شخص واحد، في وقت واحد؛ تكليف للشخص بما ليس في وسعه، وقد قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

ثالثها: صدور الأمر بالشيء، والنهي عنه في وقت واحد من الشارع، وهذا باطل أيضًا؛ لأنه تناقض يتنزه عنه الشارع الحكيم، وما أدى إلى الباطل؛ فهو باطل، فالقول بتعارض الأدلة حقيقةً، وفي نفس الواقع باطل.

الدليل الخامس: لَوْ وَقَعَ التعارض بين الدليلين؛ فَإِمَّا أَنْ يَعْمَلَ بِهِمَا- وَهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ الْمُتَنَافِيَيْنِ- أَوْ لا يُعْمَلُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا؛ فَيَكُونُ وَضْعُهُمَا عَبَثًا- وَهُوَ مُحَالٌ عَلَى الله تَعَالَى- أَو يُعْمَلُ بِأَحَدِهِمَا عَلَى التَّعْيِينِ- وَهُوَ تَرْجِيحٌ مِنْ غَيْرِ مُرَجِّحٍ- أَوْ لا عَلَى التَّعْيِينِ، بَلْ عَلَى التَّخْيِيرِ، وَالتَّخْيِيرُ بَيْنَ الْمُبَاحِ وَغَيْرِهِ يَقْتَضِي تَرْجِيحَ أَمَارَةِ الإِبَاحَةِ بِعَيْنِهَا؛ لأَنَّهُ لَمَّا جَازَ لَهُ الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ؛ كَانَ هَذَا مَعْنَى الإِبَاحَةِ؛ فَيَكُونُ تَرْجِيحًا لإِحْدَى الأَمَارَتَيْنِ بِعَيْنِهَا.

الدليل السادس: لو كان التعارض في الواقع، وفي نفس الأمر جائزًا؛ لكان البحث عن الناسخ والمنسوخ لدفع التعارض بين الدليلين المتعارضين عبثًا، وكيف يكون عبثًا وقد شدَّدَ العلماء على تَعَلُّم الناسخ والمنسوخ ومعرفتها!

الدليل السابع: القول بثبوت التعارض في الشريعة يرفع باب الترجيح جملة؛ إذ لا فائدة فيه، ولا حاجة إليه، على فرض ثبوت الخلاف أصلًا شرعيًا لصحة وقوع التعارض في الشريعة، لكن ذلك فاسد؛ فما أدى إليه مثله. [1]

- نفي أهل العلم وقوع هذا النوع من التعارض في الشريعة:

١- قال ابنُ خُزَيْمَةَ: لا أَعْرِفُ حَدِيثَيْنِ صَحِيحَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْهُ فَلْيَأْتِنِي بِهِ؛ لأُؤَلِّفَ بَيْنَهُمَا[2]..

٢- صرح الشافعي: بأنه: لا يصح عن النبي ﷺ أبدًا حديثان صحيحان متضادان ينفي أحدهما ما يثبته الآخر، من غير جهة الخصوص والعموم، والإجمال والتفسير، إلا على وجه النسخ وإن لم يجده. [3]

٣- قال الشاطبي: كل من تحقق بأصول الشريعة؛ فأدلتها عنده لا تكاد تتعارض، كما أن كل من حقق مناط المسائل؛ فلا يكاد يقف في متشابه؛ لأن الشريعة لا تعارض فيها البتة، فالمتحقق بها متحقق بما في نفس الأمر؛ فيلزم أن لا يكون عنده تعارض، ولذلك لا تجد البتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما بحيث وجب عليهم الوقوف، لكن لما كان أفراد المجتهدين غير معصومين من الخطأ؛ أمكن التعارض بين الأدلة عندهم. [4]

---

(١) تعارض أدلة التشريع وطرق التخلص منه د/ حمدي صبح طه (٣٩: ٣٥)، وانظر أصول السرخسي (٢/ ١٤)، شرح الكوكب المنير (٤/ ٦١٤)، الإبهاج في شرح المنهاج (٧/ ٢٦٩٩)، الإحكام لابن حزم (١/ ١٧٣)، الموافقات للشاطبي (٥/ ٦٤)، البحر المحيط (٦/ ١١٣).

(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (١/ ٤٣٢)، شرح الكوكب المنير (٤/ ٦١٨).

(٣) إرشاد الفحول (٣٧٥).

(٤) الموافقات (٥/ ٣٤١). المسودة (٣٠٦).

٤ـ **قال ابن تيمية**: لا يجوز أن يوجد في الشرع خبران متعارضان من جميع الوجوه، وليس مع أحدهما ترجيح يقدم به. (١)

٥ـ **قال ابن القيم**: وَأَمّا حَدِيثَانِ صَحِيحَانِ، صَرِيحَانِ، مُتَنَاقِضَانِ مِنْ كُلّ وَجْهٍ، لَيْسَ أَحَدُهُمَا نَاسِخًا لِلْآخَرِ، فَهَذَا لَا يُوجَدُ أَصْلًا، وَمَعَاذَ الله أَنْ يُوجَدَ فِي كَلَامِ الصّادِقِ الْمَصْدُوقِ، الّذِي لَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ إلّا الْحَقّ. (٢)

المبحث الثاني: التعارض الظاهري ـ الموهوم ـ:

ويشتمل هذا المبحث على المطالب الآتية:

المطلب الأول: أسباب وجود التعارض الظاهري.

هذه الأسباب هي في الحقيقة ترجع إلى التقصير في استخدام طرق دفع التعارض، خاصةً الجمع بين الدليلين، أو معرفة الناسخ والمنسوخ؛ فأدَّى ذلك إلى وقوع التعارض الظاهري، وقد أجمل (**ابن القيم**) ذكر هذه الأسباب بقوله:

لا تعارض بحمد الله بين أحاديثه الصحيحة، فإذا وقع التعارضُ؛ فإما أن يكون أحدُ الحديثين ليس مِن كلامه ﷺ، وقد غَلِطَ فيه بعضُ الرواة- مع كونه ثقةً ثَبتًا، فالثقةُ يَغْلَطُ- أو يكونُ أحدُ الحديثين ناسخًا للآخر؛ إذا كان مما يَقْبَلُ النسخ، أو يكونُ التعارضُ في فهم السامع، لا في نفس كلامه ﷺ، فلا بُدَّ مِن وجه من هذه الوجوه الثلاثة، وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان مِن كل وجه، ليس أحدُهما ناسخًا للآخر، فهذا لا يُوجد أصلًا، ومعاذَ الله أن يُوجَدَ في كلام الصادق المصدوق الذي لا يخرج من بين شفتيه إلا الحقُّ، والآفةُ مِن التقصير في معرفة المنقول، والتمييز بين صحيحه ومعلوله، أو من القُصور في فهم مُراده ﷺ، وحمل كلامه على غير ما عناه به، أو منهما معًا؛ ومن ههنا وقع من الاختلاف والفساد ما وقع. (١)

---

(١) المسودة (٣٠٦).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٤٩)

وقال أيضًا عن سبب التعارض والاختلاف:

وإنما يؤتى من يؤتى هناك من قبل فهمه، وتحكيمه آراء الرجال وقواعد المذهب على السنة، فيقع الاضطراب والتناقض والاختلاف. (٢)

ومن خلال الكلام السابق يظهر أن أسباب التعارض والاختلاف ترجع إلى:

- إما أن يكون أحد الحديثين ليس من كلامه ﷺ، وقد غلط فيه بعض الرواة- مع كونه ثقة ثبتًا- فالثقة يغلط.
- وإما أن يكون أحد الحديثين ناسخًا للآخر، إذا كان مما يقبل النسخ.
- وإما أن يكون التعارض في فهم السامع لا في نفس كلامه ﷺ
- وإما من جهة تقصير الناظر في معرفة المنقول، والتمييز بين صحيحه و معلوله. - أو من القصور في فهم مراده ﷺ، وحمل كلامه على غير ما عناه به، أو منهما معًا.
- أو تحكيم آراء الرجال، وقواعد مذهب من المذاهب على السنة النبوية.

المطلب الثاني: طرق دفع التعارض الظاهري.

فإذا وقع هذا النوع من التعارض الظاهري- الموهوم- فإن أهل العلم يدفعونه بالطرق الآتية:

الطريقة الأولى: الجمع بين الدليلين اللذين ظاهرهما التعارض:

لاحتمال أن يكون بينهما عموم وخصوص، أو إطلاق وتقييد، أو مجمل ومبين؛ لأن القاعدة المقررة عند أهل العلم: أن إعمال الكلام أولى من إهماله. (٣)

قال الشافعي: ولا ينسب الحديثان إلى الاختلاف ما كان لهما وجهًا يمضيان معًا، إنما المختلف ما لم يمض إلا بسقوط غيره، مثل أن يكون الحديثان في الشيء الواحد، هذا يحله، وهذا يحرمه. (١)

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٤٩).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٤٢٥).

(٣) الإبهاج (٢/ ١٢٩)، الأشباه والنظائر لابن نجيم (١/ ١٣٥)، المنثور في القواعد للزركشي (١/ ١٣٤)، الأشباه والنظائر للسيوطي (١/ ١٢٨).

قال الخطابي: وسبيل الحديثين إذا اختلفا في الظاهر، وأمكن التوفيق بينهما وترتيب أحدهما على الآخر؛ أن لا يحملا على المنافاة، ولا يضرب بعضها ببعض، لكن يستعمل كل واحد منهما في موضعه، وبهذا جرت قضية العلماء في كثير من الحديث. (٢)

كقوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ مع قوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾.

قال الحليمي: فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات؛ من شرائع الدين وفروعه، حمله غيره على اختلاف الأماكن؛ لأن في القيامة مواقف كثيرة، فموضع يسأل ويناقش، وموضع آخر يرحم ويلطف به، وموضع آخر يعنف ويوبخ، وهم الكفار، وموضع آخر لا يعنف، وهم المؤمنون. وكقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾وقوله: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ وذلك يبلغ ثمانية أيام، والجواب أن المراد بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ مع اليومين المتقدمين، ولم يرد بذكر الأربعة غير ما تقدم ذكره، وهذا كما يقول الفصيح: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وسرت إلى الكوفة في ثلاثة عشر يومًا، ولا يريد سوى العشرة، بل يريد مع العشرة ثلاثة ثم قال تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ وأراد سوى الأربعة، وذلك لا مخالفة فيه؛ لأن المجموع يكون ستة. (٣)

---

(١) الرسالة (١/ ٣٤٢).

(٢) معالم السنن (٣/ ٦٨).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٦٣: ٥٤)

وكذلك ما ورد في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (النحل: ٣٢).

مع ما ورد عن النبي ﷺ **"لن يدخل أحدكم الجنة بعمله"** فظاهر الحديث يخالف الآية، مما جعل أهل الحديث يبحثون في وجه الجمع بينهما، وممن قام بالجمع بينهما شيخ الإسلام ابن القيم- رحمه الله- حيث يقول:

ها هنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو: أن الجنة تدخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلًا بدخولها، وإن كان سببًا.

ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونفى رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال في قوله: "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله" ولا تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما ما ذكره سفيان وغيره، قال: كانوا يقولون النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال، ويدل على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه **"أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم"**[(١)].

والثاني: أن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة؛ التي يكون فيها أحد العوضين مقابل للآخر، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية؛ التي تقضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلًا بحصوله، وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله: **"لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله! قَالَ: وَلاَ أَنَا، إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا"**[(٢)]

ومن عرف الله تعالى، وشهد مشهد حقه عليه، ومشهد تقصيره وذنوبه، وأبصر هذين المشهدين بقلبه؛ عرف ذلك وجزم به، والله سبحانه وتعالى المستعان[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٤٩)، ابن ماجه (٤٣٣٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٨٣١).

(٢) البخاري (٦٤٦٣)، مسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٨٧-٨٨) الباب التاسع عشر.

وقد ذكر ابن تيمية قريبًا من هذا الجمع فقال: وليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب، ولهذا قال النبي ﷺ: "أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل " وقد قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فهذه باء السبب، أي بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبيﷺ باء المقابلة، كما يقال: اشتريت هذا بهذا، أي: ليس العمل عوضًا، وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته، فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات. (١)

الطريقة الثانية: الناسخ والمنسوخ.

النسخ هو: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متراخ عنه. (٢)

ومثال وقوع النسخ في القرآن:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، فبينت الآية أن عدة المتوفَى عنها زوجها عام كامل.

وقد نسخت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾ (البقرة: ٢٣٤).

فبينت الآية أن عدة المتوفَى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرًا، وهي ناسخة للحكم الأول.

ومثال وقوع النسخ في السنة:

قوله ﷺ: "**تَوَضَّئُوا مِمَّا مَسَّتِ النَّارُ**"(٣)

ونسخ هذا الحكم بحديث ابن عباس وغيره: "أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَكَلَ كَتِفَ شَاةٍ، ثُمَّ صَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ". (١)

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٨/ ٧٠، ٧١).

(٢) راجع تفصيل مسائل النسخ في بحث: الناسخ والمنسوخ، من هذه الموسوعة.

(٣) مسلم (٣٥٣) من حديث عائشة.

ومثل قولهﷺ: " كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا". [٢]

ومعرفة الناسخ والمنسوخ يتبين لنا أنه لا يوجد تعارض.

والنسخ واقع في جميع الشرائع السماوية، [٣] ومن حكمته أخذ الناس بسنة التدرج في التشريع، فيشرع لهم ما يصلحهم في وقت، ثم يشرع لهم ما يصلحهم في الآخر.

الطريقة الثالثة: الترجيح بين الدليلين.

وهو: بيان أن أحد المتعارضين أقوى من الآخر بدليل؛ ليعمل به. [٤]

قال الشافعي: ومنها ما لا يخلو من أن يكون أحد الحديثين أشبه بمعنى كتاب الله، أو أشبه بمعنى سنن النبي ﷺ مما سوى الحديثين المختلفين، أو أشبه بالقياس، فأي الأحاديث المختلفة كان هذا فهو أولاهما عندنا أن يصار إليه. [٥]

قال الشوكاني في مبحث وجوه الترجيح بين المتعارضين:

---

(١) مسلم (٣٥٤).

(٢) رواه مسلم (٩٧٧) من حديث ابن بريدة.

(٣) فمن ذلك أن التوراة (العهد القديم المعترف به عند النصارى) أحلت الطلاق، جاء في سفر التثنية (٢٤: ١-٢): إذا أخذ رجل امرأة و تزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء و كتب لها كتاب طلاق و دفعه إلى يدها و أطلقها من بيته و متى خرجت من بيته ذهبت و صارت لرجل آخر.

بينما العهد الجديد:

١- حرم الطلاق إلا للزنا.

٢- حرم على المطلقة أن تتزوج برجل آخر فذلك بمنزلة الزنا.

جاء في إنجيل متى (٥: ٣١- ٣٢): و قيل: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم: إن طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني. والأمثلة على ذلك كثيرة بين العهدين منها: نسخ حرمة السبت، وإحلال كثير من الحيوانات، ونسخ الختان. . . انظر على سبيل المثال (إنجيل يوحنا ١٦: ٩)، رسالة بولس إلي أهل رومية (١٤: ١٤) وإلى تيطس (١٥: ١)، وإلى غلاطية (٥: ٢: ٦).

(٤) الإبهاج (٣/ ٢٢)، نهاية السول (٣/ ١٨٩)، الكفاية (١/ ٤٣٥)، إرشاد الفحول (٢٧).

(٥) اختلاف الحديث (١/ ٤٨٧).

إنه متفق عليه، ولم يخالف في ذلك إلا من لا يعتد به، ومن نظر في أحوال الصحابة والتابعين، وتابعيهم ومن بعدهم؛ وجدهم متفقين على العمل بالراجح، وترك المرجوح.[1]

واعلم: أن الترجيح قد يكون باعتبار الإسناد أي الرواة، وقد يكون باعتبار المتن أي المروي عنه، وقد يكون باعتبار جهة الحكم الذي يدل عليه كل من الخبرين، وقد يكون باعتبار أمر خارج.[2]

وجوه الترجيح باعتبار الإسناد:

١- الترجيح بكثرة الرواة، فيرجح ما رواته أكثر على ما رواته أقل؛ لقوة الظن به.

٢- ترجح رواية الكبير على رواية الصغير؛ لأنه أقرب إلى الضبط، إلا أن يعلم أن الصغير مثله في الضبط، أو أكثر ضبطًا منه.

٣- ترجح رواية من كان فقيهًا على من لم يكن كذلك؛ لأنه أعرف بمدلولات الألفاظ.

٤- ترجح رواية الأوثق.

٥- ترجح رواية الأحفظ.

٦- أن يكون أحدهما من الخلفاء الأربعة دون الآخر.

٧- أن يكون أحدهما صاحب الواقعة؛ لأنه أعرف بالقصة.

٨- أن يكون أحدهما مباشرًا لما رواه دون الآخر.

٩- أن يكون أحدهما كثير المخالطة للنبي دون الآخر؛ لأن كثرة الاختلاط تقتضي زيادة في الاطلاع.

١٠- أن يكون أحدهما قد ثبتت عدالته بالتزكية، والآخر بمجرد الظاهر.

١١- أن يكون المزكون لأحدهما أكثر من المزكين للآخر.

١٢- ترجح رواية من يوافق الحفاظ على رواية من ينفرد عنهم في كثير من رواياته.

---

(١) إرشاد الفحول (٢٧٦).

(٢) إرشاد الفحول (٢٧٦).

١٣- ترجح رواية من دام حفظه وعقله- ولم يختلط- على من اختلط في آخر عمره، ولم يعرف: هل روي الخبر حال سلامته، أو حال اختلاطه؟

١٤- تقدم رواية من كان أشهر بالعدالة والثقة من الآخر؛ لأن ذلك يمنع عن الكذب.

١٥-تقدم رواية من تأخر إسلامه على من تقدم إسلامه؛ لاحتمال أن يكون ما رواه من تقدم إسلامه منسوخًا.

١٦- تقدم رواية من ذكر سبب الحديث على من لم يذكر سببه.

١٧- تقدم الأحاديث التي في الصحيحين على الأحاديث الخارجة عنهما.

١٨- تقدم رواية من لم ينكر عليه على رواية من أنكر عليه، فإن وقع التعارض في بعض هذه المرجحات؛ فعلى المجتهد أن يرجح بين ما تعارض منها.

وجوه الترجيح باعتبار المتن:

١-يقدم الخاص على العام.

٢-تقدم الحقيقة على المجاز؛ إذا لم يغلب المجاز.

٣-يقدم ما كان حقيقة شرعية، أو عرفية على ما كان حقيقة لغوية.

٤-يقدم ما كان مستغنيًا عن الإضمار في دلالته على ما هو مفتقر إليه.

٥-يقدم الدال على المراد من وجهين على ما كان دالًا عليه من وجه واحد.

٦-يقدم ما كان فيه الإيماء إلى علة الحكم على ما لم يكن كذلك؛ لأن دلالة المعلل أوضح من دلالة غير المعلل.

٧-يقدم المقيد على المطلق.

وجوه الترجيح باعتبار المدلول:

١-يقدم ما كان مقررًا لحكم الأصل والبراءة على ما كان ناقلًا.

٢-أن يكون أحدهما أقرب إلى الاحتياط، فإنه أرجح.

٣-يقدم المثبت على المنفي؛ لأن مع المثبت زيادة علم.

٤-يقدم ما كان حكمه أخف على ما كان حكمه أغلظ.

وجوه الترجيح باعتبار أمور خارجة:

١- يقدم ما عضده دليل آخر على ما لم يعضده دليل آخر.

٢- أن يكون أحدهما قولًا، والآخر فعلًا؛ فيقدم القول؛ لأن له صيغة، والفعل لا صيغة له.

٣- يقدم ما كان فيه التصريح على ما لم يكن كذلك، كضرب الأمثال ونحوها؛ فإنها ترجح العبارة على الإشارة.

٤- يقدم ما عمل عليه أكثر السلف على ما ليس كذلك؛ لأن الأكثر أولي بإصابة الحق.

٥- أن يكون أحدهما موافقًا لعمل الخلفاء الأربعة دون الآخر، فإنه يقدم الموافق.

٦- أن يكون أحدهما موافقًا لعمل أهل المدينة.

٧- أن يكون أحدهما أشبه بظاهر القرآن دون الآخر، فإنه يقدم.

وللأصوليين مرجحات أخر في الأقسام الأربعة، فهي ليست توقيفية، بحيث أورد الحازمي منها في الاعتبار خمسين وجهًا، وأناف بها الحافظ العراقي في نكته على ابن الصلاح على المائة، وحصرها السيوطي في تدريب الراوي في سبعة أقسام. [1]

وهذه بعض أمثلة لطريقة الترجيح:

حمل العام على الخاص:

العام: اسم فاعل من العموم، بمعنى: الشمول والإحاطة، ومنه سميت العمامة لأنها تحيط بالرأس، والعم والعمومة: اسم بعض القرابات، سموا بذلك؛ لأنهم يحيطون بالإنسان عند احتياجه للمساعدة عادة.

والعام في الاصطلاح: اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد. [2]

(١) الاعتبار للحازمي، تدريب الراوي (٢/ ٩٤)، الكفاية للخطيب (١/ ٤٣٥) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث (١/ ٢٥٧)، النكت على كتاب ابن الصلاح لابن حجر (٢/ ٧٧٩)، تحقيقُ الرغبةِ في توضيح النخبة: عبد الكريم بن عبد الله الخضير (١/ ٦٤).

(٢) المحصول (٢/ ٥١٣)، شرح الكوكب المنير (١/ ٣٠٤)، الإحكام للآمدي (٢/ ٢١٧)، البحر المحيط (٢/ ١٧٩).

وبتعبير أوضح: ما تناول جميع أفراده بلا حصر، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ (الانفطار: ١٣، ١٤).

فكلمة: الأبرار جمع: بر، والفجار جمع: فاجر، جمع معرف بأل الاستغراقية، فتتناول جميع الأفراد الداخلة تحتها بلا حصر؛ فتفيدأن: جميع الأبرار يوم القيامة في جنات النعيم، وأن جميع الفجار يوم القيامة في نار الجحيم.

والخاص: اسم فاعل من الخصوص، ضد العموم.

وفي الاصطلاح: ما دل على معين محصور. [(١)]

والعموم والخصوص وصفان نسبيان، يطلقان على اللفظ أو الدليل بالنسبة، فقد يكون اللفظ عاما بالنسبة إلى ما تحته من الأفراد، وخاصا بالنسبة إلى ما فوقه. [(٢)]

فمرادنا هنا التخصيص، وهو إخراج بعض أفراد العام.

والتخصيص نوعان: **الأول**: المتصل، **والآخر**: المنفصل:

فمثال المتصل: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر٣، ٢).

فكلمة الإنسان: مفرد معرف بأل الاستغراقية؛ فتتناول جميع الأفراد الداخلة تحته - بلا حصر - فتفيد أن: جميع الناس يوم القيامة في خسر.

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ إخراج لبعض أفراد هذا العام، بأداة من أدوات التخصيص، وهي: إلا.

فتفيد أن بعض أفراد الإنسان خارج من هذا الحكم، وهم المؤمنون الآمرون بالمعروف، الصابرون على ذلك.

---

(١) الأصول من علم الأصول لابن العثيمين (١/ ٣٨)، وانظر: البحر المحيط (٢/ ٣٩٤)

(٢) أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله (١/ ٢٠٠)

وأما التخصيص المنفصل فهو: ما يستقل بنفسه، بحيث يأتي في دليلين منفصلين ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ (البقرة: ٢٨)، فكلمة المطلقات: جمع عُرِّف بأل الاستغراقية فتناول جميع المطلقات بلا حصر، فأفاد أن كل مطلقة عدتها ثلاثة قروء.

وقد جاءت آية أخرى تخرج بعض أفراد هذا العام، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ (الأحزاب: ٤٩). فبينت الآية أن المطلقة غير المدخول بها فلا عدة لها.

ومثال ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٢١)- فإنه عام مع قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (المائدة: ٥) -فإنه خاص- فيحمل العام على الخاص.[١]

ومن الأمثلة أيضًا: قول النبي ﷺ للمسيء في صلاته: "**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**"[٢]، وهذا عام.[٣]

وقد خصص ذلك بقوله ﷺ: "**لا صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**".[٤]

ومن أمثلة تخصيص السنة بالسنة أيضا قوله ﷺ: "**فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا الْعُشْرُ، وَمَا سُقِيَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ الْعُشْرِ**"[٥]

وهذا عام خصص بقوله ﷺ: "**لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ**".[٦]

حمل المطلق على المقيد.

والمطلق هو: اللفظ الدال على الحقيقة، من حيث هي، من غير قيد، أو يقال هو: اللفظ

---

(١) الإبهاج شرح المنهاج (٣/ ٢٣٠)

(٢) البخاري (٧٥٧)، مسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) وقد احتج به من قال أن قراءة الفاتحة لا تتعين.

(٤) البخاري (٧٥٦)، مسلم (٣٩٤) من عبادة بن الصامت.

(٥) البخاري (١٤٨٣) من حديث ابن عمر.

(٦) البخاري (١٤٤٧)، مسلم (٩٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

الدال على مدلول شائع في جنسه.[(١)]

كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ (البقرة: ٦٧).

فكلمة: بقرة نكرة في سياق الإثبات؛ فتدل على الإطلاق بلا قيد، فلو ذبحوا بقرة -أي بقرة - أجزأتهم.

المقيد: ما دل على الحقيقة بقيد.

ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ (البقرة: ٦٨). وقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ (البقرة: ٦٩). وقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧١).

فقيدت البقرة على بني إسرائيل بتلك الأوصاف، لما تشددوا شدد الله عليهم.

فهذا مثال واضح للمطلق والمقيد، إذ هو في قصة واحدة، في سورة واحدة، وفي آيات متتاليات.

ومن أمثلة حمل المطلق على المقيد:

حَدِيثُ عَبْدِ الله بْنِ عُكَيْم قَالَ: كَتَبَ إِلَينَا رَسُول الله ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ أَنْ لَا تَنْتَفِعُوا مِنْ الْمَيْتَةِ بِإِهَابٍ وَلَا عَصَبٍ.[(٢)]

والإهاب: الجلد ما لم يدبغ.[(٣)]

والعصب: أطناب المفاصل[(٤)]، يعني: أعصابها.

وقدجاء في السنة ما يدل على جواز استخدام جلود الميتة مثل:

---

(١) روضة الناظر (٢/ ١٩١)، الأصول من علم الأصول لابن العثيمين (١/ ٤٤).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣١١)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٠٦)، والترمذي (١٧٢٩)، والنسائي (٧/ ١٧٥)، وابن ماجه (٣٦١١)، وأبو داوود (٤١٢٧) من طرق عن عبد الله بن عكيم، وصححه الألباني في الإرواء (٣٨).

(٢) مختار الصحاح مادة أ هـ ب.

(٣) القاموس المحيط مادة ع ص ب (١/ ٢٠١).

حَدِيثُ مَيْمُونَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَاةٍ يَجُرُّونَهَا، فَقَالَ: **"لَوْ أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا؟ فَقَالُوا: إِنَّهَا مَيْتَةٌ، فَقَالَ: يُطَهِّرُهَا الْمَاءُ، وَالْقَرَظُ"**.(١)

ويحمل المطلق في حديث عبد الله بن عكيم على المقيد في حديث ميمونه؛ إذ النهي في الحديث الأول عن استعمال جلود الميتة قبل دباغها، والإذن في استخدام جلود الميتة إنما هو بعد الدباغ، لا قبله فلا تعارض، فلكل نص موضعه، ويدل لذلك قوله ﷺ: إِذَا دُبِغَ الْإِهَابُ فَقَدْ طَهُرَ(٢).

الطريقة الرابعة: التوقف

إذا تعذر كل ما تقدم من الجمع، والنسخ، والترجيح؛ فإنه يجب التوقف حينئذ عن العمل بأحد الحديثين، حتى يتبين وجه الترجيح.

قال الشاطبي: (التوقف عن القول بمقتضى أحدهما، وهو الواجب إذا لم يقع ترجيح)(٣).

قال السّخاوي: ثم التوقف عن العمل بأحد الحديثين، والتعبير بالتوقف أولى من التعبير بالتساقط؛ لأن خفاء ترجيح أحدهما على الآخر إنما هو بالنسبة للمعتبر في الحالة الراهنة، مع احتمال أن يظهر لغيره ما خفي عليه، وفوق كل ذي علم عليم.

وخلاصة ما مرّ:

أنّ شرع رب العالمين يستحيل أن يقع فيه تعارض حقيقي، ووقوع مثل ذلك في شريعة من الشرائع يرفع الاحتجاج بها جملة، وقد اتفق على ذلك العقلاء من جميع الأديان.

وأما التعارض المتوهم الظاهري بين النصوص؛ فهو واقع في أذهان بعض الناس دون بعض، وكلما زاد علم العالم؛ عَلِمَ أن التناقض غير موجود أصلًا في شرع رب العالمين، ولهذا قال ابن خزيمة: لا أعرف حديثين متضادين، فمن كان عنده؛ فليأتني به لأؤلف بينهما. (٤)

وقد اعتنى العلماء بهذا النوع، في القديم والحديث، وأصلوا فيه القواعد والضوابط،

---

(١) أبو داود (٤١٢٦)، والقرظ: شجر يدبغ به، وقيل هو ورق السلم تدبغ به الجلود.

(٢) مسلم (٣٦٦) من حديث ابن عباس.

(٣) الموافقات (٥/ ١١٣).

(٤) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (١/ ٤٣٢)، شرح الكوكب المنير (٤/ ٦١٨).

بل ودرسوا هذه النصوص دراسة تفصيلية ترد الإشكالات الواردة عليها، فمن ذلك:

١-كتاب: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) للشنقيطي، وهو من أجود وأوسع ما كتب في هذا الباب.

٢-كتاب: (اختلاف الحديث) للإمام الشافعي، لكنه لم يقصد فيه الاستقصاء.

٣-كتاب: (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة.

٤-كتاب: (مشكل الآثار) للطحاوي، وهو من أعظم ما صنف في هذا الباب.

٥-كتاب: (مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين) د/ نافذ حسين.

٦-كتاب: (مختلف الحديث بين المحدثين والأصوليين) د/ أسامة خياط.

٧-كتاب: (منهج التوفيق بين مختلف الحديث) د/ عبد المجيد السوسوة.

٨-كتاب: (أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين) د/ سليمان الدبينحي.

٩-ومنهم من لم يفرده بتصنيف، وإن بثوه في بطون كتبهم، ومن هؤلاء: ابن عبد البر، وابن تيمية، وابن القيم ، وابن رجب الحنبلي، وابن حجر العسقلاني وغيرهم.

الوجه الخامس: كثرة التعارضات في الكتاب المقدس

لوجود التناقضات في الكتاب المقدس دلالات كثيرة أهمها: أنه يثبت أن هذه الأسفار بشرية في مصدرها، فقد وقع كُتّابها فيما يقع فيه البشر الضعفاء الذين يتوقع منهم الجهل، ولو كانت هذه الأسفار ملهمة من قبل الله لما خالف كُتابها بعضَهم فيما أوردوه من معلومات تاريخية وغيرها.

ووقوع الخطأ من أحد المتناقضين من كُتَّاب التوراة في قضايا بسيطة يسهل حفظها والتمكن منها يشير إلى إمكانية بل تحقق وقوع مثله في المسائل اللاهوتية والغيبية التي تحتاج إلى مزيد من العناية والتدقيق.[1]

* * *

(١) راجع تفصيل هذا في بحث تحريف الكتاب المقدس/ فصل التناقضات.

٢ـ شبهة: خبر الواحد

مقدمة، ونص الشبهة:

تتابع أئمة الهدى وسلف الأمة الصالح من الصحابة ﭬ فمن بعدهم على الاحتجاج بالسنة وتوقيرها، والرجوع إليها في كل صغيرٍ وكبيرٍ، والحذر من مخالفتها أو تركها، أو التقدم عليها، من غير تفريق بين متواترها وآحادها، حتى شذت طوائف عبر التاريخ لم تقم للسنة وزنًا، ولم ترفع بها رأسًا، فمنهم من رفضها جملة وتفصيلًا، وأنكر أن تكون أصلًا من أصول التشريع؛ زاعمين أن في القرآن غنية لهم عن كل ما سواه، وأنه يتعذر الاطمئنان إلى الأحاديث من جهة الشك في طريقها، وأنه يجوز على رواتها الخطأ والنسيان والكذب، فقالوا بوجوب الاقتصار على القرآن، ومنهم من لجأ إلى التشكيك في بعض أنواعها، فرأى الحجية في نوع منها دون غيره، وقالوا: لا نقبل من السنة أخبار الخاصة التي تعرف عند المحدثين بأخبار الآحاد - وهي ما لم تجمع شروط التواتر- زعمًا منهم أنها لا تفيد اليقين، ورفضوا العمل والاحتجاج بها مهما كان رواتها من العدالة والضبط، ولم يعتمدوا إلا ما تواتر نقله عن النبي ﷺ، فأسقطوا بذلك جملة من الأحاديث الصحيحة الثابتة التي تعارض ما ابتدعوه في أبواب الدين، وسدُّوا جميع الطرق أمام معرفة الله وأسمائه وصفاته، وفي مقابل ذلك أحالوا الناس على أمور وهمية، ومقدمات خيالية سموها -بزعمهم- قواطع عقلية، وبراهين يقينية، قدَّموها على الوحي، وحاكموا النصوص إليها.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: حجية خبر الآحاد ووجوب العمل به، والرد على أدلة المنكرين.

الوجه الثاني: خبر الآحاد يفيد العلم لا الظن.

الوجه الثالث: الاحتجاج بخبر الآحاد في العقيدة.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: حجية خبر الآحاد، ووجوب العمل به، والرد على أدلة المنكرين وفي ذلك مسألتان:

الأولى: استدل الجمهور على حجية خبر الآحاد؛ بأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول.

أولا: أدلة القرآن الصريحة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢). والطائفة تقع على الواحد فما فوقه، فأخبر أن الطائفة تنذر قومهم إذا رجعوا إليهم، والإنذار: الإعلام بما يفيد العلم، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ نظير قوله في آياته المتلوة والمشهودة: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لعلهم يعقلون﴾، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وهو سبحانه إنما يذكر ذلك فيما يحصل العلم، لا فيما لا يفيد العلم. (١)

وقال السرخسي: ولا يقال: الطائفة اسم للجماعة؛ لأن المتقدمين اختلفوا في تفسير الطائفة، فقال محمد بن كعب: اسم للواحد، وقال عطاء: اسم للاثنين، وقال الزهري: للثلاثة، وقال الحسن: للعشرة، فيكون هذا اتفاقًا منهم أن الاسم يحتمل أن يتناول كل واحد من هذه الأعداد، ولم يقل أحد بالزيادة على العشرة. (٢)

وقال أيضًا: (فلو لم يكن خبر الواحد حجة لوجوب العمل؛ لما وجب الإنذار بما سمع، ثم لما ثبت بالنص أنه مأمور بالإنذار؛ ثبت أنه يجب القبول منه؛ لأنه في هذا بمنزلة رسول الله ﷺ، فإنه كان مأمورًا بالإنذار ثم كان قوله ملزمًا للسامعين، كيف وقد بين الله تعالى حكم القبول والعمل به في إشارة بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي: لكي يحذروا عن الرد والامتناع عن العمل بعد لزوم الحجة إياهم، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٥٤٣).

(٢) أصول السرخسي (١/ ٣٣٥).

عَنْ أَمْرِهِۦٓ . . . ﴾ (النور: ٦٣) والأمر بالحذر لا يكون إلا بعد توجه الحجة. [١]

وقال الإمام البخاري: باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، وقول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة ١٢٢).

ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ (الحجرات: ٩). فلو اقتتل رجلان دخل في معنى الآية. [٢]

٢- ومنها قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ (الحجرات: ٦)، وفي قراءة: ﴿فتثبّتوا﴾.

وهذا يدل على الجزم بقبول خبر الواحد أنه لا يحتاج إلى التثبت، ولو كان خبره لا يفيد العلم؛ لأمر بالتثبت حتى يحصل العلم، ومما يدل عليه أيضًا: أن السلف الصالح، وأئمة الإسلام لم يزالوا يقولون: قال رسول الله ﷺ كذا وفعل كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وهذا معلوم في كلامهم بالضرورة.

وفي صحيح البخاري: قال رسول الله ﷺ- في عدة مواضع-، وكثير من أحاديث الصحابة يقول فيها أحدهم: قال رسول الله ﷺ، وإنما سمعه من صحابي غيره، وهذه شهادة من القائل، وجزم على رسول الله ﷺ بما نسبه إليه من قول أو فعل.

فلو كان خبر الواحد لا يفيد العلم لكان شاهدًا على رسول الله بغير علم.

٣- وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦). أي: لا تتبعه ولا تعمل به، ولم يزل المسلمون من عهد الصحابة يتناقلون أخبار الآحاد، ويعملون بها، ويثبتون لله تعالى بها الصفات، فلو كانت لا تفيد علمًا؛

---

(١) أصول السرخسي (١/ ٣٣٦).

(٢) صحيح البخاري باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق.

لكان الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الإسلام كلهم قد قفوا ما ليس لهم به علم.

٤- ومنها قوله سبحانه: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٤٣)، فأمر من لم يعلم أن يسأل أهل الذكر- وهم أولو الكتاب والعلم-، ولولا أن أخبارهم تفيد العلم لم يأمر بسؤال من لا يفيد خبره علما، وهو سبحانه لم يقل سلوا عدد التواتر، بل أمر بسؤال أهل الذكر مطلقا، فلو كان واحد لكان سؤاله وجوابه كافيًا.

٥- وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (المائدة: ٦٧).

وقول النبي: ﷺ "بلغوا عني" وقال لأصحابه في الجمع الأعظم يوم عرفة: "أنتم مسؤلون عني، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت" ومعلوم أن البلاغ هو الذي تقوم به الحجة على المبلغ، ويحصل به العلم، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم؛ لم يقع به التبليغ الذي تقوم به حجة الله على العبد، فإن الحجة إنما تقوم بما يحصل به العلم.[1]

فأمر ﷺ بتبليغ الدين للناس كافة وقام بذلك خير قيام، ولو كان خبر الواحد لا تقوم به الحجة؛ لتعذر وصول الشريعة إلى كافة الناس، ولما حصل البلاغ، ومعلوم أن التبليغ باق إلى يوم القيامة، والحجة قائمة على العباد.

٦- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (آل عمران: ١٨٧)

ووجه الاستدلال: (أخبر الله تعالى أنه أخذ الميثاق والعهد من الذين أوتوا الكتاب ليبينوه للناس، ولا يكتموه عنهم فكان هذا أمرًا بالبيان لكل واحد منهم، ونهيًا له عن الكتمان؛ لأنهم إنما يكلفون بما في وسعهم، وليس في وسعهم أن يجتمعوا ذاهبين إلى كل

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٥٤٣- ٥٤٥).

واحد من الخلق شرقا وغربا بالبيان، فيتعين أن الواجب على كل واحد منهم أداء ما عنده من الأمانة والوفاء بالعهد. . .)[(١)]

٧- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) ﴾ (البقرة: ١٥٩).

أوعد على كتمان الهدى فيجب على من سمع من النبيﷺ إظهاره، فلو لم يجب علينا قبوله؛ لكان الإظهار كعدمه[(٢)].

٨- قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقوله: ﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨).

وجه الاستدلال: أنه تعالى أخبر أن جعل هذه الأمة عدولًا خيارًا؛ ليشهدوا على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم عن الله رسالته، وأدوا عليهم ذلك، وهذا يتناول شهادتهم على الأمم الماضية، وشهادتهم على أهل عصرهم ومن بعدهم أن رسول الله ﷺ أمرهم بكذا، ونهاهم عن كذا، فهم حجة الله على من خالف رسول اللهﷺ، وزعم أنه لم يأتهم من الله ما تقوم به عليه الحجة، وتشهد هذه الأمة الوسط عليه بأن حجة الله بالرسل قامت عليه، ويشهد كل واحد بانفراده بما وصل إليه من العلم الذي كان به من أهل الشهادة، فلو كانت أحاديث رسول اللهﷺ لا تفيد؛ لم يشهد به الشاهد، ولم تقم به الحجة على المشهود عليه.

٩- قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾ (الزخرف: ٨٦) وهذه الأخبار التي رواها الثقات الحفاظ عن رسول اللهﷺ إما أن تكون حقًا، أو باطلًا، أو مشكوكًا فيها، لا يدري هل هي حق أو باطل! فإن

(١) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي (٢/ ٥٤٠).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٤٢).

كانت باطلًا، أو مشكوكًا فيها؛ وجب اطراحها، وأن لا يلتفت إليها، وهذا انسلاخ من الإسلام بالكلية، وإن كانت حقًا؛ فيجب الشهادة بها على البت أنها عن رسول الله ﷺ، وكان الشاهد بذلك شاهدًا بالحق، وهو يعلم صحة المشهود به.[1]

١٠- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٤) ووجه الاستدلال أن هذا أمر لكل مؤمن بلغته دعوة الرسول ﷺ إلى يوم القيامة، ودعوته نوعان: مواجهة، ونوع بواسطة المبلغ، وهو مأمور بإجابة الدعوتين في الحالتين، وقد علم أن حياته في تلك الدعوة والاستجابة لها، ومن الممتنع أن يأمره الله تعالى بالإجابة لما لا يفيد علمًا، أو يحييه بما لا يفيد علمًا، أو يتوعده على ترك الاستجابة لما لا يفيد علمًا بأنه إن لم يفعل؛ عاقبه وحال بينه وبين قلبه.

١١- قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣) وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره ﷺ إلى يوم القيامة ولو كان ما بلغه لم يفده علمًا؛ لما كان متعرضًا بمخالفة ما لا يفيد علمًا للفتنة والعذاب الأليم، فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذر.

١٢- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (النساء: ٥٩).

ووجه الاستدلال: أنه أمر أن يرد ما تنازع فيه المسلمون إلى الله ورسوله، والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله، هو الرد إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته، فلولا أن المردود إليه يفيد العلم وفصل النـزاع؛ لم يكن في الرد إليه فائدة، إذ كيف يرد حكم المتنازع فيه إلى مالا يفيد علمًا البتة ولا يدري حق هو أم باطل! وهذا برهان قاطع بحمد الله؛ فلهذا

---

(١) المصدر السابق (٥٤٥-٥٤٦).

قال من زعم أن أخبار رسول الله ﷺ لا تفيد علمًا: أنا نرد ما تنازعنا فيه إلى العقول والآراء والأقيسة فإنها تفيد العلم.

١٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (المائدة: ٤٩)، ووجه الاستدلال: أن كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما أنزل الله، وهو ذكر من الله أنزله على رسوله، وقد تكفل سبحانه بحفظه، فلو جاز على حكمه الكذب والغلط والسهو من الرواة، ولم يقم دليل على غلطه وسهو ناقله؛ لسقط حكم ضمان الله وكفالته لحفظه، وهذا من أعظم الباطل، ونحن لا ندعي عصمة الرواة بل نقول: إن الراوي إذا كذب أو غلط أو سها؛ فلا بد أن يقوم دليل على ذلك، ولا بد أن يكون في الأمة من يعرف كذبه وغلطه؛ ليتم حفظه لحججه وأدلته، ولا تلتبس بما ليس منها، فإنه من حكم الجاهلية، بخلاف من زعم أنه يجوز أن تكون كل هذه الأخبار والأحكام المنقولة إلينا آحادًا كذبًا على رسول الله ﷺ، وغايتها أن تكون كما قاله من لا علم عنده: إن نظن إلا ظنًا وما نحن بمستيقنين. (١)

١٤- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ (النساء: ١٣٥).

ووجه الاستدلال: أنه أمر بالقيام بالقسط والشهادة لله، ومن أخبر عن الرسول ﷺ بما سمعه؛ فقد قام بالقسط وشهد لله، وكان ذلك واجبا عليه بالأمر، وإنما يكون واجبًا لو كان القبول واجبًا، وإلا كان وجوب الشهادة كعدمها، وهو ممتنع. (٢)

ثانيًا: مواقف الأنبياء في القرآن:

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٥٤٧).

(٢) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام (٢/ ٥٤٢).

كما حكى الله تعالى عن بعض أنبيائه ورسله السابقين ما يدل على قبولهم لخبر الواحد، والعمل بمضمونه:

١- فموسى عليه السلام قبل خبر الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يسعى قائلًا له: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فجزم بخبره وخرج هاربًا، وقبل خبر بنت صاحب مدين لما قالت له: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (القصص: ٢٥). وقبل خبر أبيها في دعواه أنهما ابنتاه، فتزوج إحداهما بناء على خبره.

٢- وقبل يوسف عليه السلام خبر الرسول الذي جاءه من عند الملك وقال له: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٠).

وثبت أن النبي ﷺ قال: **"ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف؛ لأجبت الداعي"**.[١]

ثالثا: الأدلة من السنة:

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **" نضر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع، فرب مبلغ أوعى من سامع. "**[٢]

قال الشافعي: فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرأ يؤديها- والامرئ واحد[٣]- دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه؛ لأنه إنما يؤدي عنه حلال، وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا.[٤]

٢- وعن عبيد الله بن أبي رافع يخبر عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: **" لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما نهيت عنه، أو أمرت به فيقول لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"**.

---

(١) مسلم (١٥١).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، مسند أحمد (١/ ٤٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧١٠).

(٣) يعني: فلما أمر عبدًا أن يؤدي ما سمع، والخطاب للفرد وهو الواحد.

(٤) الرسالة (٤٠٢ - ٤٠٣).

قال الشافعي رحمه الله: (وفي هذا تثبيت الخبر عن رسول الله، وإعلامهم أنه لازم لهم، وإن لم يجدوا له نص حكم في كتاب الله، وهو موضوع). [(١)]

٣- وحديث مالك بن الحويرث، حين وفد مع بعض قومه إلى النبيﷺ وفيه قال: "**إذا حضرت الصلاة؛ فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم**". [(٢)]

٤- وحديث ابن مسعود ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: "**لا يمنعن أحدكم أذان بلال من سحوره، فإنه يؤذن بليل، ليرجع قائمكم، ويوقظ نائمكم**"[٣]

وفي رواية لابن عمر: "**إن بلالًا يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم**"[(٤)].

ففي هذه الأحاديث: الأمر بتصديق المؤذن، والعمل بخبره في دخول وقت الصلاة، والإفطار والإمساك مع أنه واحد، ولم يزل المسلمون في كل زمان ومكان يقلدون المؤذنين، ويعملون بآذانهم في هذه العبادات، وهو من أوضح الأدلة على وجوب العمل بخبر الواحد.

واشتهر بعثه ﷺ الآحاد من صحابته، واعتماده على أخبارهم وعمله بموجبها:

٦- عن أبي هريرة، و زيد بن خالد في قصة العسيف، وفيه قال ﷺ: "واغد يا أنيس - لرجل من أسلم- إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها، فاعترفت فرجمها[(٥)]"، فاعتمدﷺ خبره في اعترافها، مع ما فيه من إقامة حد، وقتل نفس مسلمة.

٧- وفي يوم الأحزاب اكتفى النبي ﷺ بخبر الزبير- وهو واحد- حين قال: " من يأتيني بخبر القوم؟ [(٦)].

---

(١) المصدر السابق (٤٠٣ - ٤٠٤).

(٢) البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٦٧٤).

(٣) البخاري (٥٩٦)، مسلم (١٠٩٣).

(٤) البخاري (٥٩٢)، مسلم (١٠٩٢).

(٥) البخاري (٢١٩٠)، مسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨).

(٦) البخاري (٣٨٨٧)، مسلم (١٧٨٨).

٨- وتواتر عنه ﷺ أنه كان يبعث الآحاد إلى الجهات القريبة والبعيدة، ويحملهم أمور الدعوة والتبليغ، وتعليم الناس أحكام الإسلام وشرائعه، والنيابة عنه في الفتوى والقضاء، والفصل في الخصومات.

- فمن ذلك ما رواه الشافعي بإسناد صحيح، عن عمرو بن سليم الزرقي، عن أمه قالت: بينما نحن بمنى إذا علي بن أبي طالب على جمل يقول: إن رسول الله ﷺ يقول: " إن هذه أيام طعام وشراب؛ فلا يصومن أحد "[1].

- وحديث يزيد بن شيبان قال: كنا وقوفًا بعرفة، مكانًا بعيدًا من الموقف الإمام، فأتانا ابن مربع الأنصاري قال: " إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم عليه السلام "[2].

- وقال لأهل نجران: "لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حق أمين"، فاستشرف له الناس فبعث أبا عبيدة رضي الله عنه [3]

قال الشافعي: وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار، وفقه، وقد كانوا على قبلة فرض الله عليهم استقبالًا، ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله في القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة، ولم يلقوا رسول الله، ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه في تحويل القبلة؛ فيكونون مستقبلين بكتاب الله، وسنة نبيه، سماعًا من رسول الله ولا بخبر عامة، وانتقلوا بخبر واحد إذا كان عندهم من أهل الصدق عن فرض كان عليهم، فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبي أنه حدث عليهم من تحويل القبلة، ولم يكونوا ليفعلوه إن شاء الله بخبر إلا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله، إذا كان من أهل الصدق.

---

(١) مسند الشافعي (١١٩٢).

(٢) النسائي (٥/ ٢٥٥)، وصححه الألباني.

(٣) البخاري (٤١٢٠)، مسلم (٢٤٢٠).

ولا ليحدثوا أيضًا مثل هذا العظيم في دينهم إلا عن علم بأن لهم إحداثه، ولا يَدَعُونَ أن يخبروا رسول الله بما صنعوا منه، ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله في تحويل القبلة- وهو فرض- مما يجوز لهم؛ لقال لهم- إن شاء الله- رسول الله قد كنتم على قبلة، ولم يكن لكم تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة مِن سماعكم مني، أو خبر عامة، أو أكثر من خبر واحد عني(١).

* وحديث أنس ﷺ قال: " كنت أسقي أبا طلحة و أبا عبيدة، و أبي بن كعب شرابًا من فضيخ، فجاءهم آت، فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: قم يا أنس إلى هذه الجرار فاكسرها ". (٢)

قال الشافعي: وهؤلاء في العلم والمكان من النبي، وتقدم صحبته بالموضع الذي لا ينكره عالم، وقد كان الشراب عندهم حلالًا يشربونه، فجاءهم آت وأخبرهم بتحريم الخمر؛ فأمر أبو طلحة- وهو مالك الجرار- بكسر الجرار، ولم يقل هو، ولاهم، ولا واحد منهم: نحن على تحليلها حتى نلقى رسول الله مع قربه منا، أو يأتينا خبر عامة، وذلك أنهم لا يهريقون حلالًا إهراقه سرف، وليسوا من أهله، والحال في أنهم لا يدعون إخبار رسول الله ما فعلوا، ولا يدع، لو كان قبلوا من خبر الواحد ليس لهم أن ينهاهم عن قبوله. (٣)

* وكذلك قضاء عمر ﷺفي الجنين حين قال لأصحابه: "أُذكر الله امرءًا سمع من النبي ﷺ في الجنين شيئًا، فقام حمل بن مالك فقال: "كنت بين جارتين لي، فضربت إحداهما الأخرى بمسطح، فألقت جنينًا ميتًا، فقضى فيه رسول الله ﷺ بغرة، فقال عمر: لو لم نسمع به لقضينا بغيره.

(١) الرسالة (٤٠٦ – ٤٠٨).

(٢) رواه البخاري (٦٨٢٦)، ومسلم (١٩٨٠).

(٣) الرسالة (٤٠٩).

* ورجوعه بالناس حين خرج إلى الشام، فبلغه أن الوباء قد وقع بها، لما أخبره عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال: "إذا سمعتم به ببلدة؛ فلا تقدموا عليه"(١).

* وقبل خبر عبد الرحمن أيضًا في أخذ الجزية من مجوس هجر، بعد أن قال: (ما أدري: كيف أصنع في أمرهم؟ (٢)

قال ابن عبد البر: وفيه إيجاب العمل بخبر الواحد العدل، وأنه حجة يلزم العمل بها، والانقياد إليها، ألا ترى أن عمر رضي الله عنه قد أشكل عليه أمر المجوس، فلما حدَّثه عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ؛ لم يحتج إلى غير ذلك، وقضى به)(٣).

وأخذ عثمان رضي الله عنه بخبر الفريعة بنت مالك في السكنى، بعد أن أرسل إليها وسألها(٤).

وعلي رضي الله عنه كان يقول: " كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا؛ ينفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف؛ صدقته، وإن أبا بكر حدثني، وصدق أبو بكر. . "(٥)

ولما اختلفت الأنصار في الغسل من المجامعة من غير إنزال؛ أرسلوا أبا موسى الأشعري إلى عائشة- رضي الله عنها- فروت لهم عن النبي ﷺ: "إذا مس الختان الختان؛ فقد وجب الغسل "(٦) فرجعوا إلى قولها.

وعن علي رضي الله عنه قال: " كنت رجلًا مذاءً، فأمرت المقداد أن يسأل النبي ﷺ؛ فسأله فقال: فيه الوضوء ". (٧)

---

(١) رواه البخاري (٥٣٩٧ – ٥٣٩٨).

(٢) رواه البخاري (٢٩٨٧).

(٣) التمهيد (٢/ ١١٦).

(٤) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٥٩١)، وأحمد (٦/ ٤١٤)، وأبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٩٢).

(٥) رواه ابن ماجه (١٣٩٥)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٤٤).

(٦) رواه مسلم (٣٤٩).

(٧) رواه البخاري (٢٦٦) واللفظ له، ومسلم (٣٠٣).

وعمل الصحابة كلهم بحديث أبي بكر ﷺ: "الأئمة من قريش"[(١)] وبحديث: "يقبر النبي حيث يموت"[(٢)].

وكان زيد بن ثابت ﷺ يرى: أن لا تصدر الحائض حتى تطوف بالبيت؛ فقال له ابن عباس: "سل فلانة الأنصارية: هل أمرها النبي ﷺ بذلك؟ فأخبرته؛ فرجع زيد عن رأيه"[(٣)]

ورجع ابن عمر -رضي الله عنهما- إلى حديث رافع بن خديج في المخابرة.[(٤)]

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن سعدًا حدثه: (أن النبي ﷺ مسح على الخفين؛ فسأل ابن عمر أباه فقال: نعم، إذا حدثك سعد عن النبي ﷺ؛ فلا تسأل عنه غيره "[(٥)]

خامسًا: أقوال العلماء:

- ولم يزل سبيل السلف الصالح ومن بعدهم قبول خبر الواحد الثقة عن النبي ﷺ والاحتجاج به، حتى جاء المتكلمون فخالفوا ذلك.

١ـ قال الإمام الشافعي: "وفي تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفي بعض هذا منها، ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلى من شاهدنا هذا السبيل، وكذلك حكي لنا عمن حكي لنا عنه من أهل العلم بالبلدان، . . . ، ومحدِّثي الناس، وأعلامهم بالأمصار كلهم يحفظ عنه تثبيت خبر الواحد عن رسول الله ﷺ، والانتهاء إليه، والإفتاء به، ويقبله كل واحد منهم عن من فوقه، ويقبله عنه من تحته، ولو جاز لأحدٍ من الناس أن يقول في علم الخاصة: أجمع المسلمون - قديمًا وحديثًا-على تثبيت خبر الواحد، والانتهاء إليه بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبته؛ جاز لي "[(٦)].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٩)، والطيالسي في مسنده (٢١٣٣) وهو حديث صحيح، انظر: إرواء الغليل (٥٢٠).

(٢) رواه أحمد (١/ ٧)، وصححه الألباني (٩٣٣٢) الجامع الصغير وزيادته.

(٣) رواه مسلم (١٣٢٨).

(٤) رواه مسلم (١٥٤٧).

(٥) رواه البخاري (١٩٩).

(٦) الرسالة (٤٥٣، ٤٥٧).

٢ـ **وقال أيضًا**: لم أسمع أحدًا - نسبه الناس، أو نسب نفسه إلى علم- يخالف في أن فرض الله ﷻ اتباع أمر رسول الله ﷺ، والتسليم لحكمه؛ فإن الله ﷻ لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قولٌ بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وأن ما سواهما تبع لهما، وأن فرض الله تعالى علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد لا يختلف؛ في أن الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ، إلا فرقة سأصف قولها- إن شاء الله تعالى-". [١]

٣ـ **قال الإمام ابن حبان**: فأما الأخبار فإنها كلها أخبار آحاد، إلى أن قال: وأن من تنكب عن قبول أخبار الآحاد؛ فقد عمد إلى ترك السنن كلها؛ لعدم وجود السنن إلا من رواية الآحاد[٢].

٤ـ **وقال ابن حجر**: وقد شاع فاشيًا عمل الصحابة والتابعين بخبر الواحد، من غير نكير؛ فاقتضى الاتفاق منهم على القبول. [٣]

٥ـ **وقال النووي**: ولم تزل الخلفاء الراشدون، وسائر الصحابة، فمن بعدهم من السلف والخلف على امتثال خبر الواحد إذا أخبرهم بسنة، وقضائهم به، ورجوعهم إليه فى القضاء والفتيا، ونقضهم به ما حكموا به على خلافه، وطلبهم خبر الواحد عند عدم الحجة ممن هو عنده، واحتجاجهم بذلك على من خالفهم، وانقياد المخالف لذلك. [٤]

وبهذا يتضح - بما لا يدع مجالًا للشك- حجية أخبار الآحاد، ولزوم العمل بها في أمور الدين كله متى ما ثبتت عن الصادق المصدوق ﷺ، وأن القول بعدم حجيتها قول باطل لا يعرف إلا عن أهل البدع ومن تبعهم، ولو ترك الاحتجاج بها؛ لهجرت السنة، وتهاوت أركان الشريعة، واندثر الحق.

---

(١) الأم (٩/ ٥).

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/ ١٥٦).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٢٣٤).

(٤) شرح النووي على مسلم (١/ ١٣٢).

المسألة الثانية: أدلة المنكرين لخبر الواحد:

وقد تعلق المنكرون لحجية خبر الواحد بعدد من الأدلة، التي زعموا أنها تؤيد ما ذهبوا إليه في ردِّهم لخبر الواحد، وعدم قبوله.

١- من ذلك قصة ذي اليدين الثابتة في الصحيح، حين توقف النبي ﷺ في قبول خبر ذي اليدين لما سلَّم على رأس الركعتين في صلاة العشاء فقال له ذو اليدين: (أقصرت الصلاة أم نسيت؟)، قالوا: فلم يقبل خبره حتى أخبره أبو بكر، و عمر، ومن كان في الصف بصدقه، فأتمَّ عليه الصلاة والسلام صلاته، وسجد للسهو، ولو كان خبر الواحد حجة؛ لأتمَّ ﷺ صلاته من غير توقف، ولا سؤال.

٢- ثم قالوا: وقد روي عن عدد من الصحابة عدم العمل بخبر الآحاد، فقد ثبت أن أبا بكر ردَّ خبر المغيرة بن شعبة في ميراث الجدَّة، حتى انضم إليه خبر محمد بن مسلمة، وثبت أن عمر ردَّ خبر أبي موسى في الاستئذان، حتى انضم إليه أبو سعيد، وكان علي لا يقبل خبر أحد حتى يُحلِّفه سوى أبي بكر، وردَّت عائشة خبر ابن عمر في تعذيب الميت ببكاء أهله، إلى غير ذلك من الروايات.

الرد على هذه الشبهات:

وكلُّ ما ذكروه من شبه في الحقيقة ليس فيها دليل على ما ذهبوا إليه من عدم الاحتجاج بخبر الواحد، والإجابة عنها في غاية الوضوح لمن كان يعقل.

أولًا: فأما توقف النبي ﷺ في خبر ذي اليدين، فلأنه توهم غلطه حيث استبعد أن ينفرد بمعرفة هذا الأمر دون من حضره من الجمع الكثير، ولذا قال له ﷺ: " لم أنس، ولم تقصر الصلاة؟"، وكان هذا اعتقاده ﷺ، ولا يُكَلَّف الإنسان بقبول خبرٍ مع اعتقاده خطأه، فلما وافقه غيره؛ ارتفع احتمال الوهم عنه، فَقَبِلَه ﷺ، وعمل بموجب الخبر عندما تبين له عدم الوهم، وبعبارة أخرى: كان يقين ذي اليدين معارضًا ليقين النبي ﷺ، ولا يمكن تقديم أحدهما إلا بمرجح خارجي، وهو شهادة الصحابة الباقين.

ورد الصحابة له أسباب:

١- إما للتثبت: كما رد عمر بن الخطاب أبا موسى، فقد أخبره أنه أراد التثبت.

٢- وإما لأن الصحابي رأى أن الخبر يعارض دليلًا قطعيا: كما في إنكار عائشة على ابن عمر ﷺ حديثه: **" إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه"** فقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

٣- وإما لظنه عدم ضبط الراوي أو خطئه، مثل رد عمر.

ثانيًا: وأمَّا ما أوردوه من أن عددًا من الصحابة لم يعمل بخبر الآحاد، فإن الثابت الذي لا شك فيه أن الصحابة ﷺ مجمعون على العمل بحديث رسول الله ﷺ- آحادًا كان أو غير آحاد -، فإذا روي عنهم التوقف في بعض الأخبار؛ فإن ذلك لا يدل على عدم الاحتجاج والعمل به، بل قد يكون لغرض آخر كطروء ريبة، أو احتمال الوهم، أو سدِّ ذريعة، أو مزيد رغبة في التثبت والاحتياط، إلى غير ذلك من الأغراض.

فردُّ أبي بكر ﷺ لخبر المغيرة في ميراث الجدَّة لم يكن ردًّا منه لخبر الآحاد، ولكنه توقف فيه إلى أن يأتي ما يؤيده ويزيده تثبتًا من وجود هذا التشريع في الإسلام، وهو إعطاء الجدَّة السدس، خصوصًا وأنه لم ينص عليه في القرآن؛ فكان لا بد للعمل به وإقراره من زيادة في التثبت والاحتياط، فلما شهد محمد بن مسلمة أنه سمع ذلك من النبي ﷺ لم يتردد أبو بكر في العمل بخبر المغيرة، ومع أن شهادة محمد بن مسلمة لم ترفع الخبر عن كونه آحادًا؛ إلا أن أبا بكر لم يتردد في قبوله، والعمل به.

- وأما ردُّ عمر ﷺ لخبر أبي موسى الأشعري في الاستئذان؛ فإن أبا موسى أخبره بالحديث عقب إنكاره عليه، فأراد عمر التثبت والاحتياط في الرواية؛ سدًّا للذريعة، لئلا يفضي ذلك إلى التوسع في الحديث عن رسول الله، خصوصًا ممن نشأ حديثًا في الإسلام أو دخل فيه، ولذلك قال عمر لأبي موسى: (أما إني لم أتَّهِمك، ولكنه الحديث عن رسول الله ﷺ).

ومثل ما قيل في قصة أبي بكر يقال في قصة عمر ﷺ، فلم تخرج رواية أبي موسى عن كونها آحادًا، حتى بعد أن انضم إليه أبو سعيد، إلا أن عمر ﷺ أراد أن يعطي درسًا في التثبت والاحتياط.

- وقد قبل عمر ﷺ أخبارًا أخرى وقد سبق نقلها في مبحث (فعل الصحابة).

- ومثل ذلك يقال في كل ما ورد من هذا القبيل، فالصحابة إذًا لم يتوقفوا في الاحتجاج بخبر الآحاد، والعمل به، بل أجمعوا على قبوله كما سبق، وتوقُّفِ بعضهم أحيانًا لبعض الأسباب ليس توقفًا عن العمل به، قال الآمدي: (وما ردوه من الأخبار أو توقفوا فيه إنما كان لأمور اقتضت ذلك من وجود معارض، أو فوات شرط، لا لعدم الاحتجاج بها في جنسها، مع كونهم متفقين على العمل بها)(١) والله الموفق.

الوجه الثاني: خبر الواحد يفيد العلم

تمهيد: اختلف العلماء- رحمهم الله تعالى- في خبر الواحد العدل إذا أخبر بخبر، ماذا يفيد خبره؟ العلم أم الظن؟ على ثلاثة أقوال:

الأول: يفيد العلم مطلقًا في جميع الأخبار الثابتة الصحيحة، ولم يخصه بواحد معين.

الثاني: يفيد الظن.

الثالث: يفيد الظن، لكن قد يفيد العلم إذا احتفت به القرائن كأخبار الصحيحين.

وقبل ذكر الراجح من هذه الأقوال وأدلته، أريد أن أحرر محل النزاع.

تحرير محل النزاع:

١- الخبر الذي تلقاه الأئمة بالقبول تصديقًا له، أو عملًا بموجبه، يفيد العلم عند جماهير الخلف والسلف، وهذا في معنى المتواتر(٢).

٢- خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه، فإنه يفيد العمل؛ لأن الإجماع عليه قد صيره من المعلوم صدقه، وإجماع الأمة معصوم من الخطأ؛ لأنها لا تجتمع على ضلالة(١).

---

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (٢/ ٣٠١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٤٨).

٣-الخبر المحتف بالقرائن يفيد العلم النظري، وقد ذكر ابن حجر أنواع هذه القرائن، فقال:

أ- منها: ما أخرجه الشيخانِ في صحيحيهما، مما لم يبلغ التواتر، فإنه احتفَّتْ به قرائنُ، منها:

- جلالتهما في هذا الشأن.
- وتقدُّمهما في تمييز الصحيح على غيرهما.
- وتلقِّي العلماء لكتابيهما بالقبول، وهذا التلقِّي وحده أقوى في إفادة العِلْم مِن مجردِ كثرةِ الطرق القاصرة عن التواتر.

ب- ومنها: المشهور إذا كانت له طرقٌ متباينةٌ سالمةٌ مِن ضعف الرواة والعلل.

جـ- ومنها: المَسَلْسَلُ بالأئمةِ الحفاظِ المتقنين، حيث لا يكونُ غريبًا، كالحديث الذي يرويه أحمدُ بن حنبل، مثلًا، ويشاركه فيه غيره عن الشافعي، ويشاركه فيه غيره عن مالك بن أنس، فإنه يفيد العلمَ عند سامعِهِ بالاستدلال مِن جهةِ جَلالةِ رواتِهِ، وأنَّ فيهم مِن الصفاتِ اللائقةِ الموجِبةِ للقبولِ ما يقوم مقام العدد الكثير مِن غيرهم، ولا يتشكك مَنْ له أدنى ممارسةٍ بالعلم، وأخبار الناس أنّ مالكًا- مثلًا- لو شافهه بخبرٍ أنه صادقٌ فيه، فإذا انضاف إليه مَن هو في تلك الدرجة ازداد قوةً، وبَعُدَ ما يُخْشَى عليه مِن السهو.[٢]

محل الخلاف:

وبعد نقل ما سبق يتبين لنا محل الخلاف في إفادة خبر الواحد العلم، أو الظن إنما هو في الخبر الذي لم ينضم إليه ما يقويه من القرائنن ولم تتلقه الأمة بالقبول، ولم ينعقد الإجماع على العمل بمقتضاه.

فمثل هذه الأخبار هي التي جرى فيها الخلاف.

القول الراجح:

خبر الواحد يفيد العلم بنفسه.

---

(١) المصدر السابق (١٨/ ٤٩).

(٢) نزهة النظر (١/ ٦٢، ٦٣)، وانظر أيضا: إرشاد الفحول للشوكاني (٢٠٤).

وهو قول أكثر المحدثين، وجمهور أهل الظاهر، ورواية عن الإمام أحمد، وحكاه ابن حزم عن داود، والحسين بن علي، والحارث المحاسبي، وحكاه ابن خويز منداد عن مالك.

قال ابن القيم: (فممن نص على أن خبر الواحد يفيد العلم: مالك، والشافعي، وأصحاب أبي حنيفة. .).[1]

أدلة هذا القول:

لقد ذكر ابن القيم ما يقرب من عشرين دليلًا، وبعضها يشترك مع أدلة المسألة الأولى، فنذكر الآن بعضا منها ونضيف عليها غيرها -إن شاء الله -.

أولًا: من القرآن الكريم:

١ - قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (المائدة: ٦٧). وقال النبي ﷺ: "**بلغوا عني، ولو آية**"[2]

وجه الدلالة: أن البلاغ هو الذي تقوم به الحجة على المبلغ ويحصل به العلم، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم؛ لم يقع به التبليغ الذي تقوم به حجة الله على العبد؛ فإن الحجة إنما تقوم بما يحصل به العلم.[3]

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة: ١٢٢).

وجه الدلالة: أن الطائفة تقع على الواحد فما فوقه، فأخبر أن الطائفة تنذر قومهم إذا رجعوا إليهم، والإنذار الإعلام بما يفيد العلم.[4]

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٥٢١).

(٢) رواه البخاري (٣٢٧٤).

(٣) مختصر الصواعق (٥٤٥).

(٤) مختصر الصواعق (٥٤٤).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء: ٣٦). وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ (النجم: ٢٣).

وجه الدلالة: أنه نهى عن اتباع غير العلم، وذم على اتباع الظن، ولم يزل المسلمون من عهد الصحابة يقفون أخبار الآحاد، ويعملون بها ويثبتون لله تعالى بها الصفات، فلو كانت لا تفيد علمًا؛ لكان الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الإسلام كلهم قد قفو ما ليس لهم به علم. (١)

٤-قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ (النجم: ٣، ٤)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩).

وجه الدلالة: صح أن كلام رسول الله ﷺ كله في الدين وحي من عند الله ﷻ، لا شك في ذلك، ولا خلاف بين أحد من أهل اللغة، والشريعة في أن كل وحي نزل من عند الله تعالى فهو ذكر منزل، فالوحي كله محفوظ بحفظ الله تعالى له بيقين، وكل ما تكفل الله بحفظه، فمضمون ألا يضيع منه، وألا يحرف منه شيء أبدًا تحريفًا لا يأتي البيان ببطلانه؛ إذ لو جاز غير ذلك لكان كلام الله تعالى كذبًا. (٢)

٥-قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل: ٤٤).

وجه الدلالة: (فصح أنه ﷺ مأمور ببيان القرآن للناس، وفي القرآن مجمل كثير: كالصلاة، والزكاة، والحج، وغير ذلك مما لا نعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه، لكن ببيان رسول الله ﷺ، فإذا كان بيانه ﷺ لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مما ليس منه؛ فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، فبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإذا لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها، فما أخطأ فيه المخطئ أو تعمد فيه الكذب الكاذب، ومعاذ الله من هذا)(٣)

٦- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

(١) مختصر الصواعق (٥٤٤).
(٢) الإحكام في أصول الحكام لابن حزم (١/ ١٦٧).
(٣) الإحكام لابن حزم (١/ ١٦٦).

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف: ٣٣).

وجه الدلالة: أن الله تعالى افترض علينا العمل بخبر الواحد الثقة عن مثله مبلغًا إلى رسول الله ﷺ، وأن نقول أمر رسول الله ﷺ بكذا، وقال ﷺ كذا، وفعل ﷺكذا، وحرم القول في دينه بالظن، وحرم تعالى أن نقول عليه إلا بعلم.

فلو كان الخبر المذكور يجوز فيه الكذب أو الوهم؛ لكنا قد أمرنا الله تعالى بأن نقول عليه ما لا نعلم، ولكان تعالى قد أوجب علينا الحكم في الدين بالظن الذي لا نتيقنه، والذي هو الباطل الذي لا يغني من الحق شيئًا، والذي هو غير الهدى الذي جاءنا من عند الله تعالى، وهذا هو الكذب والإفك والباطل الذي لا يحل القول به، والذي حرم الله تعالى علينا أن نقول به، وبالتخرص المحرم فصح يقينا أن الخبر المذكور حق مقطوع على غيبه، موجب للعلم والعمل معًا، وبالله تعالى التوفيق.(١)

ثانيًا: بالإضافة إلى ما سبق من الأدلة في مسألة الاحتجاج بخبر الواحد، أضيف هنا أدلة أخرى:

- بعثه ﷺ معاذا إلى اليمن قائلًا له: **"إنك تأتي قومًا أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك؛ فأعلمهم. . . "**.(٢)

ووجه الدلالة: أن رسول الله ﷺ وجَّه رجلًا واحدًا يبلغ شرائع الإسلام، وقد قامت الحجة على أهل الكتاب بهذا الرجل، فلو كان مثل هذا البلاغ لا يفيد علمًا؛ لم تكن الحجة على أي إنسان يبلغه عن الله تعالى، أو عن رسول ﷺ فيرده.

وأيضًا ما تواتر من بعث النبي ﷺ أمراءه وسعاته إلى البلاد المفتوحة؛ لتعليم أهلها الدين، وأحكام الشرع؛ ولأخذ الزكاة، ومعلوم أنه ﷺ لم يبعث إلا من تقوم به الحجة، فكانوا يقبلون من كل واحد منهم ما يعلمهم من القرآن وأحكام الدين، ولا خلاف أن

---

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ١٦٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٨٩).

رسول الله ﷺ بعث من بعث من رسله إلى الآفاق؛ لينقلوا عنه القرآن والسنة والشرائع، ومعلوم أن أهم أمور الدين هي العقائد، فهي أول شئ كان الرسل يدعون الناس إليها؛ فدل كل هذا على أن خبر الواحد من الصحابة يفيد العلم عند مستمعيه، ولم ينقل أن أحدا رد خبرهم بحجة أنه خبر آحاد.(١)

فإن خبر العدل الواحد المتلقى بالقبول لو لم يفد العلم؛ لم تجز الشهادة على الله ورسوله بمضمونه، ومن المعلوم المتيقن: أن الأمة من عهد الصحابة، إلى الآن، لم تزل تشهد على الله وعلى رسوله بمضمون هذه الأخبار، جازمين بالشهادة في تصانيفهم وخطابهم، فيقولون شرع الله كذا وكذا على لسان رسوله ﷺ، فلو لم يكونوا عالمين بصدق تلك الأخبار، جازمين بها؛ لكانوا قد شهدوا بغير علم، وكانت شهادة الزور من سادات الأمة وعلمائها(٢).

إن هؤلاء المنكرين لإفادة أخبار النبي ﷺ العلم؛ يشهدون شهادة جازمة قاطعة على أئمتهم بمذاهبهم وأقوالهم أنهم قالوا، ولو قيل لهم: إنها لم تصح عنهم؛ لأنكروا ذلك غاية الإنكار، وتعجبوا من جهل قائله، ومعلوم أن تلك المذاهب لم يروها عنهم إلا الواحد والاثنان والثلاثة ونحوهم، لم يروها عنهم عدد التواتر، وهذا معلوم يقينًا؛ فكيف حصل لهم العلم الضروري، والمقارب للضروري، بأن أئمتهم ومن قلدوهم دينهم أفتوا بكذا، وذهبوا إلى كذا، ولم يحصل لهم العلم بما أخبر به أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وسائر الصحابة عن رسول الله ﷺ، ولا بما رواه عنهم التابعون، وشاع في الأمة وذاع، وتعددت طرقه وتنوعت، وكان حرصه عليه أعظم بكثير من حرص أولئك على أقوال متبوعيهم؟ إن هذا لهو العجب العجاب!

وهذا- وإن لم يكن نفسه دليلًا- يلزمهم أحد أمرين:

١- إما أن يقولوا أخبار رسول الله ﷺ، وفتاواه، وأقضيته تفيد العلم.

---

(١) انظر: خبر الواحد وحجيته، أحمد بن محمود عبد الوهاب الشنقيطي (١٦٣).

(٢) المصدر السابق.

٢- وإما أن يقولوا أنهم لا علم لهم بصحة شيء مما نقل عن أئمتهم، وأن النقول عنهم لا تفيد علمًا.

وأما أن يكون ذلك مفيدًا للعلم بصحته عن أئمتهم دون المنقول عن رسول الله ﷺ؛ فهو من أبين الباطل(١).

الوجه الثالث: الاستدلال بخبر الواحد في العقيدة.

تمهيد:

قولهم: إنَّ أخبار الآحاد لا يحتج بها في باب العقيدة؛ لأنها لا تفيد اليقين، وإنما تفيد الظن.

كم أساءت هذه المقولة الباطلة إلى الإسلام، وكم أهانت من حديث عظيم من أحاديث رسول الله واستخفت به، وامتدت هذه القاعدة إلى جحود وإنكار قضايا عقدية تبلغ أدلتها حد التواتر، مثل: أحاديث نزول عيسى، وخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها، وأحاديث المهدي، وغيرها مما يؤدي إنكاره إلى هدم عقيدة الإسلام من أساسها، بل بعضها تطابقت في الدلالة عليها نصوص الكتاب والسنّة، مثل: رؤية الله في الدار الآخرة(٢).

وقد قام الشيخ الألباني رحمه الله بالرد الجيد على هذه الشبهة في رسالته القيمة: وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة، والرد على شبه المخالفين، فبالإضافة إلى ما سبق من أدلة إثبات حجية خبر الواحد، وأنه يفيد العلم لا الظن؛ سنحاول بإذن الله أن نختصر الأوجه التي ذكرها الشيخ مع تصرف يسير:

الوجه الأول: أنه قول مبتدع محدث، لا أصل له في الشريعة الإسلامية الغراء، وهو غريب عن هدي الكتاب والسنة، ولم يعرفه السلف الصالح ﷺ.

---

(١) مختصر الصواعق (٥٤٦)، ، وانظر أيضا: خبر الواحد إذا خالف عمل أهل المدينة/ تأليف: حسان بن محمد حسين فلمبان (٤٨ – ٥٠)، حكم الاحتجاج بخبر الواحد إذا عمل الراوي بخلافه/ عبد الله بن عويض المطرفي (٥٧ – ٦٤).

(٢) مقدمة رسالة: حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام تأليف: ربيع بن هادي الوادعي.

الوجه الثاني: أن هذا القول يتضمن عقيدة تستلزم رد مئات الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ؛ لمجرد كونها في العقيدة، وإذا كان الأمر كذلك؛ فنحن نطالبهم ونخاطبهم بما يعتقدونه، فنقول لهم: أين الدليل القاطع على صحة هذه العقيدة لديكم من آية أو حديث متواتر، قطعي الثبوت، قطعي الدلالة أيضا، بحيث إنه لا يحتمل التأويل؟

الوجه الثالث: أن هذا القول مخالف لجميع أدلة الكتاب والسنة التي نحتج نحن وإياهم جميعًا بها على وجوب الأخذ بحديث الآحاد في الأحكام الشرعية، وذلك لعمومها، وشمولها لما جاء به رسول الله ﷺ عن ربه، سواء أكان عقيدة، أو حكمًا[(١)].

الوجه الرابع: أن هذا القول المذكور ليس فقط لم يقل به الصحابة، بل هو مخالف لما كانوا عليه، فقد كان الواحد منهم إذا حدث بحديث لا يقول لمن حدثه: خبرك خبر واحد لا يفيد العلم حتى يتواتر!. . . . وكان أحدهم إذا روى لغيره حديثًا في الصفات مثلًا تلقاه بالقبول، واعتقد تلك الصفة على القطع واليقين، كما اعتقد رؤية الرب، وتكليمه، ونداءه يوم القيامة بالصوت الذي يسمعه البعيد كما يسمعه القريب، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة، وغيرها.

الوجه الخامس: نعلم يقينًا أن النبي ﷺ كان يبعث أفرادًا من الصحابة إلى مختلف البلاد؛ ليعلموا الناس دينهم، كما أرسل عليًا، ومعاذًا، وأبا موسى في نوبات مختلفة، ونعلم يقينا أن أهم شئ في الدين إنما هو العقيدة، فهي أول شئ كان أولئك الرسل يدعون إليه، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ: **"إنك تقدم على قوم أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ﷻ (وفي رواية: فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله) فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات. . . "**[(٢)]

---

(١) وانظر: أدلة إثبات حجية خبر الآحاد السابقة.

(٢) رواه البخاري (١٣٨٩)، ومسلم (١٩)، واللفظ له.

فقد أمره ﷺ أن يبلغهم قبل كل شيء عقيدة التوحيد، وأن يعرفهم بالله ﷻ، وما يجب له، وما ينزه عنه. ومن لم يسلم بما ذكرنا؛ لزمه أحد أمرين، لا ثالث لهما:

- إما القول بأن رسله عليهم السلام ما كانوا يعلمون الناس العقيدة؛ لأن النبي ﷺ لم يأمرهم بذلك، وإنما أمرهم بتبليغ الأحكام فقط! وهذا باطل بالبداهة، مع مخالفته لحديث معاذ المتقدم.

- وإما أنهم كانوا مأمورين بتبليغها، وأنهم فعلوا ذلك، فبلغوا الناس كل العقائد الإسلامية، ومنها هذا القول المزعوم: (لا تثبت العقيدة بخبر الآحاد)؛ فإنه في نفسه عقيدة -كما سبق-، وعليه: فقد كان هؤلاء الرسل رضوان الله عليهم يقولون للناس: آمنوا بما نبلغكم إياه من العقائد، ولكن لا يجب عليكم أن تؤمنوا بها لأنها أخبار آحاد! ! وهذا باطل أيضًا كالذي قبله، وما لزم منه باطل؛ فهو باطل.

الوجه السادس: أن هذا القول يستلزم تفاوت المسلمين فيما يجب عليهم اعتقاده، مع بلوغ الخبر إليهم جميعًا، وهذا باطل أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(الأنعام: ١٩). وقوله في الحديث الصحيح المستفيض: "**نضر الله امرءًا سمع مقالتي، فأداها كما سمعها؛ فرب مبلغ أوعى له من سامع**"(١).

وبيان ذلك: أن الصحابي الذي سمع من النبي ﷺ حديثًا في عقيدة ما: كنزوله تعالى إلى السماء الدنيا مثلًا؛ فهذا الصحابي يجب عليه اعتقاد ذلك؛ لأن هذا الخبر بالنسبة إليه يقين، وأما الذي تلقى الحديث عنه من صحابي آخر، أو تابعي؛ فهذا لا يجب عليه اعتقاد ذلك، وإن بلغته الحجة وصحت عنده؛ لأنها إنما جاءته من طريق الآحاد. . . ، وفي هذا القول من الفساد ما فيه؛ فإنه بذلك يفرق بين المسلمين في عقيدتهم.

الوجه السابع: ومن لوازم هذا القول أيضا: إبطال الأخذ بالحديث مطلقًا في العقيدة من بعض الصحابة الذين سمعوه منه ﷺ مباشرة، وهذا كالذي قبله في البطلان، بل أظهر.

وبيانه: أن جماهير المسلمين- وخاصة قبل جمع الحديث وتدوينه- إنما وصلهم الحديث

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وإسناده صحيح.

بطريق الآحاد، والذين وصلهم شيء منه من طريق التواتر؛ إنما هم أفراد قليلون في كل عصر.

الوجه الثامن: إذا كان من الواجب قبول قول المحدث الواحد في الحديث: إنه متواتر، وهو يستلزم الأخذ به في العقيدة؛ فكذلك يجب الأخذ بحديث كل محدث ثقة، وإثبات العقيدة به ولا فرق.

الوجه التاسع: أن تكليف المصدق بوجوب تصديق الراوي الذي يثق به في الأحكام دون العقيدة؛ هو أشبه شيء بالقول بتكليف ما لا يطاق.

ولذلك فإني أقطع بأن الذين يفرقون بين الأمرين؛ إنما يفرقون تفريقًا نظريًا. . . ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة: شريك بن عبد الله القاضي حين قيل له -وقد ذكروا له بعض أحاديث الصفات -: (إن قومًا ينكرون هذه الأحاديث! قال: فما يقولون؟ قالوا: يطعنون فيها، فقال: إن الذين جاءوا بهذه الأحاديث هم الذين جاءوا بالقرآن، وبأن الصلاة خمس، وبحج البيت، وبصوم رمضان - يعني تفاصيلهما-، فما نعرف الله إلا بهذه الأحاديث). [١]

وعن الإمام إسحاق بن راهويه -رحمه الله تعالى- قال: (دخلت على عبد الله بن طاهر فقال لي: يا أبا يعقوب، تقول: إن الله ينزل في كل ليلة! فقلت: أيها الأمير، إن الله بعث إلينا نبيا، نقل إلينا عنه أخبار، بها نحلل الدماء، وبها نحرم، وبها نحلل الفروج، وبها نحرم، فإن صح ذا صح ذاك، وإن بطل ذا بطل ذاك! قال: فأمسك عبد الله). [٢]

الوجه العاشر: أن التفريق بين العقيدة والأحكام العملية، وإيجاب الأخذ في هذه دون تلك؛ إنما بني على أساس أن العقيدة لا يقترن معها عمل، والأحكام لا يقترن معها عقيدة، وكلا الأمرين باطل!.

قال ابن القيم: المطلوب في المسائل العملية أمران: العلم، والعمل، والمطلوب في العلميات: العلم والعمل أيضا، وهو حب القلب وبغضه، وحبه للحق الذي دلت عليه وتضمنته، وبغضه الباطل الذي يخالفها، فليس العمل مقصورًا على عمل الجوارح، بل أعمال

---

(١) كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد، والشريعة للآجري (٣٠٦).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٤٥٢).

القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبع، فكل مسألة علمية؛ فإنه يتبعها إيمان القلب وتصديقه وحبه، وذلك عمل، بل هو أصل العمل، وهذا مما غفل عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان، حيث ظنوا أنه مجرد التصديق دون الأعمال، وهذا من أقبح الغلط وأعظمه؛ فإن كثيرًا من الكفار كانوا جازمين بصدق النبي ﷺ غير شاكين فيه، غير أنه لم يقترن بذلك التصديق عمل القلب من حب ما جاء به، والرضا به وإرادته، والموالاة والمعاداة عليه.

فلا تهمل هذا الموضع فإنه مهم جدًّا، به تعرف حقيقة الإيمان، فالمسائل العلمية عملية، والمسائل العملية علمية؛ فإن الشارع لم يكتف من المكلفين بمجرد العمل دون العلم، ولا في العمليات بمجرد العلم دون العمل. (١)

ومما يوضح لك أنه لابد من اقتران العقيدة في العمليات أيضًا والأحكام: أنه لو افترض أن رجلًا يغتسل أو يتوضأ للنظافة، أويصلي تريضًا، أو يصوم تطببًا، أو يحج سياحة، لا يفعل ذلك معتقدا أن الله تبارك وتعالى أوجبه عليه وتعبده به؛ لما أفاده ذلك شيئا، كما لا يفيده معرفة القلب إذا لم تقترن بعمل القلب الذي هو التصديق، كما تقدم.

الوجه الحادي عشر: أن القائلين بهذه العقيدة الباطلة لو قيل لهم: إن العكس هو الصواب؛ لما استطاعوا رده؛ فإنه من الممكن أن يقال: لما كان كل من العقيدة والعمل يتضمن أحدهما الآخر، فالعقيدة يقترن معها العمل، والعمل يقترن معه عقيدة- على ما بيناه آنفا-، ولكن بينهما فرقًا واضحًا من حيث إن الأول إنما هو متعلق بشخص المؤمن، ولا ارتباط له بالمجتمع، بخلاف العمل؛ فإنه مرتبط بالمجتمع الذي يحيا فيه المؤمن ارتباطًا وثيقًا، فبه تستحل الفروج المحرمة في الأصل، وتستباح الأموال والنفوس، فالأمور العملية من هذه الوجهة أخطر من الأمور الاعتقادية.

ومثال ذلك: رجل مات وهو يعتقد بأن سؤال الملكين أو ضغطة القبر حق، بناء على حديث آحاد، وآخر يعتقد استباحة شرب قليل من النبيذ المسكر كثيره، أو يستحل نكاح

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٥٦١).

التحليل -الذي يقول بإباحته بعض المذاهب؛ لدليل ظني ظهر لهم، ولكنه ظني طبعًا- ومات على هذا، والواقع أن كلا من الرجلين كان مخطئا بشهادة السنة الصحيحة، فأيهما كان حاله أخطر على المجتمع؟ الذي كان واهمًا في اعتقاده، أم الآخر الذي كان واهما في استباحته الفروج والشراب المحرمين؟

الوجه الثاني عشر: أن طرد قولهم بهذه العقيدة، وتبنيها دائمًا؛ يستلزم تعطيل العمل بحديث الآحاد في الأحكام العملية أيضًا، وهذا باطل لا يقولونه هم أيضًا به، وما لزم منه باطل؛ فهو باطل.

وبيانه: أن كثيرًا من الأحاديث العملية تتضمن أمورًا اعتقادية، فهذا رسول الله ﷺ يقول لنا: "**إذا جلس أحدكم في التشهد الأخير؛ فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والمات، ومن شر فتنة المسيح الدجال**"[(١)].

ومثله أحاديث كثيرة لا مجال لاستقصائها الآن، فالقائلون بهذا القول إن عملوا به هنا، وتركوا العمل بهذا الحديث؛ نقضوا أصلًا من أصولهم، وهو وجوب العمل بحديث الآحاد في الأحكام، ولا يمكنهم القول بنقضه؛ لأن جل الشريعة قائم على أحاديث الآحاد.

وإن عملوا بالحديث -طردا للأصل المذكور -؛ فقد نقضوا به ذلك القول.

فإن قالوا: نعمل بهذا الحديث، ولكننا لا نعتقد ما فيه من إثبات عذاب القبر والمسيح الدجال! ؛ قلنا: إن العمل به يستلزم الاعتقاد به، كما سبق، وإلا فليس عملًا مشروعًا، ولا عبادة، وبالتالي فلم يعملوا بأصلهم المذكور، وكفى بقول بطلانا أنه يلزم منه إبطال ما قامت الأدلة الصحيحة على إيجابه، واتفق المسلمون عليه.

الوجه الثالث عشر: ويرد عليهم أيضًا بالإجماع المعلوم المتيقن على قبول هذه الأحاديث، وإثبات صفات الرب تعالى، والأمور العلمية الغيبية بها.

قال ابن القيم: فهذا لا يشك فيه من له أقل خبرة بالمنقول؛ فإن الصحابة هم الذين

---

(١) رواه مسلم (٥٨٨).

رووا هذه الأحاديث، وتلقاها بعضهم عن بعض بالقبول، ولم ينكرها أحد منهم على من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومن لم يسمعها منهم تلقاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين، هذا أمر يعلمه ضرورة أهل الحديث، كما يعلمون عدالة الصحابة، وصدقهم، وأمانتهم، ونقلهم ذلك عن نبيهم ﷺ: كنقلهم الوضوء والغسل من الجنابة، وأعداد الصلوات وأوقاتها، ونقل الأذان والتشهد والجمعة والعيدين؛ فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها؛ جاز عليهم ذلك في نقل غيرها مما ذكرناه، وحينئذ فلا وثوق لنا بشيء نقل لنا عن نبينا ﷺ البتة، وهذا انسلاخ من الدين والعقل والعلم(١).

الوجه الرابع عشر:

ثم هب أن أحاديث الآحاد لا تفيد العلم واليقين؛ فهي تفيد الظن الغالب قطعا باتفاقهم.

قال ابن القيم: ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها، كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطلبية بها، فما الفرق بين باب الطلب وباب الخبر، بحيث يحتج بها في أحدهما دون الآخر؟! وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة؛ فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريات العلميات، كما تحتج بها في الطلبيات العمليات، ولا سيما والأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا وأوجبه ورضيه دينا، فشرعه ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته، ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم البتة أنه جوز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته، فأين سلف المفرقين بين البابين؟!. (٢)

الوجه الخامس عشر:

---

(١) مختصر الصواعق (٥٦٩).

(٢) المصدر السابق (٥٥٥).

قال ابن القيم: إن كون الدليل من الأمور الظنية، أو القطعية أمر نسبي، يختلف باختلاف المدرك المستدل، ليس هو صفة للدليل في نفسه، فهذا أمر لا ينازع فيه عاقل -فقد يكون قطعيًا عند زيد ما هو ظني عند عمرو - فقولهم: إن أخبار رسول الله ﷺ الصحيحة المتلقاة بين الأمة لا تفيد العلم، بل هي ظنية: هو إخبار عما عندهم؛ إذ لم يحصل لهم من الطرق التي استفاد بها العلم أهل السنة ما حصل لهم، فقولهم: لم يستفد بها العلم لم يلزم منها النفي العام، وذلك بمنزلة الاستدلال على أن الواجد للشيء والعالم به غير واجد له ولا عالم به، فهو كمن يجد من نفسه وجعا أو لذة أو حبا أو بغضا، فينتصب له من يستدل على أنه غير وجيع ولا متألم ولا محب ولا مبغض، ويكثر من الشبه التي غايتها أني لم أجد ما وجدته، ولو كان حقا لاشتركنا أنا وأنت فيه! وهذا عين الباطل، وما أحسن ما قيل:

أقول للائم المهتدي ملامته ذق الهوى فإن استطعت الملام لم

فيقال له: اصرف عنايتك إلى ما جاء به الرسول ﷺ، واحرص عليه وتتبعه واجمعه، وعليك بمعرفة أصول نقلته وسيرتهم، وأعرض عما سواه، واجعله غاية طلبك، ونهاية قصدك[1].

الوجه السادس عشر: إن من لوازم هذا القول الباطل: الاقتصار في العقيدة على ما جاء في القرآن وحده، وفصل الحديث عنه، وعدم الاعتداد بما فيه من العقائد والأمور الغيبية، وفقا لطائفة من الناس اليوم يعرفون (بالقرآنيين)؛ لأنهم لا يدينون بالحديث إطلاقًا، إلا ما وافق القرآن منه.

الوجه السابع عشر: أنه يستلزم من العمل بهذا القول، إنكار ما عليه المسلمون من العقائد الصحيحة، وهاك بعضا منها:

- نبوة آدم عليه السلام، وغيره من الأنبياء الذين لم يذكروا في القرآن.
- أفضلية نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والرسل.
- شفاعته العظمى في المحشر، وشفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته.

(١) مختصر الصواعق (٥٦٨).

- معجزاته ﷺ كلها ما عدا القرآن، ومنها: معجزة انشقاق القمر.

- الأحاديث التي تتحدث عن بدء الخلق، وصفة الملائكة، والجن، والجنة، والنار، وأنهما مخلوقتان، وأن الحجر الأسود من الجنة.

- خصوصياته ﷺ التي جمعها السيوطي رحمه الله في كتابه (الخصائص الكبرى) مثل: دخول الجنة، ورؤية أهلها، وما أعد للمتقين فيها، وإسلام قرينه من الجن، وغير ذلك.

- القطع بأن العشرة المبشرين بالجنة من أهل الجنة!

- الإيمان بسؤال منكر ونكير في القبر.

- الإيمان بعذاب القبر، وبضغطة القبر.

- الإيمان بالميزان ذي الكفتين يوم القيامة، والإيمان بالصراط.

- الإيمان بحوضه ﷺ، وأن من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا.

- دخول سبعين ألفا من أمته ﷺ الجنة بغير حساب.

- سؤال الأنبياء في المحشر عن التبليغ.

- الإيمان بكل ما صح في الحديث في صفة القيامة والحشر والنشر.

إلى غيرها من العقائد الإسلامية الصحيحة التي وردت في الأحاديث الثابتة المتواترة أو المستفيضة، وتلقتها الأمة بالقبول، وهي تبلغ المئات. (١)

* * *

(١) رسالة: وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة، والرد على شبه المخالفين، الألباني.

٣ـ تدوين السنة

نص الشبهة:

قالوا: لم يكن للمسلمين حتى منتصف القرن الثاني كتاب مدون سوى القرآن، فلم تسلم السنة من التحريف؛ لأنها رويت شفاها من صدور الرجال حتى وصلت إلى عصر التدوين في منتصف هذا القرن. [١]

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تعريف التدوين، وذكر الفرق بينه وبين الكتابة.

الوجه الثاني: حفظ السنة على أنواع.

الوجه الثالث: حفظ السنة عند الصحابة.

الوجه الرابع: كتابة الصحابة للسنة.

الوجه الخامس: الرد على شبهة كتابة الحديث.

الوجه السادس: كتابة التابعين للسنة، وضوابط ذلك.

الوجه السابع: وجود ضوابط وأسس حتى تقبل هذه الروايات.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تعريف التدوين، وذكر الفرق بينه وبين الكتابة.

المراد بتدوين السنة هو: جمعها وترتيبها مكتوبة.

جاء في لسان العرب: الديوان مجتمع الصحف. [٢]

وقال في تاج العروس: وقد دونه تدوينًا جمعه. [١]

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٧٥٠)، وأول من قال بذلك جولد زيهر، ثم تبعة المستشرقون، حتى غالى في هذى الدعوة جوزيف شاخت- المستشرق الألماني المتعصب- حتى قال: إنه لا صحة لأي حديث منسوب للنبي ﷺ، وأن المجموعة الأولى المعمول عليها من الأحاديث النبوية، التي تعرف بأحاديث الأحكام، قد نشأت في منتصف القرن الثاني الهجري تقريبا. أصول الفقه المحمدي له ترجمة. الأستاذ الصديق بشير مجلة كلية الدعوة بليبيا (١١/ ٦٥٢).

(٢) لسان العرب (١٣/ ١٦٦).

دون الديوان: أنشأه وجمعه والكتب، أي: دون الكتب جمعها ورتبها.

والديوان: الدفتر يكتب فيه أسماء الجيش، وأهل العطاء، والكتبةومكانهم، ومجموع شعر شاعر، والجمع دواوين. (٢)

هل هناك فرق بين الكتابة والتدوين؟

قال في اللسان: كتب الشيء كتبًا، وكتابة: خطه. (٣)

فالفرق واضح وهو: أن الكتابة خط الشيء وكتابته، وإن لم يكن مجموعًا.

والتدوين: جمع الكتب، فالتدوين مرحلة تالية للكتابة، وعلى هذا يفهم إطلاق الأئمة قولهم: أول من دون الحديث ابن شهاب الزهري(٤)، وهو أن مرادهم: أول من جمعه مصنفًا مرتبًا ابن شهاب، وليس معناه: أول من كتبه، كما سيأتي ذلك واضحًا جلياً- بإذن الله- خلال الصفحات التالية، وبأدلة ناصعة لا تحتاج إلى تأويل، وسيتضح منها:

١ -إذن النبي ﷺ بالكتابة.

٢ -أمر النبي ﷺ بكتابة بعض مسائل العلم، وإرسالها إلى الأمصار.

٣ -أمر النبي ﷺ لبعض الصحابة بالكتابة وتقييد العلم.

٤ -كتابة عدد من الصحابة لحديث النبي ﷺ.

٥ -شيوع كتابة الحديث في التابعين.

---

(١) تاج العروس (٩/ ٢٠٤).

(٢) المعجم الوسيط (١/ ٣٠٥).

(٣) لسان العرب (١/ ٦٩٨).

(٤) وذلك نحو قول الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٢٥١ - ١١٣): وأول من دون الحديث: ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين، ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد. فقد ميز الحافظ بين ثلاث مراحل:

١ - بداية التدوين بمعنى الجمع.

٢ - تتابع الناس في الجمع والتدوين، كثرة التدوين

٣ - تصنيف ذلك المدون وتميز بعضه عن بعض في أبواب.

٦- أن كتابة السنة كان لها ضوابط تقبل على أساسها الصحف المكتوبة.

٧ -أن جمع السنة اعتمد على الرواية الشفوية، والصحف المكتوبة.

قال الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ (الجمعة: ٢ - ٤)

قال ابن كثير: وذلك أن العرب كانوا قديمًا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه، وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرَّفوها، وغيَّروها وأوَّلوها، فبعث الله محمدًا ﷺ بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله. [1]

وكان مما أعد الله لنبيه ﷺ أن عوض الله هذه الأمة الأمية عن القراءة والكتابة بالحفظ، فكان العرب حفاظًا طبعًا وسليقة، وليس تكلفًا، فكان الواحد منهم ربما سمع المائة بيت من الشعر أو أكثر فيحفظه من أول مرة، في سمعة واحدة، فلمَّا أكرم الله هذه الأمة الأمية بأن بعث فيها خاتم أنبيائه ورسله محمد بن عبد الله ﷺ وسيد ولد آدم، كان الصحابة رضوان الله عليهم -وهم الذين آمنوا به ونصروه- يحبونه أكثر من آبائهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأبنائهم، ولئن كانوا يحفظون الأشعار الطويلة في سمعة واحدة في الجاهلية، فما بالنا بكلام رسولهم وحبيبهم محمد ﷺ، وقد كان كلامه كما قال هو ﷺ، فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: "وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ". [2]

والمعنى كما قال الهروي رحمه الله: أن كلامه كان قليل اللفظ، كثير المعاني.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ١١٦).

(٢) مسلم (٥٢٣)، وانظر: شرحه للنووي.

وكما قالت عائشة زوجه رضي الله عنها: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ، إنما كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ العاد لَأَحْصَاهُ[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ: "كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ"[(٢)].

ولذلك فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحفظون كلامه وأفعاله، وكان ذلك أمرًا يسيرًا عليهم، وكان من الصحابة من يكتب ما يسمعه من رسول الله ﷺ: كعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، إلا أنَّ غالب الصحابة كانوا يحفظون ولا يكتبون.

الوجه الثاني: **حفظ السنة على أنواع.**

اعلم أن حفظ السنة قام على أمرين أساسيين:

الأول: حفظ الصدر. **الثاني**: حفظ الكتاب.

وقد حث النبي ﷺصحابته على كلا الأمرين فمن ذلك:

قوله ﷺ: "**نَضَّرَ الله امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**"[(٣)]

فدعا ﷺ بالنضرة لمن سمع شيئًا- وشيئًا نكرة في سياق الإثبات فتدل على الإطلاق - فبلغه على وجهه كما سمعه من النبي ﷺ، ثم حث السامع على تبليغه والعمل به بقوله: "فرب مبلغ أوعى من سامع" ففي هذا النص حث على حفظ الصدر، وضبطه ضبطًا صحيحًا حتى يؤديه كما سمعه، وحث على رواية الحديث؛ نشرا للعلم.

٢ - وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: "كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شيء أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ؛ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شيء تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؛ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ؛ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُول الله ﷺ؛ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ: " **اكْتُبْ فو الذي نَفْسِي بِيَدِهِ: مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ** ".[(٤)]

---

(١) البخاري (٣٥٦٧)، (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٢) البخاري (٩٤)، كتاب العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم عنه.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٣٢)، وأحمد ١/ ٤٣، وصححه الألباني (٦٧٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢)، وأبو داود (٣٦٤٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٢).

ففيه حث للصحابة على حفظ الحديث بالكتاب، وبث ذلك في الناس، وذلك في كل الأحوال، حال الرضا وحال الغضب، وفي ذلك أيضا دلالة على أن حال النبي ﷺ كله مدون معروف، بل إن الله تعالى حث أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن- على بث سنته الخاصة في تعامله في بيوته ﷺ، فهذه لا يطلع عليها إلا زوجاته، فقال ﷻ: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب: ٣٤)

أقول: وكلا الأمرين كان معروفًا في صحابة النبي ﷺ حتى قال أبو هريرة ﷺ: "ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثًا مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب".[١]

الوجه الثالث: حفظ السنة عند الصحابة.

من مظاهر حفظ السنة عند الصحابة ﷺ: الحرص على سماعها، وروايتها، وكتابتها، وذلك يتجلى في أمور منها:

١-حث النبي ﷺ أصحابه على سماع الحديث، وحفظه وتأديته كما سمعوه، فمن ذلك قوله ﷺ: **"نَضَّرَ اللهُ امْرءًا سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ؛ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ"**.[٢]

٢-أمره بتبليغ العلم لمن لم يحضر مجلس السماع، ومن ذلك قوله: **"ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب؛ فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه"**.[٣]

وقوله لوفد عبد قيس حين علمهم العلم **"احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم "**[٤]

٣-إعادته للحديث ثلاثًا؛ حتى يحفظ عنه ويفهم، فمن ذلك قول أنس ﷺ عن النبي ﷺ: "أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا؛ حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم

(١) رواه البخاري (١١٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٦٧، ١٠٥)، ورواه مسلم (١٦٧٩).

(٤) رواه البخاري (٦١٧٦، ٧٢٦٦، ٧٥٥٦) ومسلم (١٧).

عليهم؛ سلم عليهم ثلاثًا".[١]

٤-بيانه ﷺ أن ما بعث به هو العلم وحثه على أخذ ه، وبيان أن مقادير الناس عند الله تتباين بأخذهم لذلك العلم، وذلك شيء كثير في سنته، فمنه قوله ﷺ: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم...... الحديث "[٢].

٥- تحذيره من الجهل، وأنه من أشراط الساعة، فمن ذلك قوله ﷺ: "من أشراط الساعة: أن يقل العلم ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء ويقل الرحال، حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد"[٣].

٦-تخولهم بالموعظة والعلم، وتخير الأوقات المناسبة لذلك؛ حتى لا ينفروا، فمن ذلك قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا.[٤]

٧-تفرغ الصحابة لسماع العلم من النبي ﷺ، وهذا على ضربين:

الأول: التفرغ الكامل من كل عمل أو شاغل، حتى عن طلب الرزق والأهل والولد حبًا في سماع العلم حتى لازموه ﷺ في حله -إقامته -، وترحاله -سفره- يلحظون ما يفعل، ويحفظون عنه ما يقول، ومن هؤلاء أبو هريرة رضي الله عنه، يقول عن نفسه: "إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ يشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون"[٥].

الثاني: التفرغ الجزئي، بأن يفرغ قدرًا من وقته لسماع العلم من النبي ﷺ، ثم يسأل الصحابة الحاضرين عما فاته، وهو ما يسمى بـ (التناوب في طلب العلم)، فمن ذلك قول

---

(١) رواه البخاري (٩٥).

(٢) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٣) رواه البخاري (٨١)، ومسلم (٢٦٧١).

(٤) رواه البخاري (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١).

(٥) رواه البخاري (٢٢٢٣)، ومسلم (٦٥٥٥).

عمر رضي الله عنه: " كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوما، وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك. . . .)[١].

٨- حرص الصحابة على فهم الحديث قبل بثه في الناس، فمن ذلك قول ابن أبي مليكة: أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه؛ حتى تعرفه، وأن النبي ﷺقال: " من حوسب عذّب قالت عائشة: فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾(الانشقاق: ٨) قالت: فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك.[٢]

٩-تثبت الصحابة عند رواية الحديث، ولذلك مظاهر منها: الإقلال من الرواية، والحرص على أداء الألفاظ دون تغيير؛ حرصًا منهم على عدم الوقوع في الإثم، فمن ذلك قول أنس: رضي الله عنهإنه ليمنعني أن أحدثكم حديثًا كثيرًا أن النبي ﷺقال: "من تعمد عليّ كذبا؛ فليتبوأ مقعده من النار ".[٣]

وقول الزبير رضي الله عنه حين سأله ابنه عبد الله: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يُحدث فلان وفلان، قال: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: "مَن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار".[٤]

ولذلك تجد التخصص في رواية السنة محصور في عدد قليل من الصحابة، في حين أنهم عدد كبير، حتى قال أبو زرعة الرازي: شهد معه حجة الوداع أربعون ألفًا، وكان معه بتبوك سبعون ألفا، وقُبضﷺ عن مئة ألف وأربعة عشر ألفًا من الصحابة[٥]، ومجموع

(١) رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) رواه البخاري (١٠٨)، ومسلم (٢).

(٤) رواه البخاري (١٠٧).

(٥) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (٢/ ٥٠٦)، وانظر الجامع للخطيب (١٨٩٤)، وفتح المغيث (٤/ ١٠٩)، طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧٧)، الإصابة١/ ٤، ٣).

تراجم الصحابة التي في الإصابة (١٢٢٧٩). في حين أن عدد مسانيد الصحابة الرواة في مسند بقي بن مخلد- وهو من أهم مصادر السنة -(١٣٠١).

قال ابن حزم: مسند (بقي) روى فيه عن ألف وثلاث مئة صاحب ونيف، رواة الآلاف منهم سبعة، وهم على الترتيب: أبو هريرة، ثم عبد الله بن عمر بن الخطاب، ثم أنس بن مالك، ثم عائشة أم المؤمنين، ثم عبد الله بن عباس، ثم جابر بن عبد الله، ثم أبو سعيد الخدري ﷺ.(١)

وقد تتبع العلماء الرواة من الصحابة، وما لكل واحد منهم، ومن ذلك: ما فعله ابن الجوزي في: (تلقيح فهوم أهل الأثر)(٢)، وابن حزم في: (الرسالة الثانية من جوامع السيرة)، تحت عنوان: أسماء الصحابة الرواة، وما لكل واحد من العدد، وقد عد ابن حزم مسانيد الصحابة فيه (١٠١٠)

قال ابن حزم: هذا باب في ذكر مَن روى عن النبي ﷺ من الصحابة ﷺ حديثًا فما فوقه، ممن نُقل الحديث عنهم على مراتبهم في ذلك:

أصحاب الألوف وما زاد منهم، ثم أصحاب الألفين وما زاد، ثم أصحاب المائتين وشيء، ثم أصحاب المائة وشيء، ثم أصحاب العشرات وشيء، ثم أصحاب العشرين وشيء، ثم أصحاب التسعة عشر ثم، أصحاب الثمانية عشر، ثم أصحاب السبعة عشر، ثم كذلك نقص واحد واحد إلى أصحاب الإفراد.

وبهذا يتبين لك أن الصحابة الرواة على طبقات:

١- الطبقة الأولى: رواة الآلاف إلى الألف، وعددهم سبعة أصحاب.

٢- الطبقة الثانية: من روى أقل من الألف إلى خمس مئة حديث، وعددهم أربعة أصحاب.

٣- الطبقة الثالثة: من روى أقل من خمس مئة حديث إلى مئة حديث، وعددهم سبع وعشرون صحابيًا.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٥٢)

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر (١٨٤).

٤- الطبقة الرابعة: من روى أقل من مئة حديث إلى عشرة أحاديث، وعددهم ستة وخمسون ومئة صاحب.

٥- الطبقة الخامسة: من روى أقل من عشرة أحاديث إلى خمسة أحاديث، وعددهم ثماني عشرة ومئة صاحب.

٦- الطبقة السادسة: من روى أقل من خمسة أحاديث إلى حديثين اثنين فقط، وعددهم تسعة وأربعون ومائتا صاحب.

٧- الطبقة السابعة: من ليس له سوى حديث واحد فقط، وعددهم تسعة وأربعون وأربع مئة.

فأنت ترى بوضوح من خلال هذا:

أن الصحابة كانوا يتوقون الرواية، وأن الرواة منهم كانوا أهل تخصص في نشر سنة النبي ﷺ.

أن الصحابة كانوا لا يروون إلا ما تثبتوا منه؛ حرصًا على أداء الألفاظ والمعاني دون تغيير.

أن إقلال الصحابة من الرواية نسبي فأنس ؓ من المكثرين ومع ذلك يقول: (إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثًا كثيرًا. . . . .)

أن بعض الصحابة أقل من الرواية عن رسول الله ﷺ؛ اكتفاء بمن قام بالبلاغ كما في حديث الزبير ؓ، وخوفًا من عدم الضبط.

أن الصحابة كانوا يتوقون رواية الحديث بالمعنى؛ خوفًا من عدم الإتقان، فمن ذلك: (أن مسروقًا حدّث عن رسول الله ﷺ فارتعد وارتعدت ثيابه ثم قال: أو نحو هذا. .)[1]

أن الصحابة كانوا يتذاكرون الحديث؛ خشية نسيانه، فمن ذلك: قول عبد الله بن مسعود: (تذاكروا الحديث فإن حياته مذاكرته)[2]

وما جاء عن أبي سعيد ؓ(تذاكروا الحديث؛ فإن الحديث يهيج بعضه بعضًا). [1]

(١) المستدرك (١/ ١١١)، قال الذهبي: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وله شواهد فيه عن عبد الله.

(٢) المستدرك (١/ ١٩٣، ٣٧٦) ومعرفة علوم الحديث (١٤٠، ١٤١).

وما جاء عن علي ﷺ(تزاوروا وأكثروا ذكر الحديث، فإنكم إن لم تفعلوا يندرس). [٢]

تثبت الصحابة ﷺ عند سماع الحديث، حتى كان بعضهم يستحلف الراوي، أو يطلب شاهدًا آخر، أو نحو ذلك، وقد مرّ شيء من هذا. [٣]

وإنما كانوا يفعلون ذلك توقيًا من الخطأ في الرواية وتثبتًا من المسموع.

وخلاصة ما مرّ أن سنة النبي ﷺ - سواء رواها الصحابة شفاهًا، أو دوّنوها في صحف- فإنهم كانوا يتثبتون في روايتها غاية التثبت قبل روايتها.

- فلم يرو منهم غير المتقن.
- ولم يرو المتقن منهم غير ما أتقنه.
- وأن السامع لما رواه الأثبات من الصحابة كان يتثبت من المروي، دون تكذيب للراوي، أو اتهام له بالخطأ؛ حرصًا منهم على الإتقان.

الوجه الرابع: كتابة الصحابة للسنة.

أقول: قد حدثت كتابة للسنة في الجملة كما يأتي، لكن لم تشمل ولم يؤمر بها أمرًا، ومن حكمة ذلك: أن الله تبارك وتعالى كما أراد لهذه الشريعة البقاء؛ أراد سبحانه أن لا يكلف عباده من حفظها إلا بما لا يشق عليهم مشقة شديدة، ثم هو سبحانه يحوطها ويحفظها بقدرته، كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي يعجل بقراءة ما يوحى إليه قبل فراغه؛ خشية أن ينسى شيئًا منه، فأنزل الله عليه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)، وقوله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة ١٦، ١٧)، وقوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ (الأعلى ٦: ٨).

(١) المستدرك (١/ ١٧٣-٣٢٣)، الدارمي (١/ ١٥٥-٥٩٥).

(٢) المستدرك (١/ ١٧٣-٣٢٤).

(٣) في أول باب السنة.

وكانت العرب أمة أمية يندر وجود من يقرأ أو يكتب منهم، وأدوات الكتابة عزيزة، ولا سيما ما يكتب فيه، و كان الصحابة محتاجين إلى ا لسعي في مصالحهم، فكانوا في المدينة منهم من يعمل في حائطه، ومنهم من يبيع في الأسواق، فكان التكليف بالكتابة شاقًا، فاقتصر منه على كتابة ما ينزل من القرآن شيئًا فشيئًا، ولو مرة واحدة في قطعة من جريد النخل أو نحوه، تبقى عند الذي كتبها، وفي صحيح البخاري وغيره، من حديث زيد بن ثابت- في قصة جمعه القرآن بأمر أبي بكر-قال: (فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة ا لتوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أ جدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (التوبة: ١٢٨) حتى خاتمة سورة براءة.

وفي فتح الباري: أن العسب: جريد النخل، واللخاف: الحجارة الرقاق، وإنه وقع في رواية: القصب والعسب والكرانيف وجرائد النخل، ووقع في روايات أخر: ذكر الرقاع وقطع الأديم والصحف.

وكان النبي ﷺ يلقن بعض أصحابه ما شاء الله من القرآن، ثم يلقن بعضهم بعضًا، فكان القرآن محفوظًا جملة في صدورهم ومحفوظًا بالكتابة في قطع مفرقة عندهم.

والمقصود أنه اقتصر من كتابة القرآن على ذلك القدر؛ إذ كان أكثر منه شاقًا عليهم، وتكفل الله ﷻ بحفظه في صدورهم، وفي تلك القطع، فلم يتلف منها شيء، حتى جمعت في عهد أبي بكر، ثم لم يتلف منها شيء حتى كتبت عنها المصاحف في عهد عثمان، وقد الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩)، وتكفله سبحانه بحفظ لا يعفي المسلمين أن يفعلوا ما يمكنهم كما فعلوا - بتوفيقه لهم - في عهد أبي بكر، ثم في عهد عثمان.

وأما السنة فقد تكفل الله بحفظها أيضا؛ لأن تكفله بحفظ القرآن يستلزم تكفله بحفظ بيانه، وهو السنة، وحفظ لسانه، وهو العربية، إذ المقصود بقاء الحجة قائمة، والهداية باقية،

بحيث ينالها من يطلبها؛ لأن محمدًا خاتم الأنبياء، وشريعته خاتمة الشرائع، بل دل على ذلك قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ (القيامة: ١٩)

فحفظ الله السنة في صدور الصحابة والتابعين، حتى كتبت ودونت -كما يأتي- وكان التزام كتابتها في العهد النبوي شاقًا جدًّا؛ لأنها تشمل جميع أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله، وما يقوله غيره بحضرته أو يفعله، وغير ذلك.

والمقصود الشرعي من السنة هو: معانيها، وليست كالقرآن، فالمقصود لفظه ومعناه؛ لأن كلام الله بلفظه ومعناه، ومعجز بلفظه ومعناه، ومتعبد بتلاوته بلفظه بدون أدنى تغيير، لا جرم خفف الله عنهم واكتفى من تبليغ السنة غالبًا بأن يطلع عليها بعض الصحابة، ويكمل الله تعالى حفظها وتبليغها بقدرته التي لا يعجزها شيء، فالشأن في هذا الأمر هو العلم بأن النبي ﷺ قد بلغ ما أمر به التبليغ الذي رضيه الله منه، وأن ذلك مظنة بلوغه إلى من يحفظه من الأمة، ويبلغه عند الحاجة ويبقى موجودًا بين الأمة، وتكفل الله تعالى بحفظ دينه يجعل تلك المظنة مئنة، فتم الحفظ كما أراد الله تعالى، وبهذا التكفل يدفع ما يتطرق إلى تبليغ القرآن، كاحتمال تلف بعض القطع التي كتبت فيها الآيات، واحتمال أن يغير فيها من كانت عنده ونحو ذلك، ومن طالع تراجم أئمة الحديث من التابعين فمن بعدهم، وتدبر ما آتاهم الله تعالى من قوة الحفظ والفهم، والرغبة الأكيدة في الجد، والتشمير لحفظ السنة وحياطتها؛ بان له ما يحير عقله، وعلم أن ذلك ثمرة تكفل الله تعالى بحفظ دينه، وشأنهم فيها عظيم جدًّا، أو هو عبادة من أعظم العبادات وأشرفها، وبذلك يتبين أن ذلك من المصالح المترتبة على ترك كتابة الأحاديث كلها في العهد النبوي، إذ لو كتبت؛ لانسد باب تلك العبادة وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ (الذاريات: ٥٦).

وثم مصالح أخرى منها: تنشئة علوم تحتاج إليها الأمة، فهذه الثروة العظيمة التي بيد المسلمين من تراجم قدمائهم، إنما جاءت من احتياج المحدثين إلى معرفة أحوال الرواة،

فاضطروا إلى تتبع ذلك، وجمع التواريخ والمعاجم، ثم تبعهم غيرهم، ومنها: الإسناد الذي يعرف به حال الخبر، كان بدؤه في الحديث، ثم سرى إلى التفسير والتاريخ و الأدب.

هذا والعالم الراسخ هو الذي إذا حصل له العلم الشافي بقضية لزمها، ولم يبال بما قد يشكك فيها، بل إما أن يعرض عن تلك المشككات، وإما أن يتأملها في ضوء ما قد ثبت، فهاهنا من تدبر كتاب الله، وتتبع هدي رسوله ﷺ، ونظر إلى ما جرى عليه العمل العام في عهد أصحابه، وعلماء أمته، بوجوب العمل بأخبار الثقات عن النبي ﷺ، وأنها من صلب الدين، فمن أعرض عن هذا وراح يقول: لماذا لم تكتب الأحاديث؟ بماذا، لماذا؟ ويتبع قضايا جزئية- إما أن لا تثبت، وإما أن تكون شاذة، وإما أن يكون لها محمل لا يخالف المعلوم الواضح - فمن كان ذلك شأنه؛ فلا ريب في زيغه[١].

فلا يتوهم بعض الناس أن الصحابة لم يكن لهم كتاب يتضمن علمًا غير كتاب الله- وهذا خطأ بيّن- بل قد كتب الصحابة عن النبي ﷺ حديثه، ودوّنوه في كتبهم بإذنه، كما مرّ في حديث أبي شاه، وحديث عبد الله بن عمرو، وبإقراره لهم كما مرّ أيضًا في حديث عبد الله بن عمرو، بل وبأمره بتقييد العلم حتى لا يندرس.

أقول: وكان هذا التقييد للعلم وتدوينه على نوعين:

الأول: جمع الأحاديث مدونة في كتاب، كيفما اتفق، بلا تأليف ولا ترتيب بينها، وهذا غالب جمعهم.

الثاني: جمع باب بعينه.

فمن الصنف الأول:

١- كتاب النبي ﷺ إلى أهل اليمن، وقد تضمن أحكامًا كثيرة، وكان عند عمرو بن حزم[٢].

٢- كتاب عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وكان يُسمي صحيفته الصادقة، وقد مر.

---

(١) الأنوار الكاشفة (١/ ٣٠ - ٣٢)

(٢) النسائي كتاب القسامة (٨/ ٥٧) رقم ٤٨٥٣-٤٨٥٩، الأموال لأبي عبيد (٣٥٨-٣٦٢).

٣- كتاب عند أنس بن مالك ﷺ، كان يقول فيه: سمعته من النبي ﷺ، وعرضته عليه[١].

٤- كان لسمرة بن جندب صحيفة كتب فيها ما سمعه من النبي ﷺ، يرويها عنه الحسن البصري[٢]، وقد أثنى عليها محمد بن سيرين فقال: في رسالة سمرة إلى ابنه علم كثير.

٥- كان لابن عباس ﷺ صحيفة يكتب فيها أفعال النبي ﷺ، أخذها عن أبي رافع ﷺ[٣].

٦- وكان لجابر ﷺصحيفة مشهورة، عرفت عند المحدثين باسمه، أخرج منها مسلم نحوًا من ثلاثين حديثًا في الحج.

٧- كانت عند علي بن أبي طالب صحيفة ذكرها البخاري وغيره، وجمع ابن حجر في فتح الباري قطعًا منها[٤].

٨- كتب عبد الله بن أوفى- رضي الله عنهما - حديث رسول الله ﷺ، وأرسله إلى بعض أصحابه[٥].

٩- صحيفة سعد بن عبادة ﷺوهي سنن الترمذي.

ومن الصنف الثاني:

١ - كتاب أبي بكر في فريضة الله في الصدقة، الذي كتبه عنه أنس بن مالك ﷺ، قال في أوله: (هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين)[٦]

وفي رواية عند الحاكم (كتب رسول الله ﷺ كتاب الصدقة، فلم يخرجه إلى عماله حتى قُبض، فقرنه بسيفه، فعمل به أبو بكر حتى قبض. . .)[٧] وذكر الكتاب.

---

(١) المستدرك (٣/ ٥٧٤).

(٢) كيف تبحث أحوال الرواة المعلمي (٢٧).

(٣) الطبقات الكبرى (٢/ ١٢٣)، تقييد العلم للخطيب حققه يوسف العش (٩١، ٩٢).

(٤) كيف تبحث أحوال الرواة للمعلمي (٢٦).

(٥) صحيح البخاري (٤/ ٦٢) نقلًا عن توثيق السنة (٥٢).

(٦) صحيح البخاري (١٤٤٨، ١٤٥٤)

(٧) المستدرك (٣/ ١٥٠).

٢- ومن ذلك كتاب علي ﷺ، فقد كان يجمع أبوابًا من العلم منها: فكاك الأسير، الديات، لا يُقتل مسلم بكافر، وقد مر.

٣- ومن ذلك الرسالة الطويلة التي كتبها زيد بن ثابت في أحكام المواريث، وفي سنن البيهقي قطع كثيرة منها[١].

الوجه الخامس: الرد على شبهة النهي عن كتابة الحديث:

ورد عن النبي ﷺ ما يدل على النهي عن كتابة الحديث، فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّى وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ - قَالَ هَمَّامٌ أَحْسِبُهُ قَالَ: مُتَعَمِّدًا- فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"[٢].

ففي النص النهي عن كتابة الحديث، والأمر بمحو ما دُوِّن منه إن كان كتب، وفيه الحث على روايته شفاهًا، وفيه الزجر عن الكذب عليه، والتوعد على ذلك بنار جهنم، فتعلق بمثل هذا من قال بكراهة كتابة العلم من الصدر الأول، وتعلق به من المستشرقين مَن قال إن الحديث النبوي لم يدون سوى في القرن الثاني الهجري.

وللعلماء في الجمع بين هذه الأحاديث أقوال:

الأول: الأحاديث إما مختلف في صحتها، وإما متفق على ضعفها[٣].

قال الشيخ المعلمي:

أما الأحاديث إما مختلف في صحتها، وإما متفق على ضعفها.

فالأول: حديث مسلم وغيره، عن أبي سعيد الخدري مرفوعا **"لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ - قَالَ هَمَّامٌ أَحْسِبُهُ قَالَ: مُتَعَمِّدًا- فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"**[٤].

---

(١) انظر على سبيل المثال: سنن البيهقي كتاب الفرائض باب من لا يرث من ذوي الأرحام (٦/ ٣٥٠).

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٤)

(٣) الأنوار الكاشفة (١/ ٣٣).

(٤) صحيح مسلم (٣٠٠٤).

والجواب من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أنه موقوف على أبي سعيد.

قال ابن حجر: ومنهم من أعل حديث أبي سعيد، وقال: الصواب وقفه على أبي سعيد، قاله البخاري وغيره(١). أي الصواب أنه من قول أبي سعيد نفسه، وغلط بعض الرواة فجعله عن أبي سعيد عن النبي ﷺ، وقد أورد ابن عبد البر قريبًا من معناه، موقوفًا، عن أبي سعيد، من طرق لم يذكر فيها النبي ﷺ.

الوجه الثاني: المراد بهذا الحديث الوارد في النهي هو: من يوثق بحفظه، ويخاف اتكاله على الكتابة إذا كتب، وتحمل الأحاديث الواردة بالإباحة على من لا يوثق بحفظه.

الوجه الثالث: أن النهي خاص بوقت نزول القرآن؛ خشية التباسه بغيره، والإذن في غير ذلك.

الوجه الرابع: أن النهي خاص بكتابة غير القرآن مع القرآن في شيء واحد، والإذن في تفريقهما.

الوجه الخامس: أن النهي متقدم، والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس(٢).

وممن قال بهذا القول: ابن شاهين في (الناسخ والمنسوخ)، وابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث)، والخطابي في (معالم السنن)، والنووي في (شرح مسلم)، وابن الصلاح، والبيهقي، كما حكى ذلك عنهما: ابن كثير في (اختصار علوم الحديث)، وابن القيم في (زاد المعاد)، و (تهذيب سنن أبي داود)، وابن حجر في (فتح الباري)(٣).

وقال ابن القيم: قد صح عن النبي ﷺ النهي عن الكتابة والإذن فيها، والإذن متأخر، فيكون ناسخًا لحديث النهي، فإن النبي ﷺ قال في غزاة الفتح "اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ" يعني خطبته التي سأل أبو شاة كتابتها، وأَذِنَ لعبد الله بن عمرو في الكتابة، وحديثه متأخر عن

(١) فتح الباري (١/ ٢٠٨).

(٢) هذه الوجوه من شرح النووي على مسلم (١٨/ ١٣٠)، فتح الباري لابن حجر (١/ ٢٠٨).

(٣) الناسخ والمنسوخ (٤٠٦)، تأويل مختلف الحديث (٢٨٦)، معالم السنن (٤/ ١٧٠)، شرح صحيح مسلم (٩/ ١٣٠)، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (٢/ ٣٧٨)، زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٤٥٧)، تهذيب السنن (٥/ ٢٤٥)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١/ ٢٥١).

النهي، لأنه لم يزل يكتب، ومات وعنده كتابته، وهي الصحيفة التي كان يسميها (الصادقة)، ولو كان النهي عن الكتابة متأخرًا؛ لمحاها عبد الله لأمر النبي ﷺ بمحو ما كُتِبَ عنه غير القرآن، فلمّا لم يمحها وأثبتها؛ دَلَّ على أنَّ الإذن في الكتابة متأخر عن النهي عنها، وهذا واضح والحمد لله[١].

قال القاضي: كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم، فكرهها كثيرون منهم، وأجازها أكثرهم، ثم أجمع المسلمون على جوازها، وزال ذلك الخلاف[٢].

قال الحافظ ابن حجر: الإجماع انعقد على جواز كتابة العلم، بل على استحبابه، بل لا يبعد وجوبه على من خشي النسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم[٣].

وقد أجمع المسلمون على جواز كتابة الحديث وتسويغه[٤].

قال المعلمي: أما البخاري فقال في صحيحه: (باب كتابة العلم)، ثم ذكر قصة الصحيفة التي كانت عند علي ﵁، ثم خطبة النبي ﷺ زمن الفتح وسؤال رجل أن يكتب له، فقال النبي ﷺ: (اكتبوا لأبي فلان)، وفي غير هذه الرواية (لأبي شاه) ثم قول أبي هريرة﵁: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب وأنا لا أكتب[٥].

ثم حديث ابن عباس في قصة مرض النبي ﷺ، وقوله: "ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده"، وفي بعض روايات حديث أبي هريرة في شأن عبد الله بن عمرو:

---

(١) تهذيب السنن ١٠/ ٥٥.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٨/ ١٢٩).

(٣) فتح الباري (١/ ٢٠٨).

(٤) نقل الإجماع ابن الصلاح، وابن كثير في اختصار علوم الحديث الباعث (٢/ ٣٧٩) نشره علي حسن عبد الحميد والقاضي عياض في الإلماع (١٤٩)، والكرماني في شرحه على البخاري (٢/ ١٢٤)، والأبي في شرحه على مسلم (٣/ ٤٥٤).

(٥) صحيح البخاري (٢٣٠٢).

"استأذن رسول الله ﷺ أن يكتب بيده ما سمع منه فأذن له"[(١)].

وقد اشتهرت صحيفة عبد الله بن عمرو التي كتبها عن النبي ﷺ، وكان يغتبط بها ويسميها (الصادقة)، وبقيت عند ولده يروون منها[(٢)].

أما ما زعمه أن صحيفة عبد الله بن عمرو إنما كانت فيها أذكار وأدعية فباطل قطعًا، وأما زيادة ما انتشر عن أبي هريرة من الحديث عما انتشر عن عبد الله بن عمرو؛ فلأن عبد الله لم يتجرد للرواية تجرد أبي هريرة، وكان أبو هريرة بالمدينة وكانت دار الحديث لعناية أهلها بالرواية، ولرحلة الناس إليها لذلك، وكان عبد الله تارة بمصر، وتارة بالشام، وتارة بالطائف، مع أ نه كان يكثر من الأخبار عما وجده من كتب قديمة باليرموك، وكان الناس لذلك كأنهم قليلو الرغبة في السماع منه، ولذلك كان معاوية وابنه قد نهياه عن التحديث.

فهذه الأحاديث- وغيرها مما يأتي-إن لم تدل على صحة قول البخاري وغيره: إن حديث أبي سعيد غير صحيح عن النبي ﷺ، فإنها تقضي بتأويله، وقد ذكر في فتح الباري أوجها للجمع، والأقرب ما يأتي:

قد ثبت في حديث زيد بن ثابت في جمعه القرآن (فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف)[(٣)]، وفي بعض رواياته ذكر القصب وقطع الأديم، وهذه كلها قطع صغيرة، وقد كانت تنزل على النبي ﷺ الآية والآيتان، فكان بعض الصحابة يكتبون في تلك القطع فتتجمع عند الواحد منهم عدة قطع، في كل منها آية أو آيتان أو نحوها، وأن هذا هو المتيسر لهم، فالغالب أنه لو كتب أحدهم حديثا؛ لكتبه في قطعة من تلك القطع، فعسى أن يختلط عند بعضهم القطع المكتوب فيها الأحاديث بالقطع المكتوب فيها الآيات، فنهوا عن كتابة الحديث سدًا للذريعة.

---

(١) فتح الباري (١/ ١٨٥)، المستدرك (١/ ١٠٤). قال ابن حجر: (إسناده حسن، وله طريق أخرى. . .) وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو نفسه جاء من طرق.

(٢) تهذيب التهذيب (٨/ ٤٤)

(٣) صحيح البخاري (٤٧٠١).

- أما قول بعضهم (هذا سبب لا يقتنع به عاقل عالم. . . اللهم إلا إذا جعلنا الأحاديث من جنس القرآن في البلاغة، وأن أسلوبها في الإعجاز من أسلوبه)

فجوابه: أن القرآن إنما تحدى أن يؤتى بسورة من مثله، والآية والآيتان دون ذلك، ولا يشكل على هذا الوجه صحيفة علي؛ لأنه جمع فيها عدة أحكام، وكان علي لا يخشى عليه الالتباس.

ولا قصة أبي شاه، لأن أبا شاه لم يكن ممن يكتب القرآن، وإنما سأل أن تكتب له تلك الخطبة.

ولا قوله ﷺ في مرض موته: ائتوني بكتاب. . . الخ؛ لأنه لو كتب لكان معروفًا عند الحاضرين، وهم جمع كثير.

ولا قضية عبد الله بن عمرو، فإنه فيما يظهر حصل على صحيفة فيها عدة أوراق، فاستأذن أن يكتب فيها الأحاديث فقط.

وكذلك الكتب التي كتبها النبي ﷺ لعماله، وفيها أحكام الصدقات وغيرها، وكان كلها أو أكثرها مصدرًا بقوله: "من محمد رسول الله. . . الخ" هذا كله على فرض صحة حديث أبي سعيد.

أما على ما قاله البخاري وغيره من عدم صحته عن النبي ﷺ؛ فالأمر أوضح، وسيأتي ما يشهد لذلك.

الثاني: حديث "دخل زيد بن ثابت على معاوية، فسأله عن حديث، وأمر إنسانًا أن يكتبه فقال له زيد: إن رسول الله ﷺ أمرنا أن لا نكتب شيئا من حديثه، فمحاه[1]"

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢)، وأبو داود (٣٦٤٧) من طريق كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله، قال: دخل زيد بن ثابت على معاوية فذكره، وهذا إسناد ضعيف.

المطلب بن عبد الله لم يسمع من زيد بن ثابت.

قال البخاري: لا أعرف للمطلب بن حنطب عن أحد من الصحابة سماعًا، إلا قوله حدثني من شهد خطبة النبي ﷺ.

قال الترمذي: وسمعت عبد الله بن عبد الرحمن- يعني الدارمي- يقول مثله.

وقال أبو حاتم: المطلب بن حنطب عامة أحاديثه مراسيل، لم يدرك أحدًا من أصحاب النبي ﷺ إلا سهل بن سعد، وأنسًا، وسلمة بن الأكوع، أو من كان قريبًا منهم، ولم يسمع من جابر، ولا من زيد بن ثابت، ولا من عمران بن حصين، وقال مرة أخرى: لم يدرك عائشة ويشبه أن يكون أدرك جابرًا، وقال أبو زرعة: أرجو أن يكون سمع من عائشة، وقال الترمذي عقيب حديثه عن جابر " صيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه، أو يصاد

الثالث: ما روي عن عائشة قالت: " جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ، فكانت خمسمائة حديث، فبات يتقلب. . . فلما أصبح قال: أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها فأحرقها، وقال: خشيت أن أموت وهي عندك، فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثني، فأكون قد تقلدت ذلك"، زاد الأحوص بن المفضل في روايته: أو يكون قد بقي حديث لم أجده فيقال: لو كان قاله رسول الله ﷺما خفي على أبي بكر(١).

أقول: لو صح هذا لكان حجة على ما قلناه، فلو كان النبي ﷺ نهى عن كتابة الأحاديث مطلقًا لما كتب أبو بكر، وأما الإحراق فلسبب أو سببين آخرين، كما رأيت.

الرابع: ما روي عن عروة: " أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب رسول الله في ذلك - ورواية البيهقي: فاستشار - فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله شهرًا، ثم أصبح يومًا، وقد عزم الله له فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبا، فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا- ورواية البيهقي: لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا"(٢).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الخبر منقطع؛ لأن عروة لم يدرك عمر.

الوجه الثاني: أن هذا -إن صح-فهو حجة لما قلناه، فلو كان النبي ﷺ نهى عن كتابة الأحاديث مطلقاً؛ لماهم بها عمر ولما أشار عليه الصحابة بها، وأما عدوله عنها فلسبب آخر، كما رأيت.

لكم" المطلب لا نعرف له سماعا من جابر، والله أعلم. جامع التحصيل (١/ ٢٨١)، وضعف إسناده الألباني في ضعيف أبي داود (١/ ٣٦٢).

(١) الخبر ليس بصحيح، ففي التذكرة عقبه (فهذا لا يصح)، قال ابن كثير: هذا غريب من هذا الوجه جدًّا، وعلي بن صالح أحد رجال سنده لا يعرف، والأحاديث عن رسول الله ﷺ أكثر من هذا المقدار بألوف.
وانظر: كنز العمال (١٠/ ٥٠٣).
قال الذهبي: فهذا لا يصح، والله أعلم، توفي الصديق ﷺ لثمان بقين من جمادي الآخرة من سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة. تذكرة الحفاظ (١/ ٥).

(٢) رواه ابن عبد البر (١٢/ ٤٩)، والبيهقي في المدخل (١/ ٢١)، الخبر منقطع لأن عروة لم يدرك عمرًا.

الوجه الثالث: أنه- إن صح-أيضًا؛ فإنما كانت تلك الخشية في عهد عمر، ثم زالت، وقد قال عروة نفسه: "وكنا نقول لا نتخذ كتابًا مع كتاب الله، فمحوت كتبي، فو الله لوددت أن كتبي عندي، وإن كتاب الله قد استمرت مريرته[١]" يعني قد استقر أمره، وعلمت مزيته، وتقرر في أذهان الناس أنه الأصل، والسنة بيان له، فزال ما كان يخشى من أن يؤدي وجود كتاب للحديث؛ إلى أن يكب الناس عليه، ويدعوا القرآن.

الخامس: وما روي عن يحيى بن جعده: أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنة، ثم بدا له أن لا يكتبها، ثم كتب إلى الأمصار من كان عنده شيء؛ فليمحه[٢].

السادس: ما روى عن عبد الله بن العلاء قال: سألت القاسم بن محمد أن يملى على أحاديث فقال: إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب، فأنشد الناس أن يأتوه بها، فلما أ توه بها أمر بتحريقها: مثناة كمثناة أهل الكتاب، قال: فمنعني القاسم بن محمد يومئذ أن أكتب حديثًا. [٣]

السابع: ما روي عن جابر بن عبد الله بن يسار قال: سمعت عليًا يخطب يقول: أعزم على كل من عنده كتاب إلا رجع فمحاه؛ فإنما هلك الناس حين تتبعوا أحاديث علمائهم، وتركوا كتاب ربهم)[٤]

والجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: الأثر لا يصح؛ فلا يحتج به.

---

(١) تهذيب التهذيب (٥/ ٣٧)

(٢) أقول: وهذا منقطع أيضًا، يحيى بن جعدة لم يدرك عمر، وعروة أقدم منه وأعلم ، وزيادة يحيى منكرة، ولو كتب عمر إلى الأمصار لاشتهر ذلك، وعنده علي وصحيفته، وعند عبد الله بن عمرو صحيفة كبيرة مشهورة.

(٣) رواه ابن سعد (٧/ ١٢٤) أقول: وهذا منقطع أيضًا إنما ولد القاسم بعد وفاة عمر ببضع عشرة سنة.

(٤) أقول ذكره ابن عبد البر من طريق شعبة عن جابر، ولم أ جد لجابر بن عبد الله بن يسار ذكرا وقد استوعب صاحب التهذيب مشايخ شعبة في ترجمته ولم يذكر فيهم من اسمه جابر إلا جابر بن يزيد الجعفي، فلعل الصواب (جابر عن عبد الله بن يسار) وجابر الجعفي ممقوت كان يؤمن برجعة على إلى الدنيا، وقد كذبه جماعة في الحديث منهم أبو حنيفة، وصدقه بعضهم في الحديث خاصة بشرط أن يصرح بالسماع. ولم يصرح هنا،. وعبد الله بن يسار لا يعرف. وقد كان عند علي نفسه صحيفة فيها أحاديث عن النبي ﷺ كما مر.

الوجه الثاني: أنه إن صحت هذه الحكاية؛ فإنما قال: (أحاديث علمائهم) ولم يقل: (أحاديث أنبيائهم)، وكلمة (حديث) بمعنى: (كلام)، واشتهارها فيما كان عن النبيﷺ اصطلاح متأخر، وقد كان بعض الناس يثبتون كلام علي في حياته، وفي مقدمة صحيح مسلم، عن ابن عباس ما يعلم منه أنه كان عنده كتاب فيه قضاء علي، منها ما عرفه ابن عباس، ومنها ما أنكره، ولفظه: "فدعا بقضاء علي، فجعل يكتب منه أشياء، ويمر به الشيء فيقول: والله ما قضى بهذا علي إلا أن يكون ضل".

ثم ذكر عن طاوس قال: "أتى ابن عياش بكتاب فيه قضاء علي. . . ".

فإن صحت هذه الحكاية؛ فكأن بعض الناس كتب شيئًا من كلام علي، أو غيره من العلماء؛ فتناقله الناس، فبلغ عليًا ذلك؛ فقال ما قال.

الوجه السادس: كتابة التابعين للسنة وحفظها، وضوابط ذلك:

وأما تدوين السنة في عصر التابعين، فكل تابعي له صحيفة، أو كتاب يرويه عن الصحابة، لكن كانت الأحاديث تجمع بلا تأليف ولا ترتيب، ومن ذلك:

١- صحيفة همام بن منبه اليماني عن جبل السنة أبي هريرة رضي الله عنه، وقد جاء منها في مسند أحمد[١] نحوًا من أربعين ومئة حديث، وهي مفرقة في الصحيحين، وغيرهما من كتب السنة.

٢- صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص.

٣- صحيفة وهب بن منبه عن جابر رضي الله عنه[٢].

٤- صحيفة الحسن البصري عن سمرة رضي الله عنه.

٥- ومن ذلك: كتب عروة بن الزبير التي احترقت يوم الحرة[٣]، وكان يقول: وددت لو أن عندي كتبي بأهلي ومالي[٤].

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٣١٢، ٣١٩)

(٢) وقد حدث بصحيفة جابر أيضًا قتادة، والحسن البصري.

(٣) وقعة الحرة كانت سنة ٦٣ في خلافة يزيد.

(٤) المحدث الفاصل (٣٧٦) رقم ٣٥٣، تقييد العلم (٦٠)، جامع بيان العلم (١/ ١٥٣)

٦- ومن ذلك كتب عبد الرحمن بن الزناد كان يقول: كنا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع، فلما احتيج إليه؛ علمت أنه أعلم الناس[١].

٧- ومن ذلك كتب صالح بن كيسان قال: كنت أطلب العلم أنا والزهري، فقال: نكتب السنن، قال: فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ[٢].

٨- ومن ذلك كتب الحسن البصري يقول الحسن: إن لنا كتبًا نتعاهدها[٣].

٩- ومن ذلك كتب الشعبي التي دوّن فيها السنن، حتى قال: الكتاب قيد العلم[٤].

١٠- ومن ذلك كتب سعيد بن جبير، حتى بلغ من حرصه أنه كان إذا جالس ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما فيسمع منهما الحديث، فيكتبه في واسطة الرحل فإذا نزل نسخه[٥].

- وابن عقيل، ومحمد بن الحنفية، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن يزيد الجرمي، وقتادة بن دعامة السدوسي، وخلق كثير[٦].

فأنت ترى بوضوح: أن الزعم بأن السنة لم تكن مكتوبة مدونة سوى في منتصف القرن الثاني للهجرة، وأن المسلمين لم يكن لهم كتاب مكتوب سوى القرآن؛ دعوى عارية من الصحة، بعيدة عن الصواب "وشر المطية زعموا"

قال ابن رجب: اعلم أن العلم المتلقى عن النبي ﷺ -من أقواله وأفعاله- كان الصحابة ﭫ في زمن نبيهم ﷺ يتداولونه بينهم، حفظًا له ورواية، ومنهم من كان يكتب،

---

(١) تهذيب الكمال (٢٦/ ٤٢٢)، تاريخ دمشق (٥٨) رقم ٥٨.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٣٨٨)، المعرفة والتاريخ (١/ ٦٣)، الحلية (٣/ ٣٦)، تاريخ دمشق (٦٢)

(٣) الجامع لأخلاق الراوي (١٠٤)، المحدث الفاصل (٣٧١)، تقييد العلم (١٠٠، ١٠١)، جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٥٢).

(٤) المحدث الفاصل (٣٥) رقم ٣٥، تقييد العلم (٩٩) جامع بيان العلم (١/ ١٥٣)

(٥) سنن الدارمي (١/ ١٣٨، ٤٩٥)، تقييد العلم ١/ ١٣٠. جامع بيان العلم (١/ ١٤)

(٦) انظر: على سبيل المثال: كتاب تقييد العلم للخطيب (٩٩-١٠٨) على أن الدكتور محمد مصطفى الأعظمي أحصى في كتابه "دراسات في الحديث النبوي "أكثر من خمسين ومائة تابعي (١٥٠) ممن دوّن السنة، ولم يزعم بعمله هذا أنه استقصى، أو أراد الاستقصاء في البحث فلله درّهم.

ثم بعد وفاة النبي ﷺ كان بعض الصحابة يرخص في كتابة العلم عنه، وبعضهم لا يرخص في ذلك، ودرج التابعون أيضًا على هذا الاختلاف، والذي كان يكتب في زمن الصحابة والتابعين لم يكن تصنيفًا مرتبًا مبوبًا، إنما كان يكتب للحفظ والمراجعة فقط، ثم إنه في عصر تابعي التابعين صنف التصانيف[١].

وقد كانت تصانيفهم تجمع أحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين، وكان من أوائل من صنف من أتباع التابعين على ما ذكر العلماء: ابن جريج بمكة، ومالك بن أنس بالمدينة، والربيع بن صبيح، وحماد بن سلمة، وسعيد بن أبي عروبة بالبصرة، وسفيان الثوري بالكوفة، ومعمر باليمن، وعبد الله بن المبارك بخراسان، والأوزاعي بالشام، وهشيم بواسط، وجرير بن عبد الحميد بالرِّي[٢].

قال العراقي وابن حجر: وكان هؤلاء في عصر واحد فلا ندري أيهم أسبق[٣].

وقد وصل إلينا من مصنفات أتباع التابعين، كتاب (الموطأ) لإمام دار الهجرة مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ).

قال الشافعي عنه: ما في الأرض بعد كتاب الله أكثر صوابًا من موطأ مالك بن أنس[٤].

وكتاب (الموطأ) مشهور شهرة عظيمة، وقد طُبع ما لا يحصى من المرات، وقد رواه عن مالك خلق كثير، ولكن أشهر رواية له هي رواية يحيى بن يحيى الأندلسي.

وكذلك وصل إلينا كتاب (الجامع) لمعمر بن راشد الصنعاني (ت١٥٤هـ)، وقد طُبع مع مصنف عبد الرزاق في آخر ملحق به[٥].

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٦-٣٧).
(٢) انظر مقدمة فتح الباري (٨)، وشرح علل الترمذي (١/ ٣٧-٣٨-٣٩)، وتدريب الراوي (١/ ٨٩).
(٣) تدريب الراوي (١/ ٨٩).
(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١/ ٧٧).
وقال ابن الصلاح: إنما قال الشافعي ذلك قبل وجود كتابي: البخاري ومسلم.
وقال ابن حجر: إنَّ الشافعي إنَّما أطلق على الموطأ أفضلية الصحة بالنسبة إلى الجوامع الموجودة في زمنه: كجامع سفيان الثوري، ومصنف حماد بن سلمة، وغير ذلك، وهو تفضيل مُسلَّم لا نزاع فيه. مقدمة فتح الباري (١٢).
(٥) المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ).

وكذلك وصل إلينا جزء من (الجامع الصغير) للإمام العلم: سفيان بن سعيد الثوري، ولسفيان الثوري جامعان: (الجامع الصغير)، وهو آثار كله، كما قال أبو العرب القيرواني في (طبقاته)، و (الجامع الكبير في الفقه والاختلاف)، وهذا الكتاب اشتمل بالإضافة إلى الآثار على أقوال كثيرة لسفيان الثوري وفتاويه[1].

ووصل إلينا أيضًا مصنفات لعبد الله بن المبارك (١١٨-١٨١هـ) ككتاب (الزهد) وكتاب (الجهاد)، وكلاهما مطبوع.

وقال ابن حجر: ثم تلا المذكورين -أي أتباع التابعين الذين بدأوا التصنيف- كثير من أهل عصرهم إلى أن رأى بعضُ الأئمة أن تفرد أحاديث النبي ﷺ خاصة، وذلك على رأس المائتين، فصنف عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي مسندًا، وصنف مُسَدَّد البصري مسندًا، وصنف أسد بن موسى الأموي مسندًا، ثم اقتفى الأئمة آثارهم، فقلَّ إمام من الحفاظ إلا وصنف حديثه على المسانيد، كأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعثمان بن أبي شيبة[2].

والمسند هو: كتاب يجمع فيه صاحبه ما رواه كل صحابي على حدة، فيبدأ مثلًا بما رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ، ثمَّ ما رواه عمر، ثم ما رواه عثمان، ثم ما رواه علي، وهكذا، ولا يكون ترتيبًا على الأبواب الفقهية.

وقد صنف المسند بالإضافة إلى من ذكرهم ابن حجر:

- أبو داود الطيالسي (١٣٣-٢٠٤هـ)، بل قال الحاكم، والخليلي في (الإرشاد): أنَّ أولَّ من صنف المسند على ترتيب الصحابة بالبصرة: أبو داود الطيالسي، وبالكوفة عبيد الله بن موسى[3].

---

(١) استفدنا هذا من تحقيق الدكتور عاصم حسن صبري لكتاب الزهد للمعافى بن عمران الموصلي (ت١٨٥هـ)، وهو أحد رواة (الجامع) عن سفيان.

(٢) تدريب الراوي، للسيوطي (١/ ٨٩)، نقلًا عن ابن حجر.

(٣) الإرشاد في معرفة علماء الحديث للخليل بن عبد الله بن الخليل الخليلي القزويني (١٤٩).
وقول الحاكم نقله عنه ابن رجب في شرح علل الترمذي (١/ ٤٠).

- وكذلك صنف الحميدي (ت٢١٩هـ)، وهو من شيوخ البخاري مسندًا، وكثير من هذه المسانيد مطبوعة ومتداولة.

ثم دخل القرن الثالث للهجرة، وهو العصر الذهبي لتدوين السنة النبوية الشريفة، وما انخرم هذا القرن إلا والسنة النبوية قد دُونت بالكامل تقريبًا، فما من إمام من أئمة الحديث الحفاظ إلا وصنف كتابًا يجمع فيه أحاديث النبي ﷺ، التي سمعها بالأسانيد إلى رسول الله ﷺ.

وكان من أبرز وأشهر من دون السنة في هذا العصر: إمام المحدثين، وجبل الحفظ وقدوة العلماء، العالم الرباني أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ).

ورأى أن يفرد صحيح الأحاديث بكتاب، فصنف كتابه (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)[١]، وهو المشهور بـ (صحيح البخاري)، وكان مَمَّا قوّى عزمه على تأليف هذا الكتاب: أنه كان يومًا عند شيخه إسحاق بن راهويه فقال إسحاق: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله ﷺ.

قال البخاري: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع (الجامع الصحيح)[٢].

قال الإمام النسائي: ما في هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن إسماعيل[٣].

ثم تلاه صاحبه وتلميذه: الإمام الحجة أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٤-٢٦١)، وسار على دربه، ونسج على منواله، وأفرد الأحاديث الصحيحة بكتاب، وهو المشهور بـ (صحيح مسلم)، ولكن البخاري ومسلم-كلاهما- لم يستوعبا الصحيح كله. فعن إبراهيم بن معقل قال: سمعتُ البخاري يقول: ما أدخلتُ في كتابي (الجامع) إلا ما صح، وتركتُ من الصحاح لحال الطول[٤].

---

(١) ذكر هذا الاسم ابن حجر في مقدمة فتح الباري (١٠)، وذكر النووي في (تهذيب الأسماء واللغات) (١/ ٧٣)، أن اسمه (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺوسننه وأيامه).

(٢) مقدمة فتح الباري (٩).

(٣) مقدمة فتح الباري (١٢).

(٤) أخرجه الحافظ المزي في تهذيب الكمال (٢٤، ٤٤٢).

وكذلك مسلم لم يستوعب كل الصحيح، قال النووي:

اتفق العلماء على أنَّ أصح الكتب بعد القرآن العزيز: البخاري ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحهما، وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة، وقد صح أنَّ مسلمًا كان ممن يستفيد من البخاري، ويعترف بأنَّه ليس له نظير في علم الحديث[١].

وقال ابن كثير: أول من اعتنى بجمع الصحيح: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وتلاه صاحبه وتلميذه مسلم بن الحجاج ، فهما أصح كتب الحديث[٢].

وصنف أيضًا- مع البخاري ومسلم في هذا العصر- أصحاب السنن الأربعة سننهم، وهي: (سنن أبي داود) لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥)، و (سنن الترمذي) أو (جامع الترمذي) لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (٢١٠-٢٧٩)، و (سنن ابن ماجه) لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٩-٢٧٣)، المعروف بابن ماجه، و (سنن النسائي) لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، وقد اختصره ابن السُّنِّي وهو تلميذ النسائي وسمَّاه (المجتبى) كما قال الذهبي[٣].

فللنسائي كتابان: الأول، ويعرف (بالسنن الكبرى)، والثاني وهو (المجتبى)، وهو اختصار واختيار تلميذه ابن السُّنِّي.

وهذه الكتب الأربعة جمعت الصحيح والضعيف، ويطلق عليها: كتب السنن، ويطلق عليها مع الصحيحين: الكتب الستة، وهي أشهر كتب السنة، بالإضافة إلى (موطأ) مالك، ومسند أحمد بن حنبل.

وممن صنف أيضًا في هذا العصر الذهبي غير أصحاب الكتب الستة:

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١، ١٤).
(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (١٠٢-١٠٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٥٦).

- الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (١٨١-٢٥٥)، وكتابه معروف بـ (سنن الدارمي).

- وأبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (٢١٠-٣٠٧)، وكتابه معروف بـ (مسند أبي يعلى).

- وأبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (٢٢٣-٣١١)، وكتابه معروف بـ (صحيح ابن خزيمة).

- وتبعه تلميذه: أبو حاتم محمد بن حبان التميمي السجستاني (ت٣٥٤هـ)، وكتابه يُعرف بـ (صحيح ابن حبان).

لكن قال العلماء: إنَّ كتابيهما لا يبلغان مبلغ البخاري ومسلم، فقد اشترطا الصحة ولكنهما تساهلا في الحكم بالصحة على أحاديث كثيرة.

وصنف خلق كثير غير هؤلاء في هذا العصر، ثم تبعهم أئمة حفاظ آخرون.

فمنهم الطبراني (٢٦٠هـ-٣٦٠هـ)، فقد صنف معاجمه الثلاث: (المعجم الكبير)، و(المعجم الأوسط)، و (المعجم الصغير)، وغير ذلك من الكتب.

والدار قطني (٣٠٦-٣٨٥هـ)، وكتابه معروف (بسنن الدار قطني).

ثم صنف أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المعروف بالحاكم (ت٤٠٥هـ) (المستدرك على الصحيحين).

وتبعه تلميذه: أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ)، وصنف (السنن الكبرى)، و(السنن الصغير)، وغير ذلك كثير من الكتب، وهذه هي أشهر كتب السنة التي جمعت حديث رسول الله ﷺ، وهناك مئات أخرى من الكتب ما بين مسانيد ومعاجم، وسنن وصحاح، وجوامع وأجزاء حديثية لا يتسع المجال لذكرها، والحمد لله رب العالمين.

وبهذا يتبين بجلاء من خلال هذه المراحل اتصال النقل إلى النبي ﷺ، فلم يُنْقل كلام عنه إلا بإسناد، ووضع العلماء القواعد لتمييز الأسانيد، صحيحها من سقيمها، وبهذا اختصت هذه الأمة بأنها أمة الإسناد، فليس بينها وبين نبيها سقط أو انقطاع، والحمد لله رب العالمين.

الوجه السابع: وجود ضوابط وأسس حتى تقبل بها الروايات، ومنها:

١-المعارضة: وهي مقابلة المكتوب - بالسماع من الشيخ المروي عنه- مرة أخرى مع الشيخ، بأن يقرأ عليه ما كتب؛ حتى يُجيزه الشيخ به، وتلك سنة أخذها المحدثون من النبيﷺ حتى قال في مرض موته: **"إن جبريل كان يُعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي. . . . ."**.[1]

بل إن أنس بن مالك ﷺكان له كتاب عن النبي ﷺكتبه عنه، وعرضه عليه، كما في مستدرك الحاكم، وقد مر منذ قليل.

حتى عقد الخطيب البغدادي لذلك بابًا في كتابه: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع قال فيه[2]: باب وجوب المعارضة بالكتاب لتصحيحه، وإزالة الشك والارتياب، ثم قال: يجب على من كتب نسخة من أصل بعض الشيوخ أن يُعارض نسخته بالأصل، فإن ذلك شرط في صحة الرواية من الكتاب المسموع.

ثم روى بسنده عن هشام بن عروة قال: قال لي أبي: كتبت؟ قال: قلت: نعم، قال عارضت؟ قلت: لا، قال: فلم تكتب!

٢- حفظ الكتاب، وذلك بأمرين: **الأول**: صيانته ألا تصل له يد، وقد مر أن عبد الله ابن عمرو كان له صندوق له حلق يحفظ فيه كتابه، وكان علي يحفظ كتابه في قراب سيفه، وكان خالد بن معدان الذي لقي سبعين صحابيًا يتخذ لكتابه عرى وأزرارًا؛ حفظًا له[3].

الثاني: حفظه حفظ الصدر، فقد كان قتادة يحفظ صحيفة جابر ﷺ.

أقول: ثم كان بعد ذلك أول جمع للسنة يُراد به الاستقصاء؛ خوفًا من أن يندرس العلم ويضيع، وذلك في سنة مئة أو نحوها، حيث بعث عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- بأمر لابن شهاب الزهري أن يدون سنة النبي ﷺ، وبعث به إلى كل أرض له عليها سلطان.[4]

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٠)، والمعارضة: المقابلة في القراءة عن ظهر قلب.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٥٤)، وانظر: التقييد والإيضاح (١/ ٢٢٠).

(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ٩٣)، توثيق السنة (٦٢)

(٤) فتح الباري (١/ ٢٥١، ١١٣)

وبعثه لأبي بكر بن حزم الأنصاري: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث رسول الله ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا[(١)].

خلاصة ما مر:

١- كتابة السنة كانت موجودة في عصر الصحابة والتابعين، وقلَّ تابعي لم يكن له كتاب.

٢- تدوين السنة بمعنى جمعها وتصنيفها بدأ في نهاية القرن الهجري الأول.

٣- أن التدوين المعني في الفقرة السابقة هو: التأليف والترتيب، وذلك ما عناه علماء الإسلام بقولهم: أول مَن دوّن السنن ابن شهاب الزهري، ولذا قال الحافظ في الفتح: وأول مَن دوّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز ثم كثر التدوين، ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير[(٢)].

٤- أن جمع عمر بن عبد العزيز ﷺ قام على أسس الرواية الشفاهية، وهذا الجمع الذي جمعه الصحابة والتابعون.

* * *

(١) البخاري ١/ ٤٩، والدارمي في المقدمة (١/ ١٣٧)، والخطيب في تقييد العلم (١/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) فتح الباري ١/ ٢٠٨.

٤ـ رواية الحديث بالمعنى

نص الشبهة:

ادعاؤهم أن تأخر تدوين السنة أدى إلى روايتها بالمعنى؛ فضاع كثير من ألفاظها.

والرد على ذلك من وجوه.

الوجه الأول: شروط وضوابط قبول الحديث، وطرق تحمله.

الوجه الثاني: أن الأصل هو المنع من رواية الحديث بالمعنى.

الوجه الثالث: شروط وضوابط رواية الحديث بالمعنى عند مَنْ جوزها.

الوجه الرابع: الرواية بالمعنى تمنع باتفاق في الأحاديث المتعبد بلفظها: كالأذكار.

الوجه الخامس: الرواية بالمعنى على أنواع.

الوجه السادس: رواية الصحابة لم تكن بالمعنى على الإطلاق.

الوجه السابع: الاختلاف في التلقين يؤدي إلى الاختلاف في التعبير.

الوجه الثامن: ثقة الصحابة وضبطهم وعدالتهم.

الوجه التاسع: إن القواعد التي أخذ بها جامعوا الأحاديث أنفسهم عند تدوينها هي أدق وأرقى ما وصل إليه علم النقد.

الوجه العاشر: الرواية بالمعنى لا تعد كذبًا، والصحابة إنما أمروا بالتبليغ على ما جرت به العادة.

الوجه الحادي عشر: الأحاديث ليست كلها قولية، بل منها ما هو إخبار عن أفعال النبي ﷺ، وهي كثيرة.

الوجه الثاني عشر: التابعون كانوا يحفظون الحديث كما يحفظون القرآن.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: شروط وضوابط قبول الحديث، وطرق تحمله.

قال القاضي عياض: اعلم أن طريق النقل ووجوه الأخذ وأصول الرواية على أنواع كثيرة، ويجمعها ثمانية ضروب، وكل ضرب منها له فروع وشعوب، ومنها ما يتفق عليه في الرواية والعمل، ومنها ما يختلف فيهما جميعًا أو في أحدها، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى:

أولها: السماع من لفظ الشيخ. **ثانيها**: القراءة عليه. **ثالثها**: المناولة.

رابعها: الكتابة. **خامسها**: الإجازة. **سادسها**: الإعلام للطالب بأن هذه الكتب روايته.

وسابعها: وصيته بكتبه له. **وثامنها**: الوقوف على خط الراوي فقط (**الوجادة**).[(١)]

فمصطلح الحديث: علم يعرف به حال الراوي والمروي من حيث القَبول والرد.

ثم اعلم أن رواية الحديث فرع عن أصل، وهو: تحمل الحديث، ثم هي فرع عن أصل آخر وهو: شروط الراوي المحتج به الذي يتحمل أهل العلم الرواية عنه، والتي تضمن الكفاية لصدق الراوي فيما يروي، ثم لضبطه وسلامته من الغفلة والنسيان.

وشروط الراوي المتحمل للحديث:

- الإسلام: فإن سمع كافرًا، وأدى مسلمًا؛ قُبل منه.

- التكليف: بأن يكون بالغًا عاقلًا، واشتراط البلوغ لكون الطفل لا وازع له يكفه عن الكذب، وأما العقل فحتى يُميز ويَعي ويُدرك ما يسمعه، فإن سمع الصبي، ووعى وضبط، ثم أداه بالغًا؛ قُبل.

- العدالة: وهي ملكة حاملة على ملازمة التقوى يسلم بها صاحبها من أسباب الفسق وخوارم المروءة، والتقوى: امتثال المأمورات واجتناب المنهيات فلا يفعل كبيرة، ولا يصر على صغيرة.

-المروءة: أدب نفس يحمل صاحبه على الوقوف على محاسن الأخلاق، وجميل العادات، ومما يُخل بها: الصغائر الدالة على الخسة، والمباحات التي تورث احتقار الناس وتذهب بكرامة العالم، كفرط مزاح يخرج به عن حد الآداب المرعية.

- الضبط: والمقصود بالضبط: ضبط رواية الحديث، وهو قسمان:

ضبط صدر، وضبط كتاب.

فالأول: بأن يحفظ ما سمعه من شيخه بحيث يتمكن من استحضاره، والتحديث به متى شاء، من وقت سماعه إلى وقت أدائه.

---

(١) الإلماع بإثبات السماع (١/ ٦٨).

والثاني: بأن يحافظ على كتابه الذي كتبه بإملاء شيخه، ثم معارضته مع الأصل، وصيانته من أن يتطرق إليه تغيير، من وقت سماعه إلى وقت أدائه، بحيث لا يُعيره إلا لمن يثق بدينه وعلمه.

والعدالة والضبط يُعرفان بالاشتهار، والشهرة لها معنيان:

١- شهرة الراوي بحيث تنتفي جهالة عينه، ويعلم صدقه وعدالته، فهذه تنفي عنه جهالة العين.

٢- شهرته بطلب علم الحديث، بحيث يتبين ضبطه وتحريه.

قال الخطيب البغدادي: ذكر صفة من يحتج بروايته إذا كان يحدث من حفظه للرواية عن الحفظ شرائط نحن نذكرها بمشيئة الله تعالى، ونشرح ما يتعلق بها، فأول شرائط الحافظ المحتج بحديثه، إذا ثبتت عدالته: أن يكون معروفًا عند أهل العلم بطلب الحديث وصرف العناية إليه.

قال شعبة: خذوا العلم من المشتهرين.

قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر: لا يؤخذ العلم إلا عمن شهد له بطلب الحديث.

قال عبد الله بن عون: لا نكتب الحديث إلا ممن كان عندنا معروفا بالطلب.

قال ابن وهب وحدثني مالك، قال: أدركت بهذا البلد رجالًا من بني المائةونحوها يحدثون الأحاديث، لا يؤخذ منهم، ليسوا بأئمة، فقلت لمالك: وغيرهم دونهم في السن يؤخذ ذلك منهم؟ قال: نعم، ويجب أن يكون حفظه مأخوذًا عن العلماء، لا عن الصحف.[1]

قال سليمان بن موسى: لا تأخذوا العلم من الصحفيين.

قال ثور بن يزيد: لا يفتي الناس صحفي، ولا يقرئهم مصحفي.

قال أحمد بن إسحاق النهاوندي: أنشدنا الحسن بن عبد الرحمن لبعضهم يذكر قومًا لا رواية لهم، ومن بطون كراريس روايتهم، لو ناظروا باقلاً يومًا؛ لما غلبوا، والعلم إن فاته

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (١/ ١٦١).

إسناد مسنده؛ كالبيت ليس له سقف ولا طنب، والتصحيف والإحالة يسبقان إلى من أخذ العلم عن الصحف.

قال يحيى بن سعيد: ينبغي في هذا الحديث غير خصلة، ينبغي لصاحب الحديث أن يكون ثبت الأخذ، ويكون يفهم ما يقال له، ويبصر الرجال ثم يتعاهد ذلك.

قال أبو نعيم: لا ينبغي أن يؤخذ الحديث إلا عن ثلاثة، حافظ له، أمين عليه، عارف بالرجال، ثم يأخذ نفسه بدرسه وتكريره؛ حتى يستقر له حفظه. (١)

قال عبد الرحمن بن مهدي: الحفظ هو الإتقان، ويجب أن يتثبت في الرواية حال الأداء، ويروي ما لا يرتاب في حفظه، ويتوقف عما عارضه الشك فيه.

قال عبد الله بن إدريس: كان أبي يقول لي: احفظ، وإياك والكتاب، فإذا حفظت فاكتب، فإن احتجت يومًا أو شغل قلبك وجدت كتابك. (٢)

قال مروان: ثلاثة ليس لصاحب الحديث عنها غنى: الحفظ، والصدق، وصحة الكتب، فإن أخطأت واحدة فكانت فيه ثنتان؛ لم يضره إن أخطأ الحفظ، ورجع إلى صدق وصحة كتب لم يضره، قال: وقال مروان طال الإسناد وسيرجع الناس إلى الكتب(٣).

قال جعفر الطيالسي: ينبغي للرجل أن يتزر بالصدق، ويرتدي بالكتب هكذا كان في كتاب ابن مهدي، ولم يجاوز جعفر(٤).

قال الشافعي: فقال لي قائل: احْدُدْ لي أقلَّ ما تقوم به الحجة على أهل العلم؛ حتى يَثْبَتَ عليهم خبرُ الخاصَّة؛ فقلت: خبرُ الواحد عن الواحد حتى يُنْتَهَى به إلى النبي، أو مَنْ انتهى به إليه دونه.

ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يَجْمَعَ أُمورًا منها:

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (٢/ ٥٤).
(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (٢/ ٤٩)
(٣) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (٢/ ٣٠٢)
(٤) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (٢/ ٣٠٤)

- أن يكون مَنْ حدَّثَ به ثِقَةً فِي دينه، معروفًا بالصِّدق في حديثه، عاقِلًا لِمَا يُحدِّثُ به، عالِمًا بما يُحيل مَعَانِيَ الحديث مِنَ اللفظ، وأن يكون ممن يُؤَدِّي الحديث بحروفه -كما سَمِعَ- لا يحدث به على المعنى؛ لأنه إذا حدَّث على المعنى، وهو غيرُ عالمٍ بما يُحِيلُ به معناه: لم يَدْرِ لَعَلَّهُ يُحِيل الحَلاَلَ إلى الحرام، وإذا أدَّاه بحروفه، فلم يَبْقَ وجهٌ يُخاف فيه إحالتُهُ الحديثَ، حافظًا إن حدَّث به مِنْ حِفْظِه، حافظًا لكتابه إن حدَّث مِنْ كتابه، إذا شَرِكَ أهلَ الحفظ في حديث؛ وافقَ حديثَهم، بَرِيًّا مِنْ أنْ يكونَ مُدَلِّسًا يُحَدِّثُ عَن من لقي ما لم يسمعْ منه، ويحدِّثَ عن النبي ما يحدث الثقات خلافَه عن النبي ﷺ، ويكونُ هكذا مَنْ فوقَه ممَّن حدَّثه، حتى يُنْتَهى بالحديث مَوْصُولًا إلى النبي ﷺ، أو إلى مَنْ انْتُهِيَ به إليه دونه؛ لأنَّ كلَّ واحد منهم مثْبِتٌ لمن حدَّثه، ومثبت على من حدَّث عنه؛ فلا يُسْتَغْنَى في كل واحد منهم عمَّا وصفْتُ[1].

-ولا يكون الحديث صحيحًا عند أهل العلم (النقاد)، ولو تحقق ما مر فيه حتى يستوفي شروط الصحة وهي:

١- اتصال السند.

٢-برواية العدل (على ما مر وصفه).

٣-الضابط (وقد مر وصفه قريبًا).

٤-من غير شذوذ، (وهي مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه، وسواء كانت المخالفة في السند، أو المتن).

٥- ولا علة قادحة، (كإرسال موصول، أو إدراج في متن، أو نحو ذلك).

ولا يعرف الشذوذ والعلة إلا بجمع طرق الحديث، واعتبار حديث الراوي بحديث غيره.

وهذا هو ما عرف به العلماء الحديث الصحيح بقولهم:

الحديث الصحيح هو: الحديث الذي يكون متصل الإسناد، من أوله إلى منتهاه، بنقل العدل الضابط عن مثله، ولا يكون فيه شذوذ ولا علة.

---

(١) الرسالة (١/ ٣٦٩).

قال السيوطي: حَدُّ الصَّحِيحِ: مُسنَدٌ بِوَصْلِهِ بِنَقْلِ عَدْلٍ ضَابِطٍ عَنْ مِثْلِهِ ولَمْ يَكُنْ شَذًّا وَلا مُعَلَّلا فأنت ترى: أن المحدثين قد وضعوا الضوابط والشروط لقبول الرواية والراوي، سواء عند التلقي والتحمل، أو الرواية والأداء، أو القبول والرد- وإن تحققت فيه شروط التحمل والأداء- وهذا أرقى ما توصلت له البشرية إلى وقتنا الحاضر في نقد المرويات[١].

وهل يحكم بصحة الحديث إذا صح السند؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن تُتَصور الشروط التي وضعها الأئمة للاحتجاج بالحديث، وقد سبق الإشارة إلى هذه الشروط بشيء من الاختصار الذي تقتضيه ضرورة البحث.

والإجابة الآن: أنه لا يحكم بصحة الحديث- وإن صح السند - حتى تتحقق فيه كامل الشروط، فإن تحققت؛ حُكِمَ له بالصحة، وإن اختل أحدها؛ لم يُحكم له بالصحة، وهذه كتب العلل والتخاريج شاهدة على ما نقول، بل هذه أحكام الأئمة المنتشرة في بعض دواوين السنة، وكتب الشروح دالة على ذلك أوضح دلالة.

فإذا أخل أحد الرواة بالحديث عند روايته بالمعنى، إما إخلالًا جزئيًا أو إخلالًا كليًا؛ لمخالفته ما مر من الشروط، إذا وقع ذلك؛ فإن أهل العلم المحققين به، وفرسان السنة ونقادها؛ لا يمرون ذلك، بل ينتقدونه ويبينونه في مصنفاتهم الكثيرة المنتشرة، ويبينون الصواب فيه.

هل رواية الحديث بالمعنى كانت جناية على السنة ترفع الاحتجاج بها؟

أولًا: الأصل في رواية الحديث هي روايته بلفظه لا بمعناه، وإنما تجوز رواية الحديث بالمعنى، بالشروط التي يأتي ذكرها.

ثانيًا: لو سلمنا أن الأصل رواية الحديث بالمعنى؛ فإنها ليست جناية على السنة، ولا تفضي إلى نتائج خطيرة، كما زعم المستشرقون وغيرهم، ذلك أننا لسنا متعبدين بألفاظ

(١) قلت: والعجب من هؤلاء المستشرقين: أن كتبهم منقطعة الاتصال، ورواتها مجهولون عندهم، ولا تكاد نسختان منها تتطابقان، حتى لجئوا للتلفيق والترقيع بينها ليخرجوا بنص مقبول، وكلما جد منهم فريق لا يرتضي عمل الآخر، ويمكن للقارئ العادي اكتشاف ذلك بالمقارنة بين طبعات الكتاب المقدس التي يسمونها نُسخًا، ومع ذلك فهم يهرفون بما لا يعرفون، ويدعون ما لا يستطيعون إثباته في سنة نبينا ﷺ، وحقًا: إن لم تستح؛ فاصنع ما شئت.

الحديث النبوي، وإنما المقصود هو المعنى، ومع حصول المعنى فلا أثر لاختلاف اللفظ، وهذا أمر يقيني لا ريب فيه ولا نكير، وبخاصة أن الذين رووا الحديث بمعناه كانوا عربًا خُلّصًا غالبًا، وكانوا فرسان فصاحة وبلاغة، وأنهم سمعوا من الرسول ﷺ، أوممن سمع منه، وهم من أعلم الناس بمواقع الخطاب ومحامل الكلام، وأنهم أهل دين وتقوى وعدالة وضبط، ويعلمون أن ما يروونه أمر دين، فإذا ما أخل أحدهم بمعنى الرواية لغير قصد؛ فإن جهابذة أهل الفن ينتقدونه عليه، ويبينون وجه الصواب فيه.

الوجه الثاني: أن الأصل هو المنع من رواية الحديث بالمعنى.

قال القاضي عياض: باب تحرى الرواية والمجيء باللفظ:

لا خلاف أن على الجاهل والمبتدئ، ومن لم يمهر في العلم، ولا تقدم في معرفة تقديم الألفاظ وترتيب الجمل وفهم المعاني؛ أن لا يكتب، ولا يروى، ولا يحكى حديثًا إلا على اللفظ الذي سمعه، وأنه حرام عليه التعبير بغير لفظه المسموع، إذ جميع ما يفعله من ذلك تحكم بالجهالة، وتصرف على غير حقيقة في أصول الشريعة، وتقول على الله ورسوله ما لم يحط به علمًا.

وقديمًا هاب الصحابة رضوان الله عليهم فمن بعدهم الحديث عن النبي ﷺ، وتبديل اللفظ المسموع منه، وحض النبي ﷺ على ذلك، وأمر بإيراد ما سمع منه كما سمع.

فعن البراء بن عازب قال: قال لي رسول الله ﷺ: **"إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ اللهمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أمري إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، اللهمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الذي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ"**

قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النبي ﷺ، فَلَمَّا بَلَغْتُ: **"اللهمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الذي أَنْزَلْتَ " قُلْتُ: وَرَسُولِكَ، قَالَ: " لاَ، وَنَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ[1]"**

(١) البخاري (٢٤٧)، مسلم (٢٧١٠).

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: كان عبد الله بن مسعود يمكث السَّنَةَ لا يقول قال رسول الله ﷺ: فإذا قال: قال رسول الله ﷺ؛ أخذته الرعدة ويقول: أو هكذا، أو نحوه، أو شبهه. (١)

وقال ﷺ: "**نضر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها؛ فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه.** (٢)"

ومنعه المحدثون والفقهاء، وشددوا فيه، ولم يجيزوا ذلك لأحد، ولا سوَّغوا إلا الإتيان به على اللفظ نفسه في حديث النبي ﷺ وغيره، وروى نحوه عن مالك أيضا، وشدد مالك الكراهية فيه في حديث النبي ﷺ، وروى عنه في سماع أشهب: أما في حديث النبي ﷺ فأحب إلى أن يؤتى به على ألفاظه، ورخص فيه في حديث غيره، وفى التقديم والتأخير، وفى الزيادة والنقص.

فكان مالك يتقى في حديث رسول الله ﷺ الباء والتاء ونحوهما، ويقول: أما حديث رسول الله ﷺ؛ فأحب أن يؤتى به على ألفاظه.

وما قاله- رحمه الله- الصواب؛ فإن نظر الناس مختلف، وأفهامهم متباينة، وفوق كل ذي علم عليم، كما قال رسول الله ﷺ: "ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه" فإذا أدى اللفظ؛ أمن الغلط، واجتهد كل من بلغ إليه فيه، وبقى على حاله لمن يأتي بعدن وهو أنزه للراوي، وأخلص للمحدث. (٣)

الوجه الثالث: شروط وضوابط رواية الحديث بالمعنى - عند مَن جوَّزها -.

اختلف السلف وأرباب الحديث والفقه والأصول: هل يسوغ ذلك لأهل العلم فيحدثون على المعنى، أولا يباح لهم ذلك؟ (٤)

قال ابن الملقن: إذا أراد رواية ما سمعه على معناه دون لفظه فإن لم يكن عالمًا بالألفاظ ومقاصدها، خبيرًا بما يحيل معانيها، بصيرًا بمقادير التفاوت بينها، فلا خلاف أنه لا يجوز

---

(١) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص: ٥٤٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٠)، وصححه الألباني.

(٣) الإلماع (١/ ١٧٨).

(٤) الإلماع (١/ ١٨٠: ١٧٨).

له ذلك، بل يتعين رواية اللفظ الذي سمعه منه، فإن كان عالمًا بذلك فأقوال:

أحدها: المنع أيضًا، وبه قالت طائفة من المحدثين والأصوليين والفقهاء.

وثانيها: لا يجوز في حديثه ﷺ، ويجوز في غيره.

وأصحها عند جمهورهم: الجواز إذا قطع بأداء المعنى، وهو الذي يشهد به أحوال الصحابة والسلف(١).

قال الخطيب البغدادي: ورواية حديث رسول الله ﷺ، وحديث غيره على المعنى جائزة عندنا إذا كان الراوي عالمًا بمعنى الكلام وموضوعه، بصيرًا بلغات العرب ووجوه خطابها، عارفًا بالفقه واختلاف الأحكام، مميزًا لما يحيل المعنى وما لا يحيله، وكان المعنى أيضا ظاهرًا معلومًا، وأما إذا كان غامضا محتملًا؛ فإنه لا يجوز رواية الحديث على المعنى، ويلزم إيراد اللفظ بعينه وسياقه على وجهه، وقد كان في الصحابة رضوان الله عليهم من يتبع روايته الحديث عن النبي ﷺ بأن يقول: أو نحوه، أو شكله، أو كما قال رسول الله ﷺ، والصحابة أرباب اللسان، وأعلم الخلق بمعاني الكلام، ولم يكونوا يقولون ذلك إلا تخوفًا من الزلل؛ لمعرفتهم بما في الرواية على المعنى من الخطر، والله أعلم(٢).

- فيتلخص من ذلك شروط رواية الحديث بالمعنى وهي:

١- أن يكون الراوي عالمًا وفاهمًا لمعنى الحديث.

٢- أن يكون الراوي عالمًا بلغات العرب، ومرادفات الألفاظ، وتراكيب الجُمل.

٣- أن يكون عالمًا بالفقه، واختلاف الأحكام؛ حتى يميز بين ما تحمله الألفاظ من معانٍ.

٤-أن يكون مميزًا لما يحيل معاني الألفاظ والتراكيب؛ فلا يبدل عامًا بخاص، ولا مطلقًا بمقيد، ولا خفيًا بجلي. . . . . . إلخ.

---

(١) المقنع في علوم الحديث (١/ ٣٧٢)

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٣/ ٢٦١- ٢٧٤)، وانظر: مقدمة ابن الصلاح (١/ ١٢٠).

٥- أن يكون المعنى ظاهرًا معلومًا.

فالذين أجازوها؛ على أنها رخصة تقدر بقدر الحاجة إليها، لا على أنها أصل يتبع ويلتزم في الرواية[1].

الوجه الرابع: الرواية بالمعنى تمنع باتفاق في الأحاديث المتعبد بلفظها كالأذكار.

كما اتفقوا على أن الراوي الثقة العالم باللغة العارف بما تحيله الألفاظ؛ ليس له أن يروي الحديث المتعبد بلفظه: (كألفاظ التشهد، والأذان ونحوها) وإن كان بمعناه قطعًا.

قلت: وإنما جازت رواية الحديث بمعناها؛ لأنه غير متعبد بألفاظه، وإنما بمعناه شرعًا؛ ولجواز شرح الشريعة للأعاجم، وترجمتها لهم، وإن كان الأصل روايته باللفظ؛ إذ هو عبارة أفصح الخلق الذي أوتي جوامع الكلم، فإن فات الراوي اللفظ، وأصاب المعنى؛ جاز؛ أداءً للحكم الشرعي؛ ونصحًا للأمة.

وهذا إنما جاز في عصر الرواية قبل تدوين الكتب والمصنفات، وأما بعد تدوينها؛ فلا يجوز إلا على سبيل الوعظ والتذكير، فأما إيراده على سبيل الاحتجاج والرواية في المؤلفات؛ فلا يجوز إلا باللفظ، كما مر في كلام ابن الملقن وغيره من أهل العلم.

فيشترط أن يكون مشتغلًا بالعلم، ناقدًا لوجوه تصرف الألفاظ، والعلم بمعانيها ومقاصدها جامعًا لمواد المعرفة بذلك.[2]

ويدل على ذلك: حديث البراء بن عازب في تعليم النبيﷺ له دعاء النوم.

الوجه الخامس: الرواية بالمعنى على أنواع.

والرواية بالمعنى لها صور مختلفة نذكرها- وإن كانت قليلة نادرة- وهذه الصور هي:

١- إبدال لفظ من ألفاظ الحديث بغيره، يؤدي المعنى التام.

٢- تقديم بعض ألفاظ الحديث على بعض.

---

(١) دفاع عن السنة (٧٣، ٧٤).

(٢) الإلماع (١/ ١٧٨).

٣- تغيير صورة المتن بالكلية، ويعبر عنه الراوي بلفظ من عنده.

٤- اختصار الحديث، فيذكر الراوي بعض اللفظ دون بعضه.

قلت: وهذه الصور الأربعة خارجة عن الأصل، وهو رواية الحديث بلفظه الذي جاء به، والصورة الثالثة منه قليلة الوقوع، وغالبًا ما تقع في حديث فعلي للنبي ﷺ فيعبرعنه الصحابي بلفظه كقوله: (لأنا أشبهكم صلاة برسول الله ﷺ، أو بوضوئه، أو نحو ذلك، أو كإخباره في الأحاديث القولية بحكم شرعي يفيد التحريم أو الإيجاب، بنحو قوله: أمرنا بكذا أو نهينا عن كذا. يريد بذلك حكاية حكما، ونحو ذلك.

وهذه الصورة هي أقل صور الرواية بالمعنى وقوعًا، وأما الصورة الرابعة، وهي اختصار الحديث فهي:

أن يعمد الراوي إلى متن الحديث، فيروي بعضه دون بعض.

وأسباب اختصار الحديث مختلفة فمنها:

١- أن يذكر الراوي جزءًا من الحديث على جهة الاستدلال على حكم معين في مسألة، فيقتصر عليه وحده.

٢- أن بعض الأئمة يصنف كتابه على الأبواب؛ فيحتاج أن يحتج بالحديث على كل مسألة فقهية؛ فيؤدي ذلك إلى التكرار والتطويل؛ فيقتصر على بعض اللفظ الذي يناسب الترجمة.

٣- أن يذكر المحدث، أو الناقد طرفًا من الحديث في كتب السنة، أو في تعليله.

قلت: وهذه الأسباب لا يدخل منها في باب الرواية سوى السبب الثاني من الأسباب المذكورة.

وقد اختلف أهل العلم في جواز اختصار الحديث من عدمه، والذين جوزوا اختصاره جوزوه بشروط رواية الحديث بالمعنى، بالإضافة إلى شروط أخرى وهي:

١- أن يكون الحديث بلفظين مستقلين في معنيين مستقلين، فيقتصر على أحدهما.

٢- ألا يكون اقتصاره على بعض اللفظ مخلًا بالمعنى.

٣- ألا يكون ما اختصره مرتبطًا بشيء قبله، ولا بشيء بعده.

قال ابن الملقن: وحرر الشيخ تقي الدين القشيري المسألة فقال: إن كان يغير المعنى لو اختصر؛ لم يجز اختصاره، وإن لم يغير مثل أن يذكر لفظين مستقلين في معنيين، فيقتصر على أحدهما، فالأقرب الجواز؛ لأن عهدة الرواية في التجويز هو: الصدق، وفي التحريم هو: الكذب، والصدق حاصل؛ فلا وجه للمنع، فإن احتاج ذلك إلى تغيير لا يخل بالمعنى؛ فهو خارج على جواز الرواية بالمعنى. (١)

الوجه السادس: رواية الصحابة لم تكن بالمعنى على الإطلاق.

قال القاضي عياض: لا يحتج باختلاف الصحابة في نقل الحديث الواحد بألفاظ مختلفة، فإنهم شاهدوا قرائن تلك الألفاظ، وأسباب تلك الأحاديث، وفهموا معانيها حقيقة، فعبروا عنها بما اتفق لهم من العبارات؛ إذ كانت محافظتهم على معانيها التي شاهدوها والألفاظ ترجمة عنها، وأما من بعدهم: فالمحافظة أولًا على الألفاظ المبلغة إليهم التي منها تستخرج المعاني، فما لم تضبط الألفاظ، وتتحرى، وتسومح في العبارات والتحدث على المعنى؛ انحل النظم، واتسع الخرق.

وجواز ذلك للعالم المتبحر معناه عندي: على طريق الاستشهاد، والمذاكرة، والحجة، وتحريه في ذلك متى أمكنه أولى، كما قال مالك: وفى الأداء والرواية آكد. (٢)

الوجه السابع: الاختلاف في التلقين يؤدي إلى الاختلاف في التعبير.

كان النبي ﷺ يلقن أصحابه؛ فيكون بين ما يلقنه ذا، وما لقنه ذاك شيء من ذاك الاختلاف في اللفظ، فحفظ أصحابه كل بما لقن، وضبطوا ذلك في صدورهم ولقنوه الناس، ورفع الحرج مع ذلك عن المسلمين، فكان بعضهم ربما تلتبس عليه كلمة مما

---

(١) المقنع في علوم الحديث (١/ ٣٧٧).

(٢) الإلماع (١/ ١٨٠).

يحفظه، أو يشق عليه النطق بها؛ فيكون له أن يقرأ بمرادفها، فمن ذلك ما كان يوافق حرفًا آخر، ومنه ما لا يوافق، ولكنه لا يخرج عن ذاك القبيل.(١)

أقول: قد يتوهم أن النبي ﷺ إنما علمهم تشهدًا واحدًا، ولكنهم- أو بعضهم- لم يحفظوه؛ فأتوا بألفاظ من عندهم، مع نسبتها إلى النبيﷺ، وهذا باطل قطعًا؛ فإن التشهد يكرر كل يوم بضع عشرة مرة على الأقل في الفريضة والنافلة، وكان النبي ﷺ يُحفِّظ أحدهم حتى يَحفَظ، وقد كان النبيﷺ يقريء الرجلين السورة الواحدة هذا بحرف وهذا بآخر، فكذلك علمهم مقدمة التشهد بألفاظ متعددة، هذا بلفظ وهذا بآخر، ولهذا أجمع أهل العلم على صحة التشهد بكل ما صح عن النبي ﷺ، وأما ذكر عمر التشهد على المنبر، وسكوت الحاضرين فإنما وجهه المعقول: تسليمهم أن التشهد الذي ذكره صحيح مجزيء.

وقد كان عمر يقرأ في الصلاة وغيرها القرآن، ولا يرد عليه أحد، مع أن كثيرًا منهم تلقوا عن النبيﷺ بحرف غير الحرف الذي تلقى به عمر، ومثل هذا كثير.

ومن الجائز أن يكونوا -أو بعضهم- لم يعرفوا اللفظ الذي ذكره عمر، ولكنهم قد عرفوا أن النبي ﷺ علم أصحابه بألفاظ مختلفة، وعمر عندهم ثقة، وأما قول بعضهم بعد وفاة النبي ﷺ: (السلام على النبي)، بدل (السلام عليك أيها النبي) فقد يكون النبي ﷺ خيره بين اللفظين، وقد يكون فعل ذلك باجتهاد خشية أن يتوهم جاهل أن الخطاب على حقيقته، أما الصلاة على النبي ﷺ فالتحقيق أنها موجودة في التشهدات كلها بلفظ: (ورحمة الله)، والقائل بوجوبها عقب التشهد بلفظ الصلاة لم يجعلها من التشهد، بل هي عنده أمر مستقل، والكلام في ذلك معروف، لا علاقة له بالرواية بالمعنى(٢).

الوجه الثامن: ثقة الصحابة وضبطهم وعدالتهم:

---

(١) الأنوار الكاشفة (١/ ٨٠).

(٢) الأنوار الكاشفة (١/ ٨٨).

فإن الذين نقلوا الأحاديث من الصحابة، ومن بعدهم من ثقات الرواة؛ كان لهم من الخصائص الدينية والنفسية والخلقية ما يعصمهم من التغيير والتبديل والتساهل في الرواية، وإنكار ذلك مكابرة[1].

الوجه التاسع: إن القواعد التي أخذ جامعوا الأحاديث بها أنفسهم عند تدوينها؛ هي أدق وأرقى ما وصل إليه علم النقد.

فهي تميز المقبول من المردود من المرويات، والحق من الباطل، والخطأ من الصواب.

هذه المقدمات والحقائق تسلمنا إلى نتيجة صادقة وهي: أن الكثير من الأحاديث النبوية وصلت إلينا بمحكم لفظها، وأن بعض الأحاديث قد رويت بالمعنى مع التحرز البالغ من التغيير المخل بالمعنى الأصلي، وأن ما عسى أن يكون قد دخل الأحاديث بسبب الرواية بالمعنى شيء يسير قد تنبه له العلماء وبيّنوه. [2]

الوجه العاشر: الرواية بالمعنى لا تعد كذبًا والصحابة إنما أمروا بالتبليغ على ما جرت به العادة.

فقد علمنا أن عادة الناس قاطبة؛ فيمن يلقى إليه كلام المقصود منه معناه، ويؤمر بتبليغه: أنه إذا لم يحفظ لفظه على وجهه، وقد ضبط معناه؛ لزمه أن يبلغه بمعناه ولا يعد كاذبًا، ولا شبه كاذب، وعلمنا يقينًا: أن الصحابة إنما أمروا بالتبليغ على ما جرت به العادة، من بقي منهم حافظا للفظ على وجهه؛ فليؤده كذلك، ومن بقي ضابطًا للمعنى، ولم يبق ضابطًا للفظ؛ فليؤده بالمعنى، وهذا أمر يقيني لا ريب فيه، وعلى ذلك جرى عملهم في حياة النبي ﷺ، وبعد وفاته؛ فإن الناس يبعثون رسلهم ونوابهم ويأمرونهم بالتبليغ عنهم، فإذا لم يشترط عليهم المحافظة على الألفاظ، فبلغوا المعنى؛ فقد صدقوا: ولو قلت لابنك اذهب فقل للكاتب: أبي يدعوك، فذهب وقال له: والدي-أو الوالد- يدعوك، أو يطلب مجيئك إليه، أو أمرني أن أدعوك له، لكان مطيعًا صادقًا، ولو اطلعت

---

(١) دفاع عن السنة (٧٤: ٧٣).

(٢) دفاع عن السنة (٧٣، ٧٤).

بعد ذلك على ما قال فزعمت أنه عصى أو كذب وأردت أن تعاقبه لأنكر العقلاء عليك ذلك، وقد قص الله ﷻ في القرآن كثيرًا من أ قوال خلقه بغير ألفاظهم، لأن من ذلك ما يطول فيبلغ الحد المعجز، ومنه ما يكون عن لسان أعجمي، ومنه ما يأتي في مواضع بألفاظ وفي آخر بغيرها، وقد تتعدد الصور كما في قصة موسى، ويطول في موضع ويختصر في آخر، فبالنظر إلى أداء المعنى كرر النبي ﷺ بيان شدة الكذب عليه، وبالنظر إلى أداء اللفظ اقتصر على الترغيب فقال: **"نصر الله امرءًا سمع منا شيئًا، فأداه كما سمعه؛ فرب مبلغ أوعى من سامع"** جاء بهذا اللفظ، أو معناه مطولًا ومختصرًا، من حديث ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأنس، وجبير بن مطعم، وعائشة، وسعد، وابن عمر، وأبي هريرة، وعمير بن قتادة، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وزيد بن خالد، وعبادة بن الصامت، منها الصحيح وغيره. وكان النبي ﷺ يتحرى معونتهم على الحفظ والفهم. (١)

الوجه الحادي عشر: الأحاديث ليست كلها قولية، بل منها ما هو إخبار عن أفعال النبي ﷺ، وهي كثيرة:

اعلم أن الأحاديث الصحيحة ليست كلها قولية، بل منها ما هو إخبار عن أفعال النبي ﷺ وهي كثيرة، ومنها ما أصله قولي، ولكن الصحابي لا يذكر القول بل يقول: أمرنا النبي ﷺ بكذا، أو نهانا عن كذا، أو قضى بكذا، أو أذن في كذا. . وأشباه هذا، وهذا كثير أيضًا، وهذان الضربان ليسا محل نزاع، والكلام في ما يقول الصحابي فيه: قال رسول الله كيت وكيت، أو نحو ذلك. (٢)

الوجه الثاني عشر: التابعون كانوا يحفظون الحديث كما يحفظون القرآن.

وأما التابعون فقد يتحفظون الحديث كما يحفظون القرآن، كما جاء عن قتادة أنه كان إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل، حتى يحفظه- هذا مع قوة حفظه-.

---

(١) الأنوار الكاشفة (١/ ٨٢).

(٢) الأنوار الكاشفة (١/ ٨٤).

ذكروا أن صحيفة جابر- على كبرها-قرئت عليه مرة واحدة، وكان أعمى؛ فحفظها بحروفها، حتى قرأ مرة سورة البقرة، فلم يخطئ حرفًا ثم قال: لأنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة، وكان غالبهم يكتبون ثم يتحفظون ما كتبوه، ثم منهم من يبقى كتبه، ومنهم من إذا أتقن المكتوب حفظًا محا الكتاب، وهؤلاء ونفر لم يكونوا يكتبون، غالبهم ممن رزقوا جودة الحفظ، وقوة الذاكرة كالشعبي والزهري وقتادة، وقد عرف منهم جماعة بالتزام رواية الحديث بتمام لفظه: كالقاسم بن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن سيرين، ورجاء بن حيوة.

أما أتباع التابعين فلم يكن فيهم راوٍ مكثر إلا كان عنده كتب بمسموعاته يراجعها، ويتعاهدها، ويتحفظ حديثه منها، ثم منهم من لم يكن يحفظ، وإنما يحدث من كتابه، ومنهم من جرب عليه الأئمة أنه يحدث من حفظه فيخطئ، فاشترطوا لصحة روايته أن يكون السماع منه من كتابه، ومنهم من عرف الأئمة أنه حافظ، غير أنه قد يقدم كلمة أو يؤخرها، ونحو ذلك مما عرفوا أنه لا يغير المعنى، فيوثقونه ويبينون أن السماع منه من كتابه أثبت.

فأما من بعدهم؛ فكان المتثبتون لا يكادون يسمعون من الرجل إلا من أصل كتابه كان عبد الرزاق الصنعاني ثقة حافظًا، ومع ذلك لم يسمع منه أحد بن حنبل ويحيى بن معين إلا من أصل كتابه هذا، وكان الأئمة يعتبرون حديث كل راو فينظرون كيف حدث به في الأوقات المتفاوته فإذا وجدوه يحدث مرة كذا ومرة كذا بخلاف لا يحتمل ضعفوه. وربما سمعوا الحديث من الرجل ثم يدعونه مدة طويلة ثم يسألونه عنه. ثم يعتبر حرف مرواياته برواية من روى عن شيوخه وعن شيوخ شيوخه، فإذا رأوا في روايته ما يخالف رواية الثقات حكموا عليه بحسبها. وليسوا يوثقون الرجل لظهور صلاحه في دينه فقط. ، بل معظم اعتمادهم على حاله في حديثه كما مر، وتجدهم يجرحون الرجل بأنه يخطئ ويغلط، وباضطرابه في حديثه، وبمخالفته الثقات، وبتفرده، وهلم جرا. ونظرهم عند تصحيح الحديث أدق من هذا، نعم، إن هناك من المحدثين من يسهل ويخفف، لكن العارف لا يخفى عليه هؤلاء من هؤلاء. فإذا رأيت المحققين قد وثقوا رجلًا مطلقًا فمعنى ذلك أنه

يروي الحديث بلفظه الذي سمعه، أو على الأقل إذا روى المعنى لم يغير المعنى، وإذا رأيتهم قد صححوا حديثًا فمعنى ذلك أنه صحيح بلفظه أو على الأقل بنحو لفظه، مع تمام معناه، فإن بان لهم خلاف ذلك نبهوا عليه[1].

قال ابن سيرين: كنت أسمع الحديث من عشرة، المعنى واحد والألفاظ مختلفة[2].

وكان ابن سيرين من المتشددين في أن لا يروى إلا باللفظ ومع هذا شهد للذين سمع منهم أنهم مع كثرة اختلافهم في اللفظ لم يخطئ أحد منهم المعنى- ولهذا لما ذكر له أن الحسن والشعبي والنخعي يروون بالمعنى اقتصر على قوله (إنهم لو حدثوا كما سمعوا كان أفضل) ومن تدبر ما تقدم من حال الصحابة وأنهم كانوا كلهم يراعون الرواية باللفظ، ومنهم من كان يبالغ في تحري ذلك. وكذا في التابعين وأتباعهم، وأن الحديث الواحد قد يرويه صحابيان أو أكثر، ويرويه عن الصحابي تابعيان فأكثر وهلم جرا، وأن التابعين كتبوا، وأن أتباعهم كتبوا ودونوا، وأن الأئمة اعتبروا حال كل راو في روايته لأحاديثه في الأوقات المتفاوتة، فإذا وجدوه يروي الحديث مرة بما يحيل معناه في روايته له مرة أخرى؛ جرحوه، ثم اعتبروا رواية كل راوٍ برواية الثقات، فإذا وجدوه يخالفهم بما يحيل المعنى؛ جرحوه، ثم بالغ محققوهم في العناية بالحديث عند التصحيح، فلا يصححون ما عرفوا له علة، نعم قد يذكرون في المتابعات والشواهد ما وقعت فيه مخالفة ما وينبهون عليه، من تدبر هذا ولم يعمه الهوى اطمأن قلبه بوفاء الله تعالى بما تكفل به من حفظ دينه، وبتوفيقه علماء الأمة للقيام بذلك، ولله الحمد، ويؤكد ذلك أن أبا رية حاول أن يقدم شواهد على اختلاف ضار وقع بسبب الرواية. [3]

* * *

(١) الأنوار الكاشفة ١/ ٨٥.

(٢) أخرجه الترمذي في العلل الصغير (ص: ٧٤٦).

(٣) الأنوار الكاشفة (١/ ٨٧)، وانظر الكفاية للخطيب (٢٠٦).

ثانيًا: شبهات حول السنة

وفيها:

١- شبهة: حديث الذبابة.

٢- شبهة: شرب أبوال الإبل وألبانها.

٣- شبهة: بول الصبي على النبي ﷺ.

٤- شبهة: كلام الحيوان كالبقرة والذئب في أحاديث السنة.

٥- شبهة: قصة الحمار يعفور.

٦- شبهة: الكلب الأسود شيطان.

٧- شبهة: الشيطان يبول في أذن النائم.

٨- شبهة: الشيطان يبيت على خيشوم المرء.

٩- شبهة: في حديث إدبار الشيطان وله ضراط.

١٠- شبهة: العين حق.

١١- شبهة: سجود الشمس تحت العرش.

١٢- شبهة: الإسراء و المعراج.

١٣- شبهة: شهادة الناس على الميت.

١٤- شبهة: عدد من يشفع للميت عند الصلاة عليه.

١٥- شبهة: تحول رأس المسلم إلى حمار.

١٦- شبهة: ابتلاء أحد الأنبياء بالقمل.

١٧- شبهة: وقت قيام الساعة.

١٨- شبهة: الحمى من جهنم.

١٩- شبهة: الأمر بالسعي إلى الجمعة.

٢٠- شبهة: اختلاف الأحاديث الواردة في أفضل الأعمال.

٢١- شبهة: الاختلاف في أشد الناس عذابًا.

٢٢- شبهة: حديث (وإن زنى وإن سرق).

٢٣- شبهة: ادعائهم أن الإسلام يبيح الغناء

٢٤- شبهة: حديث الماء من الماء.

٢٥- شبهة: بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا.

٢٦- شبهة: رزقي تحت ظل رمحي.

٢٧- شبهة: رواية الإسرائيليات في السنة.

٢٨- شبهة: وقوع اللعن في القران والسنة.

وإليك التفصيل

١ـ شبهة: حديث الذبابة.

نص الشبهة: وذلك في نقاط:

أولًا: إن هذا الحديث لم يروه إلا أبو هريرةﷺ، ولم يروه عن أبي هريرة إلا ابن حنين، ولم يرد إلا في البخاري.

ثانيًا: أنه خبر آحاد، وخبر الآحاد يجوز للمرء أن يعمل به أو يرده.

ثالثًا: أن الذباب ضار كما أثبت العلم ذلك، فكيف يوضع في الإناء؟.

رابعًا: أن تناول مثل هذا الشراب قد لا يستسيغه الكثير، فكيف سيعمل بالحديث إذن؟.

خامسًا: أن البعض قد ظنوا أن هذا الحديث هو من الأمور التي تخضع للاجتهاد قد تصيب وقد تخطئ.

سادسًا: أن موضوع متنه ليس من عقائد الإسلام، ولا من عباداته، ولا من شرائعه، ولا التزم المسلمون العمل به، بل لم يعمل به أحد منهم لأنه لا دخل له في التشريع، وإنما هو في أمور الدنيا كحديث " تأبير النخل "، وبالتالي من ارتاب فيه لم يضع من دينه شيئًا.

وللرد على هذه التساؤلات ترتيبًا كالتالي:

الأول: قدرة الله فوق كل شيء.

قال الطحاوي: فقال قائل من أهل الجهل بآثار رسول الله ﷺ وبوجوهها وهل للذباب من اختيار حتى يقدم أحد جناحيه لمعنى فيه، ويؤخر الآخر لمعنى فيه، خلاف ذلك المعنى فكان جوابنا له في ذلك بتوفيق الله ﷻ وعونه أنه لو قرأ كتاب الله ﷻ قراءة متفهم لما يقرؤه منه لوجد فيه ما يدله على صدق قول رسول الله ﷺ هذا وهو قوله ﷻ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (النحل: ٦٨).

وكان وحي الله ﷻ إليها هو إلهامه إياها، أن تفعل ما أمرها به، كمثل قوله ﷻ في الأرض ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ (الزلزلة٥: ٤)، ووحيه لها هو إلهامه إياها؛ ما شاء أن يلهمها إياه، حتى يكون منها ما أراد الله ﷻ أن يكون منها، والنحل كذلك

فيما يوحيه إليها؛ ليكون منها ما قد شاء الله ﷻ أن يكون منها؛ حتى يمضي في ذلك بإلهامه إياها له؛ وحتى يكون منها ما أراد ﷻ أن يكون منها، فمثل ذلك الذباب؛ ألهمه ﷻ ما ألهمه مما يكون سببًا لإتيانه لما أراده منه من غمس أحد جناحيه فيما يقع فيه مما فيه الداء، والتوقي بجناحه الآخر الذي فيه الشفاء ومن ذلك قوله ﷻ مما أخبر به عن النمل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨)، فألهمها الله ﷻ ما كان منها من ذلك، مما يكون سببًا لنجاتها ونجاة أمثالها من سليمان عليه السلام ومن جنوده، فمثل ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ في الذباب مما ذكرنا، ومثل ذلك ما قد أعلمنا الله ﷻ في الهدهد مع سليمان عليه السلام من قوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ (النمل: ٢٣)، وكان ذلك لإلهام الله ﷻ إياه ذلك، ولم يكن قبله من أهل الكلام حتى ألهمه ما ألهمه مما أنطقه به، فمثل ذلك: ما قد رويناه عن رسول الله ﷺ في الذباب مما ذكرنا وفيما تلونا مما في كتاب الله ﷻ في النحل وفي النمل؛ ما قد دل على أن سائر الأشياء كذلك، وأن الله تعالى يلهمها ما شاء إذا شاء؛ حتى يكون بها يلهمها من ذلك لغيرها من سائر خلقه مما هو معروف قبل ذلك، بمثل ما كان من ذلك الإلهام. والله ﷻ نسأله التوفيق[1].

قال ابن الجوزي: قد تعجب قوم من اجتماع الداء والدواء في شيء واحد، وليس بعجيب؛ فإن النحلة تعسل من أعلاها، وتلقي السم من أسفلها، والحية القاتل سمها يدخلون لحمها في الترياق، ويدخلون الذباب في أدوية العين، ويسحقونه مع الإثمد ليقوى البصر، ويأمرون بستر وجه الذي يعضه الكلب من الذباب، ويقولون إن وقع عليه تعجل هلاكه، وقد دل هذا الحديث على أنه إذا

مات في الماء اليسير ما ليست له نفس سائلة لم ينجس خلافًا لأحد قولي الشافعي[2].

الثاني: الرد على الطعن في أحاديث الذبابة، وإثبات صحتها.

---

(١) مشكل الآثار (٤/ ٢٨٥: ٢٨٣).

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/ ١٠٢١).

اعلم أن الأحاديث الواردة في إثبات الشفاء في أحد جناحي الذباب أحاديث صحيحة ثابتة ومنها:

عن أبي هريرة ﷺأن النبي ﷺ قال: " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه، فإن في أحد جناحيه داء والأخرى شفاء ". (١)

٢-عن أبي سعيد الخدري ﷺأن النبي ﷺ قال: " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليمقله". (٢)

٣-عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال: " في الذباب أحد جناحيه داء، وفي الآخر شفاء، فإذا وقع في الإناء؛ فأرسبوه فيذهب شفاؤه بدائه ". (٣)

الثالث: عدم تفرد البخاري بالحديث.

إن الحديث لم يتفرد به البخاري في صحيحه، فقد رواه غيره من أصحاب الكتب، كما تقدم ذكرهم في التخريج. وهو أصح كتاب بعد القرآن، وقد أجمعت الأمة كلها على قبوله والعمل بما فيه، ولم يطعن أحد في صحيح البخاري إلا بعض المبتدعة كالروافض وأمثالهم.

الرابع: عدم تفرد أبي هريرة ﷺ بالرواية.

وأما دعوى تفرد أمير المؤمنين بحديث أبي هريرة ﷺ فلا تصح، لورود الحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ وقد سبق تخريجه، وكذلك علي بن أبي طالب ﷺ.

(١) رواه البخاري (٣٣٢٠)، وأحمد (٢/ ٢٤٦)، والدارمي (٢٠٣٨)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٣٨) وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٢٥)، وابن حبان (٥٢٥٠)، وفي لفظ عند البخاري (٥٤٤٥) " فليغمسه كله ثم ليطرحه " وهو عند ابن ماجه (٣٥٠٥)، وأحمد (٢/ ٣٩٨)، وفي لفظ ثالث في البخاري (٣١٤٢) (فليغمسه ثم لينزعه)، وهو عند البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٢٥٢)، شعب الإيمان (٥/ ١١٩)، وفي لفظ رابع عند أبي داود (٣٨٤٤) بسند صحيح " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه – أي فاغمسوه فيه – فإن في أحد جناحيه داء، وفي الآخر شفاء، وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء فليغمسه كله"وهو عند أحمد (٢/ ٢٢٩)، وابن خزيمة (١٠٥)، وابن حبان (١٢٤٦).

(٢) صحيح. رواه النسائي في سننه الصغرى (٤٢٦٢)، والكبرى (٣/ ٨٨)، وأحمد (٣/ ٢٤)، وأبو داود الطيالسي (٢١٨٨)، وأبو يعلى في مسنده (٩٨٦)، وعبد بن حميد (١/ ٢٧٩)، وابن حبان (١٢٤٧).

(٣) أورده السيوطي في الجامع الصغير (١٤٨٢)، وصححه، وعزاه لابن النجار عن علي ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٤٩).

ولو لم يروه إلا أبو هريرة لكفى فهو أحفظ من روى أحاديث النبي ﷺ حتى روى ما يزيد عن الخمسة آلاف حديث، وقد شهد له النبي ﷺ بذلك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ ". [(١)]

وأيضًا ما رُوي عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ يَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ. وَالله الْمَوْعِدُ؛ وَيَقُولُونَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لاَ يحدِّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ أمْرًا مِسْكِينًا أَلْزَمُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَحْضُرُ حِينَ يَغِيبُونَ، وَأَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا " لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعَهُ إِلَى صَدْرِهِ، فَيَنْسَى مِنْ مَقَالَتِي شَيْئًا أَبَدًا ". فَبَسَطْتُ نَمِرَةً، لَيْسَ عَلَيَّ ثَوْبٌ غَيْرَهَا، حَتَّى قَضَى النَّبِيُّ ﷺ مَقَالَتَهُ، ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَوَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَتِهِ تِلْكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَالله لَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ الله مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴾[(٢)].

الخامس: دعوى تفرد عبيد بن حنين عن أبي هريرة لا تصح.

فقد جاءت عن:

١-سعيد بن أبي سعيد المقبري كما عند أبي داود وأحمد وغيرهما.

٢-محمد بن سيرين كما عند أحمد والطبراني غيرهما.

٣-أبي سلمة كما عند أحمد وغيره.

وهذه الطرق الثلاثة طرق صحيحة ثابتة.

---

(١) البخاري (٩٩).

(٢) البخاري (٢٢٢٣)، ومسلم (٢٤٩٣).

ثم اعلم أن عبيد بن حنين -رحمه الله تعالى- إمام ثقة ثبت روى له الإمام البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم.

وقال عنه ابن سعد: كان ثقة وليس بكثير الحديث. [١]، وقال أبو حاتم: صالح الحديث[٢]، وذكره ابن حبان في (الثقات)[٣]، قال الحافظ: ثقة قليل الحديث. [٤]

وحتى لو فرض أنه تفرد برواية الحديث عن أبي هريرة ﷺ لقبل تفرده؛ لأن تفرد مثله لا يقدح في صحة الحديث.

ثانيًا: قولهم: إنه خبر آحاد وخبر الآحاد يجوز للمرء أن يعمل به أو يرده.

والرد على ذلك من وجوه:

الأول: معنى حديث الآحاد.

عرَّفه ابن حجر بأنه: ما لم يجمع شروط التواتر. [٥]

الثاني: حجية حديث الآحاد.

دلَّ على العمل بخبر الواحد: الكتاب والسنة والمعقول والإجماع.

١-الاستدلال بالكتاب:

استدل البخاري في صحيحه بآيات من الكتاب على إجازة خبر الواحد، فقال في الباب الأول من كتاب أخبار الآحاد من صحيحه: (باب ما جاء في خبر الواحد الصدوق): في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام[٦]، فمن ذلك قول الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

---

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٨٥).

(٢) الجرح والتعديل (٥/ ٤٠٤).

(٣) الثقات (٥/ ١٣٣).

(٤) تهذيب الكمال (١٩/ ١٩٨-١٩٩).

(٥) نزهة النظر (١٣).

(٦) فتح الباري (١٣/ ٢٤٤).

قال ابن حجر: وهذا مصير منه إلى أن لفظ طائفة يتناول الواحد فما فوقه، ولا يختص بعدد معين.(١)

وقال البخاري: ويُسمى الرجل طائفة لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾، فلو اقتتل رجلان دخلا في معنى الآية(٢).

قال ابن حجر: وهذا الاستدلال سبقه إلى الحجة به الشافعي، وقبله مجاهد، ووجه الدلالة منها يؤخذ من مفهومي الشرط والصفة؛ فإنهما يقتضيان قبول خبر الواحد(٣).

٢ـ الاستدلال بالسنة: وذلك من وجوه:

الأول: قبول الرسول ﷺ خبر الواحد: فمن ذلك ما رواه البخاري عَنْ عَبْدِ الله ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى الظُّهْرَ خَمْسًا، فَقِيلَ لَهُ أَزِيدَ فِي الصَّلاَةِ، فَقَالَ " وَمَا ذَاكَ ". قَالَ صَلَّيْتَ خَمْسًا. فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ بَعْدَ مَا سَلَّمَ(٤)، ووجه الدلالة قبول الرسول ﷺ خبر من أخبره بأنه زاد في صلاته ركعة.

الثاني: اعتماده ﷺ على الواحد في التبليغ؛ فلو كان الواحد لا تقوم به الحجة في التبليغ؛ لم يكن لإرساله الرسل فائدة، وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا عنوانه: (باب ما كان يبعث النبي ﷺ من الأمراء والرسل واحدًا بعد واحد، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ بِكِتَابِهِ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ. (٥)

وقد كان الصحابة ﷺ يسارعون إلى قبول خبر الثقة فيما يبلغهم به، ومن ذلك أنه لما حُولت القبلة لم يعلم أهل المساجد في ضواحي المدينة بأمر تحويلها إلا من قِبل رجل واحد وهم يصلون. كما في صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: بَيْنَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٤٧).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٤٤).
(٣) فتح الباري (١٣/ ٢٤٧).
(٤) البخاري مع الفتح (٧٢٤٩).
(٥) فتح الباري (١٣/ ٢٥٤).

صَلاَةِ الصُّبْحِ، إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّأْمِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ. (١)

٣ـ الاستدلال بالمعقول:

لقد أورد العلماء مئات الوقائع؛ ذهب فيها الصحابة فمن بعدهم من علماء التابعين ومن سار على هديهم من أهل العلم، المرضي عنهم، الموثوق بهم، إلى أن خبر الآحاد حجة يجب المصير إليها، وقبلوا رواية العدل الثقة فيما يروون، وقد قبل أبو بكر ﷺ خبر عائشة في أن النبي ﷺ مات يوم الاثنين، وقبل عمر ﷺ خبر عمرو بن حزم في أن دية الأصابع سواء، وقبل خبر الضحاك بن سفيان في توريث المرأة من دية زوجها. (٢)

قال ابن حجر: وقد شاع فاشيًا عمل الصحابة والتابعين بخبر الواحد من غير نكير فاقتضى الاتفاق منهم على القبول(٣).

وقال النووي: وَلَمْ تَزَلْ الْخُلَفَاء الرَّاشِدُونَ وَسَائِر الصَّحَابَة فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ السَّلَف وَالْخَلَفِ عَلَى اِمْتِثَال خَبَرَ الْوَاحِد إِذَا أَخْبَرَهُمْ بِسُنَّةٍ، وَقَضَائِهِمْ بِهِ، وَرُجُوعِهِمْ إِلَيْهِ فِي الْقَضَاء وَالْفُتْيَا، وَنَقْضِهِمْ بِهِ مَا حَكَمُوا بِهِ خِلَافه، وَطَلَبِهِمْ خَبَرَ الْوَاحِدِ عِنْدَ عَدَمِ الْحُجَّة مِمَّنْ هُوَ عِنْده وَاحْتِجَاجِهِمْ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، وَانْقِيَادِ الْمُخَالِفِ لِذَلِكَ. (٤)

وبعد بيان هذه الأدلة يتضح لنا بجلاء؛ أن العمل بخبر الآحاد ثابت بنص الكتاب والسنة، وهذا ما عليه جمهور أهل العلم خلافًا لمن رده؛ وقد فُصِّل الرد عليهم ودحض شبههم في محله فلتراجع(٥).

ثالثًا: قولهم: إن الذباب ضار كما أثبت العلم ذلك؛ فكيف يوضع في الإناء؟

---

(١) البخاري (٧٢٥١).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٤٨).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٢٤٧).

(٤) شرح النووي (١/ ١٣٢).

(٥) انظر: شبهة (خبر الآحاد) في الموسوعة.

وهذه شبهة مركبة؛ أحدها: إثبات ضرر الذباب أو نجاسته والثاني: أن الشرب من الإناء الذي يوضع فيه الذباب سيؤدي إلى الضرر حتمًا.

والجواب عن القسم الأول: وهو نجاسة الذباب فليس بصحيح، لأن أهل العلم قد ذهبوا إلى أن ما لا نفس له سائلة ليس بنجس، لذلك قال الحسن: (إن دخل حلقه الذباب فلا شيء عليه). [١]

وعن ابن عباس رضي الله عنه: (في الرجل يدخل حلقه الذباب قال لا يفطر). [٢]

وعن إبراهيم: (أنه سئل عن الذباب يقع في الماء فيموت فيه قال: لا بأس به). [٣]

وأما القسم الثاني: وهو الكلام حول إثبات الشفاء والضرر في جناحي الذباب؛ وكيفية وجودهما معًا في نفس الذبابة؛ فقد تكلم عن هذا الأمر أهل العلم، وأهل الطب قديمًا وحديثًا فمما ذكره العلماء:

١ـ **قال ابن عبد البر**: ورُوي هذا الحديث من وجوه كثيرة عن أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما كلها ثابتة؛ ومعلوم أن الذباب إذا غمس في الطعام الحار أو البارد؛ أن الأغلب عليه مع ضعف خلقه الموت فلو كان موته في الماء والطعام يفسده؛ لم يأمر رسول الله ﷺ بغمسه فيه! ! وإذا لم ينجس الطعام بموته فليس بنجس على حال البتة. وقد علم أن الذباب يعيش من الدم ويتناول من الأقذار ما تتناول القملة، وفيه من الدم مثل ما في القملة أو أكثر؛ وقد حكم فيه رسول الله ﷺ بما تقدم ذِكْرِنَا له. وهذا ما لم يكن فيه دم؛ لأن الحديث إنما يدل على أن النجس من الحيوان؛ ما له دم سائل. وكذلك قال إبراهيم ما ليس له نفس سائلة فليس بنجس يعني بالنفس الدم. [٤]

---

(١) رواه البخاري معلقًا تحت الحديث (١٨٣٠)، ووصله ابن أبي شيبة ٢/ ٣٤٨.

(٢) ابن أبي شيبة ٢/ ٣٤٨.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٨٩، وابن أبي شيبة ١/ ٦١.

(٤) التمهيد (١/ ٣٣٨: ٣٣٧).

٢ـ قال الإمام البدر العيني: ولم يقع تعيين الجناح الذي فيه الشفاء، وذكر عن بعض العلماء: أنه تأمله فوجده يتقي بجناحه الأيسر؛ فعرف أن الأيمن هو الذي فيه الشفاء، قوله: " داء" المراد به السم الذي فيه، ويوضحه حديث أبي سعيد؛ فإن فيه أنه يقدم السم ويؤخر الشفاء، ولا يحتاج فيه إلى التخريج الذي تكلفه بعض الشراح، فقال: إن في اللفظ مجازًا، وهو كون الداء في أحد الجناحين؛ فهو إما من مجاز الحذف والتقدير: فإن في أحد جناحيه سبب داء، وإما مبالغة؛ بأن يجعل كل الداء في أحد جناحيه لما كان سببًا له، وقال الخطابي: هذا مما ينكره من لم يشرح الله قلبه بنور المعرفة، ولم يتعجب من النحلة، جمع الله فيها الشفاء والسم معًا؛ فتعسل من أعلاه وتسم من أسفلها بحمتها، والحية سمها قاتل ولحمها مما يستشفى به من الترياق الأكبر من سمها، فريقها داء ولحمها دواء، ولا حاجة لنا مع قول رسول الله ﷺ الصادق الصدوق إلى النظائر، وأقوال أهل الطب الذين ما وصلوا إلى علمهم إلا بالتجربة، والتجربة خطر، والله على كل شيء قدير، وإليه التوكل والمصير. [1]

٣ـ قال ابن حجر: وقال أبو محمد المالقي: ذباب الناس يتولد من الزبل، وإن أخذ الذباب الكبير فقطعت رأسها وحك بجسدها الشعرة التي في الجفن حكًا شديدًا أبرأته، وكذا داء الثعلب، وإن مسح لسعة الزنبور بالذباب سكن الوجع، واستدل بهذا الحديث على أن الماء القليل لا ينجس بوقوع ما لا نفس له سائلة فيه؛ ووجه الاستدلال: كما رواه البيهقي عن الشافعي أنه ﷺ لا يأمر بغمس ما ينجس الماء إذا مات فيه، لأن ذلك إفساد، قال الخطابي: تكلم على هذا الحديث مَنْ لا خلاق له، فقال: كيف يجتمع الشفاء والداء في جناحي الذباب؟ وكيف يعلم ذلك من نفسه حتى يقدم جناح الشفاء؟ وما ألجأه إلى ذلك؟ قال: وهذا سؤال جاهل أو متجاهل؛ فإن كثيرًا من الحيوان قد جمع الصفات المتضادة؛ وقد ألف الله بينها وقهرها على الاجتماع، وجعل منها قوي الحيوان، وإن الذي ألهم النحلة اتخاذ البيت العجيب الصنعة للتعسيل فيه، وألهم النملة أن تدخر قوتها لأوان حاجتها وأن تكسر الحبة نصفين لئلا

(١) عمدة القاري (٢١/ ٢٩٣).

تستنبت، لقادر على إلهام الذبابة أن تقدم جناحًا وتؤخر آخر.[١]

وقال ابن الجوزي: ما نقل عن هذا القائل ليس بعجيب؛ فإن النحلة تعسل من أعلاها وتلقي السم من أسفلها، والحية القاتل سمها تدخل لحومها في الترياق الذي يعالج به السم، والذبابة تسحق مع الإثمد لجلاء البصر، وذكر بعض حذاق الأطباء أن في الذباب قوة سمية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعه، وهي بمنزلة السلاح له؛ فإذا سقط الذباب فيما يؤذيه تلقاه بسلاحه؛ فأمر الشارع أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله تعالى في الجناح الآخر من الشفاء، فتتقابل المادتان فيزول الضرر بإذن الله تعالى[٢]، واستدل بقوله " ثم لينزعه " على أنها تنجس بالموت كما هو أصح القولين للشافعي، والقول الآخر، كقول أبي حنيفة أنها لا تنجس والله أعلم.[٣]

٤ـ قال ابن قتيبة:

ونقول: إن من حمل أمر الدين على ما شاهد فجعل البهيمة لا تقول، والطائر لا يسبح، والبقعة من بقاع الأرض لا تشكو إلى أختها، والذباب لا يعلم موضع السم، وموضع الشفاء؛ واعترض على ما جاء في الحديث مما لا يفهمه، فقال: كيف يكون قيراط مثل أحد؟ وكيف يأكل الشيطان بشماله ويشرب بشماله؟ وأي شمال له؟ وكيف لقي آدم موسى صلى الله عليهما؛ حتى تنازعا في القدر وبينهما أحقاب؟ وأين تنازعا؟ فإنه منسلخ من الإسلام معطل غير أنه يستعد بمثل هذا وشبهه من القول، واللغو والجدال ودفع الأخبار والآثار مخالف لما جاء به الرسول ﷺ، ولما درج عليه الخيار من صحابته والتابعون، ومن كذب ببعض ما جاء به رسول الله ﷺ كان كمن كذب به كله، ولو أراد أن ينتقل عن الإسلام إلى دين لا يؤمن فيه بهذا وأشباهه، لم يجد منتقلًا، لأن اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والوثنية يؤمنون بمثل ذلك، ويجدونه مكتوبًا عندهم، وما علمت أحدًا ينكر هذا إلا قومًا من الدهرية، وقد اتبعهم على ذلك قوم من أهل الكلام والجهمية.

---

(١) معالم السنن للخطابي (٤/ ٢٣٩).

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/ ١٠٢١).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٥٠).

وبعد فما ينكر من أن يكون في الذباب سم وشفاء؛ إذا نحن تركنا طريق الديانة ورجعنا إلى الفلسفة، وهل الذباب في ذلك إلا بمنزلة الحية؟ فإن الأطباء يذكرون أن لحمها شفاء من سمها، إذا عمل منه الترياق الأكبر، ونافع من لدغ العقارب، وعض الكلاب، والحمى الربع، والفالج، واللقوة، والارتعاش، والصرع، وكذلك قالوا في العقرب: إنها إذا شق بطنها ثم شدت على موضع اللسعة؛ نفعت وإذا أحرقت فصارت رمادًا ثم سقي منها من به الحصاة نفعته، وربما لسعت المفلوج فأفاق، وتلقى في الدهن حينًا فيكون ذلك الدهن مفرقًا للأورام الغليظة، والأطباء القدماء يزعمون أن الذباب إذا ألقي في الإثمد وسحق معه ثم اكتحل به؛ زاد ذلك في نور البصر، وشد مراكز الشعر من الأجفان في حافات الجفون، وحكوا عن صاحب المنطق؛ أن قومًا من الأمم كانوا يأكلون الذباب فلا يرمدون، وقالوا في الذباب: إذا شدخ ووضع على موضع لسعة العقرب سكن الوجع، وقالوا: من عضه الكلب احتاج إلى أن يستر وجهه من سقوط الذباب عليه لئلا هذا يقتله وهذا يدل على طبيعة فيه شفاء أو سم.[1]

وقال ابن القيم: الحديث فيه أمران: أمر فقهي، وأمر طبي. فأما الفقهي: فهو دليل ظاهر الدلالة جدًّا على أن الذباب إذا مات في ماء أو مائع فإنه لا ينجسه؛ وهذا قول جمهور العلماء، ولا يُعرف في السلف مخالف في ذلك، ووجه الاستدلال به أن النبي ﷺ أمر بمقله؛ وهو غمسه في الطعام، ومعلوم أنه يموت من ذلك، ولا سيما إذا كان الطعام حارًا، فلو كان ينجسه لكان أمرًا بإفساد الطعام، وهو ﷺ إنما أمر بإصلاحه، ثم عدي هذا الحكم إلى كل ما لا نفس له سائلة كالنحلة، والزنبور، والعنكبوت، وأشباه ذلك؛ إذ الحكم يعم بعموم علته، وينتفي لانتفاء سببه، فلما كان سبب التنجيس هو الدم المحتقن في الحيوان بموته، وكان ذلك مفقودًا فيما لا دم له سائل؛ انتفى الحكم بالتنجيس لانتفاء علته.

ثم قال: من لم يحكم بنجاسة عظم الميتة؛ إذا كان هذا ثابتًا في الحيوان الكامل مع ما فيه من الرطوبات، والفضلات، وعدم الصلابة، فثبوته في العظم الذي هو أبعد عن

(١) تأويل مختلف الحديث ١/ ٢٣١.

الرطوبات والفضلات، واحتقان الدم أولى، وهذا في غاية القوة، فالمصير إليه أولى.

وأول من حفظ عنه في الإسلام أنه تكلم بهذه اللفظة فقال: ما لا نفس له سائلة إبراهيم النخعي: وعنه تلقاها الفقهاء - والنفس في اللغة: يعبر بها عن الدم، ومنه نَفَست المرأة - بفتح النون - إذا حاضت، ونُفست - بضمها - إذا ولدت.

وأما المعنى الطبي، فقال أبو عبيد: معنى امقلوه: اغمسوه، ليخرج الشفاء منه كما خرج الداء، يقال للرجلين: هما يتماقلان إذا تغاطا في الماء.

واعلم أن في الذباب عندهم قوة سمية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعه، وهي بمنزلة السلاح؛ فإذا سقط فيما يؤذيه اتقاه بسلاحه؛ فأمر النبي ﷺ أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله سبحانه في جناحه الآخر من الشفاء، فيغمس كله في الماء والطعام فيقابل المادة السمية المادة النافعة فيزول ضررها.

وهذا طب لا يهتدي إليه كبار الأطباء وأئمتهم، بل هو خارج من مشكاة النبوة، ومع هذا فالطبيب العالم العارف الموفق؛ يخضع لهذا العلاج، ويقر لمن جاء به؛ بأنه أكمل الخلق على الإطلاق، وأنه مؤيد بوحي إلهي خارج عن القوى البشرية.

وقد ذكر غير واحد من الأطباء أن لسع الزنبور والعقرب إذا دلك موضعه بالذباب نفع منه نفعًا بينًا وسكّنه، وما ذاك إلا للمادة التي فيه من الشفاء، وإذا دلك به الورم الذي يخرج في شعر العين المسمى شعرة بعد قطع رؤوس الذباب أبرأه). [1]

وهذه أقوال أهل الطب: ـ

١- أوضح الدكتور (معتز المرزوقي) أن حديث الذباب يتضمن معجزتين علميتين لرسول الله ﷺ، إحداهما: وجود الميكروب في جانب من الذبابة، ووجود المضاد الحيوي (antibiotic)في الجانب الآخر؛ على اعتبار أن الجناح في اللغة يدل على الميل أو الجانب، ويؤيده قول الله تعالى: ﴿يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ (طـه: ٢٢).

(١) زاد المعاد٤/ ١٠١.

وأما المعجزة الثانية: فهي في كلمة (فليغمسه)؛ لأن الغمس يتضمن ولوج المنطقة التي بها فطريات (فطور) حاملة للمضادات الحيوية وللميكروبات؛ ولأن عملية الغمس تسمح للسائل أن ينتشر إلى الغشاء بالانتشار الغشائي؛ حتى ينفجر هذا الغشاء ويخرج السيتوبلازم الذي يحتوي مضادات الميكروبات، التي يكفي مللي جرام منها لتطهير (ألف) لتر من اللبن الملوث بجميع الميكروبات.

٢-نشرت جريدة " الأهرام " بالقاهرة في عددها الصادر يوم ٢يوليو ١٩٥٢م مقالًا للأستاذ/ مجدي كيرلس جرجس (وهو نصراني مصري)، ورد فيها: وهناك حشرات ذات منافع طبية، ففي الحرب العالمية الأولى لاحظ الأطباء أن الجنود ذوي الجروح العميقة الذين تركوا بالميدان لمدة ما، حتى ينقلوا إلى المستشفى، قد شفيت جروحهم والتأمت بسرعة عجيبة، وفي مدة أقل من تلك التي استلزمتها جروح من نقلوا إلى المستشفى مباشرة، وقد وجد الأطباء أن جروح الجنود الذين تركوا بالميدان تحتوي على " يرقات " بعض أنواع "الذباب الأزرق" وقد وجد أن هذه " اليرقات " تأكل النسيج المتقيح في الجروح، وتقتل "البكتريا" المتسببة في القيح والصديد.

وقد استخرجت مادة (الأنثوين) من "اليرقان" السالفة الذكر، واستخدمت كمرهم رخيص، ملطف للخراريج والقروح والحروق والأورام، وأخيرًا عُرف التراكيب الكيميائي لمادة (الأنثوين) وحضرت صناعيًا، وهي الآن تباع بمخازن الأدوية.

وفي العصر الحديث جميع الجراحين الذين عاشوا في السنوات التي سبقت اكتشاف مركبات السلفا ـ أي في السنوات العشر الثالثة من القرن العشرين ـ رأوا بأعينهم علاج الكسور المضاعفة والقرحات المزمنة بالذباب، وكان الذباب يربى لذلك خصيصًا، وكان هذا العلاج مبنيًا على اكتشاف (باكتريوفاج) القاتل للجراثيم، على أساس أن الذباب يحمل في آن واحد الجراثيم التي تسبب المرض الباكتريوفاج الذي يهاجم هذه الجراثيم.

٣ـ قال د. محمد أبو شهبة: (وبذلك يحقق العلماء بأبحاثهم تفسير الحديث النبوي الذي يؤكد ضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الطعام إذا وقعت عليه (فيه)، لإفساد أثر الميكروبات المرضية التي تنقلها بأرجلها أو يبرزها. وكذلك يؤكد الحقيقة التي أشار إليها الحديثان وهي أن في أحد جناحيها داء (أي: في أحد أجزاء جسمها الأمراض المنقولة بالميكروبات المرضية التي حملتها) وفي الآخر شفاء وهو المواد الحيوية المضادة التي تفرزها الفطور(Fungi)) الموجودة على بطنها، والتي تخرج وتنطلق بوجود سائل حول خلايا الفطور المستطيلة).

٤ـ قال د. غريب جمعة: (إن هذا الحديث لم يَدْعُ أحدًا إلى صيد الذباب ووضعه عنوة في الإناء، ولم يشجع على ترك الآنية مكشوفة، ولا على الإهمال في نظافة البيوت والشوارع، ولا يتعارض مع الحماية من أخطار انتشار الذباب بأية صورة، ولم يجبر مَنْ وقع الذباب في إنائه واشمأز من ذلك على تناول ما فيه، وهذا الحديث لا يمنع أحدًا من القائمين على الصحة من التصدي للذباب في مواطنه ومحاربته، ولا يدعو إلى إقامة مزارع أو مفارخ للذباب، ومن صنع هذا أو اعتقده فقد وقع في خطأ كبير).

٥-نشر العالمان المصريان د/ محمود كامل، د/ محمد عبد المنعم حسين، مقالة في مجلة الأزهر (القاهرة) ـ عدد شهر رجب (١٣٧٨هـ) تحت عنوان: " كلمة الطب في حديث الذبابة"، ضمناها كثيرًا من الأخبار والمعلومات، وذكرا أن الذباب ينقل أمراضًا كثيرة، وذلك بواسطة أطراف أرجله، أو في برازه. وإذا وقعت الذبابة على الأكل، فإنها تلمسه بأرجلها الحاملة للميكروبات المرضة، وإذا تبرزت على طعام الإنسان، فإنها ستلوثه أيضًا بأرجلها.

أما الفطور (الفطريات) التي تفرز المواد الحيوية المضادة، فإنها توجد على بطن الذبابة، ولا تنطلق مع سوائل الخلايا المستطيلة لهذه الفطور (والتي تحتوي المواد الحيوية المضادة) إلا بعد أن يلمسها السائل الذي يزيد الضغط الداخلي لسائل الخلية، ويسبب انفجار الخلايا المستطيلة واندفاع البذور والسائل إلى خارج جسم الذبابة.

٦- نشرت جريدة التجارب الطبية في عددها ١٠٣٧/ ٤ الصادر في عام ١٩٢٧م تحت عنوان: (الباكتريوفاج من ذباب البيوت): لقد أطعم الذباب الذي يألف البيوت من مزرعة الجراثيم المرضة، وبعد حين اختفى أثر الجراثيم التي في الذباب وماتت كلها، وظهرت في الذباب مادة قاتلة للجراثيم تسمى (باكتريوفاج) وهي مادة ذات أثر قوي ضد أربعة أنواع من الجراثيم الممرضة.

كما ذكرت المقالة أن خلاصة من الذباب في محلول ملحي فسيولوجي وجد أنها تحتوي هذا العامل " الباكتريوفاج "، وكذلك مادة أخرى ليست من هذا النوع، ولكنها مفيدة في الدفاع العضوي ضد أربعة أنواع أخرى من الجراثيم الممرضة.

ذكر (بريفيلد) أيضًا، أن الباحث (موفيتش) نجح عام (١٩٤٧م) في عزل مضادات حيوية من مزرعة للفطور التي تعيش على جسم الذبابة، ووجدها ذات مفعول قوي على جراثيم سلبية لصبغة جرام (مثل جراثيم الزحار والتيفود)، ووجد أن جرامًا واحدًا منها يحفظ أكثر من ألف لتر من اللبن من التلوث بالجراثيم المذكورة.

وفي سنة (١٩٤٨م) عزل (بريان)، (كوتيس)، (هيمنج)، (جيفيريس)، (ماكجوان)، من بريطانيا، مادة مضادة للحيوية تسمى (كلوتينيزين)، وذلك من أنواع تابعة لفصيلة الفطور التي تعيش في الذبابة، ومن بينها جراثيم الدوسنتاريا والتيفود.

وفي سنة ١٩٤٩م، عزل (كوماس)، (فارمر) ـ من إنجلترا- (جريان)، (روث)، (اتلنجر)، (بلانتر) ـ من سويسرا ـ مادة مضادة للحيوية تسمى (انياتين)، وذلك من فطور تعيش في الذبابة. وتؤثر هذه المادة بقوة في جراثيم سالبة وجراثيم موجبة لصبغة جرام، وفي بعض الفطور الأخرى، مثل: جراثيم الدوسنتاريا والتيفويد والكوليرا، وتكفي كمية قليلة من هذه المادة المعزولة من جسم الذبابة لقتل أو إيقاف نمو هذه الجراثيم المرضية.

كما تمكن العالمان الإنجليزيان (آينشتاين)، (كوك) والعالم السويسري (روليوس) في عام (١٩٥٠) من عزل مادة أسموها (جافاسين) وذلك من فطر ينتمي إلى نفس الفصيلة

المذكورة سابقًا، وهو يعيش على الذباب، واتضح لهم أن هذه المادة تقتل جراثيم مختلفة من بينها الجراثيم السالبة لصبغة جرام والجراثيم الموجبة لصبغة جرام، مما يفيد في مكافحة الجراثيم التي تسبب أمراض الحميات التي يلزمها فترة حضانة قصيرة.

٧ـ وأخيرًا: علماء أستراليون يستخرجون مضادات حيوية من الذباب

عنوان الموضوع: (The new buzz on antibiotics)

ترجمة: محمود أبو شيخ: إن ظهر الذباب هو آخر مكان تتوقعه أن تجد فيه مضادات حيوية، ومع ذلك ذاك هو المكان بالتحديد الذي يركز عليه فريق من باحثين أستراليين؛ وذلك بناءًا علي (نظرية حتمية) امتلاك الذباب مضادات للجراثيم فعالة للحفاظ على حياتها في بيئة الروث واللحم أو الفواكه المتعفنة، والفريق من قسم (علوم الأحياء) بجامعة (ماكوري) يقوم حاليًا بدراسة للتعرف على خاصية تلك المضادات، واختلافها في المراحل المختلفة لنمو الذباب.

وقالت (جوان كلارك): إن بحثنا جزء صغير من أبحاث وجهود عالمية للحصول على مضادات حيوية جديدة ونعتقد إننا نبحث حيث لم يبحث فيه أحد من قبل.

(جوان كلارك) هي التي تولت تقديم الاكتشاف نيابة عن الباحثين في مؤتمر جمعية (علم الأحياء المجهري) عقد في (ماربون)، ويعتبر هذا الموضوع جزء من رسالة الدكتوراه التي تحضرها.

العلماء قاموا باختبار أربعة أصناف من الذباب: ذبابة (المنزل)، ذبابة (اللحم)، ذبابة (الفواكه) و (الكنترول)، والنوع الأخير من صنف ذبابة (الفاكهة) في (كوينسلاند) وتضع بيضها علي الفواكه الطازجة. احتياج هذه اليرقات للمضادات أقل من الأصناف الأخرى لقلة ملاقاتها للجراثيم.

الذبابة تمر بعدة أطوار في دورة حياتها بداية من مرحلة اليرقة، ثم مرحلة الشرنقة، إلى أن تدخل مرحلة الحشرة الكاملة أو طور البلوغ، وخلال طور الشرنقة الذباب يكون محاطًا بغلاف محمي ولا تتغذي، وأضافت (جوان كلارك) أنهم توقعوا قلة إنتاج

المضادات في هذا الطور؛ ولكن خلال طور الشرنقة لم تظهر الأصناف الأربعة خصائص المضادات الحيوية سوي صنف (كنترول) التابع لصنف الفواكة في (كوينسلاند)، بينما جميع الأصناف أفرزت مضادات في طور البلوغ، لأنها في هذا الطور تكون في حاجة إلى حماية مضادات الجرثومية لكثرة تحركها وملاقاة الحشرات الأخرى.

خصائص المضادات:

وجدت في جميع الأنواع الأربع، وذكرت جوان أن المضادات تظهر أيضًا في أحشاء الذبابة، كما تظهر خارج الجسم، وسبب تركيزنا على خارج الجسم هو فقط لسهولة عملية الاستخراج، ويتم استخلاص المضادات عن طريق وضع الذبابة في الكحول (الأثيلي) ثم يتم استخلاص مادة المضاد الخام بتمرير مركب المحلول خلال مرشح (فلتر)، وعند وضع المضاد الحيوي المستخرج من الذباب في محلول ملوث بشتى أنواع البكتيريا مثل (أي كولاي)، (جولدين ستاف) معروف أيضًا: بـ (ستافلوكوكس) وخميرة (الكانديدا) ومعديات أخرى، وفي كل الحالات لوحظ فعالية المضاد الحيوي (المستخرج من الذباب).

وأضافت (جوان كلارك) قائلة: " إننا حاليًا نحاول التعرف على مكونات المضاد الحيوي لإنتاجه كيميائيًا، ولأن المركب ليس مستخرجًا من بكتيريا لن يكون سهلًا للبكتيريا أن تكون مناعة ضد المضاد الحيوي (المستخرج من الذباب)، ونأمل أن يكون لهذه المضادات فعالية علاجية لمدة طويلة. [1]

رابعًا: أن تناول مثل هذا الشراب قد لا يستسيغه الكثير فكيف سيعمل بالحديث إذن؟

والجواب: أن المرد من الحديث هو إزالة السمية التي تسقط من أحد أجنحة الذباب عند سقوطها فيه، وذلك بغمسها كاملة حتى يخرج ذلك الإنزيم المقاوم لتلك السموم، والتي قد لا تزول ولو بغسله بالماء فيتبقى أثر ذلك السم في الإناء، فإذا استخدم من جديد

(١)ينظر: موقع .www. abc. net. au/science/news/stories/s٦٨٩٤٠٠

ومن أراد الازدياد فلينظر: كتب الإعجاز العلمي، وكتب أهل الطب، والمتخصصين.

قد يصاب من سيأكل أو يشرب منه ببقايا ذلك السم، أو لعل أحدًا أن يأتي وهو لا يعلم بما حدث للإناء فيشرب أو يأكل منه فيصاب بالأذى لذلك، وقد يصاب بالأمراض الكثيرة من جراء ذلك، فإذا لم يكن مستسيغًا للأكل أو للشرب من هذا الإناء فلا حرج عليه، لكن عليه أن يطبق أمر غمس الذباب حتى يَسلم من أضراره وأمراضه.

وكذلك فإن الأصل في الشراب والطعام الإباحة، فإذا كان أصل الشيء على الإباحة، فكذلك الفرع منه، فإن سقط الذباب في الإناء فليغمسه ليُطهّر من المرض، ثم أَمْر الطعام والشراب بعد ذلك لم يوجبه في نص الحديث، وليس في الحديث ما يدل على وجوب الشرب منه بعد غمسه، فرجع الأمر إلى أصل الإباحة.

خامسًا: أن البعض قد ظنوا أن هذا الحديث هو من الأمور التي تخضع للاجتهاد قد تصيب وقد تخطئ.

والجواب: أن أقواله ﷺ محكوم بعصمتها، فهو لا ينطق عن الهوى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (النجم: ٣) خاصة إذا كان هذا الأمر في شيء لا يحتمل الاجتهاد، بل هو من دلائل نبوته ﷺ، وإلا لطعن الطاعنون في أقواله ﷺ؛ بدعوى عدم جدواها وعدم نفعها لعدم موافقتها للواقع- كما يزعمون-؛ فإذا وافقت الواقع كان ذلك من دلائل نبوته ﷺ؛ ودليلًا على صدق رسالته، واعلم أن علماء هذا الزمان في كل يوم يثبتون أمرًا من سننه، ودليلًا من هديه ﷺ، بل ويرشدون الناس إليه.

واعلم أن ديننا لا يحتاج إلى تجارب أو براهين حتى نقبله بل الأصل أن تؤمن بكل ما جاء به النبي ﷺ؛ سواء علمت حقيقة ذلك أو جهلته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦)

سادسًا: قولهم أن موضوع متنه ليس من عقائد الإسلام ولا من عباداته، ولا من شرائعه، ولا التزم المسلمون العمل به، بل لم يعمل به أحد منهم لأنه لا دخل له في التشريع، وإنما هو في أمور الدنيا كحديث " تأبير النخل ".

أما الزعم بأنه ليس من عقائد الإسلام، ولا من عباداته، ولا دخل له في التشريع، وإنما هو من أمور الدنيا التي يجوز على النبي ﷺ فيها الخطأ، كحديث " تأبير النخل "[١]؛ فالغرض منه تحقير الحديث والتهوين من أمره وتنفير الناس عنه؛ وبالتالي فإن من ردَّه أو ارتاب فيه لم يؤثر ذلك على دينه في شيء، وهو أمر في غاية الخطورة والتلبيس، لأن أمور الدنيا منها ما هو خاضع لأحكام الشرع، فهي داخلة تحت الأمر بطاعة رسول الله ﷺ والنهي عن مخالفته، وأمره ﷺ قد يكون واجبًا وقد يكون مستحبًا، وقياس حديث الذباب وغيره من أحاديث الطب النبوي على أحاديث تأبير النخل قياس غير صحيح؛ لأن معظم أحاديث الطب - إن لم تكن كلها - ساقها النبي ﷺ مساق القطع واليقين مما يدل على أنها بوحي من الله سبحانه وداخلة في التشريع، فقال في حديث الذباب: " فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء "، فأتى بـ (إن) المفيدة للتأكيد، بخلاف أحاديث تأبير النخل التي ساقها ﷺ مساق الرجاء والظن؛ لأنها في أمور الدنيا ومعايشها فقال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا، وفي رواية "ما أظن يغني ذلك شيئًا "[٢]، وفرق كبير بين الأسلوبين.

ولذلك قال الإمام النووي عند شرحه لقول النبي ﷺ في حديث (تأبير النخل): " وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر "، قال العلماء: قوله ﷺ "من رأي" أي في أمر الدنيا ومعايشها لا على التشريع، فأما ما قاله باجتهاده ﷺ ورآه شرعًا يجب العمل به، وليس أبار النخل من هذا النوع بل من النوع المذكور قبله "[٣].

فما وقع في حديث التأبير كان ظنًا منه ﷺ، وهو صادق في ظنه، وخطأ الظن ليس كذبًا، وقد رجع عن ظنه الذي ظنه في قوله: "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه "[٤] بخلاف ما جاء في حديث الذباب، فإنه أخبر بأن في أحد جناحيه داء والآخر شفاء، وهذا لا يكون إلا بوحي من

---

(١) مسلم (٢٣٦٢).

(٢) مسلم (٢٣٦١).

(٣) شرح مسلم للنووي (٨/ ١٢٨).

(٤) مسلم (٢٣٦١).

الله تعالى، وهو أمر لا يُحتمل خلاف ما أخبر به، ثم أمر بغمس الذباب بناءً على العلة السابقة، ولم يأت ما ينقض هذا الأمر ولا ذاك فوجب التسليم والإذعان وعدم الإنكار.

وادعاء أن المسلمين لم يلتزموا به ولم يعمل به أحد منهم؛ ادعاء كاذب يخالفه ما ثبت عن بعض الصحابة والتابعين.

١- ففي بعض روايات الحديث أن عبد الله بن المثنى روى عن عمه ثمامة أنه حدثه قال: كنا عند أنس ﷺ فوقع ذباب في إناء، فقال أنس بأصبعه فغمسه في ذلك الإناء ثلاثًا ثم قال: بسم الله، وقال: إن رسول الله ﷺ أمرهم أن يفعلوا ذلك. [(١)]

٢- روى أحمد من طريق سعيد بن خالد قال: دخلت على أبي سلمة فأتانا بزبد وكتلة فأسقط ذباب في الطعام؛ فجعل أبو سلمة يمقله بأصبعه فيه، فقلت يا خال ما تصنع؛ فقال إن أبا سعيد الخدري ﷺ حدثني عن رسول الله ﷺ قال: "إن أحد جناحي الذباب سم والآخر شفاء؛ فإذا وقع في الطعام فأمقلوه فإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء". [(٢)]

فأنس صحابي و أبو سلمة تابعي، وقد عملا بمضمون هذا الحديث، فكيف يزعم بأن أحدًا من المسلمين لم يعمل به؟.

وأخيرًا ماذا قال الكتاب المقدس عن الذباب؟

١ـ يقول كتابهم عن الذبابة التي تصبح عطرًا عند العطار! ! !

جامعة (١٠عدد ١): **اَلذُّبَابُ الْمَيِّتُ يُنَتِّنُ وَيُخَمِّرُ طِيبَ الْعَطَّارِ. جَهَالَةٌ قَلِيلَةٌ أَثْقَلُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَمِنَ الْكَرَامَةِ.**

٢ـ الرب يصفر للذباب كما في قول إشعياء النبي:

وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ الرَّبَّ يَصْفِرُ لِلذُّبَابِ الَّذِي فِي أَقْصَى تُرَعِ مِصْرَ، وَلِلنَّحْلِ الَّذِي فِي أَرْضِ أَشُّورَ " (إش ٧: ١٨).

* * *

(١) قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٥١): أخرجه البزار ورجاله ثقات ورواه حماد بن سلمة عن ثمامة فقال عن أبي هريرة ورجحها أبو حاتم وأما الدارقطني فقال الطريقان محتملان

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٩).

٢ـ شبهة: شرب أبوال الإبل وألبانها.

نص الشبهة:

شرب أبوال الإبل وألبانها علاج كيف يكون ذاك؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الأحاديث في ذلك.

الوجه الثاني: طهارة أبوال الإبل.

الوجه الثالث: أن هذا الشرب كان لضرورة فلا حرج في ذلك.

الوجه الرابع: ذكر بعض فوائد أبوال الإبل وألبانها من السنة.

الوجه الخامس: أن هذا اختيار للمريض وليس إجبارًا.

الوجه السادس: أن هذا الدواء كان عند العرب.

الوجه السابع: الطب يؤكد الحقيقة النبوية.

الوجه الثامن: الرد على اليهود والنصارى بما عندهم.

وإليك التفصيل.

الوجه الأول: ذكر الأحاديث في ذلك.

عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ أُنَاسٌ مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ بِلِقَاحٍ وَأَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَانْطَلَقُوا فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَاقُوا النَّعَمَ فَجَاءَ الْخَبَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّهَارُ جِيءَ بِهِمْ فَأَمَرَ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ وَأُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ. قَالَ أَبُو قِلَابَةَ فَهَؤُلَاءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ[1].

وعَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَ أُولَئِكَ، لأَنَّهُمْ سَمَلُوا

(١) البخاري (٢٣١)، ومسلم (٤٤٤٥).

أَعْيُنَ الرِّعَاءِ[١].

الوجه الثاني: طهارة أبوال الإبل.

استدل بالحديث على طهارة أبوال الإبل للإذن في شربها.[٢]

واسْتَدَلَّ أَصْحَاب مالك وأحمد بهذا الحديث أَنَّ بول ما يؤكل لحمه وَرَوْثه طَاهِرَانِ.[٣]

ففي الحديث دليل على طهارة بول مأكول اللحم، فإن التداوي بالمحرمات غير جائز ولم يؤمروا مع قرب عهدهم بالإسلام بغسل أفواههم وما أصابته ثيابهم من أبوالها للصلاة، وتأخير البيان لا يجوز عن وقت الحاجة.[٤]

تنبيه: قد يقول قائل لما وقع في هذا الحديث التمثيل بهم:

اختلف أهل العلم في ذلك، فقال بعضهم:

١ - **أن هذا قبل النهي عن التمثيل**: فهو منسوخ بالحدود فعن قتادة: أنه قال: حدثني محمد بن سيرين: أن ذلك قبل أن تنزل الحدود، وقال ابن شهاب - بعد أن ذكر قصتهم - وذكروا أن رسول الله ﷺ نهى بعد ذلك عن المثلة بالآية التي في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المائدة: ٣٣)، والتي بعدها وروي محمد بن الفضل - بإسناد صحيح منه إلى ابن سيرين قال: كان شأن العرنيين قبل أن تنزل الحدود التي أنزل الله ﷻ في المائدة من شأن المحاربين: أن يقتلوا أو يصلبوا: فكان شأن العرنيين منسوخًا بالآية التي يصف فيها إقامة حدودهم وفي حديث أبي حمزة عن عبد الكريم[٥]. وسئل عن أبوال الإبل؟ - فقال: حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين - فذكر الحديث - وفي آخره

---

(١) مسلم (٤٤٥٣).

(٢) إحكام الأحكام (١/ ٢٣٥).

(٣) شرح النووي على مسلم (٦/ ٧٩).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٤٢).

(٥) تفسير الطبري ٦/ ٢٠٧.

فما مثَّل النبي ﷺ قبل ولا بعد ونهى عن المُثلة وقال: لا تمثلوا بشيء. (١)

٢ - **أو لأن الجزاء من جنس العمل**: فعَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ إِنَّمَا سَمَلَ النبي ﷺ أَعْيُنَ أُولَئِكَ لأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرِّعَاءِ. (٢)

وفي القصة: دليل على التداوي والتطبب، وعلى طهارة بول مأكول اللحم، فإن التداوي بالمحرمات غير جائز ولم يؤمروا مع قرب عهدهم بالإسلام بغسل أفواههم وما أصابته ثيابهم من أبوالها للصلاة وتأخير البيان لا يجوز عن وقت الحاجة وعلى مقاتلة الجاني بمثل ما فعل فإن هؤلاء قتلوا الراعي وسملوا عينيه.

ودل الحديث السابق على قتل الجماعة وأخذ أطرافهم بالواحد وعلى أنه إذا اجتمع في حق الجاني حد وقصاص استوفيا معا؛ فإن النبي ﷺ قطع أيديهم وأرجلهم حدًا لله على حرابهم وقتلهم، لقتلهم الراعي وعلى أن المحارب إذا أخذ المال وقتَلَ، قطعت يده ورجله في مقام واحد وقُتل، وعلى أن الجنايات إذا تعددت تغلظت عقوباتها؛ فإن هؤلاء ارتدوا بعد إسلامهم، وقتلوا النفس، ومثلوا بالمقتول، وأخذوا المال، وجاهروا بالمحاربة، وعلى أن حكم ردء المحاربين حكم مباشرهم، فإنه من المعلوم أن كل واحد منهم لم يباشر القتل بنفسه، ولا سأل النبي ﷺ عن ذلك، وعلى أن قتل الغيلة يوجب قتل القاتل حدا، فلا يسقطه العفو، ولا تعتبر فيه المكافأة، وهذا مذهب أهل المدينة وأحد الوجهين في مذهب أحمد. واختاره شيخنا وأفتى به. (٣)

الوجه الثالث: أن هذا الشرب كان لضرورة فلا حرج في ذلك.

وَيَجُوزُ شُرْبُ أَبْوَالِ الْإِبِلِ لِلضَّرُورَةِ نَصَّ عَلَيْهِ فِي رِوَايَةِ صَالِحٍ وَعَبْدِ الله وَالْمَيْمُونِيِّ وَالْأَثْرَمِ وَجَمَاعَةٍ أي مَنْ بِهِ عِلَّةٌ وَسَقَمٌ فَنَعَمْ. (٤)

---

(١) تهذيب الآثار (٤/ ٩٤)، المعجم الكبير للطبراني (٣١٨٨).

(٢) مسلم (٤٤٥٣).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٤٢).

(٤) الآداب الشرعية (٣/ ٨٩).

فشُرْبهمْ الْأَبْوَال كَانَ لِلتَّدَاوِي، فَإِنْ قِيلَ: كَيْف أَذِنَ لَهُمْ فِي شُرْب لَبَن الصَّدَقَة؟ فَالْجَوَاب: أَنَّ أَلْبَانهَا لِلْمُحْتَاجِينَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَهَؤُلَاءِ إِذْ ذَاكَ مِنْهُمْ. [(١)]

الوجه الرابع: ذكر بعض فوائد أبوال الإبل وألبانها من السنة.

عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أن في أبوال الإبل وألبانها شفاء للذربة بطونهم". [(٢)]

وَفِي أَبْوَالِ الْإِبِلِ جَلَاءٌ، وَتَلْيِينٌ، وَإِدْرَارٌ، وَتَلْطِيفٌ، وَتَفْتِيحٌ لِلسُّدَدِ؛ إذَا كَانَ أَكْثَرُ رَعْيِهَا الْأَدْوِيَةَ النَّافِعَةَ لِلِاسْتِسْقَاءِ، وَقَالَ ابْنُ جَزْلَةَ لَبَنُ اللِّقَاحِ - وَهِيَ النُّوقِ - أَقَلُّ الْأَلْبَانِ دُسُومَةً وَجُبْنِيَّةً، وَهُوَ رَقِيقٌ جدًّا، مَائِيٌّ لَا يُحْدِثُ سَوْدَاءَ كَغَيْرِهِ مِنْ الْأَلْبَانِ؛ لِقِلَّةِ جُبْنِيَّتِهِ يَنْفَعُ مِنْ الرَّبْوِ وَالِاسْتِسْقَاءِ وَأَمْرَاضِ الطِّحَالِ وَالْبَوَاسِيرِ، وَأَجْوَدُ مَا يُسْتَعْمَلُ لِلِاسْتِسْقَاءِ مَعَ أَبْوَالِ الْإِبِلِ؛ فَإِنَّهُ يُسَهِّلُ الْمَاءَ الْأَصْفَرَ، وَهُوَ سَرِيعُ الِانْحِدَارِ عَنْ الْمِعْدَةِ وَهُوَ أَقَلُّ غِذَاءً مِنْ سَائِرِ الْأَلْبَانِ. قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي أَبْوَالِ الْإِبِلِ قَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَدَاوَوْنَ بِهَا فَلَا يَرَوْنَ بِهَا بَأْسًا، ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ[(٣)]، وَقَالَ الطَّحَاوِيَّ ثنا حُسَيْنُ بْنُ نَصْرٍ الْفِرْيَابِيُّ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إبْرَاهِيمَ قَالَ: كَانُوا يَسْتَشْفُونَ بِأَبْوَالِ الْإِبِلِ لَا يَرَوْنَ بِهَا بَأْسًا[(٤)].

قال ابن القيم: كان الاستسقاء لما رواه مسلم في صحيحه أنهم قالوا: (إنا اجتوينا المدينة فعظمت بطوننا وارتهشت أعضاؤنا)، وذكر تمام الحديث والجوى: داء من أدواء الجوف - والاستسقاء: مرض مادي سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء فتربو لها، إما الأعضاء الظاهرة كلها، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأخلاط، وأقسامه ثلاثة: لحمي وهو أصعبها، وزقي، وطبلي، ولما كانت الأدوية المحتاج إليها في علاجه هي الأدوية الجالبة التي فيها إطلاق معتدل وإدرار بحسب الحاجة، وهذه الأمور موجودة في أبوال الإبل وألبانها، أمرهم النبيﷺ بشربها فإن في لبن اللقاح جلاء

---

(١) شرح النووي على مسلم (٦/ ٧٩).

(٢) مسند أحمد (٢٦٧٧)، وفي إسناه ابن لهيعة بتصرف يسير وهو ضعيف.

(٣) البخاري (٥٤٤٤).

(٤) الآداب الشرعية (٣/ ٩٩).

وتليينا وإدرارا وتلطيفا وتفتيحا للسدد؛ إذ كان أكثر رعيها الشيح والقيصوم والبابونج والأقحوان والإذخر وغير ذلك من الأدوية النافعة للإستسقاء، وهذا المرض لا يكون إلا مع آفة في الكبد خاصة أو مع مشاركة، وأكثرها عن السدد فيها ولبن اللقاح العربية نافع من السدد لما فيه من التفتيح والمنافع المذكورة.

قال الرازي: لبن اللقاح يشفي أوجاع الكبد، وفساد المزاج، وقال الإسرائيلي: لبن اللقاح أرق الألبان، وأكثرها مائية وحدة، وأقلها غذاء، فلذلك صار أقواها على تلطيف الفضول، وإطلاق البطن، وتفتيح السدد، ويدل على ذلك ملوحته اليسيرة التي فيه لإفراط حرارة حيوانية بالطبع، ولذلك صار أخص الألبان بتطرية الكبد وتفتيح سددها وتحليل صلابة الطحال إذا كان حديثا، والنفع من الاستسقاء خاصة إذا استعمل لحرارته التي يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل وهو حار كما يخرج من الحيوان؛ فإن ذلك مما يزيد في ملوحته، وتقطيعه الفضول، وإطلاقه البطن، فإن تعذر انحداره وإطلاقه البطن وجب أن يطلق بدواء مسهل، قال صاحب القانون: ولا يلتفت إلى ما يقال: من أن طبيعة اللبن مضادة لعلاج الاستسقاء قال: واعلم أن لبن النوق دواء نافع لما فيه من الجلاء برفق، وما فيه من خاصية، وأن هذا اللبن شديد المنفعة، فلو أن إنسانا أقام عليه بدل الماء والطعام شفي به وقد جرب ذلك في قوم دفعوا إلى بلاد العرب فقادتهم الضرورة إلى ذلك فعوفوا، وأنفع الأبوال: بول الجمل الأعرابي وهو (النجيب). [1]

وعن ابن عباس ﷺ قال: أقبلت يهودُ على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (يوسف: ٦٦). قال: "هاتوا". قالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: "**تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُه**". قالوا: أخبرنا كيف تُؤنِّثُ المرأةُ وكيف تُذْكِرُ؟ قال: "يَلْتَقِي الماءَان، فإذا علا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمُرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وإِذَا عَلا مَاءُ الْمُرْأَةِ آنَثَتْ. قالوا: أخبرنا ما حَرَّم

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٤٢).

إسرائيل على نفسه، قال: "كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلائِمُهُ إلا أَلْبَانَ كَذَا وكَذَا – قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل -فَحَرَّم لُحُومَهَا". قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرَّعد؟ قال: "مَلَكٌ مِنْ مَلائِكَةِ الله مُوَكلٌ بِالسَّحَابِ بِيدِهِ أو فِي يَدِه–مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَزْجُر بِهِ السّحابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ الله ﷻ ". قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسمع؟ قال: "صَوْتُه". قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبُك؟ قال: "جبْرِيلُ ﷺ ". قالوا: جبريل ذاك يَنزل بالحَرْب والقتال والعذاب عَدُوُّنا. لو قلتَ: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقَطْر لَكَانَ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٩٧). [١]

يقول تعالى آمرًا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾؟ فإنها خَلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها. ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت. [٢]

ولبن الإبل أرطب الألبان وأقلها دسمًا. [٣]

الوجه الخامس: أن هذا اختيار للمريض وليس إجبارًا.

فعن جابر، عن عامر قال كان حبان السرقي يصف أبوال الإبل لمن كان به بأس وإلا لم يصفها. [٤]

الوجه السادس: أن هذا الدواء كان عند العرب.

---

(١) حسن. مسند أحمد (١/ ٢٧٤)، الترمذي (٣١١٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٨٧).

(٣) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار (٢/ ١٢٥).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٢٣٦٥٣).

الحُضُضُ والحُضَضُ: دواءٌ يُتخَذُ من أبوال الإبل. (١)

الحضَظُ: دواء يتخذ من أبوال الإبل، قال ابن دريد: ذكروا أن الخليل كان يقوله، قال: ولم يعرفه أصحابنا. ويقال: الحَضَضُ أيضا وقد تقدمت الأخيرة في الثنائي. (٢)

والحُضَضُ، كزُفَرَ وعُنُقٍ العَرَبيُّ منه عُصارةُ الخَوْلانِ، والهِنْدِيُّ عُصارَةُ الفِيْلَزَهْرَجِ، وكِلاهُما نافعٌ للأَوْرامِ الرّخْوَةِ والخَوَّارَةِ، والقُروحِ، والنُّفَّاخاتِ، والرَّمَدِ، والجُذام، والبَواسِيرِ، ولَسْعِ الهَوامِّ، والخوانيقِ، غَرْغَرَةً، وعَضَّةِ الكلْبِ الكَلِبِ، طِلاءً وشُرْبًا كلَّ يومٍ نِصْفَ مِثْقالٍ بماءٍ، ويُغَزِّرُ الشَّعَرَ، ونباتٌ، ودواءٌ آخَرُ يُتَّخَذُ من أبْوالِ الإِبلِ. (٣) مَثَلُهُم: " عَنِيَّةٌ تَشْفي الجَرَب " فالعَنِيَّةُ: ماءُ الجَرادِ المَطْبُوخِ يُخْلَطُ به أبْوالُ الإبلِ والمِلْحُ. (٤)

قال الشَّعْبِي: لأَنْ أَتَعَنَّى بِعَنِيَّةٍ إليَّ أَحَبُّ إليَّ أن أَقُولَ في مسألةٍ برأيي، والعنيةُ أخلاطٌ تُنْقَعُ في أبوالِ الإبلِ ثم يُطْلَى بها الإبلُ من الجَرَب. (٥)

قال ياقوت الحموي: قال ابن الكلبي صاحب الخورنق والذي أمر ببنائه بهرام جور بن يزد جرد بن سابور ذي الأكتاف وذلك أن يزد جرد كان لا يبقى له ولد وكان قد لحق ابنه بهرام جور في صغره علة تشبه الاستسقاء فسأل عن منزل مريء صحيح من الأدواء والأسقام ليبعث بهرام إليه خوفًا عليه من العلة فأشار عليه أطباؤه أن يخرجه من بلده إلى أرض العرب ويسقى أبوال الإبل وألبانها فأنفذه إلى النعمان وأمره أن يبني له قصرًا مثله على شكل بناء الخورنق فبناه له وأنزله إياه وعالجه حتى برأ من مرضه ثم استأذن أباه في المقام عند النعمان فأذن له فلم يزل عنده نازلًا قصره الخورنق حتى صار رجلًا ومات أبوه فكان من أمره في طلب الملك حتى ظفر به ما هو متعارف مشهور. (١)

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (١/ ٣٧٥).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم (١/ ٤٥٢).

(٣) القاموس المحيط (٢/ ١٨٥).

(٤) المحيط في اللغة (١/ ١٢٤).

(٥) غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ١٣١).

وقال ابن عباس ﷺ ومجاهد وقتادة والسدي: أقبل يعقوب ﷺ من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو، وكان رجلًا بطشًا قويًا، فلقيه ملك فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه، فغمز الملك فخذ يعقوب ﷺ ثم صعد الملك إلى السماء ويعقوب ينظر إليه فهاج عليه عرق النسا، ولقي من ذلك بلّاء شديدًا، فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله زقاء أي صياح، فحلف يعقوب ﷺ إن شفاه الله ﷻ ألا يأكل عرقًا، ولا يأكل طعاما فيه عرق فحرمها على نفسه، فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق فيخرجونها من اللحم. وكان سبب غمز الملك ليعقوب أنه كان نذر

إن وهب الله له اثني عشر ولدًا، وأتى بيت المقدس صحيحًا أن يذبح آخرهم. [٢]

وعن عبد الملك بن عمير قال: قال الحجاج لطبيبه تياذوق صف لي شيئًا أعمل عليه فإني أظن أني أفارقك سريعًا، قال: احفظ عني خلالًا لا تشربن دواء من غير وجع، ولا تأكلن على شبع، ولا تأكلن بشهوة عين، ولا تأكلن فاكهة مولية، ولا تأكلن من اللحم إلا طريًا، ولا تلبس إلا نقيًا، ولا تنكحن إلا فتيًا، واشرب من ألبان الإبل فإنها تعضد القلب، وأما السويق فسمنة وأدم النظر إلى الخضرة فإن ذلك يجلو البصر وأما العسل فشفاء يجثم على فم المعدة فيقذف الداء. [٣]

الوجه السابع: الطب يؤكد الحقيقة النبوية.

إن الطب شاهد بصحة هذا الحديث إليك الآن تجربة علمية أثبتت إمكانية علاج مرض الاستسقاء بالإفراز البولي للإبل، ففي الخرطوم قام أجرت كلية المختبرات الطبية بجامعة الجزيرة بالسودان عن استخدامات قبيلة البطانة فى شرق السودان (بول الإبل) في علاج بعض الأمراض حيث إنهم يستخدمونه شرابًا لعلاج مرض (الاستسقاء) والحميات والجروح، وقد

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/ ٤٠٢-٤٠٣).
(٢) تفسير القرطبي (٤/ ١٣٤).
(٣) المجالسة وجواهر العلم للدنيوري (١٩٨٥).

كشف البروفسور أحمد عبدالله محمداني تفاصيل تلك الدراسة العلمية التطبيقية المذهلة داخل ندوة جامعة الجزيرة حيث ذكر أن الدراسة استمرت ١٥ يومًا حيث اختير ٢٥ مريضًا مصابين بمرض الاستسقاء المعروف وكانت بطونهم منتفخة بشكل كبير قبل بداية التجربة العلاجية، وبدأت التجربة بإعطاء كل مريض يوميا جرعة محسوبة من (بول الإبل) مخلوطًا بلبن الإبل حتى يكون مستساغا وبعد ١٥ يومًا من بداية التجربة أصابنا الذهول من النتيجة اذ انخفضت بطونهم وعادت لوضعها الطبيعي وشفي جميع أفراد العينة من الاستسقاء. وتصادف وجود بروفسور إنجليزى أصابه الذهول أيضًا وأشاد بالتجربة العلاجية.

وقال (البروفسور أحمد): أجرينا قبل الدراسة تشخيصًا لكبد المرضى بالموجات الصوتية فاكتشفنا أن كبد ١٥ من الـ٢٥ مريضًا يحتوى (شمعًا) وبعضهم كان مصابًا بتليف فى الكبد بسبب مرض البلهارسيا وجميعهم استجابوا للعلاج بـ (بول الإبل) وبعض أفراد العينة استمروا برغبتهم فى شرب جرعات بول الإبل يوميًا لمدة شهرين آخرين، وبعد نهاية تلك الفترة أثبت التشخيص شفاءهم من تليف الكبد وسط دهشتنا جميعًا.

ويقول البروفسور أحمد عبد الله عميد كلية المختبرات الطبية عن تجربة علاجية أخرى وهذه المرة عن طريق لبن الإبل وهى تجربة قامت بها طالبة ماجستير بجامعة الجزيرة لمعرفة أثر لبن الإبل على معدل السكر في الدم فاختارت عددًا من المتبرعين المصابين بمرض السكر لإجراء التجربة العلمية واستغرقت الدراسة سنة كاملة حيث قسمت المتبرعين لفئتين: كانت تقدم للفئة الأولى جرعة من لبن الإبل بمعدل نصف لتر يوميًا شراب على (الريق) وحجبته عن الفئة الثانية. وجاءت النتيجة مذهلة بكل المقاييس إذ أن نسبة السكر في الدم انخفضت بدرجة ملحوظة وسط الفئة الأولى ممن شربوا لبن الإبل عكس الفئة الثانية، وهكذا عكست التجربة العلمية لطالبة الماجستير مدى تأثير لبن الإبل في تخفيض أو علاج نسبة السكر في الدم.

وأوضح د. أحمد: المكونات الموجودة في بول الإبل حيث قال: أنه يحتوي على كمية كبيرة من البوتاسيوم يمكن أن تملأ جرادل ويحتوى أيضًا على زلال بالجرامات ومغنسيوم، إذ أن الإبل لا تشرب في فصل الصيف سوى ٤ مرات فقط ومرة واحدة في الشتاء وهذا يجعلها تحتفظ بالماء فى جسمها فالصوديوم يجعلها لا تدر البول كثيرًا لأنه يرجع الماء إلى الجسم، ومعروف أن مرض الاستسقاء إما نقص في الزلال أو في البوتاسيوم وبول الإبل غني بالاثنين معًا. (١)

وقد جاء في بحث قامت به الدكتورة "أحلام العوضي" نشر في مجلة "الدعوة " في عددها (١٩٣٨، ٢٥ صفر ١٤٢٥هـ ١٥ أبريل ٢٠٠٤ م) حول الأمراض التي يمكن علاجها بحليب الإبل، وذلك من واقع التجربة: أن هناك فوائد جمة لحليب الإبل، وهنا بعض ما جاء في بحث الدكتورة " أحلام ": " أبوال الإبل ناجعة في علاج الأمراض الجلدية كالسعفة - التينيا-، والدمامل، والجروح التي تظهر في جسم الإنسان وشعره، والقروح اليابسة والرطبة، ولأبوال الإبل فائدة ثابتة في إطالة الشعر ولمعانه وتكثيفه، كما يزيل القشرة من الرأس، وأيضًا لألبانها علاج ناجع لمرض الكبد الوبائي، حتى لو وصل إلى المراحل المتأخرة والتي يعجز الطب عن علاجها ".

وجاء في صحيفة " الجزيرة السعودية " العدد ١٠١٣٢، الأحد، ربيع الأول ١٤٢١، نقلًا عن كتاب " الإبل أسرار وإعجاز " تأليف: ضرمان بن عبد العزيز آل ضرمان، وسند بن مطلق السبيعي، ما يأتي:

" أما أبوال الإبل فقد أشار الكتاب إلى أن لها استعمالات متعددة مفيدة للإنسان دلت على ذلك النصوص النبوية الشريفة، وأكَّدها العلم الحديث.

وقد أثبتت التجارب العلمية بأن بول الإبل له تأثير قاتل على الميكروبات المسببة لكثير من الأمراض. ومن استعمالات أبوال الإبل: أن بعض النساء يستخدمنها في غسل شعورهن لإطالتها وإكسابها الشقرة واللمعان، كما أن بول الإبل ناجع في علاج ورم

---

(١) " مجلة الجندي المسلم " (العدد ١١٨، ٢٠ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ، ١/ ١/ ٢٠٠٥ م).

الكبد وبعض الأمراض، مثل الدمامل، والجروح التي تظهر في الجسم، ووجع الأسنان وغسل العيون " انتهى.

وقال الدكتور عبد الفتاح محمود إدريس: وأبيِّن في هذا الصدد ما ينفع بول الإبل في علاجه من الأمراض، قال ابن سينا في " قانونه ": (أنفع الأبوال بول الجمل الأعرابي وهو " النجيب ")، وبول الإبل يفيد في علاج مرض "الحزاز" -الحزاز: قيل: إنه وجع في القلب من غيظ ونحوه -، وقد استخدمت أبوال الإبل وخاصة بول الناقة البكر كمادة مطهرة لغسل الجروح، والقروح، ولنمو الشعر، وتقويته، وتكاثره، ومنع تساقطه، وكذا لمعالجة مرض القرع، والقشرة، وفي رسالة الماجستير المقدمة من مهندس تكنولوجيا الكيمياء التطبيقية "محمد أوهاج محمد"، التي أجيزت من قسم الكيمياء التطبيقية بجامعة "الجزيرة " بالسودان، واعتمدت من عمادة الشئون العلمية والدراسات العليا بالجامعة في نوفمبر ١٩٩٨م بعنوان: (دراسة في المكونات الكيميائية وبعض الاستخدامات الطبية لبول الإبل العربية)، يقول محمد أوهاج: إن التحاليل المخبرية تدل على أن بول الجمل يحتوي على تركيز عالٍ من: البوتاسيوم، والبولينا، والبروتينات الزلالية، والأزمولارتي، وكميات قليلة من حامض اليوريك، والصوديوم، والكرياتين. وأوضح في هذا البحث أن ما دعاه إلى تقصي خصائص بول الإبل العلاجية هو ما رآه من سلوك بعض أفراد قبيلة يشربون هذا البول حينما يصابون باضطرابات هضمية، واستعان ببعض الأطباء لدراسة بول الإبل؛ حيث أتوا بمجموعة من المرضى ووصفوا لهم هذا البول لمدة شهرين، فصحت أبدانهم مما كانوا يعانون منه.

وهذا يثبت فائدة بول الإبل في علاج بعض أمراض الجهاز الهضمي، كما أثبت أن لهذا البول فائدة في منع تساقط الشعر، ويقول: إن بول الإبل يعمل كمدر بطيء مقارنة بمادة " الفيروسمايد "، ولكن لا يخل بملح البوتاسيوم والأملاح الأخرى التي تؤثر فيها المدرات الأخرى، إذ إن بول الإبل يحتوي على نسبة عالية من البوتاسيوم والبروتينات، كما أنه أثبت فعالية ضد بعض أنواع البكتيريا والفيروسات، وقد تحسن حال خمس وعشرين مريضًا

استخدموا بول الإبل من الاستسقاء، مع عدم اضطراب نسبة البوتاسيوم، واثنان منهم شفوا من آلام الكبد، وتحسنت وظيفة الكبد إلى معدلها الطبيعي، كما تحسن الشكل النسيجي للكبد، ومن الأدوية التي تستخدم في علاج الجلطة الدموية مجموعة تسمى (FIBRINOLTICS)، تقوم آلية عمل هذه المجموعة على تحويل مادة في الجسم من صورتها غيرالنشطة (PLASMINOGEN)، إلى الصورة النشطة (PLASMIN)، وذلك من أجل أن تتحلل المادة المسببة للتجلط (FIBRIN) أحد أعضاء هذه المجموعة هو (UROKINASE) الذي يستخرج من خلايا الكلى أو من البول كما يدل الاسم (URO١٢).

وقد دعانا الله تعالى إلى التأمل في خلق الإبل بقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: ١٧) وهذا التأمل ليس قاصرًا على شكل الجمل الظاهري، بل ولا أجهزة جسمه الداخلية، بل يشمل أيضًا ما نحن بصدد الكلام عنه، وهو فوائد أبوال وألبان الإبل. ولا تزال الأبحاث العلمية الحديثة تبين لنا كثيرًا من عجائب هذا المخلوق. والله أعلم.[1]

الوجه الثامن: الرد على اليهود والنصارى بما عندهم.

نقول لك ما قاله المسيح في إنجيل (لوقا ٦: ٤١): لِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلاَ تَفْطَنُ لَهَا؟).

وفي (سفر التثنية ١٤/ ٧)(الْجَمَلُ وَالأَرْنَبُ وَالْوَبْرُ، لأَنَّهَا تَجْتَرُّ لكِنَّهَا لاَ تَشُقُّ ظِلْفًا، فَهِيَ نَجِسَةٌ لَكُمْ).

ألم يرد في كتابك المقدس أن الرب أمر نبيه (حزقيال) بأكل الخراء وهو البراز: (وَتَأْكُلُ كَعْكًا مِنَ الشَّعِيرِ. عَلَى الْخُرْءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ تَخْبِزُهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ) (حزقيال٤/ ١٣).

ليس هذا فقط، بل انظر في (سفر إشعياء ٣٦/ ١٢)(فَقَالَ رَبْشَاقَى: «هَلْ إِلَى سَيِّدِكَ وَإِلَيْكَ أَرْسَلَنِي سَيِّدِي لِكَيْ أَتَكَلَّمَ بِهذَا الْكَلاَمِ؟ أَلَيْسَ إِلَى الرِّجَالِ الْجَالِسِينَ عَلَى السُّورِ، لِيَأْكُلُوا عَذِرَتَهُمْ وَيَشْرَبُوا بَوْلَهُمْ مَعَكُمْ؟ ».

* * *

(١) فتاوى الإسلام سؤال وجواب بإشراف: الشيخ محمد صالح المنجد (١/ ٦٢٨٢).

٣ـ شبهة: بول الصبي على النبي ﷺ.

نص الشبهة:

في حديث عائشة" أُتِيَ بِصَبِيٍّ فَبَالَ عَلَيْه "، ينكرون ذلك، وكيف يتبول صبي عليه؟.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: الروايات الواردة والتفسير الصحيح للحديث.

الوجه الثاني: تواضع النبي ﷺ.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: الروايات الواردة والتفسير الصحيح للحديث.

عَنْ عَائِشَةَ-رضي الله عنها- زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ فَيُبَرِّكُ عَلَيْهِمْ وَيُحَنِّكُهُمْ فَأُتِيَ بِصَبِيٍّ فَبَالَ عَلَيْهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ بَوْلَهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ. (١)

وعند النسائي (فأتبعه إياه)(٢)، وعند أحمد (صبوا عليه الماء صبًا)(٣).

وعند الطبراني: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ " أتي بصبي، فبال عليه، فنضحه، وأتي بجارية، فبالت عليه، فغسله "(٤).

وعن أَبِي السَّمْحِ قَالَ: كُنْتُ أَخْدِمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَغْتَسِلَ قَالَ وَلِّنِي قَفَاكَ، فَأُوَلِّيهِ قَفَايَ فَأَسْتُرُهُ بِهِ فَأُتِيَ بِحَسَنٍ أَوْ حُسَيْنٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا- فَبَالَ عَلَى صَدْرِهِ فَجِئْتُ أَغْسِلُهُ فَقَالَ يُغْسَلُ مِنْ بَوْلِ الْجَارِيَةِ وَيُرَشُّ مِنْ بَوْلِ الْغُلَامِ. (٥)

---

(١) مسلم (٢٨٦).

(٢) النسائي في (الكبرى) (٣٠٣)

(٣) مسند أحمد (٦/ ٤٦).

(٤) المعجم الأوسط (٨٢٤)، وقال: لم يرو هذا الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده إلا أسامة بن زيد، تفرد به عبد الله بن موسى، و حسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٧٣).

(٥) أبو داود (٣٧٦)، النسائي في (الكبرى) (٣٠٤) من غير قصة الحسن، وابن ماجه (٥٢٥) بلفظ: ينضح، عن علي، وابن ماجه (٥٢٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٢).

قال أَبُو الْيَمَانِ الْمِصْرِيُّ: سَأَلْتُ الشَّافِعِيَّ عَنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ يرَشُّ مِنْ بَوْلِ الْغُلَامِ وَيُغْسَلُ مِنْ بَوْلِ الْجَارِيَةِ، وَالْمَاءَانِ جَمِيعًا وَاحِدٌ، قَالَ: لِأَنَّ بَوْلَ الْغُلَامِ مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَبَوْلَ الْجَارِيَةِ مِنَ اللَّحْمِ وَالدَّمِ، ثُمَّ قَالَ لِي فَهِمْتَ، أَوْ قَالَ لَقِنْتَ، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: إِنَّ الله تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ خُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلْعِهِ الْقَصِيرِ، فَصَارَ بَوْلُ الْغُلَامِ مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ، وَصَارَ بَوْلُ الْجَارِيَةِ مِنَ اللَّحْمِ وَالدَّمِ، قَالَ: قَالَ لِي: فَهِمْتَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ لِي نَفَعَكَ الله بِهِ.[1]

وعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: أُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِصَبِيٍّ يَرْضَعُ فَبَالَ فِي حَجْرِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ.[2]

وعَنْ أُمِّ قَيْسٍ أَنَّهَا أَتَتْ رَسُولَ الله ﷺ بِابْنٍ لَهَا لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ فَوَضَعَتْهُ فِي حَجْرِهِ فَبَالَ قَالَ: " فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ نَضَحَ بِالْمَاءِ".[3]

قال النووي: وفي الباب اِسْتِحْبَاب حَمْل الْأَطْفَال إِلَى أَهْل الْفَضْل لِلتَّبَرُّكِ بِهِمْ، وَفِيهِ: النَّدْب إِلَى حُسْن الْمُعَاشَرَة، وَاللِّين، وَالتَّوَاضُع، وَالرِّفْق بِالصِّغَارِ، وَغَيْرهمْ، وَفِيهِ: مَقْصُود الْبَاب وَهُوَ: أَنَّ بَوْل الصَّبِيّ يَكْفِي فِيهِ النَّضْح، وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي كَيْفِيَّة طَهَارَة بَوْل الصَّبِيّ وَالْجَارِيَة عَلَى ثَلَاثَة مَذَاهِب؛ وَهِيَ ثَلَاثَة أَوْجه لِأَصْحَابِنَا: الصَّحِيح الْمَشْهُور الْمُخْتَار: أَنَّهُ يَكْفِي النَّضْح فِي بَوْل الصَّبِيّ، وَلَا يَكْفِي فِي بَوْل الْجَارِيَة، بَلْ لَا بُدّ مِنْ غَسْلِهِ كَسَائِرِ النَّجَاسَات. وَمِمَّنْ قَالَ بِالْفَرْقِ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب ﷺ، وَعَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، وَإِسْحَاق بْن رَاهَوَيْهِ، وَجَمَاعَة مِنْ السَّلَف، وَأَصْحَاب الْحَدِيث، وَابْن وَهْب مِنْ أَصْحَاب مَالِك.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْخِلَاف إِنَّمَا هُوَ فِي كَيْفِيَّة تَطْهِير الشَّيْء الَّذِي بَال عَلَيْهِ الصَّبِيّ، وَلَا خِلَاف فِي نَجَاسَته، قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْره: وَلَيْسَ تَجْوِيز مَنْ جَوَّزَ النَّضْح فِي الصَّبِيّ مِنْ أَجْل

---

(١) ابن ماجه (١/ ١٧٤).

(٢) مسلم (٢٨٦).

(٣) البخاري (٢٢٣)، مسلم (٢٨٧) وهذا لفظه.

أَنَّ بَوْله لَيْسَ بِنَجِسٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ أَجْل التَّخْفِيف فِي إِزَالَته، فَهَذَا هوَ الصَّوَاب[١].

ثُمَّ إِنَّ النَّضْح إِمَّا يَجْزِي مَا دَامَ الصَّبِيّ يَقْتَصِر بِهِ عَلَى الرَّضَاع أَمَّا إِذَا أَكَلَ الطَّعَام عَلَى جِهَة التَّغْذِيَة فَإِنَّهُ يَجِب الْغَسْل بِلَا خِلَاف. وَالله أَعْلَم[٢].

الوجه الثاني: تواضع النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٥)

وعن عياض بن حمارٍ ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ. [٣]

وعن أنس ﷺ أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله. [٤]

وعنه أيضًا قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت[٥].

وبالرغم من أنه خير خلق الله، إلا أنه كان ﷺ أشد الناس تواضعًا، وهذا تصديقًا لحديث النبي ﷺ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله. [٦]

* * *

(١) معالم السنن (١/ ٩٩).

(٢) شرح النووي (٢/ ١٩٩: ١٩٨)، وانظر فتح الباري (١/ ٣٨٨: ٣٨٧).

(٣) مسلم (٢٨٦٥).

(٤) البخاري (٥٨٩٣)، مسلم (٢٣١٠).

(٥) البخاري (٥٧٢٤).

(٦) مسلم (٢٥٨٨).

٤ـ شبهة: كلام الحيوان كالبقرة والذئب في أحاديث السنة.

نص الشبهة:

يتعجبون من كلام الحيوان كالبقرة والذئب، وينكرونه.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أقوال العلماء في الحديث، ورأيهم في هذا الباب.

الوجه الثاني: الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو قادر على إنطاق كل شيء.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: أقوال العلماء في الحديث.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ قَالَ: " آمَنْتُ بِهِ أَنَا، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَأَخَذَ الذِّئْبُ شَاةً فَتَبِعَهَا الرَّاعِي فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي، قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ " قَالَ أَبُو سَلَمَةَ وَمَا هُمَا يَوْمَئِذٍ فِي الْقَوْمِ[1].

قال النووي: فِي الحديث جَوَاز كَرَامَات الْأَوْلِيَاء وَخَرْق الْعَوَائِد، وَهُوَ مَذْهَب أَهْل الْحَقّ، وقال القاضي: قَول الذِّئْب: (مَنْ لَهَا يَوْم السَّبُع؟)، أَيْ مَنْ لَهَا يَوْم الْقِيَامَة؟ وَقَالَ بَعْض أَهْل اللُّغَة: يُقَالُ: سَبَّعْت الْأَسَد إِذَا دَعَوْته، فَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا مَنْ لَهَا يَوْم الْفَزَع؟ وَيَوْم الْقِيَامَة يَوْم الْفَزَع، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَاد مَنْ لَهَا يَوْم الْإِهْمَال؟ مِنْ أَسْبَعْت الرَّجُل أَهْمَلْته، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَوْم السَّبْع بِالْإِسْكَانِ عِيد كَانَ لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّة يَشْتَغِلُونَ فِيهِ بِلَعِبِهِمْ، فَيَأْكُلُ الذِّئْبُ غَنَمَهُمْ. وَقَالَ الدَّاوُدِيّ: يَوْم السَّبُع أَيْ يَوْمَ يَطْرُدُك عَنْهَا السَّبُع، وَبَقِيت أَنَا فِيهَا لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي لِفِرَارِك مِنْهُ، فَأَفْعَلُ فِيهَا مَا أَشَاءُ، وقال النووي: والأصح أَنَّهَا عِنْد الْفِتَن حِين تَتْرُكهَا النَّاس هَمَلًا لَا رَاعِي لَهَا نُهْبَةً لِلسِّبَاعِ فَجَعَلَ السَّبُع لَهَا رَاعِيًا أَيْ مُنْفَرِدًا بِهَا،

---

(١) البخاري (٣٦٩٠، ٣٦٦٣، ٣٤٧١، ٢٣٢٤) بذكر الذئب فقط، مسلم (٢٣٨٨).

وَتَكُونُ بِضَمِّ الْبَاء. وَالله أَعْلَمُ[١].

قال ابن حجر: اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الدَّوَابّ لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيمَا جَرَتْ الْعَادَة بِاسْتِعْمَالِهَا فِيهِ، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون قَوْلهَا إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ، لِلْإِشَارَةِ إِلَى مُعْظَم مَا خُلِقَتْ لَهُ، وَلَمْ تُرِدْ الْحَصْر فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ غَيْر مُرَاد اِتِّفَاقًا، لِأَنَّ مِنْ أَجَل مَا خُلِقَتْ لَهُ أَنَّهَا تُذْبَح وَتُؤْكَل بِالِاتِّفَاقِ[٢]

وقال أيضًا: وقد أورد البخاري الْحَدِيث فِي ذِكْر بَنِي إِسْرَائِيل، وَهُوَ مُشْعِر بِأَنَّهُ عِنْده مِمَّنْ كَانَ قَبْل الْإِسْلَام، وَقَدْ وَقَعَ كَلَام الذِّئْب لِبَعْضِ الصَّحَابَة فِي نَحْو هَذِهِ الْقِصَّة.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينا راع يرعى بالحرة إذ انتهز ذئب شاة من شياهه، فحال الراعي بين الذئب والشاة، فأقعى الذئب على ذنبه، ثم قال للراعي: ألا تتقي الله، تحول بيني وبين رزق ساقه الله إلي؟ فقال الراعي: العجب من ذئب مقع على ذنبه يتكلم بكلام الإنس، فقال الذئب: ألا أحدثك بأعجب مني: رسول الله ﷺ بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق، فساق الراعي شاة حتى أتى المدينة، فزوي إلى زاوية من زواياها ثم دخل على النبي ﷺ، فحدثه بحديث الذئب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الناس، فقال: للراعي: " قم فأخبرهم "، قال: فقام الراعي فحدثهم، فقال رسول الله ﷺ: " صدق الراعي ألا إنه من أشراط الساعة كلام السباع للإنس "[٣].

وقَوْله ﷺ: " فَإِنِّي أُؤْمِن بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْر وَعُمَر "، أَطْلَقَ ذَلِكَ لِمَا اِطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُمَا يُصَدِّقَانِ بِذَلِكَ إِذَا سَمِعَاهُ وَلَا يَتَرَدَّدَانِ[٤].

الوجه الثاني: أن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو قادر على إنطاق كل شيء.

إن من يتعجب أن بقرة تتكلم، أو ذئب يتكلم، لجاهل باسم الله القدير سبحانه وتعالى، واسمه القادر عز وجل.

---

(١) شرح النووي٨/ ١٧٠.

(٢) فتح الباري ٦/ ٥٨٠.

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (٢٣٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٢).

(٤) فتح الباري ٦/ ٥٨١.

وإذا نظرنا إلى مثل هذه الخوارق لوجدنا أن الله سبحانه سيُنطق الجلود يوم القيامة، والسمع، والبصر، والأيدي، والأرجل، والألسن، يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (فصلت ٢٢: ١٩)

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ (النور ٢٥: ٢٤).

قال الطبري: يقول الله: حتى إذا ما جاءوا النار، شهد عليهم سمعهم بما كانوا يصغون به في الدنيا إليه، ويسمعون له، وأبصارهم بما كانوا ينظرون إليه في الدنيا ﴿وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وقد قيل: عني بالجلود في هذا الموضع: الفروج[1].

وقال في آية سورة النور: وذلك حين يجحد أحدهم ما اكتسب في الدنيا من الذنوب، عند تقرير الله إياه بها فيختم الله على أفواههم، وتشهد عليهم أيديهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون. فإن قال قائل: وكيف تشهد عليهم ألسنتهم حين يختم على أفواههم؟ قيل: عني بذلك أن ألسنة بعضهم تشهد على بعض، لا أنَّ ألسنتهم تنطق وقد ختم على الأفواه[2]. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (يس: ٦٥).

ومن هذا الباب أيضًا أن هناك بعض البشر قد تكلموا في المهد:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي فَقَالَتْ:

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٩٩.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٩٢.

اللهمَّ لا تُمِتْهُ حتَّى تُرِيَهُ وُجوهَ الْمُومِسَاتِ، وَكَانَ جرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ، وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالَتْ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ، فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، وَأَنْزَلُوهُ، وَسَبُّوهُ فتَوَضَّأَ وَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ قَالَ الرَّاعِي، قَالُوا نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا إِلَّا مِنْ طِينٍ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ، فَقَالَتْ: اللهمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ؛ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ فَقَالَ اللهمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: - كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ - ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ فَقَالَتْ: اللهمَّ لا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ؛ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا فَقَالَ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَاكَ فَقَالَ: الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنْ الْجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ زَنَيْتِ وَلَمْ تَفْعَلْ[1].

وقال الله ﷻ عن عيسى وهو في المهد: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم٣٣: ٣٠).

* * *

(١) البخاري (٣٤٣٦)، مسلم (٢٥٥٠).

٥ـ شبهة: قصة الحمار يعفور.

نص الشبهة:

عن أبي منظور، قال: لما فتح رسول الله ﷺ يعني خيبر، أصاب أربعة أزواج ثقال، أربعة أزواج خفاف، وعشر أواقي ذهب وفضة، وحمار أسود مكبلًا، قال: فكلم رسول الله ﷺ الحمار فكلمه الحمار فقال له النبي ﷺ: "ما اسمك قال: يزيد بن شهاب؛ أخرج الله ﷻ من نسل جدي ستين حمارًا كلهم لم يركبهم إلا نبي؛ قد كنت أتوقعك أن تركبني، لم يبق من نسل جدي غيري، ولا من الأنبياء غيرك، قد كنت قبلك لرجل يهودي وكنت أتعثر به عمدًا وكان يجيع بطني ويضرب ظهري، قال: فقال له النبي ﷺ: فأنت يعفور؛ يا يعفور قال: لبيك، قال: أتشتهي الإناث، قال: لا، قال، فكان رسول الله ﷺ يركبه في حاجته، وإذا نزل عنه بعث به إلى باب الرجل، فيأتي الباب فيقرعه برأسه، فإذا خرج إليه صاحب الدار؛ أومئ إليه أن أجب رسول الله ﷺ فلما قُبض النبي ﷺ جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيهان فتردى فيها جزعًا على رسول الله ﷺ فصارت قبره.

ففي القصة خرافات لا يقبلها عقل.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: حديث لا يصح.

الوجه الثاني: أقوال العلماء في الحديث.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: حديث لا يصح ـ لعن الله واضعه ـ كما هو موضح في الحاشية[1].

---

(١) موضوع.

وردت هذه القصة من طريقين:

الأول من طريق أبي منظور وله طريقان

الأول: أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ ٢٣٢، قال: أخبرنا أبو غالب وأبو عبد الله، قالا: أنبأ أبو سعد بن أبي علانة، أنا أبو طاهر المخلص وأبو أحمد بن المهتدي، حدثني أبو الحسن الأسدي عمر بن بشر بن موسى، نا أبو

الوجه الثاني: أقوال العلماء في الحديث. ١ـ قال ابن حبان: وهذا حديث لا أصل له، وإسناده ليس بشيء، ولا يجوز الاحتجاج بهذا الشيخ[1].

٢ـ قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع فلعن الله واضعه؛ فإنه لم يقصد إلا القدح في الإسلام، والاستهزاء به[2].

حفص عمر بن مزيد، نا عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الصهباء، نا أبو حذيفة عبد الله بن حبيب الهذلي، عن أبي عبد الله السلمي عن أبي منظور.

قلت: وأبو منظور لم يرد ذكره إلا في هذا الحديث كما قال ابن الأثير في أسد الغابة ٥/ ٣٠٦، وابن حجر في الإصابة٧/ ٣٨٩.

الثاني: أورده ابن حبان في المجروحين في ترجمة محمد بن مزيد أبو جعفر، فقال: محمد بن مزيد أبو جعفر مولى بني هاشم من أهل بغداد يروي عن أبي حذيفة موسى بن مسعود، عن عبد الله بن حبيب الهذلي، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي منظور وكانت له صحبه قال: (ثم ذكر القصة. . . . . .)

قال الخطيب: محمد بن مزيد أبو جعفر كان يضع الحديث (لسان الميزان٥/ ٤٣٢)، وقال الألباني في السلسة الضعيفة (٥٤٠٥): موضوع.

الطريق الثاني: في الدلائل لأبي نعيم ١/ ٣٣٠، قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى العنبري، قال: ثنا أحمد بن محمد بن يوسف، قال: ثنا إبراهيم بن سويد الجدوعي، قال: ثنا عبد الله بن أذينة الطائي، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن معاذ بن جبل قال: أتى النبي ﷺ وهو بخيبر حمار أسود فوقف بين يديه فقال: من أنت؟ فقال: أنا عمرو بن فلان كنا سبعة إخوة، كلنا ركبنا الأنبياء وأنا أصغرهم وكنت لك فملكني رجل من اليهود فكنت إذا ذكرتك كبأت به فيوجعني ضربًا فقال النبي ﷺ: فأنت يعفور.

و فيه علتان: الأولى: فيه عبد الله بن أُذينة الطائي. قال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا يروي عن ثور ما ليس من حديثه، لا يجوز الاحتجاج به بحال (المجروحين٢/ ١٨)، وقال ابنُ عدي: منكرُ الحديث (الكامل ٤/ ٢١٤)، وقال الحافظُ ابن حجر: بصري لين (لسان الميزان: ٣/ ٣٢١).

الثانية: خالد بن معدان ولم يسمع من معاذ. قال المزي: أدرك معاذ بن جبل ولم يسمع منه. (تهذيب الكمال ٨/ ١٦٨). قال الذهبي: أرسل عن معاذ بن جبل والكبار. (تذكرة الحفاظ ١/ ٩٣).

قال العلائي: قال أبو حاتم لم يصح سماعه من عبادة بن الصامت، ولا من معاذ بن جبل، بل هو مرسل، وربما كان بينهما اثنان. (جامع التحصيل ١/ ١٧١). قال ابن حجر: أرسل عن معاذ، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي ذر، وعائشة، وكان يدلس ويرسل. (تهذيب التهذيب ٣/ ١٠٢).

(١) المجروحين ٣/ ٣٠٨.

(٢) الموضوعات ١/ ٢٩٣.

٣- **قال ابن الأثير**: قال أبو موسى: هذا حديث منكر جدًّا إسنادًا ومتنًا، لا أحل لأحد أن يرويه عني إلا مع كلامي عليه(١).

٤- **قال ابن كثير**: بعد ما ذكر القصة: وقد أنكره غير واحد من الحفاظ الكبار.(٢)

وقال أيضًا في موضع آخر: أما ما ذكره القاضي عياض بن موسى السبتي في كتابه الشفا، وذكره قبل إمام الحرمين في كتابه الكبير في أصول الدين وغيرهما، أنه كان لرسول الله ﷺ حمار يسمى يزيد بن شهاب وأن رسول الله ﷺ كان يبعثه ليطلب له بعض أصحابه فيجيء إلى باب أحدهم فيقعقعه فيعلم أن رسول الله ﷺ يطلبه. . . إلى نهاية القصة) فهو حديث لا يعرف له إسناد بالكلية، وقد أنكره غير واحد من الحفاظ؛ منهم عبد الرحمن بن أبي حاتم وأبوه رحمهما الله، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي رحمه الله ينكره غير مرة إنكارًا شديدًا. (٣)

الحافظ ابن حجر: اعتمد كلام ابن حبان بأنه لا أصل له وليس سنده بشيء. (٤)

السيوطي: نقل الحديث في كتابه اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. (٥)

الوجه الثالث: بعض ما ورد من خرافات النصارى في الكتاب المقدس.

جاء في سفر العدد (٣٠، ٢٧: ٢٢): فَلَمَّا أَبْصَرَتِ الأَتَانُ مَلاَكَ الرَّبِّ، رَبَضَتْ تَحْتَ بَلْعَامَ. فَحَمِيَ غَضَبُ بَلْعَامَ وَضَرَبَ الأَتَانَ بِالْقَضِيبِ. فَفَتَحَ الرَّبُّ فَمَ الأَتَانِ، فَقَالَتْ لِبَلْعَامَ: «مَاذَا صَنَعْتُ بِكَ حَتَّى ضَرَبْتَنِي الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ؟ ». فَقَالَ بَلْعَامُ لِلأَتَانِ: «لأَنَّكِ ازْدَرَيْتِ بِي. لَوْ كَانَ فِي يَدِي سَيْفٌ لَكُنْتُ الآنَ قَدْ قَتَلْتُكِ». فَقَالَتِ الأَتَانُ لِبَلْعَامَ: «أَلَسْتُ أَنَا أَتَانَكَ الَّتِي رَكِبْتَ عَلَيْهَا مُنْذُ وُجُودِكَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ؟ هَلْ تَعَوَّدْتُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ هكَذَا؟ » فَقَالَ: «لاَ».

---

(١) أسد الغابة ٣/ ٢٥٢.

(٢) البداية والنهاية ٦/ ١٥٠.

(٣) البداية والنهاية ٦/ ١٠.

(٤) لسان الميزان ٥/ ٣٧٦، فتح الباري ١٦/ ٧٠.

(٥) اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ٢٥٣.

حرب النجوم: وَظَهَرَتْ آيَةٌ عَظِيمَةٌ فِي السَّمَاءِ: امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ، وَالْقَمَرُ تَحْتَ رِجْلَيْهَا، وَعَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَهِيَ حُبْلَى تَصْرُخُ مُتَمَخِّضَةً وَمُتَوَجِّعَةً لِتَلِدَ. وَظَهَرَتْ آيَةٌ أُخْرَى فِي السَّمَاءِ: هُوَذَا تِنِّينٌ عَظِيمٌ أَحْمَرُ، لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ، وَعَلَى رُؤُوسِهِ سَبْعَةُ تِيجَانٍ. وَذَنَبُهُ يَجُرُّ ثُلْثَ نُجُومِ السَّمَاءِ فَطَرَحَهَا إِلَى الأَرْضِ. وَالتِّنِّينُ وَقَفَ أَمَامَ الْمَرْأَةِ الْعَتِيدَةِ أَنْ تَلِدَ، حَتَّى يَبْتَلِعَ وَلَدَهَا مَتَى وَلَدَتْ. فَوَلَدَتِ ابْنًا ذَكَرًا عَتِيدًا أَنْ يَرْعَى جَمِيعَ الأُمَمِ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ. وَاخْتُطِفَ وَلَدُهَا إِلَى الله وَإِلَى عَرْشِهِ، وَالْمَرْأَةُ هَرَبَتْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، حَيْثُ لَهَا مَوْضِعٌ مُعَدٌّ مِنَ الله لِكَيْ يَعُولُوهَا هُنَاكَ أَلْفًا وَمِئَتَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا. وَحَدَثَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ، وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ وَلَمْ يَقْوَوْا، فَلَمْ يُوجَدْ مَكَانُهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي السَّمَاءِ. فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ، الَّذِي يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ، طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ، وَطُرِحَتْ مَعَهُ مَلاَئِكَتُهُ. وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا قَائِلًا فِي السَّمَاءِ: «الآنَ صَارَ خَلاَصُ إِلهِنَا وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ وَسُلْطَانُ مَسِيحِهِ، لأَنَّهُ قَدْ طُرِحَ الْمُشْتَكِي عَلَى إِخْوَتِنَا، الَّذِي كَانَ يَشْتَكِي عَلَيْهِمْ أَمَامَ إِلهِنَا نَهَارًا وَلَيْلًا. وَهُمْ غَلَبُوهُ بِدَمِ الْخَرُوفِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ، وَلَمْ يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَوْتِ. مِنْ أَجْلِ هذَا، افْرَحِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ وَالسَّاكِنُونَ فِيهَا، وَيْلٌ لِسَاكِنِي الأَرْضِ وَالْبَحْرِ، لأَنَّ إِبْلِيسَ نَزَلَ إِلَيْكُمْ وَبِهِ غَضَبٌ عَظِيمٌ! عَالِمًا أَنَّ لَهُ زَمَانًا قَلِيلًا». وَلَمَّا رَأَى التِّنِّينُ أَنَّهُ طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ، اضْطَهَدَ الْمَرْأَةَ الَّتِي وَلَدَتْ الابْنَ الذَّكَرَ، فَأُعْطِيَتِ الْمَرْأَةُ جَنَاحَيِ النَّسْرِ الْعَظِيمِ لِكَيْ تَطِيرَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ إِلَى مَوْضِعِهَا، حَيْثُ تُعَالُ زَمَانًا وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفَ زَمَانٍ، مِنْ وَجْهِ الْحَيَّةِ. فَأَلْقَتِ الْحَيَّةُ مِنْ فَمِهَا وَرَاءَ الْمَرْأَةِ مَاءً كَنَهْرٍ لِتَجْعَلَهَا تُحْمَلُ بِالنَّهْرِ، فَأَعَانَتِ الأَرْضُ الْمَرْأَةَ، وَفَتَحَتِ الأَرْضُ فَمَهَا وَابْتَلَعَتِ النَّهْرَ الَّذِي أَلْقَاهُ التِّنِّينُ مِنْ فَمِهِ، فَغَضِبَ التِّنِّينُ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَذَهَبَ لِيَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ بَاقِي نَسْلِهَا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَصَايَا الله، وَعِنْدَهُمْ شَهَادَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.

ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى رَمْلِ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُ وَحْشًا طَالِعًا مِنَ الْبَحْرِ لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ، وَعَلَى قُرُونِهِ عَشَرَةُ تِيجَانٍ، وَعَلَى رُؤُوسِهِ اسْمُ تَجْدِيفٍ، وَالْوَحْشُ الَّذِي رَأَيْتُهُ كَانَ

شِبْهَ نَمِرٍ، وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ دُبٍّ، وَفَمُهُ كَفَمِ أَسَدٍ، وَأَعْطَاهُ التِّنِّينُ قُدْرَتَهُ وَعَرْشَهُ وَسُلْطَانًا عَظِيمًا، وَرَأَيْتُ وَاحِدًا مِنْ رُؤُوسِهِ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ لِلْمَوْتِ، وَجُرْحُهُ الْمُمِيتُ قَدْ شُفِيَ. وَتَعَجَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ وَرَاءَ الْوَحْشِ، وَسَجَدُوا لِلتِّنِّينِ الَّذِي أَعْطَى السُّلْطَانَ لِلْوَحْشِ، وَسَجَدُوا لِلْوَحْشِ قَائِلِينَ: «مَنْ هُوَ مِثْلُ الْوَحْشِ؟ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَارِبَهُ؟ » وَأُعْطِيَ فَمًا يَتَكَلَّمُ بِعَظَائِمَ وَتَجَادِيفَ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا أَنْ يَفْعَلَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا، فَفَتَحَ فَمَهُ بِالتَّجْدِيفِ عَلَى اللهِ، لِيُجَدِّفَ عَلَى اسْمِهِ، وَعَلَى مَسْكَنِهِ، وَعَلَى السَّاكِنِينَ فِي السَّمَاءِ، وَأُعْطِيَ أَنْ يَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ الْقِدِّيسِينَ وَيَغْلِبَهُمْ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَأُمَّةٍ، فَسَيَسْجُدُ لَهُ جَمِيعُ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ، الَّذِينَ لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مَكْتُوبَةً مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ فِي سِفْرِ حَيَاةِ الْخَرُوفِ الَّذِي ذُبِحَ، مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ! إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَجْمَعُ سَبْيًا، فَإِلَى السَّبْيِ يَذْهَبُ. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَقْتُلُ بِالسَّيْفِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْتَلَ بِالسَّيْفِ. هُنَا صَبْرُ الْقِدِّيسِينَ وَإِيمَانُهُمْ. ثُمَّ رَأَيْتُ وَحْشًا آخَرَ طَالِعًا مِنَ الأَرْضِ، وَكَانَ لَهُ قَرْنَانِ شِبْهُ خَرُوفٍ، وَكَانَ يَتَكَلَّمُ كَتِنِّينٍ، وَيَعْمَلُ بِكُلِّ سُلْطَانِ الْوَحْشِ الأَوَّلِ أَمَامَهُ، وَيَجْعَلُ الأَرْضَ وَالسَّاكِنِينَ فِيهَا يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ الأَوَّلِ الَّذِي شُفِيَ جُرْحُهُ الْمُمِيتُ، وَيَصْنَعُ آيَاتٍ عَظِيمَةً، حَتَّى إِنَّهُ يَجْعَلُ نَارًا تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الأَرْضِ قُدَّامَ النَّاسِ، وَيُضِلُّ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ بِالآيَاتِ الَّتِي أُعْطِيَ أَنْ يَصْنَعَهَا أَمَامَ الْوَحْشِ، قَائِلًا لِلسَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَصْنَعُوا صُورَةً لِلْوَحْشِ الَّذِي كَانَ بِهِ جُرْحُ السَّيْفِ وَعَاشَ، وَأُعْطِيَ أَنْ يُعْطِيَ رُوحًا لِصُورَةِ الْوَحْشِ، حَتَّى تَتَكَلَّمَ صُورَةُ الْوَحْشِ، وَيَجْعَلَ جَمِيعَ الَّذِينَ لاَ يَسْجُدُونَ لِصُورَةِ الْوَحْشِ يُقْتَلُونَ.

وغيرها كثير من الخرافات التي ذكرناها في مبحث تحريف الكتاب المقدس فلتراجع.

* * *

٦ـ شبهة: الكلب الأسود شيطان.

نص الشبهة:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ يَسْتُرُهُ إِذَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ صَلَاتَهُ الْحِمَارُ، وَالْمَرْأَةُ، وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ، قُلْتُ: يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنْ الْكَلْبِ الْأَحْمَرِ مِنْ الْكَلْبِ الْأَصْفَرِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ كَمَا سَأَلْتَنِي، فَقَالَ: الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ».

والسؤال كيف يكون الكلب الأسود شيطانًا؟

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: معنى قول النبي ﷺ الكلب الأسود شيطان.

الوجه الثاني: لما كان الكلب الأسود أشد ضررًا سُمي شيطانًا من باب التشبيه.

الوجه الثالث: يحتمل أن يكون الكلب الأسود مسخ من الشيطان.

الوجه الرابع: الشيطان لا يمتنع أن يختص بالدخول في الكلب الأسود لخصيصة.

الوجه الخامس: الكلب وصفاته في الكتاب المقدس.

واليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى قول النبي ﷺ الكلب الأسود شيطان.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ يَسْتُرُهُ إِذَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ صَلَاتَهُ الْحِمَارُ، وَالْمَرْأَةُ، وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ، قُلْتُ: يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنْ الْكَلْبِ الْأَحْمَرِ مِنْ الْكَلْبِ الْأَصْفَرِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ كَمَا سَأَلْتَنِي، فَقَالَ: الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ(١).

قول النبي ﷺ: (الكَلْب الْأَسْوَد شَيْطَان) حَمَلَهُ بَعْضهمْ عَلَى ظَاهِره وَقَالَ: إِنَّ الشَّيْطَان يَتَصَوَّر بِصُورَةِ الْكِلَاب السُّود، وَقِيلَ: لَمَّا كَانَ الْأَسْوَد أَشَدَّ ضَرَرًا مِنْ غَيْره، وَأَشَدَّ تَرْوِيعًا

---

(١) مسلم (٥١٠).

كَانَ الْمُصَلِّي إِذَا رَآهُ أُشْغِلَ عَنْ صَلَاته فَانْقَطَعَتْ عَلَيْهِ لِذَلِكَ، ولذلك سُمي شيطانًا[(١)].

وقد ورد في الأحاديث ما يثبت أن الشياطين تتصور وتتشكل بأشكال، فلا مانع من حمل هذا النص على ظاهره.

١-عن أبي ثعلبة الخشني، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " الجن على ثلاثة أصناف: صنف كلاب وحيات، وصنف يطيرون في الهواء، وصنف يحلون ويظعنون. [(٢)]

٢-عن هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه فِي بَيْتِهِ، قَالَ: فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِيَ صَلَاتَهُ، فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا فِي عَرَاجِينَ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا حَيَّةٌ فَوَثَبْتُ لِأَقْتُلَهَا، فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنِ اجْلِسْ فَجَلَسْتُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ، فَقَالَ: أَتَرَى هَذَا الْبَيْتَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: كَانَ فِيهِ فَتًى مِنَّا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، قَالَ: فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ الله ﷺ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ فَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلَاحَهُ، ثُمَّ رَجَعَ فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ قَائِمَةً فَأَهْوَى إِلَيْهَا الرُّمْحَ لِيَطْعُنَهَا بِهِ وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ، فَقَالَتْ لَهُ: اكْفُفْ عَلَيْكَ رُمْحَكَ وَادْخُلِ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي أَخْرَجَنِي، فَدَخَلَ فَإِذَا بِحَيَّةٍ عَظِيمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَزَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ، فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الْحَيَّةُ أَمِ الْفَتَى، قَالَ: فَجِئْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ وَقُلْنَا ادْعُ اللهَ يُحْيِيهِ لَنَا فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا، فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ» "[(٣)].

---

(١) شرح السيوطي لسنن النسائي ٢/ ٦٤.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٦١٥٦)، والطبراني في الكبير٢٢/ ٢١٤، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٦، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) مسلم (٢٢٣٦).

فلما كان المصلي مشتغلًا بمناجاة الله، وهو في غاية القرب منه والخلوة به، أمر المصلي بالاحتراز من دخول الشيطان في هذه الخلوة الخاصة، والقرب الخاص؛ ولذلك شُرعت السترة في الصلاة خشية من دخول الشيطان، وكونه وليجة في هذه الحال فيقطع بذلك مواد الأنس والقرب، والكلب الأسود: شيطان، كما نص عليه الحديث. وكذلك الحمار؛ ولهذا يستعاذ بالله عند سماع صوته بالليل، لأنه يرى الشيطان؛ فلهذا أمر ﷺ بالدنو من السترة خشية أن يقطع الشيطان عليه صلاته.[١]

قال ابن تيمية: فإن الكلب الأسود شيطان؛ الكلاب والجن تتصور بصورته كثيرا وكذلك صورة القط الأسود؛ لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره؛ وفيه قوة الحرارة[٢].

الوجه الثاني: أنه لما كان الكلب الأسود أشد ضررًا وقبحًا من غيره سُمي شيطانًا من باب التشبيه لا أكثر.

عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله، قال: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِقَتْلِ الْكِلَابِ حَتَّى إِنَّ الْمُرْأَةَ تَقْدَمُ مِنْ الْبَادِيَةِ بِكَلْبِهَا فَنَقْتُلُهُ ثُمَّ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِهَا وَقَالَ عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ الْبَهِيمِ ذِي النُّقْطَتَيْنِ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ[٣].

قال النووي: قَوْله ﷺ: " بِالْأَسْوَدِ الْبَهِيم ذِي النُّقْطَتَيْنِ فَإِنَّهُ شَيْطَان "، مَعْنَى الْبَهِيم الْخَالِص السَّوَاد، وَأَمَّا النُّقْطَتَانِ فَهُمَا نُقْطَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ بَيْضَاوَانِ فَوْق عَيْنَيْهِ وَهَذَا مُشَاهَد مَعْرُوف.

وَقَوْله ﷺ: " فَإِنَّهُ شَيْطَان " اِحْتَجَّ بِهِ أَحْمَد بْن حَنْبَل وَبَعْض أَصْحَابنَا فِي أَنَّهُ لَا يَجُوز صَيْد الْكَلْب الْأَسْوَد الْبَهِيم، وَلَا يَحِلّ إِذَا قَتَلَهُ لِأَنَّهُ شَيْطَان، إِنَّمَا حَلَّ صَيْد الْكَلْب.

وَقَالَ الشَّافِعِيّ وَمَالِك وَجَمَاهِير الْعُلَمَاء: يَحِلّ صَيْد الْكَلْب الْأَسْوَد كَغَيْرِهِ، وَلَيْسَ الْمُرَاد بِالْحَدِيثِ إِخْرَاجه عَنْ جِنْس الْكِلَاب، وَلِهَذَا لَوْ وَلَغَ فِي إِنَاء وَغَيْره وَجَبَ غَسْله كَمَا يُغْسَل

---

(١) فتح الباري لابن رجب ٤/ ١٣٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٩/ ٥٢.

(٣) مسلم (١٥٧٢).

مِنْ وُلُوغ الْكَلْب الْأَبْيَض. [١]

قَالَ الْقَاضِي أبولَيْلَى: فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ إِنَّهُ شَيْطَانٌ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنْ الْكَلْبِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْإِبِلِ إِنَّهَا جِنٌّ وَهِيَ مَوْلُودَةٌ مِنْ النُّوقِ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ التَّشْبِيهِ لَهُمَا بِالشَّيْطَانِ وَالْجِنِّ؛ لِأَنَّ الْكَلْبَ الْأَسْوَدَ شَرُّ الْكِلَابِ وَأَقَلُّهَا نَفْعًا. وَالْإِبِلُ شِبْهُ الْجِنِّ فِي صُعُوبَتِهَا وَصَوْلَتِهَا، وَجَعَلَ الْكَلْبَ الْأَسْوَدَ الْبَهِيمَ شَيْطَانًا لِخُبْثِهِ، فَإِنَّهُ أَضَرُّ الْكِلَابِ وَأَعْقَرُهَا، وَالْكَلْبُ أَسْرَعُ إِلَيْهِ مِنْهُ إِلَى جَمِيعِهَا، وَهِيَ مَعَ هَذَا أَقَلُّهَا نَفْعًا وَأَسْوَءُهَا حِرَاسَةً وَأَبْعَدُهَا مِنْ الصَّيْدِ وَأَكْثَرُهَا نُعَاسًا. [٢]

قال ابن القيم: وَأَمَّا قَوْلُهُ: " وَفَرَّقَ بَيْنَ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ وَغَيْرِهِ فِي قَطْعِ الصَّلَاةِ " فَهَذَا سُؤَالٌ أَوْرَدَهُ عَبْدُ الله بْنُ الصَّامِتِ عَلَى أَبِي ذَرٍّ، وَأَوْرَدَهُ أَبُو ذَرٍّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَجَابَ عَنْهُ بِالْفَرْقِ الْبَيِّنِ فَقَالَ: " الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ "، وَهَذَا إنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَظْهَرُ فِي صُورَةِ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ كَثِيرًا كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ فَظَاهِرٌ، وَلَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَكُونَ مُرُورُ عَدُوِّ الله بَيْنَ يَدَيْ الْمُصَلِّي قَاطِعًا لِصَلَاتِهِ، وَيَكُونَ مُرُورُهُ قَدْ جَعَلَ تِلْكَ الصَّلَاةَ بَغِيضَةً إِلَى الله مَكْرُوهَةً لَهُ، فَيَأْمُرُ الْمُصَلِّيَ بِأَنْ يَسْتَأْنِفَهَا، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ الْكَلْبَ الْأَسْوَدَ شَيْطَانُ الْكِلَابِ فَإِنَّ كُلَّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا شَيَاطِينُ، وَهِيَ مَاعَتَا مِنْهَا وَتَمَرَّدَ، كَمَا أَنَّ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ عُتَاتُهُمْ وَمُتَمَرِّدُوهُمْ، وَالْإِبِلَ شَيَاطِينُ الْأَنْعَامِ، وَعَلَى ذُرْوَةِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ؛ فَيَكُونُ مُرُورُ هَذَا النَّوْعِ مِنْ الْكِلَابِ - وَهُوَ مِنْ أَخْبَثِهَا وَشَرِّهَا - مُبْغِضًا لِتِلْكَ الصَّلَاةِ إِلَى الله تَعَالَى؛ فَيَجِبُ عَلَى الْمُصَلِّي أَنْ يَسْتَأْنِفَهَا، وَكَيْفَ يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَقْطَعَ مُرُورُ الْعَدُوِّ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ وَلِيِّهِ حُكْمَ مُنَاجَاتِهِ لَهُ، كَمَا قَطَعَهَا كَلِمَةٌ مِنْ كَلَامِ الْآدَمِيِّينَ أَوْ قَهْقَهَةٌ أَوْ رِيحٌ أَوْ أَلْقَى عَلَيْهِ الْغَيْرُ نَجَاسَةً أَوْ نَوَّمَهُ الشَّيْطَانُ فِيهَا[٣].

---

(١) شرح النووي٥/ ٥٠٨: ٥٠٧، فيض القدير٥/ ٦٤.

(٢) تحفة الأحوذي ٥/ ٥٣، التمهيد١٤/ ٢٢٩، فيض القدير٥/ ٦٤.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ٩٣.

الوجه الثالث: كون الكلب الأسود شيطانا يُحتمل أن يكون على صفته أو مُسخ من الشيطان.

أي: أن الكلب كان في الأصل شيطانًا فمُسخ بتلك الصورة وهي صورة الكلب.

قال ابن قتيبة: وليست تخلو الكلاب من أن تكون أمة من أمم السباع أو تكون أمة من الجن، ولا يبعد أيضًا أن تكون الكلاب كذلك. وهذه أمور لا تدرك بالنظر والقياس والعقول وإنما ينتهي فيها إلى ما قاله الرسول ﷺ أو ما قاله من سمع منه وشاهده، وليس علينا وكف ولا نقص من أن تكون الكلاب من السباع أو الجن أو الممسوخ؛ فإن كانت من السباع فإنما أمر بقتل الأسود منها وقال: " هو شيطان "، لأن الأسود البهيم منها أضرها وأعقرها، والكلب إليه أسرع منه إلى جميعها، وهو مع هذا أقلها نفعًا، وأسوأها حراسة، وأبعدها من الصيد، وأكثرها نعاسًا، وقال: " هو شيطان"، يريد أنه أخبثها.

وإن كانت الكلاب من الجن أو كانت ممسوخًا من الجن فإنما أراد أن الأسود منها شيطانًا فاقتلوه لضره والشيطان هو مارد الجن. والحن هم الضعفة والحن أضعف من الجن. [١]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: السود من الكلاب الجن، والبقع منها الحن. [٢]

والحِنُّ: بالكسر حيٌّ من الجن يقال منهم الكلابُ السود البُهْمُ يقال: كلب حِنِّيٌّ وقيل: الحِنُّ ضرب من الجن، وأَنشد: يَلْعَبْنَ أَحْوالِيَ مِنْ حِنٍّ وجِنٌّ

والحِنُّ سَفِلَةُ الجِنِّ أَيضًا وضُعَفاؤُهم، عن ابن الأَعرابي وأَنشد لمُهاصِرِ بنِ المُحِلِّ:

أَبيتُ أَهْوِي في شيَاطين تُرِنّ مُختلفٍ نَجْواهُمُ جِنٍّ وحِنّ. [٣]

---

(١) تأويل مختلف الحديث (١٣٦: ١٣٥).

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد١٤/ ٢٣٠، وإسناده ضعيف، فيه إسماعيل بن مسلم المكي: ضعيف (تقريب التهذيب: ١/ ٥٤)، (تهذيب الكمال٣/١٩٨)، ونقل في الميزان عن ابن المديني قال: سمعت يحيى وسئل عن إسماعيل ابن مسلم المكي قيل له كيف كان في أول أمره قال لم يزل مختلطًا كان يحدثنا بالحديث الواحد على ثلاثة أضرب، وقال: ثم إني رأيته في الموضوعات لابن الجوزي نقله عن ابن المديني والله أعلم (نهاية الاغتباط (٦١)، وقال ابن عدي: قال السعدي: إسماعيل بن مسلم واه جدًا، وقال النسائي: إسماعيل بن مسلم متروك الحديث (الكامل في الضعفاء١/ ٢٨٢).

(٣) لسان العرب١٣/ ١٣٢.

الوجه الرابع: أن الشيطان لا يُمتنع أن يختص بالدخول في الكلب الأسود لخصيصة فيه.

قال ابن تيمية: عن شيخ أخبر عن نفسه أنه كان يزني بالنساء ويتلوط بالصبيان الذين يقال لهم "الحوارات" وكان يقول: يأتيني كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان فيقول لي: فلان إن فلانا نذر لك نذرا وغدا يأتيك به، وأنا قضيت حاجته لأجلك فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر؛ ويكاشفه هذا الشيخ الكافر. قال: وكنت إذا طلب مني تغيير مثل اللاذن، أقول حتى أغيب عن عقلي؛ وإذ باللاذن في يدي أو في فمي، وأنا لا أدري من وضعه قال: وكنت أمشي وبين يدي عمود أسود عليه نور. فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم: ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير؛ فلا يؤتي بلاذن ولا غيره[1].

ثم إذا جاز في عقول النصارى أن الله خالق السموات والأرض يظهر في مخلوقاته. فكيف يمتنع ذلك في بعض مخلوقاته وهو الشيطان أن يظهر في صورة كلب أسود؟.

الوجه الخامس: الكلب وصفاته في الكتاب المقدس.

يوصف الكلب في حقبات التاريخ المبكرة في الكتاب المقدس بأنه يهر ويدور في شوارع المدن (مزمور ٥٩: ٦ و ١٤) يَعُودُونَ عِنْدَ الْمَسَاءِ، يَهِرُّونَ مِثْلَ الْكَلْبِ، وَيَدُورُونَ فِي الْمَدِينَةِ.

يأكل ما يرمى إليه (خروج ٢٢: ٣١) وَتَكُونُونَ لِي أُنَاسًا مُقَدَّسِينَ. وَلَحْمَ فَرِيسَةٍ فِي الصَّحْرَاءِ لاَ تَأْكُلُوا. لِلْكِلاَبِ تَطْرَحُونَهُ.

ويلحس الدم المسفوك (١ مل ٣٢: ٣٨، مز ٦٨: ٢٣) أو ينهش لحوم الأموات (١ مل١٤: ١١ و ١٦: ٤ و ٢ مل ٩: ٣٥ و ٣٦) لِكَيْ تَصْبغَ رِجْلَكَ بِالدَّمِ.

وكانت الكلاب تتجمع أحيانًا وتهاجم الناس (مز ٢٢: ١٦ و ٢٠). والكلب من الحيوانات الأولى التي روضها الإنسان باكرًا جدًّا، واستخدمها لتساعد الراعي على حماية القطعان من الوحوش المفترسة ومن اللصوص (أيوب ٣٠: ١). وقد أصبحت أخيرًا مستأنسة ترافق أسيادها من مكان إلى آخر، وتسكن معه في البيت حيث تلتقط الفتات

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١١٣.

الساقطة من مائدته (مر ٧: ٢٨). وقد لحست الكلاب قروح الفقراء الذين كانوا يقفون عند باب الرجل الغني (لو ١٦: ٢١). وكثيرًا ما استخدم القدماء الكلب للصيد. ولكن أكثر الكلاب بقيت في حالة الوحشية. وبسبب طعامها وعوائدها كانت الكلاب تعتبر نجسة وكانت تسمية أحد الناس بكلب شتيمة كبرى (١ صم ١٧: ٤٣ و ٢ مل ٨: ١٣). ويطلق اسم كلب بالمعنى المجازي على الذين لا يقدرون أن يفهموا الأمور المقدسة أو السامية (متى ٧: ٦) والذين يأتون بتعاليم كاذبة (فيل ٣: ٢). والذين، مثل الكلب العائد إلى قيئه. يرجعون إلى الخطايا التي ادعوا ظاهريًا بأنهم تركوها إلى الأبد (٢ بط ٢: ٢٢ بالمقابلة مع آم ٢٦: ١١) أو الذين انحطوا إلى درجة اتباع الشهوات بالطريقة التي يتبعها بها الكلب (تث ٢٣: ١٨). وقد تعود اليهود المتأخرون أن يطلقوا اسم كلب على الأمم بسبب عدم طهارة هؤلاء حسب الشريعة. وقد استعمل يسوع الاسم عينه مرة كي يصف بقوة عمل النعمة الذي كان مزمعًا أن يقوم به (متى ١٥: ٢٦ ومر ٧: ٢٧). فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً: «يَا سَيِّدُ، أَعِنِّي! » فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ». فَقَالَتْ: «نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَالْكِلاَبُ أَيْضًا تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا! ».

وكانت الشريعة الموسوية تعتبره نجسًا، لأنه لا يجتر ولا يشق ظلفًا (لاويين ١١: ١-٨).

١ وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا لَهُمَا: «كَلِّمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: هذِهِ هِيَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ: كُلُّ مَا شَقَّ ظِلْفًا وَقَسَمَهُ ظِلْفَيْنِ، وَيَجْتَرُّ مِنَ الْبَهَائِمِ، فَإِيَّاهُ تَأْكُلُونَ. فهو إذًا نجس.

لاَ تُدْخِلْ أُجْرَةَ زَانِيَةٍ، وَلاَ ثَمَنَ كَلْبٍ، إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ عَنْ نَذْرٍ مَّا، لأَنَّهُمَا كِلَيْهِمَا رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ إِلهِكَ. (التثنية٢٣/ ١٨).

* * *

٧ـ شبهة: الشيطان يبول في أذن النائم.

نص الشبهة:

يعترضون على حديث عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النبيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فُلاَنًا نَامَ الْبَارِحَةَ عَنِ الصَّلاَةِ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " ذَاكَ الشَّيْطَانُ بَالَ في أُذُنِهِ أَوْ في أُذُنَيْهِ"(١).

ويقولون كيف: يبول الشيطان في أذن النائم؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الإسلام ينظم حياة الفرد ليجمع بين مصالح الدين والدنيا.

الوجه الثاني: بيان معنى الحديث.

الوجه الثالث: توجيهات الحديث.

الوجه الرابع: بيان عداوة الشيطان للإنسان، وبيان عداوته في أمر الصلاة.

وإليك التفصيل.

الوجه الأول: الإسلام ينظم حياة الفرد ليجمع بين مصالح الدين والدنيا.

إن الله سبحانه وتعالى له حكمة في توزيع الصلوات على الأوقات المعروفة، فلابُدَّ من المحافظة على ذلك حتى لو لم نفهم الحكمة؛ فالأمر قائم على الاتباع، ففي الحديث: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وقد عين جبريل للرسول ﷺ مواقيت الصلاة، بعد أن فرضت عليه ليلة الإسراء، وحدد له أول الوقت وآخره، وقال له: "الوقت ما بين هذين الوقتين "(٢).

ولعل الحكمة في تضييق وقت صلاة الصبح؛ هي الحرص على البكور واستئناف النشاط اليومي من أول النهار، فقد أجمع ذوو الاختصاص على أن الساعات الأولى من النهار فيها خير كبير للإنتاج الذهني والبدني، والرسول ﷺ دعا أن يبارك الله لأمته في البكور.

---

(١) البخارى (٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤).

(٢) مسلم (٦١٤)، مسند أحمد (٤/ ٤١٦) واللفظ له.

وقال بعض المفكرين: إن صلاة الصبح تُؤدى بعد راحة طويلة بالنوم بالليل، ومع ذلك جعلها الله ركعتين ولم يجعلها أربعًا أو أكثر، وذلك للسرعة في استئناف العمل من أجل الرزق والمهمات الأخرى.

وقد كره العلماء السهر الطويل بعد العشاء لغير حاجة؛ وذلك من أجل راحة الجسم بالنوم، وعدم فوات صلاة الصبح التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨).

وإذا كان هناك قلة من الناس يعملون بالليل فيتعرضون لضياع صلاة الصبح، فإن القلة لا تحكم على الكثرة، ومع ذلك فمن الممكن أن تنظم أوقات العمل حتى لا يضيع أي فرض من فروض الصلاة ليلًا أو نهارًا.

وفي الصحيحين أن رسول ﷺ قال: "يعقد الشيطانُ على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان "[(١)].

وفي الصحيحين أيضًا أن رجلًا ذُكِر عند النبيّ ﷺ فقيل: ما زال نائمًا حتى أصبح ما قام إلى الصلاة، فقال: "ذاك رجل بال الشيطان في أذنه "[(٢)].

خَصَّ الْأُذُنَ لِأَنَّهَا حَاسَّةُ الِانْتِبَاهِ؛ قَالَه إبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيّ[(٣)]:

ومعناه: نام عن المكتوبة، وقيل: عن قيام الليل.

الوجه الثاني: بيان معنى الحديث.

البَوْل واحد الأَبْوال، بال الإِنسانُ وغيرُه يَبُول بَوْلًا، واستعاره بعض الشعراء فقال: بالَ سُهَيْلٌ في الفَضِيخِ فَفَسَد، والاسم البِيلَة كالجِلْسة والرِّكْبة، وكَثْرَةُ الشَّرابِ مَبْوَلة بالفتح، والمِبْوَلة بالكسر كُوزٌ يُبال فيه، ويقال لنُبِيلَنَّ الخَيْلَ في عَرَصاتكم. . . وفي الحديث:

---

(١) البخاري (١١٤٢)، ومسلم (١٨٥٥).

(٢) فتاوى الأزهر (٩/ ١٧٤).

(٣) الفروع (٢/ ٤٣٢).

" من نام حتى أَصبح بال الشيطان في أُذُنه " قيل: معناه سَخِر منه وظَهَر عليه حتى نام عن طاعة الله. كما قال الشاعر: بالَ سُهَيْل في الفَضِيخ فَفَسَد.

أَي: لما كان الفَضِيخ يَفْسُد بطلوع سُهَيْل كان ظُهورُه عليه مُفْسِدًا له، وأضيف ذلك الفعل به إلى الشيطان؛ لأنه مما يرضاه الشيطان منه، وذكر فيه بول الشيطان في أذنه؛ أي: فعل به أقبح ما يفعل بالنوام، وليس ذلك على حقيقة البول منه في أذنه، ولكن على المثل والاستعارة في المعنى كمثل ما قال ﷺ مما قد ذكرناه فيما تقدم منا في كتابنا هذا من عقد الشيطان عند رأس من نام ثلاث عقد، لا يريد بذلك ثلاث عقد من العقد التي يعقد بها بنو آدم، ولكن مثلٌ لها واستعارة لمعناها؛ لأن العقد التي يعقدها بنو آدم تمنع من يعقدونه بها من التصرف لما يحاول التصرف فيه، فكان مثله ما يكون من الشيطان للنائم الذي لا يقوم من نومه إلى ما ينبغي أن يقوم إليه النوام من ذكر الله ﷻ ومن الصلاة له، فهذا أحسن ما حضرنا مما يحتمله هذا الحديث، والله ﷻ أعلم بما أراده رسوله ﷺ في ذلك، وإياه نسأل التوفيق[١].

الوجه الثالث: توجيهات الحديث.

لقد وجه العلماء الأفاضل معنى بول الشيطان في أذن من نام حتى فاتته الفريضة عدة توجيهات:

الأول: أن يقال بأن الأمر هو على حقيقته، وَيَتَوَجَّهُ احْتِمَالُ أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَقَالَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَلِهَذَا لَمَّا سَمَّى ذَلِكَ الرَّجُلُ فِي أَثْنَاءِ طَعَامِهِ قَاءَ الشَّيْطَانُ كُلَّ شَيْءٍ أَكَلَهُ[٢]، فَيَكُونُ بَوْلُهُ وَقَيْؤُهُ طَاهِرًا، وَهَذَا غَرِيبٌ، قَدْ يُعَايَا بِهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ[٣].

قَالَ الْقَاضِي عِيَاض: وَلَا يَبْعُد أَنْ يَكُون عَلَى ظَاهِره[٤].

قال القرطبي وغيره: هو على حقيقته؛ إذ لا مانع من ذلك؛ إذ لا إحالة فيه؛ لأنه ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب وينكح، فلا مانع من أن يبول[١].

---

(١) مشكل الآثار (١/ ٣٥٦) بتصرف.

(٢) رَوَاهُ أَبو دَاوُد (٣٧٦٨)، وَالنَّسَائِيُّ (٦٧٥٨)، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ (٤/ ١٢١).

(٣) الفروع لابن مفلح (٢/ ٤٣٢٩).

(٤) شرح النووي (٣/ ١٢٥).

الثاني: أن يقال بأن ذلك هو كناية عن سد الشيطان أذن الذي ينام عن الصلاة؛ حتى لا يسمع الذكر، وقِيلَ: مجَاز عَنْ سَدِّ الشَّيْطَان أُذُنه عَنْ سَمَاع صِيَاح الدِّيك وَنَحْوه، مِمَّا يَقُوم بِسَمَاعِ أَهْل التَّوْفِيق، وَالله تَعَالَى أَعْلَمُ[٢].

الثالث: أن يقال بأن معناه أن الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل فحجب سمعه عن الذكر.[٣]

الرابع: قِيلَ: مَعْنَاهُ: اِسْتَخَفَّ بِهِ، وَاحْتَقَرَهُ، وَاسْتَعْلَى عَلَيْهِ، يُقَال لِمَنْ اِسْتَخَفَّ بِإِنْسَانٍ وَخَدَعَهُ: بَالَ فِي أُذُنه، وَأَصْل ذَلِكَ فِي دَابَّة تَفْعَل ذَلِكَ بِالْأَسَدِ إِذْلَالًا لَهُ.

وَقَالَ الْحَرْبِيّ: مَعْنَاهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ، وَسَخِرَ مِنْه، فالأمر كناية عن ازدراء الشيطان به[٤].

الخامس: كناية عن الاستخفاف هو أن يقال بأن المعنى: أن الشيطان استولى عليه واستخف به حتى اتخذه كالكنيف المعد للبول؛ إذ من عادة المستخف بالشيء أن يبول عليه[٥].

السادس: هو مثل مضروب للغافل عن القيام بثقل النوم، كمن وقع البول في إذنه، فثقل أذنه وأفسد حسه، والعرب تكني عن الفساد بالبول، قال الراجز: بال سهيل في الفضيخ ففسد، وكنى بذلك عن طلوعه؛ لأنه وقت إفساد الفضيخ فعبر عنه بالبول، ووقع في رواية الحسن عن أبي هريرةﷺ في هذا الحديث عند أحمد[٦]، قال الحسن: إن بوله والله ثقيل، وروى محمد بن نصر، من طريق قيس بن أبي حازم، عن ابن مسعودﷺ: «حسب الرجل من الخيبه والشر أن ينام حتى يصبح وقد بال الشيطان في إذنه »، وهو موقوف صحيح الإسناد. وقال الطيبي: خص الإذن بالذكر وإن كانت العين أنسب بالنوم إشارة

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٨)، حاشية السندي (٣/ ٦٧).
(٢) فتح الباري (٣/ ٢٨)، حاشية السندي (٣/ ٦٧).
(٣) فتح الباري (٣/ ٢٨).
(٤) شرح النووي (٣/ ١٢٥)، فتح الباري (٣/ ٢٨)، حاشية السندي (٣/ ٦٧).
(٥) فتح الباري (٣/ ٢٨)، حاشية السندي (٣/ ٦٧)، الديباج على مسلم (٢/ ٣٨١).
(٦) المسند ١٥/ ٣١٧.

إلى ثقل النوم، فإن المسامع هي موارد الانتباه وخص البول لأنه أسهل مدخلًا في التجاويف وأسرع نفوذًا في العروق فيورث الكسل في جميع الأعضاء(١).

السابع: قَالَ اِبْن قُتَيْبَة: مَعْنَاهُ: أَفْسَدَهُ؛ يُقَال: بَالَ فِي كَذَا إِذَا أَفْسَدَهُ(٢).

الثامن: هُوَ اِسْتِعَارَة وَإِشَارَة إِلَى اِنْقِيَاده لِلشَّيْطَانِ وَتَحَكُّمه فِيهِ، وَعَقْده عَلَى قَافِيَة رَأْسه: عَلَيْك لَيْل طَوِيل وَإِذْلَاله(٣).

الوجه الرابع: بيان عداوة الشيطان للإنسان، وبيان عداوته في أمر الصلاة.

أولًا: عداوة الشيطان بوجه عام:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾ (فاطر: ٦).

ومن عداوته تزيينه أعمال الكفر والفساد والطغيان للإنسان؛ قال تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (النحل: ٦٣)، وقال أيضًا: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (النمل: ٢٤).

ومن عداوته أنه يَعِدُ بالفقر واليأس، ويأمر بالفحشاء، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾(البقرة: ٢٦٨)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (المجادلة: ١٠)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ، فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ "(٤).

ثانيًا: بيان عداوة الشيطان للإنسان في أمر الصلاة.

(١) فتح الباري (٣/ ٢٨)، الديباج على مسلم (٢/ ٣٨١).

(٢) شرح النووي (٣/ ١٢٥)، الديباج على مسلم (٢/ ٣٨١).

(٣) شرح النووي (٣/ ١٢٥)، الديباج على مسلم (٢/ ٣٨١).

(٤) مسلم (١٣٤).

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المائدة: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾(المجادلة: ١٩).

وعن عُثْمَانَ بْنَ أَبِى الْعَاصِ رضي الله عنه أنه أَتَى النبيّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلاَتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **" ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خِنْزِبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِالله مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلاَثًا "**، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ الله عَنِّى[1].

ثالثا: طبيعة الشيطان وخلقته وطعامه وشرابه:

قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (الرحمن: ١٥).

قال ابن كثير: وخلقُه الجان من مارج من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه، وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد.

وقال العَوْفي عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ من لهب النار، من أحسنها.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ من خالص النار، وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك وغيرهم[2].

وعن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **" خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُور، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ "**[3].

قال النووي: والمارج: اللهب المختلط بسواد النار[4].

---

(١) مسلم (٢٢٠٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣/ ٣١٧).

(٣) مسلم (٢٩٩٦).

(٤) شرح النووي (٩/ ٣٥٠).

وفي صفة خلقهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف: ١٧٩)، فقد صرح الله ﷻ بأن للجن قلوبًا وأعينًا وآذانًا، وكذلك لهم صوت لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾(الإسراء: ٦٤)[(١)].

أما عن طعامهم وشرابهم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَ النبيِّ ﷺ إِدَاوَةً لِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَتْبَعُهُ بِهَا فَقَالَ: " مَنْ هَذَا "، فَقَالَ: أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: " ابْغِنِي أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا، وَلاَ تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ "، فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ أَحْمِلُهَا فِي طَرَفِ ثَوْبِي حَتَّى وَضَعْتُ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مَشَيْتُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ، قَالَ: " هُمَا مِنْ طَعَامِ الْجِنِّ، وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ وَنِعْمَ الْجِنُّ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ، فَدَعَوْتُ اللهَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ إِلاَّ وَجَدُوا عَلَيْهَا طَعَامًا "[(٢)].

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: " أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ »، قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فَقَالَ: « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ »، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ "[(٣)].

وعن ابن عمر ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ"[(٤)].

قال النووي: وَفِيهِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي اِجْتِنَاب الْأَفْعَال الَّتِي تُشْبه أَفْعَال الشَّيَاطِين، وَأَنَّ

(١) راجع (سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة)، (عالم الجن والشياطين) د/ عمر الأشقر.
(٢) البخاري (٣٨٦٠).
(٣) مسلم (٤٥٠).
(٤) مسلم (٢٠٢٠).

لِلشَّيَاطِينِ يَدَيْنِ[١].

ومن حديث حذيفة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لاَ يُذْكَرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ[٢].

قال النووي: مَعْنَى: (يَسْتَحِلّ) يَتَمَكَّن مِنْ أَكْله، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَتَمَكَّن مِنْ أَكْل الطَّعَام إِذَا شَرَعَ فِيهِ إِنْسَان بِغَيْرِ ذِكْر الله تَعَالَى، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَشْرَع فِيهِ أَحَد فَلَا يَتَمَكَّن، وَإِنْ كَانَ جَمَاعَة فَذَكَرَ اِسْم الله بَعْضهمْ دُون بَعْض لَمْ يَتَمَكَّن مِنْهُ، ثُمَّ الصَّوَاب الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِير الْعُلَمَاء مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف مِنْ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاء وَالْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيث وَشَبَهه مِنْ الْأَحَادِيث الْوَارِدَة فِي أَكْل الشَّيْطَان مَحْمُولَة عَلَى ظَوَاهِرهَا، وَأَنَّ الشَّيْطَان يَأْكُل حَقِيقَة؛ إِذْ الْعَقْل لَا يُحِيلهُ، وَالشَّرْع لَمْ يُنْكِرهُ؛ بَلْ أَثْبَته فَوَجَبَ قَبُوله وَاعْتِقَاده، وَالله أَعْلَم[٣].

وعن جابر بنِ عَبْدِ الله ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النبيّ ﷺ يَقُولُ: " إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ الله عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ الله عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ الله عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ "[٤].

* * *

(١) شرح النووي (٧/ ٢١٢).

(٢) مسلم (٢٠١٧).

(٣) شرح النووي (٧/ ٢١١).

(٤) مسلم (٢٠١٨).

٨ـ شبهة: الشيطان يبيت على خيشوم المرء.

نص الشبهة:

قول النبي ﷺ: " **فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِهِ** "

كيف يبيت الشيطان على خيشوم الإنسان؟ كأنهم يتعجبون من ذلك وينكرونه.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أقوال العلماء على الحديث.

الوجه الثاني: خصائص الشيطان ووظائفه، فلا يُقاس بالإنسان.

الوجه الثالث: ملازمة الشيطان للإنسان.

الوجه الرابع: السرُّ في المبيت على الخيشوم، وأمر النبي ﷺ بغسله.

الوجه الخامس: بالذكر يخنس الشيطان.

الوجه السادس: عداوة الشيطان للإنسان.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: أقوال العلماء على الحديث.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**إِذَا اسْتَيْقَظَ أُرَاهُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثًا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِهِ**"(١).

خيْشُومه: هُوَ الْأَنْف، وَقِيلَ: الْمَنْخِر، وَقَوْله: " فَلْيَسْتَنْثِرْ " أَكْثَر فَائِدَة مِنْ قَوْله: " فَلْيَسْتَنْشِقْ "؛ لِأَنَّ الِاسْتِنْثَار يَقَع عَلَى الِاسْتِنْشَاق بِغَيْرِ عَكْس، ثم قال: ثُمَّ إِنَّ ظَاهِر الْحَدِيث أَنَّ هَذَا يَقَع لِكُلِّ نَائِم، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون مَخْصُوصًا بِمَنْ لَمْ يَحْتَرِس مِنْ الشَّيْطَان بِشَيْء مِنْ الذِّكْر؛ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ فَإِنَّ فِيهِ: "فَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَان "(٢). وَكَذَلِكَ آيَة الْكُرْسِيّ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ: "وَلَا يَقْرَبك شَيْطَان "، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِنَفْيِ الْقُرْب هُنَا

(١) البخاري (٣٢٩٥)، النسائي (٩٠).

(٢) البخاري (٣٢٩٣)، مسلم (٢٦٩١).

أَنَّهُ لَا يَقْرَب مِنْ الْمَكَان الَّذِي يُوَسْوِس فِيهِ وَهُوَ الْقَلْب، فَيَكُون مَبِيته عَلَى الْأَنْف؛ لِيَتَوَصَّل مِنْهُ إِلَى الْقَلْب إِذَا اِسْتَيْقَظَ، فَمَنْ اِسْتَنْثَرَ مَنَعَهُ مِنْ التَّوَصُّل إِلَى مَا يَقْصِد مِنْ الْوَسْوَسَة، فَحِينَئِذٍ فَالْحَدِيث مُتَنَاوِل لِكُلِّ مُسْتَيْقِظ(١).

قال ابن القيم: فَعَلَّلَ بِعَدَمِ الدِّرَايَة لِمَحَلِّ الْمَبِيت، وَهَذَا السَّبَب ثَابِت فِي مَبِيت الشَّيْطَان عَلَى الْخَيْشُوم؛ فَإِنَّ الْيَد إِذَا بَاتَتْ مُلَابِسَة لِلشَّيْطَانِ لَمْ يَدْرِ صَاحِبهَا أَيْنَ بَاتَتْ، وَفِي مَبِيت الشَّيْطَان عَلَى الْخَيْشُوم وَمُلَابَسَته لِلْيَدِ سِرٌّ يَعْرِفهُ مَنْ عَرَفَ أَحْكَام الْأَرْوَاح، وَاقْتِرَان الشَّيَاطِين بِالْمَحَالِّ الَّتِي تُلَابِسهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَان خَبِيث يُنَاسِبهُ الْخَبَائِث، فَإِذَا نَامَ الْعَبْد لَمْ يُرَ فِي ظَاهِر جَسَده أَوْسَخ مِنْ خَيْشُومه، فَيَسْتَوْطِنهُ فِي الْمَبِيت، وَأَمَّا مُلَابَسَته لِيَدِهِ فَلِأَنَّهَا أَعَمّ الْجَوَارِح كَسْبًا وَتَصَرُّفًا وَمُبَاشَرَة لِمَا يَأْمُر بِهِ الشَّيْطَان مِنْ الْمَعْصِيَة، فَصَاحِبهَا كَثِير التَّصَرُّف وَالْعَمَل بِهَا(٢).

وَمَبِيت الشَّيْطَان إِمَّا حَقِيقَة: لِأَنَّهُ أَحَد مَنَافِذ الْجِسْم يَتَوَصَّل مِنْهَا إِلَى الْقَلْب وَالْمَقْصُود مِنْ الِاسْتِنْثَار إِزَالَة آثَاره. وَأَمَّا مَجَازًا: فَإِنَّ مَا يَنْعَقِد فِيهِ مِنْ الْغُبَار وَالرُّطُوبَة قَذِرَات تُوَافِق الشَّيْطَان؛ فَالْمُرَاد أَنَّ الْخَيْشُوم مَحَلّ قَذِر يَصْلُح لِبَيْتُوتَةِ الشَّيْطَان؛ فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ تَنْظِيفه(٣).

وقال السيوطي: قَالَ عِيَاض: يَحْتَمِل أَنْ يَكُون ذَلِكَ عَلَى حَقِيقَته، وَأَنْ يَكُون عَلَى الِاسْتِعَارَة؛ فَإِنَّ مَا يَنْعَقِد مِنْ الْغُبَار وَرُطُوبَة الْخَيَاشِيم قَذَارَة تُوَافِق الشَّيْطَان(٤).

وإن الله تعالى قد يسلط الشيطان على بني آدم، فإذا نام بات الشيطان على خيشومه بإذن الله ﷻ، وهذا التسليط من الله ﷻ له حكمة، لكننا لا نعلم ما هي إلا أننا نعلم أنه لم يسلط إلا لحكمة (وهو غير استنثار الوضوء)(٥).

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٨٤: ٣٨٣).

(٢) تهذيب سنن أبي داود لابن القيم (١/ ٥٨).

(٣) شرح سنن النسائي (١/ ٧٧) حاشية السندي.

(٤) شرح سنن النسائي (١/ ٧٧) حاشية السيوطي.

(٥) الشرح المختصر على بلوغ المرام (٢/ ٤٩).

قال الملا القاري: يبيت على خيشومه: يعني: أن الشيطان إذا لم يمكنه الوسوسة عند النوم لزوال الإحساس، يبيت على أقصى أنفه؛ ليلقي في دماغه الرؤيا الفاسدة، ويمنعه عن الرؤيا الصالحة؛ لأن محله الدماغ فأمر ﷺ أن يغسلوا داخل أنوفهم لإزالة لوث الشيطان ونتنه منها.(١)

قال التوربشتي والقاضي: إذا نام الإنسان تجتمع الأخلاط وييبس عليه المخاط، ويكل الحس، ويتشوش الفكر، فيرى أضغاث أحلام، فإذا قام وترك الخيشوم بحاله استمر الكسل والكلال، واستعصى عليه النظر الصحيح، وعسر الخضوع والقيام بحقوق الصلاة.

ثم قال التوربشتي: ما ذكره من طريق الاحتمال وحق الأدب في الكلمات النبوية أن لا يتكلم في هذا الحديث وأمثاله بشيء؛ فإن الله سبحانه قد خصه بغرائب المعاني وحقائق الأشياء ما يقصر عنه باعُ غيره، وجاء الأمر بكظم الفم في التثاؤب من أجل دخول الشيطان في الفم، ويحتمل أن تكون على الاستعارة؛ فإنه إنما ينعقد من الغبار ورطوبة الخياشيم قذر يوافق الشياطين(٢).

وقال ابن تيمية: لما جاءت السنة بتجنب الخبائث الجسمانية والتطهر منها كذلك، جاءت بتجنب الخبائث الروحانية والتطهر منها، حتى قال: إذا قام أحدكم من الليل فليستنشق بمنخريه من الماء فإن الشيطان يبيت على خيشومه(٣).

وقال أيضًا: وأما الحكمة في غسل اليد ففيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه خوف نجاسة تكون على اليد مثل مرور يده موضع الاستجمار مع العرق أو على زبلة ونحو ذلك. والثاني: أنه تعبد ولا يعقل معناه. والثالث: أنه من مبيت يده ملامسة للشيطان كما في الصحيحين عن أبى هريرة؛ وذكر الحديث الذي معنا(٤).

ومثل هذه الأقوال نقولها في الاستنثار بعد النوم.

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح؛ كتاب الطهارة؛ باب سنن الوضوء.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٣١٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢).

(٤) الفتاوى الكبرى (١/ ٢١٧).

الوجه الثاني: للشيطان خصائص وطبائع ينفرد بها عن باقي المخلوقات، فلا يُقاس الشيطان بالإنسان.

الجن عالم مستقل غير عالم الإنسان وعالم الملائكة، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر، ويخالفون الإنسان في أمور أهمها: أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان، وسُمُّوا جنًا لاجتنانهم أي: استتارهم عن العيون، وجاء في محكم التنزيل: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ﴾(الأعراف: ٢٧). وأخبرنا الله ﷻ أن الجن خُلقوا من النار في قوله: ﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر: ٢٧)

وفي الحديث عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ "**[(١)].

ولا شك أن خلْق الجن متقدم على خلْق الإنسان لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحجر٢٧: ٢٦).

ونحن لا نعرف مِنْ خلقتهم وصورهم وحواسهم إلا ما عرفنا الله تعالى منها، فنعلم أن لهم قلوبًا ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

فقد صرح -تبارك وتعالى- بأن للجن قلوبًا وأعينًا وآذانًا، وله أيضًا صوت لقوله تعالى﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾(الإسراء: ٦٤)

ومن خصائص الشيطان أنه قبيح الصورة، وقد شبَّه الله ثمار شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم برؤوس الشياطين؛ لما عُلم من قبيح صورهم وأشكالهم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٞ

(١) مسلم (٢٩٩٦).

﴿تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ (الصافات٦٥: ٦٤)، ومنها أن له قرنين، فعن ابن عمرﷺ أن النبي ﷺ قال: **"لاَ تَحَرَّوْا بِصَلاَتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلاَ غُرُوبَهَا فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بِقَرْنَيْ شَيْطَانٍ"**[١].

ومن خصائصهم: أنهم أطول عمرًا من الإنسان، وأنهم يسكنون الخراب، والفلوات، ومواضع النجاسات، والمزابل، والمقابر.

وأما عن قدرات الشياطين فقد أعطاهم ما لم يعطِ البشر من القدرات؛ من ذلك:

أولًا: سرعة الحركة والتنقل:

قال تعالى في قصة سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ۝٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ (النمل: ٤٠: ٣٩).

ثانيًا: سبقهم للإنسان في مجالات الفضاء:

فقد كانوا يصعدون إلى أماكن متقدمة في السماء، فيسترقون أخبار السماء ليعلموا بالحدث قبل أن يكون، فلما بُعث الرسول ﷺ زيدت الحراسة في السماء: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩﴾ (الجن٩: ٨).

ثالثًا: علمهم بالإعمار والتصنيع:

أخبرنا الله تعالى أنه سخَّر الجن لنبيه سليمان عليه السلام فكانوا يقومون له بأعمال كثيرة تحتاج إلى قدرات وذكاء ومهارات: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ (سبأ١٣: ١٢).

رابعًا: قدرتهم على التشكيل:

---

(١) مسلم (٨٢٨).

للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان والحيوان، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر في صورة سراقة بن مالك، ووعد المشركين بالنصر، وفيه أُنزل: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨).

خامسًا: الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق:

فعن أنس ﷺ قال: قَالَ النبيﷺ: **"إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ"**[١].

فمن ذلك أن مَنْ له هذه القدرات لمن اليسير عليه أن يبيت على خيشوم الإنسان أو على منخره، فلا يُقاس الجن بالإنسان، فكلٌّ له طبيعته.[٢]

الوجه الثالث: ملازمة الشيطان للإنسان.

قال البدر العيني: ملازمة الشيطان لابن آدم من حين خروجه من ظهر أبيه إلى رحم أمه إلى حين موته أعاذنا الله منه، فهو يجري من ابن آدم مجرى الدم، وعلى خيشومه إذا نام، وعلى قلبه إذا استيقظ، فإذا غفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس ويضرب على قافية رأسه إذا نام ثلاث عقد عليك ليل طويل[٣].

ومن الأدلة على ذلك:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ؛ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦)[٤].

---

(١) البخاري (٧١٧١)، مسلم (٢١٧٥).

(٢) انظر كتاب (عالم الجن والشياطين) لـ د/ عمر الأشقر؛ بتصرف.

(٣) عمدة القاري (٢/ ٢٦٩).

(٤) البخاري (٣٤٣١)، مسلم (٢٣٦٦).

وهذا المس أن يَطْعَنَ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ حِينَ يُولَد، غَيْرَ عِيسَى اِبْن مَرْيَم ﷺ ذَهَبَ يَطْعَن فَطَعَنَ فِي الحِجَاب"[١]، أَيْ: فِي الْمَشِيمَة الَّتِي فِيهَا الْوَلَد، قَالَ الْقُرْطُبِيّ: هَذَا الطَّعْن مِنْ الشَّيْطَان هُوَ اِبْتِدَاء التَّسْلِيط، فَحَفِظَ الله مَرْيَم وَابْنهَا مِنْهُ بِبَرَكَةِ دَعْوَة أُمّهَا[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قَالَ: " يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ؛ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا؛ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ الله انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ "[٣].

عَنْ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ قَالَ ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ أَوْ قَالَ فِي أُذُنِهِ "[٤].

قَالَ ابْن قُتَيْبَة: مَعْنَاهُ: أَفْسَدَهُ، يُقَال: بَالَ فِي كَذَا إِذَا أَفْسَدَهُ، وَقَالَ الْمُهَلَّب وَالطَّحَاوِيُّ وَآخَرُونَ: هُوَ اِسْتِعَارَة وَإِشَارَة إِلَى اِنْقِيَاده لِلشَّيْطَانِ وَتَحَكُّمه فِيهِ وَعَقْده عَلَى قَافِيَة رَأْسه: عَلَيْك لَيْل طَوِيل وَإِذْلَاله، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ اِسْتَخَفَّ بِهِ وَاحْتَقَرَهُ وَاسْتَعْلَى عَلَيْهِ، يُقَال لِمَنْ اِسْتَخَفَّ بِإِنْسَانٍ وَخَدَعَهُ: بَالَ فِي أُذُنه، وَأَصْل ذَلِكَ فِي دَابَّة تَفْعَل ذَلِكَ بِالْأَسَدِ إِذْلَالًا لَهُ، وَقَالَ الْحَرْبِيّ: مَعْنَاهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ، وَسَخِرَ مِنْهُ، قَالَ الْقَاضِي عِيَاض: وَلَا يَبْعُد أَنْ يَكُون عَلَى ظَاهِره؛ قَالَ: وَخَصَّ الْأُذُن؛ لِأَنَّهَا حَاسَّة الِانْتِبَاه[٥].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " **أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ وَقَالَ: بِسْمِ الله اللهمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ** "[٦].

---

(١) البخاري (٣٢٨٦).
(٢) فتح الباري (٦/ ٥٢٩: ٥٢٨).
(٣) البخاري (٣٢٦٩)، مسلم (٧٧٦).
(٤) البخاري (٣٢٧٠)، مسلم (٧٧٤).
(٥) شرح النووي (٣/ ٣٢٢).
(٦) البخاري (٣٢٧١)، مسلم (١٤٣٤).

قَالَ الْقَاضِي: قِيلَ: المُرَاد بِأَنَّهُ لَا يَضُرّهُ أَنَّهُ لَا يَصْرَعهُ شَيْطَان، وَقِيلَ: لَا يَطْعَن فِيهِ الشَّيْطَان عِنْد وِلَادَته بِخِلَافِ غَيْره، قَالَ: وَلَمْ يَحْمِلهُ أَحَد عَلَى الْعُمُوم فِي جَمِيع الضَّرَر وَالْوَسْوَسَة وَالْإِغْوَاء(١).

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ - أَوْ قَالَ جُنْحُ اللَّيْلِ- فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنْ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرْ اسْمَ الله، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرْ اسْمَ الله، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرْ اسْمَ الله، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرْ اسْمَ، الله وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا "(٢).

قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ: إِنَّمَا خِيفَ عَلَى الصِّبْيَان فِي تِلْكَ السَّاعَة؛ لِأَنَّ النَّجَاسَة الَّتِي تَلُوذ بِهَا الشَّيَاطِين مَوْجُودَة مَعَهُمْ غَالِبًا، وَالذِّكْر الَّذِي يُحْرَز مِنْهُمْ مَفْقُود مِنْ الصِّبْيَان غَالِبًا، وَالشَّيَاطِين عِنْد اِنْتِشَارهمْ يَتَعَلَّقُونَ بِمَا يُمْكِنهُمْ التَّعَلُّق بِهِ، فَلِذَلِكَ خِيفَ عَلَى الصِّبْيَان فِي ذَلِكَ الْوَقْت وفِي اللَّيْل؛ لِأَنَّ الظَّلَام أَجْمَع لِلْقُوَى الشَّيْطَانِيَّة مِنْ غَيْره(٣).

وفي حديث صفية بنت حيي أنه ﷺ قَالَ: " **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قَالَ: شَيْئًا** "(٤).

قَالَ الْقَاضِي وَغَيْره: قِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِره، وَأَنَّ الله تَعَالَى جَعَلَ لَهُ قُوَّة وَقُدْرَة عَلَى الْجَرْي فِي بَاطِن الْإِنْسَان، كَمَا لَا يُفَارِقهُ دَمه، وَقِيلَ: يُلْقِي وَسْوَسَته فِي مَسَامّ لَطِيفَة مِنْ الْبَدَن، فَتَصِل الْوَسْوَسَة إِلَى الْقَلْب، وَالله أَعْلَم(٥).

الوجه الرابع: السر في المبيت على الخيشوم، وأمر النبي ﷺ بغسله.

قال ابن حجر: فَيَكُون مَبِيته عَلَى الْأَنْف لِيَتَوَصَّل مِنْهُ إِلَى الْقَلْب إِذَا اِسْتَيْقَظَ، فَمَنْ

(١) شرح النووي (٥/ ٢٥٨).

(٢) البخاري (٣٢٨٠)، أبو داو داود (٣٧٣١).

(٣) فتح الباري (٦/ ٣٧٩).

(٤) البخاري (٣٢٨١)، مسلم (٢١٧٥).

(٥) شرح النووي (٧/ ٤١٢).

اِسْتَنْثَرَ مَنَعَهُ مِنْ التَّوَصُّل إِلَى مَا يَقْصِد مِنْ الْوَسْوَسَة[١]. والخيشوم أحد منافذ الجسم يتوصل منها إلى القلب[٢].

وقال ابن القيم: وَفِي مَبِيت الشَّيْطَان عَلَى الْخَيْشُوم وَمُلَابَسَته لِلْيَدِ سِرٌّ يَعْرِفهُ مَنْ عَرَفَ أَحْكَام الْأَرْوَاح، وَاقْتِرَان الشَّيَاطِين بِالْمَحَالِّ الَّتِي تُلَابِسهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَان خَبِيث يُنَاسِبهُ الْخَبَائِث، فَإِذَا نَامَ الْعَبْد

لَمْ يرَ فِي ظَاهِر جَسَده أَوْسَخ مِنْ خَيْشومه، فَيَسْتَوْطِنهُ فِي الْمَبِيت[٣].

والخيشوم يَنْعَقِد فِيهِ مِنْ الْغُبَار وَالرُّطُوبَة قَذِرَات تُوَافِق الشَّيْطَان، فَالْمُرَاد أَنَّ الْخَيْشُوم مَحَلّ قَذِر يَصْلُح لِبَيْتُوتَةِ الشَّيْطَان[٤].

والشيطان إذا لم يمكنه الوسوسة عند النوم لزوال الإحساس، يبيت على أقصى أنفه؛ ليلقي في دماغه الرؤيا الفاسدة؛ ويمنعه عن الرؤيا الصالحة؛ لأن محله الدماغ فأمر ﷺ أن يغسلوا داخل أنوفهم لإزالة لوث الشيطان ونتنه منها[٥].

ومبيت الشيطان على الخيشوم لا يكون إلا بإذن الله ﷻ بتسليط منه سبحانه وتعالى لحكمة، لكننا لا نعلم ما هي إلا أننا نعلم أنه لم يسلط إلا لحكمة[٦].

ومن الأسرار أيضًا تَجَنُّبِ الْخَبَائِثِ الرُّوحَانِيَّةِ، كما أمرنا بِتَجَنُّبِ الْخَبَائِثِ الْجُسْمَانِيَّةِ[٧].

ومن ذلك يكون السرُّ في مبيت الشيطان على الخيشوم للآتي:

١ - لحكمة يعلمها الله تبارك وتعالى، ومن الأدب ألا يتكلم فيما من لا يعلمها.

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٨٤).

(٢) شرح سنن النسائي (١/ ٧٧) حاشية السندي.

(٣) تهذيب سنن أبي داود لابن القيم (١/ ٥٨).

(٤) شرح سنن النسائي (١/ ٧٧) حاشية السندي.

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٣١٦).

(٦) عمدة القاري (٢/ ٢٦٩).

(٧) مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢).

٢- يبيت الشيطان على الخيشوم ليكون قريب التوصل إلى القلب إذا استيقظ.

٣- أن الشيطان قذر وخبيث، فلا يقع إلا على الأماكن التي توافقه، والخيشوم ينعقد فيه من الغبار والرطوبة قذرات توافق الشيطان.

٤- لما لم يتمكن الشيطان من الوسوسة عند النوم لزوال الإحساس بات على أقصى الأنف ليلقي في دماغه الرؤيا الفاسدة.

وأما السر في أمر النبي ﷺ غسل الأنف بعد النوم هو كالآتي:

١- من استنثر منع الشيطان من التوصل إلى ما يقصد من الوسوسة.

٢- لإزالة لوث الشيطان ونتنه من مبيته عليها.

٣- تجنب الخبائث الروحانية كما أمرنا بتجنب الخبائث الجسمانية.

ومثل هذا الكلام كله يقال في وضع اليد على الفم عند التثاؤب؛ لئلا يدخل الشيطان، ويقال في الأمر بغسل اليد بعد النوم كذلك، والله أعلى وأعلم.

الوجه الخامس: بالذكر يخنس الشيطان.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (سورة الناس).

قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ يعني: شر الشيطان، ﴿الْخَنَّاسِ﴾: الذي يخنس مرة ويوسوس أخرى، وإنما يخنس فيما ذُكِرَ عند ذِكْرِ العبدِ رَبَّهُ[١].

قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة؛ عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس؛ وهو الشيطان

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٣٥٦: ٣٥٥).

الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهدًا في الخيال والمعصوم من عصمه الله.

وعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ عَنْ رَجُلٍ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَثَرَتْ دَابَّةٌ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: " لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ؛ وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ الله؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ "(١).

قال ابن كثير: فيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلِبَ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغَلَبَ، وقال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: ذُكر لي أن الشيطان أو الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس(٢).

الوجه السادس: عداوة الشيطان للإنسان.

إن الله ﷻ لما خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود إليه وكان الشيطان معهم، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا الشيطان، فإنه تكبَّر على طاعة الله، وأَنِفَ أن يسجد لآدم، فأهبطه الله إلى الأرض، وأدخل آدم وزوجته الجنة، فمن هنا بدأت العداوة بين الشيطان وبين آدم وبنيه، وأصبح يفكر في كل مدخل يدخل به عليهم؛ كي يُدخلهم معه النار؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (البقرة: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

(١) أبو داود (٤٩٨٢)، مسند أحمد (٥/ ٥٩)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١٣٣٥٨).

(٢) ابن كثير (٤/ ٨٠١: ٨٠٠).

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف١٧: ١١)، وغير ذلك من الآيات.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تنفير عنه وتحذير منه؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾(فاطر: ٦)، وقال تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٠)[١].

وقال الطبري: يعني: أنه قد أبان لكم عداوته بإبائه عن السجود لأبيكم، وغروره إياه؛ حتى أخرجه من الجنة، واستزله بالخطيئة، وأكل من الشجرة؛ يقول تعالى ذكره: فلا تنتصحوه أيها الناس مع إبانته لكم العداوة ودعوا ما يأمركم به والتزموا طاعتي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه مما أحللته لكم وحرمته عليكم[٢].

عن أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا".

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٣]

وعَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؛ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ؛ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ**

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٩).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٧٦).

(٣) البخاري (٣٢٤٨)، مسلم (٦٢٨٢)

ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ "[١].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ "[٢].

وعنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ، فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً "[٣].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ "، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسولَ اللهِ؟! قَالَ: " وَإِيَّايَ؛ إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ "[٤].

قال النووي: في هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان[٥].

* * *

---

(١) أخرجه النسائي (٦/ ٢١) (٣١٣٤)، مسند أحمد (٣/ ٤٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٧٩).

(٢) مسلم (٢٨١٢).

(٣) مسلم (٢٨١٣).

(٤) مسلم (٢٨١٤).

(٥) شرح النووي (٩/ ١٧٣).

٩- شبهة: في حديث إدبار الشيطان وله ضراط.

نص الشبهة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى قول النبيﷺ: أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ.

الوجه الثاني: الحكمة من إدبار الشيطان من الأذان.

الوجه الثالث: العلة من هروب الشيطان من الأذان دون غيره من الطاعات.

الوجه الرابع: الجن يأكلون ويشربون ويتغوطون.

الوجه الخامس: فضل الأذان، وأنه يطرد الشياطين.

الوجه السادس: حال الجن- أو الروح - كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى قول النبي ﷺ: أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ.

قَالَ القاضي عِيَاض:

يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِره لِأَنَّهُ جِسْمٌ مُتَغَذٍّ يَصِحّ مِنْهُ خُرُوج الرِّيح، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا عِبَارَة عَنْ شِدَّة نِفَارِهِ، وَيُقَوِّيهِ رِوَايَة لِمُسْلِمٍ " لَهُ حصَاصٌ "، أي شِدَّةِ الْعَدْوِ، وقَالَ الطِّيبِيُّ: شَبَّهَ شُغْلَ الشَّيْطَان نَفْسه عَنْ سَماع الْأَذَان بِالصَّوْتِ الَّذِي يَمْلَأُ السَّمْع وَيَمْنَعهُ عَنْ سَماع غَيْره، ثُمَّ سَمَّاهُ ضُرَاطًا تَقْبِيحًا لَهُ[١].

(١) فتح الباري٢/ ١٠١، شرح السيوطي للنسائي ٢/ ٢١.

فإن الأذان لو لم يكن له فضل عظيم يتأذى منه الشيطان؛ لم يهرب منه، فمن حصول هذا الفضل للتأذين يحصل أيضًا للمؤذن، فإنه لا يقوم إلا به.

قوله: " أدبر الشيطان ": الإدبار نقيض الإقبال يقال دبر وأدبر إذا ولى والألف، واللام في الشيطان للعهد والمراد الشيطان المعهود، قوله: "له ضراط" هذا تمثيل لحال الشيطان عند هروبه من سماع الأذان؛ بحال من خرقه أمر عظيم واعتراه خطب جسيم؛ حتى لم يزل يحصل له الضراط من شدة ما هو فيه؛ لأن الواقع في شدة عظيمة من خوف وغيره؛ تسترخي مفاصله، ولا يقدر على أن يملك نفسه؛ فينفتح منه مخرج البول والغائط، ولما كان الشيطان لعنه الله يعتريه شدة عظيمة وداهية جسيمة عند النداء إلى الصلاة؛ فيهرب حتى لا يسمع الأذان.

شبه حاله بحال ذلك الرجل، وأثبت له على وجه الادعاء الضراط الذي ينشأ من كمال الخوف الشديد، وفي الحقيقة ما ثم ضراط ولكن يجوز أن يكون له ريح لأنه روح ولكن لم تعرف كيفيته. (١)

الوجه الثاني: الحكمة من إدبار الشيطان من الأذان.

والعلة والحكمة من إدبار الشيطان؛ بينها لنا الرسولﷺ في الحديث الذي معنا وهو قوله: " حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ".

قال ابن حجر: قَوْله: " حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِين " ظَاهِره أَنَّهُ يَتَعَمَّد إِخْرَاجَ ذَلِكَ:

١-إِمَّا لِيَشْتَغِلَ بِسَمَاعِ الصَّوْت الَّذِي يُخْرِجُهُ عَنْ سَمَاع الْمُؤَذِّن.

٢-أَوْ يَصْنَع ذَلِكَ اِسْتِخْفَافًا كَمَا يَفْعَلهُ السُّفَهَاءُ.

٣- وَيَحْتَمِلُ أَنْ لَا يَتَعَمَّدَ ذَلِكَ بَلْ يَحْصُلُ لَهُ عِنْدَ سَمَاع الْأَذَان شِدَّةُ خَوْفٍ يُحْدِثُ لَهُ ذَلِكَ الصَّوْت بِسَبَبِهَا.

٤- وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَتَعَمَّدَ ذَلِكَ لِيُقَابِل مَا يُنَاسِب الصَّلَاة مِنْ الطَّهَارَة بِالْحَدَثِ.

---

(١) عمدة القاري ٥/ ١١.

وقَوْلَهُ: " حَتَّى لَا يَسْمَعَ " ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ يَبْعُدُ إِلَى غَايَةٍ يَنْتَفِي فِيهَا سَمَاعُهُ لِلصَّوْتِ، وَقَدْ وَقَعَ بَيَانُ الْغَايَةِ فِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيث جَابِر ﷺ فَقَالَ: " حَتَّى يَكُون مَكَانَ الرَّوْحَاء وَبَيْن الْمَدِينَة وَالرَّوْحَاء سِتَّةٌ وَثَلَاثِينَ مِيلًا". [(١)]

٥- وإنما كان الشيطان ينفر منه؛ لأنه جامع لعقيدة الإيمان، مشتمل على نوعيه العقليات والسمعيات؛ لأنه ابتدأ أولا بالذات وما يستحقه من الكمال بقوله الله أكبر.

ثم أثبت الوحدانية، ونفى ضدها من الشرك، ثم أثبت الرسالة، ثم دعا إلى الصلاة وجعلها عقب إثبات الرسالة، إذ معرفة وجوبها من جهته لا من جهة العقل، ثم دعا إلى الفلاح وهو الفوز والبقاء في النعيم الدائم، وفيه إشعار بأمور الآخرة من بعث وجزاء. وذلك كله متضمن لتأكيد الإيمان، ومزيد الإيقان، فلذلك نفر منه الشيطان.

٦-(حتى) أي: كي (لا يسمع صوته) أي: صوت المؤذن بالتأذين لما اشتمل عليه من قواعد الدين وإظهار شرائع الإسلام، قال أبو زرعة: والظاهر أن هربه إنما يكون من أذان شرعي مستجمع للشروط، واقع بمحله، أريد به الإعلام بالصلاة فلا أثر لمجرد صورته. [(٢)]

الوجه الثالث: العلة من هروب الشيطان من الأذان دون غيره من الطاعات.

١- إنما يهرب من الأذان حتى لا يشهد بها سمعه إذا استشهد يوم القيامة؛ لأنه جاء في الحديث" لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة "[(٣)] والشيطان أيضا شيء أو هو داخل في الجن لأنه من الجن. فإن قلت إنه يُدْبر لعظم أمر الأذان لما اشتمل عليه من قواعد الدين وإظهار شعائر الإسلام وإعلانه وقيل ليأسه من وسوسة الإنسان عند الإعلان بالتوحيد؛ فإن قلت كيف يهرب من الأذان ويدنو من الصلاة وفيها القران ومناجاة الحق؟ قلت هروبه من الآذان ليأسه من الوسوسة كما ذكرناه

(١) فتح الباري ٢/ ١٠٢.
(٢) فيض القدير ١/ ٣١٩.
(٣) البخاري (٦٠٩).

وفي الصلاة يفتح له أبواب الوساوس. [١]

٢- قَالَ اِبْن الْجَوْزِيّ: عَلَى الْأَذَان هَيْبَةٌ يَشْتَدّ اِنْزِعَاجُ الشَّيْطَان بِسَبَبِهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَكَاد يَقَعُ فِي الْأَذَان رِيَاء وَلَا غَفْلَةٌ عِنْدَ النُّطْق بِهِ، بِخِلَافِ الصَّلَاة؛ فَإِنَّ النَّفْس تَحْضُرُ فِيهَا فَيَفْتَحُ لَهَا الشَّيْطَان أَبْوَاب الْوَسْوَسَة.

قَالَ اِبْن بَطَّالٍ: يُشْبِه أَنْ يَكُونَ الزَّجْرُ عَنْ خُرُوجِ الْمَرْءِ مِنْ الْمَسْجِد بَعْدَ أَنْ يُؤَذِّنَ الْمُؤَذِّنُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى؛ لِئَلَّا يَكُونَ مُتَشَبِّهًا بِالشَّيْطَانِ الَّذِي يَفِرُّ عِنْدَ سَمَاع الْأَذَان[٢].

الوجه الرابع: إثبات أن الجن يأكلون ويشربون ويتغوطون:

غالب ما يسكن الجن في مواضع المعاصي، والنجاسات، كالحمامات والحشوش والمزابل، فعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: " إِنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضَرَةٌ فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ الْخَلَاءَ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِالله مِنْ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ". [٣]

والمحضرة: مكان حضور الجن والشياطين.

وقد جاءت الآثار بالنهي عن الصلاة في هذه الأماكن، ومن أزواد الجن العظام، ففي الحديث: أن الجن سألوا رسول الله ﷺ الزاد، فقال: "كُلُّ عَظْمٍ يُذْكَرُ اسْمُ الله عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا كَانَ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ". [٤]

وقد نهى النبي ﷺ أن يُستنجى بالعظم والروث، وقال: إنه زَادُ إِخْوَانِكُمْ الْجِنِّ. [٥]

إذا ثبت ذلك فلا مانع أن يدبر الشيطان حينما يسمع الأذان وله ضراط كما ثبت في الحديث.

الوجه الخامس: فضل الأذان، وأنه يطرد الشياطين.

---

(١) عمدة القاري٥/ ١١٢، شرح النووي٢/ ٣٢٨.

(٢) فتح الباري ٢/ ١٠٤.

(٣) سنن أبو داود (٦)، الحاكم في المستدرك١/ ١٨٧، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٠).

(٤) الترمذي (٣٢٥٨) وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) مسلم (٢٦٢).

إن الأذان عبادة من أعظم شعائر الإسلام وأشهر معالم الدين، وقد وقعت المواظبة عليها منذ شرعها الله سبحانه إلى أن مات رسول الله ﷺ في ليل ونهار وسفر وحضر، ولم يُسمع أنه وقع الإخلال بها أو الترخيص في تركها، والنبي ﷺ قد جعله علامة للإسلام ودلالة على التمسك فيه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ.(١)

وللأذان فضل عظيم، فمن فضله أن الشيطان ينفر ويهرب عند سماع، كلمات الأذان لما فيه من إعلان التوحيد لله رب العالمين، وإظهار شعائر الإسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى "(٢).

وعَنْ سُهَيْلٍ قَالَ: أَرْسَلَنِي أَبِي إِلَى بَنِي حَارِثَةَ قَالَ وَمَعِي غُلَامٌ لَنَا أَوْ صَاحِبٌ لَنَا فَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ حَائِطٍ بِاسْمِهِ قَالَ: وَأَشْرَفَ الَّذِي مَعِي عَلَى الْحَائِطِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي؛ فَقَالَ: لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَ هَذَا لَمْ أُرْسِلْكَ، وَلَكِنْ إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا فَنَادِ بِالصَّلَاةِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ". (٣)

وعن أَبِي صَعْصَعَةَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ وَبَادِيَتِكَ فَأَذَّنْتَ بِالصَّلَاةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ(٤).

---

(١) صحيح فقه السنة١/ ٢٧٢، والحديث رواه البخاري (٦١٠)، مسلم (٣٨٢).

(٢) البخاري (٦٠٨)، مسلم (٣٨٩).

(٣) مسلم (٣٨٩).

(٤) البخاري (٦٠٩).

قال ابن حجر: السِّرُّ فِي هَذِهِ الشَّهَادَة مَعَ أَنَّهَا تَقَعُ عِنْدَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؛ أَنَّ أَحْكَامَ الْآخِرَةِ جَرَتْ عَلَى نَعْتِ أَحْكَامِ الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا مِنْ تَوْجِيهِ الدَّعْوَى وَالْجَوَابِ وَالشَّهَادَةِ، قَالَهُ الزَّيْنُ بْنُ الْمُنِير. وَقَالَ التوربشتي: الْمُرَاد مِنْ هَذِهِ الشَّهَادَة اِشْتِهَارُ الْمَشْهُود لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة بِالْفَضْلِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَةِ، وَكَمَا أَنَّ الله يَفْضَحُ بِالشَّهَادَةِ قَوْمًا فَكَذَلِكَ يُكْرِمُ بِالشَّهَادَةِ آخَرِينَ.[١]

وعن مُعَاوِيَةَ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.[٢]

قال النووي: فَقَوْله ﷺ: " الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَل النَّاس أَعْنَاقًا " هُوَ بِفَتْحِ هَمْزَة أَعْنَاقًا جَمْع عُنُق، وَاخْتَلَفَ السَّلَف وَالْخَلَف فِي مَعْنَاهُ، فَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَكْثَر النَّاس تَشَوُّفًا إِلَى رَحْمَة الله تَعَالَى؛ لِأَنَّ الْمُتَشَوِّف يُطِيل عُنُقه إِلَى مَا يَتَطَلَّع إِلَيْهِ. فَمَعْنَاهُ كَثْرَة مَا يَرَوْنَهُ مِنْ الثَّوَاب. وَقَالَ النَّضْر بْن شُمَيْلٍ: إِذَا أَلْجَمَ النَّاسَ الْعَرَقُ يَوْم الْقِيَامَة طَالَتْ أَعْنَاقهمْ لِئَلَّا يَنَالهُمْ ذَلِكَ الْكَرْب وَالْعَرَق. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ سَادَة وَرُؤَسَاء، وَالْعَرَب نَصِف السَّادَة بِطُولِ الْعُنُق. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَكْثَر أَتْبَاعًا. وَقَالَ اِبْن الْأَعْرَابِيّ: مَعْنَاهُ أَكْثَر النَّاس أَعْمَالًا. قَالَ الْقَاضِي عِيَاض وَغَيْره: وَرَوَاهُ بَعْضهمْ (إِعْنَاقًا) بِكَسْرِ الْهَمْزَة أَيْ إِسْرَاعًا إِلَى الْجَنَّة، وَهُوَ مِنْ سَيْر الْعُنُق[٣].

الوجه السادس: حال الجن ـ أو الروح ـ كما في الكتاب المقدس.

أرواح شريرة: (لوقا ٢١: ٧). وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ شَفَى كَثِيرِينَ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَدْوَاءٍ وَأَرْوَاحٍ شِرِّيرَةٍ، وَوَهَبَ الْبَصَرَ لِعُمْيَانٍ كَثِيرِينَ.

أرواح نجسة: (متى ١: ١٠). ' ثُمَّ دَعَا تَلاَمِيذَهُ الاثْنَيْ عَشَرَ وَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا عَلَى أَرْوَاحٍ نَجِسَةٍ حَتَّى يُخْرِجُوهَا، وَيَشْفُوا كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضُعْفٍ.

أرواح مضلة: (١تيموثاوس ١: ٤): وَلكِنَّ الرُّوحَ يَقُولُ صَرِيحًا: إِنَّهُ فِي الأَزْمِنَةِ الأَخِيرَةِ يَرْتَدُّ قَوْمٌ عَنِ الإِيمَانِ، تَابِعِينَ أَرْوَاحًا مُضِلَّةً وَتَعَالِيمَ شَيَاطِينَ، (١يوحنا ٦: ٤)

---

(١) فتح الباري ٢/ ١٠٦.

(٢) مسلم (٣٨٧).

(٣) شرح النووي ٢/ ٣٢٨: ٣٢٧.

روح عرافة: (أعمال ١٦: ١٦)[١٦] وَحَدَثَ بَيْنَمَا كُنَّا ذَاهِبِينَ إِلَى الصَّلاَةِ، أَنَّ جَارِيَةً بِهَا رُوحُ عِرَافَةٍ اسْتَقْبَلَتْنَا. وَكَانَتْ تُكْسِبُ مَوَالِيَهَا مَكْسَبًا كَثِيرًا بِعِرَافَتِهَا.

جان: (لاويين ٣١: ١٩) لاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى الْجَانِّ وَلاَ تَطْلُبُوا التَّوَابِعَ، فَتَتَنَجَّسُوا بِهِمْ. أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ.

صموئيل الأول الإصحاح ٢٨: وَلَمَّا رَأَى شَاوُلُ جَيْشَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ خَافَ وَاضْطَرَبَ قَلْبُهُ جِدًّا. ٦ فَسَأَلَ شَاوُلُ مِنَ الرَّبِّ، فَلَمْ يُجِبْهُ الرَّبُّ لاَ بِالأَحْلاَمِ وَلاَ بِالأُورِيمِ وَلاَ بِالأَنْبِيَاءِ.

والعرافة: (لاويين ٢٧: ٢٠): «وَإِذَا كَانَ فِي رَجُل أَوِ امْرَأَةٍ جَانٌّ أَوْ تَابِعَةٌ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. بِالْحِجَارَةِ يَرْجُمُونَهُ. دَمُهُ عَلَيْهِ».

(كورنثوس الثانية ١٤: ١١-١٥): وَلاَ عَجَبَ. لأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إِلَى شِبْهِ مَلاَكِ نُورٍ! [١٥] فَلَيْسَ عَظِيمًا إِنْ كَانَ خُدَّامُهُ أَيْضًا يُغَيِّرُونَ شَكْلَهُمْ كَخُدَّامٍ لِلْبِرِّ. الَّذِينَ نِهَايَتُهُمْ تَكُونُ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ.

* * *

١٠ـ شبهة: العين حق.

نص الشبهة:

في حديث عن النبي ﷺ: " الْعَيْنُ حَقٌّ " كيف يكون للعين قدرة على النفع والضرر، وهل ذلك مخالف لقدرة الله؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إثبات أن العين حق من القرآن والسنة.

الوجه الثاني: كيف يكون للعين تأثير؟ وأن هذا واقع في عالمنا.

الوجه الثالث: ماذا يفعل المعيون عند إصابته بالعين؟

الوجه الرابع: العين والحسد في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إثبات أن العين حق من القرآن والسنة.

أولًا: من القرآن: قال تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (القلم: ٥١)

قال الإمام الطبري: يقول جل ثناؤه: وإن يكاد الذين كفروا يا محمد ينفذونك بأبصارهم من شدة عداوتهم لك، ويزيلونك فيرموا بك عند نظرهم إليك غيظًا عليك، وقد قيل: إنه عنى بذلك: وإن يكاد الذين كفروا مما عانوك[1] بأبصارهم ليرمون بك يا محمد ويصرعونك كما تقول العرب: كاد فلان يصرعني بشدة نظره إليَّ، قالوا: وإنما كانت قريش عاينوا رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين فنظروا إليه ليعينوه، وقالوا: ما رأينا رجلًا مثله أو إنه لمجنون، فقال الله لنبيه عند ذلك: وإن يكاد الذين كفروا ليرمونك بأبصارهم ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ .[2]

---

(١) عان الرجل يعينه عينًا أصابه بالعين؛ لسان العرب (عين).

(٢) تفسير الطبري١٢/ ٢٠٣.

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ لينفذونك بأبصارهم، أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله عَجَّلَ كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة. (١)

ثانيًا: من السنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "الْعَيْنُ حَقٌّ وَنَهَى عَنْ الْوَشْمِ". (٢)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا ". (٣)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا. (٤)

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: انْطَلَقَ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ وَسَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ يُرِيدَانِ الْغُسْلَ قَالَ فَانْطَلَقَا يَلْتَمِسَانِ الْخَمَرَ قَالَ فَوَضَعَ عَامِرٌ جُبَّةً كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ صوفٍ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَأَصَبْتُهُ بِعَيْنِي، فَنَزَلَ الْمَاءَ يَغْتَسِلُ، قَالَ: فَسَمِعْتُ لَهُ فِي الْمَاءِ قَرْقَعَةً فَأَتَيْتُهُ فَنَادَيْتُهُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُجِبْنِي، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: فَجَاءَ يَمْشِي فَخَاضَ الْمَاءَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ سَاقَيْهِ، قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: اللهمَّ أَذْهِبْ عَنْهُ حَرَّهَا وَبَرْدَهَا وَوَصَبَهَا، قَالَ: فَقَامَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ أَوْ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ مَالِهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيُبَرِّكْهُ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ. (٥)

الوجه الثاني: كيف يكون للعين تأثير؟ وأن هذا واقعي في عالمنا.

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٥.

(٢) البخاري (٥٢٢٩).

(٣) مسلم (٢١٨٨).

(٤) الترمذي (٢٠٥٨) النسائي(٤٥٩٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٥٦٣).

(٥) مسند أحمد (١٥٧٣٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٧٢).

قال ابن حجر: وَقَدْ أَشْكَلَ ذَلِكَ عَلَى بَعْض النَّاس فَقَالَ: كَيْف تعْمَل الْعَيْن مِنْ بُعْد حَتَّى يَحْصُل الضَّرَر لِلْمَعْيُون؟

وَالْجَوَاب: أَنَّ طَبَائِع النَّاس تَخْتَلِف، فَقَدْ يَكُون ذَلِكَ مِنْ سُمّ يَصِل مِنْ عَيْن الْعَائِن فِي الْهَوَاء إِلَى بَدَن الْمَعْيُون؛ وَقَدْ نُقِلَ عَنْ بَعْض مَنْ كَانَ مِعْيَانًا أَنَّهُ قَالَ: إِذَا رَأَيْت شَيْئًا يُعْجِبنِي وَجَدْت حَرَارَة تَخْرُج مِنْ عَيْنِي. وَيَقْرَب ذَلِكَ بِالْمَرْأَةِ الْحَائِض تَضَع يَدهَا فِي إِنَاء اللَّبَن فَيَفْسُد، وَلَوْ وَضَعَتْهَا بَعْد طُهْرهَا لَمْ يُفْسِد، وَكَذَا تَدْخُل الْبُسْتَان فَتَضُرّ بِكَثِيرٍ مِنْ الْغُرُوس مِنْ غَيْر أَنْ تَمَسّهَا يَدهَا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الصَّحِيح قَدْ يَنْظُر إِلَى الْعَيْن الرَّمْدَاء فَيَرْمَد، وَيَتَثَاءَب وَاحِد بِحَضْرَتِهِ فَيَتَثَاءَب هُوَ، أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ اِبْن بَطَّال. (١)

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: فِي الْحَدِيث أَنَّ لِلْعَيْنِ تَأْثِيرًا فِي النُّفُوس، وَإِبْطَال قَوْل الطَّبَائِعِيِّينَ أَنَّهُ لَا شَيْء إِلَّا مَا تُدْرِك الْحَوَاسّ الْخَمْس وَمَا عَدَا ذَلِكَ لَا حَقِيقَة لَهُ. وَقَالَ الْمَازِرِيّ: زَعَمَ بَعْض الطَّبَائِعِيِّينَ أَنَّ الْعَائِن يَنْبَعِث مِنْ عَيْنه قُوَّة سمِّيَّة تَتَّصِل بِالْمَعِينِ فَيَهْلِك أَوْ يَفْسُد، وَهُوَ كَإِصَابَةِ السُّمّ مَنْ نَظَر الْأَفَاعِي، وَأَشَارَ إِلَى مَنْع الْحَصْر فِي ذَلِكَ مَعَ تَجْوِيزه، وَأَنَّ الَّذِي يَتَمَشَّى عَلَى طَرِيقَة أَهْل السُّنَّة أَنَّ الْعَيْن إِنَّمَا تَضُرّ عِنْد نَظَر الْعَائِن بِعَادَةٍ أَجْرَاهَا الله تَعَالَى أَنْ يَحْدُث الضَّرَر عِنْد مُقَابَلَة شَخْص لِآخَر، وَهَلْ ثَمَّ جَوَاهِر خَفِيَّة أَوْ لَا؟ هُوَ أَمْر مُحْتَمَل لَا يُقْطَع بِإِثْبَاتِهِ وَلَا نَفْيِهِ، حتى إِنَّ جِنْسًا مِنْ الْأَفَاعِي اُشْتُهِرَ أَنَّهَا إِذَا وَقَعَ بَصَرهَا عَلَى الْإِنْسَان هَلَكَ فَكَذَلِكَ الْعَائِن. وَالْحَاصِل أَنَّ التَّأْثِير بِإِرَادَةِ الله تَعَالَى وَخَلْقه لَيْسَ مَقْصُورًا عَلَى الِاتِّصَال الْجُسْمَانِيّ، بَلْ يَكُون تَارَة بِهِ وَتَارَة بِالْمُقَابَلَةِ، وَأُخْرَى بمجرد الرُّؤْيَة وَأُخْرَى بِتَوَجُّهِ الرُّوح، كَالَّذِي يَحْدُث مِنْ الْأَدْعِيَة وَالرُّقَى وَالِالْتِجَاء إِلَى الله، وَتَارَة يَقَع ذَلِكَ بِالتَّوَهُّمِ وَالتَّخَيُّل، فَالَّذِي يَخْرُج مِنْ عَيْن الْعَائِن سَهْم مَعْنَوِيّ إِنْ صَادَفَ الْبَدَن لَا وِقَايَة لَهُ أَثَّرَ فِيهِ، وَإِلَّا لَمْ يَنْفُذ السَّهْم، بَلْ رُبَّمَا رُدَّ عَلَى صَاحِبه كَالسَّهْمِ الْحِسِّيّ سَوَاء. (٢)

---

(١) فتح الباري لابن حجر؛ (قوله: باب رقية العين) ١٠/ ٢٠٠.

(٢) فتح الباري١٠/ ٢٠١.

قال النووي: وَمَذْهَب أَهْل السُّنَّة أَنَّ الْعَيْن إِنَّمَا تَفْسُد وَتَهْلَك عِنْد نَظَر الْعَائِن بِفِعْلِ الله تَعَالَى، أَجْرَى الله سُبْحَانه وَتَعَالَى الْعَادَة أَنْ يَخْلُق الضَّرَر عِنْد مُقَابَلَة هَذَا الشَّخْص لِشَخْصٍ آخَر. (١)

ويقول ابن القيم: وَلَا رَيْبَ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ خَلَقَ فِي الْأَجْسَامِ وَالْأَرْوَاحِ قُوًى وَطَبَائِعَ مُخْتَلِفَةً، وَجَعَلَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا خَوَاصَّ وَكَيْفِيَّاتٍ مُؤَثِّرَةً، وَلَا يُمْكِنُ لِعَاقِلٍ إِنْكَارُ تَأْثِيرِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَامِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ مَحْسُوسٌ، وَأَنْتَ تَرَى الْوَجْهَ كَيْفَ يَحْمَرُّ حُمْرَةً شَدِيدَةً إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ مِنْ يَحْتَشِمُهُ وَيَسْتَحِي مِنْهُ، وَيَصْفَرُّ صفرة شَدِيدَةً عِنْدَ نَظَرِ مَنْ يَخَافُهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ شَاهَدَ النَّاسُ مَنْ يَسْقَمُ مِنْ النَّظَرِ وَتَضْعُفُ قُوَاهُ وَهَذَا كُلُّهُ بِوَاسِطَةِ تَأْثِيرِ الْأَرْوَاحِ وَلِشِدَّةِ ارْتِبَاطِهَا بِالْعَيْنِ يُنْسَبُ الْفِعْلُ إِلَيْهَا وَلَيْسَتْ هِيَ الْفَاعِلَةَ؛ وَإِنَّمَا التَّأْثِيرُ لِلرّوحِ، وَالْأَرْوَاحُ مُخْتَلِفَةٌ فِي طَبَائِعِهَا وَقُوَاهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَخَوَاصِّهَا، فَرُوحُ الْحَاسِدِ مُؤْذِيَةٌ لِلْمَحْسُودِ أَذًى بَيِّنًا وَلِهَذَا أَمَرَ الله - سُبْحَانَهُ- رَسُولَهُ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ شَرِّهِ، وَتَأْثِيرُ الْحَاسِدِ فِي أَذَى الْمَحْسُودِ أَمْرٌ لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَهُوَ أَصْلُ الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ الْخَبِيثَةَ الْحَاسِدَةَ تَتَكَيَّفُ بِكَيْفِيَّةٍ خَبِيثَةٍ وَتُقَابِلُ الْمَحْسُودَ فَتُؤَثِّرُ فِيهِ بِتِلْكَ الْخَاصِّيَّةِ، وَأَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِهَذَا الْأَفْعَى فَإِنَّ السُّمَّ كَامِنٌ فِيهَا بِالْقُوَّةِ، فَإِذَا قَابَلَتْ عَدُوَّهَا انْبَعَثَتْ مِنْهَا قُوَّةٌ غَضَبِيَّةٌ وَتَكَيَّفَتْ بِكَيْفِيَّةٍ خَبِيثَةٍ مُؤْذِيَةٍ، فَمِنْهَا مَا تَشْتَدُّ كَيْفِيَّتُهَا وَتَقْوَى حَتَّى تُؤَثِّرَ فِي إِسْقَاطِ الْجَنِينِ، وَمِنْهَا مَا تُؤَثِّرُ فِي طَمْسِ الْبَصَرِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْأَبْتَرِ وَذِي الطُّفْيَتَيْنِ مِنْ الْحَيَّاتِ إِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ وَيُسْقِطَانِ الْحَبَلَ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْعَائِنِينَ يُؤَثِّرُ فِي الْمُعِينِ بِالْوَصْفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ (الْقَلَمُ: ٥١). (٢)

وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المكتل والدرهم فاتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى

(١) النووي١٤/ ١٧١.

(٢) زاد المعاد ٤/ ١٤٩.

تقع للموت فتنحر، وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئًا يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول: لم أرَ كاليوم إبلًا ولا غنمًا أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلًا حتى تسقط منها طائفة هالكة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم، فلما مر النبي ﷺ أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيدًا وأخال أنك سيد معيون

فعصم الله نبيه ﷺ ونزلت: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾

وذكر نحوه الماوردي. وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحدًا - يعني في نفسه وماله- تجوع ثلاثة أيام، ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه، ولا أشجع، ولا أكثر منه، ولا أحسن! فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله، فأنزل الله تعالى هذه الآية. (١)

الوجه الثالث: ماذا يفعل المعيون عند إصابته بالعين؟

١ـ الوضوء: أَمَّا مَا يَتَعَلَّق بِعِلْمِ الْفِقْه فَإِنَّ الشَّرْع وَرَدَ بِالْوُضُوءِ لِهَذَا الْأَمْر فِي حَدِيث سَهْل بْن حُنَيْف لَمَّا أُصِيب بِالْعَيْنِ عِنْد اِغْتِسَاله فَأَمَرَ النَّبِيّ ﷺ عَائِنه أَنْ يَتَوَضَّأ.

وَصِفَة وُضُوء الْعَائِن عِنْد الْعُلَمَاء: أَنْ يُؤْتَى بِقَدَحِ مَاء، وَلَا يُوضَع الْقَدَح فِي الْأَرْض، فَيَأْخُذ مِنْهُ غَرْفَة فَيَتَمَضْمَض بِهَا، ثُمَّ يَمُجّهَا فِي الْقَدَح، ثُمَّ يَأْخُذ مِنْهُ مَاء يَغْسِل وَجْهه، ثُمَّ يَأْخُذ بِشِمَالِهِ مَاء يَغْسِل بِهِ كَفّه الْيُمْنَى، ثُمَّ بِيَمِينِهِ مَاء يَغْسِل بِهِ مِرْفَقه الْأَيْسَر، وَلَا يَغْسِل مَا بَيْن الْمِرْفَقَيْنِ وَالْكَعْبَيْنِ، ثُمَّ يَغْسِل قَدَمه الْيُمْنَى، ثُمَّ الْيُسْرَى عَلَى الصِّفَة الْمُتَقَدِّمَة، وَكُلّ ذَلِكَ فِي الْقَدَح، ثُمَّ دَاخِلَة إِزَاره، وَهُوَ الطَّرَف الْمُتَدَلِّي الَّذِي يَلِي حِقْوه الْأَيْمَن. (٢)

٢ـ الرقية: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: " اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ ". (٣)

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٢٢.
(٢) شرح النووي١٤/ ١٧٢.
(٣) البخاري (٥٢٩٨).

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَأْمُرُهَا أَنْ تَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ. (١)

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: رَخَّصَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الرُّقْيَةِ مِنْ الْعَيْنِ، وَالْحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ. (٢)

٣ـ القرآن والأذكار:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ بَعْضَهُمْ يَمْسَحُهُ بِيَمِينِهِ "أَذْهِبْ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا ". (٣)

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ الله ﷺ رَقَاهُ جِبْرِيلُ قَالَ: " بِاسْمِ الله يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ وَشَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ". (٤)

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ يَقُولُ: " أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ، وَيَقُولُ هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ إِسْحَقَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهم السلام. (٥)

الوجه الرابع: العين والحسد في الكتاب المقدس.

ورد في رسالة تيطس (٣/ ٣): لأَنَّنَا كُنَّا نَحْنُ أَيْضًا قَبْلًا أَغْبِيَاءَ، غَيْرَ طَائِعِينَ، ضَالِّينَ، مُسْتَعْبَدِينَ لِشَهَوَاتٍ وَلَذَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، عَائِشِينَ فِي الْخُبْثِ وَالْحَسَدِ، مَمْقُوتِينَ، مُبْغِضِينَ بَعْضُنَا بَعْضًا.

وفي (التثنية ١٨: ٩-١٣): وَلا مَنْ يَرْقِي رُقْيَةً وَلا مَنْ يَسْأَلُ جَانًّا أَوْ تَابِعَةً وَلا مَنْ يَسْتَشِيرُ الْمَوْتَى؛ لأَنَّ كُل مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ الرَّبِّ. وَبِسَبَبِ هَذِهِ الأَرْجَاسِ الرَّبُّ إِلهُكَ طَارِدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ.

* * *

(١) مسلم (٢١٩٥).

(٢) مسلم (٢١٩٦).

(٣) البخاري (٥٣٠٩).

(٤) مسلم (٢١٥٨).

(٥) الترمذي (٢٠٦٠).

١١ـ شبهة: سجود الشمس تحت العرش.

نص الشبهة:

سجود الشمس تحت العرش عند كل غروب، كيف ذلك؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: نص الحديث.

الوجه الثاني: أن هذا نوع من أنواع العبودية التي ذكرها العلماء وهي عبودية الكائنات.

الوجه الثالث: قدرة الله ﷻ فوق كل شيء.

الوجه الرابع: عدم العلم ليس دليلًا على العدم.

الوجه الخامس: ليس معنى سجودها في الغروب الغروب.

الوجه السادس: معنى السجود.

الوجه السابع: وقيل المقصود بالسجود أن الشمس إنما تسجد مرة واحدة وذلك عند محاذاتها لباطن عرش الرحمن.

الوجه الثامن: أن الشمس لها سجدتان.

الوجه التاسع: فائدة علمية.

الوجه العاشر: وقيل المقصود بالسجود سجود الظل.

الوجه الحادي عشر: لم يثبت حد لمدة وقوفها عند السجود.

الوجه الثاني عشر: لا يلزم أن يكون سجودها كسجود الآدميين.

الوجه الثالث عشر: الجهل بحقيقة الشمس.

الوجه الرابع عشر: الجهل بكنه العرش.

الوجه الخامس عشر: أن الشمس تعتبر ساجدة في كل مكان.

الوجه السادس عشر: الرد على النصارى بما عندهم.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: نص الحديث.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ: " يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟ قَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ عِنْدَ رَبِّهَا، فَتَسْتَأْذِنُ فِي الرُّجُوعِ فَيُؤْذَنُ لَهَا، فَيُوشِكُ أَنْ تَسْتَأْذِنَ فَلا يُؤْذَنُ لَهَا، حَتَّى تَسْتَشْفِعَ وَتَطْلُبَ، فَإِذَا طَالَ عَلَيْهَا قِيلَ لَهَا: اطْلُعِي مِنْ مَكَانِكِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

وفي لفظ آخر عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال يومًا: "أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ". قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "إِنَّ هَذِهِ تَجْرِى حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ؛ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ؛ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا؛ ثُمَّ تَجْرِى؛ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ؛ حَتَّى يُقَالَ لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ؛ فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا؛ ثُمَّ تَجْرِى لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا؛ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ؛ فَيُقَالُ لَهَا ارْتَفِعِي؛ أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ؛ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ذَاكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا "(١).

الوجه الثاني: أن هذا نوع من أنواع العبودية التي ذكرها العلماء وهي عبودية الكائنات.

فالله سبحانه وتعالى قد خلق جميع الكائنات؛ إنسها، وجنها، وملائكتها، وحيوانها، وجمادها، ونباتها، وغيرها من الكائنات لعبادته-سبحانه وتعالى-وفطرها على توحيده، والاعتراف بإلوهيته، والإقرار بفقرها وحاجتها وخضوعها وصمودها له ﷻ.

فكل هذه الكائنات تقوم بعبادة الله ﷻ، ولا يُخِلُّ بذلك إلا الإنسان المعاند الزائغ عن شرع الله -سبحانه وتعالى- المخالف لنظام هذا الكون المحكم البديع؛ الذي ما قام إلا على

(١) البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩) واللفظ له.

عبودية الله، هذا وتختلف العبوديات من مخلوق إلى مخلوق قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (النحل: ٤٩).

قال ابن جرير: يقول الله تعالى ذكره: ولله يخضع ويستسلم لأمره ما في السموات وما في الأرض من دابة تدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة[١].

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه؛ الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة. وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (الحج: ١٨)[٢].

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ فإنه يسجد لعظمته كل شيء؛ طوعًا وكرهًا، وسجود كل شيء مما يختص به، وقال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٤٤)[٣].

وقال: يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره[٤].

وقال السعدي: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ من حيوان ناطق، وغير ناطق، ومن أشجار، ونبات، وجامد، وحيٍ وميت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ بلسان الحال ولسان المقال، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات، التي على غير لغتكم،

(١) تفسير الطبري (٧/ ٥٩٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٠).

بل يحيط بها علام الغيوب. وعن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر ﷺ قال: قال النبي ﷺ: " لأبي ذر حين غربت الشمس: " أتدري أين تذهب"؟!) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش؛ فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها؛ وتستأذن فلا يؤذن لها؛ يقال لها: ارجعي من حيث جئتِ، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يس: ٣٨)[١].

قال ابن تيمية: فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستئذانها، وكذلك قال أبو العالية وغيره، قال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا ويقع ساجدًا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه، ومعلوم أن الشمس لا تزال في الفلك كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٣٣)، فهي لا تزال في الفلك، وهي تسجد لله وتستأذنه كل ليلة كما أخبر النبي ﷺ، فهي تسجد سجودًا يناسبها، وتخضع له وتخشع كما يخضع ويخشع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس.

وعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: " غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولما يبن، ولا آخر قد بني بنيانًا ولما يرفع سقُفها، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفات وهو منتظر ولادها، قال: فغزا، فأَدْنى للقرية حين صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبِسْها علي شيئًا، فحبست عليه حتى فتح الله عليه "[٢].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[٣]).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٨٣).

(٢) مسلم (١٧٤٧).

(٣) البخاري (٣٥٧٩)، جامع الرسائل الأولى (ص٣٧).

وكذلك قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ (الدخان: ٢٩)، بكاء كل شيء بحسبه؛ قد يكون خشية لله؛ وقد يكون حزنا على فراق المؤمن، روى ابن أبي حاتم عن ابن وهب، أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: قال عمرو يعني ابن دينار: إني ليلة أطوف بالبيت إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة، وبكاءه وتضرعه فوقفت لأعرفه فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك؛ حتى كاد يسفر فانكشف الستور عنه؛ فإذا هو طاووس- رحمه الله -، فقال: من هذا عمرو؟ قلت: نعم أمتع الله بك، قال: متى وقفت هاهنا؟ قال قلت: منذ طويل، قال: ما أوقفك قلت: سمعت بكاءك، فقال: أعجبك بكائي؟ قلت: نعم، قال: وطلع القمر في حرف أبي قبيس، قال: ورب هذه البنية إن هذا القمر ليبكي من خشية الله، ولا ذنب له، ولا يُسأل عما عمل، ولا يُجازى به فعجبت أن بكيت من خشية الله، وأنا صاحب الذنوب، وهذا القمر يبكي من خشية الله، وقرأ ابن زيد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾(الحج: ١٨).

قال: فلم يستثن من هؤلاء أحدًا؛ حتى جاء ابن آدم استثناه فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ (الحج: ١٨)، قال والذي كان هو أحق بالشكر؛ هو أكفرهم ثم قرأ ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(فاطر ٢٧: ٢٨)، قال وكذلك اختلفوا في دينهم كما اختلف الأولون، ولفظ السجود يستعمل في اللغة: لخضوع الجامدات وغيرها كالبيت المعروف:

بجيش تضل البلق في حجراته ... ترى الأكم فيه سجدًا للحوافر

قال ابن قتيبة: حجراته: جوانبه، يريد أن حوافر الخيل قد بلغت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت، قال ابن عطية: في قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ (النحل: ٤٨)، وقالت فرقة منهم الطبري عبر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها بالسجود

كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض على وجه الخضوع ساجد ومنه قول الشاعر:

وكلتاهما خرت وأسجد رأسها كما سجدت نصرانة لم تحنف

وإذا كان كذلك الله سبحانه ذكر في الرعد قوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ (الرعد: ١٥)، فعم في هذه الآية ولم يستثن وقسم السجود إلى طوع وكره وقال في الحج: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾(الحج: ١٨).

وفي هذا الكثير قولان أحدهما: أنه لم يسجد فلهذا حق عليه العذاب كما تقدم عن طاووس، وهو قول الفراء وغيره.

والثاني: أنه سجد وحق عليه العذاب؛ فإنه ليس هو السجود المأمور به. قال أبو الفرج: وفي قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ قولان: أحدهما أنهم الكفار وهم يسجدون وسجودهم سجود ظلهم قاله مقاتل.

والثاني: أنهم لا يسجدون، والمعنى وكثير من الناس أبى السجود ويحق عليه العذاب لتركه السجود هذا قول الفراء.

قلت: هذا قول الأكثرين، وقد ذكر البغوي في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، قال: قال مجاهد سجودها تحول ظلالها وقال أبو العالية ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدًا حين يغيب؛ ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه، قال: وقيل سجودها بمعنى الطاعة؛ فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله، خاشع له مسبح له، كما أخبر الله ﷻ عن السماوات والأرض ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١)، وقال في وصف الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(البقرة: ٧٤)، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤). قال: وهذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة، قلت: قد تقدم قول الطبري

وغيره بهذا القول؛ فإذا كان السجود في هذه الآية ليس عامًا وهو هناك عام؛ كان السجود المطلق هو سجود الطوع؛ فهذه المذكورات تسجد تطوعًا هي وكثير من الناس، والكثير الذي حق عليه العذاب إنما يسجد كرهًا، وحينئذ فالكثير الذي حق عليه العذاب لم يقل فيه إنه يسجد، ولا نفى عنه كل سجود، بل تخصيص من سواه بالذكر؛ يدل على أنه ليس مثله؛ وحينئذ فإذا لم يسجد طائعًا حصل فائدة التخصيص، وهو مع ذلك يسجد كارهًا فكلا القولين صحيح. وكذلك قال طائفة من المفسرين واللفظ للبغوي قالوا: وكثير حق عليه العذاب بكفرهم وتركهم السجود؛ وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله تعالى وقال في سورة النحل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (النحل ٤٨: ٥٠).

قال: فلفظ دابة إن لم يتناول بني آدم فالإبل تسجد طوعًا، وإن تناول بني آدم فسجودهم طوعًا وكرهًا، والذين فسروا السجود بالخضوع والانقياد؛ لهم في سجودها قولان، أحدهما: أنه كونها مصنوعة مخلوقة منقادة لمشيئة الله واختياره كما قالوا في تسبيحها مثل ذلك وأنه شهادتها ودلالتها على الخالق. قال أبو الفرج في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الرعد: ١٥)، الساجدون على ضربين أحدهما: من يعقل فسجوده عبادة والثاني: من لا يعقل فسجوده بيان أثر الصنعة فيه والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق هذا قول جماعة من العلماء واحتجوا بالبيت المتقدم: ترى الأكم فيه سجدا للحوافر.

قال: وأما الشمس والقمر والكواكب فألحقها جماعة بمن يعقل قال أبو العالية سجودها حقيقة ما منها غارب إلا خر ساجدًا بين يدي الله ﷻ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، قال: ويشهد لقول أبي العالية حديث أبي ذر وذكره، قال: وأما النبات والشجر فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء: أحدها: أن يكون سجودًا لا نعلمه، وهذا إذا قلنا بردعه فيهما، والثاني: أنه تفيؤ ظلاله، والثالث: بيان الصنعة فيه، والرابع: الانقياد لما سخر له.

قلت: الثالث والرابع من نمط واحد وهو كالمتقدم وأما السجود الذي لا نعلمه فهو كما ذكره البغوي، وقال البغوي أيضًا في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٤) فإن قيل الحجر لا يفهم فكيف يخشى؟ قيل الله يفهمها ويلهمها فتخشى بإلهامه، قال: ومذهب أهل السنة أن لله علمًا في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره، ولها صلاة وتسبيح وخشية، كما قال ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ﴾، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى، وذكر الحديث الصحيح عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال: " إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث وإني لأعرفه الآن "[١]، وذكر حديث حنين الجذع وطرقه صحاح مشهورة، ورُوي عن السدي، عن أبي عباد بن أبي يزيد، عن علي رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في نواحيها خارجًا من مكة بين الجبال والشجر، فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله[٢]، وقال: قال مجاهد لا ينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله، ويشهد لما قلنا قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١).

قلت: وأما تفسير سجودها وتسبيحها، بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيها؛ ودلالتها على الصانع فقط، فالاقتصار على هذا باطل؛ فإن هذا وصف لازم دائم لها، لا يكون في وقت دون وقت، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى؛ وعلى هذا فالمخلوقات كلها لا تزال ساجدة مسبحة؛ وليس المراد هذا فإنه قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ (ص: ١٨)، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةًۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ١٩)، وقال: ﴿قَدْ عَلِمَ

(١) مسلم (٢٢٧٧).

(٢) المستدرك للحاكم (٤٢٣٨).

صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ (النور: ٤١)، فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه؛ أنه يعلم ذلك ودلالتها على الرب يعلمه عموم الناس، وأيضًا فقد أخبر الله تعالى في القرآن من كلام الهدهد والنمل وأن سليمان علم منطق الطير؛ بما يدل على الاختصاص، وهذا في الحيوان؛ وأيضًا فإنه جعل الجميع يسجد، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ (الحج: ١٨)، وهذا المعنى يشترك فيه جميع المخلوقات دائمًا؛ وهو وصف لازم لكل مخلوق لا يزال مفتقرًا إلى الخالق، ولا يزال دالًا عليه، ولا يزال منقادًا لما يشاء الرب، وأيضًا فإنه قسم السجود إلى طوع وكره، وانفعالها لمشيئة الرب وقدرته، لا ينقسم إلى طوع وكره، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره؛ فإن دليل فعل الرب فيها ليس هو فعل منها البتة.

والقرآن يدل على أن السجود والتسبيح أفعال لهذه المخلوقات، وكون الرب خالقًا لها إنما هو كونها مخلوقة للرب، ليس فيه نسبة أمر إليها يبين ذلك أنه خص الظل بالسجود بالغدو والآصال والظل، متى كان، وحيث كان، مخلوق مربوب، والله تعالى جعل الظلمات والنور، والقول الذي ذكره البغوي أقرب من القول الذي ذكره أبو الفرج؛ وهو سبحانه تارة يجعلها آيات له، وتارة يجعلها ساجدة مسبحة وهذا نوع غير هذا. وعلى هذا القول الجميع واحد ليس في كونها ساجدة مسبحة، إلا كونها آية دالة وشاهدة للخالق تعالى بصفاته، لكونها مفعولة له، وهذا معنى ثابت في المخلوقات كلها لازم لها وهي آيات للرب بهذا الاعتبار، وهي شواهد ودلائل وآيات بهذا الاعتبار، لكن ذاك معنى آخر كما يفرق بين كون الإنسان مخلوقًا وبين كونه عابدًا لله؛ فهذا غير هذا، هذا يتعلق بربوبية الرب له، وهذا يتعلق بتألهه وعبادته للرب، والبيت الذي استشهدوا به وهو قوله:

ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

فإنما ذكر سجود الأكم للحوافر، وذلك خضوعها وانخفاضها لها؛ فهذا خضوع جماد لجماد، ولا يلزم أن يكون سائر أنواع الخضوع مثل هذا، وإنما يشترك في نوع الخضوع وليس خضوع المخلوقات للخالق مثل هذا؛ وإن قيل هو انفعالها لمشيئته وقدرته؛ بل ذاك

نوع أبلغ من هذا؛ فلا يجب أن يكون سجودها بغير خضوع منها وطاعة؛ ولكن هذا البيت يقتضي أنه لا يجب أن يكون سجود كل شيء وضع رأسه بالأرض، وهذا حق بل هو خضوع للرب يناسب حاله؛ وقد قيل لسهل بن عبد الله أيسجد القلب؟ قال: نعم، سجدة لا يرفع رأسه منها أبدًا، وأهل الجنة في الجنة قد أُلهموا التسبيح كما أُلهموا النفس في الدنيا، وكما يُلهم أهل الدنيا النفس وهم خاضعون للرب، مطيعون له، وليس هناك سجود بوضع رأس في الأرض، فهذا أمر به في الدنيا لحاجة النفس إليه في خضوعها لله تعالى؛ فلا تكون خاضعة إلا به بخلاف حالها في الجنة؛ فإنها قد زكت وصلحت(١).

الوجه الثالث: قدرة الله ﷻ فوق كل شيء.

أ - قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (الحج: ١٨).

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (النحل: ٤٨/ ٥٠).

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء بأسرها، جماداتها، وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة؛ فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا؛ فإنه ساجد بظله لله تعالى(٢).

لاحظ قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ.. ﴾ أي أنهم يسجدون سجودًا حقيقيًا نحن نراه، ويستشهدنا الخالق العظيم عليه. . كيف؟ الجواب: إنه سجودٌ نؤمن به، ولا يعلم حقيقته

(١) رسالة في قنوت الأشياء لابن تيمية (٣٩-٤٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٢).

إلا الله الذي أعلَمَنا به؛ فليَسع الحديثَ ودلالتَه ما يسع هذه الآيةَ الجليلة. ومَن لم يستطع قبولَ الحديثِ؛ فليفسِّر لنا ماهية سجود الشمس و الشجر و الجبال الوارد في الآية.

ولن يسعفه في الحالتين سوى التسليمُ والإيمان، فقد دل القرآن على مثل ما دل عليه حديث أبي ذر من سجود الشمس؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ كما دلت الآية على أن سجود هذه المخلوقات غير دلالتها بلسان الحال وصورة الحال على ربوبيته تعالى؛ إذ لو كان سجودها هو دلالتها على الخالق سبحانه، أو تسخيرها وانقيادها للقدرة؛ لما خص ذلك بكثير من الناس ونفاه عن كثير- وهم الذين حق عليهم العذاب - فإن الدلالة على الخالق سبحانه والانقياد لقدرته حاصلتان في جميع الناس وجميع المخلوقات؛ فالواجب إثبات سجود الشمس وما ذُكر معها في الآية، وأنه سجود حقيقي يناسب هذه المخلوقات، ولا يعلم العباد كيفيته؛ فإنكاره رد لما أخبر الله به ورسوله، وصرفه عن ظاهره لا موجب له، ولا دليل عليه، فإن هذه المخلوقات لها شعور بالعبودية لله تعالى، تسبح وتسجد وتؤوب وتخشى كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

قال القاضي عياض: وهو على ظاهره عند أهل الفقه والحديث والمتكلمين من أهل السنة، خلافًا لمن تأوله من المبتدعة والباطنية، وهو أحد أشراط الساعة العظام المنتظرة.[2]

وَذَكَرَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أَنَّ

(١) تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري (١/ ٢٩).

(٢) إكمال المعلم (٣/ ٧٠٠).

أَصْحَابَ الْمَعَانِي من أَهْلَ التَّفْسِيرِ قَالُوا فِيهِ قَوْلَيْنِ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ أَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، أَيْ: لأَجَلٍ لَهَا، وَقَدَرٍ قُدِّرَ لَهَا، يَعْنِي انْقِطَاعَ مُدَّةِ بَقَاءِ الْعَالَمِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مُسْتَقَرُّهَا غَايَةٌ إِلَيْهِ فِي صُعُودِهَا وَارْتِفَاعِهَا لأَطْوَلِ يَوْمٍ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِي النُّزُولِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الشِّتَاءِ، لأَقْصَرِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ؛ وَأَمَّا قَوْلُهُ: " مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ مِنْ حَيْثِ لا نُدْرِكُهُ وَلا نُشَاهِدُهُ "، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ غَيْبٍ فَلا نُكَذِّبُ بِهِ، وَلا نُكَيِّفُهُ؛ لأَنَّ عِلْمَنَا لا يُحِيطُ بِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَ عِلمَ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فِي كِتَابٍ، كُتِبَ فِيهِ مَبَادِئُ أُمُورِ الْعَالَمِ وَنِهَايَاتُهَا، وَالْوَقْتُ الَّذِي تَنْتَهِي إِلَيْهِ مُدَّتُهَا، فَيَنْقَطِعُ دَوَرَانُ الشَّمْسِ، وَتَسْتَقِرُّ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَبْطُلُ فِعْلُهَا، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، الَّذِي بُيِّنَ فِيهِ أَحْوَالُ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ وَآجَالُهُمْ وَمَآلُ أُمُورِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثَ الأَوَّلَ: إِخْبَارٌ عَنْ سجُودِ الشَّمْسِ تَحْتَ الْعَرْشِ؛ فَلا يُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِنْدَ مُحَاذَاتِهَا الْعَرْشَ فِي مَسِيرِهَا، وَالْخَبَرُ عَنْ سُجُودِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِلَّهِ ﷻ قَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ، وَلَيْسَ فِي سُجُودِهَا لِرَبِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ مَا يَعُوقُهَا عَنِ الدَّأْبِ فِي سَيْرِهَا، وَالتَّصَرُّفِ لِمَا سُخِّرَتْ لَهُ قَالَ: فَأَمَّا قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُخَالِفٍ لِمَا جَاءَ فِي هَذَا الْخَبَرِ، مِنْ أَنَّ الشَّمْسَ تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ؛ لأَنَّ الْمَذْكُورَ فِي الآيَةِ إِنَّمَا هُوَ نِهَايَةُ مُدْرِكِ الْبَصَرِ إِيَّاهَا حَالَ الْغُرُوبِ، وَمَصِيرُهَا تَحْتَ الْعَرْشِ لِلسُّجُودِ إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ غُرُوبِهَا، فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْخَبَرِ، فَلَيْسَ بَيْنَهُمَا تَعَارُضٌ وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، أَنَّهَا تَسْقُطُ فِي تِلْكَ الْعَيْنِ فَتَغْمُرُهَا، وَإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنِ الْغَايَةِ الَّتِي بَلَغَهَا ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي مَسِيرِهِ؛ حَتَّى لَمْ يَجِدْ وَرَاءَهَا مَسْلَكًا، فَوَجَدَ الشَّمْسَ تَتَدَلَّى عِنْدَ غُرُوبِهَا فَوْقَ هَذِهِ الْعَيْنِ، أَوْ عَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْعَيْنِ، وَكَذَلِكَ يَتَرَاءَى غُرُوبُ الشَّمْسِ لِمَنْ كَانَ فِي الْبَحْرِ وَهُوَ لا يَرَى السَّاحِلَ، يَرَى الشَّمْسَ كَأَنَّهَا تَغِيبُ فِي الْبَحْرِ، وَإِنْ

كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ تَغِيبُ وَرَاءَ الْبَحْرِ، وَفِي هَاهُنَا بِمَعْنَى فَوْقَ، أَوْ بِمَعْنَى عَلَى، وَحُرُوفُ الصِّفَاتِ تُبَدَّلُ بَعْضُهَا مَكَانَ بَعْضٍ. (١)

وقال الإمام النووي: وأما سجود الشمس فهو بتمييز وإدراك يخلقه الله تعالى. (٢)

قال الحافظ ابن حجر:

وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبر عنه بالجري - والله أعلم(٣).

الوجه الرابع: عدم العلم ليس دليلًا على العدم.

وهي قاعدة مشهورة، وأكثر عمل الجهال على خلافها

قال الغزالي: إن جريان الشمس من أسرتها المعروفة في فضاء الله الواسع مقرر فلكيًا، لم ينكره أحد قط، أن دوران الأرض حول الشمس لا يعنى أن الشمس ثابتة، وقوله تعالى: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ لا يعنى أن الشمس تغطس في الماء يوميًا ثم تخرج! ! لم يدركوا ما يعرفه الأطفال عندنا أن اختفاء قرص الشمس في الماء؛ إنما هو في عين الرائي لا في حقيقة الأمر.

أما أن الشمس تسجد لربها؛ فإن الجماد والنبات والحيوان والكائنات جمعاء خاضعة لله، تسبح بحمده، وتهتف بمجده، وتلبى أمره، وهى طوع مشيئته ويوم لا يأذن للشمس في الشروق، وينهى أمر الدنيا، ويفتح يوم الحساب، فمن الذي يعصيه؟ ويظهر أن المساكين فهموا من سجود الشمس أنها تصلى ركعتين كسائر البشر! ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾(٤).

---

(١) انظر : كلامه في الأسماء والصفات (٢/ ٢٧٠-٢٧٥)، شرح السنة للبغوي (١٣/ ٩٥)

(٢) شرح النووي (٢/ ١٩٧).

(٣) فتح الباري (٨/ ٤٠٣).

(٤) قذائف الحق لمحمد الغزالي (ص ٣٥).

الوجه الخامس: ليس معنى سجودها في الغروب الغروب.

فلم يلزم غيبوبة الشمس عن الأرض كلها، ولا استقرارها عن الحركة كل يوم بذاك الموضع الذي كتب عليها أن تستقر فيه متى شاء ربها سبحانه[١]، فالذي يظهر أن معنى «الغروب» قد التبس على قوم فظنوا أن المراد بقوله ﷺ " أتدري أين تغرب " هو التواري التام عن نظر جميع أهل الأرض، وأن هذا من لوازم السجود المذكور، ولفظ الحديث لا يومئ إلى هذا؛ ولا يدل عليه فضلًا عن أن يكون من لوازم لفظ الغروب.

والحق أن المراد بالغروب الذهاب لا الغياب التام؛ كما فسرته لفظة الرواية الأخرى، وهو قوله ﷺ: " أتدري أين تذهب " وهذا معنى صحيح من حيث اللغة وهو مستعمل عند العرب، قال ابن منظور: غرب القوم غربًا (أي) ذهبوا، كما أن باقي الحديث في روايات فيه " إنها تذهب. . . "[٢].

وفائدة لفظة الذهاب أنها تتضمن معنى الحركة، فما من ذاهب إلا وهو متحرك، صحيح أن الشمس «تغرب» عن نظر قوم ولكن هذا بالنسبة إليهم ولذلك يجب التفريق بين حقيقة «الغروب» ومجرد «رأي العين»، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وهذا صحيح برأي البصر ولذلك نسب المرئي إلى من يراه فقال ﴿وَجَدَهَا﴾[٣].

قال الإمام القرطبي: قال القفال: قال بعض العلماء: ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربًا ومشرقًا وصل إلى جرمها ومسها؛ لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء

(١) الأنوار الكاشفة للمعلمي (٢٠٧).

(٢) لسان العرب (مادة غرب (١/ ٦٧٣).

(٣) رفع اللبس عن حديث غروب الشمس

كأنها تدخل في الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾، ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم.

وقال القتبي: ويجوز أن تكون هذه العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه، والله أعلم(١).

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه. اهـ(٢).

قلت: ومثله قول الناس «غابت الشمس في الأفق» مع أنها لا تغيب في الأفق حقيقة؛ وإنما تتوارى عنا من وراء الأفق لا فيه؛ لأن الشمس أكبر من الأرض بمئات المرات. فكيف تغيب في أفق الأرض الصغير جدًّا؟ كما أنها خارج محيط الأرض بل تبعد عنها آلاف الكيلومترات فكيف تغيب في الأفق؟ ومع ذلك نقول غابت في الأفق من باب التجوز لا على وجه الحقيقة.

فالخلاصة أن المراد بلفظ «الغروب» في الحديث الذهاب والسير والجريان، كما هو مفسر في الرواية الأخرى وكما هو مستعمل في لغة العرب وكما جاء في قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، فالغروب في حقيقته ليس إلا جريان الشمس، وليس للشمس مغرب حقيقي ثابت، قال الإمام ابن عاشور -رحمه الله: والمراد بـ﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ مكان مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق غزوته أو مملكته. وذلك حيث يلوح أنه لا أرض وراءه بحيث يبدو الأفق من جهة مستبحرة، إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح للتخيل.

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٤٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٨).

وقد بين ذلك ﷺ فقال: " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش" كما عند. ولم يقل ﷺ أنها «تغرب تحت العرش» أو يقل «حتى تغرب تحت العرش»، وهذا وهم توهمه بعض الناس الذين أُشكل عليهم معنى هذا الحديث؛ وهو مردود لأن ألفاظ الحديث ترده. فقوله: " تذهب " دلالة على الجريان؛ لا دلالة على مكان الغروب؛ لأن الشمس لا تغرب في موقع حسي معين؛ وإنها تغرب في جهة معينة؛ وهي ما اصطلح عليه الناس باسم الغرب. والغروب في اللغة: التواري والذهاب كما ذكره ابن منظور وغيره، يقال غرب الشيء أي توارى وذهب، وتقول العرب أغرب فلان أي أبعد وذهب بعيدًا عن المقصود. إذا تقرر هذا أتضح معنى؛ آخر وهو: أن الشمس لا تسجد تحت العرش عند كل غروب تغربه عن أنظار كل بلد؛ فإن هذا هو اللبس الذي ينشأ عند من فهم أن الشمس تسجد عند كل غروب يراه أهل كل قطر، ولو كان الأمر كذلك لكانت ساجدة على الدوام ولا استنكر أهل الأرض ذلك، ولذلك جاءت فائدة الاحتراز من هذا الاحتمال في رواية مسلم " ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا"[(١)(٢)].

الوجه السادس: معنى السجود.

فقولهم قد سَجَدَ الرجلُ معناه: قد انحنى وتطامن ومال إلى الأرض من قول العرب قد سجدت الدابة وأسجدت إذا خفضت رأسها لتركب قال الشاعر:

وكِلتاهُما خَرَّتْ وأَسْجَدَ رأسُها كما سَجَدَتْ نصرانَةٌ تَحَنَّفِ

ويقال قد سجدت النخلة إذا مالت، ونخلة ساجدة ونخل سواجِد، ومن ذلك قول الله ﷻ ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ (الرحمن: ٦)، قال الفراء: معناه يستقبلان الشمس ويميلان معها حتى ينكسر الفيء، ويكون السجود على جهة الخشوع والتواضع والتذلل لله كقوله ﷻ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

---

(١) مسلم (١٥٩).

(٢) رفع اللبس عن حديث سجود الشمس د. عبد الله النهري.

﴿وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ (الحج: ١٨) فسجود الشمس والقمر والنجوم والجبال على جهة التواضع والتذلل لخالقها ﷻ قال الشاعر:

ساجدَ المنخر لا يرفعُهُ   خاشعَ الطرفِ أَصمَّ المُسْتَمَعْ

أراد خاضعًا ذليلًا، وقال الآخر:

بجمْعٍ تَضِلُّ البُلْقَ في حَجَراتِهِ   ترى الأُكْمَ منها سجدًّا للحوافِرِ

أراد خاشعة ذليلة ويكون السجود على معنى التحية كقول الشاعر:

وبنيتُ عَرْصَةَ منزلٍ برباوة   بينَ النخيلِ إلى بقيعِ الغَرْقدِ

قد كانَ ذو القرنينِ جدِّيَ مُسْلِمًا   ملكًا تدينُ له الملوكُ وتسجدُ

ينظر الأضداد أضداد الأصمعي أراد تحييه؛ وذلك أنهم كانوا في ذلك الزمان إذا أراد الرجل منهم أن يحيي أخاه ويعظمه سجد له؛ فكان السجود لهم في ذلك الزمان بمنزلة المصافحة لنا اليوم من ذلك قول الله: ﷻ ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدهن: أن تكون الهاء تعود على الله تعالى، فهذا القول لا نظر فيه؛ لأن المعنى خروا لله سجدًّا وقال آخرون الهاء تعود على يوسف ومعنى السجود التحية؛ كأنه قال وخروا ليوسف عليه السلام سجدًّا سجود تحية؛ لا سجود عبادة، قال أبو بكر: سمعت أبا العباس يؤيد هذا القول ويختاره وقال الأخفش معنى الخرور في هذه الآية المرور قال وليس معناه الوقوع والسقوط[1].

الوجه السابع: وقيل المقصود بالسجود أن الشمس إنما تسجد مرة واحدة وذلك عند محاذاتها لباطن عرش الرحمن.

قال ابن حجر: وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار؛ وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها؛ ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبر عنه بالجري. والله أعلم.

قلت: وقول الحافظ «كل يوم وليلة» أي كل أربع وعشرين ساعة؛ وهي فترة دوران

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٤٦).

الشمس حول الأرض دورة كاملة، أو على قول من يؤول الأدلة ويرى ثبات الشمس: فترة دوران الأرض حول نفسها دورة كاملة؛ ولذلك قال الإمام الخطابي -كما نقله الحافظ في الفتح - رحمه الله: يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش أنها تستقر تحته استقرارًا لا نحيط به نحن. . . وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق عن دورانها في سيرها. وعند محاذاتها لباطن العرش؛ فإنها تكون عندئذٍ مقابل سمت أو حد من الأرض يحدث عند مواجهته السجود المذكور؛ ولكن هذا السمت أو الحد أو المنتهى. [1]

وقال الحافظ في الفتح في شأن المحاذاة التحتية:

وأما قوله: «تحت العرش» فقيل هو حين محاذاتها، ولا يخالف هذا قوله:

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ فإن المراد بها نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب.

وقال الطيبي كما نقله صاحب تحفة الأحوذي بشأن حقيقة الاستقرار: وأما قوله مستقرها تحت العرش؛ فلا يُنكَر أن يكون لها استقرار تحت العرش، من حيث لا ندركه ولا نشاهده؛ وإنما أخبر عن غيب فلا نكذبه ولا نكيفه؛ لأن علمنا لا يحيط به، وهذا السمت أو الحد أو المنتهى المعبر عنه في الحديث بحرف «حتى» للدلالة على الغاية والحد فهو كالسمت، ولا أقول هو السمت الذي في الحديث الذي نصبه الجغرافيون على الخارطة الأرضية، ويسمونه خط الطول الممتد من أقصى شمال الأرض إلى أقصى جنوبها؛ فإذا حاذت الشمس هذا السمت الذي هو منتهى سيرها اليومي، مع محاذاتها في ذات الوقت لمركز باطن العرش؛ فإنها تسجد سجودًا على الكيفية التي لا يلزم منها أن توافق صفة سجود الآدميين، وعلى هيئة لا تستلزم استنكار الناس من أمرها شيئًا كما جاء في الحديث: " ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا "[2].

(١) فتح الباري (٨/ ٤٠٣).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٣٤).

فقد أجاب ابن كثير عن سجود الشمس تحت العرش بما حاصله: أن العرش قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس؛ فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش؛ فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون من العرش؛ فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع كما جاءت بذلك الأحاديث.

وهذا جواب من يصدق الفلكيين في ثبات الشمس في فلكها ودوران الفلك بها حول الأرض، وقد نقض ارتقاء علم الهيئة بالمناظير المقربة للأبعاد، هذا المذهب اليوناني، وأجمع علماء الفلك في هذا العصر على كروية الأرض ودورانها تحت الشمس الثابتة في مركزها؛ على أن قوله منقوض على ذلك المذهب أيضًا إذ لا خلاف عند أهله في كروية الأرض، وسكنى الناس على سطحها من كل جانب فلا يتجه القول بأن العرش فوق رءوس المقيمين في جانب منها دون آخر(١).

الوجه الثامن: أن الشمس لها سجدتان.

سجود عام مستديم وهو سجودها المذكور في آية النحل، والحج، مع سائر المخلوقات، وسجود خاص؛ يتحقق عند محاذاتها لباطن العرش؛ فتكون ساجدة تحته وهو المذكور في الحديث؛ وفي كلا الحالتين لا يلزم من سجودها أن يشابه سجود الآدميين لمجرد الاشتراك في لفظ الفعل الدال عليه، ومن أمثلة ذلك من واقعنا أن مشي الحيوان ليس كمشي الآدمي، وسباحة السمك والحوت ليست كسباحة الإنسان، وهكذا. مع إنهم يشتركون في مسمى الفعل وهما المشي والسباحة(٢).

الوجه التاسع: فائدة علمية

كما هو ثابت بالعقل من خلال علوم الفلك المعاصرة إذ أنها تدور حول نفسها

(١) مجلة المنار ـ المجلد [٣٢] الجزء [١٠] (٧٨٥) رمضان ١٤٣٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٣٤)

ويسمون ذلك التفافًا؛ وهو دوران الشيء حول نفسه وذلك في خلال سبعة وعشرين يومًا أرضيًا وتدور - مع المجموعة الشمسية - حول مركز المجرة اللبنية بسرعة تقترب من ٢٢٠ كيلومترا في الثانية. ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(١)].

الوجه العاشر: وقيل المقصود بالسجود سجود الظل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (الحج: ١٨)، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تر يا محمد بقلبك فتعلم أن الله يسجد له من في السماوات من الملائكة ومن في الأرض من الخلق من الجن وغيرهم والشمس والقمر والنجوم في السماء والجبال والشجر الدواب في الأرض وسجود ذلك ظلاله حين تطلع عليه الشمس و حين تزول إذا تحول ظل كل شيء فهو سجوده، فعن مجاهد قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ قال: ظلال هذا كله[(٢)]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾(النحل: ٤٨/ ٥٠)

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء ودانت له الأشياء بأسرها جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة؛ فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا؛ فإنه ساجد بظله لله تعالى. [(٣)]

---

(١) رفع اللبس عن حديث سجود الشمس.

(٢) تفسير الطبري (٩/ ١٢١)، والإسناد فيه مجهول وهو شيخ الطبري القاسم لا يُعرف كما قال الشيخ أحمد شاكر في التحقيق.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥).

ومن ذلك قول الله ﷻ ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ قال الفراء: معناه يستقبلان الشمس ويميلان معها حتى ينكسر الفيء ويكون السجود على جهة الخشوع والتواضع والتذلل لله ﷻ. (١)

الوجه الحادي عشر: لم يثبت حد لمدة وقوفها عند السجود.

كما أن هناك نكتة خفية على البعض؛ وهي أن مقدار وقوفها لم ينص عليه الحديث، أو يشر إليه الرسول ﷺ، ولذلك فلا يمنع أن يكون وقوفها للخرور والاستئذان؛ وكذلك السجود تنزلًا، حاصل في ثوانٍ أو أجزاء من الثانية؛ وهذه الثوان تضمحل في فرق الثمان دقائق الذي يفصل بيننا وبين الشمس؛ فلا يمكن ملاحظة فترة السجود حينئذٍ، هذا للشخص الملاحظ المتابع، فكيف بالبشرية المشغولة بضيعات الدنيا؟ وهذا صحيح شرعًا وعقلًا. فشرعًا: على افتراض أننا نشبه سجود الشمس بسجودنا؛ نجد أن الذي يسجد بتسبيحة واحدة قد صح منه السجود وأجزأه، كما لو سجد مصلٍ بأكثر من تسبيحة؛ والشاهد أن السجود وما يترتب عليه من خرور، ويتبعه من استئذان لا يلزم من ذلك كله مقدارًا معينًا من الوقت، نضعه من أذهاننا قياسًا على معتاد فعلنا؛ لأن الحديث أبهم وأطلق المقدار الزمني لهذه الأفعال؛ ولذلك فلا يمنع حدوثها في وقت قصير للغاية.

وعلى الذين يتوقعون من الشمس تطويلًا أو مقدارًا معينًا؛ أن يأتوا بالدليل المقيد لإطلاق الحديث، وترد حجتهم لمجرد أنهم قاسوا حال سجود الشمس على حال سجود الآدمي، هذه مسألة.

أما المسألة الثانية: فهي أنه لا يلزم من خرور الشمس؛ وذلك بالسفول والارتفاع كما في الحديث عند مسلم: " حتى يقال لها ارتفعي ارجعي من حيث جئت "(٢)، أقول لا يلزم من خرور الشمس أن تنزل نزولًا ملحوظ المقدار أو ترتفع ارتفاعًا ملحوظ المقدار كذلك؛ فالحديث أُطْلِق ولم يَذكر مقدار مسافة الخرور سفولًا، ولم يعين مقدار مسافة الارتفاع، عندما تقضي سجودها

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٤٦)

(٢) مسلم (١٥٩).

واستئذانها؛ كما أن الحديث كما ذكرناه لم يعين مقدار زمن سجودها، وكذا استئذانها. ولنضرب على ذلك مثلًا: أليس يصح السجود بالإيماء البسيط الذي لا يكاد يُرى من المريض الذي لا يستطيع الحراك؟ فهذا الذي يومئ بالسجود إيماء حتى ولو كان يسيرًا جدًّا يصح سجوده ويقع منه، فكيف إذا علمنا أن سجود الشمس بطبعه مختلف ويرد على صفته - أي سجود الشمس - من الممكنات والاحتمالات ما لا يرد ولا ينطبق على سجود الآدمي؟.

وعليه فالذين يتوقعون أو يتصورون من خرور الشمس واستئذانها مسافة معينة أو زمانًا مقدرًا؛ عليهم الدليل الذي بموجبه اختاروا هذا التقييد؛ ولا يصح منهم تصورهم الذي يُلْزِمُون به أنفسهم أو يُلْزِمُون به غيرهم بناء على القياس والمقارنة بين سجود الشمس وخرورها، وكذا سجود الآدمي وخروره. وبقي هنا فائدة لطيفة وهي أن الخرور قد يأتي بمعنى الركوع، وعلى هذا المعنى لا يلزم أن يكون النزول كاملًا ملحوظًا، كما لو كان في السجود الحقيقي الكامل، كما في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾(ص: ٢٤).

وقياسًا على هذا عموم هذا المعنى: لا قياسًا على فعل الآدمي، نقول أنه لا يلزم من خرور الشمس أن يكون خرورًا بالغ السفول بحيث يستنكر الناس منها ذلك، وقبل ذلك كله ذكرنا أن الحديث لم يبين مقدار مسافة السفول أو مقدار مسافة الارتفاع؛ فقد يقع منها الخرور والارتفاع بمقدار يسير لا يلحظه أحد، وذلك بسنتيمترات يسيرة مثلًا والحديث بإطلاقه لكيفية وصفة السجود لا يمنع من هذا الاحتمال[1].

الوجه الثاني عشر: لا يلزم أن يكون سجودها كسجود الآدميين.

كما أن سجودها متحقق بخضوعها لخالقها وانقيادها لأمره؛ وهذا هو السجود العام لكل شيء خلقه الله؛ كما في آية الحج السابقة؛ إذ كل شيء من خلق الله تعالى يسجد له ويسبح بحمده. قال تعالى في آية النحل: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ

(١) رفع اللبس عن حديث سجود الشمس.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: ٤٩) والشمس داخلة في دواب السماء؛ لأن معنى الدبيب السير والحركة، والشمس متحركة تجري لمستقر لها كما هو معلوم بنص القرآن[1].

الوجه الثالث عشر: الجهل بحقيقة الشمس.

فلو سألنا المعترض هل تيسرت لك آلات تستطيع بها رؤية الشمس والأقتراب منها ودراسة طبيعتها وجغرافيتها هذا ما لم يتوصل إليه أحد ولن يستطيع فلا معنى للاعتراض.

الوجه الرابع عشر: الجهل بكنه العرش.

قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، في غير ما آية من القرآن: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وفي دعاء الكرب المروي في الصحيح: " **لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم**"[2].

وفي صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن**"[3].

يروى وفوقه بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه، وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه: الفلك الأطلس، والفلك التاسع! وهذا ليس بصحيح؛ لأنه قد ثبت في

---

(١) رفع اللبس عن حديث سجود الشمس.

(٢) مسند أحمد (٤/ ٢٣٠).

(٣) البخاري (٢٧٩٠)

الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: "**فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**". (١)

والعرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ولها عرش عظيم. وليس هو فلكًا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات، فمن شعر أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرًا
بالناء العالي الذي بهر الناس ... وسوى فوق السماء سريرًا
شرجعًا لا يناله بصر العـــين ... ترى حوله الملائك صورًا

الصور هنا جمع: أصور، وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو. والشرجع: هو العالي المنيف، والسرير: هو العرش في اللغة. ومن شعر عبد الله بن رواحة ﷺ الذي عَرَّض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا. (٢)

وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله ﷻ من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام. (٣)

(١) البخاري (٣٣٩٨، ٤٦٣٨، ٦٩١٧).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ١٢)، لسان العرب (٧/ ١٦٥).
(٣) أبو داود (٤٧٢٩).

ورواه ابن أبي حاتم ولفظه: تخفق الطير سبعمائة عام. وأما من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك، كيف يصنع بقوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾. وقوله: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟! وكان ملكه على الماء! ويكون موسى ﷺ آخذًا من قوائم الملك؟! هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول![1].

الوجه الخامس عشر: أن الشمس تعتبر ساجدة في كل مكان.

فهي أينما كانت فهي تحت العرش وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة؛ وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون من العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون من العرش؛ فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث[2].

الوجه السادس عشر: الرد على النصارى بما عندهم.

ولنرى الآن ماذا يقول كتاب النصارى المقدس في سفر الجامعة (١/ ٥): وَالشَّمْسُ تُشْرِقُ، وَالشَّمْسُ تَغْرُبُ، وَتُسْرِعُ إِلَى مَوْضِعِهَا حَيْثُ تُشْرِقُ.

وفي أيوب (٩/ ١٠: ٤): هُوَ حَكِيمُ الْقَلْبِ وَشَدِيدُ الْقُوَّةِ. مَنْ تَصَلَّبَ عَلَيْهِ فَسَلِمَ؟ ٥الْمُزَحْزِحُ الْجِبَالَ وَلاَ تَعْلَمُ، الَّذِي يَقْلِبُهَا فِي غَضَبِهِ. ٦الْمُزَعْزِعُ الأَرْضَ مِنْ مَقَرِّهَا، فَتَتَزَلْزَلُ أَعْمِدَتُهَا. ٧الآمِرُ الشَّمْسَ فَلاَ تُشْرِقُ، وَيَخْتِمُ عَلَى النُّجُومِ. ٨الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ وَحْدَهُ، وَالْمَاشِي عَلَى أَعَالِي الْبَحْرِ. ٩صَانِعُ النَّعْشِ وَالْجَبَّارِ وَالثُّرَيَّا وَمَخَادِعِ الْجَنُوبِ. ١٠فَاعِلُ عَظَائِمَ لاَ تُفْحَصُ، وَعَجَائِبَ لاَ تُعَدُّ.

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية للإمام ابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٤٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥).

١٢ـ شبهة: الإسراء و المعراج.

نص الشبهة:

إنكار حادث الإسراء والمعراج إذ هو لا يخضع لقوانين الكون الثابتة فكان ذكره من قبيل الخرافات التي يذكرها الإسلام.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ثبوتها نقلًا و عقلًا.

الوجه الثاني: الله لا يخضع لقوانين الكون و هو سبحانه على كل شيء قدير.

الوجه الثالث: اعتقاد أهل السنة و الجماعة في حادثة الإسراء و المعراج.

الوجه الرابع: قدرة الإنسان محدودة بالنسبة لقدرة المخلوقات الأخرى.

الوجه الخامس: ذكر بعض الأحداث التي دست في حادثة الإسراء والمعراج.

الوجه السادس: الرد من الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: **ثبوتها نقلًا و عقلًا.**

أما نقلًا: من الكتاب: قال الله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

قال الطبري: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات. [١]

من السنة: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنَّ نَبِيَّ اللهَّ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ: " بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ، - وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الحِجْرِ - مُضْطَجِعًا إِذْ

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٦.

أَتَانِي آتٍ، فقدَّ: قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ - فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مِنْ قَصِّهِ إِلَى شِعْرَتِهِ - فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ، وَفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَضَ، - فَقَالَ لَهُ الجَارُودُ: هُوَ البُرَاقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ أَنَسٌ: نَعَمْ - يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ، قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا، ثُمَّ قَالَا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ، قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ

الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ: هِيَ الفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي "(١).

وأما عقلًا:

قال الرازي: أما المقام الأول: وهو إثبات الجواز العقلي، فنقول: الحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها والله تعالى قادر على جميع الممكنات، وذلك يدل على أن حصول الحركة في هذا الحد من السرعة غير ممتنع، فنفتقر هاهنا إلى بيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: في إثبات أن الحركة الواقعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور وقد ثبت في الهندسة أن نسبة القطر الواحد إلى الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع، فيلزم أن تكون نسبة نصف القطر إلى نصف الدور، نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع، وبتقدير أن يقال أن رسول الله ﷺ ارتفع من مكة إلى ما فوق الفلك الأعظم، فهو لم يتحرك إلا بمقدار نصف القطر، فلما حصل في ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان، فهذا برهان قاطع على أن الارتقاء من مكة إلى ما فوق العرش في مقدار ثلث من الليل أمر ممكن في نفسه، وإذا كان كذلك كان حصوله في كل الليل أولى بالإمكان والله أعلم.

الثاني: وهو أنه ثبت في الهندسة أن قرص الشمس يساوي كرة الأرض مائة وستين وكذا مرة، ثم إنا نشاهد أن طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع، وذلك يدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى الحد المذكور أمر ممكن في نفسه.

الثالث: أنه كما يستبعد في العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من فوق العرش إلى مركز العالم، فإن كان القول بمعراج محمد ﷺ في الليلة الواحدة ممتنعًا في العقول، كان القول بنزول

---

(١) البخاري (٣٨٨٧، ٧٥١٧)، مسلم (١٦٢).

جبريل عليه السلام من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعًا، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنًا في نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة، فثبت أن القائلين بامتناع حصول حركة سريعة إلى هذا الحد، يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل عليه السلام في اللحظة من العرش إلى مكة، ولما كان ذلك باطلًا كان ما ذكروه أيضًا باطلًا.

فإن قالوا: نحن لا نقول إن جبريل عليه السلام جسم ينتقل من مكان إلى مكان، وإنما نقول المراد من نزول جبريل عليه السلام هو زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد ﷺ حتى يظهر في روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرًا متجليًا في ذات جبريل عليه السلام.

قلنا: تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء، فأما جمهور المسلمين فهم مقرون بأن جبريل عليه السلام جسم وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكة، وإذا كان كذلك كان الإلزام المذكور قويًا، رُوِيَ أنه ﷺ لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا إلى أبي بكر وقالوا له: إن صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر: إن كان قد قال ذلك فهو صادق، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر الرسول ﷺ له تلك التفاصيل، فكلما ذكر شيئًا قال أبو بكر صدقت فلما تم الكلام قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله حقًا، فقال له الرسول: وأنا أشهد أنك الصديق حقًا، وحاصل الكلام أن أبا بكر رضي الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا؟.

الرابع: أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود إبليس، ويسلمون أنه هو الذي يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم، ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوساوس في قلوب بني آدم، فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق إبليس، فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الأنبياء كان أولى، وهذا الإلزام قوي على من يسلم أن إبليس جسم ينتقل من مكان إلى مكان، أما الذين يقولون

إنه من الأرواح الخبيثة الشريرة وأنه ليس بجسم ولا جسماني، فهذا الإلزام غير وارد عليهم، إلا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل.

فإن قالوا: هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لأنهم أجسام لطيفة، ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها، أما الإنسان فإنه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه؟

قلنا: نحن إنما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة إلى هذا الحد ممكن في نفس الأمر، وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضًا ممكنة الحصول في جسم البدن الإنساني.

الخامس: أنه جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان ﷺ إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان ﷺ: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٌ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٌ﴾ (سبأ: ١٢) بل نقول: الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة، وذلك أيضًا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة.

السادس: أن القرآن يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ (النمل: ٤٠)، وإذا كان ممكنًا في حق بعض الناس، علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود.

السابع: إن من الناس من يقول: الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر، ثم إنا إذا فتحنا العين ونظرنا إلى رجل، رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى رجل في تلك اللحظة اللطيفة، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السريعة من الممكنات لا من الممتنعات، فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه.

المقدمة الثانية: في بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها وجب أن لا يكون حصولها في جسد محمد ﷺ ممتنعًا، والذي يدل عليه أنّا بينّا بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهياتها، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد ﷺ أمر ممكن الوجود في نفسه.

وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد ﷺ ممكن، فوجب كونه تعالى قادرًا عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب، إلا أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام، بل هو حاصل في جميع المعجزات، فانقلاب العصا ثعبانًا تبلغ سبعين ألف حبل من الحبال والعصي، ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب، وخروج الناقة العظيمة من الجبل الأصم، وإظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب، وكذا القول في جميع المعجزات فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع، لزم الجزم بفساد القول بإثبات المعجزات وإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال فكذا ههنا، فهذا تمام القول في بيان أن القول بالمعراج ممكن غير ممتنع، والله أعلم. (١)

وقال رحمت الله الهندي: أما عقلًا: فلأن خالق العالم قادر على كل الممكنات، وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد ﷺ ممكن، فوجب كونه تعالى قادرًا عليه، وغاية ما في الباب أنه خلاف العادة والمعجزات كلها تكون كذلك. (٢)

وأما عن قولهم: لماذا قال ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾؟ لماذا ذكر كلمة (ليلًا) و الإسراء لا يكون إلا بالليل؟

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٨.

(٢) إظهار الحق ٤/ ١٠٢٣.

قال الزمخشري: فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل؟ قلت: أراد بقوله (لَيْلًا) بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشأم مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية. (١)

وأما قولهم ما الحكمة في لقاء النبي ﷺ الأنبياء في السموات، و الأنبياء مقرهم في ساحة الجنة؟ فما وجه لقائهم في سماء سماء؟.

قال ابن بطال: فوجهه أنهم تلقوه ﷺ كما يتلقى القادم يسابق الناس إليه على قدر سرورهم بلقائه. (٢)

وبمثل هذا القول قال ابن الملقن في شرحه لصحيح البخاري. (٣)

الوجه الثاني: الله لا يخضع لقوانين الكون و هو سبحانه على كل شيء قدير.

ذكر بعض الآيات التي تدل علي قدرة الله ﷻوأنه على كل شيء قدير، قال الله سبحانه وتعالي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾، وقال سبحانه: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة: ٢٥٩)، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ (الحج ٧: ٦).

وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم

---

(١) تفسير الزمخشري ٢/ ٦٤٦.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٠/ ١٨٦.

(٣) التوضيح بشرح الجامع الصحيح لابن الملقن ٣٣/ ٤٧٨.

مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾﴾ (النور: ٤٥)، و قال سبحانه: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(سبأ١٣ : ٩)، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (هود: ١٠٧).

قال الطبري: لا يمنعه مانع، مِنْ فِعْل أراد أن يفعله، ولا يحول بينه وبين ذلك حائل، لأن له مُلك السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم. (١)

قال الرازي: على مذهب أهل السنة والجماعة، فهو أنه تعالى فعال لما يريد: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء: ٢٣)، فلا اعتراض عليه في فعله. ولا مجال لأحد في منازعته، وكل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وإذا كان كذلك فقد صارت أبواب القيل والقال مسدودة، وطرق الاعتراضات مردودة. (٢)

الوجه الثالث: اعتقاد أهل السنة في حادثة الإسراء و المعراج.

قال الطبري: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات. (٣)

قال ابن تيمية: ونصدق بحديث المعراج. (١)

(١) تفسير الطبري ٣٠/ ١٣٩.

(٢) تفسير الرازي١٠/ ٨١.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ١٦.

قال ابن القيم: أُسرِيَ برسول الله ﷺ بِجَسَدِهِ على الصحيح، مِن المسجد الحرامِ إلى بيتِ المقدس، راكبًا على البُراقِ، صُحبة جبريل عليهما الصلاةُ والسَّلام، فنزل هُناكَ، وصَلَّى بالأنبياء إمامًا، وربط البُراقَ بحَلْقَةِ بابِ المسجد. (٢)

الوجه الرابع: **قدرة الإنسان محدودة بالنسبة لقدرة المخلوقات الأخرى.**

إن الله ﷻلم يخلق الإنس وفقط بل إن مخلوقاته سبحانه وتعالي لا تعد ولا تحصى، قال سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧).

ومن مخلوقات الله ﷻ الإنس و الجن و الملائكة و هم المكلفون بعبادة الله رب العالمين ولا شك أن التكوين الخلقي لكل منهم يختلف عن الآخر، فعن عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهﷺ " **خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ** ". (٣)

بالنسبة للملائكة: سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾(التكوير: ٢٣)، ﴿ **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤)عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى** ﴾ (النجم ١٥ : ١٣) فقال: " **إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ التي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ** ". (٤)

وأخبر النبي ﷺ عن ملك من حملة العرش. فعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: " **أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الله مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ** ". (٥)

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٨٧).

(٢) زاد المعاد٣/ ٣٤.

(٣) مسلم) ٢٩٩٦).

(٤) مسلم (١٧٧).

(٥) أبو داوود (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥١).

بالنسبة للجن و الشياطين: قال الله ﷻ في الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: ٢٧).

قال الطبري: يعني جل ثناؤه بذلك: إن الشيطان يراكم هو، و"الهاء" في"إنه" عائدة على الشيطان. و"قبيله"، يعني: وصنفه وجنسه الذي هو منه واحدٌ.(١)

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (الحجر ١٨: ١٦)، و قال سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

قال ابن كثير: في قوله ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ﴾: وقوله ها هنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظًا، ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره.

وعن أبي هريرة ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: " إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ- قَالَ عَلِيٌّ وَقَالَ غَيْرُهُ صَفْوَانٍ- يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا للذي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ- وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ- فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ، قَبْلَ أَنْ يَرْمِىَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ، فَيُحْرِقَهُ وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِىَ بِهَا إِلَى الذي يَلِيهِ إِلَى الذي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ- وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ حَتَّى تنتهي إِلَى الأَرْضِ- فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ فَيَصْدُقُ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٥٣.

كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ التي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ". [١]

وهذا فيه من الأدلة ما فيه على أن الشياطين تستطيع أن تصل إلى ما لا يمكن أن يصل إليه الإنسان من حيث الأماكن.

الوجه الخامس: ذكر بعض الأحداث التي دست في حادثة الإسراء و المعراج.

قال ابن تيمية: وفيه ما هو ضعيف وفيه ما هو من الموضوعات المختلقات مثل ما يرويه بعضهم فيه أن النبي ﷺ قال له جبرائيل هذا قبر أبيك إبراهيم انزل فصل فيه وهذا بيت لحم مولد أخيك عيسى انزل فصل فيه. وأعجب من ذلك أنه قد روي فيه أنه قيل له في المدينة انزل فصل هاهنا قبل أن يبني مسجده وإنما كان المكان مقبرة المشركين والنبي ﷺ بعد الهجرة إنما نزل هناك لما بركت ناقته هناك فهذا ونحوه من الكذب المختلق باتفاق أهل المعرفة وبيت لحم كنيسة من كنائس النصارى ليس في إتيانها فضيلة عند المسلمين. [٢]

قال ابن القيم: وقد قيل: إنه نزل ببيتِ لحمٍ، وصلَّى فيه، ولم يَصِحَّ ذَلكَ عَنْهُ البتة. [٣]

قال السيوطي: إلى القوم الذين يجتمعون على كتاب "الإسراء والمعراج" الذين ينسبونه لابن عباس ـ رضي الله عنهما- وإلى القوم الذين تركوا صحيح السنة إلى ضعيف الآثار. ومحض الصواب من الاتباع إلى محض الباطل من الرأي والظن والهوى. أهدي هذا الكتاب _ عسى أن تهتدي به نفس إلى أتباع الهدي النبوي الصحيح وترك احتطاب الليل، وأتباع الهوى[٤].

الوجه السادس: الرد من الكتاب المقدس.

قال رحمت الله الهندي: في إثبات معجزة الإسراء و المعراج:

وأما نقلًا فلأن صعود الجسم العنصري إلى الأفلاك ليس بممتنع عند أهل الكتاب.

١ – قال القسيس وليم اسمت في كتابه المسمى بطريق الأولياء في بيان حال أخنوخ

---

(١) البخاري (٤٧٠١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (٤٣٨).

(٣) زاد المعاد٣/ ٣٤.

(٤) الآية الكبرى في شرح الإسراء و المعراج للسيوطي (١).

الرسول الذي كان قبل ميلاد المسيح بثلاث آلاف سنة وثلثمائة واثنتين وثمانين سنة هكذا: (أن الله نقله حيًا إلى السماء لئلا يرى الموت كما هو مرقوم أنه لم يوجد لأن الله نقله فترك الدنيا من غير أن يحمل المرض والوجع والألم والموت ودخل بجسده في ملكوت السماء).

وقوله كما هو مرقوم إشارة إلى الآية الرابعة والعشرين من الباب الخامس من سفر التكوين، وفي الباب الثاني من سفر الملوك الثاني هكذا: ١ (وكان لما أراد الرب أن يصعد إيليا بالعجاج إلى السماء انطلق إيليا واليسع من الجلجال ١١ وبينما هما يسيران ويتكلمان إذ بعجلة من نار وخيل من نار فاقتربت فيما بينهما وصعد إيليا بالعجاج إلى السماء).

وقال آدم كلارك المفسر في شرح هذا المقام: (لا شك أن إيليا رفع إلى السماء حيًا).

والآية التاسعة عشر من الباب السادس عشر من إنجيل مرقس هكذا: (ثُمَّ إِنَّ الرَّبَّ بَعْدَمَا كَلَّمَهُمُ ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ الله) (مرقس ١٦/ ١٩).

وقال بولس في حال معراجه في الباب الثاني عشر من رسالته الثانية إلى أهل قورنيثوس هكذا: (أَعْرِفُ إِنْسَانًا فِي الْمَسِيحِ قَبْلَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً. أَفِي الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ، أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. الله يَعْلَمُ. اخْتُطِفَ هذَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ. ٣ وَأَعْرِفُ هذَا الإِنْسَانَ: أَفِي الْجَسَدِ أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. الله يَعْلَمُ. أَنَّهُ اخْتُطِفَ إِلَى الْفِرْدَوْسِ، وَسَمِعَ كَلِمَاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا، وَلاَ يَسُوغُ لإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا).

وقال يوحنا في الباب الرابع من المكاشفات: بَعْدَ هذَا نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي السَّمَاءِ، وَالصَّوْتُ الأَوَّلُ الَّذِي سَمِعْتُهُ كَبُوق يَتَكَلَّمُ مَعِي قَائِلًا: «اصْعَدْ إِلَى هُنَا فَأُرِيَكَ مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَصِيرَ بَعْدَ هذَا». ٢ وَلِلْوَقْتِ صِرْتُ فِي الرُّوحِ، وَإِذَا عَرْشٌ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَعَلَى الْعَرْشِ جَالِسٌ.

فهذه الأمور مسلمة عند المسيحيين فلا مجال للقسيسين أن يعترضوا على معراج النبي ﷺ عقلًا أو نقلًا. نعم يرد عليهم أنه لا وجود للسماوات على حكم علم الهيئة الجديد، فكيف يصدق عندهم أن أخنوخ وإيليا والمسيح عليهم السلام رفعوا إلى السماء وجلس المسيح على يمين الله واختطف مقدسهم إلى السماء الثالثة وإلى الفردوس. وقد

عرفنا مطهر البابويين وجهنمهم كما مر في الفصل الثاني من الباب الخامس لكنا ما عرفنا فردوس المسيحيين أهو على السماء الثالثة الموهومة كأنياب الأغوال عندهم أو فوقها أو هو عبارة عن جهنم كما يفهم بملاحظة الإنجيل وكتاب عقائدهم، لأن المسيح قال للسارق المصلوب معه وقت الصلب إنك اليوم تكون معي في الفردوس.

وهم يصرخون في العقيدة الثالثة من عقائدهم أنه نزل إلى جهنم، فإذا لاحظنا الأمرين يعلم أن الفردوس عندهم جهنم.

قال جواد بن ساباط في البرهان السادس عشر من المقالة الثانية من كتابه أن القسيس كياروس سألني في حضور المترجمين: ماذا يعتقد المسلمون في معراج محمد ﷺ؟ قلت: إنهم يعتقدون أنه من مكة إلى أورشليم ومنه إلى السماء. قال: لا يمكن صعود الجسم إلى السماء. قلت: سألت بعض المسلمين عنه فأجاب أنه يمكن كما أمكن لجسم عيسى عليه السلام. قال القسيس: لِمَ لَمْ تستدل بامتناع الخرق والالتئام على الأفلاك؟ قلت: استدللت به لكنه أجاب أنهما ممكنان لمحمد ﷺ كما كانا ممكنين لعيسى عليه السلام. قال القسيس: لِمَ لَمْ تقل أن عيسى إله له أن يتصرف ما يشاء في مخلوقاته؟ قلت: قد قلت ذلك لكنه قال أن ألوهية عيسى باطلة لأنه يستحيل أن يطرأ على الله علامات العجز كالمضروبية والمصلوبية والموت والدفن. ونقل بعض الأحياء أن قسيسًا في بلد بنارس من بلاد الهند كان يقول في بعض المجامع تغليطًا لجهال المسلمين البدويين كيف تعتقدون المعراج وهو أمر مستبعد فأجابه مجوسي من مجوس الهند أن المعراج ليس بأشد استبعادًا من كون العذراء حاملة من غير زوج، فلو كان مطلق الأمر المستبعد كاذبًا فهذا أيضًا يكون كاذبًا فكيف تعتقدونه فبهت القسيس.[1]

وجاء في الكتاب المقدس: (وَعِنْدَمَا أَزْمَعَ الرَّبُّ أَنْ يَنْقُلَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ، ذَهَبَ إِيلِيَّا وَأَلِيشَعُ مِنَ الْجِلْجَالِ.... وَفِيمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَيَتَجَاذَبَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مَرْكَبَةٌ مِنْ نَارٍ تَجُرُّهَا خُيُولٌ نَارِيَّةٌ، نَقَلَتْ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ) (الملوك الثاني ٢: ١ – ١١).

* * *

(١) إظهار الحق ٤/ ١٠٢٣.

١٣ـ شبهة: شهادة الناس على الميت.

نص الشبهة:

عن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " وَجَبَتْ ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا فَقَالَ: " وَجَبَتْ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ﷺ مَا وَجَبَتْ قَالَ: " هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ ". يقولون: كيف يدخل أحد النار بمجرد أن يشهد عليه أحد الناس؟.

والرد علي ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المعنى الصحيح للحديث.

الوجه الثاني: الشهادة المقبولة من الناس على الميت خاصة بالثقات المتقين فقط.

الوجه الثالث: لابد أن يكون لثناء الأمة على الميت فائدة، وثناء الأمة إلهام من الله تعالي.

الوجه الرابع: قد يستشكل البعض هذا الحديث مع حديث النهي عن سب الأموات، وإليك حل الإشكال.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: المعنى الصحيح للحديث.

وقبل أن نشرع في معنى الحديث نذكر معنى الشهادة:

قال ابن حجر: هي مصدر شهد يشهد قال الجوهري: الشهادة خبر قاطع والمشاهدة المعاينة مأخوذة من الشهود أي الحضور لأن الشاهد مشاهد لما غاب عن غيره. (١)

وقال القاضي: والشهداء: جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة، أو الناصر، والإمام كأنه سمي به، لأنه يحضر النوادي ويبرم بحضرته الأمور، إذ التركيب للحضور إما بالذات أو التصور، ومنه قيل للمقتول في سبيل الله شهيد، لأنه حضر ما كان يرجوه أو الملائكة حضوره، والملائكة شهداء الله في السماء. (١)

---

(١) فتح الباري ٥/ ٢٩٣.

وعلى هذا المعنى يترتب قبول شهادة الناس الذين عاشوا مع هذا الميت وحضروا حاله ومعيشته، فهم يعلمون على أي شئ كان، فهم لا يتكلمون بغير علم أو على سبيل الظن، بل من طريق المعاينة والمشاهدة لحاله، ووجه قبول هذه الشهادة؛ أن الشهادة بالخير لمن شهد له ستر من الله سبحانه عليه في الدنيا، ومن ستر الله عليه في الدنيا لم يرفع عنه ستره في الآخرة، ومن لم يرفع الله عنه ستره في الآخرة أدخله الله الجنة، والشهادة بالشر في الدنيا: هو رفع الستر عن المشهود عليه، وهو في ذلك ضد من أثنى عليه خير في الدنيا فكذلك هو في الأخرى فيستحق النار[٢].

فمن هذا الكلام يكون للشهادة الأهمية البالغة في تحديد مصير الإنسان، فهم يحكمون كما قلنا على ما عاينوه وشاهدوه.

ومن أهميتها أن يكون الله قد كتب لهذا الإنسان السعادة، وهو على بعض التقصير، فيقيد الله له من يشهد له عند خاتمته فيدخل الجنة بشهادة من عايشه وحاضره، وهذا من رحمة الله الواسعة. [٣] وكذلك من أهمية الشهادة أنها عاجل بشرى المؤمن.

فعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنْ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ قَالَ: " تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ ". [٤]

قال النووي: قال العلماء: معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير، وهي دليل على رضاء الله تعالى عنه ومحبته له، فيحببه إلى الخلق كما سبق في الحديث ثم يوضع له القبول في الأرض، هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم. [٥]

واليك المعنى الصحيح للحديث:

---

(١) فيض القدير ٣/ ٥١.
(٢) المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ١/ ١١٦.
(٣) انظر شرح النووي لمسلم ٤/ ٢٣-٢٤.
(٤) مسلم (٢٦٤٢).
(٥) شرح النووي ٨/ ٤٣٩.

عن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَجَبتْ ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا فَقَالَ: وَجَبتْ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ﷺ مَا وَجَبتْ قَالَ: "هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ". (١)

قال النووي: وأما معناه ففيه قولان للعلماء:

أحدهما: أن هذا الثناء بالخير لمن أثنى عليه أهل الفضل، فكان ثناؤهم مطابقًا لأفعاله فيكون من أهل الجنة، فإن لم يكن كذلك فليس هو مرادًا بالحديث.

والثاني: وهو الصحيح المختار أنه على عمومه وإطلاقه وأن كل مسلم مات فألهم الله تعالى الناس أو معظمهم الثناء عليه كان ذلك دليلًا على أنه من أهل الجنة، سواء كانت أفعاله تقتضي ذلك أم لا، وإن لم تكن أفعاله تقتضيه فلا تحتم عليه العقوبة، بل هو في خطر المشيئة، فإذا ألهم الله ﷻ الناس الثناء عليه استدللنا بذلك على أنه سبحانه وتعالى قد شاء المغفرة له، وبهذا تظهر فائدة الثناء.

وقوله ﷺ: " وجبت، وأنتم شهداء الله " ولو كان لا ينفعه ذلك إلا أن تكون أعماله تقتضيه لم يكن للثناء فائدة، وقد أثبت النبي ﷺ له فائدة فإن قيل: كيف مكنوا بالثناء بالشر مع الحديث الصحيح في البخاري وغيره في النهي عن سب الأموات؟. (٢)

فالجواب: أن النهي عن سب الأموات هو في غير المنافق وسائر الكفار وفي غير المتظاهر بفسق أو بدعة، فأما هؤلاء فلا يحرم ذكرهم بشر للتحذير من طريقتهم ومن الاقتداء بآثارهم والتخلق بأخلاقهم، وهذا الحديث محمول على أن الذي أثنوا عليه شرًا كان مشهورًا بنفاق أو نحوه مما ذكرناه. (٣)

قال ابن حجر: فيه بيان لأن المراد بقوله: " وجبت " أي الجنة لذي الخير والنار لذي الشر،

---

(١) البخاري (١٣٦٧)، مسلم (٩٤٩).

(٢) البخاري (١٣٩٣) عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: "لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا".

(٣) شرح مسلم للنووي ٤/ ٢٣-٢٤.

والمراد بالوجوب الثبوت إذ هو في صحة الوقوع كالشيء الواجب والأصل أنه لا يجب على الله شيء، بل الثواب فضله والعقاب عدله لا يُسأل عما يفعل، وفي رواية مسلم " من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة "، وهو أبين في العموم من رواية آدم عليه السلام وفيه رد على من زعم أن ذلك خاص بالميتين المذكورين لغيب أطْلَع الله نبيه عليه؛ وإنما هو خبر عن حكم أعلمه الله به.

قوله: " أنتم شهداء الله في الأرض" أي: المخاطبون بذلك من الصحابة ومن كان على صفتهم من الإيمان.

الوجه الثاني: الشهادة المقبولة من الناس على الميت خاصة بالثقات المتقين فقط.

قال ابن حجر: حكي ابن التين: أن ذلك مخصوص بالصحابة لأنهم كانوا ينطقون بالحكمة بخلاف من بعدهم. قال: والصواب أن ذلك يختص بالثقات والمتقين. (١)

قال ابن عبد البر: كان أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم لا يثنون على أحد إلا بالصدق، ولا يمدحون إلا بالحق لا لشيء من أعراض الدنيا: لشهوة أو عصبية أو تقية ومن كان ثناؤه هكذا يصح فيه هذا الحديث وما كان مثله. والله أعلم. (٢)

الوجه الثالث: لابد أن يكون لثناء الأمة على أمواتها فائدة، و ثناء الأمة إلهام من الله.

قال ابن حجر: ونقل الطيبي عن بعض شراح المصابيح قال: ليس معنى قوله: " أنتم شهداء الله في الأرض" أن الذي يقولونه في حق شخص يكون كذلك حتى يصير من يستحق الجنة من أهل النار بقولهم ولا العكس، بل معناه أن الذي اثنوا عليه خيرًا رأوه منه؛ كان ذلك علامة كونه من أهل الجنة وبالعكس، وتعقبه الطيبي بأن قوله: " وجبت " بعد الثناء، حكم عقب وصفًا مناسبًا فأشعر بالعلية، وكذا قوله: " أنتم شهداء الله في الأرض " لأن الإضافة فيه للتشريف لأنهم بمنزلة عالية عند الله، فهو كالتزكية للأمة بعد أداء شهادتهم؛ فينبغي أن يكون لها أثر، قال: وإلى هذا يومئ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٣/ ٢٦١ بتصرف يسير.

(٢) الاستذكار لابن عبد البر ٨/ ٢٧٨.

أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣). [١]

قال النووي: إذا ألهم الله ﷻ الناس الثناء عليه استدللنا بذلك على أنه سبحانه و تعالي قد شاء المغفرة له، وبهذا تظهر فائدة الثناء، لأن شهادته كانت لا تجوز عليه في الدنيا، وإن كان عدلًا للعداوة، والبشر غير معصومين وقوله ﷺ: " أنتم شهداء الله" ولو كان لا ينفعه ذلك إلا أن تكون أعماله تقتضيه لم يكن للثناء فائدة، وقد أثبت النبي له فائدة[٢].

ثم إن ثناء الناس بالخير أو الشر هو بمشيئة الله تبارك و تعالى كما ذكرنا في كلام النووي سابقًا.

وكذلك جعل الله ﷻ الملائكة شهداء في السماء كما جعل له شهداء في الأرض.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدًا نادي جبريل: إن الله قد أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض ". [٣]

فعلى هذا الحديث تكون شهادة الناس للإنسان بالخير أو الشر بالقبول الذي يوضع له في الأرض أو بالنفرة وعدم القبول الذي يوضع له في الأرض.

قال النووي: ومعنى يوضع له القبول في الأرض: أي الحب في قلوب الناس ورضاهم عنه فتميل إليه القلوب وترضى عنه. [٤]

والشهادة بالخير لها أسباب:

أولها: رحمة الله ﷻ بالمشهود له من الناس.

---

(١) فتح الباري ٣/ ٢٣١ بتصرف يسير.

(٢) شرح النووي ٤/ ٢٤، و معني هذا الكلام أن لثناء الناس علي الميت فائدة ولو كانت أعماله فقط هي التي تنفعه، لم يكن للثناء فائدة، وقد أثبت الحديث فائدته، فقال: "أنتم شهداء الله في الأرض" فقد يكون عبدًا مقصرًا بينه وبين ربه، لكن يشاء الله له المغفرة فيلهم الله الناس عند موته الثناء عليه، فيكون من أهل الجنة بمشيئة الله له أولا، ثم بثناء الناس عليه.

(٣) البخاري (٦٩٣١)، مسلم (٢٦٣٧)، وزاد مسلم (و إذا أبغض عبدًا. . .).

(٤) شرح النووي ١٦/ ١٨٤.

ثانيها: إلهام الله ﷻ الناس وتقييدهم بالشهادة بالخير لهم.

ثالثها: معايشة الناس للإنسان ومعاينتهم لحاله وعلمهم به.

الوجه الرابع: ليس هنالك إشكال بين هذا الحديث وحديث النهي عن سب الأموات.

عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: **"لاَ تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا"**[1]

وقد حل العلماء هذا الإشكال:

قال النووي: فإن قيل: كيف مكنوا بالثناء بالشر مع الحديث الصحيح في البخاري وغيره في النهي عن سب الأموات؟ فالجواب: أن النهي عن سب الأموات هو في غير المنافق وسائر الكفار، وهو في غير المتظاهر بفسق أو بدعة، فأما هؤلاء فلا يحرم عليهم ذكرهم بشر للتحذير من طريقهم ومن الاقتداء بآثارهم.[2]

وقال ابن حجر: (قوله باب ما ينهى من سب الأموات)

قال الزين بن المنير: لفظ الترجمة يشعر بانقسام السب إلى منهي وغير منهي، ولفظ الخبر مضمونه النهي عن السب مطلقا، والجواب أن عمومه مخصوص بحديث أنس رضي الله عنه السابق حيث قال ﷺ عند ثنائهم بالخير وبالشر " وجبت وأنتم شهداء الله في الأرض " ولم ينكر عليهم، ويحتمل أن اللام في الأموات عهدية والمراد به المسلمون، لأن الكفار مما يتقرب إلى الله بسبهم.

وقال القرطبي في الكلام على حديث وجبت يحتمل أجوبة:

الأول: أن الذي كان يحدث عنه بالشر؛ كان مستظهرًا به، فيكون من باب لا غيبة لفاسق أو كان منافقًا.

ثانيها: يحمل النهي على ما بعد الدفن والجواز على ما قبله ليتعظ به من يسمعه.

ثالثها: يكون النهي العام متأخرًا فيكون ناسخًا وهذا ضعيف.

---

(١) البخاري (١٣٩٣).

(٢) شرح النووي ٤/ ٢٤.

وقال ابن رشيد: ما محصله أن السب ينقسم في حق الكفار وفي حق المسلمين.

أما الكافر فيمنع إذا تأذى به الحي المسلم، وأما المسلم فحيث تدعو الضرورة إلى ذلك؛ كأن يصير من قبيل الشهادة، وقد يجب في بعض المواضع، وقد يكون فيه مصلحة للميت، كمن علم أنه أخذ ماله بشهادة زور ومات الشاهد، فإن ذكر ذلك ينفع الميت إن علم أن ذلك المال يرد إلى صاحبه.(١)

* * *

(١) فتح الباري لابن حجر ٣/ ٢٥٨-٢٥٩.

١٤ـ شبهة: عدد من يشفع للميت عند الصلاة عليه.

نص الشبهة:

وردت أحاديث مختلفة ظاهرها التناقض في العدد الذي يشفع للميت عند الصلاة عليه، رواية (أربعون)، ورواية (مائة)، ورواية (ثلاثة صفوف) فكيف التوفيق؟!

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الروايات التي وردت في هذا الباب.

الوجه الثاني: التوفيق بين الروايات.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الروايات التي وردت في هذا الباب.

أولًا: رواية المائة: عن عبد الله بن يزيد رضيع عائشة عن النبي ﷺ قال: "ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شُفِّعُوا فيه"[١].

ثانيًا: رواية الأربعون: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان، فقال: يا كريب، انظر ما اجتمع له من الناس؟ قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته، فقال: تقول: هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفَّعهم الله فيه". [٢]

ثالثًا: رواية ثلاثة صفوف: عن مرثد بن عبد الله اليزني قال: كَانَ مَالِكُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِذَا صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَتَقَالَّ النَّاسَ عَلَيْهَا جَزَّأَهُمْ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ، ثُمَّ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلاثَةُ صُفُوفٍ فَقَدْ أَوْجَبَ". [٣]

---

(١) رواه مسلم (٩٤٧)، والنسائي (١٩٩٣).

(٢) رواه مسلم (٩٤٨).

(٣) حسن موقوفا. رواه أبو داود (٣١٦٦) والترمذي (١٠٢٨) وقال: حسن، وضعفه الألباني مرفوعًا، وحسنه موقوفًا في ضعيف أبي داود (٦٩٥).

الوجه الثاني: التوفيق بين الروايات.

قال النووي: قال القاضي: قيل: هذه الأحاديث خرجت أجوبة لسائلين سألوا عن ذلك، فأجاب كلَّ واحد منهم عن سؤاله؛ هذا كلام القاضي. ويحتمل أن يكون النبي ﷺ أخبر بقبول شفاعة مائة فأخبر به، ثم بقبول شفاعة أربعين، ثم ثلاثة صفوف وإن قل عددهم فأخبر به، ويحتمل أيضًا أن يقال: هذا مفهوم عدد ولا يحتج به جماهير الأصوليين، فلا يلزم من الإخبار عن قبول شفاعة مائة منع قبول ما دون ذلك، وكذا في الأربعين مع ثلاثة صفوف، وحينئذ كل الأحاديث معمول، بها ويحصل الشفاعة بأقل الأمرين من ثلاثة صفوف وأربعين. (١)

وقال المناوي: لا تعارض، إما لأنها أخبار جرت على وفق سؤال السائلين، أو لأن أقل الأعداد متأخر ومن عادة الله الزيادة في فضله الموعود، وأما قول النووي: مفهوم العدد غير حجة فرُدَّ بأن ذكر العدد حينئذ يصير عبثًا. (٢)

وقال المباركفوري: وقال التوربشتي: لا تضاد بين هذه الأحاديث؛ لأن السبيل في أمثال هذا المقام أن يكون الأقل من العددين متأخرًا عن الأكثر؛ لأن الله تعالى إذا وعد المغفرة لمعنى لم يكن من سنته النقصان من الفضل الموعود بعد ذلك بل يزيد تفضلًا، فيدل على زيادة فضل الله وكرمه على عباده. (٣)

وقال الخطيب التبريزى: عقب نقله لكلام التوربشتى السابق: فجعلنا حديث ابن عباس رضي الله عنه في أربعين متأخرًا عن حديث عائشة رضي الله عنها في المائة للمعنى الذي ذكرنا. (٤)

وقال الطحاوي: فقال قَائِلٌ: من أَيْنَ جاء هذا الِاخْتِلَافُ في هذه الرِّوَايَاتِ؟

فَكَانَ جَوَابُنَا عن ذلك بِتَوْفِيقِ الله تَعَالَى: أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الله جَادَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْغُفْرَانِ لِمَنْ صلى عليه مِائَةٌ منهم بِشَفَاعَتِهِمْ له، ثُمَّ جَادَ له بِالْغُفْرَانِ بِشَفَاعَةِ أَرْبَعِينَ منهم؛

---

(١) شرح مسلم٧/ ١٧.

(٢) فيض القدير ٥/ ٤٨٠.

(٣) تحفة الأحوذى ٤/ ٩٨.

(٤) مشكاة المصابيح ٥/ ٧٩١.

فَكَانَ خَبَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه بِذَلِكَ هو آخِرُ ما كان منه ﷺ مِمَّا جَادَ بِسَبَبِهِ بِالْغُفْرَانِ لِلْمُصَلَّى عليه من الْمُؤْمِنِينَ بِشَفَاعَتِهِمْ، وكان خَبَرُ عَائِشَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مُتَقَدِّمَيْنِ لِذَلِكَ. فقال: وَلِمَ حَمَلْتَ ذلك على ما ذَكَرْت ولم تَحْمِلْهُ على أَنَّ حَدِيثَ عَائِشَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه هُمَا الْمُتَأَخِّرَانِ وَحَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه هو الْمُتَقَدِّمُ؟ فَكَانَ جَوَابُنَا له عن ذلك بِتَوْفِيقِ الله وَعَوْنِهِ: أَنَّ الله تَعَالَى ليس من صِفَتِهِ أَنْ يَجُودَ بِغُفْرَانٍ بِمَعْنًى ثُمَّ يَرْجِعَ عن الْغُفْرَانِ بِذَلِكَ الْمَعْنَى، وقد يَجُوزُ أَنْ يَجُودَ بِالْغُفْرَانِ بِمَعْنًى، ثُمَّ يَجُودَ بِالْغُفْرَانِ بِأَقَلَّ من ذلك الْمَعْنَى وَبِأَيْسَرِهِ على خَلْقِهِ الَّذِينَ جَادَ بِذَلِكَ عليهم، فَبَانَ بِمَا ذَكَرْنَا الْوَجْهُ الذي جاء منه اخْتِلاَفُ الْعَدَدَيْنِ في الآثَارِ التي رَوَيْنَاهَا، وَالله نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ[1].

ومعنى ذلك: أنه ليس هناك تناقض بين الأحاديث؛ فإن العدد جاز أن يكون أولًا مائة، ثم مَنَّ الله تعالى على الأمة بفضله فجعله أربعين، وجائز أن يكون عدد الصفوف الثلاثة أربعين، وجائز أن يقل عن هذا العدد، وعندئذ تتضافر الروايات ولا تتنافر، والله أعلم.

* * *

(١) شرح مشكل الآثار ١/ ٢٤٧.

١٥ـ شبهة: تحول رأس المسلم إلى حمار.

نص الشبهة:

من اعتقادات المسلمين أن من رفع رأسه قبل الإمام في الصلاة تتحول رأسه إلى حمار، والدليل الحديث الآتي:

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **"أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ أَوْ لَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإمام أَنْ يَجْعَلَ الله رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ أَوْ يَجْعَلَ الله صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ "**.

قالوا: كيف تُحوّل رأس الإنسان إلى حمار؟

الجواب على ذلك في تلك الوجوه:

الوجه الأول: معنى الحديث.

الوجه الثاني: وقوع المسخ في الأمم السابقة والأدلة على ذلك.

الوجه الثالث: وقوع المسخ في هذه الأمة والأدلة على ذلك.

الوجه الرابع: آداب وأحكام الصلاة خلف الإمام.

الوجه الخامس: المسخ في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى قول النبي ﷺ "أن يجعل الله رأسه رأس حمار".

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " أما يخشي أحدكم - أو لا يخشي أحدكم - إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار "[١].

الحديث دليل على منع تقدم المأموم على الإمام في الرفع من الركوع والسجود هذا منصوصه: ووجه الدلالة: التوعد على الفعل، ولا يكون التوعد إلا عن ممنوع ويقاس عليه، السبق في الخفض كالهوى إلى الركوع والسجود[٢].

---

(١) البخاري (٦٩١) ومسلم (٤٢٧).

(٢) إحكام الأحكام شرع عمدة الأحكام (٢٣٠).

وقال ابن تيمية: فإن الإمام إنما يجهر لمن يستمع قراءته فإذا اشتغل أحد من المصلين بالقراءة لنفسه كان كالمخاطب لمن لا يستمع إليه، كالخطيب الذي خطب الناس وكلهم يتحدثون، ومن فعل هذا فهو كما جاء في الحديث " كحمار يحمل أسفارًا "؛ فإنه لم يفقه معنى المتابعة، كالذي يرفع رأسه قبل الإمام فإنه كالحمار، ولهذا قال النبي ﷺ " أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإمام أَنْ يَجْعَلَ الله رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ"؟ فإنه متبع الإمام فكيف يسابقه؟! ولهذا ضرب عمر رضي الله عنه من فعل ذلك، وقال: لا وحدك صليت ولا بإمامك اقتديت وأمره بالإعادة "[(١)]

وقال النووي: هذا كله بيان لغلظ تحريم ذلك[(٢)].

وخص الرأس بوقوع الوعيد عليها لأن بها وقعت الجناية وهي أشمل، وظاهر الحديث يقتضي تحريم الرفع قبل الإمام؛ لكونه توعد عليه بالمسخ وهو أشد العقوبات. [(٣)]

أما قوله ﷺ: " أن يجعل الله رأسه رأس حمار" فمن العلماء من حمله على المجاز ومنهم من حمله على الحقيقة.

أما من حمله على المجاز: قال الكرماني:

قيل: هذا مجاز عن البلادة لأن المسخ لا يجوز في هذه الأمة، وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ليس قوله " أن يحول الله رأسه رأس حمار" في هذه الأمة بموجود، فإن المسخ فيها مأمون؛ وإنما المراد به معنى الحمار من قلة البصيرة، وكثرة العناد؛ فإن من شأنه إذا قيد حزن وإذا حبس طفر لا يطيع قائدًا ولا يعين حاسبًا. [(٤)]

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٢٩٢).
(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ٣٨٧).
(٣) فتح الباري (٢/ ٢١٥).
(٤) فتح الباري (٢/ ٢١٥) وعمدة القاري (٥/ ٢٢٤).

وقال ابن دقيق العيد: إن الحديث يقتضي تغيير الصورة الظاهرة، ويحتمل أن يرجع إلى أمر معنوي مجازي؛ فإن الحمار موصوف بالبلادة، ويستعار هذا المعنى للجاهل بما يجب عليه من فروض الصلاة ومتابعة الإمام، وربما رجح هذا المجاز بأن التحويل في الظاهر لم يقع مع كثرة دفع المأمومين قبل الإمام، ونحن قد بينا أن الحديث لا يدل على وقوع ذلك، وإنما يدل على كون فاعله متعرض لذلك، وكون فعله صالحًا لأن يقع عنه ذلك الوعيد ولا يلزم من التعرض للشيء وقوع ذلك الشيء(١).

وقال ابن بزيزة: يحتمل أن يراد بالتحويل المسخ أو تحويل الهيئة الحسية أو المعنوية أو هما معًا.(٢)

ومن العلماء من حمل المسخ على الحقيقة.

قال ابن حجر: وحمله آخرون على ظاهره؛ إذ لا مانع من جواز وقوع المسخ في هذه الأمة.

وهو حديث أبي مالك الأشعري في المغازي، فإن فيه ذكر الخسف وفي آخره " ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة(٣)" ويقوي حمله على ظاهره أن في رواية ابن حبان من وجه آخر عن محمد بن زياد " أن الله يحول رأسه رأس كلب"(٤).

فهذا يبعد المجاز لانتفاء المناسبة التي ذكروها من بلادة الحمار، ومما يبعده أيضًا إيراد الوعيد بالأمر المستقبل، وباللفظ الدال علي تغيير الهيئة الحاصلة. (٥)

الوجه الثاني: المسخ في الأمم السابقة، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة:

لقد وقع المسخ في الأمم السابقة والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة:

فمن الكتاب: ١ - قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (البقرة: ٦٥)، يقول تعالى: لقد علمتم يا معشر اليهود ما حل من

---

(١) أحكام الأحكام شرع عمدة الأحكام (٢٣٠).

(٢) فتح الباري (٢/ ٢١٥).

(٣) البخاري (٥٥٩٠).

(٤) صحيح ابن حبان (٢٢٨٣).

(٥) فتح الباري (٢/ ٢١٦).

الناس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره؛ إذ كان مشروعًا لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت.

فلما فعلو ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي، في الشكل والظاهر وليست بإنسان حقيقة، وكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشبهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس أعمالهم.

وعن قتادة والكلبي: في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ قالا: نهوا عن صيد الحيتان في يوم السبت، فكانت تشرع إليهم يوم السبت، بلوا بذلك فاصطادوهم فجعلهم الله قردة خاسئين[1].

وهذا الفعل ليس على الله ببعيد ولا بعزيز إذ لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى.

قال الرازي: قوله ﷻ: ﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ ليس بأمر؛ لأنهم ما كانوا قادرين على أن يقلبوا أنفسهم على صورة القردة؛ بل المراد منه سرعة التكوين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ (النحل: ٤٠) وكقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(فصلت: ١١)، والمعنى: أنه تعالى لم يعجزه ما أراد إنزاله من العقوبة بهؤلاء بل لما قال لهم ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ صاروا كذلك؛ أي لما أراد ذلك بهم صاروا كما أراد وهو كقوله ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧). [2]

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٦)، تفسير الطبري (١/ ٣٣١)، عبد الرزاق في التفسير (١/ ٢٧٣).
(٢) تفسير الرازي (٣/ ١١٠).

٢- قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (الأعراف: ١٦٦)، يقول تعالى ذكره: فلما تمردوا فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك وأكله وتمادوا فيه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي بُعَداء من الخير[1].

وقال ابن عباس ﷺ: أبوا أن يرجعوا عن المعصية ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ مبعدين فمكثوا ثلاثة أيام ينظر بعضهم إلى بعض وينظر إليهم الناس ثم هلكوا.[2]

وقال قتادة: لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى، بعدما كانوا رجالًا ونساء، وقال ابن عباس ﷺ جعل الله منهم القردة والخنازير؛ فزعم أن شبان القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير.[3]

٣- قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المائدة: ٦٠) بقوله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار، هل أنبئكم يا معشر أهل الكتاب بشر من ثواب ما تنقمون منا من إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتاب الله، وما أنزل من قبلنا من كتبه؟ ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ من أبعده الله وأسحقه من رحمته وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير، يقول: وغضب عليه وجعل منهم المسوخ القردة والخنازير غضبًا منه عليهم وسخطًا فعجل لهم الخزي والنكال في الدنيا.[4]

---

(١) ابن جرير الطبري (٦/ ١٠١)، الرازي (١٥/ ٤٠).

(٢) البغوي في تفسيره (٢/ ٢٠٩)، الخازن (٢/ ٢٦٣).

(٣) الخازن (٢/ ٢٦٣).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٢٩٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٧٢)، تفسير الرازي (١٢/ ٣٦).

وقال الشوكاني: قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وهم اليهود؛ فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة، وكفار مائدة عيسي منهم خنازير، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: (إن الممسوخين كلاهما أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير)(١).

والأدلة على وجود ووقوع المسخ في الأمم الماضية من السنة النبوية الشريفة ما يلي: -

١- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " قَالَ فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُدْرَى مَا فَعَلَتْ، وَإِنِّي لَا أُرَاهَا إِلَّا الْفَارَ إِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الْإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْ، وَإِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الشَّاءِ شَرِبَتْ، فَحَدَّثْتُ كَعْبًا فَقَالَ أَنْتَ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ لِي مِرَارًا فَقُلْتُ أَفَأَقْرَأُ التَّوْرَاةَ؟ "(٢).

وعند مسلم من طرق أخرى عن ابن سيرين عن أبي هريرة ﷺ قال: "الفأرة مسخ، وآية ذلك أنه يوضع بين يديها لبن الغنم فتشربه ويوضع بين يديها لبن الإبل فلا تذوقه" فقال له كعب: أسمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: أفأنزلت على التوراة "(٣)

معناه أي أني سمعته من رسول الله ﷺ، وأنا لا أقرأ التوراة حتى أعرفه من غير النبي ﷺ.

٢- وعن أبي سعيد ﷺ أن أعرابيًا أتي رسول الله ﷺ فقال: إني في غائط مضبة وإنه عامة طعام أهلي، قال: فلم يجبه فقلنا عاوده، فعاوده فلم يجبه، ثلاثًا. ثم ناداه رسول الله ﷺ في الثالثة فقال: "يا أعرابي إن الله لعن أو غضب على سبط من بني إسرائيل، فمسخهم دواب يدبون في الأرض، فلا أدري لعل هذا منها، فلست آكلها ولا أنهي عنها ". (٤)

(١) فتح القدير (٢/ ٧٩)، البغوي في معالم التنزيل (٢/ ٤٩)، الخازن (٢/ ٥٨).
(٢) البخاري (٣٣٠٥)، ومسلم (٢٩٩٧).
(٣) مسلم (٢٩٩٧).
(٤) مسلم (١٩٥١).

قال الإمام النووي: قوله ﷺ " فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدري ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربها وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته " معنى هذا أن لحوم الإبل وألبانها حرمت على بني إسرائيل دون لحوم الغنم وألبانها، فدل بامتناع الفأرة من لبن الإبل دون الغنم على أنها مسخ من بني إسرائيل. (١)

الوجه الرابع: وقوع المسخ في الأمة المحمدية الخاتمة والأدلة على ذلك.

إن صحابة رسول الله ﷺ خافوا من أن يمسخهم الله ﷻ قردة وخنازير فلجئوا إلى الله تعالى قائلين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)

قال الطبري: وقال آخرون معنى ذلك: ولا تحمل علينا ذنوبًا وإثمًا، كما حملت ذلك على من قبلنا من الأمم فتمسخنا قردة وخنازير كما مسختهم.

ونقل عن عطاء بن أبي رباح في قوله ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: لا تمسخنا قردة وخنازير. (٢)

ومن الأدلة التي تبين وقوع المسخ في الأمة الخاتمة ما يلي:

١- عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال حدثني أبو عامر - أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبني " سمع النبي ﷺ يقول: " ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرَّ والحرير

---

(١) مسلم بشرح النووي (٩/ ٣٥١)، وقد قال الشوكاني في" نيل الأوطار" بعد ذكره الحديث: وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّ الْمَمْسُوخَ لَا نَسْلَ لَهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَم ذَلِكَ إِلَّا بِوَحْيٍ، وَأَنَّ تَرَدُّدَهُ فِي الضَّبِّ كَانَ قَبْلَ الْوَحْيِ بِذَاكَ، وَالْحَدِيثُ يَرْوِيهِ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ الْقِرَدَةُ، قَالَ مِسْعَرٌ: وَأَرَاهُ قَالَ وَالْخَنَازِيرُ مِمَّا مُسِخَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَقَدْ كَانَتْ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ. وَفِي رِوَايَةٍ: " أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ هِيَ مِمَّا مَسَخَ اللهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ: ﷺ إِنَّ اللهَ لَمْ يَهْلِكْ أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا فَيَجْعَلُ لَهُمْ نَسْلًا .(مسلم: ٢٦٦٣)، (نيل الأوطار ٨/ ١٣٤).

فنقول: أن سبب قول النبي ﷺ (لا أدري لعل هذا فيها) كان قبل الوحي بأن المسخ لا يتناسلون، وقال النووي: قوله" وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك" أي قبل مسخ بني إسرائيل، فدل أنها ليست من المسخ (شرح النووي٨/ ٤٦٦).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١٥٧)، تفسير القرطبي (٣/ ٤٩٢).

والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غدًا فيبيتهم الله، ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة". (١)

قال ابن حجر: قال ابن العربي: يُحتمل الحقيقة كما وقع للأمم السالفة، ويحتمل أن يكون كناية عن تبدل أخلاقهم. قلت: والأول أليق بالسياق. (٢)

٢- عن عبد الله عن النبي ﷺ قال " بين يدي الساعة مسخ وخسف وقذف ". (٣).

٣- وعن سهل بن سعد أنه سمع النبي ﷺ يقول "يكون في آخر أمتي خسف ومسخ وقذف". (٤)

٤- وعن نافع، أن رجلًا أتى ابن عمر ﵁ فقال: إن فلانًا يقرؤك السلام قال: أنه بلغني أنه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول " يكون في أمتي (أو في هذه الأمة) مسخ وخسف وقذف " وذلك في أهل القدر. (٥)

٥- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: " يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث". (٦)

٦- وعن عمران بن حصين ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: " في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور". (٧)

---

(١) رواه البخاري (٥٥٩٠).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٨٥).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠٩٥)، ابن حبان (٩٥٧٦) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٨٠)

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠٦٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٨١).

(٥) رواه الترمذي (٢١٥٢)، ابن ماجه (٤٠٦١)، أبو داود (٤٦١٣)، أحمد (٢/ ١٠٨)، وحسن إسناده الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح (١٠٦).

(٦) رواه الترمذي في سننه (٢١٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٥٦).

(٧) الترمذي (٢٢١٢) والطبراني في الكبير (٥٨١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٦٥)

فهذه كلها أدلة ثابتة من كتاب ربنا ومن سنة نبينا محمد ﷺ على وقوع المسخ حقيقة ولا ينكر هذا الفعل إلا من لا علم له.

الوجه الخامس: آداب وأحكام الصلاة خلف الإمام.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا[1].

ففي هذا الحديث وجوب متابعة الإمام وعدم مسابقته.

ومن فوائد متابعة الإمام ما يلي:

ضبطُ النَّفسِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا اعتادَ على أن يتابعَ إمامًا متابعةً دقيقةً، إذا كبَّرَ يكبِّرُ، لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ كثيرًا، ولا يوافق، بل يتابعُ، تعوَّدَ على ضَبْطِ النَّفسِ.

وفيها تعويدُ الأمَّةِ الإسلاميةِ على الاجتماعِ وعدم التفرُّق؛ لأنَّ هذا الاجتماعَ يُشكِّلُ اجتماع الأمَّة عمومًا؛ إذ إن الأمَّةَ عمومًا مجتمعة على طاعةِ ولي أمرِها، وقائدِ مسيرتها حتى لا يختلفوا ويتشتَّتوا، فهذه الصَّلاةُ في الجماعة وِلاية صُغرى؛ لأنهم يقتدون بإمامٍ واحدٍ يتابعونه تمامًا، فهي تشكِّلُ النَّظرةَ العامةَ للإسلامِ.

الوجه السادس: المسخ في الكتاب المقدس.

يحدثنا إنجيل برنابا عن حادثة مسخ، كما في برنابا (٢٧: ٥-٦) مسخ المصريين حيوانات: "ألا تعلمون أن الله في زمن موسى مسخ ناسًا كثيرين في مصر حيوانات مخوفة، لأنهم ضحكوا واستهزئوا بالآخرين ".

* * *

(١) البخاري (٦٥٦).

١٦ـ شبهة: ابتلاء أحد الأنبياء بالقمل.

نص الشبهة:

في بعض الأحاديث أن نبيًّا من الأنبياء ابتلي بالقمل حتى قتله.

فكأنهم استنقصوا هذا الكلام، إذ كيف يحدث لنبي مثل ذلك؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معرفة درجة الحديث.

الوجه الثاني: الفهم الصحيح للحديث.

الوجه الثالث: ليس هناك إشكال أن يُبتلى نبي بمثل ذلك، فهذا قدر الله ﷻ.

الوجه الرابع: أن الأنبياء - عليهم السلام - قدوة لنا.

الوجه الخامس: ابتلاء الأنبياء في الكتاب المقدس.

وإليك الرد بالتفصيل،

الوجه الأول: معرفة درجة الحديث.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: وَضَعَ رَجُلٌ يَدَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وَالله مَا أُطِيقُ أَنْ أَضَعَ يَدِي عَلَيْكَ مِنْ شِدَّةِ حُمَّاكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ يُضَاعَفُ لَنَا الْبَلَاءُ كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ، إِنْ كَانَ النَّبِيُّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ يُبْتَلَى بِالْقُمَّلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ، وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى يَأْخذَ الْعَبَاءَةَ فَيَجُوبَهَا، وَإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بِالْبَلَاءِ كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرَّخَاءِ."**

وهذه الرواية في إسنادها رجل مبهم لم يُسم، قال الإمام أحمد: ثنا عبد الرزاق، أخبرنا، معمر، عن زيد بن أسلم، عن رجل، عن أبي سعيد الخدري﵁ به، وقد صحح الشيخ الألباني إسناده.[1]

(١) مسند أحمد (٣/ ٩٤)، مصنف عبد الرزاق (٢٠٦٢٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٧).

ولعل هذا الرجل هو عطاء بن يسار، كما صرح به في رواية الحاكم في المستدرك، والتي فيها أن أبا سعيد هو الذي وضع يده على قطيفة رسول الله ﷺ، حيث قال الحاكم: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، عن الربيع بن سليمان المرادي، وبحر بن نصر بن سابق الخولاني، قال الربيع: حدثنا، وقال بحر: أخبرنا عبد الله بن وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه، دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك، عليه قطيفة، ووضع يده عليها فوجد حرارتها فوق القطيفة، فقال أبو سعيد: ما أشد حر حماك يا رسول الله؟ ، فقال رسول الله ﷺ: " إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر" ثم قال: يا رسول الله، من أشد الناس بلاء؟ قال: "الأنبياء " قال: ثم من؟ قال: " العلماء " قال: ثم من؟ قال: " ثم الصالحون " كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ويبتلى بالقمل حتى تقتله، ولأحدهم كان أشد فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، فقد احتج بهشام بن سعد، ثم له شواهد كثيرة ولحديث عاصم بن بهدلة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه طرق يتبع ويذاكر بها، وقد تابع العلاء بن المسيب عاصم بن بهدلة على روايته عن مصعب بن سعد.(1)

وللحديث شواهد:

الأول: عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ: " أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ، قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، قَالَ: أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا". (1)

---

(1) المستدرك (١/ ٩٩) (١١٩). قال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم، وله شواهد كثيرة اهـ.
وإسناد هذا الحديث كله ثقات، إلا هشام بن سعد فهو صدوق له أوهام، كما قال ابن حجر في التقريب، وضعفه النسائي وغيره، وقال ابن معين: كان يحيى القطان لا يحدث عنه، وقال أحمد بن حنبل: ليس هو بمحكم الحديث، وقال ابن عدي: هو من ضعفه يكتب حديثه، وقال أبو عبد الله الحاكم: لينته، روى له مسلم في الشواهد (من تكلم فيه وهو موثق (٣٥٤)، وانظر تهذيب الكمال (٣٠/ ٢٠٩: ٢٠٥).

والثاني: عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: "**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**". (٢)

الوجه الثاني: الفهم الصحيح للحديث.

يبقى إشكال وهو قولهم: كيف يبتلى نبي من الأنبياء بالقمل؟

نقول: قوله: "وإن كان نبي من الأنبياء يبتلى بالقمل. . "، جاءت هذه اللفظة في حديث المسند، وفي إسناده رجل لم يُسم، وهو الراوي عن أبي سعيد، فيضعف الإسناد بذلك، وجاء في حديث المستدرك قوله: "ثم الصالحون كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ويبتلى بالقمل حتى تقتله. . . "، فلعل المقصود بذلك الصالحون فقط وليس الأنبياء.

الوجه الثالث: هذا قدر الله ﷻ.

لو ابتلي نبي من الأنبياء بذلك، أي بالقمل فلا إشكال في ذلك، فهذا ابتلاء من الله سبحانه، وأيًا كان نوع الابتلاء، فإن الله ﷻ يبتلي من شاء من خلقه بما شاء من ابتلاءاته، ليختبرهم وليرفع بها درجاتهم، ولحكمة يعلمها رب الأرض والسماء، فلا يجوز لنا أن نعترض على حكم الله وقدره، ولا ينقص هذا من قدر الأنبياء، بل كما وضحنا في حديث الترمذي أن الابتلاء يأتي على قدر الإيمان، وأنه يبتلى المرء على قدر دينه.

وحكمة هذه الابتلاءات وضحها النبي ﷺ في الحديث حيث قال: "يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر"، وفي الحديث الآخر، "إني أوعك كما يوعك رجلان منكم... ، ثم قال: ذلك أن لنا أجرين.. "، فكلما اشتد البلاء ارتفعت الأجور، وكلما اشتد البلاء دل على قوة الإيمان ورفعته.

---

(١) البخاري (٥٦٤٨)، مسلم (٢٥٧١).

(٢) الترمذي (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح، والدارمي (٢٧٨٣)، ابن حبان في صحيحه (٢٩٠٠)، الحاكم في المستدرك (١٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٣).

الوجه الرابع: أن الأنبياء قدوة لنا.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾(الممتحنة: ٦)، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب: ٢١)، فلما يرى ويعلم المبتلى ما وقع بالأنبياء من بلاء تهون عليه مصيبته، ويهون عليه بلاءه بإذن الله تعالى، ومن أمثلة ذلك:

عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ﷺ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ: " أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجلَانِ مِنْكُمْ، قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، قَالَ: أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا". [(١)]

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشَدَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ مِنْ رَسولِ الله ﷺ[(٢)]

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ". [(٣)]

قال النووي: قَالَ الْعُلَمَاء: وَالْحِكْمَة فِي كَوْن الْأَنْبِيَاء أَشَدَّ بَلَاء ثُمَّ الْأَمْثَل فَالْأَمْثَل أَنَّهُمْ مَخْصُوصُونَ بِكَمَالِ الصَّبْر، وَصِحَّة الِاحْتِسَاب، وَمَعْرِفَة أَنَّ ذَلِكَ نِعْمَة مِنْ الله تَعَالَى لِيَتِمّ لَهُمْ الْخَيْر، وَيُضَاعَف لَهُمْ الْأَجْر، وَيَظْهَر صَبْرهمْ وَرِضَاهُمْ. [(٤)]

وقال تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)، وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(ص: ٤١).

---

(١) البخاري (٥٦٤٨)، مسلم (٢٥٧١).

(٢) مسلم (٢٥٧٠).

(٣) مر قريبًا.

(٤) شرح النووي (٨/ ٣٧٤).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيوب يا محمد، إذ نادي ربه وقد مسه الضرّ والبلاء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾(الأنبياء٨٤: ٨٣)، يقول تعالى ذكره: فاستجبنا لأيوب دعاءه إذ نادانا، فكشفنا ما كان به من ضرّ وبلاء وجهد، وكان الضر الذي أصابه والبلاء الذي نزل به امتحانًا من الله له واختبارًا. (١)

ومن بشرية الرسول أن يجرى عليه ما يجرى على الناس من البلاء والموت ومن الصحة والمرض وغيرها من الصفات البشرية فيكون ذلك أدعى لنجاح البلاغ عن الله. (٢)

وبهذا الكلام يتقرر أن البلاء في باطنه نعمة من الله تعالى، وقد أُوذي الأنبياء كثيرًا، ولا إشكال أن يبتلى نبي من الأنبياء بالقمل، فهذه حكمة الله جل في علاه.

الوجه الخامس: ابتلاء الأنبياء في الكتاب المقدس.

لقد ذكر الكتاب المقدس الابتلاءات، وأنها عذاب للمؤمن والعاصي، وكلاهما لم يصبرا عليها

١-عقاب المنافق نار ودود (سفر أستير: ٢٠).

(لكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا لِمُوسَى، بَلْ أَبْقَى مِنْهُ أُنَاسٌ إِلَى الصَّبَاحِ، فَتَوَلَّدَ فِيهِ دُودٌ وَأَنْتَنَ. فَسَخَطَ عَلَيْهِمْ مُوسَى)(الخروج١٦/ ٢٠).

٢-ماذا فعل أيوب بعد إصابته بعدة ابتلاءات: (فَقَامَ أَيُّوبُ وَمَزَّقَ جُبَّتَهُ، وَجَزَّ شَعْرَ رَأْسِهِ، وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ وَسَجَدَ، وَقَالَ: عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَعُرْيَانًا أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ. الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ، فَلْيَكُنِ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكًا) (سفر أيوب١/ ٢١: ٢٠).

(فَخَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ، وَضَرَبَ أَيُّوبَ بِقُرْحٍ رَدِيءٍ مِنْ بَاطِنِ قَدَمِهِ إِلَى هَامَتِهِ. فَأَخَذَ لِنَفْسِهِ شَقْفَةً لِيَحْتَكَّ بِهَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي وَسَطِ الرَّمَادِ)(٢/ ٨: ٧).

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٥).

(٢) شبهات المشككين (١/ ١٠٢).

فلما أتى إليه ثلاثة ليعزوه فيما أصيب به: (وَرَفَعُوا أَعْيُنَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ وَبَكَوْا، وَمَزَّقَ كُلُّ وَاحِدٍ جُبَّتَهُ، وَذَرَّوْا تُرَابًا فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَقَعَدُوا مَعَهُ عَلَى الأَرْضِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَسَبْعَ لَيَالٍ، وَلَمْ يُكَلِّمْهُ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ، لأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ كَآبَتَهُ كَانَتْ عَظِيمَةً جِدًّا)(سفر أيوب ٢/ ١٣: ١٢).

٣- أيوب يلعن اليوم الذي وُلد فيه:

(بَعْدَ هذَا فَتَحَ أَيُّوبُ فَاهُ وَسَبَّ يَوْمَهُ.. لَيْتَهُ هَلَكَ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ.. لِيَلْعَنْهُ لاَعِنُو الْيَوْمِ... لِمَ لَمْ أَمُتْ مِنَ الرَّحِمِ؟ عِنْدَمَا خَرَجْتُ مِنَ الْبَطْنِ، لِمَ لَمْ أُسْلِمِ الرُّوحَ) (سفر أيوب٣/ ١١: ١).

٤- فقالوا له ليتقلل من جزعه وغضبه على القدر مع أنه من قبل كان يصبرهم ليتحملوا المرض والآلام: (وَالآنَ إِذْ جَاءَ عَلَيْكَ ضَجِرْتَ، إِذْ مَسَّكَ ارْتَعْتَ) (سفر أيوب٤/ ٥).

٥- نجد في الكتاب المقدس نظرة بائسة للحياة:

(وَلكِنَّ الإِنْسَانَ مَوْلُودٌ لِلْمَشَقَّةِ كَمَا أَنَّ الْجَوَارِحَ لارْتِفَاعِ الْجَنَاحِ)(سفر أيوب٥/ ٧).

٦-أيوب انهار صبره، ويظن أن الله عاقبه عقابًا لا يتحمله بشر:

(مَا هِيَ قُوَّتِي حَتَّى أَنْتَظِرَ؟ وَمَا هِيَ نِهَايَتِي حَتَّى أُصَبِّرَ نَفْسِي؟ هَلْ قُوَّتِي قُوَّةُ الْحِجَارَةِ؟ هَلْ لَحْمِي نُحَاسٌ؟)(سفر أيوب٦/ ١٢: ١١).

٧-أيوب يشتكي إلى الله من الله:

(حَتَّى مَتَى لاَ تَلْتَفِتُ عَنِّي وَلاَ تُرْخِينِي رَيْثَمَا أَبْلَعُ رِيقِي؟ أَأَخْطَأْتُ؟ مَاذَا أَفْعَلُ لَكَ يَا رَقِيبَ النَّاسِ؟ لِمَاذَا جَعَلْتَنِي عَاثُورًا لِنَفْسِكَ حَتَّى أَكُونَ عَلَى نَفْسِي حِمْلًا؟)(سفر أيوب٧/ ٢٠: ١٩).

* * *

١٧ـ شبهة: وقت قيام الساعة.

نص الشبهة:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الأَعْرَابِ جُفَاةً يَأْتُونَ النبي ﷺ فَيَسْأَلُونَهُ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فَيَقُولُ: " إِنْ يَعِشْ هَذَا لاَ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ "، قَالَ هِشَامٌ: يَعْنِي: مَوْتَهُمْ(١).

وعند مسلم: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ الأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَنَظَرَ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَقَالَ: " إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ "، وفي رواية: " إِنْ يَعِشْ هَذَا الْغُلاَمُ فَعَسَى أَنْ لاَ يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ "(٢).

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: مَرَّ غُلاَمٌ لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ وَكَانَ مِنْ أقراني فَقَالَ النبي ﷺ: " إِنْ يُؤَخَّرْ هَذَا فَلَنْ يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ". (٣)

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبي ﷺ قَالَ: " مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ هُنَيْهَةً، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى غُلاَمٍ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ فَقَالَ: " إِنْ عُمِّرَ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، قَالَ: قَالَ أَنَسٌ: ذَاكَ الْغُلاَمُ مِنْ أَتْرَابِي يَوْمَئِذٍ(٤).

أثار المعترضون شبهتهم حول زمن القيامة، وقالوا: إن هذا الحديث يخالف الواقع، وقد مات الغلام ومرت مئات السنين ولم تقم الساعة حتى الآن؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى الساعة في اللغة.

الوجه الثاني: قد تُطلق الساعة ويُراد بها موت الإنسان.

الوجه الثالث: العلة من تخصيص النبي ﷺ (الساعة) بالموت.

---

(١) البخاري (٦٥١١).

(٢) مسلم (٢٩٥٢).

(٣) مسلم (٢٩٥٣).

(٤) مسلم (٢٩٥٣).

الوجه الرابع: تقييد النبي ﷺ لبعض علامات الساعة على قيامها لا يدل على تقييدها بهذه العلامات.

الوجه الخامس: أدلة أن ميعاد الساعة موكول إلى الله تعالى.

الوجه السادس: النبي ﷺ يختلف عن سائر البشر، إذ أن الله يوحي إليه ببعض الغيب.

الوجه السابع: يوم القيامة في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى الساعة في اللغة.

والساعةُ الوقت الحاضر، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ يعني بالساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة؛ فلذلك تُرِكَ أَن يُعَرَّف أَيُّ ساعةٍ هي، فإن سميت القيامة ساعة فعَلى هذا، والساعة: القيامة؛ وقال الزجاج: الساعة اسم للوقت الذي تَصْعَقُ فيه العِبادُ، والوقتِ الذي يبعثون فيه، وتقوم فيه القيامة؛ سميت ساعة لأَنها تَفْجَأُ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأُولى التي ذكرها الله ﷻ فقال: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾. (١)

الوجه الثاني: قد تطلق الساعة ويُراد بها موت الإنسان.

قال ابن حجر: قال الراغب: الساعة جزء من الزمان، ويعبر بها عن القيامة تشبيهًا بذلك لسرعة الحساب، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾، أو لما نبه عليه بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، وأُطلقت الساعة على ثلاثة أشياء:

١- الساعة الكبرى: وهي بعث الناس للمحاسبة.

٢- والوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد.

٣- الصغرى: موت الإنسان، فساعة كل إنسان موته. ومنه قوله ﷺ عند هبوب الريح تخوفت الساعة يعني: موته.

---

(١) لسان العرب ٨/ ١٦٩.

وقال الكرماني: هذا الجواب من الأسلوب الحكيم؛ أي: دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى فإنها لا يعلمها إلا الله، واسألوا عن الوقت الذي يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم؛ لأن معرفتكم به تبعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فواته؛ لأن أحدكم لا يدري من الذي يسبق الآخر. (١)

قال النووي: قَالَ الْقَاضِي عياض: هَذِهِ الرِّوَايَات كُلّهَا مَحْمُولَة عَلَى مَعْنَى الْأَوَّل، وَالْمُرَاد "بِسَاعَتِكُمْ": مَوْتهمْ، وَمَعْنَاهُ: يَمُوت ذَلِكَ الْقَرْن، أَوْ أُولَئِكَ الْمُخَاطَبُونَ، قُلْت: وَيُحْتَمَل أَنَّهُ عُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ الْغُلَام لَا يَبْلُغ الْهَرَم، وَلَا يُعَمَّر، وَلَا يُؤَخَّر. (٢)

وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ: " تسألوني عَنِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله، وَأُقْسِمُ بِالله مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ ". (٣)

وعن ابن عمر ﷺ مثله؛ قال: وإنما أراد ﷺ: " ينخرم هذا القرن " أي: ينقطع وينقضي. (٤)

قال ابن حجر: وكان جماعة من أهل ذلك العصر يظنون أن المراد أن الدنيا تنقضي بعد مائة سنة؛ فلذلك قال الصحابي: فوهل الناس فيما يتحدثون من مائة سنة وإنما أراد ﷺ بذلك انخرام قرنه، فلم يبق ممن كان موجودًا عند مقالته تلك عند استكمال مائة سنة من سنة موته أحد. (٥)

الوجه الثالث: العلة من تخصيص النبي ﷺ (الساعة) بالموت.

قال ابن حجر: قال الداودي: هذا الجواب من معاريض الكلام، فإنه لو قال لهم: لا أدري ابتداءً مع ما هم فيه من الجفاء، وقبل تمكن الإيمان في قلوبهم لارتابوا، فعدل إلى إعلامهم بالوقت الذي ينقرضون هم فيه، ولو كان تمكن الإيمان في قلوبهم لأفصح لهم بالمراد. (١)

---

(١) فتح الباري١١/ ٣٧٢: ٣٧١ بتصرف.

(٢) شرح النووي ٩/ ٣١٧.

(٣) مسلم (٢٥٣٨).

(٤) البخاري (٦٠١)، مسلم (٢٥٣٧) واللفظ له.

(٥) فتح الباري١٠/ ٥٥٧ بتصرف.

الوجه الرابع: تقييد النبي ﷺ لبعض علامات الساعة على قيامها لا يدل على تقييدها بهذه العلامات.

قال النبي ﷺ: " فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ "، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: " إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ". (٢)

فهذه العلامات ذكرها النبي ﷺ، وقد حدثت وبعضها لم يقع، وإنما هي بمثابة نذير للقوم حتى يستعدوا للقاء الله ﷻ، ولذلك يأتي الأمر في نهايته أن الساعة من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (لقمان: ٣٤)، وقال النبي ﷺ: " مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ". (٣)

الوجه الخامس: أدلة أن ميعاد الساعة موكول إلى الله تعالى.

أولًا: من القرآن:

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ (لقمان: ٣٤)، وقال أيضًا: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأحزاب: ٦٣)، وقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النازعات ٤٢: ٤٤).

ثانيًا: السنة: عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ. . . وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ الله ". (٤)

وفي سؤال جبريل ﵇: متى الساعة؟ قال: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. (١)

(١) فتح الباري ١١/ ٣٧١ بتصرف.

(٢) البخاري (٥٩).

(٣) البخاري (٥٠).

(٤) البخاري (٧٣٧٩).

الوجه السادس: النبي ﷺ يختلف عن سائر البشر، إذ أن الله يوحي إليه ببعض الغيب.

فمن حديث زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ - رضي الله عنها- أَنَّهَا قَالَتِ: اسْتَيْقَظَ النبي ﷺ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ: "لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يأجوج ومأجوج مِثْلُ هَذِهِ". (٢)

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: "يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَيُّمَ هُوَ؟ قَالَ: " الْقَتْلُ الْقَتْلُ". (٣)

وعنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ لَعَلِّى أَكُونُ أَنَا الذي أَنْجُو ".(٤)

الوجه السابع: يوم القيامة في الكتاب المقدس.

«وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ، إِلاَّ أَبِي وَحْدَهُ. (متى ٢٤/ ٣٦)

وَقَالَ لَهُمْ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ ههُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ الله قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ»(مرقس٩/ ١).

* * *

(١) البخاري (٥٠)، مسلم (٩).
(٢) البخاري (٧٠٥٩)، مسلم (٢٨٨٠).
(٣) البخاري (٧٠٦١).
(٤) مسلم (٢٨٩٤).

١٨ـ شبهة: الحمى من جهنم.

نص الشبهة:

عن رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ الْحُمَّى مِنْ فَوْرِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا عَنْكُمْ بِالْمَاءِ[١]

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى (فيح جهنم، وفور جهنم).

الوجه الثاني: معنى الحديث (الْحُمَّى مِنْ فَوْرِ جَهَنَّمَ).

الوجه الثالث: فوائد النار في الدنيا التي تنفع في الآخرة.

الوجه الرابع: فوائد الحمى.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى (فيح جهنم).

قال ابن منظور: (فيح): فاحَ الحرُّ يَفِيحُ فَيْحًا سَطَعَ وهاجَ وفي الحديث شدّة القَيْظ من فَيْح جهنم الفَيْح سُطُوع الحرّ وفَورانُه ويقال بالواو فوح الحر شدة سطوعه، وفاض القِدْرُ تَفِيحُ وتَفُوحُ إِذا غَلَتْ وقد أَخرجه مَخْرَجَ التشبيه أَي كأَنه نار جهنم في حرِّها.

وفَوْرُ الحرّ شدته وفي الحديث" كلا بل هي حُمَّى تَثُور أَو تَفُور " أَي يظهر حرها وفي الحديث" إِن شدة الحرّ من فَوْرِ جهنم " أَي وَهَجِها وغليانها، وفار الشيء فورًا: جاش[٢].

قال ابن حجر: (بَاب الْحُمَّى مِنْ فَيْح جَهَنَّم)، وَفِي لَفْظِ " فَوْر " بِالرَّاءِ بَدَل الْحَاء وَكُلّهَا بِمَعْنًى وَالْمُرَاد سُطُوع حَرّهَا وَوَهَجه[٣]. ويُقصد به أيضًا شِدَّة حَرّهَا وَلَهَبهَا وَانْتِشَارهَا[٤].

الوجه الثاني: معنى قول النبي ﷺ: الْحُمَّى مِنْ فَوْرِ جَهَنَّم.

إن خِطَابُ النّبِيّ ﷺ نَوْعَانِ: عَامّ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَخَاصّ بِبَعْضِهِمْ، فَالْأَوّلُ كَعَامّةِ

(١) البخاري (٣٢٦٢)، مسلم (٢٢١٢).

(٢) لسان العرب٥/ ٦٧.

(٣) فتح الباري٦/ ١٨٥.

(٤) شرح النووي٧/ ٤٥٦.

خِطَابِهِ، وَالثَّانِي: كَقَوْلِهِ: "لَا تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ وَلَا بَوْلٍ وَلَا تَسْتَدْبِرُوهَا وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا"(١)، فَهَذَا لَيْسَ بِخِطَابٍ لِأَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَا الْعِرَاقِ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَا عَلَى سَمْتِهَا كَالشَّامِ وَغَيْرِهَا، وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَخِطَابُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ خَاصٌّ بِأَهْلِ الْحِجَازِ مَا وَالَاهُمْ؛ إِذْ كَانَ أَكْثَرُ الْحُمِيَّاتِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُمْ مِنْ نَوْعِ الْحُمَّى الْيَوْمِيَّةِ الْعَرَضِيَّةِ الْحَادِثَةِ عَنْ شِدَّةِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ؛ وَهَذِهِ يَنْفَعُهَا الْمَاءُ الْبَارِدُ شُرْبًا وَاغْتِسَالًا(٢).

قال ابن حجر: وَاخْتُلِفَ فِي نِسْبَة الحمى إِلَى جهَنَّم فَقِيلَ حَقِيقَة، وَاللهب الْحَاصِل فِي جِسْم الْمَحْمُوم قِطْعَة مِنْ جهَنَّم، وَقَدَّرَ الله ظُهُورهَا بِأَسْبَابٍ تَقْتَضِيهَا لِيَعْتَبِر الْعِبَاد بِذَلِكَ، كَمَا أَنَّ أَنْوَاع الْفَرَح وَاللَّذَّة مِنْ نَعِيم الْجَنَّة، أَظْهَرهَا فِي هَذِهِ الدَّار عِبْرَة وَدَلَالَة. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيث أَخْرَجَهُ الْبَزَّار مِنْ حَدِيث عَائِشَة بِسَنَدٍ حَسَن، وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عِنْد أَحْمَد، وَعَنْ أَبِي رَيْحَانَة عِنْد الطَّبَرَانِيّ، وَعَنْ اِبْن مَسْعُود فِي مُسْنَد الشِّهَاب "الْحُمَّى حَظّ الْمُؤْمِن مِنْ النَّار". وَقِيلَ: بَلْ الْخَبَر وَرَدَ مَوْرِد التَّشْبِيه، وَالْمَعْنَى أَنَّ حَرّ الْحُمَّى شَبِيه بَحْر جَهَنَّم تَنْبِيهًا لِلنُّفُوسِ عَلَى شِدَّة حَرّ النَّار، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَرَارَة الشَّدِيدَة شَبِيهَة بِفَيْحِهَا وَهُوَ مَا يُصِيب مَنْ قَرُبَ مِنْهَا مِنْ حَرّهَا كَمَا قِيلَ بِذَلِكَ فِي حَدِيث الْإِبْرَاد، وَالْأَوَّل أَوْلَى وَالله أَعْلَم.

وَيُؤَيِّد هذا القَوْل اِبْن عُمَر ﵁: (اكشف عنا الرجز) أي: العذاب، وهذا موصول بالسند الذي قبله، وكأن ابن عمر فهم من كون أصل الحمى من جهنم، أن من أصابته عذب بها، وهذا التعذيب يختلف باختلاف محله: فيكون للمؤمن تكفيرا لذنوبه وزيادة في أجوره كما سبق، وللكافر عقوبة وانتقامًا. وإنما طلب ابن عمر كشفه مع ما فيه من الثواب لمشروعية طلب العافية من الله سبحانه؛ إذ هو قادر على أن يكفر سيئات عبده ويعظم ثوابه، من غير أن يصيبه شيء يشق عليه. (٣)

(١) البخاري (١٤٤)، مسلم (٢٦٤).

(٢) زاد المعاد ٤/ ٢٦: ٢٥.

(٣) فتح الباري١٠/ ١٨٨: ١٨٥.

الوجه الثالث: فوائد النار في الدنيا التي تنفع في الآخرة.

لقد بين لنا رب العزة سبحانه وتعالى فوائد النار التي ينتفع بها الإنسان في حياته الدنيوية في كتابه العزيز، والتي تنفع في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾، يقول تعالى ذكره: أفرأيتم أيها الناس النار التي تستخرجون من زَنْدكم ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ يقول: أأنتم أحدثتم شجرتها واخترعتم أصلها ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ يقول: أَمْ نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه؟ [(١)].

ثم بين منافع هذه النار فقال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

في قوله: ﴿تَذْكِرَةً﴾ وجهان أحدهما: تذكرة لنار القيامة فيجب على العاقل أن يخشى الله تعالى وعذابه إذا رأى النار الموقدة. وثانيهما: تذكرة بصحة البعث، لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الأخضر لا يعجز عن إيداع الحرارة الغريزية في بدن الميت، أي نحن جعلنا النار تبصرة في أمر البعث؛ حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها، ويذكروا بها ما أوعدوا به. وقال مجاهد وقتادة: أي تذكر النار الكبرى[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **"نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ"** قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً. قَالَ: **"فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا"**[(٣)].

وقال الشنقيطي: وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي تذكر الناس بها في دار الدنيا إذا أحسوا شدة حرارتها. نار الآخرة التي هي أشد منها حرًا لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار، وقوله تعالى ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي منفعة للنازلين بالقواء من الأرض، وهو الخلاء والفلاة التي ليس بها أحد، وهم المسافرون، لأنهم ينتفعون بالنار انتفاعًا عظيمًا في

(١) تفسير الطبري٢٧/ ٢٠١، تفسير المراغي٢٧/ ١٤٨، تفسير الرازي٢٩/ ١٨٤.
(٢) تفسير الرازي٢٩/ ١٨٤، تفسير المراغي٢٧/ ١٤٨، تفسير ابن كثير١٣/ ٣٨٦.
(٣) البخاري (٣٢٦٥).

الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد[(١)].

الوجه الرابع: فوائد الحمى.

يقول ابن القيم: وَقَدْ يَنْتَفِعُ الْبَدَنُ بِالْحُمّى انْتِفَاعًا عَظِيمًا لَا يَبْلُغُهُ الدّوَاءُ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ حُمّى يَوْمٍ وَحُمّى الْعَفَنِ سَبَبًا لِإِنْضَاجِ مَوَادّ غَلِيظَةٍ لَمْ تَكُنْ تَنْضَجُ بِدُونِهَا، وَسَبَبًا لِتَفَتّحِ سُدَدٍ لَمْ يَكُنْ تَصِلُ إلَيْهَا الْأَدْوِيَةُ الْمُفَتّحَةُ.

وَأَمّا الرّمَدُ الْحَدِيثُ وَالْمُتَقَادِمُ فَإِنّهَا تُبْرِئُ أَكْثَرَ أَنْوَاعِهِ بُرْءًا عَجِيبًا سَرِيعًا، وتنفع من الفالج واللقوة - داء يكون في الوجه يعوج منه الشدق - والتشنج الِامْتِلَائِيّ وَكَثِيرًا مِنْ الْأَمْرَاضِ الْحَادِثَةِ عَنْ الْفُضُولِ الْغَلِيظَةِ[(٢)].

ومن فوائدها أنها تذهب خطايا بني آدم: فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ: "مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ الله فِيهَا، فَقَالَ لَا تَسُبِّي: الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ. [(٣)]

قال ابن القيم: لما كَانَتْ الْحُمّى يَتْبَعُهَا حَمِيّةٌ عَنْ الْأَغْذِيَةِ الرّدِيئَةِ، وَتَنَاوُلِ الْأَغْذِيَةِ وَالْأَدْوِيَةِ النّافِعَةِ، وَفِي ذَلِكَ إعَانَةٌ عَلَى تَنْقِيَةِ الْبَدَنِ، وَنَفْيُ أَخْبَاثِهِ وَفُضُولِهِ وَتَصْفِيَتِهِ مِنْ مَوَادّهِ الرّدِيئَةِ، وَتَفْعَلُ فِيهِ كَمَا تَفْعَلُ النّارُ فِي الْحَدِيدِ فِي نَفْيِ خَبَثِهِ وَتَصْفِيَةِ جَوْهَرِهِ كَانَتْ أَشْبَهَ الْأَشْيَاءِ بِنَارِ الْكِيرِ الّتِي تُصَفّي جَوْهَرَ الْحَدِيدِ وَهَذَا الْقَدْرُ هُوَ الْمَعْلُومُ عِنْدَ أَطِبّاءِ الْأَبْدَانِ. وَأَمّا تَصْفِيَتُهَا الْقَلْبَ مِنْ وَسَخِهِ وَدَرَنِهِ وَإِخْرَاجِهَا خَبَائِثَهُ، فَأَمْرٌ يَعْلَمُهُ أَطِبّاءُ الْقُلُوبِ وَيَجِدُونَهُ كَمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيّهُمْ رَسُولُ الله ﷺ.

فَالْحُمّى تَنْفَعُ الْبَدَنَ وَالْقَلْبَ وَمَا كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَسَبّهُ ظُلْمٌ وَعُدْوَانٌ. [(٤)]

* * *

(١) أضواء البيان٧/ ٧٩٦.

(٢) زاد المعاد ٤/ ٢٥.

(٣) مسلم (٢٥٧٥).

(٤) زاد المعاد٤/ ٣١: ٣٠.

١٩ـ شبهة: الأمر بالسعي إلى الجمعة.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الجمعة: ٩).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **"إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ عَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا"**[(١)].

فإن قيل: كيف جاء الأمر بالسعي في الآية والنهي عنه في الحديث.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان المقصود بالسعي في الآية.

الوجه الثاني: أقوال الفقهاء على استحباب المشي وعدم الإسراع.

الوجه الثالث: الجمع بين الآية والحديث، وأنهما متفقتان في المعنى.

الوجه الرابع: وجود قراءات أخرى للآية تبين المقصود بالسعي.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: بيان المقصود بالسعي في الآية.

ذكر المفسرون عدة أقوال في معنى السعي في الآية وهي:

أولًا: القصد والنية:

قال الحسن: والله ما هو بسعي على الأقدام، ولكنه سعي بالقلوب والنية.[(٢)]

قال ابن كثير: ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: اقصدوا واعمدوا واهتموا في مَسيركم إليها، وليس المراد بالسعي هاهنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ

---

(١) البخاري (٦٣٦)، مسلم (٦٠٢) واللفظ له.

(٢) الجامع لأحكام القرآن١٨/ ٩٧.

أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾. [١]

ثانيًا: **العمل**: وليس المراد من السعي الإسراع إنما المراد منه العمل والفعل، كما قال: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾. [٢]

قال القرطبي: وهذا قول الجمهور، وقال زهير: سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم.

وقال أيضًا: سعى ساعيًا غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم.

أي: فاعملوا على المضي إلى ذكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والتطهير والتوجه إليه[٣].

واستدلوا لذلك بأن السعي يطلق في القرآن على العمل، قاله الفخر الرازي. وقال: هو مذهب مالك والشافعي. [٤]

ثالثًا: **المضي**: عن قتادة، قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والسعي يا ابن آدم أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المضيّ إليها[٥].

ومما يؤكد هذا المعنى ما ورد في القراءة الأخرى للآية حيث كان عمر رضي الله عنه يقرؤها (فامضوا)[٦].

رابعًا: **معناها** (**أجيبوا**): قال أبو عبيدة: ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾: أجيبوا وليس من العدو. [٧]

وقال السدي: إجابة الداعي. [٨]

خامسًا: **التصرف في كل أمر والجد فيه**:

---

(١) تفسير ابن كثير١٣/ ٥٥٩.

(٢) تفسير البغوي٤/ ٤٣١.

(٣) تفسير القرطبي١٨/ ٩٨.

(٤) أضواء البيان٨/ ٢٧٩.

(٥) تفسير الطبري١٤/ ١٠٠.

(٦) أضواء البيان٨/ ٢٨٠.

(٧) أحكام القرآن للجصاص٣/ ٤٤٥.

(٨) تفسير الماوردي ٦/ ٩.

قال الراغب الأصفهاني: السعي المشي السريع، وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر خيرًا كان أو شرًا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ (البقرة: ١١٤)

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٠٥) ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ (الإسراء: ١٩)، وجمع الأمرين الخير والشر ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ (النجم: ٣٩ - ٤٠) وهو ما تشهد له اللغة، كما في قول زهير بن أبي سلمى: سعى ساعيًا غيظ ابن مرة بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم. [(١)]

قال الزجاج: أَصلُ السَّعْيِ في كلام العرب: التصرُّف في كل عَمَلٍ. . . ومعنى قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فاقْصِدُوا، والسَّعْيُ الكَسْبُ وكلُّ عملٍ من خير أَو شرٍّ سَعْي. [(٢)]

وبالنظر إلى هذه الأقوال نجد أنها متقاربة ومتلازمة، وأنها تفصِّل لنا المقصود بالسعي في الآية الكريمة؛ فالعمل يشمل العمل القلبي -وهو القصد والنية -والعمل بالجوارح- وهو الإجابة للداعي- والذهاب والمضي إلى ذكر الله تعالى، ويؤيد ذلك كله اتساع معنى السعي في لغة العرب ليشمل التصرف في كل عمل والجد في طلبه.

وقد اتفق المفسرون قديمًا وحديثًا على هذه الآراء، ولم يقل أحد بأن المراد بالسعي هو الإسراع والجري، بل إن كل هذه الآراء لا تخرج عن معنى السكينة والوقار، كما أن جمهور فقهاء الأمصار على أن يمشي إلى الجمعة على هينة. [(٣)]

الوجه الثاني: أقوال الفقهاء على استحباب المشي وعدم الإسراع.

قال النووي: أن السنة أن يمشي إلى الجمعة بسكينة ووقار وبه قال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[(٤)]

(١) أضواء البيان٨/ ٢٨٠.

(٢) لسان العرب٣/ ٢٠٢٠.

(٣) أحكام القرآن للجصاص٣/ ٤٤٥.

(٤) المجموع٤/ ٥٤٢.

والقول الآخر: ويستحب أن يأتيها ماشيا ليكون أعظم للأجر وعليه سكينة ووقار لقول النبي ﷺ: " لا تأتوا الصلاة وأنتم تسعون "(١)، ويقارب بين خطاه لتكثر حسناته. (٢)

وهذا القول يبين علة استحباب المشي بسكينة ووقار، وقد ذكر العلماء علة أخرى وهي: أَنَّ الذَّاهِب إِلَى صَلَاة عَامِد فِي تَحْصِيلهَا وَمُتَوَصِّل إِلَيْهَا؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُون مُتَأَدِّبًا بِآدَابِهَا، وَعَلَى أَكْمَل الْأَحْوَال. وَهَذَا مَعْنَى الرِّوَايَة الثَّانِيَة؛ فَإِنَّ أَحَدكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِد إِلَى الصَّلَاة فَهُوَ فِي صَلَاة، وَهَذَا يَتَنَاوَل جَمِيع أَوْقَات الْإِتْيَان إِلَى الصَّلَاة، وَأَكَّدَ ذَلِكَ تَأْكِيدًا آخَر قَالَ: "فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا" فَحَصَلَ فِيهِ تَنْبِيه وَتَأْكِيد لِئَلَّا يَتَوَهَّم مُتَوَهِّم أَنَّ النَّهْي إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ لَمْ يَخَفْ فَوْت بَعْض الصَّلَاة؛ فَصَرَّحَ بِالنَّهْيِ وَإِنْ فَاتَ مِنْ الصَّلَاة مَا فَاتَ، وَبَيَّنَ مَا يُفْعَل فِيمَا فَاتَ. (٣)

قال الشافعي: وما علمت أحدًا روى عن رسول الله ﷺ في الجمعة أنه زاد فيها على مشيه إلى سائر الصلوات، ولا عن أحد من أصحابه ،.. ولا تؤتى الجمعة إلا ماشيًا كما تؤتى سائر الصلوات وإن سعى إليها ساع أو إلى غيرها من الصلوات لم تفسد عليه صلاته، ولم أحب ذلك له. (٤)

الوجه الثالث: الجمع بين الآية والحديث، وأنهما متفقتان في المعنى.

فقد استدل العلماء على أن السعي المأمور به في الآية غير السعي المنهي عنه في الحديث، والحجة فيه أن السعي في الآية فُسر بالمضي، والسعي في الحديث فُسر بالعدو لمقابلته بالمشي. (٥)

أما في الآية فسر لنا معنى السعي في قَوْله تَعَالَى ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾: أَيْ اِشْتَغِلُوا بِأَمْرِ الْمَعَاد وَاتْرُكُوا أَمْر الْمَعَاش، ومعلوم أن الأمر بترك البيع لا يعني الإسراع والجري إلى الصلاة، ولكن لما قابل الله بين الأمر بالسعي والنهي عن البيع دل على أن المراد بالسعي: العمل الذي هو الطاعة(٦).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الكافي ١/ ٢٥٨.

(٣) شرح النووي ٣/ ١٠٨.

(٤) الأم ١/ ١٩٦.

(٥) فتح الباري ٢/ ٤٥٤، عمدة القاري ٦/ ٢٠٦.

(٦) عون المعبود ١/ ١٩٥، فتح الباري ٢/ ٤٥٣.

الوجه الرابع: وجود قراءات أخرى للآية تبين المقصود بالسعي.

فقد قيل لعمر ﷺ: إن أبيًّا يقرؤها ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ قال: أما إنه أقرؤنا وأعلمنا بالمنسوخ وإنما هي فامضوا، وورد عن ابن مسعود ﷺ أنه كان يقرؤها أيضًا كذلك[١].

وهو كله تفسير منهم، لا قراءة قرآن منزل، وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير[٢].

وعلى هذا فإن ما جاء في قراءة عمر ﷺ الصحيحة: (فامضوا) فهي بمنزلة التفسير للسعي.[٣]

وإن كانت هذه الروايات غير متواترة، لكن قال العلماء: أن بعض القراءات يبين ما لعله مجمل في القراءات الأخرى، فقراءة (يطَّهرن) بالتشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف، وقراءة فامضوا إلى ذكر الله تبين أن المراد بقراءة اسعوا الذهاب لا المشي السريع.

وقال أبو عبيد في فضائل القرآن: المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وتبيين معانيها، كقراءة عائشة وحفصة: والصلاة الوسطى صلاة العصر[٤].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ التَّفْسِيرَ لَا نَصَّ الْقِرَاءَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ لِلْأَعْجَمِيِّ الَّذِي كَانَ يُلَقِّنُهُ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ فَكَانَ يَقُولُ طَعَامُ الْيَتِيمِ "، فَلَمَّا أَعْيَاهُ قَالَ لَهُ طَعَامُ الْفَاجِرِ "، وَإِنَّمَا أَرَادَ إظهار الْمَعْنَى.[٥]

* * *

(١) تفسير الطبري١٤/ ١٠١: ١٠٠، وقد ثبتت الرواية عن ابن عمر من طريق (مغيرة)، ولم يثبت ذلك عن ابن مسعود (الفتح٨/ ٥١٠).

(٢) تفسير القرطبي١٨/ ٩٩.

(٣) أضواء البيان٨/ ٢٨٠.

(٤) الإتقان١/ ٢٢٨: ٢٢٧.

(٥) أحكام القرآن٣/ ٤٤٥.

٢٠ـ شبهة: اختلاف الأحاديث الواردة في أفضل الأعمال.

نص الشبهة:

هناك تعارض بين بعض النصوص التي وقع فيها اختلاف في ذكر أي الأعمال أفضل، وهذه أمثلة لبعض الأحاديث:

الحديث الأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: " إِيمَانٌ بِالله وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ". [١]

الحديث الثاني: عَنْ عَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: "الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي"[٢].

الحديث الثالث: عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِالله وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِه. [٣]

بيان وجه الاختلاف: بالنظر في هذه الأحاديث نلاحظ أنه ﷺ في الحديث الأول ذكر الإيمان بالله ورسوله، ثم الجهاد، ثم الحج، وفي حديث ابن مسعود بدأ بالصلاة لميقاتها، ثم بر الوالدين، ثم الحج، وفي حديث أبي ذر لم يذكر الحج. [٤]

فإن قيل: لماذا اختلف الجواب من حديث لآخر؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: اختلاف أحوال السائلين.

الوجه الثاني: اختلاف أفضلية العمل من وقت لآخر.

الوجه الثالث: أن المراد (من) أفضل الأعمال، فحذفت (من) وهي مرادة.

---

(١) البخاري (٢٦)، مسلم (٨٣).

(٢) البخاري (٥٢٧)، مسلم (٨٥).

(٣) البخاري (٢٥١٨)، مسلم (٨٤). التوضيح ٢/ ٦٢٧، ٦٢٨.

(٤) فتح الباري لابن حجر ٢/ ١٣.

الوجه الرابع: إن الأعمال المذكورة منها ما هو قلبي متعلق بعمل آخر بدني لا ينفك أحدهما عن الآخر.

الوجه الخامس: بيان المقصود بالحرف (ثم).

الوجه السادس: فقه السؤال والجواب، وبه نعرف لماذا وقع التغاير.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: اختلاف أحوال السائلين.

إن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة[1].

قال العلماء: اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال، واحتياج المخاطبين، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون، وترك ما علموه[2].

فمعلوم أن الناس ليسوا سواء في قدراتهم (العقلية والبدنية)، فهم متفاوتون من شخص لآخر، ولكل واحد منهم الجواب الذي يصلح له (فقدم في كل مقام ما يليق به أو بهم). [3]

وهذا يدل على فصاحته وبلاغته ﷺ حيث أنه يجيب السائل بما يفيده، وبما يصلح له، وبما يستطيعه وما يتناسب معه، ليكون ذلك تشريعًا لصحابته الكرام، وللأمة الإسلامية جميعها[4].

الوجه الثاني: اختلاف أفضلية العمل من وقت لآخر.

ففي الحديث الأول: ذكر الإيمان ثم الجهاد ثم الحج ولم يذكر: " الصلاة على وقتها " فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال؛ لأنه الوسيلة إلي القيام بها -أي: الصلاة- والتمكن من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل. [5]

---

(١) شرح مسلم للنووي ١/ ٣٥٤.

(٢) انظر عمدة القاري.

(٣) هذا مستنبط من كلام العلماء السابق ذكره.

(٤) فتح الباري ٢/ ١٣.

(٥) المرجع السابق.

فإن قيل: كيف قَدَّمَ بِرَّ الوالدين على الجهاد في الحديث الثاني قال العلماء: المراد بالجهاد هنا ما ليس بفرض عين؛ لأنه يتوقف على إذن الوالدين فيكون برهما مقدما عليه[١].

وأما تقديم الجهاد وهو ليس بركن على الحج وهو ركن فذلك لأن نفع الحج قاصر غالبًا، ونفع الجهاد متعد غالبًا، أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين، ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر فكان أهم منه فقدم.

قال ابن الملقن: قدم الجهاد في هذا الحديث على الحج مع أن الحج أحد الأركان والجهاد فرض كفاية؛ لأنه قد يتعين كما في سائر فروض الكفايات، وإذا لم يتعين لا يقع إلا فرض كفاية، وأما الحج فالواجب منه مدة واحدة فقط، فإن قابلت واجب الحج بتعيين الجهاد وكان الجهاد أفضل لهذا الحديث، ولأنه شارك الحج في الفرضية، وزاد عنه بتعدي نفعه إلي سائر الأمة، ولكونه ذبًا عن بيضة الإسلام، لكونه بذلًا للنفس والمال وغير ذلك، وإن قابلت نفل الحج، بغير متعين كان الجهاد أفضل لما ذكرناه، ولأنه يقع فرض كفاية وهو أفضل بلا شك[٢].

بل قال إمام الحرمين: فرض الكفاية عندي أفضل من فرض العين؛ من حيث أن يقع فعله مسقطًا للحرج عن الأمة بأسرها، وبتركه يعصي المتمكنون منه كلهم، ولا شك في عظم موقع ما هذه صفته[٣].

ومن هنا يتبين لنا لماذا يذكر النبي ﷺ بر الوالدين أحيانًا ويقدمه على الجهاد، ولماذا يذكر الجهاد ويقدمه على الحج.

يقول القرطبي: تفضيل الجهاد في حال تعيينه، وفضل بر الوالدين لمن يكون له أبوان فلا يجاهد إلا بإذنهما. [٤]

---

(١) شرح مسلم للنووي ١/ ٣٥٤.

(٢) التوضيح شرح الجامع الصحيح ٢/ ٦٣١.

(٣) التوضيح شرح الجامع الصحيح ٢/ ٦٣١ وما بعدها.

(٤) فتح الباري ٥/ ١٧٨.

ومن أسباب تقديم بر الوالدين أيضًا: أن الفاعل له لا يرى أنه إنما يفعله مكافأة لفعلهما له، فكأنه لا يرى فيه كبير عمل، والجهاد يرى لنفسه فيه كبير عمل(١).

ومما سبق يتضح أن سبب تقديم بعض الأعمال على الآخر في وقت من الأوقات وعدم تقديمه في وقت آخر أن أفضلية العمل تتراوح من وقت لآخر، فتارة يكون الجهاد فرض عين، وتارة يكون فرض كفاية حسب حالة الأمة، والحج يكون فرضًا على من لم يحج، ونفلًا لمن حج قبل ذلك، وكذلك بر الوالدين فتارة يكونان (أي الوالدين) على قيد الحياة، وبعد فترة يتوفاهما الله ﷻ، فلكي تحكم على عمل أنه هو (الأفضل) لابد من مراعاة هذه الأمور.

الوجه الثالث: أن المراد (من) أفضل الأعمال، فحذفت (من) وهي مرادة.

يجوز أن يكون المراد: (من أفضل الأعمال) كذا أو (من خيرها) أو (من خيركم من فعل كذا)، فحذفت (من) وهي مرادة كما يقال: فلان أعقل الناس وأفضلهم ويراد أنه من أعقلهم وأفضلهم، ومن ذلك قول رسول الله: ﷺ خيركم خيركم لأهله، ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس مطلقًا.(٢)

الوجه الرابع: إن الأعمال المذكورة منها ما هو قلبي متعلق بعمل آخر بدني لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فإذا نظرنا في الحديث الثاني حديث (ابن مسعود) نجد أن النبي ﷺ ذكر "الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا" بدلًا من "اَلإِيمَان بِالله" في الحديث الأول والثالث، ومن المعلوم أن الصلاة لا تصح بدون الإيمان بالله، لا في وقتها و لا غير وقتها، وفي حديث (ابن مسعود) نجد أن النبي ﷺ قد ربط بين العمل البدني والعمل القلبي؛ فلا ينفك أحدهما عن الآخر، وذلك رابط بين الإيمان بالله ورسوله، والصلاة، وبر الوالدين، والجهاد، والحج.

وقال ابن دقيق العيد: الأعمال في هذا الحديث محمولة على البدنية، وأراد بذلك

---

(١) التوضيح ٢٨/ ٢٣٧.

(٢) شرح مسلم للنووي ١/ ٣٥٤، وانظر فتح الباري ٢/ ١٣، التوضيح ٢/ ٦٣٠.

الاحتراز عن الإيمان؛ لأنه من أعمال القلوب فلا تعارض حينئذ بينة وبين حديث أبي هريرة ﷺ أفضل الأعمال إيمان بالله. [١]

ومما يزيد ذلك وضوحًا أن النبي ﷺ ذكر هذا الشرط وهو الإيمان في موضع آخر، وذلك في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، قَالُوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَتَّقِي الله وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ"[٢]، فذكر في هذا الحديث شرط الإيمان قبل كل عمل، ومعلوم أن الجهاد يستلزم الصلاة، وإلا لا فضيلة له.

الوجه الخامس: بيان المقصود بالحرف (ثم).

قال النووي: فإن قيل: فقد جاء في بعض هذه الروايات: أفضلها كذا ثم كذا بحرف (ثم) وهي موضوعة للترتيب فالجواب أن (ثم) هنا للترتيب في الذكر كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ (البلد ١٢: ١٧)، ومعلوم أنه ليس المراد هنا الترتيب في الفعل، وكما قال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ .. ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ (الأنعام ١٥١: ١٥٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ (الأعراف: ١١)، ونظائر ذلك كثيرة وأنشدوا فيه:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده[٣].

الوجه السادس: فقه السؤال والجواب، وبه نعرف لماذا وقع التغاير.

إن التغاير في هذه الأحاديث إنما وقع إتماما للفائدة، وإتحافا للسائل بالجواب الشافي، فإن من سئل عن شيء ليفتى فيه وجب عليه أن يراعى حالة السائل؛ ليعطيه الجواب الذي يصلح

(١) فتح الباري ٢/ ١٣.

(٢) البخاري (٢٧٨٦).

(٣) شرح مسلم للنووي ١/ ٣٥٥.

له، ويتناسب معه فإن (المستفتى عليل، والمفتى طبيب، فإن لم يكن ماهرا بطبه وإلا قتله). [١]

(وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين، وإمام المتقين وخاتم النبيين، عبد الله ورسوله، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، فكان يفتى عن الله بوحيه المبين، وكان كما قال له أحكم الحاكمين ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (ص: ٨٦) فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام ومشتملة على فصل الخطاب. [٢]

وأمثلة ذلك كثيرة جدًّا، وكلها تدل على فصاحتهﷺ، وبلاغته، ومنها على سبيل المثال: عندما سئل ﷺ عن طهارة ماء البحر فقال ﷺ: "هو الطهور ماؤه، الحل ميتته"[٣].

فمن فوائد هذا الحديث: أن المفتى إذا سئل عن شيء وعلم أن بالسائل حاجة إلى أمر آخر متعلق بالمسألة، يستحب له أن يذكره له ويعلمه إياه، لأنه - أي السائل - سأل عن ماء البحر فأجيب بمائه وحكم ميتته؛ لأنهم يحتاجون إلى الطعام كالماء، وإذا جهلوا كونه مطهرا فجهالتهم حل ميتته أولى"[٤].

وهذا يدل على سعة الفهم، وبعد النظر، وإدراكه ﷺ لما يحتاج إليه السائل، وليكون ذلك تشريعا للأمة على مر العصور.

كما أن كثرة تكرار هذا السؤال الوارد في الأحاديث -وهو السؤال عن أفضل الأعمال- يبين حرص الصحابة الكرام على معرفة أفضل الأعمال، ليتقربوا بها إلى الله ﷻ، ولقد كان الصحابة ﭫ أصحاب همم عالية تجعلهم جديرين بأن يقوموا بما يدلهم عليه النبي ﷺ من الأعمال الفاضلة.

(١) انظر: الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٩٤).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٠).
(٣) أخرجه أبو داود (١/ ٨٣) والترمذي (١/ ٦٩) وغيرهم، وصححه الألباني.
(٤) البدر المنير (١/ ٣٧٩).

وكذلك من فضل الصحابة الكرام على هذه الأمة، أنهم سألوا النبي ﷺ عن مثل هذه الأشياء التي هي من الأهمية بمكان، فيكون ذلك سببا في إخبار النبي ﷺ، بل نستطيع أن نقول أن هذا تعليم من الصحابة الكرام لهذه الأمة؛ فإن السؤال الحسن يسمى علمًا قال ابن المنير: في قوله ﷺ "يعلمكم دينكم "[١]، دلالة على أن السؤال الحسن يسمى علمًا وتعليمًا؛ لأن جبريل عليه السلام لم يصدر منه سوى السؤال، ومع ذلك فقد سماه معلمًا، وقد اشتهر قولهم: حسن السؤال نصف العلم. [٢]

* * *

(١) وذلك في حديث جبريل عندما سأل النبيَ ﷺ (البخاري (٥٠)، مسلم (٨).

(٢) فتح الباري ١/ ١٥٢.

٢١ـ شبهة: الاختلاف في أشد الناس عذابًا.

نص الشبهة:

عن عَبْدَ الله بن مسعود ﷺ قَالَ سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ". (١)، وفي رواية: **"إِنَّ مِنْ أَشَدِّ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا الْمُصَوِّرُونَ"**. (٢)

وعن عائشة – رضي الله عنها– أن النبي ﷺ قَالَ: **"أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ الله"**. (٣)

ويقول الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦).

و الاعتراض هو: كيف يكون المصور أشد عذابًا من فرعون وآله وهم كفار، أما المصور فقد قال العلماء أنه إن يقصد بما يصوره المضاهاة لخلق الله أو أن يُعبد من دون الله فهو فاسق صاحب ذنب كبير، ولا يكفر كسائر المعاصي. (٤)

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التفريق بين أن يَرِدَ هذا الوعيد في حق كافر وأن يَرِدَ في حق عاصٍ.

الوجه الثاني: إن أشد العذاب لمن قصد مضاهاة خلق الله واعتقد ذلك.

الوجه الثالث: أن الرواية الثانية للحديث جاء فيها: «من أشد الناس. . . » بإثبات (من).

واليك التفصيل،

الوجه الأول: التفريق بين أن يَرِدَ هذا الوعيد في حق كافر وأن يَرِدَ في حق عاصٍ.

قال ابن حجر: قال ابن رشد: إن الوعيد بهذه الصيغة إن ورد في حق كافر فلا إشكال فيه؛ لأنه يكون مشتركًا في ذلك مع آل فرعون ويكون فيه دلالة على عظم كفر المذكور، وإن ورد في حق عاص فيكون أشد عذابًا من غيره من العصاة ويكون ذلك دالًا على عظم

(١) البخاري (٥٩٥٠).

(٢) مسلم (٢١٠٩).

(٣) البخاري (٥٩٥٤)

(٤) شرح النووي٧/ ٣٤٦، فتح الباري١٠/ ٣٩٧.

المعصية المذكورة. (١)

قال القرطبي: إن الناس الذين أضيف إليهم أشد لا يراد بهم كل الناس، بل بعضهم، وهم من يشارك في المعنى المتوعد عليه بالعذاب، ففرعون أشد الناس الذين ادعوا الإلهية عذابًا، ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشد عذابًا ممن يقتدي به في ضلالة فسقه، ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذابًا ممن يصورها لا للعبادة. (٢)

الوجه الثاني: إن أشد العذاب لمن قصد مضاهاة خلق الله واعتقد ذلك.

ويؤيد هذا القول حديث: **"أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ الله"**(٣).

قال النووي: قَوْله: " أَشَدّ النَّاس عَذَابًا " قِيلَ: هِيَ مَحْمُولَة عَلَى مَنْ فَعَلَ الصُّورَة لِتُعْبَد، وَهُوَ صَانِع الْأَصْنَام وَنَحْوهَا، فَهَذَا كَافِر، وَهُوَ أَشَدّ عَذَابًا، وَقِيلَ: هِيَ فِيمَنْ قَصَدَ الْمَعْنَى الَّذِي فِي الْحَدِيث مِنْ مُضَاهَاة خَلْق الله تَعَالَى وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ، فَهَذَا كَافِر لَهُ مِنْ أَشَدّ الْعَذَاب مَا لِلْكُفَّارِ، وَيَزِيد عَذَابه بِزِيَادَةِ قُبْح كُفْره، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَقْصِد بِهَا الْعِبَادَة وَلَا الْمُضَاهَاة فَهُوَ فَاسِق صَاحِب ذَنْب كَبِير، وَلَا يَكْفُر كَسَائِرِ الْمَعَاصِي. (٤)

فما دام لا يكفر إن لم يقصد ذلك - كما بينًا في الوجه الأول- يكون أشد من غيره من العصاة، ولا يقارَن بعذاب الكفار.

قال ابن الملقن: في حديث النبي ﷺ: **"أشد الناس عذابًا"** يدل أن الوعيد الشديد إنما جاء لمن صور صورة مضاهاة لخلق الله. (٥)

و قال أيضًا: فأما من صوَّر صورة غير مضاهاة ما خلق ربه، وإن كان يفعله مخطئًا فغير داخل في معنى من ضاهى ربه بتصويره، فإن قلت: ما الوجه الذي جعلته به مخطئًا إذا لم

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٣٩٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ١٠٩).

(٣) البخاري (٥٩٠٤).

(٤) شرح النووي ٧/ ٣٤٦: ٣٤٥.

(٥) التوضيح لابن الملقن ٢٨/ ٢٠٠.

يكن بتصويره لربه مضاهيًا؟ قيل: لاتهامه نفسه عند من عاين تصويره أنه ممن قصد بذلك المضاهاة لربه إذا كان الفعل الذي هو دليل على المضاهاة منه ظاهرًا، والاعتقاد الذي هو خلاف اعتقاد المضاهي باطن لا يصل إلى علمه راءوه. (١)

الوجه الثالث: أن الرواية الثانية للحديث جاء فيها: " من أشد الناس.. " بإثبات (من).

قال ابن حجر: أن الرواية بإثبات (من) ثابتة وبحذفها محمولة عليها، وإذا كان من يفعل التصوير من أشد الناس عذابًا كان مشتركًا مع غيره، وليس في الآية ما يقتضي اختصاص آل فرعون بأشد العذاب بل هم في العذاب الأشد. (٢)

فإن قال قائل: أيهم يدخل أشد العذاب آل فرعون أم من يضاهي بتصويره خلق الله؟ فهذه الرواية التي أثبتت (من) ترد عليه، فهي تفيد تعدد أجناس من يدخلون أشد العذاب.

وقد بينَّا في الوجه الأول ضرورة التفريق بين الكافر وبين العاصي في إطلاق لفظة أشد العذاب، وكذلك التفريق بين من صوَّر شيئًا ليُعبد أو ليضاهي به خلق الله، وبين من لم يقصد ذلك كما تبين في الوجه الثاني. (٣)

وبهذا فلا تعارض بين الآية وبين الأحاديث الواردة في: (أشد العذاب).

* * *

(١) التوضيح لابن الملقن٢٨/ ١٩٦.

(٢) فتح الباري١٠/ ٣٩٧.

(٣) تعليق على ما سبق.

٢٢ـ شبهة: حديث (وإن زنى وإن سرق).

نص الشبهة:

عن أبي ذر رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النبي ﷺ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ وَهْوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدِ اسْتَيْقَظَ فَقَالَ " مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ، إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ ". قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ " وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ". قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ " وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ". قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ " وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِى ذَرٍّ ". وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِى ذَرٍّ. قَالَ أَبُو عَبْدِ الله هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ قَبْلَهُ، إِذَا تَابَ وَنَدِمَ وَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. (١)

قالوا: ظاهر الحديث يدل على أن الزاني والسارق يدخلون الجنة لأول وهلة إن قال: لا إله إلا الله، سواءً تابا أم لم يتوبا.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: اشتراط التوبة.

الوجه الثاني: من مات من غير توبة فهو في مشيئة الله.

الوجه الثالث: الحديث يرد على من يقولون بخلود أهل المعاصي في النار.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: اشتراط التوبة.

هذا عند الموت أو قبله إذا تاب، أي: من الكفر وندم، قال: وحاصل ما أشار إليه أن الحديث محمول على من وحد ربه ومات على ذلك تائبًا من الذنوب التي أشير إليها في الحديث فإنه موعود بهذا الحديث بدخول الجنة ابتداءً، وهذا في حقوق الله باتفاق أهل السنة. (٢)

(١) البخاري (٥٨٢٧)، مسلم (١٥٤).

(٢) فتح الباري ١٠/ ٢٩٥.

فيتبين من ذلك أنه لا بد من التوبة من هذه الذنوب قبل الموت، وذهب الجمهور إلى أن من تاب لا يبقى عليه مؤاخذة ومع ذلك فلا يأمن مكر الله لأنه لا اطلاع له هل قبلت توبته أو لا. [(١)]

الوجه الثاني: من مات من غير توبة فهو في مشيئة الله.

من تلبس بالذنوب المذكورة ومات من غير توبة فظاهر الحديث أنه أيضًا داخل في ذلك لكن مذهب أهل السنة أنه في مشيئة الله تعالى، ويدل عليه حديث عبادة بن الصامت فإن فيه (ومن أتى شيئًا من ذلك فلم يعاقب به فأمره إلى الله تعالى أن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه)[(٢)]، وهذا المفسر مقدم على المبهم. [(٣)]

ومعلوم أن طائفة من الموحدين يدخلون النار ثم يخرجون منها بعد ذلك، ففي حديث: يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَفِى قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ. . . وَفِى قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ[(٤)].

فهذا الحديث فيه دليل على دخول طائفة من عصاة الموحدين النار. [(٥)]

قال النووي: وَأَمَّا دُخُول مَنْ مَاتَ غَيْر مُشْرِك الْجَنَّة فَهُوَ مَقْطُوع لَهُ بِهِ لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِب كَبِيرَة مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا دَخَلَ الْجَنَّة أَوَّلًا، وَإِنْ كَانَ صَاحِب كَبِيرَة مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ تَحْت الْمَشِيئَة، فَإِنْ عُفِيَ عَنْهُ دَخَلَ أَوَّلًا وَإِلَّا عُذِّبَ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْ النَّار، وَخُلِّدَ فِي الْجَنَّة. وَالله أَعْلَم. [(٦)]

كما يجب أن نأخذ في الاعتبار مسألة الحدود وأنها كفارات، كما جاء في حديث عبادة بن الصامت ﷺ: "ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفارة"[(٧)].

---

(١) فتح الباري١/ ٨٧.

(٢) البخاري (١٨).

(٣) فتح الباري١٠/ ٢٩٥.

(٤) البخاري (٤٤)، مسلم (١٩٣).

(٥) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن٣/ ١٣٠.

(٦) شرح النووي١/ ٣٧٤.

(٧) سبق تخريجه.

قال ابن حجر: قوله: " ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو -أي العقاب -كفارة".

قال النووي: عموم هذا الحديث مخصوص بقوله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به، فالمرتد إذا قتل على ارتداده لا يكون القتل له كفارة. . . فالصواب ما قال النووي. (١)

وقال ابن عبد البر: وقد جعل الله في ارتكاب الكبائر حدودًا جعلها كفارة وتطهيرًا كما جاء في حديث عبادة عن النبي ﷺ فمن واقع منها شيئًا يعني من الكبائر وأقيم عليه الحد فهو له كفارة ومن لا فأمره إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه وليس هذا حكم الكافر لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك. (٢)

الوجه الثالث: الحديث يرد على من يقولون بخلود أهل المعاصي في النار.

هذا الحديث فيه رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ورد على المعتزلة الذين يوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة؛ لأن النبي ﷺأخبر بأنه تحت المشيئة. (٣)

قال النووي: قَوْله ﷺ: " وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَق "، فَهُوَ حُجَّة لِمَذْهَبِ أَهْل السَّنَة أَنَّ أَصْحَاب الْكَبَائِر لَا يُقْطَع لَهُمْ بِالنَّارِ، وَأَنَّهُمْ إِنْ دَخَلُوهَا أُخْرِجُوا مِنْهَا وَخُتِمَ لَهُمْ بِالْخُلُودِ فِي الْجَنَّة. (٤)

فَلَا يَخْلُد فِي النَّار أَحَد مَاتَ عَلَى التَّوْحِيد وَلَوْ عَمِلَ مِنْ الْمَعَاصِي مَا عَمِلَ. كَمَا أَنَّهُ لَا يَدْخُل الْجَنَّة أَحَد مَاتَ عَلَى الْكُفْر وَلَوْ عَمِلَ مِنْ أَعْمَال الْبِرّ مَا عَمِلَ، وهَذَا مُخْتَصَر جَامِع لِمَذْهَبِ أَهْل الْحَقّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَة. وَقَدْ تَظَاهَرَتْ أَدِلَّة الْكِتَاب وَالسُّنَّة وَإِجْمَاع مَنْ يُعْتَدّ بِهِ مِنْ الْأُمَّة عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَة. (٥)

فمن هذه الوجوه التي ذكرنا يتبين المقصود من الحديث، وأنه لا يُفهم منه عدم محاسبة الزاني والسارق، وإنما يُشترط التوبة وإلا فحسابهم على الله علمًا بأنهم لا يخلدون في النار كما وضحنا.

* * *

(١) فتح الباري١/ ٨٣.

(٢) التمهيد ٩/ ٢٤٤.

(٣) فتح الباري١/ ٨٧.

(٤) شرح النووي١/ ٣٧٤.

(٥) شرح النووي١/ ٢٥٥.

٢٣ـ شبهة: ادعائهم أن الإسلام يبيح الغناء.

نص الشبهة:

جاريتان تغنيان وترقصان لرسول الإسلام ﷺ.

فعن عائشة -رضي الله عنها-: قالت: دخل عليّ رسولُ الله ﷺ وعندي جاريتان تُغنِّيان بغِناءِ بُعَاث، فاضطجع على الفراش، وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مِزْمَارَةُ الشيطان عند النبيِّ ﷺ فأقبل عليه رسولُ الله ﷺ فقال: دَعهما، فلما غَفَل غَمَزْتُهما فخرجتا، وكان يومَ عيد، يلعبُ السُّودان بالدَّرَق والحِرَاب، فإما سألتُ رسولَ الله ﷺ وإما قال: تَشْتَهين تنظرين؟ قلتُ: نعم، فأقامني وراءه، خَدِّي على خَدِّه، وهو يقول: دُونَكم يا بني أَرْفِدَةَ، حتى إذا مَلِلْتُ قال: حَسْبُكِ؟ قلتُ: نعم، قال: فاذهبي.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المتن والتخريج.

الوجه الثاني: بيان كذب من ادعي أن الجاريتين ترقصان لرسول الإسلام ﷺ.

الوجه الثالث: صفة الجاريتين، وبما تغنيان.

الوجه الرابع: يومها كان يوم عيد.

الوجه الخامس: الحديث فيه دليل على إعراض النبي ﷺ عن الاستماع.

الوجه السادس: صفة الغناء المحرم في دين الله.

الوجه السابع: آلات الغناء المحرمة.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: المتن والتخريج.

عن عائشة - رضي الله عنها -: قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وعندي جاريتان تُغنِّيان بغِناءِ بُعَاث، فاضطجع على الفراش، وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مِزْمَارَةُ الشيطان عند النبيِّ ﷺ؟ فأقبل عليه رسولُ الله ﷺ فقال: دَعهما، فلما غَفَل غَمَزْتُهما فخرجتا، وكان يومَ عيد، يلعبُ السُّودان بالدَّرَق والحِرَاب، فإما سألتُ رسولَ

الله ﷺ وإما قال: تَشْتَهين تنظرين؟ قلتُ: نعم، فأقامني وراءه، خَدِّي على خَدِّه، وهو يقول: دُونكم يا بني أَرْفِدَة، حتى إذا مَلِلْتُ قال: حَسْبُكِ؟ قلتُ: نعم، قال: فاذهبي. [١]

الوجه الثاني: بيان كذب من ادعي أن الجاريتين ترقصان لرسول الإسلام ﷺ.

لا يوجد ذلك في شيء من متون الحديث.

الوجه الثالث: صفة الجاريتين، وبما تغنيان.

فعند البخاري: جاريتان من جواري الأنصار تُغَنِّيان بما تَقَاوَلَتْ به الأنصار يوم بُعَاث، قالت: ولَيْستا بمُغَنِّيَتَين. [٢]؛ وعند مسلم بلفظ "تلعبان بدف"[٣]

قال أحمد البنا: المراد بالدف هنا دف العرب؛ وهو مدور على شكل الغربال خلا أنه لا خروق في جلده، ولا جلاجل فيه، وأما دف الملاهي فهو مدور جلده من رِق أبيض ناعم فيه جلاجل يسمى بالطار له صوت يطرب لحلاوة نغمته، وقال: (ولَيْستا بمُغَنِّيَتَين) يعني لم تتخذا الغناء صناعة وعادة، ولم يكن معهما مزمور غير أصواتهما[٤].

وقال أبو الحسن السندي: قوله: (جاريتان) الجارية في النساء كالغلام في الرجال يقعان على من دون البلوغ فيهما. [٥]

وقال الإمام النووي: هَذَا الْغِنَاء إِنَّمَا كَانَ فِي الشَّجَاعَة، وَالْقَتْل، وَالْحِذْق فِي الْقِتَال وَنَحْو ذَلِكَ، مِمَّا لَا مَفْسَدَة فِيهِ، بِخِلَافِ الْغِنَاء الْمُشْتَمِل عَلَى مَا يَهِيج النُّفُوس عَلَى الشَّرّ، وَيَحْمِلهَا عَلَى الْبَطَالَة وَالْقَبِيح. قَالَ الْقَاضِي: إِنَّمَا كَانَ غِنَاؤُهُمَا بِمَا هُوَ مِنْ أَشْعَار الْحَرْب، وَالْمُفَاخَرَة بِالشَّجَاعَةِ، وَالظُّهُور وَالْغَلَبَة، وَهَذَا لَا يُهَيِّج الْجَوَارِي عَلَى شَرٍّ، وَلَا إِنْشَادهمَا لِذَلِكَ مِنْ الْغِنَاء الْمُخْتَلِف فِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ رَفْع الصَّوْت بِالْإِنْشَادِ، وَلِهَذَا قَالَتْ: وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ؛ أَيْ

(١) البخاري (٢٩٠٦، ٢٩٠٧)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) البخاري (٩٤٩).

(٣) مسلم (٩٨٢).

(٤) الفتح الرباني ٦ / ١٦٢.

(٥) حاشية السندي علي سنن النسائي (٣/ ١٩٥).

لَيْسَتَا مِمَّنْ يَتَغَنَّى بِعَادَةِ الْمُغَنِّيَات مِنْ التَّشْوِيق، وَالْهَوَى وَالتَّعْرِيض بِالْفَوَاحِشِ، وَالتَّشْبِيب بِأَهْلِ الْجَمَال، وَمَا يُحَرِّك النُّفُوس، وَيَبْعَث الْهَوَى وَالْغَزْل؛ كَمَا قِيلَ (الْغِنَاء فِيهِ الزِّنَا)[١]، وَلَيْسَتَا أَيْضًا مِمَّنْ اِشْتُهِرَ وَعُرِفَ بِإِحْسَانِ الْغِنَاء الَّذِي فِيهِ تَمْطِيط، وَتَكْسِير، وَعَمَل يُحَرِّك السَّاكِن، وَيَبْعَث الْكَامِن، وَلَا مِمَّنْ اِتَّخَذَ ذَلِكَ صَنْعَة وَكَسْبًا.

وَالْعَرَب تُسَمِّي الْإِنْشَاد غِنَاء، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ الْغِنَاء الْمُخْتَلَف فِيهِ بَلْ هُوَ مُبَاح، وَقَدْ اِسْتَجَازَتْ الصَّحَابَة غِنَاء الْعَرَب الَّذِي هُوَ مُجَرَّد الْإِنْشَاد وَالتَّرَنُّم، وَأَجَازُوا الْحُدَا، وَفَعَلُوهُ بِحَضْرَةِ النَّبِيّ ﷺ وَفِي هَذَا كُلّه إِبَاحَة مِثْل هَذَا وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَهَذَا وَمِثْله لَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَا يَخْرُج الشَّاهِد ".[٢]

وقال ابن الأثير: (وعندي جاريتان تُغَنِّيان بِغِناء بُعاث) أي: تُنْشِدان الأشْعار التي قِيلت يوم بُعَاث وهو حَرْب كانت بين الأنصار ولم تُرِد الغِنَاء المعروف بين أهْل اللهو واللَّعِب. وقد رخَّص عمر في غِناء الأعراب وهو صَوْتٌ كالحُداء.[٣]

وقد ذكر الإمام ابن حبان هذا الحديث في عدة مواضع من (صحيحه) قال: ذكر إباحة القول إذا لم يكن بغزل في أيام العيد.[٤]

وقال: ذكر البيان بأن الغناء الذي وصفناه؛ إنما كان ذلك أشعارًا؛ قيلت في أيام الجاهلية؛ فكانوا ينشدونها ويذكرون تلك الأيام دون الغناء الذي يكون بغزل يقرب سخط الله ﷻ من قائله. وكرر ذكر الحديث تحت هذه العناوين[٥].

وقال ابن رجب الحنبلي: وكان الشِعْرُ الذي تغنيان به في وصف الشجاعة والحرب؛ وهو إذا صرف إلى جهاد الكفار كان معونة في أمر الدين؛ فأما الغناء بذكر الفواحش

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٥٧) عن فضيل بن عياض (الغناء رقية الزنا) والإسناد ضعيف.

(٢) شرح مسلم (٣/ ٤٥٢ - ٤٥٣)، وانظر: الفتح ٢/ ٥١١.

(٣) النهاية ٣/ ٣٩٢.

(٤) صحيح ابن حبان ١٣/ ١٨٠.

(٥) صحيح ابن حبان ١٣/ ١٨٩.

والابتهار للحرم؛ فهو المحظور من الغناء، حاشاه أن يجري بحضرته شيء من ذلك فيرضاه، أو يترك النكير لهُ، وكل من جهر بشيء بصوته وصرح به فقد غنى به.

وقالَ أيضًا: وقول عائشة: (ليستا بمغنيتين)، إنما بينت ذلك؛ لأن المغنية التي اتخذت الغناء صناعة وعادة، وذلك لا يليق بحضرته، فأما الترنم بالبيت والتطريب للصوت إذا لم يكن فيهِ فحش، فهوَ غير محظور ولا قادح في الشهادة.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ لا ينكر من الغناء النصب والحداء ونحوهما، وقد رخص فيه غير واحد من السلف. [١]

الوجه الرابع: كان يوم عيد. [٢]

قال الإمام النووي: "هَذَا عِيدنَا": أَنَّ ضَرْب دُفّ الْعَرَب مُبَاح فِي يَوْم السُّرُور الظَّاهِر، وَهُوَ الْعِيد وَالعرْس وَالْخِتَان. [٣]

ونقل الحافظ قول ابن المنير: العيد يغتفر فيه مالا يغتفر في غيره.

وقال: اللعب لا يوصف بالندبية؛ لكن يقربه أن المباح قد يرتفع بالنية إلى درجة ما يثاب عليه، ويحتمل أن يكون المراد أن تقديم العبادة على اللعب سنة أهل الإسلام. [٤]

وقال الإمام النسائي: ضرب الدف يوم العيد. [٥]

وقال: الرخصة في الاستماع إلى الغناء وضرب الدف يوم العيد. [٦]

وقال أبو عوانة: (باب بيان إباحة اللعب في يوم العيد والضرب بالدف في أيام

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٣٢- ٤٣٣.

(٢) عند مسلم: "في أيام مني"(٨٩٢)، وكذا عند النسائي (١٧٩٧)، والبيهقي الكبرى٧/ ٩٢.

(٣) شرح النووي ٣/ ٤٥، ٤٥٣.

(٤) الفتح ٢/ ٥١٠.

(٥) المجتبى (٣/ ١٩٥).

(٦) المجتبى ٣/ ١٩٦.

التشريق)، والدليل على أنها في أيام غير العيد مكروه.[١]

وقال أبو الحسن السندي: وفي الحديث دلالة على إباحة الغناء أيام السرور.[٢]

قال أبو بكر ابن العربي: وَأَمَّا سَمَاعُ الْقَيْنَاتِ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَسْمَعَ غِنَاءَ جَارِيَتِهِ، إذْ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا عَلَيْهِ حَرَامًا، لَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَلَا مِنْ بَاطِنِهَا، فَكَيْفَ يُمْنَعُ مِنْ التَّلَذُّذِ بِصَوْتِهَا وَلَمْ يَجُزْ الدُّفُّ فِي الْعُرْسِ لِعَيْنِهِ، وَإِنَّمَا جَازَ؛ لِأَنَّهُ يُشْهِرُهُ، فَكُلُّ مَا أَشْهَرَهُ جَازَ.

وَقَدْ بَيَّنَّا جَوَازَ الزَّمْرِ فِي الْعُرْسِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ: أَمِزْمَارُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: " دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ "، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ انْكِشَافُ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ وَلَا هَتْكُ الْأَسْتَارِ، وَلَا سَمَاعُ الرَّفَثِ، فَإِذَا خَرَجَ ذَلِكَ إلَى مَا لَا يَجُوزُ مُنِعَ مِنْ أَوَّلِهِ، وَاجْتُنِبَ مِنْ أَصْلِهِ.[٣]

وقال ابن رجب الحنبلي: نقلًا عن الخطابي:

وقوله: (هذا عيدنا) يريد أن إظهار السرور في العيد من شعار الدين، وحكم اليسير من الغناء خلاف الكثير. انتهى.

وفي الحديث ما يدل على تحريمه في غير أيام العيد؛ لأن النَّبيّ ﷺ علل بأنها أيام عيد فدل على أن المقتضي للمنع قائم، لكن عارضه معارض وهو الفرح والسرور العارض بأيام العيد.

وقد أقر أبا بكر ﵁ على تسمية الدف مزمور الشيطان، وهذا يدل على وجود المقتضي للتحريم لولا وجود المانع.

وقد قال كثير من السلف، منهم قتادة: الشيطان قرآنه الشعر، ومؤذنه المزمار، ومصايده النساء.[٤]

وقد وردت الشريعة بالرخصة للنساء لضعف عقولهن بما حرم على الرجال من التحلي

(١) المستخرج ٢/ ١٥٥.

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي ٣/ ١٩٥.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٤.

(٤) نزهة الأسماع لابن رجب الحنبلي ١/ ٨٧.

والتزين بالحرير والذهب، وإنما أبيح للرجال منهم اليسير دون الكثير، فكذلك الغناء يرخص فيه للنساء في أيام السرور، وإن سمع ذلك الرجال تبعًا.

ولهذا كان جمهور العلماء على أن الضرب بالدف للغناء لا يباح فعله للرجال؛ فإنه من التشبه بالنساء، وهو ممنوع منه، هذا قول الأوزاعي وأحمد، وكذا ذكر الحليمي وغيره من الشافعية. (١) وإنما كان يضرب بالدفوف في عهد النبي ﷺ النساء، أو من يشبه بهن من المخنثين، وقد أمر النبي ﷺ بنفي المخنثين وإخراجهم من البيوت. (٢)

وقد نص على نفيهم أحمد وإسحاق، عملا بهذه السنة الصحيحة.

وسُئل أحمد عن مخنث مات ووصى أن يحج عنه، فقال: كسب المخنث خبيث، كسبه بالغناء، نقله عنه المروزي. (٣)

فأما تغني المؤمن فإنما ينبغي أن يكون بالقرآن، كما قال النبي ﷺ: " ليس منا من لم يتغن بالقرآن "(٤)، والمراد: أنه يجعله عوضًا عن الغناء فيطرب به ويلتذ، ويجد فيه راحة قلبه وغذاء روحه، كما يجد غيره ذلك في الغناء بالشعر. وقد رُوي هذا المعنى عن ابن مسعود ﷺ أيضًا "(٥).

ومما يدخل في هذا الباب: ما روى حماد بن سلمة، عن حميد، عن أنس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: " ما هذان اليومان؟ " قالوا: نلعبهما في الجاهلية. فقالَ رسول الله ﷺ" إن الله قد أبدلكم بهما خيرا منهما: يوم الفطر، ويوم الأضحى "(٦)

وقال ابن رجب: فكان النبي ﷺ يرخص لهم في أوقات الأفراح، كالأعياد، والنكاح، وقدوم الغياب في الضرب للجواري بالدفوف، والتغني مع ذلك بهذه الأشعار، وما كان

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٤/ ٢٨٤.

(٢) البخاري (٥٨٨٦).

(٣) الورع للمروزي ١/ ٢٩.

(٤) البخاري (٧٥٢٧).

(٥) فتح الباري ٨/ ٤٣٢.

(٦) أخرجه أبو داود (١١٣٤)، والنسائي (١٧٥٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٢١).

في معناها، فلما فتحت بلاد فارس والروم ظهر للصحابة ما كان أهل فارس والروم قد اعتادوه؛ من الغناء الملحن بالإيقاعات الموزونة، على طريقة الموسيقى بالأشعار التي توصف فيها المحرمات من الخمور والصور الجميلة المثيرة للهوى الكامن في النفوس، المجبول محبته فيها، بآلات اللهو المطربة، المخرج سماعها عن الاعتدال، فحينئذ أنكر الصحابة الغناء واستماعه، ونهوا عنه وغلظوا فيه حتى قال ابن مسعودﷺ: الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل. وروي عنه مرفوعًا. (١)

وهذا يدل على أنهم فهموا أن الغناء الذي رخص فيه النبي ﷺ لأصحابه لم يكن هذا الغناء، ولا آلاته هي هذه الآلات، وأنه إنما رخص فيما كان في عهده، مما يتعارفه العرب بآلاتهم. فأما غناء الأعاجم بآلاتهم فلم تتناوله الرخصة، وإن سمي غناءً، وسميت آلاته دفوفًا، لكن بينهما من التباين ما لا يخفى على عاقل؛ فإن غناء الأعاجم بآلاتها يثير الهوى، ويغير الطباع، ويدعو إلى المعاصي، فهو رقية الزنا، وغناء الأعراب المرخص به، ليس فيه شيء من هذه المفاسد بالكلية البتة، فلا يدخل غناء الأعاجم في الرخصة لفظًا ولا معنى؛ فإنه ليس هنالك نص عن الشارع بإباحة ما يسمى غناءً ولا دفًا، وإنما هي قضايا أعيان، وقع الإقرار عليها، وليس لها من عموم، وليس الغناء والدف المرخص فيهما في معنى ما في غناء الأعاجم ودفوفها المصلصلة، لأن غناءهم ودفوفهم تحرك الطباع وتهيجها إلى المحرمات، بخلاف غناء الأعراب، فمن قاس أحدهما على الآخر فقد أخطأ أقبح الخطأ، وقاس مع ظهور الفرق بين الفرع والأصل فقياسه من أفسد القياس وأبعده عن الصواب.

وقد صحت الأخبار عن النبي ﷺ بذم من يستمع القينات في آخر الزمان، وهو إشارة إلى تحريم سماع آلات الملاهي المأخوذة عن الأعاجم. (٢)

وقال الألباني: إن هذا الذي أنكره يجوز في يوم عيد، فتنبه له النبي ﷺ بقوله: " دعهما

---

(١) صحيح موقوفًا، ولا يصح مرفوعًا، السلسلة الضعيفة للألباني (٢٤٣٠).

(٢) الفتح لابن رجب ٨/ ٤٢٨-٤٣١.

يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا "، فبقي إنكار أبي بكر العام مُسَلمًا فيه لإقراره ﷺ إياه؛ ولكنه استثنى منه الغناء في العيد؛ فهو مباح بالمواصفات الواردة في الحديث، ولمّا أمر أبا بكر بأن لا ينكر عليهما بقوله: " دعهما " أتبع ذلك بقوله: " فإن لكل قوم عيدًا. . . "، فهذه جملة تعليلية تدل على إن علة الإباحة هي العيدية - إذا صح التعبير- ومن المعلوم أن الحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا. [١]

وقال: وذلك لأن هذا إنما يدل علي إباحة مقيدة بيوم عيد كما تقدم، وبالدف، وليس بكل آلات الطرب، وبالصغار من الإناث كما صرح به العلماء. [٢]

الوجه الخامس: الحديث فيه دليل على إعراض النبي ﷺ عن الاستماع.

فعند الإمام مسلم: " وَرَسولُ الله ﷺ مُسَجًّى بِثَوْبِهِ ". [٣]

ولفظ هارون " فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ ". [٤]

وكذا عند البخاري[٥].

وعند النسائي: " وَرَسُولُ الله ﷺ مُسَجًّى بِثَوْبِهِ، وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: مُتَسَجٍّ ثَوْبَهُ "[٦].

وكذا اللفظة الأولي عند ابن حبان[٧]، وهي " وَرَسُولُ الله ﷺمستتر بثوبه"

وعند الطبراني: "والنبي ﷺ مضطجع مسجي بثوبه علي وجهه"[٨].

وعند البيهقي: " وَرَسُولُ الله ﷺ مُتَغَشٍّ بِثَوْبِهِ "[٩].

---

(١) تحريم آلات الطرب (١١٢).

(٢) تحريم آلات الطرب (١١٣).

(٣) مسلم (٨٩٢).

(٤) مسلم (٨٩٢).

(٥) البخاري (٩٤٩).

(٦) المجتبى ٣/ ١٩٦-١٩٧.

(٧) صحيح ابن حبان (٥٨٦٨).

(٨) الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٨٠) (٢٨٥).

(٩) السنن الكبرى ٣/ ١٩٦ - ١٩٧.

وقال: (باب الرَّجُلِ لاَ يَنْسِبُ نَفْسَهُ إِلَى الْغِنَاءِ وَلاَ يُؤْتَى لِذَلِكَ وَلاَ يَأْتِي عَلَيْهِ وَإِنَّمَا يُعْرَفُ بِأَنَّهُ يَطْرِبُ فِي الْحَالِ فَيَتَرَنَّمُ فِيهَا)(١).

قال ابن تيمية: وليس في حديث الجاريتين أن النبي ﷺ استمع إلى ذلك والأمر والنهى إنما يتعلق بالاستماع ولا بمجرد السماع. (٢)

فالاستماع هو السمع والإصغاء والسامع هو: الذي يصل الصوت إلى مسامعه من دون قصد إليه، والمستمع المصغي بسمعه إليه، والأول غير مذموم فيما يذم استماعه، ولا ممدوح فيما يمدح استماعه.

فالنبي ﷺ سمع (ولا يقال استمع) إلى الغناء المباح الذي كان يصدر من الجواري ولم يقترن هذا الغناء بآلة موسيقية غير الدف، وهو المشروع من بين جميع الملاهي والآلات بثبوت ذلك عن رسول الله ﷺ.

الوجه السادس: صفة الغناء المحرم في دين الله.

وقد سبق بيانه في كلام الإمام النووي رحمه الله تعالي في الوجه الثالث.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: أما سماع القنيات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيء منها عليه حرامًا؛ لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها؟ إما أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال، ولا هتك الأستار، ولا سماع الرفث؛ فإذا خرج ذلك إلى ما لا يجوز منع من أوله، واجتث من أصله. (٣)

وقال أبو بكر الخلال: الغناء والنوح واحد، مباح ما لم يكن معهما منكر، ولا فيه طعن، وفي الجملة، من اتخذه صناعة يؤتى له، أو اتخذ غلامًا أو جارية مغنيين يجمع عليهما الناس، فلا شهادة له لأنه سفه، وسقوط مروءة. (٤)

---

(١) السنن الكبرى ١٠/ ٢٢٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٥٦٦.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٤.

(٤) الكافي لابن قدامة ٤/ ٣٤٢.

وقال ابن رجب الحنبلي[(١)]: وأما الغناء المهيج للطباع، المثير للهوى، فلا يباح لرجل ولا لامرأة فعله ولا استماعه؛ فإنه داع إلى الفسق، والفتنة في الدين، والفجور؛ فيحرم كما يحرم النظر بشهوة إلى الصور الجميلة، فإن الفتنة تحصل بالنظر وبالسماع؛ ولهذا جعل النبي ﷺ زنا العينين النظر، وزنا الأذن الاستماع.[(٢)]

ولا خلاف بين العلماء المعتبرين في كراهة الغناء وذمه وذم استماعه، ولم يرخص فيه أحد يعتد به. وقد حكيت الرخصة فيه على بعض المدنيين.

وقد روى أحمد، عن إسحاق الطباع، أنه سأل مالكًا عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقالَ: إنما يفعله عندنا الفساق[(٣)]. وكذا قالَ إبراهيم بن المنذر الحزامي.[(٤)] وهو من علماء أهل المدينة -أيضًا. وقد نص أحمد على مخالفة ما حكي عن المدنيين في ذَلِكَ.

قال الإمام الذهبي: أهل المدينة يترخصون في الغناء، هم معروفون بالتسامح فيه.[(٥)]

وكذا نص هو وإسحاق على كراهة الشعر الرقيق الذي يشبب به النساء.[(٦)]

وقال أحمد: الغناء الذي وردت فيه الرخصة هو غناء الراكب: أتيناكم أتيناكم.

وفي المبدع شرح المقنع: يحرم استماع صوت كل ملهاة مع غناء وغيره؛ في سرور وغيره، وفيه "التغيير يتبع الغِنَاء الذي معَهُ إن حرمَ حَرُمَ، وإن كره كره، وقيل يحرم مطلقًا.

قال أحمد: " أكره التغيير لأنه يلذ ويطرب. وقال: لا يسمع التغيير فقيل: هو بدعة. فقال: حسبك[(٧)].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٣٥_٤٣٦ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٣) الجامع في العلل (١٤٩٩)، وصحح سنده الألباني في تحريم ألآت الطرب صـ (١٠١).

(٤) أخرجه أبو بكر الخلال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٧٠).

(٥) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٢.

(٦) مسائل الإمام أحمد (٣٢٧٤).

(٧) المبدع شرح المقنع ١٠/ ٢٩٠.

الوجه السابع: آلات الغناء المحرمة.

قال رسول الله ﷺ: "**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ**". [١]

وقال أحمد البنا: (باب إعلان النكاح واللهو فيه والضرب بالدف) في شرح فصل ما بين الحلال والحرام: أي فرق ما بين الحلال والحرام الصوت؛ وفسره الراوي بأنه الضرب بالدف.

وقال: المراد بالصوت هنا: الغناء بالكلام المباح. [٢]

وكتب عمر بن عبد العزيز إلي عمر بن الوليد كتابا فيه: وإظهارك المعازف والمزمار بدعة في الإسلام. [٣]

والمعازف هي:

١- الطبل ٢- الأوتار ٣- الطنبور ٤-العود.

ويضاف إلى ما تقدم الآلات الحديثة.

وجاء في رد المحتار: وَضَرْبِ الْأَوْتَارِ مِنْ الطُّنْبُورِ وَالْبَرْبَطِ وَالرَّبَابِ وَالْقَانُونِ وَالْمِزْمَارِ وَالصَّنْجِ وَالْبُوقِ، فَإِنَّهَا كُلَّهَا مَكْرُوهَةٌ لِأَنَّهَا زِيُّ الْكُفَّارِ[٤].

وفي مواهب الجليل: عَنْ مَالِكٍ وَسُئِلَ عَنْ ضَرْبِ الْكَبَرِ وَالْمِزْمَارِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اللهوِ يَنَالُكَ سَمَاعُهُ وَتَجِدُ لَذَّتَهُ وَأَنْتَ فِي طَرِيقٍ أَوْ مَجْلِسٍ أَوْ غَيْرِهِ، قَالَ مَالِكٌ: أَرَى أَنْ يَقُومَ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، قَالَ أَصْبَغُ: مَا جَازَ لِلنِّسَاءِ مِمَّا جُوِّزَ لَهُنَّ مِنْ الدُّفِّ وَالْكَبَرِ فِي الْعُرْسِ؛ فَلَا يَجُوزُ لِلرِّجَالِ عَمَلُهُ، وَمَا لَا يَجُوزُ لَهُمْ عَمَلُهُ؛ فَلَا يَجُوزُ لَهُمْ حُضُورُهُ، وَلَا يَجُوزُ لِلنِّسَاءِ غَيْرُ الْكَبَرِ وَالدُّفِّ، وَلَا غِنَاءَ مَعَهَا، وَلَا ضَرْبَ، وَلَا بَرَابِطَ، وَلَا مِزْمَارَ، وَذَلِكَ حَرَامٌ مُحَرَّمٌ فِي

(١) البخاري (٥٥٩٠) معلقًا، وأخرجه موصولًا الطبراني في الكبير (٣٤١٧)، ومسند الشاميين (٥٨٨)، البيهقي في الكبرى ١٠/ ٢٢١، تاريخ دمشق لابن عساكر ٦٧/ ١٨٩، وغيرهم، ذكرهم ابن حجر في الفتح ١٠/ ٥٧: ٥٥، ورواه أبو داود (٤٠٣٩) بلفظ قريب من هذا، وصححه الألباني في تحريم آلات الطرب صـ ٤٢.

(٢) الفتح الرباني ١٦ / ٢١٣.

(٣) أخرجها النسائي في المجتبى ٧/ ١٣٠، وصححها الألباني في تحريم آلات الطرب صـ ١٢٠.

(٤) رد المحتار ٢٤/ ٤٩٦.

الْفَرَحِ وَغَيْرِهِ إِلَّا ضَرْبًا بِالدُّفِّ وَالْكَبَرِ هَمَلًا، وَبِذِكْرِ الله وَتَسْبِيحًا وَحَمْدًا عَلَى مَا هَدَى، أَوْ بِرَجَزٍ خَفِيفٍ لَا بِمنْكَسِرٍ، وَلَا طَوِيلٍ، مِثْلُ الَّذِي جَاءَ فِي جِوَارِي الْأَنْصَارِ أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيُّونَا نُحَيِّيكُمْ؛ وَلَوْلَا الْحَبَّةُ السَّمْرَا لَمْ نُحْلِلْ بِوَادِيكُمْ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَلَا يُعْجِبُنِي مَعَ ذَلِكَ الصَّفْقُ بِالْأَيْدِي، وَهُوَ أَخَفُّ مِنْ غَيْرِهِ. (١)

وقال النووي: أن يغني ببعض آلات الغناء مما هو من شعار شاربي الخمر وهو مطرب كالطنبور والعود والصنج وسائر المعازف والأوتار يحرم استعماله واستماعه(٢).

جاء في الشرح الكبير للدردير المالكي: والراجح أن الدف والكبر جائزان لعرس مع كراهة الكراء وأن المعازف حرام"(٣).

قال ابن قدامة المقدسي: (فصل في الملاهي): وهي على ثلاثة أضرب: محرم وهو ضرب الأوتار، والنايات، والمزامير كلها، والعود، والطنبور، والمعزفة، والرباب، ونحوها فمن أدام استماعها ردت شهادته(٤).

وقال: فأما الضرب به - يعني الدف - للرجال فهو مكروه على كل حال؛ لأنه إنما يضرب به النساء والمخنثون، والمشبهون بهن؛ ففي ضرب الرجال به تشبه بالنساء.

فأما الضرب بالقضيب فيكره؛ إذا انضم إليه مكروه أو محرم كالتصفيق والغناء والرقص؛ وإن خلا عن ذلك كله؛ لم يكره لأنه ليس بآلة لهو، ولا بطرب، ولا يسمع منفردًا بخلاف الملاهي. (٥)

وفي الإنصاف: يَحْرُمُ كُلُّ مَلْهَاةٍ، سِوَى الدُّفِّ كَمِزْمَارٍ، وَطُنْبُورٍ، وَرَبَابٍ، وَجُنْكٍ وَنَايٍ، وَمِعْزَفَةٍ، وَسِرْنَايٌ، نَصَّ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ. وَكَذَا الْجِفَانَةُ، وَالْعُودُ.

---

(١) مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل (٤٠/ ١١).

(٢) روضة الطالبين ٨/ ٢٠٥ .

(٣) الشرح الكبير ٤/ ١٨.

(٤) الشرح الكبير ١٢/ ٤٨.

(٥) الشرح الكبير ١٢/ ٥٠

قَالَ فِي (الْمُسْتَوْعِبِ)، و (التَّرْغِيبِ): سَوَاءٌ أُسْتُعْمِلَتْ لِحُزْنٍ، أَوْ سُرُورٍ، وَسَأَلَهُ ابْنُ الْحَكَمِ: عَنْ النَّفْخِ فِي الْقَصَبَةِ كَالْمِزْمَارِ؟ فَقَالَ: أَكْرَهُهُ(١).

وجاء في (الفروع): في مسألة النهي عن الملاهي؛ وَنَقَلَ حَنْبَلٌ: لَا بَأْسَ بِالصَّوْتِ وَالدُّفِّ فِيهِ وَأَنَّهُ قَالَ: أَكْرَهُ الطَّبْلَ - وَهُوَ الْكُوبَةُ - نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ (٢)، وَنَقَلَ ابْنُ مَنْصُورٍ: الطَّبْلُ لَيْسَ فِيهِ رُخْصَةٌ.

وَفِي عُيُونِ الْمَسَائِلِ وَغَيْرِهَا فِي مَنْ أَتْلَفَ آلَةَ لَهْوٍ: الدُّفُّ مَنْدُوبٌ إلَيْهِ فِي النِّكَاحِ، لِأَمْرِ الشَّارِعِ، بِخِلَافِ الْعُودِ وَالطَّبْلِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُبَاحُ اسْتِعْمَالُهُ وَالتَّلَهِّي بِهِ بِحَالٍ(٣).

قال ابن الجوزي: فالمحرم الزمر، والناي، والسرنا، والطنبور، والمعزفة، والرباب، وما ماثلها. نص الإمام أحمد بن حنبل على تحريم ذلك. ويلحق به الجرافة، والجنك -وهي آلَةٌ يُضْرَبُ بها كالعُودِ - لأن هذه تطرب فتخرج عن حد الاعتدال، وتفعل في طباع الغالب من الناس ما يفعله المسكر، وسواء استعمل على حزن يهيجه، أو سرور؛ لأن النبي ﷺ نهى عن صوتين أحمقين صوت عند نعمة، وصوت عند مصيبة، والمكروه القضيب؛ لكنه ليس بمطرب في نفسه، وإنما يطرب بما يتبعه(٤).

وقال ابن رجب الحنبلي: وأما استماع آلات الملاهي المطربة المتلقاة من وضع الأعاجم، فمحرم مجمع على تحريمه، ولا يعلم عن أحد منه الرخصة في شيء من ذَلِكَ، ومن نقل الرخصة فيه عن إمام يعتد به؛ فقد كذب وافترى، وأما دف الأعراب الخالي من الجلاجل المصوتة ونحوها؛ فقد اختلف العلماء فيه على ثلاثة مذاهب:

أحدها: أنه يرخص فيه مطلقا للنساء؛ وقد روي عن أحمد ما يشهد له(٥)، واختاره

---

(١) الإنصاف ١٣/ ١٧٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٧٤، وأبو داود (٣٦٨٥)، وإسناد أحمد صحيح.

(٣) عيون المسائل ٥/ ٢٣٧.

(٤) تلبيس إبليس ١/ ٣٠١.

(٥) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ١/ ٢٩٣.

طائفة من المتأخرين من أصحابنا، كصاحب (المغني) وغيره. (١)

والثاني: إنما يرخص فيه في الأعراس ونحوها، وهو مروي عن عمر بن عبد العزيز والأوزاعي، وهو قول كثير من أصحابنا أو أكثرهم.

والثالث: أنه لا يرخص فيه بحال، وهو قول النخعي وأبي عبيد.

وجماعة من أصحاب ابن مسعود ﷺ كانوا يتبعون الدفوف مع الجواري في الأزقة فيحرقونها.

وقال الحسن: ليس الدف من أمر المسلمين في شيء. ولعله أراد بذلك دفوف الأعاجم المصلصلة المطربة.

وقد سُئل أحمد على ذلك فتوقف، وكأنه حصل عنده تردد: هل كانت كراهة من كره الدفوف لدفوف الأعراب، أو لدفوف الأعاجم الصلصلة؟ وقد قيل لأحمد: الدف فيهِ جرس؟ قال: لا. وقد نص على منع الدف المصلصل(٢).

وقال مالك في الدف: هو من اللهو الخفيف، فإذا دعي إلى وليمة، فوجد فيها دفًا فلا أرى أن يرجع. (٣)، وقاله القاسم من أصحابه.

وقال أصبغ -منهم-: يرجع لذلك(٤).

وقال رحمه الله: في هذا الحديث: الرخصة للجواري في يوم العيد في اللعب، والغناء بغناء الأعراب. وإن سمع ذلك النساء والرجال، وإن كان معه دف مثل دف العرب، وهو يشبه الغربال.

وقد أخرجه البخاري في آخر (كتاب العيدين)(٥)، من رواية الزهري، عن عروة عن عائشة، أن أبا بكر ﷺ دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى، تدففان وتضربان والنبيﷺ متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي ﷺ عن وجهه، فقال: " دعهما يا

---

(١) المغني (١٢/ ٤٩).

(٢) كما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال (١٤٠).

(٣) مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل ١١/ ٣٨.

(٤) فتح الباري ٨/ ٤٣٦-٤٣٧.

(٥) البخاري (٩٨٧).

أبابكر؛ فإنها أيام عيد"، وتلك (الأيام) أيام منى.

ولا ريب أن العرب كانَ لهم غناء يتغنون به، وكان لهم دفوف يضربون بها، وكان غناؤهم بأشعار أهل الجاهلية من ذكر الحروب وندب من قتل فيها، وكانت دفوفهم مثل الغرابيل، ليس فيها جلاجل، كما في حديث عائشة -رضي الله عنها -، عن النَّبيّ ﷺ: " أعلنوا النكاح واضربوا عليهِ بالغربال "، وخرجه وابن ماجه بإسناد فيه ضعفٌ"[١].

قال الإمام الغزالي: الرخصة في الغناء والضرب بالدف من الجاريتين، مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك. [٢]

فالأحاديث فقط تحلل الدف من بين الآلات الموسيقية وهو الدف الذي لا يحتوي على الجلاجل.

وقال ابن القيم: بعد ما ذكر كلامًا في ذلك أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغني؛ ويحرم عليه ذلك؛ فإنه بذل ماله في مقابلة محرم؛ وأن بذله في ذلك كبذله في مقابلة الدم والميتة.

الخامس: أن الزمر حرام وإذا كان الزمر الذي هو أخف آلات اللهو حراما فكيف بما هو أشد منه كالعود، والطنبور، واليراع، ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذلك؛ فأقل ما فيه: أنه من شعار الفساق وشاربي الخمور.

وفي حاشية رد المحتار[٣]: اسم مغنية ومغن: إنما هو في العرف لمن كان الغناء حرفته التي يكتسب بها المال وهو حرام، ونصوا على أن التغني للهو أو لجمع المال حرام بلا خلاف.

وقال موفق الدين ابن قدامة المقدسي: ومن أدمن على شيء من ذلك، ردت شهادته، لأنه إما معصية، وإما دناءة وسقوط مروءة[٤].

الوجه السابع: الغناء والرقص في الكتاب المقدس.

ففي سفر أخبار الأيام الثاني (٥/ ١٣): وَكَانَ لَمَّا صَوَّتَ الْمُبَوِّقُونَ وَالْمُغَنُّونَ كَوَاحِدٍ

---

(١) ابن ماجه (١٨٩٥)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٧٨).

(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٤٣٣.

(٣) حاشية رد المحتار لابن عابدين ٦/ ٢٦.

(٤) الكافي (٤/ ٣٤٢).

صَوْتًا وَاحِدًا لِتَسْبِيحِ الرَّبِّ وَحَمْدِهِ، وَرَفَعُوا صَوْتًا بِالأَبْوَاقِ وَالصُّنُوجِ، وَآلاَتِ الْغِنَاءِ، وَالتَّسْبِيحِ لِلرَّبِّ: «لأَنَّهُ صَالِحٌ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ». أَنَّ الْبَيْتَ، بَيْتَ الرَّبِّ، امْتَلأَ سَحَابًا.

وفي (الأيام الثاني ٢٠/ ٢٢): وَلَمَّا ابْتَدَأُوا فِي الْغِنَاءِ وَالتَّسْبِيحِ جَعَلَ الرَّبُّ أَكْمِنَةً عَلَى بَنِي عَمُّونَ وَمُوآبَ وَجَبَلِ سِعِيرَ الآتِينَ عَلَى يَهُوذَا فَانْكَسَرُوا.

وفي (الأيام الثاني٢٣/ ١٣): وَنَظَرَتْ وَإِذَا الْمَلِكُ وَاقِفٌ عَلَى مِنْبَرِهِ فِي الْمَدْخَلِ، وَالرُّؤَسَاءُ وَالأَبْوَاقُ عِنْدَ الْمَلِكِ، وَكُلُّ شَعْبِ الأَرْضِ يَفْرَحُونَ وَيَنْفُخُونَ بِالأَبْوَاقِ، وَالْمُغَنُّونَ بِآلاَتِ الْغِنَاءِ، وَالْمُعَلِّمُونَ التَّسْبِيحَ. فَشَقَّتْ عَثَلْيَا ثِيَابَهَا وَقَالَتْ: «خِيَانَةٌ، خِيَانَةٌ!».

وفي (الأيام الثاني٢٣/ ١٨)وَجَعَلَ يَهُويَادَاعُ مُنَاظِرِينَ عَلَى بَيْتِ الرَّبِّ عَنْ يَدِ الْكَهَنَةِ اللاَّوِيِّينَ الَّذِينَ قَسَمَهُمْ دَاوُدُ عَلَى بَيْتِ الرَّبِّ، لإِصْعَادِ مُحْرَقَاتِ الرَّبِّ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي شَرِيعَةِ مُوسَى، بِالْفَرَحِ وَالْغِنَاءِ حَسَبَ أَمْرِ دَاوُدَ.

وفي سفر الخروج (٣٢/ ١٩): وَكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ، فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى، وَطَرَحَ اللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ.

وفي سفر القضاة (٢١/ ٢١): وَانْظُرُوا. فَإِذَا خَرَجَتْ بَنَاتُ شِيلُوهَ لِيَدُرْنَ فِي الرَّقْصِ، فَاخْرُجُوا أَنْتُمْ مِنَ الْكُرُومِ وَاخْطِفُوا لأَنْفُسِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَتَهُ مِنْ بَنَاتِ شِيلُوهَ، وَاذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ بَنْيَامِينَ.

وفي سفر صموئيل الأول (٦/ ١٨): وَكَانَ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ حِينَ رَجَعَ دَاوُدُ مِنْ قَتْلِ الْفِلِسْطِينِيِّ، أَنَّ النِّسَاءَ خَرَجَتْ مِنْ جَمِيعِ مُدُنِ إِسْرَائِيلَ بِالْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ لِلِقَاءِ شَاوُلَ الْمَلِكِ بِدُفُوفٍ وَبِفَرَحٍ وَبِمُثَلَّثَاتٍ.

وفي صموئيل الأول (١١/ ٢١): فَقَالَ عَبِيدُ أَخِيشَ لَهُ: «أَلَيْسَ هذَا دَاوُدَ مَلِكَ الأَرْضِ؟ أَلَيْسَ لِهذَا كُنَّ يُغَنِّينَ فِي الرَّقْصِ قَائِلاَتٍ: ضَرَبَ شَاوُلُ أُلُوفَهُ وَدَاوُدُ رِبْوَاتِهِ؟.

* * *

٢٤ـ شبهة: حديث الماء من الماء.

نص الشبهة:

اعترضوا بسوء فهم على حديث النبيﷺ: "إنما الماء من الماء"، فقالوا: كيف يفسر ماء الشرب بالماء المعروف، وأما عن المعرضة من الناحية الأخرى كما جاء في قوله ﷺ: "إِذَا مَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ"، ففي هذا الحديث يبين أن إيجاب الغسل لا يكون إلا من التقاء الختانين، وفي الحديث الآخر أن إيجاب الغسل لا يكون إلا بالإنزال، فأيهما صحيح؟.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان صحة قوله ﷺ: "إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ".

الوجه الثاني: بيان معنى قوله ﷺ: " إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ".

الوجه الثالث: بيان معنى قوله ﷺ: " إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ - ثم جهدها - وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ ".

الوجه الرابع: الجمع بين قولهﷺ: " إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ " وقولهﷺ: "إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ "

الوجه الخامس: بيان الحكم الفقهي من الحديثين.

الوجه السادس: الاغتسال ونجاسة البدن في الكتاب المقدس.

وإليك الرد بالتفصيل،

الوجه الأول: بيان صحة قولهﷺ: "إِنمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ"

١ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

قَالَ خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ إِلَى قُبَاءٍ؛ حَتَّى إِذَا كُنَّا في بني سَالِمٍ وَقَفَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَابِ عِتْبَانَ؛ فَصَرَخَ بِهِ؛ فَخَرَجَ يَجُرُّ إِزَارَهُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَعْجَلْنَا الرَّجُلَ". فَقَالَ عِتْبَانُ: يَا رَسُولَ الله! أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يُعْجَلُ عَنِ امْرَأَتِهِ، وَلَمْ يُمْنِ مَاذَا عَلَيْهِ؟

قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: " إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ"(١).

٢ـ حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ:

عَنْ أَبِى أَيُّوبَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ "(٢).

الوجه الثاني: بيان معنى قولهﷺ: "إِنَمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ".

والمراد بالماء الأول: ماء الغسل، وبالثاني: المني. والمعنى أن وجوب الاغتسال بالماء من أجل خروج الماء الدافق(٣).

الوجه الثالث: بيان معنى قولهﷺ: "إِذا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ ـ ثم جهدها ـ وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ"

قَوْله (بَيْنَ شُعَبِهَا):

والشعب: جمع شعبة وهي القطعة من الشيء، قيل المراد هنا: يداها ورجلاها، وقيل: رجلاها وفخذاها، وقيل: ساقاها وفخذاها، وقيل: فخذاها وإسكتاها، وقيل: فخذاها وشفراها، وقيل: نواحي فرجها الأربع، قال الأزهري: الإسكتان ناحيتا الفرج، والشفران طرف الناحيتين، ورجح القاضي عياض الأخير، واختار ابن دقيق العيد الأول، قال: لأنه أقرب إلى الحقيقة، أو هو حقيقة في الجلوس، وهو كناية عن الجماع فاكتفى به عن التصريح(٤).

---

(١) مسلم (٣٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٤١٦، والنسائي في سننه ١/ ١١٥، وابن ماجه (٦٠٧) من طريق سفيان بن عيينة، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٦٤)، ومن طريقه أحمد في مسنده ٥/ ٤٢١، والدرامي في سننه (٧٥٨) من طريق ابن جريج؛ كلاهما (سفيان، ابن جريج) عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن السائب، عن عبد الرحمن بن سعاد، عن أبي أيوب به.

وفيه عبد الرحمن بن السائب، وعبد الرحمن بن سعاد: مقبولان. التقريب ١/ ٣٣٦، وله شاهد في مسلم كما تقدَّم؛ يؤكده ويرتقي للحسن، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٩١).

(٣) فتح الباري لابن حجر١/ ٤٧٣، عون المعبود ١/ ٢٥٠.

(٤) فتح الباري لابن حجر ١/ ٤٧٠، وانظر: شرح النووي على مسلم٢/ ٢٧٦، حاشية السندي على سنن النسائي ١/ ١٤٨.

قَوْله (ثمَّ جهدها): أَيْ جَامَعَهَا وَوَطِئَهَا وَفَعَلَ بِهَا الْفِعْل الْمَقْصُود بِهَا؛ فَلِذَلِكَ قِيلَ جهدها. وهوَ عبارة عَن الاجتهاد في إيلاج الحشفة في الفرج، وَهوَ المراد- أيضًا- مِن التقاء الختانين. (١)

وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ: أَيْ خِتَان الرَّجُل بِخِتَانِ الْمَرْأَة، وَالْمُرَاد تَلَاقِي مَوْضِع الْقَطْع مِنْ الذَّكَر مَعَ مَوْضِعه مِنْ فَرْج الْأُنْثَى. قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ إِذَا غَابَ الذَّكَر فِي الْفَرْج وَلَيْسَ الْمُرَاد حَقِيقَة الْمَسّ وَالْإِلْصَاق بِغَيْرِ غَيْبُوبَة، وَذَلِكَ أَنَّ خِتَان الْمَرْأَة فِي أَعْلَى الْفَرْج وَلَا يَمَسّهُ الذَّكَر فِي الْجِمَاع. وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّهُ لَوْ وَضَعَ ذَكَرَهُ عَلَى خِتَانهَا وَلَمْ يُولِجهُ لَمْ يَجِب الْغُسْل لَا عَلَيْهِ وَلَا عَلَيْهَا(٢).

وَمَعْنَى الْحَدِيث أَنَّ إِيجَاب الْغُسْل لَا يَتَوَقَّف عَلَى نُزُول الْمَنِيّ؛ بَلْ مَتَى غَابَتْ الْحَشَفَة فِي الْفَرْج وَجَبَ الْغُسْل عَلَى الرَّجُل وَالْمَرْأَة، وَهَذَا لَا خِلَاف فِيهِ الْيَوْم، وَقَدْ كَانَ فِيهِ خِلَاف لِبَعْضِ الصَّحَابَة وَمَنْ بَعْدهمْ، ثُمَّ انْعَقَدَ الْإِجْمَاع عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ. (٣)

الوجه الرابع: الجمع بين قوله ﷺ: "إِنَمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ" وقوله ﷺ: "إذا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ"

فقد سلك العلماء في الجمع بين الحديثين بهذه المسالك.

المسلك الأول: مسلك النسخ.

قال الترمذي: وَإِنَّمَا كَانَ الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ؛ ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ وَهَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ النبي ﷺ مِنْهُمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَرَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ.

وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ -الجمهور- عَلَى أَنَّهُ إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ فِي الْفَرْجِ وَجَبَ عَلَيْهِمَا الْغُسْلُ وَإِنْ لَمْ يُنْزِلاَ. (٤)

---

(١) حاشية السندي على سنن النسائي ١/ ١٤٨، فتح الباري لابن رجب ١/ ٣٧٢، وانظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ٢٧٦، فتح الباري لابن حجر ١/ ٤٧٠.

(٢) عون المعبود ١/ ٢٤٦.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ٢٧٦.

(٤) سنن الترمذي ١/ ١٨٥. وانظر: اختلاف الحديث للشافعي١/ ٤٩٣، الاستذكار ٣/ ٨٤، الناسخ والمنسوخ لابن شاهين (٥١)، الاعتبار للحازمي (٥٧)، كشف المشكل لابن الجوزي ١/ ٩٨٥، شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ٢٧٣، فتح الباري لابن حجر ١/ ٤٧٣.

ومما يدل على نسخه:

حديث أبي بن كعب: أَنَّ الْفُتْيَا التي كَانُوا يُفْتُونَ أَنَّ الْمَاءَ مِنَ الْمَاءِ كَانَتْ رُخْصَةً رَخَّصَهَا رَسُولُ الله ﷺ في بَدْءِ الإِسْلاَمِ ثُمَّ أَمَرَ بِالاغْتِسَالِ بَعْدُ.

وفي لفظ أنه قَالَ: إِنَّمَا كَانَ الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ رُخْصَةً في أَوَّلِ الإِسْلاَمِ ثُمَّ نُهِيَ عَنْهَا. (١)

المسلك الثاني: مسلك الجمع:

وهو حمل حديث "إنما الماء من الماء" على حالة مخصوصة وهي: في الذي يحتلم ليلًا، فيستيقظ من منامه، ولا يجد بللًا.

قال ابن عبد البر: وقد قيل معنى "الماء من الماء" في الاحتلام لا في اليقظة؛ لأنه لا يجب في الاحتلام إلا مع إنزال الماء، وهذا مجتمع عليه فيمن رأى أنه يجامع ولا ينزل؛ أنه لا غسل عليه؛ وإنما الغسل في الاحتلام على من أنزل الماء، هذا ما لم يختلف فيه العلماء. (٢)

ويستدلون بما روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قَالَ إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ في الاِحْتِلاَمِ. (٣)

وقال الشيخ عبد الحق الدهلوي: يمكن أن يقال: إن قول ابن عباس رضي الله عنه هذا ليس تأويلًا للحديث، وإخراجًا له بهذا التأويل من كونه منسوخًا؛ بل غرضه بيان حكم المسألة بعد العلم بكونه منسوخًا، وحاصله أن عمومه منسوخ، فبقي الحكم في الاحتلام. (٤)

المسلك الثالث: مسلك الترجيح.

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود في سننه (٢١٥)، والدرامي في سننه (٧٦٠) من طريق أبي حازم، وأخرجه أحمد في مسنده ٥/ ١١٥-١١٦، والترمذي في سننه (١١٠)، والدرامي في سننه (٧٥٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٥٧ من طرق عن الزهري، جميعهم عن سهل بن سعد، عن أبي بن كعب به. قال ابن حجر: والحديث صالح لأن يحتج به. فتح الباري ١/ ٤٧٣. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٨).

(٢) الاستذكار ٣/ ٨٧: ٨٦. وانظر: فتح الباري ١/ ٤٧٣.

(٣) ضعيف. أخرجه الترمذي في سننه (١١٢)، والحازمي في الاعتبار (٥٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٥٦ من طريق شريك، عن أبي الجحاف، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه به.

قلت: وإسناده ضعيف، فيه: شريك بن عبد الله النخعي: سيء الحفظ. والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (١٦).

(٤) نقلًا من تحفة الأحوذي ١/ ٣١٠.

قال الصنعاني: حَدِيث الْغُسْل وَإِنْ لَمْ يُنْزِل أَرْجَح لَوْ لَمْ يَثْبُت النَّسْخ؛ لِأَنَّهُ مَنْطُوق فِي إِيجَاب الْغُسْل وَذَلِكَ - حديث الماء من الماء - مَفْهُوم، وَالْمَنْطُوق مُقَدَّم عَلَى الْعَمَل بِالْمَفْهُومِ. (١)

الوجه الخامس: بيان الحكم الفقهي من الحديثين.

أولًا: ذهب قليل من الصحابة وبه أخذ داود الظاهري. إلى أن الغسل لا يكون إلا من إنزال.

ويستدلون بالآتي:

١ - حديث "إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ"

حديث زيد بن خالد الجهني:

أَنَّهُ سَأَلَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ فَلَمْ يُمْنِ. قَالَ عُثْمَانُ: يَتَوَضَّأُ كَمَا يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ، وَيَغْسِلُ ذَكَرَهُ. قَالَ عُثْمَانُ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، وَطَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ، وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ﵁ فَأَمَرُوهُ بِذَلِكَ. قَالَ يَحْيَى: وأخبرني أَبُو سَلَمَةَ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ، أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ(٢).

حديث أبي بن كعب: قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُصِيبُ مِنَ الْمَرْأَةِ ثُمَّ يُكْسِلُ. فَقَالَ: "يَغْسِلُ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي".

وفي لفظ. أَنَّهُ قَالَ فِي الرَّجُلِ يأتي أَهْلَهُ ثُمَّ لاَ يُنْزِلُ قَالَ: "يَغْسِلُ ذَكَرَهُ وَيَتَوَضَّأُ". (٣)

حديث أبي سعيد الخدري: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَرْسَلَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَجَاءَ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ، فَقَالَ النبي ﷺ: "لَعَلَّنَا أَعْجَلْنَاكَ". فَقَالَ نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا أُعْجِلْتَ أَوْ قُحِطْتَ، فَعَلَيْكَ الْوُضُوءُ".

وفي لفظ مسلم أنه ﷺ قَالَ: "إِذَا أُعْجِلْتَ أَوْ أَقْحَطْتَ فَلاَ غُسْلَ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ الْوُضُوءُ". (٤)

---

(١) سبل السلام ١/ ١١٩، وانظر: فتح الباري ١/ ٤٧٤.

(٢) البخاري (٢٩٧)، مسلم (٣٤٧).

(٣) البخاري (٢٩٣)، مسلم (٣٤٦) واللفظ له.

(٤) البخاري (١٨٠)، مسلم (٣٤٥).

ثانيًا: ذهب جمهور أهل العلم بوجوب الغسل بالتقاء الختانين أنزل أو لم ينزل.

قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ؛ منهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعائشة، والفقهاء من التابعين ومن بعدهم مثل سفيان الثوري، والشافعي، وأحمد، وإسحق قالوا: إذا التقى الختانان وجب الغسل. [١]

قال ابن عبد البر: على هذا القول جمهور أهل الفتوى بالحجاز، والعراق، والشام، ومصر، وإليه ذهب مالك، والشافعي، وأبو حنيفة وأصحابهم، والليث بن سعد، والأوزاعي، والثوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، وأبو ثور، وأبو عبيد، والطبري[٢].

ويستدلون بالآتي:

١ـ من القرآن: قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ (المائدة: ٦)، فالآية بينت أن الجنب وجب عليه التطهير، ولم تفرق بين الجماع بإنزال أو بدونه. والطهارة هنا لا تكون إلا بالغسل.

قال الشافعي: وذكر الشافعي: أن كلام العرب يقتضي أن الجنابة تطلق بالحقيقة على الجماع، وأن لم يكن معه إنزال؛ فإن كل من خوطب بأن فلانا أجنب من فلانة، عقل أنه أصابها وأن لم ينزل[٣].

قال ابن رجب: إن المجامع وإن لَم ينزل يسمى جنبًا ومجامعًا وواطئًا، ويترتب جميع أحكام الوطء عليهِ، والغسل مِن جملة الأحكام. وهذا معنى قول مِن قالَ مِن السلف: أنوجب المهر والحد ولا نوجب الغسل؟ ، وهذا القول هوَ الذي استقر عليهِ عمل المسلمين. [٤]

٢ـ من السنة:

عن أبِي مُوسَى الأشعري: قَالَ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ رَهْطٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ. فَقَالَ

---

(١) جامع الترمذي١/ ١٨٢.

(٢) التمهيد ٢٣/ ١٠٥، الاستذكار ٣/ ٩٣.

(٣) فتح الباري لابن حجر ١/ ٤٧٣.

(٤) فتح الباري لابن رجب ١/ ٣٨٥.

الأَنْصَارِيُّونَ: لاَ يَجِبُ الْغُسْلُ إِلاَّ مِنَ الدَّفْقِ أَوْ مِنَ الْمَاءِ. وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: بَلْ إِذَا خَالَطَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ. قَالَ: قَالَ أَبُو مُوسَى: فَأَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ. فَقُمْتُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى عَائِشَةَ. فَأُذِنَ لِي. فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهْ - أَوْ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ - إِنِي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شيء وإني أَسْتَحْيِيكِ. فَقَالَتْ: لاَ تَسْتَحْيِي أَنْ تسألني عَمَّا كُنْتَ سَائِلًا عَنْهُ أُمَّكَ التي وَلَدَتْكَ فَإِنَّمَا أَنَا أُمُّكَ. قُلْتُ: فَمَا يُوجِبُ الْغُسْلَ. قَالَتْ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ ". [1]

حديث أبي هريرة ﷺ: عَنِ النبي ﷺ قَالَ: **"إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ ثُمَّ جَهَدَهَا، فَقَدْ وَجَبَ الْغَسْلُ "**، وعند مسلم: " وَإِنْ لَمْ يُنْزِلْ". [2]

حديث عائشة: قَالَتْ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُجَامِعُ أَهْلَهُ ثُمَّ يُكْسِلُ. هَلْ عَلَيْهِمَا الْغُسْلُ؟ وَعَائِشَةُ جَالِسَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِني لأَفْعَلُ ذَلِكَ أَنَا وَهَذِهِ ثُمَّ نَغْتَسِلُ ". [3]

٣ـ من الإجماع.

قال النووي: اعلم أن الأمة مجتمعة الآن على وجوب الغسل بالجماع، وإن لم يكن معه إنزال، وعلى وجوبه بالإنزال؛ وكان جماعة من الصحابة على أنه لا يجب إلا بالإنزال؛ ثم رجع بعضهم. وانتقد الإجماع بعد الآخرين، وقال أيضًا: أن إيجاب الغسل لا يتوقف على نزول المني؛ بل متى غابت الحشفة في الفرج وجب الغسل على الرجل والمرأة؛ وهذا لا خلاف فيه اليوم؛ وقد كان فيه خلاف لبعض الصحابة ومن بعدهم؛ ثم انعقد الإجماع على ما ذكرناه، وهذا الإجماع انعقد في عصر عمر ﷺ، وليس فيه خلاف إلى يومنا هذا. [4]

قال ابن بطال: وإذا كان في المسألة قولان بعد انقراض الصحابة، ثم أجمع العصر

---

(١) مسلم (٣٤٩).

(٢) البخاري (٢٩١)، مسلم (٣٤٨).

(٣) مسلم (٣٥٠).

(٤) شرح النووي ٤/ ٣٦.

الثاني عدهم على أحد القولين، كان ذلك مسقطًا للخلاف قبله ويصير ذلك إجماعًا، وإجماع الأعصار عندنا حجة كإجماع الصحابة.[(١)]

٤ـ من النظر.

قال ابن عبد البر: ولهذه المسألة أيضًا حظ من النظر، وذلك أن الصلاة لا تجب أن تؤدي إلا بطهارة متيقنة؛ وقد أجمعوا على أنه من اغتسل من الإكسال فقد أدى صلاته بطهارة مجتمع عليها والصلاة يجب أن يحتاط لها وكيف وفي ثبوت السنة بصحيح الأثر ما يغني عن كل نظر.[(٢)]

قال الطحاوي: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَقَدْ ثَبَتَ بِهَذِهِ الآثَارِ الَّتِي رَوَيْنَاهَا صِحَّةَ قَوْلِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى وُجُوبِ الْغُسْلِ بِالْتِقَاءِ الخِتَانَيْنِ. فَهَذَا وَجْهُ هَذَا الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ الآثَارِ. وَأَمَّا وَجْهُهُ مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ فَإِنَّا رَأَيْنَاهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّ الجِمَاعَ فِي الْفَرْجِ الَّذِي لاَ إِنْزَالَ مَعَهُ - حَدَثٌ.

فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ أَغْلَظُ الأَحْدَاثِ فَأَوْجَبُوا فِيهِ أَغْلَظَ الطَّهَارَاتِ؛ وَهُوَ الْغُسْلُ. وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ كَأَخَفِّ الأَحْدَاثِ فَأَوْجَبُوا فِيهِ أَخَفَّ الطَّهَارَاتِ؛ وَهُوَ الْوُضُوءُ.

فَأَرَدْنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الْتِقَاءِ الخِتَانَيْنِ: هَلْ هُوَ أَغْلَظُ الأَشْيَاءِ فَنُوجِبُ فِيهِ أَغْلَظَ مَا يَجِبُ فِي ذَلِكَ؛ فَوَجَدْنَا أَشْيَاءَ يُوجِبُهَا الجِمَاعُ، وَهُوَ فَسَادُ الصِّيَامِ وَالحَجِّ، فَكَانَ ذَلِكَ بِالْتِقَاءِ الخِتَانَيْنِ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِنْزَالٌ. ، وَيُوجِبُ ذَلِكَ فِي الحَجِّ الدَّمَ، وَقَضَاءَ الحَجِّ، وَيُوجِبُ فِي الصِّيَامِ الْقَضَاءَ وَالْكَفَّارَةَ، فِي قَوْلِ مَنْ يُوجِبُهَا. وَلَوْ كَانَ جَامَعَ فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ فِي الحَجِّ دَمٌ فَقَطْ؛ وَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِي الصِّيَامِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُنْزِلَ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ فِي حَجِّهِ وَصِيَامِهِ، وَكَانَ مَنْ زَنَى بِامْرَأَةٍ حُدَّ، وَإِنْ لَمْ يُنْزِلْ وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ شُبْهَةٍ فَسَقَطَ بِهَا الحَدُّ عَنْهُ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ المَهْرُ، وَكَانَ لَوْ جَامَعَهَا فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ، لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ حَدٌّ وَلاَ مَهْرٌ، وَلَكِنَّهُ يُعَزَّرُ؛ إِذَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ شُبْهَةٌ. وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا تَزَوَّجَ المَرْأَةَ فَجَامَعَهَا جِمَاعًا لاَ خَلْوَةَ مَعَهُ فِي الْفَرْجِ ثُمَّ طَلَّقَهَا، كَانَ عَلَيْهِ المَهْرُ أَنْزَلَ أَوْ لَمْ يُنْزِلْ؛ وَوَجَبَتْ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ وَأَحَلَّهَا ذَلِكَ لِزَوْجِهَا الأَوَّلِ. وَلَوْ جَامَعَهَا فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ لَمْ يَجِبْ فِي ذَلِكَ

---

(١) شرح ابن بطال ١/ ٤٣٧.

(٢) الاستذكار ٣/ ٩٥.

عَلَيْهِ شَيْء، وَكَانَ عَلَيْهِ فِي الطَّلاَقِ نِصْفُ الْمَهْرِ؛ إِنْ كَانَ سَمَّى لَهَا مَهْرًا، أَوْ الْمُتْعَةُ إِذَا لَمْ يَكُنْ سَمَّى لَهَا مَهْرًا. فَكَانَ يَجِبُ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّتِي وَصَفْنَا؛ الَّتِي لاَ إِنْزَالَ مَعَهَا أَغْلَظُ مَا يَجِبُ فِي الْجِمَاعِ الَّذِي مَعَهُ الإِنْزَالُ مِنْ الْحُدُودِ وَالْمُهُورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَالنَّظَرُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ هُوَ فِي حُكْمِ الأَحْدَاثِ أَغْلَظُ الأَحْدَاثِ وَيَجِبُ فِيهِ أَغْلَظُ مَا يَجِبُ فِي الأَحْدَاثِ وَهُوَ الْغُسْلُ. وَحُجَّةٌ أُخْرَى فِي ذَلِكَ؛ أَنَّا رَأَيْنَا هَذِهِ الأَشْيَاءَ الَّتِي وَجَبَتْ بِالْتِقَاءِ الْخِتَانَيْنِ فَإِذَا كَانَ بَعْدَهَا الإِنْزَالُ لَمْ يَجِبْ بِالإِنْزَالِ حُكْمٌ ثَانٍ؛ وَإِنَّمَا الْحُكْمُ لِالْتِقَاءِ الْخِتَانَيْنِ. أَلاَ تَرَى أَنَّ رَجُلًا لَوْ جَامَعَ امْرَأَةً جِمَاعَ زِنَاءٍ؛ فَالْتَقَى خِتَانَاهُمَا وَجَبَ الْحَدُّ عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ وَلَوْ أَقَامَ عَلَيْهِمَا حَتَّى أَنْزَلَ لَمْ يَجِبْ بِذَلِكَ عَلَيْهِ عُقُوبَةٌ غَيْرُ الْحَدِّ الَّذِي وَجَبَ عَلَيْهِ بِالْتِقَاءِ الْخِتَانَيْنِ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الْجِمَاعُ عَلَى وَجْهِ شُبْهَةٍ؛ فَوَجَبَ عَلَيْهِ الْمَهْرُ بِالْتِقَاءِ الْخِتَانَيْنِ؛ ثُمَّ أَقَامَ عَلَيْهَا حَتَّى أَنْزَلَ؛ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الإِنْزَالِ شَيْءٌ بَعْدَمَا وَجَبَ بِالْتِقَاءِ الْخِتَانَيْنِ، وَكَانَ مَا يُحْكَمُ بِهِ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءِ عَلَى مَنْ جَامَعَ، فَأَنْزَلَ هُوَ مَا يُحْكَمُ بِهِ عَلَيْهِ إِذَا جَامَعَ وَلَمْ يُنْزِلْ، وَكَانَ الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ هُوَ لِالْتِقَاءِ الْخِتَانَيْنِ، لاَ لِلإِنْزَالِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَهُ. فَالنَّظَرُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْغُسْلُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى مَنْ جَامَعَ وَأَنْزَلَ؛ هُوَ بِالْتِقَاءِ الْخِتَانَيْنِ لاَ بِالإِنْزَالِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَهُ. فَثَبَتَ بِذَلِكَ قَوْلُ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْجِمَاعَ يُوجِبُ الْغُسْلَ كَانَ مَعَهُ إِنْزَالٌ، أَوْ لَمْ يَكُنْ وَهَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَأَبِي يُوسُفَ، وَمُحَمَّدٍ، وَعَامَّةِ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمْ اللهُ تَعَالَى. (١)

الوجه السادس: الاغتسال ونجاسة البدن في الكتاب المقدس.

جاء في سفر اللاويين (١٥/ ١٨: ١٦) «وَإِذَا حَدَثَ مِنْ رَجُلٍ اضْطِجَاعُ زَرْعٍ، يَرْحَضُ كُلَّ جَسَدِهِ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَكُلُّ ثَوْبٍ وَكُلُّ جِلْدٍ يَكُونُ عَلَيْهِ اضْطِجَاعُ زَرْعٍ يُغْسَلُ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَالْمَرْأَةُ الَّتِي يَضْطَجِعُ مَعَهَا رَجُلٌ اضْطِجَاعَ زَرْعٍ، يَسْتَحِمَّانِ بِمَاءٍ، وَيَكُونَانِ نَجِسَيْنِ إِلَى الْمَسَاءِ.

---

(١) شرح معاني الآثار ١/ ٦٢: ٦١.

فها هو الكتاب عندهم يثبت النجاسة، إذا وقع الجماع بين الذكر والأنثى، وتظل النجاسة تلاحقهما حتى المساء، ولنا تساؤلات:

١-هل الجماع بالزواج وزر حتى يلحق صاحبه نجاسة؟

٢-وهل التمتع بما أباحه الله تعالى يعد من أعمال النجاسة؟

٣- وهل إتيان المرأة يعني تلبسه بالنجاسة حتى المساء؟

٤- وهل النجاسة حلَّت في بدنه وجسمه كله لوقوعه في هذا العمل العظيم؟

أسئلة لا أجوبة لها عندهم، وعندنا الجواب:

فماء المني ليس بنجس حتى يقال تلبَّس بنجاسة، وإتيان الزوجة عمل مشروع يثاب عليه صاحبه، ولا تلحقه نجاسة، فقد سأل الصحابة ﷺ رسول الله ﷺ، يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: " أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرًا ". [(١)]

والجنب ليس بنجس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ " لقيه في بعض طريق المدينة وهو جنب فانخنست منه فذهب فاغتسل ثم جاء فقال: أين كنت يا أبا هريرة، قال: كنت جنبا؛ فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة، فقال: سبحان الله إن المسلم لا ينجس".[(٢)]

وبمجرد الغسل يحل له كل شيء كان ممنوعًا منه بعد الجنابة من الصلاة ومس المصحف، فلم تلحقه نجاسة عند جماعه ولا بعد جماعه ولا قبل اغتساله، فهذه شريعتنا بسماحتها وطهارتها ويسرها؛ تضيء لمعتنقيها الطريق وتذلل لهم الصعاب، وتضع عنهم الإصر والأغلال التي وضعها الرهبان والأحبار من عند أنفسهم، وصدق الله حين قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

* * *

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٢) البخاري (٢٧٩)، ومسلم (٣٧١).

٢٥ـ شبهة: بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا.

نص الشبهة:

يقولون: في قوله ﷺ: " بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا " إن الإسلام بدأ ضعيفًا وسيعود ضعيفًا كما بدأ.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: معنى الغربة لغةً، واستعمالاتها في السنة النبوية.

الوجه الثاني: ذكر الحديث، وبيان معناه.

الوجه الثالث: أقسام الغربة، وبيان أن كل قسم يعقبه تمكين.

الوجه الرابع: مبشرات بالنصر والتمكين للإسلام؛ وأن الدائرة على الكافرين.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: المعنى اللغوي.

مادة (غرب) مادة واسعة جدًّا، ذكر صاحب القاموس لأحد تصريفاتها (وهو الغَرْبُ) أربعة وعشرين معنى[1]، واستدرك عليه شارح القاموس محمد مرتضى الزبيدي عشرة معان لم يذكرها، فصار مجموعها أربعة وثلاثين معنى.[2]

وإذا كانت هذه المعاني لتصريف واحد، فما بالك بسائر ما يتفرع عن المادة؟! أما كلمة "الغربة" فتطلق على معانٍ عدة:

أ- منها النوى والبعد، يقال: اغترب غربة إذا بعد، ونوى غربة بعيدة.[3]

ب- و مما يقرب من هذا المعنى النـزوح عن الوطن والاغتراب، يقال: رجل غُرُب - بضم الغين والراء - وغريب: أي بعيد عن وطنه، والجمع: غرباء.[4]

(١) القاموس المحيط ل ١/ ٢٠٨: ٢٠٦.

(٢) تاج العروس للزبيدي ١/ ٤٠٤: ٤٠٧.

(٣) القاموس ١/ ٢٠٧، الصحاح ١/ ١٧٣: ١٧٢، اللسان ١/ ٦٣٨.

(٤) اللسان ١/ ٦٣٩، القاموس ١/ ٢٠٦، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٣٣٦.

ج- ويقرب منهما: الغريب بمعنى أنه ليس من القوم. (١)

د- وتطلق على الغموض والخفاء وعدم الشهرة، ومنه غريب الحديث: أي خفيه الذي لا يظهر معناه(٢)، وأغرب: أتى بالغريب. (٣)

هـ- وتطلق على الذهاب والتنحي عن الناس، يقال: غرب عنا يغرب غربًا. (٤)

قال سلمان بن فهد العودة: والذي جمع هذه المعاني أن غربة الشيء تعني أنه غير موافق كليًا أو جزئيًا للأشياء التي حوله، وقد تكون دلالة هذه الكلمة على مدلولها بالمطابقة؛ كتسمية المقيم بين قومٍ سوى قومه غريبًا، وقد تكون بالالتزام؛ كتسمية النازح عن وطنه غريبًا؛ لأن نزوحه يقتضي أن يقيم بين ظهراني قوم آخرين فيكون غريبًا بينهم. فإذا صح هذا، فإننا نكون قد جمعنا معظم معاني هذه الكلمة في معنىً واحد عام مشترك. (٥)

الغربة والغرب: النوى والبعد، وهي التروح عن الوطن والاغتراب، وفي الحديث أَن النبيﷺ سُئِلَ عن الغُرباء فقال: " الذين يُحْيُونَ ما أَماتَ الناسُ من سُنَّتِي " وفي حديث آخر: " إِنّ الإِسلامَ بَدأَ غريبًا وسيعود غريبًا كما بَدأَ فطوبَى للغُرباءِ " أَي: أنه كان في أَوّلِ أَمْرِه كالغريبِ الوحيدِ الذي لا أَهل له عنده لقلة المسلمين يومئذ، وسيعودُ غريبًا كما كان أَي يَقِلُّ المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغُرباء، فطُوبى للغُرَباء؛ أَي: الجنةُ لأُولئك المسلمين الذين كانوا في أَوّل الإِسلام ويكونون في آخره؛ وإِنما خَصَّهم بها لصبْرهم على أَذى الكفار أَوَّلًا وآخرًا، ولُزومهم دينَ الإِسلام؛ وإِنما أَراد أَن أَهلَ الإِسلام حين بَدأَ كانوا

---

(١) اللسان (١/ ٦٤٠)، الصحاح (١/ ١٧١)، القاموس (١/ ٢٠٨: ٢٠٧).

(٢) اللسان (١/ ٦٤٠).

(٣) الصحاح (١/ ١٧١)، القاموس (١/ ٢٠٧).

(٤) القاموس (١/ ٢٠٦)، اللسان (١/ ٦٣٨).

(٥) القاموس (١/ ٢٠٦: ٢٠٨)، معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٢٠: ٤٢٢)، الصحاح (١/ ١٧١: ١٧٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري (٣/ ٣٤٨: ٣٥٣)، وغيرها.

قليلًا وهم في آخر الزمان يَقِلُّون إلاَّ أَنهم خيارٌ. (١)

فمن ذلك تكون الغربة بمعنى: القلة، ولا يكون المقصود من القلة الضعف.

والله ﷻ قد مدح القلة دائمًا طالما هم على الخير، وأثبت أن القلة دائمًا هم الذين يثبتون ويتميزون بالخير عن الكثرة، وبالعكس أخبر أن الكثرة مذمومة طالما على الشر؛ قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣)، وقال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠)، وقال عن الكثرة: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦)، وقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧)، وقال عز مِنْ قائل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)، وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا﴾ (البقرة: ١٠٠)، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(الأنعام١١١)، وغيرها من الآيات الكثير؛ فالقلة لا تعني ذمًا، بل إن الأقلاء أقوياء بالإسلام وباليقين.

ثانيًا: استعمالاتها في السنة النبوية:

وقد جاء استعمال الغربة في السنة النبوية على معانٍ عدة، يجمعها المعنى المشترك العام منها:

أ- بمعنى المقيم في غير وطنه وبين قوم غير قومه، فعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل". (٢)

الوجه الثاني: ذكر الحديث، وبيان معناه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ". (٣)، وفي رواية أنه ﷺ سئل: من الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: "الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إذا فسد النَّاسِ". (٤)، وفي رواية: "حين يفسد الناس"(١).

---

(١) لسان العرب (٥/ ٣٢٢٦).

(٢) البخاري (٦٠٥٣).

(٣) مسلم (١٤٥)، الترمذي (٢٦٢٩)، ابن ماجه (٣٩٨٦).

(٤) مسند أحمد (٤/ ٧٤)، مسند الشهاب (١٠٥٥).

وعن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: "ذَاتَ يَوْمٍ وَنَحْنُ عِنْدَهُ: طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، قِيلَ: مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ"(٢).

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " **إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا** "(٣)

قَالَ الْقَاضِي عِيَاض -رَحِمَهُ الله-: فِي قَوْله: (غَرِيبًا) رَوَى اِبْن أَبِي أُوَيْس عَنْ مَالِك -رَحِمَهُ الله- أَنَّ مَعْنَاهُ فِي الْمَدِينَة، وَأَنَّ الْإِسْلَام بَدَأَ بها غريبًا وسيعود إليها. قال القاضي: وظاهر الحديث العموم، وأن الإسلام بدأ فِي آحَاد مِنْ النَّاس، وَقِلَّة ثُمَّ اِنْتَشَرَ وَظَهَرَ، ثُمَّ سَيَلْحَقُهُ النَّقْص وَالْإِخْلَال؛ حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا فِي آحَاد وَقِلَّة أَيْضًا كَمَا بَدَأَ(٤).

وعَنْ عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ الله ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. . . "(٥).

قال ابن عبد البر: وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب: إن قرنه إنما فضل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم، وإن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصي والكبائر؛ كانوا عند ذلك أيضًا غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمن، كما زكت أعمال أوائلهم(٦)(٧).

---

(١) المعجم الكبير (٥٨٦٧)، (٨٩٧٧)، والأوسط (٤٩١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٧٣).

(٢) مسند أحمد (٢/ ١٧٧)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٧٣٦٨).

(٣) مسلم (١٤٦).

(٤) شرح النووي (١/ ٤٥٤).

(٥) البخاري (٢٦٥٢)، مسلم (٢٥٣٣).

(٦) المعجم الأوسط (٣٦٦٠)، مسند الشهاب (١٣٤٩)، صححه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٦).

(٧) التمهيد (٢٠/ ٢٥٢).

ثم قال: وهذا من الإيمان والعمل الصالح في الزمن الفاسد الذي يرفع فيه العلم والدين من أهله، ويكثر الفسق، والهرج، ويذل المؤمن، ويعز الفاجر، ويعود الدين غريبًا كما بدأ، ويكون القائم فيه بدينه كالقابض على الجمر، فيتسوي حينئذ أول هذه الأمة بآخرها في فضل العمل إلا أهل بدر والحديبية، والله أعلم(١).

قال الملا علي القاري: "فطوبى للغرباء" المتشبثين بذيله، يعني: المسلمين الذين في أوله وآخره لصبرهم على الأذى، وقيل: المراد بالغرباء: المهاجرون الذي هاجروا إلى الله.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ(٢)، وقال: وهذا إخبار عن آخر الزمان حين يقل الإسلام(٣).

وقال ابن قتيبة: أراد بقوله: "إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا" أن أهل الإسلام حين بدأ قليل، وهم في آخر الزمان قليل إلا أنهم خيار(٤).

وقال ابن رجب: يريد به أن الناس كانوا قبل مبعثه على ضلالة عامة كما قال النبي ﷺ في حديث عياض بن حمار ﷺ الذي أخرجه مسلم: "**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم؛ عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**"(٥)(٦).

ومعنى ذلك كما لا يخفى أنه بدأ غريبًا لا يعرفه إلا القلائل، ثم انتشر وعز بحمد الله على الأديان كلها، ثم عاد غريبًا بسبب اختلاف الناس واتباع الأهواء وقلة العلم. (٧)

وفحوى هذه الأحاديث أن دين الإسلام الذي خرج من مهده الحجاز وانبسط في الأرض

---

(١) التمهيد (٢٠/ ٢٥٥).
(٢) تحفة الأحوذي (٧/ ٣١٨).
(٣) تحفة الأحوذي (٧/ ٣١٩).
(٤) تأويل مختلف الحديث (١/ ١١٤).
(٥) كشف الكربة في وصف أهل الغربة (١/ ١).
(٦) مسلم (٢٨٦٥).
(٧) مجلة الجامعة الإسلامية (٣٦/ ١٣٦).

فاتحًا مصلحًا - سوف يغلب على أمره ويضطهد أهله بتداعي الأمم عليهم؛ حتى يضطر إلى الانقباض والأُرُوز إلى وطنه الأصلي به وهو الحجاز، فيعتصم فيه ويكون معقلًا وملجأً، وهذا النبأ النبوي الذي يعد من أظهر أنباء الغيب يصدق بدين الإسلام نفسه وبرجاله وأنصاره.[١]

وفي الحديث بيان مبدأ الإسلام وأنه بدأ غريبًا بين الأديان، وكان أهله غرباء بين الناس، وكان المستجيب له غريبًا بين أهله وعشيرته يؤذى بسبب ذلك، ويفتن في دينه ويعادى على ذلك، وكان المسلمون صابرين راضين بقضاء الله، مطيعين لأوامر رسوله ﷺ، حتى قوي الإسلام واشتد عوده في المدينة؛ فزالت غربته عندما انتشر في أرض العرب، وكان أهله هم الظاهرين على من ناوأهم، وسيعود الإسلام غريبًا كما بدأ (كما هو حال زماننا هذا) لقلة المتمسكين به، وهذه الغربة تزداد شيئًا فشيئًا بسبب دخول فتنة الشبهات والشهوات على الناس[٢].

قال ابن القيم: فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون؛ ولقلتهم في الناس جدًّا سموا غرباء؛ فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا؛ فلا غربة عليهم وإنما غربتهم بين الأكثرين[٣].

وقال أيضًا: ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ؛ التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله؛ لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده؛ وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا، وأكثر الناس بل كلهم

---

(١) مجلة المنار (٢٢/ ٢٣).

(٢) مجلة البيان (٧/ ٢٣: ٢٢).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٩٦: ١٩٥).

لائم لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم(١).

قال ابن القيم: فالغربة ثلاثة أنواع: الغربة الأولى: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق؛ وهي الغربة التي مدح رسول الله أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريبًا وأنه سيعود غريبًا كما بدأ، وأن أهله يصيرون غرباء، وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ووقت دون وقت وبين قوم دون قوم(٢).

ومن هؤلاء الغرباء من ذكرهم أنس ﷺ في حديثه عن النبي ﷺ: رُبَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ(٣).

والغربة الثانية: غربة مذمومة، وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحق، فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم أهل وحشة على كثرة مؤنسهم يعرفون في أهل الأرض ويخفون على أهل السماء.

والنوع الثالث: غربة مشتركة لا تحمد ولا تذم، وهي الغربة عن الوطن فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء؛ فإنها ليست لهم بدار مقام ولا هي الدار التي خلقوا لها، وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر ﷺ: " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل "(٤)(٥).

قال ابن باز: معناه أن الإسلام بدأ غريبًا كما كان الحال في مكة وفي المدينة في أول الهجرة لا يعرف؛ غريبًا في آخر الزمان كما بدأ لا يعرفه حق المعرفة إلا القليل من الناس، ولا يعمل به على الوجه المشروع إلا القليل من الناس وهم الغرباء(٦).

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٩٧).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٩٦).

(٣) الترمذي (٣٨٥٤)، مسند أحمد (٣/ ١٤٥).

(٤) البخاري (٦٤١٦).

(٥) مدارج السالكين (٣/ ٢٠٠)

(٦) فتاوى إسلامية (٤/ ١٣٣).

وتلك الغربة قد زالت بفضل الله تعالى ثم بفضل جهود رسولهﷺ في نشر الدعوة الإسلامية في مراحلها الخمسة وتحمله المشاق في سبيل إنجاحها، وهذه المراحل هي:

النبوة، إنذار عشيرته الأقربين، وإنذار قومه، وإنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبةً، وإنذار جميع من بلغته الدعوة من الجن والإنس إلى آخر الدهر. (١)

قال الأوزاعي قولًا يبين أن معنى الغربة ليست أن الإسلام سيذهب ويزول؛ قال: أما إنه ما يذهب الإسلام ولكن يذهب أهل السنة؛ حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد، ولهذا المعنى يوجد في كلام السلف كثيرًا مدح السنة ووصفها بالغربة ووصف أهلها بالقلة، فكان الحسن -رحمه الله- يقول لأصحابه: يا أهل السنة، ترفقوا - رحمكم الله - فإنكم من أقل الناس، وقال يونس بن عبيد: ليس شيء أغرب من السنة وأغرب منها من يعرفها.

وعن سفيان الثوري قال: استوصوا بأهل السنة فإنهم غرباء، ومراد هؤلاء الأئمة بالسنة: طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات والشهوات، ولهذا جاء في الحديث مدح المتمسك بدينه في آخر الزمان وأنه كالقابض على الجمر، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ" (٢)(٣).

الوجه الثالث: أقسام الغربة، وبيان أن كل قسم يعقبه نصر وتمكين.

الغربة الأولى:

قال الشاطبي: وجملة المعنى فيه من جهة وصف الغربة ما ظهر بالعيان والمشاهدة في أول الإسلام وآخره؛ وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، لا تعرف من الحق رسمًا، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكمًا، بل كانت تنتحل ما وجدت عليه آباءها، وما استحسنه أسلافها من الآراء المنحرفة والنحل المخترعة

---

(١) موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٤/ ٢٤).

(٢) الترمذي (٢٢٦٠)، مسند أحمد (٢/ ٣٩٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٧).

(٣) كشف الكربة في وصف أهل الغربة (١/ ٩).

والمذاهب المبتدعة، فحين قام فيهم ﷺ بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا؛ فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر، وغيروا في وجه صوابه بالإفك، ونسبوا إليه إذ خالفهم في الشرعة ونابذهم في النحلة كل محال، ورموه بأنواع البهتان؛ فتارة يرمونه بالكذب وهو الصادق المصدوق ﷺ، وكرة يقولون: إنه مجنون مع تحققهم بكمال عقله ﷺ، وإذا دعاهم إلى عبادة المعبود بحق وحده لا شريك له قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ (ص: ٥)، مع الإقرار بمقتضى هذه الدعوة الصادقة: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

وإذا أنذرهم بطشة يوم القيامة أنكروا ما يشاهدون من الأدلة على إمكانه وقالوا: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (ق: ٣)، وإذا خوفهم نقمة الله قالوا: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢)(١).

فكذلك كانوا مع النبي ﷺ فأنكروا ما توقعوا معه زوال ما بأيديهم؛ لأنه خرج عن معتادهم، أرادوا أن يستنزلوه على وجه السياسة في زعمهم ليوقعوا بينهم وبين المؤالفة والموافقة، ولو في بعض الأوقات أو في بعض الأحوال أو على بعض الوجوه ويقنعوا منه بذلك ليقف لهم بتلك الموافقة واهٍ بناؤه فأبى ﷺ إلا الثبوت على محض الحق والمحافظة على خالص الصواب، وأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى آخر السورة، فنصبوا له عند ذلك حرب العدواة ورموه بسهام القطيعة وصار أهل السلم كلهم حربًا عليه، فأقربهم إليه نسبًا كان أبعد الناس عن موالاته كأبي جهل وغيره، وألصقهم به رحمًا كانوا أقسى قلوبًا عليه؛ فأي غربة توازي هذه الغربة؟! ومع ذلك فلم يكله الله إلى نفسه، ولا سلطهم على النيل من أذاه إلا نيل المصلوفين، بل حفظه وعصمه وتولاه بالرعاية والكلاء حتى بلغ رسالة ربه.

---

(١) الاعتصام (١/ ١٢) بتصرف.

الغربة الثانية:

ثم ما زال ﷺ يدعو لها فيؤوب إليه الواحد بعد الواحد على حكم الاختفاء خوفًا من عادية الكفار زمان ظهورهم على دعوة الإسلام، فلما اطلعوا على المخالفة أنفوا وقاموا وقعدوا، فمن أهل الإسلام من لجأ إلى قبيلة فحموه على إغماض، أو على دفع العار في الإخفار، ومنهم من فَرَّ من الإذاية وخوف الغرة هجرة إلى الله وحبًا في الإسلام، ومنهم من لم يكن له وزر يحميه، ولا ملجأ يركن إليه؛ فلقي منهم من الشدة والغلظة والعذاب أو القتل، ما هو معلوم؛ حتى زل منهم من زل؛ فرجع أمره بسبب الرجوع إلى الموافقة، وبقي منهم من بقي محتسبًا صابرًا، إلى أن أنزل الله تعالى الرخصة في النطق بكلمة الكفر على حكم الموافقة ظاهرًا ليحصل بينهم وبين الناطق الموافقة وتزول المخالفة، فنزل إليها من نزل على حكم التقية ريثما يتنفس من كربه ويتروح من خناقه وقلبه مطمئن بالإيمان؛ وهذه غربة أيضًا ظاهرة وإنما كان هذا جهلًا منهم بمواقع الحكمة، وأن ما جاءهم به نبيهم هو الحق ضد ما هم عليه.

الغربة الثالثة:

ثم استمر تزايد الإسلام واستقام طريقه على مدة حياة النبي ﷺ ومن بعد موته وأكثر قرن الصحابة ﷺ، إلى أن نبغت فيهم نوابغ الخروج عن السنة وأصغوا إلى البدع المضلة؛ كبدعة القدر، وبدعة الخوارج؛ وهي التي نبه عليها الحديث بقوله: " يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم "[(١)]، يعني: لا يتفقهون فيه بل يأخذونه على الظاهر: وهذا كله في آخر عهد الصحابة.

ثم لم تزل الفرق تكثر حسبما وعد به الصادق ﷺ في قوله: " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة "[(٢)]، وفي الحديث

(١) البخاري (٣٦١٠)، مسلم (٨٢٢).

(٢) أبو داود (٤٥٩٦)، الترمذي (٢٦٤٠)، وقال: حسن صحيح، ابن ماجه (٣٩٩١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٣).

الآخر: " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟! "(١)، وهذا أعم من الأول فإن الأول عند كثير من أهل العلم خاص بأهل الأهواء، وهذا الثاني عام في المخالفات ويدل على ذلك من الحديث قوله: "حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم ".

الغربة الرابعة:

كان الإسلام في أول وجدته مقاومًا، بل ظاهرًا وأهله غالبون وسوادهم أعظم الأسودة؛ فخلا من وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياء الناصرين، فلم يكن لغيرهم ممن لم يسلك سبيلهم أو سلكه، ولكنه ابتدع فيه صولة يعظم موقعها ولا قوة يضعف دونها حزب الله المفلحون، فصار على استقامة، وجرى على اجتماع واتساق، فالشاذ مقهور مضطهد إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود وقوته إلى الضعف المنتظر، والشاذ عنه تقوى صولته ويكثر سواده، واقتضى سر التأسي المطالبة بالموافقة، ولا شك أن الغالب أغلب؛ فتكالبت على سواد السنة البدع والأهواء؛ فتفرق أكثرهم شيعًا، وهذه سنة الله في الخلق أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣)، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣).

ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه؛ فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم، وذلك حين يصير المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة؛ فيقام على أهل السنة بالتثريب والتعنيف؛ كما كان أولًا يقام على أهل البدعة طمعًا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال، ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة، فلا تجتمع الفرق كلها على كثرتها على مخالفة السنة عادة وسمعًا، بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله؛ غير أنهم لكثرة ما تناوشهم الفرق الضالة وتناصبهم العداوة

(١) البخاري (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩).

والبغضاء استدعاء إلى موافقتهم - لا يزالون في جهاد ونزاع ومدافعة وقراع آناء الليل والنهار وبذلك يضاعف الله لهم الأجر الجزيل ويثيبهم الثواب العظيم. (١)

غربة الإسلام في أول الأمر:

قال ابن رجب الحنبلي: لما بعث النبي ﷺ ودعا إلى الإسلام لم يستجب له في أول الأمر إلا الواحد بعد الواحد من كل قبيلة، وكان المستجيب له خائفًا من عشيرته وقبيلته، يؤذى غاية الأذى، وينال منه وهو صابر على ذلك في الله ﷻ، وكان المسلمون إذ ذاك مستضعفين يشردون كل مشرد، ويهربون بدينهم إلى البلاد النائية كما هاجروا إلى الحبشة مرتين؛ ثم هاجروا إلى المدينة، وكان منهم من يعذب في الله ومنهم من يقتل، فكان الداخلون في الإسلام حينئذ غرباء، ثم ظهر الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة وعز وصار أهله ظاهرين كل الظهور، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وأكمل الله لهم الدين وأتم عليهم النعمة.

وتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك، وأهل الإسلام على غاية من الاستقامة في دينهم، وهم متعاضدون متناصرون، وكانوا على ذلك في زمن أبي بكر وعمر ﭫ. (٢)

ومن أكبر الأدلة على غربة هذا الدين في أول أمره؛ حال المسلمين في أول الأمر من تعذيب واضطهاد وقتل وتشريد وخوف، فإن النبي ﷺ بدأ هذه الدعوة وحده وكان غريبًا لأنه جاء بشيء غريب، ثم آمن معه قلة قلائل مَنْ قذف الله الإيمان في قلوبهم.

فانظر لغربة النبي ﷺ في الحديث الذي روته عائشة -رضي الله عنها- حيث قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ؛ فَنَادَانِي فَقَالَ:

---

(١) الاعتصام للشاطبي (١٥: ١٢) بتصرف.

(٢) كشف الكربة في وصف أهل الغربة (١/ ٤).

إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يخرج الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"(١).

فهذا حديث يلخص ما لاقاه النبي ﷺ من أذىً وغربة عن وطنه وتشريد، وإحساس بالغربة وهو بين أهله وعشيرته، إذ كلهم رفضوه وطردوه إلا من رحم الله، حيث يقول: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ. . . "، وَفِي هَذَا الْحَدِيث بَيَان شَفَقَة النَّبِيّ ﷺ عَلَى قَوْمه، وَمَزِيد صَبْره وَحلمه(٢).

ومن أمثلة ما كان يحدث لبعض الصحابة من قلتهم وضعفهم ما حدث لخباب وبلال وغيرهما، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سمَيَّةُ، وَصهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمْ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالًا فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهوَ يَقولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ(٣).

وهذه إشارة فقط لبيان ضعف المسلمين في بادئ الأمر وقلتهم؛ لكن بعد ذلك انتشر الإسلام وعلت كلمته واتسعت الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين.

---

(١) البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).

(٢) فتح الباري (٦/ ٣٦٤).

(٣) ابن ماجه (١٥٠)، مسند أحمد (١/ ٤٠٤)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

ومن غربة الإسلام في أول الأمر؛ قلة المسلمين؛ فعَنْ سَعْدٍ بن أبي وقاص قَالَ: رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحُبْلَةِ أَوْ الْحَبَلَةِ حَتَّى يَضَعَ أَحَدُنَا مَا تَضَعُ الشَّاةُ ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعَزِّرُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ خَسِرْتُ إِذًا وَضَلَّ سَعْيِي(١).

وعن عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ مَا طَعَامُنَا إِلَّا وَرَقُ الْحُبْلَةِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا.(٢)

قال ابن حجر: وَوَقَعَ عِنْد اِبْن أَبِي خَيْثَمَة أَنَّ السَّبْعَة الْمَذْكُورِينَ: أَبُو بَكْر، وَعُثْمَان، وَعَلِيّ، وَزَيْد بْنُ حَارِثَة، وَالزُّبَيْر، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف، وَسَعْد بْن أَبِي وَقَّاص، وَكَانَ إِسْلَام الْأَرْبَعَة بِدُعَاءِ أَبِي بَكْر لَهُمْ إِلَى الْإِسْلَام فِي أَوَائِل الْبَعْثَة، وَأَمَّا عَلِيّ وَزَيْد بْن حَارِثَة فَأَسْلَمَا مَعَ النَّبِيّ ﷺ أَوَّل مَا بُعِثَ.(٣).

وقوله: (سابع سبعة) دليل على قلة من كان ينتسب إلى الإسلام في أول أمره، وهكذا كل دعوة تبدأ بصغيرة ثم تنتشر آفاقها ويزيد ناصروها شيئًا فشيئًا.

وبعد هذه الغربة ظهر الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة، وعز وصار أهله ظاهرين كل الظهور، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وأكمل الله لهم الدين وأتم عليهم النعمة، وتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك، وأهل الإسلام على غاية من الاستقامة في دينهم، وهم متعاضدون متناصرون، وكانوا على ذلك في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما(٤).

وزادت الفتوحات بعد ذلك؛ حيث فتح كثير من البلاد، ودخلها الإسلام، وزالت الغربة والضعف.

غربة الإسلام في آخر الأمر التي يعقبها قوة ونصر للإسلام بإذن الله:

---

(١) البخاري (٥٤١٢)، مسلم (٢٩٦٦)؛ بغير ذكر (سابع سبعة).

(٢) مسلم (٢٩٦٧).

(٣) فتح الباري (٩/ ٦٢٨).

(٤) كشف الكربة في وصف أهل الغربة (١/ ٤).

وبعد ما ذكرنا أن الإسلام بدأ غريبًا ثم انتشر وقوي وأصبح له التمكين والعزة، بدأت تظهر علامات الغربة الثانية؛ حيث أعمل الشيطان مكائده على المسلمين وألقى بأسهم بينهم، وأفشى بينهم فتنة الشبهات والشهوات، ولم تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئًا فشيئًا؛ حتى استحكمت مكيدة الشيطان وأطاعه أكثر الخلق[(١)].

وقد أخبر النبي ﷺ عن هذه الغربة وهذه الفتن، حيث قال أبو هريرة ﷺ: (في فتنة الشبهات) قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتْ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً"**[(٢)].

وجاء عند الترمذي: "كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي"[(٣)].

وأما فتنة الشهوات: فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: " إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا الله، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟! تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ"[(٤)].

قوله: (نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا الله) أي: نحمده ونشكره ونسأله المزيد من فضله[(٥)].

فلما دخل أكثر الناس في هاتين الفتنتين أو إحداهما أصبحوا متقاطعين متباغضين بعد أن كانوا إخوانًا متحابين متواصلين، فإن فتنة الشهوات عمت غالب الخلق، ففتنوا بالدنيا وزهرتها وصارت غاية قصدهم؛ لها يطلبون وبها يرضون، ولها يغضبون، ولها يوالون، وعليها يعادون، فقطعوا بذلك أرحامهم، وسفكوا دماءهم، وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك.

---

(١) كشف الكربة في وصف أهل الغربة (١/ ٣).

(٢) أبو داود (٤٥٩٦)، الترمذي (٢٦٤٠)؛ وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٣).

(٣) الترمذي (٢٦٤١)، أبو داود (٤٥٩٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٢٧).

(٤) مسلم (٢٩٦٢)، ابن ماجه (٣٩٩٦).

(٥) شرح النووي (٩/ ٣٣٤).

وأما فتنة الشبهات والأهواء المضلة؛ فبسببها تفرق أهل القبلة وصاروا شيعًا وكفَّر بعضُهم بعضًا، وأصبحوا أعداءً وفرقًا وأحزابًا بعد أن كانوا إخوانًا، فلم ينجُ من هذه الفرق إلا الفرقة الواحدة الناجية، وهم المذكورون في قوله ﷺ: "لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ"(١).

وهم في آخر الزمان الغرباء المذكورون في هذه الأحاديث "الذين يصلحون إذا فسد الناس"، وهم الذين يفرون بدينهم من الفتن، وقال ابن مسعود ﷺ: يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه أذل من الأمَة(٢).

وإنما ذلَّ المؤمن آخر الزمان لغربته بين أهل الفساد من أهل الشبهات والشهوات، فكلهم يكرهه ويؤذيه لمخالفة طريقته لطريقتهم، ومقصوده لمقصودهم، ومباينته لما هم عليه، ثم بحمد الله يعقب هذه الغربة نصر وتمكين للإسلام(٣).

الوجه الرابع: مبشرات بالنصر والتمكين للإسلام، وأن الدائرة ستكون على الكافرين.

لا شك أن النصر والتمكين لهذه الأمة دائمًا، وسوف تنتهي هذه الأمة بالنصر المبين وتكون العزة والغلبة لها، وما هي فيه الآن ما هو إلا آلام ما قبل الولادة، نعم ولادة التمكين، وعن أبي بن كعب ﷺ: يقول النبي ﷺ: " بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب "(٤).

وهذه الأشياء التي يبشر بها الرسول ﷺ لا بد أن تحصل لأنه لا ينطق عن الهوى، وكما تحقق ما قاله في الماضي من أشياء كثيرة، فلا بد أن يتحقق ما يخبر عنه ﷺ في المستقبل(٥).

---

(١) البخاري (٣٤٤١)، مسلم (١٩٢٠).

(٢) الزهد لأبي داود (١٧٦).

(٣) انظر (مبشرات بالنصر والتمكين للإسلام) من هذا البحث.

(٤) مسند أحمد (٥/ ١٣٤)، صحيح ابن حبان (٤٠٥)، المستدرك (٧٨٦٢)، حلية الأولياء (١/ ٢٥٥) وصححه الألباني في الجامع الصغير (٥١٣٦).

(٥) موسوعة الخطب والدروس (١٦/ ٤).

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ..... "(١).

وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ مُعْجِزَاتٌ ظَاهِرَةٌ، وَقَدْ وَقَعَتْ كُلُّهَا بِحَمْدِ اللهِ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْمُرَادُ بِالْكَنْزَيْنِ: الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ؛ وَالْمُرَادُ كَنْزَيْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ مَلِكَيْ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ. فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُلْكَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَكُونُ مُعْظَمُ امْتِدَادِهِ فِي جِهَتَيْ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَهَكَذَا وَقَعَ. وَأَمَّا فِي جِهَتَيْ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ فَقَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَى رَسُولِهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٢).

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ".

وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ(٣).

قال الألباني: ولا شك أن دائرة الظهور اتسعت بعد وفاته ﷺ في زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ولا يكون التمام إلا بسيطرة الإسلام على جميع الكرة الأرضية؛ وسيتحقق هذا قطعًا لإخبار الرسول ﷺ بذلك(٤).

---

(١) مسلم (٢٨٨٩)، أبو داود (٤٢٥٢).

(٢) شرح النووي (٩/ ٢٤٢).

(٣) مسند أحمد (٢٨/ ١٥٥ - ١٦٩٥٧)، السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٨١)، الحاكم (٤/ ٤٣٠ -٤٣١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وصححه الألباني في الصحيحة (٣).

(٤) تحذير الساجد (١/ ١١٢).

وعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ ﷺقَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو الله لَنَا، قَالَ: " كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَالله لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا الله أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"(١).

مبشرات ببلوغ الإسلام أماكن لم يبلغها:

وهذه بشارات أخرى توضح ما سبق أن ذكرناه آنفًا، ففي الحديث الصحيح يقول عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو بن العاص ﷺ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ نَكْتُبُ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " لاَ، بَلْ مَدِينَةُ هِرَقْلَ أَوَّلًا "(٢). يعني: القسطنطينية. وقد فتحت القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح، ونحن ننتظر تحقيق وعد النبي ﷺ في فتح روما بإذن الله تعالى.

ومن الأدلة على أن النهاية للإسلام:

ما رواه يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ، فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَى إِلَّا: يَا عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ جَاءَتْ السَّاعَةُ. قَالَ: فَقَعَدَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى لَا يُقْسَمَ مِيرَاثٌ، وَلَا يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّأْمِ. فَقَالَ: عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، قُلْتُ: الرُّومَ تَعْنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمْ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمْ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ وَتَفْنَى

---

(١) البخاري (٦٩٤٣).

(٢) مسند الدارمي (٦٦٤٥)، الحاكم (٨٥٥٠)، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص: صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٤).

الشُّرْطَةُ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَيَجْعَلُ الله الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً - إِمَّا قَالَ: لَا يُرَى مِثْلُهَا، وَإِمَّا قَالَ: لَمْ يُرَ مِثْلُهَا- حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا، فَيَتَعَادُّ بَنُو الْأَبِ كَانُوا مِائَةً فَلَا يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ، فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ، أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ: إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذَرَارِيِّهِمْ، فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَيُقْبِلُونَ، فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً؛ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنِّي لَأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، أَوْ مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ"(١).

(شرطة للموت) أي: طائفة من الجيش تقدم للقتال، وقوله: (فيجعل الله الدبرة عليهم) أي: الهزيمة(٢).

ومن البشريات: عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ قَالَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ، فَوَافَقُوهُ عِنْدَ أَكَمَةٍ، فَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ وَرَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ. قَالَ: فَقَالَتْ لِي نَفْسِي: ائْتِهِمْ فَقُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ لَا يَغْتَالُونَهُ، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: لَعَلَّهُ نَجِيٌّ مَعَهُمْ، فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، قَالَ: فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ أَعُدُّهُنَّ فِي يَدِي؛ قَالَ: " تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا الله، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا الله، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا الله، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ الله"(٣).

---

(١) مسلم (٢٨٩٩).

(٢) شرح النووي (٩/ ٢٥٣: ٢٥٢).

(٣) مسلم (٢٩٠٠).

قال النووي: هذا الحديث فيه معجزات لرسول الله ﷺ[١].

ومن المبشرات: نزول المسيح عليه السلام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " وَالَّذِي نَفْسِي، بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ؛ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا "، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٥٩)[٢].

قَوْله: (حَكَمًا) أَيْ: يَنْزِل حَاكِمًا بِهَذِهِ الشَّرِيعَة لَا يَنْزِل بِرِسَالَةٍ مُسْتَقِلَّة وَشَرِيعَة نَاسِخَة، بَلْ هُوَ حَاكِم مِنْ حُكَّام هَذِهِ الْأُمَّة[٣].

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الْأُمَّةَ "[٤].

* * *

(١) شرح النووي (٩/ ٢٥٤).
(٢) البخاري (٣٤٤٨)، مسلم (١٥٥).
(٣) شرح النووي (١/ ٤٦٩).
(٤) مسلم (١٥٦).

٢٦ـ شبهة: رزقي تحت ظل رمحي.

نص الشبهة:

في قول النبيﷺ "رزقي تحت ظل رمحي"، يقولون: أن رزقه مبني على الحرب والعدوان، وأن الإسلام لم ينشر إلا بذلك.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تخريج الحديث، وبيان درجته.

الوجه الثاني: بيان معنى الحديث.

الوجه الثالث: الأمر بالجهاد في الكتاب والسنة، والهدف منه.

الوجه الرابع: بيان أن الإسلام لم يكره أحدًا للدخول فيه.

الوجه الخامس: فضل الجهاد في سبيل الله.

الوجه السادس: السيف والقتل والتخويف في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: تخريج الحديث، وبيان درجته.

عَنِ عبد الله بْنِ عُمَرَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ الله لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"(١).

ومدار حديث ابن عمر على عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان.

قال أحمد: أحاديثه مناكير، قال ابن معين: صالح، وقال في موضع آخر: ضعيف. وقال: ليس به بأس، قال أبو حاتم: ثقة، وقال في موضع: تغير عقله في آخر حياته، وهو مستقيم الحديث، وضعفه النسائي، قال ابن حجر: صدوق يخطئ، ورمي بالقدر تغير بآخره.

---

(١) أخرجه أحمد (٩/ ١٢٣)، وعبد بن حميد (٨٤٨)، والطبراني في مسند الشاميين (٢١٦) وعلقه البخاري في صحيحه (٦/ ٩٨) فتح الباري.

وسُئل الدارقطني عن حديث أبي سلمة عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: " بعثت بين يدي الساعة وجعل رزقي في ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالفني ومن تشبه بقوم فهو منهم "، فقال: يرويه الأوزاعي واختلف عنه فرواه صدقة بن عبد الله بن السمين وهو ضعيف عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ وخالفه الوليد بن مسلم، رواه عن الاوزاعي عن حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر وهو الصحيح[1].

قال الألباني: وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات غير ابن ثوبان هذا، ففيه خلاف، وقال الحافظ: (صدوق يخطئ وتغير بآخره)[2]، وقد علق البخاري في " صحيحه " الجملة التي قبل الأخيرة والتي قبلها، ولأبي داود منه الجملة الأخيرة، ولم يتفرد به ابن ثوبان فقال الطحاوي: حدثنا أبو أمية، حدثنا محمد بن وهب بن عطية، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية به.[3]

قلت: وهذا إسناد رجاله ثقات، غير أبي أمية واسمه محمد بن إبراهيم الطرسوسي، قال الحافظ: (صدوق صاحب حديث يهم). [4]، والوليد بن مسلم ثقة محتج به في الصحيحين، ولكنه كان يدلس ويسوى؛ فإن كان محفوظًا عنه فيخشى أن يكون سواه! وقد خالفه في إسناده صدقة فقال: عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ به.

والحديث صححه الألباني في الإرواء، وانظر طرقه هناك.

الوجه الثاني: **بيان معنى الحديث.**

قال ابن حجر: وَفِي قَوْلِهِ: "تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي " إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ ظِلَّهُ مَمْدُودٌ إِلَى أَبَدِ الْآبَادِ وَالْحِكْمَةِ فِي الِاقْتِصَارِ عَلَى ذِكْرِ الرُّمْحِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ كَالسَّيْفِ، أَنَّ عَادَتَهُمْ

(١) العلل للدارقطني (٩/ ٢٧٢)، (١٧٥٤).

(٢) التقريب (١/ ٣٣٢).

(٣) مشكل الآثار (١/ ٨٨).

(٤) التقريب (٢/ ٤٩٩).

جَرَتْ بِجَعْلِ الرَّايَاتِ فِي أَطْرَافِ الرُّمْحِ؛ فَلَمَّا كَانَ ظِلّ الرُّمْح أَسْبَغَ كَانَ نِسْبَةُ الرِّزْقِ إِلَيْهِ أَلْيَقَ؛ وَقَدْ تَعَرَّضَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ لِظِلِّ السَّيْفِ كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا مِنْ قَوْلِهِ ﷺ "الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ "[(١)]، فَنُسِبَ الرِّزْقُ إِلَى ظِلّ الرُّمْح لِمَا ذَكَرْتُهُ؛ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِذِكْرِ الرُّمْحِ الرَّايَةُ وَنُسِبَتْ الْجَنَّة إِلَى ظِلِّ السَّيْفِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ تَقَعُ بِهِ غَالِبًا؛ وَلِأَنَّ ظِلّ السَّيْفِ يَكْثُرُ ظُهُورُهُ بِكَثْرَة حَرَكَة السَّيْفِ فِي يَدِ الْمُقَاتِلِ؛ وَلِأَنَّ ظِلّ السَّيْف لَا يَظْهَرُ إِلَّا بَعْدَ الضَّرْبِ بِهِ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ يَكُونُ مَغْمُودًا مُعَلَّقًا[(٢)].

قال ابن بطال: قال المهلب: وفيه أن الرسول ﷺ خص بإحلال الغنائم، وأن رزقه منها بخلاف ما كانت الأنبياء قبله عليه، وخص بالنصر على من خالفه، ونُصر بالرعب، وجعلت كلمة الله هي العليا[(٣)].

قال المناوي: وأطيب كسب المسلم سهمه في سبيل الله: أي ما يكسبه من غنيمة وفيء وسلب قتيل ونحوها، لأن ما حصل بسبب الحرص على نصرة دين الله، ونيل درجة الشهادة، لا شيء أطيب منه، فهو أفضل من البيع وغيره مما مر، لأنه كسب المصطفى ﷺ وحرفته؟ ألا ترى إلى قوله: " جعل رزقي تحت ظل رمحي "، فأفضل الكسب مطلقًا؛ سهم الغازي لما ذكر ثم ما حصل بالاحتراف من عمل اليد لأنه كسب كثير من الأنبياء[(٤)].

وقوله: " بالسيف " خص نفسه به، وإن كان غيره من الأنبياء بعث بقتال أعدائه أيضًا، لأنه لا يبلغ مبلغه فيه أقول، ويحتمل أنه إنما خص نفسه به، لأنه موصوف بذلك في الكتب، فأراد أن يقرع أهل الكتابين ويذكرهم بها عندهم.

وقوله: " وجعل رزقي تحت ظل رمحي " قال الديلمي: يعني الغنائم وكان سهم منها له خاصة: يعني أن الرمح سبب تحصيل رزقي، قال العامري: يعني أن معظم رزقه كان

(١) البخاري (٢٨١٨)، مسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.
(٢) فتح الباري (٦/ ١١٦: ١١٥).
(٣) شرح ابن بطال (٩/ ١٢٩).
(٤) فيض القدير (١/ ٦٩٩).

من ذلك، وإلا فقد كان يأكل من جهات أخرى غير الرمح، كالهدية والهبة وغيرهما، وحكمة ذلك أنه قدوة للخاص والعام؛ فجعل بعض رزقه من جهة الاكتساب وتعاطي الأسباب، وبعضه من غيرها قدوة للخواص من المتوكلين؛ وإنما قال تحت ظل رمحي ولم يقل في سنان رمحي ولا في غيره من السلاح؛ لأن رايات العرب كانت في أطراف الرماح، (وجعل الذل) أي الهوان والخسران (والصغار) بالفتح أي الضيم[1].

قال ابن رجب الحنبلي: فالله ﷻ بعثه داعيًا إلى توحيده بالسيف بعد دعائه بالحجة، فمن لم يستجب إلى التوحيد بالقرآن والحجة والبيان دعي بالسيف، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥).

وفي الكتب السالفة وُصف النبي ﷺ بأنه يبعث بقضيب الأدب، وهو السيف. ووصى بعض أحبار اليهود عند موته باتباعه وقال: إنه يسفك الدماء، ويسبي الذراري والنساء، فلا يمنعهم ذلك منه. وروي أن المسيح عليه السلام قال لبني إسرائيل في وصف النبي ﷺ: "إنه يسل السيف فيدخلون في دينه طوعًا وكرهًا، فقول المسيح عليه السلام ذلك عنه ﷺ منقبة للنبي ﷺ، لأن الوصف هنا في مقام الوصية لا يكون إلا بالخير، وبما هو من الفضائل، والله أعلم[2].

الوجه الثالث: الأمر بالقتال في الكتاب والسنة، والهدف منه.

إن الله ﷻ هو الذي أمر بالقتال وأمر نبيه ﷺ به، الغرض منه توحيد الله وإعلاء كلمته سبحانه وتعالى، وأن ما يحصلون عليه من غنائم الحرب ليست هي المقصودة من الجهاد، وإنما تأتي تبعًا للهدف الأسمى، وهو الدعوة إلى الله، وفيه أن المسلمون لا يلجأون إلى السيف إلا بعد رفض الإسلام، ثم رفض الجزية.

---

(١) فيض القدير (٣/ ٢٦٦).

(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة (١/ ١).

و فيه أن الله ﷻ كفل لنبيه قوته من هذا الطريق حتى لا يشغله عن الدعوة إليه بالسعي في طلب القوت، فأحل له الغنائم ولم تحل لنبي قبله، وفيه أن الجهاد لم يكن المصدر الوحيد للرزق، وإنما يقبل الهدية والهبة.

قال الله تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾(التوبة: ٥) وقال: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾(محمد: ٤).

وقد قال النبي ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله"(١).

فالغرض من القتال؛ أن يدخل الناس في دين الله ﷻ، وقبل القتال يعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا فلا إكراه في الدين، ولكن عليهم الجزية، لأن القوة والمنعة للإسلام، وجزاءً لحماية المسلمين إياهم، فإن أبوا فالقتال؛ حتى لا يكون لأحد على الإسلام والمسلمين شوكة ومنعة، وإنما يفرض عليهم الذل والصغار إلى أن يسلموا.

وقد أمر النبي ﷺ بعد الهجرة لما صار له دار وأتباع وقوة ومنعة، وقد كان يتهدد أعداءه بالسيف قبل الهجرة، وكان ﷺ يطوف بالبيت وأشراف قريش قد اجتمعوا بالحجر وقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجلِ قَطُّ؛ سَفَّهَ أَحْلَامَنَا وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، فلما مَرَّ بِهِمْ النبي ﷺ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ، قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَقَالَ: "تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ، فَأَخَذَتْ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ؛ حَتَّى مَا مِنْهُم رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى

(١) البخاري (٢٥)، مسلم (٢٢).

رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ؛ حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ انْصَرِفْ رَاشِدًا فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولًا(١).

وقد قال في هذا الحديث الذي معنا: "حتَّى يعبدَ الله وحدَه لا شريكَ لهُ"، وهذا هو المقصود الأعظم من بعثته ﷺ، بل من بعثة الرسل من قبله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل٣٦)، بل هذا هو المقصود من خلق الخلق وإيجادهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات: ٥٦) فما خلقهم إلا ليأمرهم بعبادته، وأخذ عليهم العهد لما استخرجهم من صلب آدم عليه السلام على ذلك كما قال تعالى: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾. (الأعراف: ١٧٢)، وقد تكاثرت الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة في تفسير الآية أنه تعالى استنطقهم حينئذ، فأقروا كلهم بوحدانيته، وأشهدهم على أنفسهم، وأشهد عليهم أباهم آدم والملائكة.

وبعث الله ﷻ الرسل تجدد ذلك العهد الأول، وتدعوا إلى تجديد الإقرار بالوحدانية، ولقد بعث الله نبيه محمدًا ﷺ بالحنفية المحضة، والتوحيد الخالص، دين إبراهيم عليه السلام، وأمره أن يدعو الخلق كلهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فكان يدعو الناس سرًا إلى ذلك نحوًا من ثلاث سنين، فاستجاب له طائفة من الناس، ثم أمر بإعلان الدعوة وإظهارها، وقيل له: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤).

فدعا إلى الله جهرًا، وأعلن الدعوة، وذم الآلهة التي تُعبد من دون الله، فثار عليه المشركون، واجتهدوا في إيذائه، وفي إطفاء نور الله الذي بعثه به، وهو لا يزداد إلا إعلانًا بالدعوة، وتصميمًا على إظهارها، وإشهارها والنداء بها في مجامع الناس، وقال ﷺ: " لقد

(١) مسند أحمد (٢/ ٢١٨)، صحيح ابن حبان (٦٥٦٧)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ١٤٩:١٤٨).

أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذَى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون - من بين يوم وليلة - ومالي طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال(١).

فلم يزل ﷺ يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ حتى ظهر دين الله، وأعلن ذكره وتوحيده في المشارق والمغارب، وصارت كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر، وتوحيده هو الشائع، وصار الدين كله لله.

قال ابن رجب الحنبلي: قوله ﷺ: "وجعل رزقي تحت ظل رمحي": إشارة إلى أن الله لم يبعثه بالسعي في طلب الدنيا، ولا بجمعها واكتنازها، ولا الاجتهاد في السعي في أسبابها، وإنما بعثه داعيًا إلى توحيده بالسيف، ومن لازم ذلك أن يقتل أعداءه الممتنعين عن قبول التوحيد، ويستبيح دماءهم وأموالهم، ويسبي نساءهم وذراريهم، فيكون رزقه مما أفاء الله من أموال أعدائه؛ فإن المال إنما خلقه الله لبني آدم ليستعينوا به على طاعته وعبادته، فمن استعان به على الكفر بالله والشرك به سلط الله عليه رسوله وأتباعه فانتزعوه منه وأعادوه إلى من هو أولى به من أجل عبادة الله وتوحيده وطاعته، وقال تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال: ٦٩).

وقال أيضًا: وكان ﷺ إنما كان يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر، لا لأجل الغنيمة؛ فيحصل له الرزق تبعًا لعبادته وجهاده في الله، فلا يكون فرغ وقتًا من أوقاته لطلب الرزق محضًا، وإنما عبد الله في جميع أوقاته وحده فيها وأخلص له، فجعل الله له رزقه ميسرًا في ضمن ذلك من غير أن يقصده ولا يسعى إليه.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن الله تعالى بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا، فكان ﷺ شغله بطاعة الله والدعوة إلى التوحيد، وما يحصل في خلال ذلك من الأموال من الفيء والغنائم يحصل تبعًا لا قصدًا أصليًا؛ ولهذا ذم من ترك الجهاد، واشتغل عنه باكتساب الأموال(٢).

الوجه الرابع: بيان أن الإسلام لم يكره أحدًا للدخول فيه(١).

---

(١) ابن ماجه (١٥١)، مسند أحمد (٣/ ١٢٠)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٢٣).

(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب الحنبلي (١٣: ١).

يقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (البقرة٢٥٦).

يقول ابن كثير: أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: بعث النبي ﷺ خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: "ما عندك يا ثمامة؟ " فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد، ثم قال له: "ما عندك يا ثمامة؟ " قال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: " ما عندك يا ثمامة؟ " فقال: عندي ما قلت لك، فقال: " أطلقوا ثمامة " فانطلق إلى نجل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺوأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها النبي ﷺ(٣).

---

(١) انظر: شبهة الإرهاب وانتشار الإسلام بالسيف، ففيها وجوه عدة في الرد على ذلك.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٤).

(٣) البخاري (٤٣٧٢)، مسلم (١٧٦٤).

وفي هذا الحديث بيان حسن خلقه ﷺ، ولو كان سفكًا للدماء كما يُقال ما كلمه، ولا أمهله، فاقْتَصَرَ فِي الْيَوْم الثَّالِث عَلَى الْإِجْمَال تَفْوِيضًا إِلَى جَمِيل خُلُقه ﷺ.

وفي الحديث تعْظِيم أَمْر الْعَفْو عَنْ الْمُسِيء؛ لِأَنَّ ثُمَامَة أَقْسَمَ أَنَّ بُغْضه اِنْقَلَبَ حُبًّا فِي سَاعَة وَاحِدَة لِمَا أَسْدَاهُ النَّبِيّ ﷺ إِلَيْهِ مِنْ الْعَفْو وَالْمَنّ بِغَيْرِ مُقَابِل[١].

وقد كان النبي ﷺ كما قال أبو مُوسَى: كَانَ رَسولُ الله ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا.[٢]

فأين ذكر السيف والكلام؟.

وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد لحظة من غير ضمها إلى التبشير[٣].

ولكن هناك حديث قد يتوهم البعض أن فيه غدرًا.

فعن ابْنِ عَوْنٍ قَالَ كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنْ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ قَالَ فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ قَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى سَبْيَهُمْ وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ قَالَ يَحْيَى أَحْسِبُهُ قَالَ جُوَيْرِيَةَ ابْنَةَ الْحَارِثِ. وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ وَكَانَ فِي ذَاكَ الْجَيْشِ[٤].

قال النووي: وَفِي هَذَا الْحَدِيث: جَوَاز الْإِغَارَة عَلَى الْكُفَّار الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ الدَّعْوَة مِنْ غَيْر إِنْذَار بِالْإِغَارَةِ. ويَجِب الإنذار إِنْ لَمْ تَبْلُغهُمْ الدَّعْوَة، وَلَا يَجِب إِنْ بَلَغَتْهُمْ، لَكِنْ يُسْتَحَبّ.

وقد كان ﷺ يأمر الأمراء على البعوث ويوصيهم بأشياء تدل على أن هذا الدين لم ينتشر بالحدة مطلقًا، فعن بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ؛ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا؛ ثُمَّ قَالَ: " اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ

(١) فتح الباري (٨/ ١٠٤: ١٠٣).
(٢) مسلم (١٧٣٢).
(٣) شرح النووي (١٢/ ٤١).
(٤) البخاري (٢٥٤١)، مسلم (١٧٣٠) واللفظ له.

الله قَاتِلُوا، مَنْ كَفَرَ بِالله اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ؛ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الْجِزْيَةَ؛ فَإِنْ هم أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ؛ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ الله وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ الله فِيهِمْ أَمْ لَا"[(١)].

وفي الحديث: تَحْرِيم الْغَدْر، وَتَحْرِيم الْغُلُول، وَتَحْرِيم قَتْل الصِّبْيَان إِذَا لَمْ يُقَاتِلُوا وَكَرَاهَة الْمُثْلَة، وَاسْتِحْبَاب وَصِيَّة الْإِمَام أُمَرَاءَهُ وَجُيُوشه بِتَقْوَى الله تَعَالَى[(٢)].

وقد حرم الإسلام قتل النساء والصبيان في الحرب فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وُجِدَتْ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ الله ﷺ فَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ[(٣)].

الوجه الخامس: فضل الجهاد في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ

(١) مسلم (١٧٣١).

(٢) شرح النووي (٦/ ٢٨١).

(٣) البخاري (٣٠١٥)، مسلم (١٧٤٤).

بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١).

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم؛ إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه؛ فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.[١]

وعن عَبْد الله بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ: " الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي[٢].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ؛ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا"**[٣].

وعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ الله عَنْهَا- أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، تُرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ أَفَلَا نُجَاهِدُ قَالَ: " **لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ**"[٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ: "لَا أَجِدُهُ قَالَ هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ، قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ[٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ (الصف ١٢: ١٠).

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩١).

(٢) البخاري (٢٧٨٢)، مسلم (٨٥).

(٣) البخاري (٢٧٨٣)، مسلم (١٣٥٣).

(٤) البخاري (٢٧٨٤).

(٥) البخاري (٢٧٨٥).

وعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ يَا رَسولَ الله أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ. قَالُوا ثُمَّ مَنْ: قَالَ: مؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَتَّقِي الله وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ"(١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: " مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، وَالله أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَتَوَكَّلَ الله لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. "(٢)

فالجهاد أجره عظيم.

وقال عياض: اِشْتَمَلَ حَدِيث الْبَاب عَلَى تَعْظِيم أَمْر الْجِهَاد، لِأَنَّ الصِّيَام وَغَيْره مِمَّا ذَكَرَ مِنْ فَضَائِل الْأَعْمَال قَدْ عَدَلَهَا كُلّهَا الْجِهَاد، حَتَّى صَارَتْ جَمِيع حَالَات الْمُجَاهِد وَتَصَرُّفَاته الْمُبَاحَة مُعَادِلَة لِأَجْرِ الْمُوَاظِب عَلَى الصَّلَاة وَغَيْرهَا. "(٣)

وقال النووي: " وَلَكِنْ جِهَاد وَنِيَّة " أي: وَلَكِنْ لَكُمْ طَرِيق إِلَى تَحْصِيل الْفَضَائِل الَّتِي فِي مَعْنَى الْهِجْرَة، وَذَلِكَ بِالْجِهَادِ، وَنِيَّة الْخَيْر فِي كُلّ شَيْء. "(٤)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: " تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي؛ فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ

مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ الله؛ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ الله أَبَدًا؛ وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ الله، فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ"(١).

---

(١) البخاري (٢٧٨٦).

(٢) البخاري (٢٧٨٧)، مسلم (١٨٧٨).

(٣) فتح الباري (٦/ ٧: ٦).

(٤) شرح النووي (٥/ ١٣٦).

وَمَعْنَى الْحَدِيث: أَنَّ الله تَعَالَى ضَمِنَ أَنَّ الْخَارِج لِلْجِهَادِ يَنَال خَيْرًا بِكُلِّ حَال، فَإِمَّا أَنْ يُسْتَشْهَد فَيَدْخُل الْجَنَّة، وَإِمَّا أَنْ يَرْجِع بِأَجْرٍ، وَإِمَّا أَنْ يَرْجِع بِأَجْرٍ وَغَنِيمَة[٢].

الوجه السادس: السيف والقتل والتخويف في الكتاب المقدس.

للسيف في اللغة العربية سبعة أسماء؛ ومع ذلك لم يذكر ولا مرة في القرآن الكريم أما في الكتاب المقدس فله اسم واحد ومع ذلك ذكر ٣٩٠ مرة، فنجد كثيرًا من الأسفار في الكتاب المقدس أنه يتحدث عن السيف والقتل والتخويف؛ فقد جاء في سفر صموئيل الأول (٢٥/ ١٣: ١٠): فَأَجَابَ نَابَالُ عَبِيدَ دَاوُدَ وَقَالَ: «مَنْ هُوَ دَاوُدُ؟ وَمَنْ هُوَ ابْنُ يَسَّى؟ قَدْ كَثُرَ الْيَوْمَ الْعَبِيدُ الَّذِينَ يَقْحَصُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَمَامِ سَيِّدِهِ. أَآخُذُ خُبْزِي وَمَائِي وَذَبِيحِيَ الَّذِي ذَبَحْتُ لِجَازِّيَّ وَأُعْطِيهِ لِقَوْمٍ لاَ أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُمْ؟ ». فَتَحَوَّلَ غِلْمَانُ دَاوُدَ إِلَى طَرِيقِهِمْ وَرَجَعُوا وَجَاءُوا وَأَخْبَرُوهُ حَسَبَ كُلِّ هذَا الْكَلاَمِ. فَقَالَ دَاوُدُ لِرِجَالِهِ: «لِيَتَقَلَّدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ سَيْفَهُ». فَتَقَلَّدَ كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ، وَتَقَلَّدَ دَاوُدُ أَيْضًا سَيْفَهُ. وَصَعِدَ وَرَاءَ دَاوُدَ نَحْوُ أَرْبَعِ مِئَةِ رَجُل، وَمَكَثَ مِئَتَانِ مَعَ الأَمْتِعَةِ.

وفي سفر القضاة (١٨/ ٢٨: ٢٧): وَأَمَّا هُمْ فَأَخَذُوا مَا صَنَعَ مِيخَا، وَالْكَاهِنَ الَّذِي كَانَ لَهُ، وَجَاءُوا إِلَى لاَيِشَ إِلَى شَعْبٍ مُسْتَرِيحٍ مُطْمَئِنٍّ، وَضَرَبُوهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ. وَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُنْقِذُ لأَنَّهَا بَعِيدَةٌ عَنْ صِيْدُونَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَمْرٌ مَعَ إِنْسَانٍ، وَهِيَ فِي الْوَادِي الَّذِي لِبَيْتِ رَحُوبَ. فَبَنَوْا الْمَدِينَةَ وَسَكَنُوا بِهَا.[٣]

* * *

(١) مسلم (١٨٧٦).

(٢) شرح النووي (٧/ ٢٨).

(٣) راجع شبهة: (ادعائهم انتشار الإسلام بالسيف) في هذه الموسوعة.

٢٧ـ شبهة: رواية الإسرائيليات في السنة.

نص الشبهة:

دارت الشبهة في هذا الموضوع على بعض المحاور:

١- رواية كثير من المسلمين عن اليهود والنصارى.

٢- رواية الصحابة والتابعين عن أهل الكتاب.

٣- اتهامهم بالأخص من الصحابة: عبد الله بن سلام، كعب الأحبار، وهب بن منبه.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تمهيد، وفيه بيان منشأ رواية الإسرائيليات.

الوجه الثاني: بيان المراد بالإسرائيليات ومدى الصلة بينها وبين القرآن والسنة، وأقسامها.

الوجه الثالث: موقف العلماء من الإسرائيليات.

الوجه الرابع: مبدأ دخول الإسرائيليات على المسلمين.

الوجه الخامس: ضعف السند إلى الصحابي أو التابعي.

الوجه السادس: رواية الكذب ليس معناها أن الراوي هو الذي اختلقه وبيان صدق من روى، أو روى عنه الإسرائيليات.

وإليك بالتفصيل،

الوجه الأول: تمهيد، وفيه بيان منشأ رواية الإسرائيليات.

من المعلوم أن الله جل وعلا أرسل الرسل وأنزل الكتب لتوحيده وعبادته، وأن هناك أصولًا مشتركة اتفقت عليها جميع الأديان والرسالات، فالعقائد وأصول الفضائل والأخلاق والآداب، والضرورات التي جاءت جميع الشرائع بحفظها، هذه أمور مقررة في كل دين، ولا تختلف باختلاف الأزمان، ولا باختلاف الرسالات، قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣)، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وأما تفصيلات الشرائع العملية، فهي تختلف من دين لآخر، فما يصلح لزمان قد لا يصلح لزمان آخر، وما يلائم طبيعة قوم قد لا يلائم آخرين، ولذا قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)، ثم إن الكتب السماوية السابقة قد طواها الزمن، ولم يصل إلينا منها غير التوراة والإنجيل، ولم يسلما مع ذلك من التحريف والتبديل، وأما القرآن فقد كتب الله له الخلود، وحفظه من الضياع والتحريف والتبديل، فجاء مصدِّقًا لما سبقه من الكتب، مؤكدًا على الجانب الذي دعا إليه كل الأنبياء، وقامت عليه جميع الرسالات، وفي الوقت نفسه جاء مهيمنًا وحاكمًا وشاهدًا عليها، يبين ما طرأ عليها من تحريف وتغيير وتبديل، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه فهو باطل، وقد وصفه الله بهذين الوصفين بقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ (المائدة: ٤٨).

وقد كان لاختلاط المسلمين بأهل الكتاب ومجاورتهم لهم، ودخول كثير منهم في الإسلام، أثره في نقل كثير من أخبارهم إلى المسلمين، وهو ما اصطلح عليه العلماء بـ"الإسرائيليات" من باب التغليب، وإلا فإنه يشمل أخبار أهل الكتابين معًا اليهود والنصارى على حد سواء، ولعل مما أسهم في انتقال تلك الأخبار أن من منهج القرآن في سرد القصص والحوادث الاقتصار على مواضع العظة والعبرة، وعدم التعرض للتفاصيل والجزئيات، والنفوس تتشوف لمعرفة جزئيات الحوادث، وتفصيل مجملات القصص، وأخبار بدء الخلق والتكوين وما أشبه ذلك، أضف إلى ذلك وجود الإذن النبوي في التحديث عن بني إسرائيل من غير حرج، فكان بعض الصحابة -ﷺ- يسألون عن ذلك بالقدر الذي يرون أنه موضح للقصة، ومبين لما أجمل في القرآن، من غير أن يخرجوا عن دائرة الجواز والإذن النبوي.

ولكن الناس بعد ذلك توسعوا في رواية هذه الأخبار فدخلت كثير من أباطيل أهل الكتاب وخرافاتهم وترهاتهم على المسلمين، ونسب الكثير منها إلى الرسول ﷺ، وإلى صحابته -رضوان الله عليهم- وإلى أئمة الإسلام، حتى اتخذها بعض المتأخرين مادة

يشرحون بها نصوص القرآن، ومُلئت بها كتب التفسير، مما شكل خطرًا بالغًا على عقائد المسلمين بما تضمنته من تشبيه لله تعالى، ووصفه بما لا يليق بجلاله وكماله، وبما يتنافى مع عصمة الأنبياء والمرسلين، إضافة إلى تشويهها لصورة الإسلام، وتصويره في صورة دين خرافي يستخف بالعقول، ويعنى بالترهات والأباطيل.

وقد دخل في الحديث من ذلك ما دخل في التفسير، وكان الذين دسوا مثل هذه الأخبار ونسبوها إلى الرسول ﷺ في الأعم الأغلب طائفتان هما: الزنادقة الذين أظهروا الإسلام ودخلوا فيه عن خبث طوية بغرض الطعن والافتراء، والقُصاص الذي روجوا لتلك الأخبار ليستميلوا وجوه العوام إليهم، ويستدروا ما عندهم عن طريق التحديث بالمناكير والغرائب والأكاذيب، وقد وجدت هاتان الطائفتان في مرويات أهل الكتاب وأساطير القدماء مادة خصبة لتحقيق أغراضهم.

ولم يكن أمرهم ليخفى على المحدِّثين الذين تصدوا لهذه الظاهرة، وكشفوا حقيقة هذه الأخبار وبينوا زيفها وكذبها، ووزنوا الروايات بميزان دقيق، وطبقوا عليها منهجهم الفريد في النقد وسبر المرويات، شأنها شأن غيرها من الأخبار المختلقة الموضوعة، كما يظهر ذلك من خلال ما كتبوه في علوم الحديث، وتراجم الرجال، والأحاديث الموضوعة، والمشتهرة على الألسنة، إلى غير ذلك، ومع ذلك اتخذت هذه الإسرائيليات - مع الأسف الشديد - مدخلًا للطعن في أئمة الإسلام وعلمائه ممن كان لهم في الإسلام قدم راسخة، حتى كادت تذهب بالثقة في بعض الصحابة والتابعين، الذي عرفوا بالثقة والديانة، واشتهروا بين المسلمين بالتفسير والحديث، وذلك بسبب ما أسند إليهم من هذه الإسرائيليات، حيث اتهموا بأبشع الاتهامات من قبل بعض المستشرقين ومن مشى في ركابهم، وعدُّوهم مضللين مدسوسين على الإسلام وأهله. (١)

الوجه الثاني: بيان المراد بالإسرائيليات ومدى الصلة بينها وبين القرآن والسنة، وأقسامها.

---

(١) مجلة المنار (٢٦/ ١/ ٧٣).

الإسرائيليات جمع مفرده إسرائيلية، وهي قصة أو حادثة تُروى عن مصدر إسرائيلي والنسبة فيها إلى إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو الأسباط الإثنى عشر، وإليه يُنسب اليهود.

وهي: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى.

ولفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنَّا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية. فهو في الاصطلاح يدل على كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما، بل توسع بعض المفسرين والمحدثين فعدوا من الإسرائيليات ما دسه أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم على التفسير والحديث من أخبار لا أصل لها في مصدر قديم، وإنما هي أخبار من صنع أعداء الإسلام صنعوها بخبث نية وسوء طوية، ثم دسوها على التفسير والحديث ليفسدوا بها عقائد المسلمين.

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ "الإسرائيليات"، من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني، فإن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم ودخل الناس في دين الله أفواجًا. (١)

أقسام الإسرائيليات:

وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق وما علمنا صحته مما بأيدينا من القرآن والسنة، والقرآن هو الكتاب المهيمن والشاهد على الكتب السماوية قبله فما وافقه فهو حق وصدق وما خالفه فهو باطل وكذب، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

(١) التفسير والمفسرون (٤/ ٩)، ومقدمة في التفسير للعثيمين (١/ ٤٦).

ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة ٥٠ : ٤٧) وماعلم صحته بأن نُقِل عن النبي ﷺ نقلًا صحيحًا، مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود ﷺقال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺحتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الزمر: ٦٧)، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحًا على لسان رسول الله ﷺ كما عند البخاري، أو كان له شاهد من الشرع يؤيده. وهذا القسم صحيح مقبول.

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل وعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته. مثاله ما رواه البخاري عن جابر ﷺقال: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، ومثل ماذكروه في قصص الأنبياء من أخبار تطعن في عصمة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كقصة يوسف وداود وسليمان، ومثل ما ذكروه في توراتهم من أن الذبيح إسحاق لا إسماعيل، فهذا لا تجوز روايته وذكره إلا مقترن ببيان كذبه، وأنه مما حرفوه وبدلوه قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (المائدة: ١٣)، وفي هذا القسم ورد النهي عن النبي ﷺ للصحابة عن روايته، والزجر عن أخذه عنهم وسؤالهم عنه.

قال الإمام مالك: في حديث: " حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج " المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما علم كذبه فلا، ولعل هذا هو المراد من قوله ﷺ: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، فَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَفَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلاَ وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ"(١)

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، وهو مسكوت عنه، فيجب التوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نُكذِّبه، وتجوز حكايته لما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي ﷺ: " بَلِّغُوا عَنِّى وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ". (٢)

وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه. ثم إذا جاء شئ من هذا القبيل- أعنى ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده – عن أحد من الصحابة بطريق صحيح، فإن كان قد جزم به فهو كالْقِسم الأول، يُقبل ولا يُرد، لأنه لا يعقل أن يكون قد أخذه عن أهل الكتاب بعد ما علم من نهى رسول الله ﷺ عن تصديقهم. وإن كان لم يجزم به فالنفس أسكن إلى قبوله، لأن احتمال أن يكون الصحابي قد سمعه من النبي ﷺ، أو ممن سمعه منه، أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب، ولا سيما بعد ما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلًا بالنسبة لغيرهم من التابعين ومَن

(١) البخاري (٢٦٨٥).

(٢) البخاري (٣٤٦١).

يليهم. أما إن جاء شئ من هذا عن بعض التابعين، فهو مما يُتوقف فيه ولا يُحكم عليه بصدق ولا بكذب، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب، لما عُرفوا به من كثرة الأخذ عنهم، وبُعد احتمال كونه مما سُمع من رسول الله ﷺ، وهذا إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك، أما إن اتفقوا عليه. فإنه يكون أبعد من أن يكون مسموعًا من أهل الكتاب، وحينئذ تسكن النفس إلى قبوله والأخذ به، والله أعلم.

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسي من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ (الكهف: ٢٢).

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلًا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجْم الغيب فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل به عن الأهم. فأما من حكي خلافًا في مسألة ولم يستوعب

أقوال الناس فيها فهو ناقص؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه أو يحكى الخلاف ويطلقه، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضًا. فإن صحح غير الصحيح عامدًا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكي أقوالًا متعددة لفظًا، و يرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور. والله الموفق للصواب(١).

فائدة: حكم سؤال أهل الكتاب عن شئ من أمور الدين:

أما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ؛ فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني"(٢).

والإسرائيليات مرفوضة عن العلماء على البتات فأعرض عن سطورها بصرك وأصمم عن سماعها أذنيك فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالًا ولا تزيد فؤادك إلا خبالًا.

قَالَ اِبْن بَطَّال عَنْ الْمُهَلَّب: هَذَا النَّهْي إِنَّمَا هُوَ فِي سُؤَالهمْ عَمَّا لَا نَصّ فِيهِ، لِأَنَّ شَرْعنَا مُكْتَفٍ بِنَفْسِهِ فَإِذَا لَمْ يُوجَد فِيهِ نَصّ فَفِي النَّظَر وَالِاسْتِدْلَال غِنًى عَنْ سُؤَالهمْ، وَلَا يَدْخُل فِي النَّهْي سُؤَالهمْ عَنْ الْأَخْبَار الْمُصَدِّقَة لِشَرْعِنَا وَالْأَخْبَار عَنْ الْأُمَم السَّالِفَة، وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فَالْمُرَاد بِهِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، وَالنَّهْي إِنَّمَا هُوَ عَنْ سُؤَال مَنْ لَمْ يُؤْمِن مِنْهُمْ، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْأَمْر يَخْتَصّ بِمَا يَتَعَلَّق بِالتَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَة

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (٢/ ٣١٥) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة (١٥٠) والتفسير والمفسرون (٤/ ٩) و مقدمة في التفسير للعثيمين (١/ ٤٦).

(٢) مسند أحمد (٣/ ٣٣٨: ٣٣٧)، سنن الدارمي (١٤٣٦)، السنن لابن أبي عاصم (٥٠)، جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ٤٢) من طرق عن مجالد. وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩)، وفي ظلال الجنة (٥٠).

الْمُحَمَّدِيَّة وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَالنَّهْي عَمَّا سِوَى ذَلِكَ.[1]

الوجه الثالث: موقف العلماء من الإسرائيليات.

اختلفت مواقف العلماء، ولا سيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأي أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري رحمه الله.

ب- ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبا، فكان حاطب ليل مثل البغوي الذي قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن تفسيره: إنه مختصر من الثعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة، وقال عن الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

ج- ومنهم من ذكر كثيرًا منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثل ابن كثير.

د- ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئا يجعله تفسيرًا للقرآن كمحمد رشيد رضا[2].

الواقع أنّ إيراد المفسّرين لأخبار أهل الكتاب - وهي المسمّاة بالإسرائيليّات- لم يكن يومًا لأخذ ما فيها من مفاهيم وأحكام ووجهات نظر. وإنّما كانت محاولة لسدّ الفجوات التاريخيّة الّتي كان يشعر المسلمون بوجودها. فالقرآن الكريم، وكذلك السنّة النبويّة لم يفصِّلا في تاريخ بدء الخليقة وأخبار الأمم السابقة، وإنّما اقتصرا على ما يحقّق غاية الهداية والتشريع، فكان لدى بعض المسلمين فضول في معرفة هذه التفاصيل، فلجئوا إلى أهل الكتاب يسمعون ما عندهم من أخبار، قد تكون صحيحة وقد تكون كاذبة، إلاّ أنّها في كلّ الأحوال ليست من الدين في شيء، وإنّما هي أخبار تاريخيّة فقط، ولا يضرّ المسلمين في شيء أن يصدّقوها أو يكذّبوها ما دامت لا تمسّ شيئًا من العقائد والأحكام الشرعيّة،

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٥٤)، تفسير القرطبي (١٥/ ١٨٣)، مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٢٩٦)، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة (١٥٠)، والتفسير والمفسرون (٤/ ٩)، مقدمة في التفسير للعثيمين (١/ ٤٨).

(٢) مقدمة في التفسير للعثيمين (١/ ٤٩).

وهذا هو مفهوم حديث رسول الله ﷺ روى عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانيّة، ويفسّرونها بالعربيّة لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم، وقولوا: آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنْزل إليكم"[١].

وقد عبّر "ابن خلدون" عن هذه النظرة تعبيرًا واضحًا إذ قال: «والسبب في ذلك أنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأميّة، وإذا تشوّقوا إلى معرفة شيء ممّا تتشوّق إليه النفوس البشريّة في أسباب المكوّنات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنّما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، و يستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الّذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلاّ ما تعرفه العامّة من أهل الكتاب ومعظمهم من حِمير الّذين أخذوا بدين اليهوديّة، فلمّا أسلموا بقوا على ما كان عندهم ممّا لا تعلّق له بالأحكام الشرعيّة الّتي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحِدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبّه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم، وفي أمثال هذه الأغراض أخبارًا موقوفة عليهم، وليست ممّا يَرجع إلى الأحكام فتُتحرّى فيها الصحّة الّتي يجب بها العمل هذا في التفسير من حيث هو تفسير. إلاّ أنّ هذا الفرع من المعارف الإسلاميّة -وإن عدّه العلماء المسلمون علمًا قائمًا بذاته- قد حوي أنواعًا من العلوم الإسلاميّة. فالمفسّر حين يكون بصدد تفسير آية تشريعيّة يكون بحثه "فقهيًّا". وحين يكون بصدد تفسير آيات العقائد، يكون بحثه ملحقًا بعلم التوحيد وأصول الدين. وحين يتعرّض للآيات الّتي تتكلّم عن بدء الخليقة والأمم السالفة، فإنّ بحثه سيكون على صلة بالتاريخ، وهكذا. لذلك فإنّ ما يقال في هذه العلوم بوصفها مستقلّة يقال عنها أيضًا بوصفها جزءًا من كتب التفسير، من حيث إنّ الموضوع هو واحد. ولن تتغيّر عقليّة الكاتب بين أن يكون مصنّفًا لكتاب في التوحيد -مثلًا- وأن يكون

(١) البخاري (٧٣٦٢).

مصنِّفًا لكتاب في التفسير(١).

الاختلاف في التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك؛ إذ العلم إما نقل مصدق وإما استدلال محقق، والمنقول إما عن المعصوم وإما عن غير المعصوم، والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم، وهذا هو النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه. وهذا القسم الثاني من المنقول؛ وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه، فالكلام فيه من فضول الكلام.

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته، فإن الله نصب على الحق فيه دليلًا، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك. فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولًا نقلًا صحيحًا عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر ـ فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب ـ كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب ـ فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه".

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض، وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلًا صحيحًا فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين؛ لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى؛ ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين، ومع جزم الصاحب فيما يقوله، فكيف يقال: إنه أخذه عن

(١) مقدمة ابن خلدون (٤٨٧)، نشوء الحضارة الإسلامية لأحمد القصص (١/ ١٥٤).

أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم؟ والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه، ولا تفيد حكاية الأقوال فيه، هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك.

وأما القسم الأول، الذي يمكن معرفة الصحيح منه، فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد(١).

الوجه الرابع: مبدأ دخول الإسرائيليات على المسلمين.

نستطيع أن نقول: إن دخول الإسرائيليات على المسلمين، أمر يرجع إلى عهد الصحابة ﭬ، وذلك نظرًا لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في ذكر بعض المسائل كما تقدَّم، مع فارق واحد، هو الإيجاز في القرآن، والبسط والإطناب في التوراة والإنجيل. وأن الرجوع إلى أهل الكتاب، كان مصدرًا من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي إذا مَرَّ على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلًا إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد مَن يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا فى الإسلام، وحملوا إلى أهله ما معهم من ثقافة دينية، فألقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الديني(٢).

شبهة أخرى: الرد على قولهم أن الصحابة والتابعين ﭬ رووا كثيرًا عن أهل الكتاب:

أولًا: جواز الرواية عن بني إسرائيل مالا يخالف شريعتنا:

قال ﷺ: "بلّغُوا عنِّي ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَجَ، ومن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأْ مقعده من النار".

هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد. فإنها على ثلاث: أحدها: ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما نشهدُ له بالصدق، فذا ك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبَه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (٢/ ٢٩٦)

(٢) التفسير والمفسرون (١/ ١٢٣).

نؤمِنُ به ولا نكذّبه، وتجوزُ حكايتُه لما تقدّم[1].

وقد تقدم بيان اختلاف العلماء وأقسام الإسرائيليات في صدر الكلام.

ثانيًا: أن الصحابة ﷺ كانوا أعلم الناس بأمور دينهم.

وقد خصهم الله بالعلم والفهم، والورع والتقى، وسبق لهم من الفضل على لسان نبيهم ما ليس لأحدٍ بعدهم، ومن شكَّ في ذلك فعليه أن يراجع دينه وإيمانه قال الإمام الشافعي، بعد أن ذكرهم وذكر من تعظيمهم وفضلهم: وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمرٍ استُدْرِك به عليهم، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا. وما ثبت من أن بعض الصحابة كأبي هريرة وابن عباس ﷺ وغيرهما كانوا يرجعون إلى بعض من أسلم من أهل الكتاب، فهو أمر لا يعيبهم ولا ينقص من قدرهم وعلمهم.

ثالثا: أن الصحابة ﷺ لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء.

بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحًا للقصة وبيانًا لما أجمله القرآن منها، مع توقفهم فيما يُلقى إليهم، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب ما دام يحتمل كلا الأمرين، امتثالًا لقول الرسول ﷺ: "لا تُصَدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكَذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾.

كما أنهم لم يسألوهم عن شئ مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام، اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن. كذلك كانوا لا يعدلون عما ثبت عن الرسول ﷺ من ذلك إلى سؤال أهل الكتاب، لأنه إذا ثبت الشئ عن الرسول ﷺ فليس لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره.

رابعًا: كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التي يُشبه أن يكون السؤال عنها نوعًا من اللهو والعبث.

كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف، والبعض الذي ضُرِب به القتيل من البقرة، ومقدار سفينة نوح، ونوع خشبها، واسم الغلام الذي قتله الخضر. وغير ذلك، ولهذا

(١) فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٧٠).

قال الدهلوى بعد أن بيّن أن السؤال عن مثل هذا تكلف ما لا يعنى: "وكانت الصحابة ﷺ يعدون مثل ذلك قبيحًا من قبيل تضييع الأوقات". أنهم لم يخرجوا عن دائرة الجواز التي حدّها لهم رسول الله ﷺ وأذن لهم فيها بقوله: " بلغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار ".

وفي الوقت نفسه لم يخالفوا النهي الوارد في قوله ﷺ: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا. . . . . ولا تعارض بين هذين الحديثين، فإن الأول أباح لهم أن يحدِّثوا عما وقع لبني إسرائيل من الأعاجيب لما في أخبارهم من العبرة والعظة، بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوبًا، لأنه ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب. وأما الحديث الثاني فالمراد منه التوقف فيما يحدّث به أهل الكتاب إذا كان محتملًا للصدق والكذب، لأنه ربما كان صدْقًا في واقع الأمر فيكذبونه، أو كذبًا فيصدقونه فيقعون بذلك في الحرج. فهذا النوع من الأخبار المحتملة للصدق والكذب هو الذي نهينا عن تصديقه أو تكذيبه، وليس المراد منه ما جاء شرعنا بموافقته أو مخالفته، فإن الموقف منه واضح ومعروف.

ومن هنا يتبين لنا أنه لا تعارض بين إذنه ﷺ بالتحديث عن بني إسرائيل، وبين نهيه عن تصديقهم أو تكذيبهم، كما يتبين لنا القدر الذي أباحه الشارع من الرواية عن أهل الكتاب.

إذًا فالصحابة ﷺ كان لديهم منهج سديد، ومعيار دقيق في قبول ما يلقى إليهم من الإسرائيليات، فما وافق شرعنا قبلوه، وما خالفه كذبوه، وما كان مسكوتًا عنه توقفوا فيه. ثم إنهم لم يكونوا يرجعون إليهم في كل أمر، وإنما كانوا يرجعون إليهم لمعرفة بعض جزئيات الحوادث والأخبار، ولم يُعرف عنهم أبدًا أنهم رجعوا إليهم في العقائد ولا في الأحكام، ولو ثبت أنهم سألوا أهل الكتاب عن شيء يتعلق بالمعتقد فلم يكن ذلك عن تهوك منهم وارتياب، وإنما كان لإقامة الحجة عليهم، بالاستشهاد والتأييد لما جاء في شريعتنا، عن طريق الاحتجاج عليهم بما يعتقدون.

أما إنكار الرسول ﷺ كما في حديث جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه النبي ﷺ فغضب وقال: **"أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي"**[(١)].

وإنكار بعض الصحابة - كابن عباس نفسه - على من كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب بقوله - كما في البخاري: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

هذا الإنكار لا يعارض الجواز والإذن الثابت في نصوص أخرى، لأنه كان في مبدأ الإسلام، وقبل استقرار الأحكام، وأما الإباحة فجاءت بعد أن عرفت الأحكام واستقرت، وذهب خوف الاختلاط والتشويش.

قال الحافظ ابن حجر: وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية، خشية الفتنة، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار[(٢)].

خامسًا: ومما يدل أيضًا على أن الصحابة لم يكونوا يتلقفون كل ما يصدر عن أهل الكتاب دون نقد وتمحيص تلك المراجعات العديدة.

والردود العلمية على بعض أهل الكتاب، في أمور أنكروها، وردوا عليهم خطأهم فيها. ومن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: " فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه الله

(١) مسند أحمد (٣٦/ ٣٨٧)، شعب الإيمان (١/ ١٩٩)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١٧٧).
(٢) مجلة المنار (٢٦/ ١/ ٧٩).

إياه "، فقد اختلف السلف في تعيين هذه الساعة، وهل هي باقية أم رفعت؟ وإذا كانت باقية فهل هي في جمعة واحدة من السنة، أو في كل جمعة منها؟.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْتُ إِلَى الطُّورِ فَلَقِيتُ كَعْبَ الأَحْبَارِ فَجَلَسْتُ مَعَهُ فَحَدَّثَنِي عَنِ التَّوْرَاةِ وَحَدَّثْتُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَانَ فِيمَا حَدَّثْتُهُ أَنْ قُلْتُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " **خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنَ الْجَنَّةِ وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ وَفِيهِ مَاتَ وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ إِلاَّ الْجِنَّ وَالإِنْسَ وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ** ". قَالَ كَعْبٌ ذَلِكَ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَوْمٌ. فَقُلْتُ بَلْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ. فَقَرَأَ كَعْبٌ التَّوْرَاةَ فَقَالَ صَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺقَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ فَلَقِيتُ بَصْرَةَ بْنَ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيَّ فَقَالَ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ فَقُلْتُ مِنَ الطُّورِ. فَقَالَ لَوْ أَدْرَكْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ مَا خَرَجْتَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "لاَ تُعْمَلُ الْمَطِيُّ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَى مَسْجِدِي هَذَا وَإِلَى مَسْجِدِ إِيلِيَاءَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ". يَشُكُّ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ثُمَّ لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلاَمٍ فَحَدَّثْتُهُ بِمَجْلِسِي مَعَ كَعْبِ الأَحْبَارِ وَمَا حَدَّثْتُهُ بِهِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَقُلْتُ قَالَ كَعْبٌ ذَلِكَ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَوْمٌ. قَالَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ كَذَبَ كَعْبٌ. فَقُلْتُ ثُمَّ قَرَأَ كَعْبٌ التَّوْرَاةَ فَقَالَ بَلْ هِيَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ صَدَقَ كَعْبٌ. ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ قَدْ عَلِمْتُ أَيَّةَ سَاعَةٍ هِيَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ لَهُ أَخْبِرْنِي بِهَا وَلاَ تَضِنَّ عَلَيَّ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ وَكَيْفَ تَكُونُ آخِرُ سَاعَةٍ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لاَ يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي". وَتِلْكَ السَّاعَةُ سَاعَةٌ لاَ يُصَلَّى فِيهَا فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ فَهُوَ فِي صَلاَةٍ حَتَّى يُصَلِّيَ ". قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ بَلَى. قَالَ فَهُوَ ذَلِكَ.[1]

ومن ذلك أيضًا ما رواه ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: " المفدي إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود. ولما بلغه أن نوفًا البكالي – وهو ربيب

(١) صحيح. موطأ مالك (٣٦٤).

كعب الأحبار -، يزعم أن موسى بني إسرائيل ليس بموسى الخضر: قال: كذب، حدثنا أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ وساق الحديث الذي عند البخاري في قصة موسى مع الخضر.

وذكر ابن كثير في تفسيره أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ، قال لكعب منكرًا: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك، فإن الله تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (الكهف ٨٤)، قال ابن كثير معلقًا: وهذا الذي أنكره معاوية ﷺ على كعب هو الصواب، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار فهذا كله وغيره يؤكد على أن الصحابة ﷺ لم يكونوا مغفلين مخدوعين يصدقون كل ما يلقى إليهم، بل كانوا يتحرون الصواب، ويردون على أهل الكتاب أقوالهم التي تستحق الرد والمراجعة. فهل يعقل بعد هذا، وبعد ما عرفناه من عدالة الصحابة وحرصهم على امتثال أوامر الله ورسوله، وعدم تسليمهم لأهل الكتاب كل ما يروونه من إسرائيليات، أن نقول بتهاونهم، ومخالفتهم لتعاليم رسول الله ﷺ فضلًا عن رميهم بالغفلة وعدم الفطنة، اللهم إنا نبرأ إليك من ذلك.

سادسًا: تشديد عمر ﷺ على من كان يكتب شيئا من كتب اليهود.

لقد كانت مقالة النبي ﷺ لعمر وغضبه لكتابته شيئًا من التوراة درسًا تعلم منه سيدنا عمر ومنهجًا أخذ الناس به روى الحافظ أبو يعلى بسنده عن خالد بن عرفطة قال: (كنت جالسًا عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر: أنت فلان ابن فلان العبدي؟ قال: نعم فضربه بعصًا معه فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس فجلس فقرأ عليه ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (يوسف٣: ١)، فقرأها عليه ثلاثًا وضربه ثلاثًا فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتب دانيال؟ قال: مرني بأمرك أتبعه قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ثم لا تقرأه أنت ولا تقرئه أحدًا من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدًا من الناس لأنهكنك عقوبة، ثم قال له: اجلس فجلس بين يديه قال: انطلقت أنا فانتسخت كتابًا من أهل

الكتاب ثم جئت به في أديم فقال لي رسول الله ﷺ: "ما هذا الذي في يدك يا عمر؟ " فقلت: يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد علمًا إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال: "يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتمه واختصر لي اختصارًا، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون" قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبك رسولًا ثم نزل رسول الله ﷺ[1].

الوجه الخامس: ضعف السند إلى الصحابي أو التابعي.

فقد يكون ما روي عن الصحابة مدسوسًا عليهم وضعه عليهم الزنادقة والملحدون كي يظهروا الإسلام وحملته بهذا المظهر المنتقد المشين، ويجوز أن يكون بعضها مما ألصق بالتابعين ونسب إليهم زورًا، ولاسيما أن أسانيد معظمها لا تخلو من ضعيف أو مجهول أو متهم بالكذب أو الوضع أو معروف بالزندقة أو مغمور في دينه وعقيدته، وبعض الإسرائيليات قد يصح السند إليها.

الوجه السادس: رواية الكذب ليس معناها أن الراوي هو الذي اختلقه وبيان صدق من روى، أو روى عنه الإسرائيليات.

بعض الإسرائيليات قد يصح السند إليها، ولعل قائلًا يقول: أما ما ذكرت من احتمال أن تكون هذه الروايات الإسرائيلية مختلقة موضوعة على بعض الصحابة والتابعين فهو إنما يتجه في الروايات التي في سندها ضعف أو مجهول أو وضاع أو متهم بالكذب، أو سيء الحفظ، يخلط بين المرويات، ولا يميز، أو نحو ذلك، ولكن بعض هذه الروايات حَكَم عليها بعض حفاظ الحديث بأنها صحيحة السند أو حسنة السند أو إسنادها جيد أو ثابت ونحو ذلك فماذا تقول فيها؟.

والجواب: أنه لا منافاة بين كونها صحيحة السند، أو حسنة السند أو ثابتة السند وبين كونها من إسرائيليات بني إسرائيل، وخرافاتهم وأكاذيبهم فهي صحيحة السند إلى ابن

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ٢٢٣).

عباس، أو عبد الله ابن عمرو بن العاص أو إلى مجاهد، أو عكرمة، أو سعيد بن جبير وغيرهم ولكنها ليست متلقاة عن النبي ﷺ لا بالذات، ولا بالواسطة ولكنها متلقاة عن أهل الكتاب الذين أسلموا فثبوتها إلى من رويت عنه شيء وكونها مكذوبة في نفسها، أو باطلة أو خرافة شيء آخر، ومثل ذلك: الآراء والمذاهب الفاسدة اليوم فهي ثابتة عن أصحابها وعن آرائهم ولاشك ولكنها في نفسها فكرة باطلة أو مذهب فاسد.

فقد اختلق الوضاعون عليهم أشياء كثيرة، فاتخذوهم مطية لترويج الكذب وإذاعته بين الناس، مستغلين شهرتهم العلمية الواسعة بما في كتب أهل الكتاب، ثم تناقل هذه الأخبار بعض القصاص والمؤرخين والأدباء، وبعض المفسرين على أنها حقائق، من غير أن يتثبتوا من صحة نسبتها إلى من عزيت له.

يقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: وبعض أهل عصرنا تكلم فيه - يقصد وهب بن منبه - عن جهل، ينكرون أنه يروي الغرائب عن الكتب القديمة، وما في هذا بأس، إذ لم يكن دينًا، ثم أنى لنا أن نوقن بصحة ما روي عنه من ذلك وأنه هو الذي رواه وحدَّث به".

فهل بعد هذا كله نقبل كلام جولد زيهر ومن مشى في ركابه، ونعرض عن كلام أئمة الإسلام، وجهابذة المحدثين والنقاد، الذين وثقوا هؤلاء الرواة، وخرجوا أحاديثهم في كتبهم التي تلقتها الأمة بالقبول جيلًا بعد جيل، فضلًا عن أن نتهمهم بالمكر والدهاء والكيد للإسلام وأهله، اللهم إنا نبرأ إليك من ذلك(١).

وأحب أن أنبه هنا إلى حقيقة وهى: أنه ليس معنى أن هذه الإسرائيليات المكذوبات و الباطلات مروية عن كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام وأمثالهم أنها من وضعهم، واختلاقهم كما زعم ذلك بعض الناس اليوم وإنما معنى ذلك أنهم هم الذين رووها ونقلوها لبعض الصحابة والتابعين من كتب أهل الكتاب ومعارفهم وليسوا هم الذين اختلقوها وإنما اختلقها، و افتجرها أسلافهم القدماء.

---

(١) مجلة المنار (٢٦/ ١/ ٧٣).

ولم يقل أحد من أئمة الجرح والتعديل على حصافتهم، وبعد نظرهم: أن كعبًا، ووهبًا، وعبد الله بن سلام، وتميمًا الداري، وأمثالهم كانوا وضاعين، و يتعمدون الكذب، والاختلاق من عند أنفسهم، وإنما الذي قالوه عنهم: أنهم كانوا هم الواسطة في حمل ونقل معارف أهل الكتاب إلى المسلمين، وأن البعض رواها عنهم فليس الذنب ذنبهم، وإنما الذنب ذنب من نقلها، ورواها عنهم، من غير بيان لكذبها وبطلانها.

ولما كانت رواية الإسرائيليات تدور غالبًا على كعب، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأنهم هم الذي كان الاتهام منصبًا عليهم أكثر من غيرهم، فسأذكر لكل منهم ترجمة كي يتبين للمنصف آراء أئمة الجرح والتعديل فيهم.

شبهة أخرى: الرد على اتهامهم عبد الله بن سلام.

عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، ثم الأنصاري. كان حليفًا لهم من بني قينقاع، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وكان اسمه في الجاهلية الحصين، فسماه رسول الله ﷺ حين أسلم عبد الله. وكان إسلامه لما قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا. روى عنه ابناه: يوسف ومحمد، وأنس بن مالك وزرارة بن أوفى.

أوجه الرد على اتهامهم عبد الله بن سلام بالكذب في الإسلام ما ليس منه.

أولًا: صدقه وتكذيبه لليهود:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ بَلَغَ عَبْدَ الله بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ الله ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ نَبِيٌّ، قَالَ مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَمِنْ أَيِ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلى أَبِيهِ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلى أَخْوَالِهِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ ". قَالَ فَقَالَ عَبْدُ الله ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلى الْمَغْرِبِ. وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ. وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا ». قَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله. ثُمَّ قَالَ يَا

رَسُولَ الله إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ الله الْبَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ الله بْنُ سَلاَمٍ "؟ قَالُوا: أَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا وَأَخْبَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا. فَقَالَ رَسولُ الله ﷺ: " أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ الله». قَالُوا أَعَاذَهُ الله مِنْ ذَلِكَ. فَخَرَجَ عَبْدُ الله إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله. فَقَالُوا شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعوا فِيهِ[1].

ثانيًا: شهد له رسول الله ﷺ بالجنة:

عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لأَحَدٍ يَمْشِى عَلَى الأَرْضِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. إِلاَّ لِعَبْدِ الله بْنِ سَلاَمٍ قَالَ وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الآيَةَ. قَالَ لاَ أَدْرِى قَالَ مَالِكٌ الآيَةَ أَوْ فِي الْحَدِيثِ[2].

ثالثا: شهادة الصحابة له بالعلم.

عن يزيد بن عميرة قال: لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له: يا أبا عبد الرحمن، أوصنا. فقال: أجلسوني، قال: إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، فالتمسوا العلم عند أربعة رهط: عند عويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلام الذي كان يهوديًا فأسلم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إنه عاشر عشرة في الجنة"[3].

رابعًا: حفظه رضي الله عنه وفطنته.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إلى رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: " مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ ". فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ. فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ سَلاَمٍ كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ. فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ

---

(١) البخاري (٣٣٢٩).

(٢) البخاري (٣٨١٢).

(٣) أسد الغابة (٢/ ١١٩).

فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ ارْفَعْ يَدَكَ. فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَقَالُوا صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَا. قَالَ عَبْدُ اللهِ فَرَأَيْتُ الرَّجلَ يَجْنَأُ عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَة. (١)

خامسًا: ومن مناقبه أنه ثبت علَى الإسْلاَمِ حتى مات.

فعَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا فِى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى وَجْهِهِ أَثَرُ الْخُشُوعِ، فَقَالُوا هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ تَجَوَّزَ فِيهِمَا ثُمَّ خَرَجَ، وَتَبِعْتُهُ فَقُلْتُ إِنَّكَ حِينَ دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ قَالُوا هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. قَالَ وَاللهِ مَا يَنْبَغِى لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لاَ يَعْلَمُ وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ - ذَكَرَ مِنْ سَعَتِهَا وَخُضْرَتِهَا - وَسْطَهَا عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ، أَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ وَأَعْلاَهُ فِي السَّمَاءِ، فِي أَعْلاَهُ عُرْوَةٌ فَقِيلَ لَهُ ارْقَهْ. قُلْتُ لاَ أَسْتَطِيعُ. فَأَتَانِي مِنْصَفٌ فَرَفَعَ ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي، فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلاَهَا، فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ، فَقِيلَ لَهُ اسْتَمْسِكْ. فَاسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي، فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلاَمُ، وَذَلِكَ الْعَمُودُ عَمُودُ الإِسْلاَمِ، وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى، فَأَنْتَ عَلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى تَمُوتَ ".

وفي رواية فقال له: تموت وأنت مستمسك بالعروة الوثقى، وعنه أنه مر يحمل حزمة حطب فقيل: أليس قد أغناك الله عن هذا؟ قال بلى، ولكن أردت أن أقمع الكبر(٢).

سادسًا: ورعه وزهده وكرمه.

فعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِى بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَلَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلاَمٍ ﷺ فَقَالَ أَلاَ تَجِيءُ فَأُطْعِمَكَ سَوِيقًا وَتَمْرًا، وَتَدْخُلَ فِي بَيْتٍ ثُمَّ قَالَ إِنَّكَ بِأَرْضٍ الرِّبَا بِهَا فَاشٍ إِذَا كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ فَأَهْدَى إِلَيْكَ حِمْلَ تِبْنٍ، أَوْ حِمْلَ شَعِيرٍ أَوْ حِمْلَ قَتٍّ، فَلاَ تَأْخُذْهُ، فَإِنَّهُ رِبًا(٣).

---

(١) البخاري (٣٦٣٥).

(٢) البخاري (٣٨١٣).

(٣) البخاري (٣٨١٣).

سابعًا: توثيق العلماء له.

وقد روى الحديث عن النبي ﷺ وروى عنه ابناه: يوسف ومحمد، وأبو هريرة وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري، وعطاء بن يسار وغيرهم، وشهد مع عمر ﵁ فتح بيت المقدس، والجابية وقد عده بعضهم من البدريين، وأما ابن سعد: فذكره في الطبقة الثالثة ممن شهد الخندق وما بعدها وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين من الهجرة.

فها نحن نرى: أنه كان من أعلم اليهود بشهادتهم، وأنه كان من علماء الصحابة بعد إسلامه وبحسبه فضلًا: شهادة النبي ﷺبأنه من أهل الجنة وشهادة أصحاب رسول الله له كما سمعت، فهل يجوز في العقل أن يشهد النبي بالجنة لرجل يصدر منه الكذب، وفى أي شيء؟ في الحديث ثم هو صحابي والصحابة كلهم عدول، فمن المستبعد جدًّا أن يكذب في الرواية، ولم أر أحدًا من علماء الجرح والتعديل، وأئمة العلم والدين تناوله، أو ذكر فيه ما يخدش عدالته إلا ما كان من الكتاب المتأخرين الذين تأثروا بكلام المستشرقين، وأتباعهم، ونوايا المستشرقين ولاسيما اليهود منهم نحو (الإسلام، والنبيﷺ، والصحابة) موسومة بالخبث والعداوة وسوء الظن، ولا أدرى كيف نعدل عن كلام الأئمة الأثبات ونأخذ بكلام المستشرقين؟.

وأحب أن أقرر هنا: أن حفاظ الحديث، ونقاده البصيرين به قد تعرضوا لكل المرويات عن عبد الله بن سلام وغيره، وبينوا الصحيح من الضعيف، والمقبول من المردود.

ونحن لا ننفي أن عبد الله بن سلام، روى بعض ما علمه من معارف أهل الكتاب وثقافتهم، ورُويت عنه ولكن الذي ننفيه: أن يكون ألصق هذه المرويات بالنبي ونسبها إليه زورًا وأنه كان وضاعًا كذابًا، ومن يرى خلاف هذا فنحن نطالبه بالحجة والبرهان، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين للهجرة[1].

شبهة أخرى: الرد على اتهامهم كعب الأحبار

أولًا: التعريف بكعب الأحبار.

---

(١) تهذيب التهذيب (٥/ ٢١٩)، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة (١٤٢).

هو: كعب بن ماتع بن عمرو بن قيس من آل ذي رعين، وقيل ذي الكلاع الحميري، وقيل: غير ذلك في اسم جده، ونسبه يكنى: أبا إسحق، كان في حياة النبي ﷺ رجلًا وكان يهوديًا عالمًا بكتبهم، حتى كان يقال له: كعب الحبر، وكعب الأحبار.

وكان إسلامه في خلافة سيدنا عمر، وقيل: في خلافة الصديق، وقيل: إنه أسلم في عهد النبي ﷺ، ولكن تأخرت هجرته، فمن ثم لم يره، والأول هو الأصح والأشهر، وقد سكن المدينة وغزا الروم في خلافة عمر، ثم تحول في عهد سيدنا عثمان إلى الشام، فسكنها، إلى أن مات بحمص، في خلافة عثمان سنة اثنتين أو ثلاث، أو أربع وثلاثين والأول هو الأكثر، وقد كان عنده علم بكتب أهل الكتاب، والثقافة اليهودية، كما كان له حظ من الثقافة الإسلامية ورواية الأحاديث.

روى عن النبي ﷺ، ولكنه مرسل، لأنه لم يلق النبي ﷺ، ولم يسمع منه، وعن عمر، وصهيب، والسيدة عائشة، وروى عنه من الصحابة معاوية، وأبو هريرة، وابن عباس، وبقية العبادلة، وعطاء بن أبى رباح، وغيره من التابعين.

ثانيًا: توضيح مقالة معاوية رضي الله عنه في كعب:

ولكن قد يعكر على ما ذكرنا: ما ورد في حقه في الصحيح: روى البخاري في صحيحه بسنده، عن حميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية وهو يحدث رهطًا من قريش بالمدينة -يعنى لما حج في خلافته وذكر كعب الأحبار، فقال "إن كان من أصدق -وفى رواية لمن أصدق- هؤلاء الذين يتحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب ".

وظاهر كلام معاوية، يخدش كعبًا في بعض مروياته كما يدل أيضًا على أن الذين كانوا يحدثون بمعارف أهل الكتاب، كان فيهم صادقون، وأن كعبًا كان من أصدق هؤلاء، ولكنها لا تدل على أنه وضاع أو كذاب فهذا الكلام لا يخدش في ثقة كعب وعدالته، بل إن في ذلك تزكية من معاوية وثناء عليه بأنه أصدق المحدثين عن أهل الكتاب، وقول معاوية: " وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب"، لا يراد منها اتهامه بالكذب، وإنما المقصود أن في بعض الأخبار

التي ينقلها بأمانة ما لا يطابق الواقع، فالكذب حينئذ مضاف إلى تلك الكتب التي ينقل عنها لا إلى كعب، وهو نحو قول ابن عباس في حقه (بدل من قبله فوقع في الكذب)(١).

وقد حسن العلماء الظن بكعب، فحملوا هذه الكلمة على محمل حسن.

قال ابن التين: وهذا: نحو قول ابن عباس في حق كعب المذكور: "بدل من قبله فوقع في الكذب "، قال: والمراد بالمحدثين أنداد كعب ممن كانوا من أهل الكتاب، وأسلموا فكان يحدث عنهم، وكذا من نظر في كتبهم، فحدث عما فيها، قال: ولعلهم كانوا مثل كعب إلا أن كعبًا كان أشد منهم بصيرة، وأعرف بما يتوقاه، وقال ابن حبان في "الثقات ": أراد معاوية أنه يخطئ أحيانًا فيما يخبر به ولم يرد أنه كان كذابًا، وقال ابن الجوزى: المعنى: أن بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذبًا لا أنه يتعمد الكذب.

والظاهر: أن معاوية رضي الله عنه لم يقل مقالته هذه في كعب الأحبار إلا بعد أن اختبره في مروياته، وآرائه، فوجد بعضها لا يوافق الحق والصدق، وأنه كان يذكر آراءً، وأقوالًا ليست صحيحة، وتحتاج إلى المراجعة والتثبت، وليس أدل على هذا: من هذه الحادثة التي كانت بين معاوية، وكعب، فقد روى ابن لهيعة قال: حدثني سالم بن غيلان، عن سعيد ابن أبى هلال: أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله قال: "وآتيناه من كل شيء سببًا "وهذا إن صح: يدل على أنه كان يذكر آراءَ من عند نفسه، وباجتهاده في بعض الآيات، وهى غير صحيحة، وإلا فلو كان موجودًا في التوراة أو في غيرها لكان الأقرب في الرد أن يقول في الرد: وجدت ذلك في كتب الأولين وقد علق على هذه الحادثة الحافظ ابن كثير، فقال: وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في هذا الإنكار، فإن معاوية كان يقول عن كعب: إن كنا لنبلوا عليه الكذب، يعنى فيما ينقله لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صحفه، ولكن الشأن في صحفه: أنها من

(١) مجلة المنار (٢٦/ ١/ ٧٣).

الإسرائيليات التي غالبها مبدل، مصحف، محرف، مختلق، ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسول الله ﷺ إلى شيء منها بالكلية فإنه دخل منها على الناس شر كثير، وفساد عريض، وتفسير كعب قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، بأنه يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق للواقع، فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك ولا إلى الترقي في أسباب السماوات، وإنما التفسير الصحيح: أن الله يسر الأسباب أي الطرق، والوسائل إلى فتح الأقاليم والبلاد، وكسر الأعداء، وكبت الملوك، وإذلال أهل الشرك، فقد أوتى من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببًا وكذلك: نجد أبا هريرة ﷺ أيضًا يراجع كعبًا في بعض أقواله، فقد سأله: "عن الساعة التي في يوم الجمعة، ولا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى، يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه "، فيجيبه كعب: بأنها في جمعة واحدة من السنة، فيرد عليه أبو هريرة ﷺ قوله هذا، ويبين له أنها في كل جمعة، فيرجع كعب إلى التوراة، فيرى الصواب مع أبى هريرة ﷺ، فيرجع إليه، وكذلك: نجد أبا هريرة ﷺ يسأل عبد الله بن سلام عن تحديد هذه الساعة، ويقول له: أخبرني ولا تضن على فيجيبه ابن سلام: بأنها آخر ساعة في يوم الجمعة فيرد عليه أبو هريرة ﷺ بقوله: كيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال الرسول: "لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى "؟ وتلك الساعة لا يصلى فيها، فيجيبه بقوله: ألم يقل رسول الله ﷺ من جلس مجلسًا ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلى "؟ ولو أن الصحابة راجعوا أهل الكتاب في كل مروياتهم التي أخذوها عنهم، لكان من وراء ذلك خير كثير، ولخلت كتب التفسير من هذا الركام من الإسرائيليات، التي تصادم العقل السليم والنقل الصحيح ولكن هذا ما كان ومع هذا: لم نعلم أحدًا طعن فيه، ورماه بالكذب والاختلاق إلا ما كان من بعض المتأخرين ومهما يكن من شيء فقد تبين لنا: أنه ما كان وضاعًا يتعمد الكذب، وأن الإسرائيليات التي رواها إن كان وقع فيها كذب وأباطيل فذلك يرجع إلى من نقل عنهم من أسلافه الذين حرفوا وبدلوا وإلى بعض كتب اليهود التي حشيت بالأكاذيب والخرافات وإما إلى خطئه في التأويل كما في قصة كعب ومع

هذا: ترى أنه كان أولى به وأجمل وهو عالم مسلم، لو أنه تحرى الحق والصدق وميز في مروياته بين الغث والسمين، وما يجوز نقله وما لا يجوز فإن ناشر مثل هذا لا يخلو من مؤاخذة وإثم وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: "من حدث بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين "[١]، وكنا نحب: لو أنه أراحنا من كل هذا الركام المتهافت، الذي سمم العقول والأفكار وجر على المسلمين البلاء. [٢]

ثالثا: ثقته وأمانته:

فهو من التابعين الأخيار، وقد أخرج له البخاري و مسلم وغيرهما، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام، واتفقت كلمة نقاد الحديث على توثيقه، فترجم له النووي في تهذيبه بقوله: " اتفقوا على كثرة علمه وتوثيقه "، ولذا لا تجد له ذكرًا في كتب الضعفاء والمتروكين.

والمتتبع لحياة كعب في الإسلام، ومقالات أعلام الصحابة فيه، ومن تحمل منهم عنه وروى له، ومن أخرج له من شيوخ الحديث في مصنفاتهم، يجد ما يدحض هذه الفرية ويرد هذه التهمة، ويشهد للرجل بقوة دينه، وصدق يقينه، وأنه طوي قلبه على الإسلام المحض، والدين الخالص، لا على أنه دسيسة يهودية تستر بالإسلام - كما زعم الزاعمون -، وقد أثنى عليه العلماء، قال ابن سعد: ذكروه لأبى الدرداء فقال: "إن عند ابن الحميرية لعلمًا كثيرًا"والظاهر أنه أراد مما يتعلق بكتب أهل الكتاب، وأخرج ابن سعد من طريق عبد الرحمن بن جبير بن نفير، قال: قال معاوية: ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء، إن كان عند العلم كالبحار، وإن كنا فيه لمفرطين، وقال فيه الحافظ ابن حجر في (الفتح): كان من أخيار الأحبار.

رأى علماء التجريح والتعديل فيه:

وعلماء الجرح والتعديل، وهم: الذين لا تخفى عليهم حقيقة أي راو، مهما تستّر، لم يتهموه بالوضع والاختلاق، والجمهور على توثيقه، ولم نجد له ذكرًا في كتب الضعفاء

---

(١) مقدمة الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٧).

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة (١٤٣)

والمتروكين، وقد ترجم له الإمام الذهبي ترجمة قصيرة في (تذكرة الحفاظ)، وتوسع ابن عساكر في ترجمته في (تاريخ دمشق)، وأطال أبو نعيم في (حلية الأولياء) في أخباره، وعظاته وتخويفه لعمر، وترجم له الحافظ ابن حجر في (الإصابة) و (تهذيب التهذيب)، وتكاد تتفق كلمة النقاد على توثيقه. (١)

رابعًا: بيان غرض البخاري.

(**وقد احتج البخاري بكعب الأحبار احتجاجًا مهمًّا نافعًا**).

أما من جهة بيان غرض البخاري من ذكر عبارة سيدنا معاوية في صحيحه فيؤخذ من قول الإمام العيني في شرحها ما نصه (مطابقته للترجمة في ذكر كعب الأحبار الذي كان يتحدث من الكتب القديمة ويسأل عنها أحبارهم) ومنه يعلم أن غرض البخاري هو الاحتجاج بكعب الأحبار في دفع التعارض بين النهي في الترجمة بقول النبي ﷺ: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء " وبين الأمر في قول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ (يونس: ٩٤) بأن كعبًا كان ممن يسألون؛ لأنه قرأ الكتاب من قبل ثم أسلم وشهد له سيدنا معاوية بأنه من أصدق المحدثين عن أهل الكتاب، والنهي هو عن سؤال من لم يسلم كما نص عليه في الفتح في آخر شرح هذه الترجمة، وهذا يدل على عظيم ثقة الإمام البخاري بكعب الأحبار؛ لأن احتجاجه به في أمر الدين كما أن ذكره أبلغ في الدلالة على ثقته به من الرواية عنه وعلى أنه لم يمنعه من الرواية عنه إلا عدم وفرة السند الصحيح له إليه على شرطه المعروف ومثل كعب في ذلك كمثل الإمام أبي حنيفة، وكثير من أوثق المحدثين الذين لم تذكر لهم رواية في البخاري للسبب المذكور والإمام الشافعي لم يكن له رواية في البخاري وإنما له شيء يسير في التعليقات فقط فلا يقال: إن البخاري امتنع عن الرواية عن هؤلاء الأئمة لعدم ثقته بهم فلا عجب حينئذ ممن عد كعبًا من رجال البخاري؛ لأنه متى علم السبب بطل العجب واتضح أن صاحب التهذيب مصيب في عد كعب الأحبار من رجال البخاري وأن ذكر حرف (خ) رقمًا على أخذ

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة (١٤٤).

البخاري عن كعب صحيح لا (غلط) لأنه اعتمد عليه في شيء من كتابه - على أنه لا غرض للحافظ ابن حجر من ذلك التعجب إلا طلب النظر في الموضوع شأن أكابر المحققين إذا اختلفت وجهة نظرهم مع من سبقهم يطلبون النظر في الأمر ليتبين الحق فيه وجل المنزه عن الخطأ والنسيان وعلى ذلك أدلة منها أنه صرح بطلب النظر عقب عبارته هذه مباشرة بقوله: وكذا رقم في الرواة عنه (كعب على معاوية ابن أبي سفيان رقم البخاري معتمدًا على هذه القصة وفي ذلك نظر). يريد أن عبارة سيدنا معاوية قصها على الرهط من قريش ثناء على كعب لا رواية عنه، ولكن قول سيدنا معاوية (عنده علم كالثمار أو البحار) يدل على أخذه عن كعب وإلا فمن أين علم ثمار علمه، ومنها أن ابن حجر أبقى حرف (خ) في كتابه تهذيب التهذيب فلو كان جازمًا بغلط صاحب التهذيب في ذكر هذا الحرف لحذفه هو من كتابه: ومنها أنه لم يجرح كعبًا بشيء ما في مؤلفاته بل ترجم له ونقل توثيقه عن كثيرين تأييدًا لتوثيقه له(١).

خامسًا: على فرض ضعفه فهذا لا يقدح في دين الله شيئًا.

فدين الله ثابت لا تبديل ولا تحريف فيه كما عندكم، ولا يملك أحد أن يدخل فيه شيئًا؛ لأنه في عصمة الله ﷻ.

سادسًا: الكذب في النسبة إليه.

فكثير من الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره هذه الإسرائيليات من غير بيان فيغتر به بعض الناس، فيظنون أنه لابد أن يكون له أصل مرفوع إلى النبي ﷺ لأنه لا يعرف بالرأي فيعدونه من الذي له حكم المرفوع(٢).

شبهة أخرى: الرد على اتهامهم وهب بن منبه

أولًا: التعريف بوهب بن منبه الصنعاني اليمني:

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة (١٤٢)، مجلة المنار (٢٦/ ١/ ٧٣).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٦٥).

وهو: من خيار التابعين، ولد في آخر خلافة عثمان ﷺ، عنده من علم أهل الكتاب شيء كثير فإنه صرف عنايته إلى ذلك وبالغ، وحديثه في الصحيحين عن أخيه همام، ولهمام عن أبي هريرة نسخة مشهورة أكثرها في الصحاح رواها عنه معمر، وطال عمر همام وعاش إلى سنة نيف وثلاثين ومائة.

ثانيًا: توثيق العلماء له:

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه كان من أبناء فارس كان على قضاء صنعاء وقال أبو زرعة والنسائي ثقة وذكره ابن حبان في الثقات، وقال أحمد بن محمد بن الأزهر سمعت مسلمة بن همام بن مسلمة بن همام بن منبه يذكر عن آبائه قال أصل منبه من خراسان من أهل هراة أخرجه كسرى من هراة يعني إلى اليمن فأسلم في عهد النبي ﷺ فحسن إسلامه فسكن ولده باليمن وكان وهب بن منبه يختلف إلى هراة ويتفقد أمرها وجاء من وجهين ضعيفين عن عبادة بن الصامت مرفوعًا: سيكون رجلان في أمتي أحدهما يقال له وهب يؤتيه الله تعالى الحكمة، والآخر يقال له غيلان هو أضر على أمتي من إبليس، وكان ثقة واسع العلم ينظر بكعب الأحبار في زمانه. قال العجلي: كان ثقة تابعيًا على قضاء صنعاء وقيل: كان والده منبه من أهل هراة ممن بعثهم كسرى لأخذ اليمن فأسلم في حياة النبي ﷺ. وعن وهب قال: يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما؟ يعنى نفسه قال الذهبي كان ثقة صادقا كثير النقل من كتب الإسرائيليات[١].

أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وكانت وفاته بصنعاء سنة عشر ومائة وثقه الجمهور، وخالف الفلاس، فقال: كان ضعيفًا وكان شبهته في هذا: أنه كان يتهم بالقول بالقدر وصنف فيه كتابًا ثم صح عنه أنه رجع عنه قال حماد بن سلمة: عن أبى سنان سمعت وهب بن منبه يقول: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين

(١) تاريخ دمشق (٦٣/ ٣٦٦)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٠٠) تاريخ دمشق (٦٣/ ٣٦٦) تهذيب التهذيب (١١/ ١٧٤) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة (١٤٩).

كتابًا من كتب الأنبياء "من جعل إلى نفسه شيئًا من المشيئة فقد كفر "فتركت قولي، وحينئذ لا يلتفت لتضعيف ابن الفلاس لسيدنا وهب خصوصًا وأنه لم يبين وجه التضعيف.

وكان كثير النقل عن كتب أهل الكتاب ويظهر أنه كانت له ثقافة واسعة بكتب الأولين وحكمهم وأخبارهم.

وقد ذكر عنه ابن كثير في بدايته حِكَمًا صائبة ومواعظ كثيرة وقصصًا استغرقت بضعًا وعشرين صحيفة وليس فيها ما يستنكر إلا القليل وكذلك: نقل عنه في التفسير روايات كثيرة جدًّا وجلها من الإسرائيليات ونحن لا ننكر أن بسببه دخل في كتب التفسير إسرائيليات وقصص بواطل ولكن الذي ننكره: أن يكون هو الذي وضع ذلك واختلقه من عند نفسه ولكنا مع هذا: لا نخليه من التبعة والمؤاخذة أن كان واسطة من الوسائط التي نقلت هذا إلى المسلمين، وأُلصقت بالتفسير إلصاقًا والقرآن منها بريء ويا ليته ما فعل. [1]

رابعًا: عبادته رحمه الله:

قال مثنى بن الصباح: لبث وهب عشرين سنة ولم يجعل بين العشاء والصبح وضوءًا[2].

وقال ابن عيينة عن عمرو بن دينار دخلت على وهب داره بصنعاء فأطعمني جوزًا من جوزة في داره، فقلت له: وددت أنك لم تكن كتبت في القدر، فقال: أنا والله وددت ذلك. [3]

خامسًا: على فرض ضعفه فهذا لا يقدح في دين الله شيئًا، فدين الله ثابت لا تبديل ولا تحريف فيه كما عنكم ولا يملك أحد أن يُدخل فيه شيء لأنه في عصمة الله ﷻ، ونحن أمام توثيق الجمهور له واعتماد البخاري وغيره لحديثه، وما ثبت عنه من الورع والصلاح لا نقول إلا أنه رجل مظلوم من متهميه ومظلوم هو وكعب من أولئك الذين استغلوا شهرة

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبة (١٤٩)، مجلة المنار (٢٦/١/٧٥) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير لرمزي نعناعة (١٨٥).
(٢) تذكرة الحفاظ (١/ ١٠٠) تاريخ دمشق (٦٣/ ٣٦٦).
(٣) تهذيب التهذيب (١١/ ١٧٤).

الرجلين ومنزلتهما العلمية، فنسبوا إليهما ما لا يصح عنهما وشوهوا سمعتهما وعرضوهما للنقد اللاذع والطعن المرير.

سادسًا: الكذب في النسبة إليه.

فكثير من الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره هذه الإسرائيليات من غير بيان فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لابد أن يكون له أصل مرفوع إلى النبي ﷺ، لأنه لا يعرف بالرأي فيعدونه من الذي له حكم المرفوع[(١)].

الرد على قولهم أن كعبًا ووهبًا شاركا في قتل الخليفتين.

أولًا: الوجهة التاريخية.

فإن الخليفة الثاني قُتل سنة ٢٣ هـ وسيدنا وهب قتل ظلمًا أيضًا سنة ١١٠ هـ أو سنة ١١٤ هـ فيكون بينهما تسعون عامًا (كذا) تقريبًا فلا يبعد أن يكون لم يولد وقت قتله وسيدنا كعب كان مقيمًا بالشام بعيدًا عن الفرس وجمعية السبئيين لم تؤلف بعد؛ لأن عبد الله بن سبأ رئيسها لم يظهر إلا في خلافة سيدنا عثمان، وأكثر المؤرخين على أن قتل الخليفة الثاني فردي (كذا) وأن الذي قتله هو أبو لؤلؤة غلام سيدنا المغيرة بن شعبة الذي بعثه وهو عامل على الكوفة ليقوم بالصنائع التي تنفع المسلمين وكان ضاربًا عليه مائة درهم في الشهر فتظلم منها إلى الخليفة فلم يرها كثيرة فحنق عليه وقتله بعد أيام وحينئذ لم يكن مرسلًا من جمعية سرية.

والخليفة الثالث قُتل سنة ٣٥ هـ، فبينه وبين سيدنا وهب نحو الثمانين عامًا، فإن كان وُجد فالأقرب أنه كان حينئذ في سن الطفولة، وإقامته كانت بصنعاء بعيدًا عن مراكز الجمعيات التي حكي عنها تدبير قتل الخليفة، أما سيدنا كعب فقد تُوفي سنة ٣٢ هـ أي قبل قتل الخليفة بثلاثة أعوام كما ذكره صاحب الخلاصة المذكورة على أن الحالة تشهد ببُعدهما عن مثل هذه الأحوال لأمور كما هو مبين في الوجه القادم:

ثانيًا: لو نسب إليهما ذلك لشاع واشتهر.

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٦٥).

فلم يأخذ عنهما أحد من المحدثين وخصوصًا البخاري الذي كان يمتنع عن الأخذ عن الراوي لأدنى شبهة قيلت فيه، وأيضًا لحكى عنهما ذلك أحد المترجمين لهم المذكورين ومع أن الحافظ الذهبي التزم في كتابه (تذكرة الحفاظ) أن يذكر فيه المحدثين الموثقين فقط، وقد ذكرهما (كذا) بترجمتين مستفيضتين عن علمهما وورعهما وكفى بذلك توثيقًا.[١]

ثالثًا: أما استدلالهم بما جاء في تاريخ ابن جرير الطبري، عن سليمان بن عبد العزيز عن عبد الله بن جعفر، عن أبيه، عن المسور بن مخرمة، من أن كعب الأحبار قال له: يا أمير المؤمنين أعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام فقال وما يدريك؟ قال أجده في كتاب الله ﷻ التوراة. . .الخ[٢].

فالجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن ابن جرير وغيره من المؤرخين لم يلتزموا الصحة فيما ينقلون ويحكون، ولذا تجد في كتبهم الضعيف والموضوع. والباحث المنصف إذا نقل خبرًا من هذه الكتب ينبغي أن يمحصه سندًا ومتنًا.

الوجه الثاني: إذا نظرنا إلى سند هذه القصة ومتنها لا نشك في أنها تنادى على نفسها بالكذب والاختلاق وذلك: لسقوط سندها فإن سليمان مجهول لم نجد له ترجمة، وأبوه ساقط الحديث كما بينه جمع من الأئمة وعبد الله بن جعفر لا بأس به، فأما أبوه جعفر فلا يعرف برواية أصلًا.

الوجه الثالث: ولأنها لو كانت في التوراة لما اختص بعلمها كعب الأحبار وحده، ولكن كان يشاركه العلم بها أمثال عبد الله بن سلام وعبد الله بن عمرو ممن لهم علم بالتوراة.

الوجه الرابع: ولأنها لو صحت لكان المنتظر من عمر حينئذ أن لا يكتفي بقول كعب، ولكن يجمع طائفة ممن أسلم من أهل الكتاب ولهم إحاطة بالتوراة ويسألهم عن هذه القصة، وهو لو فعل لافتضح أمر كعب وظهر للناس كذبه ولتبين لعمر أنه شريك في

---

(١) مجلة المنار (٢٦/ ١/ ٧٣).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٢٦٤).

مؤامرة دبرت لقتله، أو أنه على علم بها وحينئذ يعمل عمر على الكشف عنها بشتى الوسائل وينكل بمدبريها ومنهم كعب، هذا هو المنتظر من أي حاكم عادى يقال له مثل ذلك، فضلًا عن عمرﷺ المعروف بكمال الفطنة وحدة الذهن وتمحيص الأخبار، ولكن شيئًا من ذلك لم يحصل فكان ذلك دليلًا على اختلاقها.

د-وأيضًا فإنها لو صحت لكان معناها أن كعبًا له يد في المؤامرة وأنه يكشف عن نفسه بنفسه وذلك باطل لمخالفة طباع الناس، إذ المعروف أن من اشترك في مؤامرة يبالغ في كتمانها حرصًا على نجاحها وتفاديًا من تحمل تبعتها بعد وقوعها.

وبذلك تبين لنا أن هذه القصة مفتراة بدون أدنى اشتباه، وأن رمى كعب بالكيد للإسلام في شخص عمرﷺ والكذب في النقل عن التوراة اتهام باطل لا يستند إلى دليل أو برهان، ولقد كان عمر والصحابة ﷺ أعلم بحال كعب منا لأنه صحبهم وجالسهم. ولو كان هناك ما يوجب اتهامه لاتهموه، وقد علمنا أنهم لم يتهموه لا قبل انكشاف المؤامرة ولا بعده، فوجب الجزم بأنه لم يقع منه ما يقتضى اتهامه.

ومن عجيب أمر هؤلاء الطاعنين أنهم يجعلون روايات المؤرخين حجة لا يأتيها الباطل بحال إذا كان لهم غرض في إثبات مضمونها، ويتشككون في روايات البخاري ومسلم إذا جاءت على غير ما يشتهون[1].

* * *

(١) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير لرمزي نعناعة (ص ١٨٩).

٢٨- شبهة: وقوع اللعن في القران والسنة.

نص الشبهة:

وقوع اللعن في القرآن والسنة مع نهيهم عن ذلك.

والرد على ذلك من وجوه.

الوجه الأول: معنى اللعن.

الوجه الثاني: ورود النهي في الإسلام عن السب واللعن.

الوجه الثالث: بيان مراتب اللعن ومن يجوز لعنه ومن لا يجوز لعنه.

الوجه الرابع: من لُعن من الله أو رسوله فهو حقًّا قد استحق اللعن.

الوجه الخامس: اللعن في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى اللعن.

لعن واللَّعْنةُ الاسم والجمع: لِعانٌ ولَعَناتٌ، ولَعَنه يَلْعَنه لَعْنًا؛ طَرَدَه وأَبعده ورجل لَعِينٌ ومَلْعُونٌ. والجمع مَلاعِين. واللّعن: التّعذيب، والمُلَعّنُ: المعذّب، واللَّعِينُ المشتوم المسبوب. لَعَنْتُه: سَبَبْتُه. ولَعَنَهُ الله: باعده. واللَّعِينُ ما يُتّخذ في المزارع كهيئة رجل. واللَّعْنَةُ في القرآن: العذابُ. وقولهم: أبيت اللَّعْنَ، أي: لا تأتي أمرًا تُلْحَي عليه وتُلْعَنُ. واللّعنة: الدّعاء عليه. واللُّعَنَةُ: الكثيرُ اللّعن، واللُّعْنَةُ: الذي يلعنه النّاس. والْتَعَنَ الرّجُل، أي: أنصف في الدّعاء على نفسِه وخَصْمِه، فيقول: على الكاذب منّي ومنك اللَّعْنة. وتلاعَنوا: لَعَنَ بعضُهم بعضًا، واشتاق مُلاعَنة الرّجل امرأته منه في الحكم. والحاكم يُلاعِنُ بينهما ثم يُفَرِّق. قال جميل:

إذا ما ابنُ ملعونٍ تَحدَّر رشْحُه   عليكِ فموتي بعد ذلك أو ذري

والتلاعُنُ كالتَّشاتُم في اللفظ، وكلّ فعل على تفاعل فإن الفعل يكون منها، غير أن التّلاعُنَ ربّما استعمل في فعل أحدهما، والتَّلاعُنُ يقع فعل كلّ واحدٍ منهما بنفسه ويجوز أن يقع كلُّ واحدٍ بصاحبه فهو على معنيين(١).

اللعن من الله: هو إبعاد العبد بسخطه، أبْعَدَهُ الله نَحَّاهُ عنِ الخَيْرِ، ولَعَنَهُ. وباعَدَهُ مُباعَدَةً وبعادًا، وبَعَّدَهُ أَبْعَدَهُ. ومن الإنسان: الدعاء بسخطه(٢).

واللَّعْن أصله الإبعاد والطرد، ومنه قيل: ذئب لعين، أي طريد. قال الشمّاخ:

ذَعَرْتُ به القَطا ونفيتُ عنه مَقامَ الذئب كالرَّجُلِ اللّعينِ

ووجه الكلام: مَقامَ الذئب اللعين كالرجل. ثم صارت اللعنة من الله تعالى إبعادًا. ورجل لُعْنة، بتسكين العين: يلعنه الناس؛ ورجل لُعَنَة: يلعن الناس؛ وهذا باب يطّرد(٣).

الوجه الثاني: ورود النهي في الإسلام عن السب واللعن.

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا، عُذِّبَ بِهِ فِي الآخِرَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ نَذْرٌ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ، وَمَن رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ؛ فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ سِوَى الإِسْلاَمِ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ "(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: " سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ. (٥)

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: قِيلَ يَا رَسُولَ الله ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: " إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً "(٦).

عَنْ أَبِى ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " لاَ يَرْمِى رَجُلٌ رَجلًا بِالْفُسوقِ، وَلاَ يَرْمِيهِ

---

(١) العين للخليل بن أحمد (١/ ١١٤)، لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٣٨٧)

(٢) التعريفات للجرجاني (١/ ٦٢) القاموس المحيط (١/ ٢٦١).

(٣) جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٣٢).

(٤) البخاري (٦٠٤٧).

(٥) البخاري (٦٠٤٤).

(٦) مسلم (٦٧٧٨).

بِالْكُفْرِ، إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ "(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالاَ فَعَلَى الْبَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ"(٢).

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ فَاحِشًا وَلاَ لَعَّانًا وَلاَ سَبَّابًا، كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ " مَا لَهُ، تَرِبَ جَبِينُهُ "(٣).

وعن عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ ". فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ تَعَوَّذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ. فَقَالَ أَتَرَى بِي بَأْسٌ؛ أَمَجْنُونٌ أَنَا اذْهَبْ "(٤).

وعن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ لِيُخْبِرَ النَّاسَ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاَحَى رَجُلاَنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ، فَتَلاَحَى فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ وَإِنَّهَا رُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ"(٥).

وعَنِ الْمَعْرُورِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: رَأَيْتُ عَلَيْهِ بُرْدًا وَعَلَى غُلاَمِهِ بُرْدًا؛ فَقُلْتُ: لَوْ أَخَذْتَ هَذَا فَلَبِسْتَهُ كَانَتْ حُلَّةً، وَأَعْطَيْتَهُ ثَوْبًا آخَرَ. فَقَالَ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلاَمٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَنِلْتُ مِنْهَا فَذَكَرَنِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِي: " أَسَابَبْتَ فُلاَنًا ". قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: " أَفَنِلْتَ مِنْ أُمِّهِ ". قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: " إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ. قُلْتُ عَلَى حِينِ سَاعَتِي هَذِهِ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ قَالَ: " نَعَمْ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ الله أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ يُكَلِّفُهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ"(١).

---

(١) البخاري (٦٠٤٥).

(٢) مسلم (٦٧٥٦).

(٣) البخاري (٦٠٤٦).

(٤) البخاري (٦٠٤٨).

(٥) البخاري (٦٠٤٩).

وعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي. وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسَتْ نَفْسِي "(٢).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا "(٣).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا ". - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ - "بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ"(٤).

وعَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ الله عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ "(٥).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ". قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: " إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ، هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ؛ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"(٦).

---

(١) البخاري٦٠٥٠)

(٢) مسلم (٦٠١٥)، وقال النووي: جَمِيع أَهْل اللُّغَة وَغَرِيب الْحَدِيث وَغَيْرهمْ: لَقِسَتْ وَخَبُثَتْ بِمَعْنًى وَاحِد، وَإِنَّمَا كُرِهَ لَفْظ الْخُبْث لِبَشَاعَةِ الِاسْم (شرح النووي ١٥/ ٨).

(٣) مسلم (٦٧٠٣).

(٤) مسلم (٦٧٠٦).

(٥) مسلم (٦٧٤٣).

(٦) مسلم (٦٧٤٤).

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "لاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا"(١).

بل نهى ﷺ عَنْ لَعْنِ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا، فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ بَيْنَمَا رَسولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ " خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ " قَالَ عِمْرَانُ فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِى فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ وفي رواية "لاَ أَيْمُ اللهِ لاَ تُصَاحِبُنَا رَاحِلَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ مِنَ اللهِ"(٢).

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ بَعَثَ إِلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ بِأَنْجَادٍ مِنْ عِنْدِهِ فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنَ اللَّيْلِ فَدَعَا خَادِمَهُ فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ فَلَعَنَهُ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَتْ لَهُ أُمُّ الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُكَ اللَّيْلَةَ لَعَنْتَ خَادِمَكَ حِينَ دَعَوْتَهُ. فَقَالَتْ سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لاَ يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٣).

الوجه الثالث: بيان مراتب اللعن ومن يجوز لعنه ومن لا يجوز لعنه.

اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم: واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله ﷻ وهو الكفر والظلم، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع؛ فإن في اللعنة خطرًا؛ لأنه حكم على الله ﷻ بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه.

والصفات المقتضية للعن ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق. وللعن في كل واحد ثلاث مراتب.

الأولى: اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة.

الثانية: اللعن بأوصاف أخص منه كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض، أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا، وكل ذلك جائز.

---

(١) مسلم (٦٧٧٣).

(٢) مسلم (٦٧٦٩).

(٣) مسلم (٦٧٧٥).

ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر؛ لأن معرفة البدعة غامضة، ولم يرد لفظ مأثور؛ فينبغي أن يُمنع منه العوام؛ لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله، ويثير نزاعًا بين الناس وفسادًا.

الثالثة: اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعًا فتجوز لعنته كقولك. فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله؛ لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعًا. وأما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله، وهو يهودي مثلًا فهذا فيه خطر؛ فإنه ربما يسلم فيموت مقربًا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونًا؟ فإن قلت: يلعن لكونه كافرًا في الحال كما يقال للمسلم: رحمه الله، لكونه مسلمًا في الحال، وإن كان يتصور أن يرتد؟ فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله: أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة؛ فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر، بل الجائز أن يقال: لعنه الله إن مات على الكفر، ولا لعنه الله إن مات على الإسلام. وذلك غيب لا يدرى، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر، وليس في ترك اللعن خطر.

وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى، فلعن الأعيان فيه خطر، لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ؛ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عين قومًا باللعن فكان يقول في دعائه على قريش " اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وذكر جماعة قتلوا على الكفر؛ حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روي: أنه كان يلعن الذي قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرًا فنزل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٨)، يعني أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه، وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم؛ فإن كان لم يجز.

علم مما تقدم أنه لا يجوز لعن كافر، ولا فاسق حي، وأن هذا خطر لما يتضمن من الرضا بموته على كفره أو فسوقه، ولا لعن ميت؛ لأن الخاتمة مجهولة لا تعرف إلا بوحي

من الله، وأن لعن الفساق والكفار عامة، أو لعن صِنْف معين منهم في الجملة جائز، ولكنه غير محمود شرعًا، والأولى أن يستبدل الإنسان بذلك اللعن ذكر الله، أو الكلام في الخير.

إن جواز لعن الصنف أو النوع بمعنى عدم تحريمه مقيد بما إذا لم يكن سبًّا لهم في وجوههم؛ لأن السب محرم في ذاته؛ لأنه بذاء مذموم وسبب للشحناء والعدوان، وقد نهى الله تعالى عن سب معبودات المشركين، لئلا يسبوا معبود المؤمنين، فقال في سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٨) ولا يخفى أن حرمة الكتابي أعظم من حرمة المشرك واتقاء تنفيره أهم، وأن إيذاءه إذا كان ذميًّا أو معاهدًا أو مستأمنًا محرم بالإجماع، وأنه لا يصح أن يجعل لعن الفاسقين ذريعة إلى تنفيرهم عن فسقهم، كأن يحضر مجلس السكارى ويلعن شاربي الخمر على مسمع منهم؛ لأن الإرشاد يجب أن يكون بالمعروف واللين؛ هذا وإن لعن صنف من الكفار أو الفساق في حضرة أفراد من الصنف هو بمثابة لعن الأشخاص، فهو معصيتان؛ لأنه سب علني من جهة، ولعن لأشخاص معينين من جهة أخرى[1].

الوجه الرابع: من لُعن من الله أو رسوله فهو حقًا قد استحق اللعن.

إن اللعن ما وقع في القرآن والسنة إلا لحكمة بالغة لا يعلمها إلا رب العزة سبحانه وتعالى، ومن نظر في من لعنه الله سبحانه وتعالى ومن لعنه النبي ﷺ، وفهم معنى اللعن في كل أمر على حده؛ علم حقًا ويقينًا أن كل من لعنه الله أو رسوله ﷺ فهو حقًا ملعون.

أولًا: من الذين لعنوا في القرآن؟

١ـ إبليس: لرفضه - وتحديه للأمر الرباني أمر رب العالمين بالسجود لآدم - وتكبره - وغروره - وحسده لآدم قال الله إخبارًا عن إبليس: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (النساء: ١١٨)، لعنه الله"، أخزاه وأقصاه وأبعده وذلك لقوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ

---

(١) (مجلة المنار ـ المجلد [٨] الجزء [١٦] (صـ٦٢٥)، ١٦ شعبان ١٣٢٣ ـ ١٥ أكتوبر ١٩٠٥).

مِن عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١١٨) ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الحجر: ٣٥) وإذا أردنا أن نلعن إبليس فيجوز خاصة في الصلاة والأفضل التعوذ منه. عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ قَالَ قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ " أَعُوذُ بِالله مِنْكَ"، ثُمَّ قَالَ " أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله ". ثَلاَثًا. وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ قُلْنَا يَا رَسُولَ الله قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلاَةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ. قَالَ: " إِنَّ عَدُوَّ الله إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي فَقُلْتُ أَعُوذُ بِالله مِنْكَ. ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَالله لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ "(١).

قَوْله ﷺ: " أَلْعَنُك بِلَعْنَةِ الله التَّامَّة " قَالَ الْقَاضِي: يَحْتَمِل تَسْمِيَتهَا تَامَّة أَيْ لَا نَقْص فِيهَا، وَيَحْتَمِل الْوَاجِبَة لَهُ الْمُسْتَحَقَّة عَلَيْهِ أَوْ الْمُوجِبَة عَلَيْهِ الْعَذَاب سَرْمَدًا وَقَوْله ﷺ" أَلْعَنك بِلَعْنَةِ الله وَأَعُوذ بِالله مِنْك " دَلِيل جَوَاز الدُّعَاء لِغَيْرِهِ وَعَلَى غَيْره بِصِيغَةِ الْمُخَاطَبَة(٢).

والمعنى: أسأل الله أن يلعنك بلعنته المخصوصة لك التي لا توازيها لعنة أو أبعدك عني بإبعاد الله لك. فالباء للتعدية، أو للآلة، أو للسببية ثلاثًا قيد لهما(٣).

٢ـ يهود بني إسرائيل: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة: ٦٠)، والسبب في لعنهم وجوه:

١ - لكفرهم وهم يعلمون الحق ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (البقرة: ٨٨)، ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى

---

(١) رواه مسلم (١٢٣٩).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٠٤).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٠١).

ﵟٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ﵞ (البقرة: ٨٩)، ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًاﵞ (النساء: ٤٧).

٢-ولكتمانهم الحق بعدما جاءهم ﵟإِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَﵞ (البقرة١٥٩)، ﵟإِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَﵞ (البقرة: ١٦١)، ﵟأُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَﵞ (آل عمران: ٨٧)، ﵟأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًاﵞ (النساء: ٥٢)

٣ - ولتحريفهم التوراة والكتب المنزلة واستهزائهم بالدين ﵟمِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗاﵞ(النساء: ٤٦).

٤ - ولنقضهم ميثاق الله الذي واثقهم إياه عندما رفع فوقهم الطور ﵟفَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣ﵞ (المائدة: ١٣)، ﵟوَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥ﵞ (الرعد: ٢٥).

٥ - ولقتلهم الأنبياء ﵟفَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥ﵞ (النساء: ١٥٥).

٦- ولتطاولهم على مقام الله رب العالمين ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (المائدة: ٦٤).

٧- ولعصيانهم أنبيائهم فحلت عليهم دعوة ولعنة أنبيائهم وقد لعنهم داوود في مزاميره وعيسى في إنجيله ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ (المائدة: ٧٨)، ولقد لخص القرآن في سورة النساء سبب لعنهم ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء١٥٥: ١٦١).

والآية الأخيرة جاءت بخبر أن الربا والكسب الغير مشروع سببًا للعنة فاحذروا يا عباد الله ولم يعلن الله الحرب على أحد في قرآنه إلا على آكل الربا ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٩).

ومن الذين لعنوا في السنة:

١- عَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رَسولِ الله ﷺ رَجُلَانِ فَكَلَّمَاهُ بِشَيْءٍ لاَ أَدْرِى مَا هُوَ فَأَغْضَبَاهُ فَلَعَنَهُمَا وَسَبَّهُمَا فَلَمَّا خَرَجَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَصَابَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا مَا

أَصَابَهُ هَذَانِ، قَالَ: " وَمَا ذَاكِ ". قَالَتْ قُلْتُ لَعَنْتَهُمَا وَسَبَبْتَهُمَا قَالَ: " أَوَ مَا عَلِمْتِ مَا شَارَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّى، قُلْتُ: اللهمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا "(١).

وفي هذا الحديث تلفظ النبي ﷺ باللعن، وذلك لوجوه:

١- أن هذا التلفظ مما جرت به العادات: أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ سَبّه وَدُعَائِهِ وَنَحْوه لَيْسَ بِمَقْصُودٍ، بَلْ هُوَ مِمَّا جَرَتْ بِهِ عَادَة الْعَرَب فِي وَصْل كَلَامهَا بِلَا نِيَّة، كَقَوْلِهِ: تَرِبَتْ يَمِينك، عَقْرَي حَلْقَي وَفِي هَذَا الْحَدِيث " لَا كَبِرَتْ سِنّك " وَفِي حَدِيث مُعَاوِيَة "لَا أَشْبَعَ الله بَطْنك " وَنَحْو ذَلِكَ لَا يَقْصِدُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَقِيقَة الدُّعَاء(٢).

٢- أن هذا حكم بالظاهر، وإن لم يكن صاحبه يستحق ذلك في الباطن.

فقد يكون الملعون لَيْسَ بِأَهْلٍ لِذَلِكَ عِنْد الله تَعَالَى، وَفِي بَاطِن الْأَمْر، وَلَكِنَّهُ فِي الظَّاهِر مُسْتَوْجِب لَهُ، فَيَظْهَر لَهُ ﷺ اِسْتِحْقَاقه لِذَلِكَ بِأَمَارَةٍ شَرْعِيَّة، وَيَكُون فِي بَاطِن الْأَمْر لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ، وَهُوَ ﷺ مَأْمُور بِالْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ، وَالله يَتَوَلَّى السَّرَائِر(٣).

والأحاديث في الدلالة على ذلك كثيرة، اكتفى منها بما روى عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعث على بن أبى طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة فقسمها بين أربعة، فقال رجل يا رسول الله، اتق الله. فقال: ويلك! أو لست أحق أهل الأرض أن يتقى الله. ثم ولى الرجل، فقال خالد بن الوليد، يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: لا لعله أن يكون يصلى، فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال ﷺ: " إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم"(٤).

ففي قوله: " إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم" دلالة على ما

(١) مسلم (٦٧٧٩).

(٢) شرح النووي على مسلم (٨/ ٤١٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (٨/ ٤١٤)، فتح الباري (١١/ ١٧٦).

(٤) البخاري (٣٣٤٤)، مسلم (١٠٦٤).

أجمع عليه العلماء في حقه ﷺ من الحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر[(١)].

٣- أن النبي ﷺ اشترط على ربه أن من دعي عليه أن يجعلها له طهور وزكاة وقربة إذا لم يكن المدعو عليه، أهلًا للدعاء عليه: قال ﷺ إِنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ أَيُّ عَبْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ شَتَمْتُهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا "[(٢)].

وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ وَهِىَ أُمُّ أَنَسٍ فَرَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ: " آنْتِ هِيَهْ لَقَدْ كَبِرْتِ لاَ كَبِرَ سِنُّكِ ". فَرَجَعَتِ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِى فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مَا لَكِ يَا بُنَيَّةُ قَالَتِ الْجَارِيَةُ دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ الله ﷺ أَنْ لاَ يَكْبَرَ سِنِّي فَالآنَ لاَ يَكْبَرُ سِنِّي أَبَدًا - أَوْ قَالَتْ قَرْنِي - فَخَرَجَتْ أُمُّ سليْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: "مَا لَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ». فَقَالَتْ يَا نَبِيَّ الله أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي قَالَ: " وَمَا ذَاكِ يَا أُمَّ سلَيْم ". قَالَتْ زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لاَ يَكْبَرَ سِنُّهَا وَلاَ يَكْبَرَ قَرْنُهَا - قَالَ - فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: " يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّى أَنِّى اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّى فَقُلْتُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ تَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[(٣)].

قال ابن القاص: كان يجوز له ﷺ أن يلعن شيئا من غير سبب يقتضيه لأن لعنته رحمة ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " اللهم إني اتخذت عندك عهدًا لن تخلفنيه؛ فإنما أنا بشر؛ فأي المؤمنين آذيته أو شتمته أو لعنته؛ فاجعلها له زكاة وصلاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة " وفي رواية لهما " إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له إلى يوم القيامة. "

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة (١/ ٥٧٣).

(٢) مسلم (٦٧٩٠).

(٣) مسلم (٦٧٩٢).

قال الرافعي: وهذا قريب من جعل الحدود كفارات لأهلها؛ قال العلماء وذلك في حق المسلمين، كما نطق به الخبر؛ فإنه ﷺ دعا على الكفار والمنافقين ولم يكن لهم رحمة[١].

٤- أن النبي ﷺ بشر كباقي البشر: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ"[٢].

فهو ﷺ إنما يغضب لمخالفة الشرع فغضبه ﷺ لله سبحانه وتعالى، وله أن يؤدب على ذلك بما يرى من سب أو لعن أو جلد أو دعاء[٣].

فغضبه ﷺ لله سبحانه وتعالى يحمله على تعجيل معاقبة مخالفه وتر الإغضاء والصفح ويؤيده حديث عائشة ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله[٤].

قال الماوردي: يحتمل أنه ﷺ أراد أن دعاءه وسبه وجلده كان مما خير فيه بين أمرين. أحدهما: هذا والثاني: زجره بأمر آخر يحمله الغضب لله تعالى على أحد الأمرين المخير فيهما وهو السب واللعن والجلد؛ فليس ذلك خارجًا عن حكم الشرع، ومعنى: " اجعلها صلاة " أي رحمة كما في الرواية الأخرى ولا يفهم من قوله: "وأغضب كما يغضب البشر" أن الغضب حمله على مالا يجب؛ بل يجوز أن يكون المراد بهذا: أن الغضب لله حمله على معاقبته بلعنه أو سبه، وأنه مما كان يحتمل، ويجوز عفوه عنه، أو كان مما خير بين المعاقبة فيه والعفو عنه وليس في ذلك الغضب خروج عن شرعه، وعصمته في سلوكه وخلقه، بل في ذلك كمال خلقه، ودلالة على بشريته، كما صرح بذلك في رواية مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: "إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر"[٥].

---

(١) غاية السول في خصائص الرسول ﷺ (١/ ٣٩).

(٢) مسلم (٦٧٩٢).

(٣) شرح الأبي على مسلم (٧/ ٤٣).

(٤) فتح الباري (١١/ ١٧٦).

(٥) غاية السول في خصائص الرسول ﷺ (١/ ٣٩) الشفا (٢/ ١٩٦)، رد شبهات حول عصمة النبي في ضوء السنة النبوية الشريفة (١/ ٧٣٦).

٥- أن هذا من باب سب أصحاب المعاصي:

يجوز لعن أصحاب المعاصي بالعنوان العام؛ كما لعن الرسول ﷺ آكل الربا والواصلة والنامصة والسارق ومن يلعن والديه، ومن اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد أما لعن إنسان بعينه ممن اتصف بشيء من المعاصي؛ كزانٍ وسارق وآكل ربا؛ فظواهر الأحاديث أنه ليس بحرام، وأشار الغزالي إلى تحريمه إلا في حق من علمنا أنه مات على الكفر كأبي لهب وأبى جهل وفرعون وهامان وأشباههم؛ قال: لأن اللعن هو الإبعاد عن رحمة الله تعالى وما ندرى ما يختم به لهذا الفاسق أو الكافر، وأما الذين لعنهم رسول الله ﷺ بأعيانهم فيجوز إنه علم موتهم على الكفر.

واللعن يقع على وجهين: الأول: أن يلعن الكفار وأصحاب المعاصي على سبيل العموم، كما لو قال: لعن الله اليهود والنصارى. أو: لعنة الله على الكافرين والفاسقين والظالمين. أو: لعن الله شارب الخمر والسارق. فهذا اللعن جائز ولا بأس به.

قال ابن مفلح : ويجوز لعن الكفار عامة. الثاني: أن يكون اللعن على سبيل تعيين الشخص الملعون سواء كان كافرًا أو فاسقًا، كما لو قال: لعنة الله على فلان ويذكره بعينه، فهذا على حالين:

١- أن يكون النص قد ورد بلعنه مثل إبليس، أو يكون النص قد ورد بموته على الكفر كفرعون وأبي لهب، وأبي جهل، فلعن هذا جائز.

وقال أيضًا: ويجوز لعن من ورد النص بلعنه، ولا إثم عليه في تركه.

٢- لعن الكافر أو الفاسق على سبيل التعيين ممن لم يرد النص بلعنه بعينه مثل: بائع الخمر- من ذبح لغير الله - من لعن والديه - من آوى محدثا- من غير منار الأرض - وغير ذلك؛ فهذا قد اختلف العلماء في جواز لعنه على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه لا يجوز بحال. الثاني: يجوز في الكافر دون الفاسق. الثالث: يجوز مطلقًا[١].

واستدل من قال بعدم جواز لعنه بعدة أدلة، منها:

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٣٠٣).

١- ما رواه البخاري: عن عبد الله بن عمر ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ مِنْ الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنْ الْفَجْرِ يَقُولُ: اللهمَّ الْعَنْ فُلانًا وَفُلانًا وَفُلانًا بَعْدَ مَا يَقُولُ سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1].

٢- ما رواه البخاري: عن عمر أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺوكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب؛ فأتي به يومًا فأمر به فجلد، قال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبيﷺ: "لا تلعنوه، فو الله ما علمت، إلا أنه يحب الله ورسوله"[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: واللعنة تجوز مطلقًا لمن لعنه الله ورسوله، وأما لعنة المعين؛ فإن علم أنه مات كافرًا جازت لعنته، وأما الفاسق المعين؛ فلا تنبغي لعنته لنهي النبي ﷺ أن يلعن عبد الله بن حمار الذي كان يشرب الخمر، مع أنه قد لعن شارب الخمر عمومًا، مع أن في لعنة المعين إذا كان فاسقًا أو داعيًا إلى بدعة نزاعًا "[3].

وقال الشيخ ابن عثيمين: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم؛ فالأول (لعن المعين) ممنوع، والثاني: (لعن أهل المعاصي على سبيل العموم) جائز؛ فإذا رأيت محدثًا، فلا تقل لعنك الله، بل قل: لعنة الله على من آوى محدثًا، على سبيل العموم، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ لما صار يلعن أناسًا من المشركين من أهل الجاهلية بقوله: " اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا " نهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٨)، وليس في الآية الكريمة نهى عن اللعن، وإنما النهى

---

(١) البخاري (٤٠٧٠).

(٢) البخاري (٦٧٨٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥١١).

حسب سبب النزول، عن تعيين أسماء من يلعنهم؛ لعل الله أن يتوب عليهم أو يعذبهم في الدنيا بقتلهم، وفي الآخرة بالعذاب الأليم، فإنهم ظالمون وهو ما حدث فعلًا[١].

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: "اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام. اللهم العن صفوان بن أمية، قال: فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: ١٢٨) فتاب الله عليهم، فأسلموا فحسن إسلامهم[٢].

وتأمل ختام الآية: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ والظالمون لعنهم رب العزة بصفتهم دون أسمائهم في أكثر من آية منها: قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٤)، وقوله ﷻ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود: ١٨)، هذا فضلًا عن الآيات التى تلعن اليهود، وتلعن الكاذبين والكافرين، وتلعن بعض عصاة المؤمنين كالذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات وغيرهم. كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ (المائدة: ٦٤)، وقوله سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (المائدة: ٧٨)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (البقرة: ١٦١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (النور: ٢٣)، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (النور: ٧)[٣].

ومن الذين لُعنوا في السنة:

إتيان المرأة في دبرها ملعون من فعله لوجوه منها:

---

(١) القول المفيد (١/ ٢٢٦).

(٢) الترمذي (٣٠٠٤) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٠٤).

(٣) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة (١/ ٧٢٩).

١ - أن الدبر لم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها؛ فقد غلط عليه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ملعون من أتى المرأة في دبرها "[(١)]، وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من أتى شيئًا من البهائم، ملعون من عق والديه، ملعون من جمع ضعيفة، ملعون من غير حدود الأرض، ملعون من ادعى إلى غير مواليه[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: هي اللوطية الصغرى يعني الرجل يأتي امرأته في دبرها[(٣)]، وقال ﷺ: من نكح امرأة في دبرها أو رجلًا أو صبيًا حشر يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخل النار وأحبط الله أجره ولا يقبل منه صرفا ولا عدلا ويدخل في تابوت من نار ويشد عليه مسامير من نار، قال أبو هريرة: هذا لمن لم يتب وقد قال تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فقال: تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها -يعني في الحيض - وقال علي بن أبي طلحة عنه يقول: في الفرج ولا تعده إلى غيره وقد دلت الآية على تحريم الوطء في دبرها من وجهين: أحدهما: أنه أباح إتيانها في الحرث وهو موضع الولد لا في الحش الذي هو موضع الأذى، وموضع الحرث هو المراد من قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية قال: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ وإتيانها في قبلها من دبرها مستفاد من الآية أيضا لأنه قال: أنى شئتم أي: من أين شئتم من أمام أو من خلف قال ابن عباس: فأتوا حرثكم يعني: الفرج.

الوجه الخامس: اللعن في الكتاب المقدس.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٢٤٣٢).
(٢) صحيح لغيره. صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٢٤٢٠).
(٣) صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٢٤٢٥).

من هذا اعتقاد المبشرين أن المسيح إلههم صار لعنة والعياذ بالله تعالى: قال مقدسهم بولس في رسالته إلى أهل غلاطية الإصحاح الثالث العدد (٣/ ١٣): (اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: (مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ).

يعلم الناس أن النصارى يعتقدون أن المسيح هو إلههم وربهم وخالقهم ومخلصهم، وكتابهم المقدس يلقنهم أنه (صار لعنة)، واللعنة غاية المبالغة في الشتم والازدراء وليس بعدها زيادة لمستزيد، وأي شيء يمكن أن يؤتى به ويكون أشد قبحًا من قول مقدسهم: إنه (صار لعنة)؛ أي أنه نفس اللعنة؟ فما هذا الحب الذي قادهم إلى القول بألوهيته من جهة ثم قادهم إلى القول بأنه (صار لعنة) من جهة أخرى؟.

دع اعتقادهم بأنه من سلالة زناء مثلث كما بيناه سابقًا، فهم -والحالة هذه - أسوأ حالًا من أشد أعدائه؛ لأن مقام العداوة لا يطلب إلا أقبح الأوصاف، ومقام المحبة لا يطلب إلا أحسنها وأكملها؛ فهم يدّعون محبته ﷺ ويعتقدون أنه خالقهم ورازقهم وفاديهم ومخلصهم، ثم يصفونه بهذا الوصف فما بالهم لا يتدبرون ما يعتقدون. وبما أنه إله على حسب اعتقادهم - والعياذ بالله تعالى - فمَنْ ذا الذي صيّره لعنةً؟ هذا ما نود إيضاحه منهم! وأغرب من ذلك اعتقادهم أن الإله ذو ثلاثة أقانيم (أي أشخاص) وهي الآب والابن والروح القدس، وإن هذه الأقانيم الثلاثة هي إله واحد. فكيف صار الابن الذي هو ثلث إلههم (لعنة) دون الثلثين الآخرين، أي الأب والروح القدس؟ وما داموا يقولون بأن الثلاثة واحد حقيقة فلا بد من دخولهم جميعًا تحت اللعن بهذا الاتحاد! ! فتدبر هذا وسلهم: من اللاعن؟ ومن هو يا ترى؟ [1].

أليس الكتاب المقدس هو الذي حكم على الجنس الأسود كله باللعنة، لأنهم أولاد حام؟

يقول الكتاب المقدس: " وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلْكِ سَامًا وَحَامًا وَيَافَثَ. وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ. هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ. وَابْتَدَأَ

(١) (مجلة المنار ـ المجلد [١٧] الجزء [٢] صـ ١٤٢ صفر ١٣٣٢ ـ يناير ١٩١٤).

نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ الله لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ (التكوين ٩: ١٨-٢٧)

ويمتد اللعن والقذف في النصوص المقدسة !!عند النصارى ليحدثنا كيف يقذف الله - تعالى عن ذلك- الروث الحيواني في وجوه عصاة بني إسرائيل: قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. فَإِنِّي أُرْسِلُ عَلَيْكُمُ اللَّعْنَ، وَأَلْعَنُ بَرَكَاتِكُمْ، بَلْ قَدْ لَعَنْتُهَا، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ جَاعِلِينَ فِي الْقَلْبِ. هاأنذا أَنْتَهِرُ لَكُمُ الزَّرْعَ، وَأَمُدُّ الْفَرْثَ عَلَى وُجُوهِكُمْ، فَرْثَ أَعْيَادِكُمْ، فَتُنْزَعُونَ مَعَهُ. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ هذِهِ الْوَصِيَّةَ (ملاخي ٢/ ٢-٤).

ويتحدث سفر العدد عن شريعة غريبة يكتشف الرجل بموجبها خيانة زوجته أو براءتها، ألا وهو شرب ماء اللعنة المر الممزوج بغبار البيت؛ فإن ورمت بطنها وسقطت فخذها، فهي مذنبة؛ وإن قدر لها النجاة من هذا الماء الغريب، فإنها تكون بريئة.

ودعونا نتأمل طقوس هذا الاختبار الغريب، يقول سفر العدد: يَأْتِي الرَّجُلُ بِامْرَأَتِهِ إِلَى الْكَاهِنِ، وَيَأْتِي بِقُرْبَانِهَا مَعَهَا: عُشْرِ الإِيفَةِ مِنْ طَحِينِ شَعِيرٍ، لاَ يَصُبُّ عَلَيْهِ زَيْتًا وَلاَ يَجْعَلُ عَلَيْهِ لُبَانًا؛ لأَنَّهُ تَقْدِمَةُ غَيْرَةٍ، تَقْدِمَةُ تِذْكَارٍ تُذَكِّرُ ذَنْبًا. فَيُقَدِّمُهَا الْكَاهِنُ وَيُوقِفُهَا أَمَامَ الرَّبِّ، وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مَاءً مُقَدَّسًا فِي إِنَاءِ خَزَفٍ، وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مِنَ الْغُبَارِ الَّذِي فِي أَرْضِ الْمَسْكَنِ وَيَجْعَلُ فِي الْمَاءِ، وَيُوقِفُ الْكَاهِنُ الْمَرْأَةَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَيَكْشِفُ رَأْسَ الْمَرْأَةِ، وَيَجْعَلُ فِي يَدَيْهَا تَقْدِمَةَ التِّذْكَارِ الَّتِي هِيَ تَقْدِمَةُ الْغَيْرَةِ، وَفِي يَدِ الْكَاهِنِ يَكُونُ مَاءُ اللَّعْنَةِ الْمُرُّ. وَيَسْتَحْلِفُ الْكَاهِنُ الْمَرْأَةَ وَيَقُولُ لَهَا: إِنْ كَانَ لَمْ يَضْطَجِعْ مَعَكِ رَجُلٌ، وَإِنْ كُنْتِ لَمْ تَزِيغِي إِلَى نَجَاسَةٍ مِنْ تَحْتِ رَجُلِكِ، فَكُونِي بَرِيئَةً مِنْ مَاءِ اللَّعْنَةِ هذَا الْمُرِّ. وَلكِنْ إِنْ كُنْتِ قَدْ زُغْتِ مِنْ تَحْتِ رَجُلِكِ وَتَنَجَّسْتِ، وَجَعَلَ

مَعَكِ رَجُلٌ غَيْرُ رَجُلِكِ مَضْجَعَهُ. يَسْتَحْلِفُ الْكَاهِنُ الْمَرْأَةَ بِحَلْفِ اللَّعْنَةِ، وَيَقُولُ الْكَاهِنُ لِلْمَرْأَةِ: يَجْعَلُكِ الرَّبُّ لَعْنَةً وَحَلْفًا بَيْنَ شَعْبِكِ، بِأَنْ يَجْعَلَ الرَّبُّ فَخْذَكِ سَاقِطَةً وَبَطْنَكِ وَارِمًا. وَيَدْخُلُ مَاءُ اللَّعْنَةِ هذَا فِي أَحْشَائِكِ لِوَرَمِ الْبَطْنِ، وَلإِسْقَاطِ الْفَخْذِ. فَتَقُولُ الْمَرْأَةُ: آمِينَ، آمِينَ. وَيَكْتُبُ الْكَاهِنُ هذِهِ اللَّعْنَاتِ فِي الْكِتَابِ ثُمَّ يَمْحُوهَا فِي الْمَاءِ الْمُرِّ، وَيَسْقِي الْمَرْأَةَ مَاءَ اللَّعْنَةِ الْمُرَّ، فَيَدْخُلُ فِيهَا مَاءُ اللَّعْنَةِ لِلْمَرَارَةِ. وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ مِنْ يَدِ الْمَرْأَةِ تَقْدِمَةَ الْغَيْرَةِ، وَيُرَدِّدُ التَّقْدِمَةَ أَمَامَ الرَّبِّ وَيُقَدِّمُهَا إِلَى الْمَذْبَحِ. وَيَقْبِضُ الْكَاهِنُ مِنَ التَّقْدِمَةِ تَذْكَارَهَا وَيُوقِدُهُ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَبَعْدَ ذلِكَ يَسْقِي الْمَرْأَةَ الْمَاءَ. وَمَتَى سَقَاهَا الْمَاءَ، فَإِنْ كَانَتْ قَدْ تَنَجَّسَتْ وَخَانَتْ رَجُلَهَا، يَدْخُلُ فِيهَا مَاءُ اللَّعْنَةِ لِلْمَرَارَةِ، فَيَرِمُ بَطْنُهَا وَتَسْقُطُ فَخْذُهَا، فَتَصِيرُ الْمَرْأَةُ لَعْنَةً فِي وَسَطِ شَعْبِهَا. وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الْمَرْأَةُ قَدْ تَنَجَّسَتْ بَلْ كَانَتْ طَاهِرَةً، تَتَبَرَّأُ وَتَحْبَلُ بِزَرْعٍ. هذِهِ شَرِيعَةُ الْغَيْرَةِ، إِذَا زَاغَتِ امْرَأَةٌ مِنْ تَحْتِ رَجُلِهَا وَتَنَجَّسَتْ. (العدد ٥/ ١٦-٢٩).

فهل يأمر الرب العليم بمثل هذا؟ وهل هذه طريقة منصفة أو كافية في إثبات طهارة أو تلاعب النساء؟ وماذا لو مرضت المرأة وانتفخت بطنها بسبب هذا الماء الغريب وما ألقي فيه، لابسبب لعناته، هل نعتبرها آثمة مذنبة، فتخرج للحرق أو الجلد أو الرجم؟. (١)

كما قد توعدت التوراة باللعن أولئك الذين يصنعون التماثيل "فَيُصَرِّحُ اللاَّوِيُّونَ وَيَقُولُونَ لِجَمِيعِ قَوْمِ إِسْرَائِيلَ بِصَوْتٍ عَالٍ: مَلْعُونٌ الإِنْسَانُ الَّذِي يَصْنَعُ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا أَوْ مَسْبُوكًا، رِجْسًا لَدَى الرَّبِّ عَمَلَ يَدَيْ نَحَّاتٍ، وَيَضَعُهُ فِي الْخَفَاءِ. وَيُجِيبُ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَيَقُولُونَ: آمِينَ.(التثنية ٢٧/ ١٤-١٥).

ويتحدث المزمور عن ثوب اللعنة الذي لبسه يهوذا على الصليب ولبس اللعنة مثل ثوبه فدخلت، كمياه في حشاه، وكزيت في عظامه. لتكن له كثوب يتعطف به، وكمنطقة يتمنطق بها دائمًا، هذه أجرة مبغضيّ من عند الرب، وأجرة المتكلمين شرًا على نفسي، لقد كانت اللعنة أجرته على عمله، فقد علق على الصليب، وكل معلق ملعون، كما في (سفر

(١) هل العهد القديم كلمة الله (١/ ٧٣).

التثنية) وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت، فقتل، وعلقته على خشبة؛ فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم؛ لأن المعلّق ملعون من الله (التثنية ٢١/ ٢٢-٢٣).

عقوبة تارك الفرائض وسفر اللعنات:

في سفر التثنية (٢٨/ ٤٦): وَلكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضِهِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتُدْرِكُكَ: مَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ. مَلْعُونَةً تَكُونُ سَلَّتُكَ وَمِعْجَنُكَ. مَلْعُونَةً تَكُونُ ثَمَرَةُ بَطْنِكَ وَثَمَرَةُ أَرْضِكَ، نِتَاجُ بَقَرِكَ وَإِنَاثُ غَنَمِكَ. مَلْعُونًا تَكُونُ فِي دُخُولِكَ، وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ. يُرْسِلُ الرَّبُّ عَلَيْكَ اللَّعْنَ وَالاضْطِرَابَ وَالزَّجْرَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ لِتَعْمَلَهُ؛ حَتَّى تَهْلِكَ وَتَفْنَى سَرِيعًا مِنْ أَجْلِ سُوْءِ أَفْعَالِكَ إِذْ تَرَكْتَنِي. يُلْصِقُ بِكَ الرَّبُّ الْوَبَأَ؛ حَتَّى يُبِيدَكَ عَنِ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا؛ لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا. يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِالسِّلِّ وَالْحُمَّى وَالْبُرَدَاءِ وَالالْتِهَابِ وَالْجَفَافِ وَاللَّفْحِ وَالذُّبُولِ، فَتَتَّبِعُكَ حَتَّى تُفْنِيَكَ. وَتَكُونُ سَمَاؤُكَ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِكَ نُحَاسًا، وَالأَرْضُ الَّتِي تَحْتَكَ حَدِيدًا. وَيَجْعَلُ الرَّبُّ مَطَرَ أَرْضِكَ غُبَارًا، وَتُرَابًا يُنَزِّلُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى تَهْلِكَ. يَجْعَلُكَ الرَّبُّ مُنْهَزِمًا أَمَامَ أَعْدَائِكَ. فِي طَرِيق وَاحِدَةٍ تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ، وَفِي سَبْعِ طُرُق تَهْرُبُ أَمَامَهُمْ، وَتَكُونُ قَلِقًا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِ الأَرْضِ. وَتَكُونُ جُثَّتُكَ طَعَامًا لِجَمِيعِ طُيُورِ السَّمَاءِ وَوُحُوشِ الأَرْضِ وَلَيْسَ مَنْ يُزْعِجُهَا. يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِقُرْحَةِ مِصْرَ وَبِالْبَوَاسِيرِ وَالْجَرَبِ وَالْحِكَّةِ؛ حَتَّى لاَ تَسْتَطِيعَ الشِّفَاءَ. يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِجُنُونٍ وَعَمًى وَحَيْرَةِ قَلْبٍ، فَتَتَلَمَّسُ فِي الظُّهْرِ كَمَا يَتَلَمَّسُ الأَعْمَى فِي الظَّلاَمِ، وَلاَ تَنْجَحُ فِي طُرُقِكَ بَلْ لاَ تَكُونُ إِلاَّ مَظْلُومًا مَغْصُوبًا كُلَّ الأَيَّامِ وَلَيْسَ مُخَلِّصٌ. تَخْطُبُ امْرَأَةً وَرَجُلٌ آخَرُ يَضْطَجع مَعَهَا. تَبْنِي بَيْتًا وَلاَ تَسْكُنُ فِيهِ. تَغْرِسُ كَرْمًا وَلاَ تَسْتَغِلُّهُ. يُذْبَحُ ثَوْرُكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَلاَ تَأْكُلُ مِنْهُ. يُغْتَصَبُ حِمَارُكَ مِنْ أَمَامِ وَجْهِكَ وَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْكَ. تُدْفَعُ غَنَمُكَ إِلَى أَعْدَائِكَ وَلَيْسَ لَكَ مُخَلِّصٌ. يُسَلَّمُ بَنُوكَ وَبَنَاتُكَ لِشَعْبٍ آخَرَ وَعَيْنَاكَ تَنْظُرَانِ إِلَيْهِمْ طُولَ النَّهَارِ، فَتَكِلاَّنِ وَلَيْسَ فِي يَدِكَ طَائِلَةٌ. ثَمَرُ أَرْضِكَ

وَكُلُّ تَعَبِكَ يَأْكُلُهُ شَعْبٌ لاَ تَعْرِفُهُ، فَلاَ تكُونُ إِلاَّ مَظْلُومًا وَمَسْحُوقًا كُلَّ الأَيَّامِ. وَتكُونُ مَجْنُونًا مِنْ مَنْظَرِ عَيْنَيْكَ الَّذِي تَنْظُرُ. يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِقَرْحٍ خَبِيثٍ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ وَعَلَى السَّاقَيْنِ؛ حَتَّى لاَ تَسْتَطِيعَ الشِّفَاءَ مِنْ أَسْفَلِ قَدَمِكَ إِلَى قِمَّةِ رَأْسِكَ. يَذْهَبُ بِكَ الرَّبُّ وَبِمَلِكِكَ الَّذِي تُقِيمُهُ عَلَيْكَ إِلَى أُمَّةٍ لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ، وَتَعْبُدُ هُنَاكَ آلِهَةً أُخْرَى مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ، وَتكُونُ دَهَشًا وَمَثَلًا وَهُزْأَةً فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَسُوقُكَ الرَّبُّ إِلَيْهِمْ. بِذَارًا كَثِيرًا تُخْرِجُ إِلَى الْحَقْلِ، وَقَلِيلًا تَجْمَعُ، لأَنَّ الْجَرَادَ يَأْكُلُهُ. كُرُومًا تَغْرِسُ وَتَشْتَغِلُ، وَخَمْرًا لاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَجْنِي؛ لأَنَّ الدُّودَ يَأْكُلُهَا. يَكُونُ لَكَ زَيْتُونٌ فِي جَمِيعِ تُخُومِكَ، وَبِزَيْتٍ لاَ تَدَّهِنُ؛ لأَنَّ زَيْتُونَكَ يَنْتَثِرُ. بَنِينَ وَبَنَاتٍ تَلِدُ وَلاَ يَكُونُونَ لَكَ؛ لأَنَّهُمْ إِلَى السَّبْيِ يَذْهَبُونَ. جَمِيعُ أَشْجَارِكَ وَأَثْمَارِ أَرْضِكَ يَتَوَلاَّهُ الصَّرْصَرُ. اَلْغَرِيبُ الَّذِي فِي وَسَطِكَ يَسْتَعْلِي عَلَيْكَ مُتَصَاعِدًا، وَأَنْتَ تَنْحَطُّ مُتَنَازِلًا. هُوَ يُقْرِضُكَ وَأَنْتَ لاَ تُقْرِضُهُ. هُوَ يَكُونُ رَأْسًا وَأَنْتَ تكُونُ ذَنَبًا. وَتَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتَتْبَعُكَ وَتُدْرِكُكَ حَتَّى تَهْلِكَ؛ لأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْفَظَ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضَهُ الَّتِي أَوْصَاكَ بِهَا. فَتكُونُ فِيكَ آيَةً وَأُعْجُوبَةً وَفِي نَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ.

* * *

شبهات عن الأنبياء عليهم السلام

وفيها:

١- عصمة الأنبياء.

٢- شبهة: حول تعيين الذبيح، وعلاقته بالصلب والفداء.

٣- شبهة: حول نظر إبراهيم عليه السلام في النجوم.

٤- شبهة: حول لوط عليه السلام وتوكله على الله.

٥- شبهة: قتل موسى عليه السلام للقبطي.

٦- شبهة: حول لطم موسى ملك الموت.

٧- شبهة: ادعاؤهم عصيان يونس عليه السلام.

١ـ عصمة الأنبياء

مقدمة:

إن الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان وتفضَّل عليه بنعم لا يحصيها العد، ولا يقف بها الحساب عند حد، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١٨)، ولقد امتحن الله الإنسان في هذه الحياة الدنيا بأنواع الفتن من مال وبنين ونساء وإخوان وأصدقاء وغيرها، وإنما كان الافتتان بتلك الشواغل وهذه الفتن ليعلم الله الذين صدقوا وليعلم الكاذبين.

فإن العدو الذي انتصب في الميدان خصمًا قد أعلن عن خصومته وعداوته وحربه وسلاحه، إذ قال: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١١٩)، وقال تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف: ١٦ - ١٧)، وكل ذلك لا سبيل للإنسان إلى معرفته من قِبل نفسه، ولا وصول له إليه بعقله مستقلًا، فإنها أمور خارجة عن حسه، وعالية عن متناول تفكيره وذهنه، وجماع ما يكيد به العدو للإنسان ويجلب عليه به بخيله ورجله: الشبهات والشهوات يقذف بها على القلوب والنفوس، ويوالي ذلك متابعًا حتى يصيب القلوب بالأمراض الفتاكة والعلل القتالة فتعرض عن ربها وبارئها.

ووقاية القلوب من تلك الأمراض وهذه العلل إنما يكون بإرسال الرسل، فإن صلاح القلوب لا يكون إلا بمعرفتها بربها وفاطرها، ولا سبيل إلى ذلك إلا من جهة الرسل المبلغين عن الله، ومن هنا نعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا ينال رضا الله إلا على أيديهم، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأعمال والأخلاق،

وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها.

وما ظنك بمن غاب عنه هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وحلَّ به من الآلام والعذاب ما يكون به مثل الحوت إذا فارق الماء ووُضع في الفلا.

وإذا كان هذا عمل الأنبياء - عليهم السلام- وتلك وظيفتهم، فإنه لا يتم الغرض منها ولا تتحقق على تمام وجهها إلا إذا كانوا من الكمال وعلو المنزلة وسمو المقام في نفوس الناس بالدرجة التي تجعلهم أهلًا لأن يُقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم، ويلتزم ما يبلغون عن الله تعالى من الشرائع والأحكام، فقد اصطفاهم الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، واجتباهم إلى صراطه المستقيم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾.

ومما لا يشك فيه عاقل أن الله العليم الخبير محال أن يتخذ رسولًا رجلًا تزدريه الأعين وتحتقره القلوب، أو رجلًا متهمًا في نسبه أو ناقصًا أو مشوهًا في خلقه وجسمه يجعل منه داعيًا إليه بإذنه، ومن أجل هذا بعث الله أنبياءه من أوسط قومهم نسبًا، وبرأهم من العيوب الجسيمة، وأعطاهم من صفات الرجولة من الشجاعة وصدق العزيمة وقوة الإرادة وشدة البأس وسعة الصدر وحدة الذهن وذكاء القلب وطلاقة اللسان وحلاوة المنطق، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾، وقال لموسى عليه السلام: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي ﴾، وقال له: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ﴾.

كل هذا ما يوضح بأتم أنواع الإيضاح عن شدة عناية الله تعالى بمن سبق في علمه أنه سيتخذه رسولًا لخلقه، وليس ذلك خاصًا بمحمد ﷺ، وإنما هو لكل واحد من أنبيائه، فإذا رجعت إلى القرآن الكريم رأيت هذا في قصص الأنبياء بيِّنًا واضحًا ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾، ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾، وعلى الأخص من هذا صفوة الأنبياء وأفضل المرسلين سيدنا محمد ﷺ الذي نشَّأه الله أطيب نشأة وأزكاها وأبرأها وأبعدها من كل نقيصة أو دنية، حتى كان زينة المجالس في قومه ومرجع الأحكام وموئل الكرام، ومثال عزة النفس، فكان سرهم وحلاَّل مشكلاتهم، وحرز أماناتهم.

قال ابن العربي: قَدْ بَيَّنَّا فِي السَّالِفِ فِي كِتَابِنَا هَذَا – أحكام القرآن- وَفِي غَيْرِ مَوْضِعٍ عِصْمَةَ الْأَنْبِيَاءِ -صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ- مِنْ الذُّنُوبِ، وَحَقَّقْنَا الْقَوْلَ فِيمَا نُسِبَ إلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ، وَعَهِدْنَا إلَيْكُمْ عَهْدًا لَنْ تَجِدُوا لَهُ رَدًّا أَنَّ أَحَدًا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَذْكُرَ نَبِيًّا إلَّا بِمَا ذَكَرَهُ الله، لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ أَخْبَارَهُمْ مَرْوِيَّةٌ، وَأَحَادِيثَهُمْ مَنْقُولَةٌ بِزِيَادَاتٍ تَوَلَّاهَا أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إمَّا غَبِيٌّ عَنْ مِقْدَارِهِمْ، وَإِمَّا بِدْعِيٌّ لَا رَأْيَ لَهُ فِي بِرِّهِمْ وَوَقَارِهِمْ، فَيَدُسُّ تَحْتَ الْمَقَالِ الْمُطْلَقِ الدَّوَاهِي، وَلَا يُرَاعِي الْأَدِلَّةَ وَلَا النَّوَاهِيَ[1].

أولًا: تعريف العصمة.

العصمة لغة:

العصمة وردت في اللغة لعدة معان منها:

١- المنع:

قال ابن منظور: العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عَصَمه، يَعْصِمه، عَصْما: منعه ووقاه[2].

٢- الحفظ:

قال ابن منظور: والعصمة الحفظ. يقال: عصمته فانعصم، واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية[3].

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٢.

(٢) لسان العرب ٤/ ٢٩٧٦.

(٣) لسان العرب ٤/ ٢٩٧٦.

٣- القلادة:

قال ابن منظور: العصمة القلادة[1].

٤- الحبل:

قال الزجّاج: أصل العصمة: الحبل وكل ما أمسك شيئا فقد عصمه[2].

٥- السبب:

قال الطبري: وللسبب الذي يتسبب به الرجل إلى حاجته: عاصم ومنه قول الأعشى:

إلى المرء قيس أطيل السرى   وآخذ من كل حي عصم

يعني بالعصم: الأسباب، أسباب الذمة والأمان. [3]

وبهذا المعنى جاءت الكلمة في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

قال تعالى على لسان سيدنا نوح ﷺ وابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (هود: ٤٢-٤٣)، وقال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ (يوسف: ٣٢)، وقال سبحانه في حق سيدنا محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ "[4].

---

(١) لسان العرب ٤/ ٢٩٧٦.

(٢) لسان العرب ٤/ ٢٩٧٧.

(٣) تفسير الطبري ٤/ ٢٦.

(٤) البخاري (٢٩٤٦)، مسلم (٢٠).

وإذا أمعنت النظر في هذه المعاني وجدتها جميعًا ترجع إلى المعنى الأول الذي هو "المنع" فالحفظ منع للشيء من الوقوع في المكروه أو المحظور، والقلادة تمنع سقوط الخرز منها، والحبل يمنع من السقوط والتردي، والسبب يمنع صاحبه عما يكره(١).

وقال ابن الأثير: العصمة: المنعة، والعاصم: المانع الحامي، والاعتصام الامتساك بالشيء افتعال منه. ومنه شعر أبي طالب يمدح النبي ﷺ:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للأرامل

أي: يمنعهم من الضياع والحاجة(٢).

تعريف العصمة شرعًا:

عرَّف المتكلمون والمحدثون من أهل السنة العصمة في الشرع بتعريفات بعضها يختلف عن بعض لفظًا إلا أن المعنى واحد، وقد يختلف بعضها لفظًا ومعنى، والاختلاف في المعنى يعود إلى من سلب اختيار المعصوم في أفعاله، ومن أوجبه.

وهذه التعريفات وإن اختلفت مناحيها في التعبير، وتنوعت جوانب تناولها لمعنى عصمة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فإنها جميعها تنتهي إلى حفظ الله تعالى إياهم من مواقعة الذنوب والمخالفات بعد البعثة باتفاق المحققين المحقين، وقبل البعثة على التحقيق.

ولعل من أحسن التعريفات للعصمة وأسلمها ما ذكره صاحب كتاب نسيم الرياض: لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير، ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء(٣).

---

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة محمد بن خليفة بن علي التميمي ١/ ١٢٩، رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة عماد السيد محمد إسماعيل الشربينى١/ ٢٠، أفعال الرسول ﷺ لـ محمد سليمان الأشقر ١/ ١٤٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٢٥.

(٣) حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة١/ ١٢٩، رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة١/ ٢٠.

وخلاصتها: حفظهم من النقائص وتخصيصهم بالكمالات النفيسة والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة(١).

وكذلك حفظ الله ﷻ للأنبياء بواطنهم وظواهرهم من التلبس بمنهي عنه، ولو نهى كراهة ولو في حال الصغر مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء(٢).

ثانيًا: أهمية القول بعصمة الأنبياء.

١ـ العصمة سبيل حجية القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة:

إن عصمة رسول الله ﷺ في التبليغ لها دلالتها وأهميتها في حجية كل ما يبلغ عن ربهﷻ من الوحي سواء كان متلوًا من القرآن الكريم، أو غير متلوًا من السنة النبوية المطهرة، ومن هنا ترى علماء الأصول تناولوا العصمة في مباحث السنة الشريفة، نظرًا لشدة التصاقها بها، حيث تتوقف حجية السنة المطهرة، بل والقرآن الكريم أيضًا على عصمة رسول الله ﷺ لأن القرآن الكريم والسنة الشريفة، كليهما دليل شرعي يجب العمل به، ولا شك أن وجوب العمل به ناتج عن وجوب طاعة الرسول ﷺ الذي صدر عنه ذلك الوحي بنوعيه (القرآن الكريم، والسنة النبوية) ووجوب طاعته ﷺ متوقف على صدقه، وعصمته ﷺ من الكذب وهذا ما أجمعت عليه الأمة، فقد أجمعوا على عصمته عن أي شيء يخل بالتبليغ، فلا يجوز عليه كتمان الرسالة، والكذب في دعواها لا بالعمد ولا بالسهو، وإلا لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع، إذ عمدة النبوة البلاغ والإعلام والتبيين، وتصديق ما جاء به النبي ﷺ، وتجويز شيء من الكذب قادح في ذلك، ومشكك فيه، ومناقض للمعجزة التي أيد الله ﷻ بها رسله تصديقًا له في رسالته، وفى كل ما يبلغه عنه سبحانه، تلك المعجزة القائمة مقام قول الله ﷻ: صدق رسولي فيما يذكر عنى، وهو يقول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل عليكم. وذلك يستلزم أن كل خبر بلاغي عن رسول الله ﷺ صادق مطابق لما عند الله إجماعًا: فيجب التمسك به.

---

(١) فتح الباري ١١/ ٥١٠.

(٢) إعلام المسلمين بعصمة النبيين ص١٦.

٢ـ العصمة سبيل الاقتداء بالنبي ﷺ:

إذا كانت العصمة في التبليغ للنبي ﷺ لها دلالتها على حجية كل ما يبلغ من الوحي سواء كان متلوًا من القرآن الكريم، أو غير متلوٍ من السنة المطهرة، فالعصمة لرسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وأوامره ونواهيه، مما هو ليس من باب البلاغ، مما كان في أمور الدنيا، وأحوال نفسه الشريفة، لها أيضًا دلالتها على الاقتداء به ﷺ.

ومن هنا جرت عادة علماء الأصول قبل كلامهم عن أفعاله ﷺ أن يقدموا عليها الكلام على العصمة؛ لأجل أنه ينبني عليها وجوب التأسي بأفعاله ﷺ[1].

٣ـ القول بعصمة الأنبياء يحفظ العبد من الوقوع في الباطل.

قال القاضي عياض: قد استبان لك أيها الناظر مما قررناه ما هو الحق من عصمته ﷺ عن الجهل بالله وصفاته أو كونه على حالة تنافي العلم شيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلًا وإجماعًا وقبلها سماعًا ونقلًا ولا بشيء مما قررناه من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحي قطعًا وعقلًا وشرعًا وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله قصدًا أو غير قصد واستحالة ذلك عليه شرعًا وإجماعًا ونظرًا وبرهانًا وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعا وتنزيهه عن الكبائر إجماعًا وعن الصغائر تحقيقًا وعن استدامة السهو والغفلة واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة وعصمته في كل حالاته من رضي وغضب وجد ومزح فيجب عليك أن تتلقاه باليمين وتشد عليه يد الضنين وتقدر هذه الفصول حق قدرها وتعلم عظيم فائدتها وخطرها فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ أو يجوز أو يستحيل عليه ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هي عليه ولا ينزهه عما لا يجب أن يضاف إليه فيهلك من حيث لا يدرى ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار إذ ظن الباطل به اعتقاد ما لا يجوز عليه يحل بصاحبه دار البوار ولهذا ما احتاط ﷺ على الرجلين اللذين رأياه ليلًا وهو معتكف في المسجد مع صفية فقال لهما:

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ٢٩-٣٥ مختصرًا.

"إنها صفية"، ثم قال لهما: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وإني خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا"[١].

هذه أكرمك الله إحدى فوائد ما تكلمنا عليه في هذه الفصول ولعل جاهلًا لا يعلم بجهله إذا سمع شيئًا منها يرى أن الكلام فيها جملة من فضول العلم وأن السكوت أولى وقد استبان لك أنه متعين للفائدة التي ذكرناها[٢].

٤ـ القول بالعصمة يفيد في أصول الفقه في مسألة أقوال النبي ﷺ وأفعاله.

قال القاضي عياض: وفائدة ثانية يُنظر إليها في أصول الفقه ويبتنى عليها مسائل لا تتعد من الفقه ويتخلص بها من تشعيب مختلفي الفقهاء في عدة منها وهى الحكم في أقوال النبيﷺ وأفعاله وهو باب عظيم وأصل كبير من أصول الفقه ولا بد من بنائه على صدق النبي ﷺ في أخباره وبلاغه، وأنه لا يجوز عليه السهو فيه وعصمته من المخالفة في أفعاله عمدًا وبحسب اختلافهم في وقوع الصغائر وقع خلاف في امتثال الفعل[٣].

٥ـ القول بالعصمة يحتاج إليها الحاكم والمفتي

قال القاضي عياض: وفائدة ثالثة يحتاج إليها الحاكم والمفتى فيمن أضاف إلى النبيﷺ شيئًا من هذه الأمور ووصفه بها فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليه وما وقع الإجماع فيه والخلاف كيف يصمم في الفتيا في ذلك ومن أين يدري هل ما قاله في نقص أو مدح فإما أن يجترئ على سفك دم مسلم حرام أو يسقط حقًا ويضيع حرمة للنبيﷺ[٤].

ثالثا: عصمة الأنبياء قبل البعثة.

أولًا: بالنسبة إلى الاعتقاد.

(١) البخاري (٢٠٣٥)، مسلم (٢١٧٥).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٨٧.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى٢/ ١٨٨.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى٢/ ١٨٨.

وأما الكفر والبدعة فأجمعت الأمة على عصمتهم منها قبل النبوة وبعدها. ولم يخالف هذا الإجماع إلا من لا يعتد بخلافهم(١).

قال القاضي عياض: والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف نفحات ألطاف السعادة ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحد النبي واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك ومستند هذا الباب النقل وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله. وأنا أقول: إن قريشًا قد رمت نبينا ﷺ بكل ما افترته، وغير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نص الله تعالى عليه أو نقلته إلينا الرواة ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه،

---

(١) عصمة الأنبياء للرازي صـ ٢٦، الإحكام للآمدي ١/ ١٤٥، البحر المحيط للزركشي٤/ ١٦٩، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة١/ ١٤٥.

الذين خالفوا في هذه المسألة هم:

١- الأزارقة: أتباع نافع بن الأزرق، وهم فرقة من فرق الخوارج وقد نقل عنهم أنهم قالوا بجواز بعثة نبي علم الله أنه يكفر بعد نبوته. انظر الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٤٦، والمواقف للإيجي ٣/ ٤١٥-٤٢٦. روح المعاني للألوسي ١٦/ ٢٧٤.

٢- الفضيلية: وهم من فرق الخوارج، ويقولون بجواز الكفر على الأنبياء من جهة كونهم يعتقدون جواز صدور الذنوب عن الأنبياء وكل ذنب هو كفر - على حسب اعتقادهم - فمن هذا الباب جوزوا صدور الكفر عنهم. عصمة الأنبياء للرازي ص ٢٦، والإحكام للآمدي ١/ ١٤٦.

٣- الرافضة: فقد جوزوا على الأنبياء إظهار الكفر على سبيل التقية عند خوف الهلاك، بل نقل عنهم أنهم أوجبوه. ويعللون ذلك بقولهم: إن إظهار الإسلام إن كان مفضيًا إلى القتل كان إلقاءً للنفس في التهلكة، وإلقاء النفس في التهلكة حرام لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥)، وإذا كان إظهار الإسلام حرامًا كان إظهار الكفر واجبًا. انظر: عصمة الأنبياء للرازي صـ ٢٦، والمواقف للإيجي ٣/ ٤١٥.

٤- قال ابن حزم: وأما هذا الباقلاني فإنا رأينا في كتاب صاحبه أبي جعفر السمناني قاضي الموصل أنه كان يقول: أن كل ذنب دق أو جل فإنه جائز على الرسل حاشى الكذب في التبليغ فقط قال: وجائز عليهم أن يكفروا. الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٤٥.

ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين وبتلونه في معبوده محتجين ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها كما حكاه الله عنهم(١).

ثانيًا: بالنسبة للكبائر.

١ـ من قال بعدم وقوع الكبائر منهم.

قال ابن حزم: فبيقين ندري أن الله تعالى صان أنبياءه عن أن يكونوا لبغيِّة أو من أولاد بَغِيٍّ أو من بغايا، بل بعثهم الله تعالى في حسب قومهم فإذًا لا شك في هذا، فبيقين ندري أن الله تعالى عصمهم قبل النبوة من كل ما يؤذون به بعد النبوة فدخل في ذلك السرقة والعدوان والقسوة والزنا واللياطة والبغي وأذى الناس في حريمهم وأموالهم وأنفسهم وكل ما يعاب به المرء ويتشكى منه ويؤذى بذكره(٢).

وذهبت الروافض ووافقهم على ذلك أكثر المعتزلة إلا في الصغائر إلى امتناع ذلك كله منهم قبل النبوة لأن ذلك مما يوجب هضمهم في النفوس واحتقارهم والنفرة عن اتباعهم وهو خلاف مقتضى الحكمة من بعثة الرسل(٣).

وزاد نسبته إلى قول الجمهور ابن عاشور(٤).

واستدل هؤلاء بالآتي:

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٢٦.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٢٥.

(٣) الإحكام للآمدي ١/ ١٤٥، إرشاد الفحول صـ ٣٥.

(٤) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٣.

١- قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٤). ففيها دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة(١).

٢- لأن ذلك مما يوجب هضمهم في النفوس واحتقارهم والنفرة عن اتباعهم وهو خلاف مقتضى الحكمة من بعثة الرسل(٢).

٣- **قال القاضي عياض**: وقد اختلف في عصمتهم من المعاصي قبل النبوة فمنعها قوم وجوزها آخرون والصحيح إن شاء الله تنزيههم من كل عيب وعصمتهم من كل ما يوجب الريب فكيف والمسألة تصورها كالممتنع فإن المعاصي والنواهي إنما تكون بعد تقرر الشرع(٣).

٤ـ **قال د/ عماد الشربيني**: صفوة القول أنه يمتنع وقوع صورة المعصية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل بعثتهم، لا لكونها معصية حقيقية تترتب عليها المؤاخذة والعقاب، بل لأن الله تعالى خلقهم مجبولين على مجانبتها والمنافرة لها، لما علمه جل شأنه من أنهم سيكونون مصابيح الظلام، وهداة الأنام، يخرجونهم من الظلمات إلى النور، ويرشدونهم إلى صراط العزيز الحميد. فلا تمر بهم طرفة عين إلا وهم مراقبون لحضرته، مشاهدون لعظمته كما تشهد بذلك سوابقهم الحميدة، وتواريخهم المجيدة. (٤)

وهذا القول هو الراجح.

ثالثا: بالنسبة للصغائر

١ـ من قال بوقوع الصغائر منهم.

قال الشوكاني: وقالت المعتزلة: يمتنع الكبائر دون الصغائر(٥).

٢ـ من قال بعدم وقوع الصغائر منهم.

---

(١) تفسير البيضاوي صـ ٥٠، التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٣.

(٢) الإحكام للآمدي ١/ ١٤٥، إرشاد الفحول صـ ٣٥.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦٢.

(٤) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ٢٨.

(٥) إرشاد الفحول صـ ٣٥، وانظر الإحكام للآمدي ١/ ١٤٥.

قال إسحاق بن عقيل:

وذهب كثير من العلماء منهم ابن حزم، والقاضي عياض، والقسطلاني، والزرقاني، وكثير من المحققين – وهو الذي نختاره – إلى أن الأنبياء معصومون قبل النبوة من الكبائر والصغائر مطلقًا. قالوا: لأن مقترف الذنوب ممقوت عند الناس ويلازمهم عارها وعيبها بها[(١)].

وإنما بعث من نشأ على التوحيد، والأمانة والصدق، والأخلاق الكاملة، والصفات الفاضلة؛ وعلى إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة. بهذا تواترت الأخبار، وتعاضدت الآثار؛ عن الأنبياء جميعهم -صلوات الله وسلامه عليهم-. ولو وقع شيء من هذه المستحقرات قبل النبوة: لنقل ذلك لاعتناء النفوس، وتوافر الدواعي على البحث عن جميع أحوالهم ونقلها، من حين تخرجوا إلى الدنيا، إلى أن فارقوا المهات[(٢)].

وهذا القول هو الراجح.

رابعًا: عصمة الأنبياء بعد البعثة.

أولًا: بالنسبة إلى الكبائر.

فأجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات. وعصمتهم أيضا عما يصغر أقدارهم من القاذورات كالزنا والسرقة واللواط.

وكذلك الاتفاق من أهل الشرائع قاطبة على عصمتهم عن تعمد كل ما يخل بصدقهم فيما دلت المعجزة القاطعة على صدقهم فيه من دعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى[(٣)].

ثانيًا: بالنسبة إلى الصغائر.

١ـ من قال تقع منهم الصغائر.

---

(١) إعلام المسلمين بعصمة النبيين صـ ٢٠-٢١. وسيأتي تفصيل ذلك عند من يقول بعصمة الأنبياء من الكبيرة والصغيرة مطلقًا.

(٢) حجية السنة صـ١٠٨-١٠٩.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى٢/ ١٥٨، المستصفى للغزالي ٢/ ١٨٨، المحصول لابن العربي١/ ١٠٩، تفسير القرطبي ١/ ٣٢٠، الإحكام للآمدي ١/ ١٤٦، الفرق بين الفرق للبغدادي ١/ ٢١٠، البرهان في أصول الفقه للجويني ١/ ٣١٩، إرشاد الفحول صـ٣٣.

قال القاضي: وأما الصغائر فجوزها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء وهو مذهب أبي جعفر الطبري وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين(١).

قال ابن حزم: وذهبت طائفة إلى أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يجوز عليهم كبيرة من الكبائر أصلا وجوزوا عليهم الصغائر بالعمد وهو قول ابن فورك الأشعري(٢).

قال الزركشي: وقال في الْإِكْمَالِ إِنَّهُ مَذْهَبُ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ(٣).

وهذه الصغائر تنقسم إلى قسمين:

١ـ **صغيرة خسيسة** وهي: ما توجب الحكم على فاعلها بالخسة ودناءة الهمة، وسقوط المروءة. كسرقة حبة أو كسرة

٢ـ **صغيرة غير خسيسة** وهي: ما لا توجب الحكم بذلك كنظرة.

أولًا: صغيرة خسيسة.

قال الشوكاني: وكذا حكوا الإجماع على عصمتهم بعد النبوة مما يزري بمناصبهم، كرذائل الأخلاق والدناءات وسائر ما ينفر عنهم، وهي التي يقال لها صغائر الخسة، كسرقة لقمة، والتطفيف بحبة(٤).

لأن مثل هذا يحط منصب المتسم به ويزري بصاحبه وينفر القلوب عنه والأنبياء منزهون عن ذلك، بل يلحق بهذا ما كان من قبيل المباح فأدى إلى مثله لخروجه بها أدى إليه عن اسم المباح إلى الحظر(٥).

ثانيًا: صغيرة غير خسيسة

من قال تقع:

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٥٨.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٤٥.

(٣) البحر المحيط ٤/ ١٧١.

(٤) إرشاد الفحول صـ ٣٤، وانظر المحرر الوجيز ١/ ١٥٥، البحر المحيط ٤/ ١٧٠.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٥٩.

وَنَقَلَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ والكيا عن الْأَكْثَرِينَ الْجَوَازَ عَقْلًا. وكذا نقل ذلك عن الأكثرين ابن الحاجب(١). وَهُوَ قَوْلُ الْقَاضِي وَابْنِ عَقِيلٍ وَالأَشْعَرِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ(٢).

وأن أكثر أهل الأصول على جواز وقوع الصغائر غير الصغائر الخسة منهم. ولكن جماعة كثيرة مِن متأخِّري الأصوليِّين اختاروا أن ذلك وإن جاز عقلًا لم يَقع فعلًا، وقالوا: إنما جاء في الكتاب والسنَّة مِن ذلك أن ما فعلوه بتأويل، أو نسيانًا، أو سهوًا، أو نحو ذلك(٣).

وهو اختيار الزركشي، حيث قال: وَالصَّحِيحُ صِحَّةُ وُقُوعِهَا منهم وَتُتَدَارَكُ بِالتَّوْبَةِ(٤).

من قال لا تقع.

فَمَنْ نَفَاهَا كَالْأُسْتَاذِ أبي إِسْحَاقَ من حَيْثُ النَّظَرُ إلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ الْآمِرِ فَلَا تَجُوزُ عِنْدَهُ عليهم. وَنَقَلَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ وابن الْقُشَيْرِيّ عن الْأَكْثَرِينَ عَدَمَ الْوُقُوعِ قال: وَأَوَّلُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَحَمَلُوهَا على ما قبل النُّبُوَّةِ وَعَلَى تَرْكِ الْأَوْلَى(٥).

وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ أَبِي مُوسَى.... وَقَالَ: يَجُوزُ الْهَمُّ لا الْفِعْلُ، وهو اختيار ابن النجار(٦).

٢ـ من قال لا تقع منهم الصغائر (خسيسة أوغير خسيسة).

قال القرطبي: وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمرًا مطلقًا من غير التزام قرينة، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة، والإباحة، أو الحظر، أو المعصية، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية، لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين. قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني:

(١) إرشاد الفحول صـ ٣٤، البحر المحيط ٤/ ١٧٠.
(٢) شرح الكوكب المنير ٢/ ١٧٣.
(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/ ٥٨٥.
(٤) البحر المحيط ٤/ ١٧٠.
(٥) البحر المحيط ٤/ ١٧٠، إرشاد الفحول صـ ٣٤.
(٦) شرح الكوكب المنير ٢/ ١٧٤

واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة(١).

قال ابن حزم: وذهبت جميع أهل الإسلام من أهل السنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي أصلًا معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة وهو قول ابن مجاهد الأشعري شيخ ابن فورك، والباقلاني. قال أبو محمد: وهذا القول الذي ندين الله تعالى به ولا يحل لأحد أن يدين بسواه(٢).

والأدلة على ذلك.

قال الرازي: ويدل على وجوب العصمة خمسة عشر وجهًا.

الحجة الأولى: لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم في استحقاق الذم عاجلًا والعقاب آجلًا أشد من حال عصاة الأمة، وهذا باطل، فصدور الذنب أيضًا باطل وبيان الملازمة: أن أعظم نعم الله على العباد هي نعمة الرسالة والنبوة وكل من كانت نعم الله تعالى عليه أكثر كان صدور الذنب عنه أفحش، وصريح العقل يدل عليه ثم يؤكده النقل من ثلاثة وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

وقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ (الأحزاب: ٣٠).

الثاني: أن المحصن يرجم وغيره يجلد.

الثالث: أن العبد يُحد نصف حد الحر.

الحجة الثانية: لو صدر الذنب عنهم لما كانوا مقبولي الشهادة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ (الحجرات: ٦).

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٣٢٠.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٤٥. وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٥٩، الفرق بين الفرق للبغدادي ١/ ٢١٠، عصمة الأنبياء للرازي صـ٢٧، الخصائص الكبرى للسيوطي ٢/ ٤٤٩.

فقد أمر بالتثبت والتوقف في قبول شهادة الفاسق، إلا أن هذا باطل فإن من لم تقبل شهادته في حال الدنيا فكيف تقبل شهادته في الأديان الباقية إلى يوم القيامة.

الحجة الثالثة: لو صدر الذنب عنهم لوجب زجرهم، لأن الدلائل دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن زجر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير جائز، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ فكان صدور الذنب عنهم ممتنعًا.

الحجة الرابعة: لو صدر الفسق عن محمد ﷺ لكنا إما أن نكون مأمورين بالاقتداء به وهذا لا يجوز، أو لا نكون مأمورين بالاقتداء به وهذا أيضًا باطلٌ، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١).

ولقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، ولما كان صدور الفسق يفضي إلى هذين القسمين الباطلين كان صدور الفسق عنه محالًا.

الحجة الخامسة: لو صدرت المعصية عن الأنبياء -عليهم السلام- لوجب أن يكونوا موعودين بعذاب الله بعذاب جهنم؟ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ (النساء: ١٤).

ولكانوا ملعونين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ١٨).

وبإجماع الأمة هذا باطل فكان صدور المعصية عنهم باطلًا.

الحجة السادسة: أنهم كانوا يأمرون بالطاعات وترك المعاصي ولو تركوا الطاعة وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف: ٢-٣).

وتحت قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٤). ومعلوم أن هذا في غاية القبح.

الحجة السابعة: قال الله تعالى في صفة إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

فدخل تحت لفظ ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ فعل كل ما ينبغي وترك ما لا ينبغي، وذلك يدل على أنهم كانوا فاعلين لكل الطاعات وتاركين لكل المعاصي.

الحجة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ (ص: ٤٧).

وهو أن اللفظين أعنى قوله تعالى: ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾ وقوله: ﴿الْأَخْيَارِ﴾ يتناولان جملة الأفعال والتروك، بدليل جواز الاستثناء، يقال: فلان من المصطفين الأخيار إلا في كذا، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فدلت هذه الآية على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار في كل الأمور، وهذا ينافي صدور الذنب عنهم.

الحجة التاسعة: قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص: ٨٣).

استثنى المخلصين من إغوائه وإضلاله، ثم إنه تعالى شهد على إبراهيم وإسحاق ويعقوب -عليهم الصلاة والسلام- أنهم من المخلصين، حيث قال: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ﴾ (ص: ٤٦).

وقال في حق يوسف ﷺ: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)، فثبت أن إغواء إبليس لم يصل إليهم، وذلك يوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم.

الحجة العاشرة: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ: ٢٠).

فهؤلاء الذين لم يتبعوا إبليس إما أن يقال: إنهم الأنبياء أو غيرهم، فإن كانوا غيرهم لزم أن يكونوا أفضل منهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

وتفضيل غير النبي على النبي باطل بالإجماع، فوجب القطع بأن أولئك الذين لم يتبعوا إبليس هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكل من أذنب فقد اتبع إبليس، فدل هذا على أن الأنبياء صلوات الله عليهم ما أذنبوا.

الحجة الحادية عشرة: أنه تعالى قسم المكلفين إلى قسمين:

حزب الشيطان كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة: ١٩).

وحزب الله كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

ولا شك أن حزب الشيطان هو الذي يفعل ما يريد الشيطان ويأمره به فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء لصدق عليهم أنهم حزب الشيطان.

الحجة الثانية عشر: إن العلماء -رحمهم الله تعالى- بينوا أن الأنبياء أفضل من الملائكة وثابت بالدلالة على أن الملائكة ما أقدموا على شيء من الذنوب، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء لامتنع أن يكونوا زائدين في الفضل على الملائكة لقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص: ٢٨).

الحجة الثالثة عشر: قال الله تعالى في حق إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٤).

والإمام هو الذي يُقتدى به، فلو صدر الذنب عن إبراهيم، لكان اقتداء الخلق به في ذلك الذنب واجبًا وإنه باطل.

الحجة الرابعة عشر: قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤). فكل من أقدم على الذنب كان ظالمًا لنفسه لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (فاطر: ٣٢).

إذا عرفت هذا فنقول: ذلك العهد الذي حكم الله تعالى بأنه لا يصل إلى الظالمين، إما أن يكون هو عهد النبوة أو عهد الإمامة، فإن كان الأول فهو المقصود، وإن كان الثاني

فالمقصود أشهر، لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة، فإذا لم يصل عهد الإمامة إلى المذنب العاصي، فبأن لا يصل عهد النبوة إليه أولى.

الحجة الخامسة عشر: صح أن خزيمة بن ثابت الأنصاري ﷺ شهد على وفق دعوى النبي ﷺ مع أنه ما كان عالمًا بتلك الواقعة فقال خزيمة: (إني أصدقك فيما تخبر عنه من أحوال السماء، أفلا أصدقك في هذا القدر؟!)[١]، فلما ذكر ذلك صدقه النبي ﷺ فيه ولقبه بذي الشهادتين، ولو كان الذنب جائزًا على الأنبياء لكانت شهادة خزيمة غير جائزة[٢].

ومن الأدلة أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ فما كان -عز وجل- أن يحث نبيه ﷺ على الاقتداء والأسوة بأنبيائه ورسله إلا وهم معصومون من الصغائر[٣].

من قال بعصمة الأنبياء من الكبيرة والصغيرة مطلقًا:

قال ابن النجار: وَمَنَعَ الأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الإِسْفَرَايِينِيّ وَجَمْعٌ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرُهُمْ مِنْ الذَّنْبِ مُطْلَقًا، كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا، عَمْدًا أَوْ سَهْوًا، أَخَلَّ بِصِدْقِهِ أَوْ لا، وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي الْمَعَالِي فِي "الإِرْشَادِ" وَالْقَاضِي عِيَاضٍ وَأَبِي بَكْرٍ وابْنِ مُجَاهِدٍ وَابْنِ فُورَكٍ. نَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ حَزْمٍ فِي "الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ"[٤]، وَابْنِ حَزْمٍ، وَابْنِ بُرْهَانٍ فِي "الأَوْسَطِ". وَنَقَلَهُ فِي "الْوَجِيزِ" عَنْ اتِّفَاقِ الْمُحَقِّقِينَ. وَحَكَاهُ فِي "زَوَائِدِ الرَّوْضَةِ" عَنْ الْمُحَقِّقِينَ. وَقَالَ الْقَاضِي حُسَيْنٌ- هو الحسين بن محمد بن أحمد المروذي، أبو علي الفقيه الشافعي-: هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ

---

(١) القصة رواها أحمد في مسنده (٥/ ٢١٥)، وأبو داود (٣٦٠٢)، وصححه الألباني في الإرواء (٥/ ١٢٧)، أما جعل شهادته بشهادة رجلين فهذه الزيادة في صحيح البخاري (٢٨٠٧).

(٢) عصمة الأنبياء للرازي صـ٢٨-٣٤.

(٣) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ٣٤.

(٤) النقل عن ابن حزم غير دقيق؛ لأنه نقل قول ابن فورك بجواز الصغائر حالة العمد فقط، فقال: لا يجوز عليهم كبيرة من الكبائر أصلًا، وجوزوا الصغائر بالعمد، وهو قول ابن فُورَك الأشعري. ثم قال ابن حزم: لا يجوز أن يقع من نبي أصلًا معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة، وهو قول ابن مجاهد الأشعري شيخ ابن فُورَك". ثم قال ابن حزم: وهذا القول الذي ندين الله تعالى به. الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٤٥.

أَصْحَابِنَا، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي الْفَتْحِ الشِّهْرِسْتَانِيِّ، وَابْنِ عَطِيَّةَ الْمُفَسِّرِ، وَشَيْخِ الإِسْلامِ الْبُلْقِينِيِّ، وَالسُّبْكِيِّ وَوَلَدِهِ التَّاجِ.

فَالْعِصْمَةُ ثَابِتَةٌ لَهُ ﷺ وَلِسَائِرِ الأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ كَبِيرٍ أَوْ صَغِيرٍ. عَمْدًا كَانَ أَوْ سَهْوًا فِي الأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا لأَنَّا أُمِرْنَا بِاتِّبَاعِهِمْ فِي أَفْعَالِهِمْ وَآثَارِهِمْ وَسِيَرِهِمْ عَلَى الإِطْلاقِ مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ قَرِينَةٍ. وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا، تَعَاضَدَتْ الأَخْبَارُ بِتَنْزِيهِهِمْ عَنْ النَّقَائِصِ مُنْذُ وُلِدُوا، وَنَشْأَتُهُمْ عَلَى كَمَالِ أَوْصَافِهِمْ فِي تَوْحِيدِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ عَقْلًا أَوْ شَرْعًا، عَلَى الْخِلافِ فِي ذَلِكَ، وَلا سِيَّمَا فِيمَا بَعْدَ الْبَعْثَةِ فِيمَا يُنَافِي الْمُعْجِزَةَ[1].

ضوابط من قال بوقوع الصغائر

١- الذين قالوا بوقوعها إنما هو عقلاً فقط، لكن جماعة كثيرة مِن متأخِّري الأصوليِّين اختاروا أن ذلك وإن جاز عقلًا لم يقع فعلًا[2].

٢- أنها إن وقعت فعلى سبيل التأويل والنسيان والخطأ[3].

٣- أنها إن وقعت فعلى سبيل السهو[4].

٤- أنها إن وقعت فلا يقرون عليها بل ينبهون عليها. والتَّأَسِّي إِنَّمَا هُوَ فِيمَا أُقِرُّوا عَلَيْهِ كَمَا أَنَّ النَّسْخَ جَائِزٌ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ مِنْ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَلَيْسَ تَجْوِيزُ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ وُجُوبِ الطَّاعَةِ لِأَنَّ الطَّاعَةَ تَجِبُ فِيمَا لَمْ يُنْسَخْ فَعَدَمُ النَّسْخِ يُقَرِّرُ الْحُكْمَ وَعَدَمُ الإِنْكَارِ يُقَرِّرُ الْفِعْلَ وَالأَصْلُ عَدَمُ كُلٍّ مِنْهُمَا[5].

---

(١) شرح الكوكب المنير ٢/ ١٧٧: ١٧٤. وانظر: الإبهاج في شرح المنهاج ٥/ ١٧٥٢.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/ ٥٨٥.

(٣) عصمة الأنبياء للرازي صـ ٢٧ تفسير القرطبي١/ ٣٢١، أضواء البيان للشنقيطي ٤/ ٥٨٥.

(٤) عصمة الأنبياء للرازي (٢٨) تفسير الألوسي١٦/ ٣٢١، أضواء البيان ٤/ ٥٨٥.

(٥) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٢٠، منهاج السنة ٢/ ٤٠٠ لابن تيمية، البحر المحيط ٤/ ١٧١، تفسير الآلوسي ١٦/ ٢٧٤.

٥- أنها إن وقعت فلا تتكرر بل هي على سبيل الندرة لأن كثرتها تلحقها بالكبائر.
وَهُمْ مَعْصُومُونَ عن دَوَامِ الْخَطَأ[١].

٦- أنها إن وقعت فتتدارك بالتوبة[٢].

٧- أنها إن وقعت فلا تقدح في مناصبهم.

قال القرطبي: الذي ينبغي أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات، بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فهم - صلوات الله وسلامه عليهم - وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه[٣].

حكم من قال بجواز وقوع الصغائر على الأنبياء بهذه الضوابط.

قال ابن تيمية: واتفق علماء المسلمين على أنه لا يكفر أحد من علماء المسلمين المنازعين في عصمة الأنبياء والذين قالوا: إنه يجوز عليهم الصغائر والخطأ ولا يقرون على ذلك لم يكفر أحد منهم باتفاق المسلمين فإن هؤلاء يقولون: إنهم معصومون من الإقرار على ذلك ولو كفر هؤلاء لزم تكفير كثير من الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٥٩، تفسير القرطبي ١/ ٣٢١، البحر المحيط في أصول الفقه ٤/ ١٧٢.
(٢) البحر المحيط ٤/ ١٧٠، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/ ٥٨٥.
(٣) تفسير القرطبي ١/ ٣٢١-٣٢٢، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/ ٥٨٦.

والأشعرية وأهل الحديث والتفسير والصوفية: الذين ليسوا كفارا باتفاق المسلمين بل أئمة هؤلاء يقولون بذلك.

فالذي حكاه عن الشيخ أبي حامد الغزالي قد قال مثله أئمة أصحاب الشافعي أصحاب الوجوه الذين هم أعظم في مذهب الشافعي من أبي حامد كما قال الشيخ أبو حامد الأسفرائيني الذي هو إمام المذهب بعد الشافعي وابن سريج في تعليقه:

وذلك أن عندنا أن النبي ﷺ يجوز عليه الخطأ كما يجوز علينا ولكن الفرق بيننا أنا نقر على الخطأ والنبي ﷺ لا يقر عليه.

وهذه المسألة قد ذكرها في أصول الفقه الشيخ أبو حامد، وأبو الطيب الطبري، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وكذلك ذكرها بقية طوائف أهل العلم: من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، وأبي حنيفة، ومنهم من ادعى إجماع السلف على هذا القول، كما ذكر ذلك عن أبي سليمان الخطابي ونحوه، ومع هذا فقد اتفق المسلمون على أنه لا يكفر أحد من هؤلاء الأئمة ومن كفرهم بذلك استحق العقوبة الغليظة التي تزجره وأمثاله عن تكفير المسلمين وإنما يقال في مثال ذلك: قولهم صواب أو خطأ فمن وافقهم قال: إن قولهم الصواب ومن نازعهم قال: إن قولهم خطأ والصواب قول مخالفهم(١).

خامسًا: العصمة في التبليغ.

أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ، فهم متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى، وهذا هو مقصود الرسالة فإن الرسول هو الذي يبلغ عن الله أمره ونهيه وخبره وهم معصومون في تبليغ الرسالة باتفاق المسلمين بحيث لا يجوز أن يستقر في ذلك شيء من الخطأ(٢).

١ـ العصمة في الأحكام والفتوى.

---

(١) الفتاوى الكبرى ٣/ ٤٠٤ بتصرف يسير.

(٢) المحرر الوجيز١/ ٢١١، مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/ ٢٨٩، منهاج السنة النبوية ٢/ ٣٩٦، تفسير الرازي ٣/ ٧، شرح الكوكب المنير٢/ ١٦٩، الخصائص الكبرى ٢/ ٤٤٩، أضواء البيان ٤/ ٥٦٨، حجية السنة صـ ٩٦.

قال الزركشي: وَالْإِجْمَاعُ على عِصْمَتِهِمْ فيها وَلَوْ في حَالِ الْغَضَبِ بَلْ يُسْتَدَلُّ بِشِدَّةِ غَضَبِهِ ﷺ على تَحْرِيمِ ذلك الشَّيْءِ[1].

قال الشوكاني: وقع الإجماع على عصمتهم بعد النبوة من تعمد الكذب في الأحكام الشرعية، لدلالة المعجزة على صدقهم، وأما الكذب غلطًا فمنعه الجمهور وجوزه القاضي أبو بكر.

واستدل الجمهور: بأن المعجزة تدل على امتناعه، واستدل القاضي بأن المعجزة إنما تدل على امتناعه عمدًا لا خطأ، وقول الجمهور أولى[2].

٢ـ بالنسبة للنسيان والسهو والغلط.

فهذا ينقسم إلى الآتي:

١ – النسيان والسهو والغلط في القول فيما يتعلق بالتبليغ والرسالة.

٢– النسيان والسهو والغلط في القول فيما لا يتعلق بالتبليغ والرسالة.

٣– النسيان والسهو والغلط في الأفعال فيما يتعلق بالتبليغ والرسالة.

٤– النسيان والسهو والغلط في الأفعال فيما لا يتعلق بالتبليغ والرسالة.

أولًا: النسيان والسهو والغلط في القول فيما يتعلق بالتبليغ والرسالة

فقد نقل غير واحد الإجماع على عصمتهم من ذلك[3].

ثانيًا: النسيان والسهو والغلط في القول فيما لا يتعلق بالتبليغ والرسالة

قال القاضي عياض:

وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا مستند لها إلى الأحكام ولا أخبار المعاد ولا تضاف إلى وحى بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه فالذي يجب تنزيه النبي ﷺ عن أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا وأنه معصوم من

---

(١) البحر المحيط٤/ ١٧٠.

(٢) إرشاد الفحول صـ ٣٤، وانظر، شرح الكوكب المنير٢/ ١٦٩، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن٤/ ٥٨٣.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٤٠، المستصفي ٢/ ١٨٩، البرهان ١/ ٣٢٠، البحر المحيط ٤/ ١٧٢، إرشاد الفحول صـ ٣٥.

ذلك في حال رضاه وفي حال سخطه وجده ومزحه وصحته ومرضه ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله وللثقة بجميع أخباره في أي باب كانت وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شيء منها استثبات ولا عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهو أم لا. [١]

ثالثاً: النسيان والسهو والغلط في الأفعال فيما يتعلق بالتبليغ والرسالة.

قال القاضي عياض:

فحكمه عند جماعة من العلماء حكم السهو في القول في هذا الباب، وقد ذكرنا الاتفاق على امتناع ذلك في حق النبي ﷺ وعصمته من جوازه عليه قصدًا أو سهوًا، فكذلك قالوا: الأفعال في هذا الباب لا يجوز طرو المخالفة فيها لا عمدًا ولا سهوًا لأنها بمعنى القول من جهة التبليغ والأداء وطرو هذه العوارض عليها يوجب التشكيك ويسبب المطاعن، واعتذروا عن أحاديث السهو بتوجيهات نذكرها بعد هذا وإلى هذا مال أبو إسحاق، (وغيره من المشايخ المتصوفة).

وذهب الأكثر من الفقهاء والمتكلمين (ومعظم المحققين) إلى أن المخالفة في الأفعال البلاغية والأحكام الشرعية سهوًا وعن غير قصد منه جائز عليه كما تقرر من أحاديث السهو في الصلاة وترقوا بين ذلك وبين الأقوال البلاغية لقيام المعجزة على الصدق في القول ومخالفة ذلك تناقضها وأما السهو في الأفعال فغير مناقض لها ولا قادح في النبوة بل غلطات الفعل وغفلات القلب من سمات البشر كما قال ﷺ: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي"[٢]، نعم بل حالة النسيان والسهو هنا في حقه ﷺ سبب إفادة علم وتقرير شرع. . . وهذه الحالة زيادة له في التبليغ وتمام عليه في النعمة بعيدة عن سمات النقص وأغراض الطعن[٣].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى٢/ ١٥١.

(٢) البخاري (٤٠١)، مسلم (٥٧٢).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦٤، شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ٦٤ بتصرف يسير.

رابعًا: النسيان والسهو والغلط في الأفعال فيما لا يتعلق بالتبليغ والرسالة.

فقد نقل غير واحد الإجماع على وقوعه منهم وهو بضوابط. (١)

قال القاضي عياض: وأما ما ليس طريقه البلاغ ولا بيان الأحكام من أفعاله ﷺ وما يختص به من أمور دينه وأذكار قلبه مما لم يفعله ليتبع فيه فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها ولحوق الفترات والغفلات بقلبه وذلك بما كلفه من مقاساة الخلق وسياسات الأمة ومعاناة الأهلي وملاحظة الأعداء ولكن ليس على سبيل التكرار ولا الاتصال بل على سبيل الندور. . . . وليس في هذا شيء يحط من رتبته ويناقض معجزته. (٢)

وأما عن ضوابط وقوع النسيان والسهو والغلط لمن قال بوقوعه فهي:

١- أن الرسل لا تقر على السهو والغلط بل ينبهون عليه ويعرفون حكمه بالفور على قول بعضهم وهو الصحيح وقبل انقراضهم على قول الآخرين. أي: يمنع استدامة السهو لا ابتداءه. (٣)

٢- أَنَّ هَذَا النِّسْيَانَ فِيمَا أَرَادَ الله من نَبِيِّهِ نِسْيَانَهُ ولم يُرِدْ أَنْ يُكْتَبَ قُرْآنًا. أي: الذي يمنع هو السهو الشيطاني لا الرحماني. (٤)

٣- أن الذي ينساه الرسول ﷺ إنما يكون فيما سمعه من القصص والأخبار وكلام الناس فيما لا يتعلق بالبلاغ وبالتكليف. (٥)

٤- أنه لو وقع في الأفعال فيما لا يتعلق بالتبليغ والرسالة فليس على سبيل التكرار ولا الاتصال بل على سبيل الندور. (٦)

٣ـ بالنسبة للأعراض البشرية.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦٤، المستصفى ٢/ ١٨٩، البرهان ١/ ٣٢٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦٤.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦٤، حجية السنة صـ ١٠٥.

(٤) البحر المحيط ٤/ ١٧٢، حجية السنة صـ ١٠٥.

(٥) أفعال الرسول للأشقر (١/ ١٦٠) بتصرف يسير.

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦٤.

قال القاضي عياض:

قد قدمنا أنه ﷺ وسائر الأنبياء والرسل من البشر وأن جسمه وظاهره خالص للبشر يجوز عليه من الآفات والتغييرات والآلام والأسقام وتجرع كأس الحمام ما يجوز على البشر وهذا كله ليس بنقيصة فيه لأن الشيء إنما يسمى ناقصا بالإضافة إلى ما هو أتم منه وأكمل من نوعه وقد كتب الله تعالى على أهل هذه الدار فيها يحيون وفيها يموتون ومنها يخرجون وخلق جميع البشر بمدرجة الغير فقد مرض ﷺ واشتكى وأصابه الحر والقر، وأدركه الجوع والعطش، ولحقه الغضب والضجر، وناله الإعياء والتعب، ومسه الضعف والكبر، وسقط فجُحش شقه، وشجَّه الكفار، وكسروا رباعيته، وسقي السم، وسحر، وتداوى، واحتجم، وتنشر وتعوذ، ثم قضى نحبه فتوفى ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى وتخلص من دار الامتحان والبلوى وهذه سمات البشر التي لا محيص عنها، وأصاب غيره من الأنبياء ما هو أعظم منه فقتلوا قتلًا، ورموا في النار، ونشروا بالمناشير، ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات، ومنهم من عصمه كما عصم بعد نبينا من الناس فلئن لم يكف نبينا ربه يدَ ابن قميئة يوم أحد ولا حجبه عن عيون عداه عند دعوته أهل الطائف فلقد أخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور وأمسك عنه سيف غورث، وحجر أبي جهل، وفرس سراقة، ولئن لم يقه من سحر ابن الأعصم فلقد وقاه ما هو أعظم من سم اليهودية، وهكذا سائر أنبيائه مبتلى ومعافى، وذلك من تمام حكمته ليظهر شرفهم في هذه المقامات ويبين أمرهم ويتم كلمته فيهم وليحقق بامتحانهم بشريتهم ويرتفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم لئلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضلال النصارى بعيسى ابن مريم وليكون في محنهم تسلية لأممهم ووفور لأجورهم عند ربهم تمامًا على الذي أحسن إليهم، قال بعض المحققين وهذه الطوارئ والتغييرات المذكورة إنما تختص بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومة البشر ومعناة بنى آدم لمشاكلة الجنس وأما بواطنهم فمنزهة غالبًا عن ذلك معصومة منه متعلقة بالملأ الأعلى والملائكة لأخذها عنهم وتلقيها الوحى منهم قال

وقد قال ﷺ: "إِنَّ عيني تَنَامَانِ وَلاَ يَنَامُ قلبي"(١)، وقال: "إني لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إني أَبِيتُ يطعمني رَبِّي ويسقيني"(٢)، فأخبر أن سره وباطنه وروحه خلاف جسمه وظاهره، وأن الآفات التي تحل ظاهره من ضعف، وجوع، وسهر ونوم، لا يحل منها شيء باطنه بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن لأن غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه، وهو ﷺ في نومه حاضر القلب كما هو في يقظته حتى قد جاء في بعض الآثار أنه كان محروسًا من الحدث في نومه لكون قلبه يقظان كما ذكرناه وكذلك غيره إذا جاع ضعف لذلك جسمه وخارت قوته فبطلت بالكلية جملته وهو ﷺ قد أخبر أنه لا يعتريه ذلك، وأنه بخلافهم لقوله: "إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي"(٣).

وكذلك أقول: إنه في هذه الأحوال كلها من وصب ومرض وسحر وغضب لم يجر على باطنه ما يخل به ولا فاض منه على لسانه وجوارحه ما لا يليق به كما يعتري غيره من البشر(٤).

عصمة النبي ﷺ.

أولًا: عصمة النبي ﷺ في التبليغ وتحمل الرسالة.

إن مهمة الرسل الأولى التي كلفهم الله ﷻ بها إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، هي التبليغ الذي أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصطفائهم للرسالة التي حملهم إياها، فيجب عليهم التبليغ، ويستحيل عليهم أي شيء يخل به ككتمان الرسالة، والكذب في دعواها، وتصور الشيطان لهم في صورة الملك وتلبيسه عليهم في أول الرسالة وفيما بعدها، وسلطه على خواطرهم بالوساوس، لا على وجه العمد، ولا على وجه السهو، ولا في حال الرضى أو السخط، والصحة أو المرض، ويجب على المسلمين اعتقاد ذلك فيهم. وهذه العصمة هي التي عليها المناط، فبها يحصل المقصود من البعثة فتبليغ شرع الله إلى

(١) البخاري (١١٤٧)، مسلم (٧٣٨).

(٢) البخاري (٧٢٩٩)، مسلم (١١٠٢).

(٣) البخاري (٧٢٩٩)، مسلم (١١٠٢).

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٩٢-١٩٤.

الخلق هي مهمة الرسل من أولهم إلى آخرهم فهم الواسطة بين الله وبين خلقه الذين أرسلوا إليهم، فبطريقهم يهتدي البشر ويرشدون إلى دين الله إذ هم المبلغون عن الله أمره ونهيه وشرعه.

ولذلك فقد أوجب الله العصمة لأنبيائه ورسله في هذا الجانب حتى تصل الرسالة إلى العباد كاملة تامة غير منقوصة ولا محرفة، وبذلك تقوم الحجة على العباد.

ولقد دلت نصوص القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والسيرة العطرة على عصمة نبينا محمدﷺ في هذا الجانب، وانعقد إجماع الأمة على ذلك.

أولًا: من القرآن الكريم:

جاءت آيات في القرآن الكريم تثبت عصمته ﷺ وصدقه في كل ما يبلغ عن الله تعالى، وهذه الآيات تتضمن أيضًا أدلة عقلية على صدقه ﷺ من هذه الآيات ما يلي:

الدليل الأول: قول الله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ والذي جاء بالصدق كما يدل عليه سياق هذه الآية هو نبينا محمدﷺ، وقد شهد لما جاء به من عنده سبحانه (قرآنًا وسنة) سماه صدقًا، ويلزم من صدق ما أتى به، صدقه هو في نفسه، إذ لا يأتي بالصدق إلا كامل الصدق، وذلك مما لا جدال فيه حيث كان صدقه معلومًا منذ حداثة سنه، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه، فإن الأعداء من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكون يومًا في صدقه، كما قال ﷻ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وكما كانوا يشهدون له بذلك في مواقف مختلفة.

وإذا كانت الآيات السابقة شهادات حسية على صدقه في كل ما يبلغ عن ربه، فهناك شهادات معنوية على صدقه ﷺ تتمثل في تأييد الله ﷻ له ﷺ بالمعجزات المنزلة منزلة قوله ﷻ: "صدق عبدي فيما يبلغ عنى" ومن هذه المعجزات: القرآن الكريم، وانشقاق القمر، وتسبيح الحصى، وحنين الجذع، وتكثير الطعام، والإخبار بمغيبات كثيرة، وتأييده له

بالنصر على الأعداء، على قلة جنده وضعف عدته في معركة إثر معركة، ولقاء بعد لقاء، وكل ذلك منزل منزلة قول مرسله تبارك وتعالى: "صدق عبدي فيما يبلغ عنى".

إذ أن تأييده بذلك كله، وهو يدعى أنه مرسل من عند ربه، وهو على مسمع من ربه سبحانه ومرأى، وهو جل شأنه لا يزال يؤيده بكل ذلك: دليل على كمال صدقه، وعصمته في كل ما يبلغه من قرآن وسنة، إذ لو كان بخلاف ذلك لما أيده، ولفضح أمره للملأ، كما هي سنته سبحانه فيمن حاولوا الكذب عليه.

الدليل الثاني: قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾. فالآيات نصت على أن الله سبحانه وتعالى لا يؤيد من يكذب عليه بل لابد أن يظهر كذبه وأن ينتقم منه.

ولو كان محمد ﷺ من هذا الجنس كما يزعم الكافرون فيما حكاه الله عنهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ -وحاشاه ﷺ من ذلك- لأنزل الله به من العقوبة ما ذكره في هذه الآيات، وحيث إن الرسول ﷺ لم يقع له شيء من ذلك فلم يهلكه الله ولم يعذبه، فهو على هذا لم يتقول على الله ما لم يقله ولم يفتر شيئا من عند نفسه، وبهذا تثبت عصمته في كل ما بلغه عن ربه ﷻ.

فهذه الآيات دليل صدقه وعصمته في تبليغه الوحي (قرآنًا وسنة) بدليل التمانع، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه ﷺ بتلك الصفة، لامتناع تقوله عليه، وامتناع التقول عليه يعنى الصدق والعصمة فيما يقول ويبلغ عن ربه.

أي: لو لم يكن القرآن والسنة منزلين من عندنا، ومحمد ادعى أنهما منا، لما أقررناه على ذلك، ولعجلنا بإهلاكه. فعدم هلاكه ﷺ دال على أنه لم يقل على الله ما لم يقله ﷻ، لأن "لو" حرف امتناع لامتناع، فامتنع ذلك من الله ﷻ، لامتناع سيدنا محمد ﷺ عن هذه الأشياء.

قال ابن كثير: بعد أن فسر هذه الآيات: والمعنى في هذا بل هو صادق بار راشد، لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات، والدلالات القاطعات.[1]

وبالجملة: فالآيات من جملة مدحه، ودليل عصمته في البلاغ لوحي الله تعالى، إذ فيها القسم على تصديقه بجميع الموجودات، وأنه لا يمكنه الافتراء عليه قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٣)﴾ (الحاقة: ٣٨-٤٣).

الدليل الثالث: قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (٣) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤)﴾ (النجم: ٣-٤)، فكلمة "ينطق" في لسان العرب، تشمل كل ما يخرج من الشفتين قول أو لفظ أي: ما يخرج نطقهﷺ عن رأيه، إنما هو بوحي من الله ﷻ.

ولقد جاءت الآيتان بأسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء، والفعل إذا وقع في سياق النفي دل على العموم، وهذا واضح في إثبات أن كلامه ﷺ محصور في كونه وحيًا لا يتكلم إلا به وليس بغيره وفى هذا دليل واضح على عصمته ﷺ، في كل أمر بلغه عن ربه من كتاب وسنة، فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه، ولا يقول إلا ما أمر به فبلغه إلى الناس كاملًا من غير زيادة ولا نقصان، وهذه شهادة وتزكية من الله ﷻلنبيه ورسوله ﷺ في كل ما بلغه للناس من شرعه تعالى.

الدليل الرابع: قال ﷻ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا (٧٣) وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا (٧٤) إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا﴾ (الإسراء: ٧٣-٧٥).

وهذه الآيات دالة على عصمة الله وتثبيته لنبيه ﷺ في تبليغ ما أوحى إليه، ومعناها مقارب لمعنى الآيات التي ذكرناها قبلها "فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله ﷺ وتثبيته

(١) تفسير القرآن العظيم ١٤/ ١٢٣.

وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها.

فهذه الآيات من جملة الآيات المادحة للمصطفى ﷺ، والشهادة بعصمته في كل ما يبلغ عن ربه ﷻ وحكم "كاد" في الآيات حكم سائر الأفعال، فمعناها: منفي إذا صحبها حرف نفي، وثابت إذا لم يصحبها، فإذا قيل: كاد زيد يبكي، فمعناه: قارب البكاء، فمقاربة البكاء ثابتة، وإذا قيل: لم يكد يبكي، فمعناه: لم يقارب البكاء، فمقاربته منفية، ونفسه منتف انتفاء أبعد من انتفائه عند ثبوت المقاربة"، والشرط في الآيات على فرض الإمكان، لا على فرض الوقوع، والمعنى: لولا ثبوت تثبيتنا إياك، لقد قاربت أن تميل إليهم شيئًا يسيرًا من أدنى الميل، لكن امتنع قرب ميلك وهواك لوجود تثبيتنا إياك.

فتأمل كيف بدأ بثباته وسلامته بالعصمة، قبل ذكر ما عتبه عليه، وخيف أن يركن إليهم، على فرض الإمكان، لا على فرض الوقوع. وتأمل كيف جاء في أثناء عتبه - إن كان ثم عتب - براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته.

وبالجملة: فسياق الآيات بيِّن واضح في أن رسول الله ﷺ لم يركن إليهم أبدًا، وإلا لأنزل الله به من العقوبة ما ذكره في هذه الآيات، وحيث إن رسول الله لم يقع له شيء من ذلك، فلم يعذبه ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب المات، ولم يتخلى عنه طرفة عين، كما تشهد بذلك سيرته العطرة، دل ذلك على أنه ﷺ لم يتقوَّل على ربه ما لم يقله، ولم يفتر شيئًا من عند نفسه، وبهذا تثبت عصمته في كل ما بلغه عن ربه من وحى الله تعالى قرآنًا وسنة.

قال القاضي عياض: في الآية دليل على أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته مما كاده به الكفار، وراموه من فتنته، ومرادنا من ذلك تنزيهه وعصمته ﷺ وهو مفهوم الآية. [١]

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٤٥ بتصرف يسير.

الدليل الخامس: ليس أدل على عصمة رسول الله ﷺ في تبليغ وحي ربه، من تبليغه حتى ما يمس جنابه العظيم، من العتاب الذي كان يوجهه الله تعالى إليه، وذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ إلى غير ذلك من آيات.

فآيات العتاب في القرآن الكريم ما كان ليتفوه النبي ﷺ بها لولا كمال عصمته في البلاغ وكمال أمانته فيه، لأن كتمان ذلك في نظر العقول البشرية ستر على النفس الشريفة، واستيفاء لحرمة آرائه، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه.

فعن أَنَسٍ قَالَ: جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو فَجَعَلَ النبي ﷺ يَقُولُ: " اتَّقِ الله، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ". قَالَتْ عَائِشَةُ: "لَوْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ". [1]

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ الله فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ وَالله يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

ولقد صدق أنس، وصدقت عائشة -رضي الله عنهما-، وبرا، فما أدق استنباطهما في الدلالة على عصمة رسول الله ﷺ في بلاغه وحي الله إلى الناس!.

وبعد: فهذه شهادات من الله ﷻ لرسوله ﷺ بعصمته في أداء واجب البلاغ على أكمل وجه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ ولم يكتف ﷻ لحبيبه محمد ﷺ بهذه الشهادات، بل لقد أضاف إليها شهادة أخرى بأسلوب آخر، حيث قال جل شأنه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ

---

(١) البخاري (٧٤٢٠)، مسلم (١٧٧).

(٢) البخاري (٤٦١٢)، مسلم (١٧٧).

وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ فإن كمال الدين لا يكون إلا بالتبليغ لجميع أحكامه، وما أوحى الله إليه من كتاب وسنة، وعصمته في هذا البلاغ. [١]

ثانيًا: من السنة. [٢]

الدلائل على صدق رسول الله ﷺ في كل ما يخبر به عن الله تعالى من الوحي وعصمته فيه من خلال السنة والسيرة كثيرة منها:

الدليل الأول: حاله ﷺ قبل النبوة، فصدقه ﷺ مع الناس دليل على صدقه فيما يخبر به عن ربه؛ إذ لا يترك إنسان الكذب على الناس ثم يكذب على الله تعالى.

وهذا القياس العقلي قد استخدمه هرقل، وهو يسأل أبا سفيان بن حرب أثناء رحلة تجارية بالشام، عن أحوال النبي ﷺ وصفاته فكان مما سأل عنه: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان، قلت: لا[٣].

فاستخلص هرقل النتيجة المنطقية لهذا، وهي أن محمدًا ﷺ صادق في دعواه الرسالة، وفى كل ما يخبر به عن الله تعالى قائلًا: إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. وقد شهد له ﷺ بالصدق، الأعداء والأصدقاء على السواء.

فمن شهادات الأعداء ما يلي:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭬ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ "يَا صَبَاحَاهْ". فَقَالُوا: مَنْ هَذَا، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ. فَقَالَ: "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ٣٩٤-٤٠٩، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة١/ ١٣٠ باختصار.

(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ٤١٦، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة١/ ١٣٢ باختصار.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦)، مسلم (١٧٧٣).

مصدقي". قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: "فإني نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يدي عَذَابٍ شَدِيدٍ". قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلاَّ لِهَذَا؟! ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[(١)].

هكذا يعترف له قومه أجمعون بالصدق، وعدم عثورهم على ما يناقض هذا الخلق منه، وهم وإن لم يكونوا قد ناصبوه العداء آنذاك، إلا أن هذه الشهادة وغيرها ظلت قائمة لا ينازعون فيها، ولم يسحبوها حينما جاهرهم بالدعوة وناصبوه العداء، وقد حرصوا بعد ذلك على صد الناس عن الإيمان كل الحرص، وبذلوا كل جهد، غير أنهم لم يقدروا أن ينالوا من صدقه وأمانته وعفافه.

الدليل الثاني: من دلائل عصمته ﷺ في نقل الوحي، ما ثبت من أخباره وآثاره، وسيره وشمائله، المعتنى بها، المستوفاة تفاصيلها، ولم يرد في شيء منها تداركه ﷺ لخبر صدر عنه، رجوعًا عن كذبة كذبها أو اعترافًا بخلف في خبر أخبر به، ولو وقع منه شيء من ذلك لنقل إلينا. وإن الصحابة -رضوان الله عليهم- قد اتفقوا على أنه لم يصدر عن النبي ﷺ خبر بخلاف الواقع في أي أمر من الأمور، ولم يتثبتوا عن حاله عند ذلك، هل وقع فيها سهوًا أم لا، ولم يتوقفوا حتى يتأكدوا إن كان ذلك جدًا أو هزلًا، لأنه ﷺ صادق معصوم في كل ذلك عندهم، كل الصدق، وكل العصمة.

قال القاضي عياض: ودليل ذلك اتفاق السلف، وإجماعهم عليه، وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أقواله، والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت، وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف، ولا تردد في شيء منها ولا استثبات عن حاله عند ذلك، هل وقع فيها سهو أم لا. [(٢)]

الدليل الثالث: ومما يشهد بعصمته ﷺ في بلاغ الوحي، وأنه لا يقول إلا حقًا سواء في الرضى والغضب، والصحة والمرض "فترة الوحي في قصة الإفك" لقد كانت تنزل

---

(١) البخاري (٤٩٧١)، مسلم (٢٠٨).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٥١.

برسول الله ﷺ نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه، لوجد له مقالًا ومجالًا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها وحيًا من قرآن أو سنة يقرؤه على الناس.

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة -رضي الله عنها-، وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: "إني لا أعلم عنها إلا خيرًا" ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال، واستشارة الأصحاب، ومضى شهرًا بأكمله، والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال آخر الأمر: "يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ بلغني عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ الله، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فاستغفري الله وتوبي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ، ثُمَّ تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ". [1]

الدليل الرابع: هذا حاله ﷺ في أفعاله يشهد بصدقه وعصمته في كل ما يبلغ عن ربه ﷻ، ومن أقواله ﷺ على عصمته في بلاغ وحى الله ﷻ من كتاب وسنة ما يلي:

١- حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ وجاء فيه قوله ﷺ: "وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الله شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى الله ﷻ"[2].

والحديث نص على عصمته ﷺ من الكذب فيما يخبر به عن الله تعالى.

٢- حديث عبد الله بن عمرو ﷺ قال: "كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ عَنْ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ: اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ". [3].

---

(١) جزء من حديث الإفك البخاري (٤١٤١)، مسلم (٢٧٧٠).

(٢) مسلم (٢٣٦١).

(٣) **صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٣١٣، وأحمد في مسنده ٢/ ١٦٢، وأبو داود في سننه (٣٦٤٦) من طريق عبيد الله بن الأخنس، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث، عن يوسف بن ماهك، عن عبد الله بن عمرو به. والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٣٢).

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالُوا: "يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا. قَالَ « إني لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا ».[(١)]

ثالثا: من الإجماع.

أجمع أهل الملل والشرائع كلها على عصمة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من أي شيء يخل بالتبليغ، فلا يجوز عليهم التحريف، ولا الكذب قليله وكثيره، سهوه وعمده، فكل هذا مما ينزه عنه منصب النبوة، وإلا لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع، ولما تميز لنا الغلط والسهو من غيره، ولاختلط الحق بالباطل، واستدلوا لذلك بأنه لو جاز عليهم التقول والافتراء في ذلك عقلًا، لأدى إلى إبطال المعجزة القاطعة بصدقهم؛ وإبطال المعجزة محال، فالكذب في التبليغ وعدم العصمة فيه، محال أيضًا.

قال القاضي عياض: قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه ﷺ وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار بشيء منها بخلاف ما هو به.[(٢)]

قال ابن تيمية: إن الأنبياء -صلوات الله عليهم- معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه..... والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين.[(٣)]

والكلام هنا ليس خاصًا بالنبي ﷺ، بل وغيره من الأنبياء كذلك، إذ لا فرق بينهم في واجب التبليغ.[(٤)]

ثانيًا: عصمة النبي ﷺ من الشيطان وجنوده.

وقد دل على هذا القرآن والسنة والإجماع.

---

(١) حسن. أحمد في مسنده ٢/ ٣٦٠، والترمذي في سننه (١٩٩٠) من طريق عبد الله بن المبارك، وأخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٣٤٠ من طريق محمد (هو ابن عجلان) كلاهما (عبد الله، محمد)، عن أسامة بن زيد، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة به. والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٦).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٤٠.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٨٩-٢٩٠.

(٤) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة ١/ ٤٢٠، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة١/ ١٣٢.

أولًا: من القرآن:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ حفظ الله ﷻ عباده المخلصين من كيد إبليس وجنوده فلا سبيل له عليهم كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾، واعترف إبليس بعجزه عن الكيد لهم فحكى عنه رب العزة قوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ولا شك أن أنبياء الله ﷻ ورسله، وعلى رأسهم خاتمهم ﷺ على قمة عباد الله المخلصين الذين عصمهم رب العزة من كيد إبليس وجنوده.

ثانيًا: من السنة.

فقد ورد فيها ما يؤكد ما ورد في القرآن الكريم من تعرض الشياطين لرسول الله ﷺ في غير موطن رغبة في إطفاء نوره، وإماتة نفسه، وإدخال شغل عليه، ولكن كانت عصمة الله ﷻ له حائلة دون تمكن الشياطين من إغوائه، أو إلحاق ضرر به. ومن هذه الأحاديث.

١- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ". قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "وإياي، إِلاَّ أَنَّ الله أعانني عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يأمرني إِلاَّ بِخَيْرٍ". [(١)]

فأسلم برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال: معناه أسلمُ أنا من شره وفتنته. ومن فتح قال: أن القرين أسلمَ من الإسلام وصار مؤمنًا لا يأمرني إلا بخير واختلفوا في الأرجح منهما. فقال الخطابي الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض الفتح. وهو المختار لقوله ﷺ فلا يأمرني إلا بخير. واختلفوا على رواية الفتح قيل: أسلم بمعنى استسلم وانقاد وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم فاستسلم، وقيل معناه صار مسلمًا مؤمنًا وهذا هو الظاهر. [(٢)]

---

(١) مسلم (٢٨١٤).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٩/ ١٧٣.

قال القاضي عياض: وفقه الله فإذا كان هذا حكم شيطانه وقرينه المسلط على بنى آدم فكيف بمن بعد منه ولم يلزم صحبته ولا أقدر على الدنو منه؟! [(١)].

٢- عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النبي ﷺ: " إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صلاتي، فأمكنني الله مِنْهُ، فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبُطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سواري الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أخي سُلَيْمَانَ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لاَ ينبغي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى. فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا"[(٢)].

٣- عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: "أَعُوذُ بِالله مِنْكَ". ثُمَّ قَالَ: "أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله" ثَلاَثًا. وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلاَةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ. قَالَ: "إِنَّ عَدُوَّ الله إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وجهي فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِالله مِنْكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَالله لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»[(٣)].

٤- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِى ظِئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ. فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ.[(٤)]

وإخراج جبريل لحظ الشيطان منه، وتطهير لقلبه، فلا يقدر الشيطان على إغوائه إذ لا سبيل له عليه، وهذا دليل على عصمته من كل ما يمس قلبه، وعقيدته، وخلقه، منذ صغره ﷺ، فقد أُفرغ في صدره الشريف طست ممتلئ حكمة وإيمانًا؛ وتجسيد المعنويات في قدرة الله

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٣٥.

(٢) البخاري (٣٤٢٣)، مسلم (٥٤١).

(٣) مسلم (٥٤٢).

(٤) مسلم (٢٦١).

ﷺ هين... وهذا يوضح عصمته، إنه الذي نزعت علقة من صدره، هي حظ الشيطان منه، وأفرغ في صدره طست الإيمان والحكمة، فكيف يكون عقل هذا شأنه؟ إنه يكون عقله أسمى من كل عقل، وأزكى من كل فهم، ولم لا؟ وقد نزع منه حظ الشيطان، وملئ قلبه بالحكمة والإيمان والحكمة جامعة لعموم العلوم والمعارف، والإيمان كلمة جامعة لكل ما يرضى الله.

ثالثا من الإجماع:

قال القاضي عياض: واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه لا في جسمه بأنواع الأذى ولا على خاطره بالوساوس. (١)

ثالثا: عصمة النبي ﷺ في بدنه من القتل. (٢)

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاقترن تعهد الله بعصمة رسوله من قتل الناس وإيذائهم له مع الأمر للنبي ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه، وفى هذا الاقتران دليل جلي على أن عصمة الله تعالى وحفظه ونصره وتأييده على أعدائه قد صاحبت النبي ﷺ حتى تم له إبلاغ هذا الدين ونشره بين الناس.

وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ وقال: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾.

قيل: بكاف محمدًا ﷺ أعداءه المشركين وقيل: غير هذا وقال: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: أَبُو جَهْلٍ هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِى بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بيني وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٣٤. وانظر تفسير حقي ١٣/ ١٥.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٣٦٦، دلائل النبوة لأبي نعيم صـ ١٤٩، دلائل النبوة للبيهقي، رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ١٧٥: ١٣٢، موسوعة نضرة النعيم المقدمة صـ ٥٢٧.

نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا". قَالَ: فَأَنْزَلَ الله ﷻ لاَ نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شيء بَلَغَهُ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾. [(١)]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ؓ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: « لَوْ فَعَلَهُ لأَخَذَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ »[(٢)].

وتمتد عناية الله ﷻ وعصمته لنبيه ﷺ من محاولة سراقة بن مالك النيل من رسول الله ﷺ، بالقتل أو الأسر للحصول على الدية التي رصدها كفار قريش (مائة ناقة لمن يأتي برسول الله ﷺ) قتيلًا أو أسيرًا، وكما جاء على لسان سراقة بعد أن تتبع أثرهم قال: حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ (أي: اقترب من رَكْبه ﷺ)، فَعَثَرَتْ بِي فرسي، فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ، فَأَهْوَيْتُ يدي إِلَى كنانتي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الأَزْلاَمَ[(٣)]، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لاَ فَخَرَجَ الذي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فرسي، وَعَصَيْتُ الأَزْلاَمَ، تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ الله ﷺ وَهْوَ لاَ يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الاِلْتِفَاتَ سَاخَتْ يَدَا فرسي فِي الأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فنهضت، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً، إِذَا لأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلاَمِ، فَخَرَجَ الذي أَكْرَهُ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فرسي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ فِي نفسي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ

(١) مسلم (٢٧٩٧).

(٢) البخاري (٤٩٥٨).

(٣) الزُّلَم والزَّلَم واحدُ الأزْلام: وهي القِداح التي كانت في الجاهلية عليها مكتُوبٌ الأمرُ والنهيُ افْعَل ولا تفْعَل كان الرجُل منهم يضعُها في وعاء له فإذا أرادَ سفرًا أو زواجًا أو أمرًا مُهِمًّا أدخلَ يده فأخرج منها زَلَما فإن خرجَ الأمرُ مضَى لشأنِه وإن خرَج النَّهيُ كفَّ عنه ولم يفعلْه. النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٧٧٤.

الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ. وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمِ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ، فَلَمْ يرزآني[1]، وَلَمْ يسألاني إِلاَّ أَنْ قَالَ: أَخْفِ عَنَّا. فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ، فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ.[2]

فتأمل كيف عصم رب العزة رسوله ﷺ من محاولة سراقة قتله أو أسره، ليفوز بالدية التي رصدت من كفار قريش، إذ ما اقترب من ركب رسول الله ﷺ حتى عثرت به فرسه، مرة تلو الأخرى بعد إصراره على تتبع ركبه ﷺ، حتى إذا ما سمع دعاءه ﷺ بأن يصرعه، أو يكفيه إياه بما شاء، إلا وتتعثر به فرسه للمرة الثالثة، حتى أن يدا فرسه في هذه المرة غاصت في الأرض حتى بلغتا الركبتين، وبعد محاولات منه لاستنهاضها، إذ به يرى على يديها أثر دخان من غير نار ساطع في السماء، وهنا أيقن سراقة بأن رسول الله ﷺ محفوظ، ومعصوم منه، كما أيقن في نفس الوقت، أنه نبي الله حقًا، وأن دينه سيظهر، فما كان منه إلا أن سأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاب أمان، فأعطاه إياه، ولم يسأله رسول الله ﷺ سوى أن يقف في مكانه، ولا يترك أحدًا يلحق برَكْبِهِ ﷺ، ففعل سراقة، وهنا تتجلى إرادة المولى ﷻ ومشيئته في عصمة رسول الله ﷺ بتغير حال سراقة "إذ كان في أول النهار جاهدًا على رسول الله ﷺ، وكان آخر النهار مسلحة له" أي حارسًا له بسلاحه، بل وبلسانه أيضًا كما جاء في رواية ابن سعد: "أنه لما رجع، قال لقريش: قد عرفتم بصري بالطريق وبالأثر، وقد استبرأت لكم، فلم أر شيئًا، فرجعوا" وقال أيضًا ﷺ ردًا على أبي جهل لما بلغه موقفه هذا، ولامه في تركهم أنشده:

أبا حكم والله لو كنت شاهدًا   لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه

عجبت ولم تشكك بأن محمدًا   نبي وبرهان فمن ذا يقاومه؟!

عليك بكف الناس عنه فإنني   أرى أمره يومًا ستبدو معالمه

---

(١) أي لم يأخذا مني شيئًا، يقال رَزَأْته أَرْزَؤُه. وأصله النَّقْص النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٥٢٦.

(٢) البخاري (٣٩٠٦)، وأخرجه مسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

وبعد: فهل في كل ما سبق من دلائل حفظ الله ﷻ وعصمته لرسوله ﷺ من محاولات كفار قريش قتله، شك في عصمته ﷺ من القتل. (١)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، قَالَ: وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الوادي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ رَجُلًا أَتاني وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رأسي فَلَمْ أَشْعُرْ إِلاَّ وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: الله. ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: الله. قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ". ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ. (٢)

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ الله ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا فَجِيءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ. قَالَ: "مَا كَانَ الله لِيُسَلِّطَكِ عَلَي ذَاكِ". قَالَ: أَوْ قَالَ « عَلَيَّ ». قَالَ: قَالُوا: أَلاَ نَقْتُلُهَا؟ قَالَ: « لاَ ». قَالَ: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ الله ﷺ. (٣)

وقوله ﷺ: "مَا كَانَ الله لِيُسَلِّطَكِ عَلَي ذَاكِ أَوْ قَالَ: عَلَيَّ" فيه بيان عصمته ﷺ من الناس كلهم كما قال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهي معجزة لرسول الله ﷺ في سلامته من السم المهلك لغيره، وفى إعلام الله تعالى له بأنها مسمومة وكلام عضو منه له، فقد جاء في غير مسلم أنه قال: (إن الذراع تخبرني أنها مسمومة) اهـ. (٤)

رابعًا: عصمة النبي ﷺ في جانب الاعتقاد. (٥)

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ١٦٢.

(٢) البخاري (٢٩١٠)، مسلم (٨٤٣) واللفظ له.

(٣) البخاري (٢٦١٧)، مسلم (٢١٩٠) واللفظ له.

(٤) أبو داود (٤٥١٢). شرح صحيح مسلم للنووي ٧/ ٤٣٤.

(٥) في دلائل النبوة للحافظ أبي نعيم الأصبهاني عقد فصلا في كتابه بعنوان: ذكر ما خصه الله ﷻ به من العصمة وحماه من التدين بدين الجاهلية. . . " وقد أورد تحت هذا العنوان العديد من الأحاديث والشواهد

عصمته من الشرك والكفر كلها فقد دلت النصوص الثابتة على أن النبي ﷺ معصوم منذ نشأته من الكفر والشرك فلم يعهد عنه ﷺ أنه سجد لصنم أو استلمه أو إلى غير ذلك من أمور الشرك التي كان يفعلها قومه. فقد فطره الله على معرفته والاتجاه إليه وحده وهذا هو المعلوم من سيرته. فمن النصوص التي يستدل بها على هذا الأمر ما يلي:

الدليل الأول: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ. فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ.[١]

فالحديث نص على إخراج جبريل لحظ الشيطان منه ﷺ وتطهيره لقلبه فلا يقدر الشيطان على إغوائه إذ لا سبيل له عليه. وهذا دليل على تنزيهه من الشرك منذ صغره ﷺ.

الدليل الثاني: عن زيد بن حارثة قال: كان صنم من نحاس يقال له: إساف، أو نائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا فطاف رسول الله ﷺ، فطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال: رسول الله ﷺ: "لا تمسه" فقال زيد: فطفت، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: "ألم تنه؟ " قلت: زاد فيه غيره، عن محمد بن عمرو بإسناده: قال زيد: فو الذي هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه.[٢]

في هذا الشأن. وكذلك فعل البيهقي في دلائل النبوة أيضا فعقد عنوانا لهذا الموضوع فقال: "باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسوله ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها، لما يريده به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولًا". ومثلهما السيوطي في الخصائص الكبرى حيث قال: "باب اختصاصه ﷺ بحفظ الله إياه في شبابه عما كان فيه أهل الجاهلية".

(١) مسلم (٢٦١).

(٢) حسن. الحاكم في المستدرك ١/ ٤١٤، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٢/ ٣٤ من طريق الحسن بن علي بن عفان العامري قال: حدثنا أبو أسامة قال: حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أسامة بن زيد، عن زيد بن حارثة به.

قال القاضي عياض:

والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف نفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحد النبي واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك ومستند هذا الباب النقل وقد استدل بعضهم بان القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله.

وأنا أقول إن قريشًا قد رمت نبينا بكل ما افترته، وغير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نص الله تعالى عليه أو نقلته إلينا الرواة ولم نجد في شيء من ذلك تعييرا لواحد منهم برفضه آلهته وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين وبتلونه في معبوده محتجين ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها كما حكاه الله عنهم.

وقد استدل القاضي القشيري على تنزيههم عن هذا بقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾ الآية.

وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قال: وطهره الله في الميثاق وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه، ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره قبل مولده بدهور ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب، بهذا ما لا يجوزه إلا ملحد، هذا معنى كلامه، وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام وشق قلبه صغيرًا واستخرج منه علقة وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله، وملأه حكمة وإيمانا كما تظاهرت به أخبار المبدأ.[1]

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٢٦.

وأما الكفر والبدعة فأجمعت الأمة على عصمتهم منهما قبل النبوة وبعدها. ولم يخالف هذا الإجماع إلا من لا يعتد بخلافهم. (١)

خامسًا: عصمة النبي ﷺ من الكبائر:

جبل الله نبيه محمدًا ﷺ على كل خلق فاضل كريم قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فخلقه بأكرم السجايا، وجميل الأخلاق، وحسن الطوية وصفات الخير جميعها، كما نزهه عن كل ما يحط من قدره وينقص من منزلته، قال تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾، فهو ﷺ منزه من كل ضلال وغواية، وقد كان من صيانة الله وحفظه له أن حماه من أقذار الجاهلية قبل مبعثه ونزول الوحي إليه، فهو معصوم عن كل ما يحط من قدره ويدق في شخصه ومما ورد في هذا الشأن من الأحاديث ما يلي:

عن جابر بن عبد الله: "أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ. فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَ عَلَى مَنْكِبَيْكَ دُونَ الْحِجَارَةِ. قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيَانًا ﷺ. (٢)

أما في خصوصه ﷺ فإنا نورد الآتي: إنه مهما يكن من شيء فإن عصمته ﷺ من الكبائر والصغائر بعد البعثة يجب القطع بها لنص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١)، لوجوب التأسي به وامتناع أن يكون فيه شيء من ذلك قطعًا.

أما قبل البعثة فالعصمة من الكبائر أيضًا يجب الجزم بها لأنه ﷺ كان في مقام التهيؤ للنبوة من صغره وقد شق صدره في سن الرضاع وأخرج منه حظ الشيطان، ثم إنه لو كان قد وقع منه شيء لأخذوه عليه حين عارضوه في دعوته ولم يذكر من ذلك ولا شيء. (١)

---

(١) عصمة الأنبياء للرازي صـ ٢٦، الإحكام للآمدي ١/ ١٤٥، البحر المحيط للزركشي٤/ ١٦٩، حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة١/ ١٤٥ وانظر ما سبق.

(٢) البخاري (٣٦٤)، مسلم (٣٤٠).

سادسًا: عصمة النبي ﷺ من الصغائر.

الدليل الأول: قال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾، ففي تلك الآية الكريمة جعل المولى ﷻ التأسي بنبيه ﷺ من لوازم رجائه تعالى واليوم الآخر، وما كان سبحانه يجعل الاقتداء بنبيه ﷺ من لوازم رجائه تعالى واليوم الآخر، إلا وهو ﷺ معصوم في سلوكه من الصغائر.[٢]

الدليل الثاني: وقال ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

الدليل الثالث: وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ فقوله: " فَٱتَّبِعُونِي "، "واتبعوه" أي: اسلكوا مسلكه، واحذوا حذره ﷺ في جميع أموره من قول وفعل.

ووجه الاستدلال في الآيتين أنه تعالى جعل الاقتداء والمتابعة لرسوله ﷺ لازمة من محبته ﷻ الواجبة، ولازمة للهداية والفلاح في الدنيا والآخرة. وما تلك الملازمة وسابقتها إلا شهادة من رب العزة لرسوله ﷺ على عصمته من الصغائر في كل أقواله وأفعاله.

الدليل الرابع: السيرة العطرة فتشهد أيضًا بعصمته ﷺ من الصغائر في أحواله كلها حيث لم يعلم عنه ﷺ الوقوع في صغيرة ولا الدنو من شيء منها، مع أن سبل النقل عنه ﷺ أحصت كل حركة من حركاته، وكل قول من أقواله، فما ترك الصحابة ﷺ فعلًا من أفعاله، ولا قولًا من أقواله، دق أو جلَّ إلا نقلوه إلينا عنه، حتى أنهم وصفوا يقظته، ونومه، كما وصفوا حديثه وصمته، وقيامه وجلوسه، وسيره وركوبه وترجله وجميع شمائله، إلى غير ذلك مما هو مدون في كتب الحديث والشمائل والمغازي والسير، لأنهم كانوا يرون ذلك تبليغًا عنه، وقد أمرهم ﷺ بالتبليغ عنه بقوله ﷺ في حجة الوداع: " أَلاَ لِيُبَلِّغِ

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/ ٢٢٥.

(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ٣٥.

الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ". [(١)]

فلو رأى الصحابة -رضي الله عنهم- أو سمعوا منه شيئًا مما أجازه عليه بعض أهل العلم من قربه الصغائر -وحاشاه من ذلك- لما فاتهم نقل ذلك عنه ضمن ما نقلوه من أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته.

ولكنهم ﷺ لم ينقلوا عنه شيئًا من ذلك -فيما علمنا- ولو رأوا منه شيئًا من ذلك أو علموه عنه لنقلوه إلينا، وعُلم عنهم لتوافر دواعي النقل عنه.

فالقول بعصمة رسول الله ﷺ من جميع الذنوب كبيرها وصغيرها، سرها، وجهرها، عمدها وسهوها هو ما ندين لله تعالى به؛ فقد كانت أقواله وأفعاله ﷺ وأحواله كلها تشريعًا تقتضي المتابعة والاقتداء، إلا ما ورد الدليل فيها على أنه من خصائصه ﷺ أو ما ورد الدليل فيه أنه ليس من جنس ما يشرع لهم التأسي به فيه إلا عند وجود السبب. [(٢)]

ولا يكون لأقواله وأفعاله ﷺ ذلك الوصف التشريعي إلا بالقول بوجوب العصمة لرسول الله ﷺ من الصغائر خلافًا لمن أجازها من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين. [(٣)] تمسكًا منهم بظواهر من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث الصحاح التي ذكر فيها ما يشعر بوقوع الخطيئة من بعضهم، وسيأتي الجواب عن ذلك تفصيلًا ويكفي في الرد عليهم هنا إجمالًا ما سبق من شهادة القرآن الكريم والسيرة العطرة على عصمته ﷺ من الصغائر.

سابعًا: بالنسبة لأحوال النبي ﷺ في أمور الدنيا.

فقد قسمها القاضي عياض إلى ثلاثة أنواع:

---

(١) البخاري (٥٥٥٠)، مسلم (١٦٧٩).

(٢) مثل حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، وَعُدِّلَتِ الصُّفُوفُ قِيَامًا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَلَمَّا قَامَ فِي مُصَلاَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ جُنُبٌ فَقَالَ لَنَا: " مَكَانَكُمْ". ثُمَّ رَجَعَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ، فَكَبَّرَ فَصَلَّيْنَا مَعَهُ" البخاري (٢٧٥)، ومسلم (١١٠٦) فالصحابة ﷺ في هذا الموقف لم ينصرف واحد منهم يفعل فعل النبي ﷺ، لعلمهم أن هذا ليس من جنس ما يشرع لهم التأسي به فيه، إلا عند وجوب السبب.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٥٨، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٤٥، البحر المحيط ٤/ ١٧١، جامع أحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٢١، وقد تقدم قولهم عند الحديث عن الأنبياء عمومًا.

فقال: فأما أحواله في أمور الدنيا فنحن نسبرها على أسلوبها المتقدم بالعقد والقول والفعل.

أما العقد منها فقد يعتقد في أمور الدنيا الشيء على وجه ويظهر خلافه أو يكون منه على شك أو ظن بخلاف أمور الشرع.

وذكر حديث رافع بن خديج قَالَ: قَدِمَ نَبِيُّ الله ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ يَقُولُونَ: يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: "مَا تَصْنَعُونَ؟. قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: "لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا". فَتَرَكُوهُ فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ، قَالَ: فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ". (١)

وفي حديث عائشة وأنس قَالَ ﷺ: "أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ". (٢)

وهذا على ما قررناه فيما قاله من قبل نفسه في أمور الدنيا وظنه من أحوالها لا ما قاله من قبل نفسه واجتهاده في شرع شرعه وسنة سنها.

وقد قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ وأراد مصالحة بعض عدوه على ثلث تمر المدينة فاستشار الأنصار فلما أخبروه برأيهم رجع عنه، فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها يجوز عليه فيها ما ذكرناه، إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه وشغل نفسه بها والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملآن الجوانح بعلوم الشريعة مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور ويجوز في النادر وفيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة وقد تواتر بالنقل عنه ﷺ من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها وسياسة فرق أهلها ما هو معجز في البشر.

وأما ما يعتقده في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ومعرفة المحق من المبطل وعلم المصلح من المفسد فبهذه السبيل لقول النبي ﷺ: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ

---

(١) مسلم (٢٣٦٢).

(٢) مسلم (٢٣٦٣).

تَخْتَصِمُونَ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ". (١).

ويجري أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد ويمين الحالف ومراعاة الأشبه ومعرفة العفاص والوكاء مع مقتضى حكمة الله في ذلك فإنه تعالى لو شاء لأطلعه على سرائر عباده ومخبآت ضمائر أمته فتولى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهة ولكن لما أمر الله أمته باتباعه والاقتداء به في أفعاله وأحواله وقضاياه وسيره وكان هذا لو كان مما يختص بعلمه ويؤثره الله به لم يكن للأمة سبيل إلى الاقتداء به في شيء من ذلك ولا قامت حجة بقضية من قضاياه لأحد في شريعته لأنا لا نعلم ما أطلع عليه هو في تلك القضية بحكمه هو إذا في ذلك المكنون من إعلام الله له بما أطلعه عليه من سرائرهم وهذا ما لا تعلمه الأمة فأجرى الله تعالى أحكامه على ظواهرهم التي يستوي في ذلك هو وغيره من البشر ليتم اقتداء أمته به في تعيين قضاياه وتنزيل أحكامه ويأتون ما أتوا من ذلك على علم ويقين من سنته، إذ البيان بالفعل أوقع منه بالقول وأرفع الاحتمال اللفظ وتأويل المتأول وكان حكمه على الظاهر أجلى في البيان وأوضح في وجوه الأحكام وأكثر فائدة لموجبات التشاجر والخصام وليقتدي بذلك كله حكام أمته ويستوثق بما يؤثر عنه وينضبط قانون شريعته وطي ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثر به عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فيعلمه منه بما شاء ويستأثر بما شاء ولا يقدح هذا في نبوته ولا يفصم عروة من عصمته.

وأما أقواله الدنيوية من أخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله فقد قدمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه في كل حال، وعلى أي وجه، من عمد أو سهو، أو صحة أو مرض، أو رضا أو غضب، وأنه معصوم منه ﷺ.

(١) البخاري (٦٩٦٧)، مسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة.

هذا فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب، فأما المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية لا سيما لقصد المصلحة كتوريته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو حذره، إلى غير ذلك. هذا كله فيما بابه الخبر.

فأما ما بابه غير الخبر مما صورته صورة الأمر والنهى في الأمور الدنيوية فلا يصح منه أيضًا ولا يجوز عليه أن يأمر أحدًا بشيء أو ينهى أحدًا بشيء وهو يبطن خلافه.

وقال القاضي من قبل: وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا مستند لها إلى الأحكام ولا أخبار المعاد ولا تضاف إلى وحى بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه فالذي يجب تنزيه النبي ﷺ عن أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفى حال سخطه وجده ومزحه وصحته ومرضه ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله وللثقة بجميع أخباره في أي باب كانت وعن أي شيء وقعت وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شيء منها ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهو أم لا.

وأيضًا فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها مستقصى تفاصيلها ولم يرد في شيء منها استدراكه ﷺ لغلط في قول قاله أو اعترافه بوهم في شيء أخبر به ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه السلام رجوعه ﷺ عما أشار به على الأنصار في تلقيح النحل وكان ذلك رأيا لا خبرًا.

وأيضًا فإن الكذب متى عرف من أحد في شيء من الأخبار بخلاف ما هو على أي وجه كان، استريب بخبره واتهم في حديثه ولم يقع قوله في النفوس موقعا ولهذا ترك المحدثون والعلماء الحديث عمن عرف بالوهم والغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط مع ثقته وأيضا فإن تعمد الكذب في أمور الدنيا معصية والإكثار منه كبيرة بإجماع مسقط للمروءة وكل هذا مما ينزه عنه منصب النبوة والمرة الواحدة منه فيما يستبشع ويستشنع مما يخل بصاحبها ويزري بقائلها لا حقة بذلك وأما فيما لا يقع هذا الموقع فإن عددناها من

الصغائر فهل تجري على حكمها في الخلاف فيها مختلف فيه والصواب تنزيه النبوة عن قليله وكثيره وسهوه وعمده إذ عمدة النبوة البلاغ والإعلام والتبيين وتصديق ما جاء به النبي ﷺ وتجويز شيء من هذا قادح في ذلك ومشكك فيه مناقض للمعجزة فلنقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأنبياء خلف في القول في وجه من الوجوه لا بقصد ولا بغير قصد ولا نتسامح مع من تسامح في تجوز ذلك عليهم حال السهو فيما ليس طريقه البلاغ، نعم وبأنه لا يجوز عليهم الكذب قبل النبوة ولا الاتسام به في أمورهم وأحوال دنياهم لأن ذلك كان يزري ويريب بهم وينفر القلوب عن تصديقهم بعد وانظر أحوال عصر النبي ﷺ من قريش وغيرها من الأمم وسؤالهم عن حاله في صدق لسانه وما عرفوا به من ذلك واعترفوا به مما عرف واتفق النقل على عصمة نبينا ﷺ منه قبل وبعد.[1]

وأما أفعاله ﷺ الدنيوية كما في مسألة الغسل من الجنابة بعد ما أقيمت الصلاة. فحكمه فيها من ترقى المعاصي والمكروهات ما قدمناه ومن جواز السهو والغلط في بعضها ما ذكرناه وكله غير قادح في النبوة بل إن هذا فيها على الندور إذ عامة أفعاله على السداد والصواب بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب على ما بينا إذ كان ﷺ لا يأخذ منها لنفسه إلا ضرورته وما يقيم رمق جسمه وفيه مصلحة ذاته التي بها يعبد ربه ويقيم شريعته ويسوس أمته، وما كان فيما بينه وبين الناس من ذلك فبين معروف يصنعه أو بر يوسعه أو كلام حسن يقوله أو يسمعه أو تألف شارد أو قهر معاند، أو مداراة حاسد وكل هذا لاحق بصالح أعماله منتظم في زاكي وظائف عباداته وقد كان يخالف في أفعاله الدنيوية بحسب اختلاف الأحوال ويعد للأمور أشباهها فيركب- في تصرفه لما قرب- الحمار، وفى أسفاره الراحلة، ويركب البغلة في معارك الحرب دليلا على الثبات، ويركب الخيل ويعدها ليوم الفزع وإجابة الصارخ.

وكذلك في لباسه وسائر أحواله بحسب اعتبار مصالحه ومصالح أمته وكذلك يفعل الفعل من أمور الدنيا مساعدة لأمته وسياسة وكراهية لخلافها وإن كان قد يرى غيره خيرًا

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٥١-١٥٣.

منه كما يترك الفعل لهذا وقد يرى فعله خيرًا منه وقد يفعل هذا في الأمور الدينية مما له الخيرة في أحد وجهيه كخروجه من المدينة لأحد وكان مذهبه التحصن بها وتركه قتل المنافقين وهو على يقين من أمرهم مؤالفة لغيرهم ورعاية للمؤمنين من قرابتهم وكراهة لأن يقول الناس: " أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ ".[(١)]

كما جاء في الحديث وتركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مراعاة لقلوب قريش وتعظيمهم لتغيرها وحذرا من نفار قلوبهم لذلك، وتحريك متقدم عداوتهم للدين وأهله، فقال لعائشة في الحديث الصحيح: "أَلَمْ تَرَىْ أَنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوُا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَلاَ تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟. قَالَ: "لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ". [(٢)]

ويفعل الفعل ثم يتركه لكون، ويبسط وجهه للكافر والعدو رجاء استئلافه، ويصبر للجاهل ويبذل له الرغائب ليحبب إليه شريعته ودين ربه، ويتولى في منزله ما يتولى الخادم من مهنته، ويتسمت في ملاءته حتى لا يبدو منه شيء من أطرافه وحتى كأن على رؤوس جلسائه الطير ويتحدث مع جلسائه بحدث أولهم، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويضحك مما يضحكون منه، وقد وسع الناس بشره وعدله لا يستفزه الغضب ولا يقصر عن الحق ولا يبطن على جلسائه.[(٣)]

* * *

(١) البخاري (٣٥١٨)، مسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) البخاري (١٥٣٨)، مسلم (١٣٣٣).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى٢/ ١٩٦-٢١٢ بتصرف.

٢ـ شبهة: حول تعيين الذبيح، وعلاقته بالصلب والفداء.

قال تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات: ١٠٧). اعترض المعترضون وقالوا: ماذا يعني بالذبح العظيم؟ هل هو الخروف البديل عن إسحاق؟ أم ماذا يشير إليه الخروف؟ وقاسوا مسألة الذبيح على مسألة الصلب، حيث قالوا: إن الخروف يرمز إلى المسيح الذي فدى البشرية بموته على الصليب، كما أن الخروف بديلًا عن إسحاق.

فوقعوا في خطأين: **الأول**: هو اعتقادهم في الذبيح هو إسحاق.

الثاني: وضع مبررات لمسألة الصلب والفداء، قياسًا على فداء إسحاق بذبح عظيم. ثم إنهم قالوا: إن قصة الذبيح عندنا أمر من الله، وعندكم رؤيا نوم.

والجواب على ذلك في بابين:

الباب الأول: تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم عليه السلام في هذه الوجوه:

الوجه الأول: أهمية هذا الموضوع.

الوجه الثاني: اختلاف المسلمين في تعيين الذبيح ومنشأ الخلاف، والجمهور على أنه إسماعيل.

الوجه الثالث: ذكر الأدلة المرفوعة والموقوفة على أن الذبيح إسحاق.

الوجه الرابع: ذكر الحجج العقلية على أن الذبيح إسحاق، والرد عليها.

الوجه الخامس: ذكر الأدلة المرفوعة والموقوفة على أن الذبيح إسماعيل.

الوجه السادس: ذكر الحجج العقلية على أن الذبيح إسماعيل.

الوجه السابع: قصة الذبيح كما جاءت في الكتاب المقدس، ونقضها.

الوجه الثامن: بيان الحكمة من عدم ذكر اسم الذبيح في القرآن.

الوجه التاسع: نوعية المذبوح، ولماذا وصف بوصفه عظيم؟

الوجه العاشر: قصة الذبيح رؤيا نوم، وبيان الحكمة من ذلك.

الباب الثاني: بطلان العلاقة بين الذبيح والصلب والفداء على زعمهم. وذلك في وجهين:

الوجه الأول: بطلان العلاقة بين الذبيح والصلب.

الوجه الثاني: بطلان العلاقة بين الذبيح والفداء.

وإليك التفصيل،

الباب الأول: تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم عليه السلام.

الوجه الأول: أهمية هذا الموضوع.

١ـ مكانتها العظمى في ملتنا:

وبيان ذلك أن الله تعالى إنما اصطفي إبراهيم عليه السلام، وجعله إمامًا للناس بعد ما ابتلاه في إسلامه، ووجده كاملًا فيه، والقرآن قد دل على ذلك تصريحًا وتلويحًا في مواضع:

فمنها: قوله سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٤)، وبقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة١٣١: ١٣٠)، ثم دل على حقيقة هذا الإسلام وتمام هذا الامتحان بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ (الصافات: ١٠٣).

وقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه حين بناء الكعبة أن يبعث من ذريته التي أسكنها بهذا البلد أمة تحمل هذه الشريعة التي هي حقيقة الإسلام وكماله، وكذلك دعا أن يبعث منهم رسولًا يعلمهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة: ١٢٧)، وقد استجاب الله دعاءه فأخرج هذه الأمة، وبعث هذا الرسول ﷺ، وعلى هذا فقد تبين أن هذا الإسلام التام هو حقيقة ملة إبراهيم عليه السلام التي بعث الله نبينا لتكميلها وتفصيل شرائعها، وسماها الإسلام، وحامليها المسلمين الذين بعثهم من ذرية إسماعيل عليه السلام التي أسكنها عند بيته المحرم الذي جعله مركزًا للدين الحنيفي الفطري القيم.

فمن زعم أن هذا الابتلاء وقع على جبل أورشليم، وقرب عليه إسحاق عليه السلام كان في غطاء كثيف عن حقيقة هذه البعثة العظمي، وحقيقة هذا الذبح ومكانته في ملتنا.

٢ـأن اليهود يتعالون على غيرهم متكبرين ومتفاخرين، معلنين أنهم شعب الله المختار:

اعتقادًا منهم أنهم قد تميزوا دون غيرهم واختصوا وحدهم بميراث الخليل إبراهيم عليه السلام، زاعمين أنهم ينتسبون إليه، ويرجعون إلى دينه في كل أمورهم، وقد بين القرآن الكريم بطلان ذلك، وأعلن عدم استحقاق شرف الانتماء إليه، ومن زعم زعمهم

من النصارى والمشركين، فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (آل عمران: ٦٧)، وبين سبحانه أن أولى الناس به هم المسلمون، ونبيهم سيدنا محمد ﷺ، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (آل عمران: ٦٨).

ومن باب تعلق اليهود بالخليل عليه السلام وزعمهم الاستئثار بميراثه الروحي دون غيرهم من ذريته، أنهم اعتقدوا أن إسحاق عليه السلام هو الوريث الوحيد الذي لا ينازع ولا يشاركه أحد في ميراث أبيه الديني، فأسقطوا عن إسماعيل عليه السلام البكورية ثم طعنوا فيه وفي أمه.

وانطلاقًا من هذا المبدأ، زعموا أن إسحاق هو المأمور بذبحه من الله، فاستحق الشرف ونال الفضل هو وذريته من بني إسرائيل، ونزعوا هذا الفضل وهذا الشرف من إسماعيل عليه السلام وذريته من العرب والمسلمين الذين هم أولى الناس بها.

٣ـ أن اليهود لم يبالغوا في كتمان أمر مثل مبالغتهم في ذلك:

فإنهم قد ارتكبوا تحريفات وأكاذيب صريحة في أمر إسماعيل عليه السلام والكعبة، وقد بين الله قصة هذا الذبح في التوراة، ولكن اليهود قد دسوا فيها أهواءهم، فأصلحها القرآن.

ومن ذلك أمران مهمان:

الأول: أن صحفهم التي بأيديهم تقول: إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بصريح القول أن يذبح ولده، وإنما رأى إبراهيم عليه السلام في الرؤيا أنه يذبح ولده. وذلك مما يدل على أن القرآن أرفع من أن يأخذ من اليهود وكتبهم المحرفة، بل هو المهيمن عليها، والمصلح لما أفسدوا فيها.

الثاني: أنهم في ذكر الذبيح أقحموا اسم إسحاق عليه السلام، وهذا من أشنع تحريفاتهم.

٤ـ أنه قد درج الكثيرون من الباحثين على أن يشيروا إلى الخلاف في قصة الذبيح بين اليهود والمسلمين فقط، متغافلين عن موقف النصارى من هذه القصة.

فالنصارى-كما سيتبين لنا من خلال البحث إن شاء الله-قد تابعوا اليهود على أن الذبيح هو إسحاق، حيث اعتبروا ذلك فرصة سانحة لهم تصيدوها للربط بين حادث الذبيح وحادث الصلب والفداء، هذه القصة التي أبطلها القرآن، ونفاها نفيًا قاطعًا. فلو

كان الذبيح إسماعيل عليه السلام، لما استطاعوا أن يربطوا بين الحادثين، ولما تمكن بولس اليهودي ذو الثقافات الوثنية تدعيم عقيدة الصلب والفداء التي استقاها من الديانات الوثنية، فليس هناك اتصال بين إسماعيل وبين المسيح عليه السلام من النسب، من أجل ذلك تمسك النصارى بما نادى به اليهود وتابعوهم في ادعائهم بأن الذبيح إسحاق عليه السلام.

وأخيرًا:

فإننا كمسلمين نؤمن بنبوة كل من سيدنا إسماعيل عليه السلام وسيدنا إسحاق عليه السلام، ونوقن بأنهما نبيان من كرام الأنبياء، ورسولان من خيار الرسل الذين اصطفاهم الله سبحانه من خلقه، وفضلهم على كثير من عباده، وهما ابنان باران، وولدان عزيزان على أبيهما وأبي الأنبياء إبراهيم عليهم جميعًا وعلى نبينا سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

الوجه الثاني: اختلاف المسلمين في تعيين الذبيح، وبيان سبب منشأ الخلاف:

إذا كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد أجمعوا على أن الذبيح هو إسحاق، وسوف يتبين لنا فساد قولهم وتناقضه من خلال نصوصهم، فإن علماء المسلمين قد اختلفوا في تعيين الذبيح من ولدى الخليل إبراهيم عليه السلام، أهو إسماعيل أو هو إسحاق؟ عليهم جميعًا وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكي التسليم.

فذهب فريق منهم إلى أنه إسحاق عليه السلام، ومن أبرز هؤلاء: الطبري[1]، والقرطبي[2].

وذهب فريق آخر إلى أنه إسماعيل عليه السلام، ومن أبرز هؤلاء: ابن تيمية[3]، وابن القيم[4]، وابن كثير[5]، وهو قول الجمهور.

---

(١) جامع البيان ٢٣/ ٨٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٠٠.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٥.

(٤) زاد المعاد ١/ ٧٠، إغاثة اللهفان انظر ٢/ ٤٨٠ وما بعدها.

(٥) تفسير القرآن ١٢/ ٤٣ قصص الأنبياء.

وذهب فريق ثالث إلى التوقف في المسألة، ومن أبرز هؤلاء: الزجاج[(١)]، والجمل[(٢)]، والسيوطي[(٣)].

منشأ الخلاف:

١- عدم ورود نص صريح في القرآن الكريم يثبت من خلاله اسم الذبيح، وكذلك لا يوجد حديث صريح صحيح معتمد ومجمع عليه يرفع إلى النبي ﷺ في المسألة.

٢- أن هذه الروايات مأخذُها أهل الكتاب.

٣- أن المسلمين بريئون من التعصب، فلم ينكروا ما روي لهم من كون إسحاق عليه السلام هو المفدي. وعند ذكر الأدلة والحجج لكل فريق سوف يتبين لك أيها القارئ المنصف أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، كما هو رأى الجمهور من أهل العلم.

الوجه الثالث: ذكر الأدلة المرفوعة والموقوفة من الصحابة والتابعين على أن الذبيح إسحاق عليه السلام.

أولًا: المرفوع:

١ـ حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: الذبيح إسحاق[(٤)].

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٣١١.

(٢) الفتوحات الإلهية ٣/ ٥٤٩.

(٣) القول الفصيح ضمن كتاب الحاوي ١/ ٣١٨-٣١٩.

(٤) ضعيف. أخرجه البزار في مسنده (١٣٠٨) من طريق مسلم بن إبراهيم، عن مبارك بن فضالة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس به. . . . . . . مرفوعًا.

وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨١ من طريق ابن يمان، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس به. . . . . . موقوفًا. وإسناده ضعيف فيه: مبارك بن فضالة، قال الهيثمي: ضعفه الجمهور كما في مجمع الزوائد ٨/ ٢٠٥، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق يدلس ويسوي، وذكره ابن حجر في الطبقة الثالثة من المدلسين وقد عنعن التقريب ٢/ ٢٦٨.

ومع هذا فقد اضطرب في الحديث، فمرة أوقفه ومرة رفعه، ولذا قال البزار بعده: وهذا الحديث قد رواه جماعة، عن المبارك ابن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس موقوفًا. وهذا ما رجحه ابن كثير على الوقف كما في التفسير ١٢/ ٤٨. وعلى وقفه فهو ضعيف، الحسن ومبارك مدلسان وقد عنعنا.

وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨١، والحاكم في مستدركه ٢/ ٥٥٦ من حديث على بن زيد، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قال نبي الله داود: "يا رب أسمع الناس يقولون: رب إسحاق، قال: إن إسحاق جاد لي بنفسه" وهو ضعيف. فيه على بن زيد بن جدعان، ضعيف الحديث التقريب ١/ ٤١٣. وبالجملة ضعف الحديث الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٣٦، ٣٣٥).

٢- **حديث أبي سعيد الخدري** ﷺ: قال رسول الله ﷺ: "إن داود سأل ربه مسألة فقال: اجعلني مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوحي الله إليه إني ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وابتليت إسحاق بالذبح فصبر، وابتليت يعقوب فصبر[(١)]".

٣- **ابن مسعود** ﷺ: عن النبي ﷺ أنه سُئل: من أكرم الناس؟ قال: يوسف بن يعقوب ابن إسحاق ذبيح الله[(٢)].

٤- حديث كتاب يعقوب، وهو حديث ابن عمر ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: "أوحي الله إلى ملك الموت: إن رأيت يعقوب بن إسرائيل فسلم عليه، فأتاه فسلم عليه وقال: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا ملك الموت، قال: مرحبًا بمن

---

(١) ضعيف. ذكره السيوطي في الحاوي ١/ ٣٢٠ قال: وأخرج الديلمي في مسند الفردوس من طريق عبد الله بن محمد بن ناجية، عن محمد بن حرب النسائي، عن عبد المؤمن بن عباد، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ. . . . الحديث.

وإسناده ضعيف، فيه عطية بن سعد العوفي، قال ابن حجر: صدوق يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًا مدلسًا التقريب ١/ ٤٠٣، وقال الذهبي: ضعفوه الكاشف (٢/ ٢٦٩)، ذكره ابن حجر في الطبقة الرابعة من المدلسين وقد عنعن. وعبد المؤمن بن عباد ضعفه أبو حاتم كما في الجرح والتعديل٦/ ٣٤٧، ٦٦.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٢٧٨) من طريق بقية بن الوليد، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود به. وإسناده ضعيف. فيه أولًا: أبو عبيدة لم يسمع من أبيه (فيه انقطاع) وممن نص على ذلك:

الترمذي كما في الجامع الصحيح له ١/ ٢٦، المزي كما في تهذيب الكمال ١٤/ ٦١، أبو حاتم كما في المراسيل لابن أبي حاتم (١٩٦)، ابن حبان كما في الثقات ٥/ ٥٦١، النسائي كما في السنن٣/ ١٠٤، الهيثمي كما في مجمع الزوائد ٨/ ٢٠٢، ابن حجر كما في مقدمة فتح الباري (٣٦٦)، أحمد شاكر كما في تحقيق الترمذي ١/ ٢٧، الألباني كما في الإرواء ٥/ ٤٨.

ولذا فقد أخرج ابن سعد في الطبقات ٦/ ٢٣٧، والترمذي في جامعه ١/ ٢٦ من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سألت أبا عبيدة بن عبد الله هل تذكر من عبد الله شيئا؟ قال: لا.

ثانيا: بقية بن الوليد، يدلس تدليس تسوية وقد عنعن.

قال الألباني: منكر بهذا اللفظ السلسلة الضعيفة (٣٣٤) ثم قال: والحديث صحيح مرفوعا دون قوله: "إن إسحاق ذبيح الله" فإن هذه الزيادة منكرة، فقد أخرج الحديث البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة: سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم لله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: "فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله. . الحديث" ليس فيه (ذبيح الله) فدل على نكارتها، وقد جاءت أحاديث في أن إسحاق هو الذبيح ولكنها كلها ضعيفة.

كنت أتمني لقياه ولو بعد حين، أسألك يا ملك الموت بالذي ملكك قبض روح ابن آدم، هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، وإنه لحي على الأرض، قال: فدعا بنيه وبني بنيه فقال: ائتوني بدواة وقرطاس فاكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد، فإنا أهل بيت موكل بنا أسباب البلاء، أما جدي إبراهيم فأبلاه الله بالنار حتى فداه، وأما إسحاق فأبلاه الله بالذبح حتى فداه، وأما أنا فكان لي ولد قرة عيني. . . [1].

٥ـ حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي أو شفاعتي، فاخترت شفاعتي، ورجوت أن تكون أعم لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لعجلت دعوتي، إن الله لما فرج عن إسحاق كرب الذبح، قيل له: يا إسحاق، سل تعطه قال: أما والله لأتعجلنها قبل نزعات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئًا وأحسن فاغفر له، وأدخله الجنة"[2].

٦ـحديث ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ جِبْرِيلَ ذَهَبَ بِإِبْرَاهِيمَ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخَ، ثُمَّ أَتَى الْجَمْرَةَ الْوُسْطَى فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَرَمَاهُ

(١) **ضعيف.** أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من رواية إسحاق بن وهب الطوسي، عن ابن وهب، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ رفعه، قال الدارقطني: هذا موضوع، وإسحاق كان يضع الحديث على ابن وهب، قاله ابن حجر في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف بذيل الكشاف٤/ ٥٧. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٢٠٣: إسحاق بن وهب الطهرمسي، عن ابن وهب قال الدارقطني: كذاب متروك يحدث بالأباطيل. وقال ابن حبان: يضع الحديث صراحا، وطهرمس من قري مصر. قال ابن عدي: ما أظنه رأى ابن وهب.

(٢) **إسناده ضعيف، وهذا حديث منكر.**

أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٠٧) (٦٩٩٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٢٤) من طريق الوليد بن مسلم، ثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة به. فيه، عبد الرحمن بن زيد: ضعيف، التقريب ١/ ٣٣٦.

الوليد بن مسلم: يدلس تدليس تسوية، وقد عنعن هنا.

قال أبو حاتم: هذا حديث منكر، العلل (٢/ ٢١٩) (٢١٨٤)، قال ابن كثير: غريب منكر، تفسير القرآن (١٢/ ٤٢)، قال الألباني: منكر، السلسلة الضعيفة (٣٣٣).

بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخَ، ثُمَّ أَتَى الْجَمْرَةَ الْقُصْوَى فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخَ، فَلَمَّا أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ إسحاق قَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ أَوْثِقْنِي لَا أَضْطَرِبُ فَيَنْتَضِحَ عليكَ مِنْ دَمِي إِذَا ذَبَحْتَنِي فَشَدَّهُ فَلَمَّا أَخَذَ الشَّفْرَةَ فَأَرَادَ أَنْ يَذْبَحَهُ نُودِيَ مِنْ خَلْفِهِ ﴿أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾(١).

---

(١) هذا الحديث جاء عن ابن عباس من ثلاثة طرق:

الطريق الأول: طريق سعيد بن جبير.

أخرجه أحمد١/ ٣٠٦، والطبراني ١١/ ٤٥٦ من حديث حماد بن سلمة باللفظ المذكور أعلاه.

وأخرجه ابن خزيمة (٢٩٦٧)، والحاكم ١/ ٤٧٧، والطبراني١١/ ٤٥٥ من حديث أبي حمزة السكري موقوفًا على ابن عباس، ولفظه: "جَاءَ جِبْرِيلُ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُرِيَهُ الْمَنَاسِكَ، فَانْفَرَجَ لَهُ ثَبِيرٌ فَدَخَلَ مِنًى فَأَرَاهُ الْجِمَارَ، ثُمَّ أَرَاهُ جَمْعًا وَأَرَاهُ عَرَفَاتٍ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْجَمْرَةِ نَبَعَ لَهُ إِبْلِيسُ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، فَسَاخَ، ثُمَّ نَبَعَ لَهُ حَتَّى ذَكَرَ جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، فَسَاخَ فَذَهَبَ".

وأخرجه الطبراني ١١/ ٤٥٦ من حديث شعيب بن صفوان موقوفًا أيضًا بنفس لفظ حديث أبي حمزة وليس عندهما موضع الشاهد.

جميعًا (حماد بن سلمة، أبو حمزة، شعيب) عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير.

قلت: عطاء بن السائب اختلط، روى عنه أبو حمزة وشعيب بعد الاختلاط، وأما حماد مختلف فيه، والراجح أنه سمع قبل الاختلاط. وقد قال الإمام أحمد: كان يرفع عن سعيد بن جبير أشياء لم يكن يرفعها (نهاية الاغتباط٢٣٤).

قلت: وكلام الإمام أحمد يتنزل هنا، فإن الحديث رواه اثنان عن عطاء على الوقف، وخالفهما حماد بن سلمة فرواه على الرفع بذكر محل الشاهد، وهذا الاختلاف يؤكد اضطراب عطاء بن السائب في الرواية فلم يضبط إسنادها ولا لفظها.

ولذا قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٢-٢٦٣): رواه أحمد. وفيه عطاء، وقد اختلط. وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح إلا قوله فيه: "فلما أراد إبراهيم أن يذبح ابنه. . " فتراه خطأ من عطاء (المسند٢٧٩٥)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٣٧).

الطريق الثاني: طريق أبي الطفيل عامر بن واثلة.

أخرجه مسلم (١٢٦٤) من حديث عبد الملك بن سعيد بن الأبجر، وأخرجه أيضًا من حديث ابن أبي حسين، وأخرجه أيضًا من حديث الجريري موقوفًا، ولفظه: قال أبو الطفيل: " قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَرَأَيْتَ هَذَا الرَّمَلَ بِالْبَيْتِ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ وَمَشْيَ أَرْبَعَةِ أَطْوَافٍ أَسُنَّةٌ هُوَ؟ فَإِنَّ قَوْمَكَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ سُنَّةٌ، قَالَ: فَقَالَ: صَدَقُوا وَكَذَبُوا، قَالَ: قُلْتُ: مَا قَوْلُكَ صَدَقُوا وَكَذَبُوا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ مَكَّةَ فَقَالَ: الْمُشْرِكُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ مِنَ الْهُزَالِ وَكَانُوا يَحْسُدُونَهُ، قَالَ: فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا

ثَلَاثًا وَيَمْشُوا أَرْبَعًا، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ رَاكِبًا أَسُنَّةٌ هُوَ؟ فَإِنَّ قَوْمَكَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ سُنَّةٌ، قَالَ: صَدَقُوا وَكَذَبُوا، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا قَوْلُكَ صَدَقُوا وَكَذَبُوا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَثُرَ عليهِ النَّاسُ يَقُولُونَ: هَذَا مُحَمَّدٌ هَذَا مُحَمَّدٌ حَتَّى خَرَجَ الْعَوَاتِقُ مِنْ الْبُيُوتِ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُضْرَبُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا كَثُرَ عليهِ رَكِبَ، وَالْمَشْيُ وَالسَّعْيُ أَفْضَلُ".

وأخرجه أحمد ١/ ٣٧٢ من حديث حماد بن سلمة، وأخرجه أبو داود (١٨٨٩)، وابن خزيمة (٢٧٠٧)، وابن حبان (٣٨١٢)، والبيهقي (٥/ ٧٩) من حديث يحيي بن سليم، كلاهما (حماد، يحيى) عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الطفيل به موقوفًا على ابن عباس، مختصرًا بذكر قصة الرمل فقط.

وأخرجه أحمد (١/ ٢٢٩)، والطبراني (١٠/ ٢٦٧)، وابن حبان (٣٨١١)، والحميدي (٥١١) من حديث فطر بن خليفة، عن أبي الطفيل به، ولفظه: " قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ قَوْمَكَ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ رَمَلَ بِالْبَيْتِ وَأَنَّهَا سُنَّةٌ، قَالَ: صَدَقُوا وَكَذَبُوا، قُلْتُ: كَيْفَ صَدَقُوا وَكَذَبُوا؟ قَالَ: قَدْ رَمَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْبَيْتِ وَلَيْسَ بِسُنَّةٍ قَدْ رَمَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُشْرِكُونَ عَلَى جَبَلِ قُعَيْقِعَانَ فَبَلَغَهُ أَنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ بِهِمْ هَزْلًا فَأَمَرَ بِهِمْ أَنْ يَرْمُلُوا لِيُرِيَهُمْ أَنَّ بِهِمْ قُوَّةً " هذا لفظ أحمد.

وأخرجه الطبراني (١٠/ ٢٦٩) من حديث عبد الكريم عن أبي الطفيل به، ولفظه: " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ، قَالَ: إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ زَعَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ هَلَكْتُمْ هَزْلًا وَجُوعًا، فَارْمُلُوا إِذَا دَخَلْتُمْ وَاسْتَلَمْتُمْ ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ، فَفَعَلُوا، فَقَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: مَا نَرَى الْقَوْمَ إِلا أَقْوِيَاءَ، وَقَدْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا هَزْلًا".

وأخرجه أبو داود (١٨٨٥)، وأحمد ١/ ٢٧٩، والطبراني١٠/ ٢٦٨، والبيهقي ٥/ ١٥٤ من حديث حماد بن سلمة عن أبي عاصم الغنوي عن أبي الطفيل به، موقوفًا بنحو ما أخرجه مسلم، إلا أن عند أحمد، والطبراني، والبيهقي زيادة وهي: "وَيَزْعُمُ قَوْمُكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ، قَالَ: صَدَقُوا إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى فَسَابَقَهُ فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَعَرَضَ لَهُ شَيْطَانٌ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، قَالَ: قَدْ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ؛ قَالَ يُونُسُ: وَثَمَّ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَعَلَى إِسْمَاعِيلَ قَمِيصٌ أَبْيَضُ، وَقَالَ: يَا أَبَتِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي ثَوْبٌ تُكَفِّنُنِي فِيهِ غَيْرُهُ فَاخْلَعْهُ حَتَّى تُكَفِّنَنِي فِيهِ، فَعَالَجَهُ لِيَخْلَعَهُ فَنُودِيَ مِنْ خَلْفِهِ: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ فَإِذَا هُوَ بِكَبْشٍ أَبْيَضَ أَقْرَنَ. . . "

فهؤلاء جميعًا (عبد الملك، ابن أبي حسين، الجريري، عبد الله بن عثمان، فطر، عبد الكريم، أبو عاصم الغنوي) عن أبي الطفيل به. . .

وانفرد أبو عاصم من بينهم بذكر هذه الزيادة.

قلت: أبو عاصم الغنوي؛ قال ابن حجر: مقبول، ومعنى ذلك أنه لابد أن يتابع على حديثه وإلا فهو لين الحديث، ثم إن اللفظ المذكور حجة عليهم ففيه إثبات أن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق.

الطريق الثالث: طريق سالم بن أبي الجعد مرفوعًا

ثانيًا الموقوف:

١ـ ابن مسعودﷺ: عن أبي الأحوص قال: "افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان بن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله" (١).

٢ - **جابر بن عبد الله** ﷺ: لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَنَامِ أَنْ يَذْبَحَ إِسْحَاقَ أَخَذَ بِيَدِهِ (٢).

٣ـ علي ﷺ[٣]: قال في تفسيره لقوله سبحانه: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال: هو إسحاق.

٤ـ حديث كعب الأحبار: قال: " لما رأى إبراهيم ذبح إسحاق، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن أحدًا منهم أبدًا، فتمثل الشيطان لهم رجلا يعرفونه، فأقبل حتى إذا خرج إبراهيم بإسحاق ليذبحه دخل على سارَة امرأة إبراهيم. . . "[٤].

أخرجه الحاكم ١/ ٦٦ من طريق إبراهيم بن طهمان ثنا الحسن بن عبد الله، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس –رضي الله عنهما– رفعه، قال: " لما أتى إبراهيم خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، قال ابن عباس ﷺ: الشيطان ترجمون وملة أبيكم إبراهيم تتبعون) وليس فيه موضع الشاهد، وهذا الطريق صححه الألباني في صحيح الترغيب (١١٥٦).

وخلاصة الكلام في هذا الحديث: أن الصحيح فيه أنه موقوف على ابن عباس بدون ذكر قصة الذبيح، كما أخرجها مسلم وغيره.

(١) **إسناده صحيح**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨١، الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٤٦٦)، والطبراني في الكبير (٨٨٢٤)، من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص به.

ورجح الدارقطني في العلل وقفه على ابن مسعود (٩٣٣)، وكذلك ابن كثير في التفسير (١٢/ ٤٥).

(٢) **ضعيف جدًا**. أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٩ من طريق الواقدي قال: حدثنا محمد بن عمرو الأويسي، عن أبي الزبير، عن جابر به. إسناده ضعيف جدًا فيه الواقدي، التقريب ١/ ٤٩٨ (٦١٧٥).

(٣) **ضعيف**. أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٥٣٢) من طريق الحجاج بن أرطاة، عن القاسم بن أبى بزة، عن أبى الطفيل، عن على به. إسناده ضعيف، فيه: حجاج بن أرطاة مدلس من الدرجة الرابعة وقد عنعن، وفيه جهالة حال شيخ عبد الرزاق، حيث قال عن رجل، عن الحجاج.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٢٣/ ٨٢، والحاكم في المستدرك٢/ ٥٥٧ من حديث يونس، عن ابن شهاب أن عمرو ابن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي أخبره أن كعب قال لأبي هريرة. . الحديث.

٥ـ أبو الهذيل (من كبار التابعين). قال: " قال يوسف للملِك في وجهه: ترغب أن تأكل معي، وأنا والله يوسف بن يعقوب نبيّ الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله". (١)

٦ـ أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل: (قال يوسف للملك. . .)(٢). وذكر نحو ما قال أبو الهذيل.

٧ـ عبد الله بن عمير: قال: "قال موسي: يا رب يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بي شيئا قطّ إلا اختارني عليه، وإن إسحاق جاد لي بالذبح، وهو بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاءً زادني حسن ظنّ"(٣).

٨ـ السدي: قال: " قال جبريل لسارَة: أبشري بولد اسمه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فضربت جبهتها عَجَبا، فذلك قوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾، و﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ إلى قوله: ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ قالت سارَة لجبريل: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عودًا يابسًا، فلواه بين أصابعه، فاهتز أخضر، فقال إبراهيم: هو لله إذن ذَبيح؛ فلما كبر إسحاق أُتِيَ إبراهيمُ في النوم، فقيل له: أوف بنذرك الذي نَذَرْت). (١)

وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٣ من طريق عبد الله بن أبي بكر، عن محمد بن مسلم الزهري، عن أبي سفيان بن العلاء بن حارثة الثقفي حليف بني زهرة، عن أبي هريرة، عن كعب. . بنحوه.

وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٥٣٠) من طريق معمر، عن الزهري: قال القاسم بن محمد أنه اجتمع أبو هريرة وكعب فجعل أبو هريرة يحدث كعب، عن النبي ﷺ، وجعل كعب يحدث أبا هريرة عن الكتب. . . الحديث.

قال ابن كثير في تفسيره: وهذه الأقوال -والله أعلم- كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه، فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة -والله أعلم- حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

(١) **إسناده صحيح**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٢ من طريق وكيع، عن أبي سنان الشيباني، عن أبي الهذيل به.

(٢) **ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٣ من طريق حمزة الزيات، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٥٦٠) من طريق أبي إسحاق السبيعي، كلاهما (حمزة، أبي إسحاق) عن أبي ميسرة به.

إسناده ضعيف، في طريق الطبري انقطاع بين حمزة وأبي ميسرة، وفي طريق ابن أبي حاتم: أبو إسحاق السبيعي مدلس من الطبقة الثالثة، وقد عنعن ثم هو اختلط، وحمزة روي عنه بعد الاختلاط.

(٣) **إسناده صحيح**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٢ من طريق أبي عاصم.

١٠ـ وهب بن منبه: وذكر قصة طويلة في ذبح إسحاق. [٢]

١١ ـ مسروق: قال: هو إسحاق[٣].

الوجه الرابع: الحجج العقلية في أن الذبيح إسحاق عليه السلام.

استدل القائلون بأن الذبيح إسحاق عليه السلام بحجج عقلية استنبطوها من آيات القرآن الكريم، وتأولوا معانيها حتى توافق مذهبهم، ومن هذه الحجج:

الحجة الأولى: ذكر الإمام الرازي أن من الحجج العقلية التي استدل بها هؤلاء أنه تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحاق[٤].

وهذا ما أشار إليه الطبري بقوله:

وأولى القولين بالصواب في المَفْديّ من ابني إبراهيم خليل الرحمن على ظاهر التنزيل قول من قال: هو إسحاق، لأن الله قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ فذكر أنه فدَى الغلامَ

---

(١) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٧٨ قال: حدثنا موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو ابن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي به.

فيه أسباط صدوق كثير الخطأ، وموسي بن هارون شيخ الطبري ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨/ ١٦٨) ولم يذكر فيه شيئًا، فمثله مجهول الحال.

(٢) **موضوع**. أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٩-٥٦٠ من طريق عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وهب بن منبه به. وفيه؛ إدريس بن سنان: ضعيف، التقريب ١/ ٩٧.

عبد المنعم بن إدريس: يضع الحديث على أبيه، وقال أحمد ويحيى بن معين: كذاب. ثم هو لم يسمع من أبيه، مات أبوه وهو رضيع. ميزان الاعتدال ٢/ ٦٦٨، لسان الميزان ٤/ ٧٣، التاريخ الكبير ٦/ ٢٣٨، المجروحين لابن حبان ٢/ ١٥٧

(٣) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري ٢٣/ ٨١ من طريق شعبة وزكريا، عن ابن إسحاق، عن مسروق به.

(٤) الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٤.

الحليمَ الذي بُشِّر به إبراهيم حين سأله أن يهب له ولدًا صالحًا من الصالحين، فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ فإذا كان المفدِيّ بالذبح من ابنيه هو المبشَّر به، وكان الله -تبارك اسمه- قد بين في كتابه أن الذي بُشِّر به هو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال جل ثناؤه: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ (هود: ٧١)، وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره إياه بولد، فإنما هو معنيّ به إسحاق، كان بيّنا أن تبشيره إياه بقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ في هذا الموضع نحو سائر أخباره في غيره من آيات القرآن[(١)].

وبنفس الحجة قاله القرطبي بشيء من التصرف[(٢)].

فهم يرون أن الخليل ﷺ قد بشر بالغلام بعد اعتزاله لقومه، وأن هذا الغلام هو إسحاق وليس إسماعيل حسب ما ورد في سورة مريم، وأن هذا الغلام المبشر به هو الذبيح لقوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾، وأن إسحاق فقط هو الذي بشر به دون إسماعيل.

وللرد عليهم وبيان بطلان ما ذهبوا إليه نقول:

فيما يتعلق بتبشير الله سبحانه لإبراهيم بإسحاق عقب الاعتزال كما يزعمون فإن ذلك غير صحيح، حيث إنهم اعتمدوا على ما ورد في سورة مريم ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ . ﴾ (مريم: ٤٩). فلو كان هذا صحيحًا لكان إسحاق أكبر من إسماعيل، وهذا لم يقل به أحد من اليهود والنصارى ولا من المسلمين، اللهم ما ذكره القرطبي فشذ فيه عن الجميع حين قال في تفسيره لقصة الذبيح: قد ذكرنا أولًا ما يدل على أن إسحاق أكبر من إسماعيل[(٣)].

ولو كان الأمر كما يدعي لأصبح إسحاق هو البكر وأراح اليهود من محاولات التحريف والتبرير التي أحدثوها حتى ينفوا عن إسماعيل أنه بكر، ويسقطوا عنه البكورية.

---

(١) جامع البيان ٢٣/ ٨٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٠٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١١١.

والعجيب أنني وجدت القرطبي يذكر أن إسماعيل هو أكبر ولد إبراهيم، وأن أباه قد نقله إلى مكة وكان له سنتان، وأنه ولد قبل أخيه إسحاق[١].

بل والأعجب من ذلك أنني وجدته في تفسير سورة مريم يقول بالنص في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾: والجمهور أنه إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم. وقد قيل: إن الذبيح إسحاق، والأول أظهر على ما تقدم ويأتي في "وَالصَّافَّاتِ" إن شاء الله تعالى[٢].

فالإجماع قائم من أهل الكتاب والمسلمين على أن إسماعيل أكبر من إسحاق، وبناءً على ذلك فإن أول غلام بشر به إبراهيم بعد اعتزاله لقومه أو هجرته لربه هو إسماعيل وليس إسحاق، وأن قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ ينطبق على إسماعيل.

ونكتفي بالإشارة هنا إلى أن الفاء في ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ للتعقيب، والبشارة: الإخبار بخير وارد عن قرب أو على بعد؛ فإن كان الله بشّر إبراهيم بأنه يولد له ولد أو يوجد له نسل عقب دعائه كما هو الظاهر وهو صريح في سفر التكوين في الإصحاح الخامس عشر فقد أخبره بأنه استجاب له وأنه يهبه ولدًا بعد زمان، فالتعقيب على ظاهره؛ وإن كان الله بشره بغلام بعد ذلك حين حملت منه هاجر جاريته بعد خروجه بمدة طويلة، فالتعقيب نسبي، أي بشرناه حين قدّرنا ذلك أول بشارة بغلام فصار التعقيب آئلًا إلى المبادرة كما يقال: تزوج فولد له؛ وعلى الاحتمالين فالغلام الذي بُشر به هو الولد الأول الذي ولد له وهو إسماعيل لا محالة. وهذا الغلام الذي بشر به إبراهيم هو إسماعيل ابنه البكر وهذا غير الغلام الذي بشره به الملائكة[٣].

والرد على قولهم أن إسحاق وحده هو المبشر به دون إسماعيل:

فإنه يكفي أن تكون هذه الآية ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ كما يقول الآلوسي دليلًا على أنه مبشر به أيضًا لأن قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ﴾ بعد استيفاء هذه القصة في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٢١.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣/ ١٤٩.

سورة الصافات وتذييلها بما ذيل ظاهر الدلالة على أن هنالك بشارتين متغايرتين. [(١)]

الحجة الثانية:

كما استدلوا بأول الآيات في سورة الصافات، استدلوا بآخر الآيات كما قال الرازي في (سياق حجج من قال بأنه إسحاق) لأنه تعالى لما أتم قصة الذبيح قال بعده: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الصافات: ١١٢) ومعناه أنه بشره بكونه نبيًا من الصالحين، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام[(٢)].

وعلى هذا قال القرطبي:

فالبشارة كانت مرتين، الأولى بولادته، والثانية بنبوته جزاءً على صبره ورضاه بأمر ربه واستسلامه له. ومعني قوله تعالى ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ (الصافات: ١١٣) أي ثنينا عليهما النعمة، وقيل: كثرنا ولدهما، أي باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرج أنبياء بني إسرائيل من صلبه[(٣)].

ويجيب الآلوسي: بأن حمل قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ﴾ على البشارة بالنبوة خلاف الظاهر إذ كان الظاهر أن يقال: لو أريد ذلك بشرناه بنبوته ونحوه. وتقدير أن يوجد نبيًا لا يدفعه كما لا يخفي وكذا وصفه بالصلاح الذي طلبه. [(٤)]

قال ابن القيم: فَإِنْ قِيلَ: فَالْبِشَارَةُ وَقَعَتْ عَلَى نُبُوَّتِهِ أَيْ لَمَّا صَبَرَ الْأَبُ عَلَى مَا أُمِرَ بِهِ وَأَسْلَمَ الْوَلَدُ لِأَمْرِ الله جَازَاهُ الله عَلَى ذَلِكَ. قلنا: الْبِشَارَةُ وَقَعَتْ عَلَى الْمَجْمُوعِ عَلَى ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ وَأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا وَلِهَذَا نُصِبَ " نَبِيًّا " عَلَى الْحَالِ الْمُقَدَّرِ أَيْ مُقَدَّرًا نُبُوَّتَهُ فَلَا يُمْكِنُ

(١) روح المعاني ١٦/ ١٠٢.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ١٥٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١١١.

(٤) روح المعاني ٢٣/ ١٣٦، وسوف يتبين لنا عند عرض حجج القائلين بأن الذبيح إسماعيل مدى ضعف هذه الحجة.

إِخْرَاجُ الْبِشَارَةِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَصْلِ ثُمّ تُخَصّ بِالْحَالِ التّابِعَةِ الْجَارِيَةِ مَجْرَى الفضيلة هَذَا مُحَالٌ مِنْ الْكَلَامِ بَلْ إذَا وَقَعَتْ الْبِشَارَةُ عَلَى نُبُوّتِهِ فَوُقُوعُهَا عَلَى وُجُودِهِ أَوْلَى وَأَحْرَى.[1]

الوجه الخامس: الأدلة المرفوعة والموقوفة عن الصحابة والتابعين على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام.

أولًا: المرفوع.

١ـ حديث الذبيحين:

قلت: جاء من طريقين، طريق مصرح ومختصر، وطريق فيه قصة.

الأول المختصر (مرفوعًا): أن النبي ﷺ قال: ((أنا ابن الذبيحين)).[2]

الثاني المطول فيه قصة: من حديث عبد الله بن سعيد، عن الصنابحي قال: "كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم: (كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله عُدّ علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين؛ فضحك عليه ﷺ فقلنا له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أُمِر بحفْر زمزم، نذر لله أخواله، وقالوا: افْدِ ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، والثاني إسماعيل"[3].

ثانيًا: الموقوف.

الآثار عن الصحابة:

١ـ ابن عمر رضي الله عنه: قال: الذبيح إسماعيل.[4]

---

(١) زاد المعاد ١/ ٧٠.

(٢) **لا أصل له بهذا اللفظ**. قاله الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٣١) وقد استغربه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف ٤/ ١٧٧.

(٣) **ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٤ من حديث إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة قال: ثنا عمر بن عبد الرحيم، عن عبيد بن محمد العتبي، عن أبيه قال: ثني عبد الله بن سعيد به. . . الحديث. سكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: إسناده واهٍ ٢/ ٥٥٤ وقال ابن كثير في تفسيره: غريب جدًا ١٢/ ٥١ وقال السيوطي: هذا حديث غريب، وفي إسناده من لا يعرف حاله (القول الفصيح ضمن كتاب الحاوي ١/ ٣١٩).

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٤، من طريق إسرائيل، عن ثوير بن أبي فاختة، عن مجاهد، عن ابن عمر به. فيه ثوير بن أبي فاختة: ضعيف. كما في التقريب.

٢ـ ابن عباس ﷺ: قال في الذي فداه الله بذبح عظيم: هو إسماعيل.[(١)]

٣ـ عبد الله بن سلام ﷺ: قال: الذبيح إسماعيل.[(٢)]

٤ـ خوات بن جبير الأنصاري: فقال: إسماعيل[(٣)]، وفيه قصة.

٥ـ الشعبي: قال: الذبيح إسماعيل، وقال: رأيت قرني الكبش في الكعبة.[(٤)]

٦ـ مجاهد: قال: هو إسماعيل.[(١)]

---

(١) **صحيح عنه.** جاء عنه من طرق:

* الشعبي. أخرجه الطبري ٢٣/ ٨٤ من حديث داود بن أبي هند، وأخرجه الحاكم (٣٩٩٧) من حديث بيان ابن بشر. كلاهما (داود، بيان)، عن الشعبي به. (إسناده صحيح).

* مجاهد. أخرجه الطبري ٢٣/ ٨٤ من حديث ليث بن أبي سليم، عن مجاهد به. (إسناده ضعيف). فيه ليث ابن أبي سليم ضعيف.

* أبو الطفيل. أخرجه الطبري ٢٣/ ٨٤ من طريق حجاج بن حماد، عن أبي عاصم الغنوي، عن أبي الطفيل به. (إسناده ضعيف) فيه أبو عاصم الغنوي، مقبول.

* سعيد بن جبير. أخرجه الطبري ٢٣/ ٨٤ من حديث محمد بن ميمون السكري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد به. (ضعيف جدًا) فيه عطاء بن السائب اختلط، وروى عنه محمد بن ميمون بعد الاختلاط، كما في نهاية الاغتباط (٢٤١)، وفيه ابن حميد ضعيف جدًا.

* عطاء بن أبي رباح. أخرجه الطبري ٢٣/ ٨٤ من حديث ابن وهب عن عمر بن قيس عن عطاء به. (ضعيف جدًا) فيه عمر بن قيس؛ متروك الحديث كما في التقريب ١/ ٤١٦.

* يوسف بن مهران. أخرجه الطبري ٢٣/ ٨٤ من حديث على بن زيد، عن يوسف به. (إسناده ضعيف) يوسف بن مهران لين الحديث كما في التقريب ١/ ٦١٢ (٧٨٨٦)، وعلى بن زيد؛ ضعيف كما في التقريب ١/ ٤٠١(٤٧٣٤).

(٢) **ضعيف جدًا.** أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٦ من طريق الواقدي، عن ربيعة بن عثمان، عن هلال ابن أسامة، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن سلام به. إسناده ضعيف جدًا، فيه الواقدي متروك الحديث، التقريب ١/ ٤٩٨ (٦١٧٥).

(٣) **ضعيف جدًا.** أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٥، من طريق الواقدي. إسناده ضعيف جدًا. فيه ابن أبي سبرة، والواقدي وهما متروكان.

(٤) **إسناده حسن.** أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٤ من طريق إسحاق بن شاهين، عن خالد بن عبد الله، ومن طريق المثنى، عن عبد الأعلى، كلاهما (خالد، عبد الأعلى)، عن داود، عن الشعبي به.

٧ـ الحسن: قال: هو إسماعيل[٢].

٨ـ محمد بن كعب القرظي:

قال: إن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه من بنيه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله في قصة الخبر عن إبراهيم وما أُمر به من ذبح ابنه إسماعيل، وذلك أن الله يقول، حين فرغ من قصة المذبوح من إبراهيم، قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ يقول: بشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعود ما وعده الله، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.[٣]

الوجه السادس: ذكر الحجج على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام.

١ـ الحجة الأولى: العطف في البشارتين في سورة الصافات يقتضي المغايرة.

استدل القائلون بأن الذبيح إسماعيل بما ورد في قصة الذبيح المذكورة في سورة الصافات، ففي هذه القصة بشر الله سبحانه خليله إبراهيم بالذبيح، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وذكر قصته أولًا، فلما استوفى ذلك قال: ﴿بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، فبين تعالى أنهما بشارتان: بشارة الذبيح، وبشارة ثانية بإسحاق. فالله سبحانه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن إلا في هذا الموضع، أما في سائر المواضع فإنه يذكر البشارة بإسحاق خاصة، ثم إنه تعالى لما ذكر البشارتين جميعًا والبشارة بالذبيح وبإسحاق بعده، كان هذا من الأدلة على أن إسحاق ليس هو الذبيح، وأن المذكور في قصة الذبيح هو

---

(١) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٤. من طريق ابن جريج، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد به. وفيه ابن جريج مدلس وقد عنعن.

(٢) **إسناده صحيح**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٤ من طريق هشيم، ثنا عوف، عن الحسن به.

(٣) **ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٤ من حديث ابن حميد، ثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: سمعت محمد بن كعب به. فيه ابن حميد ضعيف جدًا، تهذيب الكمال (٢٥/ ١٠٤-١٢١)، وأخرجه الحاكم٢/ ٥٥٥ من حديث أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق به. فيه أحمد بن عبد الجبار، ضعيف كما في التقريب (٦٤).

إسماعيل، فدل على أنه هو الذبيح.[1]

قال الشنقيطي:اعلم وفقني الله وإياك، أن القرآن العظيم قد دل في موضعين على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، أحدهما في الصافات والثاني في هود، أما دلالة آيات الصافات على ذلك فهي واضحة جدًا من سياق الآيات، وإيضاح ذلك على أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيمعليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات: ٩٩-١١١)، قال بعد ذلك عاطفًا على البشارة الأولى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (الصافات: ١١٢) فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية، لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضًا: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ فهو تكرار لا فائدة فيه ينزه عنه كلام الله، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولًا فدي بالذبح العظيم هو إسماعيل، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك. . . ومعلوم أن في اللغة العربية أن العطف يقتضي المغايرة، فآية الصافات هذه دليل واضح للمنصف على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام لا إسحاق. عليه السلام[2]

٢ـ الحجة الثانية: اقتران البشارة بإسحاق عليه السلام البشارة بابنه يعقوب عليه السلام.

حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: ٧١).

قال الرازي: فنقول لو كان الذبيح إسحاق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك فالأول: باطل لأنه تعالى لما بشرها بإسحاق، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه، وإلا حصل الخلف في قوله ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، والثاني: باطل لأن قوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٦، ابن كثير في تفسيره ١٢/ ٣٧، أبو السعود في تفسيره ٤/ ٥٠٠، البيضاوي في التفسير (٥٨٨)، فتح القدير٤/ ٥٦٧، الخازن في تفسيره ٤/ ٢٢، روح المعاني ٢٣/ ١٣٣، التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥٩، مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٥، إغاثة اللهفان ٢/ ٤٨٢ وما بعدها.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٦٩١-٦٩٣، وأما موضع هود فسيأتي.

أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ يدل على أن ذلك الابن لما قدر على السعي ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه، وذلك ينافي وقوع هذه القصة في زمان آخر، فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحاق.[١]

ولهذا قال ابن تيمية: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ لَيْسَ هُوَ إسحاق أَنَّ الله تَعَالَى قَالَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فَكَيْفَ يَأْمُرُ بَعْدَ ذَلِكَ بِذَبْحِهِ؟ وَالْبِشَارَةُ بِيَعْقُوبَ تَقْتَضِي أَنَّ إسحاق يَعِيشُ وَيُولَدُ لَهُ يَعْقُوبُ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ قِصَّةَ الذَّبِيحِ كَانَتْ قَبْلَ وِلَادَةِ يَعْقُوبَ بَلْ يَعْقُوبُ إنَّمَا وُلِدَ بَعْدَ مَوْتِ إبْرَاهِيمَ ﷺ وَقِصَّةُ الذَّبِيحِ كَانَتْ فِي حَيَاةِ إبْرَاهِيمَ ﷺ بِلَا رَيْبٍ.[٢]

ولهذا قال ابن كثير: وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد[٣].

قال ابن عاشور: تحت الاستدلال بهذه الآية: وكان ذلك بمحضر إبراهيم فلو ابتلاه الله بذبح إسحاق لكان الابتلاء صوريًا لأنه واثق بأن إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب لأن الله لا يخلف الميعاد. ولمّا بشره بإسماعيل لم يَعِدْه بأنه سيُولد له وما ذلك إلا توطئة لابتلائه بذبحه فقد كان إبراهيم يدعو لحياة ابنه إسماعيل[٤].

٣ـ الحجة الثالثة: الاستدلال بكون ذكر الذبيح موصولًا بالدعاء وكانت إجابة لدعاء الخليل والبشارة بإسحاق كانت له ولزوجته تعجبًا.

استدل القائلون بأن الذبيح إسماعيل أيضًا بما حكى الله تعالى عن الخليل إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات: ٩٩) ثم طلب من الله تعالى ولدًا يستأنس به في غربته فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٠)، وهذا الدعاء بصيغة السؤال

---

(١) الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٤، الكشاف ٤/ ٥٧، المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٠، الخازن في تفسيره ٤/ ٢٢، البحر المحيط ٧/ ٣٥٧، فتح القدير ٤/ ٥٦٧، روح المعاني ٢٣/ ١٣٤، البغوي في تفسيره ٤/ ٣٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٥، ويراجع زاد المعاد ١/ ٧٢.

(٣) تفسير ابن كثير ١٢/ ٣٧-٣٨.

(٤) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥٩.

إنما كان حين لم يكن له ولد، وإلا لقيل له قد وهبنا لك من الصالحين، فههنا ذكر الله سبحانه الإجابة في عقب الدعاء ووصلها بالفاء، فقال سبحانه: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾.

وقد أجمع الناس على أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحاق، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء وهو إسماعيل، ثم إن الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل[1].

قال ابن تيمية: والْبِشَارَةَ بِإسحاق كَانَتْ مُعْجِزَةً؛ لِأَنَّ الْعَجُوزَ عَقِيمٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ (الحجر: ٥٤)، وَقَالَتْ امْرَأَتُهُ ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ (هود: ٧٢)، والْبِشَارَةَ بِإسحاق فِي حَالِ الْكِبَرِ وَكَانَتْ الْبِشَارَةُ مُشْتَرَكَةً بَيْنَ إبْرَاهِيمَ وامرأته. وَأَمَّا الْبِشَارَةُ بِالذَّبِيحِ فَكَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَامْتُحِنَ بِذَبْحِهِ دُونَ الْأُمِّ الْمُبَشَّرَةِ بِهِ وَهَذَا مِمَّا يُوَافِقُ مَا نُقِلَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي الصَّحِيحِ وَغَيْرِهِ: مِنْ أَنَّ إسْمَاعِيلَ لَمَّا وَلَدَتْهُ هَاجَرُ غَارَتْ سارة فَذَهَبَ إبْرَاهِيمُ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ إلَى مَكَّةَ وَهُنَاكَ أَمَرَ بِالذَّبْحِ[2]. وَهَذَا مِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّ هَذَا الذَّبِيحَ دُونَ ذَلِكَ.[3]

وبنحو هذا الكلام قال ابن القيم: وينتهي الإمام إلى القول بأن من يتأمل سياق هذه البشارة وتلك تجدهما بشارتين متفاوتتين مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى، والبشارة الأولى كانت له والثانية كانت لها، والبشارة الأولي هي التي أمر بذبح من بشر فيها دون الثانية[4].

وهذا وقد قال ابن عاشور: بأن البشارة بإسحاق كانت بمحضر سَارَة أمّه وقد جُعلت هي المبشرة في قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود: ٧٢)، فتلك بشارة كرامة والأولى بشارة استجابة دعائه، فلما ولد له إسماعيل تحقق أمل إبراهيم أن يكون له وارث من صلبه، فالبشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم أن يهب الله له

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ١٥٤ بتصرف، زاد المعاد ١/ ٧٠.

(٢) البخاري (٣١٨٤).

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٥.

(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ٤٨٥.

من الصالحين عطفت هنا بفاء التعقيب، وبشارته بإسحاق ذكرت في هذه السورة معطوفة بالواو عطف القصة على القصة[1].

٤ـ الحجة الرابعة: الاستدلال بما فرق الله به بين الذبيح وإسحاق، فوصف الذبيح بأنه غلام حليم، ووصف إسحاق بأنه غلام عليم، وبما وصف الله به إسماعيل من صفة الصبر وصادق الوعد.

فقد وصف الله سبحانه الذبيح في سورة الصافات بقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾، وأما إسحاق فجميع الآيات التي جاءت في البشرى به وصفه رب العزة بقوله: ﴿عَلِيمٍ ﴾، كما في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ (الحجر: ٥٣)، وكما في الذاريات ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٨)، وهذا التخصيص لا بد له من حكمة، والحلم هنا مناسب للصبر الذي هو خلق الذبيح، وكذلك فإن إسماعيل قد وصف بالصبر في قوله تعالى﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٥)، وهذا مناسب لقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وكذلك وصف الله إسماعيل بصدق الوعد في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ (مريم: ٥٤) لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفي به، وإذا كان الله سبحانه قد وصف إسماعيل بهذه الصفات ولم يصف إسحاق بشيء منها، فهذا يدل على أن إسماعيل هو الأنسب دون غيره بأن يكون هو الذبيح[2].

٥ـ الحجة الخامسة: الاستدلال بوجود قرنا الكبش في الكعبة.

وهذا مما استدل به من قال بأن الذبيح إسماعيل بأن قرني الكبش الذي فدى به الذبيح كان بالكعبة إلى أن احترق البيت واحترق القربان أيام ابن الزبير والحجاج، فمعني ذلك أن مكان الذبح بمكة، ولو كان الذبيح إسحاق لكان الذبح قد تم بالشام، ولم ينقل عن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٤٩.

(٢) الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٣-١٥٤، الخازن في تفسيره ٤/ ٢٢، مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٤، البحر المحيط ٧/ ٣٥٧، فتح القدير ٤/ ٥٦٧، روح المعاني ٢٣/ ١٣٤، الكشاف ٤/ ٥٦.

أحد أن إسحاق ذهب إلى مكة لا من أهل الكتاب ولا غيرهم[(١)].

قال الآلوسي: وكان قد توارثها قريش خلفًا عن سلف، والظاهر أن ذاك لم يكن منهم إلا للفخر ولا يتم لهم إذا كان الكبش فدًى لإسحاق دون أبيهم إسماعيل[(٢)].

حديث قرن الكبش

من حديث صفية بنت شيبة أُمِّ مَنْصُورٍ قَالَتْ: "أَخْبَرَتْنِي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ وَلَدَتْ عَامَّةَ أَهْلِ دَارِنَا (أَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ، وَقَالَ مَرَّةً: إِنَّهَا سَأَلَتْ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ لِمَ دَعَاكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنَيْ الْكَبْشِ حِينَ دَخَلْتُ الْبَيْتَ فَنَسِيتُ أَنْ آمُرَكَ أَنْ تُخَمِّرَهُمَا فَخَمِّرْهُمَا فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغَلُ الْمُصَلِّيَ"[(٣)].

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٦، الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٤، الخازن في تفسيره ٤/ ٢٢، مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٤، البحر المحيط ٧/ ٣٥٧، ابن كثير في تفسيره ١٢/ ٤٥، فتح القدير ٤/ ٥٦٧، روح المعاني٢٣/ ١٣٤، التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥٨، البغوي في تفسيره (٤/ ٣٣).

(٢) روح المعاني ٢٣/ ١٣٤.

(٣) **صحيح**. أخرجه أحمد ٥/ ٣٨٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ١/ ٤٩٧، وأبو داود (٢٠٣٠)، والحميدي في مسنده (٥٦٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٠٨٣)، ومن طريقه الطبراني في الكبير (٨٣٩٦)، والبيهقي٢/ ٤٣٨ من حديث سفيان بن عيينة، حدثني منصور، عن خاله مسافع، عن صفية، والحديث صححه الألباني في صحيح أبي داود (١٧٨٦).

قلت: وصفية بنت شيبة الراجح أنها صحابية (الإصابة ٧/ ٧٤٣)، وذكرها في القسم الأول، وانظر: (الاستيعاب٤/ ٤٢٧)، أسد الغابة ٦/ ١٧٤، تجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٨٣.

فقد ثبت سماعها من النبي ﷺ، قالت: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ عَامَ الْفَتْحِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ..)، ذكره البخاري في صحيحه تعليقًا في كتاب الجنائز باب الإذخر والحشيش في القبر، والحديث وصله ابن ماجه في السنن (١٣٠٩) والحديث حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٥٢٤).

وقد أخرج البخاري في صحيحه (٥١٧٢) بإسناده، عن صفية بنت شيبة قالت: "أَوْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ بِمُدَّيْنِ مِنْ شَعِيرٍ". وأيضًا: (فقد رأت رسول الله ﷺ عام الفتح يطوف على بعير يستلم الحجر بمحجن في يده ثم دخل الكعبة. . .)، والحديث أخرجه أبو داود (١٨٧٨)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٧٦٥، ٧٧٦٤)، وابن ماجه (٢٩٧٤)، والحديث حسنه المزي كما في تحفة الأشراف ١١/ ٣٤٣، وقال هذا الحديث يُضعف قول من أنكر أن تكون لها رؤية، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٨٤).

قَالَ سُفْيَانُ: لَمْ تَزَلْ قَرْنَا الْكَبْشِ فِي الْبَيْتِ حَتَّى احْتَرَقَ الْبَيْتُ فَاحْتَرَقَا.

اعتراض على مسألة قرن الكبش:

قال الطبري معترضًا على من استدل بوجود قرن الكبش في مكة (في الكعبة):

وذلك أنه غير مستحيل أن يكون حُمل من الشام إلى الكعبة فعلق هناك[1].

فرد ابن تيمية قائلا: فبعد أن استدل بقصة قرن الكبش قال: وَلِهَذَا جُعِلَتْ مِنًى مَحَلًّا لِلنُّسُكِ مِنْ عَهْدِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السَّلَامُ وَهُمَا اللَّذَانِ بَنَيَا الْبَيْتَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ. وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ أَنَّ إسحاق ذَهَبَ إلَى مَكَّةَ لَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهِمْ، لَكِنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَزْعُمُونَ أَنَّ قِصَّةَ الذَّبْحِ كَانَتْ بِالشَّامِ فَهَذَا افْتِرَاءٌ. فَإِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ بِبَعْضِ جِبَالِ الشَّامِ لَعُرِفَ ذَلِكَ الْجَبَلُ وَرُبَّمَا جُعِلَ مَنْسَكًا كَمَا جُعِلَ الْمَسْجِدُ الَّذِي بَنَاهُ إبْرَاهِيمُ وَمَا حَوْلَهُ مِنْ الْمَشَاعِرِ[2].

٦ـ الحجة السادسة: الاستدلال بما فرق الله بين الذبيح وإسحاق بذكرهما ذكرًا مستقلًا.

بعد ذكر الله تعالى المبشر به الذي صار ذبيحًا، والمبشر به الذي هو إسحاق، ذكر أحوالهما بقوله: ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ (الصافات: ١١٣)، فجعلهما اثنين مرتين، وإذ ثبت أن المبشر به أولًا غير المبشر به ثانيًا، والذبيح هو الأول، وإسحاق هو الثاني، ثبت ما ادعيناه. وأما القول بأن المراد ههنا بالاثنين هو إبراهيم وإسحاق عليهما السلام فهو تأويل ضعيف لوجوه:

١- قد فرغ عن ذكر بركة إبراهيم عليه السلام بما سبق من قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ (الصافات: ١٠٩-١١١).

ألا ترى فيما تقدم وتأخر من ذكر المرسلين كيف ختم ذكرهم بمثل هذه الجملة؟.

وأما عن ذكرها في الثقات لابن حبان ٤/ ٣٨٦ فهذا لا يتناقض مع كونها صحابية، فقد ذكرها أيضًا في موضع قبل ذلك (٣/ ١٩٧) وقال: صفية بنت شيبة سمعت النبي ﷺ ورأته طاف عام الفتح على بعير...).

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٥٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٦.

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (الصافات: ٧٨-٨٣)، وقوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الصافات: ١٢٠-١٢٣)، وقوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٠-١٣٣)، وختم السورة بقوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات: ١٨١-١٨٢).

فالظاهر أنه بعد الفراغ عن قصة إبراهيم ختمها بالسلام عليه، ثم ذكر ما خص به ذريته، وإذ قد اشتمل قصته ذكر بشارة ابنه الأول أعقبه ذكر بشارة ابنه الثاني، ثم ختم ذكرهما ببركتهما كذكر سائر الأنبياء.

٢- قد جعل الله البركة لإسماعيل وإسحاق، وأعطى ذريتهما موضعين مباركين، وقد دعا إبراهيم عليه السلام لبركة مسكن إسماعيل، وقد صرحت التوراة بأن الله تعالى بارك إسماعيل عليه السلام.

فهذه الوجوه تستدعي ذكر بركتهما، فلا يصرف عنه إلا دليل يلجئ إلى التخصيص.

وإذ لا وجه للتخصيص فلا بد أن يؤخذ بما هو أوسع وأحسن تأويلًا، وهو ذكر إسماعيل وإسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين.

٣- كما أن الله تعالى ذكر بركته على عباده الصالحين في مواضع من القرآن، واعتنى بذكر بركته على خواصهم، فذكر بركته على إسماعيل وإسحاق في التوراة والقرآن ليعلم ذريتهما من العرب واليهود ما يجب عليهم من الشكر، فكذلك كان حريًا بالذكر أنهم صاروا قسمين: فمنهم من أحسن، ومنهم من ظلم نفسه، لكي يتذكروا. وهذا كثير في التوراة والقرآن مثلًا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٦)، أيضًا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ ...﴾ (فاطر: ٣٢).

فهكذا ههنا نبه العرب واليهود كليهما على ما دخل فيهما من الفساد، وسيأتيك بعض بيانه في أواخر هذا القسط.

فقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾، يدل بظاهره على أن المراد به ذكر ذرية إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، فإن الأخبار بكون بعضها محسنًا وبعضها ظالمًا لنفسه كما يطابق بذرية إسحاق، فهكذا يطابق بذرية إسماعيل عليه السلام، والقرآن أحسن جوامع الكلم. وهذا المعني الحري بالذكر لا يظهر بصرف الضمير إلى إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، وذلك بأنك حينئذ إما أن تريد ذرية واحدة أي الذرية المشتركة بين إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، كما جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام في بني إسماعيل عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة: ١٢٨)، فأراد ب (ذريتنا) ذرية إسماعيل التي هي ذرية إبراهيم عليه السلام أيضًا، فعلى هذا يصير الخبر مختصًا بذرية إسحاق عليه السلام فقط، فلم يحصل المعنى المقصود، وصار ذكر ما هو الأهم متروكًا.

وإما أن تريد ذريتين: الأولى ذرية إسحاق الخاصة وهم يعقوب ونسله، وعيص ونسله، والثانية ذرية إبراهيم الخاصة به قبل ذلك، وهم إسماعيل وإسحاق عليهما السلام أنفسهما، فذلك لا يصح، فإن ذرية إبراهيم المخصوصة به ليس فيها ظالم لنفسه.

فالآن لم يبق لك إلا القول بأن المراد ههنا ذرية إسماعيل وذرية إسحاق، ولكن عبر عن ذرية إسماعيل بذرية إبراهيم، فنقول: هذا المعنى أظهر إذا صرف الضمير إلى إسماعيل عليه السلام الذي سبق ذكره، وإلى إسحاق عليه السلام الذي يتلوه، ثم قد سبق ذكرهما في قوله: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ (الصافات: ١١٣) حسبما بينا آنفًا، ثم لا داعية ههنا للتعبير عن ذرية إسماعيل عليه السلام بذرية إبراهيم عليه السلام، وجعلها في مقابلة ذرية إسحاق عليه السلام.

فتبين أن كل هذه التأويلات تكلف وتعسف، وعاد الأمر إلى ما هو الظاهر وهو صرف الضمير في ذريتهما إلى إسماعيل عليه السلام الذي سبق ذكره، وإلى إسحاق عليه السلام[(١)].

٧ـ الحجة السابعة: الاستدلال بأن القاعدة في الابتلاء والامتحان لأول ولد.

فإن الله سبحانه وتعالى أَجْرَى الْعَادَةَ الْبَشَرِيَّةَ أَنَّ بِكْرَ الْأَوْلَادِ أَحَبُّ إِلَى الْوَالِدَيْنِ مِمَّنْ بَعْدَهُ، وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ وَوَهَبَهُ لَهُ تَعَلَّقَتْ شُعْبَةٌ مِنْ قَلْبِهِ بِمَحَبَّتِهِ وَاللهُ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا، وَالْخُلَّةُ مَنْصِبٌ يَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَحْبُوبِ بِالْمَحَبَّةِ، وَأَنْ لَا يُشَارِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِيهَا، فَلَمَّا أَخَذَ الْوَلَدُ شُعْبَةً مِنْ قَلْبِ الْوَالِدِ جَاءَتْ غَيْرَةُ الْخُلَّةِ تَنْتَزِعُهَا مَنْ قَلْبِ الْخَلِيلِ فَأَمَرَهُ بِذَبْحِ الْمَحْبُوبِ، فَلَمَّا أَقْدَمَ عَلَى ذَبْحِهِ وَكَانَتْ مَحَبَّةُ اللهِ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْوَلَدِ خَلَصَتِ الْخُلَّةُ حِينَئِذٍ مِنْ شَوَائِبِ الْمُشَارَكَةِ فَلَمْ يَبْقَ فِي الذَّبْحِ مَصْلَحَةٌ إِذْ كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْعَزْمِ وَتَوْطِينِ النَّفْسِ عليه فَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ فَنُسِخَ الْأَمْرُ وَفُدِيَ الذَّبِيحُ وَصَدَّقَ الْخَلِيلُ الرُّؤْيَا وَحَصَلَ مُرَادُ الرَّبِّ، حَصَلَ عِنْدَ أَوَّلِ مَوْلُودٍ وَلَمْ يَكُنْ لِيَحْصُلَ فِي الْمَوْلُودِ الْآخَرِ دُونَ الْأَوَّلِ بَلْ لَمْ يَحْصُلْ عِنْدَ الْمَوْلُودِ الْآخَرِ مِنْ مُزَاحَمَةِ الْخُلَّةِ مَا يَقْتَضِي الْأَمْرَ بِذَبْحِهِ وَهَذَا فِي غَايَةِ الظُّهُورِ[(٢)].

٨ـ الحجة الثامنة: الاستدلال بغيرة سارة:

قال ابن القيم: فَإِنَّ سَارَةَ امْرَأَةَ الْخَلِيلِ ﷺ غَارَتْ مِنْ هَاجَرَ وَابْنِهَا أَشَدَّ الْغَيْرَةِ فَإِنَّهَا كَانَتْ جَارِيَةً فَلَمَّا وَلَدَتْ إِسْمَاعِيلَ وَأَحَبَّهُ أَبُوهُ اشْتَدَّتْ غَيْرَةُ "سَارَةَ" فَأَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُبْعِدَ عَنْهَا "هَاجَرَ" وَابْنَهَا وَيُسْكِنَهَا فِي أَرْضِ مَكَّةَ لِتَبْرُدَ عَنْ "سَارَةَ" حَرَارَةُ الْغَيْرَةِ وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى وَرَأْفَتِهِ فَكَيْفَ يَأْمُرُهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهَا وَيَدَعَ ابْنَ الْجَارِيَةِ بِحَالِهِ هَذَا مَعَ رَحْمَةِ اللهِ لَهَا وَإِبْعَادِ الضَّرَرِ عَنْهَا وَجَبْرِهِ لَهَا، فَكَيْفَ يَأْمُرُ بَعْدَ هَذَا بِذَبْحِ ابْنِهَا دُونَ ابْنِ الْجَارِيَةِ؟! بَلْ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ اقْتَضَتْ أَنْ يَأْمُرَ بِذَبْحِ وَلَدِ السَّرِّيَّةِ فَحِينَئِذٍ يَرِقّ قَلْبُ السَّيِّدَةِ عليها وَعَلَى وَلَدِهَا وَتَتَبَدَّلُ قَسْوَةُ الْغَيْرَةِ رَحْمَةً وَيَظْهَرُ لَهَا بَرَكَةُ هَذِهِ الْجَارِيَةِ وَوَلَدِهَا وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ بَيْتًا هَذِهِ وَابْنُهَا مِنْهُم وَلِيُرِيَ عِبَادَهُ جَبْرَهُ بَعْدَ الْكَسْرِ، وَلُطْفَهُ بَعْدَ الشِّدَّةِ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ صَبْرِ "هَاجَرَ" وَابْنِهَا عَلَى الْبُعْدِ

---

(١) الرأي الصحيح ص٨٧-٨٩.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ١/ ٧٠، التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥٧، ابن كثير في تفسيره ١٢/ ٣٧.

وَالْوَحْدَةِ وَالْغُرْبَةِ وَالتَّسْلِيمِ إِلَى ذَبْحِ الْوَلَدِ آلَتْ إِلَى مَا آلَتْ إليهِ مِنْ جَعْلِ آثَارِهِمَا وَمَوَاطِئِ أَقْدَامِهِمَا مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُتَعَبَّدَاتٍ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَذِهِ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِيمَنْ يُرِيدُ رَفْعَهُ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَمُنَّ عليه بَعْدَ اسْتِضْعَافِهِ وَذُلِّهِ وَانْكِسَارِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (الْقَصَصُ: ٥) وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[١].

٩ـ الاستدلال بشعائر الحج:

فلا ريب أن الذبيح كَانَ بِمَكَّةَ وَلِذَلِكَ جُعِلَتْ الْقَرَابِينُ يَوْمَ النَّحْرِ بِهَا كَمَا جُعِلَ السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ تَذْكِيرًا لِشَأْنِ إِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ وَإِقَامَةً لِذِكْرِ الله وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هُمَا اللَّذَانِ كَانَا بِمَكَّةَ دُونَ إسحاق وَأُمِّهِ، وَلِهَذَا اتَّصَلَ مَكَانُ الذَّبْحِ وَزَمَانُهُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي اشْتَرَكَ فِي بِنَائِهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَكَانَ النَّحْرُ بِمَكَّةَ مِنْ تَمَامِ حَجِّ الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ عَلَى يَدِ إِبْرَاهِيمَ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ زَمَانًا وَمَكَانًا، وَلَوْ كَانَ الذَّبْحُ بِالشَّامِ كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَمَنْ تَلَقَّى عَنْهُمْ لَكَانَتْ الْقَرَابِينُ وَالنَّحْرُ بِالشَّامِ لَا بِمَكَّةَ[٢].

الوجه السابع: قصة الذبيح حسب ما جاءت في كتاب اليهود، ونقضها.

أولًا: ذكر القصة كما في كتابهم.

يبتدئ الإصحاح الثاني والعشرون من سفر التكوين بهذه القصة، ولكنها متصلة بالإصحاح السابق الذي يذكر مسكن لإبراهيم الذي رحل منه مع ابنه ليقربه، وفيه أنه تغرب في بئر سبع، وجاء إليه ملك هذه الديار، وعاهد إبراهيم عليه السلام، ثم رجع إلى مستقره في فلسطين، وفي آخر قصة الذبح إشارة إلى مسكنه الذي ذهب منه إلى المكان الذي قرب فيه. وإليك هذه القصة كما جاءت:

١ وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ! ». فَقَالَ: «هأَنَذَا».
٢ فَقَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ

---

(١) زاد المعاد ١/ ٧٠.

(٢) زاد المعاد١/ ٧٠، التحرير والتنوير٢٣/ ١٥٨.

مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ». ٣فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ. ٤وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، ٥فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلاَمَيْهِ: «اجْلِسَا أَنْتُمَا ههُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا». ٦فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. ٧وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: «يَا أَبِي! ». فَقَالَ: «هأَنَذَا يَا ابْنِي». فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟ » ٨فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. ٩فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ١٠ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. ١١فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ! ». فَقَالَ: «هأَنَذَا» ١٢فَقَالَ: «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي». ١٣فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ. ١٤فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهْوَهْ يِرْأَهْ». حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى». ١٥وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ ١٦وَقَالَ: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، ١٧أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، ١٨وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي». ١٩ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى غُلاَمَيْهِ، فَقَامُوا وَذَهَبُوا مَعًا إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ. وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي بِئْرِ سَبْعٍ. (التكوين ٢٢/ ١٩ : ١).

من خلال نص التوراة كما في سفر التكوين، نجد أن القصة - وهي قصة الذبيح- تتضمن الأمور التالية:

١ -كان إبراهيم عليه السلام قد اتخذ برية بئر سبع مسكنًا قبل التضحية وبعدها.

٢-أرض المريا على مسيرة ثلاثة أيام من بئر سبع.

٣-أرض المريا هي التي قرب فيها.

٤-ذلك الموضع كان يرى من بعيد.

٥-إنما قرب إبراهيم ابنه الوحيد.

٦-وكان هذا الابن محبوبًا له.

٧-كان بقرب ذلك المذبح غابة.

ولم يتفطن المحرف بوجه الاستدلال بهذه الأمور، فبقيت ولله الحمد. وأما التصريح باسم إسحاق فلا يعتمد عليه، لأنه موافق لأهواء اليهود فأدخلوه، وقد دلت عليه دلائل كثيرة بعضها من بيان هذه القصة، وبعضها من غيرها من نفس صحفهم[1].

ثانيًا: نقض قول أهل الكتاب بأن الذبيح إسحاق بما جاء في كتابهم.

١ـ الاستدلال بمسكن إبراهيم.

لما بكر إبراهيم ﷺ لأن يقرب ابنه لم يكن معه إسحاقﷺ، وإنما كان معه إسماعيلﷺ. والذي أدخل اسم إسحاق لم يتفطن بهذا الأمر، فبقي دليلًا على إدخاله.

وتفصيل ذلك أن القصة تصرح بأن إبراهيم ﷺرجع بعد ما قرب ابنه إلى بئر سبع وسكن فيها، والرجوع إلى بئر سبع يدل على أنها كانت مسكنه من قبل، وقد صرح بذلك في كتابهم: (١٩ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى غُلاَمَيْهِ، فَقَامُوا وَذَهَبُوا مَعًا إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ. وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي بِئْرِ سَبْعٍ) (التكوين٢٢/ ١٩). وإذا علمت هذا فاعلم أن بئر سبع هي الموضع الذي سكن فيه إسماعيل ﷺ مع أمه، فإنهم قد ذكروا ذلك في قصة إبعاد إسماعيل وأمه من إسحاق وأمه، كما جاء في سفر التكوين (٤فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ... وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ) (التكوين٢١/ ٢٠: ١٤). فبئر سبع لم تكن قرية، وإنما كانت برية، حفر

(١) الرأي الصحيح في من هو الذبيح صـ٤٧-٤٨.

إبراهيم ﷺ فيها سبع آبار وغرس فيها أشجارًا (التكوين: ٢١/ ٣٤: ٢٨).

وعلى هذا فالمقصود هو:

١- أن بئر سبع كانت مسكن إسماعيل ﷺ وأمه.

٢- وأنها كانت بعيدة عن مسكن إسحاق ﷺ وأمه.

٣- وأنها كانت مسكن إبراهيم ﷺ الذي ذهب منه للتضحية، ورجع إليها بعدها.

٢ـ الاستدلال بصفته وحيدك.

أولًا: من خلال النصوص الواردة في سفر التكوين نلاحظ أنها وصفت الابن بأنه وحيد إبراهيم، وكرر هذا الوصف ثلاث مرات (خذ ابنك وحيدك) (تكوين٢٢/ ٢)، (فلم تمسك ابنك وحيدك عني) (تكوين٢٢/ ١٢)، (لم تمسك ابنك وحيدك) (تكوين٢٢/ ١٦)

مع ملاحظة أن كلمة (إسحاق) أضيف إلى كلمة (وحيدك) في المرة الأولى فقط، وفي المرتين الثانية والثالثة ذكرت كلمة وحيدك دون أن تقترن بكلمة (إسحاق).

ولنا أن نتساءل: هل ينطبق على إسحاق هذا الوصف؟ ولن نذهب بعيدًا لنعرف جواب ذلك. **فالجواب من عندهم:**

فمن خلال نصوص السفر نفسه نجد أن إسحاق قد ولد بعد إسماعيل إذ كانت سارة عقيمًا لا تلد فعرضت على إبراهيم يدخل بهاجر وحملت هاجر وحدث ما حدث من غيرة سارة منها وإذلالها حتى ولدت، وإليك هذا النص:

وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجَرُ، ٢فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ الْوِلاَدَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. ٣فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشَرِ سِنِينَ لإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ. ٤فَدَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبِلَتْ. وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرَتْ مَوْلاَتُهَا فِي عَيْنَيْهَا. ٥فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ! أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرْتُ فِي

عَيْنَيْهَا. يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكِ». ٦ فَقَالَ أَبْرَامُ لِسَارَايَ: «هُوَذَا جَارِيَتُكِ فِي يَدِكِ. افْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكِ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهِهَا. (التكوين١٦/ ٦: ١).

وفي نهاية الإصحاح: فَوَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ.١٦ كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ لأَبْرَامَ.(التكوين١٦/ ١٦: ١٥).

وإذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام لم يولد له إسماعيل إلا في السادسة والثمانين من عمره فإن إسحاق لم يولد له إلا بعد أن بلغ المائة سنة من عمره كما ذكر السفر نفسه، وإليك النص: (وكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنَ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ) (التكوين٢١/ ٥).

وعلى هذا يكون سن سيدنا إسماعيل عندما وُلِدَ سيدنا إسحاق قد بلغ الرابعة عشر من عمره، بل إن سفر التكوين قد نص في موضع آخر على أن إسماعيل كان عمره ثلاث عشرة سنة، حينما ختنه أبوه إبراهيم وقد تم هذا حينما بشر بإسحاق قبل أن تحمل به أمه سارة وكان عمره في هذا الوقت تسعًا وتسعين سنة (التكوين١٧/ ٢٧: ١٥)، وبناءً على ذلك فإنه لا يمكن أن يتحقق وصف الابن الوحيد لإسحاق إلا بموت إسماعيل في حياة أبيه، ولكن الأسفار تذكر أن إسماعيل كان موجودًا أثناء فطام إسحاق وكان يلعب معه (التكوين٢١/ ١٠: ٨)، بل إن الأسفار أيضًا تثبت أن إسماعيل ظل حيًا حتى قام بدفن إبراهيم مع أخيه إسحاق عليهم السلام (التكوين٢٥/ ٩).

وعلى هذا فلا ينطبق هذا الوصف (الوحيد) إلا على إسماعيل طوال الأربعة عشر عامًا قبل مولد إسحاق، وهذا يدل على أن كلمة إسحاق بجوار وحيدك لا تتلاءم وأنها قد أقحمت إقحامًا وحشرت حشرًا على النص، كذلك فإن إنجيل (برنابا) يذكر على لسان المسيح عليه السلام أن العهد صنع بإسماعيل لإسحاق وأن إسماعيل هو الذبيح ووصفه (بالبكر)[1].

وما يدل ويزيد التوكيد بشأن إضافة كلمة إسحاق أن النسخة العبرية تشتمل على كلمة (بكرك) بدلًا من كلمة (وحيدك) ولفظ بكرك -بدون شك ولا ريب- أشد دلالة وأكثر تحديدًا من لفظ

(١) إنجيل برنابا (الفصل الثالث والأربعون، والرابع والأربعون).

وحيدك حيث إن الوحيد قد يكون بكرًا وقد يكون غير بكر بافتراض موت البكر أو اغترابه.

ولم يكن إسحاق وحيد إبراهيم في يوم من الأيام ولم يكن أيضًا (بكره) وإنما كان إسماعيل هو البكر وحده، وانطبق عليه وصف (الوحيد) مدة أربعة عشر عامًا قبل مولد إسحاق وهى الفترة التي يرجح أن تكون حادثة الذبح والفداء قد تمت فيها[(١)].

وعلى هذا فإن إسماعيل هو بكره ووحيده باتفاق الملل الثلاث، فالجمع بين كونه مأمورًا بذبح بكره وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين، وأهل الكتاب حرفوا في ذلك فبدلوا وزادوا[(٢)].

وكما يقول الدكتور محمد أبو شهبة: فإن اليهود حينما حرفوا التوراة ليتم لهم ما أرادوا أبى الله سبحانه إلا أن يغفلوا عما يدل على هذه الجريمة النكراء والجاني - غالبًا- يترك ما يدل على جريمته، والحق يبقى له شعاع ولو خافت يدل عليه مهما حاول المبطلون إخفاء نوره وطمس معالمه، فقد حرفوا من التوراة لفظ إسماعيل ووضعوا بدلًا منه إسحاق ولكنهم غفلوا عن كلمة وحيدك التي كشفت عن هذا التزوير وذلك الدس المشين[(٣)].

٣ـ الاستدلال بوصفه أنه يحبه:

الملاحظة الثانية: وصفه بأنه يحبه من خلال قراءة نص التوراة اليهودية الواردة في سفر التكوين نلاحظ أنه وصف الذبيح بقوله: (خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ)، فقد وصف بأن الوالد يحبه وهذا ينطبق على إسماعيل، وأنه الأجدر بالجمع بين الأوصاف الثلاثة معًا أنه الابن الوحيد لإبراهيم (قبل مولد إسحاق)؛ الابن البكر؛ الابن الذي يحبه إبراهيم. وليس معنى هذا أن إبراهيمعليه السلام لم يكن يحب إسحاق عليه السلام-حاشا وكلا- إنه كان يحبه وفرح به قبل أن يولد حين بشر به ولكنه كان يحب إسماعيل أكثر لأنه كان وحيده طوال أربعة عشر عامًا، ولأنه ابنه البكر وغالبًا فإن الأب يخص ابنه البكر بمحبة تفوق محبة إخوته الباقين.

---

(١) قصة الذبيح د. فتحي محمد الزغبي ص٣٥-٤٩، الرأي الصحيح في من هو الذبيح ص٥١-٥٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٢، إغاثة اللهفان ٢/ ٤٨٤.

(٣) الإسرائيليات والموضوعات صـ٣٥٦.

وهذا نراه واضحًا في سيرة إبراهيم عليه السلام مع ولد إسماعيل في القرآن والسنة بل في كتب اليهود أيضًا ففي القرآن الشفقة عليه والدعاء له كما في سورة إبراهيم وكذلك من تخصيصه معه ومشاركته له في بناء البيت الحرام والدعاء عقب الانتهاء من البناء ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ ﴾، ومن السنة حيث كانت معاهدة إبراهيم عليه السلام في زيارة ولده وحديثه في الصحيح[١].

وأما في كتابهم فقد كان شغله هو إسماعيل فعندما بشر بإسحاق اغتنم الفرصة في الدعاء لإسماعيل بأن يكلأ الله إسماعيل برعايته، فاستجاب الله له، ووعده خيرًا في إسماعيل (التكوين١٧/ ١٨).

يقول ابن القيم: إن إبراهيم عليه السلام إنما رزق إسحاق عليه السلام على الكبر وإسماعيل عليه السلام رزقه في عنفوانه وقوته والعادة أن القلب أعلق بأول الأولاد وهو إليه أميل وله أحب بخلاف من يرزقه على الكبر ومحل الولد بعد الكبر كمحل الشهوة للمرأة[٢].

٤ـ البكورية ثابتة لإسماعيل وإن نكرها أهل الكتاب:

وإذا كان قد ثبت من خلال نصوص أسفار اليهود والنصارى هذا التناقض الصارخ وذلك الاضطراب الفاضح فماذا يقولون وكيف يبررون إطلاق البكورية والواحدية على إسحاق دون إسماعيل عليهما السلام؟.

يتعلل أهل الكتاب من اليهود والنصارى بحجة واهية ولكنهم تمسكوا بها انطلاقًا من عنصريتهم البغيضة وعصبيتهم المقيتة لإسحاق دون أخيه إسماعيل، ولنسل إسرائيل دون نسل إسماعيل، فهم يزعمون أن البكورية قد سقطت عن إسماعيل بسبب أن أمه كانت جارية فاعتبروا بذلك أن إسحاق هو البكر، ويكفي أن نرجع إلى سفر التثنية ليتبين لنا بطلان تلك الحجة التي استندوا إليها حيث يبين لنا أن كون إسماعيل ابن جارية كما

---

(١) البخاري (٣٣٦٤).

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ٤٨٦.

يزعمون لا يسقط حق بكوريته فإن البكورية تثبت لصاحبها وحق مقرر له سواء كانت أمه متساوية مع أم أخيه أو كانت دونها في المنزلة، وإليك هذا النص:

١٥إِذَا كَانَ لِرَجُل امْرَأَتَانِ، إِحْدَاهُمَا مَحْبُوبَةٌ وَالأُخْرَى مَكْرُوهَةٌ، فَوَلَدَتَا لَهُ بَنِينَ، الْمَحْبُوبَةُ وَالْمَكْرُوهَةُ. فَإِنْ كَانَ الابْنُ الْبِكْرُ لِلْمَكْرُوهَةِ، ١٦فَيَوْمَ يَقْسِمُ لِبَنِيهِ مَا كَانَ لَهُ، لاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ ابْنَ الْمَحْبُوبَةِ بِكْرًا عَلَى ابْنِ الْمَكْرُوهَةِ الْبِكْرِ، ١٧بَلْ يَعْرِفُ ابْنَ الْمَكْرُوهَةِ بِكْرًا لِيُعْطِيَهُ نَصِيبَ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ مَا يُوجَدُ عِنْدَهُ، لأَنَّهُ هُوَ أَوَّلُ قُدْرَتِهِ. لَهُ حَقُّ الْبَكُورِيَّةِ. (التثنية٢١/ ١٧: ١٥).

قلت: حتى وإن حذفوا لفظة (بكرك) من التوراة ووضعوا مكانها وحيدك وألصقوا بجوارها اسم إسحاق فهذا لا يعنى أن الذبيح هو إسحاق، والجواب من كتبهم معلوم في الشريعة من لدن آدم عليه السلام إلى موسى عليه السلام مؤكد بأن البكر هو الذي يقرب ولا يبطل فضيلة البكورية شيء، وإليك الدليل من عندهم فقد جاء في سفر العدد (كُلَّ بِكْرٍ فِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. لِي يَكُونُونَ) (العدد٨/ ١٧)، وفي سفر الخروج (وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: بَدَلَ كُلِّ بِكْرٍ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَكُونُ اللاَّوِيُّونَ لِي.) (الخروج١٣/ ١)، فلو قالوا كما يعتقدون أن الذبيح إسحاق للزمهم أن يقولوا أنه هو البكر لإبراهيم، وهم يعلمون كما في عقيدتهم أن أول ولد لإبراهيم هو إسماعيل وقد تقدم ذلك[1].

البكر في اللغة:

أول ولد الرجل غلامًا كان أو جارية، وبكر الرجل بالكسر أول ولده، وبكر كل شيء أوله[2].

وإن قيل إن هاجر لم تكن زوجة لإبراهيم وإنما كانت من سراريه.

وقد قال بذلك اليهود والنصارى لينالوا من السيدة هاجر ولكننا نأتي لهم أيضًا بنصوص من أسفارهم تقطع بعكس ما يقولون وتثبت ضد ما يزعمون، أي تثبت أن هاجر زوجة لإبراهيم، وإليك النص: (فأخذت ساراى امرأته هاجر المصرية خادمتها

---

(١) الرأي الصحيح صـ٩٢.

(٢) تهذيب اللغة ١٠/ ٢٢٤، لسان العرب ١/ ٣٣٣، النهاية في غريب الحديث والأثر١/ ١٤٩.

فأعطتها لإبرام زوجها لتكون زوجة) (التكوين١٦/ ٣)، كذلك في نفس السفر نجد أن (راميل) زوجة يعقوب الثانية حينما وجدت نفسها عقيمًا لا تلد طلبت منه عليه السلام أن يدخل بجاريتها (بلهة) ووجه الاستشهاد أن عبارة السفر تقطع بأن هذه الجارية قد صارت زوجة (فَأَعْطَتْهُ بِلْهَةَ جَارِيَتَهَا زَوْجَةً، فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَعْقُوب)(التكوين٣٠/ ٤: ١).

إن إصرار اليهود على جعل إسحاق هو الذبيح دون إسماعيل له جانب هام يفوق في أهمية جانب البحث التاريخي الذي يراد به مجرد العلم باسم الذبيح من ابني إبراهيم، فإنه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود ويتعلق به الحذف والإثبات في سيرة إبراهيم ليتصل بذرية إسحاق وينقطع عن ذرية إسماعيل أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل ينقطع منها كل ما يتعلق بالعرب.

فاعتقاد اليهود إذن في أن إسحاق هو الذبيح جاء استكمالًا لاستبعاد إسماعيل واستئثار إسحاق بميراث أبيها إبراهيم عليه السلام حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق[1].

ويذكر ابن كثير: أن الذي حمل اليهود على التحريف وجعل إسحاق هو الذبيح حسدهم للعرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذي يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي يتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء[2].

٥ـ الاستدلال بموضع الذبيح.

قد مر في قصة الذبح (٤وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ) (التكوين٢٢/ ٤)، فزعمت اليهود أن هذا المكان هو موضع هيكل سليمان في أورشليم، وزعمت النصارى أنه موضع صلب المسيح عليه السلام حسب معتقدهم، ولكن المحققين منهم قد علموا أنه باطل محض.

---

(١) قصة الذبيح صـ ٥٩.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير صـ ١٦١.

ونذكر خلاصة آرائهم من كلام أحد مشايخهم، أعني (كولنزو) فإنه ذكر مخالفتهم في اسم الموضع الذي سموه (أرض المريا)، ثم صرح بتحريفهم في هذه التسمية، وهذا ما ذكره من الاختلاف:

النسخة السبعينية	النسخة العبرانية	موقع ذكر الاسم	ترجمة أقيلا الذي ناقض السبعينية	ترجمة سمافوس
إلى الأرض العالية	إلى أرض موره	التكوين (٢٢/ ٢)	الأرض المستعلنة	أرض الرؤيا
البلوطة العالية	ميدان موره	التكوين (١٢/ ٦)		
قرب البلوطة العالية	على قرب ميدان موره	التثنية (١١/ ٣٠)		
عند جبل مورة	عند جبل موره	القضاة (٧/ ١)		

وبعد أن ذكر هذه الاختلافات استدل كولنزو على تحريفهم وتمسك بحجتين:

الأولى: أن هذا الاسم لمكان الهيكل لا يوجد في سائر الصحف فقال (لا يوجد هذا الاسم في أحد من الكتب بعد سليمان، فإن كتب الأنبياء والمزامير الأولى لا تذكر الجيل الذي بنى عليه الهيكل إلا باسم (صيهون) ولا تذكر (مريا) أبدًا لمكان الهيكل.

والثانية: أن صفة ذلك الوضع لا تصدق على مكان الهيكل وهذه الحجة في غاية القوة. والمقصود من نقل هذه الأقوال أن موضع الذبح المسمى باسم مورة صار موضعًا لاختلاف شديد فيما بينهم فطائفة منهم غيبوا هذا الاسم وترجموه إما ببلوطات عالية وإما بأرض مستعلنة وإما بأرض الرؤيا وطائفة منهم أبقوا هذا الاسم ولكن حرفوه لفظًا فجعلوه (مورة) (ومرياة) (موريا) وذلك ليلبسوا الحق بالباطل.

وقد رجح الإمام عبد الحميد الفراهي أن الاسم هو المروة بالميم الأصلية وتقديم الراء على الواو لكن حدث تحريف وتبديل لأصل الكلمة وقد بين ذلك.

والأمر الثاني الذي يكشفه لنا: هو تعيين المسمى بهذا الاسم فإن اليهود جعلوه لمكان هيكل سليمان والنصارى لمكان كنيسة القبر المقدس عندهم. ولكن الصحيح أن ذلك الموضع هو الذي في مساكن بني إسماعيل ولم يزل مشهورًا باسم المروة ويؤيد ذلك ما في صحفهم فإنه قد جاء في سفر القضاة (وَكَانَ جَيْشُ الْمِدْيَانِيِّينَ شِمَالِيَّهُمْ عِنْدَ تَلِّ مُورَةَ فِي الْوَادِي) (القضاة ٧/ ٢: ١).

فتبين أن هذا تل مورة كان معسكر المديانيين ولا شك أن المديانيين هم العرب واسم مديان يطلق عليهم وعلى أرضهم وقد جاء التصريح بأن مديان هم الإسماعيليون (وَقَالَ رِجَالُ إِسْرَائِيلَ لِجِدْعُونَ: «تَسَلَّطْ عَلَيْنَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنُ ابْنِكَ، لأَنَّكَ قَدْ خَلَّصْتَنَا مِنْ يَدِ مِدْيَانَ». ٢٣فَقَالَ لَهُمْ جِدْعُونُ: «لاَ أَتَسَلَّطُ أَنَا عَلَيْكُمْ وَلاَ يَتَسَلَّطُ ابْنِي عَلَيْكُمْ. اَلرَّبُّ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكُمْ». ٢٤ثُمَّ قَالَ لَهُمْ جِدْعُونُ: «أَطْلُبُ مِنْكُمْ طِلْبَةً: أَنْ تُعْطُونِي كُلُّ وَاحِدٍ أَقْرَاطَ غَنِيمَتِهِ». لأَنَّهُ كَانَ لَهُمْ أَقْرَاطُ ذَهَبٍ لأَنَّهُمْ إِسْمَاعِيلِيُّونَ) (القضاة ٨/ ٢٤: ٢٢).

فاتضح مما ذكرنا أن مورة كان في مساكن مديان وأن مديان هم بنو إسماعيل وأن أرض مديان في الحجاز على بحر قلزم[1].

قال د/فتحي محمد الزغبي: وإذا كان كاتب سفر التكوين فد ذكر أن الجبل الذي أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه فوقه هو (جبل المريا) أو (أرض المريا) فإن مفسري العهد القديم وشراحه قد اختلفوا في تعيين هذا الجبل ومعرفته على سبيل التحديد جاء في كتاب (السنن القويم) أن معنى المريا إما (الرب علم) وإما (الرب معد أوراء).

فإن كان المعنى الثاني هو المقصود هنا فيكون المكان سمي المريا من الحادثة ويكون المعنى: المكان الذي فيه (الرب يعد أو يرى خروف المحرقة)، ورأى كثيرون من أكابر

(١) الرأي الصحيح صـ ٦٢: ٤٨ بتصرف.

المفسرين أن ذلك المكان هو (مورة) في شكيم (نابلس) وأن الذبيحة قدمت في السامرة وكان المذبح طبيعيًا وهو قمة جبل جرزيم.

لكن إبراهيم وإسحاق -فيما يقول صاحب كتاب السنن- وصلا المكان في اليوم الثالث ولكن كون جبل جرزيم بعيدًا جدًا عن بئر سبع يمنع من هذا القول، وعلى هذا فيرجع أنه قرب أورشليم لأنها تبعد نحو ثلاث مراحل أي سير نحو إحدى وعشرين ساعة. وأورد صاحب القاموس أن (مريا) اسم سامي ربما كان معناه (رؤيا) ويطلق على:

١-أرض أوصى الرب إبراهيم أن يصعد إليها ويقدم ابنه على أكمة منها وهي منطقة في أورشليم.

٢-الميل الذي بنى سليمان عليه الهيكل في أورشليم وكان في القسم الشرقي من المدينة الحاضرة يشرف على وادي قدرون وكان إلى الشمال من صهيون، ثم يذكر صاحب القاموس أن الأكثرين يظنون أن موضع الهيكل هو نفس الموضع الذي فيه أمر الله إبراهيم أن يستعد لتقديم إسحاق ذبيحه، غير أن التقليد السامري يقول: إن موضع مذبح إبراهيم كان على جبل جرزيم(١).

وجبل جرزيم هو جبل صخري منحدر يكون الحد الجنوبي للوادي الذي تقع فيه شكيم (نابلس الآن)، وهكذا فإن اليهود فيما بينهم قد اختلفوا في الموضع الذي يذكرون أن إسحاق قد هيئ للذبح فيه مما يعني أن المسألة غير مؤكدة لديهم(٢).

٦ـ الاستدلال بما في قصة مولد إسماعيل وإسحاق من البشارات:

ومن خلال البشارات التي جاءت عند مولد إسماعيل وإسحاق نجد أنها تنبئ بما يمكن أن يحدث لأخوين في مستقبل حياتهما.

وفيما يتعلق بإسماعيل: نجد أن ملاك الرب- كما ورد في سفر التكوين -قد بشر هاجر أثناء حملها بوليدها المنتظر: (وقال لها ملاك الرب: لأكثرن نسلك تكثيرًا حتى لا يحصى لكثرته، وقال لها ملاك الرب: ها أنت حامل وستلدين ابنًا وتسمينه إسماعيل لأن الرب قد

(١) قاموس الكتاب المقدس صـ (٨٥٩).

(٢) قصة الذبيح (٢٨/ ٣) د/ فتحي محمد الزغبي.

سمع صوت شقائك. . .) (التكوين ١٦/ ١١: ١٠)، والذي يتأمل هذه البشرى يلاحظ أنها لم تذكر شيئًا عن ذرية لإسماعيل في المستقبل بل تكلمت عن نسل لهاجر وإخوة لإسماعيل، ومادامت هاجر قد حملت من إبراهيم بوليدها البكر إسماعيل فإنها يمكن أن تحمل منه ذرية أخرى يتكاثر منها نسل هاجر ولا يوجد في تلك البشرى ما يمنع حدوث مكروه لإسماعيل مثل موته أو قتله قبل أن يكبر وتكون له ذرية.

فلو حدث بعد مولد إسماعيل أن جاء الوحي لإبراهيم بأمره بذبح ابنه هذا ما كان هناك تناقص وأما ما جاء في الدعاء بالبركة وكثرة ذريته فكان ذلك بعد ما بلغ ثلاث عشرة سنة عند البشرى بإسحاق، كما جاء في سفر التكوين صحيحًا قال الرب لإبراهيم (وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه وها أنا ذا أباركه وأنميه وأكثره جدًا ويلد اثنى عشر رئيسًا وأجعله أمة عظيمة) (التكوين١٧/ ٢٠).

أقول: كانت هذه البركة قبل مولد إسحاق بعام وعند ذلك كان عمر إسماعيل ثلاث عشرة سنة، معنى ذلك أن هذا الكلام قد قبل بعد أن فدى الله إسماعيل من الذبح.

أما ما يتعلق بإسحاق: نجد أن الأمر قد اختلف تمامًا عن أخيه إسماعيل حيث إن البشرى التي تلقاها إبراهيم ﷺ قبل مولد إسحاق بعام وأن البشرى بكثرة نسله وذريته كان قبل مولد إسحاق، فقد جاء في سفر التكوين ما نصه: (فقال الله: بل سارة امرأتك ستلد لك ابنا واسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهدًا أبديًا لأكون له إلهًا ولنسله من بعده) (تكوين١٧/ ١٩)، فكيف إذن ينبئ وحي السماء إبراهيم ﷺ بذرية لإسحاق قبل مولده ويقام معها عهد الله، ثم يعود وحي السماء ليطلب من إبراهيم أن يذبح ابنه إسحاق وهو لا يزال بعد صبيًا لم يتزوج وينجب ذرية كما ورد في البشارة.

قلت: والبشارة بنسل إسحاق مع ولادته هو ما صرح به القرآن الكريم حيث بشر إبراهيم وزوجته سارة بولادة إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب كما قال سبحانه: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: ٧١)، وهذا دليل على أن إسحاق ليس هو الذبيح.

اعتراض ورده:

وقد حاول بولس في رسالته إلى العبرانيين أن يجيب عن هذا السؤال ويحل هذه المشكلة فقال: (بالإيمان قرب إبراهيم إسحاق لما امتحن فكان يقرب ابنه الوحيد، وقد تلقى المواعد وكان قد قيل له: بإسحاق سيكون لك نسل يحمل اسمك فقد اعتقد أن الله قادر حتى على أن يقيم من بين الأموات لذلك استرده) (رسالة العبرانيين١١/ ١٩ : ١٧).

وحل هذه المشكلة التي قدمتها بولس في رسالته إلى العبرانيين وردده كثير من شراح العهد القديم النصارى جديد في المسيحية لم ينظر إليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم إبراهيم بموت إسحاق وأنه أطاع الله ولم يطع قلبه بحنانه على ابنه الموعود، بالإضافة إلى أن هذا الحل الذي ارتضاه فقهاء المسيحية يقلل كثيرًا من قيمة تضحية إبراهيم وإذعانه لربه مادام أنه كان على يقين من أن الله سبحانه سوف يعيد الحياة إلى ولده بعد أن يقوم بذبحه بنفسه.

الوجه الثامن: الحكمة من عدم ذكر اسم الذبيح في القرآن.

ليس لقائل أن يقول: إن كان إسماعيل عليه السلام هو الذبيح فلم لم يصرح القرآن به؟ فإن هذا السؤال عائد عليه في أمر إسحاق عليه السلام على سواء مع أنه لم يكن مانع لذكره.

وأما إسماعيل عليه السلام فلعدم التصريح باسمه وجوه من الحكمة:

الأول: أنه من عادة القرآن الصفح والإعراض عن اللجاج الذي لا ينفصم، لكيلا يشتغل الخصم به، ويترك ما يلقى إليه من الحجة الدامغة. وقد أدخلت اليهود اسم إسحاق عليه السلام في قصة الذبح، فلو صرح القرآن بخلاف ذلك لتمسكوا بما في كتبهم وجادلوا بباطلهم، وأنكروا بما جاء به النبي لخلاف الصريح بما عندهم؛ فالقرآن يلزمهم ما كان موجودًا في صحفهم، أو كان ظاهرًا بينًا عند العقل، لكيلا يترك لهم متمسكًا وعذرًا، وقد أشار إلى ذلك في غير ما آية تارة يخاطب النبي ويأمره بالصفح عنهم، وتارة يخاطب المسلمين بترك جدالهم إلا بحسن القول، وتارة يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم إلى مسلماتهم.

ونذكر هاهنا بعض الأمثلة، قال تعالى مخاطبًا لنبيه: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١٥)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٥-٦٦).

ولهذا الأسلوب من الخطاب لهم أمثلة كثيرة.

وبالجملة فإن القرآن قد اجتنب مجادلتهم فيما تمسكوا بظاهر الكتاب، وفي ذلك حكمة بينة لعدم التصريح باسم الذبيح، فلو كان هو إسحاق عليه السلام لم يكن مانعًا عن تسميته هاهنا.

والثاني: أن الإسلام جعل الفخر بالآباء من أمور الجاهلية، وجعل سعادة الإنسان وشرفه في استقلاله بأعماله. فعلى هذا الأصل كان أقرب إلى التكرم أن لا يذكر على لسان النبي في هذه القصة التي جاء فيها ذكر إسحاق عليه السلام بعد الفراغ عن واقعة الذبح ما يكون تصريحًا بأن إسماعيل عليه السلام الذي كان من آبائه هو صاحب هذا الشرف العظيم. وليت شعري ماذا يقول من يزعم أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام في عدم تسميته في هذه القصة وبيان كونه ذبيحًا، مع كثرة ذكره والبشارة به لإبراهيم عليه السلام.

والثالث: أن اليهود لم يقنعوا بإنكار هذا الشرف لإسماعيل؛ بل أدخلوا في التوراة أن إبراهيم أخرجه عن بيته مع أمه، وأنها كانت أمة لسارة -عليها السلام-، ومعاذ الله أن تكون كذلك، وقد عاد وبال هذا الافتراء عليهم من غير مهلة، ثم ضربت عليهم الذلة والعبودية، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في تفسير سورة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ. . .﴾.

وبالجملة فكان الفخر بالآباء قد سيط من دمهم، ولذلك وبخهم يحيى بقوله: (يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟ ٨فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ. وَلاَ تَبْتَدِئُوا تَقُولُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبًا. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَدًا لإِبْرَاهِيمَ. ٩وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ) (متى٣/ ١٠: ٧).

فلو أسمعهم القرآن شيئًا مما كان للعرب من كرم المحتد وعلوه لاهتاجوا إلى ذكر ما افتروه من كون هاجر -عليها السلام- أم أبيهم إسماعيل أمة لسارة -عليها السلام-، ألا ترى أن القرآن مع كثرة ذكر سارة -عليها السلام- لم يأت ولو مرة واحدة بذكر هاجر -عليها السلام-؟ فكان الأولى أن يجتنب التصريح بكون هذه الفضيلة لبني إسماعيل خاصة. وبالجملة فعدم التصريح باسم الذبيح أولى بكونه دليلًا على أنه إسماعيل، فإن لم يصرح باسمه، فقد دل عليه بوجوه كثيرة كما مر آنفًا.

الرابع: أن التوراة التي بأيدي اليهود مشتملة على دلائل جمة تنطق بأن إسماعيل هو الذبيح، وهو أبوه وهو صاحب البركة الدائمة التي بورك بها جميع الأمم، مع فضائل أخر. ولا خفاء في عداوتهم به وبذريته. وإذ كان الأمر كذلك، كان أحسن أن يُكتفى بتلك البينات التي في التوراة عند أعدائهم عن التصريح بها في القرآن فإنه كما قيل: الفضل ما شهدت به الأعداء، لا سيما إذا كانت هذه الشهادة على رغم أنفهم وسعيهم في كتمانها، ولا يخفى أن القرآن ملآن بذكر فضائل أنبياء بني إسرائيل -عليهم السلام-، بل هو الذي نفى عنهم كل ما أدخلوه في التوراة مما لا يليق برفيع منزلتهم، فلو كانت فضيلة الذبيح

لإسحاق ﷺ لصرح بها القرآن[١].

قال ابن عاشور: وقد أشارت هذه الآيات إلى قصة الذبيح ولم يسمه القرآن لئلا يثير خلافٌ بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم وكان المقصد تأليف أهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم في الاعتراف برسالة محمد ﷺ وتصديق القرآن ولم يكن ثمة مقصد مهم يتعلق بتعيين الذبيح ولا في تخطئة أهل الكتاب في تعيينه، وأمارة ذلك أن القرآن سمى إسماعيل في مواضع غير قصة الذبيح وسمى إسحاق في مواضع ومنها بشارة أمة على لسان الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط وذكر اسمي إسماعيل وإسحاق أنهما وهبا له على الكبر ولم يسم أحدًا في قصة الذبيح قصدًا لإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل لأن المقصود من القصة التنويه بشان إبراهيم فأي ولديه كان الذبيح كان في ابتلائه بذبحه وعزمه عليه وما ظهر في ذلك من المعجزة تنويه عظيم بشأن إبراهيم[٢].

الوجه التاسع: نوعية المذبوح ولماذا وصف بوصفه عظيم.

اختلف أهل العلم في الذبح الذي فُدي به ولدا إبراهيم ﷺ على قولين:

الأول: أنه كان كبشًا، وهو قول جمهور أهل العلم بالتفسير[٣]، وممن قال به ابن ﷺ قال: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه[٤].

القول الثاني: أنه كان تيسًا، ونقل ذلك عن ابن عباس[٥]، والحسن البصري[٦].

---

(١) الرأي الصحيح صـ٩٣: ٩٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥٦.

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٤٨٢)، تفسير القرطبي (١٥/ ١٠٦)، الخازن في تفسيره (٤/ ٢٤).

(٤) **حسن**. أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٨٦) من طريق، سفيان، ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٢٣٣) من طريق داود العطار، كلاهما (سفيان، داود) عن ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

(٥) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٧ من طريق معاوية بن هشام، عن سفيان، عن رجل، عن أبي صالح: إسناده ضعيف لجهالة شيخ الثوري.

(٦) موضوع. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٧ حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن به. فيه عمرو بن عبيد متهم بالكذب، الجرح والتعديل ٦/ ٢٤٦، تهذيب التهذيب ٨/ ٦٢، التقريب (١/ ٤٢٤) (٧٠٧١).

وأما عن وصفه بقوله سبحانه: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾، **وذلك لأسباب:**

١- لأنه رعى في الجنة، قاله ابن عباس رضي الله عنه(١).

٢- لأنه كان ذبحًا متقبلًا، قاله مجاهد(٢).

٣- ذُبح ذبح بالحق على دين إبراهيم عليه السلام، قاله الحسن(٣).

٤- عظيم القدر لأنه من عند الله، فهو عظيم الشخص والبركة.

وذلك أن الله فدى به ابن رسول وأبقى به من سيكون رسولًا فيعظمه بعظم أثره، ولأنه سخره الله لإبراهيم في ذلك الوقت وذلك المكان، وعلى هذا جرت السنة به وصار دينًا باقيًا آخر الدهر(٤).

٥- لأنه كان سمينًا(٥).

٦- لأنه لم يكن عن نسل بل من التكوين(٦).

قال الطبري: ولا قول في ذلك أصح مما قال الله -جل ثناؤه- وهو أن يقال: فداه الله بذبح عظيم وذلك أن الله عم وصفه إياه بالعظيم دون تخصيصه فهو كما عمه به(٧).

---

(١) **ضعيف**. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٧ من طريق ابن يمان، عن سفيان، عن عبد الله بن عيسى، عن سعيد ابن جُبَير عن ابن عباس به. فيه يحيى بن يمان صدوق عابد يخطئ كثيرًا وقد تغير، التقريب (١/ ٥٩٨) (٧٦٧٩)، وضعفه ابن حجر كما في فتح الباري ١٠/ ٤١، وانظر: نهاية الاغتباط (٣٧٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٨ من طريق ابن جريج، وأخرجه أيضًا من طريق ليث بن أبي سليم، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٥٤١) من طريق ابن أبي نجيح. كلهم (ابن جريج، ليث، ابن أبي نجيح) عن مجاهد به.

(٣) موضوع. أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٨٨ حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن به. فيه عمرو بن عبيد؛ متهم بالكذب.

(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ١٠٦، الخازن في تفسيره ٤/ ٢٤، روح المعاني ٢٣/ ١٣٢.

(٥) الكشاف ٤/ ٥٥، الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٨، الخازن في تفسيره (٤/ ٢٤)، النسفي في تفسيره (٤/ ٢٦)، أبو السعود في تفسيره ٧/ ٢٠١، روح المعاني ٢٣/ ١٢٩.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٢، البحر المحيط ٧/ ٣٥٦.

(٧) جامع البيان ٢٣/ ٨٨.

الوجه العاشر: قصة الذبيح رؤيا نوم، وبيان الحكمة من ذلك.

قال الآلوسي: وفي كلام التوراة التي بأيدي اليهود اليوم ما يرمز إلى أن الأمر بالذبح كان ليلًا فإنه بعد أن ذكر قول الله تعالى له عليه السلام خذ ابنك وامض إلى بلد العبادة وأصعده ثم قربانًا على أحد الجبال الذي أعرفك به قيل فأدلج إبراهيم بالغداة. . إلخ فالأمر إما منامًا وإما يقظة لكن وقع تأكيدا لما في المنام إذ لا محيص عن الإيمان بما قصه الله تعالى علينا فيما أعجز به الثقلين من القرآن والجزم بكونه في المنام لا غير إذ لا يعول على ما في أيدي اليهود وليس في الأخبار الصحيحة ما يدل على وقوعه يقظة أيضًا(١).

الحكمة من ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة.

الأول: إن هذا الابتلاء إنما برز في صورة الوحي المنامي إكرامًا لإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة لأن رؤى المنام يعقبها تعبيرها إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه وهو ذبح ابنه الوحيد(٢).

وحول ذلك يقول الإمام الرازي:

أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح، فورد أولًا في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة، فحينئذٍ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئًا فشيئًا(٣).

الثاني: أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد وتمام الإخلاص(٤).

الثالث: أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقًا، فكما أرى يوسف عليه السلام سجود أبويه وأخوته في المنام فقال على لسان يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (يوسف: ٤)، وكما وعد رسوله ﷺ دخول المسجد

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ١٢٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥١.

(٣) الرازي في تفسيره ٢٣/ ١٥٦، الخازن في تفسيره ٤/ ٢٣.

(٤) البيضاوي في تفسيره (٥٨٩).

الحرام في المنام فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ (الفتح: ٢٧)، وقال على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ (الصافات: ١٠٢)، والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال[1].

الباب الثاني:

الوجه الأول: بطلان العلاقة بين الذبيح والصلب والفداء على زعمهم.

١ـ بطلان هذا القياس الفاسد:

وذلك أن النصارى قد تابعوا اليهود في أن الذبيح إسحاق عليه السلام وكان حادث الذبيح فرصة ثمينة تلقفها الذين بدلوا دين المسيح عيسى عليه السلام حيث اتخذوها سندًا وحجةً لعقيدة الصلب والفداء ومن هذا الملق أيضًا رأوا أن الذبيح إسحاق، فلو كان إسماعيل لما كان لاستشهادهم به على ما زعموه من طلب المسيح وتقديمه لذبيحة للخلاص والفداء أي تأثير حيث أن المسيح عيسى ابن مريم من ذرية إسحاق وليس من ذرية إسماعيل عليهم جميعًا وعلى نبينا أفضل الصلوات وأزكى التسليمات.

جاء في (السنن القويم) أن كون إسحاق أطاع أباه ولم يمانع يعد رمزًا إلى المسيح الذي سيق إلى الذبح ولم يفتح فاه إطاعة لإرادة أبيه فأحياه الله كما أحيا ابنه، فكان في هذه التجربة قصد روحي وهو الإيمان إلى الذبيحة الكفارية ذبيحة الفادي التي هي غنى الكنيسة المسيحية وركن دينها وتعليمها وسعادتها كنيسة الله التي اشتراها بدمه.

ذكر الدكتور (ف. ب) ما يراه أن تصرف إبراهيم في هذه الحادثة يزيدنا فهمًا للذبيحة التي قدمها الله لخلاصنا فإن خضوع إسحاق وهو موضوع على المذبح ورقبته معرضة للسكين يعطينا فكرة أعمق من طاعة المسيح حتى الموت كذلك فإن إعادة إسحاق حيًا كمن قام من الأموات بعد أن صار في حكم المائت في نظر والده ثلاثة أيام يعطينا فكرة عن

---

(١) الرازي في تفسيره ٢٣/ ٥٦.

قيام المسيح من الأموات في اليوم الثالث، ثم يذكر أن الحقيقة تفوق الرمز: فإن إسحاق تألم وهو شاعر تمامًا بوجود أبيه معه، أما المسيح فقد تصاعدت من جنبه تلك الصرخات المدوية (إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي)، وإسحاق بذل معه كل ما يمكن تخفيف آلامه وأحزانه، أما المسيح فقد قاسى الأمرين من جند الرومان ثم من الكتبة والفريسيين، إسحاق نجا من الموت أما المسيح فقد شرب الكأس حتى الثمالة(١).

وعلى هذا المنوال نسج شراح الكتاب المقدس ومفسروه من النصارى باذلين أقصى جهودهم في الربط بين إسحاق والمسيح، واستغلال حادث الذبح في صنع متكئًا يتكئون عليه، ومصدر ينهلون منه ليدعموا هذه العقيدة التي أبطلها القرآن الكريم بطلانًا قاطعًا وحاسمًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ (النساء: ١٥٧-١٥٨)(٢).

* * *

---

(١) قلت: وشتان بين الجمع ما بين قصة الذبيح وبين ما فعلوه مع المسيح عيسى ﷺ والبراهين واضحة فإن إبراهيم ﷺ أراه الله رؤيا أن يذبح ابنه ورؤيا الأنبياء حق هذه واحدة، والثانية أن الذي قام بالفعل هو إبراهيم ﷺ بأمر الله سبحانه وتعالى وهو نبي معصوم وأنتم على زعمكم الباطل قمتم بالفعل والفارق واضح، والثالثة أن الله فداه – أي الذبيح– ابن إبراهيم ﷺ فكانت معجزة وكرامة وفضل لإبراهيم ولولده وأنتم تزعمون أنه قتل...!

(٢) قصة الذبيح صـ ٣٢: ٣١ د/ فتحي محمد الزغبي.

٣- شبهة: حول نظر إبراهيم عليه السلام في النجوم.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٨-٨٩)، فاعترضوا على الآية وقالوا: أن القرآن يثبت أن إبراهيم عليه السلام كان ينظر في النجوم، ولم يكن إيمانه يقينيًا، وأن القرآن يثبت أنه كان مريضًا، مع أن في الكتاب المقدس أن إيمان إبراهيم عليه السلام كان يقينيًا، وأنه كان سليمًا ولم يكن مريضًا.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨)﴾.

الوجه الثاني: بيان معنى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾.

الوجه الثالث: أنواع علم النجوم.

الوجه الرابع: أدلة من أثبت أن للكواكب والنجوم تأثيرًا، والرد عليها.

الوجه الخامس: الكلام على بطلان علم الأحكام.

الوجه السادس: ماذا قال الكتاب المقدس عن إبراهيم عليه السلام.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان معنى قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨)﴾

هذه حيلة أرادها إبراهيم عليه السلام لكيلا يخرج معهم، فقال لهم كلامًا هو حق في نفس الأمر، فَهموا منه أنه سقيم على مقتضى مايعتقدونه، ولم يكن نظره عليه السلام من باب اعتقاده في النجوم، وإنما هو إيهام ليتوصل إلى مايريد لكي يتوصل إلى غرضه الذي سيكون وسيلة إلى إنقاذهم مما هم فيه. [1]

وأما عن نظره، فالجواب عليه من وجوه:

الأول: أنه تفكر فيما يلهيهم به:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠، الكشاف ٤/ ٤٩، تفسير الرازي ٢٦/ ١٤٧، تفسير النسفي ٤/ ٢٣، تفسير ابن كثير ١٢/ ٣٣، تفسير الخازن ٤/ ٤٩، روح المعاني ٢٣/ ١٠١.

أي: أنه نظر إلى السماء متفكرًا فيما يلهيهم به، وعادة من أراد أن يتفكر في شيء نظر إلى السماء، لأن النظر إلى الأرض يلهيه عن تدبره[١]، وهو قول قتادة ﷺ.[٢]

والمعنى أنهم ظنوا أنه نظر في النجوم متنجمًا، ولكنه نظر إليها متفكرًا.

وأهل اللغة يقولون: لمن تفكر في أمره لينظر كيف يدبره نظر في النجوم، ويتفكر بمعنى ينظر كما في قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣].

الثاني: نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم.

وحاله معهم، وذلك كله لما سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم ليخرج من ذلك بحيلة.[٤]

الثالث: أنه رأى نجمًا طالعًا فعلم أن له خالقًا.

فكان هذا نظره في النجوم[٥]، والمعنى أن هذه النجوم لا تستطيع أن تدبر أفعال العباد، وهو منسوب إلى سعيد بن المسيب.[٦]

الرابع: نظر في النجوم هو قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ وهذا قبل البلوغ[٧].

وهذه النظرة هي النظرة التي استدل بها على التوحيد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾، وأن العرب تطلق على كل ما في القرآن نجومًا على صفة التغليب، قال تعالى: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴾.

الخامس: نظر في أحكامها، ولم ينظر إليها بعينها.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٥، تفسير ابن كثير ١٢/ ٣٢، تفسير القرطبي ١٥/ ٩٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٨٢٧٦).

(٣) العين للخليل ٦/ ١٥٤، تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ١٢٨، تاج العروس ١/ ٦٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٨، الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٤٨، تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ١٢٨.

(٥) النكت والعيون (٥/ ٥٥)، القرطبي في الجامع ١٥/ ٩٣.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٧٠، ابن أبي حاتم (١٨٢١٤)، عبد الرازق في تفسيره (٢٥٤٣)، وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٧/ ١٠٠ إلى عبد بن حميد وابن المنذر. إسناده ضعيف لعنعنة قتادة.

(٧) الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٤٧.

وذلك أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ سكنوا إلى قوله. (١)

السادس: أن علم النجوم كان من النبوة.

فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فنظر إبراهيم عليه السلام فيها كان علمًا نبويًا. (٢)

وحكى جويبر عن الضحاك أن علم النجوم كان باقيًا إلى زمن عيسى ابن مريم عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلع عليه فقالت لهم مريم: من أين علمتم موضعه؟ قالوا: من النجوم، فدعا ربه عند ذلك فقال: اللهم فوهمهم في علمها فلا يعلم علم النجوم أحد، فصار حكمها في الشرع محظورًا وعلمها في الناس مجهولًا. (٣)

الوجه الثاني: بيان معنى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

الأول: كلام أهل اللغة حول كلمة سقيم: السَّقام، والسُّقْم، والسَّقَم: المرض، لغات مثل حُزْن، وحَزَن. وقد سَقِمَ الرجل يَسْقُم فهو سقيم ورجل مسقام، إذا كان يعتريه السقم كثيرًا. (٤)

الثاني: كلام أهل العلم بالتفسير والحديث وغيرهم حول كلمة سقيم.

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٩، تفسير الرازي ٢٦/ ١٤٧، تفسير أبو السعود ٧/ ١٩٧.

(٢) النكت والعيون (٥/ ٥٥)، تفسير القرطبي ١٥/ ٩٣، منسوبًا إلى ابن عباس.

قلت: وقد أخرجه الخطيب البغدادي في كتاب القول في علم النجوم (ص ١٩٨) عن علي رضي الله عنه، وساق متنه، ثم قال بعده: في اسناد هذا الحديث غير واحد مجهول، وقد ذكر صاحب كتاب كنز العمال (حديث ٢٩٤٢١)، وعزاه إلى الخطيب، وقال: إسناده ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف جدًا. فيه جويبر: ضعيف جدًا كما في التقريب (١/ ٩٤)، وقال النسائي: متروك.

(٤) تاج العروس ١/ ٧٧٥٦، تهذيب اللغة ٨/ ٤٢٤، لسان العرب ٣/ ٢٠٤٢.

الأول: سقيم مريض، ونوع المرض هنا الطاعون، والمعنى: إني مطعون، وهو مروي عن ابن عباس[١]، الضحاك[٢]، سفيان[٣].

وهذا كله من باب المعاريض (الحيل) التي استخدمها سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى يخلو بها إلى أصنامهم، فقال إني سقيم ليلزم مكانه ويفارقوه، ولم ينطق إبراهيم بأن النجوم دلته على أنه سقيم، ولكنه لما جعل قوله: (إني سقيم) مقارنًا لنظره في النجوم أوهم قومه أنه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم[٤].

وعلى هذا فلم يكن مريضًا جسمانيًا، بدليل أنه حطم الأصنام، وهي تحتاج إلى مشقة عالية، وإنما هذا من باب المعاريض[٥].

وعلى القول بأنه سقيم فسقمه سقم نفسي من تماديهم في الباطل على ما يأتي:

الثاني: سقيم بالنسبة إلى ما يستقبل من مرض الموت.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٧٢، إسناده ضعيف فيه انقطاع.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٧١، وزاد السيوطي في الدر المنثور ٧/ ١٠٠نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر، إسناده ضعيف فيه انقطاع بين شيخ الطبري والحسين.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٨٢١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٢).

(٥) قال ابن حجر: المعاريض، قال الجوهري: هو خلاف التصريح وهو التورية بالشيء عن الشيء. وقال الراغب: كلام له وجهان صدق وكذب أو باطن وظاهر، قال ابن حجر: والأولى أن يقال كلام له وجهان يطلق أحدهما والمراد لازمه، وشرط جواز استعمال المعاريض هو التخلص من الظلم أو حصول حق، وأما استعمالها في عكس ذلك من إبطال الحق أو تحصيل الباطل فلا يجوز وشرط آخر وهو عدم القسم. (فتح الباري ١٠/ ٦١٠)، وانظر النووي في شرح صحيح مسلم (٧/ ٣٨١)، فقول إبراهيم: ﴿إني سقيم﴾ ولم يكن مريضًا هذا من باب المعاريض وهذا ليس من باب الكذب، وأما إطلاقه اسم الكذب عليها فلكونه قال قولًا يعتقده السامع كذبًا، لكنه إذا حقق لم يكن كذبًا، فليس هذا بكذب محض، قال النووي: ومعناه (أي في إطلاق اسم الكذب على ذلك) إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع، وأما في نفس الأمر فليست كذبًا مذمومًا لوجهين: أحدهما: أنه ورى بها، الثاني: لو كان كذبًا لا تورية فيه لكان جائزًا في دفع الظالمين (فتح الباري ٦/ ٤٥١)، شرح صحيح مسلم (٨/ ١٣٦).

لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وهذا كما قال الله سبحانه (إنك ميت وإنهم ميتون)، أي: ستموت. [(١)]

قال الزمخشري: ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم. ومنه المثل: كفي بالسلامة داء. وقول لبيد:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بالسَّلاَمَةِ جَاهِدا   لِيُصِحَّنِي فَإذَا السَّلاَمَةُ دَاءُ

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه. [(٢)]

الثالث: سقيم بمعنى: مريض القلب عن عبادتكم هذه الأوثان. [(٣)]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾.

الرابع: سقيم أي: سأسقم، فالْإِنْسَان عُرْضَة لِلْأَسْقَام، وَأَرَادَ بِذَلِكَ الِاعْتِذَار عَنْ الْخُرُوج مَعَهُمْ إِلَى عِيدهمْ، وَشُهُود بَاطِلهمْ وَكُفْرهمْ، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيرًا[(٤)].

الخامس: سقيم أي: سقيم الحجة على الخروج معكم. [(٥)]

السادس: أنه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار، فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾

---

(١) معاني القرآن للزجاج (٤/٣٠٨)، النكت والعيون (٥/٥٦)، تفسير الرازي (٢٦/١٤٧)، تفسير القرطبي (١٥/ ٩٣)، شرح صحيح مسلم للنووي (٨/ ١٣٧)، تفسير النسفي (٤/ ٢٤)، ابن كثير في التفسير (١٢/ ٣٥)، فتح الباري (٦/ ٤٥١) روح المعاني (٢٣/ ١٠١)، فتح البيان (١١/ ٤٠١).

(٢) الكشاف (٤/ ٤٩).

(٣) النكت والعيون (٥/ ٥٦)، الكشاف (٤/ ٤٩)، تفسير الرازي (٢٦/ ١٤٧)، تفسير القرطبي (١٥/ ٩٤).

(٤) النووى في شرح صحيح مسلم (٨/ ١٣٧)، فتح الباري (٦/ ٤٥١).

(٥) فتح الباري (٦/ ٤٥١).

فجعله عذرًا في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان صادقًا فيما قال، لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم(١).

وتعقب ابن حجر هذا القول، فقال: وهو بعيد لأنه لو كان كذلك لم يكن كذبًا لا تصريحًا ولا تعريضًا.(٢)

وعلى هذا فقد تبين أنه ﷺ لم يكن مريضًا جسمانيًا، وإنما هذه حيلة أراد أن يتوصل إلى أصنامهم، وهو من المعاريض كما تقدم.

الوجه الثالث: أنواع علم النجوم.

النوع الأول: المباح.

العلم بأسماء الكواكب ومناظرها ومطالعها ومساقطها وسيرها والاهتداء بها، وانتقال العرب عن مياهها لأوقاتها وتخيرهم الأوقات إنتاج مواشيهم وضرابهم الفحول ومعرفتهم بالأمطار على اختلافها، والتوصل إلى جهة القبلة بالنجوم ومعرفة مواقيت الصلاة وساعات الليل بظهورها وأفولها. فهذا العلم مباح.(٣)

الأدلة على إباحة هذا النوع:

قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥)، وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٩٨).

عن قتادة قال: إن الله -تبارك وتعالى- خلق هذه النجوم لثلاث خصال جعلها زينة السماء، وجعلها يهتدي بها وجعلها رجومًا للشياطين فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قلل رأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به وإن ناسا جهلة بأمر الله ﷻ قد أحدثوا في

(١) تفسير الرازي (٢٦/ ١٤٧)، تفسير القرطبي (١٥/ ٩٣)، شرح صحيح مسلم للنووي (٨/ ١٣٧)، تفسير أبو السعود (٧/ ١٩٧)، فتح القدير (٤/ ٥٦٣)، فتح البيان (١١/ ٤٠١).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٥١).

(٣) القول في علم النجوم للخطيب البغدادي (١٢٦)، معالم السنن للخطابي (٤/ ٢١٣)، شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٨٣).

هذه النجوم كهانة من غرس بنجم كذا وكذا كان كذا ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ولعمري ما من نجم إلا يولد به القصير والطويل والأحمر والأبيض والحسن والذميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطير شيئًا من الغيب وقضى لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، ولعمري لو أن أحدا علم الغيب لعلم آدم الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة يأكل منها رغدًا حيث شاء، ونهي عن شجرة واحدة، فلم ينزل به البلاء حتى وقع بما نهي عنه، ولو كان أحد يعلم الغيب لعلم الجن حيث مات سليمان بن داود -عليهما السلام- فلبثت تعمل حولًا في أشد العذاب وأشد الهوان لا يشعرون بموته فما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل من منسأته أي تأكل عصاه فلما خر تبينت الجن أن لو كانت الجن تعلم الغيب ما لبثوا في العذاب المهين وكانت الجن تقول مثل بذلك إنها كانت تعلم الغيب وتعلم ما في غد فابتلاهم الله ﷻ بذلك وجعل موت نبي الله ﷺ للجن عظة وللناس عبرة. (١)

النوع الثاني: المحرم.

وهو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان كأخبارهم بأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر والبردة وتغير الأسعار وما كان في معانيها من الأمور يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترانها ويدعون لها تأثيرا في السفليات وأنها تتصرف على أحكامها وتجرى على قضايا موجباتها وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه. (٢)

الأدلة على تحريم هذا النوع:

قال ابن تيمية: وصناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير وهو الاستدلال على

---

(١) **إسناده صحيح.** أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب بدء الخلق، والطبري في التفسير (١٤/ ٩١)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٠٦) واللفظ له من طريق سعيد. وذكره ابن حجر في التغليق (٣/ ٤٨٩) عن عبد بن حميد والخطيب البغدادي من طريق شيبان، كلاهما (سعيد وشيبان) عن قتادة.

(٢) معالم السنن للخطابي (٤/ ٢١٢-٢١٣)، شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٨٣).

الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوى الفلكي والقوابل الأرضية صناعة محرمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٩)، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٥٠) قال عمر وغيره: الجبت السحر. (١)

الأدلة من السنة:

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ". (٢)

فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون لا في الدنيا ولا في الآخرة. (٣)

وعن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: " مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً". (٤)

والمنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء وعند بعضهم هو في معناه، فإذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسئول. (٥)

عن معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: يا رسول الله" إِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ قَالَ فَلَا تَأْتِهِمْ ". (٦)

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢).

(٢) **إسناده حسن**. رواه أحمد (١/ ٢٢٧)، ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٩) ومن طريقه ابن ماجه (٣٧٢١)، أبو داود (٣٩٠٥)، عبد بن حميد (٧١٣)، الحديث حسنه الألباني في سنن ابن ماجه (٣٠٠٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣).

(٤) مسلم (٢٢٣٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣).

(٦) مسلم (٥٣٧).

فنهي النبي ﷺ عن إتيان الكهان والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء وحكى ذلك عن العرب وعند آخرين هو من جنس الكاهن واسوأ حالا منه فلحق به من جهة المعنى.[١]

عن أبي مسعود الأنصاري قال: "نهي النبي ﷺ عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن".[٢]

وحلوانه الذي تسميه بالعامة حلاوته ويدخل في هذا المعنى ما يعطيه المنجم وصاحب الأزلام التي يستقسم بها مثل الخشبة المكتوب عليها أ ب ج د والضارب بالحصى ونحوهم فما يعطى هؤلاء حرام

وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبغوي، والقاضي عياض وغيرهما.[٣]

الوجه الرابع: شبهات من أثبت أن للكواكب والنجوم تأثيرًا والرد عليها.

هذه الأدلة ذكرها ابن القيم عن أبى عبد الله الرازى، ثم ذكر الرد عليها:

الشبهة الأولى: هناك آيات دالة على تعظيم هذه الكواكب.

١-فمنها قوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ (التكوير: ٥)، وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى.

٢- ومنها قوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٧٦)، وقد صرح ﷻ بتعظيم هذا القسم وذلك يدل على غاية جلالة مواقع النجوم ونهاية شرفها.

٣- ومنها قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ (الطارق: ١-٣).

قال ابن عباس: الثاقب هو زحل لأنه يثقب بنوره سمك السموات السبع.

٤- ومنها أنه تعالى بين إلهيته بكون هذه الكواكب تحت تدبيره وتسخيره فقال: ﴿وَٱلشَّمۡسَ

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣-١٩٤).

(٢) البخاري (٢٢٣٧)، مسلم (١٥٦٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٤).

﴿وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

والجواب عنه:

أما عن الاستدلال بقوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦)﴾

١-فإن أكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى وهذا القول قد قاله جماعة من المفسرين وأنها الكواكب الخمسة زحل وعطارد والمشترى والمريخ والزهرة وروى عن علي واختاره ابن مقاتل وابن قتيبة قالوا: وسماها خنسًا لأنها في سيرها تتقدم إلى جهة المشرق ثم تخنس أي تتأخر وكنوسها استتارها في معربها كما تكنس الظباء وتفر من الوحوش إلى أن تأوي إلى كناسها وهي أكنتها، وتسمى هذه الكواكب المتحيرة لأنها تسير مستقيمة وتسير راجعة وقيل كنوسها بالنسبة إلى الناظر وهو استتارها تحت شعاع الشمس.

٢- وقيل هي النجوم كلها وهو اختيار أبي عبيدة وقاله الحسن وقتادة، وعلى هذا القول فيكون باعتبار أحوالها الثلاثة من طلوعها وغروبها وما بينهما فهي خنس عند أول الطلوع لأن النجم منها يرى كأنه يبدو ويخنس وتكنس عند غروبها تشبها بالظباء التي تأوي إلى كناسها وهي جوار ما بين طلوعها وغروبها خنس عند الطلوع جوار بعده كنس عند الغروب وهذا كله بالنسبة إلى أفق كل بلد تكون لها فيه الأحوال الثلاثة.

٣- وقال ابن مسعود: هي بقر الوحش وهي رواية عن ابن عباس واختاره سعيد بن جبير.

٤- وقيل -وهو أضعف الأقوال -: الملائكة حكاه المروزي في تفسيره فإن كان المراد بعض هذه الأقوال غير ما حكاه الرازي فلا حجة له وإن كان المراد ما حكاه فغايته إن يكون الله سبحانه وتعالى قد أقسم بها كما أقسم بالليل والنهار والضحى والوالد والفجر وليال عشر والشفع والوتر والسماء والأرض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والنفس والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات وما نبصره ومالا نبصره من كل غائب عنا وحاضر مما فيه التنبيه على كمال

ربوبيته وعزته وحكمته وقدرته وتدبيره وتنوع مخلوقاته الدالة عليه المرشدة إليه بما تضمنته من عجائب الصنعة وبديع الخلقة وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له وأنه الكامل في علمه وقدرته ومشيئته وحكمته وربوبيته وملكه وأنها مسخرة مذللة منقادة لأمره مطيعة لمراده منها ففي الإقسام بها تعظيم لخالقها -تبارك وتعالى- وتنزيه له عما نسبه إليه أعداؤه الجاحدون المعطلون لربوبيته وقدرته ومشيئته ووحدانيته وأن من هذه عبيده ومماليكه وخلقه وصنعه وإبداعه فكيف تجحد ربو بيته وألوهيته وكيف تنكر صفات كماله ونعوت جلاله وكيف يسوغ لذي حس سليم وفطرة مستقيمة تعطيلها عن صانعها أو تعطيل صانعها عن نعوت جلاله وأوصاف كماله وعن أفعاله.

فإقسامه بها أكبر دليل على فساد قول نوعي المعطلة والمشركين الذين جعلوها آلهة تعبد مع دلائل الحدوث والعبودية والتسخير والافتقار عليها، وإنها أدلة على بارئها وفاطرها وعلى وحدانيته وأنه لا تنبغي الربوبية والإلهية لها بوجه ما بل لا تنبغي إلا لمن فطرها وبرأها.

فلم يكن إقسامه بها سبحانه مقررًا بذلك علم الأحكام النجومية -كما يقوله الكاذبون المفترون-، بل مقررًا لكمال ربوبيته ووحدانيته وتفرده بالخلق والابداع وكمال حكمته وعلمه وعظمته وهذا نظير إخباره سبحانه عن خلقها وعن حكمة خالقها بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق: ١٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنبياء: ٣٣)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (فصلت: ٣٧)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الأعراف:

٥٤)، وقوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (النحل: ١٢).

وهؤلاء المشركون يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيمًا يسجدون لها ويتذللون لها ويسبحونها تسابيح معروفة في كتبهم ودعوات لا ينبغي أن يدعى بها إلا خالقها وفاطرها وحده فبالله أتجعل قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ دليلًا على هذا، ومقدمة له في أول الكتاب فإن كان الإقسام بها دليلًا على تأثيراتها في العالم كما يقولون فينبغي أن يكون سائر ما أقسم به كذلك وان لم يكن القسم دليلا بطل الاستدلال به.

فائدة: اجتمع جماعة من الكبراء والفضلاء يومًا فقرأ قارىء: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾﴾ حتى بلغ ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾﴾، وفي الجماعة أبو الوفاء بن عقيل فقال له قائل: يا سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب وزوج النفوس بقرنائها للثواب والعقاب فما الحكمة في هدم الأبنية وتسيير الجبال ودك الأرض وفطر السماء ونثر النجوم وتخريب هذا العالم وتكوير شمسه وخسف قمره فقال ابن عقيل على البديهة: إنما بني لهم هذه الدار للسكنى والتمتع وجعلها وما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم عن الدار وخربها لانتقال الساكن منها، فأراد أن يعلمهم بأن في إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال وإبداء ذلك الصنع العظيم بيانا لكمال قدرته ونهاية حكمته وعظمة ربو بيته وعظمة جلاله وعظم شأنه وتكذيبًا لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فإذا رأوا أن منار آلهتهم قد انهدم وأن معبوداتهم قد انتثرت والأفلاك التي زعموا أنها وما حوته هي

الأرباب المستولية على هذا العالم قد تشققت وانفطرت ظهرت حينئذ فضائحهم وتبين كذبهم وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر له رب يصرفه كيف يشاء.[1]

وأما قوله تعالى ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ **ففيها قولان:**

أحدهما: أنها النجوم المعروفة وعلى هذا ففي مواقعها أقوال أحدها: أنه انكدارها وانتشارها يوم القيامة وهذا قول الحسن والمنجمون يكذبون بهذا ولا يقرون به، والثاني: مواقعها منازلها قاله عطاء وقتادة، والثالث: أنه مغاربها والرابع: أنه مواقعها عند طلوعها وغروبها، حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة، والخامس: أن مواقعها مواضعها من السماء، وهذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة حكاه ابن عطية عنه فيحتمل أن يكونا واحدًا وأن يكونا قولين. السادس: أن مواقعها انقضاضها أثر العفريت وقت الرجوم حكاه ابن عطية أيضًا ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأول.

القول الثاني: أن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة.

فأن كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية، وإن كان المراد الكواكب وهو قول الأكثرين فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع، فإنه لا ينبغي أن تكون الإلهية إلا له وحده كما انه وحده المتفرد بخلقها وإبداعها، وما تضمنته من الآيات والعجائب فالإقسام بها أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والدهرية ونوعى المعطلة كما تقدم وكذلك قوله والنجم الثاقب.

الشبهة الثانية: قالوا هناك آيات دالة على أن لها تأثيرًا في هذا العالم.

كقوله ﷻ: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ (النازعات: ٥)، وقوله: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾ (الذريات: ٤) قال بعضهم: المراد هذه الكواكب.

والجواب عليه:

(١) مفتاح دار السعادة (٥٤٢).

أما قوله ﷻ: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾: فلم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين ولا العلماء بالتفسير أنها النجوم وهذه الروايات عنهم، فقال ابن عباس هي الملائكة، قال عطاء: وكلت بأمور عرفهم الله العمل بها، وقال عبد الرحمن بن سابط: يدبر أمور الدينا أربعة جبريل وهو موكل بالوحي والجنود وميكائيل وهو موكل بالقطر والنبات وملك الموت وهو موكل بقبض الأنفس وإسرافيل وهو ينزل بالأمر عليهم، وقيل جبريل للوحي وإسرافيل للصور، وقال ابن قتيبة: فالمدبرات أمرًا الملائكة تنزل بالحلال والحرام ولم يذكر المتوسعون في نقل أقوال المفسرين كابن الجوزي والماوردي وابن عطية غير الملائكة، حتى قال ابن عطية: ولا أحفظ فلانًا إنها الملائكة، هذا مع توسعه في النقل وزيادته فيه على أبي الفرج وغيره حتى أنه لينفرد بأقوال لا يحكيها غيره، فتفسير المدبرات بالنجوم كذب على الله وعلى المفسرين.

وكذلك ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾، لم يقل أحد من أهل التفسير العالمين به أنها النجوم، بل قالوا: هي الملائكة التي تقسم أمر الملكوت بإذن ربها من الأرزاق والآجال والخلق في الأرحام وأمر الرياح والجبال، قال ابن عطية: لأن كل هذا إنما هو بملائكة تخدمه، فالآية تتضمن جميع الملائكة لأنهم كلهم في أمور مختلفة، قال أبو الطفيل عامر بن واثلة: كان على بن أبي طالب على المنبر فقال: لا تسألون عن آية من كتاب الله وسنة ماضية ألا قلت لكم، فقام إليه ابن الكواء فسأله عن: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ فقال الذاريات: الرياح، والحاملات: السحاب، والجاريات: السفن، والمقسمات: الملائكة، ثم قال: سل سؤال تعلُّم ولا تسأل سؤال تعنُّت، وكذلك قال أبو الفرج، ولم يذكر فيه خلافًا في المقسمات أمرًا يعنى الملائكة تقسم الأمور على ما أمر الله به فتفسير الآية بأنها النجوم تفسير المنجمين ومن سلك سبيلهم.

الشبهة الثالثة: قالوا هناك آيات دالة على أنه تعالى وضع حركات هذه الأجرام على وجه يُنتفع بها في مصالح هذا العالم.

فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (يونس: ٥)، وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ (الفرقان: ٦١).

والجواب عليه:

وأما الاستدلال بالآيات الدالة على أن الله سبحانه وضع حركات هذه الأجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم فمن أطرف الاستدلال فأين في هذه الآيات ما يدل على ما يدعيه المنجمون من كذبهم وبهتانهم وافترائهم ولو كان الأمر كما يدعيه هؤلاء الكذابون لكانت الدلالة والعبرة فيه أعظم من مجرد الضياء والنور والحساب ولكان الأليق ذكر ما تقتضيه من السعد والنحس وتعطيه من السعادة والشقاوة وتهبه من الأعمار والأرزاق والآجال والصنائع والعلوم والمعارف والصور الحيوانية والنباتية والمعدنية وسائر ما في هذا العالم من الخير والشر.

الشبهة الرابعة: قالوا أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تمسَّك بعلوم النجوم فقال: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الصافات: ٨٨-٨٩).

والجواب عليه:

فإنه ليس في الآية أكثر من أنه نظر نظرة في النجوم ثم قال لهم إني سقيم فمن ظن من هذا أن كلم أحكام النجوم من علم الأنبياء وأنهم كانوا يراعونه ويعانونه فقد كذب على الأنبياء ونسبهم إلى مالا يليق وهو من جنس من نسبهم إلى الكهانة والسحر وزعم أن تلقيهم الغيب من جنس تلقى غيرهم وإن كانوا فوقهم في ذلك لكمال نفوسهم وقوة استعدادها وقبولها لفيض العلويات عليها وهؤلاء لم يعرفوا الأنبياء ولا آمنوا بهم وإنما هم عندهم بمنزلة أصحاب الرياضات الذين خصوا بقوة الإدراك وزكاة النفوس وزكاة الأخلاق ونصبوا أنفسهم لإصلاح الناس وضبط أمورهم ولا ريب أن هؤلاء أبعد الخلق عن الأنبياء واتباعهم ومعرفتهم ومعرفة مرسلهم وما أرسلهم به، فهؤلاء في شأن والرسل

في شأن آخر بل هم ضدهم في علومهم وإعمالهم وهديهم وإرادتهم وطرائقهم ومعادهم وفي شأنهم كله، ولهذا نجد أتباع هؤلاء ضد أتباع الرسل في العلوم والأعمال والهدى والإرادات ومتى بعث الله رسولًا يعاني التنجيم والنرجات والطلسمات والأوفاق والتداخين والبخورات ومعرفة القرانات والحكم على الكواكب بالسعود والنحوس والحرارة والبرودة والذكورة والأنوثة وهل هذه إلا صنائع المشركين وعلومهم وهل بعثت الرسل إلا بالإنكار على هؤلاء ومحقهم ومحق علومهم وأعمالهم من الأرض وهل للرسل أعداء بالذات إلا هؤلاء ومن سلك سبيلهم.

الشبهة الخامسة: أنه قال ﷻ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ **(غافر: ٥٧)**.

فقالوا: ولا يكون المراد من هذا كبر الحجم لأن كل أحد يعلم ذلك فوجب أن يكون المراد كبر القدر والشرف، وقال ﷻ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ (آل عمران: ١٩١)، ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لأن هذا القدر حاصل في تركيب البقة والبعوضة وفي حصول الحياة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الأجرام الفلكية على وجود الصانع لأن الحياة لا يقدر عليها أحد ألا الله أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله فلما كان هذا النوع من الحكمة حاصلًا في غير الأفلاك ثم أنه تعالى خصها بهذا التشريف وهو قوله: (ربنا ما خلقت هذا باطلًا) علمنا أن له تعالى في تخليقها أسرارا عالية وحكما بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها ويقرب من هذه الآية قوله ﷻ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ (ص: ٢٧)، ولا يمكن أن يكون المراد أنه ـ تعالى ـ خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لأن كونها دالة على الافتقار إلى الصانع أمر ثابت لها لذاتها لأن كل متحيز فهو محدث وكل محدث فإنه مفتقر إلى الفاعل فثبت أن دلالة المتحيزات على

وجود الفاعل أمر ثابت لها لذواتها وأعيانها وما كان كذلك لم يكن سبب الفعل والجعل فلم يمكن حمل قوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾على هذا الوجه فوجب حمله على الوجه الذي ذكرناه.

والجواب عليه:

الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، وأن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة ففي غاية الفساد، فإن المراد من الخلق ههنا الفعل لا نفس المفعول وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد أي: أن الذي خلق السموات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقا جديدا ونظير هذا في قوله في سورة يس: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: مثل هؤلاء المنكرين فهذا استدلال بشمول القدر للنوعين وأنها صالحة لهما فلا يجوز أن يثبت تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر فكذلك قوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من لم تعجز قدرته عن خلق العالم العلوي والسفلي كيف يعجز عن خلق الناس خلقًا جديدًا بعد ما أماتهم ولا تعرض في هذا لأحكام النجوم بوجه قط ولا لتأثير الكواكب.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ فلا ريب أن خلق السموات والأرض من أعظم الأدلة على وجود فاطرهما وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالربوبية والوحدانية ومن سوى بين ذلك وبين البقة وجعل العبرة والدلالة والعلم بوجود الرب الخالق البارىء المصور منهما سواء فقد كابر والله سبحانه إنما يدعو عباده على النظر والفكر في مخلوقاته العظام لظهور أثر الدلالة فيها وبديع عجائب الصنعة والحكمة فيها واتساع مجال الفكر والنظر في أرجائها وإلا:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولكن أين الآية والدلالة في خلق العالم العلوي والسفلي إلى خلق القملة والبرغوث والبقة فكيف يسمح لعاقل عقله أن يسوي بينهما ويجعل الدلالة من هذا كالدلالة من

الآخر والله سبحانه إنما يذكر من مخلوقاته للدلالة عليه أشرفها وأظهرها للحس والعقل وأبينها دلالة وأعجبها صنعة كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والنجوم والجبال والسحاب والمطر وغير ذلك من آياته ولا يدعو عباده إلى التفكر في القمل والبراغيث والبعوض والبق والكلاب والحشرات ونحوها إنما يذكر ما يذكر من ذلك في سياق ضرب الأمثال مبالغة في الاحتقار والضعف كقوله تعالى أن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنفذوه منه فهنا لم يذكر الذباب في سياق الدلالة على إثبات الصانع تعالى وكذلك قوله أن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها وكذلك قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ فتأمل ذكر هذه المخلوقات الحقيرة في أي سياق وذكر المخلوقات العظيمة في أي سياق.

ثانيًا: الآثار الواردة في الباب:

الأول: ما روي عن النبي ﷺ: " أنه نهى عند قضاء الحاجة عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما ".

والجواب عليه:

كأنه والله أعلم لما رأى بعض الفقهاء قد قالوا ذلك في كتبهم في آداب التخلي: ولا تستقبل الشمس والقمر ظن أنهم إنما قالوا ذلك لنهي النبي ﷺ عنه فاحتج بالحديث وهذا من أبطل الباطل فإن النبي ﷺ لم ينقل عنه ذلك في كلمة واحدة لابإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مرسل ولا متصل وليس لهذه المسألة أصل في الشرع والذين ذكروها من الفقهاء منهم من قال العلة أن اسم الله مكتوب عليهما ومنهم من قال لأن نورهما من نور الله ومنهم من قال إن التنكب عن استقبالهما واستدبارهما أبلغ في التستر وعدم ظهور الفرجين وبكل حال فما لهذا ولا أحكام النجوم فان كان هذا دالا على دعواكم فدلالة

النهي عن استقبال الكعبة بذلك أقوى وأولى[١].

الثاني: ومن الناس من يروى أنه ﷺ قال: " لا تسافروا والقمر في العقرب ومنهم من يروى ذلك عن على ﷺ وإن كان المحدثون لا يقبلونه.

والجواب عليه:

أنه مختلق باتفاق أهل الحديث وهو من كلام المنجمين، وأما رسول رب العالمين فبريء ممن نسب إليه هذا الحديث وأمثاله ولكن إذا بعد الإنسان عن نور النبوة واشتدت غربته عما جاء به الرسول ﷺ جوز عقله مثل هذا كما يجوز عقل المشركين قول النبي ﷺ: "لو حسن أحدكم ظنه بحجر نفعه وهذا ونحوه من كلام عباد الأصنام الذين حسَّنوا ظنهم بالأحجار فساقهم حسن ظنهم إلى دار البوار".

وأما الرواية عن علي أنه نهي عن السفر والقمر في العقرب فمن الكذب على علي ﷺ والمشهور عنه خلاف ذلك وعكسه وانه أراد الخروج لحرب الخوارج فاعترضه منجم فقال يا أمير المؤمنين لا تخرج فقال لأي شيء قال إن القمر في العقرب فإن خرجت أصبت وهزم عسكرك فقال علي ﷺ ما كان لرسول الله ﷺ ولا لأبي بكر ولا لعمر منجم بل أخرج ثقة بالله وتوكلا على الله وتكذيبًا لقولك فما سافر بعد رسول الله ﷺ سفرة أبرك منها قتل الخوارج وكفي المسلمين شرهم ورجع مؤيدًا منصورًا فائزًا وقال علي لأصحابه لولا أن تنكلوا لحدثتكم بما لكم عند الله في قتلهم فكان هذا الظفر ببركة خلاف ذلك المنجم وتكذيبه والثقة بالله رب النجوم والاعتماد عليه وهذه سنة الله فيمن لم يلتفت إلى النجوم ولا بني عليها حركاته وسكناته وأسفاره وإقامته كما أن سنته نكبة من كان منقادا لأربابها عاملًا بما يحكمون له به.

(١) قلت: هذا الحديث نهى أن يبول الرجل وفرجه باد إلى الشمس والقمر. قال الألباني: باطل انظر: السلسلة الضعيفة (٩٤٤).

الثالث: قال أبو ذر رضي الله عنه: " تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علمًا "، وليست الكواكب موكلة بالفساد والصلاح ولكن فيها دليل بعض الحوادث عرف ذلك بالتجربة.

والجواب عليه:

وأما احتجاجه بحديث أبي ذر رضي الله عنه: " تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علمًا ". (١)

فهذا حق وصدق وهو من أعظم الأدلة على إبطال قولكم وتكذيبكم فيما تدعونه من علم أحكام النجوم فإنه ﷺ ذكرهم على كل شيء حتى الخرأة ذكرهم من علم كل طائر وكل حيوان وكل ما في هذا العالم ولم يذكرهم من علم أحكام النجوم شيئا البتة، وهو ﷺ أجل من هذا وأعظم وقد صانه الله سبحانه عن ذلك وإنما الذي ذكركم بهذه الأحكام المشركون عباد الأصنام والكواكب مثل بطليموس وبنكلوسا وطمطم صاحب الدرج وهؤلاء مشركون عباد أصنام وكذلك أتباعهم أفلا يستحي رجل أن يذكر رسول الله ﷺ في هذا المقام نعم رسول الله ﷺ ذكر أمته من تكذيبكم وكفركم ومعاداتكم والبراءة منكم والإخبار بأنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ما يعرفه من عرف ما جاء به من أمته والبهت والفرية والكذب على الله ورسوله.

هل كان رسول الله ﷺ أو أحد من أهل بيته مثبتا لأحكام النجوم وأما الاحتجاج بحديث أبي الدرداء لقد توفي رسول الله ﷺ وتركنا وما طائر يقلب جناحيه إلا وقد ذكر لنا منه علما فهذا حق وصدق وهو من أعظم الأدلة على إبطال قولكم وتكذيبكم فيما تدعونه من علم أحكام النجوم فإنه ﷺ ذكرهم على كل شيء حتى الخرأة ذكرهم من علم كل طائر وكل حيوان وكل ما في هذا العالم ولم يذكرهم من علم أحكام النجوم شيئا البتة، وهو ﷺ أجل من هذا وأعظم وقد صانه الله سبحانه عن ذلك وإنما الذي ذكركم بهذه

---

(١) إسناده حسن. أبو يعلى (٨١٠٩)، ابن حبان (٦٥)، المعجم الكبير للطبراني (١٦٤٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الأحكام المشركون عباد الأصنام والكواكب مثل بطليموس وبنكلوسا وطمطم صاحب الدرج وهؤلاء مشركون عباد أصنام وكذلك أتباعهم أفلا يستحي رجل أن يذكر رسول الله ﷺ في هذا المقام نعم رسول الله ﷺ ذكر أمته من تكذيبكم وكفركم ومعاداتكم والبراءة منكم والإخبار بأنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ما يعرفه من عرف ما جاء به من أمته والبهت والفرية والكذب على الله ورسوله.

هل كان رسول الله ﷺ أو أحد من أهل بيته مثبتا لأحكام النجوم عاملا بها في حركاته وسكناته وأسفاره كما هو المعروف من المشركين وأتباعهم سبحانك هذا بهتان عظيم.

وقالوا: وجاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل البيت وتفرقوا عنه في الأرض وكان يغتم لخفاء خبرهم عليه فأكرمه الله ﷻ بهذا العلم وكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم حسب له بهذا الحساب فيقف على حالته.

والجواب عليه:

فليس هذا ببدع من بهت المنجمين والملاحدة وإفكهم وافترائهم على آدم وقد علموا بالمثل السائر هنا: إذا كذبت فابعد شاهدك.[1]

الخامس: أنهم زعموا أنه صنعة إدريس:

والجواب عليه:

أولًا: هذا قول بلا علم فان مثل هذا لا يعلم إلا بالنقل الصحيح ولا سبيل لهذا القائل إلى ذلك ولكن في كتب هؤلاء هرمس الهرامسة ويزعمون أنه هو إدريس والهرمس عندهم اسم جنس ولهذا يقولون هرمس الهرامسة وهذا القدر الذي يذكرونه عن هرمسهم يعلم المؤمن قطعا أنه ليس هو مأخوذا عن نبي من الأنبياء على وجهه لما فيه من الكذب والباطل ويقال:

ثانيًا: هذا إن كان أصله مأخوذًا عن إدريس فانه كان معجزة له وعلما أعطاه الله إياه فيكون من العلوم النبوية وهؤلاء إنما يحتجون بالتجربة والقياس لا بأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٥٣٨) وما بعدها.

ثالثًا: إن كان بعض هذا مأخوذًا عن نبي فمن المعلوم قطعا أن فيه من الكذب والباطل أضعاف ما هو مأخوذ من ذلك النبي ومعلوم قطعًا أن الكذب والباطل الذي في ذلك أضعاف الكذب والباطل الذي عند اليهود والنصارى فيما يأثرونه على الأنبياء وإذا كان اليهود والنصارى قد تيقنا قطعًا أن أصل دينهم مأخوذ عن المرسلين وأن الله أنزل التوراة والإنجيل والزبور كما أنزل القرآن وقد اوجب الله علينا أن نؤمن بما أنزل علينا وما أنزل على من قبلنا كما قال: ﷻ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ (البقرة: ١٣٦)، ثم مع ذلك قد أخبرنا الله أن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا وكذبوا وكتموا فإذا كانت هذه حال الوحي المحقق والكتب المنزلة يقينا مع أنها إلينا أقرب عهدا من إدريس ومع أن نقلتها أعظم من نقلة النجوم وأبعد عن تعمد الكذب والباطل وأبعد عن الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر فما الظن بهذا القدر إن كان فيه ما هو منقول عن إدريس فإنا نعلم أن فيه من الكذب والباطل والتحريف أعظم مما في علوم أهل الكتاب.

وقد ثبت في البخاري عن النبي ﷺ: أنه قال: " لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾". فإذا كنا مأمورين فيما يحدثنا به أهل الكتاب أن لا نصدق إلا بما نعلم أنه الحق كما لا نكذب إلا بما نعلم أنه باطل فكيف يجوز تصديق هؤلاء فيما يزعمون أنه منقول عن إدريس عليه السلام وهم في ذلك أبعد عن علمهم المصدق من أهل الكتاب.

رابعًا: لا ريب أن النجوم نوعان حساب وأحكام فإما الحساب فهو معرفة أقدار الأفلاك والكواكب وصفاتها ومقادير حركاتها وما يتبع ذلك فهذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه كمعرفة الأرض وصفتها ونحو ذلك لكن جمهور التدقيق منه كثير التعب قليل الفائدة كالعالم مثلًا بمقادير الدقائق والثواني والثوالث في حركات السبعة المتحيرة الخنس

الجوار الكنس فان كان أصل هذا مأخوذا عن إدريس فهذا ممكن والله أعلم بحقيقة ذلك كما يقول ناس أن أصل الطب مأخوذ عن بعض الأنبياء.

وأما الأحكام التي هي من جنس السحر فمن الممتنع أن يكون نبي من الأنبياء كان ساحرًا وهم يذكرون أنواعا من السحر ويقولون هذا يصلح لعمل النواميس أي الشرائع والسنن ومنها ما هو دعاية الكواكب وعبادة لها وأنواع من الشرك الذي يعلم كل من آمن بالله ورسوله بالاضطرار أن نبيا من الأنبياء لا يأمر بذلك ولا علمه وإضافة ذلك إلى بعض الأنبياء كإضافة من أضاف ذلك إلى سليمان عليه السلام لما سخر الله له الجن والإنس والطير فزعم قوم أن ذلك كان بأنواع من السحر حتى أن طوائف من اليهود والنصارى لا يجعلونه نبيًا حكيمًا فنزهه الله عن ذلك فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢). [١]

الوجه الخامس: الكلام على بطلان علم الأحكام.

إن معرفة جميع المؤثرات الفلكية ممتنعة وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بالأحوال الفلكية على حدوث الحوادث السفلية وإنما قلنا إن معرفة جميع المؤثرات الفلكية ممتنعة لوجوه:

أحدها: أن تأثير الكواكب فيما ذكرتم من السعد والنحس إما بالنظر في مفرده وإما بالنظر إلي انضمامه إلى غيره فمتى لم يحط المنجم بهاتين الحالتين لم يصح منه أن يحكم له بتأثير ولم يحصل إلا على تعارض التقدير ومن المعلوم أن في فلك البروج كواكب شذت عن الرصد معرفة أقدراها وأعدادها ولم يعرف الإحكاميون ما يوجبه خواص مجموعاتها وأفرادها فخرج الفريقان أصحاب الرصد والأحكام عن الإحاطة بما في طباعها وما عسى أن تؤثره مع السيارة عند انفرادها واجتماعها فما الذي يؤمنكم كلكم عند وقوع نجم من تلك النجوم المجهولة على درجة الطالع أن يكون موجبا من الحكم ما لا يوجبه النظر بدونه.

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٩).

الثاني: أن تأثير الكواكب يختلف باختلاف أقدارها فما كان من القدر الأول أثر بوقوعه على الدرجة وإن لم تضبط الدقيقة وما كان من القدر الأخير لم يؤثر إلا بضبط الدقيقة ولا ريب أن الجهالة بتلك الكواكب ومقاديرها يوجب كذب الأحكام النجومية وبطلانها.

الثالث: أنها لو كان لها تأثير كما يزعمون لم يخل إما أن تكون فيه مختارة مريدة أو غير مختارة ولا مريدة وكلاهما محال أما الأول فلأنه يوجب جرى الأحكام على وفق اختيارها وإرادتها ولم يتوقف على اتصالاتها وانفصالاتها ومفارقتها ومقارنتها وهبوطها بها في حضيضها وارتفاعها في أوجها كما هو المعروف من الفاعل بالاختيار ولا سيما الأجرام العلوية المؤثرة في سائر السفليات ولاختلفت آثارها أيضا عند هذه الأمور بحسب الدواعي والإرادات ولأمكنها أن تسعد من أراد أنه ينحسه وتنحس من أراد أنه يسعده كما هو شأن الفاعل المختار وإن لم تكن مختارة ومريده فتأثيرها بحسب الذات والطبع وما كان هكذا لم يختلف أثره إلا باختلاف القوابل والمعدات وعندكم أن في اختلاف تلك القوابل والمعدات مستند إلى تأثيرها فأي محال أبلغ من هذا وهل هذا إلا دور ممتنع في بداية العقول.

الرابع: أن هذا العلم مشتمل على أصول يشهد صريح العقل بفسادها وهي وإن كانت في الكثرة إلي حيث لا يمكن ذكرها فنحن نعد بعضها.

فالأول: من المعلوم بالضرورة أنه ليس في السماء حمل ولا ثور ولا حية ولا عقرب ولا كلب ولا ثعلب إلا أن المتقدمين لما قسموا الفلك إلي أثني عشر قسمًا أرادوا أن يميزوا كل قسم منها بعلامة مخصوصة شبهوا الكواكب المذكورة في تلك القطعة المعينة بصورة حيوان مخصوص تشبيها بعيدًا جدًا ثم إن هؤلاء الإحكاميين فرعوا على هذه الأسماء تفريعات طويلة فرعوا أن الصور السفلية مطيعة للصور العلوية فالعقارب مطيعة لصور العقرب والأفاعي مطيعة لصور التنين وكذا القول في الأسد والسنبلة ومن عرف كيف وضعت هذه الأسماء ثم سمع قول هؤلاء الإحكاميين ضحك منهم وتبين له فرط جهلهم وكذبهم.

الثاني: أن هؤلاء لما عجزوا عن معرفة طالع القرآن أقاموا طالع السنة مقام القرآن ومعلوم أن هذا في غاية الفساد.

الثالث: أنهم اختلفوا اختلافًا شديدًا في الواحدة من مسائل هذا العلم فان أقوالهم في حدود الكواكب كثيرة مختلفة وليس مع أحد منهم شبهة ولا خيال فضلًا عن حجة واستدلال ثم إن كثيرًا منهم من غير حجة ولا دليل ربما أخذوا واحدًا من تلك الأقوال من غير بصيرة، بل بمجرد التشهي مثل أخذهم في ذلك بحدود الضربين وذلك من أدل الدلائل على فساد هذا العلم.

الرابع: أن أقوالهم متناقضة فان منهم من يقول كون زحل في بيت المال دليل الفقر ومنهم من يقول يدل على وجدان كنز.

الخامس: أن هذا العلم مع أنه تقليد محض فليس أيضا تقليدا منتظما لأن لكل قوم فيه مذهبا ولكل طائفة فيه مقالة فللبابليين فيه مذهب وللفرس مذهب آخر وللهند مذهب وللصين مذهب رابع والأقوال إذا تعارضت وتعذر الترجيح كان دليلا على فسادها وبطلانها وسيأتي إن شاء الله بسط هذه الوجوه أكثر من هذا.

الخامس: مما يدل على بطلان القول بالأحكام أن الطالع عندهم هو الشكل الخصوص الحاصل للفلك عند انفصال الولد من رحم أمه وإذا ثبت هذا فنقول الاستدلال بحصول ذلك الشكل على جميع الأحوال الكلية التي تحصل لهذا الولد إلي آخر عمره استدلال باطل قطعا ويدل عليه وجوه:

أحدها: أن ذلك الشكل كما حدث في تلك اللحظة فانه يفنى ويزول ويحدث شكل آخر فذلك الشكل المعين معد في جميع أجزاء عمر هذا الإنسان والمعدوم لايكون علة للموجود ولا جزء من أجزاء العلة وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بذلك الشكل منهما على الأحوال التي تحدث في جميع أجزاء العمر.

الثاني: أنه لا مشابهة بين ذلك الشكل المخصوص وبين هذا الإنسان الذي انفصل من بطن الأم إلا في أمر واحد وهو أن كل واحد ظهر بعد الخفاء وهو بمجرد ذلك لا يوجب ارتباط ذلك الشكل المخصوص للفلك بسائر أحوال هذا الإنسان البتة فمدعى ذلك فاسد العقل والنظر.

الثالث: أنه عند حدوث ذلك الطالع حدثت أنواع من الحيوانات وأنواع من النبات وأنواع من الجمادات فلو كان ذلك يوجب آثارا مخصوصة لوجب اشتراك كل الأشياء التي حدثت في عالمنا هذا في ذلك الوقت في تلك الآثار وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن القول بتأثير الطالع باطل.

الرابع: هب أن الطالع له أثر إلا أن الواجب أن يقال الطالع المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة وذلك لأن عند مسقط النطفة يأخذ ذلك الشخص في التكون والتولد فأما عند الولادة فالشخص قد تم تكونه وحدوثه ولا حادث في هذا الوقت إلا انتقاله من مكان إلي مكان آخر فثبت أنه لو كان للطالع اعتبار لوجب أن يكون المعتبر هو طالع مسقط النطفة لا طالع الولادة.

السادس: أن المعقول من تأثير هذه الكواكب في العالم السفلي هو أنها بحسب مساقط شعاعاتها تسخن هذا العالم أنواعا من السخونة فأما تأثيراتها في حصول الأحوال النفسانية من الذكاء والبلادة والسعادة والشقاوة وحسن الخلق وقبحه والغنى والفقر والهم والسرور واللذة والألم فلو كان معلوما لكان طريق علمه أما بالخبر الذي لا يجوز عليه الكذب أو الحس الذي يشترك فيه الناس أو ضرورة العقل أو نظره وشيء من هذا كله غير موجود البتة فالقول به باطل ولا يمكن للإحكاميين أن يدعوا واحدًا من الثلاثة الأول وغايتهم أن يدعوا أن النظر والتجربة قادهم إلي ذلك وأوقعهم عليه ونحن نبين فساد هذا النظر والتجربة بما لا يمكن دفعه من الوجوه التي ذكرناها ونذكر غيرها مما هو مثلها وأقوى منها وكل علم صحيح فله براهين يستند إليها تنتهي إلي الحس أو ضرورة العقل

وأما هذا العلم فلا ينتهي إلا إلى جحد وتخمين وظنون لا تغنى من الحق شيئا وغاية أهله تقليد من لم يقم دليل على صدقه.

السابع: أنا إذا فرضنا أن رجلين سألا منجمين في وقت واحد في بلد واحد عن خصمين أيهما الظافر بصاحبه فههنا يكون الطالع مشتركًا بين كل واحد من ذينك الخصمين فان دل ذلك الطالع على حال الغالب والمغلوب مع كونه مشتركًا بين الخصمين لزم كون كل منهما غالبًا لخصمه ومغلوبًا من جانبه وذلك محال.

الثامن: أنا نشاهد عالمًا كثيرًا يقتلون في ساعة واحدة في حرب وخلقًا يغرقون في ساعة واحدة مع القطع باختلاف طوالعهم واقتضائها عندكم أحوالا مختلفة ولو كان للطوالع تأثير في هذا لامتنع عند اختلافها الاشتراك في ذلك.

التاسع: أنا نرى الجيشين العظيمين والحزبين المتقابلين يقتتلان ويختصمان وقد أخذ طالع الوقت لكل منهما ومع هذا فالمنصور والغالب أحدهما مع أن الطالع واحد ولا ينفعكم في هذا جواب من انتصر لكم بأنه لا مانع من القول بخطأ الأخذ للطالع في الحساب والحكم فإنه لو أخذ لهما أي طالع كان لم يكن الغالب إلا أحدهما حتى لو كان الطالع قطعًا لا يتصور فيه الغلط لم يكن بد من كون أحدهما غالبا والأخر مغلوبا وهذا يبطل مذهب الأحكام بلا ريب.

العاشر: أن رجلًا لو جلس في دار لها بابان شرقي وغربي فسأل المنجم وقال من أيهما يقتضي الطالع خروجي فإذا قال له المنجم من الشرقي أمكنه تكذيبه والخروج من الغربي وبالعكس وكذلك السفر في يوم واحد وابتداء البناء وغيره في يوم يعينه له المنجم ويحكم باقتضاء الطالع له من غير تقدم عنه ولا تأخر فانه يمكنه تكذيبه في ذلك أجمع.

الحادي عشر: (**الواقع يشهد**):

١ – من ذلك اتفاقهم عندما تم بناء بغداد سنة ست وأربعين ومائة أن طالعها يقضي بأنه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى هنأ الشعراء به المنصور حتى قال بعض شعرائه:

يهنيك منها بلدة تقضي لنا ... أن الممات بها عليك حرام

لما قضت أحكام طالع وقتها   أن لا يرى فيها يموت إمام

وأكد هذا الهذيان في نفوس العوام موت المنصور بطريق مكة ثم المهدي بما سبذان ثم الهادي بعسا باذ ثم الرشيد بطوس فلما قتل بها المأمون الأمين بشارع باب الأنبار انخرم الأصل الباطل الذي أصلوه وظهر الزور الذي لفقوه حتى رجع إلى الحق الأول فقال:

أن لا يرى فيها يموت أمام   أن لا يرى فيها يموت أمام

قتل الأمين بها لعمري يقتضي   تكذيبهم في سائر الحسبان

ثم مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفي والناصر وغير هؤلاء.

٢- ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين في قصة عمورية أن المعتصم لما خرج لفتحها كانت عليه الدائرة وأن النصر لعدوه فرزقه الله التوفيق في مخالفتهم ففتح الله على يديه ما كان مغلقا وأصبح كذبهم وخرصهم بعد أن كان موهوما عند العامة محققا ففتح عمورية وما والاها من كل حصن وقلعة وكان ذلك من أعظم الفتوحات المعدودة وفي ذلك الفتح قام أبو تمام الطائي منشدًا له على رؤوس الأشهاد:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

والعلم في شهب الأرماح لامعة   بين الخميسين لا في السبعة الشهب

أين الرواية أم أين النجوم وما   صاغوه من زخرف منها ومن كذب

تخرصا وأحاديثا ملفقة   ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

عجائبا زعموا الأيام تجعله   عنهن في صفر الأصفار أو رجب

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة   إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما   كان منقلبا أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة   ما دار في فلك منها وفي قطب

لو ثبتت قط أمرا قبل موقعه   لم يخف ما حل بالأوثان والصلب

وهي نحو من سبعين بيتًا أجيز على كل بيت منها بألف درهم.

الثاني عشر: (**وشهد شاهد من أهلها**):

أن هؤلاء القوم قد أقروا على أنفسهم وشهادة بعضهم على بعض بفساد أصول هذا العلم وأساسه فقد كان أوائلهم من الأقدمين وكبار رصادهم من عهد بطليموس وطيموحارس ومانالاوس قد حكموا في الكواكب الثابتة بمقدار واتفقوا أنه صحيح الاعتبار وأقام الأمر على ذلك فوق سبعمائة عام والناس ليس بأيديهم سوى تقليدهم حتى كان في عهد المأمون فاتفق من رصادهم وحكامهم علماء الفريقين مثل خالد بن عبد الملك المروزي وحسن صاحب الزيج المأموني ومحمد بن الجهم ويحيى بن أبي منصور على أنهم امتحنوا رصد الأوائل فوجدوهم غالطين فيما رصدوه فرصدوهم رصدا لأنفسهم وحرروه وسموه الرصد الممتحن وجعلوه مبدأ ثانيا بعد ذلك الزمن كان لأوائلهم إجماع على صحة رصدهم ولهؤلاء إجماع على خطأهم فيه فتضمن ذلك إجماع الأواخر على الأوائل أنهم كانوا غالطين وإقرار الأواخر على أنفسهم أنهم كانوا بالعمل به مخطئين ثم حدثت طائفة أخرى منهم كبيرهم وزعيمهم أبو معشر محمد بن جعفر وكان بعد الرصد الممتحن بنحو من ستين عاما فرد عليهم وبين خطأهم كما ذكر أبو سعيد ابن شاذان بن بحر المنجم في كتاب أسرار النجوم.

ومن أكبر أصحاب عبدالله القشيري وهو الذي عمل طلسم الخنافس في دور بغداد قال أبو معشر لو كنت في القوم ذكرت أشياء خفيت عليهم كنت أقول الدعوى باطلة من أصلها إذ البرج منقلب وهو الجدي والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والكوكبان الناظران إلى الطالع في برج كذاب وهو العقرب فتأمل كيف اختلفت أحكامهم مع اتحاد الطالع وكل منهم يمكنه تصحيح حكمه بشبهة من جنس شبهة الآخر فلو اتفق أن ادعى رجل صادق في ذلك الوقت والطالع دعوى ألم يكن ادعاؤه ممكنا غير مستحيل ودعواه صحيحة في نفسها أم تقولون إنه لا يمكن أن يدعى أحد في ذلك الوقت والطالع دعوى صحيحة البتة ومن المعلوم لجميع العقلاء أنه يمكن إذ ذاك دعوتين من رجل محق ومبطل

بذلك الطالع بعينه فما أسخف عقل من ارتبط بهذا الهذيان وبني عليه جميع حوادث الزمان وليس بيد القوم إلا ما اعترف به فاضلهم وزعيمهم أبو معشر. (١)

الوجه السادس: ماذا قال الكتاب المقدس عن إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم يستعمل المعاريض:

وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر. (فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ. ١٣قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ).سفر التكوين (١٢/ ١٣: ١١).

هل عرف إبراهيم يهوه أم لم يعرفه؟

يذكر سفر التكوين أن إبراهيم عرف (يهوه) باسمه ودعا الموقع الذي أوشك أن يمارس عنده عادة ذبح الابن تقدمة للإله باسم (يَهْوَهْ يِرْأَهْ) (تكوين ٢٢: ١٤).

لكن ذلك لسوء الحظ تناقض تناقضًا صريحًا مع ما ورد في سفر الخروج ومبررًا للتشكيك في أمانة الرواية ومصداقية الحكاية، فقد جاء في سفر الخروج (٦: ٣) أن يهوه قال لموسى في أول لقاء لهما قرب خيام مدين أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب لم يعرفوه باسم.

* * *

(١) مفتاح دار السعادة صـ٤٨٠ وما بعدها.

٤ـ شبهة: لوط عليه السلام وتوكله على الله.

نص الشبهة:

فقد زعموا أن لوطًا عليه السلام كان قليل التوكل على الله عز وجل معتمدًا على الأسباب اعتمادًا كليًا، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (هود: ٨٠) قالوا: والذي يدل على صحة فهمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم عاتبه على قوله ذاك. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "يَرْحَمُ الله لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يأوي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ"[(١)].

وفي لفظ أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: "يَغْفِرُ الله لِلُوطٍ إِنْ كَانَ ليأوي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ"[(٢)].

وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعد ذلك أيضًا: "فلأيّ شيء استكان". وكذلك الملائكة وجدت عليه.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى الآية والحديث.

الوجه الثاني: أن هذا قول مردود باطل لا شك فيه.

الوجه الثالث: الآثار التي يحتجون بها من عتاب النبي صلى الله عليه وسلم ووجد الملائكة على لوط لا تصح.

الوجه الرابع: حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ليس عتابًا وإنما من باب التعجب.

الوجه الخامس: لوط عليه السلام كان متوكلًا على الله لكنه قصد إظهار العذر.

الوجه السادس: جواز الاستعانة بالمخلوق في دفع المفسدة.

الوجه السابع: لوط عليه السلام لم يكن يعلم نصر الله له بالملائكة في هذا الحين.

الوجه الثامن: لماذا طلب لوط عليه السلام ركنًا من البشر وهو يعلم أن الله تعالى من وراء عقابهم؟

الوجه التاسع: بيان السبب الذي من أجله قال لوط عليه السلام ذلك الكلام.

الوجه العاشر: معنى (أو) عند الكوفيين.

الوجه الحادي عشر: لوط في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

---

(١) البخاري (٣٣٨٧)، مسلم (١٥١).

(٢) البخاري (٣٣٧٥)، مسلم (١٥١).

الوجه الأول: بيان معنى الآية والحديث:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عونًا على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي أنصارًا وأعوانًا. وقال ابن عباس: أراد الولد.. وجواب "لو" محذوف؛ أي لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون. " أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ " أي ألجأ وأنضوي. ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة. وبلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى. [1]

قال النووي: ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد فالمراد بالركن الشديد هو الله سبحانه وتعالى فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث -والله أعلم-: أن لوطا ﷺ لما خاف على أضيافه ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه، واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه، فقال في ذلك الحال: لو أن لى بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوى إلى عشيرة تمنع لمنعتكم، وقصد لوط ﷺ إظهار العذر عند أضيافه، وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله وأنه بذل وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم، ولم يكن ذلك إعراضًا منه ﷺ عن الاعتماد على الله تعالى، وإنما كان لما ذكرناه من تطييب قلوب الأضياف. [2]

الوجه الثاني: أن هذا قول مردود باطل لا شك فيه.

قال ابن حزم: ومن اعتقد أن لوطًا كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد فقد كفر؛ إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر، وهذا أيضًا ظن سخيف إذ من الممتنع أن يظن برب أراه المعجزات وهو دائبًا يدعو إليه هذا الظن. [3]

الوجه الثالث: الآثار التي يحتجون بها من عتاب النبي ﷺ ووجد الملائكة على لوط لا تصح.

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٨١ باختصار.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١/ ٤٦٢.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٥٣.

الأول: عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "رحم الله أخي لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، فلأيّ شيء استكان". (١)

الثاني: عن وهب بن منبه قال: قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فوجد عليه الرسلُ وقالوا: إنَّ ركنَك لشديد! (٢)

الوجه الرابع: حديث الرسول ﷺ ليس عتابًا وإنما من باب التعجب

فإن حديث رسول الله ﷺ ليس عتابًا على نبي الله لوط وإنما تعجب من حاله عليه السلام إذ بحث المدد وهو لا يعلم بوجود ملائكة الرحمن معه في بيته متشكلين في صورة البشر.

وهذا أيضًا تعريض من نبي الله لوط بالدعاء، فهو يشهد الله على حاله راجيًا خلاصه، وهذا شبيه بتعريض أيوب عليه السلام حين قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾، والشاهد على هذا ما جاء في الآيات التالية من بشارة الملائكة إياه بنصر الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

الوجه الخامس: لوط عليه السلام كان متوكلًا على الله لكنه قصد إظهار العذر.

قال النووي: وقصد لوط ﷺ إظهار العذر عند أضيافه، وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله، وأنه بذل وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم. ولم يكن ذلك إعراضا منه ﷺ عن الاعتماد على الله تعالى وإنما كان لما ذكرناه من تطيب قلوب الأضياف.

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٨٧ من طريق جابر بن نوح، عن مبارك، عن الحسن به. وإسناده ضعيف. فيه إرسال الحسن، ومبارك بن فضالة: يدلس ويسوي وقد عنعن، وجابر بن نوح: ضعيف كما في التقريب ١/ ٨٥.

(٢) من الإسرائيليات. أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٨٨ من طريق إسماعيل بن عبد الكريم قال: حدثني عبد الصمد، أنه سمع وهب بن منبه يقول فذكره. وهذا من إسرائيليات وهب بن منبة ولا حجة فيه وهو مخالف لما ثبت عندنا من النصوص الصريحة.

ويجوز أن يكون التجأ فيما بينه وبين الله تعالى وأظهر للأضياف التألم وضيق الصدر والله أعلم. (١)

ولا يخرج هذا لوطًا من صفات المتوكلين على الله الواثقين بتأييده ونصره، لكن لوطًا عليه السلام أثار منه الغضب في ذات الله ما يثير من البشر، فكان ظاهر قول لوط كأنه خارج عن التوكل، وإن كان مقصده مقصد المتوكلين فنبه النبي ﷺ على ظاهر قول لوط تنبيه على ظاهر قول إبراهيم، وإن كان مقصده غير الشك لأنهم كانوا صفوة الله المخصوصين بغاية الكرامة ونهاية القربة، لا يقنع منهم إلا بظاهر مطابق للباطن بعيد عن الشبهة. (٢)

فقد كان متوكلًا على الله معتمدًا عليه في أحواله مفوضًا الأمر إليه. وقد مدحه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ (الشعراء: ١٦٤). قال تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (الشعراء: ١٦٩)، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (العنكبوت: ٣٠).

وأما عن مدحه: فقد شهد الله له بالحكمة والعلم. قال تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٤).

الوجه السادس: جواز الاستعانة بالمخلوق في دفع المفسدة.

قال ابن حزم: وهذا لا حجة لهم فيه أما قوله ﷺ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (هود: ٨٠) فليس مخالفًا لقول رسول الله ﷺ: "رَحِمَ الله لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يأوي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ". بل كلا القولين منهما -عليهما السلام- حق متفق عليه لأن لوطا عليه السلام إنما أراد منعه عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين.

وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوي من ربه تعالى إلى أمنع قوة، وأشد ركن.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١/ ٤٦٢.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/ ٥٢٦.

ولا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١) فهذا الذي طلب لوط عليه السلام وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام ربه تعالى فكيف ينكر على لوط أمرًا هو فعله عليه السلام؟ (١)

الوجه السابع: لوط عليه السلام لم يكن يعلم نصر الله له بالملائكة في هذا الحين.

قال ابن حزم: تالله ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ وإنما أخبر عليه السلام أن لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد يعني من نصر الله له بالملائكة ولم يكن لوط علم بذلك. (٢)

الوجه الثامن: لماذا طلب لوط عليه السلام ركنًا من البشر وهو يعلم أن الله تعالى من وراء عقابهم؟

قال ابن عطية: وإنما خشي لوط أن يمهل الله أولئك العصابة حتى يعصوه في الأضياف كما أمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم، فتمنى ركنًا من البشر يعاجلهم به، وهو يعلم أن الله تعالى من وراء عقابهم. (٣)

قال السعدي: وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب. (٤)

الوجه التاسع: بيان السبب الذي من أجله قال لوط عليه السلام ذلك الكلام.

إن هذا – ما أثاروه من عتاب على سيدنا لوط عليه السلام – سوء فهم منكم للحال التي قال فيها لوط عليه السلام ما قال، والسبب الذي حمله على ذلك القول. فالأنبياء عليهم السلام كانوا يُبعثون في منعة من أقوامهم، فيُبعث النبي ﷺ من أشرف قبائل قومه وأمنعهم، فتكون قبيلته – وإن لم تؤمن به – سندًا له تحميه من كيد أعدائه ومكرهم، فسيدنا لوط يقصد بذلك معونة

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٥٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٥٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٢.

(٤) تفسير السعدي صـ٣٨٦.

بشرية من أهله ومن المؤمنين به تكفيه ليقف في وجه الظلم والطغيان الذي لا يحترم ضعيفًا. ألم تقرأ قول الظالمين لسيدنا شعيب: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾(هود: ٩١).

وكما كان بنو هاشم للنبي ﷺ حماةً وسندًا.

وأما لوط عليه السلام فلم يبعث في قومه، وإنما بعث في مكان هجرته من أرض الشام، فكان غريبًا في القوم الذين بعث فيهم، إذ لم يكن له فيهم عشيرة، لذلك عندما خاف عليه السلام أن يوقع قومه الفضيحة بأضيافه تمنى أن لو كان بين عشيرته ليمنعوه، وهذا من باب طلب الأسباب، وهو طلب مشروع كما لا يخفى.

يقول الرسول ﷺ مؤكدًا هذا المعنى، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النبي ﷺ في قَوْلِ لُوطٍ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ قَالَ النبي ﷺ: " كَانَ يأوي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ". قَالَ النبي ﷺ: "فَمَا بُعِثَ بَعْدَهُ نبي إِلاَّ في ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ"(١)

الوجه العاشر: معنى (أو) عند الكوفيين.

ويجوز على رأي الكوفيين أن تكون أو بمعنى بل، ويكون قد أضرب عن الجملة السابقة وقال: بل آوى في حالي معكم إلى ركن شديد، وكنى به عن جناب الله تعالى. (٢)

الوجه الحادي عشر: لوط في الكتاب المقدس.

لوط كما يزعم هؤلاء يزني بابنتيه فاللهم إنا نبرأ إليك مما قالوه:

وأما لوط عليه السلام النبي الذي حارب الشذوذ، فتذكر التوراة أنه لما أهلك الله قومه لجأ إلى مغارة مع ابنتيه فسقتاه الخمر، وضاجعتاه، ولم يعلم بذلك، وولد من هاتين الفاحشتين عمي ومؤاب، ومنهما انحدر العمويون والمؤابيون أعداء بني إسرائيل، فاسمع إلى السفر:

---

(١) حسن. أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٢٨٤، والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥)، والترمذي في سننه (٣١١٦)، الطبري في تفسيره ١٢/ ٨٧، ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٠٧٦) من طرق عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به. والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٩).

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٤٧، روح المعاني ١٢/ ١٠٨.

" [٣٠]وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. [٣١]وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. [٣٢]هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». [٣٣]فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. [٣٤]وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أيضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». [٣٥]فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أيضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، [٣٦]فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. [٣٧]فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. (أعداء بني إسرائيل) [٣٨]وَالصَّغِيرَةُ أيضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ. (وهم أيضًا أعداء بني إسرائيل) " (التكوين ١٩/ ٣٠ – ٣٨).

ويذكر السفر تبريرًا لهذه الفاحشة، أن الكبيرة منهما قالت لأختها: " أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. . . فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا" (التكوين ١٩/ ٣١ - ٣٢)، فيصور النص الأرض وقد خلت من الرجال، أو أن المغارة سيمكث فيها لوط وابنتاه إلى الأبد، فلا سبيل حينذاك لاستبقاء النسل إلا زنا المحارم!.

* * *

٥ـ شبهة: حول قتل موسى عليه السلام للقبطي.

نص الشبهة:

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص١٥: ١٧).

احتج بهذه الآيات من طعن في عصمة الأنبياء من وجوه:

أحدها: أن ذلك القبطي إما أن يكون مستحقًّا القتل أو لم يكن كذلك، فإن استحق القتل فلمَ قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾؟ ولمَ قال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾؟ وقال في سورة أخرى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء: ٢٠)، وإن لم يستحق القتل كان قتله معصيةً وذنبًا.

وثانيها: أنَّ قوله: ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ يدل على أنه كان كافرًا حربيًا، فكان دمه مباحًا، فَلِمَ استغفر عنه؟ والاستغفار من الفعل المباح غير جائز؛ لأنه يوهم في المباح كونه حرامًا.

وثالثها: أنَّ الوكز لا يحصل عنه القتل ظاهرًا، فكان ذلك قتل خطأ، فَلِمَ استغفر منه؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأنبياء معصومون من الوقوع في الكبائر.

الوجه الثاني: أن موسى عليه السلام لم يتعمد قتله، وإنما قصد دفعه.

الوجه الثالث: أن فعل موسى عليه السلام كان على سبيل دفع الظالم.

الوجه الرابع: إشكالات، والرد عليها.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: الأنبياء معصومون من الوقوع في الكبائر.

أننا قد بينا في مقدمة عصمة الأنبياء أن الأنبياء معصومون من الوقوع في الكبائر قبل وبعد النبوة، والذي حدث من نبي الله موسى عليه السلام لا يعد من الكبائر. [1]

---

(١) روح المعاني ٢٠/ ٥٤، فتح البيان ١٠/ ١٠٠.

قال الآلوسي: ولا يشكل ذلك على القول بأن الأنبياء - عليهم السلام- معصومون عن الكبائر بعد النبوة وقبلها؛ لأن أصل الوكز من الصغائر، وعلى كونه من الصغائر، فقد رجحنا أيضًا أنهم معصومون من الوقوع في الصغائر قبل وبعد النبوة، وعلى قول من يقول بوقوعها منهم فلم تقع عمدًا، وإنما حدها بضوابط منها أنها تقع عن طريق التأويل والخطأ وغيرها. ويوضح ذلك في الوجه الثاني.

الوجه الثاني: أن موسى ﷺ لم يتعمد قتله، وإنما قصد دفعه.

لم يتعمد موسى ﷺ قتله ولم يكن قاصدًا القتل أصلًا وإنما قصد دفعه، ولكن وافقت وكزته الأجل، وكان قتله خطأً، فإن الوكزة في الغالب لا تقتل(١).

ومما يدل على أنه وقع خطأً أيضًا:

١- عن سَالِمِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ قال: يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، مَا أَسْأَلَكُمْ عَنِ الصَّغِيرَةِ وَأَرْكَبَكُمْ لِلْكَبِيرَةِ، سَمِعْتُ أَبِى عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَا هُنَا -وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ- مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ، وَأَنْتُمْ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا قَتَلَ مُوسَى الذي قَتَلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَطأً فَقَالَ الله ﷻ لَهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾". (٢)

إن الله تعالى قال: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فإن الوكزة في الغالب لا تقتل، والوكز واللكز واللهز واللهد بمعنى واحد، وهو الضرب بجمع الكف مجموعًا كعقد ثلاثة وسبعين، وقيل: اللكز في اللحى والوكز على القلب.

وقال الجوهري عن أبي عبيدة: اللكز الضرب بالجمع على الصدر.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٥، المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، عصمة الأنبياء للرازي (٨٩)، تفسير القرطبي ١٣/ ٢٧٠، تفسير الخازن ٣/ ٣٦٠، تفسير البحر المحيط ٧/ ١٠٥، فتح القدير ٤/ ٢٣٠، روح المعاني ٢٠/ ٥٤، فتح البيان ١٠/ ٩٨، التحرير والتنوير ٢٠/ ٩٠.
(٢) مسلم (٢٩٠٥).

وقال أبو زيد: في جميع الجسد، واللهز: الضرب بجمع اليد في الصدر مثل اللكز؛ عن أبي عبيدة أيضًا. وقال الأصمعي: نكزه أي: ضربه ودفعه، الكسائي: نهزه مثل نكزه ووكزه أي: ضربه ودفعه. (١)

ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه، وهو معنى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾. (٢)

ولو كان موسى عليه السلام قاصدًا القتل لاستخدم وسائل القتل كما هو معروف.

الوجه الثالث: أن موسى عليه السلام لم يتعمد قتله، وإنما قصد دفعه.

إن فعل موسى عليه السلام كان من قبيل دفع الصائل -دفع ظالم عن مظلوم- وهو لا إثم عليه فيه، وأشار له القرطبي بقوله: وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم، وفرض في جميع الشرائع. (٣)

الوجه الرابع: إشكالات، والرد عليها.

الأول: أما عن قول موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ فالجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: أنَّ قوله: «هذَا» إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه أي: عمل هذا المقتول من عمل الشيطان، والمراد منه بيان كونه مخالفًا لله تعالى مستحقًا للقتل(٤).

الوجه الثاني: أنَّ قوله: « هذَا » إشارة إلى المقتول، يعني: أنه من جند الشيطان وحزبه، يقال: فلان من عمل الشيطان، أي: من أحزابه. (١)

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٧١ بتصرف، البحر المحيط ٧/ ١٠٥، المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، وانظر كتاب العين (وكز)، مختار الصحاح (و ك ز)، تاج العروس (وهز).

(٢) جاء في تأويلها أن الضمير يعود لله عز وجل أي: فقضى الله سبحانه عليه بالموت فقضى بمعنى حكم، وقيل: يحتمل أن يعود على المصدر المفهوم – على الوكز نفسه – أي فقضى الوكز عليه أي أنهى حياته. البحر المحيط ٧/ ١٠٥، روح المعاني ٢٠/ ٥٤، التحرير والتنوير ٢٠/ ٩٠.

(٣) فتح البيان ١٠/ ١٠٠، تفسير القرطبي ١٣/ ٢٦٩، روح المعاني ٢٠/ ٥٤.

(٤) تفسير الرازي٢٤/ ٢٣٤، تفسير الخازن ٣/ ٣٦٠، فتح البيان ١٠/ ٩٨، تفسير النيسابوري سورة القصص آية ١٥، تفسير اللباب سورة القصص آية ١٥.

الوجه الثالث: وهو ما لحقه من الغضب حتى أدى إلى الوكزة التي قضت على القبطي. (٢)

الثاني: وأما عن قولهم: إنْ كان كافرًا حربيًا فَلِمَ استغفر من قتله بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾؟

فالجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: كون الكافر مباح الدم أم لا يختلف باختلاف الشرائع، فلعلَّ قتلهم كان حرامًا في ذلك الوقت(٣).

وهذا ما جزم به أبو السعود والشوكاني حيث قالا: لأنه لم يكن إذ ذاك مأمورًا بقتل الكفار(٤).

الوجه الثاني: وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلمًا لنفسه واستغفر منه؛ لأنه كان مستأمنًا فيهم ولا يحل قتل الكافر الحربي المستأمن(٥).

الوجه الثالث: إن كان مباحًا لكن الأولى تركه - تأخير قتل الكفار إلى زمان آخر فلما قتل ترك ذلك المندوب- فطلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين في استعظامهم خلاف الأولى(٦).

الوجه الرابع: أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ فعلى نهج قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ (الأعراف: ٢٣) أي: قاله على سبيل الانقطاع إلى الله، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإنْ لم يكن هناك ذنب قط. (٧)

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٣٤، تفسير الخازن ٣/ ٣٦٠، فتح البيان ١٠/ ٩٨، فتح القدير ٤/ ٢٣٠، تفسير اللباب سورة القصص آية ١٥، تفسير النيسابوري سورة القصص آية ١٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ١٠٥، المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠، التحرير والتنوير ٢٠/ ٩٠.

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٣٤.

(٤) فتح القدير ٤/ ٢٣١، تفسير أبي السعود ٧/ ٦.

(٥) تفسير النسفي ٣/ ٢٢٩، فتح القدير ٤/ ٢٣١، تفسير أبي السعود ٧/ ٦.

(٦) تفسير الرازي٢٣/ ٢٣٤، فتح القدير ٤/ ٢٣١، فتح البيان ١٠/ ٩٩، روح المعاني ٢٠/ ٥٥.

(٧) تفسير الرازي٢٤/ ٢٣٤، البحر المحيط ٧/ ١٠٥، زاد المسير ٦/ ٢٠٩.

الوجه الخامس: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، ولأنه ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر، وليس من سنن آبائه الأنبياء -عليهم السلام- في مثل هذه الحادثة التي شاهدها وقد أفضى إلى قتل نفس لم يشرع في شريعة من الشرائع قتلها. [(١)]

الوجه السادس:

وإنما عدَّه من عملِ الشَّيطانِ وسمَّاه ظُلمًا واستغفرَ منه جريًا على سُنَنِ المقرَّبينَ في استعظامِ ما فرطَ منهم ولو كانَ من مُحقِّراتِ الصَّغائرِ. [(٢)]

الوجه السابع:

إن اعتراف موسى عليه السلام بظلمه لنفسه واستغفاره لا يستلزم منه أنه كان على ذنب؛ بل يعد هذا من مناقبه.

لا يشترط للاستغفار أن يكون على ذنب، بل إن الاستغفار عبادة لله سبحانه وتعالى، وقد طلب الأنبياء -عليهم السلام- الغفران من الله عز وجل، قال عز وجل على لسان نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ (نوح: ٢٨)، وقال عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ (الشعراء: ٨٢)، وقال عز وجل على لسان داود عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص: ٢٤)، وقال عز وجل على لسان سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (ص: ٣٥).

فهل كان استغفار الأنبياء على ذنب؟!

وكذلك قال رسول الله ﷺ: "وَاللهِ إِنِي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"[(٣)].

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاَثًا وَقَالَ: "اللهمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ"[(٤)].

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢٢٩، تفسير أبي السعود ٧/ ٦، روح المعاني ٢٠/ ٥٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ٦، تفسير حقي ١٠/ ١٢٧.

(٣) البخاري (٦٣٠٧)، مسلم (٢٧٠٢).

(٤) مسلم (٥٩١).

فهل الصلاة ذنب حتى يستغفر العبد منها؟!

فتبين من ذلك أن الاستغفار لا يستلزم أن يكون على ذنب، وكذلك اعتراف العبد بأنه مذنب هذا من مناقبه، فقد اعترف آدم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف: ٢٣) فعد ذلك من مناقبه.

وكذلك موسى عليه السلام اعترف بالذنب - وإن لم يكن له ذنب- فعد هذا من مناقبه، ولذلك لما طلب المغفرة قال الله عز وجل: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (القصص: ١٦).

وعلى النقيض من ذلك لم يعترف إبليس وعاند ربه فكانت العاقبة أن طرد من رحمة الله عز وجل وأصبح من الخالدين في النار.

الثالث: وأما عن قولهم: إن موسى عليه السلام **نسب الضلال إلى نفسه حيث قال:** ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (**الشعراء: ٢٠**).

والجواب على ذلك كما يلي:

إن الضلال هنا ليس من الضلال في الدين، وإنما تأتي هذه الكلمة ويراد بها عدة معان[١]؛ منها:

المعنى الأول: الضلال بمعنى: الجهل.

الضالين بمعنى: الجاهلين.[٢]

قال الطبري: والعرب تضع من الضلال موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق وضل الطريق بمعنى واحد.[٣]

---

(١) تراجع الشبهة في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ (الضحى: ٧) من هذه الموسوعة.

(٢) النكت والعيون٤/ ١٦٨، تفسير النسفي٣/ ١٨٠، تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٨، وقد جاء كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس: "وأنا من الجاهلين" كما نقله أبو حيان، لكنه قال: ويظهر أنه تفسير للضالين، لا قراءة مروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ تفسير البحر المحيط ٧/ ١٠، المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧، تفسير الآلوسي٢٠/ ٦٩.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٦٧.

والجهالة هنا على أنواع:

١- من الجاهلين، يعني: عن النبوة، ولم يأتني عن الله فيه شيء، فليس عليّ فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ. (١)

قال الطبري: يقول -تعالى ذكره-: قال موسى لفرعون: فعلت تلك الفعلة التي فعلت؛ أي: قتلت تلك النفس التي قتلت إذن وأنا من الضالين، يقول: وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله عليّ. (٢)

٢- من الجاهلين أي: أن ذلك يؤدي إلى قتله.

والمراد بذلك: الذاهلين عن معرفة ما يؤول إليه من القتل؛ لأنه فَعَلَ الوكزةَ على وجه التأديب، ومثل ذلك ربما حَسُنَ وإن أدى إلى القتل فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافرًا أو كافرًا لنعمه. ومعنى ذلك أنه فعل ذلك جاهلًا به غير متعمد إياه وفي معنى ما ذكر ما روي عن ابن زيد من أن المعنى وأنا من الجاهلين بأن وكزتي تأتي على نفسه. (٣)

٣- الجاهلين بعواقب الأمر، والمعنى: فعلتها مُقْدِمًا عليها من غير مبالاة بالعواقب، على أن الجهل بمعنى الإقدام من غير مبالاة كما فسر بذلك في قوله:

ألا لا يجلهن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا. (٤)

٤- أراد من الجاهلين بالشرائع، وفسر الضلال بذلك في قوله – تعالى-: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾. (٥)

---

(١) البحر المحيط٧/ ١٠، النكت والعيون ٤/ ١٦٧.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٦٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٥-١٢٦، تفسير البيضاوي صـ ٤٩٥، تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٨، تفسير الخازن ٣/ ٣٨٣، تفسير الآلوسي٢٠/ ٦٩ ورجحه، البحر المحيط ٧/ ١٠.

(٤) تفسير الآلوسي ٢٠/ ٦٩.

(٥) تفسير الآلوسي ٢٠/ ٦٩.

المعنى الثاني: الضلالة هنا بمعنى: الخطأ.

أي: من الخاطئين؛ والمعنى: كمن يقتل خطأً من غير تعمد للقتل. (١)

قال عبد الرحمن بن زيد في قوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾: قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مِنَ الله شَيْءٌ كَانَ قَتْلِي إِيَّاهُ ضَلالَةً وَخطأً، قَالَ: وَالضَّلالَةُ هَاهُنَا الْخَطَأُ، وَلَمْ يَقُلْ: ضَلالَةً فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله. (٢)

المعنى الثالث: الضلال بمعنى النسيان.

قال القتبي: أصل الضلالة العدُول عن الحق، ثم يكون لمعاني منها النسيان، لأن الناسي عادل عنه، فكما قال هاهنا: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: من الناسين وكما قال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ (البقرة: ٢٨٢). (٣)

فتبين من ذلك أن قول موسى عليه السلام ليس من الضلال في الدين وإنما بأحد هذه الوجوه.

فلم يقل: إني صرت بذلك ضالًا، ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرًا في حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرًا في ذلك الوقت، واعترف بأنه كان ضالًا أي: متحيرًا لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يدبر به في ذلك. (٤)

* * *

(١) تفسير البيضاوي (٤٩٦)، الكشاف ٣/ ٣٠٥-٣٠٦، زاد المسير ٦/ ١١٩.

(٢) صحيح. أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ١٢٦ من طريق ابن وهب، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٥٦٧) من طريق أصبغ كلاهما (ابن وهب وأصبغ)، عن ابن وهب به.

(٣) بحر العلوم للسمرقندي (سورة الشعراء)، الكشاف ٣/ ٣٠٥-٣٠٦، تفسير أبي السعود٦/ ٢٣٨، تفسير الآلوسي٢٠/ ٦٩، تفسير البيضاوي ص٤٩٥، تفسير النسفي٣/ ١٨٠، المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧، تفسير القرطبي١٣/ ١٠٢، معاني القرآن لأبي جعفر النحاس ٥/ ٧١.

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٣٤.

٦ـ شبهة: حول لطم موسى عليه السلام ملك الموت.

نص الشبهة:

لطم موسى ملك الموت، فهل هذا يليق بنبي من أنبياء الله؟

الرد علي ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الأقوال في معني الحديث.

الوجه الثاني: هل عصي ملك الموت ربه عز وجل؟

الوجه الثالث: هل موسى عليه السلام يكره الموت؟

الوجه الرابع: الأنبياء عندنا معصومون خلاف ما تعتقدونه.

الوجه الخامس: الرد من الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الأقوال في معنى الحديث.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عليه السلام، فَلَمَّا جَاءَهُ، صَكَّهُ فَفَقَأَ عَيْنَه، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّه، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ، قَالَ: فَرَدَّ الله إِلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَهُ بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَالَ: أَيْ رَبِّ ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالْآنَ، فَسَأَلَ الله أَنْ يُدْنِيَهُ مِنْ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ [(١)].

اختلف أهل العلم في هذا الحديث علي عدة أقوال:

القول الأول: قاله ابن حبان في صحيحه حيث قال: كان مجيء ملك الموت إلى موسى عليه السلام على غير الصورة التي كان يعرفه موسى عليه السلام عليها، وكان موسى غيورًا فرأى في داره رجلا لم يعرفه فشال يده فلطمه، فأتت لطمته على فقء عينه التي في الصورة التي يتصور بها لا الصورة التي خلقه الله عليها. . . ولما كان من شريعتنا أن من فقأ عين الداخل داره بغير إذنه أو الناظر إلى بيته بغير أمره من غير جناح على فاعله، ولا حرج على مرتكبه للأخبار الجمة الواردة فيه

(١) البخاري (١٢٧٤)، ومسلم (٢٣٧٢).

كان جائزًا اتفاق هذه الشريعة بشريعة موسى بإسقاط الحرج عمن فقأ عين الداخل داره بغير إذنه فكان استعمال موسى هذا الفعل مباحًا له ولا حرج عليه في فعله، فلما رجع ملك الموت إلى ربه وأخبره بما كان من موسى فيه أمره ثانيًا بأمر آخر؛ أمر اختبار وابتلاء كما ذكرنا قبل إذ قال الله له: قل له: إن شئت فضع يدك على متن ثور فلك بكل ما غطت يدك بكل شعرة سنة فلما علم موسى كليم الله أنه ملك الموت وأنه جاءه بالرسالة من عند الله طابت نفسه بالموت ولم يستمهل وقال: فالآن، فلو كانت المرة الأولى عرفه موسى أنه ملك الموت لاستعمل ما استعمل في المرة الأخرى عند تيقنه وعلمه به. [1]

و نقل ابن حجر موافقة ابن خزيمة لهذا الرأي حيث قال: قال ابن خزيمة: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وقالوا: إن كان موسى عرفه فقد استخف به وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتص له من فقوء عينه؟ والجواب: أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذ، بعثه إليه اختيارًا وإنما لطم موسى ملك الموت لأنه رأى آدميًا دخل داره بغير إذنه ولم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشارع فقوء عين الناظر في دار المسلم بغير إذن، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، ولو عرفهم إبراهيم لما قدم لهم المأكول، ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه، وعلى تقدير أن يكون عرفه فمن أين لهذا المبتدع مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر؟! ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص من موسى فلم يقتص له؟! [2]

ولخص الخطابي كلام ابن خزيمة وزاد فيه:

أن موسى دفعه عن نفسه لما ركب فيه من الحدة، وأن الله رد عين ملك الموت ليعلم موسى أنه جاءه من عند الله فلهذا استسلم حينئذ[3].

(١) صحيح ابن حبان ١٤/ ١١٥-١١٦ بتصرف يسير.
(٢) فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥١٠، وانظر: شرح مسلم للنووي ٨/ ١٤٣.
(٣) فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥١٠.

قال البغوي: هذا الحديث يجب على المرء المسلم الإيمان به على ما جاء به من غير أن يعتبره بما جري عليه عرف البشر، فيقع في الارتياب، لأنه أمر مصدره عن قدرة الله سبحانه وتعالي وحكمه، وهو مجادلة بين ملك كريم ونبي كليم، كل واحد منهما مخصوص بصفة خرج بها عن حكم عوام البشر، ومجاري عاداتهم في المعني الذي خص به، فلا يعتبر حالهما بحال غيرهما، وقد اصطفي الله سبحانه وتعالي موسى برسالاته وبكلامه، وأيده بالآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة، كاليد البيضاء، والعصا، وانفلاق البحر، وغيرها مما نطق به القرآن، ودلت عليه الآثار، وكل ذلك إكرام من الله ﷻ أكرمه به، فلما دنت وفاته وهو بشر يكره الموت طبعًا، ويجد ألمه حسا، لطف له بأن لم يفاجئه به بغتة، ولم يأمر الملك الموكل به أن يأخذه به قهرا، لكن أرسله له منذرًا بالموت، وأمره بالتعرض له على سبيل الامتحان في صورة بشر، فلما رآه موسى استنكر شأنه، واستوعر مكانه، فاحتجز منه دفعًا عن نفسه بما كان من صكه إياه، فأتي ذلك علي عينه التي ركبت في الصورة البشرية التي جاءه فيها دون صورة الملكية التي هو مجبول عليها، وقد كان في طبع موسى ﷺ حمية وحِدَّة علي ما قص الله علينا من أمره في كتابه من وكزه القبطي، وإلقائه الألواح، وأخذه برأس أخيه يجره إليه. . وقد جرت سنة الدين بدفع من قصدك بسوء، كما جاء في الحديث "مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ"[1]، فلما نظر موسى إلي شخص في صورة بشر، هجم عليه يريد نفسه، ويقصد هلاكه، وهو لا يثبته، ولا يعرفه أنه رسول ربه دفعه عن نفسه، فكان فيه ذهاب عينه، فلما عاد الملك إلي ربه، رد الله إليه عينه، وأعاده رسولًا إليه ليعلم نبي الله ﷺ إذا رأي صحة عينيه المفقوءة أنه رسول الله بعثه ليقبض روحه، فاستسلم حينئذ لأمره، وطاب نفسًا بقضائه، وكل ذلك رفق من الله ﷻ، ولطف منه في تسهيل ما لم يكن بد من لقائه، والانقياد لمورد قضائه[2].

---

(١) البخاري (٦٩٠٠)، مسلم (٢١٥٨) واللفظ له.

(٢) شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٦٧-٢٦٨ بتصرف يسير.

القول الثاني:

قال ابن قتيبة: وقد جعل الله سبحانه للملائكة من الاستطاعة أن تتمثل في صور مختلفة وأتى رسولَ الله ﷺ جبريلُ ﵇ في صورة دحية الكلبي وفي صورة أعرابي، ورآه مرة قد سد بجناحيه ما بين الأفقين، وكذلك جعل للجن أن تتمثل وتتخيل في صور مختلفة كما جعل للملائكة قال الله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، وليس ما تنتقل إليه من هذه الأمثلة على الحقائق إنما هي تمثيل وتخييل لتلحقها الأبصار، ولما تمثل ملك الموت لموسى ﵇ وهذا ملك الله وهذا نبي الله وجاذبه لطمه موسى لطمة أذهبت العين التي هي تخييل وتمثيل وليست حقيقة وعاد ملك الموت ﵇ إلى حقيقة خلقته الروحانية كما كان لم ينتقص منه شيء(١).

القول الثالث: ذكره النووي عن بعض العلماء في شرحه علي صحيح مسلم حيث قال: أَنَّهُ لَا يَمْتَنِع أَنْ يَكُونَ مُوسَى ﷺ قَدْ أَذِنَ الله تَعَالَى لَهُ فِي هَذِهِ اللَّطْمَة، وَيَكُون ذَلِكَ اِمْتِحَانًا لِلْمَلْطُومِ، وَالله سُبْحَانه وَتَعَالَى يَفْعَلُ فِي خَلْقه مَا شَاءَ، وَيَمْتَحِنُهُمْ بِمَا أَرَادَ(٢).

و نقل ابن الجوزي أن ابن عقيل جوز هذا حيث قال: قال ابن عقيل: يجوز أن يكون موسى قد أذن له في ذلك الفعل بملك الموت وابتلي ملك الموت بالصبر عليه كقصة الخضر مع موسى(٣).

كما نقل ذلك ابن حجر في الفتح حيث ذكر كلام ابن عقيل في المسألة(٤).

القول الرابع: ذهب إليه القرطبي في تفسيره حيث قال: أن موسى ﷺ عرف ملك الموت، وأنه جاء ليقبض روحه لكنه جاء مجيء الجزم بأنه قد أمر بقبض روحه من غير تخيير، وعند موسى ما قد نص عليه نبينا محمد ﷺ من "أن الله لا يقبض روح نبي حتى يخيره"(١)، فلما جاءه على غير الوجه الذي أعلم بادر بشهامته وقوة نفسه إلى أدبه، فلطمه

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٧٧- ٢٧٨ بتصرف يسير.

(٢) شرح مسلم للنووي ٨/ ١٤٣.

(٣) كشف المشكل في حديث الصحيحين لابن الجوزي ١/ ٩٥٧.

(٤) فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥١٠.

ففقأ عينه امتحانا لملك الموت؛ إذ لم يصرح له بالتخيير. ومما يدل على صحة هذا، أنه لما رجع إليه ملك الموت فخيره بين الحياة والموت اختار الموت واستسلم. (٢)

الوجه الثالث: هل موسى عليه السلام يكره الموت؟

قال أبو حاتم: وذاك أن الله جل وعلا أرسل ملك الموت إلى موسى رسالة ابتلاء واختبار وأمره أن يقول له: أجب ربك أمر اختبار وابتلاء لا أمرًا يريد الله عز وجل إمضاءه كما أمر خليله صلى الله على نبينا وعليه بذبح ابنه أمر اختبار وابتلاء دون الأمر الذي أراد الله عز وجل إمضاءه فلما عزم على ذبح ابنه وتله للجبين فداه بالذبح العظيم. (٣)

وقال البغوي: فلما دنت وفاته وهو بشر يكره الموت طبعًا، ويجد ألمه حسًا، لطف له بأن لم يفاجئه به بغتة، ولم يأمر الملك الموكل به أن يأخذه به قهرا، لكن أرسله له منذرًا بالموت، وأمره بالتعرض له على سبيل الامتحان في صورة بشر. (٤)

فلم يقل أحد من علماء المسلمين أن ملك الموت عصى ربه جل وعلا. ولم يذكر في الحديث أي مخالفة أو عصيان من ملك الموت لله سبحانه وتعالي.

قال الله عز وجل عن الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦).

قال ابن كثير: أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. (٥)

وقال المازري والقاضي عياض: وليس في الحديث تصريح بأنه تعمد فقء عينه فإن قيل: فقد اعترف موسى حين جاءه ثانيا بأنه ملك الموت، فالجواب: أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى والله أعلم. (١)

---

(١) انظر البخاري (٤٤٣٥)، مسلم (٢٤٤٤).

(٢) تفسير القرطبي ٦/ ١٣١.

(٣) صحيح ابن حبان ١٤/ ١١٤.

(٤) شرح السنة للبغوي ٥/ ٢٦٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٩.

الوجه الرابع: الأنبياء عندنا معصومون خلاف ما تعتقدونه.

إن الأنبياء عندنا معصومون من الكبائر والصغائرخلاف ما يعتقده المخالفون بأن الأنبياء يقع منهم ما يقع من عامة الناس من شرك، وزنا، وسب، وغير ذلك مما هو في كتبهم وعقائدهم معلوم. ولا شك أن موسى عليه السلام رسول مقرب، بل وكرمه الله رب العالمين بأن جعله كليمَه سبحانه وتعالي. وهو أيضًا عندنا من أولي العزم الخمسة الذين اصطفاهم الله علي أنبيائه أجمعين. وإليك ما قاله الله لموسى عليه السلام حيث: قال الله عز وجل لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ (طه: ٤١).

قال ابن كثير: أي: اصطفيتك واجتبيتك رَسُولا لنفسي، أي: كما أريد وأشاء. [٢]

قال الرازي: وموسى عليه السلام كان مخصوصًا بمزيد العصمة: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه: ٤١). [٣]

الوجه الخامس: الرد من الكتاب المقدس.

جاء في إنجيل متي وغيره أن يسوع صرخ حين صلب لكي يقتل حيث جاء في إنجيل (متى ٢٧/ ٤٦): ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلي إيلي لما شبقتني؟ أي: إلهي، إلهي لماذا تركتني؟.

فلماذا صرخ يسوع ولماذا قال ما قاله؟

وهذه بعض المجازفات والأغلوطات التي في الكتاب المقدس.

الركوب على الجحش والأتان معًا:

ومما يكذبه العقل ولا يتصوره ما ذكره متى عند حديثه عن دخول المسيح أورشليم فقال: " وَأَتَيَا بِالأَتَانِ وَالْجَحْشِ، وَوَضَعَا عَلَيْهِمَا ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ (أي المسيح) عَلَيْهِمَا" (متى ٢١/ ٧) فجلوس المسيح على الجحش والأتان معًا لا يتصوره العقل.

وهو غلط وكذب أراد متى من خلاله أن يحقق نبوءة توراتية " فَكَانَ هذَا كُلُّهُ لِكَيْ يَتِمَّ

---

(١) انظر: شرح مسلم للنووي ٨/ ١٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٣.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٣٨.

مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: قُولُوا لابْنَةِ صِهْيَوْنَ: هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِيكِ وَدِيعًا، رَاكِبًا عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ. " (متى ٢١/ ٤-٥).

حوار الأشجار:

وَأَخْبَرُوا يُوثَامَ فَذَهَبَ وَوَقَفَ عَلَى رَأْسِ جَبَلِ جِرِزِّيمَ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ وَنَادَى وَقَالَ لَهُمْ: «اِسْمَعُوا لِي يَا أَهْلَ شَكِيمَ، يَسْمَعْ لَكُمُ اللهُ. ٨ مَرَّةً ذَهَبَتِ الأَشْجَارُ لِتَمْسَحَ عَلَيْهَا مَلِكًا. فَقَالَتْ لِلزَّيْتُونَةِ: امْلِكِي عَلَيْنَا. ٩ فَقَالَتْ لَهَا الزَّيْتُونَةُ: أَأَتْرُكُ دُهْنِي الَّذِي بِهِ يُكَرِّمُونَ بِيَ اللهَ وَالنَّاسَ، وَأَذْهَبُ لِكَيْ أَمْلِكَ عَلَى الأَشْجَارِ؟ ١٠ ثُمَّ قَالَتِ الأَشْجَارُ لِلتِّينَةِ: تَعَالَيْ أَنْتِ وَامْلِكِي عَلَيْنَا. ١١ فَقَالَتْ لَهَا التِّينَةُ: أَأَتْرُكُ حَلاَوَتِي وَثَمَرِي الطَّيِّبَ وَأَذْهَبُ لِكَيْ أَمْلِكَ عَلَى الأَشْجَارِ؟ ١٢ فَقَالَتِ الأَشْجَارُ لِلْكَرْمَةِ: تَعَالَيْ أَنْتِ وَامْلِكِي عَلَيْنَا. ١٣ فَقَالَتْ لَهَا الْكَرْمَةُ: أَأَتْرُكُ مِسْطَارِي الَّذِي يُفَرِّحُ اللهَ وَالنَّاسَ وَأَذْهَبُ لِكَيْ أَمْلِكَ عَلَى الأَشْجَارِ؟ ١٤ ثُمَّ قَالَتْ جَمِيعُ الأَشْجَارِ لِلْعَوْسَجِ: تَعَالَ أَنْتَ وَامْلِكْ عَلَيْنَا. ١٥ فَقَالَ الْعَوْسَجُ لِلأَشْجَارِ: إِنْ كُنْتُمْ بِالْحَقِّ تَمْسَحُونَنِي عَلَيْكُمْ مَلِكًا فَتَعَالَوْا وَاحْتَمُوا تَحْتَ ظِلِّي. وَإِلاَّ فَتَخْرُجَ نَارٌ مِنَ الْعَوْسَجِ وَتَأْكُلَ أَرْزَ لُبْنَانَ! فَالآنَ إِنْ كُنْتُمْ قَدْ عَمِلْتُمْ بِالْحَقِّ وَالصِّحَّةِ إِذْ جَعَلْتُمْ أَبِيمَالِكَ مَلِكًا، وَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ فَعَلْتُمْ خَيْرًا مَعَ يَرُبَّعْلَ وَمَعَ بَيْتِهِ، وَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ فَعَلْتُمْ لَهُ حَسَبَ عَمَلِ يَدَيْهِ (القضاة٩/ ١٦ : ٧).

حوار الحمير.

ثُمَّ اجْتَازَ مَلاَكُ الرَّبِّ أَيْضًا وَوَقَفَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ حَيْثُ لَيْسَ سَبِيلٌ لِلنُّكُوبِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا. ٢٧ فَلَمَّا أَبْصَرَتِ الأَتَانُ مَلاَكَ الرَّبِّ، رَبَضَتْ تَحْتَ بَلْعَامَ. فَحَمِيَ غَضَبُ بَلْعَامَ وَضَرَبَ الأَتَانَ بِالْقَضِيبِ. ٢٨ فَفَتَحَ الرَّبُّ فَمَ الأَتَانِ، فَقَالَتْ لِبَلْعَامَ: «مَاذَا صَنَعْتُ بِكَ حَتَّى ضَرَبْتَنِي الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ؟ ». ٢٩ فَقَالَ بَلْعَامُ لِلأَتَانِ: «لأَنَّكِ ازْدَرَيْتِ بِي. لَوْ كَانَ فِي يَدِي سَيْفٌ لَكُنْتُ الآنَ قَدْ قَتَلْتُكِ». ٣٠ فَقَالَتِ الأَتَانُ لِبَلْعَامَ: «أَلَسْتُ أَنَا أَتَانَكَ الَّتِي رَكِبْتَ عَلَيْهَا مُنْذُ وُجُودِكَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ؟ هَلْ تَعَوَّدْتُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ هكَذَا؟ » فَقَالَ: «لاَ».

٣١ ثُمَّ كَشَفَ الرَّبُّ عَنْ عَيْنَيْ بَلْعَامَ، فَأَبْصَرَ مَلاَكَ الرَّبِّ وَاقِفًا فِي الطَّرِيقِ وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ فِي يَدِهِ، فَخَرَّ سَاجِدًا عَلَى وَجْهِهِ. ٣٢ فَقَالَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ: «لِمَاذَا ضَرَبْتَ أَتَانَكَ الآنَ ثَلاَثَ

دَفَعَاتٍ؟ هأَنَذَا قَدْ خَرَجْتُ لِلْمُقَاوِمَةِ لأَنَّ الطَّرِيقَ وَرْطَةٌ أَمَامِي، [٣٣] فَأَبْصَرَتْنِي الأَتَانُ وَمَالَتْ مِنْ قُدَّامِي الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ. وَلَوْ لَمْ تَمِلْ مِنْ قُدَّامِي لَكُنْتُ الآنَ قَدْ قَتَلْتُكَ وَاسْتَبْقَيْتُهَا». [٣٤] فَقَالَ بَلْعَامُ لِمَلاَكِ الرَّبِّ: «أَخْطَأْتُ. إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِفٌ تِلْقَائِي فِي الطَّرِيقِ. وَالآنَ إِنْ قَبُحَ فِي عَيْنَيْكَ فَإِنِّي أَرْجعُ». [٣٥] فَقَالَ مَلاَكُ الرَّبِّ لِبَلْعَامَ: «اذْهَبْ مَعَ الرِّجَالِ، وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ بِالْكَلاَمِ الَّذِي أُكَلِّمُكَ بِهِ فَقَطْ». فَانْطَلَقَ بَلْعَامُ مَعَ رُؤَسَاءِ بَالاَقَ. (العدد٢٢/ ٣٥: ٢٦).

❋ ❋ ❋

٧ـ شبهة: ادعاؤهم عصيان يونس عليه السلام.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

قالوا: لا ذنب أعظم من المغاضبة لله ﷻ، ومن أكبر ذنبًا ممن ظن أن الله لا يقدر عليه وذلك يقتضي كونه شاكًا في قدرة الله تعالى، وأنه أقر على نفسه أنه كان من الظالمين والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ١٨) ونهى الله تعالى نبيه أن يكون مثله، فإن لم يكن صاحب الحوت مذنبًا لم يجز النهي عن التشبه به؟ ، وإن كان مذنبًا فقد حصل الغرض.

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن الآية دلت على أنه ذهب مغاضبًا ولم تدل على أنه غاضب الله.

الوجه الثاني: أنه ذهب مغاضبًا لربه أي: لأجل ربه.

الوجه الثالث: أنه خرج مغاضبًا لقومه أو للملك الذي كان وقتئذٍ.

الوجه الرابع: شبهات والرد عليها.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: أن الآية دلت على أنه ذهب مغاضبًا ولم تدل على أنه غاضب الله.

وليس في الآية من غاضبه، لكنا نقطع على أنه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه؛ لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكًا للأمر والنهي والجاهل بالله لا يكون مؤمنًا فضلًا عن أن يكون نبيًا. (١)

قال ابن حزم: أما إخبار الله تعالى أن يونس عليه السلام ذهب مغاضبًا فلم يغاضب ربه قط، ولا قال الله تعالى أنه غاضب ربه فمن زاد هذه الزيادة كان قائلًا على الله الكذب، وزائدًا

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٤، وعصمة الأنبياء (١١٤).

في القرآن ما ليس فيه، هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل أنه يغاضب ربه تعالى، فكيف أن يفعل ذلك نبي من الأنبياء؟. (١)

الوجه الثاني: أنه ذهب مغاضبًا لربه أي: لأجل ربه.

مغاضبًا لربه أي: لأجل ربه ودينه، واللام لام العلة لا اللام الموصلة للمفعول به. (٢)

وهذا المعنى - مغاضبًا لربه ﷻ- هو اختاره الطبري والقتبي واستحسنه المهدوي. (٣)

وقال النحاس: وربما أنكره هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح. (٤)

والمعنى: مغاضبًا من أجل ربه، كما تقول: غضبت لك أي من أجلك، والمؤمن يغضب لله ﷻ إذا عصي، وبالغ القتبي في نصرة هذا القول: ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم. (٥)

الوجه الثالث: أنه خرج مغاضبًا لقومه أو للملك الذي كان وقتئذٍ.

وإذا ثبت أنه لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله تعالى، وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضبًا لغير الله، والغالب أنه إنما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعًا، ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها، وكان غضبه على قومه لشدة شكيمتهم ولكفرهم وتمادي إصرارهم مع طول دعوته إياهم. (٦)

الوجه الرابع: شبهات والرد عليها.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٦١.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣١١، وانظر: الكشاف ٣/ ١٣١.

(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٣٤٦، وانظر: تفسير الطبري ١٧/ ٧٧، النكت والعيون ٣/ ٤٦٥.

(٤) وإنكار أهل العلم لهذا المعنى لأنه قد حكى في مغاضبتة لربه كيفيات يجب اطّراحها إذ لا يناسب شيء منها منصب النبوة. المحرر الوجيز ٤/ ٩٧، البحر المحيط ٦/ ٣١١.

(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٣٤٦، زاد المسير ٥/ ٣٨٢.

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٤، تفسير الطبري ١٧/ ٧٦، النكت والعيون ٣/ ٤٦٥، تفسير البغوي ٣/ ٢٦٥، الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٢١، المحرر الوجيز ٤/ ٩٦.

الأول: وأما قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فقالوا: وذلك يقتضي كونه شاكًا في قدرة الله تعالى.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن هذا قول مردود باطل لا شك فيه.

فقالت فرقة: استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته. وهذا قول مردود مرغوب عنه؛ لأنه كفر. ومن ظن عجز الله تعالى فهو كافر.[(١)]

قال ابن حزم: وأما قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم ومن المحال المتيقن أن يكون نبي يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه وهو يرى أن آدميا مثله يقدر عليه، ولا شك في أن من نسب هذا للنبي الفاضل فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه فكيف إلى يونس عليه السلام الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: "مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"[(٢)].

فقد بطل ظنهم بلا شك.[(٣)]

الوجه الثاني: نقدر عليه، أي: نضيق عليه.

ومن إطلاق "قدر" بمعنى "ضيق" في القرآن كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيق الرزق على من يشاء، وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ (الطلاق: ٧)، فقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي: ومن ضيق عليه رزقه، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ (الفجر: ١٦) أي: ضيق.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧، تفسير الطبري ١٧/ ٧٩، تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥.

(٢) البخاري (٣٤١٣)، مسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٦١.

واعلم أن على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا، وذلك لأن يونس ﷺ ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج، وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره، وكان في المعلوم أن الصلاح في تأخر خروجه، وهذا من الله تعالى بيان لما يجري مجرى العذر له من حيث خرج، لا على تعمد المعصية لكن لظنه أن الأمر في خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر، وكان الصلاح خلاف ذلك. (١)

ونسب هذا القول إلى الجمهور الشوكاني. (٢)

الوجه الثالث: نقدر عليه، أي: نقضي عليه بعقوبة.

وإطلاق "نقدر" بمعنى "نقضي" في القرآن ومنه قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ (الواقعة: ٦٠)، وعلى هذا فهو من القدر الذي هو بمعنى القضاء والحكم دون القدرة والاستطاعة. (٣)

والعرب تقول: قدَر وقَدّر بمعنى واحد. (٤)

وعليه فهو من القدر والقضاء. "وقدر" بالتخفيف تأتي بمعنى "قدر" المضعفة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي قدره الله.

ومنه قول الشاعر وأنشده ثعلب شاهدًا لذلك:

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبدًا ما أورق السلم النضر
ولا عائذ ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر.

والعرب تقول: قدر الله لك الخير يقدره قدرًا، كضرب يضرب، ونصر ينصر، بمعنى قدره لك تقديرًا. ومنه على أصح القولين "ليلة القدر" لأن الله يقدر فيها الأشياء. كما قال

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥، التمهيد لابن عبد البر ١٨/ ٤٢، تفسير الطبري ١٧/ ٧٩.
(٢) فتح القدير ٨/ ٣٦٥.
(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥، وانظر التمهيد لابن عبد البر ١٨/ ٤٢، تفسير الطبري ١٧/ ٧٩.
(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٣٨٦).

تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ والقدر بالفتح، والقدر بالسكون: ما يقدره الله من القضاء. ومنه قول هدبة بن الخشرم:

ألا يا لقومي للنوائب والقدر. . . وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري.[(١)]

الوجه الرابع: الكلام بمعنى الاستفهام.

إن معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ الاستفهام، ويكون المعنى: أفظنَّ أن لن نَقْدِر عليه؛ فعلى هذا الوجه يكون استفهامًا قد حُذفت ألفه إيجازًا؛ وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة، ولا يتصوّر إلا مع تقدير الاستفهام، ولا أعلم له وجهًا إلا أن يكون استفهام إنكار، تقديره: ما ظنّ عجزنا، فأين يهرب منا؟![(٢)].

وهو قول ابن زيد.[(٣)]

وهذه الوجوه تدل على أن الآية من القدر لا من القدرة.

وعلى قول من قال أنها من القدرة، فالجواب بما يلي:

الأول: أن يكون هذا من باب التمثيل.

بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه في خروجه من قومه من غير انتظار لأمر الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾، أي: نعامله معاملةَ من يحسَب ذلك.[(٤)]

الثاني: أن تكون مجازًا عن أعمالها.

والمعنى: فظن أن لن نعمل قدرتنا فيه.[(٥)]

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/ ٧٤٦.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٤٦٦، تفسير البغوي ٣/ ٢٦٦، الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٢١.

(٣) **صحيح**. أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٩٧ قال حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قال: هذا استفهام.

(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥، وانظر: الكشاف ٣/ ١٣٢، تفسير أبي السعود ٦/ ٨٢.

(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ٨٢، روح المعاني ١٧/ ٨٤.

الثالث: وأما عن قولهم إن الله تعالى نهى نبيه أن يكون مثله

كما في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ فإن لم يكن صاحب الحوت مذنبًا لم يجز النهي عن التشبه به وإن كان مذنبًا فقد حصل الغرض.

والجواب عليه من وجوه:

الأول: أن هذا النهي لم يكن عامًا في كل شيء وإنما في شيء مخصوص وهو العجلة والغضب والضجر[(١)].

قال ابن حزم: وإنما نهى الله ﷻ لمحمد ﷺ عن أن يكون كصاحب الحوت. فنعم نهاه الله ﷻ عن مغاضبته قومه وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاولة لهم، وأن يمضي لما أمر به من التبليغ واحتمال الأذى والمشقة، ونهى عن الضجر والعجلة التي وقع فيها يونس عليه السلام. [(٢)]

وكان قتادة يقول في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾: لا تكن مثله في العجلة والغضب.

قال قتادة: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ يقول: لا تعجل كما عَجِل، ولا تغضب كما غضب. [(٣)]

الثاني: ثناء الله تعالى عليه يدل على قربه منه سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القلم: ٥٠)، فشهادة الله ليونس بهذه الآية تنبهنا إلى عدم اتهامه بما يتنافى مع هذه الشهادة العظيمة.

---

(١) وليس المراد ولا تكن كصاحب الحوت في دعائه وندائه. وذلك لأن الدعاء والنداء فضل وبر وعمل خير وهما اللذان تسببا في نجاته، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الصافات: ١٤٣ - ١٤٤). التسهيل لتأويل التنزيل للشيخ العدوي جزء تبارك (١٠٣).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٦١، وانظر: تفسير الرازي٣٠/ ٩٨، تفسير النسفي ٤/ ٢٨٤، الكشاف ٤/ ٥٩٦، المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، البحر المحيط ٨/ ٣١٠.

(٣) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٩٥)، والطبري في تفسيره ٢٩/ ٤٥ من طريق معمر. وأخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/ ٤٥ من طريق سعيد. كلاهما (معمر، سعيد)، عن قتادة به، حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، مثله.

وكذلك قبول الله دعاءه يدل على قربه من الله، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الأنبياء: ٨٨).

الثالث: ثناء النبي ﷺ على يونس عليه السلام يدل على أن النهي لم يكن عامًا.

عن ابن عباس رضي الله عنه عَنِ النبي ﷺ قَالَ: "لاَ ينبغي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى". (١)

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النبي ﷺ قَالَ: "**لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِني خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ**". (٢)

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النبي ﷺ قَالَ: " مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ". (٣)

وأما عن قولهم أنه أقر على نفسه أنه كان من الظالمين بقوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى:** ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (**هود: ١٨**).

فالجواب عليها من وجوه:

الوجه الأول: الظلم وضع الشيء في غير موضعه فلما وضع النبي ﷺ المغاضبة في غير موضعها اعترف في ذلك بالظلم لا على أنه قصده وهو يدري أنه ظلم. (٤)

الوجه الثاني: لا شك أنه كان تاركًا للفضيلة مع القدرة على تحصيل الأفضل، فكان ذلك ظلمًا. (٥)

الوجه الثالث:﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم. (٦)

---

(١) البخاري (٣٣٩٥)، مسلم (٢٣٧٧).

(٢) البخاري (٣٤١٢).

(٣) البخاري (٤٨٠٥).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٢٦١.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥.

(٦) تفسير القرطبي ١١/ ٣٥٠.

الوجه الرابع: يعني لنفسي في الخروج من غير أن تأذن لي، ولم يكن ذلك عقوبة من الله، لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، وإنما كان تأديبًا، وقد يؤدب من لا يستحق العقاب كالصبيان. (١)

الوجه الخامس: اعتراف العبد بأنه مذنب أو ظالم لنفسه ليس اتهامًا له، بل هذا من مناقبه.

فقد اعترف آدم بقوله: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٣) فعد ذلك من مناقبه.

وقد علم النبي ﷺ أبا بكر ماذا يقول في دعائه لما طلب منه ذلك، فعَنْ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: عَلِّمْنِى دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِى صَلاَتِى. قَالَ: " قُلِ: اللهمَّ إني ظَلَمْتُ نفسي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، فَاغْفِرْ لي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وارحمني إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ". (٢)

وكذلك قال يونس عليه السلام: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعترف بظلمه لنفسه - وإن لم يكن من الظالمين بالمعنى الذي يقصدونه - فعد هذا من مناقبه ولذلك لما نادى في الظلمات استجاب الله له قال الله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧-٨٨).

قال الواسطي في معناه: نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافًا واستحقاقًا، ومثل هذا قول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ (الأعراف: ٢٣) إذ كانا السبب في وضعهما أنفسهما في غير الموضع الذي أنزلا فيه. (٣)

ولذلك جاء في الحديث: عن سعد بن أبي وقاص: قَالَ مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فِي الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلأَ عَيْنَيْهِ مِنِّي ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَأَتَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ حَدَثَ فِي الإِسْلاَمِ شَيْءٌ مَرَّتَيْنِ؟ قَالَ: لاَ، وَمَا ذَاكَ؟

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦.

(٢) البخاري (٨٣٤)، مسلم (٢٧٠٥).

(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٣٥٠.

قَالَ: قُلْتُ: لَا، إِلَّا أَنِّي مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ آنِفًا فِي الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلأَ عَيْنَيْهِ مِنِّي ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، قَالَ: فَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى عُثْمَانَ فَدَعَاهُ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَكُونَ رَدَدْتَ عَلَى أَخِيكَ السَّلَامَ؟ قَالَ عُثْمَانُ: مَا فَعَلْتُ. قَالَ سَعْدٌ: قُلْتُ بَلَى. قَالَ حَتَّى حَلَفَ وَحَلَفْتُ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ ذَكَرَ فَقَالَ: بَلَى وَأَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ إِنَّكَ مَرَرْتَ بِي آنِفًا وَأَنَا أُحَدِّثُ نَفْسِي بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ لَا وَاللهِ مَا ذَكَرْتُهَا قَطُّ إِلَّا تَغَشَّى بَصَرِي وَقَلْبِي غِشَاوَةٌ قَالَ: قَالَ سَعْدٌ: فَأَنَا أُنْبِئُكَ بِهَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَشَغَلَهُ حَتَّى قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاتَّبَعْتُهُ فَلَمَّا أَشْفَقْتُ أَنْ يَسْبِقَنِي إِلَى مَنْزِلِهِ ضَرَبْتُ بِقَدَمِي الْأَرْضَ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَمَهْ، قَالَ: قُلْتُ: لَا وَاللهِ، إِلَّا أَنَّكَ ذَكَرْتَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ، ثُمَّ جَاءَ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ فَشَغَلَكَ، قَالَ: نَعَمْ، دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ. (١)

فكانت هذه الدعوة مباركة لم يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ الله له فكيف تفهم على أنها من الظلم الذي يستحق اللعن؟.

* * *

(١) حسن. أخرجه أحمد ١/ ١٧٠، وأبو يعلى (٧٧٢) من طريق إسماعيل بن عمر. وأخرجه الترمذي في سننه (٣٥٠٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٤٩٢)، والطبراني في الدعاء (١٢٤)، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٥ من طريق محمد بن يوسف. وأخرجه البزار في كشف الأستار (٣١٥٠)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٢٤) من طريق أبي أحمد الزبيري. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٨١ ومن طريقه البيهقي في الشعب (٦٢٠) من طريق محمد بن عبيد الطنافسي. أربعتهم (إسماعيل، محمد، أبو أحمد، الطنافسي)، عن يونس بن أبي إسحاق حدثني إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن جده به، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣).

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب

ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد الثامن

شبهات عن النبي ﷺ

دار إيلاف الدولية

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

٨

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال – هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ – ٩٦٦٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء – مجمع الخير – الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي – شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم
للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

شبهات عن النبي ﷺ

وفيها:

١- شبهات حول نسب الرسول ﷺ.

٢- إنكار أمية الرسول ﷺ.

٣- ادعاؤهم أن كفر أبوي الرسول ﷺ يقدح فيه.

٤- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ كان على دين قومه.

٥- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ اعترف بأنه ليس برسول.

٦- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ كان شاعرًا.

٧- شبهة: إنكارهم لحديث سحر النبي ﷺ.

٨- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ لا يستطيع عمل المعجزات.

٩- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ كان يتهرب من الأسئلة.

١٠- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ صاحب مطامع دنيوية.

١١- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ وقع في الذنب.

١٢- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ وقع في الزنا.

١٣- شبهة: اتهام النبي ﷺ بشهوة النساء.

١٤- شبهة: مباشرة النبي ﷺ زوجاته أثناء الصيام.

١٥- شبهة: خلوة النبي ﷺ بامرأة أجنبية.

١٦- شبهة: حُبِّبَ إليَّ من دنياكم.

١٧- شبهات حول زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش.

١٨- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ اغتصب صفية.

١ـ شبهة: نسب النبي ﷺ.

نص الشبهة:

كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف في حجر عمها وهيب بن عبد مناف، فمشى إليه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بابنه عبد الله بن عبد المطلب، فخطب عليه آمنة بنت وهب فزوجها عبد الله بن عبد المطلب، وخطب إليه عبد المطلب بن هاشم في مجلسه ذلك ابنته هالة بنت وهيب على نفسه، فزوجه إياها فكان تزوج عبد المطلب بن هاشم، وتزوج عبد الله ابن عبد المطلب في مجلس واحد؛ فولدت هالة بنت وهيب لعبد المطلب حمزة بن عبد المطلب فكان حمزة عم رسول الله ﷺ في النسب وأخاه من الرضاعة.

استدل المعترض بهذه الرواية وبعدة روايات أخرى على عدم صحة نسب النبي ﷺ إلى أبيه أو أمه. وسيأتي ذكر هذه الروايات في الجواب.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ذكر نسب النبي ﷺ الصحيح المعتمد.

الوجه الثاني: جمع النصوص الصحيحة الثابتة الواردة في نسب النبي ﷺ.

الوجه الثالث: التحقيق في ترجمة الواقدي.

الوجه الرابع: تحقيق الروايات التي استدل بها المعترض.

الوجه الخامس: والحق ما شهدت به الأعداء.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر نسب النبي ﷺ من الكتب الصحيحة المعتمدة.

إن النبي ﷺ أشرف الناس نسبًا، وأكملهم خَلْقًا وخُلُقًا، ولقد كان وما زال شرف النسب له المكانة في النفوس؛ لأن ذا النسب الرفيع لا تنكر عليه الصدارة، نبوة كانت أو ملكًا، وينكر ذلك على وضيع النسب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه، ولما كان محمد ﷺ يعد للنبوة هيأ الله تعالى له شرف النسب ليكون مساعدًا له على التفاف الناس حوله.

إن معدن النبي ﷺ طيب ونفيس، فهو من نسل إسماعيل الذبيح، وإبراهيم خليل الله،

واستجابة لدعوة إبراهيم ﷺ، وبشارة أخيه عيسى ﷺ كما حدث هو عن نفسه، فقال: " أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى". (١)

فطيب المعدن والنسب الرفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور، ويجعله يهتم بمعاليها وفضائلها، والرسل والدعاة يحرصون على تزكية أنسابهم، وطهر أصلابهم، ويُعرفون عند الناس بذلك فيحمدونهم ويثقون بهم.

فهو: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ ابْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ. (٢)

وإلى هنا اتفق الأئمة جميعًا، وبعد عدنان وقع الاختلاف بينهم نظرًا لعدم وجود شيء صحيح يعتمد عليه في هذا الباب.

قال أبو حاتم: نسبة رسول الله ﷺ تصح إلى عدنان وما وراء عدنان فليس عندي فيه شيء صحيح أعتمد عليه. (٣)

قال ابن القيم: بعد ذكر النسب إلى عدنان أيضًا: إلى هاهنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ولا خلاف فيه البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل ﷺ، وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. (٤)

وأما ما قاله وما أثبته من أن حمزة أكبر من النبي ﷺ بسنتين أو أربع سنين هذا هو الصحيح الذي نقله أئمة السير عندنا وإليك بعض أقوالهم:

قال ابن عبد البر: كان أسن من رسول الله ﷺ بأربع سنين وهذا لا يصح عندي؛ لأن الحديث الثابت أن حمزة وعبد الله بن الأسد أرضعتهما ثويبة مع رسول الله ﷺ إلا أن تكون

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث للصلابي ١/ ٤٥.

(٢) ذكره البخاري في صحيحه باب مبعث النبي ﷺ في كتاب مناقب الأنصار.

(٣) سيرة ابن حبان (١/ ٣٩).

(٤) زاد المعاد (١/ ٧٠).

أرضعتهما في زمانين.

وذكر البكائي عن ابن إسحاق قال: كان حمزة أسن من رسول الله ﷺ بسنتين، وكان يوم قتل ابن تسع وخمسين سنة[(١)].

وقال ابن الأثير: عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، وأرضعت أبا سلمة بن عبد الأسد، وكان حمزة ﷺ، أسن من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل: بأربع سنين، والأول أصح.

وكان مقتل حمزة للنصف من شوال من سنة ثلاث، وكان عمره سبعًا وخمسين سنة، على قول من يقول: إنه كان أسن من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل: كان عمره تسعًا وخمسين سنة، على قول من يقول: كان أسن من رسول الله ﷺ بأربع سنين، وقيل: كان عمره أربعًا وخمسين سنة، وهذا يقوله من جعل مقام النبي ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين، وقيل: كان عمره أربعًا وخمسين سنة، وهذا يقوله من جعل مقام النبي ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين، فيكون للنبي ﷺ اثنتان وخمسون سنة، ويكون لحمزة أربع وخمسون سنة؛ فإنهم لا يختلفون في أن حمزة أكبر من النبي ﷺ. [(٢)]

فهذه أقوال علمائنا في سن حمزة بن عبد المطلب، أما ما تخيله المعترض بناء على روايات باطلة فهو سراب خادع ظنه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

الوجه الثاني: جمع النصوص الصحيحة الواردة في اثبات طهارة نسبهﷺ.

يذكر علماء الوراثة أنّ الشخص يتأثر بنسبه سواء من ناحية الجسم والبنية أومن ناحية الذكاء والعقل أومن ناحية الفكر والعقيدة.

يقول د. محمد بيصار: ولا تكون الوراثة عاملًا هامًا في نقل الصفات الحسية فحسب، وإنما كذلك عن طريقها تنتقل الصفات الأدبية كالأمزجة والميول والغرائز، والصفات العقلية كالذكاء والبلادة وحسن تقدير الأمور أو سوء أو شدة الانتباه أو ضعفه إلى غير

---

(١) الاستيعاب ١/ ١٠٩.

(٢) أسد الغابة (١/ ٢٨١).

ذلك من صفات يكون لها الأثر الأقوى في تكوين أخلاق المرء وتكييفها وطبعها بطابع معيّن خيرًا كان ذلك الطابع أو شرًا حسنًا أو قبيحًا.

ويؤيد هذا علم القيافة. الذي أقره الرسول ﷺ فعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ دخل عليها سرورًا تبرق أسارير وجهه فقال: " ألم تسمعي ما قال المدلجي لزيد وأسامة ورأى أقدامها " فقال: " إنّ بعض هذه الأقدام من بعض ". [(١)]

يدل عليه قوله تعالى حاكيًا عن نبي الله نوح عليه السلام: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح: ٢٧: ٢٦).

يقول ابن كثير: أي فاجرًا في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا. ويدخل في هذا المفهوم قوله ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء". [(٢)]

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرأوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم: ٣٠). وبهذا يثبت أنّ الولد يتأثر بأبويه من ناحية الجسم والبنية، ومن ناحية العقل والذكاء، ومن ناحية الفكر والعقيدة، قليلًا أو كثيرًا، سلبًا أو إيجابًا، وذلك بإرادة الله وقدرته، إذا عُرف هذا ننظر إلى نسب رسول الله ﷺ ومدى تأثره به.

يقول الأستاذ الدكتور أحمد غلوش: هيأت عناية الله تعالى سلسلة ممتازة من الآباء والأجداد للنبي ﷺ ليأخذ منها عن طريق الوراثة كثيرًا من الخلق والطبائع.

وقد وردت في هذا المضمار نصوص كثيرة تدل على أنّ نسب النبي ﷺ هو أفضل الناس نسبًا. من ذلك ماجاء عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني

---

(١) البخاري (٦٧٧١، ٦٧٧٠، ٣٧٣١)، عبد الرزاق (١٣٨٣٤، ١٣٨٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٨)، والحديث عند البخاري (٦٥٩٩، ٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

هاشم، واصطفاني من بني هاشم". [١]

وقد أشار النووي رحمه الله إلى أنّ بني هاشم أفضل العرب لا يدانيهم في الأفضلية إلا بنو المطلب مستدلًا بهذا الحديث.

ويقول المباركفوري: قوله: " إن الله اصطفى " أي اختار. يقال استصفاه واصطفاه، إذا اختاره وأخذ صفوته والصفوة من كل شيء خالصه وخياره[٢].

ومن ذلك أيضًا ما ورد عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: " إنّ الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم، وخير الفريقين، ثم خير القبائل؛ فجعلني من خير القبيلة، ثم خص البيوت فجعلني من خير بيوتهم؛ فأنا خيرهم نفسًا وخيرهم بيتًا "[٣]

أي: أصلًا إذا جئت من طيب إلى طيب إلى صلب عبد الله بنكاح لا سفاح.

ومما يدل على أنّ الرسول ﷺ كانت له مكانة عند قومه، من جهة النسب شهادة أعدائه كما ورد في قصة أبي سفيان وهو مشرك، ومن ألد أعداء صاحب الرسالة آنذاك مع هرقل ملك الروم عندما وجه إليه أسئلة عديدة تتعلق بشخصية الرسول ﷺ من بينها: (كيف نسبه فيكم؟ قال أي أبو سفيان: هو فينا ذو نسب. ثم قال هرقل في آخر القصة: سألتك عن نسبه فذكرت أنّه فيكم ذو نسب، فكذلك تبعث الرسل في أنساب قومها). [٤]

يقول النووي: (أي في أفضل أنسابهم). ومما يدل على ذلك أيضًا ما جاء على لسان مفوض مشركي قريش عتبة بن أبي ربيعة مع رسول الله ﷺ حيث قال عند افتتاح كلامه مع الرسول: (يا ابن أخي إنّك منّا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم. . .). [٥]

---

(١) مسلم (٢٢٧٦)، الترمذي (٣٨٤٨).

(٢) تحفة الأحوذي (١٠/ ٥٣).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (١/ ١٧٠)، معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥٣٤٧).

(٤) البخاري (٧)، البيهقي في الكبرى (٩/ ١٧٨)، السنن الكبرى للنسائي (٦/ ٣١٠) وغيرهم.

(٥) السيرة لابن إسحاق (١/ ٧٢)، السيرة لابن هشام (١/١٧٨)، فقه السيرة النبوية للغزالي بتحقيق الألباني (١/١١٦، ١١٥).

وهاتان القصتان تشهدان بما للرسول ﷺ من المكانة في النسب عند قومه لإقرار أعدائه وأعداء رسالته، حيث لم يستطيعوا أن يخفوا هذه الحقيقة مع أنهم كانوا يتهمونه بتهم باطلة، مرة بالسحر، ومرة بالجنون، ومرة بالشعر والكهانة، ومع هذا لم ينقل إلينا عن أحدهم تهمة واحدة يقدحون بها في الرسول ﷺ من جهة النسب، كما أن النصوص الأخرى التي أوردناها تدل على أن العرب أفضل الناس من ناحية النسب، وأنّ الرسول ﷺ من أفضلها نسبًا، وأن هذه سنة الله في اختيار رسله جميعًا كما جاء في قول هرقل السابق.

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: (الظاهر أن إخبار هرقل بذلك بالجزم كان على العلم المقرر في الكتب السالفة). [١]

والحكمة في ذلك كما قال النووي رحمه الله أنه أبعد من انتحاله الباطل وأقرب إلى انقياد الناس له؛ لأن الناس يأنفون من الانقياد إلى رجل وضيع من جهة، وكذلك الوضيع لا تسول نفسه له قيادة الناس عن جهة أخرى.

ولهذا كان نسب رسول الله ﷺ له تأثير على نفسه من ناحية وعلى قومه من ناحية أخرى، كما ذكر غير واحد من العلماء.

يقول د. محمد قلعت في هذا المقام: هذا النسب له أثره في رسول الله ﷺ، وكان له أثر فيمن يبلغهم رسول الله ﷺ شريعة الله، أمّا أثره في رسول الله فقد شب ﷺ مرفوع الرأس رغم يتمه لا يعرف الذل ولا الخنوع. جريئًا في إعلان رأيه، تملأ الثقة نفسه، أما أثره فيمن دعاهم رسول الله إلى الإيمان والانضواء تحت راية الإسلام؛ فإن أكبر شخصية في العرب لا تجد غضاضة من الانضواء تحت راية الإسلام، وقبول محمد ﷺ رسولًا وحاكمًا؛ لأنهم يعترفون بأن محمدًا ﷺ من أعرق بيوت قريش نسبًا. [٢]

وهذه حقيقة ثابتة لا جدال فيها وإن كان هناك من يعارضه من قومه؛ لكن ليس هذا من جهة نسبه ولا رفضًا لشخصيته، وإنما كان رفضًا موجهًا لرسالته ﷺ.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨).

(٢) التفسير السياسي للسيرة (١١١٢).

وصدق الله إذ يقول: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣). ومما يؤيد ذلك ما جاء على لسان أبي جهل عدو الله وعدو رسوله إذ قال للنبي ﷺ: (قد نعلم يا محمد أنك تصل الرحم، وتصدق الحديث ولا نكذبك، ولكنّ نكذب الذي جئت به)[1]، فأنزل الله ﷻ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣). أي: إن رفض قريش كان موجهًا للدعوة التي دعاهم إليها الرسول ﷺ لا لشخصيته كما يفيد منطوق قول أبي جهل السابق. ولهذا ورد أنهم عرضوا عليه الجاه والسيادة والملك وجمع الأموال والمغريات الأخرى مقابل ترك هذه الدعوة كلية أو جزءًا منها كحل وسط، ولكنهم لم ينجحوا فيها؛ لأن موقف الرسول ﷺ كان ثابتًا. وعرض هذه الأمور عليه يدل على سمو مكانة النبي ﷺ من جهة النسب عند قومه قريش الذين كانوا يأنفون أن يخضعوا للوضيع مهما كان الأمر، وخاصة إذا جاء بأمر يخالف عاداتهم وتقاليدهم، مثل ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحنيف، والدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك والأوثان وما كان سائدًا في مجتمع مكة من عادات وتقاليد جاهلية.[2]

الوجه الثالث: ترجمة محمد بن عمر بن واقد الأسلمي.

قال البخاري: الواقدي: مديني، سكن بغداد، متروك الحديث[3]، تركه أحمد وابن نمير[4]، وابن المبارك، وإسماعيل بن زكريا.

وقال أيضًا: كذبه أحمد، وعن يحيى بن معين: ضعيف، ليس بشيء، ليس بثقة.

وقال مسلم: متروك الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال الحاكم: ذاهب الحديث.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٥) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وخالفه الذهبي فقال: ولم يخرج الشيخين لناحية، وقال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (٥/ ٢٥): وهذا صحيح فإنهما لم يخرجا لناحية بين كلب الأسدي وهو تابعي ثقة، والحديث صحيح وإن لم يخرجاه الشيخان والله أعلم.

(٢) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة صـ ٢٥٣.

(٣) قال في التاريخ الصغير (٢/ ٢٨٣): تركوه.

(٤) التاريخ الكبير (١/ ١٧٨/ ٥٤٣).

سئل أبو زرعة عنه فقال: ترك الناس حديثه، وقال الجوزجاني: لم يكن مقنعًا.

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبا زرعة عن محمد بن عمر الواقدي فقال: ضعيف. قلت: يكتب حديثه؟ قال: ما يعجبني إلا على الاعتبار، ترك الناس حديثه.

وقال أيضا: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، قال: قال لي الشافعي: كتب الواقدي كذب.(١)

وذكره ابن حبان في المجروحين وقال: كان ممن يحفظ أيام الناس وسيرهم، وكان يروى عن الثقات المقلوبات، وعن الأثبات المعضلات؛ حتى ربما سبق إلى القلب أنه كان المتعمد، كان أحمد بن حنبل يكذبه، وعن علي بن المديني: الواقدي يضع الحديث.(٢)

وذكره ابن عدي: وساق له عدة أحاديث وقال: وهذه الأحاديث التي أمليتها للواقدي، والتي لم أذكرها كلها غير محفوظة، ومن يروي عنه الواقدي من الثقات فتلك الأحاديث غير محفوظة عنهم، إلا من رواية الواقدي، والبلاء منه، ومتون أخبار الواقدي غير محفوظة، وهو بين الضعف.(٣)

وقال البزار: وتكلم الناس فيه، وفي حديثه نكرة.(٤)

وقال ابن حجر: قال النسائي في (الضعفاء والمتروكين): المعروفون بالكذب على رسول الله ﷺ أربعة: الواقدي بالمدينة، ومقاتل بخراسان، ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام وذكر الرابع. وقال ابن المديني: عنده عشرون ألف حديث يعنى ما لها أصل، وقال في موضع آخر ليس هو بموضع للرواية، وإبراهيم بن أبي يحيى كذاب وهوعندي أحسن حالًا من الواقدي.(٥)

وقال الذهبي: وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه فيَ الغزوات، والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج، أما في الفرائض، فلا ينبغي أن يذكر، فهذه الكتب الستة، ومسند أحمد،

---

(١) الجرح والتعديل (٨/ ٢٠).

(٢) المجروحين (٢/ ٢٩٠).

(٣) الكامل (٦/ ٢٤٣).

(٤) كشف الأستار (٣٥٦-١٠٢٦).

(٥) التهذيب (٧/ ٣٤٤).

وعامة من جمع في الاحكام، نراهم يترخصون في إخراج أحاديث أناس ضعفاء، بل ومتروكين، ومع هذا لا يخرجون لمحمد بن عمر شيئًا، مع أن وزنه عندي أنه مع ضعفه يكتب حديثه، ويروى، لأني لا أتهمه بالوضع، وقول من أهدره فيه مجازفة من بعض الوجوه، كما أنه لا عبرة بتوثيق من وثقه، كيزيد، وأبي عبيد، والصاغاني، والحربي، ومعن، وتمام عشرة محدثين، إذ قد انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس بحجة، وأن حديثه في عداد الواهي. (١)

وبالنظر إلى كلام المجرحين والمعدلين من العلماء، تبين لمن له دربة في فن الجرح والتعديل أن المجرحين هم أئمة الجرح والتعديل، والذي على أقوالهم يقوم علم الجرح والتعديل، وأيضًا غالب التعديل له كان في جانب روايته للسير والمغازي والأخبار، أما ناحية الحفظ، فقد سبق الكلام فيه.

الوجه الرابع: تحقيق الروايات التي استدل بها المعترض.

١- قال ابن سعد: ذكر تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ قال: حدثنا محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، قال حدثني عبد الله بن جعفر الزهري، عن عمته أم بكر ابنت المسور بن مخرمة، عن أبيها. قال وحدثني عمر بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن يحيى بن شبل، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين. قالا: كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب في حجر عمها وهيب بن عبد مناف بن زهرة فمشى إليه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بابنه عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله ﷺ فخطب عليه آمنة ابنت وهب فزوجها عبد الله بن عبد المطلب، وخطب إليه عبد المطلب بن هاشم في مجلسه ذلك بنته هالة بنت وهيب على نفسه، فزوجه إياها، فكان تزوج عبد المطلب بن هاشم وتزوج عبد الله بن عبد المطلب في مجلس واحد، فولدت هالة بنت وهيب لعبد المطلب حمزة بن عبد المطلب، فكان حمزة عم رسول الله ﷺ في النسب وأخاه من الرضاعة(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٦٩).

(٢) أخرج هذه القصة بهذا السياق ابن سعد كما هو مبين من طريق الواقدي، وأخرجها الطبراني في الكبير (٢٩١٧)، والحاكم (٢/ ٦٠١)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٨٩: ٨٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ١٠٦)،

٢. ذكر المرأة التي عرضت نفسها على عبد الله بن عبد المطلب.

قال ابن سعد(١): وقد اختلف علينا فيها فمنهم من يقول كانت قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي أخت ورقة بن نوفل، ومنهم من يقول كانت فاطمة بنت مر الخثعمية قال: أخبرنا محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، قال: حدثني محمد بن عبد الله بن أخي الزهري، عن عروة. قال: وحدثنا عبيد الله بن محمد بن صفوان، عن أبيه، وحدثنا: إسحاق بن عبيد الله، عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، قالوا جميعا: هي قتيلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل، وكانت تنظر وتعتاف فمر بها عبد الله بن عبد المطلب فدعته يستبضع منها، ولزمت طرف ثوبه فأبى وقال: حتى آتيك وخرج سريعًا حتى دخل على آمنة بنت وهب فوقع عليها فحملت برسول الله ﷺ، ثم رجع عبد الله بن عبد المطلب إلى المرأة فوجدها تنظره، فقال: هل لك في الذي عرضت علي فقالت لا مررت وفي وجهك نور ساطع ثم رجعت وليس فيه ذلك النور، وقال بعضهم: قالت: مررت وبين عينيك غرة مثل غرة الفرس ورجعت وليس هي في وجهك.

قال: وأخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس أن المرأة التي عرضت على عبد الله بن عبد المطلب ما عرضت امرأة من بني أسد بن عبد العزى وهي أخت ورقة بن نوفل.

قال: وأخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي الفياض الخثعمي، قال: مر عبد الله بن عبد المطلب بامرأة من خثعم يقال لها: فاطمة بنت مر، وكانت من أجمل الناس وأشبه وأعفه، وكانت قد قرأت الكتب، وكان شباب قريش يتحدثون إليها، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت: يا فتى من أنت؟ فأخبرها قالت: هل لك أن تقع علي وأعطيك مائة من الإبل فنظر إليها وقال:

كلهم من طريق عبد العزيز بن عمران بذكر نزول عبد المطلب على رجل من اليهود، ونبوءة هذا الرجل اليهودي لعبد المطلب.

(١) الطبقات لابن سعد (١/ ٧٧: ٧٦).

أما الحرام فالمات دونه * والحل لا حل فأستبينه * فكيف بالأمر الذي تنوينه؟

ثم مضى إلى امرأته آمنة بنت وهب فكان معها، ثم ذكر الخثعمية وجمالهاوما عرضت عليه، فأقبل إليها فلم ير منها من الإقبال عليه آخرًا كما رآه منها أولا، فقال: هل لك فيما قلت لي؟ فقالت: قد كان ذاك مرة، فاليوم لا، فذهبت مثلا، وقالت: أي شيء صنعت بعدي؟ قال: وقعت على زوجتي آمنة بنت وهب قالت: إني والله لست بصاحبة ريبة، ولكني رأيت نور النبوة في وجهك، فأردت أن يكون في وأبى الله إلا أن يجعله حيث جعله.

قال: وأخبرنا وهب بن جرير بن حازم، أخبرنا أبي، قال: سمعت أبا يزيد المدني، قال: نبئت أن عبد الله أبا رسول الله ﷺ أتى على امرأة من خثعم فرأت بين عينيه نورًا ساطعًا إلى السماء، فقالت: هل لك في، قال: نعم حتى أرمي الجمرة، فأنطلق فرمى الجمرة ثم أتى امرأته آمنة بنت وهب ثم ذكر يعني الخثعمية فأتاها، فقالت: هل أتيت امرأة بعدي، قال: نعم امرأتي آمنة بنت وهب، قالت: فلا حاجة لي فيك أنك مررت وبين عينيك نور ساطع إلى السماء، فلما وقعت عليها ذهب، فأخبرها أنها قد حملت خير أهل الأرض. [1]

٣. تحقيق قول أم النبي ﷺ (ما رأيت من حمل أخف علي منه):

قال ابن إسحاق في سيرته: حدثني جهم بن أبي جهم مولى لامرأة من بني تميم كانت عند الحارث بن حاطب فكان يقال مولى الحارث بن حاطب قال: حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يقول: حدثت عن حليمة ابنة الحارث أم رسول الله ﷺ التي أرضعته أنها

(١) أخرجها ابن إسحاق في السيرة (صـ ١٩)، والبيهقي في الدلائل (١ - ١٠٥) وهي تدور على الواقدي وهومتروك، وأيضا الكلبي محمد بن السائب متهم بالكذب وهومتروك، فالقصة من كل الوجوه لا تصح، فهي من نسج الكاذبين حكاية حول عبد الله أرادوا بها المبالغة بإضفاء طابع أسطوري على المولد النبوي، فادعوا أن بغيًا، ومرة امرأة مستبضعة، وثالثة كاهنة، ورابعة: زوجة ثانية لعبد الله دعت عبد الله إلى نفسها. . ، وهذه الرواية منكرة سندًاومتنًا، ومن يقرأ الروايات المختلفة عنها يدرك مدى الاختلاف والاضطراب في سياقها سواء في تعيين المرأة، إذ مرة هي خثعمية، وأخرى أسدية قرشية اسمها قتيلة، وثالثة هي عدوية اسمها ليلى، وكذلك في صفة عبد الله عندما التقته فمرة هومطين الثياب وأخرى وهو في زينته؛ ومثل هذا الاختلاف لا تقوم به حجة.السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري (١/ ٩٤، ٩٥).

قالت: قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس بها الرضعاء، وفي سنة شهباء فقدمت على أتان لي قمراء كانت أذمت بالركب ومعي صبي لنا وشارف لنا، والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ما نجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فإذا قيل: إنه يتيم تركناه وقلنا: ماذا عسى أن تصنع لنا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الوليد، فأما أمه فما عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعًا غيري فلما لم أجد غيره قلت لزوجي الحارث بن العزى: والله إني أكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلأخذنه فقال: لا عليك، فذهبت تأخذه فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثديي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شاتنا تلك؛ فإذا إنها لحافل فحلب ما شرب وشربت حتى روينا فبتنا بخير ليلة فقال صاحبي: يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري إلى ما بتنا به الليلة من الخير حين أخذناه؟ فلم يزل الله يزيدنا خيرًا حتى خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى أن صواحبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب أهذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول نعم والله إنها لهي، فيقلن: والله إن لها لشأنا؛ حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله ﷻ أجدب منها؛ فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعًا لبنًا فنحلب ما شئنا وما حولنا أحد تبض لها شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعًا حتى أنهم ليقولون لرعيانهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم أبي ذؤيب فأسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فيريحون أغنامهم جياعًا وما فيها قطرة لبن وتروح غنمي شباعًا لبنًا نحلب ما شئنا، فلم يزل الله ﷻ يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنتيه، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فوالله ما بلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا، فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه قلنا لها: يا ظئر دعينا نرجع ببنينا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه أوباء مكة فوالله ما زلنا بها حتى قالت: فنعم،

فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة فبينًا نحن خلف بيوتنا وهومع أخ له من الرضاعة في بهم لنا جاءنا أخوه يشتد فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاه فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائمًا منتقعًا لونه، فأعتنقه أبوه، وقال: أي بني ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بياض فاضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه ثم رادوا كما كان، فرجعنا به معنا فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب انطلقي بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما يتخوف، قالت: فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به قد قدمنا به عليها فقالت: ما ردكما به؟ قد كنتما عليه حريصين، فقلنا: لا والله يا ظئر إلا أن الله ﷻ قد أدى عنا وقضينا الذي علينا، وقلنا: نخشى الأتلاف والأحداث نرده إلى أهله، فقالت: ما ذلك بكما فاصدقاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن ألا أخبركما بخبره؟ قلنا: بلى قالت: حملت به فما حملت حملًا قط أخف منه، فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعًا ما يقعه المولود معتمدًا على يديه، رافعًا رأسه إلى السماء فدعاه عنكما. (١)

الوجه الخامس: ذكر بعض الشهادات من غير المسلمين للنبي ﷺ.

أولًا: شهادة أبي سفيان له كما سبق من سؤال هرقل:

مع العلم بأن أبا سفيان كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وكان من أحرص الناس

---

(١) سيرة ابن إسحاق ١/ ١٠، وأخرج القصة أيضا أبو يعلى في مسنده (١٣/ ٧٤/ ٧١٦٣)، والآجري في الشريعة (١/ ٤٣٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٩١)، وابن هشام في السيرة (١/ ١٠٥: ١٠٤) نلاحظ في الإسناد الجهالة في موضعين: الأول: جهالة من حدث عبد الله بن جعفر عن حليمة السعدية.
ثانيًا: جهالة من حدث جهم بن أبي جهم عن عبد الله بن جعفر.
وبالتالي سقط الإسناد؛ لأن الجهالة علة قوية تقدح في الإسناد، وعليه فلا يعتد به.
وعليه فلا يحتج بالقصة على ما زعمه هؤلاء من أن النبي ﷺ كان له إخوة، وإن كانت قصة رضاعه من حليمة السعدية قد اشتهرت شهرة تغني عن إسناد موثق لها.
ثم إننا لم نسمع ولم نقرأ فيما بين أيدينا من مصادر أن واحدًا من العرب الذين كانوا معاندين للنبي ﷺ احتج عليه بمثل ما احتج به هؤلاء، ولو وجد لكانوا أحرص الناس على نشره وإذاعته والطعن به في النسب الشريف، سبحانك هذا بهتان عظيم.

على إيجاد شيء يقدح به في النبي ﷺ، ومن أشد ما يقدح المرء ويشينه ويسقطه في أعين أتباعه أن يكون فيه شبهة في نسبه، فلما يجد أبو سفيان شيئًا يقدح به في نسبه، اعترف وأقر ولا يصح إلا الصحيح.

ثانيا: قال ول ديورانت:

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل، وقطيعًا من المعز، وبيتًا، وأمه عنيت بتربيته في طفولته. ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر قصة الحضارة، تحت عنوان محمد في مكة.

١. (مايكل هارت) في كتابه مائة رجل في التاريخ:

ويقول (مايكل هارت) في كتابه (مائة رجل في التاريخ): إن اختياري محمدًا، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي.

فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدأوا رسالات عظيمة؛ ولكنهم ماتوا دون إتمامها، كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم أو سبقهم إليهم سواهم، كموسى في اليهودية، ولكن محمدًا هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته؛ ولأنه أقام جانب الدين دولة جديدة؛ فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضًا وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم، أيضًا في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية، وأتمها.

٢. غوستاف لوبون:

١ - جمع محمد ﷺ قبل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى. ومما لا ريب فيه أن محمدًا ﷺ أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها

اليهودية والنصرانية، ولذلك كان فضله على العرب عظيمًا. [(١)]

٢- إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد ﷺ من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا ﷺ، مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله. . . [(٢)]

٣- استطاع محمد ﷺ أن يبدع مثلًا عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد ﷺ على الخصوص، ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى. . "[(٣)]

٣. لوقا[(٤)]:

١- ما كان محمد ﷺ كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل، وهمة البطل، فكان حقًا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيّي فيه الرجل. [(٥)]

٢- لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضًا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبي أنه ليس بشرًا كسائر البشر، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء. ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواترًا مكررًا في آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)، وفي تخير كلمة ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ معنى مقصود به

---

(١) دين الإسلام (ص١٦).

(٢) حضارة العرب (ص١١٥).

(٣) المرجع السابق (ص١١٦).

(٤) د. نظمي لوقا Dr. N. Luka: مسيحي من مصر، يتميز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق. ورغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبيًا، فإنه كثيرًا ما كان يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمع بشغف إلى كتاب الله وسيرة الرسول ﷺ، بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره، ألف عددًا من الكتب أبرزها (محمد الرسالة والرسول)، و(محمد في حياته الخاصة).

(٥) محمد الرسالة والرسول (ص ٢٨).

التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال، بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (الشورى: ٤٨)، وظاهر في هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه ﷺ إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التي كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها.[١]

٣- رجل فرد هو لسان السماء، فوقه الله لا سواه، ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين؛ ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر؛ بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسولﷺ بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتزّ، لما كان عليه جناح من أحد؛ لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة. يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم: " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله". ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيمًا له، فينهاهم عن ذلك قائلًا: "لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا"[٢].

* * *

---

(١) محمد الرسالة والرسول (٨٥، ٨٦).

(٢) محمد الرسالة والرسول (ص١٧٩، ١٨٠).

٢ـ إنكار أمية الرسول ﷺ

تمهيد:

ويتمثل ذلك في إنكار البعض ما استفاضت شهرته من إثبات أمّيّة النبي ﷺ، متغافلين عن نصوص الوحيين الصريحة في ذلك، ثم ساقوا لتأييد أطروحتهم جملة من الأدلة، مستصحبين معهم أسلوبهم الشهير في تحريف النصوص وليّ أعناقها، واستنباط ما لا يدل عليه النص أبدًا، لا بمنطوقه ولا بمفهومه، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إننا نجد منهم اللجوء إلى الكذب الصراح، متى ما كان ذلك موصلًا إلى هدفهم من التضليل والتشويش.

وحول أمية الرسول ﷺ قامت عدة شبهات وهي:

الشبهة الأولى: ادعاؤهم أن لفظ (الأمي) يساوي لفظ (أممي).

نص الشبهة: أن أمي: هو غير يهودي أو غير كتابي وليس معناها الذي لا يعرف الكتابة والقراءة. ثم يدعم شبهته بتفسير محرف آخر لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٩)، والدليل على ذلك - بحسب زعمه - أن قريشًا كانوا يتهمون الرسول بأنه يؤلف القرآن. وهي تهمة كان من شأنها أن تبدو مستحيلة، ومضحكة لو كان الرسول حقًا لا يحسن القراءة والكتابة. لم يأخذ القرآن لفظة أمي أميين بمعناها اللغوي، بل أخذها بمعناها الاصطلاحي. وهذا ما دل عليه الواقع القرآني وذلك في قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ (آل عمران: ٢٠).

الرد على الشبهة الأولى من وجوه:

الوجه الأول: سبب هذا الزعم.

وذلك لأن النصارى يطلقون لفظ (الأمم) على غير المؤمنين برسالة المسيح عليه السلام كما نقرأ في العهد الجديد: (فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ) (متى ٢٨: ١٩)، هذا غير أن (الأمم) مصطلح يهودي مستخدم في العهد

القديم، للدلالة على غير اليهود، فمن هنا جاء هذا الخلط.

الوجه الثاني: كلمة " أمي " في اللغة.

١-يقول ابن منظور: معنى الأمي المنسوب إلى ما عليه جَبَلَتْه، أمه أي لا يكتب فهو أمِّي؛ لأن الكتابة مكتسبة؛ فكأنه نسب إلى ما يولد عليه، أي على ما ولدته أمه عليه [١].

وقال الأزهري: قيل للذي لا يكتب ولا يقرأ أمي؛ لأنه على حيلته التي ولدته أمه عليها، والكتابة مكتسبة متعلمة، وكذلك القراءة من الكتاب [٢].

وقال الراغب الأصبهاني: الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وعليه حمل قول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[٣].

٢- أما ابن قتيبة فقد نسب كلمة أمي إلى أمة العرب، التي لم تكن تقرأ أو تكتب فقال:

قيل لمن لا يكتب أمي؛ لأنه نسب إلى أمة العرب، أي جماعتها ولم يكن من يكتب من العرب أي جماعتها، ولم يكن من يكتب من العرب إلا قليل من لا يكتب إلى الأمة ...[٤].

وفي المعجم الوجيز يوضح الفرق بين أمي وأممي فيقول: (الأميّ) هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، و(الأميّة) مصدر صناعي بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة، و(الأممي) هو من ليس من أهل الكتاب، وبذلك تكون (الأممية) مصدر صناعي بمعنى عدم الانتماء لملة أهل الكتاب يهود كانوا أم نصارى. وكما نرى فإن الفارق واضح هنا في المعنى، ولكن أهل الكتاب يصرون على أن الكلمتين بمعنى واحد وهذا خطأ! ! ونتساءل: من أين جاء لديهم هذا الخلط؟!

ومما سلف نرى أن كلمة أمي تعني عند أئمة اللغة: الذي لا يقرأ ولا يكتب وليس كما يُدعى أن معناها غير الكتابي أو غير اليهودي.

الوجه الثالث : أما تفسير كلمة أمِّي عند أهل التفسير فإننا نراهم قد اتفقوا مع أهل اللغة حول معنى هذه الكلمة.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٣٤.

(٢) الزاهر للأزهري الهروي ١/ ١٠٩.

(٣) غريب القرآن، للراغب الأصبهاني (٢٨).

(٤) غريب الحديث، لابن قتيبة ١/ ٨٤.

١-**قال الطبري**: يعني بالأميين الذين لا يكتبون ولا يقرءون، ومنه قول النبي ﷺ إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب(١).

٢-أما الإمام الشوكاني فقد فسر الأمي بأنه: منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها، لم تتعلم الكتابة، ولا تحسن القراءة للمكتوب(٢).

فحقيقة الأمر نجد أن القرآن الكريم لا يخلط في المعني، بمفهوم أهل الكتاب، كما أن في قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ (آل عمران: ٢٠) فإن الله تعالى يقول لنبيه الكريم ﷺ: يا محمد قل لأهل الكتاب من الملّيين وكذلك مشركي العرب ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ هل تدخلون في دين الإسلام؟ وليس المقصد هنا بأن الأميين هم الأمميين.

يقول القرطبي مفسرًا هذه الآية: أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى، والأميين الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب(٣).

٣-أيضًا نقول أن القرآن الكريم إذ يطلق مصطلح ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ للدلالة على مشركي العرب، فليس معنى هذا أن العرب كلهم يجهلون القراءة والكتابة!

قال الآلوسي: والأميون جمع أمي وهو كما في «المغرب» مَن لا يكتب ولا يقرأ منسوب إلى أمة العرب الذين كانوا لا يكتبون ولا يقرءون، أو إلى الأم: بمعنى أنه كما ولدته أمه، أو إلى أم القرى؛ لأن أهلها لا يكتبون غالبًا، والمراد أنهم جهلة(٤).

الشبهة الثانية: حول تفسير قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾.

نص الشبهة: فقد فسروا قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ بأنها تعني: بلِّغ، وهذا يفيد أن النبي ﷺ كان قارئًا:

وللرد على الشبهة من وجوه:

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٣٧٣.

(٢) فتح القدير ١/ ١٠٤.

(٣) تفسير القرطبي ٤/ ٤٨.

(٤) روح المعاني ١/ ٣٧٨.

الوجه الأول: تفسير كلمة (اقرأ).

١ -قال ابن الأثير في مادة (قرأ):

(القِراءة، والاقْتراء، والقارئ، والقُرآن) والأصل في هذا اللفْظة الجمعُ. وكلُّ شيء جَمَعْتَه فقد قَرَأتَه. وسُمِّيَ القُرآن قُرآنًا؛ لأنه جَمع القِصَص، والأمْر والنهي، والوْعد والوعيد، والآياتِ والسُّوَر بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغُفْران، والكُفْران، وقد يُطْلَق على الصلاة؛ لأنَّ فيها قِراءة تَسْمِيةً للشيء ببعضه، وعلى القِراءة نفْسِها يقال: قَرأ يَقْرأ قِراءة وقُرآنًا، والاقتراء: افْتِعال من القِراءة، وقد تُحْذف الهمزة منه تخفيفًا فيقال: قُرآن، وقَرَيْتُ، وقارٍ، ونحو ذلك من التّصْريف.

وفيه " أكثرُ منافقي أمَّتي قُرّاؤها " أي أنهم يَحْفَظون القرآن نَفْيًا للتُّهمة عن أنفُسهم وهم معْتَقَدون تَضْييعَه. وكان المنافقون في عَصْر النبي ﷺ بهذه الصفة.

وفي حديث أبيّ في ذِكْر سورة الأحزاب (إن كانت لَتُقارِى أو هي أطْول) أي تجاريها مَدَى طُولها في القراءة، أو أنَّ قَارئها لَيُساوِي قارئ سورة البقرة في زَمَن قِراءتها، وهي مُفاعَلة من القِراءة.

وفي حديث ابن عباس ﷺ (أنه كان لا يَقْرأ في الظُّهر والعَصْر) ثم قال في آخره ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ معناه أنه كان لا يَجْهَر بالقراءة فيهما أولا يُسْمع نفْسَه قراءته؛ كأنه رأى قومًا يقرؤون، فيُسمِعون أنفسهم ومن قَرُب منهم.

ومعنى قوله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يريد أن القراءة التي تَجْهَر بها أو تُسْمِعُها نفسك يكتُبها الملكان، وإذا قرأتها في نِفسك لم يكتُباها والله يحفظُها لك ولا ينْساها لِيُجازِيَك عليها.

وفيه (إن الربَّ ﷻ يُقْرِئك السلام) يقال: أقْرِئ فُلانا السلام واقْرَأ عليه السلام؛ كأنه حين يُبَلِّغه سلامه يَحْمِله على أن يَقْرأ السلام ويَرُدّه، وإذا قَرأ الرجل القرآن أو الحديث على الشيخ يقول: أقْرَأني فلان: أي حَمَلني على أن أقرأ عليه[١].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٥٢.

إذًا معنى كلمة اقرأ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١) هو مجرد فعل القراءة وليس التبليغ كما يُدَّعي؛ لأن الفعل قد جاء مكسور الهمزة من قرأ – يقرأ اقرأ الكتاب، بمعنى نطق بالمكتوب فيه، وألقى النظر عليه وطالعه، وقرأ الكتاب، تتبع ما فيه، وقرأ الآية نطق بها[1].

إذًا فلا يشترط أن تكون القراءة من كتاب، بل تجوز القراءة عن طريق المشافهة والسماع، كما يقال قرأ فلان على فلان مع أن أحدهما قد يكون أعمى.

واقرأ اسم تفضيل من قرأ أي أجود قراءة، واستقرأه طلب منه أن يقرأ، والقرّاء الحسن القراءة[2].

٢- وبعد هذا؛ فإن فعل اقرأ في أول سورة العلق لم يكن المراد به الأمر بالتبليغ، فلو كان دالًا على التبليغ فيجب أن يأتي من:

أقرأ – يقرئ – أقرئ، وذلك بإيراد همزة التعدية نقول أقرأ فلانًا السلام، واقرأه إياه، أي بلغه، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام ....[3].

قال الزمخشري: ولا يقال اقرأ سلامي على فلان بل أقرئه[4].

ونستدل من ذلك أن قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ يراد منه الأمر بالقراءة ولا يراد منه التبليغ؛ لأنه لو كان ذلك لوجب أن يقول أقرئ، ويكون المحذوف هو مفعول الفعل طلبًا للاختصار.

وورد في لسان العرب أقرأ غيره إقراء، ومنه قوله تعالى ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾[5].

٣-والواقع لو كان معنى اقرأ في آية العلق بلّغ، لاستوعبه الرسول ﷺ لأول وهلة، ولم يحتج – وهو على صواب – بأنه غير قادر على القراءة عندما خاطبه جبريل عليه السلام لأول مرة: ما

(١) المنجد في اللغة والأعلام (٦١٧).

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٢٥٣.

(٣) البخاري ٣/ ١٣٧٤.

(٤) أساس البلاغة مادة ق ر أ.

(٥) لسان العرب مادة: قرأ.

أنا بقارئ؛ لأنه في هذه الحالة سيكون قد عصى أمر ربه، ولم يصدع بها أمر به أما وأنه كان عاجزًا عن القراءة التي بمعنى فعل القراءة؛ فإنه كان مصيبًا أي غير قادر على القراءة والكتابة.

٤- عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه، وهو التعبد الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال لي اقرأ، قال: قلت ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الريع[1].

فالرسول الكريم ﷺ أخبر الملك بأنه لا يعرف القراءة والكتابة، فلو كان مدلول اقرأ في مفتتح السورة بمعنى بلغ لكان قوله ﷺ (ما أنا بقارئ) وعدم جوازه على الرسول ﷺ؛ فإنه لم يقل بهذا القول أحد من قبل.

الوجه الثاني: يحتج بعض النصارى بأمر الروح الأمين للنبي ﷺ متسائلين: هل كان جبريل يجهل أنه مرسل لنبي أمّي حتى يخاطبه بصيغة أمر القراءة؟.

فنقول في غار حراء نزل الروح الأمين بأول كلمات القرآن على النبي المتحنث بين جنبات الغار، فتحكي كتب السيرة أن جبريل عليه السلام ضمه إلى صدره، حتى بلغ منه الجهد وقال له: اقرأ، فرد الرسول الكريم ﷺ: ما أنا بقارئ. وهذا طبقًا للروايات الصحيحة: من حديث عائشة رضي الله عنها فأعاد جبريل ذلك مرة أخرى ورد ﷺ بنفس ذلك الرد، وفي المرة الثالثة قال له النبي الكريم: ماذا أقرأ؟ فكانت الآيات الأولى من سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن الكريم.

(١) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

ويرد الإمام القرطبي ويقول: معنى الأمر الكريم ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أي اذكر اسمه. أمره أن يبتدئ القراءة باسم الله[1].

و قيل: فيه حثٌ لأمته على العلم، وقد أكد الرسول ﷺ على هذا في الكثير من أحاديثه، أي أن المعني رمزيًا، وليس ملموسًا كما ذهب أغلب النصارى.

والجدير بالذكر أنه على الرغم من حث النبي الكريم أصحابه على طلب العلم وبيانه لفضل العلم ومنزلة العلماء؛ ولكن لم ينتقده أبدًا أحد من أصحابه، بسبب أميته أو يحاول أحدهم تعليمه مبادئ القراءة والكتابة أو شيء من هذا القبيل، وذلك يرجع أولا إلى علو مكانة الرسول ﷺ بين أصحابه فلا ذكر هنا لأميّته وإن كانت أمرًا واقعًا. وثانيا: إن أمية النبي الكريم ﷺ لم تكن لتمنع أصحابه أن يتلقوا مبادئ الإسلام على يديه ﷺ.

الوجه الثالث: هل الثقافة والنبوة لا تجتمعان؟

ولا يفهم النصارى مفهوم الثقافة بالنسبة للأنبياء فيصرون على أن كل الأنبياء الذين ورد ذكرهم في كتبهم كانوا على درجة عالية من الثقافة، وسيدهم موسى الكليم – ولا زال الكلام عن لسانهم – الذي يقولون أنه قد تثقف في قصر فرعون بكل علوم المصريين، وحكمتهم أما بالنسبة لمحمد ﷺ فيتعجبون من موقف المسلمين في الإصرار على أمّيته.

ونقول لهم: إن أولئك الأنبياء صلوات ربي عليهم وتسليمه قد بعثوا في قومهم مثلهم كمثل العالم الفقيه في الأمّة الإسلامية، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة والعامة في وقت من الأوقات، ولم يكن قيامهم إنكارًا لقيام الأنبياء من قبلهم، بل هو تفسير لبعض الأسفار وحض على اتباع السنن التي رسمها لهم من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداوود وموسى عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام، فلا مجال هنا للتفكير في ثقافة ذلك النبي ونترك التفكير في دعوته. أما في حالة محمدﷺ؛ فإنه خاتم هؤلاء الأنبياء وصاحب الشريعة الخاتمة الذي بعث للناس كافة. . الأميون منهم والكتابيون، فهنا تظهر

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١١٩).

أميته كحجة دامغة على مصدر رسالته السماوية، فلا يخالج نفسية المؤمن شك ولو بسيط أنه قد جاء بشيء من عنده، وسبحان من وسعت حكمته كل شيء.

فمفهوم ثقافة الأنبياء العالية، وإن كان القرآن لم يشر إليه من قريب أو من بعيد، لا نعترض عليه، ولكن مفهوم أمية محمد ﷺ لا يقلل من نبوته، وإن كانت الأمية في حد ذاتها نقص، يتنزه عنه العوام، كذلك لا يقلل من تفضيل الله تعالى له عن العالمين؛ فتفضيله واجتبائه إياه ﷺ كان بأنه يحمل ختام الشرائع ونهاية رسالات السماء إلى بني أدم، وإن ذلك النبي الأمي هو الذي رسم النهج الذي سار عليه من بعده الملايين والملايين من عباد الله، على اختلاف طبقاتهم وألسنتهم وألوانهم، وهذا ما لم يحدث مع أحد من العالمين سواه.

الوجه الرابع: الذي أنزل على محمد ﷺ لم يكن كتابا مقرؤًا بل كلامًا مسموعًا ألقاه جبريل على نبيه ﷺ فأين هذا الكتاب الذي تدعون أنه قرأ منه.

الشبهة الثالثة

الشبهة المتعلقة بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة٧٨-٧٩).

نص الشبهة:

قالوا: هذه الآية لا تحتاج إلى تفسير، بل تكون قرينة لوضوحها على فهم بقية الآيات الأخرى حيث قال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ ثم أتبعها لبيان ذلك وسبب الأمية هي لا يعلمون الكتاب إلا أماني. وهذا هو المعنى الثاني للأمية، ومنه يفهم قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ .. ﴾.فالأميون الذين لم يطلعوا على كتاب من قبل، ولم يأتهم نبي بتعاليم، وكونه منهم أي من هؤلاء أي من أنفسهم لا غريب عليهم مثل قوله ﴿ٱلْأُمِّىَّ ﴾ فنسبة الأمية إليه باعتباره من هؤلاء.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول:

١- إن لفظ ﴿أمِّي﴾في الأصل يطلق على من لا يقرأ ولا يكتب، وقد يطلق اللفظ ويراد به معانٍ أخرى؛ ولكن لابد أن يوجد قرينة لتصرف معناه عن المعنى الأصلي الذي يرد على الذهن من أول وهلة.

٢- فكما أن الجهل بالشيء درجات وأنواع، فكذلك الأمية أنواع:

فهناك أمية في القراءة، وهناك أمية في العلم الإلهي، وهناك أمية في العلوم الدنيوية.

فنحن نسمع الآن أن من لم يتعلم الكمبيوتر فهو أمي، ويُقصد ذلك بالأمية في علوم دنيوية، فهناك علوم دنيوية من لم يتعلمها، قد يتهمه البعض بأنه أمي، بالرغم من أنه يقرأ ويكتب.

لذلك قال ابن تيمية: والصواب: أن الأمي نسبة إلى الأمة، كما يقال: عامِّي نسبة إلى العامَّة، التي لم تتميز عن العامَّة بما تمتاز به الخاصة، وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة[1].

فمسألة التميز عن عموم الناس بميزات خاصة معينة، تُعرف من خلال سياق الكلام، وهي التي تحدد ماهية كلمة﴿أمي﴾.

٣- ولنتعرف على معنى كلمة ﴿أمي﴾ في هذه الآية:

وهي تعني الأمية في العلم الإلهي، حتى ولو كان من يوصف بذلك يقرأ ويكتب، وفي هذه الحالة يوصف بها: إما من ليس له كتاب من عند الله، أو من لا يفهم ويطبق هذا الكتاب الذي عنده من الله.

عن ابن عباس وقتادة في قوله: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أي: غير عارفين بمعاني الكتاب يعلمونها حفظًا وقراءة بلا فهم، ولا يدرون ما فيه.

٤- فمما سبق يتضح لنا أن لفظ ﴿أمِّي﴾ قد صرف عن معناه الأصلي- أي الذي لا يقرأ ولا يكتب- وذلك لعدة قرائن:

قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾:

---

(١) مجموع الفتاوى٥/ ٤٢٩.

قال ابن تيمية: فإنه سبحانه وتعالى قال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لم يقل: لا يقرؤون ولا يسمعون، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ وهذا استثناء منقطع. لكن يعلمون أماني إما بقراءتهم لها، وإما بسماعهم قراءة غيرهم، وإن جعل الاستثناء متصلًا، كان التقدير لا يعلمون الكتاب إلا علم أماني، لا علم تلاوة فقط بلا فهم، والأماني: جمع أمنية وهي التلاوة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج: ٥٢)، قال الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر[1]

قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

قال ابن تيمية: وقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: تلاوة فهم لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم، قاله الكسائي والزجاج. وكذلك قال ابن السائب: لا يحسنون قراءة الكتاب، ولا كتابته إلا أماني، إلا ما يحدثهم به علماؤهم. وقال أبو روق وأبو عبيدة: أي تلاوة وقراءة عن ظهر القلب، ولا يقرؤونها في الكتب، ففي هذا القول جعل الأماني التي هي التلاوة تلاوة الأميين أنفسهم، وفي ذلك جعله ما يسمعونه من تلاوة علمائهم، وكلا القولين حق والآية تعمهما.

وقد يقال: إن قوله: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾ أي الخط، أي: لا يحسنون الخط، وإنما يحسنون التلاوة، ويتناول ـ أيضًا ـ من يحسن الخط والتلاوة، ولا يفهم ما يقرؤه ويكتبه. . . فإن قيل: فقد قال بعض المفسرين ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾: إلا ما يقولونه بأفواههم كذبًا وباطلًا، وروى هذا عن بعض السلف واختاره الفراء. وقال الأماني: الأكاذيب المفتعلة، قال بعض العرب لابن دأب ـ وهو يحدث: أهذا شيء

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ٤٢٩ - فصل: وهذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية.

رويته أم تمنيته، أي: افتعلته؟ فأراد بالأماني الأشياء التي كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم، ثم أضافوها إلى الله من تغيير صفة محمد ﷺ وقال بعضهم (الأماني): يتمنون على الله الباطل والكذب، كقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠)، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ (البقرة: ١١١) وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨)، وهذا ـ أيضًا ـ يروي عن بعض السلف.

قيل: كلا القولين ضعيف، والصواب الأول؛ لأنه سبحانه قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ (البقرة: ٧٨)، وهذا الاستثناء إما أن يكون متصلًا أو منقطعًا، فإن كان متصلًا لم يجز استثناء الكذب ولا أماني القلب من الكتاب، وإن كان منقطعًا فالاستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيهًا له من بعض الوجوه، فهو من جنسه الذي لم يذكر في اللفظ، ليس من جنس المذكور؛ ولهذا لا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرغ، وذلك كقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الدخان: ٥٦) فهذا منقطع؛ لأنه يحسن أن يقال: لا يذوقون إلا الموتة الأولى، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (النساء: ٢٩) لأنه يحسن أن يقال: لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارة، وقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧) يصلح أن يقال: وما لهم إلا اتباع الظن، فهنا لما قال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾، يحسن أن يقال: لا يعلمون إلا أماني؛ فإنهم يعلمونه تلاوة، يقرؤونها، ويسمعونها، ولا يحسن أن يقال: لا يعلمون إلا ما تتمناه قلوبهم، أو لا يعلمون إلا الكذب؛ فإنهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق ـ أيضًا ـ فليس كل ما علموه من علمائهم كان كذبًا، بخلاف الذي لا يعقل معنى الكتاب؛ فإنه لا يعلم إلا تلاوة.

وأيضًا فهذه الأماني الباطلة التي تمنوها بقلوبهم وقالوها بألسنتهم، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ قد اشتركوا فيها كلهم، فلا يخص بالذم الأميون منهم، وليس لكونهم أميين مدخل في الذم بهذه، ولا لنفي العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه، بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل؛ ولهذا لما ذم الله بها عمم ولم يخص، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ (البقرة: ١١١)[١].

قوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾:

قال ابن تيمية: والكتاب هنا المراد به: الكتاب المنزل، وهو التوراة؛ ليس المراد به الخط، فإنه قال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨) فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعاني الكتاب، وإلا فكون الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم أن يكون لا علم عنده، بل يظن ظنًا؛ بل كثير ممن يكتب بيده، لا يفهم ما يكتب، وكثير ممن لا يكتب يكون عالمًا بمعاني ما يكتبه غيره. وأيضًا فإن الله ذكر هذا في سياق الذم لهم، وليس في كون الرجل لا يخط ذم إذا قام بالواجب، وإنما الذم على كونه لا يعقل الكتاب الذي أنزل إليه، سواء كتبه وقرأه أولم يكتبه، ولم يقرأه، كما قال النبي ﷺ: " هذا أوان يرفع العلم ". فقال له زياد بن لبيد: كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن فو الله لنقرأنَّه ولنقرِئنَّه نساءنا؟ فقال له: " إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغنى عنهم؟ "[٢].

ولأنه قال تعالى قبل هذا: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥) فأولئك عقلوه ثم حرفوه، وهم مذمومون، سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم، يكتبونه ويقرؤونه حفظًا وكتابة، أولم يكونوا كذلك، فكان من المناسب أن يذكر الذين لا يعقلونه، وهم الذين لا يعلمونه إلا أماني؛ فإن القرآن أنزله الله كتابًا متشابهًا مثاني، ويذكر فيه الأقسام والأمثال، فيستوعب الأقسام،

(١) مجموع الفتاوى٥/ ٤٢٩- فصل: وهذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية.

(٢) رواه الترمذي (٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥٩٠٩) وصححه الألباني في تخريج اقتضاء العلم والعمل (٨٩).

فيكون مثاني، ويذكر الأمثال فيكون متشابهًا. وهؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرؤون فهم أميون من أهل الكتاب، كما نقول نحن لمن كان كذلك: هوامي، وساذج، وعامي، وإن كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب إذا كان يعرف معناه.

وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لا يعرفون الكتاب إلا تلاوة دون فهم معانيه، كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، دل على أن كلا النوعين مذموم: الجاهل الذي لا يفهم معاني النصوص، والكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه. وهذا حال أهل البدع؛ فإنهم أحد رجلين: إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه، ويتكلم برأيه، ويؤوله بما يضيفه إلى الله فهؤلاء، يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون: هو من عند الله، وإما رجل مقلد أمِّي، لا يعرف من الكتاب إلا ما يسمعه منهم، أو ما يتلوه هو، ولا يعرف إلا أماني وقد ذمه الله على ذلك، فعلم أن الله ذم الذين لا يعرفون معاني القرآن، ولا يتدبرونه، ولا يعقلونه، كما صرح القرآن بذمهم في غير موضع، فيمتنع مع هذا أن يقال: إن أكثر القرآن أو كثيرًا منه لا يعلمه أحد من الخلق إلا أماني، لا جبريل ولا محمد ولا الصحابة ولا أحد من المسلمين؛ فإن هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به.

فإن قيل: أفلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية؟ قيل: نعم، لكن معرفة معاني الجميع فرض على الكفاية، وعلى كل مسلم معرفة ما لا بد منه، وهؤلاء ذمهم الله؛ لأنهم لا يعلمون معاني الكتاب إلا تلاوة، وليس عندهم إلا الظن، وهذا يشبه قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (هود: ١١٠).

وأيضًا فإنه قال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فدل على أنه ذمهم على نفي العلم، وعلى أنه ليس معهم إلا الظن، وهذا حال الجاهل بمعاني الكتاب لا حال من يعلم أنه يكذب، فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل، ولو أريد ذلك لقيل: (لا يقولون إلا أماني)، لم يقل: (لا يعلمون الكتاب إلا أماني)، بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب، ويقولون: هو من عند الله، وما هو من عند الله، ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلًا، فهم يحرفون معاني

الكتاب، وهم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه، ويكذبون في لفظهم وخطهم. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: " لتتبعن سنن من كان قبلكم حذْو القذَّة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم " قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: " فمن؟ "(١).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: " لتأخذن أمتي مآخذ الأمم قبلها، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع " قالوا: يا رسول الله، فارس والروم؟ قال: " ومن الناس إلا أولئك "(٢).

فهذا دليل على أن ما ذم الله به أهل الكتاب في هذه الآية، يكون في هذه الأمة من يشبههم فيه، وهذا حق قد شوهد، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣)، فمن تدبر ما أخبر الله به ورسوله، رأي أنه قد وقع من ذلك أمور كثيرة، بل أكثر الأمور، ودله ذلك على وقوع الباقي(٣).

الشبهة الرابعة

الرد على من قال أن قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (العنكبوت٤٨-٤٩)، لا يفيد كون الرسول كان أمّيًا.

ففسروا قوله: (مِنْ كِتَابٍ) على أن المقصود بالكتاب في الآية هو كتاب من الكتب السماوية المنزلة من قبل النبي ﷺ، فهو لم يكن يكتب كتابًا من هذه ولم يخطه بيمينه، وهذا لا يعني أنه لا يحسن الكتابة أبدًا.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التأكيد المذكور في الآية:

قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتأكيد النفي في قوله ﴿وما كنت تتلو﴾(٤).

(١) البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٦).

(٢) البخاري (٦٨٨٨)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى٥/ ٤٢٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم٦/ ٢٨٥.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فيها تأكيد على عدم الكتابة باليد، والآية تشبه قول العرب: كتبت بيدي رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وتشبه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (الأنعام: ٣٨) وقوله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٢). فكل ذلك قد خرج مخرج الغالب(١).

قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ أي: تقرأ(٢).

الوجه الثاني: علوم الكتاب مما يعجز عن وضعه بشر

إذا أرادت دولة من الدول أن تؤلف قانونًا ودستورًا ليحكم ذمام الدولة في كل النواحي: السياسية، والثقافية، والاقتصادية، ليكون دستورًا جامعًا مانعًا: فهل المختصون بوضع هذا القانون، لهم أن يكتفوا بقراءة كتاب أو كتابين فقط! بل العجيب أن كل واحد من هؤلاء لابد أن يتوفر فيه شروطًا كثيرة، تؤهله بأن تثق فيه الدولة لتسند له أمرًا عظيمًا، وهو وضع دستور لملايين البشر، الذي يعيشون في هذه الدولة، والأجيال التي ستولد من بعد ذلك. فمن الشروط الواجب توافرها في كل مختص: في السياسية أو الثقافة أو الاقتصاد، أن يكون حاصلًا على شهادات عليا من بلده، أو من خارج بلده، وهذا الشرط بمفرده كافٍ بأن نقول أن هذا المختص قد قرأ آلاف من الكتب سواء، عندما كان في مراحل التعليم منذ صغره حتى تخرج من الجامعة، أو بعدما تخرج من الجامعة، حتى حصل على درجة الدكتوراة، أو عندما شرع في كتابة دستورًا ليكون جامعًا مانعًا في مجاله الذي هو منشغل به.

فنقول مما سبق أن القرآن إذا أراد النبي ﷺ أن يؤلفه – إذا افترضنا صحة قولكم أنه كان يقرأ ويكتب– فهو يحتاج أولًا: أن يكون مثقفًا في كتب اليونان حتى يكون له حكمة فلسفية لوضع النظريات والمقدمات الصغرى والكبرى، ليستنبط النتائج المؤدية لتأليفه هذا القرآن؛

(١) تفسير القرآن العظيم١/ ٥٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم٦/ ٢٨٥.

لأنه سوف يتبعه الملايين من البشر؛ فلا بد أن تكون نظرياته محكمة وفكره صائبًا، فكان لزامًا أن يقرأ لأرسطو وأفلاطون، ولا يكتفي بقراءة التوراة والإنجيل فقط، وهل نقول أن قوله﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أن المقصود به قراءة التوراة والإنجيل فقط.

ثانيًا: كان يحتاج النبي محمد ﷺ لتأليفه للقرآن أن يقرأ كتبًا في الفلك، خصوصًا أن في القرآن نظريات تقتضي خطأ النظريات الفلكية الموجودة في التوراة والإنجيل، وهذا يتضح من الأبحاث العلمية الفلكية المقارنة بين ما في القرآن من اختلاف في النظرة للكون عما في التوراة والإنجيل.

وهل نقول أن قوله﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾أن المقصود به قراءة التوراة والإنجيل فقط، مع كثرة الاختلافات الفلكية بين القرآن، وبين التوراة والإنجيل.

كان يحتاج النبي محمد ﷺ لتأليفه للقرآن أن يقرأ كتبًا في الاقتصاد، حتى يعلم كيف يحدد أنصاب الزكاة، وتقسيم الغنائم، ووضع ميزانًا محكمًا لأمر الخراج والجزية، وهذا كله ليس مفصلًا لا في التوراة ولا في الإنجيل. فهل تدَّعون أن الرسول ﷺ كان يقرأهما فقط! إذًا من أين أتى بهذه التفصيلات الاقتصادية السابقة، التي قام اقتصاد الدولة الإسلامية عليه بعد ذلك.

فإذا قلتم أنه قرأ كتبًا أخرى في الاقتصاد، فنقول إذًا قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ ليس المقصود بكلمة﴿كِتَٰبٍ ﴾ الكتب السماوية فقط، وإذا قلتم أنه لم يقرأ كتابًا غير التوراة والإنجيل؛ قلنا فما هي تلك الكتب الاقتصادية التي قرأ منها ووضع ميزانًا محكمًا في الاقتصاد، جعل به دولة كاملة تمتد خارج الجزيرة العربية، وتشمل دولًا كثيرة تحت رعايتها، فلو كان الاقتصاد الذي وضعه النبي ﷺ في القرآن-كما تدَّعون-اشتراكيًا لصعب عليه أن يأخذ في كنفه تلك الأنظمة الدكتاتورية، التي كانت مسيطرة على بلاد الفرس.

فإما أنه كان لديه ثقافات واسعة النطاق، حتى يحكم اقتصاد دولته، وإما أنه كان مؤيدًا من ربه، والله لا يؤيد رجلًا يدعي أنه ألَّف كتابًا ثم نسبه إلى الله، إذًا فالقرآن كلام الله أنزله على نبيه الأمي.

من المفترض- على زعمكم- أنه تعلم الطب حتى لا يخطئ في وضع وصفة طبية خاطئة، فقد نصح بالحجامة، فمن أدراه أن فيها شفاءً عجيبًا علمه الأطباء في العصر

الحالي، ونصح بأعشاب، كان من المفترض أنه قرأ عنها، ثم كان لزامًا أن يتحقق من الميكانيزم والآلية التي تقوم به المادة الفعالة لكل عشب، ثم يجرب على المرضى ليرى تأثير كل عشب في الشفاء من ذلك المرض.

قد يقول قائل: أنه تعلمه من العرب، إذًا نقول له: هل كان له أساتذة في علم طب الأعشاب، وما هي أسماؤهم، إنكم زعمتم أنه تعلم على يد ورقة بن نوفل، وبحيرا وغيرهما، فعلموه علم الكتاب (التوراة والإنجيل)، فهيا قولوا لنا أسماء من علموه علم الطب والفلك والاقتصاد والسياسة.

الوجه الثالث: الكتاب في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾**هو القرآن خاصة، وكذلك كل كتاب عامة.**

لأن أُولى الكتب التي كان ينبغي أن يكتبها النبي ﷺ هو كتابه الذي اختصه الله به، دون سائر الأنبياء وسائر البشر، فكان أولى له أن يكتبه، حتى يحافظ على كل كلمة فيه؛ لأنه ربما يكتبه إنسان آخر فيكون في قلبه مرض، فيزيد فيه وينقص، لذلك عندما كان النبي ﷺ على درجة عالية من الثقة من كتبة الوحي، كان يملي عليهم فيكتبون، والوحيد الذي ارتد منهم لم يكن هو الوحيد الذي يكتب القرآن، وعندما فُتن بنفسه لم يجعله الله متماديًا في كتابة القرآن، بل فضحه بأنه أظهر ردَّته.

فعندما ثبت أنه لم يكتب القرآن الذي هو أشرف الكتب على وجه الإطلاق عنده وعند المسلمين، ثبت بذلك أنه لم يكتب أي كتاب على وجه الإطلاق.

فإذا ادعيتم أن النبي ﷺ هو الذي ألَّف القرآن من نفسه، فحري به أن يكتبه بيده؛ لأن أي إنسان يؤلف كتابًا قد يحتاج أن يصحح خطأً وجده فيه، أو يعدل كلمات: وكل ذلك قد يحتاج منه أن يسهر الليالي الطوال، ينظر في كتابه ويصنع مسودات على هامش الكتاب، أو في أوراق أخرى.

والعجيب أن النبي ﷺ لم يحتفظ بنسخة له ليقرأ منها أثناء قيامه الليل، بل كان يقرأ من حافظته وذاكرته ﷺ، فكان الأولى – على زعمكم – أن يكون له نسخة يقرأ منها، فكل من

كان يستطيع القراءة، ينبغي له أن يقرأ من المصحف، ولو مرة من المرات، وكل من كان عاجزًا عن القراءة سواءً كان أميًا أو كفيفًا فهو معذور في ذلك.

فعندما ثبت أن النبي ﷺ لم يقرأ سورة واحدة من المصحف، ولو لمرة واحدة أمام أصحابه، أو في خلواته، ثبت بذلك أنه معذور؛ فلم يكن كفيفًا إذًا كان أميًا.

من الصحابة من ليس بأمي:

ثبت أن من هؤلاء من كان يقرأ القرآن من المصاحف التي كانت عندهم في بيوتهم، أو من المصحف الذي كان في مسجد رسول الله ﷺ، والعجيب أنه لم يثبت أن النبي ﷺ قرأ في هذا المصحف ولو مرة واحدة!.

من الصحابة من كان يعلم أنه يموت شهيدًا كعثمان بن عفان رضي الله عنه أعلمه النبي ﷺ بذلك؛ لذلك انكب على قراءة المصحف قبل وفاته، والنبي ﷺ كان يعلم قرب وفاته عندما أنزل الله سورة النصر، ومع ذلك لم يثبت أنه انكب على قراءة القرآن من المصحف، فكما يعلم المسلمون أن العبد الصالح عندما يشعر بقرب وفاته، يغلق جميع الكتب، وينشغل بكتاب الله، تعلقًا، وقراءةً وتدبرًا، وسماعًا، عسى أن يختم له بخاتمة السعادة.

الحافظ للقرآن مهما قوي حفظه فهو يحتاج إلى أن ينظر للمصحف ليراجع ويثبت حفظه؛ لأن القرآن أشد تفلتًا من الإبل في عقالها، وثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ في قيام الليل في ركعة واحدة فقط: بالبقرة وآل عمران والنساء في ليلة واحدة، فكان كثير القراءة للقرآن؛ فكان ينبغي أن يراجع حفظه من المصحف؛ لئلا يخطئ في القراءة أثناء صلاته بالناس في صلاة الفريضة؛ فإذا ثبت أنه لم يفعل ذلك ثبت أنه كان أمّيًا ﷺ.

وقد يقول قائل: إن ذاكرة النبي محمد ﷺ كانت فولاذية لدرجة أنه لا يحتاج لذلك. فأقول له أفلا يدل ذلك على أنه كان نبيًا مؤيدًا من ربه.

الوجه الرابع: قوله: ﴿إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول: إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمِّي لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥)﴾ (الفرقان: ٥)، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦)﴾ (الفرقان: ٦)[1].

الشبهة الخامسة

الشبهة المتعلقة بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ (البقرة: ١٢٩).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾ (آل عمران: ١٦٤) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٢-٣). وقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة: ٢).

نص الشبهة: وبناءً على ما صرح به القرآن؛ فإن أول واجبات النبي ﷺ هو تعليم القرآن لأتباعه؛ ومن المسلم به أن أقل ما يتطلب في من يراد له، أن يعلم كتابًا أو محتويات كتاب ما للآخرين – هو كما صرح به القرآن نفسه– أن يستطيع استعمال القلم، أو قراءة ما كتب بالقلم– على الأقل.

وقالوا: إن الله يذكر القلم والكتاب في أول سورة قرآنية، ألا يشكل هذا دليلًا واضحًا وصريحًا على أن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة. وهل يمكن أن يشوق النبي ﷺ الناس للعلم والمعرفة والكتابة، وهو لا يعتني بقراءته وكتابته مع أنه كان في الطليعة في كل المجالات.

(١) تفسير القرآن العظيم٦/ ٢٨٥.

ومن أشد ما يدعو للعجب أن لا يلتفت المترجمون والمفسرون لهذه الآية التي تصف النبي ﷺ بأنه ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة: ٢)، ويلاحظ هنا أنه تعالى لم يقل في هذه الآيات أن الرسول يقرأ الصحف المقدسة عن ظهر قلب، بل صرح بأنه يقرأ هذه الصحف وهي منشورة أمامه.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المعنى الصحيح لقوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾

قال الرازي: قوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾ وفيه وجهان الأول: أنها الفرقان الذي أُنزل على محمد ﷺ؛ لأن الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك، فوجب حمله عليه. الثاني: يجوز أن تكون الآيات هي الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، ومعنى تلاوته إياها عليهم؛ أنه كان يذكرهم بها ويدعوهم إليها ويحملهم على الإيمان بها.

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ والمراد أنه يأمرهم بتلاوة الكتاب ويعلمهم معاني الكتاب وحقائقه؛ وذلك لأن التلاوة مطلوبة لوجوه: منها بقاء لفظها على ألسنة أهل التواتر، فيبقى مصونًا عن التحريف والتصحيف، ومنها أن يكون لفظه ونظمه معجزًا لمحمد ﷺ، ومنها أن يكون في تلاوته نوع عبادة وطاعة، ومنها أن تكون قراءته في الصلوات وسائر العبادات نوع عبادة، فهذا حكم التلاوة إلا أن الحكمة العظمى والمقصود الأشرف تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام؛ فإن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى ونورًا، لما فيه من المعاني والحكم والأسرار، فلما ذكر الله تعالى أولًا أمر التلاوة ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾. الصفة الثالثة من صفات الرسول ﷺ قوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي ويعلمهم الحكمة.

واعلم أن الحكمة هي: الإصابة في القول والعمل، ولا يسمى حكيمًا إلا من اجتمع له الأمران وقيل: أصلها من أحكمت الشيء أي رددته، فكأن الحكمة هي التي ترد عن الجهل والخطأ، وذلك إنما يكون بما ذكرنا من الإصابة في القول والفعل، ووضع كل شيء موضعه[1].

الوجه الثاني: النبي محمد ﷺ بعثه الله ليمحو أمية الجهل بالله، لا أمية الجهل بالقراءة والكتابة.

فلم نسمع عن نبي قط في الكتب السماوية قام بتعليم الناس القراءة والكتابة، باعتبارها أنها المرحلة الأولى التي لابد منها، وظل على ذلك إلى أن خرَّج من مدرسته قراء وكتبة، ثم اجتاز بهم ليصل إلى المرحلة الثانية بتعليمهم الدين.

والسؤال: لو أن تلامذة هذا النبي المقربين إليه لم يستطيعوا أن يتعلموا القراءة والكتابة لكبر سِنِّهم، أو لانشغالهم بطلب السعي على رزق أولادهم، هل معنى ذلك أنهم سيُحرمون من اجتياز المرحلة الأولى، وأنهم لن يستطيعوا أن يتعلموا الدين؟.

فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فادعاء أن النبي ﷺ أُرسِل أولًا ليعلم الناس القراءة والكتابة، حتى يتسنى لهم أن يقرؤا القرآن من المصحف ادعاء باطل، ويظهر بطلانه؛ أنه لابد أن يكون كل من يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ يشترط أن يكون قارئًا كاتبًا، وأما غير ذلك فالنار أولى به.

قال الرازي: ما كان يفعله ﷺ هو: الوعد والإيعاد، والوعظ والتذكير، وتكرير ذلك عليهم، ومن التشبث بأمور الدنيا إلى أن يؤمنوا ويصلحوا، فقد كان ﷺ يفعل من هذا الجنس أشياء كثيرة، ليقوي بها دواعيهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ولذلك مدحه تعالى بأنه على خلق عظيم، وأنه أوتي مكارم الأخلاق. قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فأول معاني التزكية، قال الحسن: يزكيهم: يطهرهم من شركهم، فدلت الآية على أنه سيكون في ذرية إسماعيل جهال، لا حكمة فيهم، ولا كتَّاب، وأن الشرك ينجسهم، وأنه تعالى يبعث فيهم رسولًا منهم، يطهرهم ويجعلهم حكماء الأرض بعد جهلهم. وثانيها: التزكية: هي الطاعة لله

---

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ٣٥١.

والإخلاص عن ابن عباس ﷺ. وثالثها: ويزكيهم عن الشرك وسائر الأرجاس، كقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[1].

الوجه الثالث: معنى امتنان الله على الأمة ببعث نبي أمي

قال الماوردي: فإن قيل ما وجه الامتنان فإنه بعث نبيًّا أمِّيًا؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم. (ربما ذلك لأن هناك من الأنبياء من كان أميًا، فإذًا الأمية غير ممتنعة على الأنبياء).

الثالث: لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعي إليه من الكتب التي قرأها، والحكم التي تلاها[2]. وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته ﷺ.

قال الأصبهاني: (تلاه): تبعه متابعة ليس بينهم ما ليس منها وذلك يكون تارة بالجسم وتارة بالاقتداء في الحكم[3].

الوجه الرابع: كُتاب الوحي دليل على أمية النبي ﷺ:

قال ابن كثير: وهكذا كان رسول الله ﷺ دائمًا إلى يوم القيامة لا يحسن الكتابة، ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

ويذكر الكتاني اثنين وأربعين كاتبًا للنبي ﷺ[4].

قد يقول قائل أنه كان هناك كتبة للنبي ﷺ كما كان للملوك كتبة مع أنه من الملوك من كان يحسن القراءة والكتابة.

قلت: ١-ما كان هذا من خلق النبي ﷺ بأن يتشبه بأخلاق الملوك.

وهو القائل: " مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"[5].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ٣٥٨ بتصرف.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٧١.

(٣) مفردات القرآن ١/ ١٩٢.

(٤) التراتيب الإدارية ١/ ١١٥.

(٥) أخرجه أبو داود (٥٢٣١)، والترمذي (٢٩٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٧).

فكان النبي ﷺ أبعد ما يكون بأن تكون أحواله كأحوال الملوك، فعندما قال له عمر: يا رسول الله: ادْعُ الله فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ، وَأُعْطُوا الدُّنْيَا، وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ الله. فَقَالَ له النبي ﷺ: " أَوَفِى شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا "(١).

٢-فكان النبي ﷺ يصنع ما يستطيع عليه بنفسه، فكان يخيط ثيابه، ويخصف نعله، ولو أمر إحدى زوجاته أو أحد أصحابه بفعل هذا بدلًا منه، لتسارع إلى ذلك.

فكونه يكتب ما نزل عليه من القرآن يعتبر أهون من تخييط الثوب، وخصف النعل، فعندما لم يفعل ذلك ولو مرة واحدة، كان ذلك دليلًا على أميته.

٣-كان النبي ﷺ في بعض الأوقات لا يوجد كاتب بجواره، ومع ذلك يبعث إلى أحدهم ليكتب ما نزل عليه من القرآن، مع أنه في بعض الأوقات كانت تنزل عليه آية واحدة، فلو كان كاتبًا فما الذي يضره أن يكتبها هو.

الشبهة السادسة.

الشبهة تختص بقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ (آل عمران: ٢٠) قالوا أن لفظة ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ في الآية معناها الذين ليس عندهم كتاب منزل كالعرب، وليس معناها الذين لا يقرؤون؛ لأن لفظة ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ في الآية جاءت مقابلة للفظة ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ ومن ثَمَّ فقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ (الأعراف: ١٥٨) أي النبي العربي - المنسوب إلى العرب - الذي لم يُنَزَّل على قومه كتاب من قبله، وليس معناها النبي الذي لا يقرأ.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لا تعارض بين كون أمي: أي لا يقرأ، وبين كون أمي: أي ليس له كتاب منزل عليه، أو على قومه.

(١) البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (٢٧٦٨).

فقد يوجد رجل لا يقرأ وفي نفس الوقت لم ينزل عليه، أولم ينزل على قومه كتاب منزل، فهذا من الاشتراك اللفظي.

فقد تجتمع الصفتان في شخص واحد، وقد تبقى صفة واحدة فيه كصفة عدم القراءة - كصفة سلبية - فيُطلق أيضًا عليه أمِّي باستصحاب المعنى الأصلي للكلمة.

قال ابن تيمية: ويقال: الأمِّي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتابًا، ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرؤونه، وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل، وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين؛ فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله، وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب، وكلهم أميون[1].

الوجه الثاني: القراءة نوعان قراءة في الكتب، وقراءة من الحفظ.

إننا في كلامنا اليومي لا نستبعد أن لفظ (القراءة) قد يطلق على ما يُقرأ بالعين من كتابه، وما يُقرأ بالعقل من تفكير، وما يُقرأ بالقلب من حفظ ووعي.

فإننا نقول إن جهاز الكمبيوتر يقرأ البيانات المُخزَّنة بداخله، ثم يُرسلها إذا تم

استدعائها، لذلك نقول أن لفظ (الأمي) تختلف من موضع لموضع آخر حسب سياق الجملة، كما يحدث ذلك في كلمات كثيرة في اللغة العربية.

قال ابن تيمية: في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ (الأعراف: ١٥٨) هو أمِّي بهذا الاعتبار؛ لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه، بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ، والأمِّي في اصطلاح الفقهاء خلاف القارئ، وليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول، ويعنون به الغالب من لا يحسن الفاتحة[2].

الشبهة السابعة

الشبهة تتعلق بقوله: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ٤٢٩.

(٢) مجموع الفتاوى ٥/ ٤٢٩.

وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ (الأعراف: ١٥٥-١٥٨).

نص الشبهة:

أولًا: إنا نعلم أن الخطاب في الآيات هو خطاب بين موسى وربه. ولا علاقة لمحمد ﷺ به لا من قريب ولا من بعيد.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

إن من يؤمن بالتوراة وبهداية موسى عليه السلام لابد أن يؤمن بالإنجيل وبهداية المسيح عليه السلام، ومن يؤمن بالتوراة والإنجيل وبهداية موسى والمسيح لابد أن يؤمن بالقرآن وبهداية محمد ﷺ، فما من نبي إلا أُنزل عليه فرضية الإيمان بالنبي الذي يأتي بعده، وكلًا من موسى والمسيح عليهما السلام بشرا بمحمد ﷺ. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

قال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه[1].

فإن الله أمر موسى عليه السلام وقومه بأمرين: أولًا: أمر حاليّ: وهو أن يتبعوا القواعد الشرعية في التوراة من: عقائد (كالإيمان بالله) وعبادات ومعاملات، ويشترط في ذلك اعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.

ثانيًا: أمر مستقبليّ: وهو بما سيحدث في المستقبل، بالإيمان بعلامات الساعة الصغرى (ومنها ظهور محمد ﷺ) والكبرى (ومنها ظهور الدجال)، وبالإيمان بيوم القيامة وبالجنة والنار.

فكل ما في الأمور المستقبلية سوف يحدث في المستقبل القريب أو البعيد، فيوم القيامة لا يستطيع موسى عليه السلام وقومه تحديد وقته، وقد مضى الآن على موت موسى عليه السلام وقومه آلاف السنين، فلماذا أنزل الله على موسى عليه السلام اشتراط الإيمان بيوم القيامة؟

فإذا أجبت وقلت حتى يكون ذلك عقيدة عندهم، أقول لك فكذلك الله أمرهم بالإيمان برسالة محمد ﷺ حتى تكون عقيدة عندهم، مع العلم بإمكان ظهور النبي محمد ﷺ أثناء وجود موسى عليه السلام مع قومه، قال رسول الله ﷺ: "لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي."[2]

قال ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (المائدة: ٦٦) وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (المائدة: ٦٨)، أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتم بها حَقَّ الإيمان، وصَدَّقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونَعْتِه، وصفته

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣/ ٨١-آل عمران٨١).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٣٨)، قال الألباني: حديث حسن، إرواء الغليل (١٥٨٩).

والأمر باتباعه، ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧). وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ (الإسراء: ١٠٧ – ١٠٨) أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعًا[١].

الوجه الثاني: قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ هي رد على قول محذوف.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: فقالت اليهود والنصارى: نحن متقون، فقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ (الأعراف: ١٥٧). فخرجت الآية عن العموم[٢].

فكل يهودي على عهد موسى عليه السلام وما بعد عهده: إذا ادعى التقوى؛ فإن من لوازم تقواه أن يكون ممن يتبع الرسول النبي الأمي، حتى ولو ظهر هذا الرسول النبي الأمي في عهد موسى عليه السلام.

فكل يهودي صادق في عهد موسى عليه السلام كان يؤمن بالنبي محمد ﷺ، بل إن موسى عليه السلام كان يؤمن بمحمد ﷺ، إذن ورود الآية أثناء الحديث عن موسى وقومه ليس بإقحام.

فإذا قال قائل: نقول: لأن هذا كان أمر غيبي بالنسبة لموسى عليه السلام وقومه لا يدرون أيظهر هذا النبي الأمي في عهد موسى أم لا.

حتى ولو قيل أن موسى وقومه كانوا يعلمون بوقت ظهوره، فنقول: أنه مجرد الإيمان به هو أمر عقائدي قلبي بالنسبة لموسى وقومه، سوف يسألهم الله عنه يوم القيامة.

قال نوف البكالي الحميري: لما اختار موسى قومه سبعين رجلًا قال الله تعالى لموسى: أجعل لكم الأرض مسجدًا وطهورًا، تصلون حيث أدركتكم الصلاة، إلا عند مرحاض

---

(١) تفسير القرآن العظيم١/ ٤٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن٧/ ٢٩٦.

أو حمام أو قبر، وأجعل السكينة في قلوبكم، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرؤها الرجل والمرأة، والحر، والعبد، والصغير، والكبير، فقال ذلك موسى لقومه، فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس، ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نظرًا، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فجعلها الله لهذه الأمة.

فقال موسى عليه السلام: يا رب اجعلني نبيهم، فقال: نبيهم منهم، قال: رب اجعلني منهم فقال: إنك لن تدركهم، فقال موسى عليه السلام: يا رب أني أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٩)، فرضي موسى[(١)].

قلت: هذا الكلام هو من كلام نوف البكالي بغض النظر عن مصدرية هذا الكلام لكنه يكشف عن أحوال تدل على اهتمام موسى عليه السلام وقومه بأمر محمد ﷺ.

ورواية نوف البكالي هذه من الأخبار الإسرائيلية، فقد كان نوف راويا للقصص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار، وله ترجمة في تهذيب الكمال[(٢)].

الوجه الثالث:

نجد أن الآيات الكريمة وردت في سياق حديث القرآن الكريم عن قوم موسى عليه السلام، ومن منهم أدرك محمدًا وآمن بدعوته. وكيف يعرفون محمدًا؟. . وتجيبهم الآية أنه ذلك النبي الذي يجدونه بصفاته مذكورًا في كتبهم. وما هي تلك الصفات؟. . وتجيبهم الآية إنه مذكور بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وأنه يأمرهم بالمعروف، ومكارم الأخلاق، وينهاهم عن المنكر من أفعالهم، ويحل لهم من الطيبات ما حرم عليهم في شريعتهم، ويحرم عليهم

---

(١) معالم التنزيل ٣/ ٢٨٨.

(٢) تهذيب الكمال (٦٤٩٨).

الخبائث التي كانوا يستحلونها من قبل، ويضع عنهم ثقال الأعمال التي فرضت عليهم من قبل، كقتل النفس عند التوبة، وقطع أثر النجاسة، وعدم مجالسة الحائض، وتحريم شحوم الأنعام، وغير ذلك من الإصر الذي قيدهم من أعناقهم بأغلال الشريعة. فالذين آمنوا بدعوة محمد ﷺ منهم وعزَّروه ووقروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وهو القرآن الكريم أولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

وعندما يعترض البعض ويقول: إن حديث النبي الأمي يقتطع مرتين ولا ينسجم مع خطاب موسى لربه، لا في النسق ولا في الموضوع! أي أن موسى يطلب من ربه أن يسجل له ولقومه يهوديتهم حسنة لهم، فيرد ربه أن على موسى وقومه أن ينتظروا قرابة الألف سنة حتى يأتي محمد ويؤمنوا به فيسجل لهم بهذا حسنةً! !.

والرد: يقول موسى عليه السلام لربه: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، و﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا إليك توبة نصوح[١].

ففي المعجم: هادَ هَوَدًا أي تاب ورجع إلى الحق، فهو هَائِدٌ والجمع هودٌ[٢]، وليس المقصود أي الملة اليهودية كما ذهب بعض النصارى!

ويرد عليه رب العزة ﷻ: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ أي: أنه إن كانت قد أصابتكم فتنة أهلكت بعضكم؛ فإن ذلك عذابي وتلك بإرادتي، ومع ذلك فرحمتي قد وسعت كل شيء من الخلق، حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها. قال قتادة: طمع في هذه الآية كل شيء حتى إبليس، فقال: أنا شيء؛ فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فقالت اليهود والنصارى: بل نحن متقون؛ فقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾. فخرجت بذلك عن العموم[٣].

---

(١) تفسير الجلالين (١/ ٢١٧).

(٢) المعجم الوجيز مادة هاد.

(٣) جامع البيان ٦/ ٧٨، والجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٦١.

ومن الأحاديث الدالة على وجوب الإيمان بالنبي ﷺ التي تخاطب اليهود والنصارى:

عن أَبِي بُرْدَةَ ﵁ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " ثَلاَثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بالنبي ﷺ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالْعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّى حَقَّ الله وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ "[١].

عن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: " والذي نفسي محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار "[٢]

الشبهة الثامنة: تتعلق بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الأنعام: ١٠٥).

نص الشبهة: قالوا: إن مشركي العرب يتهمون محمدًا بالدرس، ثم هولا يرد التهمة بل يؤيدها بقوله أنه درس ليبينه للذين يقولون: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ (الأنعام: ١٥٦).

واستدلوا على ذلك باختلاف القراء في الآية فبعضهم قرأها: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾، وقرأها غيرهم: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَٰرَسْتَ﴾ بألف؛ بمعنى: قرأت وتعلمت من أهل الكتاب.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لو أن درس بمعنى قرأ (أي بتكرار القراءة)، فليس كل من يقرأ شيئًا معناه أنه يقرأه من كتاب.

قال ابن الأثير: القِراءة والاقْتراءِ والقارِئِ والقُرْآن والأَصل في هذه اللفظة الجمع، وكلُّ شيءٍ جَمَعْتَه فقد قَرَأْتَه، وسمي القرآنَ: لأَنه جَمَعَ القِصَصَ والأَمرَ والنهيَ والوَعْدَ

---

(١) البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (٢٤١).

(٢) مسلم (٢٤٠).

والوَعِيدَ والآياتِ والسورَ بعضَها إِلى بعضٍ[١].

فكما قلنا أن قرأ فلان على فلان لا يشترط أن تكون بأنه قرأ عليه من كتاب.

الوجه الثاني:

قال الآلوسي: في قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾الواو اعتراضية، وقيل: هي عاطفة على علة محذوفة، واللام متعلقة بنصرف؛ أي: مثل ذلك التصريف نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا الخ. وهو أولى من تقدير لينكروا وليقولوا الخ. وقيل: اللام لام الأمر، وينصره القراءة بسكون اللام، كأنه قيل: وكذلك نصرف الآيات وليقولوا هم ما يقولون. فإنهم لا احتفال بهم، ولا اعتداد بقولهم، وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث. ورده في «الدر المصون» بأن ما بعده يأباه؛ فإن اللام فيه نص في أنها لام كي، وتسكين اللام في القراءة الشاذة، لا دليل فيه لاحتمال أن يكون للتخفيف[٢].

قال أبو حيان: وقرأت طائفة ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ بسكون اللام على جهة الأمر المتضمن للتوبيخ والوعيد، وقرأ الجمهور بكسرها وقالوا: هذه اللام هي التي تضمر (أن) بعدها والفعل منصوب (بأن) المضمرة[٣].

قال ابن عطية: على أنها لام (كي) وهي على هذا لام الصيرورة كقوله: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ أي لما صار أمرهم إلى ذلك[٤].

لام العاقبة والمآل: تفيد أنه لما ترتب على التقاطه، كونه صار لهم عدوًا وحزنًا؛ جعل كأنه علة لالتقاطه فهو علة مجازية[٥].

(١) النهاية٤/ ٥٢-باب القاف مع الراء.
(٢) روح المعاني٥/ ٤٦٩.
(٣) تفسير البحر المحيط٥/ ٢٢٥.
(٤) المحرر الوجيز٢/ ٤٥٥.
(٥) تفسير البحر المحيط٥/ ٢٢٥.

وقال الزمخشري: و﴿لِيَقُولُوا﴾ جوابه محذوف تقديره وليقولوا درست تصرّفها. . . وفسروها بدارست اليهود محمدًا ﷺ، وجاز الإضمار؛ لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم. ويجوز أن يكون الفعل للآيات، وهو لأهلها، أي دارس أهل الآيات وحملتها محمدًا، وهم أهل الكتاب. . فإن قلت: أي فرق بين اللامين في ﴿لِيَقُولُوا﴾ و﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾، قلت: الفرق بينهما أن الأولى مجاز والثانية حقيقة، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين، ولم تصرف ليقولوا دارست، ولكنه لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين شبه به فسيق مساقه(١).

وقال أبو عليّ الفارسي: واللام في ﴿لِيَقُولُوا﴾ على قراءة ابن عامر ومن وافقه بمعنى لئلا يقولوا، أي صرف الآيات وأحكمت لئلا يقولوا هذه أساطير الأوّلين قديمة، قد تليت وتكرّرت على الأسماع واللام على سائر القراءآت لام الصيرورة، وما أجازه أبو عليّ من إضمار (لا) بعد اللام المضمرة بعدها أن هو مذهب لبعض الكوفيين، وتقدير الكلام لئلا يقولوا كما أضمروها بعد (أن) المظهرة في قوله: ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ ولا يجيز البصريون إضمار (لا) إلا في القسم على ما تبين فيه، وقد حمله بعضهم على أن اللام لام كي حقيقة. فقال: المعنى تصريف هذه الدلائل حالًا بعد حال، ليقول بعضهم دارست فيزدادوا كفرًا على كفر، وتنبيه لبعضهم فيزدادوا إيمانًا على إيمان ولنظيره ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ (التوبة: ١٢٥)، ولا يتعين ما ذكره المعرّبون والمفسرون من أن اللام في ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ لام كي أو لام الصيرورة بل الظاهر أنها لام الأمر، والفعل مجزوم بها لا منصوب بإضمار (أن) ويؤيده قراءة من سكن اللام، والمعنى عليه متمكن؛ كأنه قيل: ومثل ذلك نصرف الآيات، وليقولوا هم ما يقولون من كونك درستها وتعلمتها أو درست هي أي بليت وقدمت؛ فإنه لا يحفل بهم ولا يلتفت إلى

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٥.

قولهم، وهو أمر معنا الوعيد بالتهديد وعدم الاكتراث بهم وبما يقولون في الآيات أي نصرفها ليدّعوا فيها ما شاءوا فلا اكتراث بدعواهم.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي نصرف الآيات، وأعاد الضمير مفردًا قالوا على معنى الآيات؛ لأنها القرآن كأنه قال: وكذلك نصرف القرآن أو على القرآن ودل عليه الآيات أو درست أو على المصدر المفهوم من ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي ولنبين التبيين كما تقول: ضربته زيدًا إذا أردت ضربت الضرب زيدًا أو على المصدر المفهوم من نصرف(١).

الوجه الثالث: قراءة (دارست)قراءة متواترة لا يمكن إنكارها:

قال الآلوسي: وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بالألف وفتح التاء وهي قراءة ابن عباس ومجاهد: أي دارست يا محمد غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية وذكرته، وأرادوا بذلك نحو ما أرادوه بقولهم: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾(٢).

وهذه القراءة توضح أنهم معترفون بأن النبي أمي، ولكنهم يتشككون في كونه تعلم هذا القرآن من غيره، وليس بشرط أن كل متعلم لشيء ما أنه يتعلمه عن طريق القراءة والكتابة، بل التعلم قد يكون بالمشافهة، كما أن العلماء اتفقوا أن تلاوة القرآن ومعرفة مخارج حروفه لا تكون إلا عن طريق المشافهة، لذلك كان هناك من علماء القراءات من كان كفيفًا: كالشاطبي وغيره.

الوجه الرابع:

قال الآلوسي: إن معنى﴿دَرَسۡتَ﴾: يعود فيه إلى التذليل والتليين(٣).

فيتضح من ذلك أن معنى درست تتعلق بكونه: إما بالقراءة من كتاب، وإما بالقراءة على أحد ما، وإما بكثرة الاسترجاع من الذاكرة والحفظ. فالأمران الأخيران لا يشترط فيهما القراءة من كتاب؛ لأن القراءة على أحد ما: لا يشترط أن تكون من كتاب يُقرأ.

---

(١) تفسير البحر المحيط٥/ ٢٢٥.

(٢) روح المعاني٥/ ٤٦٩.

(٣) روح المعاني٥/ ٤٦٩.

قال الراغب: درس الكتاب ودرست العلم تناولت أثره بالحفظ[1].

قال الآلوسي: والضمير في ﴿دَرَسْتَ﴾ إما لليهود لاشتهارهم بالدارسة أي دارست اليهود محمدًا ﷺ وإما للآيات وهو في الحقيقة لأهلها أي دارست أهل الآيات وحملتها محمدًا ﷺ وهم أهل الكتاب. ثم قال: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ عطف على ﴿لِيَقُولُوا۟﴾ واللام فيه للتعليل المفسر ببيان ما يدل على المصلحة المترتبة على الفعل عند الكثير من أهل السنة. ولا ريب في أن التبيين مصلحة مرتبة على التصريف، والضمير للآيات باعتبار التأويل بالكتاب أو للقرآن، وإن لم يذكر لكونه معلومًا أو لمصدر ﴿نُصَرِّفُ﴾ كما قيل أو نبين أي ولنفعلن التبيين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

قال القرطبي: وفيه معنى التهديد، أي فليقولوا بما شاءوا؛ فإن الحق بين، كما قال ﷻ: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ فأما من كسر اللام فإنها عنده لام كي[3].

الشبهة التاسعة

التي تتعلق بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (آل عمران: ٧٥).

نص الشبهة: في هذه الآية يتحدث الله إلى النبي ويخبره أن بعض أهل الكتاب أمين يرد دَينَهُ بدون أن تكتب عليه ما يثبت الدَّين. وبعضهم غير أمين لا يرد دَينَهُ إلا إذا كتبت عليه الدَّين ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، والآن هل يعقل أن يحدث الله النبي الذي يجهل الكتابة هكذا ويقول له ﴿مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾؟ أم أن هذا النبي يعرف الكتابة والقراءة.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التفسير الصحيح لقوله: ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

---

(١) مفردات القرآن١/ ٤٦٥ -مادة درس.

(٢) روح المعاني٥/ ٤٧٠ -الأنعام١٠٥.

(٣) (الجامع لأحكام القرآن٧/ ٥٩ -الأنعام١٠٥).

قال ابن كثير: أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه(١).

فمن قول ابن كثير يتضح أنه ليس بشرط أن من كان قائمًا عليهم ليستخلص حقه منهم، أن يكون قارئًا كاتبًا، فَرُب رجلًا أمِّيًا لا يقرأ ولا يكتب أقوى في الحجة واستخلاص حقه والإلحاح على خصمه ممن حصل على شهادات عليا.

الوجه الثاني: **قوله**: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾

قال ابن كثير: أي: إنَّما حَمَلهم على جُحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حَرَج في أكل أموال الأميّن، وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا(٢).

الوجه الثالث : أدلة على أن أهل الكتاب حاولوا طمس الحقائق أمام النبي ﷺ، ولكن النبي ﷺ كان مراقبًا لهم فوفَّقه الله لكشف أمرهم، مطبقًا لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾.

وذلك سواء كان طمس الحقائق في الأمور الدنيوية من إخفاء الأمانات والديون، أو في الأمور الدينية من إخفاء الحقائق الموجودة في كتبهم.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْ الْيَهُودِ قَدْ زَنَيَا فَقَالَ لِلْيَهُودِ مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا قَالُوا نُسَخِّمُ وُجُوهَهُمَا وَنُخْزِيهِمَا قَالَ: " فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " فَجَاءُوا فَقَالُوا لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَرْضَوْنَ يَا أَعْوَرُ اقْرَأْ فَقَرَأَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَوْضِعٍ مِنْهَا فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ قَالَ ارْفَعْ يَدَكَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهِ آيَةُ الرَّجْمِ تَلُوحُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ عَلَيْهِمَا الرَّجْمَ وَلَكِنَّا نُكَاتِمُهُ بَيْنَنَا فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا فَرَأَيْتُهُ يُجَانِئُ عَلَيْهَا الْحِجَارَةَ "(٣).

فلو كان النبي يقرأ التوراة لقرأها هو أيضًا مثلما أعطت اليهود لأنفسهم الحق أن يقرأها رجل أعور منهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم٢/ ٦٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم٢/ ٦٠.

(٣) البخاري (٧٥٤٣).

وفي رواية أخرى لهذا الحديث توضح أن عبد الله بن سلام هو الذي أعلم النبي ﷺ بما يفعلونه من إخفاء لنص التوراة؛ لأن عبد الله بن سلام ﷺ كان يقرأ التوراة، ففي صحيح البخاري أيضًا: (فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ كَذَبْتُمْ: إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ ارْفَعْ يَدَكَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ).(١)

وعند ابن حبان وجاء رجل من اليهود يقال له: ابن صوريا أعور فوضع يده على آية الرجم(٢).

الشبهة العاشرة

الشبهة المتعلقة بصلح الحديبية:

كان أول ما استدلوا به هو حديث الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ اعْتَمَرَ النبي ﷺ في ذي الْقَعْدَةِ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدَعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالُوا لاَ نُقِرُّ بِهَا، فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا مَنَعْنَاكَ، لَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. قَالَ: " أَنَا رَسُولُ اللهِ وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ". ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ " امْحُ رَسُولُ اللهِ ". قَالَ لاَ، وَاللهِ لاَ أَمْحُوكَ أَبَدًا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْكِتَابَ، فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، لاَ يَدْخُلُ مَكَّةَ سِلاَحٌ إِلاَّ فِي الْقِرَابِ، وَأَنْ لاَ يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ، إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ، وَأَنْ لاَ يَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا "(٣).

نص الشبهة: أنهم قالوا: لقد نصّت الرواية على مباشرة النبي ﷺ الكتابة ما نصّه: " هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله "، ومادامت الكتابة قد ثبتت عنه، فلا شك أنه كان يحسن القراءة من باب أولى؛ لأن القراءة فرعٌ عن الكتابة. وهذه الشبهة تُعدّ من أشهر شبهاتهم.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الصحيح أنه أمر غيره فكتب

---

(١) البخاري (٣٦٣٥).

(٢) صحيح ابن حبان (٤٤٣٥).

(٣) البخاري (٢٦٩٩).

١- لقد روى هذا الحديث المسور بن مخرمة، ومروان، وأنس بن مالك ﷺ، واتفقت تلك الروايات كلها على أمر النبي ﷺ لعلي ﷺ بالكتابة، فقد جاء في البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: " فقال النبي ﷺ: " والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله "، وكذلك قال أنس بن مالك ﷺ في صحيح مسلم ما نصّه: "فقال النبي ﷺ: " اكتب: من محمد بن عبد الله".

أما رواية البراء ﷺ، فنلاحظ أن الرواة الذين نقلوها، اقتصروا على بعض الألفاظ دون بعض، ومن هنا حصل اللبس والإيهام في هذه الرواية.

فرواية عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء ﷺ ذكرت: " ثم قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ: " امح رسول الله "، فقال علي: لا والله لا أمحوك أبدًا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله "[1]، ورواية إبراهيم بن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن البراء ﷺ جاء فيها: "فقال لعلي: "امح رسول الله"، فقال علي: والله لا أمحاه أبدًا، قال: "فأرنيه"، قال فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ بيده.

ويضاف إلى روايات البخاري السابقة رواية أخرى مهمة لحديث البراء ﷺ، تلك الرواية التي أوردها ابن حبان في صحيحه، عن محمد بن عثمان العجلي قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء ﷺ قال: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فأمر فكتب مكان رسول الله محمدًا، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ". . الحديث.

٢- جمع ابن حجر روايات حديث صلح الحديبية ليتضح ما احتج به الجمهور، فقال: قال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ: " امح رسول الله "، فقال: لا والله لا أمحاه أبدا، قال: " فأرنيه " فأراه إياه فمحا النبي ﷺ بيده، ونحوه في رواية زكريا عند مسلم، وفي حديث علي عند النسائي

(١) أخرجه البخاري (١٨٤٤، ٢٦٩٩، ٤٢٥١).

وزاد وقال: " أما أن لك مثلها وستأتيها وأنت مضطر يشير ﷺ إلى ما وقع لعلي يوم الحكمين فكان كذلك، قوله فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب: " هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله " تقدم هذا الحديث في الصلح عن عبيد الله بن موسى بهذا الإسناد وليست فيه هذه اللفظة، ليس يحسن يكتب، ولهذا أنكر بعض المتأخرين على أبي مسعود نسبتها إلى تخريج البخاري، وقال ليس في البخاري هذه اللفظة ولا في مسلم، وهو كما قال عن مسلم؛ فإنه أخرجه من طريق زكريا بن أبي زائدة عن أبي إسحاق بلفظ فأراه مكانها فمحاها وكتب بن عبد الله. وقد عرفت ثبوتها في البخاري في مظنة الحديث، وكذلك أخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان، عن عبيد الله بن موسى مثل ما هنا سواء، وكذا أخرجها أحمد، عن حجين بن المثنى، عن إسرائيل. ولفظه فأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب مكان رسول الله ﷺ هذا ما قاضي عليه محمد بن عبد الله[(١)].

فمن ثمَّ نقول ما لخَّصه ابن كثير في هذه المسألة:

قال ابن كثير: قوله" هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله " " ثم أخذ فكتب "؛ فهذه محمولة على الرواية الأخرى: " ثم أمر فكتب "[(٢)].

الوجه الثاني: الحديث المحتج به يدل على أنه لم يكتب

١ -**قال ابن حجر**: أجاب الجمهور عن قصة الحديبية بأن القصة واحدة والكاتب فيها عليّ. وقد صرح في حديث المسور بأن عليًا هو الذي كتب؛ فيحمل على أن النكتة في قوله: " فأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب " لبيان أن قوله أرني إياها أنه ما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي امتنع عليٌّ من محوها؛ إلا لكونه كان لا يحسن الكتابة، وعلى أن قوله بعد ذلك فكتب فيه حذف تقديره "فمحاها فأعادها لعلي فكتب" وبهذا جزم ابن التين، وأطلق كتب بمعنى (أمر بالكتابة) وهو كثير كقوله: كتب إلى قيصر وكتب إلى كسرى. وعلى تقدير حمله على ظاهره، فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم، وهو لا

(١) فتح الباري ٧/ ٥٠٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم٦/ ٢٨٥.

يحسن الكتابة أن يصير عالمًا بالكتابة، ويخرج عن كونه أميًا؛ فإن كثيرًا ممن لا يحسن الكتابة يعرف تصور بعض الكلمات ويحسن وضعها بيده، وخصوصًا الأسماء، ولا يخرج بذلك عن كونه أمِّيًا ككثير من الملوك.

ويحتمل أن يكون جرت يده بالكتابة حينئذ وهو لا يحسنها، فخرج المكتوب على وفق المراد، فيكون معجزة أخرى في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أميًا، وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني أحد أئمة الأصول من الأشاعرة، وتبعه ابن الجوزي. والحق أن معنى قوله فكتب أي أمر عليًا أن يكتب انتهى. وفي دعوى أن كتابة اسمهالشريف فقط على هذه الصورة تستلزم مناقضة المعجزة، وتثبت كونه غير أمي نظر كبير والله أعلم[1].

٢-فمما سبق نقول: لا نُسلّم بأن الرواية السابقة، جاء فيها التصريح بمباشرة النبي ﷺ للكتابة، بل هي محتملة لأمرين: أن يكون النبي ﷺ هو المباشر، أو أن يكون علي ﷺ هو الذي قام بالمباشرة، وتكون نسبة الكتابة إلى النبي ﷺ مجازيةً، باعتبار أنه هو الآمر بالكتابة، ونظير ذلك قول الصحابي: ونقش النبي ﷺ في خاتمه: محمد رسول الله، أي أمر بنقشه. وإذا أردنا معرفة رجحان أي الاحتمالين؛ فإنه يجب علينا العودة إلى مرويّات الحديث وطرقه.

ونخلص من مجموع تلك الروايات أن النبي ﷺ أمر عليًا ﷺ أن يمحو كلمة: رسول الله، فرفض عليٌّ ﷺ ذلك، فطلب منه أن يريه مكانها، فمحاها بيده، ثم أمره بكتابة لفظة بن عبد الله، وهذا هو مقتضى الروايات.

الوجه الثالث: لم يعلم النبي ﷺ موضع الكلمة التي أرادوا حذفها فأراهما له علي

ثم إننا نقول: إن رواية البخاري التي ذكرت قول النبي ﷺ: " فأرنيه "، فيها إشارة واضحة إلى احتياج النبي ﷺ إلى عليٍّ كي يرشده إلى مكان الكلمة، مما يدل بوضوح على عدم معرفته للقراءة أصلا، ويضاف إلى ذلك أن المشرك الذي تفاوض مع النبي ﷺ لو رآه يكتب شيئًا بيده في تلك الحادثة لنقلها إلى كفّار قريش، فقد كانوا يبحثون عن أي شيء

---

(١) فتح الباري ٧/ ٥٠٤.

يجعلونه مستمسكًا لهم في ارتيابهم، فلما لم يُنقل لنا ذلك دلّ على عدم وقوعه أصلًا.

الوجه الرابع: ولكن دعنا نفترض أن المباشر للكتابة هو النبي ﷺ، فهل يخرجه ذلك عن أميته؟

يجيب الإمام الذهبي فيقول: فما خرج عن كونه أمِّيا بكتابة اسمه الكريم، فجماعة من الملوك ما علموا من الكتابة سوى مجرد العلامة، وما عدهم الناس بذلك كاتبين، بل هم أمِّيون، فلا عبرة بالنادر، وإنما الحكم للغالب، والله تعالى فمن حكمته لم يلهم نبيه تعلم الكتابة، ولا قراءة الكتب حسمًا لمادة المبطلين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت: ٤٨).

ثم ما المانع من تعلم النبي ﷺ كتابة اسمه واسم أبيه مع فرط ذكائه، وقوة فهمه، ودوام مجالسته لمن يكتب بين يديه الوحي والكتب إلى ملوك الطوائف، ثم هذا خاتمه في يده، ونقشه: محمد رسول الله، فلا يظن عاقل، أنه ﷺ ما تعقل ذلك، فهذا كله يقتضي أنه عرف كتابة اسمه واسم أبيه، وقد أخبر الله بأنه ﷺ ما كان يدري ما الكتاب؟ ثم علمه الله تعالى ما لم يكن يعلم، فلما بلغ الرسالة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، شاء الله لنبيه أن يتعلم الكتابة النادرة التي لا يخرج بمثلها عن أن يكون أميًا. ثم هو القائل: " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ".

فصدق إخباره بذلك، إذ الحكم للغالب، فنفى عنه وعن (أمته) الكتابة والحساب لندور ذلك فيهم وقلته، وإلا فقد كان فيهم كتاب الوحي وغير ذلك، وكان فيهم من يحسب، وقال تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ (الإسراء: ١٢)، ومن علمهم الفرائض، وهي تحتاج إلى حساب وعول، وهو ﷺ فنفى عن الأمة الحساب. فعلمنا أن المنفي كمال علم ذلك ودقائقه التي يقوم بها القبط والأوائل؛ فإن ذلك ما لم يحتج إليه دين الإسلام ولله الحمد؛ فإن القبط عمقوا في الحساب والجبر، وأشياء تضيع الزمان، وأرباب الهيئة تكلموا في سير النجوم، والشمس، والقمر، والكسوف، والقرآن بأمور طويلة لم يأت الشرع بها، فلما ذكر ﷺ الشهور ومعرفتها، بين أن معرفتها ليست بالطرق التي يفعلها المنجم وأصحاب التقويم، وأن ذلك لا نعبأ به في ديننا، ولا نحسب الشهر بذلك أبدًا. ثم

بين أن الشهر بالرؤية فقط، فيكون تسعًا وعشرين، أو بتكملة ثلاثين، فلا نحتاج مع الثلاثين إلى تكلف رؤية[١].

الوجه الخامس: ذكر من قال أن النبي ﷺ كتب بيده في صلح الحديبية.

ومنهم السمناني وأبو ذر والباجي: وذكروا أنه كتب من غير تعلم لكتابة ولا تعاط لأسبابها؛ وإنما أجرى الله تعالى على يده كمعجزة، وأنه مازال بعد ذلك لا يقرأ ولا يكتب.

قال السمناني، وأبو ذر ، والباجي[٢]: وظاهر هذا أنه ﷺ محا تلك الكلمة التي هي رسول الله ﷺ بيده وكتب مكانها ابن عبد الله وقد رواه البخاري بأظهر من هذا فقال: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب فقالوا بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده. ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أميا ولا معارَض بقوله ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ولا بقوله: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب".

بل رأوه زيادة في معجزاته. واستظهارا على صدقه، وصحة رسالته، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة ولا تعاط لأسبابها.

وقالوا إنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ابن عبد الله لمن قرأها فكان ذلك خارقًا للعادة؛ كما أنه ﷺ عَلِمَ عِلْمَ الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب؛ فكان ذلك أبلغ في معجزاته، وأعظم في فضائله، ولا يزول عنه اسم الأمي بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يحسن أن يكتب فبقي عليه اسم الأمِّي مع كونه قال كتب[٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء١٤/ ١٩٠.

(٢) السمنان هو أبو عمرو الفلسطيني. وأبو ذر هو عبد الله بن أحمد الهروي، والباجى هو أبو الوليد.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٣٥٢).

قال النووي: بينما ذهب الأكثرون إلى منع ذلك كله. وقالوا: قوله "كتب" أي: أمر بالكتابة[(١)].

الوجه السادس: لا يعد اختلاف الباجي مع الفقهاء اختلاف سائغ، بل من العلماء من جعله قول شاذ. وأن العلماء المتقدمين متفقون على القول بأن النبي ﷺ لم يكتب في صلح الحديبية.

أولًا: القاضي أبي الوليد الباجي هو من متأخري الفقهاء، لا من متقدميهم.

ثانيًا: إنكار كثير من الفقهاء على الباجي وعلى من قال بقوله، واعتبار أن قولهم قول شاذ لا يقبل.

قال ابن كثير: ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالًا وخطبوا به في محافلهم[(٢)].

ثالثًا: وللرد على من قال أن النبي ﷺ كتب بيده في صلح الحديبية؛ وذكروا أنه كتب من غير تعلم لكتابة، ولا تعاط لأسبابها، وإنما أجرى الله تعالى على يده كمعجزة.

فيقال له: كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى؛ وهي كونه أمِّيا لا يكتب؛ وبكونه أمِّيا في أمّة أمِّية قامت الحجة، وأفحم الجاحدون، وانحسمت الشبهة؛ فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب، وتكون آية، وإنما الآية ألا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضًا، وإنما معنى كتب وأخذ القلم؛ أي أمر من يكتب به من كتابه، وكان من كتبة الوحي بين يديه ﷺ ستة وعشرون كاتبًا.

الوجه السابع: إن كان رسول الله ﷺ كان كاتبًا مُجيدًا لذلك؛ فلماذا دعا عليًّا ليكتب له، ثم لما أراد أن يحذف عبارة طلب من علي ذلك ويأبى عليه علي؛ لأنه سيمحوا كلمة (رسول الله) فمن تعظيمه له أبى؛ ورسول الله يقول له (أرني) كأنه لم يعلم موضعها من الكتاب، فطلب منه أن يريه الكلمة ليمحوها بنفسه، وأبعد كل هذا ما زال المعترضون يعترضون والأمر بيِّن جلي.

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (٦/ ٣٨١).

(٢) تفسير القرآن العظيم٦/ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء١٨/ ٥٤٠.

الشبهة الحادية عشر: المتعلقة: بقوله ﷺ: " إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا ".

قالوا بأن هذا الحديث لا يفيد كدليل لإثبات أمية محمد ﷺ لاختلاف معاني لفظة (أمِّي) في كتب فمنها: أي إنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب، فهم على جبلتهم الأولى.

وقيل للعرب الأميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة.

وقيل الأمية الغفلة والجهالة، فالأمي منه، وذلك هو قلة المعرفة.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: القرآن محفوظ في الصدور فلا يحتاجون إلى كتاب

عن سعيد بن عمرو بن سعيد أنه سمع ابن عمر رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا، وهكذا، وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة والشهر هكذا، وهكذا يعني تمام ثلاثين "[(١)].

وهذا يشبه قوله ﷺ: " بعثت إلى أمة أمية "[(٢)].

قال ابن تيمية: لما نزل القرآن على العرب لم يبقوا أمِّيين باعتبار أنهم لا يقرؤون كتابًا من حفظهم؛ بل هم يقرؤون القرآن من حفظهم، وأناجيلهم في صدورهم، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي، عن النبي ﷺ أنه قال: " خلقت عبادي يوم خلقتهم حنفاء ـ وقال فيه ـ إني مبتليك ومبتل بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظانًا "، فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين، لا يحفظون كتبهم في قلوبهم، بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظًا في قلوب الأمة، وبهذا الاعتبار، فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه، كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: " إنا أمة أمية لا نحسب ولا

(١) البخاري (١٩١٣)، مسلم (١٠٨٠)، واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٤٤)، أحمد (٥/ ٤٠٠)، قال الترمذي: حسن صحيح.

نكتب الشهر هكذا وهكذا "، فلم يقل: إنا لا نقرأ كتابًا، ولا نحفظ، بل قال: لا نكتب ولا نحسب، فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب، كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب، ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم؛ ولهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع، وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه(١).

قال ابن كثير: أي: لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب(٢).

الوجه الثاني: هذا الحديث يدل دلالة المفهوم والمنطوق على أن النبي ﷺ كان لا يكتب ولا يحسب.

كما يجب أن لا نفهم أن معنى هذا الحديث أنه لا يوجد في أمة العرب من يعلم القراءة والكتابة، بل كان فيهم من يعلم ذلك، بيد أن هذا قليل جدًا، لذلك كان الحكم للغالب.

قال المباركفوري: قال ﷺ: " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " أراد أنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى(٣).

فالعرب كانوا قوم لا ثقافة لهم ولا علوم ولا اطلاع على ثقافات العالم المتحضر آنذاك، إلا قليلًا منهم بالطبع، كذلك كانوا قومًا لا دين لهم يتبعونه، ولا كتاب لهم يقرؤونه؛ أي أنهم كانوا أمة على أصل ولادتها، لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها؛ وهذا قد جعل القرآن الكريم يصفهم بالأمّية؛ ولكن أهل الكتاب في خلال نقاشهم الدائم مع المسلمين، لا يقبلون هذا الأمر، بل ويحاولون أن يتخذونه مولجًا إلى أن ثقافة محمد ﷺ هي مصدر القرآن الكريم. ففي بعض مؤلفات النصارى ومواقعهم على شبكة الإنترنت نقرأ مقالات ومؤلفات تحاول تفسير هذا الموضوع بشكل مغاير تماما للمفهوم الإسلامي فتخلط ما بين الأميّين والأَمَميّين، وما بين الأميّ والأمَميّ، إلى تنتهي بالقارئ إلى أن المسلمين لا يفهمون كتابهم الذين يرتلونه في صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار! !

---

(١) مجموع الفتاوى٥/ ٤٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم١/ ٣١٠.

(٣) تحفة الأحوذي ٨/ ٢١٢، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم ٧/ ١٩٢.

ومن الذي يفهمه، ويشرح معاني آياته للناس؟! !. . أهم النصارى الذين لا يعترفون به أصلا ككلام الله؟! ! !.

قال ابن كثير: فإن قيل فما الجمع بين قوله: "إنا أمَّة أمية لا نكتب ولا نحسب" وبين الأمر بالكتابة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)؟ فالجواب: أن الدِّين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلا؛ لأن كتاب الله قد سَهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضًا محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمروا أمْر إرشاد لا أمر إيجاب، كما ذهب إليه بعضهم(١).

الشبهة الثانية عشر

ورد في الأثر: ما مات رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَتَبَ وَقَرَأَ. فهذا يدل صراحة أنه كتب وقرأ.

الرد على ذلك من وجوه:

إن الحديث ضعيف لا يثبت بالاتفاق وإليك بيان ذلك:

عن مُجَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ قال حَدَّثَنِي عَوْنُ بْنُ عَبْدِ الله عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَتَبَ وَقَرَأَ(٢).

قال البيهقي: فَهَذَا حَدِيثٌ مُنْقَطِعٌ وَفِى رُوَاتِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَجْهُولِينَ(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٢٣).

(٢) رواه البيهقي ٢/ ٤٦٢- (١٣٦٧٠) باب لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ شِعْرًا وَلاَ يَكْتُبَ، وابن عساكر في تاريخه (٣٤/ ١٠٣) كلاهما عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم قال حدثنا بكر بن سهل، نا عبد الخالق بن منصور القشيري النيسابوري، نا أبو النضر هاشم بن القاسم، نا أبو عقيل يحيى بن المتوكل، نا مجالد بن سعيد به، وفيه يحيى ابن المتوكل العمري، أبو عقيل: ضعفه أحمد، وعبد الله بن المبارك، ويحيى بن معين، والمديني. وعبد الخالق بن منصور: لم أجد فيه جرحًا ولا تعديلًا فقد ذكره ابن عساكر في تاريخه (٣٤/ ١٠٣) دون ذكر توثيق له، وبه بكر بن سهل الدمياطي: قال ابن حجر عنه (لسان الميزان٢/ ٥١): ذكره بن يونس في تاريخ مصر وسمي جده نافعًا ولم يذكر فيه جرحًا وقال مسلمة بن قاسم تكلم الناس فيه وضعفوه من أجل حديث حدث به، فيه مجالد بن سعيد: ضعيف وعبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي لم يسمع من النبي ﷺ فهو من كبار التابعين.

(٣) المصدر السابق.

قال ابن كثير: ضعيف لا أصل له. وقال الطبراني: منكر معارض للكتاب[1].

الشبهة الثالثة عشر: ومن استدلالاتهم على نفي أمّيّته ما ذكروه أن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال عندما سأله اليهودي: هل كتب النبي ﷺ بيده؟ فقال: فأردت أن أقول نعم، فخشيت من أبي سفيان أن يكذبني ويردّ علي، فقلت: لا يكتب، فوثب الحبر وترك رداءه وقال: ذبحت يهود وقتلت يهود.

للرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذا الأثر ضعيف جدًا.

وإليك نص الأثر وتحقيقه: فعن محمد بن زكريا الغلابي قال: ثنا العباس بن بكار الضبي، ثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة ابن عباس ﷺ قال: قال العباس ﷺ: خرجت في تجارة إلى اليمن ركب منهم أبو سفيان بن حرب، وكان أبو سفيان يجلس مجلسًا باليمن يتحدث فيه حبر من أحبار اليهود، فقال له اليهودي ما هذا الخبر بلغني أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال: قال أبو سفيان صدقوا وأنا عمه، قال اليهودي أخو أبيه قال نعم، قال فحدثني عنه، فقال لا تسألني ما كنت أحسب أن يدعي هذا الأمر أبدا وما أحب أن أعينه، فقال اليهودي ليس به بأس على يهود وتوراة موسى، قال العباس فنادي إلى الخبر فحميت وخرجت، حتى جلست ذلك المجلس من الغد، وفيه أبو سفيان بن حرب، والحبر فقلت للحبر بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منا زعم أنه رسول الله، فأخبرك أنه عمه وليس بعمه، ولكن ابن عمه وأنا عمه أخو أبيه، قال أخو أبيه، قلت أخو أبيه، فأقبل على أبي سفيان فقال: صدق، قال: نعم صدق، فقال سلني عنه، فإن كذب فليرده علي، فأقبل علي فقال نشدتك هل كانت لابن أخيك صبوة أو سفهة قلت: لا وإله عبد المطلب، ولا كذب ولا خان، وإن كان اسمه عند قريش الأمين، فقال: هل كتب بيده، قال العباس فظننت أنه خير له أن يكتب بيده، فأردت أن أقولها، ثم ذكرت مكان أبي سفيان أنه مكذبي، ورادٌ علي فقلت لا يكتب، فوثب الحبر وترك رداءه، وقال: ذبحت يهود وقتلت

---

(١) تذكرة الموضوعات لطاهر الفتني الهندي (١/ ٣٨).

يهود، قال العباس فلما رجعنا إلى منازلنا، قال أبو سفيان يا أبا الفضل إن اليهود تفزع من ابن أخيك قلت قد رأيت ما رأيت[١].

فالعباس بن بكار الضبي بصري: قال الدارقطني: كذاب[٢]، وقال العقيلي: الغالب على حديثه الوهم والمناكير[٣]، وقال أبو نعيم الأصبهاني: يروى المناكير لا شيء[٤].

الوجه الثاني:

ما ذكروه يتضمّن تدليسًا فاحشًا، وكذبًا واضحًا، يتّضح عند العودة إلى الرواية في مصادرها، فالأثر على افتراض صحته، فهو دليل على أمية الرسول، فعند قوله: فقال الحبر اليهودي: هل كتب بيده؟ قال العباس: فظننت أنه خير له أن يكتب بيده، فأردت أن أقولها، ثم ذكرت مكان أبي سفيان أنه مكذبي ورادٌّ عليّ فقلت: لا يكتب. فوثب الحبر وترك رداءه وقال: ذبحت يهود وقتلت يهود. وبهذا يظهر أن أميّة النبي ﷺ كانت أمرًا مشتهرًا يعرفها القاصي والداني من قومه.

الوجه الثالث:

وفي الأثر أيضًا: قال العباس لا يكتب، فوثب الحبر، وترك رداءه، وقال ذبحت يهود وقتلت يهود، قال العباس: فلما رجعنا إلى منازلنا، قال أبو سفيان: يا أبا الفضل إن اليهود تفزع من ابن أخيك، قلت: قد رأيت ما رأيت، ففزع اليهودي عندما علم أن النبي ﷺ لا يكتب، دليل على أنه تأكد أن محمدًا هو نبي آخر الزمان. وكل ما هنالك أن العباس تردد في اختيار القول الذي يقوله لليهودي: هل يقول أنه يكتب أم لا بغض النظر عن صدق الاختيار الذي يريد أن يختاره من أحدهما، فلما علم أن الكتابة لها فضل وأنه لا يريد إثبات

(١) ذكر البيهقي في (دلائل النبوة ١/ ٢٠٤)، وكذلك الأصبهاني (دلائل النبوة٢٧١)، قالا: ذكر الطبراني رحمه الله في دلائل النبوة ثنا محمد بن زكريا الغلابي، ثنا العباس بن بكار الضبي، ثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه به.

(٢) لسان الميزان: ترجمة ١٠٥٢.

(٣) الضعفاء الكبير ١٣٩٩.

(٤) لسان الميزان: ترجمة ١٠٥٢.

الفضل للنبي ﷺ؛ لأن العباس كان على غير ملته آنذاك، رجع العباس رضي الله عنه إلى الحقيقة التي كان يفكر في تغيير القول بها وهي أنه ﷺ أمي لا يكتب.

الشبهة الرابعة عشر.عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " رأيت ليلة أسرى بي على باب الجنة مكتوبًا، الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، فقلت: يا جبريل، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟. قال: " لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة "[١]. قالوا: والقدرة على القراءة فرع الكتابة:

للرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ما استدلوا به لا يصلح للاحتجاج؛ لأن الحديث ضعيف جدًا، وآفته خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: ضعيف مع كونه كان فقيهًا، وقد اتهمه يحي بن معين، وسئل عنه أبو زرعة فقال: يروي أحاديث مناكير.

الوجه الثاني: ولئن صح الحديث، فليس فيه أن النبي ﷺ باشر القراءة بنفسه، بل واضحٌ من سياق الحديث أن جبريل عليه السلام كان بصحبته في الجنة.

الوجه الثالث: إن حادثة الإسراء والمعراج في جملتها أمرٌ خارق للعادة، لا يُقاس الواقع به، فكيف يتعجّب مع هذا الأمر الخارق العظيم أن يقرأ النبي ﷺ بضع كلمات مكتوبة على باب الجنّة؟ وإذا كانت القراءة تلك حاصلة منه في العالم العلويّ، وفي مشهد من مشاهد الآخرة – حيث رأى الجنة – فمن الذي قال إنه ﷺ سيكون يوم القيامة على أُمِيّته! !.

الشبهة الخامسة عشر: حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الدجال ممسوح العين، مكتوب بين عينيه: كافر، ثم تهجاها: ك ف ر[٢]".

والرد على ذلك من وجوه:

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٣١)، والطبراني في الأوسط ٦٧١٩، ومسند الشاميين (١٦١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٦٦)، وأبو نعيم في الحلية٨/ ٣٣٣: جميعًا عن خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه عن أنس بن مالك به. قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٦٣٧): ضعيف جدا.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٣١).

الوجه الأول: إن تهجّي الكلمات يشمل نوعين: تهجي الكلمات المسموعة، وهذا أمر يشترك فيه المتعلم والأميّ على السواء، وتهجّي الكلمات المكتوبة، وهذا لا يقدر عليه إلا من كان يحسن القراءة، وإذا كان الأمر كذلك فليس في الحديث دلالة على معرفة النبي ﷺ للقراءة؛ لأن النبي ﷺ نطق الكلمة ثم تهجّاها.

الوجه الثاني: إن ما ذكره المستشرقون ومن تبعهم من محاولات للتشكيك في أمّيّة النبي ﷺ لا يصمد أمام حقيقة هامة، وهي أن أهل مكة الذين عاشوا معه وعلموا أخباره، وعرفوا مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته، قد أقرّوا جميعًا بأميّته.

الوجه الثالث: اتخاذه ﷺ كتبة للوحي دليل بارز على أميته؛ إذ لو لم يكن كذلك لكتب القرآن بنفسه فإن قيل: ذلك عسير عليه أن يكتبه بمفرده قلنا: لا عسر في ذلك فالقرآن نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة، وكثير من الصحابة كتبوا مصاحف لخاصة أنفسهم، وإذا لم يتفرد بهذا فلا أقل من أن يقوم معاونًا للكتبة مشاركًا لهم؛ فإذا لم يفعل ﷺ هذا مع توفر الدواعي إلى مثله، فقد دل على أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وقد مضى أنه أرسل إلى زيد بن ثابت ليكتب له ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾.

الوجه الرابع: كان ﷺ يعاجل جبريل بالقراءة عند نزوله عليه بالقرآن خشية أن يتفلت منه فضمن الله له الحفظ وأنزل عليه قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ (القيامة: ١٦- ١٨). والشاهد أنه لو كان كاتبًا قارئا لما خشي ذلك؛ لأن عليه فقط أن يُدون ما نزل ليرجع إليه عند الحاجة؛ ولأن ذلك لم يحدث فقد دل على أنه أمي.

الوجه الخامس: في فداء أسرى بدر جعل النبي ﷺ فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين، وهذا تنبه منه ﷺ إلى أهمية العلم، فنحن مطالبون به ديانة، وعليه فلو كان مجيدًا للقراءة والكتابة، لقام بتعليم الصحابة وأبناءهم ضرورة، أنه معلم الأمة؛ فإن قيل: كان من

الممكن أن يعهد بذلك لأحد المسلمين القارئين الكاتبين قلنا: لم يكن واحد منهم ليؤثر في المتلقين تأثير النبي ﷺ فيهم وهذا معروف، فلما لم يحدث هذا فقد دل على أميته.

الشبهة: السادسة عشر: ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: " ألق الدواة، وحرف القلم، وأقم الباء، وفرق السين، ولا تُعور الميم، وحسن الله، ومد الرحمن، وجود الرحيم.

والرد على ذلك من وجوه: وذلك بذكر الأحاديث التي تتعلق بتلك الشبهة:

١- عن يزيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا كتبت فبين السين في بسم الله الرحمن الرحيم "، وهذا الحديث ضعيف(١).

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمد الرحمن "، وهذا الحديث موضوع(٢).

٣-عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لكاتبه: " إذا كتبت فضع القلم خلف أذنك فإنه أذكر لك ". وهذا الحديث موضوع(٣).

---

(١) رواه الكازروني في المسلسلات (١٢٠/ ٢) وكذا الخطيب في التاريخ (١٢/ ٣٤٠)، والديلمي في الفردوس (١٠٨٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٨، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٧٣٧)، وقال: فيه جعفر بن يحيى بن خالد البر مكي، والوزير بن الوزير، وهما على شهرتها في الوزارة لهارون الرشيد، فلا يعرفان في الرواية. وبالجملة، فالإسناد ضعيف مظلم. وبيض له المناوي فلم يتكلم عليه بشيء. هذا في (الفيض)، وأما في (التيسير) فجزم بأنه ضعيف.

(٢) موضوع. رواه الخطيب (في الجامع لأخلاق الراوي٥٥٦)، والديلمي في الفردوس (١/ ٢٩٦-رقم ١١٦٨)، الجرجاني (٣٩٧)، وذكره السيوطي (في الدر المنثور ١/ ٢٨). قال الألباني في السلسلة الضعيفة ٦/ ٢٢٣ (٢٦٩٩): موضوع، وقال: وهذا سند مظلم؛ من دون جعفر بن برقان لم أجد من ترجمهم، غير أن عبد الصمد بن محمد يحتمل أن يكون هو الذي في اللسان روى عن أبي الطاهر بن السرح، وعنه الفضل بن عبيد الله الهاشمي. قال الدارقطني: ليس بالقوي. وقال المناوي عقبه: قال الذهبي: فيه كذاب.

(٣) موضوع. رواه الترمذي (٣/ ٣٩١) وابن حبان في المجروحين (٢/ ١٦٩)، وابن عدي (٢٣٢/ ٢) وابن عساكر (١٦/ ١٩/ ١) عن عنبسة، عن محمد بن زاذان، عن أم سعد، عن زيد بن ثابت قال: دخلت على رسول الله ﷺ وبين يديه كاتب، فسمعته يقول: فذكره، قال الألباني في " السلسلة الضعيفة والموضوعة (٢/ ٢٥٢، ٨٦١) موضوع. ففيه: عنبسة بن عبد الرحمن الأموي:

٤-عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " يا معاوية ألق الدواة، وحرف القلم، وانصب الباء، وفرق السين، ولا تغور الميم، وحسن الله، ومد الرحمن، وجود الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسري؛ فإنه أذكر لك"[١].

٥-عن مطر الوراق قال كان معاوية بن أبي سفيان كاتب رسول الله ﷺ فأمره أن يجمع بين حروف الباء والسين ثم يمده إلى الميم ثم يجمع حروف الله الرحمن الرحيم ولا يمد شيئا من أسماء الله في كتابة ولا قراءة. وهذا الحديث ضعيف جدًا[٢].

٦- عن ربيعة بن يزيد، عن أبي كبشة السلولي، ثنا سهل بن الحنظلية، قال قدم على رسول الله ﷺ عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس فسألاه فأمر لهما بما سألا وأمر معاوية أن يكتب لهما بما سألا قال: فأما الأقرع فلف كتابه في عمامته، وانطلق، وأما عيينة فأخذ كتابه فأتى النبي ﷺ فقال يا محمد ترى إني حامل إلى قومي كتابًا لا أدري ما فيه كصحيفة الملتمس، قال فأخذه النبي ﷺ فنظر فيه فقال: " قد كتب لك بالذي أمرت لك به "[٣].

تضعيف عام لهذه الأحاديث، فجميعها لا يثبت:

قال ابن حجر: وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث[٤].

قال أبو حاتم: كان يضع الحديث. وقال ابن حبان: هو صاحب أشياء موضوعة، لا يحل الاحتجاج به. واشر البخاري إلى اتهامه فقال: تركوه. وقال النسائي: متروك. وأورد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات (١/ ٢٥٩) من رواية الترمذي هذه ثم قال: لا يصح، عنبسة متروك، وقال أبو حاتم الرازي: كان يضع الحديث، وفي رواية: إذا كتبت فضع قلمك على أذنك؛ فإنه أذكر لك، رواه الديلمي (١/ ١/ ١٤٦) وابن عساكر (٨/ ٢٥١/ ٢) عن عمرو بن الأزهر، عن حميد، عن أنس مرفوعًا، قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٨٦٢): موضوع. آفته عمرو كذبه: ابن معين وغيره، وقال أحمد: كان يضع الحديث. وكذا قال ابن حبان ٢/ ٧٨.

(١) رواه الديلمي الفردوس ٥/ ٣٩٤- ٨٥٣٣، وذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٨.

(٢) ضعيف. رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٥٥٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٨، وفيه: مطر الوراق: قال ابن حجر: صدوق كثير الخطأ التقريب(٦٦٩٩)، وفيه انقطاع.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٤، مسكين بن بكير الحراني، أبو عبد الرحمن الحذاء، قال ابن حجر: صدوق يخطئ التقريب (٦٦١٥)، أحمد بن أبي شعيب أبو الحسن الحراني: لم أجد له ترجمة.

(٤) فتح الباري ٧/ ٥٠٤.

قال القاضي عياض: وردت آثار تدل على معرفة حروف الخط، وحسن تصويرها، ثم ذكر من هذه الآثار، وهذا وإن لم يثبت أنه كتب فلا يبعد أن يرزق علم وضع الكتابة؛ فإنه أوتي علم كل شيء ﷺ[١].

الشبهة: السابعة عشر: الاعتراض بأن النبي ﷺ لم يُذكر في الكتاب المقدس بأنه النبي الأمي كما ذُكر في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أدلة على كون وصف النبي محمد ﷺ بأنه أمي في كتب الأنبياء.

قال ابن كثير: وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم[٢].

عن أبي صخر العقيلي، حدثني رجل من الأعراب، قال: جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعتي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشرًا التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه، عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: " أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ " فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه، إي: والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومَخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله فقال: " أقيموا اليهودي عن أخيكم ". ثم ولى كفنه والصلاة عليه[٣].

قال ابن كثير: هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح، عن أنس[٤].

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥٠٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم٣/ ٤٨٣.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٤١١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٦٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم٣/ ٤٨٣.

الوجه الثاني: الرسول الأمي في الكتاب المقدس:

عن عطا بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقلت: أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجَل والله، إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين. أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ القلب ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يأخذه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا لا إله إلا الله، يفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًا، وقلوبًا غُلفًا[1]. وقد جاءت هذه النبوة في سفر إشعياء بالتوراة، ويرجع تاريخها إلى ٧٠٠ سنة قبل المسيح، و١٣٠٠ سنة قبل محمد ﷺ (على قول النصارى).

وتقول: هُوَذَا عَبْدِي الذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الحَقَّ لِلْأُمَمِ. لَا يَصِيحُ وَلَا يَرْفَعُ وَلَا يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لَا يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لَا يُطْفِئُ، أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلْأُمَمِ، لِتَفْتَحَ عُيُونَ العُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الحَبْسِ المَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ (إشعياء ٤٢: ١-٣ و٦ و٧).

قال النصارى: ولما كان عندنا شاهدان: نبوة إشعياء التوراتية، وكلمات الحديث، وهما متوافقان، ندرك أن نبوة إشعياء لم تتحرف. وقد أعلن الإنجيل أن النبوة تحققت في المسيح، فهو الذي لم يكن صخّابًا، وهو الذي عفا وغفر، وهو الذي فتح عيون العمى (متى ١٢: ١٨-٢١).

قلت: ولكن لم يبعث لجميع الأمم: كما في النص السابق (فَيُخْرِجُ الحَقَّ لِلْأُمَمِ).

وهل لفظ الأمم يفيد الأميّن؟.

* * *

(١) السيرة النبوية لابن كثير صـ ٣٢٧، والحديث رواه البخاري (٢٠١٨).

٣ـ شبهة: ادعاؤهم أن كفر أبوي النبي ﷺ يقدح فيه.

نص الشبهة:

وردت أدلة تثبت أن أبوي النبي ﷺ كافران وفي النار، وذاك فيه اتهام للنبي ﷺ لشخصه وعصمته.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إثبات أن أبوي النبي ﷺ في النار.

الوجه الثاني: الرد على من زعم أن الله ﷻ أحيا للنبي أبويه فأسلما.

الوجه الثالث: الرد على السيوطي ومن تبعه في القول بنجاة الوالدين.

الوجه الرابع: هل مجرد ذكر مصير أبوي النبي ﷺ وأنهما في النار يؤذي النبيﷺ؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إثبات أن أبوي النبي ﷺ في النار.

من حديث أنس ؓ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: " فِي النَّارِ"، فَلَمَّا قَفَّي دَعَاهُ، فَقَالَ: "إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ". (١)

وقد بوب الإمام النووي لهذا الحديث بـ (باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تنفعه شفاعة، ولا تنفعه قرابة الأقربين). ثم قال: إن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة؛ فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، وقوله ﷺ: " إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ" هو من حسن العشرة للتسلية بالاشتراك في المصيبة، ومعنى قَفَّي: ولى قفاه منصرفًا. (٢)

ومن حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "استأذنت ربي أن أستغفر لأمي

---

(١) مسلم (٢٠٣).

(٢) شرح مسلم للنووي٣/ ٧٩.

فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي"(١).

وفي رواية: زار النبي قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال: " استأذنت ربي في أن أستغفر لها، فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت".

قال النووي: فيه جواز زيارة المشركين في الحياة، وقبورهم بعد الوفاة؛ لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، وفيه النهى عن الاستغفار للكفار. (٢)

قال القاضي عياض: سبب زيارته ﷺ قبرها أنه قصد قوة الموعظة والذكرى بمشاهدة قبرها، ويؤيده قوله ﷺ في آخر الحديث "فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت". (٣)

وقال في قوله: " فبكى وأبكى من حوله"، بكاؤه على ما فاتها في إدراك أيامه والإيمان به. (٤)

قال البيهقي: (وأبواه كانا مشركين، بدليل ما أخبرنا. . .) ثم ساق بإسناده حديث أنس: " إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ "(٥)، وبإسناده حديث أبي هريرة ﵁ في استئذانه أن يستغفر لأمه فلم يؤذن له. وهما اللذان أخرجهما مسلم.

قال الإمام البيهقي: وكيف لا يكون أبواه وجده بهذه الصفة في الآخرة. (٦)

وقال القاضي عياض: لما أخبر بها أخبره ورآه عظم عليه أخبره أن مصيبته بذلك كمصيبته ليتأسي به. (٧)

ومثله قول القرطبي: قوله ﷺ: " إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ " جبر للرجل مما أصابه وأحاله على التأسي حتى تهون عليه مصيبته بأبيه. (١)

---

(١) مسلم (٩٧٦).

(٢) شرح مسلم للنووي ٤/ ٥٣.

(٣) شرح مسلم للنووي ٤/ ٥٣.

(٤) شرح مسلم للنووي ٤/ ٥٣.

(٥) السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١٩٠.

(٦) دلائل النبوة ١/ ١٩٢.

(٧) إكمال المعلم ١/ ٥٩١.

الوجه الثانيَ: الرد على من زعم أن الله ﷻ أحيا للنبي أبويه فأسلما.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية: هل صح عن النبي ﷺ أن الله - تبارك وتعالى- أحيا له أبويه حتى أسلما على يديه ثم ماتا بعد ذلك؟

فأجاب: لم يصح ذلك عن أحد من أهل الحديث، بل أهل المعرفة متفقون على أن ذلك كذب مختلق، وإن كان قد روى في ذلك أبو بكر – يعنى: الخطيب في كتابه (السابق واللاحق) – وذكره أبو القاسم السهيلي في (شرح السيرة) بإسناد فيه مجاهيل، وذكره أبو عبد الله القرطبي في (التذكرة) وأمثال هذه المواضع، فلا نزاع بين أهل المعرفة أنه من أظهر الموضوعات كذبًا، كما نص عليه أهل العلم، وليس ذلك في الكتب المعتمدة في الحديث، لا في الصحيح، ولا في السنن، ولا في المسانيد، ونحو ذلك من كتب الحديث المعروفة، ولا ذكره أهل كتب المغازي والتفسير، وإن كانوا قد يروون الضعيف مع الصحيح؛ لأن ظهور كذب ذلك لا يخفي على متدين؛ فإن مثل هذا لو وقع لكان مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله؛ فإنه من أعظم الأمور خرقًا للعادة من وجهين: من جهة إحياء الموتى، ومن جهة الإيمان بعد الموت، فكان نقل مثل هذا أولى من نقل غيره، فلما لم يروه أحد من الثقات علم أنه كذب.

والخطيب البغدادي في كتاب (السابق واللاحق) مقصوده أن يذكر من تقدم ومن تأخر من المحدثين عن شخص واحد، سواء كان الذي يروونه صدقًا أو كذبًا، وابن شاهين يروي الغث والسمين، والسهيلي إنما ذكر ذلك بإسناد فيه مجاهيل.

وأما الأدلة على ذلك فهي من الكتاب، والسنة الصحيحة، والإجماع.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ (النساء: ١٧-١٨). فبين الله تعالى أنه لا توبة لمن مات كافرًا، وقال تعالى: ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم١/ ٤٦١.

إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (غافر: ٨٥).

فأخبر سبحانه أن سنته في عباده أنه لا ينفع الإيمان بعد رؤية البأس فكيف بعد الموت؟

ومن السنة:

في صحيح مسلم أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ، الله أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: " فِي النَّارِ، فَلَمَّا قَفَّي دَعَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ ". [1]

وفي صحيح مسلم أيضًا أنه قال: "اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي". [2]

وفي الحديث الذي في المسند وغيره قال: "إن أمي مع أمك في النار". [3]

فإن قيل: هذا في عام الفتح والإحياء كان بعد ذلك في حجة الوداع، ولهذا ذكر ذلك من ذكر، وبهذا اعتذر صاحب التذكرة، فهذا باطل من وجوه:

الأول: أن الخبر عما كان ويكون، لا يدخله نسخ، كقوله سبحانه في أبي لهب: ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴿٣﴾ ﴾ (المسد: ٣)، وكقوله في الوليد: ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ (المدثر: ١٧)، وكذلك في قوله ﷺ: " إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ " و" إِنَّ أُمِّي وَأُمَّكَ فِي النَّار ". وهذا ليس خبرًا عن نار يخرج منها صاحبها كأهل الكبائر؛ لأنه لو كان كذلك لجاز الاستغفار لهما، ولو كان قد سبق في علم الله إيمانهما لم ينهه عن ذلك؛ فإن الأعمال بالخواتيم، ومن مات مؤمنًا، فإن الله يغفر له فلا يكون الاستغفار له ممتنعًا.

الثاني: أن النبي ﷺ زار قبر أمه؛ لأنها كانت بطريقه بالحجون عند مكة عام الفتح، وأما أبوه فلم يكن هناك، ولم يزره، إذ كان مدفونًا بالشام في غير طريقه، فكيف يقال: (أحيي له)؟!

---

(١) مسلم (٢٠٣).

(٢) مسلم (٩٧٦).

(٣) **إسناده ضعيف**. أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢٣٤) قال: حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عُدُس، عن أبي رزين عمِّه قال: قلت: يا رسول الله، أين أمي؟ قال: أمك في النار قال: قلت: فأين من مضى من أهلك؟ قال: أما ترضى أن تكون أمك مع أمي؟ وفي إسناده وكيع بن عُدُس، قيل: حدس مجهول الحال.

الثالث: أنهما لو كانا مؤمنين إيمانًا ينفع، كانا أحق بالشهرة والذكر من عميه: حمزة والعباس، وهذا أبعد مما يقوله الجهال من الرافضة ونحوهم، من أن أبا طالب آمن، ويحتجون بما في السيرة من الحديث الضعيف، وفيه أنه تكلم بكلام خفي وقت الموت.

ولو أن العباس ذكر أنه آمن لما قال للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: "نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ". (١)

إذن فذلك إيمان أبي طالب باطل مخالف لما في الصحيح وغيره؛ فإنه كان آخر شيء قاله هو: على ملة عبد المطلب، وأن العباس لم يشهد موته، مع أن ذلك لو صح لكان أبو طالب أولى بالشهرة من حمزة والعباس، فلما كان من العلم المتواتر المستفيض بين الأمة خلفًا عن سلف، أنه لم يذكر أبو طالب ولا أبواه في جملة من يذكر من أهله المؤمنين، كحمزة، والعباس، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين ﵃ كان هذا من أبين الأدلة على أن ذلك كذب.

الرابع: أن الله تعالى قال: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الممتحنة: ٤)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (التوبة: ١١٤). فأمر بالتأسي بإبراهيم ﵇ والذين معه إلا في وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار، وأخبر أنه لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. والله أعلم. (٢)

قال الشيخ عبد المحسن البدر: وعلى هذا فالثابت عن رسول الله ﷺ كون أبويه ماتا مشركين، وأنهما في النار، ولم يثبت شيء يدل على خلاف ذلك، وما ذكره مَنْ قال بإحيائهما له ﷺ وإسلامهما ليس بصحيح،

---

(١) البخاري (٣٦٧٠)، مسلم (٢٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/ ٣٢٧: ٣٢٤.

لعدم ثبوته من حيث الإسناد؛ لأن فيه مجاهيل كما ذكر ذلك وغيره. ثم قال: وأمَّا تعويلُ الكاتب على رسائل السيوطي في نجاةِ الأَبَوين، فجوابُه أنَّ السيوطيَّ لَم يأتِ بشيء ثابتٍ في ذلك يُعوَّلُ عليه.

وقد ألف الشيخ علي ملا القاري الحنفي رسالة في الرد عليه وبيان أدلة معتقد أبي حنيفة في ذلك، وقال فيها: والعجبُ من الشيخ جلال الدِّين السيوطي ـ مع إحاطتِه بهذه الآثار، التي كادت أن تكون متواترةً في الأخبار ـ أنَّه عَدَل عن مُتابعةِ هذه الحجَّة، وموافقة سائر الأئمَّة، وتَبع جماعةً من العلماء المتأخِّرين، وأورد أدلَّةً واهيةً في نظر الفضلاء المعتَبَرين، منها أنَّ الله سبحانه أحيا له أبويه حتى آمنا به، مُستدلًا بِما أخرجه ابنُ شاهين في الناسخ والمنسوخ، والخطيب البغدادي في السابق واللاحق، والدارقطني وابن عساكر كلاهما في غرائب مالكٍ بسندٍ ضعيف عن عائشة ﵂ قالت: (حجَّ بنا رسول الله ﷺ حجَّةَ الوداع، فَمَرَّ بي على عَقبة الحجون، وهو باكٍ حزينٌ مغتَمٌّ، فنزل، فمكث عنِّي طويلًا، ثمَّ عاد إليَّ وهو فرِحٌ، فتبسَّم، فقلتُ له. . . ؟ فقال: " ذهبتُ لقبر أُمِّي، فسألتُ الله أن يُحيِيَها، فآمنت بِي، وردَّها الله ﷻ").

وهذا الحديثُ ضعيفٌ باتِّفاق المُحدِّثين، كما اعترف به السيوطي، وقال ابن كثير: إنَّه منكرٌ جدًّا، ورواتُه مجهولون).

ثم قال الشيخ عبد المحسن بدر: ثمَّ كيف يزعم الكاتبُ أنَّ القولَ بكون أَبَوي الرسول ﷺ في النار فيه إيذاءٌ للرَّسول ﷺ، وهو مَبنِيٌّ على سُنَّةٍ ثابتةٍ عن رسول الله ﷺ في صحيح مسلم وغيره؟! بخلاف القول بإحياءِ الأبَوين وإسلامهما ـ وهو الذي عوَّل عليه الكاتب ـ فإنَّه لَم يثبت في السُّنَّةِ عن رسول الله ﷺ، وهو قولٌ على الله ورسوله بغير علم، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف: ٣٣). [1]

الوجه الثالث: الرد على السيوطي ومن تبعه في القول بنجاة الوالدين. [1]

(١) في رسالة في الرد على الرفاعي والبوطي في كذبهما على أهل السنة ١/ ٥١: ٥٥.

سلك السيوطي ومن تبعه في الاستدلال لنجاة والدي النبي ﷺ ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: أنهما ماتا في فترة من الرسل؛ لأن الجاهلية التي سبقت بعثة النبي ﷺ لم تبلغها دعوة، فحكمهم حكم أصحاب الفترة، وأنهم يمتحنون يوم القيامة، وأن والدي النبي ﷺ سيجيبان كرامة للنبي ﷺ.

المسلك الثاني: أنهما كانا على أصل التوحيد، فلم يقعا في الشرك وعبادة الأوثان، فهم كباقي الموحدين الحنيفيين الذين ماتوا قبل البعثة.

المسلك الثالث: أنهما آمنا بالنبي ﷺ إذ أحياهما الله له ودعاهما وآمنا به ثم أماتهما.

وهذه المسالك غاية في الوعورة، إذا اضطر السيوطي - رحمه الله- أن يضحي بأصول علمية، وأن يتغافل عن حقائق شرعية، من أجل بلوغ هدفه؛ وهو إثبات نجاة والديه ﷺ موافقة للهوي، وإعراضًا عن الحقائق الواضحة والنصوص القاطعة.

وإليك تفنيد هذه المسالك:

نقض المسلك الأول:

أنهما ماتا في فترة من الرسل؛ لأن الجاهلية التي سبقت بعثة النبي ﷺ لم تبلغها دعوة فحكمها حكم أصحاب الفترة، وأنهم يُمتَحنون يوم القيامة، وأن والدي النبي ﷺ سيجيبان كرامة للنبي ﷺ.

والرد على هذا المسلك من وجوه:

الوجه الأول: الموافقة على أنه لا تعذيب قبل البعثة، ولا مؤاخذة قبل البلاغ.

الوجه الثاني: أن أهل الجاهلية الذين بعث فيهم النبي ﷺ وصلهم البلاغ، وقامت عليهم الحجة الرسالية.

(١) هذا الرد مأخوذ بأكمله من كتاب: (نقض مسالك السيوطي في والدي المصطفى ﷺ للدكتور أحمد بن صالح الزهراني مختصرًا.

الوجه الثالث: لو فرضنا أن أهل الجاهلية الذين من أهل الفترة، وأنهم لم يصلهم البلاغ، ولم تقم عليهم الحجة الرسالية، ووافقنا السيوطي في ذلك؛ فإن بعض أهل الجاهلية قد جاءت فيهم نصوص خاصة بأنهم في النار، ومنهم أبوي النبي ﷺ.

الوجه الرابع: لو فرضنا أن أهل الجاهلية المبعوث فيهم النبي ﷺ من أهل الفترة، وأنهم لم يصلهم البلاغ ولم تقم عليهم الحجة الرسالية وأن أبوي النبي ﷺ هذا حالهم؛ فإنهما لن ينجوا من امتحان يوم القيامة.

الوجه الخامس: شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة لا تكون إلا للموحدين.

وتفصيل هذه الوجوه مما يلي:

الوجه الأول: الموافقة على أنه لا تعذيب قبل البعثة، ولا مؤاخذة قبل البلاغ.

قد صح في أصول الشرع أن الله تعالى فضلًا منه وإحسانًا وعفوًا، لا يعذِّب أحدًا حتى يقيم عليه الحجة الرسالية، وهي البلاغ الذي أمر الله تعالى به الرسل فقال: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (النساء: ١٦٥). وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ ﴾ (نوح: ١)، وقال لنبيه ﷺ: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ ﴾(الملك: ٨- ٩)، وقال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣١)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ (الشعراء: ٢٠٨).

وأما من السنة:

فعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رضي الله عنه أَنَّ النَبِيَّ ﷺ قَالَ: " أَرْبَعَةٌ يُمْتَحَنُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَة، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي

بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّي لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّار، قَالَ: فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا". (١)

وهذا الأثر في الحقيقة وما في معناه لا يخرج عن دلالة الآيات التي مرَّ ذكرها فهي كلها تصب في مصب واحد، ونحن نتفق مع السيوطي، في أن العذاب لا يكون إلا بعد البلاغ، وأن من لم تبلغه الدعوة، فهو من أهل الفترة الذين وقع في بعضهم الخلاف كأولاد المشركين مثلًا.

قال ابن كثير:وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمَري بعد ما تقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار، وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها؟!

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء. ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يقوى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها.

وأما قوله: (إن الآخرة دار جزاء)، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ (القلم: ٤٢)، وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقًا واحدًا كلما أراد السجود خرَّ لقفاه. (١)

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٤، والبيهقي في الاعتقاد صـ ٢٠٢، وابن حبان في الإحسان (٧٣٥٧)، والطبراني في الكبير (٨٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٣٤).

وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجًا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه، ألا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مرارًا، ويقول الله تعالى: " يا ابن آدم، ما أغدرك! ثم يأذن له في دخول الجنة ". (٢)

وأما قوله: وكيف يكلفهم دخول النار، وليس ذلك في وسعهم؟

فليس هذا بمانع من صحة الحديث؛ فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا، بل هذا أطم وأعظم، وأيضًا فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار؛ فإنه يكون عليه بردًا وسلامًا(٣)، فهذا نظير ذلك. وأيضًا فإن الله تعالى قد أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضًا، حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفًا، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل(٤)، وهذا أيضًا شاق على النفوس جدًا لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم. (٥)

الوجه الثاني: أهل الجاهلية الذين بعث فيهم النبي ﷺ وصلهم البلاغ وقامت عليهم الحجة.

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ".

(٢) البخاري (٧٠٠٠)، مسلم (١٨٢).

(٣) البخاري (٣٢٦٦)، مسلم (٢٩٣٤، ٢٩٣٥).

(٤) راجع تفسير الطبري وغيره عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ . . . ﴾ (البقرة: ٥٤).

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦-٤٧.

إن القول بأن هؤلاء القوم لم تصلهم الدعوة ولم يبلغهم دين، قول مخالف للنصوص، بل الصحيح الذي لا مناص منه أن الحجة قامت عليهم، وأنهم وصلتهم دعوة الرسل فأقاموا على كفرهم وشركهم.

أما الدليل على هذا: فهو ما جاء عن النبي ﷺ في أكثر من نص من الحكم على بعض من مات قبل مبعثه بأنه في النار، ومن ذلك إخباره عن أمه وأبيه وقد سبق.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قلت: يَا رَسُولَ الله، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: " لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ". (١)

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَبِي كَانَ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيَقْرِي الضَّيْفَ وَيَفْعَلُ كَذَا، قَالَ: " إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ". (٢)

وكذا عمرو بن لُحَيٍّ وأن النبي ﷺ رآه يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ. (٣)

فهذه النصوص تدل على أن تلك الفترة الزمنية، قامت عليها الحجة الرسالية التي يستوجب مخالفُها النار، بمعني أن تلك الفترة كان فيها مَن هو متمسك بالتوحيد، وينكر ما عليه أهل الشرك.

فإن قيل: إن هذا ليس أمرًا عامًا، فنقول: هو ثابت على الأقل فيمن جاء النص بأنه في النار؛ فإن هذا فيه دلالة على أنه بلغته الدعوة، وقامت عليه الحجة ومن ضمن هؤلاء والداه ﷺ.

وليس المقصود: أنهم بلغتهم الشرائع مفصلة، بل بلغهم بقايا من دين إبراهيم، وكانوا يعلمونه ولكن يُعرِضُونَ عنه، بدليل أنه وُجِدَ في تلك الفترة موحدون، منهم: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقد جاء أنه كان يسند ظهره إلي الكعبة، ويقول: (أيها الناس هلموا إليّ؛ فإنه لم يبقَ على دين إبراهيم أحد غيري). (١)

---

(١) مسلم (٢١٤).

(٢) مسند أحمد ٤/ ١١.

(٣) البخاري (٣٣٣٣)، مسلم (٨٥٦).

ففيه دلالة على أنهم كانوا يعلمون دين إبراهيم، وعلى أنه كان يوجد فيهم من يدعوهم، ويبين لهم أنهم ليسوا على دين إبراهيم وأنهم في شرك.

وهذا يكفي لقيام الحجة بدلالة أن الناس في آخر الزمان لا يعلمون من دين محمد ﷺ إلا الكلمة، ومع ذلك تنفع مَن استجاب لها وتنجيه من النار، كما قال حُذَيفَةُ ﷺ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ، وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ الله ﷻ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ، الشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله فَنَحْنُ نَقُولُهَا، فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ فَقَالَ: يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنْ النَّارِ ثَلَاثًا". (٢)

قال ابن تيمية: حُكْم الوعيد على الكفر لا يثبت في حق الشخص المعين، حتى تقوم عليه حجة الله التي بعث بها رسله كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ١٥)، وأن الأمكنة والأزمنة التي تفتر فيها النبوة، لا يكون حكم مَن خفيت عليه آثار النبوة، حتى أنكر ما جاءت به خطأ، كما يكون حكمه في الأمكنة والأزمنة التي ظهرت فيها آثار النبوة. (٣)

وقد استدل السيوطي في مكان آخر وغيره، على أن أهل الجاهلية لم تبلغهم الدعوة بنصوص من القرآن والسنة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص: ٤٦)،

---

(١) البخاري (٣٦١٦) بلفظ: (يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ وَالله مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي).

(٢) ابن ماجه في سننه (٤٠٤٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٧).

(٣) بغية المرتاد صـ ٣١١.

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (السجدة: ٣)، وقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (يس: ٦).

وهذه النصوص لا حجة فيها للسيوطي ولا من معه في عدِّهم أهل الجاهلية من أصحاب الفترة الذين يُمتَحَنُونَ يوم القيامة، وذلك لِلَحظٍ غفل عنه السيوطي ومن معه؛ ألا وهو: أن نفي الإنذار لا يلزم منه عدم قيام الحجة، بل الحجة تقوم بأدنى علم نبوي يصل للسامع، خصوصًا دعوة التوحيد، ونفي الشرك التي بها بعض أهل الجاهلية، وينجو بها آخر الزمان، من لا يعلمون من الدين إلا بالكلمة كما في حديث حذيفة المتقدم.

ونحن نعلم أن العرب وخصوصًا أهل الجاهلية الذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺ لم يأتهم نذير ولم يُرسِل الله إليهم رسولًا، لكن قيام الحجة عليهم واقع.

ومما يؤكد أنه من المعلوم أن فائدة المنذرين من الرسل وغيرهم ليست البلاغ وفقط، بل بنو إسرائيل كان يُرسَلُ إليهم رسل وأنبياء لإنذارهم عذاب الله، مع أن الحجة قائمة عليهم، ولهذا نجد أن التعبير القرآني أحيانًا يشير إلي هذا المعنى، حين يعلل الرسالة بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، أي: لما نسوه ببعدهم عن دين الله، ولم يقل مثلًا- في غير القرآن-: لعلهم يعلمون.

والتعبير بالغفلة لا يلزم منه أنهم غافلون عن الحق فيُعذرون، بل وصف الله تعالى مَن أعرض عن الآيات بالغفلة، فالغفلة مثل الجهالة، قد تكون بمعنى عدم العلم والبلاغ، وقد تكون بمعنى الغفلة عن حقيقة الشيء، والجهل بعاقبة العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (النحل: ١٠٨).

ثم ماذا عن وجود مثل ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل بين ظهرانيهم ووفود أهل الكتاب التي كانت تأتي مكة؟ ألا يجوز أن تنتقل الدعوة وتبلغهما- أي: أبوي

النبيﷺ- والحال أن مكة ليست بلدًا شاسعًا، بل هي صغيرة ينتقل فيها الخبر بنداءٍ على صخرة من صخور الحرم.

الوجه الثالث: لو فرضنا أن أهل الجاهلية الذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺمن أهل الفترة، وأنهم لم يصلهم، ولم تقم عليهم الحجة الرسالية، ووافقنا السيوطي في ذلك؛ فإن بعض أهل الجاهلية قد جاءت فيهم نصوص خاصة بأنهم في النار ومنهم أبوي النبي ﷺ.

قال السيوطي: فإن قلت: هذا المسلك الذي قررته هل هو عام في أهل الجاهلية كلهم؟ قلت: لا بل هو خاص بمن لم تبلغه دعوة نبي أصلًا، كما من بلغته منهم دعوة أحد من الأنبياء السابقين، ثم أصرَّ على كفره فهو في النار قطعًا وهذا لا نزاع فيه. [1]

قال الدكتور أحمد بن صالح الزهراني: ثم إذا كان ما قرره من الوجوه سائغًا في أبوي النبي ﷺ، وهو قد أقر أن هذا المسلك ليس في أهل الجاهلية كلهم، فقد اعترف بأن أهل الجاهلية ليسوا من أهل الفترة في العموم؛ إذ لو كانوا كذلك لجزم بأنهم معذورون كلهم، بل في جوابه هذا إقرار بأن الفترة الزمنية التي سبقت مبعثه ﷺ كانت تصلها دعوات بعض الأنبياء، وعليه فيصبح الكلام في حال أحدٍ بعينه أنه وصلته الدعوة أم لم تصله يحتاج إلي دليل خاص.

وإذا جاء الدليل الخاص بأن فلانًا في النار؛ فهذا يدل دلالة ضمنية على أن هذا الشخص بالذات بلغته الدعوة وأصر على الكفر.

وإذا تم الاتفاق على الإيمان والتسليم بما جاء في بعض الأفراد بأعيانهم، سواء كانوا في الجنة أم في النار؛ فإن البحث في حال الآخرين يصبح غير ذي جدوى، ولا يهمنا في الحقيقة أن نعلم عنهم بلغتهم الدعوة أم لا.

الوجه الرابع: لو فرضنا أن أهل الجاهلية المبعوث فيهم النبي ﷺ من أهل الفترة وأنهم لم يصلهم البلاغ ولم تقم عليهم الحجة الرسالية، وأنهم سَيُمتحَنون في عرصات يوم القيامة؛ فإنهما لن ينجوا من الامتحان.

---

(١) الحاوي للفتاوي ٢/ ٥٠.

غاية ما في المسلك الأول للسيوطي أن أبوي النبي ﷺ من أهل الفترة، والراجح فيهم حسب ما قرره أنهم يُمتَحنون ولا ندري ما يكون حالهم، فمنهم من يطيع فينجو، ومنهم من يعصي فيهلك، والجزم بأحد المصيرين لأبويه ﷺ رجمٌ بالغيب لو لم يرد فيهما شيء، فكيف وقد جاء النص بأن أباه في النار ونُهِيَ عن الاستغفار لأمه؟! ، فلو صح أنهما من أهل الفترة لكان النص مفيدًا أنهما سيعصيان حتمًا، فيكون القول بنجاتهما باطلًا بأي حال.

قال ابن حجر في الإصابة: ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وآل بيته في جملة من يدخلها طائعًا فينجو، لكن ورد في أبي طالب ما يدفع ذلك؛ وهو ما تقدم من آية براءة، وما ورد في الصحيح عن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك أبي طالب؛ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال: " هو في ضحضاحٍ من النار ".[1]

والرد على ذلك أن ما ذكره - رحمه الله- رجاءٌ، ولعله غفل عما أورده هو من النصوص في نفس الموضوع، التي تدل على أن أبا طالب مات على ملة عبد المطلب.

ثم غايته رجاء ولا يصح دليلًا يستدل به لو لم يأتِ في المسألة نصوص أخرى، فكيف وقد صحت النصوص بخلافه؟!

الوجه الخامس: شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة إنما تكون للموحدين، بل لمن أذن الله له ﷺ أن يشفع فيهم من الموحدين.

إن الله ﷻ عندما يُشَفِّعُ النبي ﷺ يوم القيامة، إنما يشفعه في أهل التوحيد فقط، بل ليس كلهم؛ لأن الشفاعة إنما تكون بإذن الله، ثم إنه ﷺ لا يسأل الله ما ليس له، كما قال الله – تعالى- في شأن نوح عليه السلام عندما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ قال له ﷻ: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (هود: ٦٤)، والنبي ﷺ يعلم أن الله لا يغفر الشرك، ولا يأذن في الشفاعة لأهله، وقد جاء ذلك صريحًا في حديث أنسِ بنِ مَالِك ﷺ قَالَ: "يَجْمَعُ الله الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٢٤١.

مَكَانِنَا هَذَا" حتى قال: " فَيَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: لِي ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَرْجِعُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا رَبِّي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَرْجِعُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعْ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَرْجِعُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ ". [(١)]

ثم كيف يدخل والداه في الشفاعة، والحال أنهما عند السيوطي في هذا المسلك من أهل الفترة؟ فإذا كان سيشفع فيهما على كل حال فما فائدة الامتحان؟ أليس هذا تلاعبًا بالكتاب والسنة، وروغانًا عن دلالتهما القطعية لمجرد التعصب؟!

فإن قيل: إن هذا - أي الشفاعة - لمن مات مشركًا، خاص بقرابته وآل بيته، قلنا: إن الله ﷻ قال في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨). وقد جاء ذلك في غير موضع من سنة النبي ﷺ أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة. فَعَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ "، وَقُلْتُ أَنَا: مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ"[(٢)].

كما أن الشرائع السماوية جميعًا جاءت بتقرير هذا الأصل العظيم، وهو أن القرابة والنسب لا تنفع المشرك، وضرب الله لنا أمثلة من الأنبياء أنفسهم، فمنهم مَن كفر أبوه ومنهم مَن كفر ولده، ومنهم من كفرت زوجه وهكذا دواليك، ثم يأتي أصحاب الأهواء بالمنكرات والشواذ

---

(١) البخاري (٧٤١٠، ٧٥١٠)، مسلم (١٩٣).

(٢) الحاوي للفتاوي ٢/ ٢٥٥، البخاري (١٢٣٨)، مسلم (٩٢).

من الروايات والمذاهب الشاذة والأقوال الباطلة المحرفة للنصوص الصحيحة الصريحة، لينسفوا هذا الأمر برمَّته من أجل اتباع الهوى، ووالله إن إيمان أبويه ﷺ لهوى كل مؤمن يحبه ﷺ، لكن ما حيلة المؤمن وقد حكم الله وأخبر رسوله ﷺ أنهما ماتا على الشرك، وأن أباه في النار، أيسوغ بعد هذا أن يعاند المرء ويتبع هواه؟!

نقض المسلك الثاني:

وهو أنهما كانا على أصل التوحيد، فلم يقعا في الشرك وعبادة الأوثان، فهم كباقي الموحدين الحنيفيين الذين ماتوا قبل البعثة كزيد بن عمرو، وورقة بن نوفل وغيرهما.

قلت (الزهراني): أما عن ذكرهم فقد جاءت النصوص بذلك، وأما والداه فقد ثبت أنهما في النار كما قاله النبي ﷺ، وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فكيف يسوِّي بين مَن فرَّق الله تعالى ورسوله ﷺ بينهم؟

قال السيوطي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنْ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ". [(١)]

واستدل السيوطي بهذا الحديث وأمثاله، على أن كل أصل من أصول النبي ﷺ من آدم إلي أبيه عبد الله، فهو من خير أهل قرنه وأفضلهم.

ولكن الخيرية للقرن بعامة، لا تعني الخيرية المطلقة، والكلام في هذه النصوص وما صح منها، يتكلم عن الخيرية في النسب، فالنبي ﷺ بُعِثَ من أشرف الناس نسبًا، كما جاء في الحديث الذي ساقه أيضًا السيوطي: " إِنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ "[(٢)] وهذا الحديث يغني عن كل النصوص الضعيفة والمناكير التي جاء بها السيوطي، ولكن ما معناه؟

معناه كما قال كل الأئمة ممن شرح هذا الحديث: أنه ﷺ سليل الشرف والحسب، وأنه مطهَّر من رجس الزنا في نسبه الكريم، وليس في هذا أدني دلالة على أن المراد بالاصطفاء

(١) البخاري (٣٥٥٧).

(٢) مسلم (٢٢٧٦).

الخيرية المطلقة، ولا أنهم كانوا على التوحيد، بدليل أن في الحديث: (إن الله اصطفي قريشًا من كنانة أو من بني كنانة، ومن قريش بني هاشم، فهل كان هؤلاء كلهم على التوحيد؟ الجواب: لا بالإجماع.

وعليه، فغاية ما في الحديث أنه ﷺ أشرف الناس حسبًا ونسبًا، وأن نسبه طاهر مطهر من السفاح.

ثم يقال: لو دلَّ ذلك على مراد السيوطي بالمفهوم؛ فإن المتقرر عند الأصوليين؛ أن المنطوق مقدَّمٌ على المفهوم، وحديث أَنَسٍ ﷺ الذي في مُسْلِمٍ وغيره صريح صحيح في أن أباه ﷺ في النار.

ولو صحَّ منهج السيوطي وسلم للنصوص الصحيحة الصريحة، لما احتاج إلي تسويد العشرات من الصحائف، وليِّ أعناق النصوص، والبحث في بطون الكتب عن المنكر والشاذ والموضوع، لدعم رأيه المخالف للسلف؛ لأن الحديث نصٌّ في المسألة.

نقض المسلك الثالث: أن الله ﷻ أحيا له أبويه حتى آمنا به.

وقد تقدم رد ابن تيمية بطوله على هذه الشبهة التي أبطلها وأثبت ضلالها وزيفها.

وبهذا يتبين لك أن كل نصوص إحياء الوالدين مكذوبة موضوعة من أخبار الأفاكين والوضاعين.

قال السيوطي: وقال السهيلي بعد إيراده أحاديث الإحياء: الله قادر على كل شيء، وليس تعجز رحمته وقدرته عن شيء، ونبيه ﷺ أهل أن يختص بما شاء من فضله سبحانه، وينعم عليه بما شاء من كرامته. (١)

نعم الله تعالى قادر على كل شيء، وليس إنكار أئمة السنة ما جاء به السيوطي مبنيًا على استبعاده واستحالته، بل هو مبني على عدم الثبوت؛ لأن النصوص التي جاء فيها ذلك موضوعة مختلقة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن ذلك يعارض الثابت من النصوص الصحيحة الصريحة التي اتفق أئمة السلف على ثبوتها، وعلى الإيمان بما فيها تصديقًا وقبولًا، وإلا فلكل أحد أن يقول ما شاء، فللرافضة أن تقول: أحيا الله أبا طالب فآمن به، وليس ذلك بعيدًا عن قدرة الله تعالى، ويقول غيرهم: قد أحيا الله أبا لهب فآمن بهﷺ،

(١) الحاوي للفتاوي ٢/ ٢٧٨.

وليس ذلك بعيدًا عن قدرة الله تعالى، وهلم جرا، ولا يخفى على كل أحد أن دين الله تعالى مبني على الاتباع لا على الابتداع والاختراع.

وهو ﷺ لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلًا عن أن يملك لغيره، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ (الأعراف: ١٨٨).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه المشهور لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ جمع رسول الله ﷺ قريشًا فَعَمَّ وَخَصّ إلي أن قال: " يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ الله شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُم رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا"[1].

وأمرُ الإيمان منحة من الله، والهداية ملك لله تعالى، لا يملك النبي ﷺ أن يهبها لأحد أو يمنعها عن أحد، ولو كان ﷺ يملك شيئًا من ذلك لجعل عمه أبا طالب يؤمن، وقد قال الله تعالى له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (القصص: ٥٦).

الله أكبر، أين السيوطي ومن معه من هذه الآية؟ فمهما أحبَّ النبي ﷺ أن يؤمن والداه فهل ذلك ممكن بمجرد إرادته له؟ الجواب في الآية.

وهل أمر الإيمان والهداية ودخول الجنان بالقرابة؟ اللهم لا، ولو كان ذلك لآمن قرابته كلهم، بل لقد أُنزِل في بعض قرابته سورة خاصة هي سورة المسد في أبي لهب وهو عمه. ولهذا فلا محاباة ولا نسب في دين الله ﷻ بل هو الحق والإيمان والتقوى.

وذهب بعضهم إلى قول آخر وهو الوقف.

قال الشيخ تاج الدين الفكهاني في كتابه الفجر المنير: الله أعلم بحال أبويه ﷺ.

نقول: هل يجوز التوقف أو الوقف في شيء أخبر به النبي ﷺ وصح عنه؟ وما معنى الإيمان به إذن؟

هل يجوز الوقف في وجود الجنة والنار، وفي العرش، والصراط، والمهدي، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وعذاب القبر، وغير ذلك مما أخبر به النبي ﷺ؟.

---

(١) مسلم (٢٠٤).

فإن قيل: تلك جاء فيها نصوص صحيحة صريحة، قلنا: وكذلك والداه؟

فإن قيل: إنما نتوقف لما جاء مما يعارضها، قلنا: لو جاز لمؤمن أن يتوقف فيما صح لمجرد أخبار مكذوبة وموضوعة تعارضها؛ لجاز التوقف عن كثير من شرائع الإسلام، وكان كلما أراد مبطلٌ أن يبطل سنة أو آية أو حكمًا، كَذَبَ واخترع نصًا ونسبه للنبي ﷺ فيحصل على غاية ما يريد، وهل يطلب أعداء الله منا أكثر من أن نتوقف في قبول ما جاء به نبيناﷺ.

انظر ما في هذا المسلك من المزلق العظيم والخطر الجسيم؛ أن يصوِّر الشكُّ والتردد في الإيمان بما جاء به ﷺ، على أنه توقف في مسألة شرعية ورعًا عن القول بلا علم، فهذا والله منتهى التلبيس، بل الوقف في مثل هذه المسألة لا يجوز أبدًا؛ لأنه قد صحت النصوص الصريحة، وما يقابلها، لا يرتقي للضعف فضلًا عن أن يكون ندًا لما صح، والله المستعان.

فائدة هامة:

(وهي أن الغفلة والجهل ليست عذرًا بكل حال)، أعني أن أفضل توصيف لحال والدي النبي ﷺ وجمهور أهل الجاهلية أنهم من المقلدين السائرين مع رؤسائهم وآبائهم دون تفكير في صواب ما هم عليه من عدمه، وقد ذكر الإمام ابن القيم هذا الصنف في كتابه الماتع (طريق الهجرتين) ننقله بشيء من الاختصار؛ قال رحمه الله: الطبقة السابعة عشر:

طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعًا لهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على أسوة بهم، ومع هذا فهم تاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم؛ كنساء المحاربين، وخدمهم، وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطائفة - الطبقة- كفار وإن كانوا جهالًا مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع، أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار، وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقلْ به أحد من أئمة المسلمين، لا الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم، وإنما يُعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام. [1]

---

(١) طريق الهجرتين١/ ٦٠٧.

وصحَّ عنه أنه ﷺ قال: " إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ "[١]، وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلف، والعاقل المكلف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر، والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا، فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا، فهو كافر جاهل، فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفارًا؛ فإن الكافر من جحد توحيد الله، وكذَّب رسوله، إما عنادًا أو جهلًا، وتقليدًا لأهل العناد، فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند، فهو متبع لأهل العناد، وقد أخبر الله تعالى في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم فهم من الكفار، وإن الأتباع مع متبوعيهم، وأنهم يتحاجون في النار وأن الأتباع يقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الأعراف ٣٨).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ (غافر: ٤٧، ٤٨)، فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغنِ عنهم تقليدهم شيئًا.

وفرق بين مقلد تمكن من العلم، ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه والقسمان واقعان في الوجود.

فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب، لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضًا:

أحدهما: مريد للهدى مؤْثِر له، محب له، غير قادر عليه، ولا على طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: معرض لا رغبة له في الحق، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه.

---

(١) البخاري (٦١٦٣)، مسلم (١١١).

فالأول يقول: يا رب، لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكني لا أعرف سوى ما أنا عليه، ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راضٍ بما هو عليه لا يؤْثِر غيره، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما - الأول والثاني- عاجز، ولكن الثاني لا يلحق بالأول لما بينهما من الفرق.

فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلًا، والثاني كمن لم يطلبه بل مات على شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض؛ فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق.

هذا في أحكام الثواب والعقاب، والتعيين موكول إلي علم الله وحكمه، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية علي ظاهر الأمر، فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم، وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة، وهو مبني على **أربعة أصول**:

الأصل الأول: أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء: ١٥)، وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب مَنْ جاءه الرسول، وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (الزخرف: ٧٦)، والظالم من عرف ما جاء به الرسول ﷺ أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ وعجز عن ذلك، فكيف يقال إنه ظالم؟!

الأصل الثاني: أن العذاب يُستَحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة، وعدم إرادتها، والعمل بها، وبموجبها.

والثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها.

فالأول كفر وإعراض، والثاني كفر وعناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها؛ فهذا الذي نفي الله عنه التعذيب حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتميزه كالصغير، والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له، فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئًا، ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة كما تقدم في حديث الامتحان.

الأصل الرابع: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التي لا يُخلُّ بها؛ مقصودة لغايتها المحمودة وعواقبها الحميدة، وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد، يسأل عنه كما يُسأل المخلوق، وهو الفعَّال لما يريد، ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يعقل الشر ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

أجل وأعظم مراتب التوقير والتعظيم هو قبول ما جاء به النبي ﷺ.

وتقرير هذه المسألة- كون أبويه ﷺ في النار- هدفه تقرير الأصل العظيم الذي تقوم عليه؛ وهو التسليم لما جاء به النبي ﷺ، ولو ساءنا، ولم تقبله عقولنا، أو عواطفنا، ولو فتح كل شخص باب التشكيك في النصوص الشرعية لتسويغ الرد على ما جاء عنه حق والديه؛ فإنه سيهدم الأصل الشرعي الذي يبني عليه أصل الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ والذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن

﴿يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١).

وهذه المسألة لا تكتسب أهميتها إلا من خلال الأصل الذي تقوم عليه؛ فإن القائل بأن أبويه ﷺ ماتا على الإيمان مع علمه بالنصوص الصحيحة، التي تدل على خلاف ذلك، ومع خلوِّ يديه من سلف صالح له في هذا القول، لا شك أن لديه خللًا واضطرابًا في أصل التلقي والاتباع الذي أُمرنا به.

ومن هنا كان تقرير هذه المسألة على منهج السلف إنما هو عنوان لتقرير المنهج النبوي، الذي هو منهج صحابة رسول الله ﷺ، كما جاء ذلك في الحديث الحسن عنه ﷺ قال: " افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وافْتَرَقَت النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَة، قِيلَ: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي". [1]

أقول: هذا وأعيده حتى لا يزايد علينا أحد بحب النبي ﷺ وتوقيره وتعظيمه، فتوقيره وتعظيمه هو اتباعه وتصديقه، لا الاعتراض عليه والتملص من النصوص الواردة عنه ولو في بعض الأمور العلمية، وما ينفع العبدَ أن يقوم الليل، ويصوم النهار، وهو مع هذا يرد عليه ﷺ برأيه وعاطفته؟! [2]

ومن هنا: فإن أهل الحديث من أئمة السلف الصالح، والخلف حتى من كان منهم محسوبًا على الأشعري، كالنووي والقرطبي أجروا الحديث على ظاهره، وقالوا بقوله ﷺ وآمنوا، وصدقوا أن والديه في النار كما أخبر دون تنصل من مسئولية العلم والبلاغ.

قال المعلمي اليماني: كثيرًا ما تجمع المحبة ببعض الناس فيتخطى الحجة ويحاربها، ومن وُفِّقَ عَلِمَ أن ذلك مُنَافٍ للمحبة المشروعة. [3]

---

(١) أبو داوود (٤٥٩٨)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩٢)، وصححه الألباني.

(٢) كتاب نقض مسالك السيوطي للزهراني ص٣٠: ٢٧.

(٣) حاشية الفوائد المجموعة للشوكاني ص٢٨٥.

وهذا ما حدث بالضبط، فقد جمحت المحبة بالسيوطي وغيره إلى تخطي الحجج الشرعية، والتنصل من مسئولية النص، فألف الرسائل تترًا تحريفًا وتنكرًا لدلالة النصوص الشرعية الصحيحة، التي تدل على أن والديه ﷺ ماتا على الكفر، وأنهما من أهل النار، ومن أشهرها كتابه الذي أشرنا إليه: (مسالك الحنفا في والدي المصطفى). [١]

الوجه الرابع: هل مجرد ذكر مصير أبوي النبي ﷺ وأنهما في النار يؤذي رسول الله ﷺ؟

قال السيوطي: ثم رأيت الإمام أبا عبد الله الأبِّي محمد بن خلف بسط الكلام على هذا المسألة في شرح مسلم عند حديث: " إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ " فأورد قول النووي: (وفيه أن من مات كافرًا في النار، ولا تنفعه قرابة المقربين) ثم قال: قلت: انظر هذا الإطلاق. وقد قال السهيلي: ليس لنا أن نقول ذلك فقد قال ﷺ: " لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات "[٢]، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (الأحزاب: ٥٧)، ولعله يصح ما جاء أنه ﷺ سأل ربه ﷻ فأحيا له أبويه فآمنا به ورسول الله ﷺ فوق هذا، ولا يُعجز الله سبحانه شيء.

ثم أورد قول النووي: وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان في النار، وليس هذا من التعذيب قبل بلوغ الدعوة؛ لأنه بلغتهم دعوة إبراهيم عليه السلام وغيره من الرسل. ثم قال: قلت: تأمل ما في كلامه من التنافي؛ فإن مَن بلغتهم الدعوة ليسوا بأهل فترة؛ فإن أهل الفترة هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول؛ ولا أدركوا الثاني؛ كالأعراب الذين لم يُرسل إليهم عيسى عليه السلام ولا لحقوا النبي ﷺ، والفترة بهذا التفسير تشتمل ما بين كل رسولين، ولكن الفقهاء إذا تكلموا في الفترة؛ فإنما يعنون التي بين عيسى عليه السلام والنبي ﷺ، ولما دلت القواطع على أنه لا تعذيب حتى تقوم الحجة علمنا أنهم غير معذبين. [٣]

---

(١) نقض مسالك السيوطي للزهراني ص ٣٤، ٣٥.

(٢) المستدرك ٣/ ٢٤١ من طريق الواقدي، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٢٣٤).

(٣) الحاوي للفتاوي ٢/ ١٩٨.

قلت -الزهراني-: هذه الشبهة التي يدندن حولها السيوطي ومَن معه وهي أن في ذكر كفر والد النبي ﷺ أذي للنبي ﷺ، وهي في الحقيقة تهويش، لا يغني صاحبه عن الدليل والحجة والبرهان.

فالأذى للنبي ﷺ كل الأذى أن يُرَدَّ ما جاء به، ويُدفع ما أخبر عنه بشبهة واهية، مثل هذه، فنقول: إن الأذى يكون إذا ابتدأ الرجل بسبِّ أبيه وأمه، أو تنقصهما بلا سبب.

أما حكاية ما أخبر به هو ﷺ في مقام الذب عن سنته، وحماية جناب شرعته من دخن البدعة؛ فهذا ليس بأذى، بل نصر له ولدينه، ولو كان ﷺ يتأذى منه ما أخبر به على مسمع من الناس، ولو كان فيه أذى له ما أخبر به الصحابة ﷺ وهم أحرص الناس على صيانة جانب النبي ﷺ، ولو كان فيه أذى له ﷺ، ما تتابع الرواة من أهل الحديث منذ عصره ﷺ، إلي يومنا هذا على تناقل هذا الروايات الصحيحة دون نكير منهم، حتى جاء السيوطي ومن معه ليقولوا لنا، إن حكاية هذا الأمر أذى للنبي ﷺ، فانظر ما في هذا القول من الشفاعة، بتخطئة أجيال من السلف تناقلوا هذه الرواية في كتاب يُعَدُّ ثاني أصح كتاب بعد كتاب الله ﷻ.

نعم، لا ينبغي أن يُردد المؤمن كفر والديه ﷺ دون حاجة، من علم يُنقل، أو حديث يشرح، أو شبهة ترد، كما أنه هو ﷺ قاله تطبيبًا لقلب الرجل، ومواساةً له، وما نحن فيه فمن هذا القبيل. ورواية الخبر علم ينقل ليكون حجةً قاطعة على رأس المبتدعة، أن شفاعة النبي ﷺ لا تنفع من مات على شرك وكفر، وأنه ﷺ لم ينتفع بمجرد قرابته، أقرب الناس إليه فكيف بالأبعدين؟!

وأما رمي الأُبِّي للنووي بالتناقض في الكلام، فمرده إلي قصر فهم الأُبِّي عن عبارة النووي؛ فإن وصف الزمن السابق للنبي ﷺ بالفترة يُراد به: الفترة من الرسل، وهذا من التعبير عمن لم تبلغهم الدعوة؛ بأنهم من أهل الفترة، وهذا تعبير القرآن الكريم فقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (المائدة: ١٩١)، وأهل الكتاب قبل مبعثه ﷺ قامت عليهم الحجة الرسالية بلا شك.

إذن فتعبير النووي ليس فيه تناقض فوصفه لتلك الحقبة بأنها فترة صحيح، مع كونهم بلغتهم الدعوة وقامت عليهم الحجة، والله أعلم.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا على وجوب التصديق بكل ما قاله ﷺ، سواء احتملته عقولنا أم لا، وسواء وافق أهواءنا وأمنياتنا أم لا، فكما نصدق أن آسيا زوجة فرعون في الجنة، وأن ابن نوح الذي عصاه في النار نصدق كذلك بأن أبويه ﷺ ماتا على الكفر وأنهما في النار.

أما أن بعض العلماء قالوا: لا يجوز لأحد أن يقول ذلك فالأمر فيه تفصيل:

فأما أن يقوله الشخص بلا سبب، وأن يكرره فرحًا به، أو يعرض به تنقصًا، أو ينال منهما، فلا شك أن ذلك هو النفاق محضًا؛ لأن ذلك يؤذي النبي ﷺ، وأذيته من أكبر الكبائر، وقد نهى ﷺ أن يؤذي الأحياء بسبِّ الأموات، ولو كانوا أهلًا لذلك، فكيف به في عرضه ونفسه وأهله وماله ﷺ.

أما إذا قال الرجل ذلك لسبب، كأن يرد الحديث فيبينه، أو يسأل عنه فيجيب، وكذلك إذا رفع المبتدعة عقيرتهم مكذبين بذلك، أو طاعنين فيمن يقول به، كما فعل السيوطي، فحينئذ يجوز، بل ربما يجب التصريح بذلك؛ لأن النبي ﷺ هو الذي ذكر ذلك جوابًا على السؤال.

ثم إن النبي ﷺ وهو الذي تكلم بهذه النصوص وسمعها منه أصحابه وأدَّوها، لم يقل في نص منها إنه لا يجوز لأحد أن يقول بها قلته، بل إن الصحابة أدَّوها ونقلوها، ولو كان لا يجوز لأحد أن يقول ذلك لما نقلوها، أو لَنُقِلَ عنهم شيء من ذلك، والواقع أنه لم يُنقل عن أحد منهم المنع من القول بما قاله ﷺ وهل يجرؤ مؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ، موقِّر لسنته ﷺ متبع لما جاء به أن يقول غير ذلك؟!

قال السيوطي: وقال الباجي في شرح الموطأ: قال بعض العلماء: إنه لا يجوز أن يؤذي النبي ﷺ بفعل مباح وغيره. . . .[1].

(١) الحاوي للفتاوي ٢/ ٢٧٩، انتهي الرد من كتاب نقض مسالك السيوطي للزهراني.

نقول: لا علاقة لهذا الكلام بمسألتنا؛ فإننا نتفق على أنه لا يجوز أن يؤذي النبي ﷺ بأي فعل مباح أو غير مباح، لكن هل يدخل في الأذى له ﷺ أن نقول بما قاله؟ ونؤمن بما جاء عنه، ونصدقه، ونمرَّ النصوص كما جاءت بالقبول والتصديق، دون تحريف لها عن مواضعها؟ اللهم لا.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيعني: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها- ذنبها - الذي اقترفته، لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها.

فإن قلت: كيف الجمع بين هذه الآية وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ قلت: هذه الآية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ في الضالين، والأخرى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ في الضالين المضلين أنهم يحملون أثقال من أضلوه من الناس مع أثقال أنفسهم وذلك كله من كسبهم.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ معناه: وإن تدع نفس مثقلة بذنوبها، إلي أن يحمل غيرها شيئًا من ذنوبها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يعني: ولو كان المدعو ذا قربة كالأب والأم والابن والأخ.

قال ابن عباس: يعلق الأب والأم بالابن فيقول: يا بني، احمل عني بعض ذنوبي، فيقول: لا أستطيع، حسبي ما عليّ. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يعني: يخافون ربهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يعني: لم يروه، والمعنى: وإنما ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم ويخافوه بالغيب. وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ يعني: أصلح وعمل خيرًا، ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: لنفسه ثواب ذلك ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كون الرجل أبويه أو ابنه كافرًا لا ينقصه ذلك عند الله شيئًا، فإن الله يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي.

ومن المعلوم أن الصحابة ﷺ أفضل من آبائهم، وكان آباؤهم كفارًا، بخلاف من كونه زوج بغيٍّ؛ فإن هذا من أعظم ما يُذم به ويعاب؛ لأن مضرة ذلك تدخل عليه، بخلاف كفر أبيه أو ابنه.

وأيضًا فلو كان المؤمن لا يلد إلا مؤمنًا، لكان بنو آدم كلهم مؤمنين.

إلي أن قال رحمه الله: وأيضًا فإن الله لم يُثْنِ على أحد بمجرد نسبه، بل إنما يثني عليه بإيمانه وتقواه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

وإن كان: "النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا" كما ثبت في الحديث الصحيح[(١)].

فالمعدن هو مظنة حصول المطلوب؛ فإن لم يحصل، وإلا كان المعدن الناقص الذي يحصل منه المطلوب خيرًا منه[(٢)].

وقال أيضًا: فإن كان الرجل لا يضره كفر أبيه أو فسقه، لم يضر نبينا، ولا إبراهيم كفر آبائهم.[(٣)]

وهذه القاعة العظيمة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هي المعمول بها عند جميع العقلاء على وجه الأرض، أن كل نفس أو كل إنسان بعمله هو، وأنه ليس من العدل أن يؤاخذ أحد بعمل غيره، قال الله تعالى في معرض ذكر قصة يوسف ﷺ مع إخوته: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (يوسف: ٧٩).

* * *

---

(١) البخاري (٣٢٠٣)، مسلم (٢٥٢٦).

(٢) منهاج السنة ٤/ ٣٥٣: ٣٥٠.

(٣) منهاج السنة ٤/ ٣٧٦.

٤ـ شبهة: ادعاؤهم أن النبي محمدا ﷺ كان على دين قومه.

نص الشبهة:

يقولون أن النبي ﷺ كان على دين قومه.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: حفظه وعصمته ﷺ قبل البعثة.

الوجه الثاني: شبهاتهم التي اعتمدوا عليها.

الوجه الثالث: سياق الأحاديث التي توهموا أن فيها دلالة على كونه ﷺ كان على دين قومه.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: حفظه وعصمته ﷺ قبل البعثة(١).

نص العلماء على حفظ الله لنبيه ﷺ وعصمته له قبل البعثة، وبوبوا عليه في تصنيفاتهم.

قال البيهقي: باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسوله ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها، لما يريد به من كرامته برسالته حتى بعثه رسولًا.

وقال ابن إسحاق: فشب رسول الله ﷺ، يكلؤه الله ﷻ ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعائبها، لما يريد به من كرامته ورسالته، وهو على دين قومه، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقًا، وأكرمهم مخالطَة، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم خَلْقًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم من الفحش، والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزهًا وتكرمًا، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله تعالى فيه من الأمور الصالحة. (٢)

قال ابن حزم: فإن قال قائل: أيجوز أن يكون نبي من الأنبياء عليهم السلام يأتي معصية قبل أن يتنبأ؟

قلنا: لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما، إما أن يكون متعبدًا بشريعة نبي أتى قبله، كما كان عيسى عليه السلام، وإما أن يكون قد نشأ في قوم درست شريعتهم ودثرت، ونسيت كما في بعثة ﷺ في قوم

---

(١) انظر بحث (عصمة الأنبياء) من هذه الموسوعة.

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق ١/ ٥٧.

قد نسوا شريعة إسماعيل، وإبراهيم عليهما السلام قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى: ٧)، وقال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ (يس: ٦) فإن كان النبي متعبدًا بشريعة ما، فقد أبطلنا آنفًا أن يكون نبي يعصى ربه أصلًا، وإن كان نشأ في قوم دثرت شريعتهم فهو غير متعبد، ولا مأمور بما لم يأته أمر الله تعالى به، فليس عاصيًا لله تعالى في شيء يفعله أو يتركه، إلا أننا ندري أن الله ﷻقد طهر أنبياءه، وصانهم من كل ما يعابون به؛ لأن العيب أذى، وقد حرم الله ﷻأن يؤذى رسوله قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (الأحزاب: ٥٧).

قال أبو محمد: فبيقين ندري أن الله تعالى صان أنبياءه عن أن يكونوا لبغيةٍ، أو من أولاد بغي، أو من بغايا، بل بعثهم الله تعالى في حسب قومهم؛ فإذ لا شك في هذا، فبيقين ندري أن الله تعالى عصمهم قبل النبوة من كل ما يؤذون به بعد النبوة، فدخل في ذلك السرقة، والعدوان، والقسوة، والزنا، واللياطة، والبغي، وأذى الناس في حريمهم، وأموالهم، وأنفسهم، وكل ما يعاب به المرء ويتشكى، منه ويؤذى بذكره.

ثم قال: فصح أنه ﷺ لم يعص قط بكبيرة، ولا بصغيرة، لا قبل النبوة ولا بعدها، ولا هم قط بمعصية صغرت أو كبرت، لا قبل النبوة ولا بعدها، إلا مرتين بالسمر، حيث ربما كان بعض ما لم يكن نهى عنه بعد، والهم حينئذ بالسمر، ليس همًا بزنا، ولكنه بها يحذوا إليه طبع البرية من استحسان منظر حسن فقط. وبالله تعالى التوفيق. [1]

وما دام الحال كذلك فما هو توجيه النصوص التي اعتمد عليها من يقول إن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل بعثته:

والجواب أنهم اعتمدوا على نصوص قرآنية لم يفهموها الفهم الصحيح، وعلى نصوص من السنة، منها ما صح، ولم يفهم فهمًا صحيحًا، ومنها ما لم يصح، ونحن نذكر هذه النصوص، ونوجه ما صح منها، ونبين ضعف ما لا حجة فيه.

الوجه الثاني: شبهاتهم التي اعتمدوا عليها.

أولًا: شبهاتهم من القرآن.

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٢٥.

١- قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان. وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفًا بالإيمان.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: عصمة الأنبياء قبل البعثة من الشرك والجهل بالله تعالى كما تقرر.

قال القاضي عياض: وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة، فالصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله، وصفاته والتشكك في شئ من ذلك.

وقد تعاضدت الأخبار، والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلِدُوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم، حقق ذلك، كما عرف من حال موسى، وعيسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم عليهم السلام.

ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدًا، نُبئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك، قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل، وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله.

وأنا أقول- عياض-: إن قريشًا قد رمت نبينا ﷺ بكل ما افترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شئ من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبِتَلَونِهِ في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم، وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم على الإعراض، عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه، إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ (البقرة: ١٤٢) كما ذكره الله عنهم[١].

الوجه الثاني: هل كان النبي ﷺ قبل البعثة متعبدًا بشرع أم لا؟

---

(١) الشفا ٢/ ٩٧.

والذي يقطع به أنه ﷺ لم يكن منسوبًا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدًا من أمته، ومخاطبًا بكل شريعته، بل شريعته مستقلة بنفسها، مفتتحة من عند الله الحاكم ﷻ وأنه ﷺ كان مؤمنا بالله ﷻ، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر، ولا حضر حلف المطر، ولا حلف المطيبين، بل نزهه الله وصانه عن ذلك.

فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثًا بسنده عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه، وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًا وقال: هذا موضوع أو شبيه بالموضوع.

وقال الدارقطني: إن عثمان وهم في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده، فلا يلتفت إليه.[1]

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (البقرة: ١٣٥)، وقال: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (النحل: ١٢) وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ (الشورى: ١٣)، وهذا يقتضي أن يكون متعبدًا بشرع.

فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدين.

الوجه الثالث: في معنى هذه الآية

إذا تقرر هذا فما هو معنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾؟

١- قال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه.

٢- وقيل: تفاصيل هذا الشرع، أي كنت غافلًا عن هذه التفاصيل.

ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع.

٣- وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، ونحوه عن أبي العالية.

---

(١) سيأتي تفصيل هذا الحديث، وهو منكر بهذه اللفظة.

٤- وقال أبو بكر القاضي: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام.

قال: وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل، فزاد بالتكليف إيمانًا. وهذه الأقوال الأربعة متقاربة.

٥- وقال ابن خزيمة: عنى بالإيمان الصلاة، لقوله تعالى﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾(البقرة: ١٤٣) أي صلاتكم إلى بيت المقدس، فيكون اللفظ عامًا والمراد الخصوص.

٦- وقال الحسين بن الفضل: أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان.

وهو من باب حذف المضاف، أي من الذي يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما.

٧- وقيل: ما كنت تدري شيئًا إذ كنت في المهد وقبل البلوغ.

وحكي الماوردي نحوه عن علي بن عيسى قال: ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة، ولا الإيمان لولا البلوغ.

٨- وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك، وهو محتمل.

٩- وقيل: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ أي كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم، وهو كقوله تعالى: ﴿كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت: ٤٨) روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما. [١]

وذلك أدخل في الإعجاز، وأدلّ على صحة نبوّته. [٢]

١٠- أنه نفى دراية الإيمان ولم ينف الإيمان.

قال ابن عاشور: ومعنى عدم دراية الكتاب: عدم تعلق علمه بقراءة كتاب أو فهمه، ومعنى انتفاء دراية الإيمان: عدم تعلق علمه بما تحتوي عليه حقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله وأصول الدين، وقد يطلق الإيمان على ما يرادف الإسلام كقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٤٩، وانظر الشفاء للقاضي عياض (٢/ ١٠٩).

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٧٧٦.

ﱡﭐاللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْﱠ وهو الإيمان الذي يزيد وينقص كما في قوله تعالى ﱡﭐوَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًاﱠ فيزاد في معنى عدم دراية الإيمان انتفاء تعلق علم الرسول ﷺ بشرائع الإسلام. فانتفاء درايته بالإيمان مثل انتفاء درايته بالكتاب أي انتفاء العلم بحقائقه ولذلك قال ﱡﭐمَا كُنتَ تَدْرِيﱠ ولم يقل: ما كنت مؤمنًا.

وكلا الاحتمالين لا يقتضي أن الرسول ﷺ لم يكن مؤمنًا بوجود الله ووحدانية إلهيته قبل نزول الوحي عليه؛ إذ الأنبياء والرسل معصومون من الشرك قبل النبوءة، فهم موحدون لله ﷻ، ونابذون لعبادة الأصنام ولكنهم، لا يعلمون تفاصيل الإيمان، وكان نبينا ﷺ في عهد جاهلية قومه، يعلم بطلان عبادة الأصنام، وإذ قد كان قومه يشركون مع الله غيره في الإلهية، فبطلان إلهية الأصنام عنده، تمحضه لإفراد الله بالإلهية لا محالة.(١)

الآية الثانية: قوله: ﱡﭐوَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰﱠ ففيها وصف النبي ﷺ بالضلال، وهذا دليل على أنه كان على دين قومه.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أنها كقوله: ﱡﭐوَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَٰبُ وَلَا الْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ﱠ (الشورى: ٥٢)، وقد سبق القول فيه.

الوجه الثاني: للآية تأويلات عديدة منها:

الأول: أن يكون المراد بهذا أنه ﷺ ضل في شعاب مكة وهو صغير، ثم رجع.

الثاني: وقيل: إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام، وكان راكبًا ناقة في الليل، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق.(٢)

الثالث: غافلًا عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك: أي أرشدك.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٨٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٧٤.

والضلال هنا بمعنى الغفلة، كقوله جل ثناؤه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (طه: ٥٢) أي لا يغفل. وقال في حق نبيه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (يوسف: ٣).

وقال قوم: ضالًا لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام، عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما.

الرابع: وقال قوم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي في قوم ضلال، فهداهم الله بك.

هذا قول الكلبي والفراء. وعن السدي نحوه، أي ووجد قومك في ضلال، فهداك إلى إرشادهم. أو وجدك ضالًا عن الضالين منفردًا عنهم مجانبًا لدينهم، فكلما كان بعدك عنهم أشد كان ضلالهم أشد، فهداك إلى أن اختلطت بهم ودعوتهم إلى الدين المبين.

الخامس: وقيل: ووجدك ضالًا عن الهجرة، فهداك إليها. فقد كنت متحيرًا في يد قريش متمنيًا فراقهم، وكان لا يمكنك الخروج بدون إذنه تعالى، فلما أذن له، ووافقه الصديق عليه، وهداه إلى خيمة أم معبد، وكان ما كان من حديث سراقة، وظهور القوة في الدين كان ذلك المراد بقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾.

السادس: وقيل: ﴿ضَآلًّا﴾ أي ناسيًا شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح - فأذكرك، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾(البقرة: ٢٨٢).

السابع: وقيل: ووجدك طالبًا للقبلة فهداك إليها، بيانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (البقرة: ١٤٤). ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب.

الثامن: وقيل: ووجدك متحيرًا عن بيان ما نزل عليك، فهداك إليه، فيكون الضلال بمعنى التحير؛ لأن الضال متحير.

التاسع: وقيل: ووجدك ضائعًا في قومك، فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى الضياع.

العاشر: وقيل: ووجدك محبًا للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ (يوسف: ٩٥) أي في محبتك.

قال الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفرقا والعارضين ولم أكن متحققًا

عجبا لعزة في اختيار قطيعتي بعد الضلال فحبلها قد أخلقًا.(١)

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣).

قالوا: فهذه الآية تدل على أنه كان غافلاً عن الحق قبل البعثة ولم يكن إلا كقومه!

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن هذه الآية من أوضح الأدلة على أنه ﷺ مرسل من عند الله لم يأت بكلام من عند نفسه.

قال الطبري: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: نحن نقص عليك يا محمد أحسن القصص بوحينا إليك هذا القرآن، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السالفة، والكتب التي أنزلناها في العصور الخالية، وإن كنت من قبله لمن الغافلين، أي: وإن كنت يا محمد من قبل أن نوحيه إليك لمن الغافلين عن ذلك، لا تعلمه ولا شيئًا منه. (٢)

وقال الآلوسي: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: قبل إيحائنا إليك ذلك ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عنه لم يخطر ببالك ولم يقرع سمعك، وهذا تعليل لكونه موحى كما ذكره بعض المحققين.(٣)

فلم يكن ﷺ ينطق من تلقاء نفسه بل إنما كان ينطق بالوحي كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم: ١-٢) أي ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا مطابق لقول المسيح: إنه لا يتكلم من تلقاء نفسه، بل إنما يتكلم بما يوحى إليه، والله تعالى أمره أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له العصمة في تبليغ رسالاته. (٤)

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ١٧/ ٨١: ٨٠، وانظر الشفاء للقاضي عياض (٢/ ١١٣). وراجع شبهة حول تفسير قوله تعالى: (ووجدك ضالًا فهدى) في هذه الموسوعة.

(٢) تفسير الطبري ٧/ ١٤٧.

(٣) روح المعاني ١٢/ ١٧٦.

(٤) هداية الحيارى إلى أجوبة اليهود والنصارى ١/ ٦٠.

الوجه الثاني: أن في هذه الآية إجلالًا لشأن النبي ﷺ من جهتين:

الأولى: أن التعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي ﷺ.

الثانية: العدول عن لـ (غافلًا) إلى ما في النظم الجليل من قوله: لمن الغافلين عند بعض.

الوجه الثالث: أن المقصود (بهذا) الإشارة إلى غرابة القصة:

حيث إن الشيء إذا كان بديعًا، وفيه نوع غرابة إذا وقف عليه قيل للمخاطب: كنت عن هذا غافلًا، فيجوز أن يقصد الإشارة إلى غرابة تلك القصة فيكون كالتأكيد لما تقدم.(١)

الوجه الرابع: ومنهم من قال: المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة، قبل ذلك كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (الشورى: ٥٢). (٢)

الثاني: أن هذه الآية كسابقتها مسوقة في سياق المنة على رسول الله ﷺ لا في سياق اتهامه كما سبق.

الآية الرابعة، والخامسة قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ (يونس ٩٤) وقوله تعالى ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ (هود: ١٧). وهذا يناقض عصمة النبي ﷺ هل كان الله تعالى يشك في إيمانه حتى يحذره؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى الآية:

قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن تبعث رسولًا إلى خلقه؛ لأنهم يجدونك عندهم مكتوبًا ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتابهم في التوراة والإنجيل ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ من أهل التوراة والإنجيل، كعبد الله بن سلام ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك، منهم دون أهل الكذب والكفر بك منهم.

ثم قال: فإن قال قائل: أو كان رسول الله ﷺ في شك من خبر الله أنه حق يقين، حتى قيل له: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ قيل: لا وما

(١) روح المعاني ١٢/ ١٧٧.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي٨/ ٤٩٣، وانظر الشفاء ٢/ ١١٤.

شك وما سأل. وبهذا قال سعيد بن جبير والحسن وقتادة أنه ما شك وما سأل ﷺ. [١]

وقال الحسين بن الفضل: الفاء مع حروف الشرط، لا توجب الفعل ولا تثبته، والدليل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لما نزلت هذه الآية: (والله لا أشك)[٢]

الوجه الثاني: أن هذا خطاب يناسب أسلوب العرب لأن القرآن بلسانهم نزل.

قال الطبري في تتمة كلامه السابق:

فإن قال: فما وجه مخرج هذا الكلام إذنْ، إن كان الأمر على ما وصفت؟

قيل: هذا من استجازة العرب قول القائل منهم لمملوكه: (إن كنت مملوكي فانته إلى أمري) والعبد المأمور بذلك لا يشكُّ سيدُه القائل له ذلك أنه عبده. كذلك قول الرجل منهم لابنه: (إن كنت ابني فبرَّني)، وهو لا يشك في ابنه أنه ابنه، وأنّ ذلك من كلامهم صحيح مستفيض فيهم، وذكرنا ذلك بشواهده، وأنّ منه قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (سورة المائدة: ١١٦)، وقد علم جل ثناؤه أن عيسى لم يقل ذلك. وهذا من ذلك، لم يكن ﷺ شاكًّا في حقيقة خبر الله وصحته، والله تعالى ذكره بذلك من أمره كان عالمًا، ولكنه جل ثناؤه خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضًا، إذْ كان القرآن بلسانهم نزل.

الوجه الثالث: أن هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به من لم يكن آمن به حقا وإن أظهره بلسانه.

قال الطبري: ولو قال قائل: إن هذه الآية خوطب بها النبي ﷺ، والمراد بها بعضُ من لم يكن صحَّت بصيرته بنبوته ﷺ، ممن كان قد أظهر الإيمان بلسانه، تنبيهًا له على موضع تعرف حقيقة أمره الذي يزيل اللبس عن قلبه، كما قال جل ثناؤه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب: ١) كان قولا غيرَ مدفوعةٍ صحته. [٣]

الوجه الرابع: أن هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به تثبيت أمته.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٦٠٩.

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٣٣٩.

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٦٠٩ مع تصرف يسير.

قال ابن كثير: وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧). ثم إنهم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم، كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ أي: لا يؤمنون إيمانًا ينفعهم، بل حين لا ينفع نفسًا إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (يونس: ٨٨)، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (الأنعام: ١١١).[1]

الوجه الخامس: أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد الإخبار عن غيره.

قال القرطبي: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره، أي لست في شك ولكن غيرك شك. قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد: سمعت الإمامين ثعلبًا والمبرد يقولان: معنى ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ ﴾ أي قل يا محمد للكافر فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي يا عابد الوثن: إن كنت في شك من القرآن؛ فأسأل من أسلم من اليهود، يعني عبد الله بن سلام وأمثاله؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يقرون لليهود أنهم أعلم منهم، من أجل أنهم أصحاب كتاب، فدعاهم الرسول ﷺ إلى أن يسألوا من يقرون بأنهم أعلم منهم، هل يبعث الله برسول من بعد موسى.

وقال القتبي: هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه ﷺ، بل كان في شك.

والذي يدل على صحة هذا الوجه وجوه:

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٦٨.

الأول: قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ﴾ (يونس: ١٠٤)، فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح.

الثاني: أن الرسول ﷺ لو كان شاكًا في نبوة نفسه، لكان شك غيره في نبوته أولى، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية.

والثالث: أن بتقدير أن يكون شاكًا في نبوة نفسه، فكيف يزول ذلك الشك بأخبار أهل الكتاب عن نبوته، مع أنهم في الأكثر كفار، وإن حصل فيهم من كان مؤمنًا، إلا أن قوله ليس بحجة، لا سيما وقد تقرر أن ما في أيديهم من التوراة والإنجيل، فالكل مُصَحف محرف، فثبت أن الحق هو أن الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ إلا أن المراد هو الأمة، ومثل هذا معتاد؛ فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص؛ فإنه لا يوجه خطابه عليهم، بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الأمير الذي جعله أميرًا عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيرًا في قلوبهم. [1]

الوجه السادس: في معنى الشك.

وقيل: الشك ضيق الصدر، أي إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم، وكيف عاقبة أمرهم.

والشك في اللغة: أصله الضيق، يقال: شك الثوب أي ضمه بخلال، حتى يصير كالوعاء.

وكذلك السفرة تمد علائقها حتى تنقبض، فالشك يقبض الصدر ويضمه حتى يضيق، ثم استأنف الكلام فقال - لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أي الشاكين المرتابين، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (يونس: ٩٥) والخطاب في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره. [2]

الوجه السابع: أن تكون (إن) بمعنى ما.

---

(١) تفسير الرازي، والقرطبي سورة يونس آية (٩٤)

(٢) تفسير القرطبي سورة يونس آية (٩٤).

قال القرطبي: و(إن) بمعنى (ما) في القرآن في مواضع خمسة وذكر منها هذا الموضع[(١)] وذكره الرازي كذلك، وقال ابن حزم رحمه الله: وإنما معنى (إن) ها هنا الجحد، فهي هنا بمعنى (ما) وهذا المعنى هو أحد موضوعاتها في اللغة العربية، كما قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨) بمعنى: ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون، كما ذكر الله ﷻ عن الأنبياء أنهم قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (إبراهيم: ١١) وكما قال تعالى مخبرًا عن النسوة إذ رأين يوسف عليه السلام فقلن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١) بمعنى: ما هذا إلا ملك كريم، وكما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٧) أي ما كنا فاعلين. فعلى هذا المعنى خاطب نبيه ﷺ: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك، ثم قال تعالى ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بمعنى ولا أعداؤك الذين يقاتلونك من الذين أوتوا الكتاب من قبلك ما هم أيضًا في شك مما أنزلنا إليك، بل هم موقنون بصحة قولك، وإنك نبي حق، رسول الله ﷺ، لا شك عندهم في أن الذي جاءك الحق. ومثل هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦) تهوينًا له، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١) بمعنى ما كان للرحمن ولد. فوضح جهل هذا المعترض وضعف تمييزه، والحمد لله رب العالمين.[(٢)]

الوجه الثامن: أن هذا خطاب للنبي ﷺ على سبيل الفرض والتقدير.

قال الألوسي: والمراد إن كنت في ذلك على سبيل الفرض والتقدير؛ لأن الشك لا يتصور منه عليه ﷺ لانكشاف الغطاء له، ولذا عبر بإن التي تستعمل غالبًا، فيما لا تحقق له حتى تستعمل في المستحيل عقلًا، وعادة كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾

(١) تفسير القرطبي سورة الرعد (٩/ ٣٨٠).

(٢) الرد على ابن النغريلة من رسائل ابن حزم ٣/ ٥٤.

(الزخرف: ٨١) وقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (الأنعام: ٣٥) وينبغي أن يكون المراد الاستدلال على حقيقة المنزلة والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة على ما ذكر، وأن القرآن مصدق لها.

ومحصل ذلك أن الفائدة: دفع الشك إن طرأ لأحد غيره ﷺ بالبرهان.

أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة نبوته ﷺ وتوبيخهم على ترك الإيمان أو تهييج الرسول عليه ﷺ وزيادة تثبيته، وليس الغرض إمكان وقوع الشك له ﷺ أصلًا، ولذلك قال ﷺ حين جاءته الآية على ما أخرج عبد الرزاق. وابن جرير عن قتادة: "لا أشك ولا أسأل". [1]

الوجه التاسع: أن الله علم أنه لم يشك، ولكنه أراد منه أن يصرح بنفي الشك عند نزول هذه الآية.

ويقول: "يا رب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفيني ما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة " ونظيره قوله تعالى للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠) والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ ﴾. [2]

الوجه العاشر: هو أن محمدًا عليه ﷺ كان من البشر، وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة في قلبه من الجائزات، وتلك الخواطر لا تندفع إلا بإيراد الدلائل وتقرير البينات، فهو ﷻ أنزل هذا النوع من التقريرات، حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس، ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ (هود: ١٢) وتمام التقرير في هذا الباب أن قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ ﴾ فافعل كذا وكذا، قضية شرطية، والقضية الشرطية لا إشعار فيها ألبتة بأن الشرط وقع، أو لم يقع، ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع، بل ليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك

(١) روح المعاني سورة يونس، وانظر البحر المحيط لأبي حيان سورة يونس آية (٩٤).

(٢) تفسير الرازي ١٧/ ١٦١ بتصرف.

الجزاء فقط، والدليل عليه أنك إذا قلت إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين، فهو كلام حق؛ لأن معناه أن كون الخمسة زوجًا، يستلزم كونها منقسمة بمتساويين، ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج، ولا على أنها منقسمة بمتساويين، فكذا هاهنا هذه الآية، تدل على أنه لو حصل هذا الشك، لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا، فأما إن هذا الشك وقع أو لم يقع، فليس في الآية دلالة عليه، والفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول ﷺ أن تكثير الدلائل وتقويتها، مما يزيد في قوة اليقين، وطمأنينة النفس، وسكون الصدر، ولهذا السبب أكثر الله في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة. (١)

الوجه الحادي عشر: أن المقصود بهذا الكلام استمالة قلوب الكفار ورفع الحرج عنهم في السؤال والمناظرة.

قال الرازي: المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الإيمان؛ وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى، بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات، وذلك الاستحياء صار مانعًا لهم عن قبول الإيمان فقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل، يعني أولى الناس؛ بأن لا يشك في نبوته هو نفسه، ثم مع هذا إن طلب هو من نفسه دليلًا على نبوة نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة؛ فإنه ليس فيه عيب، ولا يحصل بسببه نقصان، فإذا لم يستقبح منه ذلك في حق نفسه، فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى، فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الحياء عنهم في تكثير المناظرات. (٢)

الوجه الثاني عشر: أن يكون هذا السياق إخبار عن عدم شكه ﷺ أن يكون التقدير أنك لست شاكًا ألبتة ولو كنت شاكًا لكان لك طرق كثيرة في إزالة ذلك الشك كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع

(١) تفسير الرازي ١٧/ ١٦١ بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

واقعًا، لزم منه المحال الفلاني فكذا هاهنا. ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع إلى التوراة والإنجيل؛ لتعرف بهما أن هذا الشك زائل، وهذه الشبهة باطلة.(١)

الوجه الثالث عشر أن هذا الخطاب ليس للنبي ﷺ أصلًا.

تقريره أن الناس في زمانه كانوا فرقًا ثلاثة، المصدقون به، والمكذبون له، والمتوقفون في أمره الشاكون فيه، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد، فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وإنما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ (الانفطار: ٦، ٧) و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ (الزمر: ٤٩) ولم يرد في جميع هذه الآيات إنسانًا بعينه، بل المراد هو الجماعة فكذا هاهنا. ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم، حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني، وهم المكذبون. فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾.(٢)

الوجه الرابع عشر: أن هذه الآية من الحجج التي يُحتج بها على اليهود والنصارى.

وتقرير ذلك أنها لم تأت للدلالة على وقوع الشك، ولا على وقوع السؤال، فإن النبي ﷺ لم يكن شاكًا، ولا سأل أحدًا منهم، ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم من الأدلة والبراهين ما يؤيدك، ويصدقك فيما كذبك فيه الكافرون.

كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٤٣﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾، وقال تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وهذه الآيات البينات، تؤكد لنا أن الكتب القديمة، فيها إشارات وبشارات بمحمد ﷺ وبملته، وبأمته، وفي ضوئها تفهم الآية التي معنا. بحمد الله تعالى.[1]

الوجه الثالث: سياق الأحاديث التي توهموا أن فيها دلالة على كونه ﷺ كان على دين قومه، والرد عليها.

الحديث الأول: عن جبير بن مطعم قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه، وهو يقف على بعير له بعرفات، من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقًا من الله ﷻ له[2].

قالوا: فهذا تصريح بأنه كان على دين قومه.

---

(١) مناظرة بين الإسلام والنصرانية.

(٢) **حسن**. أخرجه ابن إسحاق في السيرة ١/ ٧٥، قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن عثمان بن أبي سليمان، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه جبير بن مطعم به. ومن طريق ابن إسحاق: أخرجه البيهقي في الدلائل: (باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسوله ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها) والطبراني في المعجم الكبير (١٥٧٧)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٣٣)، ثم رواه ابن إسحاق من نفس هذه الطريق في السيرة

والجواب يظهر جليًا في كلام العلماء الذين رووا هذه اللفظة فهل فهموا منها ذلك؟! أم أنه مجرد فهم حادث لا أصل له؟ مع اعتبار أن من رواها أولى بفهمها.

١-كلام جبير في الحديث حيث ساقه في سبيل الاستدلال على مخالفة النبي ﷺ لقومه، ولهذا قال في آخر الحديث: توفيقًا من الله تعالى.

قال ابن إسحاق: فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله، ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، ومعايبها لما يريد به من كرامته، ورسالته، وهو على دين قومه، حتى بلغ أن كان رجلًا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقًا، وأكرمهم مخالطةً، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم خَلْقًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم من الفحش، والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهًا، وتكرمًا حتى ما اسمه في قومه إلا (الأمين) لما جمع الله ﷻ فيه من الأمور الصالحة، وكان رسول الله ﷺ فيما ذُكر لي، يحدث عما كان يحفظه الله ﷻ به في صغره وأمر جاهلية.

إلى آخر ما ذكره، حتى وصل إلى رواية هذا الحديث. وسياق الكلام يؤكد أن قوله في البداية: كان على دين قومه: أي على عادتهم، ولكن الله عصمه في دينه واعتقاده، مما خالف الحق من دينهم. ومما يؤكد هذا أن الدين قد يقال بمعنى: الدأب والعادة قال الشاعر:

قول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبدا وديني.

أي عادته وعادتي. ويقال ما زال ذلك ديني وديدني أي عادتي.[1]

قال البيهقي: قوله: «على دين قومه» معناه: على ما كان قد بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل - عليهم السلام - في حجهم، ومناكحهم، وبيوعهم، دون الشرك؛ فإنه لم يشرك بالله قط وفيما ذكرنا من بغضه اللات والعزى دليل على ذلك[2].

(١/ ٩٠) ومن طريقه أحمد في المسند (٤/ ٨٢) والحاكم في المستدرك (١/ ٦٥٦) والأزرقي في أخبار مكة (٢٧٣٢) وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٥٧) كلهم رووه من طريق ابن إسحاق من غير هذه اللفظة غير أن ابن خزيمة قال في روايته: قبل أن ينزل عليه.

(١) المخصص مادة دين، وتاج العروس مادة دين.

(٢) دلائل النبوة (٢/ ٣٧).

قال ابن كثير: ويفهم من قوله هذا أيضًا أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه، وهذا توفيق من الله له. (١)

٢- فهم أهل اللغة لهذه الكلمة: قال ابن الأَثير: ليس المراد به الشرك الذي كانوا عليه وإِنما أَراد أَنه كان على ما بقي فيهم من إِرث إِبراهيم عليه السلام من الحج والنكاح والميراث وغير ذلك من أَحكام الإِيمان وقيل: هو من الدِّين العادة. يريد به أَخلاقهم من الكرم والشجاعة وغير ذلك. (٢) وأَمَّا التَّوحيدُ: فإنهم كانوا قد بَدَّلُوه والنبي لم يَكن إلا عليه. (٣)

وفي ضوء ما نقلناه عن أهل العلم تفهم هذه اللفظة، وليست هذه الطريق التي ذكرتها بأولى من الطرق التي لم تذكرها، والقصة واحدة.

الحديث الثاني: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يشهد مع المشركين مشاهدهم قال: فسمع ملكين خلفه، وأحدهما يقول لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كيف نقوم خلفه، وإنما عهده باستلام الأصنام قبيل؟

قال: فلم يعد بعد ذلك أن يشهد مع المشركين مشاهدهم». (٤)

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٥٤).

(٢) النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٧٠) ولسان العرب (١٣/ ١٦٤).

(٣) القاموس المحيط (١/ ١٥٤٦).

(٤) منكر. أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٢٨، وأبو يعلى في المسند (١٨٧٧)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (١٣٧٨)، والخطيب في تريخ بغداد (١١/ ٢٨٦)، والبيهقي في الدلائل باب حفظ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من طريق عثمان بن أبي شيبة، عن جرير، عن الثوري، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر رضي الله عنه به. وهذا إسناد فيه ثلاث علل:
الأولى: تفرد به عثمان ابن أبي شيبة وأنكره عليه جماعة منهم أحمد، قال ابن حجر: هذا الحديث أنكره الناس على عثمان ابن أبي شيبة فبالغوا، والمنكر منه قوله عن الملك أنه قال: عهده باستلام الأصنام، فإن ظاهره أنه باشر الاستلام، وليس ذلك مرادًا، بل المراد أن الملك أنكر شهوده لمباشرة المشركين استلام أصنامهم. المطالب العالية (١٢/ ١٣١).

والثانية: في إسناده عبد الله بن محمد بن عقيل وهو ضعيف ضعفه ابن معين، وقال حنبل، عن أحمد منكر الحديث، وقال ابن حجر صدوق في حديثه لين، وكذا ضعفه ابن عيينة، وغيره اهـ. تهذيب التهذيب ٦/ ١٣.
والثالثة: واختلف فيه على عثمان. فرواه عنه إبراهيم بن ساباط، وأحمد بن حنبل، وأبو يعلى، عن جرير، عن الثوري به، ورواه عنه أبو زرعة كما أخرجه الخطيب ١١/ ٢٨٦، فقال: قد رواه أبو زرعة الرازي، عن عثمان

قالوا: ففي هذا دليل على أنه ﷺ كان يستلم الأصنام كقومه.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذه اللفظة منكرة موضوعة كما هو مبين في الحاشية.

قال القرطبي: فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثًا بسنده عن جابر أن النبيﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملكين خلفه، أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟

فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدا وقال: هذا موضوع أو شبيه بالموضوع.

وقال الدارقطني: إن عثمان وهم في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه. (١)

فخالف الجماعة في إسناده أخبرنيه أبو الحسن محمد بن عبد الواحد، حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسين الرازي، حدثنا محمد ابن قارن، حدثنا أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن سفيان بن عبد الله بن زياد بن حدير، عن ابن عقيل، عن جابر قال كان رسول الله ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم فسمع ملكين خلفه، وأحدهما يقول لصاحبه ألا نقوم خلف رسول الله ﷺ قال فلم يعد يشهد مع المشركين مشاهدهم. كذا قال عن سفيان ابن عبد الله بن زياد بن حدير بدل سفيان الثوري وعندي أن هذا أشبه بالصواب والله أعلم، فرجح أبو زرعة طريق سفيان بن عبد الله، ولعل عثمان أخطأ في ذكر سفيان الثوري، وسفيان بن عبد الله مجهول.

وقال فيه ابن حجر: وسفيان هذا لا يعرف اهـ. لسان الميزان٣/ ٤٢.

وقال ابن الجوزي: وإنما يُتأول هذا الحديث أن لو صح، وفيه علل، ومنها أن عثمان لم يتابع عليه ومنها أبو زرعة رواه عن عثمان عن، جرير عن، سفيان بن عبد الله بن زياد مكان سفيان الثوري ومنها أن ابن عقيل ضعيف عند القوم ضعفه يحيى وغيره وقال ابن حبان كان رديء الحفظ يحدث على التوهم فيجيء بالخبر على غير سننه، فوجبت مجانبة أخباره، وقال الدارقطني: يقال إن عثمان بن أبي شيبة وهم في إسناده، وغيره يرويه عن جرير، عن سفيان بن عبد الله بن محمد بن زياد بن حدير مرسلًا وهو الصواب. قال وذكر لأحمد فقال: موضوع، وأنكره جدًا. العلل المتناهية ١/ ١٧٣.

وقال ابن كثير: أنكره غير واحد من الأئمة على عثمان أبى شيبة، حتى قال الإمام أحمد فيه: لم يكن أخوه يتلفظ بشيء من هذا. السيرة النبوة ١/ ٢٥٣.

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٥٨.

وقال الذهبي: تفرد به جرير، وما أتى به عنه سوى شيخ البخاري عثمان بن أبي شيبة. وهو منكر.[(١)]

الوجه الثاني: توجيه هذه اللفظة على فرض صحتها.

قال أبو القاسم: قال الطبراني، والبيهقي، والخطيب:

قوله: وإنما عهده باستلام الأصنام يعني، أنه شهد مع من استلم الأصنام، لا أنه استلمها، والمراد بالمشاهد التي شهدها مشاهد الحلف ونحوه، لا مشاهد استلام الأصنام[(٢)].

وقال ابن حجر: هذا الحديث أنكره الناس على عثمان بن أبي شيبة فبالغوا، والمنكر منه قوله عن الملك عهده باستلام الأصنام فان ظاهره أنه باشر الاستلام وليس ذلك مرادًا، بل المراد أنه شهد مباشرة المشركين استلام أصنامهم[(٣)].

٢ـ **وقال الهيثمي:** وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل ولا يحتمل هذا من مثله إلا أن يكون يشهد ذلك المشاهد للإنكار وهذا يتجه.[(٤)]

٣ـ **وقال الذهبي:** في الميزان: قال المؤلف: يعنى أنه حديث عهد برؤية استلام الأصنام، لا أنه هو المستلم، حاشا وكلا.[(٥)]

الحديث الثالث: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّه لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: زَيْدٌ إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ وَلَا آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْه[(٦)].

قالوا: فهذا فيه أن النبي ﷺ كان يأكل مما ذبح على النصب.

والجواب على ذلك من وجوه:

---

(١) تاريخ الإسلام ١/ ١٧.

(٢) الخصائص الكبرى للسيوطي١/ ١٥١، والعلل المتناهية١/ ١٧٣، وتاريخ بغداد ١١/ ٢٨٦.

(٣) المطالب العالية لابن حجر (٤٣٢٤)، الخصائص الكبرى للسيوطي١/ ١٥١.

(٤) مجمع الزوائد٨/ ٢٢٦.

(٥) ميزان الاعتدال٣/ ٣٦.

(٦) البخاري (٥٤٩٩).

الوجه الأول: قال الخطابي: كان النبي ﷺ لا يأكل مما يذبحون عليها للأصنام، ويأكل ما عدا ذلك، وإن كانوا لا يذكرون اسم الله عليه؛ لأن الشرع لم يكن نزل بعد؛ بل لم ينزل الشرع بمنع أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، إلا بعد المبعث بمدة طويلة.

الوجه الثاني: أن هذه السفرة كانت لقريش قدموها للنبي ﷺ فأبى أن يأكل منها، فقدمها النبي ﷺ لزيد بن عمرو فأبى أن يأكل منها، وقال مخاطبًا لقريش الذين قدموها أولًا: إنا لا نأكل ما ذبح على أنصابكم، وضعف هذا الوجه ابن حجر رحمه الله. (١)

الوجه الثالث: وهو أصحها أن هذه الرواية لا تصريح فيها بأن النبي ﷺ أكل مما ذبح على النصب، وإنما فيها إنكار زيد الأكل مما ذبح على النصب، فلعله ظن أن النبي ﷺ مثل قومه يأكل ما ذبح على النصب، فقال ما قال ثم بين له النبي ﷺ أنه لا يأكل ذلك هو الآخر.

وقال الألباني: توهم زيد أن اللحم المقدم إليه من جنس ما حرم الله، ومن المقطوع به، أن بيت محمد ﷺ لا يطعم ذبائح الأصنام، ولكن أراد الاستيثاق لنفسه، والإعلان عن مذهبه، وقد حفظ رسول الله ﷺ له ذلك وسر به. (٢)

رواية ثانية لهذا الحديث: عن سعيد بن زيد بن عمرو: قَالَ: كَانَ رَسولُ الله ﷺ بِمَكَّةَ هوَ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَمَرَّ بِهِما زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ فَدَعَوَاهُ إِلَى سُفْرَةٍ لَهُمَا فَقَالَ: " يَا ابْنَ أَخِي إِنِّي لَا آكُلُ مِمَّا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ "، قَالَ فَما رُئِيَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ أَكَلَ شَيْئًا مِمَّا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ. (٣)

وهذه الرواية فيها زيادة موهمة، أنه ﷺ كان يأكل مما ذبح على النصب وهذه الزيادة هي قوله: "فما رُؤي رسول الله ﷺ بعد ذلك اليوم أكل مما ذبح على النصب ". والجواب على ذلك أنها زيادة منكرة كما في الحاشية.

---

(١) فتح الباري٧/ ١٤٣.

(٢) هامش فقه السيرة (٨٧).

(٣) منكر. أخرجه أحمد١/ ١٨٩، والطبراني في الكبير (٣٥٠)، والبزار (١٢٦٧)، وهذا إسناد ضعيف، وعلته عبدالرحمن المسعودي اختلط قبل موته، والراوي عنه يزيد بن هارون وهو ممن روى عنه بعد الاختلاط. التقريب (٣٩١٩) وانظر نهاية الاغتباط (٢٠٩)، وهامش فقه السيرة (٨٧).

وعلى فرض صحتها:

١-قال السُّهَيْلِيّ رحمه الله: فَإِنْ قِيلَ فَالنَّبِيّ ﷺ كَانَ أَوْلَى مِنْ زَيْد بِهَذِهِ الْفَضِيلَة.

فَالْجَوَاب: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيث أَنَّهُ ﷺ أَكَلَ مِنْهَا، وَعَلَى تَقْدِير أَنْ يَكُون أَكَلَ فَزَيْد إِنَّمَا كَانَ يَفْعَل ذَلِكَ بِرَأْيٍ يَرَاهُ لَا بِشَرْعٍ بَلَغَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ عِنْد أَهْل الْجَاهِلِيَّة بَقَايَا مِنْ دَيْن إِبْرَاهِيم، وَكَانَ فِي شَرْع إِبْرَاهِيم تَحْرِيم الْمَيْتَة لَا تَحْرِيم مَا لَمْ يُذْكَر اِسْم الله عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا نَزَلَ تَحْرِيم ذَلِكَ فِي الْإِسْلَام، وَالْأَصَحّ أَنَّ الْأَشْيَاء قَبْل الشَّرْع لَا تُوصَف بِحِلٍّ وَلَا بِحُرْمَةٍ، مَعَ أَنَّ الذَّبَائِح لَهَا أَصْل فِي تَحْلِيل الشَّرْع، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ إِلَى نُزُول الْقُرْآن.

٢ـ **قال ابن حجر**: وَقَوْله إِنَّ زَيْدًا فَعَلَ ذَلِكَ بِرَأْيِهِ، أَوْلَى مِنْ قَوْل الدَّاوُدِيّ، إِنَّهُ تَلَقَّاهُ عَنْ أَهْل الْكِتَاب لَا سِيَّمَا وَزَيْد يُصَرِّح عَنْ نَفْسه بِأَنَّهُ لَمْ يَتَّبِع أَحَدًا مِنْ أَهْل الْكِتَابَيْنِ.

عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة - رضي الله عنهما - قال: خرج رسول الله ﷺ وهو مردفي إلى نصب من الأنصاب، فذبحنا له شاة ووضعناها في التنور، حتى إذا نضجت، استخرجناها، فجعلناها في سفرتنا، ثم أقبل رسول الله ﷺ يسير وهو مردفي في أيام الحر من أيام مكة، حتى إذا كنا بأعلى الوادي، لقي فيه زيد بن عمرو بن نفيل، فحيا أحدهما الآخر بتحية الجاهلية، فقال له رسول الله ﷺ: ما لي أرى قومك قد شنفوك؟ قال: أما والله إن ذلك لتغير ثائرة كانت مني إليهم، ولكني أراهم على ضلالة، قال: فخرجت أبتغي هذا الدين، حتى قدمت على أحبار يثرب، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت، حتى أقدم على أحبار أيلة، فوجدتهم يعبدون الله ولا يشركون به فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فقال لي حبر من أحبار الشام: إنك تسأل عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله به، إلا شيخًا بالجزيرة، فخرجت حتى قدمت، إليه فأخبرته الذي خرجت له فقال: إن كل من رأيته في ضلالة إنك تسأل عن دين هو دين الله ودين ملائكته، وقد خرج في أرضك نبي أو هو خارج يدعو إليه ارجع إليه وصدقه، وأتبعه وآمن بما جاء به فرجعت فلم أحسن شيئا بعد، فأناخ رسول الله ﷺ البعير الذي كان تحته، ثم قدمنا إليه السفرة التي كان فيها الشواء

فقال: ما هذه؟ فقلنا هذه شاة ذبحناها لنصب كذا وكذا فقال: إني لآكل ما ذبح لغير الله وكان صنمًا من نحاس يقال له أساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: لا تمسه قال زيد: فطفنا فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يقول، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: ألم تنه؟ قال زيد: فو الذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب، ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يبعث فقال رسول الله ﷺ يأتي يوم القيامة أمة وحده.[١]

٣- وَقَدْ قَالَ الْقَاضِي عِيَاض فِي الْمِلَّة الْمَشْهُورَة فِي عِصْمَة الْأَنْبِيَاء قَبْل النبوة، إِنَّهَا كَالْمُمْتَنِعِ لِأَنَّ النَّوَاهِي إِنَّمَا تَكُون بَعْد تَقْرِير الشَّرْع، وَالنَّبِيّ ﷺ لَمْ يَكُنْ مُتَعَبِّدًا قَبْل أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ بِشَرْعِ مَنْ قَبْلَهُ عَلَى الصَّحِيح، فَعَلَى هَذَا فَالنَّوَاهِي إِذَا لَمْ تَكُنْ موجودة فَهِيَ مُعْتَبَرَة فِي حَقّه. وَاللهُ أَعْلَمُ. فَإِنْ فَرَّعْنَا عَلَى الْقَوْل الْآخَر فَالْجَوَاب عَنْ قَوْله: " ذَبَحْنَا شَاة عَلَى بَعْض الْأَنْصَاب " يَعْنِي الْحِجَارَة الَّتِي لَيْسَتْ بِأَصْنَامٍ وَلَا معبودة، إِنَّمَا هِيَ مِنْ آلَات الْجَزَّار الَّتِي يَذْبَح عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ النُّصُب فِي الْأَصْل حَجَر كَبِير، فَمِنْهَا مَا يَكُون عِنْدهمْ مِنْ جُمْلَة الْأَصْنَام فَيَذْبَحُونَ لَهُ وَعَلَى اِسْمه، وَمِنْهَا مَا لَا يُعْبَد بَلْ يَكُون مِنْ آلَات الذَّبْح فَيَذْبَح الذَّابِح عَلَيْهِ لَا لِلصَّنَمِ، أَوْ كَانَ اِمْتِنَاع زَيْد مِنْهَا حَسْمًا لِلْمَادَّةِ[٢].

* * *

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٣٨ من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب من أصل كتابه، ثنا الحسن بن علي ابن عفان، ثنا أبو أسامة، ثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة؛ ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أسامة بن زيد به. قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ومن تأمل هذا الحديث عرف فضل زيد وتقدمه في الإسلام قبل الدعوة، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم.

(٢) فتح الباري ٧/ ١٦٥: ١٦٤. بتصرف يسير.

٥- شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ اعترف أنه ليس رسول الله.

نص الشبهة:

يتهمون النبي ﷺ أنه اعترف بأنه ليس رسول الله كما في قصة صلح الحديبية؛ حيث قال لعلي رضي الله عنه: "امْحُهُ " أي: امح محمد رسول الله.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المعنى الصحيح للحديث.

الوجه الثاني: محمد رسول الله ﷺ وإن كره الكافرون.

الوجه الثالث: الفوائد التي عادت على المسلمين بكتابة هذه المصالحة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: المعنى الصحيح للحديث.

عن الْبَرَاء بْنَ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا صَالَحَ رَسُولُ الله ﷺ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه بَيْنَهُمْ كِتَابًا فَكَتَبَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَا تَكْتُبْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله لَوْ كُنْتَ رَسُولًا لَمْ نُقَاتِلْكَ فَقَالَ لِعَلِيٍّ: "امْحُهُ" فَقَالَ عَلِيٌّ: مَا أَنَا بِالَّذِي أَمْحَاهُ فَمَحَاهُ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ وَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَدْخُلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَا يَدْخُلُوهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ فَسَأَلُوهُ مَا جُلُبَّانُ السِّلَاحِ؟ فَقَالَ: "الْقِرَابُ بِمَا فِيهِ. "[(١)]

وفي رواية: " لَمَّا أُحْصِرَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الْبَيْتِ صَالَحَهُ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا فَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ: السَّيْفِ وَقِرَابِهِ وَلَا يَخْرُجَ بِأَحَدٍ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا يَمْنَعَ أَحَدًا يَمْكُثُ بِهَا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ ". [(٢)]

وقال عمر رضي الله عنه في رواية: يَا رَسُولَ الله: أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: "بَلَى"، قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: "بَلَى"، قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: " يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ الله وَلَنْ يُضَيِّعَنِي الله أَبَدًا "، قَالَ:

---

(١) البخاري (٢٦٩٨)، مسلم (١٧٨٣).

(٢) مسلم (١٧٨٣).

فَانْطَلَقَ عُمَرُ فَلَمْ يَصْبِرْ مُتَغَيِّظًا فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ: إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا قَالَ فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْفَتْحِ فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْ فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: " نَعَمْ "فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ. (١)

وقد ذكرت هذه الروايات لأبين بعض الأمور:

أولًا: أن الشوكة كانت في هذا الصلح للمشركين، لذلك تساهل النبي ﷺ في كلمة (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) من باب المصلحة؛ وليس لأنه ليس رسول الله.

ثانيًا: في رد رسول الله ﷺ على عمر إثبات رسالته إذ قال لعمر: " إِنِّي رَسُولُ اللهِ "، فالمحو ليس محو معنى الرسالة، وإنما محو الكتابة في المصالحة فقط.

ثالثًا: أنه قد يكون الأمر شرًا في الظاهر لكنه في باطنه خير، فقد كان صلح الحديبية فتحًا للمسلمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ (الفتح: ١).

قال الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلم بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. (٢)

قال النووي: وفيه - أي في الحديث - أن للإمام أن يعقد الصلح على ما رآه مصلحة للمسلمين وإن كان لا يظهر ذلك لبعض الناس في بادئ الرأي. وفيه احتمال المفسدة اليسيرة لدفع أعظم منها أو لتحصيل مصلحة أعظم منها إذا لم يمكن ذلك إلا بذلك.

وهذا في محو النبي ﷺ لكلمة (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ).

وأما قول علي رضي الله عنه: (مَا أَنَا بِالَّذِي أَمْحَاهُ) وهذا الذي فعله علي رضي الله عنه من باب الأدب

(١) البخاري (٣١٨٢)، مسلم (١٧٨٥).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٣٢٤.

المستحب لأنه لم يفهم من النبي ﷺ تحتيم محو علي بنفسه، ولهذا لم ينكر. ولو حتم محوه بنفسه لم يجز لعلي تركه ولما أقره النبي ﷺ على المخالفة. (١)

الوجه الثاني: محمد رسول الله وإن كره الكافرون.

قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩). والآيات في ذلك كثيرة.

وقال ﷺ: " إِنِّي رَسُولُ الله وَلَنْ يُضَيِّعَنِي الله أَبَدًا ". (٢)

وقال ﷺ: " أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ ". (٣)

الوجه الثالث: الفوائد التي عادت على المسلمين بكتابة هذه المصالحة.

قال ابن حجر: قال الزهري: إنما كان القتال حيث التقي الناس ولما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس كلم بعضهم بعضًا والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا في تلك المدة إلا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر يعني؛ من صناديد قريش ومما ظهر من مصلحة الصلح المذكور غير ما ذكره الزهري أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبة في دين الله أفواجًا، وكانت الهدنة مفتاحًا لذلك ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سميت فتحًا. (٤)

وقد أورد ابن القيم فَصْلٌ فِي الْإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِ الْحِكَمِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ: وَهِيَ أَكْبَرُ وَأَجَلّ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهَا إِلّا الله الّذِي أَحْكَمَ أَسْبَابَهَا فَوَقَعَتْ الْغَايَةُ عَلَى الْوَجْهِ الّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ.

فَمِنْهَا: أَنّهَا كَانَتْ مُقَدّمَةً بَيْنَ يَدَيْ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ الّذِي أَعَزّ الله بِهِ رَسُولَهُ وَجُنْدَهُ وَدَخَلَ النّاسُ بِهِ فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا فَكَانَتْ هَذِهِ الْهُدْنَةُ بَابًا لَهُ وَمِفْتَاحًا وَمُؤْذِنًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهَذِهِ عَادَةُ الله سُبْحَانَهُ فِي الْأُمُورِ الْعِظَامِ الّتِي يَقْضِيهَا قَدَرًا وَشَرْعًا أَنْ يُوَطّئَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا مُقَدّمَاتٍ وَتَوْطِئَاتٍ تُؤْذِنُ بِهَا وَتَدُلّ عَلَيْهَا.

---

(١) شرح النووي لمسلم٦/ ٣٨٠بتصرف.

(٢) البخاري (٣١٨٢)، مسلم (١٧٨٥).

(٣) البخاري (٢٨٦٤)، مسلم (١٧٧٦)، وانظر: الأدلة على إثبات نبوته ﷺ في بحث البشارات بالنبي ﷺ.

(٤) فتح الباري٥/ ٣٤٨.

وَمِنْهَا: أَنَّ هَذِهِ الْهُدْنَةَ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْفُتُوحِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَمِنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَاخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْكُفَّارِ وَبَادَءُوهُمْ بِالدَّعْوَةِ وَأَسْمَعُوهُمُ الْقُرْآنَ وَنَاظَرُوهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ جَهْرَةً آمِنِينَ وَظَهَرَ مَنْ كَانَ مُخْتَفِيًا بِالْإِسْلَامِ وَدَخَلَ فِيهِ فِي مُدَّةِ الْهُدْنَةِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْخُلَ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللهُ فَتْحًا مُبِينًا.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: قَضَيْنَا لَكَ قَضَاءً عَظِيمًا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ مَا قَضَى اللهُ لَهُ بِالْحُدَيْبِيَةِ. وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْفَتْحَ - فِي اللُّغَةِ - فَتْحُ الْمُغْلَقِ وَالصُّلْحُ الَّذِي حَصَلَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِالْحُدَيْبِيَةِ كَانَ مَسْدُودًا مُغْلَقًا حَتَّى فَتَحَهُ اللهُ، وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ فَتْحِهِ صَدُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَنِ الْبَيْتِ وَكَانَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ضَيْمًا وَهَضْمًا لِلْمُسْلِمِينَ وَفِي الْبَاطِنِ عِزًّا وَفَتْحًا وَنَصْرًا وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْفَتْحِ الْعَظِيمِ وَالْعِزِّ وَالنَّصْرِ مِنْ وَرَاءِ سِتْرٍ رَقِيقٍ.

فَكَانَ يَدْخُلُ عَلَى تِلْكَ الشُّرُوطِ دُخُولَ وَاثِقٍ بِنَصْرِ اللهِ لَهُ وَتَأْيِيدِهِ وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُ وَأَنَّ تِلْكَ الشُّرُوطَ وَاحْتِمَالَهَا هُوَ عَيْنُ النُّصْرَةِ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْجُنْدِ الَّذِي أَقَامَهُ الْمُشْتَرِطُونَ وَنَصَبُوهُ لِحَرْبِهِمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ؛ فَذَلُّوا مِنْ حَيْثُ طَلَبُوا الْعِزَّ وَقُهِرُوا مِنْ حَيْثُ أَظْهَرُوا الْقُدْرَةَ وَالْفَخْرَ وَالْغَلَبَةَ، وَعَزَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِ مِنْ حَيْثُ انْكَسَرُوا للهِ وَاحْتَمَلُوا الضَّيْمَ لَهُ، وَفِيهِ فَدَارَ الدَّوْرُ وَانْعَكَسَ الْأَمْرُ وَانْقَلَبَ الْعِزّ بِالْبَاطِلِ ذُلًّا بِحَقٍّ، وَانْقَلَبَتِ الْكَسْرَةُ للهِ عِزًّا بِاللهِ، وَظَهَرَتْ حِكْمَةُ اللهِ وَآيَاتُهُ وَتَصْدِيقُ وَعْدِهِ وَنُصْرَةُ رَسُولِهِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا، الَّتِي لَا اقْتِرَاحَ لِلْعُقُولِ وَرَاءَهَا.

وَمِنْهَا: مَا سَبَّبَهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِذْعَانِ وَالِانْقِيَادِ عَلَى مَا أَحَبُّوا وَكَرِهُوا، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الرِّضَى بِقَضَاءِ اللهِ وَتَصْدِيقِ مَوْعُودِهِ، وَانْتِظَارِ مَا وُعِدُوا بِهِ، وَشُهُودِ مِنَّةِ اللهِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا فِي قُلُوبِهِمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا فِي تِلْكَ الْحَالِ، الَّتِي تُزَعْزِعُ لَهَا الْجِبَالُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِينَتِهِ مَا اطْمَأَنَّتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَقَوِيَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَازْدَادُوا بِهِ إِيمَانًا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ هَذَا الْحُكْمَ الَّذِي حَكَمَ بِهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ سَبَبًا لِمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ لِرَسُولِهِ، مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَلِإِتْمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَلِهِدَايَتِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَنَصْرِهِ النَّصْرَ

الْعَزِيزَ، وَرِضَاهُ بِهِ، وَدُخُولِهِ تَحْتَهُ، وَانْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِهِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الضَّيْمِ، وَإِعْطَاءِ مَا سَأَلُوهُ، كَانَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي نَالَ بِهَا الرَّسُولُ وَأَصْحَابُهُ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ جَزَاءً وَغَايَةً، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى فِعْلٍ قَامَ بِالرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ حُكْمِهِ تَعَالَى وَفَتْحِهِ. وَتَأَمَّلْ كَيْفَ وَصَفَ - سُبْحَانَهُ - النَّصْرَ بِأَنَّهُ عَزِيزٌ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ، وكانت نفوس المؤمنين أَحْوَجَ مَا كَانَتْ إِلَى السَّكِينَةِ، فَازْدَادُوا بِهَا إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ بَيْعَتَهُمْ لِرَسُولِهِ؛ وَأَكَّدَهَا بِكَوْنِهَا بَيْعَةً لَهُ سُبْحَانَهُ؛ وَأَنَّ يَدَهُ تَعَالَى كَانَتْ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ إِذْ كَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَذَلِكَ وَهُوَ رَسُولُهُ وَنَبِيُّهُ فَالْعَقْدُ مَعَهُ عَقْدٌ مَعَ مُرْسِلِهِ وَبَيْعَتُهُ بَيْعَتُهُ؛ فَمَنْ بَايَعَهُ فَكَأَنَّمَا بَايَعَ اللهَ وَيَدُ اللهِ فَوْقَ يَدِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ نَاكِثَ هَذِهِ الْبَيْعَةِ إِنَّمَا يَعُودُ نَكْثُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنَّ لِلْمُوفِي بِهَا أَجْرًا عَظِيمًا فَكُلُّ مُؤْمِنٍ فَقَدْ بَايَعَ اللهَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ بَيْعَةً عَلَى الْإِسْلَامِ وَحُقُوقِهِ فَنَاكِثٌ وَمُوفٍ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ رِضَاهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِدُخُولِهِمْ تَحْتَ الْبَيْعَةِ لِرَسُولِهِ، وَأَنَّهُ وَكَمَالِ الِانْقِيَادِ وَالطَّاعَةِ، وَإِيثَارِ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَى مَا سِوَاهُ فَأَنْزَلَ اللهُ السَّكِينَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ وَالرِّضَى فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَثَابَهُمْ عَلَى الرِّضَى بِحُكْمِهِ، وَالصَّبْرِ لِأَمْرِهِ فَتْحًا قَرِيبًا، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وَكَانَ أَوَّلُ الْفَتْحِ وَالْمَغَانِمِ فَتْحَ خَيْبَرَ وَمَغَانِمَهَا، ثُمَّ اسْتَمَرَّتِ الْفُتُوحُ وَالْمَغَانِمُ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ.

وَوَعَدَهُمْ سُبْحَانَهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ عَجَّلَ لَهُمْ هَذِهِ الْغَنِيمَةَ، وَفِيهَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الصُّلْحُ الَّذِي جَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا فَتْحُ خَيْبَرَ وَغَنَائِمُهَا ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ (الْفَتْحُ: ٢٠)، فَقِيلَ أَيْدِيَ أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ، وَقِيلَ أَيْدِيَ الْيَهُودِ حِينَ هَمُّوا بِأَنْ يَغْتَالُوا مَنْ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهَا، وَقِيلَ هُمْ أَهْلُ خَيْبَرَ وَحُلَفَاؤُهُمْ، الَّذِينَ أَرَادُوا نَصْرَهُمْ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ، وَقِيلَ هِيَ فَتْحُ خَيْبَرَ جَعَلَهَا آيَةً لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَامَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ الْفُتُوحِ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَعَدَهُمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً وَفُتُوحًا عَظِيمَةً، فَعَجَّلَ لَهُمْ فَتْحَ خَيْبَرَ، وَجَعَلَهَا آيَةً لِمَا بَعْدَهَا، وَجَزَاءً لِصَبْرِهِمْ وَرِضَاهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَشُكْرَانًا، وَلِهَذَا خَصَّ بِهَا وَبِغَنَائِمِهَا مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَةَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فَجَمَعَ لَهُمْ إِلَى النَّصْرِ

وَالظَّفَرَ وَالْغَنَائِمَ وَالْهِدَايَةَ؛ فَجَعَلَهُمْ مَهْدِيِّينَ مَنْصُورِينَ غَانِمِينَ، ثُمَّ وَعَدَهُمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً وَفُتُوحًا أُخْرَى لَمْ يَكُونُوا ذَلِكَ الْوَقْتَ قَادِرِينَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ هِيَ مَكَّةُ، وَقِيلَ هِيَ فَارِسُ وَالرُّومُ، وَقِيلَ الْفُتُوحُ الَّتِي بَعْدَ خَيْبَرَ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا؛ ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ لَوْ قَاتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ لَوَلَّى الْكُفَّارُ الْأَدْبَارَ غَيْرَ مَنْصُورِينَ، وَأَنَّ هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي عِبَادِهِ قَبْلَهُمْ وَلَا تَبْدِيلَ لِسُنَّتِهِ. فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَاتَلُوهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُوَلُّوا الْأَدْبَارَ؟ قِيلَ هَذَا وَعْدٌ مُعَلَّقٌ بِشَرْطٍ مَذْكُورٍ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ: وَهُوَ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى، وَفَاتَ هَذَا الشَّرْطُ يَوْمَ أُحُدٍ بِفَشَلِهِمْ الْمُنَافِي لِلصَّبْرِ وَتَنَازُعِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ الْمُنَافِي لِلتَّقْوَى، فَصَرَفَهُمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ وَلَمْ يَحْصُلْ الْوَعْدُ لِانْتِفَاءِ شَرْطِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ - سُبْحَانَهُ - أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الْبَالِغَةِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ صَدَقَ رَسُولَهُ رُؤْيَاهُ فِي دُخُولِهِمْ الْمَسْجِدَ آمِنِينَ وَأَنَّهُ سَيَكُونُ وَلَا بُدَّ؛ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ آنَ وَقْتُ ذَلِكَ فِي هَذَا الْعَامِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ عَلِمَ مِنْ مَصْلَحَةِ تَأْخِيرِهِ إِلَى وَقْتِهِ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ، فَأَنْتُمْ أَحْبَبْتُمْ اسْتِعْجَالَ ذَلِكَ وَالرَّبُّ تَعَالَى يَعْلَمُ مِنْ مَصْلَحَةِ التَّأْخِيرِ وَحِكْمَتِهِ مَا لَمْ تَعْلَمُوهُ فَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا تَوْطِئَةً لَهُ وَتَمْهِيدًا. ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، فَقَدْ تَكَفَّلَ اللهُ لِهَذَا الْأَمْرِ بِالتَّمَامِ وَالْإِظْهَارِ عَلَى جَمِيعِ أَدْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَفِي هَذَا تَقْوِيَةٌ لِقُلُوبِهِمْ وَبِشَارَةٌ لَهُمْ وَتَثْبِيتٌ، وَأَنْ يَكُونُوا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ هَذَا الْوَعْدِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يُنْجِزَهُ فَلَا تَظُنُّوا أَنَّ مَا وَقَعَ مِنَ الْإِغْمَاضِ وَالْقَهْرِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ نُصْرَةً لِعَدُوِّهِ، وَلَا تَخَلِّيًا عَنْ رَسُولِهِ وَدِينِهِ، كَيْفَ وَقَدْ أَرْسَلَهُ بِدِينِهِ الْحَقِّ وَوَعْدِهِ أَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ سِوَاهُ؟. [١]

* * *

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٧٥.

٦ـ شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ كان شاعرًا.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩)(١)، والحديث الذي يوهم ظاهره التعارض مع الآية: ما ورد عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ، فَقَالَ: " هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيتِ"(٢).

فظاهر الآية الكريمة يدل على أن النبي ﷺ لم يكن شاعرًا وما علمه، وظاهر الحديث يدل على أن النبي ﷺ أنشد شعرًا وتغنى به، كيف يستقيم ذلك؟

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآية.

الوجه الثاني: الأحاديث الواردة في ذلك.

الوجه الثالث: أقوال العلماء وتوجيهاتهم للأحاديث ودفع توهم التعارض.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآية.

يقول الله جل ذكره: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩)، أي: وما علَّمنَّا محمدًا الشعر، وما ينبغي له أن يكون شاعرًا(٣)، وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جبلته، ولهذا وَرَدَ أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتًا على وزنٍ منتظم، بل إن أنشده زَحَّفه أو لم يتمه(٤).

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصح له ولا يليق بحاله، ولا يتطلب لو طلبه؛ أي: جعلناه بحيث لو

---

(١) ولها نظائر في كتاب الله؛ وفي السنة.

(٢) رواه البخاري) ٢٦٤٨)، ومسلم (١٧٩٦).

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٤٦١.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٥٨٨

أراد قرض الشعر لم يتأتَ له، ولم يتسهل، كما جعلناه أُمِّيًا لا يهتدي إلى الخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض.(١)

الوجه الثاني: بعض الأحاديث الواردة في ذلك.

١- ما رُوي عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ، فَقَالَ: " هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيتِ ". (٢)

٢- وبما رُوي عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ: قِيلَ لَهَا هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَمَثَّلُ بشيء مِنَ الشِّعْرِ قَالَتْ: كَانَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَيَتَمَثَّلُ وَيَقُولُ: " وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ". (٣)

٣- ما روى الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَقَالَ: لَكِنْ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَفِرَّ، كَانَتْ هَوَازِنُ رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْكَشَفُوا، فَأَكْبَبْنَا عَلَى الْغَنَائِمِ، فَاسْتُقْبِلْنَا بِالسِّهَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذٌ بِزِمَامِهَا وَهُوَ يَقُولُ: " أَنَا النبي لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ ". (٤)

الوجه الثالث: أقوال العلماء وتوجيهاتهم للأحاديث ودفع توهم التعارض.

سلك المفسرون والعلماء مسالك تصب كلها في مصب واحد، وهو الاتفاق وعدم التعارض بينها على أن النبي ﷺ لم ينشد أو يتغنَّ بالشعر.

قال ابن العربي: وَقَدْ أَجَابَ عَنْ ذَلِكَ عُلَمَاؤُنَا بِأَنَّ مَا يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ مِنْ مَوْزُونِ الْكَلَامِ لَا يُعَدُّ شِعْرًا، وَإِنَّمَا يُعَدُّ مِنْهُ مَا يَجْرِي عَلَى وَزْنِ الشِّعْرِ وَمَعَ الْقَصْدِ إلَيْهِ.

ففي الحديث قَوْلُهُ: " هَلْ أَنْتَ إلَّا إصْبَعٌ دَمِيتْ، وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيت"

قُلْنَا: إنَّمَا يَكُونُ هَذَا شِعْرًا مَوْزُونًا إذَا كُسِرَتْ التَّاءُ مِنْ دَمِيتْ وَلَقِيت، فَإِنْ سُكِّنَتْ لَمْ يَكُنْ شِعْرًا بِحَالٍ؛ لِأَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ تَكُونُ فَعُولٌ، وَلَا مَدْخَلَ لِفَعُولٍ فِي

---

(١) تفسير النسفي٤/ ١٣.

(٢) رواه البخاري (٢٦٤٨)، ومسلم (١٧٩٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٨٤٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٠٦٣).

(٤) رواه البخاري (٢٧٠٩)، ومسلم (١٧٧٦).

بَحْرِ السَّرِيعِ، وَلَعَلَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهَا سَاكِنَةَ التَّاءِ أَوْ مُتَحَرِّكَةَ التَّاءِ مِنْ غَيْرِ إِشْبَاعٍ. (١)

كان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلًا كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعاني فقط ﷺ، من ذلك أنه أنشد يومًا قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا ويأتيك من لم تزوده بالأخبار. (٢)

قال ابن العربي: قَالَ الْأَخْفَشُ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِشِعْرٍ، وَرَوَى ابْنُ الْمُظَفَّرِ عَنْ الْخَلِيلِ فِي كِتَابِ الْعَيْنِ: إِنَّ مَا جَاءَ مِنْ السَّجْعِ عَلَى جُزْأَيْنِ لَا يَكُونُ شِعْرًا. (٣) كما في قوله ﷺ: " أنا النبي.." وَرَوَى غَيْرُهُ عَنْهُ أَنَّهُ مِنْ مَنْهُوكِ الرَّجَزِ، فَعَلَى الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لَا يَكُونُ شِعْرًا، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّالِثِ لَا يَكُونُ مَنْهُوكَ رَجَزٍ إلَّا بِالْوَقْفِ عَلَى الْبَاءِ مِنْ قَوْلِك: لَا كَذِبْ، وَمِنْ قَوْلِهِ: عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَلَمْ يُعْلَمْ كَيْفَ قَالَهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَالْأَظْهَرُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ قَالَ: لَا كَذِبٌ بِتَنْوِينِ الْبَاءِ مَرْفُوعَةً وَبِخَفْضِ الْبَاءِ مِنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى الْإِضَافَةِ. (٤)

وقال ابن حجر: وقد اختلف في جواز تمثل النبي ﷺ بشيء من الشعر، وأنشده حاكيًا عن غيره، فالصحيح جوازه، وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد، والترمذي وصححه، والنسائي من رواية المقدام بن شريح عن أبيه قلت لعائشة: أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل من شعر ابن رواحة:... ويأتيك بالأخبار من لم تزود، وقد تقدم في غزوة حنين قوله ﷺ: " أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب "وأنه دل على جواز وقوع الكلام منه منظومًا من غير قصد إلى ذلك ولا يسمى ذلك شعرًا. (٥)

قال القرطبي: فيه أربع مسائل:

الأولى: أخبر تعالى عن حال نبيه ﷺ ورد قول من قال من الكفار إنه شاعر وإن القرآن شعر بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، وكذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر

(١) أحكام القرآن٦/ ٤٧٢وما بعدها بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٤٨وما بعدها.

(٣) العين للخليل بن أحمد١/ ٤٦٨بتصرف.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٦/ ٤٧٢ومابعدها.

(٥) فتح الباري ١٠/ ٤٢ بتصرف.

ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلًا كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعاني فقط ﷺ ومن ذلك أنه أنشد يومًا قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا   ويأتيك من لم تزوده بالأخبار

وأنشد يومًا وقد قيل له: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: الذي يقول:

ألم ترياني كلما جئت طارقًا   وجدت بها وإن لم تطيب طيبًا

وعن الخليل بن أحمد: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتى له.

الثانية: إصابته الوزن أحيانًا لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحيانًا من نثر كلامه ما يدخل في وزنه كقوله يوم حنين وغيره، والمعول عليه في الانفصال على تسليم أن هذا شعر، ويسقط الاعتراض، ولا يلزم منه أن يكون النبي ﷺ عالمًا بالشعر ولا شاعر، أن التمثل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره، لا يوجب أن يكون قائلها عالمًا بالشعر، ولا يسمى شاعرًا باتفاق العلماء، كما أن من خاط خيطًا لا يكون خياطًا.

قال الزجاج: معنى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ وما علمناه أن يشعر، أي: ما جعلناه شاعرًا، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئًا من الشعر قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في هذا. (١)

قال ابن العربي: هذه الآية ليست من عيب الشعر كما لم يكن قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ (العنكبوت: ٤٨) من عيب الكتابة، فلا لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي ﷺ من عيب الشعر. (٢)

قال ابن عبد البر: وقد ورد عنه ﷺ أنه قال في بعض جراحاته:

هل أنت إلا أصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت

وقال النبي ﷺ: "أنا النبي لا كذب. . . أنا ابن عبد المطلب."

وقال ﷺ: "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة. . . فاغفر للأنصار والمهاجرة"

(١) الجامع لأحكام القرآن١٥/ ٤٨ ومابعدها، وقد اكتفينا بذكر مسألتين.

(٢) أحكام القرآن لابن العربى٦/ ٤٨١.

ومثل هذا كثير عنه ﷺ وعن أصحابه ﷺ، وهذا دليل على أن السجع كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح، وكذلك الشعر كلام منظوم، فالحسن منه حسن وحكمة، والقبيح منه ومن المنثور غير جائز النطق به. (١)

وقال النووي: واتفقوا على أن الشعر لا يكون شعرًا إلا بالقصد، أما إذا جرى كلام موزون بغير قصد فلا يكون شعرًا، وعليه يحمل ما جاء عن النبي ﷺ من ذلك؛ لأن الشعر حرام عليه ﷺ. (٢)

وقال في موضع آخر: واستدل بعض العلماء بهذا الحديث: «لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»(٣) على كراهة الشعر مطلقًا قليله وكثيره، وإن كان لا فحش فيه وتعلق بقوله ﷺ خذوا الشيطان، وقال العلماء كافة هو مباح ما لم يكن فيه فحش ونحوه، قالوا وهو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح، وهذا هو الصواب فقد سمع النبي ﷺ الشعر واستنشده وأمر به حسان في هجاء المشركين، وأنشده أصحابه بحضرته في الأسفار وغيرها، وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه،؛ وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفحش ونحوه(٤)

وقال الطبري: وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ يقول تعالى ذكره: وما علمنا محمدًا ﷺ الشعر وما ينبغي له أن يكون شاعرًا، كما حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ قال: قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس فيجعل آخره أوله وأوله آخره، فقال له أبو بكر: إنه ليس هكذا فقال نبي الله: إني والله ما أنا

---

(١) التمهيد لابن عبد البر٦/ ٤٩٠.

(٢) شرح مسلم للنووى٥/ ٨.

(٣) البخاري (٥٨٢٠)، ومسلم (٢٢٥٧).

(٤) شرح مسلم للنووى١٥/ ١٤.

بشاعر ولا ينبغي لي[١].

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يقول تعالى ذكره: ما هو إلا ذكر يعني بقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: محمد إلا ذكر لكم أيها الناس، ذكركم الله بإرساله إياه إليكم ونبهكم به على حظكم: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يقول: وهذا الذي جاءكم به محمد قرآن مبين؛ يقول: يبين لمن تدبره بعقل ولب أنه تنزيل من الله أنزله إلى محمد وأنه ليس بشعر ولا سجع كاهن. كما حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ قال: هذا القرآن.[٢]

وقال أبو السعود: وقوله: " هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت " فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد إليها وعزم على ترتيبها.[٣]

ونخلص من ذلك إلى أن النبي ﷺ كان لا ينشد شعرًا، ولا ينبغي له ذلك وإنه كان يحرز المعاني، ولا يقصد شعرًا، وعدم مطابقة كلامه قواعد وأوزان الشعر والرجز؛ فإن إقامة الشعر لا يَخلو الشاعر فيها من أن يتصرف في ترتيب الكلام تارات بما لا تقضيه الفصاحة، مثل ما وقع لبعض الشعراء من التعقيد اللفظي، ومثل تقديم وتأخير على خلاف مقتضى الحال؛ فيعتذر لوقوعه بعذر الضرورة الشعرية.[٤]

فمن هنا يتضح لنا عدم التعارض - وليس هناك تعارض- بين الآية الكريمة والأحاديث الواردة سالفًا، والتي قد دفع وجه وهم تعارضها، إذًا فلا تعارض على الإطلاق بينهما، والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه ابن الجعد في المسند (٢٢٨٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٦٧)، والترمذي (٢٨٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٣٥) من طرق عن شريك، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن عائشة. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في الأدب المفرد، وفي الصحيحة (٢٠٥٧).

(٢) تفسير الطبرى١٠/ ٤٦١.

(٣) تفسير أبوالسعود٧/ ١٧٨.

(٤) تفسير ابن عاشور١٢/ ٦٨.

٧ـ شبهة: إنكارهم لحديث سحر النبي ﷺ.

نص الشبهة:

إنكارهم لحديث سحر النبي ﷺ، وقد اعترضوا على ذلك من وجوه:

١-تضعيفهم للحديث بأن هشامًا قد انفرد ولم يسمع من أبيه وقد اختلط.

٢-الحديث آحاد فلا يحتج به.

٣-أن سحر النبي ﷺ مخالف لحماية الله له.

٤-أن سحر النبي ﷺ مخالف لنفى القرآن السحر عنه.

٥-أنه لو سحر لصح قول الكفار عنه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

٦-إن سحر النبي ﷺ مخالف لمقام النبوة.

ومن خلال هذه الاستدلالات يتبين أن أصحاب هذه الشبهة فرق شتى دخل فيهم بعض المسلمين-زعمًا منهم-أنهم يدافعون عن رسول الله ﷺ، ولكن الحق أحق أن يتبع، وأن نبين للناس أجمعين الحق في هذه المسألة.

ولذا كان الرد على هذه الاعتراضات من وجوه:

الوجه الأول: تعريف السحر، وحقيقته، وصنوف السحرة، وأنواع السحر، وأصوله.

الوجه الثاني: تخريج حديث السحر، والرد على تضعيفهم لبعض رواته، وشرح الحديث.

الوجه الثالث: الرد على قولهم أن سحر النبي ﷺ مخالف للقرآن في نفيه السحر عنه ﷺ.

الوجه الرابع: الرد على قولهم إن سحر النبي ﷺ يخالف قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

الوجه الخامس: الرد على قولهم إن حديث السحر يقدح في مقام النبوة.

الوجه السادس: الرد على قولهم إنه حديث آحاد.

الوجه السابع: ماذا حدث للمسيح من الشيطان؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان حقيقة السحر:

السحر كل ما لطف مأخذه ودق والسِّحْرُ عَمَلٌ تُقُرِّبَ فيه إلى الشيطان وبمعونة منه كل ذلك الأَمر كينونة للسحر، ومن السحر الأُخْذَةُ التي تأْخُذُ العينَ حتى يُظَنَّ أَن الأَمْرَ كما يُرَى وليس الأَصل على ما يُرى والسِّحْرُ الأُخْذَةُ وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه ودَقَّ فهو سِحْرٌ والجمع أَسحارٌ وسُحُورٌ وسَحَرَه يَسْحَرُه سَحْرًا وسِحْرًا وسَحَّرَه ورجلٌ ساحِرٌ من قوم سَحَرَةٍ وسُحَّارٍ وسَحَّارٌ من قوم سَحَّارِينَ ولا يُكَسَّرُ والسِّحْرُ البيانُ في فِطْنَةٍ كما جاء في الحديث إن قيس بن عاصم المِنْقَرِيَّ والزِّبْرِقانَ بنَ بَدْرٍ وعَمْرَو بنَ الأَهْتَمِ قدموا على النبيﷺ فسأَل النبيُّ ﷺ عَمْرًا عن الزِّبْرِقانِ فأَثنى عليه خيرًا فلم يرض الزبرقانُ بذلك وقال والله يا رسول الله ﷺإنه ليعلم أَنني أَفضل مما قال ولكنه حَسَدَ مكاني منك فَأَثْنَى عليه عَمْرٌو شرًّا ثم قال والله ما كذبت عليه في الأُولى ولا في الآخرة ولكنه أَرضاني فقلتُ بالرِّضا ثم أَسْخَطَنِي فقلتُ بالسَّخْطِ فقال رسول الله ﷺإن من البيان لَسِحْرًا. [١]

وأَصل السِّحرِ صَرْفُ الشيء عن حقيقته إلى غيره فكأَنَّ الساحر لما أَرَى الباطلَ في صورة الحق وخَيَّلَ الشيءَ على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه أَي صرفه قال العرب إنما سمي السحر سحرًا لأنه يزيل الصحة إلى المرض وإنما يقال سحره أي أزاله عن البغض إلى الحب[٢]

السحر يطلق على معان:

الأول: ما يقع بخداع وتخييلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ (طه: ٦٦)، وقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الأعراف: ١١٦) ومن هناك سموا موسى ساحرا وقد يستعين في ذلك بما يكون فيه خاصية كالحجر الذي يجذب الحديد المسمى المغناطيس.

الثاني: ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم وإلى ذلك الإشارة

---

(١) البخاري (٥١٤٦).

(٢) تاج العروس (١/ ٢٩٢٨)، لسان العرب (١/ ٣٩٩)، القاموس المحيط (١/ ٥١٨).

بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾.

مسألة في ذكر الاختلاف في إثبات السحر، وأنه حقيقة لا خيال:

واختلف في السحر فقيل هو تخييل فقط ولا حقيقة له وهذا اختيار أبي جعفر الاستراباذي من الشافعية وأبي بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري وطائفة.

قال ابن حجر: قال النووي: والصحيح أن له حقيقة وبه قطع الجمهور وعليه عامة العلماء ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة[(١)].

لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لًا؟ فمن قال أنه تخييل فقط منع ذلك ومن قال أن له حقيقة اختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعًا من الأمراض أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيوانًا مثلًا وعكسه؟

فالذي عليه الجمهور هو الأول وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلَّم وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف.

فإن كثيرًا ممن يدعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه ونقل الخطابي أن قومًا أنكروا السحر مطلقًا وكأنه عني القائلين بأنه تخييل فقط وإلا فهي مكابرة.

وقال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص.

وقد دل قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ وحديث عائشة على تأثير السحر وأن له حقيقة وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد قالوا وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف

(١) فتح الباري ١٠/ ٢٢٢.

واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف وما يعرفه عامة العقلاء والسحر الذي يؤثر مرضًا وثقلًا وحلًا وعقدًا وحبًا وبغضًا وتزينًا وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقًا بما أصيب به منه وقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهرًا كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه وأيضًا فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به مع أن هذا تغير في إحساسهم فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟

فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركًا والمتصل منفصلًا والميت حيًا فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضًا والبغيض محبوبًا وغير ذلك من التأثيرات.

وقد قال تعالى عن سحرة فرعون إنهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ (الأعراف: ١١٦) فبين سبحانه أن أعينهم سحرت وذلك إما أن يكون لتغير حصل في المرئي وهو الحبال والعصي مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهي الشياطين فظنوا أنها تحركت بأنفسها وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيرًا أو بساطًا فترى الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له مع أنه هو الذي يجره فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين فقلبتها كتقلب الحية فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها والشياطين هم الذين يقلبونها وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأي الحبال والعصي تتحرك وهي ساكنة في أنفسها ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا فتارة يتصرف في نفس الرأي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها.

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت فهذا باطل من وجوه كثيرة فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالا بل حركة حقيقية ولم يكن ذلك سحرًا لأعين الناس ولا يسمى ذلك سحرًا بل صناعة من الصناعات المشتركة وقد قال تعالى ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٦٦)، ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون لم يكن هذا من السحر في شيء ومثل هذا لا يخفى، وأيضًا لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها وأيضًا فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة بل يكفي فيها حذاق الصناع ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقريب والجزاء وأيضًا فإنه لا يقال في ذلك إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود فصل شر الحاسد إذا حسد. [1]

وقد يستشكل بعضهم أن يكون للسحر تأثير حقيقي وذلك لسببين.

الأول: كون السحر بحد ذاته حقيقة ثابتة إذ هو فيما يتوهمه البعض أمر مناف بقضية التوحيد.

الثاني: أن يقال أن رسول الله ﷺ قد سحر فذلك مما يحط (في وهمهم) من منصب النبوة ويشكك الناس فيها، والحقيقة أنه لا إشكال في الأمر البته.

أما الجواب عن الوهم الأول فهو أن اعتبار السحر حقيقة ثابتة لا يعني كونه مؤثرًا بذاته بل هو كقولنا السم له مفعول حقيقي ثابت والدواء له مفعول حقيقي ثابت فهذا الكلام صحيح لا ينكر غير أن هذا التأثير في هذه الأمور الثابتة إنما هو الله تعالى وقد قال الله تعالى عن السحر﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ﴾ (البقرة:١٠٢) وقد نفى الله ﷻ عن السحر التأثير الذاتي ولكنه أثبت له في نفس الوقت مفعولًا ونتيجة بإذن الله تعالى.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤٩: ٤٥٣).

وأما الجواب عن الوهم الثاني: فهو أن السحر الذي أصيب به ﷺ إنما كان متسلطًا عن جسده وظواهر جوارحه كما هو معروف لا على عقله وقلبه واعتقاده فمعاناته من آثاره كمعاناته من آثار أي مرض من الأمراض التي تعرض لها الجسم البشري ومعلوم أن عصمة الرسول ﷺ لا يستلزم سلامته من الأمراض والأعراض البشرية المختلفة.

وهو كما حصل للمريض عند شدة الحمى فمن الأعراض الطبيعية لذلك أن تطوف بالذهن أخيلة وأوهام غير حقيقية لشدة وطأة الحرارة والأمر في ذلك واشتباهه من الأعراض البشرية التي يستوي فيها الأنبياء والرسل مع غيرهم من الناس. (١)

قال المازري: والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك. . . والآية ليست نصًا في منع الزيادة ولو قلنا أنها ظاهرة في ذلك. (٢)

وأنواع السحر ثمانية:

الأول: سحر الكذابين والكشدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم وأنها تأتي بالخير والشر وهم الذين بعث الله تعالى إليهم إبراهيم الخليل ﷺ مبطلًا لمقالتهم ورادًا لمذهبهم.

الثاني: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية.

الثالث: من السحر الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن خلافًا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين مؤمنون وكفار وهم الشياطين.

الرابع: من السحر التخيلات والأخذ بالعيون والشعبذة ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيء المعين دون غيره.

الخامس: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة.

السادس: الاستعانة بخواص الأدوية.

(١) التداوي بالقرآن والسنة والحبة السوداء (صـ٢٤: ٢٥).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٣٢: ٢٣٣).

السابع: التعليق للقلب وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم وأن الجن يعطونه وينقادون له في أكثر الأمور.

الثامن: السعي بالنميمة والتقريب من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع في الناس. (١)

وأصول السحر ثلاثة:

الأول: زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما يعتاده الساحر من التأثير النفساني في نفسه ومن الضعف في نفس المسحور ومن سوابقَ شاهدَها المسحور واعتقدها فإذا توجه إليه الساحر سُخر له وإلى هذا الأصل الإشارة بقوله تعالى في ذكر سحرة فرعون ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ (الأعراف: ١١٦).

الثاني: استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من الحيوان والمعدن وهذا يرجع إلى خصائص طبيعية كخاصية الزئبق ومن ذلك العقاقير المؤثرة في العقول صلاحًا أو فسادًا والمفترة للعزائم والمخدرات والمرقدات على تفاوت تأثيرها، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى في سحرة فرعون: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ (طه: ٦٩).

الثالث: الشعوذة واستخدام خفايا الحركة والسرعة والتموج حتى يخيل الجماد متحركًا وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٦٦).

هذه أصول السحر بالاستقراء. (٢)

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثة يأتي شرحها:

فأولها: المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة **السحر**.

وثانيها: بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد، ويسمونه الطلسمات، وهو أضعف رتبة من الأولى.

والثالث: تأثير في القوى المتخيلة. يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة، فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعًا من الخيالات والمحاكاة وصورًا مما يقصده من ذلك،

---

(١) التفسير الكبير (١/ ٤٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٣).

ثم ينزلها إلى الحس من الرئين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظرها الراؤون كأنها في الخارج، وليس هناك شيء من ذلك، كما يحكى عن بعضهم أنه يري البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك. ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة.

واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه، وقد نطق به القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٠٢). وسُحر رسول الله ﷺ، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان، فأنزل الله ﷻ عليه في المعوذتين: " ومن شر النفاثات في العقد ". قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت. (١)

الوجه الثاني: تخريج الحديث، والرد على من ضعفه.

قال الإمام البخاري في صحيحه: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدِي دَعَا اللهَ وَدَعَاهُ ثُمَّ قَالَ: أَشَعَرْتِ يَا عَائِشَةُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ قُلْتُ وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ جَاءَنِي رَجُلَانِ فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ الْيَهُودِيُّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، قَالَ فِيمَا ذَا قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ قَالَ فَأَيْنَ هُوَ قَالَ فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ قَالَ فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْبِئْرِ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ فَقَالَ: وَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَأَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: "لَا، أَمَّا أَنَا

---

(١) مقدمة ابن خلدون (صـ٤٩٧: ٤٩٨).

فَقَدْ عَافَانِيَ اللهُ وَشَفَانِي وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا وَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ". [(١)]

وعند البخاري[(٢)] من طريق عيينة عن ابن جريج قال: حدثني آل عروة عن عروة، فسألت هشامًا عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة به.

قال ابن حجر: وظاهره أن غير هشام أيضًا رواه عن عروة، وقد جاء تابعًا لعروة عن عائشة[(٣)].

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة: من طريق سلمة بن حبان عن يزيد عن هارون أخبرنا محمد بن عبيد الله عن أبي بكر بن محمد عن عمرة عن عائشة وذكرت الحديث في بعض الاختلافات، فانظر هناك. [(٤)]

قال الألباني: وهذا إسناد ضعيف جدًا، وعلته محمد بن عبيد الله العزرمي وهو متروك، أما سلمة بن حبان فذكره ابن حبان في ثقاته، وقد روى عنه جمع من الرواة الثقات. [(٥)]

وقد روى الحديث عن غير عائشة رضي الله عنها رواه جمع من الصحابة والتابعين مرفوعًا ومرسلًا، فروى عن أنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وابن عباس، وروي من مرسل سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم ويحيى بن يعمر وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجماعة غيرهم.

أما حديث زيد بن أرقم: فأخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٦٧)، والنسائي في سننه (٧/ ١١٣: ١١٢)، وعبد بن حميد في مسنده (٢٧١)، والطحاوي في المشكل (٤٧٨٩)، والطبراني في الكبير (٥٠١٦: ٥٠١٣) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم بنحوه مع اختلاف في الألفاظ.

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه بالأرقام الآتية: (٣٢٦٨، ٣١٧٥، ٥٧٦٣، ٦٣٩١، ٦٠٦٣، ٥٧٦٦، ٥٧٦٥) عن جمع من الرواة كلهم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. وأخرجه مسلم في موضع واحد من صحيحه (٢١٨٩) من طريقين عن هشام عن أبيه عن عائشة أيضًا، وأخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٩٦، ٦٣، ٥٧، ٥٠) عن جماعة من الرواة مختصرًا ومطولًا عن هشام عن أبيه عن عائشة، وكذا أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٤٧٨٨). بمثل الإسناد من طريق هشام بن عروة، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٥٩٢٦).

(٢) البخاري (٥٧٦٥)

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٣٦).

(٤) دلائل النبوة (٧/ ٩٤: ٩٢).

(٥) السلسلة الصحيحة (٦/ ٦١٨).

قال الألباني: هذا إسناد صحيح كما قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء وهو على شرط مسلم، رجاله رجال الشيخين سوى يزيد هذا، فهو من رجال مسلم، ولم يخرج له البخاري.(١)

قلت: هذا الإسناد فيه عنعنة الأعمش وهو ثقة كثير التدليس، ولم يصرح بالسماع، وليس يزيد ممن تسامح العلماء في عنعنة الأعمش عنه كإبراهيم النخعي وأبي صالح السمان وأبي وائل كما ذكرهم الذهبي في ميزان الاعتدال.(٢)

وقد خالف أبا معاوية في الأعمش جماعة هم:

سفيان الثوري، وأخرج حديثه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٥٣)، وشيبان عند الطبراني (٥٠١٢، ٥٠١١)، وجرير عند الحاكم (٤/ ٣٦١: ٣٦٠)، فرووه عن الأعمش عن ثمامة بن عقبة عن زيد بن أرقم به.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد أعقبه الذهبي رحمه الله فقال: لم يخرجا لثمامة شيئًا وهو صدوق.

قال الشيخ الألباني رحمه الله: بل هو ثقة كما قال الذهبي نفسه في الكاشف تبعًا لابن معين والنسائي، وكذا قال الحافظ في التقريب فالسند صحيح.(٣)

وقال أيضًا: وأبو معاوية هو محمد بن حازم الضرير، قال الحافظ في التقريب ثقة، أحفظ الناس لحديث الأعمش، وقال أيضًا: وهذا مما منعنا من الحكم على إسناده بالشذوذ لمخالفته للثقات الثلاثة المتقدمين، فالظاهر أن الأعمش له فيه شيخين عن زيد بن أرقم، والله أعلم.(٤)

حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

فأخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٥٣)، البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٤٨)، وذكر السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٦٨٧) أن ابن مردويه رواه من طريق عكرمة عن ابن

---

(١) السلسلة الصحيحة (٦/ ٦١٧).

(٢) ميزان الاعتدال (٢/ ٢٢٤).

(٣) السلسلة الصحيحة (٦/ ٦١٦).

(٤) السلسلة الصحيحة (٦/ ٦١٧).

عباسﷺ بدون إسناد. أما الإسناد الأول عند ابن سعد ففيه جويبير وهو أبو القاسم البلخي، ذكره الحافظ في التقريب وقال: ضعيف جدًا. (١)

وهذا كاف لتضعيف الإسناد، إلا أنه فيه الضحاك وإن كان ثقة، إلا أنه لم يسمع من ابن عباس شيئًا، وذكر ابن أبي حاتم في المراسيل في ترجمته كلامًا، انظر ترجمته (١٤٩/ ٨٥)

أما إسناد البيهقي ففيه محمد بن السائب هو الكلبي، قال الحافظ في التقريب(٢): متهم بالكذب، رمى بالرفض، وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل. (٣)

أما حديث أنس بن مالك ﷺ فذكره السيوطي في الدر المنثور نقلًا عن ابن مردويه بدون إسناد. (٤)

الأحاديث المرسلة:

١ـ **مرسل سعيد بن المسيب**: أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٦٤)، والطبري (١/ ٤٦٠) من طريق الزهري عن ابن المسيب وعروة بن الزبير، وذكر الحديث.

قلت: وهذا الأثر سنده صحيح إلى ابن المسيب، إلا أنه مرسل وسعيد لم يدرك النبيﷺ، وكذلك عروة. أما قول الزهري: وكان النبي ﷺ يقول فيما بلغنا سحرني يهود بني زريق، فهذا ضعيف أيضًا، لأن مرسلات الزهري واهية وضعيفة جدًا. (٥)

٢ـ **مرسل يحيى بن يعمر**: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٧٦٥) عن يعمر عن عطاء الخراساني عن يحيى بن يعمر.

٣ـ **مرسل عبد الرحمن بن أبي ليلى**: أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث (١/ ٢٣٢)، وكذا ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٥٥).

٤ـ **مرسل زيد بن أسلم**: ذكره السيوطي في الدر المنثور نقلًا عن مسند عبد بن حميد (٨/ ٦٨٧).

---

(١) تقريب التهذيب (١٠٣٣).

(٢) تقريب التهذيب (٦١٢٤).

(٣) الجرح والتعديل (٧/ ٢٧١).

(٤) الدر المنثور (٨/ ٦٨٧).

(٥) مقدمة ابن الصلاح الحاشية، في باب معرفة الرسل (٩٠).

الرد على تضعيفهم لهشام بن عروة
الرواة لحديث السحر عن هشام بن عروة.

١ - يحيى بن سعيد القطان البصري عند البخاري (٦/ ٢٧٦) وأحمد (٦/ ٥٠) وابن جرير (٢/ ٤٣٧).

٢- عيسى وهو ابن يونس الكوفي عند البخاري (٦/ ٣٣٤) و(١٠/ ٢٢١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٠) وإسحاق (٢/ ٦٨) وعند ابن حبان (٨/ ١٩٤) من تقريب الإحسان وقال البخاري (جـ١٠ صـ٢٢١) تابعة أبو أسامة وأبو ضمرة وابن أبي الزناد عن هشام وقال الليث وابن عيينة. عن هشام.

٣- ابن جريج المكي عند البخاري (١٠/ ٢٣٢).

٤- أبو أسامة وهو حماد بن أسامة الكوفي عند البخاري (١٠/ ٢٣٥) وعند مسلم (١٤/ ١٧٨) وعند أحمد (٦/ ٦٣) وعند أبي يعلى (٨/ ٩٠).

٥- سفيان بن عيينة الكوفي نزيل مكة عند البخاري (١٠/ ٤٧٩)، وعند الحميدي (١/ ١٢٥)، وابن حزم (١١/ ٤٠٠)، وقال: هذا خبر صحيح، والشافعي كما في المسند (٢/ ١٩٦).

٦- أبو ضمرة أنس بن عياض المدني عند البخاري (٢/ ١٩٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٩/ ٢٤٧) والبغوى في شرح السنة (٦/ ٢٧٩).

٧- عبد الله بن نمير الكوفي عند مسلم (١٤/ ١٧٤)، وابن ماجة (٢/ ١١٧٣)، وعند أحمد (٦/ ٥٧)، وعند ابن أبي شيبة (٨/ ٣٠)، وابن جرير (٢/ ٤٣٧)، وعند ابن حبان (٨/ ١٩٤) من تقريب الإحسان.

٨- مَعمر بن راشد البصري نزيل اليمن عند أحمد (٦/ ٦٣).

٩- وهيب وهو خالد البصري عند أحمد (٦/ ٩٦)، وعند ابن سعد (٢/ ٤).

١٠- عبد الرحمن بن أبي الزناد المدني كما ذكره البخاري معلقًا (١٠/ ٢٢١)، قال الحافظ في الفتح ولم أعرف من وصلها.

١١- الليث بن سعد المصري عند البخاري (٧/ ١٤٥) مع الفتح معلقًا، قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٤٥) رويناه موصولًا في نسخة عيسى بن حماد رواية أبي بكر بن أبي داود. اهـ.

١٢- مُرجى بن رجاء البصري ذكره الحافظ في تغليق التعليق (٥/ ٤٩)، وعزاه في الفتح إلى الطبراني.

١٣- حماد بن سلمة البصري ذكره الحافظ في تغليق التعليق (٥/ ٤٩).

١٤- علي بن مُسْهِر في مشكل الآثار للطحاوي (١٥/ ١٧٩).

فأنت ترى أن الحديث قد رواه جماعة عن هشام بن عروة منهم البصري، ومنهم الكوفي، ومنهم المكي، ومنهم المدني، ومنهم المصري، وناهيك بحديث من رواية يحيى بن سعيد القطان وهو في غاية من التحري، وهذا الحديث لم ينتقده محدث وهم الحجة لا أصحاب الأهواء فإنهم أعداء السنن.

وهشام بن عروة تكلم بعضهم فيما حدَّث بالعراق وأنه حدَّث عن أبيه بما لم يسمع منه وهذا منفي هنا فإنه قد صرح بالتحديث عن أبيه وقد قال أبو الحسن بن القطان: إن هشامًا اختلط فقال الحافظ في (تهذيب التهذيب) ولم نر له في ذلك سلفًا.

وقال الحافظ الذهبي في (ميزان الاعتدال): هشام بن عروة أحد الأعلام. حجة إمام، لكن في الكبر تناقص حفظه، ولم يختلط أبدًا، ولا عبرة بما قاله أبو الحسن بن القطان من أنه وسهيل بن أبى صالح اختلطا، وتغيرا. نعم الرجل تغير قليلًا ولم يبق حفظه كهو في حال الشبيبة، فنسى بعض محفوظه أو وهم، فكان ماذا! أهو معصوم من النسيان!

ولما قدم العراق في آخر عمره حدث بجملة كثيرة من العلم، في غضون ذلك يسير أحاديث لم يجودها، ومثل هذا يقع لمالك ولشعبة ولوكيع ولكبار الثقات، فدع عنك الخبط وذر خلط الأئمة الأثبات بالضعفاء والمخلطين، فهشام شيخ الاسلام، ولكن أحسن الله عزاءنا فيك يا بن القطان، وكذا قول عبدالرحمن بن خراش: كان مالك لا يرضاه، نقم عليه حديثه لأهل العراق، قدم الكوفة ثلاث مرات: قدمة كان يقول حدثنى أبى، قال: سمعت عائشة. والثانية فكان يقول: أخبرني أبى عن عائشة. وقدم الثالثة فكان يقول: أبى، عن عائشة - يعنى يرسل عن أبيه.

وذكر الحافظ في الفتح: أنه جاء عَمرة عن عائشة فإن ثبت حديث عمرة عن عائشة فيزداد الحديث قوة وإلا فالحديث صحيح والحمد لله ثم وجدته في دلائل النبوة للبيهقي (٧/ ٩٢) وفي سنده سلمة ابن حبان البصري ترجمه ابن ماكولا وقال: روى عنه عبدالله بن أحمد بن حنبل ويوسف بن يعقوب القاضي اهـ.

وترجمه ابن أبي حاتم وقال: روى عنه علي بن الحسين بن الجنيد ولم يذكر أنه وثقه معتبر فعلى هذا فهو مستور الحال يصلح حديثه في الشواهد والمتابعات(١).

قال عثمان بن سعيد الدارمي: قلت ليحيى بن معين: هشام بن عروة أحب إليك عن أبيه أو الزهري؟ فقال: كلاهما، ولم يفضل.

قال يحيى بن سعيد: قال هشام ابن عروة: جلست في مجلس فيه مجمع من قريش فحدثت بحديث فأنكره علي بعضهم، فقلت: أنا سمعته من أبي، فممن سمعته أنت؟ فلم يكن عنده حجة. قال يحيى: رأيت مالك بن أنس في النوم فسألته عن هشام بن عروة، فقال: أما ما حدث به وهو عندنا فهو - أي كأنه يصححه -، وما حدث به بعدما خرج من عندنا، فكأنه يوهنه.

وقال محمد بن سعد: كان ثقة ثبتًا كثير الحديث حجة. (٢)

وقال العجلي: كان ثقة.

وقال أبو حاتم: ثقة، إمام في الحديث.

وقال يعقوب بن شيبة: ثبت، ثقة، لم ينكر عليه شيء إلا بعدما صار إلى العراق فإنه انبسط في الرواية عن أبيه، فأنكر ذلك عليه أهل بلده، والذي يرى أن هشاما يسهل لأهل العراق أنه كان لا يحدث عن أبيه إلا بما سمعه منه فكان تسهله أنه أرسل عن أبيه مما كان يسمعه من غير أبيه عن أبيه.

---

(١) ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر (صـ٨٩: ٩٣).

(٢) تهذيب الكمال، الطبقات لابن سعد (٧/ ٣٢١).

ذكره ابن حبان في الثقات وقال كان متقنًا ورعًا فاضلًا حافظًا، وقال ابن شاهين في الثقات: قال يحيى بن سعيد هشام بن عروة عن عبد الرحمن بن القاسم مكي عن مكي وقال الآجري عن أبي داود لما حدث هشام بن عروة بحديث أم زرع هجره أبو الأسود يتيم عروة وقال العقيلي قال ابن لهيعة كان أبو الأسود يعجب من حديث هشام عن أبيه وربما مكث سنة لا يكلمه.

قال أبو الأسود لم يكن أحد يرفع حديث أم زرع غيره. وقال أبو الحسن بن القطان: تغير قبل موته وقال ابن حجر ولم نر له في ذلك سلفًا. وقال بن حجر ثقة فقيه ربما دلس.

شرح الحديث

سحر النبي ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، وهكذا في جميع الروايات وجاء في رواية سفيان بن عيينة حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن هكذا رواها عبد الله بن محمد عنه كما في البخاري. [1]

ورواه الحميدي عنه بلفظ (ليخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهم) كما في مسنده[2].

ورواية سفيان موضحة ومبينة للرواية الأخرى وفي مرسل سعيد بن المسيب (حتى كاد ينكر بصره).

وكانت مدة السحر ستة أشهر كما في رواية معمر بن راشد عند أحمد وذكر الحافظ أن في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي (فأقام أربعين ليلة) وجمع الحافظ بينهما بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه والأربعين يومًا من استحكامه. [3]

(أُشعرت) أي أُعلمت، وهي رواية ابن عيينة (أفتاني فيما استفتيته)

قال الحافظ: في رواية الحميدي " أفتاني في أمر استفتيته فيه " أي أجابني فيما دعوته، فأطلق على الدعاء استفتاء لأن الداعي طالب والمجيب مفت، أو المعنى أجابني بما سألته

---

(١) البخاري (٥٧٦٥).

(٢) الحميدي (٢٥٩).

(٣) الفتح (١٠/ ٢٣٧).

عنه، لأن دعاءه كان أن يطلعه الله على حقيقة ما هو فيه لما اشتبه عليه من الأمر.[١]

"جاءني رجلان " في رواية معمر عند أحمد ومرجي بن رجاء عند الطبراني كلاهما عن هشام (آتاني ملكان) وجاء في حديث زيد بن أرقم أن أحدهما جبريل ووقع في رواية أخرى ضعيفة عن ابن سعد في الطبقات.[٢]

(ما وجع الرجل) وفي رواية ابن عيينة " ما بال الرجل "؟ وفيه إشارة إلى أن ذلك وقع في المنام، إذ لو جاءا إليه في اليقظة لخاطباه وسألاه. ويحتمل أن يكون كان بصفة النائم وهو يقظان، فتخاطبا وهو يسمع. وأطلق في رواية عمرة عن عائشة أنه كان نائما، وكذا في رواية ابن عيينة عند الإسماعيلي " فانتبه من نومه ذات يوم " وهو محمول على ما ذكرت، وعلى تقدير حملها على الحقيقة فرؤيا الأنبياء وحي.[٣]

قلت: قد وقع في رواية معمر عند أحمد أيضًا (فاستيقظ النبي ﷺ من نومه) (مطبوب) قال الحافظ (مطبوب) أي مسحور يقال طب الرجل بالضم إذا سحر يقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلا كما قالوا للديغ سليم.[٤]

وقال ابن الأنباري: فما نقله الحافظ عنه (الطب من الأضداد يقال لعلاج الداء طب والسحر من الداء ويقال له طب).

وقال أبو عبيد: طُبَّ أي سُحر.[٥]

وقال القرطبي: فيما نقله عنه الحافظ في الفتح: إنما قيل للسحر طب لأن أصل الطب الحذق بالشيء والتفطن له، فلما كان كل من علاج المرض والسحر إنما يتأتى عن فطنة وحذق أطلق على كل منهما هذا الاسم.

---

(١) الفتح (١٠/ ٢٣٨).

(٢) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٥٢).

(٣) الفتح (١/ ٢٣٩).

(٤) الفتح (١٠/ ٢٣٩).

(٥) غريب الحديث (١/ ٢٣٢).

(مشط ومشاطة وجُفِّ طلعة ذكر): (مشط) ذكر النووي والحافظ ابن حجر أن فيهما ثلاث لغات (مِشْط، مُشْط، مُشُط). [١]

قال الحافظ: وهو الآلة المعروفة التي يسرح بها الشعر للرأس واللحية وهذا هو المشهور. [٢]

قال البخاري: يقال المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط. [٣]

وقال ابن قتيبة فيما نقله الحافظ: المشاطة ما يخرج من الشعر الذي سقط من الرأس إذا سرح بالمشط وكذا من اللحية.

وقال ابن حجر: وهذا لا اختلاف فيه بين أهل اللغة. [٤]

أما المشاقة: فقد قال البخاري (المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط والشاقة من مشاقة الكتان.

وقال ابن حجر: قيل المشاقة هي المشاطة بعينها والقاف تبدل من الطاء لقرب المخرج.

(وجُفِّ طلعة ذكر) وجُفِّ وفي بعض الروايات وجُبِّ

قال النووي: وهما بمعنى، وهو وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه، ويطلق على الذكر والأنثى، فلهذا قيده في الحديث بقوله: (طلعة ذكر) وهو بإضافة طلعة إلى ذكر. [٥]

قال الحافظ: ووقع في روايتنا هنا بالتنوين فيهما على أن لفظ " ذكر " صفة لجف.

ونقل الحافظ عن القرطبي: أن الذي بالفاء هو وعاء الطلع وهو للغشاء الذي يكون عليه، وبالموحدة داخل الطلعة إذا خرج منها الكفري، قاله شمر. [٦]

---

(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٣٢).

(٢) الفتح (١٠/ ٢٣٩).

(٣) البخاري (٥٧٦٣).

(٤) الفتح (١٠/ ٢٤٢).

(٥) مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٣٢).

(٦) الفتح (١٠/ ٢٤٠).

وقد وقع في رواية ابن عيينة ومعمر ومرجي بن رجاء في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر تحت راعوفة. (أي أن المشط والمشاطة بداخل الجف).

(راعوفة) قال الحافظ: والراعوفة حجر يوضع على رأس البئر لا يستطاع قلعه يقوم عليه المستقي. وقد يكون في أسفل البئر.

قال أبو عبيد: هي صخرة تنزل في أسفل البئر إذا حفرت يجلس عليها الذي ينظف البئر، وهو حجر يوجد صلبًا لا يستطاع نزعه فيترك. (١)

(بِئْر ذِي أَرْوَان)

قال النووي: هكذا هو في جميع نسخ مسلم: (ذِي أَرْوَان) وكذا وقع في بعض روايات البخاري. وفي معظمها (ذروان) وكلاهما صحيح، والأول أجود وأصح. وادعى ابن قتيبة أنه الصواب، وهو قول الأصمعي، وهو بئر بالمدينة في بستان بني زريق. (٢)

قال ابن حجر: بأن الأصل (بِئْر ذِي أَرْوَان) ثم كثرة الاستعمال سهَّلت الهمزة فصارت ذروان. (٣)

(لكأن ماءها نقاعة الحناء)

قال ابن حجر: أي أن لون ماء البئر لون الماء الذي ينقع فيه الحناء. قال ابن التين: يعني أحمر. وقال الداودي. المراد الماء الذي يكون من غسالة الإناء الذي تعجن فيه الحناء. قلت: ووقع في حديث زيد بن أرقم عند ابن سعد وصححه الحاكم " فوجد الماء وقد اخضر " وهذا يقوي قول الداودي. (٤)

(قلت يا رسول الله ﷺ أفأخرجته؟ قال: لا)

---

(١) الفتح (١٠/ ٢٤٥).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٣٣).
(٣) الفتح (١٠/ ٢٤٠).
(٤) الفتح (١٠/ ٢٤١).

هكذا في معظم الروايات أن عائشة رضي الله عنها سألت الرسول ﷺ عن استخراج السحر وفي بعضها أجابها ب (لا)، والبعض الأخر لم يذكر هذا الجواب ولكن قول الرسول ﷺ بعدها: "أما أنا فقد عافاني الله وشفاني وحشيت أن أُثِّور على الناس منه شرًا " يدل على أنه لم يستخرجه، ووقع في رواية سفيان ومعمر أن النبي ﷺ أخرج السحر وأن سؤال عائشة كان عن النشرة.

وقد أجاب ابن المهلب فيما نقله الحافظ عنه في الفتح بجوابين عن هذا الاختلاف بين الروايات.[١]

أحدهما: أن رواية سفيان أرجح لأنها زيادة من ثقة فتكون مقبولة وأنه حفظ مالم يحفظه غيره.

قلت: وقد تابعه معمر عند أحمد وله شاهد من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

الثاني: أن الاستخراج المنفي في رواية أبي أسامة ومن تابعه وغيره غير الاستخراج المثبت في رواية سفيان. فالمثبت هو استخراج الجف، والمنفي هو استخراج ما حواه قال فكأن السر في ذلك أن لا يراه الناس فيتعلمه من أراد استعمال السحر.

فالنظر في هذا الحديث في مقامين:

المقام الأول: ملخص الحديث أنه ﷺفي فترة من عمره ناله مرض خفيف ذكرت عائشة أشد أعراضه بقولها (حتى كان يرى أنه يأتي أهله ولا يأتيهم) وفي رواية (حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن) وفي أخرى (يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله) والرواية الأولى فيما يظهر أصح الروايات فالأخريان محمولتان عليها.

قال ابن حجر: قال بعض العلماء. لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك. وإنما يكون من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت.

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٤٥).

أقول: وفي سياق الحديث ما يشهد لهذا فإن فيه شعوره ﷺبذلك المرض ودعاءه ربه أن يشفيه.

فالذي يتحقق دلالة الخبر عليه أنه ﷺكان في تلك الفترة يعرض له خاطر أنه قد جاء لعائشة وهو ﷺ عالم أنه يجئها ولكنه كان يعاوده ذلك الخاطر على خلاف عادته فتأذّى ﷺ من ذلك وليس في حمل الحديث على هذا تعسف ولا تكلف. [١]

المقام الثاني: حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال: " أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه "، "أتاني رجلان" أي ملكان كما في رواية أخرى في صورة رجلين فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل؟ قال مطبوب قال ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم: قال في أي شيء؟ قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر. قال: فأين هو؟ قال في بئر ذي أروان) فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه فجاء قلت يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: "قد عافاني الله فكرهت أن أثور على الناس منه شرًا فأمرت بها فدفنت ".

ومحصل هذا أن لبيد بن الأعصم أراد إلحاق ضرر بالنبي ﷺ فعمل عملًا في مشط ومشاطة. . . إلخ فهل من شأن ذلك أن يؤثر؟ قد يقال: لا، ولكن إذا شاء الله تعالى خلق الأثر وعقبه والأقرب أن يقال: نعم بإذن الله والإذن هنا خاص وبيانه أن الأفعال التي من شأنها أن تؤثر ضربان.

الضرب الأول: ما أذن الله تعالى بتأثيره إذنًا مطلقًا ثم إذا شاء منعه وذلك كالاتصال بالنار مأذون فيه بالإحراق إذنًا مطلقًا فلما أراد الله تعالى منعه قال: ﴿ يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ ﴾(الأنبياء: ٦٩).

الضرب الثاني: ما هو ممنوع من التأثير منعًا مطلقًا فإذا اقتضت الحكمة أن يمكن من التأثير رفع المنع فيؤثر وقوله تعالى في السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٠٢) يدل أنه من الضرب الثاني وأن المراد بالإذن: الإذن الخاص والحكمة في

---

(١) فتح الباري: (١٠/ ١٩٣).

مصلحة الناس تقتضي هذا، والواقع في شئونهم يشهد وإذا كان هذا حاله فلا غرابة في خفاء وجه التأثير علينا.

الوجه الثالث: الرد على قولهم أن سحر النبي ﷺ مخالف للقرآن في نفيه السحر عنه ﷺ.

أقول: كان المشركون يعلمون أنه لا مساغ لأن يزعموا أنه ﷺ يفتري- أي يتعمد – الكذب على الله ﷻ فيما يخبر به عنه، ولا لأنه يكذب في ذلك مع كثرته غير عامد، فلجأوا إلى محاولة تقريب هذا الثاني. بزعم أن له اتصالًا بالجن، وأن الجن يلقون إليه ما يلقون فيصدقهم ويخبر الناس بما ألقوه إليه، هذا مدار شبهتهم، وهو مرادهم بقولهم: (به جنة). مجنون. كاهن. ساحر. مسحور. شاعر، كانوا يزعمون أن للشعراء قرناء من الجن تلقي إليهم الشعر فزعموا أنه شاعر أي أن الجن تلقي إليه كما تلقى إلى الشعراء ولم يقصدوا أنه يقول الشعر. أو أن القرآن شعر.

إذ عرف هذا فالمشركون أرادوا بقولهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أن أمر النبوة كله سحر – وأن ذلك الشيء عن الشياطين استولوا عليه- بزعمهم- يلقون إليه القرآن ويأمرونه ويفهمونه فيصدقهم في ذلك كله ظانًا أنه إنما يتلقى من الله وملائكته. ولا ريب أن الحال التي ذكر في الحديث عروضها له ﷺ لفترة خاصة ليست هي هذه التي زعمها المشركون، ولا هي من قبلها في شيء من الأوصاف المذكورة إذن تكذيب القرآن وما زعمه المشركون لا يصح أن يؤخذ منه نفيه لما في الحديث.

فإن قيل قد أطلق لى تلك الحالة أنها سحر، ففي الحديث عن عائشة ((سحر رسو ل الله ﷺ....)) والسحر من الشياطين، وقد قال الله تعالى للشيطان ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (الحجر: ٤٢)

قلت: أما الذي أخبر به النبي ﷺ عن الملك فإنما سماها طبا كما مر في الحديث، وقد أنشد ابن فارس[١]

(١) مقاييس اللغة (٣/ ـ٤٠٨).

فإن كنت مطبوبًا فلا زالت هكذا وإن كنت مسحورًا فلا برأ السحر.

وأقل ما يدل عليه هذا أن الطب أخص من السحر، وأن من الأنواع التي يصاب بها الإنسان ويطلق عليها سحر ما يقال له ((طب)) وما لا يقال ((طب)) وعلى كل حال فالذي ذكر في الحديث ليس من نوع ما زعمه المشركون، ولا هو من ملابسة الشيطان، وإنما هو أثر النفس الساحر وفعله، وقد قدمت أن وقوع أثر ذلك نادر فلا غرابة في خفاء تفسيره. وهذا يغني عما تقدم.[1]

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم فالحديث متلقى بالقبول بينهم لا يختلفون في صحته وقد اعترض عليه كثير من أهل الكلام وغيرهم وأنكروه أشد الإنكار وقابلوه بالتكذيب وصنف بعضهم فيه مصنفًا مفردًا حمل فيه على هشام وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال غلط واشتبه عليه الأمر ولم يكن من هذا شيء قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يسحر فإنه يكون تصديقًا لقول الكفار ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (الإسراء: ٤٧) وهذا كما قال فرعون لموسى عليه السلام ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (الاسراء: ١٠١).

وقال قوم صالح له ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الشعراء: ١٥٣)

وقال قوم شعيب له﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ (الشعراء: ١٨٥)

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم فإن هشامًا من أوثق الناس وأعلمهم ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه فما للمتكلمين وما لهذا الشأن وقد رواه غير هشام عن عائشة رضي الله عنها.

---

(١) الأنوار الكاشفة (صـ٢٤٩).

وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ولم يتكلم فيه أحد من أهل العلم بكلمة واحدة والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين. (١)

وأما الآيات التي استدلوا بها لا حجة فيها.

أما قوله تعالى عن الكفار أنهم قالوا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٧) وقول قوم صالح له ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٥٣) فقيل المراد به من له سحر وهي الرئة أي أنه بشر مثلهم يأكل ويشرب ليس بملك ليس المراد به السحر وهذا جواب غير مرض وهو في غاية البعد فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور ولا يعرف هذا في لغة من اللغات وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر، فقالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا أنؤمن لبشر مثلنا أبعث الله بشرا رسولا وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر وهي الرئة وأي مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع ثم كيف يقول فرعون لموسى إني لأظنك يا موسى مسحورا أفتراه ما علم أنه له سحرا وأنه بشر ثم كيف يجيبه موسى بقوله﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾﴾ (الإسراء: ١٠٢) ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى وقال نعم أنا بشر أرسلني الله إليك كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم إن أنتم إلا بشرا مثلنا فقالوا إن نحن إلا بشرًا مثلكم ولم ينكروا ذلك فهذا الجواب في غاية الضعف وأجابت طائفة منهم ابن جرير وغيره بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إياه غيره فالمسحور عنده بمعنى ساحر أي عالم بالسحر وهذا جيد إن ساعدت عليه اللغة وهو أن من علم السحر يقال له مسحور ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال ولا في اللغة وإنما المسحور من سحره غيره كالمطبوب والمضروب والمقتول وبابه.

وأما من علم السحر فإنه يقال له ساحر بمعنى أنه عالم بالسحر وإن لم يسحره غيره كما قال قوم فرعون لموسى ﴿ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ (الشعراء: ٣٤) ففرعون قذفه

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٤٤٩: ٤٥٣).

بكونه مسحورا وقومه قذفوه بكونه ساحرا فالصواب هو الجواب الثالث وهو جواب صاحب الكشاف وغيره إن المسحور على بابه وهو من سحر حتى جن فقالوا مسحور مثل مجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول فهو كالمجنون ولهذا قالوا فيه معلم مجنون فأما من أصيب في يده بمرض من الأمراض يصاب به الناس فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بها يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين ولهذا قال تعالى ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٤٨) مثلوك بالشاعر مرة والساحر أخرى والمجنون مرة والمسحور أخرى فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقا يسلكه فلا يقدر عليه فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلا ولا يقدر على سلوكها فهكذا حال أعداء رسول الله معه حتى ضربوا له أمثالا برأه الله منها وهو أبعد خلق الله منها وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء على شفاء من يشاء من غير سبب والسحر من الأسباب التي يحصل بها الضرر وقد نال الرسول المعصوم ﷺ ذلك الضرر وهو القدوة والأسوة قوله وفعله صلوات الله وسلامه عليه شرع وتنهج لأمته.

وقد بين الله تعالى له بواسطة الملكين سبب وجعه ومادته ومكانه وقد قال ﷺ: "أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفاني" أو "أعلمت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه" أو نحو ذلك.

وهذه الألفاظ توحي بإزالة السبب ليزول المسبب وهي الفتوى التي فيها الشفاء وقد بادر العبد الرسول ﷺ بإتيانها وإخراجها وحلها ليبطل تأثيرها وهذا مما لا يخفى حيث أن الأثر يزول بزوال مؤثره إذا كان مرتبطًا به كأثر المغناطيس في الجذب والبرودة في الثلج ونحو ذلك مما لا يزول أثره إلا بإزالته أو بأن يمنع من أثره مؤثر أقوى منه.

وأيضًا ما قيمة إخبار الرسول ﷺ بمادة السحر ومكانه إذا لم يكن لإخراجه وإتلافه معنى وقيمة، ثم إن حصول الشفاء للرسول ﷺ من ذلك الضرر من غير سلوك أسبابه قهرًا لأعدائه ﷺ وإظهارًا لحماية الله تعالى وعصمته من كيد أعدائه كما يكون ذلك في حالة عدم تأثير السحر عليه لكن الله سبحانه وتعالى كما ابتلى رسوله ﷺ بتأثير السحر عليه لم يميزه بإزالة الأثر من غير تعاطي الأسباب وهو العليم الحكيم والمشرع العليم لتكون القدرة للأمة بنبيها ﷺ وقد أنزل الله سبحانه وتعالى المعوذتين لهذا السبب لطلب الالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء ليحميه من أسباب الشر والضرر لأنه القادر على منع ذلك فالتعوذ بهاتين السورتين عبادة لله تعالى وسبب للوقاية من الأضرار والحمد لله رب العالمين. (١)

الوجه الرابع: أن حديث سحر النبي ﷺ يخالف قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

والرد على ذلك نقول: أنه كلام حق أريد به باطل:

فهذا استدلال واهٍ جدًا وهو استدلال بالمتشابه من المعاني فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حق وصدق يجب الإيمان به كسائر آيات الله ولكن الإيمان لا يكمُل إلا إذا فُسِّر القرآن تفسيرًا صحيحًا مجردًا عن الأهواء والأغراض والتعصب المذهبي.

أولًا: هذه الآية نزلت حينما كان النبي ﷺ يقوم على حراسته ـ وهو سعد بن أبي وقاص ـ بعض أصحابه ولو كان في المعركة فأنزل الله عز وجل عليه هذه الآية وهو في كوخ صغير متواضع وبجانبه أحد أصحابه فلما نزلت هذه الآية صرفه وتلاها عليه ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أن الله يعصمه من الناس أن يقتلوه قبل أن يتمكن من أن يقوم بواجب التبليغ لدعوة ربه.

إن سحر الأنبياء لا ينافي حماية الله تعالى لهم فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل

(١) كتاب السحر بين الحقيقة والخيال (صـ١٢٠: ١٢١).

والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم ولتمتلئ صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة لا إله غيره ولا رب سواه، لذلك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها لما سئلت (هل رأى محمد ربه)؟ فقالت: لقد قَفَّ شعري مما قلت.

قال: يا أم المؤمنين أليس يقول رب العالمين ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم ١٣: ١٤) قالت رضي الله عنها: أنا أعلم الناس بذلك سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: رأيت جبريل في صورته التي خُلق فيها مرتين وله ستمائة جناح وقد سدَّ الأفق. جبريل رآه الرسول ﷺ مرتين وليس رب العالمين حيث يهم بعض الناس فيُرجعون الضمير إلى رب العالمين فالسيدة عائشة تقول: أنا أعلم الناس بذلك لأنها سألت الرسول ﷺ فأجابها بأنه لم يرى ربه وإنما رأى جبريل عليه السلام مرتين في صورته الطبيعية التي خلقه الله عليها وهو لعظمته قد سدَّ الأفق.

ثم تابعت السيدة عائشة رضي الله عنها كلامها معلِّمة المسلمين لأنها من أمهات المؤمنين قالت ثلاث من حدَّثكم بهن فقد أعظم على الله الفرية: من حدَّثكم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ثم تلت قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى: ٥١).

ومن حدَّثكم أن محمدًا ﷺ كان يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ثم تلت قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (النمل: ٦٥).

والثالثة والآخرة ـ وهنا الشاهد ـ قالت: من حدَّثكم أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا أُمر بتبليغه فقد أعظم على الله الفرية ثم تلت قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (المائدة: ٦٧) أن يحولوا بينك وبين تبليغك لرسالة ربك.

هذا هو معنى الحديث فليس له علاقة بتسلط بعض المشركين الأشرار على النبي ﷺ بشيء من الإيذاء كيف ومن الثابت في السيرة النبوية أن النبي ﷺقد أُذي وشُج في رأسه في بعض الغزوات وكُسرت رباعيته فهل هذا ينافي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾

الجواب: لا: لأن الآية في معناها الصحيح في وادٍ ودعوى أولئك الناس في وادٍ آخر.

ثم هم يبطلون بهذا الفهم الخاطئ حديثًا صحيحًا متفق عليه بين الشيخين:

أولًا: البخاري ومسلم ثم هو مما تلقته الأمة بالقبول وقد جاء له أن إسناده في غاية الصحة لأن له طرقًا كثيرة تدور كلها على هشام بن عروة عن عائشة هذا السند معروف جدًا جدًا عروة هو ابن أسماء أخت عائشة وهشام هو ابن عروة الابن يروي عن أبيه وأبوه يروي عن خالته عائشة.

هذه القصة فأبعد ما يكون من حيث الرواية أن تكون هذه القصة غير صحيحة فهؤلاء لا يقيمون وزنًا لجمهور علماء الحديث المتكاثفة المتعاونة طيلة هذه القرون الطويلة بالعناية بحفظ السنة أن يدخل فيها ما ليس منها فهم خرجوا عن طريق المسلمين لا فرق بين فريق أهل الحديث وفريق أهل التفسير وفريق أهل الفقه فقد خالفوهم جميعًا لأن هذا الحديث قد رواه الشيخان كما علمتم في صحيحهما ثم تلقته علماء الأمة في جميع اختصاصهم من مفسرين وفقهاء ونحو ذلك تلقوه بالقبول فجاء بعضهم وإن كان هذا وأمثاله سُبق إلى مثل هذا الانحراف فخالفوا بذلك السبيل فنخشى أن يشملهم وعيد قول رب العالمين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ (النساء: ١١٥).

لذلك يقول علماء التفسير وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله إذا كان هناك آية وفي تفسيرها قولان فلا يجوز لمن جاء في آخر الزمان أن يأتي بقول ثالث لأن هذا القول الثالث يكون بدعة في الدين ويكون مخالفًا لسبيل المؤمنين فقد فرضنا أن في آية ما قولين فمن أين جاء هذا الإنسان بقول ثالث؟

ولو سلِّم بفتح هذا الباب لأصاب دين الإسلام ما أصاب دين اليهود والنصارى من تلاعب بنصوص كتابهم.

كذلك نقول نحن إذا جاء الحديث وقد تلقته الأمة بالقبول بدون خلاف بينهم كأهل الاختصاص في هذا العلم فلا يجوز لأحد أن يأتي من بعدهم ليخالفهم فيقول هذا الحديث ضعيف لأنه في ذلك يكون قد خالف سبيل المؤمنين.

المؤمنون اتفقوا على أحاديث واختلفوا في بعضها فما كان القسم الأول فلا يجوز المخالفة بل المخالفة خروج عن سبيل المؤمنين.

إذا عرف فلا سبيل لإنكار حديث سحر النبي ﷺ بمثل ذلك الاستدلال الواه بتسليط آية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على أن معنى أن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يؤذي النبي ﷺ إيذاءًا بدنيا ماديًا لأن ذلك:

أولًا: معناه تخطئة الأمة في تلقيهم لهذا الحديث بالقبول.

ثانيًا: سيلزم من ذلك رد أحاديث كثيرة أشرنا إلى بعضها آنفا كشجِّ رأس النبي ﷺ وكسر رباعيته أيضًا هذا صحيح فهل يرد مثل ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؟

الجواب: لا: رسول الله ﷺ فيما يتعلق بطبيعته البشرية فهو كالبشر تمامًا وذلك هو صريح القرآن الكريم ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ (الكهف: ١١٠)، وفصلت: ٦) فقط هذا؟ لا: إنما مُيِّز بقوله تعالى حكاية عن قوله هو: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إلى آخر الآية ففيما يتعلق به عليه السلام بصفة كونه بشرًا هو كسائر البشر أي يمرض ويفرح ويحزن ويضحك ويبتسم، يبكي إلى آخره ولذلك ذكر الإمام الذهبي رحمه الله في ترجمة بعض الرواة حينما روى أن النبي ﷺ حينما مات تغير بعد موته بدنه أنكر ذلك في الرواية بعضهم من الناحية قال: هذا لا يليق نسبته إلى النبي ﷺ فردَّ الذهبي عليه هذه الرواية إن صحت فما فيها شيء ينافي عصمته ﷺ ومنزلته عند ربه تبارك وتعالى لأنه بشر لا يجري عليه كل أحكام البشر من ذلك أن اليهودي سحره هذا السحر هنا ينبغي أن نتوقف قليلًا سحر يتوهم كثيرون

أنه أثَّر فيه الطَيْلاً ليس فيما يتعلق فقط في بشريته وإنما أيضًا فيما يتعلق بنبوته ورسالة بقول: حاش ليس في هذا الحديث ما يدل على ذلك كل ما في الحديث إنما هو في رواية أنه سُحر حتى كان يظن أنه يأتي الشيء ولا يأتيه فتشبث بهذه الرواية بعض ذوي الأهواء الذين يحلو لهم الخروج عن جماعة المسلمين بأشياء يتوهمون أنهم يظهرون أمام الناس بأنهم من المتحققين وأنهم سبقوا الناس أجمعين إلى فكرة ما خطرت لهم في بال فيقولون هذا ينافي عصمته ﷺ من ناحية التبليغ ويبنون على ذلك كما يقال علالية وقصورًا.

فنقول: ليس في هذه الجملة المتعلقة بهذا الحديث يأتي الشيء ولا يأتيه لأن المقصود به أن النبي ﷺ أثَّر فيه السحر في بدنه بحيث كان يريد أن يأتي زوجته كما يأتي الرجل أهله فلا يجد فيه قوة هذا يسمى في بعض البلاد العربية مربوط يعني انحصرت قوة الرسول ﷺ وهو بلا شك كان أقوى الرجال والدليل على ذلك: أولًا: مصارعته ركانة بن يزيد في المرة الأولى والثانية والثالثة ما جاء في صحيح البخاري بهذه المناسبة عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: " كنا نتحدث بأن النبي ﷺ أُوتي قوة ثلاثين رجلًا "

هذا المصطفى القوي أثَّر فيه السحر فكان يريد أن يأتي أهله فهو مربوط لا يستطيع أن يأتي أهله. هذا كل ما وقع للرسول ﷺ فهو تأثير بدني وليس تأثيرًا عقليًا بحيث أنه يتصور الشيء على غير حقيقته.

الوجه الخامس: الرد على قولهم أن حديث السحر يقدح في مقام النبوة.
فقد أجاب عنها العلماء وبينوا زيفها وبطلانها:

أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها قالوا: كل ما أدي إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز ذلك يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع إذا يحتمل هذا أنه يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثمّ، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوحى إليه بشيء وهذا كله مردود بالدليل.

والجواب على ذلك كما يلي:

قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل. فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يتعرض البشر إليه فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين.

وقد قال بعض الناس إن المراد بالحديث أنه ﷺ يتخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن يطأهن وهذا كثيرًا ما يقع تخيله للإنسان في المنام، فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة.

قلت: وهذا قد ورد صريحًا في رواية ابن عيينة ولفظه (حتى كان يرى أنه أتى النساء ولا يأتيهن) وفي رواية الحميدي (أنه يأتي أهله ولا يأتيهن) وقيل: أنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ولكن لا يعتقد صحة ما تخيله فتكون اعتقاداته على السداد. [١]

فأما المتحقق من معنى الحديث كما قدمنا في المقام الأول فليس فيه ما يصح أن يعبر عنه بقولك: (خولط في عقله) وإنما ذاك خاطر عابر، لو فرض أنه بلغ الظن فهو في أمر خاص من أمور الدنيا لم يتعده إلى سائر أمور الدنيا فضلًا عن أمور الدين، ولا يلزم من حدوثه في ذاك الأمر جوازه في ما يتعلق بالتبليغ بل سبيله سبيل ظنه أن النخل لا يحتاج إلى التأبير، وظنه بعد أن صلى ركعتين أنه صلى أربعًا وغير ذلك من قضايا السهو في الصلاة.

وفي القرآن ذكر غضب موسى على أخيه هارون وأخذ برأسه لظنه أنه قصر مع أنه لم يقصر، وفيه قول يعقوب لبنيه لما ذكروا له ما جرى لابنه الثاني ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ يتهمهم

بتدبير مكيدة مع أنهم حينئذ أبرياء صادقين. وقد يكون من هذا بض كلمات موسى للخضر. [٢]

وصون النبي ﷺ من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده فقد مضى في الصحيح أن شيطانًا أراد أن يفسد عليه صلاته فأمكنه الله منه فكذلك السحر ما ناله من ضرره ما يدخل نقصًا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٣١).
(٢) الأنوار الكاشفة (صـ٢٤٩).

على ما يتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعف عن الكلام أو العجز عن بعض الفعل أو حدوث تخيل لا يستمر بل يزول ويبطل الله كيد الشياطين.

والسحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا وإنما هذا فيما يجوز طروه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث لسببها ولا فضل من أجلها وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان. (١)

والمرض الذي لا نقص فيه في الدنيا يقع للأنبياء ويزيد في درجاتهم في الآخرة عليهم الصلاة والسلام وحينئذ فإذا خيل له بسبب مرض السحر أنه يفعل شيئًا من أمور الدنيا وهو لم يفعله ثم زال ذلك عنه بالكلية بسبب اطلاع الله تعالى له على مكان السحر وإخراجه إياه من محله ودفنه فلا نقص يلتحق الرسالة من هذا كله لأنه كسائر الأمراض، لا تسلط له على عقله بل هو خاص بظاهر جسده كبصره حيث صار يخيل إليه تارة فعل الشيء من ملامسة بعض أزواجه وهو لم يفعله وهذا في زمن المرض لا يضر. (٢)

وليس هذا مما يجتر الناس به إلى أنفسهم نفعًا ولا يصرفون عنها ضرًا ولا يكسبون به رسول الله ﷺ ثناء ومدحًا ولا حملة هذا الحديث كذابين ولا متهمين ولا معادين لرسول الله ﷺ. وما ينكر أن يكون لبيد بن الأعصم هذا اليهودي سحر رسول الله ﷺ وقد قتلت اليهود قبله زكريا بن آذن في جوف شجرة قطعته قطعًا بالمناشير.

وذكر وهب بن منبه أو غيره أنه ﷺ لما وصل المنشار إلى أضلاعه أن فأوحى الله تعالى إليه إما أن تكف عن أنينك، وإما أن أهلك الأرض ومن عليها وقتلت بعده ابنه يحيى

(١) زاد المعاد (جـ٤ صـ١٢٤).

(٢) زاد المسلم (٤/ ٢٢).

بقول بغي واحتيالها في ذلك. ولو لم يقل الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ لم نعلم نحن أن ذلك شبهه لأن اليهود أعداؤه وهم يدعون ذلك والنصارى أولياؤه وهم يقرون لهم به وقتلت الأنبياء وطبختهم وعذبتهم أنواع العذاب ولو شاء الله جل وعز لعصمهم منهم وقد سم رسول الله ﷺ في ذراع شاة مشوية سمته يهودية فلم يزل السم يعاده حتى مات وقال ﷺ: ما زالت أكلة خيبر تعادني فهذا أوان انقطاع أبهري فجعل الله تعالى لليهودية عليه السبيل حتى قتلته ومن قبل ذلك ما جعل الله لهم السبيل على النبيين والسحر أيسر خطبًا من القتل والطبخ والتعذيب.[١]

وقد ثبت في "الصحيحين" عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سُحِرَ ﷺ حتى إن كان ليخيل إليه أنه يأتي نساءه ولم يأتهن".[٢]

فالعجب ممن يظن هذا الذي وقع من المرض بسبب السحر لرسول الله ﷺ قادحًا في رسالته مع ما هو صريح في القرآن في قصة موسى مع سحرة فرعون حيث صار يخيل إليه من سحرهم أن عصيهم تسعى فثبته الله كما دل عليه قوله تعالى ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (طه٧٠: ٦٨).

ولم يقل أحد من أهل العلم ولا من أهل الذكاء أن ما خيل لموسى عليه السلام أولًا من سعى عصى السحرة قادح في رسالته بل وقوع مثل هذا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام يزيد قوة الإيمان بهم لكون الله تعالى ينصرهم على أعدائهم ويخرق لهم العادة بالمعجزات الباهرة ويخذل السحرة والكفرة ويجعل العاقبة للمتقين كما هو مبين في آيات الكتاب المبين.[٣]

---

(١) انظر تأويل مختلف الحديث (١/ ١٧٩-١٨٢).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٢٤).

(٣) زاد المسلم (٤/ ٢٢).

ولو قلنا بزعمكم أن الرسول ﷺ كان يدخل في سحره أمورا من الوحي وما شابه ذلك.

فكيف يقر رب العالمين بذلك والرسول ﷺ قال الله عنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم٤: ٣)، والله تعالى قد قال فى آية جامعة ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة٦٤: ٤٤).

فكيف يتو عد بهذا ويقر بزعمكم أنه كان بقول في حال سحره في الوحي ما يقول.

وفي قصة سحر النبي ﷺ الكثير من أدلة نبوته ﷺ وذلك:

كيف عرف النبي ﷺ أن الذي سحره هو لبيد بن الأعصم وأن السحر موجود في مكان كذا وكذا لو لم يكن نبيًا فالنبي ﷺ هو الذي أرسل أصحابه ليخرجوا السحر من المكان الذي وضع فيه أو قصة إخبار الملائكة لمحمد ﷺ بموضع ومكان السحر لم يذكرها هؤلاء الضالون فهم انتقائيون في اختيار موادهم.

لقد فك الرسول ﷺ السحر بقراءة المعوذتين وهذا دليل على أن المعوذتين كلام الله ﷻ وأن محمدًا نبي موحى إليه.

هذه القصة دليل على كذب من قال عن السنة النبوية قد وضعها أصحاب النبي ﷺ ليثبتوا أنه نبي وأنه كامل في كل صفاته فلو كان كلامهم صحيحًا لكان هذا الحديث أول شيء يحذفه الصحابة من السنة لأنه في ظاهره لمن لم يتدبره ويفهمه ينقص من قدر النبي ﷺ على حد زعمهم.

الوجه السادس: الرد على قولهم أنه حديث آحاد.

أولًا: الحديث وصل حد الشهرة:

فقد جاء عن عائشة وزيد بن أرقم وعبدالله بن عباس وأنس بن مالك ﷺ.

لو انفردت به عائشة وحدها لا يضر وحديث الآحاد إذ صح سنده وسلم من المعارضة معمول به عند طوائف الأمة.

ثانيًا: هشام بن عروة لم ينفرد بالحديث:

كما جاء في رواية البخاري (٥٧٦٥).

وقول الحافظ بعدها: وظاهره أن غير هشام أيضًا رواه عن عروة.

ثالثًا: إجماع أهل العلم بالحديث على تلقيه بالقبول كما سبق بيانه:

رابعًا: على التسليم ـ بزعمهم ـ أنه حديث آحاد:

فقد تبين صحة الحديث لا سيما وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

أضف إلى ذلك: أن الحديث إذا صح سنده إلى النبي ﷺ بشروطه المعروفة وجب العمل به والتصديق له، لا فرق بين متواتر وآحاد عند جمهور أهل العلم(١).

الوجه السابع: وأخيرًا: ماذا حدث للمسيح من الشيطان؟

اقرأ معي هذا الكلام من الكتاب المقدس.

واعلم أن كل من قال أن هذا يقدح في مقام النبوة وخاصة من أهل الكتاب فلينظروا في كتبهم، فإذا كنتم أيها النصارى تعتقدون أن ما أصاب النبي محمدًا على أيدي اليهود من سحر والذي قررنا أنه لم يكن له تأثير في دينه وعقله وعبادته ولا في رسالته التي كلف بإبلاغها إذا كنتم تعتقدون أن ما أصابه هو قدح وطعن في نبوته.

فهل يعني ذلك أنكم أسقطتم أنبياء كتابكم المقدس الذي نص على أنهم عصاه زناه كفار ألم يرد في كتابكم المقدس أن نبي الله سليمان كفر وعبد الأوثان وهو نبي من أنبياء الله (سفر الملوك).

فهل أسقطتم نبوة سليمان؟ وهل ما أقدم عليه النبي سليمان من السجود للأوثان والكفر بالله هو أمر موجب للطعن في نبوته ومُسقطًا لها؟

وإذا كان ما قام به النبي سليمان من السجود للأوثان والكفر بالله هو أمر لا يوجب الطعن في نبوته ولا يسقط نبوته عندكم فكيف تعتبرون ما أصاب النبي محمد ﷺ من السحر الذي لم يكن له تأثير في دينه وعبادته ولا في رسالته التي كلف بإبلاغها هو أمر موجب للطعن في نبوته.

ثم أخبرونا عن ذلك الشيطان الذي تسلط على المسيح طوال ٤٠ يومًا كما في إنجيل متى ابتداء من الإصحاح الرابع حيث كان إبليس يقود المسيح إلى حيث شاء فينقاد له فتارة يقوده إلى المدينة المقدسة ويوقفه على جناح الهيكل وتارة يأخذه إلى جبل عالي جدًا.

ففي سفر متى (٤/ ١-١٠): ثُمَّ أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ. ٢فَبَعْدَ مَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، جَاعَ أَخِيرًا. ٣فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرِّبُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ الله فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ خُبْزًا». ٤فَأَجَابَ وَقَالَ: «مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا

---

(١) وراجع مقدمة شبهات علوم السنة ففيها رد على من يعترض على حديث الآحاد

الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ». ٥ثُمَّ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَوْقَفَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ، ٦وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لاَ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ». ٧قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَكْتُوبٌ أَيْضًا: لاَ تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلهَكَ». ٨ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، ٩وَقَالَ لَهُ: «أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي». ١٠حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسوعُ: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ».

ونحن نقول كيف يسمح الرب ـ على حد زعمهم ـ أن يجربه الشيطان فيقوده إلى مايريد بدون أن يعترض يسوع؟.

بل يعترف يسوع بأن الشيطان رئيس هذا العالم وأنه سيُطرد يوم الدينونة: (يوحنا١٢/ ٣٢: ٣١): اَلآنَ دَيْنُونَةُ هذَا الْعَالَمِ. اَلآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هذَا الْعَالَمِ خَارِجًا.

ويذكر الكتاب المقدس أن الشيطان كان وراء المرض الذي تعرض له أيوب النبي، وأن إبليس حرض الله بأن يبتلي أيوب: (أيوب٢/ ٧: ٣): فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟ لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ. وَإِلَى الآنَ هُوَ مُتَمَسِّكٌ بِكَمَالِهِ، وَقَدْ هَيَّجْتَنِي عَلَيْهِ لأَبْتَلِعَهُ بِلاَ سَبَبٍ». ٤فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «جِلْدٌ بِجِلْدٍ، وَكُلُّ مَا لِلإِنْسَانِ يُعْطِيهِ لأَجْلِ نَفْسِهِ. ٥وَلكِنِ ابْسِطِ الآنَ يَدَكَ وَمَسَّ عَظْمَهُ وَلَحْمَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ». ٦فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هَا هُوَ فِي يَدِكَ، وَلكِنِ احْفَظْ نَفْسَهُ». ٧فَخَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ، وَضَرَبَ أَيُّوبَ بِقُرْحٍ رَدِيءٍ مِنْ بَاطِنِ قَدَمِهِ إِلَى هَامَتِهِ.

ويوصف إبليس أيضًا بأنه يضل العالم كله: (الرؤيا ٢/ ٩): فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ، الَّذِي يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ.

* * *

٨ـ شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ لا يستطيع عمل المعجزات

نص الشبهة:

زعموا فقالوا: إن النبي محمدًا ﷺلم يستطع عمل المعجزات، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾ (الأنعام: ١٠٩).

وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)﴾ (الإسراء: ٥٩).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الاستدلال بالآيات لا يصح.

الوجه الثاني: المعجزات من الله تعالى وليست من الأنبياء.

الوجه الثالث: هذا بعض ما أيد الله به نبيه محمد ﷺ:

الوجه الرابع: المعجزات في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الاستدلال بالآيات لا يصح.

وقد سبق الجواب على ذلك في موضعه (في شبهات القرآن) فلتراجع. [١]

الوجه الثاني: المعجزات من الله تعالى وليست من الأنبياء.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (غافر ٧٨)

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، وفي المعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام يؤكّد القرآن الكريم على هذا المضمون، قال تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ

(١) راجع شبهة تهرب النبيﷺ من المعجزات في هذه بالموسوعة.

ٱللَّهِ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩). [(١)]

فالأنبياء عليهم السلام جميعًا لا يستطيعون عمل شيء إلاّ بإذن الله تعالى.

الوجه الثالث: هذا بعض ما أيد الله به نبيه محمد ﷺ.

أجرى الله تبارك وتعالى على يدي أنبيائه من المعجزات الباهرات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، مما يدل على صدق دعواهم أنهم رسل، وكي تقوم الحجة البالغة على الناس؛ فلا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، والفرق بين المعجزة وغيرها من الدلالة والعلامة: أن المعجزة اشترط فيها التحدي، وأن يكون المُتحدى به مما يعجز عنه البشر في العادة المستمرة، أما الدلائل والعلامات فتقع دالة على صدق الأنبياء والرسل من غير سبق تحد، وسميت المعجزة كذلك: لعجز الخلق عن معارضتها والإتيان بمثلها. [(٢)]

قال القاضي في الشفا: اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، وهي على ضربين: ضرب هو من نوع قدرة البشر، فعجزوا عنه، فتعجيزهم عنه فعل لله، دل على صدق نبيه ﷺ، كصرفهم عن تمنى الموت، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم ونحوه. وضرب هو خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله: كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله فيكون ذلك على يد النبي ﷺ من فعل الله تعالى وتحديه من يكذبه، أن يأتي بمثله تعجيزًا له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ، ودلائل نبوته، وبراهين صدقه، من هذين النوعين معًا، وهو أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم برهانًا، كما سنبينه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١١٣).

(٢) موسوعة نضرة النعيم (١/ ٥٢٠).

وهي في كثرتها لا يحيط بها ضبط؛ فإن واحدًا منها: وهو القرآن، لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر، لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورة منه فعجز عنها.

قال أهل العلم: وأقصر السور ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات على ما سنفصله فيما انطوى عليه من المعجزات(١).

ثم معجزاته ﷺ على قسمين: قسم منها علم قطعًا: ونقل إلينا متواترًا كالقرآن فلا مرية، ولا خلاف بمجئ النبي به، وظهوره من قبل، واستدلاله بحجته، وإن أنكر هذا معاند جاحد، فهو كإنكاره وجود محمد ﷺ في الدنيا، وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجة به، فهو في نفسه وجميع ما تضمنه من معجز معلوم ضرورة، ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظراً.

والقسم الثاني: ما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع، وهو على نوعين: نوع مشتهر منتشر رواه العدد وشاع الخبر به عند المحدثين، والرواة، ونقلة السير والأخبار؛ كنبع الماء من بين الأصابع، وتكثير الطعام، ونوع منه اختص به الواحد والاثنان، ورواه العدد اليسير ولم يشتهر اشتهار غيره؛ لكنه إذا جمع إلى مثله اتفقا في المعنى، واجتمعا على الإتيان بالمعجز(٢)

واليكم بعض المعجزات التى كانت على يد النبي محمد ﷺ:

أولًا: المعجزة الكبرى (القرآن الكريم).

أعطى الله ﷻ كل نبي من الأنبياء عليهم السلام معجزة خاصة به، لم يعطيها بعينها غيره تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه وأهل زمانه؛ فلما كان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، بعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار، وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العزيز الجبار، انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبعثه الله في زمن الأطباء، وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك نبينا ﷺ بعث في

---

(١) الشفا للقاضي عياض (٢٦٧).

(٢) الشفا للقاضي عياض (٣٦٧).

زمان الفصحاء، والبلغاء، وتجاريد الشعراء، فأتاهم بكتاب من عند الله ﷻ، فاتهمه أكثرهم أنه اختلقه وافتراه من عنده فتحداهم، ودعاهم أن يعارضوه، ويأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك.

قال ابن كثير: عند قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣) ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطبًا للكافرين: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمدًا ﷺ فأتوا بسورة من مثل ما جاء به، إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله؛ فإنكم لا تستطيعون ذلك، وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (القصص: ٤٩) وقال في سورة سبحان: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨) وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود: ١٣) وقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس: ٣٧-٣٨) وكل هذه الآيات مكية، ثم تحداهم بذلك أيضا في المدينة، فقال في هذه الآية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي شك ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعني من مثل القرآن. قاله مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير والطبري، والزمخشري، والرازي ونقله عن عمر، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم، والحسن البصري، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه من أحسنها: أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك، أميهم وكتابيهم، وذلك أكمل من التحدي، وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئًا من العلوم، وبدليل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾

وقال بعضهم من مثل محمد ﷺ يعني من رجل أمي مثله، والصحيح الأول؛ لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له، وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ولن لنفي التأبيد في المستقبل: أي ولن تفعلوا ذلك أبدًا. وهذه أيضا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا مقدمًا غير خائف، ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا، هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ فأحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى، ولا يداني، فقد أخبر عن مغيبات ماضية، كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه. وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء، أو الخيل، أو الخمر، أو في مدح شخص معين، أو فرس، أو ناقة، أو حرب، أو كائنة، أو مخافة، أو سبع، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئًا إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي، أو الدقيق، أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيت أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هذر لا طائل تحته. وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير؛ فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار

السلام، ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ وقال في الترهيب: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾، وقال في الزجر: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾، وقال في الوعظ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف، حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية. وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم، والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخيرات، واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا، ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم، وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم، ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة". (١)

وقوله ﷺ: "وإنما كان الذي أوتيته وحيًا" أي: الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر، أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية؛ فإنها ليس معجزة عند

(١) البخاري (٤٩٨١)، مسلم (١٥٢) واللفظ له.

كثير من العلماء - والله أعلم- وله ﷺ من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمنة(١).

وقد انطوى كتاب الله العزيز على وجوه كثيرة من وجوه الإعجاز: ذلك أن القرآن الكريم معجز في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد، لا يختلف ولا يتفاوت ولا تختلف خصائصه، معجز في بنائه الفكري، وتناسق أجزائه وتكاملها، فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تتناسب وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية دون أن تصطدم بالفطرة الإنسانية، معجز في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها.

قال الحافظ ابن حجر: وَقَدْ جَمَعَ بَعْضهمْ إِعْجَاز الْقُرْآن فِي أَرْبَعَة أَشْيَاء: **أَحَدهَا**: حُسْن تَأْلِيفه وَالْتِئَام كَلِمه مَعَ الْإِيجَاز وَالْبَلَاغَة. **ثَانِيهَا**: صُورَة سِيَاقه وَأُسْلُوبه الْمُخَالِف لِأَسَالِيب كَلَام أَهْل الْبَلَاغَة مِنْ الْعَرَب نَظْمًا وَنَثْرًا؛ حَتَّى حَارَتْ فِيهِ عُقُولهمْ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الْإِتْيَان بِشَيْءٍ مِثْله، مَعَ تَوَفُّر دَوَاعِيهمْ عَلَى تَحْصِيل ذَلِكَ وَتَقْرِيعه لَهُمْ عَلَى الْعَجْز عَنْهُ. **ثَالِثهَا**: مَا اِشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِخْبَار عَمَّا مَضَى مِنْ أَحْوَال الْأُمَم السَّالِفَة، وَالشَّرَائِع الدَّاثِرَة مِمَّا كَانَ لَا يَعْلَم مِنْهُ بَعْضه إِلَّا النَّادِر مِنْ أَهْل الْكِتَاب. **رَابِعهَا**: الْإِخْبَار بِمَا سَيَأْتِي مِنْ الْكَوَائِن الَّتِي وَقَعَ بَعْضهَا فِي الْعَصْر النَّبَوِيّ وَبَعْضهَا بَعْده، وَمِنْ غَيْر هَذِهِ الْأَرْبَعَة آيَات وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْم فِي قَضَايَا، أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا فَعَجَزُوا عَنْهَا مَعَ تَوَفُّر دَوَاعِيهمْ عَلَى تَكْذِيبه، كَتَمَنِّي الْيَهود الْمَوْت، وَمِنْهَا الرَّوْعَة الَّتِي تَحْصل لِسَامِعِهِ، وَمِنْهَا أَنَّ قَارِئَهُ لَا يَمَلّ مِنْ تَرْدَاده، وَسَامِعه لَا يَمُجّهُ، وَلَا يَزْدَاد بِكَثْرَةِ التَّكْرَار إِلَّا طَرَاوَة وَلَذَاذَة. وَمِنْهَا أَنَّهُ آيَة بَاقِيَة لَا تُعْدَم مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، وَمِنْهَا جَمْعه لِعُلُوم وَمَعَارِف لَا تَنْقَضِي عَجَائِبهَا، وَلَا تَنْتَهِي فَوَائِدهَا. (٢)

ثانيًا: الإسراء والمعراج:

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٩٢).

(٢) انظر فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٢٤: ٦٢٣)، والشفا للقاضي عياض (٢٦٠-٢٧٤).

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: " أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه "، قال: " فركبته حتى أتيت بيت المقدس "، قال: " فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء "، قال: " ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن "، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة، " ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكرياء، صلوات الله عليه ما، فرحبا ودعوا لي بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: ورفعناه مكانا عليا، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحب، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا

ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال"، قال: "فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: "خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك؛ فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم "، قال: " فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب، خفف على أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف "، قال: " فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى، وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة "، قال: " فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف "، فقال رسول الله ﷺ: " فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه ".[(١)]

ثالثا: انشقاق القمر:

قال تعالى﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ (القمر: ١-٥).

قال ابن كثير: وقوله: ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن

(١) البخاري (٣٨٨٧)، مسلم (١٦٢).

مسعود ﷺ أنه قال: خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر[١].

وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أي انشقاق القمر، قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. وعن أنس بن مالك ﷺ: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما[٢].

قال القاضي -رحمه الله-: انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا ﷺ وقد رواها عدة من الصحابة ﷺ مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها، قال الزجاج: وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفي الملة، وذلك لما أعمى الله قلبه، ولا إنكار للعقل فيها؛ لأن القمر مخلوق الله تعالى، يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه، ويكوره في آخر أمره[٣].

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: اِنْشِقَاق الْقَمَر آيَة عَظِيمَة لَا يَكَاد يَعْدِلهَا شَيْء مِنْ آيَات الْأَنْبِيَاء، وَذَلِكَ أَنَّهُ ظَهَرَ فِي مَلَكُوت السَّمَاء خَارِجًا مِنْ جُمْلَة طِبَاع مَا فِي هَذَا الْعَالَم الْمُرَكَّب مِنْ الطَّبَائِع، فَلَيْسَ مِمَّا يُطْمَع فِي الْوُصُول إِلَيْهِ بِحِيلَةٍ، فَلِذَلِكَ صَارَ الْبُرْهَان بِهِ أَظْهَر.[٤]

وإن أردت تفصيلًا عن هذه المعجزة فارجع إلى محلها في الرد على من أنكرها.

وقد أسبغنا القول حول هذه المعجزة في ثنايا موسوعتنا هذه.

رابعًا: نبع الماء من بين أصابعه:

قال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكررت منه في عدة مواطن، في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي، المستفاد من التواتر المعنوي[٥] من هذه المواطن:

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: " ما لكم؟ " قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب

---

(١) البخاري (٩٦٢).

(٢) البخاري (٣٦٥٥)، ومسلم (٢٨٠٢).

(٣) انظر: شرح مسلم للنووي (٩/ ١٦٠)، وراجع الرد على هذه الشبهة في محلها.

(٤) فتح الباري (٧/ ١٨٥).

(٥) فتح الباري (٦/ ٥٨٥).

إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.(١)

ومنها عن أنس بن مالك ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضئوا منه قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه حتى توضئوا من عند آخرهم.(٢)

قال المزني: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر؛ حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه؛ لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم.(٣)

خامسًا: حنين الجذع شوقًا إلى رسول الله ﷺ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: " إن شئتم "، فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه، تئن أنين الصبي الذي يسكن. قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها(٤).

وفي رواية قال: كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت(٥).

---

(١) البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم مختصرًا (١٨٥٦).
(٢) البخاري (٣٥٧٣)، ومسلم (٢٢٧٩).
(٣) نقله عنه ابن عبد البر انظر فتح الباري (٦/ ٦٧٧).
(٤) البخاري (٣٥٨٤).
(٥) البخاري (٣٥٨٥).

قال ابن كثير: باب حنين الجذع شوقًا إلى رسول الله ﷺ شغفًا من فراقه: وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة، تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان(١).

سادسًا: تسليم الحجر عليه ﷺ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ، كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ"(٢).

قال النووى: فِيهِ مُعْجِزَة لَهُ. وَفِي هَذَا إِثْبَات التَّمْيِيز فِي بَعْض الْجَمَادَات، وَهُوَ مُوَافِق لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحِجَارَة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة٧٤) وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء٤٤).

سابعًا: تسبيح الطعام بحضرته:

عَنْ عَبْدِ اللهَ بن مسعود قال: كُنَّا نَعُدُّ الْآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُم تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَقَلَّ الْمَاءُ، فَقَالَ: " اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ "، فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: " حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنْ اللهِ "، فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ.(٣)

ثامنًا: عصمته ﷺ من الناس:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة: ٦٧).

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك.

(١) البداية والنهاية (٦/ ١٢٥).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٧).

(٣) البخاري (٣٥٧٩).

ثم قال: ومن عصمة الله ﷻ لرسوله ﷺ حفْظُه له من أهل مكة، وصناديدها، وحسادها ومُعَانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبَغْضة ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر، هابوه واحترموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرًا، ثم قيض الله ﷻ له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم -وهي المدينة -، فلما صار إليها حَمَوه من الأحمر والأسود، فكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه(١).

والأمثلة على هذا كثيرة ومنها:

١ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم فقال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي. زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه قال فقيل له مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: " لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا(٢).

٢- وعن سلمة بن عمرو بن الأكوع رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حنينًا، فلما واجهنا العدو تقدمت، فأعلو ثنية، فاستقبلني رجل من العدو، فأرميه بسهم فتوارى عني، فما دريت ما صنع، ونظرت إلى القوم؛ فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى، فالتقوا هم وصحابة النبي ﷺ، فولى صحابة النبي وأرجع منهزمًا، وعلي بردتان متزرًا بإحداهما مرتديًا بالأخرى، فاستطلق إزاري فجمعتهما جميعا، ومررت على رسول الله ﷺ منهزمًا وهو على بغلته الشهباء، فقال رسول الله ﷺ: "لقد رأى ابن الأكوع فزعًا"، فلما غشوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٢: ١١٠).

(٢) رواه مسلم (٢٧٩٧).

رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: "شاهت الوجوه"، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله ﷻ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين. (١)

٣- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﵁ قَالَ: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله ﷺ: " إن رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: " قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، قال: فشام السيف فها هو ذا جالس" ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ. (٢)

تاسعًا: إخباره عن بعض المغيبات:

من معجزات رسول الله ﷺ، ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة، وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله وحده، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير ما آية من كتابه العزيز قال تعالى ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ (النمل: ٦٥) وقال تعالى﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ (الأنعام: ٥٩) ومن المعلوم أيضا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم قالوا لأقوامهم. ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ (الأنعام٥٠).

وعن عائشة ﵂ قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله، فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٧).

(٢) رواه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

﴿بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧) قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد: فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.[1]

وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب وأنه استأثر به دون خلقه جاءت أدلة أخرى تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران ١٧٩)، وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن ٢٦، ٢٧).

فنخلص من ذلك: أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات، وحي من الله تعالى، وهو من إعلام الله ﷻ لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوته، وصحت رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ بإطلاع الله له على المغيبات:

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ مَقَامًا، مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ، كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ.[2]

قال القاضي عياض: ومن ذلك ما أطلع عليه من الغيوب وما يكون. والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره، ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب.[3]

ومعجزات هذا الباب لا يمكن استقصاؤها لكثرتها ووقوعها منه ﷺ، وهي على أقسام ثلاثة.[1]

---

(١) البخاري (٤٨٥٥)، مسلم (١٧٧).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١) واللفظ له.

(٣) الشفا صـ (٣٣٦).

١ـ **قسم في الماضي**: كإخباره عن القرون السالفة والأمم البائدة، مما كان لايعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك، وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه تعنتًا وتعجيزًا عن أخبار الامم السالفة، فينزل عليهم منه ما يتلو عليهم منه ذكرًا، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، بالإضافة إلى ما جاءت به السنة المطهرة من تفاصيل ودقائق عن أخبار الأمم الماضية، وأشباه ذلك مما صدقه علماؤهم ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها بل أذعنوا لذلك فمن موفق آمن بما سبق له من خير، ومن شقي معاند حاسد.

٢ـ **قسم في الحاضر**: وهو ما أخبر به ﷺ من المغيبات فوقع أثناء حياته منها على سبيل المثال: ذكره لمصارع الطغاة في غزوة بدر الكبرى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة، فتراءينا الهلال، وكنت رجلًا حديد البصر، فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيري، قال: فجعلت أقول لعمر، أما تراه؟ فجعل لا يراه، قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشي، ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ، كان يرينا مصارع أهل بدر، بالأمس، يقول: " هذا مصرع فلان غدًا، إن شاء الله "، قال: فقال عمر: فو الذي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ، قال: فجعلوا في بئر بعضهم على بعض، فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم، فقال: " يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني الله حقًا "، قال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال: " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئًا ". (٢)

٣ـ **قسم في المستقبل**: وهو ما أخبر به ﷺ من المغيبات زيادة على ماجاء في القران الكريم، منها ما وقع بعد وفاته إلى يومنا هذا، ومنها ما هو آت إلى قيام الساعة، وهذا

---

(١) موسوعة نضرة النعيم (١/ ٥٤٤-٥٥٤) باختصار وتصرف يسير.

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٣).

القسم بحر لا يدرك قعره، وقد اعتنى بذكرها عدد كبير من العلماء، كالبيهقي في (دلائل النبوة) وابن كثير في (البداية والنهاية) نذكر من ذلك مثالًا:

عن عوف بن مالك قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: " اعدد ستًا بين يدي الساعة، موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ثم استفاضة المال، حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا ".(١)

الوجه الرابع: المعجزات في الكتاب المقدس.

نريد أن نعرف هل يعبد الناس المسيح عليه السلام لإتيانه بالمعجزات؟ كإحياء الموتى وشفاء المرضى؟ وحتى نؤمن أولًا بهذه المعجزات لزم ثبوتها بطريقة معتبرة: وهي لا تخرج عن أمور معلومة لا يرقى إليها الشك، وكل ما دونها فهو ظن وتخبط، ولا يغني من الحق شيئًا، فلو قلنا مثلًا أن إثبات هذه المعجزات ونسبتها للمسيح عليه السلام يستلزم عدة أمور يثبت عن طريقها، وإلا فهي منتفية لا أساس لها فمنها:

أولًا: مثلًا هو بقاء المعجزة حاضرة لكل من يطالعها فلا يستطيع إنكارها؛ كأن يكون صرحًا أو بناءً باقيًا لا يستطيع الناس الإتيان بمثله؛ ومشهود أن المسيح عليه السلام هو من بناه، وهذا ممتنع باتفاق، كل الناس إذ أن المسيح عليه السلام لم تكن معجزته في المعمار ولكن معجزته في إحياء الموتى، وشفاء المرضى، فلزم بقاء أحد هؤلاء المرضى الذين شفاهم المسيح عليه السلام أو أحد الموتى الذين أحياهم يسوع؛ حتى يخبرنا عن هذا وهذا أيضًا ممتنع باتفاق جميع الناس، فلا طريق لإثبات معجزاته بالبقاء والخلود كما هو القرآن الكريم مثلًا، وهو معجزة الرسول محمد ﷺ، فهي معجزة باقية أمام الناس إلى أن يشاء الله.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٥)، قال الحافظ ابن حجر (٦/ ٣٨١): قعاص الغنم هو داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة.

ثانيًا: فما بقى لزوم إثبات المعجزة بالتواتر على لسان الجمع من الناس الثقات بسند متصل معتبر غير مجروح (أي أن يكون الرواة ثقات عدول، مشهود لهم بحسن الدين والحفظ، وعدم التوهم أو الكذب في كل الطبقات)، وهذا كما تعلم وكما أثبتنا في الباب الأول باب التحريف أشد امتناعا من سابقه (أي أولًا) فهو ممتنع باعتراف علماء الكتاب المقدس، فلا سند متصل عندهم لكتابهم كله، ولا حتى لجزء أو سفر أو إصحاح من إصحاحاته، وهذا من أشد الطعونات في دين النصارى واليهود، وقد اعترفوا قاطبة (أي اليهود والنصارى) أنه لا سند متصل لهذه الكتب الموجودة بين أيديهم كما للقرآن مثلًا، أو حتى للأحاديث النبوية الشريفة، وهذا لأسباب كثيرة منها السبي الذي وقع على اليهود، ومنها استمرار تمردهم، وارتدادهم وكفرهم مرة بعد مرة، مما تسبب في ضياع الكتب وتحريفها، ومنها العشرة بلايا والمصائب التي مرت بهم في القرون الميلادية الثلاثة الأولى، مما تسبب في ضياع أي سند لكتبهم جمعاء، ومنها فقدان كتب بكاملها، ومنها الاعتقاد السائد حينذاك، والذي أعتقد أنه مستمر إلى الآن (فهم لا يغيرون عادتهم) أن الكذب من أجل تمجيد الله ليس شيئًا جيدًا فحسب، ولكنه مستحب عند الله، وغير هذا من الأسباب الكثيرة، وإن ركنا إلى الأناجيل لإثبات هذا؛ فإنه لا يثبت أبدًا للتناقض الوارد في كل معجزة فعلها من رواة الأناجيل وغيره كما مر سابقًا، فبهذه أيضًا لا يمكن إثبات معجزات المسيح عليه السلام.

إذًا فهذه المعجزات لايمكن ثبات نسبتها إلى المسيح أبدًا لا ببقائها؛ حتى تُعجز الخلق ويؤمنوا أنه فعلها ولا بالتواتر كما بينا فيؤمن الناس أن المسيح فعلها فهي في حكم المنتفية عن الحدوث أساسًا، كما هو واضح ولو وافقنا النصارى بغض النظر عن ثبوت وقوع هذه المعجزات (جدلًا) وطلبنا منهم أن يأتوا بمعجزة واحدة فعلها يسوع في كتابهم يتوفر فيها شرطان كما يلي:

الشرط الأول: معجزة فعلها يسوع ونسبها لنفسه وأَقَرَّ أنه فعل تلك المعجزة بقدرته الذاتيه، وأنه لم يعينه غيره على فعلها ولم يطلب عون غيره فيها.

الشرط الثاني: معجزة واحدة فعلها يسوع لم يفعلها غيره من البشر على الإطلاق، فهم عاجزون تمامًا عن الإتيان بذلك، ولو سلمنا لهم أيضًا أن هذا حدث (جدلًا) ومن باب الإلزام للنصارى، لكننا لا نؤمن بأنه ﷺ قد فعل أي معجزة ونسبها لقدرته حاشاه، لو سلمنا ذلك لوجب على النصارى أن يؤمنوا أن إليشع إله أو موسى إله أو هارون أو إيليا أو غيره من البشر الذين فعلوا معجزات أعظم من معجزات المسيح كما بينا من قبل، ومع أنهم لا يستطيعون أن يُثبتوا لا معجزات المسيح، ولا معجزات من سبقه من الرسل قطعًا، ولكنه مُلزم لهم، لأنه وارد في كتابهم.

ثم إنك لو تدبرت في كتب القوم لوجدت ما ينفي قطعًا أن يكون المسيح قد أقام موتى أو أحياهم بعد الموت، وأن أبلغ معجزاته كانت شفاء بعض المرضى؛ وحتى التناقض في هذه الروايات ينفي ذلك؛ وهذا لأن المسيح بإعتراف كتبهم هو باكورة القائمين من الموت، نعم، إن كتبهم تسجل معجزة إحياء الموتى لسابقين عن المسيح من الأنبياء، ولكن هذا الكلام ينفيه كلام آخر في كتابهم، فمعجزة إحياء الموتى على زعمهم حصلت في ثلاث مرات كما يلي:

الأول: طليثا ابنة رئيس المجمع والأغلب أنها كانت نائمة وليست ميتة باعتراف الإنجيل والمسيح نفسه، وهذا وارد في إنجيل مرقس ٥عدد ٤٢، وفي لوقا ٨عدد ٥٥.

الثاني: ابن المرأة التي من بلدة نايين، والذي انفرد بنقل تلك القصة وحده هو لوقا ولم ينقلها غيره من أصحاب الأناجيل وهو وارد في لوقا ٧عدد ١١-١٧. وفي هذه القصة مطاعن كثيرة.

الثالث: هو أليعازر أو لعازار، وهذه القصة انفرد يوحنا فقط بنقلها ولم ينقلها غيره من أصحاب الأناجيل، وهي واردة في إنجيل يوحنا١١عدد ١-٤٤، وفيها اعتراف صريح من المسيح بعبوديته لله وأن هذه المعجزة تمت بدعاء عيسى لله وليس فيها أي قدرة من عيسى عليه السلام.

إذًا في **الأولى**: باعتراف المسيح كانت نائمة وليست ميتة، كما قال المسيح نفسه وأكتفي بنقل قوله فقط في هذا الأمر من إنجيل مرقس٥عدد ٣٩و٤١ هكذا: فدخل وقال لهم لماذا تضجون وتبكون، لم تمت الصبية لكنها نائمة. . . . ، وامسك بيد الصبية، وقال لها طليثا قومي- الذي

تفسيره يا صبية لك أقول قومي – **والثانية**: انفرد بها لوقا وحده، وقلت سابقًا إن فيها الكثير من المطاعن منها أنه لم ينقلها غيره من الإنجيليين مع قول لوقا في الفقرة ١٧ هكذا: وخرج هذا الخبر عنه في كل اليهودية وفي جميع الكورة المحيطة) فكيف أمكن أن الخبر خرج عنه في كل البلاد، حتى أنه وصل يوحنا في سجنه، ولم يصل إلى باقي التلاميذ، حتى ينقلوه في أناجيلهم وهو ليس بالأمر البسيط؟ وقد ذكروا ركوب ربهم الحمار، وأمور أقل من أن تذكر ونسوا قصة عظيمة وهي إحياء ميت وهو في النعش فعجبًا لذلك الأمر.

والثالثة: هي قصة إحياء ألعازار وقد انفرد بها يوحنا وحده في إنجيله كما أشرت سابقًا، وكسابق الأمر في إنجيل لوقا، كيف انفرد بها يوحنا وحده، ولم ينقلها غيره من التلاميذ مع أنها من أعظم المعجزات، هذا غير اعتراف المسيح أنها بقدرة الله وحده، وتضرع المسيح لله سبحانه وتعالى حتى يستجيب دعائه لإحياء لعازر، فينفي عن نفسه تلك القدرة بل ينسبها لله وحده.

وبغض النظر عن كل هذا أقول إن هذا من المستحيل أن يكون لو اعتبرنا كلام بولس وغيره في الكتاب صحيحًا فقد جاء في سفر أعمال الرسل الإصحاح ٢٦عدد ٢٣ هكذا: إن يؤلم المسيح يكن هو أول قيامة الاموات مزمعًا أن ينادي بنور للشعب وللأمم.

وفي الرسالة الأولى إلى أهل كورونثوس ١٥عدد ٢٠-٢٣ هكذا: وَلكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ. ٢١فَإِنَّهُ إِذِ الْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ، بِإِنْسَانٍ أَيْضًا قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ. ٢٢لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ. ٢٣وَلكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي رُتْبَتِهِ: الْمَسِيحُ بَاكُورَةٌ، ثُمَّ الَّذِينَ لِلْمَسِيحِ فِي مَجِيئِهِ.

وفي الرسالة إلى كولوسي ١عدد ١٨ هكذا: وَهُوَ رَأْسُ الْجَسَدِ: الْكَنِيسَةِ. الَّذِي هُوَ الْبَدَاءَةُ، بِكْرٌ مِنَ الأَمْوَاتِ، لِكَيْ يَكُونَ هُوَ مُتَقَدِّمًا فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وفي رؤيا يوحنا ١عدد ٥ هكذا: وَمِنْ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الشَّاهِدِ الأَمِينِ، الْبِكْرِ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَرَئِيسِ مُلُوكِ الأَرْضِ. الَّذِي أَحَبَّنَا، وَقَدْ غَسَّلَنَا مِنْ خَطَايَانَا بِدَمِهِ.

فيفهم من كل هذه الفقرات السابقة أن المسيح هو أول قيامة الأموات، وأنه صار باكورة الراقدين: (أي أول من يقوم من الموت)، وهو بكر من الأموات وهو الباكورة وأنه..... الخ، باختصار أن المسيح هو أول قائم من الموت كما يقولون، فكيف يكون هناك من قام قبله من الموت؟ لو كان هناك من عاد من الموت غيره لما سمي المسيح؛ بأنه بكر من الأموات، وباكورة الراقدين وخلافه من الأقوال التي يفهم منها: أن المسيح هو أول عائد من الموت، أو أول من يقوم من الموت؟

ثم أننا لو راجعنا كلام العهد القديم لوجدنا: أنه من المستحيل أن يكون هناك من قام من الموت - أعني غير المسيح على حسب زعمهم - ففي سفر أيوب ٧عدد ٩-١٠ هكذا: السحاب يضمحل ويزول، هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد، لا يرجع بعد إلى بيته، ولا يعرفه مكانه بعد.

وفي سفر أيوب أيضًا ١٤عدد ١٢ و١٤ هكذا: والإنسان يضطجع ولا يقوم، لا يستيقظون حتى لا تبقى السماوات ولا ينتبهون من نومهم. . . ، أن مات رجل أفيحيا. كل أيام جهادي أصبر إلى أن يأتي بدلي.

فيفهم من هذا قطعًا أنه من المستحيل أن يعود من مات بعد موته بحسب كلام كتابهم، ويفهم أيضًا من هذه الأقوال أن المسيح لم يحيي أي ميت، وإلا كان مخالفًا لهذا الكلام كله، وبحسب كلام أيوب قصة إحياء الموتى هو كلام باطل لا أساس له مجرد تأليفات من كتبة الأناجيل، وقصة موت المسيح ﷺ وصلبه ثم قيامه من الأموات هي قصة باطلة لا محالة. فنسأل الله الهداية للجميع، وما قلته هنا حول إحياء الموتى ليس إنكارًا لمعجزة المسيح ﷺ وإلا فهو معروف وثابت عندنا يقينًا بنص القرآن والسنة النبوية الشريفة أنه أحيى الميت بإذن الله؛ ولكن هو من باب الإلزام للنصارى وليس من باب إيماني.

ثم نأتي للعجيب من الأمور والغريب من العقول، وضعاف النقول، وهو أمر مُضحك كما سترى؛ أنه لما عجز النصارى عن إثبات أي من معجزات المسيح ﷺ من

كتابهم بسند أو بقاء - كما هو موضح أعلاه - لجأوا إلى القرآن الكريم، ولجأوا إلى الإسلام؛ حتى يثبتوا معجزات معبودهم وربهم، فالقرآن منقول بالتواتر، ولا شك في حرف واحد فيه. وعليه فهو يُثبت وقوع معجزات المسيح أو غيره من الأنبياء، وبربي لا أعلم إلى أي مدى وصل ضعف هؤلاء الناس، حتى يلجأوا لكتاب يجحدون به لإثبات ما لا يمكن إثباته من عقيدتهم، ومع أننا الأمة الوحيدة التي تكرم المسيحﷺ ولم نلعنه كما فعل النصارى، وفعل كبيرهم الذي علمهم بولس، فهم قد عجزوا عن إثبات ما يريدون إثباته من كتابهم، فاحتاجوا إلى القرآن حينذاك، والمضحك في هذا الأمر أن المُنَصِّر لو أراد أن ينصر أحد المجوس أو البوذيين أو الملاحدة فيكون لسان حاله كالتالي:

أنا لا أستطيع أن أثبت لك معجزات المسيح من الكتاب المقدس، ولا بالعقل والمنطق ولا بأي سبيل، ولكن عند المسلمين في القرآن والسنة والنبوية يثبتون تلك المعجزات؛ فإن أردت أن تتأكد من المعجزات عليك أن تؤمن بالإسلام والقرآن! فأي عقل هذا وأي دين يعتنقه النصارى، لا سند له، ولا تواتر فيه، بل هو الظن، وما يغني الظن شيئًا، وكما نقول دائما لايجوز للنصارى الاحتجاج بالقرآن الكريم: يقول رب العزةﷻ في كتابه الكريم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس٣٦)، ويقول في القرآن الكريم ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ (النجم٢٣)، [1]

* * *

(١) نقلًا بتصرف من كتاب البيان بما في عقيدة النصارى من التحريف والبهتان.

٩ـ شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ يتهرب من الإجابة عن الأسئلة.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ﴾ (المائدة: ١٠١) فيها أمور:

١-الآية فيها تعارض ففي أولها نهي عن السؤال فقال: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ﴾، ثم عقب ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ﴾، وأيضًا فيها تعارض مع قوله تعالى ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (الأنبياء: ٧).

٢-زعم المعترض على الآية أن النبي محمدًا ﷺ لما رأى أن أصحابه بدأوا يسألونه أسئلة لا يجد لها جوابًا خشي من ذلك فقال: إن الله أنزل عليه هذه الآية.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: سبب نزول الآية فيه دلالة على أن الأسئلة كانت لا فائدة منها.

الوجه الثاني: النهي الوارد في الآية عن السؤال لغير فائدة، أو السؤال الذي يجلب المشقة.

الوجه الثالث: الأمر بالسؤال فيما يتعبد به وتقرر، وثبت وجوبه مما يجب عليهم العمل به، والنهي: فيما لم يتعبد الله عباده به، ولم يذكره في كتابه.

الوجه الرابع: إجابة القرآن على الأسئلة التي كانت توجه إلى النبي ﷺ وفيها ما ينفع.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: سبب نزول الآية فيه دلالة على أن الأسئلة كانت لا فائدة منها، والمقصود فيها الإساءة.

عن أنس ﵁ قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: " عرضت علي الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، قال: " غطوا رءوسهم ولهم خنين، قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا. قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبي؟ قال: " أبوك فلان ". فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

تَسْـَٔلُواْعَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾الآية. (١)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُولُ الرَّجُلُ مَنْ أَبِى؛ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ: أَيْنَ نَاقَتِي؟ فَأَنْزَلَ الله فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا. (٢)

وعن أبي هريرة ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: " يا أيها الناس، كتب الله عليكم الحج". فقام محصن الأسدي فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: "أما إني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم. اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم" فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ إلى آخر الآية. (٣)

قال الطبري: ذكر أن هذه الآية أنزلت على رسول الله ﷺ؛ بسبب مسائل كان يسألها إياه أقوام امتحانًا له أحيانًا، واستهزاءً أحيانًا، فيقول له بعضهم: "من أبي "؟ ويقول له بعضهم إذا ضلت ناقته: "أين ناقتي "؟ فقال لهم - تعالى ذكره -: لا تسألوا عن أشياءَ من ذلك، كمسألة عبد الله بن حُذافة إياه من أبوه ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾، يقول: إن أبدينا لكم حقيقة ما تسألون عنه، ساءكم إبداؤها وإظهارها. (٤)

ومن هذا تبين لنا: أنه قد تتعدد أسباب النزول للآية الواحدة، فتحدث مسألة ثم يحدث أمر ثم أمر آخر فتنزل الآية في ذلك كله. والله تعالى أعلم. (٥)

الوجه الثاني: النهي الوارد في الآية عن السؤال لغير فائدة أو السؤال الذي يجلب المشقة. وقد ذم النبي ﷺ كثرة السؤال لغير فائدة أو فيما يسيء.

---

(١) البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

(٢) البخاري (٤٦٢٢).

(٣) إسناده صحيح: أخرجه الطبري في التفسير (٧/ ٨٢).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٨٠).

(٥) تفسير سورة المائدة (صـ ٥٣٤) للشيخ مصطفى العدوى وراجع مبحث أسباب النزول في قسم علوم القرآن في هذه الموسوعة.

فقال: " أعظم المسلمين جرمًا: من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين، فحرم عليهم من أجل مسألته "(١)

وقال: " إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال "(٢)

وقال: " ذروني ما تركتكم فإنما أهلك الذين قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم "(٣)

قال القاسمي: قال بعض الأئمة والتحقيق في ذلك أن البحث عما لا يوجد فيه نص على قسمين:

أحدهما: أن يبحث عن دخوله في دلالة النص على اختلاف وجوهها، فهذا مطلوب لا مكروه؛ بل ربما كان فرضًا على من تعين عليه من المجتهدين.

ثانيهما: أن يدقق النظر في وجوه الفروق، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر في الشرع مع وجود وصف الجمع، أو بالعكس؛ بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردي مثلًا فهذا الذي ذمه السلف. وعليه ينطبق حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: " هلك المتنطعون "(٤) فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته، ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا في السنة ولا الإجماع، وهي نادرة الوقوع جدًا، فيصرفُ فيها زمانٌ كان صرفه في غيرها أولى؛ ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه، وأشد من ذلك كثرة السؤال للبحث عن أمور مغيبة، ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها، ومنها لا يكون له شاهد في عالم الحس، كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة. . . إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل، الصرف والكثير منه لم يثبت منه شيء؛ فيجب الإيمان به من غير بحث، وأشد من ذلك: ما يوقع كثرة البحث

---

(١) البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

(٢) البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (١٧١٥)

(٣) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٤) مسلم (٢٦٧٠).

عنه في الشك والحيرة.[١]

قال الشاطبي: الإكثار من الأسئلة مذموم، والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة. . . ثم ساق الأدلة التي ذكرناها ثم قال:

ويتبين من هذا أن لكراهية السؤال مواضع نذكر منها عشرة مواضع:

أحدها: السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال عبد الله بن حذافة من أبي؟

ثانيها: أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته كما سأل الرجل عن الحج أكل عام مع أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ﴾ البيت قاض بظاهره؛ أنه للأبد لإطلاقه، ومثله سؤال بني إسرائيل بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾.

ثالثها: السؤال من غير احتياج إليه في الوقت، وكان هذا والله أعلم خاص بها لم ينزل فيه حكم وعليه يدل قوله: " ذروني ما تركتكم "، وقوله: " وسكت عن أشياء رحمة لكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها ".

رابعها: أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات.

خامسها: أن يسأل عن علة الحكم، وهو من قبيل التعبدات التي لا يعقل لها معنى، أو السائل ممن لا يليق به ذلك السؤال، كما في حديث قضاء الصوم دون الصلاة.

سادسها: أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق، وعلى ذلك يدل قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ (ص: ٨٦).

ولما سأل الرجل: يا صاحب الحوض، هل ترد حوضك السباع؟ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا صاحب الحوض، لا تخبرنا: فإنا نرد على السباع وترد علينا، الحديث.[٢]

سابعها: أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي، ولذلك قال سعيد: أعراقي أنت؟ وقيل لمالك بن أنس: الرجل يكون عالمًا بالنسبة أيجادل عنها، قال: لا،

---

(١) تفسير القاسمي (٤/ ٣٩١).

(٢) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

ولكن يخبر بالنسبة؛ فإن قبلت منه وإلا سكت.

ثامنها: السؤال عن المتشابهات وعلى ذلك يدل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ الآية، وعن عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه عرضًا للخصومات؛ أسرع التنقل، ومن ذلك سؤال من سأل مالكًا عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة.

تاسعها: السؤال عما شجر بين السلف الصالح. وقد سُئل عمر بن عبد العزيز عن قتال أهل صفين، فقال: تلك دماء كف الله عنها يديَّ، فلا أُحِبُّ أن يلطخ بها لساني.

عاشرها: سؤال التعنت والإفحام، وطلب الغلبة في الخصام. وفى القرآن في ذم نحو هذا قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ (البقرة: ٢٠٤)، الحديث: " أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم "[(١)]

الوجه الثالث: الأمر بالسؤال فيما يتعبد به وتقرر، وثبت وجوبه مما يجب عليهم العمل به، والنهي فيما لم يتعبد الله عباده به، ولم يذكره في كتابه.

قال القرطبي: إن قال قائل: ما ذكرتم من كراهية السؤال والنهى عنه، يعارضه قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) فالجواب: أن هذا الذي أمر الله به عباده هو ما تقرر وثبت وجوبه مما يجب عليهم العمل به، والذي جاء فيه النهي هو ما لم يتعبد الله عباده به، ولم يذكره في كتابه. والله أعلم.[(٢)]

قال ابن عبد البر: السؤال اليوم لا يخاف منه أن ينزل تحريم ولا تحليل من أجله، فمن سأل مستفهما راغبًا في العلم، ونفي الجهل عن نفسه، باحثًا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه، فلا بأس به؛ فشفاء العي السؤال، ومن سأل متعنتًا غير متفقه ولا متعلم؛ فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيرة.[(٣)]

---

(١) الموافقات للشاطبي (٤/ ١٨٨: ١٨٩)، والحديث أخرجه البخاري (٢٣٢٥)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٣١٤).

(٣) نقلًا عن القرطبي في التفسير (٦/ ٣١٣).

قال ابن العربي: الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَنِيَ بِبَسْطِ الْأَدِلَّةِ، وَإِيضَاحِ سُبُلِ النَّظَرِ، وَتَحْصِيلِ مُقَدِّمَاتِ الِاجْتِهَادِ، وَإِعْدَادِ الْآلَةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الِاسْتِمْدَادِ؛ فَإِذَا عَرَضَتْ النَّازِلَةُ أَتَيْت مِنْ بَابِهَا، وَنُشِدَتْ فِي مَظَانِّهَا، وَاللهُ يَفْتَحُ فِي صَوَابِهَا. (١)

الوجه الرابع: إجابة القرآن على الأسئلة التي كانت توجه إلى النبي ﷺ وفيها ما ينفع.

فلقد وجه للنبي ﷺ أسئلة كثيرة وأجاب القرآن عنها ولم يتركها هملًا.

وها هي بعض الأمثلة على ذلك:

١ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ...﴾ (البقرة: ٢١٩: ٢٢٠)

٢ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)﴾ (الأنفال: ١).

وغيرها كثير. فما ترك لنا هذا الدين الحنيف شيئًا إلا ووضحه وبينه، وصدق الله إذ يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)

أما عن قولهم في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ فيه نهي عن السؤال.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فيه إباحة للسؤال، فكيف الجمع بين هذا وذاك؟

فالجواب كما يلي:

١ - النهي عن السؤال فيما لا فائدة فيه، وإباحته فيما مست إليه الحاجة.

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١) فيه غموض، وذلك أن في أول الآية النهي عن السؤال ثم قال: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فأباحه لهم، فقيل: المعنى وإن تسألوا عن غيرها فيما مست الحاجة إليه، فحذف المضاف، ولا يصح حمله على غير الحذف.

قال الجرجاني: الكناية في ﴿عَنْهَا﴾ ترجع إلى أشياء أخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٦٠٠).

ﵟٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ﵞ (المؤمنون: ١٢) يعني آدم، ثم قال: ﵟثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗﵞ (المؤمنون: ١٣) أي ابن آدم، لان آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين، لكن لما ذكر الإنسان وهو آدم دل على إنسان مثله، وعرف ذلك بقرينة الحال، فالمعنى: وإن تسألوا عن أشياء حين ينزل القرآن من تحليل أو تحريم أو حكم، أو مست حاجتكم إلى التفسير، فإذا سألتم فحينئذ تبد لكم، فقد أباح هذا النوع من السؤال.[1]

٢ ـ النهي عن السؤال فيما لم ينزل فيه وحي وإذا نزل وحي بأمر أبيح لنا أن نسأل وأن نتبين من هذا الأمر ما نحتاج إليه.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره للذين نهاهم من أصحاب رسول الله ﷺ، عن مسألة رسول الله ﷺ عما نهاهم عن مسألتهم إياه عنه من فرائض لم يفرضها الله عليهم، وتحليل أمور لم يحلها لهم، وتحريم أشياء لم يحرمها عليهم قبل نزول القرآن بذلك، أيها المؤمنون السائلون عما سألوا عنه رسولي، مما لم أنزل به كتابًا أو وحيًا؛ لا تسألوا عنه: فإنكم إن أظهر ذلك لكم تبيانًا بوحي وتنزيل ساءكم؛ لأن التنزيل بذلك إذا جاءكم إنما يجئكم بما فيه امتحانكم واختباركم، إما بإيجاب عمل عليكم ولزوم فرض لكم؛ وفي ذلك عليكم مشقة ولزوم مؤنة وكلفة، وإما بتحريم ما لو لم يأتكم بتحريمه وحي كنتم من التقديم عليه فسحة وسعة، وإما ما بتحليل ما تعتقدون تحريمه، وفي ذلك لكم مساءة لنقلكم عما كنتم ترونه حقًا، إلى ما كنتم ترونه باطلًا، ولكنكم إن سألتم عنها بعد نزول القرآن بها، وبعد ابتدائكم ببيان أمرها في كتابي إلى رسولي إليكم، ليسَّر عليكم ما أنزلته إليه من بيان كتابي، وتأويل تنزيلي ووحيي[2].

٣ ـ إلا أنهما في كون كل واحد منهما مسئولًا عنه شيء واحد، فلهذا الوجه حسن اتحاد الضمير، وإن كانا في الحقيقة نوعين مختلفين.[3]

أما عن قولهم إن محمدًا ﷺ لما رأى أن أصحابه بدأوا يسألونه أسئلة لا يجد لها جوابًا، خشي من ذلك فقال إن الله أنزل هذه الآية: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣١٣).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٨٤: ٨٥) بتصرف.

(٣) تفسير الرازي (١١/ ١٠٧).

﴿تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١).

فالجواب كالتالي: معنى أن محمدًا ﷺ كان يُسأل أسئلة ولا يجد لها جوابًا، فخشي من ذلك، فقال: إن الله أنزل الآية، يدل على أن القرآن من عند النبي ﷺ وهذا خطأ؛ لأن القرآن هو كلام رب العالمين ـ تبارك وتعالى ـ نزل من عنده على النبي محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ (طـه: ٢) فيه دلالة على أن القرآن نزل من عند الله تبارك وتعالى.

والسؤال كيف يخشى النبي ﷺ أسئلتهم، ثم يقول لهم لقد أنزلت هذه الآية؟

ولكن علم الله - تبارك وتعالى - بمثل هذه الأسئلة التي لا فائدة فيها، فأنزل على النبي ﷺ هذه الآية فقرأها عليهم.

ففي هذا القول دعوى لتكذيب النبي ﷺ وهي دعوى باطلة ساقطة﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾(النجم: ٣).

٤ ـ النبي ﷺ رسول أوحي إليه، فكلامه وحي من عند الله، فكيف يخشى النبي محمد ﷺ من الإجابة على أسئلتهم ما دامت الإجابة ستأتي له؟

وهذا يدل على بطلان كلامهم، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٤) كان ﷺ يبلغ الناس؛ فإن لم يكن عنده جواب، أنزل الله الوحي فأجاب على من سأل؛ فحينئذ ما خشي النبي ﷺ من سؤال القوم؛ لأنه لم يجد جوابًا فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١).

وكيف يخشى النبي ﷺ من الإجابة على أسئلتهم، وقد نص الحديث: من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فلما سلم، قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أمورًا عظامًا، ثم قال: " من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا "، قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول الله ﷺ

أن يقول: " سلوني "، فقال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: " النار "، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: " أبوك حذافة "، قال: ثم أكثر أن يقول: " سلوني سلوني "، فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولًا، قال: فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك، ثم قال رسول الله ﷺ: " والذي نفسي بيده، لقد عرضت علي الجنة والنار آنفًا، في عرض هذا الحائط، وأنا أصلي، فلم أر كاليوم في الخير والشر". (١)

وقد وُجِّهَت إلى رسول الله ﷺ أسئلةٌ وليس عنده جواب، حتى آتاه الوحي فأجاب عنها، كما في حديث ابن مسعود، قال: بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث، وهو متكئ على عسيب، إذ مر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقالوا: ما رابكم إليه، لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فقام إليه بعضهم فسأله عن الروح، قال: فأسكت النبي ﷺ، فلم يرد عليه شيئًا، فعلمت أنه يوحى إليه، قال: فقمت مكاني، فلما نزل الوحي قال: " ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾". (٢)

* * *

(١) رواه البخاري (٧٢٩٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧٩٤).

١٠ـ شبهة: ادعاؤهم أن النبي محمدًا ﷺ صاحب مطامع دنيوية.

نص الشبهة:

ادَّعَوا أن رسالة محمدٍ ﷺ كانت تسعى لأهدافٍ ماديةٍ وفوائدَ اقتصاديةٍ وليس للدعوة إلى الله تعالى، فبدأ يشن الحروب لهذا الغرض، وكذلكم استدلوا بقوله تعالى: "تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا" الآية.

والرد على ذلك من وجوه:

أولًا: الرد الإجمالي.

ثانيًا: الرد التفصيلي وبيانه من عدة وجوه.

الوجه الأول: لا دليل على هذه الشبهة من واقع حياة النبي ﷺ وعيشه.

الوجه الثاني: زهد النبي ﷺ هو أعظم دليلٍ على بطلان حمق هذه الشبهة.

الوجه الثالث: رفض رسول الله ﷺ المال والجاه والنساء عندما عرضه عليه أهل مكة.

الوجه الرابع: حال النبي ﷺ في غزواته ووصاياه لأمرائه وعفوه عن أهل مكة بعد فتحها.

الوجه الخامس: كان النبي ﷺ أجود الناس وأكرمهم.

الوجه السادس: حال النبي ﷺ عند رحيله من الدنيا؛ وأنه ما كان يملك لا أقل القليل.

الوجه السابع: لم يكن النبي ﷺ يدخر شيئًا لغدٍ بل كان أقصر الناس أملًا في الدنيا.

الوجه الثامن: العلة من مهاجمة عير قريشٍ هي استرداد بعض حقوق المسلمين التي سلبتها ونهبتها قريش.

الوجه التاسع: الرد على استدلالهم بقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية.

وإليك التفصيل

أولًا: الرد الإجمالي.

اتهام النبي ﷺ بأنه صاحب مطامع دنيوية.

من الشبه التي أثارها أعداء الإسلام، وروَّجوا لها بهدف تشويه شخصية محمدٍ ﷺ، للوصول إلى الطعن في دعوته، وإبعاد الناس عنها، ما يدَّعونه من أنه كان صاحب مطامع دنيويةٍ، لم يكن يظهرها في بداية دعوته في مكة، ولكنه بعد هجرته إلى المدينة بدأ يعمل على

جمع الأموال والغنائم من خلال الحروب التي خاضها هو وأصحابه، ابتغاء تحصيل مكاسبَ ماديةٍ وفوائد دنيويةٍ، حتى قال بعضهم: عاش محمدٌ هذه السنين بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب. وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي أثرت على نفس محمدٍ، والتي دفعته إلى شن غاراتٍ متتابعةٍ، كما سيطرت على نفس الإسكندر من قبلُ، ونابليون من بعدُ! !

والحق: فإن الناظر في سيرته ﷺ، والمتأمل في تاريخ دعوته، يعلم علم اليقين أنه ﷺ لم يكن يسعى من وراء كل ما قام به إلى تحقيق أي مكسبٍ دنيويٍّ، يسعى إليه طلاب الدنيا واللاهثون وراءها بل كان أزهد الناس في الدنيا وما فيها، وكان أجود الناس؛ حتى إنه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وعندما جاءته الدنيا وهي راغمةٌ بعدما فتح الله تعالى عليه بذلها كلها ولم يستبق لنفسه منها شيئًا. وهذا ردٌّ إجماليٌّ مختصر .

أما الرد التفصيليُ فبيانه فيما يلي:

الوجه الأول: لا دليل على هذه الشبهة من واقع حياة النبي ﷺ وعيشه.

إن ما ذكر في هذه الشبهة لا يوجد عليه دليل في واقع حياة النبي ﷺ، إذ لو كان كما قيل لعاش عيش الملوك، في القصور والبيوت الفارهة، واتخذ من الخدم والحراس والحشم؛ بينما الواقع يشهد بخلاف ذلك، إذ كان في شظفٍ من العيش، مكتفيًا بما يقيم الحياةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللهِ لَوْ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا فَقَالَ مَا لِي وَلِلدُّنْيَا مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا(١).

وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَدَمٍ وَحَشْوُهُ مِنْ لِيفٍ(٢).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً. قَالَ: وَكَانَ عَامَّةُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ(١).

---

(١) مسند أحمد ١/ ٣٠١.

(٢)البخاري (٦٤٥٦).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ؛ التَّمْرُ وَالْمَاءُ(٢)

الوجه الثاني: زهد النبي ﷺ هو أعظم دليلِ على بطلان حمق هذه الشبهة.

ثم إن هذه الشبهة تتناقض مع الزهد الذي عُرِفَ به النبي ﷺ، وحث عليه أصحابه رضي الله عنهم ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: : اللهمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا. (٣)

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا يَسُرُّنِي أَنْ يَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثٌ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا شَيْءٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ". (٤)

ولم يكن ﷺ زاهدًا في نفسه وفقط بل كان يُعلِّم أصحابه الزهد ويربيهم عليه.

كان ﷺ يحث أصحابه رضي الله عنهم على الزهد فقد صح عنه أنه قال: "إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا". (٥)

وقرن في التحذير بين فتنة الدنيا وفتنة النساء، فقال: " إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؛ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ ". (٦)

وكان يأمر أصحابه بالتعفف والتصبر والاستغناء عما في أيدي غيرهم - أو عما ليس في أيديهم- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: " مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ،

---

(١) رواه أحمد ١/ ٢٥٥، وابن ماجه (٣٣٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٩٥).

(٢) البخاري (٦٤٥٩).

(٣) البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له، والقوت: ما يسد الرمق.

(٤) البخاري (٢٣٨٩، ٧٢٢٨)، مسلم (٩٩١).

(٥) البخاري (١٤٦٥)، مسلم (١٠٥٢) واللفظ له.

(٦) مسلم (٢٧٤٢).

وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ ". (١)

الوجه الثالث: رفض رسول الله ﷺ المال والجاه والنساء عندما عرضه عليه أهل مكة.

ومما يدحض هذه الشبهة وينقضها من أساسها أن أهل مكة عرضوا على رسول الله ﷺ المال، والملك، والجاه؛ من أجل أن يتخلى عن دعوته فرفض ذلك كله، وفضَّل أن يبقى على شظف العيش مع الاستمرار في دعوته، ولو كان من الراغبين في الدنيا لما رفضها وقد أتته من غير عناءٍ.

قال عتبة بن ربيعة يومًا وهو جالس في نادي قريشٍ والنبي ﷺ جالسٌ في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورًا؛ لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنَّا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطةِ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيمٍ فَرَّقْتَ به جماعتهم، وسَفَهْتَ به أحلامَهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينَهم، وكَفَّرْتَ به مَن مضى مِن آبائهم؛ فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها؛ لعلك تقبل منا بعضها. فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا؛ جمعنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سَوَّدناك علينا؛ حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا في أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه. قال: " أقد فرغت يا أبا الوليد؟ " قال: نعم. قال: " فاسمع مني ". قال: أفعل، قال: "﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ إلى أن بلغ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(فصلت: ١-١٣) ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها عتبة منه أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد. ثم قال: " قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنت وذاك ". [١]

وفي روايةٍ: وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا. [٢]

الوجه الرابع: حال النبي ﷺ في غزواته ووصاياه لأمرائه وعفوه عن أهل مكة بعد فتحها.

أن الوصايا التي كان يزود بها قادة جيوشه تدل على أنه ﷺ لم يكن طالب مغنمٍ، ولا صاحب شهرةٍ، بل كان هدفه الأوحد والوحيد إبلاغ دين الله للناس، وإزالة العوائق المعترضة سبيل الدعوة، فها هو يوصي معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن بقوله: "إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ"[٣].

وهو ﷺ لم يقاتل أحدًا قبل دعوته إلى الإسلام، الذي تصان به الدماء والحرمات.

ويجدر بنا هنا أن نذكر موقفه ﷺ يوم فتح مكة، فهذه قريشٌ قد بالغت في أذاه ﷺ، وأحكمت قبضتها منه، ثم أخرجته من بين أهله، وعشيرته. قتلوا من أصحابه في يوم أُحُدٍ سبعين وجرحوا آخرين، ومن قبلُ في مكة قتلوا وعذبوا وشردوا، وطردوا المسلمين من مكة بعد أن جَرَّدوهم من كل ما يملكون من هذه الدنيا، وجُرِحَ رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وشُجَّ وجهه ﷺ وهو يقول: " اللهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ "[٤]

(١) فقه السيرة ١/ ١١٥-١١٦ وقال الألباني: وإسناده حسن إن شاء الله.

(٢) صحيح السيرة النبوية للألباني ١/ ١٦٠-١٦١.

(٣) البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

(٤) البخاري (٣٤٧٧).

وعن سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: " اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ". (١)

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ ﷺ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: " اللهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". (٢)

ثم أمكنه الله تعالى منهم فعاد فاتحًا مكة ومعه أكثر من عشرة آلافٍ معهم السيوف مسلطة على رؤوس قريش، وهو يقول لهم: " ما ترون أني صانعٌ بكم؟ " قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ، قال: " اذهبوا فأنتم الطلقاء "، ولم يجعل منها فيئًا قليلًا ولا كثيرًا، لا دارًا ولا أرضًا ولا مالًا، ولم يسب من أهلها أحدًا، وقد قاتله قومٌ فيها فقتلوا وهربوا فلم يأخذ من متاعهم شيئًا، ولم يجعله فيئًا. (٣)

وقد كان ﷺ قادرًا على أن يأسرهم جميعًا، ويسبي نساءهم وذراريهم، ويستولي على أموالهم وما يملكون، لكنه ﷺ سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

الوجه الخامس: كان النبي ﷺ أجود الناس وأكرمهم.

ومما يُرَدُّ به على هذه الفرية أن رسول الله ﷺ كان أجود الناس وأكرمهم.

ففي الصحيحين عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ. فَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ. (٤)

---

(١) مسلم (١٧٣١).

(٢) البخاري (٣٤٧٧)، (٦٩٢٩).

(٣) سنن البيهقي الكبرى ٩/ ١١٨(١٨٧٣٩).

(٤) البخاري (٣٥٥٤)، مسلم (٢٣٠٨).

عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَ الله إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ، فَقَالَ أَنَسٌ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا. (١)

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِبُرْدَةٍ فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ الشَّمْلَةُ، فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شَمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله أَكْسُوكَ هَذِهِ فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إليها فَلَبِسَهَا، فَرَآهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ الصَّحَابَةِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَا أَحْسَنَ هَذِهِ! فَاكْسُنِيهَا، فَقَالَ: "نَعَمْ"، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لَامَهُ أَصْحَابُهُ قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إليها ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعَهُ! فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا. (٢)

وفي روايةٍ: قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ.

وفي روايةٍ: فَجَلَسَ مَا شَاءَ الله فِي الْمَجْلِسِ ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إليه.

قيل: ويحتمل أن يكون المراد بهذه الكثرة الدراهم، فإن رسول الله ﷺ قسم بين رجلين من النعم والشاه ما هو أكثر من هذا المال المذكور في هذا الحديث.

الوجه السادس: حال النبي ﷺ عند رحيله من الدنيا وأنه ما كان يملك إلا أقل القليل.

ومما يَرُدُّ أيضًا على هذه الفرية أن رسول الله ﷺ قد ارتحل من الدنيا ولم يكن له فيها إلا أقل القليل، عَنْ عَمْرِو بْنِ الحَارِثِ قَالَ: مَا تَرَكَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً. (٣)

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ (٤).

---

(١) مسلم (٢٣١٢).

(٢) البخاري (٦٠٣٦).

(٣) البخاري (٢٥٨٨).

(٤) البخاري (٣٠٩٧)، (٦٤٥١)، مسلم (٢٩٧٣).

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ اشْتَرَى مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا إِلَى أَجَلٍ وَرَهَنَهُ دِرْعًا لَهُ مِنْ حَدِيدٍ(١).

وفي روايةٍ: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ(٢).

الوجه السابع: لم يكن رسول الله ﷺ يدخر شيئًا لغدٍ وكان قصير الأمل ﷺ.

فَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ. (٣)

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ المَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ فَقَالَ: " يَا أَبَا ذَرٍّ "، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: " مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلَّا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ الله هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا". (٤)

وعن عائشة ﵂ قالت: أتت رسولَ الله ﷺ ثمانيةُ دراهم بعد أن أمسينا فلم يزل قائمًا وقاعدًا لا يأتيه النوم، حتى سمع سائلًا يسأل، فخرج من عندي، فما عدا أن دخل فسمعت غطيطه، فلما أصبح قلت: يا رسول الله رأيتك أول الليل قائمًا وقاعدًا لا يأتيك النوم حتى خرجت من عندي فما عدا أن دخلْتَ فسمعتُ غطيطَك، قال: " أجل أَتَتْ رسولَ الله ثمانيةُ دراهمَ بعد أن أمسى، فما ظن رسول الله أن لو لقي الله وهي عنده ".(٥)

الوجه الثامن: العلة من مهاجمة عير قريش.

أراد رسول الله ﷺ أن يسترد شيئًا مما نهبه المشركون من المسلمين عند الهجرة بمهاجمته ﷺ لعير قريش يوم بدر.

أما بشأن تعرض النبي ﷺ والمسلمين لقوافل قريشٍ قبل بدر، فإنها إنما كانت أموال المسلمين أنفسهم، تركوها في مكة بعد طول تعذيبٍ وتنكيلٍ، وتركوا معها الأهل والولد

---

(١) البخاري (٢١٣٣)، مسلم (١٦٠٣).

(٢) البخاري (٢٧٥٩).

(٣) مختصر الشمائل (٣٠٤) وصححه الألباني، وقال: وهذا منه ﷺ لكمال توكله على ربه، وقد يدخر لعياله قوت سنتهم لضعف توكلهم بالنسبة له ﷺ، وليكون سنة للمعيلين من أمته وفي الصحيحين أنه ﷺ كان يدخر لأهله قوت سنتهم.

(٤) البخاري (٦٢٦٨) بلفظ ما أحب.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٨٤.

والوطن، وهاجروا إلى المدينة عُزْلًا لا يملكون من قوت يومهم شيئًا، وذلك فرارًا بدينهم، وطلبًا لمكانٍ يعبدون فيه ربهم دون أن يتعرض لهم أحد، وقد قامت قريشٌ بالاستيلاء على جميع ممتلكات المهاجرين هؤلاء، واستباحت ديارهم وأموالهم، وليس أدلَّ على ذلك من تجريدهم لأموال صهيبٍ الرومي.

الوجه التاسع: الرد على استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيات، وذلك من وجوه:

الأول: معنى الآيات.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنفال: ٦٧).

قال الإمام الطبري: ما كان لنبيٍّ أن يحتبس كافرًا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمنّ. و(الأسر) في كلام العرب: الحبس، يقال منه: (مأسورٌ)، يراد به: محبوس. وإنما قال الله جل ثناؤه ذلك لنبيه محمد ﷺ يعرِّفه أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدرٍ ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: حتى يبالغ في قتل المشركين فيها، ويقهرهم غلبة وقسرًا، يقال منه: أثخن فلان في هذا الأمر، إذا بالغ فيه. وحُكِيَ: أثخنته معرفةً، بمعنى: قتلته معرفةً. ﴿تُرِيدُونَ﴾، يقول للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون، ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأسركم المشركين، وهو ما عَرَض للمرء منها من مالٍ ومتاعٍ. يقول: تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وطُعْمها ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، يقول: والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعدّ للمؤمنين وأهل ولايته في جناته، بقتلكم إياهم وإثخانكم في الأرض. يقول لهم: فاطلبوا ما يريد الله لكم وله اعملوا، لا ما تدعوكم إليه

أهواء أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، يقول: إن أنتم أردتماالآخرة، لم يغلبْكم عدوٌّ لكم، لأن الله عزيزٌ لا يُقهرُ ولا يُغلَبُ وأنه﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تدبيره أمرَ خلقه. (١)

قال الله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٨).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره لأهل بدرٍ الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداءَ: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ يقول: لولا قضاءٌ من الله سبق لكم أهلَ بدرٍ في اللوح المحفوظ، بأن الله مُحِلٌّ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يُضِلُّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدرٍ مع رسول الله ﷺ ناصرًا دينَ الله لنالَكُمْ من الله بأخذكم الغنيمة والفداء، عذابٌ عظيمٌ. (٢)

قال القاضي عياض: وأما قوله في أساري بدرٍ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨) فليس فيه إلزام بذنب للنبي ﷺ، بل فيه بيان ما خُصَّ به وفُضِّل من بين سائر الأنبياء، فكأنه قال: ما كان هذا لنبيٍّ غيرِك، كما قال ﷺ: " أُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ". (٣)

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾؟

قيل: المعنى بالخطاب لمن أراد ذلك منهم، وتجرد غرضه لعرض الدنيا وحده، والاستكثار منها، وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا عِلْيَة أصحابه ﷺ بل قد رُوِيَ عن الضحاك: أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال، حتى خشي عمرُ أن يعطف عليهم العدو. ثم قال الله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ فاختلف المفسرون في معنى الآية، فقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٤٢.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٤٤.

(٣) البخاري (٣٢٨، ٤٢٧)، مسلم (٥٢١).

معناها: لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحدًا إلا بعد النهي لعذبتكم. فهذا ينفي أن يكون أمر الأسر معصيةً.

وقيل: المعنى لولا إيمانُكم بالقرآن، وهو الكتاب السابق، فاستوجبتم به الصفح لعوقبتم على الغنائم.

ويزاد هذا القول تفسيرًا وبيانًا بأن يقال: لولا إن كنتم بمؤمنين بالقرآن، وكنتم ممن أُحلت لهم الغنائم لعوقبتم كما عوقب من تعدَّى.

وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتم. فهذا كله ينفي الذنب والمعصية؛ لأن من فعل ما أُحِلَ له لم يعص، قال الله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال: ٦٩).

وقيل: بل كان رسول الله ﷺ قد خيِّر في ذلك، وقد روي عن عليٍّ ﷺ قال: جاء جبريل يوم بدرٍ إلى النبي ﷺ فقال: خَيِّر أصحابك من الأساري إن شاءوا في القتل، وإن شاءوا في الفداء على أن يُقْتَلَ عامًا مقبلًا مثلُهم منهم، فقالوا: الفداءُ ويقتلُ منا. [١]

وهذا دليلٌ على صحة ما قلناه، وأنهم لم يفعلوا إلا ما أُذِنَ لهم فيه، لكنَّ بعضَهم مالَ إلى أضعفِ الوجهين مما كان الأصلحُ غيرَه من الإثخانِ والقتلِ، فعوتبوا على ذلك، وبيَّن لهم ضعفَ اختيارِهم وتصويبَ اختيارِ غيرِهم، وكلهم غير عصاة ولا مذنبين. وإلى هذا أشار الطبري.

وقال الداوودي: والخبر بهذا لا يثبت، ولو ثبت لما جاز أن يُظَنَّ أن النبي ﷺ حكم بما لا نصَّ فيه ولا دليل من نصٍّ، ولا جُعِلَ الأمر فيه إليه، وقد نزهه الله تعالى عن ذلك.

وقال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء، وقد كان قبل هذا فادوا في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه، فما عتب الله ذلك عليهم، وذلك قبل بدر بأزيد من عام.

---

(١) الترمذي (١٥٦٧)، والنسائي في الكبرى (٨٦٦٢)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٩٧٣).

فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسرى كان على تأويلٍ، وبصيرة. وعلى ما تقدم قبل مثله فلم ينكره الله تعالى عليهم، لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدرٍ وكثرة أسراها. والله أعلم. إظهار نعمته، وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لهم، لا على وجه عتابٍ وإنكارٍ وتذنيبٍ، هذا معنى كلامه. (١)

الوجه الثاني: كلمة ﴿تُرِيدُونَ﴾ موجهة لجمع الأصحاب الذين أرادوا المال وليس للنبيﷺ.

قال صاحب تفسير البحر المحيط: وقرأ أبو الدرداء وأبو حيوة ما كان للنبي معرّفًا، والمراد به في التنكير، والتعريف الرسول ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجه عليه معينًا، وكيفية هذا النفي وهو هنا على حذف مضاف، أي ما كان لأصحاب نبي أو لأتباع نبيّ، فحذف اختصارًا ولذلك جاء الجمع في قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولم يجئ التركيب تريد أو يريد عرض الدنيا لأنه ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قط، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب.

ثم قال: وكانوا مالوا إلى الفداء ليقووا ما يصيبونه على الجهاد، وإيثارًا للقرابة، ورجاء الإسلام، وكان الإثخان والقتل أهيب للكفار، وأرفع لمنار الإسلام، وكان ذلك إذ المسلمون قليل، فلما اتسع نطاق الإسلام وعزّ أهله نزل ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ (محمد: ٤). (٢)

وقال أيضًا: والذي أقوله: أنهم كانوا مأمورين أوّلًا بقتل الكفار في غير ما آية كقوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (النساء: ٨٩)﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ (البقرة: ١٩١) فلما كانت وقعة بدر، وأسروا جماعة من المشركين، اختلفوا في أخذ الفداء منهم، وفي قتلهم، فعوتب من رأى الفداء؛ إذ كان قد تقدّم الأمر بالقتل، حيث لم يستصحبوا امتثال الأمر، ومالوا إلى الفداء، وحرصوا على تحصيل المال، ثم بعد هذه المعاتبة أمر الرسول بقتل بعض، والمنّ بالإطلاق في بعض، والفداء في بعض، فكان ذلك نسخًا لتحتّم القتل، ثم

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفي ٢/ ١٧٥: ١٧٣.

(٢) تفسير البحر المحيط ٤/ ٥١٤.

قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في تأييدكم ونصركم وقهركم أعداءكم، حتى استوليتم عليهم قتلًا وأسرًا ونهبًا، على قلّة عددكم وعددكم﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ ﴾ من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم منهم، لكونهم كانوا أكثر عددًا منكم وعددًا، ولكنه سهل تعالى عليكم، ولم يمسّكم منهم عذاب لا بقتل ولا أسر ولا نهب، وذلك بالحكم السابق في قضائه، أنه يسلّطكم عليهم ولا يسلّطهم عليكم، فليس المعنى لمسكم من الله، وإنما المعنى لمسكم من أعدائكم، كما قال: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾وقال: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ثم قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي مما غنمتم، ومنه ما حصل بالفداء الذي أقره الرسول ﷺ وقال: " لا يفلتن منهم رجل إلا بفدية أو ضرب عنق " وليس هذا الأمر مُنْشِئًا لإباحة الغنائم، إذ قد سبق تحليلها قبل يوم بدر؛ ولكنه أمر يفيد التوكيد واندراج مال الفداء في عموم ما غنمتم؛ إذ كان قد وقع العتاب في الميل للفداء، ثم أقرّه الرسول ﷺ وانتصب (حلالًا) على الحال من ما إن كانت موصولة، أو من ضميره المحذوف، أو على أنه نعت لمصدر محذوف، أي أكلًا حلالًا، وجوّزوا في (ما) إن تكون مصدرية وروي أنهم أمسكوا عن الغنائم، ولم يمدّوا أيديهم إليها فنزلت، وجعل الزمخشري قوله ﴿ فَكُلُوا۟ ﴾ متسببًا عن جملة محذوفة، هي سبب، وأفادت ذلك الفاء وقدّرها قد أبحت لكم الغنائم فكلوا، وقال الزجاج الفاء للجزاء، والمعنى قد أحللت لكم الفداء فكلوا، وأمر تعالى بتقواه؛ لأن التقوى حاملة على امتثال أمر الله، وعدم الإقدام على ما لم يتقدّم فيه، إذن ففيه تحريض على التقوى من مال إلى الفداء، ثم جاءت الصفتان مشعرتين بغفران الله ورحمته عن الذين مالوا إلى الفداء قبل الإذن.[1]

وقال الزمخشري: معناه إذا اتقيتموه بعدما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.[2]

(١) نقلًا من البحر المحيط ٤/ ٥١٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٨.

وقال ابن عطية: وجاء قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اعتراضًا فصيحًا في أثناء القول؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو متصل بقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، وقيل: غفور لما أتيتم، رحيم بإحلال ما غنمتم(١)(٢).

قال الإمام الرازي: تمسك الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه:

الأول: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ صريحٌ في أن هذا المعنى منهي عنه، وممنوع من قِبَلِ الله تعالى. ثم إن هذا المعنى قد حصل، ويدل عليه وجهان: الأول: قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ (الأنفال: ٧٠) الثاني: أن الرواية التي ذكرناها قد دلت على أنه ﷺ ما قتل أولئك الكفار، بل أسرهم، فكان الذنب لازمًا من هذا الوجه.

الثاني: أنه تعالى أمر النبي ﷺ وجميع قومه يوم بدرٍ بقتل الكفار، وهو قولُهُ: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢) وظاهر الأمر للوجوب، فلما لم يقتلوا بل أسروا كان الأسر معصية.

الثالث: أن النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء، وكان أخذ الفداء معصية، ويدل عليه وجهان: الأول قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وأجمع المفسرون على أن المراد من عرض الدنيا هاهنا هو أخذ الفداء. والثاني: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)﴾ وأجمعوا على أن المراد بقوله: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ ذلك الفداء.

الرابع: أن النبي ﷺ وأبا بكر بكيا، وصرح الرسول ﷺ أنه إنما بكى لأجل أنه حكم بأخذ الفداء، وذلك يدل على أنه ذنبٌ.

الخامس: أن النبي ﷺ قال: " إن العذاب قرب نزوله ولو نزل لما نجا منه إلا عمر "

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٥٥٤.

(٢) تفسير البحر المحيط ٤/ ٥١٥-٥١٦.

وذلك يدل على الذنب، فهذه جملة وجوهٍ تمسك القوم بهذه الآية.

والجواب عن الوجه الذي ذكروه أولًا: أن قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنه كان الأسر مشروعًا، ولكن بشرط سبق الإثخان في الأرض، والمراد بالإثخان هو القتل والتخويف الشديد، ولا شك أن الصحابة قتلوا يوم بدر خلقًا عظيمًا، وليس من شرط الإثخان في الأرض قتل جميع الناس. ثم إنهم بعد القتل الكثير أسروا جماعة، والآية تدل على أن بعد الإثخان يجوز الأسر فصارت هذه الآية دالةً دلالةً بيِّنةً على أن ذلك الأسر كان جائزًا بحكم هذه الآية، فكيف يمكن التمسك بهذه الآية في أن ذلك الأسر كان ذنبًا ومعصيةً؟ ويتأكد هذا الكلام بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ (محمد: ٤).

فإن قالوا: فعلى ما شرحتموه دلت الآية على أن ذلك الأسر كان جائزًا والإتيان بالجائز المشروع لا يليق ترتيب العقاب عليه، فلم ذكر الله بعده ما يدل على العقاب؟

فنقول: الوجه فيه أن الإثخان في الأرض ليس مضبوطًا بضابطٍ معلومٍ معينٍ، بل المقصود منه إكثار القتل بحيث يوجب وقوع الرعب في قلوب الكافرين، وأن لا يجترئوا على محاربة المؤمنين، وبلوغ القتل إلى هذا الحد المعين لا شك أنه يكون مفوضًا إلى الاجتهاد، فلعله غلب على ظن الرسول ﷺ أن ذلك القدر من القتل الذي تقدم كفى في حصول هذا المقصود، مع أنه ما كان الأمر كذلك فكان هذا خطًا واقعًا في الاجتهاد في صورة ليس فيها نص، وحسنات الأبرار سيئات المقربين. فحسن ترتيب العقاب على ذكر هذا الكلام لهذا السبب، مع أن ذلك لا يكون البتة ذنبًا ولا معصيةً.

والجواب عن الوجه الذي ذكروه ثانيًا أن نقول:

إن ظاهر قوله تعالى: ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ أن هذا الخطاب إنما كان مع الصحابة لإجماع المسلمين على أنه ﷺ ما كان مأمورًا أن يباشر قتل الكفار بنفسه، وإذا كان هذا الخطاب مختصًا بالصحابة، فهم لما تركوا القتل وأقدموا على الأسر، كان الذنب صادرًا

منهم لا من الرسولﷺ. ونقل أن الصحابة لما هَزَموا الكفارَ وقتلوا منهم جمعًا عظيمًا، والكفارُ فروا ذهب الصحابةُ خلفَهم، وتباعدوا عن الرسول ﷺ وأسروا أولئك الأقوام، ولم يعلم الرسول ﷺ بإقدامهم على الأسر إلا بعد رجوع الصحابة إلى حضرته، وهو ﷺ ما أسر وما أمر بالأسر، فزال هذا السؤال.

فإن قالوا: هب أن الأمر كذلك، لكنهم لما حملوا الأساري إلى حضرته فلِمَ لَمْ يأمر بقتلهم امتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾.

قلنا: إن قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ تكليفٌ مختصٌ بحالة الحرب عند اشتغال الكفار بالحرب، فأما بعد انقضاء الحرب فهذا التكليف ما كان متناوَلًا له. والدليل القاطع عليه أنه ﷺ استشار الصحابة في أنه بماذا يعاملهم، ولو كان ذلك النصُّ متناولًا لتلك الحالة، لكان مع قيام النص القاطع تاركًا لحكمه، وطالبًا ذلك الحكم من مشاورة الصحابة، وذلك مُحالٌ، وأيضًا فقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أمرٌ، والأمرُ لا يفيد إلا المرةَ الواحدةَ، وثبت بالإجماع أن هذا المعنى كان واجبًا حال المحاربة فوجب أن يبقى عديمَ الدلالة على ما وراء وقت المحاربة، وهذا الجواب شافٍ.

والجواب عما ذكروه ثالثًا وهو قولهم: إنه ﷺ حكم بأخذ الفداء، وأخذ الفداء محرمٌ.

فنقول: لا نسلم أن أخذ الفداء محرمٌ، وأما قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فنقول: هذا لا يدل على قولكم، وبيانه من وجهين:

الأول: أن المراد من هذه الآية حصول العتاب على الأسر لغرض أخذ الفداء، وذلك لا يدل على أن أخذ الفداء محرمٌ مطلقًا.

الثاني: أن أبا بكرﷺ قال: الأولى أن نأخذ الفداء لتقوى العسكر به على الجهاد، وذلك يدل على أنهم إنما طلبوا ذلك الفداء للتقوِي به على الدين، وهذه الآية تدل على ذم من طلب الفداء لمحض عرض الدنيا ولا تعلق لأحد البابين بالثاني. وهذان الجوابان بعينهما هما الجوابان

عن تمسكهم بقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

والجواب عما ذكروه رابعًا:

أن بكاء الرسول ﷺ يحتمل أن يكون لأجل أن بعض الصحابة لما خالف أمر الله في القتل، واشتغل بالأسر استوجب العذاب، فبكى الرسول ﷺ خوفًا من نزول العذاب عليهم، ويحتمل أيضًا ما ذكرناه أنه ﷺ اجتهد في أن القتل الذي حصل هل بلغ مبلغ الإثخان الذي أمره الله به في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ووقع الخطأ في ذلك الاجتهاد، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، فأقدم على البكاء لأجل هذا المعنى.

والجواب عما ذكروه خامسًا: أن ذلك العذاب إنما نزل بسبب أن أولئك الأقوام خالفوا أمر الله بالقتل، وأقدموا على الأسر حال ما وجب عليهم الاشتغال بالقتل، فهذا تمام الكلام في هذه المسألة. والله أعلم. [1]

قال الإمام الرازي أيضًا:

تمسكوا بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الآيتان.

والاستدلال من ثلاثة أوجه:

الأول: قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ وذلك يقتضي أن يكون استبقاء الأسرى محرمًا.

الثاني: قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك مذكورٌ في معرض الذم.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

الجواب: الذي يدل على براءة منصب الأنبياء في هذه الواقعة عن كل ما لا ينبغي:

أولًا: أنه إما أن يكون قد أوحى إليه في جواز الأسر وخَطَرَ إليه شيء، أو ما أوحي إليه شيء؛ فإن كان قد أوحى إليه شيء لم يجز للنبي ﷺ أن يستشير أصحابه فيه؛ لأنه مع قيام النص وظهور الوحي لا يجوز الاشتغال بالاستشارة، وإن لم يوح إليه شيء البتة لم يتوجه

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ٢٠٠: ١٩٨.

عليه ذنب البتة.

ثانيًا: أن ذلك الحكم لو كان خطًا لأمر الله تعالى بنقضه، فكان يؤمر بقتل الأسرى ويرد ما أخذ منهم، قلنا: لما لم يكن كذلك بل قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ (الأنفال: ٦٩) علمنا أنه لم يوجد خطأ في ذلك الحكم البتة.

ثالثًا: أنه ﷺ لم يشتغل بالاستغفار واللوم، وذلك يدل على عدم الذنب على ما تقدم، وإذ قد بيَّنا ذلك فنقول: كما يأتي العتاب على ترك الواجب فقد يأتي أيضا على ترك الأولى، والأولى في ذلك الوقت الإثخان وترك الفداء قطعًا للأطماع وحسمًا للنزاع، ولولا أن ذلك من باب الأولى لما فوَّض النبيُّ ﷺ ذلك إلى الأصحاب، وهذا هو العذر عن قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾.

فأما قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فهو خطاب جمع فيصرف ذلك إلى القوم الذين رغبوا في المال.

وهذا يدل على أن المعاتَبَ في شأن الأساري هو غير النبي ﷺ بل يجب أن يكون سواه، والقصة معروفة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأن يأمر أصحابه أن يُثْخِنُوا في قتل أعدائهم بقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وبلَّغ النبيُّ ﷺ ذلك إلى أصحابه فسَهَوا عن ذلك وأسروا يوم بدرٍ جماعةً من المشركين طمعًا في الفداء فأنكر الله تعالى ذلك عليهم، وبيَّن أن الذي أمر به سواه.

وأما قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فمعناه لولا ما سبق من تحليل الغنائم لعذبكم بسبب أخذكم هذا الفداء، وهذا غاية التقريع في تخطئتهم في أخذ الفداء من جهة التدبير.

فإن قلتَ: فإن كان ذلك محلَّلا لهم؛ فما هذا التقريع البالغ؟

قلتُ: لأن ذلك من باب الحروب، وما كان من ذلك الباب فقد يقع الخطأ فيه من جهة التدبير ويُقَرِّعُ ذلك المخطئ، وإن كان غير مذنب.[1]

والخلاصة في هذه الآية من كل ما سبق:

١-كان الأسر في غزوة بدرٍ جائزًا، ولكن بعد الإثخان في الأرض والمبالغة في قتل المشركين.

٢-أُمِرَ النبي ﷺ باستشارة أصحابه ﭫ في شأن الأسرى.

٣-كلمة ﴿تريدون﴾ موجهة لجمع الأصحاب الذين أرادوا الدنيا وليس للنبي ﷺ.

٤-الميل إلى الفداء كان غالبًا لأجل التَقَوِّى على الجهاد.

٥-كان الخبر في غزوة بدر أخذ الفداء من الأسرى – مفاداتهم- بدليل إسلام كثير منهم بعد ذلك، ولكن الله أراد أن يعاتب من أراد الدنيا بأخذ الفداء.

٦-لأهل بدر منزلة عظيمة عند رب العالمين ليست لأي أحد غيرهم.

* * *

(١) عصمة الأنبياء ص ١٣٤: ١٣٢.

١١ـ شبهة: ادعاؤهم وقوع النبي ﷺ في الذنب.

نص الشبهة:

في آية ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ (الشرح٣: ٢) دليل واضح على أن النبي ﷺ وقع في المعاصي، وأنه كان له أوزار تنقض ظهره، لكن الله غفرها له.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى الآية، وفيه عشرة معانٍ.

الوجه الثاني: عصمة النبي ﷺ من الذنوب.

الوجه الثالث: معاصي الأنبياء كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان معنى الآية، وفيها عشرة معانٍ.

المعنى الأول: عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك لو كان ذلك الوزر حاصلًا فسمى العصمة وضعًا مجازًا[(١)].

قال الرازي: معناه عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك، لو كان ذلك الذنب حاصلًا، فسمى العصمة وضعًا مجازًا، فمن ذلك ما روي أنه حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة ليسمع، فضرب الله على أذنه فلم يوقظه إلا حر الشمس من الغد[(٢)].

قال الماوردي: حفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس، حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس[(٣)].

فإن هذه الألفاظ التي يتعارض ظاهرها مع العصمة تحتمل وجوهًا من التأويل:

أن (الوزر) و(الغفران) في الآيتين[(٤)] مجازًا عن العصمة، والمعنى: عصمناك عن الوزر الذي أنقض ظهرك، لو كان ذلك الذنب حاصلًا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ٤٤١.

(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ٥: ٤.

(٣) تفسير الماوردي ٦/ ٢٩٦.

(٤) آية ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ وآية ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾.

لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ والمعنى: لولا عصمتنا ورحمتنا لأتيت ما تذم عليه، على فرض الإمكان، لا على فرض الوقوع(١).

فسمى رب العزة العصمة (وضعًا) على سبيل المجاز، وإنما عبر عنها به؛ لأن الذنب يثقل الظهر بعقابه، وبالندم عليه في حالة التوبة منه، والعصمة لكونها تمنع وقوع الذنب، تريح صاحبها من ثقل عقابه، ومن ثقل الندم عليه، فعبر عنها بالوضع لذلك(٢).

ويشهد لصحة هذا القول: سيرة النبي ﷺ قبل النبوة، من عصمة رب العزة له ﷺ من كل ما يمس قلبه وعقيدته بسوء، من أكل ما ذبح على النصب، والحلف بأسماء الأصنام التي كان يعبدها قومه، واستلامها، وكذا عصمته من كل ما يمس خلقه بسوء، من أقذار الجاهلية ومعائبها، من اللهو، والتعري، وكذا تشهد سيرته ﷺ بعد النبوة، من عصمة رب العزة له ﷺ مما عصمه به قبل النبوة، ومن أن يضله أهل الكفر، وأنى لهم ذلك وقد نفاه الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ كما عصمه ربه ﷻ من أن يفتنوه عن الوحي، أو التقول عليه، ولو حدث شيء من ذلك، لوقع عقاب ذلك، الوارد في قوله سبحانه: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٦)

فهل نقل إلينا ولو بطريق ضعيف أن رب العزة عاجله بالعقوبة في الدنيا مضاعفة؟ أو تخلى عن نصرته؟

---

(١) كتاب (رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ).

(٢) كتاب (رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ).

الإجابة بالقطع لا، لم ينقل إلينا، وهو ما يؤكد أن الخطاب في آيات الشرط ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾ و﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ ونحو ذلك، على فرض الإمكان، لا على فرض الوقوع، وبتعبير آخر الشرط في تلك الآيات لا يقتضي الوقوع ولا الجواز.

وإذا صح تسمية العصمة (وضعًا) في قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ مجازًا، صحح أيضًا إطلاق المغفرة كناية عن العصمة في قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، والمعنى في الآية: ليعصمك الله فيما تقدم من عمرك، وفيما أخر منه.

قال الإمام السيوطي: وهذا القول في غاية الحسن، وقد عد البلغاء من أساليب البلاغة في القرآن؛ أنه يكنى عن التخفيفات بلفظ المغفرة، والعفو، والتوبة، كقوله تعالى عند نسخ قيام الليل: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وعند نسخ تقديم الصدقة بين يدي النجوى قال سبحانه: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾.

وعند نسخ تحريم الجماع ليلة الصيام قال ﷻ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾[1].

ووجه إطلاق المغفرة كناية عن العصمة: أن العصمة تحول بين الشخص وبين وقوع الذنب منه، والمغفرة تحول بين الشخص وبين وقوع العقاب عليه، فكنى عن العصمة بالمغفرة بجامع الحيلولة؛ لأن من لا يقع منه ذنب، لا يقع عليه عقاب.

واختيرت هذه الكناية - أعني الاستعارة - لأن المقام مقام امتنان عليه ﷺ، ثم المعنى بعد هذا: ليظهر الله عصمتك للناس، فيروا فيك حقيقة الإنسان الكامل، ويلمسوا منك معنى الرحمة العامة، لا تبطرك عزة الفتح، ونشوة النصر، فلا تنتقم، ولا تتشفي؛ ولكن تعفو وتغفر[2].

وعلى ما تقدم فقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ونحوها من

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٦٣.

(٢) دلائل القرآن المبين، خواطر دينية كلاهما لعبد الله الغماري.

الآيات مرادًا بها الحث على دوام الاستغفار والشكر لله ﷻ، على ما أنعم عليه من العصمة.

وأقول: إذا لم يسلم الخصم بما سبق من تأويل آيات الذنب والوزر الواردة في حقه ﷺ، وأخذ بها على ظاهرها، فليبين لنا حقيقة الذنب والوزر الذي ارتكبه رسول الله ﷺ، سواء قبل النبوة أو بعدها؟!.

إنه إن كان ثَمَّ ذنب فلن يَخْرُج عن ترك الأَوْلَى، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين وترك الأولى ليس بذنب؛ لأن الأولى وما يقابله مشتركان في إباحة الفعل، والمباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح في عصمتهم ومنزلتهم؛ لأنهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات مما يتقوون به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أخذ على هذه السبيل التحق طاعة، وصار قربة[1].

قال أبو حيان: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾: كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس، عبر عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، كما يقول القائل: رفعت عنك مشقة الزيارة، لمن لم يصدر منه زيارة، على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه[2].

فمعنى﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾: عصمناك من الأوزار التي من شأنها أن تقصم الظهر، فلم يصدر عنك أي ذنب لا قبل النبوة ولا بعدها، إلا أقل الصغائر التي فسرها القرآن الكريم، والسنة النبوية فقط، ولا تُعتبر ذنوبًا.

وكيف يتخيل صدور الذنب في حقه ﷺ وقد عصمه ربه ﷻ في قوله وفعله وخطابه بقوله سبحانه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾، وقال ﷻ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

ومن تأمل إجماع الصحابة رضي الله عنهم على اتباعه ﷺ والتأسي به في كل ما يقوله ويفعله من قليل أو كثير، أو صغير أو كبير، إلا ما دل على اختصاصه به، ولم يكن عندهم في ذلك

---

(١) الشفا ٢/ ١٤٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٤.

توقف ولا بحث؛ حتى أعماله في السر والخلوة، يحرصون على العلم بها وعلى إتباعها -علم بهم الرسول ﷺ أو لم يعلم -، ومن تأمل أحوال الصحابة﷽ معه ﷺ استحى أن يخطر بباله خلاف ذلك (هذا رد الإمام السبكي على الزمخشري في تفسيره للآية الثانية من سورة الفتح بأن المراد: جميع ما فرط منك[1].

المعنى الثاني: الوزر: ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى يبلغها -ثقل الوحي[2].

قال الرازي: إن المراد منه تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له[3].

وقال الماوردي: أثقل ظهره بالرسالة حتى يبلغها[4].

إن هذه الألفاظ التي يتعارض ظاهرها مع العصمة، تحتمل وجوهًا من التأويل:

تخريجها على مقتضى اللغة بما يناسب سياقها في الآيات، فالوزر في أصل اللغة الحمل والثقل[5]، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي أثقالها، وإنما سميت الذنوب بأنها أوزارًا لأنها تثقل كاسبها وحاملها، وإذا كان الوزر ما ذكرناه، فكل شيء أثقل الإنسان وغمه وكده، وجهده، جاز أن يسمى وزرًا، تشبيهًا بالوزر الذي هو الثقل الحقيقي.

وليس يمتنع أن يكون الوزر في الآية ثقل الوحي، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وعبء التبليغ، وثقل الدعوة، حيث كان الاهتمام بهما يقض مضجعه، حتى سهلهما الله تعالى عليه، ويسرهما له، ويقوى هذا التأويل، سياق الآية الواردة في مقام الامتنان عليهﷺ، وقولهﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ والعسر بالشدائد والغموم

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني وشرحها للزرقاني٩/ ٢٢: ٢١.
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٤٤١.
(٣) تفسير الرازي٣٢/ ٤.
(٤) تفسير الماوردي٦/ ٢٩٦.
(٥) النهاية في غريب الحديث٥/ ١٧٩، المفردات في غريب القرآن (٨١٨).

أشبه، وكذلك اليسر بتفريج الكرب، وإزالة الغموم والهموم أشبه.

فإطلاق الوزر من باب الاستعارة التصريحية كما هو معلوم. وفي قراءة ابن مسعود وحللنا عنك وقرك، والوقر: الحمل، وهذه القراءة تؤيد ما قررناه[1].

فالوزرة ما كان يجده النبي ﷺ من الصعوبات الشديدة التي كان يضعها المشركون في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وجحدهم الشديد، وعدم الإصغاء إلى الحق الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذا الأمر كان حملًا عظيمًا على عاتق النبي ﷺ، فقد كاد أن يهلك أسفًا على هداية قومه وعنادهم في أول الأمر، حتى قال له ربه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ (الكهف: ٧)[2].

المعنى الثالث: هذه الآيات سيقت للمدح ولبيان منة الله تعالى على نبيه ﷺ لا لبيان الذنب.

هذا سياق يظهر منَّة الله ﷻ على رسوله ﷺ، وبيان عظيم مكانته وفضله عند ربه ﷻ في الدنيا والآخرة، مما يؤكد أن ظاهر ما يطعن في عصمته غير مراد، وإنما هو في حقيقة الأمر من جملة ما يمدح به ﷺ، وتأمل معي قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ إنها آية كريمة وردت بين منتين:

الأولى: شرح الصدر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ شرحًا حسيًا ومعنويًا، ليسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق جميعًا، وليكون موضع التجليات ومهبط الرحمات.

والثانية: رفع ذكره في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ رفعًا بلغت قمته في الشهادة التي لا يكون الشخص مسلمًا إلا إذا نطق بها، فضلًا عن قرن اسمه ﷺ باسمه ﷻ في الأذان، والإقامة، والتشهد في الصلاة، وفي خطب الجمعة، والعيدين، وفي خطبة النكاح، وجعل الصلاة والتسليم عليه ﷺ عبادة على المسلمين[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٤.

(٢) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١ ٢٠: ١٩٢.

(٣) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ ١/ ١٩٠.

قال القاضي عياض: هذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه ﷺ على عظيم نعمه لديه وشريف منزلته عنده وكرامته عليه بأن شرح قلبه للإيمان والهداية ووسعه لوعى العلم، وحمل الحكمة، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه، وبغضه لسيرها، وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله، وحط عنه عهدة أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم، وتنويهه بعظيم مكانه وجليل رتبته ورفعة ذكره[1].

المعنى الرابع: الوزر: كثرة نعم الله تعالى عليه، وصعوبة شكرها.

قال الماوردي: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ أثقل ظهرك، وفيه ثلاثة أوجه، وذكر منها: أثقل ظهره بالنعم حتى شكرها.[2]

وقال الرازي: أن المراد من الوزر والثقل: الحيرة التي كانت له قبل البعثة، وذلك أنه بكمال عقله لما نظر إلى عظيم نعم الله تعالى عليه، حيث أخرجه من العدم إلى الوجود وأعطاه الحياة والعقل وأنواع النعم، ثقل عليه نعم الله وكاد ينقض ظهره من الحياء، لأنه ﷺ كان يرى أن نعم الله عليه لا تنقطع، وما كان يعرف أنه كيف كان يطيع ربه، فلما جاءته النبوة والتكليف، وعرف أنه كيف ينبغي له أن يطيع ربه؛ فحينئذ قل حياؤه، وسهلت عليه تلك الأحوال؛ فإن اللئيم لا يستحي من زيادة النعم بدون مقابلتها بالخدمة، والإنسان الكريم النفس إذا كثر الإنعام عليه وهو لا يقابلها بنوع من أنواع الخدمة؛ فإنه يثقل ذلك عليه جدًا، بحيث يميته الحياء؛ فإذا كلفه المنعم بنوع خدمة سهل ذلك عليه وطاب قلبه.[3]

المعنى الخامس: الوزر ما كان يلحقه ﷺ من الأذى والشتم.

الوزر ما كان يلحقه من الأذى والشتم؛ حتى كاد ينقض ظهره وتأخذه الرعدة، ثم قواه الله تعالى حتى صار بحيث كانوا يدمون وجهه، وهو يقول: " اللهم اهد قومي "[4]

---

(١) الشفا ١/ ٤٣.

(٢) تفسير الماوردي ٦/ ٢٩٦.

(٣) تفسير الرازي ٣٢/ ٥ بتصرف يسير.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/ ٥.

المعنى السادس: ذنوب أمتك، فأضافها إليه لاشتغال قلبه بها[١].

قال الرازي: أنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، ماذا يصنع في حقهم إلى أن قال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال: ٣٣) فأمنه من العذاب في العاجل، ووعده الشفاعة في الآجل.[٢]

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

المعنى السابع: حططنا عنك وزرك الذي سلف منك في الجاهلية.

ذكر ابن جرير عن مجاهد في قول الله: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ قال: ذنبك. ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ قال: أثقل ظهرك.

وذكر بإسناده عن قتادة، في قوله: ﴿ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ قال: كانت للنبي ذنوب قد أثقلته، فغفرها الله له.

وبإسناده عن ابن زيد قال: شرح له صدرَه، وغفر له ذنبَه الذي كان قبل أن يُنبأ، فوضعه[٣].

قال ابن كثير: وقوله: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ بمعنى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (الفتح: ٢)[٤].

قال الرازي: احتج بهذه الآية من أثبت المعصية للأنبياء عليهم السلام والجواب: عنه من وجهين الأول: أن الذين يجوزون الصغائر على الأنبياء عليهم السلام حملوا هذه الآية عليها، لا يقال: إن قوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ يدل على كونه عظيمًا. فكيف يليق ذلك بالصغائر

(١) تفسير الخازن ٤/ ٤٤١.

(٢) تفسير الرازي٣٢/ ٤.

(٣) تفسير الطبري١٥/ ٢٣٥: ٢٣٤.

(٤) تفسير ابن كثير٤/ ٧١٣، تفسير الماوردي٦/ ٢٩٦.

ونقول: إنما وصف ذلك بإنقاض الظهر مع كونها مغفورة لشدة اغتمام النبي ﷺ بوقوعه منه وتحسره مع ندمه عليها[١].

أما الوجه الثاني: فسنذكره لاحقًا إن شاء الله ضمن أوجه الرد الأخرى.

قال في التسهيل: إنه إن كان ثمَّ ذنب فلن يَخْرُج عن ترك الأَوْلَى، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين[٢]وترك الأولى ليس بذنب؛ لأن الأولى وما يقابله مشتركان في إباحة الفعل، والمباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح في عصمتهم ومنزلتهم؛ لأنهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات[٣] مما يتقوون به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم.

وقال أيضًا: إنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل وهي صغائر مغفورة لهم لهمهم بها وتحسرهم عليها فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله، وهي خفيفة عند الله، وهذا كما جاء في الأثر إن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كالذبابة تطير فوق أنفه[٤].

وما أخذ على هذا السبيل التحق طاعة وصار قربة[٥].

وقال أيضًا: ثم إن حقيقة الذنب في اللغة ترجع إلى كل فعل يستوخم عقباه كما فسره الراغب في مفرداته.

وشرعًا: يرجع الذنب إلى مخالفة أمر الله تعالى أو نهيه، وهو أمر نسبي يختلف باختلاف الفعل والفاعل، وقصد الفاعل، فليست المخالفة من العَالِم كالمخالفة من الجاهل، وليست المخالفة الواقعة عن اجتهاد، كالمخالفة التي لا تقع عن اجتهاد، وليست المخالفة الواقعة بالقصد والتعمد، كالمخالفة الواقعة بالنسيان.

---

(١) تفسير الرازي٣٢/ ٤.

(٢) أي: كلما ترقى في درجة عد ما قبلها سيئة، وهذا قول سعيد الخراز

(٣) ولا يجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام كثير من المباحات القادحة في التعظيم، الصارفة عن القبول. انظر: المعتمد في أصول الفقه ١/ ٣٤٢.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٠٦.

(٥) الشفا ٢/ ١٤٧ بتصرف.

ومن هنا تختلف الذنوب ومسئولياتها بالنسبة للفاعل، والحوادث. وعلى ضوء ذلك نفهم معاني الآيات التي ورد فيها إسناد الذنب إلى رسول الله ﷺ مضافًا إلى ضمير خطابه ﷺ[(١)].

وخلاصة القول، أن يقال: إما أن يكون صدر من رسول ﷺ ذنب أم لا! ، فقوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ يدل على حصول العفو[(٢)] وبعد حصول العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه!

فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾، يدل على كون رسول الله ﷺمذنبًا، أو غير معصوم!

المعنى الثامن: الوزر: الخطأ والسهو.

قال الحسين بن فضل: يعني الخطأ والسهو[(٣)].

وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام؛ فإن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم، ولكن ما فعله ﷺ عن اجتهاد وعوتب عليه، كإذنه ﷺ للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذه الفداء من أسرى بدر، وعبسه في وجه الأعمى ونحو ذلك[(٤)].

---

(١) ينظر: آيات عتاب المصطفى ﷺفي ضوء العصمة للدكتور عويد المطرفى (١٠٨).

(٢) وهذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، كما قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣١٠، وقال ابن عبد السلام: من خصائصه ﷺ أنه أخبره الله تعالى بالمغفرة، ولم ينقل أنه أخبر أحدًا من الأنبياء بمثل ذلك، ويدل له قولهم في الموقف: **"نفسي، نفسي، نفسي"** جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (بشرح فتح الباري) كتاب التفسير، باب ذرية من حملنا مع نوع إنه كان عبدًا شكورًا" ٨/ ٢٤٧، ٢٤٨ رقم ٤٧١٢، ومسلم (بشرح النووي) كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ٢/ ٥٥ - ٥٧ رقم ١٩٤ من حديث أبى هريرة ﷺ. وينظر: شرح الزرقاني على المواهب ٧/ ٢٥٩.

ويدل أيضًا على أن الإخبار بالمغفرة من خصائصه قوله ﷺ: **"فضلت على الأنبياء بست لم يعطهن أحد كان قبلي، غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأحلت لى الغنائم...** الحديث" أخرجه البزار وسنده جيد كما قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٩، ووافقه السيوطى فى الخصائص الكبرى ٢/ ٣٣٦، من حديث أبى هريرة ﷺ.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٠١، الخازن ٤/ ٤٤١.

(٤) صفوة التفاسير ٣/ ٥٧٥.

واعلم أنَّ في الرسول جانبان: جانب بشري، وجانب نبوي، أمّا الجانب البشري فهو فيه كالبشر: يحب ويكره، ويرضى ويغضب، ويأكل ويشرب، ويقوم وينام ... إلخ، مع ما ميَّزه الله به في هذا الجانب في بعض الأشياء؛ كسلامة الصدر، والقوة في النكاح، وعدم نوم القلب، وغيرها من الخصوصات التي تتعلق بالجانب البشري، ومن هذا الجانب قد يقع من النبي ﷺ بعض الأخطاء التي يعاتبه الله عليها، ولك أن تنظر في جملة المعاتبات الإلهية للنبي ﷺ؛ كعتابه بشأن أسرى بدر، وعتابه بشأن زواجه من زينب رضي الله عنها، وعتابه في عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وغيرها، وقد نصَّ الله على هذا الجانب في الرسل جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم، ومن الآيات في ذلك: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٣).

ومن الأحاديث قوله ﷺ: "إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو ما أسمع، من حق له أخيه شيئًا، فلا يأخذ، فإنما أقطع له من النار"[١].

وتكمن العصمة في هذا الجانب في أنَّ الله يُنبِّه نبيه ﷺ على ما وقع منه من خطأ، وهذا ما لا يتأتّى لأحد من البشر غيره، فتأمله فإنه من جوانب العصمة المُغفلة، وأما الجانب النبوي، وهو جانب التبليغ؛ فإنه لم يرد البتة أنَّ النبي ﷺ خالف فيه أمر الله؛ كأن يقول الله له: قل لعبادي يفعلوا كذا فلا يقول لهم، أو يقول لهم خلاف هذا الأمر، وهذا لو وقع فإنه مخالف للنبوة، ولذا لما سُحِرَ النبي ﷺ لم يُؤثِّر هذا السِّحْرُ في الجانب النبوي، بل أثَّر في الجانب البشري[٢]، ومن ثَمَّ فجانب التبليغ في النبي ﷺ معصوم، ويدل على هذا الجانب قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم: ٣-٤)[٣].

المعنى التاسع: أسقطنا عنك تكليف ما لم تطقه أو أعناك عليه.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).

(٣) رد الشبهات حول عصمة النبي ﷺ.

فالمراد من قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي أسقطنا عنك تكليف ما لم تُطِقْه، لأن الأنبياء وإن حملوا من أثقال النبوة على ما يعجز عنه غيرهم من الأمة فقد أعطوا من فضل القوة ما يستعينون به على ثقل النبوة، فصار ما عجز عنه غيرهم يسيرًا بالنسبة لهم.[1]

المعنى العاشر: الوزر: فراق خديجة رضي الله عنها وأبي طالب.

لئن كان نزول السورة بعد موت أبي طالب وخديجة، فلقد كان فراقهما عليه وزرًا عظيمًا، فوضع عنه الوزر برفعه إلى السماء حتى لقيه كل ملك وحياة فارتفع له الذكر، فلذلك قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[2].

الوجه الثاني: عصمة النبي ﷺ من الذنوب.

مما سبق ذكره في معنى الآية يتضح بجلاء عصمة النبيﷺ، وقد فصَّلنا هذا الأمر في أكثر من موضع، فليُراجع لعدم التكرار[3].

الوجه الثالث: معاصي بعض الأنبياء كما في الكتاب المقدس.

نوح عليه السلام

تحدثت التوراة عن سُكرِ نبي الله نوح عليه السلام- وحاشاه - وتعريه داخل خبائه، وحينذاك أبصره ابنه الصغير حام، وأخبر أخويه بما رأى فجاءا بظهريهما، وسترا عورة أبيهما الثمِل، فلما أفاق من سكرته وعرف ما فعل ابنه حام الصغير لعن، والقصة بتمامها: وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! (أب الفلسطينيين الذي لا علاقة له بالحادثة، الذي لم يولد حينذاك)، عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ، وَقَالَ:

---

(١) تفسير الماوردي ٦/ ٢٩٧.

(٢) تفسير الرازي٣٢/ ٥.

(٣) راجع بدقة معنى الآية، ثم راجع عصمة الأنبياء في هذه الموسوعة المباركة.

مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ الله لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. (التكوين ٩/ ٢٥ - ٢٦).

لوط عليه السلام.

وأما لوط عليه السلام النبي الذي حارب الشذوذ، فتذكر التوراة أنه لما أهلك الله قومه لجأ إلى مغارة مع ابنتيه فسقتاه الخمر، وضاجعتاه، ولم يعلم بذلك، وولد من هاتين الفاحشتين عمي ومؤاب، ومنهما انحدر العمويون والمؤابيون أعداء بني إسرائيل، فاسمع إلى السفر: وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أيضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أيضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. (أعداء بني إسرائيل) وَالصَّغِيرَةُ أيضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ. (وهم أيضًا أعداء بني إسرائيل) (التكوين ١٩/ ٣٠ – ٣٨).(١)

* * *

(١) راجع تفصيل ذلك الكلام في أكثر من موضع منها وأهمها (تحريف الكتاب المقدس).

١٢ـ شبهة: ادعاؤهم وقوع النبي ﷺ في الزنا.

نص الشبهة:

في الحديث: "إِنَّ الله كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ"[١]، والنبيﷺ من ولد آدم، أي أنه داخل في معنى الحديث كما يزعمون.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: شرح الحديث.

الوجه الثاني: عصمة النبي ﷺ عن الوقوع في الكبائر.

الوجه الثالث: أخلاق النبي ﷺ.

الوجه الرابع: الخطيئة على جميع البشر كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: شرح الحديث.

قال ابن حجر: قوله: " إن الله كتب على بن ادم " أي قدر ذلك عليه أو أمر الملك بكتابته، قوله أدرك ذلك لا محالة أي لا بد له من عمل ما قدر عليه أنه يعمله. [٢]

قال النووي: إن ابن آدم قدر عليه نصيب من الزنا، فمنهم من يكون زناه حقيقًا بإدخال الفرج في الفرج الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازًا بالنظر الحرام، أو الاستماع إلى الزنا وما يتعلق بتحصيله، أو بالمس باليد بأن يمس أجنبية بيده أو يقبلها، أو بالمشي بالرجل إلى الزنا، أو النظر أو اللمس، أو الحديث الحرام مع أجنبية ونحو ذلك، أو بالفكر بالقلب، فكل هذه أنواع من الزنا المجازي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه، معناه: أنه قد يحقق الزنا بالفرج، وقد لا يحققه بأن لا يولج الفرج في الفرج، وإن قارب ذلك والله أعلم[٣].

وقال الخطابي: يريد بذلك ما عفا الله عنه من صغائر الذنوب وهو معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣١]، وهو ما يلم به

---

(١) البخاري (٦٢٤٣)، مسلم (٢٦٥٧).

(٢) فتح الباري١١/ ٥١٢.

(٣) شرح النووي٨/ ٤٥٧.

الإنسان من صغائر الذنوب التي لا يكاد يسلم منها إلا من عصمة الله تعالى وحفظه[1].

وقال شمس الحق آبادي: وقيل معنى كتب أنه أثبت عليه ذلك الفعل، فبالعينين وبما ركب فيهما من القوة الباصرة؛ تجد لذة النظر، وعلى هذا وليس المعنى أنه ألجأه إليه وأجبره عليه، بل ركز في جبلته حب الشهوات، ثم إنه تعالى برحمته وفضله يعصم من يشاء، وقيل هذا ليس على عمومه؛ فإن الخواص معصومون عن الزنا ومقدماته، ويحتمل أن يبقى على عمومه؛ بأن يقال على كل فرد من بني آدم صدور نفس الزنا، فمن عصمه الله عنه بفضله صدر عنه من مقدمات الظاهرة، ومن عصمه بمزيد فضله ورحمته عن صدور مقدماته وهم خواص عباده، صدر عنه لا محالة بمقتضى الجبلة مقدماته الباطنة، وهي تمني النفس واشتهاؤها[2].

الوجه الثاني: إثبات عصمة النبي ﷺ.

قال ابن تيمية: إِنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ عَنْ الْكَبَائِرِ دُونَ الصَّغَائِرِ هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَجَمِيعِ الطَّوَائِفِ؛ حَتَّى إنَّهُ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ كَمَا ذَكَرَ (أَبُو الْحَسَنِ الآمدي) أَنَّ هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْأَشْعَرِيَّةِ، وَهُوَ أَيْضًا قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفُقَهَاءِ، بَلْ هُوَ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ إلَّا مَا يُوَافِقُ هَذَا الْقَوْلَ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ مَا يُوَافِقُ الْقَوْلَ. وَإِنَّمَا نُقِلَ ذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْعَصْرِ الْمُتَقَدِّمِ عَنْ الرَّافِضَةِ، ثُمَّ عَنْ بَعْضِ الْمُعْتَزِلَةِ، ثُمَّ وَافَقَهُمْ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَعَامَّةُ مَا يُنْقَلُ عَنْ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ غَيْرُ مَعْصُومِينَ عَنْ الْإِقْرَارِ عَلَى الصَّغَائِرِ، وَلَا يُقَرُّونَ عَلَيْهَا، وَلَا يَقُولُونَ إنَّهَا لَا تَقَعُ بِحَالِ[3].

قال ابن حزم: ومن البرهان على أنه لم يكن البتة أن يعصي نبي، قوله ﷺ ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين لما قال له الأنصاري: هلا أومأت إليّ، في قصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح فنفى ﷺ عن جميع الأنبياء عليهم السلام أن تكون لهم خائنة الأعين، وهو أخف ما يكون من الذنوب، ومن خلاف الباطن للظاهر، فدخل في هذا جميع المعاصي

---

(١) معالم السنن ٣/ ١٩٢: ١٩١.

(٢) عون المعبود ٣/ ١٣٤: ١٣٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٢٠: ٣١٩.

صغيرها أو كبيرها، سرها وجهرها.

أيضًا فقد صح عن النبي ﷺ عظيم إنكاره على ذي الخويصرة - لعنه الله ولعن أمثاله - إذ قال الكافر اعدل يا محمد، إن هذا لقسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، فقال له رسول الله ﷺ: " ويحك من يعدل إذا أنا لم أعدل، يأمنني الله ولا تأمنوني"(١).

وقال أيضًا: أنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد، ويقع منهم أيضا قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى والتقرب منه، فيوافق خلاف مراد الله تعالى؛ إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلًا، بل ينبههم على ذلك، ولا يداثر وقوعه منهم ويظهر ﷻ ذلك لعباده(٢).

الوجه الثالث: أخلاق النبي ﷺ

لقد زكّى الله ﷻ نبيه ﷺ في كتابه الحكيم في غير موضع، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به وهو الإسلام وشرائعه. (٣)

وسُئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ، فقالت: إن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن(٤).

قال النووي: قولها: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن: معناه: العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره وحسن تلاوته(٥).

كذلك نفي الله ﷻ حيدة النبي ﷺ عن الطريق المستقيم، أو الغواية.

قال الطبري: وقوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ يقول تعالى ذكره: ما حاد صاحبكم أيها الناس عن الحق، ولا زال عنه؛ ولكنه على استقامة وسداد، ويعني بقوله ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾

---

(١) الفصل في الملل والنحل ٢/ ٢٧٣.

(٢) الفصل في الملل والنحل ٢/ ٢٤٥.

(٣) تفسير الطبري٢٩/ ١٨. للمزيد انظر بحث (عصمة الأنبياء).

(٤) مسلم (٧٤٦).

(٥) شرح النووي٣/ ٢٨٣.

وما صار غويًا، ولكنه رشيد سديد[١].

وإليك شهادة قومه له ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾. صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش؛ حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي". قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[٢].

فأثبتوا الصدق له ﷺ ونفوا عنه الكذب بالكلية.

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان رضي الله عنه عن محمد ﷺ، وكان أبو سفيان أنذاك كافرًا، فأجاب بإجابات شاهدة على خُلق نبينا ﷺ، وعلى صدقه، فكان مما سأل هرقل أبا سفيان: كيف نسبه فيكم؟ قلت هو فينا ذو نسب، فقال له: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت لا. قال فهل يغدر؟ قلت لا[٣].

وعن عائشة، زوج النبي ﷺ قالت: كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى النبي ﷺ يمتحنهن بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ إلى آخر الآية. قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقر بالمحنة، فكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: "انطلقن فقد بايعتكن" لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام، والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء إلا بما أمره الله، يقول لهن إذا أخذ عليهن: "قد بايعتكن" كلامًا[٤].

وعن أميمة بنت رقيقة أنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة نبايعه على الإسلام فقلت: يا رسول الله هلم نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نأتي ببهتان

---

(١) تفسير الطبري٢٧/ ٤١.
(٢) البخاري (٤٧٧)، مسلم (٢٠٨).
(٣) البخاري (٧).
(٤) البخاري (٤٩٣٨)، مسلم (١٨٦٦).

نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، قال: "فيما استطعتن وأطقتن؟" فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلم نبايعك يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: "إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة، أو مثل قولي لامرأة واحدة"(١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كان الفضل رديف النبي ﷺ فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إياكم والجلوس بالطرقات". فقالوا يا رسول الله مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال: "فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه". قالوا وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"(٣).

الوجه الرابع: عموم الخطيئة على كل البشر في الكتاب المقدس.

إذا نظرنا في الكتاب المقدس سنجد نصوصًا تدل على أن كل البشر بلا استثناء فاسدين وخطاة، وأنه لا أحد معصوم، ففي (رسالة بولس إلى أهل رومية ٣/ ١٢: ١١): لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ الله. الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ.

وفي (رسالة بولس إلى أهل رومية ٣/ ٢٣): إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ الله.

وفي (لوقا١٨/ ١٩): فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ الله.

* * *

(١) النسائي ٧/ ١٤٩.
(٢) البخاري (١٥١٣)، مسلم (١٣٣٤).
(٣) البخاري (٢٤٦٥)، مسلم (٢١٢١).

١٣ـ شبهة: اتهام النبي ﷺ بشهوة النساء، وأمره لأمته بذلك.

نص الشبهة:

في حديث أبي كبشة الأنماري، قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في أصحابه، فدخل ثم خرج؛ وقد اغتسل، فقلنا: يا رسول الله، قد كان شيء؟ قال: أجل؛ مرت بي فلانة فوقع في قلبي شهوة النساء، فأتيت بعض أزواجي فأصبتها، فكذلك فافعلوا، فإنه من أماثل أعمالكم إتيان الحلال.

والسؤال كيف يقع في قلب النبي ﷺ شهوة النساء؟ وكيف يأمر أصحابه بذلك؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: تخريج الحديث بطرقه، وألفاظه.

الوجه الثاني: فوائد الحديث وما في معناه مما سبق تخريجه بالنسبة لأمة النبي ﷺ.

الوجه الثالث: الشهوة بين الرجال والنساء أمر فطري، وهو في كل البشر كمالًا وزواله نقص وقد جاء الإسلام بتوجيهه وتعديله ولم يأت بمنعه ولا بإطلاقه لأن منعه خلاف الفطرة وفيه منع النسل وفي إطلاقه فساد الدنيا والدين.

الوجه الرابع: توجيهات الإسلام في ضبط هذه الشهوة الجنسية.

الوجه الخامس: تشريع النبي ﷺ أمورًا جفف بها منابع الفتنة بين الرجل والمرأة.

الوجه السادس: أن هذه الرؤية من النبي ﷺ تدخل ضمن نظرة الفجأة التي تطرأ بدون إرادة نظر من الناظر والتكليف بالمنع منها تكليف بما لا يطاق

الوجه السابع: الجنس وشهوة النساء في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تخريج الحديث بطرقه، وألفاظه:

١-عن أبي كبشة الأنماري قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في أصحابه فدخل، ثم خرج وقد اغتسل، فقلنا: يا رسول الله قد كان شيء قال: " أجل، مرت بي فلانة، فوقع في قلبي شهوة النساء، فأتيت بعض أزواجي فأصبتها، فكذلك فافعلوا؛ فإنه من أماثل

أعمالكم إتيان الحلال "(١)

(١) **صحيح لغيره.** أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) من طريق بن مهدي، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٣٨) والأوسط (٢٥١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠) من طريق بكر بن سهل، عن عبد الله بن صالح، والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٣٩) قال لنا عبد الله. كلاهما (عبد الله بن صالح، وعبد الرحمن بن مهدي) عن معاوية بن صالح، عن أزهر بن سعيد، عن أبي كبشة به.

وهذا إسناد حسن: فيه أزهر بن سعيد، نقل فيه ابن حجر عن البخاري قوله: أزهر بن يزيد، وأزهر بن سعيد، وأزهر ابن عبد الله؛ الثلاثة واحد نسبوه مره مرادي، ومرة حمصي، ومرة هوزني، ومرة حرازي، ثم قال: فهذا قول إمام أهل الأثر، أن أزهر بن سعيد هو أزهر بن عبد الله، ووافقه جماعة على ذلك تهذيب التهذيب ١/ ١٧٩، وقال أيضًا: أكثرهم على أن أزهر بن عبد الله الحرازي هو أزهر بن سعيد الحرازي، تهذيب التهذيب ١/ ١٧٨، وقد وثقه في الثقات للعجلي (٥٦) وقال في التقريب (٣٠٨) صدوق.

وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٥٣٦) رجال أحمد ثقات، وقال العراقي على هامش الإحياء (٢/ ٢٩) إسناده جيد، وقال الألباني في الصحيحة تحت حديث (٤٤١): إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات، ولهذا المعنى في الحديث شواهد يرتقي بها إلى الصحيح:

الأول: عن أبي الزبير عن جابر: أن رسول الله ﷺ رأى امرأة، فأتي امرأته زينب وهي تمعس منيئة لها، فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه، فقال: " **إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه**".

أخرجه مسلم (١٤٠٣)، وأبو داود (٢١٥١)، والترمذي (١١٥٨)، وأحمد (٣/ ٣٣٠)، وابن حبان (١٢/ ٣٨٤) كلهم من طريق أبي الزبير، عن جابر به.

الثاني: عن عبد الله بن مسعود، قال: رأى رسول الله ﷺ امرأة فأعجبته، فأتى سودة، وهي تصنع طيبًا، وعندها نساء، فأخلينه، فقضى حاجته، ثم قال: " **أيما رجل رأى امرأة تعجبه، فليقم إلى أهله، فإن معها مثل الذي معها** "

أخرجه الدارمي (٢٢١٥)، والبيهقي في الشعب ٤/ ٣٦٧، والدارقطني في العلل (٥/ ١٩٧) من طريق الثوري، عن أبي إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن حلام، عن بن مسعود به مرفوعًا، واختلف فيه عن سفيان الثوري على ثلاثة أوجه:

١- فرفعه عنه قبيصة كما سبق، ورفعه عنه أيضًا معاوية بن هشام؛ أخرجه الدارقطني في العلل (٥/ ١٩٨) قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن زكريا، ثنا أحمد بن شعيب، أنا محمد بن رافع، ثنا معاوية بن هشام، ثنا سفيان به، قال البيهقي في الشعب ٤/ ٣٦٧: ورفعه أيضا إسرائيل عن أبي إسحاق اهـ

٢-ورواه أبو نعيم، عن سفيان به موقوفا، أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ١٩٧، وقال الدارقطني: ووقفه أبو نعيم، وأبو حذيفة. وتابع أبا نعيم على الوقف وكيع، وابن مهدي؛ أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٤٠٧

٣- ورواه معاوية بن هشام، عن الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب مرسلًا، أخرجه الدارقطني ٥/ ١٩٨، وتابع معاوية بن هشام؛ عبد الرحيم؛ عن سفيان عن أبي إسحاق به مرسلًا، أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٤٠٧، وقال الدارقطني في العلل: والموقوف عن الثوري أصح، وأما بيان ترجيح

الوجه الثاني: فوائد الحديث وما في معناه مما سبق تخريجه بالنسبة لأمة النبي ﷺ.

حيث إن المتدبر لهذا الحديث يراه ميزة من ميزات هذه الشريعة، ويقر بأنه من جميل أخلاق النبي ﷺ، وتمام تبليغه لرسالة ربه، ولذا كان في هذا الحديث فوائد كثيرة منها:

١- فيه التحذير من فتنة النساء.

٢- وفيه التخلص من الحرام بالحلال.

٣- ومن استعف بالحلال أعفه الله عن الحرام.

٤- يستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتي امرأته، أو جاريته؛ إن كانت له، فليواقعها ليدفع شهوته، وتسكن نفسه.

الدارقطني رحمه الله فلأن قبيصة، ومعاوية بن هشام خالفهما أبو نعيم الفضل بن دكين، ووكيع بن الجراح، وعبد الرحمن بن مهدي، وهؤلاء ثلاثة من خمسة هم المقدمون في سفيان الثوري، ويأتي الناس بعد ذلك دونهم في سفيان، أما قبيصة، فقال ابن معين: ما أقربه من عبيد الله بن موسى، وقال في عبيد الله: ما أقربه من يحيى بن يمان، وقال في ابن يمان: ليس هو بالقوي، وأما معاوية بن هشام، فقال ابن معين: صالح وليس بذاك (شرح علل الترمذي لابن رجب٢/ ٥٤١)، وانظر تاريخ ابن معين رواية الدرامي (٩٨-١٠٠)، وعلى هذا فالمحفوظ الوقف على ابن مسعود من غير قصة الرؤية. والله أعلم.

والحديث في إسناده عبد الله بن حلام، قال الذهبي: لا يكاد يعرف، وذكره ابن حبان في الثقات اهـ. لسان الميزان (١١٦٧) وانظر التاريخ الكبير (٥/ ٦٩) والثقات لابن حبان (٥/ ٢٧) وصححه الألباني مرفوعًا من حديث قبيصة في جلباب المرأة المسلمة (١١).

الشاهد الثالث: عن أنس ﷺ بنحوه. أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٧٣)، فقال: حدثنا أبو زرعة الدمشقي، ثنا محمد بن بكار، ثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺنظر إلى امرأة فأعجبته، فأتى زوجته زينب بنت جحش، فقضى حاجته، ثم خرج فقال: " **إذا نظر الرجل إلى امرأة، فليأت أهله، فليقض حاجته، فقال رجل: فإن لم تكن له امرأة، قال: فلينظر إلى السماء** ".

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه سعيد بن بشير، قال شعبة: صدوق اللسان في الحديث، وقال ابن عيينة: كان حافظًا، ووثقه دحيم، وضعفه ابن معين، وابن المديني، والنسائي، وقال أبوحاتم، وأبو زرعة: شيخ يكتب حديثه، وقال البخاري يتكلمون في حديثه وهو محتمل، وقال ابن عدي: ولا أرى بما يرويه بأسًا ولعله يهم في الشيء بعد الشيء ويغلط والغالب على حديثه الاستقامة والغالب عليه الصدق اهـ تهذيب التهذيب (٤/ ٩).

وقوله: "معها مثل الذي معها " أي معها فرج مثل الفرج الذي مع تلك الأجنبية، ولا مزية لفرج الأجنبية عليه، والتمييز بينهما من تزيين الشيطان، وقد قال الأطباء: إن الجماع يسكن هيجان العشق، وإن كان مع غير المعشوق[١].

٥- أن تخلصه من الشهوة يجمع قلبه على ما هو بصدده.

٦- قولهﷺ: "إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان" معناه: الإشارة إلى الهوى، والدعاء إلى الفتنة بها لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بنظرهن، وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له، ويستنبط من هذا أنه ينبغي لها ألا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغض عن ثيابها، والإعراض عنها مطلقًا.

قال العلماء: إنما فعل هذا بيانًا لهم، وإرشادًا لما ينبغي لهم أن يفعلوه، فعلمهم بفعله وقوله، وفيه أنه لا بأس بطلب الرجل امرأته إلى الوقاع في النهار وغيره، وإن كانت مشتغلة بما يمكن تركه، لأنه ربما غلبت على الرجل شهوة يتضرر بالتأخير في بدنه أو في قلبه وبصره[٢].

ومن فوائد هذا الحديث الإشارة إلى أهمية قرار المرأة في بيتها؛ فإذا عاد زوجها وهو في حاجة إليها وجدها.

الوجه الثالث: الشهوة بين الرجال والنساء أمر فطري، وهو في كل البشر كمالًا وزواله نقص وقد جاء الإسلام بتوجيهه وتعديله ولم يأت بمنعه ولا بإطلاقه لأن منعه خلاف الفطرة وفيه منع النسل وفي إطلاقه فساد الدنيا والدين

وبيان هذا الوجه فيما يلي:

١- قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤).

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ١٩٤).

(٢) شرح مسلم للنووي ٩/ ١٧٨.

ففي هذه الآية يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: " مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء"(١).

والتزيين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إليه تعالى حقيقة؛ لأنه لا خالق إلا هو، ويطلق ويراد به الحض على تعاطي الشهوات المحظورة فتزيينها بالمعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلا لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها ". ثم بين - سبحانه - أهم المشتهيات التي يحبها الناس، وتهفوا إليها قلوبهم، وترغب فيها نفوسهم، فأجملها في أمور ستة.

أما أولها: فقد عبر عنه القرآن بقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

ولا شك أن المحبة بين الرجال، والنساء شيء فطري في الطبيعة الإنسانية، ويكفي أن الله ﷻ قد قال في العلاقة بين الرجل والمرأة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وقال تعالى في آية ثانية: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾،وإن بعض الرجال قد يستهين بكل شيء في سبيل الوصول إلى المرأة التي يهواها ويشتهيها، والأمثال على ذلك كثيرة ولا مجال لذكرها هنا، ولذا قدم القرآن اشتهاءهن على كل شهوة. (٢)

فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف، وكثرة الأولاد؛ فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج، والاستكثار منه (٣).

والمراد بالناس: الجنس، والشهوات جمع شهوة، وهي نزوع النفس إلى ما تريده، والمراد

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٨).

(٢) روح المعاني للآلوسي، والتفسير الوسيط لسيد طنطاوي (سورة آل عمران: ١٤).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٨).

هنا: المشتهيات عبر عنها بالشهوات، مبالغة في كونها مرغوبًا فيها، أو تحقيرًا لها؛ لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية، ووجه تزيين الله سبحانه لها: ابتلاء عباده، كما صرح به في الآية الأخرى. (١)

وقال الآلوسي: وقدم النساء لعراقتهن في معنى الشهوة وهن حبائل الشيطان، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء"، ويقال: فيهن فتنتان قطع الرحم، وجمع المال من الحلال والحرام، وثنى بالبنين؛ لأنهم من ثمرات النساء في الفتن. (٢)

وقال ابن عاشور: فالمَيْل إلى النساء مركوز في الطبع، وضعه الله تعالى لحكمةٍ بقاء النوع بداعي طلب التناسل؛ إذ المرأة هي موضع التناسل، فجُعل ميل الرجل إليها في الطبع حتى لا يحتاج بقاء النوع إلى تكلّف رُبَّما تعقبه سآمة، وفي الحديث: "ما تركتُ بعدي فتنةً أشدّ على الرجال من فتنة النساء" ولم يُذكر الرجالُ؛ لأنّ ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع، وإنّما تحصل المحبّة منهن للرجال بالإلف والإحسان. (٣).

وفي سبيل توجيه هذه الشهوة وعدم كبتها يقول السيد قطب - رحمه الله-: ولما كانت هذه الرغائب والدوافع - مع هذا - طبيعية، وفطرية، ومكلفة من قبل البارئ - جل وعلا - أن تؤدي للبشرية دورًا أساسيًا في حفظ الحياة وامتدادها؛ فإن الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها، وتخفيف حدتها واندفاعها؛ وإلى أن يكون الإنسان مالكًا لها متصرفًا فيها، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه؛ وإلى تقوية روح التسامي فيه والتطلع إلى ما هو أعلى.

ومن ثَمّ يعرض النص القرآني الذي يتولى هذا التوجيه التربوي. . هذه الرغائب والدافع، ويعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألوانًا من لذائذ الحس والنفس في العالم

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٨٧).

(٢) تفسير الآلوسي (٣/ ٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٧٢١).

الآخر، ينالها من يضبطون أنفسهم في هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق في لذائذها المحببة، ويحتفظون بإنسانيتهم الرفيعة.

وفي آية واحدة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان؛ النساء، والبنين، والأموال المكدسة، والخيل، والأرض المخصبة، والأنعام. . ، وهي خلاصة للرغائب الأرضية إما بذاتها، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى، وفي الآية التالية يعرض لذائذ أخرى في العالم الآخر: جنات تجري من تحتها الأنهار، وأزواج مطهرة، وفوقها رضوان من الله، وذلك كله لمن يمد ببصره إلى أبعد من لذائذ الأرض، ويصل قلبه بالله على النحو الذي تعرضه آيتان تاليتان:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران: ١٤-١٧).

وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل؛ فهو محبب ومزين، وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه، ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه «الشهوات»، وهو جزء من تكوينه الأصيل، لا حاجة إلى إنكاره، ولا إلى استنكاره في ذاته، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد - كما أسلفنا - ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانبًا آخر يوازن ذلك الميل، ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده؛ وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها. هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه « الشهوات »، الحد الباني للنفس وللحياة؛ مع التطلع المستمر إلى

ترقية الحياة ورفعها إلى الأفق الذي تهتف إليه النفحة العلوية، وربط القلب البشري بالملإ الأعلى والدار الآخرة ورضوان الله، هذا الاستعداد الثاني يهذب الاستعداد الأول، وينقيه من الشوائب، ويجعله في الحدود المأمونة التي لا يطغى فيها جانب اللذة الحسية، ونزعاتها القريبة، على الروح الإنسانية وأشواقها البعيدة، والاتجاه إلى الله وتقواه، هو خيط الصعود والتسامي إلى تلك الأشواق البعيدة.

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كبتها وقمعها، والذين يتحدثون في هذه الأيام عن « الكبت» وأضراره، وعن « العقد النفسية » التي ينشئها الكبت والقمع، يقررون أن السبب الرئيسي للعقد هو « الكبت » وليس هو « الضبط »، وهو استقذار دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين: ضغط من شعوره - الذي كونه الإيحاء، أو كونه الدين أو كونه العرف - بأن دوافع الفطرة دوافع قذرة لا يجوز وجودها أصلًا، فهي خطيئة ودافع شيطاني! وضغط هذه الدوافع التي لا تغلب؛ لأنها عميقة في الفطرة؛ ولأنها ذات وظيفة أصيلة في كيان الحياة البشرية، لا تتم إلا بها، ولم يخلقها الله في الفطرة عبثًا، وعندئذ وفي ظل هذا الصراع تتكون « العقد النفسية »، فحتى إذا سلمنا جدلًا بصحة هذه النظريات النفسية؛ فإننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنساني من هذا الصراع بين شطري النفس البشرية، بين نوازع الشهوة واللذة، وأشواق الارتفاع والتسامي، وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال، ثم قال: وهذه الشهوات التي ذكرت هنا هي نموذج لشهوات النفوس، يمثل شهوات البيئة التي كانت مخاطبة بهذا القرآن؛ ومنها ما هو شهوة كل نفس على مدار الزمان، والقرآن يعرضها ثم يقرر قيمتها الحقيقية، لتبقى في مكانها هذا لا تتعداه، ولا تطغى على ما سواه: ﴿ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ

ﭽﭐﻟﺪُّﻧۡﻴَﺎﭼ ذلك كله الذي عرضه من اللذائذ المحببة - وسائر ما يماثله من اللذائذ والشهوات - متاع الحياة الدنيا، لا الحياة الرفيعة، ولا الآفاق البعيدة[1].

٢- وفي بداية هذه الفطرة البشرية زوج الله حواء لآدم ولم يكن آدم رأى امرأة ولارأت حواء رجلا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١) وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩).

الوجه الرابع: توجيهات الإسلام في ضبط هذه الشهوة الجنسية

حيث ظهر في الوجه السابق أن أمر الشهوة بين الرجال والنساء أمر فطري لا مجال للمكابرة فيه، وأن الإسلام جاء بضبطه وتوجيهه التوجيه السليم، ونذكر في هذا الوجه تشريعات الإسلام في ضبط العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة وها هي:

١ـ تحريم الإسلام لقيام أي علاقة جنسية بين اثنين من جنس واحد سواءً كانا رجلين أو امرأتين:

قال تعالى في ذكره لعقوبة قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه، وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به"[2]، وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء، إلى أن اللائط يقتل سواءً كان محصنًا أو غير محصن عملًا بهذا الحديث، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه يلقى من شاهق، ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٣٧٥: ٣٧٣).

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١) وتقدم تخريجه.

وقال المباركفوري: واختلف أهل العلم في حد اللوطي: فرأى بعضهم أن عليه الرجم أحصن أو لم يحصن، وهو قول مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأخرج البيهقي عن علي ﷺ أنه رجم لوطيًا، قال الشافعي: وبهذا نأخذ يرجم اللوطي محصنًا كان، أو غير محصن، وقال بعض أهل العلم من فقهاء التابعين منهم الحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم قالوا: حد اللوطي حد الزاني، وهو قول الثوري، وأهل الكوفة، وهو قول الشافعي، فيجلد عند هؤلاء الأئمة البكر، ويغرب؛ ويرجم المحصن.

واحتجوا بأن التلوط نوع من أنواع الزنا؛ لأنه أيلاج فرج في فرج فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة في الزاني المحصن والبكر. (١)

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم. (٢)

وأما المساحقة: فقد صح عن الزهري رحمه الله أنه قال: أدركت علماءنا يقولون في المرأة تأتي المرأة بالرفغة وأشباهها تجلدان مئة مئة الفاعلة والمفعولة بها.

قلت: وهذا الجلد على سبيل التعزير لا على سبيل الحد.

قال ابن قدامة: وإن تدالكت امرأتان فهما زانيتان ملعونتان ولا حد عليهما؛ لأنه لا يتضمن إيلاجًا فأشبه المباشرة دون الفرج، وعليهما التعزير لأنه زنا لا حد فيه، فأشبه مباشرة الرجل المرأة من غير جماع. (٣)

وصرح أصحابنا في أن النساء إذا خيف عليهن المساحقة حرم خلوة بعضهن ببعض. (٤)

٢ـ تحريم الإسلام لأي علاقة جنسية بين الرجل والمرأة إلا إذا كان السبيل إليها هو الزواج والأمر بالعفة إذا لم يجد ما يتزوج به

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٧)، وانظر تحفة الأحوذي (٥/ ١٧)، وانظر (شبهة اللواط).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٧١).

(٣) المغني (١٠/ ١٥٧).

(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٨)

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥-١٦).

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾. (النور: ٢-٣).

وأمر بالتزويج والاستعفاف فقال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (النور: ٣٢-٣٣).

وفي السنة حديث ماعز والغامدية، والمرأة الجهنية في رجم الزاني والزانية وقد سبق تخريج هذه الأحاديث في بحث حديث ماعز.

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال عمر ﷺ: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف - قال سفيان كذا حفظت - ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده.[1]

٣- وفي سبيل ضبط العلاقة بين الرجل والمرأة جاء تحريم صنف معين من النساء على الرجل أن يتزوج منهن

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ

(١) البخاري (٦٤٤١).

وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ٢٢-٢٣)

فظهر من خلال الآيات أن المحرمات على قسمين:
محرمات تحريم مؤقت ومحرمات تحريم مؤبد
أما المحرمات تحريم مؤبد فها هن

١-المحرمات من النسب (الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت)

٢- المحرمات من الرضاع قال تعالى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾، وقال النبي ﷺ: "الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة "[١]

٣- المحرمات بالمصاهرة فهن:

أم الزوجة، ابنة الزوجة إذا دخل بأمها، زوجة الابن، زوجة الأب.

وأما المحرمات تحريما مؤقتًا فهؤلاء الجمع بين الأختين، الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، زوجة الغير ومعتدة الغير، المطلقة ثلاثًا، زواج الزانية. [٢]

٤ـ الاقتصار في الإباحة على أربعة للرجال

قال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾ (النساء: ٣)

٥ـ منع الرجل من جماع الزوجة في حيضها ونفاسها وفي دبرها.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ

(١) البخاري (٢٩٣٨).

(٢) نقلًا عن كتاب الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز (٢٩٢).

فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢-٢٢٣).

٦- ومنع المرأة من التطلع إلى غير زوجها وإيجاب طاعة الزوج عليها إذا دعاها إلى الفراش ولم يكن لها عذر في الامتناع

عن أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺقال: "إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح". (١)

٧- حث الرجل على إتيان زوجته إذا تطهرت من حيضها حتى يعف نفسه ويعفها كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ﴾.

٨- حث الرجل على جماع زوجته إذا وقع بصره على امرأة أجنبية فحركت نفسه. كما في هذا الحديث الذي معنا، وجعل الرجل مترتبًا على هذا الجماع كما في قوله ﷺ: " فإن من أماثل أعمالكم إتيان الحلال"

وكما في حديث أبي ذر أنه ﷺ قال: "وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ" قَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ، قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا ". (٢)

وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة، ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى، به أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعًا من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه، أو الهم به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة(٣)

٩- ثم أذن للرجل بعد ذلك أن يستمتع بزوجته أنى شاء، مع مراعاة الضوابط السابقة.

كما قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) رواه البخاري (٣٢٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٣) شرح مسلم للنووي (٧/ ٩٢).

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ (البقرة: ٢٢٣)

١٠ـ توجيه المسلمين لإدراج هذه الشهوة ضمن منظومة العمل الأخروي عن طريق النية كما سبق ذكره.

وبهذا يظهر أن النبي ﷺ لم يأت بالكبت، ولا بإطلاق العنان لهذه الشهوة، وإنما جاء بتوجيهها التوجيه السليم الذي يناسب الفطرة الإنسانية، والتشريعات الربانية. والحمد لله.

الوجه الخامس: تشريع النبي ﷺ أمورًا جفف بها منابع الفتنة بين الرجل والمرأة لو التزموا بها.

ومنها ما يلي:

١ـ منع الرجل من الغياب عن زوجته لمدة طويلة

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (البقرة: ٢٢٦).

٢ـ فرض الحجاب على النساء واعتبار قرارهن في البيوت هو الأصل الأصيل في دائرة عملهن.

قال رسول الله ﷺ: "والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسئولة عن رعيتها"، فهذا هو الأصل، وما عداه استثناء، ثم هي إن خرجت تخرج محجوبة، لا تخالط الرجال، وبشروط أخرى، جماعها حمايتها وحماية المجتمع من الافتتان بها. [1]

٣ـ تشريع الاستئذان:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾ (النور: ٢٨).

ووضحت لنا السنة الهدف من الاستئذان: وهو خشية أن تقع عين آثمة على عورة غافلة، فتلد تلك النظرة الخاطفة فاحشة فاضحة.

فعن سهل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر".

٤ـ تحريم الخلوة

(١) الحجاب لمحمد إسماعيل المقدم (٤١، ٤٢).

ما هي الخلوة المحرمة؟

هي أن ينفرد رجل بامرأة أجنبية عنه، في غيبة عن أعين الناس، وهي من أفعال الجاهلية، وكبائر الذنوب.

والدليل على تحريمها ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سمعت النبي ﷺ يخطب يقول: " لا يخلُونَّ رجلٌ بامرأة إلا ومعها ذو محرم "

وما رواه عامر بن ربيعة أن رسول الله ﷺ قال: " ألا لاَ يخلُونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان "[(١)]، وهذا يعم جميع الرجال، ولو كانوا صالحين، أو مسنين، وجميع النساء، ولو كنَّ صالحات، أو عجائز.

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يخلون بامرأة، ليس معها ذو محرم منها؛ فإن ثالثهما الشيطان "[(٢)].

وقد تكون القرابة إلى المرأة، أو زوجها سبيلًا إلى سهولة الدخول عليها، أو الخلوة بها، كابن العم، وابن الخال مثلًا، ولذلك حذرنا النبي ﷺ من ذلك؛ لأنه من مداخل الشيطان، ومسارب الفساد.

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " إياكم والدخول على النساء "، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أفرأيت الحمو؟ قال: " الحمو الموت ". [(٣)]

والحمو هو قريب الزوج الذي لا يحل للمرأة، كأخيه وابن عمه، فبينَّ النبي ﷺ أنه يفسد الحياة الزوجية، كما يُفسد الموت البدن.

قال الأبي: لا تُعرِّضُ المرأةُ نفسَها بالخلوة مع أحد، وإن قلّ الزمن، لعدم الأمن لاسيما مع فساد الزمن، والمرأة فتنة، إلا فيما جُبلت عليه النفوس من النفرة من محارم النسب.

فالحكمة من تحريم الخلوة هي: سد الذّريعة إلى الفاحشة، أو الاقتراب منها، حتى يظل

---

(١) سنن الترمذي (١١٧١)، المستدرك للحاكم (٣٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣١١٨).

(٢) مسند أحمد (١٤٦٩٢)، وصححه الألباني في غاية المرام (١٨٠).

(٣) البخاري (٥٢٣٢)، مسلم (٢١٧٢).

المرء واقفًا على مسافة بعيدة قبل أن يفضي إلى حدود الجريمة الأصلية، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة: ١٨٧).[١]

٥ـ تحريم الاختلاط.

ما هو الاختلاط؟

هو اجتماع الرجل بالمرأة التي ليست بمحرم له اجتماعًا يؤدي إلى ريبة، أو: هو اجتماع الرجال بالنساء غير المحارم في مكان واحد، يمكنهم فيه الاتصال فيما بينهم بالنظر، أو الإشارة، أو الكلام، أو البدن من غير حائل أو مانع يدفع الريبة والفساد.

ومن أدلة تحريم الاختلاط في القرآن والسنة ما يلي:

قوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

و من السنة الشريفة:

قول رسول الله ﷺ: "المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من وجه ربها، وهي في قعر بيتها"[٢].

وعن أبي أُسيد مالك بن ربيعة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق: "استأخِرن، فليس لكنّ أن تَحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق"، فكانت المرأة تلصقُ بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به[٣].

---

(١) نقلًا عن الحجاب لمحمد بن إسماعيل المقدَّم (٤٣).

(٢) صحيح الترمذي للألباني (١١٧٣).

(٣) أبو داود في السنن (٥٢٧٤)، المعجم الكبير للطبراني (٥٨٠)، البيهقي في الشعب (٧٨٢٢)، وحسنه الألباني بالطرق في الصحيحة (٨٥٦).

ومعنى تَحْقُقْنَ: أي تذهبن في حاق الطريق، وهو الوسط، كما في حديث أبي هريرةﷺ قال رسول الله ﷺ: "ليس للنساء وسط الطريق" وقد أفرد ﷺ في المسجد بابًا خاصًّا للنساء يدخلن، ويخَرجن منه، لا يُخالطهن، ولا يُشاركهن فيه الرجال.

فعن نافع عن ابن عمرﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لو تركنا هذا الباب للنساء؟" قال نافع: فلم يدخل منه ابنُ عمر حتى مات[1].

ومن ذلك: تشريعه للرجال إمامًا ومؤتمين، ألاَّ يخرجوا فور التسليم من الصلاة إذا كان بالصفوف الأخيرة بالمسجد نساء، حتى يخرجن، وينصرفن إلى دورهن قبل الرجال، لكي لا يحصل الاختلاط بين الجنسين- ولو بدون قصد- إذا خرجوا جميعًا.

قال أبو داود: (باب انصراف النساء قبل الرجال من الصلاة)، ثم ساق حديث أم سلمة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم مكث قليلًا، وكانوا يرون أن ذلك كيما يَنفذ النساء قبل الرجال[2].

ورواه البخاري أيضًا، وفيه: قال ابن شهاب: فُترى-والله أعلم-لكي ينفذ من ينصرف من النساء قبل أن يدركهن من انصرف من القوم - أي الرجال -[3].

قال ابن حجر: وفي الحديث: كراهة مخالطة الرجال للنساء في الطرقات، فضلًا عن البيوت.[4]

وعن أبي هريرةﷺقال: قال رسول الله ﷺ: "خير صفوف الرجال أولها، وشرّها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرّها أولها".

وهذا كله في حال العبادة والصلاة التي يكون فيها المسلم أو المسلمة أبعد ما يكون عن وسوسة الشيطان وإغوائه، فكيف بما عداها؟!.

---

(١) صحيح أبي داود للألباني (٤٦٢).

(٢) صحيح أبو داود للألباني (١٠٤٠)، ورواه البخاري (٨٣٧).

(٣) البخاري (٨٠٢).

(٤) فتح الباري (٢/ ٣٣٦).

ولقد حرصت الصحابيات على عدم الاختلاط، حتى في أشدّ المساجد زحامًا، وفي أشد الأوقات زحامًا، موسم الحج بالمسجد الحرام.

فلقد كانت أم المؤمنين عائشة ﵂ تطوف محجوزًا بينها وبين الرجال بثوب، لا تخالطهم، فقالت لها امرأة: انطلقي نستلم يا أم المؤمنين تعني: هيًّا نقبل الحجر الأسود، فقالت لها: عنكِ وأبت يعني حتى لا تخالط الرجال.

وكانت النساء في عهده، إذا أردن دخول الكعبة المشرفة، يقفن إلى أن يخرج الرجال، ثم يدخلن إذا خرجوا.

ودخلت على عائشة ﵂ مولاة لها، فقالت لها: يا أمّ المؤمنين، طُفْتُ بالبيت سبعًا، واستلمتُ الركن مرتين أو ثلاثًا، فقالت لها عائشة ﵂: لا آجَرَكِ الله، تدافعين الرجال؟! ألا كبَّرتِ، ومررتِ؟!.

قال ابن القيم: ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشرّ، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام، والطواعين المتصلة "[١].

أضف إلى هذا شيوع الطّلاق، وتفشّي التبرّج بالزينة، وانعدام الغيرة، واضمحلال الحياء، وفساد الأخلاق، وتعسير غضّ البصر، وتيسير زنا العين، والتسبب في بلاء العشق الذي يتلف الدنيا والدين. [٢]

٦ـ الأمر بغض البصر

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم (صـ٤٠٧).

(٢) نقلًا عن كتاب حجاب المرأة المسلمة للمقدم (صـ٤٢ وما بعدها)

أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم؛ فإن اتفق أن وقع البصر على مُحرَّم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعًا، فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ، عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرفَ بَصَري[1].

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والجلوس على الطرقات". قالوا: يا رسول الله، لا بد لنا من مجالسنا، نتحدث فيها. فقال رسول الله ﷺ: "إن أبيتم، فأعطوا الطريق حقَّه". قالوا: وما حقّ الطريق يا رسول الله؟ قال: "غَضُّ البصر، وكَفُّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"[2].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: (مَنْ حفظ بصره، أورثه الله نورًا في بصيرته). ويروى: (في قلبه). [3]

٧ـ تحريم مس الأجنبية ومصافحتها

فعن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: " كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخُطا، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه. [4]

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٣٣).

(٣) تفسير ابن كثير سورة النور آية ٣٠.

(٤) مسلم (٢٦٥٧)

وعن معقل بن يسار يقول: قال رسول الله ﷺ: "لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له". (١)

قال الألباني: وفي الحديث وعيد شديد لمن مس امرأة لا تحل له، ففيه دليل على تحريم مصافحة النساء؛ لأن ذلك مما يشمله المس دون شك، وقد بلي بها كثير من المسلمين في هذا العصر. (٢)

ولذلك امتنع النبي ﷺ من مصافحة المرأة، حتى في البيعة فعن أميمة بنت رقيقة، أنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة بايعنه على الإسلام، فقلن: يا رسول الله، نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف، فقال رسول الله ﷺ: " فيما استطعتن وأطقتن "، قالت: فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلم نبايعك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: " إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة، أو مثل قولي لامرأة واحدة ". (٣)

٨ـ تحريم سفر المرأة بغير محرم.

فعن ابن عباس ﷺ أنه سمع النبي ﷺيقول: " لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم "، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، اكتتبت في غزوة كذا وكذا، وخرجت امرأتي حاجة، قال: "اذهب فحج مع امرأتك". (٤)

وفي رواية: "لا تسافر المرأة ثلاثا إلا ومعها ذو محرم"، وفي رواية: "فوق ثلاث"، وفي رواية: " ثلاثة"، وفي رواية: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة ثلاث ليال، إلا ومعها ذو

---

(١) حسن. أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٢١١) فقال: حدثنا موسى بن هارون، ثنا ابن راهويه، انا النضربن شميل، ثنا شداد بن سعيد الراسبي، قال: سمعت يزيد بن عبد الله بن الشخير يقول: سمعت معقل بن يسار يقول فذكره، وهذا إسناد حسن رجاله ثقات رجال الشيخين ما عدا شداد؛ فإنه صدوق يخطئ، وروى له مسلم متابعة، وقال الهيثمي: رجاله ثقات رجال الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٤٥).

(٢) السلسلة الصحيحة (١/ ٢٢٥).

(٣) **صحيح**. أخرجه مالك في الموطأ (١٧٧٥) عن محمد بن المنكدر، عن أميمة به، وأخرجه النسائي (٤١٨١)، وابن ماجه (٢٨٧٨)، وأحمد (٦/ ٣٥٧)؛ كلهم من طريق محمد بن ا المنكدر به.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٤٤)، ومسلم (١٣٤١).

محرم"، وفي رواية: "لا تسافر المرأة يومين من الدهر، إلا ومعها ذو محرم منها، أو زوجها"، وفي رواية: "نهى أن تسافر المرأة مسيرة يومين"، وفي رواية: "لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة، إلا ومعها ذو حرمة منها"، وفي رواية: " لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم"، وفي رواية: "مسيرة يوم وليلة"، وفي رواية: "لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم". هذه روايات مسلم، قال العلماء: اختلاف هذه الألفاظ لاختلاف السائلين، واختلاف المواطن، وليس في النهي عن الثلاثة تصريح بإباحة اليوم والليلة، قال البيهقي: كأنه ﷺ سئل عن المرأة تسافر ثلاثًا بغير محرم، فقال: "لا". وسئل عن سفرها يومين بغير محرم، فقال: " لا ". وسئل عن سفرها يوما، فقال: " لا ". فأدى كل منهم ما سمعه، وما جاء منها مختلفًا عن رواية واحد فسمعه في مواطن، فروى تارة هذا، وتارة هذا، وكله صحيح، وليس في هذا كله تحديد لأقل ما يقع عليه اسم السفر، ولم يرد ﷺ تحديد أقل ما يسمى سفرًا.

فالحاصل أن كل ما يسمى سفرًا تنهى عنه المرأة بغير زوج، أو محرم سواء كان ثلاثة أيام، أو يومين، أو يومًا، أو غير ذلك لرواية ابن عباس المطلقة: " لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم "، وهذا يتناول جميع ما يسمى سفرًا والله أعلم.

وقد قال القاضي: واتفق العلماء على أنه ليس لها أن تخرج في غير الحج والعمرة، إلا مع ذي محرم، إلا الهجرة من دار الحرب، فاتفقوا على أن عليها أن تهاجر منها إلى دار الإسلام، وإن لم يكن معها محرم، والفرق بينهما أن إقامتها في دار الكفر حرام، إذا لم تستطع إظهار الدين وتخشى على دينها، ونفسها.

قال القاضي عياض: قال الباجى: هذا عندي في الشابة، وأما الكبيرة غير المشتهاة فتسافر كيف شاءت في كل الأسفار بلا زوج ولا محرم، وهذا الذي قاله الباجي لا يوافق عليه؛ لأن المرأة مظنة الطمع فيها، ومظنة الشهوة، ولو كانت كبيرة وقد قالوا لكل ساقطة لاقطة، ويجتمع في الأسفار من سفهاء الناس وسقطهم، من لا يرتفع عن الفاحشة

بالعجوز وغيرها لغلبة شهوته، وقلة دينه ومروءته وخيانته. ونحو ذلك والله أعلم(١).

٩ـ ومنها تحريم خروج المرأة متطيبة متعطرة

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: " إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها، فهي كذا وكذا " قال قولًا شديدًا. (٢)

١٠ـ تحريم الخضوع بالقول.

قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾.

١١ـ الحد على من وقع في الفاحشة.

فلقد شرعت العقوبة الرادعة من الجلد والرجم لمن تسول له نفسه، أي اتصال غير مشروع بين الرجال والنساء وقد سبق بيانها.

فهذه بعض الإجراءات الوقائية التي شرعها الله تعالى على لسان رسوله ﷺ لتكون صمام أمان للأمة ضد الوقوع في الفتنة بين الرجال والنساء.

١٢ـ مشروعية الزواج لدرأ هذه الفتن:

ثم في هذا الإطار يأتي أمر النبي ﷺ بالزواج وإتيان الحلال الذي أمر به في هذا الحديث الذي معنا، وعن عبد الله بن مسعود ﷺقال: كنا مع النبي ﷺ شبابًا لا نجد، فقال لنا رسول الله ﷺ: "يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء"(١).

---

(١) شرح مسلم للنووي (٩/ ١٠٢-١٠٥).

(٢) **حسن**. أخرجه أبو داود (٤١٧٣) عن مسدد، والترمذي (٢٧٨٦)، عن محمد بن بشار، وأحمد في المسند (٤/ ٤٠٠)، وأخرجه النسائي (٥١٢٦)، وأحمد (٤/ ٤١٣، -٤١٨)، والدارمي (٢٦٤٦)، وابن خزيمة (١٦٨١)، ومن طريقه ابن حبان ١٠/ ٢٧٠، والحاكم (٢/ ٤٣٠) عن ثابت بن عمارة الحنفي، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى به، وهذا إسناد فيه ثابت بن عمارة، قال الحافظ: صدوق فيه لين، وقال الدارقطني: في الجرح والتعديل ثقة، وقال الذهبي: صدوق (تهذيب التهذيب ٢/ ١٠)، وتقريب التهذيب (٨٢٣)، والكاشف (٦٩١)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٤٠).

الوجه الخامس: كون النبي ﷺ أملك الناس لإربه.

فمع حبه ﷺ لما أحل الله له من النساء، إلا أنه كان أملك الناس لنفسه، لم يكن ممن تستهويه شهوة أو عاطفة، وليس أدل على ذلك من اعتزاله ﷺ لنسائه شهرًا لا ينزل إليهن ولا حتى السرية، وهذا لا يفعله من تقوده شهوته، ولا يقدر من لا يملك نفسه إذا كانت له امرأة، فكيف إذا كن تسع!

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم وكان أملككم لإربه. (٢)

وعُرض عليه قبل الهجرة أجمل النساء فأبى، وبعد الهجرة كان النساء يهبن له أنفسهن، وما صح أنه تزوج، أو قبل امرأة وهبت له نفسها، ولو كان الأمر أمر شهوة لما كان شيء من هذا.

الوجه السادس: أن هذه الرؤية من النبي ﷺ تدخل ضمن نظرة الفجأة التي تطرأ بدون إرادة نظر من الناظر والتكليف بالمنع منها تكليف بما لا يطاق

عن جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة، "فأمرني أن أصرف بصري". (٣)

الوجه السابع: الجنس وشهوة النساء في الكتاب المقدس.

وبعد أن بينا أن فعل نبينا ﷺ لا إثم فيه ولا حرج فقد ذهب إلى زوجته، ودل أمته على ذلك. أقول للمعترض ما رأيك في هذه القصة من كتابكم المقدس من سفر صموئيل الثاني (الإصحاحان ١١-١٢): وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جدًّا. فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ». فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلًا وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: «أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ». فَأَرْسَلَ يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. فَأَتَى أُورِيَّا

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٢٦)، ومسلم (١١٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٥٩).

إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ». فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ. وَنَامَ أُورِيَّا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ جَمِيعِ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْتِهِ. فَأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ: «لَمْ يَنْزِلْ أُورِيَّا إِلَى بَيْتِهِ». فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّفَرِ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ؟ » فَقَالَ أُورِيَّا لِدَاوُدَ: «إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ، وَسَيِّدِي يُوآبُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّحْرَاءِ، وَأَنَا آتِي إِلَى بَيْتِي لآكُلَ وَأَشْرَبَ وَأَضْطَجعَ مَعَ امْرَأَتِي؟ وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ، لاَ أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ». فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَقِمْ هُنَا الْيَوْمَ أَيْضًا، وَغَدًا أُطْلِقُكَ». فَأَقَامَ أُورِيَّا فِي أُورُشَلِيمَ ذلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ. وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ». وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوآبَ، فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عَبِيدِ دَاوُدَ، وَمَاتَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا. فَأَرْسَلَ يُوآبُ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِجَمِيعِ أُمُورِ الْحَرْبِ. وَأَوْصَى الرَّسُولَ قَائِلًا: «عِنْدَمَا تَفْرَغُ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ الْمَلِكِ عَنْ جَمِيعِ أُمُورِ الْحَرْبِ؛ فَإِنِ اشْتَعَلَ غَضَبُ الْمَلِكِ، وَقَالَ لَكَ: لِمَاذَا دَنَوْتُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ لِلْقِتَالِ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَرْمُونَ مِنْ عَلَى السُّورِ؟ مَنْ قَتَلَ أَبِيمَالِكَ بْنَ يَرُبُّوشَثَ؟ أَلَمْ تَرْمِهِ امْرَأَةٌ بِقِطْعَةِ رَحًى مِنْ عَلَى السُّورِ فَمَاتَ فِي تَابَاصَ؟ لِمَاذَا دَنَوْتُمْ مِنَ السُّورِ؟ فَقُلْ: قَدْ مَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا». فَذَهَبَ الرَّسُولُ وَدَخَلَ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِكُلِّ مَا أَرْسَلَهُ فِيهِ يُوآبُ. وَقَالَ الرَّسُولُ لِدَاوُدَ: «قَدْ تَجَبَّرَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ وَخَرَجُوا إِلَيْنَا إِلَى الْحَقْلِ فَكُنَّا عَلَيْهِمْ إِلَى مَدْخَلِ الْبَابِ. فَرَمَى الرُّمَاةُ عَبِيدَكَ مِنْ عَلَى السُّورِ، فَمَاتَ الْبَعْضُ مِنْ عَبِيدِ الْمَلِكِ، وَمَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا». فَقَالَ دَاوُدُ لِلرَّسُولِ: « هكَذَا تَقُولُ لِيُوآبَ: لاَ يَسُؤْ فِي عَيْنَيْكَ هذَا الأَمْرُ؛ لأَنَّ السَّيْفَ يَأْكُلُ هذَا وَذَاكَ. شَدِّدْ قِتَالَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ

وَأَخْرِبْهَا. وَشَدِّدْهُ». فَلَمَّا سَمِعَتِ امْرَأَةُ أُورِيَّا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ أُورِيَّا رَجُلُهَا، نَدَبَتْ بَعْلَهَا. وَلَمَّا مَضَتِ الْمَنَاحَةُ أَرْسَلَ دَاوُدُ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ، وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا. وَأَمَّا الأَمْرُ الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، فَأَرْسَلَ الرَّبُّ نَاثَانَ إِلَى دَاوُدَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: «كَانَ رَجُلاَنِ فِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا غَنِيٌّ وَالآخَرُ فَقِيرٌ. وَكَانَ لِلْغَنِيِّ غَنَمٌ وَبَقَرٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ، إِلاَّ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ، قَدِ اقْتَنَاهَا وَرَبَّاهَا وَكَبِرَتْ مَعَهُ، وَمَعَ بَنِيهِ جَمِيعًا. تَأْكُلُ مِنْ لُقْمَتِهِ وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ وَتَنَامُ فِي حِضْنِهِ، وَكَانَتْ لَهُ كَابْنَةٍ. فَجَاءَ ضَيْفٌ إِلَى الرَّجُلِ الْغَنِيِّ، فَعَفَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ غَنَمِهِ وَمِنْ بَقَرِهِ لِيُهَيِّئَ لِلضَّيْفِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ نَعْجَةَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ، وَهَيَّأَ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ». فَحَمِيَ غَضَبُ دَاوُدَ عَلَى الرَّجُلِ جِدًّا، وَقَالَ لِنَاثَانَ: «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، إِنَّهُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ الْفَاعِلُ ذلِكَ، وَيَرُدُّ النَّعْجَةَ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ؛ لأَنَّهُ فَعَلَ هذَا الأَمْرَ؛ وَلأَنَّهُ لَمْ يُشْفِقْ»، فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ! هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَنَا مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ سَيِّدِكَ وَنِسَاءَ سَيِّدِكَ فِي حِضْنِكَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا. وَإِنْ كَانَ ذلِكَ قَلِيلًا، كُنْتُ أَزِيدُ لَكَ كَذَا وَكَذَا. لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ. وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ لَكَ امْرَأَةً. هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ». فَقَالَ دَاوُدُ لِنَاثَانَ: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ». فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيَّتَكَ. لاَ تَمُوتُ. غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهذَا الأَمْرِ أَعْدَاءَ الرَّبِّ يَشْمَتُونَ، فَالابْنُ الْمَوْلُودُ لَكَ يَمُوتُ». وَذَهَبَ نَاثَانُ إِلَى بَيْتِهِ. وَضَرَبَ الرَّبُّ الْوَلَدَ الَّذِي وَلَدَتْهُ امْرَأَةُ أُورِيَّا لِدَاوُدَ فَثَقِلَ. فَسَأَلَ دَاوُدُ اللهَ مِنْ أَجْلِ الصَّبِيِّ، وَصَامَ دَاوُدُ صَوْمًا، وَدَخَلَ وَبَاتَ مُضْطَجِعًا عَلَى الأَرْضِ. فَقَامَ شُيُوخُ بَيْتِهِ

عَلَيْهِ لِيُقِيمُوهُ عَنِ الأَرْضِ فَلَمْ يَشَأْ، وَلَمْ يَأْكُلْ مَعَهُمْ خُبْزًا. وَكَانَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَنَّ الْوَلَدَ مَاتَ، فَخَافَ عَبِيدُ دَاوُدَ أَنْ يُخْبِرُوهُ بِأَنَّ الْوَلَدَ قَدْ مَاتَ لأَنَّهُمْ قَالُوا: «هُوَذَا لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا كَلَّمْنَاهُ فَلَمْ يَسْمَعْ لِصَوْتِنَا. فَكَيْفَ نَقُولُ لَهُ: قَدْ مَاتَ الْوَلَدُ؟ يَعْمَلُ أَشَرًّا! ». وَرَأَى دَاوُدُ عَبِيدَهُ يَتَنَاجَوْنَ، فَفَطِنَ دَاوُدُ أَنَّ الْوَلَدَ قَدْ مَاتَ. فَقَالَ دَاوُدُ لِعَبِيدِهِ: «هَلْ مَاتَ الْوَلَدُ؟ » فَقَالُوا: «مَاتَ». فَقَامَ دَاوُدُ عَنِ الأَرْضِ وَاغْتَسَلَ وَادَّهَنَ وَبَدَّلَ ثِيَابَهُ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ وَسَجَدَ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى بَيْتِهِ وَطَلَبَ فَوَضَعُوا لَهُ خُبْزًا فَأَكَلَ. فَقَالَ لَهُ عَبِيدُهُ: «مَا هذَا الأَمْرُ الَّذِي فَعَلْتَ؟ لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا صُمْتَ وَبَكَيْتَ، وَلَمَّا مَاتَ الْوَلَدُ قُمْتَ وَأَكَلْتَ خُبْزًا». فَقَالَ: «لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا صُمْتُ وَبَكَيْتُ لأَنِّي قُلْتُ: مَنْ يَعْلَمُ؟ رُبَّمَا يَرْحَمُنِي الرَّبُّ وَيَحْيَا الْوَلَدُ. وَالآنَ قَدْ مَاتَ، فَلِمَاذَا أَصُومُ؟ هَلْ أَقْدِرُ أَنْ أَرُدَّهُ بَعْدُ؟ أَنَا ذَاهِبٌ إِلَيْهِ وَأَمَّا هُوَ فَلاَ يَرْجعُ إِلَيَّ». وَعَزَّى دَاوُدُ بَثْشَبَعَ امْرَأَتَهُ، وَدَخَلَ إِلَيْهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا فَوَلَدَتِ ابْنًا، فَدَعَا اسْمَهُ سُلَيْمَانَ، وَالرَّبُّ أَحَبَّهُ، وَأَرْسَلَ بِيَدِ نَاثَانَ النَّبِيِّ وَدَعَا اسْمَهُ «يَدِيدِيَّا» مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ.

وَحَارَبَ يُوآبُ رِبَّةَ بَنِي عَمُّونَ وَأَخَذَ مَدِينَةَ الْمَمْلَكَةِ. وَأَرْسَلَ يُوآبُ رُسُلاً إِلَى دَاوُدَ يَقُولُ: «قَدْ حَارَبْتُ رِبَّةَ وَأَخَذْتُ أَيْضًا مَدِينَةَ الْمِيَاهِ. فَالآنَ اجْمَعْ بَقِيَّةَ الشَّعْبِ وَانْزِلْ عَلَى الْمَدِينَةِ وَخُذْهَا لِئَلاَّ آخُذَ أَنَا الْمَدِينَةَ فَيُدْعَى بِاسْمِي عَلَيْهَا». فَجَمَعَ دَاوُدُ كُلَّ الشَّعْبِ وَذَهَبَ إِلَى رِبَّةَ وَحَارَبَهَا وَأَخَذَهَا. وَأَخَذَ تَاجَ مَلِكِهِمْ عَنْ رَأْسِهِ، وَوَزْنُهُ وَزْنَةٌ مِنَ الذَّهَبِ مَعَ حَجَرٍ كَرِيمٍ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ دَاوُدَ. وَأَخْرَجَ غَنِيمَةَ الْمَدِينَةِ كَثِيرَةً جِدًّا. وَأَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِي فِيهَا وَوَضَعَهُمْ تَحْتَ مَنَاشِيرَ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسِ حَدِيدٍ وَأَمَرَّهُمْ فِي أَتُونِ الآجُرِّ، وَهكَذَا صَنَعَ بِجَمِيعِ مُدُنِ بَنِي عَمُّونَ. ثُمَّ رَجَعَ دَاوُدُ وَجَمِيعُ الشَّعْبِ إِلَى أُورُشَلِيمَ.

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ونحن نبرئ داود عليه السلام من هذه الفواحش وننزه سليمان أن يكون ابنا من امرأة بغي والله المستعان.

* * *

١٤ـ شبهة: مباشرة النبي ﷺ أزواجه ـ رضي الله عنهن ـ حال الصيام.

نص الشبهة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقبل، ويباشر، وهو صائم وكان أملككم لإربه. [1]

كيف يُقَبّل النبي ﷺ، ويباشر وهو صائم؟! ، وكيف تخبر عائشة بذلك، وما الفائدة في الإخبار بهذا الموقف؟!

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ هو المبلغ للشريعة عن الله ﷻ.

الوجه الثاني: بعض المباحات التي شرعها رب العالمين للصائمين.

الوجه الثالث: شدة الأمر في المعاملة مع النساء مع إباحة ما أذن الله فيه

الوجه الرابع: أن هذا الذي فعله النبي ﷺهو تقوى الله تعالى

الوجه الخامس: معنى المباشرة الواردة في هذا الحديث

الوجه السادس: إيراد كلام أهل العلم على الحديث، وبيان معناه.

الوجه السابع: التقبيل في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن النبي ﷺ هو المبلغ للشريعة عن الله ﷻ.

فالحلال ما أحل الله على لسانه، والحرام ما حرم الله لسانه، ونحن نقتدي بفعله، ولا نعترض عليه أو بعبارة أخرى: نحن نتأسى به ولا نعترض عليه إلا فيما كان خاصًا به.

والآيات في هذا المعنى كثيرة ولو علم الله أنه خلاف الأولى لعاتبه فيه كما في قصة التحريم مثلا وكما في قصة زيد وقد سبق الكلام عليهما.

الوجه الثاني: بعض المباحات التى شرعها رب العالمين للصائمين.

لقد علمنا النبي ﷺ الصيام، وأحكامه، والمفطرات، وما الذي يباح في الصيام، وكان من جملة ذلك: أن الله أحل له ذلك الفعل، وأعطاه قدرة على ملك نفسه. فمن كان

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٦)، ومسلم (١١٠٦).

كحاله ﷺ جاز له ذلك على الراجح عند أهل العلم.

وهذه بعض المباحات التي أباحها الله تعالى، ولا تفطر الصائم:

١- أن يصبح يوم الصيام جنبًا.

عن عائشة، وأم سلمة: أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر، وهو جنب من أهله ثم يغتسل، ويصوم. (١)

٢- تقبيل الزوجة ومباشرتها إن أمن الاستمناء كما في الحديث الذي معنا.

٣- الاغتسال، والصب على الرأس للتبرد:

لما تقدم من أنه ﷺ كان يصبح جنبا ثم يغتسل:

وعن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ أمر الناس في سفره عام الفتح بالفطر، وقال: تقووا لعدوكم، وصام رسول الله ﷺ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ بالعرج يصب على رأسه الماء وهو صائم من العطش أو من الحر. (٢)

فقوله: (يصب الماء على رأسه) الخ فيه دليل على أنه يجوز للصائم أن يكسر الحر بصب الماء على بعض بدنه، أو كله، وقد ذهب إلى ذلك الجمهور، ولم يفرقوا بين الأغسال الواجبة، والمسنونة، والمباحة.(٣)

٤-المضمضة، والاستنشاق من غير مبالغة

عن لقيط بن صبرة قال: قال رسول الله ﷺ: " بالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائمًا"(٤).

٥- تذوق الطعام للحاجة من غير ما يصل إلى الجوف لأنه مثل المضمضة الحجامة، والتبرع بالدم لمن لم يخش الضعف وفيها خلاف عند أهل العلم.

٦- الاكتحال، والحقنة، والقطرة، وشم الطيب.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٦٥) وإسناده صحيح، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود.

(٣) نيل الأوطار للشوكاني (٤/ ٢٨٧)

(٤) أبو داود (٢٣٦٦)، والترمذي (٧٨٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد كره أهل العلم: السعوط للصائم، ورأوا أن ذلك يفطره، وفي الباب ما يقوي قولهم، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٨).

٧- السواك.

٨- ابتلاع ما لا يحترز منه.

٩- الأكل والشرب والجماع ناسيًا.

١٠- القيء إذا غلب على الصائم.

الوجه الثالث: شدة الأمر في المعاملة مع النساء مع إباحة ما أذن الله فيه

لقد أمرنا الله تعالى بالتزام حدود هذا الشرع، فالحلال ما أحل، والحرام ما حرم ولا يجوز تعدي ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (النحل: ١١٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (يونس: ٥٩).

من هذا الحدود أن الله تعالى أباح لمن ملك نفسه القبلة، والمباشرة، وحرم تعديها إلى الجماع، وجعل في ذلك كفارة مغلظة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله، هلكت. قال: مالك. قال: وقعت على امرأتي، وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟. قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟. قال: لا. فقال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟. قال: لا. قال فمكث النبي ﷺ. فبينا نحن على ذلك أتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر. والعرق المكتل قال: أين السائل. فقال: أنا. قال: خذ هذا فتصدق به. فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟! فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي! فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: أطعمه أهلك. [١]

الوجه الرابع: أن هذا الذي فعله النبي ﷺ هو تقوى الله تعالى

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤).

عن عمر بن أبي سلمة أنه سأل رسول الله ﷺ أيقبل الصائم؟ فقال له رسول الله ﷺ سل هذه - لأم سلمة- فأخبرته أن رسول الله ﷺ يصنع ذلك فقال: يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال له رسول الله ﷺ: أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له. [١]

فالتقوى في شريعة النبي ﷺ ليست هي مجرد المنع والتحريم وإنما هي الالتزام بشرع الله تعالى أمرًا، ونهيًا، وحلًا، وتحريمًا ومن تعدى شيئًا من ذلك جانب التقوى.

الوجه الخامس: معنى المباشرة الواردة في هذا الحديث

وحتى لا يفهم البعض أن المراد منها الجماع -لأن كلمة المباشرة في اللغة وفي لسان الشرع: تشمل الجماع وما دون الجماع - نبين المراد منها في هذا الحديث.

قال ابن منظور: وباشَرَ الرجلُ امرأَتَهُ مُباشَرَةً وبِشارًا كان معها في ثوب واحد فوَلِيَتْ بَشَرَتُهُ بَشَرَتَها وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ (البقرة: ١٨٧) معنى المباشرة: الجماع، وكان الرجل يخرج من المسجد وهو معتكف فيجامع ثم يعود إلى المسجد وهذا محمول على الليل في رمضان.

ومُباشرةُ المرأَةِ مُلامَسَتُها والحِجْرُ المُباشِرُ التي تَهُمُّ بالفَحْلِ والبَشْرُ أَيضًا المُباشَرَةُ.

وفي الحديث: "أن النبي ﷺ كان يقبل ويباشر وهو صائم"[٢]؛ أراد بالمباشرة في الحديث الملامسة، وأصله من لمس بشرة الرجل بشرة المرأة. وقد يرد بمعنى الوطء في الفرج وخارجًا منه[٣].

وفي المعجم الوسيط: باشر زوجه مباشرة، وبشارًا: لامست بشرته بشرتها[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١١٠٨).

(٢) النسائي في الكبرى (٣٠٩٩).

(٣) لسان العرب ٤/ ٦١ مادة "بشر".

(٤) المعجم الوسيط ١/ ٥٩ مادة "بشر".

والبشرة: ظاهر الجلد، ومن ذلك قولهم: يباشر الرجل المرأة إذا ألصق بشرته ببشرتها[(١)].

ومن البشرة قيل: باشر فلان فلانًا إذا ضاجعه فوليت بشرته بشرته[(٢)].

البشرة: ظاهر جلد الإنسان ومنه باشر الرجل المرأة، وذلك إفضاؤه ببشرته إلى بشرتها[(٣)]. وباشر الرجل زوجته تمتع ببشرتها[(٤)].

وفي الجمع بين المعنيين وبيان المراد في هذا الحديث قال ابن خزيمة رحمه الله:

" باب الرخصة في المباشرة التي هي دون الجماع للصائم والدليل على أن اسم الواحد قد يقع على فعلين، أحدهما مباح، والآخر محظور، إذ اسم المباشرة قد أوقعه الله في نص كتابه على الجماع، ودل الكتاب على أن الجماع في الصوم محظور، قال المصطفى ﷺ: " إن الجماع يفطر الصائم "، والنبي المصطفى ﷺ قد دل بفعله على أن المباشرة التي هي دون الجماع مباحة في الصوم غير مكروهة[(٥)].

وقال رحمه الله: إنما خاطب الله جل ثناؤه نبيه ﷺ وأمته بلغة العرب أوسع اللغات كلها، التي لا يحيط بعلم جميعها أحد غير نبي، والعرب في لغاتها توقع اسم الواحد على شيئين، وعلى أشياء ذوات عدد، وقد يسمى الشيء الواحد بأسماء، وقد يزجر الله عن الشيء، ويبيح شيئًا آخر غير الشيء المزجور عنه، ووقع اسم الواحد على الشيئين جميعًا: على المباح، وعلى المحظور، وكذلك قد يبيح الشيء المزجور عنه، ووقع اسم الواحد عليهما جميعًا، فيكون اسم الواحد واقعا على الشيئين المختلفين، أحدهما مباح، والآخر محظور، واسمهما واحد، فلم يفهم هذا من جهل لسان العرب، وحمل المعنى في ذلك على شيء

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد ١/ ١٣٥.

(٢) المخصص لابن سيده ١/ ٣٥٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ١/ ٢٣٧.

(٤) المصباح المنير للفيومي تأليف أحمد علي المقري ١/ ٤٩.

(٥) صحيح ابن خزيمة ٣/ ٢٤٢-٢٤٤.

واحد يوهم أن الأمرين متضادان، إذ أبيح فعل مسمى باسم، وحظر فعل تسمى بذلك الاسم سواء فمن كان هذا مبلغه من العلم لم يحل له تعاطي الفقه، ولا الفتيا، ووجب عليه التعلم، أو السكت، إلى أن يدرك من العلم ما يجوز معه الفتيا، وتعاطي العلم، ومن فهم هذه الصناعة علم أن ما أبيح غير ما حظر، وإن كان اسم الواحد قد يقع على المباح وعلى المحظور جميعًا، فمن هذا الجنس الذي ذكرت أن الله ﷻ دل في كتابه أن مباشرة النساء في نهار الصوم غير جائز كقوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، فأباح الله ﷻ مباشرة النساء والأكل والشرب بالليل، ثم أمرنا بإتمام الصيام إلى الليل، على أن المباشرة المباحة بالليل المقرونة إلى الأكل والشرب هي الجماع المفطر للصائم.

وأباح الله ﷻ بفعل النبي المصطفى ﷺ المباشرة التي هي دون الجماع في الصيام، إذ كان يباشر وهو صائم، والمباشرة التي ذكر الله في كتابه أنها تفطر الصائم هي غير المباشرة التي كان النبي ﷺ يباشرها في صيامه، والمباشرة اسم واحد واقع على فعلين:

إحداهما مباحة في نهار الصوم، والأخرى: محظورة في نهار الصوم، مفطرة للصائم[1].

فهذا الكلام فيه بيان الفرق بين الاصطلاحين وأنهما على معنيين مختلفين وأنه لابد من فهم الكلام المطروح في إطار ما ورد فيه وبالكيفية التي جاء بها، ولا يعم اللفظ إلا إذا كان يحمل معنًا واحدًا لا يحتمل غيره ".

الوجه السادس: إيراد كلام أهل العلم على الحديث، وبيان معناه.

بوب البخاري رحمه الله في صحيحه " باب المباشرة للصائم "

قال ابن حجر: " أي بيان حكمها وأصل المباشرة التقاء البشرتين ويستعمل في الجماع سواء أولج أم لم يولج وليس الجماع مرادًا بهذه الترجمة "[2].

---

(١) صحيح ابن خزيمة ٣/ ٢٤٤: ٢٤٣.

(٢) فتح الباري ٤/ ١٧٦-١٧٧.

وبوب الترمذي - رحمه الله - في سننه "باب ما جاء في مباشرة الصائم"(١).

قال المباركفوري: "المباشرة أعم من القبلة، قيل هي مس الزوج المرأة فيما دون الفرج، وقيل هي القبلة واللمس باليد، قاله القاري"(٢).

قال النووي: "معنى المباشرة هنا اللمس باليد، وهو من التقاء البشرتين"(٣).

قال الصنعاني:قال العلماء: معنى الحديث أنه ينبغي لكم الاحتراز من القُبْلة، ولا تتوهموا أنكم مثل رسول الله ﷺفي استباحتها لأنه يملك نفسه ويأمن من وقوع القبلة أن يتولد عنها إنزال، أو شهوة، أو هيجان نفس، أو نحو ذلك وأنتم لا تأمنون ذلك فطريقكم كف النفس على ذلك. ، وأخرج النسائي من طريق الأسود " قلت لعائشة: أيباشر الصائم؟ قالت: لا، قلت: أليس رسول الله ﷺ كان يباشر وهو صائم؟ قالت: إنه كان أملككم لإربه " وظاهر هذا: أنها اعتقدت أن ذلك خاص بهﷺ.

قال القرطبي:وهو اجتهاد منها. ، وقيل: الظاهر أنها ترى كراهة القبلة لغيره ﷺ كراهة تنزيه لا تحريم كما يدل له قولها: أملككم لإربه. وفي كتاب الصيام لأبي يوسف القاضي من طريق حماد بن سلمة: " سئلت عائشة عن المباشرة للصائم فكرهتها.

وظاهر حديث الباب جواز القبلة، والمباشرة للصائم لدليل التأسي به ﷺ، ولأنها ذكرت عائشة الحديث جوابًا عمَّن سأل عن القبلة، وهو صائم، وجوابها قاض بالإباحة مستدلة بما كان يفعله ﷺ.

وفي المسألة أقوال:

الأول: للمالكية أنه مكروه مطلقًا.

الثاني: أنه محرّم مستدلين بقوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ فإنه منع المباشرة في النهار وأجيب بأن المراد بها في الآية الجماع وقد بين ذلك فعله ﷺ كما أفاده حديث الباب وقال

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ١٠٦.

(٢) عمدة القاري ١٨/ ١٩٠، وانظر أيضًا تحفة الأحوذي ٣/ ٣٥١.

(٣) شرح النووي ٧/ ٢١٧.

قوم: إنها تحرم القبلة وقالوا: إن من قبل بطل صومه.

الثالث: أنه مباح، وبالغ بعض الظاهرية فقال: إنه مستحب.

الرابع: التفصيل. فقال: يكره للشاب، ويباح للشيخ، ويروى عن ابن عباس، ودليله ما أخرجه أبو داود: أنه أتاه ﷺ رجل فسأله عن المباشرة للصائم فرخص له وأتاه آخر فسأله فنهاه فإذا الذي رخص له شيخ والذي نهاه شاب.

الخامس: إن مالك نفسه جاز له، وإلا فلا، وهو مروي عن الشافعي، واستدل له بحديث عمر بن أبي سلمة: لما سأل النبي ﷺ فأخبرته أمه أم سلمة أنه ﷺ يصنع ذلك، فقال: يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: إني أخشاكم لله. فدل على أنه لا فرق بين الشاب والشيخ وإلا لبينه ﷺ لعمر لا سيما وعمر كان في ابتداء تكليفه.

وقد ظهر مما عرفت أن الإباحة أقوى الأقوال.

واختلفوا أيضًا فيما إذا قبل أو نظر أو باشر فأنزل أو أمذى: فعن الشافعي وغيره: أنه يقضي إذا أنزل في غير النظر ولا قضاء في الإمذاء.

وقال مالك: يقضي في كل ذلك ويكفر إلا في الإمذاء فيقضي فقط. وثمة خلافات أخر الأظهر أنه لا قضاء ولا كفارة إلا على من جامع وإلحاق غير المجامع به بعيد.

تنبيه: قوله: (وهو صائم) لا يدل أنه قبلها، وهي صائمة، وقد أخرج ابن حبان في صحيحه عن عائشة: كان يقبل بعض نسائه في الفريضة، والتطوع. ثم ساق بإسناده " أن النبي ﷺ كان لا يمس وجهها، وهي صائمة، وقال: ليس بين الخبرين تضادّ لأنه كان يملك إربه، ونبه بفعله ذلك على جواز هذا الفعل لمن هو بمثابة حاله، وترك استعماله إذا كانت المرأة صائمة علمًا منه بما ركب في النساء من الضعف عند الأشياء التي ترد عليهن. [1]

وقال ابن تيمية: تحت باب الرخصة في القبلة للصائم إلا لمن يخاف على نفسه ثم ساق حديث أم سلمة، وعائشة، وعمر بن أبي سلمة في تقبيل النبي ﷺ وهو صائم ثم قال: وفيه

---

(١) سبل السلام (١/ ٨٤).

أن أفعاله حجة.

قال الشوكاني:قوله: كان يقبلها فيه دليل على أنه يجوز التقبيل للصائم ولا يفسد به الصوم.[(١)]

قال ابن عبد البر: وفيه من الفقه أن القبلة للصائم جائزة في رمضان وغيره شابًا كان أو شيخًا على عموم الحديث وظاهره لأن رسول الله ﷺ لم يقل للمرأة هل زوجك شيخ أو شاب، ولو ورد الشرع بالفرق بينهما لما سكت عنه ﷺ لأنه المنبئ عن الله ﷻ مراده من عباده وأظن أن الذي فرق بين الشيخ في القبلة للصائم والشاب ذهب إلى قول عائشة: وأيكم أملك لإربه من رسول الله ﷺ في حديثها عنه أنه كان يقبلها، وهو صائم ﷺ يعني أملك لنفسه وشهوته، والدليل أن الشيخ والشاب عندها في ذلك سواء، وأن قولها إنما خرج على الإشفاق والاحتياط في ذلك ما ذكره.

ثم قال رحمه الله: وقد أجمع العلماء على أن من كره القبلة لم يكرهها لنفسها وإنما كرهها خشية ما تحمل إليه من الإنزال، وأقل ذلك المذي لم يختلفوا في أن من قبل، وسلم من قليل ذلك، وكثيره فلا شيء عليه، وممن قال بإباحة القبلة للصائم عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وابن عباس، وعائشة وبه قال عطاء، والشعبي، والحسن، وهو قول أحمد، وإسحاق، وداود.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا بأس بالقبلة للصائم إذا كان يأمن على نفسه.

قالوا: وإن قبل وأمنى فعليه القضاء ولا كفارة عليه، وهو قول الثوري، والشافعي وكلهم يقول من قبل فأمنى فليس عليه غير القضاء.

وقال ابن علية: لا تفسد القبلة الصوم إلا أن ينزل الماء الدافق، ولا أعلم أحدا رخص في القبلة للصائم إلا وهو يشترط السلامة مما يتولد منها، وأن من يعلم أنه يتولد عليه منها ما يفسد صومه وجب عليه اجتنابها[(٢)].

---

(١) نيل الأوطار ٤/ ٢٨٨.

(٢) الاستذكار لابن عبد البر ٣/ ٢٩٥-٢٩٧.

وقال رحمه الله: والأصل أن القبلة لم يكرهها من كرهها إلا لما يخشى أن تولده على الصائم من التطرق إلى الجماع على كل صائم وبالله التوفيق[١].

وخلاصة القول عند أهل العلم على هذا الحديث: أن فيه مسائل

الأولى: هل القبلة والمباشرة جائزة أم محرمة في الصيام؟. وقد سبق النقل عن أهل العلم وخلاصته أن الصائم إذا ملك نفسه جاز له التقبيل، وإذا لم يأمن تركه وهذا بين من كلام ابن عبد البر.[٢]

الثانية: هل هذا الفعل يعد من خصائص النبي ﷺ أم هو تشريع لجميع الأمة؟.

وفي حديث عمر بن أبي سلمة الجواب على هذا حيث: سأل النبي ﷺ: أيقبل الصائم؟ فقال النبي ﷺ: "سل هذه" أي: أم سلمة، فأخبرته أن النبي ﷺ يفعل ذلك فقال: يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال له رسول الله ﷺ: " أما إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية "[٣].

قال النووي: إنه ظن أن جواز التقبيل للصائم من خصائص النبي ﷺ وأنه لا حرج عليه فيما يفعل، لأن الله مغفور له، فأنكر النبي ﷺ عليه هذه المقولة، وفي بعض الروايات خارج مسلم أنه غضب من هذه المقولة لذلك قال: أنا أتقاكم لله تعالى وأشدكم له خشية، فكيف تظنون بي أو تجوزون علي ارتكاب منهي عنه ونحوه[٤].

ولكن قد يستشكل البعض أنه قد ورد في بعض طرق الحديث عن عائشة قالت: " وكان أملككم لإربه " فكيف يكون هذا لجميع الأمة، ولا يعد من خصائصه ﷺ.

أجاب النووي على هذا الإشكال فقال: قال العلماء معنى كلام عائشة أنه ينبغي لكم الاحتراز عن القبلة، ولا تتوهموا من أنفسكم أنكم مثل النبي ﷺ في استباحتها لأنه كان يملك

---

(١) الاستذكار ٣/ ٢٩٧، وانظر التمهيد٥/ ١٠٩ وما بعدها.

(٢) وانظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ٣/ ٣٥١.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ٢٣٥-٢٣٦.

نفسه، ويأمن من الوقوع في قبلة يتولد منها إنزال أو شهوة أو هيجان نفس ونحو ذلك[١].

وقال الحافظ ابن حجر: أشارت عائشة بذلك إلى أن الإباحة لمن يكون مالكًا لنفسه دون من لا يأمن من الوقوع فيما يحرم، ويبدو أنها كانت تعتقد أن هذا خاص بالنبي ﷺ وهو اجتهاد منها؛ في حين أنه ثابت عنها في روايات أخرى إباحة ذلك، فيمكن الجمع بين القولين: على أن النهي هنا يحمل على الكراهة التنزيهية[٢].

الثالثة: هل هناك فرق بين الذي تتحرك شهوته وبين الذي لا تتحرك شهوته، أم لا؟.

والجواب عن هذا جلي جدًّا في كلام ابن عبد البر السابق: حيث ذكر أن من كرهها ومنع منها كرهها خوفا من الشهوة وهو مقتضى قول عائشة وكان أملككم لإربه.

الرابع: هل القبلة والمباشرة تباح لطائفة من الناس (ككبار السن)، وتحرم على آخرين (كالشباب) مثلًا أم لا؟.

نعم هناك من فرق بين الشاب والشيخ، وليس هذا الكلام على عمومه فالأمر راجع إلى الشهوة فلو اشتدت شهوة الشيخ لأمر ما وخاف على نفسه ماوراء القبلة والمباشرة منع ولو ضبط الشاب نفسه ولم يتعدها لما كان في الأمر شيء ولذلك لما سأل عمر ﷺ بعد التقبيل لم يقل له النبي ﷺ شيئًا، ولما سأله شاب قبل الفعل منعه فهذا يدل على أمرين:

الأول: أن الأصل في القبلة هو الإباحة كما سبق تقريره في كلام ابن عبد البر وغيره وكما حدث في قصة سؤال عمر ﷺ.

الثاني: أن هذا الأصل قد يختلف بحسب حال السائل في الفتوى، فإذا كان السائل يسأل نادمًا ولم يتعد القبلة والمباشرة يفتى بهذا الأصل، وإذا كان السائل يسأل ليترخص لشدة حاجته للنساء وهو شاب لايؤمن عليه ماوراء القبلة فالأولى منعه؛ عملًا بأصل آخر وهو حرمة ما يوصل إلى الحرام ووجوب ما يتم الواجب إلا به، والجماع في نهار رمضان

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ٢٣٥.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤/ ١٧٧-١٧٨).

حرام فإذا غلب على الظن أن القبلة والمباشرة من هذا الشخص في هذا الوقت توصل إليه علم أنها حرام لكن لا لذاتها وإنما لما تؤل إليه.

وإذا علم أن إتمام الصيام واجب وهو لايتم مع أشخاص معينين إلا بالمنع من القبلة وجب المنع منها في حقهم لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب وبهذا يظهر الفرق في هذه المسألة بين من سأل نادما ومن سأل ليترخص وقد بدا عليه الشبق والشهوة، وبه يجمع بين الأدلة إن شاء الله تعالى.(١)

وها هي بعض النصوص في هذه المسألة.

أولًا: نصوص الترخيص في القبلة من غير تفرقة بين الشاب والشيخ:

---

(١) انظر في هذا المعنى ما سبق من كلام بن عبد البر التفرقة بين الشاب، والشيخ وانظر فتح الباري (٤/ ١٥٢)، وإلى هذا المعنى أشار الحافظ في التلخيص (٤/ ١٨٧) عند ذكر حديث ابن عباس أنه سئل عمن قتل أله توبة فقال مرة لا وقال مرة نعم فسئل عن ذلك فقال رأيت في عيني الأول أنه يقصد القتل فقمعته وكان الثاني صاحب واقعة يطلب المخرج، قال ابن أبي شيبة: نا يزيد بن هارون أنا أبو مالك الأشجعي، عن سعد بن عبيدة، قال: جاء رجل إلى بن عباس، فقال: ألمن قتل مؤمنا توبة؟ قال: لا إلى النار، فلما ذهب، قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا فما بال هذا اليوم قال: إني أحسبه مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك. رجاله ثقات، وروى سعيد بن منصور، نا سفيان، قال: كان أهل العلم إذا سئلوا عن القاتل، قالوا: لا توبة له، وإذا ابتلي رجل، قالوا له: تب، وفي المعنى ما أخرجه أبو داود، عن أبي هريرة، أن رجلا سأل النبي ﷺعن المباشرة للصائم، فرخص له، وأتاه آخر فسأله، فنهاه. فإذا الذي رخص له شيخ، وإذا الذي نهاه شاب.

وكذا قال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: وإذا رأى المفتي من المصلحة عندما تسأله عامة أو سوقة أن يفتي بما له فيه تأول، وإن كان لا يعتقد ذلك، بل لردع السائل، وكفه، فعل، فقد روي عن ابن عباس أن رجلا سأله عن توبة القاتل، فقال: لا توبة له، وسأله آخر فقال: له توبة، ثم قال: أما الأول: فرأيت في عينيه إرادة القتل فمنعته، وأما الثاني: فجاء مستكينا، وقد قتل فلم أؤيسه.

ثم أسند عن عمر في شأن القبلة ما يدلل به على هذا الأصل في الفتوى ثم ذكر حديث أبي هريرة المرفوع الآتي ذكره ثم قال: أنا محمد بن أبي علي الأصبهاني، نا محمد بن إسحاق الأهوازي، نا عبد الأول بن إسماعيل الأهوازي، نا عبد الله ابن خبيق، عن يوسف بن أسباط، عن سفيان الثوري، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: ربما أنبأتكم بالشيء، أنهاكم عنه، احتياطا بكم، وإشفاقا على دينكم، « إن رسول الله ﷺأتاه رجل شاب، يسأله عن القبلة للصائم، فنهاه عنها، وسأله شيخ عنها فأمره بها ».

١-عن جابر بن عبد الله، قال: قال عمر بن الخطاب: هششت (هش لهذا الأمر إذا خرج به واستبشر) فقبلت، وأنا صائم فقلت يارسول الله صنعت اليوم أمرًا عظيمًا قبلت، وأنا صائم قال: "أرأيت لو مضمضت من الماء وأنت صائم " قلت لا بأس به قال: " فمه". (1)

٢-عن عمر بن أبي سلمة أنه سأل رسول الله ﷺأيقبل الصائم؟ فقال له رسول الله ﷺ: سل هذه (لأم سلمة) فأخبرته أن رسول الله ﷺ يصنع ذلك فقال يا رسول الله: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال له رسول الله ﷺ: أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له. (2)

فهذان الحديثان فيهما الرخصة من غير تفريق بين الشيخ والشاب، فكان إجابة لسؤال عمر ﷺوقد جاء نادمًا سائلًا ظانًا فساد الصوم بمجرد القبلة، وأيضًا فقد كان عمر شابًا ولو كانت القبلة حرامًا لقال له النبي ﷺ: لاتعد.

وأما حديث أم سلمة: فقد جاء في بعض طرقه أنه كان إجابة لسؤال أيضا كما روى عبد الله بن فروخ. (أن امرأة سألت أم سلمة فقالت: إن زوجي يقبلني وهو صائم وأنا صائمة فما ترين؟ فقالت: كان رسول الله ﷺ يقبلني وهو صائم وأنا صائمة). (3)

وفي مرسل عطاء بن يسار: أن رجلًا قبَّل امرأة، وهو صائم فوجد من ذلك وجدًا شديدا فأرسل امرأته تسأل له عن ذلك فدخلت على أم سلمة زوج النبي ﷺ فأخبرتها أم سلمة: أن رسول الله ﷺ كان يقبل، وهو صائم. فرجعت إليه فأخبرته بذلك فزاده ذلك شرًا فقال: إنا

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٨٥) وأحمد ١/ ٢١، ١/ ٥٢، والدارمي ٢/ ٢٢من طريق عبد الملك بن سعيد الأنصاري، عن جابر بن عبد الله، عن عمر بن الخطاب به. وإسناده صحيح؛ رجاله من رجال مسلم، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين؛ ولم يخرجاه. قلت: بل على شرط مسلم؛ فإن عبد الملك بن سعيد الأنصاري من رجال مسلم فقط: وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (١١٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩١ و٣٢٠)، والطحاوي (١/ ٣٤٥)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٨٨من طريق طلحة بن يحيى، عن عبد الله بن فروخ، عن أم سلمة به. وهذا إسناد حسن فيه طلحة بن يحيى بن طلحة وثقه بن معين، ويعقوب بن شيبة، والعجلي، وقال أبو زرعة، والنسائي: صالح، وقال أبو حاتم: صالح الحديث؛ حسن الحديث؛ صحيح الحديث، وقال بن عدي: روى عنه الثقات، وما برواياته عندي بأس، وقال الحافظ: صدوق يخطئ اهـ. انظر تهذيب التهذيب ٥/ ٢٥، وتقريب التهذيب (٣٠٣٦)، وحسن الحديث الألباني في الإرواء (٤/ ٨٢).

لسنا مثل رسول الله ﷺ يحل الله لرسوله ما شاء فرجعت المرأة إلى أم سلمة فوجدت عندها رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ما بال هذه المرأة؟ فأخبرته أم سلمة فقال: ألا أخبرتها أني أفعل ذلك؟ قالت: قد أخبرتها فذهبت إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرًا، وقال: إنا لسنا مثل رسول الله ﷺ يحل الله لرسوله ما شاء، فغضب رسول الله ﷺ، وقال: والله إني لأتقاكم لله، وأعلمكم بحدوده. (١)

٣- حديث عائشة الذي معنا فإن فيه أن النبي ﷺ قبل عائشة وفي بعض ألفاظه أنها قالت: كان رسول الله ﷺيقبلني وأنا صائمة. (٢)

وقد كانت شابة ودليل على اختصاص الرجال بهذا الحكم دون النساء.

وعن عائشة بنت طلحة أنها كانت عند عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ فدخل عليها زوجها هنالك -وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر-، فقالت له عائشة: ما يمنعك أن تدنو إلى أهلك تقبلها وتلاعبها؟ قال: أقبلها وأنا صائم؟ قالت: نعم.

قال محمد بن الحسن: لا بأس بالقبلة للصائم إذا ملك نفسه عن الجماع فإن خاف أن لا يملك نفسه فالكف أفضل، وهو قول أبي حنيفة - رحمه الله - والعامة قبلنا. (٣)

وقولها: نعم. في هذا دلالة على أنها لا ترى تحريمها ولا أنها من الخصائص وأنه لا فرق بين شاب، وشيخ لأن عبد الله كان شابا، ولا يعارض هذا ما للنسائي عن الأسود: قلت لعائشة أيباشر الصائم؟ قالت: لا قلت: أليس كان رسول الله ﷺيباشر وهو صائم؟ قالت: كان

---

(١) أخرجه مالك برواية محمد بن الحسن (٣٥١) عن زيد بن أسلم عن عطاء به وهذا إسناد صحيح إلى عطاء، قال الشافعي في رواية أبي عبد الله: وسمعت من يصل هذا الحديث، ولا يحضرني ذكر من وصله. قال البيهقي: الأمر على ما قال، فقد رواه عبد الله بن كعب الحميري عن عمر بن أبي سلمة الحميري، أنه سأل رسول الله ﷺ: أيقبل الصائم؟ فذكر بعض هذه القصة، وكأنه أراد سأله بأن بعث إليه امرأته حتى سألته. اهـ معرفة السنن والآثار للبيهقي باب القبلة للصائم.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح المعاني (٢/ ٩٣)، قال الألباني: وإسناده صحيح الإرواء ٤/ ٨٢.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن (٣٥٢) قال أخبرنا أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله: أن عائشة ابنة طلحة به وهذا إسناد صحيح.

أملككم لإربه. لأن جوابها للأسود بالمنع محمول على من تحركت شهوته لأن فيه تعريضا لإفساد العبادة كما أشعر به قولها: وكان أملككم لإربه فحاصل ما أشارت إليه إباحة القبلة، والمباشرة بغير جماع لمن ملك إربه دون من لا يملكه أو يحمل النهي على التنزيه فقد رواه أبو يوسف القاضي بلفظ: سئلت عائشة عن المباشرة للصائم؟ فكرهتها فلا ينافي الإباحة المستفادة من حديث الباب، ومن قولها: الصائم يحل له كل شيء إلا الجماع، رواه الطحاوي.[1]

ثانيًا: أحاديث التفرقة بين الشيخ والشاب

١ - عن أبي هريرة ﷺأن رجلًا سأل النبي ﷺ عن المباشرة للصائم فرخص له وأتاه آخر فسأله فنهاه فإذا الذي رخص له شيخ، والذي نهاه شاب[2].

---

(١) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/ ٢١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٨٧)، ومن طريقه البيهقي ٤/ ٢٣١، وأخرجه ابن عدي في الكامل (١/ ٤٢٤) كلاهما من طريق نصر بن علي عن أبى أحمد يعني الزبيري عن إسرائيل عن أبي العنبس عن الأغر عن أبي هريرة به.

وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات خلا أبي العنبس واسمه الحارث بن عبيد بن كعب جد يونس بن بكير لأمه. ذكره ابن حبان في الثقات (٨/ ١٨١) وقال: يعتبر حديثه إذا روى عن الثقات المشاهير، وترجم له البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٧٨)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٦/ ٣٥٧)، وأحمد في الأسامي والكنى (١٣١)، والذهبي في الميزان (٤/ ٥٥٩)، وسماه الحارث، وقال ابن معين في رواية الدارمي (٩١٦): ثقة، وقال في رواية الدوري (٢٤٠٣): أبو العنبس الذي يروى عنه شعبة ومسعر لا أعرف اسمه. وهو هو، وقال الحافظ في التقريب (٨٢٨٣): مقبول من السادسة. فلو أخذنا بتوثيق ابن معين في رواية الدارمي على اعتبار أنه عرفه بعد أن كان لايعرفه كان الإسناد صحيحًا، وقال الألباني: حسن صحيح.

ويشهد له: ما أخرجه الخطيب من طريق ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن قيصر التجيبي، عن عبد الله بن عمرو ابن العاص، قال: كنا عند النبي ﷺ، فجاء شاب، فقال يا رسول الله: أقبل وأنا صائم؟ قال: « لا »، فجاء شيخ فقال: أقبل وأنا صائم؟ قال: « نعم »، فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله ﷺ: «قد علمت نظر بعضكم إلى بعض: إن الشيخ يملك نفسه» الفقيه والتفقه ٣/ ٣٠٤. وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة، وحديثه يعتبر به.

ويشهد له كذلك ما أخرجه البيهقي في الكبرى (٤/ ٢٣٢) قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن القاضي، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا العباس بن محمد الدوري، ثنا سهل بن محمد بن الزبير العسكري، ثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، حدثني أبان البجلي، عن أبي بكر بن حفص عن عائشة: أن النبي ﷺرخص في القبلة للشيخ وهو صائم ونهى عنها الشاب وقال الشيخ يملك إربه والشاب يفسد صومه اهـ.

وهذا إسناد مرسل لأن أبا بكر بن حفص لم يسمع من عائشة كما نص عليه العلائي في جامع التحصيل (٩٣٤).

وبهذا أفتى ابن عباس فيما صح عنه فعن عن عطاء بن يسار: أن عبد الله بن عباس سئل عن القبلة للصائم فأرخص فيها للشيخ وكرهها للشاب(١).

وهذا لأن الغالب في الشيخ انكسار شهوته، وكرهها للشاب لأن الغالب قوتها. قال ابن عبد البر: أظن من فرق بينهما ذهب إلى قول عائشة رضي اله عنها أيكم أملك لإربه من رسول الله ﷺ أي أملك لنفسه وشهوته، وروى البيهقي بإسناد صحيح عن عائشة أنه رخص في القبلة للشيخ، وهو صائم ونهى عنها الشاب(٢).

وقال الشيخ: يملك إربه والشاب يفسد صومه.

ففهم من التعليل أنه دائر مع تحريك الشهوة بالمعنى المذكور، وأن التعبير بالشيخ والشاب جرى على الغالب من أحوال الشيوخ في انكسار شهوتهم وأحوال الشباب في قوتها فلو انعكس الأمر انعدم الحكم. (٣)

وحاصل الأمر: أن في الفرق بين الشيخ والشاب آثار خرجت مخرج الغالب وفي عدم الفرق آثار خرجت على أصل الإباحة لمن ملك نفسه وشهوته فالأمر راجع إلى الشهوة وعليه يحمل منع من منع مطلقا كابن عمر وغيره من الصحابة ﵃(٤).

الخامسة: هل هناك فرق بين صيام الفريضة وصيام النافلة، أم الحكم فيهما سواء؟

روى البخاري عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ "كان يقبل ويباشر وهو صائم"(٥)، وفي لفظ"كان يقبل في شهر الصوم"(٦).

---

(١) أخرجه مالك (٦٤٨) عن زيد بن أسلم عن عطاء به.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤/ ٢٣٢) قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن القاضي، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا العباس بن محمد الدوري، ثنا سهل بن محمد بن الزبير العسكري، ثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، حدثني أبان البجلي، عن أبي بكر بن حفص، عن عائشة به مرفوعا اهـ وهو مرسل.

(٣) شرح الموطأ للزرقاني ٢/ ٢١٨.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن (٣٥٣) قال: مالك أخبرنا نافع، عن ابن عمر: أنه كان ينهى عن القبلة والمباشرة للصائم.

(٥) فتح الباري ٤/ ١٧٨.

(٦) رواه مسلم ١٢/ ٧٠، والنسائي في الكبرى (٣٠٩٠).

وفي رواية أخرى لمسلم "يقبل في رمضان وهو صائم"[(١)].

والتقبيل أخص من المباشرة، فهو من ذكر العام بعد الخاص، والألفاظ المختلفة التي سبقت تشير إلى عدم التفرقة بين صيام الفرض والنفل، وهذا واضح من ظاهر الحديث الأول حديث عائشة إطلاق لفظ الصوم وأنه يعني أي صيام وجاءت الألفاظ الأخرى بذكر أنه كان صيام رمضان، فدل على أنه ليس هناك فرق بين الفرض والنافلة.[(٢)]

شبهة: مص اللسان

روى أبو داود، وأحمد من حديث عائشة قالت: "أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم، ويمص لسانها"[(٣)].

قالوا فكيف يمص لسانها وهو صائم؟!

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن هذه زيادة منكرة ولا حجة فيها

الوجه الثاني: وعلى فرض الصحة محمول على من لم يبلع ريقه الذي خالط ريقها[(١)].

---

(١) مسلم ١٢/ ٧١.

(٢) فتح الباري (٤/ ١٧٨).

(٣) **منكر بهذه الزيادة.** أخرجه أبو داود (٢٣٨٦)، وأحمد (٦/ ١٢٣) (٢٤٩١٦)، وابن خزيمة (٢٠٠٣) والبيهقي (٤/ ٢٣٤) من طريق محمد بن دينار، ثنا سعد بن أوس العبدي، عن مصدع أبي يحيى، عن عائشة به. وقال النسائي: كان يقبلها، ويمص لسانها هذه اللفظة لا توجد إلا في رواية محمد بن دينار. وهذا إسناد ضعيف فيه محمد بن دينار ضعفه أبو داود، والدارقطني، وابن معين، وقال العقيلي: في حديثه وهم. اهـ من تهذيب التهذيب ٩/ ١٣٩ وقال الحافظ: صدوق سيء الحفظ ورمي بالقدر وتغير قبل موته التقريب (٥٨٧٠)، وانظر المجروحين لابن حبان ٢/ ٢٧٢، وفيه سعد بن أوس، صدوق له أغاليط. اهـ التقريب (٢٢٣١)، وفيه مصدع أبو يحيى؛ فيه تشيع، وقال الحافظ: مقبول، وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية: محمد بن دينار، وسعد بن أوس، ومصدع ضعفاء بمرة. اهـ انظر نصب الراية ٤/ ٣٢٢، قال ابن الأعرابي: بلغني عن أبي داود أنه قال هذا الإسناد ليس بصحيح.

وقال ابن عدي في الكامل ٦/ ١٩٨: وقوله: ويمص لسانها في المتن لا يقوله إلا محمد بن دينار وهو الذي رواه. وقال الحافظ في الفتح ٤/ ١٥٣: وإسناده ضعيف. اهـ وعليه فهذه زيادة منكرة لم تأت إلا من هذا الطريق الضعيف، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٥٤٤)، وكذا الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٢٥٣)، وضعف إسناده الحافظ في الفتح (٤/ ١٥٣)، والتلخيص الحبير (٢/ ١٩٤).

الوجه الثالث: ويجوز أن يكون التقبيل وهو صائم في وقت، والمص في وقت آخر[٢]

الوجه الرابع: لم يتحقق انفصال ما على لسانها من البلل إلى فمه فأشبه ما لو ترك حصاة مبلولة في فيه أو لو تمضمض بماء ثم مجه.[٣]

شبهة: قالوا كيف تخبر عائشة بهذا الكلام وما الفائدة منه سوى أنها كانت منشغلة إلى حد كبير بالجنس؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن الانشغال بمثل هذه الأمور لأجل تعليم الأحكام الشرعية المتعلقة به أمر مندوب إليه وقد يكون، واجبا عينيًا يحرم كتمانه إذا لم يعلمه غير هذا المسئول.

ويدل على هذا الأصل أدلة منها.

١-عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة".[٤]

٢- قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٤) وعليه فعائشة رضي الله عنها مأمورة بإبلاغ هذا العلم وهي تنفذ فرارًا من الوعيد الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٩)، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٤).

---

(١) نيل الأوطار (٤/ ٢٧٥)، عون المعبود (٤/ ٧/ ١٠).

(٢) عمدة القاري (١١/ ٩).

(٣) المغني (٦/ ٩٦).

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود (٣٦٥٨) من طريق موسى بن إسماعيل، ثنا حماد، والترمذي (٢٦٤٨) من طريق أحمد بن بديل ابن قريش اليامي الكوفي، حدثنا عبد الله بن نمير، عن عمارة بن زاذان كلاهما [حماد، وعمارة بن زاذان] عن علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة به وقال الترمذي: حديث حسن، وقال الألباني: حسن صحيح.

الوجه الثاني: لو لم يقم نساء النبي ﷺ بإبلاغ هذا العلم الذي لم يعلمه غيرهن فمن الذي يعلمه للأمة.

وهذا أمر بالضرورة يحدث بين الرجل وزوجته ويحتاج إلى معرفة حكمه ولو كتمت كانت كأهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (آل عمران: ١٨٧). وحاشاها أن تكون كذلك رضي الله عنها.

الوجه الثالث: أن الحياء الحقيقي لايمنع من العلم تعليمًا وتعلمًا وهو أولى بالمنع من الجهل وكتمان العلم.

فعن عائشة أن أسماء سألت النبي ﷺعن غسل المحيض؟ فقال: تأخذ إحداكن ماءها، وسدرتها فتطهر فتحسن الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكًا شديدًا حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تصب عليها الماء، ثم تأخذ فرصة ممسكة، فتطهر بها فقالت أسماء: وكيف تطهر بها؟ فقال: سبحان الله تطهرين بها، فقالت عائشة: كأنها تخفي ذلك تتبعين أثر الدم، وسألته عن غسل الجنابة؟ فقال: تأخذ ماء فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شؤون رأسها ثم تفيض عليها الماء فقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين. (١)

وقال البخاري: باب الحياء في العلم. وقال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي، ولا مستكبر. وقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار لم يمنهعن الحياء أن يتفقهن في الدين. (٢)

وعن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: إذا رأت الماء.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٣٢).

(٢) البخاري معلقًا تحت باب الحياء في العلم.

فغطت أم سلمة تعني وجهها وقالت: يا رسول الله وتحتلم المرأة؟ قال: نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها؟!.(١)

الوجه الرابع: أنها لم تقل هذا إلا إجابة لسؤال سائل، ولم تبتدىء به.

ولقد كان من كمال تأسى الصحابةﷺ برسول اللهﷺ، واعتقادهم بعصمته ﷺ من الصغائر في كل أحواله، شدة حرصهم على تأسيهم به ﷺ حتى فى أمور بيته، وذلك كاختلافهم فى جواز القبلة للصائم، وفى طلوع الفجر على الجنب وهو صائم فسألوا أم المؤمنين عائشة ﵂ فأخبرتهم أن ذلك وقع من النبي ﷺ فرجعوا إلى ذلك.

الوجه الخامس: أنها ضحكت بعد قولها هذا تعجبًا ممن يخالف هذا وقد فعله رسول الله أو تعجبت من نفسها إذ تحدث بمثل هذا مما يستحى من ذكر النساء مثله للرجال، ولكنها ألجأتها الضرورة في تبليغ العلم إلى ذكر ذلك.

الوجه السادس: وقد يكون الضحك خجلًا لإخبارها عن نفسها بذلك.

الوجه السابع: أو تنبيها على أنها صاحبة القصة ليكون أبلغ في الثقة بها، أو سرورا بمكانها من النبي ﷺ وبمنزلتها منه ومحبته لها اهـ وفي هذا من الحياء أنها كنت عن نفسها بالضحك ولم تصرح.(٢)

الوجه الثامن: أنها كنت عن الحاجة أو العضو بالإرب حياء وأدبا ولم تصرح بأكثر من ذلك.

والإرب بكسر ثم سكون، قال الخطابي: كذا يقول أكثر الرواة والإرب العضو قال: وإنما هو لأربه بفتحتين أي لحاجته، وقد قالوا أيضًا الأرب بالسكون الحاجة وقوله بكل إرب منه إربًا منه المراد هنا العضو، وكذا قوله يسجد على سبعة آراب وقوله: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ أي النكاح، قال طاوس: الحاجة إليه، وقال ابن عباس ولي فيها مآرب أي حاجات(٣).

(١) أخرجه البخاري (١٣٠)، ومسلم (٣١٣).
(٢) الوجه الخامس، والسادس، والسابع من شرح النووي (٧/ ٢١٦)، وفتح الباري (٤/ ١٥٢).
(٣) فتح الباري (١/ ٧٧).

وقال الأصمعي: هي الحاجة أي أضبطكم لشهوته وقال ابن الأعرابي أي لجزمه وضبط نفسه وقد أرب يأرب إربا إذا احتاج يقال آ إن فلانا لأرب بفلانة إذا كان ذاهم بها

ويشهد لقول ابن الأعرابي ما جاء في بعض الروايات: أملككم لنفسه[(١)].

قال الخطابي: هذه اللفظة تروى على وجهين الفتح والكسر قال ومعناهما واحد وهو حاجة النفس ووطرها، يقال لفلان على فلان أرب وإرب وأربة ومأربة أي الحاجة، قال: والأرب أيضا العضو.[(٢)]

الوجه التاسع: في الفائدة من ذكر هذا الكلام وهي تعليم الأمة مثل هذه الأحكام.

فالمصلحة المترتبة على الإخبار بهذا الأمر أكثر من المصلحة المترتبة على كتمانه ولهذا جاز الإخبار عن بعض الأحوال بين الرجل وأهله إجمالًا إذا كانت هناك مصلحة شرعية كهذه مع أن الأصل حرمة ذلك أي: لغير مصلحة شرعية.[(٣)]

الوجه العاشر: التقبيل في الكتاب المقدس لغير المحارم.

نَشِيدُ الأَنْشَادِ المنسوب لِسُلَيْمَانَ: العروس لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلاَتِ فَمِهِ، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ. ٣ لِرَائِحَةِ أَدْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، لِذلِكَ أَحَبَّتْكَ الْعَذَارَى. ٤ اُجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِيَ. أَدْخَلَنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ بِكَ. نَذْكُرُ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ. بِالْحَقِّ يُحِبُّونَكَ. (نشيد الإنشاد١/ ٤: ١).

وغير ذلك كثير في نصوص الكتاب المقدس!!![(٤)].

* * *

(١) عمدة القاري (٣/ ٢٦٧).

(٢) عون المعبود (٧/ ٨).

(٣) عون المعبود (٧/ ٨) بمعناه.

(٤) انظر: مبحث (تحريف الكتاب المقدس)

١٥ـ شبهة: خلوة النبي ﷺ بامرأة أجنبية.

نص الشبهة:

كيف يختلي النبي ﷺ بامرأة أجنبية، ويقول لها: " والله إِنَّكُم أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيّ".

والرد من وجوه:

الوجه الأول: الفهم الصحيح للحديث، وبيان أن النبي ﷺ لم يخلو بها.

الوجه الثاني: هذه الحادثة ليست فيها خلوة أصلًا.

الوجه الثالث: تحذير النبي ﷺ من الخلوة بالنساء.

الوجه الرابع: غيرة النبي ﷺ، ومراعاة شعور غيره بالغيرة.

الوجه الخامس: الخلوة بالأجنبية في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الفهم الصحيح للحديث ومعنى الخلوة.

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَخَلَا بِهَا، فَقَالَ: "وَالله إِنَّكُنَّ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيّ"[1].

وفي رواية قال: "جَاءَتْ اِمْرَأَة مِنْ الْأَنْصَار إِلَى النَّبِيّ ﷺ وَمَعَهَا صَبِيّ لَهَا فَكَلَّمَهَا رَسُول الله فقال: " والذي نفسي بيده إِنَّكُم أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيّ "[2].

بوب البخاري لهذا الحديث بابًا بعنوان (مَا يَجُوز أَنْ يَخْلُو الرَّجل بِالْمَرْأَةِ عِنْد النَّاس).

قال ابن حجر: أَيْ: لَا يَخْلُو بِهَا بِحَيْثُ تَحْتَجِب أَشْخَاصهمَا عَنْهُمْ، بَلْ بِحَيْثُ لَا يَسْمَعُونَ كَلَامهمَا إِذَا كَانَ بِمَا يُخَافِت بِهِ، كَالشَّيْءِ الَّذِي تَسْتَحْي الْمَرْأَة مِنْ ذِكْرِهِ بَيْن النَّاس.

وَأَخَذَ الْمُصَنِّف قَوْله فِي التَّرْجَمَة (عِنْد النَّاس) مِنْ قَوْله فِي بَعْض طُرُق الْحَدِيث (فَخَلَا بِهَا فِي بَعْض الطُّرُق أَوْ فِي بَعْض السِّكَك) وَهِيَ الطُّرُق الْمَسْلُوكَة الَّتِي لَا تَنْفَكّ عَنْ مُرُور النَّاس غَالِبًا، ولَمْ يُرِدْ أَنَس أَنَّهُ خَلَا بِهَا بِحَيْثُ غَابَ عَنْ أَبْصَار مَنْ كَانَ مَعَهُ، وَإِنَّمَا خَلَا بِهَا

---

(١) البخاري (٥٢٣٤).

(٢) البخاري (٣٧٨٦)، مسلم (٢٥٠٩).

بِحَيْثُ لَا يَسْمَع مَنْ حَضَرَ شَكْوَاهَا، وَلَا مَا دَار بَيْنهمَا مِنْ الْكَلَام، وَلِهَذَا سَمِعَ أَنَس آخِر الْكَلَام فَنقَلَهُ وَلَمْ يَنْقُل مَا دَار بَيْنهمَا لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعهُ[١].

ووقع عند مسلم عن أنس (أَنَّ اِمْرَأَة كَانَتْ فِي عَقْلهَا شَيْء، فَقَالَتْ: يَا رَسول الله إِنَّ لِي إِلَيْك حَاجَة، فقَالَ: "يَا أُمّ فُلَان اُنْظُرِي أَيَّ السِّكَك شِئْت حَتَّى أَقْضِيَ لَك حَاجَتك؟ "[٢]

فِي مثل هَذِهِ الْأَحَادِيث بَيَان بُرُوزه ﷺ لِلنَّاسِ، وَقُرْبه مِنْهُمْ، لِيَصِلَ أَهْل الْحُقُوق إِلَى حُقُوقهمْ، وَيُرْشِدَ مُسْتَرْشِدهمْ لِيُشَاهِدُوا أَفْعَاله وَحَرَكَاته فَيُقْتَدَى بِهَا، وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِوُلَاةِ الْأُمُور[٣].

وفي الحديث منقبة للأنصار، وَفِيهِ سَعَة حِلْمه وَتَوَاضُعه ﷺ وَصَبْره عَلَى قَضَاء حَوَائِج الصَّغِير وَالْكَبِير، وَفِيهِ أَنَّ مُفَاوَضَة الْمَرْأَة الْأَجْنَبِيَّة سِرًّا لَا يَقْدَح فِي الدِّين عِنْد أَمْن الْفِتْنَة، وَلَكِنَّ الْأَمْر كَمَا قَالَتْ عَائِشَة: وَأَيُّكُمْ يَمْلِك إِرْبه كَمَا كَانَ ﷺ يَمْلِك إِرْبه[٤].

قال البدر العيني: والرجل الأمين ليس عليه بأس إذا خلا بامرأة في ناحية من الناس لما تسأله عن بواطن أمرها في دينها وغير ذلك من أمورها، وليس المراد من قوله أن يخلو الرجل أن يغيب عن أبصار الناس، فلذلك قيده بقوله (عند الناس).

وقول أنس ﷺ في الحديث (فخلا بها) يدل على أنه كان مع الناس، فتنحى بها ناحية، لأن أنسًا الذي هو راوي الحديث كان هناك، وجاء في بعض طرقه أنه كان معها صبي أيضًا، فصح أنه كان عند الناس، ولا سيما أنهم سمعوا قوله: "أنتم أحب الناس إلي" يريد بهم الأنصار، وهم قوم المرأة[٥].

وقال النووي: هَذِهِ الْمَرْأَة إِمَّا مَحْرَم لَهُ كَأُمِّ سُلَيْمٍ وَأُخْتهَا. وَإِمَّا الْمُرَاد بِالْخَلْوَةِ أَنَّهَا سَأَلَتْهُ سؤَالًا خَفِيًّا بِحَضْرَةِ نَاس، وَلَمْ يَكُنْ خَلْوَة مُطْلَقَة وَهِيَ الْخَلْوَة الْمَنْهِيّ عَنْهَا[٦].

---

(١) فتح الباري (٩/ ٣٨١).

(٢) مسلم (٢٣٢٦).

(٣) شرح النووي (٨/ ٩١).

(٤) فتح الباري (٩/ ٣٨٢)، والحديث عند البخاري (٣٠٢)، مسلم (٢٩٣).

(٥) عمدة القاري (٢٠/ ٢١٤).

(٦) شرح النووي (٨/ ٣٠٧).

الوجه الثاني: هذه القصة ليست فيها خلوة.

لو نظرنا إلى سياق الحديث لوجدنا أن المرأة معها صبي، كما جاء في بعض طرقه: قال: " جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ومعها صبي لها"[١].

وفي سياق الحديث: أن النبي ﷺ كان مع الناس، ثم جاءت المرأة فتنحى بها، وهما أمام الناس.

قال البدر العيني: وجاء في بعض طرقه أنه كان معها صبي أيضًا؛ فصح أنه كان عند الناس، ولا سيما أنهم سمعوا قوله: " أنتم أحب الناس إلي " يريد بهم الأنصار وهم قوم المرأة[٢].

قال النووي: وأما المراد بالخلوة أنها سألته خفية بحضرة الناس، ولم تكن خلوة مطلقة، وهي الخلوة المنهي عنها[٣].

في الحديث أن أنس ﷺ سمع بعض كلام النبي ﷺ، وهذا يدل على أنها ليست بخلوة، فقوله (فخلا بها) يدل على أنه كان مع الناس فتنحى بها ناحيةً، لأن أنسًا سمع قوله: (والله إِنَّكُم لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيّ)[٤].

الوجه الثالث: تحذير النبي ﷺ من الخلوة بالنساء.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ الله أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ: الْحَمْوُ الْمَوْتُ"[٥].

قال ابن حجر: فقَوْله: "إِيَّاكُمْ وَالدُّخُول" بِالنَّصْبِ عَلَى التَّحْذِير، وَتَقْدِير الْكَلَام: اتَّقُوا أَنْفُسكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا عَلَى النِّسَاء، وَالنِّسَاء أَنْ يَدْخُلْنَ عَلَيْكُمْ، وأما الحَمْو: فهو أَخُو الزَّوْج، وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ أَقَارِب الزَّوْج، اِبْن الْعَمّ وَنَحْوه، قالَ التِّرْمِذِيّ: يُقَال هُوَ أَخُو الزَّوْج، كُرِهَ لَهُ أَنْ يَخْلُو بِهَا، وَمَعْنَى الحَدِيث عَلَى نَحْو مَا رُوِيَ "لَا يَخْلُوَنَّ رَجُل بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ ثَالِثهمَا

---

(١) البخاري (٣٧٨٦)، مسلم (٢٥٠٩).

(٢) عمدة القاري (٢٠/ ٢١٤).

(٣) شرح النووي (٨/ ٣٠٧).

(٤) فتح الباري (٩/ ٣٨١).

(٥) البخاري (٥٢٣٢)، مسلم (٢١٧٢)، الترمذي (١١٧١).

الشَّيْطَان"(١) وَجَرَتْ الْعَادَة بِالتَّسَاهُلِ فِيهِ، فَيَخْلُو الْأَخ بِامْرَأَةِ أَخِيهِ، فَشَبَّهَهُ بِالْمَوْتِ وَهُوَ أَوْلَى بِالْمَنْعِ مِنْ الْأَجْنَبِيّ.

وقَوْله: " الْحَمْو الْمَوْت " قِيلَ: الْمُرَاد أَنَّ الْخَلْوَة بِالْحَمْوِ قَدْ تُؤَدِّي إِلَى هَلَاك الدِّين إِنْ وَقَعَتْ الْمَعْصِيَة، أَوْ إِلَى الْمَوْت إِنْ وَقَعَتْ الْمَعْصِيَة وَوَجَبَ الرَّجْم، أَوْ إِلَى هَلَاك الْمَرْأَة بِفِرَاقِ زَوْجهَا إِذَا حَمَلَتْهُ الْغَيْرَة عَلَى تَطْلِيقهَا، أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ كُلّه الْقُرْطُبِيّ(٢).

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً وَاكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا، وَكَذَا قَالَ ارْجِعْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ(٣).

وفي رواية عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: "لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ"(٤).

وتقدير الحديث: لا يقعدن رجل مع امرأة إلا ومعها محرم، وإِذَا خَلَا الْأَجْنَبِيّ بِالْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ غَيْر ثَالِث مَعَهُمَا؛ فَهُوَ حَرَام بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاء، وَكَذَا لَوْ كَانَ مَعَهُمَا مَنْ لَا يُسْتَحَى مِنْهُ، لِصِغَرِهِ كَابْنِ سَنَتَيْنِ وَثَلَاث وَنَحْو ذَلِكَ؛ فَإِنَّ وُجُوده كَالْعَدَمِ، وَكَذَا لَوْ اِجْتَمَعَ رِجَال بِامْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّة فَهُوَ حَرَام(٥).

وقد ترجم البخاري بقوله (باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة.

قال البدر العيني: هذه الترجمة مشتملة على حكمين أحدهما عدم جواز اختلاء الرجل بامرأة أجنبية والثاني عدم جواز الدخول على المغيبة(٦).

---

(١) الترمذي (٢١٦٥)، مسند أحمد (١/ ٢٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٤٣٠).

(٢) فتح الباري (٩/ ٣٨٠: ٣٧٩).

(٣) البخاري (٥٢٣٣)، مسلم (١٣٤١).

(٤) البخاري (٣٠٠٦).

(٥) شرح النووي (٥/ ١٢٠).

(٦) عمدة القاري (٢٠/ ٢١٣).

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَعِنْدَهُ أَزْوَاجُهُ فَرُحْنَ فَقَالَ: لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ: " لَا تَعْجَلِي حَتَّى أَنْصَرِفَ مَعَكِ"، وَكَانَ بَيْتُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ؛ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا فَلَقِيَهُ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَنَظَرَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ أَجَازَا، وَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ تَعَالَيَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قَالَا: سبحَانَ الله يَا رَسولَ الله، قَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا"(١).

والْحَدِيث فِيهِ بَيَان كَمَالِ شَفَقَته ﷺ عَلَى أُمَّته، وَمُرَاعَاته لِمَصَالِحِهِمْ، وَصِيَانَة قُلُوبهمْ وَجَوَارِحهمْ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا، فَخَافَ ﷺ أَنْ يَلْقِي الشَّيْطَان عليهم، وَفِيهِ أَنَّ مَنْ ظَنَّ شَيْئًا مِنْ نَحْو هَذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ، وَفِيهِ اِسْتِحْبَاب التَّحَرُّز مِنْ التَّعَرُّض لِسُوءِ ظَنّ النَّاس فِي الْإِنْسَان، وَطَلَب السَّلَامَة وَالِاعْتِذَار بِالْأَعْذَارِ الصَّحِيحَة، وَفِيهِ الِاسْتِعْدَاد لِلتَّحَفُّظِ مِنْ مَكَايِد الشَّيْطَان(٢).

الوجه الرابع: غيرة النبي ﷺ ومراعاة شعور غيره بالغيرة.

فعن سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ فَقَالَ: "النَّبِيُّ ﷺ: أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي "(٣).

وَالْغَيْرَة صِفَة كَمَالٍ فَأَخْبَرَ ﷺ بِأَنَّ سَعْدًا غَيُور، وَأَنَّهُ أَغْيَر مِنْهُ، وَأَنَّ الله أَغْيَر مِنْهُ ﷺ، وَأَنَّهُ مِنْ أَجْل ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِش، فَهَذَا تَفْسِير لِمَعْنَى غَيْرَة الله تَعَالَى، أَيْ: أَنَّهَا مَنْعه سُبْحَانه وَتَعَالَى النَّاس مِنْ الْفَوَاحِش؛ لَكِنْ الْغَيْرَة فِي حَقّ النَّاس يُقَارِنهَا تَغَيُّر حَال الْإِنْسَان وَانْزِعَاجه، وَهَذَا مُسْتَحِيل فِي غَيْرَة الله تَعَالَى(٤).

والنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ الله، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنْ الله"(٥).

---

(١) البخاري (٢٠٣٩، ٢٠٣٨)، مسلم (٢١٧٥).
(٢) شرح النووي (٧/ ٤١٢).
(٣) البخاري (٧٤١٦، ٦٨٤٦)، مسلم (١٤٩٩).
(٤) شرح النووي (٥/ ٣٩١).
(٥) البخاري (٥٢٢٠)، مسلم (١٤٩٩).

ومن شدة وفائه ومراعاته لغيره في هذا الشعور، أنه وصل به الوفاء حتى في المنام فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: دَخَلْتُ الْجَنَّةَ أَوْ أَتَيْتُ الْجَنَّةَ، فَأَبْصَرْتُ قَصْرًا، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ قَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ، فَلَمْ يَمْنَعْنِي إِلَّا عِلْمِي بِغَيْرَتِكَ "، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ الله أَوَعَلَيْكَ أَغَارُ[١].

وفي رواية: " أنه رأى فيه امرأة تتوضأ إلى جانب قصر "[٢].

قال ابن بطال: يُؤْخَذ مِنْ الْحَدِيث أَنَّ مَنْ عَلِمَ مِنْ صَاحِبه خُلُقًا، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَرَّض لِمَا يُنَافِرهُ، وَفِيهِ أَنَّ مَنْ نُسِبَ إِلَى مَنْ اِتَّصَفَ بِصِفَةِ صَلَاح مَا يُغَاير ذَلِكَ يُنْكر عَلَيْهِ[٣].

الوجه الخامس: الخلوة بالأجنبية في الكتاب المقدس.

(تثنية٢١ / ١١): وَرَأَيْتَ فِي السَّبْيِ امْرَأَةً جَمِيلَةَ الصُّورَةِ، وَالْتَصَقْتَ بِهَا وَاتَّخَذْتَهَا لَكَ زَوْجَةً، فَحِينَ تُدْخِلُهَا إِلَى بَيْتِكَ تَحْلِقُ رَأْسَهَا وَتُقَلِّمُ أَظْفَارَهَا، وَتَنْزِعُ ثِيَابَ سَبْيِهَا عَنْهَا، وَتَقْعُدُ فِي بَيْتِكَ، وَتَبْكِي أَبَاهَا وَأُمَّهَا شَهْرًا مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ تَدْخُلُ عَلَيْهَا وَتَتَزَوَّجُ بِهَا، فَتكُونُ لَكَ زَوْجَةً. وَإِنْ لَمْ تُسَرَّ بِهَا فَأَطْلِقْهَا لِنَفْسِهَا. لاَ تَبِعْهَا بَيْعًا بِفِضَّةٍ، وَلاَ تَسْتَرِقَّهَا مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ أَذْلَلْتَهَا.

(التثنية ٢٢ / ٢٨-٢٩): إِذَا وَجَدَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ غَيْرَ مَخْطُوبَةٍ، فَأَمْسَكَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، فَوُجِدَا. يُعْطِي الرَّجُلُ الَّذِي اضْطَجَعَ مَعَهَا لأَبِي الْفَتَاةِ خَمْسِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَتَكُونُ هِيَ لَهُ زَوْجَةً مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أَذَلَّهَا. لاَ يَقْدِرُ أَنْ يُطَلِّقَهَا كُلَّ أَيَّامِهِ.

(أمثال٧ / ١٩: ١٧): عَطَّرْتُ فِرَاشِي بِمُرّ وَعُودٍ وَقِرْفَةٍ. هَلُمَّ نَرْتَوِ وُدًّا إِلَى الصَّبَاحِ. نَتَلَذَّذُ بِالْحُبِّ. لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ فِي الْبَيْتِ. ذَهَبَ فِي طَرِيق بَعِيدَةٍ.

* * *

(١) البخاري (٥٢٢٦).

(٢) البخاري (٥٢٢٧)، مسلم (٢٣٩٥).

(٣) فتح الباري (٩/ ٣٧٢).

١٦ـ شبهة: حُبِّبَ إليَّ من دنياكم.

نص الشبهة:

في الحديث: "حُبِّبَ إليَّ من دنياكم: الطيب، والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة".

يقولون: أن النبي ﷺ ذكر أن من أحب الأشياء إليه النساء، وهذا فيه دلالة على الشهوانية.

والرد علي ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المعنى الإجمالي للحديث وتوضيح المراد بالنساء فيه.

الوجه الثاني: القول بأنه ابتلاء من الله.

الوجه الثالث: القول بأنه منفعة للمسلمين.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: المعنى الإجمالي للحديث، وتوضيح المراد بالنساء فيه.

قال الماوردي: اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي مَعْنَى تَحْبِيبِ النِّسَاءِ إِلَيْهِ ﷺ عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي الِابْتِلَاءِ وَالتَّكْلِيفِ؛ حَتَّى لَا يَلْهُوَ بِمَا حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنَ النِّسَاءِ عَمَّا كُلِّفَ بِهِ مِنْ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَلَا يَعْجزَ عَنْ تَحَمُّلِ أَثْقَالِ النُّبُوَّةِ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَكْثَرَ لِمَشَاقِّه وَأَعْظَمَ لِأَجْرِهِ.

الثَّانِي: لِيَكُونَ خَلَوَاتُهُ مَعَهُنَّ يُشَاهِدُهَا مِنْ نِسَائِهِ؛ فَيَزُولُ عَنْهُ مَا يَرْمِيهِ الْمُشْرِكُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ سَاحِرٌ أَوْ شَاعِرٌ، فَيَكُونُ تَحْبِيبُهُنَّ إِلَيْهِ عَلَى وَجْهِ اللُّطْفِ بِهِ.

وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ عَلَى وَجْهِ الِابْتِلَاءِ لَهُ، وَعَلَى أَيِّ الْقَوْلَيْنِ كَانَ فَهُوَ لَهُ فَضِيلَةٌ، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِهِ نَقْصًا، وَهَذَا مِمَّا هُوَ بِهِ مَخْصُوصٌ أَيْضًا. (١)

وقال ابن الحاج: فَانْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ قَوْلِهِ ﷺ: حُبِّبَ، وَلَمْ يَقُلْ: أَحْبَبْت، وَقَالَ مِنْ دُنْيَاكُمْ فَأَضَافَهَا إِلَيْهِمْ دُونَهُ ﷺ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ كَانَ حُبُّهُ خَاصًّا بِمَوْلَاهُ ﷻ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: " وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ "، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْمَعَانِي الْعَلِيَّةِ الشَّرِيفَةِ؛ فَكَانَ ﷺ بَشَرِيَّ الظَّاهِرِ مَلَكِيَّ الْبَاطِنِ؛ فَكَانَ ﷺ لَا يَأْتِي إِلَى شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَّا تَأْنِيسًا لِأُمَّتِهِ، وَتَشْرِيعًا لَهَا، لَا أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلِلْجَهْلِ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَلِيلَةِ، وَالْخِصَالِ

---

(١) الحاوي الكبير للماوردي ١١/ ٢٥، حاشية السيوطي على النسائي ٧/ ٦١، حاشية السندي علي النسائي ٧/ ٦١.

الْحَمِيدَةِ قَالَ الْجَاهِلُ الْمِسْكِينُ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْله تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فَقَالَ: ﴿لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي مَلَكٌ، فَلَمْ يَنْفِ الْمَلَكِيَّةَ عَنْهُ إِلَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ أَعْنِي فِي مَعَانِيهِ ﷺ لَا فِي ذَاتِهِ الْكَرِيمَةِ، إِذْ أَنَّهُ ﷺ يَلْحَقُ بَشَرِيَّتَهُ مَا يَلْحَقُ الْبَشَرَ(١).

و قال الفخر الرازي: ولذلك قال ﷺ: "حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة" فرجح الصلاة على النكاح. (٢)

انظر في كلام الرازي قال: "فرجح الصلاة على النكاح". وهذا يؤكد معنى الحديث أن النبي ﷺ يقصد بكلمة النساء في الحديث زوجاته، أي: ما يحل له ليس غيرهن.

و قال القاضي عياض: حُبِّبَ إلي من دنياكم فدل على أن حبه لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من أمور دنيا غيره واستعماله لذلك ليس لدنياه؛ بل لآخرته للفوائد التي ذكرناها في التزويج وللقاء الملائكة في الطيب؛ ولأنه أيضًا مما يحض على الجماع ويعين عليه ويحرك أسبابه.

وكان حبه لهاتين الخصلتين لأجل غيره وقمع شهوته، وكان حبه الحقيقي المختص بذاته في مشاهدته جبروت مولاه ومناجاته، ولذلك ميَّز بين الحبين وفصل بين الحالين فقال: " وجعلت قرة عيني في الصلاة ". (٣)

و قال ابن القيم بعد أن ذكر الحديث: فلا عيب على الرجل في محبته لأهله وعشقه لها؛ إلا إذا شغله ذلك عن محبة ما هو أنفع له من محبة الله ورسوله، وزاحم حبه وحب رسوله؛ فإن كل محبة زاحمت محبة الله ورسوله بحيث تضعفها وتنقصها فهي مذمومة، وإن أعانت على محبة الله ورسوله وكانت من أسباب قوتها فهي محمودة. (٤)

---

(١) المدخل لابن الحاج ٢/ ١٨٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٣/ ٢١٣.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفي للقاضي عياض (ص- ١٠٦).

(٤) إغاثة اللهفان (ص-٥١٢).

وهذا أيضًا مزيد تأكيد وبيان على أن حب النساء في الحديث يعني الأهل منهن.

قال السيوطي: لما كان المقصود من سياق الحديث بيان ما أصابه النبي ﷺ من متاع الدنيا بدأ به كما قال في الحديث الآخر: " ما أصبنا من دنياكم هذه إلا النساء " ولما كان الذي حبب إليه من متاع الدنيا هو أفضلها وهو النساء. بدليل قوله في الحديث الآخر: " الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة " ناسب أن يضم إليه بيان أفضل الأمور الدينية؛ وذلك الصلاة؛ فإنها أفضل العبادات بعد الإيمان، فكان الحديث على أسلوب البلاغة من جمعه بين أفضل أمور الدنيا وأفضل أمور الدين، وفي ذلك ضم الشيء إلى نظيره وعبر في أمر الدين بعبارة أبلغ مما عبر به في أمر الدنيا حيث؛ اقتصر في أمر الدنيا على مجرد التحبب وقال في أمر الدين: " جُعلت قرة عيني "؛ فإن في قرة العين من التعظيم في المحبة ما لا يخفى. (١)

و قال علي بن برهان الدين الحلبي: حيث لم يقل من دنياي ولا من الدنيا؛ فإنه أشار بهذه الإضافة إلى أن النساء والطيب من دنيا الناس؛ لأنهم يقصدونها للاستلذاذ وحظوظ النفس وهو ﷺ منزه عن ذلك؛ وإنما حُبب إليه النساء لينقلن عنه محاسنه ومعجزاته الباطنة والأحكام السرية التي لا يطلع عليها غالبًا غيرهن وغير ذلك من الفوائد الدينية. (٢)

قال محمد بن يوسف الصالحي: أنه ﷺ لم يكن متشوقًا إلى زخرف الدنيا ولذاتها، ولقد عرض عليه أن تكون له جبال مكة ذهبًا تسير معه حيث سار فأباها، واختار الافتقار إلى الله تعالى.

معلوم أن الذهب يتحصل به جميع ما يقصده من أعراض الدنيا وزخارفها، وتقلله من الدنيا أمر شائع ذائع صحت به الأحاديث.

وتقدم بعض ذلك في باب زهده ﷺ إذا تقرر ذلك، فحبه للنساء والطيب ليس من زهرة الدنيا والافتتان، بل هو من أعمال الآخرة المحصلة لمعالي الدرجات، وبيان ذلك أنه حبب إليه كثرة النساء، ليطلعهن على ما لديه من بواطن الشريعة وظواهرها، فينقلنه ويعلنه للناس، أو يكون التشريع بسببهن، وخصوصًا مما يستحيي الرجال من ذكره

(١) الحاوي للفتاوى للسيوطي ١/ ٣٥٥.

(٢) السيرة الحلبية ٢/ ١٨١.

والسؤال عنه، فإنهن كن يطَّلعن من أحواله ﷺ وأقواله على ما لا يطلع عليه غيرهن، فقد تعلمن عنه ﷺ ما رأينه في منامه، وحال خلوته من الآيات البينات على نبوته، ومن جده واجتهاده، ولم يشاهدها غيرهن، فحصل من ذلك من الفوائد الأخروية ما لا يحصى، وأما حبه للطيب، فلأجل نزول الملك عليه، وملازمته له بالوحي؛ ولهذا كان يمتنع من تناول ما له رائحة كريهة، وقال: إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم؛ فظهر بذلك أن حبه للنساء، والطيب كان لمصلحة أخروية. (١)

ومن فتاوى الأزهر تعليقًا على الحديث: وحب الرسول ﷺ للنساء ليس حبًا شهوانيًا بمعنى الاهتمام الزائد بالمتعة الجنسية على شاكلة المترفين اللاهين؛ فنحن نعلم رقة حاله وشغله الدائم ليلًا ونهارًا بالدعوة ومشكلاتها، واهتمامه بقيام الليل حتى تتورم قدماه، فهو حب طبيعي كحب أي رجل لامرأة؛ لأنه مكتمل الرجولة لا عيب فيه، ولكنه حب بقدر، لا يطغى على الناحية الروحية عنده؛ ولذلك جاء في الحديث " وجعلت قرة عيني في الصلاة " فالصلاة أعظم محبوب عنده، ومن كان كذلك فهمه في النساء لم يكن بالدرجة التي تصرفه عن قرة عينه وهى الصلاة والعبادة.

وقد يكون الحديث ردًا على بعض من يرون أن مقياس التدين هو الرهبانية والتبتل والامتناع عما أحل الله من الطيبات، فهو ﷺ أخشى الناس لله وأتقاهم له؛ ولكنه يصوم ويفطر، ويقوم ويرقد، ويتزوج النساء، كما صح في الحديث المتفق عليه الذي قال في نهايته: "ومن رغب عن سنتي فليس منى"، وذلك إلى جانب عطفه ورحمته بالنساء عامة، وقد أوصى بهن كثيرًا، والنصوص في ذلك كثيرة. (٢)

فيظهر بما سبق من كلام العلماء المعني الصحيح للحديث، ولم يقل أحد من العلماء أن تحبيب النساء في الحديث لغير ما يحل.

الوجه الثاني: القول بأنه ابتلاء من الله.

---

(١) سبيل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد ١٠/ ٤١٧.

(٢) فتاوى الأزهر ٨/ ٢٦١.

قال السيوطي: قَالَ بَعْضهمْ: فِي هَذَا قَوْلَانِ أَحَدهمَا أَنَّهُ زِيَادَة فِي الِابْتِلَاء وَالتَّكْلِيف حَتَّى يَلْهُو بِمَا حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنْ النِّسَاء عَمَّا كُلِّفَ مِنْ أَدَاء الرِّسَالَة فَيَكُون ذَلِكَ أَكْثَر لِمَشَاقِّهِ وَأَعْظَم لِأَجْرِهِ. (١)

حيث في الحديث عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً قَالَ: " الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ؛ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ". (٢)

قال النووي: قال العلماء: والحكمة في كون الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل أنهم مخصوصون بكمال الصبر وصحة الاحتساب ومعرفة أن ذلك نعمة من الله تعالى ليتم لهم الخير ويضاعف لهم الأجر ويظهر صبرهم ورضاهم. (٣)

و قال ابن بطال: خص الله أنبياءه الأوجاع والأصواب لما خصهم به من قوة اليقين وشدة الصبر والاحتساب ليكمل لهم الثواب ويتم لهم الأجر. (٤)

فليس بغريب أن يكون هذا ابتلاء من الله جل وعلا لنبيه ﷺ. ومما يؤيد هذا قول النبي ﷺ "حبب إلي النساء" ولم يقل أحببت.

قال العبدري: فَانْظُرْ إلَى حِكْمَةِ قَوْلِهِ ﷺ: حُبِّبَ، وَلَمْ يَقُلْ: أَحْبَبْت، وَقَالَ مِنْ دُنْيَاكُمْ فَأَضَافَهَا إلَيْهِمْ دُونَهُ ﷺ. (٥)

ولكن أبى النبي ﷺ إلا أن تكون قرة عينه في شئ آخر إلا الصلاة.

---

(١) حاشية السيوطي علي النسائي ٧/ ٦١، وانظر حاشية السندي على السيوطي ٧/ ٦١.

(٢) الترمذي (٢٣٩٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٧٣.

(٣) شرح مسلم للنووي ٨/ ٣٧٤.

(٤) شرح البخاري لابن بطال ٩/ ٣٧٤.

(٥) المدخل لابن الحاج ٢/ ١٨٩.

وقال أيضًا: فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ ﷺ كَانَ حُبُّهُ خَاصًّا بِمَوْلَاهُ ﷻ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ" وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ "، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْمَعَانِي الْعَلِيَّةِ الشَّرِيفَةِ.(١)

قال القاضي عياض: "حبب إلي من دنياكم " فدل على أن حبه لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من أمور دنيا غيره واستعماله لذلك ليس لدنياه بل لآخرته.(٢)

فأكد القاضي على أن النبي ﷺ تحمل الابتلاء وجعله لآخرته وليس لدنياه.

الوجه الثالث: القول بأنه منفعة للمسلمين.

قال السيوطي بعد أن ذكر القول السابق:

وَالثَّانِي لِتكُونَ خَلَوَاته مَعَ مَا يُشَاهِدهَا مِنْ نِسَائِهِ فَيَزُول عَنْهُ مَا يَرْمِيه بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَنَّهُ سَاحِر أَوْ شَاعِر فَيَكُون تَحْبِيبهنَّ إِلَيْهِ عَلَى وَجْه اللُّطْف بِهِ وَعَلَى الْقَوْل الْأَوَّل عَلَى وَجْه الِابْتِلَاء وَعَلَى الْقَوْلَيْنِ فَهُوَ لَهُ فَضِيلَة.(٣)

وقال السندي: قِيلَ إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ لِيَنْقُلْنَ عَنْهُ مَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الرِّجَالُ مِنْ أَحْوَالِهِ وَيُسْتَحَيَا مِنْ ذِكْرِهِ.(٤)

وقال برهان الدين الحلبي: وإنما حبب إليه النساء لينقلن عنه محاسنه ومعجزاته الباطنة، والأحكام السرية؛ التي لا يطلع عليها غالبًا غيرهن وغير ذلك من الفوائد الدينية.(٥)

وقد ظهر هذا في نسائه حيث كن ينقلن عن رسول الله ﷺ أحكامًا وفتاوى يستفيد بها المسلمون، وها هي أم المؤمنين عائشة ﵂ قد روت الكثير والكثير عن النبي ﷺ.

قال الذهبي فيها: أفقه نساء الأمة علي الإطلاق.(٦)

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٨٩.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفي ص١٠٦.

(٣) حاشية السيوطي على النسائي٧/ ٦١.

(٤) حاشية السندي على النسائي٧/ ٦١.

(٥) السيرة الحلبية ٢/ ٤٣٤.

(٦) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٣٥.

وقال الزركلي: أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب، كانت تكنى بأم عبد الله، تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه، ولها خطب ومواقف. وما كان يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعرًا، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم. (١)

وقال الذهبي: مسند عائشة يبلغ ألفين ومئتين وعشرة أحاديث، اتفق لها البخاري ومسلم على مئة وأربعة وسبعين حديثًا، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين. (٢)

* * *

(١) الأعلام للزركلي ٣/ ٢٤٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٣٩. وانظر مزيدا على ذلك في الشبهات عن زوجات النبي ﷺ

١٧ـ شبهة: زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها.

وتتلخص هذه الشبهة في نقاط:

١ - أن النبي ﷺ تزوج بزوجة ابنه.

٢ - أنه رآها متكشفة فُضلًا فأعجب بها وأحبها وهي تحت زيد.

٣ - أنه قرر أن يتزوجها وقال في ذلك كلامًا يبرر موقفه ونسبه إلى الوحي.

٤ - ما هو الداعي لربط إلغاء التبني بشخص النبي ﷺ؛ أما كان من الممكن أن يتم ذلك بعيدًا عنه حتى لا يقع في الحرج؟

٥ - ولماذا حرم التبني أصلًا وهو سلوك يفيض رحمة وحبًا، وما هو البديل في الإسلام؟

والرد على هذه الفرية ينتظم في مسألتين:

المسألة الأولى: قولهم تزوج بزوجة ابنه.

والرد على ذلك من وجوه

الوجه الأول: بيان أن أبناء النبي ﷺ الذكور ماتوا صغارًا ولم يبلغوا مبلغ الرجال.

الوجه الثاني: بيان نسب زيد بن حارثة ﷺ فإذا لم يكن ابنًا لرسول الله ﷺ فمن هو؟

الوجه الثالث: تحريم التبني.

الوجه الرابع: في الإشارة إلى فضائل زيد؛ وذلك لكي لا يظن أن إلغاء التبني حطّ من شأن زيد أو كُرهًا من رسول الله ﷺ له، وحتى لا يظن أن زيدًا تغيّر على رسول الله ﷺ بعد ذلك أو تغير عليه رسول الله ﷺ.

المسألة الثانية: قولهم إنه ذهب لبيت زيد فلم يجده ووقعت عينه على امرأته فوقعت في قلبه.

فهذا كلام من لم يعرف رسول الله ﷺ ولم يعرف قرابة زينب له من صغرها.

و الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: في بيان من هي زينب بنت جحش رضي الله عنها وهل كانت غريبة غائبة عن رسول الله ﷺ قبل ذلك؟

الوجه الثاني: كيف تم زواج زيد من زينب؟ ولماذا لم يتزوجها رسول الله ﷺ من أول الأمر؟

الوجه الثالث: أن قولهم رآها فوقعت في قلبه أو أعجبته؛ إما أن يكون رآها قبل الدخول حالة الاستئذان، وإما أن يكون دخل وكلاهما باطل.

الوجه الرابع: أن هذا الفعل فيه خيانة قلبية، وقد نفى النبي ﷺ عن نفسه خائنة الأعين، وهو من التطلع إلى ما متع به غيره، وهو من الحسد المذموم.

الوجه الخامس: في بيان السبب الحقيقي في طلاقها من زيد رضي الله عنه.

الوجه السادس: أن الله هو الذي زوجها لرسول الله ﷺ.

الوجه السابع: بيان الحكمة في زواج رسول الله ﷺ منها مع أن النساء سواها كثير.

الوجه الثامن: بيان المعنى الصحيح لمتعلق الخشية، وما الذي أخفاه النبي ﷺ.

الوجه التاسع: أنه لو أخفى حبها وعشقها لأبداه الله؛ لأن الله قال: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾، فلَما لم يبده الله؟ علم أنه لم يكن.

الوجه العاشر: ذكر هذه الروايات الباطلة، وبيان وجه البطلان سندًا ومتنًا.

الوجه الحادي عشر: اضطراب الروايات في متونها.

الوجه الثاني عشر: كلام بعض الأئمة المحققين من المفسرين وغيرهم حول تفسير الآية ونقد الروايات.

الوجه الثالث عشر: بيان أن هذه القصة من دلائل نبوته ﷺ.

الوجه الرابع عشر: ذكر السفير بين النبي ﷺ وزينب، وما الذي جرى له في ذلك.

وإليك التفصيل

المسألة الأولى: **قولهم تزوج بزوجة ابنه.**

والرد عليه من وجوه

الوجه الأول: **بيان أن أبناء النبي ﷺ الذكور ماتوا صغارًا ولم يبلغوا مبلغ الرجال.**

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، فقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي لم يكن أبا رجل

منكم على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح، ولما بين الله ما في تزوج النبي ﷺ بزينب من الفوائد بين أنه كان خاليًا من وجوه المفاسد؛ وذلك لأن ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصرًا في التزوج بزوجة الابن؛ فإنه غير جائز فقال الله تعالى إن زيدًا لم يكن ابنًا له لا بل أحد الرجال لم يكن ابن محمد.

فإن قال قائل: النبي ﷺ كان أبا أحد من الرجال لأن الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾ (النساء: ١٧٦) والصبي داخل فيه، فنقول الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ، ولم يكن للنبي ﷺ ابن كبير يقال: إنه رجل.

والثاني: هو أنه تعالى قال: ﴿مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر، ثم إنه تعالى لما نفى كونه أبًا عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الأبوة من بعض الوجوه فقال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فإن رسول الله ﷺ كالأب للأمة في الشفقة من جانبه، وفي التعظيم من طرفهم؛ بل أقوى؛ فإن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، والأب ليس كذلك، ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه، والتعظيم من جهتهم بقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئًا من النصيحة، والبيان يستدركه من يأتي بعده، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته لهم وأجدى، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ يعني علمه بكل شيء دخل فيه أن لا نبي بعده، فعلم أن من الحكمة إكمال شرع محمد ﷺ بتزوجه بزوجة دعِيّه تكميلًا للشرع، وذلك من حيث إن قول النبي ﷺ يفيد شرعًا؛ لكن إذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة، ألا ترى أنه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم

لما لم يأكله بقي في النفوس شيء، ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع أنه في بعض الملل لا يؤكل، وكذلك الأرنب. (١)

وقال الزمخشري: وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمكم، والادعاء، والتبني من باب الاختصاص، والتقريب لا غير ﴿و﴾ كان ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يعني أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبيًا ولم يكن هو خاتم الأنبياء، كما يروى أنه قال في إبراهيم حين توفي: "لو عاش لكان نبيًا". (٢)

فإن قلت: أما كان أبًا للطاهر، والطيب، والقاسم، وإبراهيم؟ قلت: قد أخرجوا من حكم النفي بقوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ من وجهين:

---

(١) تفسير الرازي سورة الأحزاب آية (٤٠)

(٢) **حسن لغيره**. أخرجه أحمد (٣/ ١٣٣) من طريق إسماعيل السدي، عن أنس بنحوه.

وهذا إسناد فيه إسماعيل السدي صدوق يهم ورمي بالتشيع (التقريب ٤٦٣).

وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٩/ ٢٥٥).

وله شاهد من رواية ابن عباس أخرجه ابن ماجه (١٥١١)، وإسناده ضعيف جدًّا فيه إبراهيم بن عثمان وهو متروك.

وله شاهد عند البخاري (٦١٩٤) عن إِسْمَاعِيلُ بن أبي خالد قال: قُلْتُ لِابْنِ أَبِي أَوْفَى: رَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ ابْنَ النبي ﷺ قَالَ مَاتَ صَغِيرًا، وَلَوْ قُضِيَ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ نبي عَاشَ ابْنُهُ، وَلَكِنْ لاَ نبي بَعْدَهُ.

وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة (١٣٥): حديث لو عاش إبراهيم لكان نبيًا،

قال النووي: ما روى عن بعض المتقدمين لو عاش إلخ فباطل وجسارة على الغيب.

وقال ابن عبد البر: لا أدري ما هذا فقد ولد نوح غير نبي ولو لم يلد النبي إلا نبيا كان كل أحد نبيا لأنهم من ولد نوح.

وقال ابن حجر: لا يلزم من الحديث المذكور ما ذكر لما لا يخفى وكأنه سلف النووي وهو عجيب من النووي مع وروده عن ثلاثة من الصحابة وكأنه لم يظهر له تأويله فإن الشرطية لا تستلزم الوقوع ولا يظن بالصحابي الهجوم على مثله بالظن اهـ.

وقال الشيخ المعلمي: استشكال ابن عبد البر مبني على لفظ "**لو عاش إبراهيم لكان نبيًا**" لكن لم يكن ينبغي؛ فإن نبيكم آخر الأنبياء؛ فإن قضية هذا امتناع أن يبقى ولا يكون نبيًا، فأما لفظ: لو قضي أن يكون بعد محمد نبي عاش ابنه إبراهيم؛ ولكن لا نبي بعده فقريب وحاصلها أن قائل هذا علم أن الله تعالى أكرم جماعة من الأنبياء؛ بأن جعل من أبنائهم لصلبهم نبيًا أو أكثر، فرأى أن لولا أن الله تعالى جعل محمدًا آخر الأنبياء لقضى أن يعيش ابنه ليكون نبيًا، وكأن هذا هو المقصود من اللفظ الأول والتصرف من بعض الرواة.

انتهى من حاشية المعلمي على الفوائد المجموعة (صـ٣٥٤).

أحدهما: أنّ هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال.

والثاني: أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لا رجالهم؛ فإن قلت: أما كان أبا للحسن والحسين؟ قلت: بلى؛ ولكنهما لم يكونا رجلين حينئذ، وشيء آخر: وهو أنه إنما قصد ولده خاصة، لا ولد ولده؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيّف أحدهما على الأربعين والآخر على الخمسين.(١)

وقال السعدي: أي لم يكن الرسول ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ ﷺ ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أيها الأمة فقطع انتساب زيد بن حارثة منه، من هذا الباب.

ولما كان هذا النفي عامًّا في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ، أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل في هذا النوع، بعموم النهي المذكور، فقال: ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ﴾ أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من بره ونصحه كأنه أب لهم.(٢)

فقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهي من الله تعالى أن يقال بعد هذا: زيد بن محمد، أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه فإنه ﷺ، لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، والطيب، والطاهر، من خديجة فماتوا صغارًا، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضًا رضيعًا.(٣)

---

(١) تفسير الزمخشري: الآية.

(٢) تفسير السعدي: الآية.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٨).

وقال الشوكاني: ولما تزوّج ﷺ زينب قال الناس: تزوّج امرأة ابنه، فأنزل الله ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي ليس بأب لزيد ابن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته، ولا هو أب لأحد لم يلده.[1]

وخلاصة هذا الوجه أن زيدًا لم يكن ابنا حقيقيًا للنبي ﷺ فكيف يتهم بأنه تزوج زوجة ابنه؟.

الوجه الثاني: بيان نسب زيد بن حارثة رضي الله عنه فإذا لم يكن ابنًا لرسول الله ﷺ فمن هو؟

هو أبو أسامة زيد – الحب – بن حارثة بن شراحيل، وقيل: شرحبيل بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود وسماه أبوه بضمة بن عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة – واسمه عمرو وإنما سمي قضاعة؛ لأنه انقضع عن قومه – بن مالك بن عمرو بن مرة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وإلى قحطان جماع اليمن وأم زيد بن حارثة: سعدي بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت بن سلسلة من بني معن من طيء ويقع في نسبه خلاف وتغيير وزيادة، وهو الأمير الشهيد، المسمى في سورة الأحزاب، ثم المحمدي، سيد الموالي، وأسبقهم إلى الإسلام، وحب رسول الله ﷺ، وأبو حبه، وما أحب ﷺ إلا طيبًا، ولم يسم الله تعالى في كتابه صحابيًا باسمه إلا زيد بن حارثة.

فإذا كان هذا نسبه فكيف جاء زيد إلى رسول الله ﷺ وكيف نسب إليه.

زارت سعدى أم زيد بن حارثة قومها وزيد معها فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية فمروا على أبيات بني معن رهط أم زيد، فاحتملوا زيدًا إذ هو يومئذ غلام يفعة قد أوصف، فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي لعمته خديجة بنت خويلد بأربع مائة درهم؛ فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له فقبضه رسول الله ﷺ.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (سورة الحزاب: ٤٠).

وقال ابن عبد البر: كان زيد هذا قد أصابه سباء في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام في سوق حباشة، وهي: سوق بناحية مكة كانت مجمعًا للعرب يتسوقون بها في كل سنة، اشتراه حكيم لخديجة بنت خويلد فوهبته خديجة لرسول الله ﷺ فتبناه رسول الله ﷺ بمكة قبل النبوة، وطاف به رسول الله ﷺ حين تبناه على حلق قريش يقول: "هذا ابني وارثًا وموروثًا". يشهدهم على ذلك. هذا كله معنى قول مصعب والزبير بن بكار وابن الكلبي وغيرهم

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾. ولما أسر خرج أبوه يطلبه وكان يقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فو الله ما أدري وإن كنت سائلًا ... أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فيا ليت شعري هل لك الدهر رجعة ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزني عليه ويا وجل
سأعمل نص العيس في الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي علي منيتي ... وكل امرئ فان وإن غره الأجل
سأوصي به عمرًا وقيسًا كليهما ... وأوصي يزيد ثم من بعده جبل

يعنى جبلة بن حارثة أخا زيد وكان أكبر من زيد ويعني يزيد أخا زيد لأمه وهو يزيد بن كعب بن شراحيل. فحج ناس من كلب فرأوا زيدًا فعرفهم وعرفوه فقال لهم: أبلغوا عني أهلي هذه الأبيات؛ فإني أعلم أنهم قد جزعوا علي فقال:

أحن إلى قومي وإن كنت نائيًا ... فإني قعيد البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجد الذي قد شجاكم ... ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة ... كرام معد كابرًا بعد كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه فقال: ابني ورب الكعبة ووصفوا له موضعه وعند من هو. فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل لفدائه وقدما مكة فسألا عن النبي ﷺ فقيل: هو في المسجد فدخلا عليه فقال: يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا بن سيد قومه أنتم أهل حرم الله، وجيرانه تفكون العاني، وتطعمون الأسير جئناك في ابننا عندك فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، قال: "ومن هو"، قالوا: زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: "فهلا غير ذلك؟ " قالوا: وما هو، قال: "ادعوه فأخيره؛ فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فو الله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدًا "، قالا: قد زدتنا على النصف وأحسنت فدعاه فقال: " هل تعرف هؤلاء " قال: نعم، قال: " من هذا " قال: هذا أبي. وهذا عمي، قال: " فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما "، قال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك، وعمك، وعلى أهل بيتك؟ قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئًا، ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: " يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا ابني يرثني وأرثه ". فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما فانصرفا، ودعي زيد بن محمد حتى جاء الإسلام فنزلت: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾. [1]

وقد اعترف أخوه جبلة بأن رأيه في اختيار النبي ﷺ كان أحسن من رأيه - فعن أبي عمرو الشيباني قال أخبرني جبلة بن حارثة أخو زيد قال: قدمت على رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله ابعث معي أخي زيدًا، قال: " هو ذا " قال: فإن انطلق معك لم أمنعه، قال زيد: يا رسول الله، والله لا أختار عليك أحدًا قال: فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي[2].

وظل زيد يُدعى زيد بن محمد حتى حرم الله التبني، وتفصيل ذلك كما في الوجه القادم.

---

(١) التاريخ الكبير (٣/ ٣٧٩)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٤١)، والاستيعاب لابن عبد البر، وأسد الغابة لابن الأثير ترجمة زيد، والإصابة لابن حجر (٢/ ٥٩٨)، وبنحو هذا أخرجه الحاكم (٣/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨١٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن الرومي عن علي بن مسهر، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٩٨).

الوجه الثالث: تحريم التبني.

قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ (الأحزاب: ٤- ٥).

ففي هذا يقول تعالى موطئًا قبل المقصود المعنوي أمرًا معروفًا حسيًا، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت عليَّ كظهر أمي أمًا له، كذلك لا يصير الدَّعيّ ولدًا للرجل إذا تبنَّاه فدعاه ابنا له، فقال: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾، كقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ (المجادلة: ٢).

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾: هذا هو المقصود بالنفي؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، وكان يقال له: زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ كما قال في أثناء السورة: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠) وقال هاهنا: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًا، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان. (١)

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ فيه لطيفة: وهو أن الكلام المعتبر على قسمين:

أحدهما: كلام يكون عن شيء كان فيقال.

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٦).

والثاني: كلام يقال فيكون كما قيل، والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون، والآخر كلام الصديقين الذين إذا قالوا شيئًا جعله الله كما قالوه، وكلاهما صادر عن قلب، والكلام الذي يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار، أو نباح الكلب؛ لأن الكلام المعتبر هو الذي يعتمد عليه، والذي لا يكون عن قلب لا اعتماد عليه، والله تعالى ما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغي أن يحترز من التخلق بأخلاقها، فقول القائل: هذا ابن فلان مع أنه ليس ابنه ليس كلامًا؛ فإن الكلام في الفؤاد وهذا في الفم لا غير، واللطيفة هي أن الله تعالى قال هنا: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ وقال في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ (التوبة: ٣٠) يعني نسبة الشخص إلى غير الأب قول لا حقيقة له، ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضًا في قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن العاقل ينبغي أن يكون قوله إما عن عقل، أو عن شرع؛ فإذا قال فلان ابن فلان ينبغي أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع؛ بأن يكون ابنه شرعًا، وإن لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولدًا وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فإنا نلحقه بالزوج الثاني لقيام الفراش، ونقول: إنه ابنه، وفي الدعي لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به؛ لأنه لا يقول إلا الحق وهذا خلاف الحق؛ لأن أباه مشهور ظاهر.

ووجه آخر فيه: وهو أنهم قالوا هذه زوجة الابن فتحرم، وقال الله تعالى هي لك حلال، وقولهم لا اعتبار به؛ فإنه بأفواههم كأصوات البهائم، وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ يؤكد قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ يعني يجب اتباعه لكونه حقًا، ولكونه هاديًا.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ فيه لطيفة: وهو أن الكلام الذي بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذي يوجد لا عن قلب، ثم إن الكلام الذي

بالقلب قد يكون حقًا وقد يكون باطلًا؛ لأن من يقول شيئًا عن اعتقاد قد يكون مطابقًا فيكون حقًا، وقد لا يكون فيكون باطلًا، فالقول الذي بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقًا، وقد يكون باطلًا؛ لأنه يتبع الوجود، وقول الله حق؛ لأنه يتبعه الوجود؛ فإنه يقول عما كان أو يقول فيكون؛ فإذن قول الله خير من أقوالكم التي عن قلوبكم، فكيف تكون نسبته إلى أقوالكم التي بأفواهكم؟! فإذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغي وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبي ﷺ بزينب لم يكن حسنًا يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم.[1]

وقال سعيد بن جبير: ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾أي العدل وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي الصراط المستقيم، وقوله ﷻ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر الله تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل، والقسط والبر.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[2] وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا لما نُسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه وقال ﷻ: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ وقال تبارك وتعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احترازًا عن زوجة الدعي؛ فإنه ليس من الصلب؛ فأما الابن من الرضاعة فمنزل منزلة ابن الصلب شرعًا بقوله ﷺ: "حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب"[3].

---

(١) تفسير الرازي١٢/ ٣٢٥.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٠٤)، ومسلم (٢٤٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٢١) من حديث أبي هريرة.

وقوله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا؛ فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم؛ أي عوضًا عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة رضي الله عنها تنادي: يا عم، يا عم، فأخذها علي رضي الله عنه وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك فاحتملتها؛ فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم في أيهم يكفلها فكل أدلى بحجة فقال علي رضي الله عنه: أنا أحق بها وهي ابنة عمي: وقال زيد: ابنة أخي، وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي وخالتها تحتي - يعني أسماء بنت عميس - فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: "الخالة بمنزلة الأم"، وقال لعلي رضي الله عنه: "أنت مني وأنا منك" وقال لجعفر رضي الله عنه: "أشبهت خلقي وخلقي"، وقال لزيد رضي الله عنه: " أنت أخونا ومولانا "[(١)]. ففي الحديث أحكام كثيرة من أحسنها: أنه ﷺ حكم بالحق وأرضى كلًا من المتنازعين وقال لزيد رضي الله عنه: " أنت أخونا ومولانا " كما قال تعالى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى آمرًا عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وعند مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: "قال الله ﷻ: قد فعلت"[(٢)].

وفي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر"[(٣)]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥) أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل؛ كما قال ﷻ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩١٩).

ومن هنا نعلم أن زيدًا ليس ابنا لرسول الله ﷺ حقيقة وقد نسخ التبني فلم يعد ابنًا بالتبني أيضًا.

قال الجزائري: إنه لما أبطل الله التبني وحرمه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ تبع ذلك أن لا يرث المدعي ممن ادعاه، وأن لا تحرم مطلقته على من تبنَّاه وادعاه، وهكذا بطلت الأحكام التي كانت لازمة للتَّبنِّي، وكون هذا نزل به القرآن ليس من السهل على النفوس التي اعتادت هذه الأحكام في الجاهلية، وصدر الإسلام أن تتقبلها، وتذعن لها بسهولة، فأراد الله تعالى أن يخرج ذلك لحيز الوجود، فألهم رسوله ﷺ أن يخطب زينب لمولاه زيد، واستجابت زينب للخطبة فهمًا منها أنها مخطوبة لرسول الله ﷺ لتكون أمّا للمؤمنين؛ ولما تبين لها بعد ليال أنها مخطوبة لزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وليست كما فهمت، وهنا أخذتها الحمية وقالت: لن يكون هذا لن تتزوَّج شريفة مولى من موالى الناس ونصرها أخوها على ذلك - وهو عبد الله بن جحش. فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . . ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، فما كان منها إلا أن قبلت عن رِضَي الزواج من زيد، وتزوجها زيد وبحكم الطباع البشرية فإن زينب لم تخف شرفها على زيد، وأصبحت تترفع عليه الأمر الذي شعر معه زيد بعدم الفائدة من هذا الزواج، فأخذ يستشير رسول الله ﷺ مولاه ويستأذنه في طلاقها والرسول ﷺ يأبى عليه ذلك علمًا منه أنه إذا طلقها سيزوجه الله بها إنهاءً لقضية جعل أحكام الدَّعي كأحكام الولد من الصُّلب، فكان يقول له: "اتق الله يا زيد لا تطلق بغير ضرورة ولا حاجة إلى الطلاق واصبر على ما تجده من امرأتك "، وهنا عاتب رسولَ الله ﷺ ربُّه ﷻ إذ قال له: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي: اذكر إذ تقول ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي بنعمة الإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بأن عتقته ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ وهو أمر زواجك منها، ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: مظهره لا محالة من

ذلك ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أن يقولوا محمد تزوج امرأة ابنه زيد، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾. وقد أراد منك الزواج من زينب بعد طلاقها وانقضاء عدتها، هدمًا وقضاء على الأحكام التي جعلت الدَّعي كابن الصُّلب[١].

وهذا إمعان في إبطال هذا التبني الذي كان معروفًا في الجاهلية الأولى كما عرف في الجاهلية الحاضرة، حيث أمر الله تعالى إمام المسلمين وقدوتهم بذلك[٢].

قال القشيري: وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبي ﷺ إياها؛ لإزالة حرمة التبني وإبطال سنته كما قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾.[٣]

وقال ابن الملقن: وكان في زواج رسول الله ﷺ زينب بعد مولاه زيد ثلاث فوائد:

أحدها: لتستن أمته بذلك، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ الآية، وأصل الحرج: الضيق.

ثانيها: أن الله قد أحل ذلك لمن كان قبله من الرسل، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ الآية، والسُنَّة هي الطريقة التي سنها الله في الذين خلوا من قبل، أي: من السنن فيما أحل لهم. قاله أبو جعفر الطبري.

ثالثها - وهي أعظمها-: أن الله ﷻ أراد أن يقطع البنوة بين محمد، وزيد بن حارثة، إذ لم يكن محمد أبا أحد من رجالكم، وكان ﷺ قد تبناه، فكان يدعى: زيد بن محمد، حتى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ كما أخرجه الشيخان[٤].

وأما السؤال الثاني وهو عن سبب تحريم التبني فذلك الأقسط والعدل عند الله تعالى.

(١) أيسر التفاسير (٤/ ٢٧٣).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للدكتور عبد الله بن محمد الغنيمان.

(٣) الشفا (٢/ ١٩٠).

(٤) البدر المنير لابن الملقن (٧/ ٤٧٤).

قال ابن كثير: وقوله ﷻ ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة وأن هذا هو العدل والقسط والبر.[١]

وأما بيان العدل والقسط في تحريم التبني فمن وجوه:

الأول: أن الله تعالى هو الذي شرع ذلك وأخبر أنه الأقسط عنده، وهو العليم الخبير.

قال ابن عاشور: أنزل الله تعالى إبطال التبني، والحق في أحكام الله؛ لأنه الخبير بالأعمال وهو الذي يقول الحق[٢].

والأقسط أي: الأعدل فرفع الله حكم التبني، ومنع من إطلاق لفظه، وأرشد بقوله إلى أن الأولى والأعدل أن ينسب الرجل إلى أبيه نسبًا، فيقال: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظرفه ضمه إلى نفسه، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال فلان ابن فلان[٣].

وقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ وهم يقولون هذه زوجة الابن فتحرم، وقال الله تعالى هي لك حلال، وقولهم لا اعتبار به؛ فإنه بأفواههم كأصوات البهائم، وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ يؤكد قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ يعني يجب اتباعه لكونه حقًا ولكونه هاديًا[٤].

الثاني: أنهم يرتبون على هذا القول الفاسد أحكام الحقيقة التي لا وجود لها، فكانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنهما: يارسول الله، إنا كنا ندعو سالمًا ابنا، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئًا،

---

(١) تفسير ابن كثير الآية.

(٢) التحرير والتنوير سورة الأحزاب.

(٣) تفسير القرطبي سورة الأحزاب الآية.

(٤) تفسير الرازي الآية.

فقال ﷺ: "أرضعيه تحرُمي عليه" الحديث. [١] ووجود الأجنبي في البيت مفسدة لا يزيلها الدعوى بأنه ابن؛ لأنه قول بالأفواه لا حقيقة له.

الثالث: أن التبني بهذا الشكل مناف للغيرة، إذ كيف يسمح الرجل الغيور لرجل أجنبي يدخل على زوجته وابنته وحريمه بعد أن حرم الله ذلك.

الرابع: أن التبني على الوجه السالف الذكر فيه ظلم لأبناء الصلب، فيشترك معهم في التركة والميراث وهذا حقوق لاتصل إلا إلى أصحابها، فقد كانت العرب تعطي الولد المتبني: (الدّعي) حقوق الابن من النسب، حتى الميراث، وحرمة النسب؛ فأراد الله تعالى محو ذلك بالإسلام، حتى الميراث، وحرمة النسب، فأراد الله تعالى محو ذلك بالإسلام، حتى لا يعرف إلا النسب الصريح، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾. [٢]

الخامس: أن المتبنى يمنع من الزواج ببنات من متبناه لو كان رجلًا وهن بنات والعكس مع أنهن له حلال، وشريعة التبني هذه تحرم عليه ذلك.

السادس: أن فيه ظلم للأب الحقيقي لو كان موجودًا.

السابع: أن قضية التبني خلاف المعقول فكما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة للمظاهر أمَّه حتى تكون أُمَّان، ولا يكون له ولد واحد ابن رجلين[٣].

ولو جعل ذلك لضاعت الأنساب، وعم الارتياب، وانقلب كثير من الحقائق أيّ انقلاب، فانفتح بذلك من الفساد أبواب أيّ أبواب[٤].

الثامن: والأولى أن يقال في تعليل النهي: سدًا لباب التشبه بالكفرة بالكلية[٥].

التاسع: أن في تحريم التبني إرشاد- ضمني - للعباد إلى قول الحق وترك قول الباطل والزور[٦].

(١) تفسير ابن كثير سورة الأحزاب الآية.
(٢) أيسر التفاسير لأسعد حمود سورة الأحزاب آية (٣٦).
(٣) تفسير البغوي الآية.
(٤) نظم الدرر للبقاعي الآية.
(٥) تفسير الآلوسي الآية.
(٦) تفسير الشوكاني الآية.

العاشر: إن الإسلام أعطاهم أخوة الدين بهذه البنوة المزعومة المكذوبة، وهي أخوة وموالاة باقية ببقائه على الدين فقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾: أمر برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عرفوا؛ فإن لم يعرفوا آباءهم، فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي: عوضًا عما فاتهم من النسب فهم إخوتكم في دين الله، ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاة على ذلك(١).

الوجه الرابع: في الإشارة إلى فضائل زيد، وذلك لكي لا يظن أن إلغاء التبني حط من شأن زيد، أو كرهًا من رسول الله ﷺ له، وحتى لا يظن أن زيدًا تغير على رسول الله ﷺ بعد ذلك، أو تغير عليه رسول الله ﷺ.

١- تعويضه الأخوة الإيمانية التي ثبتت وأشرنا إليها سابقًا، وأكثر من ذلك ذكر اسمه صراحة في القرآن وليست لغيره من الصحابة فضيلة كهذه إلا عيسى ابن مريم على قول من يعده صحابيًا.

٢-كونه خليقًا بالإمارة ومن أحب الناس إلى رسول الله ﷺ.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ بعثًا وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته فقال النبي ﷺ: "إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده"(٢).

قال ابن حجر: قوله: " فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ": يشير إلى إمارة زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمّره عليهم، وفيه جواز إمارة المولى(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير الآية، والسعدي الآية.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٢٤).

(٣) فتح الباري (٧/ ٨٧).

وقال أيضًا: قوله: "إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه" أي: إن طعنتم فيه فأخبركم بأنكم طعنتم من قبل في أبيه والتقدير: إن تطعنوا في إمارته فقد أثمتم بذلك؛ لأن طعنكم بذلك ليس حقًا كما كنتم تطعنون في إمارة أبيه وظهرت كفايته وصلاحيته للإمارة، وأنه كان مستحقًا لها، فلم يكن لطعنكم مستند؛ فلذلك لا اعتبار بطعنكم في إمارة ولده ولا التفات إليه(١).

٣- سرور النبي ﷺ بما يسر زيد بن حارثة ويطمئنه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عَلَيَّ قَائِفٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ شَاهِدٌ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مُضْطَجِعَانِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، قَالَ: فَسُرَّ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَعْجَبَهُ فَأَخْبَرَ بِهِ عَائِشَةَ.»(٢)

وقال ابن جبرين: والحاصل أنه ﷺ كان يحبه، وقد تزوج أولًا بـأم أيمن، وكانت أيضًا مولاة للنبي ﷺ، وكانت سوداء، وزيد لونه أبيض أو أحمر، فولدت له أسامة، وكان لون أسامة أسود، فطعن الناس في نسبه وقالوا: كيف يكون الأب أبيض، والولد أسود؟ يمكن أنه ليس منه، يمكن أنه من زنا، فطعنوا في نسبه، ومعروف أنه ينسب إلى أبيه الذي هو صاحب الفراش، ومعروف أن زيدًا رضي الله عنه من السابقين الأولين، وأنه لا يمكن أن يتبنى من ليس ابنًا له، ومعروف أيضًا أن أم أيمن التي هي أم أسامة من السابقات، ومن المؤمنات، ومن العفيفات، فهي بعيدة عن فعل الفاحشة، ولكن كان لونها أسود فصادف أن الولد صار لونه كلونها، وهو أسامة رضي الله عنه، وقد رزق أيضًا محبة النبي ﷺ، فكان يسمى الحب ابن الحب، كان يحبه ويحب أباه، وقال لما أمَّره على الجيش الذي أراد أن يبعثه إلى الشام وطعنوا في إمارته: " إنه لمن أحب الناس إلي -يعني: زيدًا - وإن هذا -يعني: ولده- لمن أحب الناس إلي بعده".

فلما كان يحبهما كان حريصًا على إبطال الشبهة التي يطعن بها فيهما، وفي نسب أسامة، وأنه ليس ابنًا لأبيه، فجاء هذا القائف، وبنو مدلج يعرفون بالقيافة، والقيافة: هي معرفة الشبه،

---

(١) فتح الباري (١٣/ ١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٢٥).

بحيث إن أحدهم يعرف الإنسان ويعرف ولده ولو لم يكن بينهما تماثل في الألوان، فنظر إليهما مجزز وقد غطيا وجوههما، وغطيا رءوسهما في لحاف، وبدت أقدامهما، هذا أقدامه حمر وهذا أقدامه سود، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، يعني: أن هذا ولد هذا أو جده أو نحوه، ففرح النبي ﷺ بهذا؛ ليكون مبطلًا لقول من طعن في نسب أسامة، حيث إن هذا القائف معروف بالصدق والذكاء وبالقيافة، ومعرفة الشبه، هو وأسرته وقبيلته[1].

٤- قول عمر ﷺ: إن زيدًا أحب إلى الرسول ﷺ منه.

عن عمر: أنه فرض لأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة وفرض لعبد الله بن عمر في ثلاثة آلاف قال عبد الله بن عمر لأبيه: لم فضلت أسامة عَلَيَّ؟ فو الله ما سبقني إلى مشهد! قال: لأن زيدًا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله ﷺ منك فآثرت حب رسول الله ﷺ على حبي.[2]

٥-شهادة النبي ﷺ له بالشهادة وهي شهادة بالجنة.

عن عبد الله بن جعفر قال: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ جَيْشًا اسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، وَقَالَ: " فَإِنْ قُتِلَ زَيْدٌ أَوْ اسْتُشْهِدَ؛ فَأَمِيرُكُمْ جَعْفَرٌ، فَإِنْ قُتِلَ أَوْ اسْتُشْهِدَ؛ فَأَمِيرُكُمْ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ "، فَلَقُوا الْعَدُوّ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ الله عَلَيْهِ، وَأَتَى خَبَرُهُمْ النَّبِيَّ ﷺ، فخَرَجَ إِلَى النَّاسِ، "فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عَلَيْهِ"، وَقَالَ: "إِنَّ إِخْوَانَكُمْ لَقُوا الْعَدُوَّ، وَإِنَّ زَيْدًا أَخَذَ الرَّايَةَ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الله خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ فَفَتَحَ الله عَلَيْهِ فَأَمْهَلَ ثُمَّ أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرٍ ثَلَاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ ثُمَّ أَتَاهُمْ، فَقَالَ: " لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ، ادْعُوا لِي ابْنَيْ أَخِي"، قَالَ: فَجِيءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ، فَقَالَ: "ادْعُوا إِلَيَّ الْحَلَّاقَ فَجِيءَ "

---

(١) شرح عمدة الأحكام لابن جبرين.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨١٣)، وقال: حسن غريب.

بِالْحَلَّاقِ فَحَلَقَ رُءُوسَنَا ثُمَّ قَالَ: "أَمَّا مُحَمَّدٌ فَشَبِيهُ عَمِّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُ الله فَشَبِيهُ خَلْقِي وَخُلُقِي"، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَشَالَهَا، فَقَالَ: " اللهمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ الله فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ"، قَالَهَا ثَلَاثَ مِرَارٍ، قَالَ: فَجَاءَتْ أُمُّنَا فَذَكَرَتْ لَهُ يُتْمَنَا وَجَعَلَتْ تُفْرِحُ لَهُ، فَقَالَ: " الْعَيْلَةَ تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا وَلِيُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"(١).

المسألة الثانية: قولهم إنه ذهب لبيت زيد فلم يجده ووقعت عينه على امرأته فوقعت في قلبه، فهذا كلام من لم يعرف رسول الله ﷺ ولم يعرف قرابة زينب له من صغرها.

والرد على ذلك من وجوه

الوجه الأول: في بيان من هي زينب بنت جحش رضي الله عنها وهل كانت غريبة غائبة عن رسول الله ﷺ قبل ذلك؟

اسمها ونسبها: قال أبو نعيم: زينب بنت جحش بن رئاب بن أسد بن خزيمة أمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، عمة النبي ﷺ، كانت من المهاجرات، تزوجها بالمدينة بعد سنة ثلاث من الهجرة وهي أول نسائه لحوقًا به ﷺ، توفيت سنة عشرين من الهجرة، كانت قبله تحت زيد بن حارثة يعلّمها كتاب ربها وسنة نبيّها، وكانت من سادة النساء، دينًا وورعًا وجودًا ومعروفًا، رضي الله عنها، وحديثها في الكتب الستة، ثم زوّجها الله منه – أي من النبي ﷺ – من فوق سبع سموات بشهادة جبريل، وكانت أوّاهة كثيرة الخير والصدقة، وَصُولة لرحمها، بذولة لمالها، طويلة اليدين بالصدقة، تفتخر على أزواج النبي ﷺ بأن الله ﷻ زوّجها إياه، أولَم عليها رسول الله ﷺ وليمة أشبع المسلمين فيها خبزًا ولحمًا، وفي شأنها ووليمتها نزلت آية الحجاب، كان عطاؤها الذي فرضها عمر لأزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفًا، فلما حمل إليها أول عطاء لعمر فرّقته في ذوي قرابتها وأيتامها، ثم قالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد هذا، فماتت وصلى عليها عمر بن الخطاب، ودخل قبرها أسامة بن زيد، ومحمد بن عبد الله بن جحش، وعبد الله بن أبي أحمد(٢)، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله، وأول من صُنع لها نعشُ الجنازة، ودفنت بالبقيع(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٤)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز صـ ٦٦.

(٢) هو ابن أخ السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، انظر: تهذيب الكمال ١٤/ ٢٩٢.

(٣) معرفة الصحابة لأبي نعيم ترجمة زينب بنت جحش رضي الله عنها ٢٢/ ٢٩٨.

وقيل: إن النبي ﷺ تزوج بزينب في ذي القعدة سنة خمس، وهي يومئذ بنت خمس وعشرين سنة[١].

قال القشيرى: وهذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي ﷺ وبفضله وكيف يقال رآها فأعجبته وهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ وهو زوَّجها لزيد؟ [٢]

فعلم مما مر أنها ابنة عمة النبي ﷺ، وأنها من المهاجرات الأول؛ فلو كانت له فيها رغبة أو هوى فما الذي منعه حتى زوّجها لزيد؟! وسيأتي أنه ﷺ هو الذي خطبها لزيد، وليس ذلك طعنًا فيها؛ ولذلك نذكر بعض فضائلها رضي الله عنها.

فضائلها:

١-زوّجها الله نبيه ﷺ من فوق سبع سموات. وهي التي يقول الله فيها: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ (الأحزاب: ٣٧) فزّوجها الله تعالى بنبيه ﷺ بنصّ كتابه، بلا وليّ ولا شاهد.

فكانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين، وتقول: زوّجكن أهاليكن وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات. [٣]

٢-وهي التي كان النبي ﷺ يقول: "أسرعكن لحوقًابي أطولكن يدًا". وإنما عنى طول يدها بالمعروف.

فعن عائشة رضي الله عنها: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِى أَطْوَلُكُنَّ يَدًا"قَالَتْ فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أَطْوَلُ يَدًا، قَالَتْ فَكَانَتْ أَطْوَلَنَا يَدًا زَيْنَبُ لأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ[٤].

---

(١) الإصابة (٧/ ٦٦٧).

(٢) الشفا (٢/ ١٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٨٤).

(٤) مسلم (٢٤٥٢).

ولفظه عند الحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: " أسرعكن لحوقًا بي أطولكن يدًا "، قالت عائشة: فكنّا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمدّ أيدينا في الجدّار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة قال: وكانت زينب امرأة صنّاعة اليد؛ فكانت تدبغ وتخرز وتصدّق في سبيل الله ﷻ.

فبشرها بسرعة لحوقها به، وهي زوجته في الجنة رضي الله عنها [1].

٣- ثناء عائشة عليها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت في زينب بنت جحش: وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قطّ خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرّب به إلى الله تعالى ما عدا سَوْرة من حِدّة كانت فيها تسرع منها الفيئة. [2]

٤- شرب النبي ﷺ العسل عندها، فعن عائشة أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب ابنت جحش رضي الله عنها، ويشرب عندها عسلًا، وهذا إكرام للنبي ﷺ في ليلة غيرها، فتواصيت أنا وحفصة أن أيّتُنا دخل عليها، فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير! أكلت مغافير! فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، قال: بل شربت عسلًا عند زينب، ولن أعود له، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ (التحريم: ١) إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: حفصة، وعائشة. ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ لِقَوْلِهِ: "بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا". [3]

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤٢)

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٦٦)

٥- ورعها في حديث الإفك حتى شهدت لها عائشة بقولها: وأما زينب، فعصمها الله بورعها، وأما أختها حمنة فانطلقت تحارب لها فهلكت فيمن هلك تعني أقيم عليها الحد[1].

٦- تعظيمها لأمر الله ورسوله كما في قصة زواجها من زيد بن حارثة، وسيأتي بيانه.

٧- نزول الحجاب ليلة الدخول بها.

عن أنس رضي الله عنه قال: بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا فيجيء قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يجيء قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو فَقُلْتُ: يا نبي الله مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ قَالَ: " ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ "، وَبَقِيَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النبي ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ: " السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ الله ". فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ الله، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ الله لَكَ فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ، يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النبي ﷺ؛ فَإِذَا ثَلاثَةُ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِي ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَمَا أَدْرِي آخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً، أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ[2].

وفي هذه الواقعة نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٣)

(١) البخاري (٣٩١٠)

(٢) أخرجه البخاري (٤٥١٥)، ومسلم (١٤٢٨).

٨- شدة امتثالها لأمر رسول الله ﷺ.

فعن زينب بنت أبي سلمة أخبرته قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا"؛ ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها فدعت بطيب فمست به ثم قالت: ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا"[١].

٩- متابعتها للنبي ﷺ ومنافستها لغيرها في الخيرات.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان فكنت أضرب له خباء فيصلي الصبح؛ ثم يدخله فاستأذنت حفصة عائشة أن تضرب خباء فأذنت لها، فضربت خباء، فلما رأته زينب ابنة جحش ضربت خباء آخر، فلما أصبح النبي ﷺ رأى الأخبية فقال: " ما هذا؟ " فأخبر؛ فقال النبي ﷺ: " آلبر تردن بهذا؟ " فترك الاعتكاف ذلك الشهر ثم اعتكف عشرًا من شوال[٢].

١٠-خوفها وحرصها على التعلم.

فعن أم حبيبة بنت أبي سفيان- عن زينب بنت جحش رضي الله عنهن أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: "لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها"، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثر الخبث"[٣].

وفاتها: توفيت في سنة عشرين، وصلى عليها عمر رضي الله عنه.[٤]

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٢٨).

(٣) البخاري (٣٥٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٨).

الوجه الثاني: كيف تم زواج زيد من زينب؟ ولماذا لم يتزوجها رسول الله ﷺ من أول الأمر؟

أما عن كيفية إتمام الزواج فقد كان بأمر الله ورسوله؛ وقد سبق أن ذكرنا أن زيدًا كان مولىً، وكانت زينب سيدة شريفة، ولذلك لما خطبها النبي ﷺ لزيد أبدت عدم الموافقة مبدئيًا بقولها: أؤامر نفسي فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦) فلما نزلت الآية رجعت عن مشاورة نفسها وعظمت أمر الله ورسوله، ولو كان على خلاف هواها.

قال ابن كثير: عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: "بل فانكحيه". قالت: يا رسول الله، أؤامر في نفسي، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ الآية، قالت: قد رضيته لي منكحًا يا رسول الله؟ قال: "نعم". قالت: إذًا لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي.(1)

قال السعدي: أي: لا ينبغي ولا يليق، ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحتّما به وألزما به ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول ﷺ أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ أي: بيّنًا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها، من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولا السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٥.

التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والنكال.

وأما لماذا لم يتزوجها رسول الله ﷺ من أول الأمر؟ فرسول الله ﷺ لم يكن يرى زينب للمرة الأولى، فهي بنت عمته، ولقد شاهدها منذ ولدت، وحتى أصبحت شابة، أي شاهدها مرات عديدة، فلم تكن رؤيته لها مفاجأة، كما تصور القصة الكاذبة! ولو كان رسول الله ﷺ يحمل أي ميل نحو زينب رضي الله عنها لتقدم بزواجها، وقد كان هذا أملها، وأمل أخيها حين جاء ﷺ يخطبها منه، فلما صرح لهما بزيد، أبيًا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦) فقالا: رضينا بأمر الله ورسوله، وكانت هذه الآية توطئة وتمهيدًا لما ستقرره الآيات التالية لها من حكم شرعي يجب على المؤمنين الانصياع له، وامتثاله والعمل به، وتقبّله بنفس راضية، وقلب مطمئن، وتسليم كامل.[1]

وخلاصة هذا الوجه أن زواجها من زيد كان بأمر الله ورسوله ﷺ وكان فيه توطئة لتحريم التبني لكي يكون البدأ برسول الله ﷺ.

الوجه الثالث: أن قولهم رآها فوقعت في قلبه أو أعجبته، إما أن يكون رآها قبل الدخول حالة الاستئذان، وإما أن يكون دخل وكلاهما باطل.

أما الأول فلأنه ﷺ علمنا أن للاستئذان آدابٌ منها:

النهي عن أن يطلع الإنسان في دار قبل أن يستأذن. كما قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (النور: ٢٧-٢٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حل

(١) رد الشبهات حول عصمة النبي ﷺ لعماد الشربيني (صـ٢٥٦).

لهم أن يفقؤوا عينه"[١].

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلًا اطّلع من بعض حجر النبي ﷺ، فقام إليه النبي ﷺ بمشقص أو بمشاقص[٢]، فكأني أنظر إليه يختل[٣] الرجل ليطعنه[٤].

وأما أن يكون دخل بغير استئذان: حتى اطلع على أهل البيت وهي تغتسل كما في الرواية المكذوبة: فهذا أبطل من الأول، وكيف ذلك وهو الذي قال: " إياكم والدخول على النساء ". فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: "الحموَ الموت".[٥]

قال ابن حجر: قوله" إياكم والدخول" بالنصب على التحذير، وهو تنبيه المخاطب على محذور ليحترز عنه كما قيل: إياك والأسد، وتقدير الكلام: اتقوا أنفسكم أن تدخلوا على النساء، والنساء أن يدخلن عليكم، ووقع في رواية ابن وهب بلفظ "لا تدخلوا على النساء " وتضمن منع الدخول منع الخلوة بها بطريق الأولى: قوله: فقال: رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو، زاد ابن وهب في روايته عند مسلم سمعت الليث يقول: الحمو أخو الزوج، وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه، ووقع عند الترمذي بعد تخريج الحديث قال الترمذي: يقال هو أخو الزوج كره له أن يخلو بها قال: ومعنى الحديث على نحو ما ورد" لا يخلون رجل بامرأة؛ فإن ثالثهما الشيطان"[٦].

وقال النووي: اتفق أهل العلم باللغة على أن الأحماء أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه ونحوهم، وأن الأختان أقارب زوجة الرجل، وأن الأصهار

---

(١) رواه مسلم (٢١٥٨).

(٢) (المشقص): بكسر الميم بعدها شين معجمة ساكنة وقاف مفتوحة: هو السهم له نصل عريض، وقيل: طويل. وقيل: هو النصل العريض نفسه. وقيل: الطويل.

(٣) (يختله): بكسر التاء المثناة فوق، أي: يخدعه ويراوغه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٨٨).

(٥) أخرجه البخاري (٤٩٣٤).

(٦) رواه أحمد١/ ٢٦(١٧٧) بلفظه، والبخاري (٢٨٤٤)، ومسلم (١٣٤١) بمعناه عن ابن عباس.

تقع على النوعين[١].

وقال أيضًا: المراد أن الخلوة بقريب الزوج أكثر من الخلوة بغيره، والشر يتوقع منه أكثر من غيره، والفتنة به أمكن لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها من غير نكير عليه، بخلاف الأجنبي، وقال عياض: معناه أن الخلوة بالأحماء مؤدية إلى الفتنة والهلاك في الدين، فجعله كهلاك الموت وأورد الكلام مورد التغليظ.

وقال القرطبي: المعنى أن دخول قريب الزوج على امرأة الزوج يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة، أي فهو محرم معلوم التحريم، وإنما بالغ في الزجر عنه، وشبهه بالموت لتسامح الناس به من جهة الزوج والزوجة لإلفهم بذلك؛ حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة؛ فخرج هذا مخرج قول العرب (الأسد الموت والحرب الموت) أي لقاؤه يفضي إلى الموت، وكذلك دخوله على المرأة قد يفضي إلى موت الدين، أو إلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج أو إلى الرجم إن وقعت الفاحشة[٢].

قال ابن عبد البر: بعد ذكر الآثار في معنى هذا: وهذه آثار ثابتة بالنهي عن ذلك ومحال أن يأتي رسول ﷺ ما ينهى عنه. [٣]

الوجه الرابع: أن هذا الفعل فيه خيانة قلبية، وقد نفى النبي ﷺ عن نفسه خائنة الأعين، وهو من التطلع إلى ما متع به غيره وهو من الحسد المذموم.

قال أبو بكر بن العربي: الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه: ١٣١)، وأعظم ما يمتع به النساء، وهو يخبر عن نفسه وجنسه الكرام: " ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين "[٤]، وهي

(١) شرح النووي١٤/ ١٥٤.

(٢) فتح الباري (٩/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) التمهيد (١/ ٢٢٨).

(٤) رواه الحاكم (٤٣٦٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٢٦).

الإظهار خلاف الإضمار، هذا في الأمر المكشوف، فكيف تكون له خائنة في قلب في تعلق أصل تزوجه أحد؟!

والحسد المذموم، هو تمني زوال النعمة من العبد إليك، وهي معصية عظيمة، فكيف يستجيز مسلم ظن ذلك بكبار الصحابة؟! فكيف بسيد المرسلين؟

وقال ابن دحية: وهذا مخالف للقرآن مفسد للإيمان، فقد نهى الله سيد المرسلين، فقال في كتابه المبين: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية. وهذا إقدام عظيم وقلة معرفة بحق هذا النبي الكريمﷺ، وكيف يقال: رآها فأعجبته؟ وهذا نفس الحسد المذموم وما أقرب قائله من نار جهنم، ألم تكن بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت إلى أن كبرت، فزوجها من زيد مولاه، فما أجسر راوي هذا الخبر على الله، وما أجرأه! وجميع النسوان لم يكنّ يحتجبن من رسول الله ﷺ وكذلك أزواجه، إلى أن نزلت آية الحجاب فحجبْن وجوههن عن عيون الناس أجمعين. [1]

وقال القاضي عياض: ولو كان على ما روي في حديث قتادة من وقوعها من قلب النبي ﷺ عندما أعجبته ومحبته طلاق زيد لها؛ لكان فيه أعظم الحرج وما لا يليق به من مد عينيه لما نهي عنه من زهرة الحياة الدنيا؛ ولكان هذا نفس الحسد المذموم الذي لا يرضاه ولا يتسم به الأتقياء فكيف بسيد الأنبياءﷺ؟. [2]

الوجه الخامس: في بيان السبب الحقيقي في طلاقها من زيد رضي الله عنه.

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو؛ فجعل النبي ﷺ يقول: "اتق الله وأمسك عليك زوجك". قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات.

وعن ثابت: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾نزلت في شأن زينب وزيد ابن حارثة. [3]

---

(١) نقلًا عن البدر المنير (٧/ ٤٧١) لابن الملقن.

(٢) الشفا (٢/ ١٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٨٤).

فقوله: جاء زيد بن حارثة يشكو أي: جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو زوجه زينب ويستشيره في طلاقها؛ لأنها كانت تترفع عليه، وتقابله ببعض الكلام غير المناسب؛ لحدّة كانت فيها، كما روى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: في قوله تعالى: ﴿تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ قال: أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم عليه النبي ﷺ بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ قال قتادة: جاء زيدٌ إلى النبي ﷺ فقال: إن زينب اشتد عليّ لسانها، وإني أريد أن أطلقها؛ فقال النبي ﷺ: " اتق الله وأمسك عليك زوجك"، والنبي ﷺ يحبّ أن يطلقها، وخشي مقالة الناس إن أمره بطلاقها فأنزل الله ﷻ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ قال: لما طلقها زيد ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.[(١)]

فعلم أن السبب في طلاق زيد لزينب ومن ثم زواج النبي ﷺ منها؛ هو ما كان بين زيد وبين زينب من خلافات، وأنه لم يكن بينهما وئام يؤمل معه أن تبقى الحياة الزوجية بينهما، فطلقها بمحض اختياره، ورغبته، وكان رسول الله ﷺ ينهاه عن ذلك، وقد كان الله ﷻ قد أعلم نبيه ﷺ أن زيدًا سيطلق زينب، وأنه ستكون زوجة له، وأنه ﷺ كان يخفي هذا ويخشى من مقولة الناس، أنه تزوج مطلقة من كان يُدعا إليه، فعاتبه ربه على ذلك.[(٢)]

قال ابن عاشور: والظاهر عندي: أن ذلك كان في الرؤيا كما أنه قال لعائشة: " أتاني بك الملك في المنام في سرقة من حرير يقول لي: هذه امرأتك فأكشف فإذا هي أنت فأقول: " إن يكن هذا من عند لله يمضه ".[(٣)]

فقول النبي ﷺ لزيد: " أمسك عليك زوجك " توفية بحق النصيحة وهو أمر نصح وإشارة بخير- لا أمر تشريع - لأن الرسول ﷺ في هذا المقام متصرف بحق الولاء والصحبة، لا بصفة التشريع والرسالة، وأداء هذه الأمانة لا يتأكد أنه كان يعلم أن زينب

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢٢٦٦) والطبراني (٢٤/ ٤١) في الكبير، وإسناده صحيح.
(٢) انظر: جامع البيان للطبري (٢٢/ ١١)، فتح الباري (٨/ ٥٢٤).
(٣) رواه البخاري (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٤٣٨).

صائرة زوجًا له؛ لأن علم النبيّ بما سيكون لا يقتضي إجراؤه وإرشاده، أو تشريعه بخلاف علمه أو ظنه؛ فإن النبي ﷺ كان يعلم أن أبا جهل مثلًا لا يؤمن ولم يمنعه ذلك أن يبلغه الرسالة ويعاوده الدعوة، ولأن رغبته في حصول شيء لا تقتضي إجراء أمره على حسب رغبته إن كانت رغبته تخالف ما يحمل الناس عليه.

ولذلك كله لا يعدّ تصميم زيد على طلاق زينب عصيانًا للنبي ﷺ؛ لأن أمره في ذلك كان على وجه التوفيق بينه وبين زوجه، ولا يلزم أحدًا المصير إلى إشارة المشير. (١)

الوجه السادس: أن الله هو الذي زوجها لرسول الله ﷺ.

قال ابن كثير: وكان الذي وَلِي تزويجها منه هو الله ﷻ بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.

و عن أنس ﷺ قال: لما انقضت عدة زينب ﵂ قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: اذهب فاذكرها عليّ؛ فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها، فولّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي ﷻ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. (٢)

فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات. (٣)

وعن زينب بنت جحش قالت: خطبني عدة من قريش فأرسلت أختي حمنة إلى رسول الله ﷺ أستشيره، فقال لها رسول الله ﷺ: " أين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها؟ " قالت: ومن هو يا رسول الله؟ قال زيد بن حارثة قال: فغضبت حمنة غضبًا شديدًا وقالت:

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٧، والحديث أخرجه مسلم (١٤٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٨٤)

يا رسول الله أَتَزَوَّجُ بنت عمك مولاك؟ قالت: جاءتني فأعلمتني فغضبت أشدّ من غضبها، وقلت أشد من قولها فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قالت: فأرسلت إلى رسول الله ﷺ وقلت: إني استغفر الله وأطيع الله ورسوله، افعل ما رأيت فزوجني زيدًا، وكنت أرثى عليه، فشكاني إلى رسول الله ﷺ فعاتبني رسول الله ﷺ، ثم عدت فأخذته بلساني فشكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "أمسك عليك زوجك واتق الله فقال: يا رسول الله أنا أطلقها قالت: فطلقني؛ فلما انقضت عدتي لم أعلم إلا رسول الله ﷺ قد دخل عليّ ببيتي، وأنا مكشوفة الشعر؛ فقلت: إنه أمر من السماء فقلت: يا رسول الله بلا خطبة ولا إشهاد؟ فقال: الله المزوج وجبريل الشاهد.(١)

الوجه السابع: بيان الحكمة في زواج رسول الله ﷺ منها مع أن النساء سواها كثير. وهذه الحكمة هي رفع الحرج من صدور المؤمنين في زواج نساء الأدعياء

لما أراد الله أن يحرم التبني بدأ في بيان ذلك بنبيه ﷺ مع زوجة متبناه زيد بن حارثة رضي الله عنه؛ وقد أعلمه الله أن ذلك سيكون، وكان مقدم ذلك أن وقع بين زينب وزوجها شيء من النزاع؛ فجاء يستأذن النبي ﷺ في طلاقها؛ فقال له النبي ﷺ: "أمسك عليك زوجك واتق الله"؛ فعاتبه الله في ذلك؛ لأنه أخفى ما أعلمه الله به وفرضه عليه من زواج زينب رضي الله عنها خشية من كلام الناس، وها هو نص الآية قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا.** أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٩)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٣٦) كلاهما من طريق حفص بن سليمان الأسدي، عن الكميت بن زيد الأسدي قال: حدثني مذكور مولى زينب بنت جحش عن زينب به. ومن طريق الطبراني أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٥٢)، وهذا إسناد فيه حفص بن سليمان القارئ، وهو متروك الحديث مع إمامته في القراءة كما في التقريب ١/ ١٧٢؛ لكن قال البيهقي: وهذا وإن كان إسناده لا تقوم بمثله حجة؛ فمشهور أن زينب بنت جحش وهي من بني أسد بن خزيمة، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله ﷺ كانت عند زيد بن حارثة حتى طلقها ثم تزوج رسول الله ﷺ بها - وكذا في الحديث: ابنة عمك، والصواب: ابنة عمتك. اهـ

وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

قال علماؤنا: وكان سبب نزول هذه الآيات، أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه، وأن أزواجهم، لا جناح على من تبنّاهم، في نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولًا من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمرًا، جعل له سببًا، وكان زيد بن حارثة يدعى (زيد بن محمد) قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ فقيل له: (زيد بن حارثة) وكانت تحته، زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول الله ﷺ، ثم قدر الله أن يكون بينها وبين زيد، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ بالعتق حين جاءك مشاورًا في فراقها: فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة؛ فإن التقوى، تحث على الصبر، وتأمر به، ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ ﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد، لتزوجها ﷺ. كما أخبره الله ﷻ، ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك من أمر الله ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ وأن لا تباليهم شيئًا، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا ﴾ أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها، ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا ﴾ وإنما فعلنا ذلك، لفائدة عظيمة، وهي: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ ﴾ حيث رأوك تزوجت، زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل، ينتسب إليك، ولما كان قوله: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ ﴾ عامًا في جميع الأحوال، ولما كان من الأحوال، ما لا يجوز

فيه ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

ويتلخص مما تقدم: أن زواج الرسول ﷺ بزينب الأسدية كان لغرض تشريعي، وغاية اجتماعية ألا وهي إبطال عادة التبنّي.

الوجه الثامن: بيان المعنى الصحيح لمتعلق الخشية، وما الذي أخفاه النبيﷺ.

وليس معنى الخشية هنا الخوف وإنما معناه الاستحياء أي يستحيى منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته ﷺ من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان؛ فعتبه الله على هذا، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له. [1]

عن علي بن زيد بن جُدْعان قال: سألني علي بن الحسين ما يقول الحسن في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ فذكرت له فقال: لا ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: " اتق الله، وأمسك عليك زوجك ". فقال: قد أخبرتك أني مُزَوّجكها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه.

وقد أخرج بن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقًا واضحًا حسنًا، ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه؛ فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيدًا[2].

---

(١) الشفا (٢/ ١٩٠).

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٢٣).

قال القرطبي: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين(١).

وقال ابن حجر: والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه؛ وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابنًا ووقوع ذلك من إمام المسلمين؛ ليكون أدعى لقبولهم؛ وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية. (٢)

الوجه التاسع: أنه لو أخفى حبها وعشقها لأبداه الله؛ لأن الله قال: ﴿وَتُخْفِى فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فلما لم يبده الله علم أنه لم يكن.

قال الشنقيطي: من أنواع البيان التي تضمّنها بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام في صلة موصول، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: : ﴿وَتُخْفِى فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾؛ لأن جملة: ﴿ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ صلة الموصول الذي هو ﴿مَا﴾، وقد قلنا في الترجمة المذكورة: فإنه هنا أبهم هذا الذي أخفاه ﷺ في نفسه وأبداه الله، ولكنه أشار إلى أن المراد به زواجه ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها، حيث أوحى إليه ذلك، وهي في ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة؛ لأن زواجه إياها هو الذي أبداه الله بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، وهذا هو التحقيق في معنى الآية الذي دلَّ عليه القرآن، وهو اللائق بجنابه ﷺ، وبه تعلم أن ما يقوله كثير من المفسّرين من أن ما أخفاه في نفسه ﷺ وأبداه الله وقوع زينب في قلبه ومحبّته لها، وهي تحت زيد، وأنها سمعته، قال: "سبحان مقلب القلوب" إلى آخر القصّة، كله لا صحة له، والدليل عليه أن الله لم يبدِ من ذلك شيئًا، مع أنه صرّح بأنه مبدي ما أخفاه رسول الله ﷺ.

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ١٦٦.

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٢٤) ونقله عنه الشيخ محمد بن يوسف الصالحي الشامي ثم قال معجبًا بما قرره الحافظ: فرضي الله تعالى عن هذا الحافظ، وقدس روحه، ونور ضريحه. اهـ من سبل الهدى والرشاد (١٠/ ٤٤٠).

ثم قال رحمه الله: التحقيق إن شاء الله في هذه المسألة، هو ما ذكرنا أن القرآن دلَّ عليه، وهو أن الله أعلم نبيّه ﷺ بأن زيدًا يطلّق زينب، وأنه يزوّجها إيّاه ﷺ، وهي في ذلك الوقت تحت زيد، فلما شكاها زيد إليه ﷺ قال له: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، فعاتبه الله على قوله: "أمسك عليك زوجك" بعد علمه أنها ستصير زوجته هو ﷺ، وخشي مقالة الناس أن يقولوا: لو أظهر ما علم من تزويجه إياها أنه يريد تزويج زوجة ابنه في الوقت الذي هي فيه في عصمة زيد.

والدليل على هذا أمران:

الأول: هو ما قدّمنا من أن الله ﷻ، قال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهذا الذي أبداه الله جلَّ وعلا، هو زواجه إياها في قوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾، ولم يبدِ جلَّ وعلا شيئًا ممّا زعموه أنه أحبّها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى، كما ترى.

الثاني: أن الله جلَّ وعلا صرّح بأنه هو الذي زوّجه إياها، وأن الحكمة الإلهية في ذلك التزويج هي قطع تحريم أزواج الأدعياء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، فقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، تعليل صريح لتزويجه إياها لما ذكرنا، وكون الله هو الذي زوّجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو محبّته لها التي كانت سببًا في طلاق زيد لها كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الآية؛ لأنه يدلّ على أن زيدًا قضى وطره منها، ولم تبقَ له بها حاجة، فطلّقها باختياره، والعلم عند الله تعالى[1].

الوجه العاشر: ذكر هذه الروايات الباطلة وبيان وجه البطلان سندًا ومتنًا.

وخلاصة هذه الروايات المكذوبة هي: أن النبي ﷺ رأى زينب فجأة وهي في ثياب

---

(١) أضواء البيان (سورة الأحزاب: ٣٧).

المنزل فأعجبته، ووقع في قلبه حبها، فتكلم بكلام يفهم منه ذلك، إذ سمعه زيد فبادر إلى طلاقها تحقيقًا لرغبة رسول الله ﷺ، وأن زيدًا شاوره في طلاقها، وكان رسول الله ﷺ ينهاه عن ذلك، لكن في قلبه ضد هذا، وأنه كان راغبًا في طلاق زيد لها ليتزوجها، وفوق ذلك فقد أقر الله رسوله ﷺ على ما فعل، بل عاتبه لِمَ يخفي هذا والله سيبديه.

ورغم شناعة ما جاء في هذه الروايات، وهذا الفهم للآية الكريمة التي تتحدث عن طلاق زيد لزينب وزواج النبي ﷺ بها، إلا أنه قد جاز على أئمة فضلاء، ففسروا به الآية الكريمة، وأثبتوا ذلك صراحة في كتبهم وتفاسيرهم[1].

وأحسن ما يعتذر به عن هؤلاء الأئمة وأتباعهم ممن ذهب يفسر الآية بهذا، أنهم عدّوا هذا منه ﷺ من عوارض البشرية، كالغضب والنسيان، ولكنهم لم يستحضروا شناعة هذا التفسير للآية، ونسبة ذلك لرسول الله ﷺ، ولم يدققوا في الروايات التي وصلتهم من جهة أسانيدها ومتونها كما فعل غيرهم، ونحن نسأل الله أن يثيبهم على اجتهادهم وأن يغفر لهم.

الرواية الأولى: عن محمد بن يحيى بن حبان، قال: جاء رسول الله ﷺ بيت زيد بن حارثة يطلبه، وكان زيد إنما يقال له: زيد بن محمد، فربما فقده رسول الله ﷺ الساعة فيقول: "أين زيد؟ " فجاء منزله يطلبه، فلم يجده، وتقوم إليه زينب بنت جحش زوجته فُضُلًا -أي وهي لابسة ثياب نومها -، فأعرض رسول الله ﷺ عنها، فقالت: ليس هو هاهنا يا رسول الله فادخل بأبي أنت وأمي، فأبى رسول الله ﷺ أن يدخل، وإنما عجلت أن تلبس لما قيل لها: رسول الله ﷺ على الباب فوثبت عجلي، فأعجبت رسول الله ﷺ، فولى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم منه إلا: سبحان مصرّف القلوب، فجاء زيد إلى منزله، فأخبرته امرأته أن رسول الله ﷺ أتى منزله، فقال زيد: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: قد

(١) ومن هؤلاء الأئمة: ابن جرير الطبري في كتابه جامع البيان (٢٢/ ١٢)، عند تفسيره الآية ولم يذكر غيره. ومنهم: الرازي في تفسيره (١٣/ ١٨٤)، حيث ذكر نحوًا من كلام ابن جرير ومنهم: ابن القيم في كتابه الجواب الكافي (ص ٢٤٧)، حيث ذكره في معرض سوقه لحكايات في عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام. ومنهم: الزمخشري في تفسيره (٣/ ٢٦٢).

عرضت ذلك عليه فأبى، قال: فسمعت شيئًا؟ قالت: سمعته يقول حين ولّى تكلم بكلام لا أفهمه، وسمعته يقول: "سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب "، فجاء زيد حتى أتى رسول اللهﷺ، فقال: يا رسول الله بلغني أنك جئت منزلي فهلّا دخلت بأبي وأمي يا رسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها؟ فيقول رسول الله: "أمسك عليك زوجك"، فما استطاع زيد إليها سبيلًا بعد ذلك اليوم، فيأتي إلى رسول الله ﷺ فيخبره، فيقول رسول اللهﷺ: "أمسك عليك زوجك"، فيقول: يا رسول الله أفارقها، فيقول رسول اللهﷺ: "احبس عليك زوجك"، ففارقها زيد واعتزلها وحلّت - يعني انقضت عدتها- قال: فبينا رسول الله ﷺ جالس يتحدث مع عائشة، إلى أن أخذت رسول الله ﷺ غشية، فسرّي عنه وهو يبتسم، وهو يقول: "من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله قد زوجنيها من السماء؟ وتلا رسول الله ﷺ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ . . ﴾" الآية، القصة كلها.

قالت عائشة: فأخذني ما قرب وما بعد لما يبلغنا من جمالها، وأخرى هي أعظم الأمور وأشرفها ما صنع الله لها، زوجها الله من السماء، وقلت: هي تفخر علينا بهذا، قالت عائشة: فخرجت سلمى خادم رسول الله ﷺ تشتدّ فتحدّثها بذلك، فأعطتها أوضاحًا- حُلِيّ من الفضة عليها. (١)

---

(١) موضوع. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ١٠١) وابن جرير في تاريخه (٣/ ١٦١) من طريق محمد ابن عمر قال: حدثني عبد الله بن عامر الأسلمي، عن محمد بن يحيى بن حبان به.

وإسناد هذه الرواية فيه علل ثلاث، واحدة منها تكفي لرد هذه الرواية:

العلة الأولى: أنها مرسلة، فمحمد بن يحيى بن حبان تابعي، يروي عن الصحابة، ويروي أيضًا عن التابعين، كعمر بن سليم والأعرج، وغيرهما، (تـ١٢١هـ) وعمره (٧٤ سنة) وعلى هذا فمولده في نحو سنة (٤٧)، فهو لم يدرك القصة قطعًا ولم يذكر من حدثه بها. التهذيب (٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

العلة الثانية: عبد الله بن عامر الأسلمي، ضعيف بالاتفاق، بل قال فيه البخاري: ذاهب الحديث، وقال أبو حاتم: متروك. التهذيب (٥/ ٢٤١)، وميزان الاعتدال (٢/ ٤٤٨).

الرواية الثانية: قال ابن زيد: كان النبي ﷺ قد زوّج زيد بن حارثة زينب بنت جحش بنت عمته، فخرج رسول الله ﷺ يومًا يريده وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر؛ فانكشفت وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ، فلما وقع ذلك كرهت الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله إني أريد أن أفارق صاحبتي، قال: "مالك؟ أرابك منها شيء؟ " قال: لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيرًا، فقال رسول الله ﷺ: " أمسك عليك زوجك واتق الله، فذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ...﴾، تخفي في نفسك إن فارقها تزوجتها.[1]

الرواية الثالثة: عن أنس رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ منزل زيد بن حارثة فرأى رسول الله ﷺ امرأته زينب، وكأنه دخله لا أدري من قول حماد أو في الحديث فجاء زيد يشكوها إليه، فقال له النبي ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، قال: فنزلت: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ يعني زينب[2].

العلة الثالثة: محمد بن عمر، وهو الواقدي، إخباري كثير الرواية، لكنه متروك الحديث، ورماه جماعة من الأئمة بالكذب ووضع الحديث. ميزان الاعتدال (٣/ ٦٦٤).

(١) **موضوع**. أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٣) قال: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، وذكره، وهذا إسناد ضعيف جدًّا وفيه علتان:

العلة الأولى: أنها معضلة، فابن زيد وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مات سنة ثنتين وثمانين ومائة وعده ابن حجر من الثامنة فليس بصحابي ولا تابعي، فقد سقط من الإسناد راويان أو أكثر.

العلة الثانية: أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا ضعيف باتفاق المحدثين، بل صرح بعضهم بأنه متروك الحديث، قال البخاري وأبو حاتم: ضعفه علي بن المديني جدًّا، وقال أبو حاتم: كان في الحديث واهيًا، قال بن حبان كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك/ وقال بن سعد: كان كثير الحديث ضعيفًا جدًّا. وأقوال الأئمة في تضعيفه كثيرة، وهو رجل صالح في نفسه لكنه شغل بالعبادة والتقشف عن حفظ الحديث فضعف جدًّا: المجروجين لابن حبان (٢/ ٥٧)، والتهذيب (٦/ ١٦١)، والتقريب (٣٨٦٥).

(٢) **منكر**. أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٤٩-١٥٠)، قال: حدثنا مؤمل بن إسماعيل قال: حدثنا حماد بن زيد، قال: حدثنا ثابت عن أنس وذكره.

الرواية الرابعة: عن قتادة: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أعتقه رسول الله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ قال: وكان يخفي في نفسه ودّ أنه طلقها، قال الحسن: ما أنزلت عليه آية كانت أشدّ منها قوله: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، ولو كان نبي الله ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتمها ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، قال خشي نبي الله ﷺ مقالة الناس.(1)

وهذا إسناد فيه مؤمل بن إسماعيل قال البخاري: منكر الحديث. لسان الميزان (٤٩٨٧)، وقال أبو حاتم: صدوق شديد في السنة كثير الخطأ، وقال ابن حبان في الثقات: ربما أخطأ، وقال يعقوب بن سفيان: مؤمل أبو عبد الرحمن شيخ جليل سُني سمعت سليمان بن حرب يحسن الثناء (عليه) وكان مشيختنا يوصون به إلا أن حديثه لا يشبه حديث أصحابه، وقد يجب على أهل العلم أن يقفوا عن حديثه؛ فإنه يروي المناكير عن ثقات شيوخه، وهذا أشدّ فلو كانت هذه المناكير عن الضعفاء لكنا نجعل له عذرًا. تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٣٩).

فهكذا حال مؤمل لو انفرد فكيف وقد خالفه جماعة من الثقات عن حماد بن زيد فرووا الحديث من غير ذكر لهذا الزيادة التي فيها ذهاب النبي ﷺ إلى بيت زيد ومنهم:

١-محمد ابن أبي بكر المقدمي: وهو ثقة كما في التقريب (٥٧٦١) وحديثه عند البخاري (٦٩٨٤)، ولفظه: عن ثابت عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: " **اتق الله وأمسك عليك زوجك** ". قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات، وعن ثابت: " **وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس** ". نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة.

٢- أحمد بن عبدة الضبي عند الترمذي (٣٢١٢)، وهو ثقة التقريب ت (٦٤).

٣-محمد بن سليمان لوين كما عند النسائي في الكبرى (١١٤٠٧)، ثقة كما في التقريب ت (٥٩٢٥).

(١) **موقوف على قتادة**. أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٣)، قال: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد عن قتادة به.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة هذه القصة مختصرة، قال: جاء زيد بن حارثة فقال: يا رسول الله إن زينب اشتد عليّ لسانها، وأنا أريد أن أطلقها، فقال له: " **اتق الله وأمسك عليك زوجك** "، قال: والنبي ﷺ يحب أن يطلقها ويخشى مقالة الناس. فتح الباري (٨/ ٥٢٤).

وقتادة: هو بن دعامة السدوسي أحد الأئمة الحفاظ، وهو في طبقة التابعين مشهور بالتفسير، فما فسره من فهمه للآيات فينظر فيه، وما ذكره رواية؛ فإن العلماء أخذوا عليه كثرة التدليس، فاشترطوا لصحة حديثه أن يصرح بالسماع. وانظر التهذيب (٨/ ٣٥١-٣٥٦). وجامع التحصيل في أحكام المراسيل للعلائي (صـ ١٠١).

الرواية الخامسة: قال مقاتل: زوّج النبي ﷺ زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حينًا، ثم إنه ﷺ أتى زيدًا يومًا يطلبه، فأبصر زينب قائمة، وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتمّ نساء قريش، فهويها وقال: "سبحان الله مقلب القلوب"، فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبرًا، تعظم عليّ وتؤذيني بلسانها، فقال ﷺ: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، وقيل: إن الله بعث ريحًا فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلة في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي ﷺ، وذلك لما جاء يطلب زيدًا، فجاء زيد فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيد أن يطلقها. (١)

الرواية السادسة: قال ابن إسحاق: مرض زيد بن حارثة فذهب إليه رسول الله ﷺ يعوده، وزينب ابنة جحش امرأته جالسة عن رأس زيد، فقامت زينب لبعض شأنها، فنظر إليها رسول الله ﷺ ثم طأطأ رأسه، فقال: "سبحان مقلب القلوب والأبصار"، فقال زيد: أطلقها لك يا رسول الله، فقال: "لا"، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾(٢).

الوجه الحادي عشر: اضطراب الروايات في متونها.

وبعد أن تبين ضعف هذه الروايات وسقوطها من جهة أسانيدها، فلننظر فيها من جهة متونها وما فيها من اضطراب ونكارة، من عدة وجوه:

على أن روايته لتفسير الآية ليس فيه تفصيل كما في الروايات الأخرى، ويمكن ردّ روايته إلى الروايات الصحيحة في تفسير الآية، فيكون معنى (أحب) و(ودّ) أي علم أن زيدًا سيطلقها ولا بد بإلهام الله له ذلك، وتكون خشيته من مقالة الناس حينئذٍ أن يقولوا: تزوج حليلة ابنه.

(١) ذكرها القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٩٠) بدون إسناد، ومقاتل كذبه بعض أهل العلم، ولا حجة في روايته ولا في قوله، ولو صحت إلى مقاتل لم تكن حجة، فإن مقاتلًا وهو: مقاتل بن سليمان فيما يظهر قد كذبه جمع من الأئمة ووصفوه بوضع الحديث، وتكلموا في تفسيره. انظر: ترجمته في التهذيب (١٠/ ٢٧٩-٢٨٥).

(٢) وهذه مرسلة وابن إسحق لم يدرك الحكاية ومراسيله واهية.

الوجه الأول: تناقض الروايات المذكورة، ففي بعضها أن رسول الله ﷺ زار زيد بن حارثة وهو غائب فاستقبلته زينب، وفي بعضها أن زيدًا كان مريضًا، فزاره رسول الله ﷺ، وكان ﷺ وأتم التسليم جالسًا هو وزيد وزينب، فكيف يكون زيد غائبًا ومريضًا في فراشه في وقت واحد!

الوجه الثاني: والروايات التي ذكرت أن رسول الله ﷺ زار زيدًا اختلفت في كيفية رؤية الرسول ﷺ لزينب رضي الله عنها، فرواية تقول: بأنه كان واقفًا بالباب فخرجت إليه، ورواية: بأنه كان واقفًا بباب زيد فرفعت الريح ستر الشعر فرآها فأعجبته.

وفوق ذلك كله كيف يعاتبه الله كما تقول هذه الروايات؛ لأنه أخفى ذلك عن الناس ولم يعلن أنه يحب زوجة زيد، وأنه يود لو طلقها ليتزوجها؟ تَصَوّرٌ مثل هذا كاف في ظهور بطلان هذه الروايات.

الوجه الثاني عشر: كلام بعض الأئمة المحققين من المفسرين وغيرهم حول تفسير الآية ونقد الروايات.

لقد وقف العلماء أمام هذه الروايات موقفًا حازمًا صلبًا، فمنهم من ذكرها، وفندها، ومنهم من أضرب عنها صفحًا بعد الإشارة إلى ضعفها، ونكارتها.

١ - قال ابن العربي: بعد أن ذكر ملخص هذه الروايات، وبيّن عصمة النبي ﷺ: هذه الروايات كلها ساقطة الأسانيد. (١)

٢- قال القرطبي: بعد أن ذكر التفسير الصحيح لما كان يخفيه ﷺ، وما الذي كان يخشاه من الناس: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، فأما ما روي أن النبي ﷺ هوى زينب امرأة زيد، وربّما أطلق بعض المُجّان لفظ عشق، فهذا إنما صدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخِفّ بحرمته. (٢)

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٥٤٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٩١).

٣- وقال ابن كثير: بعد أن ذكر الروايات الصحيحة: ذكر ابن أبي حاتم، وابن جرير هاهنا آثارًا عن بعض السلف أحببنا أن نضرب عنها صفحًا لعدم صحتها فلا نوردها.(١)

٤- قال القاضي عياض: اعلم ـ أكرمك الله، ولا تسترب في تنزيه النبي ﷺ عن هذا الظاهر، وأن يأمر زيدًا بإمساكها، وهو يحب تطليقه إياها، كما ذُكِرَ عن جماعة من المفسرين، وأصح ما في هذا: ما حكاه أهل التفسير، عن علي بن حسين: أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيد قال له: "أمسك عليك زوجك واتق الله". وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وتطليق زيد لها.

وقال القرطبي: وقد اجترأ بعض المفسرين في تفسير هذه الآية، ونسب إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به ويستحيل عليه، إذ قد عصمه الله منه ونزَّهه عن مثله، وهذا القول إنما يصدر عن جاهلٍ بعصمته ﷺ عن مثل هذا، أو مُسْتَخِفٍّ بحرمته، والذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين: أن ذلك القول الشنيع ليس بصحيح، ولا يليق بذوي المروءات، فأحرى بخير البريات. .

وقال ابن حجر: بعد أن ذكر الروايات الصحيحة: ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها(٢).

وهناك ثُلّة كبيرة من علماء الإسلام في العصر الحاضر تفطنوا لمثل هذه الأخبار، ورمقت أبصارهم ما تنطوي عليه من مداخل خطيرة لا تليق بمقام الأنبياء، فأنار الله بصائرهم لكشف النقاب عن هذه الآثار الدخيلة، فكان لهم الفضل في التنبيه وإيقاظ الفكر الإسلامي للتصدي لكل دسيسة يراد منها النيل من قداسة رسول الله ﷺ أو تشويه الحقائق التاريخية في تراث الإسلام.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: وللقُصَّاص في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القبول، ويجب صيانة النبي ﷺ عن هذه التُرَّهات التي نسبت إليه زورًا وبهتانًا. (١)

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩١).

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٢٤).

وقال الشيخ محمد أبو شهبة تحت عنوان: إبطال ما ورد في قصة السيدة زينب بنت جحش ﵂: ومن ذلك: ما ذكره بعض المفسرين في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

وذكر الرواية بنحو ما سبق ثم قال: وهذه الرواية إنما هي من وضع أعداء الدين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم متهم بالكذب، والتحديث بالغرائب، ورواية الموضوعات، ولم يذكر هذا إلا المفسرون والإخباريون المولعون بنقل كل ما وقع تحت أيديهم من غث أو سمين، ولم يوجد شيء من ذلك في كتب الحديث المعتمدة التي عليها المعول عند الاختلاف، والذي جاء في الصحيح يخالف ذلك، وليس فيه هذه الرواية المنكرة، روى البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك ﵁، أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ ﴾: نزلت في شأن زينب ابنة جحش، وزيد بن حارثة واقتصر على هذا القدر، وليس فيه شيء من هذا الخلط.

وقال ابن حجر بعد ذكر رواية قتادة: ووردت آثار أخرى، أخرجها ابن أبي حاتم، والطبري، ونقلها كثير من المفسرين، لا ينبغي التشاغل بها، وما أوردته هو المعتمد، وهذه شهادة لها قيمتها، والذي أورده هو ما أخرجه ابن أبي حاتم عن طريق السدي، في هذه القصة، فساقها سياقًا واضحًا حسنًا، ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب: عمة رسول الله، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوّجها زيدَ بن حارثة مولاه، فكرهَتْ ذلك، ثم رضيتْ بما صنع رسول الله، فزوجها إياه، ثم أعلم الله ﷻ نبيه بعد، أنها من أزواجه، فكان يستحيي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى أن يعيب عليه الناس، ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيدًا. وهو السبب الصحيح، وروى ابن أبي

---

(١) محمد رسول الله ﷺ (صـ٢٧٥).

حاتم أيضًا، والطبري، كلٌّ بسنده عن علي بن الحسين بن علي، قال: أعلم الله نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها، وقال له: "اتق الله، وأمسك عليك زوجك"، قال الله: قد أخبرتك أني مزوجكها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه، ثم ذكر قول ابن كثير السابق ثم قال: التفسير الصحيح للآية:

وهاك تفسير الآية الذي يساير روحها ونصها، وتشهد له الروايات الصحيحة، وتتجلى فيه حكمة الله العالية؛ ذلك: أن العرب كان من عادتها التبني، وكانت تلحق الابن المتبنى بالعصبي، وتجري عليه حقوقه في الميراث، وحرمة زوجته على من تبناه، وكانت تلك العادة متأصلة في نفوسهم، كما كان كبيرًا أن تتزوج بنات الأشراف من موال، وإن أعتقوا، وصاروا أحرارًا طلقاء، فلما جاء الإسلام، كان من مقاصده: أن يزيل الفوارق بين الناس التي تقوم على العصبية، وحمية الجاهلية، فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب، وأن يقضي على حرمة زوجة الابن المتبنى، وقد شاء الله أن يكون أول عتيق يتزوج بعربية في الصميم من قريش هو زيد، وأن يكون أول سيد يبطل هذه العادة - حرمة زوجة الابن المتبنى- هو رسول الله ﷺ، وما على بنات الأشراف أن يتزوجوا بأزواج أدعيائهم، وقد قضوا منهن وطرًا، وإمام المسلمين ومن يصدع بأمر الله، قد فتح هذا الباب وتزوج حليلة متبناه بعد فراقها، وقد كان كلٌّ ما أرد الله، فرسول الله يخطب زينب لزيد، فتأبى، ويأبى بعض أهلها، ويكرر رسول الله ﷺ الطلب، وينزل الوحي بذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾؛ فلم يبق إلا الإذعان من زينب وأهلها، ولكن زيدًا وجد منها تعاظمًا، فيرغب في فراقها، ويستشير الرسول، فينصحه بإمساكها، وكان جبريل قد أخبر رسول الله بأن زينب ستكون زوجة له، وسيبطل الله بزواجه منها هذه العادة، ولكن النبي ﷺ وجد غضاضة على نفسه أن يأمر زيدا بطلاقها، ويتزوجها من بعد، فتشيع المقالة بين الناس، أن محمدًا تزوج حليلة ابنه، وبذلك: يصير عرضة للقيل والقال من أعدائه، وهو في دعوته إلى دين الله أحوج إلى تأييد المؤيدين، فهذا المقدار من خشية الناس حتى أخفى ما أخبره الله به - وهو نكاحها - هو ما عاتبه الله عليه، وقد صرح الله

في كلامه بالسبب الباعث على هذا الزواج فقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، هذا هو التفسير الذي يتفق مع الحق والواقع. وقد نسج المستشرقون، والمبشرون، أعداء الدين، من تلك الروايات المختلقة الواهية ثوبًا من الكذب والخيال، وصوروا السيدة زينب وقد رآها النبي الطاهر، كما يصور الشباب الطائش إحدى غادات المسرح، وطعنوا في غير مطعن، فالروايات ليس لها أساس من الصحة فبناؤهم على غير أساس.

روى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ لزينب: " إني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة، فإني قد رضيته لك "، قالت: لكني لا أرضاه لنفسي، وأنا أيِّم قومي، وبنت عمتك، فنزلت الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ قالت: قد أطعتك، فاصنع ما شئت، فغير معقول، والحال كما ذكرت، ألا يكون شاهدها، فلو كان يهواها، أو وقعت من قلبه، فأي شيء كان يمنعه من زواجها، وإشارة منه كافية؛ لأن يقدموها له وما ملكت؟ فمثله وهو في الذروة من قريش نسبًا وخلقًا ودينًا، ما كان يقدع أنفه.

ومن بعد ذلك، فحياة رسول الله ﷺ من صباه إلى كهولته إلى أن توفي ترُدُّ هذه الفرية؛ فحياته لم تكن حياة حب واستهتار، وإنما كانت حياة الشرف والكرامة، ما عرفت الدنيا أطهر ذيلًا منه، ولا أعف منه، ولا لمست يدُه قطُّ يدَ امرأة لا تحل له بشهوة(١)، وكيف يكون على هذا الحال - الذي افتروه من خاطبه- من يعلم السر وأخفى، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، ولو كان رسول الله ﷺ صاحب هوى، أو غرام لأشبع رغبته وهو في ميعة الصبا وشرخ الشباب، أيام أن كان الغيد الكواعب من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكنّ حليلات له، ولكنه قضى شبابه مع سيدة تزيد على الأربعين، ورضيها زوجًا له، حتى توفاها الله، ومهما قيل في جمالها: فهناك غيرها من الأبكار الشابات

---

(١) قلت: ولا من غير شهوة.

من يفقنها في الجمال، وللأبكار ما لهن من جاذبية وروعة، ومن قضى بغير ذلك: فقد خالف سنة الله في الفطرة، واتبع شواذ العادات.

ولم يكن زواج رسول الله بزوجاته إلا لحكم ومقاصد سامية، ثم قال: وزواجه بالسيدة: زينب بنت جحش؛ لإبطال هذه العادة، ويطول بي القول لو استقصيت الحكم في زواجه ﷺ فلذلك مقام آخر. والعجب من هؤلاء الطاعنين إذا وقعوا على ما يشفي غليلهم من باطل الروايات، تمادوا في قلب الحقائق، وأنكروا عقولهم، وتجاهلوا الظروف والملابسات، والبيئة، وأحكامها، والعادات وسلطانها إلى غير ذلك مما يتفيهقون به، بينما يطيشون بالحكم على روايات في غاية الصحة بأنها موضوعة؛ ولا حامل لهم في الحالين إلا الهوى والتعصب. وبعد: فإذا كانت القصة كما رأيت، لا سند لها من جهة النقل، وحياة رسول الله ﷺ تكذبها، وطبيعة البيئة التي جرت فيها تجلت أصولها، فلم يبق إلا أنها موضوعة[1].

وبنحو هذا قال الشيخ محمد بن عفيفي الخضري: ومما جاء فيه بعد الإشارة إلى ما ذكره المؤرخون: وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه، وزينب بنت عمته أسلمت قديمًا، ورسول الله بمكة، فكيف لم يرها، وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات وهي بنت عمته، إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة، ورسول الله هو الذي زوجها زيدًا؟ فلو كانت له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها، هو ولا مانع يمنعه من ذلك، ومن منا يتصور السيد الأكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه، ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله في سورة الحجر المكية: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ (الحجر: ٨٨). وفي سورة طه المكية أيضًا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (طه: ١٣١). ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه، وينظر إلى زوجه مصادفة ثم يشتهي زواجها؟ إن هذا لأمر عظيم تقشعر بذلك صدورنا، ولو حدث أمر مثل ذلك من أقل الناس لعيب عليه، فكيف بمن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقًا، وأبعدهم عن

---

(١) الإسرائيليات في التفسير للشيخ محمد أبي شهبة رحمه الله صـ (٣٢٣) بتصرف.

الدنايا، وأشدهم ذكاء وفراسة حتى مدحه الله بقوله في سورة ن: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤). لا شك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق، وضَعها أعداء الدين ليصلوا بها إلى أغراضهم، والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل، فلم تبق شبهة في أن الحقيقة ما نقلناه لك أولًا، وهو الذي يستفاد من القرآن الشريف، قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: ٣٧). والذي أبداه الله هو زواجه بها، ولم يبد غير ذلك وهذا القرآن أعظم شاهد.[١]

الوجه الثالث عشر: بيان أن هذه القصة من دلائل نبوته ﷺ:

فلو كان متكلمًا من عند نفسه لما قال عن نفسه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله، لكتم: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ الوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فَرَغ منها، وفارقها، زَوّجناكها، وكان الذي وَلي تزويجها منه هو الله ﷻ، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر.

وقال السعدي: في ذكر فوائد القصة:

ومنها: أن الرسول ﷺ، قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه، إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه عتابه، وهذا يدل، على أنه رسول الله ﷺ، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه[٢].

---

(١) نور اليقين ص (١٢٤و١٢٥).

(٢) تفسير السعدي ١/ ٦٦٥.

وقال الغنيمان: وهذه الآية من أعظم الأدلة لمن تأملها على صدق الرسول ﷺ فالله تعالى يخبر عما وقع في نفسه من خشية الناس، فبلغه كما قال الله تعالى مع ما تضمنه من لومه، بخلاف حال الكذاب؛ فإنه يتجنب كل ما يمكن أن يكون فيه عليه غضاضة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى آخر الآيات ونظائرها في القرآن.[1]

الوجه الرابع عشر: ذكر السفير بين النبي ﷺ وزينب رضي الله عنها وما الذي جرى له في ذلك.

عن أنس رضي الله عنه قال[2]: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: "اذهب فاذكرها عليّ". فانطلق حتى أتاها وهي تُخَمِّر عَجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي ﷻ، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دَخَلَتْ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقي الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: زيد بن محمد، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ثم زاد ذلك بيانًا

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٣٢٠).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (١٤٢٨) وغيره.

وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ (النساء: ٢٣) ليحترز من الابن الدَّعِي؛ فإن ذلك كان كثيرًا فيهم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ.

* * *

١٨ـ شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ اغتصب صفية.

نص الشبهة:

إدعاء اغتصاب النبي ﷺ لصفية، وأنه قتل زوجها، وأن القصة تشير إلى قسوة قلب بلال.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: بيان ضعف القصة، وعليه تبطل جميع الاتهامات.

الوجه الثاني: صحيح ما ورد في هذه القصة، وتوجيه العلماء لها.

الوجه الثالث: النبي ﷺ لم يغتصب صفية وحاشاه.

الوجه الرابع: عفة النبي ﷺ، وخشيته من ربه.

الوجه الخامس: سبب أسر صفية وقومها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان ضعف القصة.

عن إسحاق بن يسار قال: لما افتتح رسول الله ﷺ حصن ابن أبي الحقيق؛ أتى بصفية ابنة حيي، ومعها ابنة عم لها، جاء بها بلال، فمر بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صكت وجهها، وصاحت، وحثت التراب على رأسها، فقال رسول الله ﷺ: غربوا هذه الشيطانة عني، وأمر بصفية خلفه وغطى عليها ثوبه، فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله ﷺ لبلال حين رأى من اليهودية ما رأى: يا بلال نُزعت منك الرحمة حين تمر بامرأتين على قتلاهما، وقد كانت صفية رأت قبل ذلك أن قمرًا وقع في حجرها، فذكرت ذلك لأبيها فضرب وجهها ضربة أثر فيه، وقال: إنك لتمدين عنقك إلى أن تكون عند ملك العرب، فلم يزل الأثر في وجهها حتى أتى بها رسول الله ﷺ فسألها عنه، فأخبرته خبره. (١)

الوجه الثاني: صحيح ما ورد في هذه القصة وتوجيه العلماء لها.

عن أنس رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ الصبح قريبًا من خيبر بغلس ثم قال: " الله أكبر خربت

---

(١) ضعيف. أخرجه محمد بن إسحاق في السيرة النبوية١/ ٩٢، وابن الأثير في أسد الغابة ٦/ ١٧١ من طريق إسحاق ابن يسار؛ وهو من الطبقة الثالثة من الوسطى من التابعين، فالإسناد مرسل ، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة٤/ ٢٣١ من طريق عروة بن الزبير؛ وهو مرسل منقطع أيضًا.

خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة القوم فساء صباح المنذرين "، فخرجوا يسعون في السكك فقتلَ النبيُّ ﷺ المقاتلةَ، وسبى الذرية، وكان في السبي صفية فصارت إلى دحية الكلبي، ثم صارت إلى النبي ﷺ فجعل عتقها صداقها. [١] وفي رواية: (..فَجَاءَ دِحْيَةُ فَقَالَ: يَا نَبِي الله، أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْي، قَالَ: " اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً "، فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِي الله، أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدَةَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لَكَ. قَالَ: " ادْعُوهُ بِهَا "، فَجَاءَ بِهَا، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النبي ﷺ قَالَ: " خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْي غَيْرَهَا ". [٢]

قال النووي: قَالَ الْمَازِرِيّ وَغَيْره: يَحْتَمِل مَا جَرَى مَعَ دِحْيَة وَجْهَيْنِ: أَحدهمَا: أَنْ يَكُون رَدَّ الْجَارِيَة بِرِضَاهُ وَأَذِنَ لَهُ فِي غَيْرهَا، وَالثَّانِي: أَنَّهُ إِنَّمَا أَذِنَ لَهُ فِي جَارِيَة لَهُ مِنْ حَشْو السَّبْي لَا أَفْضَلهنَّ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ أَخَذَ أَنْفَسهنَّ وَأَجْوَدهنَّ نَسَبًا وَشَرَفًا فِي قَوْمهَا، وَجَمَالًا اِسْتَرْجَعَهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْذَن فِيهَا، وَرَأَى فِي إِبْقَائِهَا لِدِحْيَة مَفْسَدَة لِتَمَيُّزِهِ بِمِثْلِهَا عَلَى بَاقِي الْجَيْش، وَلِمَا فِيهِ مِنْ اِنْتِهَاكهَا مَعَ مَرْتَبَتهَا، وَكَوْنهَا بِنْت سَيِّدهمْ، وَلِمَا يُخَاف مِنْ اِسْتِعْلَائِهَا عَلَى دِحْيَة بِسَبَبِ مَرْتَبَتهَا، وَرُبَّمَا تَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ شِقَاق أَوْ غَيْره، فَكَانَ أَخْذه ﷺ إِيَّاهَا لِنَفْسِهِ قَاطِعًا لِكُلِّ هَذِهِ الْمَفَاسِد الْمُتَخَوَّفَة، وَمَعَ هَذَا فَعَوَّضَ دِحْيَة عَنْهَا. وَقَوْله فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى: " إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي سَهْم دِحْيَة، فَاشْتَرَاهَا رَسُول الله ﷺ بِسَبْعَةِ أَرْؤُس، يَحْتَمِل أَنَّ الْمُرَاد بِقَوْلِهِ: (وَقَعَتْ فِي سَهْمه) أَيْ: حَصَلَتْ بِالْإِذْنِ فِي أَخْذ جَارِيَة لِيُوَافِق بَاقِي الرِّوَايَات، وَقَوْله: (اِشْتَرَاهَا) أَيْ: أَعْطَاهُ بَدَلهَا سَبْعَة أَنْفُس تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ، لَا أَنَّهُ جَرَى عَقْد بَيْع، وَعَلَى هَذَا تَتَّفِق الرِّوَايَات. [٣]

الوجه الثالث: النبي ﷺ لم يغتصب صفية وحاشاه.

والدليل على ذلك عدة أمور: **أولها**: إشهار عرسه عليها. ففي بعض روايات الحديث: ". . ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تُصَنِّعُهَا لَهُ وَتُهَيِّئُهَا، قَالَ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَتَعْتَدُّ فِي بَيْتِهَا؛ وَهِي صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيي، قَالَ: وَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَلِيمَتَهَا التَّمْرَ وَالأَقِطَ وَالسَّمْنَ، فُحِصَتِ الأَرْضُ

(١) البخاري (٤٢٠٠)، مسلم (١٣٦٥)

(٢) البخاري (٣٧١)، مسلم (١٣٦٥).

(٣) شرح النووي ٥/ ٢٤٠.

أَفَاحِيصَ، وَجِيء بِالأَنْطَاعِ فَوُضِعَتْ فِيهَا، وَجِيءَ بِالأَقِطِ وَالسَّمْنِ فَشَبِعَ النَّاسُ، وَقَالَ النَّاسُ: لاَ نَدْرِي أَتَزَوَّجَهَا أَمِ اتَّخَذَهَا أُمَّ وَلَدٍ، قَالُوا: إِنْ حَجَبَهَا فَهْيِ امْرَأَتُهُ، وَإِنْ لَمْ يَحْجُبْهَا فَهْيِ أُمُّ وَلَدٍ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْكَبَ حَجَبَهَا، فَقَعَدَتْ عَلَى عَجُزِ الْبَعِيرِ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ تَزَوَّجَهَا...". (١)

ثانيها: رضى صفية بالزواج من النبيﷺ، فكيف يسمَّى زواجه منها اغتصابًا، والدليل على رضاها: أنها لو رفضت الزواج منه لتركها، وما أجبرها عليه كما فعل مع الجوينية؟

فعن عائشة: أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها، قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: "لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك". (٢)

وفي رواية: عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النبيﷺ، حَتَّى انْطَلَقْنَا إِلَى حَائِطٍ يُقَالُ لَهُ الشَّوْطُ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى حَائِطَيْنِ فَجَلَسْنَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ النبيﷺ: " اجْلِسُوا هَا هُنَا "، وَدَخَلَ وَقَدْ أُتِيَ بِالْجَوْنِيَّةِ، فَأُنْزِلَتْ فِي بَيْتٍ فِي نَخْلٍ فِي بَيْتٍ أُمَيْمَةُ بِنْتُ النُّعْمَانِ بْنِ شَرَاحِيلَ وَمَعَهَا دَايَتُهَا حَاضِنَةٌ لَهَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا النبي ﷺ قَالَ: " هَبِي نَفْسَكِ لِي "، قَالَتْ: وَهَلْ تَهَبُ الْمَلِكَةُ نَفْسَهَا لِلسُّوقَةِ؟ قَالَ: فَأَهْوَى بِيَدِهِ يَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهَا لِتَسْكُنَ، فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِالله مِنْكَ، فَقَالَ: " قَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ "، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: « يَا أَبَا أُسَيْدٍ، اكْسُهَا رَازِقِيَّتَيْنِ(٣)، وَأَلْحِقْهَا بِأَهْلِهَا". (٤)

وأما قولها للنبي: (سوقة) فقد قال ابن حجر السوقة عندهم من ليس بملك كائنًا من كان؛ فكأنها استبعدت أن يتزوج الملكة من ليس بملك، وكان ﷺ قد خير أن يكون ملكًا نبيًا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا تواضعًا منه ﷺ لربه، ولم يؤاخذها النبي ﷺ بكلامها معذرة لها لقرب عهدها بجاهليتها. (٥)

ثالثا: معاملة النبي ﷺ لها لا تشير إلى أي إكراه أو اغتصاب:

---

(١) مسلم (١٣٥٦).

(٢) البخاري (٥٢٥٤).

(٣)قال: اكْسُها رازِقيَّيْنِ وفي رواية رازقيّتَين: هي ثياب كتان بيض؛ لسان العرب (رزق).

(٤) البخاري (٥٢٥٥).

(٥) فتح الباري ٩/ ٢٧١.

فلقد كرمها ولم يرضَ لها أن تتزوج بواحد من عامة الناس، بل تزوجها هو لتكون سيدة تزوجت من سيد؛ حيث كانت ابنة سيد قومها.

الوجه الرابع: عفة النبي ﷺ وخشيته من ربه

قد زكى الله خلق النبي ﷺ فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، وكان ﷺ لا يُكره أحدًا على الدخول في الدين: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾، فكيف يُكرهها على الزواج منه وعن عمر بن أبي سلمة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " أما والله إني لأتقاكم لله أخشاكم له ". [١]

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم ". [٢]

الوجه الخامس: سبب أسر صفية وقومها.

كَانَتْ صفية زَوْجَة كِنَانَة بْن الرَّبِيع، وَهُوَ وَأَهْله مِنْ بَنِي أَبِي الْحَقِيق، كَانُوا صَالَحُوا رَسُول الله ﷺ، وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَكْتُمُوهُ كَنْزًا، فَإِنْ كَتَمُوهُ فَلَا ذِمَّة لَهُمْ. وَسَأَلَهُمْ عَنْ كَنْز حُيَيّ بْن أَخْطَبَ فَكَتَمُوهُ، وَقَالُوا: أَذْهَبَتْهُ النَّفَقَات، ثُمَّ عَثَرَ عَلَيْهِ عِنْدهمْ، فَانْتَقَضَ عَهْدهمْ فَسَبَاهُمْ. [٣]

فصفية من سبيهم، فهي فيء لا يخمس، بل يفعل فيه الإمام ما رأى. [٤]

وليس في القصة الضعيفة أو الصحيحة ما يشير إلى أن النبي قتل زوج صفية.

وأما قولهم: إن بلالًا قاسي القلب؛ لأنه مرَّ بالمرأتين علي قتلى من اليهود؛ فقد أثبتنا ضعف القصة، وإن ثبتت فلعله لم يتعمد ذلك، وقد لامَهُ النبي ﷺ على ذلك، هذا على فرض ثبوت القصة لكنها واهية.

* * *

(١) مسلم (١١٠٨).

(٢) البخاري (٧٣٦٧)، مسلم (١٢١٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٠٦)، وابن حبان (١١/ ٦٠٧)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٩٧).

(٤) شرح النووي٩/ ٢٣١، ٢٣٢.

١٩ـ شبهة: حول طواف النبي ﷺ على نسائه في ساعة واحدة.

نص الشبهة:

يتهمون النبي ﷺ أنه شهواني في قول أنس: كان يدور على نسائه في ساعة واحدة.

والرد على ذلك من وجوه:

الأول: ذكر الحديث، وبيان معناه.

الثاني: النبي ﷺ أزهد الناس في الدنيا.

الثالث: حق الزوجة على الزوج في الجماع.

الرابع: حال الأنبياء في الكتاب المقدس.

واليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الحديث، وبيان معناه.

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِي ﷺ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ. قَالَ: قُلْتُ لأَنَسٍ: أَوَ كَانَ يُطِيقُهُ قَال: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُعطِيَ قُوَّةَ ثَلاَثِينَ. وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: إِنَّ أَنَسًا حَدَّثَهُمْ: تِسْعُ نِسْوَةٍ[1].

وعن عائشة قالت: كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه ثم يصبح محرمًا ينضخ طيبًا[2].

وفي الحديث أمران:

الأول: هل يجوز أن يطوف الرجل على نسائه بغسل واحد؟

الثاني: هل في ذلك اتهام للنبي ﷺ أنه شهواني؟

أما الأمر الأول:

قال ابن حجر: وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْغُسْلَ بَيْنَهُمَا لَا يَجِبُ، وَيَدُلُّ عَلَى اِسْتِحْبَابِهِ حَدِيث أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ عَنْ أَبِي رَافِع: " أَنَّهُ ﷺ طَافَ ذَات يَوْمٍ عَلَى نِسَائِهِ يَغْتَسِلُ عِنْدَ هَذِهِ وَعِنْدَ هَذِهِ. قَالَ: فَقُلْت: يَا رَسُول الله، أَلَا تَجْعَلُهُ غُسْلًا وَاحِدًا؟ قَالَ: " هَذَا أَزْكَى

---

(١) البخاري (٢٦٨).

(٢) البخاري (٢٦٤)، مسلم (١١٩٢).

وَأَطْيَب وَأَطْهَر "[١].

وقال ابن بطال: لم يختلف العلماء في جواز وطء جماعة نساء في غسل واحد على ما جاء في حديث عائشة، وأنس، وروى ذلك عن ابن عباس، وقاله عطاء، ومالك، والأوزاعي[٢].

وَالْحَدِيث فِيهِ دَلِيل عَلَى أَنَّ الْغُسْل لَا يَجِب بَيْن الْجِمَاعَيْنِ، سَوَاء كَانَ لِتِلْكَ الْمُجَامَعَة أَوْ لِغَيْرِهَا.

وَقَالَ النَّوَوِيّ: هُوَ مَحْمُول عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ الْأَمْرَيْنِ فِي وَقْتَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَالَّذِي قَالَاهُ هُوَ حَسَن جدًّا، وَلَا تَعَارُض بَيْنهمَا، فَمَرَّة تَرَكَهُ رَسول الله ﷺ بيَانًا لِلْجَوَازِ وَتَخْفِيفًا عَلَى الْأُمَّة، وَمَرَّة فَعَلَهُ (أي: الغسل) لِكَوْنِهِ أَزْكَى وَأَطْهَر[٣].

قال ابن رجب: ووجه استدلال البخاري بالحديث على أن تكرار الجماع بغسل واحد- أن النبي ﷺ لو اغتسل من كل واحدة من نسائه لكان قد اغتسل تسع مرات، فيبعد حينئذ أن يبقى للطيب أثر، فلما أخبرت أنه أصبح ينضخ طيبًا اُستُدِلَّ بذلك على أنه اكتفى بغسل واحد[٤]

وليس في الحديث ما يدل على أنه كان شهواني، والرد على ذلك من وجوه:

الأول: أقوال العلماء:

قال ابن حجر: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ الْفَوَائِدِ غَيْر مَا تَقَدَّمَ، مَا أُعْطِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ الْقُوَّةِ عَلَى الْجِمَاعِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ الْبِنْيَةِ وَصِحَّة الذُّكُورِيَّة، وَالْحِكْمَة فِي كَثْرَةِ أَزْوَاجِهِ أَنَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي لَيْسَتْ ظَاهِرَةً يَطَّلِعْنَ عَلَيْهَا فَيَنْقُلْنَهَا، وَقَدْ جَاءَ عَنْ عَائِشَة مِنْ ذَلِكَ الْكَثِير الطَّيِّب، وَمِنْ ثَمَّ فَضَّلَهَا بَعْضهمْ عَلَى الْبَاقِيَاتِ[٥].

وقال ابن بطال: ويحتمل أن يكون دورانه ﷺ عليهن في يوم واحد لمعان:

أحدها: أن يكون ذلك عند إقباله من سفره، حيث لا قسمة تلزمه لنسائه؛ لأنه كان إذا سافر أقرع بين نسائه فأيتهن أصابتها القرعة خرجت معه، فإذا انصرف استأنف القسمة

(١) أبو داود (٢١٩)، ابن ماجه (٥٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٣)، وانظر: فتح الباري (١/ ٤٤٥).

(٢) شرح ابن بطال (١/ ٤١٣).

(٣) عون المعبود (١/ ٢٥٣).

(٤) فتح الباري لابن رجب (٢/ ٣١).

(٥) فتح الباري (١/ ٤٤٨).

بعد ذلك، ولم تكن واحدة منهن أولى بالابتداء من صاحبتها، فلما استوت حقوقهن جمعهن كلهن في ليلة، ثم استأنف القسمة بعد ذلك.

والوجه الثاني: يحتمل أن يكون استطاب أنفس أزواجه، فاستأذنهن في ذلك كنحو استئذانهن أن يُمرَّض في بيت عائشة؛ قاله أبو عبيد.

والوجه الثالث: قاله المهلب قال: يحتمل أن يكون دورانه عليهن في يوم يفرغ من القسمة بينهن، فيقرع في هذا اليوم لهن كلهن يجمعهن فيه، ثم يستأنف بعد ذلك القسمة، والله أعلم[١].

وقال ابن العربي: إن الله خص نبيه بأشياء في النكاح، ومنها أنه أعطاه ساعة لا يكون لأزواجه فيها حق حتى يدخل فيها جميع أزواجه، فيفعل ما يريد بهن، ثم يدخل عند التي يكون الدور لها. [٢]

قال ابن الجوزي: اعلم أن العرب كانت تعد القوة على النكاح من كمال الخلقة وقوة البنية، كما تعد الشجاعة منها، وكان ﷺ أتمَّ الناس خلقة، ثم أُعطي قوة ثلاثين، ثم كان في فعله ذلك رد على النصارى في التبتل طلبًا للنسل[٣].

وهذه الخصوصية فضل ومنة من الله تعالى على رسوله؛ ناسب ما كان يمتع به من منزلة وشرف على أمته، وما رزقه الله من قوة بدنية، وباءة في النكاح يؤدي بها حقوق أهله تامة غير منقوصة[٤].

الوجه الثاني: النبي ﷺ أزهد الناس في الدنيا.

عاش النبي ﷺ حياة بعيدة عن الترف والشهوات، وكان شغله الشاغل أن يعبد ربه حق عبادته، فكان يقوم حتى تتفطر قدماه، وتقول عائشة رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لاَ يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لاَ يَصُومُ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ

(١) شرح ابن بطال (١/ ٤١٤: ٤١٣).
(٢) عمدة القاري (٣/ ٢١٥).
(٣) كشف المشكل (١/ ٨٥٥).
(٤) أروع القيم الحضارية في سيرة خير البرية (١/ ١٢).

اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إِلاَّ رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ(١).

وعن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: " كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ "(٢).

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا، فقال: مالي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب، سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها(٣).

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "اللهمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَة"(٤).

وعَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ يَقُولُ: " مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"(٥).

الوجه الثالث: حق الزوجة على الزوج في الجماع.

عن عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: " يَا عَبْدَ الله أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ "، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: " فَلاَ تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا "(٦).

قال ابن بطال: لا ينبغي له أن يجهد بنفسه في العبادة، حتى يضعف عن القيام بحقها من جماع واكتساب، واختلف العلماء فيمن كف عن جماع زوجته.

فقال مالك: إن كان بغير ضرورة أُلزم به أو يفرق بينهما، ونحوه عن أحمد، والمشهور عند الشافعية أنه لا يجب عليه، وقيل: يجب مرة، وعن بعض السلف في كل أربع ليلة، وعن بعضهم في كل طهر مرة(١).

---

(١) البخاري (١٩٦٩)، مسلم (١١٥٦).

(٢) البخاري (٦٤١٦).

(٣) مسند أحمد (١/ ٣٠١)، صحيح ابن حبان (٦٣٥٢)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ٤٣٤).

(٤) البخاري (٦٤١٣)، مسلم (١٨٠٥).

(٥) البخاري (٦٤١٥)، مسلم (١٨٨١).

(٦) البخاري (٥١٩٩).

ومَنْ كان متزوجًا بأكثر من امرأة فليقرع بينهن إذا أراد سفرًا، فعن عائشة قالت: كان رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ[٢].

ومَنْ تزوج بكرًا على الثيب فليقم عندها سبعًا، فعن أنس رضي الله عنه، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَكِنْ قَالَ: السُّنَّةُ إِذَا تَزَوَّجَ الْبِكْرَ أَقَامَ عِنْدَهَا سَبْعًا، وَإِذَا تَزَوَّجَ الثَّيِّبَ أَقَامَ عِنْدَهَا ثَلاثًا[٣].

ومن حقوق الزوجة في الجماع وغيره أن لها مثل الذي عليها؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٨). ومن حقوقها ألا يطأها حالة الحيض؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

الوجه الرابع: حال الأنبياء في الكتاب المقدس.

سفر التكوين (١٩/ ٣٦: ٣٠): وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ؛ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ، فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي، نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا.

وكان لسليمان (١٠٠٠) مرأة (الملوك الأول: ١١/ ٣): وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ.

* * *

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢١٠).

(٢) البخاري (٥٢١١).

(٣) البخاري (٥٢١٣).

٢٠ـ ادعاؤهم أن رسول الله ﷺ ظلم إحدى نسائه بأن طلقها لأنه وجد فيها برصًا.

نص الشبهة:

ادعاؤهم أن رسول الله ﷺ ظلم إحدى نسائه بأن طلقها لأنه وجد فيها برصًا.

والرد على هذه الشبهة من وجوهٍ:

الوجه الأول: إثبات ضعف القصة.

الوجه الثاني: على فرض ثبوت القصة فليس فيها أي مأخذٍ على النبي ﷺ لأسباب:

أولًا: حاجة الرجل إلى زوجةٍ حسناءَ جميلةٍ.

ثانيًا: هذه المرأة قد أخفت- أو أخفى أولياؤها- ما فيها من عيبٍ وهذا تدليسٌ لا يجوز.

ثالثًا: من مقاصد النكاح استدامة العشرة وهذا قد لا يكون مع وجود العيب.

رابعًا: من محاسن دين الإسلام إباحةُ الطلاق بالضوابط التي تحفظ لكل ذي حقٍ حقه.

خامسًا: قد أحسن النبي ﷺ إلى هذه المرأة وأوفى لها-أوفاها-حقَّها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إثبات ضعف القصة.

عن عبد الله بن كعب أو كعب بن عبد الله ﷺ قال: تزوج رسول الله ﷺ امرأةً من غفار فقعد منها مقعد الرجل من المرأة فأبصر بكشحها برصًا فقام عنها فقال: " سَوِّي عليك ثيابَك وارجعي إلى بيتك. " وفي روايةٍ: " ولم يأخذ مما آتاها شيئًا "، وفي روايةٍ: " وألحق لها مهرها "، وفي روايةٍ: " فأمر لها بالصداق "، وفي روايةٍ: " فأكمل لها صداقها "، وفي روايةٍ: " فردَّها إلى أهلها وقال: دلستم عليَّ". [1]

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٦٥٤٧- ٤/ ١٧٦)، وأحمد في مسنده (٣/ ٤٩٣)، وأبو يعلى في مسنده (٥٦٧٣- ٥/ ١٣٩)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٤)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢١٣- ٢١٤- ٢٥٦-٢٥٧) كلهم من طريق جميل بن زيدٍ الطائي، لكن اختُلِفَ على شيخه فرواه مرةً عن عبد الله بن كعبٍ أو كعب بن عبد الله، ومرةً عن عبد الله بن عمر (وقد ذكر أبو بكر بن عياشٍ، أن جميل بن زيدٍ اعترف بأنه لم يسمع من ابن عمر شيئًا)، ورواه مرةً عن سعيد بن زيدٍ الأنصاري، ومرةً عن زيد بن كعبٍ أو كعب بن زيدٍ، ومرةً عن زيد بن كعب ابن عُجرةَ عن أبيه.

الوجه الثاني: على فرض ثبوت القصة فليس فيها أي مأخذ على النبي ﷺ للأسباب الآتية:

أولًا: حاجة الرجل إلى زوجةٍ حسناءَ جميلةٍ.

عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل النبي ﷺ أي النساء خيرٌ؟ فقال: " الَّتِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِيمَا يَكْرَهُ فِي نَفْسِهَا، وَلَا فِي مَالِهِ"(١).

والشاهد من الحديث قولهﷺ: " التي تسره إذا نظر إليها " أي: إذا نظر زوجها إليها، ففي النظر إليها العفاف والكفاف عن الحرام، وهي تغنيه عن النظر إلى غيرها.

فمن هذا الحديث نجد أن من حق الرجل أن يتزوج امرأةً يسره النظر إليها، ورسول الله ﷺ كانت معظم زيجاته كما هو معلوم لأغراضٍ إنسانيةٍ بحتةٍ، وهو ﷺ لم يعدد الزوجات إلا بعد الخمسين من عمره، ولكن هذا لا يمنع أنه كان رجلًا جميل الخَلق والخُلُق، وكان كأي رجلٍ يحب أن يتزوج امرأةً يسره النظر إليها، وهذه المرأة كان يسره ﷺ النظر إليها، لكنه وجد فيها هذا العيب الذي نفره منها نُفرةً شديدةً.

ثانيًا: هذه المرأة قد أخفت- أو أخفى أولياؤها- ما فيها من عيبٍ وهذا تدليسٌ لا يجوز.

والدليل على هذا قوله ﷺ كما في بعض الروايات بعدما رَدَّها إلى أهلها: " دلَّستم عليَّ"(٢). وهذا يجعل النفرةَ منها أشدَّ مما لو كان عالمًا بما فيها قبل أن يدخل بها.

وكان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على النظر إلى من يريدون الزواج بهن حتى يكون ذلك أدعى لاستدامة العِشرة والمودة والرحمة بينهما. . فعن أبي هريرة ﷺ قال: كنت عند

قال البيهقي: قال أبو أحمد بن عديٍّ: وجميل بن زيدٍ تفرد بهذا الحديث واضطرب الرواة عنه لهذا الحديث. (الكبرى ٧/ ٢١٤). وقد ضعفه ابن معينٍ، والبخاري، والنسائي، وأبوحاتم، وأبو القاسم البغوي، وابن حبان. تهذيب التهذيب (٢/ ٨٢) (١٠١٤).

والحديث رواه أيضًا الطبراني في الكبير (٦/ ١٦١) (٥٨٥٥) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل ابن سعد ﷺ. وعبد الحميد بن سليمان ضعفه ابن معين وابن المديني والنسائي وصالح بن محمد الأسدي ويعقوب بن سفيان (تهذيب الكمال ١٦/ ٤٣٤-٤٣٧)، وابن حجر في التقريب (١/ ٣٢٧) (٣٨٦٩).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٢)، والنسائي (٨٩٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٢٩٨).

(٢) مسند أبي يعلى (٥٦٧٣) (٥/ ١٣٩).

النبي ﷺ فأتاه رجلٌ فأخبره أنه تزوج امرأةً من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ: " أنظرت إليها؟ " قال: لا، قال: " فاذهب فانظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئًا ". (١)

ومعنى قوله: " فإن في أعين الأنصار شيئًا " أي: صغر أو زرقة. وفي هذا: دلالة لجواز ذكر مثل هذا للنصيحة، وفيه: استحباب النظر إلى وجه من يريد تزوجها..، ثم إنه يباح له النظر إلى وجهها وكفيها فقط..، لأنه يستدل بالوجه على الجمال أو ضده، وبالكفين على خصوبة البدن أو عدمها(٢).

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: خطبت امرأة على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: " أنظرت إليها؟ " قلت: لا، قال: " فانظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينكما "(٣).

ثالثًا: من مقاصد النكاح استدامة العشرة وهذا قد لا يكون مع وجود العيب.

والعيوب المؤثرة في النكاح تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولًا: عيوب تتعلق (تختص) بالرجل، مثل: الجب، والعنة.

ثانيًا: عيوب تتعلق (تختص) بالمرأة، مثل: الرتق، والقرن.

ثالثًا: عيوب تتعلق (تختص) بالزوجين معًا، مثل: الجذام، والبرص، والجنون.

العيوب المجوزة للفسخ وهي ثمانية: اثنان يختصان الرجل وهما الجب والعنة، وثلاثة تختص المرأة وهي الفتق والقرن والعفل، وثلاثة يشترك فيها الزوجان وهي الجذام والجنون والبرص، وهكذا ذكرها الخرقي، وقال القاضي: هي سبعة جعل القرن والعفل شيئا واحدًا، وهو الرتق، وذلك لحم ينبت في الفرج. وحكي ذلك أهل الأدب. وحكي نحوه عن أبي بكر. وذكره أصحاب الشافعي وقال الشافعي: القرن عظم في الفرج يمنع الوطء، وقال عن غيره: لا يكون في الفرج عظم؛ إنما هو لحم ينبت فيه. وحكي عن أبي حفص أن العفل كالرغوة في الفرج، يمنع لذة الوطء. وقال أبو الخطاب: الرتق أن يكون

---

(١) مسلم (١٤٢٤).

(٢) شرح النووي: ٥/ ٢٢٧ بتصرف.

(٣) رواه النسائي (٦/ ٩٦)، وابن ماجه (١/ ٥٩٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥١١).

الفرج مسدودًا: يعني ملتصقًا، لا يدخل الذكر فيه، والقرن والعفل لحم ينبت في الفرج فيسده، فهما في معنى الرتق؛ إلا أنهما نوع آخر، وأما الفتق: فهو انخراق ما بين السبيلين، وقيل انخراق ما بين مخرج البول والمني. وذكرها أصحاب الشافعي سبعة أسقطوا منها الفتق. ومنهم من جعلها ستة وجعل القرن والعفل شيئًا واحدًا، وإنما اختص الفسخ بهذه العيوب؛ لأنها تمنع الاستمتاع المقصود بالنكاح؛ فإن الجذام والبرص يثيران نفرة في النفس، تمنع قربانه، ويخشى تعديه إلى النفس والنسل، فيمنع الاستمتاع. والجنون يثير نفرة، ويخشى ضرره، والجب والرتق يتعذر معهما الوطء. والفتق يمنع لذة الوطء، وفائدته وكذلك العفل على قول من فسره بالرغوة. [١]

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: تُرَدُّ بِالْعُيُوبِ الْخَمْسَةِ وَهِيَ الْجُذَامُ، وَالْبَرَصُ، وَالْجُنُونُ وَالرَّتَقُ، بِفَتْحِ التَّاءِ مَصْدَرُ قَوْلِك امْرَأَةٌ رَتْقَاءُ، لَا يُسْتَطَاعُ جِمَاعُهَا، لِارْتِتَاقِ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ؛ أَيْ لِانْسِدَادِهِ لَيْسَ لَهَا خَرْقٌ إلَّا الْمَبَالُ (وَالْقَرْنُ) بِسُكُونِ الرَّاءِ.

قَالَ فِي الْمُغْرِبِ: وَهُوَ إمَّا غُدَّةٌ غَلِيظَةٌ، أَوْ لَحْمَةٌ مُرْتَفِعَةٌ، أَوْ عَظْمٌ تَمْنَعُ مِنْ سُلُوكِ الذَّكَرِ فِي الْفَرْجِ وَامْرَأَةٌ قَرْنَاءُ بِهَا ذَلِكَ.

قَالَ: لِأَنَّهَا يَعْنِي الْعُيُوبَ الْخَمْسَةَ تَمْنَعُ الِاسْتِيفَاءَ حِسًّا أَوْ طَبْعًا، أَمَّا حِسًّا: فَفِي الرَّتَقِ وَالْقَرْنِ، وَأَمَّا طَبْعًا فَفِي الْجُذَامِ وَالْبَرَصِ وَالْجُنُونِ؛ لِأَنَّ الطِّبَاعَ السَّلِيمَةَ تَنْفِرُ عَنْ جِمَاعِ هَؤُلَاءِ، وَرُبَّمَا يَسْرِي إلَى الْأَوْلَادِ وَالطَّبْعُ مُؤَيَّدٌ بِالشَّرْعِ. قَالَ ﷺ: " فِرَّ مِنْ الْمَجْذُومِ فِرَارَك مِنْ الْأَسَدِ "[٢]

وبالجملة فأي عيب يمنع استدامة العشرة بين الزوجين أو يوقع ضررًا على أحدهما هو أعظم من الضرر الواقع بسبب الفراق يجيز الفراق.

رابعًا: من محاسن دين الإسلام إباحةُ الطلاق بالضوابط التي تحفظ لكل ذي حقٍ حقه.

---

(١) الشرح الكبير (٧/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) انظر: العناية شرح الهداية بحاشية شرح فتح القدير (٤/ ٣٠٣)، والحديث أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٣).

فقد أحل الله الطلاق أو التسريح ولكن بإحسان قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

خامسًا: قد أحسن النبي ﷺ إلى هذه المرأة وأوفى لها حقها:

فقد جاء في روايات هذا الحديث أنه ﷺ: " ولم يأخذ مما آتاها شيئًا "[١].

وفي روايةٍ: " وألحق لها مهرها"[٢].

وفي روايةٍ: "أمر لها بالصداق"[٣].

وفي روايةٍ: "فأكمل لها صداقها". [٤]

* * *

(١) إسناده ضعيف. مسند أحمد (٣/ ٤٩٣).

(٢) البيهقي في الكبرى (٧/ ٢٥٦).

(٣) الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤).

(٤) البيهقي (٧/ ٢٥٦).

٢١- شبهة: النبي ﷺ يخرج عريانًا للصحابة.

نص الشبهة:

قالوا: إن النبي خرج عريانًا ليسلّم على زيد بن حارثة حينما أتاه إلى بيته، فكيف يجوز ذلك؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تتبع طرق الحديث، وبيان ضعفها.

الوجه الثاني: معنى الحديث.

الوجه الثالث: إثبات النهي عن التعري أمام الأجانب.

الوجه الرابع: إثبات حياء النبي ﷺ، وأنه لم يُرَ عريانًا.

الوجه الخامس: ذكر بعض ما عندهم من التعري في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل.

الوجه الأول: تتبع طرق الحديث، وبيان ضعفها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْمَدِينَةَ وَرَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِي فَأَتَاهُ فَقَرَعَ الْبَابَ فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ عُرْيَانًا يَجُرُّ ثَوْبَهُ، وَالله مَا رَأَيْتُهُ عُرْيَانًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ، فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ[١]

---

(١) **إسناده منكر**. أخرجه الترمذي (٢٧٣٢)، ومن طريقه البغوي في: شرح السنة (٣٣٢٧)، وابن عساكر في: تاريخ دمشق (١٩/ ٣٦٥)، وأخرجه العقيلي في: الضعفاء (٢٠٦٠)، وأبو نعيم في: الدلائل (٤٦٨)، وابن عساكر في: تاريخ دمشق (١٩/ ٣٦٤)، وأخرجه الواقدي في: المغازي، ومن طريقه ابن عساكر.

كلهم من طرق عن إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادٍ المدني، قال حدثني أَبُو يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ الزهري، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ.

قال الزيعلي في: نصب الراية (٤/ ٣٢٣) بعد ذكر طريق الترمذي، وَرَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي: دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، فِي الْبَابِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُورِ فوهم؛ وإنما هو من طريق محمد بن أيوب، عن إبراهيم وفيه:

١- محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن.

٢- يحيي بن محمد بن عباد الشجري.

قال أبو حاتم: «ضعيف الحديث» الجرح والتعديل (٩/ ١٨٥)، قال العقيلي: «في حديثه مناكير وأغاليط، وكان ضريرًا، فيما بلغني أنه يلقن». الضعفاء (٢٠٦٠)، وفي تهذيب التهذيب٩/ ٢٩٠: «قال الساجي» وهو خطأ. وقال الذهبي في الكاشف (١/ ٩٦): «ضعيف».

الوجه الثاني: معنى الحديث.

معنى (عُرْيَانًا يَجُرُّ ثَوْبَهُ): أي ليس عليه سوى الإزار، أيْ: رِدَاءَهُ مِنْ كَمَالِ فَرَحِهِ بِقُدُومِهِ وَمَأْتَاهُ، وقد روى الإمام مالك(١)، وغيره: أن رسول الله ﷺ لما دخل عليه عكرمة بن أبي جهل مسلمًا مهاجرًا، قام إليه فرحًا بقدومه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا، ودلًّا برسول الله ﷺ من فاطمة رضي الله عنها كانت إذا دخلت عليه قام إليها، فأخذ بيدها وقبلها، وأجلسها في مجلسه، وكانت إذا دخل عليها قامت إليه، وأخذت بيده، وقبلته، وأجلسته في مجلسها"(٢).

قَالَ الملا علي القاري: تُرِيدُ أَنَّهُ ﷺ كَانَ سَاتِرًا مَا بَيْنَ سُرَّتِهِ وَرُكْبَتِهِ؛ ولَكِنْ سَقَطَ رِدَاءَهُ عَنْ عَاتِقِهِ، فَكَانَ مَا فَوْقَ سُرَّتِهِ عُرْيَانًا؛ فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ تَحْلِفُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَرَهُ عُرْيَانًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، مَعَ طُولِ الصُّحْبَةِ، وَكَثْرَةِ الِاجْتِمَاعِ فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ؟ قِيلَ لَعَلَّهَا أَرَادَتْ عُرْيَانًا، اسْتَقْبَلَ رَجُلًا وَاعْتَنَقَهُ، فَاخْتَصَرَتْ الْكَلَامَ لِدَلَالَةِ الْحَالِ، أَوْ عُرْيَانًا مِثْلَ ذَلِكَ الْعُرْيِ، وَاخْتَارَ الْقَاضِي الْأَوَّلَ. وَقَالَ الطِّيبِيُّ هَذَا هُوَ الْوَجْهُ لِمَا يُشَمُّ مِنْ سِيَاقِ كَلَامِهَا

٣ـ إبراهيم بن يحيي بن محمد بن عباد الشجري

قال أبو حاتم: «ضعيف الحديث» الجرح والتعديل (٢/ ١٤٧) وقال الأزدي: منكر الحديث ميزان الاعتدال (١/ ٧٤) زاد ابن حجر «عن أبيه» التهذيب (١/ ١٩٣) وانقلب اسمه علي ابن عدي في «مشيخته»، وتبعه حمزة السهمي في« تاريخ جرجان» (٢٤) ذكره الأمير ابن ماكولا في «الإكمال» (٤/ ٥٥٢، ٥٥٣) وكذا ابن حجر في: تبصير المنتبه (٢/ ٧٢٨) وقال: وإنما ذكرته، وإن كان ليس التنبيه عليه من غرض مختصري لئلا يظن من لا خبرة له أنه آخر.

وقال الذهبي في الميزان (٤/ ٤٠٧) عن هذا الحديث: «منكر».

وقَالَ أَبُو عِيسَى: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ».

وقال الحافظ في: النكت الظراف علي الأطراف (١٢/ ٨١، ٨٢) قلت: قد رواه الواقدي، عن ابن أخي الزهري، فيحتمل أن يكون الترمذي لم يعتد بروايته». وقال الألباني: «ضعيف». ضعيف سنن الترمذي (٥١٦).

(١) الموطأ (١٢٥٢) عن ابن شهاب به، وهو مرسل.

(٢) الترمذي (٤١٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٣٩).

رَائِحَةُ الْفَرَحِ، وَالِاسْتِبْشَارِ بِقُدُومِهِ، وَتَعْجِيلِهِ لِلِقَائِهِ، بِحَيْثُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَمَامِ التَّرَدِّي بِالرِّدَاءِ حَتَّى جَرَّهُ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ مِثْلُ هَذَا. انْتَهَى(١).

الوجه الثالث: النهي عن التعري أمام الأجانب من القرآن والسنة.

أولًا: من القران الكريم:

قال تعالي: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (النور ٣٠-٣١).

وقال تعالي: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأعراف ٢٦-٢٧)

ثانيًا: من السنة المطهرة:

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ، قَالَ: " احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلاَّ مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ". قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِذَا كَانَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ قَالَ: " إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ فَلاَ يَرَيَنَّهَا ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا قَالَ: " اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ "(٢).

---

(١) تحفة الاحوزي (٧/ ٤٣٤)، الدرر السنية (٢٢/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٠١٧)، والترمذي في سننه (٢٧٦٩، ٢٧٩٤)، والنسائي في الكبرى (٨٩٧٢)، وابن ماجه في سننه (١٩٢٠)، وحسنه الألباني في آداب الزفاف (١٨).

الوجه الرابع: إثبات حياء النبي ﷺ، وأنه لم ير عريانا قط.

عنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي عُتْبَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَ النبي ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا[(١)].

قال الحافظ: قوله: (أشد حياء من العذراء): أي البكر، وقوله في (خدرها) بكسر المعجمة: أي في سترها. وهو من باب التتميم؛ لأن العذراء في الخلوة يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها، فالظاهر أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها في خدرها، لا حيث تكون منفردة فيه، ومحل وجود الحياء منه ﷺ في غير حدود الله، ولهذا قال للذي اعترف بالزنا " أنكتها " لا يكني، وأخرج البزار هذا الحديث من حديث أنس ﷺ وزاد في آخره وكان يقول: " الحياء خير كله "، وأخرج من حديث ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يغتسل من وراء الحجرات، وما رأى أحد عورته قط. وإسناده حسن[(٢)].

وقال رحمه الله: قوله: الحياء من الإيمان حكى ابن التين، عن أبي عبد الملك أن المراد به كمال الإيمان، وقال أبو عبيد الهروي: معناه: أن المستحى ينقطع بحيائه عن المعاصي، وإن لم يكن له تقية فصار كالإيمان القاطع بينه وبين المعاصي.

قال عياض وغيره: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم، وأما كونه خيرا كله ولا يأتي إلا بخير فأشكل حمله على العموم؛ لأنه قد يصد صاحبه عن مواجهة من يرتكب المنكرات، ويحمله على الإخلال ببعض الحقوق، والجواب: أن المراد بالحياء في هذه الأحاديث ما يكون شرعيًا، والحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بالحقوق ليس حياء شرعيًا؛ بل هو عجز ومهانة، وإنما يطلق عليه حياء لمشابهته للحياء الشرعي، وهو: خُلُق يبعث على ترك القبيح، قلت: ويحتمل أن يكون أشير إلى أن من كان الحياء من خلقه، أن الخير يكون فيه أغلب، فيضمحل ما لعله يقع منه مما ذكر في جنب ما يحصل له بالحياء من الخير، أو لكونه إذا صار

(١) البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٦٧).

عادة وتخلق به صاحبه يكون سببًا لجلب الخير إليه، فيكون منه الخير بالذات والسبب، وقال أبو العباس القرطبي: الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان، وهو المكلف به دون الغريزي، غير أن من كان فيه غريزة منه؛ فإنها تعينه على المكتسب، وقد ينطبع بالمكتسب حتى يصير غريزًا، قال: وكان النبي ﷺ قد جمع له النوعان، فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها، كان في الحياء المكتسب في الذروة العليا ﷺ.[1]

الوجه الخامس: ذكر بعض ما عندهم من التعري.

هذه القصة فيها بيان ما تنسبه التوراة إلى الله من أمره لنبيه إشعياء بالتعري، ولماذا؟ لكي يري بني إسرائيل ما ينتظرهم من الهوان والذل والعري على يد ملك آشور: تَكَلَّمَ الرَّبُّ عَنْ يَدِ إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ قَائِلًا: اذْهَبْ وَحُلَّ الْمِسْحَ عَنْ حَقْوَيْكَ وَاخْلَعْ حِذَاءَكَ عَنْ رِجْلَيْكَ. فَفَعَلَ هكَذَا وَمَشَى مُعَرًّى وَحَافِيًا. فَقَالَ الرَّبُّ: كَمَا مَشَى عَبْدِي إِشَعْيَاءُ مُعَرًّى وَحَافِيًا ثَلاَثَ سِنِينٍ، آيَةً وَأُعْجُوبَةً عَلَى مِصْرَ وَعَلَى كُوشَ، هكَذَا يَسُوقُ مَلِكُ أَشُّورَ سَبْيَ مِصْرَ وَجَلاَءَ كُوشَ، الْفِتْيَانَ وَالشُّيُوخَ، عُرَاةً وَحُفَاةً وَمَكْشُوفِي الأَسْتَاهِ خِزْيًا لِمِصْرَ. (إشعياء ٢٠/ ٢ - ٤).

يقول التفسير التطبيقي تعليقًا على هذه الفقرة: كان أمر الله لإشعياء أن يتجول عاريًا لمدة ثلاث سنوات، وهو اختبار مُذِل، فقد كان الله يستخدم إشعياء لبيان ما ستختبره مصر وكوش من إذلال على يد آشور، ولكن كانت الرسالة في الواقع ليهوذا.

وهكذا فإن رؤية بني إسرائيل لنبيهم عريانًا ثلاث سنين درس كبير وعظة بالغة! أمَا من وسيلة للإيضاح أفضل من هذه الوسيلة العارية؟ فهل يعقل هذا؟ هل يأمر الرب نبيه بالتعري ثلاث سنين؟

وما جاء في إنجيل يوحنا المقدس عندهم عن الرسول بطرس: بطرس الرسول - صخرة الكنيسة - عاريًا على شاطىء البحرً!

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٣٩).

يروي يوحنا قصة ظهور المسيح لتلاميذه عند بحيرة طبرية قائلًا: بَعْدَ هذَا أَظْهَرَ أَيْضًا يَسُوعُ نَفْسَهُ لِلتَّلاَمِيذِ عَلَى بَحْرِ طَبَرِيَّةَ. ظَهَرَ هكَذَا: كَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ، وَتُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ، وَنَثَنَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ، وَابْنَا زَبْدِي، وَاثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ. قَالَ لَهُمْ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: أَنَا أَذْهَبُ لأَتَصَيَّدَ. قَالُوا لَهُ: نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضًا مَعَكَ. فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا السَّفِينَةَ لِلْوَقْتِ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئًا. وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ، وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ. وَلكِنَّ التَّلاَمِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: يَا غِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَامًا؟. أَجَابُوهُ: لاَ! فَقَالَ لَهُمْ: أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الأَيْمَنِ فَتَجِدُوا. فَأَلْقَوْا، وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّمَكِ. فَقَالَ ذلِكَ التِّلْمِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبُطْرُسَ: هُوَ الرَّبُّ!. فَلَمَّا سَمِعَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَّهُ الرَّبُّ، اتَّزَرَ بِثَوْبِهِ، لأَنَّهُ كَانَ عُرْيَانًا، وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ. (يوحنا٢١: ١ - ٧).

إن الحدث الغريب حقًا أن بطرس الرسول عندما سمع أن المسيح قد حضر اتزر بثوبه؛ لأنه كان عريانًا وألقى بنفسه في البحر (يوحنا ٢١: ٧)، كيف يكون بطرس كبير الحواريين عريانًا على شاطىء البحر؟! ولماذا يخجل من التعري عندما سمع بحضور المسيح فقط؟! هل التعري جائز في غياب المسيح وغير جائز في حضورة؟! كيف كان بطرس الرسول الملقب بصخرة الكنيسة عاريًا على الشاطىء أمام التلاميذ ومن كان موجودًا؟!

ويشبه سفر ميخا حزن الرب على ما أصاب بني إسرائيل بنواح النعام ونحيب إناث الثعالب، فيقول: قول الرب الذي صار إلى ميخا. . . من أجل ذلك أنوح وأولول، أمشي حافيًا وعريانًا، أصنع نحيبًا كبنات آوى، ونوحًا كرعال النعام (ميخا ١/ ١-٨).

وقصة الشاب الذي هرب من الشبان، فأمسكوا بإزاره الذي يلبسه على عري، فترك الإزار، وهرب منهم عريانا. (انظر: مرقس ١٤/ ٥١ -٥٢).

* * *

٢٢ـ شبهة: النبي ﷺ كان يمص لسان الحسن والحسين.

نص الشبهة:

يقولون: أن النبي ﷺ كان يمص لسان الحسن والحسين ﭭ، وهذا فيه من الشهوانية ما فيه.

و الرد علي ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المعنى الإجمالي للحديث.

الوجه الثاني: الحديث من مناقب النبي ﷺ.

الوجه الثالث: كل إنسان يرى الناس بعين طبعه.

الوجه الرابع: الرد من الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: المعنى الإجمالي للحديث.

عن معاوية ﭬ قال: رأيت رسول ﷺ يَمُصُّ لِسَانَهُ أَوْ قَالَ شَفَتَهُ يَعْنِي الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، وَإِنَّهُ لَنْ يُعَذَّبَ لِسَانٌ أَوْ شَفَتَانِ مَصَّهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. [١]

أولًا: ليس في الحديث أية إشارة على أن هذا الفعل كان لشهوة أو كما يدعي هؤلاء. وما يوضح هذا الحديث حديث آخر فيه نفس الفعلة من النبي ﷺ لسبطيه رضوان الله عنهما: عن أبي هريرة ﭬ قال: لا أزال أحب هذا الرجل بعدما رأيت رسول الله ﷺ يصنع ما يصنع، رأيت الحسن في حجر النبي ﷺ وهو يدخل أصابعه في لحية النبي ﷺ، والنبي ﷺ يدخل لسانه في فمه ثم قال: "اللهم إني أحبه فأحبه"[٢].

---

(١) **صحيح**. مسند أحمد ٤/ ٩٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٩/ ١٨٠: رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عوف وهو ثقة. وهو كما قال.

(٢) **حسن لغيره**. أخرجه الحاكم٣/ ١٦٩، وابن الأعرابي (١٣٢٦)، وفي معجم شيوخ أبي بكر الإسماعيلي (٨٢)، وابن المقري (٦٥٨) كلهم عن الحسن بن علي بن عفان، عن أبي يحيى الحماني عن الثوري، عن نعيم بن أبي هند، عن ابن سيرين.

وله شاهد يقويه من حديث المجمر، يقول: سمعت مروان يقول لأبي هريرة: والله إني لأحبك، لولا أنك تحب الحسن ابن علي. فقال أبو هريرة لمروان: ومالي لا أحبه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يومًا أتى بابهم، فقال: " يا حسن "، فخرج إليه الحسن، فألقمه فاه، ومص لسانه، وضمه إليه، فو الله لا أزال أحبه، (أخرجه

قال ابن حجر: تقبيل الولد وغيره من الأهل المحارم وغيرهم من الأجانب، إنما يكون للشفقة والرحمة، لا للذة والشهوة، وكذا الضم والشم والمعانقة.[(١)]

الفوائد من الحديث السابق:

١ـ حب أبي هريرة للحسن وللحسين وذلك لشدة حب رسول الله ﷺ لهما لدرجة أن مروان بن الحكم لاحظ هذا وسأله عنه، وهذا يدل على وضوح شدة حب أبي هريرة رضي الله عنه لهما.

٢ـ رحمة رسول الله ﷺ بسبطيه وعطفه عليهما إذ توجه إليهما عندما سمعهما يبكيان رحمةً منه وعطفًا، وهذا هو النبي ﷺ مع الكبير والصغير، ومع القريب وغير القريب، فما بالنا بالحسن والحسين ابني فاطمة حبيبته وابنة حبيبته خديجة رضوان الله عليهم أجمعين.

٣ـ سعي النبي ﷺ للبحث لهما عن ماء لما علم سبب بكائهما وهو العطش.

٤ـ رحمة النبي ﷺ بالصغيرين ومحاولة إسكاتهما بضمهما إلى صدره ﷺ.

٥ـ لما لم يجد النبي ﷺ الماء ليسقيهما مص لسانهما فكان ما كان من سكوت الصغيرين من البكاء. وهذا فيه ما هو جلي من بركة ريق النبي ﷺ. وقد بوَّب محمد بن يوسف الصالحي بابًا في كتابه سبل الهدي والرشاد سماه: في بركة ريقه الطيب ﷺ ، وأورد تحته أحاديث تدل على بركة ريق النبي ﷺ.[(٢)]

وكذلك أشار القاضي عياض في كتابه الشفا إلى هذه الفعلة تحت فصل (فصل في كراماته وبركاته).

٦ـ لا إشكال في فعل النبي ﷺ بسبطيه لأنهما طفلان صغيران وربما كانا رضيعين حينئذ، وحتى لو لم يكونا رضيعين فهما صغيران في السن، فقد ولد الحسن في العام الثالث من الهجرة[(٣)]، وولد الحسين في العام الرابع من الهجرة أي بعد أخيه بعام واحد.[(١)]

الطبراني في الأوسط (٦٤٧٠) من طريق محمد بن عبد الله بن عرس، عن أحمد بن سعيد الهمداني، عن إسحاق بن الفرات، عن يحيى بن أيوب الغافقي، عن عمارة بن غزية، عن نعيم به.

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٤٤.

(٢) سبل الهدي والرشاد ١٠/ ٤١.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٤٦.

ولم يقل أبو هريرة أن النبي ﷺ مص لسانيهما شهوة أو غير ذلك مما لا يليق بالنبي ﷺ.

الوجه الثاني: الحديث من مناقب النبي ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

قال الطبري: يقول تعالي ذكره لنبيه ﷺ: وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي.[٢]

وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ الله نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ ".[٣]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَبْصَرَ النَّبِي ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ " : إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَم".[٤]

وقال ابن الملقن تعليقًا على قول النبي ﷺ (مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ):

فدل على أن تقبيل الولد الصغير وحمله والتخفي به مما يستحق به رحمة الله، ألا ترى حمله ﷺ أُمامة على عاتقه في الصلاة، وهي أفضل الأعمال عند الله، وقد أمر ﷺ بلزوم الخشوع فيها، والإقبال عليها، ولم يكن حمله لها في الصلاة مما يضاد الخشوع المأمور به فيها، وكره أن يشق عليها لو تركها ولم يحملها في الصلاة، وفي فعله ذلك أعظم الأسوة لنا؛ فينبغي الاقتداء به في رحمة صغار الولد وكبارهم، والرفق بهم، ويجوز تقبيل الولد الصغير في سائر جسده[٥].

فهذا دليل من دلائل نبوة محمد ﷺ أنه رحمة الله للعالمين، وأما الاعتراض على تقبيل النبي ﷺ الطفلين من فمهما أو مصه لسانيهما، فليس فيه ما يخالف شرعنا ولا فطرتنا؛ لأن

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٨٠.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ١٠٦.

(٣) البخاري (٥٩٩٨)، مسلم (٢٣١٧) واللفظ له.

(٤) البخاري (٥٩٩٧) باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، مسلم (٢٣١٨) باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه وفضل ذلك، واللفظ له.

(٥) التوضيح شرح الجامع الصحيح لابن الملقن ٢٨/ ٢٩٦.

هذا مشرع به في دين الله رب العالمين، غير منهي عنه، بل مذموم من لا يرحم الحيوانات، فما بالنا بالإنسان، وما بالنا بأقرب الأقربين من الأهل والأحباب، وكما تقدم فنجد العلماء أقروا هذه الأفعال وذكروا أنها مشروعة، بل ويُمدح فاعلها وأمروا بالاقتداء بسيد الناسﷺ في هذا؛ لأن في اتباعه الفلاح، وفي لزوم غرزه النجاة بفضل الله رب العالمين.

الوجه الثالث: كل إنسان يرى الناس بعين طبعه.

كل إنسان يرى الناس بعين طبعه وهذا معلوم، حتى أن الله ﷻ أشار إلي ذلك في كتابه سبحانه وتعالى في مواضع عدة سنوضحها إن شاء الله.

قال الله ﷻ: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ (ص: ١-٧).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وعجب هؤلاء المشركون من قريش أن جاءهم منذر ينذرهم بأس الله على كفرهم به من أنفسهم، ولم يأتهم ملك من السماء بذلك ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ يقول: وقال المنكرون وحدانية الله: هذا-يعنون محمدًا ﷺ - ساحر كذّاب.[١]

فهؤلاء الكفار لا يعبدون الله ويشركون به ما لا ينفع ولا يضر، فلما أتاهم رسول اللهﷺ لينذرهم ويبشرهم ألقوه بالسحر والكذب والكفر، فرأوه بأعين طباعهم.

وقال الله ﷻ عن موسي عليه السلام وقومه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ (غافر ٢٣-٢٤).

قال الطبري: فقال هؤلاء الذين أرسل إليهم موسى لموسى: هو ساحر يسحر العصا، فيرى الناظر إليها أنها حية تسعى، ﴿كَذَّابٞ﴾ يقول: يكذب على الله، ويزعم أنه

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٢٤.

أرسله إلى الناس رسولًا. [١]

وما قاله قوم موسى ابتداءً كان سببه انتشار السحر حينئذ في البلاد.

قال الله ﷻ عن موسي: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء ٣٠-٣٨).

فلماذا اتهموه بالسحر؟ لأن هذا كان أعين طباعهم وحالهم. لما رأوا من موسى ما رأوه ظنوه سحرا وألقوه به.

فهاهم يرون تقبيل النبي ﷺ لطفلين صغيرين، وربما كانا رضيعين وهما سبطيه - رضي الله عنهما - بعين طبعهم. فلا بأس أن يقبل رجل امرأة أجنبية عندهم، أو حتى يضاجعها، وهذا معلوم منتشر عندهم. ولكن إذا قبل الرجل ولده أو ابنته رحمة منه وعطفًا اتهموه بالشذوذ الجنسي! ! فهذا هو حالهم ودأبهم، يحرفون الكلم عن مواضعه كما وصفهم الله رب العالمين في كتابه.

الوجه الرابع: الرد من الكتاب المقدس.

هم يعترضون على تقبيل النبي ﷺ لطفلين ومص لسانيهما ولم يكلفوا أنفسهم بالنظر في كتابهم، جاء في إنجيل يوحنا ما نصه:

أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ، إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى. فَحِينَ كَانَ الْعَشَاءُ، وَقَدْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ يَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ أَنْ يُسَلِّمَهُ، يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ الآبَ قَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَرَجَ، وَإِلَى اللهِ يَمْضِي، قَامَ عَنِ الْعَشَاءِ، وَخَلَعَ

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٥.

ثِيَابَهُ، وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا، ٥ ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ، وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِرًا بِهَا. فَجَاءَ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ. فَقَالَ لَهُ ذَاكَ: «يَا سَيِّدُ، أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلَيَّ! » ٧ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ، وَلكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ». قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَدًا! » أَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ». قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ، لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا يَدَيَّ وَرَأْسِي». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الَّذِي قَدِ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ، بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ. وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ». لأَنَّهُ عَرَفَ مُسَلِّمَهُ، لِذلِكَ قَالَ: «لَسْتُمْ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ»، فَلَمَّا كَانَ قَدْ غَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَاتَّكَأَ أَيْضًا، قَالَ لَهُمْ: «أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ؟ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي مُعَلِّمًا وَسَيِّدًا، وَحَسَنًا تَقُولُونَ، لأَنِّي أَنَا كَذلِكَ. فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ، فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ، لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً، حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا. (يوحنا ١٣/ ١_١٥).

و إليك نص آخر عجيب في كتابهم:

جاء في إنجيل يوحنا ما نصه: وَكَانَ مُتَّكِئًا فِي حِضْنِ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ. (يوحنا١٣/ ٢٣).

* * *

٢٣ـ شبهة: مخنث يجلس مع نساء رسول الإسلام.

نص الشبهة:

كيف يدخل مخنث على نساء النبي ﷺ في البيت.

والرد على ذلك من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ذكر الحديث.

الوجه الثاني: بيان معنى (مخنث).

الوجه الثالث: من يكون هذا المخنث؟.

الوجه الرابع: كان ﷺ يرى أنه من غير أولي الإربة.

الوجه الخامس: المخنثون والخصاة في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الحديث.

عَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ أَبِى سَلَمَةَ عَنْ أُمِّهَا أُمِّ سَلَمَةَ - رضى الله عنها - دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِىُّ ﷺ وَعِنْدِى مُخَنَّثٌ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِعَبْدِ الله بْنِ أَبِى أُمَيَّةَ يَا عَبْدَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ فَتَحَ الله عَلَيْكُمُ الطَّائِفَ غَدًا فَعَلَيْكَ بِابْنَةِ غَيْلاَنَ، فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ. وَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: "لاَ يَدْخُلَنَّ هَؤُلاَءِ عَلَيْكُنَّ".

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ الْمُخَنَّثُ هِيتٌ. حَدَّثَنَا مَحْمُودٌ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ هِشَامٍ بِهَذَا، وَزَادَ وَهُوَ مُحَاصِرٌ الطَّائِفَ يَوْمَئِذٍ[(١)].

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ يَعْنِى أَرْبَعَ عُكَنِ بَطْنِهَا، فهي تُقْبِلُ بِهِنَّ، وَقَوْلُهُ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ. يَعْنِى أَطْرَافَ هَذِهِ الْعُكَنِ الأَرْبَعِ، لأَنَّهَا مُحِيطَةٌ بِالْجَنْبَيْنِ حَتَّى لَحِقَتْ وَإِنَّمَا قَالَ بِثَمَانٍ. وَلَمْ يَقُلْ بِثَمَانِيَةٍ. وَوَاحِدُ الأَطْرَافِ وَهْوَ ذَكَرٌ، لأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ثَمَانِيَةَ أَطْرَافٍ[(٢)].

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَزْوَاجِ النبي ﷺ مُخَنَّثٌ فَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي

---

(١) البخاري (٤٣٢٤).

(٢) البخاري (٥٨٨٧).

الإِرْبَةِ - قَالَ - فَدَخَلَ النبي ﷺ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً قَالَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِأَرْبَعٍ وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ بِثَمَانٍ. فَقَالَ النبي ﷺ: " أَلاَ أَرَى هَذَا يَعْرِفُ مَا هَا هُنَا لاَ يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ ". قَالَتْ: فَحَجَبُوهُ[1].

وعن عكرمة: أن النبي ﷺ كان لا يدخل بيتًا فيه مخنث[2].

و"لعن الله بيتًا يدخله مخنث "[3].

الوجه الثاني: بيان معنى (مخنث).

خنث: رجل مخنث، وفيه تخنيث وانخناث وخنث: تكسر وتثن، وقد خنث وتخنث، وتقول: وثقت به فتخبث وتخنث، وما تخنث؛ والخناثي، خباثي؛ وخنّث كلامه: لينه. وخنث فم السقاء وفم الجوالق وقمعه: ثناه إلى خارج، وقبعه: ثناه إلى داخل. واختنث القربة فشرب، " ونهى رسول الله ﷺ عن اختناث الأسقية "[4].

وخنث له بأنفه: كأنه يهزأ به[5].

خَنِثَ خَنَثًا فَهُوَ خَنِثٌ -مِنْ بَابِ تَعِبَ- إذَا كَانَ فِيهِ لِينٌ وَتَكَسُّرٌ وَيُعَدَّى بِالتَّضْعِيفِ، فَيُقَالُ: خَنَّثَهُ غَيْرُهُ إذَا جَعَلَهُ كَذَلِكَ وَاسْمُ الْفَاعِلِ مُخَنِّثٌ بِالْكَسْرِ وَاسْمُ الْمَفْعُولِ بِالْفَتْحِ وَفِيهِ انْخِنَاثٌ وَخِنَاثَةٌ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ خَنَّثَ الرَّجُلُ كَلَامَهُ بِالتَّثْقِيلِ إذَا شَبَّهَهُ بِكَلَامِ النِّسَاءِ لِينًا وَرَخَامَةً فَالرَّجلُ مُخَنِّثٌ بِالْكَسْرِ خَنِثَ " الرَّجُلُ " كَفَرِحَ " خَنَثًا فهو خَنِثٌ. " وتَخَنَّثَ " في كلامِه. وتَخَنَّثَ الرَّجُلُ: فَعَلَ فِعْلَ الُمخَنَّثِ.

وتَخَنَّثَ الرَّجُلُ وغيْرُه: سَقَطَ من الضَّعْفِ. " وانْخَنَثَ: " تَثَنَّى وتكَسَّر والأُنْثى خَنِثَةٌ. رَجُلٌ خُنْثَى: له ما لِلذَّكَرِ والأُنْثَى. وقيل: الخُنْثَى: " مَنْ لَهُ ما لِلرِّجال والنَّسَاءِ جَميعًا ".

---

(١) مسلم (٥٨٢٠).

(٢) إسناده ضعيف، مصنف ابن ابي شيبة (٦/ ٢٣٦).

(٣) ابن النجار عن ابن عباس، كما في جمع الجوامع (٢٣٠)

(٤) البخاري (٥٦٥٢)، مسلم (٥٣٩٠).

(٥) أساس البلاغة (١/ ١٢٤).

وفي المصباح: هو الذي خُلِقَ له فَرْجُ الرَّجُلِ وفَرْجُ المَرْأَةِ(١).

قال شيخُنا: وعند الفُقَهَاءِ: هو مَنْ لَهُ ما لَهُمَان أَو مَنْ عَدِمَ الفَرْجَيْنِ معًا فإِنَّهُمْ قالُوا: إِنّه خُنْثَى وبعضُهُم قال الخُنْثَى حَقِيقَةً مَن له فَرْجَانِ ومَنْ لا فَرْجَ له بالكُلِّيَّةِ أُلْحِقَ بالخُنْثَى في أَحكامِه فهو خُنْثَى مجازًا فتَأَمَّل، فإن كان من أصل الخلقة لم يكن عليه لوم وعليه أن يتكلف إزالة ذلك، وإن كان بقصد منه وتكلف له فهو المذموم، ويطلق عليه اسم مخنث سواء فعل الفاحشة أو لم يفعل وإن لم تعرف منه الفاحشة مأخوذ من التكسر في المشي وغيره ولعن من فعل ذلك(٢).

الوجه الثالث: من يكون هذا المخنث؟

هذا المؤنث يسمى: هيت، وهو مولى لعبد الله بن أبى أمية أخى أم سلمة لأمها، وكان طوس مولى عبد الله بن أبى أمية ومن قبله سرى إلى طوس الخنث وقيل: ماتع، وحكى أبو موسى المديني في كون ماتع لقب هيت أو بالعكس أو إنهما اثنان خلافًا، وجزم الواقدي بالتعدد، فإنه قال: كان هيت مولى عبد الله بن أبي أمية وكان ماتع مولى فاخته وذكر أن النبي ﷺ نفاهما معًا إلى الحمى.

قَالَ الْقَاضِي: الْأَشْهَر أَنَّ اِسْمه (هِيت) بِكَسْرِ الْهَاء وَمُثَنَّاة تَحت سَاكِنَة ثُمَّ مُثَنَّاة فَوق. قَالَ: وَقِيلَ: صَوَابه (هَنَب) بِالنُّونِ وَالْبَاء الْمُوَحَّدَة قَالَهُ اِبْن دَرَسْتَوَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّمَا سِوَاهُ تَصْحِيف، قَالَ: وَالْهَنَب الْأَحْمَق، وَقِيلَ: (مَاتِع) بِالْمُثَنَّاةِ فَوْق مَوْلَى فَاخِتَة الْمَخْزُومِيَّة، وَجَاءَ هَذَا فِي حَدِيث آخَر ذُكِرَ فِيهِ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ غَرَّبَ مَاتِعًا هَذَا وَهِيتًا إِلَى الْحِمَى، ذَكَرَهُ الْوَاقِدِيّ.

وَذَكَرَ أَبُو مَنْصور الْبَادَرْدِيّ نَحْو الْحِكَايَة عَنْ مُخَنَّث كَانَ بِالْمَدِينَةِ يُقَال لَهُ: (أَنَهُ) وَذَكَرَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ نَفَاهُ إِلَى حَمْرَاء الْأَسَد. وَالْمَحْفُوظ أَنَّهُ هِيت. قَالَ الْعُلَمَاء: وَإِخْرَاجه وَنَفْيه كَانَ لِثَلَاثَةِ مَعَانٍ: أَحَدهَا الْمَعْنَى الْمَذْكُور فِي الْحَدِيث أَنَّهُ كَانَ يَظُنّ أَنَّهُ مِنْ غَيْر أُولَى الْإِرْبَة، وَكَانَ مِنْهُمْ، وَيَتَكَتَّم بِذَلِكَ. وَالثَّانِي وَصْفه النِّسَاء وَمَحَاسِنهنَّ وَعَوْرَاتهنَّ بِحَضْرَةِ الرِّجَال، وَقَدْ

---

(١) المصباح (١٠/ ١٨٣).

(٢) لسان العرب (١/ ١٢٥٣)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي (٣/ ١٤٣).

نَهَى أَنْ تَصِفَ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا، فَكَيْفَ إِذَا وَصَفَهَا الرَّجُلُ لِلرِّجَالِ؟ وَالثَّالِث أَنَّهُ ظَهَرَ لَهُ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَطَّلِع مِنْ النِّسَاء وَأَجْسَامهنَّ وَعَوْرَاتهنَّ عَلَى مَا لَا يَطَّلِع عَلَيْهِ كَثِير مِنْ النِّسَاء، فَكَيْف الرِّجَال لَا سِيَّمَا عَلَى مَا جَاءَ فِي غَيْر مُسْلِم أَنَّهُ وَصَفَهَا حَتَّى وَصَفَ مَا بَيْن رِجْلَيْهَا أَيْ فَرْجهَا وَحَوَالَيْهِ[1].

الوجه الرابع: كان ﷺ يرى أنه من غير أولي الإربة.

و (الإربة): الحاجة إلى الوطء، فغير أولى الإربة: هو الأحمق الذي ليس له في النساء حاجة ولا أرب وقَدْ بَيَّنَ فِي الْحَدِيثِ سَبَبَ دُخُولِهِ عَلَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ الله عَنْهُنَّ، وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ أَيْ الْحَاجَةِ إِلَى النِّسَاءِ وَأَنَّهُ لَا يَنْظُرُ فِي أَوْصَافِهِنَّ وَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَسَنَةِ وَالْقَبِيحَةِ مِنْهُنَّ وَلَا شَهْوَةَ لَهُ أَصْلًا وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجِبُ الِاحْتِجَابُ مِنْهُ بِنَصِّ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَلَمَّا فُهِمَ مِنْ كَلَامِهِ هَذَا أَنَّهُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ حُجِبَ وَمُنِعَ مِنْ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ كَغَيْرِهِ مِنْ الرِّجَالِ فَفِيهِ أَنَّ التَّخَنُّثَ وَلَوْ كَانَ أَصْلِيًّا لَا يَقْتَضِي الدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ وَأَنَّهُ كَانَ الْمُقْتَضِي لِدُخُولِهِ اعْتِقَادُ كَوْنِهِ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ لَا كَوْنِهِ مُخَنَّثًا[2].

ولا يرى رسول الله ﷺ أنه يفطن لشيء من أمر النساء مما يفطن له الرجال ولا أن له أربة فسمعه يقول لخالد بن الوليد يا خالد إن افتتحتم الطائف فلا تنفلتن منك بادية بنت غيلان بن سلمة، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال رسول الله ﷺحين سمع ذلك منه: لا أرى هذا الخبيث يفطن لما أسمع[3]، وقال ﷺ: مالك قاتلك الله إن كنت لأحسبك من غير أولى الإربة من الرجال وسيره إلى خاخ بمعجمتين ثم قال لنسائه لا تدخلن هذا عليكن فحجب عن بيت رسول الله ﷺ وقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "لَقَدْ غَلَّظْت النَّظَرَ إِلَيْهَا يَا عَدُوَّ الله" ثُمَّ أَجْلَاهُ عَنْ الْمَدِينَةِ إِلَى الْحِمَى[4].

---

(١) شرح النووي (٧/ ٣١٣)، فتح الباري (٩/ ٣٤٣).

(٢) طرح التثريب (٨/ ٣٩٥).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ١٦١).

(٤) الاستذكار لابن عبد البر (٧/ ٢٨٧).

وقال أبو الخير الفضل بن سعيد بن عمرو في الهجاء:

مخنث الطبع وليست له خفة أرواح المخانيث[١].

ويُستفاد منه حجب النساء عمن يفطن لمحاسنهن، وهذا الحديث أصل في إبعاد من يستراب به في أمر من الأمور، وفي الحديث أيضًا تعزير من يتشبه بالنساء بالإخراج من البيوت والنفي إذا تعين ذلك طريقا لردعه وظاهر الأمر وجوب ذلك وتشبه النساء بالرجال والرجال بالنساء من قاصد مختار حرام اتفاقا وسيأتي لعن من فعل ذلك[٢].

قال ابن عبد البر: وفي الحديث من الفقه: أنه لا يجوز دخول أحد من المخنثين وهم الذين يدعون عندنا المؤنثين على النساء وأنهم ليسوا من الذين قال الله فيهم: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾(النور: ٣١).

وهذه الصفة هو الأبلة الأحمق العنين الذي لا إرب له في النساء ولا يفطن بشيء من معايبهن ومحاسنهن، فمن كان بهذه الصفة لم يكن بدخوله على الناس بأس، لأن رسول الله ﷺ ظن بهيت المخنث أنه ممن هذه صفته، فلما سمع منه ما سمع أمر بأن لا يدخل على النساء، ثم أخرجه من المدينة ونفاه عنها، وهذا أصل في كل من يتاذى به ولا يقدر على الاحتراس منه أن يُنفى إلى مكان يؤمن فيه منه الأذى[٣].

قال ابن عبد البر: ليس المخنث الذي تُعرف فيه الفاحشة خاصة، وإنما التخنيث بشدة التأنيث في الخِلقة حتى يشبه المرأة في اللين والكلام والنظر والنغمة والعقل، فإذا كان كذلك لم يكن له في النساء أرب، وكان لا يفطن لأمور النساء، وهو من غير أولي الإربة الذين أبيح لهم الدخول على النساء، ألا ترى أن النبي ﷺلم يمنع ذلك المخنث من الدخول على نسائه فلما سمعه يصف ابنة غيلان وفَهِم أمر النساء أمر بحجبه[٤].

---

(١) قرى الضيف لابن أبي الدنيا (٥/ ١٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٣٤٣).

(٣) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار (٧/ ٢٦٦)

(٤) التمهيد لابن عبد البر (٢٢/ ٢٧٣) بتصرف يسير.

وقال ابن قدامة: ومن ذهبت شهوته من الرجال لكِبَر، أو عُنّةٍ، أو مرض لا يُرجى برؤه، والخصيّ. . ، والمخنث الذي لا شهوة له، فحكمه حكم ذوي المحرم في النظر، لقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ (النور: ١٣) أي غير أولي الحاجة إلى النساء.

وقال ابن عباس: هو الذي لاتستحي منه النساء، وعنه: هو المخنث الذي لا يكون عنده انتشار (أي مقدرة على الانتصاب)[1].

الوجه الخامس: المخنثون والخصاة في الكتاب المقدس.

(متى١٩/ ١٢): لأَنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلِدُوا هكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ».

(التثنية٢٣/ ١): لقد عمد فيلبس وهو أحد التلاميذ وزير الملكة كنداكة ملكة الحبشة وهو رجل مخصي عندما كان في طريقه من أورشليم إلي غزة ودخل الرجل في جماعة الرب .كما ورد في حزقيال.

وفي (أعمال الرسل٨/ ٢٧): فَقَامَ وَذَهَبَ وَإِذَا رَجُلٌ حَبَشِيٌّ خَصِيٌّ، وَزِيرٌ لِكَنْدَاكَةَ مَلِكَةِ الْحَبَشَةِ، كَانَ عَلَى جَمِيعِ خَزَائِنِهَا. فَهذَا كَانَ قَدْ جَاءَ إِلَى أُورُشَلِيمَ لِيَسْجُدَ.

(أعمال الرسل٨/ ٣٨: ٣٦): وَفِيمَا هُمَا سَائِرَانِ فِي الطَّرِيقِ أَقْبَلاَ عَلَى مَاءٍ، فَقَالَ الْخَصِيُّ: «هُوَذَا مَاءٌ. مَاذَا يَمْنَعُ أَنْ أَعْتَمِدَ؟ » ٣٧ فَقَالَ فِيلُبُّسُ: «إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ يَجُوزُ». فَأَجَابَ وَقَالَ: «أَنَا أُومِنُ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللهِ». ٣٨ فَأَمَرَ أَنْ تَقِفَ الْمَرْكَبَةُ، فَنَزَلاَ كِلاَهُمَا إِلَى الْمَاءِ، فِيلُبُّسُ وَالْخَصِيُّ، فَعَمَّدَهُ.

(التثنية٢٣/ ٢: ١): لاَ يَدْخُلْ مَخْصِيٌّ بِالرَّضِّ أَوْ مَجْبُوبٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. ٢ لاَ يَدْخُلِ ابْنُ زِنًى فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الْجِيلِ الْعَاشِرِ لاَ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ.

والسؤال: ما ذنب هؤلاء وقد ولدوا هكذا فكيف لا يدخلون في جماعة الرب؟!!

* * *

---

(١) المغني ٧/ ٤٦٣، الشرح الكبير على متن المقنع (٧/ ٣٤٧-٣٤٨).

٢٤ـ شبهة: استعمال النبي ﷺ وغيره للكحل.

نص الشبهة:

كيف يجوز للنبي ﷺ أن يستخدم الكحل الذي تستخدمه النساء؟.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان درجة الحديث.

الوجه الثاني: هل كلمة الزينة والتزين لغةً خاصة بالنساء فقط؟

الوجه الثالث: ضوابط الزينة في الإسلام للنساء والرجال.

الوجه الرابع: أنواع من الزينة المباحة للرجال عند العرب.

الوجه الخامس: أنواع الزينة التي يستعملها الرجال في مختلف الحضارات.

الوجه السادس: أنواع استعمال الكحل عند العرب.

الوجه السابع: فوائد الكحل.

الوجه الثامن: أنواع من الزينة مباحة للرجال في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان درجة الحديث.

ورد في باب الكحل أحاديث كثيرة منها الضعيف ومنها الصحيح، تشير إلى ثبوت استعمال النبي له ووصيته به.

عن ابن عباس قال: كانت للنبي مكحلة يكتحل منها ثلاثًا في كل عين. [١]

---

(١) صحيح لغيره. أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٤٩٩)، وأحمد في مسنده ١/ ٣٥٤، وأبو يعلى في مسنده (٢٦٩٤) بهذا اللفظ. ورواه الترمذي في سننه (١٧٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٢٤٦)، والسنن الكبرى (٨٠٤٦)، ولفظه (اكْتَحِلُوا بِالإِثْمِدِ فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ »، وَزَعَمَ أَنَّ النبي ﷺكَانَتْ لَهُ مُكْحُلَةٌ يَكْتَحِلُ بِهَا كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلاَثَةً في هَذِهِ وَثَلاَثَةً في هَذِهِ. ، وفي رواية عند الترمذي (٢٠٤٨) (إِنَّ خَيْرَ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ اللَّدُودُ وَالسَّعُوطُ وَالْحِجَامَةُ وَالْمَشِيُّ وَخَيْرُ مَا اكْتَحَلْتُمْ بِهِ الإِثْمِدُ فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ ». قَالَ: وَكَانَ لِرَسُولِ الله ﷺمُكْحُلَةٌ يَكْتَحِلُ بِهَا عِنْدَ النَّوْمِ ثَلاَثًا في كُلِّ عَيْنٍ)، كلهم رووه من طرق عن عباد بن منصور الناجي، قال أبو حاتم: كان ضعيف الحديث يكتب حديثه، وقال أبو زرعة: لين، وقال يحيى بن سعيد: قلت لعباد بن منصور الناجي: سمعت " ما مررت بملإ من الملائكة "؟ ، وأن النبي ﷺ كان يكتحل ثلاثًا؟ فقال: حدثني

الوجه الثاني: هل كلمة الزينة والتزين لغةً خاصة بالنساء فقط.

سواء كان بالكحل أو الحناء أو الدهن، أو غير ذلك:

وهذا لا يتم إلا عن طريق فهم لفظة الزينة لغةً واصطلاحًا

التّزيّن: اتّخاذ الزّينة، وهي ما يستعمل استجلابًا لحسن المنظر، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي: حسنت وبهجت بالنّبات[1].

الوجه الثالث: ضوابط الزينة في الإسلام للنساء والرجال.

فإن كون الإسلام لم يجعل الزينة ممنوعة تمامًا، وكذلك لم يجعلها مباحة بجميع أنواعها، فجعل لها ضوابط، كان ذلك دليلًا على وسطية الإسلام في كل شيء، فلا يُنكر على كونه أباح الكحل للرجال والنساء معًا، ولا يُنكر عليه تحريمه للحرير على الرجال، ولا يُنكر تحريمه للوشم للرجال والنساء معًا.

فمن ضوابط الزينة أنها تدور بين الأحكام الشرعية الخمسة:

واجب – مستحب - مباح - مكروه – حرام

فمثلًا: الزينة المحرمة على النساء والرجال: وصل الشعر-التفلج-الوشم.

الوشم أن يغرز الجلد بإبرة ثم يحشى بكحل أو نيل فيزرق أثره أو يخضر.

ابن أبي يحيى، عن داود بن حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال ابن حجر: صدوق رمى بالقدر وكان يدلس وتغير بآخره. وقال الذهبي: ضعيف، وقال النسائي: ليس بالقوي.

ويشهد له حديث أنس: أن النبي ﷺ كان يكتحل وترًا، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٦٤٢٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٣٤٤٨) بلفظ: يكتحل ثلاثة في كل عين، والرازي في فوائده (٣٦٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٤٦)

وفي الباب عن ابن عباس أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: "البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكحالكم الإثمد يجلو البصر وينبت الشعر". أخرجه أبو داود (٣٨٧٨-٤٠٦١)، والترمذي (١٧٥٧، ٢٠٤٨)، والصحيح من رواية الترمذي ما جاء في الإثمد فقط، وأخرجه النسائي (٥١١٣)، وابن ماجه (٣٤٩٥)، وصححه الألباني في الجامع الصغير (٢١١٦)، وفي الباب عن علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال: (عليكم بالإثمد فإنه منبتة للشعر مذهبة للقذاة مصفاة للبصر)، أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٣)، وفي الأوسط (١٠٦٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٦٦٥)، وقال: حسنه المنذري ٣/ ١١٥.

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية ١١/ ٥٤.

الوجه الرابع: أنواع من الزينة المباحة للرجال عند العرب.

كان للعرب زينة تُتخذ للرجال والنساء في المناسبات وغيرها:

قال د. جواد علي: والعادة عندهم أنهم إذا زاروا ملكًا أو سيد قبيلة أو عظيمًا، لبسوا أحسن ما عندهم من لباس، وتزينوا بأجمل زينة يعرفونها ومنها الكحل والترجيل ولبس جبب الحيرة المكففة بالحرير، كالذي فعله سادات نجران يوم وفدوا على الرسولﷺ، والتكحل عادة منتشرة عند جميع الجاهليين رجالًا ونساء وفي كل جزيرة العرب. كما كانوا يتطيبون بالطيب والعطر(١).

وقال د. جواد علي أيضا: والعادة - كما هو شأن كل الأمم - أن يتزين في أيام الأعياد بأحسن الثياب والملابس المفتخرة والحلل المثمنة والبرود المعجبة. . وقد يخضب الرجال والنساء أيديهم بالخضاب-أي عند العرب-، ولا سيما "الحناء"، ولكن هذا النوع من إظهار القرح والسرور، غالب في الأعراس وفي الختان، حيث تولم الولائم وتقام الأفراح، ويخضب بالحناء(٢).

استعمال الزينة عند العرب في الزواج وغيره:

قال د. جواد علي: والزواج حادث مهم في حياة الإنسان، ولذلك يعلن عنه بفرح وسرور، ويقال لذلك "بشاشة العرس"، يعلن عنه بدعوة "وليمة" تولم لذوي القربى والأحباء والجيران والأصدقاء، تقترن بالغناء وبالضرب على الدفوف أحيانًا، وبارتداء ملابس نظيفة مناسبة، أو ملابس مصبوغة بصفرة، والصفرة عند أهل الحجاز في. ذلك العهد علامة العرس والفرح والسرور، كما كانوا يصبغون أيديهم ولحاهم بالزعفران، ويكحلون عيونهم، والكحل عندهم من الزينة أيضًا(٣).

التجمُل عند العرب:

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١/ ٢٥٣٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام٦/ ٣٦٩.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١/ ٢٤٧٠.

وتجملت المرأة الجاهلية وتزينت على قدر حالها وإمكانها، ومن وسائل الزينة: الوشم غرز إبرة ونحوها في عضو حتى يسيل الدم ثم يحشى بنؤور أو بالكحل أو بالنيلج أو نحوها فيزرق أثره أو يخضر، وكانوا يقصدون بذلك التزّين فينقشون به غالب أبدانهم، أنواعًا من النقوش من صور حيوانات أو نبات أو صور إنسان وكذلك الشفاه، فترى غالب شفاه نسائهم زرقًا، والأطفال منهم يوشمون في بعض المحال من وجوههم لقصد الزينة. وكذلك الرجال، وذكر أن الرسول ﷺ قد نهى عن ذلك في حديث: (لعن الله الواشمة) أو (لعن الله الواشمة والمستوشمة)، ويضفر شعر رأس الأطفال ذوائب، أي ضفائر تتدلى على رأسه وعلى ناصيته. ومتى كبر الطفل وبلغ سنّ الرشد، أو شعر برجولته، ضفرت له ذؤابتان، وهي علامة الشباب والرجولة عندهم[1].

الوجه الخامس: أنواع الزينة التي يستعملها الرجال في مختلف الحضارات.

فيحكي ول ديورانت عن أنواع الزينة التي يتزين بها ملوك مصر في فترة من الفترات فيقول: (وكان يقف على خدمة الملك- كما يليق بشخص هذه عظمته- عدد كبير من مختلف الأعوان منهم القوّاد، وغاسِلو الملابس، وقُصّارها، وحراس خزائنها، وغيرهم من ذوي المراتب الرفيعة. وكان عشرون من الموظفين يشتركون في تزيينه، منهم حلّاقون لا يسمح لهم إلا بقص شعره وحلْق لحيته، وآخرون لإلباسه قلنسوته وتاج رأسه، ومدرمون يقصون أظافره ويدرمونها، ومعطرون يعطرون جسمه ويكحلون جفون عينيه، ويحمرون خديه وشفتيه بالصبغة الحمراء. وجاء في نقش على أحد القبور أن صاحب القبر كان "المشرف على صندوق دهان الشعر والوجه، المسيطر على الدهان)[2].

وفي عصر موليير في فرنسا في أوج عظمتها: راح موليير يهاجم مهنة الطب. . . وقد خُيِّل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه بأنهم وصفوا له حجر الكحل (الأنتيمون)[3].

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١/ ٢٤٤٤.
(٢) قصة الحضارة ١/ ٣٤٣.
(٣) قصة الحضارة ٢٩/ ٤١٧.

الإسلام وقضاؤه على الشذوذ: يحكي ول ديورانت عن فترة من فترات الدولة الأموية فيقول: ونشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء في ثيابهم وعاداتهم، يضفرون شعورهم، ويصبغون أظافرهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليع. وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بإخصاء من كان في مكة من المخنثين، وأبصر الهادي امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما على الفور(١).

والإسلام يفرق بين الزينة التي تستعملها المرأة والزينة التي يستعملها الرجل وهناك زينة مشتركة بينهما.

الوجه السادس: أنواع استعمال الكحل عند العرب.

يستعمل عندهم لعدة أغراض سواء للرجال أو للنساء: من ذلك: كحل زينة وكحل طبي:

قال د. جواد علي: واستعمل الإثمد والكحل في معالجة الرمد، كما استعملوا قطرات من أدوية استحضروها مثل ماء الكمأة في معالجة أمراض العين. وذكر إن الإثمد يحد البصر، ويقوي النظر. والكحل، من جملة مواد تطبيب العيون، ومن جملة وسائل الزينة كذلك. يستعمله الرجال والنساء. وقد كان معروفًا عند الشعوب الأخرى، يصنع من حرق اللبان أو قشور اللوز، ومن السخام المتبقي من حرق بعض الدهون والزيوتْ. وقد عرفت مكة لصنع الكحل قبل الإسلام، ولا تزال مشهورة به، وقد كان الناس يحملون المكاحل في جيوبهم ويحتفظون بها في بيوتهم، يعملونها من القرون أو المعادن، ويبالغ الأغنياء منهم في زخرفتها وفي تزيينها للتبجح بها عند إخراجها أمام الناس(٢).

فيتبين من ذلك أن العرب تكتحل كناحية طبية.

قَالَتْ زَيْنَبُ وَسَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ تَقُولُ جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ ابْنَتِى تُوُفِّىَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدِ اشْتَكَتْ عَيْنَهَا أَفَتَكْحُلُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ لاَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّمَا هي أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ،

(١) قصة الحضارة ١٣/ ٤٨٨.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١/ ٤٩٨١.

وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعَرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ". [(١)]

الوجه السابع: فوائد الكحل.

قال ابن القيم: وَفِي الْكُحْلِ حِفْظٌ لِصِحّةِ الْعَيْنِ وَتَقْوِيَةٌ لِلنّورِ الْبَاصِرِ وَجَلَاءٌ لَهَا وَتَلْطِيفٌ لِلْمَادّةِ الرّدِيئَةِ وَاسْتِخْرَاجٌ لَهَا مَعَ الزّينَةِ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِهِ وَلَهُ عِنْدَ النّوْمِ مَزِيدُ فَضْلٍ لِاشْتِمَالِهَا عَلَى الْكُحْلِ وَسُكُونِهَا عَقِيبَهُ عَنْ الْحَرَكَةِ الْمُضِرّةِ بِهَا وَخِدْمَةِ الطّبِيعَةِ لَهَا وَلِلْإِثْمِدِ مِنْ ذَلِكَ خَاصّيّةٌ. وَفِي " سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ " عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ يَرْفَعُهُ عَلَيْكُمْ بِالْإِثْمِدِ فَإِنّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشّعْرَ وَفِي " كِتَابِ أَبِي نُعَيْمٍ ": فَإِنّهُ مَنْبَتَةٌ لِلشّعْرِ مَذْهَبَةٌ لِلْقَذَى مَصْفَاةٌ لِلْبَصَرِ وَفِي " سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ " أَيْضًا: عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - يَرْفَعُهُ خَيْرُ أَكْحَالِكُمْ الْإِثْمِدُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشّعْرَ[(٢)].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر وينبت الشعر "[(٣)]

الإثمد: وهو المعروف بالكحل العربي وأصله حجر الإثمد يدق ناعما حتى يصير كالذور بعد أن يضاف إليه بعض بذور الزيتون ويحمى على الحجر حتى يتفحم بذر الزيتون ولهذه الغاية يوضع داخل نصف ليمونة، ينبت الشعر: أي شعر الجفون.

وهو دواء ما زال يستعمل لعلاج العديد من أنواع ضعف البصر وخصوصا ما كان في الشبكية.

الوجه الثامن: أنواع من الزينة مباحة للرجال في الكتاب المقدس.

في سفر الرؤيا (٣: ١٨): أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ذَهَبًا مُصَفًّى بِالنَّارِ لِكَيْ تَسْتَغْنِيَ، وَثِيَابًا بِيضًا لِكَيْ تَلْبَسَ، فَلاَ يَظْهَرُ خِزْيُ عُرْيَتِكَ. وَكَحِّلْ عَيْنَيْكَ بِكُحْل لِكَيْ تُبْصِرَ.

* * *

---

(١) البخاري (٥٠٢٤)، ومسلم (١٤٨٨).

(٢) زاد المعاد٤/ ٢٥٧.

(٣) رواه النسائي (٥١١٣)، وأبو داود في السنن (٤٠١٦)، وابن ماجه (٣٤٩٧)، وأحمد في مسنده ١/ ٢٣١من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم وصححه الألباني في المشكاة (١٦٣٨).

٢٥- شبهة: ادعاؤهم تلفظ النبي ﷺ بألفاظ غير مناسبة.

نص الشبهة

ثبت أن النبي ﷺ قال كلمة (أنكتها) في حديث فكيف يقولها وهو نبي من عند الله؟ ثم كيف يأمر أصحابه أن يأكلوا من جيفة حمار كما في بعض طرق القصة؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إيراد الحديث برواياته وألفاظه ليتبين ما فيها من الرحمة.

الوجه الثاني: العلة من انفراد ابن عباس بهذه اللفظة.

الوجه الثالث: الفهم الصحيح للحديث.

الوجه الرابع: محاولة النبي ﷺ دفع الحد عن الرجل كما جاء في ألفاظ الحديث.

الوجه الخامس: أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى.

الوجه السادس: أن الحدود تدرأ بالشبهات، ولا تقام إلا باليقين، وأن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة.

الوجه السابع: وضع العلماء هذه اللفظة في أبواب الحدود.

الوجه الثامن: حد الرجم يثبت بالإقرار فلابد من البيان والاستفصال.

الوجه التاسع: نصوص الكتاب المقدس الفاحشة والتي لا تتناسب أن تكون كلامًا للإله.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إيراد الحديث برواياته وألفاظه ليتبن ما فيها من الرحمة

١-عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ، قال له: "لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت". قال: لا يا رسول الله. قال: "أنكتها". لا يكني قال: فعند ذلك أمر برجمه(١).

٢-عن جابر رضي الله عنه: أن رجلًا من أسلم أتى النبي ﷺ وهو في المسجد فقال: إنه قد زنى فأعرض عنه، فتنحى لشقه الذي أعرض، فشهد على نفسه أربع شهادات، فدعاه فقال: "

(١) البخاري (٦٤٣٨) من طريق عكرمة عن ابن عباس، ومسلم (١٦٩٣) من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس؛ ولم يذكر فيه سعيد عن ابن عباس هذه اللفظة.

هل بك جنون؟! هل أحصنت؟ ". قال: نعم فأمر أن يرجم بالمصلى، فلما أذلقته الحجارة جَمَزَ حتى أدرك بالحرة فقتل. (١)

٣- عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: أتى رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو في المسجد فناداه فقال: يا رسول الله؛ إني زنيت فأعرض عنه، فتنحى تلقاء وجهه فقال له: يا رسول الله؛ إني زنيت، فأعرض عنه، حتى ثنّى ذلك عليه أربع مرات فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال: " أبك جنون؟ " قال: لا. قال: " فهل أحصنت؟ " قال: نعم فقال رسول الله ﷺ: " اذهبوا به فارجموه ".

قال ابن شهاب: فأخبرني من سمع جابر بن عبد الله يقول: فكنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى، فلما أذلقته الحجارة هرب، فأدركناه بالحرة فرجمناه. (٢)

٤- عن جابر بن سمرة قال: رأيت ماعز بن مالك حين جيء به إلى النبي ﷺ رجل قصير أعضل ليس عليه رداء؛ فشهد على نفسه أربع مرات أنه زنى، فقال رسول الله ﷺ: " فلعلك؟ " قال: لا والله؛ إنه قد زنى الأخر. قال: فرجمه، ثم خطب فقال: " ألا كلما نفرنا غازين في سبيل الله خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس، يمنح أحدهم الكثبة أما والله إن يمكني من أحدهم لأنكلنه عنه". (٣)

٥- عن أبي سعيد ﷺ: أن رجلًا من أسلم يقال له ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت فاحشة فأقمه علي. فرده النبي ﷺ مرارًا، قال ثم سأل قومه؟ فقالوا: ما نعلم به بأسًا، إلا أنه أصاب شيئًا يرى أنه لا يخرجه منه، إلا أن يقام فيه الحد قال: فرجع إلى النبي ﷺ فأمرنا أن نرجمه. قال: فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد، قال: فما أوثقناه، ولا حفرنا له. قال: فرميناه بالعظم، والمدر، والخزف، قال: فاشتد، واشتددنا خلفه؛ حتى أتى عرض الحرة؛ فانتصب لنا؛ فرميناه بجلاميد الحرة - يعني الحجارة - حتى سكت. قال: ثم قام

(١) البخاري (٤٩٦٩، ٦٤٢٩) مختصرًا، و(٦٤٣٤)؛ وزاد فيه: وقال له النبي ﷺ خيرًا، وجمز: أي وثب وعدا.
(٢) مسلم (١٦٩١).
(٣) مسلم (١٦٩٢).

رسول الله ﷺ خطيبًا من العشي فقال: " أو كلما انطلقنا غزاة في سبيل الله تخلف رجل في عيالنا له نبيب كنبيب التيس، على أن لا أوتى برجل فعل ذلك إلا نكلت به. قال: فما استغفر له ولا سبه". (١)

٦- عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: " ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ". قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني فقال رسول الله ﷺ: " ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ". قال: فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول الله طهرني. فقال النبي ﷺ: مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: " فيم أطهرك؟ "فقال: من الزنا فسأل رسول الله ﷺ: " أبه جنون؟ " فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: أشرب خمرا؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر قال: فقال رسول الله ﷺ: " أزنيت"؟ فقال: نعم فأمر به فرجم ". فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك؛ لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز؛ أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده؛ ثم قال: اقتلني بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين، أو ثلاثة. ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس؛ فسلم؛ ثم جلس، فقال: " استغفروا لماعز بن مالك "، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك؛ قال: فقال رسول الله ﷺ: " لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم"، قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله طهرني، فقال: " ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه". فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك قال: " وما ذاك؟ " قالت: إنها حبلى من الزنى فقال: " آنت؟ " قالت: نعم. فقال لها: " حتى تضعي ما في بطنك " قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت. قال: فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية فقال: " إذا لا نرجمها وندع لها ولدها صغيرًا"ليس له من يرضعه. فقام رجل من الأنصار فقال: إلي رضاعه يا نبي الله. قال: فرجمها. "(٢)

---

(١) مسلم (١٦٩٤).

(٢) مسلم (١٦٩٥) عن علقمة بن مرثد، عن عبد الله بن بريدة به.

٧- عن نعيم بن هزال عن أبيه قال: كان ماعز بن مالك يتيمًا في حجر أبي فأصاب جارية من الحي. فقال له أبي: ائت رسول الله ﷺ؛ فأخبره بما صنعت؛ لعله يستغفر لك - وإنما يريد بذلك رجاء أن يكون له مخرجًا - فأتاه، فقال: يا رسول الله إني زنيت؛ فأقم علي كتاب الله. فأعرض عنه، فعاد؛ فقال: يا رسول الله، إني زنيت فأقم علي كتاب الله فأعرض عنه فعاد فقال: يا رسول الله، إني زنيت؛ فأقم علي كتاب الله. حتى قالها أربع مرار. فقال النبي ﷺ " إنك قد قلتها أربع مرات فبمن؟ " قال بفلانة فقال " هل ضاجعتها؟ " قال نعم قال " هل باشرتها؟. قال نعم قال: " هل جامعتها؟ قال: نعم. قال: فأمر به أن يرجم، فأخرج به إلى الحرة، فلما رجم فوجد مس الحجارة [جزع] فخرج يشتد فلقيه عبد الله بن أنيس وقد عجز أصحابه فنزع له بوظيف بعير - خف البعير - فرماه به فقتله ثم أتي النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال " هلا تركتموه لعله أن يتوب فيتوب الله عليه ". [1]

٨- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمعه يقول: جاء الأسلمي نبي الله ﷺ، فشهد على نفسه أنه أصاب حرة حرامًا، أربع مرات، كل ذلك يعرض عنه، فأقبل في الخامسة، قال: " أنكتها؟ قال: نعم، قال: " حتى غاب ذلك منك في ذلك منها كما يغيب المرود في المكحلة، والرشاء في البئر؟ " قال: نعم، قال: هل تدري ما الزنا؟ قال: نعم، أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا، قال: فما تريد بهذا القول؟ قال: أريد أن تطهرني، قال: " فأمر به فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت النبي ﷺ عنهما، حتى مر بجيفة حمار شائل

وعن بشير بن المهاجر، عن بن بريدة، عن أبيه - نفس القصة- وزاد في أمر المرأة قوله: فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت: هذا قد ولدته قال: اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه. فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبع إياها فقال: مهلًا يا خالد؛ فو الذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت اهـ. وأخرجه مسلم (١٦٩٥).

(١) أخرجه أبو داود (٤٤١٩).

برجله، فقال: " أين فلان وفلان؟ " قالا: نحن ذا يا رسول الله قال: " انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار، " فقالا: يا نبي الله غفر الله لك! من يأكل من هذا؟ قال: " فما نلتما من عرض أخيكما آنفا أشد من أكل الميتة، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها "(١).

الوجه الثاني: العلة من انفراد ابن عباس بهذه اللفظة.

فكما هو معلوم أن هذا الحديث ورد عن عدد من الصحابة كما سبق بيانه، وهذه اللفظة لم تصح إلا من رواية ابن عباس، ولم تصح عن ابن عباس إلا من طريق عكرمة، وهذا يدل على: أن الأصل في هذا الكلام عند الصحابة هجرانه، لا التلفظ به، إلا لضرورة، كما جاء في الرواية؛ لأن الأصل العام في هذا هو الحياء، وربما كان هناك أمر آخر، وهو: أن النبيﷺ لما تلفظ بهذه الكلمة اقترب من ماعز، وخفض صوته، فلم يسمعه إلا ابن عباس.

الوجه الثالث: الفهم الصحيح للحديث

لكي نفهم هذه الكلمة في هذا الحديث الفهم الصحيح لابد أن توضع بين أصلين كبيرين من أصول هذه الشريعة الغراء.

الأصل الأول: منهج القرآن والسنة في التعبير عن اتصال الرجل بالمرأة وبيان أن عباراته في ذلك تفيض أدبا وحياءً.

الأصل الثاني: منهج الإسلام في المحافظة على النفس المسلمة، وبيان أنه لا يسارع في سفكها، ولو أدى إلى النطق بمثل هذه الكلمة.

أما الأصل الأول: فبالمثال يتضح المقال، وهذه عدة أمثلة تبين منهج القرآن والسنة في التعبير عن علاقة الرجل بالمرأة.

١ - التعبير عن الجماع بكلمة الرفث والمباشرة كما في هذه الآية.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٣٣٤٠). عن ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير، عن عبد الرحمن بن الصامت، عن أبي هريرة به، وسيأتي تخريجه والحكم عليه في آخر هذا البحث.

وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٧).

فالأصل في الرفث: هو قول الفحش ثم جعل ذلك اسما لما يتكلم به عند النساء من معاني الإفضاء، ثم جعل كناية عن الجماع وعن كل ما يتبعه.

فإن قيل: لم كنى هاهنا عن الجماع بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٢١)، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ (الأعراف ١٨٩)، ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (النساء: ٤٣) ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (النساء: ٢٣) ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ (البقرة: ٢٣٦)، ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ (النساء: ٢٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

جوابه: السبب فيه استهجان ما وجد منهم قبل الإباحة كما سماه اختيانا لأنفسهم. والله أعلم.[١]

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث وهو الجماع أي لا جماع فيه لأنه يفسده كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ فالرفث: كناية عن الجماع لأن الله ﷻ كريم يكني، وبهذا قال ابن عباس، وابن جبير، والسدي، وقتادة، والحسن، وعكرمة، والزهري، ومجاهد، ومالك. وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك. كذلك التكلم به بحضرة النساء.[٢]

---

(١) تفسير الرازي (البقرة: ١٨٧).

(٢) تفسير ابن كثير، والقرطبي (البقرة ١٨٧، ١٩٧).

٢- التعبير عنه بالقرب والإتيان وعن عدمه بالاعتزال كما قال تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة٢٢٢، ٢٢٣).

فالمراد بالقرب هنا الجماع، وليس المراد منه الاقتراب بالبدن لحديث أنس رضي الله عنه: أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها، ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله جل جلاله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ: "اصنعوا كل شيء إلا النكاح " فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله إن اليهود قالت: كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة فقوله: ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ يعني الفرج لقوله: " اصنعوا كل شيء إلا النكاح "[(١)]، ويحل مضاجعتها، ومواكلتها بلا خلاف. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض، فيقرأ القرآن. وفي الصحيح عنها قالت: كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه وأشرب الشراب، فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه.

وقوله ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وقوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني الفرج وقوله:

---

(١) تفسير ابن كثير (البقرة: ٢٢٢)، والحديث أخرجه مسلم (٣٠٢).

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ أي كيف شئتم قال: سمعت جابرًا قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾، عن عكرمة قال جاء رجل إلى ابن عباس وقال: كنت آتي أهلي في دبرها وسمعت قول الله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ فظننت أن ذلك لي حلال فقال: يا لكع إنما قوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن لا تعدوا ذلك إلى غيره.(١)

٣- **التعبير عنه بالمس كقوله تعالى:** ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦)، ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ففي هذه الآية أن الله تعالى أباح طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها قال ابن عباس، وطاووس، وإبراهيم، والحسن البصري: المس النكاح، وقال القرطبي: وقرأ حمزة والكسائي (تماسوهن) من المفاعلة؛ لأن الوطء تم بهما.(٢)

فالمراد بالمس في الآية: الجماع.

٤- ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ (الأعراف٨١: ٨٠)

فهذه أيضًا من الكنايات ومثلها ما كان في هذه القصة عند ذكرها في القرآن.

٥- **ومن التعبير عنه بالإتيان في السنة حديث أبي هريرة** ﷺ مرفوعًا: من أتى

---

(١) تفسير ابن كثير الموضع السابق.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٦.

حائضًا أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمدﷺ.[(١)]

وهذا حديث صحيح، وفي المعنى الذي أردناه وردت أحاديث كثيرة تعبر عن جماع النساء بالإتيان ولاشك أن المراد بإتيان النساء غير المراد بإتيان الكهان وهذا من عظمة اللغة التي تكلم بها رسول الله ونزل بها القرآن

٦ـ قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حولت رحلي

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، والنسائي في الكبرى (٩٠١٦)، وأحمد (٢/ ٤٠٨، ٤٧٦)، والدارمي (١١٣٦)، والطحاوي في شرح المعاني (٤٠٨٣)، والنسائي في الكبرى (٩٠١٧)، وابن الجارود (١٠٧)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٦، كلهم من طرق عن حماد ابن سلمة عن حكيم الأثرم، عن أبي تميمة الهجيمي، عن أبي هريرة به. قال الترمذي: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمة (الهجيمي) عن أبي هريرة رضي الله عنه وإنما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ، وقد روي عن النبي ﷺ قال: " من أتى حائضا فليتصدق بدينار" فلو كان إتيان الحائض كفرًا لم يؤمر فيه بالكفارة، وضعف محمد هذا الحديث من قبل إسناده، وأبو تميمة الهجيمي اسمه طريف بن مجالد.

وأبو تميمة وثقه ابن معين، وابن سعد، والدارقطني، وقال ابن عبد البر: هو ثقة حجة عند جميعهم اهـ والتهذيب ٥/ ١٢ وهو من رجال البخاري، ولكن قال البخاري في التاريخ الكبير في ترجمة حكيم الأثرم الراوي عن أبي تميمة ٣/ ١٦ بعد تخريج هذا الحديث: هذا حديث لا يتابع عليه ولا يعرف لأبي تميمة سماع من أبي هريرة في البصريين اهـ. وقال في ترجمة أبي تميمة ٤/ ٣٥٥: سمع أبا موسى وعن أبي هريرة اهـ. يعني وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه فكأنه غاير بين العبارتين لعدم ثبوت سماع أبي تميمة عنده من أبي هريرة رضي الله عنه.

وحكيم الأثرم الذي تفرد بهذه الرواية عن أبي تميمة قال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، وسماه حكيم بن حكيم، وقال الآجري: عن أبي داود: ثقة، وقال ابن أبي شيبة: سألت عنه ابن المديني فقال: ثقة عندنا اهـ. انظر تهذيب التهذيب ٢/ ٣٨٨، والثقات لابن حبان ٦/ ٢١٥.

قلت: ولم يأت من لينه بجرح مفسر يزيل هذا التوثيق، ولهذا فالإسناد صحيح ولا يضره تفرده بهذا الحديث لأنه ثقة. وانظر الإرواء للألباني ٧/ ٦٩.

وللحديث طريق ثان أخرجه الطحاوي في شرح المعاني (٤٠٨٣) من طريق ابن أبي داود، عن عبد الله بن يوسف، عن إسماعيل بن عياش، عن سهيل بن أبي صالح، عن الحارث بن مخلد، عن أبي هريرة بنحوه.

وهذا إسناد ضعيف لأن الحارث بن مخلد مجهول الحال كما قال ابن حجر في التقريب (١٠٤٧)، وإسماعيل بن عياش صدوق في روايته عن أهل بلده مخلط في غيرهم، ومنهم الحجازيين، وهذا منه؛ لأن سهيل بن أبي صالح مدني، وانظر التقريب (٤٧١).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت. قال: وما الذي أهلكك؟ قال: حولت رحلي الليلة فلم يرد عليه شيئا فأوحي إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ يقول: أقبل وأدبر واتق الدبر، والحيضة "[1]

فهذا عمر رضي الله عنه كنى برحله عن زوجته أراد بها غشيانها في قبلها من جهة ظهرها؛ لأن المجامع يعلو المرأة ويركبها مما يلي وجهها؛ فحيث ركبها من جهة ظهرها كنا عنه بتحويل رحله، إما أن يريد به المنزل والمأوى وإما أن يريد به الرحل الذي تركب عليه الإبل وهو الكور. [2]

٧- **التعبير عنه بالإفضاء**: لقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: " إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه ثم ينشر سرها ". [3]

٨- التعبير عنه بالغشي قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ (الأعراف: ١٨٩).

٩- التعبير عنه بالطواف عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يطوف على نسائه بغسل واحد[4].

فهذه بعض الأمثلة على الأصل الأول تعبر عن منهج القرآن، والسنة في التعبير عن هذه العلاقة مع ملاحظة أن هذه النصوص سيقت في بيان صلة الرجل بالمرأة، وهذه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠)، وأحمد ١/ ٢٩٧، والنسائي في الكبرى (٨٩٧٧)، وابن حبان في الصحيح (٤٢٠٢)، والطبراني في الكبير (١٢٣١٧) جميعهم من طرق عن يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وهذا إسناد حسن لأجل يعقوب بن عبد الله صدوق يهم كما في التقريب (٧٨٢٢)، وقال الترمذي: حسن غريب. وحسنه الألباني في آداب الزفاف ١/ ٣١.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٢/ ٥٠.

(٣) مسلم (١٤٣٧).

(٤) مسلم (٣٠٩).

الكنايات في التعبير عن هذا المعنى نابعة من الحياء الذي هو خلق الإسلام. فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان ".[١]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ: " دعه فإن الحياء من الإيمان "[٢].

وعن عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ: " الحياء لا يأتي إلا بخير". [٣]

ولقد ضرب النبي ﷺ فيه بالسهم الأكبر، وحاز النصيب الأوفر، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها[٤].

ولكن هذا الحياء لا يمنعه من التحري في إقامة حدود الله تعالى؛ لأجل المحافظة على الدماء، وهذا هو الأصل الثاني الذي تفهم هذه الكلمة من خلاله

الأصل الثاني: فهو محافظة الإسلام على الدماء، وبيان هذا له مكان آخر وحسبنا أن نشير إليه في هذا المقام، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حرامًا[٥].

وفي سبيل الحفاظ على النفس المسلمة جاء هذا الحديث، عن المقداد بن عمرو الكندي؛ وكان حليفًا لبني زهرة؛ وكان ممن شهد بدرا مع رسول الله ﷺ أخبره:

أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن لقيت رجلًا من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، أقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: "لا تقتله"!. فقال يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعد ما قطعها؟! فقال رسول الله ﷺ: "لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك

(١) البخاري (٩).
(٢) البخاري (٢٤).
(٣) البخاري (٥٧٦٦).
(٤) البخاري (٣٣٦٩).
(٥) البخاري (٦٤٦٩).

بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال"(١).

وعنف النبي ﷺ أسامة بن زيد في هذا الحديث لما قتل الرجل بعد قوله لا إله إلا الله. فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله. فكف الأنصاري عنه فطعنته برمحي حتى قتلته. فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟. قلت: كان متعوذًا فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم(٢).

وفي هذا الحديث ما يدل على وجوب التحري في مثل هذه الأمور قبل الإقدام على إزهاق النفس.

فعن أبي عمران الجوني قال: قال جندب: حدثني فلان أن رسول الله ﷺ قال: يجيء المقتول بقاتله يوم القيامة فيقول: سل هذا فيم قتلني؟ فيقول: قتلته على ملك فلان. قال جندب فاتقها(٣).

إلى آخر هذه النصوص التي تدل على شدة حرمة النفس، وعلى وجوب التحري في شأنها. وعليه فإذا كان الحياء أصل يحمل على الكناية في التعبير عن هذه العلاقة؛ فربما كانت الكناية في باب الحدود سببًا لسفك الدم بشبهة؛ وذلك لأن الزنى منه حقيقة، ومنه مجاز فربما فهم البعض أن الحكم في الكل واحد فيحتاج القاضي إلى العدول إلى لفظ لا إجمال فيه، ولا كناية، فيأتي بكلمة كهذه تقطع كل احتمال، حتى إذا أقر بها قتل بغير شبهة وحتى كلمة الجماع ربما تحمل على مجرد الاجتماع والخلوة في مكان(٤).

---

(١) البخاري (٣٧٩٤).

(٢) البخاري (٤٠٢١).

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٩٨)، وأحمد في المسند ٤/ ٦٣، من طريق حجاج قال: أخبرني شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن جندب، قال حدثني فلان وذكره به، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٧٣٣).

(٤) فتح الباري ١٢/ ١٢٥.

ومثال ماورد في الزنى المجازي قوله: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه.

ومثال من خفي عليه الفرق في ذلك ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله أني أصبت حدًا فأقمه على. قال: ولم يسأله عنه. قال: وحضرت الصلاة، فصلى مع النبي ﷺ. فلما قضى النبي ﷺ الصلاة، قام إليه الرجل فقال يا رسول الله: إني أصبت حدًا، فأقم فيَّ كتاب الله قال: "أليس قد صليت معنا ". قال نعم. قال: "فإن الله قد غفر لك ذنبك". أو قال: "حدك"

فقد صح أن هذا الرجل فعل مقدمات الجماع ولم يجامع فظن أن هذا فيه الحد، فجاء يعترف ليقام عليه الحد كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إني لقيت امرأة في البستان، فضممتها إليّ، وباشرتها، وقبلتها، وفعلت بها كل شيء؛ غير أني لم أجامعها. قال: فسكت عنه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (١١٤: هود). قال: فدعاه النبي ﷺ، فقرأها عليه. فقال عمر: يا رسول الله، أله خاصة أم للناس كافة؟ فقال: " بل للناس كافة".

فإذا علم أن الأمر كذلك، وأنه قد يخفى على بعض الناس الفرق بين الزنا حقيقة، والزنا مجازا؛ علم أننا أمام مصلحتين.

الأولى: مصلحة هجر هذه الكلمة الصريحة تبعًا لأصل الحياء.

الثانية: الحفاظ على هذا الدم، وأن لا يسفك على سبيل الخطأ، أو الشبهة.

وأعظم المصلحتين هي الحفاظ على الدم إذا كان بريئًا.

كما أننا أمام مفسدتين، أقلهما ضررًا؛ التلفظ بهذه الكلمة، وأعظمهما ضررًا هي: قتل الرجل من غير تبين من فهمه، وعقله. وحينئذ نجد القاعدة المستنبطة من نصوص القرآن والسنة، وهي التي تقول: تدرأ أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما إذا تعين وقوع إحداهما،

وأن يحصل أعظم المصلحتين بترك أخفهما إذا تعين عدم إحداهما، وأعني أن ذلك في الجملة لا أنه عام مطلقًا حيث كان ووجد.[(١)]

وبيان هذه القاعدة: هو أن هذه الشريعة خير كلها ومصالح كلها وعدل كلها، فلم تدع خيرًا إلا دلت عليه ولا شرًّا إلا حذرت منه، وقد جاءت بأصلين عظيمين هما: تقرير المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما ترك النبي ﷺ خيرًا إلا دلنا عليه ولا شرًا إلا حذرنا منه، فلا تجد فعلًا أو قولًا فيه مصلحة إلا والشريعة قد أمرت به أمر إيجاب أو استحباب، ولا فعلًا أو قولًا فيه مفسدة إلا والشريعة قد نهت عنه إما نهي تحريم أو كراهة؛ فالواجب إذا هو فعل المصالح كلها، واجتناب المفاسد كلها، بحيث لا يقر الإنسان على ترك مصلحة ولا فعل مفسدة، لكن هذا عند عدم تعارض المصالح والمفاسد، لكن لو قدرنا تعارض مصلحتين؛ بحيث يؤدي فعلنا لأحدهما تفويت الأخرى، أو تعارض مفسدتين بحيث يؤدي ترك أحدهما إلى فعل الأخرى؛ ففي هذه الحالة نكون ملزمين بترك إحدى المصلحتين، وبالوقوع في إحدى المفسدتين؛ فأي المصالح يقدم، وأي المفاسد يجتنب؟ هذا هو ما تجيب عليه هاتان القاعدتان، فالأولى: في تعارض المفاسد. والثانية: في تعارض المصالح.

فأما الأولى: فتقضي قضاء جازمًا بأنه عند تعارض المفاسد؛ فإنه ينظر فيهما، هل هما متساويتان في المفسدة؟ أو أن إحداهما أشد مفسدة من الأخرى؟ فإن كانت هذه المفاسد متساوية؛ فإن الإنسان يخير بترك أحدهما، إذ لا مرجح لإحداهما على الأخرى، أما إذا كانت إحداهما أشد مفسدة من الأخرى؛ فإن الواجب هو اجتناب المفسدة الأشد بارتكاب المفسدة الأخف.

وأما الثانية: فكذلك إذا تعارضت مصلحتان؛ فإن الواجب حينئذ هو النظر بينهما، هل هما متساويتان في المصلحة، أو أن إحداهما أعظم مصلحة من الأخرى؛ فإن كانتا متساويتين في المصلحة؛ فإن الإنسان يخير بفعل إحداهما، إذ لا مرجح لإحداهما على

---

(١) المنثور من القواعد ١/ ٣٤٩.

الأخرى، وأما إذا كانت إحداهما أعظم مصلحة من الأخرى؛ فإن المشروع حينئذ هو فعل ما كانت مصلحته أكبر بتفويت ما كانت مصلحته أقل.

وقد دل على هاتين القاعدتين أدلة كثيرة في الشرع منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهنا عندنا مفسدتان، ومصلحتان، فالمفسدة الأولى هي: ترك سب آلهة المشركين المجرد. والثانية: سب الله تعالى. والمصلحة الأولى: هي سب آلهة المشركين المجرد. والثانية: تركهم سب الله تعالى، والمفاسد والمصالح هنا متعارضة، فغلَّب الله تعالى ترك أعلى المفسدتين، الذي هو سب الله تعالى بفعل الصغرى وهو ترك سب آلهة المشركين؛ ذلك لأن ترك سب آلهتهم وإن كان فيه مفسدة لكن أقدمنا عليه؛ لأن في فعله اقتحام مفسدة أكبر وهو سب الله تعالى، فتعارضت المفسدتان فراعينا الكبرى بفعل الصغرى؛ لأن الشريعة جاءت بتقليل المفاسد، وغلَّب الشارع كذلك فعل أكبر المصلحتين على فعل أدناهما، فقال: إن سبكم لآلهتهم مصلحة، وتركهم لسب إلهكم أيضا مصلحة، ولكن المصلحة الثانية أعظم بكثير من المصلحة الأولى، فاتركوا المصلحة الصغرى التي هي سبكم لآلهتهم ليتحقق لكم المصلحة الكبرى وهو تركهم لسب إلهكم؛ لأنه إذا تعارضت مصلحتان؛ روعي أكبرهما بتفويت أدناهما، وهذا من أقوى الأدلة على هذا الأصل.

ومنها: قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها " لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ". [1]

ففي هذا الحديث مفسدتان؛ ومصلحتان متعارضتان.

فالمفسدة الأولى: ترك البيت على وضعه الراهن.

(١) مسلم (٣٣٠٨).

والثانية: افتتان الناس بهدم البيت، فارتكبت أدناهما؛ وهي تركه على وضعه الراهن. وأما المصلحتان: فالأولى: بناء البيت على قواعد إبراهيم. والثانية: مصلحة عدم افتتان الناس عن الإسلام وتأليفهم عليه، إلى أن يقر الإيمان في قلوبهم، ولاشك أن المصلحة الثانية هي الكبرى، فلما تعارضتا. رُوعِي أكبرهما بتفويت أدناهما، فترك البيت كما هو مراعاة لمصلحة تأليف الناس على الإسلام. [1]

وهذه المسألة من هذا الباب فعلم مما مر أن النبي ﷺ راعى أعظم المصلحتين؛ وهي حفظ الدماء، ولو بتفويت أدناهما، وهو ترك النطق بهذه الكلمة، وحاول دفع أعظم المفسدتين وهي سفك الدم من غير تبين ولو بالوقوع في أقلهما، وهي النطق بهذه الكلمة.

فإذا كان اللفظ يحتمل اللبس والإشكال أو المجاز، فعند ذلك يذكر الاسم الصريح ولا خجل؛ ولا عيب في حدود الله، وتقدير النفس البشرية، كقول الله ﷻ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢)، فذكر الله تعالى الاسم الصريح للفاحشة، وكذلك قول النبي ﷺ للزاني: " أنكتها " ذكره بالاسم الصريح، لئلا يقع في اللبس والإشكال، ولم يؤثر أن رسول الله ﷺ صرح إلا لحاجة ضرورية في قصة ماعز رضي الله عنه لما قال: " أنكتها؟ " يصرح لا يكني؛ لأن رسول الله ﷺ يريد درء الحد عن ماعز، ولا يريد منه أن يعترف بمستور تمحوه التوبة؛ ولولا أن القضية قضية نفس إنسانية لما سمعها أحد من لسانه ﷺ؛ لأن الحاجة هنا داعية للتصريح؛ حتى يتبين الأمر جليًا؛ ولأن الحدود تدرأ بالشبهات، وهذه الكلمة لم تسمع من رسول الله ﷺ من قبل هذه الحادثة ولا من بعد؛ لأن الأمر كان حياة إنسان.

فهذا ما ذكره الرسول ﷺ محاولًا تبرئة الزاني خوفًا من أن يكون فهم معنى الزنا بالخطأ، ولكن لو تدبروا الحديث لوجدوا فيه الكثير من العبر وسماحة الإسلام، وقوة إيمان أمته.

قال ابن حجر: وفيه التثبت في إزهاق نفس المسلم والمبالغة في صيانته لما وقع في هذه القصة من ترديده والإيماء إليه بالرجوع والإشارة إلى قبول دعواه إن ادعى إكراهًا أو خطأ

(١) تلقيح الأفهام العلية بشرح القواعد الفقهية٣/ ١٣.

في معنى الزنا أو مباشرة دون الفرج مثلًا أو غير ذلك، وفيه مشروعية الإقرار بفعل الفاحشة عند الإمام، وفي المسجد والتصريح فيه بما يستحيى من التلفظ به من أنواع الرفث في القول من أجل الحاجة الملجئة لذلك. (١)

وهذا يدل أن الحدود لا تقام إلا بالإفصاح دون الكنايات، ألا ترى لو أن الشهود شهدوا على رجل بالزنا، ولم يقولوا رأيناه أولج فيها كان حكمهم حكم من قذف لا حكم من شهد، رفقًا من الله بعباده وسترًا عليهم ليتوبوا. (٢)

وقال النووي: وقد يستعملون صريح الاسم لمصلحة راجحة وهي إزالة اللبس، أو الاشتراك أو نفي المجاز، أو نحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾، وكقوله ﷺ: "أنكتها وكقوله ﷺ: " أدبر الشيطان وله ضراط ". وكقول أبي هريرة ﵁: الحدث فساء أو ضراط. ونظائر ذلك كثيرة اهـ. (٣)

الوجه الثالث: عدم تلفظ النبي ﷺ بهذه الكلمة إلا في هذه المرة.

مما يؤكد ما قلناه من الحياء وعدم الفحش، أن هذه الكلمة لم تصدر من النبي ﷺ إلا هذه المرة في هذا الموقف، ولذلك لما جاءت المرأة؛ وكانت حاملًا، وتبيّن زناها بالحمل لم يتكلم معها في هذا الأمر بقليل ولا كثير؛ لأن الأمر ظهر والمرأة حامل؛ ثم هي معترفة؛ سوى أنه أمرها بالرجوع حتى تضع ما في بطنها، وفي رواية أنه أمرها بإرضاعه، وهذا يؤكد المحافظة على الدماء أيضًا؛ لأنه لو رجمها وهي حامل لمات ما في بطنها من غير ذنب، فأين هذه الرحمة بالجنين وأمه من هؤلاء الذين يقولون بتوفير الجنس الآمن للفتاة عن طريق توفير موانع الحمل وسهولة الإجهاض الذي يعني قتل الأجنة التي لا ذنب لها؟!.

الوجه الرابع: محاولة النبي ﷺ دفع الحد عن الرجل كما جاء في ألفاظ الحديث.

(١) فتح الباري ١٢/ ١٢٤.
(٢) شرح ابن بطال ١٥/ ٤٨٠، وعمدة القاري ٢٤/ ٢٤٠.
(٣) شرح مسلم ١/ ٢٣٨.

ومما يؤكد ما قلناه من جعل المحافظة على الدماء سببًا لهذه الكلمة في هذه الرواية على اختلاف ألفاظها كما مر تخريجها ما يلي:

١- **تلقين النبي ﷺ له ما يبرئه** حيث قال له: " لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت ". قال لا يا رسول الله قال: " أنكتها؟ "- لا يكني- قال: فعند ذلك أمر برجمه، وهذا واضح في أنه لم يقل هذه الكلمة إلا بعد أن نفى الرجل كل الوسائل المحتملة لبراءته ولم يأمر برجمه حتى صرح بها، ولم يكني حتى لا يكون في الأمر بعد ذلك شبهة، ويؤخذ من قوله ﷺ: " هل أحصنت؟ وجوب الاستفسار عن الحال التي تختلف الأحكام باختلافها). (١)

وقال ابن القيم: يستحب للإمام أن يعرض للمقر بأن لا يقر، وأنه يجب استفسار المقر في محل الإجمال لأن اليد، والفم، والعين لما كان استمتاعها زنى، استفسر عنه دفعا لاحتماله، وأن الإمام له أن يصرح باسم الوطء الخاص به عند الحاجة إليه كالسؤال عن الفعل. (٢)

وقال الشنقيطي: اعلم أن الظاهر اشتراط التصريح بموجب الحد الذي هو الزنا تصريحًا ينفي كل احتمال؛ لأن بعض الناس قد يطلق اسم الزنا على ما ليس موجبا للحد. (٣)

٢- **التثبت من سلامة عقله من الجنون والسكر**: لأن المجنون لا يقام عليه الحد والسكران لا يؤاخذ باعترافه، وفيه أن إقرار السكران لا أثر له يؤخذ من قوله: استنكهوه. (٤)

وقال ابن القيم: وأن إقرار زائل العقل بجنون، أو سكر ملغي لا عبرة به. (٥)

٣- **الإعراض عنه عدة مرات**: والرجل مصر على الاعتراف، وقد وقع في حديث نعيم بن هزال" هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه "، وعند أبي داود من حديث بريدة قال: كنا أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث أن ماعزا والغامدية لو رجعا لم يطلبهما. (٦)

---

(١) فتح الباري ١٢/ ١٢٤.

(٢) زاد المعاد ٥/ ٢٦.

(٣) أضواء البيان سورة النور.

(٤) فتح الباري ١٢/ ١٢٦.

(٥) زاد المعاد ٥/ ٢٦.

(٦) فتح الباري ١٢/ ١٢٦.

٤- نصحه له بالرجوع والاستغفار والتوبة ترغيبًا منه في الستر.

٥- قوله: " هلا تركتموه يعني بعدما فر من الحجارة ".

فلوحظ في روايات القصة أن هذه الكلمة قيلت في مجلس قضائي كان النبي ﷺ يبحث فيه من خلال الجاني على ما يسقط العقوبة أو يرفعها كما ظهر من روايات الحديث ومما يبين ذلك أن العقوبات ترفع عن الجاني بأمور منها:

١- الإكراه. ٢- السكر. ٣- الجنون.

ومنه الجنون المطبق والمتقطع والجزئي وأقله العته، وقريب منه الصرع والهستريا وما أشبه من حالات عصبية.

وكما هو معلوم أن الجنون لا يبيح الجريمة، ولكنه يرفع حكمها عن الجاني؛ فإذا كان الجنون معاصرًا للجريمة لا توقع على الجاني عقوبة. (١)

الوجه الخامس: أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى.

فهذه الكلمة في هذا الموطن لو كان فيها شيء لعاتبه الله ﷻ على ذلك؛ كما وقع العِتَابُ في أمور معروفة فلمّا لم يقع شيء من ذلك علم أنها لاشيء فيها.

وكذلك لو كان فيها شيء لاحتج عليه بها أعداؤه من اليهود والمنافقين والمشركين في المدينة وخارجها، ولم يقع شيء من ذلك؛ لأنها لاشيء فيها عندهم فهل عرف هؤلاء عن اللغة ما لم يعلمه من سبق؟.

الوجه السادس: أن الحدود تدرأ بالشبهات ولا تقام إلا باليقين وأن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، وذلك لأن الخطأ في العفو يمكن استدراكه بإيقاع العقوبة بعد التيقن، أما الخطأ في العقوبة فأنى يمكن استدراكه إذا تبين الخطأ بعد قتل الرجل، وهذه القاعدة من القواعد الهامة في الشريعة.

والحدود هي العقوبات المقدرة، ويدخل تحت الحدود العقوبات المقررة لجرائم الحدود والعقوبات المقررة لجرائم القصاص، والدية.

---

(١) انظر: كتاب التشريع الجنائي الإسلامي مبحث أسباب رفع العقوبة

ولقد عقد كثير من العلماء عنوانًا في كتابه بهذه القاعدة. فقال ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الحدود: في درء الحدود بالشبهات.

وقال البيهقي في السنن[1]: باب ما جاء في درء الحدود بالشبهات

وقال الترمذي في الباب الثاني من كتاب الحدود: باب ما جاء في درء الحدود.

وفي هذا المعنى آثار عن النبي ﷺ وعن صحابته يقوي بعضها بعضًا، وتدل على أن للقاعدة أصلًا؛ منها ما يلي:

١-حديث ماعز الذي معنا فإنه يعد من أهم الأدلة على هذه القاعدة.

٢- عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة.[2]

٣- عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: أتي النبي ﷺ برجل سرق شملة فقيل يا رسول الله إن هذا قد سرق. فقال النبي ﷺ: " ما أخاله يسرق أسرقت؟ قال: نعم. قال: "

---

(١) السنن ٨/ ٢٣٨.

(٢) ضعيف. والرواية الموقوفة هي المحفوظة، أخرجه الترمذي (١٤٢٤) من طريق محمد بن ربيعة، وأخرجه البيهقي ٨/ ٢٣٨ من طريق الفضل بن موسى ومحمد بن ربيعة كلاهما عن يزيد بن زياد الدمشقي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة به مرفوعًا.

وفي هذا الإسناد يزيد بن زياد الدمشقي؛ ضعفه البيهقي، والترمذي، وقال أبو حاتم والبخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث. اهـ من تهذيب الكمال ٣٢/ ١٢٤.

ومع ضعفه فقد اختلف عليه فرواه عنه الفضل بن موسى، ومحمد بن ربيعة مرفوعًا، وخالفهما وكيع فرواه عن زياد، نحو حديثهما ولم يرفعه، وأخرجه الترمذي (١٤٢٤)، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ وابن أبي شيبة ٦/ ٥١٦ ثم قال البيهقي: تفرد به يزيد بن زياد الشامي عن الزهري، وفيه ضعف ورواية وكيع أقرب إلى الصواب. والله أعلم ورواه رشدين بن سعد، عن عقيل، عن الزهري مرفوعًا؛ ورشدين ضعيف، وقال الترمذي: حديث عائشة لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث محمد بن ربيعة، عن يزيد بن زياد الدمشقي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ. ورواه وكيع، عن يزيد بن زياد نحوه ولم يرفعه، ورواية وكيع أصح، وقد روي نحو هذا عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ أنهم قالوا مثل ذلك، ويزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث.

فاذهبوا به فاقطعوا يده ثم احسموها ثم ائتوني به فأتوا به فقال: تب إلى الله ﷺ. قال: فإني أتوب إلى الله. قال اللهم تب عليه". (١)

والشاهد قوله: ما إخاله سرق، وما قال ذلك إلا لدرء الحد عنه.

٤- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ادفعوا الحد ما وجدتم له مدفعًا". (٢)

٥- فعل الصحابة في درء الحد بالشبهة؛ كما في هذه الرواية:

عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: توفي عبد الرحمن بن حاطب، وأعتق من صلى من رقيقه وصام، وكانت له أمة نوبية قد صلت، وصامت، وهي أعجمية لم تفقه، فلم يرع إلا حبلها، وكانت ثيبًا، فذهب إلى عمر فزعًا، فحدثه، فقال له عمر: لأنت الرجل لا يأتي بخير، فأفزعه ذلك، فأرسل إليها، فسألها فقال: حبلت؟ قالت: نعم، من مرغوش بدرهمين، وإذا هي تستهل بذلك، لا تكتمه، فصادف عنده عليًا، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، فقال: أشيروا علي! وكان عثمان جالسًا فاضطجع، فقال علي وعبد الرحمن: كأنها لا تعلمه، وليس الحد إلا على من علمه، فأمر بها فجلدت مئة، ثم غربها، ثم قال: صدقت، والذي نفسي بيده ما الحد إلا على من علم(١).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٧/ ٣٨٩عن ابن جريج والثوري والدارقطني ٣/ ١٠٣ من طريق الثوري كلاهما عن يزيد بن خصيفة، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان به مرسلًا. وهذا إسناد صحيح إلى محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، ولكن اختلف عليه فروي عنه مرسلا كما مر، ورواه عنه عبد العزيز الدراوردي مسندًا عن أبي هريرة؛ أخرجه الطحاوي في شرح المعاني ٣/ ١٦٨ حدثنا أحمد بن داود قال: ثنا سعيد بن عون مولى بني هاشم قال: ثنا الدراوردي عن يزيد بن خصيفة، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن أبي هريرة به.

(٢) **ضعيف**. أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٥) عن وكيع، عن إبراهيم بن الفضل، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة به. وهذا إسناد فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي. قال أحمد، وأبو زرعة: ضعيف، وقال البخاري وأبو حاتم والنسائي: منكر الحديث، وقال ابن حجر: متروك. من تهذيب التهذيب ١/ ١٣١ . وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٥٥٤).

وقال الصنعاني في سبل السلام باب درء الحدود بالشبهات: ساق المصنف [ابن حجر] في التلخيص عدة روايات موقوفة صحح بعضها وهي تعاضد المرفوع وتدل على أن له أصلا في الجملة، وفيه دليل على أنه يدفع الحد بالشبهة التي يجوز وقوعها كدعوى الإكراه أو أنها أتيت المرأة وهي نائمة فيقبل قولها ويدفع عنها الحد، ولا تكلف البينة على ما زعمته.

قال البيهقي بعد روايته للحديث: كان حدها الرجم فكأنه ﷺ درأ عنها حدها للشبهة بالجهالة، وجلدها وغربها تعزيرًا. والله أعلم.

٥- عن إبراهيم قال: قال عمر بن الخطاب: لئن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات.(٢)

٦- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: أدرءوا القتل والجلد عن المسلمين ما استطعتم.(٣)

وقد أخذ بهذه القاعدة جمهور الفقهاء ولم يخالف فيها إلا الظاهرية، وكثرة الآثار المروية فيها عن الصحابة تدل على أن لها أصلًا. فإذا علم هذا علم أن النبي ﷺ قال هذه الكلمة ليزيل الشبهة قبل إقامة الحد والله أعلم.

الوجه السابع: وضع العلماء هذه اللفظة في أبواب الحدود.

في تراجم العلماء على هذه اللفظة هل هي في أبواب العشرة مثلا أم في أبواب الحدود؟ وبهذا يظهر أن النطق بها عند علماء الإسلام لم يكن إلا لهذا الغرض من التحري في أمر الدماء كما مر، وها هي ترجمة البخاري على هذا الحديث حيث قال: (باب هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت)، وأخرج ابن حبان هذه اللفظة من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الحدود، وترجم عليه ابن حجر في بلوغ المرام كتاب الحدود، وأخرجها عبد الرزاق تحت باب الرجم والإحصان، وكأن صنيع أهل العلم في جعل هذه الكلمة تحت هذه التراجم، يشير إلى

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٧/ ٤٠٣ عن ابن جريج، و٧/ ٤٠٤ عن معمر قالا: أخبرني هشام بن عروة، عن أبيه أن يحيى ابن عبد الرحمن بن حاطب، وأخرجه البيهقي من طريق ابن جريج به ٨/ ٢٣٨ وهذا إسناد صحيح.

(٢) مرسل. وإسناده إلى إبراهيم صحيح، وقال ابن حجر في التلخيص ٥/ ١٣٧: ورواه أبو محمد بن حزم في كتاب الإيصال من حديث عمر موقوفا عليه بإسناد صحيح اهـ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ٥١٥من طريق سفيان ومسدد كما في الإتحاف (٣٥٣٥) من طريق شعبة كلاهما عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود به. وهذا إسناد فيه عاصم بن أبي النجود صدوق له أوهام كما التقريب (٣٠٥٤) وحديثه يحسن، ونقل الحافظ في التلخيص ٥/ ١٣٧عن البخاري قوله: وأصح ما فيه حديث سفيان الثوري، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود قال: " ادرءوا الحدود بالشبهات، ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم ". اهـ

وجوب التحري والتثبت قبل إقامة الحدود حفظًا للدماء أخذا من هذه الكلمة.

الوجه الثامن: حد الرجم يثبت بالإقرار فلابد من البيان والاستفصال.

والإقرار لغة: الإثبات. **وفي الشرع:** إخبار الإنسان بما عليه، وهو ضد الجحود.

ويشترط في الإقرار أن يكون مفصلًا مبينًا لا إجمال فيه.

قال الصنعاني: دلت ألفاظ الحديث على أنه يجب على الإمام الاستفصال عن الأمور التي يجب معها الحد فإنه قد روي في هذا الحديث ألفاظ كثيرة دالة عليه، ففي حديث بريدة أنه قال " أشربت خمرًا؟ قال: لا وأنه قام رجل يستنكهه فلم يجد فيه ريحًا.

وفي حديث ابن عباس ﷺ: "لعلك قبلت أو غمزت" وفي رواية: " هل ضاجعتها؟ قال: نعم، قال: فهل باشرتها؟ قال: نعم قال: هل جامعتها؟ قال: نعم " وفي حديث ابن عباس: " أنكتها؟ " لا يكني. رواه البخاري وفي حديث أبي هريرة " أنكتها؟ ". قال: نعم قال: دخل ذلك منك في ذلك منها؟ قال: نعم. قال: كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر؟ قال: نعم، قال: تدري ما الزنا؟ قال: نعم أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا. قال: فما تريد بهذا القول؟ قال: تطهرني، فأمر به فرجم. فدل جميع ما ذكر على أنه يجب الاستفصال والتبين، وأنه يندب تلقين ما يسقط الحد، وأن الإقرار لا بد فيه من اللفظ الصريح الذي لا يحتمل غير المواقعة.

وقد روي عن جماعة من الصحابة تلقين المقر كما أخرجه مالك عن أبي الدرداء، وعن علي ﷺ في قصة شراحة؛ فإنه قال لها علي (استكرهت)؟ قالت: لا. قال: فلعل رجلًا أتاك في نومك؟. . . الحديث. وعند المالكية أنه لا يلقن من اشتهر بانتهاك الحرمات.

وفي قوله: " أشربت خمرًا " دليل على أنه لا يصح إقرار السكران، وفيه خلاف. [(١)]

فدل ذلك كله على أنه يجب في الإقرار أن يكون مفصلًا مبينًا لحقيقة الفعل المقر به. [(٢)]

---

(١) سبل السلام ١/ ١٨٨.

(٢) التشريع الجنائي الإسلامي ٢/ ٣٨٥.

ولأجل هذا سأله النبي ﷺ عن الأمر صريحًا.

قال ابن حجر: وفيه جواز تلقين المقر بما يوجب الحد ما يدفع به عنه الحد، وأن الحد لا يجب إلا بالإقرار الصريح، ومن ثم شرط على من شهد بالزنا أن يقول رأيته ولج ذكره في فرجها أو ما أشبه ذلك، ولا يكفي أن يقول أشهد أنه زنى، وثبت عن جماعة من الصحابة تلقين المقر بالحد. كما أخرجه مالك، عن عمرو بن أبي شيبة، عن أبي الدرداء. وعن علي في قصة شراحة، ومنهم من خص التلقين بمن يظن به أنه يجهل حكم الزنا وهو قول أبي ثور، وعند المالكية يستثنى تلقين المشتهر بانتهاك الحرمات، ويجوز تلقين من عداه وليس ذلك بشرط[(1)].

ويترتب على هذا أن الزاني إذا أقر فلا يؤخذ إقراره قضية مسلَّمة، وعلى القاضي لكي يتحقق من صحة إقراره أن يتحقق أولا من صحة عقله كما فعل الرسول ﷺ مع ماعز حيث سأله عن عقله وبعث إلى قومه يسألهم عنه فإذا عرف القاضي أن الزاني صحيح العقل سأله عن ماهية الزنا، وكيفيته، ومكانه، وزمانه؛ فإذا بين ذلك كله على وجه يجعله مسئولًا جنائيًا سأله أمحصن هو أم لا؛ فإن اعترف بالإحصان سأله عن ماهيته، وسؤال المقر عن زمان الزنا لاحتمال أن يكون الزنا وقع قبل البلوغ[(2)].

شبهة: لماذا قال النبي ﷺ للرجلين: انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار؟

وهذه هي الرواية بذلك عن أبي هريرة ﷺ، قال: جاء ماعز بن مالك الأسلمي، فرجمه النبي ﷺ عند الرابعة، فمر به رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: إن هذا الخائن، أتى النبي ﷺ مرارًا، كل ذلك يرده، حتى قتل كما يقتل الكلب، فسكت عنهم النبي ﷺ، حتى مر بجيفة حمار شائلة رجله، فقال: " كلا من هذا، قالا: من جيفة حمار يا رسول الله! قال: فالذي نلتما من عرض أخيكما آنفا أكثر، والذي نفس محمد بيده إنه في نهر من أنهار الجنة ينغمس ".

وفي رواية: فأتى رسول الله ﷺ على حمار ميت، فقال لهما: " انهسا من هذا الحمار،

(١) فتح الباري ١٢/ ١٢٦.

(٢) التشريع الجنائي في الإسلام ٢/ ٣٨٥.

فقالا: يا رسول الله، جيفة ميتة، كيف ننهس منها؟ فقال: الذي أصبتما من أخيكما أنتن، والذي نفس محمد بيده، إنه لينغمس في أنهار الجنة"[(١)].

والجواب على ذلك:

الوجه الأول: أن هذه الزيادة منكرة تفرد بها أبو الزبير المكي، عن عبد الرحمن بن الصامت وهو مجهول لا يدري من هو، وأبو الزبير مدلس ولم يصرح بالتحديث.

الوجه الثاني: على فرض صحته فذاك جزاء من يقع في غيبة أخيه المسلم. قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

الوجه التاسع: نصوص الكتاب المقدس الفاحشة والتي لا تتناسب أن تكون كلامًا للإله.

جاء في حزقيال (الإصحاح ٢٣ /١-٢٢): وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: «يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، وَزَنَتَا بِمِصْرَ. فِي صِبَاهُمَا زَنَتَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا. وَكَانَتَا لِي، وَوَلَدَتَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ. وَاسْمَاهُمَا: السَّامِرَةُ «أُهُولَةُ»، وَأُورُشَلِيمُ «أُهُولِيبَةُ». وَزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وَعَشِقَتْ مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الأَبْطَالَ اللاَّبِسِينَ الأَسْمَانْجُونِيَّ وُلاَةً وَشِحَنًا، كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ، فُرْسَانٌ رَاكِبُونَ الْخَيْلَ.

---

(١) ضعيف. أخرجه عبد الرزاق ٧/ ٣٢٢ عن ابن جريج قال أخبرني أبو الزبير، عن عبد الرحمن بن الصامت، عن أبي هريرة به.

ومن طريق عبد الرزاق أخرجه أبو داود (٤٤٢٨)، وابن حبان ١/ ٢١٢، وابن الجارود في المنتقى (٨١٤)، والدارقطني في السنن ٣/ ١٩٦. ومن طريق ابن جريج أخرجه أبو يعلى (٦١٤٠)، والنسائي في الكبرى ٤/ ٢٧٦ والبيهقي في الكبرى ٨/ ٢٢٧، ومن طريق أبي الزبير أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٣٧). وهذا إسناد ضعيف فيه عبد الرحمن بن الصامت. واختلف على أبي الزبير في اسم أبيه فقيل ابن هضاض وقيل بن الهضهاض، وقيل بن الهضاب الدوسي بن عم أبي هريرة، وقيل ابن أخيه؛ ذكره ابن حبان في الثقات، وقال البخاري لا يعرف إلا بهذا الحديث، وقال البخاري: بعد أن حكي الخلاف في اسم أبيه وقال ابن جريج عبد الرحمن بن الصامت ولا أظنه محفوظًا. وقال ابن حجر: مقبول من الثالثة، وقال الذهبي في الكاشف: (٣٢٢٣) مجهول. وفيه أبو الزبير المكي محمد بن مسلم صدوق إلا أنه يدلس كما في التقريب (٦٢٩١) وقد عنعن في هذا الإسناد. وضعفه الألباني في الإرواء (٢٣٥٤)، وفي ضعيف الأدب المفرد (٧٣٧).

فَدَفَعَتْ لَهُمْ عُقْرَهَا لِمُخْتَارِي بَنِي أَشُّورَ كُلِّهِمْ، وَتَنَجَّسَتْ بِكُلِّ مَنْ عَشِقَتْهُمْ بِكُلِّ أَصْنَامِهِمْ. وَلَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضًا، لأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا، وَزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عِذْرَتِهَا وَسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ. لِذلِكَ سَلَّمْتُهَا لِيَدِ عُشَّاقِهَا، لِيَدِ بَنِي أَشُّورَ الَّذِينَ عَشِقَتْهُمْ. هُمْ كَشَفُوا عَوْرَتَهَا. أَخَذُوا بَنِيهَا وَبَنَاتِهَا، وَذَبَحُوهَا بِالسَّيْفِ، فَصَارَتْ عِبْرَةً لِلنِّسَاءِ. وَأَجْرَوْا عَلَيْهَا حُكْمًا.

«فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَا أُخْتِهَا. عَشِقَتْ بَنِي أَشُّورَ الْوُلاَةَ وَالشِّحَنَ الأَبْطَالَ اللاَّبِسِينَ أَفْخَرَ لِبَاسٍ، فُرْسَانًا رَاكِبِينَ الْخَيْلَ كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ. فَرَأَيْتُ أَنَّهَا قَدْ تَنَجَّسَتْ، وَلِكِلْتَيْهِمَا طَرِيقٌ وَاحِدَةٌ. وَزَادَتْ زِنَاهَا. وَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى رِجَالٍ مُصَوَّرِينَ عَلَى الْحَائِطِ، صُوَرُ الْكَلْدَانِيِّينَ مُصَوَّرَةً بِمُغْرَةٍ، مُنَطَّقِينَ بِمَنَاطِقَ عَلَى أَحْقَائِهِمْ، عَمَائِمُهُمْ مَسْدُولَةٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. كُلُّهُمْ فِي الْمَنْظَرِ رُؤَسَاءُ مَرْكَبَاتٍ شِبْهُ بَنِي بَابِلَ الْكَلْدَانِيِّينَ أَرْضُ مِيلاَدِهِمْ، عَشِقَتْهُمْ عِنْدَ لَمْحِ عَيْنَيْهَا إِيَّاهُمْ، وَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ رُسُلًا إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ. فَأَتَاهَا بَنُو بَابِلَ فِي مَضْجَعِ الْحُبِّ وَنَجَّسُوهَا بِزِنَاهُمْ، فَتَنَجَّسَتْ بِهِمْ، وَجَفَتْهُمْ نَفْسُهَا. وَكَشَفَتْ زِنَاهَا وَكَشَفَتْ عَوْرَتَهَا، فَجَفَتْهَا نَفْسِي، كَمَا جَفَتْ نَفْسِي أُخْتَهَا. وَأَكْثَرَتْ زِنَاهَا بِذِكْرِهَا أَيَّامَ صِبَاهَا الَّتِي فِيهَا زَنَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ. وَعَشِقَتْ مَعْشُوقِيهِمِ الَّذِينَ لَحْمُهُمْ كَلَحْمِ الْحَمِيرِ وَمَنِيُّهُمْ كَمَنِيِّ الْخَيْلِ. وَافْتَقَدْتِ رَذِيلَةَ صِبَاكِ بِزَغْزَغَةِ الْمِصْرِيِّينَ تَرَائِبَكِ لأَجْلِ ثَدْيِ صِبَاكِ.

(**نشيد الإنشاد ١/٧ـ١٠**): مَا أَجْمَلَ رِجْلَيْكِ بِالنَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الْكَرِيمِ! دَوَائِرُ فَخْذَيْكِ مِثْلُ الْحَلِيِّ، صَنْعَةِ يَدَيْ صَنَّاعٍ. سُرَّتُكِ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لاَ يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْزُوجٌ. بَطْنُكِ صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ. ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْنِ، تَوْأَمَيْ ظَبْيَةٍ. عُنُقُكِ كَبُرْجٍ مِنْ عَاجٍ. عَيْنَاكِ كَالْبِرَكِ فِي حَشْبُونَ عِنْدَ بَابِ بَثِّ رَبِّيمَ. أَنْفُكِ كَبُرْجِ لُبْنَانَ النَّاظِرِ تُجَاهَ دِمَشْقَ. رَأْسُكِ عَلَيْكِ مِثْلُ الْكَرْمَلِ، وَشَعْرُ رَأْسِكِ كَأُرْجُوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ. مَا أَجْمَلَكِ وَمَا أَحْلاَكِ أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ بِاللَّذَّاتِ! قَامَتُكِ هذِهِ شَبِيهَةٌ بِالنَّخْلَةِ، وَثَدْيَاكِ بِالْعَنَاقِيدِ. قُلْتُ: «إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى النَّخْلَةِ وَأُمْسِكُ بِعُذُوقِهَا». وَتَكُونُ ثَدْيَاكِ كَعَنَاقِيدِ الْكَرْمِ، وَرَائِحَةُ أَنْفِكِ كَالتُّفَّاحِ، وَحَنَكُكِ كَأَجْوَدِ الْخَمْرِ.

* * *

٢٦ـ شبهة أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للعالمين

نص الشبهة:

ما معنى قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: معنى الآية الكريمة

الوجه الثاني: مظاهر رحمته ﷺ.

الوجه الثالث: كيف كان رحمة للكافرين؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى الآية الكريمة.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية، أجميع العالم الذي أرسل إليهم محمد أريد بها مؤمنهم وكافرهم؟ أم أريد بها أهل الإيمان خاصة دون أهل الكفر؟

فقال بعضهم: عني بها جميع العالم المؤمن والكافر. وورد ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من آمن بالله واليوم الآخر كُتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله، عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف. وقال آخرون: بل أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر. وأولى القولين في ذلك بالصواب. القول الذي رُوي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمدا ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذّبة رسلها من قبله[1].

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٩٩)، وانظر: جلاء الأفهام لابن القيم (١١٥).

الوجه الثاني: مظاهر رحمته ﷺ:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)

فالرسول ﷺ عربي قرشي معروف النسب، لم يطعن أحد في صحة نسبه وكرم محتده، فمخاطبة الله تعالى للعرب بأن الرسول ﷺ من أنفسهم تذكير لهم بأنه لهم ناصح ومحب، وعليهم مشفق، وعلى هدايتهم حريص، وأنه بهم رفيق وعليهم مشفق، يشق عليه ضلالهم ويفرح لهدايتهم، ووردت أحاديث كثيرة تبين بعض مظاهر الرحمة المهداة، والمتمثلة بالمصطفى ﷺ فمن ذلك وفاته ﷺ قبل أمته ليكون لها سلفًا ففي الحديث: " إِنَّ الله ﷻ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا فَجعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ"[1].

ومن وقائع السيرة النبوية أن ثقيفًا آذت رسول الله ﷺ عندما ذهب إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام؛ حتى رشقوه بالحجارة وأدموا قدميه، وخيره الله تعالى أن يعاقبهم فيطبق عليهم الجبال، فقال ﷺ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا". [2]

وكان ﷺ أمنا لأمته في حياته، كما أن الاستغفار أمن لها بعد وفاته قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣).

وهو رحمة عامة كما جاء في القرآن ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ كما أنه نور يضيء طريق الهداية للناس قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأحزاب٤٦: ٤٥).

---

(١) مسلم (٢٢٨٨).

(٢) البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥).

وعن أنس بن مالك ﷺ: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء من المدينة كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ أظلم من المدينة كل شيء، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا. (١)

وقد منح الله تعالى الأنبياء دعوة مستجابة، فتعجلوها ودعوا بها، أما الرسول الكريم ﷺ فقد ادخرها لأمته كما في الحديث: " لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة"(٢).

وتتجلى في رسالة النبي الكريم كل معاني الرحمة، فقد رفع الله عن أمته الإصر والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، فيسر لها الدين ورفع عنها الحرج ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

وقد امتلأت نفس الرسول الكريم بالرحمة، وأوصى أتباعه بأن يكونوا رحماء كما وصفهم القرآن: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح: ٢٩). (٣)

رحمة الرسول ﷺ:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء١٠٧).

٢- وقال ﷺ: " بعثت بالرحمة ". (٤)

٣- وقال ﷺ: " إنما أنا رحمة مهداة ". (١)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده من حديث أنس (٣/ ٢٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٨).

(٣) انظر السيرة النبوية: أكرم ضياء العمري (٦٣٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٨٠٣) من قول أبي سفيان، وانظر: تفسير الصنعاني.

٤- وقال ﷺ: " لا يرحم الله من لا يرحم الناس "[٢]

٥- وقال ﷺ: " لا تنزع الرحمة إلا من شقي "[٣]

٦- وقال ﷺ: " الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى: ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء). "أي على السماء وهو الله ". [٤]

٧- وقال في فضل الرحمة " الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ". [٥]

رحمة النبي ﷺ بالعيال:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[٦].

وقال زيد بن حارثة: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أن ابنًا لي قبض فأتنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: " إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب "، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: " هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ". [٧]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٩١/ ١٠٠)، والشهاب القضاعي في مسنده (٢/ ١٨٩/ ١١٦٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٠).

(٢) رواه البخاري (٦٩٤١).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٤٤٢/ ٩٧٠٠)، وأبو داود (٢/ ٧٠٣/ ٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٦١).

(٤) وأخرج أبو نعيم في الدلائل، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " **إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين** ». وأخرجه البيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " **إنما أنا رحمة مهداة** ".

(٥) رواه الترمذي (١٩٢٤)، وصححه الألباني.

(٦) رواه مسلم (٢٣١٦).

(٧) البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: "من لا يرحم لا يُرحم"(١).

٨- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: إنكم تقبلوا الصبيان، ولا نُقبلهم، فقال رسول الله ﷺ: " أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك ". (٢)

رحمة الرسول ﷺ بالحيوان:

١- وعن سهيل بن الحنظلية قال: مرّ رسول الله ﷺ، ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: " اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة "(٣). المعجمة: التي لا تنطق ".

٢- وعن عبد الله، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا (حُمرة) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تُعرش، فلما جاء رسول الله ﷺ، قال: " من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها"، ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال: " من أحرق هذه؟ " قلنا: نحن، قال: " لا ينبغي أن يُعذب بالنار إلا رب النار ". (٤) (الحمرة: طائر يشبه العصفور)، (تُعرش: ترفرف).

٣- قال ﷺ: " اللهم إنما أنا بشر، فأيُّ المسلمين سببته أو لعنته، فاجعلها له زكاة وأجرًا "(٥).

وكان ﷺ، يُصغي للهرة الإناء، فتشرب ثم يتوضأ، بفضلها، (يصغي، يميل)(٦).

٤- وقال ﷺ: " إن الله كتب الإحسان على كل شئ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"(٧).

٥- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرّ رسول الله ﷺ على رجل واضع رجله

---

(١) البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٢) البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

(٣) أبو داود (٢٥٤١)، وابن خزيمة (٢٥٤٥).

(٤) أبو داود (٢٦٧٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣٩).

(٥) رواه مسلم (٢٦٠١).

(٦) رواه الدار قطني (٢١٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٥٨).

(٧) مسلم (١٩٥٥).

على صفحة شاة وهو يحد شفرته، وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: " أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها؟ " (تلحظ: تنظر). (١)

٦- وقال ﷺ: " عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ". (٢) " خشاش الأرض: حشراتها "

وعن عبد الله أنه قال: نزل النبي ﷺ منزلا فانطلق لحاجته، فجاء وقد أوقد رجل على قرية نمل إما في الأرض وإما في شجرة فقال رسول الله ﷺ: " أيكم فعل هذا " فقال رجل من القوم أنا يا رسول الله، قال: "أطفها أطفها". (٣)

عن هشام بن زيد قال: دخلت مع أنس على الحكم بن أيوب فرأى غلمانا أو فتيانا نصبوا دجاجة يرمونها فقال أنس نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم. (٤)

وعن سعيد بن جبير قال: (كنت عند ابن عمر فمروا بفتية أو بنفر نصبوا دجاجة يرمونها فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها وقال ابن عمر من فعل هذا؟ إن النبي ﷺ لعن من فعل هذا). (٥)

رحمته مع أعدائه ﷺ: عن أبي هريرة ﷺ قال: قيل يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: " إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة ". (٦)

وكان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية، أوصاه ". . ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا" وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ (كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: " اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١٩١٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤).

(٢) البخاري (٢٣٥٦)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) إسناده حسن. مسند أحمد (٣٧٦٣).

(٤) البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦).

(٥) البخاري (٥٥١٥)، ومسلم (١٩٥٨).

(٦) مسلم (٢٦٠١).

وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ. . . "(١)

وكان ﷺ رحيمًا حتى في مقاتلته لأعداء دينه، فقد كان يوصي جيشه المقاتل بألا يضرب إلا من يضربه أو يرفع عليه السلاح، وكان يقول" لا تقتلوا امرأة ولا وليدًا ولا شيخًا ولا تحرقوا نخيلًا ولا زرعًا، كما كان يحرص على عدم التمثيل بهم أو المبالغة في إهانتهم، فيقول: "اجتنبوا الوجوه ولا تضربوها ". (٢)

وعن أَنَسٍ ﷺ قَالَ كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ: " لَهُ أَسْلِمْ " فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: " الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ ". (٣)

رحمته حتى في وقت غضبه: وعن سلمان: أن رسول الله ﷺ قال: " أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي، أو لعنته لعنة؛ فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، وأجعلها عليه صلاة يوم القيامة ". (٤)

رحمته بالضعفاء والمساكين: ودعا أمته إلى رحمة الخلق جميعهم- من في الأرض- من يعقل كالإنس ومن لا يعقل كالحيوانات، فقال " الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله "(٥)

---

(١) مسلم (١٧٣١).

(٢) البخاري (١٣٥٦).

(٣) البخاري (١٣٥٦).

(٤) رواه البزار في مسنده (٢٥٢٣)، والطبراني في الكبير (٦١٥٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٥٨)، وفي صحيح الجامع (٢٧٢٨).

(٥) الترمذي (١٩٢٤)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٩)، وقال الحاكم رحمه الله: وهذه الأحاديث كلها صحيحة وإنما استفيضت في أسانيدها بذكر الصحابة ﷺ لئلا يتوهم متوهم أن الشيخين رضي الله عنهما لم يهملا الأحاديث الصحيحة. والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٢٢).

وقد سجلت لنا السيدة خديجة شمائله التي طبعه الله تعالى عليها، حتى من قبل أن تأتيه الرسالة، فقالت له لما جاءه الوحي: والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. (١)

فكانت هذه خلاله ﷺ قبل أن يوحى إليه، فلما جاءه الوحي زادت نورًا وتلألؤًا وجلالًا، فصلى الله عليك يا من أرسلك ربك رحمة للعالمين.

وكان ﷺ يوصي بالنساء قائلًا: " استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن خُلقن من ضلع أعوج"(٢)؛ وبما ملكت الأيمان، فنجد آخر كلماته ﷺ حين حضرته الوفاة: " الصلاة، وما ملكت أيمانكم، حتى جعل يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه. "(٣)

ومن رحمته خوفه على الأمة:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (إبراهيم: ٣٦)، وقول عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المائدة: ١١٨) فرفع يديه قائلًا: " اللهم أمتي أمتي" وبكى، فقال الله عز وجل: " يا جبريل اذهب إلى محمد فسله: " ما يبكيك؟ " فأتاه جبريل فسأله، فأخبره النبي ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله تعالى: " يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: " إنا سنرضيك في أمتك ولن نسوؤك"(٤)

كان من دعاء النبي ﷺ: " اللهم من وليَ من أمرِ أمتي شيئًا، فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا، فرفق بهم، فارفق به". (٥)

الوجه الثالث: كيف كان رحمة للكافرين؟

أولًا: أنه ﷺ كان رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلأنه ﷺ بعث والناس في

(١) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

(٣) ابن ماجه (١٦٢٥)، أحمد (٦/ ٣١٦) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢١٨٤، ٢١٨٣).

(٤) مسلم (٢٠٢).

(٥) مسلم (١٨٢٨).

جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم، وانقطاع تواترهم، ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق، وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام، وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة؛ من كانت همته طلب الحق؛ فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قرينًا له، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ (فصلت: ٤٤) وأما في الدنيا؛ فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه. [١]

ولأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع. فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها. ومثاله: أن يفجر الله عينًا غديقة، فيسقي ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا، ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعين المفجرة في نفسها، نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه؛ حيث حرمها ما ينفعها. وقيل: كونه رحمة للفجار، من حيث أنّ عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال. [٢]

ثانيًا: وقد يقول المعترض: كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟
قلنا: الجواب من وجوه:

أحدها: إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة. وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ (ق: ٩) ثم قد يكون سببًا للفساد[٣].

وأيضًا الذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم

---

(١) تفسير الرازي (٢٢/ ٢٣٠).
(٢) تفسير الكشاف (٣/ ١٣٩).
(٣) الرازي في تفسيره (٢٢/ ٢٣٠).

أقل شرًا بذلك العهد من المحاربين له، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم، واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره وأما الأمم النائية عنه؛ فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته[1].

وثانيها: أن كل نبي قبل نبينا كان إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق وأنه تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال: ٣٣) لا يقال: أليس أنه تعالى قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ (التوبة: ١٤) وقال تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ (الأحزاب: ٧٣) لأنا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه.

وثالثها: أنه ﷺكان في نهاية حسن الخلق قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤) وقال أبو هريرة ﷺ: قيل لرسول الله ﷺ أدع على المشركين، قال: " إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابًا " وقال في رواية حذيفة: " إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة "

ورابعها: قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) يعني المؤمنين خاصة، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لما بينا أنه كان رحمة للكل، لو تدبروا في آيات الله وآيات رسوله، فأما من أعرض واستكبر؛ فإنما وقع في المحنة من قبل نفسه كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت: ٤٤). [2]

* * *

---

(١) جلاء الأفهام لابن القيم (١٨١-٢٨٩) بتصرف.

(٢) تفسير الرازي (٢٣٠-٢٣١).

٢٧ـ شبهة: الله ﷻ وملائكته يصلون على النبي ﷺ

نص الشبهة:

يقولون: لا يوجد في الكتاب المقدس ولا كلمة واحدة تشير -من قريب أو بعيد -أن الله وملائكته قد صلوا أو يصلوا على بشر. لماذا لم يفعلها الله من قبل على موسى أو إبراهيم أو المسيح إذا كان الله يصلي؟

ويقولون: كيف يحرم الله الصلاة لغيره وهو يفعل العكس؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: احتجاجكم بالقرآن لا يجوز.

الوجه الثاني: التوراة والإنجيل محرفان.

الوجه الثالث: التفسير الصحيح للآية والرد على فهمهم الخاطئ.

الوجه الرابع: الصلاة لغة واصطلاحًا.

الوجه الخامس: الله ﷻ لم يصل على النبي ﷺ وحده.

الوجه السادس: النبي ﷺ أفضل الأنبياء وأفضل الخلق.

الوجه السابع: كيف تقارنون بين المسيح ﵇ والنبي ﷺ؟ ألستم تزعمون أنه إله؟!.

الوجه الثامن: مدح الرب للأنبياء في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: احتجاجكم بالقرآن لا يجوز.

كيف تحتجون بالقرآن وأنتم لا تعتقدون بما فيه، ولا تعتقدون أنه من عند الله ﷻ؟

الوجه الثاني: التوراة والإنجيل محرفان

قد حرفتم وبدلتم في التوراة والإنجيل، فما أدراكم أن الله لم يصل وملائكته على أحد قبل النبي ﷺ؟. [1]

الوجه الثالث: الصلاة لغة، واصطلاحًا.

(١) انظر بحث: تحريف التوراة والإنجيل.

الصلاة لغة: قال ابن منظور: والصلاةُ: الدُّعاءُ والاستغفارُ، والصلاة من الله ـ تعالى ـ: الرحمة، وصلاةُ الله على رسوله ﷺ: رحْمَتُه له وحُسْنُ ثنائِه عليه.

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾، وقال: فالصَّلاةُ من الملائكة دُعاءٌ واسْتِغْفارٌ ومن الله رحمةٌ وبه سُمِّيَت الصلاةُ لِما فيها من الدُّعاءِ والاسْتِغْفارِ، فقوله ﷻ ﴿ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ أي: يترَحَّمُون، وقوله ﷺ: " اللهم صَلِّ على آلِ أَبي أَوْفى" أَي: تَرَحَّم عليهم[1].

وفي الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِذَا دُعِىَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ، وإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ"[2].

قوله: فليصل يعني: فليدع لأرباب الطعام بالبركة والخير، ومنه قوله ﷺ: "من صلى عليَّ صلاة صلت عليه الملائكة عشرًا"[3].

وكل داع فهو مصل.

وأَما قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ ﴾ فمعنى الصَّلوات ههنا الثناءُ عليهم من الله تعالى، وقال الشاعر:

صَلَّى على يَحْيَى وأَشْياعِه   ربٌّ كريمٌ وشَفِيعٌ مطاعْ.

معناه ترحَّم الله عليه على الدعاءِ لا على الخبرِ.

وقال ابن الأَعرابي: الصلاةُ من الله رحمةٌ ومن المخلوقين الملائكةِ، والإِنْسِ والجِنِّ، القيامُ والركوعُ والسجودُ والدعاءُ والتسبيحُ والصلاةُ من الطَّيرِ والهَوَامِّ التسبيح، وقال الزجاج: الأَصلُ في الصلاةِ اللُّزوم، يقال: قد صَلِيَ واصْطَلَى إذا لَزِمَ، ومن هذا مَنْ يُصْلَى في النار أَي يُلْزَم النارَ.

---

(١) لسان العرب (٤/ ٢٤٩٠).

(٢) مسلم (١٤٣١).

(٣) النسائي (٣/ ٥٠)، وصححه الألباني في المشكاة (٢/ ١٣٤).

وقال الأزهري: والقولُ عندي هو الأَوّل إنما الصلاةُ لُزومُ ما فرَضَ الله تعالى والصلاةُ من أَعظم الفَرْض الذي أُمِرَ بلُزومِه[١].

قال ابن الأثير: وقيل أصل الصلاة التعظيم.[٢]

الصلاة اصطلاحًا: والصلاة: واحدة الصلوات المفروضة، وهو اسم يوضع موضع المصدر، تقول: صليت صلاة، ولا تقل تصلية، وصليت على النبي ﷺ.

قال ابن الأثير: وقد تكرر في الحديث ذكر الصلاة، وهي العبادة المخصوصة، وأصلها في اللغة: الدعاء، فسميت ببعض أجزائها[٣].

وسميت الصلاة المخصوصة صلاة لما فيها من تعظيم الرب ـ تعالى وتقدس ـ، وهي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة[٤].

فمن ذلك يتضح أن الصلاة ليست فقط هي التي تحتوي على الركوع والسجود، وإنما هي بمعنى الدُعاء، والاستغفار، والثناء، والرحمة.

فمن الله ﷻ رحمة، وثناء، ومدح؛ ومن الملائكة دعاء، واستغفار، وترحم؛ ومن الإنس والجن كذلك، كما بينا قبل ذلك.

إذًا: فمزعوماتهم وافتراءاتهم كلها مبنية على فهم خاطئ، وباطل، وهذا إن دل إنما يدل على جهلهم باللغة العربية، وعلى فهمهم القاصر.

الوجه الثالث: التفسير الصحيح للآية والرد على فهمهم الخاطئ

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٦)، ومن قبيل هذه الآية قوله ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن

(١) لسان العرب (٤/ ٢٤٩٠)، خزانة الأدب (١/ ١٠٢) لعبد القادر البغدادي.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٥٠).
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٥٠).
(٤) الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري (١/ ١٧٥)، الفروع لابن مفلح (١/ ٢٨٥).

﴿رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة: ١٥٧)، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ (الأحزاب: ٤٣).

قال الطبري:يقول تعالى ذكره: ربكم الذي تذكرونه الذكر الكثير، وتسبحونه بكرة وأصيلًا إذا أنتم فعلتم ذلك، الذي يرحمكم ويثني عليكم هو، ويدعو لكم ملائكته.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: يشيع عنكم الذكر الجميل في عباد الله. [١]

وقال أيضًا: وأما قوله: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله وملائكته يبرّكون على النبي محمد ﷺ، وقد يحتمل أن يقال: إن معنى ذلك: أن الله يرحم النبي، وتدعو له ملائكته ويستغفرون، وذلك أن الصلاة في كلام العرب من غير الله، إنما هو دعاء. [٢]

وقد ذكر البخاري كلام ابن عباس ﷺ معلقًا فقال: بَاب قَوْله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، قَالَ أَبُو الْعَالِيَة: صَلَاة الله ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَة، وَصَلَاة الْمَلَائِكَة الدُّعَاء، وقال ابن عباس: (يصلون) يبركون[٣].

وعن كعب بن عجرة ﷺ قيل: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة؟ قال: "قولوا اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد"[٤].

قال ابن حجر: قَوْله: "كَمَا صَلَّيْت عَلَى آلِ إِبْرَاهِيم "، أَيْ: تَقَدَّمَتْ مِنْك الصَّلَاة عَلَى إِبْرَاهِيم وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيم، ف نَسْأَل مِنْك الصَّلَاة عَلَى مُحَمَّد، وَعَلَى آلِ مُحَمَّد بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، لِأَنَّ الَّذِي يَثْبُت لِلْفَاضِلِ يَثْبُت لِلْأَفْضَلِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى. [٥]

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ١٧).
(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٤٣).
(٣) فتح الباري (٨/ ٥٣٢).
(٤) البخاري (٤٧٩٧)، ومسلم (٤٠٥).
(٥) فتح الباري (٨/ ٦٢٥).

وقال أيضًا: وَاسْتُدِلَّ بِهَذَا الْحَدِيث عَلَى جَوَاز الصَّلَاة عَلَى غَيْر النَّبِيّ ﷺ مِنْ أَجْلِ قَوْله فِيهِ: "وَعَلَى آلِ مُحَمَّد " وَأَجَابَ مَنْ مَنَعَ: بِأَنَّ الْجَوَاز مُقَيَّد بِمَا إِذَا وَقَعَ تَبَعًا، وَالْمَنْع إِذَا وَقَعَ مُسْتَقِلًّا(١)، وَالْحُجَّة فِيهِ أَنَّهُ صَارَ شِعَارًا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَا يُشَارِكهُ غَيْره فِيهِ، فَلَا يُقَال قَالَ أَبُو بَكْر ﷺ: وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُ صَحِيحًا، وَيُقَال: صَلَّى الله عَلَى النَّبِيّ وَعَلَى صِدِّيقه أَوْ خَلِيفَته وَنَحْو ذَلِكَ، وَقَرِيب مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَا يُقَال: قَالَ مُحَمَّد ﷺ وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُ صَحِيحًا، لِأَنَّ هَذَا الثَّنَاء صَارَ شِعَار الله سبْحَانه لَا يشَارِكهُ غَيْره فِيهِ.

وَلَا حُجَّة لِمَنْ أَجَازَ ذَلِكَ مُنْفَرِدًا فِيمَا وَقَعَ مِنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، ولَا فِي قَوْله: " اللهمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى ". (٢)

وَلَا فِي قَوْل اِمْرَأَة جَابِر " صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَى زَوْجِي، فَقَالَ: اللهمَّ صَلِّ عَلَيْهِمَا"(٣) فَإِنَّ ذَلِكَ كُلّه وَقَعَ مِنْ النَّبِيّ ﷺ. وَلِصَاحِبِ الْحَقّ أَنْ يَتَفَضَّل مِنْ حَقّه بِمَا شَاءَ، وَلَيْسَ لِغَيْرِهِ أَنْ يَتَصَرَّف إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَمْ يَثْبُت عَنْهُ إِذْن فِي ذَلِكَ. وَيُقَوِّي الْمَنْع بِأَنَّ الصَّلَاة عَلَى غَيْر النَّبِيّ ﷺ صَارَ شِعَارًا لِأَهْلِ الْأَهْوَاء يُصَلُّونَ عَلَى مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنْ أَهْل الْبَيْت وَغَيْرهمْ. وَهَلْ الْمَنْع فِي ذَلِكَ حَرَام أَوْ مَكْرُوه أَوْ خِلَاف الْأَوْلَى؟ حَكَى الْأَوْجُه الثَّلَاثَة النَّوَوِيّ فِي "الْأَذْكَار" وَصَحَّحَ الثَّانِي(٤).

وقال النووي: قَوْله ﷺ: " قُولُوا: اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آل مُحَمَّد كَمَا صَلَّيْت عَلَى آلِ إِبْرَاهِيم، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كَمَا بَارَكْت عَلَى آلِ إِبْرَاهِيم ".

قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَى الْبَرَكَة هُنَا الزِّيَادَة مِنْ الْخَيْر وَالْكَرَامَة، وَقِيلَ: هُوَ بِمَعْنَى التَّطْهِير وَالتَّزْكِيَة، وأَنَّ نَبِيّنَا ﷺ سَأَلَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِ بَيْته لِيُتِمّ النِّعْمَة عَلَيْهِمْ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى إِبْرَاهِيم وَعَلَى آلِهِ، وقِيلَ: بَلْ سَأَلَ ذَلِكَ لِأُمَّتِهِ، وَقِيلَ: بَلْ لِيَبْقَى ذَلِكَ لَهُ دَائِمًا إِلَى يَوْم

---

(١) الأذكار للنووي (١٠٨).

(٢) البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٣) أبي داود (١٥٣٣)، والسنن الكبرى للنسائي (٦/ ١١٢) (١٠٢٥٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٥٧).

(٤) فتح الباري (٨/ ٦٢٥، ٦٢٦).

الْقِيَامَة، وَيَجْعَل لَهُ بِهِ لِسَان صِدْق فِي الْآخِرِينَ كَإِبْرَاهِيمَﷺ.

وَأَجَابُوا عَنْ قَوْل الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ وَعَنْ الْأَحَادِيث بِأَنَّ مَا كَانَ مِنْ الله ﷻ وَرَسُوله فَهُوَ دُعَاء وَتَرَحُّم، وَلَيْسَ فِيهِ مَعْنَى التَّعْظِيم وَالتَّوْقِير الَّذِي يَكُون مِنْ غَيْرهمَا. وَأَمَّا الصَّلَاة عَلَى الْآلِ وَالْأَزْوَاج وَالذُّرِّيَّة، ف إِنَّمَا جَاءَ عَلَى التَّبَع لَا عَلَى الِاسْتِقْلَال، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ يُقَال تَبَعًا لِأَنَّ التَّابِع يَحْتَمِل فِيهِ مَا لَا يَحْتَمِل اِسْتِقْلَالًا. [(١)]

وقال ابن كثير: والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا. وقد أخبر أنه سبحانه وتعالى يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤١-٤٣)، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (البقرة: ١٥٧)[(٢)].

وفي الحديث: " إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف ". [(٣)]

قال المناوي: أي: يستغفرون لمن عن يمين الإمام من كل صف، والمراد يستغفرون لهم أولًا أو كثيرًا اهتمامًا بشأنهم. [(٤)]

وفي الحديث الآخر: " اللهمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى ". [(٥)]

وقال النووي: هَذَا الدُّعَاء -وَهُوَ الصَّلَاة- اِمْتِثَال لِقَوْلِ الله ﷻ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾. [(٦)]

---

(١) شرح النووي (٢/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨٤).

(٣) أبو داود (٦٧٦)، وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٢٤٩).

(٤) فيض القدير (٤/ ٤٢٢).

(٥) البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٦) شرح النووي (٤/ ١٩٧).

وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر وقد سألته أن يصلي عليها وعلى زوجها: "صلى الله عليك وعلى زوجك"(١).

الوجه الخامس: الله ﷻ لم يُصل على النبي ﷺ وحده.

والدليل على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة: ١٥٦: ١٥٥)، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ (الأحزاب: ٤٣: ٤١).

فمن ذلك: الله ﷻ يصلي (أي: يرحم ويثني) على الصابرين وعلى المؤمنين الذين يذكروه ذكرًا كثيرًا ويسبحوه بكرة وأصيلًا، وقال ﷺ: " إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف". (٢)

وفي رواية: "يُصلّون على الذين يصلون الصفوف "(٣).

وقال ﷺ: "اللهم صل على آل أبي أوفى "(٤).

وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر وقد سألته أن يصلي عليها وعلى زوجها: "صلى الله عليك وعلى زوجك ". (٥)

(١) إسناده صحيح. أخرجه أبو داود (١٥٣٣)، سنن النسائي الكبرى (١٠٢٥٦) (٦/ ١١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٥٧).

(٢) أبو داود (٦٧٦)، وفي صحيح أبي داود (٦٢٨) قال حسن بلفظ "على الذين يصلون الصفوف".

(٣) ابن ماجه (١/ ٣١٨)، وهو في صحيح ابن ماجه الألباني (٨١٤).

(٤) البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٥) إسناده صحيح، أبو داود (١٥٣٣)، سنن الكبرى للنسائي (١٠٢٥٦) (٦/ ١١٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٥٧).

وفي حديث أَنَس بْنُ مَالِكٍ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ "(١).

وأيضًا في حديث كعب بن عجرة، وفيه: "كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد "(٢).

وليس كما زعموا أن الله لم يصل على نبي قبل النبي ﷺ، وكذلك في هذا الحديث "وعلى آل محمد " فالنبي ﷺ يطلب أن يصلى الله ﷻ عليه وعلى آله.

وقال النووي: ويدخل في آل إبراهيم خلائق لا يحصون من الأنبياء. ولا شك أن قولنا "صلى الله عليه وسلم" أو "عليه الصلاة والسلام" لا يجوز

إلا للنبيﷺ، وتجوز لغيره تبعًا له، لا استقلالًا، كما بين النووي في شرحه(٣).

لأن للرسول ﷺ فضائل عظيمة على الأمة كلها، فبه ﷺ عرفنا خالقنا ومالكنا، وتشرفنا بالإيمان وعن طريقه وصلت إلينا تلك التعليمات المباركة في صورة القرآن الكريم والحديث الشريف التي بها نحصل على فلاح الدنيا والآخرة.

قال ابن عبد السلام: ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة منا له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بالمكافأة لمن أحسن إلينا وأنعم علينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله لما علم عجزنا عن المكافأة بنبينا إلى الصلاة عليه، لتكون صلاتنا عليه مكافأة بإحسانه إلينا، وأفضاله علينا إذ لا إحسان أفضل من إحسانه ﷺ، وفائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذي يصلي عليه، دلالة ذلك على نصوع العقيدة، وخلوص النية، وإظهار المحبة، والمداومة على الطاعة، والاحترام(٤).

الوجه السادس: النبي ﷺ أفضل الأنبياء، بل وأفضل الخلق. فكيف لا يُصلّي عليه؟

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ

(١) النسائي (٩٨٩١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ١٣٤).
(٢) البخاري (٤٧٩٧)، ومسلم (٤٠٥).
(٣) شرح النووي (٢/ ٣٦٢).
(٤) فتح الباري (١١/ ١٦٨).

يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ". (١)

قال النووي: قَالَ الْهَرَوِيُّ: السَّيِّد هُوَ الَّذِي يَفُوقُ قَوْمه فِي الْخَيْر، وَقَالَ غَيْره: هُوَ الَّذِي يُفْزَعُ إِلَيْهِ فِي النَّوَائِب وَالشَّدَائِد، فَيَقُومُ بِأَمْرِهِمْ، وَيَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مَكَارِههمْ، وَيَدْفَعُهَا عَنْهُمْ.

وَأَمَّا قَوْله ﷺ: (يَوْم الْقِيَامَة) مَعَ أَنَّهُ سَيِّدهمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، فَسَبَبُ التَّقْيِيد أَنَّ فِي يَوْم الْقِيَامَة يَظْهَرُ سُؤْدُده لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يَبْقَى مُنَازِع، وَلَا مُعَانِد، وَنَحْوه، بِخِلَافِ الدُّنْيَا فَقَدْ نَازَعَهُ ذَلِكَ فِيهَا مُلُوكُ الْكُفَّار وَزُعَمَاء الْمُشْرِكِينَ. وَهَذَا التَّقْيِيد قَرِيب مِنْ مَعْنَى قَوْله تَعَالَى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦)، مَعَ أَنَّ الْمُلْكَ لَهُ سُبْحَانه قَبْل ذَلِكَ، لَكِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مَنْ يَدَّعِي الْمُلْكَ، أَوْ مَنْ يُضَافُ إِلَيْهِ مَجَازًا، فَانْقَطَعَ كُلّ ذَلِكَ فِي الْآخِرَة.

قَالَ الْعُلَمَاء: وَقَوْله ﷺ: "أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم " لَمْ يَقُلْهُ فَخْرًا، بَلْ صَرَّحَ بِنَفْيِ الْفَخْر فِي غَيْر مُسْلِم فِي الْحَدِيث الْمَشْهُور "أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم وَلَا فَخْرَ"(٢)، وَإِنَّمَا قَالَهُ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدهمَا: اِمْتِثَال قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ (الضحى: ١١).

وَالثَّانِي: أَنَّهُ مِنْ الْبَيَان الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغه إِلَى أُمَّته لِيَعْرِفُوهُ، وَيَعْتَقِدُوهُ، وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ، وَيُوَقِّرُوهُ ﷺ بِمَا تَقْتَضِي مَرْتَبَتُهُ كَمَا أَمَرَهُمْ الله تَعَالَى. وَهَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِتَفْضِيلِهِ ﷺ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ. (٣)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: " كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَةٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ -وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ- فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، وقَالَ: أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثم ذكر حديث الشفاعة، وفيه: فَيَأْتُونِي، فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَهْ"(٤).

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " إِنِّي لأَوَّلُ النَّاسِ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْ جُمْجُمَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَأُعْطَى لِوَاءَ الْحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ

---

(١) مسلم (٢٢٧٨).

(٢) الترمذي (٣١٤٨)، (٤٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٧٧)، وقال: بعضه عند مسلم (١٩٤).

(٣) شرح النووي (٨/ ٤٢: ٤٣).

(٤) البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَآتِي بَابَ الْجَنَّةِ فَآخُذُ بِحَلْقَتِهَا فَيَقُولُونَ: مَنْ هَذَا؟ فَأَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ. فَيَفْتَحُونَ لِي فَأَدْخُلُ فَأَجِدُ الْجَبَّارَ مُسْتَقْبِلِي، فَأَسْجُدُ لَهُ فَيَقُولُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، تَكَلَّمْ يُسْمَعْ مِنْكَ، وَقُلْ يُقْبَلْ مِنْكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ"(١).

حتى إن عيسى ابن مريم ﷺ سينزل في آخر الزمان ويكون واحدًا من هذه الأمة وسيصلي خلف واحد من أفرادها تشريفًا للنبي ﷺ وأمته.

فعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ"(٢).

وفي رواية: ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ١٥٩). (٣)

قال النووي: حاكمًا بهذه الشريعة لا ينزل نبيًا برسالة مستقلة، وشريعة ناسخة، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة. (٤)

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ يَقُولُ: " لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قَالَ - فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الأُمَّةَ ". (٥)

وقد قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ

(١) سنن الدارمي (١/ ٤١)، ومسند أحمد (٣/ ١٤٤) ورجال أحمد كلهم ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٧١)، وقال في مختصر العلو (١/ ٧٥) صحيح بشواهد.

(٢) البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

(٣) البخاري (٣٤٤٨).

(٤) شرح النووي (١/ ٤٦٩).

(٥) مسلم (١٥٦).

قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾. (آل عمران: ٨٢: ٨١).

قال السعدي: يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسولًا مصدقًا لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك على أممهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضا لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن محمدا ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ.

ثم إن الله ﷻ لم يناده باسم في القرآن قط إجلالًا له وتعظيمًا، إلا إذا أخبر عنه فيسميه باسمه كقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ. . . . .﴾ (الفتح: ٢٩)، وأما عند النداء فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ (المائدة: ٤١)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ (الأحزاب: ٢٨)، على خلاف جميع الأنبياء قال: (يا آدم)، (يا موسى)، (يا عيسى)، فناداهم بأسمائهم، وليس هذا تقليلًا من شأنهم، بل رفعة لمكانة النبي ﷺ عليهم.[1]

الوجه السابع: كيف تقارنون بين المسيح عليه السلام والنبي ﷺ ؟ ألستم تزعمون أنه إله؟!

أنتم تقارنون بين النبي ﷺ وبين المسيح عليه السلام فتقولون: لماذا لم يُصل الله من قبل على موسى وإبراهيم إذا كان الله يصلي، وكذلك على المسيح الذي قال عنه: إنه وجيهًا في الدنيا والآخرة؟ ، ألستم تزعمون أنه إله؟! فكيف تقارنون بينه وبين هؤلاء الأنبياء؟ ، أم إنه لم يصل على المسيح، وأما عن موسى وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء؟.

(١) تفسير السعدي (١٣٦).

فالجواب: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ .. ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

الوجه الثامن: مدح الرب للأنبياء في الكتاب المقدس.

لقد مدح الله بعض الأنبياء في الكتاب المقدس، فمنهم إبراهيم حيث قال في (إشعياء٤١/ ١١: ٨): وَأَمَّا أَنْتَ يَا إِسْرَائِيلُ عَبْدِي، يَا يَعْقُوبُ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، نَسْلَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِي، ٩الَّذِي أَمْسَكْتُهُ مِنْ أَطْرَافِ الأَرْضِ، وَمِنْ أَقْطَارِهَا دَعَوْتُهُ، وَقُلْتُ لَكَ: أَنْتَ عَبْدِيَ. اخْتَرْتُكَ وَلَمْ أَرْفُضْكَ. لاَ تَخَفْ لأَنِّي مَعَكَ. لاَ تَتَلَفَّتْ لأَنِّي إِلهُكَ. قَدْ أَيَّدْتُكَ وَأَعَنْتُكَ وَعَضَدْتُكَ بِيَمِينِ بِرِّي.

وفي (التكوين١٢/ ٤: ١): وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ (إبراهيم): «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. ٢ فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. ٣وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ.

حتى أن الله يرحم إبراهيم رحمة خاصة كما ورد في (ميخا٢٠: ١٨): مَنْ هُوَ إِلهٌ مِثْلُكَ غَافِرٌ الإِثْمَ وَصَافِحٌ عَنِ الذَّنْبِ لِبَقِيَّةِ مِيرَاثِهِ! لاَ يَحْفَظُ إِلَى الأَبَدِ غَضَبَهُ، فَإِنَّهُ يُسَرُّ بِالرَّأْفَةِ. ١٩ يَعُودُ يَرْحَمُنَا. . . تَصْنَعُ الأَمَانَةَ لِيَعْقُوبَ وَالرَّأْفَةَ لإِبْرَاهِيمَ، اللَّتَيْنِ حَلَفْتَ لآبَائِنَا مُنْذُ أَيَّامِ الْقِدَمِ.

* * *

٢٨ـ شبهة: حول قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾.

نص الشبهة:

قالوا: إن الأحاديث الكثيرة تأتي وتقرُّ أن النبي ﷺ كان معصومًا، ووقع في القرآن أنه كان في بدء أمره في الذنب والضلالة كقوله في سورة الضحى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى: ٧). [١]

والجواب عن هذه الشبهة من ستة أوجه:

الوجه الأول: القرآن جعل العصمة للنبي ﷺ، ونفى عنه الضلال (بمعنى: الباطل) مطلقًا.

الوجه الثاني: سبب نزول هذه السورة التي منها هذه الآية.

الوجه الثالث: السورة كلها منقبة للرسول ﷺ، ويظهر هذا من الإشارة إلى معانيها.

الوجه الرابع: في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾.

الوجه الخامس: الحكمة من كون الرسول ﷺ قبل النبوة ضالًا عنها أميًا لا يقرأ ولا يكتب، وهو الذي جاء بعد بالقرآن والسنة.

الوجه السادس: صفة نبي الله عيسى عليه السلام في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن جعل العصمة للنبي ﷺ ونفى عنه الضلال (بمعنى: الباطل) مطلقًا.

فقال ﷻ: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ (النجم٤: ١)، بدأ الله السورة بالقسم، فكان على ماذا؟ على المقسم عليه وهو قوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾.

يقول ابن كثير: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه بار راشد تابع للحق ليس بضال، وهو: الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي: هو

---

(١) هذه شبهة قديمة عند القوم ترى صداها والرد عليها عند رحمت الله الهندي في " إظهار الحق "، وعند محمد رشيد رضا في " تفسير المنار " (١٢/ ٢٥٢).

العالم بالحق العادل عنه قصدًا إلى غيره، فنزه الله سبحانه وتعالى رسوله وشَرْعَه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وعن علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو ﷺ وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ أي: ما يقول قولًا عن هوى وغرض، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾أي: إنما يقول ما أُمر به، يبلغه إلى الناس كاملا موفَّرًا من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد: عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثلُ الحيين -أو: مثل أحد الحيين-: رَبِيعة ومُضَر"، فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: "إنما أقول ما أقول". (١)

وقال الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب، فأمسكتُ عن الكتابة. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: "اكتب فو الذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا حق"(٢).

وقال الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا أقول إلا حقًا". قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: "إني لا أقول إلا حقًّا"(٣).

وقال القاسمي: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ - والخطاب لقريش – أي: ما حاد عن الحق ولازال عنه، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: أي: ما صار غويًا، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى، وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغي، وذكره ﷺ بعنوان (صاحبهم)

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٢٥٧)، الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨١) وقال: "رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة"، الحاوي (١/ ٣٠٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢١٧٨).

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٦٢)، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٩)، وأبو داود (٣٦٤٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٢).

(٣) مسند أحمد (٢/ ٣٤٠)، ورواه الترمذي في سننه (١٩٩٠) من طريق المقبري به؛ وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٧٢٦).

للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم بمحاسن شئونه المنيفة فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه.(١)

وقال ابن عاشور: أول أغراضها تحقيق أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن الله تعالى وأنه منزه عما ادعوه. . ، وقال أيضًا: واعلم أن تنزيهه ﷺ عن النطق عن هوىً يقتضي التنزيه عن أن يفعل أو يحكم عن هوى؛ لأن التنزه عن النطق عن هوى أعظم مراتب الحكمة؛ ولذلك ورد في صفة النبي ﷺ: «أنه يمزح ولا يقول إلا حقًّا»، وهنا تم إبطال قولهم فحسن الوقف على قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾(٢).

ويقول الخازن: ولا يلتفت إلى قول من قال إنه ﷺ كان قبل النّبوة على ملة قومه، فهداه الله إلى الإسلام؛ لأن نبينا ﷺ وكذلك الأنبياء قبله منذ ولدوا نشأوا على التّوحيد والإيمان قبل النّبوة وبعدها، وأنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله تعالى وتوحيده، ويدل على ذلك أن قريشًا لما عابوا النبي ﷺ ورموه بكل عيب سوى الشّرك وأمر الجاهلية، فإنهم لم يجدوا لهم عليه سبيلًا؛ إذ لو كان فيه لما سكتوا عنه ولنقل ذلك، فبرأه الله تعالى من جميع ما قالوه فيه وعيروه به، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾(٣).

الوجه الثاني: سبب نزول هذه السورة التي منها هذه الآية.

عن الأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ ﷺ قَالَ: اشْتَكَى رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إني لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا. فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.(٤)

(١) "محاسن التأويل "(٩/ ٢٢٢).

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ٨٨: ٩٣.

(٣) تفسير الخازن (٤/ ٤٣٨، ٤٣٩)، وانظر فصل عصمة النبي ﷺ في هذه الموسوعة المباركة.

(٤) البخاري (٤٩٥٠) في كتاب التفسير؛ باب قَوْلِه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

وروي عن الأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا الْبَجَلِيَّ: قَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ الله، مَا أُرَى صَاحِبَكَ إِلاَّ أَبْطَأَكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى﴾[1].

وقال الحافظ ابن حجر: وقع في رواية أخرى عند الحاكم (فقالت خديجة)، وأخرجه الطبري أيضًا من طريق عبد الله بن شداد (فقالت خديجة: ولا أرى ربك)، ومن طريق هشام بن عروة عن أبيه: (فقالت خديجة: لما ترى من جزعه)، وهذان طريقان مرسلان ورواتها ثقات، فالذي يظهر أن كلًا من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أمَّ جميل عبرت لكونها كافرة بلفظ: (شيطانك)، وخديجة عبرت لكونها مؤمنة بلفظ: (ربك) أو (صاحبك)، وقالت أم جميل شماتةً وخديجة توجعًا[2].

وسواءً كان القائل أم جميل أمْ المشركون أمْ خديجة ﵂ فإن رسول الله ﷺ أصابه الحزن لفتور الوحي، وكما مرَّ عند البخاري أن أمَّ جميل زوج أبي لهب -عليها لعنة الله- قالت ما قالت شماتةً، وهذا مما زاد في حزنه ﷺ، فكان نزول هذه السورة المباركة من إحدى عشرة آية ترضيةً لرسول الله ﷺ وتطييبًا لخاطره مما أصابه ورفعًا للحزن عنه، فنزلت السورة تنفي مقالة السوء التي فاهت بها الكافرة، ويقسم الله في أولها على حبه لرسوله ﷺ. فكيف يفهم من سورة هذا شأنها أن يكون فيها ما يعيب من قريب أو بعيد رسول الله ﷺ؟

الوجه الثالث: السورة كلها منقبة للرسول ﷺ، ويظهر هذا من الإشارة إلى معانيها.

ومن ذلك أن الله بدأ السورة بالقسم، فأقسم بالضحى، ثم أتبعه قسمًا آخر فأقسم بالليل، فالله ﷻ أقسم على ماذا؟ فكان جواب القسم: ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى ③﴾.

---

(١) البخاري (٤٩٥١)، ووردت روايات أخرى لهذا الحديث ومعناها يدور حول هذا السبب؛ منها ما رواه الترمذي: عن جندب البجلي قال: كنت مع النبي ﷺ في غار فدميت إصبعه فقال ﷺ: (هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت). قال: الترمذي (٣٣٤٥).

فأبطأ عليه جبريل ﵇ فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمدٌ فأنزل الله تعالى: (مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى ③).

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٨١).

قال السعدي: أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإنَّ نفيَ الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحًا إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة؛ أكمل حال وأتمها محبة الله له واستمرارها، وترقيته في دَرَج الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلة، فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي ويُمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرة العين، وسرور القلب. ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة[1].

وفيها قال علي والحسن:(هو الشفاعة في أمته حتى يرضى)[2]،

وقال غيرهما: يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدَّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه من مسك أذفر ويعطيه المقام المحمود والفردوس الأعلى إلى غير ذلك من الإنعام والعطاء[3].

وعلى هذا يتبين أن ما بعد جواب القسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ إلى آخر السورة ما هو إلا تفصيل وتوضيح وتدليل على أن الله ماودعه وما قلاه والقرآن يفسر بعضه بعضًا[4].

(١) تفسير السعدي (١/ ٩٢٨).

(٢) " زاد المسير " لابن الجوزي (٩/ ١٥٧).

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧٤)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٤٩).

(٤) ومزيد بيان لذلك: فإن السورة التي جاءت بعد سورة الضحى وهي الشرح كالتتميم لهذه السورة، فلا زالت الطمأنينة تنزل على رسول الله ﷺ فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾، وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾؛ يقول الشيخ السعدي في تفسيره: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من

والسورة نزلت في تعداد نعم الله ومننه على عبده وحبيبه ﷺ، فكيف وأنَّى للأشقياء أن يجعلوها ذمًّا له ﷺ؟ (هيهات، هيهات)، ثم عدَّد النعم على رسول ﷺ بأنه آواه لما وجده يتيمًا، ووفق جدَّه عبد المطلب فَكَفَلَهُ بعد موت أبيه وأمه ثم كفله عمه أبو طالب مع أن أبا طالب له من الأولاد الكثير مع قلة ذات اليد ولكن الله ألقى في قلبه حُبَّ محمدٍ ﷺ.

ثم في مقام تعداد النعم يخبر عبده بنعمه الأخرى، إذ كان قبل البعثة لا يدري ما يُراد به من أمر النبوة والإيمان، فكانت نعمة الله أن هداه للنبوة وعلمه كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣)، وكما في آية الضحى هنا إذ وجده ربه ضالًا عن النبوة لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان فهداه[(١)].

ثم يعدد الله سبحانه نعمه وفضله على رسوله ﷺ بأنه وجده عائلًا فقيرًا فأغناه بما أفاض عليه من النعم، وغنى النفس، والمقام السامي مقام النبوة خير مقامات أهل الأرض.

ثم كان الخطاب للرسول ﷺ وللأمة من بعده، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ (الضحى ٩: ١١)، فهي آيات تابعة لما كان بعد النعم المستفيضة السابقة، فكما وجدك يتيمًا فآواك فلا تقهر اليتيم، غافلًا عن النبوة لا تدري الكتاب ولا الإيمان فعلمك وهداك فلا تنهر السائل والمستفتي، وكما كنت عائلًا فأغناك، فحدث بنعم الله مِنْ أمنٍ وعلمٍ ومالٍ ولا تكتمها، فظهر لنا من هذا السياق أن هذه الآيات الثلاث توافق الآيات الثلاث التي قبلها فاستدللنا على معنى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ بقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾؛ لأنه السائل عن العلم[(٢)].

الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ. وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبيًا عن أمته (تفسير السعدي ١/ ٩٢٩)، (نظم الدرر للبقاعي ٨/ ٤٦٠).

(١) تفصيل معاني هذه الآية هو الوجه الرابع من وجوه الرد على فرية القوم وهو من أقوى الوجوه.

(٢) تفسير ابن كثير (١٤/ ٣٨٥)، البحر المحيط (٨/ ٤٨١)، تفسير أبي السعود (٩/ ١٧٠).

قال الرازي: اختيار الحسن أن المراد منه مَنْ يسأل العلم ونظيره من وجه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢﴾ (عبس٢: ١)، وحينئذ يحصل الترتيب؛ لأنه تعالى قال له أولًا: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ (الضحى٦: ٨)، ثم اعتبر هذا الترتيب فأوصاه برعاية حق اليتيم، ثم برعاية حق مَنْ يسأله عن العلم والهداية، ثم أوصاه بشكر نعم الله عليه[1].

وبمثل ذلك قال ابن كثير قال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾ أي: وكما كنت ضالًا فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد[2].

وبهذا يتضح المقصود بـ﴿ضَآلّٗا﴾ في هذه الآية الكريمة.

الوجه الرابع: في بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾.

الآية لها في كتب المفسرين عدة معانٍ لا تخرج جميعُها عن أن هذه الآية من نعم الله ومِننَهِ المتكاثرة على عبدِهِ محمدٍ ﷺ.

١ـ المعنى الأول[3]: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (الشورى: ٥٢) أي: أن رسول الله كان قبل البعثة غافلًا عما أوحاه الله إليه لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان فهداه الله، وجعله إمام الدين، هذا والنبي ﷺ لم يكن يعلم فعلمه الله؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ (النساء: ١١٣)، ومثل ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ

---

(١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (٣١/ ٢١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧٤).

(٣) انظر هذا المعنى في: زاد المسير (٧/ ٢٩٨)، تفسير القرطبي (١٦/ ٤٩)، وفتح القدير (٤/ ٧٧٦).

ﱡﭐ ... ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف٣: ١) يعني: من قبل وحي الله إليك كنت من الغافلين.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: أي: وإن الشأن وحقيقة ما يتحدث عنه من قصتك أنت أنك كنت من قبل إيحائنا إياه إليك من جماعة الغافلين عنه من قومك الأميين الذين لا يخطر في بالهم التحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم؛ وبيان ما كانوا عليه من دين وتشريع كيعقوب وأولاده في بداوتهم، ولا ما كانت الأمم فيه من ترف وحضارة كالمصريين الذين وقع يوسف بينهم وحدث له ما حدث في بعض بيوتاتهم[١].

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ بمعنى: ضالًا عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة، فهداك إليها، قاله الجمهور؛ منهم الحسن، والضحاك[٢].

وقال القرطبي: أي: غافلًا عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك: أي أرشدك، والضلال هنا بمعنى: الغفلة؛ كقوله جل ثناؤه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾أي: لا يغفل، وقال في حق نبيه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾، وقال قوم: "ضالاً" لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [٣].

وقال البقاعي: (ووجدك) أي: صادفك (ضالًا) أي: لا تعلم الشرائع، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾، فأطلق اللازم وهو الضلال على الملزوم، والمسبب على السبب وهو عدم العلم، فكنت لأجل ذلك لا تقدم على فعل من الأفعال؛ لأنك لا تعلم الحكم فيه إلا ما علمت بالعقل الصحيح والفطرة السليمة المستقيمة من التوحيد وبعض توابعه.... إلخ[٤].

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ٢٥٢).

(٢) زاد المسير (٩/ ١٥٨)، وذكر ابن الجوزي فيها ستة أقوال.

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٤٥٧).

وقال الشوكاني: الضلال هنا بمعنى: الغفلة؛ كما في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، وكما في قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، والمعنى: أنه وجدك غافلًا عما يراد بك من أمر النبوّة، واختار هذا الزجاج، وقيل: معنى ضالًا لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهداك لذلك[1].

وقال القاضي عبد الجبار: وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أليس ذلك يدل على جواز الضلال على نبينا ﷺ وعلى سائر الأنبياء؟

وجوابنا: أن المراد بذلك ضالًا عن النبوة والرسالة وسائر ما خصَّ الله تعالى به نبيناﷺ من التعظيم وغيره فهداك الله إليها؛ لأنه في اللغة قد يقال: ضلَّ عن كيت وكيت إذا كان ذلك طريق منافعه، ولم يقل الله تعالى: ووجدك ضالًا عن الدين حتى يصح تعلقهم[2].

وقال علي بن أحمد السبتي: الدليل على أن ضلال الأنبياء غفلة لا جهل قوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ يعني: غافلًا عن الشريعة لا تدري كيفية العبادة فهداك لها بالأمر والنهي ثم قال له: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٣)، والجاهل لا يسمى غافلًا حقيقة لقيام الجهل به فصح أن ضلال الأنبياء -عليهم السلام- غفلة لا جهل[3].

وهذا القول هو الذي عليه جمهور المفسرين ومَنْ بقي منهم ذَكر معاني أخرى جليلة[4] بها فوائد عظيمة، فهَلُمَّ إلى بيانها:

---

(١) فتح القدير (٥/ ٦٥٩).

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن (٤٧٠).

(٣) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالةُ الأغبياء - ابن حمير (١١٢).

١ ــ (تنبيه) قال الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٣٢): حدثنا ابن حميد قال: ثنا مهران عن السدي ووجدك ضالًا قال: كان على أمر قومه أربعين عامًا. اهـ.

وهذا منقطع فإن بين السدي وبين النبي ﷺ مفاوز وآمادًا.

معانٍ أخرى:

المعنى الثاني: أي: وجدك في قوم ضلال، فهداهم الله بك.

هذا قول الكلبي والفراء(١)، وعن السدي نحوه؛ أي: ووجد قومك في ضلال فهداك إلى إرشادهم. اهـ. (١)

والسدي روى عن أنس بن مالك ورأى الحسن بن علي وأبا هريرة ﷺ، ومات سنة تسع وعشرين ومائة في ولاية بني مروان، وبهذا يضعف قول السدي جدًّا، وهو مخالف لِمَن هو أعلم منه كابن عباس، والحسن، والضحاك، وشهر بن حوشب في قولهم الماضي، وما سيأتي من أقوال أخرى سديدة.

وقال الزمخشري (٤/ ٧٦٨) في الكشاف ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السمعية فنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع؛ ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ (يوسف: ٣٨)، وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر.

قال الرازي في" التفسير الكبير": قال الكلبي: (وجدك ضالًا) يعني: كافرًا في قوم ضلال فهداك للتوحيد. . وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه ﷺ ما كفر بالله لحظة واحدة.

قلت: هذا الكلبي متروك عند العلماء وكذبه بعضهم.

وأختم هذا التنبيه بكلام مهم جليل للطاهر بن عاشور في " التحرير والتنوير "(٣٠/ ٤٠٠) في تفسير الآية قال: وليس المراد بالضلال هنا اتباع الباطل؛ فإن الأنبياء معصومون من الإشراك قبل النبوءة باتفاق علمائنا، وإنما اختلفوا في عصمتهم من نوع الذنوب الفواحش التي لا تختلف الشرائع في كونها فواحش، وبقطع النظر عن التنافي بين اعتبار الفعل فاحشة وبَيْن الخلوِّ عن وجود شريعة قبل النبوءة، فإن المحققين من أصحابنا نزهوهم عن ذلك والمعتزلة منعوا ذلك بناء على اعتبار دليل العقل كافيًا في قبح الفواحش. . ولم يختلف أصحابنا أن نبينا ﷺ لم يصدر منه ما ينافي أصول الدين قبل رسالته، ولم يزل علماؤنا يجعلون ما تواتر من حال استقامته ونزاهته عن الرذائل قبل نبوءته دليلًا من جملة الأدلة على رسالته، بل قد شافَهَ القرآن به المشركين بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩]، ولأنه لم يؤثر أن المشركين أفحموا النبي ﷺ فيما أنكر عليهم من مساوي أعمالهم بأن يقولوا: فقد كنت تفعل ذلك معنا. اهـ. وقال القاضي عياض في الشفا (٢/ ١٢٩)، ولا أعلم أحدًا قال من المفسرين فيها: ضالًا عن الإيمان.

وقال أبو حيان في " البحر المحيط "(٨/ ٤٨١): ﴿ووجدك ضالًا﴾ لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى؛ لأن الأنبياء معصومون من ذلك. . . ولبعض المفسرين أقوال فيه ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وانظر صديق حسن خان في " فتح البيان " (١٥/ ٢٨١).

(١) معاني القرآن (٣/ ٢٧٤).

المعنى الثالث: وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ قال: وجدك بين ضالين فاستنقذك من ضلالتهم[٢].

قال ابن الجوزي: وجدك في قوم ضُلاَّل فهداك للتوحيد والنبوة؛ قاله ابن السائب[٣].

وقال الشوكاني: وقيل: وجدك ضائقًا في قومك فهداك إليه، ويكون الضلال بمعنى: الضياع[٤].

وقال ابن عطية: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾أي: تنسب إلى الضلال، وقال الكلبي: ووجدك في قوم ضلال فكأنك واحد منهم[٥].

المعنى الرابع: أنه ضل وهو صبي صغير في شعاب مكة، فرده الله إلى جده عبد المطلب؛ رواه أبو الضحى عن ابن عباس، كما تقول: ضلَّ فلانٌ في الصحراء أو ضل في طريقه تاه ولم يهتدي لمكانه وطريقه الصحيح.

وقيل: إنه لما خرج مع ميسرة غلام خديجة أخذ إبليس بزمام ناقته فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة ورده إلى القافلة، فمنَّ الله عليه بذلك؛ قاله ا بن المسيب.

المعنى الخامس: وجدك محبًا للهداية فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى: المحبة، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾أي: في محبتك؛ قال الشاعر:

هذا الضلال أشاب مِنّي المفرقا   والعارِضَيْن ولم أكنْ مُتْحقّقًا
عَجَبًا لَعِزّةَ في اختيارِ قطيعتي   بعد الضّلالِ فحبْلُها قد أَخْلقًا[٦]

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٨٧).
(٢) الدر المنثور (٨/ ٥٤٤).
(٣) زاد المسير (٩/ ١٥٩).
(٤) فتح القدير (٥/ ٦٥٠)، زاد المسير (٩/ ١٥٩: ١٥٨).
(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٤٩٤).
(٦) الأبيات لكُثير عزة، والضلال في الأبيات بمعنى الحب، الماوردي في تفسيره (٦/ ٢٩٤).

الضلال بمعنى: المحبة كما في قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ (يوسف: ٩٥) أي: محبتك، ومعناه أنك محب فهديتك إلى الشرائع التي بها تتقرب إلى خدمة محبوبك[١].

قال القاضي عياض: قال ابن عطاء: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: محبًا لمعرفتي، والضال المحب؛ كما قال: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ (يوسف: ٩٥) أي: محبتك القديمة، ولم يريدوا ههنا في الدين؛ إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا، ومثله عند هذا قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٣٠) أي: محبة بينة[٢].

المعنى السادس: أن الضلال بمعنى النسيان، فوجدك ضالًا أي: ناسيًا؛ كما قال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وقال القرطبي (ضالًا) أي: ناسيًا شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فأذكرك[٣].

وقال الماوردي: ووجدك ناسيًا فأذكرك، وقال ابن الجوزي: ووجدك ناسيًا فهداك إلى الذكر؛ قاله ثعلب، وقال الرازي: ووجدك ضالًا أي: ناسيًا، فهديتك أي: ذكرتك، وذلك أنه ليلة المعراج نسي ما يجب أن يقال بسبب الهيبة، فهداه الله تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال: «لا أحصي ثناء عليك»[٤].

المعنى السابع: ووجدك متحيرًا في بيان ما نزل عليك فهداك إليه، فيكون الضلال بمعنى: التحير؛ لأن الضال متحير.

قال القاضي عياض: والضلال ههنا التحير؛ ولهذا كان ﷺ يخلو بغار حراء في طلب ما يتوجه به إلى ربه ويتشرع به حتى هداه الله إلى الإسلام؛ قال معناه القشيري... ، وقال الجنيد: ووجدك متحيرًا في بيان ما أنزل إليك فهداك لبيانه لقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾

---

(١) تفسير الرازي (٣١/ ٢١٧).

(٢) الشفا (٢/ ١٢٩).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧).

(٤) زاد المسير (٩/ ١٥٩).

(النحل: ٤٤)[١].

وهذا المعنى من أقوى المعاني دلالة، وهكذا كانت حاله ﷺ قبل أن يُبعث.

قال الأستاذ أحمد مصطفى المراغي: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: ووجدك حائرًا مضطربًا في أمرك مع اعتقادك أن قومك ليسوا على بصيرة من أمرهم؛ فعبادتهم باطلة، ومعتقداتهم فاسدة، وكان يفكر في دين اليهودية، ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه؛ إذ بدلوا دينهم وخالفوا ما كان عليه رسولهم، فيبدوا عليه الإعراض عنه.

وأعظم أنواع حيرته ما كان يراه في العرب أنفسهم من سخف في العقائد وضعف في البصائر، باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم وشؤمها في أحوالهم بتفرق الكلمة، وتفانيهم في سفك الدماء، والإشراف على الهلاك باستبعاد الغرباء لهم وتحكمهم فيهم، فالحبشة والفرس من جانب، والرومان من جانب آخر.

فما العمل في تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم العادات فيهم؟ وأي الطرق ينبغي أن يُسلك في إيقاظهم من سباتهم؟ وقصارى ذلك أنه كان في قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلوا سواء السبيل وبدلوا دين أبيهم إبراهيم، وكانت حال أهل الأديان الأخرى ليست خيرًا من حالهم، لكن الإله الحكيم لم يتركه ونفسه، بل أنزل عليه الوحي يبين له أوضح السبل كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)[٢].

ويقول الأستاذ سيد قطب: ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد، منحرفة السلوك والأوضاع، فلم تطمئن روحُك إليها، ثم هداك الله، والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى، التي لا تَعْدِلُها منة؛ وهي الراحة

(١) الشفا (٢/ ١١٣: ١١٢).

(٢) تفسير المراغي (٣٠/ ١٨٥).

والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق ومن التعب الذي لا يعدله تعب[١].

قال ابن عاشور: والضّلال: عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى مكان مقصود سواء سلك السائر طريقًا آخر يبلغ إلى غير المقصود أم وقف حائرًا لا يعرف أيَّ طريق يسلك، وهو المقصود هنا؛ لأن المعنى: أنك كنت في حيرة من حال أهل الشرك من قومك، فأراكه الله غير محمود وكرَّهه إليك ولا تدري ماذا تتبع من الحق، فإن الله لما أنشأ رسوله ﷺ على ما أراد من إعداده لتلقي الرسالة في الإبان، أَلْهَمَه أن ما عليه قومه من الشرك خطأ وألقى في نفسه طلب الوصول إلى الحق ليتهيأ بذلك لقبول الرسالة عن الله تعالى[٢].

وقال ابن عطية: هذا الضلال الذي ذكره الله تعالى لنبيه ﷺ أقرب ضلال وهو الكون واقفًا لا يميز المهيع لا أنه تمسك بطريق أحد بل كان يرتاد وينظر[٣].

المعنى الثامن: ووجدك طالبًا القبلة فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى: الطلب؛ لأن الضال طالب والرسول ﷺ قال الله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (البقرة: ١٤٤).

قال الرازي: ضالًا عن القبلة، فإنه كان يتمنى أن تجعل الكعبة قبلة له وما كان يعرف أن ذلك هل يحصل له أم لا، فهداه الله بقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ (البقرة: ١٤٤) فكأنه سمى ذلك التحير بالضلال.

المعنى التاسع: يقال: ضل الماء في اللبن إذا صار مغمورًا، فمعنى الآية: كنت مغمورًا بين الكفار بمكة فقواك الله تعالى حتى أظهرت دينه.

المعنى العاشر: العرب تسمي الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة في مفازة الجهل فوجدتك ضالًا فهديت بك الخلق[٤].

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٠).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٤٩٤).

(٤) تفسير الرازي (٣١/ ٢١٦).

المعنى الحادي عشر: وله صلة بالسابق، ويعني: وحيدًا.

قال القرطبي: أي: لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديت بك الخلق إليَّ.

وهذه الأقوال كلها حسان[1].

هذه مجمل المعاني الواردة في كتب المفسرين، وثم معانٍ أُخرى في التفسير الكبير للرازي، وابن الجوزي، والشفا للقاضي عياض.

الوجه الخامس: كونه (ضالًا) يعني: أميًا لا يقدح في شخص النبي ﷺ.

فمن الإعجاز والأليق بالحكمة أن يكون الرسول الذي جاء بهذا القرآن الكريم الحكيم أميًا وهو في مواجهة كفار قريش المنكرين وإخبارهم بأنه كلام الله تعالى.

الحكمة من إرسال الرسل أن يكونوا مبشرين ومنذرين ومبلغين عن رب العالمين، وقد أيَّد الله الرسل بمعجزات تجري على أيديهم تكون تصديقًا لرسالاتهم وأنها من عند الله تعالى، وتأتي المعجزة على وفق ما نبغ فيه القوم المرسل إليهم.

فلما حذق قومُ موسى السحرَ كانت المعجزة إبطال هذا السحر في مواجهة علنية يُجمع لها الناس من كل حدب وصوب، فبطل السحر بالحق الذي ليس في وسع البشر أن يأتوا به، فكانت عصا موسى حية تلقف ما يأفكون حتى غُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وليس في مقدور البشر أن تكون العصا التي من خشب حية تأكل؛ فلذا علم السحرة أن هذا الذي أمامهم من عند الله تعالى وبقدرته، وليس بسحر أعين الناس.

ولما نبغ قوم عيسى في الطب كانت معجزته من جنس ما نبغوا فيه، فهو يُبْرِئُ الأكمه والأبرص من ساعته بإذن الله، وهذا ليس في مقدورهم، ثم هو يحيي الموتى بإذن الله، وهذا مما اختص الله به، وليس في وسع البشر، فعُلم أن هذا من عند الله، فآمن من آمن منهم.

وكان نبوغ قوم محمد ﷺ -وهو خاتم النبيين- في كلامهم وما أوتوه من قوة اللفظ

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٩).

وجزالته وحباهم الله تعالى بلُغة واسعة واضحة مستبينة هي التي قال الله عنها: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾، وكانوا يتبارون في الميادين العامة كأسواق مجنة وعكاظ، ونبغ منهم أقوامٌ في قرض الشعر؛ حتى جعلوا لأشعارهم القداسة فعلقوها على الكعبة.

ولقد كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن، تتمتع بخصائص العروبة الكاملة التي فيها قوة الذاكرة وسرعة الحفظ وسيلان الأذهان، وكان العربي يحفظ مئات الآلاف من الأشعار، ويعرف الأحساب والأنساب فيستظهرها عن ظهر قلب، ويعرف التواريخ، وقلَّ أن تجد منهم من لا يعد لك الحسب والنسب، أو من لا يحفظ (المعلقات العشر) على كثرة أشعارها وصعوبة حفظها[1].

ومع ذلك كانوا – أعني: العربَ – أمة أُمية لا تقرأ ولا تكتب ويفشو فيهم الجهل، ولا ينقض ذلك أنهم بلغاء الكلام، فهم يعبرون باللفظ الفصيح عن ما يجري في البادية حولهم، كما لا ينقض أميتهم أن كان منهم أفراد على علم بأحوال الأمم من حولهم وعلى معرفة القراءة والكتابة، وكانت العرب تفشو بينهم أخلاق مرذولة من البغاء وأكل الأموال بالباطل، ثم كان بينهم الشرك الأكبر فعبدوا الحجارة والأصنام من دون الله تعالى.

ثم بعث الله فيهم رسولًا منهم يعرفونه ويعرفون ما عليه من جميل الأخلاق وكريمها، فكانت معجزته الباقية أبد الآبدين هي من كلام، وهو كلام الله رب العالمين، فهو ليس معجزة مادية كناقة صالح عليه السلام، أو عصا موسى عليه السلام، فتنتهي المعجزة بموته، إنما كانت معجزته ﷺ كلامًا لرب العالمين يحتوي على العلم والإيمان والتشريع الذي سيبقى إلى يوم الدين، وليس بأن يبقى إلى وفاة الرسول الذي نزل عليه هذا القرآن العظيم، وهذا ما رواه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ

(١) التبيان في علوم القرآن للصابوني (٤٦).

تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

فكان هذا هو الأليق بالحكمة أن تكون معجزة خاتم النبيين باقية من بعده، فلن يأتي نبيٌّ آخر ينذر الناس، بل هذه المعجزة التي هي كلام رب العالمين هي فيهم مقام المنذر والواعظ والناصح، فلا بد أن تكون كلامًا ربانيًا يحوي علمًا وتشريفًا للناس، هذا والذي جاء بهذا الكلام المبين الفصيح الذي يحتوي على العلم والتشريع والفصاحة والبلاغة رسول منهم يعرفونه؛ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاءهم بكتاب فصيح بلغتهم، ويقول هذا كلام الله ويأمركم أن تتركوا ما وجدتم عليه آباءكم من عبادة الأصنام ومساوئ الأخلاق.

ويأتي التحدي على أن يأتوا بمثل هذا القرآن؛ قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، ووجه الخطاب إليهم أن يأتوا بعشر سور فقط مثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود: ١٣)، فعجزوا عن ذلك وعن ما هو دونه كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس: ٣٨)، فلما عجزوا عن ذلك أرادوا أن يقدحوا في الكتاب المنزل وفي ربانية الكلام الذي فيه، وأنه من تأليف الرسول، وأنه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون.

يقول سيد قطب: حتى الماديون الملحدون في روسيا الشيوعية، عندما أرادوا أن يطعنوا في هذا الدين في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤ كانت دعواهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد هو محمد؛ بل من عمل جماعة كبيرة، وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية؛ بل إن بعض أجزائه كتب خارجها.

دعاهم إلى هذا استكثار هذا الكتاب على موهبة رجل واحد، وعلى علم أمة واحدة، ولم يقولوا ما يوحي به المنطق الطبيعي المستقيم: إنه من وحي رب العالمين؛ لأنهم ينكرون

---

(١) البخاري (٤٩٨١).

أن يكون لهذا الوجود إله، وأن يكون هناك وحي ورسل ونبوات[١].

فتحدى الله أهل قريش على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل سورة فعجزوا وعلموا أن لا طاقة لهم بمثله ولا بمثل آية منه، فصاروا يخبطون القول ويفترون على رسول الله ﷺ الأقاويل مع علمهم بضلال كلامهم؛ قال تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل: ١٠٣)، فافتروا هذه المقالة، واختلف المفسرون في اسم هذا الذي يقصده كفار قريش، والله ﷻ ردَّ عليهم بأبلغ رد وأوضحه.

فكيف يعجزون وهم أهل العربية عن محاكاة هذا اللسان العربي المبين في القرآن ثم يعلمه ويلقنه هذه الفصاحة أعجمي أو نبط وفد إليهم.

يقول الشيخ السعدي: وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، هل هذا القول ممكن أو له حظ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره[٢].

ويقول سيد قطب: وهذه المقالة منهم يصعب حملها على الجد، وأغلب الظن أنها كيد من كيدهم الذي كانوا يدبرونه وهم يعلمون كذبه وافتراءه، وإلا فكيف يقولون وهم أخبر بقيمة هذا الكتاب وإعجازه: إن أعجميًا يملك أن يعلم محمدًا هذا الكتاب، ولئن كان قادرًا على مثله ليظهرن به لنفسه[٣].

فانتفى أن يكون رسول الله ﷺ تعلم هذا القرآن من بشر، كما انتفى أن يكون من تأليفه، فهو وجده ربه أُميًا فعلمه ما لم يكن يعلم وهداه، ولو كان على علم أو كتابة لظنوا

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٩٥).

(٢) تفسير السعدي (٤٥٠).

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٩٥).

فيه الظنون؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت: ٤٨).

ويقول ابن كثير: أي: قد لبثت في قومك -يا محمد -ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمرًا لا تقرأ كتابًا ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وهكذا كان ﷺ [دائمًا وأبدًا] إلى يوم القيامة لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كُتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه ﷺ كتب يوم الحديبية: "هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله" فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: "ثم أخذ فكتب"، وهذه محمولة على الرواية الأخرى: "ثم أمر فكتب"، ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالًا وخطبوا به في محافلهم: وإنما أراد الرجل-أعني الباجي، فيما يظهر عنه -أنه كتب ذلك على وجه المعجزة؛ لا أنه كان يحسن الكتابة.

وقوله: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥)، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الفرقان: ٦)[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠/ ٥٢٠).

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦).

قال ابن كثير: أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته ولم أتقوله من عندي، والدليل أنكم عاجزون عن الإتيان بمثله، وأنتم تعلمون حالي قبل هذا الكتاب وتعلمون صدقي وأمانتي ولا تعيبون على شيئًا؛ لهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، وَالفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ، فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله[1].

والحديث مشهور في صحيح البخاري[2].

وعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها حديث الهجرة الطويل إلى الحبشة، وفيه أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه خاطب النجاشي قائلاً: حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده[3].

قال السعدي: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلًا ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أني حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمرا طويلا تعرفون حقيقة حالي، بأني أمي لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد؟ ، فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعيا العلماء، فهل يمكن –مع

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٢).
(٢) البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣).
(٣) مسند أحمد (١/ ٢٠٢).

هذا- أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟.

فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتم جزمًا لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذ أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ (يونس: ١٧)؟.

فلو كنت متقولًا لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم[1].

وقال ابن عاشور: فتقديره هنا: لو شاء الله ما تلوته لكنني تلوته عليكم. وتلاوته هي دليل الرسالة لأن تلاوته تتضمن إعجازه علمياً إذ جاء به من لم يكن من أهل العلم والحكمة، وبلاغياً إذ جاء كلاماً أعجز أهل اللغة كلهم مع تضافرهم في بلاغتهم وتفاوت مراتبهم، وليس من شأن أحد من الخلق أن يكون فائقاً على جميعهم، ولا من شأن كلامه أن لا يستطيع مثلَه أحد منهم.

ولذلك فُرعت على الاستدلال جملةُ: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ تذكيراً لهم بقديم حاله المعروفة بينهم وهي حال الأمية، أي قد كنت بين ظهرانيكم مدة طويلة، وهي أربعون سنة، تشاهدون أطوار نشأتي فلا ترون فيها حالة تشبه حالة العظمةِ، والكمال المتناهي الذي صار إليه لما أوحَى الله إليه بالرسالة، ولا بلاغة قول واشتهاراً بمقاولة أهل البلاغة والخطابة والشعر تشبه بلاغة القول الذي نطق به عن وحي القرآن، إذ لو كانت حالته بعد الوحي حالاً معتاداً وكانت بلاغة الكلام الذي جاء به كذلك لكان له من المقدمات من حين نشأته ما هو تهيئة لهذه الغاية وكان التخلق بذلك

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٦٠).

أطواراً وتدرجاً، فلا جرم دل عدم تشابه الحالين على أن هذا الحال الأخير حال رَباني محض، وأن هذا الكلام موحًى إليه من عند الله ليس له بذاته عمل فيه(١).

ويقول أيضًا: والتقدير أفلا تعقلون أنَّ مثل هذا الحال من الجمع بين الأمية والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه لا يكون إلا حال من أفاض الله عليه رسالته إذ لا يتأتى مثله في العادة لأحد ولا يتأتى ما يقاربه إلا بعد مدارسة العلماء ومطالعة الكتب السالفة ومناظرة العلماء ومحاورة أهل البلاغة من الخطباء والشعراء زمناً طويلاً وعُمراً مديداً، فكيف تأتَّى ما هو أعظم من ذلك المعتادِ دَفعةً لمن قضى عمره بينهم في بلاده يرقبون أحواله صباح مساءَ، وما عُرف بلدهم بمزاولة العلوم ولا كان فيهم من أهل الكتاب إلا من عَكف على العبادة وانقطع عن معاشرة الناس(٢).

الوجه السادس: صفة نبي الله عيسى عليه السلام في الكتاب المقدس.

هذه بعض الصفات التي وُصف بها المسيح في الكتاب المقدس، حيث إن من عادتهم أنهم يلصقون كل صفة قبيحة ومذمومة لأنبيائهم وصالحيهم:

يصفون المسيح بأنه غير قادر: (يوحنا٥ / ٣٠): أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ، وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ، لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

ويصفون المسيح بأنه ملعون: (غلاطية ٣ / ١٣): اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ.

ويفترون عليه كذبًا، ويقولون أنه يأمرهم بالنفاق: (صموائيل الثاني٢٢/ ٢٧): مَعَ الطَّاهِرِ تَكُونُ طَاهِرًا، وَمَعَ الأَعْوَجِ تَكُونُ مُلْتَوِيًا.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٢١: ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٣).

٢٩ـ شبهة: نهي الله ﷻ الرسول ﷺ أن يطيع الكافرين.

نص الشبهة:

يقولون: إن محمدًا ﷺ يرضي قومه، فنهاه الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآيات.

الوجه الثاني: لماذا يُؤمر النبي ﷺ بالتقوى، ويُنهى عن طاعة الكافرين؟.

الوجه الثالث: النبي ﷺ أتقى الناس لربه.

الوجه الرابع: النبي ﷺ لا يحابي أحدًا ولا يجامل أحدًا.

وإليك التفصيل.

الوجه الأول: تفسير الآيات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ (الأحزاب: ١)، هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى؛ فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا؛ فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى، فلا تسمع من الكافرين والمنافقين ولا تستشرهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه؛ فإنه عليم بعواقب الأمور[(١)].

وَلا تُطِعِ الذين يقولون لك: اطرد عنك أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك حتى نجالسك ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين يظهرون لك الإيمان بالله والنصيحة لك، وهم لا يألونك وأصحابك ودينك خبالًا؛ فلا تقبل منهم رأيًا[(٢)].

وقال الشوكاني في فتح القدير: لا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر[(١)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣٠).

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ١١٧).

وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: زد من التقوى؛ لئلا تلتفت إلى شيء سواه؛ فإنه أهل لأن يرهب لما له من خلال الجلال، والعظمة والكمال، ولما وجه إليه الأمر بخشية الولي الودود، أتبعه النهي عن الالتفات نحو العدو والحسود. فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾(٢).

وناداه الله ﷻ بالنبي وأمره بالتقوى تعظيمًا له وتفخيمًا لشأن التقوى. والمراد به الأمر بالثبات عليه ليكون مانعًا له عما نهى عنه بقوله (ولا تطع)(٣).

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ مرادف: لاَ تَتَّق الكافرين والمنافقين؛ فإن الطاعة تقوى. فصار مجموع الجملتين مفيدًا معنى: يأيها النبي لا تتق إلا الله. فعدل عن صيغة القصر وهي أشهر في الكلام البليغ وأوجز إلى ذكر جملتي أمر ونهي لقصد النص؛ على أنه قصر إضافي أُريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين؛ لأنه لو اقتصر على أن يُقال: لا تتق إلا الله لما أصاخت إليه الأسماع إصاخة خاصة لأن تقوى النبي ﷺ ربه أمر معلوم(٤).

الوجه الثاني: لماذا يؤمر النبي ﷺ بالتقوى.

أولًا: قدّمنا أن معنى قوله تعالى: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: زد من التقوى وداوم عليها وأكثر منها، وأنه أيضًا خطاب له أريد به أمته.

ثانيًا: ولا يجوز حمل هذا الأمر على غفلة النبي ﷺ؛ لأن قوله ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ ينافي الغفلة، لأن النبي ﷺ خبير؛ فلا يكون غافلًا؛ فيجب حمله على خطر الخطب، فقد يتوهم من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ أن الهاء هنا للتنبيه، نعم هناك فرق بين قولك (يا رجل)، وقولك (يا أيها الرجل)، فالأخرى هي لتنبيه الغافل، لكن مع النبي ﷺ الحال مختلف لفضله ومنزلته ﷺ،

(١) فتح القدير (٤/ ٣٦٥).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٦/ ٦٨).

(٣) تفسير البيضاوي (١/ ٣٦٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٥١).

فهي لمجرد الخطاب والنداء وليست للتنبيه(١).

ثالثًا: وإن كانت التقوى معلومة من حاله، ففي أمره بها ثلاثة أمور:

أحدها: أن المراد بذلك استدامة ما هو عليه، والثاني: الإِكثار مما هو فيه، والثالث: هو خطاب المراد به أُمَّتُه(٢).

رابعًا: وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأن النبي ﷺ لا يقبل أقوالهم ليَيْأسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكايد ويظهرون أنهم ينصحون النبي ﷺ ويلحّون عليه بالطلبات نصحًا تظاهرًا بالإسلام(٣).

خامسًا: الأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به؛ إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي ﷺ كان متقيًا فما الوجه فيه؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: منقول وهو أنه أمر بالمداومة؛ فإنه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس هاهنا إلى أن أجيئك، ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم، أي دم على ما أنت عليه، والثاني: وهو معقول لطيف، وهو أن الملك يتقي منه عباده على ثلاثة أوجه: بعضهم يخاف من عقابه، وبعضهم يخاف من قطع ثوابه، وثالث يخاف من احتجابه، فالنبي ﷺ لم يُؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني، وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام في الدنيا.

وكيف والأمور الدنيوية شاغلة والآدمي في الدنيا تارة مع الله، وأخرى مقبل على ما لابد منه، وإن كان معه الله وإلى هذا إشارة بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (فصلت: ٦)، يعني يرفع الحجاب عني وقت الوحي ثم أعود إليكم كأني منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور(٤).

---

(١) وانظر: تفسير اللباب لابن عادل: في تفسير هذه الآية.

(٢) زاد المسير (٦/ ٣٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٥٠).

(٤) تفسير الرازي (٢٥/ ١٨٩).

سادسًا: هو أن النبي ﷺ كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته؛ حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركًا للأفضل؛ فكان له في كل ساعة تقوى متجددة فقوله: ﴿اتق الله﴾ على هذا أمر بما ليس فيه وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: " من استوى يوماه فهو مغبون " ولأنه طلب من ربه بأمر الله إياه به زيادة العلم حيث قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، وأيضًا إلى هذا وقعت الإشارة بقوله ﷺ: "إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة"[1][2].

سابعًا: والآية لا تدل على عدم تقواه، ومن قال ذلك، فهذا كله كذب لأن النهي عن الشيء لا يدل على وقوعه بل يدل على أنه ممنوع منه لئلا يقع فيما بعد كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فهذا لا يدل على أنه كان يطيعهم.

وكذلك قوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فإنه ﷺ لم يكن مشركًا قط، لا سيما بعد النبوة، فالأمة متفقة على أنه معصوم من الشرك بعد النبوة، وقد نهى عن ذلك بعد النبوة ونظائره كثيرة فقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ ﴾ لا يدل على أن الصديق كان قد حزن لكن من الممكن في العقل أنه يحزن فقد ينهى عن ذلك لئلا يفعله[3].

ثامنًا: أن هذا خطاب للتحذير والإنذار، والتحذير ليس معناه أن المخاطب وقع في المحذور.

تاسعًا: أن هذا الخطاب أدب من الله ﷻ له ﷺ، وتهديد لغيره[4].

الوجه الثالث: النبي ﷺ أتقى الناس لربه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾(الأحزاب: ٣٩).

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ؛ أَمَرَهُمْ مِنْ الْأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الله قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

(١) مسلم (٢٧٠٢).

(٢) تفسير الرازي (٢٥/ ١٩٠).

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٨/ ٤٥٧).

(٤) البغوي (٤/ ٦٥).

تَأَخَّرَ؟ فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ: " إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِالله أَنَا "(١).

وعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ ﵁ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ أَيُقَبِّلُ الصَّائِمُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: " سَلْ هَذِهِ لِأُمِّ سَلَمَةَ، فَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَصْنَعُ ذَلِكَ، فَقَالَ يَا رَسولَ الله قَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: أَمَا وَالله إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ للهَّ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ(٢).

وعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﵁ قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهَّ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي(٣).

وقال ابن حجر: فِيهِ إِشَارَة إِلَى رَدّ مَا بَنَوْا عَلَيْهِ أَمْرَهُمْ مِنْ أَنَّ الْمَغْفُور لَهُ لَا يَحْتَاج إِلَى مَزِيد فِي الْعِبَادَة بِخِلَافِ غَيْره؛ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ مَعَ كَوْنه يُبَالِغ فِي التَّشْدِيد فِي الْعِبَادَة أَخْشَى للهَّ وَأَتْقَى مِنْ الَّذِينَ يُشَدِّدُونَ وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشَدِّد لَا يَأْمَن مِنْ الْمَلَل بِخِلَافِ الْمُقْتَصِد فَإِنَّهُ أَمْكَنَ لِاسْتِمْرَارِهِ وَخَيْر الْعَمَل مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبه(٤).

الوجه الرابع: النبي ﷺ لا يحابي أحدًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٢).

قال السعدي: أي: لا تطرد عنك، وعن مجالستك، أهل العبادة والإخلاص، رغبة في

---

(١) البخاري (٢٠).

(٢) مسلم (١١٠٨).

(٣) البخاري (٥٠٦٣).

(٤) فتح الباري (٩/ ٧).

مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة، في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل مستحقون لموالاتهم ومحبتهم، وإدنائهم، وتقريبهم، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، والأعزاء في الحقيقة وإن كانوا عند الناس أذلاء، وكلٌّ له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقد امتثل ﷺ هذا الأمر، أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبَّر نفسَه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه ﷺ[(١)].

ولهذه الآية سبب نزول، فعن الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعْدٍ رضي الله عنه قال: فِيَّ نَزَلَتْ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾، قَالَ: نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا لَهُ تُدْنِي هَؤُلَاءِ[(٢)].

وفي رواية: قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسولِ الله ﷺ: مَا شَاءَ الله أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[(٣)].

فهكذا، نهى الله سبحانه وتعالى نبيه أن يحابي أحدًا من الكافرين أو المسلمين، فكيف تقولون أن النبي ﷺ يرضي قومه؛ لأن الله نهاه عن طاعة الكافرين أو المنافقين؟ هذا من السفه في الفهم، وهذا كان دأب النبي ﷺ مع الكافرين والمسلمين، فكان لا يخشى في الله لومة لائم.

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ

(١) تفسير السعدي (٢٥٧).

(٢) مسلم (٢٤١٣).

(٣) مسلم (٢٤١٣).

فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ الله ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ؛ وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا(١).

فانظر لحكمه ﷺ مع حلمه ورأفته، إلا أن هذا طالما أنه حد من حدود الله فلا شفاعة لأحد فيه.

وعن عروة قال: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فِي شَرِيجٍ مِنْ الْحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلْ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ الله أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسْ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ ثُمَّ أَرْسِلْ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ، وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الْأَنْصَارِيُّ كَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾(٢).

قال النووي: فيه الغضب عند انتهاك حرمات الشرع، وإن كان المنتهك متأولًا تأويلًا باطلًا(٣).

وفيه أن النبي لم يجامل هذا الأنصاري، بل لما أخطأ واتهم نبي الله بالظلم عاقبه.

* * *

---

(١) البخاري (٣٤٧٥-٦٧٨٨)، مسلم (١٦٨٨).

(٢) البخاري (٤٥٨٥)، مسلم (٢٣٥٧).

(٣) شرح النووي (٨/ ١١٨).

٣٠ـ شبهة: إعراض النبي ﷺ عن ضعفاء المسلمين، وإقباله على أصحاب الجاه.

نص الشبهة:

جاء في سورة عبس﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ (عبس ١٠ : ١).

والسؤال: كيف يراعي محمد أصحاب الجاه ويرفض الفقير والمسكين ويقطب وجهه للأعمى؟ أين هو من المسيح ﷺ الذي لما جاءه الأعمى أحاطه بعطفه ورعايته وأعاد إليه بصره؟

والجواب على هذه الشبهة من عدة وجوه:

الوجه الأول: سبب نزول الآيات.

الوجه الثاني: بيان العلة والسبب الذي شغل النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه.

الوجه الثالث: حرص النبي ﷺ على دعوة الكبار والرؤساء للإسلام.

الوجه الرابع: أن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ ألا يطرد الضعفاء والمساكين، وأن يصبر نفسه معهم، ولا تعدوا عيناه إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا.

الوجه الخامس: بيان أخلاق النبي ﷺ.

الوجه السادس: ليس في نزول الآيات ذنب.

الوجه السابع: المسيح ﷺ في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: سبب نزول الآيات.

أجمع المفسرون على أن هذه الآيات نزلت في عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وذلك أن رسول الله ﷺ كان يوما يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طَمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم -وكان ممن أسلم قديمًا- فجعل يسأل رسول ﷺ عن شيء ويلح عليه، وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل؛ طمعًا ورغبةً في هدايته. وعَبَس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل

اللهﷻ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه. ﴿ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ ﴾ أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ ﴾ أي: أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي، ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾؟ أي: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة.

﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴾ أي: يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له، ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أي: تتشاغل. ومن هاهنا أمر الله ﷻ رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحدًا، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدي من يشاء[(١)].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: أُنْزِلَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ يَا رَسُولَ الله أَرْشِدْنِي وَعِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا؟ فَيَقُولُ لَا، فَفِي هَذَا أُنْزِلَت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾[(٢)].

الوجه الثاني: بيان العلة والسبب الذي شغل النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه.

ليس في القصة ما يفيد احتقاره ﷺ لعبدالله بن أم مكتوم، فإنه لم يعرض عن ابن أم مكتوم قصدًا لإساءته ولا استصغارًا لشأنه، وإنما فعل ذلك حرصًا منه على أن يتفرغ لما هو فيه من دعوة أولئك الأشراف وتهالكًا على إيمانهم، لأنه كان يرجو أن يسلم بإسلامهم خلق كثير ويطمع في ذيوع أمره إذا انضم هؤلاء إليه وكفوا عن مناضلته والكيد له، وكان النبي ﷺ إذن يبتغي بعمله التقرب إلى ربه ﷻ كان جادًا في نشر الدعوة مستغرقًا فيما رآه

---

(١) تفسير ابن كثير (١٤/ ٢٤٦)، فتح القدير للشوكاني (٥/ ٥٤٤)، تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٣١)، موطأ مالك (٥١٩)، موارد الظمآن لابن حبان (١٧٦٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه فقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة، قال الذهبي: وهو الصواب، وقال الألباني-رحمه الله- إسناده صحيح. الصحيحة (٢٦٥١).

أنفع لها وأجدى عليها، وأقرب شئ إلى الطبيعة البشرية في هذه الحالة أن يعبس الإنسان إذا صرفه عما هو بصدده كما فعل ابن أم مكتوم، ولكن ذلك كان على خلاف مراده تعالى فعاتبه عليه ونبهه إليه وبين له أن الصواب في ألا يعرض عن راغب في المعرفة مهما قل شأنه، وألا يتصدى لمعرض عن الهداية وإن كان عظيمًا، لأن مهمته التبليغ وما عليه من شئ في كفر الناس أو إيمانهم، وكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرم عبدالله بن أم مكتوم، فعن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف فأعرض عنه، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، قال: فكان بعد ذلك يكرمه[1].

الوجه الثالث: حرص النبي ﷺ على دعوة الكبار والرؤساء للإسلام.

لقد حرص النبي ﷺ أشد الحرص على دعوة الكبار والزعماء والقادة والرؤساء إلى دين الله عز وجل في إجابتهم للإسلام، ودخولهم فيه نصر لدين الله، فكان النبي ﷺ شديد الحزن على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ (الكهف: ٧)، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ (الشعراء: ٣)، وقال أيضًا: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ (فاطر: ٨)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ (النحل: ١٢٧).

قال ابن كثير: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾، يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ (فاطر: ٨)، وقال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ (النحل:

---

(١) الحافظ في الفتح (٢/ ١١٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١٤/ ٢٤٧)، والدر المنثور (٨/ ٤١٧)، وقال الشيخ مصطفى العدوي-حفظه الله-: ولكن بالجملة فالحديث يصح لأمور منها أن سياق الآيات يؤيده، والثاني أن الإجماع قد نقله غير واحد على أنها نزلت في ابن أم مكتوم، ومن الذين نقلوا الإجماع على ذلك القرطبي (في تفسيره)، والشوكاني (فتح القدير)، صديق حسن خان (فتح البيان)، عطية سالم (تتمة أضواء البيان)... (التسهيل لتأويل التنزيل جزء عم١/ ٨٢) للشيخ مصطفى العدوي.

١٢٧)، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣). باخع: أي مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفًا، قال قتادة: قَاتِل نَفْسَكَ غضبًا وحزنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعًا. والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات[1].

قال السعدي: ولما كان النبي ﷺ حريصًا على هداية الخلق، ساعيا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾، وقال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾، وهنا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ أي: مهلكها، غمًا وأسفًا عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله[2].

ومن الكبار الذين حرص النبي ﷺ على دعوتهم للإسلام عمه أبو طالب، فعن سَعِيد بْن الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ الله بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله فَقَالَ ﷺ: أَمَا وَالله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٩).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٧٠).

﴿لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ (التوبة: ١١٣)، وأَنْزَلَ الله تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص: ٥٦)"[١].

وبلغ أيضًا من حرص النبي ﷺ على دعوة الملوك والرؤساء بأن قام ببعث الكتب والرسائل إليهم، ففي أواخر السنة السادسة من الهجرة حين رجع النبي ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام[٢].

فعن أَنَسِ بن مالك رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله تَعَالَى وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ[٣].

واختار من أصحابه رسلًا لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، فقرأ النجاشي ووضعه بين عينيه، ونزل عن السرير وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب[٤].

وثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ بعث دحية الكلبي بكتاب إلى هرقل يدعوه فيه للإسلام، فكتب فيه "بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾"[٥].

(١) البخاري (٣٨٨٤)، مسلم (٣٩)، واللفظ لمسلم.

(٢) وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري (١/ ٢١٧).

(٣) مسلم (١٧٧٤).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٦٨٨)، وإنك لعلى خلق عظيم (١/ ٢١٧).

(٥) البخاري (٢٩٤٠)، مسلم (١٧٧٣).

وكتب إلى غيرهم من الملوك والرؤساء يدعوهم إلى دين الله ﷻ مما يدل دلالة واضحة على حرص النبي ﷺ على دعوة الرؤساء للإسلام لأن بإسلامهم يدخل الناس في دين الله أفواجًا، وتتم النعمة عليهم بذلك[١].

الوجه الرابع: أن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ ألا يطرد الضعفاء والمساكين، وأن يصبر نفسه معهم، ولا تعدوا عيناه إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا.

قال الله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنعام: ٥٢)، وفي آية أخرى قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف: ٢٨)، بعد ما عاتب الله نبيه بشأن ابن أم مكتوم، نهاه في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ...﴾ عن طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وفي الآية الأخرى (واصبر نفسك) يأمره أن يصبر نفسه معهم، وأن لا تعدو عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا، ونهاه عن إطاعة الكفرة في ذلك ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٢].

وعَنْ سَعْدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ الله ﷺ مَا شَاءَ الله أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[٣].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٦٠٥)، تاريخ الطبري (٢/ ١٢٨)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٤٥٨).
(٢) أضواء البيان (٢/ ١٧١).
(٣) مسلم (٢٤١٣).

وعن خباب بن الأرت ﷺقال: فينا نزلت، كنا ضعفاء عند النبي ﷺ بالغداة والعشي، فعلمنا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنة والنار وما ينفعنا والموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فقالا: إنا من أشراف قومنا وإنا نكره أن يرونا معهم فاطردهم إذا جالسناك، قال: نعم، قالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتابًا، فأتى بأديم ودواة، فنزلت هذه الآيات ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾[1].

الوجه الخامس: بيان بعض أخلاق النبي[2].

إن النبي ﷺ أرسله رب العالمين رحمة للناس ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأدبه ربه بأحسن الأخلاق، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، والنبي ﷺ كان رحمة بالصغير والكبير والشيخ والشباب والضعيف والقوي والمرأة والأطفال والصحيح والمريض والسقيم، ولم يكن فظًا ولا غليظًا وكان حريصًا على المؤمنين رؤوفًا بهم ورحيمًا بأمته ﷺ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾، قَالَ فِي التَّوْرَاةِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا)[3].

---

(١) سنن ابن ماجه (٤١٢٧) بإسناد صحيح.

(٢) راجع تفصيل هذه المسألة في شبهة (محمد ﷺ يطرد الضعفاء).

(٣) البخاري (٤٨٣٨).

فتبين من هذا شأنه وهذه مكانته وهذه أخلاقه، كيف يوصف بالقسوة والإعراض عن الضعفاء والفقراء والمساكين؟! ، وقال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو حِينَ قَدِمَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْكُوفَةِ فَذَكَرَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَقَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا"[1].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ الله فَيَنْتَقِمَ لله عز وجل[2].

وقد امتلأت نفس الرسول الكريم بالرحمة، وأوصى أتباعه بأن يكونوا رحماء كما وصفهم القرآن ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الفتح: ٢٩)، ومن وقائع السيرة النبوية أن ثقيفًا آذت رسول الله ﷺ عندما ذهب إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام حتى رشقوه بالحجارة وأدموا قدميه، وخيره الله أن يعاقبهم فيطبق عليهم الجبال، فقال ﷺ "بل أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا"[3].

وعن أَنس رضي الله عنه قَالَ: خَدَمْتُ رسول الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قط وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صنعته لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس

(١) مسلم (٢٣٢١).

(٢) مسلم ٢٣٢٨).

(٣) البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).

خلقًا، وَلَا مَسِسْتُ خَزَّةً وَلَا حَرِيرَةً ولا شيئًا كان أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ الله ﷺ وَلَا شَمِمْتُ مِسْكَةً قط وَلَاعطرًا كان أَطْيَبَ من عرق النبيﷺ(١).

وقال ابن القيم: جمع النبي بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو إلى محبته(٢).

وهكذا تتجلى أخلاق النبي ﷺ في الرحمة والسماحة والرأفة ومقابلة السيئة بالحسنة، إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. (٣)

ومعنى هذا أنه ﷺ قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن، ولا يترك إلا مانهاه عنه القرآن، فصار امتثال أمر ربه خلقًا له وسجية ﷺ إلى يوم الدين، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩)، فكانت أخلاقه ﷺ أشرف الأخلاق وأكرمها وأبرها وأعظمها(٤).

الوجه السادس: نزول الآيات ليس فيها إتيان ذنب لرسول الله ﷺ.

مع صحة سبب نزول الآيات، فليس فيها إتيان ذنب لرسول اللهﷺ، بل الآيات إعلام من الله تعالى لرسوله بأن ذلك المتصدي له ممن لا يتزكى وأن الصواب والأولى كان لو كشف له حيال الرجلين لاختار الإقبال على الأعمى، لأنه﴿ جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ والإعراض عن الكافر وتوهين أمره لأنه استغنى عن الإسلام بكفره ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾، أي: ليس عليك بأس في ألا يتزكى بالإسلام، والمراد: لايبلغن بك الحرص على إسلامهم أت تعرض عمن أسلم بالاشتغال بدعوتهم، إن عليك إلا البلاغ.

(١) البخاري (٣٥٦١)، مسلم (٢٣٣٠).

(٢) الفوائد (١/ ٥٤).

(٣) مسلم (٧٤٦).

(٤) الفصول في سيرة الرسول لابن كثير (١٩٦).

وبالجملة ففي هذه القصة ما يشعر بأن اجتهاد رسول الله ﷺ في دعوة الكافر كان غير متمش مع طبيعة الهداية الإلهية التي عليه أن يعرضها على الناس دون أن يبخع نفسه حرصًا على إيمانهم، فجاءت الآية الكريمة تصحح هذا الاجتهاد وتبين الطريق للدعاة إلى الله تعالى الذين يرثون دعوة رسول الله ﷺ وتبليغ رسالته ونهجه في إيصالها إلى جميع الناس، وإن كان ثم عتاب فهو على أمر اجتهادي وقع على خلاف الأولى، لا على ذنب(١).

الوجه السابع: وصف المسيح عليه السلام (يسوع) في الكتاب المقدس.

جاء في متى (١٥/ ٢٦: ٢١): ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنْ هُنَاكَ وَانْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ. ٢٢ وَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ التُّخُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً: «ارْحَمْنِي، يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! اِبْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدًّا». ٢٣ فَلَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «اصْرِفْهَا، لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!» ٢٤ فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». ٢٥ فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً: «يَا سَيِّدُ، أَعِنِّي!» ٢٦ فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ».

ونجد يسوع عندهم أيضًا يسب ويلعن، وليس يعبس فقط كما في (متى١٢/ ٣٤): يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي! كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا بِالصَّالِحَاتِ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ؟ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْب يَتكَلَّمُ الْفَمُ.

ويريد أن يحرق الأرض وما عليها: جِئْتُ لأُلْقِيَ عَلَى الأَرْضِ نَارًا، فَلَكَمْ أَوَدُّ أَنْ تَكُونَ قَدِ اشْتَعَلَتْ؟ (لوقا ١٢ / ٤٩).

فكيف يصدر هذا التعبير القاسي جدًّا من إله المحبة المزعوم؟ ، وكيف يخرج منه هذا السب واللعن بالرغم من أنه جاء ليفديكم من ذنوبكم؟. والله إن عيسى بريء من هذا

* * *

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ د. عماد سيد محمد إسماعيل الشربيني (١٠٧، ١٠٥). وراجع مبحث "عصمة الأنبياء" بهذه الموسوعة.

٣١ـ شبهة: قضاء النبي ﷺ بين الزبير بن العوام رضي الله عنه والأنصاري.

نص الشبهة:

الرد على ما يقدح في عصمة النبي ﷺ من كونه قضى بين الزبير بن العوام رضي الله عنه والأنصاري في سقي النخل (وهو غضبان)، وكونه نهى عن الحكم حالة الغضب مع نهيه في الحديث"لا يقضينَّ حكَم بين اثنين وهو غضبان".

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: غضب رسول الله ﷺ ليس كغضب غيره.

الوجه الثاني: حديث الزبير وفيه سبب نزول الآية ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٥) وشرح الحديث، وبيان عصمة النبي ﷺ.

الوجه الثالث: حديث النهى عن الحكم حالة الغضب، وسبب النهي.

الوجه الرابع: التوفيق بين الحديثين، وأقوال العلماء.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: غضب رسول الله ﷺ ليس كغضب غيره.

قال النووي: وفيه جواز الفتوى والحكم في حال الغضب وأنه نافذ لكن يكره ذلك في حقنا ولا يكره في حق النبيﷺ، لأنه لا يخاف عليه في الغضب ما يخاف علينا والله أعلم. [١]

وقال ابن القيم: ولا يصح القياس على النبي ﷺ فإنه معصوم في غضبه ورضاه، فكان إذا غضب لم يقل إلا حقًا كما كان في رضاه كذلك. [٢]

وقال ابن بطال: فإن قيل: فقد قضى النبي ﷺ وهو غضبان، قيل: إنما فعل ذلك لأنه لم يخش التجاوز والميل في حكمه؛ لأنه معصوم بخلاف غيره من البشر. [٣]

فالنبي ﷺ معصوم من الخطأ فلا يقال إنه داخل في النهي مع سائر المكلفين لأن حاله

(١) شرح مسلم ١٢/ ٢٤.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٦٦.

(٣) شرح ابن بطال ٨/ ٢٢.

لا تقاس بحال غيره وقد جاء في حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا فَأَمْسَكْتُ عَنْ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ: "اكْتُبْ فوالذي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلا حَقٌّ". (١)

فالنبي ﷺ بين أن كل ما يصدر منه ﷺ حق، وأنه إن حصل منه شيء في حال الغضب فهو حق، ولا يصدر منه إلا حق ﷺ، سواء في حال الرضا أو في حال الغضب.

وقال البغوي: وفي الحديث أنه ﷺ حكم على الأنصاري في حال غضبه مع نهيه الحاكم أن يحكم وهو غضبان، وذلك لأنه كان معصوما من أن يقول في السخط والرضا إلا حقًا. (٢)

الوجه الثاني: حديث الزبير وفيه سبب نزول الآية﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾؟ ، **ومعنى الآية، وشرح الحديث وبيان عصمة النبي ﷺ.**

أولًا: الحديث وسبب نزول الآية:

عن عروة عن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما- أنه حدثه:

أن رجلًا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الأنصاري سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير "اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك". فغضب الأنصاري فقال أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: " اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر ". فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾. (٣)

ثانيًا: معنى الآية :دلَّت الآيةُ على أنَّ الأنْبِيَاء-عليهم السَّلام-معصُومُون عن الخطأ في الفَتْوَى وفِي الأحْكَام؛ لأنه -تعَالَى- أوْجَبَ الانْقِيَاد لحُكْمِهِم، وبالغ في ذَلِك الإيجَابِ،

---

(١) رواه أحمد ٢/ ١٦٢، وأبو داود (٣١٦١)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٢).

(٢) شرح السنة ٨/ ٢٨٦.

(٣) رواه البخاري (٢٢٣١)، مسلم (١٨٢٩).

وبيَّن أنه لا بُدَّ من حُصُولِ الانْقِيَاد في الظَّاهِرِ والقَلْبِ، وذلك يَنْفِي صُدُورَ الخَطَإِ عَنْهُم.[١]

وقال محمد رشيد رضا: أَقْسَمَ تَعَالَى بِأَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ رَغِبُوا عَنِ التَّحَاكُمِ إِلَيْهِ ﷺ وَأَمْثَالَهُمْ، وَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ الْإِيمَانَ زَعْمًا كَمَا تَقَدَّمَ لَا يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا صَحِيحًا حَقِيقِيًّا ـ وَهُوَ إِيمَانُ الْإِذْعَانِ النَّفْسِيِّ ـ إِلَّا بِثَلَاثٍ:

الْأُولَى: أَنْ يُحَكِّمُوا الرَّسُولَ ﷺ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، أَيْ: فِي الْقَضَايَا الَّتِي يَخْتَصِمُونَ فِيهَا وَيَشْتَجِرُونَ فَلَمْ يَتَبَيَّنِ الْحَقُّ فِيهَا لَهُمْ، أَوْ لَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ كُلٌّ مِنْهُمْ، بَلْ يَذْهَبُ كُلٌّ مَذْهَبًا فِيهِ، فَمَعْنَى شَجَرَ: اخْتَلَفَ وَاخْتَلَطَ الْأَمْرُ فِيهِ،. . . وَتَحْكِيمُهُ تَفْوِيضُ أَمْرِ الْحُكْمِ إِلَيْهِ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ الْحَرَجُ: الضِّيقُ، وَالْقَضَاءُ: الْحُكْمُ، وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ مِنَ الْإِفْرِنْجِ أَنَّ لَفْظَ الْقَضَاءِ لَمْ يَكُنْ مُسْتَعْمَلًا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِ بِمَعْنَى الْحُكْمِ، وَهَذَا مِنْ دَعَاوِيهِمُ الَّتِي يَتَجَرَّءُونَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِقْصَاءٍ وَلَا عِلْمٍ، وَالْمَعْنَى: ثُمَّ تُذْعِنُ نُفُوسُهُمْ لِقَضَائِكَ وَحُكْمِكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِيهَا ضِيقٌ وَلَا امْتِعَاضٌ مِنْ قَبُولِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ أَنْ يَسْبِقَ إِلَيْهَا الْأَلَمُ وَالْحَرَجُ إِذَا خَسِرَتْ مَا كَانَتْ تَرْجُو مِنَ الْفَوْزِ، وَالْحُكْمِ لَهَا بِالْحَقِّ الْمُخْتَصَمِ فِيهِ، عَفَا اللهُ تَعَالَى عَنِ الْحَرَجِ يُفَاجِئُ النَّفْسَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى وَجَعَلَ هَذَا الشَّرْطَ عَلَى التَّرَاخِي فَعَطَفَهُ بِـ ثُمَّ وَالْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ الْإِيمَانِ يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ لِحُكْمِ الرَّسُولِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَأَنَّ الْخَيْرَ لَهُ فِيهِ، وَالسَّعَادَةَ فِي الْإِذْعَانِ لَهُ، فَإِذَا كَانَ فِي إِيمَانِهِ ضَعْفٌ مَا ضَاقَ صَدْرُهُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، ثُمَّ يَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ بِالذِّكْرَى وَيَنْحَى عَلَيْهَا بِاللَّوْمِ حَتَّى تَخْشَعَ وَتَنْشَرِحَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَإِيثَارِ الْحَقِّ الَّذِي حَكَمَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى الْهَوَى.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا التَّسْلِيمُ هُنَا: الِانْقِيَادُ بِالْفِعْلِ، وَمَا كُلُّ مَنْ يَعْتَقِدُ حَقِّيَّةَ الْحُكْمِ وَلَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ ضِيقًا مِنْهُ يَنْقَادُ لَهُ بِالْفِعْلِ وَيُنَفِّذُهُ طَوْعًا، وَإِنْ لَمْ يَخْشَ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ مُؤَاخَذَةً فِي الدُّنْيَا.

(١) تفسير الرازي ٥/ ٢٦٩.

وَاسْتَدَلُّوا بِالْآيَةِ عَلَى عِصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْخَطَأِ فِي الْحُكْمِ وَغَيْرِهِ. . . ولاَشَكَّ فِي عِصْمَتِهِ ﷺ فِي الْحُكْمِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ بِحَسَبِ صُورَةِ الدَّعْوَى وَظَاهِرِهَا لَا بِحَسَبِ الْوَاقِعِ فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ فِي شَرِيعَتِهِ عَلَى الظَّاهِرِ، وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ(١).

ثالثا: شرح الحديث وبيان عصمة النبي ﷺ.

قال ابن العربي: وَكُلُّ مَنْ اتَّهَمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ كَافِرٌ، لَكِنَّ الْأَنْصَارِيَّ زَلَّ زَلَّةً فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺوَأَقَالَ عَثْرَتَهُ لِعِلْمِهِ بِصِحَّةِ يَقِينِهِ وَأَنَّهَا كَانَتْ فَلْتَةً، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَكُلُّ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ الْحَاكِمِ بَعْدَهُ فَهُوَ عَاصٍ آثِمٌ(٢).

وقال ابن حجر: وفي هذا الحديث: أن من سبق إلى شيء من مياه الأودية والسيول التي لا تملك فهو أحق به لكن ليس له إذا استغنى أن يحبس الماء عن الذي يليه وفيه أن للحاكم أن يشير بالصلح بين الخصمين ويأمر به ويرشد إليه ولا يلزمه به إلا إذا رضي وأن الحاكم يستوفي لصاحب الحق حقه إذا لم يتراضيا وأن يحكم بالحق لمن توجه له ولو لم يسأله صاحب الحق وفيه الاكتفاء من المخاصم بما يفهم عنه مقصوده من غير مبالغة في التنصيص على الدعوى ولا تحديد المدعى ولا حصره بجميع صفاته وفيه توبيخ من جفا على الحاكم ومعاقبته ويمكن أن يستدل به على أن للأمام أن يعفو عن التعزير المتعلق به لكن محل ذلك ما لم يؤد إلى هتك حرمة الشرع.

وإنما لم يعاقب النبي ﷺ صاحب القصة لما كان عليه من تأليف الناس كما قال في حق كثير من المنافقين لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.

قال القرطبي: فلو صدر مثل هذا من أحد في حق النبي ﷺ أو في حق شريعته لقُتل قتلة زنديق ونقل النووي نحوه عن العلماء والله أعلم.(٣)

الوجه الثالث: حديث النهى عن الحكم حالة الغضب وشرحه، وفيه سبب النهي.

---

(١) تفسير المنار٥/ ١٩١ ومابعدها.

(٢) أحكام القرآن ٢/ ٤٠٧.

(٣) فتح الباري٥/ ٤٠.

أولًا: الحديث: كتب أبو بكرة إلى ابنه وكان بسجستان بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان فإني سمعت النبي ﷺ يقول: "لا يقضينَّ حكَم بين اثنين وهو غضبان"(١).

ثانيًا: معنى الحديث:

فيه النهي عن القضاء في حال الغضب قال العلماء ويلتحق بالغضب كل حال يخرج الحاكم فيها عن سداد النظر واستقامة الحال كالشبع المفرط والجوع المقلق والهم والفرح البالغ ومدافعة الحدث وتعلق القلب بأمر ونحو ذلك وكل هذه الأحوال يكره له القضاء فيها خوفًا من الغلط(٢).

وكأن الحكمة في الاقتصار على ذكر الغضب لاستيلائه على النفس وصعوبة مقاومته بخلاف غيره. . . فإنه لما نهى عن الحكم حالة الغضب فهم منه أن الحكم لا يكون إلا في حالة استقامة الفكر فكانت علة النهي المعنى المشترك وهو تغير الفكر والوصف بالغضب يسمى علة بمعنى انه مشتمل عليه فالحق به ما في معناه كالجائع قال الشافعي في الأم أكره للحاكم أن يحكم وهو جائع أو تعب أو مشغول القلب فإن ذلك يغير القلب.

وسبب النهي: أن الحكم حالة الغضب قد يتجاوز بالحاكم إلى غير الحق فمنع وبذلك قال فقهاء الأمصار وقال بن دقيق العيد فيه النهي عن الحكم حالة الغضب لما يحصل بسببه من التغير الذي يختل به النظر فلا يحصل استيفاء الحكم على الوجه قال وعداه الفقهاء بهذا المعنى إلى كل ما يحصل به تغير الفكر كالجوع والعطش المفرطين وغلبة النعاس وسائر ما يتعلق به القلب تعلقا يشغله عن استيفاء النظر وهو قياس مظنة على مظنة. (٣)

قَالَ الشَّافِعِيُّ ﷺ: وَمَعْقُولٌ فِي قَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ "لَا يَحْكُمُ الْحَاكِمُ وَلَا يَقْضِي الْقَاضِيَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ " أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْقَاضِي حِينَ يَحْكُمُ فِي حَالٍ لَا يَتَغَيَّرُ فِيهَا خُلُقُهُ وَلَا عَقْلُهُ؛ وَالْحَاكِمُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ فَأَيُّ حَالٍ أَتَتْ عَلَيْهِ تَغَيَّرَ فِيهَا عَقْلُهُ أَوْ خُلُقُهُ انْبَغَى لَهُ أَنْ لَا

(١) البخاري (٦٧٣٩)، ومسلم (١٧١٧).

(٢) شرح مسلم للنووي١٢/ ١٥.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري١٣/ ١٣٧بتصرف.

يَقْضِيَ حَتَّى يَذْهَبَ وَأَيُّ حَالٍ صَارَ إِلَيْهِ فِيهَا سُكُونُ الطَّبِيعَةِ وَاجْتِمَاعُ الْعَقْلِ حَكَمَ وَإِنْ غَيَّرَهُ مَرَضٌ أَوْ حُزْنٌ أَوْ فَرَحٌ أَوْ جُوعٌ أَوْ نُعَاسٌ أَوْ مَلَالَةٌ تَرَكَ ".

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَهَذَا صَحِيحٌ يَنْبَغِي لِلْقَاضِي أَنْ يَعْتَمِدَ بِنَظَرِهِ، الْوَقْتَ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ سَاكِنَ النَّفْسِ مُعْتَدِلَ الْأَحْوَالِ لِيَقْدِرَ عَلَى الِاجْتِهَادِ فِي النَّوَازِلِ وَيَحْتَرِسَ مِنَ الزَّلَلِ فِي الْأَحْكَامِ، فَإِنْ تَغَيَّرَتْ حَالُهُ بِغَضَبٍ أَوْ حَرْدٍ تَغَيَّرَ فِيهَا عَقْلُهُ وَخُلُقُهُ تَوَقَّفَ عَنِ الْحُكْمِ احْتِرَازًا مِنَ الزَّلَلِ. [١]

الوجه الرابع: التوفيق بين الحديثين، وأقوال العلماء.

قال ابن عبد البر: ومعنى هذا الحديث أن رسول الله ﷺ كان قد أشار على الزبير بما فيه السعة للأنصاري فلما كان منه ما كان من الجفاء استوعب للزبير حقه في صريح الحكم[٢].

وقد شرع الطحاوي: بعد ذكر الحديثين فى التوفيق بينهما فقال: فَكَانَ جَوَابُنَا له في ذلك أَنَّ الذي رَوَيْنَاهُ عن أبي بَكْرَةَ عن رسول الله ﷺ على غَيْرِهِ من الْحُكَّامِ لِلْخَوْفِ عليهم فِيمَا يَنْقُلُهُمْ إلَيْهِ الْغَضَبُ من الْعَدْلِ في الْحُكْمِ إلَى خِلاَفِهِ وَالَّذِي في حديث الزُّبَيْرِ فَمُخَالِفٌ لِذَلِكَ لأَنَّهُ في رسول الله ﷺ، وَرَسُولُ الله ﷺ في تَوَلِّي الله تَعَالَى إيَّاهُ وَعِصْمَتِهِ له وَحِفْظِهِ عليه أُمُورَهُ بِخِلاَفِ الناس في مِثْلِ ذلك فَانْطَلَقَ ذلك لِرَسُولِ الله ﷺ فَاسْتَعْمَلَهُ ولم يَنْطَلِقْ ذلك لِغَيْرِهِ فَنَهَاهُ رسول الله ﷺ عنه كما حدثه أبو بَكْرَةَ عنه وَالله أَعْلَمُ. [٣]

وقال القاري: فإن قلت هل هذا النهي نهي تحريم أو كراهة؟ قلت: نهي تحريم عند أهل الظاهر وحمله العلماء على الكراهة حتى لو حكم في حال غضبه بالحق نفذ حكمه وهو مذهب الجمهور فإن قلت قد صح عنه أنه قد حكم في حالة غضبه كحكمه للزبير في شراج الحرة حين قال له الأنصاري أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ وقال" اسق يا زبير". . . الحديث، وفي الصحيح أيضا في قصة عبد الله بن عمر حين طلق امرأته

---

(١) الحاوي الكبير١٦/ ٦١.

(٢) التمهيد ١٧/ ٤٠٨.

(٣) شرح مشكل الآثار ٢/ ٩٣.

وهي حائض فذكره عمر ﷺ لرسول الله فتغيظ رسول الله، قلت: أجابوا عنه بأجوبة أحسنها: أنه كان معصومًا فلا يتطرق إليه احتمال ما يخشى من غيره في الحكم وغيره(١).

وقال الشوكاني: ولا يخفى أنه لا يصح إلحاق غيره ﷺ به في مثل ذلك لأنه معصوم عن الحكم بالباطل في رضائه وغضبه بخلاف غيره فلا عصمة تمنعه عن الخطأ ولهذا ذهب بعض الحنابلة إلى أنه لا ينفذ الحكم في حالة الغضب لثبوت النهي عنه والنهي يقتضي الفساد وفصل بعضهم بين أن يكون الغضب طرأ عليه بعد أن استبان له الحكم فلا يؤثر وإلا فهو محل الخلاف(٢).

ونقل الحافظ ابن حجر عن الخطابي قوله: معناه أمره بالعادة المعروفة التي جرت بينهم في مقدار الشرب(٣). ثم قال ابن حجر: يحتمل أن يكون المراد أمره بالقصد والأمر الوسط مراعاة للجوار ويدل عليه رواية شعيب المذكورة ومثلها لمعمر في التفسير وهو ظاهر في أنه أمره أولا أن يسامح ببعض حقه على سبيل الصلح وبهذا ترجم البخاري في الصلح إذا أشار الإمام بالمصلحة فلما لم يرض الأنصاري بذلك استقصى الحكم وحكم به.

وحكى الخطابي أن فيه دليلًا على جواز فسخ الحاكم حكمه، قال: لأنه كان له في الأصل أن يحكم بأي الأمرين شاء فقدم الأسهل إيثارًا لحسن الجوار فلما جهل الخصم موضع حقه رجع عن حكمة الأول وحكم بالثاني ليكون ذلك أبلغ في زجره وتعقب بأنه لم يثبت الحكم أولا كما تقدم بيانه قال وقيل بل الحكم كان ما أمر به أولا فلما لم يقبل الخصم ذلك عاقبه بما حكم عليه به ثانيا على ما بدر منه وكان ذلك لما كانت العقوبة بالأموال.

وقد وافق ابن الصباغ من الشافعية على هذا الأخير وفيه نظر وسياق طرق الحديث يأبى ذلك كما ترى لا سيما قوله واستوعى للزبير حقه في صريح الحكم وهي رواية شعيب في الصلح ومعمر في التفسير فمجموع الطرق دال على أنه أمر الزبير أولًا أن يترك بعض

(١) عمدة القاري ٢٤/ ٢٣٤.

(٢) نيل الأوطار ٩/ ١٤٢.

(٣) انظر: معالم السنن ٤/ ١٦٨.

حقه وثانيًا أن يستوفي جميع حقه قوله[١].

وقال أيضًا: لو خالف فحكم في حال الغضب صح أن صادف الحق مع الكراهة هذا قول الجمهور وقد تقدم أنه ﷺ قضى للزبير بشراج الحرة بعد أن أغضبه خصم الزبير لكن لا حجة فيه لرفع الكراهة عن غيره لعصمته ﷺ فلا يقول في الغضب إلا كما يقول في الرضا.

وقال ابن المنير: أدخل البخاري حديث أبي بكرة الدال على المنع ثم حديث أبي مسعود الدال على الجواز تنبيهًا منه على طريق الجمع بأن يجعل الجواز خاصًا بالنبي ﷺ لوجود العصمة في حقه والأمن من التعدي أو إن غضبه إنما كان للحق فمن كان في مثل حاله جاز وإلا منع وهو كما قيل في شهادة العدو إن كانت دنيوية رُدت وان كانت دينية لم تُرد قاله ابن دقيق العيد وغيره[٢].

وقال القرطبي: فقه الحديث: أنه ﷺ سلك مع الزبير وخصمه مسلك الصلح فقال: اسق يا زبير لقربه من الماء ثم أرسل الماء إلى جارك أي تساهل في حقك ولا تستوفه وعجل في إرسال الماء إلى جارك، فحضه على المسامحة والتيسير فلما سمع الأنصاري هذا لم يرض بذلك غضب لأنه كان يريد ألا يمسك الماء أصلا وعند ذلك نطق بالكلمة الجائرة المهلكة الفاقرة فقال آن كان ابن عمتك بمد همزة أن المفتوحة على جهة الإنكار أي أتحكم له علي لأجل أنه قرابتك فعند ذلك تلون وجه النبي ﷺ غضبًا عليه وحكم للزبير باستيفاء حقه من غير مسامحة له، وعليه لا يقال: كيف حكم في حال غضبه وقد قال: "لا يقضى الحكم بين اثنين وهو غضبان"؟ فإنا نقول: لأنه معصوم من الخطأ في التبليغ والأحكام بدليل العقل الدال على صدقة فيما يبلغه عن الله تعالى فليس مثل غيره من الحكام.

وفي هذا الحديث إرشاد الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم وإن ظهر الحق ومنعه مالك واختلف فيه قول الشافعي وهذا الحديث حجة واضحة على الجواز فإن اصطلحوا وإلا

---

(١) فتح الباري ٥/ ٣٩.

(٢) فتح الباري ١٣/ ١٣٨.

استوفى لذي الحق حقه وثبت الحكم[(١)].

وقال القاضي عياض: فالجواب: أن النبي ﷺ منزه أن يقع بنفس مسلم منه في هذه القصة أمر يريب ولكنه ﷺندب الزبير أولا إلى الاقتصار على بعض حقه على طريق التوسط والصلح فلما لم يرض بذلك الآخر ولج وقال ما لا يجب استوفى النبي ﷺ للزبير حقه ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث: (باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى) حكم عليه بالحكم: وذكر في آخر الحديث: فاستوفى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقه.

وقد جعل المسلمون هذا الحديث أصلاً في قضيته، وفيه الاقتداء به ﷺ في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه وأنه وإن نهى أن يقضي القاضي وهو غضبان فإنه في حكمه في حال الغضب والرضا سواء لكونه فيها معصومًا، وغضب النبي ﷺ في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه.[(٢)]

وقد نقل القاضي عياض إجماع العلماء على أنه لا يجوز عليه ﷺ خلف في القول في إبلاغ الشريعة والإعلام بما أخبر به عن ربه وما أوحاه إليه من وحيه لا على وجه العمد ولا على غير عمد ولا في حالي الرضا والسخط والصحة والمرض.[(٣)]

وقال الصنعاني: النهي ظاهر في التحريم وحمله الجمهور على الكراهة. . . وصرح النووي بالكراهة في ذلك وإنما حملوه على الكراهة نظرًا إلى العلة المستنبطة لذلك وهي أنه لما رتب النهي على الغضب، والغضب بنفسه لا مناسبة فيه لمنع الحكم وإنما ذلك لما هو مظنة لحصوله وهو تشويش الفكر ومشغلة القلب عن استيفاء ما يجب من النظر وحصول هذا قد يفضي إلى الخطأ عن الصواب ولكنه غير مطرد مع كل غضب ومع كل إنسان فإن أفضى الغضب إلى عدم تمييز الحق من الباطل فلا كلام في تحريمه، وإن لم يفض إلى هذا الحد فأقل أحواله الكراهة وظاهر الحديث أنه لا فرق بين مراتب الغضب ولا بين أسبابه وخصه البغوي وإمام الحرمين بما إذا كان الغضب لغير الله وعلل بأن الغضب لله يؤمن

---

(١) تفسير القرطبي ٥/ ٢٥٥.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٩٧.

(٣) المرجع السابق٢/ ١٠٩.

معه من التعدي بخلاف الغضب للنفس واستبعده جماعة لمخالفته لظاهر الحديث والمعنى الذي لأجله نهي عن الحكم معه ثم لا يخفى أن الظاهر في النهي التحريم وأن جعل العلة المستنبطة صارفة إلى الكراهة بعيد.

وأما حكمه ﷺ مع غضبه في قصة الزبير فلما علم من أن عصمته مانعة عن إخراج الغضب له عن الحق عند الظاهر؛ (أيضًا عدم نفوذ الحكم مع الغضب إذ النهي يقتضي الفساد) والتفرقة بين النهي للذات والنهي للوصف كما يقوله الجمهور غير واضح.[١]

الآثار الصحية السيئة للغضب على البدن:

إن الانفعالات الشديدة والضغوط التي يتعرض لها الإنسان كالخوف والغضب يحرض الغدة النخامية على إفراز هرمونها المحرض لإفراز كل من الإدرينالين والنور أدرينالين من قبل الغدة الكظرية، كما تقوم الأعصاب الودية على إفراز النور أدرينالين.

إن ارتفاع هرمون النور أدرينالين في الدم يؤدي إلى تسارع دقات القلب، وهذا ما يشعر به الإنسان حين الإنفعال والذي يجهد القلب وينذر باختلاطات سيئة. فهو يعمل على رفع الضغط الدموي بتقبيضه للشرايين والأوردة الصغيرة، كما أن الارتفاع المفاجئ للضغط قد يسبب لصاحبه نزفًا دماغيًا صاعقًا يؤدي إلى إصابة الغضبان بالفالج، وقد يصاب بالجلطة القلبية أو الموت المفاجئ، وقد يؤثر على أوعية العين الدموية فيسبب له العمى المفاجيء.

فالانفعالات النفسية تولد اضطرابًا هرمونيًا خطيرًا في الغدد الصماوية يؤدي إلى تأرجح في التوازن الهرموني بصورة دائمة،. . . ولا شك أن نبي الرحمة ﷺ قد عرف بنور الوحي خطورة هذه الانفعالات النفسية على مستقبل المجتمع الإنساني قبل أن يكتشف الطب آثارها، ودعا بحكمة إلى ضبط انفعالاتهم ـ قدر المستطاع ـ [لا تغضب] محاولًا أن يأخذ بأيديهم إلى جادة الصواب ـ رحمة بهم ـ وحفاظًا على صحة أبدانهم من المرض والتلف.[٢]

* * *

---

(١) سبل السلام ٤/ ١٢٠.

(٢) الهدي النبوي في كراهة الغضب د/ محمد نزار الدقر، نقلًا عن موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتصرف.

٣٢ـ اتهام النبي ﷺ بالوحشية في القتل كما فعل مع أم قرفة والعرنيين.

نص الشبهة:

ادعاؤهم على النبي ﷺ أنه كان يعامل عدوه معاملة وحشية، من قتلٍ وهتك، كما فعل بأم قرفة والعرنيين لما مَثَّلَ بهم وقتلهم شر قتلة.

والجواب عن هذه الشبهة في مبحثين:

المبحث الأول: الرد الإجمالي من وجوه.

الوجه الأول: بيان رحمة النبي ﷺ وحسن خلقه.

الوجه الثاني: نهي النبي ﷺ عن قتل النساء والصبيان حتى في القتال مع الأعداء.

الوجه الثالث: تحريم الإسلام للمثلة.

الوجه الرابع: بيان حول معاملة الرسول ﷺ للأسرى.

المبحث الثاني: الرد التفصيلي

أولًا: الرد على شبهة قتل أم قرفة

والرد عليه من وجوه

الوجه الأول: بيان ضعف قصة قتل أم قرفة.

الوجه الثاني: بيان ما ورد في الصحيح لما يخالف هذه القصة.

الوجه الثالث: على فرض صحة هذه القصة فلماذا قُتِلَت أم قرفة؟

ثانيًا: الرد على شبهة قصة العرنيين.

والرد عليه من وجوه

الوجه الأول: بيان معنى الحديث.

الوجه الثاني: هذا الحديث أصل في عقوبة المحاربين.

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ فعل بهم ذلك الأمر قصاصًا.

الوجه الرابع: أنه منسوخ وكان هذا قبل نزول الحدود وآية المحاربة والنهي عن المثلة.

وإليك التفصيل

المبحث الأول: الرد الإجمالي

الوجه الأول: بيان رحمة النبي ﷺ وحسن خلقه.

هذه الشبهة البغيضة إنما تطعن في جانب رحمته بالخلق عامة؛ وبأعدائه خاصة؛ وإنني إذا أردت الحديث عن رحمته ﷺ لا تكفيني هذه الوريقات؛ وإنما هي إشارات وأمارات أدلل بها على سعة رحمته بكل العوالم في الكون الفسيح؛ وصدق ربي إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وإنني إذا أردتُّ الحديث عن أخلاق النبي ﷺ، أرى كأنني أقف أمام بحر لا ساحل له، ينتابني ما ينتاب فقيرًا خيّم الجوع على أحشائه؛ وقد دُعي إلى مأدبة ملك، لا يدري من أين يبدأ! ! ولعلي أبدأ بحاله ﷺ في معاملة الحيوان (البهائم التي لا تعقل)، ثم أعرج على بيان حال معاملته مع أعدائه؛ لأدلل بالأولى على الثانية؛ لاسيما إذا كان هؤلاء الأعداء ممن يدخلون تحت قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء: ٧٠) فهم داخلون في عموم التكريم دون خصوصه! فعجبًا لأهل الكفر الذين يطعنون في دين الإسلام، بدعوى أنه انتهك حقوق الإنسان، أما قرأ أولئك عن حال النبي ﷺ مع الحيوان؛ لتستبين لهم حرمة الإنسان في دين الإسلام؟! فها هو النبي ﷺ ينهى عن اتخاذ شيء فيه الروحُ غرضًا يُرمى؛ أفينهى عن ذلك في الحيوان؛ ويرضاه في الإنسان؛﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾.

فقد مَرَّ عبد الله بْنُ عُمَرَ ﵄ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ الله مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا.[1]

الله أكبر أيلعن فاعل ذلك في طير؛ ويأمر به في امرأة تربط بين جملين وتفسخ نصفين! بل نهى ﷺ أن يحولَ أحدٌ بين حيوانٍ أو طيرٍ وبين ولده، ونهى عن حرق كل ذي روح.

---

(١) مسلم (١٩٥٨).

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فرَأَيْنا حُمَرَةً[١] مَعَهَا فَرْخَانِ، فأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتْ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ[٢]، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: " مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا ". وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ: " مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟ " قُلْنَا: نَحْنُ. قَالَ: " إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ ". [٣]

بل أبان ﷺ لنا أنّ الإحسان إلى البهيمة من موجبات المغفرة.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " بينا رجل بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له "، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا؟ فقال: " في كل ذات كبد رطبة أجر"[٤].

بل الأعجب من ذلك هذه القصة:

والتي رواها لنا أبو هريرة ﷺقال: قال رَسُولُ الله ﷺ: "بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ. [٥] قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، أذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ"[٦].

فيوضح حبيبنا ﷺ أنّ الإساءة إلى البهائم، ربما أودت بالعبد إلى النار والعياذ بالله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: "دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا"[٧].

---

(١) طائر صغير كالعصفور.

(٢) تبسط جناحيها وتبحث عن ولدها.

(٣) أبو داود (١٠٧٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥).

(٤) البخاري (٢٤٦٦)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٥) بئر. النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٦٣٤.

(٦) البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٧) البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (١٥١).

وأمر ﷺ الإحسان إلى البهيمة حال ذبحها، وأثنى على من فعل ذلك.

عنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: " إِنَّ الله كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ ". (١)

فهل هذه الرحمة المهداة والنعمة المسداه؛ يظن بها لحظة؛ أنها تغتال أو تمثل أو تمزق امرأة بهذه الحال التي وصفت؛ كلا وألف كلا.

الوجه الثاني: نهى النبي ﷺ عن قتل النساء والصبيان حتى في القتال مع الأعداء.

فقد كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: " اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، ولَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا "(٢).

ووجد امرأةً مقتولة في بعض المغازي فَأَنْكَرَ رَسُولُ الله ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ الله ﷺ، فَنَهَى رَسُولُ الله عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ. (٣)

وعن الْمُرَقَّعِ بْنِ صَيْفِيٍّ، عَنْ جَدِّهِ رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ، أَخِي حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ؛ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، وَعَلَى مُقَدِّمَتِهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَمَرَّ رَبَاحٌ، وَأَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ، مِمَّا أَصَابَتِ الْمُقَدِّمَةُ، فوَقَفُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، ويَتَعَجَّبُونَ مِنْ خَلْقِهَا، حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فانْفَرَجُوا عَنْهَا، فوَقَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ، فقَالَ: " مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ، فقَالَ لأَحَدِهِمْ: الْحَقْ خَالِدًا، فَقُلْ لَهُ: لاَ تَقْتُلُونَ ذُرِّيَّةً- امرأة-، وَلاَ عَسِيفًا ". (١)

---

(١) مسلم (٥٧).

(٢) مسلم (١٧٣١).

(٣) البخاري (٥١٠٣)، ومسلم (١٧٤٤).

الوجه الثالث: تحريم الإسلام للمثلة.

فقد كانت وصية النبي ﷺ للجند في الحرب بالنهي عن المثلة، وكان يقول: " اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، ولَا تَمْثُلُوا". (٢)

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَقَالَ: " سِيرُوا بِاسْمِ اللهِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ". (٣)

قال ابن عبد البر: أجمع العلماء على القول بهذا الحديث، ولم يختلفوا في شيء منه، فلا يجوز عندهم الغلول، ولا الغدر، ولا المثلة، ولا قتل الأطفال في دار الحرب. (٤)

عن عَبْدَ اللهِ بْنَ يَزِيدَ الأَنْصَارِي قَالَ: نَهَى النبي ﷺ عَنِ النُّهْبَي وَالْمُثْلَةِ. (٥)

الوجه الرابع: بيان حول معاملة الرسول ﷺ للأسرى.

فكيف كان رسول الله ﷺ يُعامل الأسرى في حال الاحتفاظ بهم؟

لقد كانت القاعدة العامة التي حَثَّ عليها الرسول ﷺفي أوّل غزوة غنم فيها المسلمون أسرى هي: استوصُوا بهم – أي بالأسرى – خيرًا؛ لكن المهم في الأمر أن هذه المعاملة الحسنة التي أمر بها رسول الله ﷺ للأسرى لم تكن مجرّد قوانين نظرية، ليس لها تطبيق في واقع الحياة؛ ولكنَّها تمثّلت في مجموعة من المظاهر التي تنبئ عن قلوب ملأتها الرحمة، وعن مشاعر فاضت بالعطف والحنان، وسوف نتناول – إن شاء الله – هذه

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٨، والنَّسائي في الكبرى (٨٥٧٢)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، وابن حبان في صحيحه (٤٧٩١) من طريق أَبِي الزِّنَاد.
وأخرجه أبو داود (٢٦٦٩)، والنَّسائي في الكبرى (٨٥٧١) من طريق عُمَر بن المُرَقَّع. كلاهما (أبو الزِّنَاد، وعُمَر بن المُرَقَّع) عن المُرَقَّع بن صَيْفِي به. وحسنه الألباني في الإرواء ٥/ ٣٥.
(٢) مسلم (١٧٣١).
(٣) حسن. أخرجه أحمد ٤/ ٢٤٠، وابن ماجه (٢٨٥٧)، والنَّسائي في الكبرى (٨٧٨٦) عن أَبِي روق عطية بن الحارث الهَمداني، حدثني أبو الغَريف عُبيد الله بن خَليفة، عن صفوان به، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٠٦).
(٤) التمهيد ٢٤/ ٢٣٣.
(٥) البخاري (٢٤٧٤).

المظاهر من خلال المطالب الآتية: [١]

المطلب الأول: إطعام الأسرى

قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان: ٨) في هذه الآية الكريمة يحث الله تعالى عباده المؤمنين على الإحسان إلى أسراهم وإطعامهم، ويعِدُهم بذلك النعيمَ في الآخرة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر رسول الله ﷺ أصحابه يوم بدر أن يُكرموا الأُسَارى، فكانوا يُقَدِّمُونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة[٢].

ففيه دليل على أن إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حسن ويرجى ثوابه[٣].

ويعلق ابن جريج على نفس الآية فيقول: لم يكن الأسير على عهد رسول الله ﷺ إلا من المشركين.

قال أبو عبيد: فأرى أن الله قد أثنى على من أحسن إلى أسير المشركين، ولم يكن الصحابة رضي الله عنهم يقدمون للأسرى ما بقي من طعامهم بل كانوا ينتقون لهم أجود ما لديهم من طعام، ويجعلونهم يأكلونه عملًا بوصية رسول الله ﷺ بهم، وها هو أبو عزيز[٤] - شقيق مصعب بن عمير رضي الله عنه- يحكي ما حدث يقول: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خَصَّوْني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها؛ فأستحي فأردّها فيردّها عَلَيَّ ما يمسّها! قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث؛ أي أنّه لم يكن شخصية عادية، بل كان من أشدّ المشركين على المسلمين، فلا يحمل اللواء إلا شجعان القوم وسادتهم؛ ولكن هذا لم يغير من الأمر شيئًا؛ لأن

---

(١) مقال بعنوان تعامل رسول الله ﷺ مع الأسرى في حال الاحتفاظ بهم د/ راغب السرجاني مع شيء من التصرف.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٨٨).

(٣) تفسير الألوسي ٢٢/ ٧.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٧٧)، وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ١١٥: إسناده حسن من حديث أبي عزيز بن عمير.

الرحمة بالأسير أصل من أصول التعامل لا يجوز التخلي عنه تحت أي ظرف.

المطلب الثاني: كسوة الأسرى

لم يقتصر المسلمون على إطعام أسراهم من المشركين؛ بل إنهم كانوا يُقدّمون لهم الملابس أيضًا، وهذا ثابت في الصحيح، فقد جعل البخاري – رحمه الله – بابًا في الصحيح سمّاه: باب الكسوة للأُسارى، وذكر فيه أن جابر بن عبد الله قال: (لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، أُتِيَ بِأُسَارَى، وَأُتِيَ بِالْعَبَّاسِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْه فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ. . .). [١]

المطلب الثالث: توفير المأوى لهم حتى يتمّ النظر في شأن الأسرى

كان المسلمون يجعلونهم في أحد مكانين، إما المسجد وهو أشرف مكان عند المسلمين، وإما بيوت الصحابةﷺ، وكان المستهدف من إبقاء الأسرى في المسجد أن يَرَوْا أخلاق المسلمين وعبادتهم لعلهم يتأثّرون بها، فيدخل الإيمان في قلوبهم، وقد حدث هذا بالفعل مع بعضهم كثمامة بن أثال ﷺ. [٢]

وأما إبقاء الأسرى في منازل الصحابةﷺ فكان هذا إكرامًا كبيرًا من المسلمين لهؤلاء الأسرى.

المطلب الرابع: عدم التعرّض لهم بالأذى.

الفطرة السليمة تأبى التعذيب للنفوس البشريّة، بل إنها لا ترضى بتعذيب الحيوان أو الطير، وقد ربَّى الرسول ﷺ صحابته الكرام ﷺ على الرحمة.

فعن جرير بن عبد الله ﷺ أن رسول الله قال: " مَنْ لَا يَرْحَمْ النَّاسَ لَا يَرْحَمْهُ الله ﷻ. [٣]

فكان الصحابة ﷺ نماذج عملية في الرحمة ببني البشر جميعًا مسلمين وغير مسلمين، وقد ذُكِر قبل ذلك إنكار الرسول ﷺ ضرب غلامي قريش في أحداث بدر وقوله ﷺ: " إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا وَالله إِنَّهُمَا لِقُرَيْش. . "[٤]، مع أن

(١) البخاري (٣٠٠٨).

(٢) البخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤).

(٣) البخاري (٦٠١٣)، ومسلم (٢٣١٩).

(٤) الثقات لابن حبان ١/ ١٦٠.

هذين الغلامين اللذين ضُرِبَا من الجيش المعادي - جيش المشركين - ويمدَّان الجيش بالماء، بل إن شريعة الإسلام تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث تمنع تعذيب الأسير للإدلاء بمعلومات عن العدو، وقد قيل للإمام مالك: أَيُعذَّبُ الأسيرُ إن رُجِيَ أن يدلّ على عورة العدو؟ قال: ما سمعت بذلك. (١)

المطلب الخامس: الرفق بهم واللين معهم.

من أخلاق الإسلام أيضًا في التعامل مع الأسرى الرفقُ ولين الجانب، حتى يشعروا بالأمن والطمأنينة، وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنّه كان يردُّ على استفسارات الأسرى، ولا يسأم أو يَمَلُّ من أسئلتهم، مما يُوحِي بسعة صدره، وعمق رحمته ﷺ التي شملت البشر جميعًا. .

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كَانَتْ ثَقِيفُ حُلَفَاءَ لِبَنِى عُقَيْلٍ، فَأَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ، وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعَضْبَاءَ، فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: " مَا شَأْنُكَ؟ " فَقَالَ: بِمَ أَخَذْتَنِي وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ: " إِعْظَامًا لِذَلِكَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ "ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: " مَا شَأْنُكَ؟ " قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ. قَالَ: " لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ " ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: " مَا شَأْنُكَ؟ " قَالَ: إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي وَظَمْآنُ فاسقني، قَالَ: "هَذِهِ حَاجَتُكَ"(٢).

فهذا التردد على الرجل كلما نادي عليه ﷺ- وهو القائد الأول للدولة الإسلامية - ومناداته باسمه ﷺ مجرّدًا يدلّ على مدى الرحمة والإنسانية التي يحملها الرسول ﷺ في قلبه لكل البشر، وأعطى رسولُ الله ﷺ لأبي الهيثم بن التيّهان أسيرًا، وأمره بالإحسان إليه، فأخذه

(١) محمد بن يوسف المواق: التاج والإكليل: ٣/ ٣٥٣.

(٢) مسلم (١٦٤١).

أبو الهيثم إلى منزله، ثم قال: إن رسول الله ﷺ أوصاني بك خيرًا، فأنت حُرٌّ لوجه الله. (١)

المطلب السادس: احترام مشاعرهم الإنسانية

إن الإسلام يرفع من قيمة البشر، ويحترم المشاعر الإنسانية احترامًا كبيرًا، سواء مع المسلمين أو مع غيرهم، وقد وجدنا تطبيقات عمليّة كثيرة لهذا الأمر في حياة النبيّ ﷺ، ويظهر هذا الأمر بوضوح في أوقات الشدائد، وبعد الحروب خاصّة، فنجد النبي ﷺ يوجِّه أصحابه الكرام توجيهات إنسانية راقية في شأن التعامل مع الأسرى من النساء والأطفال؛ فينهى عن التفريق بين الأم وطفلها؛ فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: "مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "(٢).

المبحث الثاني: الرد التفصيلي.

والرد على شبهة قتل أم قرفة

الوجه الأول: بيان ضعف قصة قتل أم قرفة. (٣)

أولًا: ما حُكي أنها قتلت على عهد النبي ﷺ

الرواية الأولى:

قالت عائشة ﵂: بلغ رسول الله ﷺ أن امرأة من بني فزارة يقال لها أم قرفة، قد جهزت ثلاثين راكبًا من ولدها وولد ولدها قالت: اقدموا المدينة فاقتلوا محمدًا، فقال النبي ﷺ: "اللهم أثكلها بولدها". وبعث إليهم زيد بن حارثة فالتقوا بالوادي، وقتل أصحاب

---

(١) الحاكم في المستدرك ٤/ ١٤٥، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٤٦٠٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي (١٥٦٦)، والطبراني في الكبير (٤٠٨٠)، والحاكم ٢/ ٦٣، وأحمد ٥/ ٤١٢ من طرق عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن أبي أيوب الأنصاري به. وحسنه الألباني في المشكاة (٣٣١٦).

(٣) أم قرفة اثنتان.

الأولى: أم قرفة الكبرى بكسر القاف وسكون الراء بعدها فاء، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر زوج مالك بن حذيفة ابن بدر عم عيينة بن حصن بن حذيفة وكانت معظمة فيهم فيقال: هي التي قتلت على عهد النبي ﷺ. فتح الباري ٧/ ٤٩٩، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٩٠، عمدة القاري ١٧/ ٢٦١، الاستذكار ٥/ ٢٥.

الثانية: أم قرفة الصغرى سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر الفزارية، هي بنت عم عيينة بن حصن، كانت تشبه في العز بجدتها أم قرفة الكبرى، وكانت قد سبيت أيام أم قرفة فوقعت لعائشة فأعتقتها، فكانت تكون عندها ثم رجعت إلى قومها ارتدت وقتلت في حروب الردة. تاريخ الطبري ٢/ ٢٦٦، الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٧٠٨.

زيد فارتث جريحًا، وقدم المدينة، فعاهد الله أن لا يمس رأسه ماء حتى يرجع إليهم، فبعث معه رسول الله ﷺ بعثًا، فالتقوا فقتل بني فزارة، وقتل ولد أم قرفة، وقتل أم قرفة، وبعث بدرعها إلى رسول الله ﷺ فنصبه بين رمحين، وأقبل زيد حتى قدم المدينة، قالت عائشة رضي الله عنها: ورسول الله ﷺ تلك الليلة في بيتي، فقرع الباب، فخرج إليه يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله رسول الله ﷺ. (١)

الرواية الثانية:

عن عبد الله بن أبي بكر قال: بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى وادي القرى، فلقي به بني فزارة، فأصيب به أناس من أصحابه، وارتُثَّ زيد من بين القتلى، وأصيب فيها، ورد بن

---

(١) **حديث منكر**. جاء من طريقين عن الزهري.

الأول: أخرجه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٤٢٧، وأبو نعيم في الدلائل ٤٤٣ من حديث محمد بن أيوب.

وأخرجه المحاملي في آماليه (١٥٧)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٩/ ٣٦٤، والذهبي في سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٨ من حديث عبد الله بن شبيب.

وأخرجه الترمذي في سننه (٢٧٣٢)، ومن طريقه البغوي في شرح السنة (٣٣٢٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٩/ ٣٦٥ من حديث محمد بن إسماعيل.

وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٩/ ٣٦٥ من حديث محمد بن يحيى.

كلهم عن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عباد، عن يحيى بن محمد، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة عن عائشة. وإسناده ضعيف جدًّا فيه أكثر من علة.

١- عنعنة محمد بن إسحاق وهو مدلس.

٢- يحيى بن محمد بن عباد: ضعيف. انظر الضعفاء للعقيلي ٤/ ٤٢٧، الكاشف ٢/ ٣٧٥ تهذيب التهذيب ١١/ ٢٣٩، التقريب ٢/ ٦٦٦

٣- إبراهيم بن يحيى بن محمد: ضعيف، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ١٤٧، الكاشف ١/ ٩٦، تهذيب التهذيب ١/ ١٥٤، التقريب ١/ ٣٥.

الثاني: أخرجه الواقدي في مغازيه (١/ ٥٦٤)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق١٩/ ٣٦٠، ٣٦٥ من حديث ابن أخي الزهري، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة به.

فيه الواقدي وهو متروك، وأنكر هذا الحديث أهل العلم.

قال الذهبي: هذا حديث منكر. ميزان الاعتدال ٤/ ٤٠٧. وذكر ابن سيد الناس عن بعضهم أنه خبر منكر. عيون الأثر ٣/ ١٨١. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥١٦).

عمرو أحد بني سعد بني هذيم، أصابه أحد بني بدر؛ فلما قدم زيد نذر ألا يمس رأسه غسل من جنابة؛ حتى يغزو فزارة، فلما استبل من جراحه بعثه رسول الله ﷺ في جيش إلى بني فزارة، فلقيهم بوادي القرى، فأصاب فيهم، وقتل قيس بن المسحر اليعمري مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر، وأسر أم قرفة – وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر وكانت عند مالك بن حذيفة بن بدر، فأمر زيد بن حارثة أن يقتل أم قرفة؛ فقتلها قتلًا عنيفًا، ربط برجليها حبلين ثم ربطهما إلى بعيرين حتى شقاها، ثم قدموا على رسول الله ﷺ بابنة أم قرفة وبعبد الله بن مسعدة؛ وكانت ابنة أم قرفة لسلمة بن عمرو بن الأكوع، كان هو الذي أصابها، وكانت في بيت شرف من قومها، كانت العرب تقول: لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت، فسألها رسول الله ﷺ فوهبها له، فأهداها لخاله حزن بن أبي وهب؛ فولدت له عبد الرحمن بن حزن. (١)

ثانيًا: ما حُكي أنها قتلت على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

الرواية الأولى: عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي: أن امرأة يقال لها أم قرفة كفرت بعد إسلامها فاستتابها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلم تتب فقتلها. (٢)

الرواية الثانية: عن يزيد بن أبي مالك الدمشقي: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قتل امرأة يقال لها أم قرفة في الردة. (١)

---

(١) **باطل**. أخرجه الطبري في تاريخه ٢/ ١٢٧ قال حدثنا محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكر. به.

قلت وهذا إسناده واه فيه علل.

١- عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم من الطبقة الخامسة فالأثر معضل.

٢- ومحمد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن.

٣- ومحمد بن حميد الرازي: ضعيف الحديث واتهمه البعض بالكذب. تهذيب الكمال ٢٥/ ٩٨.

(٢) ضعيف. أخرجه أبو عبيد في الأموال (٤١٨)، والدارقطني في سننه (١١٠)، وابن شاهين في الناسخ والمنسوخ ١/ ٤٢٣، والبيهقي في سننه ٨/ ٢٠٤. من طرق عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي به.

وإسناده ضعيف لأجل الانقطاع بين سعيد وأبي بكر. سعيد من الطبقة السابعة توفي سنة ١٧٦ هـ.

قال البيهقي- عنه والذي يأتي-: ضعفه في انقطاعه. السنن ٨/ ٢٠٤.

وأعله بالانقطاع الإمام الزيلعي في نصب الراية ٣/ ٤٥٥.

وهذه بعض الأمور التي تدل على ضعف هذه القصة

١- أنها تتنافى مع ما سبق بيانه من رحمة النبي ﷺ ومنعه لقتل النساء.

٢- أنها تتنافى مع نهي النبي ﷺ عن المثلة.

٣- أنها تتنافى مع ما كان النبي ﷺ يعامل به الأسرى.

٤- أنها تتنافي مع الأمر بحفظ العورات.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...﴾ (النور ٣٠-٣١).

وعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ قَالَ: " احْفَظْ عَوْرَتَكَ؛ إِلاَّ مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِذَا كَانَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ قَالَ: "إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ فَلاَ يَرَيَنَّهَا". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا قَالَ: "الله أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ". (٢)

وعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِى الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ"(٣).

وعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَ: أَقْبَلْتُ بِحَجَرٍ أَحْمِلُهُ ثَقِيلٍ وَعَلَيَّ إِزَارٌ خَفِيفٌ - قَالَ - فَانْحَلَّ إِزَارِي، ومعي الْحَجَرُ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَضَعَهُ؛ حَتَّى بَلَغْتُ بِهِ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "ارْجِعْ إِلَى ثَوْبِكَ فَخُذْهُ وَلاَ تَمْشُوا عُرَاةً"(١).

---

(١) ضعيف. أخرجه البيهقي في سننه ٨/ ٢٠٤. من طريق خالد بن يزيد، عن يزيد بن أبي مالك به. وإسناده ضعيف. لأجل الانقطاع بين يزيد وأبي بكر فهو صدوق ربما أخطأ توفي سنة ١٣٠ هـ وهو ابن ٧٢ سنة، فعلى هذا يكون ولد سنة ٥٨ هـ. خالد بن يزيد: ضعيف، التقريب١/ ١٥٤.

(٢) حسن. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١٠٦)، وأحمد ٥/ ٣، وأبو داود في سننه (٤٠١٧)، والترمذي في سننه (٢٧٦٩، ٢٧٩٤)، والنسائي في الكبرى (٨٩٧٢)، وابن ماجه (١٩٢٠) وغيرهم من طرق عن بَهْزِ ابْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ. وحسنه الألباني في آداب الزفاف (١٨)، والإرواء (١٨١٠).

(٣) مسلم (٣٣٨).

الاضطراب في معرفة من قتلها.

لقد اضطربت الروايات والأخبار في معرفة من الذي قتل أم قرفة، هل هو قيس بن المحسر، أو زيد بن حارثة، أو ورد بن قتادة؟!

فقد ذُكر أن الذي قتلها هو قيس بن المحسر. (٢)

وذكر أن الذي قتلها هو زيد بن حارثة. (٣)

وذكر أن الذي قتلها ورد بن قتادة. (٤)

فهذا مما يدل على اضطرابها.

الوجه الثاني: بيان ما ورد في الصحيح لما يخالف هذه القصة.

عن سلمة بن الأكوع قَالَ: غَزَوْنَا فَزَارَةَ وَعَلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ، أَمَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَلَمَّا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَاءِ سَاعَةٌ، أَمَرَنَا أَبُو بَكْرٍ فَعَرَّسْنَا، ثُمَّ شَنَّ الْغَارَةَ، فَوَرَدَ الْمَاءَ فَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ عَلَيْهِ، وَسَبَى، وَأَنْظُرُ إِلَى عُنُقٍ مِنَ النَّاسِ فِيهِمُ الذَّرَارِي، فَخَشِيتُ أَنْ يَسْبِقُونِي إِلَى الْجَبَلِ، فَرَمَيْتُ بِسَهْمٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَبَلِ، فَلَمَّا رَأَوُا السَّهْمَ وَقَفُوا، فَجِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ، وَفِيهِمُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ عَلَيْهَا قِشْعٌ مِنْ أَدَمٍ - قَالَ الْقِشْعُ النِّطَعُ - مَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا مِنْ أَحْسَنِ الْعَرَبِ، فَسُقْتُهُمْ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِمْ أَبَا بَكْرٍ، فَنَفَّلَنِي أَبُو بَكْرٍ ابْنَتَهَا، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا، فَلَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي السُّوقِ فَقَالَ: "يَا سَلَمَةُ هَبْ لِي الْمَرْأَةَ". فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، واللهِ لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي، وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا، ثُمَّ لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْغَدِ فِي السُّوقِ فَقَالَ لِي: "يَا سَلَمَةُ هَبْ لِي الْمَرْأَةَ للهِ أَبُوكَ". فَقُلْتُ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَوَ اللهِ مَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا، فَبَعَثَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَفَدَى بِهَا نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا أُسِرُوا بِمَكَّةَ. (١)

---

(١) مسلم (٣٤١).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٩٠، المؤتلف والمختلف ٤/ ٩٠، الإكمال ٧/ ١٦٥، الاستيعاب ١/ ٤٠٢، أسد الغابة ١/ ٩٢٤، مغازي الواقدي ١/ ٥٦٤.

(٣) تاريخ خليفة ١/ ٩، أمالي المحاملي (١٥٧)، دلائل النبوة لأبي نعيم (٤٤٣)، الكامل في التاريخ ١/ ٣١٥، تاريخ الطبري ٢/ ١٢٧، تاريخ دمشق ١٩/ ٣٦٥، فتح الباري ٧/ ٤٩٨، الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٢٣١.

(٤) الإصابة ٦/ ٦٠٤.

الوجه الثالث: على فرض صحة هذه القصة، فلماذا قتلت أم قرفة؟

أولًا: سبب قتل أم قرفة على عهد النبي ﷺ

تذكر الروايات التي ذكرت فيها هذه القصة وكما يذكرها أهل السير أنها قتلت بسبب هذه الأمور:

١-أنها قد أعدت العدة لقتال النبي ﷺ فقد جهزت ثلاثين أو أربعين راكبًا لقتال الرسول ﷺ. (٢)

٢- بسبب سبها لرسول الله ﷺ. (٣)

ثانيًا: سبب قتل أم قرفة على عهد أبي بكر الصديق.

وذلك بسبب ردتها، أي: أنها كفرت بعد إسلامها. (٤)

ثانيًا: الرد على شبهة قصة العرنيين.

الوجه الأول: بيان معنى الحديث

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ أُنَاسٌ مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ، فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِي ﷺ بِلِقَاحٍ، وَأَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَانْطَلَقُوا، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِي ﷺ وَاسْتَاقُوا النَّعَمَ، فَجَاءَ الْخَبَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّهَارُ جيء بِهِمْ، فَأَمَرَ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ، وَأُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلاَ يُسْقَوْنَ. قَالَ أَبُو قِلاَبَةَ: فَهَؤُلاَءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ. (٥) وفي رواية: حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم. (٦)

وفي رواية: فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ ثم لم يحسمهم. (٧)

---

(١) مسلم (١٧٥٥).

(٢) الضعفاء للعقيلي ٤/ ٤٢٧، دلائل النبوة لأبي نعيم (٤٤٣)، تاريخ دمشق ١٩/ ٣٦٤، سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٨.

(٣) عيون الأثر لابن سيد الناس ٣/ ١٨١.

(٤) سنن الدارقطني ١١٠، سنن البيهقي ٨/ ٢٠٤، الأموال لأبي عبيد (٤١٨)، ناسخ الحديث ومنسوخه لابن شاهين (٥٥٨).

(٥) البخاري (٢٣٣)، مسلم (١٦٧١).

(٦) البخاري (٤١٩٢).

(٧) البخاري (٦٨٠٢).

وفي رواية: ثم أمر بمسامير فأحميت فكَحَلهم بها.[١]

وفي رواية: وتركهم بالحرة يعضون الحجارة.[٢] حتى ماتوا.[٣] على حالهم.[٤]

فرأيت الرجل منهم يَكدِم الأرض بلسانه حتى يموت.[٥]

وفي رواية: فهؤلاء سعوا في الأرض فسادًا.[٦] وخوَّفوا رسول الله ﷺ.[٧]

أولًا: بيان لمعاني مفردات الحديث

عُكْل: بضم المهملة وإسكان الكاف، قبيلة من تيم الرباب.

عُرَيْنَةَ: بالعين والراء المهملتين والنون مصغرًا، حي من قضاعة وحي من بجيلة والمراد هنا الثاني.

فَاجْتَوَوُا: قال ابن فارس: اجتويت البلد؛ إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة، وقيده الخطابي بما إذا تضرر بالإقامة، وهو المناسب لهذه القصة، وقال القزاز: اجتووا أي: لم يوافقهم طعامها.

وقال ابن العربي: الجوي داء يأخذ من الوباء، وقال غيره الجوي داء يصيب الجوف.

واللقاح: باللام المكسورة والقاف وآخره مهملة، النوق ذوات الألبان، وأحدها لقحة بكسر اللام وإسكان القاف، وقال أبو عمرو: يقال لها ذلك إلى ثلاثة أشهر ثم هي لبون.

وسمرت أعينهم: بتشديد الميم وفي رواية وسمر بتخفيف الميم، ووقع عند مسلم وسمل بالتخفيف واللام، قال الخطابي: السمل فقء العين بأي شيء كان، قال أبو ذؤيب الهذلي: والعين بعدهم كأن حداقها سملت بشوك فهي عور تدمع، قال: والسمر لغة في

---

(١) البخاري (٣٠١٨).

(٢) البخاري (١٥٠١).

(٣) البخاري (٣٠١٨)، مسلم (١٦٧١).

(٤) البخاري (٤١٩٢).

(٥) البخاري (٥٦٨٥).

(٦) البخاري (٣٠١٨).

(٧) البخاري (٤٦١٠).

السمل ومخرجهما متقارب قال وقد يكون من المسمار يريد أنهم كحلوا بأميال قد أحميت.

الحرة: أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة.(١)

ثانيًا: المعنى الإجمالي للحديث:

هؤلاء القوم قدموا على رسول الله ﷺ وكانوا ثمانية، سنة ٦ من الهجرة من قبيلة عكل وعرينة، وكان بهم سقم وهو الهزال الشديد والجهد من الجوع، فكانت ألوانهم مصفرة، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا وكانوا يسكنون المسجد مع أهل الصفة.

وقالوا: إن المدينة وخمة فهو من حمى المدينة وذلك لأنه قد وقع بالمدينة الموم: بضم الميم وسكون الواو: وهو البرسام بكسر الموحدة: سرياني معرب أطلق على اختلال العقل، وعلى ورم الرأس، وعلى ورم الصدر والمراد هنا الأخير.

فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يشربوا من اللبن فأمرهم الرسول ﷺ أن يلحقوا بالإبل ومعهم الراعي، وهذه الإبل كانت إبل الصدقة، ومعها إبل النبي ﷺ وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، وبالفعل خرجوا وشربوا من ألبانها وأبوالها، فصحوا وسمنوا ورجعت إليهم ألوانهم، ثم بعد ذلك كفروا نعمة الله عليهم، فكفروا بالله تعالى - أي ارتدوا - وقتلوا الراعي، ثم أخذوا الإبل، وفروا هاربين، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ في أول النهار، فبعث في آثارهم، وبالفعل جيء بهم إلى رسول الله ﷺ وهنا فعل النبي ﷺ بهم هذه الأمور، فقطع أيديهم وأرجلهم ولم يحسمهم؛ والحسم هو: الكي بالنار لقطع الدم، والمعنى: لم يكوِ ما قطع منهم بالنار لينقطع الدم بل تركهم ينزفون.

قال ابن بطال: إنما ترك حسمهم لأنه أراد إهلاكهم.

وسمَّر أعينهم أي: فقأ أعينهم وذلك بأنه أحمى مسامير فكحلهم بها وذلك بأن يدني من العين حديدة محماة حتى يذهب نظرها.

وجعلهم النبي ﷺ في أرض الحرة؛ لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيه ما فعلوا.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١/ ٤٠١: ٤٠٧، شرح صحيح مسلم ٦/ ١٧٠: ١٧٢.

تركهم النبي ﷺ على حالتهم هذه حتى ماتوا؛ وذلك لأنهم فعلوا أشياءً كما قال أبو قلابة رضي الله عنه: سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إسلامهم وحاربوا الله ورسوله، وسعوا في الأرض فسادًا وخوفوا رسول الله ﷺ.

وقال أنس: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء.

الوجه الثاني: هذا الحديث أصل في عقوبة المحاربين

قال النووي: هذا الحديث- حديث العرنيين- أصل في عقوبة المحاربين، وهو موافق لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (المائدة: ٣٣، ٣٤).

قال ابن حجر: قال ابن بطال: ذهب البخاري إلى أن آية المحاربة نزلت في أهل الكفر والردة، وساق حديث العرنيين وليس فيه تصريح بذلك، وممن قال ذلك: الحسن، وعطاء، والضحاك، والزهري، قال: وذهب جمهور الفقهاء إلى أنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يسعى في الأرض بالفساد، ويقطع الطريق، وهو قول مالك والشافعي والكوفيين، ثم قال: ليس هذا منافيًا للقول الأول؛ لأنها وإن نزلت في العرنيين بأعيانهم لكن لفظها عام يدخل في معناه كل من فعل مثل فعلهم من المحاربة والفساد.

قلت- ابن حجر-: بل هما متغايران والمرجع إلى تفسير المراد بالمحاربة فمن حملها على الكفر خص الآية بأهل الكفر ومن حملها على المعصية عمم، والمعتمد أن الآية نزلت أولًا: فيهم وهي تتناول بعمومها من حارب من المسلمين بقطع الطريق لكن عقوبة الفريقين مختلفة فإن كانوا كفارًا: يخير الإمام فيهم إذا ظفر بهم. وإن كانوا مسلمين فعلى قولين:

أحدهما: وهو قول الشافعي والكوفيين ينظر في الجناية فمن قَتل قُتل، ومن أخذ المال قُطع، ومن لم يقتل ولم يأخذ مالًا نفي. وجعلوا أو للتنويع.

وقال مالك: بل هي للتخيير فيتخير الإمام في المحارب المسلم بين الأمور الثلاثة ورجح الطبري الأول. واختلفوا في المراد بالنفي في الآية فقال مالك والشافعي: يخرج من بلد الجناية إلى بلدة أخرى، زاد مالك فيحبس فيها.

وعن أبي حنيفة بل يحبس في بلده. وتعقب بأن الاستمرار في البلد ولو كان مع الحبس إقامة فهو ضد النفي فإن حقيقة النفي الإخراج من البلد وقد قرنت مفارقة الوطن بالقتل قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ (النساء: ٦٦) وحجة أبي حنيفة أنه لا يؤمن منه استمرار المحاربة في البلدة الأخرى فانفصل عنه مالك بأنه يحبس بها، وقال الشافعي: يكفيه مفارقة الوطن والعشيرة خذلانًا وذلًا. [١]

واختلف العلماء في معنى حديث العرنيين وبيانه في الوجوه التالية:

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ فعل بهم ذلك الأمر قصاصًا.

ولذلك قال أنس رضي الله عنه: إِنَّمَا سَمَلَ النبي ﷺ أَعْيُنَ أُولَئِكَ لأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرِّعَاءِ. [٢]

فهؤلاء -كما قال أبو قلابة- قوم: سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله، وسعوا في الأرض فسادًا، وخوّفوا رسول الله ﷺ. [٣]

ورجحه ابن بطال، [٤] وابن الجوزي، [٥] والنووي. [٦]

الوجه الرابع: أنه منسوخ وكان هذا قبل نزول الحدود وآية المحاربة والنهي عن المثلة.

ورجحه كثير من العلماء منهم ابن دقيق العيد، [٧] والطحاوي، [١] وأبو عبيد ، [٢] وابن قتيبة. [٣]

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١٢/ ١٣٠: ١٢٩ باختصار، شرح صحيح مسلم ٦/ ١٧٠.

(٢) مسلم (١٦٧١).

(٣) البخاري (٢٣٣، ٣٠١٨، ٤٦١٠)، مسلم (١٦٧١).

(٤) شرح صحيح البخارى لابن بطال٨/ ٤٢٢.

(٥) فتح الباري١/ ٤٠٦.

(٦) شرح صحيح مسلم٦/ ١٧١.

(٧) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ١/ ٤٣٩.

قال ابن شاهين عقب حديث عمران بن حصين في النهي عن المثلة: هذا الحديث ناسخ لكل مثله كانت في الإسلام.[٤]

قال ابن حجر: يدل عليه ما رواه البخاري في الجهاد من حديث أبي هريرة في النهي عن التعذيب بالنار بعد الإذن فيه.[٥]

وقصة العرنيين قبل إسلام أبي هريرة وقد حضر الإذن ثم النهي.

وروى قتادة عن ابن سيرين أن قصتهم كانت قبل أن تنزل الحدود.

وإلى هذا مال البخاري، وحكاه إمام الحرمين في النهاية عن الشافعي.[٦]

* * *

(١) شرح مشكل الآثار١٢/ ٦٩.

(٢) غريب الحديث ١/ ١٧٥.

(٣) تأويل مختلف الحديث ١/ ١٦٦.

(٤) ناسخ الحديث ومنسوخه١/ ٤٢٣.

(٥) يشير إلى حديث أبي هريرة ﷺ أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ في بَعْثٍ، وَقَالَ لَنَا « إِنْ لَقِيتُمْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا ». - لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُمَا - فَحَرِّقُوهُمَا بِالنَّارِ. قَالَ ثُمَّ أَتَيْنَاهُ نُوَدِّعُهُ حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ فَقَالَ « إني كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحَرِّقُوا فُلاَنًا وَفُلاَنًا بِالنَّارِ، وَإِنَّ النَّارَ لاَ يُعَذِّبُ بِهَا إِلاَّ الله، فَإِنْ أَخَذْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا »البخاري (٢٩٥٤).

(٦) فتح الباري ١/ ٤٠٨ باختصار.

٣٣ـ شبهة: ادعاؤهم أن محمدًا ﷺ غيرُ نظيف وغيرُ طاهر.

نص الشبهة:

يقولون أن محمد نبي الإسلام غير نظيف وغير طاهر، وأن ربه أمره أن ينظف نفسه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ﴿المدثر: ٤-٥﴾، ويقول له ربه أنه طهره قبل ذلك من الأدناس والأوساخ بقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢)﴾ (الشرح: ٢)؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المعنى الصحيح للآيات.

الوجه الثاني: سبب نزول آية: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

الوجه الثالث: الكمال الخَلْقي للرسول ﷺ.

الوجه الرابع: الأدلة على تطهير الثوب والبدن

الوجه الخامس ذكر معنى الرجس في الكتاب المقدس.

الوجه السادس: صفات الأنبياء في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: المعنى الصحيح للآيات.

إننا إذا نظرنا في تفسير آية ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢)﴾، وآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)﴾، نجدها بعيدة كل البعد عما يقوله الذين يطعنون في النبي ﷺ، وفي كمال خُلُقه وخَلْقه، وهاهو التفسير الصحيح للآيات:

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢)﴾ بمعنى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢)[1]

وقال القرطبي: وقال السدي: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢)﴾ أي: وحططنا عنك ثقلك. وقيل: ذنوب أمتك، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٦٧).

وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة: خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها؛ حتى لا تثقل عليك. . . ، وقيل: عصمناك عن احتمال الوزر، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس، حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس. [١]

وقال أيضًا: وقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ فيه ثمانية أقوال:

أحدهما: أن المراد بالثياب العمل، الثاني: القلب، الثالث: النفس، الرابع: الجسم، الخامس: الأهل، السادس: الخلق، السابع: الدين، الثامن: الثياب الملبوسات على الظاهر[٢].

قال ابن الجوزي: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ فيه ثمانية أقوال:

أحدها: لا تلبسها على معصية، ولا على غدر. قال غيلان بن سلمة الثقفي:

وَإني بِحَمْدِ الله لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ   لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس ﷺ.

والثاني: لا تكن ثيابُك من مكسب غير طاهر، روي عن ابن عباس ﷺ أيضًا.

والثالث: طهر نفسك من الذنب، قاله مجاهد، وقتادة. ويشهد له قول عنترة:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ   لَيْسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنَا بِمُحَرَّمِ

أي: نفسه، وهذا مذهب ابن قتيبة. قال: المعنى: طهر نفسك من الذنوب، فكنى عن الجسم بالثياب؛ لأنها تشتمل عليه. والرابع: وعَمَلَكَ فَأَصْلِحْ، قاله الضحاك.

والخامس: خُلُقَكَ فَحَسِّنْ، قاله الحسن، والقرظي

والسادس: وَثِيَابَك فَقَصِّرْ وشَمِّرْ، قاله طاووس.

والسابع: قَلْبَكَ فَطَهِّرْ، قاله سعيد بن جبير. ويشهد له قول امرئ القيس:

فَإنْ يَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِني خَلِيقَةٌ   فَسُلِّي ثِيابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

أي: قلبي من قلبك.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧). بتصرف

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٥٩).

والثامن: اغسل ثيابك بالماء، ونقِّها، قاله ابن سيرين، وابن زيد.(١)

وقال البيضاوي: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ من النجاسات؛ فإن التطهير واجب في الصلوات محبوب في غيرها، وذلك بغسلها أو بحفظها عن النجاسة بتقصيرها، مخافة جر الذيول فيها، وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة، أو طهر نفسك من الأخلاق الذميمة والأفعال الدنيئة فيكون أمرًا باستكمال القوة العملية، بعد أمره باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه، أو فطهر دثار النبوة عما يدنسه من الحقد والضجر وقلة الصبر(٢).

فنجد من ذلك أن الآيات لا تطعن في طهر النبي ﷺ ولا في طهارة جسده قلبًا وقالبًا.

أما الرجز الذي أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بأن يهجره، فليس الرجس بمعنى الدنس، وذلك فيما يلي: قال ابن الجوزي:

وفي معنى «الرجز» للمفسرين ستة أَقوال:

أحدها: أنه الأصنام، والأوثان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزهري، والسدي، وابن زيد.

والثاني: أنه الإثم، روي عن ابن عباس ﭬ أيضًا.

والثالث: الشرك، قاله ابن جبير، والضحاك.

والرابع: الذنب، قاله الحسن.

والخامس: العذاب، قاله ابن السائب، قال الزجاج: الرجزُ في اللغة: العذاب. ومعنى الآية: اهجر ما يؤدِّي إلى عذاب الله، والسادس: الشيطان، قاله ابن كيسان(٣).

الوجه الثاني: سبب نزول آية: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﭬ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: " فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي

(١) زاد المسير (٨/ ٤٠١: ٤٠٠)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٦).
(٢) تفسير البيضاوي١/ ٤١١.
(٣) زاد المسير (٨/ ٤٠٢: ٤٠١).

بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ وَهِيَ الْأَوْثَانُ[1].

ونلاحظ أنه لا يوجد في سبب نزول هذه الآية ما يدل على ما يزعمونه أن النبي ﷺ لم يكن نظيفًا.

الوجه الثالث: الرسول ﷺ أكمل الناس خلْقًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أبيض كأنما صيغ من فضة، رَجِلُ الشعر.[2]

وعن سعيد الجريري قال: سمعت أبا الطفيل يقول: رأيت النبي ﷺ وما بقي على وجه الأرض أحد رآه غيري، قلت: صفه لي، قال: كان أبيض مليحًا مقصدًا.[3]

والمقصد: ليس بطويل ولا قصير ولا جسيم.

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ إِذَا مَشَى تكَفَّأَ، وَلَا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً وَلَا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلَا عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ الله.[4]

قال النووي: قَوْله: أَزْهَر اللَّوْن هُوَ الْأَبْيَض الْمُسْتَنِير، وَهِيَ أَحْسَن الْأَلْوَان.

قَوْله: كَأَنَّ عَرَقه اللُّؤْلُؤ أَيْ: فِي الصَّفَاء وَالْبَيَاض.[5]

وعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: وَقَامَ النَّاسُ فَجَعَلوا يَأْخُذُونَ يَدَيْهِ - يد النبي ﷺ - فَيَمْسَحُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ قَالَ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَوَضَعْتُهَا عَلَى وَجْهِي فَإِذَا هِيَ أَبْرَدُ مِنْ الثَّلْجِ وَأَطْيَبُ رَائِحَةً مِنْ الْمِسْكِ[1]. حتى إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بقربه منهم، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤١)، مسلم (١٦١).

(٢) رواه الترمذي في الشمائل ١/ ٤٠، والبيهقي في الدلائل (١٨٦) عن أبي هريرة، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٥٣).

(٣) رواه مسلم (٢٣٤٠). وانظر الشمائل المحمدية للترمذي (١/ ٤١).

(٤) رواه البخاري (١٨٧٢)، ومسلم (٢٣٣٠) واللفظ لمسلم.

(٥) شرح النووي (١٥/ ٨٦).

قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَالْحَلَّاقُ يَحْلِقُهُ، وَأَطَافَ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ(٢).

الوجه الرابع: الأدلة على تطهير الثوب والبدن.

أولًا: في القرآن:

منها قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ (النساء: ٤٣)، يَنْهَى الله تَعَالَى مَنْ كَانَ جُنُبًا مِنْ دُخُولِ المَسَاجِدِ إلاَّ أَنْ يَكُونَ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إلى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مَكْثٍ حَتَّى يَغْتَسِلَ أوْ يَتيَمَّمَ. (٣)

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ (المائدة: ٦) وإن كنتم جنبًا عند القيام إلى الصلاة بسبب ملامسة أزواجكم فاغسلوا جميع أبدانكم بالماء. (٤)

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) أي: من ذنوبهم على الدوام... والمتنزهين عن الآثام وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث. (٥)

وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ (المدثر: ٤) عَنْ النَّجَاسَة أَوْ قَصِّرْهَا خِلَاف جَرّ الْعَرَب ثِيَابهمْ خُيَلَاء فَرُبَّمَا أَصَابَتْهَا نَجَاسَة. (٦)

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨) قال أبو العالية: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب، وهو ثناء من الله على أهل قباء بخير وإخبار بأنهم يحبون أن يتطهروا من الخبث الحسِّي والمعنوي، فكانوا يجمعون في الاستنجاء بين الحجارة والماء فأثنى الله تعالى عليهم بذلك. (٧)

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٠).

(٢) رواه مسلم (٢٣٢٥).

(٣) تفسير حومد ١/ ٥٣٦ بتصرف.

(٤) المنتخب ١/ ١٧٢.

(٥) تفسير السعدي ١/ ١٠٠.

(٦) تفسير الجلالين ١٢/ ١٠.

(٧) تفسير ابن كثير ٤/ ٢١٦، وانظر تفسير الجزائري ٢/ ١٠٥.

ثانيًا: من السنة:

١- عن ابن عباس ﷺ قال: مر النبي ﷺبحائط من حيطان المدينة أو مكة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما فقال النبي ﷺ: " يعذبان وما يعذبان في كبير". ثم قال: بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله وكان الآخر يمشي بالنميمة. ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين فوضع على كل قبر منهما كسرة فقيل له يا رسول الله لم فعلت هذا؟ قال: لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا. أو إلى أن ييبسا. (١)

قال البغوي: معناه: أنهما لم يعذبا في أمر كان يكبر ويشق عليهما الاحتراز عنه؛ لأنه لم يكن يشق عليهما الاستتار عند البول، وترك النميمة، ولم يُرِد أن الأمر فيهما هين غير كبير في أمر الدين بدليل قوله: " وإنه لكبير ". (٢)

وقال الخطابي: معناه: أنهما لم يعذبا في أمر كان يكبر عليهما، أو يشق فعله لو أرادا أن يفعلاه، وهو التنزه من البول، وترك النميمة، ولم يرد أن المعصية في هاتين الخصلتين ليست بكبيرة في حق الدين وأن الذنب فيهما هين أو سهل. وفي قوله " أمَّا هذا فكان لا يستنزه من البول " دلالة على أن الأبوال كلها نجسة مجتنبة من مأكول اللحم وغير مأكولة لورود اللفظ به مطلقًا على سبيل العموم والشمول. (٣)

٢- عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة ﷺ قال قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي ﷺ: " دعوه وهريقوا على بوله سجلًا من ماء أو ذنوبًا من ماء؛ فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"(٤).

وإنما تركوه يبول في المسجد؛ لأنه كان شرع في المفسدة، فلو منع لزادت إذ حصل تلويث جزء من المسجد، فلو منع لدار بين أمرين؛ إما أن يقطعه فيتضرر، وإما أن لا يقطعه

(١) رواه البخاري (٢١٣) و(٢١٥)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) شرح السنة ١/ ٣٧٢.

(٣) معالم السنن ١/ ١٧.

(٤) رواه البخاري (٢١٧).

فلا يأمن من تنجيس بدنه أو ثوبه أو مواضع أخرى من المسجد[١].

قال ابن حزم: وَإِزَالَةُ النَّجَاسَةِ وَكُلِّ مَا أَمَرَ الله تَعَالَى بِإِزَالَتِهِ فَهُوَ فَرْضٌ. هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَنْقَسِمُ أَقْسَامًا كَثِيرَة، يَجْمَعُهَا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ أَمَرَ الله تَعَالَى عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ بِاجْتِنَابِهِ، أَوْ جَاءَ نَصٌّ بِتَحْرِيمِهِ أَوْ أَمَرَ كَذَلِكَ بِغَسْلِهِ أَوْ مَسْحِه، فَكُلُّ ذَلِكَ فَرْضٌ يَعْصِي مَنْ خَالَفَه لِمَا ذَكَرْنَا قَبْلُ مِنْ أَنَّ طَاعَتَهُ تَعَالَى وَطَاعَةَ رَسُولِهِ ﷺ فَرْضٌ[٢].

ومِنَ الْمُقَرَّرِ أَنَّ مِنْ شُرُوطِ الصَّلاَةِ: طَهَارَةَ الثَّوْبِ، وَالْبَدَنِ، وَالْمَكَانِ مِنَ النَّجَاسَةِ، وقد أمر الله بتطهير الثياب من النجاسات؛ لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة، ومن هذه الآية ذهب الشافعي إلى وجوب غسل النجاسة من ثياب المصلي. [٣]

٣- وقد أوجب الإسلام الغسل سواء كان أمر إيجاب أو ندب في أمور منها: خروج المني بشهوة في النوم أو اليقظة، من ذكر أو أنثى، وهو قول عامة الفقهاء.

لحديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما الماء من الماء"[٤] ومنها: التقاء الختانين لحديث: إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل فعلته أنا ورسول الله ﷺ فاغتسلنا ". [٥]

ومنها: انقطاع الحيض والنفاس: لقول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ولحديث: أن فاطمة بنت أبي حبيش سألت النبي ﷺ قالت: إني أستحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة؟ فقال: " لا إن ذلك عرق، ولكن دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها ثم اغتسلي وصلي"[٦].

---

(١) فتح الباري١/ ٣٢٣.

(٢) المحلى١/ ٩٢.

(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان١٠/ ٣٨٧.

(٤) رواه مسلم (٥٤٤) من حديث أبي سعيد الخدري

(٥) رواه ابن ماجه (٦٠٨)وغيره واللفظ له من حديث عائشة (٦٠٨)، وابن حبان (١١٨٣)، وترجم البخاري له فقال: باب إذا التقى الختانان١/ ١١٠.

(٦) رواه البخاري (٣١٩) بلفظه، ومسلم (٣٣٣).

ومنها: الموت، لحديث: " اغسلوه بماء وسدر"(١)، ولحديث: قوله ﷺ في ابنته زينب رضي الله عنها: " اغسلنها ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا. . . ". (٢)

ومنها: إذا أسلم الكافر يجب عليه الغسل لحديث أبي هريرة رضي الله عنه بعث النبي ﷺ خيلًا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي ﷺ فقال " أطلقوا ثمامة " فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. (٣)

ومنها غسل الجمعة: فعن أبي سعيد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: " الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم"(٤)ومنها: غسل العيدين، لكن لم يأت في ذلك حديث صحيح، ومنها غسل من غسل ميتًا: لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: " من غسل ميتًا فليغتسل، ومن حمله فليتوضأ ". (٥)

ومنها غسل الإحرام: لحديث زيد بن ثابت: أنه رأى رسول الله ﷺ تجرد لإهلاله واغتسل(٦)

ومنها غسل دخول مكة: لأن ابن عمر رضي الله عنه كان لا يقدم مكة إلا بات بذي طوي حتى يصبح ثم يدخل مكة نهارًا، ويَذكُرُ عن النبي ﷺ أنه فعله. (٧)

ومنها غسل الوقوف بعرفة: لما رواه مالك عن نافع: أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يغتسل لإحرامه قبل أن يحرم، ولدخول مكة، ولوقوفه عشية عرفة"(١). (٢)

---

(١) رواه البخاري (١٢٠٦)، ومسلم (١٢٠٦).

(٢) رواه البخاري (١١٩٥)، ومسلم (٩٣٩).

(٣) رواه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (١٧٦٤).

(٤) رواه مسلم (٨٤٦).

(٥) رواه أحمد٢/ ٢٨٠، وابن ماجه (١٤٦٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٤١).

(٦) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب (٨٣٠)، والبيهقي (٨٧٢٦)، وضعفه العقيلي، انظر (تلخيص الحبير٢/ ٢٣٥)، وحسنه الألباني في مختصر الإرواء (١٤٩).

(٧) رواه مسلم (١٢٥٩) بلفظه، والبخاري بنحوه٢/ ٥٧٠ باب دخول مكة نهارًا أو ليلًا.

الطهارة من منظور طبي:

تستلزم الصلاة طهارة الجسم والثياب والمكان، وتتضمن طهارة الجسم غسل الجنابة إذا كان هناك داع لذلك، والاستنجاء والوضوء، ومن المعروف، في السنة الصحيحة، أن الوضوء يهيئ المسلم نفسيًا للدخول في الصلاة، إذ يذهب عنه الغضب والتوتر ويريح أعصابه.

وقد أثبت العلم الحديث أن الوضوء والاغتسال، أيضًا ـ في وجود الضوء ـ يساعد على سقوط فوتونات الضوء (Light Photns) فوق زاد الماء، ويعمل على انتشار أيونات سالبة الشحنة، من جزيئات الماء المتناثرة في الهواء، وهذه الشحنات السالبة عبارة عن شحنات كهرومغناطيسية، وتؤثر في جسم المتوضئ أو المغتسل تأثيرًا حسنًا من الناحية الصحية، إذ تسبب الاسترخاء العضلي، فتزيل أي توتر عصبي أو أي انفعال ناتج عن الغضب.

كما ثبت علميًا وجود ملايين الميكروبات على الجلد طوال النهار، وخلال الممارسات المعيشية، وتقف ملايين الميكروبات على الأيدي والأقدام والوجه وغيره، وإذا تركت هكذا مدة طويلة تثبت نفسها وتتكاثر، ونتيجة لأنشطتها المختلفة تظهر علامات الإصابة بها في شكل أعراض مرضية على المصاب، ولقد ثبت علميًا أن الاغتسال بالماء الجاري ثلاث مرات ـ في الوضوء ـ يزيل نحو ٩٥٪ من هذه الميكروبات، فإذا توضأ المسلم عدة مرات كل يوم؛ أدى ذلك إلى تخلصه نهائيًا من جميع الميكروبات. [٣]

الوجه الخامس: معنى الرجس في الكتاب المقدس.

جاءت كلمة (رجس) في الكتاب المقدس بمعنى الوثن والصنم، فمن ذلك:

الملوك الأول (١١/ ٧: ٥): فَذَهَبَ سلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ، وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ.

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٧٠٢).

(٢) مستفاد بتصرف واختصار من فقه السنة لـ سيدسابق١/ ٧١: ٦٤.

(٣) الإعجاز الطبي والدوائي، د/ كارم السيد غنيم ٢٣، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

حِينَئِذٍ بَنَي سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ.

حزقيال: (٧/ ٤: ٢): وَأَنْتَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَهكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لأَرْضِ إِسْرَائِيلَ: نِهَايَةٌ! قَدْ جَاءَتِ النِّهَايَةُ عَلَى زَوَايَا الأَرْضِ الأَرْبَعِ. اَلآنَ النِّهَايَةُ عَلَيْكِ، وَأُرْسِلُ غَضَبِي عَلَيْكِ، وَأَحْكُمُ عَلَيْكِ كَطُرُقِكِ، وَأَجْلِبُ عَلَيْكِ كُلَّ رَجَاسَاتِكِ. فَلاَ تَشْفُقُ عَلَيْكِ عَيْنِي، وَلاَ أَعْفُو، بَلْ أَجْلِبُ عَلَيْكِ طُرُقَكِ وَتَكُونُ رَجَاسَاتُكِ فِي وَسْطِكِ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ.

الخروج (٨/ ٢٦): فَقَالَ مُوسَى: «لاَ يَصْلَحُ أَنْ نَفْعَلَ هكَذَا، لأَنَّنَا إِنَّمَا نَذْبَحُ رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ لِلرَّبِّ إِلهِنَا. إِنْ ذَبَحْنَا رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ أَمَامَ عُيُونِهِمْ أَفَلاَ يَرْجُمُونَنَا؟.

الوجه السادس: الأنبياء يعبدون آلهةً من دون الله في الكتاب المقدس.

يعتقد اليهود والنصارى أن سليمان عليه السلام كفر، وعبد آلهةً أخرى من دون الله تعالى كما في الملوك الأول (١١/ ٧: ٥): فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ، وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ. حِينَئِذٍ بَنَي سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ.

ويقولون أن هارون عليه السلام كفر وعبد العجل كما في الخروج (٣٢/ ٤: ٣): فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: «انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَاتُونِي بِهَا». فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلًا مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: «هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ».

* * *

٣٤ـ شبهة: ادعاؤهم أن النبي ﷺ صلى من غير وضوء.

نص الشبهة:

يقولون: إن النبي ﷺ صلى من غير وضوء واستدلوا على ذلك بحديثين:

الحديث الأول:

حديث سويد بن النعمان رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَلَمَّا كُنَّا بِالصَّهْبَاءِ، قَالَ يَحْيَى: (وَهِيَ مِنْ خَيْبَرَ) عَلَى رَوْحَةٍ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ بِطَعَامٍ فَمَا أُتِيَ إِلَّا بِسَوِيقٍ فَلُكْنَاهُ فَأَكَلْنَا مِنْهُ ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَمَضْمَضَ وَمَضْمَضْنَا فَصَلَّى بِنَا الْمَغْرِبَ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ[(١)].

الحديث الثاني:

حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: نِمْتُ عِنْدَ مَيْمُونَةَ وَالنَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَقُمْتُ عَلَى يَسَارِهِ فَأَخَذَنِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ فَصَلَّى ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً ثُمَّ نَامَ حَتَّى نَفَخَ وَكَانَ إِذَا نَامَ نَفَخَ ثُمَّ أَتَاهُ الْمُؤَذِّنُ فَخَرَجَ فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ[(٢)].

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الطهارة شرط لكل صلاة.

الوجه الثاني: أنه لا يشترط تجديد الوضوء لكل صلاة.

الوجه الثالث: تجديد الوضوء لكل صلاة مستحب.

الوجه الرابع: أن تَرْكَ النبي ﷺ لتجديد الوضوء في بعض الأحيان يدل على جواز الأمرين تيسيرًا على الأمة.

الوجه الخامس: الحديث فيه دليل على أن الأمر بالوضوء مما مست النار منسوخ.

الوجه السادس: أن النبي ﷺ لا يُنتقض وضوءه بالنوم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الطهارة شرط لكل صلاة.

قال النووي: وقد أجمعت الأمة على أن الطهارة شرط في صحة الصلاة. [(١)]

---

(١) البخاري (٥٤٥٥).

(٢) البخاري (٦٩٨).

ومن أدلة ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾ (المائدة: ٦٦)، وقول النبي ﷺ: " لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلَا صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ ". [٢]

وكذلك قوله ﷺ: " لَا يَقْبَلُ الله صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ"[٣].

وقال أيضًا: هذا الحديث- أي الأول - نص في وجوب الطهارة للصلاة. . وأما قولهﷺ في الحديث الثاني: " لَا يَقْبَلُ الله صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ " فمعناه: حتى يتطهر بماء أو تراب، وإنما اقتصر ﷺ على الوضوء لكونه الأصل والغالب، والله أعلم. [٤]

كما قال رحمه الله عند شرحه لحديث: " الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ. . "[٥] وقيل: المراد بالإيمان هنا الصلاة كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٤٣)، والطهارة شرط في صحة الصلاة فصارت كالشطر وليس يلزم في الشطر أن يكون نصفًا حقيقيًا، وهذا القول أقرب الأقوال. [٦]

الوجه الثاني: أنه لا يشترط تجديد الوضوء لكل صلاة.

في الحديث كلمة " لَمْ يَتَوَضَّأْ " لا تعني أنه صلى وهو مُحدِث - أي على غير وضوء - بل إنها دليل على جواز الصلاة بالوضوء الواحد أكثر من فرض، وليس هذا الحديث- أي الأول – بمفرده هو الدليل على ذلك فقد ذكر العلماء حديثا آخر يبين جواز ذلك بصورة واضحة، وذلك في حديث سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى الصَّلَوَاتِ يَوْمَ الْفَتْحِ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ صَنَعْتَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ

---

(١) شرح مسلم للنووي ٢/ ١٠٤.
(٢) مسلم (٢٢٤).
(٣) البخاري (١٣٥)، مسلم (٢٢٥).
(٤) شرح مسلم للنووي ٢/ ١٠٣-١٠٤بتصرف يسير.
(٥) مسلم (٢٢٣).
(٦) شرح مسلم للنووي ٢/ ١٠٣.

تَصْنَعُهُ، قَالَ: عَمْدًا صَنَعْتُهُ يَا عُمَرُ"[١].

قال النووي: في هذا الحديث أنواع من العلم منها: جواز المسح على الخف، وجواز الصلوات المفروضات، والنوافل بوضوء واحد ما لم يحدث، وهذا جائز بإجماع من يعتد به[٢].

ومن الأحاديث الواردة في بيان جواز ذلك أيضا حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ قُلْتُ - أي عمرو بن عامر راوي الحديث عن أنس رضي الله عنه- كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ يُجْزِئُ أَحَدَنَا الْوُضُوءُ مَا لَمْ يُحْدِثْ[٣].

وفي معناه أحاديث كثيرة كحديث الجمع بين الصلاتين بعرفة والمزدلفة وسائر الأسفار والجمع بين الصلوات الفائتات يوم الخندق وغير ذلك. [٤]

الوجه الثالث: تجديد الوضوء لكل صلاة مستحب.

أجمع العلماء على أن تجديد الوضوء لكل صلاة مستحب.

قال النووي: ولكن تجديده- أي الوضوء -لكل صلاة مستحب وعلى هذا أجمع أهل الفتوى بعد ذلك ولم يبق بينهم فيه خلاف. [٥]

وقد ورد في فضل الوضوء أحاديث كثيرة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ" قال أبوهريرة: فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ. [٦]

قال النووي: في الحديث معنى ما ترجم له من فضل الوضوء؛ لأن الفضل الحاصل بالغرة والتحجيل من آثار الزيادة على الواجب، فكيف الظن بالواجب؟. [٧]

---

(١) مسلم (٢٧٧).

(٢) شرح مسلم للنووي ٢/ ١٨٠.

(٣) البخاري (٢١٤).

(٤) شرح مسلم للنووي ٢/ ١٨٠.

(٥) شرح مسلم للنووي ٢/ ١٠٤.

(٦) البخاري (١٣٦).

(٧) شرح مسلم للنووي ١/ ٢٨٥.

عن عثمان بن عفان ﷺ قال: وَالله لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا وَالله لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ الله مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " لَا يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يُصَلِّي الصَّلَاةَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ الَّتِي تَلِيهَا". (١)

الوجه الرابع: أن تَرْكَ النبي ﷺ لتجديد الوضوء في بعض الأحيان يدل على جواز الأمرين تيسيرا على الأمة.

فالنبي ﷺ كان يترك المداومة على بعض الأعمال خشية أن تفرض على الأمة فيشق ذلك عليهم، ومن أمثلة ذلك:

أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ: عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ؛ فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: " أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا " فَتُوُفِّيَ رَسُولُ الله، وَالأَمرُ عَلَى ذَلِكَ. (٢)

وكذلك ورد عنها أنها قالت: إِنْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ وَمَا سَبَّحَ رَسُولُ الله ﷺ سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ وَإِنِّي لَأُسَبِّحُهَا. (٣)

وقد فسر العلماء قولها (مَا سَبَّحَ) أي ما داوم عليها. (٤)

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي فِي رَمَضَانَ فَجِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَامَ أَيْضًا، حَتَّى كُنَّا رَهْطًا فَلَمَّا حَسَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّا خَلْفَهُ جَعَلَ يَتَجَوَّزُ فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ دَخَلَ رَحْلَهُ فَصَلَّى صَلَاةً لَا يُصَلِّيهَا عِنْدَنَا، قَالَ: قُلْنَا لَهُ حِينَ أَصْبَحْنَا أَفَطَنْتَ لَنَا اللَّيْلَةَ،

---

(١) مسلم (٢٢٧).

(٢) البخاري (٢٠١٢).

(٣) البخاري (١١٢٨).

(٤) انظر فتح الباري ٣/ ٦٧.

قَالَ: فَقَالَ: " نَعَمْ ذَاكَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى الَّذِي صَنَعْتُ، قَالَ فَأَخَذَ يُوَاصِلُ رَسُولُ الله ﷺ وَذَاكَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ، فَأَخَذَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يُوَاصِلُونَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " مَا بَالُ رِجَالٍ يُوَاصِلُونَ إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِثْلِي أَمَا وَالله لَوْ تَمَادَّ لِي الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وِصَالًا يَدَعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ". [١] فهذا من تيسيره ﷺ على هذه الأمة.

الوجه الخامس: الحديث فيه دليل على أن الأمر بالوضوء مما مست النار منسوخ.

ففي الحديث الأول أيضا أن النبي ﷺ أكل من السويق، والسويق هو دقيق الشعير أو السلت المقلى. [٢]

فإن قيل: أن الأمر جاء في السنة بالوضوء مما مست النار فنذكر أقوال العلماء التي تبين أن هذا الأمر قد نسخ:

قال النووي: ذكر مسلم - رحمه الله تعالى- في هذا الباب الأحاديث الواردة بالوضوء مما مست النار، ثم عقبها بالأحاديث الواردة بترك الوضوء مما مست النار؛ فكأنه يشير إلى أن الوضوء منسوخ، وهذه عادة مسلم وغيره من أئمة الحديث، يذكرون الأحاديث التي يرونها منسوخة ثم يعقبونها بالناسخ. وقد اختلف العلماء في قوله ﷺ: " توضئوا مما مست النار "، فذهب جماهير العلماء من السلف والخلف إلى أنه لا ينتقض الوضوء بأكل ما مسته النار، ممن ذهب إليه: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وابن عباس، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وجابر ابن سمرة، وزيد بن ثابت، وأبو موسى، وأبو هريرة، وأبي بن كعب، وأبو طلحة، وعامر بن ربيعة، وأبو أمامة، وعائشة رضي الله عنها، وهؤلاء كلهم صحابة، وذهب إليه جماهير التابعين وهو مذهب مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن يحيى، وأبي ثور، وأبي خيثمة- رحمهم الله - وذهب طائفة إلى وجوب الوضوء الشرعي- وضوء الصلاة بأكل ما مسته النار - وهو مروي عن عمر بن عبد العزيز،

---

(١) مسلم (١١٠٤).

(٢) فتح الباري ١/ ٣٧٣.

والحسن البصري، والزهري، وأبي قلابة، وأبي مجلز، واحتج هؤلاء بحديث "توضئوا مما مسته النار"، واحتج الجمهور بالأحاديث الواردة بترك الوضوء مما مسته النار. وقد ذكر مسلم هنا منها جملة، وباقيها في كتب أئمة الحديث المشهورة وأجابوا عن حديث الوضوء مما مست النار بجوابين أحدهما: أنه منسوخ بحديث جابر ﷺ قال: كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار.

وهو حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي وغيرهما من أهل السنن بأسانيد صحيحة.

والجواب الثاني: أن المراد بالوضوء غسل الفم والكفين.

وقد اعترض ابن عبد البر في (التمهيد) على هذا الجواب الثاني. (١)

ثم قال رحمه الله (أي النووي): ثم إن هذا الخلاف الذي حكيناه كان في الصدر الأول، ثم أجمع العلماء بعد ذلك على أنه لا يجب الوضوء بأكل ما مسته النار والله أعلم. (٢)

قال ابن عبد البر: وقوله ﷺ: " توضئوا مما مست النار " أمر منه بالوضوء المعهود للصلاة لمن أكل طعامًا مسته النار، وذلك عند أكثر العلماء، وعند جماعة أئمة الفقهاء منسوخ بأكله ﷺ طعامًا مسته النار، وصلاته بعد ذلك دون أن يحدث وضوءًا فاستدل العلماء بذلك على أن أمره بالوضوء مما مست النار منسوخ، وأشكل ذلك على طائفة كثيرة من أهل العلم بالمدينة والبصرة، ولم يقفوا على الناسخ في ذلك من المنسوخ، أو لم يعرفوا غير الوجه الواحد؛ فكانوا يوجبون الوضوء مما مست النار.

ثم قال: والأصل أن لا ينتقض وضوء مجتمع عليه إلا بحديث مجتمع عليه أو بدليل من كتاب أو سنة لا معارض له. (٣)

الوجه السادس: أن النبي ﷺ لا يُنتقض وضوءه بالنوم.

فقد أورد البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها حديثا في قصة

(١) التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٣٢٩.

(٢) شرح مسلم للنووي ٢/ ٢٧٩.

(٣) التمهيد لابن عبد البر ٣/ ٣٤٧، ٣٣٠.

التهجد وفيه: قلت: قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟.[١]

قال ابن حجر: وهو ظاهر في أن ذلك من خصائصه ﷺ.[٢]

قال ابن الملقن: كان لا ينتقض وضوءه بالنوم بخلاف غيره؛ لأنه كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه.[٣]

قال النووي في شرحه لحديث مسلم الذي أورده في باب (صلاة الليل وعدد الركعات) وفيه أن عائشة سألت النبي ﷺ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ فَقَالَ: "يَا عَائِشَةُ إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي".[٤]

ثم ذكر النووي أن: (هذا من خصائص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم).[٥]

قال ابن حجر: وَكَانَ لَا يُنْتَقَضُ وُضُوءُهُ بِالنَّوْمِ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا " إنَّ عَيْنِي تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي "، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ ﷺ " نَامَ حَتَّى نَفَخَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ "، وَفِي الْبُخَارِيِّ فِي حديث الإسراء.[٦]

كما قال السيوطي: عن ابن مسعود قال: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَنَامُ مُسْتَلْقِيًا حَتَّى يَنْفُخَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ"، وعلة ذلك أنه تنام عينه ولا ينام قلبه[٧].

وقد ذكر العلماء أن يقظة قلوبهم تمنعهم من الحديث- أي الأنبياء- وأن نومه ﷺ مضطجعًا وكذا سائر الأنبياء.[٨]

* * *

(١) البخاري (٣٥٦٩).

(٢) فتح الباري ٦/ ٦٧١.

(٣) غاية السول في خصائص الرسول لابن الملقن ص ١٧٨.

(٤) مسلم (٧٣٨).

(٥) شرح مسلم للنووي ٣/ ٢٧٧.

(٦) تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ١٣٥.

(٧) الخصائص الكبرى للسيوطي ٢/ ٤٢٤.

(٨) التوضيح شرح الجامع الصحيح لابن الملقن ٤/ ٥٥.

٣٤ـ شبهة: التبرك بوضوء النبيﷺ.

نص الشبهة:

أن النبي ﷺ مج في إناء وشرب منه بعض الصحابة. كأنهم يستقذرون ذلك.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: الفهم الصحيح للحديث.

الوجه الثاني: أن شخص النبي ﷺ غير شخصنا.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان معنى الحديث.

عن أبي جُحَيْفَةَ ﷺ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ بِالْهَاجِرَةِ فَأُتِيَ بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَأْخُذُونَ مِنْ فَضْلِ وَضُوئِهِ، فَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ وَالْعَصْرَ رَكْعَتَيْنِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَنَزَةٌ[(١)].

وَقَالَ أَبُو مُوسَى ﷺ: دَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ فَغَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ فِيهِ وَمَجَّ فِيهِ ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: "اشْرَبَا مِنْهُ وَأَفْرِغَا عَلَى وُجُوهِكُمَا وَنُحُورِكُمَا "[(٢)].

وللحديث قصة: عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَهوَ نَازِلٌ بِالْجِعْرَانَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَمَعَهُ بِلَالٌ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ أَلَا تُنْجِزُ لِي مَا وَعَدْتَنِي، ف قَالَ لَهُ: "أَبْشِرْ "، فَقَالَ: قَدْ أَكْثَرْتَ عَلَيَّ مِنْ أَبْشِرْ فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي مُوسَى وَبِلَالٍ كَهَيْئَةِ الْغَضْبَانِ، فَقَالَ: رَدَّ الْبُشْرَى فَاقْبَلَا أَنْتُمَا قَالَا: قَبِلْنَا ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ فَغَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ فِيهِ وَمَجَّ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: " اشْرَبَا مِنْهُ وَأَفْرِغَا عَلَى وُجُوهِكُمَا وَنُحُورِكُمَا، وَأَبْشِرَا"فَأَخَذَا الْقَدَحَ فَفَعَلَا فَنَادَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ أَنْ أَفْضِلَا لِأُمِّكُمَا فَأَفْضَلَا لَهَا مِنْهُ طَائِفَةً[(٣)].

قال ابن حجر: (وَمَجَّ فِيهِ) أَيْ: صَبَّ مَا تَنَاوَلَهُ مِنْ الماء فِي الْإِنَاء، وَالْغَرَض بِذَلِكَ إِيجَاد

---

(١) البخاري (١٨٧).

(٢) البخاري (١٨٨)، مسلم (٢٤٩٧)، وأخرجه البخاري مسندًا (١٩٦).

(٣) البخاري (٤٣٢٨).

الْبَرَكَة بِرِيقِهِ المبَارَكِ[١].

قَوْله: (أَلَا تُنْجِز لِي مَا وَعَدْتنِي) يُحْتَمل أَنَّ الْوَعْد كَانَ خَاصًّا بِهِ، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون عَامًّا[٢].

وَفِي الْحَدِيث مَنْقَبَة لِأَبِي عَامِر وَلِأَبِي مُوسَى وَلِبِلَالٍ وَلِأُمِّ سَلَمَة.

والمنقبة لمجرد أن شربوا من فضل ماء مج فيه ﷺ.

وقال بدر الدين العيني: وإن كان المراد: أنهم كانوا يأخذون ما فضل من وضوئه في الإناء، فيكون المراد منه التبرك بذلك. وفي الحديث الدلالة على طهارة الماء المستعمل على الوجه الذي ذكرناه وفيه جواز مج الريق في الماء، قاله الكرماني.

قلت: هذا في حق النبي ﷺ، لأن لعابه أطيب من المسك ومن غيره يستقذر، ولهذا كره العلماء ذلك.

والنبي ﷺ مقامه أعظم، وكانوا يتدافعون على نخامته، ويدلكون بها وجوههم، لبركتها وطيبها وخلوفه ما كان يشابه خلوف غيره، وذلك لمناجاته الملائكة فطيب الله نكهته، وخلوف فمه، وجميع رائحته[٣].

وفي حديث عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ: (. . . ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ. . .)[٤].

وعن السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ يَقُولُ: ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ فَمَسَحَ رَأْسِي وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِثْلَ زِرِّ الْحَجَلَةِ[٥].

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٥٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٦: ٥٥).

(٣) عمدة القاري (٣/ ٧٥).

(٤) البخاري (٢٧٣٢، ٢٧٣١).

(٥) البخاري (١٩٠).

وقد علق الشاطبي على مثل هذه الأحاديث فقال: فالظاهر في مثل هذا النوع أن يكون مشروعًا في حق من ثبتت ولايته واتباعه لسنة رسول الله ﷺ وأن يتبرك بفضل وضوئه ويتدلك بنخامته ويستشفى بآثاره كلها، ولكن هناك إشكال يبين أن هذا خاص بالنبي ﷺ.[1]

وقال الشاطبي: وهو أن الصحابة رضى الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع من أحد منهم شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه، فلم يثبت ذلك لأبي بكر ولا لعمر ولا لعثمان ولا لعلي، وهو أفضل الأمة بعده ﷺ[2].

لاخفاء عَلَى مَنْ مَارَسَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ، أَوْ خُصَّ بِأَدْنَى لُمَحَةٍ مِنَ الْفَهْمِ: بِتَعْظِيمِ اللهَّ قَدْرَ نَبِيِّنَا ﷺ وخُصُوصِهِ إِيَّاهُ بِفَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ وَمَنَاقِبَ لَا تَنْضَبِطُ لِزِمَامٍ: وَتَنوِيهِهِ مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ بِمَا تَكِلُّ عَنْهُ الْأَلْسِنَةُ وَالْأَقْلَامُ[3].

وكان النبي ﷺ ينهاهم عن ذلك مثل النخامة وما شابه ذلك، ولكن تركهم لأن الموقف كان يستدعي ذلك، إظهارًا لمحبته أمام العدو بقصد ليعلم كم هي الصفوف هاتفة خلف نبيها، وكم هي لا تفرط في أيِّ شئ يتعلق بنبيها حتى نخامته وماء وضوئه ﷺ.

وقال ابن رجب في معرض سياقه النهي عن المبالغة في تعظيم الأولياء والصالحين، وكذلك التبرك بالآثار، فإنما كان يفعله الصحابة مع النبي ﷺ، ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم، ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم، فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع النبي ﷺ[4].

الوجه الثاني: شخص النبي ﷺ غير شخصنا.

فهو رسول الله ﷺ وخاتم النبيين: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ"[1].

(١) الاعتصام (١/ ٢٩٣).
(٢) الدولة الأموية للصلابي (٢/ ١٨٤).
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ١١).
(٤) الحكم الجديرة بالإذاعة (١/ ٢٤).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ "(٢).

قال النووي: هو سَيِّدهمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، فَسَبَبُ التَّقْيِيد أَنَّ فِي يَوْم الْقِيَامَة يَظْهَرُ سُؤْدُده لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يَبْقَى مُنَازِع، وَلَا مُعَانِد، وَنَحْوه، بِخِلَافِ الدُّنْيَا فَقَدْ نَازَعَهُ ذَلِكَ فِيهَا مُلُوكُ الْكُفَّار وَزُعَمَاء الْمُشْرِكِينَ. قال العلماء: لم يقل ذلك فخرًا، بل صرح بنفي الفخر، إنما قال ذلك امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ (الضحى: ١١).

وهذا أيضًا مِنْ الْبَيَان الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغه إِلَى أُمَّته لِيَعْرِفُوهُ، وَيَعْتَقِدُوهُ، وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ، وَيُوَقِّرُوهُ ﷺ بِمَا تَقْتَضِي مَرْتَبَتُهُ كَمَا أَمَرَهُمْ الله تَعَالَى، وَهَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِتَفْضِيلِهِ ﷺ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ؛ لِأَنَّ مَذْهَب أَهْل السُّنَّة أَنَّ الْآدَمِيِّينَ أَفْضَل مِنْ الْمَلَائِكَة، وَهُوَ ﷺ أَفْضَل الْآدَمِيِّينَ وَغَيْرهمْ(٣).

الوجه الثالث: التبرك بالقذارات في الكتاب المقدس.

ألم يرد في كتابك المقدس أن الرب أمر نبيه (حزقيال) بأكل الخراء وهو البراز: (وَتَأْكُلُ كَعْكًا مِنَ الشَّعِيرِ. عَلَى الْخُرْءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ تَخْبُزُهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ) (حزقيال٤/ ١٣).

ليس هذا فقط، بل انظر في (سفر إشعياء ٣٦/ ١٢) (فَقَالَ رَبْشَاقَى: «هَلْ إِلَى سَيِّدِكَ وَإِلَيْكَ أَرْسَلَنِي سَيِّدِي لِكَيْ أَتَكَلَّمَ بِهذَا الْكَلاَمِ؟ أَلَيْسَ إِلَى الرِّجَالِ الْجَالِسِينَ عَلَى السُّورِ، لِيَأْكُلُوا عَذِرَتَهُمْ وَيَشْرَبُوا بَوْلَهُمْ مَعَكُمْ؟ ».

* * *

---

(١) الترمذي في السنن (٣١٤٨)، وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨)، وأحمد في المسند (١/ ٢٨١)، وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٧١).

(٢) مسلم (٢٢٧٨).

(٣) شرح النووي (٨/ ٤٢) بتصرف.

٣٦ـ شبهة: تمسح الصحابة بالنبي ﷺ وبفضل وضوئه.

نص الشبهة:

كيف يتمسح الصحابة بالنبي ﷺ، وبفضل وضوئه؟.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الأحاديث التي ذكر فيها هذا التمسح.

الوجه الثاني: توجيه الأحاديث التي ذُكر فيها هذا التمسح.

الوجه الثالث: هذا من التبرك المشروع.

الوجه الرابع: تكميل الله تعالى له ﷺ المحاسن خَلْقًا وخُلُقًا.

الوجه الخامس: بعض خصائص النبي ﷺ البدنية.

الوجه السادس: شق صدر النبي ﷺوتطهير قلبه من حظ الشيطان.

الوجه السابع: التمسح في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الأحاديث التي ذكر فيها هذا التمسح.

عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي قُبَّةٍ حَمْرَاءَ مِنْ أَدَمٍ، وَرَأَيْتُ بِلاَلًا أَخَذَ وَضُوءَ رَسُولِ الله ﷺ وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَبْتَدِرُونَ ذَاكَ الْوَضُوءَ، فَمَنْ أَصَابَ مِنْهُ شَيْئًا تَمَسَّحَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يُصِبْ مِنْهُ شَيْئًا أَخَذَ مِنْ بَلَلِ يَدِ صَاحِبِهِ، ثُمَّ رَأَيْتُ بِلاَلًا أَخَذَ عَنَزَةً فَرَكَزَهَا، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ في حُلَّةٍ حَمْرَاءَ مُشَمِّرًا، صَلَّى إِلَى الْعَنَزَةِ بِالنَّاسِ رَكْعَتَيْنِ، وَرَأَيْتُ النَّاسَ وَالدَّوَابَّ يَمُرُّونَ مِنْ بَيْنِ يَدَي الْعَنَزَةِ[1].

وَقَالَ أَبُو مُوسَى ﵁: دَعَا النَّبِي ﷺ بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ فِيهِ، وَمَجَّ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: " لَهُمَا اشْرَبَا مِنْهُ، وَأَفْرِغَا عَلَى وُجُوهِكُمَا وَنُحُورِكُمَا "[2].

وعَنِ الجَعْدِ قَالَ: سَمِعْتُ السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ يَقُولُ: ذَهَبَتْ بِي خالتي إِلَى النبي ﷺ،

---

(١) البخاري (٣٧٦).

(٢) البخاري (١٨٨).

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ ابْنَ أختي وَجِعٌ. فَمَسَحَ رأسي وَدَعَا لي بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ، ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِثْلِ زِرِّ الْحَجَلَةِ[(١)].

الوجه الثاني: توجيه هذه الأحاديث.

أولًا: أن المراد بالفضل الماء الذي يبقى في الظرف بعد الفراغ.

والوضوء الذي ابتدره الناس كان فضل الماء الذي توضأ به النبي ﷺ.

ثانيًا: قوله يأخذون من فضل وضوئه كأنهم اقتسموا الماء الذي فضل عنه.

ثالثا: ويحتمل أن يراد به الماء الذي يتقاطر عن أعضاء المتوضئ وهو الماء الذي يقول له الفقهاء: الماء المستعمل[(٢)].

فالأغلب أنها كانت غسالة أعضائه ﷺ وإلا لما فعل بها الصحابة ما فعلوا؛ لأن ما يفضل من وضوئه في الإناء، مثل ما يفضل من وضوئه من البئر؛ فلولا كان الذي أخرجه بلال فضل وضوئه لما فعلوا به ما فعلوا[(٣)].

قلت: وإن كان المراد بفضل الوضوء ما تقاطر من أعضائه ﷺ من الماء؛ فهذا لا قذارة فيه كما سيأتي في الوجه التالي.

الوجه الثالث: هذا من التبرك المشروع.

أولًا: تعريف التبرك، وأنواعه، وحكمه، والفرق بينه وبين التوسل.

تعريف التبرك: هو طلب البركة، والتبرك بالشيء طلب البركة بواسطته.

أنواع التبرك: ينقسم التبرك إلى قسمين: مشروع، وممنوع:

التبرك المشروع: أي الذي شرعه الله تعالى أو رسوله ﷺ، وهو إما يكون واجبًا، أو مستحبًا، أو مباحًا.

---

(١) البخاري (١٩٠).

(٢) فتح الباري ١/ ٤٧٥، عمدة القاري ٤/ ٢٨٣.

(٣) اللباب في الجمع بين السنة والكتاب (١/ ٥١).

التبرك الممنوع: وهو التبرك بأشياء نص الشرع على النهي عنها، التحذير من فعلها، وما تجاوز حدود التبرك المشروع، وما لم يكن له مستند من الشرع أصلًا.

شروط التبرك المشروع: للتبرك الشرعي شروط لابد من توافرها، وهي:

الإيمان الشرعي المقبول عند الله فمن لم يكن مسلمًا صادق الإسلام؛ فلن يحقق الله له أي خير بتبركه هذا، كما يشترط للراغب في التبرك أن يكون حاصلًا على أثر من آثاره ﷺ ويستعمله ونحن نعلم أن آثاره من ثياب، أو شعر، أو فضلات، قد فقدت، وليس بإمكان أحد إثبات وجود شيء منها على وجه القطع واليقين، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن التبرك بهذه الآثار يصبح أمرًا غير ذي موضوع في زماننا هذا، ويكون أمرًا نظريًا محضًا[1].

الفرق بين التوسل والتبرك:

إن التبرك هو التماس من حاز أثرًا النبي ﷺ حصول خير به خصوصية له ﷺ.

وأما التوسل فهو إرفاق دعاء الله تعالى بشيء من الوسائل التي شرعها الله تعالى لعباده كأن يقول: اللهم إني أسألك بحبي لنبيك ﷺ أن تغفر لي ونحو ذلك، ويتبدى هذا الفرق في أمرين:

أولهما: أن التبرك يرجى به شيء من الخير الدنيوي فحسب بخلاف التوسل الذي يرجى به أي شيء من الخير الدنيوي والأخروي.

ثانيهما: أن التبرك هو التماس الخير العاجل كما سبق بيانه[2].

ثانيًا: التبرك بآثار النبي ﷺ.

بعد إثبات الفرق بين التوسل والتبرك نعلم أن آثار النبي ﷺ لا يُتوسل بها إلى الله تعالى، وإنما يُتبرك بها فحسب، أي يُرجى بحيازتها حصول بعض الخير الدنيوي كما سبق بيانه. وإننا نرى أن التوسل بآثار النبي ﷺ غير مشروع ألبتة. وأن من الافتراء على الصحابة ﭫ عليهم الادعاء بأنهم كانوا يتوسلون بتلك الآثار، ومن ادعى خلاف رأينا فعليه الدليل بأن يثبت أن الصحابة كانوا يقولون في دعائهم مثلا: اللهم ببصاق نبيك

---

(١) التوسل أنواعه وأحكامه (١/ ١٤٨).

(٢) التوسل أنواعه وأحكامه (١/ ١٤٣).

اشف مرضانا، أو اللهم ببول نبيك أو غائطه أجرنا من هذا. ولا بد من الإشارة إلى أننا نؤمن بجواز التبرك بآثاره ﷺ ولا ننكره خلافا لما يوهمه صنيع خصومنا[1].

ثالثا: العلة من ترك النبي ﷺ الصحابة يتبركون بآثاره، ويتمسحون به.

إن النبي ﷺ وإن أقر الصحابة في غزوة الحديبية وغيرها على التبرك بآثاره ﷺ والتمسح بها وذلك لغرض مهم، وخاصة في تلك المناسبة، وذلك الغرض هو إرهاب كفار قريش، وإظهار مدى تعلق المسلمين بنبيهم وحبهم له، وتفانيهم في خدمته وتعظيم شأنه؛ إلا أن الذي لا يجوز التغافل عنه ولا كتمانه أن النبي ﷺ بعد تلك الغزوة رغب المسلمين بأسلوب حكيم وطريقة لطيفة عن هذا التبرك، وصرفهم عنه، وأرشدهم إلى أعمال صالحة خير لهم منه عند الله ﷻ وأجدى وهذا ما يدل عليه الحديث الآتي.

عن عبد الرحمن بن أبي قراد ﷺ أن النبي ﷺ توضأ يوما فجعل أصحابه يتمسحون بوضوئه فقال لهم النبي ﷺ: " ما يحملكم على هذا؟ قالوا: حب الله ورسوله: فقال النبي ﷺ: من سره أن يحب الله ورسوله أو يحبه الله ورسوله فليصدق حديثه إذا حدث وليؤد أمانته إذا أؤتمن وليحسن جوار من جاوره"[2].

الوجه الرابع: تكميل الله تعالى له المحاسن خَلْقًا وخُلقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقًا.

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم الباحث عن تفاصيل جميل قدره العظيم، أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب ديني: وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله تعالى زلفى، ثم هي على فنين أيضًا منها ما يتخلص لأحد الوصفين ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب؛ مثل ما كان في حملته

---

(١) التوسل أنواعه وأحكامه (١/ ١٤٨).

(٢) حسن. التوسل للألباني صـ ١٤٦ وأخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٤٦٥٨)، والطبراني في الأوسط (٦٥١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٣٣)، وحسنه الألباني بمجموع الطرق في الصحيحه (٢٩٩٨).

من كمال خلقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه، وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه من غذائه، ونومه، وملبسه، ومسكنه، ومنكحه، وماله، وجاهه، وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونة البدن على سلوك طريقها، وكانت على حدود الضرورة وقواعد الشريعة.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلمية، والآداب الشرعية من الدين والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها؛ وهي التي جماعها: حسن الخلق.

وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلة لبعض الناس، وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها، ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلة شعبة وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله، والدار الآخرة، ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضيلها. وإذا كانت خصال الكمال والجلال ما ذكرناه، ورأينا الواحد منا يتشرف بواحدة منها أو اثنتين إن اتفقت له في كل عصر، إما من نسب أو جمال أو قوة أو علم أو حلم أو شجاعة أو سماحة، حتى يعظم قدره ويضرب باسمه الأمثال ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أثرة وعظمة وهو منذ عصور خوال رمم بوال، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عد ولا يعبر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوة، والرسالة، والخلة، والمحبة، والاصطفاء، والإسراء، والرؤية، والقرب، والوحي، والشفاعة، والوسيلة، والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق، والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء، والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة، والنذارة، والمكانة عند ذي العرش، والطاعة، والأمانة، والهداية، ورحمة

للعالمين، وإعطاء الرضي، والسؤل، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة، والعفو عما تقدم وما تأخر، وشرح الصدر، ووضع الإصر، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب، والحكمة، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، وتزكية الأمة، والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى، والملائكة، والحكم بين الناس بما أراه الله، والأغلال عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات، والعجم، وإحياء الموتى، وإسماع الصم، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، ورد الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع على الغيب، وظل الغمام، وتسبيح الحصى، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس إلى مالا يحويه محتفل ولا يحيط بعلمه إلا ما نحه ذلك، ومفضله به لا إله غيره إلى ما أعد له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القدس، ومراتب السعادة، والحسنى، والزيادة التي تقف دونها العقول ويحار دون إدراكها الوهم.

إن قلت أكرمك الله لا خفاء على القطع بالجملة أنه ﷺ أعلى الناس قدرًا وأعظمهم محلًا وأكملهم محاسن وفضلًا، وقد ذهبت في تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلًا شوقني إلى أن أقف عليها من أوصافه ﷺ تفصيلًا، فاعلم - نور الله قلبي وقلبك وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبك - أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة، وفى جبلة الخلقة وجدته ﷺ حائزًا لجميعها محيطًا بشتات محاسنها دون خلاف بين نقلة الأخبار لذلك، بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع، أما الصورة وجمالها تناسب أعضائه في حسنها فقد جاءت الآثار الصحيحة[1].

الوجه الخامس: من خصائص النبي ﷺ نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد ﷺ.

فكان قد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ثم تممها بنظافة الشرع وخصال الفطرة العشر، فعن أنس ﷺ قال: ما شممت عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، وعن جابر بن سمرة ﷺ أنه ﷺ مسح خده، قال: فوجدت ليده بردًا

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٥٩: ٥١).

وريحًا كأنما أخرجها من جؤنة عطار- الجؤنة بضم الجيم وسكون الهمزة وقد تسهل- قال غيره مسها بطيب أم لم يمسها، يصافح المصافح، فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي، فيعرف من بين الصبيان بريحها عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ دَخَلَ عَلَيْنَا النبي ﷺ فَقَالَ عِنْدَنَا، فَعَرِقَ وَجَاءَتْ أمي بِقَارُورَةٍ فَجَعَلَتْ تَسْلُتُ الْعَرَقَ فِيهَا فَاسْتَيْقَظَ النبي ﷺ فَقَالَ: " يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا الذي تَصْنَعِينَ". قَالَتْ هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه، وذكر إسحاق بن راهويه إن تلك كانت رائحته بلا طيب ﷺ، وروى المزني والحربي عن جابر رضي الله عنه: أردفني النبي ﷺ خلفه فالتقمت خاتم النبوة بفمي، فكان ينم على مسكًا وشاهد هذا أنه ﷺ لم يكن منه شيء يكره ولا غير طيب، ومنه حديث علي رضي الله عنه غسلت النبي ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجد شيئًا فقلت: طبت حيًّا وميتًا، قال: وسطعت منه ريح طيبة لم نجد مثلها قط، ومثله قال أبو بكر رضي الله عنه حين قبَّل النبي ﷺ بعد موته: طبت حيًا وميتًا [2].

الوجه السادس: شق صدر النبي ﷺ وتطهير قلبه من حظ الشيطان.

فعَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَالِكٍ يَقُولُ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِرَسولِ الله ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ أَنَّهُ جَاءَهُ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ وَهْوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ أَوَّلُهُمْ أَيُّهُمْ هُوَ، فَقَالَ: أَوْسَطُهُمْ هُوَ خَيْرُهُمْ. فَقَالَ آخِرُهُمْ خُذُوا خَيْرَهُمْ. فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلَةً أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ، وَتَنَامُ عَيْنُهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلاَ تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ، فَتَوَلاَّهُ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبَّتِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَدْرِهِ وَجَوْفِهِ، فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أُتِىَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ، مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ- يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ- ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَضَرَبَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِهَا، فَنَادَاهُ أَهْلُ السَّمَاءِ: مَنْ هَذَا فَقَالَ جِبْرِيلُ. قَالُوا وَمَنْ

(١) صحيح مسلم (٦٢٠١)، وذكر البخاري في تاريخه الكبير (١٢٧٣).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٦٧)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٦١ -٦٦)

مَعَكَ قَالَ مَعِي مُحَمَّدٌ. قَالَ وَقَدْ بُعِثَ قَالَ نَعَمْ. قَالُوا فَمَرْحَبًا بِهِ وَأَهْلًا. فَيَسْتَبْشِرُ بِهِ أَهْلُ السَّمَاءِ، لاَ يَعْلَمُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِمَا يُرِيدُ الله بِهِ فِي الأَرْضِ حَتَّى يُعْلِمَهُمْ[1].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ- يَعْنِى ظِئْرَهُ- فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ. فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ[2].

الوجه السابع: الرد على اليهود والنصارى بما عندهم من تمسح.

وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً، إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ، جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ، وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً، وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ، وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهَنُهُمَا بِالطِّيبِ. فَلَمَّا رَأَى الْفَرِّيسِيُّ الَّذِي دَعَاهُ ذلِكَ، تَكَلَّمَ فِي نَفْسِهِ قِائِلًا: «لَوْ كَانَ هذَا نَبِيًّا، لَعَلِمَ مَنْ هذِهِ الامْرَأَةُ الَّتِي تَلْمِسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ». (لوقا ٧/ ٣٩: ٣٧).

وفي سفر الخروج (٢٨ / ٤١ : ٤٠): «وَلِبَنِي هَارُونَ تَصْنَعُ أَقْمِصَةً، وَتَصْنَعُ لَهُمْ مَنَاطِقَ، وَتَصْنَعُ لَهُمْ قَلاَنِسَ لِلْمَجْدِ وَالْبَهَاءِ. وَتُلْبِسُ هَارُونَ أَخَاكَ إِيَّاهَا وَبَنِيهِ مَعَهُ، وَتَمْسَحُهُمْ، وَتَمْلأُ أَيَادِيهِمْ، وَتُقَدِّسُهُمْ لِيَكْهَنُوا لِي.

سفر الخروج (٤٠/ ١٥ : ٩): وَتَأْخُذُ دُهْنَ الْمَسْحَةِ وَتَمْسَحُ الْمَسْكَنَ وَكُلَّ مَا فِيهِ، وَتُقَدِّسُهُ وَكُلَّ آنِيَتِهِ لِيَكُونَ مُقَدَّسًا. وَتَمْسَحُ مَذْبَحَ الْمُحْرَقَةِ وَكُلَّ آنِيَتِهِ، وَتُقَدِّسُ الْمَذْبَحَ لِيَكُونَ الْمَذْبَحُ قُدْسَ أَقْدَاسٍ. وَتَمْسَحُ الْمِرْحَضَةَ وَقَاعِدَتَهَا وَتُقَدِّسُهَا. وَتُقَدِّمُ هَارُونَ وَبَنِيهِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَتَغْسِلُهُمْ بِمَاءٍ. وَتُلْبِسُ هَارُونَ الثِّيَابَ الْمُقَدَّسَةَ وَتَمْسَحُهُ وَتُقَدِّسُهُ لِيَكْهَنَ لِي. وَتُقَدِّمُ بَنِيهِ وَتُلْبِسُهُمْ أَقْمِصَةً. وَتَمْسَحُهُمْ كَمَا مَسَحْتَ أَبَاهُمْ لِيَكْهَنُوا لِي. وَيَكُونُ ذلِكَ لِتَصِيرَ لَهُمْ مَسْحَتُهُمْ كَهَنُوتًا أَبَدِيًّا فِي أَجْيَالِهِمْ.

* * *

(١) البخاري (٧٥١٧).

(٢) مسلم (٤٣١)

٣٧ـ شبهة: اتهام النبي ﷺ بمحاولة الانتحار.

نص الشبهة:

إن هذه الشبهة واحدة من الشبه التي يثيرها أعداء الإسلام وخاصة النصارى للنيل من شخصية النبي ﷺ وإظهارها أمام الناس أو المسلمين بصفة خاصة على أنها شخصية عادية بل أقل من العادية ويصورونه على أنه إنسان يائس من الحياة يقدم على مثل هذه المحاولة كي يتخلص من حياته.

وللرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: جمع طرق الحديث الذي وردت فيه القصة والحكم على الحديث بما تقتضيه أصول الحديث ونقد الروايات الضعيفة.

الوجه الثاني: الكلام على عصمة النبي ﷺ وحفظ الله له من الوقوع في مثل هذه المعصية.

الوجه الثالث: هل الإنسان يؤاخذ على ما يجول في خاطره ويحاسب عليه حتى ولو لم يُقدم على فعله؟

الوجه الرابع: ما هي عقوبة من يحاول الانتحار أو قتل نفسه في الشريعة الإسلامية؟.

الوجه الخامس: إثبات حدوث الانتحار في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: جمع طرق الحديث الذي وردت فيه القصة والحكم على الحديث بما تقتضيه أصول الحديث ونقد الروايات

الطريق الأول للرواية:

نص رواية البخاري التي وردت فيها القصة محل الشبهة وهي تعد أوفى موضع للقصة، وهي في كتابه (التعبير) من صحيح البخاري:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ ح وحَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ،

فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي" فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ يَا خَدِيجَةُ مَا لِي وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ وَقَالَ قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ لَهُ كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخُو أَبِيهَا وَكَانَ امْرَءًا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ فَيَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا رَأَى فَقَالَ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ" فَقَالَ وَرَقَةُ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى **حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ وَتَقِرُّ نَفْسُهُ فَيَرْجِعُ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ**[1].

---

(١) انفرد الزهري برواية الحديث، ورواه عنه جماعة وهم:

١ - رواه معمر عن الزهري، وأخرجها كلٌّ من:

البخاري (٦٩٨٢)، ومن طريقه البغوي في تفسيره (٨/ ٤٧٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٣٢٣)، ورواها أيضًا في تفسيره بنفس الإسناد مختصرة (٣٢٧٩)، وابن منده في الإيمان (٦٨٣)، والبيهقي في دلائل النبوة

وإليك تفصيل الحكم على بلاغات الزهري:

عن أحمد بن سنان الواسطي قال: كان يحيى بن سعيد القطان لا يرى إرسال الزهري وقتادة شيئًا، ويقول: هو بمنزلة الريح، ويقول: هؤلاء قوم حفاظ كانوا إذا سمعوا الشيء علقوه(١).

وقال الحافظ العلائي: اختلف في مراسيل الزهري لكن الأكثر على تضعيفها، قال أحمد بن أبي شريح: سمعت الشافعي يقول: يقولون نحابي ولوحابينا أحدًا لحابينا الزهري وإرسال الزهري ليس بشيء ذلك أن نجده يروي عن سليمان بن أرقم، وقال أبو قدامة عبيد الله بن سعيد: سمعت يحيى بن سعيد يعني القطان يقول: مرسل الزهري شر من مرسل غيره، لأنه حافظ وكلما قدر أن يسمي سمي وإنما يترك من لا يستجيز أن يسميه، وروى عباس الدوري عن يحيى بن معين قال: مراسيل الزهري ليست بشيء، وقال يعقوب بن سفيان: سمعت جعفر بن عبد الواحد الهاشمي يقول لأحمد بن صالح-يعني المصري- قال يحيى بن سعيد: مرسل الزهري شبه لاشيء(٢).

قال الذهبي: مراسيل الزهري كالمعضل؛ لأنه يكون قد سقط منه اثنان، ولا يسوغ أن نظن به أنه أسقط الصحابي فقط، ولو كان عنده عن صحابي لأوضحه، ولما عجز عن وصله، ولو أنه يقول: عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ومن عَدَّ مرسل الزهري كمرسل

(٢/ ١٣٨: ١٣٧)، وإسحاق بن راهوية في مسنده (٢/ ٣١٤)، واللالكائي في أصول الاعتقاد من طريقين (٤/ ٨٣٤: ٨٣٣)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢١٩)، وأخرجها بنفس الإسناد في الثقات (١/ ٥١، ٤٨)، والسيرة (١/ ٦٣)، والطبري في تاريخه (١/ ٥٣٥)، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٣٣)، والثعلبي في تفسيره (١٤/ ١٥٦)، والدولابي في الذرية الطاهرة (١/ ٢٦)، وابن الجوزي في المنتظم (١/ ٢٤٥)، وابن عبد البر في اختصار المغازي (١/ ٢)، وأبو نعيم في الدلائل (١/ ١٦٨).

٢-رواه يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري، وأخرجها كلٌ من: أبو عوانة الاسفرائيني في مسنده (١/ ١٠٣: ١٠٢)، وابن منده في الإيمان (٦٨١).

٣-رواه عقيل بن خالد عن الزهري، وأخرجه كلٌ من: ابن منده في الإيمان (٦٨٥)، البخاري (٦٩٨٢).

وقد روى عنه هذه القصة بلفظ (فيما بلغنا) ثلاثة هم معمر بن راشد، وعقيل بن خالد، ويونس بن يزيد الأيلي كلهم عن الزهري **ولفظه فيما بلغنا هي من كلام الزهري رحمه الله، وبلاغات الزهري واهية كما نص على ذلك جمع من العلماء.**

(١) الجرح والتعديل (١/ ٢٤٦).

(٢) جامع التحصيل (١/ ٩١: ٩٠).

سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ونحوهما، فإنه لم يَدْرِ ما يقول، نعم مرسله كمرسل قتادة ونحوه[١].

فهذا هو قول العلماء في بلاغات الزهري رحمه الله.

وهنا يبرز إشكال: طالما أن بلاغات الزهري واهية لا تصح كيف أخرج البخاري في صحيحه هذه الرواية بهذا اللفظ؟.

والرد على الإشكال من وجهين:

الأول: بيان مكانة الإمام البخاري في العلل:

قال أحمد ابن يسار المروزي محمد بن إسماعيل طلب العلم وجالس الناس ورحل في الحديث ومهر فيه وأبصر وكان حسن المعرفة حسن الحفظ وكان يتفقه.

وقال يوسف بن ريحان سمعت محمد بن إسماعيل يقول كان علي بن المديني يسألني عن شيوخ خراسان إلى أن قال: كل من أثنيت عليه فهو عندنا الرضى.

وقال الفربري سمعت محمد بن إسماعيل يقول ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي وربما كنت أغرب عليه وقال إسحاق بن أحمد بن خلف البخاري حدثني حامد ابن أحمد قال ذكر لعلي بن المديني قول محمد بن إسماعيل ما تصاغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني فقال ذروا قوله ما رأى مثل نفسه.

قال عمرو بن علي: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث، وقال أبو مصعب: محمد ابن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر من ابن حنبل.

وقال ابن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ ولا أحفظ له من البخاري.

وقال الترمذي: لم أر في معنى العلل والرجال أعلم من محمد بن إسماعيل.

وقال حاشد بن عبد الله: رأيت محمد بن رافع وعمرو بن زرارة عند محمد بن إسماعيل يسألانه عن علل الحديث فلما قاما قالا لمن حضر: لا تخدعوا عن أبي عبد الله فإنه أفقه منا وأعلم وأبصر.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٣٩).

قال العقيلي: لما ألف البخاري كتابه الصحيح عرضه على بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل وغيرهم فامتحنوه وكلهم قال: كتابك صحيح إلا أربعة أحاديث، قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة(١).

الثاني: توجيه إخراج البخاري للمعلق والبلاغ في كتابه:

وقد بيّن ذلك ابن حجر في الفصل الرابع من هدي الساري وهو مقدمة فتح الباري، فقال: الفصل الرابع، في بيان السبب في إيراده للأحاديث المعلقة (مرفوعة وموقوفة)، وشرح أحكام ذلك.

والمراد بالتعليق ما حذف من مبتدأ إسناده واحد فأكثر، ولو إلى آخر الإسناد وتارة يجزم به كقول وتارة لا يجزم به كيذكر، فأما المعلق من المرفوعات فعلى قسمين: أحدهما: ما يوجد في موضع آخر من كتابه هذا موصولًا، وثانيهما: ما لا يوجد فيه إلا معلقًا، فالأول قد بينا السبب فيه في الفصل الذي قبل هذا وأنه يورده معلقًا حيث يضيق مخرج الحديث، إذ من قاعدته أنه لا يكرر إلا لفائدة، فمتى ضاق المخرج واشتمل المتن على أحكام فاحتاج إلى تكريره، فإنه يتصرف في الإسناد بالاختصار خشية التطويل، والثاني وهو ما لا يوجد فيه إلا معلقًا، فإنه على صورتين، إما أن يورده بصيغة الجزم، وإما أن يورده بصيغة التمريض، فالصيغة الأولى يستفاد منها الصحة إلى من علق عنه لكن يبقى النظر فيمن أبرز من رجال ذلك الحديث، فمنه ما يلتحق بشرطه، ومنه ما لا يلتحق، أما ما يلتحق فالسبب في كونه لم يوصل إسناده إما لكونه أخرج ما يقوم مقامه فاستغنى عن إيراد هذا مستوفى السياق ولم يهمله، بل أورده بصيغة التعليق طلبًا للاختصار، وإما لكونه لم يحصل عنده مسموعًا، أو سمعه وشك في سماعه له من شيخه، أو سمعه من شيخه مذاكرة، فما رأى أنه يسوقه مساق الأصل، وغالب هذا فيما أورده عن مشايخه فمن ذلك أنه قال في كتاب الوكالة: قال عثمان بن الهيثم حدثنا عوف حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة ﷺ قال:

(١) تهذيب التهذيب (٧/ ٤٧: ٤٤).

وكلني رسول الله ﷺ بزكاة رمضان. . . الحديث بطوله، وأورده في مواضع أخرى منها في فضائل القرآن وفي ذكر إبليس ولم يقل في موضع منها حدثنا عثمان، فالظاهر أنه لم يسمعه منه، وقد استعمل المصنف هذه الصيغة فيما لم يسمعه من مشايخه في عدة أحاديث، فيوردها عنهم بصيغة قال فلان ثم يوردها في موضع آخر بواسطة بينه وبينهم وسيأتي لذلك أمثلة كثيرة في مواضعها، فقال في التاريخ: قال إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف فذكر حديثًا، ثم قال: حدثوني بهذا عن إبراهيم، ولكن ليس ذلك مطردًا في كل ما أورده بهذه الصيغة، لكن مع هذا الاحتمال لا يحمل حمل جميع ما أورده بهذه الصيغة على أنه سمع ذلك من شيوخه، ولا يلزم من ذلك أن يكون مدلسًا عنهم، فقد صرح الخطيب وغيره بأن لفظ (قال) لا يحمل على السماع إلا ممن عرف من عادته أنه لا يطلق ذلك إلا فيما سمع، فاقتضى ذلك أن من لم يعرف ذلك من عادته كان الأمر فيه على الاحتمال.

وأما ما لا يلتحق بشرطه فقد يكون صحيحًا على شرط غيره وقد يكون حسنًا صالحًا للحجة، وقد يكون ضعيفًا لا من جهة قدح في رجاله، بل من جهة انقطاع يسير في إسناده، قال الإسماعيلي: قد يصنع البخاري ذلك، إما لأنه سمعه من ذلك الشيخ بواسطة من يثق به عنه وهو معروف مشهور عن ذلك الشيخ، أو لأنه سمعه ممن ليس من شرط الكتاب، فنبه على ذلك الحديث بتسمية من حدث به لأعلى جهة التحديث به عنه.

قلت: والسبب فيه أنه أراد أن لا يسوقه مساق الأصل.

والصيغة الثانية وهي صيغة التمريض لا تستفاد منها الصحة إلا من علق عنه لكن فيه ما هو صحيح وفيه ما ليس بصحيح على ما سنبينه فأما ما هو صحيح فلم نجد فيه ما هو على شرطه إلا مواضع يسيره جدًّا ووجدناه لا يستعمل ذلك إلا حيث يورد ذلك الحديث المعلق بالمعنى كقوله في الطب ويذكر عن بن عباس عن النبي ﷺ في الرقي بفاتحة الكتاب فإنه أسنده في موضع آخر من طريق عبيد الله بن الأخنس عن بن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفرا من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي فيهم لديغ فذكر الحديث في رقيتهم للرجل بفاتحة الكتاب وفيه

قول النبي ﷺ لما أخبروه بذلك: "أن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله "، فهذا كما ترى لما أورده بالمعنى لم يجزم به، إذ ليس في الموصول أنه ﷺ ذكر الرقية بفاتحةِ الكتاب، إنما فيه أنه لم ينههم عن فعلهم، فاستفيد ذلك من تقريره وأما مال لم يورده في موضع آخر مما أورده بهذه الصيغة، فمنه ما هو صحيح، إلا أنه ليس على شرطه، ومنه ما هو حسن، ومنه ما هو ضعيف فرد، إلا أن العمل على موافقته، ومنه ما هو ضعيف فرد لا جابر له.

ومثال الرابع وهو الضعيف الذي لا عاضد له وهو في الكتاب قليل جدًّا وحيث يقع ذلك فيه يتعقبه المصنف بالتضعيف بخلاف ما قبله فمن أمثلته قوله في كتاب الصلاة ويذكر عن أبي هريرة رفعه لا يتطوع الإمام في مكانه ولم يصح فيه فهذا حكم جميع ما في الكتاب من التعاليق المرفوعة بصيغتي الجزم والتمريض وهاتان الصيغتان قد نقل النووي إتفاق محققي المحدثين وغيرهم على اعتبارهما وأنه لا ينبغي الجزم بشئ ضعيف لأنها صيغة تقتضي صحته عن المضاف إليه فلا ينبغي أن تطلق إلا فيما صح قال وقد أهمل ذلك كثير من المصنفين من الفقهاء وغيرهم واشتد إنكار البيهقي على ما خالف ذلك وهو تساهل قبيح جدًّا من فاعله إذ يقول في الصحيح يذكر ويروي وفي الضعيف قال وروى وهذا قلب للمعاني وحيد عن الصواب قال وقد اعتنى البخاري رحمه الله باعتبار هاتين الصيغتين وإعطائهما حكمهما في صحيحه فيقول في الترجمة الواحدة بعض كلامه بتمريض وبعضه يجزم مراعيًا ما ذكرنا وهذا مشعر بتحريه وورعه وعلى هذا فيحمل قوله ما أدخلت في الجامع إلا ما صح أي مما سقت إسناده والله تعالى أعلم انتهى كلامه وقد تبين مما فصلنا به أقسام تعاليقه أنه لا يفتقر إلى هذا الحمل وأن جميع ما فيه صحيح باعتبار أنه كله مقبول ليس فيه ما يرد مطلقًا إلا النادر فهذا حكم المرفوعات وأما الموقوفات فإنه يجزم منها بما صح عنده ولو لم يكن على شرطه ولا يجزم بما كان في إسناده ضعف أو انقطاع إلا حيث يكون منجبرًا أما بمجيئه من وجه آخر وإما بشهرته عمن قاله وإنما يورد ما يورد من الموقوفات من فتاوى الصحابة والتابعين ومن تفاسيرهم لكثير من الآيات على طريق الاستئناس والتقوية لما يختاره من المذاهب في المسائل التي فيها

الخلاف بين الأئمة فحينئذ ينبغي أن يقال جميع ما يورد فيه إما أن يكون مما ترجم به أو مما ترجم له فالمقصود من هذا التصنيف بالذات هو الأحاديث الصحيحة المسندة وهي التي ترجم لها والمذكور بالعرض والتبع الآثار الموقوفة والأحاديث المعلقة نعم والآيات المكرمة فجميع ذلك مترجم به إلا أنها إذا اعتبرت بعضها مع بعض واعتبرت أيضًا بالنسبة إلى الحديث يكون بعضها مع بعض منها مفسر ومنها مفسر فيكون بعضها كالمترجم له باعتبار ولكن المقصود بالذات هو الأصل فافهم هذا فإنه مخلص حسن يندفع به اعتراض كثير عما أورده المؤلف من هذا القبيل، والله الموفق.

وبعد هذا البيان نقول إن الإمام البخاري رحمه الله تعالى وهو أمير المؤمنين في الحديث كان إمامًا في العلل ولا يتصور أبدًا أن مثل هذه العلة تخفى عليه ودليل ذلك أنه روى الحديث في صحيحه في ستة مواضع من صحيحه كلها عن الزهري بدون هذه اللفظة، ولم يروى هذه اللفظة إلا في موضع واحد من صحيحه في كتاب التعبير[1] بلاغًا كما أشرنا في مقدمة الكلام، فهذا إن دل يدل أن البخاري إنما أوردها لبيان علتها كعادته في كثير من المواضع في صحيحه، وإليك نص كلام الحافظ ابن حجر رحمه الله على هذه اللفظة:

وقوله هنا: " فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا " هَذَا وَمَا بَعْده مِنْ زِيَادَة مَعْمَر عَلَى رِوَايَة عُقَيْل ويُونُس. (وأقول أنا أن هذه المقالة وقعت في كل من رواية عقيل مقرونًا مع معمر في رواية البخاري السابقة ووقعت في مسند أبي عوانة في رواية يونس بن يزيد (١/ ١٠٢/ ١٠٣) ووقعت كذلك عند ابن منده عن كليهما عن عقيل (٢/ ٦٧٣: ٦٧٢)، وعن يونس (٢/ ٦٦٨) وكذلك الدولابي في الذرية الطاهرة (١/ ٢٦) عن يونس).

يقول الحافظ ابن حجر: وصنيع المؤلف يوهم أنه داخل في رواية عقيل، وقد جرى على ذلك الحميدي في جمعه فساق الحديث إلى قوله " وفتر الوحي فترة حتى حزن " فساقه إلى آخره، والذي عندي -أي الحافظ -أن هذه الزيادة خاصة برواية معمر فقد أخرج

(١) البخاري (٦٩٨٢).

طريق عقيل أبو نعيم في مستخرجه من طريق أبي زرعة الرازي عن يحيى بن بكير شيخ البخاري فيه في أول الكتاب بدونها، وأخرجه مقرونًا هنا برواية معمر وبين أن اللفظ لمعمر وكذلك صرح الإسماعيلي أن الزيادة في رواية معمر، وأخرجه البخاري ومسلم والإسماعيلي وغيرهم وأبو نعيم أيضًا من طريق جمع من أصحاب الليث عن الليث بدونها، ثم إن القائل فيما بلغنا هو الزهري، ومعنى الكلام أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة وهو من بلاغات الزهري وليس موصولًا، وقال الكرماني: هذا هو الظاهر ويحتمل أ، يكون بلغه الإسناد المذكور، ووقع عند ابن مردويه في التفسير من طريق محمد بن كثير عن معمر بإسقاط قوله: " فيما بلغنا " ولفظة: " فترة حزن النبي ﷺمنها حزنًا غدا منه " إلى آخره فصار كله مدرجًا على رواية الزهري وعن عروة عن عائشة، والأول هو المعتمد.

فليس الاقتصار على رواية معمر فقط في إيراد القصة ولكنها وقعت في رواية يونس وعقيل كما أشرنا.

وقوله: " مكث أيامًا بعد مجيء الوحي لا يرى جبريل فحزن حزنًا شديدًا حتى كاد يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء أخرى يريد أن يلقي نفسه فبينا هو كذلك عامدًا لبعض تلك الجبال إذ سمع صوتًا فوقف فزعًا ثم رفع رأسه فإذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متربعًا يقول يا محمد أنت رسول الله حقًا وأنا جبريل، فانصرف وقد أقر الله عينه وانبسط جأشه ثم تتابع الوحي " فيستفاد من هذه الرواية تسمية بعض الجبال التي أبهمت في رواية الزهري وتقليل مدة الفترة والله أعلم، وقد تقدم في تفسير سورة الضحى شيء يتعلق بفترة الوحي.

نص الرواية الثانية في قصة فتور الوحي:

قال ابن سعد في طبقاته (١/ ١٩٦): أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني إبراهيم بن محمد بن أبي موسى عن داود بن الحصين عن أبي غطفان بن طريف عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أيامًا لا يرى جبريل، فحزن حزنًا شديدًا

حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء مرة يريد أن يلقي نفسه منه، فبينا رسول الله ﷺ كذلك عامدًا لبعض تلك الجبال إلى أن سمع صوتًا من السماء، فوقف رسول الله ﷺ صعقًا للصوت ثم رفع رأسه فإذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متربعًا عليه يقول: يا محمد أنت رسول الله حقًا وأنا جبريل، قال: فانصرف رسول الله ﷺ وقد أقر الله عينه وربط جأشه، ثم تتابع الوحي بعد وحمي.

بيان ضعف الرواية:

أولًا: فيها الواقدي وهو كذاب متروك الحديث ومعلوم أن الحديث إذا كان في سنده كذاب أو متروك لا يحتج به لا في الأصول ولا في الشواهد والمتابعات.

قال البخاري: الواقدي مدني سكن بغداد متروك الحديث تركه أحمد وابن المبارك وابن نمير وإسماعيل بن زكريا وقال في موضع آخر كذبه أحمد وقال معاوية بن صالح قال لي أحمد بن حنبل: الواقدي كذاب، وقال لي يحيى بن معين ضعيف وقال مرة ليس بشيء وقال مرة كان يقلب حديث يونس يغيره عن معمر ليس بثقة وقال مرة ليس بشيء قال ابن المديني الهيثم بن عدي اوثق عندي من الواقدي ولا أرضاه في الحديث(١).

وأحيلك على ترجمة مفصلة للواقدي في بحث أجري على شبهة عن نسب النبي ﷺ.

٢- إبراهيم بن محمد بن أبي موسى، قال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة(٢)، قال لم أعرفه، ثم قال ولكني أظن أن جده (أبا موسى) محرف من (أبي يحيى) فإن كان كذلك فهو معروف ولكن بالكذب، وهو إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني، كذبه جماعة، قال الحافظ في التقريب: متروك(٣).

قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في تهذيب التهذيب(٤)على وجه الإجمال:

(١) تهذيب التهذيب (٥/ ٢٣٤).
(٢) السلسلة الضعيفة (٣/ ١٦١).
(٣) التقريب (١/ ٣٣).
(٤) التهذيب (١/ ١٧٦-١٧٨).

قال يحيى بن سعيد القطان: سألت مالكًا عنه أكان ثقة؟ قال: لا، ولا ثقة في دينه.

قال عبد الله بن أحمد عن أبيه: كان قدريًا معتزليًا جهميًا كل بلاء فيه، وقال أبو طالب عن أحمد: لا يكتب حديثه ترك الناس حديثه، كان يروي أحاديث منكرة لا أصل لها، وكان يأخذ أحاديث الناس يضعها في كتبه.

قال بشر بن المفضل: سألت فقهاء أهل المدينة عنه فكلهم يقولون: كذاب، وقال ابن المديني عن يحيى القطان: كذاب.

قال البخاري: جهمي تركه ابن المبارك والناس، كان يرى القدر، وقال عباس عن ابن معين: ليس بثقة.

قال الجوزجاني: غير مقنع ولا حجة، فيه ضروب من البدع.

قال النسائي: متروك الحديث، وقال في موضوع آخر: ليس بثقة، ولا يكتب حديثه.

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول كان قدريًا، وقال الدارقطني: متروك، وقال ابن حبان: كان يرى القدر.

قال أبو زرعة: ليس بشيء، وقال العجلي: كان قدريًا معتزليًا، رافضيًا.

فهل بعد هذان الكاذبان في هذه الرواية يمكن أن تقوم بها قائمة أو أن يستدل بها في إثارة هذه الشبهة.

نص الرواية الثالثة التي رواها الطبري في تاريخه وقد روى الطبري هذه القصة في ثلاثة مواضع من تاريخه متتالية وبأسانيد مختلفة وفي بعض ألفاظها تغاير وقد قسمتها إلى ثلاث روايات هي كالآتي: -

قال الطبري رحمه الله[1] وقد روى الحديث وفيه قصة طويلة: -

حدثنا بن حميد قال حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني وهب بن كيسان مولى آل الزبير قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٣٢).

حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاء جبريل ﵇، فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرًا وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية والتحنث التبرر، وقال أبو طالب: وَرَاقٍ لَيْرقى في حِرَاءٍ وَنَازِل فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله ﷻ فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها، وذلك في شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله، فقال رسول الله ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ؟ ، فقلت: ما أقرأ، فغتني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ؟ فقلت: ماذا أقرأ؟ ، وما أقول ذلك إلا افتدًاء منه أن يعود إلى بمثل ما صنع بي، قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾، قال: فقرأته قال ثم انتهى ثم انصرف عنى وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابًا.

قال ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إلى من شاعر أو مجنون كنت لا أطيق أن أنظر إليهما قال قلت إن الأبعد يعنى نفسه لشاعر أو مجنون لا تحدث بها عني قريش أبدًا! **لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن قال فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل** قال: فرفعت رأسي إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل قال فوقفت أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت

خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ثم انصرف عنى وانصرفت راجعًا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا فقالت يا أبا القاسم أين كنت فو الله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى قال قلت لها أن الأبعد لشاعر أو مجنون فقالت أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ما كان الله ليصنع ذلك بك ما أعلم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصلة رحمك وما ذاك يا ابن عم لعلك رأيت شيئًا قال فقلت لها نعم ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر يعنى بالناموس جبريل عليه السلام الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة فسهل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها فلقيه ورقة ابن نوفل وهو يطوف بالبيت فقال يا ابن أخي أخبرني بما رأيت أو سمعت فأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرن الله نصرًا يعلمه ثم أدنى رأسه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتا وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهم.

وهذه الرواية إسنادها مسلسل بالعلل ومتنها منكر لا يصح وإليك البيان:

أما السند ففيه ابن حميد وهو: محمد بن حميد بن حيان التميمي الحافظ، أبو عبد الله الرازي، وقال الحافظ: حافظ ضعيف وكان ابن معين حسن الرأي فيه[١].

قال أبو حاتم الرازي: سألني يحيى بن معين عن ابن حميد من قبل أن يظهر منه ما ظهر، فقال: أي شيء ينقمون منه؟ فقلت: يكون في كتابه شيء، فيقول: ليس هذا هكذا، فيأخذ القلم ويغيره، فقال: بئس هذه الخصلة قدم علينا بغداد فأخذنا منه كتاب يعقوب القمي ففرقنا الأوراق بيننا ومعنا أحمد فسمعناه ولم نر إلا خيرًا.

وقال يعقوب بن شيبة: محمد بن حميد كثير المناكير وقال البخاري: في حديثه نظر، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال الجورجاني: رديء المذهب غير ثقة.

وقال فضلك الرازي: عندي عن ابن حميد خمسون آلف حديث لا أحدث عنه بحرف وقال البيهقي: كان إمام الأئمة ـ يعنى: ابن خزيمة ـ لا يروى عنه.

وقال النسائي فيما سأله عنه حمزة الكناني: محمد بن حميد ليس بشيء، قال: فقلت له: البتة؟! قال: نعم، قلت: ما أخرجت له شيئًا؟ قال: لا، قال: وذكرته له يومًا، فقال: غرائب عندي عنه، وقال في موضع آخر: محمد بن حميد كذاب، وكذا قال ابن وارة.

وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بالمقلوبات، وقال أبو على النيسابورى: قلت لابن خزيمة: لو حدث الأستاذ عن محمد بن حميد فإن أحمد قد أحسن الثناء عليه؟ فقال: إنه لم يعرفه، ولو عرفه كما عرفناه ما أثنى عليه أصلًا.

فهذا هو مجمل كلام أهل الجرح والتعديل في محمد بن حميد وترجمته كما ترون مظلمة لم يوثقه إلا أحمد ويحيى وقد بينا لماذا وثقاه؟ وكيف بين ابن خزيمة علة التوثيق له كما أشرنا، والله أعلم.

العلة الثانية في السند:

هي سلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري، مولاهم أبو عبد الله الأزرق، قاضي الري.[٢]

قال البخارى: عنده مناكير، وهَّنَهُ علي، قال علي: ما خرجنا من الري حتى رمينا بحديثه

(١) التقريب (٢/ ٥١١).

(٢) تقريب التهذيب (٣/ ٤٤٠: ٤٣٩). وانظر ترجمته في تهذيب المزي

وقال البرذعي عن أبي زرعة: كان أهل الري لا يرغبون فيه لمعان فيه، من سوء رأيه وظلم فيه، وأما إبراهيم بن موسى فسمعته غير مرة وأشار أبو زرعة إلى لسانه يريد الكذب.

قال أبو حاتم: محله الصدق، في حديثه إنكار، يكتب حديثه ولا يحتج به.

وقال النسائي: ضعيف، وقال الدوري عن ابن معين: كتبنا عنه وليس به بأس، وكان يتشيع. وقال ابن سعد: كان ثقة صدوقًا، وهو صاحب مغازي ابن إسحاق، قلت -أي الحافظ-: قرأت بخط الذهبي: مات سنة (١٩١)، وكأنه أخذه من قول البخاري.

وقال الترمذي: كان إسحاق يتكلم فيه، وقال ابن عدي عن البخاري: ضعفه إسحاق، وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي عندهم. وقال الآجري عن أبي داود: ثقة، وذكره ابن خلفون أن أحمد سئل عنه، فقال: لا أعلم إلا خيرًا. وفيه محمد بن إسحاق مدلس لكنه صرح بالسماع.

العلة الثالثة في السند:

هي عبيد بن عمير بن قتادة الليثي ليس صحابيًا إنما هو من كبار التابعين، قال ابن عبد البر: يكنى أبا عاصم، قاضي أهل مكة، ذكر البخاري أنه رأى النبي ﷺ، وذكره مسلم بن الحجاج فيمن وُلد على عهد رسول الله ﷺ، وهو معدود في كبار التابعين سمع عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم[1].

قال ابن معين، وأبو زرعة: ثقة، وقال العوام بن حوشب: رأى ابن عمر في حلقة عبيد بن عمير يبكي.

قلت -أي الحافظ-: وقال ابن حبان في الثقات: مات سنة (٦٨)، وقال العجلي: مكي، تابعي، ثقة من كبار التابعين، يُرْوَى عن مجاهد أنه قال: نفخر على التابعين بأربعة فذكره فيهم.

ومما سبق تبين أن عبيد بن عمير من كبار التابعين ولم تثبت له صحبة وهو يحكي حديثًا عن النبي ﷺ فيحكم على حديثه بالإرسال كما نص على ذلك علماء الحديث أن الإرسال:

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١٣٨-١٣٩). وانظر ترجمته في كل من أسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٤٤٠)، الإصابة (٦٢٤٧) وانظر تهذيب التهذيب (٥/ ٤٣٠-٤٣١).

هو قول التابعي الكبير قال رسول الله ﷺ والمرسل عند علماء الحديث من قسم الضعيف لا تثبت به أحكام ولا غيرها.

إذن فالرواية ساقطة من جهة السند كما أشرنا والله أعلم.

أما المتن فمنكر لا يصح من وجوه:

الوجه الأول: أن الرواية تقول إن جبريل جاء النبي ﷺ في المنام وهذا باطل يخالف ما رواه الثقات كالبخاري ومسلم وغيرهما كما أشرنا في جمع طرق الحديث فانظره. من أن جبريل عليه السلام جاءه في الحقيقة وليس في المنام وأن الرؤيا حقيقية.

الوجه الثاني: أن الرواية تقول أنه قال له " اقرأ " فقال له النبي ﷺ " ماذا أقرأ " فهذا أيضًا يخالف ما رواه البخاري وغيره من أن اللفظ الذي قاله النبي ﷺ " ما أنا بقاريء " وهي نفي القراءة مطلقًا إذ النبي ﷺ أُميّ لا يعرف القراءة.

أما لفظ " ماذا أقرأ " فقد يؤدي إلى معنى: أي شيء أقرأ؟ ، فلا يفهم منه أنه لا يعرف القراءة ولكن يفهم منه أنه يسأل عن أي شيء أقرأ لك.

الطريق الثاني للرواية:

قال الطبري[1]: حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن الزهري قال فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة فحزن حزنا شديدًا جعل يغدو إلى رؤوس شواهق الجبال ليتردى منها فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول إنك نبي الله فيسكن لذلك جأشه وترجع إليه نفسه فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك قال فبينما أنا أمشى يومًا إذ رأيت الملك الزى كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعبًا فرجعت إلى خديجة فقلت زملوني فزملناه أي دثرناه فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ (المدثر٤: ١) قال الزهري: فكان أول شيء أنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٣٥).

وهذه الرواية واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار أنها مرسلة لأن الزهري قطعًا لم يدرك النبي ﷺ.

إذن فهي لا يحتج بها أيضًا على مثل هذه الشبهة بل نحن نحتج بها على هؤلاء المُتَهِمين لنبينا ﷺ ويرمونه بهذه الفرية الكاذبة وذلك لما يأتي: -

١-الرواية المرسلة هذه تؤكد أن لفظ (فيما بلغنا) من كلام الزهري وليس من كلام غيره لأن سندها صحيح إلى الزهري.

٢-ترفع الشبهة عن صحيح البخاري بأنه أخرج مثل هذه الرواية الضعيفة وكما بينا أن البخاري أخرجها وأوضح علتها وأنه لم يخرجها إلا في موضع واحد بينما أخرج حديث بدء الوحي في عدة مواضع عن الزهري بدونها.

الطريق الثالث للرواية:

نص الرواية الثالثة التي ذكرت القصة محل الشبهة:

قال الطبري [(١)]:حدثني أحمد بن عثمان المعروف بأبي الجوزاء، قال حدثنا وهب بن جرير، قال حدثنا أبى، قال سمعت النعمان بن راشد يحدث عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: كان أول ما ابتدئ به رسول ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجئ مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان بغار بحراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق، فأتاه، فقال يا محمد أنت رسول الله، قال رسول الله ﷺ فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادري، ثم دخلت على خديجة؛ فقلت زملوني، زملوني! حتى ذهب عني الروع ثم أتاني فقال يا محمد أنت رسول الله، **قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل**، فتبدى لى حين هممت بذلك، فقال يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله. ثم قال: اقرأ، قلت: ما اقرأ؟ قال: فأخذني فغتني ثلاث مرات، حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٣١).

﴿١﴾ فقرأت. فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت اسمع من ابن أخيك فسألني فأخبرته خبري فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران ليتني فيها جذع ليتني أكون حيًا حين يخرجك قومك قلت: أمخرجيَّ هم؟ قال: نعم إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عودي ولئن أدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم كان أول ما نزل عليَّ من القرآن بعد ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ و ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾.

قلت: وإسناده واه وآفته النعمان بن راشد.

قال يحيى بن معين: النعمان بن راشد ضعيف الحديث، قلت: ضعيف فيما روى عن الزهري وحده؟ قال عن الزهري وعن غير الزهري هو ضعيف الحديث.

قال علي بن المديني: ذكر يحيى بن سعيد القطان النعمان بن راشد فضعفه جدًّا.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عنه، فقال: مضطرب الحديث، روى أحاديث مناكير، وقال البخاري: في حديثه وهم كثير، وهو صدوق في الأصل، وقال النسائي: ضعيف، كثير الغلط، وقال في موضع آخر: أحاديثه مقلوبة[1].

الوجه الثاني: بيان حفظ الله لنبيه ﷺ ورعايته له وأنه معصوم من الوقوع في الزلل قبل البعثة وبعدها.

إن العصمة تعني حفظ الله تبارك وتعالى لأنبيائه عن مواقعة الذنوب الظاهرة والباطنة، وأن العناية الإلهية لم تنفك عنهم في كل أطوار حياتهم قبل النبوة وبعدها، على ما هو المعتمد كما سيأتي تحقيقه، فهي محيطة بهم تحرسهم من الوقوع في منهي عنه شرعًا أو

(١) تهذيب الكمال (٢٩/ ٤٤٨، ٤٤٦).

عقلًا وصدق القائل حين قال:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وهذا ما ظهر أثره في الخارج، فقد كان أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام محفوظي الظواهر والبواطن من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة أو خلاف الأولى.

إن عصمة النبي ﷺ جزء لا يتجزأ من عقيدتنا وأصل من أصول الإيمان والإسلام وهي عقيدة لا تنفك عن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والطعن في هذه العصمة طعن في هذه الشهادة، ولما لا وهي دليلنا على حجية الوحي الإلهي (قرءانًا وسنة) وهي دليلنا على الاقتداء الشامل برسول الله ﷺ.

إن عصمة رسول الله ﷺ في التبليغ لها دلالتها وأهميتها في حجية كل ما يبلغ عن ربه ﷻ من الوحي سواء كان متلوًا من القرآن الكريم، أو غير متلوًا من السنة النبوية المطهرة ومن هنا ترى علماء الأصول تناولوا العصمة في مباحث السنة الشريفة، نظرًا لشدة التصاقها بها حيث تتوقف حجية السنة المطهرة، بل والقرآن الكريم أيضًا على عصمة رسول الله ﷺ لأن القرآن الكريم والسنة الشريفة، عليها دليل شرعي يجب العمل به.

ومن المعلوم أن العصمة سبيل الاقتداء بالنبي ﷺ، فالعصمة لرسول الله ﷺ في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وأوامره، ونواهيه، مما هو ليس من باب البلاغ، مما كان في أمور الدنيا وأحوال نفسه الشريفة، لها أيضًا دلالتها على الاقتداء به.

وعصمة رسول الله ﷺ من الكبائر والصغائر في أقواله وأفعاله مما ليس سبيله البلاغ دل عليها القرآن الكريم، والسيرة العطرة، والسنة المطهرة، وإجماع الأمة.

ومن هذه الشهادات الربانية:

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (الأنعام: ٩٠) فما كان ﷻ أن يحث نبيه على الاقتداء والأسوة بأنبيائه ورسله إلا وهم معصومون في الصغائر، وقال ﷻ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١)، ووجه الاستدلال في الآيتين

أنه تعالى جعل الاقتداء والمتابعة لرسوله ﷺ لازمة من محبته ﷻ الواجبة، ولازمة للهداية والفلاح في الدنيا والآخرة، وما تلك الملازمة وسابقتها إلا شهادة من رب العزة لرسوله ﷺ على عصمته من الصغائر في كل أقواله وأفعاله.

أما السنة العطرة:

وهي تنضح وتشهد بعصمة النبي ﷺ من الصغائر في أحواله كلها حيث لم يعلم عنه الوقوع في صغيرة ولا الدنو من شيء منها.

فقول النبي ﷺ: " نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا، فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"[(١)]، فلو رأى الصحابة ﷺ أو سمعوا منه شيئا مما أجازه عليه بعض أهل العلم من قربه الصغائر – وحاشاه من ذلك – لما فاتهم نقل ذلك منه ضمن ما نقلوه من أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته.

ولا يكون لأقواله وأفعاله ذلك الوصف التشريعي إلا بالقول بوجوب العصمة لرسول الله ﷺ عن الصغائر خلافًا عن لمن أجازها من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين تمسكًا بظواهر القرآن وبعض الأحاديث الصحاح التي تدل على عصمته من الصغائر.

وأما إجماع الأمة على عصمته ﷺ من الصغائر:

حكى القاضي عياض اتفاق السلف وإجماعهم على أنه لا يصدر عنه ﷺ خبر بخلاف إخباره عنه فقال: أما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا مستند لها إلى الأحكام، ولا أخبار المعاد، ولا تضاف إلى وحي، بل في أمور الدنيا، وأحوال نفسه

---

(١) صحيح. عن (عبد الله بن مسعود) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، والترمذي (٢٦٥٧)، وأبو يعلى (٥٢٩٦، ٥١٢٦)، وابن حبان (٦٨، ٦٦)، وعن (أنس بن مالك) أخرجه ابن ماجه (١٢٣٦)، ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٢)، وعن (جبير بن مطعم) أخرجه ابن ماجه (٢٣١)، الدارمي (١/ ٧٤)، الطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٢٣٢)، أبو يعلى (٧٤١٣)، الخطيب في شرف أصحاب الحديث (٢٥)، الطبراني في الكبير (١٥٤١)، الحاكم (١/ ٨٧)، وعن (زيد بن ثابت) أخرجه أبو داود (١/ ٧٦، ٧٥)، وعن (أبي سعيد الخدري) أخرجه البزار (١٤١)، الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٥)، أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٥)، وعن (النعمان بن بشير) أخرجه الحاكم (١/ ٨٨)، وعن (عمير بن قتادة) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٠٦).

الشريفة؛ فالذي يجب اعتقاده تنزيه النبي ﷺ عن أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره لا عمدًا، ولا سهوًا، ولا غلطًا، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه، وحال سخطه، وجده ومزحه، وصحته ومرضه، ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه، وذلك أنّا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله، والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت، وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شيء منها ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهو أم لا[١].

واستدل على ذلك بما جرى لسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ مع ابن أبي الحقيق اليهودي حين أجلاهم من خيبر حيث احتج عليه عمر ﷺ بقوله ﷺ: " كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟! [٢]"، فقال اليهودي: كانت هزيلة من أبي القاسم ﷺ فقال له عمر: كذبت يا عدو الله! فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعروضا من أقتاب وحبال وغير ذلك[٣].

قال القاضي عياض: وأيضًا فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها مستقصى تفاصيلها، ولم يرد في شيء منها استدراكه ﷺ لغلط في قول قاله، أو اعترافه بوهم في شيء أخبر به.

قال: ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته في رجوعه ﷺ عما أشار به على الأنصار في تلقيح النخل[٤]، وكان ذلك رأيًا لا خبرًا (يعني يدخله الصدق والكذب) إلى أن قال: فلنقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأنبياء خلف في قول أو فعل في وجه من الوجوه لا بقصد، ولا بغير قصد، ولا تسامح في تجويز ذلك عليهم حال السهو مما ليس طريقه البلاغ[٥].

وقد كانت جميع أقواله وأفعاله المتعلقة بأمور الدنيا، وأحوال نفسه الشريفة تشريعًا

---

(١) الشفا للقاضي عياض (١٥١).

(٢) البخاري (٢٧٣٠).

(٣) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة د. عماد السيد الشربيني (٤٠).

(٤) مسلم (٢٣٦٢).

(٥) الشفا (١٥٣، ١٥٢) بتصرف.

تقتضي المتابعة والاقتداء، وعلى ذلك سلفنا الصالح من الإيمان بعصمته في أحواله كلها، ولهذا كانوا يسارعون إلى التأسي به.

والأمثلة على ذلك كثيرة ومعلومة منها ما يلي:

١-حرصهم على مضاهاته ﷺ في العبادة، كما في قصة وصاله ﷺ ورغبة بعض الصحابة الوصال نحوه، على ما بين وصاله ووصالهم من الفرق؛ حيث إنه إذا واصل يطعمه ربه ويسقيه بخلافهم، ومع ذلك فحرصوا على التأسي به فيه.

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم فقالوا: إنك تواصل، فقال ﷺ: " إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني "[(١)].

٢-ومنها قصة اتخاذه ﷺخاتمًا من ذهب حيث اتخذ الناس خواتيم كذلك، فطرحه النبي ﷺ فطرح الناس خواتيمهم.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: اتخذ رسول الله ﷺ خاتمًا من ذهب، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، فقال النبي ﷺ إني اتخذت خاتمًا من ذهب، فنبذه، وقال: إني لن ألبسه أبدًا فنبذ الناس خواتيمهم[(٢)].

٣-وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: " بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، قال: ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟ قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا، فقال: إن جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أن فيهما قذرًا، وقال: إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر: فإن رأى في نعليه قذرًا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما"[(٣)].

(١) البخاري (١٩٦٤)، مسلم (١١٠٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٧٢٩٨)، مسلم (٢٠٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (٦٥١، ٦٥٠)، والدارمي (١٣٧٨)، وأحمد (٣/ ٢٠)، وابن خزيمة (١٠٧١)، والحاكم في المستدرك ١/ ٢٩٣وقال: صحيح على شرط مسلم.

ويلاحظ هنا في الحديث مسارعة صحابة رسول الله ﷺ إلى متابعته في خلع نعليه، وهو فعل من أفعال العادة، وفي ذلك أقوى دليل على فهمهم واعتقادهم بعصمة النبي ﷺ من الصغائر حتى في أفعاله الجبلية.

٤-ولقد كان من كمال تأسي الصحابة ﷺ برسول الله ﷺ واعتقادهم بعصمته من الصغائر في كل أحواله شدة حرصهم على تأسيهم به حتى في أمور بيته، وذلك كاختلافهم في جواز القبلة للصائم(١)، وفي طلوع الفجر على الجنب وهو صائم(٢)، فسألوا أم المؤمنين عائشة ﵂ فأخبرتهم أن ذلك وقع من النبي ﷺ فرجعوا إلى ذلك وعلموا أنه لا حرج على فاعله لعصمته.

٥-وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به فإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ. (٣)

٦-ولما وقف عمر بن الخطاب ﷺ أمام الحجر الأسود يقبله خاطبه بقوله: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك(٤).

٧-ولقد بلغ من كمال امتثال عمر ﷺ لهدي رسول الله ﷺأنه كان يتأسى به حتى في حركاته وسكناته العادية التي هي من أفعال الجبلة، حيث كان يتبع آثار رسول الله ﷺ في كل مكان حتى أنه كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك(٥).

وكل الذي سقناه إن دل فإنما يدل على عصمته ﷺ من الصغائر، ومن ثَمّ، فإن العصمة

---

(١) البخاري مع الفتح (١٩٢٧)، مسلم (١١٠٦).
(٢) البخاري مع الفتح (١٩٢٦، ١٩٢٥)، مسلم (١١٠٩).
(٣) البخاري مع الفتح (٣٠٩٣).
(٤) البخاري مع الفتح (١٦١٠)، مسلم (١٢٧٠).
(٥) البخاري مع الفتح (١٦١١).

سبيل الاقتداء برسول الله ﷺ، والله أعلم[١].

الوجه الثالث: هل الإنسان يؤاخذ على شيء يدور في خاطره ولم يفعله أم لا يؤاخذ؟!

قال الله ﷻ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

ذهب أكثر أهل العلم من المفسرين أن هذه الآية منسوخة وبه قال ابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبي وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد ابن كعب وموسى ابن عبيدة، وهو مروي عن ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وهذا هو أولى الأقوال[٢].

عن أبي هريرة ﷺ قال لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا أَيْ رَسُولَ الله كُلِّفْنَا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ "، قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ الله فِي إِثْرِهَا ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا الله تَعَالَى فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قَالَ

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة د. عماد السيد الشربيني (٤٧، ٤٢)، وانظر شبهة (عصمة الأنبياء عليهم السلام).

(٢) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٥٥).

نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال نعم ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ قال نعم[(١)].

قال القاضي عياض: وقد أنكر بعض المتأخرين النسخ، ودعواهم في إنكار أنه خبر ولا يدخل النسخ الأخبار وليس كما قال، فإنه وإن كان خبرًا فهو خبر عن تكليف ومؤاخذة بما تكن النفوس، والتعبد لما أمرهم النبي ﷺ في الحديث بذلك، وأن يقولوا سمعنا وأطعنا، وهذه أقوال وأعمال اللسان والقلب ثم نسخ ذلك عنهم برفع الحرج والمؤاخذة، وروي عن بعض المفسرين: أن معنى النسخ هنا إزالة ما وقع في قلوبهم من الشدة والفرق من هذا الأمر، فأزيل عنهم بالآية الأخرى، واطمأنت نفوسهم، وهذا القائل يرى أنهم لم يلزموا ما لا يطيقون، لكن ما يشق عليهم من التحفظ من خواطر النفس وإخلاص الباطن فأشفقوا أن يكلفوا من ذلك ما لا يطيقون، فأزيل عنهم الإشفاق وبين أنهم لم يكلفوا إلا وسعهم، وعلى هذا لا حجة فيه لجواز تكليف ما لا يطاق إذ ليس فيه نص على تكليفه واحتج بعضهم باستعاذتهم منه بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ ولا يستعيذون إلا مما يجوز التكليف به وأجاب عن ذلك بعضهم بأن معنى ذلك ما نطيقه إلا بمشقة، وذهب بعضهم إلى أن الآية محكمة في إخفاء اليقين والشك للمؤمنين والكافرين فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين[(٢)].

ثم أورد الإمام مسلم عدة أحاديث في كتاب الإيمان تدور حول هذا المعنى منها: وما بعده حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: " إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعلموا به "[(٣)].

والحديث الآخر الذي رواه أبو هريرة أيضًا قال قال رسول الله ﷺ: " قال الله ﷻ: إذا

(١) مسلم (١/ ٤٢١).
(٢) شرح النووي على مسلم (١/ ٤٢٨).
(٣) مسلم (١٢٧).

همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرًا "(١)

وروي هذا الحديث بألفاظ مختلفة كلها تصب في هذا المعنى.

وهذان الحديثان صفعة في وجوه هؤلاء المشككين في نزاهة النبي وعصمته ﷺ ومعناهما لا يحتاج إلى تأويل لكنني أشير إلى طرف من كلام أهل العلم في توجيه هذه الأحاديث.

قال النووي: قال القاضي عياض: إِنَّ هَذَا الْعَزْم يُكْتَب سَيِّئَة وَلَيْسَتْ السَّيِّئَة الَّتِي هَمَّ بِهَا لِكَوْنِهِ لَمْ يَعْمَلهَا وَقَطَعَهُ عَنْهَا قَاطِعٌ غَيْر خَوْف الله تَعَالَى وَالْإِنَابَة. لَكِنَّ نَفْس الْإِصْرَار وَالْعَزْم مَعْصِيَة فَتُكْتَب مَعْصِيَة فَإِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ مَعْصِيَة ثَانِيَة، فَإِنْ تَرَكَهَا خَشْيَة لله تَعَالَى كُتِبَتْ حَسَنَة كَمَا فِي الْحَدِيث: " إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ " فَصَارَ تَرْكه لَهَا لِخَوْفِ الله تَعَالَى وَمُجَاهَدَته نَفْسه الْأَمَّارَة بِالسُّوءِ فِي ذَلِكَ وَعِصْيَانه هَوَاهُ حَسَنَة. فَأَمَّا الْهَمّ الَّذِي لَا يُكْتَب فَهِيَ الْخَوَاطِر الَّتِي لَا تُوَطِّن النَّفْس عَلَيْهَا، وَلَا يَصْحَبهَا عَقْد وَلَا نِيَّة وَعَزْم(٢).

وهذا هو الذي لو كانت صحت روايات هذه القصة لحملنا همّ النبي ﷺ عليه أي ما لم يعقد فيه عزم ولا نية وهذا هو الحاصل إذ لم يُلق النبي ﷺ بنفسه من فوق قمة الجبل هذا إن فرضنا أن القصة أو الرواية صحت، لكنها لم تصح أصلًا وهذا الذي بيناه في مقدمة الرد على هذه الشبهة، فهل الذي كتبت له حسنة يكون مُلاما أو يتهم في عصمته.

الوجه الرابع: ما هي عقوبة من يحاول الانتحار أو قتل نفسه؟

فإن الله ﷻ لما خلق السلالة البشرية وحثهم على عمارة الأرض أرشدهم أيضًا إلى حفظ هذه السلالة وعدم التعرض لها بأي أذى لذلك نهى عن قتل النفس وإهلاكها فقالﷻ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ والآيات في القرآن كثيرة تدل على ضرورة الحفاظ على الذات البشرية ولذلك فإن الله تبارك وتعالى وضع عقوبات دنيوية وعقوبات أخروية لمن قتل نفسه أو قتل غيره فقال تعالى: ﴿وَلَا

(١) مسلم (١٢٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (١/ ٤٢٩).

تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ (النساء: ٢٩-٣٠)، وقال أيضًا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

وذكرهم الله أيضًا لما سرد أوصاف عباده كما في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الفرقان: ٦٨) وغيرها من الآيات التي تزجر وتتوعد قاتل النفس.

وجاء في السنة أحاديث كثر أذكر منها حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. . . "[(١)] فهذا الحديث وغيره يبين لنا عقوبة الذي يقتل نفسه في الشريعة الإسلامية لكنني أريد أن أربط الحكم بهذه الشبهة التي يفترونها عن النبي ﷺ وهل يصح أن نطلق عليها محاولة انتحار وهل تأخذ نفس الحكم أم لا؟

أولًا: يجب أن نعرف أن هذا الفعل من رسول الله ﷺ -وهذا على تقدير ثبوت القصة- كان قبل أن يبعث بالرسالة وقد سبق الكلام على عصمة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها وأنه منزه عن اقتراف هذه الأفعال.

ثانيًا: ينبغي أن نعرف أيضًا أن هذا الفعل على التسليم بصحته ولم يثبت كان قبل نزول الأحكام الشرعية والتي جاء فيها بيان حكم قتل النفس أو الانتحار، ومن ثم فلا يجوز إسقاط فعل رسول الله ﷺ وتكييفه تكييفًا شرعيًا لأن الأحكام لم تكن شرعت حين إذ فمعلوم أن الذي يزني إذا كان محصنًا يرجم بالحجارة حتى الموت فإذا لم يكن هناك حكمًا في شأن الذي يزني فلا يكون عقاب عليه أو عقاب لذلك كان من أفرى الفرى أن تقول أن هذه محاولة انتحار إذ لم تكن معروفة آنذاك.

---

(١) البخاري (٥٧٧٨).

فلعل أصحاب هذه الشبهة يعترضون على هذا الجواب ويقولون العبرة ليست بعدم نزول حكم قتل النفس ولكن العبرة بحرمة قتل النفس عمومًا في كل التشريعات.

فنرد عليهم لأنه بذلك يلزمهم الأخذ بكل الأحكام الشرعية ومنها قوله ﷺ: " من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة " إلى آخر الحديث الذي أشرنا إليه آنفًا. وبذلك تدفعهم أن هذه الفعلة أو المحاولة من النبي ﷺ كتب له عليها أجر إذ أنه همّ بالفعل ولم يفعله.

أفيكون المأجور ملامًا على فعله؟! !

الوجه الخامس: إثبات حدوث الانتحار في الكتاب المقدس

قديمًا قال القائل: " رمتني بدائها وانسلت " وهذا المثل يطلق على نوعية من البشر إذا أرادوا أن يأخذوا عقول الناس وتفكيرهم عن رؤية عيوبهم ومساوئهم الظاهرة يرمونك أنت بهذا العيب وهذا النقص كي تنشغل به عن رؤيته فيهم.

فهذا المثل ينطبق بالضبط على النصارى الذين أثاروا شبهة محاولة النبي ﷺ الانتحار، وكذبوا فهو المبرء من كل نقيصة والمنزه عن كل رذيلة، أعظم الناس خُلقًا وخَلقًا.

وهذا هو الذي عهدناه من النصارى أن يثيروا شبهة حول الإسلام هي في الأصل حقيقة ثابتة عندهم ولاقتها كتبهم التي يحتجون بها علينا.

ومصداقًا لقول ربنا ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾، فقد وقفت على نص في الكتاب المقدس ثبت فيه الانتحار فعلا وليس المحاولة وهذا وقع في الكتاب المقدس سفر صموئيل الأول ٣٠/ ١٩-٣١/ ٩، وإليك نص الكلام:

معركة الجلبوع وموت[1] شاول: ((١) وَحَارَبَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ إِسْرَائِيلَ، فَهَرَبَ رِجَالُ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَمَامِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَسَقَطُوا قَتْلَى فِي جَبَلِ جِلْبُوعَ. (٢) فَشَدَّ الْفِلِسْطِينِيُّونَ وَرَاءَ شَاوُلَ وَبَنِيهِ، وَضَرَبَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ يُونَاثَانَ وَأَبِينَادَابَ وَمَلْكِيشُوعَ أَبْنَاءَ شَاوُلَ. (٣) وَاشْتَدَّتِ الْحَرْبُ عَلَى شَاوُلَ فَأَصَابَهُ الرُّمَاةُ رِجَالُ الْقِسِيِّ، فَانْجَرَحَ جدًّا مِنَ الرُّمَاةِ. (٤)

---

(١) أخطأ في كتابة هذا اللفظ لفظ (موت) لأنه لم يمت ميتة طبيعية ولكنه قتل نفسه فكان الصواب أن يقول (وانتحار شاول) لأن من يقتل نفسه لا يسمى موتًا، ولكن يسمى إنتحارا أو إزهاقا للنفس أو التخلص منها.

فَقَالَ شَاوُلُ لِحَامِلِ سِلاَحِهِ: «اسْتَلَّ سَيْفَكَ وَاطْعَنِّي بِهِ لِئَلَّا يَأْتِيَ هؤُلاَءِ الْغُلْفُ وَيَطْعَنُونِي وَيُقَبِّحُونِي». فَلَمْ يَشَأْ حَامِلُ سِلاَحِهِ لأَنَّهُ خَافَ جدًّا. فَأَخَذَ شَاوُلُ السَّيْفَ وَسَقَطَ عَلَيْهِ. (٥) وَلَمَّا رَأَى حَامِلُ سِلاَحِهِ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ شَاوُلُ، سَقَطَ هُوَ أَيْضًا عَلَى سَيْفِهِ وَمَاتَ مَعَهُ. (٦) فَمَاتَ شَاوُلُ وَبَنُوهُ الثَّلاَثَةُ وَحَامِلُ سِلاَحِهِ وَجَمِيعُ رِجَالِهِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مَعًا).

وهذا النص من الكتاب المقدس يثبت انتحار شاول وقتله نفسه حتى لا يقتلوه.

وإليك أيضًا ما ذكر في تفسير هذا النص من كتاب " التفسير التطبيقي للكتاب المقدس " (سفر صموئيل الأول ٣٠، ٣١، ٤، ٣: ٣١)

" وكان للفلسطينيين شهرة واسعة في تعذيب أسراهم، ولا شك في أن شاول كان يعرف مصير شمشون (قض ١٦: ١٨-٣١) ولم يشأ أن يعرض نفسه للتشويه الجسماني أو غير ذلك من وجوه التعذيب، فعندما رفض حامل سلاحه أن يقتله، قضى هو على حياته بيده ".

ثم ذكروا بعد ذلك كلامًا يصفون فيه شاول هذا بكل نقيصة وأنه كان شريرًا خبيث النفس ومثل هذه الأوصاف الدنيئة التي يتنزه عنها أقل الناس فضلًا عن أن يكون ملكًا.

ثم ذكروا كلامًا أيضًا عن حامل سلاحه فقالوا " واجه حامل سلاح شاول مشكلة أدبية هل ينفذ أمرًا خاطئًا صادرًا له هذا السلطان؟ كان يعرف أن عليه أن يطيع سيده الملك، ولكنه كان يعرف أيضًا أن القتل خطية وهناك فرق بين تنفيذ أمر لا توافق عليه، وتنفيذ أمر تعلم أنه خطأ، فليس من الحق أو من الأخلاق إطلاقًا أن تقوم بعمل خطأ مهما كان الذي يصدر الأمر ومهما كانت عواقب العصيان، فما الذي يحدد اختيارك عندما تواجه مشكلة أدبية؟ لتكن لك الشجاعة في أن تتبع شريعة الله فوق كل الأوامر البشرية ".

وهذا تفسير النص الذي سقناه يدل على ثبوت انتحار شاول وقتله نفسه.

فيا ترى هل خفي عليهم هذا النص أم أنهم لا يعرفون أنه في كتابهم المقدس أم سينكرونه إذا لزم الأمر.

* * *

٣٨- شبهة: موت النبي ﷺ بالسم.

نص الشبهة:

كيف مات النبي ﷺ متأثرًا بالسم؟ أليس في هذا طعنا في نبوته؟!

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أدلة عصمته ﷺ من القتل.

الوجه الثاني: النبي ﷺ بشر ولابد أن يموت.

الوجه الثالث: القصة دالة على نبوته ﷺ.

الوجه الرابع: الله ﷻ قد جمع له بين الحسنيين.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أدلة عصمته ﷺ من القتل.

١-عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فَأَخْرَجَ رَسُولُ الله ﷺ رَأْسَهُ مِنْ الْقُبَّةِ فَقَالَ لَهُمْ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي الله". (١)

٢- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أخبر أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ الله ﷺ قَفَلَ مَعَهُ فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ وَنِمْنَا نَوْمَةً فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: " إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا فَقَالَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي فَقُلْتُ الله ثَلَاثًا وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ". (٢)

٣- عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦)، والحاكم في المستدرك (٢-٣٤٢)، والبيهقي في الكبرى (٩-٨) والطبراني في الصغير (١-٢٥٥-٤١٨)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٤٨٩).

(٢) البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

لأبصرنا فقال: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهم ". (١)

٤- عن سراقة بن خثعم ﷺ يقول: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ فَقَالَ يَا سُرَاقَةُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ قَالَ سُرَاقَةُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي فَخَرَرْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لَا فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ فَوَقَفُوا فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنْ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمْ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ: "أَخْفِ عَنَّا "فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ثُمَّ مَضَى رَسُولُ الله ﷺ. (٢)

الوجه الثاني: النبي ﷺ بشر ولابد أن يموت.

(١) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٢) البخاري (٣٦٩٣).

من المتفق عليه أن الموت حق على كل مخلوق كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وجاء التصريح بموت النبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، وقوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ وقد جاءت الإرهاصات التي تشير إلى قرب أجل النبي ﷺ قبل مرض موته وبينما كان فأوج فتوحاته وانتصاراته.

الوجه الثالث: القصة دالة على نبوته ﷺ.

١-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ فَجُمِعُوا لَهُ فَقَالَ إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ فَقَالُوا نَعَمْ قَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ أَبُوكُمْ قَالُوا فُلَانٌ فَقَالَ كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ قَالُوا صَدَقْتَ قَالَ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا فَقَالَ لَهُمْ مَنْ أَهْلُ النَّارِ قَالُوا نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اخْسَئُوا فِيهَا وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا ثُمَّ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ فَقَالُوا نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَالَ هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا قَالُوا نَعَمْ قَالَ مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ قَالُوا أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ". (١)

قال النووي: وَقَوْله ﷺ: " مَا كَانَ الله لِيُسَلِّطك عَلَى ذَاكَ أَوْ قَالَ: عَلَيَّ ". (٢) فِيهِ بَيَان عِصْمَته ﷺ مِنْ النَّاس كُلّهمْ كَمَا قَالَ الله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وَهِيَ مُعْجِزَة لِرَسُولِ الله ﷺ فِي سَلَامَته مِنْ السُّمّ الْمُهْلِك لِغَيْرِهِ، وَفِي إِعْلَام الله تَعَالَى لَهُ بِأَنَّهَا مَسْمُومَة، وَكَلَام عُضْو مِنْهُ لَهُ، فَقَدْ جَاءَ فِي غَيْر مُسْلِم أَنَّهُ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الذِّرَاع تُخْبِرنِي أَنَّهَا مَسْمُومَة(٣)". (١)

---

(١) البخاري (٥٧٧٧)، مسلم (٢١٩٠).

(٢) مسلم (٢١٩١).

(٣) سنن أبي داود (٤٥٠٢)، وانظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٥٤)، وفيه: فأكل رسول الله ﷺ هو وأصحابه فقالت: إني مسمومة.

وقال ابن حجر: وَوَقَعَ فِي مُرْسَل الزُّهْرِيِّ أَنَّهَا أَكْثَرَتْ السُّمّ فِي الْكَتِف وَالذِّرَاع لِأَنَّهُ بَلَغَهَا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ أَحَبّ أَعْضَاء الشَّاة إِلَيْهِ، وَفِيهِ " فَتَنَاوَلَ رَسُول الله ﷺالْكَتِف فَنَهَشَ مِنْهَا " وَفِيهِ: " فَلَمَّا ازْدَرَدَ لَقْمَته قَالَ. إِنَّ الشَّاة تُخْبِرنِي[٢]" يَعْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَة.[٣]

ثم قال: قَوْله: (وَإِنْ كُنْت نَبِيًّا لَمْ يَضُرّك)، يَعْنِي عَلَى الْوَجْه الْمَعْهُود مِنْ السُّمّ الْمَذْكُور. وَفِي حَدِيث أَنَس الْمُشَار إِلَيْهِ " فَقَالَتْ أَرَدْت لِأَقْتُلك. فَقَالَ: مَا كَانَ الله لِيُسَلِّطك عَلَى ذَلِكَ " وَفِي رِوَايَة سُفْيَان بْن حُسَيْن عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيِّب عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فِي نَحْو هَذِهِ الْقِصَّة " فَقَالَتْ أَرَدْت أَنْ أَعْلَم إِنْ كُنْت نَبِيًّا فَسَيُطْلِعُك الله عَلَيْهِ، وَإِنْ كُنْت كَاذِبًا فَأُرِيح النَّاس مِنْك. أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ[٤]، وَأَخْرَجَ نَحْوه مَوْصُولًا عَنْ جَابِر، وَأَخْرَجَهُ اِبْن سَعْد بِسَنَدٍ صَحِيح عَنْ اِبْن عَبَّاس[٥]، وَوَقَعَ عِنْد اِبْن سَعْد عَنْ الْوَاقِدِيِّ[٦] بِأَسَانِيدِهِ الْمُتَعَدِّدَة أَنَّهَا قَالَتْ: " قَتَلْت أَبِي وَزَوْجِي وَعَمِّي وَأَخِي وَنِلْت مِنْ قَوْمِي مَا نِلْت، فَقُلْت: إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَسَيُخْبِرُهُ الذِّرَاع، وَإِنْ كَانَ مَلِكًا اِسْتَرَحْنَا مِنْهُ " وَفِي الْحَدِيث إِخْبَاره ﷺعَنْ الْغَيْب، وَتَكْلِيم الْجَمَاد لَهُ، وَمُعَانَدَة الْيَهُود لِاعْتِرَافِهِمْ بِصِدْقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ اِسْم أَبِيهِمْ وَبِمَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ دَسِيسَة السُّمّ: وَمَعَ ذَلِكَ فَعَانَدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى تَكْذِيبه)[٧].

ثم قال – رحمه الله- في كلامه على بعض فوائد الحديث:

وَفِيهِ أَنَّ الْأَشْيَاء – كَالسُّمُومِ وَغَيْرهَا – لَا تُؤَثِّر بِذَوَاتِهَا بَلْ بِإِذْنِ الله، لِأَنَّ السُّمّ أَثَّرَ فِي بِشْر فَقِيلَ إِنَّهُ مَاتَ فِي الْحَال، وَقِيلَ: إِنَّهُ مَاتَ بَعْد حَوْل، وَوَقَعَ فِيهِ مُرْسَل الزُّهْرِيِّ فِي

(١) شرح مسلم للنووي (٧/ ٤٣٤).
(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٢٦٣).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٥٦).
(٤) دلائل النبوة (٤/ ٢٦٠).
(٥) الطبقات الكبرى (٤/ ١٥٥: ١٥٤).
(٦) وهو (محمد بن عمر).
(٧) فتح الباري (١٠/ ٢٥٧).

مَغَازِي مُوسَى بْن عُقْبَة " أَنَّ لَوْنه صَارَ فِي الْحَال كَالطَّيْلَسَانِ[(١)]" يَعْنِي أَصْفَر شَدِيد الصُّفْرَة[(٢)].

الوجه الرابع: جمع الله له بين الحسنيين.

وكون السم كان من أسباب موته ﷺ ففي هذا فضيلة له ﷺ إذ جمع له ربه الشهادة إلى سائر فضائله فمات متأثرًا بسم الشاة. وهذا لا يتنافى مع عصمته أبدًا لسبب واضح وهو أن عصمة رسول الله ﷺ قد تمت كما وعده ربه ﷻلأن هذه العصمة هدفها تمكينه من تبليغ الرسالة وهي مقترنة بها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧) وقد حدثت العصمة له حتى أتم مهمته، ولم يمت رغم السم إلا بعد ثلاثة سنين كاملة (إن كان مات بسببه) في حين مات الصحابي الجليل (بشر) ﷺ فور أكله منها مباشرة، فكان في ذلك إعجاز على إعجاز، وقد كانت هذه السنوات الثلاث من أهم مراحل الدعوة النبوية، ففيها فتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا وحج النبيﷺ حجة الوداع، واكتملت الشريعة غير منقوصة.

فتبين من هاتين النقطتين مدى الكرامة المقدرة لرسول الله ﷺ، إذ جمع له ربه بين الحسنيين، فما استطاعوا أن يقتلوه حين أرادوا لوقف دعوته وتدميرها، ونال الشهادة حين وفاته بعد أن أكمل رسالته وأتمها أتم كمال.

وأيضًا من أدلة نبوته ﷺ أنه أخبر قطعًا وجزمًا أن هذه الشاة مسمومة، مما يؤكد صدقهﷺ كنبي موحى إليه من الله، إذ جاء الصحابة باليهودية واعترفت أنها سمت الشاة، كما أخبرت الذراع النبي ﷺ.

ولكن حين تصاب القلوب بالعمى بسبب ما يغشاها من الحقد والكراهية يدفعها

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ١٥٦).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٥٨).

حقدها إلى تشويه الخصم بما يعيب، وبما لا يعيب، واتهامه بما لا يصلح أن يكون تهمة، حتى إنك لترى من يعيب إنسانًا مثلًا بأن عينيه واسعتان أو أنه أبيض اللون طويل القامة، أو مثلًا قد أصيب بالحمى ومات بها، أو أن فلانًا من الناس قد ضربه وأسال دمه؛ فهذا كأن تعيب الورد بأن لونه أحمر مثلًا؛ وغير ذلك مما يستهجنه العقلاء ويرفضونه ويرونه إفلاسًا وعجزًا. (١)

قال ابن سعد ـ رحمه الله ـ بعد ما سم به رسول الله ﷺ:

وعاش رسول الله ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي قبض فيه جعل يقول في مرضه: "ما زلت أجد من الأكلة التي أكلتها يوم خيبر عدادًا حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري"، وهو عرق في الظهر، وتوفي رسول الله ﷺ شهيدًا، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ورضوانه. (٢)

وأليس موته ﷺ متأثرًا بهذا السم بعد سنوات فيه رفع درجاته.

فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ". (٣)

* * *

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (٣٥١).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ١٥٦).

(٣) الترمذي (٢٣٩٦)، ابن ماجه (٤٠٣١)، وحسن سنده الألباني في الصحيحة (١٤٦).

٣٩ـ شبهة: ماذا حدث لجسد النبي ﷺ بعد وفاته؟

نص الشبهة:

يقول المعترض: إن جسد محمد ﷺ قد أسن وانتفخ كشأن سائر الأجساد بعد وفاته، واستدلوا على ذلك: بحديث وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن البهي وفيه: . . . . . وكان ترك يومًا وليلة، حتى ربا بطنه، وانثنت خنصراه.

وكذلك قول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ يأسن كما يأسن البشر، وإن رسول الله ﷺ قد مات فادفنوا صاحبكم.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: نقد الروايات التي استدل بها المعترض.

الوجه الثاني: ذكر الروايات الصحيحة الثابتة في حادث موت النبي ﷺ وتغسيله ودفنه.

الوجه الثالث: نبينا ﷺ بشر فلا نعبده كما يعبد غيرنا أنبياءهم.

واليك التفصيل

الوجه الأول: نقد الروايات:

الرواية الأولى:

عن وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله البهي: أن رسول الله ﷺ لما مات لم يدفن حتى ربا بطنه، وانثنت خنصراه. قال قتيبة حدث بهذا الحديث وكيع وهو بمكة، وكانت سنة حج فيها الرشيد فقدموه إليه، فدعا الرشيد سفيان ابن عيينة، وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، فأما عبد المجيد فقال: يجب أن يقتل هذا؛ فإنه لم يرو هذا إلا وفي قلبه غش للنبي ﷺ، فسأل الرشيد سفيان بن عيينة فقال لا يجب عليه القتل رجل سمع حديثًا فرواه، لا يجب عليه القتل، إن المدينة أرض شديدة الحر توفي النبي ﷺ يوم الاثنين، فترك إلى ليلة الأربعاء؛ ، لأن القوم كانوا في صلاح أمر أمة محمد ﷺ، واختلفت قريش والأنصار فمن ذلك تغير. [1]

(١) إسناده ضعيف. أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ٤٤٣)، تاريخ دمشق (٦٣/ ١٠١).

تحقيق الإسناد: عبد الله البهي، مولى مصعب بن الزبير

ذكره ابن حبان في كتاب الثقات وقال ابن سعد: كان ثقة معروفًا بالحديث وقال ابن أبى حاتم في (العلل)، عن أبيه: لا يحتج بالبهي، وهو مضطرب الحديث

وقال الحافظ: صدوق يخطئ.

إسماعيل بن أبي خالد: ثقة ثبت، روى له الجماعة.

وكيع بن الجراح: إمام، ثقة.

وهذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله البهي، واضطرابه وأيضا، هو لم يدرك حادثة وفاة النبي ﷺ، فهو من أوساط التابعين ولم يذكر عن من أخذ الرواية ممن شهدها من صحابة النبي ﷺ، أضف إلى ذلك أن الإمام سفيان بن عيينة قد أنكر هذا الحديث لما سمعه، كما ورد في رواية أخرى للقصة عند ابن عساكر: لما حدث وكيع بهذا الحديث بمكة اجتمعت قريش وأرادوا صلبه ونصبوا خشبة ليصلبوه فجاء سفيان بن عيينة فقال لهم الله الله هذا فقيه أهل العراق وابن فقيههم، وهذا حديث معروف، ثم قال ابن عيينة: ولم أكن سمعت هذا الحديث إلا أني أردت تخليصه.

قلت: وهذا دليل آخر على الاضطراب الوارد في القصة.

الرواية الثانية:

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين فحبس بقية يومه وليلته والغد حتى دفن ليلة الأربعاء " وقالوا: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن عرج بروحه كما عرج بروح موسى فقام عمر فقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن عرج بروحه كما عرج بروح موسى، والله لا يموت رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي أقوام وألسنتهم، فلم يزل عمر يتكلم حتى أزبد شدقاه مما يوعد ويقول. فقام العباس فقال: إن رسول الله ﷺ قد مات، وإنه لبشر وإنه يأسن كما يأسن البشر، أي قوم فادفنوا صاحبكم. فإنه أكرم على الله من أن يميته إماتتين. أيميت أحدكم إماتة ويميته إماتتين وهو أكرم على الله من ذلك؟. أي قوم، فادفنوا صاحبكم، فإن يك كما تقولون فليس بعزيز على الله أن يبحث عنه التراب، إن

رسول الله ﷺ والله ما مات حتى ترك السبيل نهجًا واضحًا، فأحل الحلال، وحرم الحرام، ونكح وطلق، وحارب وسالم، ما كان راعي غنم يتبع بها صاحبها رءوس الجبال، يخبط عليها العضاة بمخبطه، ويمدر حوضها بيده بأنصب ولا أدأب من رسول الله ﷺ. كان فيكم. أي قوم، فادفنوا صاحبكم. قال: وجعلت أم أيمن تبكي، فقيل لها: يا أم أيمن تبكين على رسول الله ﷺ؟ قالت: إني والله ما أبكي على رسول الله ﷺ أن لا أكون أعلم أنه قد ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا، ولكني أبكي على خبر السماء انقطع قال حماد: خنقت العبرة أيوب حين بلغ هاهنا. (١)

الروايات الأخرى:

وكل الروايات التي ذكرت في كتب السيرة مثل طبقات ابن سعد وغيره، هي من رواية الحسن، وإبراهيم وغيرهم من الذين لم يدركوا حادث وفاة النبي ﷺ، وإنما قالوه هكذا مرسلًا ولم يذكروا عمن أخذوه، وعليه فلا يحتج بأي منها، ولا يعترض علينا إلا بما صح من الروايات والأخبار.

وحتى لو صحت هذه الروايات، فيمكن توجيهها على أن العباس لم يكن يخبر عن أمر قد وقع وإنما هو اجتهاد من قبل العباس إذ ظن أن جسد رسول ﷺ سيسري عليه ما يسري على سائر الأجساد بعد الموت، إذا فجسد رسول الله ﷺ لم يكن قد أسن وإنما طالب العباس بدفن البدن الشريف إكراما له وترهيبا من تركه حتى يأسن، اعتقادا منه أن ذلك محتملا مع رسول الله ﷺ بحكم بشريته وطبيعته الإنسانية •

الوجه الثاني: ذكر الروايات الصحيحة الثابتة في حادثة موت النبي ﷺ وتغسيله ودفنه.

أولًا: موت النبي ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ، مات وأبو بكر بالسنح، - قال: إسماعيل يعني بالعالية - فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر:

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٨٢)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٦٦) من طريق حماد بن زيد أخبرنا أيوب عن عكرمة به.ورجاله ثقات إلا أنه مرسل، فعكرمة تابعي لم يدرك القصة ولم يذكر عمن أخذه فلا يحتج به.

والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر: فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله، قال: بأبي أنت وأمي، طبت حيًا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإن الله حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.[(١)]

وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: " إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده في الجنة ثم يحيا أو يخير ". فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه فلما أفاق، شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: " اللهم في الرفيق الأعلى ". فقلت إذا لا يجاورنا فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح.[(٢)]

وعن عائشة قالت: إن من نعم الله علي: أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته: دخل علي عبد الرحمن، وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: " أن نعم " فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه: " أن نعم " فلينته، فأمره، وبين يديه ركوة أو علبة - يشك عمر - فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: " لا إله إلا الله، إن للموت سكرات " ثم نصب يده، فجعل يقول: " في الرفيق الأعلى " حتى قبض ومالت يده[(٣)].

ثانيًا: غسل النبي ﷺ.

---

(١) البخاري (٣٤٦٧).

(٢) البخاري (٤١٧٣)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٣) البخاري (٤١٨٤).

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه فقالوا والله ما نرى كيف نصنع أنجرد رسول الله ﷺ كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه قالت فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السنة حتى والله ما من القوم من رجل إلا ذقنه في صدره نائما قالت ثم كلمهم من ناحية البيت لا يدرون من هو فقال اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه قالت فثاروا إليه فغسلوا رسول الله ﷺ وهو في قميصه يفاض عليه الماء والسدر ويدلكه الرجال بالقميص وكانت تقول لو استقبلت من الأمر ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه. (١)

ثالثا: حالة الجسد الشريف بعد موته.

قال علي بن أبي طالب: غسلت رسول الله فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئًا وكان طيبًا ﷺ حيًا وميتًا. (٢)

فهذا رسول الله ﷺ لم يدفن ثلاثة أيام ثم لما حانت ساعة تغسيله أنزل الله النعاس على صحابته، وسمعوا صوتًا يأمرهم أن يغسلوه بثيابه دون أن يكشفوه إكرامًا وتوقيرًا، ثم يتولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه تدليك جسده الطاهر الشريف، فلا يجد منه ما يجد من الميت، بل يجد كل طيب من أطيب الطيبين ﷺ.

الوجه الثالث: نحن لا نعبد نبينا كما يعبد غيرنا أنبياءهم.

إننا معشر المسلمين لا نعبد رسول الله ﷺ، ولا نعتقد في ألوهيته، كما يعتقد النصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام؛ حتى نتتبع إن كان جسده الشريف يتغير ويبلى بالوفاة أم لا... بل نؤمن أنه عبد الله ورسوله، وإن كان سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، وقد حفظ الله تعالى نبيه العظيم حتى أتم رسالته، واكتملت شريعته، حتى أنزل سبحانه قوله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ فلا يضير رسول الله ﷺ شيء بعد

(١) أخرجه أحمد (٦- ٢٦٧)، وأبو داود (٣١٤١)، وابن حبان في صحيحه (١٤-٥٩٦- ٦٦٢٨)، والحاكم في المستدرك (٣-٦١). وحسنه الألباني في الإرواء (٣-١٦٢-٧٠٢).

(٢) الحاكم في المستدرك (١-٥١٥)، والبيهقي (٣/ ٣٨٨)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز صـ(٥٠).

أن أتم رسالته السامية، وترك البشرية على المحجة البيضاء، وصعدت روحه الطيبة إلى بارئها. وقد جاءت إرهاصات تشير إلى قرب أجل النبي ﷺ منها: قوله تعالى في سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ فكانت هذه السورة إشارة رقيقة إلى أن رسول الله ﷺ قد بلغ الأمانة، ونصح الأمة، وعليه الآن أن يستعد للرحيل من هذه الدار بسلام إلى دار السلام، فكان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده "سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي".

* * *

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد التاسع

شبهات عن زوجات النبي ﷺ والصحابة

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

٩

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢ - الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم

للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

شبهات عن زوجات النبي ﷺ

وفيها:

١- شبهة: حديث الإفك.

٢- شبهة: ادعاؤهم تطاول عائشة على النبي محمد ﷺ.

٣- شبهة استغلال عائشة وفاة النبي ﷺ في إشعال الصراع على الخلافة.

٤- أخلاق عائشة مع خديجة بنت خويلد.

٥- أخلاق عائشة مع سودة.

٦- أخلاق عائشة مع حفصة.

٧- أخلاق عائشة مع زينب بنت خزيمة.

٨- أخلاق عائشة مع أم سلمة.

٩- أخلاق عائشة مع زينب بنت جحش.

١٠- شبهة: أخلاق عائشة مع جويرية بنت الحارث.

١١- أخلاق عائشة مع صفية بنت حيي بن أخطب.

١٢- أخلاق عائشة مع أم حبيبة.

١٣- أخلاق عائشة مع مارية القبطية.

١٤- أخلاق عائشة مع اللاتي لم يدخل بهن النبي ﷺ.

١٥- شبهة: أخلاق عائشة رضي الله عنها وعثمان بن عفان رضي الله عنه.

١ـ شبهة: حديث الإفك

نص الشبه:

في قصة الإفك أسئلة كثيرة:

١-لماذا طلبت عائشة الذهاب إلى بيت أبويها لتمرض هناك؟ والاستدلال بذلك على أنها لم تتأثر بالحادث؛ لأن لها شخصية قوية لم تدعها تستسلم لتأنيب الضمير، ولماذا أعرض عنها النبي ﷺ ولم يعول على حسن الظن؟

٢- أن أمها عزت أصل الأقاويل إلى ضرائرها اللاتي تآمرن عليها.

٣-إذا ثبتت التهمة على عائشة سيحصل خلاف بين أبي بكر ومحمد ﷺ مما سيؤدي إلى تفكك الحركة الإسلامية ولذا كان على محمد أن يمارس كل ما يمكن للحصول على براءة عائشة.

٤- ولماذا اختار عليًا وأسامة بالذات؟

٥-اتهام علي لعائشة كان مبنيا على سوء الظن القائم على معرفته بماضيها السيئ وهذا الظن السيئ مترافق مع سوء العلاقة بين فاطمة وعائشة بسبب الصراع بينهما على النبي ﷺ.

٦-قالوا إن أخطر ما في القضية أن حسانًا شاعر الرسول شارك فيها وروج لها.

٧-محمد ﷺ هو الذي دفع صفوان إلى الانتقام من حسان. والدليل أنه لم يعاقب صفوان وقال لحسان: أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام.

٨- أخذوا من قول النبي ﷺ في صفوان ولا يدخل على أهلي إلا معي. دلالة على أن صفوان كان يدخل بيت النبي ﷺ بانتظام وربما كان ذلك من الأسباب الإضافية وراء قضية الإفك.

وأخذوا من قول عائشة وكان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب دلالة على أنها تحاول إخفاء استمرار زيارة صفوان للبيت.

٩-لماذا لم يقم محمد ﷺ باستدعاء الوحي من أول لحظة مع أنه كان يمكنه هذا؟

١٠- قالوا: إن عائشة لم تجب أمام النبي ﷺ وشرعت بالبكاء.

١١-لماذا قالت عائشة لأبي بكر هلا عذرتني؟

١٢-لماذا قال القرآن عصبة مع أن الروايات لم تسم إلا أربعة، ثم أليس في هذا دليل على كثرة الخائضين في الحديث؟

١٤-لماذا لم يُحد ابن أبي! هل لأن له شيعة وأتباعا؟ ولم يكن محمد ﷺ يجرؤ على إقامة الحد عليه؟

١٥-كيف يصف القرآن أهل الإفك بأنهم يتبعون خطوات الشيطان ثم يقول ولولا فضل الله عليكم ورحمته؟

١٦-لماذا تورط مسطح مع حاجته وفقره؟ لعله كان ذا هوى بعائشة فأراد الانتقام منها ومن أبيها وهذا شأن كل محب أناني، أو أنه كان ذا هوى بحمنة فاستهوته لذلك.

١٧-هناك ظروف محيطة بحديث الإفك وهي:

أ-المشادة التي وقعت بين المهاجرين والأنصار مما يدل على أن الأنصار قرروا الانتقام من المهاجرين.

ب-زواج النبي ﷺ بزينب قبل الغزوة وبجويرية بعدها مما حدا بعائشة الشابة أن تفكر في الانتقام من زوجها ففعلت ذلك.

١٨- قولهم إن عائشة تكره جويرية.

١٩-كيف رحل النبي ﷺ ولم يسأل عنها ولماذا لم يشعر بها في أثناء الطريق وما هي مدة قضاء الحاجة التي استغرقت رحيل الجيش كله وهو مئات؟

ولماذا قعدت يائسة ولم تلحق بالعسكر

٢٠-وكيف تمرض فجأة بعد العودة، وهل يعقل أنها لم تعلم بالحديث عشرين ليلة ولماذا ذهبت لتمرض عند أهلها؟

٢١- لماذا تأخر صفوان عن الجيش؟

٢٢-وهل يجسر القوم على أن يؤذوا رسول الله في أعز الناس إليه إذا لم يكن للشبهة مأخذ؟

٢٣-كيف لم تنتبه لضجيج العسكر؟

٢٤-لماذا لم يواجه محمد عائشة بالشائعات فور الوصول؟

٢٥-التناقض بين قول عائشة إنه كان حصورًا لا يأتي النساء، وبين كونه له زوجه وله منها أولاد وفي الشكوى أنه كان ذا شبق بالنساء.

٢٦- لماذا تغضب عائشة من هذه التهمة ويهتم لها المجتمع المسلم وينزل فيها القرآن مع أنها صوبت نفس التهمة لمارية ولم يضربها النبي ﷺ الحد نظرًا لنوعية العلاقات في المجتمع الإسلامي الأول؟

٢٧-ما هو سر تدخل الله العجيب في تهمة تخص مراهقة لم تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا؟

٢٨- قوله ﷺ في صفوان إنه خبيث اللسان طيب القلب.

٢٩-كان طلحة يحب عائشة وكان يقول لئن مات محمد لأتزوجن عائشة وحدث ذلك بالفعل أثناء خروجها إلى حرب الجمل.

والإجابة على تلك الترهات كما يلي:

الوجه الأول: سياق حديث الإفك كما رواه مسلم ـ رحمه الله ـ قال:

حَدَّثَنَا حِبَّانُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ الْأَيْلِيُّ، ح وَحَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ - قَالَ ابْنُ رَافِعٍ: حَدَّثَنَا، وقَالَ الْآخَرَانِ: أَخْبَرَنَا - عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، - وَالسِّيَاقُ حَدِيثُ مَعْمَرٍ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدٍ وَابْنِ رَافِعٍ - قَالَ يُونُسُ وَمَعْمَرٌ جَمِيعًا: عَنِ الزُّهْرِيِّ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا: فَبَرَّأَهَا اللهُ مِمَّا قَالُوا، وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتَ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، ذَكَرُوا، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا، أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، وَأُنْزَلُ فِيهِ مَسِيرَنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِ، وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ

فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي فَحَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِيَ الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، قَالَتْ: وَكَانَتِ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا، لَمْ يُهَبَّلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَحَلُوهُ وَرَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَادَّلَجَ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَيَّ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللهِ مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِيَ الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ، بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ، حِينَ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ، الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» فَذَاكَ يَرِيبُنِي، وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ وَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ، وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا، وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التَّنَزُّهِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَبِنْتُ أَبِي رُهْمٍ قِبَلَ بَيْتِي، حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا،

فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ أَوْ لَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَاذَا قَالَ؟ قَالَتْ: فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» قُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، وَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هُمْ أَهْلُكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ؟» قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي» فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ، يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ -، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَثَارَ الْحَيَّانِ

الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ، قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: وَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ بَكَيْتُ لَيْلَتِي الْمُقْبِلَةَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ» قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فِيمَا قَالَ فَقَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ بِهَذَا حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَإِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُونَنِي وَإِنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨) قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا، وَاللهِ حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ، وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى، وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ عِنْدَ الْوَحْيِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ، فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «أَبْشِرِي يَا

عَائِشَةُ أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ» فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي، قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ..﴾ عَشْرَ آيَاتٍ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ بَرَاءَتِي، قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ ..﴾ إلى قوله ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، [النور: ٢٢]، قَالَ حِبَّانُ بْنُ مُوسَى: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَمْرِي «مَا عَلِمْتِ؟ أَوْ مَا رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَهَذَا مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ وقَالَ فِي حَدِيثِ يُونُسَ، وصالح: احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ. وَفِي حَدِيثِ فُلَيْحٍ: اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ كَمَا قَالَ مَعْمَرٌ، وَزَادَ فِي حَدِيثِ صَالِحٍ: قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ، وَتَقُولُ: فَإِنَّهُ قَالَ:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

وَزَادَ أَيْضًا: قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ عَنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ، قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفِي حَدِيثِ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: مُوعِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، وقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: مُوغِرِينَ، قَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: قُلْتُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ: مَا قَوْلُهُ مُوغِرِينَ؟ قَالَ: الْوَغْرَةُ شِدَّةُ الْحَرِّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ، قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا فَتَشَهَّدَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي، وَايْمُ اللهِ مَا

عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَأَبَنُوهُمْ، بِمَنْ، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا دَخَلَ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي» وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ، وَفِيهِ: وَلَقَدْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتِي، فَسَأَلَ جَارِيَتِي، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلَ عَجِينَهَا، أَوْ قَالَتْ خَمِيرَهَا - شَكَّ هِشَامٌ - فَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَتَّى أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ، وَقَدْ بَلَغَ الْأَمْرُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَاللهِ مَا كَشَفْتُ، عَنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفِيهِ أَيْضًا مِنَ الزِّيَادَةِ: وَكَانَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِهِ مِسْطَحٌ وَحَمْنَةُ وَحَسَّانُ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ وَحَمْنَةُ[1].

الوجه الثاني: فوائد الحديث.

وبعد سياق حديث الإفك نذكر بعض الفوائد المستنبطة من هذا الحديث ليكون القارئ على بصيرة من أمره قبل عرض التساؤلات الواردة على هذا الحديث. كما قال ابن حجر[2] بعد ذكر فوائد الحديث: وبذلك يعرف قصور من قال براءة عائشة ثابتة بصريح القرآن فأي فائدة لسياق قصتها.

اعلم أن في حديث الإفك فوائد كثيرة:

١- صحة القرعة بين النساء وفى العتق وغيره.

٢- وفيه مشروعية جواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس إذا تضمن ذلك إزالة توهم النقص عن الحاكي إذا كان بريئًا عند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع فيه من سبق

٣- إن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم وتحصيل الأجر للموقوع فيه.

(١) صحيح مسلم (٢٧٧٠)، وأخرجه البخاري (٢٦٦١) بنحوه.

(٢) فتح الباري (٨/ ٤٨٢).

٤-وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام.

٥-جواز ركوب النساء في الهوادج على ظهر البعير ولو كان ذلك مما يشق عليه حيث يكون مطيقًا لذلك.

٦-وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة.

٧-وجواز تستر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن.

٨- وجوب الإقراع بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن.

٩- أنه لا يجب قضاء مدة السفر للنسوة المقيمات. وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلًا وحكم القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح.

١٠- جواز سفر الرجل بزوجته.

١١-جواز غزوهن.

١٢- جواز خدمة الرجال لهن في تلك الأسفار إذا كان من وراء حجاب.

١٣- أن ارتحال العسكر يتوقف على أمر الأمير.

١٤- جواز خروج المرأة لحاجة الإنسان بغير إذن الزوج وهذه من الأمور المستثناة اعتمادًا على الإذن العام المستند إلى العرف العام.

١٥-جواز لبس النساء القلائد في السفر كالحضر.

١٦-وصيانة المال ولو قل للنهي عن إضاعة المال؛ فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر.

١٧- أن من يُركب المرأة على البعير وغيره لا يكلمها إذا لم يكن محرمًا إلا لحاجة؛ لأنهم حملوا الهودج ولم يكلموا من يظنونها فيه.

١٨- جواز تأخر بعض الجيش ساعة ونحوها لحاجة تعرض له عن الجيش إذا لم يكن ضرورة إلى الاجتماع.

١٩-واستعمال بعض الجيش ساقةً يكون أمينًا ليحمل الضعيف ويحفظ ما يسقط وغير ذلك من المصالح.

٢٠-إعانة الملهوف، وعون المنقطع، وإنقاذ الضائع، وإكرام ذوى الأقدار كما فعل صفوانﷺ في هذا كله.

٢١- حسن الأدب مع الأجنبيات لاسيما في الخلوة بهن عند الضرورة في برية أو غيرها كما فعل صفوان من إبراكه الجمل من غير كلام ولا سؤال، وأنه ينبغى أن يمشى قدامها لا بجنبها ولا وراءها ليستقر خاطرها وتأمن مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي.

٢٢- استحباب الإيثار بالركوب ونحوه كما فعل صفوان.

٢٣- استحباب الاسترجاع – قول إنا لله وإنا إليه راجعون – عند المصائب سواء كانت في الدين أو الدنيا، وسواء كانت في نفسه أو من يعز عليه.

٢٤- تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي سواء كان صالحًا أو غيره.

٢٥- جواز الحلف من غير استحلاف.

٢٦- أنه يستحب أن يستر عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة كما كتموا عن عائشة هذا الأمر شهرًا ولم تسمع بعد ذلك إلا بعارض عرض وهو قول أم مسطح: تعس مسطح.

٢٧-استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن المعاشرة.

٢٨- أنه إذا عرض عارض بأن سمع عنها شيئًا أو نحو ذلك يقلل من اللطف ونحوه لتفطن هي أن ذلك لعارض فتسأل عن سببه فتزيله أو تعتذر أو تعترف.

٢٩- استحباب السؤال عن المريض.

٣٠-وفيه إشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة؛ فإذا كان السبب محققًا فيترك أصلًا، وإن كان مظنونًا فيخفف، وإن كان مشكوكًا فيه أو محتملًا فيحسن التقليل منه لا للعمل بما قيل بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقه؛ لأن ذلك من خوارم المروءة.

٣١- أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن تكون معها رفيقة تستأنس بها.

٣٢- كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا أذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح كما فعلت أم مسطح في دعائها عليه.

٣٣- أن الزوجة لا تذهب إلى بيت أبويها إلا بإذن زوجها.

٣٤- مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب.

٣٥- استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فيما ينوبه من الأمور وتخصيص من جربت صحة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب.

٣٦- جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة عمن له به تعلق. أما غيره فهو منهي عنه وهو تجسس وفضول واستصحاب حال من اتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفًا بالخير إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك.

٣٧-والبحث عن حال من اتهم بشيء وحكاية ذلك للكشف عن أمره ولا يعد ذلك غيبة.

٣٨-جواز استعمال (لا نعلم إلا خيرًا) في التزكية، وأن ذلك كاف في حق من سبقت عدالته ممن يطلع على خفي أمره.

٣٩- التثبت في الشهادة.

٤٠- فطنة الإمام عند الحادث المهم.

٤١- توطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به أو العتاب له.

٤٢- استشارة الأعلى لمن هو دونه.

٤٣- أن من استفسر عن حال شخص فأراد بيان ما فيه من عيب فليقدم ذكر عذره في ذلك إن كان يعلمه كما قالت بريرة في عائشة حيث عاتبها بالنوم عن العجين فقدمت قبل ذلك أنها جارية حديثه السن.

٤٤- فيه أن النبي ﷺ كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي لأنه ﷺ لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي.

٤٥- أن الحمية لله ورسوله لا تذم.

٤٦- فيه فضائل جمة لعائشة ولأبويها ولصفوان بن المعطل رضي الله عنه بشهادة النبي ﷺ له بما شهد وبفعله الجميل في إركاب عائشة رضي الله عنها وحسن أدبه في جملة. القضية ولعلى بن أبي طالب وأسامة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير.

٤٧- خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم.

٤٨- اشتكاء ولى الأمر إلى المسلمين من تعرض له بأذى في نفسه أو أهله أو غيره واعتذاره فيما يريد أن يؤذيه به.

٤٩- المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات وتسكين الغضب.

٥٠- وإطلاق الكذب على الخطأ.

٥١-والقسم بلفظ لعمر الله واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما وفضل احتمال الأذى.

٥٢-وفيه مباعدة من خالف الرسول ولو كان قريبًا حميمًا.

٥٣-وفيه أن من آذى النبي ﷺ بقول أو فعل يقتل؛ لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبي ﷺ.

٥٤-وفيه مساعدة من نزلت فيه بلية بالتوجع والبكاء والحزن.

٥٥- وفيه تثبت أبي بكر الصديق في الأمور؛ لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهرًا كلمة فما فوقها إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال (والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام) وقع ذلك في حديث ابن عمر عند الطبراني[1].

٥٦- توقيف من نقل عنه ذنب على ما قيل فيه بعد البحث عنه.

٥٧- فيه مشروعية التوبة، وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص، وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها، وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز ولو عرف أنه يصدق في ذلك ولا يؤاخذ على ما يترتب على اعترافه بل، عليه أن يقول الحق أو يسكت.

٥٨- أن الصبر يحمد عاقبته ويغبط صاحبه.

٥٩- فيه الضحك والفرح والاستبشار عند ذلك.

٦٠-ومعذرة من انزعج عند وقوع الشدة لصغر سن ونحوه.

٦١- وإدلال المرأة على زوجها وأبويها.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٢٣/ ١٢٥/ ١٦٤) رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي وهو متروك كذاب، وقال ابن عدي: وَعَامَّةُ مَا يَرْوِيهِ مِنَ الْحَدِيثِ بَوَاطِيلُ عَنِ الثِّقَاتِ وَعَنِ الضُّعَفَاءِ. وعليه فهي زيادة لم تثبت فصح أن أبا بكر لم يتكلم بشيء. انظر: الكامل لابن عدي (١/ ٥٠١)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٣٨).

٦٢- تفويض الكلام إلى الكبار دون الصغار لأنهم أعرف.

٦٣-وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج.

٦٤-وفيه فضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خف عنه الهم والغم. كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقولها. والله المستعان.

٦٥- ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه.

٦٦- براءة عائشة رضي الله عنها من الإفك وهى براءة قطعية بنص القرآن العزيز فلو تشكك فيها إنسان - والعياذ بالله - صار كافرًا مرتدًا بإجماع المسلمين. قال ابن عباس وغيره: لم تزن امرأة نبي من الأنبياء(١) وهذا إكرام من الله تعالى لهم.

٦٧- أنه يستحب لمن حلف على يمين ورأى خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه.

٦٨- فضيلة زينب أم المؤمنين رضي الله عنها.

٦٩- وتحريم الشك في براءة عائشة.

٧٠- إكرام المحبوب بمراعاة أصحابه ومن خدمة أو أطاعة كما فعلت عائشة- رضى الله عنها- بمراعاة حسان وإكرامه إكرامًا للنبيﷺ.

٧١- التأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم.

٧٢- ذم الغيبة وذم سماعها وزجر من يتعاطاها لا سيما إن تضمنت تهمة المؤمن بما لم يقع منه.

٧٣- فيه تأخير الحد عمن يخشى من إيقاعه به الفتنة. (٢)

٧٤- استدل بالحديث أبو على الكرابيسي- صاحب الشافعي- في كتاب القضاء على منع الحكم حالة الغضب لما بدا من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة من قول بعضهم لبعض حالة الغضب حتى كادوا يقتتلون. قال: فإن الغضب يخرج الحليم

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٩٥/ ١٢٣٣).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٤٨١): نبه على ذلك ابن بطال مستندًا إلى أن عبد الله بن أبي كان ممن قذف عائشة، ولم يقع في الحديث أنه ممن حد، وتعقبه عياض بأنه لم يثبت أنه قذف، بل الذي ثبت أنه كان يستخرجه ويستوشيه.

المتقي إلى ما لا يليق به، فقد أخرج الغضب قومًا من خيار هذه الأمة بحضرة رسول الله ﷺ إلى مالا يشك أحد من الصحابة أنها منهم زلة إلى آخر كلامه في ذلك.

٧٥- ويؤخذ من سياق عائشة رضي الله عنها جميع قصتها المشتملة على براءتها بيان ما أجمل في الكتاب والسنة لسياق أسباب ذلك وتسمية من يعرف من أصحاب القصص لما في ضمن ذلك من الفوائد الأحكامية والآدابية وغير ذلك، وبذلك يعرف قصور من قال براءة عائشة ثابتة بصريح القرآن فأي فائدة لسياق قصتها.

٧٦- اتقاء مواطن الشبهات فإن عائشة رضي الله عنها مع أنها أم المؤمنين قيل فيها ذلك فكيف بغيرها؟ وهذا في زمان رسول الله ﷺ فكيف بغير زمانه عليه الصلاة والسلام.

٧٧- ترتيب المصالح وارتكاب أخف الضررين وتقديم الأولويات؛ فإن ضياع العقد أهون من التخلف عن الجيش ولأنها- رضي الله عنها - كانت حديثة السن.

٧٨- علاج الأمور في الفتن باللين، والحكمة، والبعد عن الشدة، والأدب في الدفاع عن النفس، واللجوء إلى الله تعالى، واستنفاد الجهد في ذلك. (١)

٧٩- التواضع الجم والأدب الوفير: قال ابن كثير رحمه الله: ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها، وبراءتها، وحيًا يتلى في محاريب المسلمين، وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها أنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيرًا لها، ولم يكن بذلك الذي قيل فيها شر لها، ولا عيب لها، ولا خافض من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكرًا بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها. وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت: ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلى، ولكن كنت أرجو

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٤٧)، وشرح مسلم للنووي (٩/ ١١٣).

أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها، فهذه صديقة الأمة، وأم المؤمنين، وحب رسول الله ﷺ، وهي تعلم أنها بريئة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبويها، وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن قد صام يومًا أو يومين، أو شهرًا أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويُغتنم بصالح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيرهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي ينتقم لهم لأجلها ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم.

ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعونات نتاج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه. نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة. وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا، وهو عند الله حقير. [(١)]

٨٠- **وقال القرطبي**: قال بعض أهل التحقيق: إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة برأه الله على لسان صبى في المهد، وإن مريم لما رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى- صلوات الله عليه-، وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن، فما رضى لها ببراءة صبي ولا نبي حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان. [(٢)]

٨١-وينبغي أن يعلم أن سب عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه يعتبر مروقًا من الدين – حسبما تقرر في القواعد الشرعية- وسابها كافر، وعلى هذا إجماع علماء المسلمين، مستدلين

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٢١٢). وليس معنى هذا القول بتفضيل عائشة على يوسف ولا الجزم بتفضيلها على مريم؛ وإنما هو تمام الصيانة لعرض نبيه وخليله ﷺ. والله أعلم.

بقوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وبغيرها من آيات الكتاب الحكيم. قال القاضي أبو يعلى: من قذف عائشةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما برأها الله منه كفر بلا خلاف. (١)

وروى عن محمد بن زيد بن علي بن الحسين أخي الحسن بن زيد أنه لما قدم عليه رجل من العراق فذكر عائشة بسوء، فقام إليه بعمود فضرب به دماغه فقتله، فقيل له: هذا من شيعتنا ومن بني الآباء! فقال: هذا سمى جدي(٢) قرنان، ومن سمى جدي قرنان استحق القتل(٣).

وروي عن أخيه الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب: أنه كان بحضرته رجلًا فذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة، فقال: يا غلام، اضرب عنقه، فقال له العلويون: هذا رجل من شيعتنا، فقال: معاذ الله، هذا رجل طعن على النبيﷺ، وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (النور: ٢٦)، فإن كانت عائشة خبيثة، فالنبي ﷺ خبيث! ، فهو كافر فاضربوا عنقه. فاضربوا عنقه، وأنا حاضر -على حد قول الراوي-.

وقال ابن تيمية: ومن رمى عائشةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما برأها الله منه فقد مرق من الدين. . (٤)

وقال ابن حجر الهيتمي بعد ما ذكر حديث الإفك: علم من حديث الإفك أن من نسب عائشة إلى الزنا كان كافرًا، وقد صرح بذلك أئمتنا وغيرهم لأن في ذلك تكذيب النصوص القرآنية، ومكذبها كافر بإجماع المسلمين، وبه يعلم القطع بكفر كثيرين من غلاة الروافض، لأنهم ينسبونها إلى ذلك- قاتلهم الله- أنى يؤفكون. (٥)

---

(١) نقله عنه ابن تيمية في الصارم المسلول (٥٧١).

(٢) يعني رسول الله ﷺ. والقرنان هو الديوث الذي لا غيرة له قال الليث: القرنان: نعت سوء في الرجل، الذي لا غيرة له، ((تهذيب اللغة)) (٩/ ٩٣)، والعين (٥/ ١٤٣).

(٣) ذكرها ابن تيمية في الصارم المسلول (٥٦٦ – ٥٦٧).

(٤) ذكرها ابن تيمية في الصارم المسلول (٥٦٦ – ٥٦٧).

(٥) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي (١٠١).

وأقوال علماء المسلمين كثيرة في هذا الباب، وكلها متضافرة على كفر من رمى الصديقة بما برأها الله منه، أو نسبها إلى الفاحشة -عياذا بالله- متبعين لكتاب ربهم الذي قرر أن الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات وسنة نبيهم ﷺ التي دلت دلالة قطعية على أن رسول الله ﷺ يحب الصديقة الطيبة عائشة حبًا شديدا ، وكان ﷺ لا يحب إلا طيبًا. [١]

الوجه الثالث: الإجابة على أسئلة المعترض:

١-لماذا طلبت عائشة الذهاب إلى بيت أبويها لتمرض هناك، والاستدلال بذلك على أنها لم تتأثر بالحادث لأن لها شخصية قوية؟ ولماذا أعرض عنها النبيﷺ، ولم يعول على حسن الظن كبقية المؤمنين؟ وما هو سر تدخل الله العجيب في هذه المراهقة؟

والجواب في نقاط:

ا-لم يقلﷺ: بحسن الظن لشدة غيرتهﷺ، والغيور لا يكاد يعول في مثل ذلك على حسن الظن.

ب-إن قول أولئك الأصحاب ﷺ: سبحانك هذا بهتان عظيم. لم يكن ناشئًا إلا عن حسن الظن ولم يتمسك بهﷺ؛ لأنه لا يحسم القال والقيل ولا يرد به شيء من الأباطيل. ولا ينبغي لمن يؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ أن يخالج قلبه بعد الوقوف على الآيات والأخبار شك في طهارة نساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الفجور في حياة أزواجهن وبعد وفاتهم عنهن. [٢]

ج-لم يكن هذا من النبي ﷺ إعراضًا كليًا، وإنما كان من هديه مُلَاطَفَة الزَّوْجَة وَحُسْنُ مُعَاشَرَتهَا وَالتَّقْصِير مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ إِشَاعَة مَا يَقْتَضِي النَّقْص وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّق، وَفَائِدَةُ ذَلِكَ أَنْ تَتَفَطَّنَ لِتَغْيِيرِ الْحَال فَتَعْتَذِر أَوْ تَعْتَرِف.

د- وفي هذا الهدي إِشَارَةٌ إِلَى مَرَاتِبِ الْهِجْرَانِ بِالْكَلَامِ وَالْمُلَاطَفَةِ، فَإِذَا كَانَ السَّبَبُ مُحَقَّقًا فَيُتْرَكُ أَصْلًا، وَإِنْ كَانَ مَظْنُونًا فَيُخَفَّفُ، وَإِنْ كَانَ مَشْكُوكًا فِيهِ أَوْ مُحْتَمَلًا فَيَحْسُن التَّقْلِيلُ

---

(١) المصدر السابق نقلًا عن: أوجز الخطاب في بيان موقف الشيعة من الأصحاب.

(٢) روح المعاني (١٨/ ٤٢٥).

مِنْهُ لَا لِلْعَمَلِ بِمَا قِيلَ، بَلْ لِئَلَّا يُظَنّ بِصَاحِبِهِ عَدَمُ الْمُبَالَاةِ بِمَا قِيلَ فِي حَقِّهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَوَارِمِ الْمُرُوءَةِ. (١)

هـ-لقد فاجأت هذه الحادثة سمع النبي ﷺ وهو في طور من إنسانيته العادية فأخذ يتصرف ويفكر كأي أحد من الناس في حدود العصمة المعروفة للأنبياء، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي بشر من الناس ليس له اطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول ولا قصد ملفق كاذب، فأخذ يقلب الأمر على وجوهه ويستعين في ذلك بمشورة أولى الرأي من أصحابه. (٢)

وقال حسين الموسوي: إن المتتبع لقصة الإفك يتضح أمامه صورة كاملة للحرية التامة التي كان المسلمون يتمتعون بها في الفكر والتعبير والكلام،. . . وهنا نريد أن نستنتج شيئًا أهم من هذه الحادثة، وهو: أن المجتمع الذي يصل فيه التعبير عن الرأي وحرية الكلام سواء أكان ذلك صحيحًا أو سقيمًا إلى هذه المرحلة بحيث لا يرعى في حرمة رسول الله ﷺ الذي أنقذهم من الضلال والهلاك وهداهم إلى خير الدنيا والآخرة وخير البركات حتى أن نزلت آيات التأديب بحق الناس في ذلك المجتمع، هل يمكن للنبي ﷺ أن يحمل مجتمعًا مثل هذا على أمر وهو مكره عليه إلا إذا كان ذلك الأمر من الله وبنص من كتابه، فحينئذ كانت الحريات الفكرية والاجتماعية كلها تتبخر أمام الأوامر الإلهية ويصبح الفرد والمجتمع أمام أوامر الله ونواهيه عبادًا مطيعين منقادين لا يسعهم إلا الامتثال لأمره والعزوف عن نواهيه. (٣)

وأما انتقالها إلى بيت أبويها فلم يكن لتمرض هناك، بل طلبت الذهاب بعد أن نقهت من مرضها وسمعت بالخبر من أم مسطح لتستيقن الخبر من قبل أبويها؛ لأنه لا يليق بها أن تسأل زوجها عن ذلك، كما قالت هي عن نفسها في سياق القصة: وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قِبَلهما.

ز- **وقولهم لم تتأثر بذلك لقوة شخصيتها: كذب لما يلي:**

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٢٩).

(٢) فقه السيرة للبوطي (٢١١).

(٣) الشيعة والتصحيح (١/ ٢٥-٢٨).

١-لما ورد في سياق القصة أنها قالت فازددت مرضا على مرضي.

٢-وقالت: فبكيت ليلتي هذه لايرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

٣-وقولها بعد ذلك: فبكيت يومي هذا وليلتي تلك وأصبح أبواي عندي وهما يظنان أن البكاء فالق كبدي. أفبعد هذا كله تتهم أنها لم تتأثر بما فعلت لقوة شخصيتها فأي شخصية أمام هذا الاتهام الجائر لهذه الجارية في هذا السن؟

ثانيا-فَإِنْ قِيلَ فَمَا بَالُ رَسُولِ الله ﷺ تَوَقَّفَ فِي أَمْرِهَا وَسَأَلَ عَنْهَا وَبَحثَ وَاسْتَشَارَ وَهُوَ أَعْرَفُ بِالله وَبِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ وَبِمَا يَلِيقُ بِهِ وَهَلّا قَالَ ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ كَمَا قَالَهُ فُضَلَاءُ الصّحَابَةِ؟

فالْجوَاب: ١ - أَنّ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْحِكَمِ الْبَاهِرَةِ الّتِي جعَلَ الله هَذِهِ الْقِصّةَ سَببًا لَهَا وَامْتِحَانًا وَابْتِلَاءً لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِجَمِيعِ الْأُمّةِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَرْفَعَ بِهَذِهِ الْقِصّةِ أَقْوَامًا وَيَضَعَ بِهَا آخَرِينَ وَيَزِيدُ الله الّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَإِيمَانًا وَلَا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إلّا خَسَارًا فَاقْتَضَى تَمَامُ الِامْتِحَانِ وَالِابْتِلَاءِ أَنْ حُبِسَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ الْوَحْيُ شَهْرًا فِي شَأْنِهَا لَا يُوحَى إلَيْهِ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ لِتَتِمّ حِكْمَتُهُ الّتِي قَدّرَهَا وَقَضَاهَا وَتَظْهَرَ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ.

٢- وَلِتَتِمّ الْعُبُودِيّةُ الْمُرَادَةُ مِنْ الصّدّيقَةِ وَأَبَوَيْهَا، وَتَتِمّ نِعْمَةُ الله عَلَيْهِمْ.

٣-وَلِتَشْتَدّ الْفَاقَةُ وَالرّغْبَةُ مِنْهَا وَمِنْ أَبَوَيْهَا وَالِافْتِقَارُ إلَى الله وَالذّلّ لَهُ وَحُسْنُ الظّنّ بِهِ وَالرّجَاءُ لَهُ وَلِيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهَا مِنْ الْمَخْلُوقِينَ وَتَيْأَسَ مِنْ حُصُولِ النّصْرَةِ وَالْفَرَجِ عَلَى يَدِ أَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ، وَلِهَذَا وَفّتْ هَذَا الْمَقَامَ حَقّهُ لَمّا قَالَ لَهَا أَبَوَاهَا: قُومِي إلَيْهِ وَقَدْ أَنْزَلَ الله عَلَيْهِ بَرَاءَتَهَا فَقَالَتْ: وَالله لَا أَقُومُ إلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إلّا الله، هُوَ الّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي.

٤- وَأَيْضًا فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ حَبْسِ الْوَحْيِ شَهْرًا أَنّ الْقَضِيّةَ مُحّصَتْ، وَتَمَحّضَتْ وَاسْتَشْرَفَتْ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمَ اسْتِشْرَافٍ إلَى مَا يُوحِيهِ الله إلَى رَسُولِهِ فِيهَا وَتَطَلّعَتْ إلَى ذَلِكَ غَايَةَ التّطَلّعِ فَوَافَى الْوَحْيَ أَحْوَجَ مَا كَانَ إلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَالصّدّيقُ وَأَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَوَرَدَ عَلَيْهِمْ وُرُودَ الْغَيْثِ عَلَى الْأَرْضِ أَحْوَجَ مَا كَانَتْ إلَيْهِ

فَوَقَعَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ مَوْقِعٍ وَأَلْطَفَهُ وَسُرّوا بِهِ أَتَمّ السّرُورِ، وَحَصَلَ لَهُمْ بِهِ غَايَةُ الْهَنَاءِ فَلَوْ أَطْلَعَ الله رَسُولَهُ عَلَى حَقِيقَةِ الْحَالِ مِنْ أَوّلِ وَهْلَةٍ، وَأَنْزَلَ الْوَحْيَ عَلَى الْفَوْرِ بِذَلِكَ لَفَاتَتْ هَذِهِ الْحِكَمُ وَأَضْعَافُهَا بَلْ أَضْعَافُ أَضْعَافِهَا.

٥-إظْهَارُ الله مَنْزِلَتَهُ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عِنْدَهُ،... وَأَنْ يُخْرِجَ رَسُولَهُ عَنْ هَذِهِ الْقَضِيّةِ وَيَتَوَلّى هُوَ بِنَفْسِهِ الدّفَاعَ وَالْمُنَافَحَةَ عَنْهُ وَالرّدّ عَلَى أَعْدَائِهِ وَذَمّهِمْ وَعَيْبِهِمْ بِأَمْرٍ لَا يَكُونُ لَهُ فِيهِ عَمَلٌ وَلَا يُنْسَبُ إلَيْهِ، بَلْ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُتَوَلّي لِذَلِكَ الثّائِرُ لِرَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

٦-وَأَيْضًا فَإِنّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودَ بِالْأَذَى وَالّتِي رُمِيَتْ زَوْجَتُهُ، فَلَمْ يَكُنْ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَشْهَدَ بِبَرَاءَتِهَا مَعَ عِلْمِهِ أَوْ ظَنّهِ الظّنّ الْمُقَارِبَ لِلْعِلْمِ بِبَرَاءَتِهَا وَلَمْ يَظُنّ بِهَا سُوءًا قَطّ- وَحَاشَاهُ وَحَاشَاهَا- وَلِذَلِكَ لَمّا اسْتَعْذَرَ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ قَالَ: مَنْ يَعْذِرُنِي فِي رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي وَالله مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إلّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلّا خَيْرًا وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إلّا مَعِي، فَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ الْقَرَائِنِ الّتِي تَشْهَدُ بِبَرَاءَةِ الصّدّيقَةِ أَكْثَرَ مِمّا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لِكَمَالِ صَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ وَرِفْقِهِ وَحُسْنِ ظَنّهِ بِرَبّهِ وَثِقَتِهِ بِهِ وَفّى مَقَامَ الصّبْرِ وَالثّبَاتِ وَحُسْنِ الظّنّ بِالله حَقّهُ حَتّى جَاءَهُ الْوَحْيُ بِمَا أَقَرّ عَيْنَهُ وَسَرّ قَلْبَهُ وَعَظّمَ قَدْرَهُ وَظَهَرَ لِأُمّتِهِ احْتِفَالُ رَبّهِ بِهِ وَاعْتِنَاؤُهُ بِشَأْنِهِ. (١)

٧- ما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها. . من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية. . . ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله؛ وما يعلمها إلا الله. (٢)

ثالثا: **قولهم: أما أمها فعزت أصل الأقاويل إلى ضرائرها اللاتي تآمرن عليها.**

والجواب: أن هذا كذب وسوء فهم. فإن الذي قالته أمها ليس كذلك، ولا يفهم منه هذا. وهاهو الحوار بينهما: فَقُلْتُ لِأُمّي: يَا أُمّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدّثُ النّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيّةُ هَوّنِي

(١) زاد المعاد (٣/ ١٦٥).

(٢) تفسير الظلال (٥/ ٢٦٤).

عَلَيْكِ، فَوَ اللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا. قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ أَوَ لَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: نعم. . . . . الحديث.

أولًا: هذا من أمها ليس اتهامها لضرائر عائشة بهذا الإفك. وإنما هو بمثابة ضرب مثل من أمها تعزيها به في مثل هذا الموقف، وغرضها أن تقول لها: لست وحدك المصابة فهاهن نساء العالمين قلما توجد فيهن امرأة مثلك لها ضرائر وزوجها يحبها مثلك إلا تكلم الضرائر فيها، فللحب والتألق ضريبة تدفع ولابد. فقولها إلا كثّرن عليها ليس بعائد علي ضرائر عائشة، وإنما هو عائد على ضرائر المرأة الوضيئة التي ضربت بها المثل. وتهوين المصيبة بذكر كثرة المصابين أمر معروف في الكتاب والسنة. وكانت أم رومان تعلمه ولذلك قدمته لابنتها في الوقت التي تحتاجه.

ومن ذلك ذكر قصص السابقين في القرآن والسنة ومنه في هذا الحديث قول عائشة: ما أري لي ولكم مثلًا إلا قول- أَبو يُوسُفَ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾. وأما فيما يتعلق بالضرائر فلم تتكلم واحدة منهن في عائشة بسوء، حتى زينب بنت جحش قالت: أحمي سمعي وبصري ولا أعلم عليها إلا خيرًا. وإنما تكلمت حمنة فقط وليس من زوجات النبي ﷺ إنما هي أخت زينب. فلعل سبب كلامها فيها المحاربة لأجل أختها. أما الضرائر زوجات النبي ﷺ فلم تتفوه واحدة منهن بما يسيء إلي رسول الله ﷺ ولا إلي عائشة أبدًا.

فقوله: عزت أصل الكلام إلي الضرائر: سوء فهم للعبارة التي خرجت من أم رومان علي سبيل التعزية بضرب المثل كما مر.[1]

رابعًا: وبعد كلامه على قوة شخصية عائشة التي فهمها من أنها لم تبال بالأمر وانتقلت إلي أبويها. قال: وربما لو كانت غير عائشة من زوجات النبي ﷺ الأخريات لبلغت حد الانتحار.

وهذه النتيجة التي يتحدث عنها مبنية علي مقدمات:

الأولي: أنه سلم باتهام أم المؤمنين بهذه التهمة.

الثانية: أنها ذات شخصية قوية من دون زوجات النبيﷺ.

الثالثة: جهله بالحالة الإيمانية عند الصحابة عمومًا، وعند أمهات المؤمنين خاصةً.

(١) فتح الباري بمعناه (٨/ ٣٣٢).

فإذا علم أن إجماع المسلمين على براءة عائشة من هذه التهمة، وأنها لم تتمالك نفسها من كثرة البكاء عند علمها بهذا الأمر. فينبغي الجواب علي قوله-لبلغت حد الانتحار:

وهذا مبني علي جهله بحال من يتكلم عنهم، وذلك أن الانتحار الذي يتحدث عنه يوجد في مجتمعه هو لا في مجتمع عاش فيه رسول الله ﷺ. وليس الكلام في هذا الآن. وإنما الكلام في أعلى منها وأحسن. وهي أنهم كانوا إذا وقع أحدهم في الذنب سرًا وخفية أتي رسول الله ﷺ واعترف لكي يطهره بالحد قبل أن يلقي الله تعالي. وإليك بعض هذه الصور:

١-عن عبد الله بن مسعود قال: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا. فَأَنَا هَذَا فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ. .)(١)

فانظر كيف ستره الله حالة الفعل لكن ضميره لم يسمح له حتى جاء يطلب أن يعاقب على فعله بين يدي رسول الله ﷺ ولم يفكر في الانتحار كما زعم هذا.

٢-وعن أنس وأبي أمامة ﷺ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. . .)(٢)

وهكذا كانت الروح الإيمانية في مجتمع الصحابة بحيث لو وقع أحدهم في معصية سارع إلى رسول الله ﷺ معترفًا بذلك بين يديه ولم يفكر أحد منهم في الانتحار؛ لأن الانتحار ذنب فوق ذنب. فكلام هذا الكاتب في حق الزوجات الطاهرات اتهام مبني علي وهم توهمه- وحسبنا الله ونعم الوكيل-، وذلك لأنهم كانوا يفقهون حديث النبي ﷺ الذي رواه ثابت بن الضحاك أنه قال: " **وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(٣). وقوله ﷺ في حديث الرجل الذي قتل نفسه: "**بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**". (٤)

---

(١) مسلم (٢٧٦٣).

(٢) مسلم (٢٧٦٤).

(٣) البخاري (٥٤٤٢)، ومسلم (١٠٩).

(٤) البخاري (٣٢٧٦).

خامسا قولهم: إذا ثبتت التهمة على عائشة سيحصل خلاف بين أبي بكر والنبي محمدﷺ مما سيؤدي إلى تفكك الحركة الإسلامية ولذا كان على النبي محمد ﷺ أن يمارس كل ما يمكن للحصول على براءة عائشة

وللإجابة على ذلك نقم بطرح سؤالين:

١-هل ثبوت التهمة يترتب عليه وقوع الخلاف بين أبي بكر ورسول اللهﷺ؟

٢-هل لو وقع الخلاف ينهدم صرح الدعوة الإسلامية كما زعم هؤلاء؟

وبالإجابة على هذين السؤالين يتجلى بطلان هذا الزعم:

أولا: إن الناظر في حياة الصديق مع النبي ﷺ يرى أنه كان أولى الناس بقوله ﷺ في حديث أنس: **"لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"**. [(١)]

وإليك بعض المواقف من حياته توضح ذلك:

١-صفاته التي قاربت إلى حد كبير صفات النبي ﷺ كما جاء على لسان ابنِ الدُّغُنَّةِ في وصف أبي بكر موافقًا لوصف خديجة للنبي ﷺ من غير مواطأة منهما على ذلك.

٢-لقد هاجر مع النبي ﷺ وترك بيته وعياله وفيهم عائشة وكان أسعد الناس بذلك.

وها هو الحديث: عن عُرْوَةَ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ - ﷺ قَالَتْ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَايَّ قَطُّ إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلاَّ يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونُ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، حَتَّى بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدُّغُنَّةِ وَهْوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ. فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّى. قَالَ ابْنُ الدُّغُنَّةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ. فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدُّغُنَّةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِى الضَّيْفَ،

---

(١) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا. فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِصَلاَتِهِ، وَلاَ يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَذِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لاَ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ. فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلاَةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلاَّ أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الاِسْتِعْلاَنَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الذي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لاَ أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ الله عَزَّ وَجَلَّ. وَالنَّبِي ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ. فَقَالَ النَّبِي ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: "**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لاَبَتَيْنِ** -، **وَهُمَا الْحَرَّتَانِ**، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: "**عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ قَالَ: "**نَعَمْ**". فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ- وَهُوَ الْخَبَطُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ-. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ الله ﷺ مُتَقَنِّعًا - فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَالله مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ أَمْرٌ. قَالَتْ: فَجَاءَ

رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ: "**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: "**فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ**". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّحَابَةُ -بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**نَعَمْ**". قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ إِحْدَى رَاحِلَتِيّ هَاتَيْنِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**بِالثَّمَنِ**".

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِى بَكْرٍ قِطْعَةً مَنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ- فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقِ - قَالَتْ - ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى بَكْرٍ -وَهْوَ غُلاَمٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ -، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلاَّ وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِى بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ يَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ- وَهْوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا - حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَيالِي الثَّلاَثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهْوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِي، وَهْوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاَثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ. (١)

٣-كان أبو بكر على أتم استعداد لقتل ابنه عبد الرحمن في غزوة بدر؛ لأنه كان يقاتل مع المشركين، فقال له بعد أن أسلم: لو أهدفت لي ما صدفت عنك.

فعن ابن سيرين أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق كان يوم بدر مع المشركين فلما أسلم قال لأبيه: لقد أهدفت لي يوم بدر فصرفت عنك ولم أقتلك، فقال أبو بكر: لكنك لو أهدفت لي لم أنصرف عنك.

---

(١) البخاري (٢١٧٥).

قال ابن عساكر: وهذا من أكبر فضائله؛ لأنه كان لا تأخذه في الله لومة لائم جعل الله في قلبه من جلالة الإيمان. وبهذا وصف الله أصحاب محمدﷺ، فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢)[١]

ثانيًا: ولو فرض أن هذا يقع من أبي بكر فهل تتوقف حركة الدعوة الإسلامية كما ظن؟

والجواب يتضح إذا علم أن النبي ﷺ مات، ومات أبو بكر، وعمر، وكل الصحابة ولم ينته أمر هذا الدين؛ لأن الذي تكفل بحفظه هو الله تعالى فكيف ينهار بسبب أمر كهذا!

وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يدعو رسول الله ﷺ لأن يستخدم التقية مع أبي بكر ويقوم بإنزال آيات في براءة عائشة رضي الله عنها ؟!

سادسًا: لماذا خص النبي ﷺ عليًا وأسامة بالمشورة في هذه القضية؟

هل لأنه لاذ بالعصبية في مثل هذا الموقف؟ أم هربًا من الإحراج لو انكشف أمر كهذا أمام علي وأسامة؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنه صح أنه استشار غيرهما كما في هذه الرواية الصحيحة أنه سأل عنها زينب وبريرة.

الوجه الثاني: الْعِلَّة فِي اِخْتِصَاص عَلِيّ وَأُسَامَة بِالْمُشَاوَرَةِ: أَنَّ عَلِيًّا كَانَ عِنْدَهُ كَالْوَلَدِ؛ لِأَنَّهُ رَبَّاهُ مِنْ حَال صِغَره ثُمَّ لَمْ يُفَارِقهُ، بَلْ وَازْدَادَ اِتِّصَاله بِتَزْوِيجِ فَاطِمَة فَلِذَلِكَ كَانَ مَخْصُوصًا بِالْمُشَاوَرَةِ فِيمَا يَتَعَلَّق بِأَهْلِهِ لِمَزِيدِ اِطِّلَاعه عَلَى أَحْوَاله أَكْثَر مِنْ غَيْره؛ وَكَانَ أَهْل مَشُورَته فِيمَا يَتَعَلَّق بِالْأُمُورِ الْعَامَّة أَكَابِر الصَّحَابَة كَأَبِي بَكْر وَعُمَر. وَأَمَّا أُسَامَة فَهُوَ كَعَلِيٍّ فِي طُول الْمُلَازَمَة وَمَزِيد الِاخْتِصَاص وَالْمَحَبَّة، وَلِذَلِكَ كَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ حِبُّ رَسُول اللهﷺ.[٢]

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/ ١٢٨). ومن ذلك ما وقع من الموافقة بين جواب النبي صلى الله عليه وسلم وجواب أبي بكر على عمر في صلح الحديبية. انظر: صحيح البخاري ((٢٥٨١).

(٢) فتح الباري (٨/ ٣٣٤).

سابعًا: موقف علي ﷺ فيما قال: الذي قاله علي ﷺ هو: (يَا رَسُول الله لَمْ يُضَيِّق الله عَلَيْك، وَالنِّسَاء سِوَاهَا كَثِيرٌ وَإِنْ تَسْأَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ) حيث قالوا تعليقًا على مشورة علي ﷺ: إن عليًا قال هذا اعتمادًا علي سوء الظن الناشئ عن معرفته بسوابق أحوال عائشة.

الجواب: ١-لقد استشار النبي ﷺ صاحبيه في فراقها ولم يسألهما أصلًا عن حسن الظن أو سوء الظن. فَأَشَارَ عَلَيْهِ عَلِيّ ﷺ أَنْ يُفَارِقَهَا تَلْوِيحًا لَا تَصْرِيحًا؛ لأنه رَأَى أَنّ مَا قِيلَ مَشْكُوكٌ فِيهِ فأَشَارَ بِتَرْكِ الشّكّ وَالرّيبَةِ إلَى الْيَقِينِ لِيَتَخَلّصَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الْهَمّ وَالْغَمّ الّذِي لَحِقَهُ مِنْ كَلَامِ النّاسِ فَأَشَارَ بِحَسْمِ الدّاءِ[1].

٢-وهذا الكلام الذي قاله عليّ ﷺ حمله عليه ترجيح جانب النبي ﷺ لما رأي عنده من القلق والغم بسبب القول الذي قيل.

٣-كان النبي ﷺ شديد الغيرة فرأى عليّ أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن يتحقق براءتها فيمكن رجعتها[2].

٤-رأى عليّ هذا الرأي ارتكابًا لأخف الضررين لدفع أعظمها. فالأخف هو الطلاق والأعظم هو ما فيه رسول الله من الغم والهم[3]. قال النووي: رَأَى عَلِيّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَصْلَحَة فِي حَقّ النَّبِيّ ﷺ وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ اِنْزِعَاجه، فَبَذَلَ جَهْده فِي النَّصِيحَة لِإِرَادَةِ رَاحَة خَاطِره ﷺ[4].

٥-وَقَالَ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَة: لَمْ يَجْزِم عَلِيّ بِالْإِشَارَةِ بِفِرَاقِهَا؛ لِأَنَّهُ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ (وَسَلْ الْجَارِيَة تَصْدُقْك)، فَفَوَّضَ الْأَمْر فِي ذَلِكَ إِلَى نَظَر النَّبِيّ ﷺ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَرَدْت تَعْجِيل

(١) زاد المعاد (٣/ ١٦٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٣٣٤).

(٣) فتح الباري (٨/ ٣٣٤).

(٤) نفس الموضع، وانظر تفسير الآلوسي (١٣/ ٣٦١).

الرَّاحَة فَفَارِقْهَا، وَإِنْ أَرَدْت خِلَاف ذَلِكَ فَابْحَثْ عَنْ حَقِيقَة الْأَمْر إِلَى أَنْ تَطَّلِع عَلَى بَرَاءَتهَا. لِأَنَّهُ كَانَ يعلم أَنَّ بَرِيرَةَ لَا تُخْبِرهُ إِلَّا بِمَا عَلِمَتْهُ، وَهِيَ لَمْ تَعْلَم مِنْ عَائِشَة إِلَّا الْبَرَاءَة الْمَحْضَة[1].

قلت: فيبدو مما مر أن عليًا رجح النظر إلى جانب رسول الله ﷺ فلم يبق عنده موضع للدفاع عن عائشة في البداية. ثم عاد للدفاع عنها عندما قال (وَسَلْ الْجَارِيَة تَصْدُقْك). ولا يشك منصف في أن عليًا رضي الله عنه لم يقصد الإساءة إلى عائشة بهذه المشورة؛ لأنه يعلم أن الإساءة إليها إساءة لرسول الله ﷺ. وما الغم والهم عند رسول الله ﷺ إلا بسبب هذا الكلام. أفيعقل أن يشارك فيه علي وهو يريد أن يسري الهم عن رسول الله ﷺ؟!.

٦-وقوله سوء الظن الناشئ عن معرفته بسوابق أحوال عائشة، وأنه عرف ذلك من الجارية.

فالجواب عنه من وجهين:

الأول: أن الجارية قالت (لا أعلم عليها إلا خيرًا) وتعجبت من تهمة عائشة بذلك.[2]

الثاني: إن عائشة على أصح الأقوال كان سنها في حديث الإفك اثني عشر سنة.

فأي السوابق فعلتها عائشة قبل هذا السن؟ ولعله يذكر اعتراضه من قليل على زواج النبي ﷺ بها في التاسعة. فكيف يقول في التاسعة والعاشرة طفلة؟ والآن يقول إن لها سوابق؟!.

قوله: وهذا الظن السيئ ترافق مع سوء العلاقة بين فاطمة وعائشة، وإنه في هذه الحالة كانت أشباح فاطمة هي التي كانت تضرب الجارية بيد علي ـ وأنه كان يتمني طرد عائشة من بيت الرسول ﷺ لأنها كانت هي وفاطمة في شقاق دائم.

والجواب علي هذا:

١- سبق الجواب في الفقرة السابقة أن سوء ظن علي رضي الله عنه في عائشة لا أصل له.

٢- أما سوء العلاقة بين فاطمة وعائشة فهذه فرية من أعظم الفرى.

ومن الأدلة حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لفاطمة: **"أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟** فَقَالَتْ: بَلَى. قَالَ: **"فَأَحِبِّي هَذِهِ-يعني عائشة-"**[1]. فلو لم تكن فاطمة تحب عائشة لكانت غير صادقة في قولها (بلي)، ولكانت عاصية لأبيها في قوله **"فَأَحِبِّي هَذِهِ"**. وليست كذلك فاطمة رضي الله عنها.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٣٤).

(٢) انظر فتح الباري (٨/ ٣٣٥).

ثانيًا: إن قوله إن فاطمة وعائشة كانتا في شقاق دائم كذب لا دليل عليه أصلًا.

بل لما قال النبي ﷺ "فأحبي هذه" قالت: وَالله لَا أُكَلِّمُهُ فِيهَا أَبَدًا.

وهذه العداوة التي يفتعلها الروافض بين فاطمة وعائشة- رضي الله عنهما-، فيدحضها موقف عائشة البريء الشريف من فاطمة وروايتها لفضائلها.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " **مَرْحَبًا بِابْنَتِي، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ. فَقُلْتُ لَهَا: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ. فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ**. فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ. فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: أَسَرَّ إِلَيَّ إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: " **أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ**"، فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ(٢).

فانظر إلى هذه الفضائل العظيمة التي ترويها عائشة-رضى الله عنها-عن رسول الله ﷺ ومنها ما تصف به فاطمة عن قناعة بها. كما روت عائشة فضائل خديجة رضي الله عنها ومن ذلك" بُشرى رسول الله ﷺ لها ببيت بالجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب". (٣)

فهذا من أعظم الأدلة على منزلة فاطمة وأمها عند عائشة وحبها وتقديرها لهما ونقول مثل ذلك في فاطمة رضي الله عنها أنها تحب عائشة وتقدرها. ولا يفتعل العداوة بينهما إلا الروافض كما يفتعلون العداوة بين أهل البيت وبين الصحابة. وتاريخ الجميع الصحيح يفضح الروافض أعداء الجميع، ويكفي أصحاب محمد ﷺ وأزواجه تزكية الله وتزكية رسوله لهم، وشهادة الله لهم بالجنة والرضوان، وتعظيم المسلمين حقًا لهم ولا يضرهم حقد وأكاذيب الأعداء ومن على نهجهم.

---

(١) مسلم (٢٤٤٢).

(٢) البخاري (٣٦٢٣-٣٦٢٤)، و مسلم (٢٤٥٠).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٧٦) وقال: هذا حديث صحيح، وقال عقبه: من قصب: إنما يعني به قصب اللؤلؤ.

اللهم إنا نشهدك أننا نحب رسولك محمدًا ﷺ وأصحابه الكرام وزوجاته الشريفات أمهات المؤمنين وأهل بيته الكرام. فنسألك اللهم التوفيق لطاعة هذا الرسول الكريم ﷺ في كل أمورنا واتباعه في عقائدنا ومناهجنا وأخلاقنا.

ونسألك أن تُثبِّتنا على ذلك إنَّك جواد كريم. (١)

ثامنًا: أما عن قولهم: أن حسان شاعر النبي محمد ﷺ كان يروج للمسألة.

فالظاهر أن حسان لم يتكلم به عن صميم. قلت: وإنما نقله عن ابن أُبِّي-لعنه الله تعالى -، وقد جاء أنه رضي الله عنه اعتذر عما نسب إليه في شأن عائشة رضي الله عنها فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ

مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خِيمَهَا ... وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ ... فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي

وَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لِآلِ رَسُولِ اللهِ زَيْنُ الْمَحَافِلِ

لَهُ رَتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ ... تَقَاصَرَ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ

فَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ ... وَلَكِنَّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ

وكانت عائشة رضي الله عنها تكرمه بعد ذلك وتذكره بخير وتقول: لا تؤذوا حسان؛ فإنه كان ينصر رسول الله ﷺ بلسانه. وعنها أنها قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة.

ومن دفاعه عن رسول الله قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا ... أَمِينَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

(١) المهدي بين أهل السنة والروافض.

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ؟
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدِّلَاءُ[1]

تاسعًا: هل كان صعود النبي ﷺ علي المنبر وقوله: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، من باب استثارة الجماهير ضد عبد الله بن أُبي؟

والجواب: لا. لم يكن شيء من ذلك وبيانه ما يلي:

١-كان صعوده ﷺ من باب العذر حتى لايقول من لا يعلم القضية إن محمدًا يقتل أصحابه. فيكون ذلك سببًا للصد عن سبيل الله. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ**". [2]

٢-وكان صعوده ﷺ طلبًا للمشورة على عادته، كما فِي رِوَايَة هِشَام بْن عُرْوَة "**أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاس أَبَنُوا أَهْلِي**"بتخفيف الموحدة أو بتشديدها، وَمَعْنَاهُ: عَابُوا أَهْلِي أَوْ اِتَّهَمُوا أَهْلِي. [3]

٣-لإخباره ﷺ في حدود ما يعلم بحال أهله وبحال صاحبه المتهم حيث قال: "**ووالله لا أعلم على أهلي إلا خيرًا. . . ولقد ذكروا رجلًا من أصحابي لا أعلم عليه إلا خيرًا ولا يدخل علي أهلي إلا معي**".

عاشرًا: لقد تلقف البائس قول النبي ﷺ: (ولا يدخل على أهلي إلا معي) ليجعلها تهمة ودليل إدانة. فقال: إن فيها إشارة إلي أن صفوان كان يدخل بيت محمد بانتظام. وربما ذلك من الأسباب الإضافية وراء قصة الإفك. وبالمقارنة مع قول عائشة السابق (إنه كان يراني قبل نزول الحجاب) يتبين من عائشة محاولة لإخفاء استمرارية زيارات صفوان لبيت محمد.

والجواب:

١-لقد كانت زيارة صفوان في وجود رب البيت. ومَنْ مِنَ العالمين ينكر شأن زيارة كهذه؟ وبعض الألفاظ أنه ﷺ قال: "**ولا خرجت في سفر إلا كان معي**". فلو كان حال

(١) تفسير الآلوسي (١٣/ ٣٦٥).
(٢) مسلم (٢٧٦٠). وانظر فتح الباري (٨/ ٣٣٦).
(٣) فتح الباري (٨/ ٣٣٧).

رجل كهذا فيه ريبة وشك لما جاز من بني آدم أن يزور رجلًا في بيته ولا يأمن أحدًا على حريمه. كيف وهم دعاة الاختلاط وقادة السفور في العالم؟

٢-وقوله: **"ولا يدخل على أهلي إلا معي"** أين الدلالة فيه على أن الزيارة بانتظام؟ ولو كانت فما الإدانة؟. الظاهر أنها دليل شرف لأنه يزوره بانتظام بحيث يعلم رب المنزل. أما الزيارة التي لايعلمها رب المنزل فهذه لم يعرفها الصحابة مع النبيﷺ.

٣-ولقد قال صفوان وأقسم أنه ما كشف كنف أنثي قط في حرام ولا حلال، ولا يمنع ذلك أنه تزوج بعدها. (١)

٤-وقول عائشة إن صفوان كان يراها قبل نزول الحجاب ليس محاولة لإخفاء استمرارية الزيارة، لأن الزيارة لم تنقطع، إنما هي لرسول الله ﷺ فما علاقة عائشة بها؟ وإنما قالت ذلك لتبين كيف عرفها أنها زوجة رسول الله ﷺ مع أنهن محجبات لا يراهن أحد. فإذا كانت عائشة محجبة لا يراها أحد فكيف عرفها صفوان لما انكشف وجهها وهي نائمة؟! تقول: (كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب)، ولم يكن يراها لما عرف أنها زوجة رسول اللهﷺ.

حادي عشر: (وكانت الخطوة التالية استدعاء الوحي لتبرئة عائشة، وأنه كان في إمكانه أن ينزل وحيًا من أول يوم لكنه سكت جريًا على عادته في التأني والتثبت).

وهذا الكلام مبني على فهمه أن النبي ﷺ هو الذي ينزل الوحي والقرآن. وأن الوحي ينزل عليه وقت استدعائه وكأن القرآن من عنده؟. وهذا خطأ.

لقوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل: ٦) ولقوله تعالى:

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (يونس ١٥).

لكن يريد بهذا أن يقول ليس القرآن وحيًا من عند الله، أو على الأقل ليس القرآن النازل في الإفك من عند الله. ولو كان لما تأخر هذه المدة، وترك المجتمع يموج في الإفك

(١) فتح الباري (٨/ ٣١٧).

وشاور أصحابه. ولما جرت كل هذه ا؟ لأمور التي لو نزل الوحي أول الأمر لما جرت. فما كان يمنعه أن ينزله لو كان من عنده؟.

أما لماذا تأخر الوحي طيلة هذه الفترة ولم ينزل على رسول الله ﷺ، فهذا من الأدلة على أن الوحي ليس من عنده. ولعل من حكمة تأخر الوحي طيلة هذه الفترة ظهور حقيقتان للناس: الأولي: هي أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرًا من الناس فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية فينسب إليه من الأمور أو التأثير في الأشياء ما لايجوز نسبته إلا لله وحده.

الثانية: وهي أن الوحي الإلهي ليس شعورًا نفسيًا يتفق من كيان النبي ﷺ كما أنه ليس شيئًا خاضعًا لإرادته أو تطلعه وأمنياته. إذ لو كان كذلك لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها ويريح نفسه من ذيولها ونتائجها. ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة قرآنًا يطمئن به أصحابه المؤمنين ويسكت الآخرين من أصحاب الفضول ولكنه لم يفعل لأنه لا يملك ذلك.

ولقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها أول من تجلى له هاتان الحقيقتان حتى ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهبًا أنساها ما سواه ومن سواه. فلذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تقوم فتشكر النبي ﷺ قائلة (لا أقوم إليه وأحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي). [(١)]

٣-قال ابن القيم رحمه الله: وَأَيْضًا، فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ حَبْسِ الْوَحْيِ شَهْرًا أَنَّ الْقَضِيَّةَ مُحِّصَتْ وَتَمَحَّضَتْ وَاسْتَشْرَفَتْ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمَ اسْتِشْرَافٍ إِلَى مَا يُوحِيهِ الله إِلَى رَسُولِهِ فِيهَا وَتَطَلَّعَتْ إِلَى ذَلِكَ غَايَةَ التَّطَلُّعِ فَوَافَى الْوَحْيُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَالصِّدِّيقُ وَأَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَوَرَدَ عَلَيْهِمْ وُرُودَ الْغَيْثِ عَلَى الْأَرْضِ أَحْوَجَ مَا كَانَتْ إِلَيْهِ فَوَقَعَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ مَوْقِعٍ وَأَلْطَفَهُ وَسُرُّوا بِهِ أَتَمَّ السُّرُورِ وَحَصَلَ لَهُمْ بِهِ غَايَةُ

(١) فقه السيرة للبوطي (٢١١).

الْهَنَاءِ، فَلَوْ أَطْلَعَ الله رَسُولَهُ عَلَى حَقِيقَةِ الْحَالِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَأَنْزَلَ الْوَحْيَ عَلَى الْفَوْرِ بِذَلِكَ لَفَاتَتْ هَذِهِ الْحِكَمُ وَأَضْعَافُهَا، بَلْ أَضْعَافُ أَضْعَافِهَا.[١]

ثاني عشر: ثم قال الكاتب (لكن عائشة لم تجب ـ يعني على سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ـ وشرعت في البكاء.

ولكنها أجابت بما هو أبلغ من الإجابة التي يقصدها الكاتب حيث قالت: (قلت: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنْ الْقُرْآنِ فَقُلْتُ: إِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ -وَالله يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ- لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ- وَالله يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ -لَتُصَدِّقُنِّي وَالله مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف١٨).

ثالث عشر: وقولها لأبي بكر: هلا عذرتني. وادعاء الكاتب بذلك أن أبا بكر كان يشك فيها.

والحق أن أبا بكر قال لها: لَا أَدْرِي لِأَنَّهُ كَانَ كَثِير الِاتِّبَاع لِرَسُولِ اللهﷺ. فَأَجَابَ بِمَا يُطَابِق السُّؤَال فِي الْمَعْنَى، وَلِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ يَتَحَقَّق بَرَاءَتها لَكِنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُزَكِّيَ وَلَده. وَكَذَا الْجَوَاب عَنْ قَوْل أُمّهَا: لَا أَدْرِي. وَوَقَعَ فِي رِوَايَة هِشَام بْن عُرْوَة الْآتِيَة: (فَقَالَ: مَاذَا أَقُول. وَفِي رِوَايَة أَبِي أُوَيْس، فَقُلْت لِأَبِي: أَجِبْ، فَقَالَ: لَا أَفْعَل، هُوَ رَسُول الله وَالْوَحْي يَأْتِيه)[٢]. فيفهم من هذا أن أبا بكر سكت ليس شاكًا فيها، وإنما سكت متأدبًا مع الرسول ﷺ ومع الوحي وعملًا بقول الله تعالي﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

رابع عشر: لماذا لم تذكر الروايات إلا أربعة في حين قال الله تعالي فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾؟

والجواب من وجوه:

١-أن أهل العصبة في اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض-وعلى هذا فلا يلزم منه عدد.

٢-أن العصبة من ثلاثة إلى عشرة، وعليه فلا إشكال.

٣-أنها من عشرة إلى أربعين أو إلى خمسة عشر، فيكون المراد من سعى ومن ساعدهم.

(١) زاد المعاد (٣ـ١٦٦).

(٢) فتح الباري (٨).

ولم يقم رسول الله الحد إلا علي من صرح بالإفك وثبت عليه الخوض فيه. [١]

٤-وقيل عصبة منكم أي جماعة منكم. [٢]

خامس عشر: لماذا لم يحد عبد الله ابن أبي؟

قال الكاتب: من الواقع أن محمدًا لم يكن ليجرؤ على مس عبد الله بن أبي بالشر، وذلك لقوة نفوذه في يثرب وبالتحديد لزعامته جناح الخزرج. وكان أي أذي يلحق به سيؤدي -لا محالة- إلى إشعال نار الاقتتال العصبي بين الأطراف في يثرب).

والجواب عن ذلك من وجوه:

أولها: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلًا لذلك. وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة. فيكفيه ذلك عن الحد.

ثانيًا: لأنه كَانَ يَسْتَوْشِي الْحَدِيثَ وَيَجْمَعُهُ وَيَحْكِيهِ وَيُخْرِجُهُ فِي قَوَالِبِ مَنْ لَا يُنْسَبُ إلَيْهِ.

ثالثا: قِيلَ: إن الْحَدّ لَا يَثْبُتُ إلّا بِالْإِقْرَارِ أَوْ بِبَيّنَةٍ وَهُوَ لَمْ يُقِرّ بِالْقَذْفِ وَلَا شَهِدَ بِهِ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَإِنّهُ إنّمَا كَانَ يَذْكُرُهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَلَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ يَذْكُرُهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

رابعًا: وَقِيلَ: بَلْ تَرَكَ حَدّهُ لِمَصْلَحَةٍ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ إقَامَتِهِ كَمَا تَرَكَ قَتْلَهُ مَعَ ظُهُورِ نِفَاقِهِ وَتَكَلّمِهِ بِمَا يُوجِبُ قَتْلَهُ مِرَارًا وَهِيَ تَأْلِيفُ قَوْمِهِ وَعَدَمُ تَنْفِيرِهِمْ عَنْ الْإِسْلَامِ، وَلَعَلّهُ تُرِكَ لِهَذِهِ الْوُجُوهِ كُلّهَا. [٣]

خامسًا: **قال القرطبي**: وإنما لم يحد عبد الله بن أبيّ؛ لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابًا عظيمًا. فلو حد في الدنيا لكان ذلك نقصًا من عذابه في الآخرة وتخفيفًا عنه.

سادسًا: أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾. وإنما حد هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما

(١) فتح القدير (٥/ ١٩٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٩٧).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (سورة النور: ١١).

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٦٦، ١٦٧).

صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال ﷺ في الحدود إنها كفارة لمن أقيمت عليه، كما في حديث عبادة بن الصامت(١).

ثامنًا: وقيل: يحتمل أنه تركه احترامًا لابنه ﷺ. فقد كان من فضلاء الصحابة ﷺ.

تاسعًا: وأما قوله: إن النبي ﷺ كان لايستطيع قتله، فهذا خطأ. ويكفي في ذلك وجهين:

الأول: أنه كان منافقا أظهر الإسلام خوفًا. ولو كان عنده نفوذ وقوة لما احتاج إلي ذلك.

الثاني: أنه كان لابن أبيّ ولد مؤمن مخلص يسمي عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول. وقد قال مرة لرسول الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، إِنّهُ بَلَغَنِي أَنّك تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ فَإِنْ كُنْت لَا بُدّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إلَيْك رَأْسَهُ، فَوَ الله لَقَدْ عَلِمَتْ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرّ بِوَالِدِهِ مِنّي، وَإِنّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إلَى قَاتِلِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيّ يَمْشِي فِي النّاسِ فَأَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرِ فَأَدْخُلَ النّارَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**بَلْ نَتَرَفّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**". (٢)

لقد ضرب هذا الابن أروع المثل في الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير والخلق العظيم بمثل رفيع في العفو والرحمة وحسن الصحبة. فقد تلطف النبي ﷺ بهذا الصحابي الجليل، وهدأ من روعه وأذهب هواجسه. (٣)

سادس عشر: ثم زعم أن تورط مسطح في حديث الإفك مع فقره، وحاجته لأبي بكر. ثم قال (لانستثني) احتمال أن يكون مسطح ذا هوى بعائشة، فأراد الانتقام منها ديدن كل محب أناني. أو أنه كان يهوي حمنة فجعلته يسايرها في حملته ضد عائشة.

والجواب عن ذلك مايلي:

١-هذا الوهم ليس من أخلاق الصحابة على كل حال وإنما وقع مسطح في الإفك لأنه ليس معصومًا، وتاب الله عليه، وأقيم عليه الحد. ومن فضائله أنه شهد بدرًا. أما أن يكون

---

(١) صحيح البخاري (١٨).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٢١)

(٣) السيرة النبوية للصلابي.

يهوى عائشة فانتقم منها، أو يهوى حمنة فاستهوته فهذا لا يوجد في مجتمع الصحابة ﷺ. فضلا عن كونه دعوى بلا برهان.

قال الذهبي رحمه الله: إياك يا جري أن تنظر إلى هذا البدري شزرًا لهفوة بدت منه، فإنها قد غفرت، وهو من أهل الجنة. وإياك يا رافضي أن تلوح بقذف أم المؤمنين بعد نزول النص في براءتها فتجب لك النار. (١)

وقد اعتذر مسطح ﷺ عن ذلك كما قال ابن الجوزي: فجاء مسطح فاعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول. فقال له أبو بكر: لقد ضحكت وشاركت. وكفر على يمينه في عدم النفقة عليه، فأنزل الله الآية. وفيها وصفه بأنه من المهاجرين. (٢)

وقال أيضًا: وقد كان، في أصحاب الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حبًا للفتنة. (٣)

سابع عشر: ثم نسج الكاتب من خياله ما سماه الظروف المحيطة بحادث الإفك. وصاغ منها أمرين:

الأول منها: أن هذا الحادث كان انتقامًا للأنصار من المهاجرين بعد المشادة التي جرت بين غلام الأنصار وغلام المهاجرين.

الثاني: انتقام عائشة من النبي ﷺ، لأنه تزوج عليها قبل الغزوة زينب بنت جحش وبعدها جويرية بنت الحارث. ففعلت ذلك انتقامًا منه.

وإليك بيان وهم المعترض في هذا الخيال الذي انتزعه من بيئته التي يعيش فيها، وهذه آفته فيما يكتب عصر وجيل الصحابة ﷺ:

أولًا: وكما هو واضح أن هذا الكاتب لم يفرق بين المنافقين أو المعارضين على حد تعبيره وبين الأنصار. ولذلك نظمهم في سلك واحد عندما عبر بقوله: إن حادث الإفك كان انتقامًا للأنصار من المهاجرين بعد الواقعة التي جرت بين المهاجري والأنصاري.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ١٨٥).

(٣) تفسير القرطبي (١٤/ ٢١٨).

وبداية نبين هذه الواقعة، ثم نذكر كيف تصرف فيها الأنصار:

عن جابر رضي الله عنه يَقُولُ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا وَكَانَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: **"مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ قَالَ مَا شَأْنُهُمْ؟** فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ"** وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا الْخَبِيثَ- لِعَبْدِ اللهِ-، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"**. (١)

فقوله **"دعوها إنها خبيثة، أي دعوي الجاهلية"**. (٢)

وهي قولهم-ياللأنصار، ياللمهاجرين-وبعد أن نهاهم النبي ﷺ انتهى الأمر بالنسبة للمهاجرين والأنصار. وبقيت كلمة المنافق الذي عرض ولده على رسول الله ﷺ أن يأتيه برأس أبيه بعد قول هذه المقالة. فأين هذا من قوله إن الأنصار انتقموا من المهاجرين فأشاعوا حديث الإفك نتيجة هذا الحادث الذي انتهي بقول النبي ﷺ **"دعوها"**.

ثانيًا: مكانة الأنصار التي بوأها الله تعالى لهم تدل على أنهم يستحيل أن يفكروا في مثل ما دار في خاطر هذا الكاتب الذي يصطنع القمامة ليسكن فيها؛ لأنه يأبي أن يعيش نزيهًا.

ومن فضائلهم مايلي:

١-قال تعالي: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩). ولاخلاف أن الذين تبوءوا الدارهم الأنصار الذين

(١) البخاري (٣٣٣٠).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٣٢).

استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها. فهم الذين استوطنوا المدينة واعتقدوا الإيمان وأخلصوه يحبون المهاجرين ولا يحسدونهم على فضل الله أعطاه الله لهم. (١)

٢-قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠).

٣-عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"اللهمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ"**. (٢)

٤- عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال في الأنصار: **"اللهم أنتم مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللهمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ"**. (٣)

٥-وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"إِنَّ الْأَنْصَارَ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَإِنَّ النَّاسَ سَيَكْثُرُونَ وَيَقِلُّونَ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَاعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ"**. (٤)

وفي حديث أبي هريرة **"لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنْ الْأَنْصَارِ"**.

وعن أنس رضي الله عنه قال: "خَرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ فِي سَفَرٍ فَكَانَ يَخْدُمُنِي، فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا آلَيْتُ أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ. وَكَانَ جَرِيرٌ أسن مِنْ أَنَسٍ". (٥)

ثالثا: ذكر بعض مواقف الأنصار من المهاجرين عند الهجرة:

١-عن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ ابْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠) بتصرف.

(٢) مسلم (٢٥٠٦).

(٣) مسلم (٢٥٠٨).

(٤) مسلم (٢٥١٠).

(٥) مسلم (٢٥١٣).

فِي ذَلِكَ. هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ. قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ. قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **تَزَوَّجْتَ**؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَمَنْ؟ قَالَ: امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ: "**كَمْ سُقْتَ**؟ قَالَ: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**". (١)

٢-عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ قَالَ: كَانَ الْمُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ تُوَرَّثُ الْأَنْصَارَ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ﴾ قَالَ: نَسَخَتْهَا ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ مِنْ النَّصْرِ وَالنَّصِيحَةِ وَالرِّفَادَةِ وَيُوصِي لَهُ وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ. (٢)

٣- عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ: مَا شَأْنُكِ مُتَبَذِّلَةً؟ قَالَتْ: إِنَّ أَخَاكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَرَّبَ إِلَيْهِ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؛ فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِيَقُومَ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ لَهُ: نَمْ فَنَامَ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ قَالَ لَهُ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ، فَقَامَا فَصَلَّيَا فَقَالَ: إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَا ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: "**صَدَقَ سَلْمَانُ**". (٣)

---

(١) البخاري (١٩٤٣).

(٢) أبو داود (٢٩٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦٤١٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٣٦).

(٣) البخاري (١٨٦٧).

رابعًا: أن ما سماه الظروف المحيطة بالإفك تناقض أوله مع آخره. فبينما قال في الأول بانتقام الأنصار من المهاجرين وهذا في حد قوله يدل علي أن الحادث لا أصل له لأن المفروض أن الأنصار اختلقوه لينتقموا من المهاجرين. ثم عاد فذكر في الظرف الثاني أن عائشة انتقمت من النبيﷺ؛ لأنه تزوج عليها ففعلت ذلك مع صفوان.

فأي الأمرين يريد أن يقول؟ على أي حال الأمر الأول يدل على براءة عائشة، والثاني يدل على براءة الأنصار. ومن يضلل الله فما له من هاد.

خامسًا: وإذا كان هذا هو موقف الأنصار بصفة عامة، فما هو موقفهم من حديث الإفك؟

١-لم يشارك أحد من الأنصار في حديث الإفك إلا ما كان من حسان نقلًا عن لسان المنافقين، وتاب الله عليه، وكفر عنه سيئته، وأقيم عليه الحد. وشهدت له بذلك عائشة رضي الله عنها.

٢-بل خرج من الأنصار من جزم ببراءة السيدة الصديقة- رضي الله عنها -، وهو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه والذي سأل زوجته أكنت تفعلين ذلك؟ قالت: لا. قال فعائشة أطهر منك وأولي أن لا تفعل ذلك. فنزل فيه وفي أمثاله قوله تعالي﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ (النور: ١٢)[١].

وما موقف سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ببعيد وهما من رهط الأنصار الذي يتحدث عنهم هذا الكاتب ويتهمهم بالانتقام من المهاجرين عن طريق حديث الإفك؟.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧)، وقد قال رحمه الله في تفسير هذه الآية كلامًا -ما أحسنه- حيث قال: وقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: هَلاّ ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: بألسنتهم﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جَهْرَة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسولﷺبين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جَهْرَة، ولا كانا يُقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قُدر -خفية مستورا، فتعيَّن أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوا به أم المؤمنين هو الكذب البهت، والقول الزور، والرّعُونة الفاحشة والصفقة الخاسرة.

وأما موقف سعد بن عبادة ورده على سعد بن معاذ فأعاذه الله أن يكون أراد بموقفه هذا موافقة علي قول الإفك في عائشة ولا اعتراضًا علي عقوبة القائل. وهذا واضح من قول عائشة (وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ اِحْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّة) أي: أغضبته وحملته علي الجهالة. فهذا كلام خرج من سعد بن عبادة ساعة الغضب الذي عذر الله فيه ولم يقصد رمي أم المؤمنين.

وحمله بعض العلماء على أنه أراد أن يقول لسعد بن معاذ لا يجعل أمره إليك لأنه ليس من رهطك ولذلك لا تقتله ولا تقدر علي قتله. وقال الحافظ: وهو حمل جيد.[1]

وبعض الروايات: أن سعد بن عبادة ظن سعد بن معاذ يريد عود ما مضى من الحرب.

قال الحافظ: وَفِي رِوَايَة اِبْن حَاطِب (فَقَالَ سَعْد بْن عُبَادَةَ: يَا ابْن مُعَاذ، وَاللهِ مَا بِك نُصْرَة رَسُول اللهِ ﷺ، وَلَكِنَّهَا قَدْ كَانَتْ بَيْننَا ضَغَائِن فِي الْجَاهِلِيَّة وَإِحَن لَمْ تَحْلُلْ لَنَا مِنْ صُدُوركُمْ، فَقَالَ اِبْن مُعَاذ: اللهُ أَعْلَم بِمَا أَرَدْت).

قَالَ اِبْن التِّين: قَوْل اِبْن مُعَاذ (إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْس ضَرَبْت عُنُقه) إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَوْس قَوْمه وَهُمْ بَنُو النَّجَّار، وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ فِي الْخَزْرَج لِمَا كَانَ بَيْنَ الْأَوْس وَالْخَزْرَج مِنْ التَّشَاحُن قَبْلَ الْإِسْلَام، ثُمَّ زَالَ بِالْإِسْلَامِ وَبَقِيَ بَعْضه بِحُكْمِ الْأَنَفَة. قَالَ: فَتَكَلَّمَ سَعْد بْن عُبَادَةَ بِحُكْمِ الْأَنَفَة وَنَفَى أَنْ يَحْكُم فِيهِمْ سَعْد بْن مُعَاذ وَهُوَ مِنْ الْأَوْس. قَالَ: وَلَمْ يُرِدْ سَعْد بْن عُبَادَةَ الرِّضَا بِمَا نُقِلَ عَنْ عَبْد الله بْن أُبَيٍّ، وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْل عَائِشَة (وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا) أَيْ لَمْ يَتَقَدَّم مِنْهُ مَا يَتَعَلَّق بِالْوُقُوفِ مَعَ أَنَفَة الْحَمِيَّة، وَلَمْ تَرِدْ أَنَّهُ نَاضَلَ عَنْ الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ كَمَا قَالَ، إِلَّا أَنَّ دَعْوَاهُ أَنَّ بَنِي النَّجَّار قَوْم سَعْد بْن مُعَاذ خَطَأ وَإِنَّمَا هُمْ مِنْ رَهْط سَعْد بْن عُبَادَةَ، وَلَمْ يَجْرِ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْقِصَّة ذِكْر[2].

وَأَمَّا قَوْله: (لَا تَقْدِر عَلَى قَتْله) أي إِنْ كَانَ مِنْ الْخَزْرَج لِعِلْمِهِ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ لَا يَأْمُر غَيْر قَوْمه بِقَتْلِهِ، وَذَلِكَ بِحُكْمِ الْحَمِيَّة الَّتِي أَشَارَتْ إِلَيْهَا عَائِشَة، وَلَا يَلْزَم مِنْ ذَلِكَ مَا فَهِمَهُ الْمَذْكُور أَنَّهُ يَرُدّ أَمْر النَّبِيّ ﷺ بِقَتْلِهِ وَلَا يَمْتَثِلهُ. وَاِعْتَذَرَ عَنْ قَوْل أُسَيْد بْن حُضَيْرٍ لِسَعْدِ بْن

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٢٩).

(٢) فتح الباري (٨/ ٣٢٩).

عُبَادَةَ (إِنَّكَ مُنَافِقٌ تجادل عن المنافقين) بِأَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ مِنْهُ عَلَى جِهَةِ الْغَيْظِ وَالْحَنَقِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي زَجْرِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ عَنْ الْمُجَادَلَةِ عَنْ اِبْنِ أُبَيٍّ وَغَيْرِهِ، وَلَمْ يُرِدْ النِّفَاقَ الَّذِي هُوَ إِظْهَارُ الْإِيمَانِ وَإِبْطَانُ الْكُفْرِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ كَانَ يُظْهِرُ الْمَوَدَّةَ لِلْأَوْسِ ثُمَّ ظَهَرَ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ضِدُّ ذَلِكَ فَأَشْبَهَ حَالَ الْمُنَافِقِ لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ إِظْهَارُ شَيْءٍ وَإِخْفَاءُ غَيْرِهِ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تَرْكِ إِنْكَارِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ[1].

قلت: فظهر بهذا أن خلافهم كان عصبية وأنفة وسببه اختلافهم فيمن يباشر قتل عبد الله بن أبيّ، وليس اختلافًا في حديث الإفك هل وقع أو لا. وظهر أيضًا أن جميع الأنصار من الأوس والخزرج كانوا على اتفاق في أمر براءة الصديقة رضي الله عنها وإنما خلافهم كان في قتل القائل إن كان من الخزرج فمن الذي يباشر قتله. وهل تقدر الأوس على مباشرته أم لا. والله أعلم.

فما سبق هو موقف الأنصار. والفرق واضح بين الأنصار وبين المنافقين. ومن وقع من الأنصار وهو حسان أقيم عليه الحد تطهيرًا له.

وأما الفرية الثانية وهي أن عائشة فعلت هذا انتقامًا من النبي ﷺ لأنه تزوج عليها بزينب وجويرية:

والرد عليها من وجوه: الوجه الأول: أن هذا الكلام مبني على أنها فعلت ذلك فعلًا. وقد قامت الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول على براءة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فأما من الكتاب فالآيات من سورة النور من (١١ -٢٠)، والسنة فحديث القصة المذكور، وأما الإجماع فواضح إلا ما كان من الروافض ولا عبرة بخلافهم.

وأما المعقول: فمن مجيئها رضي الله عنها علي ظهر البعير في نحر الظهيرة أمام الكل، ولو كان في الأمر ريبة لما كان كذلك أبدًا ولحاولت هي وصفوان إخفاءه[2].

الوجه الثاني: بمعرفة موقف عائشة رضي الله عنها يوم زواج النبي ﷺ يكون بطلان هذه الفرية أكثر ظهورًا وتجليًا. فعن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ

---

(١) السابق (٨/ ٣٣٠).

(٢) تفسير ابن كثير، بتصرف سورة النور١١.

وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُون وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ قَالَ: "**ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ**". وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَقَالَ: "**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ**"، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ- بَارَكَ اللهُ لَكَ؟ فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا ثَلَاثَةٌ مِنْ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ -وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ-فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي آخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ). (١)

وفي رواية عند البخاري أيضًا. قال أنس:. . ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حُجَرِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ صَبِيحَةَ بِنَائِهِ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيُسَلِّمْنَ عَلَيْهِ وَيَدْعُو لَهُنَّ وَيَدْعُونَ لَهُ). (٢)

٣-وكذلك قرارها النهائي في جويرية رضي الله عنها يجلي لنا هذا الأمر أكثر.

فعن عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شماس- أو لابن عم له- فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها. قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت. فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس - أو لابن عم له- فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي. قال: "**فهل لك في خير من ذلك**"؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: "**أقضي عنك كتابك وأتزوجك**". قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت. قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد

(١) البخاري (٤٧٩٣).

(٢) البخاري (٤٧٩٤).

تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ. فأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها[1]. فها هي كرهتها قبل أن تسلم وقبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ كامرأة تغار على زوجها من امرأة أجنبية. فلما أسلمت وتزوجها رسول الله ﷺ قالت: (**فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها**). وعند ذلك زالت الكراهية بحب رسول الله لها.

ثامن عشر: ويسأل بعضهم قائلًا: ما مدة قضاء الحاجة التي استغرقت رحيل الجيش كله وهو مئات؟

والجواب: أن هذا الوقت لم يستغرق في قضاء الحاجة إنما كان في البحث عن العقد الضائع كما صرحت بذلك في قولها أثناء سياق القصة حيث قالت: (فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ... الحديث). [2] وهذا واضح أن الذي حبسها هو ابتغاء العقد وليس مجرد قضاء الحاجة.

وأيضًا فإن رحيل العسكر لايستغرق وقتًا طويلًا كما ظن الكاتب وذلك لأمور:

منها: سرعة امتثالهم لأمر النبيﷺ.

ومنها: سعة المكان الذي كانوا ينزلون فيه.

ومنها: أن الحال إذا كان كذلك، فانصراف الجيش كله لايعدوا أن يكون مستغرقًا وقت انصراف شخص واحد لأن كل واحد يتلقي الأمر على نفسه ويطبقه في حدود النظام العام وغاية ما في الأمر أن يقوم بتنبيه من على يمينه ومن على يساره. ويعتبر في ذلك بحالهم عند القيام إلي الصلاة حيث ينتظمون في صف واحد في وقت قصير جدًّا.

ومنها: أن كل واحد من الجيش كان يعرف مكانه ومهمته ولا يتعداها بدليل قولها (وجاء الرهط الذين كان يرحلون هودجي) فهؤلاء كانت مهمتهم معروفة.

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٣٠٢).

(٢) البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٤٧٧٠).

وعليه فإذا عرف كل امرئ مهمته وقت الرحيل، فإن رحيل الجيش لايستغرق وقتًا طويلًا كما ظن الكاتب.

تاسع عشر: لماذا قعدت يائسة ولم تلحق بالعسكر؟

والجواب:

أولًا: لقد قالت عائشة: (وظننت أن القوم سيفقدونني ويرجعون إلي. .) ويفهم من هذا كما هو واضح أنها لم تقعد يائسة، ولكنها قعدت منتظرة لرجوع الجيش إذا علموا بأنها ليست معهم.

ثانيًا: (لقد قالت قبل ذلك: وكنت جارية حديثة السن) ويفهم من هذا قلة خبرتها لحداثة سنها ولكونها امرأة بطرق الصحراء الكثيرة المتشعبة المتشابهة.

ثالثًا: ماذا لو أنها سارت خلف الجيش في طريقه، ورجع الجيش ليبحث عنها من طريق آخر فلم يجدها في الطريق ولا في مكان نزول الجيش، يقوم الجيش بالرجوع وتركها في الصحراء أم يبحث عنها. ثم لو بحث فأين يبحث في هذه الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف، وإلى متى يبحث حتى يجدها أو حتى يشرف على الهلاك، وإذا وجدها بعد ذلك حية أو ميتة فهل كانت تسلم من أقلامكم، وألسنتكم. وإذا لم يجدها أصلًا فما هو مقدار حظها من السلامة من أقلامكم وألسنتكم؟

إن الصواب هو ما فعلته عائشة؛ لأنها جلست في مكانها فإذا افتقدها الجيش رجع إلى المكان فوجدها من غير عناء ولا تعب ولا مشقة السفر.

قال الحافظ ابن حجر: قال عياض تعليقًا على قولها: (وظننت أن القوم سيفقدونني ويرجعون) الظَّنّ هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْم، وَتُعُقِّبَ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُون عَلَى بَابه، فَإِنَّهُمْ أَقَامُوا إِلَى وَقْت الظُّهْر وَلَمْ يَرْجِع أَحَد مِنْهُمْ إِلَى الْمَنْزِل الَّذِي كَانَتْ بِهِ وَلَا نُقِلَ أَنَّ أَحَدًا لَاقَاهَا فِي الطَّرِيق، لَكِنْ يُحْتَمَل أَنْ يَكُونُوا اِسْتَمَرُّوا فِي السَّيْر إِلَى قُرْب الظُّهْر، فَلَمَّا نَزَلُوا إِلَى أَنْ يَشْتَغِلُوا بِحَطِّ رِحَالهمْ وَرَبْط رَوَاحِلهمْ وَاسْتَصْحَبُوا حَالهمْ فِي ظَنّهمْ أَنَّهَا فِي هَوْدَجهَا لَمْ يَفْتَقِدُوهَا إِلَى أَنْ وَصَلَتْ عَلَى قُرْب، وَلَوْ فَقَدُوهَا لَرَجَعُوا كَمَا ظَنَّتْهُ. وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَة اِبْن إِسْحَاق (وَعَرَفْتُ أَنْ لَوْ اِفْتَقَدُونِي

لَرَجَعُوا إِلَيَّ) وَهَذَا ظَاهِر فِي أَنَّهَا لَمْ تَتَّبِعهُمْ، وَوَقَعَ فِي سياق حَدِيث اِبْن عُمَر خِلَاف ذَلِكَ فَإِنَّ فِيهِ (فَجِئْت فَاتَّبَعْتهمْ حَتَّى أَعْيَيْت، فَقُمْت عَلَى بَعْض الطَّرِيق فَمَرَّ بِي صَفْوَان)، وَهَذَا السِّيَاق لَيْسَ بِصَحِيحٍ ل لأن في في إسناده أحد الكذابين ثم هو مُخَالِفٌ لِمَا فِي الصَّحِيح، من أَنَّهَا أَقَامَتْ فِي مَنْزِلهَا إِلَى أَنْ أَصْبَحَتْ، وَكَأَنَّهُ تَعَارَضَ عِنْدَهَا أَنْ تَتْبَعَهُمْ فَلَا تَأْمَنُ أَنْ يَخْتَلِفَ عَلَيْهَا الطُّرُقُ فَتَهْلِكَ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ كَانَتْ فِي اللَّيْلِ، أَوْ تُقِيمُ فِي مَنْزِلهَا لَعَلَّهُمْ إِذَا فَقَدُوهَا عَادُوا إِلَى مَكَانهَا الَّذِي فَارَقُوهَا فِيهِ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِمَنْ فَقَدَ شَيْئًا أَنْ يَرْجِعَ بِفِكْرِهِ الْقَهْقَرَى إِلَى الْحَدّ الَّذِي يَتَحَقَّقُ وُجُودُهُ ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هُنَاكَ فِي التَّنْقِيبِ عَلَيْهِ. وَأَرَادَتْ بِمَنْ يَفْقِدُهَا مَنْ هُوَ مِنْهَا بِسَبَبٍ كَزَوْجِهَا أَوْ أَبِيهَا، وَالْغَالِبُ الْأَوَّلُ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ شَأْنه ﷺ أَنْ يُسَايِرَ بَعِيرَهَا وَيَتَحَدَّثَ مَعَهَا فَكَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَتَّفِقْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَة، وَلَمَّا لَمْ يَتَّفِق مَا تَوَقَّعَتْهُ مِنْ رُجُوعهمْ إِلَيْهَا سَاقَ اللهُ إِلَيْهَا مَنْ حَمَلَهَا بِغَيْرِ حَوْلٍ مِنْهَا وَلَا قُوَّةٍ. .[1].

العشرون. قولهم: وهل يجسر القوم على أن يؤذوا رسول الله في أعز الناس إليه إذا لم يكن للشبهة مأخذ.

والجواب: أن الذين اختلقوه لم يكونوا من المؤمنين إنما هم (عصبة) متجمعة ذات هدف واحد. ولم يكن عبد الله بن أبيّ بن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك. إنما هو الذي تولى معظمه. وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة؛ فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة. ثم خُدع فيها بعض المسلمين، فخاض منهم من خاض في حديث الإفك كحمنة بنت جحش؛ وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة. أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول، الحذر الماكر، الذي لم يظهر بشخصه في المعركة. ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فيقاد إلى الحد. إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم، ولا يشهدون عليه. وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن ترجف به المدينة شهرًا كاملًا، وأن تتداوله الألسنة في أطهر بيئة وأتقاها وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة

(١) فتح الباري (٨/ ٤٦١).

ليكشف عن ضخامة الحادث، وعمق جذوره، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم. ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

خير. فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته! [١]

وقال أبو حيان: وكان ذلك من عبد الله بن أُبي لإمعانه في عداوة الرسولﷺ، وانتهازه الفرَص، وروي عنه كلام قبيح في ذلك نزهت كتابي عن ذكره وقلمي عن كتابته قبحه الله اهـ. [٢]

وقال الرازي: وأجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة، وإنما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه إفكًا؛ لأن المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه:

أحدها: أن كونها زوجة للرسول ﷺ المعصوم يمنع من ذلك. لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم، فوجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم وكون الإنسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنفرات، فإن قيل: كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة وأيضًا فلو لم يجز ذلك لكان الرسول أعرف الناس بامتناعه ولو عرف ذلك لما ضاق قلبه، ولما سأل عائشة عن كيفية الواقعة، قلنا: الجواب عن الأول أن الكفر ليس من المنفرات، أما كونها فاجرة فمن المنفرات.

والجواب عن **الثاني**: أنه ﷺ كثيرًا ما كان يضيق قلبه من أقوال الكفار مع علمه بفساد تلك الأقوال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (الحجر: ٩٧) فكان هذا من هذا الباب.

وثانيها: أن المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور، ومن كان كذلك كان اللائق إحسان الظن به.

---

(١) الظلال (٥/ ٢٦٥).

(٢) البحر المحيط.

وثالثها: أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم، وقد عرف أن كلام العدو المفترى ضرب من الهذيان، فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي. أما العصبة فقيل: إنها الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة واعصوصبوا: اجتمعوا، وهم عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس النفاق، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم. أما قوله:

﴿مِّنكُمۡ﴾ فالمعنى أن الذين أتوا بالكذب في أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون، لأن عبد الله كان من جملة من حكم له بالإيمان ظاهرًا.

ورابعها: أنه سبحانه شرح حال المقذوفة ومن يتعلق بها بقوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، والصحيح أن هذا الخطاب ليس مع القاذفين، بل مع من قذفوه وآذوه، فإن قيل هذا مشكل لوجهين: **أحدهما**: أنه لم يتقدم ذكرهم. **والثاني**: أن المقذوفين هما عائشة وصفوان فكيف تحمل عليهما صيغة الجمع في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُم﴾،

والجواب عن **الأول**: أنه تقدم ذكرهم في قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾، وعن **الثاني**: أن المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم، ومعلوم أنه ﷺ تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومن يتصل به، فإن قيل: فمن أي جهة يصير خيرًا لهم مع أنه مضرة في العاجل؟ قلنا لوجوه: **أحدها**: أنهم صبروا على ذلك الغم طلبًا لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم.

وثانيها: أنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر.

وثالثها: أنه صار خيرًا لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة، وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك وأوجب عليهم اللعن والذم، وهذا غاية الشرف والفضل.

ورابعها: صيرورتها بحال تعلق الكفر والإيمان بقدحها ومدحها، فإن الله تعالى لما نص على كون تلك الواقعة إفكًا وبالغ في شرحه، فكل من يشك فيه كان كافرًا قطعًا، وهذه درجة عالية.

وقال في الذي تولى كبره منهم: والأقرب في الرواية أن المراد به عبد الله بن أبيّ بن سلول فإنه كان منافقًا يطلب ما يكون قدحًا في الرسولﷺ. اهـ. (١)

حادي وعشرون: قولهم إن عائشة صوبت نفس التهمة إلى مارية أم إبراهيم فلماذا لم يقم عليها الحد؟.

١-وهذه فرية جديدة حاولوا أن يحولوا فيها حادث الإفك إلى اتهام لأم المؤمنين لا تبرئة إلهية لها! !

حادث الإفك معروف مشهور، ونزل القرآن الكريم بتبرئة أم المؤمنين السيدة عائشة، فعز عليهم أن يبرئ الله تعالى زوجة النبيﷺ، وابنة أبى بكر أول من آمن بالله ورسوله ولهذا قاموا بإفك جديد، فجعلوا من الحديث عن الإفك اتهامًا للسيدة عائشة لا تبرئة لها!

فعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أنها نزلت في مارية القبطية، وما رمتها به بعض النساء المنافقات. ثم ذكروا رواية أنه قال: " لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ، حزن عليه حزنًا شديدًا، فقالت منافقة: ما الذي يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريج! **فبعث رسول الله ﷺ عليًا وأمره بقتله "**

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أهديت مارية إلى رسول الله ﷺ ومعها ابن عم لها، قالت: فوقع عليها وقعة فاستمرت حاملًا، قالت: فعزلها عند ابن عمها، قالت: فقال أهل الإفك والزور: من حاجته إلى الولد ادّعى ولد غيره، وكانت أمه قليلة اللبن فابتاعت له ضائنة لبون فكان يغذى بلبنها، فحسن عليه لحمه، قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل به على النبي ﷺ ذات يوم فقال: "**كيف ترين؟** ، فقلت: من غذي بلحم الضأن يحسن لحمه، قال: "**ولا الشبه**" قالت: فحملني ما يحمل النساء من الغيرة أن قلت: ما أرى شبهًا قالت: وبلغ رسول الله ﷺ ما يقول الناس فقال لعلي: "**خذ هذا السيف فانطلق فاضرب عنق ابن عم**

(١) التفسير الكبير للرازي (١١/ ٢٦٦).

مارية حيث وجدته"، قالت: فانطلق فإذا هو في حائط على نخلة يخترف رطبًا قال: فلما نظر إلى عليّ ومعه السيف استقبلته رعدة قال: فسقطت الخرقة، فإذا هو لم يخلق الله عز وجل له ما للرجال شيء- ممسوح-[1].

---

(١) **باطل**. أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩) وفي إسناده أبو معاذ سليمان بن الأرقم متروك الحديث، وانظر: الضعيفة (٤٩٦٤) وقال الألباني رحمه الله: قلت: وللحديث أصل صحيح، زاد عليه ابن الأرقم هذا زيادات منكرة، تدل على أنه سيىء الحفظ جدًّا، أو أنه يتعمد الكذب والزيادة؛ لهوى في نفسه، ثم يحتج بها أهل الأهواء!

فأنا أسوق لك النص الصحيح للحديث؛ ليتبين لك تلك الزيادات المنكرة، فروى ثابت عن أنس:

أن رجلًا كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعليّ: **"اذهب فاضرب عنقه"**.

فأتاه عليّ؛ فإذا هو في ركي يتبرد فيها. فقال له علي: اخرج. فناوله يده، فأخرجه؛ فإذا هو مجبوب ليس له ذكر، فكف عليّ عنه. ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنه لمجبوب؛ ما له ذكر.

أخرجه مسلم (٨/ ١١٩)، والحاكم (٤/ ٣٩-٤٠)، وأحمد (٣/ ٢٨١)، وابن عبد البر في ترجمة مارية من الاستيعاب (٤/ ١٩١٢)؛ كلهم عن عفان: حدثنا حماد بن سلمة: أخبرنا ثابت. . . وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه! فوهم في استدراكه على مسلم! وقال ابن عبد البر: وروى الأعمش هذا الحديث فقال فيه: قال عليّ: يا رسول الله! أكون كالسكة المحماة؛ أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال: **" بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب"**.

قلت: هذه الزيادة لم أقف عليها من رواية الأعمش، وإنما من رواية غيره من حديث علي نفسه، وقد مضى تخريجه في الصحيحة (١٩٠٤)، وليس فيه أيضًا تلك الزيادات المنكرة التي تفرد بها ابن الأرقم في هذا الحديث.

وأشدها نكارة ما ذكره عن عائشة أنها قالت: ما أرى شبهًا! فقد استغلها عبد الحسين الشيعي في -مراجعاته- أسوأ الاستغلال، واتكأ عليها في اتهامه للسيدة عائشة في خلقها ودينها، فقال (٢٤٧-٢٤٨): وحسبك مثالًا لهذا ما أيدته - نزولًا على حكم العاطفة - من إفك أهل الزور إذ قالوا - بهتانًا وعدوانًا - في السيدة مارية وولدها -عليه السلام- ما قالوا، حتى برأهما الله عز وجل من ظلمهم براءة - على يد أمير المؤمنين - محسوسة ملموسة! ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرًا﴾! وعلق على هذا بقوله: من أراد تفصيل هذه المصيبة؛ فليراجع أحوال السيدة مارية في (٣٩) من الجزء الرابع من المستدرك للحاكم، أو من تلخيصه للذهبي!

يشير بذلك إلى هذا **الحديث المنكر**! وإن من مكره وخبثه: أنه لم يكتف في الاعتماد عليه - مع ضعفه الشديد - بل إنه زد على ذلك أنه لم يسق لفظه؛ تدليسًا على الناس وتضليلًا؛ فإنه لو فعل وساق اللفظ؛ لتبين منه لكل من كان له لب ودين أن عائشة بريئة مما نسب إليها في هذا الحديث المنكر من القول - براءتها مما اتهمها المنافقون به؛ فبرأها الله تعالى بقرآن يتلى -، آمن الشيعة بذلك أم كفروا، عامل الله الكذابين والمؤيدين لهم بما يستحقون! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٢-وكما هو واضح مما سبق فهم يحاولون أنه يصرفوا عن أم المؤمنين البراءة المسجلة في حديث الإفك بكونها نزلت في مارية التي قذفتها عائشة فاتهموها بالقذف وصرفوا عنها شهادة البراءة من الإفك إلى مارية.

ومما يبطل فرية القوم- في أن قول الله تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ... ﴾ الآيات العشر إنما نزلت في تبرئة مارية مما قذفتها به عائشة -(وحاشاها ألف مرة)- أن حديث الإفك ونزول هذه الآيات كان في غزوة بني المصطلق سنة أربع أو خمس أو ست على أقوال، وأرجحها أنه كان في سنة خمس، وأن بعث المقوقس بمارية القبطية إلى رسول الله كان عام مكاتبة رسول الله ملوك الأرض سنة سبع أو ثمان أرجحهما أنه كان سنة ثمان وذلك بعد غزوة بني المصطلق التي حصل فيها القذف والتي سلف آنفًا تاريخها. فنزول الآيات في براءة عائشة كان قبل مجيء مارية بحوالي ثلاث سنوات، فكيف ينزل في شأنها قرآن وهي في مصر على دين قومها؟ وكيف حصل هذا القذف المزعوم وهي في بلادها من وراء السهوب والبحار؟ وإذًا فالقرآن والسنة والواقع التاريخي وإجماع الأمة كلها تفضح هؤلاء وترد كيدهم وإفكهم على أفضل رسول وأفضل وأطهر بيت عرفه التاريخ وعرفته الدنيا. فهذا موقف الإسلام وما يدين به المسلمون من تعظيم رسول الله ﷺ وإكرامه وتنزيه عرضه مما يدنسه أو يمسه من قريب أو بعيد وإكرام أهل بيته وأزواجه وصحابته الكرام.

وتأمل ما في إيراده في آخر كلامه للآية الكريمة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ من رمي السيدة عائشة بالكفر، مع أنه يترضى عنها أحيانًا (٢٢٩)! ويتعرف (٢٣٨) بأن لها فضلها ومنزلتها!

وما إخال ذلك منه إلا من باب التقية المعهودة منهم، وإلا؛ فكيف يتلقي ذلك مع حشره إياها في زمرة الذين كفروا؟! عامله الله بما يستحق!

ثم إن الحديث؛ أخرجه ابن شاهين أيضًا من طريق سليمان بن أرقم عن الزهري به؛ كما في الإصابة (٦/ ١٤) للحافظ العسقلاني؛ وقال: وسليمان ضعيف. انتهى من الضعيفة (١٠/ ٧٠٠) (٤٩٦٤).

وذلك ضد وخلاف ما يرتكبه الحاقدون من بهت وإفك وتشويه بالطرق الواضحة والخفية والملتوية، والله لهم ثم المؤمنون بالمرصاد يفضحون مكايدهم وحربهم على الإسلام والمسلمين بشتى الطرق ومختلف الأساليب.

ولم يكتف الروافض بهذا البهتان العظيم، بل أضافوا إلى ذلك أن جعلوا عائشة رضي الله عنها طاعنة في عرض رسول الله ﷺ الآخر مارية أم إبراهيم ويهدفون من ذلك إلى رمي رسول الله ﷺ بأنه يقر هذا الطعن ولا يقيم الحد، لأنه كما زعموا جاء بالرحمة لتمرير طعنهم فيه، وتناسوا أنه أشد الناس غيرة لمحارم الله وأقوم الناس لحدود الله على من يستحق أن يقام عليه الحد حتى قال لأسامة حِبه وابن حِبه **"أتشفع في حد من حدود الله والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"**. ويزعم هؤلاء الطاعنون أن إمامهم المعدوم المزعوم سيقيم الحد عليها الذي لم يقمه رسول الله ﷺ، فهل ترى أشدَّ منهم حقدًا وافتراءً على رسول الله ﷺ وأشد طعنًا فيه وفي أهل بيته؟!.

فقبح الله وأخزى الحاقدين على رسول الله والطاعنين فيه، والله ما يقصدون بالطعن في أصحاب رسول الله وزوجاته، بل الطعن في القرآن إلا الطعن في رسول الله ورسالته العظيمة. [1]

ثاني وعشرون: وما هي مصلحة صفوان في التخلف عن الجيش؟

والجواب عن ذلك ما يلي:

١- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِي ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ زَوْجِي صَفْوَانَ بْنَ الْمُعَطَّلِ يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ، وَيُفَطِّرُنِي إِذَا صُمْتُ، وَلاَ يُصَلِّي صَلاَةَ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ. قَالَ: وَصَفْوَانُ عِنْدَهُ. قَالَ: فَسَأَلَهُ عَمَّا قَالَتْ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَمَّا قَوْلُهَا يَضْرِبُنِي إِذَا صَلَّيْتُ، فَإِنَّهَا تَقْرَأُ بِسُورَتَيْنِ وَقَدْ نَهَيْتُهَا. قَالَ: فَقَالَ: **"لَوْ كَانَتْ سُورَةً وَاحِدَةً لَكَفَتِ النَّاسَ**. وَأَمَّا قَوْلُهَا يُفَطِّرُنِي، فَإِنَّهَا تَنْطَلِقُ فَتَصُومُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلاَ أَصْبِرُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ: **"لاَ تَصُومُ امْرَأَةٌ إِلاَّ بِإِذْنِ زَوْجِهَا"**. وَأَمَّا قَوْلُهَا إِنِّي لاَ

(١) المهدي بين أهل السنة والروافض- لربيع بن هادي المدخلي.

أُصَلِّ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ قَدْ عُرِفَ لَنَا ذَاكَ لاَ نَكَادُ نَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ. قَالَ "**فَإِذَا اسْتَيْقَظْتَ فَصَلِّ**". (١)

فهذا الحديث صريح في السبب الذي تأخر لأجله صفوان. قال ابن القيم بعد ذكر هذا الحديث: وَلِهَذَا صَادَفَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّةِ الإِفْكِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ، وَلَا يُنَافِي هَذَا الْحَدِيثَ قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ (وَاللهِ مَا كَشَفْتُ كَنَفَ أُنْثَى قَطُّ) فَإِنَّهُ إلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ يَكْشِفْ كَنَفَ أُنْثَى قَطُّ، ثُمَّ تَزَوَّجَ بَعْدَ ذَلِكَ(٢).

لكنهم استخرجوا منه شبهة أخرى وهي شدة الشبق عند صفوان لأنه يفطر امرأته إذا صامت مما يسهم في أن يكون سببا لحادث الإفك:

---

(١) حديث صحيح، وقال الحويني في تخريج هذا الحديث: صحيح أخرجه أبو داود (٢٤٥٩)، وأحمد (٣/ ٨٠)، وكذا ابنهُ عبد الله في زوائده على المسند في ذات الموضع، وابن حبان (٩٥٦) عن أبى يعلى، وهذا في " مسنده " (ج٢/ رقم ١٠٣٧، ١١٧٤)، والطحاوي في "مشكل الآثار " (٢/ ٤٢٤)، والحاكم (١/ ٤٣٦) والبيهقي (٤/ ٣٠٣)، وابن عساكر في " تاريخ دمشق " (ج٨/ ل ٣٤٩ - ٣٥٠) من طريق جرير بن عبد الحميد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، قال وذكره، و قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وهو كما قالا، وصحح إسناده الحافظ في الإصابة (٣/ ٤٤١)، وقد صرح الأعمش بالتحديث عن أبى صالحٍ عند ابن سعدٍ في الطبقات كما قال الحافظُ في " الفتح " (٨/ ٤٦٢). أما من أنكره فهو مسبوق إليه. فقد قال الحافظ في الإصابة " (٣/ ٤٤١): إن البخاري أورد هذا الإشكال قديمًا.
ولما روى البراز هذا الحديث في مسنده قال: هذا الحديث كلامه منكر، ولعل الأعمش أخذه من غير ثقةٍ فدلسه فصار ظاهر سنده الصحة، وليس للحديث عندي أصل. .
وخلاصة الإشكال أن صفوان بن المعطل لما رمى بعائشة رضى الله عنها في حديث الإفك المشهور في الصحيحين، وغيرهما قال: (سبحان الله! والله ما كشفتُ كنف أُنثى قط).
فيكون حديث أبى سعيد هذا منكرًا إذ فيه أن لصفوانَ زوجة، فكيف يقول: والله ما كشفت كنف أنثى قط؟ فلهذا استشكله البخاري وأنكره البراز، ولكن يجاب عنه بأن الجمع أولى من الترجيح، فالأصل فى الدليلين الصحيحين الإعمال لا الإهمال، والجمع هنا ممكن، بل ظاهر وهو أن يكون حديث أبى سعيد هذا متأخرًا عن حادثة الإفك.
فُيحمل قوله: ما كشفت كنف أنثى قط على أنه لم يكن تزوج آنذاك، ثم تزوج بعد ذلك فشكته امرأتهُ وبهذا أجاب الحافظ، فالذي يظهر أن مراده بالنفي المذكور ما قبل القصة، ولا مانع أن يتزوج بعد ذلك، فهذا الجمعُ لا اعتراض عليه إلا بما جاء عن ابن إسحاق أنه كان حصورًا لكنه لم يثبت، فلا يعارض الحديث الصحيح " انتهى من الفتاوى الحديثية للحويني.
(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٣١٧).

وجواب ذلك أنه كان كذلك لأنه كان مشتغلا بالليل بسقي الماء فكان لا يتمكن من امرأته إلا نهارًا. (١)

٢- قال القرطبي: وكان صفوان هذا صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة رضي الله عنهم. (٢)

٣-لقد كان صفوان يرى أنه يقوم بخدمات جليلة لعسكر المسلمين فكان إذا وجد شيئًا أتى به جهرة أمام كل الناس ومن صفاء سريرته حسب أن المنافقين سينظرون إلى عائشة كغيرها من المتاع.

قال البقاعي: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ﴾ أي كذب عظيم ﴿مُّبِينٞ﴾ أي واضح في نفسه، موضح لغيره، وبيانه وظهوره أن المرتاب يكاد يقول: خذوني فهو يسعى في التستر جهده، فإتيان صفوان بعائشة رضي الله عنها راكبة على جمله داخلًا به الجيش في نحر الظهيرة والناس كلهم يشاهدون، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ينزل عليه الوحي، إدلالًا بحسن عمله، غافلًا عما يظن به أهل الريب، أدل دليل على البراءة وكذب القاذفين، ولو كان هناك أدنى ريبة لجاء كل منهما وحده على وجه من التستر والذعر، تعرف به خيانته، فالأمور تذاق، ولا يظن الإنسان بالناس إلا ما في نفسه(٣).

٤-ومما يشار إليه هنا أن المنافقين لم يكونوا يخرجون مع النبي ﷺ قبل هذه الغزوة فلم يكونوا عارفين بمهام الجند، ولذلك استغربوا غياب صفوان ومجيئه من وراء الجيش.

ثالث وعشرون: أما عن حديث :دعوا صفوان؛ فإن صفوان خبيث اللسان طيب القلب هو حديث ضعيف. أخرجه ابن أبي عاصم فى الآحاد والمثاني باب ومن ذكر سعد مولى أبى بكر الصديق رضي الله عنه، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في معرفة الصحابة باب من اسمه سعد من طريق عامر بن صالح رستم عن أبيه عن الحسن عن سعد مولى أبي بكر به. وإسناده

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٠/ ٢٠٢).
(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ١٧٦).
(٣) نظم الدرر للبقاعي.

ضعيف وعامر بن صالح، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه، وليس بقوي، وقال أبو داود: ضعيف. وقال مرة: ليس به بأس. وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه. تهذيب التهذيب، والجرح والتعديل (٦/ ٣٢٤)، والحسن مدلس، وقد عنعن ولهذا فالحديث ضعيف. وفي الحديث الذي معنا أنه ﷺ قال: لا أعلم عليه إلا خيرًا، وقد ضعفه الألباني في الضعيفة (٣٦٠٠).

الوجه الرابع: وهذا كشف لبعض الغبرة لترى العيون

ولعل هؤلاء الطاعنين بهذا الكلام يريدون أن يثيروا غبارًا أمام أعين الناظرين لكي يبصروا ما نسبوه لله وأنبيائه في كتابهم المقدس، وعلى كل حال فنحن نقبل التعاون معهم في كشف هذا الغبار لينظر طالب الحق من غير ما يصاب بالرمد.

وهذه بعض النصوص من الكتاب المقدس عندهم فاقرأها وقارن بينها وبين ما في القرآن من تنزيه أم المؤمنين وزوج النبي الكريم وتبرئتها من البهتان والإفك، ثم قرر بعد ذلك أي الكلامين من عند الله.

١ـ **بنات لوط يزنين معه**: سفر التكوين ١٩: ٣٠ ((وَغَادَرَ لُوطٌ وَابْنَتَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ صُوغَرَ، وَاسْتَقَرُّوا فِي الْجَبَلِ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَلَجَأَ هُوَ وَابْنَتَاهُ إِلَى كَهْفٍ هُنَاكَ. فَقَالَتْ الابْنَةُ الْبِكْرُ لأُخْتِهَا الصَّغِيرَةِ: إِنَّ أَبَانَا قَدْ شَاخَ وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ ليدخل علينا كَعَادَةِ كُلِّ النَّاسِ. فَتَعَالَيْ نَسْقِيهِ خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ فَلاَ تَنْقَطِعُ ذُرِّيَّةُ أَبِينَا. فَسَقَتَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَبَاهُمَا خَمْرًا، وَأَقْبَلَتْ الابْنَةُ الْكُبْرَى وَضَاجَعَتْ أَبَاهَا فَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي قَالَتْ الابْنَةُ الْبِكْرُ لأُخْتِهَا الصَّغِيرَةِ: إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ مَعَ أَبِي لَيْلَةَ أَمْسِ، فَتَعَالَيْ نَسْقِيهِ اللَّيْلَةَ أَيْضًا خَمْرًا ثُمَّ ادْخُلِي وَاضْطَجِعِي مَعَهُ فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً. فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا وَأَقْبَلَتْ الابْنَةُ الصَّغِيرَةُ وَضَاجَعَتْ أَبَاهَا. فَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَهَكَذَا حَمَلَتْ الابْنَتَانِ كِلْتَاهُمَا مِنْ أَبِيهِمَا.)) (الكتاب المقدس ترجمة الحياة)

٢ـ **نبي الله داود يزني بزوجة جاره!** صموئيل الثاني [١١: ١]((قام داود عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا، فأرسل وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بشتبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رجلًا وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة فأخبرت داود بذلك فدعا داود زوجها (أوريا الحثي). . . . فأكل أمامه وشرب وأسكره. . . وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ رِسَالَةً إِلَى يُوآبَ، بَعَثَ بِهَا مَعَ أُورِيَّا، جَاءَ فِيهَا: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي الْخُطُوطِ الأُولَى حَيْثُ يَنْشُبُ الْقِتَالُ الشَّرِسُ، ثُمَّ تَرَاجَعُوا مِنْ وَرَائِهِ لِيَلْقَى حَتْفَه. . . فأرسل داود وضم امرأة أوريا إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنًا.

٣ـ **ابن داود يزني بأخته! !** صموئيل الثاني [١٣: ١] ((وَكَانَ لأَبْشَالُومَ بْنِ دَاوُدَ أُخْتٌ جَمِيلَةٌ تُدْعَى ثَامَارَ، فَأَحَبَّهَا أَخُوهَا غَيْرُ الشَّقِيقِ أَمْنُونُ. وَعَانَى أَمْنُونُ مِنْ سُقْمِ الْحُبِّ، لأَنَّ ثَامَارَ أُخْتَهُ كَانَتْ عَذْرَاءَ وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَحْقِيقُ مَأْرَبِهِ مِنْهَا. وَكَانَ لأَمْنُونَ صَدِيقٌ رَاجِحُ الْعَقْلِ،. . . فنصحه: «تَمَارَضْ فِي سَرِيرِكَ. وَعِنْدَمَا يَجِيءُ أَبُوكَ لِيَزُورَكَ قُلْ لَهُ: دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي تَأْتِي لِتُطْعِمَنِي. . . فَاضْطَجَعَ أَمْنُونُ وَتَمَارَضَ، وَقَالَ لأَبِيهِ عِنْدَمَا جَاءَ لِيَزُورَهُ: «دَعْ ثَامَارَ تَأْتِي لِتَصْنَعَ أَمَامِي كَعْكَتَيْنِ، فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا فَأَرْسَلَ دَاوُدُ مَنْ يَدْعُو ثَامَارَ مِنْ بَيْتِهَا قَائِلًا: «اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ أَخِيكِ أَمْنُونَ وَاصْنَعِي لَهُ طَعَامًا». فَمَضَتْ ثَامَارُ إِلَى بَيْتِ أَخِيهَا أَمْنُونَ الرَّاقِدِ فِي سَرِيرِهِ فأمر أمنون أن يخرج الجميع من غرفته إلا ثامار ثم قال لها: ائتني بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك. فأحضرت الكعكة أمامه وأطعمته بيدها في المخدع فأمسكها وقال لها: تعالي اضطجعي معي يا أختي. فقالت له: لا يا أخي لا تذلني أين أذهب بعاري. فَأَبَى أَنْ يَسْتَمِعَ لِتَوَسُّلاَتِهَا، بَلْ تَغَلَّبَ عَلَيْهَا وَاغْتَصَبَهَا. فخرجت صارخة. . . وَعِنْدَمَا رَآهَا أَخُوهَا أَبْشَالُومُ سَأَلَهَا: «هَلِ اغْتَصَبَكِ أَمْنُونُ؟ اسْكُتِي الآنَ يَا أُخْتِي، فَإِنَّهُ أَخُوكِ وَلاَ تَحْمِلِي وِزْرَ هَذَا الأَمْرِ فِي قَلْبِكِ.))

عزيزي القارئ: من العجب أن الكتاب المقدس وصف (يوناداب) الذي شجع ابن عمه (أمنون) ابن داود عليه السلام ووضع له الخطة لارتكاب الخطية الجنسية بأنه راجح العقل وأحكم الحكماء! ! ! : صموئيل الثاني [١٣: ١]: ((وَكَانَ لأَمْنُونَ صَدِيقٌ رَاجِحُ الْعَقْلِ، هُوَ ابْنُ عَمِّهِ، يُونَادَابُ بْنُ شِمْعَى، فَسَأَلَهُ: «مَالِي أَرَاكَ سَقِيمًا يَا ابْنَ الْمَلِكِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؟ أَلاَ تُخْبِرُنِي؟ » فَأَجَابَهُ أَمْنُونُ: «إِنِّي أُحِبُّ ثَامَارَ أُخْتَ أَبْشَالُومَ أَخِي». فَقَالَ يُونَادَابُ: «تَمَارَضْ فِي سَرِيرِكَ. وَعِنْدَمَا يَجِيءُ أَبُوكَ لِيَزُورَكَ قُلْ لَهُ: دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي تَأْتِي لِتُطْعِمَنِي. دَعْهَا تُعِدُّ الطَّعَامَ أَمَامِي فَأَرَى مَا تَفْعَلُ وَآكُلُ مِنْ يَدِهَا. .)) ترجمة كتاب الحياة.

٤ـ ممارسة الجنس بين زوجة الابن وحميها على صفحات الكتاب المقدس

سفر التكوين [٣٨: ١٣ (فَقِيلَ لِثَامَارَ: «هُوَذَا حَمُوكِ قَادِمٌ لِتِمْنَةَ لِجَزِّ غَنَمِهِ». فَنَزَعَتْ عَنْهَا ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا، وَتَبَرْقَعَتْ وَتَلَفَّعَتْ وَجَلَسَتْ عِنْدَ مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ،. . . فَعِنْدَمَا رَآهَا يَهُوذَا ظَنَّهَا زَانِيَةً لأَنَّهَا كَانَتْ مُحَجَّبَةً، فَمَالَ نَحْوَهَا إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ وَقَالَ: «هاتي أدخل عليك ». وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي أَنَّهَا كَنَّتُهُ. فَقَالَتْ: «مَاذَا تُعْطِينِي لِكَيْ تُعَاشِرَنِي؟ » فَقَالَ: «أَبْعَثُ إِلَيْكِ جَدْيَ مِعْزَى مِنَ الْقَطِيعِ». فَقَالَتْ: «أَتُعْطِينِي رَهْنًا حَتَّى تَبْعَثَ بِهِ؟ » فَسَأَلَهَا: «أَيُّ رَهْنٍ أُعْطِيكِ؟ » فَأَجَابَتْهُ: «خَاتَمُكَ وَعِصَابَتُكَ وَعَصَاكَ». فَأَعْطَاهَا مَا طَلَبَتْ، وَعَاشَرَهَا فَحَمَلَتْ مِنْهُ. ثُمَّ قَامَتْ وَمَضَتْ، وَخَلَعَتْ بُرْقَعَهَا وَارْتَدَتْ ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا. وَعِنْدَمَا أَرْسَلَ الْجَدْيَ مَعَ صَاحِبِهِ الْعَدُلاَمِيِّ لِيَسْتَرِدَّ الرَّهْنَ مِنْ يَدِ الْمَرْأَةِ فَلَمْ يَجِدْهَا. فَسَأَلَ أَهْلَ الْمَكَانِ: «أَيْنَ الزَّانِيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَجْلِسُ عَلَى الطَّرِيقِ فِي عَيْنَايِمَ؟ » فَقَالُوا: «لَمْ تَكُنْ فِي هَذَا الْمَكَانِ زَانِيَةٌ». . . وَبَعْدَ مُضِيِّ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ قِيلَ لِيَهُوذَا: «ثَامَارُ كَنَّتُكَ زَنَتْ، وَحَبِلَتْ مِنْ زِنَاهَا».))

٥ـ تأشيرة جنسية. أيـة عظة تلك التي تحصل عليها المرأة المسيحية عندما تقرأ أن المسيح قد دافع عن امرأة زانية قال له اليهود: ((موسى في الناموس أوصانا أن هذه ترجم)) [يوحنا ٨: ٥]. ((ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم: من كان منكم بلا خطية فليرمها أولًا بحجر)) [يوحنا ٨: ٧]سبحان الله؛ ما هذا الدفاع عن امرأة زانية أليس في ما يدعوا غيرها إلى الزنا! بحجة أن كل الناس خطاة وآثمون وليست الزانيات وحدهن؟

ومثل هذا الذي نقلناه في الكتاب المقدس كثير!

ونحن نسأل: أهذا هو القصص الحق الذي يهدي إلى الصراط المستقيم؟! وأين هذا كله وغيره مما لم نذكر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور ١١ – ٢٨).

* * *

٢ـ شبهة: ادعاؤهم تطاول عائشة على النبي محمد ﷺ

نص الشبهة: لقد زعم القوم أن عائشة بصغر سنها كانت تمتلك إمكانيات لا تمتلكها غيرها من زوجات النبيﷺ، ولذلك كانت تسيطر على عقل النبيﷺ، فكان يتساهل معها ويتبع هواها مما أدى إلى تطاولها عليه إلى حدود لا تليق به كبشر عادي فضلًا عن كونه نبيًا.

والجواب على هذا الإفك من وجوه:

الوجه الأول: أن حسن تعامل النبي ﷺ وحسن أخلاقه مع عائشة لم يكن نابعًا من متابعة الهوى ولا من سيطرة عائشة رضي الله عنها بإمكانياتها عليه، ولكن الأمر كما يلي:

١- لقد ندب النبي ﷺ إلى حسن الأخلاق بصفة عامة، وكذلك كان ﷺ.

٢- لقد أوصى ﷺ بحسن عشرة النساء عامة. وذلك لأن طبيعتهن تتطلب ذلك.

٣- ومن هذا المنطلق كان ﷺ خير الناس لنسائه.

٤- ولا ننكر ولا نماري في أن عائشة رضي الله عنها كانت مقدمة عليهن في الحب القلبي لما لها من خصوصيات عند الله ورسوله ليست لغيرها من زوجات النبي ﷺ.

٥- ولكن هذا الحب لم يكن ليحمله ﷺ لحظة واحدة على قبول الظلم منها لغيرها من نسائه، أو ليمكنها من مخالفة شرعية.

الوجه الثاني: حسن خلق عائشة رضي الله عنها والكلام على ذلك في محورين:

١- وهذا شئ من سيرتها يبين ذلك.

٢- أما الروايات التي توهم ذلك فمنها ما لم يصح، ومنها ما صح وأسيء فهمه.

الوجه الثالث: استنكار حسن عشرة النبي ﷺ لعائشة تبعًا لاحتقار مكانة المرأة أصلًا عند النصارى.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن حسن تعامل النبي ﷺ وحسن أخلاقه مع عائشة لم يكن نابعًا من متابعة الهوى ولا من سيطرة عائشة رضي الله عنها بإمكانياتها عليه، ولكن الأمر كما يلي:

أولًا: لقد ندب النبي ﷺ إلى حسن الأخلاق بصفة عامة، وكذلك كان ﷺ.

١- عن عائشة قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ خادمًا له قط، ولا امرأة له قط، ولا ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء فانتقمه من صاحبه إلا أن تنتهك محارم الله ﷻ فينتقم لله ﷻ، وما عرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا أخذ بأيسرهما إلا أن يكون مأثمًا، فإن كان مأثمًا كان أبعد الناس منه). (١)

ثانيًا: لقد أوصى ﷺ بحسن عشرة النساء عامة. وذلك لأن طبيعتهن تتطلب ذلك، ومن ذلك ما يلي:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا". (٢)

ولفظه عند مسلم: "إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها". (٣)

٢- وعن عبد الله بن زمعة عن النبي ﷺ قال: "لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم". (٤)

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر، أو قال غيره". (٥)

ثالثًا: ومن هذا المنطلق كان ﷺ خير الناس لنسائه:

١-عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائهم خلقًا**. (٦)

٢-عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي". (١)

---

(١) أحمد (٦/ ٣٢) واللفظ له، والنسائي (٩١٦٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠٧).

(٢) البخاري (٣١٥٣) (٤٨٩٠).

(٣) مسلم (١٤٦٨).

(٤) البخاري (٤٩٠٤).

(٥) مسلم (١٤٦٩).

(٦) الترمذي (١١٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٢/ ٢٥٠)، وابن حبان (٤١٧٦).

قال الحليمي: دل على أن حسن الخلق إيمان وعدمه نقصان إيمان، وأن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم فبعضهم أكمل إيمانا من بعض. ومن ثم كان المصطفى ﷺ أحسن الناس خلقًا لكونه أكملهم إيمانًا " **وخياركم خياركم لنسائهم** " أي من يعاملهن بالصبر على أخلاقهن ونقصان عقلهن وطلاقة الوجه والإحسان. وكف الأذى وبذل الندى وحفظهن من مواقع الريب. ولهذا كان المصطفى ﷺ أحسن الناس معاشرة لعياله وهل المراد بهن حلائل الرجل من زوجةوسرية أو أصوله وفروعه وأقاربه أو من في نفقته منهن أو الكل؟ والحمل على الأعم أتم. (٢)

٣- عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة. (٣)

رابعًا: ونحن لا نشك ولانماري في أن عائشة أم المؤمنين كانت مقدمة عليهن في هذا الحب بتقديم الله لها لابمجرد الهوى كما فهم على غير الصواب، وبيان ذلك فيما يأتي:

١-عن عروة بن الزبير قال: كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان أو حيثما دار، قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ قالت: فأعرض عني فلما عاد إلي ذكرت له ذلك، فأعرض عني فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: **" يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها"**. (٤)

(١) الترمذي (٣٨٩٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح .
(٢) فيض القدير (١٤٤١).
(٣) البخاري (٦٧٦).
(٤) البخاري (٣٧٧٥).

قال الذهبي رحمه الله: وهذا الجواب منه دال على أن فضل عائشة على سائر أمهات المؤمنين بأمر إلهي وراء حبه لها، وأن ذلك الأمر من أسباب حبه لها(١).

٢-ومن أجل هذا الفضل أحبها حبًا شديدًا كان يتظاهر به، بحيث إن عمرو بن العاص، وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة، سأل النبيﷺ: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: " **عائشة** " قال: فمن الرجال؟ قال: " **أبوها** "(٢).

وهذا خبر ثابت على رغم أنوف الشانئين، وما كان عليه السلام ليحب إلا طيبًا، وقد قال: " **لو كنت متخذًا خليلًا من هذه الأمة، لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الاسلام أفضل** " فأحب أفضل رجل من أمته وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله ﷺ فهو حري أن يكون بغيضًا إلى الله ورسوله، وحبه ﷺ لعائشة كان أمرًا مستفيضًا، ألا تراهم كيف كانوا يتحرون بهداياهم يومها تقربًا إلى مرضاته. (٣) كما مر في الحديث السابق.

٣-ومن فضائلها على غيرها أنها ابنة أبي بكر الصديق السبّاق إلى الخيرات، وليس غيرها كذلك بهذه الدرجة فعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مرطي فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة وأنا ساكتة، قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: "**أي بنية ألست تحبين ما أحب**"؟ فقالت: بلى، قال: "**فأحبي هذه**"، قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلى أزواج النبيﷺ فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال لها رسول الله ﷺ فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبدًا قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ ولم أر

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٣).

(٢) البخاري (٤٣٥٨، ٣٦٦٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٢).

امرأة قط خيرًا في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثًا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله تعالى ما عدا سورة من حد كانت فيها تسرع منها الفيئة. قالت فاستأذنت علي رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها فأذن لها رسول الله ﷺ. فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت: ثم وقعت بي فاستطالت علي وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طرفه هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها حين أنحيت عليها قالت: فقال رسول الله ﷺ وتبسم: "**إنها ابنة أبي بكر**".[1]

قلت: واضح من هذا الحديث أن النبي ﷺ خصها بفضيلة ليست لواحدة من النساء غيرها وهي أنها ابنة أبي بكر وليست واحدة من النساء لأبيها من السابقة والفضل والمكانة وحسن التأديب لابنته مالأبي بكر، فكيف تريدون أن تكون مكانتكم تضاهي مكانتها؟! لعل ذلك لو حصل يكون منافيًا للعدل الذي تنشدنه فعند ذلك عرفن فضلها وسكتن، فلم يعاودن السؤال مرة ثانية، والله أعلم.

فثبت بهذا وبغيره مما لم أذكره أن عائشة كانت مقدمة في الحب القلبي لما حباها الله به من خصائص ليست لغيرها من زوجات النبي ﷺ وهذا لاينقص من شأن أيتهن أبدًا، ولكن سنة الله أن يكون لكل قدره.

---

(١) مسلم (٢٤٤٢)، (العدل في ابنة أبي قحافة) معناه: يسألنك التسوية بينهن في محبة القلب (ينشدنك) أي يسألنك، (تساميني) أي: تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة مأخوذ من السمو وهو الارتفاع، (سورة) السورة الثوران وعجلة الغضب (من حد) هكذا هو في معظم النسخ سورة من حد وفي بعضها من حدة وهي شدة الخلق وثورانه، (الفيئة) الرجوع ومعنى الكلام أنها كاملة الأوصاف إلا أن فيها شدة خلق وسرعة غضب تسرع منها الرجوع أي إذا وقع ذلك منها رجعت عنه سريعا ولا تصر عليه، (ثم وقعت بي) أي نالت مني بالوقيعة في (لم أنشبها) أي لم أمهلها، (حين) في بعض النسخ حتى بدل حين وكلاهما صحيح ورجح القاضي حين، (أنحيت عليها) أي قصدتها واعتمدتها بالمعارضة. انظر: شرح النووي على مسلم.

خامسًا: ولكن هذا الحب لم يكن ليحمله ﷺ على الظلم لبقية النساء ولم يكن يحمله كذلك على السكوت على مخالفة شرعية تصدر من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأما بقية النساء فتظهر قمة العدل منه ﷺ فيما يلي:

١-عندما كان في مرضه الذي توفي فيه فأراد أن يمرض في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فاستأذنهن ولم يفوت حقهن في الاستئذان حتى وهو في هذا الموقف العصيب الشديد فلو أن الأمر نابع من الهوى ومن سيطرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عليه لما حصل هذا الاستئذان.

فعن عائشة قالت: لما ثقل النبي ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه في أن يمرض في بيتي، فأذن له فخرج النبي ﷺ بين رجلين تخط رجلاه في الأرض[(١)].

٢-ما كان ﷺ يأخذها معه في سفر إلا إذا أصابتها قرعة ولم يحرم سودة من ليلتها حتى وهبتها لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فلو أن الأمر أمر هوى لأقبل على الشابة وترك العجوز، وأين المقارنة بين فتاة بكر وامرأة عجوز حتى يكون لها ليلة تهبها لعائشة ليكون لها فضل الهبة بعد ذلك إلا في ظل العدل المحمدي من رسول الله ﷺ، وها هي الصديقة تحفظ لنا هذا الخبر، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضًا رسول الله ﷺ[(٢)].

٣-لقد كانت رغبتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تخالف أحيانًا فلا تستطيع أن تقول شيئًا لأنها تتعامل مع رسول الله ﷺ لا على أنه زوج فحسب بل على أنه زوج ورسول من عند الله تعالى.

فعن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا خرج أقرع بين نسائه فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان النبي ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى، فركبت فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه

(١) البخاري (١٩٨).
(٢) البخاري (٢٥٩٣).

حفصة فسلم عليها، ثم سار حتى نزلوا، وافتقدته عائشة فلما نزلوا جعلت رجليها بين الإذخر وتقول: يا رب سلط عليّ عقربًا أو حية تلدغني ولا أستطيع أن أقول له شيئًا(١).

فأين سيطرتها بإمكانياتها في هذه الرواية على رسول الله ﷺ وهي تقول رسولك ولا أستطيع أن أقول شيئًا؟

فظهر مما سبق أن النبي ﷺ وإن كان يحب عائشة أكثر إلا أنه لم يكن يعطيها حق غيرها وهذا من تمام عدله ووفور عقله- صلوات الله وسلامه عليه.

وأما من جهة المخالفات الشرعية فلم يكن حبه لها ليجعله يسكت على مخالفة شرعية حتى وإن كانت من أحب الناس إليه وهي عائشة رضي الله عنها ومن ذلك ما يلي:

١- عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها أخبرته: أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخله فعرفت في وجهه الكراهية، فقلت: يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله ﷺ ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله ﷺ: **" ما بال هذه النمرقة "** قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله ﷺ: **" إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون فيقال لهم أحيوا ما خلقتم "**. وقال: **" إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة"**. (٢)

٢-ولم يوافقها ﷺ على كلمة قالتها في صفية رضي الله عنها عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال غير مسدد تعني: قصيرة فقال: **" لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته "** قالت: وحكيت له إنسانًا قال: **" ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا"**. (٣)

فهذه الرواية تذكر أن عائشة بحكم بشريتها تحذر النبي ﷺ من صفية بكلمة وإشارة، لكن رسول الله ﷺ مع حبه لعائشة لم يقرها على ذلك، فكيف يقال: إنها كانت تسيطر على النبي ﷺ وتدفعه بما لها من إمكانيات إلى التساهل معها في حقوق الله تعالى؟

الوجه الثاني: حسن خلق عائشة رضي الله عنها.

---

(١) البخاري (٥٢١١).

(٢) البخاري (٥١٨١).

(٣) أبو داود (٤٨٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٧١).

والكلام على هذا في محورين:

أولًا: حسن خلقها ﵂ بصفة عامة ومع النبي ﷺ بصفة خاصة.

ثانيًا: الكلام على الروايات التي حصل لهم هذا الوهم بسببها.

المحور الأول: حسن خلقها ﵂ مع النبيﷺ: أذكر فيها بعض الروايات عن أم المؤمنين ﵂ لبيان حسن أخلاقها مع النبيﷺ:

١- عن عائشة أنها قالت: أقسم رسول الله ﷺ أن لا يدخل على نسائه شهرًا، قالت: فلبث تسعًا وعشرين. قالت: فكنت أول من بدأ به. فقلت للنبي ﷺ: أليس كنت أقسمت شهرًا فعدت الأيام تسعًا وعشرين، فقال النبي ﷺ: **"الشهر تسع وعشرون"**. (١)

ووجه الدلالة أنها لو كانت سيئة مع النبي ﷺ لما أخذت تنتظره وتعد الأيام كما صرحت بذلك في رواية الإمام مسلم فقالت: لما مضت تسع وعشرون ليلة أعدهن دخل على رسول الله ﷺ قالت: بدأ بي، فقلت: يا رسول الله، إنك أقسمت أن لاتدخل علينا شهرًا وإنك دخلت من تسع وعشرين أعدّهن، فقال: **" إن الشهر تسع وعشرون"**.

٢- وعن عائشة ﵂ تقول: طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أحرم ولحله حين أحل قبل أن يطوف وبسطت يديها. (٢)

ووجه ذلك أن المرأة التي تطيب زوجها بيديها مع كونه يتصف باللين معها ولا يجبرها على مثل ذلك. لاشك أنها حسنة الأخلاق مع هذا الزوج وتدبر هذا في امرأة من نساء زماننا تضع الطيب بيديها على رأس زوجها وتسرح له شعره من غير ما يأمرها بذلك وهو رجل سهل لين، فهل يقول أحد عنها أنها امرأة سيئة الخلق مع زوجها؟!

٣- عن عائشة ﵂: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبده رسول الله ﷺ بصره فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به فما رأيت رسول الله ﷺ

(١) أحمد (٦/ ٣١٥)، والبخاري (١٩١٠)، ومسلم (١٠٨٣).

(٢) البخاري (١٥٣٩)، ومسلم (١١٨٩).

استن استنانا قط أحسن منه فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال: " **في الرفيق الأعلى** ". ثلاثًا ثم قضى، وكانت تقول: مات بين حاقنتي وذاقنتي. (١)

فانظر كيف كانت مراقبة لعين رسول الله ﷺ، وكيف كانت عارفة بما يحب وما يريد حتى في مثل هذه الحال، فهل يعد هذا من سوء الخلق إلا عند حاسد شانئ وأم المؤمنين تعد من نعم الله عليها أن جمع الله بين ريقها وريق رسول الله ﷺ في آخر يوم من حياته، فعن ابن أبي مليكة أن أبا عمرو ذكوان مولى عائشة أخبره أن عائشة كانت تقول: إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته دخل علي عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه (أن نعم)، فتناولته فاشتد عليه وقلت ألينه لك؟ فأشار برأسه (أن نعم). فلينته فأمره وبين يديه ركوة أو علبة - يشك عمر - فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: " **لا إله إلا الله إن للموت سكرات** "، ثم نصب يده فجعل يقول: " **اللهم في الرفيق الأعلى** "حتى قبض ومالت يده. (٢)

وكيف كان قلبها يتفطر وهي ترى سكرات الموت تنزل برسول الله ﷺ حتى قالت: توفي رسول الله ﷺ أو قبض أو مات وهو بين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد أبدًا بعد الذي رأيت برسول الله ﷺ (٣).

٤- ثم هذا جوابها على الفور لما خيَّرها رسول الله ﷺ:

عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: " **إني ذاكرًا لك أمرًا فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك** "، قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت ثم قال إن الله جل ثناؤه قال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ

(١) البخاري (٤٤٣٨).

(٢) البخاري (٤٤٤٩).

(٣) أحمد (٦/ ٧٧)، والبخاري (٤٤٤٦).

﴿أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ..إلى قوله: عَظِيمٗا﴾. قالت: فقلت: ففي أي هذا أستأمر أبوي؛ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت. [١]

٥- ثم كيف هي تحافظ على راحة رسول الله ﷺ حتى وهي تتألم وذلك عندما تأخر الجيش أثناء البحث عن عقدها فنام رسول الله ﷺ على فخذها، فجاء أبو بكر يطعنها في خاصرتها ويعنفها وهي لايمنعها من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ منها. كما قالت عائشة رضي الله عنها: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن التحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. قال: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته. [٢]

٦- ولقد كانت ترضى بالقليل ابتغاء مرضاة الله ولا تشكوا، وهذا من حسن أخلاقها مع من كانت أحب الناس إليه ﷺ.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض[٣]. وهي حين تخبرنا بذلك لاتشكوا ولكن تخبر من أجل التأسي بمثل ما كانوا عليه من الصبر، والرضا والتحذير من الكنز، ويؤيد ذلك الرواية الأخرى.

عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه قال: قلت لعائشة: أنهى النبي ﷺ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث؟ قالت: ما فعله إلا في عام جاع الناس فيه فأراد أن يطعم الغني الفقير وإن كنا لنرفع الكراع فنأكله بعد خمس عشرة قيل ما اضطركم إليه؟ فضحكت قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بر مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله[٤]. وبعد هذه الروايات الصحيحة الواضحة في التصريح والدلالة على حسن خلق السيدة عائشة مع

(١) البخاري (٤٥٠٨)، ومسلم (١٤٧٥).
(٢) البخاري (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧).
(٣) البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠) واللفظ له.
(٤) البخاري (٥٤٢٣).

الرسول ﷺ يقال عنها كانت سيئة الأخلاق معه، لاجرم، فقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد، وينكر الفم طعم الماء من سقم!

المحور الثاني: الروايات التي أوهمت القوم ما ذهبوا اليه من الطعن في السيدة عائشة من هذه الناحية.

الحديث الأول: عن عائشة أنها قالت: وكان متاعي فيه خف وكان على جمل ناج وكان متاع صفية فيه ثقل وكان على جمل ثقال بطئ يتبطأ بالركب، فقال رسول الله ﷺ: **"حولوا متاع عائشة على جمل صفية وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب"**، قالت عائشة: فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله! غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله! قالت: فقال رسول الله ﷺ: يا أم عبد الله، إن متاعك كان فيه خف وكان متاع صفية فيه ثقل فأبطأ بالركب فحولنا متاعها على بعيرك وحولنا متاعك على بعيرها، قالت: فقلت: ألست تزعم أنك رسول الله، قالت: فتبسم قال: **" أو في شك أنت يا أم عبد الله"**؟ قالت: قلت: ألست تزعم إنك رسول الله؟ أفهلا عدلت؟ وسمعني أبو بكر وكان فيه غرب - أي حدة - فأقبل علي فلطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: **"مهلًا يا أبا بكر"**، فقال: يا رسول الله أما سمعت ما قالت؟ فقال رسول الله ﷺ: **"إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه"**. [1]

والجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن الحديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به.

قال البوصيري في إتحاف المهرة (٣/ ٤٣): رواه أبويعلى بسند ضعيف، لتدليس ابن إسحاق.

الوجه الثاني: ولو صح فإن الذي ترويه هي عائشة رضي الله عنها فهي تعترف أن هذا خطأ وتابت منه وتاب الله عليها ولو كانت كما يقولون لما روته فالأولى عند صحة هذا الحديث أن يوضع في

---

(١) ضعيف. أخرجه أبو يعلى في المسند (٤٦٥١)، و ابن حيان في الأمثال (٥٦) وفيه محمد بن اسحاق مدلس وقد عنعن، و فيه سلمة بن الفضل قاضي الري صدوق كثير الخطأ. التقريب (٢٥٠٥)، وقال البخاريُّ: عنده مناكير وفيه نظر. الضعفاء الصغير (١/ ٥٥)، قال الألباني في (الضعيفة: ٢٩٨٥): قلت: وهذا سند ضعيف؛ وفيه علتان: **الأولى**: عنعنة ابن إسحاق؛ فقد كان يدلس. **والأخرى**: ضعف سلمة بن الفضل - وهو الأبرش - قال الحافظ في التقريب (١/ ٢٢١): صدوق كثير الخطأ. والمتن فيه نكارة ظاهرة كما في قول عائشة: "؟ ألست تزعم أنك رسول الله... "، والحديث ضعفه البوصيري في الإتحاف (٣١٩٠).

مناقبها؛ لأنها هي التي روته فكان حفاظها على الشريعة وعلى نقلها أولى عندها من أي شئ آخر، حتى ولو كان نفسها.

الوجه الثالث: ولكن اعتذر عنها رسول الله ﷺ بأن الغيرى لاتبصر أسفل الوادي من أعلاه.

الوجه الرابع: ثم إن أبا بكر عاقبها على ذلك والذي دافع عنها هو رسول الله ﷺ فما دخل هؤلاء. ألا ينادون بحقوق المرأة.

الحديث الثاني: عن النعمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ فسمع صوت عائشة عاليًا وهي تقول: والله لقد علمت أن عليًا أحب إليك من أبي، فأهوى إليها أبو بكر ليلطمها وقال: يا ابنة فلانة أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ فأمسكه رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر مغضبًا، فقال رسول الله ﷺ: **"يا عائشة كيف رأيتني أنقذتك من الرجل"**؟ ثم استأذن أبو بكر بعد ذلك وقد اصطلح رسول الله ﷺ وعائشة، فقال: أدخلاني في السلم كما أدخلتماني في الحرب فقال رسول الله ﷺ: **"قد فعلنا"**. [1]

وهذا حديث صحيح، وتوجيهه كمايلي:

١-إن اعتقادنا في أم المؤمنين أنها بشر يخطئ ويصيب فهي امرأة تغار كغيرها من النساء إلا أن لها فضلًا عليهن بتفضيل الله لها كما أخبر النبي ﷺ أن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام، ولكنها مع هذا الفضل ليست معصومة.

٢- لقد كان رسول الله ﷺ يعلم هذه الطبيعة من النساء، ولذلك حال بينها وبين أبي بكر، ثم إنه في الرواية أن أبا بكر دخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضاحكها، فقال: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما.

---

(١) **صحيح**. أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٩)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤٦٢٨)، والبزار في المسند (٣٢٧٥) وأحمد (٤/ ٢٧٥)، من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين عن يونس بن أبي إسحاق عن العيزار بن حريث به وأبو داود (٤٩٩٩) من طريق حجاج بن محمد المصيصي عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق به، وأحمد (٤/ ٢٧٢، ٢٧١) من طريق عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن العيزار، صحح إسناده الحافظ في الفتح (٧/ ٢٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٠١).

٣- ثم لو فرض أن هذا ذنب فقد تابت منه ورضي عنها الله ورسوله، ومن رحمة الله بنا أن من أذنب ثم تاب وعمل صالحًا تاب الله عليه وبدل سيئاته حسنات وإن رغمت بذلك أنوف.

٤- ثم كيف تحاسبونها الآن على سوء الخلق وأنتم الذين تقولون أنه تزوجها طفلة؟ أليس من الممكن أن يكون هذا القول في هذه الطفولة المزعومة؟ فما هو موقفكم بالضبط؟ هل هو الطعن فيها بسوء الخلق، أم هو الدفاع عنها بأنها طفلة؟

ثم كيف تكون طفلة وتمتلك إمكانيات تسيطر بها على عقل النبيﷺ؟ فإنها لو كانت طفلة لبطل ما تزعمونه في حقها، ولو كانت تمتلك هذه الإمكانيات المزعومة لبطل ما يقال في حق النبي ﷺ من أنه يتزوج الأطفال، والحق أن الكل باطل.

الحديث الثالث: عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يقول لها: **"إني أعرف غضبك إذا غضبت ورضاك إذا رضيت"**. قالت: وكيف تعرف ذلك يا رسول الله؟ قال: **"إذا غضبت قلت يا محمد وإذا رضيت قلت: يا رسول الله"**[1].

والجواب من طرق:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٠) من طريق عباد بن عباد بن حبيب عن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بهذا اللفظ، وهو لفظ شاذ، وبيان ذلك أن الحديث مداره على هشام بن عروة واختلف عليه في لفظه فرواه عنه عباد بن عباد بهذا اللفظ.

وخالفه جماعة كثيرون منهم:

١- أبو أسامة عند البخاري (٥٢٢٨)، ومسلم (٢٤٣٨).

٢- عبدة عند البخاري (٦٠٧٨).

٣- وسليمان بن بلال عند ابن حبان (٤٤٠٨).

٤- وعلي بن مسهر عند أبي يعلى (٤٧٦٩).

٥- حارثة بن هرم العقيمي، عند الطبراني في الكبير (١٨٦٤٩).

٦- عبد الرحمن بن أبي الزناد، عند الطبراني في الكبير (١٨٦٤٧).

٧- عبد الله بن محمد بن يحي بن عروة، عندا الطبراني في الكبير (١٨٦٤٨). والسياق عندهم بلفظ :(قال رسول اللهﷺ: إني لأعرف عضبك ورضاك، قالت: قلت: وكيف تعرف ذلك يا رسول الله؟ قال: إنك إذا كنت راضية قلت: بلى ورب محمد، وإذا كنت ساخطة قلت: لا ورب إبراهيم قالت: قلت: أجل لا أهجر إلا اسمك.

وبمخالفة هؤلاء الرواه لعباد وفيهم من هو أوثق منه يحكم على هذه الرواية بالشذوذ الذي لا يصح الاحتجاج بالرواية مع وجوده.

١ – أن هذا لفظ شاذ فلا يصح الاحتجاج به في مقابل المحفوظ وبيانه في الحاشية.

٢ – أن هذا يخالف ما أقسمت عليه في الرواية المحفوظة التي قالت فيها: والله ما أهجر إلا اسمك.

قال ابن حجر: وقول عائشة أجل يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك

١ – قال الطيبي: هذا الحصر لطيف جدًّا؛ لأنها أخبرت أنها إذا كانت في حال الغضب الذي يسلب العاقل اختياره لا تتغير عن المحبة المستقرة فهو كما قيل:

إني لأمنحك الصدود وإنني　　قسما إليك مع الصدود لأميل

٢– وقال ابن المنير: مرادها أنها كانت تترك التسمية اللفظية ولا يترك قلبها التعلق بذاته الكريمة مودة ومحبة اهـ.

٣– وفي اختيار عائشة ذكر إبراهيم ﷺ دون غيره من الأنبياء دلالة على مزيد فطنتها لأن النبي ﷺ أولى الناس به كما نص عليه القرآن فلما لم يكن لها بد من هجر الاسم الشريف أبدلته بمن هو منه بسبيل حتى لا تخرج عن دائرة التعلق في الجملة. [١]

الحديث الرابع: وقالوا كذلك بعد ذكر الرواية السابقة وكان النبي ﷺ بدوره يغضب منها، ثم ساقوا رواية هذا نصها عن عائشة قالت: دخل عليَّ النبي ﷺ بأسير فلهوت عنه فذهب فجاء النبي ﷺ فقال: " **ما فعل الأسير**"؟ قالت: لهوت عنه مع النسوة، فخرج فقال مالك: " **قطع الله يدك أو يديك**"، فخرج فآذن به الناس فطلبوه فجاؤوا به فدخل علي وأنا أقلب يدي، فقال: " **مالك أجننت**"؟ قلت: دعوت علي فأنا أقلب يدي أنظر أيهما يقطعان، فحمد الله وأثنى عليه ورفع يديه مدًا وقال: "**اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه فاجعله له زكَاة وطهورًا**". [٢]

وهذا حديث صحيح وجواب فهمهم له ما يلي:

---

(١) فتح الباري (٩/ ٣٢٦).

(٢) مسند أحمد (٦/ ٥٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٨٩) من طريق ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ذكوان، عن عائشة به، وهذا إسناد صحيح.

١- إن النبي ﷺ بشر أوحى الله إليه يغضب كما يغضب البشر كما هو منصوص عليه في الحديث، وقد جرى مثل هذه القصة لحفصة رضي الله عنها كما أخرج أحمدعن أنس بن مالك: (أن رسول الله ﷺ دفع إلى حفصة ابنة عمر رجلًا فقال: احتفظي به. قال فغفلت حفصة ومضى الرجل فدخل رسول الله ﷺ وقال: يا حفصة، ما فعل الرجل قالت: غفلت عنه يا رسول الله، فخرج، فقال رسول الله ﷺ: **"قطع الله يدك"** فرفعت يديها هكذا فدخل رسول الله ﷺ فقال: **" ما شأنك يا حفصة "**فقالت: يا رسول الله، قلت قبل لي كذا وكذا فقال لها: **" ضُفّي يديك، فإني سألت الله عز وجل أيما إنسان من أمتي دعوت الله ﷻ عليه أن يجعلها له مغفرة"**[١].

٢-ثم إن هذا الحديث الأولى به أن يكون في مناقب عائشة رضي الله عنها؛ لأن النبي ﷺ سأل الله أن يجعل دعاءه على أي أحد من أمته مغفرة ورحمة وهكذا هذه الدعوة إن شاء الله لعائشة وإلا فدعاؤه ﷺ مستجاب فلو لم يكن الأمر كما مر لقطعت يدها وهذا لم يحدث حتى ماتت رضي الله عنها فدل على أنها لها مغفرة ورحمة.

الحديث الخامس: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ (الأحزاب: ٥١)، قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. [٢]

والجواب: أن هذا ليس من سوء الأدب مع النبي ﷺ، ولكنه من باب إظهار مكانة النبي ﷺ عند ربه والمعنى كما يلي:

١- أَيْ: مَا أَرَى الله إِلَّا مُوجِدًا لِمَا تُرِيد بِلَا تَأْخِير، مُنْزِلًا لِمَا تُحِبّ وَتَخْتَار. [٣]

٢-وقيل: مَعْنَاهُ يُخَفِّف عَنْك وَيُوَسِّع عَلَيْك فِي الْأُمُور وَلِهَذَا خَيَّرَك. [٤]

---

(١) مسند أحمد (٣/ ١٤١)، وإسناده صحيح، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

(٣) فتح الباري (٨/ ٥٢٦).

(٤) شرح مسلم للنووي (٥/ ٣٠٦).

٣-أو: أن هذا القول كِنَايَةٌ عَنْ تَرْكِ ذَلِكَ التَّنْفِيرِ وَالتَّقْبِيحِ لِمَا رَأَتْ مِنْ مُسَارَعَةِ الله تَعَالَى فِي مَرْضَاةِ النَّبِيِّ ﷺ أَيْ كُنْتُ أُنَفِّرُ النِّسَاءَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ يُسَارِعُ فِي مَرْضَاة النَّبِيِّ ﷺ تَرَكْتُ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ الْإِخْلَالِ بِمَرْضَاتِهِ ﷺ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَم. (١)

٤-أما عن العبارة فهَذَا قَوْلٌ أَبْرَزَهُ الدَّلَالُ وَالْغَيْرَةُ، وَهُوَ مِنْ نَوْعٌ قَوْلهَا مَا أَحْمَدُكُمَا وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا الله، وَإِلَّا فَإِضَافَةُ الْهَوَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا تُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرها، لِأَنَّهُ لَا يَنْطِق عَنْ الْهَوَى وَلَا يَفْعَلُ بِالْهَوَى، وَلَوْ قَالَتْ إِلَى مَرْضَاتِكَ لَكَانَ أَلْيَق، وَلَكِنَّ الْغَيْرَةَ يُغْتَفَرُ لِأَجْلِهَا إِطْلَاقُ مِثْلِ ذَلِكَ. (٢)

٥- وذلك أن الغيرة إن كانت لما في الطباع البشرية التي لم يسلم منها أحد من النساء فتعذر فيها ما لم تتجاوز إلى ما يحرم عليها من قول أو فعل، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف الصالح من النساء في ذلك. (٣)

ومن أجل هذا المعنى لم يرد ذلك عليها ولا زجرها، وعذرها لما جعل الله فى فطرتها من شدة الغيرة. (٤)

٦- وَقَدْ يُقَال: الْمَذْمُوم هُوَ الْهَوَى الْخَالِي عَنْ الْهُدَى لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ. . . ﴾ (القصص: ٥٥)، وَالله تَعَالَى أَعْلَم، فَلْيُتَأَمَّلْ. (٥)

ومن هذا المعنى قول عمر في قصة المشاورة في أسارى بدر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلتُ، وهذا الحديثُ مما جاء استعمال الهوى فيهِ بمعنى المحبة المحمودة

وعلى هذا ينبغي أن يفرق بين حالين من الهوى:

١- الهوى والشهوة المستقرة في النفس البشرية وهي مجبولة عليها.

---

(١) حاشية السندي على سنن النسائي (٣١٩٩).

(٢) فتح الباري (٩/ ١٦٥).

(٣) السابق (٩/ ٣٢٦).

(٤) شرح البخاري لابن بطال (١٣/ ٣٢٩).

(٥) حاشية السندي على سنن النسائي (٣١٩٩).

٢- اتباع الهوى ومخالفة الشرع في ذلك.

فأما النوع الأول فليس بمذموم شرعًا ولا عقلًا...

فأما عقلًا فلأجل أن ليس للأنسان يدٌ في ذلك البتة، فكيف يذم في شيء قد ركزت في الطباع؟ بل، أذهب أبعد من ذلك - ولست أبالغ - إلى أن من لم يكن ذا شهوة فهو ناقص عن أقرانه، فمن لا يشتهي النساء رجل ناقص الذكورة؛ فلا يمدح بذلك عرفًا ولا يرغبه الناس، بل هو عيب يحق للقاضي أن يفرق بين الزوجين بسببه وهو ما يسمى (العنين).

فإذا كان نقص هذه الشهوة عيب، فما يقابلها كمال بشري يمدح صاحبها.

وأما وجه عدم ذمها شرعًا - أعني بذلك الشهوة المستقرة في النفس - فيدل عليه حديث عائشة قالت: كنت أغار على اللاتي يهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ ، فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ (الأحزاب: ٥١)، قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك! ![1].

فإذا وافق الهوى الشرع فلا يذم.

وأما القسم الثاني: وهو اتباع الهوى ومخالفة الشرع في ذلك؛ فهذا هو المذموم فالنصوص جاءت بذم الاتباع للهوى لا وجود الهوى. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)، وهكذا جاءت بقية النصوص كلها تتفق على ذم اتباع الهوى لا مجرد وجوده، وبهذا يظهر أن كلمة عائشة رضي الله عنها هذه جارية على التفصيل السابق وعليه فإن عائشة ما قالت إلا الصواب، فالله شرع لنبيه الذي وافق مايهواه ويشتهيه، وجعله يهوى ما شرع الله له فأي سوء عبارة في ذلك؟. [2]

---

(١) البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

(٢) أرشيف ملتقى أهل الحديث المنتدى الشرعي العام، مقال في خطأ شائع في رد شبهة للمستشرقين (١/ ٦٠٤٢) برنامج المكتبة الشاملة.

الحديث السادس: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان اليهود يسلمون على النبي ﷺ يقولون: السام عليك، ففطنت عائشة إلى قولهم، فقالت: عليكم السام واللعنة، فقال النبي ﷺ: " **مهلًا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله** "فقالت: يا نبي الله، أولم تسمع ما يقولون؟ قال: " **أولم تسمعي أني أرد ذلك عليهم فأقول وعليكم**". (١)

وفي لفظ عند مسلم أنه قال: " **يا عائشة، لا تكوني فاحشة**" (٢).

والجواب من وجوه: الوجه الأول: إن عائشة قالت ذلك غضبًا لرسول الله ﷺ وما قالته إلا بعد أن تكرر هذا الفعل من اليهود ثلاث مرات كما تبين ذلك الرواية الصحيحة عن عائشةقالت: دخل يهودي على رسول الله ﷺ فقال: السام عليك يا محمد، فقال النبي ﷺ: " **وعليك**"، فقالت عائشة: فهممت أن أتكلم، فعلمت كراهية النبي ﷺ لذلك، فسكت، ثم دخل آخر، فقال: السام عليك، فقال: "**عليك**"، فهممت أن أتكلم، فعلمت كراهية النبيّ ﷺ لذلك، ثم دخل الثالث فقال: السام عليك، فلم أصبر حتى قلت: وعليك السام وغضب الله و لعنته إخوان القردة و الخنازير! أتحيون رسول الله بما لم يحيه الله؟ فقال رسول الله ﷺ: " **إن الله لا يحب الفحش و لاالتفحش، قالوا قولًا فرددنا عليهم** ". و رواه أبو نعيم أيضًا. (٣)

الوجه الثاني: وعائشة قالت هذا من باب الانتصار، وهذا لا إثم فيه ولا عيب، قال تعالى: ﴿ **وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** ﴾ (الشورى: ٤١).

الوجه الثالث: ولكن النبي ﷺ أرشدها إلى الأفضل وهو الصبر وحسن المنطق عملًا بقول الله تعالى: ﴿ **وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ (الشورى: ٤٣).

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ بعث معلمًا للجن والإنس، ومن الإنس أهل بيته ومنهم زوجاته رضي الله عنهن، وقد علمها الأفضل في هذا الأمر، ولا شك أنها استجابت

---

(١) البخاري (٦٣٩٥، ٦٢٥٦، ٦٠٣٠، ٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

(٢) مسلم (٢١٦٥).

(٣) ابن خزيمة (٥٧٤، ٥٨٥). قال الألباني في الصحيحة٢/ ٣١٢(٦٩١): قلت: و هذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح، و أبو بشر الواسطي اسمه إسحاق بن شاهين وهو من شيوخ البخاري.

وتعلمت منه ما دلها عليه ولم يرد ما يدل على خلاف هذا، ففي أي شرع أو عقل أو قانون يذم من عمل سيئة من غير علم ثم أقلع عنها وامتثل للأحسن بعد علمه بكونها سيئة.

الوجه الخامس: إنها لم تكن تعلم أنهم لايستجاب لهم في النبي ﷺ فلما أعلمها بذلك هدأت وسكنت، ولعلها لم تكن فهمت كذلك أن رد النبي ﷺ عليهم يكفي، فلما علمت سكتت.

الوجه السادس: وأولى من هذا كله أنها هي التي روت لنا هذه القصة لنتعلم بها كيف نقول ونتصرف في مثل هذا الموقف، ولنستدل بها على مكارم الأخلاق، فلو كتمتها هل كنا نعلم هذه السنة ثم هل كان الطاعنون يعلمون ما جرى في هذه اللحظة ليطعنوا به فيها؟! ولهذا ينبغي أن نفهم أنها لو كانت كما يقولون لما نقلت لنا هذه الأمور ولكن حرصها على تعليم الدين كان فوق ما نتصور.

الوجه السابع: قال ابن تيمية: و مثل هذا الدعاء أذى للنبي ﷺ و سب له ولو قاله المسلم لصار به مرتدًا؛ لأنه دعاء على رسول الله ﷺ في حياته بأنه يموت وهذا فعل كافر ومع هذا فلم يقتلهم، بل نهى عن قتل اليهودي الذي قال ذلك لما استأمره أصحابه في قتله.

الحديث السابع: عن عائشة أن رجلًا استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال " **بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة** "، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: " **يا عائشة متى عهدتني فحاشًا؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره**"، وهذا حديث صحيح، ولكن القوم فهموا منه أن عائشة تصور النبي ﷺ في أحاديثها بصورة الرجل المغتاب أو الذي يخشى من المواجهة، أو أنها كانت تريد منه أن يواجه الرجل بالكلام السيئ.

والجواب من وجوه: الوجه الأول: أن هذا القول من النبي ﷺ الغرض منه النصيحة ليحذر السامع من هذا الداخل حيث كان منحرفًا عن الإسلام.(١) والفاسق المجاهر بمعصيته لاتحرم غيبته.

الوجه الثاني: أو أن هذا من المداراة: وهي درء المفسدة والشر بالقول اللين وترك الغلظة أو الإعراض عن صاحب الشر إذا خيف شره، أو حصل منه أكبر مما هو ملابس له. كالرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه والإنكار عليه بلطف القول والفعل ولا سيما إذا احتيج إلى تأليفه.(٢)

الوجه الثالث: أن هذا الرجل كان منافقًا كما روى الحارث بن أبي أسامة فقال:

حدثنا الخليل بن زكريا ثنا هشام الدستوائي عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن صفوان بن عسال المرادي قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فأقبل رجل فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: " **بئس أخو العشيرة أو بئس الرجل** " فلما دنا منه أدنى مجلسه فلما قام وذهب قالوا: يا رسول الله، حين أبصرته قلت بئس أخو العشيرة أو بئس الرجل، ثم أدنيت مجلسه، فقال رسول الله ﷺ: "**إنه منافق أداريه عن نفاقه وأخشى أن يفسد على غيره**".(٣)

الوجه الرابع: قال الحافظ ابن حجر: قَالَ اِبْن بَطَّال: هُوَ عُيَيْنَة بْن حِصْن بْن حُذَيْفَة بْن بَدْر الْفَزَارِيُّ، وَكَانَ يُقَال لَهُ الْأَحْمَق الْمُطَاع، وَرَجَا النَّبِيّ ﷺ بِإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ تَأَلُّفه لِيُسْلِم قَوْمه لِأَنَّهُ كَانَ رَئِيسهمْ، وَكَذَا فَسَّرَهُ بِهِ عِيَاض ثُمَّ الْقُرْطُبِيّ وَالنَّوَوِيّ جَازِمِينَ بِذَلِكَ، وَنَقَلَهُ اِبْن التِّين عَنْ الدَّاوُدِيِّ لَكِنْ اِحْتِمَالًا لَا جَزْمًا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ عَبْد الْغَنِيّ بْن سَعِيد فِي – الْمُبْهَمَات –مِنْ طَرِيق عَبْد الله بْن عَبْد الْحَكَم عَنْ مَالِك أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ عَائِشَة اِسْتَأْذَنَ عُيَيْنَة بْن حِصْن عَلَى النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ: " بِئْسَ اِبْن الْعَشِيرَة " الْحَدِيث، وَأَخْرَجَهُ اِبْن بَشْكُوَال فِي – الْمُبْهَمَات– مِنْ طَرِيق

(١) التحرير والتنوير تفسير سورة الحجرات بمعناه

(٢) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة.

(٣) بغية الحارث (١/ ٢٥١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٩١) وقال: هذا حديث غريب من حديث عاصم وهشام تفرد به الخليل بن زكرياء.

الْأَوْزَاعِيِّ عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير أَنَّ عُيَيْنَةَ اِسْتَأْذَنَ فَذَكَرَهُ مُرْسَلًا. وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: جَمَعَ هَذَا الْحَدِيث عِلْمًا وَأَدَبًا، وَلَيْسَ فِي قَوْل النَّبِيّ ﷺ فِي أُمَّته بِالْأُمُورِ الَّتِي يُسَمِّيهِمْ بِهَا وَيُضِيفهَا إِلَيْهِمْ مِنْ الْمَكْرُوه غِيبَة، وَإِنَّمَا يَكُون ذَلِكَ مِنْ بَعْضهمْ فِي بَعْض، بَلْ الْوَاجِب عَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّن ذَلِكَ وَيُفْصِح بِهِ وَيُعَرِّف النَّاس أَمْره، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ بَاب النَّصِيحَة وَالشَّفَقَة عَلَى الْأُمَّة، وَلَكِنَّهُ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ الْكَرَم وَأُعْطِيه مِنْ حُسْن الْخُلُق أَظْهَرَ لَهُ الْبَشَاشَة وَلَمْ يُجِبْهُ بِالْمَكْرُوهِ لِتَقْتَدِي بِهِ أُمَّته فِي اِتِّقَاء شَرّ مَنْ هَذَا سَبِيله، وَفِي مُدَارَاته لِيَسْلَمُوا مِنْ شَرّه وَغَائِلَته.

قُلْت: وَظَاهِر كَلَامه أَنْ يَكُون هَذَا مِنْ جُمْلَة الْخَصَائِص، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ كُلّ مَنْ اِطَّلَعَ مِنْ حَال شَخْص عَلَى شَيْء وَخَشِيَ أَنَّ غَيْره يَغْتَرّ بِجَمِيلِ ظَاهِره فَيَقَع فِي مَحْذُور مَا فَعَلَيْهِ أَنْ يُطْلِعهُ عَلَى مَا يَحْذَر مِنْ ذَلِكَ قَاصِدًا نَصِيحَته، وَإِنَّمَا الَّذِي يُمْكِن أَنْ يَخْتَصّ بِهِ النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَكْشِف لَهُ عَنْ حَال مَنْ يَغْتَرّ بِشَخْصٍ مِنْ غَيْر أَنْ يُطْلِعهُ الْمُغْتَرّ عَلَى حَاله فَيَذُمّ الشَّخْص بِحَضْرَتِهِ لِيَتَجَنَّبهُ الْمُغْتَرّ لِيَكُونَ نَصِيحَة، بِخِلَافِ غَيْر النَّبِيّ ﷺ فَإِنَّ جَوَاز ذَمّه لِلشَّخْصِ يَتَوَقَّف عَلَى تَحَقُّق الْأَمْر بِالْقَوْلِ أَوْ الْفِعْل مِمَّنْ يُرِيد نُصْحه.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: فِي الْحَدِيث جَوَاز غِيبَة الْمُعْلِن بِالْفِسْقِ أَوْ الْفُحْش وَنَحْو ذَلِكَ مِنْ الْجَوْر فِي الْحُكْم وَالدُّعَاء إِلَى الْبِدْعَة مَعَ جَوَاز مدَارَاتهمْ اِتِّقَاء شَرّهمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى الْمُدَاهَنَة فِي دِين الله تَعَالَى. ثُمَّ قَالَ تبعًا لِعِيَاضٍ: وَالْفَرْق بَيْنَ الْمُدَارَاة وَالْمُدَاهَنَة أَنَّ الْمُدَارَاة بَذْل الدُّنْيَا لِصَلَاحِ الدُّنْيَا أَوْ الدِّين أَوْ هُمَا مَعًا، وَهِيَ مُبَاحَة، وَرُبَّمَا اُسْتُحِبَّتْ، وَالْمُدَاهَنَة تَرْك الدِّين لِصَلَاحِ الدُّنْيَا، وَالنَّبِيّ ﷺ إِنَّمَا بَذَلَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ حُسْن عِشْرَته وَالرِّفْق فِي مُكَالَمَته وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَمْدَحهُ بِقَوْلٍ فَلَمْ يُنَاقِض قَوْله فِيهِ فِعْله، فَإِنَّ قَوْله فِيهِ قَوْل حَقٌّ، وَفِعْله مَعَهُ حُسْن عَشْرَة، فَيَزُول مَعَ هَذَا التَّقْرِير الْإِشْكَال بِحَمْدِ الله تَعَالَى.

الوجه الخامس: قال الحافظ ابن حجر: وَقَدْ نُوزِعَ فِي كَوْن مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ غِيبَة، وَإِنَّمَا هُوَ نَصِيحَة لِيَحْذَر السَّامِع، وَإِنَّمَا لَمْ يُوَاجِه الْمَقُول فِيهِ بِذَلِكَ لِحُسْنِ خُلُقه ﷺ، وَلَوْ وَاجَهَ الْمَقُول فِيهِ بِذَلِكَ لَكَانَ حَسَنًا، وَلَكِنْ حَصَلَ الْقَصْد بِدُونِ مُوَاجَهَة. وَالْجَوَاب أَنَّ الْمُرَاد أَنَّ

صُورَة الْغِيبَة مَوْجُودَة فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَتَنَاوَل الْغِيبَة الْمَذْمُومَة شَرْعًا، وَغَايَته أَنَّ تَعْرِيف الْغِيبَة الْمَذْكُور أَوَّلًا هُوَ اللُّغَوِيّ، وَإِذَا اُسْتُثْنِيَ مِنْهُ مَا ذُكِرَ كَانَ ذَلِكَ تَعْرِيفهَا الشَّرْعِيّ. [١]

الوجه الثالث: استنكار حسن عشرة النبي ﷺ جاء تبعًا لاحتقار مكانة المرأة في الكتاب المقدس.

إن المتفحص لكتاب النصارى يجد أنه مليء بالأمور التي تجعل المرأة متدنية وحقيرة، ولا تحق لها مثل ما يحق للرجل.

وقد مر ذلك مرارًا، وليراجع ذلك في كتاب المرأة، فإنه مهم[٢].

* * *

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤٨٦).

(٢) انظر " شبهات عن المرأة " بحث " قوامة المرأة".

٣ـ شبهة: استغلال عائشة وفاة النبي ﷺ في إشعال الصراع على الخلافة.

نص الشبهة:

زعموا أن السيدة عائشة رضي الله عنها استغلت وفاة النبي ﷺ واستغلت مكان الوفاة في إشعال الصراع على الخلافة حيث سئلت هل أوصى النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه؟ فقالت: ومتى لقد توفي وإني لمسندته إلى صدري، بينما أقسم ابن عباس أنه توفي على صدر علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبهذا يكون مكان النبي ﷺ قد استغل من الجانبين في الصراع على الخلافة حتى عقد ابن سعد بابًا لمن قال بأن النبي ﷺ توفي على صدر عائشة وبابًا لمن قال بأنه توفي على صدر علي رضي الله عنه.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأحاديث القائلة بأنه توفي على صدر علي رضي الله عنه كذب مختلق ولا يصح منها شيء.

وها هي: ١- عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن كعب الأحبار قام زمن عمر، فقال ونحن جلوس عند عمر أمير المؤمنين ما كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ، فقال عمر سل عليا، قال أين هو، قال هو هنا فسأله فقال علي أسندته إلى صدري فوضع رأسه على منكبي، فقال الصلاة الصلاة فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء، وبه أمروا، وعليه يبعثون، قال: فمن غسله يا أمير المؤمنين؟ قال سل عليا، قال فسأله فقال كنت أغسله، وكان العباس جالسًا، وكان أسامة وشقران يختلفان إلي بالماء. (١)

٢- عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده قال، قال رسول الله ﷺ: **" في مرضه ادعوا لي أخي "**، قال فدعي له علي رضي الله عنه، فقال: **" ادن مني "** فدنوت منه، فاستند إليَّ فلم يزل مستندًا، وإنه ليكلمني حتى إن بعض ريق النبي ﷺ ليصيبني ثم نزل برسول الله ﷺ وثقل في حجري فصحت يا عباس أدركني فإني هالك، فجاء العباس فكان

---

(١) موضوع. قال الألباني: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٦٢)، في إسناده متروكان، الأول حرام بن عثمان الأنصاري المدني، واسمه عمرو بن عثمان، وقال أحمد: ترك الناس حديثه، وقال الشافعي وغيره الرواية عن حرام حرام، وقال ابن حبان: كان غاليًا في التشيع يقلب الأسانيد، ويرفع المراسيل، وقال البخاري: حرام بن عثمان الأنصاري المديني منكر الحديث، وقال ابن عدي ولحرام بن عثمان أحاديث صالحة تشاكل ما قد ذكرته وعامة حديثه مناكير. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣/ ٢٨٢)، لسان الميزان (٢/ ١٨٢)، الكامل لابن عدي (٢/ ٢٤٤)، المجروحين (١/ ٢٦٩)، ضعفاء العقيلي (١/ ٣٢٠)، الضعفاء الصغير (١/ ٣٨)، والثاني: الواقدي وهو متروك كما سبق.

جهدهما جميعًا أن أضجعاه. [(١)]

٣- عن علي بن حسين قال: قبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجر علي[(٢)].

٤- عن الشعبي، قال توفي رسول الله ﷺ ورأسه في حجر علي وغسله علي، والفضل محتضنه، وأسامة يناول الفضل الماء[(٣)].

٥- عن أبي غطفان قال: سألت ابن عباس أرأيت رسول الله ﷺ توفي ورأسه في حجر أحد، قال: توفي وهو لمستند إلى صدر علي، قلت فإن عروة حدثني عن عائشة أنها قالت: توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري فقال: ابن عباس أتعقل؟ والله لتوفي رسول الله ﷺ وإنه لمستند إلى صدر علي وهو الذي غسله، وأخي الفضل بن عباس، وأبى أبي أن يحضر وقال: إن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نستتر فكان عند الستر. [(٤)]

---

(١) موضوع. أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٢٦٣ وفي إسناده الواقدي متروك الحديث.

(٢) وهذا أيضًا أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٢٦٣، وهو كسابقه، وعلله هي:

١- الواقدي متروك الحديث.

٢- عبد الله بن محمد بن عمر بن علي مقبول، ولم يتابع.

٣- علي بن الحسين بن علي ولد سنة ثمان وثلاثين فهو لم يسمع من النبيﷺ، ولا من علي بن أبي طالب فالإسناد معضل بينه وبين وفاة الرسول فلا يدرى من حدثه به. سير أعلام النبلاء (٥٢٥) فهذه علل ثلاث إحداهن تكفي فكيف إذا كان المتن منكر؟.

(٣) منكر. أخرجه ابن سعد ٢/ ٢٦٣ وهذا حال إسناده.

١- الواقدي متروك

٢-أبو الجويرية لا يدرى هل هو أبو الجويرية الصغير اسمه عبد الحميد بن عمران كوفي نزل المدينة مستور من السابعة (التقريب: ٨٠٢٧)، أو أبو الجويرية العبدي اسمه عبد الرحمن بن مسعود مقبول (التقريب ٨٠٢٨).

٣- أبوه لا يعرف.

٤- الشعبي لم يعاصر وفاة النبي ﷺ فالإسناد مرسل.

(٤) موضوع. الطبقات الكبرى (٢/ ٢٦٣)، وهو مكذوب على ابن عباس، وعلله ١- الواقدي متروك.

٢- سليمان بن داود بن الحصين ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا (٤/ ١١١)، وقال الهيثمي لم أرى من ذكره. مجمع الزوائد (١/ ١٦١)، وقال في موضع آخر: لم يوثق ولم يضعف (٦/ ٣٢)، وقال الحافظ في الفتح: وسليمان لا يعرف حاله (٨/ ١٣٩).

داود بن الحصين فيه خلاف، ومن أحسن ما قيل فيه قول: ابن عدي. صالح الحديث إذا روى عنه ثقة فهو صالح الرواية إلا أن يروي عنه ضعيف فيكون البلاء منه تهذيب الكمال (٨/ ٣٨١)، وقال الحافظ ابن حجر ثقة إلا في عكرمة ورمي برأي الخوارج من السادسة مات سنة خمس وثلاثين (التقريب ١٧٧٩)، وقال في مقدمة الفتح: روى له البخاري حديثًا واحدًا رواه عنه مالك، وله شواهد (٤٢١)

قلت: وروايته هنا رواها عنه الواقدي وذكر الحديث الألباني في الضعيفة ثم قال: وهذا موضوع آفته محمد بن عمر - وهو الواقدي -؛ كذاب، وشيخه سليمان بن داود بن الحصين؛ لا يعرف؛ أورده ابن أبي حاتم (٤/ ١١١)، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ثم رأيت الحافظ قال في الفتح (٨/ ١٠٧): لا يعرف حاله.

وإن مما يؤكد وضع الحديث؛ مخالفته لحديث عروة المذكور عن عائشة؛ فإن عروة وهو - ابن الزبير - من كبار التابعين وثقاتهم، وقد رواه عنه جمع من الثقات في مسند الإمام أحمد (٦/ ١٢١، ٢٠٠، ٢٧٠، ٢٧٤)، وصحيح البخاري (١٣٨٩)، ومسلم (٢٤٤٣)، وتابعه عندهما جماعة من الثقات عن عائشة، وكذلك في المسند (٦/ ٣٢، ٤٨، ٦٤، ٧٤، ٧٧، ٢٣١، ٢٧٤)، وابن سعد (٢/ ٢٦١، ٢٦٢). فهو حديث مشهور عن عائشة؛ إن لم يكن متواتراً. ولذلك جزم به إبراهيم النخعي فقال: قبض رسول الله ﷺ ولم يوص، وقبض وهو مستند إلى صدر عائشة. رواه ابن سعد بإسناد رجاله ثقات؛ غير عبد الرحمن بن جريس؛ ترجمه ابن أبي حاتم (٥/ ٢٢١)؛ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً. فمثل هذا الحديث المشهور عن عائشة يبعد جدًّا أن يخفى على ابن عباس رضي الله عنهما! فنفيه عن عائشة وإثباته لعلي رضي الله عنه؛ إنما هو من صنع الكذابين من الشيعة أو من يساندهم.

ونحوه ما رواه الواقدي أيضاً: أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن حرام بن عثمان عن أبي حازم عن جابر بن عبد الله الأنصاري: أن كعب الأحبار قام زمن عمر فقال - ونحن جلوس عند عمر أمير المؤمنين: ما كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: سل علياً. قال: أين هو؟ قال: هو هنا. فسأله، فقال علي: أسندته إلى صدري، فوضع رأسه على منكبي، فقال: **"الصلاة الصلاة"**. فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء وبه أمروا، وعليه يبعثون. قال: فمن غسله يا أمير المؤمنين؟ قال: سل علياً. قال: فسأله؟ فقال: كنت أنا أغسله، وكان عباس جالساً، وكان أسامة وشقران يختلفان إلي بالماء. أخرجه ابن سعد. قلت: وهذا موضوع أيضاً؛ والآفة الواقدي، أو الشيخ شيخه حرام ابن عثمان؛ وقال الحافظ: وفي سنده الواقدي، وحرام بن عثمان؛ وهما متروكان.

ومما يؤكد وضعه، أن في رواية لعائشة في حديثها المتقدم: فجعل يقول: **"في الرفيق الأعلى"**؛ حتى قبض. أخرجه البخاري (١٣٨٩). نعم؛ قد روي بإسناد آخر خير من هذا عن علي قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: **"الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم"**. وله شواهد خرجتها في الصحيحة (٨٦٨) من حديث أم سلمة وغيرها.

فإن صح هذا القدر عن علي؛ فهو محمول على ما سمعه هو نفسه من النبي ﷺ في مرضه، فلا ينافي حينئذ قول عائشة المذكور؛ لأنه محدد لا يقبل التخصيص كما هو ظاهر لكل ذي عينين. ومن ذلك: ما رواه الواقدي: حدثني عبد الله بن محمد بن عمر بن علي، عن أبيه، عن علي بن حسين قال: قبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجر علي.

أخرجه ابن سعد. قال الحافظ: فيه انقطاع، مع الواقدي. وعبد الله فيه لين.

٦- عن عائشة قالت: قالت رسول الله ﷺ وهو في بيتها لما حضره الموت: " **ادعوا إليَّ حبيبي** "، فدعوت له أبو بكر، فنظر إليه ثم وضع رأسه ثم قال: " **ادعوا إليَّ حبيبي** "، فدعوا له عمر، فلما نظر إليه وضع رأسه ثم قال: " **ادعوا إليَّ حبيبي** "، فقلت: ويلكم ادعوا له على بن أبى طالب فوالله ما يريد غيره، فلما رآه فرد الثوب الذي كان عليه ثم أدخله فيه فلم يزل محتصنه حتى قبض ويده عليه.(١)

الوجه الثاني: الأحاديث القائلة بأنه توفي على صدر عائشة هي الصحيحة وعليها المعتقد. وها هي من عند أمير المؤمنين محمد بن إسماعيل البخاري:

١- عن عروة عن عائشة قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتعذر في مرضه: " **أين أنا اليوم أين أنا غدًا** ". استبطاء ليوم عائشة فلما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري، ودفن في بيتي.(٢)

٢- قالت عائشة: توفي النبي ﷺ في بيتي، وفي نوبتي، وبين سحري ونحري، وجمع الله بين ريقي وريقه. قالت دخل عبد الرحمن بسواك فضعف النبي ﷺ عنه، فأخذته فمضغته، ثم سننته به.(٣)

٣- عن عائشة أنها كانت تقول: إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته..الحديث(٤).

إذن ثبتت صحة أحاديث الوفاة عند عائشة مع عدم الوصية وبطلان الأحاديث الأخرى كما مر فإن الضعيف لا يقوى على معارضة الصحيح فضلًا عن المكذوب والموضوع.

* * *

ثم أخرج عن الواقدي: حدثني أبو الجويرية عن أبيه عن الشعبي مثله. قال الحافظ: فيه الواقدي، والانقطاع، وأبو الحويرث (قلت: وهو أبو الجويرية)؛ اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن الحارث المدني؛ قال مالك: ليس بثقة. وأبوه لا يعرف حاله. الضعيفة (١٠/ ٧١٠) حديث (٤٩٦٩).

(١) موضوع. الموضوعات لابن الجوزي حديث (٨٤٤)، قال الدارقطني تفرد به إسماعيل عن عبد الله بن مسلم، قال أحمد بن حنبل حدث بأحاديث موضوعة فتركناه، وقال يحيى: هو كذاب، وقال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات، وقال الدارقطني: متروك.

(٢) البخاري (١٣٨٩).

(٣) البخاري (٣١٠٠).

(٤) البخاري (٤٤٤٩).

٤ـ أخلاق عائشة رضي الله عنها مع خديجة بنت خويلد رضي الله عنهما.

نص الشبهة: لقد رأى بعضهم في عائشة رضي الله عنها إنسانًا أنانيًا لا يحركه نحو خديجة رضي الله عنها إلا الغيرة، وبناءً على ذلك فهم الأحاديث التي روتها عائشة رضي الله عنها في شأن الغَيْرة، وفهم أن المقصود بها الحط من شأن خديجة رضي الله عنها ثم هو يرى أن هذه الغَيْرة لا مبرر لها.

والرد على ذلك من وجوه.

الوجه الأول: بيان معنى الغيرة، وبيان المحمود منها والمذموم.

الوجه الثاني: ذكر البرهان على أن غيرة المرأة على زوجها أمر فطري لا يختص بعائشة رضي الله عنها وخصوصًا إذا كان الزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثالث: بيان أن هذه الأحاديث روتها عائشة رضي الله عنها في مناقب خديجة لا في الطعن فيها، وفيه بيان مكانة خديجة عند عائشة رضي الله عنها.

الوجه الرابع: الغَيْرة في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان معنى الغيرة، وبيان المحمود منها والمذموم.

الغيرة: كراهة شركة الغير في حقه[1]، والغَيْرةُ بالفتح مصدر قولك غَارَ الرجل على أهله يَغار غَيْراً وغَيْرَةً وغاراً، ورجل غَيُور وغَيْرانُ وامرأة غَيُورٌ وغَيْرَي[2]، وجمع (غَيُورٍ) (غُيُرٌ) مثل رسول و رُسُل، وجمع (غَيْرَانَ) و (غَيْرَى) (غَيَارَى) بالضم والفتح و (أَغَارَ) الرجل زوجته تزوج عليها. فَغَارَتْ عليه[3]، والعرب تقول: أَغْيَرُ من الحُمَّى أَي أَنها تُلازِم المحموم مُلازَمَةَ الغَيُور لبعْلها. [4]

وهي مشتقة من تغير القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص

---

(١) التعاريف للمناوي ١/ ٥٤٤.

(٢) مختار الصحاح ١/ ٤٨٨.

(٣) المصباح المنير ٢/ ٤٥٨.

(٤) لسان العرب ٥/ ٣٤.

وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين.[١]

قلت: فقد اتضح من خلال التعريف السابق أن الإنسان قد يعتقد اختصاصه بأمر ما فيرى أن مشاركة غيره فيه اعتداء على حقه، ولهذا يتغير القلب وينزعج، وهذه الغيرة منها المحمود والمذموم، ومنها الفطري الذي لا تؤاخذ عليه المرأة.

فالمحمود ما قاد صاحبه إلى كل خير وكفه عن الشر ووقف فيه الإنسان عند حدود الله تعالى.

والمذموم ما حمل صاحبه على تعدي حدود الله تعالى، وتسبب في سوء الظن أو قام عليه، ومن الفطري غيرة المرأة على زوجها وقد كرمها الإسلام بأن قبل منها ذلك وعذرها عليه، ولكنه لم يأذن لها في تخطي الحدود بسبب هذا النوع من الغيرة حتى لو كان فطريًا.

قال ابن أبي حجلة في ديوان الصبابة: هذا باب عقدناه لذكر غيرة المحب على المحبوب حتى من نفسه وأبناء جنسه، والمحبون فيها نوعان، والمضروبون بسوطها ضربان: فالأول يحبه الله ورسوله ويتم به للمحب رسوله، والثاني مذموم وصاحبه ملوم، فالنوع المحبوب منها أن يغار عند قيام الريبة، والنوع المذموم أن يغار من غير ريبة؛ بل من مجرد سوء الظن، وهذه الغيرة تفسد المحبة ولا تترك منها حبة؛ لأنها توقع العداوة بين المحب والمحبوب، وربما حملته على الوقوع فيما اتهمه به ويترتب عليها مفاسد كثيرة مما يؤدي إلى فساد الصورة والحكايات في هذا الباب مشهورة[٢].

وقال عبد الله بن شداد: الغيرة غيرتان؛ غيرة يصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخل النار.[٣]

وقال ابن القيم: وأما الغيرة على المحبوب فإنها تحمد حيث يحمد الاختصاص بالمحبوب ويذم الاشتراك فيه شرعًا وعقلًا؛ كغيرة الإنسان على زوجته، وأمته، والشيء الذي يختص هو به، فيغار من تعرض غيره لذكره ومشاركته له فيه، وهذه الغيرة تختص

---

(١) فتح الباري ٩/ ٣٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨)، وأحمد (٥/ ٤٤٥)، والدارمي (٢٢٢٦)، من حديث جابر بن عتيك؛ وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الألباني في الإرواء (١٩٩٩).

(٣) ديوان الصبابة ١/ ٣٢.

بالمخلوق ولا تتصور في حق الخالق، بل المحب لربه يحب أن الناس كلهم يحبونه، ويذكرونه، ويعبدونه، ويحمدونه، ولا شيء أقر لعينه من ذلك بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله[١]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف: **" والله يا أمة محمد ما أحدٌ أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته "**. [٢]

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" ليس شيء أغير من الله؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله؛ من أجل ذلك أثنى على نفسه، ولا أحد أحاب إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أرسل الرسل "**[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إن الله يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه "**. [٤]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" المؤمن يغار، والله أشد غيرة "**. [٥]

وملاك الغيرة وأعلاها ثلاثة أنواع: غيرة العبد لربه أن تنتهك محارمه وتضيع حدوده، وغيرته على قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه، وغيرته على حرمته أن يتطلع إليها غيره، فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة، وما عداها فإما: من خدع الشيطان، وإما بلوى من الله، كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوج عليها. [٦]

الوجه الثاني: بيان أن غيرة المرأة على زوجها أمر فطري طبعي لا تستطيع المرأة دفعه عن نفسها.

ومن حاول ذلك فقد حاول منها في أمر خلاف ما تقدر عليه، في صفة لازمة للمرأة التي يبحث القوم عن نصرتها وتخليصها من الظلم، أم أن التي يتكلمون عنها ليست امرأة؟!

وبيان ذلك ما يلي:

---

(١) روضة المحبين (٢٧٤).

(٢) البخاري (٤٩٢٣)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة

(٣) البخاري (٤٣٥٨، ٤٣٦١، ٤٩٢٢، ٦٩٦٨)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٤) البخاري (٤٩٢٥)، ومسلم (٢٧٦١).

(٥) مسلم (٢٧٦٢).

(٦) روضة المحبين (٢٩٥-٣١٦) بتصرف، وانظر: فيض القدير ٢/ ٢٩٤.

أولا: هذه الغيرة في الحقيقة نابعة من الحب للمحبوب لا من كراهية من تسبب في الغيرة، ومن ذلك ما نذكره:

١- غيرة عائشة، وسنذكر ذلك في المحور الثالث بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

٢- غيرة سارة زوجة إبراهيم، وهذه بالطبع لم تنشأ من البغض لهاجر التي تذكرها بمن الله عليها عندما خلصها من يد الفاجر، ثم هي التي وهبتها لإبراهيم ﵇، ولكنها رأتها بقلب من تحب وكانت قبل ذلك ترى أن هذا الرجل العظيم خاصًا بها، ولم يعاقبها إبراهيم ﵇ على هذه الغيرة، ولا أوحى الله إليه في عقابها بشيء، بل أمره بأن يهاجر بهاجر إلى مكة وذلك لحكمة يعلمها الله تعالى ظهرت بعد وعرفت؛ ولأن الغيرة فطرة في النساء والله تعالى فطرهن على ذلك.

وها هي قصتها عن ابن عباس ﵄ قال: لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ، إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى اللَّهِ. قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللهِ. قَالَ: فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ وَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا، حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحَدًا. قَالَ: فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا؟ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا. . . . ، فَبَلَغَ ابْنُهَا فَنَكَحَ فِيهِمْ امْرَأَةً. قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي. قَالَ: فَجَاءَ فَسَلَّمَ فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ. قَالَ: قُولِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْه. قَالَ: أَنْتِ ذَاكِ فَاذْهَبِي إِلَى أَهْلِكِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرِكَتِي. قَالَ: فَجَاءَ فَقَالَ أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ؟ فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ. (١)

(١) البخاري (٣٣٦٥).

وفي رواية قال ابن عباس: أولُ ما اتخذ النساء المنطق مِنْ قبلُ أمُّ اسماعيل اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة.[1]

وما حصل من غيرة سارة من هاجر هو من هذا الباب، فطلب الزوجة من زوجها أن لا ترى ضرتها، أو أن لا تجاورها أمرٌ غير مستنكر، مع أن الذي ذكره أهل العلم أن إبراهيم عليه السلام هو الذي خرج بهاجر وابنه، لا أن سارة زوجه طلبت منه ذلك.

قال ابن كثير: والمقصود أن هاجر -عليها السلام -لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيِّب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعًا، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتدعنا هاهنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فإذًا لا يضيعنا.[2]

وهل هذه الغيرة مما ينقص من شأن سارة زوجة إبراهيم عليه السلام؟

والجواب: لا؛ لأن غيرة المرأة من ضرائرها أمرٌ جُبلت عليه، وهو غير مكتسب، ولذا فإنها لا تؤاخذ عليه إلا أن تتعدى، وتقع بسبب الغيرة فيما حرم الله عليها من ظلم أختها، فتقع في غيبة أو نميمة أو تؤدي بها غيرتُها إلى طلب طلاق ضرتها أو الكيد لها وما شابه ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: وأصل الغيرة غير مكتسب للنساء، لكن إذا أفرطت في ذلك بقدر زائد عليه تلام، وضابط ذلك ما ورد في الحديث عن جابر بن عتيك الأنصاري رفعه: " **إِنَّ مِنْ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ الله عز وجل، وَمِنْهَا مَا يَبْغُضُ الله عز وجل، فَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يحبُّ الله عز وجل فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يَبْغُضُ الله عز وجل فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ** "[3].

---

(١) البخاري (٣٣٦٤).

(٢) البداية والنهاية ١/ ١٥٤.

(٣) سبق تخريجه.

فالغيرة منهما – أي: من الزوج والزوجة – إن كانت لما في الطباع البشرية التي لم يسلم منها أحد من النساء فتعذر فيها، ما لم تتجاوز إلى ما يحرم عليها من قول أو فعل، وعلى هذا يحمل ما جاء من السلف الصالح عن النساء في ذلك. (١)

وقال ابن مفلح: قال الطبري وغيره من العلماء: الغيرة مسامح للنساء فيها، لا عقوبة عليهن فيها لما جُبِلن عليه من ذلك. (٢)

وقال الحافظ ابن حجر شرحًا لحديث كسر عائشة لإناء إحدى ضرائرها: وقالوا – أي: جميع من شرحوا الحديث-: فِيهِ إِشَارَة إِلَى عَدَم مُؤَاخَذَة الْغَيْرَاء بِمَا يَصْدُر مِنْهَا؛ لأَنَّهَا فِي تِلْكَ الْحَالَة يَكُون عَقْلهَا مَحْجُوبًا بِشِدَّةِ الْغَضَب الَّذِي أَثَارَتْهُ الْغَيْرَة(٣).

وما وقع من فضليات النساء من الغيرة إنما هو مما لم يسلم منه أحد، وهنَّ غير مؤاخذات عليه؛ لأنه ليس في فعلهن تعدٍّ على شرع الله تعالى، وما حصل من غيرة سارة من هاجر هو من هذا الباب، فطلب الزوجة من زوجها أن لا ترى ضرتها، أو أن لا تجاورها أمرٌ غير مستنكر، مع أن الذي ذكره أهل العلم أن إبراهيم عليه السلام هو الذي خرج بهاجر وابنه، لا أن سارة زوجه طلبت منه ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: وأما إذا كان الزوج مقسطًا عادلًا وأدى لكل من الضرتين حقها، فالغيرة منهما إن كانت لما في الطباع البشرية التي لم يسلم منها أحد من النساء فتعذر فيها ما لم تتجاوز إلى ما يحرم عليها من قول أو فعل، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف الصالح من النساء في ذلك. (٤)

٤- ولهذا الأمر الذي ذكرناه حرم الشرع الجمع بين أنواع معلومة من النساء لئلا تتقطع الأرحام بسبب الغيرة، ومعلوم أن المرأة تكره الزواج من زوجها بأختها؛ لا لأنها تكرهها فهي أختها من أبويها، ولكنها تحب أن تستأثر بزوجها.

---

(١) فتح الباري ٩/ ٣٢٦.
(٢) الآداب الشرعية ١/ ٢٤٨.
(٣) فتح الباري ٩/ ٣٢٥.
(٤) فتح الباري ٩/ ٣٢٦.

قال القرطبي: ثم ورد في بعض الأخبار التنبيه على العلة في منع الجمع بين من ذكر، وذلك ما يفضي إليه الجمع من قطع الأرحام القريبة مما يقع بين الضرائر من الشنآن والشرور بسبب الغيرة، فروى ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج الرجلُ المرأةَ على العمة أو على الخالة، وقال: " **إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم** ". (١)

قلت: فهذا واضح في أن الغيرة تقع فطرية لا كسبية؛ لأنها قد تقع بين المرأة وبين أحب الناس إليها، ثم مَنْ كان في مثل شخصية وأخلاق الرسول الأعظم ﷺ كيف لا تغار عليه زوجته؟!

الوجه الثالث: هذه الأحاديث التي وردت عن عائشة رضي الله عنها في شأن الغيرة من خديجة رضي الله عنها تخبر به عائشة عن أمر جرى في نفسها؛ لتدل به على عظمة خديجة رضي الله عنها لا لتعلن عن حقدها أو حسدها، وإليكم هذه الأحاديث لتنظروا بعين الإنصاف.

١-عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما غرت على امرأة لرسول الله كما غرت على خديجة؛ لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها وثنائه عليها؛ وقد أوحي إلى رسول الله ﷺ أن يبشرها ببيت لها في الجنة من قصب. (٢) وفي رواية لمسلم أن النبي ﷺ قال لها: **"إني قد رزقت حبها"**. (٣)

قال ابن حجر: فيه ثبوت الغيرة وأنها غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلًا عمن دونهن، وأن عائشة كانت تغار من نساء النبي ﷺ؛ لكن كانت تغار من خديجة أكثر، وقد بينت سبب ذلك وأنه لكثرة ذكر النبي ﷺ إياها، وأصل غيرة المرأة من تخيل محبة غيرها أكثر منها، وكثرة الذكر تدل على كثرة المحبة، وقال القرطبي: مرادها بالذكر لها مدحها والثناء عليها. (٤)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء. قالت: فغرت يومًا فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق! قد أبدلك الله عز وجل بها خيرًا

---

(١) حسن لغيره. أخرجه أبو داود (٢٠٧٦)، وأحمد ١/ ٢١١، والطبراني في الكبير (١٢٠٢٦) من طريق خصيف، عن عكرمة، عن ابن عباس، وخصيف هو ابن عبد الرحمن الجزري صدوق سيئ الحفظ واختلط بآخره، ولكنه توبع؛ تابعه أبو حريز -بفتح المهملة وكسر الراء وآخره زاي- واسمه عبد الله بن الحسين قاضي سجستان صدوق يخطئ؛ أخرجه ابن حبان في الصحيح (٤١١٦).

(٢) البخاري (٤٩٣١).

(٣) مسلم (٢٤٣٥).

(٤) فتح الباري ٧/ ١٣٦، تحفة الأحوذي ٦/ ١٣٤.

منها. قال: " **ما أبدلني الله ﷻ خيرًا منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء** ". [١] وفي رواية أنها قالت: ذكر رسول الله ﷺ يومًا خديجة فأطنب في الثناء عليها فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة. [٢]

قال ابن القيم رحمه الله: فانظر هذه الغيرة الشديدة على امرأة بعدما ماتت وذلك لفرط محبتها لرسول الله ﷺ؛ كانت تغار عليه أن يذكر غيرها. [٣]

٢- وعن عائشة قالت: لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت. [٤]

قلت: فهذه فضيلة لخديجة تفردت بها ولم يشاركها فيها غيرها ترويها عائشة رضي الله عنها ولو كانت كارهة لما ذكرتها.

٣- عن عائشة قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: " **اللهم هالة بنت خويلد** "، فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت من الدهر فأبدلك الله خيرًا منها. [٥]

وزاد أحمد في روايته: قالت: فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرًا لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي، أو عند المخيلة حتى يعلم رحمة أو عذاب. [٦]

---

(١) حسن. أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١١٧، ١١٨)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ١٤، ٢٢، ٢٣)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ٣٨٤)، قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٠٧٤): إسناده لا بأس به، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: أسانيده حسنة؛ وقال: رواه أحمد وإسناده حسن (٩/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١٥٤، ١٥٠)، صحيح ابن حبان (٧١٠٨)، مسند إسحاق بن راهويه (١١٦٣)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٧٤): إسناده حسن.

(٣) روضة المحبين ١/ ٢٩٨.

(٤) مسلم (٢٤٣٦).

(٥) مسلم (٢٤٣٧)

(٦) مسند أحمد ٦/ ١٥٤.

وزاد الطبراني: أنها قالت: قلت: يا رسول الله، اعف عني عفا الله عنك، والله لا تسمعني أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه. (١)

٤- عن عائشة قالت: بشر رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد ببيت في الجنة. (٢)

قلت: فالذي فهمه العلماء من هذه الروايات أن عائشة رضي الله عنها تثني بها على خديجة رضي الله عنها، ولذلك تُرْجِمَ عليها في صحيح مسلم بـ باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وتستمر عائشة رضي الله عنها في رواية فضائل خديجة فهل هذا من سوء الأدب والحسد؟! أم هو من تمام الوفاء لرسول الله ﷺ على قاعدة الحب وهي أن حبيب المحبوب حبيب؟

٦- فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه يقول: قالت عائشة زوج النبي ﷺ: فرجع إلى خديجة يرجف فؤاده، فدخل فقال: " **زملوني زملوني** " فزمل، فلما سرى عنه قال: " **يا خديجة، لقد أشفقت على نفسي بلاءً** ". قالت خديجة: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت بي خديجة إلى ورقة بن نوفل بن أسد؛. . . الحديث (٣)

٧-وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنا كنا لنذبح الشاة فيبعث رسول الله ﷺ بأعضائها إلى صدائق خديجة. (٤)

٨- ومن إعجاب عائشة بما لخديجة من الفضل تمنت أن يكون لها نفس المكانة عند الله وعند رسوله، فعن عائشة قالت: ما حسدت أحدًا ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت؛ وذلك أن رسول الله ﷺ بشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب. (٥)

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٣/ ١١(١٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٧): أسانيده حسنة.

(٢) مسلم (٢٤٣٤).

(٣) مسند أحمد (٦/ ٢٢٣) وإسناده على شرط الشيخين، وأصله فيهما مطولًا ومختصرًا من حديث عائشة رضي الله عنها البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

(٤) مسند أحمد ٦/ ٢٧٩.

(٥) الترمذي (٣٨٧٦)، وقال: حديث حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، وقال الذهبي: صحيح.

ولقد أساء مَنْ لا يعلم لغة العرب فَهِمَ الحسد في هذا الحديث عن عائشة، فظن أنه الحسد الذي يعني تمني زوال النعمة وهذا خطأ؛ إنما هو الغبطة التي تعني تمني زيادة النعمة مع تمني أن يكون للعبد مثلها من فضل الله وكرمه، أو المراد به الغيرة المحمودة التي سبق الحديث عنها[1].

الوجه الرابع: الغيرة وبعض النقول عن المرأة في أخلاقها مع زوجها وضرائرها من الكتاب المقدس.

١- في سفر (التكوين ٣: ١٦): وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ اهـ.

فالمرأة التي تعتقد أن الزوج سيدها، وأن اشتياقها إليه كما جاء في الكتاب المقدس ألا تغار عليه!

٢- وفي سفر التكوين (١٦/ ١٦: ١): وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ، وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجَرُ، فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ الْوِلاَدَةِ، ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ»، فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا مِنْ بَعْدِ عَشَرِ سِنِينَ لإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ، فَدَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبِلَتْ، وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرَتْ مَوْلاَتُهَا فِي عَيْنَيْهَا. فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ! أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرْتُ فِي عَيْنَيْهَا، يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ»، فَقَالَ أَبْرَامُ لِسَارَايَ: «هُوَذَا جَارِيَتُكِ فِي يَدِكِ. افْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكِ»، فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهِهَا، فَوَجَدَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ فِي الْبَرِّيَّةِ، عَلَى الْعَيْنِ الَّتِي فِي طَرِيقِ شُورَ، وَقَالَ: «يَا هَاجَرُ جَارِيَةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟ » فَقَالَتْ: «أَنَا هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ مَوْلاَتِي سَارَايَ»، فَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «ارْجِعِي إِلَى مَوْلاَتِكِ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا»، وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ»، وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ؛ لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ، وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ». فَدَعَتِ اسْمَ الرَّبِّ الَّذِي تَكَلَّمَ مَعَهَا: «أَنْتَ إِيلُ رُئِي»؛ لأَنَّهَا

---

(١) تحفة الأحوذي ١٠/ ٢٦٤.

قَالَتْ: «أَهاهُنَا أَيْضًا رَأَيْتُ بَعْدَ رُؤْيَةٍ؟ » لِذلِكَ دُعِيَتِ الْبِئْرُ «بِئْرَ لَحَيْ رُئِي». هَا هِيَ بَيْنَ قَادِشَ وَبَارَدَ، فَوَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْنًا، وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ «إِسْمَاعِيلَ»، كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ لأَبْرَامَ.

فهذا القدر واضح في غيرة سارة بشكل تعدت فيه إلى ما لا يجوز، وأقرها زوجها على ذلك، وأما ما جاء في شرعنا فليس فيه شيء من ذلك بفضل الله تعالى، ثم هذه عائشة الصغيرة في السن أولى بالغيرة من سارة التي بلغت من العمر عتيًا، وكذلك هي التي وهبتها لزوجها فكان الأولى بها أن لا تغار؛ ولكن لا عيب عليها؛ لأنها فطرة النساء، وكذلك عائشة رضي الله عنها.

وانظر أيضًا في سفر التكوين (١٩/ ٣٨: ٣١): وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ، هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي، نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا، فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «موآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ، وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ.

قلت: أظن كاتب الكتاب المقدس لو كان يعلم أن بنتي لوط عندهن شيء من الغيرة ما كتب هذا عنهما، ولو قرأ الطاعن في عائشة بالحديث عن الجنس هذا الكلام وغيره مما ورد في سفر حزقيال وسفر نشيد الإنشاد لغير رأيه واعتقاده، وظني فيه أنه لو قرأ الكتاب المقدس بعين التحرر من التقليد الأعمى والحقد على الإسلام وأهله لغير دينه إن شاء الله، وأسأل الله له الهداية للحق.

* * *

٥ـ أخلاق عائشة مع سودة رضي الله عنهما.

نص الشبهة:

١- تناقض في التاريخ من وجهة نظر الكاتب حيث قرأ أن سودة كانت امرأة مسنة، ولهذا أراد النبي ﷺ أن يطلقها، ومع ذلك فقد عاشت بعد النبي ﷺ حوالي أربعين عامًا، فلو فرض أنها عاشت مائة عام لكانت عند وفاته ﷺ عندها ستين عامًا وعليه فلم تكن أكبر منه، فلماذا طلقها أو أراد طلاقها؟

٢- لماذا وصفتها عائشة بالحدة والحسد مع أنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها.

٣- بعض المواقف بين عائشة وسودة.

٤- دخول سودة في قصة المغافير التي يعتقد الكاتب أنها كذب لستر القصة الحقيقية التي كانت سببًا لنزول سورة التحريم؛ وهي وقوع النبي ﷺ على مارية.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: التعريف بسودة مع ذكر فضائلها رضي الله عنها ، وفي أثناء ذلك الرد على دعواه بأنها كانت غير مرغوب فيها.

الوجه الثاني: ذكر شيء عن العلاقة بين عائشة وسودة، وذكر شيء من علاقة نساء النبي ﷺ مع بعض.

الوجه الثالث: نقد هذه الروايات نقدًا علميًا، وبيان أساس الرغبة في النساء في شرع النبي ﷺ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التعريف بسودة رضي الله عنها.

هي: سودة أم المؤمنين بنت زمعة بن قيس من بني عامر بن لؤي القرشية العامرية. (١)

فضائلها: ١- هي أول من تزوج بها النبي ﷺ بعد خديجة، وهذا فيه أعظم الشرف حيث صارت بذلك أمًا للمؤمنين. (٢)

٢- وانفردت به نحوًا من ثلاث سنين أو أكثر؛ حتى دخل بعائشة.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٥).

وقال الصفدي: انفردت بصحبة رسول الله ﷺ أربع سنين لا يشاركها فيه امرأة ولا سرية، وهي من سادات النساء. (١)

٣ـ **وهي التي وهبت يومها لعائشة** رعايةً لقلب رسول اللهﷺ. (٢) وهذا مِن خواصِّها؛ أنَّها آثَرَت بيَومِها حِبَّ النَّبِيِّ ﷺ تقرُّباً إلى رسول الله ﷺ وحُبًّا له، وإيثاراً لِمُقامِها معه، فكان رسولُ الله ﷺ يَقسِمُ لنسائه ولا يَقسِمُ لها؛ وهي راضيةٌ بذلك مُؤثِرةٌ على نفسها رسول الله ﷺ لعلمها أنه يحب عائشة رضي الله عنها. (٣)

٤ـ **هجرتها مع النبيﷺ.** (٤)

٥ـ **هجرتها قبل ذلك مع زوجها إلى الحبشة.** (٥)

قال ابن سعد: وأسلمت بمكة قديما وبايعت، وأسلم زوجها السكران بن عمرو، وخرجا جميعًا مهاجرين إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية. (٦)

٦- زهدها وإنفاقها المال في سبيل الله تعالى: عن ابن سيرين أن عمر بعث إلى سودة بغرارة دراهم، فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم، قالت: في الغرارة مثل التمر؛ يا جارية: بلغيني القنع. قال: ففرقتها. (٧)

٧ـ **امتثالها لأمر النبيﷺ:** فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حج رسول الله ﷺ بنسائه عام حجة الوداع، ثم قال: هذه حجة ثم ظهور الحصر، قال أبو هريرة: وكان كل نساء النبي ﷺ يحججن إلا سودة بنت زمعة، وزينب بنت جحش قالتا: لا تحركنا دابة بعد رسول اللهﷺ. (١)

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٥)، والوافي بالوفيات للصفدي (٥/ ١٧٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٦).

(٣) جلاء الأفهام (١/ ٢٣٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٧).

(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٧).

(٦) **حسن**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٥٢)، وأحمد (٢/ ٤٤٦)، والطيالسي (١٦٤٧)، وابن الجعد في مسنده (٢٧٥٣).

(٧) أخرجه ابن سعد (٨/ ٥١) بسند قال عنه الحافظ ابن حجر في الإصابة: صحيح.

٨ ـ رجاحة عقلها في الاستئذان في الإفاضة بعد منتصف الليل: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت سودة رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة تدفع قبله وقبل حطمة الناس، وكانت امرأة ثبطة (يقول القاسم: والثبطة: الثقيلة). قال: فأذن لها فخرجت قبل دفعه وحبسنا حتى أصبحنا فدفعنا دفعه؛ ولأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة فأكون أدفع بإذنه أحب إلي من مفروح به. (٢)

والمعني لكنت أسعد بذلك من كل شيء يفرح به.

قلت: وهذا واضح في أن عائشة رضي الله عنها تمدح سودة بهذه الرواية بدليل أنها تمنت أن لو فعلت مثلها.

وفي لفظ لمسلم: فليتني كنت استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة، وكانت عائشة لا تفيض إلا مع الإمام. (٣)

---

(١) **صحيح لغيره**. أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٦) من طريق وكيع، (٦/ ٣٢٤) من طريق حجاج، ويزيد بن هارون، وإسحاق بن سليمان. وابن الجعد من طريق يزيد بن هارون (٢٧٥٣)، وأبو يعلى (٧١٥٤) من طريق هارون بن عبد الله: حدثنا ابن أبي فديك، (٧١٥٨) من طريق أبي خيثمة: قال حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي، والطبراني في الكبير (٨٩) من طريق عبيد الله بن موسى، وأبو داود الطيالسي (١٦٤٧)، ومن طريقه البيهقي ٥/ ٢٢٨، وابن سعد من طريق محمد بن عمر ٨/ ٥٥ . جماعتهم (وكيع، وحجاج، ويزيد بن هارون، وإسحاق بن سليمان، وابن أبي فديك، وعبيد الله بن موسى، والطيالسي، ومحمد بن عمر) عن ابن أبي ذئب، عن صالح مولى التوأمة فذكره.

وفي إسناده صالح مولى التوأمة وهو صدوق اختلط؛ قال ابن عدي: لا بأس برواية القدماء عنه كابن أبي ذئب وابن جريج؛ التقريب (٢٨٩)، وقال ابن معين: ثقة. التهذيب ٤/ ٣٥٨. وقال المنذري في الترغيب والترهيب: وإسناده حسن؛ رواه عن صالح مولى التوأمة ابن أبي ذئب؛ وقد سمع منه قبل اختلاطه، وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ٤٩٠: وفيه صالح مولى التوأمة؛ ولكنه من رواية ابن أبي ذئب عنه؛ وابن أبي ذئب: سمع منه قبل اختلاطه؛ وهو حديث صحيح. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١١٦٧): حسن صحيح.

وله شاهد من حديث أبي واقد أخرجه أبو داود (١٧٢٢)، وأحمد (٥/ ٢١٨، ٢١٩)، والطبراني في الكبير ٣/ ٢٥٢، والبيهقي ٥/ ٢٢، وأبو يعلى (١٤٤٤) جماعتهم عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن زيد بن أسلم، عن واقد بن أبي واقد الليثي فذكره بنحوه. وقال الحافظ في الفتح ٤/ ٧٤: إسناده صحيح، وانظر الصحيحة (٢٤٠١).

(٢) البخاري (١٥٩٧).

(٣) مسلم (١٢٩٠).

٩ـ رجاحة عقلها في مراعاة قلب النبي ﷺ:

حيث وهبت نوبتها لعائشة رضي الله عنها فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة(١). قال النووي نقلًا عن القاضي عياض: (مسلاخها) المسلاخ هو الجلد ومعناه: أن أكون أنا هي (من امرأة). قال القاضي (من) هنا للبيان واستفتاح الكلام.

(حدة) لم ترد عائشة عيب سودة بذلك بل وصفتها بقوة النفس وجودة القريحة وهي الحدة. (٢)

ثانيًا: هل صح أن النبي ﷺ طلقها؟

والإجابة: لم يصح أن النبي ﷺ طلقها، وهذه هي الآثار التي وردت في ذلك وأشيع بسببها هذا الأمر:

الرواية الأولى: عن عبد الرزاق، عن أبي حنيفة، عن الهيثم أو أبي الهيثم - شك أبو بكر-: أن النبي ﷺ طلق سودة تطليقة فجلست له في طريقه، فلما مرَّ سألته الرجعة، وأن تهب قسمها منه لأي أزواجه شاء رجاء أن تبعث يوم القيامة زوجته، فراجعها وقبل ذلك. (٣)

---

(١) البخاري (٢٤٥٣)، مسلم (١٤٦٣)، ولفظه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ: تبتغي بذلك رضا رسول الله: أخرجه أبو داود (٢١٣٥)، والترمذي (٣٠٤٠)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) شرح النووي لمسلم١٠/ ٤٨.

(٣) **منكر**. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠٦٥٧)، ومن طريقه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٣-٨٧)؛ وهو معضل لأن الهيثم هو: الهيثم بن حبيب الصيرفي الكوفي صدوق من السادسة كما في التقريب (٧٣٦٠)، ووصله البيهقي في السنن (٧/ ٣٤٣)؛ فقال: (أخبرنا) أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر بن الحسن القاضي قالا: نا أبو العباس محمد بن يعقوب، نا أحمد بن الفرج أبو عتبة، نا بقية، عن أبى الهيثم، عن الزهري، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ: قال لسودة بنت زمعة رضي الله عنها اعتدى فجعلها - تطليقة واحدة وهو أملك بها.

وهذا إسناد ضعيف؛ أحمد بن الفرج أبو عتبة الحمصي المعروف بالحجازي، ذكره ابن حبان وقال: يخطئ، الثقات لابن حبان ٨/ ٤٥، ورماه محمد بن عوف بالكذب وسوء الحال وقال أيضًا: كان يتفتا أي يتزيا بزي الشطار وليس له في حديث بقية أصل هو فيها أكذب الخلق وإنما هي أحاديث وقعت له في ظهر قرطاس في أولها يزيد بن عبد ربه ثنا بقية قال: وكتبه التي عنده عن ضمرة وابن أبي فديك من كتب أحمد بن النضر- وقعت إليه. تهذيب التهذيب (١/ ٥٩)

الرواية الثانية: عن القاسم بن أبي بزة أن النبي ﷺ بعث إلى سودة بطلاقها، فلما أتاها جلست على طريقه بيت عائشة، فلما رأته قالت: أنشدك بالذي أنزل عليك كتابه واصطفاك على خلقه لم طلقتني؛ ألموجدة وجدتها في؟ قال: " **لا** "، قالت: فإني أنشدك بمثل الأولى أما راجعتني، وقد كبرت ولا حاجة لي في الرجال، ولكني أحب أن أبعث في نسائك يوم القيامة، فراجعها النبي ﷺ قالت: فإني وقد جعلت يومي وليلتي لعائشة حِبة رسول الله ﷺ (١).

والجواب: أنها رواية ضعيفة لا حجة فيها.

الرواية الثالثة: عن النعمان بن ثابت التيمي قال: قال رسول الله ﷺ لسودة بنت زمعة: " **اعتدي** ". فقعدت له على طريقه ليلة فقالت: يا رسول الله ما بي حب الرجال؛

وأما بقية فهو: ابن الوليد، وقال النسائي: إذا قال: حدثنا وأخبرنا فهو ثقة، وإذا قال: عن فلان فلا يؤخذ عنه؛ لأنه لا يدري عمن أخذه. وقال ابن عدي: يخالف في بعض رواياته عن الثقات، وقال ابن حجر: وكان كثير التدليس عن الضعفاء والمجهولين؛ كما في طبقات المدلسين (١١٧)، وتهذيب التهذيب (١/ ٤١٦)، وتقريب التهذيب (٧٣٤).

ثم هو مع ذلك منكر لمخالفته الصحيح الذي سيأتي؛ ولذا لا يقال: إن المرسل يقويه، والله أعلم. وانظر الإرواء للألباني (٧/ ١٤٧). ولا يقال كذلك: هذا من باب المجمل والمفصل، فيحمل المجمل الذي في الصحيح المسند على المفصل الذي في المرسل؛ لأن فيهما تعارض بَيِّنٌ حيث صرحت سودة في الرواية الصحيحة أنها تبتغي بذلك رضا النبي ﷺ، وإذا ثبت أنه طلقها أو هَمَّ بطلاقها؛ فإن في هذا رضاه، فكيف تخالف رضاه ثم تزعم أنها تبتغي رضاه؟ وإذا علم هذا فلابد من ترجيح الصحيح ورد ما خالفه روايةً وفهمًا، والله أعلم.

(١) **معضل**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٤٤) من طريق مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، حدثنا القاسم بن أبي بزة به؛ والقاسم ثقة من الخامسة؛ تقريب التهذيب (٥٤٥٢)، ثم هو مع ذلك منكر لمخالفته الصحيح، قال الألباني: وهذا مرسل أو معضل؛ فإن القاسم هذا تابعي صغير روى عن أبي الطفيل، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وغيرهم، وهو مع إرساله منكر؛ لأن الروايات المتقدمة صريحة في أنه: لم يطلقها، وهذا يقول: بعث إلى سودة بطلاقها. الصحيحة للألباني (٤/ ٥٣). وأخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده من طريق هشام به. وجاء في لفظه: لقد كبرت وما لي حاجة إلى الرجال، ولكني أريد أن أبعث وأنا من نسائك، فراجعها، فقالت: فإني أهب يومي وليلتي لقرة عين رسول الله: عائشة مسند إسحاق ابن راهويه (٢٠٤٩). وهذا أيضًا ضعيف لنفس العلة السابقة وعلى فرض صحته يكون من مناقب سودة، ولا طعن فيه في رسول الله؛ لأنها هي التي قالت: أنا كبرت؛ ولأنها طلبت أن تبقى لتبعث في نسائه ومن كريم خلقه: أرجعها، ولم يجبرها على التنازل، ولم يطلبه منها، ولا ساومها عليه، ولكنها تنازلت بعدما راجعها، وصرحت بأن ذلك قرة لعين رسول الله ﷺ.

ولكني أحب أن أبعث في أزواجك فارجعني قال: فرجعها رسول الله ﷺ. (١)

والجواب أن هذا الأثر ضعيف جدًّا.

ومن خلال ما نرى أنه لم يصح أن النبي ﷺ طلقها.

ثالثا: هل ثبت أن النبي ﷺ هَمَّ بطلاقها؛ ولذلك وهبت نوبتها لعائشة خوفًا من الطلاق؟ وهل في هذا ظلم لها لو كان؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الصحيح أن ذلك لم يثبت، وبيان ذلك في نقد الروايات الآتية:

الرواية الأولى: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم مِنْ مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها. قالت: نقول في ذلك أنزل الله ﷻ وفي أشباهها أراه قال: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾. (٢)

---

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٥٣، ٥٤) من طريق محمد بن عمر، حدثنا حاتم بن إسماعيل، عن النعمان بن ثابت التيمي به.

(٢) **شاذ**. أخرجه أبو داود (٢١٣٥)، الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣١)(٨١)، وفي الأوسط (٥٢٥٤)؛ ثم قال الطبراني في الأوسط بعد هذا الحديث: لم يروِ هذا الحديث عن عروة إلا عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو: صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد. وقال ابن معين وابن المديني: ضعيف، وقال أحمد: مضطرب الحديث، وقال علي بن المديني: ما حدث بالمدينة فهو صحيح وما حدث ببغداد أفسده البغداديون. وقال يعقوب بن شيبة: ثقة صدوق وفي حديثه ضعف؛ سمعت ابن المديني يقول: حديثه بالمدينة مقارب وما حدث به بالعراق فهو مضطرب؛ التقريب (٣٨٦١)، والتهذيب ٦/ ١٥٦ قلت: هو كما قال، لكن يقصد لم يروه بهذا السياق وعلى أنه سبب لنزول الآية، أما أصل الحديث فقد رواه عن عروة جماعةٌ وقد خالفوه فلم يذكروا هذه الزيادة، ولم يذكروا أن الآية في هذه القصة وهؤلاء هم:

١- زهير بن معاوية أخرجه البخاري (٤٩١٤)، ومسلم (١٤٦٣).

٢- جرير بن عبد الحميد: ثقة.

٣- عقبة بن خالد: صدوق؛ أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٧١٧)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٢)(٨٤).

٤- عبد الله بن نمير: ثقة صاحب حديث أخرجه ابن أبي شيبة.

ولفظه في الكبير: وكانت قد يئست فأراد أن يفارقها، فقالت: يومي منك ونصيبي لعائشة، فقبل ذلك منها ففيها نزلت: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

ومحصل الجواب: أن هذه رواية شاذة؛ لأن عبد الرحمن بن أبي الزناد تفرد بهذه الزيادة التي تذكر أن النبي ﷺ هم بطلاقها، وأن الآية نزلت في ذلك، وخالفه في ذلك جماعة من الثقات، وعليه فلا يصح أن النبي ﷺ هم بطلاقها.

وبناءً عليه فالصحيح عن عائشة هو أن سودة وهبت نوبتها لعائشة تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ كما سبق في الرواية الصحيحة، وأما ما ذكره ابن عباس فهذا مجرد فهم له رضي الله عنه لا يعارض ما صح عن عائشة؛ لأنها أعرف بهذه الواقعة منه، والله أعلم.

الرواية الثانية: عن عبد الرحمن بن سابط قال: أراد النبي ﷺ فراق سودة فدعا أبا بكر وعمر ليشهدهما على طلاقها، فقالت: يا رسول الله، ما بي رغبة في الدنيا إلا لأحشر يوم القيامة في أزواجك فيكون لي من الثواب ما لهن. [1]

٥- عبد العزيز بن محمد الدراوردي.

٦- جعفر بن عون.

٧- حماد بن سلمة؛ الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣١)(٨٢).

٨- معمر بن راشد؛ أخرجه ابنُ سعد في الطبقات (٨/ ٥٤). وبناءً على تفرد عبد الرحمن بن أبي الزناد بهذه الزيادة من دون هؤلاء عن هشام بن عروة مع كونه تغير حفظه لما قدم بغداد تكون هذه الرواية شاذة أو منكرة لا يعتد بها، وإن كان ظاهر الإسناد حسنًا لوجود هذه المخالفة لهؤلاء الثقات.

١ـ **ضعيف جدًّا**. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٠٦٥٦)، ومن طريقه الطبراني في الكبير (٨٦) من طريق الثوري، عن جابر الجعفي، عن عبد الرحمن بن سابط به.

وإسناده فيه جابر بن يزيد الجعفي: ضعفه الجمهور، ووصفه الثوري، والعجلي، وابن سعد بالتدليس؛ وهو مع ذلك رافضي فلا يقبل منه ما يمس أزواج النبي، وقال ابن معين: لم يُدْعَ جابرًا ممن رآه إلا زائدة وكان جابر كذابًا، وقال في موضع آخر: لا يكتب حديثه ولا كرامة وقال زائدة: أما الجعفي فكان والله كذابًا يؤمن بالرجعة، وقال أبو يحيى الحماني عن أبي حنيفة ما لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفي؛ انظر طبقات المدلسين (١٣٣)، وتهذيب التهذيب (٢/ ٤١)، وتقريب التهذيب (٨٧٨).

الرواية الثالثة: وهي أثر ثالث بهذا المعنى عن معمر قال: بلغني أن النبي ﷺ كان أراد فراق سودة، فكلمته في ذلك فقالت: يا رسول الله، ما بي حرص الأزواج، ولكن أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجًا لك.(١)

الوجه الثاني: وعلى فرض صحة هذه الزيادة، فلماذا همَّ النبي ﷺ بطلاقها؟

والإجابة: كانت أسنت، وتوقع أن لا يوفيها حقها، فرغبت أن يمسكها، ويجعل يومها لعائشة بنت أبي بكر، فأمسكها.(٢)

الوجه الثالث: أن في هذا منقبة عظيمة تدل على سعة فهمها حيث أراحت قلب زوجها، وحافظت عليه زوجًا كي تبعث يوم القيامة في أزواجه ﷺ.

الوجه الرابع: وعلى فرض صدور مثل هذا الهم من النبي ﷺ فلا عيب؛ لأن الطلاق في شريعة الإسلام حلال، وقد أكرم الإسلامُ المرأةَ حتى في طلاقها بما لا تذم به المرأة ولا تعاب بعد طلاقها، فكيف وهي لم تطلق بحمد الله تعالى؟

ثانيًا: وفاتها والاختلاف في التاريخ:

توفيت في آخر خلافة عمر بالمدينة.(٣) قال النووي: وهذا قول الأكثرين.(٤) وروى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال: أن سودة رضي الله عنها تُوفيت في زمن عمر.(٥)

وقال الواقدي: وماتت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين، قال: وهذا الثبت عندنا.(٦)

ثم إن الأثر فيه علة أخرى وهي: أنه مرسل عن عبد الرحمن بن سابط هو تابعي ولم يسمع من النبي ﷺ.

(١) مرسل ضعيف. أخرجه عبد الرزاق (١٠٦٥٨)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٥٤) كلاهما من طريق معمر به، وهذا أثر أرسله معمر ولا يصح، ثم هو شاذ عن معمر لأنه رواه عن هشام موافقًا للجماعة من غير ذكرِ الهَمِّ بفراقها رضي الله عنها.

(٢) جوامع السيرة لابن حزم (١/ ٣٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٦)، والوافي بالوفيات للصفدي (٥/ ١٧٦).

(٤) تهذيب الأسماء (٣/ ٢٤٤).

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير (١/ ٤٩) (١٧٨)، وسعيد ابن أبي هلال صدوق ولكنه لم يدرك زمان عمر؛ فخبره منقطع أو مرسل لأنه ولد سنة سبعين على ما نقله الذهبي في السير (٦/ ٣٠٤) عن ابن يونس.

(٦) الطبقات الكبرى (٨/ ٥٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٧).

وقال ابن حجر: وماتت سنة خمس وخمسين على الصحيح. [١]

قلت: الراجح أنها ماتت في آخر خلافة عمر رضي الله عنه؛ كما رواه البخاري في التاريخ عن سعيد بن أبي هلال لصحة الإسناد، أما الرواية التي ذكر أنها ماتت سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية فانفرد بها الواقدي؛ وهو متروك الرواية واتهمه أحمد بالكذب. وعليه فالقول الآخر هو الراجح، وبهذا يزول التناقض الذي ظنه الطاعنون من ناحية التاريخ.

الوجه الثاني: بعض الصور المشرقة في حسن العلاقة بين زوجات النبي ﷺ بصفة عامة، وبين عائشة وسودة بصفة خاصة؛ حيث اشتبه على البعض أن العلاقة بينهن كانت سيئة لكونهن ضرائر، والله المستعان.

١ - عن عائشة قالت: اجتمعن نساء النبي ﷺ فلم تغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ، فقال: "**مرحبا بابنتي**"، ثم أجلسها عن شماله، ثم إنه أسرَّ إليها حديثًا فبكت فاطمة، ثم إنه سارَّها فضحكت أيضًا. فقلت لها ما يبكيك؟ قالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصك رسول الله ﷺ بحديث دوننا ثم تبكين؟ وسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، حتى إذا قبض سألتها عما قال، فقالت: إنه كان يحدثني أن جبرائيل كان يعارضه بالقرآن في كل عام مرة، وأنه عارضه به العام مرتين، "**ولا أراني إلا قد حضر أجلي، وأنك أول أهلي لحوقًا بي، ونعم السلف أنا لك**" فبكيت، ثم إنه سارني فقال: "**ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو نساء هذه الأمة؟**" فضحكت لذلك. [٢]

٢- وعن موقف عائشة من نساء النبي ﷺ؛ فهي أنهن في الجملة فضليات يقتدي بفعلهن؛ فعن عائشة قالت: كن نساء النبي ﷺ يصلين مع النبي ﷺ الفجر ثم يرجعن متلفعات بمروطهن قبل أن يعرفن. [٣]

---

(١) التقريب (٢/ ٦٤٥).

(٢) النسائي (١٦٢١)، وقال الألباني صحيح.

(٣) الدارمي (١٢١٦) وإسناده صحيح.

٣- وأما عن سودة ونساء النبي ﷺ فقد سبق أنها وهبت نوبتها لعائشة وهى منهن، وكانت تجلس معهن وتسافر معهن كما في حجة النبي ﷺ.

الوجه الثالث: نقد الروايات التي أوهمت الشبهة، وتوجيه الصحيح منها بما يتناسب مع آل بيت رسول الله ﷺ.

١- لقد سبق الكلام عن الروايات التي ذكرت في طلاق النبي ﷺ لسودة أو همه بطلاقها، وبيَّنا عدم ثبوتها، ووجهناها على فرض صحتها، وبينا كذلك الرأي الصحيح في تاريخ وفاة السيدة سودة رضي الله عنها؛ وبه يزول التساؤل الذي وضع: لماذا طلق النبي ﷺ سودة، أو لماذا هم بطلاقها؟ ولكن بقيت بعض الروايات التي أوهمت القوم بسبب طلاق النبي ﷺ لسودة؛ حيث فهموا منها أنها صفات جعلت سودة غير مرغوب فيها، ولذلك طلقها النبي ﷺ أو هم بطلاقها.

الرواية الأولى: صفتا الحدة والحسد اللتان وصفتها عائشة بهما، وهل ذلك يعني طعنًا جديدًا جاء على لسان عائشة، يضاف إلى سائر الصفات السيئة التي اتصفت بها سودة؟

أما وصفها بالحدة فقد روت عائشة قالت: ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة؛ مِنْ امرأة فيها حدة، قالت: فلما كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله، قد جعلت يومي منك لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة. (١)

والرد على ذلك من وجوه: الوجه الأول: سياق الحديث بتمامه يدل على أن عائشة تمدحها لا تذمها؛ وهذا واضح، فإنها تتمنى أن تكون هي وسودة في جلد واحد؛ أي: امرأة واحدة، وهذا لا شك من حسن صنيع سودة في عين عائشة، فكيف تكون هذه صفة ذم لسودة ولعائشة حيث ذمت سودة؟!

الوجه الثاني: وقولها: فيها حدة لم تُرِدْ به عائشةُ عيبَ سودة بذلك؛ بل وصفتها بقوة النفس وجودة القريحة؛ وهي الحدة. (٢)

---

(١) مسلم (١٤٦٣).

(٢) من كلام عياض تحت هذا الحديث في شرح النووي على مسلم (١٠/ ٤٨)، والديباج للسيوطي (٤/ ٧٠).

ويبين هذا المعنى تمام الحديث؛ حيث جادت لها بليلتها؛ وهذا لا تقوى عليه إلا النفوس القوية الكريمة.

الوجه الثالث: ويحتمل أن يكون المراد: حدة؛ أي: صحة، وقوة، وسلامة، عقل، ورأي، فعند ذلك تمنت عائشة أن تكون هي وسودة امرأة واحدة، فلما كبرت سودة فعلت أمرًا أشبه ما تمنته عائشة؛ حيث وهبت ليلتها لعائشة. والله أعلم.

الوجه الرابع: ويحتمل أن يكون المراد بالحدة: قوة البصر كَنَّتْ به عن قوة البصيرة وبُعد النظر في الرأي؛ لأنها آثرت ما يحبه النبي ﷺ على ما تحبه هي؛ فوهبت ليلتها لعائشة مع أنها حتما تحب القرب من رسول الله ﷺ حتى ولو كانت مسنة، فوصفتها عائشة لذلك بقوة البصيرة التي كَنَّتْ عنها بقوة البصر الذي من معانيه الحدة. والله أعلم.

وأما قولها: فيها حسد. فقد قال ابن سعد: أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن سمية، عن عائشة أنها كانت تقول: ما من الناس امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة إلا أنها امرأة فيها حسد. (١)

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: قال الألباني -رحمه الله-: لعله محرف من (حدة). (٢)

الوجه الثاني: هذا اللفظ منكر؛ لأنه تفردت به سمية البصرية عن عائشة، وخالفها عروة بن الزبير كما أخرجه مسلم. (٣) وسمية لم أجد فيها جرحًا ولا تعديلًا.

وقال الحافظ: مقبولة. (٤) وكما هو منهج الحافظ في التقريب أن الراوي المقبول يعني: حيث يتابع، وسمية لم تتابع بل خولفت من عروة بن الزبير عن خالته.

الوجه الثالث: آخرُ الحديث يردُّ أولَه؛ إذ كيف تتمنى أن تكون معها ثم تصفها

---

(١) الطبقات الكبرى (٨/ ٥٤).

(٢) السلسلة الصحيحة (٤/ ٥٣).

(٣) مسلم (١٤٦٣).

(٤) تهذيب التهذيب (٢٨١٨)، الكاشف (٧٠١٧)، لسان الميزان (٥٩١٣)، التقريب (٨٦١٠).

بالحسد؟ وكفى به إثمًا، وعلى ذلك فالصحيح: حدة لا حسد؛ وهي صفة مدح من عائشة لا ذم فيها. والله أعلم.

٢ـ أما الرواية الثانية التي جعلوها تحت عنوان: صفات غير مرغوبة في سودة جاءت على لسان عائشة أدت إلى طلاقها؛ فهي ما أخرجه البخاري عن عائشة أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع؛ وهو صعيد أفيح فكان عمر يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ، يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاءً، وكانت امرأة طويلة فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة؛ حرصًا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله آية الحجاب؛ هذا لفظ البخاري، وفي لفظ لمسلم: خرجت سودة بعد ما ضرب عليها الحجاب لتقضي حاجتها؛ وكانت امرأة جسيمة تفرع النساء جسمًا لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحي إليه ثم رفع عنه؛ وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن[(١)].

وفي رواية أبي بكر يفرع النساءَ جسمُها، زاد أبو بكر في حديثه فقال هشام يعني: الْبَرَاز.

قال النووي: (جسيمة) أي: عظيمة الجسم، (تفرعُ النساءَ) أي: تطولهن فتكون أطول منهن، والفارع: المرتفع العالي، لا تخفى على من يعرفها يعني: لا تخفى إذا كانت متلففة في ثيابها ومرطها في ظلمة الليل ونحوها على من سَبَقَتْ له معرفةُ طولها لانفرادها بذلك. [(٢)]

وفي هذا الحديث عدة مناقب لسودة رضي الله عنها ترويها عائشةُ رضي الله عنها منها ما يلي:

١ – أن لها صلة مباشرة بنزول الحجاب ومشروعيته وهذه فضيلة.

٢ – امتثالها لأمر الحجاب حيث لم يعرفها عمر إلا بطولها لتفردها به.

٣– طولها الذي أثنت عليه عائشة في الرواية، وهذه إحدى الميزات التي تميزت بها عن غيرها.

---

(١) البخاري (١٤٦، ٥٨٨٦)، ومسلم (٢١٧٠).

(٢) شرح النووي لمسلم ١٤/ ١٥١.

٤- رجوعها مسرعة عندما قال لها عمر ذلك حياءً.

٥- نزول الرخصة في الخروج للحاجة بسببها؛ كما هو مبين في الرواية، فسبحان الله تذكر سودة في الحجاب وفي الرخصة للخروج، فما أعظم هذه المنة في عنق مَنْ جاء بعدها رضي الله عنها

الرواية الثالثة: وهي التي اتهمت بسببها سودة بالسذاجة: عن رزينة مولاة رسول الله ﷺ أن سودة اليمانية جاءت عائشة تزورها وعندها حفصة بنت عمر، فجاءت سودة في هيئة وفى حالة حسنة؛ عليها برد من دروع اليمن وخمار كذلك، وعليها نقطتان مثل الفرستين من صبر وزعفران إلى موقها قالت عليلة: وأدركت النساء يتزينَّ به، فقالت حفصة لعائشة: يا أم المؤمنين، يجيء رسول الله ﷺ وهذه بيننا تبرق، فقالت أم المؤمنين: اتقِ الله يا حفصة، فقالت: لأفسدن عليها زينتها، قالت: ما تقلن؟ وكان في أذنها ثقل، قالت لها حفصة: يا سودة، خرج الأعور، قالت: نعم، ففزعت فزعًا شديدًا فجعلت تنتفض، قالت: أين أختبئ؟ قالت: عليك بالخيمة؛ خيمة لهم من سعف يختبئون فيها، فذهبت، فاختبأت فيها وفيها القذر ونسيج العنكبوت، فجاء رسول الله ﷺ وهما تضحكان لا تستطيعان أن يتكلما من الضحك، فقال: " **ماذا الضحك؟** " (ثلاث مرات)، فأومأتا بأيديهما إلى الخيمة، فذهب فإذا سودة ترعد، فقال لها: " **يا سودة، مالك؟** " قالت: يا رسول الله، خرج الأعور، قال: " **ما خرج وليخرجن، ما خرج وليخرجن** "، فأخرجها فجعل ينفض عنها الغبار ونسيج العنكبوت. [1]

وهذا حديث ضعيف لجهالة عليلة بنت الكميت ومن فوقها، وعلى فرض صحته ففيه مدح لسودة رضي الله عنها من وجوه: الأول: أنهم وصفوها بالنظافة والجمال والحسن بخلاف ما قيل عنها بضد ذلك.

---

(١) ضعيف. رواه أبو يعلى (٧١٦٠) من طريق عليلة بنت الكميت قالت: حدثتني أمي أمينة أنها حدثتها أمة الله بنت رزينة به، ورواه الطبراني (٦٠٧)، إلا إنه قال: فقالت حفصة لعائشة: يدخل علينا رسول الله ﷺ: ونحن فشفتين - (الشَّفْشَفُ الذي كأَنَّ به رِعْدةً واخْتِلاطاً من شِدّة الغَيْرة، والشفْشفَة الارْتِعادُ والاخْتلاط، والشَّفْشفةُ سُوء الظنِّ مع الغَيْرة) لسان العرب (شفف) وهذه بيننا تبرق. قال الهيثمي (٤/ ٥٧٨): وفيه من لم أعرفهم. اهـ قلت: عليلة بنت الكميت قال فيها الهيثمي في المجمع ٤/ ٢١٦: هي ومن فوقها لم أعرفهم، وقال في موضع آخر (٣/ ٤٢٩): لم أجد من ترجمهن.

الثاني: أنها عالمة بدين الله تعالى حق معرفته حيث قال النبي ﷺ ما بعث الله نبيًا إلا أنذر أمته من الأعور الدجال. [(١)] وذكر النبي ﷺ الدجال فخفض فيه ورفع حتى ظنه الصحابة في طائفة النخل وعرف ذلك فيهم النبي ﷺ. [(٢)] ولذلك خافت واختبأت خوفًا على دينها وعلى نفسها من الفتن؛ وهذا عين العقل، فكيف تتهم بضد ذلك؟!

الرواية الرابعة التي زعموا أن فيها إساءة من عائشة لسودة ـ رضي الله عنهما ـ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ بخزيرة[(٣)] قد طبختها له فقلت لسودة والنبي ﷺ بيني وبينها: كلي فأبت، فقلت: لتأكلن أو لألطخن وجهك، فأبت فوضعت يدي في الخزيرة فطليت وجهها، فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: " **الطخي وجهها** "، فضحك النبي ﷺ لها، فمر عمر فقال: يا عبد الله! يا عبد الله! فظن أنه سيدخل فقال: " **قوما فاغسلا وجوهكما** "فقالت عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ. [(٤)]وهذا حديث حسن ولقد استخدمه البعض للطعن في عائشة وسودة رضي الله عنهما بل في رسول الله ﷺ.

والرد على ذلك من وجوه: ١ - أما عائشة فإنها راوية هذا الحديث ولو لم تروه لما علمناه ولا علمه أحد، وكفى بهذا شرفًا ونبلًا وأمانةً في نقل دين الله تعالى لتعلم الأزواج درسًا في التعامل مع الزوجات، ولو كان فيه ما يسيء إليها ونقلته حفظًا لسنة النبي ﷺ فهذا أعلى مما لو لم يكن فيه ذلك.

---

(١) البخاري (٣١٥٩).

(٢) مسلم (٢٩٣٧).

(٣) الخزيرة: أن يوضع بالقدر لحم يقطع صغارًا على ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق، فإذا لم يكن فيها لحم فهي عصيدة.

(٤) **حسن**. أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٤٧٦) من طريق إبراهيم يعني: ابن الحجاج النيلي: حدثنا حماد، عن محمد بن عمرو، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عائشة به، ومن طريقه ابن عساكر ٤٤/ ٩٠٤٤٧٦، قال الهيثمي (٤/ ٣٦٥): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن، وقال الحافظ: صدوق له أوهام، وقال السيوطي في جامع الأحاديث (٤٢٩٤٩): رجاله ثقات، وقال العراقي في المغني على هامش الإحياء (٤/ ٢١٦): إسناده جيد، وعليه فهذا حديث حسن، وأخرجه النسائي في الكبرى (٨٩١٧)، وأحمد في فضائل الصحابة (٥٠٤)، وابن أبي الدنيا في كتاب مداراة الناس (١٥٩)، وفي كتاب العيال (٥٧٦)، وانظر الصحيحة (٣١٣١).

٢- وأما كونها فعلت ذلك بسودة فهذا أمر طبيعي عادي بين الضرائر، ولك أن تلاحظ أدبها الجَمَّ مع النبي ﷺ عندما سكتت حتى لطخت سودة وجهها، وهذا يبين أنها غالبًا كانت تمزح معها فرضي الله عنهما، ولذلك ترجمه الحافظ ابن حجر[١] بقوله: باب المزاح؛ حديث عائشة في تلطيخها وجه سودة بالخزيرة.

وقال الحافظ العراقي: أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة، وذكره الغزالي في الإحياء في باب المزاح، ووضعه الشامي في سبل الهدى والرشاد في باب مزاحه ومداعبته ﷺ.[٢]

٣- وأما سودة فهذه منقبة عظيمة لها حيث أمرها النبي ﷺ أن تفعل بعائشة مثل ما فعلت بها رغم حبه لعائشة رضي الله عنها ولكنه رسول الله ﷺ لا يُظلم عنده أحد ولو في أمر هين كهذا، ولو ممن يحب كعائشة، ولو كان المظلوم زوجة مسنة كسودة رضي الله عنها.

٤- أما النبي ﷺ فيتيح لهن أن ينفذن شيئًا من غيرتهن بحيث لا يتجاوزن الحد المشروع، ويضفي على سلوكهن ذلك المرح والابتسامة، وهذا الحديث من هذا القبيل.

الرواية الرابعة: **قال الجرجاني**: روي أن سودة أنشدت: عدي وتيم تبتغي من تحالف[٣].

فظنت عائشة وحفصة أنها عرضت بهما، وجرى بينهن كلام في هذا المعنى، فأخبر النبي ﷺ فدخل عليهن وقال: **"يا ويلكن، ليس في عديكن ولا تيمكن قيل هذا، وإنما قيل في عدي تميم وتيم تميم"**.[٤]

فهذه قصة لا أصل لها ولا عبرة بمثل هذا. والله أعلم.

فثبت بطلان ما زعموه في العلاقة بين عائشة وسودة بما سبق والحمد لله.

* * *

---

(١) المطالب العالية ٨/ ٢٦٨.

(٢) المغني على هامش الإحياء ٤/ ٢١٦.

(٣) وتمام هذا الشعر وهو لقيس بن معدان الكلبي من بني يربوع:

فحالف ولا والله تهبط تلعة... من الأرض إلا أنت للذل عارف

ألا من رأى العبدين أو ذكرا له... عدي وتيم تبتغي من تحالف.

(٤) دلائل الإعجاز للجرجاني ١/ ٣٥.

٦ـ أخلاق عائشة مع حفصة رضي الله عنهما.

نص الشبهة:

هذه الشبهة تتعلق بأخلاق عائشة مع حفصة رضي الله عنها وهي تدور في محورين:

الأول: طعن في أخلاق حفصة مع النبي ﷺ ولذلك طلقها.

الثاني: طعن في عائشة رضي الله عنها حيث غارت من حفصة رضي الله عنها رغم العلاقة الحميمة بينهما.

والرد من على ذلك وجوه:

الوجه الأول: التعريف بحفصة وبفضائلها مع النبي ﷺ.

الوجه الثاني: ذكر الروايات التي تتصل بحفصة وفيها شبهة مع الحكم عليها.

الوجه الثالث: الجواب عن قولهم بأنها كانت سيئة الخلق مع النبي ﷺ، وفي أثنائه توجيه طلاق النبي ﷺ لحفصة، وبيان أنه في النهاية منقبة لحفصة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: التعريف بحفصة وبفضائلها مع النبي ﷺ.

هي: السِّتْرُ الرَّفيعُ بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح، وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب.(١)

مولدها: قبل بعث النبي ﷺ بخمس سنين.(٢)

ثانيًا: كانت تحت خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي من أصحاب الهجرتين: هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين ثم هاجر إلى المدينة؛ وكان الوحيد من بني سهم الذي شهد إلى جانب رسول الله ﷺ بدرًا، وجُرِحَ في أحد، ثم مات في دار الهجرة متأثرًا بجراحه، وترك وراءه أرملته الشابة.

وتزوجها النبي ﷺ في شعبان على رأس ثلاثين شهرًا (من الهجرة) في سنة ثلاث، وقيل: سنة اثنتين، فكان ذلك قرة عين لأبيها عمر رضي الله عنه على صدقه وإخلاصه وتفانيه في سبيل هذا الدين، وعمر هو بطل الإسلام الذي أعزّ الله به الإسلام والمسلمين، ورفع به منار الدين،

---

(١) الطبقات الكبرى (٨/ ٨١)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٧).

(٢) عيون الأثر (٢/ ٣٨٤).

فكان اتصاله ﷺ به عن طريق المصاهرة خير مكافأة له على ما قدم في سبيل الإسلام(١).

وها هي القصة فإن فيها عبرة: عن ابن عمر أن عمر رضي الله عنه حين تأيّمت حفصة من خنيس بن حذافة السهمي لقي عثمان رضي الله عنه فقال: إن شئتَ أنكحتك حفصة، قال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج، قال عمر: فقلت لأبي بكر رضي الله عنه: إن شئت أنكحتك حفصة، فصمت، فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثم خطبها النبي ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدتَ عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا، قلت: نعم، قال: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك إلا أني علمت أن النبي ﷺ ذكرها، فلم أكن أفشي سره، ولو تركها لقبلتها. (٢)

ثالثًا: دورها في جمع المصحف:

أشار عمر بن الخطاب على الخليفة أبي بكر أن يبادر إلى جمع القرآن الكريم قبل أن يبعد العهد بنزوله، ويمضي حفظته الأولون، وقد استشهد منهم مئات في حروب الردة، واستجاب أبو بكر بعد تردد، وجمع المصحف الكريم وأودعه عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر، وفي عهد عثمان رضي الله عنه تم توحيد حرف المصحف، ورسمه من المصحف المجموع المودع لدى حفصة، ونسخت منه نسخ المصحف العثماني الإمام، ووزعت على الأمصار.

فعن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه - وكان ممن يكتب الوحي - قال: أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم

---

(١) انظر الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين لعبد الرحمن بن محمد.

(٢) البخاري (٣٧٨٣، ٤٨٣٠، ٤٨٣٦، ٤٨٥٠)؛ وهذه فائدة جليلة في زواج النبي ﷺ من حفصة: حيث يبدوا واضحًا من القصة المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي عندما تترمل لا تنتهي حياتها كما يحدث في بعض المجتمعات الجاهلة؛ حيث تصبح جزءًا من المتاع يتوارثه أقرباء الزوج في بعض البلاد، أو يصبح حتمًا عليها أن تتزوج من شقيق الزوج أو من يرضاه لها في بلاد أخرى، وحتى إذا أرادت أن تتزوج وسُمح لها بذلك فلن تجد إلا الرجال من الدرجة الثانية، فكلهم يرغبون المرأة البكر الصغيرة. أما الإسلام فقد طالب المرأة أن تستأنف حياتها من جديد، مرة بعد أخرى حتى لا تضيع في دائرة العُقَد والحرمان، وضرب المثل في ذلك قائدُ الأمة ﷺ، فيضمها النبي ﷺ إليه فتقر عينها، ويرضي هذا التصرف والدها الذي بذل الكثير في سبيل تدعيم الدين الجديد، وتنضم بذلك حفصة الشابة التقية الورعة إلى بيت النبوة لتصبح أُمًّا للمؤمنين اهـ.

اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول اللهﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فو الله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والأكتاف، والعسب، وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ...﴾ إلى آخرهما، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر. (١)

وعن أنس بن مالك: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردَّ عثمانُ الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق

(١) البخاري (٤٤٠٢، ٤٧٠١).

بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. (١)

وهذا دور عظيم قامت به حفصة في جمع القرآن.

رابعًا: مواقفها السياسية:

ولحفصة أم المؤمنين مواقف مشهودة تدلّ على عمق فهمها ووعيها لمجريات الأمور.

فعندما تعرض الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لمحاولة الاغتيال راجعه المسلمون بأن يستخلف لهم، وعندما علمت حفصة بموقفه أصرّت على أخيها عبد الله بأن يكلمه وينقل له رأيها بضرورة الاستخلاف، فعن ابن عمر ﷺ قال: دخلت على حفصة، فقالت: أعلمت أن أباك غير مستخلف؟ قال: قلت: ما كان ليفعل، قالت: إنه فاعل، قال: فحلفت أني أكلمه في ذلك، فسكت حتى غدوت ولم أكلمه، قال: فكنت كأنما أحمل بيميني جبلًا حتى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أخبره، قال: ثم قلت له: إني سمعت الناس يقولون مقالة، فآليت أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف، وإنه لو كان لك راعي إبل، أو راعي غنم، ثم جاءك وتركها، رأيت أن قد ضيع فرعاية الناس أشد، قال: فوافقه قولي، فوضع رأسه ساعة، ثم رفعه إلي، فقال: إن الله ﷻ يحفظ دينه، وإني لئن لا أستخلف؛ فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف، قال: فوالله، ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر، فعلمت أنه لم يكن ليعدل برسول الله ﷺ أحدًا، وأنه غير مستخلف(٢)

وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية وقد بلغت ثلاثًا وستين سنة، وقيل: ماتت سنة إحدى وأربعين وأوصت إلى عبد الله أخيها بما أوصى إليها عمر، وبصدقة تصدقت بها بمال وقفته بالغابة، وصلى عليها مروان ودفنت بالبقيع. (٣)

وذكر ابن كثير أنها توفيت سنة سبع وعشرين، وقيل: ثمان وعشرين.

---

(١) البخاري (٤٧٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٣).

(٣) عيون الأثر (٢/ ٣٨٤)، الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين لعبد الرحمن بن محمد (٤١)، وأمهات المؤمنين في مدرسة النبوة؛ الفصل الثالث حفصة أم المؤمنين.

وأخرج ابن سعد أنها توفيت سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان؛ وهي يومئذ ابنة ستين سنة. (١)

الوجه الثاني: الروايات التي تتصل بحفصة وفيها شبهة.

الرواية الأولى: طعن بعضهم في حفصة بأنها دخلت على عائشة وعليها خمار رقيق فشقته عائشة وكستها خمارًا كثيفا، ثم قال: ولا نعلم إذا كان ذلك يوحي برقة الدين عند حفصة أو بشيء آخر.

والجواب: أن هذه ليست حفصة زوج النبي ﷺ إنما هي حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق؛ ابنة أخي عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها -.

وها هو الخبر بذلك: عن مالك، عن علقمة بن أبي علقمة، عن أمه أنها قالت: دخلت حفصة بنت عبد الرحمن على عائشة زوج النبي ﷺ وعلى حفصة خمار رقيق فشقته عائشة وكستها خمارًا كثيفًا. (٢)

الرواية الثانية: وكذلك طعنوا في عائشة بهذه القصة بسبب غيرة عائشة رضي الله عنها من حفصة رضي الله عنها.

عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا خرج أقرع بين نسائه فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان النبي ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث فقالت حفصة ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى، فركبت فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه

---

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ٨٦).

(٢) حسن. أخرجه مالك في الموطأ رواية يحيى (١٦٢٥)، ومن طريقه البيهقي في الكبرى (٢/ ٢٣٥)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٧١) من طريق علقمة بن أبي علقمة، عن أمه أنها قالت:.. وذكرته. وهذا إسناد حسن؛ لأن مرجانة مولاة عائشة علق لها البخاري، وقال العجلي: مدنية تابعية ثقة، وقال الحافظ: مقبولة، وذكرها ابن حبان في الثقات، وذكرها الذهبي في المجاهيل بسبب تفرد ابنها عنها، وقال الذهبي في الكاشف: وثقت؛ وهو غالبًا يذكر هذا المصطلح فيمن وثقه ابن حبان أو العجلي أو هما معًا؛ كما في التقريب (٢/ ٦٥٩)، وانظر: تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٠٠)، والثقات للعجلي (٢٣٦٤)، والثقات لابن حبان (٥/ ٤٦٦- ٥٧٥٥)، ولسان الميزان (٤/ ٦١٠ - ١٠٩٩٤)، وقول الحافظ في الميزان: وثقها ابن حبان على أساس ما شرطه في كتابه؛ لكنه خالف هذا الشرط في صنيعه في الكتاب لمن تأمله، فالصواب التفريق بين مَنْ ذكره ولم يذكر فيه شيء وليس فيه كلام لأحد، وبين من وثقه.

حفصة فسلم عليها ثم سار حتى نزلوا وافتقدته عائشة، فلما نزلوا جعلت رجليها بين الإذخر وتقول: يا رب، سلط علي عقربًا أو حية تلدغني، ولا أستطيع أن أقول له شيئًا. (١)

والجواب على هذا كما يلي:

١- أن هذا من الغيرة الفطرية المتسامح فيها، وقد سبق الكلام عن ذلك في فصل خديجة رضي الله عنها؛ قال المهلب: وفيه أن الغيرة للنساء مسموح لهن فيها وغير منكر من أخلاقهن، ولا معاقب عليها ولا على مثلها؛ لصبر النبي ﷺ لسماع مثل هذا من قولها. (٢)

٢- أن عائشة هي التي روت هذه القصة، ووجه: لو كان فيها شيء مما زعموا ما نقلتها.

٣-هذه منقبة لعائشة رضي الله عنها؛ لأنها غارت، ولم تعترض على فعل النبي ﷺ؛ لأنه رسول الله ﷺ، وقد صرحت بذلك، ومنقبة لحفصة رضي الله عنها؛ لأنها تتمتع بدرجة من الذكاء والحيلة. وقد أورد ابن الجوزي هذه القصة في كتاب الأذكياء (الباب الحادي والثلاثون) في ذكر طرف من أخبار النساء والمتفطنات، ثم هي الأخرى تحب رسول الله ﷺ، وتحب أن يسير معها.

الوجه الثالث: الجواب عن قولهم بأن حفصة كانت سيئة الخلق مع النبي ﷺ.

وأما طعنهم في حفصة بأنها كانت سيئة الخلق مع النبي ﷺ ولذلك طلقها.

فيجاب عنه من وجوه:

أولاً: إن حفصة لما خيرها النبي ﷺ اختارت النبي ﷺ، ورضيت وكانت به قريرة العين وها هي القصة بذلك: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾، فحججت معه فعدل وعدلت معه بالإداوة فتبرز، حتى جاء فسكبت على يديه من الإداوة فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، مَنْ المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فقال: واعجبي لك يا ابن عباس، عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث

(١) البخاري (٤٩١٣) ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) شرح ابن بطال (١٣/ ٣٢٩).

يسوقه، فقال: إني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحت على امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني، فقلت: خابت من فعل منهن بعظيم، ثم جمعت علي ثيابي، فدخلت على حفصة، فقلت: أي حفصة أتغاضب إحداكن رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ، فتهلكين لا تستكثري على رسول الله ﷺ، ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى رسول الله ﷺ - يريد عائشة - وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء، فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أنائم هو، ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول طلق رسول الله ﷺ نساءه، قال: قد خابت حفصة وخسرت، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت علي ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مشربة له، فاعتزل فيها، فدخلت على حفصة، فإذا هي تبكي، قلت: ما يبكيك؟ أولم أكن حذرتك، أطلقكن رسول الله ﷺ، قالت: لا أدري هو ذا في المشربة، فخرجت، فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلًا، ثم غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي هو فيها، فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل، فكلم النبي ﷺ، ثم خرج فقال: ذكرتك له، فصمت، فانصرفت، حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت، فذكر مثله، فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فذكر مثله، فلما وليت منصرفًا، فإذا الغلام يدعوني قال: أذن لك رسول الله ﷺ، فدخلت

عليه، فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف، فسلمت عليه، ثم قلت وأنا قائم: طلقت نساءك، فرفع بصره إلي، فقال: " **لا** "، ثم قلت وأنا قائم: أستأنس يا رسول الله، لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم، فذكره فتبسم النبي ﷺ، ثم قلت: لو رأيتني، ودخلت على حفصة، فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى النبي ﷺ - يريد عائشة - فتبسم أخرى، فجلست حين رأيته تبسم، ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك؛ فإن فارس والروم وسع عليهم، وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، وكان متكئًا فقال: "**أوفي شك أنت يا ابن الخطاب، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا** "فقلت: يا رسول الله، استغفر لي، فاعتزل النبي ﷺ من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة، وكان قد قال: "**ما أنا بداخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن، حين عاتبه الله**"، فلما مضت تسع وعشرون، دخل على عائشة، فبدأ بها، فقالت له: عائشة إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهرًا، وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أعدها عدًا، فقال النبي ﷺ: " **الشهر تسع وعشرون** "، وكان ذلك الشهر تسعًا وعشرين، قالت عائشة: فأنزلت: آية التخيير فبدأ بي أول امرأة، فقال: " **إني ذاكر لك أمرًا، ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك** "، قالت: قد أعلم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقك، ثم قال: " **إن الله قال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ . . ﴾ **إلى قوله عَظِيمًا** "، قلت: أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه، فقلن مثل ما قالت عائشة. [(١)] والآية هي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ (الأحزاب: ٢٨، ٢٩)

(١) البخاري (٢٣٣٦، ٤٨٩٥).

وهذا أمر من الله لرسوله ﷺ بأن يخَيّر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن- رضي الله عنهن وأرضاهن- الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. [١]

ثانيًا: أن النبي ﷺ لما طلقها أمره الله ﷻ بمراجعتها مع حسن الثناء عليها وهذه من أعظم المناقب لحفصة رضي الله عنها، فعن ابن عباس عن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ طلق حفصة ثم راجعها[٢].

وفي غير هذه الرواية أن الذي أوحى إلى النبي ﷺ بمراجعتها هو الله تعالى، وعلل له ذلك بأنها صوامة قوامة؛ وهي زوجته في الجنة[٣]، وهذه زيادة حسنة بشواهدها كما في الحاشية. والله أعلم

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٢٨٣)، والنسائي (٣٥٦٠)، وابن ماجه (٢٠١٦)، وابن حبان (٤٢٧٥)، والحاكم (٢/ ٢١٥)؛ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٧٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٤٦٦) من حديث عاصم بن عمر، وقال الهيثمي (٧٧٤٩): رجال ثقات، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٥١) وفي الصحيحة (٢٠٠٧).

٧ـ أخلاق عائشة مع زينب بنت خزيمة رضي الله عنهما.

نص الشبهة: قالوا إن عائشة رضي الله عنها كانت تسخر منها وتغتابها لما روي أنها ربطت حقويها بسبيبة وألقتها خلف ظهرها فقالت عائشة لحفصة انظري إلى هذا الذي تجره خلفها كأنه لسان كلب، وكذلك كانت تقول إنها قصيرة فهل هذا صحيح؟.

والرد على ذلك أن القصة ليس لها إسناد، فلا عبرة بها، وقد نسبها بعض العلماء إلى أم سلمة وبعضهم إلى زينب بنت خزيمة والكل بلا إسناد.

قال القرطبي: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ (الحجرات: ١١): قال المفسرون: نزلت في امرأتين من أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة، وذلك أنها ربطت خصريها بسبيبة - وهو ثوب أبيض- وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها، فقالت عائشة لحفصة: انظري! ما تجر خلفها كأنه لسان كلب، فهذه كانت سخريتهما.

وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبي ﷺ، عيرن أم سلمة بالقصر. وقيل: نزلت في عائشة، أشارت بيدها إلى أم سلمة، يا نبي الله إنها لقصيرة[١].

قلت: وهو كما قال القرطبي رحمه الله في كتب التفسير وهو في أم سلمة لا في زينب بنت خزيمة، ولا إسناد له، ومثل هذا لا عبرة به. والله أعلم.

وقال الآلوسي: بعد أن ذكر ما قيل في أم سلمة: وما روي عن عائشة أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة فنزلت[٢]. قلت: فهذا الآلوسي ذكر نسبة القصر من عائشة إلى زينب ولكن من غير إسناد كذلك وذكرها أيضا الواحدي من غير إسناد[٣] ولا عبرة به، [٤].

* * *

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٣١٠).

(٢) روح المعاني (٢٦/ ١٥٢).

(٣) أسباب النزول (٤٠٩).

(٤) الكشاف للزمخشري (٤/ ٣٧٠).

٨ـ أخلاق عائشة مع أم سلمة رضي الله عنها.

نص الشبهة: لقد زعم البعض أن زواج النبي ﷺ بأم سلمة قد صنع شرخًا في العلاقة بين النبي ﷺ وبين عائشة.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: سيرة النبي ﷺ مع عائشة بعد زواجه بأم سلمة.

الوجه الثاني: أن الروايات الواقعة في ذلك ضعيفة جدًا لا يعتمد عليها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن سيرة النبي ﷺ مع عائشة بعد زواجه بأم سلمة رضي الله عنها لم يظهر فيها أي تغير.

ولا يزال النبي ﷺ يسأل من أحب الناس إليك فيقول: عائشة، وحتى رقد ﷺ على فراش الموت استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها، وقدر الله لها أن يموت النبي ﷺ بين سحرها ونحرها؛ وفي هذا وغيره أحاديث صحيحة سبق تخريجها في باب: فضائل عائشة رضي الله عنها، وهذا يُبين لنا كذب هذه الدعوى التي قامت على خلاف الواقع بين النبي ﷺ وعائشة حتى رحيله عنا ﷺ.

الوجه الثاني: أن الروايات الواقعة في ذلك ضعيفة جدًا لا يعتمد عليها؛ وها هي:

الرواية الأولى: عن هند بنت الحارث الفراسية قالت: قال رسول الله: إن لعائشة مني شعبة ما نزلها مني أحد، فلما تزوج أم سلمة سئل رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله، ما فعلت الشعبة فسكت رسول الله، فعرف أن أم سلمة قد نزلت عنده.[1]

والجواب عن هذه الرواية من وجوه:

الأول: أنها من طريق محمد بن عمر الواقدي وهو متروك كما سبق؛ مع كونه مرسلًا، وله طريق أخرى إلى هند عند الحاكم في المستدرك ولا تصح.[2]

---

(١) **ضعيف جدا**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٩٥)، والمنتخب من ذيل المذيل للطبري (١/ ٩٦) من طريق محمد بن عمر الواقدي قال: حدثنا معمر، عن الزهري، عن هند بنت الحارث الفراسية به.

(٢) المستدرك (٤/ ٢٠) من طريق محمد بن عبد الحميد الصنعاني، ولم أجد من تكلم فيه بجرح أو تعديل مع كونه مرسلًا.

وللحديث طريق ثالثة: عن هند بنت الحارث به. [١] وإسناده إليها صحيح ولكنه مرسل، ولا يقال: إن هذا يقويه ما قبله؛ لأن الروايات الثلاث تنتهي إلى هند بنت الحارث.

والوجه الثاني: وهو على فرض صحة الرواية فليس فيها هذا الشرخ المزعوم ولا ما في معناه من ضعف العلاقة بين عائشة والنبيﷺ، وغاية ما فيه أن النبي ﷺ سكت في هذه الرواية، ولكنه صرح في غيرها أن أحب الناس إليه عائشة، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة سبق ذكرها. وكما هو معلوم أن من أراد السلامة في باب من أبواب العلم لا ينهي البحث فيه حتى يجمع كل الروايات الخاصة به في غالب ظنه، ثم يجمع بينها ويبني على ذلك الجمع أو الترجيح عقيدته ولا يلتقط نصًا واحدًا ويدع نصوصًا كثيرة أوضح منه وأصرح.

الوجه الثالث: أن هذا السؤال على فرض صحته أيضًا ربما كان في حضرة أم سلمة فسكت النبي ﷺ لئلا ينكسر قلبها في أول زواجه بها، ومما يؤيد ذلك أنها ذكرت للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها أنها تغار، ومما يخفف الغيرة أن لا يتحدث الرجل كثيرًا عن حبه لإحدى الزوجتين أمام الأخرى حفاظًا على قلبها، فلو صحت الرواية لكنا أسعد الناس بها.

الوجه الرابع: معرفة النبي ﷺ بغيرة أم سلمة فسكت مراعاة لذلك، وإليك هذه الرواية:

عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سمعت رسول اللهﷺ، يقول: " **ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها** "، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول اللهﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول اللهﷺ، قالت: أرسل إلي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتا وأنا غيور، فقال: " **أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة** "[١].

---

(١) ضعيف. أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف باب أزواج النبي ﷺ من طريق عمرو بن محمد الناقد، ثنا سفيان، عن معمر، عن الزهري، عن هند بنت الحارث به، وهذا إسناد صحيح إلى هند لكنه مرسل، وهند بنت الحارث ثقة من الثالثة. التقريب (٨٦٩٥).

ومعلوم أن سكوت النبي ﷺ في مثل هذا الموقف يعد من الأخذ بالأسباب التي تخفف الغيرة.

الرواية الثانية: التي استدلوا بها على ما ذهبوا إليه من الطعن في أم المؤمنين رضي الله عنها: عن عائشة قالت: لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة حزنت حزنًا شديدًا لما ذكروا لنا من جمالها، قالت: فتلطفت لها حتى رأيتها، فرأيتها والله أضعاف ما وصفت لي في الحسن والجمال، قالت: فذكرت ذلك لحفصة، وكانتا يدًا واحدة، فقالت: لا والله، إن هذه إلا الغيرة ما هي كما يقولون، فتلطفت لها حفصةُ حتى رأتها، فقالت: قد رأيتها ولا والله ما هي كما تقولين ولا قريب؛ وإنها لجميلة، قالت: فرأيتها بعد فكانت لعمري كما قالت حفصة، ولكني كنت غيري(٢).

والرد على ذلك من وجوه:

أحدها: أن الحديث من رواية الواقدي وهو متروك.

الثاني: أنه لو صح لما كان فيه طعن في عائشة؛ لأن أمر الغيرة معفوٌّ عنه كما سبق.

الثالث: أن أم المؤمنين رضي الله عنها هي التي روت ذلك على فرض صحته، فلو كان فيه شيء يسيء إليها كما يقولون ما نقلته، ولكنها تنقل ما لها وما عليها حفظًا لدين الله تعالى وهذا من أعظم المناقب.

الرابع: أن غيرة المرأة على زوجها تعني حبها له، وهذا ما كان بالفعل من أزواج النبي ﷺ.

الرواية الثالثة: التي استدل بها مَنْ أساء الفهم على سوء الأخلاق من عائشة تجاه أم سلمة: عن أم سلمة: أنها أتت بطعام في صحفة لها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء ومعها فهر ففلقت به الصحفة، فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة ويقول: " **كلوا غارت أمكم** "مرتين، ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة فبعث بها إلى أم

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٨).

(٢) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٩٥) من طريق محمد بن عمر، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة به، ومن طريقه ابن الجوزي في المنتظم في أحداث السنة الرابعة من الهجرة، والبلاذري في أنساب الأشراف في أزواج رسول الله ﷺ وولده. وفي إسناده الواقدي وهو متروك.

سلمة وأعطي صحفة أم سلمة عائشة. (١)

وهذه رواية صحيحة، أما موضع الاعتراض فهو من الغيرة، ويرون فيها إساءة لأم سلمة.

والرد على ذلك من وجوه.

الأول: ما سبق ذكره وبيانه من أن الغيرة معفوٌّ عنها في نحو هذه الحدود.

الثاني: ومن الجبلة والفطرة أن الإنسان ربما يغار، وخاصة إذا كان مع أهل الفضل، فنساء النبي ﷺ تصيبهن الغيرة، وهذا قد يكون-في بعض الأحوال- من أصالة المرأة؛ لأنها إذا كملت محبتها لزوجها تفانت في هذه المحبة إلى درجة أنها تغار، فلما أُتي بالطعام غارت أم المؤمنين عائشةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فضربت القصعة فكسرتها وسقط الطعام، حتى ورد في الخبر أن النبي ﷺ جعل يقول:" **غارت أمكم، غارت أمكم، غارت أمكم** "، ومَنْ الذي لا يغار على رسول الله ﷺ؟! فلما كسر الإناء وذهب الطعام ندمت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وسألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يضيع سعي العبد إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فسألت رسول الله ﷺ عن ما صنعت، فأمرها رسول الله ﷺ بالضمان وقال: " **إناء كإناء، وطعام كطعام** " أي: اضمني إناءً مثل الإناء الذي كسرتيه، واضمني طعامًا مثل الطعام الذي أتلفتيه. (٢)

---

(١) **صحيح**. أخرجه النسائي (٧/ ٧٠)، وفي الكبرى (٨٩٠٤)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢٨٣٩)، والخطيب في الأسماء المبهمة (١/ ١٢٨) من طريق ثابت عن أبي المتوكل عن أم سلمة به؛ وهذا إسناد صحيح. واختلف على ثابت فرواه عنه حماد بن سلمة عن أبي المتوكل كما هنا، ورواه الطبراني في الأوسط (٤٣٣٥) والصغير (٥٦٨) من طريق عبيد الله بن عمر، وأبو يعلى الخليلي (٣٣٣٩)، والدار قطني في السنن ٤/ ١٥٣ (١٤) من طريق عمران بن خالد الخزاعي - كلاهما [عمران، وعبيد الله] عن ثابت، عن أنس به. ورجح أبو زرعة الرازي فيما حكاه ابن أبي حاتم في العلل عنه رواية حماد بن سلمة؛ وقال أن: غيرها خطأ. اهـ. فتح الباري (٥/ ١٢٥).

وهو كما قال؛ لأن حماد بن سلمة أثبت الناس في ثابت، فيحكم له عند الاختلاف على ثابت، وحديث أنس ثابت في الصحيح لكن بإبهام الزوجة التي أرسلت والتي كسرت الإناء أخرجه البخاري من طريق حميد عن أنس (٤٩٢٧).

وقال الطيبي: إنما أبهمت عائشة تفخيمًا لشأنها، وأنه مما لا يخفى ولا يلتبس أنها هي؛ لأن الهدايا إنما كانت تهدى إلى النبي ﷺ في بيتها. اهـ. فتح الباري (٥/ ١٢٤).

ولكن الصحيح الذي رجحه الحافظ أن التي أرسلت الطعام في رواية البخاري هي زينب لا أم سلمة؛ فيكون على هذا حديث حميد عن أنس في قصة زينب.

(٢) شرح زاد المستقنع لمحمد المختار الشنقيطي (٩/ ٣٢٧).

فوضح بهذا أن هذه الغيرة فطرية طبيعية لاشيء فيها؛ بخلاف الغيرة التي تصل إلى حالة المرض والعياذ بالله، ولم يقع منها شيء في البيت النبوي بحمد الله.

الثالث: أن مثل هذه الأمور تحدث في البيت النبوي لنتعلم كيف نتصرف فيها إذا حدثت لنا؛ لأن لنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، وبهذه المناسبة نذكر بعض الفوائد من هذا الحديث فانظرها في الحاشية. (١)

---

(١) في قول النبي ﷺ: " **إناء بإناء، وطعام بطعام** " وهذا من الأصول في العقوبة؛ قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ فقد تعلمنا هنا كيفية العقوبة في مثل هذا الموقف من غير إفراط ولا تفريط.
فدل هذا الحديث على أن الإتلاف والغصب يبتدأ في ضمانه بالمثل، وأن من أتلف شيئًا نأمره أن ينظر إلى مثل ذلك الشيء إن وجد، وأننا لا ننتقل إلى القيمة متى أمكن وجود المثل، وهذا الأصل دلت عليه سنة النبي ﷺ ودل عليه صريح القرآن؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل: ١٢٦)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (الشورى: ٤٠)، فقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ سمّى ضمان الشيء وردّ الشيء بمثله سيئة، وهذا ليس المراد منه أنها سيئة حقيقة؛ لأنه لو أساء إليك شخص فرددت إساءته بمثلها فلست بمسيء، فاستشكل العلماء -رحمهم الله- المثلية هنا؛ فقالوا: لأن الإنسان إذا أراد أن يرد سيئة ربما أخذته الحمية غالبًا فزاد وجار، ولذلك قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٠)، والغالب أن الإنسان لا يحتمل نفسه ولا يستطيع أن يأخذ القصاص مثلًا بمثل؛ لأن الحمق والغيظ يدفعه إلى الزيادة.
الشاهد في قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل: ١٢٦) فوجه الدلالة من هذه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نعاقب بالمثل، ومن أتلف شيئًا فإنه يجب علينا أن نعاقبه على ذلك الإتلاف فنأمره بمثله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ﴾، فإذا كسر إناء عاقبناه بالمثل وقلنا له: أحضر إناء مثل الإناء الذي كسرته، ولو أخذ سيارةً غصبًا فأتلفها قلنا له: ائت بسيارة مثل تلك السيارة وأعطها لصاحبها، فتلك عقوبة بالمثل وامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى في كتابه. وفي هذه الجملة دليل على أننا نضمن بالمثل، وهذا هو الصحيح من قول العلماء لظاهر القرآن وظاهر السنة، وهو مذهب الجمهور -رحمة الله عليهم- خلافًا للشافعية وهو رواية عن الإمام أحمد. اهـ. شرح زاد المستقنع للشنقيطي (٩/ ٤٢٨).
ثانيًا: كرم أخلاقه ﷺ في تعامله مع أهله وزوجه ومن ذلك أنه كان يُحسن إليهم، ويرأف بهم، ويتلطّف ويتودّد إليهم، فكان يمازح أهله ويلاطفهم ويداعبهم، وكان من شأنه ﷺ أن يرخم اسم عائشة كأن يقول لها:

" **يا عائش** "، ويُكرمها بأن يناديها باسم أبيها بأن يقول لها: " **يا ابنة الصديق** " وما ذلك إلا تودداً وتقرباً وتلطفاً إليها، واحتراماً وتقديراً لأهلها.

ثالثاً: ومع هذا الحب والاحترام لم يكن يضيع حق أحد لحساب أحد، فقد كان عدله ﷺ وإقامته شرع الله تعالى ولو على أقرب الأقربين استجابةً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥).

فكان يعدل بين نسائه ﷺ ومن ذلك ما جرى في هذه القصة، فهو ﷺ قد وضع الأمر في نصابه فلم يفوتها لعائشة؛ لأنها حبيبته بنت حبيبه ﷺ، ولم يبالغ في العقوبة؛ لأنها أحرجته أمام الضيوف، وقد أرسل القصعة لأم سلمة تطييبًا لخاطرها مع أن الكل ملكه ﷺ، وانظر مرقاة المفاتيح باب قيام شهر رمضان.

رابعًا: و كان يتحمل ما قد يقع من بعضهن من غيرة؛ كما كانت عائشة غيورة، ولذلك رد حق أم سلمة في الإناء، ولم ينتصر لنفسه فيما جرى، حتى قالت **عائشة**: ولم أرَ في وجهه غضبًا، ولم يعاتبني ﷺ. اهـ. مشكل الآثار باب: بيان ما روى عن النبي ﷺ من قوله غارت أمكم.

خامسًا: فهو لم يتحمل فحسب بل من كريم خلقه أنه اعتذر عن زوجته أمام أصحابه بأمرين:

أولها: الغيرة التي هي طبيعة في النساء؛ قال ابن حجر -رحمه الله-: وقوله: " **غارت أمكم** " اعتذار منه ﷺ لئلا يحمل صنيعها على ما يذم، بل يجري على عادة الضرائر من الغيرة؛ فإنها مركبة في النفس بحيث لا يقدر على دفعها، وفيه إشارة إلى عدم مؤاخذة الغيراء بما يصدر منها؛ لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة. فتح الباري باب الغيرة.

ثانيها: أنه ذكر أنها أم المؤمنين فيجب عليهم احترامها وبرها على كل حال حتى لو كانت غيري.

سادسًا: ومن أجلِّ فوائد هذا الحديث حسنُ العشرة مع النساء سواءً كانت أم سلمة أو عائشة؛ وهذا من أجلِّ محاسن هذه الشريعة، فقد أمر الله تعالى بأن يُعاشر النساء بالمعروف فقال جل ذكره: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، والمعروف كلمة جامعة لكل فعل وقول وخلق نبيل، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه. وهذا يبين لنا كيف عاش ﷺ زوجًا؟ وكيف تعامل مع نسائه؟ وكيف راعى نفسياتهن؟ ولقد كثرت وصاياه وإرشاداته للرجال بضرورة رعاية حقهن زوجات، وأمهات لأولادهم؟ وحسبي أن أسوق بعض الأحاديث دون شرح أو تعليق، فهي كافية في إيضاح المراد مكتفيًا بالإشارة إلى بعض ما تدل عليه تلك الأحاديث الشريفة:

فقد أوصى بهن خيرًا في نصوص كثيرة منها: حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: " **اللهم إني أحرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة** " أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨)، وأحمد ٢/ ٤٣٩، وابن حبان (٥٥٦٥)، والحاكم (١/ ١٣١) وقال: على شرط مسلم، وكذا قال الذهبي، وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٧).

الرواية الرابعة:

عن عائشة تقول يومًا: دخل عليَّ يومًا رسول اللهﷺ، فقلت: أين كنت منذ اليوم؟ قال: " **يا حميراء، كنت عند أم سلمة** "، فقلت: ما تشبع من أم سلمة! قالت: فتبسم، فقلت: يا رسول الله، ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم تُرْعَ والأخرى قد

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خيارهم لنسائهم** " أخرجه الترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠، ٢/ ٤٧٢)، وابن حبان)٤١٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٢).

وخوّف ورهّب من تزوج بأكثر من واحدة لمن لم يعدل بينهن: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "**من كان له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة أحد شقيه مائل**" أخرجه النسائي (٣٩٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٤٩).

- إقرار نساء النبي ﷺ بفضل عائشة: ولذلك ورد عن أكثر من واحدة منهن الإهداء إلى رسول الله ﷺ في يوم عائشة؛ قال الطيبي: في قصة إهداء زينب التي رواها أنس: إنما أبهمت عائشة تفخيمًا لشأنها، وإنه مما لا يخفي ولا يلتبس أنها هي؛ لأن الهدايا إنما كانت تهدى إلى النبي ﷺ في بيتها.

سابعًا: ويحتمل أن ذلك منهن غيرة من عائشة إذ الغيرة قاسم مشترك بين جميع النساء. والله أعلم.

قال البدر العيني: ويقال إنما لم يؤدبها ولو بالكلام؛ لأنه فهم أن المُهدية كانت أرادت بإرسالها ذلك إلى بيت عائشة أذاها والمظاهرة عليها، فلما كسرتها لم يزد على أن قال: " **غارت أمكم** ". عمدة القاري باب: إذا كسر قصعة أو شيئًا لغيره.

تاسعًا: احترام مشاعر الضيف حيث قال: " **غارت أمكم** " وهو يبتسم ويأمرهم بالأكل، ولم ينشغل بغير إكرام الضيف الذي عمدته الطعام وطلاقة الوجه، ومعلوم أنه لو أحدث نزاعًا مع أهله في وجود الضيف لكان ذلك مؤذيًا له، وربما لا يعود عندما يعلم أن النزاع كان بسببه.

عاشرًا: أن تصرف النبي ﷺ مع أم سلمة فيه شيء من المداراة لها ولا عيب في ذلك، وعليه أورده ابن أبي الدنيا في (كتاب المداراة) باب: مداراة الرجل زوجته وحسن معاشرته إياها.

الحادي عشر: وفيه مداعبة لعائشة، ولذلك أورده ابن أبي الدنيا في (كتاب العيال) باب: ملاعبة الرجل أهله.

الثاني عشر: تواضع النبي ﷺ حيث قام بجمع الطعام بيديه كما في بعض روايات الحديث.

الثالث عشر: ومنها التجرد من حظوظ النفس وهو أمر لا يقدر عليه إلا من أعطاه الله قوةً وعزمًا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾. (فصلت: ٣٤، ٣٥)

الرابع عشر: الحلم وهو زين ومن زينة الرجال.

الخامس عشر: غض الطرف عن الهفوة والزلة والخطأ غير المقصود.

رُعيت؛ أيهما كنت ترعى؟ قال: " **التي لم تُرْعَ** "، قلت: فأنا ليس كأحد من نسائك؛ كلُّ امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيري، قالت: فتبسم رسول اللهﷺ. (١)

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا الحديث بهذا السياق والتمام لا يصح؛ لأنه من رواية الواقدي؛ وهو متروك الرواية متهم بالكذب، وفاطمة بنت مسلم لم أجد من ترجم لها بجرح أو تعديل، وبناء على ذلك فالزيادات التي انفردت بها هذه الرواية لا تقبل ولا يعول عليها، ومن هذه الزيادات قولها: ما تشبع من أم سلمة؛ فهذه الفقرة لا تصح.

الوجه الثاني: ولو صحت لكانت محمولة على الغيرة التي تدل على حب عائشة لزوجها رسول الله ﷺ وما العيب في ذلك؟ وقد سبق الكلام عن الغيرة.

الوجه الثالث: مثال العدوتين الذي ضربته عائشة لرسول الله ﷺ له أصل في الصحيح وهو من مناقب عائشة رضي الله عنها بالمقارنة مع سائر أمهات المؤمنين، وهذا واضح عند أصحاب الفطر السليمة. وها هو الحديث الصحيح بذلك:

عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت لو نزلت واديًا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرًا لم يؤكل منها؛ في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: " **في التي لم يرتع منها** ". تعني: أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها. (٢)

وهذه الرواية الصحيحة لا تعلق لها بأم سلمة على الخصوص، وإنما هي تدل بنفسها على من أرسله الله بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا بذكر شيء خصها الله به من دون نساء النبيﷺ، وفي هذه الرواية الصحيحة فوائد؛ منها ما يلي:

١-أن النبي ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها وهذه خصوصية لها من دون نساء النبيﷺ.

٢-وهذا أحد الوجوه التي بها يندفع كون زواجه ﷺ لأجل الشهوة والدنيا، فلو كان

---

(١) **ضعيف جدًا**. ولا يصح بهذا التمام؛ أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٨٠ من طريق محمد بن عمر الواقدى، حدثتني فاطمة بنت مسلم، عن فاطمة الخزاعية قالت: سمعت عائشة به. وفي إسناده الواقدي وهو متروك.

(٢) البخاري (٤٧٨٩).

الأمر كذلك لاستكثر من الأبكار، وقد سبق الكلام في هذه.

٣-ومنها أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه في البخاري وغيره، أنه سئل: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: "**عائشة**". قيل: فمن الرجال؟ قال: "**أبوها**". (١)

وأما قول النبي ﷺ: " يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة؛ فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها ". (٢)

فهل هذا يدل على أن أم سلمة لم تكن ترتاح إلى عائشة مِنْ جراءِ كسر الصحفة لها؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ذكر سياق القصة يدل على أن أم سلمة ذكرت ذلك في مناقب عائشة وعنها روت عائشة القصة، ولولا أن أم سلمة قالت ذلك لعائشة ولغيرها من نساء النبيﷺ لما علمناه وإليك هذا السياق: عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان أو حيثما دار، قالت: فذكرت ذلك أمُ سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئًا، فقلن لها: فكلميه، فلما عاد إلي ذكرت له ذلك فأعرض عني، قالت: فكَلَّمَتْهُ حين دار إليها أيضًا، فلم يقل لها شيئًا، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئًا، فقلن لها: كلميه حتى يكلمك، فدار إليها، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: " **يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها**، قالت: فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله، ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تقول: إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر، فكلمته فقال: " **يا بنية ألا تحبين ما أحب؟** "، قالت: بلى، فرجعَت إليهن فأخبرتهن فقلن: ارجعي إليه فأبت أن ترجع، فأرسلن زينب

(١) البخاري (٣٨٢٠).

(٢) البخاري (٣٥٦٤).

بنت جحش، فأتته فأغلظت وقالت: إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تَكَلَّمُ، قال: فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وقال: " **إنها بنت أبي بكر**"[١]، وفي مسند أحمد من رواية أم سلمة أن أم سلمة قالت: فقالت أعوذ بالله أن أسوءك في عائشة. [٢]

قلت: فهذا صريح في أنها ذكرت ذلك لرسول الله فيما بينه وبينها، ثم أعرض عنها، ثم قال لها بعد ذلك هذا القول، فنقلته على أنه منقبة وفضيلة لعائشة رضي الله عنها، وهو كذلك. والحمد لله.

الوجه الثاني: ويبدو كذلك من السياق أن عائشة ترى فيها فضيلة لأم سلمة على أساس أنها هي التي اختيرت من نساء النبي ﷺ لأداء هذه الرسالة.

- وقد سبق القول بأن هذا الذي جرى بين أزواج النبي ﷺ إنما باعثه الغيرة التي باعثها حب النبي ﷺ، والتنافس الشريف على قلبه ووده، على أن الغيرة طبعية لا لوم فيها إكرامًا للمرأة في الإسلام.

- لا يوجد في سياق القصة ما يدل على سوء العلاقة بينهما، أو أن أم سلمة لم تكن ترتاح لعائشة رضي الله عنهن جميعًا.

- ثم إن عائشة هي التي روت القصة فلو كان فيها شيء يسيء إليها وهي على سوء لما نقلته، فلما نقلته قلنا: إما أن يكون فيه شيء ضدها أو لا؛ فإن لم يكن وهذا واضح فهذا أدلُّ على نبلها وحرصها على تبليغ دين الله للناس؛ لما في هذه القصة من فوائد تدل على فضيلة لعائشة وأم سلمة، ويظهر من السياق كذلك أن أم سلمة لم تكن هي المنفردة بهذا الطلب، وفي مسند أحمد أن أم سلمة هي التي روت القصة، ونفس الكلام يقال فيها كما قيل في عائشة بل أوضح.

ولهم شبهة أخرى على هذا الحديث وهي كيف ينزل القرين على النبي ﷺ وهو في ثوب عائشة؟
والرد على ذلك من وجوه:

---

(١) البخاري (٣٥٦٤، ٢٤٤٢).

(٢) مسند أحمد ٦/ ٢٩٣.

أولًا سياق الحديث: قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان أو حيثما دار، قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ؛ قالت: فأعرض عني، فلما عاد إلي ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: " **يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة؛ فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها** ".[1]

ثانيًا معنى قوله ﷺ: "والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها "

١- نعلم أولًا أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، والسنة تفسر بعضها بعضًا، والسنة أيضًا تفسر القرءان كما كان يفعل الرسول ﷺ، وحرف (في) هو الذي يسبب للنصارى سوء فهم بسبب ضعفهم اللغوي، فقد قال فرعون عن السحرة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ (طه: ٧١)، ومن الطبيعي ألا يقول عاقل: إن السحرة صلبهم فرعون في داخل النخل، ولكن (في) هنا تعنى: على النخل.

٢- أطلق القرآن على النساء والرجال لفظ لباس: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٨٧)، ولا يعنى هذا أن المرأة بنطلون للرجل أو أن الرجل فستان للمرأة كما يفهم النصارى وطبيعي أن المفهوم من الآية: أنه كما تستر الملابس الجسد فإن المرأة تستر زوجها من الزنا والمعاصي، وكذلك الرجل يستر زوجته ويعفها.

٣- لكي نفهم معنى: " **في ثوب عائشة** " لابد من البحث عن القصة بكل ملابساتها وظروفها في أحاديث أخرى في النقاش الذي كان بين الرسول ﷺ ونسائه وهنا يتضح لنا المقصود والمعنى، فبعض الأحاديث وردت بلفظ لباس وبعضها بلفظ لحاف، ومن هنا يتضح أن المقصود بالثوب هو اللحاف وهو الغطاء أو السترة؛ لأن كل نساء النبي ﷺ لهن سترة، ولكن لم يأتِ الوحي إلا في بيت عائشة وهذا لفضلها ومن مناقبها رضي الله عنها.

٤- وعلى هذا نفهم من الحديث أن أم المؤمنين السيدة عائشة هي الوحيدة من زوجات

---

(١) رواه مسلم (٣٥٦٤).

النبي ﷺ التي كان ينزل الوحي عليه وهو نائم بجانبها في الفراش، أو بمعنى آخر في فراشها دون وضع جماع، وفي اللغة العربية من الممكن التعبير بالجزء عن الكل إذا اعتبرنا أن الثياب ملازم للمرء وملامس لجسده، وكذلك الفرش واللحاف لا يستغنى عنه المرء ودائمًا ما يتردد عليه المرء للنوم ويكون مهادًا ورداءً لجسده.

ثالثا: من خلال هذا التقرر نفهم أن معنى الثياب أو اللحاف ما يتغطى به الرجل مع امرأته حال النوم، وإنما نسب إلى عائشة وإن كان ملكًا للنبيﷺ؛ لأن له أكثر من زوجة، فمن اللائق أن ينسب اللحاف الذي يتغطى به مع كل واحدة إليها، وفي وضع النوم تحت اللحاف نزل الوحي وهذه فضيلة لعائشة رضي الله عنها .

٥ـ ويبقى لنا سؤال: كيف خلع المسيح ثيابه ونشف قدم التلاميذ وبقى عريانًا؟

هل هذا يليق برب خالق ومعبود؟! وإليكم النص من إنجيل يوحنا ١٣/ ٥: (ثم صب ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزرًا بها).

الرواية الخامسة من الروايات التي يرون فيها دليلًا على سوء الأخلاق في بيت النبي ﷺ.

عن عائشة قالت: كانت عندنا أم سلمة، فجاء النبي ﷺ عند جنح الليل، قالت: فذكرت شيئًا صنعه بيده، قالت: وجعل لا يفطن لأم سلمة، – قالت: وجعلت أومئ إليه حتى فطن، قالت أم سلمة: أهكذا الآن؟ أما كانت واحدة منا عندك إلا في خِلَابَةٍ[1] كما أرى؟ وسبت عائشة، وجعل النبي ﷺ ينهاها فتأبى، فقال النبيﷺ: " **سبيها** "، فسبتها حتى غلبتها، فانطلقت أم سلمة إلى عليّ وفاطمة فقالت: إن عائشة سبتها وقالت لكم وقالت لكم، فقال عليّ لفاطمة: اذهبي إليه فقولي: أن عائشة قالت لنا وقالت لنا، فأتته فذكرت ذلك له، فقال لها النبي ﷺ: " **إنها حِبَّةُ أبيك ورب الكعبة** "، فرجعت إلى عليّ فذكرت له الذي قال لها، فقال: أما كفاك إلا أن قالت لنا عائشة وقالت لنا، حتى أَتَتْكَ

(١) الخلابة: الخديعة.

فَاطِمَةُ فقلت لها: إنها حبة أبيك ورب الكعبة.[١]

والجواب من وجوه:

١- الحديث بهذا السياق منكر كما قال ابن كثير -رحمه الله-: وعلي بن زيد ضعيف، وأم محمد مجهولة، وقد اضطرب فيه فجعل القصة مرة مع زينب ومرة مع أم سلمة.

٢- وعلى فرض أنه صحيح فالجواب عليه من وجوه:

أحدها: أن الحامل لزينب على هذا هو الغيرةُ؛ وقد سبقت الإجابة عنها.

فالغيرة الزوجية غريزة أو عاطفة في الرجال والنساء، وهي فيهن أشدُّ ولاسيما إذا تعددن عند الرجل. ولئن كان أزواج النبي ﷺ كلهن يغرن من عائشة لعلمهن أنها الأحب إليه فلهي كانت أشدهن غيرة، حتى كانت تغار من خديجة وهي لم ترها، وفي كتب السيرة والسنة أحاديث كثيرة تتحدث عن غيرة عائشة، وغيرة بقية نسائه. . وكان رسول الله ﷺ يعالج كل ذلك بالصبر والأناة والحلم والتسامح.

ثانيها: أن المراد بالسب ما يناسب أهل الفضل إذا اختلفوا؛ كما يقول أحدهم: هذا ظلم أو اتق الله وقد أخذت ما لا يحل لك، أما السب الذي يحدث بين السوقة والعامة فيستحيل أن يكون في بيت النبي ﷺ وعلى مرأى منه ومسمع، وقولها: (حتى أَنْحَيْت[٢]عليها) أي: بالغت في جوابها وأفحمتها.[٣]

٣-إن عائشة لم تتكلم حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن تنتصر، ولما انتصرت

---

(١) **إسناده ضعيف**. مسند أحمد ٦/ ١٣٠ وأبو داود (٤٨٩٨) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد امرأة أبيه، فذكرَتْه، وفي رواية أزهر ومعاذ بن معاذ قالوا: زينب بنت جحش بدل أم سلمة. قال الألباني في الضعيفة (٣٣٤٢): وإسناده ضعيف؛ لضعف ابن جدعان، ثم هو شيعي متهم بالرفض من يزيد بن زريع، فعلى كل حال لا تقبل روايته في مثل هذا، وامرأة أبيه أم محمد مجهولة لم يوثقها أحد، وقال ابن كثير ٧/ ٢١٢: هكذا ورد هذا السياق، وعلي بن زيد بن جدعان يأتي في رواياته بالمنكرات غالبًا، وهذا فيه نكارة، وقال المنذري: علي ابن زيد ابن جدعان لا يحتج بحديثه وأم ابن جدعان هذه مجهولة. اهـ عون المعبود ١٣/ ١٦٥.

(٢) وانتحيت لفلان أي: عرضت له. . وانْتَحاه أَي: اعْتَمَدَه بالكلام وقَصَده. . قال ابن الأثير: هكذا جاء في رواية، والمشهور بالثاء المثلثة والخاء المعجمة والنون؛ لسان العرب لابن منظور؛ (نحا) ١٥/ ٣١١.

(٣) حاشية السندي على سنن النسائي ٥/ ٣٦٦.

كان ذلك شبيها بالمناظرات بين أهل العلم وقد كان بكل أدب، ولهذا قال النبي ﷺ في الرواية الصحيحة: " **إنها ابنة أبي بكر** " إشارة إلى كمال فهمها وحسن منطقها، قال ابن الملك وفي الحديث دلالة على جواز الانتقام بالحق لكن العفو أفضل لقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾. (١)

وفي قوله: " **إنها ابنة أبي بكر** " إشارة إلى كمال فهمها ومتانة عقلها حيث صبرت إلى أن ثبت أن التعدي من جانب الخصم ثم أجابت بجواب إلزام. (٢)

٤- وجاء في الرواية الصحيحة التي وقعت مع زينب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ما يدل على الإنصاف والعدل وسمو الأخلاق من عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ حيث قالت: قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ قط خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب به إلى الله ﷻ، ما عدا سَوْرَة(٣) من حد كانت فيها تسرع منها الفيئة.

٥- إن الرد الذي وقع من عائشة على زينب في الرواية الصحيحة كان بإذن النبي ﷺ وكان ردًا مؤدبًا، ومع ذلك فهو من باب الانتصار الذي قال الله فيه: ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾.

٦- قوله: " **لا يكره أن انتصر** " ليس فيه دليل على أن النبي ﷺ أذن لعائشة، ولا أشار بعينه ولا غيرها، بل لا يحل اعتقاد ذلك؛ فإنه ﷺ تحرم عليه خائنة الأعين، وإنما فيه أنها انتصرت لنفسها فلم ينهها. (٤)

وخلاصة القول: إن هذا السياق منكر لا يصح، وما وافق منه الحديث الصحيح فهو في الرد على زينب وتوجيهه ما سبق. والله أعلم.

* * *

---

(١) تفسير حقي ١٣/ ١١٩.

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي ٥/ ٣٦٦.

(٣) سَوْرَة بِسِينٍ مَفْتُوحَة وَسُكُون وَاو فَرَاءٍ فَهَاء أَيْ ثَوَرَان وَعَجَلَة (مِنْ حِدَّة).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٥/ ٢٠٧).

٩ـ أخلاق عائشة مع زينب بنت جحش رضي الله عنها

هذه الشبهة تتعلق بزواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش وما ترتب على ذلك من أخلاق لعائشة معها بعد وقوع المنافسة بينهما على قلب النبي ﷺ حيث زعموا أن زواج زينب أحدث صراعًا بين عائشة وزينب مما يدل على سوء أخلاق السيدة عائشة رضي الله عنها.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الآية وبيان الصحيح من كلام المفسرين عليها.

الوجه الثاني: موقف عائشة رضي الله عنها ليلة زواج النبي ﷺ من زينب.

الوجه الثالث: ثناء عائشة رضي الله عنها على زينب.

الوجه الرابع: إخبار عائشة رضي الله عنها عن زينب أنها تسارع في الخير.

الوجه الخامس: براءتها من الوقوع في عرض السيدة عائشة في قصة الإفك وثناء عائشة عليها.

الوجه السادس: إخبار عائشة رضي الله عنها أن زينب كانت تكرم النبي ﷺ في نوبة غيرها وتسقيه عسلًا.

الوجه السابع: إخبار عائشة رضي الله عنها عن زينب بأنها كانت تعمل وتتصدق.

وإليك التفصيل.

الوجه الأول: ذكر الآية وبيان الصحيح من كلام المفسرين عليها.

قال الله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

١ – عن علي بن الحسين: أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدًا يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خلق زينب وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: " **اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك** "، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها هو، وهذا هو الذي أخفى في نفسه ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر، من

أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له بأن قال: أمسك مع علمه بأنه يطلق[١]، وأعلمه أن الله أحق بالخشية: أي في كل حال، قال علماؤنا -رحمة الله عليهم-: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهري، والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي، وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ إنما هو إرجاف المنافقين؛ بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه، فأما ما روي أن النبي ﷺ هوى زينب امرأة زيد، وربما أطلق بعض المُجَّان لفظ عشق فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته، قال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأسند إلى علي بن الحسين قوله: فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرًا من الجواهر، ودررًا من الدرر، أنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد: أمسك عليك زوجك؟ وأخذتك خشيةُ الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه والله أحق أن تخشاه. اهـ. [٢]

ومن خلال هذا يبدو أن السبب في طلاق زيد لزينب ومن ثم زواج النبي ﷺ منها: هو ما كان بين زيد وبين زينب من خلافات، وأنه لم يكن بينهما وئام يؤمل معه أن تبقى الحياة الزوجية بينهما، فطلقها بمحض اختياره ورغبته، وكان رسول الله ﷺ ينهاه عن ذلك، وقد كان الله ﷻ قد أعلم نبيه ﷺ أن زيدًا سيطلق زينب، وأنها ستكون زوجة له، وأنه ﷺ كان يخفي هذا، ويخشى من مقولة الناس أنه تزوج مطلقة مَنْ كان يُدْعَى إليه، فعاتبه ربه على ذلك. [٣]

(١) ذكره ابن كثير في التفسير بإسناد أبي حاتم فقال: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾؟ فذكرت له فقال: لا، ولكن الله تعالى أعلم نبيه... إلخ. وفي هذا الإسناد إلى عليِّ بن الحسين عليُّ بن زيد بن جدعان وهو ضعيف فيه تشيع، وقال ابن عدي: كان يغلوا في التشيع ومع ضعفه يكتب حديثه. تهذيب التهذيب (٥٤٤٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ١٦٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ١١)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٩)، وانظر البخاري (٤٧٨٧).

٢- فإن قيل لأي معنى قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وقد أخبره الله أنها زوجه؟ قلنا: أراد أن يختبر منه ما لم يُعلِمْه الله من رغبتِه فيها أو رغبتِه عنها، فعلم نفرة زيد عنها من جوابه له.

فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه، وهذا تناقض؟

قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن؟ فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلًا وحكمًا وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه. [1]

٣-وقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إنما أبحنا لك تزويجها، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه فكان يقول له: زيد بن محمد، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ ثم زاد ذلك بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه ولهذا قال تعالى في آية التحريم ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ ليحترز من الابن الدعي فإن ذلك كان كثيرًا فيهم وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه وهو كائن لا محالة، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ١٦٦).

كان قد تبناه، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾؛ يمدح تبارك وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي وكفى بالله ناصرًا ومعينًا...وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهى أن يقال بعد هذا: زيد بن محمد أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم. اهـ(١)

الوجه الثاني: موقف عائشة رضي الله عنها ليلة زواج النبي ﷺ من زينب.

فعن أنس رضي الله عنه قال: فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: " **السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله** "، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك؟ " **بارك الله لك (فيهن)** "، فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. .(٢) قلت: ومحل الشاهد من الحديث واضح وهو قول عائشة رضي الله عنها ليلة عرس زينب لرسول الله ﷺ كيف وجدت؟ أهلك بارك الله لك، وكذلك قال نساء النبي ﷺ، ومَنْ مِنْ النساء تفعل هذا؟!

الوجه الثالث: ثناء عائشة على زينب

قالت عائشة: في زينب رضي الله عنها: وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأة قط خيرًا في الدين من زينب وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥١٥) وما بين القوسين من رواية أبي يعلى (٣٩١٨).

للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب به إلى الله تعالى؛ ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفيئة. (١)

الوجه الرابع: إخبار عائشة عن زينب أنها تسارع في الخير.

فعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ ذكر أن يعتكف العشر الأواخر من رمضان، فاستأذنته عائشة فأذن لها، وسألت حفصة عائشة أن تستأذن لها ففعلت، فلما رأت ذلك زينب بنت جحش أمرت ببناء فبني لها. قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى انصرف إلى بنائه فبصر بالأبنية فقال: " **ما هذا؟** "، قالوا: بناء عائشة، وحفصة، وزينب، فقال رسول الله ﷺ: " **آلبر أردن بهذا؟ ما أنا بمعتكف** "، فرجع فلما أفطر، اعتكف عشرًا من شوال(٢).

ومحل الشاهد أن عائشة رضي الله عنها: تخبر عن زينب أنها تحب العمل الصالح وتنافس عليه.

الوجه الخامس: براءة زينب من الوقوع في عرض السيدة عائشة في قصة الإفك وثناء عائشة عليها بذلك.

كما قالت عائشة رضي الله عنها: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: " **يا زينب، ما علمت ما رأيت؟** " فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري؛ والله ما علمت عليها إلا خيرًا. قالت: وهي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع. (٣)

فانظر إلى قول عائشة في زينب: فعصمها الله بالورع وهو شدة المحافظة على الدين.

الوجه السادس: إخبار عائشة رضي الله عنها أن زينب كانت تكرم النبي ﷺ في نوبة غيرها وتسقيه عسلًا.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؛ إني أجد منك ريح مغافير. قال: " **لا، ولكني كنت أشرب عسلًا عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا** ". (٤)

---

(١) مسلم (٢٤٤٢).

(٢) البخاري (١٩٤٠).

(٣) البخاري (٢٥١٨).

(٤) البخاري (٤٦٢٨).

وهذا شرف لزينب رضي الله عنها جاء على لسان عائشة رضي الله عنها.

الوجه السابع: إخبار عائشة عن زينب بأنها كانت تعمل وتتصدق.

عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ: **" أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا "**، قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق. [١]

وعند الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: **" أسرعكن لحوقًا بي أطولكن يدًا "**، قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى تُوفيت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة. قال: وكانت زينب امرأة صناعة اليد فكانت تدبغ وتخرز وتصدق في سبيل الله ﷻ. [٢]

الوجه السابع: ولم يصح في أي حديث أن عائشة وقعت في زينب أو أساءت إليها ولا كان هذا من زينب؛ سوى ما كان من أمر الغيرة في الحدود المشروعة كما في الرواية السابقة، وأما الحديث الذي فيه أن زينب سبت عائشة والنبي ﷺ جالس، فقال لعائشة: سبيها، فاشتكت إلى علي. . . الخ. فها هو: عن علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد امرأة أبيه، قال ابن عون: وزعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين، قالت: قالت أم المؤمنين رضي الله عنها: دخل علينا رسول الله ﷺ وعندنا زينب بنت جحش رضي الله عنها، فجعل يصنع شيئًا بيده، فقلت بيده، حتى فطنته لها، فأمسك، وأقبلت زينب رضي الله عنها، تَقْحَمُ[٣] لعائشة رضي الله عنها، فنهاها فأبت أن تنتهي، فقال لعائشة رضي الله عنها: سُبِّيهَا، فسبتها، فغلبتها، فانطلقت زينب رضي الله عنها إلى علي رضي الله عنه فقالت: إن عائشة وقعت بكم وفعلت، فجاءت فاطمة رضي الله عنها فقال ﷺ لها: " إنها

---

(١) مسلم (٢٤٥٢).

(٢) المستدرك (٤/ ٢٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٣) معناه: تعرض لشتمها.

حبة أبيك ورب الكعبة "، فانصرفت، فقالت لهم: إني قلت له كذا وكذا فقال لي كذا وكذا. قال: وجاء عليﷺ إلى النبي ﷺ فكلمه في ذلك. [1]

والجواب أن هذا حديث منكر فعلي بن زيد قال فيه ابنُ عدي: كان يغلو في التشيع وقد سبق بيان ذلك في ترجمة أم سلمةﷺ، وقال ابن كثير -رحمه الله-: هكذا أورد هذا السياق وعلي بن زيد بن جدعان يأتي في رواياته بالمنكرات غالبًا وهذا فيه نكارة، والصحيح خلاف هذا السياق.

* * *

(١) **منكر**. أخرجه أبو داود (٤٨٩٨)، وأحمد في المسند ٦/ ١٣٠، وإسحاق بن راهويه (١٧٨٠)، وابن جرير في التفسير سورة الشورى: ٤١؛ من طرق عن ابن عون، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد امرأة أبيه، عن عائشة به. وهذا السياق تفرد به علي بن زيد، وأصل ما وقع بين عائشة وزينب ثابت في البخاري (٢٤٤٢) من حديث هشام بن عروة عن أبيه عائشة ﷺ، وفي مسلم من (٢٤٤٢)، والنسائي (٣٩٤٤)، وأحمد ٦/ ٨٨؛ من حديث محمد بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن عائشة به، وابن حبان (٧٠١٥) من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة به، وقد سبق تخريجه وبيان ما فيه هنا وفي الكلام عن أم سلمة، وأما هذا السياق فمنكر وإسناده ضعيف، والله أعلم.

١٠ـ شبهة: أخلاق عائشة مع جويرية بنت الحارث رضي الله عنهما.

نص الشبهة:

وهي تدور حول مسألتين:

الأولى: قول عائشة رضي الله عنها فكرهتها.

الثانية: نظر النبي ﷺ إليها وهي امرأة أجنبية وامتلاء عينيه من جمالها.

واعتمدوا في هذه الشبهة على هذه الرواية: عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي. قال: " **فهل لك في خير من ذلك؟** ". قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: " **أقضي كتابتك وأتزوجك** " قالت: نعم يا رسول الله. قال: " **قد فعلت**". قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها. [1]

---

(١) حسن. أخرجه ابن إسحاق في السيرة، ومن طريقه أحمد (٦/ ٢٧٧)، وأبو داود (٣٩٣١) من طريق علي ابن مسهر، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٧٤) وفي الدلائل من طريق يونس بن بكير، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١) من طريق يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، ، وابن الجارود (٧٠٥) من طريق ابن إدريس، وأبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة باب: جويرية بنت الحارث؛ من طريق إبراهيم بن سعد، والخرائطي في اعتلال القلوب؛ من طريق صدقة بن سابق (٢٨٥) {ستتهم} عن ابن إسحاق قال: وحدثني محمد بن جعفر ابن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشة به. وهذا إسناد رجاله ثقات سوى ابن اسحق، وابن إسحاق حديثه حسن، إذا صرح بالتحديث وانظر: الإرواء (١٢١٢).

والرد على ذلك من وجوه: الوجه الأول: أن قولها: فكرهتها محمول على الغيرة الطبعية التي في النساء.

الوجه الثاني: أنها قالت: ذلك قبل أن تصير جويرية زوجة للنبيﷺ، وقبل أن تسلم.

الوجه الثالث: ثناء عائشة عليها بعد إسلامها

أنها لما أسلمت وصارت زوجة للنبي ﷺ أثنت عليها عائشة بأبلغ الثناء؛ فقالت: فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

الوجه الرابع: أن عائشة بهذا السياق تريد أن تخبر عن جمال جويرية، وعن موقف رسول الله ﷺ من قومها، وعن اختيارها جوار النبيﷺ، ولم ترد بذلك قطعًا شين جويرية؛ لأن هذه الأشياء في ديننا حسنة فلو أرادت ذمها لما ذكرت هذه الأمور.

الوجه الخامس: أن هذا الحديث واضح في مناقب وفضائل جويرية ﵂، والتي روته هي عائشة ﵂؛ فإما أن تكون كارهة لها أو لا، فلو كانت كارهة لها وروت فضيلتها لكان هذا دليلًا على أن المراد بالكراهية الغيرة التي لا تحمل على محرم أو على كتمان فضيلة، ولكان دليلًا على فضيلة عائشة ﵂ لأنها تروي فضائل من تغار منها أو تكرهها على حسب ما جاء في الرواية. ولو لم تكن كارهة لها وهو الحق - سوى أمر الغيرة - لما كان في الأمر أي شيء، ولكنها نظرة الشانئ الحاقد ترى الحَسن قبيحًا، والله المستعان.

وأما قولهم: نظر النبي إليها فقد سبق الكلام عليه في تعدد زوجات النبي ﷺ.

* * *

١١- أخلاق عائشة مع صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

نص الشبهة:

لقد زعم القوم سوء أخلاق عائشة مع صفية -رضي الله عنهما- ومعتمدهم في هذا عدة روايات ذكروها، وهاهي والرد على ما قالوه من خلالها:

الرواية الأولى: عن عائشة قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهو عروس بصفية بنت حيي جئن نساء الأنصار فأخبرن عنها، قالت: فتنكرت وتنقبت فذهبت فنظر رسول الله ﷺ إلى عيني فعرفني، قالت: فالتفت فأسرعت المشي، فأدركني، فاحتضنني، فقال: **" كيف رأيت؟ "** قالت: قلت: أرسل يهودية وسط يهوديات. [(١)]

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا الحديث إسناده ضعيف كما هو مبين في الحاشية.

الوجه الثاني: أنه لو صح لكان محمولًا على الغيرة، وقد سبق الحديث عنها.

الوجه الثالث: في بعض ألفاظ الحديث والراوية لها منقبة لصفية وعائشة.

الوجه الرابع: وفي بعضها أنها قالت ذلك قبل أن تعلم بإسلامها.

---

(١) **ضعيف**. أخرجه ابن ماجه باب حسن معاشرة النساء (١٩٨٠)، والخرائطي في اعتلال القلوب باب: الغيرة على النساء (٧٢١) من طريق حبان بن هلال، حدثنا مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد، عن أم محمد، عن عائشة به. وقد سبقت ترجمة هذا الإسناد وقال البوصيري: في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف علي بن جدعان اهـ. وفيه أم محمد مجهولة كما سبق، وعلي بن زيد يروي المناكير.

وله طريق آخر أخرجه ابن سعد (٨/ ١٢٦) من طريق أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن عبد الله بن عمر به. وفيه عبد الرحمن بن أبي الرجال صدوق ربما أخطأ من الثامنة، والإسناد منقطع أو معضل بينه وبين ابن عمر -رضي الله عنهما؛ تهذيب التهذيب (٦/ ١٥٤)، والتقريب (٣١٩١). وعليه فلا يصلح هذا الطريق لتقوية الطريق الأول. وأخرجه ابن سعد ٨/ ١٢٦ مرسلًا من طريق الواقدي ولفظه عن عطاء بن يسار قال: لما قدم رسول الله ﷺ من خيبر ومعه صفية أنزلها في بيت من بيوت حارثة بن النعمان فسمع بها نساء الأنصار وبجمالها فجئن ينظرن إليها، وجاءت عائشة متنقبة حتى دخلت عليها فعرفها، فلما خرجت خرج رسول الله ﷺ على أثرها فقال: **" كيف رأيتها يا عائشة؟ "** قالت: رأيت يهودية. قال: **" لا تقولي هذا يا عائشة فإنها قد أسلمت فحسن إسلامها "** اهـ. وهذا فيه بيان أنها قالت ذلك قبل أن تعلم بإسلامها. ولكن إسناده فيه الواقدي وهو متروك، ثم هو مرسل عن عطاء. وعليه فهذه الطريق شديدة الضعف لا تصلح للتقوية. والله أعلم.

الرواية الثانية: عن ثبيتة بنت حنظلة عن أمها أم سنان الأسلمية قالت: لما نزلنا المدينة لم ندخل منازلنا حتى دخلنا مع صفية منزلها، وسمع بها نساء المهاجرين والأنصار فدخلن عليها متنكرات فرأيت أربعًا من أزواج النبي ﷺ متنقبات: زينب بنت جحش، وحفصة، وعائشة، وجويرية، فأسمع زينب تقول لجويرية: يا بنت الحارث، ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا على عهد رسول الله ﷺ، فقالت جويرية: كلا إنها من نساء قل ما يحظين عند الأزواج. (١)

الرواية الثالثة: عن ابن أبي عون قال: استبت عائشة وصفية فقال رسول الله لصفية: ألا قلت: أبي هارون وعمي موسى؟ وذلك أن عائشة فخرت عليها. (٢)

والجواب عن هذه الرواية والتي قبلها هو أنها من طريق الواقدي؛ وهو متروك الرواية فلا يعتمد على روايته أصلًا.

الرواية الرابعة: قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن ثابت، عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: صفية بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: "**ما يبكيك؟** " قالت: قالت لي حفصة: أني ابنة يهودي. فقال النبي ﷺ: "**إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبما تفخر عليك؟** " ثم قال: "**اتق الله يا حفصة**". (٣)

---

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن سعد (٨/ ١٢٦) من طريق الواقدي حدثني عبد الله بن أبي يحيى، عن ثبيتة بنت حنظلة، عن أمها أم سنان الأسلمية به. وهذا إسناد فيه الواقدي، وثبيتة: (بالثاء المثلثة المضمومة والباء الموحدة المفتوحة والياء تحتها نقطتان والتاء فوقها نقطتان) لم أجد من ترجم لها بجرح أو تعديل؛ انظر الإكمال (١/ ١٨٦).

(٢) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن سعد (٨/ ١٢٧) من طريق الواقدي، حدثني عبد الله بن جعفر، عن ابن أبي عون به. وفيه الواقدي وهو متروك.

(٣) **ضعيف**. أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٤٣٠)(٢٠٩٢١)، ومن طريقه الترمذي: (٣٨٩٤)، وابن حبان (٧٢١١)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٧٠)(١٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٥٥)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢٠٨٧)، وعبد بن حميد (١٢٤٨)، وابن عساكر (٣/ ٢٢٣). قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه. وقال الألباني: صحيح. المشكاة (٦١٨٣).

قلت: معمر ثقة، ولكن روايته عن ثابت فيها اضطراب وكذلك عن البصريين عمومًا. قال الغلابي: سمعت ابن معين قال: ومعمر عن ثابت ضعيف، وقال أبو حاتم: ما حدث معمر بالبصرة فيه أغاليط، وقال يحيى: وحديث معمر عن ثابت، وعاصم بن أبي النجود، وهشام بن عروة، وهذا الضرب مضطرب كثير الأوهام.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معمر وإن كان ثقة إمامًا حجة لكن روايته عن ثابت متكلم فيها، وروايته عن البصريين فيها اضطراب، وثابت بصري؛ وعليه فهي رواية ضعيفة.

الوجه الثاني: أن هذا الحديث فيه فضيلة لصفية ﵁ ولذلك جعله ابن حبان في باب: ذكر تعظيم النبيِّ ﷺ صفيةَ ورعايته حقها من الصحيح. (١)

الوجه الثالث: أن حفصة ما سبتها بذلك وما قالت إلا حقًا، ومع ذلك فقد حملها عليه الغيرة، وهم أقران ويجري بينهم ما يجري بين الأقران لأنهم بشر.

الرواية الخامسة: عن صفية بنت حيي قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقد بلغني عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك له فقال: " **ألا قلت: فكيف تكونان خيرًا مني وزوجي محمد وأبي هارون و عمي موسى؟** " وكان الذي بلغها أنهم قالوا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، وقالوا: نحن أزواج النبي ﷺ وبنات عمه. (٢)

وقال العلائي عن يحيى بن معين: حديث معمر عن ثابت البناني ضعيف. ولم يخرج له البخاري عن ثابت إلا تعليقًا ولم يخرج له مسلم عنه إلا متابعة. التهذيب (١٠/ ٢١٩)، وهدي الساري: (١/ ٤٤٤، ٤٤٥). ومن خلال ما مرَّ يبدو ضعف هذه الرواية التي معنا.

(١) صحيح ابن حبان (١٦/ ١٩٣).

(٢) **ضعيف جدًا**. أخرجه الترمذي (٣٨٩٢)، وأخرجه الحاكم ٤/ ٣١، والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٣٦ (٨٥٠٣)، والكبير (٢٤/ ٧٥ (١٩٦) (ثلاثتهم) من طريق هاشم بن سعيد الكوفي، حدثنا كنانة قال: حدثتنا صفية بنت حيي به. قال الترمذي: وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي؛ وليس إسناده بذلك القوي اهـ.

وهذا إسناد ضعيف هاشم بن سعيد قال: فيه أحمد: لا أعرفه وقال الدوري عن ابن معين: ليس بشيء وذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن أبي حاتم سألت أبي عنه فقال: ضعيف الحديث، وقال ابن عدي: مقدار ما يرويه لا يتابع عليه اهـ. التهذيب (١١/ ١٧)، والجرح والتعديل (٩/ ١٠٤ -٤٤٣).

وكنانة: وقال الترمذي بعد حديثه الذي معنا: ليس إسناده بالقوي، وقال في موضع آخر: ليس إسناده بمعروف، وقال الحافظ ابن حجر: مقبول؛ انظر تهذيب التهذيب ٨/ ٤٠٤، والتقريب (٥٦٦٨). وعليه فالحديث ضعيف، وضعفه الألباني في الضعيفة الألباني وقال: وقد ذكر الحافظ في ترجمة كنانة (من التهذيب) أن الحديث رواه ابن عدي من طريق يزيد بن مغلس الباهلي: حدثنا كنانة بن نبيه مولى صفية. . فذكر الحديث. قلت: وهذا ظاهره أن يزيد بن المغلس تابع هاشم بن سعيد، وحينئذ يتقوى الحديث بمتابعته.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن الحديث ضعيف كما هو مُبين في الحاشية.

الوجه الثاني: أنه على فرض صحته فيه ثناء على صفيه وجبرًا لخاطرها، فإن قلت: أليست حفصة ابنة نبي وهو إسماعيل عليه السلام؛ لأنها قرشية، وعمها نبي وهو إسحاق عليه السلام وتحت نبي وهو النبي ﷺ.

هذه الصفات مشتركة بين نسائه ﷺ اللاتي من قريش، وصفية أيضًا مشاركة لهن؛ لأن موسى وهارون من أولاد يعقوب بن إسحاق ﷺ والمقصود دفع المنقصة بأنها أيضًا تجمع صفات الفضل والكرم.[1]

الوجه الثالث: أنه خرج مخرج الغيرة، وقد سبق الحديث عنها.

الرواية السادسة: عن عائشة أنها قالت: وكان متاعي فيه خف وكان على جمل ناج، وكان متاع صفية فيه ثقل وكان على جمل ثقيل بطيء يتبطأ بالركب، فقال رسول الله: " **حولوا متاع**

ولكني أرى أن في إسناد ابن عدي انقطاعًا أو سقطًا؛ فإن ابن المغلس إنما يروي عن مالك وطبقته من أتباع التابعين، فمثله لم يدرك أحدًا من التابعين قطعًا، وكنانة منهم، ويؤيده أنهم ذكروا في شيوخ يزيد هذا: هاشم بن سعيد الراوي للحديث عن كنانة، فالظاهر أنه هو الساقط بين يزيد وكنانة، والله أعلم. اهـ. الضعيفة للألباني (٤٩٦٣).

قلت: وبالرجوع إلى الكامل لابن عدي وجدت أن الأمر كما قال الألباني -رحمه الله- لكن السقط في الإسناد من نقل الحافظ -رحمه الله- حيث جاءت صورة الإسناد هكذا عند ابن عدي: ثنا إبراهيم بن محمد بن سليمان الهاشمي قال: ثنا عمرو بن علي، ثنا يزيد بن مغلس بن عبد الله بن يزيد الباهلي؛ وكان من الثقات، ثنا هاشم بن سعيد، ثنا كنانة بن نبيه مولى صفية قال: سمعت صفية بنت حيي تحدث قالت: وقف علي رسول الله ﷺ وأنا أسبح بنوى، فقال: " **يا بنت حيي، قد سبحت منذ قمت على رأسك بأكثر من هذا.** . " الخ الحديث.

فظهر من الإسناد والمتن أمران: الأول: أن يزيد بن المغلس لم يتابع هشام بن سعيد وإنما روى عنه كما هو واضح في الإسناد، ومما يؤكد هذا أن ابن عدي قال في آخر ترجمة هشام بن سعيد وبعد سياق هذه الرواية ٧/ ١١٥ وعامة ما يرويه لا يتابع عليه.

الثاني: أن الحافظ ابن حجر في التهذيب ما أشار إلى الحديث الذي معنا، وإنما أشار إلى حديث التسبيح، ومما يؤكد هذا أن الحافظ ذكر هذا الحديث بعد قوله نقلًا عن الترمذي، وقال في موضع آخر: ليس بمعروف، وإنما قال الترمذي هذا في هشام بعد حديث التسبيح، وانظر سنن الترمذي (٣٥٥٤).

(١) تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٦٨).

عائشة على جمل صفية وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب "، قالت: عائشة فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله، غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله، قالت: فقال رسول الله: " **يا أم عبد الله، إن متاعك كان فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل فأبطأ بالركب، فحولنا متاعها على بعيرك وحولنا متاعك على بعيرها** "، قالت: فقلت: ألست تزعم أنك رسول الله؟ قالت: فتبسم، **قال: " أو فيّ شك أنت يا أم عبد الله؟** " قالت: قلت: ألست تزعم أنك رسول الله؟ أفهلا عدلت؟ وسمعني أبو بكر وكان فيه غرب أي: حدة، فأقبل علي فلطم وجهي، فقال رسول الله: " **مهلًا يا أبا بكر** "، فقال: يا رسول الله، أما سمعت ما قالت؟: فقال رسول الله: " **إن الغيري لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه** ". (١)

والرد على ذلك من وجوه: الوجه الأول: أن الحديث ضعيف، وفي متنه نكارة.

الوجه الثاني: أن هذا متن منكر من جهة قول عائشة: ألست تزعم أنك رسول الله؟!

الوجه الثالث: أنه على فرض صحته محمول على الغيرة الشديدة كما جاء في نص الحديث.

الوجه الرابع: الحديث فيه فضيلة لصفية ترويها عائشة رضي الله عنها فما السوء في ذلك؟!

الرواية السابعة: عن ابن أبي عون قال: قالت عائشة: كنت أستب أنا وصفية فسببت أباها فسبت أبي، وسمعه رسول الله ﷺ فقال: " **يا صفية، تسبين أبا بكر، يا صفية، تسبين أبا بكر** ". (٢)

قلت: والجواب عليه أنه من رواية محمد بن عمر الواقدي؛ وهو متروك.

الرواية الثامنة: عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا- قال غير مسدد تعني: قصيرة- فقال: " **لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته** "، قالت: وحكيت له إنسانًا قال: ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا. (٣)

---

(١) **ضعيف**. وفي المتن نكارة. وقد سبق تخريجه في شبهة " تطاول عائشة على النبي ﷺ " الوجه الثاني.

(٢) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٨٠) من طريق محمد بن عمر الواقدي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن جعفر، عن ابن أبي عون به، وفيه الواقدي متروك.

(٣) **صحيح**. أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) من طريقه الجصاص في أحكام القرآن باب في قضايا البغاة (٥/ ٢٩٠)، وأخرجه الترمذي (٢٥٠٢) وفي (٢٥٠٣) وأحمد (٦/ ٢٠٦)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق باب ما جاء في الغيبة من الكراهة (١٩٥) وفي (١٩٨) وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (٢٠٦) وفي كتاب ذم الغيبة والنميمة

وهذا حديث صحيح والرد عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن عائشة بشر يخطئ ويصيب ولا نعتقد فيها العصمة.

الوجه الثاني: أن كلامها في صفية خرج مخرج الغيرة، وهي فطرية في المرأة.

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ نهاها واستجابت وتابت إلى الله ﷻ.

الوجه الرابع: أنها هي التي روت لنا هذا الحدث، وكان يمكن أن لا نعرف عنه شيئًا؛ ولكنها روته لما فيه من الفوائد فانظرها في الحاشية؛ وهي وجه خامس.

ونحن نذكرها لنعرف كيف نستفيد من البيت النبوي، ولنعرف كيف ننظر إليه بعين الاتباع لا بعين النقد. (١)

---

(٧٤)، وابن الجعد في مسنده (١٧٣٦)، ومن طريقه أبو الشيخ في التوبيخ والبيان باب صفة الغيبة، وأخرجه إسحاق بن راهويه (١٥٩٧) عن سفيان الثوري قال حدثني علي بن الأقمر، عن أبي حذيفة، عن عائشة به وبألفاظ متقاربة والمعنى واحد وقال الترمذي: حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٤٠).

(١) يستفاد من الحديث حرمة الغيبة [والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل، والنصيحة؛ كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر، قال: " **ائذنوا له؛ بئس أخو العشيرة** "، وكقوله لفاطمة بنت قيس – وقد خطبها معاوية وأبو الجهم-: " **أما معاوية فصعلوك وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**"، وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت؛ كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعًا، فاكرهوا ذاك شرعًا؛ فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها؛ انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٠).

٢- ويستفاد منه أن حرمتها شديدة كبيرة، والمعنى أن هذه الغيبة لو كانت مما يمزج بالبحر لغيرته عن حاله مع كثرته وغزارته، فكيف بأعمال نزرة خلطت بها؛ قال النووي: هذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث بلغ في ذمها هذا المبلغ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾؛ فيض القدير (٥/ ٤١١).

٣- ومنها أن من الغيبة المحرمة المحاكاة بأن يمشي متعارجًا أو مطاطيًا رأسه أو غير ذلك من الهيئات؛ فيض القدير (٥/ ٤١١).

٤- ومنها أن الغيبة المحرمة هي أن يكون في الإنسان ما يقوله القائل؛ لأن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشار في الناس، حتى لا يسلم منها إلا القليلُ من الناس؛ وهي ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواءً كان في دينه، أو بدنه، أو نفسه، أو خلقه، أو ماله، أو ولده، أو والده، أو زوجته، أو خادمه، أو عمامته، أو ثوبه، أو مشيته، أو حركته، أو بشاشته، أو خلاعته، أو غير ذلك مما يتعلق به؛ سواءً ذكرته بلفظك، أو بكتابك، أو رمزت إليه بعينك أو يدك أو

الوجه الخامس: لعل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عنها قالت هذا القول وهي لا تعلم أن هذا يدخل في الغيبة فلما علمت كفت.

* * *

رأسك، أو نحو ذلك. فأما الدين فكقولك: سارق، خائن، ظالم متهاون بالصلاة، متساهل في النجاسات، ليس بارًا بوالديه، قليل الأدب، لا يضع الزكاة مواضعها، ولا يجتنب الغيبة. وأما البدن فكقولك: أعمى، أو أعرج، أو أعمش، أو قصير، أو طويل، أو أسود، أو أصفر، وأما غيرهما: فقولك: فلان قليل الأدب، متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقًا، كثير النوم، كثير الأكل، وما أشبه ذلك: أو كقولك: فلان أبوه نجار، أو إسكافي، أو حداد، أو حائك؛ تريد تنقيصه بذلك، أو فلان سيء الخلق، متكبر مراء، معجب، عجول، جبار، ونحو ذلك: أو فلان واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثوب، ونحو ذلك: وفي صحيح مسلم، وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " أتدرون ما الغيبة؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " ذكرك أخاك بما يكره "، قيل: وإن كان في أخي ما أقول، قال: " إن كان فيه ما تقول فقد أغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته ". قال الترمذي: حديث حسن صحيح؛ المستطرف في كل فن مستظرف باب: في تحريم الغيبة.

٥- وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضًا تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا، الله يغفر لنا، الله يصلحه، نسأل الله العافية، نحمد الله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الكبر، يعافينا الله من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه، فكل ذلك غيبة محرمة؛ المستطرف باب: في تحريم الغيبة.

٦-ويؤخذ من إنكار النبي ﷺ أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها، فيجب على مَنْ يستمع إنسانًا يبتدئ بغيبة أن ينهاه إن لم يخف ضررًا؛ فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قال بلسانه: أسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك؛ قال بعض العلماء: إن ذلك نفاق؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾؛ الموضع السابق.

٧- ومنها همة النبي ﷺ في إنكار المنكر حتى لو صدر مِنْ أحب الناس إليه، وهذا من تمام عدل الإسلام.

٨- ومنها الإشارة إلى خطورة الكلمة حتى لو لم يلق الإنسان لها بالًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم "؛ البخاري (٦١١٣).

٩- ومنها أن الصحابة لو كتموا شيئًا من الدين لكتموا مثل هذه الأحاديث التي فيها عتاب لهم رضي الله عنهم.

١٠- دفاع النبي ﷺ عن صفية.

١١- العبرة في حسن المرأة في الإسلام أمام زوجها ليس الطول والقصر أو غير ذلك، وإنما هو الدين.

١٢ـ أخلاق عائشة مع أم حبيبة ـ رضي الله عنهما.

لقد رأى البعض أن عائشة كانت سيئة الأخلاق مع أم حبيبة؛ لأنه عندما قتل معاويةُ بن أبي سفيان محمدَ بن أبي بكر وأحرقه في جيفة حمار بعثت أم حبيبة إليها بكبش مشوي؛ وقالت لها: هكذا شوي أخوك فقالت عائشة: يا ابنة العاهرة، والله لا أكلت شواء أبدًا. فلم تأكل شواء حتى ماتت، ويتساءل: كيف يقع مثل هذا الشتم ممن وصفت بأم المؤمنين؟!.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إيراد هذه الرواية التي اعتمدوا عليها، وبيان حالها.

الوجه الثاني: تعريف مختصر بأم حبيبة وفضائلها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان حكم الرواية.

عن يزيد بن أبي حبيب قال: بعث معاويةُ عمروَ بن العاص في سنة ثمان وثلاثين إلى مصر ومعه أهل دمشق؛ عليهم يزيدُ بن أسد البجلي، وعلى أهل فلسطين رجل من خثعم، ومعاوية بن حديج على الخارجة، وأبو الأعور السلمي على أهل الأردن؛ فساروا حتى قدموا مصر، فاقتتلوا بالمسناة، وعلى أهل مصر محمد بن أبي بكر؛ فهزم أهل مصر بعد قتل شديد في الفريقين جميعًا.

قال عمرو: وشهدت أربعة وعشرين زحفًا فلم أرَ يومًا كيوم المسناة، ولم أرَ الأبطال إلا يومئذ، فلما هزم أهل مصر، تغيب محمد بن أبي بكر، فأخبر معاوية بن حديج بمكانه، فمشى إليه فقتله، وقال: يُقتل كنانة بن بشر ويترك محمد بن أبي بكر؟ وإنما أمرهما واحد، ثم أمر به معاوية بن حديج فجر فمر به على دار عمرو بن العاص، لما يعلم من كراهيته لقتله، ثم أمر به بجادًا التجيبي فأحرقه في جيفة حمار. [1]

---

(١) **ضعيف**. أخرجه محمد بن يوسف الكندي في كتاب الولاة والقضاة (١/ ٨) من طريق: محمد بن موسى الحضرمي قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن عميرة قال: حدثنا عبد الله يوسف، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب به؛ وهو مرسل؛ يزيد بن أبي حبيب من الخامسة وكان يرسل كما في التقريب (٧٧٠١).

والإسناد ضعيف من أجل ابن لهيعة، وبقية رجاله لم أجد فيهم كلامًا بجرح أو تعديل.

وللحديث طريق آخر عن يزيد بن حبيب أخرجه الكندي في ولاة مصر (١/ ٨) من طريق: أبي سلمة أسامة التجيبي قال: حدثني زيد بن أبي زيد، عن أحمد بن يحيى بن وزير، عن إسحاق بن الفرات، عن يحيى بن

والجواب عن هذا: أنه حديث مرسل وإسناده ضعيف، وعليه فلا تعويل عليه وله طريق موصولة إسنادها ضعيف جدًّا، ومع هذا فلم أجد قول عائشة لأم حبيبة (يا ابنة العاهرة) بإسناد صحيح ولا ضعيف، فهي كلمة مكذوبة مفتراة لم أقف لها على أصل' وبهذا تُبرأ السيدة عائشة رضي الله عنها من هذه الفرية المنسوبة إليها في أمر السيدة أم حبيبة رضي الله عنها، وكذلك تبرأ السيدة أم حبيبة كذلك. والله أعلم.

الوجه الثاني: ذكر بعض فضائل السيدة أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ.

هي: أم حبيبة أم المؤمنين السيدة المحجبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. وإليك بعض فضائلها:

١- أسلمت رملة مع زوجها في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

٢- وحينما اشتد الأذى بالمسلمين في مكة هاجرت رملة بصحبة زوجها؛ فارة بدينها، متمسكة بعقيدتها، متحملة الغربة والوحشة، تاركة الترف والنعيم التي كانت فيها، بعيدة عن مركز الدعوة والنبوة، متحملة مشاق السفر والهجرة، فأرض الحبشة بعيدة عن مكة،

أيوب، عن يزيد بن أبي حبيب بنحوه؛ وفيه هذه الزيادة: وأمرت أم حبيبة ابنة أبي سفيان بكبش فشوي، وبعثت به إلى عائشة، فقالت: هكذا شوي أخوك. قال: فلم تأكل عائشة شواء حتى لحقت بالله. اهـ.

وهذا إسناد فيه أسامة بن أحمد أبو سلمة التجيبي؛ قال أبو سعيد بن يونس: يعرف وينكر لم يكن في الحديث بذاك. لسان الميزان (١٠٥٢). وفيه زيد بن أبي زيد ترجم له الخطيب البغدادي (٨/ ٤٤٧) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

وللحديث رواية أخرى أخرجها الكندي في ولاة مصر؛ فقال: وحدثنا حسن المديني قال: حدثنا يحيى بن عبد الله ابن بكير قال: حدثني الليث، عن عبد الكريم بن الحارث به، ولكن هذا إسناد معضل؛ لأن عبد الكريم ثقة من السادسة، وهو من الذين عاصروا صغار التابعين التقريب (٤١٤٨)، وحسن المديني لم أجد له ترجمة.

وللأثر طريق ثالثة أخرجها الكندي كذلك في ولاة مصر (١/ ٨) فقال: حدثني موسى بن حسن بن موسى قال: حدثنا هارون بن أبي بردة قال: حدثني نصر بن مزاحم، عن أبي مخنف قال: حدثني عبد الملك بن نوفل، عن أبيه قال: (ما أكلت عائشة شواء بعد محمد حتى لحقت بالله)؛ وهذه هي الطريق المتصلة، ولكن ترجمتها تؤكد وضع هذا الحديث؛ لأن هذا الإسناد فيه نصر بن مزاحم رافضي جلد متروك الحديث؛ كما في لسان الميزان (٥٥١)، وشيخه لوط بن يحيى شيعي محترق هالك؛ اللسان (١٥٦٨، ١١١٦)، وعبد الملك بن نوفل مجهول الحال؛ وقال الحافظ: مقبول؛ التهذيب (٦/ ٣٧٩).

والطريق تتخلله العديد من الطرق الوعرة، والحرارة المرتفعة، وقلة المؤونة. كما أن رملة في ذلك الوقت، كانت في شهور حملها الأولى في حين نرى بأن سفر هذه الأيام سفر راحة ورفاهية، ووسائل النقل المتطورة ساعدت على قِصَر المسافة بين الدول، وبعد أشهر من بقاء رملة في الحبشة، انجبت مولودتها (حبيبة)؛ فكنيت (بأم حبيبة).

٣- ومن مناقبها أنها ثبتت على الإسلام في دار الغربة وقد مات زوجها.

٤- وهي من بنات عم الرسول ﷺ، ليس في أزواجه من هي أقرب نسبًا إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها.

٥- عُقد له ﷺ عليها بالحبشة، وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مئة دينار، وجهزها بأشياء.

٦- وكان لها يوم قدم بها المدينة بضع وثلاثون سنة وقد كان لأم حبيبة حرمة وجلالة، ولاسيما في دولة أخيها، ولمكانه منها قيل له خال المؤمنين.

٧- ولما جهز الرسول ﷺ المسلمين لفتح مكة، وبالرغم من معرفة أم حبيبة لهذا السر، إلا أنها لم تخبر أباها، وحافظت على سر رسول الله ﷺ وسر المسلمين، ففتح المسلمون مكة، ودخل العديد من المشركين في دين الله، وأسلم أبو سفيان، فتكاملت أفراح أم حبيبة وشكرت الله على هذا الفضل العظيم، وفي هذا الموقف إشارة إلى أنه يجب على المرأة المسلمة حفظ سر زوجها، وعدم البوح به حتى لأقرب الناس إليها، لذلك يجب على الزوجة الصالحة المحافظة على بيت الزوجية وعدم البوح بالأسرار.

٨- وأما روايتها للحديث فقد روت أم حبيبة رضي الله عنها عدة أحاديث عن الرسول ﷺ بلغ مجموعها خمسة وستين حديثًا، وقد اتفق لها البخاري ومسلم على حديثين. تُوفيت قبل معاوية بسنة.

وهكذا جمعت من المناقب أنها صحابية جليلة، ابنة صحابي زعيم، وأخت خليفة، وزوجة خاتم النبيين محمد ﷺ [1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٨).

١٣ـ أخلاق عائشة مع مارية القبطية رضي الله عنهن.

نص الشبهة:

هذه الشبهة خاصة بأخلاق عائشة رضي الله عنها مع مارية القبطية رضي الله عنها، وهي منصبة حول الغيرة كغيرها، واعتمادهم في هذه الشبهة على عدة روايات تذكر ما قالته عائشة وما فعلته تجاه مارية القبطية منذ اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، وهذه الروايات منها ما صح وأسيء فهمه، ومنها ما لم يصح وأورد مورد الصحيح، ونحن نورد هذه الروايات وما صح منها وجهناه واستخرجنا منه الفوائد النافعة، وما لم يصح بيناه بعون الله تعالى.

الرواية الأولى: عن عائشة قالت: ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية وذاك أنها كانت جميلة من النساء وأعجب بها رسول الله ﷺ وكان أنزلها في أول ما قدم بها في بيت حارثة بن النعمان فكانت جارتنا فكان عامة النهار والليل عندها حتى فرغنا لها فجزعت فحولها إلى العالية وكان يختلف إليها هناك فكان ذلك أشد علينا ثم رزق منها الولد وحرمناه منه.(١)

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن في إسنادها ما يدل على أنها موضوعة؛ وتفصيل ذلك كما في الحاشية.

الوجه الثاني: أن قولها: يكون عندها عامة النهار والليل يخالف ما تواتر عن النبي ﷺ من القسم بين الزوجات، والعدل بينهن حتى قالت عائشة نفسها: كان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه. . . الحديث.

قال ابن عساكر: وكانت له ﷺ سريتان يقسم لهما مع أزواجه: مارية القبطية أم إبراهيم،

---

(١) موضوع. أخرجه الزبير بن بكار في المنتخب من كتاب أزواج النبي (٢٠) من طريق: محمد بن حسن، عن محمد بن موسى، عن فليح بن سليمان، عن أيوب بن عبد الرحمن بن صعصعة، عن أيوب بن بشير قال: قالت عائشة: وذكره، وهذا إسناد فيه أكثر من علة؛ الأولى: فيه محمد بن الحسن بن زبالة قال ابن معين وأبو داود: كذاب خبيث وقال النسائي والدارقطني: متروك الحديث. تهذيب التهذيب ٩/ ١٠١، والتقريب (٥٨١٥).
الثانية: فيه محمد بن موسى الفطري بكسر الفاء وسكون الطاء المدني صدوق رمي بالتشيع من السابعة. التقريب (٦٣٣٥)، و التهذيب ٩/ ٤٢٣، قلت: وتشيعه سبب لرد روايته في هذا الباب الثالثة: وفيه فليح بن سليمان قال ابن حجر: صدوق كثير الخطأ. التقريب (٥٤٤٣). وعليه فهذه رواية موضوعة مكذوبة، والحديث له طريق آخر أخرجه ابن سعد ٨/ ٢١٢ولكن من طريق الواقدي وهو متروك الرواية.

وريحانة بنت شمعون الخنافية إحدى بني النضير. قال ابن أبي مليكة: فسألت عائشة عن قسمة النبي ﷺ لأمي ولده فقالت: كان يقسم لهما مرة ويدعهما مرة؛ فإذا قسم أضعف قسمنا فلإحداهن يوم ولنا يومان، وعلى ذلك قسم للمرأة المملوكة النصف مما قسم للحرة. (١)

الوجه الثالث: وإذا كان أعجب بها فلماذا لم يتخذها زوجة، وما الذي منعه من ذلك!

وقد صنع مثله بجويرية وصفية ﵄ مع العلم بأنه كان قد اتخذ مارية قبل التحريم حيث ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لَمَّا خيرهن رسول الله ﷺ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجًا غيرهن ولو أعجبه حسنهن، إلا الإماء والسراري، فلا حرج عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك، ونسخ حكم هذه الآية وأباح له التزوج؛ ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن(٢).

قلت: فثبت بهذا التقرير بطلان طعنهم في أم المؤمنين ﵂ بسبب هذه الرواية.

الرواية الثانية: التي استدلوا بها على سوء أخلاق عائشة مع مارية:

عن أبي هريرة ﵁ قال: دخل رسول الله ﷺ بمارية القبطية سريته بيت حفصة بنت عمر، فوجدتها معه، فقالت: يا رسول الله، في بيتي من بين بيوت نسائك؟ قال: "**فإنها علي حرام أن أمسها يا حفصة، واكتمي هذا علي**" فخرجت حتى أتت عائشة، فقالت: يا بنت أبي بكر، ألا أبشرك؟ فقالت: بماذا؟ قالت: وجدت مارية مع رسول الله ﷺ في بيتي، فقلت: يا رسول الله في بيتي من بين بيوت نسائك؟ وبي تفعل هذا من بين نسائك؟ فكان أول السرور أن حرمها على نفسه، ثم قال لي: " **يا حفصة، ألا أبشرك؟** " فقلت: بلى بأبي وأمي يا رسول الله، فأعلمني أن أباك يلي الأمر من بعده، وأن أبي يليه بعد أبيك، وقد

---

(١) تاريخ دمشق ٣/ ١٦٧.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٦٢).

استكتمني ذلك فاكتميه، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ أي: من مارية: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ أي: حفصة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: لما كان منك، ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾، ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ يعني حفصة، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ يعني عائشة، ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي بالقرآن ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ عرف حفصة ما أظهرت من أمر مارية، ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ عما أخبرت به من أمر أبي بكر، وعمر، فلم يثربه عليها، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، ثم أقبل عليها يعاتبها، فقال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني أبا بكر وعمر، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾، فوعده من الثيبات آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وأخت نوح، ومن الأبكار مريم بنت عمران، وأخت موسى عليهم السلام.(١)

والجواب عن هذه الشبهة: أن الرواية ساقطة باطلة بهذا السياق كما هو مبين في الحاشية، وإذا علم أن الرواية باطلة فما انفردت به عن الروايات الصحيحة لا حجة فيه ولا اعتبار به

الرواية الثالثة: عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: خرجت حفصة من بيتها، وكان يوم عائشة، فدخل رسول الله ﷺ بجاريته وهي مخمر وجهها فقالت حفصة لرسول الله: أما إني قد رأيت ما صنعت. فقال لها رسول الله: " **فاكتمي عني وهي حرام** ". فانطلقت حفصة إلى عائشة فأخبرتها

---

(١) **باطل بهذا السياق**. أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣١٦)، والعقيلي في الضعفاء في ترجمة موسى بن جعفر ٤/ ١٥٥، ومن طريقه ابن عساكر في التاريخ (٤٤/ ٢٣٤) كلاهما من طريق موسى بن جعفر بن أبي كثير مولى الأنصار، عن عمه، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة به. وقال العقيلي في ترجمة موسي بن جعفر: مجهول بالنقل لا يتابع على حديثه ولا يصح إسناده، ثم أسند هذا الحديث وقال بعده: ولا يعرف إلا به وقال الذهبي في الميزان (٤/ ٢٠١ (٨٨٥٣) موسى بن جعفر الأنصاري، عن عمه. لا يعرف، وخبره ساقط. ثم ساق الحديث من رواية العقيلي وقال بعده: قلت: هذا باطل.

وبشرتها بتحريم القبطية، فقالت له عائشة: أما يومي فتعرس فيه بالقبطية، وأما سائر نسائك فتسلم لهن أيامهن! فأنزل الله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾، لحفصة، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يعني عائشة وحفصة، ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾، يعني حفصة وعائشة، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية. فتركهن رسول الله، ﷺ تسعًا وعشرين ليلة ثم نزل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأمر فكفر يمينه وحبس نساءه عليه[١]

الرواية الرابعة: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يطأ مارية فقال لها رسول الله ﷺ: **" لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة أن أباك يلي الأمر من بعد أبي بكر إذا أنا مت "** فذهبت حفصة فأخبرت عائشة، فقالت عائشة لرسول الله ﷺ: من أنبأك هذا؟ قال: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فقالت عائشة: لا أنظر إليك حتى تحرم مارية فحرمها فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾[٢]

---

(١) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٦٨ من طريق الواقدي قال: حدثنا عمر بن عقبة عن شعبة قال: سمعت ابن عباس وذكره وهي رواية ساقطة لتفرد الواقدي بهذا السياق، وشيخه عمر بن عقبة لم أجد له ترجمة، وشعبة مولى ابن عباس: قال يحيى بن سعيد القطان: فقلت لمالك بن أنس ما تقول في شعبة مولى ابن عباس، فقال: لم يكن يشبه القراء، وله أحاديث كثيرة ولا يحتج به كما في الطبقات الكبرى (٥/ ٢٩٤) وقال الجوزجاني، والنسائي، وأبو حاتم: ليس بقوي، وقال أبو زرعة، والساجي: ضعيف، وقال ابن حبان: روى عن ابن عباس ما لا أصل له حتى كأنه ابن عباس آخر. تهذيب التهذيب (٤/ ٣٠٣)

(٢) منكر. أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٦٤٠)، من طريق إبراهيم بن نائلة الأصبهاني قال: حدثنا إسماعيل البجلي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي سنان، عن الضحاك، عن ابن عباس به. وقال ابن كثير: إسناده فيه نظر، وهذا بيانه:

إسماعيل بن عمرو البجلي: قال ابن عدي: حدث بأحاديث لا يتابع عليها، وضعفه أبو حاتم والدارقطني ولما ذكره ابن حبان في الثقات قال: يغرب كثيرًا وقال أبو الشيخ في الطبقات: غرائب حديثه تكثر، وقال الأزدي: منكر الحديث، وقال العقيلي نحوه، وزاد ويحمل على من لا يحتمل. لسان الميزان (١٣٢٣).

والجواب على هذه الشبهة أن الرواية منكرة كما في الحاشية. وقد سبق بيان ذلك مفصلًا في شبهة مستقلة.

الرواية الخامسة: عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها فوجدت حفصة فقالت: يا نبي الله لقد جئت إلي شيئًا ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي قال: ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها قالت: بلى فحرمها، وقال: " **لها لا تذكري ذلك لأحد** " فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب جاريته. (١)

والجواب عن هذه: أن هذه القصة مدرجة عند ابن إسحاق في حديث ابن عباس عن عمر كما قال الحافظ في الفتح(٢)، وعليه فهي لا تصح ولا متمسك لهم فيها.

الرواية السادسة: عن ابن عباس قال: كنت أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن قول الله ﷻ وإن تظاهرا عليه فكنت أهابه، حتى حججنا معه حجة فقلت: لئن لم أسأله في هذه الحجة لا أسأله فلما قضينا حجنا أدركناه وهو ببطن مرو قد تخلف لبعض حاجته فقال: مرحبًا يا بن عم رسول الله، ما حاجتك، قلت: شيء كنت أريد أن أسألك عنه يا أمير المؤمنين فكنت أهابك فقال: سلني عم شئت، فإنا لم نكن نعلم شيئًا حتى تعلمنا، فقلت: أخبرني عن قول الله ﷻ ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ من هما؟ فقال: لا تسأل أحدًا أعلم بذلك مني، كنا بمكة لا تكلم

وكذلك في الإسناد انقطاع لأن الضحاك بن مزاحم كان شعبة ينكر أن يكون لقي ابن عباس وقال الهيثمي: لم يسمع من ابن عباس، وعليه فهذا حديث منكر.

(١) أخرجها ابن جرير في التفسير (١٢/ ١٤٧) من طريق سعيد بن يحيى حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس به. وهي مدرجة، وفي الإسناد عنعنة محمد بن إسحاق وهو مدلس.

(٢) الفتح ٨/ ٦٥٧.

أحدنا امرأته، إنها هن خادم البيت، فإذا كان له حاجة سفع برجليها فقضى منها حاجته، فلما قدمنا المدينة تعلمن من نساء الأنصار، فجعلن يكلمننا ويراجعننا، وإني أمرت غلمانا لي ببعض الحاجة، فقالت امرأتي: بل اصنع كذا وكذا، فقمت إليها بقضيب فضربتها به، فقالت: يا عجبا لك يا ابن الخطاب، تريد ألا تكلم، فإن رسول الله ﷺ يكلمنه نساؤه، فخرجت فدخلت على حفصة، فقلت: يا بنية انظري، لا تكلمي رسول الله ﷺ في شيء، ولا تسأليه، فإن رسول الله ﷺ ليس عنده دنانير ولا دراهم يعطيكهن، فما كانت لك من حاجة حتى دهن رأسك فسليني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مصلاه، وجلس الناس حوله حتى تطلع الشمس، ثم دخل على نسائه امرأة امرأة، يسلم عليهن، ويدعو لهن، فإذا كان يوم إحداهن جلس عندها، وإنها أهديت لحفصة بنت عمر عكة عسل من الطائف أو من مكة، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل عليها يسلم حبسته حتى تلعقه منها أو تسقيه منها، وإن عائشة أنكرت احتباسه عندها، فقالت لجويرية عندها حبشية يقال لها: خضراء: إذا دخل على حفصة فادخلي عليها، فانظري ما يصنع، فأخبرتها الجارية ما يصنع بشأن العسل، فأرسلت عائشة إلى صواحبها فأخبرتهن، وقالت: إذا دخل عليكن فقلن: إنا نجد منك ريح مغافير، ثم إنه دخل على عائشة، فقالت: يا رسول الله، أطعمت شيئا منذ اليوم؟ فإني أجد منك ريح مغافير، وكان رسول الله ﷺ أشد شيء عليه أن يوجد منه ريح شيء، فقال: " **هو عسل، والله لا أطعمه أبدًا** "، حتى إذا كان يوم حفصة، قالت: يا رسول الله، إن لي حاجة إلى أبي، إن نفقة لي عنده، فائذن لي أن آتيه، فأذن لها، ثم إنه أرسل إلى مارية جاريته، فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها، فأتت حفصة، فوجدت الباب مغلقا، فجلست عند الباب، فخرج رسول الله ﷺ وهو فزع، ووجهه يقطر عرقًا، وحفصة تبكي، فقال: " **ما يبكيك؟** " فقالت: إنها أذنت لي من أجل هذا، أدخلت أمَتَكَ بيتي ثم وقعت عليها على فراشي، ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن، أما والله ما يحل لك هذا يا رسول الله، فقال: " **والله ما صدقت، أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي؟ أشهدك أنها علي حرام، ألتمس بذلك رضاك، انظري ألا تخبري بهذا امرأة منهن، فهي عندك أمانة** "، فلما

خرج رسول الله ﷺ، قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة، فقالت: ألا أبشرك؟ إن رسول الله ﷺ قد حرم أمته، وقد أراحنا الله منها، فقالت عائشة: أما والله لقد كان يريبني أنه يقيل من أجلها، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ فهي عائشة وحفصة، وزعموا أنهما كانتا لا تكتم إحداهما الأخرى شيئًا، وكان لي أخ من الأنصار إذا حضرت وغاب في بعض ضيعته حدثته بما قال رسول الله ﷺ، وإذا غبت في بعض ضيعتي حدثني، فأتاني يومًا وقد كنا نتخوف جبلة بن الأيهم الغساني، فقال: ما دريت ما كان؟ فقلت: وما ذاك، لعل جبلة بن الأيهم الغساني يذكر؟ فقال: لا، ولكنه أشد من ذلك، إن رسول الله ﷺ صلى الصبح فلم يجلس كما كان يجلس، ولم يدخل على أزواجه كما كان يصنع، وقد اعتزل في مشربته، وقد تركت الناس يموجون، ولا يدرون ما شأنه؟ فأتيت والناس في المسجد يموجون ولا يدرون، فقلت: يا أيها الناس، كما أنتم، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو في مشربته قد جعلت له عجلة فرقى عليها، فقلت لغلام له أسود وكان يحجبه: استأذن لعمر بن الخطاب، فاستأذن لي فدخلت ورسول الله ﷺ في مشربته فيها حصير وأهب معلقة، وقد أفضى بجنبه إلى الحصير، فأثر الحصير في جنبه، وتحت رأسه وسادة من أدم محشوة ليفًا، فلما رأيته بكيت، فقال: " **ما يبكيك؟** " قلت: يا رسول الله، فارس والروم يضطجع أحدهم في الديباج والحرير، فقال: " **إنهم عجلت لهم طيباتهم في الدنيا، والآخرة لنا** "، ثم قلت: يا رسول الله، ما شأنك؟ فإني قد تركت الناس يموج بعضهم في بعض، فعن خبر أتاك اعتزلتهن؟ فقال: " **لا ولكن بيني وبين أزواجي شيء، فأقسمت ألا أدخل عليهن شهرًا** "، ثم خرجت على الناس فقلت: يا أيها الناس، ارجعوا، فإن رسول الله ﷺ كان بينه وبين أزواجه شيء فأحب أن يعتزل. ثم دخلت على حفصة، فقلت: يا بنية، أتكلمي رسول الله ﷺ وتغيظين وتغارين عليه؟ فقالت: لا أكلمه بعد بشيء يكرهه، ثم دخلت على أم سلمة وكانت خالتي، فقلت لها كما قلت لحفصة، فقالت: عجبًا لك يا عمر بن الخطاب، كل شيء تكلمت فيه حتى تريد أن تدخل بين رسول الله ﷺ وبين أزواجه، وما يمنعنا أن نغار على رسول الله

ﷺ وأزواجكم يغرن عليكم فأنزل اللهﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾﴾ اهـ.[(١)]

والجواب على هذه الشبهة: أن هذه الزيادة المفصلة لقصة مارية ضعيفة كما هو مبين في الحاشية.

الرواية السابعة: عن محمد بن جبير بن مطعم قال: خرجت حفصة من بيتها فبعث رسول الله ﷺ إلى جاريته فجاءته في بيت حفصة، فدخلت عليه حفصة وهي معه في بيتها فقالت: يا رسول الله، في بيتي وفي يومي وعلى فراشي! فقال رسول الله: " **اسكتي فلك الله لا أقربها أبدا، ولا تذكريه** ". فذهبت حفصة فأخبرت عائشة فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، فكان ذلك التحريم حلالًا، ثم قال: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، فكفر رسول الله عن يمينه حين آلى، ثم قال: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾، يعني حفصة، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾، حين أخبرت عائشة، ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾، يعني حفصة لما أخبره الله، قالت حفصة: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾؟ قال: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾، يعني حفصة وعائشة، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾، لعائشة وحفصة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾، الآية. فقال رسول الله: ما أنا بداخل عليكن شهرًا.[(٢)]

---

(١) الطبراني في الأوسط (٨٧٦٤). من طريق: مطلب بن شعيب، ثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن يزيد بن رومان، عن ابن عباس به. ثم قال: لم يرو هذا الحديث عن يزيد بن رومان إلا سعيد بن أبي هلال، ولا عن سعيد إلا خالد بن يزيد تفرد به الليث. اهـ

قلت: وهذه الزيادة التي ذكرت قصة مارية بهذا التفصيل عن عمر ﵁ تفرد بها يزيد بن رومان عن ابن عباس﵄، وخالفه عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عند البخاري، وعبيد بن حنين عند البخاري مختصرًا ومقتصرًا على إجابة السؤال وعلي بن حسين عند النسائي في الكبرى. ويزيد ابن رومان ثقة خرج له الجماعة ولكن في الإسناد إليه عبد الله بن صالح المصري كاتب الليث تفرد بهذه الزيادة وهو وإن كان صدوقا في نفسه لكنه سيء الحفظ وفيه غفلة، وكتابه أدخل فيه ما ليس منه بفعل خالد بن يحيى فظنه من حديث شيوخه، وعليه فهو ضعيف لا يحتمل التفرد وقد تفرد بهذه الزيادة فهي ضعيفة لا تصح اهـ.

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته ٨/ ١٨٦، والبلاذري في أنساب الأشراف (١/ ١٨٧) من طريق الواقدي قال: حدثنا موسى بن يعقوب، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جبير بن مطعم قال: وذكره.

والجواب عن هذه الشبهة: أن الرواية من طريق محمد بن عمر مع كونه مرسل، ومن خلال ما مر نعلم أن هذه الروايات السالفة لا تخلو من مقال ونظر، وأما الصحيح في القصة فهاهو: عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حَرَّمها، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾؟ إلى آخر الآية. (١)

قلت: فهذا هو ما صح وما في الروايات السابقة من زيادات على هذا فهو منكر ولا أصل له صحيح، وأما توجيه هذه الرواية الصحيحة بالنسبة لما صدر من عائشة وحفصة فمن وجوه:

الأول: أن هذا من قبيل الغيرة الفطرية وكذلك بالنسبة لحفصة رضي الله عنها وقد سبق الكلام عن هذه الغيرة الفطرية

الثاني: أن الذي زاد من الغيرة أنه وقع في بيت حفصة وفي بيت عائشة على فرض صحة هذه الزيادة.

الثالث: أن ما فعله النبي ﷺ دليل على مكانة حفصة، وعائشة عنده وعلى حسن عشرته لهما ﷺ.

ثانيًا: هل هناك تناقض واضح في سبب الآية الأولى من سورة التحريم، بحيث لا يمكن الجمع بين هذه الأسباب؟ حيث ظن البعض أن كثرة الروايات لقصة المغافير يدل على أنها ملفقة لستر أمر آخر.

والرد على ذلك من وجوه:

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٧١)، وفي الكبرى (٨٨٥٧، ١١٥٤٣) من طريق إبراهيم بن يونس بن محمد، حدثنا أبي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس به وقال: ابن حجر: (فتح الباري ٣٧٦/ ٩) إسناده صحيح، وقال الهيثم بن كليب في مسنده: حدثنا أبو قِلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: **"لا تخبري أحدًا، وإن أم إبراهيم عليَّ حرام"**. فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: **"فوالله لا أقربها"**. قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج، وقال ابن حجر في التلخيص بعد سوق هذه الطرق: وبمجموع هذه الطرق يتبين أن للقصة أصلًا، أحسب لا كما زعم القاضي عياض أن هذه القصة لم تأت من طريق صحيح، وغفل رحمه الله عن طريق النسائي التي سلفت فكفى بها صحة، والله الموفق. تلخيص الحبير (٣/ ١٠٩)

الوجه الأول: ذكر الاختلاف في سبب النزول مجملًا مع تصديره بالقول الراجح.

الوجه الثاني: ذكر كل قول من الأقوال على حدة مع ذكر دليله معه.

الوجه الثالث: وجه الجمع بين هذه الروايات.

الوجه الرابع: هل هناك علاقة بين هاتين القصتين وبين هجر النبي ﷺ لأزواجه؛ لأن البعض يتساءل: هل كان ابتعاده ﷺ عن نسائه مرتبطًا بسورة التحريم أو الأحزاب أم كان الهجر أكثر من مرة؟.

واليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الخلاف مجملًا في سبب نزول صدر سورة التحريم.

اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية على ثلاثة أقوال

الأول: أنها نزلت في تحريم العسل وهذا هو الراجح، وأما التي كان يشرب عندها العسل فهي زينب وهو الراجح، وفي رواية أنها حفصة، وقيل سودة، وقيل أم سلمة. والراجح الأول.

الثاني: أنها نزلت في تحريم مارية ونسبه القرطبي إلى أكثر المفسرين، ويمكن الجمع بين هذا السبب والذي قبله.

الثالث: أنها نزلت في تحريم الواهبة نفسها للنبي ﷺ وهو قول ضعيف غريب.

قال ابن كثير: والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، وقال القرطبي: وهو أصحها وبعد هذا الإجمال نذكر هذه الأقوال بأدلتها

أولا: نزلت في تحريم العسل وقد اختلف العلماء في تحديد التي كان يشرب عندها العسل. فقيل زينب بنت جحش ودليل هذا القول حديث عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أَيَّتُنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير إني أجد منك ريح مغافير قال: " **لا ولكني كنت**

أشرب عسلًا عند زينت بنت جحش، فلن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا " ﴿**تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ**﴾ هكذا أورد هذا الحديث هاهنا بهذا اللفظ. (١)

ورواه في كتاب الأيمان والنذور مطولًا عن عائشة ﵂أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلًا فتواطأت أنا وحفصة أن أيّتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل له إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير، فدخل على إحداهما النبي ﷺ فقالت ذلك له فقال: " **لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزلت** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ لقوله: **بل شربت عسلًا**، وقال إبراهيم بن موسى عن هشام: " **ولن أعود له وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحدًا**"(٢)

وقيل كان يشرب عند حفصة: والدليل على ذلك ما روته عائشة﵂ عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس فغرت، فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة فقلت: أما والله لنحتالن له فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي أكلت مغافير، فإنه سيقول لك لا، فقولي له ما هذه الريح التي أجد، فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل، فقولي جرست نحله العرفط، وسأقول لك وقولي له أنت يا صفية ذلك قالت: تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقا منك، فلما دنا منها قالت له

---

(١) البخاري (٤٦٢٨).

(٢) البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (١٤٧٤).

سودة: يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: " **لا** " قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: " **سقتني حفصة شربة عسل** " قالت: جرست نحلة العرفط، فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: " **لا حاجة لي فيه** " قالت: تقول سودة والله لقد حرمناه، قلت لها اسكتي[(١)].

وقد رواه مسلم عن سويد بن سعيد، عن علي بن مسهر به، و{عن أبي كريب، وهارون بن عبد الله، والحسن بن بشر} ثلاثتهم عن أبي أسامة حماد بن أسامة، عن هشام بن عروة به وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح يعني الريح الخبيثة ولهذا قلن له أكلت مغافير؛ لأن ريحها فيه شيء فلما قال: " **بل شربت عسلًا** ". [(٢)]

قال ابن حجر: ووجدت لقصة شرب العسل عند حفصة شاهدًا في تفسير بن مردويه من طريق يزيد بن رومان عن ابن عباس ورواته لا بأس بهم وقد أشرت إلى غالب ألفاظه. [(٣)]

قلت: ففي هذه الرواية أن التي سقت العسل لرسول الله ﷺ هي حفصة رضي الله عنها.

وقيل كان يشرب العسل عند سودة رضي الله عنها

كما رواه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحًا، ثم دخل على حفصة فقالت: إني أجد منك ريحًا. فقال: " **أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه** " فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

قال ابن حجر: وأخرج بن مردوية من طريق بن أبي مليكة عن ابن عباس أن شرب العسل كان عند سودة[(٤)(٥)]. وهناك رواية تقول بأن شرب العسل كان عند أم سلمة رضي الله عنها.

(١) البخاري (٤٩٦٧) واللفظ له، ومسلم (١٤٧٤).

(٢) سبق تخريجه

(٣) فتح الباري ٩/ ٣٧٧

(٤) فتح الباري ٩/ ٣٧٦

(٥) الطبراني في الكبير (١١٢٢٦)، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح المجمع ٧/ ٢٦٩(١١٤٢٦).

قال ابن حجر رحمه الله: ووقع في تفسير السدي أن شرب العسل كان عند أم سلمة أخرجه الطبري وغيره وهو مرجوح لإرساله وشذوذه. والله أعلم. (١)

فالروايات الصحيحة الآن تدور على ثلاثة زينب وحفصة وسودة رضي الله عنهن والراجح أنه كان عند زينب ولا يمنع ذلك من وقوع الشرب عند حفصة وسودة في وقت آخر وقد تسبب هذا الاختلاف في تعارض واضطراب عند البعض فما هو وجه الجمع أو الترجيح وسيأتي جواب ذلك بعد ذكر القول الثاني في سبب نزول الآية.

القول الثاني: أنه كان في تحريم مارية ودليل هذا القول ما يلي:

عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية. (٢)

وقال ابن كثير: وكذا روي عن قتادة وغيره عن الشعبي نفسه، وكذا قال غير واحد من السلف منهم الضحاك والحسن وقتادة ومقاتل ابن حيان اهـ(٣).

الوجه الثاني: وجه الجمع بين هذين القولين.

هذان القولان صحيحان في سبب نزول الآية شرب العسل وتحريم مارية.

١ - **قال ابن كثير بعد ذكر حديث حفصة السابق**: والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل وهو من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن خالته عائشة، وفي طريق ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة: أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه. فالله أعلم، وقد يقال إنهما واقعتان ولا بعد في ذلك إلا أن كونهما سببًا لنزول هذه الآية فيه نظر. والله أعلم ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان في الحديث الذي رواه ابن عباس قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له

---

(١) فتح الباري ٩/ ٣٧٧

(٢) سبق تخريجه؛ وهو صحيح

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٥).

حتى خرج حاجًا فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت حتى فرغ ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين من اللتان ظاهرتا على النبي ﷺ [١]، ولمسلم: من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ قال عائشة وحفصة[٢]، ثم ساق الحديث بطوله ومنهم من اختصره.

قلت: فهذا ابن كثير رحمه الله رجح أن سبب النزول في العسل، ولم يمنع في أنه شرب العسل عند زينب وعند حفصة لكن سبب النزول هو أحدهما.

٢- وأما الحافظ ابن حجر فقال: وطريق الجمع بين هذا الاختلاف، الحمل على التعدد فلا يمتنع تعدد السبب للأمر الواحد.

٣- فإن جنح إلى الترجيح فرواية عبيد بن عمير أثبت لموافقة ابن عباس لها على أن المتظاهرتين حفصة وعائشة على ما تقدم في الروايات السابقة من جزْمِ عمر بذلك، فلو كانت حفصة صاحبة العسل لم تقرن في التظاهر بعائشة؛ لكن يمكن تعدد القصة في شرب العسل وتحريمه واختصاص النزول بالقصة التي فيها أن عائشة وحفصة هما المتظاهرتان، ويمكن أن تكون القصة التي وقع فيها شرب العسل عند حفصة كانت سابقة، ويؤيد هذا الحمل أنه لم يقع في طريق هشام بن عروة التي فيها أن شرب العسل كان عند حفصة تعرض للآية ولا لذكر سبب النزول. [٣]

فهذا ابن حجر رحمه الله يرى أن القصة تعددت في الشرب والتحريم؛ ولكن النزول كان بعد قصة تظاهر عائشة وحفصة وهذا جلي بحمد الله لمن أراد الحق.

٤- والراجح أيضًا أن صاحبة العسل زينب لا سودة؛ لأن طريق عبيد بن عمير أثبت من طريق بن أبي مليكة بكثير، ولا جائز أن تتحد بطريق هشام بن عروة؛ لأن فيها أن سودة كانت ممن وافق عائشة على قولها أجد ريح مغافير، ويرجحه أيضا ما مضى في كتاب الهبة عن عائشة أن نساء النبي ﷺ

---

(١) البخاري (٤٦٢٩).

(٢) مسلم (١٤٧٩).

(٣) فتح الباري ٩/ ٣٧٦.

كن حزبين أنا وسودة وحفصة وصفية في حزب وزينب بنت جحش وأم سلمة والباقيات في حزب فهذا يرجح أن زينب هي صاحبة العسل، ولهذا غارت عائشة منها لكونها من غير حزبها والله أعلم.[١]

٥- وكذلك رجح القرطبي ترجيحًا واضحًا فقال: وإنما الصحيح أنه كان في العسل، وأنه شربه عند زينب وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، فجرى ما جرى فحلف ألَّا يشربه، وأسر ذلك ونزلت الآية في الجميع[٢].

وهذا موافق لترجيح ابن حجر السابق ولترجيح ابن كثير؛ لأنهم يتحدثون عن سبب النزول لاعن شرب العسل وعدد مراته، وسبب الشبهة عند صاحبها هو الربط بين هذا وذاك؛ لكن هذا لا يمنع وقوع كل هذا من تحريم مارية وشرب العسل عند حفصة وسودة، ثم نزول آية التحريم عند تظاهر عائشة وحفصة بعد شرب العسل عند زينب والله أعلم.

٦- ولنحو هذا مال الطبري رحمه الله فإنه جمع بين هذا كله بقوله:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرّمه النبيّ ﷺ على نفسه شيئًا كان الله قد أحله له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون كان شرابًا من الأشربة، وجائز أن يكون كان غير ذلك، غير أنه أيّ ذلك كان؛ فإنه كان تحريم شيء كان له حلالًا فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله، وبين له تحلة يمينه في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حرّم على نفسه. اهـ[٣]

٧- وممن جمع بين هذا كله الشوكاني رحمه الله فقال بعد ذكر السببين:

والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعًا، وفي كل واحد منهما أنه أسرّ الحديث إلى بعض أزواجه. وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما

---

(١) فتح الباري ٩/ ٣٧٦.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ١٥٧).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ١٤٧)، والأثر الذي استدل به إسناده حسن فيه مسلمة بن علقمة ضعفه أحمد، وقال أبوحاتم: صالح الحديث الكاسف (٥٤٤١)، والجرح والتعديل ٨/ ٢٦٧، وقال ابن حجر: صدوق له أوهام. التقريب (٦٦٦١).

أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ فأخبره أنهما عائشة وحفصة، ثم ذكر قصة الإيلاء، كما في الحديث الطويل، فليس في هذا نفي لكون السبب هو ما قدّمنا من قصة العسل، وقصة السرية؛ لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين، وذكر فيه أن أزواج النبيّ ﷺ يراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، وأن ذلك سبب الاعتزال لا سبب نزول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾. هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية، ودفع الاختلاف في شأنه، فاشدد عليه يديك؛ لتنجو به من الخبط والخلط الذي وقع للمفسرين. (١)

وقال ابن حجر: فيحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معًا.

الوجه الثالث: هل هناك صلة بين هذه القصة وبين اعتزال النبي نساءه شهرًا وهل كان الاعتزال مرتبطا بسورة التحريم أو بسورة الأحزاب؟

وأما عن صلة هذا التظاهر باعتزال النبي ﷺ نساءه شهرًا.

ففيه ما رواه الدارقطني عن عمر قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها، فقالت له: تدخلها بيتي ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك، فقال: " **لا تذكري هذا لعائشة فهي علي حرام إن قربتها** "، قالت حفصة: وكيف تحرم عليك وهي جاريتك؟ ، فحلف لها لا يقربها، فقال النبي ﷺ: " **لا تذكريه لأحد** "، فذكرته لعائشة فآلي لا يدخل على نسائه شهرًا فاعتزلهن تسعا وعشرين ليلة، فأنزل الله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الآية. (٢)

---

(١) فتح القدير (٥/ ٣٥١).

(٢) **ضعيف جدًّا بهذا السياق.** أخرجه الدارقطني كتاب الطلاق (١٢٢). و من طريقه الواحدي في أسباب النزول (٨٨٧) من طريق الحسين بن إسماعيل، نا عبد الله بن شبيب، حدثني إسحاق بن محمد، نا عبد الله بن عمر، حدثني أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس به وإسناده ضعيف فيه أكثر من علة.

١ - عبد الله بن شبيب أبو سعيد الربعي إخباري علامة لكنه واه قال أبو أحمد الحاكم: ذاهب الحديث يروي عن أصحاب مالك وبالغ فضلك الرازي فقال: يحل ضرب عنقه، وقال الحافظ عبدان: قلت لعبد الرحمن بن خراش: هذه الأحاديث التي يحدث بها غلام خليل من أين له؟ قال: سرقه من عبد الله بن شبيب وسرقها بن شبيب من النضر بن سلمة شاذان ووضعها شاذان بن عدي، وقال ابن حبان يقلب الأخبار ويسرقها، ونقل بن القطان الفاسي أن ابن خزيمة تركه.

وهذا الزيادة في هذه الرواية التي تصل اعتزال النبي ﷺ أزواجه بهذه القصة، وإسنادها ضعيف جدًّا، ولكن يشهد لكون اعتزاله ﷺ لأزواجه كان بعد عدة أمور هذا منها.

شبهة حول اعتزال النبي ﷺ لنسائه: حيث تساءل البعض قائلين ما هو السبب الفعلي وراء اعتزال النبي ﷺ لأزواجه؟ هل هو قضية إفشاء السر كما في سور التحريم؟ أم أنه السبب المذكور في سورة الأحزاب؟ ثم عقب السائل على ذلك بقوله وتأتي إجابات المسلمين عن ذلك مشوشة.

والرد على ذلك من وجوه: الوجه الأول: لقد جاء الجواب عن سبب التخيير عن أصحاب النبي ﷺ صريحًا أن التخيير والهجر كان بسبب سؤال النبي ﷺ النفقة والمال والمراجعة والتظاهر عليه ﷺ وهذه هي الروايات بذلك.

الرواية الأولى: عن جابر بن عبد الله، قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسًا ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل عمر، فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسًا حوله نساؤه، واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئًا أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة، سألتني النفقة، فقمت إليها، فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: " **هن حولي كما ترى، يسألنني النفقة** "، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئًا أبدا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرًا - أو تسعًا وعشرين - ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، قال: فبدأ بعائشة، فقال: " **يا عائشة، إني أريد أن أعرض**

٢- وإسحاق بن محمد قال أبو حاتم: كان صدوقا ولكن ذهب بصره فربما لقن وكتبه صحيحة، وقال مرة: يضطرب، وقال الآجري: سألت أبا داود عنه فوهاه جدًّا، وقال النسائي: متروك، وقال الدارقطني: ضعيف، وقد روى عنه البخاري؛ ويوبخونه في هذا، وقال الدارقطني: أيضا لا يترك، وقال الساجي: فيه لين، وقال العقيلي: جاء عن مالك بأحاديث كثيرة لا يتابع عليها، وقال الحاكم: عيب على محمد إخراج حديثه، وقد غمزوه.

٣- وعبد الله بن عمر العمري ضعيف عابد من السابعة.

عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك"، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله، أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله، والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: "**لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتًا، ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا**". [(١)]

قلت: فهذا صريح واضح في سبب الهجر والتخيير فأين التشويش في ذلك؟!

الرواية الثانية: وكذلك صرح عمر بن الخطاب ﷺ في ذكره للحديث الذي أخرجه مسلم رحمه الله عن ابن عباس قال: لم أزل حريصًا أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤). . . [(٢)]

وزاد البخاري بعد قول عمر: فقلت يا رسول الله استغفر لي.

فاعتزل النبي ﷺ من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة وكان قد قال ما أنا بداخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله. [(٣)]

قلت: ففي هذه الروايات عن عمر ﷺ أن اعتزاله كان بسبب مراجعته في عدة أمور، ومنها تظاهر عائشة وحفصة عليه، وهذا واضح من السياق في حديث عمر وجابر، ويوضح ذلك ابن حجر توضيحًا أكثر حيث قال: قوله: (ثم استقبل عمر الحديث يسوقه) أي القصة التي كانت سبب نزول الآية المسئول عنها.

وقال أيضًا: قوله: (لا تستكثري النبي ﷺ أي لا تطلبي منه الكثير) وفي رواية يزيد بن رومان (لا تكلمي رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ليس عنده دنانير ولا دراهم، فما كان لك من حاجة حتى دهنة فسليني) قوله: (ولا تراجعيه في شيء) أي لا ترادديه في الكلام ولا تردي عليه قوله: (ولا تهجريه) أي ولو هجرك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧٩).

(٣) البخاري (٢٣٣٦).

ثم قال أيضًا: قوله فاعتزل النبي ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث الذي أفشته حفصة إلى عائشة كذا في هذه الطريق لم يفسر الحديث المذكور الذي أفشته حفصة، وفيه أيضًا: وكان قال ما أنا بداخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله وهذا أيضًا مبهم ولم أره مفسرًا.

والمراد بالمعاتبة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾، وقد اختلف في الذي حرم على نفسه وعوتب على تحريمه كما اختلف في سبب حلفه على أن لا يدخل على نسائه على أقوال:

١- فالذي في الصحيحين أنه العسل.

٢- وذكرت في التفسير قولًا آخر أنه في تحريم جاريته مارية.

وذكرت هناك كثيرا من طرقه، ووقع في رواية يزيد بن رومان عن عائشة عند ابن مردويه ما يجمع القولين وفيه أن حفصة أهديت لها عكة فيها عسل، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل عليها حبسته حتى تلعقه أو تسقيه منها، فقالت: عائشة لجارية عندها حبشية- يقال لها خضراء-: إذا دخل على حفصة فانظري ما يصنع فأخبرتها الجارية بشأن العسل، فأرسلت إلى صواحبها، فقالت: إذا دخل عليكن فقلن إنا نجد منك ريح مغافير، فقال: " **هو عسل، والله لا أطعمه أبدًا** "، فلما كان يوم حفصة استأذنته أن تأتي أباها فأذن لها فذهبت فأرسل إلى جاريته مارية فأدخلها بيت حفصة، قالت حفصة: فرجعت فوجدت الباب مغلقًا فخرج ووجهه يقطر وحفصة تبكي فعاتبته فقال: " **أشهدك أنها علي حرام انظري، لا تخبري بهذا امرأة وهي عندك أمانة** " فلما خرج قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت: ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم أمته فنزلت.

وجاء في سبب غضبه منهن وحلفه أن لا يدخل عليهن شهرًا قصة أخرى فأخرج بن سعد من طريق حارثة بن أبي الرجال قال: دخلت مع القاسم بن محمد على عمرة بنت عبد الرحمن فقال القاسم: يا أم محمد، في أي شيء هجر رسول الله نساءه، فقالت عمرة: أخبرتني عائشة أنه أهدي إلى رسول الله هدية في بيتها فأرسل إلى كل امرأة من نسائه

بنصيبها، وأرسل إلى زينب بنت جحش فلم ترض، ثم زادوها مرة أخرى فلم ترض فقالت عائشة: لقد أقمأت وجهك أن ترد عليك الهدية، فقال رسول الله: " **لأنتن أهون على الله من أن تقمئنني لا أدخل عليكن شهرًا**". (١)

ومن طريق الزهري، عن عروة، عن عائشة نحوه. وفيه ذبح ذبحًا فقسمه بين أزواجه فأرسل إلى زينب بنصيبها فردته فقال: زيدوها ثلاثًا كل ذلك ترده فذكر نحوه. (٢)

وهذا لا يصح لأنه من رواية الواقدي.

١- وفيه قول آخر أخرجه مسلم من حديث جابر، قال: جاء أبو بكر، والناس جلوس بباب النبي ﷺ لم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسًا وحوله نساؤه فذكر الحديث. وفيه "**هن حولي كما ترى يسألنني النفقة**" فقام أبو بكر إلى عائشة وقام عمر إلى حفصة ثم اعتزلهن شهرًا فذكر نزول آية التخيير.

وهذا واضح في أنه اعتزلهن بسبب سؤال النفقة

٥- ويحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء كان سببًا لاعتزالهن، وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقهﷺ، وسعة صدره، وكثرة صفحه، وأن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجبه منهنﷺ.

٦- والراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة، وحفصة بها بخلاف العسل؛ فإنه اجتمع فيه جماعة منهن، ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها ويؤيده شمول الحلف للجميع، ولو كان مثلًا في قصة مارية فقط لاختص بحفصة وعائشة. (٣)

قلت: فهذا كله بين من روايات الحديث وكلام الحافظ يبين أن اعتزاله لنسائه يتعلق بسورة التحريم بداية وأن آية التخيير نزلت بعد ذلك وهذا جلي لا تشويش فيه بحمد الله.

وأما قصة التخيير التي نزلت آيتها بعد هذه القصة فهذا خبرها:

عن عائشة زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمر الله أن يخير أزواجه فبدأ

(١) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٨٨ وفي إسناده الواقدي متروك.

(٢) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٩٠ من طريق الواقدي.

(٣) فتح الباري (٢٨٠-٢٩٣).

بي رسول الله ﷺ فقال: "**إني ذاكر لك أمرًا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك**"، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت: ثم قال: "**إن الله قال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله، ورسوله، والدار الآخرة. (١)

وقد سبق في ألفاظ هذا الحديث عن ابن عباس، وجابر ﷺ أن ذلك كان بعد اعتزاله ﷺ لنسائه شهرًا.

ولهذا قال ابن حجر: وقد أخرج مسلم أيضًا من طريق سماك بن الوليد، عن ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب، قال: (لما اعتزل النبي ﷺ نساءه دخلت المسجد)، وذكر الحديث بطوله وفي آخره قال: (وأنزل الله آية التخيير) فاتفق الحديثان على أن آية التخيير نزلت عقب فراغ الشهر الذي اعتزلهن فيه، واختلف الحديثان في سبب الاعتزال ويمكن الجمع بأن يكون القضيتان جميعًا سبب الاعتزال؛ فإن قصة المتظاهرتين خاصة بهما، وقصة سؤال النفقة عامة في جميع النسوة، ومناسبة آية التخيير بقصة سؤال النفقة أليق منها بقصة المتظاهرتين(٢).

وقد سبق القول في ذلك وبيانه في الفقرة قبل هذه.

موقف عائشة رضي الله عنها من إبراهيم الذي ولدته مارية:

أولًا: هل صح أن عائشة رمت مارية تصريحًا، أو تعريضًا بسبب الغيرة لما ولدت مارية إبراهيم؟! حيث رأى البعض ذلك وأن النبي ﷺ أمر عليًا رضي الله عنه بضرب عنق ابن عم مارية فوجده مجبوبًا.

والجواب عن ذلك عن طريق إيراد الروايات التي وردت في ذلك وبيان حالها.

أولا: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أهديت مارية إلى رسول الله ﷺ ومعها ابن عم لها قالت: فوقع عليها وقعة فاستمرت حاملًا قالت: فعزلها عند ابن عمها قالت: فقال أهل الإفك والزور من حاجته إلى الولد ادعى ولد غيره وكانت أمه قليلة اللبن فابتاعت له ضائنة لبون فكان يغذى بلبنها فحسن عليه لحمه، قالت عائشة: فدخل به على النبي ﷺ ذات يوم فقال: "

(١) البخاري (٤٥٠٧).

(٢) فتح الباري ٨/ ٥٢١.

كيف ترين" فقلت: من غذي بلحم الضأن يحسن لحمه قال: **"ولا الشبه"** قالت: فحملني ما يحمل النساء من الغيرة أن قلت: ما أرى شبهًا، قالت: وبلغ رسول الله ﷺ ما يقول الناس فقال لعلي: **"خذ هذا السيف فانطلق فاضرب عنق ابن عم مارية حيث وجدته"** قالت: فانطلق فإذا هو في حائط على نخلة يخترف رطبًا قال: فلما نظر إلى علي ومعه السيف استقبلته رعدة قال: فسقطت الخرفة، فإذا هو لم يخلق الله ﷻ له ما للرجال شيء ممسوح. (١)

والجواب عن هذه الرواية: أنها موضوعة كما هو مبين في الحاشية.

وأما الرواية الصحيحة في ذلك فهاهي: عن أنس رضي الله عنه أن رجلًا كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **"لعلي اذهب فاضرب عنقه"** فأتاه علي، فإذا هو في ركي يتبرد فيها،

---

(١) **منكر بهذا السياق**. أخرجه الحاكم ٤/ ٤١ من طريق أبي معاذ سليمان بن الأرقم الأنصاري، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة به. وسكت عنه هو والذهبي، وفيه سليمان بن الأرقم قال الدوري: سمعت يحيى يقول سليمان ابن الأرقم ليس بشيء انظر تاريخ ابن معين رواية الدوري (١٣٢٣)، وقال أحمد: سليمان لا يسوى شيئًا لا يروى عنه الحديث العلل ٢/ ٦٧ (١٥٧٠)، وقال البخاري: تركوه، وقال أبو داود، وأبو حاتم، والترمذي، وابن خراش، وأبو أحمد الحاكم، والدارقطني: متروك الحديث، وقال ابن حبان سكن اليمامة، ومولده بالبصرة، وكان ممن يقلب الأخبار، ويروي عن الثقات الموضوعات تهذيب التهذيب ٤/ ١٤٨، ولسليمان بن أرقم متابعة من الليث بن سعد أخرجها ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣١٢٤) فقال: حدثني محمد بن يحيى الباهلي، نا يعقوب ابن محمد، عن رجل سماه، عن الليث بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة به مطولا، ولكن هذه متابعة هالكة؛ لأن في إسنادها محمد بن يحيي الباهلي لم أجد له ترجمة.

ويعقوب بن محمد بن عيسى الزهري قال: أحمد ليس بشيء ليس يسوى شيئًا، وقال ابن معين ما حدثكم عن الثقات فاكتبوه وما لا يعرف من الشيوخ فدعوه، وقال أبو زرعة: واهي الحديث، وقال صالح بن محمد عن ابن معين: أحاديثه تشبه أحاديث الواقدي، وقال العقيلي في حديثه وهم كثير، ولا يتابعه عليه إلا من هو نحوه تهذيب التهذيب ١١/ ٣٤٧ وقال ابن حجر: صدوق كثير الوهم والرواية عن الضعفاء. التقريب (٧٨٣٤).

وشيخه الذي روى عنه مبهم لا يدرى من هو وعليه فهذه طريق لا تزيد الأولى إلا ضعفا ونكارة، هذا وللحديث أصل صحيح أخرجه مسلم كما ذكرته بعد هذا وليس فيه هذه الزيادات المنكرة وأشدها نكارة قول عائشة ما أرى شبها وانظر الضعيفة (٤٩٦٤). وللحديث متابعة ثالثة من محمد بن عبد الله الأنصاري أخرجها ابن سعد ١/ ١٣٧ ولكنها من طريق الواقدي فهذه متابعة تدل على تأكد الكذب والوضع وعلى أن هذا السياق منكر.

فقال له علي: أخرج فناوله يده فأخرجه فإذا هو مجبوب ليس له ذكر فكف علي عنه ثم أتى النبيﷺ فقال يا رسول الله: إنه لمجبوب ماله ذكر.[(١)] فهذا ما يغني عن هذا الكذب والحمد لله.

قال ابن الجوزي: فإن قال قائل: ظاهر هذا الحديث يدل على أن عليًا ؓ أراد قتله، وقد روي في حديث آخر صريحًا، وأن رسول الله ﷺ قال له: " **يا علي، خذ السيف فإن وجدته عندها فاقتله** " فكيف يجوز القتل على التهمة؟ فقد أجاب عنه ابن جرير الطبري، وقال: من الجائز أن يكون قد كان من أهل العهد وأنه لم يسلم، وقد كان تقدم إليه بالنهي عن الدخول إلى مارية، فلم يقبل فأمر قتله لنقض العهد[(٢)]، ولهذا الحديث رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو ولكن جعل مكان علي عمر بن الخطاب ؓ: أخرجها ابن عبد الحكم في فتوح مصر فقال: حدثنا هاني بن المتوكل قال: حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن ابن شماسة المهري أحسبه عن عبد الله بن عمرو، قال: دخل رسول الله ﷺ على أم إبراهيم أم ولده القبطية. فوجد عندها نسيبًا لها كان قدم معها من مصر، وكان كثيرًا ما يدخل عليها فوقع في نفسه شيء فرجع فلقيه عمر بن الخطاب ؓ فعرف ذلك في وجهه فسأله فأخبره، فأخذ عمر السيف ثم دخل على مارية وقريبها عندها، فأهوى إليه بالسيف فلما رأى ذلك كشف عن نفسه وكان مجبوبًا ليس بين رجليه شيء، فلما رآه عمر رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال رسول اللهﷺ: إن جبريل أتاني فأخبرني: أن الله ﷻ قد برأها وقريبها وأن في بطنها غلامًا مني وأنه أشبه الخلق بي، وأمرني أن أسميه إبراهيم وكناني بأبي إبراهيم.[(٣)]

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٧١).

(٢) المنتظم ١/ ٣٧٥.

(٣) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ١/ ٥٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٤٥ من طريق ابن لهيعة به، وهذا إسناد ضعيف جدًا فيه هاني بن المتوكل، قال ابن حبان: كثرت المناكير في روايته لا يجوز الاحتجاج به بحال وقال أبو حاتم: " أدركته ولم أكتب عنه" هكذا نقلها الحافظ في اللسان، والألباني في الضعيفة؛ ثم قال: وهذه كناية عن شدة ضعفه، وقال ابن القطان: لا يعرف حاله. لسان الميزان ٦/ ١٨٦ (٦٦٤)، والضعيفة (٢٦٠٨)، والجرح والتعديل ٩/ ١٠٢، والمجروحين لابن حبان ٣/ ٩٧، والضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٣/ ١٧٢، وشيخه عبد الله بن لهيعة ضعيف، قال ابن حجر: وفي سنده ابن لهيعة، وشك بعض

ومن خلال هذا ترى أن عائشةﷺ ما رمت مارية بالزنا لا تصريحًا ولا تعريضًا؛ لأن الرواية في ذلك منكرة. والله أعلم.

* * *

رواته في شيخه الإصابة ٥/ ٧٠٠، وعليه فهذا إسناد شديد الضعف مع ما فيه من مخالفة في ذكر الصحابي الذي بعثه النبي ﷺ.

١٤ـ أخلاق عائشة مع اللاتي لم يدخل بهن النبي ﷺ.

١ - **موقف عائشة من أسماء بنت النعمان الجونية**: قالوا: إن عائشة وحفصة رضي الله عنهما حينما قاما بتجهيزها للنبي ﷺ قالا لها: إن النبي ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول له: أعوذ بالله منك، فقالت ذلك فطلقها النبي ﷺ، وكانت هذه خديعة من عائشة لأسماء أدت بعد ذلك إلى موتها كمدًا، فلماذا فعلت عائشة ذلك؟ ولماذا قبله النبي ﷺ؟ ولماذا لم يتدخل الوحي كما هي عادته في مثل هذه الحوادث؟!

وسؤالنا: هل هذا صحَّ عن عائشة رضي الله عنها؟

والرد على ذلك من وجهين:

الأول: ذكر الصحيح في هذه القصة.

الثاني: بيان الزيادات المنكرة والشاذة وردها على مَنْ جاء بها، أو احتج بها.

واليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الرواية الصحيحة في ذلك

عن عائشة رضي الله عنها: أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله ﷺ وَدَنَا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: " **لقد عذت بعظيم الحقي بأهلك**". [(١)]

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: ذكر النبي ﷺ امرأة من العرب فأمر أبا أسيد الساعدي أن يرسل إليها، فأرسل إليها فقدمت فنزلت في أجم بني ساعدة، فخرج النبي ﷺ حتى جاءها فدخل عليها فإذا امرأة منكسة رأسها، فلما كلمها النبي ﷺ قالت: أعوذ بالله منك فقال: " **قد أعذتك مني** "، فقالوا لها: أتدرين من هذا؟ قالت: لا، قالوا: هذا رسول الله ﷺ جاء ليخطبك، قالت: كنت أنا أشقى من ذلك، فأقبل النبي ﷺ يومئذ حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، ثم قال: " **اسقنا يا سهل** "، فخرجت لهم بهذا القدح

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٥)، والنسائي (٢/ ٩٨)، وابن ماجه (٢٠٥٠)، وابن الجارود (٧٣٨)، والدار قطني (٤٣٧)، والبيهقي (٧/ ٣٩، ٢٣٤) كلهم من طريق الأوزاعي قال: سألت الزهري: أي أزواج النبي ﷺ استعاذت منه؟ قال: أخبرني عروة عن عائشة: أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: " **لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك** ".

فأسقيتهم فيه، فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه، قال: ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له. (١)

وعن أبي أسيد ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال: له الشوط، حتى انتهينا إلى حائطين، فجلسنا بينهما، فقال النبيﷺ: " **اجلسوا ها هنا** " ودخل، وقد أتي بالجونية، فأنزلت في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها حاضنة لها، فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: " **هبي نفسك لي** " قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟ قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: " **قد عذت بمعاذ** " ثم خرج علينا فقال: " **يا أبا أسيد، اكسها رازقيتين، وألحقها بأهلها**". (٢)

قال ابن حزم: فهذه كلها أخبار عن قصة واحدة في امرأة واحدة في مقام واحد. (٣)

فهذا ما صح وأما الزيادة المنسوبة إلى عائشة وإلى نساء النبي ﷺ فهذا تخريجها.

الوجه الثاني: **الروايات والزيادات الضعيفة.**

الرواية الأولى: عن ابن عباس قال: تزوج رسول الله ﷺ أسماء بنت النعمان وكانت من أجمل أهل زمانها وأشبه، قال: فلما جعل رسول الله يتزوج الغرائب، قالت عائشة: قد وضع يده في الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا، وكان خطبها حين وفدت كندة عليه إلى أبيها، فلما رآها نساء النبي ﷺ حسدنها فقلن لها: إن أردت أن تحظي عنده فتعوذي بالله منه إذا دخل عليك، فلما دخل وألقى الستر مد يده إليها فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: " **أمن عائذ الله الحقي بأهلك** ". (٤)

---

(١) صحيح البخاري (٥٣١٤).

(٢) البخاري (٤٩٥٦).

(٣) المحلى لابن حزم (١٠/ ١٨٧).

(٤) **موضوع**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ١٤٥)؛ من طريق محمد بن عمر: أخبرنا هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس به، وهذا إسناد فيه الواقدي؛ وهو متروك متهم بالكذب، عن شيخه هشام بن محمد بن السائب الكلبي؛ وهو رافضي خبيث متروك الرواية. لسان الميزان (٧٠٠)، والمجروحين لابن حبان (٣/ ٩١)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٣٤٣) والضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (٣/ ١٧٦). وأبوه محمد بن السائب رافضي متروك الرواية متهم بالكذب. التاريخ الصغير (٢/ ٥١)، وقال

والجواب عن هذه الرواية أنها موضوعة.

الرواية الثانية: عن حمزة بن أبي أسيد الساعدي، عن أبيه وكان بدريًا؛ قال: تزوج رسول الله ﷺ أسماء بنت النعمان الجونية فأرسلني فجئت بها، فقالت حفصة لعائشة: أخضبيها أنت وأنا أمشطها ففعلتا ثم قالت لها إحداهما: إن النبي ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول أعوذ بالله منك، فلما دخلت عليه وأغلق الباب وأرخى الستر، مد يده إليها فقالت: أعوذ بالله منك، فقال رسول الله ﷺ بكمه على وجهه فاستتر به وقال: " **عذت بمعاذ** " ثلاث مرات. قال أبو أسيد: ثم خرج إلي فقال: " **يا أبا أسيد ألحقها بأهلها ومتعها برازقيين** "[(١)] يعني: كرباستين[(٢)]، فكانت تقول: دعوني الشقية. [(٣)]

ابن حبان: وكان الكلبي سبئيًا من أصحاب عبد الله بن سبأ من أولئك الذين يقولون إن عليًا لم يمت، وإنه راجع إلى الدنيا قبل قيام الساعة فيملؤها عدلًا كما ملئت جورًا، وإن رأوا سحابة قالوا أمير المؤمنين فيها؛ من المجروحين (٢/ ٢٥٣)، وانظر التقريب (٥٩٠١)، وقال أبو حاتم: الناس مجمعون على ترك حديثه هو ذاهب الحديث لا يشتغل به؛ التهذيب (٩/ ١٥٧).

وشيخه أبو صالح: لم يسمع من ابن عباس، وقال البخاري: قال لي محمد بن بشار ترك ابن مهدي حديث أبي صالح، وقال لي محمد، عن حكم بن بشير، عن عمرو بن قيس الملائي؛ قال: كان مجاهد ينهى عن تفسير أبي صالح، وقال ابن حبان: تركه يحيى القطان وابن مهدي؛ التاريخ الكبير (٢/ ١٤٤)، الجرح والتعديل (٢/ ٤٣١)، المجروحين لابن حبان (١/ ١٨٥).

(١) قال: اكْسُها رازِقِيَّيْنِ وفي رواية رازقيّتَين هي ثياب كتان بيض؛ لسان العرب (رزق).

(٢) الكِرْباسُ: بالكسر: ثَوْبٌ من القُطْن الأَبْيَض، وكذا الكِرْبَاسةُ مُعَرَّبٌ فارسيَّتُه كَرْبَاسُ بالفَتْح؛ لسان العرب (ك ر ب س).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٤٥)، الحاكم (٤/ ٣٩) كلاهما من طريق محمد بن عمر الواقدي: أخبرنا هشام بن محمد حدثني ابن الغسيل، عن حمزة بن أبي أسيد الساعدي، عن أبيه وكان بدريًا؛ قال: تزوج رسول الله أسماء بنت الجونية، ثم ذكر الحديث.

وقال الذهبي في التلخيص: سنده واهٍ اهـ ، وهذا السياق تفرد به الواقدي، عن هشام بن محمد، عن عبد الرحمن بن الغسيل كما أخرجه ابن سعد (٨/ ١٤٥) والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩)، والواقدي، وهشام بن محمد كان متروك الرواية، ومع هذا فقد خالفه جماعة من الثقات فرووه من غير هذه الزيادة المنسوبة إلى زوجات النبي ﷺ منهم أبو نعيم رواه عنه البخاري (٤٩٥٦)، وبهذا نعرف أن هذه الزيادة من الكذب البين. والحمد لله.

والجواب أن هذه الزيادة المنسوبة إلى نساء النبي ﷺ تفرد بها الواقدي عن شيخه هشام بن محمد بن السائب الكلبي، ولم ترد إلا من طريقه، وهو متروك الرواية متهم بالكذب وشيخه رافضي جلد متروك الرواية كما سبق. قال ابن الصلاح في مشكله هذا الحديث أصله في البخاري من حديث أبي أسيد الساعدي دون ما فيه إن نساءه علمنها ذلك، قال: وهذه الزيادة باطلة.

وقال ابن حجر: وفي رواية للواقدي أيضًا منقطعة أنه دخل عليها داخلٌ من النساء وكانت من أجمل النساء، فقالت: إنك من الملوك؛ فإن كنت تريدين أن تحظي عنده فاستعيذي منه.... الحديث. وأصل حديث أبي أسيد عند البخاري كما قال ابن الصلاح وعند مسلم من حديث سهل بن سعد نحوه وسماها أميمة بنت النعمان بن شراحيل، وفي ظاهر سياقه مخالفة لسياق أبي أسيد ويمكن الجمع بينهما وهو أولى من دعوى التعدد في الجونية. وللشيخين أيضًا من حديث عائشة أن ابنة الجون لما دخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، وسماها ابن ماجه من هذا الوجه عمرة، ورجح ابن منده أميمة، وقيل: اسمها العالية، وقيل: فاطمة. ووقع نحو هذه القصة في النسائي؛ وقال إنها من كلب والحق أنها غيرها؛ لأن الجونية كندية بلا خلاف، وأما الكلبية فهي سناء بنت سفيان بن عوف بن كعب بن عبيد بن أبي بكر بن كلاب؛ حكاه الحاكم وغيره. (١)

الرواية الثالثة: عن عباس بن سهل قال: سمعت أبا أسيد الساعدي يقول: لما طلعت بها على الصرم تصايحوا وقالوا: إنك لغير مباركة ما دهاك؟ فقالت: خدعت فقيل لي: كيت وكيت للذي قيل لها، فقال أهلها: لقد جعلتنا في العرب شهرة، فبادرت أبا أسيد الساعدي فقالت: قد كان ما كان فالذي أصنع ما هو؟ فقال: أقيمي في بيتك واحتجبي إلا من ذي محرم ولا يطمع فيك طامع بعد رسول الله فإنك من أمهات المؤمنين، فأقامت لا يطمع فيها طامع

---

(١) تلخيص الحبير (٣/ ١٣٢).

ولا ترى إلا لذي محرم حتى توفيت في خلافة عثمان بن عفان عند أهلها بنجد. (١)

والجواب أن هذا لا يصح لأنه من رواية الواقدي.

الرواية الرابعة: عن زهير بن معاوية الجعفي أنها ماتت كمدًا(٢)، وهذا لا يصح؛ لأنه من رواية الواقدي، عن شيخه هشام بن محمد، ثم هو معضل فزهير ابن معاوية ثقة روى له الجماعة لكنه من السابعة وكان مولده سنة مائة. (٣)

الرواية الخامسة: عن ابن عباس قال: خلف على أسماء بنت النعمان المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة فأراد عمر أن يعاقبها فقالت: والله ما ضرب علي الحجاب ولا سميت أم المؤمنين. فكف عنها. (٤)

والجواب أن ابن سعد أخرج ذلك لكن من طريق الواقدي عن هشام بن محمد بن السائب ثم قال بعده: وليس يثبت.

وبهذا نعلم أن عائشة رضي الله عنها وسائر نساء النبي ﷺ براء مما نسب إليهم بشأن هذه المرأة لبطلان هذه الزيادات، وما بُني على باطل، فهو كأصله والخلاف، في اسم هذه المرأة طويل، وليس يصح في أي طريق أن عائشة قالت لها مثل هذا القول الذي خدعت به، وهو من كذب الرافضة أعداء عائشة رضي الله عنها.

* * *

---

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن سعد (٨/ ١٤٦)، من طريق محمد بن عمر، حدثني سليمان بن الحارث، عن عباس بن سهل، قال: سمعت أبا أسيد الساعدي به. وهذا إسناد ضعيف جدًّا. وفيه الواقدي وهو متروك.

(٢) **ضعيف جدًّا**. أخرجه بن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٤٦ من طريق الواقدي، أخبرنا هشام بن محمد ابن السائب، حدثني زهير بن معاوية الجعفي به وهو ضعيف جدًّا وفيه الواقدي.

(٣) التقريب ت (٢٠٥١).

(٤) **موضوع**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ١٤٧) من طريق هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس به، وقد سبق بيان هذا الإسناد.

٢ـ موقف عائشة من مليكة بنت كعب الليثي وأنها هي التي خدعتها وجعلتها تستعيذ من رسول الله ﷺ.

عن أبي معشر قال: تزوج النبي ﷺ مليكة بنت كعب وكانت تذكر بجمال بارع، فدخلت عليها عائشة فقالت: لها أما تستحيين أن تنكحي قاتل أبيك؟ فاستعاذت من رسول الله فطلقها، فجاء قومها إلى النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله، إنها صغيرة وإنها لا رأي لها وإنها خدعت فارتجعها، فأبى رسول الله ﷺ فاستأذنوه أن يتزوجها قريب لها من بني عذرة فأذن لهم فتزوجها العذري، وكان أبوها قتل يوم فتح مكة قتله خالد بن الوليد بالخندمة.

قال محمد بن عمر: مما يضعف هذا الحديث ذكر عائشة أنها قالت لها: ألا تستحيين، وعائشة لم تكن مع رسول الله في ذلك السفر. (١)

والجواب أن هذا إسناد فيه محمد بن عمر الواقدي المتروك وقد ضعفه هو أيضًا، وفيه أبو معشر وهو: نجيح بن عبد الرحمن السندي وهو ضعيف من السادسة، وبين أبي معشر والنبي ﷺ مفاوز(٢).

وبإظهار كذب هذه الرواية تُبَرَّأ عائشةرضي الله عنها مما نسب إليها ممن مكروا خديعة نسبت إليها في هذه الرواية بحمد الله تعالى، والله أعلم.

* * *

(١) موضوع. أخرجه ابن سعد ٨/ ١٤٨ من طريق أخبرنا محمد بن عمر، حدثني أبو معشر به والواقدي متروك.
(٢) تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٧٥)، وتقريب التهذيب (٧١٠٠).

١٥ـ شبهة: أخلاق عائشة ﵂ وعثمان بن عفان ﵁.

نص الشبهة:

هذه الشبهة خاصة بأخلاق عائشة ﵂ مع عثمان ﵁، وخلاصتها أن عائشة طعنت على عثمان وشغبت عليه في النصف الأول والثاني من خلافته.

أولا: ذكر حديث في مناقب عثمان ترويه عائشة؛ وأثيرت عليه شبهتان:

عن سعيد بن العاص أن عائشة- زوج النبي ﷺ -، وعثمان حدثا: أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط[(١)] عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: اجمعي عليك ثيابك فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر ﵄ كما فزعت لعثمان ﵁؟ قال رسول الله ﷺ: إن عثمان رجل حييّ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلي حاجته. [(٢)]

الشبهة الأولى: كيف كان حال عائشة، وهي مع النبي ﷺ في مرط واحد، ثم دخل عمر مع أنها كانت تستتر منه بعد موته؟

الشبهة الثانية: هناك روايات كثيرة تدل على أن عثمان كان سليط اللسان مثل قوله لعمار: (يا عاضّ إير أبيه)، وقوله له: (يا ابن المَتْكاءِ.[(٣)]) والمَتْكاءُ: هي البظراء، المفضاة، التي لا تمسك البول.

فهل يعقل أن مثل هذا حييّ حتى إن الملائكة ذاتها لتستحي منه؟!

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: شرح الحديث وبيان أقوال العلماء فيه:

---

(١) (المرط) بكسر أوله كساء من خز أو صوف أو غيره، وعن النضر بن شميل ما يقتضي أنه خاص بلبس النساء.

(٢) رواه مسلم (٢٤٠٢)، وأحمد (١/ ٧١) و (٦/ ١٥٥) من طريق حجاج عن الليث به.

(٣) المرأة المَتْكاءُ: البظراء، ولذلك قيل في السَّبِّ: يا ابن المَتْكَاءِ، أي: عظيمة ذلك. القتبي: المـتْكاء: التـي لا تحبس بولها، وقيل: هي التي لم تُخفض؛ تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ١٥٧).

١-ما هو المرط؟ المرط بكسر الميم وسكون الراء كساء من صوف أو خز يُؤْتَزَرُ به، وقيل: الجلباب، وقيل الملحفة. (١) وعلى هذا فالمرط يمكن أن يكون كبيرًا بحيث يكون بعضه على الرجل وبعضه على المرأة، ويدل له هذا الحديث الذي أخرجه مسلم عن عائشةرضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يصلي من الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض وعليّ مرط وعليه بعضه إلى جنبه. (٢)

وعن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. (٣)

وبناء عليه يمكن للرجل أن يكلم غيره وبجانبه من تستتر تحت المرط ولا يُرى لها عين ولا أثر؛ لأنه ثياب كبير- كاللحاف والبطانية -، فلما استأذن عليه عثمان قال لعائشة: اجمعي عليك ثيابك يعني المرط؛ لأن عثمان لو دخل والنبي ﷺ تحت المرط لاستحيا أن يبلغ في حاجته.

فقوله لعائشة: اجمعي عليك ثيابك، يعني المرط انفردي به دوني حتى أكلم عثمان وهذا المعنى يزيل التساؤل الوارد بالكلية؛ لأن عائشة كانت بجانب النبي ﷺ مستترة تحت المرط والنبي ﷺ بادٍ يكلم عثمان، فقوله: (اجمعي عليك ثيابك) أي: ضميها وزيدي في الاستتار بها. (٤)

وهذا لا يعني أنها كانت مكشوفة قبل ذلك، وإنما يعني: مبالغة في التستر وزيادة فيه مقابلةً بزيادة حياء عثمان، وإلا فإن عمر رضي الله عنه يستحي أيضًا؛ ولو كان الوضع كما تصور البعض لما دخل ولما تكلم.

---

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ٥٧).

(٢) رواه مسلم (٥١٤).

(٣) رواه مسلم (٢٤٢٤).

(٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/ ١٢٢).

٢- ويحتمل أن عائشة رضي الله عنها كانت ناحية البيت ومتحجبة الحجاب الشرعي، والنبيﷺ مضطجع وعليه مرط، عليه لحاف هو في الأصل تتلحف به عائشة، ولكنه وضعه عليه وهو مضطجع، دخل أبو بكر ودخل عمر والنبي ﷺ على هذا الحال وعائشة على حجابها، ثم لما دخل عثمان -وهو شديد الحياء- خشي أن عثمان يشعر أنه قد أحرج النبيّ ﷺ فيمتنع من قول حاجته، فأمر النبيّ ﷺ عائشة أن لا تكتفي بالحجاب، ولكن تجمع عليها ثيابها أكثر؛ حتى يبدو أهل البيت في حال استقبال الناس، وأما هو فجلس له وتهيأ له، حتى لا يمنعه الحياء من سؤال حاجته.

ولا يعترض على هذا بقولها في الرواية معي في مرطي؛ لأن المعية لا تستلزم المماسة، ومن قول القائل: القمر يسير معي ولا يعترض عليه؛ لأنه لا يفهم من المعية المماسة، وقول القائد: لجيشه الذي أرسله أنا معكم، وغير ذلك.

الوجه الثاني: هل صح أن عثمان سب عمارًا بهذا السب الذي يدل على عدم الحياء؟

والجواب: أنه لم يصح والرواية في ذلك ما الضعيف جدًا والموضوع، وها هي:

عن أبي مخنف قال: كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر، فأخذ منه عثمان ما حلَّى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه، فخطب فقال: لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام، فقال له علي: إذاً تُمنع من ذلك ويحال بينك وبينه، وقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك، فقال عثمان: أعلي يا ابن المتكاء تجترئ؟ خذوه، فأُخِذ، ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غُشي عليه.[1]

وهذا كذب لأنه من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى وهو كذاب شيعي رافضي محترق،

(١) ضعيف جدًّا. أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف باب أمر عمار بن ياسر رضي الله عنه (١/ ٢٧٦) قال: حدثنا عباس بن هشام بن محمد عن أبي مخنف بإسناده، وذكره، وفي هذا الإسناد أبو مخنف إخباري تالف لا يوثق به تركه أبو حاتم وغيره، وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم اهـ. لسان الميزان (١٥٦٨). ومن فوقه في الإسناد لم يذكره البلاذري وعباس بن هشام لم أجد من تكلم فيه بجرح أو تعديل.

وأما قوله لعمار: (يا عاضّ إير أبيه)، فقد ذكره البلاذري في نفس الباب ضمن قصة ذكرها من غير إسناد مصدرًا لها.

وقد روي أيضًا أنه لما بلغ عثمان موت أبي ذر بالربذة، قال: فقال عمار بن ياسر: نعم، فرحمه الله من كل أنفسنا، فقال عثمان: يا عاضَّ إير أبيه، أتراني ندمت على تسييره؟ وأمر فدفع في قفاه وقال: الحق بمكانه، فلما تهيأ للخروج جاءت بنو مخزوم إلى عليّ فسألوه أن يكلم عثمان فيه فقال له علي: يا عثمان اتق الله، فإنك سيرت رجلًا صالحًا من المسلمين فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره، وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان: أنت أحق بالنفي منه، فقال علي: رُم ذلك إن شئت، واجتمع المهاجرون فقالوا: إن كنت كلما كلمك رجل سيرته ونفيته فإن هذا شيء لا يسوغ، فكف عن عمار. (١)

والجواب عن هذا أنه كلام باطل لا إسناد له.

ومن جهة أخرى لا توجد رواية صحيحة تدل على أن عثمانﷺ ضرب عمارًاﷺ، ولا تدل على أن الخوارج سوغوا خروجهم على عثمان بأنه ضرب عمارًا، وإذا ثبت بطلان الضرب، فما بني على باطل فهو باطل.

ثانيا: شبهتهم على النصف الأول من خلافة عثمان ﷺ.

قالوا: إن عثمان بدأ خلافته بخطأ عظيم لم تغفره له الجماعة المسلمة؛ وهو تعطيل إقامة الحد على عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان، وابنة أبي لؤلؤة، وجفينة، ولقد كثر الصخب جدًّا في الجماعة الإسلامية بسبب هذا الأمر، ولم نعلم لعائشة أي اعتراض ولا دعوة للثورة فكيف يوجه هذا مع ثورتها بعد ذلك؟!.

والجواب على ذلك من وجوه: ١- إن تعطيل إقامة الحد على عبيد الله بن عمر كسبب من أسباب الشغب والخروج على عثمان لا إسناد له، وأقدم مَنْ ذكر ذلك هو المحب الطبري (ت ٦٩٤هـ) في الرياض النضرة (٣/ ٨٧و١٠٠) ولم يذكر له إسنادًا، ولم يثبت فيه

(١) أنساب الأشراف (٢/ ٢٧٧)، ولا إسناد له.

أن الخروج كان من أسبابه هذا. وغاية ما أثبتَه أنه أمرٌ قد حدث، ثم تلاه في ذكر ذلك ابن المطهر الحلي (ت٧٢٦هـ). [1]

٢-إن عبيد الله بن عمر كان متأولًا في ذلك؛ لأن الهرمزان كان متهمًا بالمشاركة في قتل أمير المؤمنين عمر ﷺ وكان الذي قتله أبو لؤلؤة الكافر المجوسي مولى المغيرة بن شعبة، وكان بينه وبين الهرمزان مجانسة، وذُكر لعبيد الله بن عمر أنه رؤي عند الهرمزان حين قتل عمر، فكان ممن اتُّهم بالمعاونة على قتل عمر، وقد قال عبد الله بن عباس لما قُتل عمر: وقال له عمر: قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، فقال: إن شئت أن نقتلهم، فقال: كذبت، أما بعد إذ تكلموا بلسانكم وصلّوا إلى قبلتكم، فهذا ابن عباس- وهو أَفْقَهُ مِنْ عبيد الله بن عمر وأَدْيَنُ وأفضلُ بكثير- يستأذن عمر في قتل علوج الفرس مطلقًا الذين كانوا بالمدينة لما اتهموهم بالفساد اعتقد جواز مثل هذا، فكيف لا يعتقد عبيد الله جواز قتل الهرمزان؟! فلما استشار عثمان الناس في قتله فأشار عليه طائفة من الصحابة أن لا يقتله؛ فإن أباه قتل بالأمس ويُقتل هو اليوم فيكون في هذا فساد في الإسلام، وكأنهم وقعت لهم شبهة في عصمة الهرمزان، وهل كان من الصائلين الذين كانوا يستحقون الدفع، أو من المشاركين في قتل عمر الذين يستحقون القتل؟ وقد تنازع الفقهاء في المشتركين في القتل إذا باشر بعضهم دون بعض فقيل لا يجب القود إلا على المباشر خاصة؛ وهو قول أبي حنيفة، وقيل: إذا كان السبب قويًا وجب على المباشر والمتسبب؛ كالمكرِه والمكرَه؛ وكالشهود بالزنا والقصاص إذا رجعوا وقالوا: تعمدنا، وهذا مذهب الجمهور؛ كمالك، والشافعي، وأحمد، ثم إذا أمسك واحدٌ وقتله الآخرُ فمالك يوجب القود على الممسك والقاتل، وهو إحدى الروايتين عن أحمد؛ والرواية الأخرى يقتل القاتل ويحبس الممسك حتى يموت، كما روي عن ابن عباس، وقيل: لا قود إلا على القاتل؛ كقول أبي حنيفة والشافعي.

وقد تنازعوا أيضًا في الآمر الذي لم يكره إذا أمر من يعتقد أن القتل محرم؛ هل يجب القود على الآمر؟ على قولين، وإذا كان الهرمزان ممن أعان على قتل عمر جاز قتله في أحد القولين

(١) نقلًا عن فتنة مقتل عثمان للغبان (١/ ٩٥).

قصاصًا، وعمر هو القائل في المقتول بصنعاء: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لأقدتهم به. (١)

٣-ظهر من الكلام السابق أن في قتل ابن عمر وقد قُتل أبوه بالأمس فتنة؛ فكيف تدعوا عائشة رضي الله عنها إلى الفتنة؟

٤-إن قاتل الأئمة محاربٌ لله ورسوله ساعٍ في الأرض فسادًا، وإذا كان الهرمزان ممن أعان على قتل عمر كان من المفسدين في الأرض المحاربين؛ فيجب قتله لذلك، ولو قدر أن المقتول معصوم الدم يحرم قتله لكن كان القاتل متأولًا يعتقد حِلَّ قتله لشبهة ظاهرة صار ذلك شبهة تدرأ القتل عن القاتل، و إذا كان عبيد الله بن عمر متأولًا يعتقد أن الهرمزان أعان على قتل أبيه، وأنه يجوز له قتله صارت هذه شبهة يجوز أن يجعلها المجتهد مانعة من وجوب القصاص؛ فإن مسائل القصاص فيها مسائل كثيرة اجتهادية.

٥- وأيضًا فالهرمزان لم يكن له أولياء يطلبون دمه وإنما وليه ولي الأمر، ومثل هذا إذا قتله قاتل كان للإمام قتل قاتله لأنه وليه، وكان له العفو عنه إلى الدية لئلا تضيع حقوق المسلمين، فإذا قدر أن عثمان رضي الله عنه عفا عنه ورأى قدر الدية أن يعطيها لآل عمر لما كان على عمر رضي الله عنه من الدين؛ فإنه كان عليه ثمانون ألفًا وأمر أهله أن يقضوا دينه من أموال عصبته عاقلته بني عدي وقريش؛ فإن عاقلة الرجل هم الذين يحملون كلَّ الدية لو طالب بها عبيد الله أو عصبة عبيد الله إذا كان قتله خطأ أو عفا عنه إلى الدية فهم الذين يؤدون دين عمر فإذا أعان بها في دين عمر كان هذا من محاسن عثمان التي يمدح بها لا يذم، وقد كانت أموال بيت المال في زمن عثمان كثيرة وكان يعطى الناس عطاءً كثيرًا أضعاف هذا، فكيف لا يعطى هذا لآل عمر؟!

وبكل حال كانت مسألة اجتهادية، وإذا كانت مسألة اجتهادية وقد رأى طائفة كثيرة من الصحابة أن لا يقتل، ورأى آخرون أن يقتل لم ينكر على عثمان ما فعله باجتهاده ولا على عليّ ما قاله باجتهاده. (٢)

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ٢٧٦-٢٨٠).

(٢) منهاج السنة (٦/ ٢٨٠، ٢٨١).

قلت: وعلى هذا، فعائشة كانت ممن يرى عدم قتل عبيد الله بن عمر لهذه الأسباب التي ذكرناها، فلماذا تخرج وتثور أو تدعو للثورة؟! ولماذا يلزمها بذلك قوم يزعمون أنهم يدعون إلى حرية الرأي والاعتقاد؟!

٦-إذا كان قتل عمر، وعثمان، وعليّ، ونحوهم من باب المحاربة فالمحاربة يشترك فيها الردء والمباشرة عند الجمهور، فعلى هذا. مَنْ أعان على قتل عمر ولو بكلام وجب قتله، وكان الهرمزان ممن ذكر عنه أنه أعان على قتل عمر بن الخطاب، وإذا كان الأمر كذلك كان قتله واجبًا، ولكن كان قتله

إلى الأئم ة فافتأت[١] عبيد الله بقتله، وللإمام أن يعفو عمن افتأت عليه.[٢]

فإذا كان قتل الهرمزان حقًا للخليفة وافتات عليه بعض الرعية، وقد عفا فما هو دخل الآخرين؟!.

وبهذا نعلم أن قتل الهرمزان كان واجبًا على أصح القولين، لكنه كان حقًا للخليفة ففعله ابن عمر ظانًا أن ذلك إليه فعفا عنه، ولو لم يكن واجبًا وفعله ابن عمر فقد فعله متأولًا، ولم يكن له للمقتول أولياء يطلبون دمه فصار أمره إلى السلطان فعفا عنه وجعل الدية لآل عمر كما مر بيانه، فما ذنب أم المؤمنين في هذا كله؟!

ومما يدل على صحة هذا ما قدمناه من أنه لا توجد رواية صحيحة تدل على أن الخوارج اعترضوا على عثمان بعدم قتله ولا سوغوا خروجهم بهذا، فأين الصخب والشغب؟! ولماذا تدعوا عائشة إلى الثورة؟!

ثالثا: شبهتهم عن النصف الثاني من خلافة عثمان رضي الله عنه

حيث رأوا أن عائشة كانت كثيرة الثورة على عثمان والتشغيب عليه، وما ذلك إلا حرصًا على مصلحة المسلمين، ولو كان التنبيه على قتل عبيد الله بن عمر للهرمزان لمصلحة

---

(١) افْتَأَتَ برأيه أي: انفرد واستبدَّ به؛ (ذكر ما ترك فيه الهمز وأصله الهمز وعكسه) المزهرللسيوطي.

(٢) منهاج السنة (٦/ ٢٨٣).

المسلمين لرأينا لها موقفًا من جريمة عبيد الله بن عمر ﷺ، لكن الحقيقة أنها شغبت وثارت على عثمان لأمرين:

الأول: الجانب المادي؛ لأنه أنقصها عما كان يعطيها عمر بن الخطاب ﷺ.

الثاني: الجانب المعنوي؛ لأنها كانت تطمع إلى إعادة الخلافة لبني تيم وبالتحديد لطلحة بن عبيد الله ﷺ. سيأتي في الفصل القادم ذكر الموقف الصحيح لعائشة ولسائر الصحابة من مقتل عثمان، وأنه لم يشترك منهم أحد في مقتله، والروايات المخالفة لهذا الأصل العظيم إنما هي من وضع الرافضة والزنادقة كما سبق بيانه، وإذا عرفنا هذا الأصل عرف بطلان هذين الأصلين سواء الجانب المادي أو المعنوي؛ لأنهما مبنيان على الخروج والثورة من عائشة على عثمان، وهذا باطل. فبطل ما بني عليه كما ذكر في موضعه. وبقي هنا بعض الروايات التي لم تذكر هناك نذكرها ونذكر كلام أهل العلم عليها صحةً أو ضعفًا' ومنها: **ما قاله اليعقوبي** في تاريخه في أيام عثمان ﷺ: وكان بين عثمان وعائشة منافرة وذلك أنه نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب، وصيرها أسوة غيرها من نساء رسول الله، فإن عثمان صعد يومًا ليخطب إذ دلّت عائشة قميص رسول الله، ونادت: يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله ﷺ لم يبلَ، وقد أبلى عثمان سنته! فقال عثمان: رب اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم. [١]

وهذا الكلام لا إسناد له أصلًا فلا عبرة به.

ومنها ما قاله اليعقوبي: وصار مروان إلى عائشة؛ فقال: يا أم المؤمنين، لو قمت فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس، قالت قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحج، قال: فيدفع إليك بكل درهم أنفقته درهمين، قالت: لعلك ترى أني في شك من صاحبك؟ أما والله لوددت أنه مقطع في غرارة من غرائري، وإني أطيق حمله، فأطرحه في البحر. [٢]

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ١٧٦.

(٢) موضوع. أخرجه ابن سعد (٥/ ٣٤). قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني الحكم بن القاسم، عن مصعب بن محمد بن عبد الله بن أبي أمية قال: حدثني من رأى سعيد بن العاص يومئذ يقاتل.. إلخ. وقد ذكر قصة طويلة فيها هذا الكلام، ومن طريقه رواه ابن عساكر في التاريخ (٥٧/ ٢٥٨)، وذكره اليعقوبي من غير

٣- وكان أشدَّ الناس على عثمانَ: طلحةُ، والزبير، وعائشة.

ذكر هذا صاحب مختصر تاريخ الدول، ولم أقف له على إسناد.

وذكره ابن شبة النميري[١] مسندًا، ولم يذكر فيه عائشة فقال: حدثنا إبراهيم بن المنذر قال: حدثنا عبد الله بن وهب، عن الليث بن سعد قال: كان أشدَّ الناس على (عثمان) المحمدون: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن عمرو بن حزم، وهذا معضل؛ فبين الليث بن سعد وهذه الواقعة راويان على الأقل.

وإبراهيم بن المنذر قال الساجي: بلغني أن أحمد كان يتكلم فيه ويذمه وكان قدم إلى ابن أبي داود قاصدًا من المدينة عنده مناكير. قال الخطيب: أما المناكير فقلما توجد في حديثه إلا أن يكون عن المجهولين، ومع هذا فإن يحيى بن معين وغيره من الحفاظ كانوا يرضونه ويوثقونه.[٢]

قلت: و لعل هذا من مناكيره ولايعارض هذا رواية البخاري له، فالبخاري ينتقي من أحاديث شيوخه، وهذا منهم، وانظر هدي الساري.[٣].[٤]

* * *

إسناد وذكره البلاذري في أنساب الأشراف باب أمر عمرو بن العاص وغيره تحت قوله، وفي رواية أبي مخنف وغيره؛ وهذا كالسابق في التواطؤ على الكذب، وهذا أثر مكذوب؛ فمحمد بن عمر متروك، والحكم بن القاسم ومصعب بن محمد لم أجد لهما ترجمة، ولا يُدرى مَن هؤلاء الذين رأوا سعيد بن العاص.

(١) تاريخ المدينة (٤/ ١٣٠٧).

(٢) التهذيب (١٤٥).

(٣) هدى الساري (١/ ٣٨٨).

(٤) وانظر: شبهة مقتل عثمان، فالكلام هناك على الروايات بالتفصيل.

شبهات عن الصحابة

وفيها:

١- شبهة: حول قولِ عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ما شأنه أَهَجَرَ! استفهِمُوه.

٢- شبهة: قتل خالد بن الوليد رضي الله عنه لمالك بن نويرة.

٣- رد الشبهات عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

٤- شبهات عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٥- شبهات حول موقف الصحابة من مقتل عثمان رضي الله عنه.

٦- شبهة: موقف عائشة والصحابة من موقعة الجمل.

٧- موقف الصحابة في معركة صفين.

١ـ شبهة: حول قولِ عمرَ رضي الله عنه لرسول الله ﷺ عند موته ما شأنُهُ أهَجَرَ! استفهِمُوه.

نص الشبهة: اتهام النبي ﷺ بالهذيان، واتهام الصحابة رضي الله عنهم باعتراضهم على رسول الله ﷺ ورفض أمره وطعنهم فيه وبالأخص عمر الذي قال: (أهَجَرَ!).

والرد على ذلك من وجوه.

الوجه الأول: تخريج القصة.

الوجه الثاني: عصمة النبي ﷺ.

الوجه الثالث: التحقيق أن الهجر في اللغة هو: اختلاط الكلام بوجهٍ غيرِ مفهوم.

الوجه الرابع: فضائل عمر رضي الله عنه، وأدبه مع النبي ﷺ.

الوجه الخامس: لم يأت في روايةٍ واحدةٍ التصريحُ بأن عمر هو قائل هذه الكلمة.

الوجه السادس: على فرض أن عمر قال هذا، فقد قاله على سبيل الشك.

الوجه السابع: إن الذين قالوا: ما شأنه أهجر! أو هجر! هم الذين كانوا قريبي العهد بالإسلام.

الوجه الثامن: العلة من قول الصحابة رضي الله عنهم: ما شأْنُه! أهَجَرَ!

الوجه التاسع: إقرار النبي ﷺ كلامَ الصحابة بعدم الإنكار عليهم.

أما عن قولهم: كيف اختلفوا بعد أمره ﷺ أن يأتوه بالكتاب؟

فالرد على ذلك من وجوهٍ.

الوجه الأول: لعلهم اعتقدوا أن ذلك صدر منه ﷺ من غير قصدٍ جازمٍ.

الوجه الثاني: قصدوا التخفيف على رسول الله ﷺ.

الوجه الثالث: وقد قيل: إن عمر رضي الله عنه خشي تطرق المنافقين ومَن في قلبه مرضٌ.

الوجه الرابع: ظنوا أنه اختبارٌ من النبي ﷺ.

الوجه الخامس: وقيل: إن النبي ﷺ لم يَطلبْ، ولكن طُلِبَ منه أن يكتب فقال: ائتوني.

الوجه السادس: لم يأتوه بالكتاب؛ لكي لا تزول فضيلة أهل العلم بالاجتهاد في الاستنباط.

الوجه السابع: إقرار النبي ﷺ كلامَهم بعدم الإنكار عليهم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تخريج القصة.

عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَوْمُ الْخَمِيسِ، وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ! ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الْحَصَى، فَقُلْتُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ؟ قَالَ: اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعُهُ. فَقَالَ: **" ائتوني أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدِى "**، فَتَنَازَعُوا وَمَا ينبغي عِنْدَ نبيٍّ تَنَازُعٌ. وَقَالُوا: مَا شَأْنُهُ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ؟ قَالَ: **" دعوني فالذي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ، أُوصِيكُمْ بِثَلاَثٍ: أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ. قَالَ: وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ أَوْ قَالَهَا فَأُنْسِيتُهَا "**. (١)

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا اشْتَدَّ بالنبي ﷺ وَجَعُهُ، قَالَ: **" ائتوني بِكِتَابٍ؛ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ "**، قَالَ عُمَرُ: إِنَّ النبي ﷺ غَلَبَهُ الْوَجَعُ، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ حَسْبُنَا. فَاخْتَلَفُوا، وَكَثُرَ اللَّغَطُ. قَالَ: **" قُومُوا عَنِّى، وَلاَ ينبغي عندي التَّنَازُعُ "**. فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ، مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ كِتَابِهِ. (٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥٣، ٣١٦٨، ٤٤٣١)، ومسلم (٤٢٤١)، والحميدي (٥٢٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٣٦١)، وأحمد (١/ ٢٢٢)، وأبو داود (٣٠٢٩)، والنَّسائي في الكبرى (٥٨٢٤)، وأبو يعلى في مسنده (٢٤٠٩) كلهم جميعًا عن سفيان بن عيينة، قال: حدثنا سليمان بن أبي مسلم الأحول، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ...

(٢) البخاري (١١٤، ٤٤٣٢، ٥٦٩٦، ٧٣٦٦)، ومسلم (٤٢٤٤)، وأحمد (١/ ٣٢٤، ٣٣٦)، والنَّسائي في الكبرى (٥٨٢٢، ٧٤٧٤) كلهم جميعًا عن الزهري، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة، فذكره.

أما رواية الطبراني في الأوسط، ولفظها: (لما مرض النبي ﷺ قال: **" ائتوني بصحيفةٍ ودواةٍ أكتب لكم كتابًا؛ لن تضلوا بعده أبدًا "**، فقال النسوة من وراء الستر: ألا تسمعون ما يقول رسول الله ﷺ، قال عمر: فقلت: إنكن صويحبات يوسف؛ إذا مرض رسول الله عصرتن أعينكن، وإذا صح ركبتن عنقه، قال: فقال رسول الله: **" دعوهن فإنهن خيرٌ منكم "**. **قلت:** وهو في (الكنز) (١٨٧٧١) معزوٌ لابن سعد أيضًا ولا تصح روايته ولا رواية الطبراني، أما ابن سعدٍ فقد أخرجه في (الطبقات) (٢/ ٢٤٣-٢٤٤) من طريق محمد بن عمر الواقدي، وهو متروكٌ كما في (التقريب) وقد كذبه بعضهم. وأما رواية الطبراني فقد ذكرها الهيثمي في (المجمع) (٩/ ٣٤) **وقال:** (رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن جعفر بن إبراهيم الجعفري **قال العقيلي:** في حديثه نظر، وبقية رجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف) اهـ. **قلت:** ومحمد بن جعفر لم أجد له ترجمة، ولا أظنه إلا من المجهولين، وإلا فقول العقيلي فيه كاف لرد حديثه كما لا يخفى. وانظر: الحجج الدامغات لنقض كتاب المراجعات (٢/ ٢٧٦).

قال ابن كثير: هذا الحديث مما قد توهم به بعض الأغبياء من أهل البدع وغيرهم، كلٌّ مدعٍ أنه كان يريد أن يكتب في ذلك الكتاب ما يرمون إليه من مقالاتهم، وهذا هو التمسك بالمتشابه، وترك المحكم. وأهل السنة يأخذون بالمحكم، ويردون ما تشابه إليه، وهذه طريقة الراسخين في العلم كما وصفهم الله ﷻ في كتابه. وهذا الموضع مما زلَّ فيه أقدام كثيرٍ من أهل الضلالات، وأما أهل السنة فليس لهم مذهبٌ إلا اتباع الحق يدورون معه كيفما دار. وهذا الذي كان يريد ﷺ أن يكتبه قد جاء في الأحاديث الصحيحة التصريح بكشف المراد منه[1].

الوجه الثاني: اعتقاد الصحابة ومن تبعهم عصمةَ النبي ﷺ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧) واعلم أن الأمة مجمعةٌ على

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٤/ ٤٥١). وهو ما في الصحيحين عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: "**ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكرٍ كتابًا؛ فإني أخاف أن يتمنى متمنٍ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**" -البخاري (٧٢١٧، ٥٦٦٦)، ومسلم (٢٣٨٧)، أحمد (٦/ ١٤٤، ١٠٦، ٤٧)، فهذا يُثبِت أنه قَصْدُ رسول الله ﷺ بذلك الكتاب هو هذا بعينه، وأنه كان قد عزم على أن يكتب الكتاب الذي ذكره لعائشة، فلما رأى أن الشك قد وقع علم أن الكتاب لا يرفع الشك فلم يبق فيه فائدة، هذا **أولًا**.

وثانيًا: علم أن الله يجمعهم على ما أراد كما قال: "**يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**"، وهذا الذي عنيناه بالبديل عن الكتاب الذي فيه العصمة من الاختلاف، فالعصمة من الاختلاف قد تحققت لا بذلك الكتاب، بل ببديله الذي هو الإجماع التام المتحقق على خلافة الصديق ﷺ وقد صرح بذلك سفيان بن عيينة بأن النبي ﷺ أراد أن يكتب الاستخلاف لأبي بكر، وذلك فيما رواه عنه البيهقي في (الدلائل) (٧/ ١٨٤)، وقال البيهقي أيضًا (٧/ ١٨٤): (وإنما أراد ما حكا سفيان بن عيينة عن أهل العلم قبله أن يكتب استخلاف أبي بكر ثم ترك كتبه اعتمادًا على ما علم من تقدير الله تعالى ذلك كما هم به في ابتداء مرضه حين قال: وارأساه، ثم بدا له أن لا يكتب، وقال: "**يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**"، ثم نبه أمته على خلافته باستخلافه إياه في الصلاة حين عجز عن حضورها) اهـ.

قال ابن كثيرٍ في السيرة النبوية (٤/ ٤٥٣): وقد خطب ﷺ في يوم الخميس قبل أن يُقْبَض ﷺ بخمسة أيام خطبةً عظيمةً بَيَّنَ فيها فضل الصديق من بين سائر الأصحاب ﷺ ولعل خطبته هذه كانت عوضًا عما أراد أن يكتبه في الكتاب؛ ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ومن تَوَهَّمَ أن هذا الكتاب كان بخلافة عليٍّ ﷺ فهو ضالٌّ باتفاق عامة الناس، من علماء السنة والشيعة، أما أهل السنة فمتفقون على تفضيل أبي بكرٍ وتقديمه، وأما الشيعة القائلون بأن عليًّا كان هو المستحق للإمامة فيقولون: إنه قد نص على إمامته قبل ذلك نصًّا جليًّا ظاهرًا معروفًا، وحينئذٍ فلم يكن يحتاج إلى كتاب. منهاج السنة (٦/ ٢٥).

عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحدٍ إلا وُكِّلَ به قرينُه من الجن، وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: "وإياي، ولكن الله تعالى أعانني عليه فأسلم؛ فلا يأمرني إلا بخيرٍ. ، ورُوِيَ (فأَسْلَمُ) بضم الميم أي: فأَسْلَمُ أنا منه، وصحح بعضهم هذه الرواية ورَجَّحَها، ورُوِيَ (فأَسْلَمَ) يعني القرين أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام فصار لا يأمر إلا بخيرٍ كالمَلَكِ، وهو ظاهر الحديث، ورواه بعضهم فاستسلم. قال القاضي أبو الفضل -وفقه الله-: فإذا كان هذا حكمَ شيطانه وقرينه المُسلَّط على بني آدمَ فكيف بمن بَعُدَ منه وَلَمْ يَلْزَمْ صُحْبَتَهُ وَلَا أُقْدِرَ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهُ![1] ثم اعلم أنه قد تقررت عصمته ﷺ في أقواله في جميع أحواله وأنه لا يصح منه فيها خُلْفٌ، ولا اضطرابٌ في عمدٍ، ولا سهوٍ، ولا صحةٍ، ولا مرضٍ، ولا جِدٍ، ولا مزحٍ، ولا رضىً ولا غضبٍ.[2] قال أئمتنا في هذا الحديث: إن النبي ﷺ غير معصومٍ من الأمراض، وما يكون من عوارضها؛ من شدة وجع غشيٍ ونحوه مما يطرأ على جسمه، معصومٌ أن يكون منه من القول أثناء ذلك ما يطعن في معجزته، ويؤدي إلى فسادٍ في شريعته؛ من هذيانٍ أو اختلالٍ في الكلام.[3]

قال النووي: اعلم أن النبي ﷺ معصومٌ من الكذب، ومن تغيير شيءٍ من الأحكام الشرعية في حال صحته، وحال مرضه، ومعصومٌ من ترك بيان ما أُمِرَ ببيانه، وتبليغ ما أوجب الله عليه تبليغه، وليس معصومًا من الأمراض، والأسقام العارضة للأجسام ونحوها مما لا نقص فيه لمنزلته، ولا فساد لما تمهد من شريعته وقد سُحِرَ ﷺ حتى صار يُخَيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله ولم يصدر منه ﷺ.[4] فنبينا محمد ﷺ معصومٌ في كل حالةٍ في صحته، ومرضه لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم: ٣)، ولقوله ﷺ: "إني

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١١٧).
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١٩١).
(٣) المصدر السابق.
(٤) شرح النووي على مسلم (١١/ ٩٠).

لا أقول في الغضب والرضا إلا حقًا". [١]

الوجه الثالث: التحقيق أن الهجر في اللغة هو: اختلاط الكلام بوجهٍ غير مفهومٍ. وهو على قسمين:

القسم الأول: قسمٌ لا نزاع لأحدٍ في عُروضه للأنبياء -عليهم السلام- وهو عدم تبيين الكلام لبحة الصوت وغلبة اليبس بالحرارة على اللسان، كما في الحميات الحارة وقد ثبت بإجماع أهل السير أن نبينا ﷺ كانت بحة الصوت عارضةً له في مرض موته ﷺ.

والقسم الآخر: جريان الكلام غير المنتظم أو المخالف للمقصود على اللسان بسبب الغشي العارض بسبب الحميات المحرقة، في الأكثر.

وهذا القسم وإن كان ناشئًا من العوارض البدنية، ولكن قد اختلف العلماء في جواز عروضه للأنبياء، فجوزه بعضهم قياسًا على النوم، ومنعه آخرون، فلعل القائل بذلك القول أراد القسم الأول يعني: أنا نرى هذا الكلام خلاف عادته ﷺ، فلعلنا لم نفهم كلامه بسبب وجود الضعف في ناطقته فلا إشكال. [٢]

الوجه الرابع: فضائل عمر وأدبه مع النبي ﷺ.

عن أبي أمامة بن سهلٍ أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: قال رسول الله ﷺ: **"بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُدِيَّ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: (الدِّينَ)".** [٣]

وعن حمزة بن عبد الله بن عمر؛ أن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: **"بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي أَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ)، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: (العِلْمَ)".** [٤]

ومما يُظهِرُ أدبَه مع النبي ﷺ: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٦/ ٣٤٧).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (٣/ ١٠٠٩).

(٣) البخاري (٢٣)، ومسلم (٢٣٩١).

(٤) البخاري (٨٢)، ومسلم (٢٣٩١).

قال: "**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هذَا الْقَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ ابنِ الخَطَّابِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا**"، فَبَكَى عُمَرُ، وَقَالَ: أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ! (١)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "**رأيتُني دخلتُ الجنةَ فإذا أنا بالرُّمَيصاءِ(٢) امرأة أبي طلحة وسمعت خشفةً فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلالٌ، ورأيتُ قصرًا بفنائه جاريةٌ، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر فأردت أن أدخله، فأنظر إليه، فذكرت غيرتك**". فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغارُ!. (٣)

وعن نافع بن عمر عن ابن أبي مُليكة قال: كاد الخَيِّرانِ أن يهلكا، أبو بكر وعمر؛ لما قدم على النبي ﷺ وفدُ بني تميمٍ أشار أحدهما بالأقرع بن حابس الحنظلي أخي بني مجاشعٍ، وأشار الآخر بغيره، فقال أبو بكرٍ لعمرَ: إنما أردتَ خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك فارتفعَتِ أصواتهما عند النبي ﷺ فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ - إلى قوله عَظِيمٌ ﴾(الحجرات: ٢-٣).

قال ابن أبي مليكة: قال ابن الزبير: فكان عمر بعد -ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر- إذا حَدَّثَ النبيَّ ﷺ بحديث حَدَّثَه كأخي السِّرارِ(٤) لم يسمعه حتى يستفهمَه. (٥)

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "**أُرِيتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أَنْزِعُ بِدَلْوٍ بَكْرَةٍ عَلَى قَلِيبٍ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا، واللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ، حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ وَضَرَبُوا بِعَطَنٍ**"(٦).

وعن محمد بن سعد بن أبي وقاصٍ عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِيهًا يَا ابْنَ**

---

(١) البخاري (٣٢٤٢)، ومسلم (٢٣٩٤).

(٢) (الرميصاء): هي أم سليم بنتُ ملحانَ أمّ أنس بن مالكٍ رضي الله عنهما لُقّبَتْ بذلك لرَمَصٍ كان بعينها. والرمَص وسخٌ أبيضُ جامدٌ يجتمع في موق العين.

(٣) البخاري (٤٩٢٨)، (٦٦٢١).

(٤) (كأخي السرار) كصاحب المشاورة في خفض الصوت. (يستفهمه) من الاستفهام وهو طلب الفهم.

(٥) البخاري (٧٣٠٢).

(٦) البخاري (٣٤٧٩).

الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّك". (١)

قال عبد الله: ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر. (٢)

عن ابن أبي مليكة أنه سمع ابن عباس يقول: وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ فتكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَجُلٌ آخِذٌ مَنْكِبِي فَإِذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ وَقَالَ: مَا خلفت أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى الله بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ. وَايْمُ الله إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ الله مَعَ صَاحِبَيْكَ وَحَسِبْتُ أَنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **"ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَر"**(٣).

الوجه الخامس: لم يأت في رواية واحدة التصريح بأن عمر هو قائل هذه الكلمة.

إن الذي قاله عمر هو أن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. (٤)

بل جاءت جميع الروايات بنسبتها إلى بعض الحاضرين في بيت رسول الله ﷺ دون تحديد لأشخاصهم، قال ابن عباس: (فَقَالُوا: مَا شَأْنُهُ أَهَجَرَ اسْتَفْهِمُوهُ)(٥).

قال الدهلوي: من أين يثبُتُ أن قائل هذا هو عمر؛ مع أنه وقع في الروايات (قالوا) بصيغة الجمع؟ (٦)

الوجه السادس: على فرض أن عمر قال هذا فقد قاله على سبيل الشك ولم يجزم بأنه هجر والشك جائز على عمر فإنه لا معصوم إلا النبيﷺ.

---

(١) البخاري (٤٩٢٨)، (٦٦٢١).

(٢) البخاري (٣٤٨١).

(٣) البخاري (٣٤٨١).

(٤) البخاري (١١٤، ٥٣٤٥، ٦٩٣٢)، ومسلم (١٦٣٧)، وأحمد (١/ ٣٢٥)، (١/ ٢٢٢)، وابن حبان (١٤/ ٥٦٤). وقول عمر ﷺ: حسبنا كتاب الله لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام آية: ٣٨). وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة آية: ٣).

(٥) البُخَارِيّ (٣٠٥٣، ٣١٦٨، ٤٤٣١)، ومسلم (٤٢٤١).

(٦) مختصر التحفة الاثنى عشرية (٢٥٠).

وأما عمرﷺ فاشتبه عليه هل كان قول النبي ﷺ من شدة المرض أو كان من أقواله المعروفة، والمرض جائز على الأنبياء ولهذا قال: ماله أهجر، فشك في ذلك ولم يجزم بأنه هجر، والشك جائز على عمر؛ فإنه لا معصوم إلا النبي ﷺ لا سيما وقد شك بشبهة فإن النبي ﷺ كان مريضًا فلم يدر أكلامه كان من وهج المرض كما يعرض للمريض أو كان من كلامه المعروف الذي يجب قبوله، وكذلك ظن أنه لم يمت حتى تبين أنه قد مات، والنبي ﷺ قد عزم على أن يكتب الكتاب الذي ذكره لعائشة، فلما رأى أن الشك قد وقع علم أن الكتاب لا يرفع الشك فلم يبق فيه فائدة وعلم أن الله يجمعهم على ما عزم عليه كما قال: **"وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ"**. (١)

ولا يلتفت إلى قول أحد فإنه-أي عمر- أطوع الخلق له، فعلم أنه لما ترك الكتاب لم يكن الكتاب واجبًا ولا كان فيه من الدين ما تجب كتابته حينئذ إذ لو وجب لفعله، ولو أن عمرﷺ اشتبه عليه أمر ثم تبين له أو شك في بعض الأمور فليس هو أعظم ممن يفتي ويقضي بأمور ويكون النبي ﷺ قد حكم بخلافها مجتهدًا في ذلك ولا يكون قد علم حكم النبيﷺ، فإن الشك في الحق أخف من الجزم بنقيضه. وكل هذا إذا كان باجتهاد سائغ كان غايته أن يكون من الخطأ الذي رفع الله المؤاخذة به كما قضى عليٌّ في الحامل المتوفى عنها زوجها أنها تعتد أبعد الأجلين مع ما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه لما قيل له: إن أبا السنابل بن بعكك أفتى بذلك لسبيعةَ الأسلميةَ فقال رسول الله ﷺ: **"كذب"**. (٢)

الوجه السابع: إن الذين قالوا ما شأنه أهجر أو هجر هم الذين كانوا قريبي العهد بالإسلام.

قال ابن حجر: (ويظهر لي ترجيح ثالث الاحتمالات، التي ذكرها القرطبي، ويكون قائل ذلك بعض من قرب دخوله في الإسلام، وكان يعهد أن من اشتد عليه الوجع، قد يشتغل به عن تحرير ما يريد(٣))

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ١١).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ١٢).

(٣) فتح الباري (٨/ ١٣٣).

وقال البدر العيني: والذي ينبغي أن يقال: إن الذين قالوا: ما شأنه أهجر، أو هجر بالهمزة وبدونها هم الذين كانوا قريبي العهد بالإسلام، ولم يكونوا عالمين بأن هذا القول لا يليق أن يقال في حقه لأنهم ظنوا أنه مثل غيره من حيث الطبيعة البشرية إذا اشتد الوجع على واحد منهم تكلم من غير تحرٍ في كلامه ولهذا قالوا: استفهموه. لأنهم لم يفهموا مراده ومن أجل ذلك وقع بينهم التنازع حتى أنكر عليهم النبي بقوله: **"ولا ينبغي عند نبي التنازع"**، وفي الرواية الماضية" **ولا ينبغي عندي تنازع"**، ومن جملة تنازعهم ردهم عليه وهو معنى قوله: فذهبوا يردون عليه[1]، ويروى **"يردون عنه"** أي عما قاله. فلهذا قال: **"دعوني"** أي اتركوني، والذي أنا فيه من المراقبة والتأهب للقاء الله ﷻ؛ فإنه أفضل من الذي تدعونني إليه من ترك الكتابة، ولهذا قال ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب[2].

الوجه الثامن: العلة من قول الصحابة ﷺ ما شأنه؟ أهَجَرَ؟

ذكر أهل العلم في العلة من قول الصحابة ﷺ ما شأنُه؟ أهَجَرَ؟ أمورًا منها:

١ـ قالوا ذلك على سبيل الاستفهام الاستنكاري.

قالوا: ما شأنُه؟ أهَجَرَ؟ أي اخْتَلَف كلامُه بسبب المرضِ على سبيل الاستفهام. أي هل تَغَيَّر كلامُه واخْتَلَط لأجل ما به من المرض؟ وهذا أَحْسَنُ ما يقال فيه ولا يُجْعل إخبارًا فيكون إمَّا من الفُحْش أو الهَذَيان. .[3]

---

(١) صحيح البخاري (٤٠٧٨).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨/ ٦٢).

(٣) النهاية في غريب الأثر (٥/ ٥٥٧). أما ما أخرجه البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧)، وأحمد (١/ ٣٥٥)، وفيها أنهم قالوا (هجر رسول الله) أو (أن رسول الله يهجر) أي بدون همزة الاستفهام، ونحن لا ننكر صحة هذه الرواية من جهة السند لكن تلك التي قدمناها التي فيها الاستفهام هي الأصح وهي الثابتة كما حققه الحافظ في الفتح (٨/ ١٦٨)، وهو ما قرره غير واحد من الأئمة الأعلام مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ الذهبي، وابن كثير، والقرطبي، والقاضي عياض وغيرهم، ومما يؤيد الاستفهام - كما قال الحافظ - أن جاء في تلك الرواية التي قدمناها قولهم (استفهموه) بصيغة الأمر بالاستفهام. وأيضًا فإن رواية الاستفهام فيها زيادة وهي صحيحة فتعين الأخذ بها. ثم إن البخاري قد روى هذا الحديث في سبعة مواضع

وعلى هذا لا يصح ظاهر رواية من روى في الحديث (هجر) إذ معناه هذى يقال: هجر هجرًا إذا هذى، وأهجر هجرًا إذا أفحش، وأهجر تعدية هجر، وإنما الأصح والأولى (أهجر)؟ على طريق الإنكار على من قال: لا يكتب، هكذا روايتنا فيه في صحيح البخاري من رواية جميع الرواة في حديث الزهري المتقدم، وفي حديث محمد بن سلام عن ابن عيينة وكذا ضبطه الأصيلي بخطه في كتابه وغيره من هذه الطرق، وكذا رويناه عن مسلم في حديث سفيان وعن غيره وقد تحمل عليه رواية من رواه (هجر) على حذف ألف الاستفهام والتقدير: أهجر؟. [(١)]

٢ـ أو هجر بمعنى دهشة من قائل ذلك وحيرة لعظيم ما شاهد. أو أن يُحمل قولُ القائل: (هجر)، أو (أهجر) دهشةً من قائل ذلك، وحيرةً لعظيم ما شاهد من حال الرسول ﷺ وشدة وجعه والمقام الذي اختلف فيه عليه والأمر الذي هم بالكتاب فيه حتى لم يضبط هذا القائل لفظه، وأجرى الهجر مجرى شدة الوجع لا أنه اعتقد أنه يجوز عليه الهجر كما حملهم الإشفاق على حراسته والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ونحو هذا. [(٢)]

قال الإمام الملا على القاري: اعلم أن قوله (هجر) الراجح فيه إثبات الهمزة الاستفهامية وبفتحات على أنه فعل ماض والمراد به هنا ما يقع من كلام المريض مما لا ينتظم ولا يعتد به لعدم فائدته ووقوع ذلك منه مستحيل؛ لأنه معصوم في صحته ومرضه لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣-٤) ولقوله: **"إني لا أقول في الغضب والرضا إلا حقًا"**، وإذا عرفت ذلك فإنما قال من قال منكرًا على من

من صحيحه، أربعة منها فيها قول عمر (أن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع)، واثنان منها فيها الاستفهام، ولم ترد بدون الاستفهام إلا في موضع واحد، وكذلك عند مسلم وأحمد، مما يدلل أن رواية الاستفهام أصح وأكثر طرقًا. وإذا ثبت الاستفهام فمعناه هو ما قدمناه في الوجه الأول، الذي به تنقطع كل حجج ولله الحمد. الحجج الدامغات لنقض كتاب المراجعات (٢/ ٢٥٥).

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفي (٢/ ١٩٣)، والمفهم (٤/ ٥٥٩).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفي (٢/ ١٩٣)، والمفهم (٤/ ٥٥٩).

يتوقف في امتثال أمره بإحضار أسباب الكتابة فكأنه قال: أتتوقف في ذلك! أتظن أنه بتغيره يقول الهذيان في مرضه! امتثِل أمره وأحضر ما طلبه فإنه لا يقول إلا الحق.[(١)]

٣ـ أو هجر بمعنى هجرًا ومنكرًا من القول عند رسول الله أي برفع الصوت.

وأما على رواية (أهجرًا) - وهي رواية أبي إسحاق المستملي في الصحيح في حديث ابن جبيرٍ عن ابن عباسٍ من رواية قتيبةَ - فقد يكون هذا راجعًا إلى المختلفين عنده ﷺ ومخاطبة لهم من بعضهم أي: جئتم باختلافكم على رسول الله ﷺ وبين يديه هجرًا ومنكرًا من القول، والهجر بضم الهاء: الفحش في المنطق[(٢)].

الوجه التاسع: إقرار النبي ﷺ كلام الصحابة بعدم الإنكار عليهم.

قال البيهقي: وفي ترك رسول الله ﷺ الإنكار عليه فيما قال دليلٌ واضحٌ على استصوابه رأيه.[(٣)]

أما عن قولهم: كيف اختلفوا بعد أمره ﷺ أن يأتوه بالكتاب؟

والرد على ذلك من وجوه

الوجه الأول: لعلهم اعتقدوا أن ذلك صدر منه ﷺ من غير قصدِ جازمٍ لقرينة في المجلس.

قال المازري: إن قيل: كيف جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب مع قوله ﷺ: **"ائتوني أكتب"**، وكيف عصوه في أمره، **فالجواب**: أنه لا خلاف أن الأوامر تقارنها قرائن تنقلها من الندب إلى الوجوب عند من قال: أصلها للندب، ومن الوجوب إلى الندب عند من قال: أصلها للوجوب، وتنقل القرائن أيضًا صيغة افعل إلى الإباحة، وإلى التخيير، وإلى غير ذلك من ضروب المعاني؛ فلعله ظهر منه ﷺ من القرائن ما دل على أنه لم يوجب عليهم، بل جعله إلى اختيارهم فاختلف اختيارهم بحسب اجتهادهم وهو دليل على رجوعهم إلى الاجتهاد في الشرعيات فأدَّى عمر رضي الله عنه اجتهاده إلى الامتناع من هذا ولعله اعتقد أن ذلك صدر منه ﷺ من غير قصد جازم وهو المراد بقولهم: هجر، وبقول عمر:

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٧/ ٢٥٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١٩٣).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٨/ ٢٧٣).

غلب عليه الوجع، وما قارنه من القرائن الدالة على ذلك على نحو ما يعهدونه من أصوله ﷺ في تبليغ الشريعة وأنه يجري مجرى غيره من طرق التبليغ المعتادة منه ﷺ فظهر ذلك لعمر دون غيره فخالفوه.(١)

قال القرطبي وغيره: ائتوني أمرٌ وكان حق المأمور أن يبادر للامتثال لكن ظهر لعمر رضي الله عنه مع طائفةٍ أنه ليس على الوجوب، وأنه من باب الإرشاد إلى الأصلح؛ فكرهوا أن يكلفوه من ذلك ما يشق عليه في تلك الحالة مع استحضارهم قولَه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) وقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، ولهذا قال عمر: حسبنا كتاب الله، وظهر لطائفةٍ أخرى أن الأولى أن يكتب لما فيه من امتثال أمره وما يتضمنه من زيادة الإيضاح ودل أمره لهم بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار(٢).

قال القرطبي: وسبب ذلك أن ذلك كله إنما حمل عليه الاجتهاد المسوغ، والقصد الصالح، وكل مجتهد مصيب، أو أحدهما مصيب، والآخر غير مأثوم بل مأجور كما قررناه في الأصول(٣).

قال الحافظ ابن حجر: ودل أمره لهم بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار ولهذا عاش ﷺ بعد ذلك أيامًا ولم يعاود أمرهم بذلك، ولو كان واجبًا لم يتركه لاختلافهم، لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجزم بالأمر، فإذا عزم امتثلوا(٤).

الوجه الثاني: قصدوا التخفيف على رسول الله ﷺ.

قال الإمام البيهقي: إنما قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما قال التخفيف على رسول الله ﷺ حين رآه، قد غلب عليه الوجع، ولو كان ما يريد النبي ﷺ أن يكتب لهم شيئًا مفروضًا، لا يستغنون عنه لم يتركه باختلافهم ولغطهم لقول الله: ﷻ ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

---

(١) شرح النووي على مسلم (١١/ ٩٢).
(٢) فتح الباري (١/ ٢٥٢).
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤/ ٥٥٩).
(٤) فتح الباري (١/ ٢٠٩).

(المائدة: ٦٧) كما لم يترك تبليغ غيره بمخالفة من خالفه، ومعاداة من عاداه، وإنما أراد ما حكا سفيان بن عيينة عن أهل العلم قبله، أن يكتب استخلاف أبي بكر ثم ترك كتابته اعتمادًا على ما علم من تقدير الله تعالى، ذلك كما هم به في ابتداء مرضه حين قال: "وارأساه"، ثم بدا له أن لا يكتب وقال: **"يَأْبَى الله وَالْمُؤْمِنُونَ إِلا أَبَا بَكْر"**، ثم نبه أمته على خلافته، باستخلافه إياه في الصلاة حين عجز عن حضورها، وإن كان المراد به رفع الخلاف في الدين، فإن عمر بن الخطاب ﷺ علم أن الله تعالى قد أكمل دينه بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...﴾، وعلم أنه لا تحدث واقعة إلى يوم القيامة إلا وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بيانها نصًا أو دلالة. وفي نص رسول الله ﷺ على جميع ذلك في مرض موته مع شدة وعكه مما يشق عليه، فرأى عمر بن الخطاب ﷺ الاقتصار على ما سبق بيانه نصًا أو دلالة تخفيفًا على رسول الله ﷺ. (١)

الوجه الثالث: وقد قيل: إن عمر خشي تطرق المنافقين ومن في قلبه مرض لما كتب في ذلك الكتاب في الخلوة.

قال الخطابي: ولا يجوز أن يحمل قول عمر على أنه توهم الغلط على رسول الله ﷺ أو ظن به غير ذلك مما لا يليق به بحال لكنه لما رأى ما غلب على رسول الله ﷺ من الوجع وقرب الوفاة مع ما اعتراه من الكرب خاف أن يكون ذلك القول مما يقوله المريض مما لا عزيمة له فيه، فتجد المنافقون بذلك سبيلًا إلى الكلام في الدين. وقد كان أصحابه ﷺ يراجعونه في بعض الأمور قبل أن يجزم فيها بتحتيم كما راجعوه يوم الحديبية في الخلاف، وفي كتاب الصلح بينه وبين قريش، فأما إذا أمر بالشيء أمر عزيمة فلا يراجعه فيه أحد منهم. قال: وأكثر العلماء على أنه يجوز عليه الخطأ فيما لم ينزل عليه، وقد أجمعوا كلهم على أنه لا يقر عليه. قال: ومعلوم أنه ﷺ وإن كان الله تعالى قد رفع درجته فوق الخلق كلهم- فلم ينزهه عن سمات الحدث والعوارض البشرية، وقد سها في الصلاة فلا ينكر أن يظن به حدوث بعض هذه الأمور في مرضه فيتوقف في مثل هذا الحال حتى تتبين حقيقته؛ فلهذه

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٨/ ٢٧٣)، وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١٩٤)، شرح النووي (١١/ ٩٠).

المعاني وشبهها راجعه عمر رضي الله عنه.[(١)]

الوجه الرابع: لعلهم ظنوا أنه اختبار من النبي ﷺ.

وقيل: إنه كان من النبي ﷺ لهم على طريق المشورة والاختبار وهل يتفقون على ذلك أم يختلفوا فلما اختلفوا تركه[(٢)].

الوجه الخامس: وقيل أن النبي ﷺ لم يطلب، ولكن طلب منه أن يكتب فقال: ائتوني...

وقالت طائفة أخرى: أن معنى الحديث: أن النبي ﷺ كان مجيبًا في هذا الكتاب لما طلب منه لا أنه ابتدأ بالأمر به، بل اقتضاه منه بعض أصحابه فأجاب رغبتهم وكره ذلك غيرهم للعلل التي ذكرناها، واستدل في مثل هذه القصة بقول العباس لعليّ: انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فإن كان الأمر فينا علمناه، وكراهة على هذا وقوله: "**والله لا أفعل**" - الحديث - واستدل بقوله: "**دعوني فإن الذي أنا فيه خيرٌ**" أي: الذي أنا فيه خير من إرسال الأمر وترككم وكتاب الله وأن تدعوني مما طلبتم، وذكر أن الذي طلب كتابه أمر الخلافة بعده وتعيين ذلك[(٣)].

الوجه السادس: إقرار النبي ﷺ كلامهم بعدم الإنكار عليهم

قال القرطبي: ولهذا عاش ﷺ بعد ذلك أيامًا ولم يعاود أمرهم بذلك، ولو كان واجبًا لم يتركه لاختلافهم؛ لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف[(٤)].

قال ابن حجر: قوله: ولا ينبغي عندي التنازع فيه إشعار بأن الأولى كان المبادرة إلى امتثال الأمر وإن كان ما اختاره عمر صوابًا إذ لم يتدارك ذلك النبي ﷺ بعد كما قدمناه.

واعلم أن قول عمر رضي الله عنه: (حسبنا كتاب الله) ردٌّ على من نازعه لا على أمر النبيّ ﷺ[(٥)].

* * *

(١) شرح النووي على مسلم (١١/ ٩١)، فتح الباري (١/ ٢٥٢).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفي (٢/ ١٩٤).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفي (٢/ ١٩٥).

(٤) فتح الباري (١/ ٢٥٢).

(٥) شرح النووي على مسلم (١١/ ٩٣).

٢ـ شبهة: قتل خالد بن الوليد رضي الله عنه لمالك بن نويرة.

نص الشبهة: يقولون: إن خالدًا غلبت عليه طبيعته العسكرية، وهو يقود جيوش المسلمين في الجهاد، وأنه لم يستبريء لدينه بالتروي، والتوقف عند ورود الشبهات.

وإن أبا بكر أمر برد السبي وودى مالك بن نويرة، وقد كانت زوجة مالك بن نويرة في غاية الجمال، وكان خالد بن الوليد يحبها فقتل زوجها مالكًا ليتزوجها مع أنه أقر بالإسلام، وقال مالك عندما أمر خالد بقتله: (إن هذه التي قتلتني) يريد زوجته، وهذا الذي استوجب غضب عمر على خالد، وكان يريد أن يرجمه باعتباره زانيًا.

وفي زواج خالد بزوجة مالك بن نويرة يقول أبو نمير السعدي:

ألا أقل لحي أوطئوا بالسنابك ... تطاول هذا الليل من بعد مالك

قضى خالد بغيًا عليه بعرسه ... وكان هوى فيها قبل ذلك

فأمضى هواه خالد غير عاطف ... عنان الهوى عنها ولا متمالك

فأصبح ذا أهل وأصبح مالك ... إلى غير أهل هالكًا في الهوالك

فكان ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة الحارث بن ربعي أخو بني سلمة، وقد كان عاهد الله أن لا يشهد مع خالد بن الوليد حربًا أبدًا بعدها، وكان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل فأخذ القوم السلاح قال: فقلنا إنا مسلمون.

فقالوا: ونحن مسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم؟ قالوا: فما بال السلاح معكم؟ قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، قال فوضعوها ثم صلينا وصلوا، وكان خالد يعتذر في قتله أنه كان يقول: قال صاحبكم: كذا وكذا، قال أو ما تعده لك صاحبًا؟ ثم قدمه وضرب عنقه وعنق أصحابه.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الروايات.

الوجه الثاني: فضائل خالد بن الوليد رضي الله عنه.

الوجه الثالث: أمور وقع فيها خالد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحكم عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالفسق أو أنه يستحق الرجم، بل يبين له الصواب، وكان هناك ما رجَّح النبي صلى الله عليه وسلم فيه رأي خالد.

الوجه الرابع: فهم خالد وتأويلاته للأمور ربما من يشاهده يظن أنه على خطأ.

الوجه الخامس: مشاركة خالد في حرب المرتدين أمَّن دولة الإسلام، فإن فُرض أنه فعل خطأ ما فإنه يذوب في بحر حسناته.

الوجه السادس: مالك بن نويرة مختلف في إسلامه، ولم يتبين لخالد ولغيره وجه إسلامه.

الوجه السابع: عدة مواقف من مالك بن نويرة تبرر موقف خالد من التشكيك في أمر إسلامه.

الوجه الثامن: لو كان خالد يريد بقتل مالك أمرًا من أمور الدنيا من مال وشهوة لفعل به أبو بكر مثل ما فعل برجل يُسمى الفجاءة.

الوجه التاسع: موقف أبي بكر من خالد هو الأحكم، وبيان علة عدم إقامته للحد عليه.

الوجه العاشر: القائد في المعركة قد يتعرض لمواقف مُحيِّرة، فلا نهضم شخصيته طالما أن له انتصارات بطولية كثيرة، وأنه يُحاول أن يتخيَّر الصواب، ويمكن أن نبين خطأه ونقول: كان ينبغي أن يفعل غير ذلك.

الوجه الحادي عشر: زواج خالد من زوجة مالك، وبيان أن خالدًا لم يقصد الزنا- كما قال عمر.

الوجه الثاني عشر: تحقيق موقف الصحابة من قتل خالد لمالك بن نويرة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الروايات.

١- عن سالم عن أبيه قال: قدم أبو قتادة على أبي بكر فأخبره بمقتل مالك وأصحابه، فجزع من ذلك جزعًا شديدًا. فكتب أبو بكر إلى خالد، فقدم عليه، فقال أبو بكر: هل يزيد خالد على أن يكون تأول فأخطأ؟. ورد أبو بكر خالدًا، وودى مالك بن نويرة ورد السبي والمال. (١)

٢- عن أبي قتادة قال: عهد أبو بكر إلى خالد وأمرائه الذين وجهوا إلى الردة أن إذا أتوا دارًا أن يقيموا، فإن سمعوا آذانًا أو رأوا صلاة أمسكوا حتى يسألوهم عن الذي نقموا ومنعوا له الصدقة، وإن لم يسمعوا آذانًا ولا رأوا مصليًا شنوا الغارة وقتلوا وحرقوا. قال: فكنت مع خالد حتى فرغ من قتال طليحة وغطفان وهوازن وسليم. ثم سار إلى بلاد بني

(١) إسناده صحيح. أخرجه خليفة في تاريخه (١/ ٦٨).

تميم، فقدمنا خالد أمامه فانتهينا إلى أهل بيت منهم حين طفلت الشمس للغروب، فثاروا إلينا فقالوا من أنتم؟ قلنا: نحن عباد الله المسلمون. فقالوا: ونحن عباد الله المسلمون. وقد كان خالد بث سراياه فلم يسمعوا آذانًا وقاتلهم قوم بالبعوضة من ناحية المذار فجاءوا بمالك بن نويرة في أسرى من قومه، فأمر خالد بأخذ أسلحتهم ثم أصبح فأمر بقتلهم. (١)

٣-وعن قتادة نحوه، وقال: إنا لما غشينا القوم أخذوا السلاح فقلنا: إنا مسلمون، فقالوا: ونحن مسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم؟ قالوا: فما بال السلاح معكم؟ قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، فوضعوا السلاح، ثم صلينا وصلوا. . قال أبو اليقظان عن طفيل قال: نزل خالد بالبعوضة وكان أبو الحلال مؤذنهم غائبًا، فلم يؤذن أحد فأغار عليهم فقتل منه ناسًا منهم بشر بن أبي سود الغداني، وأفلت يومئذ مرداس بن أدية وهو ابن عشر سنين. (٢)

٤- عن الزهري، أن أبا قتادة قال: خرجنا في الردة حتى إذا انتهينا إلى أهل أبيات حتى طلعت الشمس للغروب فأرشفنا إليهم الرماح، فقالوا: من أنتم؟ قلنا: نحن عباد الله، فقالوا: ونحن عباد الله، فأسرهم خالد بن الوليد حتى إذا أصبح أمر أن يضرب أعناقهم، قال أبو قتادة: فقلت: اتق الله يا خالد، فإن هذا لا يحل لك، قال: اجلس فإن هذا ليس منك في شيء، قال: فكان أبو قتادة يحلف لا يغزو مع خالد أبدًا، قال: وكان الأعراب هم الذين شجعوه على قتلهم من أجل الغنائم، وكان ذلك في مالك بن نويرة. (٣)

---

(١) **ضعيف**. أخرجه خليفة في تاريخه (١/ ٦٧)، وابن عساكر في تاريخه (١٦/ ٢٥٦) عن علي بن محمد، عن أبي زكريا يحيى بن معين العجلاني، عن سعد بن إسحاق، عن أبيه. وإسناده فيه لين. فيه إسحاق بن كعب بن عجرة القضاعي ثم البلوي المدني (حليف بني سالم من الأنصار، والد سعد بن إسحاق): قال ابن القطان: مجهول الحال ما روى عنه غير ابنه سعد. قال ابن حجر: مجهول الحال. وانظر تهذيب التهذيب (١/ ٢٤٨).

(٢) أخرجه خليفة في تاريخه (١/ ٦٧).

(٣) **منقطع**. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٨٧٢٢) عن معمر، عن الزهري، والزهري لم يسمع من أبي قتادة، فهو من الطبقة الرابعة وهي طبقة تلي الوسطى من التابعين.

٥- عن ابن عون قال: بلغ عمر بن الخطاب قتله مالك بن نويرة وتزوجه امرأته، فقال لأبي بكر: إنه قد زنى، فارجمه، فقال أبو بكر: ما كنت لأرجمه، تأول فأخطأ قال: فإنه قد قتل مسلمًا، فاقتله. قال: ما كنت لأقتله به، تأول فأخطأ. قال: فاعزله، قال: ما كنت لأشيم سيفًا سله الله عليهم أبدًا. وكان مالك بن نويرة يسمى الجفول. (١)

٦- عن ابن إسحاق، في قصة عدي بن حاتم ﷺ: أمَّره رسول الله ﷺ على صدقات قومه، فتوفي رسول الله ﷺ، وقد اجتمعت عنده إبل عظيمة من صدقاتهم، فلما ارتد من ارتد من الناس وبلغهم أنهم قد ارتجعوا صدقاتهم، وارتدت بنو أسد وهم جيرانهم، اجتمعت طيئ إلى عدي بن حاتم، وذكر القصة قال: فلما رأوا منه الجد كفوا عنه وسلموا له، فلما اجتمع المسلمون على أبي بكر ﷺ خرج بها، فكانت أول إبل من الصدقة قدمت على أبي بكر ﷺ هي، وإبل الزبرقان بن بدر.

قال ابن إسحاق: وكان من حديث الزبرقان بن بدر السعدي، أن بني سعد اجتمعوا إليه، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم، وأن يصنع بهم ما صنع مالك بن نويرة بقومه، فأبى وتمسك بها في يده، وثبت على إسلامه، وقال: لا تعجلوا يا قوم، فإنه- والله- ليقومن بهذا الأمر قائم بعد رسول الله ﷺ. فذكر قصة قال: فدفعهم عن نفسه حتى أتاه اجتماع الناس على أبي بكر ﷺ، فخرج بها، وقد تفرق القوم عنه ليلًا ومعه الرجال يطردونها، فما علموا به حتى أتاهم أنه قد أداها إلى أبي بكر ﷺ، فكانت هذه الإبل التي قدم بها الزبرقان وعدي بن حاتم أول إبل وافت أبا بكر ﷺ من إبل الصدقة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ بعث عدي بن حاتم ﷺ على صدقات طيئ، والزبرقان بن بدر على صدقات بني سعد، وطليحة بن خويلد على صدقات بني أسد، وعيينة بن حصن على صدقات بني فزارة، ومالك بن نويرة على صدقات بني يربوع، والفجاءة على صدقات بني سليم، فلما بلغهم وفاة النبي ﷺ وعندهم أموال كثيرة ردوها

---

(١) **إسناده ضعيف**. أخرجه ابن سعد في الجزء المتمم لطبقات ابن سعد (١/ ٣٧٥) من طريق الواقدي عن عبد الله بن جعفر، عن ابن عون به. قلت: وإسناده ضعيف من أجل الواقدي.

على أهلها إلا عدي بن حاتم، والزبرقان بن بدر، فإنهما تمسكا بها ودفعا عنها الناس حتى أدياها إلى أبي بكر ﷺ". (١)

٧- عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: لَمَّا اسْتَخْلَفَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ ﷺ وَارْتَدَّ مَنِ ارْتَدَّ مِنَ الْعَرَبِ عَنِ الإِسْلاَمِ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ غَازِيًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ نَقْعًا مِنْ نَحْوِ النَّقِيعِ خَافَ عَلَى الْمَدِينَةِ فَرَجَعَ وَأَمَّرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ سَيْفَ اللهِ وَنَدَبَ مَعَهُ النَّاسَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَسِيرَ فِى ضَاحِيَةِ مُضَرَ فَيُقَاتِلَ مَنِ ارْتَدَّ مِنْهُمْ عَنِ الإِسْلاَمِ ثُمَّ يَسِيرَ إِلَى الْيَمَامَةِ فَيُقَاتِلَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ فَسَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَاتَلَ طُلَيْحَةَ الْكَذَّابَ الأَسَدِىَّ فَهَزَمَهُ اللهُ. . . ثم مَضَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قِبَلَ الْيَمَامَةِ حَتَّى دَنَا مِنْ حَيٍّ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ فِيهِمْ مَالِكُ بْنُ نُوَيْرَةَ وَكَانَ قَدْ صَدَّقَ قَوْمَهُ فَلَمَّا تُوُفِّىَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْسَكَ الصَّدَقَةَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ﷺ سَرِيَّةً فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِى قَتْلِ مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ قَالَ وَمَضَى خَالِدٌ قِبَلَ الْيَمَامَةِ حَتَّى قَاتَلَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِى حَنِيفَةَ(٢).

٨- عن القاسم بن محمد، قال: لما أراح أسامة وجنده ظهرهم وجموا وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية فعقد إحدى عشر لواءًا عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح(٣).

٩- عن الصعب بن عطية بن بلال عن أبيه: كانت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان هي وبنو أبيها عقفان في بني تغلب فتنبت بعد موت رسول الله ﷺ بالجزيرة في بني تغلب فاستجاب لها الهذيل وترك التنصر وهؤلاء الرؤساء الذين أقبلوا معها لتغزو بهم أبا بكر فلما انتهت إلى الحزن راسلت مالك بن نويرة ودعته إلى الموادعة فأجابها وفثاها عن غزوها وحملها على أحياء من بني تميم، قالت: نعم، فشأنك بمن رأيت فإني إنما أنا امرأة من

(١) **مرسل**. أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٢٢٨٣)، بإسناده إلى ابن إسحاق، وهو بلاغ.

(٢) **إسناده صحيح إلى الزهري وهو مرسل**. أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٧٥) بإسناده إلى الزهري، وسنده إليه صحيح لكن الزهري لم يدرك أبا بكر فهو مرسل.

(٣) **إسناده ضعيف**. أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٨٠) بإسناده، فيه سيف. وهو ابن عمر، الضبي، الأسيدي. قال عباس بن يحيى: ضعيف. وروى مطين عن يحيى: فلس خير منه. وقال أبو داود: ليس بشئ. وقال أبو حاتم: متروك. وقال ابن عدي: عامة حديثه منكر.

بني يربوع وإن كان ملك فالملك ملككم فأرسلت إلى بني مالك بن حنظلة تدعوهم إلى الموادعة فخرج عطارد بن حاجب وسروات بنى مالك حتى نزلوا في بني العنبر على سبرة بن عمرو هرابًا قد كرهوا ما صنع وكيع وخرج أشباههم من بنى يربوع حتى نزلوا على الحصين بن نيار في بني مازن وقد كرهوا ما صنع مالك فلما جاءت رسلها إلى بني مالك تطلب الموادعة، أجابها إلى ذلك وكيع، فاجتمع وكيع، ومالك، وسجاح، وقد وادع بعضهم بعضًا، واجتمعوا على قتال الناس، وقالوا: بمن نبدأ بخضم، أم ببهدى، أم بعوف، والأبناء، أم بالرباب؟ وكفوا عن قيس لما رأوا من ترده وطمعوا فيه، فقالت: أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب، قال: وصمدت سجاح للأحفار حتى تنزل بها، وقالت لهم: أن الدهناء حجاز بني تميم ولن تعدو الرباب إذا شدها المصاب أن تلوذ بالدجاني والدهاني فلينزلها بعضكم، فتوجه الجفول - يعنى مالك بن نويرة - إلى الدجاني فنزلها[1].

١٠- عن الصعب بن عطية بن بلال، قال: لما انصرفت سجاح إلى الجزيرة ارعوى مالك بن نويرة وندم وتحير في أمره وعرف وكيع وسماعة قبح ما أتيا فرجعا رجوعًا حسنًا ولم يتجبرا أخرجا الصدقات، فاستقبلا بها خالدًا، فقال خالد: ما حملكما على موادعة هؤلاء القوم؟ فقالا: ثأر كنا نطلبه في بنى ضبة، وكانت أيام تشاغل وفرص، وقال وكيع في ذلك:

فلا تحسبنا أنى رجعت وأنني منعت وقد تحنى إلى الأصابع

ولكنني حاميت عن جل مالك ولاحظت حتى أكحلتني الأخادع

فلما أتانا خالد بلوائه تخطت إليه بالبطاح الودائع.

ولم يبق في بلاد بني حنظلة شيء يكره إلا ما كان من مالك بن نويرة ومن تأشب إليه بالبطاح فهو على حاله متحير شجٍ[2].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٩٦)، (٢/ ٤٩٧)، (٢/ ٤٩٥). وإسناده ضعيف فيه سيف بن عمر وقد تقدم.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٠١). قال: كتب إلى السري عن شعيب، عن سيف، عن الصعب بن عطية، وفيه سيف بن عمر سبق الكلام عليه.

١١- عن القاسم، وعمرو بن شعيب قالا: لما أراد خالد السير خرج من ظفر وقد استبرأ أسدًا وغطفان وطيئا وهوازن، فسار يريد البطاح دون الحزن وعليها مالك بن نويرة وقد تردد عليه أمره، وقد ترددت الأنصار على خالد وتخلفت عنه، وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا؛ إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا، فقال خالد: إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إليَّ أن أمضي وأنا الأمير وإلي تنتهي الأخبار ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فأتتني لم أعلمه حتى أنتهزها وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به وهذا مالك بن نويرة بحيالنا، وأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان ولست أكرهكم، ومضى خالد وندمت الأنصار وتذامروا وقالوا: إن أصاب القوم خيرًا إنه لخير حرمتموه، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبكم الناس فأجمعوا اللحاق بخالد وجردوا إليه رسولًا، فأقام عليهم حتى لحقوا به ثم سار حتى قدم البطاح فلم يجد به أحدًا. (١)

١٢- عن سويد بن المثعبة الرياحي قال: قدم خالد بن الوليد البطاح فلم يجد عليه أحدًا ووجد مالكًا قد فرقهم في أموالهم ونهاهم عن الاجتماع حين تردد عليه أمره، وقال: يا بني يربوع إنا قد كنا عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين وبطأنا الناس عنه فلم تفلح ولم تنجح، وإني قد نظرت في هذا الأمر فوجدت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة، وإذا الأمر لا يسوسه الناس، فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا في هذا الأمر فتفرقوا على ذلك إلى أموالهم، وخرج مالك حتى رجع إلى منزله، ولما قدم خالد البطاح بث السرايا، وأمرهم بداعية الإسلام، وأن يأتوه بكل من لم يجب وإن امتنع أن يقتلوه، وكان مما أوصى به أبو بكر إذا نزلتم منزلًا فأذنوا وأقيموا فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ثم تقتلوا كل قتلة الحرق فما سواه، وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم، وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٠١)، قال: كتب إلي السري عن شعيب، عن سيف، عن سهل، عن القاسم وعمرو بن شعيب به، فيه سيف بن عمر ضعيف وقد سبق الكلام عليه.

ولا كلمة فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع من عاصم وعبيد وعرين وجعفر فاختلفت السرية فيهم وفيهم أبو قتادة، فكان فيمن شهد أنهم قد أذنوا وأقاموا وصلوا فلما اختلفوا فيهم أمر بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، وجعلت تزداد بردًا فأمر خالد مناديًا فنادى (أدفئوا أسراكم)، وكانت في لغة كنانة إذا قالوا دثروا الرجل فأدفئوه دفأه قتله، وفى لغة غيرهم أدفه فاقتله، فظن القوم وهى في لغتهم القتل أنه أراد القتل فقتلوهم فقتل ضرار بن الأزور مالكًا، وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم فقال إذا أراد الله أمرًا أصابه، وقد اختلف القوم فيهم، فقال أبو قتادة: هذا عملك فزبره خالد فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر فغضب عليه أبو بكر حتى كلمه عمر فيه فلم يرض إلا أن يرجع إليه فرجع إليه حتى قدم معه المدينة وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال وتركها لينقضي طهرها، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره وقال عمر لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقًا، فإن لم يكن هذا حقًا حق عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك، وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال: هيه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكًا، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل فأخبره خبره، فعذره وقبل منه وعنفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك. (١)

١٣- عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: شهد قوم من السرية أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا ففعل مثل ذلك، وشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء فقتلوا وقدم أخوه متمم بن نويرة ينشد أبا بكر دمه ويطلب إليه في سبيهم فكتب له برد السبي وألح عليه عمر في خالد أن يعزله، وقال: إن في سيفه رهقًا، فقال: لا يا عمر، لم أكن لأشيم سيفًا سله الله على الكافرين. (٢)

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٠٢)، قال: فيما كتب به إلى السري بن يحيى يذكر عن شعيب بن إبراهيم أنه حدثه عن سيف بن عمر، عن خزيمة بن شجرة العقفاني، عن عثمان بن سويد، عن سويد بن المثعبة به، وسيف بن عمر ضعيف سبق الكلام عليه.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٠٣)، قال: وكتب إلى السري، عن شعيب، عن سيف، فيه سيف بن عمر سبق الكلام عليه.

١٤- عن سويد، قال: كان مالك بن نويرة من أكثر الناس شعرًا، وإن أهل العسكر أثفوا برؤوسهم القدور فما منهم رأس إلا وصلت النار إلى بشرته ما خلا مالكًا، فإن القدر نضجت وما نضج رأسه من كثرة شعره، وفى الشعر البشر حرها أن يبلغ منه ذلك وأنشده متمم وذكر خمصه، وقد كان عمر رآه مقدمه على النبي ﷺ فقال: أكذاك يا متمم كان، قال: أما مما أعنى فنعم. (١)

١٥- عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق: أن أبا بكر كان من عهده إلى جيوشه: أن إذا غشيتم دارًا من دور الناس فسمعتم فيها أذانًا للصلاة فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ما الذي نقموا، وإن لم تسمعوا أذانًا فشنوا الغارة فاقتلوا وحرقوا، وكان ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة الحارث بن ربعي أخو بني سلمة، وقد كان عاهد الله أن لا يشهد مع خالد بن الوليد حربًا أبدًا بعدها، وكان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل فأخذ القوم السلاح قال: فقلنا إنا المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم، قالوا لنا: فما بال السلاح معكم، قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، قال: فوضعوها، ثم صلينا وصلوا، وكان خالد يعتذر في قتله؛ أنه قال وهو يراجعه: ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا، قال:

أو ما تعده لك صاحبًا، ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه، فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب تكلم فيه عند أبى بكر فأكثر، وقال: عدو الله عدا على امرئٍ مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته، وأقبل خالد بن الوليد قافلًا حتى دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدأ الحديد معتجرًا بعمامة له قد غرز في عمامته أسهمًا، فلما أن دخل المسجد، قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها، ثم قال: أرئاء قتلت امرءًا مسلمًا ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك، ولا يكلمه خالد بن الوليد، ولا يظن إلا أن رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه حتى دخل على أبي بكر، فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر إليه

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٥٠٣)، قال: كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن خزيمة عن عثمان عن سويد به، فيه سيف بن عمر وقد سبق الكلام عليه.

فعذره أبو بكر وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك، قال: فخرج خالد حين رضي عنه أبو بكر وعمر جالس في المسجد، فقال: هلم إلي يا ابن أم شملة، قال: فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه ودخل بيته، وكان الذي قتل مالك بن نويرة عبد بن الأزور الأسدي، وقال ابن الكلبي الذي قتل مالك بن نويرة ضرار بن الأزور. (١)

الوجه الثاني: فضائل خالد بن الوليد ﷺ.

١- **إسلام خالد**: عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي أَوْسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ فِيهِ، قَالَ: لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنَ الأَحْزَابِ عَنِ الْخَنْدَقِ خَرَجْتُ عَامِدًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لأُسْلِمَ، فَلَقِيتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: أَيْنَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ قَالَ: وَاللهِ، لَقَدِ اسْتَقَامَ الْمِيسَمُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَنَبِيٌّ، أَذْهَبُ وَاللهِ أُسْلِمُ، فَحَتَّى مَتَى؟ قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ، مَا جِئْتُ إِلاَّ لأُسْلِمَ، قَالَ: فَقَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَقَدَّمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَأَسْلَمَ وَبَايَعَ... الحديث. (٢)

٢- **دعاء النبي ﷺ له**: عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْنِ أَزْهَرَ، قَالَ: جُرِحَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا غُلامٌ، وَهُوَ يَقُولُ: " **مَنْ يَدُلُّ عَلَى رَحْلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ** "؟ فَخَرَجْتُ أَسْعَى بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَا أَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى رَحْلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، حَتَّى أَتَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى رَحْلٍ، قَدْ أَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَهُ، وَدَعَا لَهُ. قَالَ: وَأُرَى فِيهِ: وَنَفَثَ عَلَيْهِ. (٣)

٣- دفاع النبي ﷺ عن خالد:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالصَّدَقَةِ فَقِيلَ مَنَعَ ابْنُ جَمِيلٍ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ « مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٣) من طريق محمد بن إسحاق، عن طلحة بن عبد الله، وابن إسحاق إمام في المغازي ولكنه عنعن في روايته.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٨) قال الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٢٣): وإسناده حسن، أو قريب منه.

(٣) إسناده صحيح ورجاله على شرط الشيخين. أخرجه الحميدي (٨٩٧)، وأحمد (٣٥٠)، وأبو داود (٤٤٨٧)، (٤٤٨٩) مختصرًا، والنَّسائي ٥/ ٣٣، وفي الكبرى (٥٢٦٢)، وابن خزيمة (٢٣٣٠) عن الزُّهْرِيّ، الأَعْرَج، عن أَبي هُرَيْرَة.

اللهِ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَعَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهِيَ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ وَمِثْلُهَا مَعَهَا »(١).

٤ـ تكريم النبي ﷺ له ببيان فضله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا تَحْتَ ثَنِيَّةِ لَفْتٍ طَلَعَ عَلَيْنَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنَ الثَّنِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي هُرَيْرَةَ: **"انْظُرْ مَنْ هَذَا"**. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: **"نِعْمَ عَبْدُ اللهِ هَذَا"**(٢).

٥ـ سماحة خالد ﷺ: عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: اسْتَعْمَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَبَا عُبَيْدَةَ ابْنَ الْجَرَّاحِ عَلَى الشَّامِ، وَعَزَلَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، قَالَ: فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: بُعِثَ عَلَيْكُمْ أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **"أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ"**، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **"خَالِدٌ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ وَنِعْمَ فَتَى الْعَشِيرَةِ"**. (٣)

٦ـ من فضائله: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَيْشًا اسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، وَقَالَ: **" فَإِنْ قُتِلَ زَيْدٌ، أَوِ اسْتُشْهِدَ فَأَمِيرُكُمْ جَعْفَرٌ، فَإِنْ قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ فَأَمِيرُكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ"**، فَلَقُوا الْعَدُوَّ فَأَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَتَى خَبَرُهُمُ النبيﷺ، فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: **"إِنَّ إِخْوَانَكُمْ لَقُوا الْعَدُوَّ، وَإِنَّ زَيْدًا أَخَذَ الرَّايَةَ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ؛ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوِ اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ"**. (٤)

---

(١) البخاري (١٣٩٩)، مسلم (٩٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٤٦)، وأحمد (٢/ ٣٦٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٣٧ - ١٨٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٩٠)، وقال الألباني: ورجاله كلهم ثقات رجال الشيخين إلا أن عبد الله لم يدرك عمر ﷺ فإنه ولد لثلاث سنين بقين من خلافة عثمان ﷺ، لكن للحديث شواهد يتقوى بها، انظر: السلسلة الصحيحة (١٢٣٧)، والمشكاة (٦٢٥٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٤٧).

٧ـ صدعه بكلمة الحق: عَنْ خَالِدِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، قَالَ: تَنَاوَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ بِشَيْءٍ، فَكَلَّمَهُ فِيهِ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، فَقِيلَ لَهُ: أَغْضَبْتَ الأَمِيرَ، فَقَالَ خَالِدٌ: إِنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ أُغْضِبَهُ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **"أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَشَدُّهُمْ عَذَابًا لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا"**.(١)

٨ـ استسلام خالد للأوامر بالرغم من كره نفسه لها:

عَنْ عَزْرَةَ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، حِينَ أَلْقَى الشَّامَ بَوَانِيَهُ، بَثْنِيَّةً وَعَسَلًا (وَشَكَّ عَفَّانُ مَرَّةً قَالَ: حِينَ أَلْقَى الشَّامَ كَذَا وَكَذَا) فَأَمَرَنِي أَنْ أَسِيرَ إِلَى الْهِنْدِ، وَالْهِنْدُ فِي أَنْفُسِنَا يَوْمَئِذٍ الْبَصْرَةُ، قَالَ: وَأَنَا لِذَلِكَ كَارِهٌ، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ، اتَّقِ الله، فَإِنَّ الْفِتَنَ قَدْ ظَهَرَتْ، قَالَ: فَقَالَ: وَابْنُ الْخَطَّابِ حَيٌّ، إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَهُ.(٢)

٩ـ خالد ﷺ يحب أن يُقاتل من كان منافقًا في عهد النبي ﷺ:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: جَاءَ رَجُلٌ كَثُّ اللِّحْيَةِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ: اتَّقِ الله يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"فَمَنْ يُطِعِ الله إِنْ عَصَيْتُهُ! أَيَأْمَنُنِى عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلاَ تَأْمَنُونِى"**، قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي قَتْلِهِ يُرَوْنَ أَنَّهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **" إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ**

---

(١) أخرجه الحُمَيْدِي (٥٦٢)، وأحمد (٤/ ٩٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٩٠)، والطبراني (٣٨٤١). قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٤٢٦): سنده حسن في المتابعات والشواهد، (بوانيه) أي: خيره و ما فيه من السعة والنعمة و(البواني) في الأصل: أضلاع الصدر و قيل الأكتاف، و القوائم الواحدة: (بانية) كما في النهاية. (بثنية) قال ابن الأثير: البثنية: خطة منسوبة إلى (البثنة) وهي ناحية من رستاق دمشق. و قيل: هي الناعمة اللينة، من الرملة اللينة، يقال لها: بثنة. و قيل: هي الزبدة، أي صارت كأنها زبدة وعسل، لأنها صارت تجبى أموالها من غير تعب -ألقى الشام بوانيه- إنما هو مثل يقال للإنسان إذا اطمأن بالمكان واجتمع له أمره قد ألقى بوانيه، وكذلك يقال ألقى أرواقه وألقى عصاه، وقوله: (صار بثنية وعسلًا) فيه قولان، يقال البثنية حنطة منسوبة إلى بلاد معروفة بالشام من أرض دمشق يقال لها البثنية، والقول الآخر أراد بالثنية اللينة وذلك أن الرملة اللينة يقال لها بثنة وتصغيرها بثينة وبها سميت المرأة بثنية، فأراد خالد أن الشام لما أطمأن وذهبت شوكته وسكن الحرب فيه وصار لينًا لا مكروه فيه إنما هو خصب كالحنطة والعسل. تاريخ مدينة دمشق (٤٠/ ٣١٣).

هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ". (١)

١٠ـ سرايا خالد في عهد النبي ﷺ: عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ يَقُولُ: لَقَدْ انْقَطَعَتْ فِي يَدِي، يَوْمَ مُؤْتَةَ، تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ فِي يَدِي إِلاَّ صَفِيحَةٌ يَمَانِيَةٌ. (٢)

عن الْبَرَاءَ ﷺ؛ قال: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: ثُمَّ بَعَثَ عَلِيًّا بَعْدَ ذَلِكَ مَكَانَهُ، فَقَالَ: **" مُرْ أَصْحَابَ خَالِدٍ، مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَنْ يُعَقِّبَ مَعَكَ فَلْيُعَقِّبْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُقْبِلْ "**، فَكُنْتُ فِيمَنْ عَقَّبَ مَعَهُ، قَالَ: فَغَنِمْتُ أَوَاقٍ ذَوَاتِ عَدَدٍ. (٣)

١١ـ طرف من سيرة خالد المشرقة: قال ابن الأثير: وكان خالد بن الوليد أحد أشراف قريش في الجاهلية وكان إليه القبة وأعنة الخيل في الجاهلية. أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش في الحرب. قاله الزبير بن بكار.

ولما أراد الإسلام قدم على رسول الله ﷺ هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **"رمتكم مكة بأفلاذ كبدها "**، لقيه بسر بن سفيان الكعبي كعب خزاعة قال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا بالعوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله أن لا تدخل عليهم مكة عنوة أبدًا وهذا هو خالد بن الوليد في خيل قريش قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش قد أكلتها الحرب. وذكر الحديث فهذا صحيح يقول فيه: أنه على خيل قريش، ولم يزل من حين أسلم يوليه رسول الله ﷺ أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب وشهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة فأبلى فيها، وبعثه رسول الله ﷺ إلى العزى وكان بيتًا عظيمًا لمضر تبجله فهدمها وقال: الرجز:

---

(١) أخرجه البُخَارِي (٣٣٤٤)، ومسلم (٢٤١٥).
(٢) أخرجه البُخَارِي (٤٢٦٥)، (٤٢٦٦).
(٣) أخرجه البُخَارِي (٤٣٤٩).

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ولا يصح لخالد مشهد مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة ولما فتح رسول الله ﷺ مكة بعثه إلى بني جذيمة من بني عامر بن لؤي، وكان على مقدمة رسول الله ﷺ يوم حنين في بني سليم فجرح خالد فعاده رسول الله ﷺ ونفث في جرحه فبرأ وأرسله رسول الله ﷺ إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأسره وأحضره عند رسول الله ﷺ فصالحه على الجزية ورده إلى بلده، وأرسله رسول الله ﷺ سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بن مذحج فقدم معه رجال منهم فأسلموا ورجعوا إلى قومهم بنجران، ثم إن أبا بكر أمّره بعد رسول الله ﷺ على قتال المرتدين منهم: مسيلمة الحنفي في اليمامة وله في قتالهم الأثر العظيم، ومنهم: مالك بن نويرة في بني يربوع من تميم، وغيرهم، وله الأثر المشهور في قتال الفرس والروم، وافتتح دمشق وكان في قلنسوته التي يقاتل بها شعر من شعر رسول الله ﷺ يستنصره به وببركته فلا يزال منصورًا، ولما حضرت خالد بن الوليد الوفاة قال: لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء، وما من عمل أرجى من - لا إله إلا الله - وأنا متترس بها. [1]

الوجه الثالث: أمور جرت لخالد في عهد النبي ﷺ ولم يحكم عليه النبي ﷺ بالفسق أو أنه يستحق الرجم، بل يبين له الصواب، وكان هناك ما رجّح النبي ﷺ فيه رأي خالد.

١-عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ رَجُلًا مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرَادَ سَلَبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَكَانَ وَالِيًا عَلَيْهِمْ، فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لِخَالِدٍ: **" مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلَبَهُ؟ قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: ادْفَعْهُ إِلَيْهِ، فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ، فَجَرَّ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ "**؟ فَسَمِعَهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَاسْتُغْضِبَ، فَقَالَ: **" لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي؟! إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا، أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا، فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا،**

(١) أسد الغابة (١/ ٣١٢).

فَشَرَعَتْ فِيهِ، فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ، وَتَرَكَتْ كَدْرَهُ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ، وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ". (١)

قال النووي: هذه القضية جرت في غزوة مؤتة سنة ثمان كما بينه في الرواية التي بعد هذه، وهذا الحديث قد يستشكل من حيث أن القاتل قد استحق السلب، فكيف منعه إياه؟ ويجاب عنه بوجهين:

أحدهما: لعله أعطاه بعد ذلك للقاتل، وإنما أخره تعزيرًا له، ولعوف بن مالك لكونهما أطلقا ألسنتهما في خالد ﷺوانتهكا حرمة الوالي ومن ولاه.

الوجه الثاني: لعله استطاب قلب صاحبه فتركه صاحبه باختياره وجعله للمسلمين، وكان المقصود بذلك استطابة قلب خالد ﷺللمصلحة في إكرام الأمراء. (٢)

٢- وفي أمر المرأة التي زنت وتابت: بأنهَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا، فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ الله ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً، لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ. (٣)

٣-عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، قَالَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَمَّارٍ كَلامٌ، فَأَغْلَظْتُ لَهُ فِي الْقَوْلِ، فَانْطَلَقَ عَمَّارٌ يَشْكُو خَالِدًا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَ خَالِدٌ وَعَمَّارٌ يَشْكُوَانِ، فَجَعَلَ يُغْلِظُ لَهُ، وَلاَ يَزِيدُهُ إِلاَّ غِلْظَةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاكِتٌ، فَبَكَى عَمَّارٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَلاَ تَرَاهُ؟ قَالَ: فَرَفَعَ النَّبِيّ ﷺ رَأْسَهُ، قَالَ: **" مَنْ عَادَى عَمَّارًا عَادَاهُ الله، وَمَنْ أَبْغَضَ عَمَّارًا أَبْغَضَهُ الله"**. قَالَ خَالِدٌ: فَخَرَجْتُ فَمَا كَانَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رضا عَمَّارٍ، فَلَقِيتُهُ فَرَضِيَ. (٤)

٤-عَنِ الْمُرَقَّعِ بْنِ صَيْفِيٍّ، عَنْ جَدِّهِ رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ، أَخِي حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ؛ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، وَعَلَى مُقَدِّمَتِهِ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، فَمَرَّ رَبَاحٌ،

---

(١) مسلم (٤٥٩١).

(٢) شرح مسلم للنووي (١٢/ ٦٤).

(٣) مسلم (٤٤٥١).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٨٩)، والنَّسائي في الكبرى (٨٢١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٦).

وَأَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ، مِمَّا أَصَابَتِ الْمُقَدِّمَةُ، فَوَقَفُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ خَلْقِهَا، حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَانْفَرَجُوا عَنْهَا، فَوَقَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ، فَقَالَ لأَحَدِهِمْ: **" الْحَقْ خَالِدًا، فَقُلْ لَهُ: لاَ تَقْتُلُونَ ذُرِّيَّةً، وَلاَ عَسِيفًا"**. (١)

٥- عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: بَعَثَ النبي ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بني جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا. فَجَعَلُوا يَقُولُونَ صَبَأْنَا، صَبَأْنَا. فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ: وَالله لاَ أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلاَ يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أصحابي أَسِيرَهُ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النبي ﷺ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النبي ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: **" اللهمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ، مَرَّتَيْنِ"**. (٢)

قال ابن كثير: ومع هذا لم يعزل النبيﷺ خالدًا على الإمرة. (٣)

الوجه الرابع: فهم خالدﷺ وتأويلاته للأمور ربما من يشاهده يظن أنه على خطأ.

عَنْ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِﷺأَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَيْتَ مَيْمُونَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّﷺ، فَأُتِيَ بِضَبٍّ مَحْنُوذٍ، فَأَهْوَى إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ، فَقَالَ بَعْضُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ: أَخْبِرُوا رَسُولَ الله ﷺ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ، فَقِيلَ: هُوَ ضَبٌّ يَا رَسُولَ الله، فَرَفَعَ يَدَهُ، فَقُلْتُ: أَحَرَامٌ هُوَ، يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: **" لاَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ، قَالَ خَالِدٌ: فَاجْتَرَرْتُهُ فَأَكَلْتُهُ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَنْظُرُ"**. (٤) فربما من رأى خالد يأكل والنبي لا يأكل بأن ذلك سوء إتباع للنبيﷺ؛ لأن أَبا أَيُّوبَ حدث له موقفًا يُشبه موقف خالد فعندما قِيلَ لأَبي أيوب: لَمْ يَأْكُلْ النبي ﷺ من الثوم، فَفَزِعَ، وَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّﷺ: **" لاَ،**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٨، ٤/ ٣٤٦)، وأبو داود (٢٦٦٩)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، والنَّسائي في الكبرى (٨٥٧١)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٣٥).

(٢) البُخَارِي (٧١٨٩).

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٥).

(٤) البُخَارِي (٥٢١٧)، ومسلم (١٩٤٥).

وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ"، قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ، أَوْ مَا كَرِهْتَ. (١)

فالسؤال لماذا لم يفعل خالدًا كما فعل أبو أيوب؟ نقول: إن خالدًا له فهم قد يختلف عن بعض الصحابة، وتأويل قد يُعارض تأويل أحدهم، وهذا ينبني على القاعدة التي أسسها النبي ﷺ في أمر التأويل والاجتهاد، فعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **"إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ"**. (٢)

وهذا يؤكد أن وقوع الخلاف بين خالد وغيره من الصحابة لا ينبني عليه تفسيق أحدهما.

الوجه الخامس: مشاركة خالد رضي الله عنه في حرب المرتدين أمّن دولة الإسلام، فإن فرض أنه فعل خطأ ما فإنه يذوب في بحر حسناته.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥).

لقد كانت الأمة في خوف في العهد المكي، ثم أمّنها الله في العهد المدني، ثم أصابها الخوف بعد وفاة النبي ﷺ، ثم أمّنها الله بحرب من ارتد عن الدين الأبي، فالشروط الثلاثة التي ذكرها الله في الآية حصلت للصحابة رضي الله عنهم، الاستخلاف وتمكين الدين، وإبدال الخوف، وهذا حينما ارتد الناس بعد وفاة النبي ﷺ، فقاتلهم الصحابة فحصل بذلك الأمن والاستقرار، وكان لخالد بن الوليد نصيبًا كبيرًا في ذلك، فما كان يعجز بعض الصحابة عنه في هذه الحروب كان خالد سرعان ما يُنقذ الموقف.

قال ابن كثير: لما رضي الصديق عن خالد بن الوليد وعذره بما اعتذر به، بعثه إلى قتال بني حنيفة باليمامة: وأوعب معه المسلمون، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكل بهم، وقد اجتاز بخيول لأصحاب سجاح فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب، وأردف الصديق خالدًا بسرية لتكن ردءًا له من ورائه وقد كان

---

(١) مسلم (٢٠٥٣).

(٢) البُخَارِي (٦٩١٩)، ومسلم (١٧١٦).

بعث قبله إلى مسيلمة عكرمة بن أبي جهل، وشرحبيل بن حسنة، فلم يقاوما بني حنيفة، لأنهم في نحو أربعين ألفًا من المقاتلة، فجعل عكرمة قبل مجيء صاحبه شرحبيل، فناجزهم فنكب، فانتظر خالدًا، فلما سمع مسيلمة بقدوم خالد عسكر بمكان يقال له: عقربا في طرف اليمامة والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة. (١)

الوجه السادس: مالك بن نويرة مختلف في إسلامه، ولم يتبين لخالد ولغيره وجه إسلامه.

فقد اختلف الصحابة في إسلامه وكفره، فمن شهد بإسلامه: عمر وعبد الله بن عمر وأبو قتادة رضي الله عنهم، وحجتهم في ذلك؛ أن مالكًا وقومه أذنوا للصلاة، وقالوا: نحن عباد الله، ولأن أبا بكر ودى مالك بن نويرة ورد السبي والمال، وهناك من شهد بكفره كخالد بن الوليد وضرار بن الأزور الأسدي وغيرهما من المهاجرين والأنصار الذين شهدوا المعركة ولم يُنكروا على خالد، وهناك عدة أدلة لخالد ومن معه قد تؤيد رأيهم في كفر مالك وبذلك لا يُصبح صحابيًا. -وسيأتي بيانها- فالصحابي: من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على إسلامه(٢).

ولقد قارن ابن تيمية بين عثمان بن عفان، وبين مالك بن نويرة في أمر عصمة الدم فقال: وإن قالوا -أي الشيعة الروافض- أن عثمان كان مباح الدم قيل لهم: فلا يشك أحد في أن إباحة دم مالك بن نويرة أظهر من إباحة دم عثمان، بل مالك بن نويرة لا يعرف أنه كان معصوم الدم ولم يثبت ذلك عندنا وأما عثمان رضي الله عنه، فقد ثبت بالتواتر، ونصوص الكتاب والسنة أنه كان معصوم الدم، وبين عثمان ومالك بن نويرة من الفرق ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى(٣).

الوجه السابع: عدة مواقف من مالك بن نويرة تبرر موقف خالد من التشكيك في أمر إسلامه.

١- ارتداده عن الإسلام، وعدم تيقن خالد من رجوعه:

قال الآلوسي: وارتدت من القبائل في عهد أبي بكر رضي الله عنه: بنو يربوع قوم مالك بن نويرة(٤).

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٦).

(٢) انظر: نخبة الفكر شرح نزهة النظر (٥٥).

(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٥٨).

(٤) تفسير الآلوسي (٥/ ٢٠).

فأما عدي بن حاتم فتمسك بالإسلام وبقي في يده الصدقات، وكذلك الزبرقان بن بدر، وأما مالك بن نويرة فأرسل ما في يده وقال لقومه: قد هلك هذا الرجل فشأنكم بأموالكم وقد كانت طيء وبنو سعد كلمهما عدي بن حاتم و الزبرقان بن بدر فقالا ـ وهما كانا أحزم رأيًا وأفضل في الإسلام رغبة من مالك بن نويرة ـ لقومهما[1]. فمسألة رجوعه إلى الإسلام لم تثبت يقينًا عند خالد بالرغم من ظن بعض الصحابة أنه رجع.

فعن أبي عون وغيره: أن خالد بن الوليد ادعى أن مالك بن نويرة ارتد بكلام بلغه عنه، فأنكر مالك ذلك وقال: أنا على الإسلام ما غيرت ولا بدلت، وشهد له بذلك أبو قتادة وعبد الله بن عمر.[2]

فالرواية تُبين أن خالدًا كان يعتقد كُفر مالك بن نويرة، وعدم أخذ خالد بقول أبي قتادة وابن عمر في قولهم بإسلامه لعدة أمور: **منها** أن هناك عدد أكثر منهما من الصحابة شهدوا بكفره، وأن هناك قرائن عديدة عند خالد تشهد بكفره، وأن خالدًا علم أن مالكًا يُراوغ ويُنافق بقوله: (أنا على الإسلام) بالرغم من أنه قال على النبي قولًا لا يقوله مسلم ـكما سيأتي ـ، وكذلك شعور خالد قِبَل أبي قتادة وابن عمر أنهما يُرجحان العاطفة على الحزم، وذلك كله قبل مسألة تفكير خالد في زواجه من امرأة مالك.

٢ـ متابعته لسجاح: قال ابن كثير: قصة سجاح وبني تميم: حيث كانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردة، **فمنهم** من ارتد ومنع الزكاة، **ومنهم** من بعث بأموال الصدقات إلى الصديق، **ومنهم** من توقف لينظر في أمره، فبينما هم كذلك إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التغلبية من الجزيرة، وهي من نصارى العرب، وقد ادعت النبوة ومعها جنود من قومها ومن التف بهم، وقد عزموا على غزو أبي بكر الصديق، فلما مرت ببلاد بني تميم دعتهم إلى أمرها، فاستجاب لها عامتهم، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي، وعطارد بن حاجب، وجماعة من سادات أمراء بني تميم، وتخلف آخرون منهم عنها، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهم، إلا أن مالك بن

(١) السيرة لابن حبان (١/ ٤١٩).

(٢) سبق تخريجه.

نويرة لما وادعها ثناها عن عودها، وحرضها على بني يربوع، ثم اتفق الجميع على قتال الناس، وقالوا: بمن نبدأ؟ فقالت لهم فيها تسجعه: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب، ثم إنهم تعاهدوا على نصرها، فقال قائل منهم:

أتتنا أخت تغلب في رجال ... جلائب من سراة بني أبينا

وأرست دعوة فينا سفاها ... وكانت من عمائر آخرينا

فما كنا لنرزيهم زبالا ... وما كانت لتسلم إذ أتينا

ألا سفهت حلومكم وضلت ... عشية تحشدون لها ثبينا. (١)

وكلام ابن كثير تؤيده رواية الطبري: فعن الصعب بن عطية بن بلال عن أبيه: كانت سجاج بنت الحارث بن سويد بن عقفان هي وبنو أبيها عقفان في بني تغلب فتنبأت بعد موت رسول الله ﷺ بالجزيرة في بني تغلب، فاستجاب لها الهذيل وترك التنصر وهؤلاء الرؤساء الذين أقبلوا معها لتغزو بهم أبا بكر فلما انتهت إلى الحزن راسلت مالك بن نويرة ودعته إلى الموادعة فأجابها وثناها عن غزوها وحملها على أحياء من بني تميم قالت، نعم، فشأنك بمن رأيت فإني إنما أنا امرأة من بني يربوع وإن كان ملك فالملك ملككم، فأرسلت إلى بني مالك بن حنظلة تدعوهم إلى الموادعة، فخرج عطارد بن حاجب وسروات بني مالك حتى نزلوا في بني العنبر على سبرة بن عمرو- هرابًا -قد كرهوا ما صنع وكيع وخرج أشباههم من بني يربوع حتى نزلوا على الحصين بن نيار في بني مازن وقد كرهوا ما صنع مالك فلما جاءت رسلها إلى بني مالك تطلب الموادعة أجابها إلى ذلك وكيع فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وقد وادع بعضهم بعضًا واجتمعوا على قتال الناس. (٢)

فالحقيقة أنه لقوة إسلام وثبات بعض بطون وأفراد و رؤساء بني تميم، فقد استطاع مالك بن نويرة إقناع سجاح عندما أقبلت في جمعها لتغزو المدينة، بقتال الثابتين من قومها على

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٤٩٦) فيما ذكر السري عن شعيب عن سيف عن الصعب به، وفيه سيف وهو ضعيف وقد سبق الكلام عليه.

إسلامهم قبل قتالها أبي بكر الصديق، و عندما واجهت مسلمي تميم تلقت على أيديهم هزيمة نكراء مما جعلها تغير اتجاهها عن المدينة إلى اليمامة، حيث تم الاتفاق مع مسيلمة الكذاب على حرب الإسلام، و قد تقاربت الروايات التاريخية لتؤكد هذه الحقيقة. (١) وقد انحاز إلى مالك بن نويرة بنو حنظلة عشيرته الأقربون وأسندوا إليه أمرهم، وثبتت بعض قبائل تميم و التي كان عمال النبي ﷺ عليها، أمثال: الزِّبرقان بن بدر على الرباب، و عوف و الأبناء. (٢)

٣ـ منعه الزكاة: قال النووي: وَقَدْ كَانَ فِي ضِمْن هَؤُلَاءِ الْمَانِعِينَ لِلزَّكَاةِ مَنْ كَانَ يَسْمَح بِالزَّكَاةِ وَلَا يَمْنَعهَا إِلَّا أَنَّ رُؤَسَاءَهُمْ صَدُّوهُمْ عَنْ ذَلِكَ الرَّأْي وَقَبَضُوا عَلَى أَيْدِيهمْ فِي ذَلِكَ كَبَنِي يَرْبُوع، فَإِنَّهُمْ قَدْ جَمَعُوا صَدَقَاتهمْ وَأَرَادُوا أَنْ يَبْعَثُوا بِهَا إِلَى أَبِي بَكْر ﷺ، فَمَنَعَهُمْ مَالِك بْن نُوَيْرَة مِنْ ذَلِكَ وَفَرَّقَهَا فِيهِمْ وَفِي أَمْر هَؤُلَاءِ عَرَضَ الْخِلَاف وَوَقَعَتْ الشُّبْهَة لِعُمَر ﷺ فَرَاجَعَ أَبَا بَكْر ﷺ، وَنَاظَرَهُ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ النَّبِيّ ﷺ: **" أُمِرْت أَنْ أُقَاتِل النَّاس حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَه إِلَّا الله. فَمَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله فَقَدْ عَصَمَ نَفْسه وَمَاله "**. وَكَانَ هَذَا مِنْ عُمَر ﷺ تَعَلُّقًا بِظَاهِرِ الْكَلَام قَبْل أَنْ يَنْظُر فِي آخِره وَيَتَأَمَّل شَرَائِطه. (٣)

وثبت أيضًا أن مالكًا لما سمع بوفاة النبي ﷺ رد صدقات قومه عليهم وقال: قد نجوت من مؤنة هذا الرجل.

فعَنِ الزهري قَالَ: وَمَضَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قِبَلَ الْيَمَامَةِ حَتَّى دَنَا مِنْ حِيٍّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فِيهِمْ مَالِكُ بْنُ نُوَيْرَةَ، وَكَانَ قَدْ صَدَّقَ قَوْمَهُ فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ أَمْسَكَ الصَّدَقَةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ﷺ سَرِيَّةً. (٤)

---

(١) انظر: الطبري (٣/ ٢٦٩-٢٧٢)، والكامل (٢/ ٣١)، وحروب الردة (٩٤).

(٢) انظر: الطبري (٣/ ٢٦٧-٢٦٨)، وانظر: خبر وفد بني تميم إلى النبي ﷺ في سيرة ابن هشام (٤/ ١٥٧-١٦٣)، ومعجم القبائل القديمة والحديثة لعمر كحالة (١/ ٣-٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (١/ ٩١).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٧٥) بإسناده إلى الزهري به، فهو منقطع.

فلو فعل مالك مثلما فعل قيس وندم مثل ندمه ما قتله أحد، بالرغم من أن قيس قد منع الزكاة أيضًا، ولكن مالكًا حاول أن يفعل ذلك بعد فوات الأوان وبعدما انصرفت عنه سجاح. فعن الصعب بن عطية بن بلال عن أبيه: أنه قد تحلل الأحياء ونشب الشر وتشاغلوا وشغل بعضهم بعضًا، ثم ندم قيس بعد ذلك فلما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج صدقتها فتلقاه بها، ثم خرج معه وقال في ذلك:

ألا أبلغا عنى قريشًا رسالة إذا ما أتتها بينات الودائع

فتشاغلت في تلك الحال عوف والأبناء بالبطون والرباب بمقاعس وتشاغلت خضم بمالك.[1]

٤ـ لم يكتف بمنع الزكاة والردة، بل كان يُقاتل المسلمين قبل مجئ خالد، وما خضع لخالد إلا بعد انصراف سجاح عنه:

عن الصعب بن عطية بن بلال، عن سهم ابن منجاب، عن منجاب بن راشد قال: فأما بنو حنظلة فإنهم قدموا رجلًا وأخروا أخرى وكان مالك بن نويرة في البطاح ومعه جموع يساجلنا ونساجله.[2]

ويقول البلاذرى: ثم سار خالد إلى من بالبطاح والبعوضة من بنى تميم فقاتلوه، ففض جمعهم وقتل مالك بن نويرة أخا متمم بن نويرة، وقد قيل إن خالدًا لم يلق بالبطاح والبعوضة أحدًا، ولكنه بث السرايا في بني تميم، وكان منها سرية عليها ضرار بن الأزور الأسدي، فلقي ضرار مالكًا فاقتتلوا وأسره وجماعة معه.[3]

فقد ندم مالك بن نويرة على ما كان من أمره، وتلوم في شأنه، وهو نازل بمكان يقال له: البطاح، فقصدها خالد بجنوده وتأخرت عنه الأنصار، وقالوا: إنا قد قضينا ما أمرنا به الصديق، فقال لهم خالد: إن هذا أمر لا بد من فعله، وفرصة لا بد من انتهازها، وإنه لم يأتني فيها كتاب، وأنا الأمير وإلي ترد الأخبار، ولست بالذي أجبركم على المسير، وأنا قاصد البطاح، فسار يومين ثم لحقه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار، فلحقوا به، فلما

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٩٥): فيما ذكر السري عن شعيب، عن سيف، عن الصعب.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٢٢): كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن الصعب به.

(٣) فتوح البلدان (١/ ١١٧).

وصل البطاح وعليها مالك بن نويرة، فبث خالد السرايا في البطاح يدعون الناس، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة، وبذلوا الزكوات، إلا ما كان مالك بن نويرة فإنه متحير في أمره، متنح عن الناس، فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه. (١)

وما توقف مالك عن القتال إلا بعدما يئس من الأمر، وأصابته الحيرة، فلما انصرفت سجاح إلى الجزيرة وراجع بنو تميم الإسلام، أقام مالك بن نويرة متحيرًا في أمره واجتمع إليه من تميم بنو حنظلة واجتمعوا بالبطاح فسار إليهم خالد بعد أن تقاعد عنه الأنصار يسألونه انتظار أبي بكر فأبى إلا انتهاز الفرصة من هؤلاء فرجعوا إلى اتباعه ولحقوا به وكان مالك بن نويرة لما تردد في أمره فرق بني حنظلة في أمواهم ونهاهم عن القتال ورجع إلى منزله. (٢)

٥- قول مالك على النبي ﷺ قولًا لا يليق أن يُقال، وهذا هو السبب الأساسي في قتل خالد لمالك:

ولذلك أشار ابن حجر إلى أن هذا هو السبب الأساسي في قتل خالد لمالك فقال: وكان خالد يقول: إنما أمر بقتل مالك لأنه كان إذا ذكر النبي ﷺ، قال: ما أخال صاحبكم إلا قال كذا وكذا، فقال له: أو ما تعده لك صاحبًا. (٣)

قال ابن كثير: ويقال: بل استدعى خالد مالك بن نويرة فأنَّبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزكاة، وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك، فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ (٤).

قال محمد بن سحنون: أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر والوعيد جار عليه بعذاب الله وحكمه عند الأمة القتل ومن شك في كفره و عذابه كفر، واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة لقوله - عن النبي ﷺ صاحبكم، وقال أبو سليمان الخطابي: لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٤).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٧٣).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٧٥٥).

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٤).

وجوب قتله إذا كان مسلمًا(١).

فقد انضمت عدة قرائن عند خالد لقتل مالك، حتى ولو قلنا بأن هذه اللفظة ليست هي السبب الوحيد في ذلك: قال صاحب مرقاة المفاتيح: وأما قتل خالد ﷺمالك بن نويرة لما قال له كان صاحبكم يقول كذا، فقال خالد: هو صاحبنا وليس بصاحبك فقتله فهو لم يكن لمجرد هذه اللفظة، بل لأنه بلغه عنه الردة وتأكد ذلك عنده بما أباح له به الإقدام على قتله في تلك الحالة. (٢)

٦ـ لم يسمع خالد ومن معه أذانًا من قوم مالك: إن أبا بكر مع علمه بردة هؤلاء إلا أنه يريد أن لا يكون لهم حجة في إثبات ردتهم، فأشار إلى خالد بأن يُنذرهم حتى يسمع الأذان، وليس هذا فحسب، بل أيضًا يؤدوا ما عليهم من زكاة، فلو أنه ثبت أن مالك بن نويرة وقومه أذنوا فلماذا إذًا لم يُعطوا الزكاة، مع أن هناك رواية أخرى تدل على أنهم لم يؤذنوا.

الرواية التي تدل على أنهم لم يسمعوا الأذان: عن أبي قتادة قال: عهد أبو بكر إلى خالد وأمرائه الذين وجهوا إلى الردة أن إذا أتوا دارًا أن يقيموا، فإن سمعوا آذانًا أو رأوا صلاة أمسكوا حتى يسألوهم عن الذي نقموا ومنعوا له الصدقة، وإن لم يسمعوا آذانًا ولا رأوا مصليًا، شنوا الغارة وقتلوا وحرقوا. . . . . . قال: فكنت مع خالد حتى فرغ من قتال طليحة وغطفان وهوازن وسليم. وقد كان خالد بث سراياه فلم يسمعوا آذانًا وقاتلهم قوم بالبعوضة من ناحية المذار فجاءوا بمالك بن نويرة في أسرى من قومه. (٣)

رواية تدل على أنهم لم يسمعوا لعدم وجود مؤذنهم: قال أبو اليقظان عن طفيل قال: نزل خالد بالبعوضة وكان أبو الحلال مؤذنهم غائبًا، فلم يؤذن أحد فأغار عليهم فقتل منه ناسًا منهم بشر بن أبي سود الغداني، وأفلت يومئذ مرداس بن أدية وهو ابن عشر سنين. (٤)

(١) الشفا (٢/ ١٨٨).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٢/ ٤٤٧).

(٣) أخرجه خليفة في تاريخه (١/ ٦٨)، وقد تقدم تخريجه.

(٤) تاريخ خليفة (١/ ٦٨).

رواية تدل على أنهم سمعوا الأذان: وعن قتادة نحوه وقال: إنا لما غشينا القوم أخذوا السلاح، فقلنا: إنا مسلمون، فقالوا: ونحن مسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم؟ قالوا: فما بال السلاح معكم؟ قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، فوضعوا السلاح، ثم صلينا وصلوا. (١)

وأخيرًا، قال الصلابي: اختلفت الآراء في مقتل مالك بن نويرة اختلافًا كثيرًا: أقتل مظلومًا أم مستحقًا، أي أكافرًا قتل أم مسلمًا؟ وقام الدكتور علي العتوم بتحقيق هذه المسألة في كتابه "حركة الردة"، وتعرض الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه "نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم لهذه القضية"، وقام الشيخ محمد زاهر الكوثري بالدفاع عن خالد في كتابه "مقالات الكوثري" وغير ذلك من الباحثين، واخترت من بين من بحث هذا الموضوع ما ذهب إليه الدكتور علي العتوم؛ لأنه حقق المسألة تحقيقًا علميًا متميزًا، واهتم بأحداث الردة اهتمامًا لم أجده -على حسب اطلاعي- عند أحد من الباحثين المعاصرين وخرج بنتيجة أوافقه عليها: أن الذي أردى مالكًا: كبره، وتردده فقد بقي للجاهلية في نفسه نصيب، وإلاّ لما ماطل هذه المماطلة في التبعية للقائم بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ، وفي تأدية حق بيت مال المسلمين عليه، المتمثل بالزكاة، وفي تصوري أن الرجل كان يحرص على زعامته، ويناكف -في الوقت نفسه- بعض أقربائه من زعماء بني تميم الذين وضعوا عصا الطاعة للدولة الإسلامية، وأدوا ما عليهم لها من واجبات، ولقد كانت أفعاله وأقواله على السواء تؤيد هذا التصور فارتداده، ووقوفه بجانب سجاح، وتفريقه إبل الصدقة على قومه، بل ومنعهم من أدائها لأبي بكر، وعدم إصاخته لنصائح أقربائه المسلمين في تمرده. كل ذلك يدينه ويجعل منه رجلًا أقرب إلى الكفر منه إلى الإسلام، ولو لم يكن مما يحتج به على مالك إلا منعه للزكاة لكفى ذلك مسوِّغًا لإدانته، وهذا المنع مؤكد عند الأقدمين، فقد جاء في طبقات فحول الشعراء لابن سلام قوله: والمجمع عليه: أن خالدًا حاوره وراده، وإن مالكًا سمح بالصلاة والتوى بالزكاة جاء في شرح النووي لصحيح مسلم قوله عن المرتدين: كان في ضمن هؤلاء من يسمح بالزكاة ولا يمنعها

(١) أخرجه خليفة في تاريخه (١/ ٦٧).

إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك وقبضوا على أيديهم في ذلك، كبني يربوع، فإنهم قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوها إلى أبي بكر، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرّقها. (١)

الوجه الثامن: لو كان خالد يريد بقتل مالك أمرًا من أمور الدنيا من مال وشهوة لفعل به أبو بكر مثل ما فعل برجل يُسمى الفجاءة.

قال ابن كثير: وقد كان الصديق حرق الفجاءة بالبقيع في المدينة، وكان سببه أنه قدم عليه فزعم أنه أسلم، وسأل منه أن يجهز معه جيشًا يقاتل به أهل الردة، فجهز معه جيشًا، فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله، فلما سمع الصديق بعث وراءه جيشًا فرده، فلما أمكنه بعث به إلى البقيع، فجمعت يداه إلى قفاه وألقي في النار فحرقه وهو مقموط. (٢)

الوجه التاسع: موقف أبي بكر من خالد هو الأحكم، وبيان علة عدم إقامته للحد عليه.

١- فقد حدث من خالد موقفًا يُشبه ذلك في عهد النبيﷺ: وقد تقدم ذكره، قال ابن كثير: ومع هذا لم يعزله رسول اللهﷺ، بل استمر به أميرًا وإن كان قد تبرأ منه في صنيعه ذلك وودى ما كان جناه خطأ في دم أو مال ففيه دليل لأحد القولين بين العلماء في أن خطأ الإمام يكون في بيت المال لا في ماله، لهذا لم يعزله الصديق حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة، وتأول عليه ما تأول(٣)، فقد قام الصديق بالتحقيق في مقتل ابن نويرة وانتهى إلى براءة ساحة خالد من تهمة قتل مالك بن نويرة، وأبو بكر في هذا الشأن أكثر اطلاعًا على حقائق الأمور، وأبعد نظرًا في تصريفها من بقية الصحابة، لأنه الخليفة وإليه تصل الأخبار، كما أنه أرجح إيمانًا من غيره.

٢- قد اعترض عمر على أبي بكر من قبل في محاربة مانعي الزكاة، فبان رجحان رأي أبي بكر، وكذلك هنا قد اعترض عمر على أبي بكر في عدم قتل خالد فانتهى الأمر إلى سكوت عمر، فلو كان أبو بكر يقول غير الحق ما اجتمع الصحابة على رأيه لأن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة. وهذا يُشبه ما حدث من أبي بكر في قتال مانعي الزكاة.

---

(١) أبوبكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره (٤/ ٨٥).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٢).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٦٠).

قال النووي: كَانَ أمر اعتراض عُمَر ﷺ في قتل مانعي الزكاة تَعَلُّقًا بِظَاهِرِ الْكَلَام قَبْل أَنْ يَنْظُرُ فِي آخِره وَيَتَأَمَّل شَرَائِطه فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْر ﷺ: إِنَّ الزَّكَاة حَقّ الْمَال، يُرِيد أَنَّ الْقَضِيَّة قَدْ تَضَمَّنَتْ عِصْمَة دَم وَمَال مُعَلَّقَة بِإِيفَاءِ شَرَائِطهَا. وَالْحُكْم الْمُعَلَّق بِشَرْطَيْنِ لَا يَحْصُل بِأَحَدِهِمَا وَالْآخَر مَعْدُوم. ثُمَّ قَايَسَهُ بِالصَّلَاةِ وَرَدّ الزَّكَاة إِلَيْهَا وَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْله دَلِيل عَلَى أَنَّ قِتَال الْمُمْتَنِع مِنْ الصَّلَاة كَانَ إِجْمَاعًا مِنْ الصَّحَابَة. . . فَلَمَّا اِسْتَقَرَّ عِنْد عُمَر صِحَّة رَأْي أَبِي بَكْر- رَضِيَ الله عَنْهُمَا- وَبَانَ لَهُ صَوَابه تَابَعَهُ عَلَى قِتَال الْقَوْم. [1] فحُكم عمر على خالد واجهه أدلة قوية من أبي بكر، فقد حكم عمر أولًا بالرجم على خالد فكان عليه أن يتمسك بتلك التُهمة التي وجهها لخالد ولكن عندما ذكَّره أبو بكر بأن الحدود تُدفع بالشبهات ترك عمر تلك التُهمة وانصرف إلى أخرى، ولا ننسى عند وفاة النبي ﷺ مافعله أبو بكر من تذكير عمر بأمر خفي عليه، فهذا الموقف يُشبه ذاك.

٣- دعم أبي بكر للقيادة الميدانية: قدم أبو قتادة على أبي بكر ليشكوا إليه خالدًا فيما خالف فيه. فرأى أبوبكر أن فراق أبي قتادة لخالد خطأ لا ينبغي أن يرخص فيه له ولا لغيره؛ لأنه يكون سببًا للفشل والجيش في أرض العدو، فاشتد على أبي قتادة ورده إلى خالد، ولم يرض منه إلا أن يعود فينخرط تحت لوائه، وعمل أبي بكر من أحكم السياسات الحربية.

٤-وقد قام الصديق بالتحقيق في مقتل ابن نويرة وانتهى إلى براءة ساحة خالد من تهمة قتل مالك بن نويرة، وأبوبكر في هذا الشأن أكثر اطلاعًا على حقائق الأمور، وأبعد نظرًا في تصريفها من بقية الصحابة، لأنه الخليفة وإليه تصل الأخبار، كما أنه أرجح إيمانًا منهم.

إن من كمال الصديق توليته لخالد واستعانته به، لأنه كان شديدًا ليعتدل به أمره، ويخلط الشدة باللين، فإن مجرد اللين يفسده، ومجرد الشدة تفسده، فكان يقوم باستشارة عمر وباستنابة خالد وهذا من كماله الذي صار به خليفة رسول الله ﷺ (ولهذا اشتد في قتال أهل الردة شدة برَّز بها على عمر وغيره فجعل الله فيه الشدة مالم يكن فيه قبل ذلك، وأما عمر فكان شديدًا في نفسه، فكان من

(١) شرح النووي على مسلم (١/ ٩١).

كماله -في خلافته- استعانته باللين ليعتدل أمره -فكان يستعين بأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة الثقفي، والنعمان بن مقرن، وسعيد بن عامر، وأمثال هؤلاء من أهل الصلاح والزهد الذين هم أعظم زهدًا وعبادة من خالد بن الوليد وأمثاله، وقد جعل الله في عمر من الرأفة -بعد الخلافة- مالم يكن فيه قبل ذلك، تكميلًا له، حتى صار أمير المؤمنين[1]. قال ابن تيمية: وهكذا أبوبكر خليفة رسول الله ﷺ: (مازال يستعمل خالدًا في حرب أهل الردة، وفي فتوح العراق والشام وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى، فلم يعزله من أجلها، بل عاتبه عليها؛ لرجحان المصلحة على المفسدة في بقائه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه، لأن المتولي الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين، فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة، فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين، ليعتدل الأمر، ولهذا كان أبوبكر الصديق ﷺ يؤثر استنابة خالد ﷺ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يؤثر عزل خالد، واستنابة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ؛ لأن خالدًا كان شديدًا، كعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة كان لينًا كأبي بكر، وكان الأصلح لكل منهما أن يولي من ولاه؛ ليكون أمره معتدلًا، ويكون بذلك من خلفاء رسول الله الذي هو معتدل، حتى قال النبي: **"أنا نبي الرحمة، أنا نبي الملحمة"**. [2]

٥ - درء الحدود بالشبهات: قال ابن تيمية: فشروط الاستيفاء لم توجد في قتل قاتل مالك بن نويرة لوجود الشبهة في ذلك والحدود تدرأ بالشبهات، فعذر أبي بكر ﷺ في ترك قتل قاتل مالك بن نويرة أقوى من عذر علي ﷺ في ترك قتل قتلة عثمان ﷺ. [3] وذلك كما بينَّاه من اعتقاد خالد كُفرَ مالك بن نويرة.

٦- إقرار أبي بكر على أن خالدًا حاول أن يجتهد ويتأول في ذلك، لا أنه فعله عن عمد وبدون نظر.

(١) أبو بكر الصديق ﷺ شخصيته وعصره (٤/ ٨٩).
(٢) السياسة الشرعية (١/ ٢٩).
(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٥٧).

٧- لو كان أبو بكر متواطئًا لأخذ قراراته بدون أن يُناقشه أحد: فالبعض ظن أن أبا بكر متواطئ مع خالد لعدم تنفيذ رأي عمر: مع أن رواية حديث عمر لأبي بكر تُبيّن مدى سماحة أبي بكر في أنه هو الخليفة يستطيع أن يأخذ القرارات دون الرجوع لعمر أو غيره من الصحابة، ومع ذلك سمح لعمر أن يعترض عليه وكلما هنالك أن أبا بكر وقف موقف المدافع لا الحاكم، فلو كان متواطئًا لأخذ قراراته بدون أن يُناقشه أحد، ولو علم عمر بأن أبا بكر متواطئٌ مع خالد ما سكت عن التمسك بالحق مهما كلَّفه ذلك ولراجع أبا بكر مراتٍ عديدة كما راجعه من قبل في أمر جمع القرآن حتى شرح الله قلب أبي بكر لذلك، فلقد شنع الكثير من أهل الأهواء والفتن على أبي بكر الصديق ﷺ في إرساله خالد بن الوليد ﷺ في الحروب، لقتل الناس، واستباحة أموالهم كما يقال زورا وبهتانًا، والصحيح أن أبا بكر ﷺ لم ينفرد بإرسال خالد ﷺ لقيادة الجيوش، بل كان ممن سبقه بذلك النبيﷺ، فقد أمر النبي ﷺ خالدًا ﷺ وبعثه في عدة معارك لنشر الإسلام، كبعثه إلى الطائف، وأهل اليمن، والعزى، والبحرين، ودومة الجندل، وغيرها كثير، ومع تلك البعثات العظيمة التي يُرسل إليها خالد ﷺ من قبل النبي ﷺ وغيره من الخلفاء، فإننا نجد من يطعن في ذلك الصحابي الجليل بإظهار زلاته والكذب عليه، وإخفاء حسناته، بقصد تشويه تاريخه ومكانته عند النبيﷺ.

٨- موقف أبي بكر موقف وسط عدل: حيث أنه لم يُشدد على خالد ولم يتغاضى عما حدث تمامًا، بل إنه اعترف بأن هناك أمر حدث خطأً ولكنه بدون تعمد للخطأ. [1]

قال ابن تيمية: وإذا قالوا: عمر أشار على أبي بكر بقتل خالد، وعلي أشار على عثمان بقتل عبيد الله بن عمر، قيل: وطلحة والزبير وغيرهما أشاروا على عليّ بقتل قتلة عثمان مع أن الذين أشاروا على أبي بكر بالقود أقام عليهم حجة سلموا لها إما لظهور الحق معه وإما لكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد، وعليّ لما لم يوافق الذين أشاروا عليه بالقود جرى بينه وبينهم من الحروب ما قد علم، وقتل قتلة عثمان أهون مما جرى بالجمل وصفين، فإذا كان

(١) تاريخ خليفة (١/ ٦٨)، قال: حدثنا علي بن محمد، عن أبي ذئب، عن الزهري به.

في هذا اجتهاد سائغ ففي ذلك أولى، وإن قالوا: عثمان كان مباح الدم قيل لهم فلا يشك أحد في أن إباحة دم مالك بن نويرة أظهر من إباحة دم عثمان، بل مالك بن نويرة لا يعرف أنه كان معصوم الدم، ولم يثبت ذلك عندنا، وأما عثمان فقد ثبت بالتواتر ونصوص الكتاب والسنة أنه كان معصوم الدم. (١)

٩- عمر تأثَّر أولًا بمبالغات أبي قتادة ثم استوعب الحقيقة فندم على ما كان من تعجله، ولقد بالغ أبو قتادة في ذلك لظنه أن هذه جريمة، بل عدة جرائم لا ينبغي السكوت عليها، ولكن كم من ظانٍ ليس ظنه في محله حتى ولو كان مؤمنًا.

الوجه العاشر: القائد في المعركة قد يتعرض لمواقف مُحيِّرة، فلا نهضم شخصيته ما دامت أن له انتصارات بطولية كثيرة

وأنه يُحاول أن يتخيَّر الصواب، ويمكن أن نبين خطأه ونقول: كان ينبغي أن يفعل غير ذلك: أمر أسامة بن زيدﷺ: قد وقع مثل هذا الاجتهاد الخاطئ من ابن حب النبي ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة ﷺ حيث قتل رجلًا بعد أن قال: (لا إله إلا الله)، فعاتبه النبي ﷺ على ذلك ولم يعاقبه.

الوجه الحادي عشر: زواج خالد من زوجة مالك، وبيان أن خالدًا لم يقصد الزنا كما قال عمر.

١- **قال ابن حجر:** واسم امرأة مالك أم تميم بنت المنهال وروى ثابت بن قاسم في الدلائل أن خالدا رأى امرأة مالك وكانت فائقة في الجمال فقال مالك بعد ذلك لامرأته (قتلتني) يعني سأقتل من أجلك، وهذا قاله ظنًا فوافق أنه قتل، ولم يكن قتله من أجل المرأة كما ظن. (٢)

٢- ذكر الزبير بن بكار أن أبا بكر أمر خالدًا أن يفارق امرأة مالك المذكورة. (٣)

قال الصلابي: أم تميم هي ليلى بنت سنان المنهال، زوج مالك بن نويرة وهذا الزواج حدث حوله جدل كثير واتهم من لهم أغراض خالدًا بعدة تهم لا تصح ولا تثبت أمام البحث العلمي النزيه، وخلاصة القصة فهناك من اتهم خالدًا بأنه تزوج أم تميم فور وقوعها في يده

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٥٨).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٧٥٥)

(٣) السابق.

لعدم صبره على جمالها ولهواه السابق فيها وبذلك يكون زواجه منها -حاش لله- سفاحًا، فهذا القول مستحدث لا يُعتد به، إذ خلت المصادر القديمة من الإشارة إليه، بل هي على خلافه في نصوصها الصريحة، يذكر الماوردي أن الذي جعل خالدًا يقدم على قتل مالك، هو منعه للصدقة التي استحل بها دمه وبذلك فسد عقد المناكحة بينه وبين أم تميم، وحكم نساء المرتدين إذا لحقن بدار الحرب أن يسبين ولا يقتلن، كما يشير إلى ذلك الإمام السرخسي، فلما صارت أم تميم في السبي اصطفاها خالد لنفسه، فلما حلّت بنى بها.

ويعلق الشيخ أحمد شاكر على هذه المسألة بقوله: إن خالدًا أخذها هي وابنها ملك يمين بوصفها سبية، إذ إن السبية لا عدة عليها، وإنما يحرم حرمة قطعية أن يقربها مالكها إن كانت حاملًا قبل أن تضع حملها، وإن كانت غير حامل، حتى تحيض حيضة واحدة ثم دخل بها وهو عمل مشروع جائز لا مغمز فيه ولا مطعن، إلا أن أعداءه والمخالفين عليه رأوا في هذا العمل فرصتهم، فانتهزوها، وذهبوا يزعمون أن مالك بن نويرة مسلم وأن خالدًا قتله من أجل امرأته، وقد اتهم خالد بأنه في زواجه هذا خالف تقاليد العرب، فقد قال العقاد: قتل خالد مالك بن نويرة وبنى بامرأته في ميدان القتال على غير ما تألفه العرب في جاهلية وإسلام، وعلى غير ما يألفه المسلمون، وتأمر به الشريعة. وهذا القول بعيد عن الصحة، فقد كان يحصل كثيرًا في حياة العرب قبل الإسلام إثر حروبهم وانتصاراتهم على أعدائهم أن يتزوجوا من السبايا وكانوا يفخرون بذلك ولذلك كثر فيهم أولاد السبايا وهذا حاتم الطائي يقول:

وما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناها بأسيافنا قسرًا

وكائن ترى فينا من ابن سبية ... إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرًا

ويأخذ رايات الطعان بكفّه ... فيوردها بيضًا ويصدرها حمرًا

وأما من الناحية الشرعية، فقد أتى خالد أمرًا مباحًا وسلك إليه سبيلًا مشروعة أتاه من هو أفضل منه؛ فإذا كان قد أخذ عليه زواجه أبان الحرب أو في أعقابها، فإن رسول الله (تزوج بجويرية بنت الحارث المصطلقية إثر غزوة المريسيع، وقد كانت في سبايا بني

المصطلق فقضى عنها كتابتها وتزوجها، وكان بها طابع يمن وبركة على قومها إذ أعتق لهذا الزواج مائة رجل من أسراهم؛ لأنهم أصبحوا أصهارًا لرسول اللهﷺ، وكان من آثاره المباركة كذلك إسلام أبيها الحارث بن ضرار، كما أنه ﷺ تزوج بصفية بن حيي بن أخطب اليهودية إثر غزوة خيبر، وبنى بها في خيبر أو ببعض الطريق، وإذا كان رسول الله ﷺ (الأسوة الحسنة، فقد توارى العتاب وانقطع الملام.

الوجه الثاني عشر: تحقيق موقف الصحابة من قتل خالد لمالك بن نويرة.

أولًا: تحقيق موقف أبي قتادة وابن عمر وإصرارهما على إسلام مالك:

١- اختلاف الطابع النفسي للعابد (أي المشهور بكثرة العبادة) عن الطابع النفسي للقائد (صاحب المعارك الكثيرة): فأبو قتادة وابن عمر كثيرًا ما يأخذان باللين في كثير من حياتهما (وهو الطابع النفسي للعابد)، وشخصية القائد قد تستوجب الأخذ بالشدة (وهو الطابع النفسي للقائد)

٢-عدم اعتراض جميع من كانوا مع خالد يُبين أنه موقف فردي من أبي قتادة في إسلام مالك وفرضية الأمان له: وخالف أبو قتادة جماعة السرية فأخبروا خالدًا أنه لم يكن لهم أمان، وإنما سيروا قسرًا، فأمر بهم خالد فقتلوا وقبض سبيهم، فركب أبو قتادة فرسه وسار قبل أبي بكر. فلما قدم عليه قال: تعلم أنه كان لمالك بن نويرة عهد وأنه ادعى إسلامًا، وإني نهيت خالدًا فترك قولي وأخذ بشهادات الأعراب الذين يريدون الغنائم. (١)

٣- بيان خالد لأبي قتادة أن هذا الأمر خاص بالقائد في اتخاذ القرار، وأن أبا قتادة أخذته العاطفة في حكمه، حتى أنه ظن أن الأعراب هم الذين أفهموا خالدًا ذلك لأنهم يُريدون الغنائم مع أن الجنود كان منهم عدد ليس بقليل من المهاجرين والأنصار: فعن الزهري أن أبا قتادة قال: فقلت: اتق الله يا خالد فإن هذا لا يحل لك، قال: اجلس فإن هذا ليس منك في شيء، قال: فكان أبو قتادة يحلف لا يغزو مع خالد أبدًا، قال: وكان الأعراب هم الذين شجعوه على قتلهم من أجل الغنائم وكان ذلك في مالك بن نويرة. (٢)

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٣٧١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٨٧٢٢) عن معمر، عن الزهري به.

ففي قول خالد: (اجلس فإن هذا ليس منك في شيء)، دليل أن هذا الأمر خاص بالقائد في اتخاذ القرار.

وحلف أبو قتادة على أنه لا يغزو مع خالد أبدًا: هذا أمر خاص به، مع أن كثيرًا من الصحابة خرجوا مع خالد بعد ذلك، فهذا يُبين أن هذا اجتهادُ فردي من أبي قتادة مبني على اختلاف وجهة نظره مع خالد، ولا يُشترط اختلاف خالد معه في ذلك الموقف أنه سوف يختلف معه في باقي المواقف في المستقبل، فقد حَرَمَ أبو قتادة نفسه من الخير، لأن المعارك التي غزاها خالد بعد ذلك في العراق والفرس أكثر من غيره، ومع ذلك فإن خالدًا يرد مظالم ابن عمر بعد وفاة النبيﷺ، فعن نَافِعٌ، أَنَّ عَبْدًا لِابْنِ عُمَرَ أَبَقَ فَلَحِقَ بِالرُّومِ، فَظَهَرَ عَلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَرَدَّهُ عَلَى عَبْدِ الله، وَأَنَّ فَرَسًا لِابْنِ عُمَرَ عَارَ فَلَحِقَ بِالرُّومِ، فَظَهَرَ عَلَيْهِ فَرَدُّوهُ عَلَى عَبْدِ الله[1]، وعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ عَلَى فَرَسٍ يَوْمَ لقي الْمُسْلِمُونَ، وَأَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، بَعَثَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَهُ الْعَدُوُّ، فَلَمَّا هُزِمَ الْعَدُوُّ رَدَّ خَالِدٌ فَرَسَهُ.[2]

ثانيًا: ما حدث بين عمر وخالد: فقد تحدثنا سابقًا ببيان رجحان قول أبي بكر على قول عمر في قضية قتل خالد لمالك، وهناك أيضًا مواقف أخرى تبين موقف عمر من خالد كان مرجوحًا لا راجحًا، وهذه آراء يُحترم فيها الرأي والرأي الآخر ولا نُسفه أحدهما: فهناك آراء لعمر تجاه خالد قد يُخالفه فيها الصحابة، فعَنْ نَاشِرَةَ بْنِ سُمَيٍّ الْيَزَنِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ، فِي يَوْمِ الْجَابِيَةِ، وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ: إِنَّ الله عز وجل جعَلَنِي خَازِنًا لِهَذَا الْمَالِ وَقَاسِمًا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: بَلِ الله يَقْسِمُهُ، وَإِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكُمْ مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، إِنِّي أَمَرْتُهُ أَنْ يَحْبِسَ هَذَا الْمَالَ عَلَى ضَعَفَةِ الْمُهَاجِرِينَ، فَأَعْطَاهُ ذَا الْبَأْسِ وَذَا الشَّرَفِ، وَذَا اللَّسَانَةِ، فَنَزَعْتُهُ، وَأَمَّرْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ حَفْصِ بْنِ الْمُغِيرَةِ: وَالله مَا أَعْذَرْتَ يَا عُمَرُ بْنَ الْخَطَّابِ، لَقَدْ نَزَعْتَ عَامِلًا اسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَغَمَدْتَ سَيْفًا، سَلَّهُ رَسُولُ اللهﷺ،

---

(١) البخاري (٣٠٦٨).

(٢) البخاري (٣٠٦٩).

وَوَضَعْتَ لِوَاءً نَصَبَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَقَدْ قَطَعْتَ الرَّحِمَ، وَحَسَدْتَ ابْنَ الْعَمِّ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّكَ قَرِيبُ الْقَرَابَةِ، حَدِيثُ السِّنِّ، مُغْضَبٌ مِنِ ابْنِ عَمِّكَ(١).

ومع ذلك فعمر يدافع عن خالد ممن هجاه من المرتدين، حتى بعدما أسلم هذا المرتد:

عن عبد الرحمن بن قيس السلمي، قال أبو شجرة حين ارتد عن الإسلام:

فرويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم إن أبا شجرة أسلم ودخل فيما دخل فيه الناس، فلما كان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم المدينة، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطني فإني ذو حاجة، قال: ومن أنت؟ قال: أبو شجرة ابن عبد العزى السلمي، قال أبو شجرة: أي عدو الله ألست الذي تقول:

فرويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

قال: ثم جعل يعلوه بالدرة في رأسه حتى سبقه عدوًا فرجع إلى ناقته فارتحلها ثم أسندها في حرة شوران راجعا إلى أرض بني سليم، فقال:

ضن علينا أبو حفص بنائله وكل مختبط يوما له ورق. (٢)

وتوفي خالد بحمص من الشام وقيل: بلى توفي بالمدينة سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب وأوصى إلى عمرو رضي الله عنه ولما بلغ عمر أن نساء بني المغيرة اجتمعن في دار يبكين على خالد قال عمر: ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة. . . ولما حضرته الوفاة حبس فرسه وسلاحه في سبيل الله. قال الزبير بن أبي بكر: وقد انقرض ولد خالد بن الوليد فلم يبق منهم أحد وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة(٣).

* * *

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٥)، والنَّسائي في الكبرى (٨٢٢٥) عن عبد الله بن المبارك، قال: أَخْبَرنا سعيد بن يزيد، وهو أبو شجاع، قال: سمعت الحارث بن يزيد الحضرمي، يُحدِّث عن عُلَي بن رباح، عن ناشرة بن سُمَي اليزني، فذكره.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٩٤).

(٣) أسد الغابة (١/ ٣١٢). وقوله: نقع ولقلقة فالنقع: رفع الصوت، وقيل: أراد شق الجيوب. واللقلقة: الجلبة كأنه حكاية الأصوات إذا كثرت. واللقلق: اللسان.

٣ـ رد الشبهات عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

مقدمة، ونص الشبهة:

الحديثُ عن تاريخِ الصحابةِ ﷺ عريضُ الجوانبِ. . طويلُ المدى، واسعُ الآفاقِ، ورَدًّا لكثيرٍ من الشبهاتِ والتهمِ التي أُثيرَتْ حول الصحابةِ رضوانُ الله عليهم أجمعين، وبالأخصِّ خالِ المسلمين وأميرِ المؤمنين، معاويةَ ﷺ. . الذي يَتَلَذَّذُ بالطعنِ فيه بعضُ الجَهَلَةِ تحت ستارِ النقدِ العلميِّ. . وما درى هؤلاء المساكينُ أنَّ الأمةَ مُجْمِعَةٌ على تعديلِ جميعِ الصحابةِ، من لابَسَ الفتنَ منهم ومن اعتزلَ. . إحسانًا للظنِّ بهم؛ لأنهم نَقَلَةُ الشريعةِ. . والطعنُ في أحدِهم مثل معاويةَ ﷺ مَدْخَلٌ لأعداءِ هذا الدينِ للنيلِ من بقيةِ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم أجمعين.

وما أعتقدُ أنَّ شخصيةً في تاريخِنا الإسلاميِّ من الصحابةِ قد نالها من التشويهِ والدَّسِّ والافتراءِ والظلمِ، ما نالَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ رضي الله عنهما. . حيث امتلأتْ معظمُ المصادرِ التاريخيةِ بعشراتِ الرواياتِ الضعيفةِ أو المكذوبةِ على هذا الصحابيِّ الكريمِ -كما سنبينُ- فكان لابدَّ من الحديثِ عنه، والكتابةِ عنه، والذبِّ عن عرضِهِ وِفْقَ المنهجِ الصحيحِ. .

ولذا كان جوابُنا، ودفاعُنا عن هذا الصحابيِّ الجليلِ تحتَ هذين المبحثين:

المبحثُ الأول: التعريفُ به، وذكرُ شيءٍ من فضائلِهِ.

أولًا: التعريف به.

ثانيًا: ذكر فضائله. ويتمثلُ في عدةِ نقاطٍ، وهي:

أولًا: صُحبَتُهُ للنبيِّ ﷺ.

ثانيًا: كتابتُه بين يدي رسولِ الله ﷺ.

ثالثًا: دعاءُ النبيِّ ﷺ له.

رابعًا: كونُه أولَ من ركبَ البحرَ.

خامسًا: أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن معاويةَ ﷺ فلم يَذْكُرْ فيه إلا فقرَه، وقلةَ مالِه.

سادسًا: حبُّ النبيِّ ﷺ لعزتِه مع أهلِ بيتِه.

سابعًا: قربُ منزلتِه من رسولِ الله ﷺ.

ثامنًا: انتفاعُه بما سمعَ من رسولِ اللهِﷺ في سيرتِه.

تاسعًا: معاويةُ رضي الله عنه خالُ المؤمنين.

عاشرًا: ثناءُ الصحابةِ رضي الله عنهم عليه.

حادية عشرة: ثناءُ التابعين، والعلماءِ عليه.

ثانية عشر: ذكرُ شيءٍ عن ولايتِهِ وفتوحاتِه.

ثالثة عشر: ذكرُ جهوده رضي الله عنه في الجهادِ، والفتوحاتِ.

المبحث الثاني: ردُّ الشبهاتِ التي أثيرت في حقِّ معاويةَ وهي على هذا النحو:

الشبهة الأولى: حولَ الأحاديثِ الواردةِ في ذمِّ ولعنِ معاويةَ رضي الله عنه.

الشبهة الثانية: قتلُ محمدِ بنِ أبي بكرٍ الصديقِ، وإحراقُه بالنارِ في جيفةِ حمارٍ، وشماتةُ أختِهِ أمِّ حبيبةَ في عائشةَ بسبب ذلك، وردُّ عائشةَ عليها بقولِها يا ابنةَ العاهرةِ.

الشبهة الثالثة: قتلُ معاويةَ لحُجْرِ بنِ عديٍّ.

الشبهة الرابعة: شبهةُ لعنِ علي رضي الله عنه على المنابر بأمر من معاوية.

الشبهة الخامسة: ما جرى بينَه، وبينَ الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما.

١ - قولُهم إنَّ معاويةَ اشترى الحسنَ بالمالِ ثم اشترى إحدى زوجاتِه اللاتي لا يحصَينَ بالمالِ على أن تَسُمَّ زوجَها؛ مُؤَمِّلًا لها بزواجِ يزيدَ ثم لم يفِ لها بالوعدِ خوفًا على ولده.

٢ - حرمانُ الحسنِ من الدفنِ مع جدِّه بالتعاونِ مع عائشةِ - رضي الله عنها -.

الشبهة السادسة: شبهةُ طلبِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ - رضي الله عنهما- للخلافة.

الشبهة السابعة: أخذ ولاية العهد ليزيد وقد اشتهر قبل ذلك بشرب الخمر والسكر، وقد كان في المسلمين من هو أولى منه.

الشبهة الثامنة: إلحاق زيادٍ بأبي سفيان.

وإليك التفصيل

المبحث الأول: التعريف به، وذكر شيء من فضائله:

أولًا: التعريف به:

هو معاويةُ بنُ أبي سفيانَ صخرِ بنِ حربِ بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسٍ بنِ عبدِ منافِ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابٍ، أميرُ المؤمنينَ، ملكُ الإسلامِ، أبو عبدِ الرحمنِ خالُ المؤمنينَ، وكاتبُ وحيِ رسولِ ربِّ العالمينَ، القرشيُّ الأُمَوِيُّ المَكِّيُّ.

مولده: وُلِدَ معاويةُ ﷺ قبلَ البَعثةِ بخمسِ سنينَ على الأشهرِ، وقيلَ بسبعٍ، وقيلَ بثلاثَ عشرةَ.

إسلامه: أسلمَ معاويةُ عامَ الفتحِ، ورُوِيَ عنه أنَّه قال: أسلمتُ يومَ القضيةِ، ولكنْ كتمتُ إسلامي من أبي، ثم علم بذلك فقالَ لي: هذا أخوك يزيدُ، وهو خيرٌ منك على دينِ قومِهِ، فقلتُ له: لم آلُ نفسي جُهدًا.

قال معاويةُ: ولقد دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ مكةَ في عمرةِ القضاءِ، وإني لَمُصَدِّقٌ به، ثم لما دخلَ عامَ الفتحِ أظهرتُ إسلامي فجئتُه فَرَحَّبَ بي، وكتبتُ بين يديهِ.

وتزوجَ في عهدِ عمرَ ﷺ، وله من الأولادِ: عبدُ الرحمنِ، وعبدُ الله؛ وأمُّهما فاختةُ بنتُ قَرَظَةَ بنِ عبدِ عمرِو بنِ نَوفَلِ بنِ عبدِ مناف.

ويَزيدُ الذي تولى الخلافةَ، وأُمُّه مَيْسُونُ بنتُ بَحدل الكَلبية.

وصفه: كان طويلًا، أبيضَ، جميلًا، مَهيبا، أَجْلَح، إذا ضَحِكَ انقلبت شَفَتُه العُليا، وأصابته لَقْوَةٌ آخرَ عُمُرِه. وكان يَخضِبُ بالحِنَّاءِ والكَتْمِ، ويُصَفِّرُ لحيتَه حتى تكونَ كالذهبِ. وكان من الكَتَبَةِ الحَسَبَةِ الفَصَحَةِ الفُقهاءِ، ويُضرَبُ المَثَلُ بحِلْمِهِ، وعَقْلِهِ. مكث أميرًا على الشامِ في خلافةِ عمرَ، وعثمانَ عشرينَ سنةً، ثم خليفةً للمسلمين مثلَها.

تُوُفِّيَ بدمشقَ للنصفِ من رجبٍ سنةَ ستين، وصلَّى عليه الضَّحَّاكُ بنُ قيسٍ الفِهْرِيُّ، وعاشَ معاويةُ ثمانيةً وسبعينَ عامًا، وقيل غيرُ ذلك ﷺ.

حَدَّثَ عن النبيِّ ﷺ، وكتبَ له مراتٍ يسيرةً، وحدَّث أيضًا عن أختِه أمِّ المؤمنينَ أمِّ حبيبةَ، وعن أبي بكرٍ، وعمر (١).

ثانيا: ذكر فضائله:

أولًا: صحبته للنبي ﷺ، ونذكر في هذا نصوصًا عامةً في القرآنِ والسنةِ في فضائلِ الصحابةِ يندرجُ تحتَها معاويةُ. فمعاويةُ بنُ أبي سفيانَ رضي الله عنه هو أحدُ الصحابةِ الذين أكرمهم اللهُ بصحبةِ نبيِّه محمدٍ ﷺ، وكلُّ كلامٍ يُقَالُ في الصحابةِ فيما يتعلقُ بفضلِهم عمومًا، وما يجبُ لهم عمومًا، فإنَّ معاويةَ رضي الله عنه يدخلُ في ذلك، ولهم فيه كلامٌ يخصُّه، ويتعلقُ به مما ينبغي أن يوصفَ به.

من القرآن

١- قال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح: ٢٩)

٢- قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (التوبة: ٢٦)

ومعاويةُ رضي الله عنه من الذين شهدوا غزوةَ حُنينٍ المقصودةَ في الآياتِ، وكانَ من المؤمنينَ الذين أنزلَ اللهُ سكينتَه عليهم مع النبيِّ ﷺ. (٢)

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (الحديد: ١٠)

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٩)

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٥٨).

٤- ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

قال ابن تيمية: فإنَّ هؤلاءِ الطُّلَقَاءَ مُسْلِمَةَ الفتحِ هم ممن أنفقَ من بعدِ الفتحِ وقاتَلَ، وقد وعدَهُمُ اللهُ الحُسْنَى فإنهم أنفقوا بحُنينٍ والطائفِ وقاتلوا فيهما ﷺ. اهـ

وقال أيضًا: وأما مَن بعدَ هؤلاءِ السابقينَ الأولينَ وهم الذين أسلموا بعدَ الحديبيةِ فهؤلاء دخلوا في قولِهِ تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. اهـ[1]

٥- وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ (التحريم: ٨).

فقد ضمن الله الكريم له أن لا يخزيه لأنه ممن آمن برسول الله ﷺ.

٦- وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧) وساعةُ العُسرةِ هي غزوةُ تبُوكَ، وقد شَهِدَها مُعاويةُ ﷺ.[2]

ومن السنة:

١- عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **"خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلُونَهم، ثم يجيءُ قومٌ تَسْبِقُ شَهادَةُ أَحَدِهِم يَمِينَهُ ويَمِينُهُ شَهَادَتَهُ"**[3].

وهذه الشهادةُ بالخيريةِ مؤكَّدةٌ لشهادةِ ربِّ العزةِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)

٢- وقوله ﷺ: **"النجومُ أَمَنَةٌ للسماءِ، فإذا ذهبتِ النُّجُومُ، أَتى السماءَ ما تُوعَدُ، وأَنا أَمَنَةٌ لأصحابي. فإذا ذَهَبْتُ أَتى أصحابي ما يُوعدونَ، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهب**

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٥٨-٤٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٥٨).

(٣) البخاري (٢٥٠٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

أصحابي أتى أمتي ما يُوعَدُون". [١]

٣-وقالﷺ: **"لا تَسُبُّوا أصحابي، لا تَسُبُّوا أصحابي: فو الذي نفسي بيدِهِ! لو أنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا، ما أَدركَ مُدَّ أَحَدِهِم، ولا نَصِيفَهُ).** [٢]

فهذه نصوصٌ عامةٌ في فضائلِ الصحابةِ ﷺويدخلُ فيها معاويةُ ﷺ.

ثانيًا: كتابته بين يدي رسول الله ﷺ وفي ذلك حديثان:

الأول: عن ابنِ عباسٍ ﷺ قال: كنتُ ألعبُ مع الصبيانِ فجاءَ رسولُ الله ﷺ فتَوَارَيْتُ خلفَ بابٍ، قال: فجاءَ فَحَطَأَنِي حَطْأَةً[٣]، وقال: اذهبْ وادعُ لي معاويةَ. قال: فجئتُ، فقلتُ: هو يأكلُ. قال: ثم قال لي: اذهبْ فادعُ لي معاويةَ. قال: فجئتُ فقلتُ: هو يأكلُ. فقالَ: لا أَشْبَعَ اللهُ بطنَه[٤].

وعندَ أبي داودَ الطيالسيِّ: "أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ إلى معاويةَ ليكتبَ له. . "[٥].

وعندَ أحمدَ: قال: "اذهبْ فادعُ لي معاويةَ، وكان كاتبَه. . . "[٦]

وموضعُ الدِّلالةِ من الحديثِ على فضيلةِ معاويةَ ﷺ في هذا الحديثِ من وجهين:

الوجه الأول: دعوة النبيﷺ: وبيانُ ذلك فيما ترجمَ به النوويُّ - رحمهُ اللهُ تعالى- حيث قال: بابُ مَن لَعَنَهُ النبيُّ ﷺ أو سَبَّه أو دَعَا عليه، وليس هو أهلًا لذلك، كان له زكاةً وأجرًا ورحمةً.

وهذا الحكم استدلالًا بحديث عائشة ﷺ قالت: دخلَ على رسولِ الله ﷺ رجلانِ فكلَّمَهما بشيءٍ لا أدري ما هو، فأَغْضَبَاه فلَعَنَهما، وسَبَّهما، فلما خَرَجَا قلتُ: يا رسولَ الله،

---

(١) مسلم (٢٥٣١).

(٢) البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٣) قال النووي: أما حَطَأَني فبحاءٍ ثم طاءٍ مهملتين وبعدها همزةٌ، وقولُه: حَطْأَةً بفتحِ الحاءِ وإسكانِ الطاءِ بعدها همزةٌ، وهوالضربُ باليدِ مبسوطةً بين الكتفين، وإنما فعل هذا بابنِ عباسٍ ملاطفةً وتأنيسًا. اهـ من شرح مسلم للنووي (١٦/ ١٥٦)

(٤) مسلم (٢٦٠٤).

(٥) مسند الطيالسي (٢٧٤٦)، وصححه الألباني في الصحيحة ١/ ٨١.

(٦) مسند أحمد (١/ ٢٩١).

مَنْ أصابَ من الخيرِ شيئًا ما أصابَه هذانِ، قال: وما ذاك؟ قالت: قلتُ: لعنتَهما وسببتَهما، قال: أَوَ ما علمتِ ما شَارَطْتُ عليه ربي؟ قلتُ: اللهم إنما أنا بشرٌ؛ فأيُّ المسلمين لعنتُه أو سببتُه فاجعلْه له زكاةً وأجرًا[(١)].

وبحديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: "اللهم إنما أنا بشرٌ؛ فأيُّما رجلٍ من المسلمين سببتُه أو لعنتُه أو جلدتُه فاجعلْها له زكاةً ورحمةً وقُرْبَةً تقربُه بها إليك يومَ القيامةِ"[(٢)].

وهذا هو الظاهرُ من صنيعِ الإمامِ مسلمٍ -رحمه اللهُ- حيث أوردَ هذه الأحاديثَ السابقةَ ثم أوردَ بعدَها حديثَ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه في قولِ النبيِّ ﷺ في معاويةَ: "لَا أَشْبَعَ اللهُ بطنَه" وكأنَّه يذكرُ هذا الحديثَ في شأنِ معاويةَ ليجعلَه مثالًا على ما شَرَطَه النبيُّ ﷺ على ربِّه.

وفي روايةٍ: "إني اشترطتُ على ربي، فقلتُ: إنما أنا بشرٌ؛ أَرضَى كما يَرضَى البشرُ، وأَغضَبُ كما يَغضَبُ البشرُ، فأيُّما أحدٍ دعوتُ عليه من أمتي بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ أنْ تجعلَها له طَهورًا وزكاةً وقُرْبَةً".[(٣)]

قال النووي: هذه الأحاديثُ مُبيِّنَةٌ ما كان عليه ﷺ من الشَّفَقَةِ على أمتِه، والاعتناءِ بمصالِحِهم، والاحتياطِ لهم، والرغبةِ في كل ما ينفعُهم، وهذه الروايةُ المذكورةُ آخرًا تُبيِّنُ المرادَ بباقي الرواياتِ المطلَقةِ، وأنَّه إنما يكون دعاؤه عليه رحمةً، وكفارةً، وزكاةً، ونحوَ ذلك، إذا لم يكن أهلًا للدعاءِ عليه، والسبِّ، واللعنِ ونحوِه، وكان مسلمًا، وإلا فقد دعا ﷺ على الكفارِ، والمنافقين ولم يكن ذلك لهم رحمةً، فإنْ قيلَ: كيف يدعو على من ليس هو بأهلٍ للدعاءِ عليه، أو يسبُّه، أو يلعنُه، ونحوُ ذلك؟ فالجوابُ ما أجابَ بِه العلماءُ، ومختَصَرُه وجهانِ:

أحدهما: أنَّ المرادَ ليس بأهلٍ لذلك عندَ الله تعالى وفي باطنِ الأمرِ، ولكنَّه في الظاهرِ مستوجِبٌ له فيظهرُ له ﷺ استحقاقُه لذلك بأمارةٍ شرعيةٍ، ويكونُ في باطنِ الأمرِ ليس أهلًا لذلك، وهو ﷺ مأمورٌ بالحكمِ بالظاهرِ، واللهُ يتولى السرائرَ.

---

(١) مسلم (٢٦٠٠).

(٢) مسلم (٢٦٠١).

(٣) مسلم (٢٦٠٣).

والثاني: أنَّ ما وقع من سبِّه ودعائِه ونحوِه ليس بمقصودٍ، بل هو مما جَرَتْ به عادةُ العربِ في وصلِ كلامِها بلا نيةٍ كقولِه: "تَرِبَتْ يمينُك" و "عَقَرَى حَلقَى" و"لا أشبعَ اللهُ بطنَه" ونحوِ ذلك لا يقصدون بشيءٍ من ذلك حقيقةَ الدعاءِ فخافَ ﷺ أنْ يصادفَ شيءٌ من ذلك إجابةً فسأل ربَّه سبحانه وتعالى، ورَغِبَ إليه في أن يجعلَ ذلك رحمةً وكفارَة، وقربةً، وطَهورًا، وأجرًا، وإنما كان يقعُ هذا منه في النادرِ، والشاذِّ من الأزمانِ، ولم يكن ﷺ فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا لعانًا، ولا منتقمًا لنفسه، وقد سبق في هذا الحديثِ أنهم قالوا: ادعُ على دوسٍ فقال: اللهم اهدِ دوسًا، وقال: اللهم اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون.. واللهُ أعلمُ.

وأما دعاؤه على معاويةَ أن لا يَشْبعَ حين تأخرَ، ففيه الجوابان السابقان:

أحدهما: أنه جرى على اللسانِ بلا قصدٍ.

والثاني: أنه عقوبةٌ له لتأخرِه.

وقد فهم مسلمٌ من هذا الحديثِ أنَّ معاويةَ لم يكن مستحقًا للدعاءِ عليه؛ فلهذا أَدخَلَه في هذا البابِ، وجَعَلَه غيرُه من مناقبِ معاويةَ ﷺ لأنَّه في الحقيقةِ يصيرُ دعاءً له. [(١)]

قال ابن كثير رحمه الله: وقد انتفعَ معاويةُ ﷺ بهذه الدعوةِ في دنياه وأُخراه؛ أما في دنياه: فإنَّه لما صارَ إلى الشامِ أميرًا كان يأكلُ في اليومِ سبعَ مراتٍ يُجاءُ بقصعةٍ فيها لحمٌ كثيرٌ، وبصلٌ فيأكلُ منها، ويأكلُ في اليومِ سبعَ أَكْلاتٍ بلحمٍ، ومن الحلوى والفاكهةِ شيئًا كثيرًا، ويقولُ: واللهِ ما أشبعُ، وإنما أعيا وهذه نعمةٌ، ومَعِدَةٌ يرغبُ فيها كلُّ الملوكِ، وأما في الآخرةِ فقد أَتبعَ مسلمٌ هذا الحديثَ بالحديثِ الذي رواه البخاريُّ، وغيرُهما من غيرِ وجهٍ عن جماعةٍ من الصحابةِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: "**اللهم إنما أنا بشرٌ فأيُّما عبدٍ سببتُه، أو جلدتُه، أو دعوتُ عليه، وليس لذلك أهلًا فاجعل ذلك كفارةً، وقربةً تقربُه بها عندك يومَ القيامةِ**" فرَكَّبَ مسلمٌ من الحديثِ الأولِ وهذا الحديثِ فضيلةً لمعاويةَ. اهـ[(٢)]

الوجه الثاني: وهو كتابتُه للنبيِّ ﷺ.

(١) شرح مسلم للنووي (١٦/ ١٥٢-١٥٦).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٢٠).

قال ابنُ تيميةَ: استكْتبَه النبيُّ ﷺ لِخبْرَته، وأمانتِه. [١]

الحديث الثاني: عن ابنِ عباسٍ - رضي اللهُ عنهما- قال: قال أبو سفيان للنبيِّ ﷺ: معاويةَ تجعلُه كاتبًا بين يديكَ. قال: نعم[٢].

قال ابن كثير: والمقصودُ منه أنَّ معاويةَ كان من جملةِ الكُتَّاب بين يديْ رسولِ الله ﷺ الذين يكتبون الوحيَ[٣].

ثالثا: دعاء النبي ﷺ له. كما استنبطه العلماءُ من الحديثِ الأولِ مع قولِه: "إنما أنا بشرٌ أرضى كما يرضى البشرُ، وأغضبُ كما يغضبُ البشرُ، فأيُّما أحدٍ دعوتُ عليه من أمتي بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ أن تجعلها له طَهورًا، وزكاةً، وقُربَةً، وقد مر بيانُ هذا الوجهِ من هذا النصِّ، وفي هذا المعنى أحاديثُ منها:

منها حديثُ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي عُمَيرَةَ، قال: قال النبيُّ ﷺ لمعاويةَ ﷺ: "اللهم اجعلْهُ هادِيًا مَهدِيًّا واهدِه واهدِ بِه". [٤]

---

(١) منهاج السنة (٤/ ٤٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٠١).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ١١٩).

(٤) **صحيح**. أخرجه الترمذي (٣٨٤٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٢٤٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٢٩)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٣٤) من طريق أبي مسهر. وأحمد (٤/ ٢١٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٢٩) من طريق الوليد بن مسلم، كلاهما (أبو مسهر، والوليد) عن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الرحمن بن أبي عميرة به. وهذا إسنادٌ صحيحٌ متصلٌ ورجالُه ثقاتٌ وهو على شرطِ مسلمٍ رحمه الله. وقد أثبت البخاري في التاريخ سماع عبد الرحمن من النبي ﷺ.
قال الترمذي: حسن غريب، وقال الألباني في الصحيحة (١٩٦٩): صحيح.
ولكن طعن فيه بعضهم بأنَّ ابنَ عبدِ البرِّ قال في عبدِ الرحمنِ: حديثُه مضطربٌ لايثبتُ في الصحابةِ وهو شامي. اهـ من الاستيعاب لابن عبد البر١/ ٢٥٥. ورد ذلك ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٨٢/ ٥١٨١) فقال: قال أبو حاتم، وابن السكن: له صحبة ذكره البخاري، وابن سعد، وابن البرقي، وابن حبان، وعبد الصمد بن سعيد في الصحابة ثم تعجب من كلام ابن عبد البر ونقل رد ابن فتحون عليه ثم قال: وفات ابن فتحون أن يقول: هب أن هذا الحديث الذي أشار إليه ابن عبد البر ظهرت له فيه علة الانقطاع، فما يصنع في بقية الأحاديث المصرحة بسماعه من النبي ﷺ فما الذي يصحح الصحبة زائدًا على هذا؟ اهـ.

ومنها: حديث العرباض ﷺ قال: دعانا النبيُّ ﷺ إلى الغَدَاء المبارك، وسمعتُه يقول: "اللهم علِّمْه -يعني معاويةَ ﷺ- الكتابَ، والحسابَ، وقِهِ العذابَ". (١)

رابعًا: كونه أول من ركب البحر مجاهدًا في سبيل الله.

(١) **حسن لغيره.** أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٩٣٨) من طريق يعقوب بن إبراهيم، وعبد الله بن هاشم.
وأحمد في المسند (٤/ ١٢٧)، وفي فضائل الصحابة (١٧٤٨)، ومن طريقه الخلال في العلل (١٤١) عن مهنا.
وابن حبان (١٦/ ١٩١) من طريق العباس بن عبد العظيم العنبري، وأحمد بن سنان جميعهم (يعقوب بن إبراهيم، وعبد الله بن هاشم، وأحمد بن حنبل، والعباس، وأحمد بن سنان) عن عبد الرحمن بن مهدي.
وأخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٤٥) من طريق أبي صالح، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥١) من طريق عبد الله بن صالح وأسد بن موسى جميعهم (عبد الله صالح، وأسد بن موسى، وعبد الرحمن بن مهدي) عن معاوية بن صالح، عن يونس بن سيف، عن الحارث بن زياد، عن أبي رهم عن العرباض به.
وفي العلل للخلال فائدة في غاية الأهمية تبين موقف العراقيين من فضائل معاوية ﷺ وهي: قول مهنا بعد سؤال أحمد عن هذا الحديث: قلتُ: (إن الكوفيين لا يذكرون هذا: "علّمه الكتاب والحساب وقِهِ العذاب" قَطَعوا منه؟). قال أحمد: (كان عبد الرحمن لا يذكره. ولم يذكُرْه إلا فيما بيني وبينَه). اهـ
وعليه فقد روى الحديثَ جماعةٌ عن معاويةَ بنِ صالحٍ مقتصرين على ذكرِ الغداءِ المباركِ، منهم:
١- حمادُ بنُ خالدٍ الخياطُ. أخرجه أبو داود (٢٣٤٤)، وصححه الألباني.
٢- عبدُ الرحمن بنُ مهدي فيما رواه عنه شعيبُ بنُ يوسفَ البصريُّ. أخرجه النسائي (٤/ ١٤٥)، وصححه الألباني.
٣- زيدُ بنُ حُبَابٍ. أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٢٦).
قلت: وهذا إسنادٌ فيه الحارثُ بنُ زيادٍ، ذكره ابنُ حبان في الثقات (٤/ ١٣٣)، وقال الذهبي: مجهولٌ، وقال ابن حجر: لين الحديث التقريب (ت١٠٢٢) ويشهد للحديثِ ما قبلَه.
وقال الألباني في الصحيحة (٣٢٢٧): هذا إسنادٌ حسنٌ في الشواهدِ، رجالُه ثقاتٌ غيرَ الحارثِ بنِ زيادٍ فإنَّه مجهولٌ لم يوثقْه غيرُ ابنِ حبان ولم يذكر له راويًا غيرَ يونسَ هذا، وعليه فقول الحافظ فيه: لينُ الحديثِ ليس على الجادة، ثم إنه لا يخفى أنَّ إخراجَ ابنِ خزيمةَ للحديثِ في صحيحِه يعني أنه ثقةٌ عنده، إلا أنه قد عُرِفَ بالتساهلِ في التصحيحِ والتوثيقِ كتلميذِه ابنِ حبانَ فلا أقل من أن يصلُحَ للاستشهادِ به، وهذا هوالذي مال إليه من قَوَّى الحديثَ. اهـ من الصحيحة (٣٢٢٧).
ولما سُئل عنه الإمامُ أحمدُ لم يضعِّفْه كما في علل الخلال، وقال ابنُ عساكرَ في تاريخِه (٥٩/ ١٠٦): أصحُّ ما رُوِيَ في فضلِ معاويةَ حديثُ أبي حمزةَ عن ابنِ عباسٍ أنه كاتبُ النبيِّ ﷺ فقد أخرجه مسلمٌ في صحيحِه وبعده حديث العرباض: "اللهم علمه الكتاب" وبعده حديث ابن أبي عميرة: "اللهم اجعله هاديًا مهديًا" اهـ. وقال ابنُ كثيرٍ في البداية والنهاية (٨/ ١٢١): وقد اعتنى ابنُ عساكرَ بهذا الحديثِ، وأطنبَ فيه، وأطيبَ، وأطربَ، وأفادَ، وأجادَ، وأحسنَ الانتقادَ فكم له من موطنٍ قد تَبَرَّزَ فيه على غيره من الحفاظِ، والنقادِ.
وحسّنه ابنُ القطّان (الإكمال لمغلطاي ٣/ ٢٩٠). وقوّاه الذهبي بشاهده (السير ٣/ ١٢٤).

فعن أمِّ حَرامٍ أنها سمعتْ النبيَّ ﷺ يقولُ: "أولُ جيشٍ من أمتي يغزون البحرَ قد أَوجَبُوا"(١).

وموضعُ الفضيلةِ في الحديثِ من وجهين:

الأول: دعوةُ النبيِّ ﷺ بقوله: "قد أَوجَبُوا" أي: فعلوا فعلًا وَجَبَتْ لهم به الجنةُ أو أَوجَبُوا لأنفسِهم المغفرةَ والرحمةَ بذلك. (٢)

قال ابنُ عبد البر: أرادَ -واللهُ أعلمُ- أنَّه رأى الغُزاةَ في البحرِ مِن أُمَّته مُلوكًا على الأَسِّرة في الجنّة، ورُؤياهُ وَحْيٌ، وقد قال الله تعالى في صِفةِ أهلِ الجنَّة: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ (الصافات: ٤٤)، وقال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ (يس: ٥٦)، والأرائكُ: السُّرُرُ في الحِجال. (٣)

فإذا تبيَّن هذا الفضلُ العظيمُ، كان معاويةُ من أَولَى الناسِ به؛ إذ إنَّه أميرُ تلك الغَزَاةِ بالاتفاقِ، كما تقدَّم قريبًا، وقد قال ابنُ عبدِ البرِّ عن هذا الحديثِ: وفيه فضلٌ لمعاويةَ -رحمه الله-؛ إذ جعَلَ مَن غَزا تحتَ رايَتِه مِن الأَوَّلين. (٤)

الثاني: أنَّ معاويةَ ﷺ أولُ من سنَّ هذه السنةَ في أمةِ النبيِّ ﷺ فله أجرُها وأجرُ من عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ من غيرِ أنْ يَنْقُصَ من أجورِهم شيءٌ.

خامسًا: أن النبي ﷺ سئل عن معاوية ﷺ فلم يذكر فيه إلا فقره، وقلة ماله.

كما في حديثِ فاطمةَ بنتِ قيسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن أبا عمرِو بنِ حفصٍ ﷺ طلَّقَها البتةَ، وهو غائبٌ فأرسلَ إليها وكيلُه بشعيرٍ فسَخِطَتْه، فقال: والله مالكِ علينا من شيءٍ، فجاءتْ رسولَ الله ﷺ فذكرتْ ذلك له، فقال: ليس لكِ عليه نفقةٌ، فأَمَرَها أنْ تَعْتَدَّ في بيتِ أمِّ شَرِيكٍ، ثم قال: تلك امرأةٌ يغشاها أصحابي، اعتَدِّي عند ابنِ أمِّ مكتومٍ؛ فإنَّه رجلٌ أعمى

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦).

(٢) فيض القدير (٣/ ٨٤).

(٣) التمهيد ١/ ٢٣٢.

(٤) التمهيد (١/ ٢٣٥)، وعدّه الآجري (٥/ ٢٤٤١)، واللالكائي (٨/ ١٤٣٨)، وغيرهما من فضائل معاويةَ ﷺ.

تضعين ثيابَك، فإذا حَلَلْتِ فآذنيني قالت: فلما حللتُ ذكرتُ له أنَّ معاويةَ ابن أبي سفيانَ، وأبا جهمٍ خطباني، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أما أبو جهمٍ فلا يضعُ عصاه عن عاتِقِه، وأما معاويةُ فصُعلُوكٌ لا مالَ له؛ انكِحِي أسامةَ بنَ زيدٍ، فكرهتُهُ ثم قال: انكِحِي أسامةَ، فنكَحْتُهُ. فجعلَ اللهُ فيه خيرًا، واغْتَبَطْتُ به[(١)].

فلو كان في دينِ مُعاويةَ أو خُلُقِهِ شيءٌ لذَكَرَه النبيُّ ﷺ من بابِ أَولَى، ولم يكن من حالِه عيبٌ إلا أنَّه خفيفُ ذاتِ اليدِ وقتَها، إذ كان في أوَّلِ شبابِه ﷺ، وحالُه في المالِ يتبيَّنُ في قصةِ أُمِّه هِندَ -في البخاريِّ ومسلمٍ- وفيها أنها سألتْ النبيَّ ﷺ: إنَّ أبا سُفيان رجلٌ شَحيحٌ، وليس يُعطيني ما يَكفيني ووَلَدي، إلا ما أَخَذْتُ مِنه وهو لا يَعلمُ؟ قال: "خُذي ما يَكفيكِ ووَلَدَكِ بالمعروفِ".

سادسًا: حب النبي ﷺ لعزته مع أهل بيته

كما في حديث عائشة قالت: جاءت هندٌ إلى النبي ﷺ فقالتْ: يا رسولَ الله، والله ما كان على ظهرِ الأرضِ أهلُ خباءٍ أحبُ إليَّ من أنْ يُذِلَّهم اللهُ من أهلِ خبائِك، وما على ظَهرِ الأرضِ أهلُ خباءٍ أحبُّ إليَّ من أنْ يُعِزَّهم اللهُ من أهلِ خبائِك، فقالَ النبيُّ ﷺ: "وأيضا والذي نفسي بيده"[(٢)]

وموضعُ الشاهدِ في قولِه ﷺ: "وأيضًا، والذي نفسي بيدِه" فمعناه: وستزيدين من ذلك، ويتمكنُ الإيمانُ من قلبِك، ويزيدُ حبُّكِ لله ولرسولِه ﷺ، ويَقْوَى رجوعُك عن بغضِه، وأصلُ هذه اللفظةِ آضَ يئيضُ أيضًا إذا رَجَعَ. [(٣)]

وهذا فيه مدحٌ لأمِّه، وأما موضعُ المُدحَةِ لمعاويةَ ففي قولِ: "وأيضًا والذي نفسي بيده" وهو أنَّه كان يودُّ أنَّ هندًا وأهلَها وكلَّ كافرٍ يُذَلُّوا في حالِ كفرِهم، فلما أسلموا كان يحبُّ أن يُعَزُّوا فأعزهم اللهُ -يعنى أهل خبائها-. [(١)]

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨٠)

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢٥)، ومسلم (١٧١٤).

(٣) شرح مسلم للنووي (١٢/ /٩).

ووجهُ الدلالةِ أنَّ معاويةَ ﷺ من أهلِ خباءِ هندَ.

سابعًا: قرب منزلته من رسول الله ﷺ. فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ قال: خرجَ معاويةُ على حَلْقَةٍ في المسجدِ، فقال: ما أجلَسَكم؟ قالوا: جَلَسْنا نَذكُر اللهَ. قال: آلله! ما أَجْلَسَكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أَمَا إنِّي لم أستَحْلِفْكم تُهمةً لكم، وما كان أحدٌ بمنْزِلَتي مِن رسولِ الله ﷺ أقلَّ عَنهُ حديثًا مِنِّي كنتُ خِتْنَه، وكنتُ في كُتَّابِه، وكنتُ أرحِّل له راحلتَه وإنَّ رسولَ الله ﷺ خَرَجَ على حَلْقَةٍ مِن أصحابِه، فقال: "ما أجلَسَكُم؟" قالوا: جَلَسْنا نَذكرُ اللهَ، ونَحمَدُه على ما هدانا للإسلامِ، ومَنَّ به علينا. قال: "آلله! ما أَجلَسَكم إلا ذاك؟" قالوا: والله ما أَجلَسَنا إلا ذاك. قال: "أَمَا إني لم أَستَحْلِفْكُم تُهمةً لَكُم، ولكنّهُ أتاني جبريلُ فأخبرني أنَّ اللهَ ﷻ يُباهي بكم الملائكةَ". (٢)

والشاهد من الحديث قولُ معاويةَ ﷺ: "وما كان أحدٌ بمنْزِلَتي مِن رسولِ الله ﷺ أقلَّ عَنهُ حديثًا مِنّي". ولقد عده الآجري من مناقب معاوية ﷺ.

ثامنًا: انتفاعه بما سمع من رسول الله ﷺ في سيرته. فعن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم" فقال أبو الدرداء: كلمةٌ سمعها معاويةُ من رسولِ الله ﷺ نَفَعَه اللهُ تعالى بها. (٣)

قال ابن كثير: يعنى أنه كان جيدَ السيرةِ حسنَ التجاوُزِ جميلَ العفوِ كثيرَ السِّترِ رحمه الله تعالى. (٤)

تاسعًا: معاوية خال المؤمنين.

---

(١) البداية، والنهاية (٨/ ١٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠١) والزيادة ما بين المعكوفتين عند ابن أبي عاصمٍ في الأحاد والمثاني (٥١٨) من طريقِ أبي سَلَمَةَ يحيى بنِ خلفٍ، نا عبدُ الأعلى، عن الجريري، عن عبدِ الله بنِ بُرَيْدَةَ به.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود (٤٨٨٨) من طريق عيسى بن محمد الرملي، وابن عوف وهذا لفظه. وأبو يعلى (٧٣٨٩) من طريق جعفر بن محمد بن الفضيل، وابن حبان (١٣/ ٧٢) عن إسحاق بن منصور، ومحمد بن سهل بن عسكر جميعهم، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية به، وهذا إسناد صحيح، وصححه العراقي على هامش الإحياء، والألباني في صحيح الجامع (٢٢٩٥).

(٤) البداية والنهاية (٨/ ١٢٦).

فهو أخو أمِّ المؤمنين زوجِ النبي ﷺ أمِّ حَبيبة رَمْلةَ بنتِ أبي سفيانَ -رضي الله عنهم-؛ ولذلك قال الإمامُ أحمدُ: أقول: معاويةُ خالُ المؤمنين، وابنُ عمرَ خالُ المؤمنين. (١)

عاشرًا: ثناء الصحابة ﷺ عليه. وتاللهِ إنَّه لايَعْرِفُ قدرَ الرجالِ إلا الرجالُ، وهل هناك في الكونِ رجالٌ - بعد الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ- أفضلُ من أصحابِ النبيِّ ﷺ الذين تَربَّوا في حِجرهِ ﷺ.

قال سعدُ بنُ أبى وقاصٍ ﷺ: ما رأيتُ أحدًا بعد عثمانَ أقضى بحقٍ من صاحبِ هذا البابِ يعني معاويةَ. (٢)

وعن عبدِ الله بنِ عباسٍ ﷺ أنَّه قال: ما رأيتُ رجلًا أخلق بالملك من معاويةَ. (٣)

عن ابن عمر ﷺقال: ما رأيتُ أحدًا بعد رسول الله ﷺ كان أسودَ من معاويةَ، قال: قلت: هو كان أسودَ من أبي بكر؟ قال: هو واللهِ أخيرُ منه، وهو واللهِ كان أسودَ من أبي بكرٍ، قال: قلت: فهو كان أسودَ من عمرَ؟ قال: عمرُ واللهِ كان أخيرَ منه وهو واللهِ أسودُ من عمرَ، قال: قلت: هو كان أسودَ من عثمانَ؟ قال: واللهِ إنْ كان عثمانُ لسيدًا، وهو كان أسودَ منه. قال الدُّورِيُّ: قال بعضُ أصحابِنا: قال أحمدُ بنُ حنبلٍ: معنى أسودَ، أي أسخى. (٤)

---

(١) **صحيح**. رواه الخلال في السنة (٦٥٧) فقال: أخبرني أحمد بن محمد بن مطر وزكريا بن يحيى أن أبا طالب حدثهم أنه سأل أبا عبدالله. وسنده صحيح.

(٢) **إسناده ضعيف**. أخرجه ابن عساكر في التاريخ (٥٩/ ١٦١) وفي إسناده بكر بن سهل: حمل عنه الناس وهو مقارب الحال. انظر لسان الميزان (٢/ ٥١).

(٣) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٤٥٣)، والخلال في السنة (٦٧٧)، من طريق مَعمَرٍ، عن همامِ بنِ مُنبِّهٍ، قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ، وذكره. وإسنادُه صحيحٌ على شرطِ الشيخين.

(٤) **حسن**. أخرجه الخلال في السنة (٦٧٨)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٥١٦) من طريق إبراهيم ابن سعد عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر به. وفيه محمد بن إسحاق بن يسار صدوق مدلس، وقد عنعن ويشهد له هذا الطريق الذي أخرجه الخلال في السنة برقم (٦٨٠) فقال: أخبرني محمد بن مَخلَدٍ قال: حدثني أبو منصور بن داود بن طوق الصغاني، قال: ثنا سعيد ابن منصور، قال: ثنا هشيم، عن العوام بن حوشب، عن جبله بن سحيم، قال: سمعت ابن عمر يقول: ما رأيت بعد رسول الله أسود من معاوية، فقيل: ولا أبوك، قال: أبي عمر -رحمه الله- خير من معاوية، وكان معاوية أسود منه. اهـ

عن عروةَ بنِ الزبيرِ - رحمه الله- أنَّ المِسْوَرَ بنَ مَخْرَمَةَ أخبره: أنه قدم على معاويةَ أميرِ المؤمنين فقضى حاجتَه، ثم دعاه، فقال: يا مِسْوَرُ، ما فَعَلَ طعنُك على الأئمةِ؟ قال المِسوَرُ: دعنا من هذا وأحسِنْ فيما قدِمنا له. قال معاويةُ: لا أدعُك حتى تَكَلَّمَ بذاتِ نفسِك والذي تعيبُ عليَّ. قال المسورُ: فلم أدعْ شيئًا أعيبُه عليه إلا بَيَّنْتُه. فقال معاويةُ: لا أَبْرَأُ من الذنبِ، فهل تعُدُّ لنا يا مسورُ مما نلي من الإصلاحِ شيئًا؟ فإنَّ الحسنةَ بعشرةِ أمثالها، أم تَعُدُّ الذنوبَ وتتركُ الإحسانَ. قال المسورُ: لا، والله ما نذكرُ إلا ما نرى من هذه الذنوبِ! فقال معاويةُ: فإنَّا نعترفُ بكل ذنبٍ أذنبناه، فهل لك يا مسورُ ذنوبٌ في خاصتِك تخشى أن تُهلِكَكَ إنْ لم يغفرْها اللهُ لك؟ قال المسورُ: نعم. قال معاويةُ: فما يجعلُك بأحقَّ برجاءِ المغفرةِ مني، فوالله لما ألي من الإصلاحِ أكثرُ مما تلي، ولكني والله لا أُخَيَّرُ ما بين أمرين من الله وغيرِه إلا اخترتُ اللهُ على ما سواه، وإني لعلى دينٍ يُقْبَلُ فيه العملُ ويُجزَى فيه بالحسناتِ ويجزى فيه بالذنوبِ إلا أن يعفوَ اللهُ عنها، وإني لأحتسبُ كلَّ حسنةٍ عَمِلْتُها بأضعافِها من الأجرِ، وإني لألي أمورًا عظامًا لا أُحصيها ولا يُحصيها من عمِل لله بها في الدنيا، إقامةُ الصلواتِ للمسلمين، والجهادُ في سبيلِ الله، والحكمُ بما أنزلَ اللهُ، والأمورُ التي لستُ أُحصيها- يقصدُ ذنوبَه- وإن عددتَها -أي: يا مسورُ- فتُكَفَّرُ في ذلك؛ أي يُكَفِّرُها ما تقدمَ من الحسناتِ. قال المسورُ: فعَرَفْتُ أنَّ معاويةَ قد خَصَمَنِي حينما ذكرَ ما قالَ. قال عروةُ: فلم أسمعْ المسورَ بعدُ يذكرُ معاويةَ إلا صَلَّى عليه؛ أي: دعا له. (١)

عن ابنِ أبي مُلَيْكَةَ قالَ: أَوْتَرَ معاويةُ بعدَ العشاءِ بركعةٍ وعندَه مولًى لابنِ عباسٍ، فأتى ابنَ عباسٍ فقال: دعْه فإنه صَحِبَ رسولَ الله ﷺ. (٢) وفي روايةٍ أخرى قال: أصابَ إنه فقيهٌ. (٣)

---

(١) صحيح. أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٣٤٤) عن معمر، وأخرجه ابن سعد في الجزء المتمم برقم (٤٤) عن صالح بن كيسان. كلاهما (معمر، وصالح بن كيسان) عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير. وهذا إسناد صحيح.

(٢) البخاري (٣٥٥٣).

(٣) البخاري (٣٥٥٤).

وعن أبي الدرداء ﷺ أنَّه قال لأهلِ الشامِ: ما رأيتُ أحدًا أشبهَ صلاةً بصلاةِ رسولِ الله ﷺ من إمامِكم هذا (يعني معاويةَ). [١]

عن أبي الدرداءِ ﷺ قال: لا مدينةَ بعدَ عثمانَ، ولا رخاءَ بعدَ معاويةَ رضي اللهُ عنهما. [٢]

قال عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ: تذكرون كِسرَى وقيصرَ ودهاءَهما وعندَكم معاويةُ. [٣]

حادية عشرة: ثناء التابعين، والعلماء عليه.

قال الأوزاعيُّ: أَدْرَكَتْ خلافةُ معاويةَ عدةً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ منهم: سعدٌ، وأسامةُ، وجابرٌ، وابنُ عمرَ، وزيدُ بنُ ثابتٍ، ومَسْلَمَةُ بنُ مَخْلَدٍ، وأبو سعيدٍ، ورافعُ بنُ خَدِيجٍ، وأبو أُمامةَ، وأنسُ بنُ مالكٍ، ورجالٌ أكثرُ ممن سَمَّيْتُ بأضعافٍ مُضَاعَفَةٍ، كانوا مصابيحَ الهدى، وأوعيةَ العلمِ، حضروا من الكتابِ تنزيلَه، وأخذوا عن رسولِ الله ﷺ تأويلَه، ومن التابعين لهم بإحسانٍ إن شاءَ اللهُ، منهم: المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمَةَ، وعبدُ الرحمنِ بنُ الأسودِ بنِ عبدِ غَوْثٍ، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، وعروةُ بنُ الزبيرِ، وعبدُ الله بنُ محيريزٍ في أشباهٍ لهم، لم ينزِعوا يدًا عن مُجَامَعَةٍ في أمةِ محمدٍ ﷺ [٤].

وقال قبيصةُ بنُ جابرٍ: ما رأيتُ أحدًا أعظمَ حلمًا، ولا أكثرَ سؤدُدًا، ولا أبعدَ أناةً، ولا ألينَ مخرجًا، ولا أرحبَ باعًا بالمعروفِ من معاويةَ[٥].

---

(١) **إسناده حسن**. أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٨٢)، (٢٨٣) عن سعيد بن عبد العزيز، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن قيس بن الحارث، عن الصنابحي، عن أبي الدرداء به. وقيل قيل لقيس أين صلاته من صلاة عمر، قال: لا أخالها إلا مثلها اهـ وإسناده حسن. إبراهيم بن دحيم عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي قال الذهبي: كان محدثا مقبولا تاريخ الإسلام (٢٣/ ٣٠٠) ودحيم هو عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي ثقة.

(٢) **إسناده حسن**. أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥٢٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٩/ ١٥٢) كلاهما عن عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية حدير بن كريب، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء به. وإسناده حسن.

(٣) **حسن**. أخرجه الطبراني (٥/ ٣٣٠) من طريق ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري به. وإسناده حسن.

(٤) أخرجه أبو زرعة في تاريخ دمشق ١/ ٧.

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٩/ ١٧٨) من طرق عن قبيصة به. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ١٣٨).

قال محمدُ بنُ يحيى بنِ سعيدٍ: سُئِلَ ابنُ المباركِ عن معاويةَ فقال: ما أقولُ في رجلٍ قال رسول اللهﷺ: "سمع الله لمن حمده" فقال خلفَه: ربنا ولك الحمدُ، فقيل له: أيُّهما أفضلُ هو أو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؟ فقال: لتُرابٌ في مِنْخَرَي معاويةَ مع رسولِ الله ﷺ خيرٌ، وأفضلُ من عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ(١).

عن ابنِ المباركِ، قال: معاويةُ عندنا مِحنَةٌ؛ فمن رأيناه ينظرُ إليه شَزَرًا اتهمناه على القومِ؛ يعنى الصحابةَ ﷺ.

وقال محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عمارٍ المَوصِلِيُّ وغيرُه: سُئِلَ المعافَى بنُ عمرانَ أيهما أفضل: معاويةُ أو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؟ فغَضِبَ، وقال للسائلِ: أتجعلُ رجلًا من الصحابةِ مثلَ رجلٍ من التابعين! معاويةُ صاحبُه ﷺ وصهرُه وكاتبُه وأمينُه على وحيِ الله.

قال أبو توبةَ الربيعُ بنُ نافعٍ الحلبيُّ: معاويةُ سِترٌ لأصحابِ محمدٍﷺ؛ فإذا كشفَ الرجلُ السِّترَ اجترَأَ على ما وراءَه.

وقال إبراهيمُ بنُ ميسرةَ: ما رأيتُ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ ضربَ إنسانًا قطُّ إلا إنسانًا شَتَمَ معاويةَ فإنَّه ضَرَبَه أسواطًا. (٢)

قال أبو إسحاقَ السَّبِيعِيُّ الكوفيُّ: كان معاويةُ، وما رأينا بعدَه مثلَه(٣).

قال الفضيلُ: أوثقُ عملي في نفسي حبُّ أبي بكرٍ، وعمرَ، وأبي عبيدةَ بنِ الجراحِ، وحبي أصحابَ محمدٍ ﷺ جميعًا، وكان يترحمُ على معاويةَ، ويقولُ: كان من العلماءِ من أصحابِ محمدٍ ﷺ(٤).

قال الزهريُّ: عَمِلَ معاويةُ بسيرةِ عمرَ بنِ الخطابِ سنينَ لا يَخرِمُ منها شيئًا(٥).

ثانية عشرة: ذكر شيء عن ولايته، وفتوحاته.

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٣٩).

(٢) ذكر هذه الآثار ابن كثير في البداية والنهاية(٨/ ١٣٩). وذكر أكثر منها عن السلف في ترجمة معاوية ﷺ.

(٣) أخرجه الخلال في السنة (٦٧٠).

(٤) أخرجه الخلال في السنة (٦٧١).

(٥) أخرجه الخلال في السنة (٦٨٣).

قال ابن كثير رحمه الله: فلم يزلْ معاويةُ ﷺ نائبًا على الشامِ في الدولةِ العُمَريَّةِ والعثمانيةِ مدةَ خلافةِ عثمانَ، وافتتحَ في سنةِ سبعٍ وعشرين جزيرةَ قبرصَ وسكنَها المسلمون قريبًا من ستينَ سنةً في أيامِه ومِن بعدِه، ولم تزلْ الفتوحاتُ والجهادُ قائمًا على ساقِه في أيامِه في بلادِ الرومِ والفرنجِ وغيرِها، فلما كان من أمرِه وأمرِ أميرِ المؤمنين عليٍّ- رضي الله عنهما- ما كان، لم يقعْ في تلك الأيامِ فتحٌ بالكليةِ، لا على يديه ولا على يديْ عليٍّ، وطَمِعَ في معاويةَ ملكُ الرومِ بعد أن كان قد أخشاه وأذلَّه، وقَهَرَ جندَه ودحاهم، فلما رأى ملكُ الرومِ اشتغالَ معاويةَ بحربِ عليٍّ تدانَى إلى بعضِ البلادِ في جنودٍ عظيمةٍ وطَمِعَ فيها، فكتب معاويةُ إليه: والله لئن لم تنتهِ وترجعْ إلى بلادِك يا لعينُ لأصطلحنَّ أنا وابنُ عمي عليك ولأُخرِجَنَّك من جميعِ بلادِك، ولأُضيِّقَنَّ عليك الأرضَ بما رَحُبَتْ. فعند ذلك خافَ ملكُ الرومِ وانكفَّ، وبعثَ يطلبُ الهُدنَةَ.

ثم كان من أمر التحكيمِ ما كان، وكذلك ما بعدَه إلى وقتِ اصطلاحِه مع الحسنِ بنِ عليٍّ كما تقدم، فانعقدتْ الكلمةُ على معاويةَ، وأجمعتْ الرعايا على بيعتِه في سنةِ إحدى وأربعين، فلم يزلْ مستقلًّا بالأمرِ في هذه المدةِ إلى هذه السنةِ التي كانت فيها وفاتُه، والجهادُ في بلادِ العدوِّ قائمٌ، وكلمةُ الله عاليةٌ، والغنائمُ تَرِدُ إليه من أطرافِ الأرضِ، والمسلمون معه في راحةٍ وعدلٍ، وصفحٍ، وعفوٍ[1].

ثالثة عشر: ذكر جهود معاوية ﷺ في الجهاد، والفتوحات؟

ومن ذلك فتح قيسارية على يد معاوية ﷺ سنة ١٩ من الهجرة.[2]

كتب عمرُ ﷺ إلى معاويةَ ﷺ فقال له: أما بعدُ، فقد وَلَّيْتُكَ قيساريةَ؛ فَسِرْ إليها، واستنصرْ اللهَ عليهم، وأكثرْ من قولِ لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ، اللهُ ربُّنا، وثقتُنا، ورجاؤنا، ومولانا فنِعمَ المولى ونِعمَ النصيرُ، فسارَ إليها فحاصرَها وزَاحَفَه أهلُها مراتٍ عديدةً، و كان آخرُهم وقعةً أن قاتَلوا قتالًا عظيمًا، و صَمَّمَ عليهم معاويةُ ﷺ، واجتهدَ في القتالِ حتى فتحَ اللهُ

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ١١٨).

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٦)، وتاريخ خليفة (١/ ٢٧)، والبداية والنهاية (٧/ ٩٦).

عليه، فما انفصل الحالُ حتى قتَلَ منهم نحوًا من ثمانين ألفًا، وكَمَّلَ المائةَ الألفَ من الذين انهَزموا عن المعركةِ، و بعَثَ بالفتحِ، والأَخْماسِ إلى أميرِ المؤمنين عمرَ ﷺ.

فتح قبرص سنة ٢٨ من الهجرة. (١) فُتِحَتْ على يدِ معاويةَ خلالَ خلافةِ عثمانَ -رضي الله عنهما-، فقد ركب معاويةُ في جيشٍ كثيفٍ من المسلمين، ومعه عُبادةُ بنُ الصامتِ، و زوجتُه أمُّ حَرَامِ بنتُ مِلحَانَ، وقد بشَّرَها رسولُ الله ﷺ بتلك الغزوةِ "فقد نام عندَها ﷺ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ -شَكَّ إِسْحَاقُ- قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله -كَمَا قَالَ فِي الْأَوَّلِ- قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتِ مِنْ الْأَوَّلِينَ، فَرَكِبَتْ الْبَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنْ الْبَحْرِ فَهَلَكَتْ(٢).

ففتح اللهُ عليهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا ثم صالحَهم معاويةُ على سبعةِ آلافِ دينارٍ كلَّ سنةٍ، وقد ماتت أمُّ حرامٍ ﵂ بقبرصَ شهيدةً؛ فقد وقصتها دابتها.

غزو الروم سنة ٣٢ من الهجرة. (٣) غزا معاويةُ ﷺ بلادَ الرومِ حتى بلغَ المضيقَ: مضيقَ القسطنطينيةِ.

وهل تعلمُ عددَ البعوثِ التي خرجت للجهادِ في عهدِ معاويةَ ﷺ وكم مدينةً فُتِحَتْ؟

إليك البيان:

سنةَ ٤٢ من الهجرةِ غزا المسلمون اللانَ والرومَ فقتَلُوا من أمرائِهم و بطارِقَتِهم خلقًا كثيرًا وغَنِمُوا وسَلِمُوا(١).

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٧٥).

(٢) البخاري (٢٦٣٦)، ومسلم (١٩١٢).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٦٢٧).

سنة ٤٣ من الهجرة غزا بُسرُ بنُ أَرْطَاةَ بلادَ الرومِ فتوغلَ فيها حتى بلغَ مدينةَ القسطنطينيةِ. [٢]

سنةَ ٤٤ من الهجرةِ غزا عبدُ الرحمنِ بنُ خالدِ بنِ الوليدِ بلادَ الرومِ ومعه المسلمون و شتوا هنالك، و فيها غزا بُسرُ بنُ أَرْطَاةَ من البحرِ. [٣]

و في سنةِ ٤٥ فُتِحَتْ القيقان. [٤]

وفي سنة ٤٧ من الهجرةِ وَجَّهَ زِيادٌ الحَكَمَ بنَ عمرٍو الغِفارِيَّ إلى خراسانَ أميرًا فغزا جبالَ الغور فقهرهم بالسيفِ عُنْوَةً ففتحها وأصابَ فيها مغانمَ كثيرةً، و سبايا وذلك في قولِ بعضِ أهلِ السيرِ. [٥]

سنة ٤٩هـ غزا يزيدُ بنُ معاويةَ بلادَ الرومِ حتى بلغ قسطنطينيةَ و معه جماعاتٌ من ساداتِ الصحابةِ منهم ابنُ عمرَ، وابنُ عباسٍ، وابنُ الزبيرِ، وأبو أيوبَ الأنصاريُّ، و قد ثبت في صحيحِ البخاريِّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "أولُ جيشٍ يغزون مدينةَ قيصرَ مغفورٌ لهم"[٦] فكان هذا الجيشُ أولَ مَن غزاها، وما وصلوا إليها حتى بلغوا الجَهدَ، وهذا في قول الطبري -رحمهُ اللهُ- وفي قولِ غيرِه أنَّ غزوةَ يزيدَ كانت سنةَ ٥٢ من الهجرةِ وهو الراجحُ.

فكان فيها مَشْتَى مالكِ بنِ هُبَيْرَةَ السكوني بأرضِ الرومِ.

وفيها كانت غزوةُ فُضَالَةَ بنِ عبيدٍ لجربة وشَتَا بجربةَ وفُتِحَتْ على يديهِ وأصابَ فيها سبيًا كثيرًا.

وفيها كانت صائفةُ عبدِ الله بن كرزٍ البَجَلِيِّ.

وفيها كانت غزوةُ يزيدَ بنِ شَجَرَةَ الرهاويِّ في البحرِ فشَتَا بأهلِ الشامِ.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٧٣).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ١٧٣).

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ١٩٤).

(٤) تاريخ خليفة (١/ ٤٩).

(٥) تاريخ الطبري (٣/ ٢٠٤).

(٦) البخاري (٢٧٦٦).

وفيها كانتْ غزوةُ عُقْبَةَ بنِ نافعِ البحرَ فشَتَا بأهلِ مصرَ. [١]

سنة ٥٠ من الهجرةِ افتتحَ عُقْبَةُ بنُ نافعٍ الفهريُّ عن أمرِ معاويةَ بلادَ أفريقيةَ (تونس الآن) واخْتَطَّ القَيْرَوَانَ. . . وأسلمَ خلقٌ كثيرٌ من البَرْبَرِ.

وعن يحيى بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ حاطبٍ قال: لما افتَتَحَ عُقْبَةُ بنُ نافعٍ إفريقيةَ وقف على القيروانِ فقال: (يا أهلَ الوادي، إنَّا حَالُّونَ -إنْ شاءَ اللهُ- فاظْعَنُوا) ثلاثَ مراتٍ. قال: فما رأينا حَجَرًا ولا شَجَرًا إلا يَخْرُجُ من تحتِه دابَّةٌ حتى يهبِطْنَ بطنَ الوادي. ثم قال: انزلوا باسمِ الله. [٢]

وفيها غزى مَسْلَمَةُ بنُ مُخَلَّدٍ وهو أميرٌ بمصرَ معاويةَ بنَ حديجٍ وأصاب سبيًا وقَفَلَ سالمًا. [٣] قدم عبد الملك بن مروان فدخل مع معاوية بن حديج إفريقية فبعثه معاوية بن حديج على خيل إلى جلولاء بأرض المغرب فحصر أهلها ونصب عليها المجانيق فكتب إليه معاوية بن حديج أن انصرف فانصرف. وقد كان أوهى الحائط فخر الحائط. فانصرف بالناس راجعين فقتل المقاتلة وسبا الذرية ووجه ابن حديج جيشا فنزلوا على مدينة فسألوه الصلح فصالحهم وانصرف في سنة ٥١هـ.

وفيها قَدِمَ الربيعُ بنُ زيادٍ الحارثيُّ خراسانَ من قِبَلِ زيادٍ فغزا بَلْخًا وكانت أُغْلِقَتْ بعدَ الأحنفِ فصالَحوا الربيعَ ثم غزا الربيعُ قَهَسْتَانَ ففَتَحَهَا عُنْوَةً. [٤]

وفي سنة ٥٢هـ كانت غزوةُ سفيانَ بنَ عوفٍ الأَزْدِيِّ ومَشْتَاه بأرضِ الرومِ وأَنَّه تُوُفِّيَ بها واستَخْلَفَ عبدَ اللهِ بنَ مسعدة الفَزَارِيَّ وهذا قولُ الواقديِّ، وقال غيرُه: بل الذي شَتَا بأرضِ الرومِ في هذه السنةِ بالناسِ بُسرُ بنُ أبي أَرطاةَ ومعه سفيانُ بنُ عوفٍ الأَزْديُّ، وغزا الصائفةَ في هذه السنةِ محمدُ بنُ عبدِ الله الثقفيُّ. [٥]

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٠٦)، والبداية والنهاية (٨/ ٣٢)

(٢) تاريخ خليفة (٥٠).

(٣) تاريخ خليفة (٥٠).

(٤) تاريخ خليفة (٥٠).

(٥) تاريخ الطبري (٣/ ٢٣٧).

سنة ٥٣ من الهجرة غزا عبدُ الرحمن بنُ أم الحَكَمِ بلادَ الرومِ وشَتَى هنالك، و فيها افتَتَحَ المسلمون وعليهم جُنَادَةُ بنُ أبي أُمَيَّةَ جزيرةَ رُودِسَ فأقام بها طائفةٌ من المسلمين كانوا أشد شيءٍ على الكفار؛ يعترضون لهم في البحر، ويقطعون سبيلَهم، وكان معاويةُ يدر عليهم الأرزاقَ والأُعطِياتِ الجزيلةَ، وكانوا على حذرٍ شديدٍ من الفرنج يبيتون في حصنٍ عظيمٍ عنده فيه حوائجُهم ودوابُّهم وحواصلُهم ولهم نواطيرُ على البحر يُنذِرونهم إن قدِم عدوٌ أو كادَهم أحدٌ[1]...

سنة ٥٤ من الهجرةِ كان شَتَى محمدُ بنُ مالكٍ بأرضِ الرومِ وغزا الصائفةَ معنُ بنُ يزيدَ السلميُّ[2]، وفيها فيما زعم الواقديُّ فَتَحَ جُنَادَةُ بنُ أبي أُمَيَّةَ جزيرةً في البحرِ قريبةً من قسطنطينيةَ يقالُ لها: أرواد.

وذكر محمد بن عمر أنَّ المسلمين أقاموا بها دهرًا فيما يُقال سبع سنين[3].

وفيها غزا عُبَيدُ الله بن زياد خراسان فقطع النهر إلى بخارى، وافتتح زاميرَ ونصف بيكند وهما من بُخارَى[4].

وفي سنة ٥٥هـ كان مَشتَى سفيانَ بنِ عوفٍ الأَزْدِيِّ بأرض الروم، وقيل: الذي شتى غيرُه[5].

وفيها غزا يزيد بن شجرة الرهاويُّ فقُتِلَ وقال بعضُهم: لم يُقتل في هذا الغزاةِ؛ قُتِلَ بعد ذلك[6].

سنة ٥٦ من الهجرة شتى جُنادةُ بن أبى أمية بأرض الروم، وقيل: عبدُ الرحمن بنُ مسعودٍ، ويقال: فيها غزا في البحر يزيد بن سمرة وفي البر عياضُ بن الحارثِ[7].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٦١).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٦٦).

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤١).

(٤) تاريخ خليفة (٥٥).

(٥) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٥).

(٦) تاريخ خليفة (٥٥).

(٧) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٧)، والبداية والنهاية (٨/ ٧٨).

وفي سنة ٥٧هـ كان مَشتَى عبد الله بن قيسٍ بأرض الروم[(١)]. وقال خليفةُ: وفيها وجَّه معاويةُ بن أبي سفيان حسانَ بن النعمان الغسانيِّ إلى إفريقيةَ فصالحَه من يَليه من البربر، ووضع عليها الخراجَ فلم يزلْ عليها حتى ماتَ معاويةُ[(٢)].

سنة ٥٨هـ فيها غزا مالكُ بن عبد الله الخثعميُّ أرضَ الروم، قال الواقديُّ: وفيها قيل: شَتَى يزيدُ بن شجرة في البحر، وقيل: بل غزا البحرَ وبلادَ الرومِ جُنادةَ بنَ أبى أميةَ، وقيل: إنما شَتَى بأرض الروم عمرو بن يزيد الجهنيُّ، وقيل غيرُ ذلك[(٣)]. وقال خليفةُ: وفي سنة ثمان وخمسين شَتَا عمرو بن مرة البذبذون، وأغار الحصين بن نميرٍ على صائفة الروم[(٤)].

وفي سنة ٥٩هـ شتى عمرو بن مرة الجهنيُّ في أرض الروم في البر. قاله الواقدي، ولم يكن فيها غزوٌ في البحر، وقال غيره: بل غزا في البحر عامئذٍ جنادة بن أبي أمية[(٥)]. قال خليفة: فيها غزا دينار أبو المهاجر فنزل على قرطاجنة فالتقوا فكثر القتل والجراح في الفريقين، وحجز الليل بينهم وانحاز المسلمون من ليلتهم فنزلوا حبلا في قبلة يونس ثم عاودوهم القتال فصالحوهم على أنْ يُخلو لهم الجزيرةَ، وانتهى المهاجرُ إلى عيون أبي المهاجر وافتتح ميلة وكان إقامته في هذه الغزاة نحوًا من سنتين[(٦)].

فإذا كان الحال كما ذكرت، والطعن كما قرأت ممن عرفت علم لماذا طعن هؤلاء في هذا الحاكم العادل، والبطل المجاهد، والصحابي الجيل ﷺ إلا لأنه سد الطريق أمام أسلافهم بحلمه، وعدله وأكل فساقهم بقوة جيشه، وحسن طاعتهم له.

وننتقل بعد ذلك إلى الشبهات التي وجهت إليه ومن الله نستمد العون.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٥١).

(٢) تاريخ خليفة (٥٥).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٨٢).

(٤) تاريخ خليفة (٥٥).

(٥) البداية والنهاية (٨/ ٩٤).

(٦) تاريخ خليفة (٥٦).

المبحث الثاني: رد الشبهات التي أثيرت في حق معاوية ﵁.

الشبهة الأولى: حول الأحاديث الواردة في ذم ولعن معاوية ﵁.

حيث وجدوا فيها تعارضًا مع ما ذكرناه سابقًا من فضلٍ له، ومع ما تقرر من عدالة الصحابة﵃ حيث قالوا: كيف يكون ملعونًا مذمومًا بهذا الشكل، ويُنصَّب ملكًا عليهم؟ إنَّ في هذا دليلًا على تضييع الصحابة لهذا الجزء من الدين، وإذا ضيَّعوا هذا فلا يبعُد أن يكونو كتموا غيره، وفرَّطوا فيه.

والجواب إجمالًا: أن هذه الرويات موضوعةٌ لايصح منها شيء، وبهذا جزم جماعةٌ من الحفاظ، منهم:**ابن القيم** حيث قال: كل حديث في ذم معاوية فهو كذب.[1]

وأما تفصيلًا فسرد هذه الروايات يطول، ونحن نذكر منها ما اشتهر عند الطاعنين عليه ﵁ منبهين بذلك على أن هذا باب لم يتكلم فيه النبي ﷺ بشيءٍ أصلًا بعد أن ذكرنا أن النبي ﷺ صح عنه عكس ذلك من الثناء على معاوية ﵁.

الحديث الأول: "إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه".

حيث قالوا: مادام النبي ﷺ قد قال ذلك القول في معاوية فلماذا صعد على المنبر؟ ولماذا استعمله عمر واستخلف بعد علي ووافق الصحابة على ذلك؟ أليس في هذا دليلٌ على أن الصحابة لم يلتزموا بكلام النبي ﷺ؟ ثم إن فيه ما يكفي من التجريح لمعاوية ﵁.

والجواب عن هذا كله أن الحديث مصنوعٌ موضوعٌ بكل طرقه كما هو مبين في الحاشية[2]

(١) المنار المنيف (١١٧).

(٢) موضوع. له طرق كلها باطلة. وهو يُروَى من حديث ابن مسعود، وأبى سعيد، والحسن مرسلًا.
فأما حديث ابن مسعود. فأخرجه ابن حبان في المجروحين (٢/ ١٧٢)، وابن عدي ٢/ ٢٠٩، وابن عساكر ٥٩/ ١٥٦، وابن الجوزي في الموضوعات (٩٤٣). عن عباد بن يعقوب الرواجني، عن الحكم بن ظهير، عن عاصم، عن زرٍّ، عن عبدالله أن النبي ﷺ قال: "إذا رأيتم معاوية يخطب على منبرى هذا فاقتلوه". وهذا إسناد فيه رجلان متهمان بوضعه الأول: **عباد بن يعقوب**. قال ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٥١): كان غاليًا في التشيع روى أحاديث أنكرت عليه في فضائل أهل البيت ومثالب غيرهم.
قال ابن حبان في المجروحين (٢/ ١٧١): كان رافضيًا داعية إلى الرفض، ومع ذلك يروي المناكير عن أقوام مشاهير فاستحق الترك. اهـ وقال ابن عدي (٤/ ٣٤٨): فيه غلو فيما فيه من التشيع وروى أحاديث أنكرت عليه في فضائل أهل البيت وفي مثالب غيرهم. اهـ

والثاني: **الحكم بن ظهير**. قال يحيى بن معين في رواية الدوري (١٣٢٠): ليس بشيء. وقال مرة: كذاب. الكامل لابن عدي (٢/ ٢٠٨). وقال البخاري، وأبو زرعة، وأبو حاتم النسائي: متروك الحديث. وقال الترمذي: تركوه.
وقال ابن حبان المجروحين (١/ ٢٥٠): وقال ابن حبان: كان يشتم الصحابة ويروي عن الثقات الأشياء الموضوعات، وهوالذي روى عن عاصم، عن ذر، عن عبد الله: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه اهـ
وقال ابن عدي الكامل (٢/ ٢٠٩): وعامة أحاديثه غير محفوظة.
وقال ابن حجر في التقريب (١٤٤٥): متروك رمي بالرفض. وانظر تهذيب التهذيب (٢/ ٣٦٨).
وأما حديث أبي سعيد فرواه عنه أبوالوداك وأبو نضرة: فأما رواية أبي الوداك: فأخرجها ابن عدي في الكامل (٧/ ٨٣) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٩٤٤) عن الوليد بن القاسم.
وأخرجها ابن عدي في الكامل (٦/ ٤٢٢) من طريق محمد بن بشر كلاهما (محمد بن بشر، والوليد) عن مجالد، عن أبي الوداك، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه. قال بشر فما فعلوا.
وهذا إسناد فيه مجالد بن سعيد. قال ابن مهدى وأحمد بن حنبل: ليس بشئ. وقال يحيى: لا يحتج بحديثه. وقال مرة: كذاب. اهـ من الكامل لابن عدي (٦/ ٦٢٠)، والموضوعات لابن الجوزي (٢/ ١٥١)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٣٦و٣٧) وأما وراية أبي نضرة: فأخرجها أبو أحمد بن عدى (٥/ ٢٠٠)، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٩٤٥) من طريق على بن زيد بن جدعان، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: "إذا رأيتم معاوية على منبري فارجموه". وأخرجه ابن عدي (٥/ ٢٠٠): عن جعفر بن سليمان. والبلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ١٢١) من طريق حماد بن سلمة كلاهما (جعفر بن سليمان، حماد بن سلمة) عن علي بن زيد، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: " إذا رأيتم معاوية على هذه الأعواد فاقتلوه، فقام إليه رجل من الأنصار وهو يخطب بالسيف، فقال أبو سعيد: ما تصنع؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا رأيتم معاوية يخطب على هذه الأعواد فاقتلوه. فقال له أبو سعيد: إنا قد سمعنا ما قد سمعت ولكنا نكره أن نسل السيف على عهد عمر حتى نستأمره، فكتبوا إلى عمر في ذلك فجاء موته قبل أن يأتي جوابه". وهذا الإسناد فيه على بن زيد: ضعيف شيعي.
قال ابن سعد: وفيه ضعف ولا يحتج به، و قال أحمد ويحيى: ليس بشيء. وفي رواية عنهما ضعيف. وقال أبو حاتم، والعجلي: يتشيع، وقال ابن عدي: كان يغلو في التشيع. وقال يزيد بن زريع: رأيته ولم أحمل عنه لأنه كان رافضيا، وقال ابن حبان: وكان يهم في الأخبار ويخطئ في الآثار حتى كثر ذلك في أخباره وتبين فيها المناكير التي يرويها عن المشاهير فاستحق ترك الاحتجاج به. الطبقات الكبرى (٧/ ٢٥٢)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٨٤)، والكامل لابن عدي (٥/ ٢٠٠)، والمجروحين لابن حبان (٢/ ١٠٣)، وتاريخ ابن معين رواية الدارمي (٤٧٢).
وأما حديث الحسن: فأخرجه نصر بن مزاحم في وقعة صفين (٢١٦) عن عمرو بن ثابت، عن إسماعيل، عن الحسن به.

والبلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ١٢١) قال: حدثنا يوسف بن موسى، وأبو موسى إسحاق الفروي قالا: حدثنا جرير بن عبد الحميد حدثنا إسماعيل والأعمش عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه"؛ فتركوا أمره فلم يفلحوا ولم ينجحوا.
وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٩٧٧)، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٩٤٧) من طريق سليمان بن حرب حدثنا حماد بن يزيد قال قيل لأيوب إن عمرو بن عبيد يروى عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: " إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه "فقال: كذب عمرو. وهذا الأثر مرسل عن الحسن، ومراسيل الحسن شديدة الضعف.
قال أحمد بن حنبل: ليس في المرسلات شيء أضعف من مرسلات الحسن وعطاء بن أبي رباح؛ فإنهما كانا يأخذان عن كل أحد اهـ تاريخ دمشق (٤٠/ ٢٠٢)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٨٣)، وجامع التحصيل (٧٩).
ذكر شيء من كلام العلماء على هذا الحديث.
١- قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع لا يصح عن رسول الله ﷺ.
٢- قال ابن كثير رحمه الله: وهذا الحديث كذب بلا شك ولو كان صحيحًا لبادر الصحابة إلى فعل ذلك لأنهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم، وأرسله عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى، قال أيوب: وهو كذب. اهـ من البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).
٣- قال أبو جعفر العقيلي: لا يصح في هذا المتن عن رسول الله ﷺ شئ يثبت.
٤- قال الألباني: موضوع (الضعيفة ٤٩٣٠). وأخرجه الخطيب (١/ ٢٥٩) من طريق محمد بن إسحاق الفقيه: حدثني أبوالنضر القازي قال: أخبرنا الحسن بن كثير قال: أخبرنا بكر بن أيمن القيسي- قال: أخبرنا عامر بن يحيى الصريمي قال: أخبرنا أبوالزبير عن جابر مرفوعًا بلفظ: إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه؛ فإنه أمين مأمون.
ثم قال: لم أكتب هذا الحديث إلا من هذا الوجه، ورجال إسناده - ما بين محمد بن إسحاق وأبي الزبير - كلهم مجهولون.
قلت-الألباني-: وابن إسحاق هذا: هوالمعروف بـ (شاموخ)؛ قال فيه الخطيب: وحديثه كثير المناكيروفي ترجمته ساق هذا الحديث. وساق له قبله حديثًا آخر في فضل علي وفاطمة والحسن والحسين؛ واستنكره.
وقال الذهبي: هذا موضوع. وقال ابن عدي: هذا اللفظ - مع بطلانه - قد قرىء أيضًا بالباء الموحدة، ولا يصح أيضًا، وهواقرب إلى العقل؛ فإن الأمة رأوه يخطب على منبر رسول الله ﷺ ولم ينكروا ذلك عليه. ولا يجوز أن يقال: إن الصحابة ارتدت بعد نبيها ﷺ وخالفت أمره، نعوذ بالله من الخذلان والكذب على نبيه! ". اهـ بتصرف.
٤-قال ابن تيمية: ما ذكره من أن النبي ﷺ لعن معاوية وأمر بقتله إذا رؤى على المنبر فهذا الحديث ليس في شيء من كتب الإسلام التي يرجع إليها في علم النقل وهو عند أهل المعرفة بالحديث كذب موضوع مختلق على النبي ﷺ.
ومما يبين كذبه أن منبر النبي ﷺ قد صعد عليه بعد معاوية من كان معاوية خيرًا منه باتفاق المسلمين فإن كان يجب قتل من صعد عليه لمجرد الصعود على المنبر وجب قتل هؤلاء كلهم ثم هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام فإن مجرد صعود المنبر لا يبيح قتل مسلم وإن أمر بقتله لكونه تولى الأمر وهو لا يصلح.

الحديث الثاني: عن الحكم بن عمير الثمالي قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم: كيف بك يا أبا بكرٍ إذا وليتَ؟ قال: لا يكون ذلك أبدًا. قال: وكيف بك يا عمر إذا وليتَ؟ قال: حجرًا لقد لقيتُ إذن شرًا، قال: فكيف بك يا عثمان إذا وليتَ؟ قال: آكل، وأُطعِم، وأقسم، ولا أظلم.

قال: فكيف بك يا علي إذا وليت؟ قال: آكل القوت، وأحمي الحمرة، وأقسم الثمرة، وأخفي العورة، قال أما إنكم كلكم سيلي، وسيرى الله أعمالكم.

ثم قال: يا معاوية كيف بك إذا وليت حقبا تتخذ السيئة حسنة، والقبيح حسنا يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير أجلك يسير، وظلمك عظيم. (١)

الحديث الثالث: عن أبي برزة قال: كنا مع النبي ﷺ فسمع صوت غناء، فقال: انظروا ما هذا؟ فصعِدتُ فنظرت فإذا معاوية، وعمرو بن العاص يتغنيان، فجئتُ فأخبرتُ نبي الله ﷺ فقال: "اللَّهُمَّ أَرْكِسْهُمَا فِي الْفِتْنَةِ رَكْسًا، اللَّهُمَّ دَعَّهمَا إِلَى النَّارِ دعًّا"(٢).

فيجب قتل كل من تولى الأمر بعد معاوية ممن معاوية أفضل منه وهذا خلاف ما تواترت به السنن عن النبي ﷺ من نهيه عن قتل ولاة الأمور وقتالهم كما تقدم بيانه.

ثم الأمة متفقة على خلاف هذا، فإنها لم تقتل كل من تولى أمرها ولا استحلت ذلك ثم هذا يوجب من الفساد والهرج ما هو أعظم من ولاية كل ظالم فكيف يأمر النبي ﷺ بشيءٍ يكون فعله أعظم فسادًا من تركه اهـ من منهاج السنة (٤/ ١٨١)

(١) **موضوع**. أخرجه ابن عساكر (٥٩/ ١٢٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (٩٥٠) من طريق زيد ابن الحباب أبي الحسين العكلي، عن العلاء بن جرير، حدثنا رجل من أهل الطائف قد أتى عليه ثمانون سنة، عن الحكم بن عمير الثمالي به. وهذا إسناد فيه العلاء بن جرير لم أجده، وكذا قال الألباني في الضعيفة (٤٦٤٠).

وقال ابن الجوزي: هذا حديث باطل بلا شك فيه. ثم هو عن رجل لم يسم، قال لنا شيخنا أبو الفضل بن ناصرٍ: فيه رجالٌ مجهولون، وإسناده غير صحيحٍ، ومتنه موضوعٌ كذبًا. وانظر اللآلئ المصنوعة (١/ ٣٩٠).

(٢) **موضوع**. موضوعٌ بهذا اللفظ وضعيفٌ بدون ذكر معاوية وعمرو

أخرجه ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٠١) ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٩٥١) عن علي بن المنذر، عن ابن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبي برزة به.

وهذا إسنادٌ فيه سليمان بن عمرو بن الأحوص؛ قال ابن القطان: مجهول اهـ من تهذيب التهذيب (٤/ ١٨٦)

ويزيد بن أبي زياد: ضعيف كبر فتغير وصار يتلقن وكان شيعيًا كما في التقريب (٧٧١٧) وقال ابن فضيل: كان من أئمة الشيعة الكبار. وقال بن عدي: هو من شيعة الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه. وقال ابن

المبارك: ارم به، وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ليس حديثه بذاك، وقال مرة: ليس بالحافظ، وقال ابن معين: ليس بالقوي، وقال أبو يعلى الموصلي عن ابن معين: ضعيف، وضعفه النسائي، والدارقطني. قال بن سعد: كان ثقة في نفسه إلا أنه اختلط في آخر عمره فجاء بالعجائب اهـ من تهذيب التهذيب (١١/ ٢٨٨).

قلت: كونه يلقن مع كونه شيعيًا يبين أن هذا الحديث موضوعًا وإن لم يتعمد هو ذلك، ولا يلزم من كون الحديث موضوعًا أن يكون راويه ممن يتعمد الكذب، وهذا المعنى ظاهر في كلام ابن حبان -رحمه الله- حيث قال: وكان يزيد صدوقا إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فكان يتلقن ما لقن فوقع المناكير في حديثه من تلقين غيره إياه وإجابته فيما ليس من حديثه لسوء حفظه فسماع من سمع منه قبل دخوله الكوفة في أول عمره سماع صحيح وسماع من سمع منه في آخر قدومه الكوفة بعد تغير حفظه وتلقنه ما يلقن سماع ليس بشيء اهـ من المجروحين (٣/ ١٠٠).

والراوي عنه محمد بن فضيل بن غزوان قال ابن حجر: صدوق عارف رمي بالتشيع اهـ من التقريب (٦٢٢٧) والراوي عنه: علي بن المنذر، وهو صدوق يتشيع كما في التقريب (٤٨٠٣)

وفيه علةٌ أخرى وهي: أن ابن أبي شيبة أخرجه في المصنف (٢/ ٣٧٠) من طريق ابن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: أخبرني أبو هلال، عن أبي برزة أن النبي ﷺ دعا على رجلين فرفع يديه. فأدخل فيه أبا هلال بين سليمان وبين أبي برزة ولم يسم الرجلين ولم يقل إنهما من الصحابة وهذا يدل على اضطراب يزيد في الحديث. وأخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٦٨٥) كذلك، ومن طريقه أبو يعلى في مسنده (٧٤٣٧)، وأخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤٢١)، والبزار في مسند أبي برزة (٤٥٠٩) من طريق محمد بن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: أخبرني رب هذا الدار أبو هلال-العكي- أنه سمع أبا برزة الأسلمي يحدث أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ فسمعوا غناءً فاستشرفوا له، فقام رجل فاستمع، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فأتاهم ثم رجع فقال: هذا فلان، وفلان، وهما يتغنيان، ويجيب أحدهما الآخر، وهو يقول:

لا يزال جوادي تلوح عظامه　زوى الحرب عنه أن يجن فيقبرا

فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: "اللهم أركسهما في الفتنة ركسا، اللهم دعهما إلى النار دعا" وإسناده ضعيفٌ كما تقدم وعى تقدير الصحة. فذلك قبل أن تحرم الخمر، وكان ذلك قبل أن يسلم عمرو، ومعاوية.

وفي رواية البزار أن ذلك كان يوم أحد وكان قائل الشعر يقوله في حمزة ﷺ.

وقال البزار: وَأَبُو هِلالٍ الْعَكِّيُّ فَرَجُلٌ غَيْرُ مَعْرُوفٍ.

وللحديث طريقٌ آخر: أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٠٨٠) فقال: حدثنا محمد بن حفص بن بهمرد ثنا إسحاق بن الحارث الرازي ثنا عمرو بن عبد الغفار الفقيمي ثنا نصير بن أبي الأشعث وشريك وأبو بكر بن عياش عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن ربيعة به.

وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٤): وفيه جماعة لم أعرفهم.

ولم يذكر فيه عَمرًا ومعاوية -رضي الله عنهما- وهذا دليلٌ آخرُ على وضع اسمهما في الرواية الأولى.

وللحديث طريقٌ ثالثٌ: عن ابن عباسٍ، وفيه التصريح باسم معاوية، وعمرو بن العاص.

الحديث الرابع: يقول: إن الشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة بني أمية!

وقد رد ذلك أهل العلم واستغربوه في تفسير الآية لعدم ثبوت الحديث، وتفصيل ذلك في وجهين:

الوجه الأول: ذكر الحديث الوارد في ذلك، وبيان بطلانه

الوجه الثاني: ذكر التفسير الصحيح للآية من كلام أصحاب النبي ﷺ ومن كلام العلماء.

وإليك التفصيل.

الوجه الأول: ذكر الأحاديث الواردة في ذلك، وبيان بطلانها

١-عن عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، حدثني أبي عن جدي قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزوالقرود فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكًا حتى مات. قال:

أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٨) من طريق أحمد بن علي الجارودي الأصبهاني ثنا عبد الله بن سعيد الكندي ثنا عيسى بن سوادة النخعي عن ليث عن طاوس عن ابن عباس به.

وهذا إسناد فيه: عيسى بن سوادة النخعي، قال ابن معين: كذاب، وقال أبو حاتم: منكر الحديث ضعيف روى عن إسماعيل بن أبي خالد عن زاذان عن ابن عباسٍ عن النبي ﷺ حديثا منكرًا. اهـ من الجرح والتعديل (٦/ ٢٧٧)، ولسان الميزان (٤/ ٣٩٦). ومما يعضد تكذيب الرواية الأولى أن هذه الرواية تذكر عمرًا غير ابن العاص ومعاوية غير ابن أبي سفيان فيزول بها الإشكال الموجود، وهذه الرواية أخرجها ابن قانعٍ في معجم الصحابة باب صالح: شقران (٤٦٦). وابن عدي (٤/ ٤) كلاهما من طريق سيف بن عمر قال: حدثني أبو عمر مولى إبراهيم بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن صالح: شقران قال: بينا نحن ليلةً في سفر، إذ سمع النبي ﷺ صوتا، فقال: "ما هذا؟ " فذهبت انظر، فإذا معاوية بن التابوت، وعمرو بن رفاعة بن التابوت، ومعاوية بن رافع يقول: لا يزال حواري تلوح عظامه روى الحرب عنه أن يموت فيقبرا فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: **"اللهم اركسهما ركسا، ودعهما إلى نار جهنم"** فمات رفاعة قبل أن يقدم النبي ﷺ من ذلك السفر. وهذا إسنادٌ فيه سيفُ بنُ عمرَ التميميُّ وهو متروكٌ كما قال أبو حاتم في الجرح والتعديل (٤/ ٢٧٨). وقال ابن حجرٍ: ضعيفُ الحديثِ عمدةٌ في التاريخ كما في التقريب (٢٧٤٢).

وعليه فهذا إسنادٌ ضعيفٌ، لضعفِ سيفٍ، فإن قبل لأنه يخص قضايا السيرة، والتاريخ، ولايمس العقيدة في شيءٍ فقد زال الإشكال، وبيّن أن الوهم، وقع في اسم معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص.

وإن لم يقبل فليس هو بأولى بالرد من الحديث الأول. وإلى هذا ذهب السيوطي في اللآلئ المصنوعة (١/ ٣٩٣) حيث قال بعد إيراد هذه الرواية: وهذه الرواية أزالت الإشكال وبينت أن الوهم وقع في الحديث الأول في لفظةٍ واحدةٍ وهي قوله ابن العاصي وإنما هوابن رفاعة أحد المنافقين وكذلك معاوية بن رافع أحد المنافقين والله أعلم.

وهذه بعض أحكام العلماء على الرواية الأولى قال ابن الجوزي: هذا حديثٌ لا يصح.

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/ ١٣١): منكر.

وأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾الآية. (١) والجواب أن هذا الحديث موضوع كما هو مبين بالحاشية، ومع ذلك فليس فيه بني أمية، ولا معاوية.

٢-عن هشام بن محمد الكلبي: أنه كان عند المعتصم في أول أيام المأمون حين قدم المأمون بغداد فذكر قومًا بسوء السيرة فقلت له: أيها الأمير إن الله تعالى أمهلهم فطغوا، وحلم عنهم فبغوا فقال لي: حدثني أبى الرشيد عن جدي المهدي عن أبيه المنصور عن أبيه محمد بن على عن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه أن النبي ﷺ نظر إلى قوم من بني فلان يتبخترون في مشيتهم فعرف الغضب في وجهه ثم قرأ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فقيل له: أي الشجرة هي يا رسول الله حتى نجتثها؟ فقال: ليست بشجرة نبات إنما هم بنو فلان إذا ملكوا جاروا، وإذا ائتمنوا خانوا ثم ضرب بيده على ظهر العباس قال فيخرج الله من ظهرك يا عم رجلًا يكون هلاكهم على يديه(٢).

---

(١) موضوع. أخرجه ابن جرير الطبري (٨/ ١٠٠) فقال: حُدِّثت عن محمد بن الحسن بن زَبَالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، حدثني أبي عن جدي به.

وهذا إسنادٌ فيه عبد المهيمن بن عباس بن سهل؛ قال البخاري، وأبو حاتم: منكر الحديث. وقال النسائي: ليس بثقةٍ. وقال في موضعٍ آخر: متروك الحديث، وقال ابن حبان: لما فحُش الوهم في روايته بطل الاحتجاج به، وقال أبو نعيم الأصبهاني: روى عن آبائه أحاديث منكرة لا شيء. اهـ من تهذيب التهذيب (٦/ ٣٠٣).

والراوي عنه محمد بن الحسن بن زبالة قال ابن معين: كذاب خبيث لم يكن بثقةٍ، ولا مأمون يسرق. وقال أحمد بن صالح المصري: كتبت عنه مائة ألف حديث ثم تبين لي أنه كان يضع الحديث فتركت حديثه. وقال النسائي والدارقطني: متروك. وعدَّه أبو داود في الكذابين. اهـ من تهذيب التهذيب (٩١٠١).

وفي الإسناد انقطاعٌ بين الطبري وبين ابن زبالة.

وقال ابن كثير في التفسير (٣/ ٦٨): هذا السند ضعيف جدًّا فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروكٌ وشيخه أيضًا ضعيفٌ بالكلية؛ ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أي في الرؤيا والشجرة. اهـ

وقال الألباني في الضعيفة (٣/ ٧٩): موضوع.

(٢) موضوع. أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٣٤٤) من طريق محمد بن زكريا الغلابي، عن عبد الله بن الضحاك الهدادي، عن هشام بن محمد الكلبي به.

وهذا إسنادٌ فيه المنصور وغيره من الملوك العباسيين قال الألباني في الضعيفة (٣/ ٧٩):

الوجه الثاني: ذكر التفسير الصحيح للآية من كلام الصحابة، وعلماء الأمة.

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠) قال: هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس. قال ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم.[1] وهذا قول مسروق، والحسن البصري، وأبي مالك، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وإبراهيم، وقتادة، والضحاك، ذكر ذلك كله بأسانيده الطبري رحمه الله في تفسير الآية ثم ذكر القول الآخر بأنها الكشوث نبت يتعلق بالأغصان، ولا عرق له في الأرض، ثم قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب عندنا قول من قال: عنى بها شجرة الزقوم، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك[2] وبهذا قال ابن كثير ثم قال: وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنوامية. وهو غريب ضعيف. ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب[3]

لا يُعرَف حالُهم في الحديث. وهشام بن محمد بن السائب الكلبي قال الدارقطني وغيره: متروكٌ، وقال ابن عساكر: رافضيٌّ ليس بثقة. اهـ من لسان الميزان (٦/ ١٩٦)، وقال ابن حبان: وكان غاليًا في التشيع، أخباره في الأغلوطات أشهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفها. انظر المجروحين (٣/ ٩١)، وانظر: الكامل لابن عدي (٧/ ١١٠)

وعبد الله بن الضحاك لم أقف له على ترجمته، ومحمد بن زكريا الغلابي، قال عنه الدارقطني: كان يضع الحديث. كما في سؤالات الحاكم له ت (٢٠٦). وفي الإسناد أحمد بن محمد بن عمران بن الجندي؛ قال الخطيب: كان يضعَّف في روايته ويُطعَن عليه في مذهبه، قال لي الأزهري: ليس بشيءٍ، وقال العتيقي: كان يُرمَى بالتشيع، واتهمه ابن الجوزي بالوضع كما في تاريخ بغداد (٥/ ٧٧)، ولسان الميزان (١/ ٢٨٨). وقال ابن عساكر كما في مختصر تاريخ دمشق (٣١٥٦): هذا حديثٌ منكرٌ. وقال السيوطي (٢٩١) في تاريخ الخلفاء: موضوعٌ، وآفته الغلابي.

وقال الألباني في الضعيفة (١٠٨٠): موضوعٌ.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٥)، (٦٢٣٩)، والترمذي (٣١٣٩)، وقال: حديث حسن صحيح، ووهم الحاكم- رحمه الله- فأخرجه في المستدرك (٢٣٩٥)

(٢) تفسير الطبري سورة الإسراء آية (٦٠).

(٣) تفسير ابن كثير سورة الإسراء آية (٦٠).

أما القرطبي فساق أثر ابن عباسٍ في تفسير الآية، ثم قال: وبقول ابن عباسٍ قالت عائشة، ومعاوية، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وابن أبي نجيح، وابن زيد.

ثم قال: وقال ابن عباس: هذه الشجرة بنو أمية، وإن النبي ﷺ نفى الحكم.

وهذا قول ضعيفٌ محدَثٌ، والسورة مكيةٌ، فيبعد هذا التأويل، إلا أن تكون هذه الآية مدنيةً، ولم يثبت ذلك. اهـ[١]

وقال الآلوسي: والمعمول عليه عند الجمهور روايةُ الصحيح عن الحَبْرِ، ولا يخفى أن تفسير الآية بما ذكر غير ظاهر الملاءمة للسياق. [٢]

وقال الشوكاني: قال جمهور المفسرين: وهي شجرة الزقوم، والمراد بلعنها: لعن آكلها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ (الدخان: ٤٣ – ٤٤). [٣]

أما الطاهر ابن عاشور -رحمه الله تعالى- فأحسن وأجاد حيث فسر الآية بمثل قول الجمهور ثم قال: ويوجد في بعض التفاسير أن ابن عباسٍ ﷺ قال: في الشجرة الملعونة بنو أمية. وهذا من الأخبار المختلقة عن ابن عباسٍ ﷺ، ولا إخالها إلا مما وضعه الوضّاعون في زمن الدعوة العباسية لإكثار المُنفِّرات من بني أمية، وأن وصف الشجرة بأنها الملعونة في القرآن صريحٌ في وجود آياتٍ في القرآن ذُكِرَتْ فيها شجرةٌ ملعونةٌ وهي شجرة الزقوم كما علمتَ. ومثل هذا الاختلاق خروجٌ عن وصايا القرآن في قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ (الحجرات: ١١). اهـ

وبهذا التحقيق الذي ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن الرؤيا التي أراه الله إياها هي رؤياه في المنام بني أمية على منبره، وإن المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية لا يُعوَّل عليه. إذ لا

---

(١) تفسير القرطبي سورة الإسراء آية (٦٠)، وانظر تفسير الرازي، والمحرر الوجيز لابن عطية.

(٢) روح المعاني١٥/ ١٠٦.

(٣) فتح القدير٣/ ٣٤٢.

أساس له من الصحة. والحديث الوارد بذلك ضعيفٌ لا تقوم به حجةٌ. وإنما وصف الشجرة باللعن لأنها في أصل النار، وأصل النار بعيدٌ من رحمة الله. واللعن: الإبعاد عن رحمة الله، أو لخبث صفاتها التي وُصِفَت بها في القرآن، أو للعن الذين يطعمونها. والعلم عند الله تعالى(١).

وقال ابن حجر رحمه الله: قوله: (والشجرة الملعونة في القرآن، قال: شجرة الزقوم)

هذا هوالصحيح، وذكره ابن أبي حاتم عن بضعةَ عشرَ نفسًا من التابعين، ثم روى من حديث عبد الله بن عمرٍو أن الشجرة الملعونة الحكم بن أبي العاص وولده وإسناده ضعيفٌ، وأما الزقوم فقال أبو حنيفة الدينوري في (كتاب النبات): الزقوم شجرةٌ غبراءُ تنبت في السهل، صغيرة الورق مدورته، لا شوك لها، زفرة مُرةٌ، ولها نَورٌ أبيضُ ضعيفٌ تجرسه النحل ورءوسها قباحٌ جدًّا. وقال السهيلي: الزقوم فعولٌ من الزقم وهو اللقم الشديد، وفي لغةٍ تميميةٍ: كل طعامٍ يُتَقَيَّأُ منه يقال له زقومٌ، وقيل: هو كل طعامٍ ثقيلٍ. (٢)

الحديث الخامس: أن النبي ﷺ رأى أبا سفيان مقبلًا على حمارٍ، ومعاوية يقود به، ويزيد ابنه-ابن أبي سفيان- يسوق به فقال: **"لعن الله القائد والراكب والسائق"**

والجواب أن هذا حديثٌ موضوعٌ، ولا أصل له. (٣)

---

(١) أضواء البيان٣/ ٢٣٦.

(٢) فتح الباري (٨/ ٣٩٩).

(٣) موضوع. ذكره الطبري (٥/ ٦٢٢) في كتاب المعتضد الذي أمر فيه بلعن معاوية ﷺ، ولا إسناد له، وقد قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ترجمة أحمد بن الطيب-كان يرى رأي الفلاسفة، وقُتِلَ سكرانًا - أن عبد الله بن أحمد بن أبي طاهر ذكر في أخبار المعتضد أن أحمد بن الطيب هوالذي أشار على المعتضد بلعن معاوية على المنابر وإنشاء التواقيع إلى البلاد بذلك. اهـلسان الميزان (١/ ١٨٩).

وقد وقفتُ على هذا الحديث مسنَدًا عن سفينة، وعن نصر بن عاصمٍ عن أبيه، ولم يذكر فيه معاوية ولايزيد.

فأما حديث سفينة فأخرجه البزار (٣٨٣٩) قال: حدثنا السكن بن سعيد، قال: حدثنا عبد الصمد، قال: حدثنا أبي، وحدثنا حماد بن سلمة، عن سعيد بن جمهان، عن سفينة ﷺ، أن النبي ﷺ كان جالسا، فمر رجلٌ على بعيرٍ، وبين يديه قائدٌ، وخلفه سائقٌ، فقال: لعن الله القائد، والسائق، والراكب. قال الهيثمي (١/ ٣٠٨): رواه البزار ورجاله ثقاتٌ. وليس كما قال -رحمه الله - فالسكن بن سعيد لم أجد له ترجمة، والهيثمي قد قال في موضع آخر (٧/ ٣٩٥) عنه: لا أعرفه، وكذا قال الألباني في الضعيفة (٥٤٥٧): لم أعرفه. وليس فيه تسمية

طريق آخر للحديث: عن علي بن الأقمر قال: وفدنا على معاوية، وقضينا حوائجنا ثم قلنا: لو مررنا برجلٍ قد شهد رسول الله ﷺ، وعاينه. فأتينا عبد الله بن عمر فقلنا: يا صاحب رسول الله ﷺ، حدثنا ما شهدت، ورأيت. قال: إن هذا أرسل إليَّ - يعني معاوية - فقال: لئن بلغني أنك تحدث لأضربن عنقك. فجثوت على ركبتي بين يديه ثم قلت: وددت أن حدَّ سيف في جندك على عنقي.

فقال: والله ما كنت لأقاتلك، ولا أقتلك، وايم الله ما يمنعني أن أحدثكم ما سمعت رسول الله ﷺ قال فيه. رأيت رسول الله ﷺ أرسل إليه يدعوه -وكان يكتب بين يديه- فجاء الرسول ﷺ فقال: هو يأكل. فقال: لا أشبع الله بطنه، فهل ترونه يشبع؟ قال: وخرج من فجٍّ فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان، وهو راكبٌ، ومعاوية، وأخوه، أحدهما قائدٌ، والآخرُ سائقٌ، فلما نظر إليهم رسول الله ﷺ قال: " اللهم العن القائد والسائق والراكب " قلنا: أنت سمعت رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، وإلا فصمتا أذناي، كما عميتا عيناي. (١)

والجواب عليه من وجوه:

أحدٍ ممن ذكر. وأما حديث نصر بن عاصم. فأخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٧٦) ومن طريقه الضياء في المختارة (١٩٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة باب من اسمه عاصم. ثلاثتهم عن غسان بن مضر، عن سعيد بن يزيد أبي مسلمة، عن نصر بن عاصمٍ الليثي، عن أبيه قال: دخلت مسجد المدينة فإذا الناس يقولون: نعوذ بالله من غضب الله و غضب رسول الله، قال: قلت: ماذا؟ قالوا: كان رسول الله ﷺ يخطب على منبره فقام رجلٌ فأخذ بيد ابنه فأخرجه من المسجد، فقال رسول الله ﷺ: "لعن الله القائد والمقود، ويلٌ لهذه الأمة من فلانٍ ذي الاستاه". قال الهيثمي (٥/ ٤٣٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات. اهـ قلت: وهو كما قال، وليس فيه ذكرٌ لمعاوية ولا لأبيه. بل لم يذكر هذا الحديث في أبواب مثالب معاوية من كتب الموضوعات.

(١) **موضوع**. أخرجه نصر بن مزاحم في كتاب صفين فقال: عن تليد بن سليمان، حدثنى الأعمش، عن على ابن الأقمر به وهذا إسناد فيه تليد بن سليمان رافضي- مشهور بالضعف والتدليس -طبقات المدلسين ت (١٣٢) وقال يحيى بن معين: كذابٌ؛ كان يشتم عثمان وكل من شتم عثمان أو طلحة أواحدا من أصحاب رسول الله ﷺ دجال لا يكتب عنه وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين اهـ من تهذيب التهذيب (٤/ ٣٢٢). وفيه نصر بن مزاحم رافضي جلد قال ابن أبي خيثمة كان كذابا، وقال أبو حاتم زائغ الحديث متروك وقال العجلي كان رافضيا غاليا اهـ. من لسان الميزان (٦/ ١٥٧).

الوجه الأول: هذا الحديث من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد في شيءٍ من دواوين الحديث التي يُرجَع إليها في معرفة الحديث، ولا له إسنادٌ معروفٌ، وهذا المُحْتَجُّ به لم يذكر له إسنادًا، وعليه فإن الاحتجاج بهذا الحديث لا يجوز.

الوجه الثاني: أنَّ من الجهل أن يُروَى مثل هذا عن عبدِ الله بن عمرَ، وعبدُ الله بن عمرَ كان من أبعد الناس عن ثلب الصحابة ﷺ، وأروى الناس لمناقبهم، وقولُه في مدح معاويةَ معروف ثابت عنه حيث يقول: ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسودَ من معاوية، قيل له: ولا أبو بكرٍ وعمرَ! فقال: كان أبو بكرٍ وعمرُ خيرًا من معاويةَ، وما رأيتُ بعد رسول الله ﷺ أسود منه.

قال أحمد بن حنبل: السيد الحليم -يعني معاوية-، وكان معاوية كريمًا حليمًا. [1]

الوجه الثالث: ثم إن خُطَبَ النبي ﷺ لم تكن واحدةً، بل كان يخطب في الجُمَع، والأعياد، والحج، وغير ذلك، ومعاوية، وأبوه يشهدان الخطب كما يشهدها المسلمون كلُّهم، أَفَتَراهما في كل خطبةٍ كانا يقومان، ويُمَكَّنَان من ذلك؟ هذا قدحٌ في النبي ﷺ وفي سائر المسلمين إذ يُمَكِّنون اثنين دائمًا يقومان، ولا يحضران الخطبة، ولا الجمعه، وإن كانا يشهدان كل خطبة فما بالهما يمتنعان من سماع خطبةٍ واحدة قبل أن يتكلم بها.

الوجه الرابع: من المعلوم من سيرة معاوية ﷺ أنه كان من أحلم الناس، وأصبرهم على من يؤذيه، وأعظم الناس تأليفًا لمن يعاديه فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ مع أنه-أي رسول الله ﷺ- أعظمُ الخلق مرتبةً في الدين، والدنيا، وهو محتاجٌ إليه في كل أموره، فكيف لا يصبر على سماع كلامه وهو بعد الملك كان يسمع كلام من يسبه في وجهه! ! فلماذا لا يسمع كلام النبيﷺ؟ وكيف يتخذ النبي ﷺ كاتبًا من هذه حالُه؟

الوجه الخامس: أنَّ قولَه: إنه أخذ بيد ابنه يزيد، فيزيدُ وُلِدَ في خلافة عثمان ﷺ باتفاق أهل العلم، ولم يكن لمعاوية ﷺ ولدٌ على عهد رسول اللهﷺ. قال الحافظ أبو الفضل بن

(١) منهاج السنة (٤/ ٤٤٤).

ناصر: خطب معاوية ﷺ في زمن رسول الله ﷺ فلم يُزَوَّجْ لأنه كان فقيرًا، وإنما تزوج في زمن عمر ﷺ، ووُلِدَ له يزيدُ في زمن عثمان بن عفان ﷺ سنة سبعٍ وعشرين من الهجرة. [1]

الحديث الخامس: عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- قال: إن تابوت معاوية في النار فوق تابوت فرعون، وذلك بأن فرعون قال: (أنا ربكم الأعلى). [2]

الحديث السادس: عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فسمعتُه يقول: "يطلُعُ عليكم من هذا الفجِّ رجلٌ يموتُ حين يموتُ، وهو على غير سنتي، فشق علي ذلك، وتركت أبي يلبس ثيابه، ويجيء، فطلع معاوية. [3] وهذا، والذي قبله مع أنه من طريق نصر بن مزاحم فهو مخالف لما صح عن عبد الله بن عمر بيَّنَّاه في فضائله.

الشبهة الثانية: قتلُ محمد بن أبي بكر الصديق، وإحراقُه بالنار في جيفة حمار وشماتةُ أخته أم حبيبة في عائشة بسبب ذلك ورد عائشة عليها بقولها ياابنة العاهرة.

وذلك باطل وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: إيراد روايات القصة، وبيان ما فيها من ضعف.

الرواية الأولى: عن يزيد بن أبي حبيب قال: بعث معاويةُ عمرو بن العاص، في سنة ثمان وثلاثين إلى مصر، ومعه أهل دمشق، عليهم يزيد بن أسد البجلي، وعلى أهل فلسطين رجل من خثعم، ومعاوية بن حديج على الخارجة، وأبو الأعور السلمي على أهل الأردن، فساروا حتى قدموا مصر، فاقتتلوا بالمسناة، وعلى أهل مصر محمد بن أبي بكر، فهُزِمَ أهلُ مصرَ بعد قتل شديد في الفريقين جميعًا. قال عمرو: وشهدتُ أربعةً وعشرين زحفًا، فلم أر يومًا كيوم المسناة، ولم أر الأبطال إلا يومئذٍ. فلما هُزِمَ أهل مصر، تغيب محمد بن أبي بكر.

---

(١) منهاج السنة (٤/ ٤٤٥).

(٢) موضوع. أخرجه نصر بن مزاحم في كتاب صفين له صـ (٢٢٠) عن محمد بن فضيل، عن أبى حمزة الثمالى، عن سالم بن أبى الجعد، عن عبد الله بن عمر به.

وهذا إسناد فيه أبو حمزة الثمالي واسمه ثابت بن أبي صفية؛ كوفي ضعيف رافضي- كما في التقريب (٨١٨). ونصر بن مزاحم رافضيٌّ جَلْدٌ تركوه كما سبق. لسان الميزان (ت ٥٥١)

(٣) موضوع. أخرجه نصر بن مزاحم في كتاب صفين (٢١٩) عن شريك، عن ليث، عن طاوس، عن عبد الله بن عمر به. قلت: شِريك وليث ضعيفان أيضًا.

فأخبر معاوية بن حديج بمكانه، فمشى إليه فقتله، وقال: يُقتل كنانة بن بشر، ويترك محمد بن أبي بكر؟ وإنما أمرهما واحد. ثم أمر به معاوية بن حديج فجُرَّ فمُرَّ به على دار عمرو بن العاص، لما يعلم من كراهيته لقتله، ثم أمر به بجادًا التجيبي فأحرقه في جيفة حمار. (١)

والجواب عن هذه الرواية: أن إسنادها ضعيفٌ مرسلٌ، وبيان ذلك في الحاشية

الرواية الثانية: عن عبد الكريم بن الحارث قال:ولما أجمع علي، ومعاوية على الحكمين أغفل عليٌّ أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر، فلما انصرف عليٌّ إلى العراق، بعث معاوية عمرو بن العاص في جيوش أهل الشام، ومصر، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فقال عمرو: وشهدت ثمانية عشر زحفًا براكاء، فلم أر يومًا مثل المسناة. ثم انهزم أهل مصر، فدخل عمرو بأهل الشام الفسطاط، وتغيب محمد بن أبي بكر في غافق، فآواه رجل منهم، فأقبل معاوية بن حديج في رهط ممن يعنيه على من كان مشى في عثمان، فطلب ابن أبي بكر، فوجدت أخت الرجل الغافقي الذي كان آواه كانت ضعيفة العقل؛ فقالت: أي تلتمسون ابن أبي بكر؟ أدلكم عليه، ولا تقتلون أخي؟ فدلتهم عليه، فقال: احفظوني في أبي بكر، فقال معاوية بن حديج: قتلتَ من قومي ثمانين رجلًا في عثمان وأتركك، وأنت صاحبه؟ فقتله ثم جعله في جيفة حمار ميت، فأحرقه بالنار)(١).

---

(١) ضعيف. أخرجه الكندي في ولاة مصر (١/ ٨) من طريق ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب به.
وهذا مرسل لأن يزيد بن أبي حبيب من الخامسة، وكان يرسل. ولد بعد سنة خمسين في دولة معاوية، كما في التقريب ت (٧٧٠١) وجامع التحصيل ت (٨٩١) وسير أعلام النبلاء (٦/ ٣١). ومع إرساله فإسناد المرسل ضعيف ففيه ابن لهيعة: ضعيف ومدلس.
وللحديث طريق أخرى عن يزيد بن حبيب أخرجها الكندي في ولاة مصر (١/ ٨) قال: حدثني أبو سلمة أسامة التجيبي قال: حدثني زيد بن أبي زيد، عن أحمد بن يحيى بن وزير، عن إسحاق بن الفرات، عن يحيى بن أيوب، عن يزيد بن أبي حبيب به مع ذكر زيادة انفرد بذكرها، وهي: قوله: " وأمرت أم حبيبة بنت أبي سفيان بكبش فشوي، وبعثت به إلى عائشة فقالت: هكذا شوي أخوك. قال: فلم تأكل عائشة شواء حتى لحقت بالله).
وهذا الإسناد مع كونه مرسلًا فإن فيه زيد بن أبي زيد ترجم له الخطيب البغدادي (٨/ ٤٤٧)، ولم يذكر فيه جرحا، ولاتعديلا. فهو مجهول. ثم زاد بعضهم أن أم حبيبة بعثت لعائشة بهذا الخبر فقالت لها عائشة: يا ابنة العاهرة. وهذه الزيادة لا وجود لها في أثر مسند قط وإنما هي من زيادات بعض الكذبة.

الرواية الثالثة: عن عبد الملك بن نوفل، عن أبيه قال: ما أكلت عائشة شواء بعد محمد حتى لحقت بالله[٢].

الرواية الرابعة: عن شيخ من أهل المدينة قال في سياق القصة: ووثب أخوه عبد الرحمن ابن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جنده فقال: أتقتل أخي صبرًا، ابعث إلى معاوية بن حديج فانهه، فبعث إليه عمرو بن العاص يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر، فقال معاوية: أكذاك قتلتم كنانة بن بشر، وأخلي أنا عن محمد بن أبي بكر؟ هيهات أكفارُكم خيرٌ من أولئكم أم لكم براءةٌ في الزبر؟ فقال لهم محمدٌ: اسقوني من الماء، قال له معاوية بن حديج: لا سقاه الله إن سقاك قطرةً أبدًا، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائمًا مُحرِمًا فتلقاه الله بالرحيق المختوم. والله لأقتلنك يابن أبي بكر فيسقيك الله الحميم والغساق، قال له محمد:

يا ابن اليهوديةِ النساجةِ ليس ذلك إليك، وإلى من ذكرتَ، إنما ذلك إلى الله ﷻ يسقي أولياءه، ويظميء أعداءه، أنت وضرباؤك ومن تولاه، أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا، قال له معاوية: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار، ثم أحرقه عليك بالنار، فقال له محمد: إن فعلتم بي ذلك فطالما فُعِلَ ذلك بأولياء الله، وإني لأرجو هذه النار التي تحرقني بها أن يجعلها الله علي بردًا وسلامًا كما جعلها على خليله إبراهيم، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمروذ وأوليائه، إن الله يحرقك، ومن ذكرته قبل، وإمامك -يعني معاوية- وهذا -وأشار إلى عمرو بن العاص- بنار تلظى عليكم كلما خبت زادها الله سعيرًا، قال له معاوية: إني إنما أقتلك بعثمان، قال له محمد: وما

---

(١) معضل. أخرجه الكندي في ولاة مصر (١/ ٨) من طريق الليث، عن عبد الكريم بن الحارث به.
وهذا إسناد معضل لأن عبد الكريم ثقة من السادسة. فلم يشهد ما جرى.

(٢) موضوع. أخرجها الكندي كذلك في ولاة مصر (١/ ٨) من طريق نصر بن مزاحم، عن أبي مخنف قال: حدثني عبد الملك بن نوفل، عن أبيه به. وإسناده تالف. فيه نصر بن مزاحم: رافضي جلد متروك الحديث. كما في لسان الميزان ت (٥٥١)، وشيخه أبو مخنف لوط بن يحيى: شيعي محترق هالك كما في اللسان ت (١٥٦٨) وت (١١١٦) وعبد الملك بن نوفل مجهول الحال، وقال الحافظ مقبول كما في التهذيب (٦/ ٣٧٩).

أنت، وعثمان؟ إن عثمان عمل بالجور، ونبذ حكم القرآن، وقد قال الله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون؛ فنقمنا ذلك عليه فقتلناه، وحسَّنْتَ أنت له ذلك ونظراؤك، فقد برأنا الله إن شاء الله من ذنبه، وأنت شريكه في إثمه، وعظم ذنبه، وجاعلك على مثاله، قال: فغضب معاوية فقدمه، فقتله، ثم ألقاه في جيفة حمار، ثم أحرقه بالنار. فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعًا شديدًا وقنتت عليه في دبر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو، ثم قبضت عيال محمد إليها، فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها. (١)

والجواب عن هذه الرواية من وجهين

الأول: أنها باطلة من جهة الإسناد.

الثاني: أنه قد صح عن عائشة في شأن معاوية بن حديج خلاف هذا.

وهو حديث عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيت عائشة أسألها عن شيءٍ فقالت ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم -ابن حديج - لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئًا؛ إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة. فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: **"اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به".** (٢)

الوجه الثاني: أن معاوية أمر بقتاله، ولم يأمر بقتله، ولكنه أحبه، وكذلك فعل أنصاره لاشتراكه في الخروج على عثمان.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وكتب عمرو بن العاص إلى محمد بن أبي بكر:

أما بعد: فتنح فإني لا أحب أن يصيبك مني ظَفَرٌ فإن الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد على خلافك، ورفض أمرك، وندموا على اتباعك فهم مسلموك، لو قد التقت حلقتا البطان

---

(١) موضوع. أخرجه الطبري (٣/ ١٣٢) فقال: قال أبو مخنف فحدثني محمد بن يوسف بن ثابت الأنصاري عن شيخ من أهل المدينة، وذكره مطولا وفيه أبو مخنف شيعي جلد لايقبل عنه مثل هذا والشيخ من أهل المدينة مجهول لايدرى من هو مع ظهور أهل البدع في ذلك الزمان.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٨)، وما بين المعقوفين من السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٤٣).

فاخرج منها فإني لك لمن الناصحين، والسلام. وبعث إليه عمرٌو أيضًا بكتاب معاوية إليه أما بعد: فإن غب البغي، والظلم عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا والتبعة الموبقة في الآخرة، وإنا لا نعلم أحدًا كان أشد خلافًا على عثمان منك حين تطعن بمشاقصك بين حشاشته وأوداجه، ثم إنك تظن أني عنك نائم، أو ناس ذلك لك حتى تأتي فتأمر على بلاد أنت بها جاري، وجل أهلها أنصاري، وقد بعثت إليك قومًا حناقا عليك يستسقون دمك، ويتقربون إلى الله بجهادك، وقد أعطوا الله عهدًا ليمثلن بك ولو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلك ما حذرتك، ولا أنذرتك، ولأحببت أن يقتلوك بظلمك، وقطيعتك، وعدوك على عثمان يوم تطعن بمشاقصك بين حشائشه وأوداجه، ولكن أكره أن أمثل بقرشي، ولن يسلمك الله من القصاص أبدًا أينما كنت، والسلام(١).

ولنفس هذا السبب قتله معاوية بن حديج لما ظفربه: فإنه لما هُزِمَ، وفر عنه أصحابه رجع يمشي، فرأى خربة فأوى إليها، ودخل عمرو بن العاص فسطاط مصر، وذهب معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر، فمر بعلوجٍ في الطريق، فقال لهم: هل مر بكم أحد تستنكرونه؟ قالوا: لا، فقال رجل منهم: إني رأيتُ رجلًا جالسًا في هذه الخربة، فقال: هو هو وربِّ الكعبةِ، فدخلوا عليه فاستخرجوه منها -وقد كاد يموت عطشًا- فانطلق أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص وكان قد قدم معه إلى مصر فقال: أَيُقتَلُ أخي صبرًا؟ فبعث عمرو بن العاص إلى معاوية بن حديج أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر، ولا يقتله، فقال معاوية: كلا والله، أيقتلون كنانةَ بنَ بشرٍ، وأترك محمد بن أبي بكر، وقد

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣١٥)، وأخرجه الطبري (٣/ ١٢٨) وما بعدها فقال: قال أبو مخنف حدثني أبو جهضم الأزدي رجل من أهل الشأم عن عبدالله بن حوالة الأزدي به مطولا، وفي المتن زيادات منكرة وشتائم من علي مثل قوله لمعاوية الفاجر بن الفاجر وكذا لعمرو ولعلها من زيادات أبي مخنف، وقد حذفها ابن كثير في البداية والنهاية؛ لأن أمثال هذه الكلمات تتنافى مع أخلاق الصحابة ﷺ وعلى فرض صحة ذلك فقد جرى بينهم ما هو أكبر وهو سفك الدماء وتلك فتنة طهر الله منها أيدينا فنعوذ بالله أن تخوض فيها ألسنتا.

كان ممن قتل عثمان، وقد سألهم عثمان الماء، وقد سألهم محمد بن أبي بكر أن يسقوه شربة من الماء، فقال معاوية: لا سقاني الله إن سقيتك قطرةً من الماء أبدًا؛ إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائمًا محرمًا، فتلقاه الله بالرحيق المختوم. (١)

ففي هذه الرواية فائدتان هامتان:

الأولى: أن معاوية وعده بالقصاص لأنه يرى أنه من قتلة عثمان، وأن معاوية بن حديج قتله وأجهز عليه لنفس السبب.

الثانية: أن عمرًا بعث لمعاوية بن حديج أن لا يقتل محمد بن أبي بكر، وأن يبعث به إليه، ولكنه قتله. وبهذا يبرأ معاوية بن أبي سفيان من تهمة قتله لمحمد بن أبي بكر.

الوجه الثالث: أن الذي قتله، وأحرقه بالنار في هذه الروايات معاوية بن حديج وليس معاوية ابن أبي سفيان، وهذا خطأ لا يقره الدين الإسلامي -لو صح- ولكنه لايصح؛ لعدم ثبوت الإسناد كما سبق، ولورود ما هو أقوى مما يخالفه، وهو:

الوجه الرابع: عن عمرو بن دينار قال: أتي عمرو بن العاص بمحمد بن أبي بكر أسيرًا فقال: هل معك عهد؟ هل معك عقد من أحد؟ قال: لا فأمر به فقتل. (٢)

الوجه الخامس: أن هذا القتل وقع أثناء الحرب التي كانت بين فريقين من المسلمين وهذا أمر قدره الله تعالى وقد كان كل من الفريقين مجتهدًا متأولًا وقد سبق بيان ذلك والله أعلم.

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣١٥). وأخرجه الطبري فقال: قال أبو مخنف فحدثني محمد بن يوسف بن ثابت الأنصاري عن شيخ من أهل المدينة به مطولا وفيه زيادات منكرة أيضا وقد حذفها ابن كثير -رحمه الله- مما يؤيد أن علماء التاريخ المنصفين يثبتون من كلام هؤلاء المؤرخين المتهمين في دينهم كأبي مخنف ما يناسب التاريخ، وأما ما يتصل بالدين فلا يقبلونه حتى لو جاء في ثنايا القصص التاريخي، والله أعلم.

(٢) أخرجه خليفة في التاريخ (١/ ٤٥)، فقال: حدثنا غندر قال: ثنا شعبة عن عمرو بن دينار به، وهذا صحيح، ولكنه مرسل عمرو بن دينار ثقة ثبت من الرابعة ولد في إمرة معاوية سنة خمس أو ست وأربعين. مات سنة ست، وعشرين ومائة كما في سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٠٠)، والتقريب ت (٥٠٢٤)، ولا يعارض ما روته عائشة من قتل بن حديج لأخيها لجواز أن يأمر عمرو بن العاص بقتله فيقتله معاوية بن حديج.

وخلاصة الجواب عن هذه الشبهة أن معاوية بن أبي سفيان لم يقتل محمد بن أبي بكر، ولم يُمَثِّل به، وإنما قتله من قتله لأنه كان متهمًا عنده بدم عثمان، وقد قامت كل هذه الحروب لأجل القصاص من قتلة عثمان فلذلك قتلوه، وما نُسِبَ إلى عائشة كذب بيِّن.

الشبهة الثالثة: قتل معاوية لحُجْر بن عدي.

وذكروا فيه أن معاوية أمر بسب علي ﷺ على المنابر، واعترض على ذلك حُجْرُ بن عدي، ولم يسب عليًّا، وأن حجر بن عدي أنكر على زياد بن أبيه إطالة الخطبة فبعث به إلى معاوية فقتله لهذين الأمرين.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: بطلان أمر معاوية بسب علي على المنابر الذي جعلوه سببًا لاعتراض حجر بن عدي.

وذلك عن طريق إيراد هذه الرواية بطولها؛ ليبدوَ ما في متنها من التعارض والنكارة، ثم الحكم عليها من جهة الإسناد.

عن أبي مخنفٍ قال: حدثنا خالد بن قطن، عن المجالد بن سعيد الهمداني، والصقعب بن زهير، وفضيل بن خديج، والحسن بن عقبة المرادي، وقد قال كلٌّ: قد حدثني بعضَ هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث حجر بن عدي الكندي وأصحابه.

بداية القصة: إن معاوية بن أبي سفيان لما ولَّى المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة إحدى وأربعين دعاه فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإني قد أردت إيصاءك بأشياء كثيرةٍ فأنا تاركها اعتمادًا على بصرك بما يرضيني، ويسعد سلطاني ويصلح به رعيتي، ولست تاركًا إيصاءك بخصلة: لا تتحم عن شتم علي وذمه، والترحم على عثمان، والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي، والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان -رضوان الله عليه- والإدناء لهم، والاستماع منهم، فقال المغيرة: قد جربت وجربت وعملت قبلك لغيرك فلم يذمم بي دفع، ولا رفع، ولا وضع فستبلوا فتحمد أو تذم، قال: بل نحمد إن شاء الله.

استنكاره ذم علي بن أبي طالب ﷺ ولعنه: أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة كان يقوم على المنبر فيذم علي بن أبي طالب وشيعته، وينال منهم، ويلعن قتلة عثمان، ويستغفر لعثمان ويزكيه، فيقوم حجر بن عدي فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (النساء: ١٣٥)، وإني أشهد أن من تذمون أحق بالفضل ممن تطرون، ومن تزكون أحق بالذم ممن تعيبون. (١)

والمغيرة بن شعبة يحذره، فيقول له المغيرة: يا حجر، ويحك! اكفف من هذا، واتق غضبة السلطان وسطوته؛ فإنها كثيرًا ما تقتل مثلك، ثم يكف عنه.

فلم يزل كذلك حتى كان المغيرة يومًا في آخر أيامه يخطب على المنبر، فنال من علي بن أبي طالب ولعنه، ولعن شيعته(٢)، فوثب حجر فنعر نعرة أسمعت كل من كان في المسجد وخارجه، فقال له: إنك لا تدري أيها الإنسان بمن تولع، أو هرمت! مر لنا بأعطياتنا وأرزاقنا؛ فإنك قد حبستها عنا، ولم يكن ذلك لك ولا لمن كان قبلك، وقد أصبحت مولَعًا بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين، استجابةً لصرخة الثائر. فقام معه أكثر من ثلاثين رجلًا يقولون: صدق والله حجر! مر لنا بأعطياتنا؛ فإنا لا ننتفع بقولك هذا، ولا يجدي علينا، وأكثروا في ذلك.

---

(١) وهذا على فرض صحته وهو لا يصح فموقف حجر بن عدي بعيد كل البعد عن القسط الذي ذكره الله تعالى في الآية لأنه يثبت لعثمان ما يبرأ منه علي من اللعن والسب والطعن وهل هذا هو القسط وهل يرضى علي بذلك؟! أم أن القسط هو أن يدافع عن علي مع الاعتراف بسابقة عثمان وفضله؟ وهكذا الرواية حتى آخرها يصرح بسب حجر لعثمان مع أن القول الصحيح الذي لا يجوز خلافه - وقد انعقد عليه إجماع أهل السنة بعد خلافهم-: هو أن عثمان أفضل من علي وقد ذكرت هذا سابقًا في فصل فتنة مقتل عثمان وما ترتب عليها.

(٢) وهذا من الكذب الصراح على المغيرة بن شعبة وهو من صنعة أبي الفرج الأصفهاني، فهذا سياق روايته، وأما الطبري فهذا نصه في هذا الموضع: فلم يزل حتى كان في آخر إمارته قام المغيرة فقال في علي، وعثمان كما كان يقول، وكانت مقالته: اللهم ارحم عثمان بن عفان، وتجاوز عنه، وأجزه بأحسن عمله فإنه عمل بكتابك، واتبع سنة نبيك ﷺ، وجمع كلمتنا، وحقن دماءنا، وقتل مظلوما، اللهم فارحم أنصاره، وأولياءه، ومحبيه، والطالبين بدمه، ويدعو على قتلته، فقام حجر بن عدي فنعر نعرة بالمغيرة سمعها كل من كان في المسجد وخارجًا منه وقال. . . إلخ وليس فيه ما ذكره أبو الفرج، والرواية هي هي في تاريخ الطبري (٣/ ٢١٩).

وأخذ قوم المغيرة يلومونه في احتماله إياه فنزل المغيرة ودخل القصر، فاستأذن عليه قومه، ودخلوا ولاموه في احتماله حجرًا، فقال لهم: إني قد قتلته. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: إنه سيأتي أميرٌ بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهًا بما ترونه، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة. إنه قد اقترب أجلي، وضعف عملي، وما أحب أن أبتدىء أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم، فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز معاوية في الدنيا ويذل المغيرة في الآخرة، سيذكرونني لو قد جربوا العمال.

قال عثمان بن عقبة: فسمعت شيخًا من الحي يقول: قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم، أحمدهم للبريء، وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر، ثم هلك المغيرة سنة خمسين، فجمعت الكوفة والبصرة لزياد، فدخلها، ووجه إلى حجر فجاءه، وكان له قبل ذلك صديقًا، فقال له: قد بلغني ما كنت تفعله بالمغيرة فيحتمله منك؛ وإني والله لا أحتملك على مثل ذلك أبدًا، أرأيت ما كنت تعرفني به من حب علي ووده، فإن الله قد سلخه من صدري فصيره بغضًا وعداوةً، وما كنت تعرفني به من بغض معاوية وعداوته فإن الله قد سلخه من صدري وحوله حبًا ومودةً[1]، وإني أخوك الذي تعهد، إذا أتيتني وأنا جالس للناس فاجلس معي على مجلسي، وإذا أتيت ولم أجلس للناس فاجلس حتى أخرج إليك، ولك عندي في كل يوم حاجتان: حاجة غدوة، وحاجة عشية، إنك إن تستقم تسلم لك دنياك ودينك، وإن تأخذ يمينًا وشمالًا تهلك نفسك وتشط عندي دمك، إني لا أحب التنكيل قبل التقدمة، ولا آخذ بغير حجة، اللهم اشهد. فقال حجر: لن يرى الأمير مني

---

(١) وعند الطبري في هذا الموضع زيادة وهي أن زيادا لما قدم البصرة صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فإنا قد جربنا، وجربنا وسسنا، وساسنا السائسون فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله بالطاعة اللينة المشبه سرها بعلانيتها، وغيب أهلها بشاهدهم، وقلوبهم بألسنتهم، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا لين في غير ضعف وشدة في غير عنف، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله، والناس أكبر من كذبة إمام على المنبر ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرظهم وذكر قتلته ولعنهم فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة اهـ

إلا ما يحب، وقد نصح، وأنا قابل نصيحته[١].

ثم خرج من عنده، فكان يتقيه ويهابه، وكان زياد يدنيه ويكرمه ويفضله، والشيعة تختلف إلى حجر وتسمع منه زياد ينذره قبل خروجه إلى البصرة، وكان زياد يشتو بالبصرة، ويصيف بالكوفة، ويستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وعلى الكوفة عمرو بن حريث، فقال له عمارة بن عقبة: إن الشيعة تختلف إلى حجر، وتسمع منه، ولا أراه عند خروجك إلا ثائرًا، فدعاه زياد فحذره ووعظه[٢]، وخرج إلى البصرة، واستعمل عمرو بن حريث، فجعلت الشيعة تختلف إلى حجر، ويجيء حتى يجلس في المسجد فتجتمع إليه الشيعة، حتى يأخذوا ثلث المسجد أو نصفه، وتطيف بهم النظارة، ثم يمتلىء المسجد، ثم كثروا، وكثر لغطهم، وارتفعت أصواتهم بذم معاوية وشتمه ونقص زياد[٣]. وبلغ ذلك عمرو بن حريث، فصعِد المنبر، واجتمع إليه أشراف أهل المصر فحثهم على الطاعة، والجماعة، وحذرهم الخلاف، فوثب إليه عنقٌ من أصحاب حجر يكبرون، ويشتمون، حتى دنوا منه، فحصبوه وشتموه حتى نزل، ودخل القصر، وأغلق عليه بابه وكتب إلى زيادٍ بالخبر، فلما أتاه أنشد يتمثل بقول كعب بن مالك:

فلما غدوا بالعرض قال سراتنا   علام إذا لم نمنع العرض نزرع

ما أنا بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر، وأدعه نكالًا لمن بعده، ويل أمك حجر! لقد سقط بك العشاء على سرحان.

ثم أقبل حتى أتى الكوفة، فدخل القصر، ثم خرج وعليه قباء سندس، ومطرف خز أخضر، وحجر جالس في المسجد، وحوله أصحابه ما كانوا.

---

(١) لماذا قال له حجر هذه الإجابة مع أنه صرح له ببغض علي هل كان حجر في هذه اللحظة فقط على اعتقاد الشيعة في التقية

(٢) وهذا من زياد شئ حسن يحسب له في هذه الرواية

(٣) وهذا بدوره تفريق للكلمة ودعوة للخروج على حاكم المسلمين فلماذا يقوم حجر بهذا الدور؟ هل هو أعلم بما يصلح الأمر من الحسين بن علي رضي الله عنهما وقد أثنى عليه النبي ﷺ بهذا الصلح الذي قام به.

(فصعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فإن غِبَّ البغي والغي وخيمٌ، إن هؤلاء جموا فأشروا، وأمنوني فاجترؤوا علي، وأيم الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم، وقال: ما أنا بشيءٍ إن لم أمنع باحة الكوفة من حجر، وأدعه نكالًا لمن بعده، ويل أمك يا حجر! سقط العشاء بك على سرحان، ثم قال:

أبلغ نصيحة أن راعي إبلها سقط العشاء به على سرحان(١)

دعوة ذهاب لحجر، ورفض أصحابه أن يذهب ثم القبض عليه، وما جرى في ذلك من سفك للدماء.

ثم قال لشداد بن الهيثم الهلالي أمير الشرط: اذهب فائتني بحجر، فذهب إليه فدعاه، فقال أصحابه: لا يأتيه، ولا كرامة. قال: فرجعت إليه فأخبرته، فأمر صاحب الشرطة أن يبعث معي رجالًا قال: فبعث نفرًا، قال: فأتيناه، فقلنا: أجب الأمير، قال: فسبُّونا، وشتمونا، فرجعنا إليه، فأخبرناه الخبر، قال: فوثب زيادٌ بأشراف أهل الكوفة، فقال: يا

---

(١) ما بين القوسين زيادة من تاريخ الطبري. ثم ذكر الطبري سببا آخر لقتل حجر واختلافه مع زياد فقال: وأما غير عوانة فإنه قال في سبب أمر حجر ما حدثني علي بن حسن، قال: حدثنا مسلم الجرمي، قال: حدثنا مخلد بن الحسن، عن هشام، عن محمد بن سيرين، قال: خطب زياد يومًا في الجمعة فأطال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر بن عدي: الصلاةَ فمضى في خطبته، ثم قال: الصلاة، فمضى في خطبته، فلما خشي حجرٌ فوت الصلاة ضرب بيده إلى كفٍّ من الحصا، وثار إلى الصلاة وثار الناس معه، فلما رأى ذلك زيادٌ نزل فصلى بالناس، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في أمره، وكثر عليه فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم احمله إلي، فلما أن جاء كتاب معاوية أراد قوم حجرٍ أن يمنعوه، فقال: لا ولكن سمعٌ وطاعةٌ، فشُدَّ في الحديد، ثم حُمِلَ إلى معاويةَ، فلما دخل عليه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال له معاوية: أمير المؤمنين! أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك، أخرجوه فاضربوا عنقه، فأخرج من عنده، فقال حجر للذين يلون أمره: دعوني حتى أصلي ركعتين، فقالوا: صلِّ، فصلى ركعتين خفف فيهما، ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خيرٌ فما في هاتين خيرٌ، ثم قال لمن حضره من أهله: لا تطلقوا عني حديدا، ولا تغسلوا عني دمًا؛ فإني ألاقي معاوية غدًا على الجادة، ثم قُدِّمَ فضُرِبَتْ عنقه.

قال مخلد: قال هشام: كان محمدٌ إذا سُئِلَ عن الشهيد يُغَسَّلُ؟ حدثهم حديث حجر.

قال محمد: فلَقِيَتْ عائشةُ أم المؤمنين معاوية -قال مخلد: أظنه بمكة- فقالت: يا معاويةُ، أين كان حلمُك عن حجر؟ فقال لها: يا أم المؤمنين، لم يحضرني رشيد. قال ابن سيرين: فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل. اهـ

أهل الكوفة، أتشجون بيد، وتأسون بأخرى، أبدانُكم معي، وأهواؤكم مع حجرٍ هذا الهجهاجة الأحمق المذبوب! أنتم معي، وإخوانكم، وأبناؤكم، وعشائركم مع حجر! هذا والله من دحسكم وغشكم، والله لتظهرَن لي براءتُكم أو لآتينكم بقومٍ أقيم بهم أودكم، وصعركم، فوثبوا إلى زياد فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيها ها هنا رأيٌ إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظننا أن فيه رضاك، وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به، قال: فليقم كل امرئ منكم إلى هذه الجماعة التي حول حجر، فليدع الرجل أخاه، وابنه، وذا قرابته، ومن يطيعه من عشيرته حتى تقيموا عنه كل من استطعتم، ففعلوا وجعلوا يقيمون عنه أصحابه حتى تفرق أكثرهم وبقي أقلهم.

فلما رأى زيادٌ خفة أصحابه قال لصاحب شرطته: اذهب فائتني بحُجر، فإن تبعك وإلا فمر من معك أن ينتزعوا عُمُدَ السوق، ثم يشدوا عليه حتى يأتوا به، ويضربوا مَنْ حَالَ دونه، فلما أتاه شدادٌ قال له: أجب الأمير، فقال أصحاب حجر: لا والله ولا نعمة عين، لا يجيبه. فقال لأصحابه: شدوا على عمد السوق. فاشتدوا إليها، فأقبلوا بها قد انتزعوها، فقال عمير بن زيد الكلبي أبو العمرطة: إنه ليس معك رجل معه سيف غيري، فما يغني سيفي! قال: فما ترى؟ قال: قم من هذا المكان، فالحق بأهلك يمنعك قومك.

فقام زياد ينظر على المنبر إليهم فغشوا حجرًا بالعمد، فضرب رجل من الحمراء يقال له: بكر بن عبيد رأس عمرو بن الحمق بعمود فوقع.

وأتاه أبو سفيان بن العويمر والعجلان بن ربيعة - وهما رجلان من الأزد - فحملاه، فأتيا به دار رجل من الأزد يقال له: عبيد الله بن موعد، فلم يزل بها متواريًا حتى خرج منها.

وأمر زياد بعض القبائل أن يأتوه به، قال: فقال زياد - وهو على المنبر - لتقم همدان، وتميم، وهوازن، وأبناء بغيض، ومذحج، وأسد، وغطفان، فليأتوا جبانة كندة، وليمضوا من ثم إلى حجر، فليأتوني به. ثم كره أن تسير مضر مع اليمن، فيقع شغب واختلاف، أو تنشب الحمية فيما بينهم. فقال: لتقم تميم، وهوازن، وأبناء بغيض، وأسد، وغطفان، ولتمض مذحج

وهمدان إلى جبانة كندة، ثم ليمضوا إلى حجر فليأتوني به، وليسر أهل اليمن حتى ينزلوا جبانة الصيداويين، وليمضوا إلى صاحبهم فليأتوني به، فخرجت الأزد وخثعم والأنصار وقضاعة وخزاعة، فنزلوا جبانة الصيداويين، ولم تخرج حضرموت مع اليمن لمكانهم من كندة.

قال أبو مخنف: فحدثني سعيد بن يحيى بن مخنف، عن محمد بن مخنف، قال: فإني لَمَعَ أهل اليمن وهم يتشاورون في أمر حُجر، فقال لهم عبد الرحمن بن مخنف: أنا مشير عليكم برأي، فإن قبلتموه رجوت أن تَسلَموا من اللائمة والإثم: أن تلبثوا قليلًا حتى تكفيكم عجلة في شباب مذحج وهمدان ما تكرهون أن يكون من مساءة قومكم في صاحبكم.

فأجمع رأيهم على ذلك، فلا والله ما كان إلا كلًا، ولا حتى أتينا فقيل لنا: إن شباب مذحج وهمدان قد دخلوا، فأخذوا كل ما وجدوا في بني بجيلة.

قال: فمر أهل اليمن على نواحي دور كندة معتذرين، فبلغ ذلك زيادًا، فأثنى على مذحج وهمدان، وذم أهل اليمن. فلما انتهى حجر إلى داره ورأى قلة من معه قال لأصحابه: انصرفوا، فوالله ما لكم طاقة بمن اجتمع عليكم من قومكم، وما أحب أن أعرضكم للهلاك. فذهبوا لينصرفوا، فلحقتهم أوائل خيل مذحج وهمدان، فعطف عليهم عمير بن يزيد، وقيس بن يزيد، وعبيدة بن عمرو، وجماعة، فتقاتلوا معهم، فقاتلوا عنه ساعة فجرحوا، وأسر قيس بن يزيد، وأفلت سائر القوم، فقال لهم حجر: لا أبا لكم! تفرقوا لا تقتلوا؛ فإني آخذ في بعض هذه الطرق. ثم أخذ نحو طريق بني حرب من كندة، حتى أتى دار رجل منهم يقال له: سليمان بن يزيد، فدخل داره، وجاء القوم في طلبه، ثم انتهوا إلى تلك الدار، فأخذ سليمان بن يزيد سيفه، ثم ذهب ليخرج إليهم، فبكت بناته، فقال له حجر: ما تريد؟ لا أبا لك! فقال له: أريد والله أن ينصرفوا عنك؛ فإن فعلوا وإلا ضاربتهم بسيفي هذا ما ثبت قائمه في يدي دونك. فقال له حجر: بئس والله إذن ما دخلت به على بناتك! أما في دارك هذه حائط أقتحمه أو خوخة أخرج منها، عسى الله أن يسلمني منهم ويسلمك؛ فإن القوم إن لم يقدروا عليَّ في دارك لم يضرك أمرهم. قال: بلى، هذه خوخة تخرجك إلى دور بني العنبر من كندة، فخرج معه فتية من

الحي يقصون له الطريق، ويسلكون به الأزقة، حتى أفضى إلى النخع، فقال عند ذلك: انصرفوا، رحمكم الله. فانصرفوا عنه، وأقبل إلى دار عبد الله بن الحارث أخي الأشتر، فدخلها، فإنه لكذلك قد ألقى له عبد الله الفرش، وبسط له البسط، وتلقاه ببسط الوجه وحسن البشر إذ أتي فقيل له: إن الشرط تسأل عنك في النخع وذلك أن أمة سوداء يقال لها: أدماء لقيتهم، فقالت لهم: من تطلبون؟ قالوا: نطلب حجرًا، فقالت: هو ذا قد رأيته في النخع، فانصرفوا نحو النخع؛ فخرج متنكرًا، وركب معه عبد الله ليلًا حتى أتى دار ربيعة بن ناجذ الأزدي، فنزل بها، فمكث يومًا وليلة. فلما أعجزهم أن يقدروا عليه دعا زياد محمد بن الأشعث، فقال: أما والله لتأتيني بحجر أولا أدع لك نخلة إلا قطعتها، ولا دارًا إلا هدمتها، ثم لا تسلم مني بذلك حتى أقطعك إربًا إربًا. فقال له: أمهلني أطلبه. قال: قد أمهلتك ثلاثًا، فإن جئت به وإلا فاعدد نفسك من الهلكى. وأخرج محمد نحو السجن وهو منتقع اللون يتل تلًا عنيفًا، فقال حجر بن يزيد الكندي من بني مرة لزياد: ضمنيه وخل سبيله ليطلب صاحبه، فإنه مخلى سربه أحرى أن يقدر عليه منه إذا كان محبوسًا. قال: أتضمنه لي؟ قال: نعم. قال: أما والله لئن حاص عنك لأوردنك شعوب، وإن كنت الآن عليَّ كريمًا. قال: إنه لا يفعل. فخلى سبيله.

ثم إن حجر بن يزيد كلمه في قيس بن يزيد، وقد أتي به أسيرًا، فقال: ما عليه من بأس، قد عرفنا رأيه في عثمان ﷺ، وبلاءه مع أمير المؤمنين بصفين، ثم أرسل إليه فأتي به، فقال: قد علمت أنك لم تقاتل مع حجر أنك ترى رأيه، ولكن قاتلت معه حمية، وقد غفرنا لك لما نعلمه من حسن رأيك، ولكن لا أدعك حتى تأتيني بأخيك عمير. قال: آتيك به إن شاء الله. قال: هات من يضمنه معك. قال: هذا حجر بن يزيد. قال حجر: نعم، على أن تؤمنه على ماله ودمه. قال: ذلك لك.

فانطلقا فأتيا به، فأمر به فأوقر حديدًا، ثم أخذته الرجال ترفعه، حتى إذا بلغ سررها ألقوه، فوقع على الأرض، ثم رفعوه فألقوه، ففعل به ذلك مرارًا، فقام إليه حجر بن يزيد، فقال: أو لم تؤمنه؟ قال: بلى، لست أهريق له دمًا، ولا آخذ له مالًا. فقال: هذا يشفي به

على الموت، وقام كل من كان عنده من أهل اليمن، فكلموه فيه، فقال: أتضمنونه لي بنفسه متى أحدث حدثًا أتيتموني به؟ قالوا: نعم. فخلى سبيله.

ومكث حجر في منزل ربيعة بن ناجذ يومًا وليلة، ثم بعث إلى ابن الأشعث غلامًا يدعى رشيدًا من سبي أصبهان، فقال له: إنه قد بلغني ما استقبلك به هذا الجبار العنيد، فلا يهولنك شيء من أمره؛ فإني خارج إليك، فاجمع نفرًا من قومك، وادخل عليه، واسأله أن يؤمنني حتى يبعثني إلى معاوية، فيرى فيَّ رأيه. فخرج محمد إلى حجر بن يزيد، وجرير بن عبد الله، وعبد الله أخي الأشتر، فدخلوا إلى زياد فطلبوا إليه فيما سأله حجر، فأجاب، فبعثوا إليه رسولًا يعلمونه بذلك. فأقبل حتى دخل على زياد، فقال له: مرحبًا يا أبا عبد الرحمن، حرب في أيام الحرب، وحرب وقد سالم الناس! (على نفسها تجني براقش)، فقال له: ما خالعت طاعة، ولا فارقت جماعة، وإني لعلى بيعتي. فقال: هيهات يا حجر، أتشج بيد وتأسو بأخرى، وتريد إذا أمكننا الله منك أن ترضى! هيهات والله! فقال: ألم تؤمنني حتى آتي معاوية، فيرى فيَّ رأيه. قال: بلى، انطلقوا به إلى السجن. فلما مضي به قال: أما والله لولا أمانه ما برح حتى يلقط عصبه. فأخرج وعليه برنس في غداة باردة، فحبس عشر ليال، وزياد ما له عمل غير الطلب لرؤوس أصحاب حجر.

فخرج عمرو بن الحمق، ورفاعة بن شداد حتى نزلا المدائن، ثم ارتحلا حتى أتيا الموصل، فأتيا جبلًا فكمنا فيه، وبلغ عامل ذلك الرستاق - وهو رجل من همدان يقال له: عبيد الله بن أبي بلتعة - خبرهما، فسار إليهما في الخيل، ومعه أهل البلد، فلما انتهى إليهما خرجا، فأما عمرو فكان بطنه قد استسقى، فلم يكن عنده امتناع.

وأما رفاعة فكان شابًا قويًا فوثب على فرس له جواد، وقال لعمرو: أقاتل عنك. قال: وما ينفعني أن تقتل؟ انج بنفسك، فحمل عليهم، فأفرجوا له حتى أخرج فرسه، وخرجت الخيل في طلبه، وكان راميًا فلم يلحقه فارس إلا رماه، فجرحه أو عقره، فانصرفوا عنه؛ فأخذ عمرو بن الحمق، فسألوه: من أنت؟ فقال: من إن تركتموه كان أسلم

لكم، وإن قتلتموه كان أضر عليكم، فسألوه فأبى أن يخبرهم، فبعثوا به إلى عبد الرحمن بن عثمان، وهو ابن أم الحكم الثقفي، فلما رأى عمرًا عرفه.

فكتب إلى معاوية بخبره. فكتب إليه معاوية: إنه زعم أنه طعن عثمان تسع طعنات، وإنه لا يتعدى عليه، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان، فأخرج فطعن تسع طعنات، فمات في الأولى منهن أو في الثانية، وبعث برأسه إلى معاوية.

وجدَّ زياد في طلب أصحاب حجر وهم يهربون منه، ويأخذ من قدر عليه منهم، فجاء قيس بن عباد الشيباني إلى زياد، فقال له: إن امرءًا هنا يقال له: صيفي بن فسيل، من رؤوس أصحاب حجر، وهو أشد الناس عليك؛ فبعث إليه فأتي به، فقال له زياد: يا عدو الله، ما تقول في أبي تراب؟ فقال: ما أعرف أبا تراب، قال: ما أعرفك به! أما تعرف علي بن أبي طالب! قال: بلى، قال: فذاك أبو تراب، قال: كلا، فذاك أبو الحسن والحسين. فقال له صاحب الشرطة: أيقول لك الأمير هو أبو تراب وتقول أنت: لا! قال: أفإن كذب الأمير أردتَ أن أكذب وأشهدَ له بالباطل كما شهد! قال له زياد: وهذا أيضًا مع ذنبك، عليَّ بالعصي فأتي بها، فقال: ما قولك في علي! قال: أحسن قول أنا قائله في عبدٍ من عبيد الله، أقوله في أمير المؤمنين. قال: اضربوا عاتقه بالعصي حتى يلصق بالأرض، فضرب حتى لصق بالأرض. ثم قال: أقلعوا عنه، ما قولك فيه؟ قال: والله لو شرحتني بالمدي والمواسي ما زلت عما سمعت. قال: لتلعننه أو لأضربن عنقك. قال: إذًا والله تضربها قبل ذلك، فأسعد وتشقى إن شاء الله، قال: أوقروه حديدًا واطرحوه في السجن.

شهادة الشهود على حجر: وجمع زياد من أصحاب حجر بن عدي اثني عشر رجلًا في السجن، وبعث إلى رؤوس الأرباع فأشخصهم، فحضروا، وقال: اشهدوا على حجر بما رأيتموه، وهم عمرو بن حريث، وخالد بن عرفطة، وقيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة، وأبو بردة بن أبي موسى، فشهدوا أن حجرًا جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب

بالمصر، وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه، والبراءة من عدوه، وأهل حربه، وأن هؤلاء الذين معه رؤوس أصحابه، وعلى مثل رأيه.

فنظر زياد في الشهادة فقال: ما أظن هذه شهادة قاطعة، وأحب أن يكون الشهود أكثر من أربعة.

فكتب أبو بردة بن أبي موسى: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما شهد عليه أبو بردة بن أبي موسى لله رب العالمين، شهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة، وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله كفرة صلعاء).

فقال زياد: على مثل هذه الشهادة فاشهدوا، والله لأجهدن في قطع عنق الخائن الأحمق، فشهد رؤوس الأرباع الثلاثة الآخرون على مثل ذلك، ثم دعا الناس، فقال: اشهدوا على مثل ما شهد عليه رؤوس الأرباع. فقام عثمان بن شرحبيل التيمي أول الناس، فقال: اكتبوا اسمي. فقال زياد: ابدءوا بقريش، ثم اكتبوا اسم من نعرفه، ويعرفه أمير المؤمنين بالصحة والاستقامة. فشهد إسحاق، وموسى، وإسماعيل بنو طلحة بن عبيد الله، والمنذر بن الزبير، وعمارة بن عقبة، وعبد الرحمن بن هبار، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، وشهد عنان، ووائل بن حجر الحضرمي، وضرار بن هبيرة، وشداد بن المنذر أخو الحضين بن المنذر، وكان يدعى ابن بزيعة. فكتب شداد بن بزيعة، فقال: أما لهذا أب ينسب إليه، ألغوا هذا من الشهود. فقيل له: إنه أخو الحضين بن المنذر، فقال: انسبوه إلى أبيه، فنسب، فبلغ ذلك شدادًا، فقال: والهفاه على ابن الزانية؟ أو ليست أمه أعرف من أبيه؛ فوالله ما ينسب إلا إلى أمه سمية. وشهد حجار بن أبجر العجلي، وعمرو بن الحجاج، ولبيد بن عطارد، ومحمد بن عمير بن عطارد، وأسماء بن خارجة، وشمر بن ذي الجوشن، وزحر بن قيس الجعفي، وشبث بن ربعي، وسماك بن مخرمة الأسدي صاحب مسجد سماك، ودعا المختار بن أبي عبيد، وعروة بن المغيرة بن شعبة إلى الشهادة فراغا، وشهد سبعون رجلًا ودفع ذلك إلى وائل بن حجر وكثير بن شهاب يذهبان إلى معاوية بكتاب

زياد ومعهما جماعة من أصحاب حجر ودفع ذلك إلى وائل بن حجر، وكثير بن شهاب، وبعثهما عليهما وأمرهما أن يخرجوهم.

وكتب في الشهود شريح بن الحارث، وشريح بن هانيء. فأما شريح بن الحارث فقال: سألني عنه فقلت: أما إنه كان صوامًا قوامًا. وأما شريح بن هانيء فقال: بلغني أن شهادتي كتبت فأكذبته، ولمته.

وجاء وائل بن حجر وكثير بن شهاب فأخرجا القوم عشية، وسار معهم أصحاب الشرط حتى أخرجوهم، فلما انتهوا إلى جبانة عرزم نظر قبيصة بن ضبيعة العبسي إلى داره في جبانة عرزم، فإذا بناته مشرفات، فقال لوائل وكثير: أدنياني أوص أهلي، فأدنياه. فلما دنا منهن بكين، فسكت عنهن ساعة، ثم قال: اسكتن، فسكتن، فقال: اتقين الله واصبرن، فإني أرجو من ربي في وجهي هذا خيرًا: إحدى الحسنيين؛ إما الشهادة فنعم سعادة، وإما الانصراف إليكن في عافية؛ فإن الذي كان يرزقكن ويكفيني مؤنتكن هو الله تبارك وتعالى وهو حي لا يموت، وأرجو ألا يضيعكن، وأن يحفظني فيكن. ثم انصرف، فجعل قومه يدعون له بالعافية.

وجاء شريح بن هانيء بكتاب، فقال: بلغوا هذا عني أمير المؤمنين، فتحمله وائل بن حجر، ومضوا بهم حتى انتهوا إلى مرج عذراء، فحبسوا به وهم على أميال من دمشق، وهم: حجر بن عدي الكندي، والأرقم بن عبد الله الكندي، وشريك بن شداد الحضرمي، وصيفي بن فسيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي، وعاصم بن عوف البجلي، وورقاء بن سمي البجلي، وكدام بن حيان، وعبد الرحمن بن حسان العنزيان، ومحرز بن شهاب المنقري، وعبد الله بن جؤية التميمي، وأتبعهم زياد برجلين، وهما عتبة بن الأخنس السعدي، وسعيد بن نمران الهمداني الناعطي، فكانوا أربعة عشر. فبعث معاوية إلى وائل بن حجر، وكثير، فأدخلهما، وفض كتابهما، وقرأه على أهل الشام: (بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين، من زياد بن أبي سفيان: أما بعد، فإن الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء فأداله من عدوه، وكفاه مؤونة من بغى عليه، إن طواغيت الترابية السابة رأسهم حجر بن عدي،

خلعوا أمير المؤمنين، وفارقوا جماعة المسلمين، ونصبوا لنا حربًا فأطفأها الله عليهم، وأمكننا منهم، وقد دعوت خيار أهل المصر وأشرافهم وذوي النهى والدين، فشهدوا عليهم بما رأوا وعلموا، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين، وكتبت شهادة صلحاء أهل المصر وخيارهم في أسفل كتابي هذا".

فلما قرأ الكتاب قال: ما ترون في هؤلاء؟ فقال يزيد بن أسد البجلي: أرى أن تفرقهم في قرى الشام، فتكفيكهم طواغيتها، ودفع وائل كتاب شريح إليه، فقرأه وهو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله معاوية أمير المؤمنين، من شريح بن هانىء، أما بعد؛ فقد بلغني أن زيادًا كتب إليك بشهادتي على حجر، وإن شهادتي على حجر أنه ممن يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، حرام المال والدم، فإن شئت فاقتله، وإن شئت فدعه).

وكتب معاوية إلى زياد بحيرته في أمر حجر وأصحابه، وزياد يرد عليه بطلب عقابهم فقرأ كتابه على وائل، وقال: ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم. فحبس القوم بعد هذا، وكتب إلى زياد: (أما بعد؛ فقد فهمت ما اقتصصت من أمر حجر وأصحابه والشهادة عليهم، فأحيانًا أرى أن أقتلهم أفضل، وأحيانًا أرى أن العفو أفضل من قتلهم).

فكتب زيادٌ إليه مع يزيد بن حجية التيمي: قد عجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم مع شهادة أهل مصرهم عليهم، وهم أعلم بهم؛ فإن كانت لك حاجةٌ في هذا المصر فلا تردن حجرًا وأصحابه إليه.

فمر يزيد بحجر، وأصحابه فأخبرهم بما كتبه زياد، فقال له حجر: أبلغ أمير المؤمنين أنا على بيعته لا نقيلها، ولا نستقيلها، وإنما شهد علينا الأعداء والأظناء.

فقدم يزيد بن حجية على معاوية بالكتاب، وأخبره بقول حجر.

فقال معاوية: زياد أصدق عندنا من حجر. وكتب جرير بن عبد الله في أمر الرجلين اللذين من بجيلة، فوهبهما له وليزيد بن أسد، وطلب وائل بن حجر في الأرقم الكندي، فتركه

وطلب أبو الأعور في عتبة بن الأخنس فوهبه له، وطلب حمزة من مالك الهمداني في سعيد بن نمران فوهبه له، وطلب حبيب بن مسلمة في عبد الله بن جؤية التميمي فخلى سبيله.

فقام مالك بن هبيرة، فسأله في حجر فلم يشفعه؛ فغضب، وجلس في بيته. وبعث معاوية هدبة بن فياض القضاعي والحصين بن عبد الله الكلابي، وآخر معهما يقال له: أبو صريف البدري، فأتوهم عند المساء، فقال الخثعمي حين رأى الأعور: يُقتَل نصفنا وينجو نصفنا. فقال سعيد بن نمران: اللهم اجعلني ممن ينجو، وأنت عني راضٍ. فقال عبد الرحمن بن حسان العنزي: اللهم اجعلني ممن يكرم بهو أنهم وأنت عني راض، فطالما عرضت نفسي للقتل، فأبى الله إلا ما أراد.

فجاء رسول معاوية إليهم فإنه لمعهم إذ جاء رسول بتخلية ستة منهم وبقي ثمانية. فقال لهم رسول معاوية: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلتم هذا تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم، وأمير المؤمنين يزعم أن دماءكم قد حلت بشهادة أهل مصركم عليكم، غير أنه قد عفا عن ذلك فابرءوا من هذا الرجل يخل سبيلكم. قالوا: لسنا فاعلين؛ فأمر بقيودهم فحلت، وأتي بأكفانهم فقاموا الليل كله يصلون. فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء، قد رأيناكم البارحة أطلتم الصلاة، وأحسنتم الدعاء، فأخبرونا ما قولكم في عثمان، قالوا: هو أول من جار في الحكم، وعمل بغير الحق. فقالوا: أمير المؤمنين كان أعرف بكم. ثم قاموا إليهم وقالوا: تبرءون من هذا الرجل؟ قالوا: بل نتولاه، فأخذ كل رجل منهم رجلًا يقتله، فوقع قبيصة في يدي أبي صريف البدري، فقال له قبيصة: إن الشر بين قومي وقومك أمينٌ، أي آمِنٌ فليقتلني غيرُك، فقال: برَّتك رحم. فأخذ الحضرمي فقتله، وقتل القضاعي صاحبه، ثم قال لهم حجر: دعوني أصلي ركعتين، فإني والله ما توضأت قط إلا صليت، فقالوا له: صل، فصلى ثم انصرف، فقال: والله ما صليتُ صلاةً قط أقصر منها، ولولا أن يروا أن ما بي جزعٌ من الموت لأحببتُ أن أستكثر منها، ثم قال: **اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة قد شهدوا علينا، وإن أهل**

الشام يقتلوننا[١]، أما والله لئن قتلتمونا فإني أول فارسٍ من المسلمين سلك في واديها، وأول رجلٍ من المسلمين نبحته كلابها، فمشى إليه هدبةُ بنُ الفياض الأعورُ بالسيف، فأرعدت خصائله، فقال: كلا، زعمت أنك لا تجزع من الموت، فإنا ندعك، فابرأ من صاحبك. فقال: ما لي لا أجزع، وأنا أرى قبرًا محفورًا، وكفنًا منشورًا، وسيفًا مشهورًا، وإني والله إن جزعت لا أقول ما يسخط الرب، فقتله.

وأقبلوا يقتلونهم واحدًا واحدًا حتى قتلوا ستة نفرٍ، فقال عبد الرحمن بن حسان وكريم بن عفيف: ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين، فنحن نقول في هذا الرجل مثل مقالته. فبعثوا إلى معاوية فأخبروه، فبعث: ائتوني بهما، فالتفتا إلى حجر، فقال له العنزي: لا تبعد يا حجر، ولا يبعد مثواك؛ فنعم أخو الإسلام كنت، وقال الخثعمي نحو ذلك. ثم مضى بهما، فالتفت العنزي، فقال متمثلًا:

كفى بشفاة القبر بعدًا لهالك وبالموت قطاعًا لحبل القرائن

فلما دخل عليه الخثعمي قال له: الله مالله يا معاوية! إنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ومسئول عما أردت بقتلنا، وفيما سفكت دماءنا. فقال: ما تقول في علي؟ قال: أقول فيه قولك، أتبرأ من دين عليٍّ الذي كان يدين الله به! وقام شمر بن عبد الله الخثعمي فاستوهبه، فقال: هو لك، غير أني حابسه شهرًا، فحبسه، ثم أطلقه على ألا يدخل الكوفة ما دام له سلطان. فنزل الموصل، فكان ينتظر موت معاوية ليعود إلى الكوفة، فمات قبل معاوية بشهر.

وأقبل على عبد الرحمن بن حسان، فقال له: يا أخا ربيعة، ما تقول في علي؟ قال: أشهد أنه من الذاكرين الله كثيرًا والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والعافين عن الناس. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: هو أول من فتح أبواب الظلم، وأرتج أبواب الحق، قال: قتلتَ نفسك، قال: بل إياك قتلتُ، لا ربيعةَ بالوادي؛ يعني أنه ليس ثَمَّ أحد من قومه

(١) وهذا على فرض صحته فيه اعتذارٌ عن معاوية ﷺ فيما فعل؛ لأنه ما قتله إلا بعد شهادة أهل بلده عليه.

فيتكلم فيه، فبعث به معاوية إلى زياد، وكتب إليه: إن هذا شر من بعثتُ به، فعاقبه بالعقوبة التي هو أهلها واقتله شر قتلة، فلما قدم به على زياد بعث به إلى قس الناطف، فدفنه حيًا.

ذكر عدد من قتل: قال أبو مخنف عن رجاله: فكان من قتل منهم سبعة نفر: حجر بن عدي، وشريك بن شداد الحضرمي، وصيفي بن فسيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، ومحرز بن شهاب المنقري، وكدام بن حيان العنزي، وعاصم بن عوف البجلي، وورقاء بن سمي البجلي، وأرقم ابن عبد الله الكندي، وعتبة بن الأخنس السعدي من هوازن، وسعيد بن نمران الهمذاني.

وبعث معاوية إلى مالك بن هبيرة لما غضب بسبب حجر مائة ألف درهم، فرضي.

قال أبو مخنف: فحدثني ابن أبي زائدة، عن أبي إسحاق، قال: أدركت الناس يقولون: أول ذلك دخل الكوفة قتل حجر، ودعوة زياد، وقتل الحسين، قال: وجعل معاوية يقول عند موته: أي يوم لي من ابن الأدبر طويل! قال أبو مخنف: وحدثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق من بني عامر بن لؤي أن عائشة بعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حجر وأصحابه، فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ فقال: حين غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية فاحتملت.

قال: وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: لو لا أنا لم نغير شيئًا قط إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه لغيرنا قتل حجر، أما والله إن كان لمسلمًا ما علمته حاجًّا معتمرًا. (١)

---

(١) موضوع بهذا السياق. أخرجه أبو الفرج في الأغاني (٤/ ٤٢٠-٤٢٧)، والطبري في تاريخه (٣/ ٢١٨-٢٣٢) من طريق هشام بن محمد، عن أبي مخنف به مفصلًا مطولًا، وذكره ابن سعد في الطبقات من غير تصريح بإسناده قال: وذكر بعض رواة العلم (٦/ ٢١٨). وهذه القصة تدور على أبي مخنف واسمه لوط بن يحيى؛ قال أبو حاتم: متروك الحديث (الجرح والتعديل ٧/ ١٨٢) وقال ابن عدي: وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم لا أعلم له من الأحاديث المسندة ما أذكره وإنما له من الأخبار المكروه الذي لا أستحب ذكره. اهـ من الكامل لابن عدي (٦/ ٩٣)، وانظر: لسان الميزان (ت١٥٦٨). وأخرجه البلاذري فقال: وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي وأبو خيثمة قالا: حدثنا وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، حدثنا محمد بن الزبير الحنظلي به. وهو منكر وإسناده فيه محمد بن الزبير الحنظلي: متروك الرواية. وأخرجه ابن عساكر ١٢/ ٢١٥ من طريق محمد بن الزبير هذا بقريب من هذا اللفظ.

والجواب عن هذه الرواية الطويلة من وجوه:

الأول: أن إسنادها هالك؛ مدارها على أبي مخنف: متروك ورأس في التشيع، ولو كان صدوقًا لرُدَّ حديثه من أجل بدعته، فكيف وهو متروك.

الثاني: وعلى فرض الصحة، فبالنظر إلى متن القصة نلاحظ أمورًا.

منها: أن المغيرة بن شعبة لم يصرح بسب علي.

ومنها: أن الشعبي شهد له بحسن السيرة.

ومنها: أن المغيرة لما لعن قتلة عثمان وأثنى عليه قال حجر: إن من تثني أولى بالذم من تمدحه وهذا يعني أحد أمرين:

وروى ابن عساكر هذه القصة١٢/ ٢١٤ من طريق أبي معشر- مرسلًا. وهو ضعيف وفيه إعضال. وفي الإسناد إليه القاسم بن سالم ترجم له الخطيب ١٢/ ٤٤٩ ولم أر فيه جرحًا أو تعديلًا. فهو مجهول.

وقد ساق البلاذري في كتابه أنساب الأشراف جملة من الآثار في قتل حجر نسوق بعضها باختصار ففيها فوائد.

١- عن عوانة قال: جمع معاوية لزياد البصرة والكوفة، فأتى الكوفة فبعث إلى حجر فأجلسه معه على السرير، وقال: يا أبا عبد الرحمن، إن الأمر الذي كنا فيه مع علي كان باطلًا، وإنما الأمر ما نحن فيه الآن، فقال حجر: كلا والله يا أبا المغيرة، ولكن الدنيا استمالتك وأفسدتك، فالله المستعان. فقال زياد: يا أبا عبد الرحمن، هذا مقعدك، ولك في كل يوم عشر حوائج لا ترد عنها، واضبط لسانك وأمسك يدك، فوالله لئن أقطرت من دمك قطرةً لأستفرغنه كله، وأنت تعلم أني إذا قلت فعلت، فقال: لست من هذا في شيء. ضعيف جدًا. فيه هشام بن محمد بن السائب الكلبي رافضي متروك الرواية.

٢- وحدثني هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن شرحبيل بن مسلم، قال: لما أتي معاوية بحجر بن عدي وأصحابه حبسهم بمرج عذراء، فأوصى حجر فقال: ادفنوني وما أصاب الأرض من دمي، ولا تطلقوا حديدي، فأني سألقى معاوية غدًا؛ إني والله ما قتلت أحدًا، ولا أحدثت حدثًا، ولا آويت محدثًا.

٣- عن ابن أبي مليكة أن معاوية لما حج أتى باب عائشة -رحمها الله- يستأذن فلم تأذن له، فلم يزل بها ذكوان غلامها حتى أذنت له، فذكرت أمر حجر فقال: خشيت فتنةً فكان قتله خيرًا من حرب تهراق فيها الدماء وتستحل المحارم، فدعيني يفعل الله بي ما يشاء، فقالت: ندعك والله، ندعك والله. **وإسناده حسن.**

٤- حدثني عمرو بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد، قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: دخل معاوية على عائشة فقالت: ويحك فعلت وفعلت، وقتلت بعد ذلك حجرًا وأصحابه، أما خفت أن أقعد لك رجلًا يقتلك؟ قال: ما كنت لتفعلي فأنا في بيت أمان، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قيد الإسلام القتل"؛ كيف أنا في حوائجك وما بيني وبينك؟ قالت: صلح، قال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا. وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد جدعان.

الأول: أن يكون حُجرًا يعتقد أن عليًا هو الذي قتل عثمان، وهذا باطل.

الثاني: أن يكون حُجرٌ يعتقد أن عثمان أولى باللعن، والذم من الخوارج الذين قتلوه وهذا أيضًا باطل.

ومنها: اعتراض حجر على المغيرة في المسجد مما يخالف أصول النصيحة في الإسلام.

ومنها: تصريح حجر وأصحابه بلعن معاوية.

ومنها: أن زيادًا لما جاء، وصعد المنبر لم يصرح بسب علي ﷺ وإنما أثنى على عثمان ﷺ

ومنها: أن سلوك حجر في النهاية أدى إلى سفك الدماء، وإزهاق الأرواح ولو سكت عليه الخليفة لأدى إلى الخروج، وإحداث الفتنة التي تُضعِفُ الدولة.

ومنها: وأهم ما في هذا السياق أن معاوية لم يقتله إلا بشهادة الشهود الذين هم من أهل بلده.

ومنها: أن قول عائشة في حجر كان بحسب علمها فيه، ولم تكن من الكوفة، ولم تعلم ما قام به من الفتن والانقلابات.

ومنها: التعارض في كثير من فقرات القصة في سلوك حجر وأصحابه؛ مما يدل على اضطراب الرواية وعدم اتفاق رواتها على موقف واحد لحجر.

وهكذا وبالنظر في هذه القصة ترى في متنها من التعارض والتناقض ما ينطق بكذبها وتلفيقها، وأقل ما يقال في التعليق على سياق هذه القصة لو صح: لو كان حجرٌ كذلك فعلًا لكان يجب أن يقتل، ولكان قتله منقبة للأمير الذي قتله، ولكننا لا نقول بهذا في حجر ﷺ؛ لأن هذا السياق لا يصح.

الوجه الثالث: أن ما يمكن قبوله من هذه الروايات لا يوجد فيه شيءٌ من هذا التفصيل المزري بصحابة النبي ﷺ: ولكن الذي صح من هذا كله هو أن زيادًا كتب إلى معاوية في حجر وأصحابه فلما قدموا عليه قتلهم.[1]

١- عن ابن سيرين قال: أمر معاوية بقتل حجر بن عدي الكندي، فقال حجر: لا تحلوا عني قيدًا - أو قال: حديدًا - وكفنوني بدمي، وثيابي.[1]

---

(١) بمعناه من الاستيعاب ترجمة حجر بن عدي.

٢- وعن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: حجر بن عدي الكندي يكنى أبا عبد الرحمن كان قد وفد إلى النبي ﷺ وشهد القادسية، وشهد الجمل وصفين مع علي ﷺ، قتله معاوية بن أبي سفيان بمرج عذراء وكان له ابنان عبد الله وعبد الرحمن قتلهما مصعب بن الزبير صبرًا وقُتِل حجر سنة ثلاث وخمسين. (٢)

٣- وعن أبي إسحاق قال: رأيت حجر بن عدي حين أخذه معاوية وهو يقول: هذه بيعتي لا أقيلها ولا أستقيلها سماع الله والناس. (٣)

٤- وقال ابن عبد البر في الاستذكار(٤): وأما حجر بن عدي فقتله معاوية صبرًا بعث به إليه زياد بن أبي سفيان.

فإن قيل لماذا قتله معاوية وهو صحابي جليل، وهل أذنب لما امتنع من سب علي على المنابر؟ فالجواب من وجوه:

الوجه الأول: ما سبق بيانه من أن معاوية لم يقتل حجرًا لأنه امتنع عن سب عليّ، فهذا لايصح ولايعول عليه بحال، وأولى ما ذكر في سبب مقتل حجر بن عدي هو أن زيادًا أمير الكوفة من قبل معاوية قد خطب خطبة أطال فيها فنادى حجر بن عدي الصلاة فمضى زياد في الخطبة فما كان من حجر إلا أن حصبه هو وأصحابه فكتب زياد إلى معاوية ما كان من حجر وعدّ ذلك من الفساد في الأرض وقد كان حجر يفعل مثل ذلك مع من تولّى الكوفة قبل زياد، فأمر أن يسرح إليه فلما جيء به إليه أمر بقتله، وسبب تشدد معاوية في قتل حجر هو محاولة حجر البغي على الجماعة وشق عصا المسلمين واعتبره من السعي

---

(١) رجاله ثقات. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٢٧٣)، عن معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين به.
وأخرجه أيضًا: الحاكم (٣/ ٥٣٣) من طريق محمد بن أحمد بن بالويه، ثنا إبراهيم الحربي، ثنا مصعب بن عبد الله الزبيري به.

(٢) مستدرك الحاكم (٣/ ٥٣١) عن أبي بكر محمد بن أحمد بن بالويه، عن إبراهيم الحربي، عنه. ومصعب من الطبقة العاشرة وهذا قوله لم يسنده.

(٣) **إسناده حسن**. أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٣٤: ٣٥٦٩) من طريق محمد بن عبد الله الحضرمي، ثنا عبد الله بن الحكم بن أبي زياد القطواني، ثنا معاوية بن هشام، ثنا سفيان، عن أبي إسحاق به. وإسناده حسن فيه معاوية بن هشام صدوق له أوهام وقال أحمد بن حنبل: هو كثير الخطأ. اهـ تهذيب التهذيب (١٠/ ١٩٦).

(٤) الاستذكار (٥/ ١٢١).

بالفساد في الأرض، وخصوصًا في الكوفة التي خرج منها جزء من أصحاب الفتنة على عثمان، فإن كان عثمان سمح بشيء من التسامح في مثل هذا القبيل الذي انتهى بمقتله، وجرّ على الأمة عظائم الفتن حتى كلّفها ذلك من الدماء أنهارًا.

فإن معاوية أراد قطع دابر الفتنة من منبتها بقتل حجر وجميع الحكومات لا تعاقب على هذا الفعل الذي قام به حجر بأقل من القتل، وأما سعة صدر معاوية وحلمه فهو فيما إذا كان الخطأ في شخصه أما إذا كان حق الجماعة فلا ولاسيما في الكوفة التي أخرجت العدد الأكبر من أهل الفتنة الذين بغوا على عثمان بسبب مثل هذا التسامح فكبدا الأمة من دمائها وسمعتها ما كانت في غنى عنه لو أن هيبة الدولة حفظت بتأديب عدد قليل من أهل الرعونة والطيش في الوقت المناسب، وكما أن عائشة كانت تود لو أن معاوية شمل حجرا بسعة صدره إلا أن معاوية مع حلمه كان في مواقف الحكم يتبصر في عاقبة عثمان وما جر إلى تمادي الذين اجترءوا عليه.(١)

الوجه الثاني: أن معاوية إما م مجتهد، والأصل أن قتل الإمام بحق

قال ابن العربي: فإن قيل فقد قتل حجر بن عدي وهو من الصحابة مشهور بالخير صبرًا أسيرًا بقول زياد وبعثت إليه عائشة في أمره فوجدته قد فات بقتله، قلنا: قد علمنا قتل حجر كلنا واختلفنا، فقائل يقول: قتله ظلمًا، وقائل يقول: قتله حقًا.

فإن قيل: الأصل قتله ظلمًا إلا ما إذا ثبت عليه ما يوجب قتله، قلنا: الأصل أن قتل الإمام بالحق فمن ادعى أنه بالظلم فعليه الدليل، ولو كان ظلمًا محضًا لما بقي بيت إلا لعن فيه معاوية وهذه مدينة السلام دار خلافة بني العباس وبينهم وبين بني أمية ما لا يخفى على الناس، مكتوب على أبواب مساجدها خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم معاوية خال المؤمنين ﷺ.

---

(١) بمعناه من تعليق الخطيب على العواصم من القواصم (٢١٩).

ولكن حجرًا فيما يقال رأى من زياد أمورًا منكرة(١) فحصبه وخلعه وأراد أن يقيم الخلق للفتنة فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فسادًا، وقد كلمته عائشة في أمره حين حج فقال لها: (دعيني وحجرا حتى نلتقي عند الله) وأنتم معشر المسلمين أولى أن تدعوهما حتى يقفا بين يدي الله مع صاحبهما العدل الأمين المصطفى المكين وأنتم ودخولكم حيث لا تشعرونَ فما لكم لا تسمعون! (٢)

وعليه فقتل معاوية لحجر وأصحابه كان اجتهادًا رأى فيه معاوية ﷺ ارتكاب أخف الضررين بقتله حتى لا يكون داعي فتنة.

الوجه الثالث: إمامة معاوية باعتراف حجر نفسه ولم يصح لعنه له ولاخلعه.

وهناك شئ هام جدًّا، وهو أن حجرًا نفسه لم يخلع معاوية ولم يخرج عليه، وإنما كان اعتراضه على زياد، ولما قدم على معاويةَ سَلَّمَ عليه بالإمارة.

قال ابن عبد البر: ولما ولَّى معاويةُ زيادًا العراق وما وراءها وأظهر من الغلظة وسوء السيرة ما أظهر خلعه حجر ولم يخلع معاوية، وتابعه جماعةٌ من أصحاب عليٍّ وشيعته وحصبه يومًا في تأخير الصلاة هو وأصحابه فكتب فيه زياد إلى معاوية، فأمره أن يبعث به إليه فبعث إليه مع وائل بن حجر الحضرمي في اثني عشر رجلًا كلهم في الحديد فقتل معاوية منهم ستة واستحيا ستة، وكان حجر ممن قُتِلَ فبلغ ما صنع بهم زياد إلى عائشة أم المؤمنين فبعثت إلى معاوية عبد الرحمن فوجده قد قتل هو وخمسة من أصحابه فقال لمعاوية: أين عزب عنك حلم أبي سفيان في حجرٍ وأصحابه؟ ألا حبستهم في السجون وعرضتهم للطاعون؟ قال: حين غاب عني مثلك من قومي. فعاتبه في ذلك، فقال: فما أصنع؛ كتب إليَّ فيهم زيادٌ يشدد أمرهم، ويذكر أنهم سيفتقون عليَّ فتقًا لا يرقع؟ ثم قدم

---

(١) قال محب الدين الخطيب: كان زياد في خلافة علي واليًا من ولاته وكان حجر بن عدي من أولياء زياد وأنصاره، ولم يكن ينكر عليه شيئًا فلما صار من ولاة معاوية صار ينكر عليه مدفوعا بعاطفة التحزب والتشيع وكان حجر يفعل ذلك مع من تولى الكوفة لمعاوية قبل زياد فلمعاوية عذر إذا رأى أن حجرًا ممن سعى في الأرض فسادا. العواصم من القواصم (٢٢٠)

(٢) العواصم من القواصم (٢١٩).

معاوية المدينة فدخل على عائشة، فكان أول ما بدأته به قتل حجر في كلام طويل جرى بينهما ثم قال: فدعيني وحجرًا حتى نلتقي عند ربنا. (١)

الوجه الرابع: أن معاوية لم يقتلهم على الفور من غير تبين وشهود واستخارة.

أما قضاء معاوية ﷺ في حجر ﷺ وأصحابه فإنه لم يقتلهم على الفور، ولم يطلب منهم البراءة من علي ﷺ كما تزعم بعض الروايات، بل استخار الله سبحانه وتعالى فيهم، واستشار أهل مشورته، ثم كان حكمه فيهم أن قتل بعضهم، واستحيى بعضهم، والعمدة في ذلك ما يرويه صالح بن أحمد بن حنبل بإسناد حسن، قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة، قال: حدثنا ابن عياش، قال: حدثني شرحبيل بن مسلم، قال: لما بُعِث بحجر بن عدي بن الأدبر وأصحابه من العراق إلى معاوية بن أبي سفيان، استشار الناس في قتلهم، فمنهم المشير، ومنهم الساكت، فدخل معاوية منزله، فلما صلى الظهر قام في الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه، ثم جلس على منبره، فقام المنادي فنادى: أين عمرو بن الأسود العنسي؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا إنا بحصنٍ من الله حصينٍ لم نؤمر بتركه، وقولك يا أمير المؤمنين في أهل العراق ألا وأنت الراعي ونحن الرعية، ألا وأنت أعلمنا بدائهم، وأقدرنا على دوائهم، وإنما علينا أن نقول: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥)

فقال معاوية: أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم، ورمى بها ما بين عيني معاوية. ثم قام المنادي فنادى: أين أبو مسلم الخولاني؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد؛ فلا والله ما أبغضناك منذ أحببناك، ولا عصيناك منذ أطعناك، ولا فارقناك منذ جامعناك، ولا نكثنا بيعتنا منذ بايعناك، سيوفنا على عواتقنا، إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبناك، وإن سبقناك نظرناك. ثم جلس.

ثم قام المنادي فقال: أين عبد الله بن مِخْمَر الشرعبي؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وقولك يا أمير المؤمنين في هذه العصابة من أهل العراق؛ إن تعاقبهم فقد أصبت، وإن تعفو فقد أحسنت. فقام المنادي فنادى: أين عبد الله بن أسد القسري؟ فقام فحمد الله

---

(١) الاستيعاب (١/ ٩٧).

وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، رعيتك وولايتك وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا لأنفسهم العقوبة، وإن تعفو فإن العفو أقرب للتقوى، يا أمير المؤمنين، لا تطع فينا من كان غشومًا ظلومًا، بالليل نؤومًا، عن عمل الآخرة سؤومًا، يا أمير المؤمنين، إن الدنيا قد انخشعت أوتارها، ومالت بها عمادها وأحبها أصحابها، واقترب منها ميعادها. ثم جلس فقلت - القائل هو: إسماعيل بن عياش - لشرحبيل: فكيف صنع؟ قال: قتل بعضًا واستحيى بعضًا، وكان فيمن قتل حجر بن عدي بن الأدبر(١).

الوجه الخامس: أن معاوية خاف من تفريق جماعة المسلمين.

وقد علق ابن العربي على مقتل حجر بن عدي ﷺ فقال: وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فسادًا، وقد اعتمد معاوية ﷺ في قضائه على قوله ﷺ: "من أتاكم وأمركم جميعٌ على رجلٍ واحدٍ يريد أن يَشُقَّ عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه"، وقوله ﷺ: "إنه ستكون هَنَاتٌ، وهَنَاتٌ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميعٌ، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان" ومما يجدر التذكير به في هذا المقام أن معاوية ﷺ لم يكن ليقضي بقتل حجر بن عدي ﷺ لو أن حجرًا اقتصر في معارضته على الأقوال فقط ولم ينتقل إلى الأفعال.

الوجه السادس: وقفة هامة حول مواقف أهل العراق، ومعرفة الحسن لذلك، وبهذه المعرفة نجّاه الله منهم.

عن يزيد بن الأصم، قال: خرجتُ مع الحسن -يعني ابن علي رضي الله عنهما- وجاريةٌ تَحُتُّ شيئًا من الحِنَّاءِ عن أظفاره، فجاءتْهُ إِضْبارَةٌ من كُتُبٍ، فقال: يا جاريةُ هاتي المِخْضَب، فصبَّ عليه ماءً، وألقى الكُتُب في الماء، فلم يفتح منها شيئًا، ولم ينظر إليه، فقلتُ: يا أبا محمد! ممن هذه الكُتُب؟ قال: من أهل العراق، من قوم لا يرجعون إلى حقٍّ، ولا يقصرون عن باطل، أما إني لستُ أخشاهم على نفسي، ولكني أخشاهم على ذلك. وأشار إلى الحسين.(٢)

---

(١) انظر: الرواية في مسائل الإمام أحمد رواية ابنه صالح (٢/ ٣٢٨ - ٣٣١).

(٢) **حسن**. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٦٩١) عن ابن عُيينة، عن عُبيد الله بن عبد الله بن الأصم، عن عمه يزيد بن الأصم به. وسنده جيد على شرط مسلم، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤٣): ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن الحكم بن أبي زياد، وهو ثقة.

ومن هذا الخبر يتبيَّن أن الشيعة كانوا يَسْعَونَ للفتنة، ويُزَيِّنونَ الخروج للحسن ﷺ، وأنه كان يعلم منهم ذلك، ويَحْذَرُهم، ويخافُ منهم على أخيه الحُسين، وقد حصل ما كان يَخشاه، فقد أخرجوا الحُسينَ، ثم خَذَلوه وأَسْلَموه، فكانوا السبب المباشر لاستشهادِه ﷺ.

كذلك كان الأمر مع حُجْرٍ؛ فقد كانت الشيعة قد يَئِسَتْ من إخراج الحَسَن ﷺ، وكان وُجودُه كفيلًا برَدْع هؤلاء المُتربصين للخروج، فلما مات اجتمعوا على حُجْر، وصاروا يُحَرِّضونَه، وقالوا له: أنت شيخُنا، وأحقُّ الناس بإنكار هذا الأمر.

ومما يؤكِّدُ دور أولئك الشيعة في التحريض، وأنهم ما أرادوا بذلك إلا الخروج على الجماعة وقِتالَهم: ما رواه عبد الله بن أحمد، ومن طريقه ابن عساكر (١٢/ ٢٢٠) وابن العديم (٥/ ٢١٢٤) بسند مُقارِب لا بأس به عن إسماعيل بن عياش أنه سأل شرحبيل بن مُسلم عن أصحاب حُجر: ما كان شأنُهم؟ قال: وَجَدُوا كتابًا لهم إلى أبي بلال: إن محمَّدًا وأصحابَه قاتَلوا على التنزيل، فقاتِلوهم أنتم على التأويل. **قلت**: وأبو بلال هو مرداس بن أدية، من كبار رؤوس الخوارج.

الوجه السابع: اجتهاد معاوية ﷺ لا يخلو من حالين؛ إما الإصابة وإما الخطأ.

مع أن معاوية في النهاية لا يعدم أن يكون قد أصاب في اجتهاده، فيكون له أجران، أو اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، ويكون خطؤه ﷺ مغمورًا في بحر حسناته. [(١)]

ولو سلمنا أن معاوية ﷺ أخطأ في قتل حجر ﷺ؛ فإن هذا لا مطعن فيه عليه، كيف وقد سبق هذا الخطأ في القتل من اثنين من خيار الصحابة؛ هما: خالد بن الوليد، وأسامة بن زيد.

* أما قصة خالد بن الوليد ﷺ مع بني جذيمة، وقولهم صبأنا بدلًا من أسلمنا كما في حديث عبد الله بن عمر. . وقول النبي ﷺ بعد ذلك: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: وقال الخطابي: الحكمة من تَبَرُّئه ﷺ من فعل خالدٍ مع كونه لم يعاقبه على ذلك لكونه مجتهدًا، أن يعرف أنه لم يأذن له في ذلك خشية أن يعتقد أحد أنه كان بإذنه،

(١) من فضائل وأخبار معاوية دراسة حديثية لمحمد زياد بن عمر التكلة.

(٢) البخاري (٤٣٣٩).

ولينزجر غير خالد بعد ذلك عن مثل فعله. . ثم قال: والذي يظهر أن التبرأ من الفعل لا يستلزم إثم فاعله ولا إلزامه الغرامة، فإن إثم المخطئ مرفوع وإن كان فعله ليس بمحمود(١).

* وقصة أسامة بن زيد ﷺ مع الرجل الذي نطق بالشهادتين، وقتل أسامه له بعد نطقها، وقول النبي ﷺ: "يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟. . " الحديث(٢).

وكل ما جرى من أسامة وخالد ناتج عن اجتهاد لا عن هوى وعصبية وظلم(٣).

وبهذا نعلم أن قتل معاوية ﷺ لحجر كان اجتهادًا، وقد كان إمامًا وحق له أن يجتهد، وإذا كان المرؤ مجتهدًا فهو مأجور على اجتهاده على كل حال والله أعلم.

الشبهة الرابعة: شبهة لعن علي ﷺ على المنابر بأمر من معاوية ﷺ

وفحوى هذه الفرية أن معاوية أمر الخطباء على المنابر بلعن علي واستمر الأمر على ذلك في عهد بني أمية.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أن هذه دعوى تحتاج إلى دليل، وهي مفتقرة إلى صحة النقل؛ وهذا الأثر في قصة لعن علي على منابر بني أمية موضوع. (٤)

ثم إن هذا الأثر وهو الوحيد الذي ورد فيه التصريح المباشر بقصة اللعن وهو المشهور، وهو الذي يتمسك به عامة أهل البدع، والجهل يشير إلى أن عليًا ﷺ كان يلعن معاوية، وعمرو بن العاص، وغيرهم! ! فلماذا لم يتحدثوا عن هذه؟! ! وقد سبق سوق

(١) الفتح (١٣/ ١٩٤).

(٢) البخاري (٤٢٦٩، ٦٨٧٢) ومسلم (٩٦).

(٣) رد البهتان عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ لأبي عبد الله الذهبي.

(٤) أخرجه الطبري في تاريخه (٥/ ٧١)، وانظر تخريج الرواية بتمامها في شبهة مقتل حجر بن عدي وهذا القدر الذي ورد فيه اللعن والأمر به مروي من طريق علي بن محمد؛ وهو شيخ ابن سعد وهو المدائني فيه ضعف. وشيخه لوط بن يحي (أبو مخنف) ليس بثقة متروك الحديث، وإخباري تالف لا يوثق به، وعامة روايته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل. انظر: السير (٧/ ٣٠٢)، والميزان (٣/ ٤١٩). وفي سندها أيضًا أبو جناب الكلبي، ضعيف، راجع هذه الرواية الطويلة الملفقة في تاريخ الطبري (٥/ ٧١).

هذه الرواية بقريب من تمامها، والحكم عليها في فصل مقتل حجر بن عدي الكندي ﷺ وأما ما سوى هذه الرواية، فهي شبهات واهية، ليس فيها أي دليل على الدعوى.

الوجه الثاني: أن صحبة معاوية وفضله وسيرته مع الرعية ومع أهل البيت بصفة خاصة واعترافه بفضل علي يدل على استحالة ذلك، وقد سبق في الفصل الأول بيان فضله وثناء العلماء عليه فكيف يقولون فيه بهذا الثناء وهو يلعن أمير المؤمنين وابن عم رسول الله ﷺ؟! إن هذا لو حدث لكان رضا منهم بذلك، وما أثر عنهم يدل على العكس فثبت أن ثناءهم عليه دليل على بطلان ما نسب إليه من لعن علي ﷺ، ثم كيف يسمح معاوية ﷺ بذلك؟! وهوالذي لم يصح عنه أبدًا أنه سبّ عليًا أو لعنه مرة واحدة، فضلًا عن التشهير به على المنابر! !. . وقد علق ابن كثير -رحمه الله- في البداية والنهاية (٧/ ٢٨٤) على قصة لعن علي ﷺ على المنابر بعد القنوت، بقوله: ولا يصح هذا. والصحابة ﷺ كانوا أكثر حرصًا من غيرهم على التقيّد بأوامر الشارع الذي نهى عن سباب المسلم ولعنه، و قد قالﷺ: "من لعن مؤمنًا فهو كقتله"(١).

*** دفع إشكال عن روايتين ربما تمسك بهما أصحاب هذه الدعاوي.**

الأولى: عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعدًا فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ذكرت ثلاثًا قالهن له رسول اللهﷺ، فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول له لما خلفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله، خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول اللهﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدي. وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فتطاولنا لها فقال: ادعوا لي عليًا، فأتي به أرمد فبصق في عينه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا

---

(١) البخاري (٥٧٠٠).

﴿وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ (آل عمران: ٦١) دعا رسول الله ﷺ عليًا، وفاطمة، وحسنًا، وحسينًا، فقال: اللهم هؤلاء أهلي.[1]

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: هذا الحديث لا يفيد أن معاوية أمر سعدًا بسب علي، ولكنه كما هو ظاهر فإن معاوية أراد أن يستفسر عن المانع من سب علي، فأجابه سعد عن السبب، ولم نعلم أن معاوية عندما سمع رد سعد غضب منه، ولا عاقبه. .

الوجه الثاني: أن سكوت معاوية هنا، تصويب لرأي سعد، ولو كان معاوية ظالمًا يجبر الناس على سب علي كما يدَّعون، لما سكت عن سعد، ولأجبره على سبه وهو والٍ مطاع لا يقوى أحد على معارضته، ولكن لم يحدث من ذلك شيء، فعُلم أنه لم يأمر بسبه، ولا رضي بذلك. .

يقول النووي -رحمه الله- في ذلك: قول معاوية هذا، ليس فيه تصريح بأنه أمر سعدًا بسبه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السب، كأنه يقول: هل امتنعت تورعًا، أوخوفًا، أو غير ذلك؟ فإن كان تورعًا، وإجلالًا له عن السب، فأنت مصيب محسن، وإن كان غير ذلك فله جواب آخر، ولعل سعدًا قد كان في طائفة يسبون، فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار، أو أنكر عليهم، فسأله هذا السؤال، قالوا: ويحتمل تأويلٌ آخر أن معناه: ما منعك أن تخطئه في رأيه واجتهاده، وتظهر للناس حسن رأينا، واجتهادنا، وأنه أخطأ[2].

الوجه الثالث: أن معاوية رضي الله عنه إنما قال ذلك على سبيل المداعبة لسعد، وأراد من ذلك استظهار بعض فضائل علي رضي الله عنه، فإن معاوية رضي الله عنه كان رجلًا فطنًا ذكيًا يحب مطارحة الرجال واستخراج ما عندهم، فأراد أن يعرف ما عند سعد في علي -رضي الله عنهما-، فألقى سؤاله بهذا الأسلوب المثير. .

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٠٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٧٥)، وانظر: المفهم (٦/ ٢٧٨). .

وهذا مثل قوله ﷺ لابن عباسٍ: أنت على ملة علي؟ فقال له ابن عباس: ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله ﷺ [١]. وظاهر قول معاوية هنا لابن عباس جاء على سبيل المداعبة، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب، وأما ما ادعي من الأمر بالسب، فحاشا معاوية ﷺ أن يصدر منه مثل ذلك، والمانع من هذا عدة أمور: -

الأول: أن معاوية نفسه ما كان يسب عليًا ﷺ، فكيف يأمر غيره بسبه؟ بل كان معظمًا له معترفًا له بالفضل والسبق إلى الإسلام، كما دلت على ذلك أقواله الثابتة عنه.

قال ابن كثير: وقد ورد من غير وجه أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع عليًا أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني [٢].

ونقل ابن كثير أيضًا عن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة ﷺ قال: لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك، إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم [٣].

الثاني: أنه لا يعرف بنقل صحيح أن معاوية ﷺ تعرض لعلي ﷺ بسب، أو شتم أثناء حربه له في حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد انتهاء حربه معه ووفاته، فهذا من أبعد ما يكون عند أهل العقول، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه.

الثالث: أن معاوية ﷺ كان رجلًا ذكيًا، مشهورًا بالعقل والدهاء، فلو أراد حمل الناس على سب علي -وحاشاه من ذلك- أفكان يطلب ذلك من مثل سعد بن أبي وقاص، وهو من هو في الفضل، والورع، مع عدم دخوله في الفتنة أصلًا! ! فهذا لا يفعله أقل الناس عقلًا، وتدبيرًا، فكيف بمعاوية!

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٣٥٥).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٣٢).

(٣) نفس المصدر (٨/ ١٣٣).

الرابع: أن معاوية ﷺ انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن علي -رضي الله عنهما- له واجتمعت عليه الكلمة والقلوب، ودانت له الأمصار بالملك، فأي نفع له في سب علي؟! بل الحكمة وحسن السياسة تقتضي عدم ذلك، لما فيه من تهدئة النفوس وتسكين الأمور، ومثل هذا لا يخفى على معاوية ﷺ الذي شهدت له الأمة بحسن السياسة، والتدبير.

الخامس: أنه كان بين معاوية ﷺ بعد استقلاله بالخلافة وأبناء علي من الألفة والتقارب ما هو مشهور في كتب السير والتاريخ. . ومن ذلك أن الحسن، والحسين وفدا على معاوية فأجازهما بمائتي ألف، وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلي، فقال له الحسن: ولم تعط أحدًا أفضل منا. (١)

ودخل مرة الحسن على معاوية فقال له: مرحبًا، وأهلًا بابن رسول اللهﷺ، وأمر له بثلاثمائة ألف. (٢)وهذا مما يقطع بكذب ما ادعي في حق معاوية ﷺ من حمله الناس على سب علي ﷺ؛ إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة.

الرواية الثانية: عن سهل بن سعد ﷺ قال: استُعمل على المدينة رجل من آل مروان قال: فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم عليًا ﷺ، فأبى سهل، فقال له: أما إذا أبيت فقل: لعن الله أبا تراب، فقال سهل: ما كان لعليٍّ اسمٌ أحب إليه من أبي التراب، وإن كان ليفرح إذا دعي بها، فقال له: أخبرنا عن قصته، لم سمي أبا التراب؟ قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة فلم يجد عليًّا في البيت، فقال: أين ابن عمك؟ فقالت: كان بيني، وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يَقِلْ عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: انظر أين هو؟ فجاء فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد، فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول: قم أبا التراب قم أبا التراب(٣).

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٣٩).

(٢) المصدر نفسه (٨/ ١٤٠).

(٣) صحيح مسلم (٢٤٠٩).

والجواب: هذا الادعاء لا أساس له من الصحة، بل إن استشهاد هؤلاء وأمثالهم بهذا الحديث لا حجة فيه، فأين التصريح باسم معاوية فيه؟ ثم إن الرجل من آل مروان، ومن المعروف لدى الجاهل قبل العالم أن معاوية ﷺ سفيانيٌّ وليس مروانيٌّ.

وهل يعقل أن يسع حلم معاوية ﷺ الذي بلغ مضرب الأمثال، سفهاء الناس وعامتهم، وهو أمير المؤمنين؟ ثم يأمر بعد ذلك بلعن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب على المنابر، ويأمر ولاته بذلك في سائر الأمصار والبلدان ! والحكم في هذا لكل صاحب عقلٍ وفهمٍ ودينٍ. .

الشبهة الخامسة: ما جرى بينه، وبين الحسن بن علي ﷺ.

١- قولهم: إن معاوية اشترى الحسن بالمال، ثم اشترى إحدى زوجاته اللاتي لا يحصين بالمال على أن تسُمَّ زوجها مؤملا لها بزواج يزيد ثم لم يف لها بالوعد خوفا على ولده.

٢- حرمان الحسن من الدفن مع جده بالتعاون مع عائشة.

أولًا: هل اشترى معاوية الحسن بالمال حتى تنازل له عن الخلافة؟

والجواب: لا.

وبيان ذلك: من وجوه.

الوجه الأول: أن النبي ﷺ أخبر بهذا الصلح قبل أن يموت.

الوجه الثاني: أن الحسن بن علي كان معه العدد والعدة، ولم يكن بحاجة إلى مال، ولكنه قَبِلَ الصلح حقنًا لدماء المسلمين.

الوجه الثالث: أن معاوية بادر إلى ذلك هو الآخر حقنًا لدماء المسلمين.

والأصل في هذه الأوجه الثلاثة ما رواه أبو موسى ﷺ قال: سمعت الحسن يقول:

استَقْبَلَ والله الحسنُ بن علي معاويةَ بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية -وكان والله خير الرجلين- أي عمرو، إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم (أو بضعفتهم)؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس؛ عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز، فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه.

فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له فطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها، قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به، فما سألهما شيئًا إلا قالا: نحن لك به، فصالحه. فقال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، والحسن بن عليٍّ إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول ﷺ: **"إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"**. (١)

الوجه الرابع: أن صلح الحسن مع معاوية لم يكن مقابل مال، وإنما كان بنزوله عن الأمر عام إحدى وأربعين في شهر جمادى الأولى، وسمي عام الجماعة؛ لاجتماع الناس على معاوية وهو أول الملوك. للحديث **"ستكون خلافة نبوةٍ ورحمةٍ، ثم يكون ملكٌ ورحمةٌ، ثم يكون ملكٌ وجبريةٌ، ثم يكون ملكٌ عضوضٌ"**. (٢)

الوجه الخامس: أن الحسن ﷺ ورد عنه صريحًا ما يُرُدُّ هذا، وهو ما رواه عبد الرحمن بن جبير ابن نفير عن أبيه قال: قلت للحسن: إن الناس يقولون إنك تريد الخلافة، فقال: قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت، ويسالمون من سالمت، فتركتها ابتغاء وجه الله، وحقن دماء أمة محمد ﷺ. (٣)

وأما بعض الروايات التي توهم أنه اشتراه بالمال فهي من وضع الكذابين، وإليك بعضها:

الرواية الأولى: قال أبو الفرج في مقاتل الطالبيين: وكان أول شيء أحدث الحسن أنه زاد المقاتلة مائة مائة، وقد كان علي فعل ذلك يوم الجمل، والحسن فعله على حال الاستخلاف، فتبعه الخلفاء من بعد ذلك.

---

(١) صحيح البخاري (٢٥٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩). والحديث أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٣.

(٣) صحيح. أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧) من طريق أحمد بن حنبل، عن محمد بن جعفر، عن شعبة قال: سمعت يزيد بن خمير يحدث عن عبد الرحمن بن جبير به، وهذا إسناد صحيح.

وكتب الحسن إلى معاوية مع جندب بن عبد الله الأزدي: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، ومنَّةً على المؤمنين، وكافةً إلى الناس أجمعين ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فبلغ رسالات الله، وقام على أمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان، حتى أظهر الله به الحق، ومحق به الشرك، ونصر به المؤمنين، وأعز به العرب، وشرف به قريشًا خاصة، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (الزخرف: ٤٤) فلما توفي ﷺ تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد ﷺ في الناس وحقه، فرأت العرب أن القول كما قالت قريش، وأن الحجة لهم في ذلك على من نازعهم أمر محمد ﷺ فأنعمت لهم العرب، وسلمت ذلك، ثم حاججنا نحن قريشًا بمثل ما حاجت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف والاحتجاج فلما صرنا أهل بيت محمد ﷺ، وأولياءه إلى محاجتهم، وطلب النصف منهم باعدونا، واستولوا بالاجتماع على ظلمنا، ومراغمتنا، والعنت منهم لنا، فالموعد الله، وهو الولي النصير.

وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا، وسلطان نبينا ﷺ، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزًا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساده، فاليوم فليعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ، ولكن الله خيبك وسترد فتعلم لمن عقبى الدار، تالله لتلقين عن قليل ربك، ثم ليجزينك بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد.

إن عليا ﷺ لما مضى لسبيله يوم قبض، ويوم منَّ الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيًا – ولَّاني المسلمون الأمر بعده، فأسأل الله أن لا يزيدنا في الدنيا الزائلة شيئًا ينقصنا به في الآخرة

مما عنده من كرامته، وإنما حملني على الكتاب إليك: الإعذار فيما بيني وبين الله سبحانه وتعالى في أمرك، ولك في ذلك إن فعلت الحظ الجسيم، وللمسلمين فيه صلاح، فدع التمادي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أني أحق لهذا منك عند الله وعند كل أواب حفيظ، ومن له قلب منيب، واتق الله ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، ما دخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منك، ليطفئ الله النائرة بذلك، وتجمع الكلمة، وتصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيك نهدت إليك بالمسلمين، فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فكتب إليه معاوية: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت به رسول الله ﷺ من الفضل وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله، قديمه وحديثه، وصغيره وكبيره، فقد والله بلَّغ فأدَّى، ونصح وهدى، حتى أنقذ الله به من التهلكة، وأنار به من العمى، وهدى به من الضلالة، فجزاه الله أفضل ما جزى نبيًّا عن أمته، وصلوات الله عليه يوم ولد ويوم قبض ويوم يبعث حيًّا، وذكرت وفاة النبي ﷺ، وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صرحت بتهمة أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبي عبيدة الأمين، وحواري الرسول ﷺ، وصلحاء المهاجرين، والأنصار، فكرهت ذلك لك، فإنك امرؤٌ عندنا، وعند الناس غير ظنين، ولا المسيء ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد، والذكر الجميل.

إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم، ولا سابقتكم، ولا قرابتكم من النبي ﷺ، ولا مكانتكم في الإسلام وأهله، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعامتهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلامًا وأعلمها بالله وأحبها له، وأقواها على أمر الله، واختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأي ذوي الحجى والدين والفضيلة والناظرين للأمة، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا بمتهمين، ولا فيما أتوا بمخطئين،

ولو رأى المسلمون فيكم من يغني غناءه أو يقوم مقامه، أو يذب عن حريم المسلمين ذبه، ما عدلوا بذلك الأمر إلى غيره رغبة عنه، ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحًا للإسلام وأهله، فالله يجزيهم عن الإسلام، وأهله خيرًا.

وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم، وأبو بكر بعد النبيﷺ، ولو علمت أنك أضبط مني للرعية، وأحوط على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال، وأكيد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلًا، ولكني قد علمت أني أطول منك ولاية، وأقدم منك لهذه الأمة تجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبر منك سنًّا، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخل في طاعتي، ولك الأمر من بعدي، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغًا ما بلغ تحمله إلى حيث أحببت، ولك خراج أي كور العراق شئت، معونة لك على نفقتك، يجبيها لك أمينك، ويحملها إليك في كل سنة، ولك ألا أتولى عليك بالإساءة ولا تقضى دونك الأمور، ولا تعصى في أمر أردت به طاعة اللهﷻ، أعاننا الله وإياك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء والسلام.

قال جندب: فلما أتيت الحسن بن علي بكتاب معاوية قلت له: إن الرجل سائر إليك، فابدأ أنت بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعمله، فإما أن تقدر أنه يتناولك فلا والله حتى يرى يومًا أعظم من يوم صفين، فقال: أفعل، ثم قعد عن مشورتي، وتناسى قولي.

قال: وكتب معاوية إلى الحسن بن علي: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن الله ﷻ يفعل في عباده ما يشاء، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فاحذر أن تكون منيتك على يد رعاع من الناس، وايئس من أن تجد فينا غميزة، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتني، وفيت لك بما وعدت، وأجزت لك ما شرطت، وأكون في ذلك كما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

وإن أحد أسدى إليك أمانة... فأوف بها تدعى إذا مت وافيا

ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى... ولا تجفه إن كان في المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدي، فأنت أولى الناس بها، والسلام.

فأجابه الحسن بن علي: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، وصل إليَّ كتابك تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغي عليك، وبالله أعوذ من ذلك، فاتبع الحق تعلم أني من أهله، وعلي إثم أن أقول فأكذب، والسلام.

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه، ثم كتب إلى عماله على النواحي نسخة واحدة: بسم الله الرحمن الرحيم، من معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ومن قبله من المسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم وقتلة خليفتكم، إن الله بلطفه، وحسن صنعه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلًا من عباده فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم، وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم، وعشائرهم، فأقبلوا إليَّ حين يأتيكم كتابي هذا بجندكم، وجهدكم وحسن عدتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال: فاجتمعت العساكر إلى معاوية بن أبي سفيان، وسار قاصدًا إلى العراق وبلغ الحسن خبر مسيره، وأنه بلغ جسر منبج، فتحرك لذلك وبعث حجر بن عدي يأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير، ونادى المنادي: الصلاة جامعة، فأقبل الناس يثوبون، ويجتمعون، فقال الحسن: إذا رضيت جماعة الناس فأعلمني، وجاء سعيد بن قيس الهمداني، فقال: اخرج، فخرج الحسن - عليه السلام - فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وسماه كرهًا.

ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون، إلا بالصبر على ما تكرهون، إنه بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك، فاخرجوا - رحمكم الله - إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظروا، ونرى وتروا، قال: وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس إياه. قال: فسكتوا فما تكلم منهم أحد، ولا أجاب بحرف، فلما رأى ذلك عدي بن حاتم

قال: أنا ابن حاتم، سبحان الله، ما أقبح هذا المقام؟ ألا تجيبون إمامكم، وابن بنت نبيكم، أين خطباء مضر؟ أين المسلمون؟ أين الخواضون من أهل المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله، ولا عيبها، وعارها. ثم استقبل الحسن بوجهه فقال: أصاب الله بك المراشد، وجنبك المكاره، ووفقك لما يحمد ورده وصدره فقد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا منك، وأطعناك فيما قلت وما رأيت، وهذا وجهي إلى معسكري، فمن أحب أن يوافيني فليواف.

ثم مضى لوجهه، فخرج من المسجد، ودابته بالباب، فركبها، ومضى إلى النخيلة، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه، وكان عدي أول الناس عسكرًا.

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد بن صعصعة التيمي، فأنَّبوا الناس، ولاموهم وحرضوهم، وكلموا الحسن بمثل كلام عدي بن حاتم في الإجابة والقبول.

فقال لهم الحسن: صدقتم - رحمكم الله - ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء بالقول والمودة الصحيحة، فجزاكم الله خيرًا، ثم نزل، وخرج الناس، فعسكروا، ونشطوا للخروج، وخرج الحسن إلى معسكره، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأمره باستحثاث الناس وإشخاصهم إليه، فجعل يستحثهم ويخرجهم، حتى التأم العسكر.

ثم إن الحسن بن علي سار في عسكر عظيم وعدة حسنة حتى أتى دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثًا حتى اجتمع الناس، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب فقال له: يابن عم، إني باعث معك اثني عشر ألفًا من فرسان العرب، وقراء المصر، الرجل منهم يزن الكتيبة، فسر بهم، وألن لهم جانبك، وابسط وجهك، وافرش لهم جناحك، وأدنهم من مجلسك؛ فإنهم بقية ثقة أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وسر بهم على شط الفرات حتى تقطع بهم الفرات، ثم تصير إلى مسكن، ثم امض حتى تستقبل معاوية، فإن أنت لقيته فاحبسه حتى آتيك فإني في إثرك وشيكًا، وليكن خبرك عندي كل يوم، وشاور هذين؛ يعني قيس بن سعد، وسعيد بن قيس، فإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك، فإن فعل فقاتل، فإن أُصِبت فقيس بن سعدٍ

على الناس، وإن أصيب قيسٌ فسعيد بن قيس على الناس، ثم أمره بما أراد، وسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور حتى خرج إلى شاهي، ثم لزم الفرات والفالوجة حتى أتى مسكن. وأخذ الحسن على حمام عمر، حتى أتى دير كعب، ثم بكر، فنزل ساباط دون القنطرة، فلما أصبح نادى في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمعوا، وصعد المنبر، فخطبهم، فحمد الله، فقال: الحمد لله كلما حمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ أرسله بالحق، وائتمنه على الوحي. أما بعد، فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه، وأنا أنصح خلق الله لخلقه، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة، ولا مريدًا له سوءًا ولا غائلةً، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، ألا وإني ناظر لكم خيرًا من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري، ولا تردوا عليَّ رأيي، غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإياكم لما فيه المحبة والرضا. قال: فنظر الناس بعضهم إلى بعض، قالوا: ما ترونه يريد بماقال؟ قالوا: نظنه والله يريد أن يصالح معاوية، ويسلم الأمر إليه، فقالوا: كفر والله الرجل، ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته، ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه، فبقي جالسًا متقلدًا السيف بغير رداء، ثم دعا بفرسه فركبه، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته، ومنعوه ممن أراده، ولاموه، وضعفوه لما تكلم به، فقال: ادعوا لي ربيعة، وهمدان، فدعوا له، فأطافوا به، ودفعوا الناس عنه، ومعهم شوب من غيرهم، فقام إليه رجل من بني أسد من بني نصر بن قعين يقال له الجراح بن سنان، فلما مر في مظلم ساباط قام إليه، فأخذ بلجام بغلته، وبيده معول، فقال: الله أكبر يا حسن، أشركت كما أشرك أبوك من قبل، ثم طعنه، فوقعت الطعنة في فخذه، فشقته فسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده واعتنقه، وخرا جميعًا إلى الأرض، فوثب عبد الله بن الخطل فنزع المعول من يد جراح بن سنان فخضخضه به، وأكب طبيان بن عمارة عليه، فقطع أنفه ثم أخذوا الآجر فشدخوا وجهه ورأسه، حتى قتلوه.

وحمل الحسن على سرير إلى المدائن، وبها سعد بن مسعود الثقفي واليًا عليها من قبله، وكان علي ولاه فأقره الحسن بن علي، فأقام عنده يعالج نفسه.

قال: ثم إن معاوية وافى حتى نزل قرية يقال لها الحبوبية بمسكن، فأقبل عبد الله بن العباس حتى نزل بإزائه، فلما كان من غدٍ وجه معاوية بخيله إليه فخرج إليهم عبيد الله ابن العباس فيمن معه، فضربهم حتى ردهم إلى معسكرهم، فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبيد الله بن العباس أن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلم الأمر إليَّ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعًا، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك إن جئتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم، يعجل لك في هذا الوقت النصف، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر، فانسل عبيد الله ليلًا، فدخل عسكر معاوية، فوفى له بما وعده، فأصبح الناس ينتظرون أن يخرج فيصلي بهم، فلم يخرج حتى أصبحوا، فطلبوه، فلم يجدوه، فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة، ثم خطبهم فقال: أيها الناس، لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع -أي الجبان-؛ إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيرٍ قط، إن أباه عم رسول الله ﷺ خرج يقاتله ببدر، فأسره أبو اليسر كعب بن عمر الأنصاري، فأتى به رسول الله ﷺ، فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين، وإن أخاه ولاه علي أمير المؤمنين على البصرة فسرق مال الله ومال المسلمين، فاشترى به الجواري، وزعم أن ذلك له حلال، وإن هذا ولاه علي اليمن، فهرب من بسر بن أرطأة، وترك ولده حتى قتلوه، وصنع الآن هذا الذي صنع.

قال: فتنادى الناس: الحمد لله الذي أخرجه من بيننا، فانهض بنا إلى عدونا، فنهض بهم.

وخرج إليهم بسر بن أرطأة في عشرين ألفا، فصاحوا بهم: هذا أميركم قد بايع، وهذا الحسن قد صالح؛ فعلام تقتلون أنفسكم؟ فقال لهم قيس بن سعد بن عبادة: اختاروا إحدى اثنتين: إما القتال مع غير إمام، أو تبايعون بيعة ضلال، فقالوا: بل نقاتل بلا إمام، فخرجوا، فضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم. وكتب معاوية إلى قيس يدعوه، ويمنيه، فكتب إليه قيس: لا والله، لا تلقاني أبدًا إلا وبيني وبينك الرمح. فكتب إليه معاوية: أما بعد، فإنما

أنت يهودي ابن يهودي تشقي نفسك، وتقتلها فيما ليس لك، فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وعزلك، وإن ظهر أبغضهما إليك نكل بك، وقتلك، وقد كان أبوك أوتر غير قوسه، ورمى غير غرضه، فأكثر الحز، وأخطأ المفصل فخذله قومه، وأدركه يومه، فمات بحوران طريدًا غريبًا، والسلام. فكتب إليه قيس بن سعد - رحمه الله -: أما بعد: فإنما أنت وثن ابن وثن من هذه الأوثان، دخلت في الإسلام كرهًا، وأقمت عليه فرقًا، وخرجت منه طوعًا، ولم يجعل الله لك فيه نصيبًا، لم يقدم إسلامك، ولم يحدث نفاقك، ولم تزل حربًا لله ورسوله، وحزبًا من أحزاب المشركين، فأنت عدو الله ورسوله، والمؤمنين من عباده. وذكرت أبي، ولعمري ما أوتر إلا قوسه، ولا رمى إلا غرضه، فشغب عليه من لا تشق غباره، ولا تبلغ كعبه، وكان امرأً مرغوبا عنه، مزهودًا فيه. وزعمت أني يهودي ابن يهودي، ولقد علمت وعلم الناس أني وأبي من أنصار الدين الذي خرجت منه، وأعداء الدين الذي دخلت فيه، وصرت إليه، والسلام. فلما قرأ معاوية غاظه، وأراد إجابته، فقال له عمرو: مهلًا، إن كاتبته أجابك بأشد من هذا، وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس، فأمسك عنه.

قال: وبعث معاوية عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح، فدعواه إليه، وزهداه في الأمر، وأعطياه ما شرط له معاوية، وألا يتبع أحد بما مضى، ولا ينال أحد من شيعة علي بمكروه، ولا يذكر عليًّا إلا بخير، وأشياء اشترطها الحسن. فأجابه الحسن إلى ذلك، وانصرف قيس فيمن معه إلى الكوفة، وانصرف الحسن إليها أيضًا، وأقبل معاوية قاصدًا الكوفة، واجتمع إلى الحسن وجوه الشيعة، وأكابر أمير المؤمنين يلومونه ويبكون إليه جزعًا مما فعله(١).

الرواية الثانية: عن الشعبي، عن سفيان بن الليل، دخل حديث بعضهم في حديث بعض، وأكثر اللفظ لأبي عبيد، قال: أتيت الحسن بن علي حين بايع معاوية، فوجدته بفناء داره، وعنده رهط، فقلت: السلام عليك يا مذل المؤمنين، فقال: عليك السلام يا سفيان،

(١) لا أصل له **بهذا السياق**. وهو من كلام أبي الفرج الأصفهاني الشيعي في مقاتل الطالبيين من غير إسناد، ثم ساق بعد ذلك من الأسانيد ما يدل على بعض كلامه هذا، وكلها لا يصح منها شيء كما سيأتي. وانظر مقاتل الطالبيين في ذكر الحسن بن علي رضي الله عنهما (١/ ١٢ -٢١).

انزل فنزلت، فعلقت راحلتي، ثم أتيته، فجلست إليه، فقال: كيف قلت يا سفيان بن الليل؟ فقلت: السلام عليك يا مذل رقاب المؤمنين. فقال: ما جر هذا منك إلينا؟ فقلت: أنت والله - بأبي أنت وأمي - أذللت رقابنا حين أعطيت هذا الطاغية البيعة، وسلمت الأمر إلى اللعين بن اللعين بن آكلة الأكباد، ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك. وقد جمع الله لك أمر الناس. فقال: يا سفيان، إنا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسكنا به، وإني سمعت عليًّا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تذهب الليالي والأيام حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم، ضخم البلعوم، يأكل، ولا يشبع، لا ينظر الله إليه، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر، وإنه لمعاوية، وإني عرفت أن الله بالغ أمره. ثم أذن المؤذن، فقمنا على حالب يحلب ناقة، فتناول الإناء، فشرب قائمًا ثم سقاني، فخرجنا نمشي إلى المسجد، فقال لي: ما جاءنا بك يا سفيان؟ قلت: حبكم، والذي بعث محمدًا للهدى، ودين الحق. قال: فأبشر يا سفيان، فإني سمعت عليًّا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يَرِدُ عليَّ الحوض أهل بيتي، ومن أحبهم من أمتي كهاتين، يعني السبابتين. ولو شئت لقلت هاتين يعني السبابة والوسطى، إحداهما تفضل على الأخرى، أبشر يا سفيان؛ فإن الدنيا تسع البر والفاجر حتى يبعث الله إمام الحق من آل محمد ﷺ. هذا لفظ أبي عبيد. وفي حديث محمد بن الحسين، وعلي بن العباس بعض هذا الكلام موقوفًا عن الحسن غير مرفوع إلى النبي ﷺ إلا في ذكر معاوية فقط. (١)

---

(١) موضوع. أخرجه أبوالفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين قال: فحدثني محمد بن الحسين الأشناني، وعلي بن العباس المقانعي قالا: حدثنا عباد بن يعقوب، قال: أخبرنا عمرو بن ثابت، عن الحسن بن حكم، عن عدي بن ثابت، عن سفيان بن الليل. وحدثني محمد بن أحمد أبو عبيد، قال: حدثنا الفضل بن الحسن المصري قال: حدثنا محمد بن عمروية قال: حدثنا مكي بن إبراهيم، قال: حدثنا السري بن إسماعيل، عن الشعبي به.

وهذا إسناد ضعيف، فيه سفيان بن الليل: رافضي غالٍ. قال ابن حجر في لسان الميزان (٣/ ٥٣): سفيان بن الليل الكوفى روى عنه الشعبي، قال العقيلي: كان ممن يغلو في الرفض لا يصح حديثه، وقال أبوالفتح الأزدي، وسفيان: مجهول لا يحفظ له غير هذا، قال النباتي: حديثه لا يرويه إلا السري، وهو لا شيء. اهـ

قال: وسار معاوية حتى نزل النخيلة، وجمع الناس بها، فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبةً طويلةً لم ينقلها أحدٌ من الرواة تامةً، وجاءت مقطعة في الحديث، وسنذكر ما انتهى إلينا من ذلك.

الرواية الثالثة: عن عطاء بن السائب، عن الشعبي قال: خطب معاوية حين بويع له فقال: ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها، ثم إنه انتبه فندم، فقال: إلا هذه الأمة فإنها وإنها. (١) وعن مجالد، عن الشعبي بهذا. (٢)

قلت: السري متروك، قال ابن حجر: متروك الحديث. اهـ من التقريب (ت٢٢٢١) وقال الذهبي في الكاشف (ت١٨١٢): تركوه.

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه أبوالفرج في مقاتل الطالبيين قال: حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار، قال: حدثني أحمد بن بشر، عن الفضل بن الحسن، وعيسى بن مهران، قالوا: حدثنا علي بن الجعد قال: حدثنا قيس بن الربيع، عن عطاء بن السائب، عن الشعبي، قال: خطب معاوية حين بويع له فقال وذكره. وهذا إسناد شديد الضعف؛ فيه: أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار، المعروف بحمار العزير من رؤوس الشيعة قيل: كان قدريًا، وقال علي بن عبيد الله بن المسيب الكاتب: كان كثير الوقيعة في الأكابر وذكر له ابن النديم في الفهرست عدة مصنفات، منها كتاب مثالب معاوية. اهـ من الميزان (١/ ٢١٩). وفيه أيضًا: عيسى بن مهران المستعطف أبو موسى؛ كان ببغداد رافضي كذاب جبل قال ابن عدى: حدث بأحاديث موضوعة محترق في الرفض، وقال أبو حاتم: كذاب، وقال الدارقطني: رجل سوء، وقال الخطيب: كان من شياطين الرافضة ومردتهم، وقع إلي كتاب من تصنيفه في الطعن على الصحابة وتضليلهم وإكفارهم وتفسيقهم فوالله لقد قف شعري عند نظري فيه وعظم تعجبي مما أودع ذلك الكتاب من الأحاديث الموضوعة والأقاصيص المختلقة والأنباء المفتعلة بالأسانيد المظلمة عن سقاط الكوفيين من المعروفين بالكذب ومن المجهولين ودلني ذلك على عمى بصيرة واضعة وخبث سريرة جامعه وخيبة سعي طالبه واحتقاب ذرار كاتبه ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩)، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧) اهـ لسان الميزان (٤/ ٤٠٦)، والجرح والتعديل (٦/ ٢٩٠)، وتاريخ بغداد (١١/ ١٦٧). وقيس بن الربيع: صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به، من السابعة. التقريب ت (٥٥٧٣).

(٢) **ضعيف**. أخرجه أبو الفرج في مقاتل الطالبيين فقال: حدثني أبو عبيد، قال: حدثني الفضل المصري، قال: حدثنا يحيى بن معين، قال: حدثنا أبو أسامة، عن مجالد به.

وإسناده فيه مؤلف الكتاب شيعي، ومجالد بن سعيد: ضعيف، وعلى فرض ثبوته فقد صرح الشعبي أن معاوية استثنى هذه الأمة، وأثنى عليها، وهذا هو مقامه وقدره ﷺ.

الرواية الرابعة: عن أبي إسحاق، قال: سمعت معاوية بالنخيلة يقول: ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به. قال أبواسحاق: وكان والله غدَّارًا. (١)

الرواية الخامسة: عن سعيد بن سويد قال: صلَّى بنا معاوية بالنخيلة الجمعة في الصحن، ثم خطبنا فقال: إني والله ما قاتلتكم لتُصَلُّوا، ولا لتَصُوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك. وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون. قال شريك في حديثه: هذا هوالتهتك. (٢)

و عن حبيب بن أبي ثابت، قال: لما بويع معاوية خطب فذكر عليًا، فنال منه، ونال من الحسن، فقام الحسين ليرد عليه فأخذ الحسن بيده فأجلسه، ثم قام فقال: أيها الذاكر عليًا، أنا الحسن، وأبي عليّ، وأنت معاوية، وأبوك صخر، وأمي فاطمة، وأمك هند، وجدي رسول الله ﷺ، وجدك حرب، وجدتي خديجة، وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرًا، وألأمنا حسبًا، وشرنا قدمًا، وأقدمنا كفرًا ونفاقًا.

---

(١) موضوع. أخرجه أبو الفرج في مقاتل الطالبيين قال: حدثني علي بن العباس المقانعي، قال: أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسين الزهري، قال: حدثنا حسن بن الحسين، عن عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق به.

وفي إسناده الحسن بن الحسين العرني الكوفي. قال أبو حاتم: لم يكن بصدوق عندهم، وكان من رؤساء الشيعة، اهـ من لسان الميزان (٢/ ١٩٩) وعمرو بن ثابت بن أبي المقدام الكوفي ضعيف رمي بالرفض من الثامنة التقريب ت (٤٩٩٥)، وقال العجلي: شديد التشيع غال فيه واهي الحديث الثقات للعجلي ت (١٣٦٨)، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث يكتب حديثه كان ردى الرأي شديد التشيع الجرح والتعديل (٦/ ٢٢٣)

(٢) موضوع. أخرجه أبو الفرج في مقاتل الطالبيين ومن طريقه ابن عساكر في التاريخ (١٩/ ١٥٠).

فقال: حدثني أبو عبيد، قال: حدثنا الفضل المصري، قال: حدثني عثمان بن أبي شيبة قال: حدثني أبو معاوية، عن الأعمش ح وأبو عبيد، قال: حدثنا فضل، قال حدثنا عبد الرحمن بن شريك. قال حدثنا أبي عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن سويد به.

وهذا إسناد فيه أبوالفرج الأصفهاني: شيعي، و سعيد بن سويد: مجهول، وقال البخاري: قال إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مسهر سمع الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد رجل منهم صلى بنا معاوية الجمعة بضحى ولا يتابع عليه اهـ التاريخ الكبير (٣/ ٤٧٧)، وترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، وابن حبان في الثقات، ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا فهو في تعداد المجهولين، وقال ابن عدي: قال الشيخ وسعيد بن سويد لا أعرف له في هذا الوقت شيئًا، ومقصد البخاري أن لا يسقط عليه اسم اهـ الكامل (٣/ ٤٠٨)، وانظر: لسان الميزان (٣/ ٣٣)

فقال طوائف من أهل المسجد: آمين. قال فضل: فقال يحيى بن معين: ونحن نقول: آمين. قال أبو عبيد: ونحن أيضا نقول: آمين. قال أبوالفرج: وأنا أقول: آمين. (١)

قال: ودخل معاوية الكوفة بعد فرغه من خطبته بالنخيلة، وبين يديه خالد بن عرفطة، ومعه رجل يقال له حبيب بن عمار يحمل رايته حتى دخل الكوفة، فصار إلى المسجد، فدخل من باب الفيل، فاجتمع الناس إليه.

فعن عطاء بن السائب، عن أبيه، قال: بينما علي ﷺ على المنبر، إذ دخل رجل فقال: يا أمير المؤمنين، مات خالد بن عرفطة، فقال: لا، والله ما مات. إذ دخل رجل آخر فقال: يا أمير المؤمنين، مات خالد بن عرفطة، فقال: لا، والله ما مات، إذ دخل رجل آخر فقال: يا أمير المؤمنين، مات خالد بن عرفطة، فقال: لا، والله ما مات ولا يموت حتى يدخل من باب هذا المسجد، " يعني باب الفيل " براية ضلالة يحملها له حبيب بن عمار، قال فوثب رجل فقال: يا أمير المؤمنين أنا حبيب بن عمار وأنا لك شيعة. قال: فإنه كما أقول. فقدم خالد بن عرفطة على مقدمة معاوية يحمل رايته حبيب بن عمار.

قال مالك: حدثنا الأعمش بهذا الحديث، فقال: حدثني صاحب هذا الدار - وأشار بيده إلى دار السائب أبي عطاء - أنه سمع عليًا يقول هذه المقالة. (٢) قالوا: ولما تم الصلح

---

(١) موضوع. أخرجه أبوالفرج في مقاتل الطالبيين فقال: حدثني أبو عبيد، قال: حدثنا فضل، قال: حدثني يحيى بن معين، قال: حدثنا أبو حفص الأبار، عن إسماعيل بن عبد الرحمن، وشريك بن أبي خالد، وقد روى عنه إسماعيل بن أبي خالد، عن حبيب بن أبي ثابت به. وهذا إسناد ضعيف فيه أبوالفرج: شيعي، واسماعيل بن عبد الرحمن السدي: ضعيف رمي بالتشيع واتهم بشتم الصحابة. تهذيب التهذيب (١/ ٢٧٤)

(٢) موضوع. أخرجه أبو الفرج فقال: حدثني أبو عبيد الصيرفي، وأحمد بن عبيد الله بن عمار، قالا: حدثنا محمد بن علي بن خلف، قال: حدثني محمد بن عمرو الرازي، قال: حدثنا مالك بن شعير، عن محمد بن عبد الله الليثي به. وهذا إسناد شديد الضعف فيه أبو الفرج: شيعي، ومحمد بن خلف قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (١/ ٣٩٧): رافضي، وقال ابن عراق في تنزيه الشريعة ت (٢١٤): اتهمه ابن عدي، قال الشوكاني: وهو المعتمد اهـ وانظر: الفوائد المجموعة بتحقيق المعلمي ت (٦٥٩)، ولسان الميزان ت (٨١٧) وميزان الاعتدال (٣/ ٦٥١)، وتاريخ دمشق (٣٢/ ٩٣)، والكامل لابن عدي (٢/ ٣٦٢) اهـ. ومحمد بن عبد الله الليثي: متروك، لسان الميزان (٥/ ٢١٦)، والتاريخ الصغير للبخاري (٢/ ١٨٠)، والمجروحين لابن حبان (٢/ ٢٥٨).

بين الحسن ومعاوية، أرسل إلى قيس بن سعد بن عبادة يدعوه إلى البيعة فأتى به، وكان رجلًا طويلًا يركب الفرس المسرف، ورجلاه تخطان في الأرض، وما في وجهه طاقة شعر، وكان يسمى خصي الأنصار، فلما أرادوا أن يدخلوه إليه قال: إني قد حلفت أن لا ألقاه إلا وبيني وبينه الرمح أو السيف، فأمر معاوية برمح أو سيف فوضع بينه وبينه ليبر يمينه.

الرواية السادسة: فعن عبيدة، وقد ذكر بعض ذلك في رواية أبي مخنف التي قدمنا إسنادها، قال: لما صالح الحسن معاوية، اعتزل قيس بن سعد في أربعة آلاف وأبى أن يبايع، فلما بايع الحسن أدخل قيس بن سعد ليبايع. قال أبو مخنف في حديثه: فأقبل على الحسن فقال: أنا في حل من بيعتك، قال: نعم، قال: فألقى لقيس كرسي، وجلس معاوية على سريره، فقال له معاوية: أتبايع يا قيس؟ قال: نعم، فوضع يده على فخذه ولم يمدها إلى معاوية، فجثا معاوية على سريره وأكب على قيس حتى مسح يده على يده، فما رفع قيس إليه يده. (١)

الرواية السابعة: عن أبي عبيد عن مجالد، عن الشعبي. ، وعن يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه: أن أهل العراق لما بايعوا الحسن، قالوا له: سر إلى هؤلاء الذين عصوا الله ورسوله وارتكبوا العظائم، فسار إلى أهل الشام، وأقبل معاوية حتى نزل جسر منبج، فبينا الحسن بالمدائن، إذ نادى مناد في عسكره: ألا إن قيس بن سعد قد قتل، فشد الناس على حجرة الحسن، فنهبوها حتى انتهبت بسطه، وأخذوا رداءه، وطعنه رجل من بني أسد في ظهره بخنجر مسموم في أليته، فتحول، ونزل قصر كسرى الأبيض وقال: عليكم لعنة الله من أهل قرية، قد علمت أن لا خير فيكم، قتلتم أبي بالأمس، واليوم تفعلون بي هذا. ثم كاتب معاوية في الصلح على أن يسلم له ثلاث خصال: يسلم له بيت المال فيقضي منه دينه

---

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه أبو الفرج في مقاتل الطالبيين قال: حدثني أحمد بن عيسى، قال: حدثني أبو هاشم الرفاعي، قال: حدثني وهب بن جرير، قال: حدثنا أبي عن ابن سيرين عن عبيدة به.

وهذا إسناد شديد الضعف فيه أبو الفرج الشيعي، وأحمد بن عيسى هو بن أبي موسى العطار قال في لسان الميزان (١/ ٢٤٢) حدث عن محمد بن العلاء. بحديث باطل. ، وأبو هاشم الرفاعي هو محمد بن يزيد بن محمد بن كثير، وقال البخاري: رأيتهم مجتمعين على ضعفه، وقال النسائي: ضعيف تهذيب التهذيب (٩/ ٤٦٤)، وعليه فهذا إسناد ضعيف جدًّا، وهذه الزيادة باطلة لأنها من طريق أبي مخنف.

ومواعيده ويتحمل منه هو وآله، ولا يُسَبُ علي وهو يسمع، وأن يحمل إليه خراج فسا ودرابجرد كل سنة إلى المدينة، فأجابه معاوية، وأعطاه ما سأل[١]

ثانيا: هل صحيح أن معاوية ﷺ دبر مؤامرة لقتل الحسن هو أو ابنه يزيد؟!

كل الروايات التي تقول: إن زوجته سمته بإشارة من معاوية أو يزيد فكذب بيّن وها هي:

الرواية الأولى: عن ابن جعدة، قال: كانت جعدة بنت الأشعث بن قيس تحت الحسن بن علي فدس إليها يزيد أن سُمِّي حسنًا حتى أتزوجك، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسأله الوفاء بما وعدها، فقال: إنا والله لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا[٢].

الرواية الثانية: عن مغيرة، قال: أرسل معاوية إلى ابنة الأشعث إني مزوجك بيزيد ابني، على أن تسمي الحسن بن علي، وبعث إليها بمائة ألف درهم، فقبلت، وسمت الحسن، فسوغها المال، ولم يزوجها منه، فخلف عليها رجل من آل طلحة فأولدها، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيروهم، وقالوا: يا بني مسمة الأزواج.[٣]

---

(١) **إسناده ضعيف**. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٦٣) من طريق أبي عبيد، عن مجالد، عن الشعبي به. وهذا الإسناد فيه مجالد بن سعيد: ضعفه الجماهير. ويروي عنه في هذا الإسناد أبو عبيد القاسم بن سلام ولد سنة (١٥٧)، وقيل سنة (١٥٠)، وقيل سنة (١٥٤)، ومجالد بن سعيد مات سنة (١٤٤) فبينهما انقطاع في الإسناد اهـ

(٢) **موضوع**. أخرجه ابن الجوزي في المنتظم في سياق حوادث سنة ٤٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٢٨٤من طريق محمد بن سلام الجمحي، عن ابن جعدة به. وهذا الإسناد فيه ابن جعدة؛ وهو: يزيد بن عياض بن جعدة قال بن القاسم: سألت مالكًا عن ابن سمعان فقال: كذاب. قلت فيزيد بن عياض؟ قال: أكذب وأكذب. ، وقال الدوري عن ابن معين: ليس بشيء؛ وقال البخاري، ومسلم: منكر الحديث. ، وقال النسائي: متروك الحديث اهـ تهذيب التهذيب (١١/ ٣٠٨).

وله عنده رواية أخرى من طريق محمد بن سعد: قال أنا يحيى بن حماد أنا أبو عوانة عن يعقوب عن أم موسى أن جعدة بنت الأشعث بن قيس سقت الحسن السم فاشتكى منه شكاة قال: فكان يوضع تحته طست وترفع أخرى نحوا من أربعين يوما وأم موسى سرية علي بن أبي طالب ﷺ، قال عنها الحافظ: مقبولة، وقال الدار قطني: يكتب حديثها اعتبارا. اهـ تهذيب التهذيب ١٢/ ٥٠٧، والتقريب ت (٨٧٧٧) قلت: ولم يتابعها في هذه الرواية إلا ابن جعدة الكذاب. ثم لو صح هذا عنها فما هو إلا الظن الذي هو أكذب الحديث. وليس في روايتها أن معاوية هو الذي أمر بذلك.

(٣) **موضوع**. أخرجه أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين صـ٢٠ فقال: حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار، قال: حدثنا عيسى بن مهران، قال: حدثنا عبيد بن الصباح الخراز، قال: حدثني جرير، عن مغيرة به. وهذا إسناد

الرواية الثالثة: عن أبي بكر بن حفص، قال: تُوفي الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص في أيام، بعد ما مضى من إمارة معاوية عشر سنين، وكانوا يرون أنه سقاهما سمًا[1].

الرواية الرابعة: عن مولى للحسن بن علي وعن عمير بن إسحاق - واللفظ له - قال: كنت مع الحسن والحسين في الدار فدخل الحسن المخرج ثم خرج فقال: لقد سقيت السم مرارًا ما سقيته مثل هذه المرة، ولقد لفظت قطعة من كبدي فجعلت أقلبها بعود معي، فقال له الحسين: من سقاكه؟ فقال: وما تريد منه؟ أتريد أن تقتله، إن يكن هو هو فالله أشد نقمة منك، وإن لم يكن هو فما أحب أن يؤخذ بي بريء[2]. قلت: قاتل الله هؤلاء الكذابين

مسلسل بالشيعة: أبو الفرج شيعي، أحمد بن عبيد بن عمار وهو من رؤس الشيعة وكان كثير الوقيعة في الأكابر، وله كتاب في مثالب معاوية اهـ لسان الميزان ت (٦٨١). وعيسى بن مهران: رافضي كذاب جبل، قال ابن عدي: حدث بأحاديث موضوعة محترق في الرفض، وقال أبو حاتم: كذاب، وقال الدار قطني: رجل سوء. ، وقال الخطيب: كان من شياطين الرافضة، ومردتهم وقع إلي كتاب من تصنيفه في الطعن على الصحابة، وتفكيرهم فلقد قف شعري وعظم تعجبي مما فيه من الموضوعات، والبلايا. اهـ. لسان الميزان ت (١٢٤١). وعبيد بن الصباح الخراز: ضعفه أبو حاتم كما في الجرح والعديل (٥/ ٤٠٨) و لسان الميزان (٤/ ١١٩)، وقال العقيلي في الضعفاء (٣/ ١١٧): عبيد بن الصباح الكوفي عن كامل أبي العلاء لا يتابع على حديثه ولا يعرف إلا به.

(١) **موضوع**. أخرجه أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين ص (٢٠) فقال حدثني أحمد بن عبيد الله، قال: حدثني عيسى بن مهران، قال: حدثنا يحيى بن أبي بكير، قال: حدثنا شعبة، عن أبي بكر بن حفص به، وإسناده كالذي قبله، ويزيد عليه بأنه مرسل؛ فأبو بكر بن حفص لم يدرك الوقعة.

(٢) **ضعيف جدًا**. أخرجه أبو الفرج في مقاتل الطالبيين ص (٢٠) فقال أخبرنا أحمد بن محمد الهمداني قال: حدثنا يحيى بن الحسن العلوي، قال: حدثنا سلمة بن شبيب، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، قال: حدثني من سمع ابن سيرين يحدث مولى للحسن بن علي. وحدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار، قال: حدثنا عيسى بن مهران، قال: حدثنا عثمان بن عمر، قال: حدثنا أبو عون، عن عمير بن إسحاق به.

وهذان إسنادان ضعيفان، الأول: فيه أبو الفرج شيعي. وشيخه: أحمد بن محمد بن سعيد أبو العباس الهمداني قال ابن عدي: يعرف بابن عقدة قال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٥٦): كان رافضيًا يحدث بمثالب الصحابة، وقال ابن عدي: كان صاحب معرفة وحفظ ومقدم في هذه الصناعة إلا أنني رأيت مشايخ بغداد مسيئين الثناء عليه. الكامل لابن عدي (١/ ٢٠٦)، وقال السيوطي: رافضي رمي بالكذب. اللآلئ المصنوعة (١/ ٣٠٨) وانظر تنزيه الشريعة (١٩٣). وفيه: يحيى بن الحسن أو بن الحسين العلوي رافضي متأخر. من الميزان (٤/ ٣٦٨)، ولسان الميزان (٦/ ٢٤٧).

وفيه مبهمان الأول من سمع ابن سيرين، والثاني مولى الحسن. وهو لا يعرف.

أرادوا أن يظهروا مدح الحسن فجرى على ألسنتهم ما في قلوبهم من ذمه وبغضه فذموه بتطلع زوجته إلى يزيد أوالى ماله وهل تتطلع إلى يزيد من كانت عند الحسن وهل تتطلع إلى مال يزيد من كانت عند أكرم أهل عصره، وأوسعهم عطاء رضي الله عنه وأرضاه فهذا من العجائب. والله المستعان

وقد رد العلماء من أهل السنة على هذا الكلام ومن ذلك ما يلي:

١ـ **قال ابن خلدون**: وما ينقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجه جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية من ذلك(١).

٢ـ **وقال ابن كثير رحمه الله**: روى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سُمِّي الحسن وأنا أتزوجك بعده ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى. (٢)

والإسناد الثاني: فيه أحمد بن عبيد بن عمار من رؤس الشيعة وعيسى بن عمران رافضي كذاب.

وللحديث طريق آخر أخرجها ابن أبي شيبة (٨/ ٦٣١)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨)، وابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين (١٣٢)، وابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ١١٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٣١)، وابن الجوزي في المنتظم (٢/ ١٥٢) كلهم من طريق ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: دخلت أنا ورجل على الحسن بن علي نعوده فجعل يقول لذلك الرجل سلني قبل أن لا تسألني، قال: ما أريد أن أسألك شيئًا يعافيك الله، قال: فقام فدخل الكنيف ثم خرج إلينا ثم قال: ما خرجت إليكم حتى لفظت طائفة من كبدي أقلبها بهذا العود ولقد سقيت السم مرارًا ما شيء أشد من هذه المرة، قال: فغدونا عليه من الغد فإذا هو في السوق، قال: وجاء الحسين فجلس عند رأسه فقال يا أخي من صاحبك؟ قال: تريد قتله؟ قال: نعم، قال: لئن كان الذي أظن لله أشد نقمة، وإن كان بريئًا فما أحب أن يقتل بريء.

قلت وإسناده ضعيف. فيه عمير بن إسحاق ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به ولم يرو عنه غير بن عون وقال ابن حجر: مقبول. التقريب ت (٥١٧٩) ولو صح لما كان فيه إدانة ولا اتهام لمعاوية لأن الحسن نفسه لم يخبر بذلك لعدم تأكده، فأنىَّ لغيره أن يتأكد من هذا الأمر ثم يتهم به معاوية ﷺوعليه فهذا النص بهذا الإسناد حجة في براءة معاويةﷺلا في إدانته.

(١) تاريخ بن خلدون (٢/ ١٨٧).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٤٧).

٣ـ وقال الذهبي: قلت هذا شئ لا يصح فمن الذي أطلع عليه.[١]

٤ـ وقال ابن العربي: قال ابن العربي: فإن قيل: دس على الحسن من تسمَّه، قلنا هذا محال من وجهين:

أحدهما: أنه ما كان ليتقي من الحسن بأسًا وقد سلَّم الأمر.

الثاني: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بيِّنة على أحد من خلقه في زمن متباعد ولم نثق فيه بنقل ناقل، بين أيدي قوم ذوي أهواء، وفي حال فتنة وعصبية، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغي، فلا يقبل منها إلا الصافي، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم. اهـ[٢]

ولعل الناقد لمتن هذه الرواية يتجلى له عدة أمور:ـ

١-هل معاوية ﷺ أو ولده يزيد بهذه السذاجة ليأمرا امرأة الحسن بهذا الأمر الخطير، الذي فيه وضع حد لحياة الحسن بن علي غيلة، و ما هو موقف معاوية أو ولده أمام المسلمين لوأن جعدة كشفت أمرهما؟!

٢-هل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالي تكون زوجة له، أليست جعدة ابنة أمير قبيلة كندة كافة وهو الأشعث بن قيس، ثم أليس زوجها وهو الحسن بن علي أفضل الناس شرفا ورفعة بلا منازعة، إن أمه فاطمة وجده الرسول ﷺ وكفى به فخرا، وأبوه علي بن أبي طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذًا ما هو الشيء الذي تسعى إليه جعدة وستحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير؟!

٣-لقد وردت الروايات التي تفيد أن الحسن قال: لقد سقيت السم مرتين، وفي رواية ثلاث مرات، وفي رواية سقيت السم مرارا، هل بإمكان الحسن أن يفلت من السم مرارا إذا

(١) تاريخ الإسلام ص (٤٠).

(٢) العواصم من القواصم صـ ٢٢٠.

كان مدبر العملية هو معاوية أو يزيد؟! نعم إن عناية الله وقدرته فوق كل شيء، ولكن كان باستطاعة معاوية أن يركز السم في المرة الأولى ولا داعي لهذا التسامح مع الحسن المرة تلو المرة.

٤-وإذا كان معاوية ﷺيريد أن يصفي الساحة من المعارضين حتى يتمكن من مبايعة يزيد بدون معارضة، فإنه سيضطر إلى تصفية الكثير من أبناء الصحابة، ولن تقتصر التصفية على الحسن فقط.

٥-وإن بقاء الحسن من صالح معاوية في بيعة يزيد، فإن الحسن كان كارهًا للنزاع وفرقة المسلمين، فربما ضمن معاوية رضاه، وبالتالي يكون له الأثر الأكبر في موافقة بقية أبناء الصحابة. (١)

وعلى كل حال لو ثبت موت الحسن ﷺ بالسم، فهذه شهادة له وكرامة في حقه كما قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٤/ ٤٢) لكن الذي لا يثبت هو أن كون فاعل ذلك معاوية ﷺ أو ابنه يزيد أو أن يكون معلومًا بالتحديد والتعيين. (٢)

فصل في زوجات الحسن اللاتي لم يعلم عددهن وبيان أن هذه أسطورة يعتمد عليها في اتهام معاوية ﷺ بقتل الحسن عن طريق الاستعانة بإحدى زوجاته اللاتي لم يعلم عددهن، ولأنه كان صاحب ضرائر.

وأكتفي في إثبات بطلان ذلك بإيراد كل رواية ثم بيان بطلانها.

١ ـ الرواية الأولى: قال علي بن محمد المدائني: وكان الحسن أحصن تسعين امرأة. (٣)

٢ـ الرواية الثانية: قال عبد الله بن حسن: كان حسن بن علي قل ما يفارقه أربعه حرائر، وكان صاحب ضرائر، وكانت عنده ابنة منظور بن سيار الفزاري، وعنده امرأة من

---

(١) ولمزيد فائدة راجع كتاب: أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري للدكتور محمد نور ولي (ص ٣٦٧ - ٣٦٨) لتقف على الكم الهائل من الروايات المكذوبة على معاوية ﷺ من قبل الشيعة في قضية سم الحسن. . وكتاب: مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية للدكتور محمد بن عبد الهادي الشيباني (ص ١٢٠- ١٢٥). ويكفي أن أحد مؤرخيهم وهوابن رستم في كتابه: دلائل الإمامة (ص ٦١) قد بالغ في اتهام معاوية ﷺ، وادعى أنه سم الحسن سبعين مرة فلم يفعل فيه السم، ثم ساق خبرا طويلا ضمنه ما بذله معاوية لجعدة من الأموال والضياع لتسم الحسن، وغير ذلك من الأمور الباطلة.

(٢) نقلًا عن بحث بعنوان رد البهتان عن معاوية بن أبي سفيان لأبي عبد الله الذهبي

(٣) موضوع. رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٤٩) عن المدائني من كلامه ولم يسنده.

بني أسد من آل حزيم فطلقهما، وبعثت إلى كل واحدة منهما بعشرة آلاف درهم، وزقاق من عسل متعة وقال لرسوله يسار بن سعيد بن يسار، وهو مولاه: احفظ ما يقولان لك، فقالت الفزارية: بارك الله فيه، وجزاه خيرًا، وقالت الأسدية: متاع قليل من حبيب مفارق فرجع فأخبره فراجع الأسدية، وترك الفزارية(١)

٣ـ الرواية الثالثة: عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال علي: يا أهل الكوفة لا تزوجوا الحسن بن علي فإنه رجل مطلاق. فقال رجل من همدان: والله لنزوجنه فما رضي أمسك، وما كره طلق(٢)

٤ـ الرواية الرابعة: عن سويد بن غَفَلَة قال: كانت الخثعمية تحت الحسن بن علي فلما أن قتل علي وبويع الحسن بن علي دخل عليها الحسن بن علي فقالت له: ليهنئك الخلافة، فقال الحسن: أظهرت الشماتة بقتل علي أنت طالق ثلاثا، فتلفعت في ثوبها وقالت: والله ما أردت هذا فمكث حتى انقضت عدتها وتحولت، فبعث إليها الحسن بن علي ببقية من صداقها وبمتعة عشرين ألف درهم فلما جاءها الرسول ورأت المال قالت: متاع قليل من حبيب مفارق، فأخبر الرسول الحسن بن علي فبكى، وقال: لولا أني سمعت أبي يحدث عن رسول الله ﷺ جدي أنه قال: من طلق امرأته ثلاثًا لم تحل له حتى تنكح زوجًا غيره لراجعتها. (٣)

---

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٤٩) من طريق محمد بن عمر نا عبد الرحمن بن أبي الموال قال: سمعت عبد الله بن حسن به. وهذا إسناد فيه الواقدي وهو متروك كما سبق.

(٢) **مرسل**. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٧٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٤٩) من طريق حاتم بن إسماعيل، عن جعفر بن محمد، عن أبيه به وبنحوه.

وهذا إسناد صحيح ولكنه مرسل، محمد بن على هو أبو جعفر الباقر أرسل عن جديه الحسن والحسين وجده الأعلى علي، وانظر: جامع التحصيل (٤٠٨).

(٣) **ضعيف جدًّا**. أخرجه البيهقي (٧/ ٢٥٧)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٥٠) من طريق محمد بن إبراهيم بن زياد الطيالسي، محمد بن حميد الرازي، عن سلمة بن الفضل، عن عمرو بن أبي قيس، عن إبراهيم بن عبد الأعلى، عن سويد بن غفلة به. **قلت** وإسناده واهٍ. محمد بن إبراهيم بن زياد: متهم بوضع الحديث وانظر: اللسان ٥/ ٢٢. وشيخه محمد بن حميد وهو متفق على تضعيفه وانظر التهذيب، وشيخه سلمة بن الفضل: ضعيف وانظر ترجمته من التهذيب.

٥ـ الرواية الخامسة: عن ابن سيرين: أن الحسن بن علي طلق امرأة له وبعث إليها بعشرة ألف متعة لها فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق فبلغه قولها فراجعها. (١)

وهذا صحيح يدل على بطلان ما سبق لأمرين:

الأول: أنه أثبت أنه راجعها.

الثاني: أنه لو كان كما يقولون مطلاقًا لما راجعها، ولا تعلق بها.

٦ـ الرواية السادسة: عن الحسن بن سعد عن أبيه قال: متع الحسن بن علي امرأتين بعشرين ألف درهم وزقاق من عسل فقالت إحداهما، وأراها الحنفية: متاع قليل من حبيب مفارق. (٢)

وهذا أيضًا ضعيف، وربما يقوى بالذي قبله، وعلى فرض ذلك فهو لم يعارضه، ولم يوافق ما ادعوه من كونه مطلاقًا مزواجا في شيء وغاية ما فيه أنه ذكر أن الحسن متع امرأتين بكذا.

وأخرجه الدار قطني (٤/ ٣٠)، والبيهقي (٧/ ٣٣٦)، ومن طريق ابن عساكر (١٣/ ٢٥١)، والطبراني في الكبير (٢٧٥٧) من طريق محمد بن حميد الرازي نا سلمة بن الفضل، عن عمرو بن أبي قيس، عن إبراهيم بن عبد الأعلى، عن سويد بن غفلة، بنحوه وهذا إسناد ضعيف جدًّا لأجل محمد بن حميد الرازي، وشيخه، وشيخ شيخه، وقد سبقت ترجمتهم في الإسناد السابق.

وأخرجه الدارقطني ٤/ ٣١ من طريق عمرو بن شِمْر، عن عمران بن مسلم، وإبراهيم بن عبد الأعلى عن سويد بن غفلة به، وعمرو بن شمر هو: الجعفي الكوفي الشيعي روى عباس عن يحيى ليس بشيء، وقال الجوزجاني: زائغ كذاب، وقال ابن حبان: رافضي يشتم الصحابة؛ ويروي الموضوعات عن الثقات، وقال النسائي، والدار قطني، وغيرهما: متروك الحديث. اهـ من لسان الميزان (٤/ ٣٦٦)

(١) **إسناده صحيح**. أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١٧٦٣)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٤٤) من طريق هشيم قال: أخبرنا منصور – هو بن زاذان – عن ابن سيرين به. وإسناده صحيح.

(٢) **إسناده ضعيف**. أخرجه عبد الرزاق (٧/ ٧٣)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٣٨)، وابن عساكر في التاريخ (١٣/ ٢٥١)، وأخرجه البيهقي (٧/ ٢٤٤) من طريق الثوري، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، عن الحسن بن سعد، عن أبيه به. وفي إسناده سعد بن معبد مقبول من الثالثة كما في التقريب ت (٢٢٥٦)، وذكره ابن حبان في الثقات (٤/ ٢٩٨) وقال: روى عنه ابنه الحسن بن سعد. وعليه فهو مجهول، وهو يصلح شاهدًا لما تقدم.

٧ـ **الرواية السابعة**: عن محمد، قال: خطب الحسن بن علي إلى منظور بن سيار بن زبان الفزاري ابنته فقال: والله أني لأنكحك وإني لأعلم أنك على طلق ملق غير أنك أكرم العرب بيتًا وأكرمه نسبًا. (١)

٨ـ **الرواية الثامنة**: عن محمد بن عمر، قال حدثني علي بن عمر، عن أبيه، عن علي بن حسين، قال: كان حسن بن علي مطلاقًا للنساء، وكان لا يفارق امرأة إلا وهي تحبه. (٢)

ومن خلال ما مر نعلم أن الروايات التاريخية التي تشير إلى الأعداد الخيالية في زواج الحسن بن علي ﷺ لا تثبت من حيث الإسناد، وبالتالي لا تصلح للاعتماد عليها نظرًا للشبه، والطعون التي حامت حولها.

ويؤيد افتعال تلكم الكثرة أمور منها:

١ ـ إنها لو صحت لكان للحسن بن علي ﷺ من الأولاد جمع غفير يتناسب معها والحال الذي ذكر لها اثنان وعشرون ولدًا ما بين ذكر وأنثى، وهذا العدد يعتبر طبيعي بالنسبة لذلك العصر ويتناقض كليًا مع تلك الكثرة ولا يلتقي معها بصلة.

٢ ـ ومما يدل على وضع ذلك، ما روي أن أمير المؤمنين رضي الله عنه كان يصعد المنبر ويقول: لا تزوجوا الحسن فإنه مطلاق. فنهي أمير المؤمنين الناس عن تزويج ولده على المنبر لا يخلو من أمرين:

الأول: إما أن يكون قد نهى ولده عن ذلك فلم يستجب له حتى اضطر إلى الجهر به، وإلى نهي الناس عن تزويجه.

والثاني: وإما أن يكون ذلك النهي ابتداء من دون أن يعرف ولده الحسن بغض والده، وكراهية أبيه لذلك، وكلا الأمرين بعيدان كل البعد.

---

(١) **ضعيف**. أخرجه الطبراني (٣/ ٢٧)، ومن طريقه ابن عساكر (١٣/ ٢٥١) من طريق قريش بن أنس، عن ابن عون، عن ابن سيرين به. قال الهيثمي (٤/ ٦١٧): ورجاله ثقات إلا أن منظورًا الذي جرت معه القصة مجهول. وانظر: تهذيب الكمال (٢٨/ ٥٦١)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٨١)، والتاريخ الكبير (٨/ ٢٦)، والجرح والتعديل (٨/ ٤٠٥).

(٢) **ضعيف جدًا**. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٥٣) وفي إسناده محمد بن عمر الواقدي؛ متروك.

أما الأول: فهو بعيد لأن الحسن ﷺكان بارًا بأبيه، ولا يخالفه، ولا يعصي أمره.

وأما الثاني: فبعيد أيضًا لأن الأولى بأمير المؤمنين أن يعرّف ولده ببغضه وكراهته لذلك ولا يعلن ذلك على المنبر أمام الجماهير الحاشدة، مما يسبب اضطراب في العلاقات الأسرية بين الوالد وولده، **ويضاف إلى ذلك** أن الأمر إما أن يكون سائغًا شرعًا، أو ليس بسائغ فإن كان سائغًا فما معنى نهي أمير المؤمنين علي ﷺ، وإن لم يكن سائغًا، فكيف يرتكبه الحسن؟ إنا لا نشك في افتعال هذا الحديث ووضعه من خصوم الحسن بن علي ﷺليشوهوا بذلك سيرته العاطرة والتي توجت بمساعيه في وحدة الأمة، وهذه عادة الرواة الكذبة في تشويه سيرة المصلحين، وتاريخ الأمة.

٣ ـ ومما يؤيد افتعال تلك الكثرة لأزواجه ما روي أن الحسن بن علي ﷺلما وافاه الأجل المحتوم خرجت جمهرة من النسوة حافيات حاسرات خلف جنازته، وهن يقلن نحن أزواج الإمام الحسن. إن افتعال ذلك صريح واضح، فإنا لا نتصور ما يبرر خروج تلك الكوكبة من النسوة حافيات حاسرات، وهن يهتفن أمام الجماهير بأنهن زوجات الحسن، فإن كان الموجب لخروجهن إظهار الأسى والحزن، فما الموجب لهذا التعريف والسير في الموكب المزدحم بالرجال مع أنهن قد أمرن بالتستر وعدم الخروج من بيوتهن إن هذا الأثر، وأمثاله لا يصح، ولا يثبت من حيث الإسناد.

ومن الأخبار التي تدل على ذلك ما رواه محمد بن سيرين، أن الحسن ﷺتزوج بامرأة فبعث لها صداقًا مائة جارية مع كل جارية ألف درهم. ويستبعد أن يعطي الحسن بن علي ﷺ هذه الأموال الضخمة مهرًا لإحدى زوجاته، فإن ذلك لون من ألوان الإسراف، والتبذير وهو منهي عنه في الإسلام وبالأخص لو قلنا بأنه أحصن هذه الأعداد التي سبقت وسبق بيان وضعها، فهذا الحديث. ، وأمثاله من الموضوعات: تؤيد وضع كثرة الأزواج، وتزيد في الافتعال وضوحًا وجلاءً وعلى أي حال، فليس هناك دليل يثبت كثرة أزواج الحسن بن علي ﷺسوى تلكم الروايات، ونظرًا لما ورد عليها من الطعون فلا تصلح دليلًا للإثبات.

ولمعرفة كيف يستفيد الأعداء من الروايات الضعيفة والباطلة ننقل ما قاله المستشرق لامنس عن زواج الحسن بن علي ﷺ، وألصق به التهم وطعن برجاله وحماته وقد كتب عن أزواج الحسن بن علي ﷺما نصه: ولما تجاوز ـ يعني الحسن ـ الشباب، وقد أنفق خير سني شبابه في الزواج، والطلاق فأحصى له حوالي المائة زوجة، وألصقت به هذه الأخلاق السائبة لقب المطلاق، وأوقعت عليًا في خصومات عنيفة وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السرف، وقد خصص لكل من زوجاته مسكنًا ذا خدم وحشم، وهكذا نرى كيف يبعثر المال أيام خلافة علي التي اشتد عليها الفقر.

لقد اعتمد المستشرق الانجليزي لامنس في قوله: إن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺكان كثير الزواج والطلاق على روايات موضوعة، وآثار واهية، وزاد عليها- لامنس - فذكر من البهتان، والأكاذيب بما لم يقل به أحد غيره فقد قال:

١ ـ إنه ألقى أباه في خصومات عنيفة بسبب كثرة زواجه وطلاقه ولم يشر أحد ممن ترجم لأمير المؤمنين علي أو الحسن- رضي الله عنهما- إلى تلك الخصومات العنيفة التي زعمها المستشرق لامنس.

٢ ـ وذكر أن أمير المؤمنين الحسن بن علي ﷺ خصص لكل من زوجاته مسكنًا ذا خدم، وحشم مع أن جميع المؤرخين الذين اطلعت عليهم لم ينقلوا ذلك، وهذا من الكذب السافر والافتراء المحض.[1]

وأما قصة دفنه وما جرى فيها مما نسب إلى معاوية ﷺ من منع دفنه بالقوة عند قبر رسول الله ﷺ.

وإليك هذه الروايات بأسانيدها محكوما عليها صحة وضعفا مع التوجيه.

الرواية الأولى: عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قال الحسن: حين حضرته الوفاة: ادفنوني عند قبر رسول ﷺ إلا أن تخافوا أن يكون في ذلك شر، فإن خفتم الشر فادفنوني عند أمي.

---

(١) هذه الفقرة الأخيرة نقلا عن كتاب الحسن بن علي ﷺ للصلابي ص (٢٨-٣٤) وانظر: دائرة المعارف (٧/ ٤٠٠).

وتوفي فلما أرادوا دفنه أبى ذلك مروان وقال: لا يدفن عثمان في حش كوكب ويدفن الحسن ههنا. فاجتمع بنو هاشم وبنو أمية فأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم، وجاؤوا بالسلاح فقال أبو هريرة لمروان: يا مروان، أتمنع الحسن أن يدفن في هذا الموضع وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول له ولأخيه حسين: (**هما سيدا شباب أهل الجنة**)؟ فقال مروان: دعنا عنك، لقد ضاع حديث رسول الله إن كان لا يحفظه غيرك، وغير أبي سعيد الخدري إنما أسلمت أيام خيبر، قال: صدقت، أسلمت أيام خيبر، إنما لزمت رسول الله ﷺ فلم أكن أفارقه، وكنت أسأله وعنيت بذلك حتى علمت وعرفت من أحب ومن أبغض ومن قرب ومن أبعد، ومن أقر ومن نفى، ومن دعا له ومن لعنه، فلما رأت عائشة السلاح والرجال، وخافت أن يعظم الشر بينهم، وتسفك الدماء قالت: البيت بيتي، ولا آذن أن يدفن فيه أحد.

وقال محمد بن علي لأخيه: يا أخي إنه لو أوصى أن يدفن لدفناه أو نموت قبل ذلك، ولكنه قد استثنى فقال: إلا أن تخافوا الشر، فأي شر أشد مما ترى؟ فدفن بالبقيع إلى جنب أمه. [1]

الرواية الثانية: ويقال إن الحسن أوصى أن يدفن مع النبي ﷺ فأظهر الحسين ذلك قبل موت الحسن، فأنكره مروان بن الحكم وكتب بقول الحسين إلى معاوية، فكتب إليه معاوية: إذا مات الحسن فامنع من ذلك أشد المنع كما منعنا من دفن عثمان مع النبي ﷺ.

فأتى الحسين الحسن فأخبره بذلك فقال: يا أخي اجتنبت القتال في حياتي، أفتريد أن يكون ذلك عند سريري؟ فضمن له ألا يفعل. [2]

---

(١) ضعيف. أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٣٨٩) من طريق حفص بن عمر الدوري المقرئ، عن عباد بن عباد، عن هشام به. وإسناده ضعيف لأجل حفص بن عمر الدوري قال الدارقطني: ضعيف. تهذيب التهذيب (٢/ ٣٥١) يعني في الحديث أما في القرآن فهو إمام. وفيه بيان السبب الذي قالت لأجله عائشة هذه المقالة على فرض صحتها وهو أنها خافت الشر بينهم وعلمت أن آل الحسن لايقتحمون بيتها لو منعتهم، فقالت هذه المقالة حقنًا للدماء وتحصيلًا لأعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفعًا لأعظم الضررين بارتكاب أخفهما ثم هي بذلك تكون قد عملت بوصية الحسن ﷺ كما هو في الرواية.

(٢) وهذا ذكره البلاذري من غير إسناد وصدره بقوله: ويقال. وهذا لفظ تمريض للإشعار بأن إسناده ضعيف.

الرواية الثالثة: عن أبي صالح قال: قدم معاوية مكة فلقيه ابن عباس فقال له معاوية: عجبًا للحسن شرب عسلة طائفية فما روته، فمات منها، فقال ابن عباس: لئن هلك الحسن فلن ينسأ في أجلك. قال: وأنت اليوم سيد قومك. قال: أما ما بقي أبو عبد الله فلا. (١)

الرواية الرابعة: عن محمد بن إسماعيل، عن فائد مولى عباد، وحدثنا حرمي، عن زبير، فقال: عبادك وهو الصواب، وقال أحمد بن سعيد هو عبادك ولكن هكذا قال يحيى بن عبيد الله بن علي، أخبره وغيره أخبره. إن الحسن بن علي أرسل إلى عائشة أن تأذن له أن يدفن مع النبي ﷺ فقالت: نعم ما كان بقى إلا موضع قبر واحد، فلما سمعتْ بذلك بنو أمية اشتملوا بالسلاح هم وبنو هاشم للقتال، وقالت بنو أمية: والله لا يدفن مع النبي ﷺ أبدًا، فبلغ ذلك الحسن فأرسل إلى أهله أما إذا كان هذا فلا حاجة لي فيه، ادفنوني إلى جانب أمي فاطمة، فدفن إلى جنب أمه فاطمة رضي الله عنها. قال يحيى بن الحسن: وسمعت علي بن طاهر بن زيد يقول: لما أرادوا دفنه ركبت عائشة بغلا واستنفرت بني أمية مروان بن الحكم، ومن كان هناك منهم ومن حشمهم، وهو القائل: فيوما على بغل ويوما على جمل(٢)

الرواية الخامسة: وأوردوا هذه الرواية في قصة ركوب البغلة بشكل آخر ثم قالوا بعدها: وربما كان هناك بغلتان وها هي:

عن عبد الله بن كثير بن جعفر قال: اقتتل غلمان عبد الله بن العباس، وغلمان عائشة، فأخبرت عائشة بذلك فخرجت في هودج على بغلة لها، فلقيها ابن أبي عتيق: فقال أي أمي، جعلني الله فداك أين تريدين؟! قالت: بلغني أن غلماني، وغلمان ابن عباس اقتتلوا،

---

(١) موضوع. أخرجه البلاذري (١/ ٣٩٠) من طريق عباس بن هشام، عن أبيه، عن جده، عن أبي صالح به.
وفي إسناده عباس بن هشام بن الكلبي، وأبوه، وجده وهما – هشام بن محمد الكلبي وأبوه- رافضيان كذابان قد سبقت ترجمتها

(٢) أخرجه أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين (١/ ٢٠) فقال: أخبرني أحمد بن سعيد، قال: حدثنا يحيى بن الحسن، عن الزبير بن بكار، عن محمد بن إسماعيل به.
وفي إسناده أربعة ضعفاء وهم: أبو الفرج شيعي معروف، وابن عقدة أحمد بن سعيد: رافضي كان يملي مثالب الصحابة متهم، ويحيى بن الحسن: رافضي، ومحمد بن إسماعيل منكر الحديث. وتقدمت تراجمهم قبل ذلك.

فركبت لأصلح بينهم، فقال ابن عتيق: ما يملك أن لم ترجعي، فقالت: يا بني ما حملك، وقال ابن النقور: ما الذي حملك على هذا؟ قال: ما انقضى عنا يوم الجمل حتى تريدين أن تأتينا بيوم البغلة.(١)

والجواب عن هذا من وجوه: ١-أن هذه القصة لا أصل لها

٢- قال الجاحظ: وهذا الحديث من توليد الروافض، فأما عائشة فكان أمرها أنفذ من أن تحتاج أن تركب وأي شيء يتفاقم حتى تحتاج عائشة فيه إلى الركوب ثم لا يعرف خبره.(٢)

٣- قال الحصري: وهذه حكاية أوردها الشرقي لغله ودغله على وجه النادرة؛ لتحفظ، ويضحك منها، ويتعلق بها من ضعف عمله، وقل عزمه؛ فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لعرض أم المؤمنين.(٣)

وخلاصة القول أنه لايصح مما نسب إلى معاوية ﷺفي أمر دفن الحسن شئ والحمد لله فهذه روايات قد توارد عليها الكذابون مع اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم.

الشبهة السادسة: شبهة طلب معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ للخلافة.

وقد شاع بين الناس قديمًا وحديثًا أن الخلاف بين علي، ومعاوية رضي الله عنهما كان سببه طمع معاوية في الخلافة، وإن خروج معاوية على عليّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام.

لكن الصحيح أن الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان حول مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعلي قبل إيقاع القصاص على قتلة عثمان أو بعده، وليس هذا من أمر الخلافة في

---

(١) **لا أصل له**. أخرجه ابن عساكر في التاريخ (٣٢/ ٢٤٠) من طريق الزبير بن بكار، عن عبد الله بن كثير بن جعفر به. وعبد الله بن كثير بن جعفر قال الحافظ: مقبول من الحادية عشرة وعليه فهذا كلام لا إسناد له أصلًا حتى ينظر فيه، فبينه وبين القصة مفاوز.

(٢) محاضرات الأدباء (باب وصف البغل مدحا وذمًا والاعتذار لركوبه)

(٣) جمع الجواهر في الملح والنوادر بابتدرج الكتاب ولذة الانتقال من حال إلى حال

شيء. فقد كان رأي معاوية ﷺ، ومن حوله من أهل الشام أن يقتص علي ﷺ من قتلة عثمان ثم يدخلوا بعد ذلك في البيعة.

يقول إمام الحرمين الجويني في لمع الأدلة: إن معاوية وإن قاتل عليًا فإنه لا ينكر إمامته ولا يدعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظنًا منه أنه مصيب، وكان مخطئًا. (١)

أما شيخ الإسلام فيقول: بأن معاوية لم يدّع الخلافة و لم يبايع له بها حتى قتل علي، فلم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحقها، وكان يقر بذلك لمن يسأله. (٢)

ويقول ابن حجر الهيتمي: و من اعتقاد أهل السنة، والجماعة أن ما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما، لم يكن لمنازعة معاوية لعلي في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعلي. . فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية ومن معه طلبوا من علي تسليم قتلة عثمان إليهم لكون معاوية ابن عمه، فامتنع علي. (٣)

وهكذا تتضافر الروايات و تشير إلى أن معاوية ﷺ خرج للمطالبة بدم عثمان، وانه صرح بدخوله في طاعة علي ﷺ إذا أقيم الحد على قتلة عثمان أما وجه الخطأ في موقفه من مقتل عثمان ﷺفيظهر في رفضه أن يبايع لعلي ﷺ قبل مبادرته إلى القصاص من قتلة عثمان، بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم، مع العلم أن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، بل يدخل في الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم و يطلب الحق عنده.

ويمكن أن نقول إن معاوية ﷺ كان مجتهدًا متأولًا يغلب على ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيبًا في أهل الشام بعد أن جمعهم، وذكّرهم أنه ولي عثمان -ابن عمه – وقد قتل مظلومًا، وقرأ عليهم الآية الكريمة ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٣).

(١) لمع الأدلة في عقائد أهل السنة للجويني صـ ١١٥.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٢).

(٣) الصواعق المحرقة (ص ٣٢٥).

ثم قال: أنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان، فقام أهل الشام جميعهم، وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أويفني الله أرواحهم. [1]

الشبهة السابعة: أخذ ولاية العهد ليزيد وقد اشتهر قبل ذلك بشرب الخمر، والسكر وقد كان في المسلمين من هو أولى منه.

قال عبد القادر عودة: وأقام معاوية أمر الأمة الإسلامية على المحجات، والظلم، وإهدار الحقوق، وقضى على الشورى وعطل قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨) وحوّل الحكم العادل النظيف إلى حكم قذر قائم على الأهواء والشهوات، ووجه الناس إلى النفاق والذلة والصغار، ولا شك فيه أن كل من جاؤوا بعده إلى عصرنا هذا قد عمل بسنته وتثبتوا ببدعته حاشا عمر بن عبد العزيز، فعلى معاوية وقد استن هذه السنة السيئة إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة[2]

والجواب أن استخلاف يزيد لا لوم فيه على معاوية ﵁ وبيان ذلك من وجوه

الوجه الأول: إن تولية يزيد أمر قدري وهو من دلائل نبوة النبي ﷺ.

الوجه الثاني: نشأة يزيد بن معاوية.

الوجه الثالث: أنه لم يفعل ذلك إلا بعد موت كبار الصحابة والحسن بن علي ﵄.

الوجه الرابع: أنه فعل ذلك بعدما ظهرت كفاءة يزيد في غزو القسطنطينية.

الوجه الخامس: أن من اعترض من الصحابة على معاوية في ذلك لم يذكر طعنًا في يزيد بمثل ما طعن فيه هؤلاء من شرب الخمر، وترك الصلاة.

الوجه السادس: رد ابن عمر على من خلع يزيد، و شهادة محمد بن علي ليزيد بحسن السيرة.

الوجه السابع: ذكر الأسباب التي دفعت معاوية إلى هذا.

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢/ ١٥٠-١٥٢)، وقد سبق بيان هذا بالتفصيل في الحديث عن موقف الصحابة في الجمل وصفين في هذه الموسوعة.

(٢) الإسلام وأوضاعنا السياسية ص (١٥٩) نقلا عن كتاب الدولة الأموية للصلابي (١/ ٤٥٩).

الوجه الثامن: أن معاوية إمام مجتهد وكان يرى صحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وغاية ما في الأمر أن يكون أخطأ، أو أصاب.

الوجه التاسع: شهادة محمد بن علي ليزيد بحسن السيرة. ، وما ورد عن ابن عمر في بيعته.

الوجه العاشر: بطلان الروايات التي تقول: بأنه سكيرًا خميرًا.

الوجه الحادي عشر: بطلان الروايات التي تقول بأن معاوية كان صاحب هوى في يزيد.

الوجه الثاني عشر: أن دولة معاوية ﷺلم تقم على الظلم، وتعطيل الشرع كما ادعى البعض.

الوجه الثالث عشر: أن معاوية ﷺ كغيره من الصحابة ليس معصومًا من الخطأ وهذه الأمور التي وقعت من يزيد كشرب الخمر وغيره - على فرض صحتها -لم يكن أبوه يعلم بها.

واليك التفصيل

الوجه الأول: أن تولية يزيد أمر قدري وهو من دلائل نبوة النبيﷺ

وبيان ذلك أنه ما من شئ يقع إلا بقدر كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر: ٤٩) وتولية يزيد بهذا الشكل، وما ترتب عليه من خلاف، وما ترتب على هذا الخلاف من حوادث عظيمة لا شك أنه من المصائب التي أصابت الأمة، وكما هو معلوم أن التعويل على القدر يكون في المصائب لا في المعائب وفي ذلك أدلة منها:

١-عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لواني فعلت كان كذا، وكذا، ولكن قل قدر الله، وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان".** [1].

وفي لفظ: **"فإن غلبك أمر فقل قدر الله، وما شاء صنع، وإياك، واللو فإن اللو يفتح من الشيطان"**[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٦)

فنحن لانشغل أنفسنا بلوم معاوية على أمر قدره الله ﷻ، وقد وقع فيه معاوية باجتهاد لا بهوى.

٢- عن أبي هريرة ﷺقال: : قال رسول الله ﷺ: " احتج آدم، وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق ". فقال رسول الله ﷺ: " فحج آدم موسى مرتين ".(١)

وآدم عليه السلام إنما حج موسى لأن موسى لامه لما أصابه من المصيبة، لم يلمه لحق الله تعالى في الذنب فإن آدم تاب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له بل قال له: بماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة قال: تلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين سنة فحج آدم موسى، وكذا يؤمر كل من أصابه مصيبة من جهة أبيه، وغيره أن يسلم لقدر الله كما قال تعالى﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى، ويسلم. (٢)

والإنسان ليس مأمورًا أن ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال، و لكن عندما يجرى عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم أصبر عليه وارض وسلم قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (التغابن: ١١). (٣)

وكذلك نحن نسلم في هذا الأمر لقدر الله ﷻ كما سلم جمهور الصحابة، وأما معاوية رضي الله عنه فلو سلم أن ما فعل خطأ محض لكانت مصيبة كما قدمنا، وعذره فيها كعذر آدم عليه السلام.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٨)

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه الله (٢/ ١٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ١٧٨).

وإذا كان آدم قد تاب. ، وتاب الله عليه الله واجتباه: فإن معاوية ﷺ لو صح عنده ما ينسب إلى يزيد ما فعل ولو فرض أنه عاش ورأى ما حدث في أيامه واستطاع عزله لعزله وهذا ما نظنه بمعاوية ﷺ

وواضح أيضا من هذا الحديث أن آدم احتج بالقدر على المصيبة لا على المخالفة لأن موسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله فاجتباه ربه بعده وهداه واصطفاه وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته بل إن ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله، وإنما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل فذكر له آدم أن هذا كان أمرًا مقدرًا لا بد من كونه، والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب أي أتلومني على مصيبة قدرت علي وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا والمصائب التي تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر، فإنَّ هذا هو الذي ينفعهم، وأما لومهم لمن كان سببًا فيها فلا فائدة لهم في ذلك وكذلك ما فاتهم من الأمور التي تنفعهم يؤمرون في ذلك بالنظر إلى القدر، وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه فما جرى به القدر من فوت منفعة لهم أو حصول مضرة لهم فلينظروا في ذلك إلى القدر وأما ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا في التوبة من المعاصي والإصلاح في المستقبل فإن هذا الأمر ينفعهم وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم[1] ونفس هذا الكلام نحن نقول به في معاوية ﷺ.

وأيضا فإن الاحتجاج بالقدر بعد رفع اللوم جائز.

قال ابن القيم رحمه الله: الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضر في موضع، ويضر في موضع فينفع إذا احتج به بعد وقوعه، والتوبة منه، وترك معاودته كما فعل آدم فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد، ومعرفة أسماء الرب وصفاته، وذكرها ما ينتفع به الذاكر، والسامع لأنه لا يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا، ولا يبطل به شريعة بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة يوضحه أن آدم قال لموسى أتلومني على أن عملت عملًا كان مكتوبا علي قبل أن أخلق فإذا أذنب الرجل ذنبا ثم تاب منه توبة وزال أمره حتى

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٠٥)، وشفاء العليل صـ (١٧، ١٨).

كأن لم يكن فأنَّبه مؤنِّب عليه ولامه، حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول هذا أمر كان قد قدر على قبل أن أخلق فإنه لم يدفع بالقدر حقا، ولا ذكره حجة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به، وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل بأن يرتكب فعلًا محرمًا أو يترك واجبًا فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره فيبطل بالاحتجاج به حقًا ويرتكب باطلًا كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله فقالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا. . . ثم قال: ونكتة المسألة أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعا فالاحتجاج بالقدر باطل. [(١)]

ونحن نقول إن اللوم مرفوع عن معاوية من وجهين:

الأول: أنه مجتهد لم يعلم أنه أخطا ولو علم لرجع.

الثاني: أنه مات فما فائدة اللوم بعدما مات؟ فلم يكن أمامنا إلا التسليم بالقدر.

٣-ومما يؤكد أن الأمر قدري ولابد من حدوثه إخبار النبي ﷺ به على وجه العموم كما في حديث سفينة ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ: **"خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك من يشاء أو ملكه من يشاء"**. [(٢)]

وعن النعمان بن بشير قال ﷺ: **"تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا**

(١) شفاء العليل (١٨).

(٢) *صحيح*. أخرجه أبو داود (٤٦٤٧) من طريق العوام بن حوشب و (٤٦٤٦) من طريق عبد الوارث بن سعيد، والترمذي (٢٢٢٦)، وأحمد (٥/ ٢٢١)، والطيالسي في مسنده (١٠١٧) من طريق حشرج بن نباتة، وابن الجعد في مسنده (٣٣٢٣) عن حماد بن سلمة، ومن طريقه ابن حبان (١٥/ ٣٩٢) جميعهم عن سعيد بن جهمان عن سفينة به. وسعيد بن جهمان: قال ابن معين، وأبو داود، وأحمد: ثقة. ، وقال النسائي: لابأس به.

شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت"[(١)].

الوجه الثاني: نشأة يزيد بن معاوية.

١ـ نشأته نشأة سليمة في البادية ثم تحت رعاية أبيه: حيث عمل معاوية رضي الله عنه جهده من البداية في سبيل إعداد ولده يزيد، وتنشئته التنشئة الصحيحة، ليشب عليها عندما يكبر، فسمح لمطلقته ميسون بنت بحدل الكلبية، وكانت من الأعراب، وكانت من نسب حسيب، ومنها رزق بابنه يزيد[(٢)] من أن تتولى تربيته في فترة طفولته، وأحب معاوية رضي الله عنه أن يشب يزيد على حياة الشدة، والفصاحة، فألحقه بأهل أمه ليتربى على فنون الفروسية، ويتحلى بشمائل النخوة والشهامة والكرم والمروءة، إذ كان البدو أشد تعلقًا بهذه التقاليد كما أجبر معاوية ولده يزيد على الإقامة في البادية، وذلك لكي يكتسب قدرًا من الفصاحة في اللغة، كما هو حال العرب في ذلك الوقت.

وعندما رجع يزيد من البادية، نشأ وتربى تحت إشراف والده، ونحن نعلم أن معاوية رضي الله عنه كان من رواة الحديث[(٣)]، فروى يزيد بعد ذلك عن والده هذه الأحاديث، وبعض أخبار أهل العلم. مثل حديث: من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، وحديث آخر في الوضوء، وروى عنه ابنه خالد، وعبد الملك بن مروان، وقد عدّه أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة، وهي الطبقة العليا. [(٤)]

---

(١) **صحيح لغيره**. أخرجه أخرجه الطيالسى (٤٣٨)، وأحمد (٤/ ٢٧٣)، قال أبوداود: حدثني داود بن إبراهيم الواسطي وكان ثقة قال حدثني حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير به.

ورجاله ثقات سوى حبيب بن سالم وقد قال الحافظ: لا بأس به.

قال الألباني: من طريق أحمد رواه الحافظ العراقي في "محجة القرب إلى محبة العرب". (١٧/ ٢) وقال: هذا حديث صحيح، وإبراهيم بن داود الواسطي وثقه أبو داود الطيالسي، وابن حبان، وباقي رجاله محتج بهم في الصحيح. اهـ من الصحيحة (٥) وصححه هناك.

(٢) انظر: ترجمتها في تاريخ دمشق لابن عساكر تراجم النساء (٧٠/ ١٣٠).

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر (١٠/ ٢٠٧).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ٢٢٧: ٢٢٦).

٢-و قد اختار معاوية دَغْفَل بن حنظلة السدوسي الشيباني (ت٦٥هـ) مؤدبًا لولده يزيد، و كان دغفل علَّامة بأنساب العرب، وخاصة نسب قريش، و كذلك عارفًا بآداب اللغة العربية.

فعن عبد الله بن بريدة أن معاوية ﷺ أرسل إلى دغفل فسأله عن العربية وعن أنساب الناس وسأله عن النجوم فإذا عالم فقال: يا دغفل، من أين حفظت هذا؟ فقال: حفظت هذا بلسان سؤول وقلب عقول، وإن آفة العلم النسيان قال: فاذهب بيزيد فعلِّمه العربية، وأنساب قريش والنجوم[1].

الوجه الثالث: أنه لم يفعل ذلك إلا بعد موت كبار الصحابة كالعشرة المبشرين بالجنة، والحسن بن علي ﷺ.

وهذا يبدو من خلال معرفة تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد.

ولقد اختلفت المصادر حول تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد على النحو التالي:

١ ـ ذكر خليفة بن خياط[2]، والذهبي[3]، أنه كان في سنة ٥١هـ.

٢ ـ ذكر ابن عبد ربه[4]، أن ذلك كان في سنة ٥٥هـ.

٣ ـ ذكر الطبري[5]، وابن الجوزي[6]، وابن الأثير[7]، وابن كثير[8]، أن ذلك كان في سنة ٥٦هـ هذا وبعد دراسة التواريخ السابقة يتضح عدم صحة ترشيح يزيد بن معاوية سنة ٥١هـ للأسباب التالية:

---

(١) **لا بأس به**. أخرجه الطبراني (٤/ ٢٢٦) من طريق محمد بن عبد الله الحضرمي نا شيبان بن فروخ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني من طريق هدبة بن خالد (١٦٧٤) كلاهما – هدبة وشيبان بن فروخ – عن أبي هلال الراسبي: ثنا عبد الله بن بريدة أن معاوية ﷺ به. وإسناده فيه أبو هلال الراسبي، قال ابن معين: ليس به بأس، وقال أبو داود: ثقة، وضعفه آخرون (تهذيب التهذيب ٩/ ١٧٣)، وانظر: مواقف المعارضة في خلافة يزيد ص (٤٣).

(٢) تاريخ خليفة (١/ ١٥٩).

(٣) تاريخ الإسلام (عهد معاوية).

(٤) العقد الفريد (٤/ ٣٣٨) طلب معاوية البيعة ليزيد وفيه أنه أظهر ذلك سنة (٥٣) وقام به في سنة (٥٥).

(٥) تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٧).

(٦) المنتظم أحداث سنة (٥٦).

(٧) الكامل لابن الأثير أحداث سنة (٥٦).

(٨) البداية والنهاية (٨/ ٨٠٩) أحداث سنة (٥٦).

أ ـ أن وفاة الحسن بن علي ﷺ كانت في السنة نفسها أي في سنة ٥١هـ واتخاذ قرار ترشيح يحتاج لوقت من طرف معاوية لكي يدرسه ويستشير فيه، كما أنه ليس من الحكمة إعلان قرار الترشيح بعد وفاة الحسن ﷺ مباشرة.

قال ابن كثير: وقد كان معاوية لما صالح الحسن عهد للحسن بالأمر من بعده فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية ورأى أنه لذلك أهلًا، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفتهم بالحروب، وترتيب الملك، والقيام بأبهته، وكان ظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى، ولهذا قال ابن عمر فيما خاطبه به: إني خفت أن أذر الرعية من بعدى كالغنم المطيرة ليس لها راع، فقال له ابن عمر: إذا بايعه الناس كلهم بايعته ولو كان عبدًا مجدع الأطراف. (١)

ب ـ قتل حُجْر بن عدي ﷺفي السنة نفسها، أي في سنة ٥١هـ، لذا فإنه أيضًا ليس من الحكمة إعلان ترشيح يزيد بن معاوية في هذه السنة، لأن الأنفُس لم تكن مهيأة لمثل هذه القرارات الجريئة، التي يعتبر توقيت إعلانها على الناس من أهم عوامل نجاحها.

جـ ـ إن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد كان أثناء ولاية مروان بن الحكم على الحجاز، وهي بلا شك الفترة الثانية من ولاية مروان بن الحكم، والتي امتدت من سنة ٥٤هـ ـ٥٧ هـ وذلك أن الفترة الأولى من ولاية مروان بن الحكم كانت من سنة ٤٢ - ٤٩هـ. (٢)

بعد ذلك يتبقى تاريخان لإعلان ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد وهما ٥٥هـ وسنة ٥٦هـ وهذان التاريخان يكمل أحدهما الآخر كما سيتضح لاحقًا.

ولكن يرد في هذا المقام سؤال حول السبب الذي جعل معاوية ﷺيؤخر ترشيح ابنه يزيد وليًا للعهد على سنة ٥٥هـ أو سنة ٥٦هـ مع أن الحسن بن علي ﷺ توفي سنة ٥١هـ، وجواب هذا

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٨٠).

(٢) فتح الباري (٨/ ٤٣٩)، نقلًا عن الدولة الأموية للصلابي (١/ ٤٤٣).

السؤال يكمن في معرفة أهم حدث وقع في سنة ٥٥هـ حيث توفي في هذه السنة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، آخر الستة الذين رضيهم، ورشحهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخلافة من بعده. (١)

الوجه الرابع: أنه فعل ذلك بعدما ظهرت كفاءة يزيد في غزو القسطنينية.

عن أم حرام: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا. قالت أم حرام قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبي ﷺ: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا. (٢)

قال ابن حجر: قال المهلب: في هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر، ومنقبة لولده يزيد لأنه أول من غزا مدينة قيصر. وتعقبه ابن التين، وابن المنير بما حاصله: أنه لا يلزم من دخوله في ذلك العموم أن لا يخرج بدليل خاص إذ لا يختلف أهل العلم أن قوله ﷺ مغفور لهم مشروط بأن يكونوا من أهل المغفرة حتى لو ارتد واحد ممن غزاها بعد ذلك لم يدخل في ذلك العموم اتفاقًا، فدل على أن المراد مغفور لمن وجد شرط المغفرة فيه منهم، وأما قول ابن التين يحتمل أن يكون لم يحضر مع الجيش فمردود إلا أن يريد لم يباشر القتال فيمكن، فإنه كان أمير ذلك الجيش بالاتفاق، وجوز بعضهم أن المراد بمدينة قيصر المدينة التي كان بها يوم قال النبي ﷺ تلك المقالة، وهي حمص، وكانت دار مملكته إذ ذاك، وهذا يندفع بأن في الحديث أن الذين يغزون البحر قبل ذلك، وأن أم حرام فيهم، وحمص كانت قد فتحت قبل الغزوة التي كانت فيها أم حرام، والله أعلم. ، وكانت غزوة يزيد المذكورة في سنة اثنتين وخمسين من الهجرة وفي تلك الغزاة مات أبو أيوب الأنصاري فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية وأن يعفى قبره ففعل به ذلك وقوله قد أوجبوا أي

(١) انظر: الدولة الأموية للصلابي (١/ ٤٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦).

فعلوا فعلًا وجبت لهم به الجنة[١] وقال البدر العيني: والأصح أن يزيد بن معاوية غزا القسطنطينية في سنة اثنتين وخمسين[٢]

---

(١) فتح الباري ٦/ ١٠٣.

(٢) عمدة القاري ١٤/ ١٩٨، وانظر: فيض القدير (٣/ ٨٤)، وقال عندها: قوله: (وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر) ملك الروم يعني: القسطنطينية أو المراد مدينته التي كان بها يوم قال النبي ﷺ ذلك، وهي حمص، وكانت دار مملكته إذ ذاك (مغفور لهم) لا يلزم منه كون يزيد بن معاوية مغفورًا له لكونه منهم إذ الغفران مشروط بكون الإنسان من أهل المغفرة ويزيد ليس كذلك لخروجه بدليل خاص، ويلزم من الجمود على العموم أن من ارتد ممن غزاها مغفور له، وقد أطلق جمع محققون حِلّ لعن يزيد به حتى قال التفتازاني: الحق أن رضى يزيد بقتل الحسين وإهانته أهل البيت مما تواتر معناه، وإن كان تفاصيله آحادًا فنحن لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه لعنة الله عليه، وعلى أنصاره، وأعوانه. قال الزين العراقي: وقوله بل في إيمانه أي: بل لا يتوقف في عدم إيمانه بقرينة ما قبله وما بعده. اهـ

قال الباحث: وقولهم الغفران مشروط بكون الإنسان من أهل المغفرة ويزيد ليس كذلك لخروجه بدليل خاص. مبني على اعتقادهم كفر يزيد وهذا باطل ولو صح أنه رضي بقتل الحسين فهل صح أنه لم يتب، ولم يندم على ذلك؟ وقد كان وحشي قاتل حمزة وهند بقرت بطنه وأبو سفيان قائد المشركين يومئذ وخالد الحربة في هزيمة المسلمين حتى كاد يقتل رسول الله ﷺ ثم علمنا بعد ذلك توبتهم، ولم يقل أحد بأن توبتهم لم تقبل لأنهم فعلو ذلك. ويزيد لم يثبت كفره ولا زندقته بل لم يصح أنه رضي بقتل الحسين، فأين التواتر على أنه قد صح عنه الرضا؟! وغاية ما في الأمر أنه لم ينتصر للحسين، ولم يقتل قاتله، ولم يعزله وهذا خطأ كبير، ولكن لا يصل إلى الكفر والزندقة وحل لعنه، وهذا بحث مختصر في هذه المسألة؛ **قال ابن تيمية رحمه الله**: الذي يُجَوِّز لعن يزيد، لابد له من إثبات أمرين

الأول: أنه كان من الفاسقين الظالمين الذين تباح لعنتهم، وأنه مات مصرًّا على ذلك.

والثاني: أن لعنة المعيّن من هؤلاء جائزة. وقد استدل القوم على جواز لعنه بأمور،

الأول منها: أنهم استدلوا على جواز لعنه بأنه ظالم، فيدخل في قوله تعالى ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

والجواب: أن هذه آية عامة كآيات الوعيد، بمنزلة قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾ وهذا يقتضي أن هذا الذنب سبب للعن، والعذاب، لكن قد يرتفع موجبه لمعارض راجح، إما توبة، وإما حسنات ماحية، وإما مصائب مكفّرة، وإما شفاعة شفيع مطاع، ومنها رحمة أرحم الراحمين.

فمن أين يعلم أن يزيدًا لم يتب من هذا، ولم يستغفر الله منه؟ أو لم تكن له حسنات ماحية للسيئات؟ أو لم يبتلى بمصائب، وبلاء من الدنيا تكفر عنه؟ وأن الله لا يغفر له ذلك مع قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: "

أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ، مَغْفُورٌ لهُمْ"، وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد، والجيش عدد معين لا مطلق، وشمول المغفرة لآحاد هذا الجيش أقوى من شمول اللعنة لكل واحد واحد من الظالمين فإن هذا أخص، والجيش معينون

ويقال إن يزيدًا إنما غزا القسطنطينية لأجل هذا الحديث، ونحن نعلم أن أكثر المسلمين لا بد لهم من ظلم فإن فتح هذا الباب ساغ أن يلعن أكثر موتى المسلمين والله تعالى أمر بالصلاة على موتى المسلمين لم يأمر بلعنتهم والآية لا تدل على لعن المعين ولو كان كل ذنب لعن فاعله يلعن المعين الذي فعله لَلُعِنَ جمهور الناس، وهذا بمنزلة الوعيد المطلق لا يستلزم ثبوته في حق المعين إلا إذا وجدت شروطه، وانتفت موانعه، وكذلك من ظلم قرابة له لا سيما وبينه، وبينه عدة آباء أيلعنه بعينه ثم إذا لعن هؤلاء لعن كل من شمله ألفاظه، وحينئذ فيلعن جمهور المسلمين اهـ من منهاج السنة (٤/ ٥٧١-٥٧٤)

ومنها: استدلوا على لعنه بأنه كان سببًا في قتل الحسين ﷺ

الرد على هذه الشبهة: الصواب أنه لم يكن ليزيد بن معاوية يد في قتل الحسين ﷺ ابتداء، وهذا ليس دفاعًا عن شخص يزيد لكنه قول الحقيقة، فقد أرسل يزيد عبيد الله بن زياد ليمنع وصول الحسين إلى الكوفة، ولم يأمر بقتله، بل الحسين نَفْسُه كان حسن الظن بيزيد حتى قال دعوني أذهب إلى يزيد فأضع يدي في يده.

قال ابن الصلاح – رحمه الله -: لم يصح عندنا أنه أمر بقتله ﷺ، والمحفوظ أن الآمر بقتاله المفضي إلى قتله كرمه الله إنما هو عبيد الله بن زياد والي العراق إذ ذاك. ، والناس في يزيد ثلاث فرق:

فرقة تحبه وتتولاه. ، وفرقة أخرى تسبه، وتلعنه. ، وفرقة متوسطة في ذلك لا تتولاه، ولا تلعنه، وهذه الفرقة هي المصيبة ومذهبها اللائق بمن يعرف سير الماضين، ويعلم قواعد الشريعة الطاهرة جعلنا الله من خيار أهلها آمين. اهـ من فتاوى ابن الصلاح ج: ١ صـ (٢١٦ -٢١٨)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: " إن يزيدًا لم يأمر بقتل الحسين باتفاق أهل النقل، ولكن كتب إلى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق، والحسين ﷺ كان يظن أن أهل العراق ينصرونه، ويفون له بما كتبوا إليه فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل فلما قتلوا مسلمًا وغدروا به وبايعوا ابن زياد أراد الرجوع فأدركته السرية الظالمة فطلب أن يذهب إلى يزيد أو يذهب إلى الثغر، أو يرجع إلى بلده فلم يمكنوه من شيء من ذلك حتى يستأسر لهم فامتنع فقاتلوه حتى قتل شهيدًا مظلومًا ﷺولما بلغ ذلك يزيد أظهر التوجع على ذلك، وظهر البكاء في داره، ولم يسب له حريمًا أصلًا بل أكرم أهل بيته وأجازهم حتى ردهم إلى بلدهم.

ولو قدر أن يزيدًا قتل الحسين لم يكن ذنب ابنه ذنبًا له فإن الله تعالى يقول ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، وقد اتفق الناس على أن معاوية ﷺوصَّى يزيدًا برعاية حق الحسين، وتعظيم قدره وإذا قيل إن معاوية ﷺاستخلف يزيد، وبسبب ولايته فعل هذا.

قيل: استخلافه إن كان جائزًا لم يضره ما فعل. وإن لم يكن جائزا فذاك ذنب مستقل، ولو لم يقتل الحسين، وهو مع ذلك كان من أحرص الناس على إكرام الحسين ﷺوصيانة حرمته فضلًا عن دمه فمع هذا القصد، والاجتهاد لا يضاف إليه فعل أهل الفساد " ا. هـ. من منهاج السنة (٤/ ٤٧٢)

وقال أيضًا: والذي نقله غير واحد أن يزيدًا لم يأمر بقتل الحسين، ولا كان له غرض في ذلك بل كان يختار أن يكرمه، ويعظمه كما أمره بذلك معاوية ﷺ، ولكن كان يختار أن يمتنع من الولاية والخروج عليه فلما قدم الحسين، وعلم أن أهل العراق يخذلونه، ويسلمونه طلب أن يرجع إلى يزيد، أو يرجع إلى وطنه أو يذهب إلى الثغر فمنعوه من ذلك حتى يستأسر فقاتلوه حتى قتل مظلوما شهيدا ﷺ، وأن خبر قتله لما بلغ يزيد، وأهله ساءهم ذلك، وبكوا على قتله، وقال يزيد: لعن الله ابن مرجانة. يعني: عبيد الله بن زياد أما والله لو كان بينه، وبين الحسين رحم لما قتله، وقال: قد كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين، وأنه جهز أهله بأحسن الجهاز، وأرسلهم إلى المدينة لكنه مع ذلك ما انتصر للحسين، ولا أمر بقتل قاتله، ولا أخذ بثأره.

وأما ما ذكر من سبي نسائه، والذراري، والدوران بهم في البلاد، وحملهم على الجمال بغير أقتاب فهذا كذب، وباطل ما سبى المسلمون، ولله الحمد هاشمية قط ولا استحلت أمة محمد ﷺسبى بني هاشم قط، ولكن أهل الهوى والجهل يكذبون كثيرًا، والحجَّاج كان قد تزوج ببنت عبد الله بن جعفر فلم يرض بذلك بنوامية حتى نزعوها منه لأنهم معظمون لبني هاشم وقالوا: ليس الحجاج كفوا لشريفة هاشمية.

وفي الجملة فما يعرف في الإسلام أن المسلمين سبوا امرأة يعرفون أنها هاشمية، ولا سبى عيال الحسين بل لما دخلوا إلى بيت يزيد قامت النياحة في بيته، وأكرمهم، وخيَّرهم بين المقام عنده، والذهاب إلى المدينة، فاختاروا الرجوع إلى المدينة، ولا طيف برأس الحسين، وهذه الحوادث فيها من الأكاذيب ما ليس هذه موضع بسطه. اهـ من منهاج السنة (٤/ ٥٥٧)، (٥/ ١٥٦).

قال ابن كثير – رحمه الله -: وليس كل ذلك الجيش كان راضيًا بما وقع من قتله – أي قتل الحسين – بل ولا يزيد بن معاوية رضي بذلك والله أعلم ولا كرهه، والذي يكاد يغلب على الظن أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفى عنه، كما أوصاه أبوه، وكما صرح هو به مخبرًا عن نفسه بذلك، وقد لعن ابن زياد على فعله ذلك وشتمه فيما يظهر ويبدو، ولكن لم يعزله على ذلك ولا عاقبه ولا أرسل يعيب عليه ذلك والله أعلم. اهـ من البداية والنهاية (٨/ ٢٠٢)

وقال الغزالي – رحمه الله -: " فإن قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمر به؟ قلنا: هذا لم يثبت أصلًا فلا يجوز أن يقال: إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت، فضلًا عن اللعنة، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق "اهـ من إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٥).

ولو سلّمنا أنه قتل الحسين، أو أمر بقتله وأنه سُرَّ بقتله، فإن هذا الفعل لم يكن باستحلال منه، لكن بتأويل باطل، وذلك فسق لا محالة، وليس كفرًا، فكيف إذا لم يثبت أنه قتل الحسين، ولم يثبت سروره بقتله من وجه صحيح، بل حُكِي عنه خلاف ذلك. ولقد فصل ابن خلدون في الاعتذار عن الصحابة، وعن الحسين وفي بيان موقف يزيد حسبما ثبت عنده في شأنه فقال: وأما الحسين، فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره–وذلك حسبما نقل عنه على ألسنة الناس، ووصل إلى الحسين ﷺ– بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره. فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لا سيما من له القدرة على ذلك، وظنها من نفسه بأهليته، وشوكته. فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة.·وأما الشوكة فغلط

ﷺفيها إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه. وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك. ولقد عزله ابن العباس، وابن الزبير، وابن عمر، وابن الحنفية -أخوه- وغيرهم في مسيره إلى الكوفة، وعلموا غلطه في ذلك، ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله.

وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز، ومع يزيد بالشام، والعراق، ومن التابعين لهم، فرأوا أن الخروج على يزيد، وإن كان فاسقًا لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج، والدماء فأقصروا عن ذلك، ولم يتابعوا الحسين، ولا أنكروا عليه، ولا أثموه، لأنه مجتهد، وهو أسوة المجتهدين. ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين، وقعودهم عن نصره، فإنهم أكثر الصحابة، وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه، وكان الحسين يستشهد بهم، وهو يقاتل بكربلاء على فضله وحقه، ويقول: سلوا جابر بن عبد الله، وأبا سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وسهل بن سعيد، وزيد بن أرقم، وأمثالهم. ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك، لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه. وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد، وإن كان هو على اجتهاد، ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي الحنفي على شرب النبيذ. واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم، وإنما انفرد بقتاله يزيدًا وأصحابه. ولا تقولن إن يزيد وإن كان فاسقًا ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة. واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعًا. وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل، وهو مفقود في مسألتنا، فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد، بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه، والحسين فيها شهيد مثاب، وهو على حق واجتهاد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضًا واجتهاد. (من المقدمة في التاريخ فصل ولاية العهد).

قال الغزالي: "فإن قيل: فهل يجوز أن يقال: قاتل الحسين لعنه الله؟ أو الآمر بقتله لعنه الله؟ قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة، لأن وحشيًا قتل حمزة عم رسول الله ﷺقتله وهو كافر، ثم تاب عن الكفر، والقتل جميعًا، ولا يجوز أن يلعن، والقتل كبيرة ولا تنتهي به إلى رتبة الكفر، فإذا لم يقيد بالتوبة، وأطلق كان فيه خطر، وليس في السكوت خطر، فهو أولى " اهـ من إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٥).

ثالثا: استدلوا بلعنه بما صنعه جيش يزيد بأهل المدينة، وأنه أباح المدينة ثلاثًا حيث استدلوا بحديث " **من أخاف أهل المدينة ظلمًا أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله من صرفًا ولا عدلًا** "

والجواب: إن الذين خرجوا على يزيد بن معاوية من أهل المدينة كانوا قد بايعوه بالخلافة، وقد حذّر النبي ﷺمن أن يبايع الرجل الرجل ثم يخالف إليه ويقاتله، فقد قال النبي ﷺ " **ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع، فإن جاء أحد ينازعه فاضربوا رقبة الآخر** "، وإن الخروج على الإمام لا يأتي بخير، فقد جاءت الأحاديث الصحيحة التي تحذّر من الإقدام على مثل هذه الأمور، لذلك قال الفضيل بن عياض– رحمه الله –: "لو أنّ لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا في إمام، فصلاح الإمام صلاح البلاد والعباد"، وهذا الذي استقرت عليه عقيدة أهل السنة والجماعة، ومعركة الحرة تعتبر فتنة عظيمة، والفتنة يكون فيها من الشبهات ما يلبس الحق

بالباطل، حتى لا يتميز لكثير من الناس، ويكون فيها من الأهواء والشهوات ما يمنع قصد الحق وإرادته، ويكون فيها ظهور قوة الشر ما يضعف القدرة على الخير، فالفتنة كما قال شيخ الإسلام: " إنما يعرف ما فيها من الشر إذا أدبرت فأما إذا أقبلت فإنها تُزين، ويُظن أن فيها خيرًا ". وسبب خروج أهل المدينة على يزيد ما يلي:

١ - غلبة الظن بأن بالخروج تحصل المصلحة المطلوبة، وترجع الشورى إلى حياة المسلمين، ويتولى المسلمين أفضلهم.

٢ - عدم علم البعض منهم بالنصوص النبوية الخاصة بالنهي عن الخروج على الأئمة.

قال القاضي عياض بالنسبة لمسألة الخروج: على أن الخلاف وهو جواز الخروج أو عدمه كان أولًا، ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم والله أعلم، ومن المعلوم أن أهل الحرّة متأولون، والمتأول المخطئ مغفور له بالكتاب، والسنة، لأنهم لا يريدون إلا الخير لأمتهم، فقد قال العلماء: إنه لم تكن خارجة خير من أصحاب الجماجم والحرّة، وأهل الحرة ليسوا أفضل من علي وعائشة و طلحة والزبير، وغيرهم، ومع هذا لم يحمدوا ما فعلوه من القتال، وهم أعظم قدرًا عند الله، وأحسن نية من غيرهم. فخروج أهل الحرة كان بتأويل، ويزيد إنما يقاتلهم لأنه يرى أنه الإمام، وأن من أراد أن يفرق جمع المسلمين فواجب مقاتلته وقتله، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح. وكان علي ﷺ يقول: لو أن رجلًا ممّن بايع أبا بكر خلعه لقاتلناه، ولوان رجلًا ممّن بايع عمر خلعه لقاتلناه أما إباحة المدينة ثلاثًا لجند يزيد يعبثون بها يقتلون الرجال، ويسبون الذرية وينتهكون الأعراض، فهذه كلها أكاذيب وروايات لا تصح، فلا يوجد في كتب السنة أو في تلك الكتب التي أُلِّفت في الفتن خاصّة، كالفتن لنعيم بن حمّاد أو الفتن لأبي عمرو الداني أي إشارة لوقوع شيء من انتهاك الأعراض، وكذلك لا يوجد في أهم المصدرين التاريخيين المهمين عن تلك الفترة (الطبري، والبلاذري) أي إشارة لوقوع شيء من ذلك، وحتى تاريخ خليفة على دقته واختصاره لم يذكر شيئًا بهذا الصدد، وكذلك إن أهم كتاب للطبقات وهو طبقات ابن سعد لم يشر إلى شيء من ذلك في طبقاته.

نعم قد ثبت أن يزيدًا قاتل أهل المدينة، فقد سأل مهنّا بن يحيى الشامي الإمام أحمد عن يزيد فقال: هو فعل بالمدينة ما فعل قلت: وما فعل؟ قال: قتل أصحاب رسول الله ﷺ وفعل. قلت: وما فعل؟ قال: نهبها. وإسنادها صحيح، أما القول بأنه استباحها فإنه يحتاج إلى إثبات، وإلا فالأمر مجرد دعوى، لذلك ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى إنكار ذلك، من أمثال الدكتور نبيه عاقل، والدكتور العرينان، والدكتور العقيلي. قال الدكتور حمد العرينان بشأن إيراد الطبري لهذه الرواية في تاريخه " ذكر أسماء الرواة متخليًا عن مسئولية ما رواه، محملًا إيانا مسئولية إصدار الحكم، يقول الطبري في مقدمة تاريخه: " فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت من قبلنا وإنما أُتي من بعض ناقليه إلينا "ا. هـ. ولا يصح في إباحة المدينة شيء، وسوف نورد فيما يلي هذه الروايات التي حصرها الدكتور عبد العزيز نور - جزاه الله خيرًا - في كتابه المفيد " أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري - والتي نقلها من كتب التاريخ المعتمدة التي عنيت بهذه الوقعة: نقل ابن سعد خبر الحرة عن الواقدي. ونقل البلاذري عن هشام الكلبي عن أبي مخنف نصًا واحدًا، وعن الواقدي ثلاثة نصوص. ونقل الطبري عن هشام الكلبي أربعة عشر مرة،

وهشام الكلبي الشيعي ينقل أحيانًا من مصدر شيعي آخر وهو أبو مخنف حيث نقل عنه في خمسة مواضع. ونقل الطبري عن أبي مخنف مباشرة مرة واحدة. وعن الواقدي مرتين. واعتمد أبو العرب على الواقدي فقط، فقد نقل عنه أربعًا وعشرين مرة. ونقل الذهبي نصين عن الواقدي. وذكرها البيهقي من طريق عبد الله بن جعفر عن يعقوب بن سفيان الفسوي. وأول من أشار إلى انتهاك الأعراض هو المدائني المتوفى سنة ٢٢٥هـ ويعتبر ابن الجوزي أول من أورد هذا الخبر في تاريخه.

ومما سبق بيانه يتضح أن الاعتماد في نقل هذه الروايات تكمن في الواقدي، وهشام الكلبي، وأبي مخنف، بالإضافة إلى رواية البيهقي التي من طريق عبد الله بن جعفر. أما الروايات التي جاءت من طريق الواقدي فهي تالفة. قال أبو حاتم والنسائي عن الواقدي: " متروك الحديث ". وأما الروايات التي من طريق أبي مخنف، فقد قال عنه قال أبو حاتم: " متروك الحديث ". وقال ابن عدي: " حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين، ولا يبعد أن يتناولهم، وهو شيعي محترق، صاحب أخبارهم، وإنما وصفته لأستغني عن ذكر حديثه، فإني لا أعلم له من الأحاديث المسندة ما أذكره، وإنما له من الأخبار المكروهة الذي لا أستحب ذكره ".

وأما هشام الكلبي فقد قال الدارقطني وغيره متروك وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة. لسان الميزان (٦/ ١٩٦).

مناقشة الروايات التي جاء فيها هتك الأعراض: أما الروايات التي جاء فيها هتك الأعراض، وهي التي أخرجها ابن الجوزي في المنتظم أحداث سنة (٦٣) من طريق المدائني، عن أبي قرة، عن هشام بن حسّان: ولدت ألف امرأة بعد الحرة من غير زوج، والرواية الأخرى التي أخرجها البيهقي في دلائل النبوة من طريق يعقوب بن سفيان: قال: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن المغيرة قال: أنهب مسرف بن عقبة المدينة ثلاثة أيام. فزعم المغيرة أنه افتض ألف عذراء، فالروايتان لا تصحان للعلل التالية: أما رواية المدائني فهي منقطعة بين هشام بن حسان والواقعة لأنه لم يدركها ولم يذكر من حدثه بها قال الذهبي: وما علمت له شيئا عن الصحابة والظاهر أنه رأى أنس بن مالك فإنه أدركه وهو قد اشتد. اهـ من سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٥٥)

وأبو قرة لم أعرف من هو ولم أقف عليه في تلاميذ هشام ولا في شيوخ المدائني إلا في هذا الإسناد والذي وقفت عليه في أنساب الأشراف (٢/ ٩٢) أبو قرة مولى عباد بن زياد وبينه وبين المدائني أبو قحافة وفي (٢/ ٤٤٨٩) بينه وبينه عبد الحميد الأشج.

وأيضا فقد قال الشيباني: ذكر ابن الجوزي حين نقل الخبر أنه نقله من كتاب الحرّة للمدائني، وهنا يبرز سؤال ملح: وهو لماذا الطبري والبلاذري، وخليفة، وابن سعد، وغيرهم لم يوردوا هذا الخبر في كتبهم، وهم قد نقلوا عن المدائني في كثير من المواضع من تآليفهم؟ قد يكون هذا الخبر أُقحم في تآليف المدائني، وخاصة أن كتب المدائني منتشرة في بلاد العراق، وفيها نسبة لا يستهان بها من الرافضة، وقد كانت لهم دول سيطرت على بلاد العراق، وبلاد الشام، ومصر في آن واحد، وذلك في القرن الرابع الهجري، أي قبل ولادة ابن الجوزي رحمه الله، ثم إن كتب المدائني ينقل منها وجادة بدون إسناد " ا. هـ.

- في إسناد البيهقي عبد الله بن جعفر عن يعقوب بن سفيان: قال: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن المغيرة به.

راوي الخبر هو: المغيرة بن مقسم، من الطبقة التي عاصرت صغار التابعين، ولم يكتب لهم سماع من الصحابة، وتوفي سنة ١٣٦هـ، فهو لم يشهد الحادثة فروايته للخبر مرسلة.

- كذلك المغيرة بن مقسم مدلس، ذكره ابن حجر في الطبقة الثالثة من المدلسين الذين لا يحتج بهم إلا إذا صرحوا بالسماع. طبقات المدلسين ت (١٠٧)، والتقريب ت (٦٨٥١)

- أمّا الرواية الأخرى التي جاء فيها وقوع الاغتصاب، هي ما ذكرها ابن الجوزي في الموضع السابق أن محمد بن ناصر ساق بإسناده عن المدائني عن أبي عبد الرحمن القرشي عن خالد الكندي عن عمّته أم الهيثم بنت يزيد قالت: " رأيت امرأة من قريش تطوف، فعرض لها أسود فعانقته وقبّلته، فقلت: يا أمة الله أتفعلين بهذا الأسود؟ فقالت: هو ابني وقع عليّ أبوه يوم الحرة " ا. هـ.

- خالد الكندي وعمّته لم أعثر لهما على ترجمة. ولم أعثر عليهما إلا في هذا الإسناد

والمرأة التي كانت تطوف لا يدرى من هي ولا يخفى أنها ناقلة الخبر فكيف يعتمد على خبر لا يعرف ناقله في أمر هام كهذا ولا يقال إن هذا من الستر فليس من الستر أن يفترى على أمة بأكملها لستر امرأة لا ذنب لها فيما حدث.

- أمّا الرواية التي ذكرها ابن حجر في الإصابة أن الزبير بن بكار قال: حدثني عمّي قال: كان ابن مطيع من رجال قريش شجاعة ونجدة وجلدًا فلما انهزم أهل الحرة وقتل ابن حنظلة وفرّ ابن مطيع ونجا، توارى في بيت امرأة، فلما هجم أهل الشام على المدينة في بيوتهم ونهبوهم، دخل رجل من أهل الشام دار المرأة التي توارى فيه ابن مطيع، فرأى المرأة فأعجبته فواثبها، فامتنعت منه، فصرعها، فاطلع ابن مطيع على ذلك فخلّصها منه وقتله "

- وهذه الرواية منقطعة، فراوي القصة هو مصعب الزبيري المتوفى سنة ٢٣٦هـ، والحرة كانت في سنة ٦٣هـ، فيكون بينه وبين الحرة زمن طويل ومفاوز بعيدة.

وعليه فلم نجد لهم رواية ثابتة جاءت من طريق صحيح لإثبات إباحة المدينة، بالرغم من أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن حجر - رحمهما الله - قد أقرّا بوقوع الاغتصاب، ومع ذلك لم يوردا مصادرهم التي استقيا منها معلوماتها تلك، ولا يمكننا التعويل على قول هذين الإمامين دون ذكر الإسناد، فمن أراد أن يحتج بأي خبر كان فلا بد من ذكر إسناده، وهو ما أكده شيخ الإسلام ابن تيميّه حينما قال في المنهاج: " لا بد من ذكر (الإسناد) أولًا، فلو أراد إنسان أن يحتج بنقل لا يعرف إسناده في جُرْزَةِ بقل لم يقبل منه. ا. هـ من المنهاج (٤/ ٥١٠). فكيف نقبل الحكم الصادر على الجيش الإسلامي في القرون المفضلة بأنه ينتهك العرض دون أن تكون تلك الروايات مسندة، أو لا يمكن الاعتماد عليها! ثم على افتراض صحتها جدلًا فأهل العلم حينما أطلقوا الإباحة فإنما يعنون بها القتل، والنهب كما جاء ذلك عن الإمام أحمد، وليس اغتصاب النساء، فهذه ليست من شيمة العرب، فمن المعلوم أن انتهاك العرض أعظم من ذهاب المال، فالعرب في الجاهلية تغار على نسائها أشد الغيرة، وجاء الإسلام ليؤكد هذا الجانب، ويزيده قوة إلى قوته، واستغل الرافضة هذه الكلمة - الإباحة - وأقحموا فيها هتك الأعراض، حتى أن الواقدي نقل بأن عدد القتلى بلغ سبعمائة رجل من قريش، والأنصار، ومهاجرة العرب ووجوه الناس، وعشرة آلاف من سائر الناس! وهو الذي أنكره

شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله- فقال: لم يقتل جميع الأشراف، ولا بلغ عدد القتلى عشرة آلاف، ولا وصلت الدماء إلى قبر النبي ﷺ" اهـ. من المنهاج (٤/ ٥٧٥).

– ثم إن المدينة كانت تضم الكثير من الصحابة والتابعين، وبعضهم لم يشترك في المعركة من أمثال: ابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعلي بن الحسين، وسعيد بن المسيِّب، وهؤلاء لن يقفوا مكتوفي الأيدي، وهم يشاهدون النساء المؤمنات يفجر بهنّ، حتى التبس أولاد السفاح بأولاد النكاح كما زعموا!.

– كما أننا لا نجد في كتب التراجم أو التاريخ ذكرًا لأي شخص قيل: إنه من سلالة أولاد الحرة (الألف) كما زعموا.

– سجّل لنا التاريخ صفحات مشرقة ما اتسم به الجندي المسلم والجيوش الإسلامية، من أخلاق عالية وسلوك إسلامي عظيم، حتى أدت في بعض الأحيان إلى ترحيب السكان بهم، كفاتحين يحملون الأمن، والسلام، والعدل للناس.

– لم ينقل إلينا أن المسلمين يفتحون المدن الكافرة، ويقومون باستباحتها، وانتهاك أعراض نسائها! فكيف يتصور أن يأتي هذا المجاهد لينتهك أعراض المؤمنات، بل أخوات وحفيدات الصحابة ﷺ سبحانك هذا بهتان عظيم.

– ومن العجيب أن هناك من نسب إلى يزيد بن معاوية أنه لما بلغته هزيمة أهل المدينة بعد معركة الحرة، تمثل بهذا البيت:

– ألا ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل.

– فهذا البيت قاله ابن الزبعري بعد معركة أحد، وكان كافرًا ويتشفى بقتل المسلمين، وذكره ابن كثير ثم عقّب بعده بالقول: فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فعليه لعنة الله وعليه لعنة اللاعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه عليه ليشنع به عليه " اهـ. من البداية والنهاية (٨/ ٢٢٤) وجزم شيخ الإسلام ببطلانه فقال: " ويعلم ببطلانه كل عاقل " كما في منهاج السنة (٤/ ٥٥٠).

وقال ابن كثير رحمه الله: وروى المدائني أن مسلم بن عقبة بعث روح بن زنباع إلى يزيد ببشارة الحرة، فلما أخبره بما وقع قال: وا قوماه، ثم دعا الضحاك بن قيس القهري فقال له: ترى ما لقي أهل المدينة؟ فما الذي يجبرهم؟ قال: الطعام والأعطية، فأمر بحمل الطعام إليهم، وأفاض عليهم أعطيته.

وهذا خلاف ما ذكره كذبة الروافض عنه من أنه شمت بهم، واشتفى بقتلهم، وأنه أنشد ذكرا وأثرا شعر ابن الزبعرى المتقدم ذكره. اهـ من البداية، والنهاية (٨/ ٢٥٦)

رابعًا: استدلوا على جواز لعنه بما روي عن الإمام أحمد:

وهي التي أخرجها أبو يعلى الفراء بإسناده إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: إن قومًا يُنسبون إلى تولية يزيد، فقال: يا بني وهل يتولى يزيد أحد يؤمن بالله؟ فقلت: ولم لا تلعنه؟ فقال: ومتى رأيتني ألعن شيئًا، ولم لا يُلعن من لعنه الله في كتابه؟ فقرأ قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾(محمد: ٢٣).

وكلام أحمد يستدل له ولا يستدل به وهذا لو ثبت فكيف وثبوته عنه فيه نزاع على أنه قد ثبت عنه العكس.

وبيان ذلك ما يلي: - قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: " هذه الرواية التي ذكرت عن أحمد منقطعة ليست ثابتة عنه، ثم إن الآية لا تدل على لعن المعيّن " ا. هـ من المنهاج (٤/ ٥٧٣)

- ثبت عن الإمام أحمد النهي عن اللعن، كما في رواية صالح نفسه، أن أحمد قال: " ومتى رأيت أباك يلعن أحدًا، لما قيل له ألا تلعن يزيد " اهـ من المصدر السابق، وحين سأل عصمة بن أبي عصمة أبو طالب العكبري الإمام أحمد عن لعن يزيد، قال: " لا تتكلم في هذا. قال النبي ﷺ: " **لعن المؤمن كقتله** "، وقال: " **خير القرون قرني ثم الذين يلونهم** ". وقد كان يزيد فيهم فأرى الإمساك أحب إليّ " ا. هـ.

- قال الخلال: " وما عليه أحمد هو الحق من ترك لعن المعيّن، لما فيه من أحاديث كثيرة تدل على وجوب التوقي من إطلاق اللعن "

- قال تقي الدين المقدسي: " إن المنصوص عن أحمد الذي قرره الخلال اللعن المطلق لا المعيّن، كما قلنا في نصوص الوعد والوعيد، وكما نقول في الشهادة بالجنة والنار، فإنا نشهد بأن المؤمنين في الجنة، وأن الكافرين في النار، ونشهد بالجنة والنار لمن شهد له الكتاب والسنة، ولا نشهد بذلك لمعيّن إلا من شهد له النص، أو شهدت له الاستفاضة على قول، ثمّ إن النصوص التي جاءت في اللعن جميعها مطلقة، كالراشي والمرتشي، وآكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه " ا. هـ.

- اختلاف الحنابلة – رحمهم الله – في تجويز لعن يزيد إنما جاء باعتماد بعضهم على رواية صالح المنقطعة، والتي لا تثبت عن الإمام أحمد رحمه الله، لذلك اعتمد أبو يعلى على تلك الرواية فألف كتابًا ذكر فيه بيان ما يستحق من اللعن، وذكر منهم يزيد، وتابعه في ذلك ابن الجوزي – رحمه الله – فألف كتابًا سمّاه " الرد على المتعصب العنيد المانع من لعن يزيد "، وأباح فيه لعن يزيد بن معاوية. ولم يقتصر ذلك على بعض فقهاء الحنابلة بل امتد إلى غيرهم، فتابع السيوطي ابن الجوزي في ذلك، وإلى ذلك ذهب ابن حجر – رحمه الله – وذكر أن الإمام أحمد يجيز لعن يزيد، بينما شذّ أبو المعالي حينما نقل الاتفاق على جواز لعن يزيد بن معاوية.

خامسًا: **استدلوا على جواز لعنه بأنه كان يقارف المسكرات، وينكح أمهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ويدع الصلوات:**

نقل الطبري روايتين عن أبي مخنف (تاريخ الطبري (٣/ ٣٥٠، ٣٥١).

ونقل البلاذري عدة روايات عن الواقدي، وعوانة كما في أنساب الأشراف باب خبر يوم الحرة. ونقل ابن سعد (٥/ ٣٨)، (٥/ ٦٦)، ومن طريقه ابن عساكر (٢٧/ ٤٢٩) من طريق الواقدي وذكر ابن كثير (٨/ ٢٥٠) وقال الطبراني: حدثنا محمد بن زكريا الغلابي، ثنا ابن عائشة عن أبيه. قال: كان يزيد في حداثته صاحب شراب. اهـ

ومحمد بن زكريا قال الدارقطني: يضع الحديث. اهـ لسان الميزان (٦/ ١٥٨).

ونقل البيهقي،. ونقل الطبري، وخليفة بن خياط، وأبو الحسن العبدي، وابن كثير، والذهبي، وابن حجر على رواية جويرية بن أسماء عن أشياخ أهل المدينة، ونقل ابن سعد عن الواقدي نصًا واحدًا. ونقل البياسي عن أبي مخنف نصًا واحدًا. ونقل ابن عساكر عن عمر بن شبة باتهام يزيد بشرب الخمر.

قلت: مما سلف بيانه يتضح أن الاعتماد في نقل تلك الروايات تكمن في الواقدي، وأبي مخنف، وعوانة بن الحكم، ورواية عمر بن شبة.
فأما الروايات التي من طريق الواقدي وأبي مخنف فهما متروكا الحديث، وأما عوانة بن الحكم فقد قال عنه الحافظ ابن حجر: " فكان يضع الأخبار لبني أمية "-لسان الميزان (٤/ ٣٨٦). وأما رواية عمر بن شبة التي تشير إلى اتهام يزيد بشرب الخمر في حداثته، فقد تكفل ابن عساكر – رحمه الله – في ردها فقال: " وهذه حكاية منقطعة، فإن عمر بن شبة بينه وبين يزيد زمان "تاريخ مشق (٦٥/ ٤٠٧)
قلت: وأقوى ما يتعلق به المتهمون يزيد بشرب الخمر بروايتين:
الرواية الأولى: وهي التي أخرجها ابن عساكر وغيره من طريق محمد بن زكريا الغلابي، في أن يزيدًا كان يشرب الخمر في حداثته، فأرشده أبوه إلى شربها ليلًا فقط! ! ، وهذه الرواية لا تصح سندًا ولا متنًا للعلل التالية:
- في سندها محمد بن زكريا الغلابي، قال عنه الدارقطني: كان يضع الحديث كما سبق.
- وفي سندها ابن عائشة راوي الخبر، وهو محمد بن حفص بن عائشة، فقد ذكره أبو حاتم في الجرح والتعديل (٧/ ٢٣٦)، البخاري (في التاريخ الكبير (١/ ٦٥)، وابن حبان في الثقات (٩/ ٦٢) و سكتوا عنه، فهو مجهول عندهما كما قرّر ذلك ابن القطان في كتابه: بيان الوهم والإيهام.
- لم تحدّد المصادر تاريخ وفاة ابن عائشة، غير أنّ ابنه عبد الله الراوي عنه توفي سنة ٢٢٨هـ، وبهذا فإن ابن عائشة ولد تقريبًا بعد المائة من الهجرة، ومن ثم تكون الرواية مرسلة، لأن الراوي بينه وبين هذه القصة – على افتراض وقوعها – أمد بعيد.
- من ناحية المتن فكيف يرضى معاوية ﷺلولده بشرب الخمر، ويشجعه عليها ليلًا، ومعاوية هو الصحابي الجليل وأخو أم المؤمنين وكاتب الوحي المبين، وهو رواي الحديث: " من شرب الخمر فاجلدوه ". أخرجه الترمذي (١٤٤٤)، وقال الألباني: صحيح.
الرواية الثانية: وهي رواية يعقوب بن سفيان الفسوي: سمعت ابن عفير: أخبرنا ابن فليح أن عمرو بن حفص وفد على يزيد فأكرمه، وأحسن جائزته، فلمّا قدم المدينة قام إلى جنب المنبر، وكان مرضيًا صالحًا. فقال: ألم أجب؟ ألم أكرم؟ والله لرأيت يزيد بن معاوية يترك الصلاة سكرًا. فأجمع الناس على خلعه بالمدينة فخلعوه "
و هذه الرواية لا تصح سندًا ولا متنًا، وذلك للعلل التالية:
- ابن فليح هو يحيى بن فليح بن سليمان المدني، قال عنه ابن حزم: مجهول، وقال مرة: ليس بالقوي. لسان الميزان (٦/ ٢٧٣).
- ابن فليح وأبوه أيضًا لم يدركا هذه الحادثة، فقد ولد أبوه سنة ٩٠ من الهجرة تقريباً، قال الذهبي: ولد في آخر أيام الصحابة، وهو أسن من مالك بقليل. وتوفي سنة ثمان وستين ومائة من الهجرة، ومن هنا يتضح أن كان بين مولد أبيه والحادثة مفاوز طويلة وزمان بعيد، ومن ثم تبقى الرواية منقطعة. انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٥٢).

- عندما ذهب عبد الله بن مطيع إلى محمد بن الحنفية فأرادوه على خلع يزيد فأبى، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب، فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه ملازمًا للسنة، قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا، فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر لي الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لك يكن أطلعكم فما يحلّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا "

- محمد بن الحنفية هو أخو الحسين بن علي، وقد قتل أخوته، وأقاربه في كربلاء، وليس من المعقول أن يقف مع يزيد، خاصة إذا علم أنه كان يشرب الخمر ويترك الصلاة.

- كذلك أقام علي بن الحسين طويلًا عند يزيد (قرابة الشهر)، وذلك بعد مقتل والده وأقاربه في كربلاء، ومع ذلك لم نجد رواية واحدة عن علي بن الحسين يتهم فيها يزيد بن معاوية بشرب الخمر.

- الصحابيان الجليلان النعمان بن بشير وعبد الله بن جعفر – رضي الله عنهما – من الذين كانت لهما صلة قوية بيزيد، فالنعمان كان أميره على الكوفة، ثم جعله مستشارًا له في أمور الدولة، وعبد الله بن جعفر صحابي جليل كان يحبهﷺوكان يقول: " وأما عبد الله فشبه خَلْقي وخُلُقي "، ولم نر هذين الصحابيين الجليلين ذكرا يزيدًا بالخمر، أو ترك الصلاة، فكيف يكون لهما هذه المنزلة، ولا يعرفون عن يزيد ما اطلع عليه المغرضون المتهمون يزيد بشربها.

- لذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: ولم يكن يزيد مظهرًا للفواحش كما يحكي عنه خصومه اهـ. من مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٠).

وتمام عبارة ابن تيمية قال رحمه الله: فإن يزيد بن معاوية ولد في خلافة عثمان بن عفان ﷺولم يدرك النبي ﷺولا كان من الصحابة باتفاق العلماء ولا كان من المشهورين بالدين والصلاح وكان من شبان المسلمين ولا كان كافرًا ولا زنديقا وتولى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين ورضا من بعضهم وكان فيه شجاعة وكرم ولم يكن مظهرًا للفواحش كما يحكي عنه خصومه، وجرت في إمارته أمور عظيمة أحدها: مقتل الحسين، ﷺوهو لم يأمر بقتل الحسين، ولا أظهر الفرح بقتله، ولا نكت بالقضيب على ثناياه ﷺ، ولا حمل رأس الحسين ﷺ إلى الشام؛ لكن أمر بمنع الحسينﷺ وبدفعه عن الأمر ولو كان بقتاله فزاد النواب على أمره وحض الشمرذي الجيوش على قتله لعبيد الله بن زياد فاعتدى عليه عبيد الله بن زياد فطلب منهم الحسين ﷺأن يجيء إلى يزيد أو يذهب إلى الثغر مرابطا أو يعود إلى مكة فمنعوه ﷺ إلا أن يستأسر لهم وأمر عمر بن سعد بقتاله فقتلوه مظلوما له ولطائفة من أهل بيته ﷺ

وكان قتله ﷺمن المصائب العظيمة فإن قتل الحسين وقتل عثمان قبله كانا من أعظم أسباب الفتن في هذه الأمة وقتلتهما من شرار الخلق عند الله، ولما قدم أهلهم ﷺعلى يزيد بن معاوية أكرمهم وسيرهم إلى المدينة، وروي عنه أنه: لعن ابن زياد على قتله، وقال: كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين لكنه مع هذا لم يظهر منه إنكار قتله والانتصار له والأخذ بثأره كان هوالواجب عليه، فصار أهل الحق يلومونه على تركه للواجب مضافًا إلى أمور أخرى، وأما خصومه فيزيدون عليه من الفرية أشياء. وأما الأمر الثاني فإن

أهل المدينة النبوية نقضوا بيعته وأخرجوا نوابه وأهله فبعث إليهم جيشًا وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثًا فصار عسكره في المدينة النبوية ثلاثًا يقتلون وينهبون ويفتضون الفروج المحرمة ثم أرسل جيشًا إلى مكة المشرفة فحاصروا مكة وتوفي يزيد وهم محاصرون مكة وهذا من العدوان والظلم الذي فعل بأمره، ولهذا كان الذي عليه معتقد أهل السنة وأئمة الأمة أنه لا يسب ولا يحب، قال صالح بن أحمد بن حنبل، قلت لأبي: إن قوما يقولون إنهم يحبون يزيد قال: يا بني وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر، فقلت: يا أبت، فلماذا لا تلعنه؟ قال: يا بني، ومتى رأيت أباك يلعن أحدًا.

وروى عنه قيل له: أتكتب الحديث عن يزيد بن معاوية؟ فقال: لا، ولا كرامة أو ليس هو الذي فعل بأهل المدينة ما فعل.

فيزيد عند علماء أئمة المسلمين ملك من الملوك لا يحبونه محبة الصالحين وأولياء الله ولا يسبونه فإنهم لا يحبون لعنة المسلم المعين لما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺأن رجلا كان يدعى حمارًا، وكان يكثر شرب الخمر، وكان كلما أتى به إلى النبي ﷺضربه، فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي، فقال النبي: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله.

ومع هذا فطائفة من أهل السنة يجيزون لعنه لأنهم يعتقدون أنه فعل من الظلم ما يجوز لعن فاعله وطائفة أخرى ترى محبته لأنه مسلم تولى على عهد الصحابة وبايعه الصحابة ويقولون: لم يصح عنه ما نقل عنه وكانت له محاسن أو كان مجتهدًا فيما فعله والصواب هو ما عليه الأئمة من أنه لا يخص بمحبة ولا يلعن ومع هذا فإن كان فاسقًا أو ظالمًا فالله يغفر للفاسق والظالم لا سيما إذا أتى بحسنات عظيمة، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر – رضي الله عنهما– أن النبي ﷺ قال: أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية، وكان معه أبو أيوب الأنصاري ﷺ اهـ. من مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٠-٤١٤)

ونورد فيما يلي بعض أقوال أهل السنة والجماعة في مسألة لعن يزيد:

- قال ابن العربي – رحمه الله –: فإن قيل إن يزيد كان خمّارًا، قلنا: لا يحلّ إلا بشاهدين، فمن شهد بذلك عليه؟! " اهـ. من العواصم من القواصم (١/ ٢٣٢)

- قال ابن حجر الهيتمي: لا يجوز أن يلعن شخص بخصوصه، إلا أن يعلم موته على الكفر كأبي جهل وأبي لهب، ولأن اللعن هو الطرد من رحمة الله، الملتزم لليأس منها، وذلك إنما يليق بمن علم موته على الكفر اهـ. من الصواعق المحرقة (٢/ ٦٣٧)

- قال ابن الصلاح: لم يصح عندنا أنه أمر بقتله – أي قتل الحسين –، والمحفوظ أن الآمر بقتاله المفضي إلى قتله – كرمه الله –، إنما هو يزيد بن زياد والي العراق إذ ذاك، وأما سب يزيد ولعنه فليس من شأن المؤمنين، فإن صح أنه قتله أوامر بقتله، وقد ورد في الحديث المحفوظ: " أن لعن المسلم كقتله "، وإنما يكفر بالقتل قاتل نبي من الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم –، والناس في يزيد ثلاث فرق: فرقة تحبه وتتولاّه، وفرقة أخرى تسبه وتلعنه، وفرقة متوسطة في ذلك لا تتولاّه ولا تلعنه، وتسلك به سبيل سائر ملوك الإسلام وخلفائهم غير الراشدين في ذلك

وقال ابن كثير: سنة تسع وأربعين فيها غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم حتى بلغ قسطنطينية ومعه جماعات من سادات الصحابة منهم ابن عمر وابن عباس، وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري.

وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: "أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم". فكان هذا الجيش أول من غزاها، وما وصلوا إليها حتى بلغوا الجهد. (١)

وهو الجيش الثاني الذي رآه رسول الله ﷺ في منامه عند أم حرام فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: " أنت من الأولين " يعني جيش معاوية حين غزا قبرص، ففتحها في سنة سبع وعشرين أيام عثمان بن عفان، وكانت معهم أم حرام فماتت هنالك بقبرص، **ثم كان أمير الجيش الثاني ابنه يزيد بن معاوية، ولم تدرك أم حرام جيش يزيد هذا.**

وهذا من أعظم دلائل النبوة.

وقد أورد ابن عساكر ههنا الحديث الذي رواه محاضر، عن الأعمش، عن إبراهيم بن عبيدة، عن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ". (٢)

وقد صح عن أحمد ما يدل على ذلك أيضا:

قال أبوطالب: سألت أبا عبد الله من قال لعن الله يزيد بن معاوية قال: لا أتكلم في هذا قلت: ما تقول فإن الذي تكلم به رجل لا بأس به وأنا صائر إلى قولك فقال أبو عبدالله قال النبي ﷺ: **"لعن المؤمن كقتله"**، وقال ﷺ ": **خير الناس قرني ثم الذين**

وشبهه، وهذه الفرقة هي الصائبة، ومذهبها اللائق بمن يعرف سير الماضين، ويعلم قواعد الشريعة الطاهرة، جعلنا الله من خيار أهلها آمين " اهـ من فتاوى ابن الصلاح (١/ ١٤٢).

- قال الذهبي: ويزيد ممّن لا نسبه ولا نحبه، وله نظراء من خلفاء الدولتين، وكذلك من ملوك النواحي، بل فيهم من هو شر منه، وإنما عظم الخطب لكونه ولي بعد وفاة النبي ﷺ بتسع وأربعين سنة، والعهد قريب، والصحابة موجودون، كابن عمر الذي كان أولى منه ومن أبيه وجدّه اه من سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦).

- وقال ابن الحداد الشافعي: " ونترحم على معاوية، ونكل سريرة يزيد إلى الله تعالى "اجتماع الجيوش الإسلامية (٤٩) اهـ.

(١) البداية والنهاية (٨/ ٣٦).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٥١).

يلونهم"، وقد صار يزيد فيهم وقال: "**من لعنته أو سببته فاجعلها له رحمة**" فأرى الإمساك أحب لي(١) فسماه أحمد مؤمنًا، وأدخله في الحديث المذكور لأنه مؤمن.

ومن بلائه في هذه الغزوة دفنه لأبي أيوب الأنصاري في أرض الروم

فعن عمارة بن غزية قال: خرج أبو أيوب إلى الصائفة فمرض فأتاه يزيد بن معاوية يعوده وهو على الجيش فقال له: هل من حاجة أو توصيني بشيء، فقال: ما ازددت عنك، وعن أبيك إلا غنى إلا أنك إن شئت أن تجعل قبري فيما يلي العدو من غير أن تشق على المسلمين، فلما قبض كان يزيد كأنه كان على وجل حتى فرغ من غسله فناداه أهل القسطنطينية أنا قد علمنا أنكم إنما صنعتم هذا لقس كان فيكم أراد أن يجاهدنا حيا، وميتا فلو قد فعلتم نبشناه ثم أحرقناه ثم ذريناه في الريح فقال يزيد: والذي نفسي بيده لئن فعلتم لا أمر بكنيسة فيما بيني وبين الشام إلا حرقتها، قالوا: فالمتاركة قال: ما شئتم(٢)

الوجه الخامس: أن من اعترض من الصحابة على معاوية في ذلك لم يصح عنه طعن في يزيد بأنه كان يشرب الخمر، ويترك الصلاة وينكح الأمهات، وغير ذلك مما ذكروه.

---

(١) السنة للخلال (٨٤٦)، قال: أخبرني أحمد بن محمد بن مطر، وزكريا بن يحيى أن أبا طالب، وذكره وهو صحيح.

(٢) **صحيح لغيره**. أخرجه الحارث في مسنده كما في زوائد الهيثمي (١٠٢٥) من طريق معاوية عن أبي إسحاق- الفزاري- عن إبراهيم بن كثير قال سمعت عمارة بن غزية يقول: وذكره. وهذا إسناد فيه إبراهيم بن كثير أبو إسماعيل روى عنه محمد بن كثير المصيصي وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري قال عنه محمد بن كثير كان رجل صدق اهـ تاريخ دمشق (٧/ ٩٤).

وأخرجه أبو داود (٢٥١٢) من طريق ابن وهب، والترمذي (٢٩٧٢)، من طريق الضحاك بن مخلد، والطيالسي- (٥٩٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣١٢) من طريق ابن المبارك، والحاكم في المستدرك (٢/ ٩٤)، ومن طريقه البيهقي في الكبرى (٩/ ٩٩) جميعهم من طريق حيوة بن شريح، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران ببعضه وأبو داود يقرن مع حيوة ابن لهيعة، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم، وقال الألباني: وهو وهم منهما لأن الشيخين لم يخرجا لأسلم أبي عمران فالحديث صحيح فقط اهـ من الصحيحة (١٣).

وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤١٦) من طريق عفان عن عاصم عن رجل من أهل مكة بنحوه، وأخرجه عبد الرزاق (٥/ ٢٧٩) عن معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين به مختصرًا، وابن أبي شيبة (٩٤٣٢) عن عيسى بن يونس، عن الأعمش، عن أبي ظبيان به، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٨٧٨) عن محمد بن أبي عمر، عن سفيان، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد به. فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح.

قال ابن العربي رحمه الله: فإن قيل كان منها-من شروط الإمامة -العدالة، والعلم، ولم يكن يزيد عدلا، ولا عالما. قلنا: وبأي شيء نعلم عدم علمه، أو عدم عدالته، ولو كان مسلوبها لذكر ذلك الثلاثة الفضلاء الذين أشاروا عليه بأن لا يفعل، وإنما رموا إلى الأمر بعيب التحكم وأرادوا أن تكون شورى اه(١)

وهذا أمثل ما في اعتراضهم من الروايات مع ضعف في أكثرها ونكارة في بعض متونها.

الرواية الأولى: عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ ﴾، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري. (٢)

وفي رواية الإسماعيلي، فقال عبد الرحمن: ما هي إلا هرقلية، وله من طريق شعبة، عن محمد بن زياد، فقال مروان: سُنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: سُنة هرقل، وقيصر. ولابن المنذر من هذا الوجه أجئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم(٣)

الرواية الثانية: عن ذكوان مولى عائشة قال: لما أجمع معاوية أن يبايع لابنه يزيد حج فقدم مكة في نحو من ألف رجل فلما دنا من المدينة خرج ابن عمر، وابن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فلما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ابنه يزيد قال: من أحق بهذا الأمر منه؟ ثم ارتحل فقدم مكة فقضى طوافه ودخل منزله. فبعث إلى ابن عمر فتشهد، وقال: أما بعد، يا بن عمر فإنك قد كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى في فساد ذات بينهم فلما سكت تكلم ابن عمر فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فإنه قد

---

(١) العواصم من القواصم (١/ ٢٢٩).

(٢) البخاري (٤٥٥٠).

(٣) فتح الباري (٨/ ٥٧٧).

كانت قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم فلم يروا في أبنائهم ما رأيت أنت في ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حين عملوا الخيار. وإنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم قال: يرحمك الله. فخرج ابن عمر، وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر فتشهد، وأخذ في الكلام فقطع عليه كلامه فقال: إنك والله لوددت أنا وكلناك في أمر ابنك إلى الله وإنا والله لا نفعل والله لتردن هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لنردنها عليك جذعة ثم وثب، فقال معاوية: اللهم اكفنيه بما شئت ثم قال: على رسلك أيها الرجل لا تشرفن بأهل الشام فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك حتى أخبر العشية أنك قد بايعت ثم كن بعد على ما بدا من أمرك.

ثم أرسل إلى ابن الزبير فقال: يا بن الزبير إنما أنت ثعلب رواغ كلما خرج من جحر دخل آخر وإنك عمدت إلى هذين الرجلين فنفخت في مناخرهما، وحملتهما على غير رأيهما فتكلم ابن الزبير فقال: إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها وهلم ابنك فلنبايعه أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع لأيكما نطيع؟ لا نجمع البيعة لكما والله أبدًا ثم قام.

فراح معاوية فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذوات عوار زعموا أن ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيدًا. قد سمعوا وأطاعوا، وبايعوا له.

فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم فقال: مه سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء. لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم ثم نزل.

فقال الناس: بايع ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبي بكر ويقولون: لا والله ما بايعنا ويقول الناس: بلى لقد بايعتم وارتحل معاوية فلحق بالشام. (١)

---

(١) **منكر بهذا التمام.** أخرجه خليفة في التاريخ صـ (٥١) من طريق وهب بن جرير بن حازم قال: حدثني أبي قال: نا النعمان بن راشد، عن الزهري، عن ذكوان به وهذا إسناد ضعيف فيه النعمان بن راشد ذكره يحيى القطان فضعفه جدًّا، وقال أحمد: مضطرب الحديث روى مناكير، وضعفه ابن معين، وأبو داود، والنسائي،

وعن سعيد بن جبير أن عبد الله بن الزبير قال لمعاوية في الكلام الذي جرى بينهما في بيعة يزيد بن معاوية: وأنت يا معاوية حدثتني أن رسول الله ﷺ إذا كان في الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما. (١)

الرواية الثالثة: عن نافع قال: خطب معاوية فذكر ابن عمر فقال: والله ليبايعن أو لأقتلنه فخرج عبد الله بن عبد الله بن عمر إلى أبيه فأخبره وسار إلى مكة ثلاثًا فلما أخبره بكى ابن عمر. فبلغ الخبر عبد الله بن صفوان فدخل على ابن عمر فقال: أخطب هذا بكذا؟ قال: نعم فقال: ما تريد؟ أتريد قتاله؟ فقال: يا ابن صفوان الصبر خير من ذلك. فقال ابن صفوان: والله لئن أراد ذلك لأقاتلنه. فقدم معاوية مكة فنزل ذا طوى فخرج إليه عبد الله بن صفوان فقال: أنت الذي تزعم أنك تقتل ابن عمر إن لم يبايع لابنك؟ فقال: أنا أقتل ابن عمر؟! إني والله لا أقتله. (٢)

الرواية الرابعة: عن جويرية بن أسماء قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يحدثون أن معاوية لما كان قريبًا من مكة فلما راح من مر قال لصاحب حرسه: لا تدع أحدًا يسير معي إلا من حملته أنا. فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك لقيه الحسين بن علي فوقف وقال: مرحبًا وأهلًا يا بن بنت رسول الله ﷺ سيد شباب المسلمين. دابة لأبي عبد الله يركبها فأتي ببرذون فتحول عليه، ثم طلع عبد الله بن أبي بكر فقال: مرحبًا وأهلًا بشيخ قريش، وسيدها وابن صدِّيق هذه الأمة. دابة لأبي محمد فأتي ببرذون فركبه ثم طلع ابن عمر فقال: مرحبًا وأهلًا بصاحب رسول الله ﷺ وابن الفاروق، وسيد المسلمين، ودعا له بدابة فركبها ثم طلع ابن الزبير فقال: مرحبا وأهلًا بابن حواري رسول الله ﷺ، وابن الصديق، وابن عمة رسول الله ﷺ ثم دعا له بدابة فركبها. ثم أقبل يسير بينهم لا يسايره

والعقيلي، وقال البخاري، وأبو حاتم: في حديثه وهم كثير اهـ تهذيب التهذيب (١٠/ ٤٠٣). قلت: وما في الرواية من أمور منكرة فمن أخطائه ومناكيره وأوهامه.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٨٥).

(٢) **إسناده صحيح**. أخرجه خليفة في التاريخ صـ(٥١) من طريق وهب قال: حدثني أبي، عن أيوب، عن نافع به.

غيرهم حتى دخل مكة ثم كانوا أول داخل، وآخر خارج ليس في الأرض صباح إلا لهم في حباء، وكرامة لا يعرض لهم بذكر شيء مما هو فيه. حتى قضى نسكه، وترحلت أثقاله، وقرب مسيره إلى الكعبة، وأنيخت رواحله فأقبل بعض القوم على بعض فقالوا: أيها القوم لا تخدعون إنه والله ما صنع بكم لحبكم، ولا كرامتكم وما صنعه إلا لما يريد فأعدوا له جوابا. وأقبلوا على الحسين فقالوا: أنت يا أبا عبد الله؟ قال: وفيكم شيخ قريش وسيدها هو أحق بالكلام فقالوا: أنت يا أبا محمد؟ لعبد الرحمن بن أبي بكر فقال: لست هناك وفيكم صاحب رسول الله ﷺ، وابن سيد المسلمين - يعني ابن عمر - فقالوا لابن عمر: أنت؟ قال: لست بصاحبكم ولكن ولوا الكلام ابن الزبير يكفيكم. قالوا: أنت يا بن الزبير؟ قال: نعم إن أعطيتموني عهودكم ومواثيقكم ألا تخالفوني كفيتكم الرجل. فقالوا: فلك ذلك. فخرج الإذن فأذن لهم فدخلوا. فتكلم معاوية فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وصفحي عنكم وحلمي لما يكون منكم، ويزيد بن أمير المؤمنين أخوكم وابن عمكم وأحسن الناس فيكم رأيًا. وإنما أردت أن تقدموه باسم الخلافة، وتكونون أنتم الذين تنزعون وتؤمرون وتجبون وتقسمون لا يدخل عليكم في شيء من ذلك. فسكت القوم فقال: ألا تجيبوني؟ فسكتوا. فأقبل على ابن الزبير فقال: هات يا بن الزبير فإنك لعمري صاحب خطبة القوم. قال: نعم يا أمير المؤمنين. نخيرك بين ثلاث خصال أيها ما أخذت فهو لك رغبة. قال: لله أبوك أعرضهن. قال: إن شئت صنعت ما صنع رسول الله ﷺ، وإن شئت صنعت ما صنع أبو بكر فهو خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ. وإن شئت صنعت ما صنع عمر فهو خير هذه الأمة بعد أبي بكر قال: لله أبوك وما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ فلم يعهد، ولم يستخلف أحدًا. فارتضى المسلمون أبا بكر. فإن شئت أن تدع هذا الأمر حتى يقضي الله فيها قضاءه فيختار المسلمون لأنفسهم فقال: إنه ليس فيكم اليوم مثل أبي بكر. إن أبا بكر كان رجلا تقطع دونه الأعناق وإني لست آمن عليكم الاختلاف. قال: صدقت والله ما نحب أن تدعنا على

هذه الأمة. قال: فاصنع ما صنع أبو بكر. قال: لله أبوك وما صنع أبو بكر؟ قال: عمد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه ولا من رهط الأدنين فاستخلفه فإن شئت أن تنضر أي رجل من قريش شئت ليس من بني عبد شمس فترضى به. قال: لله أبوك الثالثة ما هي؟ قال: تصنع ما صنع عمر. قال: وما صنع عمر؟ قال: جعل هذا الأمر شورى في ستة نفر من قريش ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه ولا من رهطه. قال: فهل عندك غير هذا؟ قال: لا. قال: فأنتم؟ قالوا: ونحن أيضا. قال: أما لا فإني أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من أنذر وإنه قد كان يقوم منكم القائم إلي فيكذبني على رؤوس الناس فأحتمل له ذلك وأصفح عنه. وإني قائم بمقالة إن صدقت فلي صدقي وإن كذبت فعلي كذبي. وإني أقسم لكم بالله لئن رد علي منكم إنسان كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يسبق إلي رأسه فلا يرعين رجل تلا على نفسه. ثم دعا صاحب حرسه فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين من حرسك فإن ذهب رجل يردُّ عليَّ كلمة في مقامي هذا بصدق أو كذب فليضرباه بسيفهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى إذا رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين لا نستبد بأمر دونهم، ولا نقضي أمرًا إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا، وبايعوا ليزيد ابن أمير المؤمنين من بعده. فبايعوا بسم الله. فضربوا على يديه ثم جلس على راحلته فانصرف فلقيهم الناس فقالوا: زعمتم وزعمتم فلا أرضيتم وحبيتم فعلتم. قالوا: إنا والله ما فعلنا. قالوا: فما منعكم أن تردوا على الرجل إذ كذب؟ ثم بايع أهل المدينة، والناس ثم خرج إلى الشام. [1]

الرواية الخامسة: عن محمد بن المنكدر قال: قال ابن عمر حتى بويع يزيد بن معاوية: إن كان خيرًا رضينا وإن كان بلاء صبرنا[2]

---

(١) **إسناده ضعيف**. أخرجه خليفة ص (٥٢) من طريق وهب بن جرير قال: حدثني جويرية بن أسماء به. قلت: وإسناده ضعيف، هؤلاء الأشياخ، مجاهيل لم يسمهم جويرية.

(٢) **صحيح**. أخرجه خليفة في التاريخ ص (٥٣) من طريق عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا سفيان، عن محمد بن المنكدر به.

الرواية السادسة: عن يعلى، عن عمه قال: كنت مع عبد الله بن عمرو حتى بعثه يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن الزبير قال: فسمعت عبد الله بن عمرو يقول لابن الزبير: تعلم أني أجد في الكتاب أنك ستعنى وتعني وتدعى الخليفة ولست بخليفة وإني أجد الخليفة يزيد بن معاوية(١)

وقد ورد في هذه الأوصاف رواية عن ابن الزبير وها هي: عن بقية بن عبد الرحمن عن أبيه قال: لما بلغ يزيد بن معاوية أن أهل مكة أرادوا ابن الزبير على البيعة فأبى أرسل النعمان بن بشير الأنصاري وهمام بن قبيصة النميري إلى ابن الزبير يدعوانه إلى البيعة ليزيد على أن يجعل له ولاية الحجاز أو ما شاء وما أحب لأهل بيته من الولاية. فقدما على ابن الزبير فعرضا عليه ما أمرهما به يزيد فقال ابن الزبير: أتأمراني ببيعة رجل يشرب الخمر ويدع الصلاة ويتبع الصيد؟ فقال همام بن قبيصة: أنت أولى بما قلت منه. فلطمه رجل من قريش فرجعا إلى يزيد فغضب وحلف لا يقبل بيعته إلا وفي يده جامعة(٢)

وقد صح خلاف ذلك وهو:

الوجه السادس: رد ابن عمر على من خلع يزيداً، و شهادة محمد بن علي ليزيد بحسن السيرة، وفي ذلك روايات:

الرواية الأولى: عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه، وأهله ثم تشهد ثم قال: أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان**) وإن من أعظم الغدر إلا أن يكون الإشراك بالله، أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته. فلا يخلعن أحد

---

(١) **ضعيف**. أخرجه خليفة أحداث سنة (٥١) ص (٥١) ومن طريقه ابن عساكر في التاريخ (٦٨/ ٨١) من طريق إسماعيل بن سنان قال: نا حماد بن سلمة، عن يعلى، عن عمه. وذكره. ويعلى هو يعلى بن عطاء العامري، وعمه ترجم له ابن عساكر في التاريخ (٦٨/ ٨٠) فقال: حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وخرج معه من دمشق حين وجهه يزيد بن معاوية إلى ابن الزبير حكى عنه ابن أخيه يعلى بن عطاء ثم ذكر هذه القصة اهـ

(٢) **ضعيف**. أخرجه خليفة في التاريخ صـ (٦٤) قال حدثنا أبو الحسن، عن بقية بن عبد الرحمن عن أبيه به وبقية بن عبد الرحمن لم أجد له ذكرًا ولا ترجمة إلا في رواية أبي الحسن المدائني عنه. والمدائني ضعيف.

منكم يزيدًا ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صيلمًا بيني، وبينه)). [(١)]

ولفظ البخاري عن نافع قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: (**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة**). وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه، ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه[(٢)]

قال ابن العربي: فانظروا معشر المسلمين إلى ما روى البخاري في الصحيح وإلى ما سبق ذكرنا له من رواية بعضهم أن عبد الله بن عمر لم يبايع، وأن معاوية كذب، وقال قد بايع، وتقدم إلى حرسه يأمره بضرب عنقه إن كذبه، وهو قد قال في رواية البخاري قد بايعناه على بيع الله ورسوله، وما بينهما من التعارض، وخذوا لأنفسكم بالأرجح في طلب السلامة والخلاص بين الصحابة والتابعين، فلا تكونوا ولم تشاهدوهم -وقد عصمكم الله من فتنتهم- ممن دخل بلسانه في دمائهم فيلغ فيها ولوغ الكلب بقية الدم على الأرض بعد رفع الفريسة بلحمها ولم يلحق الكلب منها إلا بقية دم سقط على الأرض[(٣)].

---

(١) **صحيح**. أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤٨)، وابن الجعد (٣٠٤٠) من طريق إسماعيل بن علية، والبيهقي (٨/ ١٥٩) من طريق عفان كلاهما -عفان وإسماعيل- عن صخر بن جويرية عن نافع به. وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. وصيلمًا أي: قطيعة منكرة، والصيلم: الداهية. انظر: النهاية في غريب الأثر (٣/ ٩٣).

(٢) البخاري (٦٦٩٤) قال ابن حجر: وفي هذا الحديث وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة والمنع من الخروج عليه ولو جار في حكمه وأنه لا ينخلع بالفسق وقد وقع في نسخة شعيب بن أبي حمزة عن الزهري عن حمزة ابن عبد الله بن عمر عن أبيه في قصة الرجل الذي سأله عن قول الله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الآية أن ابن عمر قال: ما وجدت في نفسي في شيء من أمر هذه الأمة ما وجدت في نفسي أني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمر الله زاد يعقوب بن سفيان في تاريخه من وجه آخر عن الزهري قال حمزة: فقلنا له: ومن ترى الفئة؟ الباغية قال: ابن الزبير بغي على هؤلاء القوم يعني بني أمية فأخرجهم من ديارهم ونكث عهدهم. اهـ من فتح الباري (١٣/ ٧٢).

(٣) العواصم من القواصم (٢٣١).

الرواية الثانية: عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس أتيتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول الله ﷺ يقوله سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"**(١)

الرواية الثالثة: عن حميد بن عبد الرحمن قال: دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حين استخلف يزيد بن معاوية فقال: أتقولون أن يزيد ليس بخير أمة محمد لا أفقه فيها فقهًا ولا أعظمها فيها شرفًا؟ قلنا: نعم قال: وأنا أقول ذلك. ، ولكن والله لأن تجتمع أمة محمد أحب إلي من أن تفترق أرأيتم بابا لو دخل فيه أمة محمد وسعهم أكان يعجز عن رجل واحد لو دخل فيه؟ قلنا: لا قال: أرأيتم لوان أمة محمد قال كل رجل منهم: لا أهريق دم أخي ولا آخذ ماله أكان هذا يسعهم؟ قلنا: نعم. قال: فذلك ما أقول لكم، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: **"لا يأتيك من الحياء إلا خير"**. (٢)

قال أبو بكر بن العربي: فهذه الأخبار الصحاح كلها تعطيك أن ابن عمر كان مسلِّمًا في إمرة يزيد، وأنه بايع، وعقد له، والتزم ما التزم الناس، ودخل فيما دخل فيه المسلمون، وحرم على نفسه ومن يليه بعد ذلك أن يخرج على هذا أو ينقضه.

وظهر لك أن قول من قال إن معاوية كذب في قوله: بايع ابن عمر، ولم يبايع وأن ابن عمر وأصحابه سئلوا فقالوا: لم نبايع فقد كذب، وقد صدق البخاري في روايته قول معاوية على المنبر أن ابن عمر قد بايع بإقرار ابن عمر بذلك، وتسليمه له، وتماديه عليه. فأي الفريقين أحق بالصدق إن كنتم تعلمون الفريق الذي فيه البخاري أم الذي فيه غيره، فخذوا لأنفسكم بالأحزم، والأصح، أو اسكتوا عن الكل، والله يتولى توفيقكم، وحفظكم والصاحب الذي كنى عنه حميد بن عبد

(١) أخرجه مسلم (١٨٥١).

(٢) **إسناده صحيح**. أخرجه خليفة بن خياط (٥٣) من طريق عبد الرحمن قال: نا أبو عوانة عن داود بن عبد الله الأودي عن حميد بن عبد الرحمن به. وإسناده صحيح.

الرحمن هو ابن عمر، والله أعلم وإن كان غيره فقد أجمع رجلان عظيمان على هذه المقالة وهي تعضد ما أصَّلَّناه لكم من أن ولاية المفضول نافذة وإن كان هنالك من هو أفضل منه إذا عقدت له، ولما في حلها أو طلب الأفضل من استباحة ما لا يباح وتشتيت الكلمة، وتفريق أمر الأمة(١).

الرواية الرابعة: لما رجع أهل المدينة من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيع، وأصحابه إلى محمد بن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إن يزيدًا يشرب الخمر ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب.

فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة متحريًا للخير يسأل عن الفقه ملازمًا للسنة، قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك.

فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه.

فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦)ولست من أمركم في شئ. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا.

قال: ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعًا، ولا متبوعًا.

قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه، قالوا: فمر ابنيك أبا القاسم، والقاسم بالقتال معنا، قال: لو أمرتهما قاتلت.

قالوا: فقم معنا مقاما تحض الناس فيه على القتال، قال: سبحان الله! ! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه إذا ما نصحت لله في عباده. قالوا: إذا نكرهك.

قال: إذا آمر الناس بتقوى الله، ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق، وخرج إلى مكة. (٢)

---

(١) العواصم من القواصم (٢٣٢).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١/ ٣٧٥٦) والبداية والنهاية لابن كثير (٨/ ٢٣٣).

الرواية الخامسة: قال أبو جعفر الباقر: لم يخرج أحد من آل أبي طالب ولا من بني عبد المطلب أيام الحرة، ولما قدم مسلم بن عقبة المدينة أكرمه وأدنى مجلسه، وأعطاه كتاب أمان. (١)

وقال ابن العربي: فإن قيل كان يزيد خمارًا قلنا: لا يحل إلا بشاهدين فمن شهد بذلك عليه بل شهد العدول بعدالته فروى يحيى بن بكير، عن الليث بن سعد. قال الليث: توفي أمير المؤمنين يزيد في تاريخ كذا فسماه الليث أمير المؤمنين بعد ذهاب ملكهم، وانقراض دولتهم، ولولا كونه عنده كذلك ما قال إلا توفي يزيد(٢)

وقال أبوطالب: سألت أبا عبدالله من قال: لعن الله يزيد بن معاوية، قال: لا أتكلم في هذا، قلت: ما تقول فإن الذي تكلم به رجل لا بأس به وأنا صائر إلى قولك فقال: أبو عبدالله: قال النبيﷺ: **(لعن المؤمن كقتله)** وقال: **(خير الناس قرني ثم الذين يلونهم)**، وقد صار يزيد فيهم وقال: **(من لعنته أو سببته فاجعلها له رحمة)** فأرى الإمساك أحب لي(٣)

وبهذا تعلم أن الصحابة الذين اعترضوا على استخلاف يزيد لم يصح اتهام أحد منهم له بشيء من ذلك وأمثل شيء فيه إسناده منقطع جاء فيه أن أول من أظهر ذلك: عبد الله بن أحمد أبي عمرو بن حفص بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة القرشي المخزومي لأبيه أبي عمرو صحبة كان مع أبيه بالشام حين خرج في جيش عمر لافتتاحها فأصيب جماعة من أهل بيته في طاعون عمواس ونجا هو ثم قدم على معاوية ثم على يزيد بن معاوية ثم رجع إلى المدينة فخلعه، وخرج مع أهل الحرة، وهو أول من خلع يزيد بن معاوية يوم الحرة، وقتل يوم الحرة، وكان خبر ذلك، وفد على يزيد فأكرمه، وأحسن

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٣٣).

(٢) العواصم من القواصم (٢٢٣).

(٣) السنة للخلال (٨٤٦) وهو صحيح وقد تقدم.

جائزته فلما قدم المدينة قام إلى جنب المنبر وكان مرضيًا صالحًا فقال: ألم أجب ألم أكرم والله لرأيت يزيد بن معاوية يترك الصلاة سكرًا فأجمع الناس على خلعانه بالمدينة فخلعوه اهـ(١)

الوجه السابع: ذكر الأسباب التي دفعت معاوية إلى هذا.

السبب الأول: هو مراعاة المصلحة في اجتماع واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحَلِّ والعقد عليه حينئذ من بنى أمية إذ بنو أمية يومئذ، لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره من يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق، واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، ولا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور من بقي من الصحابة لذلك وسكوتهم عنه، دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق فإنهم كلهم أجل من ذلك، وعدالتهم مانعة منه، وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحًا كان أو محظورًا، كما هو معروف عنه. ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير، -والحسين -، وندور المخالف معروف. . .

وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية إذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده، ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفًا من العبث بالمناصب الدينية. والملك لله يؤتيه من يشاء(٢).

---

(١) **منقطع وإسناده ضعيف.** أخرجه ابن عساكر في التاريخ٢٧/ ١٨ أخبرنا أبو عبد الله الفراوي أنا أبو بكر البيهقي وأخبرنا أبو محمد السلمي نا أبو بكر الخطيب ح وأخبرنا أبوالقاسم بن السمر قندي أنا محمد بن هبة الله قالوا: أنا محمد بن الحسين، أنا عبد الله بن جعفر، نا يعقوب بن سفيان، قال سمعت ابن عفير، أنا ابن فليح أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة وفد على يزيد وذكره. وهذا إسناد منقطع بين محمد بن فليح وهذه الواقعة؛ محمد بن فليح من التاسعة مات في سنة (١٩٧) وولد أبوه في آخر أيام الصحابة تقريب (٦٢٢٨) وسير أعلام النبلاء (٧/ ٣٥٢).

(٢) مقدمة ابن خلدون (٢٢٨، ٢٣٣) وينظر: دفاعه عما وجه إليه من اعتراض على أخذه العهد لابنه يزيد (٢٤٠) وراجع: للاستزادة: العواصم من القواصم للقاضي أبو بكر بن العربي، والصواعق المحرقة، وتطهير الجنان، واللسان كلاهما لابن حجر الهيتمى.

السبب الثاني: تميز يزيد في هذا المجال وقد كان أبوه يعلم منه ذلك فلا يضره عدم علم غيره.

قال ابن كثير: فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية ورأى أنه لذلك أهلًا وذاك من شدة محبة الوالد لولده ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك والقيام بأبهته وكان ظن أن لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى ولهذا قال لعبد الله ابن عمر فيما خاطبه به: إني خفت أن أذر الرعية من بعدى كالغنم المطيرة ليس لها راع فقال له ابن عمر إذا بايعه الناس كلهم بايعته ولو كان عبدًا مجدع الأطراف، وروينا عن معاوية أنه قال يوما في خطبته: اللهم إن كنت تعلم أنى وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتمم له ما وليته وإن كنت وليته لأني أحبه فلا تتمم له ما وليته[١]

وهنالك كلمة لابد أن تقال بالنسبة لأهلية يزيد: وهي عبارة عن وجهة نظر أبداها الأستاذ محب الدين الخطيب حيث قال: إن كان مقياس الأهلية لذلك أن يبلغ مبلغ أبي بكر وعمر في مجموع سجاياهما، فهذا ما لم يبلغه في تاريخ الإسلام، ولا عمر بن عبد العزيز، وان طمعنا بالمستحيل و قدرنا إمكان ظهور أبي بكر آخر و عمر آخر، فلن تتاح له بيئة كالبيئة التي أتاحها الله لأبي بكر و عمر، وإن كان مقياس الأهلية، الاستقامة في السيرة، والقيام بحرمة الشريعة، والعمل بأحكامها، والعدل في الناس، والنظر في مصالحهم، والجهاد في عدوهم، وتوسيع الآفاق لدعوتهم، والرفق بأفرادهم، وجماعاتهم، فإن يزيد يوم تُمحّص أخباره، و يقف الناس على حقيقة حاله كما كان في حياته، يتبين من ذلك أنه لم يكن دون كثيرين ممن تغنى التاريخ بمحامدهم، وأجزل الثناء عليهم. [٢]

الوجه الثامن: أن معاوية إمام مجتهد وكان يرى صحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل وغاية ما في الأمر أن يكون أخطأ، أو أصاب.

فغاية أمره أنه كغيره من الصحابة يخطئ ويصيب، ومن اجتهاده في ذلك أنه كان يرى أنه لم يبق في الساحة إلا أولاد الصحابة، وابنه أحق منهم لما يراه فيه من ميزات سبق ذكرها

(١) البداية والنهاية (٨/ ٨٠)

(٢) هامش العواصم من القواصم لابن العربي (ص٢٢١).

في الدوافع التي دفعته إلى استخلاف يزيد كما عن محمد بن سيرين قال: لما أراد معاوية أن يستخلف يزيد بعث إلى عامل المدينة: أن أفد إليَّ من شاء، قال: فوفد إليه عمرو بن حزم الأنصاري، فاستأذن فجاء حاجب معاوية يستأذن فقال: يا أمير المؤمنين جاء يطلب معروفك فقال معاوية: إن كنت صادقًا فليكتب ما شاء فأعطه ما سألك، ولا أراه.

قال: فخرج إليه الحاجب فقال: ما حاجتك؟ اكتب ما شئت.

فقال: سبحان الله! أجيء إلى باب أمير المؤمنين فأحجب عنه؟ أحب أن ألقاه فأكلمه.

فقال معاوية للحاجب: عده يوم كذا وكذا إذا صلى الغداة فليجيء قال: فلما صلى معاوية الغداة أمر بسرير فجعل في إيوان له ثم أخرج الناس عنه فلم يكن عنده أحد إلا كرسي وضع لعمرو فجاء عمرو فاستأذن فأذن له فسلم عليه ثم جلس على الكرسي فقال له معاوية: حاجتك؟

قال: فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: لعمري لقد أصبح يزيد بن معاوية واسط الحسب في قريش غنيًا عن المال غنيًا إلا عن كل خير وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله لم يسترع عبدًا رعية إلا وهو سائله عنها يوم القيامة كيف صنع فيها، وإني أذكراك الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ بمن تستخلف عليها قال: فأخذ معاوية ربوة، ونفس في غداة قر حتى عرق، وجعل يمسح العرق عن وجهه ثلاثا ثم أفاق فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنك امرؤ ناصح قلت برأيك بالغ ما بلغ، وإنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، وابني أحق من أبنائهم حاجتك قال: ما لي حاجة. قال: ثم قال له أخوه: إنما جئنا من المدينة تضرب أكبادها من أجل كلمات؟!

قال ما جئت إلا لكلمات قال: فأمر لهم بجوائزهم قال: وخرج لعمرو مثله.[1]

وأيضا فمعاوية أعرف بيزيد ممن اتهموه وقد عدله معاوية، وشهادته عند أهل السنة مقبولة، وانحراف يزيد بعد ذلك على فرض ثبوته لا يضر معاوية في شيء لأنه إن كان في

---

(١) **صحيح**. أخرجه أبو يعلى (٧١٧٤) من طريق: الحسن بن عمر بن شقيق بن أسماء الجرمي حدثنا جعفر عن هشام عن محمد بن سيرين به وهذا إسناد صحيح.

حياة أبيه فهو لا يعلمه وهذا بعيد كل البعد عن سيرة المربين والمصلحين في أولادهم وإن كان بعد مماته فأي شيء يضره؟.

قال ابن خلدون رحمه الله: ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته -لو صح-. فإياك أن تظن بمعاوية ﷺأنه علم ذلك من يزيد، فإنه أعدل من ذلك وأفضل، بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه، وهو أقل من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة. ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه. فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك، كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك، ومنهم من أباه لما فيه من إثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصابة بني أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش، وتستتبع عصبية مضر أجمع، وهي أعظم من كل شوكة، ولا تطاق مقاومتهم، فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك، وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه، وهذا كان شأن جمهور المسلمين. والكل مجتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين، فمقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم. [(١)]

الوجه التاسع: بطلان الروايات التي تقول: بأنه سكير يشرب الخمر.

قال ابن كثير: وقد روي أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغنا والصيد، واتخاذ الغلمان، والقيان، والكلاب، والنطاح بين الكباش، والدباب، والقرود، وما من يوم إلا يصبح فيه مخمورًا، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه.

وقيل: إن سبب موته أنه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته. وذكروا عنه غير ذلك والله أعلم بصحة ذلك. وقال عبد الرحمن بن أبي مدعور: حدثني بعض أهل العلم قال: آخر ما

---

(١) المقدمة لابن خلدون الفصل الثلاثون في ولاية العهد بتصرف يسير.

تكلم به يزيد بن معاوية: اللهم لا تؤاخذني بما لم أحبه، ولم أرده، واحكم بيني وبين عبيد الله بن زياد. وكان نقش خاتمه آمنت بالله العظيم(١).

وأما الروايات التي تثبت ذلك فلا يصح منها شيء

الرواية الأولى: عن هشام بن الكلبي، عن أبيه وأبي مخنف وغيرهما قالوا: كان يزيد بن معاوية أول من أظهر شرب الشراب والاستهتار بالغناء والصيد واتخاذ القيان، والغلمان، والتفكه بما يضحك منه المترفون من القرود، والمعاقرة بالكلاب، والديكة ثم جرى على يده قتل الحسين، وقتل أهل الحرة، ورمي البيت، وإحراقه، وكان مع هذا صحيح العقدة فيما يرى، ماضي العزيمة لا يهم بشيءٍ إلا ركبه، قالوا: ووقع بين غلمان يزيد وغلمان عمرو بن سعيد الأشدق شر فأغضبه ذلك، وأمر بإحضار أولئك الغلمان، فلما أتي بهم قال: خلوا سبيلهم فإن القدرة تذهب الحفيظة(٢).

الرواية الثانية: المدائني، والهيثم قالوا: كان ليزيد بن معاوية قرد يجعله بين يديه ويكنيه أبا قيس ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئة فمسخ، وكان يسقيه النبيذ، ويضحك مما يصنع، وكان يحمله على أتان وحشية، ويرسلها مع الخيل فيسبقها، فحمله عليها يومًا، وجعل يقول:

تمسك أبا قيسٍ بفضل عنانها ... فليس عليها إن هلكت ضمان

فقد سبقت خيل الجماعة كلها ... وخيل أمير المؤمنين أتان(٣)

الرواية الثالثة: وذكر لي شيخ من أهل الشام أن سبب، وفاة يزيد أنه حمل قرده على الأتان، وهو سكران، ثم ركض خلفها، فاندقت عنقه أو انقطع في جوفه شيء. (٤)

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٥٨).

(٢) موضوع. أخرجه البلاذري باب أمر يزيد بن معاوية فقال: حدثني العمري عن الهيثم بن عدي عن ابن عياش، وعوانة، وعن هشام ابن الكلبي عن أبيه، وأبي مخنف به مرسلا، وهذا كلام لو أسند عن هؤلاء ما قبلناه فكيف، وهو مرسل عنهم.

(٣) لا أصل له. أخرجه عنهما البلاذري بلا إسناد.

(٤) أخرجه البلاذري في الموضع السابق ولا إسناد له

الرواية الرابعة: عن عبد الله بن عياش الهمداني قال: خرج يزيد يتصيد بحوارين وهو سكران، فركب وبين يديه أتان وحشية قد حمل عليها قردًا وجعل يركض الأتان ويقول:

أبا خلفٍ إحتل لنفسك حيلةً فليس عليها إن هلكت ضمان

فسقط فاندقت عنقه. (١)

الوجه العاشر: بطلان الروايات التي تقول بأن معاوية كان صاحب هوى في يزيد.

عن ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: لما صار معاوية بالأبواء في حجته اطلع في بئر فأصابته اللقوة، فقال: إن المؤمن ليعرض خير، إما ابتلي فأجر، إما عوفي فشكر، وإما عوقب بذنب فمحص، ولئن ابتليت لقد ابتلي الصالحون، ولئن مرض عضو مني فما أحصي صحيحي، ولما عوفيت أكثر، وإني اليوم ابن بضع وسبعين سنة، ومالي على ربي أكثر مما أعطاني، فرحم الله عبدًا دعا لي بالعافية، فقال له مروان: جزعت يا أمير المؤمنين، قال: يا مروان إني قد رقفت وذكرت ما كنت عنه عزوفًا، وقد ابتليت في أحسني، وخفت أن يكون عقوبة من ربي، لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي. (٢)

---

(١) موضوع. أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف (أمر يزيد بن معاوية) فقال: حدثني محمد بن يزيد الرفاعي حدثني عمي عن ابن عياش به، وهذا إسناد مرسل ومع ذلك ففيه عبد الله بن عياش الهمداني يقع في أخباره المناكير، وكان ممن ينادم المنصور، ويضحكه مات سنة (١٥٨) لسان الميزان (٣/ ٣٢٢) فلا يؤتمن مثله على أخبار بني أمية، و عم محمد يزيد، وهو كثير بن محمد مجهول -لسان الميزان (٤/ ٤٨٣)، و محمد بن يزيد الرفاعي قال البخاري: رأيتهم مجمعين على ضعفه. -تقريب التهذيب ت (٦٤٠٢)

(٢) ضعيف جدًّا. أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف (وأما معاوية بن أبي سفيان) من طريق محمد بن سعد عن الواقدي عن ابن أبي الزناد عن أبيه به، وهذا إسناد فيه الواقدي وهو متروك وأبو الزناد ولد في نحو سنة (٦٥) فأين هو مما قال معاوية عند موته؟. وللقصة طريق آخر، ولكنه ضعيف أخرجه بن عساكر (٥٩/ ٢١٤) من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن مجالد عن الشعبي به. وهذا إسناد فيه مجالد بن سعيد: أكثر أهل العلم على تضعيفه، قال البخاري: كان يحيى بن سعيد يضعفه وكان بن مهدي لا يروي عنه وكان أحمد بن حنبل لا يراه شيئا وقال عمرو بن علي سمعت يحيى بن سعيد يقول لبعض أصحابه أين تذهب قال إلى وهب بن جرير اكتب السيرة عن أبيه عن مجالد قال تكتب كذبا كثيرا لو شئت أن يجعلها إلي مجالد كلها عن الشعبي عن مسروق عن عبد الله فعل. اهـ تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٧).

ومحمد الحسن الهمدامي ضعيف من التاسعة التقريب ت (٥٨٢٠)

الوجه الحادي عشر: أن دولة معاوية ﷺ لم تقم على الظلم، وإهدار الحقوق، وتعطيل الشرع بل قامت على العدل والحق والجهاد في سبيل الله تعالى.

قال ابن تيمية: لم يكن من ملوك المسلمين ملك خيرٌ من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيرًا منهم في زمن معاوية، إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، وإذا نسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل.

وقد روى أبو بكر بن الأثرم – ورواه ابن بطه من طريقه عن قتادة قال: لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم: هذا المهدي. وروى ابن بطه بإسناده الثابت من وجهين عن الأعمش، عن مجاهد قال: لو أدركتم معاوية لقلتم هذا المهدي، وروى الأثرم عن أبى هريرة المكتب قال: كنا عند الأعمش فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا في حلمه؟ قال: لا والله، بل في عدله.

وفضائل معاوية في حسن السيرة والعدل والإحسان كثيرة، وفي الصحيح أن رجلا قال لابن عباس هل لك في أمير المؤمنين معاوية إنه أوتر بركعة قال أصاب إنه فقيه.

وروى البغوي في معجمه بإسناده، ورواه ابن بطة من وجه آخر كلاهما عن سعيد بن عبد العزيز عن إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر عن قيس بن الحارث عن الصنابحي عن أبي الدرداء قال ما رأيت أحدا أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من إمامكم هذا يعني معاوية.

فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه والشاهد بالفقه ابن عباس وبحسن الصلاة أبو الدرداء وهما هما والآثار الموافقة لهذا كثيرة[1]

وقال ابن خلدون في اعتبار معاوية من الخلفاء الراشدين قال: "إن دولة معاوية وأخباره كان ينبغي أن تلحق بدول الخلفاء الراشدين، وأخيارهم فهو تاليهم في الفضل، والعدالة، والصحبة.

ولها طريق ثالث أخرجها ابن عساكر (٥٩/ ٢١٤) من طريق يزيد بن أبي زياد به. ويزيد بن أبي زياد قال ابن فضيل: كان من أئمة الشيعة الكبار، وقال يحيى: لا يحتج بحديثه، وذكره ابن المبارك فقال: ارم به. انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢٩) والإسناد إليه. فيه فياض بن محمد الرقي: قال عبد الرحمن بن أبي حاتم سألت أبي عنه فقال: لا أعرفه الجرح والتعديل (٥/ ١٩٧)، وقال مرة: لا أدري من هو. الجرح والتعديل (٧/ ٤٩)

(١) منهاج السنة (٦/ ٢٣٢-٢٣٥)

الشبهة الثامنة: إلحاق زيادٍ بأبي سفيان[١].

حيث اتهموا معاوية ﷺ بأنه ألحق زيادًا بأبي سفيان وقد قال رسول الله ﷺ: "**الولد للفراش وللعاهر الحجر**".

الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أصل القضية:

فإن قضية نسب زياد تعد من متعلقات أنكحة الجاهلية، [٢]. وقد أقر الإسلام ما نتج عن تلك الأنكحة من أنساب، وفي ذلك يقول ابن الأثير: فلما جاء الإسلام. . أقر كل ولد ينسب إلى أب من أي نكاح من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرق بين شيء منها[٣]. وأما الذراري الذين جاء الإسلام، وهم غير منسوبين إلى آبائهم - كأولاد الزنا - فقد قال فيهم رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه أبو داود بإسناده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله إن فلانًا ابني، عاهرت - أي زنيت - بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش، وللعاهر الحجر[٤].

الوجه الثاني: أننا لانسلم بأن استلحاق زياد من فعل معاوية ﷺ، وإنما هو من فعل زياد نفسه

أما عن اتهام معاوية ﷺ باستلحاق نسب زياد فإني لم أقف على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك، هذا فضلًا عن أن صحبة معاوية ﷺ، وعدالته، ودينه، وفقهه تمنعه من

---

(١) وهو: زياد بن أبي سفيان ويقال زياد بن أبيه. وزياد بن أمه. وزياد بن سمية؛ وكان يقال له قبل الاستلحاق زياد بن عبيد الثقفي. وأمه سمية جارية الحارث بن كلدة. واختلف في وقت مولده فقيل: ولد عام الهجرة. وقيل قبل الهجرة. وقيل: بل ولد يوم بدر. استعمله عمر ثم لحق بمعاوية وولاه العراقين جمعهما له. ولم يزل كذلك إلى أن توفي بالكوفة، وهو أمير المصرين في شهر رمضان لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه سنة ثلاث وخمسين وصلى عليه عبد الله بن خالد بن أسيد كان قد أوصى إليه بذلك. انظر ترجمته في الإصابة (٢/ ٥٢٧ - ٥٢٨)، والاستيعاب ترجمة رقم (٨٢٩) وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٩).

(٢) البخاري (٤٨٣٤).

(٣) الكامل في التاريخ (٣/ ٤٤٥).

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود (٢٢٧٤) وانظر صحيح سنن أبي داود (٢/ ٤٣٠).

أن يرد قضاء رسول الله ﷺ، لاسيما، وأن معاوية أحد رواة حديث (الولد للفراش وللعاهر الحجر). [١]

وسياق القصة في روايته يبين قضاء معاوية بخلاف هذا عملًا فعن محمد بن إسحاق قال: ادعى نصر بن الحجاج بن علاط السلمي عبد الله بن رباح مولى خالد بن الوليد فقام عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فقال: مولاي ولد على فراش مولاي وقال نصر: أخي أوصاني بمنزله قال: فطالت خصومتهم فدخلوا معه على معاوية - وفهر تحت رأسه - فادعيا: فقال معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الولد للفراش، وللعاهر الحجر فقال نصر: فأين قضاؤك هذا يا معاوية في زياد؟ فقال معاوية: قضاء رسول الله ﷺ خير من قضاء معاوية فكان عبد الله بن رباح لا يجيب نصرا إلى ما يدعي"[٢]، فواضح في هذه الرواية أن معاوية ﷺ قضى بما قضى به رسول الله ﷺ وأما قوله في الرد على المدعي: قضاء رسول الله خير من قضاء معاوية فعلى سبيل التنزل في الحوار يعني حتى لو أنا فعلت هذا فقضاء رسول الله ﷺ خير من قضاء معاوية ﷺ وهذا السياق لا يدل على إقرار معاوية على الدعوى بل على خلاف ذلك وبعد أن ترجحت براءة معاوية ﷺ من هذا البهتان فإن التهمة تتجه إلى زياد بن أبيه بأنه هو الذي ألحق نسبه بنسب أبي سفيان، وهذا ما يترجح من خلال الرواية التي أخرجها مسلم في صحيحه من طريق أبي عثمان قال: لما ادعى زياد، لقيت أبا بكرة فقلت: ما هذا الذي صنعتم؟ إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: " من ادعى أبًا في الإسلام غير أبيه، يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام "، فقال أبو بكرة: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ. [٣]

---

(١) الفتح (١٢/ ٣٩).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٧٣٩٠) عن محمد بن إسحاق قال: ادعى نصر، وذكره وإسناده منقطع بين ابن إسحاق والقصة.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٥١ - ٥٢) والبخاري مع الفتح (١٢/ ٥٤).

قال النووي: قوله: ادُّعِي ضبطناه بضم الدال وكسر العين مبني لما لم يسم فاعله، أي ادعاه معاوية، ووجد بخط الحافظ أبي عامر العبدري[١] (ادَّعَى) بفتح الدال، والعين، على أن زيادًا هو الفاعل.[٢]

والثاني هو الراجح لأمور: منها: أن العقوبة في الحديث مرتبة على هذه الدعوى، فإذا كانت من غيره، فلماذا يعاقب على فعل غيره؟

ومنها: أن الحديث في البخاري، وغيره من غير ذكر لقصة الاستلحاق من رواية أبي ذر[٣]، وواثلة بن الأسقع[٤] وأبي سعيد، وأبي بكرة[٥] بالبناء للمعلوم مما يدل على أن السائل لأبي بكرة كان يعلم أن هذا من فعل زياد لا من فعل من استلحقه وعلى هذا فهم العلماء وشرحوا الحديث.

قال ابن الأثير: [مَن ادّعى إلى غير أبيه أو انْتَمى إلى غير مَواليه] أي انتَسب[٦]

وقال البيضاوي: الظاهر أنه أراد به ولاء العتق لعطفه على قوله من ادعى إلى غير أبيه والجمع بينهما بالوعيد فإن العتق من حيث أنه لحمة كلحمة النسب فإذا نسب إلى غير من هو له كان كالدعي الذي تبرأ عمن هو منه وألحق نفسه بغيره فيستحق به الدعاء عليه بالطرد والإبعاد عن الرحمة[٧]

---

(١) هو إمام من أعيان الحفاظ من فقهاء الظاهرية (ت ٥٢٤هـ)، انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ١٢٧٢).

(٢) شرح مسلم (٢/ ٥٢ – ٥٣).

(٣) البخاري (٣٣١٧).

(٤) البخاري (٣٣١٨).

(٥) البخاري (٤٠٧١)، (٦٣٨٥).

(٦) النهاية (٥/ ٢٥٨).

(٧) فتح الباري (٤/ ٨٦).

وقال ابن حجر: في الحديث تحريم الانتفاء من النسب المعروف والادعاء إلى غيره وقيد في الحديث بالعلم ولا بد منه في الحالتين إثباتًا ونفيًا لأن الإثم إنما يترتب على العالم بالشيء المتعمد له [١]

وقال: قوله "**من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام**" وفي رواية عاصم المشار إليها عند مسلم "**من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه**". [٢]

وترجم عليه النووي بقوله: باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم. [٣]

ولفظ حديث أبي هريرة، قال: لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر. [٤]

قال النووي: ومعنى ادعى لغير أبيه أي انتسب إليه واتخذه أبا وقوله ﷺ وهو يعلم تقييد لابد منه فان الإثم إنما يكون في حق العالم بالشيء. [٥] ويزيد هذا الأمر تأكيدًا ما أورده الحافظ أبو نعيم في ترجمة زياد بن أبيه حيث قال: (زياد ابن سمية: ادَّعَى أبا سفيان فنسب إليه)[٦]، فهدا كله يبين أن الرواية بالبناء للمعلوم وأن الذي حمل بعض العلماء على ضبطها بالبناء للمجهول في رواية الاستلحاق هو ما اشتهر عند المؤرخين من أن الذي استلحق هو معاوية ﷺ.

ومنها: أنه لو علم أبو بكرة وغيره أن معاوية هو الذي ابتدأ ذلك لبادروا بالإنكار عليه، ولما تركوه.

وبذلك يكون زياد هو المدعي، ولذلك هجره أخوه أبو بكرة ﷺ. والله أعلم. [٧]

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٤١).
(٢) فتح الباري (١٢/ ٥٤).
(٣) صحيح مسلم (٢٧).
(٤) صحيح مسلم (١١٣)
(٥) شرح مسلم للنووي (٢/ ٥٠)
(٦) معرفة الصحابة (٣/ ١٢١٧).
(٧) انظر: مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري للدكتور خالد الغيث (٣٧٢ - ٣٧٩).

ومما يشهد لذلك الترجيح هذه الرواية عن أبي إسحاق، أن زيادا لما قدم الكوفة، قال: قد جئتكم في أمر ما طلبته إلا إليكم، قالوا: ادعنا إلى ما شئت، قال: تلحقون نسبي بمعاوية؟ قالوا: أما بشهادة الزور فلا، فأتى البصرة، فشهد له رجل. [(١)] اهـ

الوجه الثالث: أن معاوية أقر عليه ابن زياد لأمور مقبولة عنده اجتهادًا منه ﵁ ولقد ساق ابن العربي هذه الشبهة ورد عليه بما حاصله هذا العنوان.

فقال رحمه الله: فإن قيل أحدث معاوية في الإسلام الحكم بالباطل، والقضاء بما لا يحل من استلحاق زياد قلنا قد بينا في غير موضع أن استلحاق زياد إنما كان لأشياء صحيحة، وعمل مستقيم نبينه بعد ذكر أمثل ما ادعى فيه المدعون من الانحراف عن الاستقامة.

قالوا: كان زياد ينتسب إلى عبيد الثقفي من سمية جارية الحارث بن كلدة، واشترى زياد عبيد أباه بألف درهم فأعتقه قال أبو عثمان النهدي فكنا نغبطه، واستعمله عمر على بعض صدقات البصرة، وقيل بل كتب لأبي موسى فلما لم يقطع الشهادة مع الشهود على المغيرة جلدهم وعزله، وقال له: ما عزلتك لخزية، ولكني كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك، و**رووا أن عمروًا** أرسله إلى اليمن في إصلاح فساد، فرجع وخطب خطبة لم يسمع مثلها فقال عمرو بن العاص: أما والله لو كان هذا الغلام قرشيًا لساق الناس بعصاه، فقال أبو سفيان: والله إني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه فقال له علي: ومن؟ قال: أنا. قال: مهلا يا أبا سفيان فقال أبو سفيان في ذلك أبياتا من الشعر، فذلك الذي حمل معاوية واستعمله علي على فارس، وحمى، وجبي، وفتح، وأصلح.

وكاتبه معاوية يروم إفساده فوجه زياد بكتابه إلى علي. فكتب إليه علي: إني وليتك ما وليتك، وأنت أهل لذلك عندي، ولن يدرك ما تريد بما أنت فيه إلا بالصبر واليقين، وإنما كانت من أبي سفيان فلتة زمن عمر لا تستحق بها نسبًا، ولا ميراثًا، فلما قرأ زياد الكتاب

---

(١) **إسناده ضعيف.** أخرجه الطبري في التاريخ حوادث سنة (٤٤) فقال حدثني أحمد بن زهير، قال: حدثنا عبد الرحمن بن صالح، - صدوق يتشيع كما في التقريب ت٣٨٩٨- قال: حدثنا عمرو بن هاشم-الجنبي لين الحديث التقريب (ت٥١٢٦) عن عمر بن بشير الهمداني-ضعيف لسان الميزان ت (٨٢٠) عن أبي إسحاق به وهذا إسناد ضعيف ويشهد له ظاهر حديث مسلم من أن زيادًا هو الذي دعا نفسه ابن أبي سفيان.

قال: شهد لي أبو حسن ورب الكعبة فذلك الذي جرأ زيادًا، ومعاوية بما صنعا ثم ادعاه معاوية سنة أربع وأربعين، وزَّج معاوية ابنته من ابنه محمد، وبلغ الخبر أبا بكرة أخاه لأمه فآلى يمينا ألا يكلمه أبدا، وقال: هذا زنى بأمه، وانتفى من أبيه، والله ما رأت سمية أبا سفيان قط، وكيف يفعل بأم حبيبة أيراها فيهتك حرمة رسول الله ﷺ وإن حجبته فضحته فقال زياد: جزى الله أبا بكرة خيرًا؛ فإنه لم يدع النصيحة في حالٍ، وتكلم فيه الشعراء، ورووا عن سعيد بن المسيب أنه قال: أول قضاء كان في الإسلام بالباطل استلحاق زياد.

قال القاضي أبو بكر رضي الله عنه: قد بينا في غير موضع هذا الخبر، وتكلمنا عليه بما يغني عن إعادته ولكن لا بد في هذه الحالة من بيان المقصود منه

فنقول: كل ما ذكرتم لا ننفيه، ولا نثبته لأنه لا يحتاج إليه، والذي ندريه حقا، ونقطع عليه علما:

١ – أن زيادًا من الصحابة بالمولد، والرؤية لا بالتفقه والمعرفة.

٢ – وأما أبوه فما علمنا له أبا قبل دعوى معاوية على التحقيق، وإنما هي أقوال غائرة من المؤرخين.

٣- وأما شراؤه له فمراعاة للحضانة فإنه حضنه عند أمه إذ دخل عليه فيه شبهة بالحضانة إليه إن كان ذلك، وأما قولهم إن أبا عثمان النهدي غبطه بذل فهو بعيد على أبي عثمان فإنه ليس في أن يبتاع أحد حاضنه أو أباه فيعتقه من المزية بحيث يغبطه عليه أبو عثمان وأمثاله، لأن هذه مرتبة يدركها الغني، والفقير، والشريف، والوضيع، ولو بذل من المال ما يعظم قدره فيدري به قدر مروءته في إهانة الكثير العظيم في صلة الولي الحميم وإنما ساقوا هذه الحكاية ليجعلوا له أبًا، ويكون بمنزلة من انتفى من أبيه.

٣- وأما استعمال عمر له: فصحيح، وناهيك بذلك تزكية، وشرفًا، ودينًا

٤- وأما قولهم: إن عمر عزله لأنه لم يشهد بباطل، فباطل بل روى أنه لما شهد أصحابه الثلاثة وعمر يقول للمغيرة ذهب ربعك ذهب نصفك ذهب ثلاثة أرباعك فما جاء زياد قال له: إني أراك صبيح الوجه وإني لأرجوان لا يفضح الله على يديك رجلًا من أصحاب محمد ﷺ.

٥- وأما خطبته التي ذكروا أنه عجب منها عمرو فما كان عنده فضل علم، ولا فصاحة يفوق بها عمرا فمن فوقه أو دونه، وقد ادخل له الشيخ المفتري خطبا ليست في الحد المذكور

٦- وأما قولهم إن أبا سفيان اعترف به وقال شعرا فيه فلا يرتاب ذو تحصيل في أن أبا سفيان لو اعترف به في حياة عمر لم يخف شيء لأن الحال لم يكن تخلو من أحد قسمين إما أن يرى عمر إلاطته به كما روى عنه في غيره فيمضي ذلك أو يرد ذلك فلا يلزم أبا سفيان شيء باقتراف ما كان في الجاهلية فذكرهم هذه الحكاية المخترعة الباردة المتهافتة الخارجة عن حد الدين والتحصيل لا معنى لها.

٧- وأما تولية علي له فتزكية.

٨- وأما بعث معاوية إليه فيكون معه: فصحيح في الجملة، وأما تفصيل ما كتب معاوية أو كتب زياد به إلى علي أو أجاب به عليّ زيادا: فهذا كله مصنوع.

٩- وأما قول علي إنما كانت من أبي سفيان فلته زمن عمر لا تستحق بها نسبًا فلو صح لكان ذلك شهادة كما روى عن زياد ولم يكن ذلك بمبطل لما فعل معاوية لأنها مسألة اجتهاد بين العلماء فرأى عليّ شيئًا ورأى معاوية، وغيره غيره.

١٠- وأما نكتة الكلام، وهو القول في استلحاق معاوية زيادًا، وأخذ الناس عليه في ذلك: فأي أخذ عليه فيه إن كان سمع ذلك من أبيه؟ وأي عار على أبي سفيان في أن يليط بنفسه ولد زنا كان في الجاهلية، فمعلوم أن سمية لم تكن لأبي سفيان كما لم تكن وليدة زمعة لعتبة، ولكن كان لعتبة منازع تعيَّن القضاء له، ولم يكن لمعاوية منازع في زياد.

اللهم إن ها هنا نكتة اختلف العلماء فيها وهي: أن الأخ إذا استلحق أخا يقول: هو ابن أبي، ولم يكن له منازع بل كان وحده فقال مالك: يرث، ولا يثبت النسب.

وقال الشافعي في آخرين: يثبت النسب ويأخذ المال. هذا إذا كان المقر به غير معروف النسب واحتج الشافعي بقول النبيﷺ: "هو لك يا عبد بن زمعة الولد للفراش، وللعاهر الحجر" فقضى بكونه للفراش وبإثبات النسب.

قلنا: ليس كذلك، وذلك أن قوله: أن النبي ﷺ قضى بكونه للفراش صحيح.

وأما قوله: بثبوت النسب: فباطل لان عبدًا ادعى سببين أحدهما: الأخوة، والثاني: ولادة الفراش فلو قال النبي ﷺ هو أخوك. الولد للفراش لكان إثباتًا للحكم وذكرًا للعلة. بَيْدَ أن النبي ﷺ عدل عن الأخوة، ولم يتعرض لها وأعرض عن النسب، ولم يصرح به، وإنما هو في الصحيح في لفظ هو أخوك وفي آخر هو لك، معناه: فأنت أعلم به، وقد مهدنا ذلك في مسائل الخلاف

فالحارث بن كلدة لم يدَّع زيادًا ولا كان إليه منسوبًا، وإنما كان ابن أمته، ولد على فراشه أي في داره فكل من ادعاه فهو له إلا أن يعارضه من هو أولى به منه، فلم يكن على معاوية في ذلك مغمز بل فعل فيه الحق على مذهب مالك.

فإن قيل فلم أنكر عليه الصحابة؟ قلنا: لأنها مسألة اجتهاد فمن رأى أن النسب لا يلحق بالوارث الواحد أنكر ذلك، وعظمه.

فإن قيل: ولم لعنوه وكانوا يحتجون بقول النبيﷺ: ملعون من انتسب لغير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه؟ قلنا: إنما لعنه من لعنه لوجهين:

أحدها: لأنه أثبت نسبه من هذا الطريق، ومن لم ير لعنه لهذا لعنه لغيره، وكان زياد أهلًا أن يلعن عندهم لما أحدث بعد استلحاق معاوية.

فإن قيل: جعل النبي ﷺ للزنا حرمة، ورتب عليه حكمًا حين قال: (احتجبي منه يا سودة) وهذا يدل على أن الزنا يتعلق به من حرمة الوطء ما يتعلق بالنكاح الصحيح هكذا قال الكوفيون، ومالك في رواية ابن القاسم يساعدهم على المسألة، ولا يساعدهم على دليلها من هذا الوجه، وقد بيناها في كتاب النكاح.

وقال الشافعي: العذر في أمر النبي ﷺ لسودة بالاحتجاب مع ثبوت نسبه من زمعة وصحة إخوته لها بدعوى عبد أن ذلك تعظيم لحرمة أزواج ﷺ لأنهن لم يكنَّ كأحد من النساء في شرفهن، وفضلهن.

قلنا: لو كان أخاها بنسب ثابت صحيح كما قلتم ويكون قول النبي ﷺ الولد للفراش تحقيقًا للنسب لما منع النبي ﷺ سودة منه كما لم يمنع عائشة من الرجل الذي قالت: هو أخي من الرضاعة وإنما قال: (انظرن من إخوانكن).

وأما ما روى عن سعيد بن المسيب فأخبر عن مذهبه في أن هذا الاستلحاق ليس بصحيح وكذلك رأى غيره من الصحابة، والتابعين، وقد صارت المسألة إلى الخلاف بين الأئمة وفقهاء الأمصار فخرجت من حد الانتقاد إلى حد الاعتقاد، وقد صرح مالك في كتاب الإسلام، وهو: الموطأ بنسبه فقال في دولة بني العباس زياد بن أبي سفيان، ولم يقل كما يقول المخاذل زياد بن أبيه هذا على أنه لا يرى النسب يثبت بقول واحد، ولكن في ذلك فقه بديع لم يتفطن له احد وهو أنها لما كانت مسألة خلاف ونفذ الحكم فيها بأحد الوجهين لم يكن لها رجوع، فإن حكم القاضي في مسائل الخلاف بأحد القولين يمضيها، ويرفع الخلاف فيها، والله أعلم.

١١- وأما روايتهم: أن عمر قال: كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس: فهذه زيادة ليس لها أصل من ناقص عقل، وأي عقل كان لزياد يزيد به على الناس في أيام عمر، وغلام كل واحد من الصحابة كان أعقل من زياد، وأعلم منه، ولهذا كل من كمل عقله أكثر من الآخر فهو أولى أن يختلط مع الناس.

١٢- ويقولون إنه كان داهية وهي كلمة واهية. والدهاء هو المعرفة بالمعاني، والاستدلال على العواقب بالمبادئ، وكل احد من الصحابة، والتابعين فوق زياد. . . وخذ من ولاة بني أمية خاصة- أعقل من زياد وأفصح منه فلا تلتفتوا إلى ما روى من الأباطيل.

١٣- وأما كلام أبي بكرة أخيه لأمه فيه فغير ضائر له لأن ذلك رأي أبي بكرة واجتهاد.

١٤- وأما قولهم فيها عن أبي بكرة أنه زنّى أمه فلو كان ذلك صحيحًا لم يضر أمه، ما جرى في الجاهلية في الدين فإن الله عفا عن أمر الجاهلية بالإسلام وأسقط الإثم عنه فلا يذكره إلا جاهل به.

والناس إذا لم يجدوا عيبًا لأحد، وغلبهم الحسد عليه وعداوتهم له أحدثوا له عيوبًا فاقبلوا الوصية ولا تلتفتوا إلا إلى ما صح من الأخبار، واجتنبوا كما ذكَرَتْ لكم أهل التواريخ فإنهم ذكروا عن السلف أخبارًا صحيحة يسيرة ليتوسلوا بذلك إلى رواية الأباطيل فيقذفوا في قلوب الناس مالا يرضاه الله تعالى وليحتقروا السلف، ويهونوا الدين، وهو أعز من ذلك، وهم أكرم منا فرضي الله عن جميعهم، ومن نظر إلى أفعال الصحابة تبين منها بطلان هذه الهتوك التي يختلقها أهل التواريخ فيدسونها في قلوب الضعفاء وهذا زياد لما أحس المنية استخلف سمرة بن جندب من كبار الصحابة فقبل خلافته، وكيف يظن به على منزلته أنه يقبل ولاية ظالم لغير رشده، وهو على ما هو عليه من لصحبة، وذلك من غير إكراه، ولا تقية إن هذا لهو الدليل المبين فمع من تحبون أن تكونوا مع سمرة بن جندب أو مع المسعودي والمبرد والجاحظ، ونظرائهم. [١]

الوجه الرابع: وعلى فرض وقوع ذلك من معاوية وأنه خطأ محض فهو اجتهاد أخطا فيه معاوية فله أجر على اجتهاده ولا ندعي العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ.

نسأل الله أن يرضى عنا كما رضي عنهم.

* * *

---

(١) العواصم من القواصم (٢٤٨-٢٥٦) بحروفه سوى أحرفٍ يسيرةٍ. وانظر: بحث لأبي عبد الله الذهبي بعنوان رد البهتان عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

٤ـ شبهات عن أبي هريرة ﷺ.

نص الشبهة:

لقد افترى أعداء الإسلام على الصحابي الجليل أبي هريرة ﷺ لما نال من منزلة عالية، وبما رواه لنا عن النبي ﷺ من أحاديث كانت سببًا في حفظ السنة، وعمل بها الأئمة في مجالات الشريعة، فراحوا يشككون في عدالته، وفي حفظه، وأمانته في نقل الأحاديث عن النبي ﷺ، وهم بذلك لا يريدون أبا هريرة فحسب، بل يريدون بذلك الطعن في رسول الله ﷺ، ومن ثَمَّ الطعن في الدين، فروَّجوا الشبهات عن أبي هريرة ﷺ؛ لأنه أكثر الصحابة روايةً للحديث.

فقالوا: كيف يحفظ هذه الأحاديث عن النبي ﷺ مع أن مدة لقائه بالنبي ﷺ مدة قصيرة، بخلاف باقي الصحابة، مع أنه لم يكن معروفًا باسمه ولا نشأته، وقالوا: أنه كان يختلق الأحاديث ليكذب بها على النبي ﷺ، ولما أكثر الحديث عن النبي ﷺ اعترض عليه الصحابة ﷺ، وأن عمر نهاه عن إكثار الرواية وحبسه لما أصر على الحديث، وأن عائشة ﷺ أنكرت عليه كذلك، وغيرهما من الصحابة ﷺ، وإذا كان أبو هريرة ﷺ قد اعترف بأنه لم يكتب الحديث، وأن عبد الله بن عمرو ﷺ كان أكثر منه، فلماذا كثرت روايته عن عبد الله بن عمرو، وأين باقي مرويات الصحابة من ذلك، إلى غير ذلك من الشبهات التي أثاروها عن أبي هريرة ﷺ.

والرد على ذلك من الوجوه:

الوجه الأول: حول سيرة أبي هريرة ﷺ.

الوجه الثاني: بعض فضائل أبي هريرة ﷺ.

الوجه الثالث: حكم أهل العلم على من تكلم في الصحابة ﷺ، وفي أبي هريرة ﷺ خاصةً.

الوجه الرابع: الرد على الشبهات التي أُثيرت حول الصحابي أبي هريرة ﷺ المفترى عليه.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: سيرة أبي هريرة ﷺ.

اسمه: اعلم –أولًا– أنه قد اختلف في اسمه في الجاهلية والإسلام، واسم أبيه على أقوال متعددة، والأشهر أن اسمه عبد الرحمن بن صخر[1]

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٥٧٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ١٠٣، ١١٥).

قال ابن حجر: بعد أن ذكر عدة أقوال في اسمه واسم أبيه: وهذا الذي وقفنا عليه من الاختلاف في ذلك، ونقطع بأن عبد شمس، وعبد نهم، غير بعد أن أسلم واختلف في أيها أرجح فذهب كثيرون إلى الأول، وذهب جمع من النسابين إلى عمرو بن عمرو ابن عامر. (١)

ويرجح الأستاذ عبد المنعم صالح العلي(٢) أن اسمه في الجاهلية: عبد شمس. حيث يقول: والراجح عند العلماء أن اسمه في الجاهلية: عبد شمس، فالبخاري يترجم له بهذا الاسم. (٣)

وهو الأصح عند الترمذي، (٤) والحاكم، (٥) وبه يسميه تلميذه المقدم أبو سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف. (٦)

وقال ابن عبد البر: ومثل هذا الاختلاف والاضطراب لا يصح معه شيء يعتمد عليه إلا أن عبد الله، أو عبد الرحمن هو الذي سكن إليه القلب في اسمه في الإسلام والله أعلم، وكنيته أولى به على ما كناه رسول الله ﷺ. وقال أبو أحمد الحاكم: أصح شيء عندنا في اسم أبي هريرة: عبد الرحمن بن صخر. (٧)

وجعل ابن حجر احتمال الصحة للاسمين أي: عبد الله وعبد الرحمن بن صخر. (٨)

وقال النووي: والأصح عند المحققين الأكثرين ما صححه البخاري وغيره من المتقنين، أنه عبد الرحمن بن صخر. (٩)

كنيته: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَافِعٍ قَالَ: قُلْتُ: لأَبِى هُرَيْرَةَ لِمَ كُنِّيتَ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ أَمَا تَفْرَقُ مِنِّى

---

(١) التقريب ٢/ ٧٧٥.

(٢) دفاع عن أبي هريرة لـ عبد المنعم صالح العلي (صـ ١٧).

(٣) التاريخ الكبير للبخاري (٣/ ١٣٢).

(٤) سنن الترمذي (١/ ١٣).

(٥) المستدرك (٣/ ٥٠٧).

(٦) الكنى والأسماء للدولابي (١/ ١٩٢).

(٧) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤/ ٣٣٤.

(٨) الإصابة (٤/ ٢٠٢).

(٩) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٧٠).

قُلْتُ بَلَى وَاللهِ إِنِي لأَهَابُكَ، قالَ: كُنْتُ أَرْعَى غَنَمَ أَهلي فَكَانَتْ لي هُرَيْرَةٌ صَغِيرَةٌ، فَكُنْتُ أَضَعُهَا بِاللَّيْلِ فِي شَجَرَةٍ؛ فَإِذَا كَانَ النَّهَارُ ذَهَبْتُ بِهَا معي فَلَعِبْتُ بِهَا فكنوني أَبَا هُرَيْرَة. [١]

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال له: " **أبا هر**" وثبت أنه قال له: "**يا أبا هريرة**"

نسبه: **قال خليفة بن خياط**: ومن دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث أبو هريرة اسمه عمير بن عامر بن عبد ذي الشري بن طريف بن عتاب بن أبي صعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم ابن غنم بن دوس. [٢] وكذلك قاله: ابن حزم[٣]، وابن عبد البر[٤]، السمعاني[٥]، والذهبي. [٦]

فهو دوسي من بني دوس بن عدثان وهم بطون من الأزد بن الغوث، والأزد قبيلة يمانية قحطانية مشهورة ونسبه معروف محفوظ إلى جده الأعلى الأزد كما تقدم.

وبهذا الذي ذكرناه يظهر زيف من يدعي أن أبا هريرة مجهول النسب، بل نزيد هنا ونقول: إن ابن إسحاق صاحب كتاب السيرة المعروف يقول عنه: إنه كان ذا شرف ومكانة، وكان وسيطًا في دوس، حيث يحب أن يكون منهم.

صفته رضي الله عنه: قال عبد الرحمن بن لبيبة: أتيت أبا هريرة وهو آدم بعيد ما بين المنكبين، ذو ضفيرتين أفرق الثنيتين، وقال محمد بن سيرين: كان أبو هريرة لينًا أبيض، وكان يخضب، وكان يلبس ثوبين ممشقين، وقال ابن سيرين: كان أبو هريرة أبيض لينًا لحيته حمراء. [٧]

إسلامه: أسلم أبو هريرة عام خيبر، وشهدها مع رسول الله ﷺ ثم لزمه وواظب عليه

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٤٠)، وحسنه ابن حجر كما في الإصابة ٧/ ٤٢٦.

(٢) طبقات خليفة بن خياط (١٩٢).

(٣) جمهرة انساب العرب (١٥٨).

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب٤/ ٣٣٤.

(٥) الأنساب (٣/ ٥٠٦، ٥٠٧).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧٨).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧٨).

رغبة في العلم.[١]

والراجح: أنه أسلم قبل هذا التاريخ بزمن طويل، ولكن هجرته إلى رسول الله ﷺ إنما كانت في تلك السنة، وإنما رجحنا ذلك لدليلين:

الأول: ما ذكره ابن حجر في الإصابة من ترجمة الطفيل بن عمرو الدوسي: أنه أسلم قبل الهجرة، ولما عاد بعد إسلامه إلى قومه - رهط أبي هريرة - دعاهم إلى الإسلام فلم يجبه إلا أبوه، وأبو هريرة. وهذا صريح في أن إسلام أبي هريرة قد تم قبل قدومه إلى الرسول ﷺ في غزوة خيبر بسنوات.

الثاني: ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من أمر المشادة التي جرت بين أبي هريرة رضي الله عنه وبين أبان بن سعيد بن العاص حين قسمة الغنائم بعد فتح خيبر، فقد طلب أبان من الرسول ﷺ أن يقسم له الغنائم، فقال أبو هريرة: لا تقسم له يا رسول الله؛ فإنه قاتل ابن قوقل - وهو النعمان بن مالك بن ثعلبة -ولقبه قوقل بن أصرم وذلك في معركة أحد إذ كان أبان لا يزال مشركًا فقتل ابن قوقل.[٢]

ومن هذه القصة ندرك أن أبا هريرة حين قدم خيبر مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ لم يكن حديث عهد بالإسلام، بل كان متتبعًا لمعاركه وأحداثه بحيث يعلم أن أبان بن سعيد بن العاص هو الذي قتل (ابن قوقل) يوم أحد، وإلى هذا ذهب الحافظ ابن حجر.[٣]

حفظه: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: إني أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ. قَالَ: " **ابْسُطْ رِدَاءَكَ** " فَبَسَطْتُهُ، قالَ: فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: " **ضُمَّهُ** " فَضَمَمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ.[٤]

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ٣٣٤)، أسد الغابة (٥/ ٣٢٢).

(٢) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِخَيْبَرَ بَعْدَ مَا افْتَتَحُوهَا، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَسْهِمْ لِي، فَقَالَ بَعْضُ بني سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ لاَ تُسْهِمْ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: هَذَا قَاتِلُ ابْنِ قَوْقَلٍ، البخاري (٢٨٧٣).

(٣) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٢٥).

(٤) البخاري (١١٩)، مسلم (٢٤٩٢).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قلت يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: **" لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يسألني عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ".** (١)

وعن أبي هريرةﷺ: مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ. (٢)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ لأَبِى هُرَيْرَةَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْتَ كُنْتَ أَلْزَمَنَا لِرَسُولِ الله ﷺ وَأَحْفَظَنَا لِحَدِيثِهِ. (٣)

وقال الشافعي: أبو هريرةﷺ أحفظ من روى الحديث في دهره. (٤)

وقال أبو نعيم: كان أحفظ الصحابة لأخبار رسول اللهﷺ. (٥)

وقال الإمام الذهبي: الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول اللهﷺ، أبو هريرة الدوسي اليماني، سيد الحفاظ الأثبات، وقال: أبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمعه من الرسول ﷺ وأدائه بحروفه، وقد كان أبو هريرة وثيق الحفظ، ما علمنا أنه أخطأ في حديث، فهو رأس في القرآن، وفي السنة، وفي الفقه. (٦) وقال أبو الزعيزعة كاتب مروان: أرسل مروان إلى أبي هريرة فجعل يحدثه، وكان أجلسني خلف السرير أكتب ما يحدث به،

---

(١) البخاري (٩٩).

(٢) البخاري (١١٣).

(٣) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٢٧٠)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢)، والترمذي في سننه (٤٢٠)، والدارمي في الرد على المريسي (٦٢٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥١٠) من طرق عن هُشَيْمٌ أَخْبَرَنَا يَعْلَى بْنُ عَطَاءٍ عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنِ ابْنِ عُمَر به، وصحح إسناده ابن حجر كما في فتح الباري ٣/ ١٩٥.

(٤) الرسالة (٢٧٨).

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٤٣٣.

(٦) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٢٧: ٥٧٨.

حتى إذا كان في رأس الحول أرسل إليه فسأله وأمرني أن أنظر، فما غير حرفًا عن حرف. (١)

عبادته وتقواه: عرف أبو هريرة ﷺ بالعبادة والتقوى، وكل ما يقربه إلى الله تعالى، كيف لا يكون كذلك، وقد صحب الأسوة الحسنة في العبادة، ورآه كيف كان يجهد نفسه فيها، حتى تورمت قدماهﷺ، فكان يكثر من الصلاة والصيام وقراءة القرآن، وقيام الليل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عنه قَالَ: " **أوصاني خليلي بِثَلاَثٍ لاَ أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ، صَوْمِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلاَةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ** ". (٢)

عن عكرمة قال: قال أبو هريرة ﷺ: إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم اثني عشر ألف مرة، وذلك على قدر ديني أو قدر دينه. (٣)

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ فَرُّوخَ الْجُرَيْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ النَّهْدِيَّ يَقُولُ: تَضَيَّفْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ سَبْعًا، فَكَانَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَخَادِمُهُ يَعْتَقِبُونَ اللَّيْلَ أَثْلاَثًا، يُصَلِّي هَذَا ثُمَّ يُوقِظُ هَذَا، وَيُصَلِّي هَذَا ثُمَّ يَرْقُدُ وَيُوقِظُ هَذَا، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كَيْفَ تَصُومُ؟ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ مِنْ أَوَّلِ الشَّهْرِ ثَلاَثًا، فَإِنْ حَدَثَ لِي حَادِثٌ كَانَ آخِرُ شهري. (٤)

وقال ابن كثير: وقد كان أبو هريرة من الصدق والحفظ والديانة والعبادة والزهادة والعمل الصالح على جانب عظيم. (٥)

تواضعه وكرمه وطيب أخلاقه: عُرف أبو هريرةﷺ بتواضعه الجم في كل مراحل حياته، فلم ينس ماضيه بعد أن منّ الله تعالى عليه بنعمة العلم والجاه والفضل، كمن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥١٠ من طريق سليمان بن حرب. وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٤٠) من طريق خالد بن حمدان. كلاهما (سليمان، خالد) عن حماد بن زيد عن عمرو بن عبيد عن أبي الزعيزعة به.

(٢) البخاري (١١٧٨)، مسلم (٧٢١).

(٣) **صحيح**. أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٣٨٣ من حديث إسماعيل بن علية، عن خالد الحذاء، عن عكرمة.

(٤) **صحيح**. أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٥٣، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٨٣ من حديث حماد بن زيد، عن العباس بن فروخ به، وصحح إسناده ابن حجر كما في الإصابة ٧/ ٤٤٢.

(٥) البداية والنهاية ٨/ ١١٣

يحاولون نسيان ماضيهم إذا طابت أيامهم ووسع الله عليهم، وإنما كان يستحضر ماضيه، وما عانى فيه من فاقة وحرمان، ليشكر الله تعالى على نعمة الدين وغيرها من النعم التي أسبغها عليه، ويستزيد بذلك من نعمه تعالى.

عَنْ حُمَيْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ خُثَيْمٍ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِى هُرَيْرَةَ بِأَرْضِهِ بِالْعَقِيقِ فَأَتَاهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى دَوَابَّ فَنَزَلُوا عِنْدَهُ - قَالَ حُمَيْدٌ - فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أذْهَبْ إِلَى أمي فَقُلْ إِنَّ ابْنَكِ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ وَيَقُولُ أَطْعِمِينَا شَيْئًا، قالَ: فَوَضَعَتْ ثَلاَثَةَ أَقْرَاصٍ فِي صَحْفَةٍ وَشَيْئًا مِنْ زَيْتٍ وَمِلْحٍ، ثُمَّ وَضَعَتْهَا عَلَى رأسي وَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا وَضَعْتُهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ كَبَّرَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الذي أَشْبَعَنَا مِنَ الْخُبْزِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ طَعَامُنَا إِلاَّ الأَسْوَدَيْنِ الْمَاءَ وَالتَّمْرَ... [١]

قال الذهبي: وكان من أوعية العلم مع الجلالة والعبادة والتواضع. [٢]

ولعله أراد بقوله: إمامًا، إمامة العلم والفتوى. وكان مع تواضعه كريمًا، وكيف لا يكون كذلك وقد صحب من كان أجود من الريح المرسلةﷺ.

بره بأمه وحب الناس له: كان أبو هريرة ﷺ بارًا بأمه، وكان من بره بها: اصطحابه لها في الهجرة إلى رسول الله ﷺ، وكانت مشركة، رجاء أن تؤمن بالله ورسوله ﷺ، وقد حقق الله تعالى رجاءه؛ حيث أجاب النبي ﷺ طلبه بالدعاء لأمه فآمنت، وفرح بذلك فرحًا شديدًا أبكاه.

عَنْ أَبِى كَثِيرٍ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حدثني أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول اللهﷺ: " **اللهم اهد أم أبي هريرة** " فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة

(١) صحيح. أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٣، ومن طريقه البخاري في الأدب المفرد (٥٧٢) من حديث محمد بن عمرو بن حلحلة، عن حميد بن مالك بن خثيم. وصحح إسناده الألباني في الأدب المفرد (٤٤٥)

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٤.

الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال فرجعت إلى رسول اللهﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا، قال: قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله: " **اللهم حبب عبيدك هذا يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين** " فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني. (١) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: " **لِلْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الصَّالِحِ أَجْرَانِ** "، والذي نفسي بِيَدِهِ لَوْلاَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، وَالْحَجُّ وَبِرُّ أمي، لأَحْبَبْتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ. (٢)

توسطه في الفتوى يعني أنه ليس من المكثرين في الفتوى فالوسطية هنا مقابل القلة والكثرة وليس التشدد والتنطع-: **قال ابن القيم**: وَلَمَّا كَانَ التَّبْلِيغُ عَنْ الله سُبْحَانَهُ يَعْتَمِدُ الْعِلْمَ بِمَا يُبَلَّغُ، وَالصِّدْقَ فِيهِ، لَمْ تَصْلُحْ مَرْتَبَةُ التَّبْلِيغِ بِالرِّوَايَةِ وَالْفُتْيَا إلَّا لِمَنْ اتَّصَفَ بِالْعِلْمِ وَالصِّدْقِ؛ فَيَكُونُ عَالِمًا بِمَا يُبَلِّغُ صَادِقًا فِيهِ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ حَسَنَ الطَّرِيقَةِ، مَرْضِيَّ السِّيرَةِ، عَدْلًا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، مُتَشَابِهَ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ فِي مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ وَإِذَا كَانَ مَنْصِبُ التَّوْقِيعِ عَنْ الْمُلُوكِ بِالْمَحِلِّ الَّذِي لَا يُنْكَرُ فَضْلُهُ، وَلَا يُجْهَلُ قَدْرُهُ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ السَّنِيَّاتِ، فَكَيْفَ بِمَنْصِبِ التَّوْقِيعِ عَنْ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ؟ فَحَقِيقٌ بِمَنْ أُقِيمَ فِي هَذَا الْمَنْصِبِ أَنْ يُعِدَّ لَهُ عُدَّتَهُ، وَأَنْ يَتَأَهَّبَ لَهُ أُهْبَتَهُ، وَأَنْ يَعْلَمَ قَدْرَ الْمَقَامِ الَّذِي أُقِيمَ فِيهِ، وَلَا يَكُونُ فِي صَدْرِهِ حَرَجٌ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ وَالصَّدْعِ بِهِ؛ فَإِنَّ الله نَاصِرُهُ وَهَادِيهِ.

وَأَوَّلُ مَنْ قَامَ بِهَذَا الْمَنْصِبِ الشَّرِيفِ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَسَفِيرُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِﷺ؛ فَكَانَ يُفْتِي عَنْ الله بِوَحْيِهِ الْمُبِينِ.

ثُمَّ قَامَ بِالْفَتْوَى بَعْدَهُ بَرْكُ الْإِسْلَامِ وَعِصَابَةُ الْإِيمَانِ، وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ، وَجُنْدُ الرَّحْمَنِ،

---

(١) مسلم (٢٤٩١).

(٢) البخاري (٢٥٤٨)، مسلم (١٦٦٥).

أُولَئِكَ أَصْحَابُهُ ﷺ، أَلْيَنُ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا، وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفًا، وَأَحْسَنُهَا بَيَانًا، وَأَصْدَقُهَا إِيمَانًا، وَأَعَمُّهَا نَصِيحَةً، وَأَقْرَبُهَا إِلَى اللهِ وَسِيلَةً، وَكَانُوا بَيْنَ مُكْثِرٍ مِنْهَا وَمُقِلٍّ وَمُتَوَسِّطٍ رضي الله عنهم أجمعين.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: وَالْمُتَوَسِّطُونَ مِنْهُمْ فِيمَا رُوِيَ عَنْهُمْ مِنَ الْفُتْيَا: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ،. . . وغيرهم ﷺ.(١)

زواجه: أخرج البخاري بلفظ المتابعة غير الموصولة عن شيخه أصبغ بن الفرج المصري بسنده إلى أبي هريرة‏ﷺ قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِي رَجُلٌ شَابٌّ وَأَنَا أَخَافُ عَلَى نفسي الْعَنَتَ وَلاَ أَجِدُ مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ النِّسَاءَ، فَسَكَتَ عَنِّى، ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِك، فَسَكَتَ عَنِّى ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَسَكَتَ عَنِّى ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ النبيﷺ: **"يَا أَبَا هُرَيْرَةَ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لاَقٍ، فَاخْتَصِ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرْ"**(٢).

ونستدل من هذه أنه كان في حياة الرسول ﷺ لابثًا بجواره، لا تشغله النساء.

لكنه تزوج بسرة بنت غزوان المازنية، بعد ذلك لما كان مروان يستخلفه في إمرة المدينة(٣)، وهي صحابية أخت عتبة بن غزوان المازني، الصحابي المشهور أمير البصرة، وعتبة هذا قديم الإسلام، وهاجر إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله، ﷺ، وكان رجلًا طوالًا جميلًا، وشهد بدرًا، وهو الذي مصَّر البصرة واختطها، ومات في خلافة عمر بن الخطابﷺ، إن زواج أبي هريرة من أخت هذا الصحابي الجليل الأمير توثيق قوي لأبي هريرة، ولو كان كما يدَّعي المدعون كاذبًا وضاعًا لما رضي آل بسرة بتزويجه، ولما رضيت به، وهي الصحابية الجليلة أخت الصحابي الجليل، بل إنها كانت ميسورة غنية في العهد النبوي متزوجة من ميسور،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين١/ ٢١: ١٩ بتصرف.

(٢) البخاري (٥١٧٦).

(٣) الإصابة (٤/ ٢٤٦).

واستأجرت أبا هريرة آنذاك خادمًا وحاديًا، فرضاها بعد ذلك به زوجًا دليل على عظم مكانته في نفوس المسلمين، وارتفاع شأنه.(١)

أولاده: ذكر له أربعة أولاد وبنتًا، أشهرهم وأكبرهم ابنه (المحرر)، ترجم له البخاري وابن أبي حاتم، وترجم له ابن حجر، وابن سعد وقال فيه: توفي بالمدينة في خلافة عمر بن عبد العزيز، وقد روى عن أبيه، وكان قليل الحديث.

والمحرر هذا: له روايات عديدة في دواوين الحديث، فللزهري عن محرر بن أبي هريرة عن أبيه عن عمر بن الخطاب حديث في مسند أحمد، وفي المستدرك، وسنن الدار قطني عن أبيه، وفي سنن الدارمي، وعند النسائي، ومسند الحميدي، ومعاني الآثار، ويروي الشعبي أيضًا عن المحرر. وللمحرر ابن يقال له: أبو نعيم، يروي عن أبيه.

ولأبي هريرة ابن آخر يقال له مُحرِّز، ذكره البخاري، وأبو الفرج، وهو من الرواة عن أبيه أيضًا.

والثالث: عبد الرحمن بن أبي هريرة، يروي عنه سليمان بن سنان المزني، وترجم له البخاري، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وله رواية عند الدارقطني.

الرابع: اسمه بلال، ذكره ابن أبي حاتم وغيره، وله ابن يقال له: محرر بن بلال.

أما أختهم فلم أجد اسمها، لكن ذكر ابن سعد أن سعيد بن المسيب تزوجها، وفي الإصابة ذكر صهر آخر لأبي هريرة، وهو الصحابي الجليل الجارود بن المعلى، كان زوج أخت أبي هريرة، وفي هذه المصاهرة توثيق ضمني يضاف إلى ما قدمنا.

ويبدو أن ذرية أبي هريرة استمرت معروفة في المجتمع الإسلامي، وقد ذكر صاحب النفح الطيب منهم: يوسف بن يحيى بن يوسف المتوفى سنة ٢٨٨ هـ، وهو من علماء الأندلس الذين هاجروا إلى المشرق.(٢)

أبو هريرة يودع الدنيا (وفاته): ها نحن الآن أخيرًا أمام شيخ كبير ناهز الثمانين مسرع إلى لقاء الله تعالى بعد أن أدى الأمانة التي في عنقه، ونشر حديث رسول الله ﷺ وعلَّمه الناس.

---

(١) دفاع عن أبي هريرة لـ عبد المنعم صالح العلي صـ ١٦٠: ١٥٩.

(٢) دفاع عن أبي هريرة لـ عبد المنعم صالح العلي صـ ١٦٢: ١٦١

حياة حافلة ذات مشاهد تستوقف الناظر المتتبع. هجرة من أرض بعيدة، وعيشة كفاف، وملازمة قوية لرسول اللهﷺ، وقتال الشرك مع رسول اللهﷺ، ومحاربة الردة، ومشاركة في الفتوح، وتفان في الدفاع عن الخلافة، واعتزال الفتنة، وإذاعة لحديث رسول اللهﷺ، ولم يبق إلا الإسراع للقاء رب العالمين. ثم يوصى فيقول: لاَ تَضْرِبُوا عَلَيَّ فُسْطَاطًا، وَلاَ تتبعوني بِمِجْمَرٍ، وَأَسْرِعُوا بِي؛ فإني سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " **إِذَا وُضِعَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ عَلَى سَرِيرِهِ قَالَ: قدموني قدموني، وإِذَا وُضِعَ الرَّجُلُ السُّوءُ عَلَى سَرِيرِهِ قَالَ: يَا وَيْلَهُ أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِي** ". (١)

ودخل عليه مروان قبل لحظات موته فيقول: شفاك الله يا أبا هريرة، لكن أبا هريرة يحلق في أجواء أخرى، فلا يجيب مروان، ويلتفت لمناجاة ربه مناجاة الواثق الملئ اليدين بأفعال الخير المنتظر لرحمة ربه فيقول: اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي.

يقول المقبري: فما بلغ مروان أصحاب القطا حتى مات أبو هريرة. (٢)

لكن ذكره الطيب سيبقى في قلوب المؤمنين إلى يوم القيامة.

واختلف في سنة وفاته: فقد ذكر خليفة بن خياط أن وفاته كانت سنة ٥٧ هـ، وكذا نقل البخاري وفاته عن هشام بن عروة، وتردد ابن حبان، فذكر أن وفاته كانت سنة٥٧

---

(١) **صحيح لغيره**. أخرجه أحمد (٧٩١٤)، والبيهقي من طريق يزيد بن هارون، أحمد (١٠١٣٧) من طريق يحيى ابن سعيد القطان وحجاج بن محمد المصيصي، وأحمد (١٠٤٩٣) من طريق محمد عبد الله بن الزبير، وأبو داود الطيالسي (٢٣٣٦)، ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (٤/ ٤٤٤)، والنسائي (٤/ ٤٠) وفي الكبرى (٢٠٣٥) من طريق عبد الله بن المبارك، وابن حبان (٣١١١)، من طريق يحيى بن آدم، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٣٨)، من طريق معن بن عيسى، ومحمد بن إسماعيل بن فديك، ويزيد بن عمرو كلهم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن عبد الرحمن بن مهران، عن أبي هريرةﷺ به. وإسناده حسن من أجل عبد الرحمن ابن مهران قال الذهبي: صدوق، وأخرج له مسلم في الصحيح. . . . . . ، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدرىﷺ وهو عند البخاري (١٣٨٠) ولفظه قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِذَا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ؛ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا، يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ ".

(٢) **صحيح**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٣٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٨٤، ٣٨٥) من طريق معن بن عيسى عن مالك بن أنس عن المقبري عن أبي هريرةﷺ به.

أو٥٨ هـ، لكنه جزم خلال ترجمة سعيد بن العاص بأن وفاة أبي هريرة كانت سنة٥٨هـ.

وخلافًا لخليفة، ومن قبله هشام بن عروة، ذكر ضمرة بن ربيعة أن أبا هريرة مات سنة٥٨هـ، ووافقه الهيثم بن عدي، وأبو معشر يوسف بن يزيد شيخ شيوخ البخاري.

أما ابن إسحاق فيقول أنه مات سنة ٥٩هـ، ووافقه الواقدي، وأبو عبيد، وبقولهم قال إمام العراق محمد بن عبد الله بن نمير. وكان له يوم توفي ٧٨ سنة فيما يقول الواقدي والهيثم بن عدي.

وكان موته رضي الله عنه بالعقيق -الوادي المجاور للمدينة- وحُمل إلى المدينة، فصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكان أميرًا على المدينة لعمه معاوية، ومروان يومئذ معزول، وحمل ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه سريره حتى بلغوا البقيع حفظًا بما كان رأيه في عثمان، ونصره إياه يوم حصار الدار.

وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ومروان يمشيان أمام الجنازة، وكان ابن عمر أيضًا في جنازة أبي هريرة رضي الله عنه، وهو يمشي أمامها ويكثر الترحم عليه ويقول: كان ممن يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين.[1]

الوجه الثاني: بعض فضائل أبي هريرة رضي الله عنه.

أبو هريرة رضي الله عنه واحد من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ولذا فكل ما ثبت في فضل الصحابة، فهو ثابت لأبي هريرة رضي الله عنه، ولكن هذه بعض الفضائل الخاصة لأبي هريرة.

شهود النبي صلى الله عليه وسلم له بالخيرية: عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **ممن أنت؟** " قال قلت: من دوس. قال: " **ما كنت أرى أن في دوس أحدًا فيه خير** ".[2]

دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له بالبركة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النبي صلى الله عليه وسلم بِتَمَرَاتٍ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ الله فِيهِنَّ بِالْبَرَكَةِ، فَضَمَّهُنَّ ثُمَّ دَعَا لي فِيهِنَّ بِالْبَرَكَةِ فَقَالَ لي: " **خُذْهُنَّ وَاجْعَلْهُنَّ في مِزْوَدِكَ هَذَا أَوْ في هَذَا الْمِزْوَدِ، كُلَّمَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا فَأَدْخِلْ فِيهِ يَدَكَ**

(١) دفاع عن أبي هريرة لـ عبد المنعم صالح العلي صـ ١٦٧: ١٦٥.

(٢) **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه (٣٨٣٨) من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا أبو خلدة، حدثنا أبو العالية، عن أبي هريرة رضي الله عنه به، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠١٤).

فَخُذْهُ، وَلاَ تَنْثُرْهُ نَثْرًا، فَقَدْ حَمَلْتُ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ كَذَا وَكَذَا مِنْ وَسْقٍ فِي سَبِيلِ الله " فَكُنَّا نَأْكُلُ مِنْهُ وَنُطْعِمُ، وَكَانَ لاَ يُفَارِقُ حَقْوِي حَتَّى كَانَ يَوْمُ قَتْلِ عُثْمَانَ فَإِنَّهُ انْقَطَعَ. (١)

دعوة النبي ﷺ له بحبه للمؤمنين؛ وحب المؤمنين له: عَنْ أَبِى كَثِيرٍ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حدثني أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ: " **اللهم اهد أم أبي هريرة** " فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله، أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، " فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا، قال: قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله: " **اللهم حبب عبيدك هذا يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين** " فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني. (٢)

قال ابن كثير: وهذا الحديث من دلائل النبوة؛ فإن أبا هريرة محبب إلى جميع الناس، وقد شهر الله ذكره بما قدره أن يكون من روايته من إيراد هذا الخبر عنه على رؤوس الناس في الجوامع المتعددة في سائر الأقاليم في الإنصات يوم الجمعة بين يدي الخطبة، والإمام على المنبر، وهذا من تقدير الله العزيز العليم، ومحبة الناس له رضي الله عنه. (٣)

---

(١) حسن. أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٥٢، والترمذي في السنن (٣٨٣٩)، وابن حبان في صحيحه (٦٥٣٢) من طرق عن المهاجر عن أَبِى الْعَالِيَةِ الرِّيَاحِىِّ عن أبي هريرة به، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠١٥).

(٢) مسلم (٢٤٩١).

(٣) البداية والنهاية ٨/ ١٠٨.

شهادة النبي ﷺ له بالحرص على العلم: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ: " **لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يسألني عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ** ". (١) فقد تتابع الخير والفضل له فهو ينال أجر الصحبة المطلقة، ويكسب العدالة التي لحفت بهم جميعًا، وأثبتتها آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الصحيحة، ومن يرفضها فإنما يرفض القرآن والحديث الصحيح وإجماع الصدر الأول من المسلمين، فهو ينال شرف دعوة النبي ﷺ لقبيلته دوس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا، فظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: " **اللهمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ** ". (٢)

وينال ليمانيته شرف أهلها عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: " **أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ** ". (٣)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قال: ذكر النبيﷺ: " **اللهم بارك لنا في شأمنا، اللهم بارك لنا في يمننا** " قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا؟ قال: " **اللهم بارك لنا في شأمنا، اللهم بارك لنا في يمننا** " قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا؟ فأظنه قال في الثالثة: " **هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان** ". (٤)

وينال أجر الهجرة، حيث أنه هاجر من بلده قبل الفتح فهكذا ينال الخير بعد الخير بملازمته وصحبته رسول الله ﷺ وما أعظم هذا الشرف الذي به يدخل ضمن آيات كثيرة أكرم الله تعالى صحابة نبيه.

هذه بعض فضائل أبي هريرة ﷺ.

---

(١) البخاري (٩٩).

(٢) البخاري (٦٣٧٩)، مسلم (٢٥٢٤).

(٣) البخاري (٤٣٨٨)، مسلم (٥٢).

(٤) البخاري (٧٠٤٩).

الوجه الثالث: حكم أهل العلم على من تكلم في الصحابة، وفي أبي هريرة خاصة.

ذلكم أبو هريرة ﷺ الذي عرفناه قبل إسلامه وبعد إسلامه، عرفناه في هجرته وصحبته للرسول الكريمﷺ، فكان الصاحب الأمين والطالب المجد، يدور مع الرسول الكريم ﷺ في حلّه وترحاله، ويشاركه أفراحه وأحزانه، وعرفنا التزامه للسنة المطهرة، وتقواه وورعه، في شبابه وهرمه، وعرفنا مكانته العلمية، وكثرة حديثه، وقوة حافظته، ورأينا منزلته بين أصحابه، وثناء العلماء عليه.

ذلكم أبو هريرة ﷺ الذي صوّره لنا التاريخ من خلال البحث الدقيق، إلا أن بعض الحاقدين لم يسرهم أن يروا أبا هريرة ﷺ في هذه المكانة السامية، فدفعتهم أهواؤهم إلى أن يصوّروه صورة تخالف الحقيقة التي عرفناها، فرأوا في صحبته للرسول الكريم ﷺ، غايات خاصة لأبي هريرة، ليشبع بطنه ويروي نهمه، وصوروا أمانته خيانة، وحفظه تدجيلًا، وحديثه الطيب الكثير كذبًا على رسول الله ﷺ وبهتانًا، ورأوا في فقره مطعنًا وعارًا، وفي تواضعه ذلًا، وفي مرحه هذرًا، وصوروا أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر لونًا من المؤامرات لخداع العامة، ورأوا في اعتزاله الفتن تحزبًا، وفي قوله الحق انحيازًا، فهو صنيعة الأمويين الذين طووه تحت جناحهم؛ فكان أداتهم الداعية لمآربهم السياسية، فكان لذلك من الكاذبين الواضعين للأحاديث على رسول الله ﷺ افتراءً وزورا! !. [1]

قال الإمام الطحاوي: ونحب أصحاب رسول اللهﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان. [2]

قال أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة،

---

(١) أبو هريرة راوية الإسلام (٢٠٢: ٢٠١).

(٢) العقيدة الطحاوية ١/ ٥٧.

والجرح بهم أولى وهم زنادقة.[١]

وقال السرخسي: إن أبا هريرةﷺ ممن لا يشك أحد في عدالته، وطول صحبته مع رسول اللهﷺ.[٢]

وقال أيضًا: إن الله تعالى أثنى عليهم في غير موضع من كتابه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ (الفتح: ٢٩) ورسول الله ﷺ وصفهم بأنهم خير الناس فقال: "**خير الناس قرني الذين أنا فيهم**" والشريعة إنما بلغتنا بنقلهم فمن طعن فيهم فهو ملحد منابذ للإسلام دواؤه السيف إن لم يتب.[٣]

قال ابن خزيمة: وإنما يتكلم في أبي هريرةﷺ لدفع أخباره من قد أعمى الله قلوبهم فلا يفهمون معاني الأخبار؛ **إما معطل جهمي**: يسمع أخباره التي يرونها خلاف مذهبهم الذي هو كفر، فيشتمون أبا هريرةﷺ، ويرمونه بما الله تعالى قد نزهه عنه، تمويها على الرعاء والسفل، أن أخباره لا تثبت بها الحجة.

وإما خارجي: يرى السيف على أمة محمدﷺ، ولا يرى طاعة خليفة ولا إمام، إذا سمع أخبار أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ؛ خلاف مذهبهم الذي هو ضلال، لم يجد حيلة في دفع أخباره بحجة وبرهان، كان مفزعه الوقيعة في أبي هريرةﷺ.

أو قدري: اعتزل الإسلام وأهله، الذين يتبعون الأقدار الماضية، التي قدرها الله تعالى، وقضاها قبل كسب العباد لها، إذا نظر إلى أخبار أبي هريرة ﷺ، التي قد رواها في إثبات القدر، لم يجد بحجة - يريد صحة مقالته التي هي كفر، وشرك - كانت حجته عند نفسه أن أخبار أبي هريرة لا يجوز الاحتجاج بها.

أو جاهل: يتعاطى الفقه ويطلبه من غير مظانه، إذا سمع أخبار أبي هريرةﷺ فيما يخالف مذهب من قد اجتبى مذهبه وأخباره تقليدًا بلا حجة ولا برهان - كلم في أبي هريرةﷺ،

(١) الكفاية في علم الرواية (صـ٤٩).
(٢) أصول السرخسي ١/ ٣٤٠.
(٣) أصول السرخسي (٢/ ١٣٤).

ودفع أخباره التي تخالف مذهبه، ويحتج بأخباره على مخالفته إذا كانت أخباره موافقة لمذهبه. (١)

قال الشيخ أحمد شاكر: وقد لهج أعداء السنة، في عصرنا، وشغفوا بالطعن في أبي هريرةﷺ، وتشكيك الناس في صدقه وفى روايته، وما إلى ذلك أرادوا، وإنما أرادوا أن يصلوا – زعموا- إلى تشكيك الناس في الإسلام، تبعًا لسادتهم المبشرين، وإن تظاهروا بالقصد إلى الاقتصار على الأخذ بالقرآن، أو الأخذ بما صح من الحديث في رأيهم، وما صح من الحديث في رأيهم إلا ما وافق أهواءهم، وما يتبعون من شعائر أوروبا وشرائعها، ولن يتورع أحدهم عن تأويل القرآن، إلى ما يخرج الكلام عن معنى اللفظ في اللغة التي نزل بها، ليوافق تأويلهم هواهم!. وما كانوا بأول من حارب الإسلام من هذا الباب، ولهم في ذلك سلف من أهل الأهواء قديمًا، والإسلام يسير في طريقه قدمًا، وهم يصيحون ما شاءوا، لا يكاد الإسلام يسمعهم، بل هو إما يتخطاهم لا يشعر بهم، وإما يدمرهم تدميرًا. ومن عجب أن تجد ما يقول هؤلاء المعاصرون، يكاد يرجع في أصوله ومعناه إلى ما قال أولئك الأقدمون! بفرق واحد فقط: أن أولئك الأقدمين، زائغين كانوا أم ملحدين، كانوا علماء مطلعين أكثرهم ممن أضله الله على علم! ! أما هؤلاء المعاصرون، فليس إلا الجهل والجرأة، وامتضاغ ألفاظ لا يحسنوها، يقلدون في الكفر، ثم يتعالون على كل من حاول وضعهم على الطريق القويم! !. (٢)

الوجه الرابع: الرد على الشبهات التي أثيرت حول أبي هريرة ﷺ

الشبهة الأولى: الاختلاف في اسمه

قالوا: اختلف العلماء في اسمه اختلافًا كثيرًا مما يدل على جهالته.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الهدف من الاسم هو المعرفة، وقد عرف بكنيته.

متى كان الاختلاف في اسم الناس يشينهم أو يسقط عدالتهم، ويكفي أن يعرف بكنيته، كما عرفنا أبا بكر، وأبا عبيدة، وأبا دجانة الأنصاري، وأبا الدرداءﷺ؛ الذين

(١) المستدرك للحاكم ٣/ ٥١٣.

(٢) الطعن في عدالة الصحابة لـعماد الشربيني ٥/ ٣٥.

اشتهروا بكناهم، وغابت أسماؤهم عن كثير من الناس. (١)

الوجه الثاني: قيمة الرجل في عمله وليست في اسمه.

إن الاختلاف في اسم الرجل لا يحط من شأنه، وقيمة الرجل بعمله لا باسمه واسم أبيه، وما جعل الله دخول الجنة وبلوغ مراتب السعادة عنده بالأسماء والكنى والألقاب، ومن زعم مثل هذا فهو جاهل بدين الله ﷻ.

وإن كثيرًا من الصحابة قد اختلف في أسمائهم اختلافًا كبيرًا، ولم ينقص ذلك من أقدارهم وخدمتهم للإسلام وتقدير المسلمين لهم ولأعمالهم. (٢)

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ.** (٣) وعنه أيضًا ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه** (٤)

ولم نسمع في يوم من الأيام أن الحسب والنسب يقدم صاحبه في المفاضلة العلمية أو يؤخره. (٥)

الوجه الثالث: الاختلاف في الاسم طبيعي وبدهي، لا في أبي هريرة ﷺ وحده، بل في كل إنسان عرف بكنيته منذ نعومة أظفاره.

إن سبب هذا الاختلاف في اسم أبي هريرة يعود إلى أنه منذ أسلم لم يعرف إلا باسم أبي هريرة، ولم يكن من قريش وقبائلها حتى يعرفه الصحابة باسمه الأصلي، وإنا لنشاهد أكثر المسلمين اليوم لا يعرفون الاسم الحقيقي لأبي بكر الصديق ﷺ؛ لأنهم منذ نشئوا لم يعرفوه إلا بكنيته، فأي ضرر في هذا؟ لقد كان من قبيلة دوس، من مكان ناء عن مكة والمدينة، ومنذ أسلم ولزم النبي ﷺ لم يناد إلا بأبي هريرة. (٦)

---

(١) أبو هريرة راوية الإسلام لـمحمد عجاج الخطيب (٢١٣).

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٢٠).

(٣) مسلم (٢٥٦٤).

(٤) مسلم (٢٦٩٩).

(٥) أبو هريرة راوية الإسلام (٢١٣).

(٦) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٢١).

الوجه الرابع: كثرة الاختلاف في اسمه واسم أبيه ليس على حقيقته.

إن الاختلاف في اسمه واسم أبيه إلى ثلاثين أو أربعين قولًا؛ ليس على حقيقته، بل هو ناشئ من وهم الرواة وتقديم لفظ على لفظ، والخلاف الحقيقي لا يتجاوز على الحقيقة ثلاثة أقوال. (١)

قال ابن حجر: مع أن بعضها وقع فيه تصحيف أو تحريف مثل بر، وبرير، ويزيد؛ والظاهر أنه تغيير من بعض الرواة، وكذا سكن وسكين، والظاهر أنه يرجع إلى واحد وكذا سعد وسعيد، ثم قال: وبعضها انقلب اسمه مع اسم أبيه؛ كما تقدم في قول من قال: عبد عمرو بن عبد غنم، وقيل: عبد غنم بن عبد عمرو، فعند التأمل لا تبلغ الأقوال عشرة خالصة ومزجها من جهة صحة النقل إلى ثلاثة عمير وعبد الله وعبد الرحمن. (٢)

الشبهة الثانية: قالوا: لم نعرف شيئًا عن نشأته ولا عن تاريخه قبل إسلامه:

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: هذه دعوى لا أصل لها.

فقد تقدم أنه من قبيلة دوس، وهي قبيلة معروفة؛ ذات شرف ومكانة في القبائل العربية.

قال خليفة بن خياط: ومن دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث، أبو هريرة. (٣)

الوجه الثاني: العبرة بما بعد الإسلام.

إن جمهور الصحابة إلا عددًا منهم لا يتجاوز العشرات لم يعرف شيء عنهم في جاهليتهم قبل الإسلام؛ فلقد كان العرب كلهم مغمورين في جاهليتهم، محصورين في جزيرتهم، لا يهتمون بشؤون العالم، ولا يهتم العالم بشؤونهم؛ إلا ما يتصل بالتجارة التي كانت تمر قوافلها ببلادهم، فلما جاء الإسلام وشرفهم الله بحمل رسالته، أصبح لكل واحد منهم تاريخ يكتب، وشؤون يتحدث عنها، ورواة يتتبعون أخبارهم، وتلاميذ ينقلون عنهم العلم والهداية، ولماذا كانت جهالة تاريخه في الجاهلية تضر بمكانته، وتحط

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٢١).

(٢) الإصابة في معرفة الصحابة (٣/ ٤١٧).

(٣) طبقات خليفة بن خياط (١٩٢)، نهاية الأرب في معرفة الأنساب العرب للقلقشندي (٨٧).

من شأنه في الإسلام؟.

وأين يوجد في كتاب الله أن الذي لا يعرف تاريخه قبل الإسلام يجب الحط من شأنه، والانتقاص من مكانته، والشك فيما يروى من أحاديث رسول الله ﷺ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم. (١)

الوجه الثالث: أبو هريرة يحدثنا عن نفسه.

يَقُولُ: نَشَأْتُ يَتِيمًا، وَهَاجَرْتُ مِسْكِينًا، وَكُنْتُ أَجِيرًا لِابْنَةِ غَزْوَانَ بِطَعَامِ بطني وَعُقْبَةِ رجلي أَحْطِبُ لَهُمْ إِذَا نَزَلُوا، وَأَحْدُو لَهُمْ إِذَا رَكِبُوا، فَالْحَمْدُ للهِ الذي جَعَلَ الدِّينَ قِوَامًا، وَجَعَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ إِمَامًا. (٢) وفي الإصابة أن بسرة هذه أخت عتبة بن غزوان السلمي، وبلاد دوس بعيدة جدًّا عن بلاد بني سليم فيظهر أن أبا هريرة في هجرته إلى النبي ﷺ مر ببلاد بني سليم أو قريبًا منها، فوجد رفقة راحلين نحو المدينة وفيهم بسرة، فصحبهم على أن يخدمهم في الطريق ويطعموه ويعقبوه.

ولا يدفع هذا ما ثبت من قوله: لَمَّا قَدِمْتُ عَلَى النبي ﷺ قُلْتُ في الطَّرِيقِ:

يَا لَيْلَةً مِنْ طُولِهَا وَعَنَائِهَا   عَلَى أَنَّهَا مِنْ دَارَةِ الْكُفْرِ نَجَّتِ

وَأَبَقَ غُلَامٌ لي في الطَّرِيقِ، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى النبي ﷺ فَبَايَعْتُهُ، فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ إِذْ طَلَعَ الْغُلَامُ، فَقَالَ لي النبي ﷺ: **"يَا أَبَا هُرَيْرَةَ هَذَا غُلَامُكَ"**. فَقُلْتُ هُوَ لِوَجْهِ الله تَعَالَى، فَأَعْتَقْتُهُ. (٣)

فقد يكون الغلام أَبِق منه قبل صحبته للرفقة، وبهذا تبين أن في القصة منقبتين له:

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٢٢)، أبو هريرة راوية الإسلام (٢١٧: ٢١٦).

(٢) **حسن لغيره**؛ أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٥٤، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/ ٢٤٣، وابن ماجه في السنن (٢٤٤٥)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٧٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٢٠، وفي شعب الإيمان (٤٥٧٦) من طرق عن سليم بن حيَّان سمعت أبي يقول سمعت أبا هريرة به. وهذا إسناد فيه حيان بن بسطام ذكره ابن حبان في كتاب الثقات ولم يذكر له جرح ولا تعديل، وأخرجه ابن حبان في الصحيح (١٦/ ١٠٠) من طريق ابن عليَّة يعني عن الجُرَيْرِيِّ عَنْ مُضَارِبِ بْنِ حَزْنٍ عن أبي هريرة بمعناه وهذا إسناد صحيح يتقوى به الإسناد الأول.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٤٩٤١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/ ٢٣٤ من طرق عن محمد هو ابن سيرين عن أبي هريرة به مطولًا. قال البوصيري في «زوائده» ص٣٣٣ (٨١٨): هذا إسناد صحيح موقوف، حبان هو ابن بسطام ذكره ابن حبان في ((الثقات))، ووثقه الدارقطني، والذهبي وغيرهم، وباقي رجال الإسناد أثبات.

(٣) البخاري (٤٣٩٣).

الأولى: أن إخدامه لنفسه إنما كان ليبلغ إلى النبي ﷺ ودار الإسلام.

والثانية: أنه مع قلة ذات يده أعتق غلامه، شكرًا لله تعالى على إبلاغه مقصده، وفي القصة عبرة بالغة، فإنه لما أذل نفسه بخدمة تلك المرأة استعانة على الهجرة في سبيل الله عوضه الله تعالى بأن زوجه إياها تخدمه فوق ما خدمها، ثم كان على طريقته في التواضع والتحدث بالنعمة والاعتبار مع الميل إلى المزاح يذكر هذه القصة ويشير إلى تكليف امرأته بخدمته على نحو ما كانت تكلفه، وقد يكون وقع منه ذلك مرة أو مرتين على سبيل المزاح ومداعبة الأهل وتحقيق العبرة. (١)

الشبهة الثالثة: طعنهم في إكثار أبي هريرة من الرواية.

يرى البعض أن كثرة رواياته مع قصر مدة صحبته لرسول الله ﷺ أمر يدعو إلى الشك في صحتها.

والرد على ذلك من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ملازمته لرسول الله ﷺ.

لقد لازم أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله ﷺ أربع سنوات في حله وترحاله، ولم يفارقه قط، بل كان يلازمه على جوعه حتى كاد أن يموت من الجوع كل هذا صبرًا على التعلم من رسول الله ﷺ، ففي الحديث أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَتَقُولُونَ مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لاَ يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَإِنَّ إخوتي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقٌ بِالأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى مِلْءِ بطني، فَأَشْهَدُ إِذَا غابوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنَ الأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امرأ مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ أعي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ: **" إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مقالتي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعَ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلاَّ وَعَى مَا أَقُولُ "** فَبَسَطْتُ نَمِرَةً عَلَيَّ، حَتَّى إِذَا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَى

---

(١) الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة (١٥٠).

صَدْرِي، فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ شيء.[١] كما كان يعبر عنه بالحرص على ملازمة الرسول ﷺ وخدمته، حيث كان لا يدع فرصة لخدمته ﷺ إلا اغتنمها، فمن ذلك أنه كان يحمل إداوة وضوئه ﷺ إذا أراد الوضوء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَ النبي ﷺ إِدَاوَةً لِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَتْبَعُهُ بِهَا فَقَالَ: " مَنْ هَذَا ". فَقَالَ: أَنَا أبو هُرَيْرَةَ. فَقَالَ: " **أبغنى أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا، وَلاَ تأتني بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ** ". فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ أَحْمِلُهَا فِي طَرَفِ ثَوْبِي، حَتَّى وَضَعْتُ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مَشَيْتُ، فَقُلْتُ مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ قَالَ: " **هُمَا مِنْ طَعَامِ الْجِنِّ، وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ وَنِعْمَ الْجِنُّ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ، فَدَعَوْتُ اللهَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ إِلاَّ وَجَدُوا عَلَيْهَا طَعَامًا** "[٢].

فمنذ قدم ﷺ مهاجرًا إليه ﷺ سنة سبع من الهجرة، يدور معه في بيوت نسائه يخدمه، ويصلى خلفه، ويحج، ويغزو معه، فهذه الملازمة للنبي ﷺ جعلته يحضر ما لا يحضرون، ويشهد ما لا يشهدون.

فهل ينكر على مثل هذا لجمعه للسنة، وحفظه لها. أعلم أنه لا ينكر إلا من سلب عقله أو اتبع هواه.

الوجه الثاني: دعاء النبي ﷺ له بعدم النسيان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ. قَالَ: " **ابْسُطْ رِدَاءَكَ** " فَبَسَطْتُهُ قَالَ فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "**ضُمَّهُ**" فَضَمَمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ.[٣] وعنه أيضًا أنه قال: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَتَقُولُونَ مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لاَ يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقٌ بِالأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابوا وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنَ الأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امرأ مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ أَعِي

(١) البخاري (٢٠٤٧)، مسلم (٢٤٩٣).

(٢) البخاري (٣٨٦٠).

(٣) البخاري (١١٩)، مسلم (٢٤٩٢).

حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ: "**إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مقالتي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعَ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلاَّ وَعَى مَا أَقُولُ**". فَبَسَطْتُ نَمِرَةً عَلَيَّ، حَتَّى إِذَا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَةِ رَسُولِ الله ﷺ تِلْكَ مِنْ شيء. (١)

وفي هذا فضيلة ظاهرة لأبي هريرة ﷺ، ومعجزة واضحة من علامات النبوة؛ لأن النسيان من لوازم الإنسان، وقد اعترف أبو هريرة ﷺ بأنه كان يكثر منه ثم تخلف عنه ببركة النبي ﷺ. (٢)

وعن زيد بن ثابت ﷺ قال: كنت أنا وأبو هريرة وآخر عند النبي ﷺ فقال: ادعوا.

فدعوت أنا وصاحبي، وأمَّن النبي ﷺ، ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إني أسألك مثل ما سألك صاحباي، وأسألك علما لا يُنسى فأمَّن النبي ﷺ فقلنا: ونحن كذلك يا رسول الله. فقال: سبقكما الغلام الدوسي. (٣)

الوجه الثالث: حرصه على العلم، ودعوة الناس إليه، وكثرة سؤاله للنبي ﷺ، وشهادة الرسول ﷺ له بذلك.

لما كانت الأسئلة كما قيل: مفاتيح العلم؛ فإن أبا هريرة ﷺ كان من المكثرين لها الجريئين عليها، إذ كان يسأل النبي ﷺ عما يرى أنه محتاج للسؤال، طلبًا للعلم، واستزادة للمعرفة من نبعها الصافي، ومصدرها الأول رسول الله ﷺ. فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قلت يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ.** (٤)

---

(١) البخاري (٢٠٤٧). مسلم (٢٤٩٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ٢١٥).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٨٧٠) من طريق الفضل بن العلاء. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٠٨ من طريق حماد بن شعيب. كلاهما (الفضل، وحماد) عن إسماعيل بن أمية، عن محمد بن قيس، عن أبيه أنه أخبره أن رجلا جاء زيد بن ثابت فسأله عن شيء، فقال له زيد: عليك أبا هريرة، فإني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد. . الحديث. قال ابن حجر: سند النسائي جيد. الإصابة ٧/ ٤٣٨.

(٤) البخاري (٩٩).

عن أبي هريرة ﷺ أنه مر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: « ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد، فدخلنا، فلم نر فيه شيئا يقسم. فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحدا؟ قالوا: بلى، رأينا قوما يصلون، وقوما يقرءون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم، فذاك ميراث محمدﷺ. (١)

الوجه الرابع: خوفه من كتمان العلم.

فلقد أكثر أبو هريرة من الحديث خوفا من كتمان العلم، فقال ﷺ: وَالله لَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ الله مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴾. (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**. (٣)

الوجه الخامس: حرصه على أن تتحقق فيه دعوة النبي ﷺ

عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **" نَضَّرَ الله امرأ سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ "**. (٤)

الوجه السادس: سماع كثير من الصحابة والتابعين له، وعدم إنكارهم عليه ﷺ جميعًا:

فقد روى عنه جمع من الصحابة ﷺ.

قال الحاكم: وأنا ذاكر بمشيئة الله ﷻ في هذا رواية أكابر الصحابة ﷺ عن أبي هريرة ﷺ، فقد روى عنه: زيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عباس، وعبد الله ابن عمر،

---

(١) حسن. أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١٤٢٩) من حديث خلف بن تميم عن علي بن مسعدة قال: حدثنا عبد الله الرومي، عن أبي هريرة به. وقال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. (١/ ١٤٨) وقال الألباني: حسن موقوف؛ صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩)

(٢) البخاري (٢٣٥٠). مسلم (٢٤٩٢)

(٣) **صحيح**. أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٤٤، وأبو داود في السنن (٣٦٥٨) من حديث حماد أخبرنا علي بن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة به. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤)

(٤) **صحيح**. أخرجه أبو داود (٣٦٦٠) من حديث عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت به.

وعبد الله بن الزبير، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وعائشة، والمسور بن مخرمة، وعقبة بن الحارث، وأبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك، والسائب بن يزيد، وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ، وأبو أمامة بن سهل، وأبو الطفيل، وأبو نضرة الغفاري، وأبو رهم الغفاري، وشداد ابن الهاد، وأبو حدرد عبد الله بن حدرد الأسلمي، وأبو رزين العقيلي واثلة ابن الأسقع، وقبيصة بن ذؤيب، وعمرو بن الحمق، والحجاج الأسلمي، وعبد الله بن عكيم، والأغر الجهني، والشريد بن سويد ﷺ، فقد بلغ عدد من روى عن أبي هريرة ﷺ من الصحابة ثمانية وعشرين رجلًا. (١)وقد روى عنه من التابعين:

قال ابن حجر: ومن كبار التابعين مروان بن الحكم، وعبد الله بن ثعلبة، وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وسلمان الأغر، والأغر أبو مسلم،. . . ثم قال بعد أن ذكر كثيرا منهم وآخرون كثيرون، قال البخاري رحمه الله روى عنه-يعني: أبو هريرة - نحو الثمانمائة من أهل العلم، وكان أحفظ من روى الحديث في عصره. (٢)

قال المزي: روى عن النبي ﷺ الكثير الطيب، وعن أبي بن كعب، وأسامة بن زيد بن حارثة، وبصرة بن أبي بصرة الغفاري، وعمر بن الخطاب، والفضل بن العباس، وكعب الأحبار، وأبي بكر الصديق، وابنته عائشة زوج النبيﷺ، ثم ساق جملة من روى عنه في الكتب الستة فكان عددهم كثير. (٣)

الوجه السابع: قوة حفظه ﷺ.

إن أبا هريرة تميز بقوة ذاكرته، وحفظه، وحسن ضبطه، خاصةً بعد أن دعا له الرسول ﷺ بالحفظ وعدم النسيان - كما سبق - فكان حافظًا متقنًا ضابطًا لما يرويه، ولذا قال: وَكُنْتُ امرأ مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ أعي حِينَ يَنْسَوْنَ، وفي لفظ قال: وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا. (٤)

(١) المستدرك (٣/ ٥١٣).
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٤٣٢: ٤٣١.
(٣) تهذيب الكمال ٣٤/ ٣٦٧. وقد قام الشيخ عبد المنعم صالح العلي بجمع أسماء من روى عن أبي هريرة في قائمة موحدة مرتبة على الترتيب الأبجدي (دفاع عن أبي هريرة (صـ ٢٧٣، ٣١٥).
(٤) البخاري (٢٠٤٧). مسلم (٢٤٩٢).

الوجه الثامن: شهادة الصحابة ﷺ ومن بعدهم من أهل العلم بقوة حفظه، وإتقانه وكثرة سماعه وحرصه على الحديث.

فكما رووا عنه فقد رجعوا إليه في السؤال والفتوى، ومنهم من قدمه في ذلك ووافقه فيما قال، فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ الأنصاري أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ وَعَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: فَجَاءَهُمَا مُحَمَّدُ بْنُ إِيَاسِ بْنِ الْبُكَيْرِ، فقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، فَمَاذَا تَرَيَانِ؟ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ الزُّبَيْرِ: إِنَّ هَذَا الأَمْرَ مَا لَنَا فِيهِ قَوْلٌ؛ فَاذْهَبْ إِلَى عَبْدِ الله ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنِّي تَرَكْتُهُمَا عِنْدَ عَائِشَةَ فَسَلْهُمَا ثُمَّ ائْتِنَا فَأَخْبِرْنَا، فَذَهَبَ فَسَأَلَهُمَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لأَبِي هُرَيْرَةَ: أَفْتِهِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَدْ جَاءَتْكَ مُعْضِلَةٌ، فَقَالَ أبو هُرَيْرَةَ الْوَاحِدَةُ تُبِينُهَا، وَالثَّلَاثَةُ تُحَرِّمُهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ مَالِكٌ: وَعَلَى ذَلِكَ الأَمْرُ عِنْدَنَا وَالثَّيِّبُ إِذَا مَلَكَهَا الرَّجُلُ فَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا إِنَّهَا تَجْرِي مَجْرَى الْبِكْرِ الْوَاحِدَةُ تُبِينُهَا، وَالثَّلَاثُ تُحَرِّمُهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ. (١)

وقال الذهبي: وناهيك أن مثل ابن عباس يتأدب معه، ويقول: أفت يا أبا هريرة. (٢)

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ أَنَّهُ مَرَّ بِهِ قَوْمٌ مُحْرِمُونَ بِالرَّبَذَةِ فَاسْتَفْتَوْهُ فِي لَحْمِ صَيْدٍ وَجَدُوا نَاسًا أَحِلَّةً يَأْكُلُونَهُ، فَأَفْتَاهُمْ بِأَكْلِهِ، قَالَ: ثُمَّ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ عَلَى عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: بِمَ أَفْتَيْتَهُمْ؟ قَالَ فَقُلْتُ: أَفْتَيْتُهُمْ بِأَكْلِهِ، قَالَ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ أَفْتَيْتَهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ لأَوْجَعْتُكَ. (٣) ومن ذلك شهادة ابن عمر ﷺ لأبي هريرة بالحفظ والتثبت.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ لأَبِي هُرَيْرَةَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْتَ كُنْتَ أَلْزَمَنَا لِرَسُولِ الله ﷺ وَأَحْفَظَنَا لِحَدِيثِهِ. (٤)

---

(١) صحيح موقوف. أخرجه مالك في الموطأ كتاب الطلاق باب طلاق البكر. من حديث يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ بُكَيْرِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الأَشَجِّ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ الأَنْصَارِيِّ، وأخرجه البغوي، في جزء أبي الجهم (٧٥) من طريق ليث، عن نافع، أن محمد بن إياس بن البكير، أتى عاصم بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فاستفتاهما. . فذكره.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٠٩.

(٣) صحيح. أخرجه مالك في الموطأ كتاب الحج باب مَا يَجُوزُ لِلْمُحْرِمِ أَكْلُهُ مِنَ الصَّيْدِ من طريق سالم.

(٤) إسناده صحيح. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٢٧٠)، وأحمد في مسنده ٢/ ٢، والترمذي في سننه (٤٢٠)،

وقال ابن عبد البر: وكان أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ، وكان يحضر ما لا يحضر سائر المهاجرين والأنصار لانشغال المهاجرين بالتجارة، والأنصار بحوائطهم، وقد شهد له رسول الله ﷺ بأنه حريص على العلم والحديث. (١) وقد سبق النقل عن الحاكم. (٢) وابن خزيمة (٣)

الوجه التاسع: كثرة روايته كثرة نسبية

إن كثرة رواياته كثرة نسبية وليست كثرة مطلقة، إذ إنه أكثر من روي عنه من الصحابة ﷺ، لا أكثر من يحفظ الحديث عن رسول الله ﷺ، ومما يؤكد هذا؛ اعترافه ﷺ بأن ما كان عند عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ من حديث أكثر مما كان عنده، لأن عبد الله كما قال: كان يكتب، وهو لا يكتب، وهذا ما أفصح عنه الإمام أبو بكر ابن خزيمة بقوله: كان من أكثر أصحابه عنه رواية فيما انتشر من رواياته وروايات غيره من أصحاب رسول الله ﷺ مع مخارج صحاح.

وإن عدم كثرة الرواية عمن عداه ممن طالت صحبتهم لرسول الله ﷺ أمر نسبي، ويرجع بعض أسبابها إلى وفاة بعضهم المبكرة، إذ إن منهم من توفي، في حياة النبي ﷺ، ومنهم من توفي بعد وفاته بقليل، كما أن منهم من كان مقلًا للرواية لا يحدث إلا إذا سئل، وكان من هؤلاء الخلفاء الراشدون، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، وغيرهم ﷺ. (٤)

ثم من العجيب أن يثير هذا في القرن العشرين! ! فهل يعجب من قوة ذاكرة الإنسان ولاسيما العرب؟ فقد كان العرب يحفظون أضعاف أضعاف ما حفظه أبو هريرة؟! ! ، لقد حفظوا القرآن الكريم والحديث والأشعار، فماذا يقولون في هؤلاء؟.

ماذا يقولون في حفظ أبي بكر أنساب العرب؟ وعائشة ﷺ شعرهم؟ ، وماذا يقولون

والدارمي في الرد على المريسي (٦٢٨)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٥١٠ من طرق عن هُشَيْمٌ قال: أَخْبَرَنَا يَعْلَى بْنُ عَطَاءٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنِ ابْنِ عُمَر به، وصحح إسناده ابن حجر كما في فتح الباري ٣/ ١٩٥.

(١) الاستيعاب (٢/ ٧٠).

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٥١٢.

(٣) المستدرك للحاكم ٣/ ٥١٢.

(٤) أبو هريرة للضاري (صـ ٣٦).

في حماد الراوية الذي كان أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها؟ وماذا يقولون فيه إذا علم أنه روى على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات، من شعر الجاهلية دون الإسلام؟. (١)

الوجه العاشر: قصر صحبته قصر نسبي.

إن قصر صحبته لرسول الله ﷺ قصر نسبي: أي بالنسبة لمن طالت صحبتهم للرسولﷺ، كالعشرة المبشرين بالجنة، وغيرهم من السابقين الأولين من الصحابة ﷺ، وإلا فإنها في الواقع ليست قصيرة كما يتوهم، إذ زادت على أربع سنين وهي مدة كافية لجمعه ما جمع، وروايته ما روى من أحاديث، علمًا أنه قد لازم فيها النبي ﷺ ملازمة تامة، حضرًا وسفرًا، يدور معه حيث دار، تفرغ فيها للعلم والتحصيل، لا يشغله عنهما شاغل من تجارة، أو زراعة، أو أعباء عائلية أو غير ذلك، وهي ملازمة لم تتيسر لكثير ممن كانت صحبتهم لرسول الله ﷺ أطول من صحبته له، لانشغالهم بأمور الحياة الضرورية؟ ، وجاء جاء رجل إلى طلحة بن عبيد الله ﷺ، فقال: يا أبا محمد، والله ما ندري هذا اليماني أعلم برسول الله ﷺ أم أنتم؟ تقوّل على رسول الله ﷺ ما لم يقل، يعني أبا هريرة، فقال طلحة: والله ما يشك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، إنا كنا قومًا أغنياء، لنا بيوت وأهلون، كنا نأتي نبي الله ﷺ طرفي النهار، ثم نرجع، وكان أبو هريرةﷺ مسكينًا لا مال له، ولا أهل، ولا ولد، إنما كانت يده مع يد النبيﷺ، وكان يدور معه حيث دار، ولا نشك أنه قد علم ما لم نعلم، وسمع ما لم نسمع، ولم يتهمه أحد منا، أنه تقوّل على رسول الله ﷺ ما لم يقل. (٢)

كما كانوا مشغولين أيضًا بأمور الدعوة، والقيام بالمهمات التي كان يكلفهم بها

---

(١) شبهات الرافضة حول الصحابة ﷺ وردها ١/ ٤١٨.

(٢) حسن. أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٦/ ١٣٣، وأبو يعلى في مسنده (٦٣٦)، والبزار في مسنده (٩٣٢)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٥١١ من طريق جرير. وأخرجه الترمذي في السنن (٤٢٠٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٥٧، وأبو يعلى في مسنده (٦٣٧) من طريق محمد بن سلمة. وأخرجه في العلل ومعرفة الرجال من زوائد عبد الله (٤٣٣) من طريق يونس بن بكير. كلهم (جرير، محمد، يونس) عن محمد بن إسحاق عن (حدثنا) محمد بن إبراهيم التيمي عن مالك بن أبي عامر به. وحسن إسناده ابن حجر كما في فتح الباري ٧/ ٧٥.

النبيﷺ؛ كالخروج في السرايا والغزوات، وتبليغ العلم، ونقل الكتب إلى الملوك والأمراء المجاورين للجزيرة العربية، وما تتطلبه مثل هذه المهمات من سفر وغياب عن مجالسة رسول الله ﷺ، وقد يدوم غيابهم أيامًا أو أشهرًا، كما أن منهم من لم يكن يساكن النبي ﷺ بالمدينة، حتى يتسنى له لقاؤه متى شاء، أو في الوقت الذي تسمح له ظروفه اللقاء به.

لهذه الأسباب وغيرها لم تتيسر الملازمة التامة لكثير ممن طالت صحبتهم لرسول اللهﷺ، كما تيسرت لأبي هريرة ﷺ، ويشهد لذلك ما جاء عن ابن عمر ﷺ أنه قال: يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ، وأحفظنا لحديثه. (١)

الوجه الحادي عشر: تأخر وفاته وحاجة الناس إلى علمه، وكثرة الرواة عنه.

كان أبو هريرة ﷺ من القلائل من أصحاب رسول الله ﷺ الذين امتد بهم العمر إلى ما بعد سنة خمسين من الهجرة، واحتاج الناس إلى علمهم والرجوع إليهم فيما أشكل عليهم من أمور، ولما كان من أكثر الصحابة حفظًا لحديث رسول اللهﷺ، وجمعًا له، واستعدادًا لبذله، كان حريًا أن يقبل عليه طلاب العلم وعشاق المعرفة، وحماة الدين من صحابة وتابعين ﷺ، حيث روى عنه نحو ثمانية وعشرين من كبار الصحابة وصغارهم، كزيد بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعائشة، وغيرهم ﷺ، كما روى عنه وتتلمذ عليه مئات من التابعين ﷺ.

قال البخاري: روى عنه ثمانمائة نفس، أو أكثر. (٢)

وقال الحاكم: بلغ عدد من روى عن أبي هريرة من الصحابة ثمانية وعشرين رجلًا، فأما التابعون فليس فيهم أجل ولا أشهر ولا أشرف وأعلم من أصحاب أبي هريرة، وذكرهم في هذا الموضع يطول لكثرتهم. (٣)

ولم يتوفر فيما أعلم لغيره من رواة الصحابة ﷺ، مثل هذا العدد من الرواة والناقلين

---

(١) صحيح. وقد تقدم تخريجه.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦.
(٣) المستدرك ٣/ ٥١٣.

لعلمهم عن رسول الله ﷺ، ومما لا شك فيه أن مثل هذا العدد الوفير قد ساعد كثيرًا على نقل مروياته وإبقائها حية ومتداولة بين أكبر عدد من الرواة والنقلة، حتى دونت مع غيرها من الروايات الحديثة الأخرى في كتب الحديث وأسفاره، بخلاف غيره من الصحابة الذين قلت الرواية عنهم، لتقدم وفياتهم عنه نسبيًا، أو لتحرج بعضهم عن الرواية، أو لغير ذلك مما أسلفنا من أسباب.(١)

الوجه الثاني عشر: عدم انشغاله بالدنيا فقد كان فقيرًا من أهل الصُفَّة

إن أبا هريرة كان رجلًا لا أَرَب له في الدنيا، وكان راضيًا بالشيء اليسير، ولم يكن له من الأهل والولد – آنذاك – ولا التجارة والزراعة ما يشغله، فكان همه ملازمة النبي ﷺ على ما يقيم به صلبه، فقد كان من أهل الصفة الذين يسكنون المسجد، ومع فقره فقد مدح الله سبحانه وتعالى فقراء المسلمين (أهل الصفة) ومنهم أبو هريرة، ولذا قال أبو هريرة: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لاَ يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِى هُرَيْرَةَ، وإِنَّ إخوتي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقٌ بِالأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى مِلْءِ بطني، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنَ الأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امرأ مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ؛ أعي حِينَ يَنْسَوْنَ.(٢)

الشبهة الرابعة: ادعاؤهم أن أبا هريرة كتم علمًا عن النبي ﷺ

ويستندون على ذلك بما قاله أبو هريرة: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ وِعَاءَيْنِ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ(٣)

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان المراد بهذا الوعاء الذي كتمه أبو هريرة:

قال الذهبي: وقد صح أن أبا هريرة كتم حديثا كثيرًا مما لا يحتاجه المسلم في دينه، وكان

(١) أبو هريرة للضاري (صـ ٤١)، الطعن في عدالة الصحابة لـ عماد الشربيني (٥/ ٢٧).
(٢) البخاري (٢٠٤٧)، مسلم (٢٤٩٢).
(٣) البخاري (١٢٠).

يقول: لو بثثته فيكم لقطع هذا البلعوم، وليس هذا من باب كتمان العلم في شيء؛ فإن العلم الواجب يجب بثه ونشره، ويجب على الأمة حفظه، والعلم الذي في فضائل الأعمال مما يصح إسناده يتعين نقله، ويتأكد نشره، وينبغي للأمة نقله، والعلم المباح لا يجب بثه ولا ينبغي أن يدخل فيه إلا خواص العلماء. (١)

قال ابن حجر: وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه، على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء، وأحوالهم، وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكنى عن بعضه ولا يصرح به، خوفًا على نفسه منهم. كقوله: (أعوذ بالله من رأس الستين، وإمارة الصبيان) يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية، لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة.

قال ابن المنير: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين، قال: وإنما أراد أبو هريرة بقوله قطع: أي قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم. (٢)

قال ابن كثير: وهذا الوعاء الذي كان لا يتظاهر به هو الفتن والملاحم وما وقع بين الناس من الحروب والقتال، وما سيقع التي لو أخبر بها قبل كونها لبادر كثير من الناس إلى تكذيبه، وردوا ما أخبر به من الحق، كما قال: لو أخبرتكم أنكم تقتلون إمامكم وتقتتلون فيما بينكم بالسيوف لما صدقتموني. . . . ثم قال: وإنما كان الذي فيه شيء من الفتن والملاحم كما أخبر بها هو وغيره من الصحابة. (٣)

الوجه الثاني: جواز كتمان بعض العلم لمن لا يحسن فهمه، أو يترتب عليه فتنة.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاض: فِيهِ دَلِيل عَلَى أَنَّهُ كَتَمَ مَا خَشِيَ الضَّرَر فِيهِ وَالْفِتْنَة مِمَّا لَا يَحْتَمِلهُ عَقْل كُلّ وَاحِد، وَذَلِكَ فِيمَا لَيْسَ تَحْته عَمَل وَلَا فِيهِ حَدٌّ مِنْ حُدُود الشَّرِيعَة. قَالَ: وَمِثْل هَذَا عَنْ الصَّحَابَة ﭬكَثِير فِي تَرْكِ الْحَدِيث بِمَا لَيْسَ تَحْته عَمَل، وَلَا تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَة، أَوْ لَا تَحْمِلهُ

(١) سير أعلام النبلاء١٠/ ٦٠٣.
(٢) فتح الباري (١/ ٢١٦).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ١٠١: ١٠٢).

عُقُول الْعَامَّة، أَوْ خُشِيَتْ مَضَرَّتُهُ عَلَى قَائِله أَوْ سَامِعه لَا سِيَّمَا مَا يَتَعَلَّق بِأَخْبَارِ الْمُنَافِقِينَ وَالْإِمَارَة وَتَعْيِين قَوْم وُصِفُوا بِأَوْصَافٍ غَيْر مُسْتَحْسَنَة وَذَمّ آخَرِينَ وَلَعْنهمْ. وَالله أَعْلَم. (١)

قال الذهبي: هذا دال على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تحرك فتنة في الأصول، أو الفروع أو المدح والذم، أما حديث يتعلق بحل أو حرام، فلا يحل كتمانه بوجه، فإنه من البينات والهدى.

وفي صحيح البخاري: قول الإمام علي ﷺ: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله. (٢)

وكذا لو بث أبو هريرة ذلك الوعاء، لأوذي، بل لقتل، ولكن العالم قد يؤديه اجتهاده إلى أن ينشر الحديث الفلاني إحياء للسنة، فله ما نوى وله أجر وإن غلط في اجتهاده. (٣)

قال ابن حجر: وفيه - قول على ﷺ - دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة.

ومثله قول ابن مسعود ﷺ: ما أنت محدثًا قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة(٤)، وممن كره التحديث ببعض دون بعض؛ أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء، بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب. (٥)

الوجه الثالث: هذا الادعاء مخالف لمذهب أبي هريرة ﷺ

فلقد أكثر أبو هريرة من الحديث خوفا من كتمان العلم، فقال ﷺ: وَالله لَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ الله

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي كتاب الإيمان؛ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

(٢) البخاري (١٢٧).

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٩٧.

(٤) رواه مسلم في المقدمة باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

(٥) فتح الباري (١/ ٢٧٢).

مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾. (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**". (٢)

الشبهة الخامسة: إنكار عمر رضي الله عنه على إكثار أبي هريرة من الحديث عن رسول الله ﷺ.

حيث إنهم قالوا: بأن عمر كان يري الإقلال من الرواية عن رسول الله ﷺ، ولما رأى أن أبا هريرة يكثر الحديث أنكر ذلك عليه وقال: أبو هريرة أكذب المحدثين، وقال: لتتركن الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنك بأرض دوس، ولما أصر أبو هريرة على الرواية، حبسه مع من كان يكثر الرواية عن رسول الله ﷺ، ولذلك قال أبو هريرة لم مات عمر: ما كنا نستطيع أن نقول: قال رسول الله ﷺ حتى قبض عمر وكان يقول: إني لأحدث أحاديث، لو تكلمت بها في زمن عمر، لشج رأسي.

أولًا: حول مسألة إقلال عمر رضي الله عنه من الرواية.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذا مذهب لعمر رضي الله عنه وبعض الصحابة، وبيان الحكمة التي كان يريدها من ذلك.

قال محمد عجاج: لقد عرف الصحابة منزلة السنة فتمسكوا بها، وتتبعوا آثار الرسول ﷺ، وأبوا أن يخالفوها متى ثبتت عندهم، كما أبوا أن ينحرفوا عن شيء فارقهم عليه، واحتاطوا في رواية الحديث عنه ﷺ خشية الوقوع في الخطأ، وخوفًا أن يتسرب إلى السنة المطهرة الكذب أو التحريف، وهو المصدر التشريعي الأول بعد القرآن الكريم، ولهذا اتبعوا كل سبيل يحفظ على الحديث نوره، فآثروا الاعتدال في الرواية عن الرسول ﷺ، بل إن بعضهم فضّل الإقلال منها.

قال ابن قتيبة: وكان عمر شديد الإنكار على من أكثر الرواية أو أتى بخبر في الحكم

---

(١) البخاري (٢٣٥٠)، مسلم (٢٤٩٢).

(٢) **صحيح**. أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٤٤، وأبو داود في السنن (٣٦٥٨) من حديث حماد أخبرنا علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة به. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

لا شاهد له عليه وكان يأمرهم أن يقلوا الرواية يريد بذلك أن لا يتسع الناس فيها ويدخلها الشوب ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابي، وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله ﷺ كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس بن عبد المطلب يقلون الرواية عنه بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئًا كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

والتزم الصحابة – في الخلافة الراشدة- منهاج عمر رضي الله عنه، وأتقنوا أداء الحديث، وضبطوا حروفه ومعناه، وكانوا يخشون كثيرًا أن يقعوا في الخطأ، لذلك نرى بعضهم –مع كثرة تحملهم عن الرسول ﷺ - لا يكثر من الرواية في ذلك العهد، حتى إن منهم من كان لا يحدّث حديثًا في السنة، ونرى من تأخذه الرعدة، ويقشعر جلده ويتغير لونه ورعًا واحترامًا لحديث الرسول ﷺ، ومن هذا ما رواه عمرو بن ميمون قال: مَا أَخطأني ابْنُ مَسْعُودٍ عَشِيَّةَ خَمِيسٍ إِلاَّ أَتَيْتُهُ فِيهِ، قَالَ: فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لشيء قَطُّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ عَشِيَّةٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ فَنكَسَ. قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَهُوَ قَائِمٌ مُحَلَّلَةً أَزْرَارُ قَمِيصِهِ قَدِ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، قَالَ أَوْ دُونَ ذَلِكَ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ أَوْ شَبِيهًا بِذَلِكَ. (١)

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: إِنَّهُ ليمنعني أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: **" مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ "**. (٢)

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد ﷺ ما منهم أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٥٢، وابن ماجه في السنن (٣٢) من حديث معاذ بن معاذ، عن ابن عون، حدثنا مسلم البطين، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن عمرو بن ميمون به. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢١).

(٢) البخاري (١٠٨)، مسلم (٢).

كفاه إياه وفي رواية يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلا هذا حتى ترجع إلى الأول. [١]

هكذا تشدد الصحابة في الحديث، وأمسك بعضهم عنه كراهية التحريف، أو الزيادة والنقصان في الرواية عن الرسولﷺ؛ لأن كثرة الرواية كانت في نظر كثير منهم مظنة الوقوع في الخطأ، والكذب على رسول اللهﷺ، وقد نهى النبي ﷺ عن الكذب عليه، وعن رواية ما يرى أنه كذب، من ذلك قولهﷺ: " **مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِين** ". [٢]

وكان الصحابة ﷺ يخشون أن يقعوا في الكذب عامةً، فكيف يكذبون على النبيﷺ، قال عَلِيٌّﷺ: إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ حَدِيثًا فَلأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ. [٣]

وقد تشدد عمر بن الخطاب ﷺ في تطبيق هذا المنهاج، فحمل الناس على التثبت مما يسمعون، والتروي في ما يؤدون، فكان له الفضل الكبير في صيانة الحديث من الشوائب والدّخل.

وقد كان تشدد عمر هذا والصحابة معه للمحافظة على القرآن الكريم، بجانب المحافظة على السنة، فقد خشي أن يشتغل الناس بالرواية عن القرآن الكريم-وهو دستور الإسلام-فأراد أن يحفظ المسلمون القرآن جيدًا، ثم يعتنوا بالحديث الشريف الذي لم يكن دُوِّن كله في عهد النبي ﷺ كالقرآن، فنهج لهم التثبت العلمي والإقلال من الرواية خشية الوقوع في الخطأ، وقد عُرف إتقان بعض الصحابة وحفظهم الجيد، فسمح لهم بالتحديث.

ويتجلى منهاج عمر بن الخطابﷺ في وصيته التي أوصى بها وفده إلى الكوفة، فعن قرظة بن كعب أنه قال: بَعَثَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الْكُوفَةِ وَشَيَّعَنَا فَمَشَى مَعَنَا إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ صِرَارٌ، فَقَالَ أَتَدْرُونَ لِمَ مَشَيْتُ مَعَكُمْ، قَالَ: قُلْنَا: لِحَقِّ صُحْبَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَلِحَقِّ الأَنْصَارِ، قَالَ: لَكِنِّي مَشَيْتُ مَعَكُمْ لِحَدِيثٍ أَرَدْتُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ فَأَرَدْتُ أَنْ تَحْفَظُوهُ لمشاي مَعَكُمْ،

(١) مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول لأبي شامة المقدسي (٦٤).

(٢) مسلم في مقدمة صحيحه عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَب، الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، باب وجوب الرواية عن الثقات، وترك الكذابين، والتحذير من الكذب على رسول الله ﷺ.

(٣) البخاري (٣٦١١)، مسلم (١٠٦٦).

إِنَّكُمْ تَقْدُمُونَ عَلَى قَوْمٍ لِلْقُرْآنِ فِي صُدُورِهِمْ هَزِيزٌ كَهَزِيزِ الْمِرْجَلِ، فَإِذَا رَأَوْكُمْ مَدُّوا إِلَيْكُمْ أَعْنَاقَهُمْ، وَقَالُوا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، فَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَأَنَا شَرِيكُكُمْ. (١)

تلكم طريقة الصحابة ومنهجهم في المحافظة على حديث النبي ﷺ خشية الوقوع في الخطأ، أو تسرب الدس في الحديث الشريف من الجهلاء وأصحاب الأهواء، أو أن تُحمل بعض الأحاديث على غير وجه الحق والصواب، فيكون الحكم بخلاف ما أُخذ به، فعلوا ذلك كله احتياطًا للدين ورعاية لمصلحة المسلمين، لا زهدًا في الحديث النبوي ولا تعطيلًا له، فلا يجوز لإنسان أن يفهم من منهاج الصحابة – ومن تشدد عمر خاصةً- هجر الصحابة للسنة أو زهدهم فيها. . .

وطريقة أبى بكر وعمر في الحكم مشهورة: كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى؛ فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله ﷺ؛ فإن وجد فيها ما يقضي به قضى به؛ فإن أعياه ذلك سأل الناس هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء، فربما قام إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا وكذا؛ فإن لم يجد سنة سنها النبي ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم، وكان عمر ﷺ يفعل ذلك.

هكذا كان منهج الصحابة جميعًا في كل ما يرد عليهم، وليس لأحد بعد هذا أن يتخذ بعض ما ورد عن بعض الصحابة ذريعة لهواه، ونستعرض موقف بعض علماء الحديث من ذلك:

قال ابن عبد البر: (٢) احتج بعض من لا علم له ولا معرفة من أهل البدع وغيرهم الطاعنين في السنن بحديث عمر هذا: أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ، وجعلوا ذلك ذريعة إلى الزهد في سنن رسول الله ﷺ التي لا توصل إلى مراد كتاب الله ﷻ إلا بها والطعن على أهلها، ولا حجة في هذا الحديث ولا دليل على شيء مما ذهبوا إليه من وجوه،

---

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٨) من طريق مجالد، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ١٤٢ كتاب العلم من طريق بيان، كلاهما: (مجالد، بيان) عن عامر الشعبي، عن قرظة بن كعب به. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦)، وقال: صحيح بإسناد الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٢٤ : ١٢١).

قد ذكرها أهل العلم منها:

أن وجه قول عمر هذا إنما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشي عليهم الاشتغال بغيره عنه إذ هو الأصل لكل علم، هذا معنى قول أبي عبيد في ذلك.

وطعن غيرهم في حديث قرظة هذا وردوه؛ لأن الآثار الثابتة عن عمر ﷺ خلافه، منها ما روى مالك ومعمر وغيرهما عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن عباس، عن عمر بن الخطاب ﷺ في حديث السقيفة أنه خطب يوم جمعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإني أريد أن أقول مقالة قد قدر لي أن أقولها، من وعاها وعقلها وحفظها فليحدث بها حيث تنتهي به راحلته، ومن خشي أن لا يعيها؛ فإني لا أحل له أن يكذب عليَّ.

وهذا يدل على أن نهيه عن الإكثار وأمره بإقلال الرواية عن رسول الله ﷺ إنما كان خوف الكذب على رسول الله ﷺ وخوفًا أن يكون مع الإكثار أن يحدثوا بما لم يتقنوا حفظه ولم يعوه؛ لأن ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط الذي لا يؤمن مع الإكثار؛ فلهذا أمرهم عمر بالإقلال من الرواية ولو كره الرواية وذمها لنهى عن الإقلال منها والإكثار، ألا تراه يقول: فمن حفظها ووعاها فليحدث بها، فكيف يأمرهم بالحديث عن رسول الله ﷺ وينهاهم عنه؟ هذا لا يستقيم بل كيف ينهاهم عن الحديث عن رسول الله ﷺ ويأمرهم بالإقلال منه وهو يندبهم إلى الحديث عن نفسه؟ بقوله: « من حفظ مقالتي ووعاها فليحدث بها حيث تنتهي به راحلته » ثم قال: « ومن خشي أن لا يعيها فلا يكذب علي » وهذا يوضح لك ما ذكرنا، والآثار الصحاح عنه من رواية أهل المدينة بخلاف حديث قرظة هذا، وإنما يدور على بيان عن الشعبي وليس مثله حجة في هذا الباب؛ لأنه يعارض السنن والكتاب، قال الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)، وقال في النبي ﷺ: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف:

١٥٨)، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٢، ٥٣)، ومثل هذا في القرآن كثير ولا سبيل إلى اتباعه والتأسي به، والوقوف عند أمره إلا بالخبر عنه، فكيف يتوهم أن عمرﷺ يأمر بخلاف ما أمر الله به وقد قال رسول اللهﷺ: " **نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها** "، الحديث، وفيه الحض الأكيد على التبليغ عنه ﷺ وقال: " **خذوا عني** " في غير ما حديث، و " **بلغوا عني** " والكلام في هذا أوضح من النهار لأولي النهى، والاعتبار ولا يخلو الحديث عن رسول الله ﷺ من أن يكون خيرًا أو شرًا؛ فإن كان خيرًا ولا شك فيه أنه خير فالإكثار من الخير أفضل، وإن كان شرًا فلا يجوز أن يتوهم أن عمرﷺ يوصيهم بالإقلال من الشر، وهذا يدلك أنه إنما أمرهم بذلك خوف مواقعة الكذب على رسول الله ﷺ وخوف الاشتغال عن تدبر السنن والقرآن؛ لأن المكثر لا تكاد تراه إلا غير متدبر ولا متفقه.

وعمرﷺ هو الناشد للناس في غير موقف بل في مواقف شتى من عنده علم عن رسول الله ﷺ في كذا نحو ما ذكره مالك وغيره عنه في توريث المرأة من دية زوجها، وفي الجنين يسقط ميتًا عند ضرب بطن أمه وغير ذلك مما لو ذكرناه طال به كتابنا وخرجنا عن حد ما له قصدنا، وكيف يتوهم على عمر ما توهمه الذين ذكرنا قولهم؟ وهو القائل: إياكم والرأي؛ فإن أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، وهو القائل: سيأتي قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله ﷻ. وقد يحتمل عندي أن تكون الآثار كلها عن عمر صحيحة متفقة، ويخرج معناها على أن من شك في شيء تركه، ومن حفظ شيئًا وأتقنه جاز له أن يحدث به، وأن الإكثار يحمل الإنسان على التقحم أن يحدث بكل ما سمع من جيد ورديء، وقد قال رسول اللهﷺ: " **كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع** "، ولو كان مذهب عمرﷺ ما ذكرنا لكانت الحجة في قول رسول الله ﷺ دون قوله فهو القائل: " **تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن سمع منكم** ".[(١)]

(١) حسن. أخرجه أبو داود في سننه (٣٦٥٩)، و ابن حبان في صحيحه (٦٢)، وأحمد في المسند (١/ ٣٢١) من طرق عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعًا، والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٨٤).

٢ـ **وقال الخطيب البغدادي**: إن قال قائل: ما وجه إنكار عمر على الصحابةﷺ روايتهم عن رسول الله ﷺ وتشديده عليهم في ذلك؟ قيل له: إنما فعل ذلك عمر احتياطًا للدين، وحسن نظر للمسلمين؛ لأنه خاف أن ينكلوا عن الأعمال ويتكلوا على ظاهر الأخبار، وليس حكم جميع الأحاديث على ظاهرها، ولا كل من سمعها عرف فقهها، فقد يرد الحديث مجملًا، ويستنبط معناه وتفسيره من غيره، فخشي عمر أن يحمل حديث على غير وجهه، أو يؤخذ بظاهر لفظه، والحكم بخلاف ما أخذ به ونحو من هذا المعنى الحديث الآخر.

عن معاذ ﷺ قال: كنت ردف رسول الله ﷺ على حمار له، يقال له عفير، فقال: **"يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ "** فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: **" فإن حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به "**، قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: **" لا، فيتكلوا "** هذا لفظ حديث خلف. وحديث أبي بكر نحوه، غير أن فيه: قال فقال عمر: أفلا أبشر الناس؟ قال: **" لا تبشرهم، فيتكلوا "**. [1]

مما سبق يتبين لنا أن الصحابة كانوا جميعًا يتثبتون في الحديث، ويتأنون في قبول الأخبار وأدائها، وكانوا لا يحدّثون بشيء إلا وهم واثقون من صحة ما يروون، وقد حرصوا على المحافظة على الحديث بكل وسيلة تفضي إلى ذلك، فاتبعوا منهجًا سليمًا يمنع الشوائب من أن تدخل السنة النبوية فتفسدها، وقد حمل لواء هذه المحافظة والحرص على السنن جميع الصحابة، وتميز منهم عمر بن الخطاب ﷺ، وقد ظهر لنا مما رُوي عنه اهتمامه بالسنة النبوية، وإجلاله للحديث الشريف، وإن الأخبار التي رُويت عنه في هذا الشأن ليدعم بعضها بعضًا في سبيل نشر العلم، والحرص على سلامة السنة، ومن ثَمَّ ليس لأحد أن يرى تناقضًا بين وصية عمر لأهل العلم والآثار الأخرى المروية عنه، فهو إذا طلب الإقلال من الرواية فإنما يطلبه من باب الاحتياط لحفظ السنن والترهيب في الرواية، وأما من كان يتقن ما يحدِّث به ويعرف فقهه وحكمه فلا يتناوله أمر عمر ﷺ، فكل ما ورد عن أمير المؤمنين؛ فإنما يدل على

---

(١) شرف أصحاب الحديث (٩٣: ٨٨) باختصار.

المحافظة على السنة ونشرها وتبليغها صحيحة، ولا يتيسر نشرها صحيحة ما لن يتثبت حاملوها من مروياتهم، والإقلال من الرواية مظنة الوقوع في الخطأ، ولهذا أمر به ﷺ، وهذا ما رآه ابن عبد البر والخطيب البغدادي، وغيرهما من أئمة الحديث، وإليه أذهب وبه أقول، فالصحابة لم يزهدوا في السنة، بل كان لهم الفضل الأول في المحافظة عليها. (١)

الوجه الثاني: أن عمر لم ينه عن كل أنواع التحديث؛ وإنما في الأحاديث التي قد تضعها الناس على غير مواضعها، أما في أحاديث الأحكام فلا.

قال ابن كثير: وهذا محمول من عمر على أنه خشي من الأحاديث التي قد تضعها الناس على غير مواضعها، وأنهم يتكلمون على ما فيها من أحاديث الرخص، وأن الرجل إذا أكثر من الحديث، ربما وقع في أحاديثه بعض الغلط أو الخطأ فيحملها الناس عنه أو نحو ذلك. (٢)

الوجه الثالث: مذهب الإقلال من الرواية ليس مذهب عمر وحده.

قال الذهبي: هكذا هو كان عمر ﷺ يقول: أقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ، وزجر غير واحد من الصحابة عن بث الحديث: وهذا مذهب لعمر ولغيره. (٣)

قال علي ﷺ: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون: أتحبون أن يكذب الله ورسوله! (٤)

قال ابن مسعود ﷺ: ما أنت محدثًا قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. (٥)

ثانيًا: بالنسبة إلى ادعائهم أن عمر ﷺ أنكر على أبي هريرة ﷺ.

وقال: أبو هريرة أكذب المحدثين، وقال: لتتركن الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنك بأرض دوس.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: قدمنا أن هذا الإقلال من الحديث مذهب لعمر ﷺ وليس مع أبي هريرة فقط.

---

(١) السنة قبل التدوين لـ محمد عجاج (١٠٦: ٩٢) بتصرف يسير. وانظر دفاع عن أبي هريرة لـ عبد المنعم صالح العلي صـ ٣٩: ٨٦.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٠٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٠٢.

(٤) البخاري (١٢٧).

(٥) رواه مسلم في المقدمة باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

فقد حذر قرظة بن كعب من الإكثار من الرواية، عن قرظة بن كعب أنه قال: بَعَثَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الْكُوفَةِ وَشَيَّعَنَا فَمَشَى مَعَنَا إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ صِرَارٌ، فَقَالَ أَتَدْرُونَ لِمَ مَشَيْتُ مَعَكُمْ، قَالَ: قُلْنَا: لِحَقِّ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِحَقِّ الأَنْصَارِ، قَالَ: لَكِنِّي مَشَيْتُ مَعَكُمْ لِحَدِيثٍ أَرَدْتُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ تَحْفَظُوهُ لممشاي مَعَكُمْ إِنَّكُمْ تَقْدُمُونَ عَلَى قَوْمٍ لِلْقُرْآنِ فِي صُدُورِهِمْ هَزِيزٌ كَهَزِيزِ الْمِرْجَلِ، فَإِذَا رَأَوْكُمْ مَدُّوا إِلَيْكُمْ أَعْنَاقَهُمْ، وَقَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، فَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَا شَرِيكُكُمْ. (١)

الوجه الثاني: هذه القصة باطلة درايةً.

إن ظاهر القصة بهذا اللفظ يدل علي أنها من وضع الروافض الذين يريدون وسم عمر رضي الله عنه بكراهته حديث رسول الله ﷺ، ثم شهادة الأثر نفسه على تناقضه، فتهديد عمر رضي الله عنه لأبي هريرة بنفيه إلي أرض دوس بلاده، ألا لأنها لا تستحق نصح عمر وحمايته لها من أحاديث أبي هريرة إن كانت غير صحيحة، وغير الصحيح تحمى منه أرض دوس، كما يحمى عنه غيرها؟ ولو كانت أحاديث أبي هريرة غير صحيحة عند عمر رضي الله عنه؛ لنكل به بقطع لسانه، لا بنفيه إلى أرض قومه أو غيرها. (٢)

الوجه الثالث: قول عمر عن أبي هريرة أكذب المحدثين، ادعاء كاذب.

قال الدارمي: في الذب عن أبي هريرة رضي الله عنه: أدعيتم كذبًا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (أكذب المحدثين أبو هريرة)، وهذا مكذوب على عمر فإن تك صادقا في دعواك فاكشف عن رأس من رواه، فإنك لا تكشف عن ثقة فكيف يستحل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يرمي رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ بالكذب من غير صحة ولا ثبت، وقد قال رسول الله ﷺ: **"لا تسبوا أصحابي"**(٣).

فأي سب لصاحب رسول الله ﷺ أعظم من تكذيبه في الرواية عن رسول الله ﷺ؟ وإنه لمن أصدق أصحاب رسول الله ﷺ وأحفظهم عنه، وأرواهم لنواسخ أحاديثه،

---

(١) صحيح. وتقدم تخريجه.

(٢) دفاع عن أبي هريرة لـ عبد المنعم صالح العلي صـ ١٢٢.

(٣) البخاري (٣٦٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري، مسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ قَالَ: **"لاَ تَسُبُّوا أصحابي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ"**

والأحدث فالأحدث من أمره، لأنه أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بنحو من ثلاث سنين، بعدما أحكم الله لرسوله ﷺ أكثر أمر الحدود والفرائض والأحكام، وكيف يتهمه عمر بالكذب على رسول الله ﷺ وهو يستعمله على الأعمال النفيسة، ويوليه الولايات؟!.

ولو كان عند عمر كما ادعى المعارض، لم يكن بالذي يأتمنه على أمور المسلمين ويوليه أعمالهم مرة بعد مرة، حتى دعاه آخر ذلك إلى العمل فأبى عليه.

ثم عرفه أصحاب النبي ﷺ بكثرة الروايات عن النبي ﷺ وثبته في ذلك، منهم طلحة بن عبيد الله، وابن عمر وغيرهما. وروى عنه غير واحد من الصحابة آثارًا عن رسول الله ﷺ منهم عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وابن عمر، وأنس بن مالك ﷺ.

ولو كان عندهم من عداد الكذابين -كما ادعيت عليه- لم يكونوا يستحلون الرواية عنه، ثم قد روى عنه من أعلام التابعين من أهل المدينة، ومكة، والبصرة، والكوفة، والشام، واليمن، عدد كثير لا يحصون منهم: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وعلقمة بن قيس، وقيس ابن أبي حازم، والشعبي، وإبراهيم، وأبو إدريس الخولاني من أهل الشام، ومن لا يحصون، وقد رووا الكثير عن أبي هريرة واحتجوا به، واستعملوا روايته. ولو عرفوا منه ما ادعى المعارض ما حدثوا المسلمين عن أكذب المحدثين. فاتق الله أيها المعارض واستغفره مما ادعيت على صاحب رسول الله ﷺ؛ المعروف بخلاف ما رميته، ولو كان لك سلطان صارم، يغضب لأصحاب رسول الله ﷺ لأوجع بطنك وظهرك، وأثر في شعرك وبشرك؛ حتى لا تعود تسب أصحاب رسول الله ﷺ ولا ترميهم بالكذب من غير ثبت.

ثم قال: أفلا يراقب امرؤ ربه، فيكف لسانه، ولا يكذب رجلًا أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ فيرميه بالكذب من غير ثبت ولا صحة، وكيف يصح عند هذا المعارض كذبه، وقد ثبته مثل طلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن عمر؟ لو عض هذا الرجل على حجر أو على

جمرة حتى يحرق لسانه، كان خيرًا له مما تأول على صاحب رسول الله ﷺ. (١)

الوجه الثالث: قوله: "لتتركن "أي: الأحاديث التي قد تضعها الناس على غير مواضعها.

عن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة: (لتتركن الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنك بأرض دوس). (٢)

قال ابن كثير: وهذا محمول من عمر على أنه خشي من الأحاديث التي قد تضعها الناس على غير مواضعها، وأنهم يتكلمون على ما فيها من أحاديث الرخص، وأن الرجل إذا أكثر من الحديث ربما وقع في أحاديثه بعض الغلط أو الخطأ، فيحملها الناس عنه أو نحو ذلك(٣).

وقد بينا مذهب عمر في ذلك. وأن هذا ليس خاصًا بأبي هريرة.

ثالثا: بالنسبة لقولهم إنه لما أصر أبو هريرة على الرواية، حبسه مع من كان يكثر الرواية عن رسول الله ﷺ.

والرد على ذلك من وجوه.

الوجه الأول: في نسبة هذا الفعل إلى عمر ؓ شك.

عن سعد بن إبراهيم عن أبيه قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود، وإلى أبي الدرداء، وإلى أبي مسعود الأنصاري، فقال: ما هذا الحديث الذي تكثرون عن رسول الله ﷺ فحبسهم بالمدينة حتى استشهد(٤).

قال محمد عجاج: هؤلاء ثلاثة من جلة صحابة رسول الله ﷺ، وأتقاهم وأورعهم، هل

---

(١) نقض الإمام الدارمي على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله ﷻ من التوحيد (٢/ ٦١٧: ٦٣٢).

(٢) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه ١/ ٥١٤، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ١٧٢) من طريق مروان بن محمد قال: حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن السائب بن يزيد رجاله ثقات إلا أن سعيد بن عبد العزيز التنوخي قد اختلط ولا يدرى أسمع منه مروان قبل أم بعد الاختلاط. فالإسناد ضعيف.

(٣) البداية والنهاية ٨/ ١٠٩.

(٤) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (١/ ٥٥٣)، من طريق عبد الله بن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وأخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (صـ٨٧) من طريق إسحاق بن موسى. كلاهما (عبد الله، إسحاق) عن معن بن عيسى، عن مالك بن أنس، عن عبد الله بن إدريس، عن شعبة بن الحجاج، عن سعد بن إبراهيم به. وسيأتي الكلام على الرواية في أصل المبحث.

يعقل مَنْ مثل عمر بن الخطاب أن يحبسهم؟ وهل يكفي لحبسهم أنهم أكثروا من الرواية؟.

إن المرء ليقف متسائلًا أمام هذا الخبر ويعتريه الشك فيه، وأن يتبادر إلى نفسه أن يتساءل عن الحد الذي يمكن أن يعرف به الإقلال والإكثار، وقد ناقش الإمام ابن حزم هذا وردَّه، وقال: هذا مرسل ومشكوك فيه من شعبة فلا يصح، ولا يجوز الاحتجاج به، ثم هو في نفسه ظاهر الكذب والتوليد؛ لأنه لا يخلو عمر من أن يكون اتهم الصحابة، وفي هذا ما فيه، أو يكون نهى عن نفس الحديث وعن تبليغ سنن رسول الله ﷺ إلى المسلمين، وألزمهم كتمانها وجحدها وأن لا يذكروها لأحد، فهذا خروج عن الإسلام، وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك، ولئن كان سائر الصحابة متهمين في الكذب على النبي ﷺ فما عمر إلا واحد منهم، وهذا قول لا يقوله مسلم أصلًا، ولئن كان حِسِبَهم وغيرهم متهمين لقد ظلمهم، فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات الملعونة أي الطريقتين الخبيثتين شاء، ولا بد له من أحدهما.

ثم قال: إن عمر قد حدث بحديث كثير عن النبيﷺ، وقد روى عنه خمسمائة حديث ونيف، على قرب موته من موت النبيﷺ، فهو كثير الرواية، وليس في الصحابة أكثر رواية عن النبي ﷺ من عمر بن الخطاب، ألا بضعة عشر منهم فقط.

ولو سلمنا جدلًا بصحة الرواية فهناك خلاف في المحبوسين، فالذهبي يذكر ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري، بينما ذكر ابن حزم ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا ذر، فهل تكرر الحبس من عمر؟ ولو تكرر لاشتهر، ثم إن حادثة كهذه سيطير خبرها في الآفاق من غير أن تحتمل الشك في المحبوسين؛ لأنهم من أعيان الصحابة، ولو سلمنا أن العبرة في الحادثة نفسها من حيث حبسه بعض الصحابة، دون نظر إلى أعيانهم وأشخاصهم؛ لأنهم أكثروا الرواية، قلنا: قد كان غير هؤلاء أكثر منهم حديثًا، ولم يردنا خبر عن حبسهم، فلا يعقل أن يحبس أمير المؤمنين بعضًا دون بعض في قضية واحدة هم فيها سواء، وهي كثرة الحديث، معاذ الله أن يفعل هذا عمر رضي الله عنه.

فهل يتصور إنسان أن يحبس عمر، ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا ذر، أو ابن مسعود الأنصاري، وقد عرف حفظهم وورعهم؟ بل إن عمرﷺ امتن على أهل العراق كما أسلفنا عندما أرسل إليهم عبد الله بن مسعودﷺ، فكتب إلى أهل الكوفة: إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي، فخذوا منه. وذكر عمر ابن مسعود فقال: كنيف ملئ علما آثرت به أهل القادسية.

كيف يأمر الناس بالأخذ منه، ويشهد له بالعلم، ثم يحبسه؟.

وما ورد على حبس ابن مسعود يرد على الصحابة الباقين، ففيهم أبو الدرداء إمام الشام وقاضيها ومعلمها القرآن.

وبهذا البيان لا يرقى إلى الصحة خبر حبس عمرﷺ الصحابة ﷺ؛ لأنهم أكثروا من الرواية عن النبيﷺ، بل إنه يُروى عن ابن مسعودﷺ أنه نهى عن الإكثار من الرواية، فهل يُتصور أنه ينهى عن شيء ويفعله؟ وقد ورد عنه قوله: ليس العلم بكثرة الحديث، ولكن العلم بالخشية[1].

قال د/محمد أبو شهبة: وطعن ابن حزم في الرواية بالانقطاع؛ لأن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف راويه عن عمر، لم يسمع منه، وقد وافقه على هذا البيهقي، وأثبت سماعه من عمر يعقوب بن شيبة، والطبري، وغيرهما. والذي يظهر أنه لم يسمع منه – وقد ذكر الحافظ ابن حجر: أنه مات سنة٩٥ أو ٩٦ هـ، وعمره ٧٥ سنة، فتكون ولادته سنة عشرين للهجرة، وعلى هذا يكون له حين توفي الفاروق ثلاث سنوات، وهي سنٌ دون التحمل، وعلى هذا فلا تكون الرواية حجة للانقطاع، ولعل البلاء جاء من هذا الراوي المحذوف[2].

الوجه الثاني: بيان معنى الحبس في هذا الأثر.

وفي رواية سعد بن إبراهيم، عن أبيه التي ذكرها الخطيب ما يدل أنه استبقاهم بالمدينة حتى عرف لفظهم سواء، وهذه هي رواية الخطيب: قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود، وإلى أبي الدرداء، وإلى أبي مسعود الأنصاري، فقال: ما هذا الحديث الذي

(١) السنة قبل التدوين (صـ١٠٨) وما بعدها.

(٢) دفاع عن السنة لأبي شهبة (صـ٢٨٠).

تكثرون عن رسول الله ﷺ فحبسهم بالمدينة حتى استشهد. لفظهم سواء، فيكون هذا من باب تثبت عمر رضي الله عنه في الحديث، وهذه الرواية تثبت أنه لم يزج بهم في السجن، واستبقاهم في المدينة، ريثما يتثبت من لفظهم؛ فإن صح هذا فلا ضير عليهم.

ومما يؤكد لنا أنه لم يحبس أحدًا – وهو ما استنبطناه من مناقشة الروايات السابقة- ما رواه الرامهرمزي، عن شيخه ابن البري من طريق سعد بن إبراهيم، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حبس بعض أصحاب النبي ﷺ فيهم ابن مسعود، وأبو الدرداء، فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ.

قال أبو عبد الله بن البري: يعني منعهم الحديث، ولم يكن لعمر حبس[1].

فقد فسر ابن البري الخبر تفسيرًا جيدًا، وإن كان مقتضبًا، فهو يريد أنه منعهم من كثرة الحديث، خوفًا من ألا يتدبر السامعون كلام الرسول ﷺ إذا كثُر عليهم[2].

بالنسبة لقوله: ما كنا نستطيع أن نقول: قال رسول الله ﷺ حتى قبض عمر.

والرد على ذلك من هذه الوجوه:

الوجه الأول: هذه الآثار لا تصح عن أبي هريرة.

أولًا: قوله: (ما كنا نستطيع أن نقول: قال رسول الله ﷺ حتى قبض عمر)[3].

ثانيًا: قال أبو هريرة رضي الله عنه: لما ولي عمر قال أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلا فيما يعمل به.

قال: ثم يقول أبو هريرة: أفإن كنت محدثكم بهذه الأحاديث وعمر حي؛ أما والله إذا لألفيت المخفقة ستباشر ظهري[4].

ثالثًا: أن أبا هريرة كان يقول: إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر أو

---

(١) المحدث الفاصل (١/ ٥٥٣).

(٢) السنة قبل التدوين (صـ١٠٨) وما بعدها.

(٣) **ضعيف**. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٤٤ من طريق محمد بن عيسى، قال: أنا يزيد بن يوسف، عن صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري، عن أبي سلمة قال: سمعت أبا هريرة يقول: الحديث، وفيه صالح بن أبي الأخضر: ضعيف كما في التقريب (١/ ٢٤٨). يزيد بن يوسف: ضعيف أيضًا التقريب (٢/ ٦٧٧).

(٤) **ضعيف**. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٤٩٦) عن معمر، عن الزهري قال: قال أبو هريرة. فيه الزهري: لم يسمع من أبي هريرة، وإنما روى عنه مرسلًا؛ تهذيب الكمال ٢٦/ ٤٢٦، جامع المحاصيل للعلائي (صـ٢٦٩).

عند عمر لشج رأسي[1]. فقد تبين من هذا التحقيق أن أبا هريرة ما قال هذا الكلام ولا يصح عنه، ومما يدل على بطلانه أيضًا في الوجهين الآخرين.

الوجه الثاني: أن أبا هريرة حدث عمر بالحديث عن النبي ﷺ.

عن ثابت بْنُ قَيْسٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: أَخَذَتِ النَّاسَ رِيحٌ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حَاجٌّ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ عُمَرُ لِمَنْ حَوْلَهُ: مَنْ يُحَدِّثُنَا عَنِ الرِّيحِ، فَلَمْ يُرْجِعُوا إِلَيْهِ شَيْئًا، فبلغني الذي سَأَلَ عَنْهُ عُمَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَاسْتَحْثَثْتُ راحلتي حَتَّى أَدْرَكْتُهُ، فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: أُخْبِرْتُ أَنَّكَ سَأَلْتَ عَنِ الرِّيحِ، وإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "**الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ الله، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلاَ تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا الله خَيْرَهَا، واسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا**"[2].

عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﵁ قَالَ: أُتِيَ عُمَرُ بِامْرَأَةٍ تَشِمُ، فَقَامَ فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِالله مَنْ سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْوَشْمِ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُمْتُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا سَمِعْتُ، قَالَ مَا سَمِعْتَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "**لاَ تَشِمْنَ وَلاَ تَسْتَوْشِمْنَ**"[3]

الوجه الثالث: أن عمر﵁ طلب الحديث عن رسول الله ﷺ

فقد طلب سيدنا عمر الحديث عن رسول الله ﷺ في بعض المسائل وقد عمل بها، وهذه بعض الأمثلة.

١- عن حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ ﵁ فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الْفِتْنَةِ؟ قُلْتُ: أَنَا كَمَا قَالَهُ، قَالَ: أَنَّكَ عَلَيْهِ - أَوْ عَلَيْهَا - لجريء، قُلْتُ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ، ومَالِهِ، ووَلَدِهِ، وجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ، وَالصَّوْمُ، والصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ، قَالَ: لَيْسَ

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٤٣ من طريق ابن وهب حدثني يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان أن أبا هريرة كان يقول. فيه محمد بن عجلان؛: مدلس من الطبقة الثالثة؛ طبقات المدلسين (صـ ٤٧)، ثم إنه لم يلق أبا هريرة ففيه انقطاع.

(٢) حسن. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٠٤)، أحمد في المسند ٢/ ٥١٨، البخاري في الأدب المفرد (٩٠٦) من طرق عن الزهري، حدثني ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ به. وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٩٦).

(٣) البخاري (٥٩٤٦).

هَذَا أُرِيدُ، وَلَكِنِ الْفِتْنَةُ التي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: يُكْسَرُ، قَالَ: إِذًا لاَ يُغْلَقَ أَبَدًا، قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِني حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ.[1]

٢- عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه خَرَجَ إِلَى الشام، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشام. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ؛ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بالشام فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لأَمْرٍ، وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّى، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ. فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّى، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ، وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ، إِني مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ الله؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله، أَرَأَيْتَ إِن كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله؟ قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ - فَقَالَ: إِنَّ عندي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ». قَالَ: فَحَمِدَ الله عُمَرُ، ثُمَّ انْصَرَفَ[2].

هذه بعض الأدلة التي طلب فيها عمر رضي الله عنه الحديث عن رسول الله ﷺ وعمل بها وفي

(١) البخاري (٥٢٥)، مسلم (١٤٤).

(٢) البخاري (٥٧٢٩)، مسلم (٢٢١٩).

هذا رد على من يقول أنهم كانوا لا يستطيعون أن يحدثوا عن النبي ﷺ، ولو صح لدل على أن المنع كان على وجه مخصوص أو لسبب عارض.

الشبهة السادسة: عزل عمر رضي الله عنه له عن ولاية البحرين.

من الشبه التي أثارها بعض أهل الأهواء أيضًا، قولهم: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عزل أبا هريرة رضي الله عنه عن ولاية البحرين، وضربه بالدرة؛ وقال له: يا عدو الله، وذلك لما رآه قد كثرت عنده الأموال، وهذا أمر يثير الشك في أمانته.

أولًا: بالنسبة لعزل عمر رضي الله عنه لأبي هريرة.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الأثر في ذلك، وبيانه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: لي عمر يا عدو الله وعدو كتابه أسرقت مال الله؟ قال فقلت: ما أنا بعدو الله ولا عدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما، ولا سرقت مال الله، قال: فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف؟ قال قلت: يا أمير المؤمنين خيلي تناسلت وسهامي تلاحقت وعطائي تلاحق، قال فأمر بها أمير المؤمنين فقبضت، قال فكان أبو هريرة يقول: اللهم اغفر لأمير المؤمنين[1].

هذا الأثر وإن كان حسنا ؛ فليس فيه ما يدل على الشك في أبي هريرة، وبيانه في الوجوه التالية:

الوجه الثاني: لم يكن عمر رضي الله عنه شاكًا في أمانة أبي هريرة، وإنما أراد بمساءلته ليقطع التساؤل.

لم يكن عمر رضي الله عنه شاكًا في أمانة أبي هريرة رضي الله عنه حين عزله عن ولاية البحرين، وإنما أراد بمساءلته له وعزله أن يقطع التساؤل حول ما نمى عنده من مال بعد ولايته للبحرين، وإن كان ذلك المال محدودًا، ولكن كما يقول المثل: "إذا لبس الفقير جديدًا قيل: من أعطاك هذا"؟ وعلى افتراض أنه كان شاكًا في أمانته، فإن هذا الشك قد زال بعد سؤاله له عن

---

(١) **حسن**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/ ٢٤٩، والبلاذري في فتوح البلدان (٢٥٦) من طريق أبي هلال. وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/ ٢٥٠ من طريق ابن عون. وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٧٠ من طريق أيوب السختياني. كلهم (أبو هلال و ابن عون و أيوب) عن ابن سيرين عن أبي هريرة به.

مصدر هذا المال، وجواب أبي هريرة المقنع على سؤاله، قلت: يا أمير المؤمنين خيلي تناسلت وسهامي تلاحقت وعطائي تلاحق. فنظروا فوجدوه كما قال.

الوجه الثالث: دعوة عمر لأبي هريرة إلى الولاية مرة ثانية يدل على أنه لم يشك في أمانته.

ومما يؤكد اقتناع عمر رضي الله عنه بجوابه، وزوال شكه في أمانته، دعوته له لولاية البحرين مرة أخرى، فقد جاء في نفس الرواية: أنه لما كان بعد ذلك، دعا عمر ليوليه، فأبى، فقال: تكره العمل، وقد طلب العمل من كان خيرًا منك يوسف عليه السلام، فقال: يوسف نبي ابن نبي، وأنا أبو هريرة بن أميمة، وأخشى ثلاثًا واثنتين، قال: فهلا قلت: خمسًا؟ قال: أخشى أن أقول بغير علم، واقضي بغير حلم، وأن يضرب ظهري، وينتزع مالي، ويشتم عرضي.

وهذه الرواية تفيد أن عزله لم يكن لخيانة، أو قلة أمانة، أو تقصير في واجب، وإلا فبماذا تفسر دعوة عمر رضي الله عنه له ليوله ثانيةً على البحرين بعد أن كان قد عزله عنها؟ [1].

الوجه الرابع: هذه سياسة عمر يعزل ولاته لا عن شبهة؛ بل من باب الاجتهاد وحسن رعاية الأمور.

كان من سياسة عمر رضي الله عنه متابعة الولاة والعمال ومساءلتهم، لأدنى ما يرفع عنهم أو يقال ضدهم، مهما علت مراتبهم، في الإسلام؛ فقد عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى عليها عمار بن ياسر[2]، وليس شاكًا في أمانته، ولذا قال في وصيته: فَإِنْ أَصَابَتِ الإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلاَّ فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ، فإني لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ وَلاَ خِيَانَةٍ[3].

وقد عزل عتبة بن غزوان وولى العلاء بن الحضرمي، وقال له: واعلم أنك تقدم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى لم أعرفه إلا يكون عفيفًا صليبًا شديد البأس، ولكني ظننت أنك أغنى عن المسلمين في تلك الناحية منه فاعرف له حقه[4].

---

(١) أبو هريرة للضاري (٨٩: ٨٦)، أبو هريرة راوية الإسلام (٢٢٦).

(٢) البخاري (٧٥٥).

(٣) البخاري (٣٧٠٠).

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٣٦٢.

وعزل خالد بن الوليد في معركة وولى أبا عبيدة(١).

وعزل المغيرة بن شعبة عن البصرة وولى أبا موسى الأشعري(٢).

وعليه فمساءلة عمر لبعض ولاته، وعزلهم أحيانًا، كانت سياسة له كما أسلفنا، وليست بالضرورة إدانة لمن يعزلهم، لعله أراد أن يسن بها سنة لمن بعده من الخلفاء والأمراء(٣).

ثانيًا: بالنسبة لضربه بالدرة فجوابه من وجوه.

الوجه الأول: هذه حكاية مفتراة على عمر رضي الله عنه.

قال د/مصطفى السباعي: وأما زعمه أن عمر ضربه بالدرة، فنحن نتحداه أن يثبت هذا الخبر من كتاب علمي محترم إلا أن يكون من تلك الكتب الأدبية التي تروي التالف والساقط من الأخبار، أو تلك الكتب الشيعية التي عرفت ببغض أبي هريرة والافتراء عليه، وليس لهذه الكتب قيمة علمية عند من يشم رائحة العلم. وقال: إنا نتحداه ونتحدى كل من يتجرأ على أبي هريرة أن يثبت لنا نصًا تاريخيًا موثوقًا بصحة هذا الخبر حتمًا ستنقطع أعناق هؤلاء الحاقدين دون العثور على نص من هذا القبيل ويأبى الله لهم ذلك، أما إن كانت النصوص من كتاب كعيون الأخبار، وبدائع الزهور، والعقد الفريد، ورواة كابن أبي الحديد والإسكافي، ومتهمين كالنظام وأمثاله. . . فهيهات أن يكون ميدان هذه الكتب وهؤلاء الرواة وهؤلاء الطاعنين هو ميدان العلم والعلماء! ! (٤).

ومثل هذه الحكايات الطائشة توجد بكثرة عند الرافضة والناصبية وغيرهم، بما فيه انتقاص لأبي بكر وعمر وعلي وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم، وإنما يتشبث بها من لا يعقل، وقد ذكر ابن أبي الحديد أشياء عن الإسكافي من الطعن في أبي هريرة وغيره من الصحابة، وذكر من ذلك شيئًا من مزاح أبي هريرة، فقال ابن أبي الحديد: قلت لأنه غير متهم عليه، وفي هذا إشارة إلى أن الإسكافي متهم، ونحن كما لا نتهم ابن قتيبة قد لا نتهم الإسكافي باختلاق

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٤٩٠، المنتظم لابن الجوزي ٤/ ٢٣٠.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٤٩٢، المنتظم لابن الجوزي ٤/ ٢٣٠.

(٣) أبو هريرة راوية الإسلام (٢٢٦)، أبو هريرة للضاري (٨٦-٨٩).

(٤) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٤٦: ٣٤٤)، وانظر: أبو هريرة راوية الإسلام (٢٧٢).

الكذب، ولكن نتهمه بتلقف الأكاذيب من أفَّاكي أصحابه الرافضة والمعتزلة، وأهل العلم لا يقبلون الأخبار المنقطعة ولو ذكرها كبار أئمة السنة، فما بالك بما يحكيه ابن أبي الحديد عن الإسكافي عمن تقدمه بزمان(١).

الوجه الثاني: هذا لا يعقل عن عمر ﷺ

فَضَرْبُ عمر لأبي هريرة غير معقول لأن عمرﷺ يعرف مكانته ومنزلته، وأما أن يكون أهانه وقال له: استعملتك على البحرين بلا نعلين، فالواقع يكذب هذا؛ لأن جميع المسلمين تحسنت أحوالهم أيام عمر، وكثر عطاؤهم عندما فتحت البلاد المجاورة فأغدقت عليهم الغنائم والأموال الكثيرة، وإلى جانب هذا لم يرد في الروايات الصحيحة المعتمدة شيء من ذلك(٢).

الشبهة السابعة: يقولون: إن أبا هريرة ﷺأكثر روايته عن كعب الأحبار.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: كعب الأحبار ليس من الصحابة، فلماذا يأخذ عنه أبو هريرة حديث رسول الله ﷺ

هناك خلط عند بعض السامعين بين ما يرويه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ وما يرويه من القصص عن كعب الأحبار، ويثبت ذلك ما قاله بسر بن سعيد: اتقوا الله وتحفظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله ﷺ، ويحدثنا عن كعب الأحبار، ثم يقوم، فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله ﷺ عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله ﷺ (٣).

الوجه الثاني: لا يتصور أن أبا هريرة يكذب على رسول الله ﷺ

المشهور عن أبي هريرة ﷺ أنه كان يعزو كل ما يحدث به عن غير النبي ﷺ إلى قائله، فبالأحرى أن يبين حديث كعب وما يقوله كعب، ولا يمكن إنسان أن يتصور أبا هريرةﷺ

---

(١) الأنوار الكاشفة (١/ ١٦٣).

(٢) أبو هريرة راوية الإسلام (٢٢٦).

(٣) صحيح. أخرجه مسلم في التمييز (١٠) ومن طريق ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٦٠، قال: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي، ثنا مروان الدمشقي، عن الليث بن سعد، حدثني بكير بن الأشج، قال: قال: لنا بسر بن سعيد.

الذي روى حديث" مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ" عن الرسولﷺ، ثم يكذب على لسان رسول اللهﷺ، وينسب ما يقوله كعب إلى النبيﷺ، وخاصةً أن كعب الأحبار لم يلق النبيﷺ، وما كان لكعب ولا لغير كعب أن يشتري ضمير أبي هريرة ﷺ الذي عرفناه في أمانته وصدقه وإخلاصه[1].

الوجه الثالث: هذه دعوى – يروي عن كعب عن النبي ﷺ ـ باطلة، فإنه إذا روى عنه فإنما يروي أخبار الأمم الماضية.

هذه دعوى فاجرة لم يستطع – المدعي – أن يجد لها دليلًا سوى التخيل وتحريف نصوص العلماء.

وهذا كذب مضحك؛ لأن كعبًا لم يدرك رسول اللهﷺ، فلا يعقل أن يروي صحابة الرسول أحاديثه عمن لم يدركه، وإنما يذكر ذلك في بيان أخذهم عن كعب – وغيره من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا - أخبار الأمم الماضية وتواريخها، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: " لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ "[2]. فتروى أخبارهم على جهة العظة والاعتبار، لا على أنها حاكمة على ما جاء في القرآن أو مهيمنة عليه، بل أخبار القرآن هي الحاكمة والمهيمنة[3].

فليس في تحديث أبي هريرة عن كعب أي حرج أو مانع، وقد سمح رسول الله ﷺ بذلك وقال: "**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**"[4]، ولكن ليس لأحد أن يزعم أنه كما ينسب ما يحدث به عن كعب إلى الرسولﷺ، وبأن وجه الحق فيما رويناه من أن بعض من كان يسمع ذلك كان يخطئ في نسبة ما سمع من أبي هريرة إلى الرسولﷺ، فما جريمة أبي هريرة في ذلك؟ [5].

الشبهة الثامنة: يقولون: إن أبا هريرة اعترف بأن مرويات ابن عمرو أكثر، فأين هي؟

---

(١) أبو هريرة راوية الإسلام (٢١٨).

(٢) البخاري (٢٩).

(٣) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٥١: ٣٥٠).

(٤) البخاري (٣٤٦١).

(٥) أبو هريرة راوية الإسلام (٢١٩).

ويستشهدون بقول أبي هريرة: مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ"[١].

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان معنى قول أبي هريرة.

فإن الحديث يدل على أن عبد الله بن عمرو كان أكثر أخذًا للحديث من أبي هريرة لأنه كان يكتب، وأبو هريرة لا يكتب[٢]؛ لأنا نقول: إن عبد الله كان أكثر تحملًا، وأبو هريرة كان أكثر رواية، فإن قلت: كيف يكون الأكثر تحملا وهو داخل تحت عموم المهاجرين؟ قلت: هو أكثر من جهة ضبطه بالكتابة وتقييده بها، وأبو هريرة أكثر من جهة مطلق السماع[٣].

الوجه الثاني: أن هذا ليس عامًا فقد يكون في أول إسلام أبي هريرة.

قد تكون مقولة أبي هريرة ﷺ قبل الدعوة النبوية لما طلب منه أن يبسط رداءه فبسطه ثم ضمه بعد أن دعا له النبي ﷺ لم ينس شيئًا قط وصار بذلك أحفظ الصحابة.

قال ابن حجر: ويحتمل أن يقال تحمل أكثرية عبد الله بن عمرو على ما فاز به عبد الله من الكتابة قبل الدعاء لأبي هريرة؛ لأنه قال في حديثه فما نسيت شيئًا بعد، فجاز أن يدخل عليه النسيان فيما سمعه قبل الدعاء بخلاف عبد الله؛ فإن الذي سمعه مضبوط بالكتابة، والذي انتشر عن أبي هريرة مع ذلك أضعاف ما انتشر عن عبد الله بن عمرو لتصدي أبي هريرة لذلك ومقامه بالمدينة النبوية بخلاف عبد الله بن عمرو في الأمرين[٤].

الوجه الثالث: قد يكون الاستثناء منقطع، وعند ذلك فلا إشكال.

قال ابن حجر: فَإِنْ قُلْنَا الِاسْتِثْنَاء مُنْقَطِع فَلَا إِشْكَال، إِذْ التَّقْدِير: لَكِنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ عَبْد الله وَهُوَ الْكِتَابَة لَمْ يَكُنْ مِنِّي، سَوَاء لَزِمَ مِنْهُ كَوْنه أَكْثَر حَدِيثًا لِمَا تَقْتَضِيه الْعَادَة أَمْ لَا. [٥]

الوجه الرابع: قد يكون هذا على حسب ظنه.

---

(١) البخاري (١١٣).

(٢) أبو هريرة راوية الإسلام صـ٢٦٧.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢/ ١٨٢.

(٤) فتح الباري ١/ ٢٥١.

(٥) فتح الباري ١/ ٢٥٠.

والمعنى: أنه ظن بسبب كتاب عبد الله بن عمرو، قد صار أكثر رواية منه.

ولعل هذا على حسب ظنهﷺ، وأنه كان يتوقع أن عبد الله بن عمرو أكثر منه؛ لأن المكتوب الذي يرى ليس كالمحفوظ فالمحفوظ موجود في الأذهان لا وجود له في الأعيان فلا يمكن بيان حجمه ما دام موجود في الأذهان.

الوجه الخامس: أسباب كثرة رواية أبي هريرة عن عبد الله بن عمرو.

وإذا استبعدنا هذه الوجوه، فكل ما في الأمر أن عبد الله بن عمروﷺ حمل من الحديث عن الرسول ﷺ أكثر من أبي هريرة ﷺ، إلا أنه لم يتيسر له نشره لأسباب:

قال ابن حجر:

أحَدهَا: أن عبد الله كان مشتغلا بالعبادة أكثر من اشتغاله بالتعليم فقلت الرواية عنه.

ثانِيهَا: أنه كان أكثر مقامه بعد فتوح الأمصار بمصر أو بالطائف ولم تكن الرحلة إليهما ممن يطلب العلم كالرحلة إلى المدينة، وكان أبو هريرة متصديا فيها للفتوى والتحديث إلى أن مات، ويظهر هذا من كثرة من حمل عن أبي هريرة، فقد ذكر البخاري أنه روى عنه ثمانمائة نفس من التابعين، ولم يقع هذا لغيره.

ثالِثهَا: ما اختص به أبو هريرة من دعوة النبي ﷺ له بأن لا ينسى ما يحدثه به.

رَابِعهَا: أن عبد الله كان قد ظفر في الشام بحمل جمل من كتب أهل الكتاب فكان ينظر فيها ويحدث منها فتجنب الأخذ عنه لذلك كثير من أئمة التابعين[(١)].

تلك أسباب هامة في قلة رواية عبد الله بن عمرو بن العاصﷺ بالنسبة لما تحمله عن الرسول ﷺ تنفي ما زعموه هؤلاء الجهلة.

فإن قلة مرويات عبد الله بن عمرو لم تعد تثير أي شك، أو تدخل أية شبهة على مرويات أبي هريرة ﷺ الكثيرة، بالرغم من تصريحه عن كثرة حديث ابن عمرو، بعد أن عرفنا تلك الأسباب التي كان لها أثر بعيد في قلة مروياته.

الشبهة التاسعة: يقولون: أين باقي الصحابة من مرويات أبي هريرة؟

(١) فتح الباري ١/ ٢٥٠.

إن كثرة روايته وقع لأسباب تقدم بعضها ومن ذلك:

الأول: صحيح أن الصديق والفاروق، وذا النورين، وأبا الحسن ﷺ- سبقوا أبا هريرة في صحبتهم وإسلامهم، ولم يُرو عنهم مثل ما رُوي عن أبي هريرة، إلا أن هؤلاء اهتموا بأمور الدولة وسياسة الحكم، وأنفذوا العلماء والقراء والقضاة إلى البلدان فأدوا الأمانة التي حملوها، كما أدى هؤلاء الأمانة في توجيه شئون الأمة، فكما لا نلوم خالد بن الوليد ﷺ على قلة حديثه عن الرسول ﷺ؛ لانشغاله بالفتوحات.

لا نلوم أبا هريرة ﷺ على كثرة حديثه لانشغاله بالعلم، وهل لأحد أن يلوم عثمان ﷺ أو عبد الله بن عباس ﷺ؛ لأنهما لم يحملا لواء الفتوحات، فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له.

الثاني: انصراف أبي هريرة ﷺ إلى العلم والتعليم، واعتزاله السياسة، واحتياج الناس إليه لامتداد عمره يجعل الموازنة بينه وبين غيره من الصحابة السابقين أو الخلفاء الراشدين غير صحيحة، بل ذات خطأ كبير. وما رددنا به بالنسبة لمقارنته بالخلفاء الراشدين يُرد بالنسبة لمقارنته بالسيدة عائشة ﵂ ونضيف أن السيدة عائشة كانت تفتي للناس في دارها، وأما أبو هريرة ﷺ فقد اتخذ حلقةً له في المسجد النبوي، بصفته رجلًا كثير الغدو والرواح، وأضيف إلى هذا أن السيدة جُل همها موجهًا نحو نساء المؤمنين، وكان يتعذر دخول كل إنسان عليها.

وأما الحسنان فهما من صغار الصحابة، وقد اشتغلا في الأمور السياسية، فبديهي أن تكون مروياتهما قليلة، ومثل هذا يقال في سيدة نساء العالمين أمهما التي تُوفيت بعد وفاة الرسول ﷺ بستة شهور.

فالأمر ليس مهولًا يحتاج إلى تفكير أرباب العقول، ثم إن نظرة مجردة عن الهوى تدرك أن ما رُوي عن أبي هريرة من الأحاديث لا يثير العجب والدهشة، ولا يحتاج إلى هذا الشغب الذي اصطنعه أهل الأهواء وأعداء السنن، وأن ما رواه عن رسول الله ﷺ سواء سمعه منه أو من الصحابة لا يشك فيه لقصر صحبته، بل إن صحبته تحتمل أكثر من هذا، لأنها كانت أعظم

سنوات دولة الإسلام دعوةً ونشاطًا وتعليمًا وتوجيهًا في عهد رسول الله ﷺ [(١)].

الشبهة العاشرة: إنكار عائشة على أبي هريرة في التحديث عن رسول الله ﷺ

عن عُرْوَةَ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ أَلاَ يُعْجِبُكَ أَبُو فُلاَنٍ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَى جَانِبِ حجرتي يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، يُسْمِعُنِي ذَلِكَ، وَكُنْتُ أُسَبِّحُ فَقَامَ قَبْلَ أَنْ أَقْضِيَ سبحتي، وَلَوْ أَدْرَكْتُهُ لَرَدَدْتُ عَلَيْهِ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ [(٢)].

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن عائشة لم تنكر الرواية؛ وإنما أنكرت سرد الحديث.

قال أبو حاتم: قول عائشة: (ولو أدركته لرددت عليه) أرادت به سرد الحديث لا الحديث نفسه، والدليل على هذا، تعقيبها أن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم [(٣)].

قال ابن حجر: (ولو أدركته لرددت عليه) أي: لبينت له أن الترتيل في التحديث أولى من السرد [(٤)].

الوجه الثاني: بيان عذر أبي هريرة في سرده للحديث.

قال ابن حجر: واعتذر عن أبي هريرة بأنه كان واسع الرواية، كثير المحفوظ، فكان لا يتمكن من المهل عند إرادة التحديث، كما قال بعض البلغاء أريد أن أقتصر فتتزاحم القوافي علي فيّ [(٥)].

الشبهة الحادية عشرة: يدعون أن أبا هريرة كان يدلس.

ادعوا عليه أنه كان يدلس في الحديث عن الرسول ﷺ، ويحتجون بقول شعبة: كان أبو هريرة يدلس، وكأن شعبة يشير بهذا إلى حديثه: (من أصبح جنبا فلا صيام له) فإنه لما حوقق عليه، قال: أخبرنيه مخبر، ولم أسمعه من رسول الله ﷺ، أخبرنيه الفضل بن العباس، فاستشهد ميتًا.

والرد على ذلك من وجوه

الوجه الأول: الأثر عن شعبة لا يصح، وهذا بيانه.

---

(١) أبو هريرة راوية الإسلام (٢٦٥: ٢٦٣).

(٢) البخاري (٣٥٦٨)، مسلم (٢٤٩٣).

(٣) صحيح ابن حبان (١٠٠، ٧١٥٣)

(٤) فتح الباري ٦/ ٦٦٩.

(٥) فتح الباري ٦/ ٦٦٩.

عن يزيد بن هارون قال سمعت شعبة يقول: (أبو هريرة كان يدلس)[١].

قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي اليماني:

وهي حكاية شاذة، لا أدري كيف سندها إلى يزيد، ويقع في ظني إن كان السند صحيحًا أنه وقع فيها تحريف، فقد يكون الأصل (أبو حرة) فتحرفت على بعضهم فقرأها (أبو هريرة) وأبو حرة معروف بالتدليس كما تراه في طبقات المدلسين[٢].

الوجه الثاني: حديث أبي هريرة في صيام الجنب صحيح.

عن عَبْد الْمُلِكِ بْنُ أَبِى بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِى بَكْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُصُّ يَقُولُ فِي قَصَصِهِ: مَنْ أَدْرَكَهُ الْفَجْرُ جُنُبًا فَلاَ يَصُمْ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ - لأَبِيهِ - فَأَنْكَرَ ذَلِكَ، فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَانْطَلَقْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ - رضي الله عنهما - فَسَأَلَهُمَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنْ ذَلِكَ - قَالَ: فَكِلْتَاهُمَا قَالَتْ: كَانَ النبي ﷺ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ غَيْرِ حُلُمٍ ثُمَّ يَصُومُ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى مَرْوَانَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ مَرْوَانُ عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلاَّ مَا ذَهَبْتَ إِلَى أَبِى هُرَيْرَةَ فَرَدَدْتَ عَلَيْهِ مَا يَقُولُ - قَالَ: فَجِئْنَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَأَبُو بَكْرٍ حَاضِرُ ذَلِكَ كُلِّهِ - قَالَ: فَذَكَرَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَهُمَا قَالَتَاهُ لَكَ قَالَ نَعَمْ، قَالَ هُمَا أَعْلَمُ. ثُمَّ رَدَّ أَبُو هُرَيْرَةَ مَا كَانَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ وَلَمْ أَسْمَعْهُ مِنَ النبي ﷺ قَالَ: فَرَجَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَمَّا كَانَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ. قُلْتُ لِعَبْدِ الْمُلِكِ: أَقَالَتَا فِي رَمَضَانَ قَالَ: كَذَلِكَ كَانَ يُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ غَيْرِ حُلُمٍ ثُمَّ يَصُومُ[٣].

فقالوا: أن عائشة أنكرت عليه هذا الحديث، ولما علم أبو هريرة بقول عائشة، قال إنها

---

(١) **ضعيف**. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٥٩ من طريق حمزة بن يوسف، أنا: أبو أحمد أنا الحسن بن عثمان التستري، نا سلمة بن حبيب، قال: سمعت يزيد بن هارون، قال: سمعت شعبة. . . وإسناده ضعيف فيه سلمة بن حبيب: قال البخاري: لا يتابع عليه. وذكره العقيلي في ترجمة على بن عروة وقال: مجهول بالنقل. وذكره ابن حبان في الثقات، لسان الميزان (٣/ ٦٧)، وفيه حمزة بن يوسف: مقبول؛ كما في التقريب ١/ ١٤١، وهذا حيث يتابع وإلا فهو لين الحديث، ولم يتابع هنا.

(٢) الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة (١/ ١٧١).

(٣) مسلم (١١٠٩).

أعلم مني، وأنا لم أسمعه من النبي ﷺ وإنما سمعته من الفضل بن العباس فلما دلس استشهد ميتًا.

والجواب عليه من هذه الوجوه أيضًا:

الوجه الأول: أبو هريرة لم ينفرد بإسناده إلى الرسول ﷺ ما لم يسمعه منه.

بل شاركه فيه صغار الصحابة ومن تأخر إسلامه فعائشة، وأنس، والبراء، وابن عباس، وابن عمر ﷺ؛ هؤلاء وأمثالهم أسندوا إلى رسول الله ﷺ ما سمعوه من صحابته عنه، وذلك لما ثبت عندهم من عدالة الصحابي وصدقه، فلم يكونوا يجدون حرجًا ما في صنيعهم هذا. فقد روى ابن عباس عن النبيﷺ: **"الرِّبَا في النَّسِيئَةِ "**[1]، فلما روجع في ذلك رد الخبر إلى أسامة بن زيد. ولذا قال البراء بن عازب: ليس كلنا سمع حديث رسول الله ﷺ كانت لنا ضيعة وأشغال، ولكن الناس كانوا لا يكذبون يومئذ فيحدث الشاهد الغائب[2].

وكان مع هذا يقول: قال رسول الله ﷺ كذا، وإنما سمعه من الثقة عنده فحكاه، وكذلك كان ابن عباس يفعل وغيره من الصحابة، وليس في هذا كذب بحمد الله ولا على قائله - إن لم يفهمه السامع - جناح إن شاء الله[3].

الوجه الثاني: هذا مرسل صحابي وهو حجة.

وهذا ما يسمى عند العلماء بمرسل الصحابي، وقد أجمعوا على الاحتجاج به، وأن حكمه حكم المرفوع، ما عدا الأستاذ أبا إسحاق الإسفراييني إنه قال: يحتمل أن يكون الصحابي راويًا ذلك الحديث عن تابعي، وهو قول مردود، ويكفي إجماع أهل الحديث والأصول على خلافه.

قال النووي: - بعد أن ذكر الخلاف في حجية المرسل - هذا كله في غير مرسل الصحابي، أما مرسل الصحابي كإخباره عن شيء فعله النبي ﷺ أو نحوه - مما يعلم أنه لم يحضره لصغر سنه أو لتأخر إسلامه أو غير ذلك - فالمذهب الصحيح المشهور الذي قطع

---

(١) البخاري (٢١٧٩)، مسلم (١٥٩٦).

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (صـ٣٠٦).

(٣) تأويل مختلف الحديث (صـ٤٠).

به جمهور أصحابنا، وجماهير أهل العلم أنه حجة، وأطبق المحدثون المشترطون للصحيح القائلون بأن المرسل ليس بحجة، على الاحتجاج به وإدخاله في الصحيح، وفي صحيحي البخاري ومسلم من هذا ما لا يحصى، وقال أبو إسحاق الإسفراييني: لا يحتج به، بل حكمه حكم مرسل غيره؛ إلا أن يتبين أنه لا يرسل إلا ما سمعه من النبي ﷺ أو صحابي، قال: لأنهم قد يروون عن غير صحابي.

وقال أيضًا: والصواب الأول، وأنه يحتج به مطلقًا؛ لأن روايتهم عن غير الصحابي نادرة، وإذا رووها بينوها، فإذا أطلقوا ذلك فالظاهر أنه عن الصحابة، والصحابة كلهم عدول(١).

الوجه الثالث: عائشة رضي الله عنها لم تنكر على أبي هريرة.

إن كتب الصحيح لم تذكر إنكار عائشة عليه، ولكنها ذكرت المسألة، على أن أبا هريرة استفتى في صوم من أصبح جنبًا، فأفتى بأنه لا صوم له، فاستفتيت عائشة وأم سلمة في المسألة نفسها فكلتاهما أفتت بصحة صومه، وقالت: كان رسول الله ﷺ يصبح جنبًا – من غير احتلام – ثم يصوم، لما قيل لأبي هريرة رجع عن فتواه، وقال: هما أعلم مني، فالواقعة واقعة فتوى، فأفتى فيها كلٌ بما علمه، وصح عنده عن رسول الله ﷺ وليس فيها إنكار عائشة ولا ردها عليه(٢).

الوجه الرابع: هذا الخبر لا يدل على تكذيب أبي هريرة.

لو سلمنا ثبوت الإنكار عنها فليس معناه تكذيب أبي هريرة فيما روى، بل معناه أنها لا تعرف هذا الحكم وإنما تعرف خلافه، فيكون من الاستدراكات التي استدركتها عائشة أم المؤمنين على كبار الصحابة كعمر، وابنه عبد الله، وأبي بكر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وأبي سعيد الخدري وغيرهم(٣)، وما زال الصحابة يستدرك بعضهم على بعض لا يرون ذلك تكذيبًا؛ بل تصحيحًا للعلم وأداءً للأمانة على ما يعرفها

(١) المجموع١/ ٦٢، وانظر: المنهل الروي لـ محمد بن إبراهيم بن جماعة١/ ٤٦.
(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي صـ (٣٠٨: ٣٠٧).
(٣) انظر الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي.

الصحابي، وقد قال ﷺ: "من كتم علمًا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار"[(١)].

الشبهة الثانية عشر: عدم الأخذ بحديث أبي هريرة إلا في حديث الجنة والنار فقط.

ويحتجون بقول إبراهيم النخعي: لم يكونوا يأخذون من حديث أبي هريرة إلا ما كان في صفة جنة أو نار[(٢)].

والرد على ذلك من وجوه

الوجه الأول: هذا الكلام مردود وغير مرضي.

قال ابن عساكر: وقول إبراهيم النخعي هذا غير مقبول منه ولا مرضي عند من حكى له عنه فقد قدمنا ذكر من أثني عليه ووثقه[(٣)].

قال العجلي: وهذا القول قادح في قائله، فإن الصحابة ﷺ يقدح كلامهم فيمن بعدهم، ولا يقدح كلام من بعدهم فيهم، والكلام فيهم ثلمة في الإسلام[(٤)].

قال الذهبي: هذا لا شيء، بل احتج المسلمون قديمًا وحديثًا بحديثه لحفظه وجلالته وإتقانه وفقهه[(٥)].

الشبهة الثالثة عشر: قول أبي هريرة إذا خالف القياس عند الحنفية.

يقولون: إن أبا هريرة إذا قال بقول وخالف فيه القياس عند الأحناف، قدموا القياس على قول أبي هريرة، وقالوا: أبو هريرة ليس بفقيه، ويستندون إلى حديث المصراة.

قال: أبو إسحاق الفيروزآبادي: سمعت القاضي أبا الطيب يقول: كنا في مجلس النظر بجامع المنصور، فجاء شاب خراساني، فسأل عن مسألة المصراة؛ فطالب بالدليل، حتى استدل بحديث أبي هريرة الوارد فيها، فقال وكان حنفيًا: أبو هريرة غير مقبول الحديث،

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (صـ٣٠٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٥٠٧٠)، والعجلي في الثقات (٢٢٧٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٦٠ من طريق منصور، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٦٠ من طريق مغيرة، وأخرجه أيضًا ٦٧/ ٣٥٩، ٣٦٠ من طريق الأعمش، كلهم (منصور، مغيرة، الأعمش) عن إبراهيم.

(٣) تاريخ دمشق ٦٧/ ٣٦١.

(٤) الثقات للعجلي ٢/ ٤٣٣.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٠٩.

والصحابة كلهم عدول ما عدا رجالًا – وعد منهم أبا هريرة وأنس بن مالك.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: حديث المصراة صحيح لا مغمز فيه.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النبيِ ﷺ: " **لاَ تُصَرُّوا الإِبِلَ وَالْغَنَمَ، فَمَنِ ابْتَاعَهَا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ بَعْدَ أَنْ يَحْتَلِبَهَا، إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ، وَإِنْ شَاءَ رَدَّهَا وَصَاعَ تَمْرٍ** "(١).

الوجه الثاني: الحنفية لا يجمعون على هذا القول في القياس.

فإن جاء حديث من واحد من الصحابة ولم ينقل عن غيره خلاف ذلك، فعن أبي حنيفة رحمه الله ثلاث روايات:

في رواية قال: أقلد منهم من كان من القضاة المفتيين لقوله ﷺ: " **اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما** "، وقد اجتمع في حقهما القضاء والفتوى، فمن كان منهما كعثمان وعليّ والعبادلة الثلاثة وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، ومن كان بمثابتهم أقلدهم، ولا أستجر خلافهم.

وفي رواية قال: أقلد جميع الصحابة إلا ثلاثة منهم أنس بن مالك، وأبو هريرة، وسمرة بن جندب رضي الله عنهم. أما أنس فقد بلغني أنه اختلط عقله في آخر عمره، وكان يستفتي من علقمة، وإنما لا أقلد علقمة فكيف أقلد من يستفتي علقمة، وأما أبو هريرة فإنه لم يكن من أئمة الفتوى، بل كان من الرواة فيما كان يروى لا يتأمل في المعنى، وكان لا يعرف الناسخ والمنسوخ، ولأجل ذلك حجر عليه عمر رضي الله عنه، عن الفتوى في آخر عمره.

أما فيما روي عن النبي ﷺ أنه كان يأخذ برواياتهم؛ لأن كل واحد موثوق به فيما يروي.

وفي رواية قال: أقلد جميع الصحابيين ولا أستجيز خلافهم، وهو الظاهر من المذهب، فقد قال في كتاب الحيض: أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره عشرة أيام، بلغنا ذلك عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال في كتاب الأيمان: إذا نذر بذبح ولده يصح نذره عند أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله، بلغنا نحو ذلك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: في شراء ما باع بأقل مما باع قبل نقد الثمن، أنه

(١) البخاري (٢١٤٨)، مسلم (١٥١٥).

لا يجوز، بلغنا ذلك عن عائشة رضي الله عنها، ونظائره في الكتب كثيرة؛ وهذا لأنهم ما كانوا يفتون جزافًا، وإنما كانوا يفتون سماعًا أو اجتهادًا؛ فإن كان سماعًا يلزمنا اتباعهم، وهذا ظاهر، وإن كان اجتهادًا فكذلك؛ لأنهم صحبوا رسول الله ﷺ، وعاينوا وشهدوا التنزيل، وشهد لهم رسول الله ﷺ بالخيرية، بقوله: " **خير القرون قرني الذي أنا فيهم** ". فيوفقون في الصواب بسبب صحبة رسول الله ﷺ ولكونهم خير القرون مالا يوفق غيرهم؛ ولأنهم عرفوا طريق رسول الله في بيان الأحكام، وشاهدوا الأحوال التي نزلت فيها النصوص، والمحال التي تعتبر باعتبارها الأحكام، فيكون رأيهم أقوى، واجتهادهم أصوب(١).

الوجه الثاني: هذا الموقف من تقديم القياس على الخبر ليس خاصًا بأبي هريرة عند القائلين به، بل هم يعممونه في كل راوٍ غير فقيه. (٢)

الوجه الثالث: القول بعدم فقه أبي هريرة غير صحيح.

والحنفية محجوجون في هذا، فقد نقل عن كبار الصحابة أنهم تركوا القياس بخبر الواحد، والتفرقة بين الراوي الفقيه وغيره أمر مستحدث، والذي عليه جماهير العلماء سلفًا وخلفًا أن خبر الواحد إذا ثبت مقدم على القياس، وأيضًا فكون أبي هريرة غير فقيه غير مسلَّم لهم، فمعظم الصحابة ولا سيما المعروفون بالرواية كانوا فقهاء علماء، وقد عده ابن حزم في فقهاء الصحابة، ونقل عنه الحافظ ابن حجر أنه من الطبقة الثانية من أهل الفتيا مع أبي بكر وعثمان وأبي موسى ومعاذ وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، وحديث أبي هريرة في المصراة صحيح غاية الصحة، وليس أدل على هذا من أن ابن مسعود -وهو ممن قال الحنفية أنه فقيه- كان يفتي بوفق حديث أبي هريرة، ولهذا أورد البخاري بعد حديث أبي هريرة في المصراة حديث ابن مسعود وهو موقوف عليه، قال: مَنِ اشْتَرَى شَاةً مُحَفَّلَةً، فَرَدَّهَا فَلْيَرُدَّ مَعَهَا صَاعًا، وهذا من فقه البخاري وبعد نظره. . . وإليك ما قاله صاحب عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان قال: في أثناء الرد على من زعم أن أبا حنيفة خالف بعض الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ،

(١) المحيط البرهاني لـ (محمود بن أحمد بن الصدر الشهيد النجاري برهان الدين مازه) ٨/ ٤٠٨، وانظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣١٥).

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣١٥).

وسرد وجوه الاعتذار عن ذلك. الرابع: كون راوي الحديث غير فقيه، وهذا مذهب عيسى بن أبان، وتابعه كثير من المتأخرين، وردُّوا بذلك حديث أبي هريرة في المصراة، وقال أبو الحسن الكرخي ومن تابعه: ليس فقه الراوي شرطًا لتقديم الخبر على القياس، بل يُقبل خبر كل عدل ضابط إذا لم يكن مخالفًا للكتاب أو السنة المشهورة ويُقدم على القياس، قال صدر الإسلام أبو اليسر وإليه مال أكثر العلماء وبسط الكلام على ذلك هو وصاحب التحقيق بما يرجع من كتابيهما.

قال صاحب التحقيق: وقد عمل أصحابنا بحديث أبي هريرة إذا أكل وشرب ناسيًا، وإن كان مخالفًا للقياس، حتى قال أبو حنيفة: لولا الرواية لقلت بالقياس، وقد ثبت عن أبي حنيفة أنه قال: ما جاء عن الرسول ﷺ فعلى العين والرأس، ولم ينقل عن أحد من السلف اشتراط فقه الراوي، فثبت أنه قول محدث.

وقال الإمام عبد العزيز في التحقيق: كان أبو هريرة فقيهًا ولم يعدم شيئًا من أسباب الاجتهاد، وقد كان يفتي زمان الصحابة، وما كان يفتي في ذلك الزمان إلا فقيه، وقال الشيخ محيي الدين القرشي صاحب (طبقات الحنفية) في آخر طبقاته: أبو هريرة رضي الله عنه من فقهاء الصحابة، وذكره ابن حزم في الفقهاء من الصحابة، وقد جمع شيخنا شيخ الإسلام تقي الدين السبكي جزءًا في فتاوى أبي هريرة سمعته منه، وأجابوا عن حديث المصراة بأشياء أخر ذكر بعضها القرشي في آخر طبقاته.

ومهما يكن من شيء فليس في رد بعض الحنفية بعض مرويات أبي هريرة كحديث المصراة ما يطعن في روايته ولا يخل بعدالته، وأعتقد أن القارئ ليس في شك من هذا بعد البيان الشافي، وليس أدل على أنهم لا يتهمونه ولا يطعنون في عدالته من أخذهم بكثير من مروياته، كما تشهد بذلك كتبهم وهو أمر معروف مسلَّم، قال الحافظ في الفتح: وقد ترك أبو حنيفة القياس الجلي لرواية أبي هريرة وأمثاله، كما في الوضوء بنبيذ التمر والقهقهة في الصلاة وغير ذلك[1].

الوجه الرابع: أبو حنيفة عمل بحديث أبي هريرة وقد خالف القياس عنده

(١) دفاع عن السنة (١٢٢: ١١٩)، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣١٦).

قال الذهبي: وعمل أبو حنيفة والشافعي وغيرهما بحديثه: " **من أكل ناسيًا، فليتم صومه** "[١]، مع أن القياس عند أبي حنيفة: أنه يفطر، فترك القياس لخبر أبي هريرة.

وقال: بل قد ترك أبو حنيفة القياس لما هو دون حديث أبي هريرة في مسألة القهقهة[٢].

قال الحافظ: وقد ترك أبو حنيفة القياس الجلي لرواية أبي هريرة وأمثاله كما في الوضوء بنبيذ التمر، ومن القهقهة في الصلاة وغير ذلك وأظن أن لهذه النكتة أورد البخاري حديث ابن مسعود، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَنِ اشْتَرَى شَاةً مُحَفَّلَةً، فَرَدَّهَا فَلْيَرُدَّ مَعَهَا صَاعًا. وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُلَقَّى الْبُيُوع[٣]. عقب حديث أبي هريرة إشارة منه إلى أن ابن مسعود قد أفتي بوفق حديث أبي هريرة فلولا أن خبر أبي هريرة في ذلك ثابت لما خالف ابن مسعود القياس الجلي في ذلك[٤].

الشبهة الرابعة عشر يقولون: إن أبا هريرة كان يضع الحديث على رسول الله ﷺ.

وكان يقول: إن رسول الله ﷺ قال: **إذا حدثتم عني بحديث يوافق الحق فخذوا به،** حدثت به أو لم أحدث. **والرد على ذلك من وجوه**

الوجه الأول: الحديث لا يصح فلا يحتج به وإليك رواياته:

١- عن أبي هريرةؓ قال: قال رسول الله ﷺ: " **من حدث عني حديثًا هو لله ﷻ رضي؛ فأنا قلته وإن لم أكن قلته** "[٥].

---

(١) البخاري (٦٦٦٩)، مسلم (١١٥٥).

(٢) **مرسل**. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٧٦١) عن معمر، عن قتادة. وأخرجه عبد الرزاق أيضًا (٣٧٦٠) عن هشام بن حسان، عن حفصة بنت سيرين. كلاهما (قتادة، حفصة)، عن أبي العالية الرياحي أن أعمى تردى في بئر، والنبي ﷺ يصلي بأصحابه، فضحك بعض من كان يصلي مع النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ" **من كان ضحك منهم أن يعيد الوضوء والصلاة** "، وأبو العالية لم يسمع من النبي ﷺ سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٢١.

(٣) البخاري (٢١٤٩).

(٤) فتح الباري ٤/ ٣٦٤.

(٥) **منكر**. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق٣٨/ ٢٠٦ من طريق هشام بن عمار، نا البختري بن عبيد الطائي، نا أبي، عن أبي هريرة، قلت: إسناده ضعيف فيه البختري بن عبيد: متروك؛ التقريب (١/ ٦٦)، وانظر الجرح والتعديل (٢/ ٤٢٧)، وأبوه (عبيد بن سلمان): مجهول؛ التقريب (١/ ٣٨٣).

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: **" إذا حدثتم عنى بحديثٍ يوافقُ الحقَّ فخذوا به حدثتُ به أو لم أحدثْ "**(١).

الوجه الثاني: أنه مخالف لما عليه أبو هريرة من التشديد في رواية الحديث.

ومما يدل على ضعف ونكارة ما قالوه، أن أبا هريرة كان يشدد في الحديث عن النبيﷺ:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: **" تَسَمَّوْا باسمي وَلاَ تَكْتَنُوا بكنيتي، وَمَنْ رآني فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ "**(٢).

الشبهة الخامسة عشر: حول مناصرة أبي هريرة للأمويين

يقولون: إن أبا هريرة كان يناصر الأمويين وكان يتحدث بفضائلهم، وأن معاوية بن أبي سفيان حمله على أن يتكلم بكلام قبيح في عليّ ﷺ تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وقال: لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة جاء إلى مسجد الكوفة؛ فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مرارًا! ! وقال: يا أهل العراق،

---

(١) منكر. أخرجه العقيلي في الضعفاء (٦٣) والهروي في ذم الكلام (٤/ ٧٨/ ٢)، و ابن حزم في الأحكام (٢/ ٧٨) من طريق أشعث بن براز، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي هريرة مرفوعًا، والدارقطني في سننه (١٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٣٩١)، والطحاوي في مشكل الآثار (٥٢٩٨) كلهم عن يحيى بن آدم: حدثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعًا، وأخرجه أحمد ٢/ ٤٨٣، والبزار في كشف الأستار (١٢٦)، عن أبي معشر عن سعيد عن أبي هريرة مرفوعا. والحديث لا يصح، أخرجه العقيلي (١/ ٣٢ ترجمة ١٤ أشعث بن براز) وقال: ليس لهذا اللفظ عن النبي ﷺ إسناد يصح، وللأشعث هذا غير حديث منكر، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق العقيلي (١/ ٤٢٠، رقم ٥٠٠) ثم قال: قال يحيى بن معين: إن هذا الحديث وضعته الزنادقة، وقال الخطابي: هو باطل لا أصل له، والذهبي في الميزان (١/ ٤٢٥، ترجمة ٩٩٦ أشعث بن براز الهجيمي) وقال: منكر جدًّا.

وهذا الحديث جاء من طرق كثيرة عن أبي هريرة، وقد تكلم عنها الألباني رحمه الله وعن شواهده في السلسلة الضعيفة رقم (١٠٨٣: ١٠٩٠) وقال رحمه الله: وجملة القول: أن هذه الأحاديث الأربعة عن أبي هريرة ليس فيها شيء يصح، وهي تدور على ثلاث طرق عنه، فالأوليان منها ليس لها إلا إسناد واحد، وفيها متهم ومتروك، والأخرى لها ثلاثة أسانيد، تدور كلها على سعيد بن أبي سعيد المقبري وهي كلها ضعيفة وبعضها أشد ضعفا من بعض كما سبق بيانه، ولهذا قال الشوكاني في (الفوائد) عقب هذه الطرق: وبالجملة، فهذا الحديث بشواهده لم تسكن إليه نفسي. . . ، وإني أظن أن ابن الجوزي قد وفق للصواب بذكره في موضوعاته.

(٢) البخاري (١١٠) مسلم (١١٠).

أتزعمون أني أكذب على الله ورسوله وأحرق نفسي بالنار؟ والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إن لكل نبي حرمًا، وإن المدينة حرمي، فمن أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**" قال: وأشهد بالله أن عليًا أحدث فيها! ! فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه، وولاه إمارة المدينة.

وعن عمر بن عبد الغفار: أن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية كان يجلس بالعشيات بباب كندة، ويجلس الناس إليه فجاءه شاب من الكوفة - لعله الأصبغ بن نباته - فجلس إليه فقال: يا أبا هريرة أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: "**اللهم وال من والاه وعاد من عاداه؟** " قال: اللهم نعم. قال: فأشهد بالله لقد واليت عدوه، وعاديت وليه، ثم قام عنه وانصرف.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أبو هريرة لم يتشيع للأمويين؛ بل كان يرد عليهم.

إن أهل العلم جميعًا يعلمون أن أبا هريرة ﷺ كان محبًا لأهل البيت، ولم يناصبهم العداء قط، ومشهور عنه أنه تمسك بسنة رسول الله ﷺ، فكان يحب من أحبه رسول الله ﷺ، وأبو هريرة هو الذي كشف عن بطن الحسن بن علي ﷺ وقال: أرني أقبل منك حيث رأيت رسول الله ﷺ يقبّل، وقبّل سرته، ومن العجيب أن يدعي إنسان نهل عن العلم بعضه أن أبا هريرة يكره عليًا وأهله، وبعد أن يسمع ما دار بين مروان بن الحكم وأبي هريرة، حين أراد المسلمون دفن الحسن مع النبي ﷺ فكان مما قاله: والله ما أنت بوال، وإن الوالي لغيرك فدعه، ولكنك تدخل فيما لا يعنيك، إنما تريد بهذا إرضاء من هو غائب عنك. يعني معاوية. . ! !. ونرى أبا هريرة ينكر على مروان بن الحكم في مواضع عدة، فهل هذا الإنكار أيضًا من باب المؤامرات التي يدبرها مروان وأبو هريرة لمخادعة العامة - كما يزعمون؟!. لقد أنكر عليه عندما رأى في داره تصاوير فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله ﷻ: " **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً** "[1].

---

(١) مسلم (٢١١١).

فهل هذا موقف المتشيع لبني أمية، النازل على رغباتهم في الحديث، الداعي لهم! ! أم أن هذا موقف ملتزم الحق؟ [(١)].

الوجه الثاني: أبو هريرة يروي فضائل آل البيت.

كان أبو هريرة محبًا لآل البيت، مجلًا لهم، عارفًا بفضلهم، مقدرًا لقربهم من رسول الله ﷺ، واعيًا لوصاياه ﷺ بهم، راويًا لكثير مما روي في فضلهم ومناقبهم، وحب النبي ﷺ لهم، وإليك بعض ما روي عنه من مناقبهم رضي الله عنهم:

أولًا ـ ما روي عنه في مناقب علي ﵁:

١ - عَنْ سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: " **لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ** ". قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَا أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ - قَالَ - فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ أُدْعَى لَهَا - قَالَ - فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَقَالَ: " **امْشِ وَلاَ تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ الله عَلَيْكَ** ". قَالَ فَسَارَ عَلِيٌّ شَيْئًا ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ فَصَرَخَ يَا رَسُولَ الله عَلَى مَاذَا أُقَاتِلُ النَّاسَ قَالَ: " **قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله** "[(٢)].

٢ - عَنِ الْمُحَرَّرِ بْنِ أَبِى هُرَيْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: جِئْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِبَرَاءَةَ قَالَ: مَا كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟. قَالَ: كُنَّا نُنَادِى إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، ومَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ عَهْدٌ فَأَجَلُهُ أَوْ أَمَدُهُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا مَضَتِ الأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنَّ الله بريء مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، وَلاَ يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ. فَكُنْتُ أُنَادِى حَتَّى صَحِلَ صَوْتِي[(٣)].

ثانيًا ـ ما روي عنه في مناقب جعفر بن أبي طالب ﵁.

---

(١) أبو هريرة راوية الإسلام (٢٣٢: ٢٣١).

(٢) مسلم (٢٤٠٥).

(٣) مسند أحمد (٧٩٦٤)، النسائي ٥/ ٣٣٤، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢٧٦٩).

قال أبو هريرة: وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ لِلْمِسْكِينِ جعْفَرُ بْنُ أَبِى طَالِبٍ، كَانَ يَنْقَلِبُ بِنَا فَيُطْعِمُنَا مَا كَانَ في بَيْتِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيُخْرِجُ إِلَيْنَا الْعُكَّةَ التي لَيْسَ فِيهَا شيء، فَنَشُقُّهَا فَنَلْعَقُ مَا فِيهَا[1].

ثالثا- ما روي عنه في مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في سُوقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ فَانْصَرَفَ فَانْصَرَفْتُ، فقَالَ: " **أَيْنَ لُكَعُ - ثَلاَثًا - ادْعُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ** ". فَقَامَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَمْشِى وَفِى عُنُقِهِ السِّخَابُ، فَقَالَ النبي ﷺ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَقَالَ الْحَسَنُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَالْتَزَمَهُ فَقَالَ: " **اللهمَّ إني أُحِبُّهُ، فَأَحِبَّهُ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ** ". قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بَعْدَ مَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ[2].

ونكتفي بما ذكرناه مما رواه أبو هريرة من مناقبهم، عن باقي ما رواه أبو هريرة من مناقب آل البيت رضي الله عنهم، لدلالة ما أوردناه من مناقبهم على علاقة أبي هريرة الحميمة بهم، وحبه لهم، وحرصه على إبراز مناقبهم، وإظهار فضلهم رضوان الله عليهم، وهذا يدل على جهل كثير من المتقولين عليه بتلك العلاقة، وذلك الحب الصادق لهم. هذا ولم يثبت عن أحد من آل البيت الكرام ما يفيد الطعن بأبي هريرة، أو النيل منه، وإنما ثبت أن بعضهم قد روى عنه، وأن كثيرًا من ثقات أصحابهم والرواة عنهم، قد رووا عنه أيضًا بعلمهم ودون معارضة من أحد منهم، مما يدل على رضائهم عنه، وقبولهم لرواياته[3].

الوجه الثالث: هذه الأخبار مردودة على صاحبها.

قال محمد عجاج الخطيب: هذه أخبار مختلفة استشهدوا بها ليدعموا زعمهم أن أبا هريرة كان عميلًا للأمويين، وضاعًا للحديث، إلا أن هذه الأخبار مردودة سندًا ومتنًا.

أولًا: أما من حيث السند: فإن ابن أبي الحديد صاحب شرح نهج البلاغة، نقل هذه الأخبار عن شيخه محمد بن عبد الله أبو جعفر الإسكافي وهو من أئمة المعتزلة المتشيعين.

(١) البخاري (٣٧٠٨).

(٢) البخاري (٥٨٨٤)، مسلم (٢٤٢١).

(٣) أبو هريرة للضاري ١/ ٣٢.

والعداء مستحكم بين المعتزلة وأهل الحديث من أواخر القرن الأول الهجري وأصبح متوارثًا، وأترك التعريف بأبي جعفر وتزكيته لتلميذه ابن أبي الحديد فيقول: ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى وكان من المتحققين بموالاة عليّ والمبالغين في تفضيله وإن كان يقول بالتفضيل عامًا شائعًا في البغداديين من أصحابنا كافة إلا أن أبا جعفر أشدهم في ذلك قولًا، أخلصهم فيه اعتقادًا.

هذه شهادة تلميذ لأستاذه لا يرقى إليه الشك، ولا يعتريها الظن والتأويل، والأستاذ من أهل الأهواء، الداعي إلى هواه، بل من المتعصبين في ذلك، بشهادة أقرب الناس إليه وأعرفهم به، فإذا سبق لأمثاله أن كذّبوا الصحابة في الحديث بل في نقل القرآن فليس بعيدًا أن يكذبوا على أبي هريرة، ويفتروا عليه وعلى بعض الصحابة والتابعين. فروايته مردودة لسببين:

الأول: ضعف الإسكافي لعاملين: الأول لأنه معتزلي يناصب العداء لأهل الحديث. والثاني، أنه شيعي محترق. فقد اجتمع هذان العاملان فيه، ويكفي أحدهما لرد روايته. وبعد هذا لا يعقل أن تقبل الجرح والتعديل أو الرواية من رجل مطعون في عدالته، مشكوك في روايته يعادي أهل السنة، فمن البداهة رفض روايته.

الثاني: لم تذكر هذه الروايات في مصدر موثوق بسند صحيح.

علمًا بأن الإسكافي لم يذكر لها سندًا فلن أقول أنها موضوعة، بل يكفي أنها ضعيفة لا يحتج بها.

ثالثًا: وأما من حيث المتن. فلم يثبت أن معاوية حمل أحدًا على الطعن في علي ﷺ، ولم يثبت عن أحد من الصحابة أنه تطوع في ذلك، أو أخذ أجرًا مقابل وضع الحديث، والصحابة جميعًا أسمى من أن ينحطوا إلى هذا الحضيض، ومعاذ الله أن يفعل هذا إنسان صاحب رسول الله ﷺ وسمع زجره عن الكذب، وإن جميع ما جاءنا من هذه الأخبار الباطلة، إنها كان عن طريق أهل الأهواء المتعصبين لأهوائهم، فتجرأوا على الحق، ولم يقيموا للصحبة حرمتها، فتكلموا في خيار الصحابة واتهموا بعضهم بالضلال والفسق، وقذفوا بعضهم بالكفر، وافتروا على أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم، وقد كشف أهل الحديث عن هؤلاء الكذبة، لذلك ناصبت أكثر

الفرق العداء لأصحاب الحديث، فاخترعوا الأباطيل وأرادوا أن تفقد الأمة الثقة بهم، ولكن الله أبى إلاّ أن يكشف أمر هذه الفرق، ويميط اللثام عن وجوه المتسترين وراءها، فكان أصحاب الحديث هم جنود الله بينوا حقيقة هؤلاء، وأظهروا نواياهم وميولهم، فما من حديث، أو خبر يطعن في صحابي، أو يشكك في عقيدة، أو يخالف مبادئ الدين الحنيف إلا بين جهابذة هذا الفن يد صانعه، وكشفوا عن علته[1].

الوجه الرابع: الأحاديث صحيحة بغير هذه الزيادات.

أما عن الخبر الأول: وهو قدوم أبي هريرة ﷺ العراق، وقال: (أشهد بالله أن عليًا أحدث فيها) فإنه من رواية الإسكافي، وقد عرفناه منزلة وأخباره، فلا نعلمه ولا نكاد نصدقه، وكيف يصح هذا في العقول وعلي ﷺ كان بالعراق، ومعاويةﷺ كان بالشام، وأبو هريرة كان بالحجاز، إذ الثابت أنه بعد أن تولى إمارة البحرين في عهد عمرﷺ لم يفارق الحجاز.

قال ابن عبد البر: إنه لما عاد من البحرين في عهد عمرﷺ ورغب إليه عمر أن يعود واليًا عليها مرة أخرى فأبى، لم يزل بالمدينة حتى مات. ولو سلّمنا - جدلًا - بصحة هذه الرواية؛ فإن أبا هريرة يدفع عن نفسه ما أشاعه بعض خصوم الأمويين، ثم إن الحديث الذي روى عن أبي هريرة ينفي نفيًا قاطعًا صحة هذه الرواية ويبين زيفها. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: "**الْمَدِينَةُ حَرَمٌ فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدْلٌ وَلاَ صَرْفٌ**"[2] ليس فيها تلك الزيادة التي اختلقتها أيدي الواضعين في ذم الإمام عليّ، لينال أبو هريرة أجره من معاويةﷺ جميعًا[3].

وأما عن الخبر الثاني: وهو قول الشاب له: فأشهد بالله لقد واليت عدوه، وعاديت وليه، ثم قام عنه وانصرف. **والجواب عليه**: **أولًا**: حديث: (من كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه) فهو حديث صحيح.

---

(١) أبو هريرة راوية الإسلام (٢٥٢: ١٤٩)، وانظر دفاع عن السنة (صـ١٦٠).
(٢) مسلم (١٣٧١).
(٣) دفاع عن السنة (صـ ١٦٠)، أبو هريرة راوية الإسلام (٢٥٤).

قال الألباني: ورد من حديث زيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص، وبريدة بن الحصيب، وعلي بن أبي طالب، وأبي أيوب الأنصاري، والبراء بن عازب، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وأبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهم، وقد ذكر الشيخ رحمه الله هذه الأحاديث بطرقها. ثم قال: وللحديث طرق أخرى كثيرة جمع طائفة كبيرة منها الهيثمي في (المجمع) وقد ذكرت وخرجت ما تيسر لي منها مما يقطع الواقف عليها بعد تحقيق الكلام على أسانيدها، بصحة الحديث يقينًا، وإلا فهي كثيرة جدًّا، و قد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، قال الحافظ ابن حجر: منها صحاح ومنها حسان. وجملة القول أن حديث الترجمة حديث صحيح بشطريه، بل الأول منه متواتر عنه ﷺ كما يظهر لمن تتبع أسانيده وطرقه، وما ذكرت منها كفاية[1].

ثانيًا: قول الشاب لأبي هريرة: (فأشهد بالله لقد واليت عدوه، وعاديت وليه، ثم قام عنه وانصرف)، ضعيف؛ بل هو منكر. فعن أبي يزيد الأودي عن أبيه قال: دخل أبو هريرة المسجد فاجتمعنا إليه فقام إليه شاب فقال: أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه؟ فقال: نعم. فقال الشاب: أنا منك برئ. أشهد أنك قد عاديت من والاه، وواليت من عاداه. قال فحصبه الناس بالحصا. [2]، ومما يدل على نكارته؛ ما تقدم في طرقه (من كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم

---

(١) السلسلة الصحيحة ٤/ ٣٤٤: ٣٣٠.

(٢) منكر. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ٣٦٩، من طريق شريك، عن أبي يزيد الأودي، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١١١١) من طريق عكرمة بن إبراهيم الأزدي قال: حدثني إدريس بن يزيد الأودي. كلاهما (أبو يزيد، إدريس) عن أبيهما، فيه يزيد بن عبد الرحمن الأودى: مقبول، التقريب ٢/ ٦٧٤. وهذا حيث يتابع وإلا فهو لين الحديث، ولم يتابع هنا، وقد اختلف عليه، فرواية أبي يزيد (داود بن يزيد بن عبد الرحمن الأودى) بزيادة قول الشاب. وأبو يزيد: ضعيف، التقريب ١/ ١٦٥، ورواية إدريس بدون الزيادة. وفيها عكرمة بن إبراهيم الأزدي: قال يحيى، وأبو داود: ليس بشيء. وقال النسائي: ضعيف. وقال العقيلي: في حديثه اضطراب. وقال ابن حبان: كان ممن يقلب الأخبار، ويرفع المراسيل، لا يجوز الاحتجاج به. وقال يعقوب بن سفيان: منكر الحديث. وقال البزار: لين الحديث. وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي. وذكره ابن يونس في الغرباء فقال: قدم مصر ثم ولي قضاء الري. وذكره ابن الجارود، وابن شاهين في

وال من والاه، و عاد من عاداه) برواية الثقات له ولم تأت هذه الزيادة في طريق منه.

الشبهة السادسة عشر: حول حفظ أبي هريرة

فيقولون: إن أبا هريرة كان ينسى الأحاديث عن رسول الله ﷺ، مع أنه قال: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنِي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ. قَالَ: " **ابْسُطْ رِدَاءَكَ** " فَبَسَطْتُهُ. قَالَ فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: " **ضُمُّهُ** " فَضَمَمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ[١]. وقد اعترض عليه الصحابة في ذلك.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: وهو إجمالًا، قد يكون هذا النسيان منه رضي الله عنه قبل الدعوة النبوية لما طلب منه أن يبسط رداءه فبسطه ثم ضمه بعد أن دعا له النبي ﷺ لم ينس شيئًا قط وصار بذلك أحفظ الصحابة[٢].

الوجه الثاني: تفصيل القول حول هذه الأحاديث.

الحديث الأول: عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: " **لاَ عَدْوَى، وَلاَ صَفَرَ، وَلاَ هَامَةَ** ". فَقَالَ أعرابي: يَا رَسُولَ الله، فَمَا بَالُ الإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيُخَالِطُهَا الْبَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيُجْرِبُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " **فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ** "[٣].

وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ بَعْدُ يَقُولُ: قَالَ النبي ﷺ: " **لاَ يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ** "، وَأَنْكَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ حَدِيثَ الأَوَّلِ. قُلْنَا: أَلَمْ تُحَدِّثْ أَنَّهُ لاَ عَدْوَى؟ فَرَطَنَ بِالْحَبَشِيَّةِ. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَمَا رَأَيْتُهُ نَسِيَ حَدِيثًا غَيْرَهُ[٤].

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن قول أبي سلمة: (فَمَا رَأَيْتُهُ نَسِيَ حَدِيثًا غَيْرَهُ) بحسب ظنه.

قال ابن حجر: فأما دعوى نسيان أبي هريرة للحديث فهو بحسب ما ظن أبو سلمة،

الضعفاء. لسان الميزان ٤/ ١٨١.

(١) البخاري (١١٩)، مسلم (٢٤٩٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٢٥٣ بتصرف.

(٣) البخاري (٥٧٧٠)، مسلم (٥٣٨٧).

(٤) البخاري (٥٧٧١).

وقد بينت ذلك رواية يونس التي أشرت إليها[١].

ورواية يونس التي أشار إليها هي: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُنَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "**لاَ عَدْوَى**". فَلاَ أَدْرِي أَنَسِيَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَوْ نَسَخَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ الآخَرَ[٢].

الوجه الثاني: أبو هريرة كان يعلم بالحديثين؛ لكنه كان يسكت عن أحدهما للمصلحة.

قال ابن حجر: ويحتمل أيضًا أنهما لما كانا خبرين متغايرين عن حكمين مختلفين لا ملازمة بينهما جاز عنده أن يحدث بأحدهما ويسكت عن الآخر حسبما تدعو إليه الحاجة. قاله القرطبي في المفهم. قال: ويحتمل أن يكون خاف اعتقاد جاهل يظنهما متناقضين فسكت عن أحدهما، وكان إذا أمن ذلك حدث بهما جميعًا[٣].

الوجه الثالث: أبو هريرة لم ينفرد بالحديث.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "**لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ**. ...."[٤].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ**. . . . ."[٥]

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَلاَ غُولَ**"[٦]

الحديث الثاني: عَنْ أَبِي صَالِحٍ قَالَ، قِيلَ لِعَائِشَةَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: يَرْحَمُ الله أَبَا هُرَيْرَةَ، حَفِظَ أَوَّلَ الْحَدِيثِ، وَلَمْ يَحْفَظْ آخِرَهُ، إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَهْجُونَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: "**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا، مِنْ مُهَاجَاةِ رَسُولِ الله ﷺ**".

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: حديث أبي هريرة صحيح لا مطعن في فيه

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٢٥٣.

(٢) مسلم (٢٢٢١).

(٣) فتح الباري ١٠/ ٢٥٣.

(٤) البخاري (٥٧٥٣)، مسلم (٢٢٢٥).

(٥) البخاري (٥٧٥٦)، مسلم (٢٢٢٤).

(٦) مسلم (٢٢٢٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " **لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا** "(١).

الوجه الثاني: أبو هريرة لم ينفرد بالحديث؛ بل وافقه جماعة من الصحابة، بدون الزيادة

ورد هذا الحديث عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم: عبد الله ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وأبي سعيد الخدري، وعمر وغيرهم.

١- عن ابْنِ عُمَرَ ﷺعَنِ النبي ﷺ قَالَ: " **لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا** "(٢)

٢- عَنْ سَعْدٍ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: " **لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا** "(٣).

٣- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِالْعَرْجِ إِذْ عَرَضَ شَاعِرٌ يُنْشِدُ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " **خُذُوا الشَّيْطَانَ أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ، لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا** "(٤).

٤- عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: " **لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا** "(٥).

قال الألباني: و في الباب عن جماعة آخرين من الصحابة، خرج أحاديثهم الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، فمن شاء الاطلاع عليها فليرجع إليه(٦).

قلت: و كل هذه الأحاديث عن هؤلاء الصحابة موافقة لحديث أبي هريرة ﷺ، وذلك

---

(١) البخاري (٦١٥٥)، مسلم (٢٢٥٧).

(٢) البخاري (٦١٥٤).

(٣) مسلم (٢٢٥٨).

(٤) مسلم (٢٢٥٩).

(٥) شرح معاني الآثار ٤/ ٢٩٥، قال الألباني: وهذا سند صحيح على شرط البخاري، السلسلة الصحيحة ١/ ٥٩٤.

(٦) مجمع الزوائد (٨/ ١٢٠).

مما يدل على صدقه وحفظه[١].

الوجه الثالث: زيادة لفظة (هجيت به) أو (مِنْ مُهَاجَاةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ) باطلة؛ لا تصح رواية.

"لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا، خير له من أن يمتلىء شعرا هجيت به".

قال الألباني: باطل بزيادة **"هجيت به"**[٢].

---

(١) السلسلة الصحيحة ١/ ٥٩٤.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء (ص ٤٣٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٢٨٥/ ٢) عن النضر بن محرز، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، وقال العقيلي: النضر بن محرز لا يتابع على حديثه، ولا يعرف إلا به، وإنما يعرف هذا الحديث بالكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، ثم ساق إسناده من طريق محمد بن مروان السدي، عن الكلبي به. قلت: الكلبي هو محمد بن السائب أورده الذهبي في الضعفاء وقال: كذبه زائدة وابن معين وجماعة، ومحمد بن مروان السدي، قال الذهبي: متروك متهم.
قلت: وقد خولف في إسناده، فرواه إسماعيل بن عياش، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح قال: " قيل لعائشة: إن أبا هريرة يقول: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا، فقالت عائشة: يرحم الله أبا هريرة، حفظ أول الحديث و لم يحفظ آخره، إن المشركين كانوا يهاجون رسول الله ﷺ، فقال: **لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرًا من مهاجاة رسول الله** "، أخرجه الطحاوي فقال: حدثنا يونس قال: **حدثنا** ابن وهب قال: أخبرني إسماعيل بن عياش به. قلت: وإسماعيل بن عياش ضعيف في روايته عن غير الشاميين وهذه منه؛ فإن ابن السائب كوفي، وعليه دار الحديث، فهو آفته، ثم رأيت ابن عدي قد أخرجه في الكامل (١/ ٣٤٥) من طريق حبان بن علي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس مرفوعًا مثل حديث جابر دون قصة عائشة وأبي هريرة، وحبان بن علي هو العنزي وهو ضعيف كما في (التقريب)، وبالجملة فهذه الطرق موضوعة، وقد روى ابن عدي عن سفيان قال: قال لي الكلبي: كل شيء أحدث عن أبي صالح فهو كذب.
وأما طريق جابر، فهي واهية، فإن النضر بن محرز قال فيه ابن حبان: منكر الحديث جدًّا. لا يحتج به، ومن طريقه رواه أبو يعلى في (مسنده) لكن وقع فيه: أحمد بن محرز. وقال الحافظ في اللسان: وأحمد لم أقف له على ترجمة، فلعله من تغيير بعض الرواة، أو (النضر) لقبه، وأحمد هذا هو الذي أشار إليه الحافظ بقوله في الفتح بعدما عزاه لأبي يعلى: وفيه راو لا يعرف، وزاد عليه الهيثمي فقال في المجمع (٨/ ١٢٠): و فيه من لم أعرفهم.
قلت: وهذا يؤيد ما ذكره الحافظ من احتمال أن اسم أحمد من تغيير بعض الرواة، فإن فيمن دونه من لا يعرف أيضًا، ثم قال الحافظ: فلم تثبت هذه الزيادة. قلت- الألباني -: بل هي باطلة قطعًا. السلسلة الضعيفة والموضوعة ٣/ ٢٣٦، وانظر فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٥٦٤: ٥٦٥.

الوجه الرابع: زيادة لفظة (هجيت به) أو (مِنْ مُهَاجَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا تصح من حيث المعنى.

قَالَ أبو عُبَيْد: قَالَ بَعْضهمْ: الْمُرَاد بِهَذَا الشِّعْر شِعْر هُجِيَ بِهِ النَّبِيّ ﷺ. قَالَ أَبُو عُبَيْد وَالْعُلَمَاء كَافَّة: هَذَا تَفْسِير فَاسِد؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ الْمَذْمُوم مِنْ الْهِجَاء أَنْ يَمْتَلِئ مِنْهُ دُون قَلِيله، وَقَدْ أَجْمَع الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْكَلِمَة الْوَاحِدَة مِنْ هِجَاء النَّبِيّ ﷺ مُوجِبَة لِلْكُفْرِ. قَالُوا: بَلْ الصَّوَاب أَنَّ الْمُرَاد أَنْ يَكُون الشِّعْر غَالِبًا عَلَيْهِ، مُسْتَوْلِيًا عَلَيْهِ بِحَيْثُ يَشْغَلهُ عَنْ الْقُرْآن وَغَيْره مِنْ الْعُلُوم الشَّرْعِيَّة وَذِكْر الله تَعَالَى، وَهَذَا مَذْمُوم مِنْ أَيّ شِعْر كَانَ؛ فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقُرْآن وَالْحَدِيث وَغَيْرهمَا مِنْ الْعُلُوم الشَّرْعِيَّة هُوَ الْغَالِب عَلَيْهِ فَلَا يَضُرّ حِفْظ الْيَسِير مِنْ الشِّعْر مَعَ هَذَا؛ لِأَنَّ جَوْفه لَيْسَ مُمْتَلِئًا شِعْرًا. [1]

الحديث الثالث: عن الفضل بن حسن بن عمرو بن أمية الضمري، عن أبيه قال: تحدثت عند أبي هريرة بحديث فأنكره، فقلت: إني قد سمعته منك، قال: إن كنت سمعته مني، فهو مكتوب عندي، فأخذ بيدي إلى بيته فأرانا كتبًا كثيرة من حديث رسول الله ﷺ، فوجد ذلك الحديث فقال: قد أخبرتك أني إن كنت قد حدثتك به فهو مكتوب عندي[2].

قال الذهبي: هذا منكر لم يصح[3].

قال ابن حجر: سند هذا ضعيف، وعلى تقدير ثبوته فهو نادر[4].

ووجه النكارة: هو مخالفه لما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه: مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٨/ ١٨.

(٢) ضعيف. أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥١١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (صـ٧٤) من حديث ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن الفضل بن الحسن بن عمرو بن أمية الضمري، عن أبيه، قال: حدثت عن أبي هريرة بحديث فأنكره. . . . فيه ابن لهيعة: ضعيف خلط بعد احتراق كتبه، الكاشف ٢/ ١٢٢، التقريب ١/ ٣٠٩، وهو مدلس ذكره ابن حجر في الطبقة الخامسة طبقات المدلسين (صـ٥٨)، وقد عنعن هنا.

(٣) التلخيص بهامش المستدرك ٣/ ٥١١.

(٤) فتح الباري ١/ ٢١٥.

أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ[١].

قال ابن عبد البر: وحديثه ذاك أصح في النقل من هذا؛ لأنه أثبت إسنادا عند أهل الحديث[٢].

الشبهة السابعة عشر: اهتمامه بشبع بطنه.

اتهامهم لأبي هريرة بأنه ما صحب النبي ﷺ إلا لشبع بطنه، معولون في شبهتهم هذه من قوله: وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى مِلْءِ بطني، وأنه كان يقول: ويل لي من بطني، إن أشبعته كهظني، وإن أجعته أضعفني.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المعنى الصحيح لقوله: (كنت أصحب رسول الله ﷺ، على ملء بطني)

قال ابن حجر: قوله: (على ملء بطني) أي: مقتنعًا بالقوت؛ أي: فلم تكن له غيبة عنه[٣].

وقال أيضًا: قوله (على ملء بطني) بكسر الميم وبهمزة آخره أي: بسبب شبعي أي أن السبب الأصلي الذي اقتضى له كثرة الحديث عن رسول الله ﷺ ملازمته له ليجد ما يأكله؛ لأنه لم يكن له شيء يتجر فيه، ولا أرض يزرعها ولا يعمل فيها، فكان لا ينقطع عنه خشية أن يفوته القوت فيحصل في هذه الملازمة من سماع الأقوال ورواية الأفعال ما لا يحصل لغيره ممن لم يلازمه ملازمته[٤].

فأبو هريرة لم يتكلم عن إسلامه ولا هجرته ولا صحبته المشتركة بينه وبين غيره من الصحابة، وإنما تكلم عن مزيته وهي لزومه للنبي ﷺ دونهم، ولم يعلل هذه المزية بزيادة محبته أو زيادة رغبته في الخير أو العلم أو نحو ذلك مما يجعل له فضيلة على إخوانه، وإنما عللها على أسلوبه في التواضع بقول: (على ملء بطني) فإنه جعل المزية لهم عليه بأنهم أقوياء يسعون في معاشهم وهو مسكين، هذا والله أدب بالغ تخضع له الأعناق. [٥]وذلك لأن مراد أبي هريرة من

---

(١) البخاري (١١٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٧٤.

(٣) فتح الباري ٤/ ٢٨٩.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٣٢٣، وانظر شرح صحيح مسلم للنووى ٨/ ٢٩٢.

(٥) الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة صـ١٥٥.

ذكره لشبع بطنه فيما روي عنه من روايات هو: بيان تفرغه التام لملازمة رسول اللهﷺ، وحفظه لما سمعه منه، وأنه لم يشغله عن ذلك شاغل، حتى لقمة العيش التي قد تشغل غيره، حيث وجدها عند رسول اللهﷺ، وأنه ما قال ذلك عبثًا أو سذاجة، كما زعم البعض، وإنما أراد به الرد علي من قالوا: إن أبا هريرة قد أكثر عن رسول اللهﷺ، وهذا ما يفهم من قوله: إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول اللهﷺ، والله الموعد، إني كنت امرأ مسكينًا، أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم. . . الحديث.

الوجه الثاني: لو كان همه إشباع بطنه لكان بإمكانه البحث عنه عند أمير من أمراء اليمن، أو رئيس قبيلة من قبائلها، يعمل عنده بزراعة، أو رعي مواش، أو غير ذلك، ولوفر على نفسه عناء السفر، وترك الأهل والعشيرة والبلد، وبالهجرة من اليمن إلى الحجاز، إلى رجل لم يكن ملكًا، أو ذا سلطان أو مال يومها، ولم يكن قد تخلص من أعدائه الثلاثة المتربصين به الدوائر: المشركين في مكة وغيرها، والمنافقين في المدينة وحولها، واليهود المجاورين لها، وكانت احتمالات النصر والهزيمة كلها واردة في المقاييس البشرية والمادية، ولم تغب هذه الاحتمالات عن ذهن أبي هريرة الشاب الفطن واليماني الحكيم، وهو يحث رحاله نحو المدينة، نحو النور الذي شع فيها: ملبيًا دعوة الحق، دعوة رسول اللهﷺ، دعوة الإيمان بالله الواحد الأحد، وقد شهد بعد وصوله المدينة بيومين أو ثلاثة: غزوة خيبر مع رسول اللهﷺ. وشهد معه المشاهد بعدها، ولازمه حتى وفاته، وحفظ منه لم يحفظه كثيرون سواه، ممن تشرفوا بصحبتهﷺ، نعم يحث رحاله متوجهًا إلى طيبة وهو ينشد:

يا ليلة من طولها وعنائها   على أنها من دارة الكفر نجت[1].

الوجه الثالث: لو كان همه إشباع بطنه، لترك ملازمة النبيﷺ، وبحث عمن يشبعها له من موسري الصحابة رضي الله عنهم أو غيرهم من أهل المدينة، بعمل أو غيره إذا لم يتيسر

(١) أبو هريرة للضاري (صـ ٤٦).

له إشباعها في أكثر أيام ملازمته للنبيﷺ، إذا كان لا يحصل في بعض الأيام على أكثر من تمرة أو تمرتين، أو شربة لبن، أو ما قارب ذلك؛ فعن مجَاهِد أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَقُولُ: ، كان يقول: ألله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسمﷺ، فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: **"يا أبا هر"** قلت: لبيك يا رسول الله، قال: " **الحق** " ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنا في قدح، فقال: " **من أين هذا اللبن؟** " قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: " **أبا هر** " قلت: لبيك يا رسول الله، قال: " **الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي** " قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة، كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: **"يا أبا هر"** قلت: لبيك يا رسول الله، قال: **"خذ فأعطهم"** قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فتبسم، فقال: **"أبا هر"** قلت: لبيك يا رسول الله، قال: **"بقيت أنا وأنت"** قلت: صدقت يا رسول الله، قال: " **اقعد فاشرب** " فقعدت فشربت، فقال: " **اشرب** " فشربت، فما زال يقول: " **اشرب** " حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له

مسلكًا، قال: " فأرني " فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة[١].

وهذه الرواية مع ما دلت عليه من أمور عظيمة، كزيادة اللبن ببركة النبيﷺ، وعنايته بفقراء المسلمين، وتقديمه لهم بالشرب على نفسه، وفرحه بشبعهم، وضربه المثل الأروع في ذلك، فإنها دلت أيضًا على مدى ما كانوا يعانون من جوع وحاجة، ومنهم:

أبو هريرة المتهم بالاهتمام بشبع بطنه، بل ما كان النبي ﷺ يشبع ثلاث ليال تباعًا، فقد صح عن عائشةرضي الله عنها أنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض، وعنها قالت: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد نارًا، إنما هو التمر والماء.

وإذا كان هذا هو حال النبي ﷺ وآل بيته الكرام، فكيف حال أبي هريرة؟ وهل مثله وهو في هذه الحال يتهم بالاهتمام بإشباع بطنه؟ وماذا يفيده الاهتمام بذلك مع عدم وجود أو قلة ما يقدمه لها لتشبع؟ [٢].

الوجه الرابع: لو كان مهتمًا بشبع بطنه أو بغيره من أعراض الدنيا، لأخذ كغيره شيئًا من الغنائم التي عرضها النبي ﷺ على أصحابه.

فأين كان هم أبي هريرة متجهًا إلى إشباع بطنه أم إلى العلم والتحصيل؟ قاتل الله الهوى إذا استبد بصاحبه أعمى بصره وبصيرته عن رؤية الحق.

وقوله: إن ذكره لما عاناه من جوع وفاقة، كان حريًا بأن يقدر له، لا أن يفسر تفسيرًا ماديًا نفعيًا تافهًا، لما يدل عليه من واقعية وعدم إنكار لماضيه، أعانه على التواضع وعلى استشعار نعم الله تعالى عليه، وشكره عليها بعد أن وسع الله تعالى عليه، ورفع ذكره، وأعلى قدره بالإسلام والعلم والفضل.

وبهذا يتضح لنا بطلان هذه الشبهة، وأن أبا هريرة ما صحب النبي ﷺ لشبع بطنه، كما زعم الزاعمون، وإنما صحبه: إيمانًا به، وحبًا له، ورغبة في جمع ما جمع منه من علم وهدى

---

(١) البخاري (٦٤٥٢).

(٢) أبو هريرة للضاري (صـ٤٦).

ونور.(١)

الوجه الخامس: قولهم إن أبا هريرة كان يقول: (ويل لي من بطني...) لا يصح.

فرقد السبحي قال: كان أبو هريرة يطوف بالبيت وهو يقول: ويل لي من بطني إن أشبعته كضتي وإن أجعته أنصبني(٢).

الوجه السادس: على فرض صحته فلا عيب فيه.

قال د/مصطفى السباعي: وعلى فرض صحة الأثر عن أبي هريرة فأي شيء فيه؟ ألم يقل ما هو حق في كل بطن؟ إن البطن إذا شبع بطر الإنسان، وإذا جاع ضعف وخوى. أليس كذلك بطن أي إنسان(٣).

الوجه الخامس: وماذا عن الكتاب المقدس؟.

أولًا: العهد القديم: إبطال نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى عليه السلام: يزعم اليهود والنصارى أن موسى عليه السلام كتب الأسفار الخمسة، يقول القس سويجارت في مناظرته التلفزيونية للعلامة ديدات: ونحن نعتقد أن موسى كتب ما يسمى بالأسفار الخمسة، تلك الكتب الخمسة الأولى باستثناء الترانيم القليلة، وسفر التثنية، وربما يكون قد كتب هذا أيضًا، لأننا نعلم أن للرب من القدرة، بحيث يوحي إلى موسى بالضبط الكيفية التي يموت بها، ويوحي إليه بدقة الهيئة التي تكون عليها جنازته، وهذا ليس بمعضل على الرب.

ومما يؤكد أن التوراة التي كتبها موسى ليست الأسفار الخمسة: مخالفة يشوع وصي موسى لما جاء فيها، ولو كان يعرفها أو يعتقد صدقها لما خالفها، فإما أن يقال بأن سفر يشوع مزور، أو لا تصح نسبة الأسفار الخمسة إلى موسى. كما أن التوراة ذكرت أحداثًا حصلت بعد وفاة موسى في سيناء، مما دل على أنها كتبت بعده، ومنها:

١- تقول التوراة: وَأَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى جَاءُوا إِلَى أَرْضٍ عَامِرَةٍ.

---

(١) أبو هريرة للضاري (صـ ٤٦).

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد في الزهد (صـ ١٧٨) من حديث أبي عبيدة الحداد أنبأنا عثمان الشحام أبو سلمة، أنبأنا فرقد السبخي به. فيه فرقد السبخي: ضعفوه، الكاشف ٢/ ٣٧٩، وانظر تهذيب الكمال ٢٣/ ١٧٠: ١٦٤.

(٣) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٣٦).

أَكَلُوا الْمَنَّ حَتَّى جَاءُوا إِلَى طَرَفِ أَرْضِ كَنْعَانَ. (خروج ١٦/ ٣٥)، فكاتب السفر أدرك انقطاع المنّ عن بني إسرائيل، وعرف أن مدة أكلهم للمنّ كانت أربعين سنة، وهو أمر لم يدركه موسى ﷺ، فقد انقطع المنّ زمن يشوع وبعد وفاة موسى بزمن ليس بقليل، ففي سفر يشوع: فَحَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْجِلْجَالِ. . . فِي عَرَبَاتِ أَرِيحَا. وَأَكَلُوا مِنْ غَلَّةِ الأَرْضِ. . وَانْقَطَعَ الْمَنُّ فِي الْغَدِ عِنْدَ أَكْلِهِمْ مِنْ غَلَّةِ الأَرْضِ (يشوع ٥/ ١٠ – ١٢). فكيف يتحدث موسى عن أمر حدث بعد وفاته، وذلك حين دخلوا الأرض المقدسة مع النبي يشوع، ومن المهم التنبيه إلى أن الخبر عن الماضي، وليس إخبارًا بالغيب والمستقبل، لذا لا يمكننا أن نعتبره نبوءة من موسى ﷺ. [1] لكن الطامة الكبرى أن يذكر خبر وفاة موسى عليه السلام وندب نبي إسرائيل له، وذلك في أسفار تنسب إلى موسى، فقد جاء في سفر التثنية: فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ. وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ، وَلَمْ تَكِلَّ عَيْنُهُ وَلاَ ذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ. فَبَكَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى فِي عَرَبَاتِ مُوآبَ ثَلاَثِينَ يَوْمًا. فَكَمُلَتْ أَيَّامُ بُكَاءِ مَنَاحَةِ مُوسَى.

وتذكر الأسفار الخمسة أسماء كثيرة لمسميات لم يعرفها بنو إسرائيل إلا بعد موسى، ولم تسم بهذه الأسماء إلا بعد قرون من وفاة موسى، فكيف ذكرتها توراة موسى إذًا؟.

ويعترف أيضًا في القرن التاسع عشر القس نورتن بعدم صحة نسبة الأسفار إلى موسى فيقول: التوراة جعلية يقينًا، ليست من تصنيف موسى. [2]

وفي دائرة معارف القرن التاسع عشر: العلم العصري، ولاسيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة، والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى ﷺ، وإنما هي من عمل أحبار لم يذكروا أسماءهم عليها، وألفوها على التعاقب

(١) الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (٧٧).

(٢) في مقارنة الأديان، محمد عبد الله الشرقاوي (٧١– ٧٥)، الغفران بين الإسلام والمسيحية، إبراهيم خليل أحمد (٤٤ – ٤٦).

معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل، ويقول نولدكة في كتابه (اللغات السامية): جمعت التوراة بعد موسى بتسعمائة سنة، واستغرق تأليفها وجمعها زمنًا متطاولًا تعرضت حياله للزيادة والنقص، وإنه من العسير أن نجد كلمة متكاملة في التوراة مما جاء به موسى. (١)

ثانيًا: العهد الجديد:

من هو الكاتب الحقيقي لإنجيل متى؟ في الإجابة عن السؤال نقول: نتائج الدراسات الغربية التي أكدت أن هذا الإنجيل قد كتبه غير متى التلميذ، ونسبه إليه منذ القرن الثاني، ولربما يكون هذا الكاتب تلميذًا في مدرسة متى. ويحاول كولمان وشراح الترجمة المسكونية تحديد بعض الملامح لهذا الكاتب، فالكاتب - كما يظهر في إنجيله - مسيحي يهودي يربط بين التوراة وحياة المسيح، وهو كما يصفه كولمان: يقطع الحبال التي تربطه باليهودية مع حرصه على الاستمرار في خط العهد القديم، فهو كاتب يهودي يحترم الناموس، ويعتبر بذلك من البعيدين عن مدرسة بولس الذي لا يحترم الناموس، بينما يقول هذا الكاتب: فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. (متى ٥/ ١٩). (٢) ومما يؤكد براءة متى من كتابة هذا الإنجيل أن كثيرًا من الشراح والمحققين يرون - كما سبق بيانه - أن الإنجيل كتب بعد سنة ٧٠ م، وهي السنة التي مات فيها متى.

ولو تساءلنا أين الإنجيل الذي كتبه متى كما جاء في شهادة بابياس في القرن الثاني الميلادي؟

وفي الإجابة عن السؤال نقول: ذكر بابياس أن متى كتب وجمع أقوال المسيح، وما نراه في الإنجيل اليوم هو قصة كاملة عن المسيح، وليس جمعًا لأقواله، كما أن عدم صحة نسبة هذا الإنجيل إليه لا تمنع من وجود إنجيل آخر قد كتبه، ولعل من المهم أن نذكر بأن في الأناجيل التي رفضتها الكنيسة إنجيلًا يسمى إنجيل متى، فلعل بابياس عناه بقوله.

---

(١) الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، يحيى ربيع (١٠٠)، الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد (٩٧- ٩٨).

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي (٨ - ١٢).

وهكذا رأى المحققون أن ثمة أمورًا تمنع القول بأن هذا الإنجيل هو كلمة الله ووحيه وهديه، فهو - وكما يقول الشيخ أبو زهرة - إنجيل مجهول الكاتب، ومختلف في تاريخ كتابته، ولغة الكتابة، ومكانها، وتحديد من كتب له هذا الإنجيل، ثم شخصية المترجم وحاله من صلاح أو غيره وعلم بالدين، واللغتين التي ترجم عنها، والتي ترجم إليها، كل هذا يؤدي إلى فقد حلقات في البحث العلمي. (١)

متى كتب إنجيل متى؟ ونجد أيضًا الخلاف في هذا الأمر واسعًا بين علماء الكتاب المقدس، ولم يستطع واحد منهم تحديد الوقت الذي كتب فيه هذا الإنجيل بالضبط، فالخلاف يمتد من سنة ٣٩ وحتى سنة ٦٥ م، ولا نعرف في أي السنوات من هذه إلى تلك كتب إنجيل متى. (٢)

متى كتب إنجيل مرقس؟ نجد أن المؤرخين المسيحيين قد اختلفوا أيضا في زمان تأليفه، وقد قال في ذلك هورن: ألف الإنجيل الثاني سنة ٥٦ وما بعدها إلى سنة ٦٥، والأغلب أنه لأف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣. (٣) ويرى الناقد اليهودي سبينوزا أن هذا الإنجيل كتب مرتين إحداهما قبل عام ١٨٠م والثانية بعده.

متى كتب إنجيل لوقا؟ وأما كتابة هذا الإنجيل فتختلف المصادر في تحديد زمنها بين ٥٣ - ٨٠ م، وقال هورن: ألف الإنجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤، وقد اعتمد الكاتب في مصادره على مرقس، فنقل عنه ثلاثمائة وخمسين من فقراته التي بلغت ستمائة وإحدى وستين فقرة، كما نقل عن متى أو عن مصدر آخر مشترك بينه وبين متى. (٤)

متى كتب إنجيل يوحنا؟ ويرى المحققون أن كتابته جرت بين ٦٨ - ٩٨م، وقيل

---

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص (٥٤).

(٢) الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٣٠ - ١٣٣)، محاضرات في النصرانية (٤٨ - ٤٩).

(٣) محاضرات في النصرانية (٥٢).

(٤) المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب (٦٤ - ٦٥، ١٥٠)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي (٨٧ - ٩٠)، محاضرات في النصرانية (٥٤).

بعد ذلك؛ إذن فليس هناك تاريخ محرر لتدوين هذا الإنجيل.[(١)]

ثالثا: رسائل بولس. وتنسب هذه الرسائل إلى القديس بولس، وتمتلئ بعبارات تدل على أنه كاتبها، وهذه الرسائل أربع عشرة رسالة. وتصطبغ الرسائل أيضًا بالصبغة الشخصية لبولس، فهي ليست لاهوتية الطابع، بل رسائل شخصية لها ديباجة وخاتمة. وليس ثمة إجماع على صحة نسبة هذه الرسائل إلى بولس، بل إن بعض المحققين يميل إلى أن أربع رسائل منسوبة إليه كتبت بيد بعض تلاميذه بعد وفاته بعشرين سنة كما ذكرت دائرة المعارف البريطانية. ويشكك أرجن في شرحه لإنجيل يوحنا بجميع رسائل بولس المرسلة إلى الكنائس فيقول: إن بولس ما كتب شيئًا إلى جميع الكنائس، والذي كتبه هو سطران أو أربعة سطور. أما الرسالة إلى العبرانيين خصوصًا فكان النزاع حولها أشد، فحين تنسبها الكنيسة الشرقية إلى بولس؛ فإن لوثر يقول بأنها من وضع أبلوس، بينما يقول تارتوليان المؤرخ في القرن الميلادي الثاني: إنها من وضع برنابا، ويقول راجوس (من علماء البروتستانت): إن فريقًا من علماء البروتستانت يعتقدون كذب الرسالة العبرانية. . . .[(٢)] أما مدخل الرهبانية اليسوعية فيقول: لا شك أن الأدلة التي تنقض صحة نسبة الرسالة إلى بولس هي كثيرة. . فللمرء أن يعتقد أن الرسالة من إنشاء واحد من أصحاب بولس، أما الاهتداء إلى اسم الكاتب على نحو أفضل فلا سبيل إلى طلبه. . فلابد آخر الأمر من التسليم بأننا نجهل اسم الكاتب. فتبين من خلال هذه الأدلة أن الكتاب المقدس (العهد القديم، والعهد الجديد) لا يثبت له صحة سند، ولا تاريخ كتابة ولا يُعرف كاتبه[(٣)].

*　*　*

(١) المصدر السابق (٥٨)، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف (١٦٠).

(٢) إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ١٦٣ - ١٦٥)، الفارق بين المخلوق والخالق لعبد الرحمن باجي (٣٠٦)، اليهودية والمسيحية لمحمد ضياء الدين الأعظمي (٣٢٥ - ٣٢٧).

(٣) راجع في ذلك بحث (تحريف الكتاب المقدس) من الموسوعة.

٥ـ شبهات حول موقف الصحابة من مقتل عثمان ﷺ.

نص الشبهة: لقد ألقى بعض الجهلاء شبهة على الإسلام صور فيها الصحابة ﷺبصورة قوم يتحاربون من أجل السلطة، ولذلك قتلوا عثمان ﷺ، ثم خرجوا على الخليفة من بعده يطلبون بدم عثمان مع أنه قتل بأيديهم، وعلى رأس المتهمين في هذا الحادث عائشة، وعلي، وطلحة، والزبير بن العوام، ومن كان معهم، وإذا كان الحال كذلك فهل يسوق لنا هذا المجتمع على أنه جماعة من القديسين؟

والرد على هذا الإفك يدور في فصلين:

الأول: فتنة مقتل عثمان وموقف الصحابة منها وبالأخص ما نُص على تسميته كعائشة ـ رضي الله عنها ـ، وهل شارك في قتل عثمان أحد من الصحابة؟

الثاني: الحروب بين علي ﷺ ومخالفيه، وما غرضهم من هذه الحروب؟ ومن المحرك لهذه الفتنة؟ مع بيان الحقيقة في موقف عائشةﷺومن معها، وعلي ﷺومن معه، وهل كانت القضية فعلًا هي المحاربة من أجل الوصول إلى الحكم؟

وأخيرًا: نص فتنة مقتل المسيح -كما يزعمون- في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

أولًا: مقتل عثمان: حيث زعم صاحب الشبهة أن الصحابة قتلوا عثمان وعلى رأسهم عائشة، وعلي، وطلحة، وكان لكل منهم غرض في ذلك، ومجتمع أفراده كهؤلاء لا ينبغي أن يدلس علينا في تسويقه، وهذا زعم باطل.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أسباب الفتنة في مقتل عثمان ﷺ.

الوجه الثاني: المآخذ التي أخذوها على عثمان ﷺ، فسوغوا لأنفسهم الخروج عليه بها.

الوجه الثالث: أن الأحاديث الصحيحة التي تبين مواقف الصحابة في هذه الفتنة ترده وتكذبه، وينبغي أن يكون التعويل على ما صح من النقل لاسيما في هذه الأمور الكبيرة.

وهذا في ثلاثة عناصر:

أولًا: الأحاديث الصحيحة في موقف عائشة ﷺ.

ثانيًا: الأحاديث الصحيحة في موقف علي رضي الله عنه.

ثالثًا: الأحاديث الصحيحة في موقف سائر الصحابة رضي الله عنهم.

الوجه الرابع: أن الروايات التي تُدين الصحابة في هذه القضية تدور بين الكذب، وأفراد عائلته، وأبناء عمومته، فلا يجوز قبولها لا في هذا الأمر ولا في غيره، وهذا كسابقه في تفصيل عناصره.

الوجه الخامس: أن ما صح عن هؤلاء أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه يدل على خلاف هذا.

الوجه السادس: أن قتل عثمان أمرٌ قدره الله، وأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من الأدلة على صدق نبوته.

وبيان ذلك مفصلًا كما يلي:

الوجه الأول: أسباب الفتنة في قتل عثمان رضي الله عنه:

أولًا: أثر السبئية في أحداث الفتنة (عبد الله بن سبأ): في كتب التاريخ الإسلامي- المصادر القديمة- روايات مختلفة من نشاط سري لأفراد وجماعات من الموالي أظهروا الإسلام وأخفوا معتقداتهم القديمة بغية تحطيم الدولة الإسلامية من داخلها، وإثارة الفتنة والفرقة بين المسلمين وذلك ببث العقائد الفاسدة، ونشر الإشاعات بدوافع نفسية أو عرفية، بعدما عجزت تلك الفئات عن مجابهة المسلمين في العلن، وكان اليهود في مقدمة هؤلاء نظرًا لحقدهم المكين على المسلمين والإسلام، وقد لعب عبد الله بن سبأ الدور الفعال في إشعال هذه الفتنة، والذي تنتمي إليه هذه الفرقة السبئية في تحريك الفتنة، وفي تهييجها، وهو يهودي من صنعاء أظهر إسلامه في زمن عثمان بن عفان وأشتهر أكثر من غيره لأنه أسلم متأخرًا وظهر له نشاط ملحوظ في الشام والعراق ومصر خاصة، كما ظهر مع الخوارج والناقمين برسم خطط ويدلي بآراء هدامة، وخلاصة ما جاء به أن أتى بمقدمات صادقة وبني عليها مبادئ فاسدة راحت لدى السذج والغلاة وأصحاب الأهواء من الناس وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبس فيها على من حوله حتى اجتمعوا عليه فطرق باب القرآن يتأوله على زعمه الفاسد، حتى ادعى رجعة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما ادعى طريقة القياس الفاسد في ادعاء إثبات الوصية بعلي رضي الله عنه، ولما استقر الأمر في قلوب أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم وهو خروج الناس على عثمان رضي الله عنه بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي بظاهره

الرحمة وباطنه العذاب، وقام بزعمه على أن يعطي الحق لعلي رضي الله عنه، ويأخذه من عثمان، وقد ركز عبد الله بن سبأ في حملته هذه على الأعراب الذين وجد منهم مادة ملائمة لتنفيذ خطته، أخذ يروج أسبابًا للخروج على عثمان(١).

وقد استقر عبد الله بن سبأ في مصر وأخذ ينظم حملته ضد عثمان رضي الله عنه وحث الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وقد اعتبر الإمام الذهبي عبد الله بن سبأ هو المهيج للفتنة بمصر وباذر بذور الشقاق والنقمة على الولاة ثم على الإمام عثمان رضي الله عنه.

ويروي ابن كثير أن من أسباب تألب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ وذهابه إلى مصر، وإذاعته بين الناس كلامًا اخترعه من عند نفسه، وعند المقريزي أن ابن سبأ هو (المثير للفتنة المنتهية بقتل عثمان رضي الله عنه) وبهذا يظهر أن ابن سبأ هو السبب الرئيسي في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه.(٢)

ثانيًا: أثر الأعراب في إحداث الفتنة: فقد انضم إلى عبد الله سبأ (السبئية) عنصر الأعراب الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وهم من قبائل مختلفة وهم أصناف:

١-صنف حَسُن إسلامه، وكان مُؤلفًا لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٩٩).

٢-وصنف آخر دخلوا في الإسلام خوفًا ونفاقًا وطمعًا في الغنائم، ويندرج هؤلاء تحت قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

٣-أما الصنف الثالث فقد تعبد عبادة شديدة، وترك الدنيا كل الترك وتمسك

---

(١) هذه الأسباب سيأتي ذكرها والرد عليها.

(٢) تحقيق موقف الصحابة في الفتنة (١/ ٣٣٩: ٣٢٥) ملخصًا، ويراجع تاريخ الطبري (٣/ ٦٤٧) وما بعدها وفتنة مقتل عثمان للغبان (١٢٧/ ١) ومابعدها.

بالإسلام تمسكًا تلازمه الشدة والتعصب للرأي، والغلو في الدين وتأويل النصوص تأويلًا يناسب مزاجهم، لا يفهمون من الأمور إلا ظواهرها، وهؤلاء هم الفرار سلف الخوارج، ولقد استخدم عبد الله كلًا من الصنفين الأخيرين فخرجوا معه بدون علم، وبهذه المظاهر التي تظاهر بها عبد الله ابن سبأ(١).

ثالثًا: طبيعة التحول الاجتماعي في عهد عثمان رضي الله عنه.

لقد شهدت خلافة عثمان رضي الله عنه تطورات خطيرة في حياة الدولة الإسلامية فقد حكم عثمان الدولة الإسلامية بعد أن تحولت من دولة محددة النطاق تقوم في المدينة المنورة، وتحكم شبة جزيرة العرب، إلى دولة عالمية يمتد سلطانها ليشمل إلى ذلك ممالك الطرق والشام ومصر وإفريقية وأرمينية وبلاد فارس، وبعضًا من جزر البحر الأبيض المتوسط، وقد ظهر نتيجة هذا التحول في طبيعة الدولة وأجناس الخاضعين لها والمنتمين إلى دينها جيل جديد من المسلمين يعتبر في مجموعة أقل من الجيل الأول الذي حمل على كتفيه عبء بناء الدولة وإقامتها، فقد تميز الجيل الأول من المسلمين بقوة الإيمان والفهم السليم لجوهر العقيدة الإسلامية والاستعداد التام لإخضاع النفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن والسنة، وكانت هذه المميزات أقل ظهورًا في الجيل الجديد الذي وجد نتيجة للفتوحات الواسعة وظهرت فيه المطامع الفردية وبعثت فيه العصبية، والأقوام وهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهلية التي كانوا عليها، ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السليمة مثل ما نال الرعيل الأول من الصحابة، فلهذا كان التحول له أثر في الفتنة حيث إنهم يميلون مع العواطف والشائعات بدون تثبيت في الأحكام(٢).

رابعًا: مجيء عثمان رضي الله عنه بعد عمر رضي الله عنه، واختلاف الطبع بينهما:

فقد كانت معاملة عثمان للرعية بخلاف معاملة عمر رضي الله عنه، فقد كان عمر رضي الله عنه قوي الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه ولمن تحت يده، وقد كان عثمان ألين طبعًا وأرق في

(١) تحقيق موقف الصحابة في الفتنة (١/ ٣٤٠) وما بعدها ملخصًا.

(٢) تحقيق موقف الصحابة في الفتنة (١/ ٣٥٥) وما بعدها ملخصًا.

المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه أو يأخذ الناس بما يأخذهم به عمر، لكن الناس وإن رغبوا في الشوط الأول من خلافته لأنه لان معهم، وكان عمر شديدًا عليهم، حتى أصبحت محبته مضرب المثل: (أحبك الرحمن حب قريش عثمان). فقد أنكروا عليه بعد ذلك[(١)].

الوجه الثاني: المآخذ التي أخذوها على عثمان ﷺ، فسوغوا لأنفسهم الخروج عليه بها[(٢)].

أولًا: عدم شهوده غزوة بدر:

والجواب عليه من هذه الوجوه

الوجه الأول: أنه تخلف عنها بأمر النبي ﷺ لتمريض رقية زوجته: فقد وافق خروج الناس لبدر أن كانت رقية ابنة النبي ﷺ وهى زوجة عثمان مريضة قعيدة الفراش، وفى أمس الحاجة إلى من يمرضها ويرعى شأنها، وخير من يصلح لذلك هو زوجها لأن الزوجة لا تكتمل حريتها عند غير زوجها لذلك أمر النبي ﷺ زوجها عثمان بن عفان ﷺ بالبقاء في المدينة بجانب زوجته ليقوم بتمريضها، وضرب له بسهمه؛ فعن ابن عمر ﷺقال: (إنما تغيب عثمان عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال له النبي ﷺ **" إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه "**[(٣)].

وبذلك يتبين أن عثمان ﷺ لم يشهد غزوة بدر، ولكنه كمن شهدها لضرب النبي ﷺ له بسهم من الغنيمة والأجر فيها.

قال أبو نعيم: "وإن طُعن عليه بتغيبه عن بدر، وعن بيعة الرضوان، قيل له: الغيبة التي يستحق بها العيب: هو أن يقصد مخالفة الرسولﷺ؛ لأن الفضل الذي حازه أهل بدر في شهود بدر؛ طاعة الرسول ﷺ ومتابعته، ولولا طاعة الرسول ومتابعته لكان كل من شهد بدرًا من الكفار كان لهم الفضل والشرف، وإنما الطاعة التي بلغت بهم الفضيلة، وهو كان ﷺ خرج فيمن خرج فردَّه الرسول ﷺ للقيام على ابنته، فكان في أجلِّ فرض؛ لطاعته

(١) تحقيق موقف الصحابة الفتنة (١/ ٣٦٣) ملخصًا.

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٦/ ٢٣٩-٢٩٩)، فتنة مقتل عثمان للغبان (١/ ٥٩-١١٢)، تحقيق موقفق الصحابة في الفتنة (١/ ٤١٣-٤٦٤).

(٣) البخاري (٣١٣٠).

لرسول الله ﷺ وتخليفه، وقد ضرب له بسهمه وأجره، فشاركهم في الغنيمة والفضل والأجر، ولطاعته الله ورسوله وانقياده لهما"(١).

الوجه الثاني: النفير لغزوة بدر لم يكن عامًا: فإن النبي ﷺ إنما خرج يريد عيرا ولم يكن يريد غزوا ولذلك لم يعنف أحدا لم يشهدها وقد تخلف عن غزوة بدر كثير من الصحابة، فعدم حضور بدر ليس بعيب في آحاد الصحابة، فكيف يكون عيبا فيمن قعد لأمر رسول الله ﷺ.

ثانيًا: توليه يوم أحد عن المعركة

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن كثيرا من الصحابة تفرقوا عن النبي ﷺ بسبب مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ ولم يبق معه إلا النفر القليل فلماذا الغضب على عثمان وحده؟

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ: « مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَو هُو رَفِيقِى فِى الْجَنَّةِ ». فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: " مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَو هُو رفيقي في الْجَنَّةِ ". فَتقدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: **" مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا "**(٢).

الوجه الثاني: أن الله عفا عن جميع المتولين يوم أحد: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٥). عن عثمان بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قومًا جلوسًا فقال من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال نعم. فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم. قال تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم

---

(١) الإمامة لأبي نعيم والرد على الرافضة (ص: ٣٠١-٣٠٢) نقلًا من فتنة مقتل عثمان للغبان.

(٢) مسلم (١٧٨٩).

يشهدها؟ قال نعم. قال الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال له رسول الله ﷺ: "**إن لك أجر رجل ممن شهد بدر وسهمه**"، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: "**هذه يد عثمان**". فضرب بها على يده فقال "**هذه لعثمان**". فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك(١).

ثالثا: تخلفه عن بيعة الرضوان.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن البيعة إنما عقدت من أجله.

وذلك أنه لما أرسل عثمان رضي الله عنه إلى أهل مكة يفاوضهم ويبين لهم هدف المسلمين من قدومهم، وأنه يريد العمرة وليس القتال فلما استبطأ النبي ﷺ عثمان رضي الله عنه، وجاء الخبر أن عثمان قُتل بايع الصحابة.

ولذا قال ابن عمر للسائل: وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلوكان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى (هذه يد عثمان). فضرب بها على يده فقال (هذه لعثمان). فقال له ابن عمر اذهب بها الآن معك(٢).

قال أبو نعيم: "وأما بيعة الرضوان فلأجل عثمان رضي الله عنه وقعت هذه المبايعة، وذلك أن النبي ﷺ بعثه رسولًا إلى أهل مكة لِمَا اختص به من السؤدد والدين، ووفور العشيرة، وأُخبِر الرسول ﷺ بقتله، فبايع رسول الله ﷺ والمسلمون له على الموت ليوافوا أهل مكة(٣).

رابعًا: حَمَى الحمى؛ والمراد بالحمى منع الرعي في أرض مخصوصة من المباحات

---

(١) البخاري (٣٦٩٨).

(٢) البخاري (٣٦٩٨)

(٣) الإمامة لأبي نعيم والرد على الرافضة صـ٣٠١-٣٠٢، نقلًا من فتنة مقتل عثمان للغبان (١/ ٦٨).

فيجعلها الإمام مخصوصة برعي بهائم الصدقة مثلًا[١].

والجواب عليه من هذه الوجوه

الوجه الأول: أن عثمان ﷺ ليس أول من حمى الحمى:

فإن عمر ﷺ قد حمى قبله، عن ابن عمر (أن عمر حمى الربذة لنعم الصدقة)[٢]؛ عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري قال: سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فقالوا: ادع بالمصحف فدعا به فقالوا: افتح السابعة. وكانوا يسمون سورة يونس السابعة فقرأ حتى أتى هذه الآية: ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس: ٥٩). فقالوا له: قف؛ أرأيت ما حميت من الحمى؟ الله أذن لك أم على الله تفتري؟ فقال: امضه نزلت في كذا وكذا فأما الحمى فإن عمر حماه قبلي لإبل الصدقة فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة امضه[٣].

الوجه الثاني: عثمان ما حماه لنفسه وإنما لإبل الصدقة:

ويظهر ذلك من قوله (فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة).

قال ابن العربي: وأما أمر الحِمَى، فكان قديمًا، فيقال أن عثمان زاد فيه لما زادت الرعية، واجتاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة؛ لزيادة الحاجة[٤].

الوجه الثالث: إن عثمان ﷺ زاد في الحمى لأن الخير زاد وزادت إبل الصدقة في عهده ﷺ.

خامسًا: جمعه القرآن الكريم.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: عثمان ليس أول من جمع القرآن وإنما جمعه أبو بكر بمشورة عمر

فعن زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: إِنَّ عُمَرَ أَتاني، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ وإني أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ وإني أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٥/ ٥٤).

(٢) صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٦)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (٥/ ٥٥).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٥).

(٤) العواصم من القواصم (صـ ٨٥).

قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يراجعني حَتَّى شَرَحَ اللهُ صدري لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الذي رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدٌ قَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لاَ نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوحي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ فَوَ اللهِ لَو كلفوني نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أمرني مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ أَبو بَكْرٍ يراجعني، حَتَّى شَرَحَ اللهُ صدري للذي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ﵄، فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ. . . . ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ ﵁[1].

الوجه الثاني: أن عثمان ما جمع القرآن برأيه وإنما الذي أشار عليه هو حذيفة:

ففي الحديث أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها أليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[2].

الوجه الثالث: الصحابة لم ينكروا عليه، وإنما أقروه على هذا.

قال علي ﵁: « يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان ولا تقولوا له إلا خيرًا [أو قولوا له خيرًا] في المصاحف وإحراق المصاحف، فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا

(١) البخاري (٤٤٠٢).

(٢) البخاري (٤٩٨٧).

جميعا، فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفرا، قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف، قلنا: فنِعم ما رأيت، قال: فقيل: أي الناس أفصح، وأي الناس أقرأ؟ قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرأهم زيد بن ثابت، فقال: ليكتب أحدهما ويمل الآخر ففعلا وجمع الناس على مصحف » قال: قال علي: والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل)[1].

وعن مصعب بن سعد قال: « أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك، وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد »[2].

قال ابن عبد البر: فلما اختلف الناس في القراءة زمن عثمان واتفق رأيه ورأي الصحابة على أن يرد القرآن إلى حرف واحد وقع اختياره على حرف زيد فأمره أن يملي المصحف على قوم من قريش جمعهم إليه فكتبوه على ما هو عليه اليوم بأيدي الناس والأخبار بذلك متواترة المعنى وإن اختلفت ألفاظها[3].

سادسًا: إتمام الصلاة في منى.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان عذر سيدنا عثمان ﷺ في إتمامه للصلاة.

فقد ذكر عثمان ﷺ عدة اعتذارات لإتمامه الصلاة في منى، ومن هذه الاعتذارات:

الأول: أنه اعتذر بأنه سمع بأن الأعراب الذين حجوا معه العام الماضي قصروا الصلاة في أوطانهم، واحتجوا بصلاته في منى، فأتم ليعلمهم أن الصلاة أربع وذلك خوفًا من أن يستنوا به، وخطب الناس وأعلمهم بأن السنة هي قصر الصلاة، وهي سنة رسول الله ﷺ،

---

(١) **صحيح**. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٧٦) من طريق (علقمة بن مرثد الحضرمي) وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (٩/ ١٨).

(٢) **صحيح**. أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (صـ١٥٦)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ١٠٠٤)، ابن أبي داود في المصاحف (٤١) من طريق (أبي إسحاق) عن مصعب بن سعد.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ١٦٠).

وسنة صاحبيه، ولكنه حدث من الناس فخاف أن يستنوا.[١]

الثاني: أنه كان يري القصر مختصًا بمن كان شاخصًا سائرًا، وأما من أقام في مكان في أثناء سفره فله حكم المقيم فيتم[٢]، والحجة ما رواه أحمد من حديث عباد بن عبد الله بن الزبير قال: لَمَّا قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاوِيَةُ حَاجًّا قَدِمْنَا مَعَهُ مَكَّةَ قَالَ فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى دَارِ النَّدْوَةِ قَالَ وَكَانَ عُثْمَانُ حِينَ أَتَمَّ الصَّلَاةَ إِذَا قَدِمَ مَكَّةَ صَلَّى بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْعِشَاءَ الْآخِرَةَ أَرْبَعًا أَرْبَعًا فَإِذَا خَرَجَ إِلَى مِنًى وَعَرَفَاتٍ قَصَرَ الصَّلَاةَ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ الْحَجِّ وَأَقَامَ بِمِنًى أَتَمَّ الصَّلَاةَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ مَكَّةَ فَلَمَّا صَلَّى بِنَا الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ نَهَضَ إِلَيْهِ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ وَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ فَقَالَا لَهُ مَا عَابَ أَحَدٌ ابْنَ عَمِّكَ بِأَقْبَحِ مَا عِبْتَهُ بِهِ فَقَالَ لَهُمَا وَمَا ذَاكَ قَالَ فَقَالَا لَهُ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ أَتَمَّ الصَّلَاةَ بِمَكَّةَ قَالَ فَقَالَ لَهُمَا وَيْحَكُمَا وَهَلْ كَانَ غَيْرُ مَا صَنَعْتُ قَدْ صَلَّيْتُهُمَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ﭬقَالَا: فَإِنَّ ابْنَ عَمِّكَ قَدْ كَانَ أَتَمَّهَا وَإِنَّ خِلَافَكَ إِيَّاهُ لَهُ عَيْبٌ قَالَ فَخَرَجَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْعَصْرِ فَصَلَّاهَا بِنَا أَرْبَعًا[٣].

الثالث: أنه قد تأهل بمنى، والمسافر إذا أقام في موضع وتزوج منه أو كان له به زوجة أتم[٤].

الرابع: أنه كان يرى هو وعائشة أن النبي ﷺ إنما قصر لأنه أخذ بالأيسر من ذلك لأمته، فأخذا لأنفسهما بالشدة[٥]. هذه هي بعض الاعتذارات التي أخذ بها أهل العلم وهناك اعتذارات أخرى[٦].

---

(١) شرح مسلم للنووي (٣/ ٢١٧)، زاد المعاد (١/ ٤٦٩)، فتح الباري (٢/ ٦٦٥).

(٢) ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٦٦٥).

(٣) **حسن**. أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٩٤)، الطبراني في الكبير (١٩/ ٧٦٥) مختصرًا من حديث ابن إسحاق قال: حدثنا ابن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن ابن عباد به. وحسن إسناده ابن حجر كما في الفتح (٢/ ٦٦٥).

(٤) زاد المعاد (١/ ٤٧٠)، فتح الباري لابن حجر (٢/ ٦٦٤). ومن الاعتذارات الأخرى:

أ- أن عثمانﭬ كان إمامًا للناس، والإمام حيث نزل فهوعمله ومحل ولايته، فكأنه وطنه.

ب- أن عثمانﭬ كان قد عزم على الإقامة والاستيطان بمنى، واتخاذها دار خلافة، فلهذا أتم، ثم بدا له أن يرجع إلى المدينة. (راجع زاد المعاد (١/ ٤٦٩: ٤٧٠).

(٥) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٦٦٥)، شرح مسلم للنووي (٢/ ٢١٦).

(٦) زاد المعاد (١/ ٤٦٩: ٤٧١)، فتح الباري (٢/ ٦٦٥: ٦٦٤)، شرح النووي (٢/ ٢١٧: ٢١٦).

الوجه الثاني: عثمان رضي الله عنه لم يكن وحده الذي أتم.

فقد أتمت السيدة عائشة رضي الله عنها، وأتم معاوية أيضًا، أما عن إتمام عائشة رضي الله عنها فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(الصَّلَاةُ أَوَّلُ مَا فُرِضَتْ رَكْعَتَيْنِ فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَأُتِمَّتْ صَلَاةُ الْحَضَرِ).

قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَقُلْتُ لِعُرْوَةَ، مَا بَالُ عَائِشَةَ تُتِمُّ، قَالَ: تَأَوَّلَتْ مَا تَأَوَّلَ عُثْمَانُ[(١)].

وأما عن إتمام معاوية فقد تقدم من حديث عباد بن عبد الله بن الزبير[(٢)].

الوجه الثالث: الصحابة أجازوا ما صنع، ولم يختلفوا عليه في الصلاة.

فعن نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ وَعُمَرُ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانُ صَدْرًا مِنْ خِلَافَتِهِ ثُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ صَلَّى بَعْدُ أَرْبَعًا فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا صَلَّى مَعَ الْإِمَامِ صَلَّى أَرْبَعًا وَإِذَا صَلَّاهَا وَحْدَهُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ[(٣)]. وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه أتم خلف عثمان، ورأى أن الخلاف عليه شر.

وعن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ قال: صَلَّى بِنَا عُثْمَانُ بِمِنًى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فَقِيلَ ذَلِكَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَاسْتَرْجَعَ ثُمَّ قَالَ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ فَلَيْتَ حَظِّي مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ رَكْعَتَانِ مُتَقَبَّلَتَانِ[(٤)].

قال النووي: وَمَعَ هَذَا فَابْن مَسْعُود رضي الله عنه مُوَافِق عَلَى جَوَاز الْإِتْمَام، وَلِهَذَا كَانَ يُصَلِّي وَرَاء عُثْمَان رضي الله عنه مُتِمًّا، وَلَو كَانَ الْقَصْر عِنْده وَاجِبًا لَمَا اِسْتَجَازَ تَرْكه وَرَاء أَحَد[(٥)].

سابعًا: ضربه لعمار بن ياسر رضي الله عنه

جوابه من جوه:

الوجه الأول: هذه القصة غير صحيحة فلا يحتج بها: فقد جاءت قصة ضرب عثمان

(١) البخاري (١٠٩٠)، مسلم (٦٨٥).

(٢) تقدم قريبًا.

(٣) مسلم (٦٩٤).

(٤) البخاري (١٠٨٤)، مسلم (٦٩٥).

(٥) شرح النووي ٥/ ٢٠٤.

لعمار بن ياسر، من حديث حصين بن عبد الرحمن قال حدثني جهم رجل من بني فهر، قال: (أنا شاهد هذا الأمر، قال: جاء سعد وعمار فأرسلوا إلى عثمان إن أتينا فإنا نريد أن نذكر لك أشياء أحدثتها أو أشياء فعلتها، قال: فأرسل إليهم أن انصرفوا اليوم فإني مشتغل وميعادكم يوم كذا وكذا حتى أشرن، قال أبو محصن: أشرن: أستعد لخصومتكم، قال: فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف، قالها أبو محصن مرتين، قال: فتناوله رسولي عثمان فضربه، قال: فلما اجتمعوا للميعاد ومن معهم قال لهم عثمان ما تنقمون مني؟ قالوا: ننقم عليك ضربك عمارًا، قال: قال عثمان: جاء سعد وعمار فأرسلت إليهما، فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف، فتناوله رسول من غير أمري، فو الله ما أمرت ولا رضيت، فهذه يدي لعمار فيصطبر، قال أبو محصن: يعني: يقتص. . .)[1].

الوجه الثاني: على فرض صحته. فيجاب عليه بالآتي:

أولًا: أن رسول عثمان تناول عمارًا بغير إذن عثمان ولا رضاه، فما ذنب عثمان في ذلك وما حيلته؟.

ثانيًا: أن عثمان ﷺ حلف وهو البر الصادق حين عوتب أنه ما أمر بتناول عمار ولا رضي بذلك، بل كرهه حين بلغه.

ثالثًا: أنه لم يقف من عمار عند هذا الحد بل أسرع إلى إرضائه بقوله (وهذه يدي لعمار فليقتص مني إن شاء)، وفي ذلك تقدير من عثمان لعمار لأنه كافأه بنفسه إذ جعل القصاص منه ولم يجعله من رسوله.

رابعًا: وعلى فرض صحة شيء مما نسب إلى عثمان من التعزير، فإن للخليفة أن يؤدب من شاء من رعيته ولا يقدح ذلك فيمن ناله أدب الخليفة، كما أن الخليفة غير متهم فيمن أدب، فهو أبعد ما يكون عن الهوى وأولى بالعلم والعدل فيمن أدبهم، إذ إنه إمام مأمور

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٦٨٩)، فيه جهم الفهري ذكره في التاريخ الكبير (٢/ ٢٥١)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢/ ٥٤٠) ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا، فحاله مجهول.

بتقويم الرعية[١].

ثامنًا: أنه ضيع حدود الله فلم يقتل عبيد الله بن عمر حين قتل الهرمزان.

والجواب عليه من وجهين:

الوجه الأول: أن الهرمزان كان ممن شارك في قتل عمر؛ وقد اعتذر عبيد الله بن عمر وقال: إن عبد الرحمن بن أبي بكر أخبره أنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة يدخلون في مكان يتشاورون، وبينهم خنجرًا له رأسان مقبضة في وسطه، وقتل عمر صبيحة تلك الليلة، فاستدعى عثمان ﷺ عبد الرحمن فسأله عن ذلك، فقال: انظروا إلى السكين فإن كانت ذات طرفين فلا أرى القوم إلا وقد اجتمعوا على قتله، فنظروا إليها فوجدوها كما وصف عبد الرحمن، فلذلك ترك عثمان ﷺ قتل عبيد الله بن عمر لرؤيته عدم وجوب القود لذلك أو لتردده فيه، فلم ير الوجوب بالشك.

قال ابن تيمية: وإذا كان الهرمزان ممن أعان على قتل عمر كان من المفسدين في الأرض المحاربين فيجب قتله لذلك ولو قدر أن المقتول معصوم الدم يحرم قتله لكن كان القاتل متأولًا يعتقد حل قتله لشبهة ظاهرة صار ذلك شبهة تدرأ القتل عن القاتل كما أن أسامة بن زيد لما قتل ذلك الرجل بعدما قال لا إله إلا الله واعتقد أن هذا القول لا يعصمه عزره النبي ﷺ بالكلام ولم يقتله لأنه كان متأولًا، لكن الذي قتله أسامة كان مباحا قبل القتل فشك في العاصم، وإذا كان عبيد الله بن عمر متأولًا يعتقد أن الهرمزان أعان على قتل أبيه وأنه يجوز له قتله صارت هذه شبهة يجوز أن يجعلها المجتهد مانعة من وجوب القصاص فإن مسائل القصاص فيها مسائل كثيرة اجتهادية[٢].

الوجه الثاني: عثمان ﷺ رأى المصلحة في عدم قتله، وبيان ذلك من وجهين:

الأول: لو أن عثمان ﷺ قتل عبيد الله بن عمر لصارت فتنة عظيمة يقال فيه قُتل أمير المؤمنين بالأمس، ويُقتل ابنه اليوم[٣].

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٤٦٢: ٤٦٠).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٨١: ٢٨٠).

(٣) فتنة مقتل عثمان للغبان (١/ ٩٦).

الثاني: قال ابن تيمية: الهرمزان لم يكن له أولياء يطلبون دمه وإنما وليه ولي الأمر ومثل هذا إذا قتله قاتل كان للإمام قتل قاتله لأنه وليه وكان له العفو عنه إلى الدية لئلا تضيع حقوق المسلمين، فإذا قدر أن عثمان ﷺعفا عنه ورأى قدر الدية أن يعطيها لآل عمر لما كان على عمر من الديْن فإنه كان عليه ثمانون ألفًا وأمر أهله أن يقضوا دينه من أموال عصبته عاقلته بني عدي وقريش فإن عاقلة الرجل هم الذين يحملون كله والدية لو طالب بها عبيد الله أو عصبة عبيد الله إذا كان قتله خطأ أو عفا عنه إلى الدية فهم الذين يؤدون دين عمر فإذا أعان بها في دين عمر كان هذا من محاسن عثمان التي يمدح بها ولا يذم وقد كانت أموال بيت المال في زمن عثمان كثيرة، وكان يعطى الناس عطاءً كثيرًا أضعاف هذا، فكيف لا يعطى هذا لآل عمر[1].

تاسعًا: قالوا إن عثمان رد الحَكَم وابنه مروان إلى المدينة بعد أن طردهما النبي ﷺ.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الأول: إن كثيرًا من أهل العلم طعن في صحة نفي النبي ﷺ للحكم، وقالوا ذهب باختياره، وليس لقصة نفيه سند يعرف.

الثاني: أنه إن كان قد طرد النبي ﷺ الحكم فلا يكون ذلك من المدينة كما قال الرافضي (ابن المطهر)، بل يكون من مكة، لأن الطلقاء لم تسكن بالمدينة في حياة النبيﷺ، ولو طرده من المدينة لكان يرسله إلى مكة، وليس أحد من الطلقاء الذين منهم الحَكَم هاجر إلى المدينة.

الثالث: أن مروان كان على عهد النبي ﷺ طفلًا صغيرًا في أول سن التمييز، إما سبع سنين أو أكثر بقليل أو أقل بقليل، فلم يكن له ذنب يطرد بسببه.

الرابع: أنه إذا كان النبي ﷺ قد عزر رجلًا بالنفي لم يلزم أن يبقى منفيًا طول الزمان فإن هذا لا يعرف في شيء من الذنوب ولم تأت الشريعة بذنب يبقى منفيًا دائمًا بل غاية النفي المقدر سنة وهو نفي الزاني والمخنث حتى يتوب من التخنيث، فإن كان تعزير الحاكم لذنب حتى يتوب منه فإذا تاب سقطت العقوبة عنه وإن كانت على ذنب ماض فهو أمر

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٨٢: ٢٨١).

اجتهادي لم يقدر فيه قدر ولم يوقت فيه وقت.

وإذا كان كذلك فالنفي كان في آخر الهجرة فلم تطل مدته في زمن أبي بكر وعمر ﵄، فلما كان عثمان طالت مدته وقد كان عثمان شفع في عبد الله بن أبي سرح إلى النبي ﷺ وكان كاتبا للوحي وارتد عن الإسلام وكان النبي ﷺ قد أهدر دمه فيمن أهدر ثم جاء به عثمان فقبل النبي ﷺ شفاعته فيه وبايعه فكيف لا يقبل شفاعته في الحكم.

وقد رووا أن عثمان سأل النبي ﷺ أن يرده فأذن له في ذلك ونحن نعلم أن ذنبه دون ذنب عبد الله بن سعيد بن أبي سرح وقصة عبد الله ثابتة معروفة بالإسناد الثابت وأما قصة الحكم فعامة من ذكرها إنما ذكرها مرسلة وقد ذكرها المؤرخون الذين يكثر الكذب فيما يروونه وقل أن يسلم لهم نقلهم من الزيادة والنقصان فلم يكن هنا نقل ثابت يوجب القدح فيمن هو دون عثمان[(١)].

عاشرًا: نفيه لأبي ذر ﵁ إلى الربذة.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الروايات التي تذكر أن عثمان هو الذي نفاه لا تصح فلا يحتج بها.

ومن هذه الروايات:

١-عن مالك بن أنس بن الحدثان قال: كنت أسمع بأبي ذر، فلم يكن أحد أحب إلي أن أراه أو ألقاه منه، فكتب معاوية إلى عثمان: إن كان لك في الشام حاجة فأخرج أبا ذر منه، فإنه قد نفل الناس عندي، فكتب إليه عثمان ﵁ يأمره بالقدوم. . . ، فأمره عثمان ﵁ أن يخرج إلى الربذة فخرج[(٢)].

٢- عن العوام بن حوشب قال: حدثني رجل من أصحاب الأجر عن شيخين من بني ثعلبة رجل وامرأته قالا: نزلنا الربذة فمر بنا شيخ أشعث أبيض الرأس واللحية

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٧١: ٢٦٥)، وانظر فتنة مقتل عثمان للغبان (١/ ١٠٤: ١٠٢)، تحقيق موقف الصحابة في الفتنة (١/ ٤٣٨: ٤٣٢).

(٢) **إسناده ضعيف**. أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (١٠٣٤) من طريق أبى عمروبن حماس، قال الحافظ: مقبول، وهذا الاصطلاح عنده يعني عند المتابعة، فإذا انفرد ضعف، والحال هنا كذلك فلم يتابع، فالإسناد ضعيف.

فقالوا: هذا من أصحاب رسول الله، ﷺ فاستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا، فبينا نحن كذلك إذ أتاه نفر من أهل العراق، حسبته قال من أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا ذر فعل ربك هذا الرجل وفعل فهل أنت ناصب لنا راية؟ فلنكمل برجال ما شئت. فقال: يا أهل الإسلام لا تعرضوا علي ذاكم ولا تذلوا السلطان فإنه من أذل السلطان فلا توبة له، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو أطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورئيت أن ذاك خير لي، ولو سيرني ما بين الأفق إلى الأفق. . . [1]

٣-عن عبد الله بن سيدان السلمي قال: تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما، ثم انصرف أبو ذر متبسمًا فقال له الناس: ما لك ولأمير المؤمنين؟ قال: سامع مطيع ولو أمرني أن آتي صنعاء أوعدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت. وأمره عثمان أن يخرج إلى الربذة[2].

الوجه الثاني: أن أبا ذر إنما خرج من نفسه ولم يخرجه عثمان.

والدليل على ذلك: حديث عبد الله بن الصامت قال: دخلت مع أبي ذر في رهط من غفار على عثمان بن عفان من الباب الذي لا يدخل عليه منه، قال: وتخوفنا عثمان عليه، قال: فانتهى إليه فسلم عليه، قال: ثم ما بدأه بشيء إلا أن قال: أحسبتني منهم يا أمير المؤمنين؟ والله ما أنا منهم ولا أدركهم، لو أمرتني أن آخذ بعرقوبي قتب[3] لأخذت بهما حتى أمرت. قال: ثم استأذنه إلى الربذة، قال فقال: نعم نأذن لك ونأمر لك بنعم من نعم الصدقة فتصيب من رسلها. . [4].

الوجه الثالث: موقفهم من مقتل عثمان رضي الله عنه

لقد ثبت بما لا يدع مجالًا للشك براءة الصحابة من دم عثمان رضي الله عنه وعلى رأسهم عائشة ـ

(١) **ضعيف**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ١٧١)، وإسناده فيه جماعة من المبهمين لم يُسموا، فالإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ١٧٢) فيه عبد الله بن سيدان مجهول، وانظر التاريخ الكبير (٥/ ١١٠)، الكامل لابن عدي (٤/ ٢٢٤)، الجرح والتعديل (٥/ ٦٨) الميزان (٢/ ٢٤٧).

٢- عرقوب: الوتر الغليظ فوق عقب الإنسان.

قتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير.

(٤) صحيح. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ١٧٥)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ١٠٣٦). من طريق سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عنه به ورجاله ثقات وروى بعضهم عن بعض.

رضي الله عنها ـ، وثبت كذلك كذب هذه الدعاوى الموجهة عليهم وذلك اعتمادًا على الروايات الصحيحة في هذه القضية، وإليك البيان بالتفصيل:

أولًا: الروايات الصحيحة في موقف عائشة ـ رضي الله عنها ـ:

حيث إن الروايات الصحيحة تُظهر أنها تألمت لمقتل عثمان ودعت على قاتليه ومنها ما يلي:

١ – عن مسروق قال: (قالت عائشة: تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه كما يُذبح الكبش، قال مسروق: فقلت: هذا عملُكِ كتبتي إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه، فقالت عائشة: لا، والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست مجلسي هذا). قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها. [1]

٢- وعن أم حجاج العوفية قالت: كنت عند عائشة ـ رضي الله عنها ـ فدخل عليها الأشتر وعثمان ﷺ محصور فقال: يا أم المؤمنين، ما تقولين في قتل هذا الرجل؟ قالت: ـ أي: أم الحجاج ـ فتكلمت امرأة بينة اللسان صَيِّنة فقالت: معاذ الله أن آمر بسفك دماء المسلمين وقتل إمامهم واستحلال حرمتهم، فقال الأشتر: كتبتن إلينا حتى إذا قامت الحرب على ساق انسللتن منها.

قال أبو وكيع: فسمعت الأعمش يزيد في هذا الحديث: أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ

---

(١) **صحيح**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٨٢)، ومن طريقه البلاذري (٢/ ٢٩٩)، وابن عساكر (٣٩/ ٤٨٧) من طريق أبي معاوية الضرير، عن الأعمش، عن خيثمة، عن مسروق به، وإسناده صحيح، والأعمش توبع أيضًا، تابعه يحيى بن آدم كما عند ابن شبة في تاريخ المدينة (١٢٢٥) وجاء عنها نحوذلك من روايات أخرى غير رواية مسروق تشهد لها؛ فروي عن عائشة بنت طلحة كما عند ابن شبة (٤/ ١٢٤٢) في تاريخ المدينة، وعن عون بن عبد الله بن عتبة أخرجها خليفة في التاريخ (١٣١)، ومن طريقه ابن عساكر (٣٩/ ٤٨٧). وعن أبي خالد الوالبي أخرجها خليفة (١٣١)، ومن طريقه ابن عساكر (٣٩/ ٤٨٦)، وعن أم الحجاج أخرجها ابن شبة (١٢٢٤)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ٢٩٨)، وعن عبد الله بن شقيق أخرجها ابن سعد في الطبقات (٣/ ٨٢)، ومن طريقه ابن عساكر (٣٩/ ٤٨٦)، وعن محمد بن سيرين، أخرجها ابن سعد (٣/ ٨٣: ٨٢)، وعن عاصم بن أبي النجود أخرجها ابن شبة (٤/ ١٢٤٣)، وعن طلق بن حشَّان أخرجها ابن شبة (١٢٤٤)، وعن موسى بن طلحة أخرجها ابن شبة (١٢٤٣)، وهذه طرق يقوي بعضها بعضًا، وصححه ابن كثير في البداية والنهاية، وانظر: فتنة مقتل عثمان لمحمد بن عبد الله الغبان (١/ ٣٨٧-٣٩٢).

حلفت بيمين ما حلف بها أحد قبلها ولا بعدها؛ قالت: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم سوداء في بيضاء حتى قعدت مقعدي هذا. (١)

٣- وعن طلق بن حُشَّان قال: (قلت لعائشة: فيم قتل أمير المؤمنين عثمان؟ قالت: قتل مظلومًا، لعن الله قتلته). (٢)

٤- وعن محمد بن الحنفية قال بلغ عليًا: أن عائشة تلعن قتلة عثمان في المربد، قال: فرفع يديه حتى بلغ بهما وجهه فقال وأنا ألعن قتلة عثمان، لعنهم الله في السهل والجبل، قال مرتين أوثلاثًا. (٣)

---

(١) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة المنورة (٤/ ١٢٢٤)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ٢٩٨) وإسناده ضعيف، فيه أم الحجاج العوفية لم أجد من ترجم لها؛ لكن يشهد لحلف عائشة الحديث السابق عن مسروق، وانظر فتنة مقتل عثمان للغبان (٤٤٣)، وأما ما أخرجه ابن عساكر من أن الناس كانوا يشتكون إليها من عثمان فكانت تقول لهم: **(ما لا تظن أنه يبلغ بهم قتله)** فهو ضعيف جدًّا، ولا يصح عنها، وها هي الرواية بذالك عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن عائشة قالت: "كان الناس يختلفون إليّ في عتب عثمان ولا أرى إلا أنها معاتبة، وأما الدم فأعوذ بالله من دمه، فو الله لوددت أني عشت في الدنيا برصاء سالخ وأني لم أذكر عثمان بكلمة قط، و أيم الله لأصبع عثمان التي يشير بها إلى الأرض خير من طلاع الأرض مثل فلان"، أخرجه ابن عساكر في (تاريخ دمشق٣٩/ ٤٨٨) وإسناده ضعيف جدًّا؛ لأن فيه عبد الوهاب بن الضحاك متروك الحديث؛ قال البخاري: عنده عجائب، وقال أبوداود: كان يضع الحديث؛ قد رأيته، وقال النسائي: ليس بثقة؛ متروك، وقال أبو جعفر العقيلي، وأبو الحسن الدارقطني، وأبو بكر البيهقي: متروك، وقال صالح بن محمد الحافظ: منكر الحديث؛ عامة حديثه كذب، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سمع منه أبي بسلمية؛ وترك حديثه والرواية عنه، وقال: كان يكذب؛ سمعت أبي يقول: سألت أبا اليمان عنه، فقال: لا يكتب عنه هذا قاص. انظر: تهذيب الكمال (١٨/ ٤٩٥)، وتقريب التهذيب (٤٢٥٧).

(٢) **حسن**. أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٣٥٨)، وفي الصغير (١/ ٩٥)، وابن شبة في تاريخ المدينة (١٢٤٤)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ٩٨)، وابن أبي الدنيا في (مجابوالدعوة٥٤)، ومن طريقهما أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٨٨)؛ كلهم من طريق حزم القطعي عن أبي الأسود بن سوادة عن طلق بن حبيب به، وهذا إسناد حسن لأن حزمًا القطعي: صدوق يهم (التقريب ١١٩٠)، والأسود بن سوادة هو مسلم بن مخراق صدوق (التقريب ٦٦٤٤) وبقية رجاله ثقات.

(٣) **صحيح**. أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٢٦١ (٧٠٦))، ونعيم في الفتن (١/ ١٧١(٤٨٨))، وسعيد بن منصور (٢/ ٣٣٦) (٢٩٤٣) كلهم من طريق أبي مالك الأشجعي عن سالم بن أبي الجعد به، وأبو مالك الأشجعي هو سعد بن طارق ثقة من الرابعة (التقريب ٢٢٤٠).

٥-وعن عائشة أنها كانت تقول ـ أي: في مقتل عثمان ـ (ليتني كنت نسيًا منسيًا، فأما الذي كان من شأن عثمان فوالله ما أحببت أن ينتهك من عثمان أمر قط إلا انتهك مني مثله حتى لو أحببت قتله قُتلت. .). (١)

٦-وهذه عائشة تروي فضائل عثمان ـ رضي الله عن الجميع ـ ومن ذلك ما يلي:

أ-عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُضْطَجِعًا في بيتي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوسَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُو عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَتحَدَّث، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُو كَذَلِكَ فَتحَدَّث، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجلَسَ رَسُولُ الله ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ. قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلاَ أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ـ فَدَخَلَ فَتحَدَّث، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ، فَقَالَ: "**أَلاَ استحي مِنْ رَجُلٍ تستحي مِنْهُ الْمَلاَئِكَةُ**". (٢)

ب- عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النبي ﷺ وَعُثْمَانَ حَدَّثَاهُ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُو مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشِهِ لاَبِسٌ مِرْطَ عَائِشَةَ فَأَذِنَ لأَبِي بَكْرٍ وَهُو كَذَلِكَ فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُو عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ، قَالَ عُثْمَانُ: ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، وَقَالَ

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في فضائل الصحابة١/ ٤٦٢ (٧٥٠)، والبخاري في خلق أفعال العباد (١/ ٦٤) من طريق ليث بن سعد: ثني عقيل بن خالد، وابن أبي الدنيا في المتمنين (١ ٩٦/ ٦١) من طريق يونس بن يزيد، والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٢٠١ (٣١٠٢)) من طريق أبي اليمان؛ ثلاثتهم عن شعيب، عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة. . وذكره، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

وهذا لفظ أحمد: عن عائشة زوج النبي ﷺ كانت تقول: يا ليتني كنت نسيًا منسيًا، فأما الذي كان من شأن عثمان فو الله ما أحببت أن ينتهك من عثمان أمر قط إلا انتهك مني مثله، حتى لو أحببت قتله قتلت، يا عبيد الله بن عدي؛ لا يغرنك أحد بعد الذي تعلم، فو الله ما احتقرت أعمال أصحاب رسول الله ﷺ حتى نجم النفر الذين طعنوا في عثمان، فقالوا قولًا لا يُحسن مثله، وقرؤوا قراءةً لا يُحسن مثلها، وصلوا صلاةً لا يُصلى مثلها، فلما تدبرت الصنيع إذن والله ما تقاربوا أعمال أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا أعجبك حسن قول امرئ فقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، ولا يستخفنك أحد. اهـ.

(٢) مسلم (٢٤٠١).

لِعَائِشَةَ: « اجمعي عَلَيْكِ ثِيَابَكِ »، فَقَضَيْتُ إِلَيْهِ حاجتي ثُمَّ انْصَرَفْتُ، فَقَالَتْ عَائِشَة: يَا رَسُولَ الله، مَا لي لَمْ أَرَكَ فَزِعْتَ لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما كَما فَزِعْتَ لِعُثْمانَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **" إِنَّ عُثْمانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ، وإني خَشِيتُ إِنْ أَذِنْتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الحَالِ أَنْ لاَ يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ "**. (١)

ج- عَنِ النُّعْمانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **" يَا عُثْمانُ، إِنْ وَلاَّكَ الله هَذَا الأَمْرَ يَوْمًا فَأَرَادَكَ المُنَافِقُونَ أَنْ تَخْلَعَ قَمِيصَكَ الذي قَمَّصَكَ الله فَلاَ تَخْلَعْهُ"**؛ يَقُولُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. قَالَ النُّعْمانُ: فَقُلْتُ لِعَائِشَةَ: مَا مَنَعَكِ أَنْ تعلمي الناس بِهَذَا؟ قَالَتْ: أُنْسِيتُهُ وَالله. (٢)

د- عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِى حَازِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ في مَرَضِهِ: **" وَدِدْتُ أَنَّ عندي بَعْضَ أصحابي"**، قُلْنَا: يَا رَسولَ الله، أَلاَ نَدْعُو لَكَ أَبَا بَكْرٍ فَسَكَتَ، قُلْنَا: أَلاَ نَدْعُو لَكَ عُمَرَ فَسَكَتَ، قُلْنَا: أَلاَ نَدْعُو لَكَ عُثْمانَ قَالَ: **" نَعَمْ "**، فَجَاءَ عُثْمانُ فَخَلاَ بِهِ، فَجَعَلَ النبي ﷺ يُكَلِّمُهُ وَوَجْهُ عُثْمانَ يَتَغَيَّرُ. قَالَ قَيْسٌ: فَحَدَّثَنِي أَبُوسَهْلَةَ مَوْلَى عُثْمانَ أَنَّ عُثْمانَ بْنَ عَفَّانَ قَالَ يَوْمَ الدَّارِ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا وَأَنَا صَائِرٌ إِلَيْهِ، وَقَالَ عَلِيٌّ فِي حَدِيثِهِ وَأَنَا صَابِرٌ عَلَيْهِ، قَالَ قَيْسٌ: فَكَانُوا يُرَوْنَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ. (٣)

هـ- عن عائشة: كان عثمان أحصنهم فرجًا وأوصلهم رحمًا.

روى أحمد من طريق عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة قال: قالوا: يا أم

---

(١) مسلم (٢٤٠٢).

(٢) ابن ماجه (١١٢) وهوحسن، وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٩٠)، وانظر: الذي بعده.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد (٦/ ٢١٤)، ومن طريقه الخلال في السنة (٤١٩)، وابن ماجه (١/ ٤٢)، وابن حبان (٦٩١٨) من طريق وكيع، عن إسماعيل، عن قيس بن أبي حازم، عن عائشة، وهذا إسناد صححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه، وله طرق أخرى منها ما أخرجه أحمد (٦/ ٥١) ومن طريقه ابن عساكر (٣٩/ ٢٨٥)، وأبويعلى، (٤٨٠٥)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ١٠٧)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ٢٥٦) من طريق يحيى بن سعيد عن إسماعيل، عن قيس، عن أبي سهلة، عن عائشة به.
وابن راهويه في مسنده (١٧٧٦، ١٨٠٧) من طريق أبي معاوية عن إسماعيل به، وأخرجه أبويعلى (٧٠٤٥) من طريق أبي معشر عن إبراهيم بن عمر بن محمد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر، عن عائشة وحفصة به، وأخرجه الخلال في السنة (٤١٨) من طريق معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الله بن قيس، عن النعمان بن بشير، عن عائشة به، وإسناده حسن؛ لأن فيه معاوية بن صالح وحديثه حسن.

المؤمنين، أخبرينا عن عثمان، قال: فاستجلسَت الناس، فحمدت الله وأثنت عليه، فقالت: يا أيها الناس، إنا نقمنا على عثمان ثلاثًا: إمرة الفتى، والحمى، وضربه السوط، ثم تركتموه حتى إذا مصتموه موص الثوب عدوتم عليه الفقر الثلاث: حرمة دمه الحرام، وحرمة البلد الحرام، لعثمانُ كان أتقاهم للرب، وأحصنهم للفرج، وأوصلهم للرحم. (١)

وبعد. . فيبدو من هذه الروايات الصحيحة سلامة موقف السيدة عائشة رضي الله عنها جهة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وكل ما ورد من روايات تخالف هذا الموقف السابق لأم المؤمنين رضي الله عنها في حادث مقتل عثمان فهو لا يصح كما سيأتي تحقيقه، إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: موقف علي رضي الله عنه من مقتل عثمان رضي الله عنه:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال علي: ما قتلت - يعني عثمان - ولا أمرت - ثلاثًا، ولكني غُلبت. (٢)

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال علي رضي الله عنه: ما قتلت، وإن كنت لِقَتْلِهِ لكارهًا. (٣)

٣- عن علي رضي الله عنه قال: والله، ما شاركت وما قتلت ولا أمرت ولا رضيت، يعني: قتل عثمان. (٤)

٤-عن سرية زيد بن أرقم قالت: جاء علي يعود زيد بن أرقم وعنده القوم، فقال للقوم: أنصتوا واسكتوا، فو الله لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أخبرتكم به، فقال له زيد: أنشدك الله، أنت قتلت عثمان، فأطرق ساعة ثم قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما قتلته

---

(١) إسناده صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٨٨)، والبلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٣٠٩)، والحربي في غريب الحديث (٢/ ٣٥٨)، وأحمد في فضائل الصحابة (٧٢٦) من طريق عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة، عن عائشة.

(٢) **صحيح**؛ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٦٨٣)، ونعيم بن حماد في الفتن (١/ ١٨٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٥١)، وأبوجعفر البختري في جزء من فوائده عن شيوخه (١٥٩)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١٢٦٠)، وطبقات ابن سعد (٣/ ٦٠) من طرق عن ابن عباس به.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٦٨٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٥٠) من طريق ابن أبي زائدة، عن مسعر به، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٦٨٤) عن عبدة بن سليمان، عن عاصم، عن أبي زرارة وأبي عبد الله قالا: سمعنا عليًا. . ، وذكره، وإسناده حسن.

ولا أمرت بقتله وما سرني. [١]

٥- عن منذر بن يعلى قال: كان يوم أرادوا قتل عثمان أرسل مروان إلى علي ألا تأتي هذا الرجل فتمنعه، فإنهم لن يبرءوا دونك، فقال علي: لنأتينهم، فأخذ ابن الحنفية بكتفيه فاحتضنه، فقال: يا أبت، أين تذهب؟ والله، ما يزيدونك إلا رهبة، فأرسل إليهم علي بعمامته ينهاهم عنه. [٢]

٦- عن محمد قال: خطب علي بالبصرة فقال: والله ما قتلته، ولا مالأت على قتله، فلما نزل قال له بعض أصحابه: أي شيء صنعت الآن يتفرق عنك أصحابك، فلما عاد إلى المنبر قال: من كان سائلًا عن دم عثمان فإن الله قتله وأنا معه، قال محمد: هذه كلمة قرشية ذات وجه. [٣]

٧- وعن قيس بن عباد قال: سمعت عليًّا ﷺ يوم الجمل يقول: اللهم، إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي وجاءوني للبيعة، فقلت: والله، إني لأستحيي من الله أن أبايع قومًا قتلوا رجلًا قال له رسول الله ﷺ: **"ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة "**، وإني لأستحيي من الله أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد، فانصرفوا، فلما دفن رجع الناس فسألوني البيعة، فقلت: اللهم إني مشفق مما أقدم عليه، ثم جاءت عزيمة فبايعت فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين، فكأنما صدع قلبي، وقلت: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى. [٤]

٩- وعن محمد بن حاطب قال: سمعت عليا يخطب يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم

---

(١) **حسن**. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٦٨٤)، الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٠)، تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٥٤) كلهم من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حصين بن عبد الرحمن الحارثي، عن سرية زيد بن أرقم به، فيه حصين بن عبد الرحمن وهو مقبول، وقد تابعه محمد بن سيرين، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٦٨٥) بلفظ"**والله ما قتلته ولا مالأت على قتله**".

(٢) **إسناده صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٦٨٤) من حديث أبي معاوية الأعمش، عن منذر بن يعلى به.

(٣) ابن أبي شيبة (٦/ ٦٨٥) من حديث أبي أسامة، عن عوف عن محمد به، وإسناده صحيح.

(٤) المستدرك (٣/ ١٠١)؛ وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم، وإسناده صحيح.

﴿مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: عثمان منهم. [(١)]

١٠- عن سالم بن أبي الجعد، أنه سمع محمد بن الحنفية يقول، سمعت أبي ورفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، وقال: اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل - ثلاثًا يرددها[(٢)].

١١- عن ابن الحنفية، عن علي رضي الله عنه قال: لو سيرني عثمان إلى صرار لسمعت وأطعت. [(٣)]

و هذا نقل عن بعض علمائنا بخصوص موقف علي من قتل عثمان، ومدى صحة اتهامه بذلك بشكل مجمل:

١-**قال ابن العربي**: ليس في أهل السنة رجل واحد يتهم عليًا بقتل عثمان، لا في زماننا ولا في زمانه، وقد مضى الكلام على ذلك في هذا الكتاب، وكل ما في الأمر وجود قتلة عثمان مع علي، وموقف علي منهم، وعذره بينه وبين الله في موقفه هذا أما معاوية وفريقه فلم يذكروا عليًا في أمر البغْي على عثمان إلا لمناسبة انضواء قتلة عثمان إليه واستعانته بهم، فقتلة عثمان هم الذين أساءوا إلى الإسلام وإلى عثمان وإلى علي أيضًا، فالله حسيبهم. ولو أن كل المسلمين كانوا كعبد الرحمن بن خالد بن الوليد في حزمه- قبل أن تستفحل الفتنة ويفلت الزمام من أيدي العقلاء- لما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه. [(٤)]

٢-**وقال محمد بن سيرين**: ما أعلم أحدًا يتهم عليًا في قتل عثمان.

٣-**وقال ابن تيمية**: من هؤلاء من يقول: إن عليًا شارك في دم عثمان فمنهم من

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٧٧١)، ابن أبي شيبة (٧/ ٤٩٢)، تفسير الطبري (١٧/ ٩٦)، وأمالي أبي إسحاق (١٠٣)، مشكل الآثار للطحاوي (٢/ ٢٧٥) من طرق عن شعبة عن أبي بشر (جعفر بن إياس) عن يوسف بن سعد عن محمد بن حاطب به.

(٢) **صحيح**. أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (١٢٦٧)، وأحمد في فضائل الصحابة (٧٣٣)، وسعيد بن منصور في السنن (٢٩٤٣)، والفتن لنعيم بن حماد (١/ ١٧١) من طرق عن نعيم بن أبي هند وأبي مالك الأشجعي، عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن علي، عن علي به وبنحوه.

(٣) **صحيح**. أخرجه الخلال من طريق أحمد عن وكيع (٤١٤)، والمروزي (١/ ٨٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٣) من طريق ابن مهدي؛ كلاهما عن سفيان، عن أبيه، عن أبي يعلى، عن محمد بن علي رضي الله عنه؛ وهو صحيح.

(٤) العواصم من القواصم (١٣٥).

يقول: إنه أمر علانيةً، ومنهم من يقول إنه أمر سرًا، ومنهم من يقول بل رضي بقتله وفرح بذلك، ومنهم من يقول غير ذلك، وهذا كله كذب على علي ﷺوافتراء عليه، فعلي ﷺ لم يشارك في دم عثمان، ولا أمر، ولا رضي، وقد روي عنه وهو الصادق البار أنه قال: والله، ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله، وروي عنه أنه سمع أصحاب معاوية يلعنون قتلة عثمان، فقال: اللهم، العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل، وروي أن أقوامًا شهدوا عليه بالزور عند أهل الشام أنه شارك في دم عثمان، وكان هذا مما دعاهم إلى ترك مبايعته لما اعتقدوا أنه ظالم وأنه من قتلة عثمان وأنه آوى قتلة عثمان لموافقته لهم على قتله، وهذا وأمثاله مما يبين شبهة الذين قاتلوه، ووجه اجتهادهم في قتاله، لكن لا يدل على أنهم كانوا مصيبين في ترك مبايعته وقتاله، وكون قتلة عثمان من رعيته لا يوجب أنه كان موافقًا لهم وقد اعتذر بعض الناس عن علي بأنه لم يكن يعرف القتلة بأعيانهم، أوبأنه كان لا يرى قتل الجماعة بالواحد، أوبأنه لم يدعِ عنده ولي الدم دعوى توجب الحكم له، ولا حاجة إلى هذه الأعذار بل لم يكن علي مع تفرق الناس عليه متمكنًا من قتل قتلة عثمان إلا بفتنة تزيد الأمر شرًا وبلاءً، ودفع أفسد الفسادين بالتزام أدناهما أولى من العكس؛ لأنهم كانوا عسكرًا وكان لهم قبائل تغضب لهم والمباشر منهم للقتل وإن كان قليلًا فكان ردؤهم أهل الشوكة، ولولا ذلك لم يتمكنوا، ولما سار طلحة والزبير إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان قام بسبب ذلك حرب قتل فيها خلق، ومما يبين ذلك أن معاوية قد أجمع الناس عليه بعد موت علي وصار أميرًا على جميع المسلمين ومع هذا فلم يقتل قتلة عثمان الذين كانوا قد بقوا. (١)

ثالثا: موقف سائر الصحابة ﷺمن مقتل عثمان ﷺ: لقد ثبتت براءة الصحابة من دم عثمان براءة الذئب من دم يوسف ﵇، وقد سئل الحسن البصري وهو شاهد عيان: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار؟ قال: كانوا أعلاجًا من أهل مصر. (٢)

ولما جاء حذيفة ﷺ خبر مقتل عثمان وكان على فراش الموت قال: اليوم نفرت القلوب

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٤/ ٤٠٦).

(٢) تاريخ خليفة (صـ ١٧٦).

بأنفارها، الحمد لله الذي سبق بي الفتن قادتها وعلوجها، وقال أيضًا: اللهم، إني لم أشهد ولم أقتل ولم أرض.[(١)]

وهذه الآثار عنهم في ذلك:

١- عن الأحنف بن قيس قال: قدمنا المدينة فجاء عثمان فقيل: هذا عثمان، فدخل عليه ملاءة له صفراء قد قنع بها رأسه، قال: ها هنا علي؟ قالوا: نعم، قال: هاهنا طلحة؟ قالوا: نعم، قال: هاهنا الزبير؟ قالوا: نعم، قال: ها هنا سعد؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من يبتاع مربد بني فلان غفر الله له: فابتعته بعشرين ألفًا أو خمسة وعشرين ألفًا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: قد ابتعته، فقال: اجعله في مسجدنا وأجره لك، قال: فقالوا: اللهم نعم، قال: فقال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من يبتاع بئر رومة غفر الله له، فابتعتها بكذا وكذا ثم أتيته فقلت: قد ابتعتها، فقال: اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك، قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ﷺ نظر في وجوه القوم فقال: من يجهز هؤلاء غفر الله له - يعني جيش العسرة؟ فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالًا ولا خطامًا، قالوا: اللهم نعم، قال: قال: اللهم اشهد ثلاثًا.[(٢)]

---

(١) تاريخ ابن عساكر (٣٩/ ٤٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٨٧)، الشريعة للآجري (١٤٠٨) النسائي في الكبرى (٤٣٩١)، مسند أحمد (١/ ٧٠)، سنن البيهقي (٦/ ١٦٧)، تاريخ المدينة (١١١٢)، النسائي (٦/ ٢٣٣)، من طرق عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمرو بن جاوان، عن الأحنف به، وفيه عمرو بن جاوان، قال الحافظ: مقبول.
وأخرجه الترمذي (٣٧٠٣)، والنسائي (٦/ ٢٣٥)، والبيهقي (٦/ ١٦٨)، والدار قطني (٤٤٩٠) من طريق يحيى بن أبي الحجاج، وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٥٦٥)، والدار قطني (٤٤٩٢) من طريق هلال بن حق، كلاهما (يحيى، هلال) عن الجُرَيري عن ثمامة بن حزن القشيري به، وأخرجه البخاري تعليقًا في كتاب الوصايا (٢٧٧٨)، الدار قطني موصولًا (٤٥٠٠) من طريق شعبة.
وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٧٥١)، النسائي (٦٤٣٦) من طريق يونس، والترمذي (٣٦٩٩)، البيهقي (٦/ ١٦٧) من طريق زيد بن أبي أنيسة، ثلاثتهم (شعبة، يونس، زيد) عن أبي إسحاق عن أبي عبد الرحمن السلمي به، وهؤلاء جميعًا جميعًا ذكروا قصة حصار عثمانﷺ. وبالجملة: فالحديث حسنه الألباني في (الإرواء: ١٥٩٤).

ولذلك فالصحابة ﷺكانوا يعرفون أن عثمان على الحق ويروون عن النبي ﷺ ما يدل على أنه على الحق في هذه الفتنة.

٢ـ عن أبي الأشعث قال: قامت خطباء بإيلياء في إمارة معاوية ﷺ فتكلموا وكان آخر من تكلم مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت، سمعت رسول الله ﷺ يذكر فتنة فقربها، فمر رجل مقنع فقال: هذا يومئذ وأصحابه على الحق والهدى فقلت هذا يا رسول الله وأقبلت بوجهه إليه فقال هذا فإذا هو عثمان ﷺ. (١)

٣-وعن محمد بن سيرين، عن كعب بن عجرة قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقربها فمر رجل مقنع رأسه فقال رسول الله ﷺ: هذا يومئذ على الهدى، فوثبت فأخذت بضبعي عثمان ثم استقبلت رسول الله ﷺ فقلت: هذا؟ قال: هذا. (٢)

٤-عن زياد بن أبي المليح، عن أبيه قال: قال ابن عباس: لو أن الناس أجمعوا على قتل عثمان لرجموا بالحجارة كما رجم قوم لوط. (٣)

٥- عن سعد بن عبيدة قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان، فذكر عن محاسن عمله، قال لعل ذاك يسوؤك؟ قال: نعم، قال فأرغم الله بأنفك، ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ عَلِيٍّ، فَذَكَرَ مَحَاسِنَ عَمَلِهِ قَالَ هُو ذَاكَ، بَيْتُهُ أوسط بيوت النبيﷺ، ثم قال: لعل ذاك يسوؤك؟ قال:

---

(١) **صحيح**. تاريخ المدينة لابن شبة (١١٠٢)، الترمذي (٣٧٠٤) من طريق عبد الوهاب الثقفي، وأخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٣٦) المستدرك للحاكم (٣/ ١٠٩) من طريق وهيب بن خالد، كلاهما (عبد الوهاب، وهيب) عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث به، قال الترمذي: (حسن صحيح)، وصححه الألباني في المشكاة (٦٠٦٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١١١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٨٧) من رواية ابن سيرين، عن كعب بن عجرة وهو منقطع، قال أبو حاتم، وابن سيرين، عن كعب بن عجرة: مرسل، انظر: جامع التحصيل (١/ ٢٦٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٩).

(٣) **حسن لغيره**. أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٨٨)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٨٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٤٧) كلاهما من طريق أبي المليح، وفيه زياد بن أبي المليح: ليس بالقوي، وليث بن أبي سليم: ضعيف، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٨٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٤٧) من طريق زهدم الجرمي، ورجاله ثقات، ويصلح شاهدًا لما تقدم.

أجل، قال: فأرغم الله بأنفك، انطلق فاجهد على جهدك[١].

٦-وعن موسى بن عقبة قال: حدثني جدي أبو أمي أبو حبيبة أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها، وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام فأذن له، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافًا أوقال اختلافًا وفتنة، فقال له قائل من الناس فمن: لنا يا رسول الله، قال: عليكم بالأمين وأصحابه وهو يشير إلى عثمان بذلك. [٢]

٧- عن عبد الله بن عمرو قال: يكون في هذه الأمة اثنا عشر خليفة: أبو بكر؛ أصبتم اسمه، وعمر بن الخطاب قرن من حديد؛ أصبتم اسمه، وعثمان بن عفان ذو النورين أوتي كفلين من رحمته قتل مظلومًا؛ أصبتم اسمه. [٣]

٨- عن نزال بن سبرة، عن علي ﷺ وسألناه عن عثمان، فقال: « ذاك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين، ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه، ضمن له رسول الله ﷺ بيتًا في الجنة »[٤]

٩- وعن الشعبي قال: ما سمعت في مراثي عثمان أحسن من قول كعب بن مالك:

---

(١) البخاري (٣٧٠٦).

(٢) مسند أحمد (٢/ ٣٤٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٩١)، والحاكم (٣/ ٩٩) (٤/ ٤٣٣)، ونعيم بن حماد في السنن (٩٨٢) كلهم من حديث موسى بن عقبة عن جده لأمه (أبو حبيبة) به.

فيه (أبوحبيبة) مولى الزبير بن العوام، ذكره البخاري في الكنى له (١/ ٢٤)، وذكره في الجرح والتعديل (٩/ ٣٥٩)، ولم يذكر فيه شيئًا، وذكره الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة (١/ ٥٣٢) ونقل عن العجلي توثيقه، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٨٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٩٢)، ومن طريقه ابن أبي عاصم في السنة (١١٥٤)، والطبراني في الكبير (١٣٩)، ونعيم بن حماد في الفتن (٢٦٥) من طريق هشام بن حسان، وأخرجه نعيم بن حماد في الفتن (٢٦٣) وابن أبي عاصم في السنة (١١٥٣) من طريق ابن عون، وأخرجه نعيم بن حماد في الفتن (٢٦٤) من طريق أيوب السختياني، ثلاثتهم (هشام، ابن عون، أيوب) عن محمد بن سيرين عن عقبة بن أوس عن عبد الله بن عمروبه.

فيه عقبة بن أوس، قال ابن حجر: صدوق، والذهبي قال: وُثق، وقال ابن الغلابي: لم يسمع من عبد الله بن عمرو جامع التحصيل ١/ ٢٣٩، والحديث صحح إسناده الألباني في ظلال الجنة (١١٥٤، ١١٥٣).

(٤) إسناده حسن. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٧)، أسد الغابة (١/ ٧٥١)، معرفة الصحابة لأبي نعيم (٢٤٠).

فَكَفَّ يَدَيهِ ثم أغلَقَ بابَهُ وأيقَنَ أن الله ليسَ بِغافلِ
وقالَ لأهْلِ الدار: لا تَقْتلوهُمُ عَفا الله عن كل امرئٍ لم يقاتل
فَكَيف رأيتَ الله صَب عليهمُ الـ ـعداوَةَ والبَغضاءَ بَعد التَواصُلِ

وقال حسان يرثيه:

مَنْ سَرهُ الموتُ صِرْفًا لا مِزاجَ لَهُ فَليأتِ مأسَدةً في دارِ عثمانا
ضَحوْا بأشمَط عُنوانُ السجودِ بِهِ يُقَطعُ الليلُ تَسبيحًا وقرآنا
صَبرًا فِدى لَكُمُ أمي وَما وَلَدت قَد ينفعُ الصبرُ في المَكروهِ أحيانا
لَتَسمَعُن وَشِيكًا في دِيارِكُمُ الله أكبر يا ثاراتِ عثمانا

١٠- وعن زيد بن علي أن زيد بن ثابت كان يبكي على عثمان يوم الدار. [١]

١١-وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه قال حين هاج الناس في أمر عثمان: أيها الناس، لا تقتلوا هذا الشيخ واستعتبوه، فإنه لن تقتل أمة نبيها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء سبعين ألفًا منهم، ولن تقتل أمة خليفتها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء أربعين ألفًا منهم، فلم ينظروا فيما قال وقتلوه، فجلس لعلي في الطريق فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أرض العراق، قال: لا تأتي العراق وعليك بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوثب به أناس من أصحاب علي وهموا به فقال علي: دعوه فإنه منا أهل البيت. فلما قتل علي قال عبد الله لابن معقل: هذه رأس الأربعين، وسيكون على رأسها صلح ولن تقتل أمة نبيها إلا قتل به سبعون ألفًا، ولن تقتل أمة خليفتها إلا قتل به أربعون ألفًا. [٢]

(١) **إسناده حسن**. أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٤)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٨١)، وعنه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٨١) جميعًا من طريق فطر بن خليفة، عن زيد بن علي: أن زيد بن ثابت كان يبكي على عثمان يوم الدار، وهو **حسن**؛ رجاله ثقات إلا فطر بن خليفة: صدوق.

(٢) **إسناده صحيح**. أخرجه عمر بن شبة في تاريخ المدينة (١١٧٦)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٩٦٣)، وابن حجر في المطالب العالية (٤٥٠١)، والسنة للخلال (٧١٦)، وتاريخ دمشق (٣٩/ ٣٥١) من حديث حميد بن هلال عن عبد الله بن مغفل، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٦٩١) من طريق بشر بن شغاف، وفي فضائل الصحابة للإمام أحمد (٧٦٩) من طريق شريح بن عبيد، جميعًا (عبد الله بن مغفل، بشر، شريح) عن

١٢- وعن أبي بكرة قال: لأن أخِر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أشرك في دم عثمان. (١)

١٣-عن ربعي بن حراش قال: لما كانت الليلة التي قبض فيها حذيفة جعل يقول: أي الليل هذا؟ ثم استوى جالسًا فقال: اللهم، إني أبرأ إليك من دم عثمان، ما شهدت، ولا قتلت ولا مالأت على قتله. (٢)

١٤- زهير قال: نا كنانة مولى صفية قال: كنت أقود بصفية لترد عن عثمان، فلقيها الأشتر فضرب وجه بغلتها حتى قالت: ردوني ولا يفضحني هذا الكلب، وكنت فيمن حمل الحسن جريحًا، ورأيت قاتل عثمان من أهل مصر يقال له: جبلة. (٣)

١٥- عن نافع قال: دخل ابن عمر على عثمان وعنده المغيرة بن الأخنس فقال: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلعها ولا تقتل نفسك، فقال ابن عمر: إذا خلعتها أمخلد أنت في الدنيا؟ قال: لا، قال: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا، قال: فهل يملكون لك جنةً أو نارًا؟ قال: لا، قال: فلا أرى لك أن تخلع قميصًا قمصكه الله فتكون سنة كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه. (٤)

عبد الله بن سلام به، وإسناده صحيح، قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(١) **إسناده حسن.** أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (١٢٥٠) من طريق سوادة، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٢) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٨٣) من طريق حزم بن أبي حزم، كلاهما (سوادة، حزم) عن أبي الأسود عن أبي بكرة به.

(٢) تاريخ المدينة (٤/ ١٢٤٨)، تاريخ دمشق (١٢/ ٢٩٤) كلاهما من طريق عبيد الله بن عمرو، وإسناد ابن شبة حسن لذاته، لأجل حكيم بن سيف: صدوق، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٣) **حسن.** أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٢٣٧)، وعلي بن الجعد في مسنده (٢٦٦٦)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ١٢٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٩٥)، وفيه كنانة مولى صفية، قال ابن حجر في التقريب: مقبول، وذكره في الجرح والتعديل، ولم يذكر شيئًا (٧/ ١٦٦).

(٤) **إسناده صحيح.** تاريخ خليفة (١٢٦)، وابن عساكر من طريقه (٣٩/ ٣٥٦)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٥١٥)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٤٨) كلهم من طرق عن يعلى بن حكيم عن نافع به وإسناده صحيح.

١٦- عن نافع قال: كان ابن عمر مع عثمان في الدار. (١)

١٧- عن نافع قال: لبس ابن عمر الدرع يوم الدار مرتين. (٢)

١٨-**وهذا موقف الزبير** رضي الله عنه، عن أبي حبيبة مولى الزبير قال: لما حصر عثمان جاء بنو عمرو بن عوف إلى الزبير بن العوام، فقالوا: يا أبا عبد الله، نحن نأتيك ثم نصير إلى ما أمرتنا به، قال: فأرسلني الزبير إلى عثمان، فقال: أقرئه السلام، وقل: يقول لك أخوك إن بني عمرو بن عوف جاؤوني ووعدوني أن يأتوني ثم يصيروا إلى ما أمرتهم به، فإن شئت أن آتيك فأكون رجلًا من أهل الدار يصيبني ما يصيب أحدهم فعلت، وإن شئت انتظرت ميعاد بني عمرو بن عوف ثم أدفع بهم عنك فعلت، قال: فدخلت عليه فوجدته على كرسي ذي ظهر، ووجدت رياطًا مطروحة ومراكن مملوءة، ووجدت في الدار الحسن بن علي، وابن عمر، وأبا هريرة، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير، فأبلغت عثمان رسالة الزبير فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي عصم أخي، قل له: إنك إن تأت الدار تكن رجلًا من المهاجرين؛ حرمتك حرمة رجل وعناؤك عناء رجل، ولكن انتظر ميعاد بني عمرو بن عوف، فعسى الله أن يدفع بك، قال: فقام أبو هريرة فقال: أيها الناس، لسمعت أذناي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تكون بعدي فتن وأحداث أو أحداث وفتن، فقلت: وأين المنجى منها يا رسول الله؟ قال: إلى الأمين وحزبه وأشار إلى عثمان: فقال القوم: ائذن لنا فلنقاتل فقد أمكنتنا البصائر، فقال: عزمت على أحد كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل، قال: فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بني عمرو بن عوف فقتلوه. (٣)

وهكذا ترى أن كل الروايات الصحيحة والحسنة تدل على براءة الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) صحيح. أخرجه خليفة (١/ ٣٨)، معاذ هو ابن معاذ ثقة، وابن عون هو عبد الله بن عون (ثقة).

(٢) حسن. أخرجه خليفة في التاريخ (١/ ٣٨)، وعبيد الله بن عبد الله بن عون، قال فيه ابن أبي حاتم: صالح الحديث الجرح والتعديل ٥/ ٣٢٢، وقال البخاري: معروف الحديث التاريخ الكبير ٥/ ٣٨٨.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٣٧٣)، وفيه أبو حبيبة مولى الزبير بن العوام، ذكره البخاري في الكنى له (١/ ٢٤) والجرح والتعديل (٩/ ٣٥٩)، ولم يذكر فيه شيئًا، وذكره الحافظ في تعجيل المنفعة (١/ ٥٣٢)، ونقل عن العجلي توثيقه، وفيه أيضًا عبد الله بن مصعب بن ثابت، ضعفه ابن معين كما في تعجيل المنفعة (١/ ٢٣٥)، وذكره البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٢١١) والجرح والتعديل (٥/ ١٧٨) ولم يذكر فيه شيئًا.

فإن قال قائل: كيف وقع قتل عثمان ﷺ بالمدينة وفيها جماعة من كبار الصحابة ﷺ فجوابه من وجوه:

أحدها: أن كثيرًا منهم بل أكثرهم أوكلهم لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلى قتله فإن أولئك الأحزاب لم يكونوا يحاولون قتله عينًا بل طلبوا منه أحد أمور ثلاثة: إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، أو يقتلوه، فكانوا يرجون أن يسلم إلى الناس مروان، أو أن يعزل نفسه ويستريح من هذه الضائقة الشديدة، وأما القتل فما كان يظن أحد أنه يقع، ولا أن هؤلاء يجرؤن عليه حتى وقع ما وقع الله، والله أعلم.

الثاني: أن الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة ولكن لما وقع التضييق الشديد عزم عثمان ﷺ على الناس أن يكفوا أيديهم ويغمدوا أسلحتهم، ففعلوا فتمكن أولئك مما أرادوا، ومع هذا ما ظن أحد من الناس أنه يقتل بالكلية.

الثالث: أن هؤلاء الخوارج لما اغتنموا غيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنصرة بل لما اقترب مجيئهم انتهزوا فرصتهم قبحهم الله وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم.

الرابع: أن هؤلاء الخوارج كانوا قريبًا من ألفي مقاتل، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدة من المقاتلة؛ لأن الناس كانوا في الثغور وفي الأقاليم في كل جهة ومع هذا كان كثير من الصحابة اعتزل هذه الفتنة ولزموا بيوتهم، ومن كان يحضر منهم المسجد لا يجيء إلا ومعه السيف يضعه على حبوته إذا احتبى، والخوارج محدقون بدار عثمان وربما لو أرادوا صرفهم عن الدار لما أمكنهم ذلك ولكن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلى الدار يحاجفون عن عثمان ﷺ لكي تقدم الجيوش من الأمصار لنصرته فما فجيء الناس إلا وقد ظفر أولئك بالدار من خارجها وأحرقوا بابها وتسوروا عليه حتى قتلوه، وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان ﷺ بل كلهم كرهه، ومقته، وسب من فعله، ولكن بعضهم كان يود لو خلع نفسه من الأمر كعمار بن

ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن الحمق، وغيرهم. (١)

الخامس: قال الإمام الذهبي في تاريخه دول الإسلام: كان قاتلوا عثمان يدًا واحدةً في الشر، وكان حثالة من الناس قد ضووا إليهم، وكان أصحاب النبي ﷺ الذين خذلوه كرهوا الفتنة فظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله، فلما قتل ندموا على ما صنعوا في أمره، ولعمري لو قاموا أو قام بعضهم فحثا في وجوه أولئك التراب لانصرفوا خاسئين، لكن الفتن لها أسباب، نعوذ بالله منها ومن أسبابها. (٢)

السادس: قال الذهبي: الذين قتلوه أو ألبوا عليه نقلوه إلى عفو الله ورحمته، والذين خذلوه خذلوا وتنغص عيشهم، وكان الملك بعده في نائبه، معاوية وبنيه، ثم في وزيره مروان وثمانية من ذريته؛ استطالوا حياته وملوه مع فضله، فتملك عليهم من هو من بني عمه بضعًا وثمانين سنة، فالحكم لله العلي الكبير. (٣)

أما الروايات التي تدين الصحابة في هذه القضية فكلها لا تصح؛ وهذا هو الوجه الثاني في الرد على هذه الشبهة.

الوجه الثاني: الروايات التي استدل بها أصحاب الشبهات على أن عائشة وغيرها من الصحابة كان لهم يد في قتل عثمان ﷺ وهي روايات مكذوبة وهذا بيانها:

أولًا: الروايات المنسوبة إلى عائشة رضي الله عنها:

١- عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال لي عثمان: ﷺإني قد استعملت خالد بن العاص بن هشام على مكة، وقد بلغ أهل مكة ما صنع الناس، فأنا خائف أن يمنعوه الموقف فيأبى فيقاتلهم في حرم الله ﷻ وأمنه وقومًا جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم، فرأيت أن أوليك أمر الموسم وكتب معه إلى أهل الموسم بكتاب يسألهم أن يأخذوا له بالحق ممن حصره، فخرج ابن عباس فمر بعائشة في الصلصل، فقالت: يا ابن عباس، أنشدك الله فإنك قد أعطيت لسانًا إزعيلًا أن تخذل عن هذا الرجل، وأن تشكك

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٩٧).

(٢) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي للعصامي (١/ ٤٧٤).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٩٩).

فيه الناس، فقد بانت لهم بصائرهم، وأنهجت ورفعت لهم المنار، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر، ﷺقال: قلت يا أمه، لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا فقالت: إيهًا عنك إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك. [١]

٢-ما نسب إليها من كتابتها لأهل الأمصار ليقدموا إلى المدينة لينكروا على عثمان ﷺ وهذا قد أنكرته عائشة أشد الإنكار، فعن مسروق، عن عائشة قالت: حين قتل عثمان: تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحوه كما يذبح الكبش، هلا كان هذا قبل هذا؟ فقال لها مسروق: هذا عملك، أنت كتبت إلى الناس تأمريهم بالخروج إليه، قال: فقالت عائشة: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوداءٍ في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا. قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها. [٢] وهي لا تعلم. [٣]

وقال ابن عساكر عن حقيقة هذه الوشايات والنميمة التي كان يتناقلها أصحاب الفتنة: نا سليمان بن أحمد، نا عبد الوهاب بن الضحاك، نا إسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان الناس يختلفون إلي في عتب عثمان، ولا أرى إلا أنها معاتبة، وأما الدم فأعوذ بالله من دمه، فوالله لوددت أني عشت في الدنيا برصاء سالخ وأني لم أذكر عثمان بكلمة قط، وأيم الله لأصبع

(١) موضوع. أخرجه الطبري في تاريخه (٣/ ٤٣٥). وإسناده تالف فيه الواقدي؛ وهو كذاب، انظر (تهذيب الكمال ١٢٤٩)، وأيضًا فيه ابن أبي سبرة وهو أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى القرشي العامري المدني رُمي بالوضع (التقريب ٤١٥٩).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٨٢)، وابن عساكر (٣٩/ ٤٨٧)، وخليفة في التاريخ (١٧٦)، وابن شبة في تاريخ المدينة (١٢٢٥) من طريق أبي معاوية، عن الأعمش، عن خيثمة، عن مسروق، وقال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إليها، ولا يضره عنعنة الأعمش؛ لأن له شواهد سبق ذكرها أثناء الحديث عن موقف عائشة من مقتل عثمان ﷺ.

(٣) تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٨٧).

عثمان التي يشير بها إلى الأرض خير من طلاع الأرض مثل فلان. (١)

٣- فتوى عائشة بقتل عثمان: "اقتلوا نعثلًا فقد كفر"، "اقتلوا نعثلًا فقد كفر" أي: عثمان، لا يثبت عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. (٢)

---

(١) موضوع. تاريخ دمشق (٣٩/ ٤٨٨)، وإسناده فيه عبد الوهاب بن الضحاك: متروك.

(٢) موضوع. أخرجه الطبري في تاريخه (٣/ ٤٧٧)، قال (كتب إلي علي بن أحمد بن الحسن العجلي) أن الحسين بن نصر العطار قال: حدثنا أبي نصر بن مزاحم العطار قال: حدثنا سيف بن عمر، عن محمد بن نويرة وطلحة بن الأعلم الحنفي قال: وحدثنا عمر بن سعد، عن أسد بن عبد الله، عمن أدرك من أهل العلم أن عائشة لما انتهت إلى سرف راجعة في طريقها إلى مكة لقيها عبد بن أم كلاب وهو عبد بن أبي سلمة ينسب إلى أمه فقالت له: مهيم، قال: قتلوا عثمان ﷺ فمكثوا ثمانيًا قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز، اجتمعوا على علي بن أبي طالب، فقالت، والله، ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ردوني ردوني، فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلومًا، والله لأطلبن بدمه، فقال لها ابن أم كلاب: ولم! فوالله، إن أول من أمال حرفه لانت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلًا فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول، فقال لها ابن أم كلاب:

منك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا أنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرإ يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها وما مَنْ وَفَّى مثلُ مَنْ قد غدر

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد، فقصدت للحجر فسترت واجتمع إليها الناس، فقالت: يا أيها الناس، إن عثمان ﷺ قتل مظلومًا ووالله لأطلبن بدمه.

وهذا إسناد فيه نصر بن مزاحم وسيف بن عمر التميمي، وكلاهما لا تحل الرواية عنه لاسيما في هذه المعضلات.

فأما نصر بن مزاحم فرافضي جلد تركوه؛ مات سنة اثنتي عشرة ومائتين قال العقيلي: شيعي في حديثه اضطراب وخطأ كثير، وقال أبو خيثمة: كان كذابًا وقال أبو حاتم: واهي الحديث متروك، وقال الدار قطني: ضعيف.

وقال العجلي: كان رافضيًا غاليًا؛ وكان على السوق إمام أبي السرايا؛ ليس بثقة ولا مأمون، وقال الخليلي: ضعفه الحفاظ جدًّا، وقال في موضع آخر: لين، وذكر له ابن عدي أحاديث، وقال هذه وغيرها من أحاديث غالبها غير محفوظ.

ميزان الاعتدال (٤/ ٢٥٣)، ولسان الميزان (٣/ ٧٠)، والوافي بالوفيات (٧/ ٣٣١) للصفدي، فاجتمع فيه الغلو في الرفض، مع التهمة بالكذب، مع الترك لحديثه، مع المخالفة للثقات، فمن الذي يقبل رواية راو حاله هكذا؟!

والجواب من وجوه:

أولا-أن هذه فرية نسبت إليها، ولا تصح، وإسنادها واه، وانظر التفصيل في الحاشية.

ثانيًا: **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: وأما قوله: إن عائشة كانت في كل وقت تأمر بقتل عثمان، وتقول في كل وقت: اقتلوا نعثلًا، قتل الله نعثلًا، ولما بلغها قتله فرحت بذلك.

فيقال له أولًا: أين النقل الثابت عن عائشة بذلك؟

ويقال ثانيًا: المنقول الثابت عنها يكذب ذلك، ويبين أنها أنكرت قتله، وذمت من قتله، ودعت على أخيها محمد وغيره لمشاركتهم في ذلك.

ويقال ثالثًا: هب أن واحدًا من الصحابة عائشة أو غيرها قال في ذلك على وجه الغضب إنكاره بعض ما ينكر فليس قوله حجة، ولا يقدح ذلك لا في إيمان القائل ولا المقول له، بل قد يكون كلاهما وليًا لله ـ تعالى ـ من أهل الجنة، ويظن أحدهما جواز قتل الآخر، بل يظن كفره وهو مخطىء في هذا الظن، ومن الأمثلة على ذلك:

١-ما ثبت في الصحيحين عن علي وغيره في قصة حاطب بن أبي بلتعة، وكان من أهل بدر والحديبية، وقد ثبت في الصحيح أن غلامه قال: يا رسول الله، والله ليدخلن حاطب النار، فقال له النبيﷺ: كذبت إنه قد شهد بدرًا والحديبية، وفي حديث علي أن حاطبًا كتب إلى المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ لما أراد غزوة الفتح، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال لعلي والزبير: اذهبا حتى تأتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب، فلما أتيا بالكتاب، قال: ما هذا يا حاطب؟ فقال: والله يا رسول الله، ما فعلت هذا ارتدادًا ولا رضًا بالكفر، ولكن كنت امرءًا ملصقًا في قرش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من

وأما سيف بن عمر التميمي: فقال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٢٥٥).

قال عباس الدوري، عن يحيى: ضعيف، وقال أبو جعفر الحضرمي، عن يحيى: فلس خير منه. وقال أبو داود: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدي. وقال ابن حبان: اتهم بالزندقة. وقال ابن عدى: عامة حديثه منكر. وقال ابن حجر: ضعيف الحديث عمدة في التاريخ (التقريب١/ ٤٠٨)، (الجرح والتعديل (٤/ ٢٧٨)، المجروحين لابن حبان (١/ ٣٤٥).

المهاجرين لهم بمكة قرابات يحمون بها أهليهم، فأحببت إذا فأتني ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، فقال عمر ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه شهد بدرًا، وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وأنزل الله ﷻأول سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ (الممتحنة: ١)، وهذه القصة مما اتفق أهل العلم على صحتها، وهي متواترة عندهم، معروفة عند علماء التفسير، وعلماء الحديث، وعلماء المغازي والسير والتواريخ، وعلماء الفقه، وغير هؤلاء، وكان علي ﷺ يحدث بهذا الحديث في خلافته بعد الفتنة، وروى عنه كاتبه عبد الله بن أبي رافع ليبين لهم أن السابقين مغفور لهم ولو جرى منهم ما جرى.

فإن عثمانَ، وعليًا، وطلحة، والزبير أفضل باتفاق المسلمين من حاطب بن أبي بلتعة، وكان حاطب مسيئًا إلى مماليكه، وكان ذنبه في مكاتبة المشركين وإعانتهم على النبي ﷺ وأصحابه أعظم من الذنوب التي تضاف إلى هؤلاء، ومع هذا فالنبي ﷺ نهى عن قتله وكذب من قال أنه يدخل النار؛ لأنه شهد بدرًا والحديبية، وأخبر بمغفرة الله لأهل بدر، ومع هذا فقد قال عمر ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فسماه منافقًا واستحل قتله، ولم يقدح ذلك في إيمان واحد منهما ولا في كونه من أهل الجنة.

٢-وكذلك في الصحيحين وغيرهما في حديث الإفك لما قام النبي ﷺ خطيبًا على المنبر يعتذر من رأس المنافقين عبد الله بن أُبي، فقال: من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي؛ والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، فقام سعد بن معاذ سيد الأوس ـ وهو الذي اهتز لموته عرش الرحمن، وهو الذي كان لا تأخذه في الله لومة لائم بل حكم في حلفائه من بني قريظة بأن يقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم؛ حتى قال النبيﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ـ فقال: يا رسول الله، نحن نعذرك منه، إن كان من إخواننا من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من أخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة فقال: كذبت؛ لعمر الله لا تقتله ولا تقدر

على قتله، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت؛ لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، وكادت تثور فتنة بين الأوس والخزرج حتى نزل النبي ﷺ وخفضهم.

وهؤلاء الثلاثة من خيار السابقين الأولين، وقد قال أسيد بن حضير لسعد بن عبادة: إنك منافق تجادل عن المنافقين، وهذا مؤمن ولي لله من أهل الجنة وذاك مؤمن ولي الله من أهل الجنة؛ فدل على أن الرجل قد يكفر آخر بالتأويل ولا يكون واحد منهما كافرًا.

٣-وكذلك في الصحيحين حديث عتبان بن مالك لما أتى النبي ﷺ منزله في نفر من أصحابه فقام يصلي وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عظم ذلك إلى مالك بن الدخشم، وودوا أن النبي ﷺ دعا عليه فيهلك، فقضى رسول الله ﷺ صلاته وقال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، قالوا: بلى، وإنه يقول ذلك وما هو في قلبه، فقال: لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه.

وإذا كان ذلك فإذا ثبت أن شخصًا من الصحابة، إما عائشة، وإما عمار بن ياسر، وإما غيرهما كَفَّرَ آخر من الصحابة عثمان أو غيره أو أباح قتله على وجه التأويل؛ كان هذا من باب التأويل المذكور ولم يقدح ذلك في إيمان واحد منهما ولا في كونه من أهل الجنة، فإن عثمان وغيره أفضل من حاطب بن أبي بلتعة، وعمر أفضل من عمار وعائشة وغيرهما، وذنب حاطب أعظم فإذا غُفر لحاطب ذنبه فالمغفرة لعثمان أولى، وإذا جاز أن يجتهد مثل عمر وأسيد بن حضير في التكفير أو استحلال القتل ولا يكون ذلك مطابقًا فصدور مثل ذلك من عائشة وعمار أولى.

ويقال رابعًا: إن هذا المنقول عن عائشة من القدح في عثمان إن كان صحيحًا فإما أن يكون صوابًا أوخطأً، فإن كان صوابًا لم يذكر في مساوئ عائشة، وإن كان خطأً لم يذكر في مساوئ عثمان، والجمع بين نقص عائشة وعثمان باطل قطعًا، وأيضًا فعائشة ظهر منها من التألم لقتل عثمان، والذم لقتلته، وطلب الانتقام منهم ما يقتضي الندم على ما ينافي ذلك، كما ظهر منها الندم على مسيرها إلى الجمل، فإن كان ندمها على ذلك يدل على فضيلة علي

واعترافها له بالحق فكذلك هذا يدل على فضيلة عثمان واعترافها له بالحق وإلا فلا.

وأيضًا فما ظهر من عائشة وجمهور الصحابة وجمهور المسلمين من الملام لعلي أعظم مما ظهر منهم من الملام لعثمان فإن كان هذا حجة في لوم عثمان فهو حجة في لوم علي، وإن لم يكن حجة في لوم علي فليس حجة في لوم عثمان، وإن كان المقصود بذلك القدح في عائشة لما لامت عثمانَ وعليًا فعائشة في ذلك مع جمهور الصحابة لكن تختلف درجات الملام، وإن كان المقصود القدح في الجميع في عثمان وعلي وطلحة، والزبير، وعائشة، واللائم والملوم، قيل: نحن لسنا ندعى لواحد من هؤلاء العصمة من كل ذنب؛ بل ندعى أنهم من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين؛ وعباده الصالحين، وأنهم من سادات أهل الجنة، ونقول: إن الذنوب جائزة على من هو أفضل منهم من الصديقين ومن هوأكبر من الصديقين ولكن الذنوب يرفع عقابها بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وغير ذلك، وهؤلاء لهم من التوبة والاستغفار والحسنات ما ليس لمن هو دونهم، وابتُلوا بمصائب يكفر الله بها خطاياهم لم يُبتلَ بها من دونهم، فلهم من السعي المشكور والعمل المبرور ما ليس لمن بعدهم وهم بمغفرة الذنوب أحق من غيرهم ممن بعدهم.(١)

٤ - أيضًا من الروايات التي تنسب في حق عائشة أنها كانت سببًا في مقتل عثمان:

قول محمد بن طلحة: دم عثمان ثلاثة أثلاث: ثلث على صاحبة الهودج يعني: عائشة، وثلث على صاحب الجمل الأحمر يعنى: طلحة، وثلث على عليّ.(٢)

---

(١) منهاج السنة (٤/ ٣٢٩) وما بعدها.

(٢) موضوع. رواه الطبري في تاريخه (٣/ ١١٦) قال: وفيها ذكر نصر بن مزاحم، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد قال: وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة وكان محمد رجلًا عابدًا فقال: أخبرني عن قتلة عثمان؟ فقال: نعم؛ دم عثمان ثلاثة أثلاث: ثلث على صاحبة الهودج يعني: عائشة، وثلث على صاحب الجمل الأحمر يعنى: طلحة، وثلث على عليّ بن أبي طالب، وضحك الغلام وقال: ألا أراني على ضلال ولحق بعلي، وقال في ذلك شعرًا، سألت ابن طلحة عن هالك بجوف المدينة لم يقبر فقال: ثلاثة رهط هم أماتوا ابن عفان واستعبر، فثلث على تلك في خدرها، وثلث على راكب الأحمر وثلث على ابن أبي طالب، ونحن بدوية قرقر فقلت صدقت على الأولين، وأخطأت في الثالث الأزهر. وإسناده تالف، وتقدم الكلام عليه في الأثر السابق.

٥-قولهم: إن عائشة كانت تؤلب على عثمان ليتولى طلحة الخلافة فلما علمت أن عليًا بويع بالخلافة طالبت بدم عثمان؛ وهذا ذكره البلاذري تعليقًا عن الزهري من غير إسناد، فقال: قال الزهري: وكانت عائشة تؤلب على عثمان، فلما بلغها أمره، وهي بمكة، أمرت بقبتها فضربت في المسجد الحرام، وقالت: إني أرى عثمان سيشوم قومه كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدرٍ، وقتل عثمان؛ فزعم بعض الناس أنه قُتل في أيام التشريق، وقال بعضهم: قتل يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، وولي قتله محمد بن أبي بكر ومعه سودان بن حمران، وبايع الناسُ عليًا، ومكث عثمان في الدار يومًا أو يومين حتى أخرجه أهله على باب من جريد النخل صغير خرجت عنه رجلاه، وتلقاهم قوم فقاتلوهم حتى طرحوه وتوطأه بعضهم، ثم حملوه وقد حُفر له قبر إلى جانب البقيع ودفنوه.

وخرجت عائشة من مكة حتى نزلت بسرف، فمرَّ راكب فقالت: ما وراءك؟ قال: قتل عثمان، فقالت: كأني أنظر إلى الناس يبايعون طلحة وإصبعه تحس أيديهم، ثم جاء راكب آخر فقال: قتل عثمان وبايع الناسُ عليًا فقالت: وا عثماناه، ورجعت إلى مكة فضربت لها قبتها في المسجد الحرام وقالت: يا معشر قريش، إن عثمان قد قتل، قتله عليّ بن أبي طالب، والله لأنملةٌ – أو قالت لليلةٌ – من عثمان خير من عليّ الدهر كله، وخرجت أم سلمة إلى المدينة وأقامت عائشة بمكة. (١)

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٢/ ٢٩٤)، ولا إسناد له إلى الزهري كما أنه منقطع بين الزهري والواقعة فإن الزهري ولد سنة خمسين والحادث كان سنة خمس وثلاثين، وهو خبر منكر يخالف الأخبار الصحيحة وعلى فرض أنه بالإسناد الذي قبله وهذه حكايته كما عند البلاذري في أنساب الأشراف: حدثني أحمد بن إبراهيم الدورق، حدثنا وهب بن جرير بن حازم، حدثنا أبي، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، وهو إسناد حسن إلا أن الزهري أرسله ومراسيل الزهري واهية. قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: وخرج البيهقي من طريق أبي قدامة السرخسي؛ قال: سمعت يحيى بن سعيد يقول: مرسل الزهري شر من مرسل غيره؛ لأنه حافظ، وكلما يقدر أن يسمي سمى، وإنما يترك من لا يستجيز أن يسميه.

وقال يحيى بن معين: مراسيل الزهري ليست بشيء، وقال الشافعي: إرسال الزهري عندنا ليس بشيء؛ وذلك أنا نجده يروي عن سليمان بن أرقم. اهـ من شرح علل الترمذي (١/ ٢٨٤)، وانظر: تدريب الراوي (١٦٧).

وسليمان بن أرقم الذي يروي عنه الزهري في كلام الشافعي هوأبومعاذ البصري؛ قال أحمد: ليس بشيء،

وقال ابن تيمية: وأما قوله: أنها سألت مَنْ تولى الخلافة؟ فقالوا: عليٌّ، فخرجت لقتاله على دم عثمان، فأي ذنب كان لعلي في ذلك؟ فيقال له:

أولًا: قول القائل: إن عائشة، وطلحة، والزبير اتهموا عليًا بأنه قتل عثمان وقاتلوه على ذلك كذب بين، بل إنما طلبوا القتلة الذين كانوا تحيزوا إلى علي وهم يعلمون أن براءة علي من دم عثمان كبراءتهم وأعظم، لكن القتلة كانوا قد أووا إليه فطلبوا قتل القتلة ولكن كانوا عاجزين عن ذلك هم وعلي؛ لأن القوم كانت لهم قبائل يذبون عنهم، والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء فصار الأكابر ﷺ عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها، وهذا شأن الفتن كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾، وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله.(١)

٦- وهذه رواية تصور الصحابة كلهم في جانب وعثمان في جانب آخر:

قال البلاذري: وحدثني هشام بن عمار الدمشقي أبو الوليد، حدثنا محمد بن سميع، عن محمد بن أبي ذئب، عن ابن شهاب الزهري، عن سعيد بن المسيب: أن المصريين لما قدموا فشكوا عبد الله بن سعد بن أبي سرح، سألوا عثمان أن يولي مكانه محمد بن أبي بكر، فكتب عهده وولاه ووجه معهم عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بينهم وبين ابن أبي سرح، فشخص محمد بن أبي بكر وشخصوا جميعًا، فلما كانوا على مسيرة ثلاث من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير وهو يخبط البعير خبطًا كأنه رجل يطلب أو يُطلب، فقال له أصحاب محمد بن أبي بكر: ما قصتك، وما شأنك، هارب أو طالب؟ فقال لهم مرةً: أنا غلام أمير

وقال البخاري، وأبوحاتم: ليس بشيء، وقال عباس الدوري، عن يحيي بن معين: ليس بشيء؛ ليس يسوى فلسًا. وقال عثمان بن سعيد، عن يحيى: ليس بشيء، وقال عمرو بن علي: ليس بثقة، روى أحاديث منكرة، قال: وقال محمد بن عبد الله الأنصاري: كانوا ينهونا عنه ونحن شباب، وذكر عنه أمرًا عظيمًا.

وقال البخاري: تركوه. وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا داود عن سليمان بن أرقم، قال: متروك الحديث، قلت لأحمد: روى سليمان بن أرقم عن الزهري، عن أنس في التلبية، فقال: لا نبالي روى أولم يروَ، انظر تهذيب الكمال (١١/ ٣٥١).

(١) منهاج السنة (٤/ ٣٤٣).

المؤمنين، وقال مرة أخرى: أنا غلام مروان وجهني إلى عامل مصر برسالة، قالوا: فمعك كتاب؟ قال: لا، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئًا، وكانت معه إداوة قد يبست وفيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح. فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه: " إذ أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحتل لقتلهم وأبطل كتاب محمد، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي، واحبس من يجيء إلي متظلمًا منك إن شاء الله"، فلما قرأوا الكتاب فزعوا وغضبوا ورجعوا إلى المدينة، وختم محمد بن أبي بكر الكتاب بخواتيم نفر ممن كان معه ودفعه إلى رجل منهم، وقدموا المدينة فجمعوا عليًا، وطلحة، والزبير، وسعدًا، ومن كان من أصحاب النبي ﷺ ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام وأقرأهم الكتاب فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان، وزاد ذلك من غضب لابن مسعود، وعمار بن ياسر، وأبي ذر حنقًا وغيظًا، وقام أصحاب النبي ﷺ بمنازلهم ما منهم أحد إلا وهو مغتنم لما في الكتاب، وحاصر الناس عثمان وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ببني تيم وغيرهم، وأعانه على ذلك طلحة بن عبيد الله، وكانت عائشة تقرصه كثيرًا، ودخل عليّ، وطلحة، والزبير، وسعد، وعمار في نفر من أصحاب محمد ﷺ كلهم بدري على عثمان، ومع عليّ الكتاب والغلام والبعير، فقال له علي: هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم، قال: والبعير؟ قال: نعم، قال: وأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب، ولا أمرت به، ولا علمت شأنه، فقال له علي: أفالخاتم خاتمك؟ قال: نعم، قال: فكيف يخرج غلامك ببعيرك بكتاب عليه خاتمك ولا تعلم به؟ فحلف بالله ما كتبت الكتاب، ولا أمرت به ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر قط، وعرفوا أنه خط مروان فسأله أن يدفع إليهم مروان فأبى، وكان مروان عنده في الدار، فخرج أصحاب محمد ﷺ من عنده غاضبًا وعلموا أنه لا يحلف بباطل، إلا أن قومًا قالوا: لن يبرأ عثمان في قلوبنا إلا بأن يدفع إلينا مروان حتى نبحثه عن الأمر، ونعرف حال الكتاب وكيف يؤمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله بغير حق، فإن يكن عثمان كتبه

عزلناه، وإن يكن مروان كتبه عن لسان عثمان نظرنا ما يكون منا في أمر مروان، فلزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج مروان، فحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء، فأشرف على الناس فقال: أفيكم علي؟ فقالوا: لا، قال: أفيكم سعد، فقالوا: لا، فسكت ثم قال: ألا أحدٌ يبلغ فيسقينا ماءً؟ فبلغ ذلك عليًا فبعث إليه بثلاث قربٍ مملوءة ماءً فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصلت. ؟ وبلغ عليًا أن القوم يريدون قتل عثمان فقال: إنما أردنا مروان، فأما قتل عثمان فلا، وقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحدًا يصل إليه، وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه على كره، وبعث عدة من أصحاب النبي ﷺ أبناءهم ليمنعوا الناس من الدخول على عثمان ويسألوه إخراج مروان، فلما رأى محمد بن أبي بكر، وقد رمى الناس عثمان بالسهام حتى خُضب الحسن بالدماء على بابه، وأصاب مروان سهم وهو في الدار، وخُضب محمد بن طلحة، وشُج قنبر مولى علي، خشي محمد بن أبي بكر أن يغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيروها فتنةً، وأخذ بيد رجلين فقال لهما: إن جاءت بنو هاشم فرأت الدماء على وجه الحسن كشفوا الناس عن عثمان وبطل ما تريدون، ولكن مروا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد، فتسور محمد وصاحباه من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان وما يعلم أحد ممن كان معه؛ لأنهم كانوا فوق البيوت ولم يكن معه إلا امرأته، فقال محمد بن أبي بكر: أنا أبدأ كما بالدخول، فإذا أنا ضبطته فادخلا فتوجاه حتى تقتلاه، فدخل محمد فأخذ بلحيته فقال له عثمان: والله، لو رآك أبوك لساء مكانك مني، فتراخت يده، ودخل الرجلان عليه فتوجآه حتى قتلاه وخرجوا هاربين من حيث دخلوا، وصرخت امرأته إلى الناس فلم يُسمع صراخها لما كان في الدار من الجلبة، وصعدت امرأته إلى الناس فقالت: إن أمير المؤمنين قد قتل، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبوحًا، فانكبوا عليه يبكون، وخرجوا ودخل الناس فوجدوه مذبوحًا، وبلغ عليًّا بن أبي طالب الخبر، وطلحةَ، والزبيرَ، وسعدًا، ومن كان بالمدينة، فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر الذي أتاهم

حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولًا فاسترجعوا، وقال علي لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب، ورفع يده فلطم الحسن، وضرب صدر الحسين، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير، وخرج عليّ وهو غضبان يرى أن طلحة أعان على ما كان، فلقيه طلحة فقال: ما لك يا أبا الحسن، ضربت الحسن والحسين، فقال: عليك لعنة الله أبيت إلا أن يسوءني ذلك، يقتل أمير المؤمنين رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ بدريٌّ لم يقم عليه بينة ولا حجة، فقال طلحة: لو دفع مروان لم يُقتل، فقال علي: لو أخرج إليكم مروان لقتل قبل أن تثبت عليه حكوم، وخرج عليٌّ فأتى منزله وجاء الناس كلهم يهرعون إلى علي أصحاب النبي ﷺ وغيرهم وهم يقولون: إن أمير المؤمنين علي، حتى دخلوا داره فقالوا له: نبايعك فمد يدك فإنه لا بد من أمير، فقال علي: ليس ذاك إليكم إنما ذاك إلى أهل بدر، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليًا، فقالوا: ما نرى أحدًا أحق بها منك فمد يدك نبايعك، فقال: أين طلحة والزبير؟ وكان طلحة أول من بايعه بلسانه وسعدٌ بيده، فلما رأى عليٌّ ذلك صعد المنبر وكان أول من صعد إليه، فبايعه طلحة بيده؛ وكانت إصبع طلحة شلاء فتطير منها عليٌّ وقال: ما أخلقه أن ينكث، ثم بايعه الزبير، وسعد، وأصحاب النبي ﷺ جميعًا، ثم نزل فدعا الناس وطلب مروان وبني أبي معيط فهربوا منه.

وخرجت عائشة باكية تقول: قُتل عثمان رحمه الله، فقال لها عمار بن ياسر: عبد الملك، أنت بالأمس تحرضين عليه ثم أنت اليوم تبكينه، وجاء عليّ إلى امرأة عثمان فقال لها: من قتل عثمان ـ رحمه الله تعالى ـ؟ فقالت: لا أدري، دخل عليه رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما، وكان معهما محمد بن أبي بكر، وأخبرت عليًا والناس بما صنع محمد، فدعا عليٌّ محمدًا فسأله عما ذكرت امرأة عثمان، فقال محمد: لم تكذب فقد دخلت والله عليه وأنا أريد قتله، فذكر أبي فقمت عنه وأنا تائب، والله ما قتلته ولا أمسكته، قالت امرأة عثمان: صدق أدخلهما. (١)

---

(١) منكر. أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ٢٨٣)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٥٦)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١١٥٧)، العقيلي في الضعفاء (٤/ ١١٥)، تاريخ دمشق (٣٩/ ٤١٥) كلهم من حديث هشام بن عمار عن محمد بن عيسى بن سميع عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، عن الزهري به.

ثانيا: الروايات التاريخية الضعيفة في موقف الصحابة من مقتل عثمان التي استدل بها المعترضون على أن مجتمع الصحابة كان مجتمعًا متآمرًا على بعضه من أجل الخلافة والحكم:

١ -عن حصين بن عبد الرحمن قال: حدثني جهم - رجل من بني فهر- قال: أنا شاهد هذا الأمر؛ قال: جاء سعد وعمار فأرسلوا إلى عثمان أن ائتنا، فإنا نريد أن نذكر لك أشياءً

وهذه الرواية مع نكارة في متنها - حيث أظهرت الصحابة كلهم ناقمين على عثمان وحانقين عليه - في إسنادها ضعف شديد؛ لأن محمد بن سميع قال عثمان الدارمي عن دحيم: ليس من أهل الحديث وهو قدري، وقال أبو حاتم: شيخ دمشقي يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال البخاري: يقال أنه لم يسمع من ابن أبي ذئب هذا الحديث يعني: حديثه عن الزهري في مقتل عثمان. وقال صالح بن محمد: ثنا هشام بن عمار، ثنا محمد بن عيسى بن القاسم، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري حديث مقتل عثمان، قال: فجهدت به كل الجهد أن يقول: حدثنا ابن أبي ذئب فأبى.

قال صالح: قال لي محمود ابن بنت محمد بن عيسى: هو في كتاب جدي، عن إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله، عن ابن أبي ذئب، قال صالح وإسماعيل بن يحيى: هذا يضع الحديث قال ابن صالح فحدثت بهذه القصة محمد بن يحيى الذهلي فقال: الله المستعان.

وقال ابن شاهين محمد بن عيسى بن سميع: شيخ من أهل الشام ثقة وإسماعيل الذي أسقطه ضعيف، وقال ابن حبان: هو مستقيم الحديث إذا بين السماع في خبره، فأما خبره الذي روي عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب في مقتل عثمان فلم يسمع من ابن أبي ذئب، سمعه من إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي ذئب فدلس عنه؛ وإسماعيل واهٍ.

وقال الحاكم: أبو محمد مستقيم الحديث؛ إلا أنه روى عن ابن أبي ذئب حديثًا منكرًا؛ وهو حديث مقتل عثمان، ويقال: كان في كتابه عنا إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي ذئب فأسقطه وإسماعيل ذاهب الحديث وقال الذهبي: محمد ابن عيسى بن سميع كان ممن يروي المناكير عن المشاهير حتى إذا سمعها من الحديث صناعته علم أنها مقلوبة، لا يجوز الاحتجاج به، وانظر التاريخ الكبير للبخاري (١/ ٢١٣)، جامع التحصيل (١/ ١٠٩)، لسان الميزان (٢/ ٣٨٦) وتبيين أسماء المدلسين لسبط بن العجمي (١/ ٥٢)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٤٦)، وانظر كتاب تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١٧، ١٨)، وقال ابن عدي: وهو حسن الحديث والذي أنكر عليه حديث مقتل عثمان أنه لم يسمعه من ابن أبي ذئب الكامل (٢/ ٢٥٦) فحصل من هذا أن محمد بن سميع دلس في هذا الإسناد تدليس التسوية الذي هو شر أنواع التدليس؛ وقد ذكره ابن حجر في الطبقة الرابعة من طبقات المدلسين، ولقد عنعن في الحديث ولم يصرح بالسماع أيضًا، حيث أسقط إسماعيل بن يحيى وهو ذاهب الحديث، فثبت ضعف الإسناد مع المخالفة في المتن للروايات الصحيحة فحصلت النكارة التي لا يمكن معها أن يحتج بهذه الرواية، وقال ابن شبة بعد رواية هذا الأثر: وهذا حديث كثير التخليط، منكر الإسناد، لا يعرف صاحبه الذي رواه عن ابن أبي ذئب، وأما ابن أبي ذئب ومن فوقه فأقوياء (٤/ ١٣٠٦).

أحدثتها أو أشياءً فعلتها، قال: فأرسل إليهم أن انصرفوا اليوم، فإني مشتغل وميعادكم يوم كذا وكذا حتى أشرن ـ قال أبو محصن: أشرن: أستعد لخصومتكم ـ قال: فانصرف سعدٌ وأبى عمارٌ أن ينصرف ـ قالها أبو محصن مرتين ـ قال: فتناوله رسول عثمان فضربه، قال: فلما اجتمعوا للميعاد ومن معهم قال لهم عثمان: ما تنقمون مني؟ قالوا: ننقم عليك ضربك عمارًا، قال: قال عثمان: جاء سعد وعمار فأرسلت إليهما، فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف، فتناوله رسول من غير أمري، فوالله ما أمرت ولا رضيت، فهذه يدي لعمار فيصطبر ـ قال أبو محصن: يعني: يقتص ـ.(١)

٢- عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَيَّافُ عُثْمَانَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ، فَقَالَ: ارْجِعِ ابْنَ أَخِي فَلَسْتَ بِقَاتِلِي، قَالَ: وَكَيْفَ عَلِمْتَ ذَاكَ؟ قَالَ: لأَنَّهُ، أُتِيَ بِكَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ سَابِعِكَ فَحَنَّكَكَ، وَدَعَا لَكَ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: ارْجِعِ ابْنَ أَخِي فَلَسْتَ بِقَاتِلِي، قَالَ: بِمَ تَدْرِي ذَلِكَ؟ ، قَالَ: لأَنَّهُ أُتِيَ بِكَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ سَابِعِكَ فَحَنَّكَكَ وَدَعَا لَكَ بِالْبَرَكَةِ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بن أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: أَنْتَ قَاتِلِي، قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ يَا نَعْثَلُ؟ ، قَالَ: لأَنَّهُ أُتِيَ بِكَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ سَابِعِكَ لِيُحَنِّكَكَ وَيَدْعُولَكَ بِالْبَرَكَةِ فَخَرَيْتَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَوَثَبَ عَلَى صَدْرِهِ وَقَبَضَ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ: إِنْ تَفْعَلْ كَانَ يَعِزُّ عَلَى أَبِيكَ أَنْ تَسُوءَهُ، قَالَ: فَوَجَأَهُ فِي نَحْرِهِ بِمَشَاقِصَ كَانَتْ فِي يَدِهِ.(٢)

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٦٨٩)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ١١٠١) والبلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ٢٧٦) كلهم من طريق حُصين بن نمير عن جهيم الفهري. وإسناده ضعيف، جهيم الفهري لم يوثقه معتبر، وذكره ابن حبان في ثقاته (٤/ ١١٩) في قاعدته في توثيق المجاهيل، وحصين بن نمير هو أبو محصن، وهويروي عن حصين بن عبد الرحمن، فسقط ذكره من إسناد البلاذري، وحصين بن نمير رُمي بالنصب، وكان يحمل على علي ﷺ، وفي حفظه ضعف، وانظر: ترجمته في تهذيب الكمال (٦/ ٥٤٨).

(٢) ضعيف. أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٨٣)، ومن طريقه ابن عساكر (٣٩/ ٤٠٩) من طريق محمد بن خالد بن خداش عن مسلم بن قتيبة عن مبارك عن الحسن به، ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٩٤) وقال: هذا غريب جدًّا وفيه نكارة. اهـ

وهذا إسناد ضعيف فيه المبارك بن فضالة؛ قال عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه: كان يدلس وقال عبد الله بن أحمد: سألت ابن معين عن مبارك بن فضالة، فقال: ضعيف الحديث، هومثل الربيع بن صبيح في الضعف، وقال أحمد بن

٣-عن إسماعيل بن أبى خالد قال: لما نزل أهل مصر الجحفة يعاتبون عثمان صعد عثمان المنبر فقال: جزاكم الله يا أصحاب محمد عنى شرًا، أذعتم السيئة وكتمتم الحسنة، وأغريتم بي غوغاء الناس، أيكم يأتي هؤلاء القوم فيسألهم ما الذي نقموا وما الذي يريدون؟ ـ ثلاث مرات ـ فلا يجيبه أحد، فقام علي فقال: أنا، فقال عثمان أنت أقربهم رحمًا وأحقهم بذلك، فأتاهم فرحبوا به، وقالوا: ما كان يأتينا أحد أحب إلينا منك. (١)

٤-عن العتبي، عن أبيه قال: بعث عثمان بن عفان إلى ابن عباس وهو محصور، فأتاه وعنده مروان بن الحكم، فقال عثمان: يا ابن عباس، أما ترى إلى ابن عمك كان هذا الأمر في بني تيم وعدي فرضي وسلم حتى إذا صار الأمر إلى ابن عمه بغاه الغوائل، قال ابن عباس: فقلت له: إن ابن عمك والله ما زال عن الحق ولا يزول ولو أن حسنًا وحسينًا بغيا في دين الله الغوائل لجاهدهما في الله حق جهاده، ولو كنت كأبي بكر وعمر لكان لك كما كان لهما بل كان لك أفضل لقرابتك، ورحمك، وسنك، ولكنك ركبت الأمر وهاباه، قال ابن عباس: فاعترضني مروان فقال: دعنا من تخطئتك يا ابن عباس فأنت كما قال الشاعر:

دعوتك للغياث ولست أدري   أمن خلفي المنية أم أمامي

أبي خيثمة: سئل يحيى عن المبارك، فقال: ضعيف، وسمعته مرة أخرى يقول: ثقة، وقال أبو زرعة: الرازي يدلس كثيرًا، فإذا قال: حدثنا، فهو ثقة. وقال أبوداود: كان مبارك شديد التدليس، وإذا قال: حدثنا، فهو ثبت، وقال النسائي أيضًا: ضعيف، وقال ابن حجر: صدوق يدلس ويسوي التقريب (١/ ٥١٩)، الجرح والتعديل (٨/ ٣٣٨)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٨١). فإذا ثبت أنه يدلس ويسوي وقد عنعن في هذا الحديث فهو حينئذ ضعيف لا يحتج به في هذا الأمر الكبير بالإضافة إلى ما في هذا المتن من نكارة ومخالفة للصحيح، قال ابن كثير رحمه الله: ويروى أن محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه حتى دخلت حلقه، والصحيح أن الذي فعل ذلك غيره، وأنه استحيى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها. فتذمم من ذلك وغطى وجهه ورجع وحاجز دونه فلم يفد ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ البداية والنهاية (٧/ ٢٠٧)، وانظر: تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٣٠١).

(١) **إسناده ضعيف**. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٢٤٩)، وابن أبي داود في المصاحف (٩٩)، وإسناده ضعيف فيه عثمان بن هشام بن دلهم مجهول، وإسماعيل بن أبي خالد توفي سنة (١٤٦)، فالإسناد منقطع بينه وبين القصة.

فشققت الكلام رخي بال وقد جل الفعال عن الكلام

إن يكن عندك لهذا الرجل غياث فأغثه وإلا فما أشغله عن التفهم لكلامك والفكر في جوابك قال ابن عباس فقال له هو والله كان عنك وعن أهل بيتك أشغل إذ أوردتموه ولم تصدروه ثم أقبلت على عثمان فقلت له:

جعلت شعار جلدك قوم سوء وقد يجزى المقارن بالقرين

فما نظروا لدنيا أنت فيها بإصلاح ولا نظروا لدين

ثم قلت له: إن القوم والله غير قابلين إلا قتلك وخلعك، فإن قتلت قتلت علا ما قد عملت وعلمت، وإن تركت فإن باب التوبة مفتوح. (١)

٥- اتهامهم علي رضي الله عنه بأنه كتب إليهم للقدوم على عثمان وهذا أنكره علي رضي الله عنه منذ قدم عليه هؤلاء.

قال ابن عساكر وساق بإسناده: عن أبي سعيد مولى لبني أسيد أن وفد أهل مصر لما قدموا المدينة أتوا عليًا فقالوا: قم معنا، قال: والله، لا أقوم معكم، قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال: والله، ما كتبت إليكم كتابًا قط، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ألهذا تغضبون أم لهذا تقاتلون، قال: وخرج علي فنزل خارجًا من المدينة. (٢)

٦- عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق قال: كان المحمدون الذين سعوا على عثمان: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي سبرة بن أبي رهم.

وكان أبو أيوب ممن أعان على عثمان رضي الله عنه، فكتب إلى معاوية رضي الله عنه ما جئتك مالا تنسى، إن المرأة لا تنسى أبا عذرتها ولا قاتل بكرها. (٣)

---

(١) **إسناده ضعيف**. تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٩/ ٣٦٥)من طريق الحسين بن القاسم الكوكبي عن عبد الرحمن بن منصور عن العتبي به فيه جماعة من المجاهيل.

(٢) **إسناده ضعيف**. أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٣٦٠)، من طريق محمد بن إبراهيم عن أبي الفاضل بن الكريدي عن أبي الحسن العتيقي عن الدارقطني، عن أحمد بن علي بن العلاء عن أبي الأشعث عن المعتمر عن أبيه عن أبي نضرة عن أبي سعيد به. وشيخ المؤلف وشيخ شيخه مجهولا الحال.

(٣) **موضوع**. أخرجه ابن أبي شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١٣٠٢)، من طريق أبي مخنف عن عبد الملك به

٦- عن مطرف بن الشخير قَال: لما دخل علي البصرة يوم الجمل جلست إلى عمار بن ياسر فجعل يقطع في عثمان فقلت له: إنكم أصحاب محمد، سبقتمونا صحبة، ثم أدركناكم فأعلمتونا ألا ذنب في الإسلام أعظم من الدم، ثم أنتم اليوم تحلونه. قَال: فجاءه رسول علي فقَال: أجب يا أبا اليقظان أمير المؤمنين فهو يقول إنه بدل، يعني عثمان. (١)

٧-وهذه رواية تصور مناظرة بين مسروق التابعي وبين عمار الصحابي في شأن عثمانﷺ وتصور اتفاق عمار مع الخوارج على مقتل عثمان:

عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: لَقِيَ مَسْرُوقٌ الأَشْتَرَ، فَقَالَ مَسْرُوقٌ للأَشْتَرِ: قَتَلْتُمْ عُثْمَانَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا وَالله لَقَدْ قَتَلْتُمُوهُ صَوَّامًا قَوَّامًا، قَالَ: فَانْطَلَقَ الأَشْتَرُ فَأَخبَرَ عَمَّارًا ﷺ، فَأَتَى عَمَّارٌ مَسْرُوقًا، فَقَالَ: وَالله لَيُجْلَدَنَّ عَمَّارٌ، وَلَيُسَيَّرَنَّ أَبَا ذَرٍّ، وَلَيَحْمِيَنَّ الْحِمَى، وَتَقُولُ: قَتَلْتُمُوهُ صَوَّامًا قَوَّامًا، فَقَالَ لَهُ مَسْرُوقٌ: فَوَالله مَا فَعَلْتُمْ وَاحِدًا مِنْ ثِنْتَيْنِ، مَا عَاقَبْتُمْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَمَا صَبَرْتُم فَهُوخَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، قَالَ: فَكَأَنَّمَا أَلْقَمَهُ حَجَرًا، قَالَ: وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: وَمَا وَلَدَتْ هَمْدَانِيَّةٌ مِثْلَ مَسْرُوقٍ. (٢)

وإسناده فيه أبو مخنف لوط بن يحيى؛ قال فيه أبو حاتم: متروك الحديث، وقال ابن معين: ليس بثقة (الجرح والتعديل ٧/ ١٨٢)، وقال الذهبي: أبو مخنف إخباري تالف، لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره.

وقال الدارقطني: ضعيف، وقال ابن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء لسان الميزان (٤/ ٤٩٢)، وقال ابن عدى: شيعي محترق، صاحب أخبارهم، وإنما وصفته لاستغنى عن ذكر حديثه، فإني لا أعلم له من الأحاديث المسندة ما أذكره وإنما له من الأخبار المكروه الذي لا أستحب ذكره الكامل لابن عدي (٦/ ٩٣)، وأخرج نحوه نصر بن مزاحم في كتابه (وقعة صفين)، ونصر هذا قال عنه أبو حاتم: واهي الحديث، متروك الحديث، لا يُكتب حديثه (الجرح والتعديل٨/ ٤٦٨)، وقال الذهبي: رافضي- جلد، تركوه (ميزان الاعتدال٤/ ٢٥٣)، وكتابه ساقط.

(١) **ضعيف**. أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٩٠)، من طريق ضمرة عن رجاء بن أبي سلمة عن مطرف به وسبب ضعفه أن فيه أكثر من علة:

أ- انقطاع بين رجاء بن أبي سلمة ومطرف، فإن مطرف تُوفي عام٩٥، ورجاء وُلد عام٩١.

ب- ضمرة بن ربيعة: صدوق يهم قليلًا.

ج-أسد بن موسى: ذكره في الجرح والتعديل، ولم يذكر فيه شيئًا (٤/ ٥)، فمثله مجهول الحال.

(٢) **ضعيف جدًّا**. المعجم الكبير للطبراني (١/ ٨١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (١/ ٥٧)، وفي تثبت

وعَنْ عَلْقَمَةَ بن وَقَّاصٍ، قَالَ: اجْتَمَعْنَا فِي دَارِ مَخْرَمَةَ بَعْدَمَا قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺنُرِيدُ الْبَيْعَةَ، فَقَالَ أَبُو جَهْمِ بن حُذَيْفَةَ: إِنَّا مَنْ بَايَعَنَا مِنْكُمْ فَإِنَّا لا نَحُولُ دُونَ قِصَاصٍ، فَقَالَ عَمَّارُ بن يَاسِرٍ: أَمَّا مِنْ دَمِ عُثْمَانَ فَلا، فَقَالَ أَبُو جَهْمٍ: يَا ابْنَ سُمَيَّةَ، وَاللهِ لَتُقَادَنَّهُ مِنْ جَلَدَاتٍ جُلِدْتَهَا، وَلا يُقَادُ لِدَمِ عُثْمَانَ ﷺ فَانْصَرَفُوا يَوْمَئِذٍ عَنْ غَيْرِ بَيْعَةٍ. (١)

الإمامة وترتيب الخلافة (١/ ١٧٨)، وتاريخ دمشق (٣٩/ ٤٩٤). عن أبي خليفة عن حفص بن عمر الحوضي عن الحسن بن أبي جعفى عن مجالد عن الشعبي به وهذا إسناد ضعيف جدًّا، أبو خليفة هو الفضل ابن الحباب بن محمد بن شعيب الجمحي؛ ذكر الذهبي عن السمعاني اتهامه بالرفض وضعف ذلك، ثم مال إلى كونه رمي بالنصب، وعلى كل فهذا خبر فيه طعن على الصحابة وعلى أهل البيت فلو كان متهما بالرفض رد الخبر لأن فيه طعنا على الصحابة ولو كان اتهم بالنصب رد خبره لأن فيه طعنا على أهل البيت مع الصحابة ومما يؤيد الأول قوله فيما نقل عنه الصفدي:

شيبان والكبش حدثاني شيخان بالله عالمان

قالا: إذا كنت فاطميًا فاصبر على نكبة الزمان

ثم قال فيه: وكان هذا أبو خليفة يتشيع وكان يقرأ عليه سرًا ديوان عمران بن حطان ويبكي في مواضع منه، الوافي بالوفيات (٧/ ١٧١). وذكر الذهبي فيه شيئًا آخر وهو احتراق كتبه لسان الميزان (٢/ ٢٩٢).

وفي الإسناد الحسن بن أبي جعفر الجفري قال فيه أبو نعيم: الحسن بن أبي جعفر واسمه عجلان الجفري منكر الحديث ضعفه علي بن المديني. اهـ الضعفاء (١/ ٧٣)، وقال ابن حبان في المجرحين: ضعفه يحيى بن معين، وتركه (الشيخ الفاضل) أحمد بن حنبل (رحمه الله) قال أبو حاتم: ابن أبي جعفر من المتعبدين المجابين الدعوة في الأوقات، ولكنه ممن غفل عن صناعة الحديث واشتغل بالعبادة عنها، فإذا حدث وهم فيما يروى ويقلب الأسانيد، وهولا يعلم صار ممن لا يحتج به وإن كان فاضلًا (١/ ٢٣٧)، وقال البخاري: منكر الحديث، مات سنة سبع وستين ومائة، قال إسحاق: ضعفه أحمد (التاريخ الكبير ٢/ ٢٨٨)، والضعفاء الصغير (١/ ٣٣)، وميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٤٨٢)، والجرح والتعديل (٣/ ٢٩) الضعفاء للأصبهاني (١/ ٧٣)، الكشف الحثيث عمن رُمي بوضع الحديث للحلبي (١/ ٩٠). وقال الحافظ بن حجر: ضعيف الحديث (التقريب ١٢٢٢) وكذلك مجالد وهو ابن سعيد ليس بالقوي وتغير في آخر عمره كذا قال الحافظ وفي الخبر مخالفة للغة العربية وذلك قوله: وليحمين الحمى حكاية للماضي ولا تصح في هذه الأفعال لأنها خلصت للاستقبال بعد أن وقعت جوابًا للقسم مقترنًا بلامه (فتنة مقتل عثمان ٥٤٨).

(١) منكر. أخرجه الطبراني (١١٥) من حديث أبي خليفة عن أحمد بن يحيى بن حميد الطويل، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ٤٣٦) من حديث يعقوب عن الحجاج بن منهال، كلاهما (أحمد، حجاج) عن حماد عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جده علقمة به، وإسناده ضعيف وفيه أكثر من علة:

١ - عمرو بن علقمة، قال عنه الحافظ: مقبول، ولم يتابعه أحد في الحديث، فهو لين الحديث هنا.

٨-وهذا خبر فيه أن طلحة ﷺكان مع الثوار أمام الدار وناداه عثمان فلم يرد عليه إلا بعد ثلاث: عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ شَهِدْتُ عُثْمَانَ يَوْمَ حُوصِرَ فِى مَوْضِعِ الْجَنَائِزِ وَلَو أُلْقِيَ حَجَرٌ لَمْ يَقَعْ إِلاَّ عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ فَرَأَيْتُ عُثْمَانَ أَشْرَفَ مِنَ الْخَوْخَةِ التي تلي مَقَامَ جِبْرِيلَ عليه السلامفَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَفِيكُمْ طَلْحَةُ فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَفِيكُمْ طَلْحَةُ؟ فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَفِيكُمْ طَلْحَةُ؟ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: أَلاَ أَرَاكَ هَا هُنَا مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّكَ تَكُونُ فِي جَمَاعَةٍ تَسْمَعُ ندائي آخِرَ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ ثُمَّ لاَ تجيبني، أَنْشُدُكَ الله يَا طَلْحَةُ تَذْكُرُ يَوْمَ كُنْتُ أَنَا وَأَنْتَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ غيري وَغَيْرُكَ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَكَ رَسُولُ الله ﷺ: « يَا طَلْحَةُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نبي إِلاَّ وَمَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ رَفِيقٌ مِنْ أُمَّتِهِ مَعَهُ في الْجَنَّةِ وَإِنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ هَذَا - يعنيني - رفيقي معي في الْجَنَّةِ ». قَالَ طَلْحَةُ: اللهمَّ نَعَمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ. (١)

٩- عن عبد الرحمن بن يسار أنه قال: لما رأى الناس ما صنع عثمان كتب من بالمدينة من أصحاب النبي ﷺ إلى ما بالآفاق منهم وكانوا قد تفرقوا في الثغور: إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله ﷻ تطلبون دين محمدﷺ، فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك فهلموا فأقيموا دين محمد ﷺ فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه. (٢)

٢- أبو خليفة؛ متهم بالرفض والنصب، وأنكره البخاري وضعفه غيره.

٣- محمد بن عمرو متكلم فيه وفي حفظه مقال.

(١) **ضعيف جدًا**. أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند (١/ ٧٤)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل (١/ ٢٠٤)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٩٧) من طريق عبيد الله بن عمر القواريري، وأخرجه البزار في مسنده (٢/ ٢٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٨٨) من طريق محمد بن المثنى، كلاهما (عبيد الله، محمد) عن القاسم بن الحكم بن أوس عن أبي عبادة الزرقي عن زيد بن أسلم به فيه:

أ-أبو عبادة: متروك الحديث. ب- القاسم بن الحكم: مجهول (لسان الميزان٧/ ٣٣٨).

وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية: هذا حديث لا يصح أما أبو عبادة فاسمه عيسى بن عبدالرحمن بن فروة؛ قال أبوحاتم الرازي: هو ضعيف شبيه بالمتروك، وقال النسائي: هو متروك، وأما القاسم بن الحكم فقال أبو حاتم الرازي: مجهول (١/ ٢٠٥)، والقاسم بن الحكم لين الحديث التقريب (٥٤٥٥ص٤٠٥).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٠١) من طريق جعفر بن عبد الله المحمدي عن عمرو بن حماد عن محمد بن إسحق

٨- عن محمد بن السائب الكلبي قال: إنما رد أهل مصر إلى عثمان بعد انصرافهم عنه أنه أدركهم غلام لعثمان على جمل له بصحيفة إلى أمير مصر أن يقتل بعضهم وأن يصلب بعضهم، فلما أتوا عثمان قالوا: هذا غلامك؟ قال: غلامي انطلق بغير علمي، قالوا: جملك؟ قال: أخذه من الدار بغير أمري، قالوا: خاتمك؟ قال: نقش عليه، فقال عبد الرحمن بن عديس التجيبي حين أقبل أهل مصر:

قبلن من بلبيس والصَّعيد خوضًا كأمثال القسيِّ قود

مستحقبات حلق الحديد يطلبن حقَّ الله في الوليد

وعند عثمان وفي سعيد يا ربِّ فارجعنا بما نريد

فلما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من الناس كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشأم على كل صعب وذلول فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله ﷺ وقد علم اجتماعهم، فلما أبطأ أمره على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كرز وإلى أهل الشأم يستنفرهم ويعظم حقه عليهم، ويذكر الخلفاء وما أمر الله ﷻ به من طاعتهم ومناصحتهم، ووعدهم أن ينجدهم جند أو بطانة دون الناس، وذكرهم بلاءه عندهم وصنيعه إليهم، فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل فإن القوم معاجلي، فلما قرئ كتابه عليهم قام يزيد بن أسد بن كرز البجلي ثم القسري فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر عثمان فعظم حقه وحضهم على نصره وأمرهم بالمسير إليه فتابعه ناس كثير وساروا معه حتى إذا كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان رضي الله عنه فرجعوا، وكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر أن اندب إلى أهل البصرة نسخة كتابه إلى أهل الشأم فجمع

عن عمه عبد الرحمن بن يسار وهذا إسناد لا يصح مع ما في المتن من نكارة بينة واضحة أما الإسناد ففيه عنعنة محمد بن إسحاق بن يسار، وجعفر مجهول، وعمرو هو ابن حماد بن طلحة صدوق رمي بالرفض؛ وقال أبو داود: كان من الرافضة ذكر عثمان بشيء فطلبه السلطان فهرب، وقال الساجي: يتهم في عثمان وعنده مناكير. اهـ تهذيب التهذيب (٨/ ٢١)، والتقريب (٥٠١٤ص ٣٧٥)، وعبد الرحمن مقبول ولم يتابع. اهـ التقريب (ت ٨٣٦٣). وهذا عند الحافظ لا يقبل تفرده فكيف إذا روى ما يخالف أيضا.

عبد الله بن عامر الناس فقرأ كتابه عليهم، فقامت خطباء من أهل البصرة يحضونه على نصر عثمان والمسير إليه فيهم مجاشع بن مسعود السلمي، وكان أول من تكلم وهو يومئذ سيد قيس بالبصرة، وقام أيضًا قيس بن الهيثم السلمي فخطب وحض الناس على نصر عثمان فسارع الناس إلى ذلك فاستعمل عليهم عبد الله بن عامر مجاشع بن مسعود فسار بهم حتى إذا نزل الناس الربذة ونزلت مقدمته عند صرار ناحية من المدينة أتاهم قتل عثمان. (١)

٩- عن جزي بن بكير العبسي قال: لما قتل عثمان أتينا حذيفة فدخلنا صفة له، قال: والله، ما أدري ما بال عثمان، والله ما أدري ما حال من قتل عثمان إن هو إلا كافر قتل الآخر، أو مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قتله فهو أكمل الناس إيمانًا. (٢)

وعن جزي بن بكير قال: لما قتل عثمان، فزعنا إلى حذيفة في صفة له فقال: والله ما أدري كافرًا أو مؤمنًا خاض الفتنة إلى كافر يقتله. (٣)

---

(١) موضوع. أخرجه الطبري في تاريخه (٣/ ٤٠١) من طريق جعفر عن عمرو وعلي عن الحسين عن أبيه عن الكلبي به وهو كذب بَيِّنٌ على عثمان وعلى الصحابة ﷺ، وهؤلاء رجال إسناده جعفر بن عبد الله المحمدي هكذا جاء اسمه مصرحًا به في تاريخ الطبري وهو مجهول ولم ينقل عنه الطبري إلا في ثلاثة عشر موضعًا كلها في فتنة مقتل عثمان ﷺ. وشيوخه فيها هم عمرو وعلي (٣/ ٣٧٢، ٤٠٠، ٤١٣، ٤٣٨، ٤٤١، ٤٥٠)، وعمرو صدوق رمي بالرفض، وعلى هو ابن حسين بن عيسى بن زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب؛ وهو مجهول لم أجد من ترجم له، وحسين هو ابن عيسى بن زيد بن على بن حسين بن علي سكت عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣/ ٦٠)، وأبوه هو عيسى بن زيد بن علي بن حسين بن علي سكت عنه ابن أبي حاتم الجرح والتعديل (٦/ ٢٧٦) ومحمد بن السائب الكلبي متهم بالكذب ورمي بالرفض مات سنة ١٤٦ هـ التقريب (ت ٥٩٠١ ص ٤٣٤)، فهذا إسناد فيه فيه ست علل إحداهما تكفي.

(٢) المعرفة والتاريخ (١/ ٣٦٣) وهو منكر وفي إسناده جزي بن بكير العبسي قال عنه البخاري، وأبو حاتم: منكر الحديث. التاريخ الكبير (٢/ ٢٥١)، الجرح والتعديل (٢/ ٥٤٦)، ويدل على نكارة متنه ما تقدم عن حذيفة من جزمه بأن عثمان في الجنة وأن قتلته في النار واستعظامه قتله وعيبه من خرج من أهل الأمصار إلى عثمان ﷺ.

(٣) منكر. أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٨٣)، والعقيلي في الضعفاء (١/ ٢٠١) من حديث صخر بن الوليد الفزاري عن جزي به، فيه جزي بن بكير: منكر الحديث، قاله البخاري وأبو حاتم كما في التاريخ الكبير (٢/ ٢٥٠)، لسان الميزان (٢/ ١٠٤)، وفيه صخر بن الوليد، ذكره في التاريخ الكبير (٤/ ٣١١)، الجرح والتعديل (٤/ ٤٢٦)، ولم يذكر فيه شيئًا (فهو مجهول).

ومما يدل على نكارته ما تقدم عن حذيفة من جزمه بأن عثمان في الجنة، وأن قتلته في النار، واستعظامه قتله

١٠-أما هذه الرواية فهي تذكر أن عمرو بن العاص من أكبر أسباب مقتل عثمان بسبب عزل عثمان له وهي أيضًا من الكذب.

قال الطبري: وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسير المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خشب أمورًا كثيرة، منها ما قد تقدم ذكره، ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة مني ذكره لبشاعته، ومنها ما ذكر أن عبد الله بن جعفر حدثه عن أبي عون مولى المسور قال: كان عمرو بن العاص على مصر عاملًا لعثمان فعزله عن الخراج واستعمله على الصلاة واستعمل عبد الله بن سعد على الخراج ثم جمعهما لعبد الله بن سعد، فلما قدم عمرو بن العاص المدينة جعل يطعن على عثمان فأرسل إليه يومًا عثمان خاليًا به، فقال: يا ابن النابغة، ما أسرع ما قمل جربان جبتك إنما عهدك بالعمل عامًا أول أتطعن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر؟ والله لولا أكلة ما فعلت ذلك، قال: فقال عمرو: إن كثيرًا مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك، فقال عثمان: والله، لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك، فقال عمرو: قد كنت عاملًا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راضٍ، قال: فقال عثمان: وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ولكني لنت عليك فاجترأت علي، أما والله لأنا أعز منك نفرًا في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان، فقال عمرو دعْ عنك هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وهدانا به، قد رأيت العاصي بن وائل ورأيت أباك عفان فو الله للعاص كان أشرف من أبيك، قال: فانكسر عثمان وقال: مالنا ولذكر الجاهلية قال: وخرج عمرو، ودخل مروان فقال: يا أمير المؤمنين، وقد بلغت مبلغًا يذكر عمرو بن العاص أباك، فقال عثمان: دع هذا عنك من ذكر آباء الرجال ذكروا أباه، قال: فخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقد عليه، يأتي عليًا مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي الزبير مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي طلحة مرة فيؤلبه على عثمان، ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان، فلما كان حصر عثمان الأول خرج

وعيبه ممن خرج من أهل الأمصار إلى عثمانﷺ. تنبيه: وقع خطأ في اسم صخر بن الوليد، عند الفسوي فقال: الوليد بن صخر، والصواب ما ذكرنا.

من المدينة حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين يقال لها: السبع، فنزل في قصر له يقال له: العجلان وهو يقول: العجب ما يأتينا عن ابن عفان، قال: فبينا هو جالس في قصره ذلك ومعه ابناه محمد وعبد الله وسلامة بن روح الجذامي إذ مر بهم راكب فناداه عمرو: من أين قدم الرجل؟ فقال: من المدينة، قال ما فعل الرجل؟ يعني: عثمان قال تركته محصورًا شديد الحصار، قال عمرو: أنا أبو عبد الله قد يضرط العير والمكواة في النار، فلم يبرح مجلسه ذلك حتى مر به راكب آخر فناداه عمرو ما فعل الرجل؟ يعني: عثمان، قال: قتل، قال أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها إن كنت لأحرض عليه حتى إني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل، فقال له سلامة بن روح: يا معشر قريش، إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه، فما حملكم على ذلك؟ فقال: أردنا أن نخرج الحق من حافرة الباطل، وأن يكون الناس في الحق شرعًا سواء، وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ففارقها حين عزله. (١)

١١-**قال الطبري**: قال محمد بن عمر وحدثني شرحبيل بن أبي عون عن أبيه قال: سمعت عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث يذكر مروان بن الحكم قال: قبح الله مروان، خرج عثمان إلى الناس فأعطاهم الرضا وبكى على المنبر وبكى الناس حتى نظرت إلى لحية عثمان مخضلة من الدموع وهو يقول: اللهم إني أتوب إليك، اللهم إني أتوب إليك، اللهم إني أتوب إليك، والله لئن ردني الحق إلى أن أكون عبدًا قنا لأرضين به إذا دخلت منزلي فادخلوا علي، فو الله لا أحتجب منكم ولأعطينكم الرضا ولأزيدنكم على الرضا ولأنحين مروان وذويه، قال: فلما دخل أمر بالباب ففتح ودخل بيته ودخل عليه مروان فلم يزل يفتله في الذروة والغارب حتى فتله عن رأيه وأزاله عما كان يريد، فلقد مكث عثمان ثلاثة أيام ما خرج استحياء من الناس، وخرج مروان إلى الناس فقال: شاهت الوجوه إلا من أريد ارجعوا إلى منازلكم فإن يكن لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه وإلا قر في

(١) ضعيف جدًّا. أخرجه الطبري في تاريخه (٧/ ٦٥٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٥/ ٢٦)، فيه: الواقدي (متروك).

بيته، قال عبد الرحمن: فجئت إلى علي فأجده بين القبر والمنبر، وأجد عنده عمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر وهما يقولان: صنع مروان بالناس وصنع، قال: فأقبل على علي فقال: أحضرت خطبة عثمان، قلت: نعم، قال: أفحضرت مقالة مروان للناس، قلت: نعم، قال علي: عياذ الله يا للمسلمين إني إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإني إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله ﷺ قال عبد الرحمن بن الأسود: فلم يزل حتى جاء رسول عثمان؛ ائتني، فقال علي بصوت مرتفع عال مغضب: قل له: ما أنا بداخل عليك ولا عائد، قال: فانصرف الرسول، قال: فلقيت عثمان بعد ذلك بليلتين خائبًا، فسألت ناتلًا غلامه: من أين جاء أمير المؤمنين؟ فقال: كان عند علي، فقال عبد الرحمن بن الأسود: فغدوت فجلست مع علي عليه السلام فقال لي: جاءني عثمان البارحة فجعل يقول: إني غير عائد وإني فاعل قال: فقلت: له بعد ما تكلمت به على منبر رسول الله ﷺ وأعطيت من نفسك، ثم دخلت بيتك وخرج مروان إلى الناس فشتمهم على بابك ويؤذيهم! قال: فرجع وهو يقول: قطعت رحمي وخذلتني وجرأت الناس علي، فقلت: والله إني لأذب الناس عنك ولكني كلما جئتك بهنة أظنها لك رضي جاء بأخرى فسمعت قول مروان علي واستدخلت مروان، قال: ثم انصرف إلى بيته، قال عبد الرحمن بن الأسود: فلم أزل أرى عليًا منكبًا عنه لا يفعل ما كان يفعل، إلا أني أعلم أنه قد كلم طلحة حين حصر في أن يدخل عليه الروايا وغضب في ذلك غضبًا شديدًا حتى دخلت الروايا علي عثمان.[1]

١٢- عن إسماعيل بن محمد أن عثمان صعد يوم الجمعة المنبر فحمد الله وأثنى عليه فقام رجل فقال: أقم كتاب الله، فقال عثمان: اجلس فجلس حتى قام ثلاثًا فأمر به عثمان فجلس، فتحاثوا بالحصباء حتى ما ترى السماء، وسقط عن المنبر وحمل فأدخل داره مغشيًا عليه، فخرج رجل من حجاب عثمان ومعه مصحف في يده وهو ينادي: " إن الذين فرقوا

(١) ضعيف جدًا، تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٧)، فيه الواقدي: متروك الحديث، كما أن شرحبيل بن أبي عون وأباه مجهولان.

دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله"، ودخل علي بن أبي طالب على عثمان - رضي الله عنهما- وهو مغشي عليه وبنو أمية حوله، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، فأقبلت بنو أمية بمنطق واحد فقالوا: يا علي أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين، أما والله لئن بلغت الذي تريد لتمرن عليك الدنيا فقام علي مغضبا.[(١)]

١٣ -**قال الطبري**: قال محمد بن عمر: حدثني محمد بن مسلم، عن موسى بن عقبة، عن أبي حبيبة قال: نظرت إلى سعد بن أبي وقاص يوم قتل عثمان؛ دخل عليه ثم خرج من عنده وهو يسترجع مما يرى على الباب، فقال له مروان: الآن تندم، أنت أشعرته فأسمع سعدًا يقول: استغفر الله لم أكن أظن الناس يجترئون هذه الجرأة ولا يطلبون دمه، وقد دخلت عليه الآن فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك؛ فنزع عن كل ما كره منه وأعطى التوبة وقال: لا أتمادى في الهلكة إن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق، فأنا أتوب وأنزع، فقال مروان: إن كنت تريد أن تذب عنه فعليك بابن أبي طالب فإنه متستر وهولا يجبه، فخرج سعد حتى أتى عليًا وهو بين القبر والمنبر، فقال: يا أبا الحسن، قم فداك أبي وأمي جئتك والله بخير ما جاء به أحد قط إلى أحد؛ تصل رحم ابن عمك وتأخذ بالفضل عليه وتحقن دمه ويرجع الأمر على ما نحب، قد أعطى خليفتك من نفسه الرضى، فقال علي تقبل الله منه يا أبا إسحاق والله ما زلت أذب عنه حتى إني لاستحى، ولكن مروان، ومعاوية وعبد الله بن عامر، وسعيد بن العاص هم صنعوا به ما ترى، فإذا نصحته وأمرته أن ينحيهم استغشني حتى جاء ما ترى، قال: فبيناهم كذلك جاء محمد بن أبي بكر فسار عليًا فأخذ علي بيدي ونهض علي وهو يقول: وأي خير توبته هذه فوالله ما بلغت داري حتى سمعت الهائعة؛ أن عثمان قد قتل فلم نزل والله في شرٍ إلى يومنا هذا.[(٢)]

١٤ -**قال الطبري**: (وأما الواقدي) فإنه زعم أن عبد الله بن محمد حدثه عن أبيه قال: لما

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٨). وهذا إسناد ضعيف جدًا بالواقدي؛ لأن الواقدي متروك مع نكارة المتن الواضحة من خلال الروايات الصحيحة.

(٢) ضعيف جدًا. أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٦٨)، فيه الواقدي: متروك.

كانت سنة أربعة وثلاثين كتب أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم إلى بعض: أن أقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد، وأصحاب رسول الله ﷺ يرون ويسمعون ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفير زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس وكلموا عليًا بن أبي طالب، فدخل على عثمان فقال الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئًا تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خصصنا بأمر دونك، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك، وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ وآله رحمًا ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا، ولا سبقاك إلى شيء، فالله الله في نفسك فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل، وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدى وهَدى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة، فوالله إن كلًا لبين وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَل وضُل به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتي يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم.

وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه يقال: يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعًا فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجا ويمرجون فيها مرجًا، فقال عثمان: قد والله علمت ليقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منكرًا أن وصلت رحمًا

وسددت خلة وآويت ضائعًا ووليت شبيها بمن كان عمر يولي، أنشدك الله يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم، قال: فتعلم أن عمر ولاه، قال: نعم، قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي: سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه أن بلغه عنه حرف جلبه، ثم بلغ به أقصى الغاية وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقربائك، قال عثمان: هم أقرباؤك أيضًا، فقال علي: لعمري، إن رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم، قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها فقد وليته، فقال علي: أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟ قال: نعم، قال علي: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية، ثم خرج علي من عنده، وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر فقال: أما بعد فإن لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون أمثال النعام يتبعون أول ناعق، أحب مواردها إليها البعيد لا يشربون إلا نغصًا ولا يردون إلا عكرًا، لا يقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور وتعذرت عليهم المكاسب، ألا فقد والله عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم أوطأت لكم كتفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي، أما والله لأنا أعز نفرًا وأقرب ناصرًا وأكثر عددًا، وأقمن إن قلت هلم أتى إلي، ولقد أعددت لكم أقرانكم، وأفضلت عليكم فضولًا، وكشرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خلقًا لم أكن أحسنه، ومنطقًا لم أنطق به، فكفوا عليكم ألسنتكم، وطعنكم، وعيبكم على ولاتكم، فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا، ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ومن لم تكونوا تختلفون عليه فضل فضلي من مال فما لي لا أصنع في الفضل ما أريد فلم كنت إمامًا فقام مروان بن

الحكم فقال: إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر:

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم معارسكم تبنون في دمن الثرى

فقال عثمان: اسكت لأسكت، دعني وأصحابي ما منطقك في هذا، ألم أتقدم إليك ألا تنطق فسكت مروان ونزل عثمان. (١)

١٥-**قال ابن شبة**: ما روي من الاختلاف فيمن أعان عثمان ﷺأو أعان عليه من أصحاب النبي ﷺ وأزواجه رضي الله عنهم وغيرهم؛ عن قيس بن عباد قال: كنا مع علي ﷺفكان إذا شهد مشهدًا، أو أشرف على أكمة، أو هبط واديًا قال: صدق الله ورسوله، فقلت لرجل من بني يشكر: انطلق بنا إلى أمير المؤمنين نسأله عن قوله: صدق الله ورسوله، فانطلقنا إليه فقلنا: يا أمير المؤمنين، رأيناك إذا شهدت مشهدًا أو أشرفت على أكمة قلت: صدق الله ورسوله، فهل عهد إليك رسول الله ﷺ في ذلك شيئًا؟ فأعرض عنا، فألححنا عليه فقال: والله ما عهد إلي رسول الله ﷺ في ذلك عهدًا إلا شيئًا أخذه على الناس، ولكن الناس وثبوا على عثمان ﷺ فقتلوه فكان غيري فيه أسوأ حالًا مني وأسوأ فعلًا مني، ثم رأيت أني أحقهم بها فوثبت عليها، فالله أعلم أخطأنا أم أصبنا. (٢)

١٦- وقال أيضًا: حدثنا علي بن محمد، عن جناب بن موسى، عن مجالد، عن الشعبي قال: لما قدم أهل مصر المرة الثانية صعد عثمان رضي الله عنه المنبر فحصبوه، وجاء علي ﷺفدخل المسجد، فقال عثمان ﷺ: يا علي، قد نصبت القدر على أثاف، قال: ما جئت إلا

---

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٤٤)، فيه الواقدي: متروك.

(٢) **ضعيف**. أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (١١٦٦) من طريق محمد بن حميد، وأخرجه في مسند عبد الله ابن المبارك (٢٥٣) من طريق حبان بن موسى، كلاهما (محمد، حبان) عن عبد الله بن المبارك عن معمر عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن قيس بن عباد، وإسناده ضعيف فيه: علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، والحسن: مدلس وقد عنعنه، محمد بن حميد الرازي: أجمع أهل الري (بلده) على تضعيفه، وأنه كان يأخذ أحاديث الناس فيقلب بعضها على بعض، وهو متهم بالكذب، انظر التاريخ الكبير (١/ ٦٩)، المجروحين (٢/ ٣٠٣)، الميزان (٣/ ٥٣٠)، تهذيب الكمال (٢٥/ ١٠٨: ٩٧).

وأنا أريد أن أصلح أمر الناس، فأما إذا اتهمتني فسأرجع إلى بيتي[١].

١٧- وقال ابن شبة حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا يوسف بن الماجشون قال: حدثني أبي: أن أم حبيبة زوج النبي ﷺ ورضي عنها حين حصر عثمان ﷺ حملت حتى وضعت بين يدي علي ﷺ في خدرها وهو على المنبر فقالت: أجر لي من في الدار، قال: نعم، إلا نعثلًا وشقيًا، قالت: فوالله ما حاجتي إلا عثمان وسعيد بن العاص، قال: ما إليهما سبيل، قالت: ملكت يا ابن أبي طالب فأسجح قال: أما والله ما أمرك الله بهذا ولا رسوله.[٢]

١٨-عن أبي الصهباء البكري قال: تذاكرنا قتل عثمان ﷺ فقال بعضنا: ما أرى عليًا قتله إلا أنه كان يراه كافرًا، فقلت ألا تسأله عن ذلك؟ فسألته، فقال: والله، ما كان عثمان بشرنا، ولكن ولي فاستأثر، وجزعنا فأسأنا الجزع، وسنرد إلى حكم فيقضي بينا.[٣]

١٩- عن نوفل بن مساحق، قال: دخل علي ﷺعلى عثمان ﷺبالذي وجده أهل مصر مع غلامه، فحلف عثمان ﷺما كتبه، فقال له علي ﷺ: فمن تتهم؟ قال: أتهمك وكاتبي، فغضب علي ﷺوخرج، وقال: والله، لئن لم يكن كتبه أو كتب على لسانه ما له عذر في تضييع أمر الأمة،

---

(١) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (١١٦٧)، فيه مجالد بن سعيد، ضعفه يحيى بن سعيد، وكان الإمام أحمد يقول: ليس بشيء، وقال يحيى بن معين: لا يحتج بحديثه، وقال مرة: ضعيف، وقال ابن عدي: وعامة ما يرويه غير محفوظ. (تهذيب الكمال (٢٧/ ٢٢٤: ٢١٩).

(٢) **إسناده مرسل**. تاريخ المدينة (٤/ ١١٦٧)، يعقوب بن أبي سلمة الماجشون والد يوسف، لم يدرك الواقعة، قال الذهبي: وُلد في زمن عثمان سنة أربع وثلاثين (تاريخ الإسلام٧/ ٥٠٥)، وقال: أرسل عن صحابة (الكاشف٣/ ٢٩١). وقال الحافظ: صدوق من الرابعة (تقريب التهذيب (رقم٨٠٩٨)، والطبقة الرابعة جُل روايتهم عن كبار التابعين، كما ذكر الحافظ في المقدمة.

(٣) **إسناده ضعيف**. أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١١٦٨)، وفيه:

أ-أبو الصهباء البكري (صهيب)، قال أبو زرعة عنه: مديني ثقة (الجرح والتعديل٤/ ٤٤٤)، وقال النسائي: ضعيف (١٣/ ٢٤٢)، وذكره ابن حبان في ثقاته (٤/ ٣٨١)، وقال الحافظ: مقبول (تقريب التهذيب١/ ٢٥٧).

ب-أبو معاوية البجلي، وهو (عمار الدهني)، قال الحافظ: صدوق يتشيع (تقريب التهذيب١/ ٤٢٢).

ج-أبو صخر، وهو (حميد بن زياد) الخراط، قال الحافظ المزي: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سُئل أبي عن أبي صخر، فقال: ليس به بأس، وضعفه ابن معين في أكثر من رواية، وقال النسائي: حميد بن صخر ضعيف (تهذيب الكمال٧/ ٣٦٨: ٣٦٧)، وقال مرة: ليس بالقوي (الضعفاء ١٦٨).

ولئن كان كتبه لقد أحل نفسه ولا أرد عنه وقد اتهمني، فاعتزل، واعتزل ناس كثير. (١)

٢٠- عن عوف قال: كان أشد الصحابة على عثمان طلحة بن عبيد الله، وإنما أفسد عثمان ﷺ بطانة استبطنها من الطلقاء. (٢)

٢١-عن حكيم بن جابر قال: كلم علي طلحة وعثمان في الدار محصور، فقال: إنهم قد حيل بينهم وبين الماء، فقال طلحة: أما حتى تعطي بنو أمية الحق من أنفسها فلا. (٣)

---

(١) **ضعيف جدًّا**. تاريخ المدينة (٤/ ١١٦٨) وإسناده ضعيف جدًّا، فيه: لوط بن يحيى أبو مخنف، قال أبو حاتم: متروك الحديث، وهو شيعي محترق إخباري تالف (الجرح والتعديل٧/ ١٨٢).

(٢) **إسناده ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١٢٨٣) فيه:

أ-عوف هو ابن أبي جميلة المعروف بالأعرابي ثقة صدوق رمي بالقدر والتشيع. التقريب (٥٢١٥)، وتهذيب الكمال (٢٢/ ٤٤٠)، وحكى العقيلي عن ابن المبارك قال: حتى كانت فيه بدعتان قدري شيعي، وقال الأنصاري: رأيت داود بن أبي هند يضرب عوفًا ويقول: ويلك يا قدري ويلك يا قدري، وقال في الميزان: قال بندار وهو يقرأ لهم حديث عوف: لقد كان قدريًا رافضيًا شيطانًا. تهذيب التهذيب (٨/ ١٤٩).

ومع كونه رمي بالتشيع فهولم يدرك الواقعة؛ فالإسناد منقطع بينه وبينها لأنه مات سنة ست وأربعين ومئة، وقال أبوداود مات سنة سبع وأربعين ومئة، وقال أبو عاصم: دخلنا على عوف الأعرابي سنة ست وأربعين فقلنا: كم أتى لك؟ قال ست وثمانون سنة؛ فيفهم من هذا أنه ولد في نحو سنة ستين من الهجرة، وذكره ابن حبان في الثقات وقال كان مولده سنة ٥٩. تهذيب التهذيب (٨/ ١٤٩)، قلت: والحادثة في سنة ٣٥ فلا ندري من شيخه في هذا الخبر.

ب- جعفر بن سليمان الضبعي، وهو ثقة حسن الحديث، ولكنه تشيع. طبقات الحفاظ للسيوطي (١/ ١٩)، وروى ابن حبان في الثقات عن جرير بن يزيد بن هارون بين يدي أبيه قال: بعثني أبى إلى جعفر بن سليمان الضبعي، فقلت له: بلغنا أنك تسب أبا بكر وعمر قال: أما السب فلا، ولكن البغض ما شئت، قال: وإذًا هو رافضي مثل الحمار، قال أبو حاتم: وكان جعفر بن سليمان من الثقات المتقنين في الروايات، غير أنه كان ينتحل الميل إلى أهل البيت، ولم يكن بداعية إلى مذهبه، وليس بين أهل الحديث من أئمتنا خلاف أن الصدوق المتقن إذا كان فيه بدعة ولم يكن يدعو إليها أن الاحتجاج بأخباره جائز (الثقات٦/ ١٤٠)، الضعفاء للعقيلي (١/ ١٨٨)، قلت: الصواب من ذلك أن روايته تقبل في غير بدعته، وقال ابن حبان في مشاهير علماء الأمصار وكان يتشيع ويغلو فيه (١/ ٢٥٢). وانظر: التقريب للحافظ بن حجر رحمه الله (١/ ١٦٢)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ٤٨١)، والكامل لابن عدي (٢/ ١٤٤)، وكان يحيى بن سعيد القطان لا يكتب حديثه. تاريخ ابن معين للدوري (٢/ ١٠٤).

(٣) **ضعيف**. تاريخ المدينة (٤/ ١١٢٩)، فيه حيان بن بشر، ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، ولم يذكر فيه شيئًا (٣/ ٢٤٨) فمثله مجهول، وهو منقطع بين عمر بن شبة وبين سفيان بن عيينة لأنه يروي عنه بواسطة

٢٢- عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قال لي عبد الملك بن مروان: أشهدت الدار؟ قلت: نعم، فليسل أمير المؤمنين عما أحب، قال: أين كان علي؟ قلت: في داره، قال: فأين كان الزبير؟ قلت: عند أحجار الزيت، قال: فأين كان طلحة؟ قلت: نظرت فإذا مثل الحرة السوداء فقلت ما هذا؟ قالوا: طلحة واقف، فإن حال حائل دون عثمان قاتله، فقال: لو لا أن أبي أخبرني يوم مرج راهط أنه قتل طلحة ما تركت على وجه الأرض من بني تميم أحدًا إلا قتلته. (١)

٢٣- الروايات في رمي مروان لطلحة ثابتة، وتأويلها أن مروان اجتهد في ذلك وأخطأ في اجتهاده، حيث ظن أن طلحة ممن شارك في قتل عثمان ﷺ، وليس هناك من ضرورة توجب إصابة مروان في اجتهاده. قال ابن حجر: جَاءَ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ رَمَاهُ فَأَصَابَ رُكْبَتَهُ فَلَمْ يَزَلْ يَنْزِفُ الدَّمُ مِنْهَا حَتَّى مَاتَ(٢)

٢٤-عن عبد الوهاب بن عكرمة من بني قيس بن ثعلبة عن أمه قالت: كنت عند عائشة رضي الله عنها فدخل عليها أبو البختري بن درهم فقال: يا أم المؤمنين، ما تقولين في عثمان؟

في سائر كتابه، وكذلك لم يذكر سفيان بن عيينة في شيوخ عمر بن شبة النميري ولا ذكر عمر في تلاميذه فإسناده منقطع مع ما فيه من مخالفة للصحيح الوارد عن طلحة ﷺ.

(١) موضوع. تاريخ المدينة (٤/ ١١٧٠) من طريق عمرو بن ثابت عن أبي زارة عنه به قلت: إسناده ضعيف فيه عمرو بن ثابت؛ قال البخاري: ليس بالقوي عندهم (التاريخ الكبير٦/ ٣١٩)، وقال العجلي: عمرو بن ثابت بن هرمز البكري شديد التشيع غال فيه واهي الحديث. معرفة الثقات (٢/ ١٧٣)، وقال النسائي: متروك الحديث. الضعفاء والمتروكين (١/ ٢٢٠)، قال علي بن الحسن بن شقيق سمعت ابن المبارك يقول: لا تحدثوا عن عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف، وقال الحسن بن عيسى: ترك ابن المبارك حديثه، وقال أبو زرعة: ضعيف الحديث، وكذا قال أبو حاتم وزاد: يكتب حديثه؛ كان رديء الرأي شديد التشيع، وقال الآجري، عن أبي داود: رافضي- خبيث، وقال في موضع آخر: رجل سوء؛ قال لما مات النبي ﷺ: كفر الناس إلا خمسة وجعل أبوداود يذمه، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات، وقال ابن عدي: الضعف على رواياته بي، وقال ابن سعد: كان متشيعًا مفرطًا؛ ليس هو بشيء في الحديث، ومنهم من لا يكتب حديثه لضعفه ورأيه وقال أبو أحمد الحاكم حديثه ليس بالمستقيم وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه كان يشتم عثمان ترك ابن المبارك حديثه وقال الساجي مذموم وكان ينال من عثمان ويقدم عليا على الشيخين تهذيب التهذيب (٨/ ٩)، والجرح والتعديل (٦/ ٢٢٣)، والكامل في الضعفاء (٥/ ١٢٠)، والمجروحين لابن حبان (٢/ ٧٦)، والبداية والنهاية (٦/ ٩١).

(٢) فتح الباري (٧/ ٨٢).

فقالت: " وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ". [١]

٢٥-عن النعمان بن بشير ﷺقال: دخلت على عائشةﷺ وعندها قوم من المهاجرين يذكرون عثمان رضي الله عنه أول ما حصر فقالت: أنا أمكم، تريدون أمرا إن عمل به رأيتم ما تكرهون، فنظرت إلي عائشة فقالت: نعمان؟ قلت: نعم، قالت: تعلمني بك أي عدو الله، والله لوددت أن قريشا ردتك تكرها اضربوه، قال: فضربوني، فقلت: لا جرم، والله لا آتي هذا المكان أبدًا. [٢]

٢٦-عن وهب بن جرير قال، حدثنا أبي قال، سمعت قتادة يحدث: أن عبد الله بن أذينة العبدي لما بلغه قدوم طلحة والزبير ركب فرسه فتلقاهما قبل أن يدخلا البصرة، فإذا محمد بن طلحة بن عبيد الله (وكان يقال له الساجد من عبادته فقال له: من أنت؟ قال: أنا محمد بن طلحة، قال: والله إن كنت لأحب أن ألقاك، قال له محمد: من أنت؟ قال: عبد الله بن أذينة، فأخبرني عن قتل عثمان، قال: أخبرك أن دم عثمان، ثلاثة أثلاث، ثلث على صاحبة الخدر – يعني: عائشةﷺ – فلما سمعته يقول ذلك شتمته وأساءت له القول، فقال: يغفر الله لك يا أمتاه، وثلث على علي بن أبي طالبﷺ ، وثلث على صاحب الجمل الأحمر ميمنة القوم – يعني أباه طلحة – فلما سمعه أبوه أقبل إليه سريعًا وقال: ويحك هل

---

(١) إسناده ضعيف. وهذا خبر منكر، أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١١٧١) من طريق عبد الوهاب بن عكرمة وهو يروى عن كريمة بنت عمارة جدته عن عائشة روى عنه أهل البصرة الثقات (٧/ ١٣٢) وجدته هذه هي التي قال عنها أمه في الرواية التي معنا وقد صرح بذلك البخاري في التاريخ الكبير (٦/ ٩٩) فقال: عبد الوهاب بن عكرمة يعد في البصريين قال: اخبرتني جدتي كريمة بنت عمارة قالت: فذكره وكذا ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٦/ ٧٠) ولم يذكروا فيه جرحًا ولا تعديلًا فهو مجهول الحال.

ومما يدل على نكارته ما تقدم من خبر عائشة من حزنها على مقتل عثمانﷺ، والدعاء على من قتله.

(٢) تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١١٧٣). من طريق سعيد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان به وهو منقطع بين سعيد بن عبد الرحمن بن حسان والنعمان بن بشير فسعيد من صغار الطبقة العاشرة مات سنت ٢٤٩ والنعمان صحابي قتل في أول سنة ٦٤ التقريب (ت٢٣٤٨، ٧١٥٢)، وتهذيب التهذيب (٢/ ٣١٨)، وطبقات ابن خياط (١/ ٩٤)، وسعيد بن عبد الله الأنصاري لم أجد له ترجمة.

ثاب رجل بأفضل من نفسه.[(١)]

٢٧- قال الحارث بن خليف، سألت سعدا عن قتل عثمان ﷺ فقال: قتل بسيف سلته عائشةﷺ: وشحذه طلحة ﷺ، وسمه ابن أبي طالب ﷺقلت: فالزبير؟ قال: فسكت وأشار بيده وأمسكنا، ولو شئنا لرفعنا ولكن عثمان ﷺتغير وتغير، أساء وأحسن، ولم يجد متقدما، فإن كنا أحسنا فقد أحسنا وإن كنا أسأنا فنستغفر الله. قال وكان الزبير لي صديقًا فأتيته، فقال ما أقدمك؟ فقلت: جئت لأقتدي بك، قال: فارجع، قلت: فأنت؟ قال تالله إني لمغلوب مطلوب، يغلبني أهلي، وأطلب بذنبي، قلت: فصاحبكم؟ قال: لو لم يجد إلا أن يشق بطنه من حب الإمارة لشقة.[(٢)]

(١) موضوع. أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة تاريخ المدينة (٤/ ١١٧٣)، وفي إسناده عبد الله بن أذينة: منكر الحديث جدًّا، يروي عن ثور ما ليس من حديثه لا يجوز الاحتجاج به بحال المجروحين (٢/ ١٩)، والكامل لابن عدي (٤/ ٢١٤)، وقال ابن حجر: وقال الأزدي قال أبوزكريا في تاريخ أهل الموصل قال خضر بن حسان أتيت علي بن حرب أسأله عن ابن أذينه فضعفه وقال أبوداود كان قاضي البصرة وقال الحاكم والنقاش روى أحاديث موضوعة وقال الدارقطني متروك الحديث. لسان الميزان (٢/ ٢٦).
وجرير بن حازم بن زيد ثقة لكن في حديثه عن قتادة ضعف وله أوهام إذا حدث من حفظه تقريب التهذيب (ت ٩١١)، وهذا من حديث جرير عن قتادة، فيُضعف.
(٢) موضوع. أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١١٧٤)، وفيه:
أ-الإسناد معلق إلى ابن داب فهو من الثامنة وابن شبة من كبار الحادية عشرة قال الحافظ ابن حجر: بن داب: هو محمد بن داب بموحدة المدني لسان الميزان (٣/ ٢٨٠).
ب- محمد بن داب قال أبو زرعة ضعيف الحديث كان يكذب، وقال أبو عبيد الآجري عن أبي داود سمعت أبا حاتم قال سمعت الأصمعي قال قال لي خلف الأحمر إنشاء بين المشرق والمغرب ابن داب يضع الحديث بالمدينة وابن شول يضع الحديث بالسند وقيل إن ابن داب الذي ذكره خلف هو عيسى بن يزيد له عنده حديث أبي سعيد من كتم علما قلت عيسى بغدادي كان ينادم المهدي فلعل خلفا إن كان قصده عنى مدينة المنصور وإلا فظاهر الإطلاق يدل على أنه أراد الأول وفي عيسى يقول الشاعر خذوا عن مالك وعن بن عون ولا ترووا أحاديث بن داب تهذيب التهذيب (٥/ ١٠١)، وتهذيب الكمال (٢٥/ ١٧٢)، والتقريب (١/ ٤٧٧)، وميزان الاعتدال (٣/ ٥٤٠)، الجرح والتعديل (٧/ ٢٥٠). وإن كان ابن داب هو عيسى بن داب فهذا حاله: قال الذهبي: عيسى بن يزيد بن بكر بن داب الليثي المدنى. وكان أخباريًا علامة نسابة، لكن حديثه واه، قال خلف الأحمر: كان يضع الحديث، وقال البخاري وغيره: منكر الحديث.

٢٨-حدثنا سليمان بن رجاء قال، حدثني أبي قال، حدثني عبد الله بن ميسرة، عن غياث البكري قال: سألت أبا سعيد الخدري ﷺ عن قتل عثمان، هل شهده أحد من أصحاب رسول اللهﷺ؟ قال: نعم، لقد شهده ثمانمائة. (١)

٢٩-عن يوسف بن الماجشون قال، أخبرني أبي: أن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- واقف المسور بن مخرمة ﷺبالسوق، فقال المسور: والله لنقتلنه، فقال عبد الله: إنما تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما غضبتم على ملك قتلتموه - يريد عثمان ﷺ. (٢)

الوجه الثالث: إن سيرة هؤلاء الصحب الكرام مع عثمان ﷺلا تدل على مثل هذا أبدا بل تدل على العكس تماما وهذه بعض الروايات الصحيحة التي تدل على هذا.

١-أما طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص فقد كانوا مع عثمان شركاء في الأمر قبل الشورى ثم تنازل كل منهم بمحض إرادته وأما علي فبايعه طائعًا مختارًا، وهذه هي الرواية بذلك:

وقال أبوحاتم: منكر الحديث ميزان الاعتدال (٣/ ٣٢٨) وقال العقيلي: وما لا يتابع عليه من حديثه أكثر مما يتابع عليه ضعفاء العقيلي (٣/ ٣٩١) وانظر توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم (٤/ ٧).

ج- أما الحارث بن خليف فلم أجد له ترجمة.

(١) **ضعيف جدًّا**. أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٤/ ١١٧٤)، وإسناده ضعيف جدًّا فيه:

أ- غياث البكري (قيل عتاب) سمع أبا سعيد، روى عن عبد الله بن ميسرة (الإكمال٦/ ١٣٣)، وقد ذُكر في الجرح والتعديل (عتاب) يروي عن عبد الله بن ميسرة (٥/ ١٧٧)، وعتاب الذي يروي عن أبي سعيد الخدري، قال ابن حجر: مقبول، ولم يتابعه أحد، فهو لين الحديث.

ب- سليمان بن رجاء، وقال أبو زرعة: لا يعرف. لسان الميزان (٣/ ٩١)، وميزان الاعتدال (٢/ ٢٠٧)، وقال أبو حاتم: مجهول، وقال أبو زرعة: لا يعرف (الجرح والتعديل ٤/ ١١٧) وأبوه لم أجد له ترجمة.

ج- عبد الله بن ميسرة كان كثير الوهم على قلة روايته كثير المخالفة للثقات فيما يروى عن الأثبات. وهو الذي يروى عن هشيم ويقول: حدثنا أبو عبد الجليل وحدثنا أبو ليلى وحدثنا أبو إسحق الكوفي، لا يحل الاحتجاج بخبره. المجروحين لابن حبان (٢/ ٣٢) وقال الحافظ ابن حجر ضعيف. التقريب (ت ٣٦٥٢) وقال أبو حاتم: لين، وقال أبو زرعة: واهي الحديث ضعيف. الجرح والتعديل ٥/ ١٧٧، والكامل لابن عدي (٤/ ١٧١)، والضعفاء والمتروكين للنسائي (١/ ٢٠٤)، وتهذيب التهذيب (٣/ ٢٨٠)، وضعفه ابن معين، وأحمد بن حنبل في الجرح والتعديل (٥/ ١٧٧).

(٢) تاريخ المدينة (٤/ ١١٧٥). وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه بين يعقوب بن أبي سلمة الماجشون وبين الواقعة وقد سبق بيان ذلك.

عن عمرو بن ميمون قال في سياقه لحديث مقتل عمر: فقالوا أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمى عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفى عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم وأصيه بذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

فلما قُبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر قال يستأذن عمر بن الخطاب قالت أدخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير قد جعلت أمري إلى علي فقال طلحة قد جعلت أمري إلى عثمان وقال سعد قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف. فقال عبد الرحمن أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه؟ فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أفتجعلونه إلى الله علي أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا نعم فأخذ بيد أحدهما فقال لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال ارفع يدك يا عثمان فبايعه فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه. (١)

---

(١) البخاري (٣٧٠٠).

وإذا كان الحال كذلك فما الذي يدعوهم بعد ذلك للخروج على عثمان طلبا للأمر والولاية!

٢- ولنعلم جميعًا أن الصحابة أجمعوا على خلافة عثمان على أحقيته بها في ذلك الوقت بلا استثناء وهذا يقطع كل دعوى في حق الصحابة أو عثمان رضي الله عنه.

أ- قال ابن تيمية: عثمان لم يصر إمامًا باختيار بعضهم بل بمبايعة الناس له وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفان ولم يتخلف عن بيعته أحد.

قال الإمام أحمد في رواية حمدان بن علي: ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان كانت بإجماعهم فلما بايعه ذوو الشوكة والقدرة صار إمامًا وإلا فلو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علي ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصر إمامًا، ولكن عمر لما جعلها شورى في ستة عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف ثم إنه خرج طلحة والزبير وسعد باختيارهم وبقي عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف واتفق الثلاثة باختيارهم على أن عبد الرحمن بن عوف لا يتولى ويولى أحد الرجلين وأقام عبد الرحمن ثلاثا حلف أنه لم يغتمض فيها بكبير نوم يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمراء الأنصار وكانوا قد حجوا مع عمر ذلك العام فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان فبايعوه لا عن رغبة أعطاهم إياها ولا عن رهبة أخافهم بها.

ولهذا قال غير واحد من السلف والأئمة كأيوب السختياني، وأحمد بن حنبل والدارقطني، وغيرهم من لم يقدم عثمان على علي فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضل لأنهم قدموه باختيارهم واشتوارهم.[١]

بـ قال ابن كثير: ويروى أن أهل الشورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن ليجتهد للمسلمين في أفضلهم ليوليه فيذكر أنه سأل من يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم فلا يشير إلا بعثمان بن عفان حتى أنه قال: يا على أرأيت إن لم أولك بمن تشير به علي قال

---

(١) منهاج السنة (١/ ٥٣٣).

بعثمان وقال لعثمان أرأيت إن لم أولك بمن تشير به قال بعلي بن أبي طالب والظاهر أن هذا كان قبل أن ينحصر الأمر في ثلاثة وينخلع عبد الرحمن منها ينظر الأفضل والله عليه والإسلام ليجتهدن في أفضل الرجلين فيوليه ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيهما ويجمع رأي المسلمين برأي رؤس الناس وأقيادهم جميعًا وأشتاتًا مثنى وفرادى ومجتمعين سرًا وجهرًا حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن وحتى سال الولدان في المكاتب وحتى سأل من يرد بمن الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان إلا ما ينقل عن عمار والمقداد أنهما أشارا بعلي بن أبي طالب ثم بايعا مع الناس علي ما سنذكره فعسى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعاءا واستخارة وسؤالًا من ذوي الرأي عنهم فلم يجدا أحدا يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه فلما كانت الليلة يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة وعثمان قال المسور فقلت: بأيهما ابدأ فقال بأيهما شئت قال فذهبت إلى علي فقلت: فقال أنائم يا مسور والله لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث اذهب فادع إلي عليا أجب خالي فقال أمرك أن تدعو معي أحدًا قلت: نعم قال: من قلت عثمان بن عفان قال بأينا بدا قلت لم يأمرني بذلك بل قال ادعو لي بهما شئت أولا فجئت إليك قال فخرج معي فلما مررنا بدار عثمان بن عفان جلس علي حتى دخلت فوجدته يوتر مع الفجر فقال لي كما قال لي علي سواء ثم خرج فدخلت بهما على خالي وهو قائم يصلي فلما انصرف أقبل عليَّ عليٌّ، وعثمان فقال أني قد سألت الناس عنكما فلم أجد أحدًا يعدل بكما أحدًا ثم أخذ العهد على كل منهما أيضا لئن ولاه ليعدلن ولئن ولي عليه ليسمعن وليطيعن ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عمه رسول الله ﷺ وتقلد سيفا وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ونودي في الناس عامة الصلاة جامعة فامتلأ المسجد حتى غص بالناس وتراص الناس وتراصوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس إلا في أخريات الناس وكان رجلا حييا رضي الله عنه ثم

صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ فوقف وقوفا طويلا ودعا دعاء طويلا لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال أيها الناس إني سألتكم سرًا وجهرًا بأمانيكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين أما علي وأما عثمان فقم إلى يا علي فقام إليه فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده فقال هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر قال اللهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي قال: فأرسل يده وقال: إلي يا عثمان فأخذه بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر قال اللهم نعم قال فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهم اسمع واشهد اللهم اسمع واشهد اللهم اسمع واشهد اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان قال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر قال: فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ واجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية وجاء إليه الناس يبايعونه وبايعه علي بن أبي طالب أولا ويقال آخرا وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره عن رجال لا يعرفون أن عليًا قال لعبد الرحمن خدعتني وإنك إنما وليته لأنه صهرك وليشاورك كل يوم في شأنه وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠) إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح فهي مردوده على قائليها وناقلها، والله أعلم.[١]

جـ قال الإمام الصابوني: ثم خلافة عثمان بإجماع أهل الشورى وإجماع الأصحاب كافة ورضاهم به حتى جعل الأمر إليه[٢]

د قال أبو الحسن الأشعري: وثبتت إمامة عثمان ﷺ بعد عمر ﷺ بعقد من عقد له الإمامة من أصحاب الشورى الذين نص عليهم عمر ﷺفاختاروه ورضوا بإمامته وأجمعوا على فضله وعدله.[٣]

٣-أما موقف عبد الله بن مسعود: عن النزال بن سبرة قال: قال عبد الله حين

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٤٧).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث.

(٣) الإبانة (١/ ٢٥١).

استخلف عثمان استخلفنا خير من بقي ولم نأله، وعن النزال بن سبرة قال شهدت عبد الله بن مسعود في هذا المسجد ما خطب خطبة إلا قال أمرنا خير من بقي ولم نأل. (١)

٤- عن عبد الرحمن بن يزيد قال: صلى عثمان بمنى أربعًا فقال عبد الله صليت مع النبي ﷺ ركعتين ومع أبي بكر ركعتين ومع عمر ركعتين زاد عن حفص ومع عثمان صدرًا من إمارته ثم أتمها زاد من ها هنا عن أبي معاوية ثم تفرقت بكم الطرق فلوددت أن لي من أربع ركعات ركعتين متقبلتين قال الأعمش فحدثني معاوية بن قرة عن أشياخه أن عبد الله صلى أربعًا، قال: فقيل له عبت على عثمان ثم صليت أربعًا قال الخلاف شر. (٢)

قال ابن كثير: فإذا كان هذا متابعة من ابن مسعود إلى عثمان في هذا الفرع فكيف بمتابعته إياه في أصل القرآن والاقتداء به في التلاوة التي عزم على الناس أن يقرؤا بها لا بغيرها. (٣)

٥-وهذه عائشة تتأول ما تأول عثمان ﷺ؛ عن الزهري عن عروة عن عائشةرَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرت صلاة السفر وأتمت صلاة الحضر.

قال الزهري: فقلت لعروة ما بال عائشة تتم؟ قال تأولت ما تأول عثمان. (٤)

الوجه الرابع: لقد كان قتل عثمان من دلائل نبوة النبي ﷺ.

وذلك أنه أخبر أن عثمان مقتول وأخبر أنه شهيد وأنه يقتل مظلومًا، ولو لم يقع قتل عثمان لكان ذلك قادحًا في صدق كلام النبي ﷺ ولهذا نقول لكم معشر الطاعنين بمقتل عثمان: إن هذا الحدث من أدلة صدق النبي ﷺ فلو لم يكن يوحى إليه فمن الذي أخبره أن عثمان يقتل وهذا في زمانه كان من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله(٥) وهذه بعض الأحاديث بذلك.

١-عن أنس بن مالك ﷺ حدثهم: أن النبي ﷺ صعد أحدا وأبو بكر وعمر وعثمان

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٦٢).

(٢) أبو داود (١٩٦٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٧٢٦).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢١٨).

(٤) البخاري (١١٤٠)، ومسلم (٦٨٥).

(٥) انظر هذا المعنى في: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن الإسلام (١/ ٣٧٤).

فرجف بهم فقال: (اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان). (١)

٢- عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ: **"اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد"**. (٢)

٣- عن عبد الله بن حوالة أن رسول الله ﷺ قال: **"من نجا من ثلاث فقد نجا -ثلاث مرات- موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه"**. (٣)

ومعلوم أن الخليفة الذي قتل مصطبرًا هو عثمان، وفي الحديث أن هذه فتنة عظيمة وجه النبي ﷺ إلى أهمية السلامة من الخوض فيها حسيًا ومعنويًا. (٤)

٤- عن محمد بن سيرين عن كعب بن عجرة قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقربها، فمر رجل مقنع رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا يومئذ على الهدى، فوثبت فأخذت بضبعي عثمان، ثم استقبلت رسول الله ﷺ، فقلت: هذا؟ قال: هذا. (٥)

وعن ابن عمر قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فمر رجل، فقال: يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلوما قال فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان ﷺ (٦).

وقال بهز في حديثه قال قال رسول الله ﷺ: تهيج فتنة كالصياصي فهذا ومن معه على الحق قال فذهبت فأخذت بمجامع ثوبه فإذا هو عثمان بن عفان ﷺ.

عن مرة البهزى قال: بينما نحن مع نبي الله ﷺ في طريق من طرق المدينة فقال كيف في

---

(١) البخاري (٣٦٧٥).

(٢) مسلم (٢٤١٧).

(٣) مسند أحمد (٤/ ١٠٥)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ربيعة بن لقيط وهو ثقة (٧/ ٦٤٥)، والحديث صححه الألباني في (ظلال الجنة: ١١٧٧).

(٤) فتنة مقتل عثمان للغبان (٤٤).

(٥) سنن ابن ماجه (١١١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٩).

(٦) مسند أحمد (٢/ ١١٥)، الترمذي (٣٧٠٨)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن عمر، قلت: وله شاهد من حديث كعب بن عجرة، وقد سبق.

فتنة تثور في أقطار الأرض كأنها صياصي بقر، قالوا نصنع ماذا يا نبي الله؟ قال: عليكم هذا وأصحابه أو اتبعوا هذا وأصحابه قال فأسرعت حتى عطفت على الرجل فقلت هذا يا نبي الله قال: هذا فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه (١).

٥- عن النعمان بن بشير عن عائشة قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان فأقبل عليه رسول الله ﷺ فلما رأينا رسول الله ﷺ أقبلت إحدانا على الأخرى فكان من آخر كلام كلمه أن ضرب منكبه وقال: **" يا عثمان أن الله ﷻ عسى أن يلبسك قميصًا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصًا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني ثلاثًا"** فقلت لها يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك قالت نسيته والله فما ذكرته قال فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به فكتبت إليه به كتابًا. (٢)

وأخيرا : وماذا عن فتنة مقتل المسيح ـكما يزعمون ـ في الكتاب المقدس.

يتحدث الكتاب المقدس عن حادث مقتل المسيح –كما يزعمون– وما فيها من فتن، كما في (مرقس ١٤، ١٥): ثُمَّ إِنَّ يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ، وَاحِدًا مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، مَضَى إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ لِيُسَلِّمَهُ إِلَيْهِمْ. ١١ وَلَمَّا سَمِعُوا فَرِحُوا، وَوَعَدُوهُ أَنْ يُعْطُوهُ فِضَّةً. وَكَانَ يَطْلُبُ كَيْفَ يُسَلِّمُهُ فِي فُرْصَةٍ مُوافِقَةٍ. وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ جَاءَ مَعَ الاثْنَيْ عَشَرَ. ١٨ وَفِيمَا هُمْ مُتَّكِئُونَ يَأْكُلُونَ، قَالَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. اَلآكِلُ مَعِي! » ١٩ فَابْتَدَأُوا يَحْزَنُونَ، وَيَقُولُونَ لَهُ وَاحِدًا فَوَاحِدًا: «هَلْ أَنَا؟ » وَآخَرُ: «هَلْ أَنَا؟ » ٢٠ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «هُووَاحِدٌ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يَغْمِسُ مَعِي فِي الصَّحْفَةِ. ٢١ إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٣٣)، ابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٦٥) وابن حبان في صحيحه (٢٩١٤) من حديث عبد الله بن شقيق حدثني أسامة بن خريم، وهرمي بن الحارث، عن مرة البهزي به وإسناده صحيح وانظر التعليق على صحيح ابن حبان.

(٢) صحيح. مسند أحمد (٦/ ٨٧)، فضائل الصحابة (٨١٦)، تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ١٠٦٩)، ابن أبي عاصم في السنة (١١٧٩)، ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٩٠) صحيح ابن حبان (٦٩١٥)، الترمذي (٣٧٠٥) من طرق عن النعمان بن بشير به. والحديث صححه الألباني في ظلال الجنة (١١٧٩، ١١٧٣، ١١٧٢).

هُومَكْتُوبٌ عَنْهُ، وَلكِنْ وَيْلٌ لِذلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِذلِكَ الرَّجُلِ لَولَمْ يُولَدْ! ». [٢٢] وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ، أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزًا وَبَارَكَ وَكَسَّرَ، وَأَعْطَاهُمْ وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا، هذَا هُوجَسَدِي». [٢٣] ثُمَّ أَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ، فَشَرِبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ. [٢٤] وَقَالَ لَهُمْ: «هذَا هُو دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ، الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ. [٢٥] اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ أَشْرَبُ بَعْدُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ إِلَى ذلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ اللهِ». [٢٦] ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ.

[٢٧] وَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «إِنَّ كُلَّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ الْخِرَافُ. [٢٨] وَلكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ». [٢٩] فَقَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «وَإِنْ شَكَّ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ! » [٣٠] فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». [٣١] فَقَالَ بِأَكْثَرِ تَشْدِيدٍ: «وَلَو اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ! ». وَهكَذَا قَالَ أَيْضًا الْجَمِيعُ. [٣٢] وَجَاءُوا إِلَى ضَيْعَةٍ اسْمُهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أُصَلِّيَ». [٣٣] ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَابْتَدَأَ يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ. [٣٤] فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ! اُمْكُثُوا هُنَا وَاسْهَرُوا». [٣٥] ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ، وَكَانَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ السَّاعَةُ إِنْ أَمْكَنَ. [٣٦] وَقَالَ: «يَا أَبَا الآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ». [٣٧] ثُمَّ جَاءَ وَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: «يَا سِمْعَانُ، أَنْتَ نَائِمٌ! أَمَا قَدَرْتَ أَنْ تَسْهَرَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟ [٣٨] اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ، وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». [٣٩] وَمَضَى أَيْضًا وَصَلَّى قَائِلًا ذلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. [٤٠] ثُمَّ رَجَعَ وَوَجَدَهُمْ أَيْضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً، فَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَاذَا يُجِيبُونَهُ. [٤١] ثُمَّ جَاءَ ثَالِثَةً وَقَالَ لَهُمْ: «نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! يَكْفِي! قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ! هُوَذَا ابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ. [٤٢] قُومُوا لِنَذْهَبَ! هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ اقْتَرَبَ! ». [٤٣] وَلِلْوَقْتِ فِيمَا هُو يَتَكَلَّمُ أَقْبَلَ يَهُوذَا، وَاحِدٌ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ. [٤٤] وَكَانَ مُسَلِّمُهُ قَدْ أَعْطَاهُمْ

علامَةً قَائِلًا: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوهُوَ. أَمْسِكُوهُ، وَامْضُوا بِهِ بِحِرْصٍ». ٤٥ فَجَاءَ لِلْوَقْتِ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَائِلًا: «يَا سَيِّدِي، يَا سَيِّدِي! » وَقَبَّلَهُ. ٤٦ فَأَلْقَوْا أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ. ٤٧ فَاسْتَلَّ وَاحِدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ السَّيْفَ، وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ. ٤٨ فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! ٤٩ كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ مَعَكُمْ فِي الْهَيْكَلِ أُعَلِّمُ وَلَمْ تُمْسِكُونِي! وَلكِنْ لِكَيْ تُكْمَلَ الْكُتُبُ». ٥٠ فَتَرَكَهُ الْجَمِيعُ وَهَرَبُوا. ٥١ وَتَبِعَهُ شَابٌّ لاَبِسًا إِزَارًا عَلَى عُرْيِهِ، فَأَمْسَكَهُ الشُّبَّانُ، ٥٢ فَتَرَكَ الإِزَارَ وَهَرَبَ مِنْهُمْ عُرْيَانًا. ٥٣ فَمَضَوْا بِيَسُوعَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْكَتَبَةُ. ٥٤ وَكَانَ بُطْرُسُ قَدْ تَبِعَهُ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى دَاخِلِ دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، وَكَانَ جَالِسًا بَيْنَ الْخُدَّامِ يَسْتَدْفِئُ عِنْدَ النَّارِ. ٥٥ وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةً عَلَى يَسُوعَ لِيَقْتُلُوهُ، فَلَمْ يَجِدُوا. ٥٦ لأَنَّ كَثِيرِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِ زُورًا، وَلَمْ تَتَّفِقْ شَهَادَاتُهُمْ. ٥٧ ثُمَّ قَامَ قَوْمٌ وَشَهِدُوا عَلَيْهِ زُورًا قَائِلِينَ: ٥٨ «نَحْنُ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ: إِنِّي أَنْقُضُ هذَا الْهَيْكَلَ الْمَصْنُوعَ بِالأَيَادِي، وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِي آخَرَ غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِأَيَادٍ». ٥٩ وَلاَ بِهذَا كَانَتْ شَهَادَتُهُمْ تَتَّفِقُ. ٦٠ فَقَامَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ فِي الْوَسْطِ وَسَأَلَ يَسُوعَ قِائِلًا: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هؤُلاَءِ عَلَيْكَ؟ » ٦١ أَمَّا هُو فَكَانَ سَاكِتًا وَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ. فَسَأَلَهُ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ أَيْضًا وَقَالَ لَهُ: «أَأَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ الْمُبَارَكِ؟ » ٦٢ فَقَالَ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ. وَسَوْفَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا فِي سَحَابِ السَّمَاءِ». ٦٣ فَمَزَّقَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ ثِيَابَهُ وَقَالَ: «مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ ٦٤ قَدْ سَمِعْتُمُ التَّجَادِيفَ! مَا رَأْيُكُمْ؟ » فَالْجَمِيعُ حَكَمُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ. ٦٥ فَابْتَدَأَ قَوْمٌ يَبْصُقُونَ عَلَيْهِ، وَيُغَطُّونَ وَجْهَهُ وَيَلْكُمُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ: «تَنَبَّأْ». وَكَانَ الْخُدَّامُ يَلْطِمُونَهُ. ٦٦ وَبَيْنَمَا كَانَ بُطْرُسُ فِي الدَّارِ أَسْفَلَ جَاءَتْ إِحْدَى جَوَارِي رَئِيسِ الْكَهَنَةِ. ٦٧ فَلَمَّا رَأَتْ بُطْرُسَ يَسْتَدْفِئُ، نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ! » ٦٨ فَأَنْكَرَ قَائِلًا: «لَسْتُ أَدْرِي وَلاَ أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ! » وَخَرَجَ خَارِجًا إِلَى الدِّهْلِيزِ، فَصَاحَ الدِّيكُ. ٦٩ فَرَأَتْهُ الْجَارِيَةُ أَيْضًا وَابْتَدَأَتْ تَقُولُ لِلْحَاضِرِينَ: «إِنَّ هذَا مِنْهُمْ! » ٧٠ فَأَنْكَرَ أَيْضًا. وَبَعْدَ قَلِيل أَيْضًا قَالَ الْحَاضِرُونَ لِبُطْرُسَ:

«حقًّا أَنْتَ مِنْهُمْ، لأَنَّكَ جَلِيلِيٌّ أَيْضًا وَلُغَتُكَ تُشْبِهُ لُغَتَهُمْ!». [٧١] فَابْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ هذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ!» [٧٢] وَصَاحَ الدِّيكُ ثَانِيَةً، فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ لَهُ يَسُوعُ: «إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». فَلَمَّا تَفَكَّرَ بِهِ بَكَى.

وَلِلْوَقْتِ فِي الصَّبَاحِ تَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْكَتَبَةُ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ، فَأَوْثَقُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ وَأَسْلَمُوهُ إِلَى بِيلاَطُسَ. [٢] فَسَأَلَهُ بِيلاَطُسُ: «أَأَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟» فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ تَقُولُ». [٣] وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ كَثِيرًا. [٤] فَسَأَلَهُ بِيلاَطُسُ أَيْضًا قِائِلًا: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ اُنْظُرْ كَمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ!» [٥] فَلَمْ يُجِبْ يَسُوعُ أَيْضًا بِشَيْءٍ حَتَّى تَعَجَّبَ بِيلاَطُسُ. [٦] وَكَانَ يُطْلِقُ لَهُمْ فِي كُلِّ عِيدٍ أَسِيرًا وَاحِدًا، مَنْ طَلَبُوهُ. [٧] وَكَانَ الْمُسَمَّى بَارَابَاسَ مُوثَقًا مَعَ رُفَقَائِهِ فِي الْفِتْنَةِ، الَّذِينَ فِي الْفِتْنَةِ فَعَلُوا قَتْلًا. [٨] فَصَرَخَ الْجَمْعُ وَابْتَدَأُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا كَانَ دَائِمًا يَفْعَلُ لَهُمْ. [٩] فَأَجَابَهُمْ بِيلاَطُسُ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟». [١٠] لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوهُ حَسَدًا. [١١] فَهَيَّجَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْجَمْعَ لِكَيْ يُطْلِقَ لَهُمْ بِالْحَرِيِّ بَارَابَاسَ. [١٢] فَأَجَابَ بِيلاَطُسُ أَيْضًا وَقَالَ لَهُمْ: «فَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَ بِالَّذِي تَدْعُونَهُ مَلِكَ الْيَهُودِ؟» [١٣] فَصَرَخُوا أَيْضًا: «اصْلِبْهُ!» [١٤] فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «وَأَيَّ شَرّ عَمِلَ؟» فَازْدَادُوا جِدًّا صُرَاخًا: «اصْلِبْهُ!» [١٥] فَبِيلاَطُسُ إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ لِلْجَمْعِ مَا يُرْضِيهِمْ، أَطْلَقَ لَهُمْ بَارَابَاسَ، وَأَسْلَمَ يَسُوعَ، بَعْدَمَا جَلَدَهُ، لِيُصْلَبَ. [١٦] فَمَضَى بِهِ الْعَسْكَرُ إِلَى دَاخِلِ الدَّارِ، الَّتِي هِيَ دَارُ الْوِلاَيَةِ، وَجَمَعُوا كُلَّ الْكَتِيبَةِ. [١٧] وَأَلْبَسُوهُ أُرْجُوَانًا، وَضَفَرُوا إِكْلِيلًا مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَيْهِ، [١٨] وَابْتَدَأُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: «السَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ!» [١٩] وَكَانُوا يَضْرِبُونَهُ عَلَى رَأْسِهِ بِقَصَبَةٍ، وَيَبْصُقُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسْجُدُونَ لَهُ جَاثِينَ عَلَى رُكَبِهِمْ. [٢٠] وَبَعْدَمَا اسْتَهْزَأُوا بِهِ، نَزَعُوا عَنْهُ الأُرْجُوانَ وَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ، ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ لِيَصْلِبُوهُ. [٢١] فَسَخَّرُوا رَجُلًا مُجْتَازًا كَانَ آتِيًا مِنَ الْحَقْلِ، وَهُو سِمْعَانُ الْقَيْرَوَانِيُّ أَبُو أَلَكْسَنْدَرُسَ وَرُوفُسَ، لِيَحْمِلَ صَلِيبَهُ. [٢٢] وَجَاءُوا بِهِ إِلَى مَوْضِعِ «جُلْجُثَةَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ مَوْضِعُ «جُمْجُمَةٍ». [٢٣] وَأَعْطَوْهُ خَمْرًا مَمْزُوجَةً بِمُرّ لِيَشْرَبَ، فَلَمْ يَقْبَلْ. [٢٤] وَلَمَّا صَلَبُوهُ اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ

مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا: مَاذَا يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ؟ ٢٥ وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ فَصَلَبُوهُ. ٢٦ وَكَانَ عُنْوَانُ عِلَّتِهِ مَكْتُوبًا: «مَلِكُ الْيَهُودِ». ٢٧ وَصَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ. ٢٨ فَتَمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ». ٢٩ وَكَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ قَائِلِينَ: «آهِ يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ! ٣٠ خَلِّصْ نَفْسَكَ وَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ! » ٣١ وَكَذلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَعَ الْكَتَبَةِ، قَالُوا: «خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! ٣٢ لِيَنْزِلِ الآنَ الْمَسِيحُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَنِ الصَّلِيبِ، لِنَرَى وَنُؤْمِنَ! ». وَاللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ كَانَا يُعَيِّرَانِهِ. ٣٣ وَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ، كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. ٣٤ وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: «إِلُوِي، إِلُوِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟ » اَلَّذِي تَفْسِيرُهُ: إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ ٣٥ فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ لَمَّا سَمِعُوا: «هُوَذَا يُنَادِي إِيلِيَّا». ٣٦ فَرَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلأَ إِسْفِنْجَةً خَلًّا وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ قَائِلًا: «اتْرُكُوا. لِنَرَ هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا لِيُنْزِلَهُ! »فَصَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. ٣٨ وَانْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. ٣٩ وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِئَةِ الْوَاقِفُ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هكَذَا وَأَسْلَمَ الرُّوحَ، قَالَ: «حَقًّا كَانَ هذَا الإِنْسَانُ ابْنَ اللهِ! »

* * *

٦ـ شبهة: موقف عائشة والصحابة من موقعة الجمل.

نص الشبهة: أنهم يتحاربون من أجل السلطة والتربع على عرش الخلافة.

والرد عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن الصحيح من مواقف الصحابة بعد مقتل عثمان يدل على خلاف هذا وإليك ذكر الأحداث التي تلت مقتل عثمان رضي الله عنه حتى قبيل معركة الجمل:

* أصاب المسلمين بلاء عظيم بسبب مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، إذ كان المسلمون قد مرّوا بانتقال السلطة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد وفاة الصديق رضي الله عنه، لكنهم الآن أمام تجربة جديدة تمثلت باستخدام العنف في تغيير السلطة ونجم عن ذلك مقتل الخليفة وبقاء المنصب شاغرًا، وسعى المعارضون إلى بيعة واحد من كبار الصحابة لملأ الفراغ في السلطة، فعرضوها على طلحة وعبد الله بن عمر، لكن أحدًا لم يكن ليقبل منهم السلطة في ظروف الفتنة، لأنهم لا يمثلون الأمة، بل يمثلها كبار الصحابة في المدينة، وهم الذين يقبل الناس في أنحاء الدولة اختيارهم، وقد أدرك المعارضون ذلك بعد فشل محاولاتهم.

* قال محمد بن الحنفية: كنت مع أبي حين قتل عثمان رضي الله عنه فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من إمام ولا نجد اليوم أحد أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا تفعلوا، فإني إن أكون وزيرًا خير من أن أكون أميرًا، فقالوا: لا، والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد فإنَّ بيعتي لا تكون خفيًا ولا تكون إلا عن رضا المسلمين، قال سالم بن أبي الجعد: فقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يُشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد، فلما دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس.

* وهناك رواية عن أبي بشير العابدي يقول فيها: إن المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير أتوا عليًا فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم اختلفتم إليَّ وأتيتم، وإني قائل لكم قولًا إن قبلتموه قبلت أمركم، وإلا فلا حاجة لي فيه، فقالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله، فبايعوه في المسجد.

* وهناك رواية أخرى تفيد أن طلحة والزبير قالا: يا علي ابسط يدك، فبايعه طلحة والزبير، وهذا بعد مقتل عثمان لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة.

* وهناك رواية أخرى عن عوف بن أبي جميلة العبدي قال: أمّا أنا فأشهد أني سمعت محمد بن سيرين يقول: إن عليًا جاء فقال لطلحة: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك، فقال طلحة: أنت أحق وأنت أمير المؤمنين فابسط يدك، فبسط عليّ يده فبايعه. [(١)]

* وقد ذكر ابن سعد في الطبقات بيعة علي رضي الله عنه يوم الجمعة بالخلافة سنة خمس وثلاثين، وذكر من جملة الصحابة الذين بايعوا: طلحة والزبير وجمع من الصحابة ممن كان في المدينة[(٢)].

* ذكر المسعودي أن عليًا بويع في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه يعني البيعة الخاصة، ثم قال إنه بويع البيعة العامة بعد مقتل عثمان بأربعة أيام. [(٣)]

* وذكر اليعقوبي في تاريخه: أن طلحة والزبير بايعا عليًا، وكان أول من بايعه وصفق على يده يد طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه. [(٤)]

يقول الحافظ الذهبي في شأن البيعة: لما قتل عثمان سعى الناس إلى عليّ وقالوا: لابد للناس من إمام فحضر طلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، والأعيان، وكان أول من بايعه طلحة، ثم سائر الناس. [(٥)]

الوجه الثاني: وأما الروايات المخالفة التي نقلها الإمام الطبري في تاريخه[(٦)]، وهي تدل على خلاف ما ذكرنا:

١-فمنها من يقول بأن طلحة والزبير بايعا كرهًا، حيث روى من طريق الزهري قال: بايع الناس علي بن أبي طالب، فأرسل إلى الزبير وطلحة فدعاهما إلى البيعة، فتلكّأ طلحة

---

(١) كلها عند الطبري في تاريخه (٤/ ٤٢٧-٤٢٨) و (٤/ ٤٣٤)، وكذلك في فضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٥٧٣).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣١).

(٣) مروج الذهب (٣٥٨).

(٤) تاريخ اليعقوبي (١/ ١٧٨).

(٥) دول الإسلام (١/ ٢٨).

(٦) تاريخ الطبري (٤/ ٤٣٥، ٤٣١، ٤٢٩).

فقام الأشتر وسل سيفه وقال: والله لتبايعن أو لأضربن بهما بين عينيك فقال طلحة: وأين المهرب عنه؟ فبايعه، وبايعه الزبير، والناس.

٢- وهناك روايات أخرى تبين أنهما بايعا والسيف فوق عنقيهما، هذه كلها لا تصح؛ لأنها من روايات الواقدي، وأبي مخنف الكذاب.

يقول ابن العربي عنها: فإن قيل: قال طلحة: (بايعته واللج على قفي)، قلنا: اخترع هذا الحديث من أراد أن يجعل في القفا لغة قفي، كما يجعل في الهوى هوي، وتلك لغة هذيل لا قريش فكانت كذبة لم تدبر. (١)

٣- وقول من قال: بايع عليًا يد شلاّء – أي: يد طلحة – والله لا يتم هذا الأمر. قال ابن العربي عن ذلك: وأما من قال يد شلاء وأمر لا يتم، فإن يدًا شلت في وقاية رسول الله ﷺ يتم لها كل أمر، ويتوقى بها من كل مكروه. وقد تم الأمر على وجهه، ونفذ القدر بعد ذلك على حكمه، وجهلَ المبتدع ذلك فاخترع ما هو حجة عليه. (٢)

٤-وفي رواية عمر بن شبة كما رواها الطبري في تاريخه(٣) عن محمد بن الحنفية قال: بايعت الأنصار عليًا إلا نفير يسير. (٤)

وذكر منهم: سعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة

---

(١) العواصم من القواصم (١٤٨).

(٢) المصدر السابق (١٤٩) بتصرف.

(٣) تاريخ الطبري (٤/ ٤٢٩).

(٤) قال الطبري: وحدّثني عمر قال: حدّثنا أبو الحسن قال: أخبرنا شيخ من بني هاشم، عن عبد الله بن الحسن قال: لما قتل عثمان ﷺبايعت الأنصار عليًّا إلاّ نفيرًا يسيرًا، منهم حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلّد، وأبو سعيد الخدريّ، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة، كانوا عثمانيّة. فقال رجل لعبد الله بن حسن: كيف أبي هؤلاء بيعة عليّ؟ وكانوا عثمانية. قال: أما حسّان فكان شاعرًا لا يبالي ما يصنع؛ وأما زيد بن ثابت فولاّه عثمان الديوان وبيت المال، فلما حصر عثمان؛ قال: يا معشر الأنصار، كونوا أنصارًا لله. . . مرّتين، فقال أبو أيُّوب: ما تنصره إلا أنه أكثر لك من العضدان، فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له. **قلت: وهذا إسناد ضعيف لجهالة الشيخ من بني هاشم.**

وغيرهم، وهذا غير صحيح؛ فإن حضورهم لعلي واعتذارهم عن الوقوف معه في حرب أهل الشام أو فيما يدور بينه وبين المسلمين من القتال في العراق لدليل واضح على أن في أعناقهم بيعة تلزمهم بطاعته حين اعتذروا، ولو كان الأمر خلاف ذلك لتركوه يخرج دون أن يذهبوا إليه ويعتذروا له، فهم حينئذ غير ملزمين بطاعته. ويبرر الباقلاني موقف الصحابة الذين تأخروا عن نصرة علي فيقول في هذا الصدد: فإن قال قائل: فإن كانت إمامة علي من الصحة والثبوت بحيث وصفتم، فما تقولون في تأخر سعد وابن عمر وابن مسلمة وأسامة وغيرهم عن نصرته والدخول في طاعته؟ قيل له: ليس في جميع القاعدين ممن أسمينا أو ضربنا عن ذكره من طعن في إمامته واعتقد فسادها، وإنما قعدوا عن نصرته على حرب المسلمين لتخوفهم من ذلك وتجنب الإثم فيه. [(١)]

ويذكر ابن العربي: أن قومًا قالوا تخلف عنه من الصحابة جماعة منهم سعد وابن مسلمة وابن عمر وأسامة. فيرد عليهم بقوله: قلنا أما بيعته فلم يتخلف عنها، وأما نصرته فتخلف عنها قوم؛ منهم من ذكرتم؛ لأنها كانت مسألة اجتهادية فاجتهد كل واحد وأعمل نظره وأصاب قدره. [(٢)]

وخلاصة القول: لئن كانت بعض الروايات تستثني من البيعة بعض الصحابة فإن ذلك لا يقدح في خلافة علي ﷺ. وإن ثبت امتناع معاوية عن مبايعته فإن ذلك لا يقدح في إجماع أهل الحل والعقد على خلافته، على أن معاوية معترف بأن عليًا أحق بالإمامة منه، وإنما حجّته في الامتناع هو طلبه تسليم الموجودين من قتلة عثمان فيقتص منهم.

ويخلص الماوردي في الأحكام السلطانية إلى القول: بأن فرض الإمامة أو البيعة يكون فرض كفاية كالجهاد وطلب العلم، حيث إذا قام بها من هو أهلها سقط فرضها عن كافة الناس. [(٣)]

٥-بعد أن تولى علي الخلافة قام بعزل بعض الولاة وتعيين آخرين بدلًا عنهم، فعزل

---

(١) التمهيد في الرد على الملحدة (٢٣٣-٢٣٤).

(٢) العواصم من القواصم (١٥٠) بتصرف.

(٣) الأحكام السلطانية (٣٠).

والي مكة خالد بن العاص، وعين بدله أبا قتادة الأنصاري مدة شهرين، ثم عزله وعين قثم بن العباس، ويبدو أن الرأي العام بمكة كان غاضبًا لعثمان وتصاعد الغضب لكثرة النازحين من المدينة إلى مكة على إثر سيطرة الثوار على المدينة. (١)

وأرسل عثمان بن حنيف الأنصاري إلى البصرة واليًا عليها بدلًا من عبد الله بن عامر واليها لعثمان، وكان قد ترك البصرة متجهًا إلى مكة. وقد انقسمت البصرة على الوالي الجديد، فمنهم من بايع ومنهم من اعتزل، ومنهم من رفض البيعة حتى يقتل قتلة عثمان.

وأما مصر فكان واليها عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد تركها متجهًا إلى عسقلان، فاستولى عليها محمد بن أبي حذيفة مدة عام كامل، وواجه معارضة تطالب بالقصاص من قتلة عثمان، فلما قتل ولي عليها قيس بن سعد بن عبادة فتمكن من أخذ البيعة لعلي وهادن أهلها.

وأرسل علي إلى معاوية يطلب منه البيعة فرد عليه قائلًا: فإن كنت صادقًا فأمكنا من قتلة عثمان نقتلهم به ونحن أسرع الناس إليك.

فإن قال قائل: إن عليًا قد أخطأ في عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تأتيه بيعة أهل الأمصار.

فالجواب:

١-إن عليًا ﷺ إمام مجتهد له أن يعزل عمال عثمان إذا رأى المصلحة في ذلك، وقد ولى رسول الله ﷺ -وهو المعصوم- خالد بن سعيد بن أبي العاص على صنعاء، وعمرو بن العاص على عمان، فعزلهما الصديق من بعده، وولى الصديق خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، فعزلهما الفاروق من بعده، وولى الفاروق عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة فعزلهما عثمان من بعده. (٢)، وهكذا فعل علي لما رأى المصلحة في ذلك؛ فهل ينتقد عاقل الصديق والفاروق وذا النورين في عزلهم هؤلاء العمال الأكفاء؟!

٢-أما القول بأنه عزل جميع عمال عثمان، هذا غير صحيح فالعزل لم يتحقق إلا في معاوية في الشام وخالد بن أبي العاص في مكة، وأبي موسى الأشعري في الكوفة، على أنه

(١) تاريخ خليفة (١٥١)، وعصر الخلافة الراشدة لأكرم العمري (١٣٩-١٤٦).

(٢) الأخبار الطوال للدينوري (١٦٣، ١٦٢).

أقره بعد ذلك.[(١)]

وأما البصرة فإن واليها خرج من نفسه، وفي اليمن أخذ أميرها يعلي بن مُنية مال جباية اليمن وقدم مكة بعد مقتل عثمان وانضم إلى طلحة والزبير وحضر معهم موقعة الجمل، وابن أبي السرح خرج إلى فلسطين ومكث هناك حتى مات بعد أن تغلب ابن أبي حذيفة على مصر.[(٢)]، وهكذا فإن أميري اليمن والبصرة عزلا أنفسهما، وأمير مصر عزله المتغلب عليها، وأمير الكوفة أقره على منصبه فلم يرد العزل إلا في حق معاوية والي الشام وخالد والي مكة.

وأما القول بأنه عزلهم قبل أن تأتيه بيعة أهل الأمصار.

فالجواب: أن تولية الإمام للعمال على الأمصار غير مشروط بوصول بيعة أهلها له، فمتى بايع أهل الحل والعقد، لزمت بيعته جميع البلدان النائية عن مركز الخلافة، ولو كانت تولية الخليفة العمال على الأمصار متوقفة على وصول بيعة أهلها له ما تمت بيعة أبي بكر رضي الله عنه لأنه تصرف بإرسال جيش أسامة ومحاربة المرتدين قبل وصول بيعة أهل مكة والطائف وغيرها من البلاد، وكذلك فعل الفاروق وذو النورين، فإنهما تصرفا في أمور المسلمين أيضًا قبل وصول بيعة الأمصار إليهما.

الوجه الثالث: مقدمات معركة الجمل وما سبقها من أحداث.

لما مضت أربعة أشهر على بيعة علي رضي الله عنه خرج كل من طلحة والزبير من المدينة بقصد العمرة، وكذلك خرج عبد الله بن عامر من البصرة ويعلي بن مُنْية من اليمن إلى مكة في أوقات مختلفة، وأما عن طلب الزبير وطلحة من علي السماح لهما بالذهاب إلى البصرة والكوفة لإحضار جند يقاتلون بهم قتلة عثمان رضي الله عنه فهذا خبر لا يصح منه شيء؛ لأن طلحة والزبير رضي الله عنهما كانا حريصين على إصلاح ذات البين وإطفاء نار الفتنة ومنع إراقة المزيد من دماء المسلمين، كما سيأتي.

اجتمع طلحة، والزبير، ويعلي، وعبد الله بن عامر، وعائشة بعد نظر طويل على الشخوص

---

(١) تاريخ خليفة (١٧٨، ١٥٥، ١٢٣، ١٢٢، ١٠٢، ٩٧)، تاريخ الطبري (٣/ ٣٤٣)، (٤/ ٢٤١).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٤٤٢)، وتاريخ خليفة (ص٢٠١).

إلى البصرة من أجل الإصلاح بين الناس حين اضطرب أمرهم بعد مقتل عثمان ﷺوليس من أجل المطالبة بدم عثمان، ودليل ذلك حديث الحوأب - هو موضع قريب من البصرة، وهو من مياه العرب في الجاهلية ويقع على طريق القادم من مكة إلى البصرة، وسمي بالحوأب نسبة لأبي بكر بن كلاب الحوأب، أو نسبة للحوأب بنت كلب بن وبرة القضاعية(١)، ففي أثناء الطريق إلى البصرة مر الجيش على منطقة يقال لها الحوأب، فنبحت كلابها فلما سمعت عائشة هذا النباح، طرأ عليها حديث، فقالت: ما هذه المنطقة؟ قالوا: هذه الحوأب، فتذكرت حديث الرسول ﷺ حيث روى أحمد، وابن حبان، والحاكم عن قيس بن حازم: أن عائشة لما أتت على الحوأب سمعت نباح الكلاب، فقالت: ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله ﷺ قال لنا: أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب. فقال لها الزبير: ترجعين؟! - أي لا ترجعي لأنهم يحترمونك - عسى الله أن يصلح بك بين الناس، هذا لفظ شعبة.

أما لفظ يحيى فقال: لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلًا، فنبحت الكلاب فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب، قالت: ما أظنني إلا راجعة، فقال بعض من كان معها: بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم. قالت: إن رسول الله ﷺ قال لها ذات يوم: كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب. (٢)

وقد أشكل حديث الحوأب على بعض الناس فردوه - منهم الإمام ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم(٣)، وتابعه الشيخ محب الدين الخطيب في حاشيته على هذا الكتاب القيم(٤)-، وهو حديث صحيح، ولسان حالهم يقول: كان على عائشة ﵂ لما علمت بالحوأب أن ترجع، والحديث يدل على أنها لم ترجع وهذا مما لا يليق أن ينسب لأم المؤمنين.

وقد أجاب الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ على هذا الإشكال فقال:

---

(١) انظر: معجم البلدان (٢/ ٣١٤).

(٢) السلسلة الصحيحة (٤٧٤).

(٣) العواصم من القواصم (١٦٢).

(٤) المصدر السابق (١٥٢).

ليس كل ما يقع من الكمّل يكون لائقًا بهم، إذ المعصوم من عصم الله والسنّي لا ينبغي له أن يغالي فيمن يحترمه، حتى يرفعه إلى مصاف أئمة الشيعة المعصومين، ولا شك أن خروج أم المؤمنين كان خطأ من أصله ولذا همّت بالرجوع حين علمت بتحقيق نبوة النبي ﷺ عند الحوأب، ولكن الزبير ؓ قد أقنعها بترك الرجوع بقوله: عسى الله أن يصلح بك بين الناس، ولاشك أنه كان مخطئًا في ذلك أيضًا.[1]

هنا أدرك علي ؓخطورة الموقف وما يمكن أن يجر إليه الخلاف من تمزيق الدولة الإسلامية، فاستنفر أهل المدينة للخروج معه فاجتمع معه حوالي سبعمائة رجل، واعتزل الكثير من الصحابة هذه الفتنة، فخرج علي من المدينة متجهًا إلى العراق، وقد عسكر في الربذة حيث أضيف إلى جنده مائتا رجل فبلغوا تسعمائة رجل.[2]

وقد حاول الحسن بن علي ثني أبيه عن الذهاب إلى العراق وهو يبكي لما أصاب المسلمين من الفرقة والاختلاف، لكن عليًا رفض ذلك وأصر على الخروج.[3]

وقد جاءت روايات لتبين أن عليًا ؓ خرج من المدينة في إثر أصحاب الجمل، وهذا الأمر لم يحدث، بل الصحيح أنه خرج من المدينة عاقدًا العزم على التوجه إلى الكوفة ليكون قريبًا من أهل الشام، ولم يخرج في أعقاب أصحاب الجمل.

وفي ما يلي بيان هذا الأمر:-

أ- ذكرت بعض الروايات أن عليًا ؓحين خرج من المدينة أقام في الربذة عدة أيام، وهذا الصنيع من علي ؓلا يشبه صنيع من خرج يطلب قومًا. هذا فضلًا عن أن الربذة تقع على طريق الكوفة بينما أصحاب الجمل كانوا يسلكون طريق البصرة.

(١) السلسلة الصحيحة (٤٧٤) بتصرف يسير، وقال ابن حجر عن الحديث: سنده على شرط الشيخين، انظر فتح الباري (١٣/ ٥٩-٦٠)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد (٧/ ٢٣٤)، وصححه الألباني في الصحيحة، ورد على من طعن في صحته، وبين من أخرجه من الأئمة، انظر: الصحيحة (٤٧٤).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٢/ ٤٥٦).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٩٩، ١٠٠) بإسناد حسن، تاريخ دمشق (٤٢/ ٤٥٦، ٤٥٧).

ب- كذلك ذكرت بعض الروايات أن عليًا ﷺحين خرج من الربذة توجه إلى فَيْد[١]، ثم الثعلبية[٢]، وهذه الأماكن من منازل طريق الكوفة، وهذا يعني أن عليًا لم يكن يتعقب أصحاب الجمل، وإلا لترك طريق الكوفة وقصد طريق البصرة. خاصة أن من أراد البصرة وكان خارجًا من المدينة فإنه يتجه إلى – النَّقِرَة[٣]، ومنها يتيامن حتى يصل النِّباج[٤]، التي تقع على طريق البصرة. [٥]

لكن عليًا ﷺلم يفعل ذلك، بل تعدى النقرة وواصل سيره إلى فيد، ثم الثعلبية. [٦]

هنا وبعد أن عسكر علي ﷺفي الربذة، أرسل رسولين لاستنفار الكوفيين، وهما محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، فأخفقا في مهمتهما لأن أبا موسى الأشعري والي الكوفة لعلي التزم موقف اعتزال الفتنة وحذر الناس من المشاركة فيها. [٧]

وهذا الخبر يؤيده ما أخرجه البخاري في صحيحه[٨] من طريق أبي وائل قال: دخل أبو موسى وأبو مسعود على عمار حيث بعثه علي إلى أهل الكوفة يستنفرهم، فقالا: ما رأيناك أتيت أمرًا أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذ أسلمتا، فقال عمار: ما رأيت منكما منذ أسلمت أمرًا أكره عندي من إبطائكما عن هذا الأمر، وكساهما حلة، ثم راحوا إلى المسجد. فاتجه علي إلى – ذي قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة[٩]. قرب الكوفة وعسكر بها، ومنها أرسل

---

(١) انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية لعاتق البلادي (٢٣٩).

(٢) انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/ ٧٨).

(٣) السابق (٥/ ٢٩٨) التي تقع على طريق الكوفة.

(٤) السابق (٥/ ٢٥٥).

(٥) انظر: كتاب المناسك للحربي (٣٢٢، ٥٨٧).

(٦) انظر: حول هذا الموضوع مع نقد الروايات في ذلك كتاب استشهاد عثمان ووقعة الجمل لخالد الغيث (١٨٣-١٨٤).

(٧) سنن أبي داود (٤/ ٤٥٩-٤٦٠) بإسناد حسن.

(٨) البخاري (٧١٠٤).

(٩) معجم البلدان لياقوت الحموي (٤/ ٢٩٣-٢٩٤).

عبد الله بن عباس وأتبعه ابنه الحسن وعمار بن ياسر لاستنفار الكوفيين.[١]

وكان السبب في تغير وجهة السير، هو أن عليًا ﷺ سمع بأنباء القلاقل التي حدثت في البصرة وأدت إلى خروج عامله عنها.

روى البخاري في صحيحه عن أبي وائل قال: لما بعث علي عمارًا والحسن إلى الكوفة ليستنفرهم خطب عمار فقال: إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها. وروي كذلك عن أبي مريم قال: لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث علي عمار بن ياسر والحسن بن علي، فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبر، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه وقام عمار أسفل الحسن. فاجتمعنا إليه فسمعت عمارًا يقول: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، والله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي.

قال الحافظ في الفتح: ومراد عمار بذلك أن الصواب في تلك القصة كان مع علي، وأن عائشة مع ذلك لم تخرج عن الإسلام ولا أن تكون زوجة النبي ﷺ في الجنة، فكان ذلك يعد من إنصاف عمار وشدة تحريه قول الحق.

وقال أيضًا: قال ابن هبيرة: في هذا الحديث أن عمارًا كان صادق اللهجة وكان لا تستخفه الخصوصية إلى أن ينتقص خصمه، فإنه شهد لعائشة بالفضل التام مع ما بينهما من حرب[٢]. وهنا يجدر التنبيه إلى أن كلام عمار ﷺعن عائشةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مبني على عدم معرفة عمار بحقيقة خروج أصحاب الجمل، وهو أنهم قد خرجوا للإصلاح بين الناس[٣]. فقدم على عليٍّ وفد الكوفة بذي قار، فقال لهم: يا أهل الكوفة أنتم لقيتم ملوك العجم فعضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن رجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبو داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بالظلم، ولن ندع أمرًا فيه الإصلاح إلا آثرناه

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٤٨٢) بسند صحيح إلى الزهري مرسلًا، والفتح (١٣/ ٦٣).

(٢) انظر: الفتح (١٣/ ٦٣).

(٣) انظر: استشهاد عثمان ووقعة الجمل لخالد الغيث (١٨٥).

على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى.[1]

وتذكر بعض الروايات أن أصحاب الجمل بعد أن خرجوا من مكة واقتربوا من أوطاس: وهو سهل يقع على طريق الحاج العراقي إذا أقبل من نجد، وتبعد عن مكة (١٤٣كم) باتجاه الشمال الشرقي[2]، تيامنوا عنها وتركوا طريق البصرة وساروا بمحاذاته حتى وصلوا البصرة.

وهذا الخبر لا يصح بحق أولئك الصحب الكرام، حيث إنه يصور أصحاب الجمل الذين خرجوا للإصلاح بأنهم مجموعة من الخارجين على الخلافة، وأن خوفهم من علي رضي الله عنه قد دفعهم إلى الابتعاد عن سلوك طريق البصرة لكي لا يلحق بهم.

وبدراسة خط سير أصحاب الجمل من مكة إلى البصرة، اتضح أنهم سلكوا طريق البصرة ولم يحيدوا عنه كما زعمت الروايات.

وبيان ذلك كما يلي:

أ- ذكرت الروايات أن أصحاب الجمل حين وصلوا أوطاس تيامنوا عنها وتركوا طريق البصرة وساروا بمحاذاته.

وهذا الخبر فيه تلبيس يوهم أن أصحاب الجمل قد تركوا طريق البصرة، بينما حقيقة الأمر أن من أراد البصرة وكان خارجًا من مكة تيامن من عند أوطاس كما فعل أصحاب الجمل، ومن أراد الكوفة تياسر عنها، حيث إن طريقي البصرة والكوفة يأخذان بالتفرع يمينًا ويسارًا من بعد أوطاس.

ب- ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام أحمد أن كلاب الحوأب نبحت على عائشة رضي الله عنها حين بلغت ديار بني عامر. وبنو عامر هؤلاء بنو عامر بن صعصعة، والحوأب ماء من مياه العرب يقع على طريق البصرة وهو من مياه بني بكر بن كلاب، وبنو كلاب

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٢٣٧).

(٢) انظر: معجم البلدان (١/ ٢٨١).

هؤلاء بطن من عامر بن صعصعة[١]. وحيث إن بني كلاب كانوا يسكنون ضَرِيَّة[٢]، فإن هذا يعني أن الحوأب تقع في ضرية، وحيث إن ضرية تقع على طريق الحاج البصري[٣]، فإن ذلك يعني أن أصحاب الجمل قد سلكوا الطريق المعتاد بين مكة والبصرة ولم يحيدوا عنه كما زعمت الروايات.[٤]

الوجه الرابع: سياق معركة الجمل من خلال الروايات التاريخية المقبولة والموافقة لمكانة الصحابة رضي الله عنهم:

كان جيش مكة قد وصل خلال تلك الفترة إلى البصرة فأرسل عثمان بن حنيف ﷺ وهو والي البصرة من قبل علي إليهم يستفسر عن سبب خروجهم فكان الجواب: إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدِثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل أمير المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا، وقرأت: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤)، ننهج في الإصلاح ممن أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره.[٥]

قلت: وهذا سياق لا يصح إسناده، والصواب أن الغرض هو الإصلاح لا الطلب بدم

---

(١) انظر: معجم البلدان (١/ ٣١٤).

(٢) انظر: كتاب المناسك للحربي (ص٦١٢)، ومعجم البلدان (٣/ ٤٥٧).

(٣) انظر: كتاب المناسك للحربي (٥٩٤).

(٤) انظر: حول هذا الموضوع مع نقد الروايات في ذلك: كتاب استشهاد عثمان ووقعة الجمل لخالد الغيث (١٦٦-١٦٨).

(٥) تاريخ الطبري (٤/ ٤٦٢)، من طريق سيف بن عمر، وهي رواية ضعيفة لا تصح سندًا فلا يعتمد عليها فيما خالفت فيه الروايات الصحيحة.

عثمان رضي الله عنه.

قال ابن العربي: أما خروجهم إلى البصرة فصحيح لا إشكال فيه، ولكن لأي شيء خرجوا لم يصح فيه نقل ولا يوثق فيه بأحد؛ لأن الثقة لم ينقله وكلام المتعصب غير مقبول وقد دخل مع المتعصب من يريد الطعن في الإسلام واستنقاص الصحابة.

فيحتمل أنهم خرجوا خلعًا لعلي لأمر ظهر لهم وهو أنهم بايعوا لتسكين الثائرة وقاموا يطلبون الحق، ويحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان، ويمكن أنهم خرجوا لينظروا في جمع طوائف المسلمين وضم تشردهم وردهم إلى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا وهذا هو الصحيح لا شيء سواه بذلك وردت صحاح الأخبار، فأما الأقسام الأول فكلها باطلة وضعيفة:

أما بيعتهم كرهًا فباطل وقد بيناها، وأما خلعهم فباطل؛ لأن الخلع لا يكون إلا بنظر من الجميع فيمكن أن يولى واحد أو اثنان ولا يكون الخلع إلا بعد الإثبات والبيان.

وأما خروجهم في أمر قتلة عثمان فيضعف، لأن الأصل قبله تأليف الكلمة ويمكن أن يجتمع الأمران. ويروى أن تغيبهم قطعًا للشغب بين الناس فخرج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم فيرعوا حرمة نبيهم واحتجوا عليها بقول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤)، وقد خرج النبي ﷺ في الصلح وأرسل فيه، فرجت المثوبة، واغتنمت الفرصة، وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها، وأحس بهم أهل البصرة فحرض من كان بها من المتألبين على عثمان الناس، وقالوا: اخرجوا إليهم حتى تروا ما جاءوا إليه فبعث عثمان بن حنيف حكيم بن جبلة فلقي طلحة والزبير بالزابوقة فقتل حكيم، ولو خرج مسلمًا مستسلمًا لا مدافعا[1] لما أصابه شيء، وأي خير كان له في المدافعة؟ وعن أي شيء كان يدافع وهم ما جاءوا مقاتلين ولا ولاة، وإنما ساعين في الصلح

(١) أي مقاتلًا.

راغبين في تأليف الكلمة؟ فمن خرج إليهم ودافعهم وقاتلهم دافعوا عن مقصدهم كما يفعل في سائر الأسفار والمقاصد.

فلما وصلوا إلى البصرة تلقاهم الناس بأعلى المربد مجتمعين حتى لو رمى حجر ما وقع إلا على رأس إنسان، فتكلم طلحة وتكلمت عائشة رضي الله عنها وكثر اللغط، وطلحة يقول: انصتوا فجعلوا يركبونه ولا ينصتون فقال: أف أف، فراش نار، وذباب طمع وانقلبوا على غير بيان، وانحدروا إلى بني نهد فرماهم الناس بالحجارة حتى نزلوا الجبل والتقى طلحة والزبير وعثمان بن حنيف عامل عليّ على البصرة، وكتبوا بينهم أن يكفوا عن القتال ولعثمان دار الإمارة والمسجد وبيت المال، وأن ينزل طلحة والزبير من البصرة حيث شاءا ولا يعرض بعضهم لبعض حتى يقدم عليّ.

وروى أن حكيم بن جبلة عارضهم حينئذ فقتل بعد الصلح.

وقدم عليّ البصرة وتدانوا ليتراءوا فلم يتركهم أصحاب الأهواء، وبادروا بإراقة الدماء واشتجر بينهم الحرب وكثرت الغوغاء على البوغاء كل ذلك حتى لا يقع برهان ولا تقف الحال على بيان ويخفى قتلة عثمان، وإن واحدًا في الجيش يفسد تدبيره فكيف بألف؟ [1]

ولم يثبت من طريق صحيح يمكن أن يعول عليه، أنهم ضربوا عثمان بن حنيف ونتفوا شعر وجهه رضي الله عنه، والصحابة الكرام رضي الله عنهم يتنزهون عن مثل هذه المثلة القبيحة. [2]

وحين عسكر جيش عليّ بذي قار أرسل عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير يسألهما: هل أحدث ما يوجد السخط على خلافته، كحيف في حكم أو استئثار بفيء؟ أوفي كذا؟ فقال الزبير: ولا في واحدة منها. [3]

وبالجملة فعائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم إنما خرجوا قاصدين الإصلاح، وجمع كلمة المسلمين، وما رافق ذلك من قتال وحروب فلم يكن بمحض إرادتهم ولا قصدًا منهم،

(١) العواصم من القواصم (١٥٥)، وانظر: تاريخ الطبري (٤/ ٤٦٨-٤٧١).

(٢) وهذه من روايات أبي مخنف الكذاب، انظر: مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري (ص٢٥٨).

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٥٩٦) بسند صحيح، وابن أبي شيبة: المصنف (١٥/ ٢٦٧) بتصرف يسير.

وإنما أثير من قبل السبئية وأعوانهم من الغوغاء، ولم يكن الإصلاح هدف طلحة والزبير وعائشة وحدهم، بل إن عليًا أيضًا لم ير في مسيره إليهم إلا الإصلاح وجمع الكلمة، وعلى العموم لم ير عليّ وطلحة والزبير وعائشة- رضوان الله عليهم- أمرًا أمثل من الصلح وترك الحرب، فافترقوا على ذلك، وإنه لموقف رائع من طلحة والزبير- رضي الله عنهما-، وهولا يقل روعة عن موقف أمير المؤمنين علي ﷺ فكل منهم قبل الصلح ووافق عليه، وكل منهم كان يتورع أن يسفك دمًا أويقتل مسلمًا.

ولا يمكن أن يفهم عاقل يقف على النصوص السابقة أن زعماء الفريقين هم الذين حركوا المعركة وأوقدوا نارها، وكيف يتأتى ذلك وكلا الطرفين كانت كلمة الصلح قد نزلت من نفوسهم وقلوبهم منزلًا حسنًا؟ ولكنهم قتلة عثمان أصحاب ابن سبأ- عليهم من الله ما يستحقون- هم الذين أشعلوا فتيلها وأججوا نيرانها حتى يفلتوا من حد القصاص.

وقد يسأل سائل لماذا سمح علي ﷺ لأهل الفتنة بالبقاء معه في جيشه ولم يعاقبهم على فعلتهم الشنيعة؟!

وجوابه

١-كان سبب إبقاء علي على أهل الفتنة في جيشه أنهم كانوا سادات في أقوامهم، فكان عليّ يرى أن يصبر عليهم إلى أن تستقر الأمور.

٢-وقد أجاب عن ذلك الإمام الطحاوي في شرح العقيدة الطحاوية بقوله: وكان في عسكر عليّ ﷺ من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان، من لم يُعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله. [(١)]

٣-وعلى كل حال كان موقف علي ﷺ، موقف المحتاط منهم، المتبرئ من فعلهم، وهو-وإن كان لم يخرجهم من عسكره- فقد كان يعاملهم بحذر وينظر إليهم بشزر، حتى قال الإمام الطبري في تاريخه. [(٢)]: بأنه لم يول أحد منهم أثناء استعداده للمسير إلى الشام - يقصد مسيره لحرب صفين -، حيث دعا ولده محمد بن الحنفية وسلمه اللواء وجعل عبد

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٨٣).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٩٥).

الله بن عباس- رضي الله عنهما- قائد الميمنة وعمر بن أبي سلمة ﷺعلى الميسرة وجعل على مقدمة الجيش أبا ليلى بن عمر بن الجراح واستخلف على المدينة قثم بن العباس ﷺ.

وهذه بادرة منه ﷺ ليعلن تبرؤه من أولئك المارقين، ويثبت قدرته على السيطرة على أمر المسلمين من غير عون منهم، فقد كان له في المسلمين الموالين له والمؤيدين لخلافته ما يغنيه عن الاستعانة بهم والتودد إليهم. وهذا أقصى ما يمكنه فعله بتلك الطائفة إذ ذاك، وهو كافٍ في عذره لأنهم مئات ولهم قرابة وعشائر في جيشه، فما يأمن لوعاملهم بأكثر من هذا من الشدة أن يمتد حبل الفتنة في الأمة، كما حصل ذلك لطلحة والزبير وعائشة بالبصرة حين قتلوا بعضًا منهم، فغضب لهم قبائلهم واعتزلوهم.[١]

فلما نزل الناس منازلهم واطمأنوا خرج عليّ وخرج طلحة والزبير فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمرًا هو أمثل من الصلح، فافترقوا على ذلك، رجع عليّ إلى عسكره ورجع طلحة والزبير إلى عسكرهما وأرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل عليّ إلى رؤساء أصحابه ما عدا أولئك الذين حاصروا عثمان ﷺ، فبات الناس على نية الصلح والعافية، وهم لا يشكون في الصلح فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض لا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح فباتوا بخير ليلة باتوها منذ مقتل عثمانﷺ، وبات الذين أثاروا الفتنة بشرّ ليلة باتوها قط، إذ أشرفوا على الهلاك وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها.[٢]

فاجتمعوا على إنشاب الحرب في السر، فغدوا في الغلس وعليهم ظلمة وما يشعر بهم جيرانهم، فوضعوا فيهم السيوف، فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه الذين باغتوهم، فقام طلحة ينادي وهو على دابته - وقد غشيه الناس - فيقول: يا أيها الناس أتنصتون؟ فجعلوا يركبونه ولا ينصتونه، فما زاد أن قال: أف، أف، فراش نار وذبان طمع.[٣] وهل يكون فراش النار وذبان الطمع غير أولئك السبئية؟! التحم القتال من

(١) إفادة الأخيار ببراءة الأبرار للتباني (٢/ ٥٢).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٥٠٦-٥٠٧) من طريق سيف بن عمر.

(٣) تاريخ خليفة (١٨٢).

الغوغاء وخرج الأمر عن عليّ وطلحة والزبير. وكان طلحة يقول والسهام تناوشه: اللهم خذ لعثمان مني اليوم حتى ترضى. [١]

ويصور لنا الحسن بن عليّ حال والده فيقول: لقد رأيته حين اشتد القتال يلوذ بي ويقول: يا حسن لوددت أني مت قبل هذا بعشرين حجة - أوسنة -، فقال له الحسن: يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا، قال: يا بني لم أر الأمر يبلغ هذا. [٢]

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه بإسناده إلى حبيب بن أبي ثابت أن عليًا قال يوم الجمل: اللهم ليس هذا أردت، اللهم ليس هذا أردت. [٣]

الوجه الخامس: أن الروايات التي جاءت تفيد بأن طلحة ﵁ قام بتحريض الناس على القتال، هي روايات مردودة بما ثبت من عدالة الصحابة رضوان الله عليهم.

وقام طلحة ورجع خلف الجيش، فجاءه سهم غرب لا يعرف من أين أتى فنزل في المفصل من ركبته فصادف جرحًا في ساقه كان أصابه يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ فبدأ ينزف فحمله غلامه إلى البصرة، وألجأه إلى دار خربة لا أحد فيها ومات هناك. [٤]

والصحيح أن الروايات في رمي مروان لطلحة ثابتة، والذي حمله على ذلك هو أنه ظن أن طلحة شارك في قتل عثمان فاجتهد في ذلك وأخطأ في اجتهاده، وليس هناك من ضرورة توجب إصابة مروان في اجتهاده. قال ابن حجر: جَاءَ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ رَمَاهُ فَأَصَابَ رُكْبَتَهُ فَلَمْ يَزَلْ يَنْزِفُ الدَّمُ مِنْهَا حَتَّى مَاتَ وَقَالَ قيس بن أبي حازم: رأيت مَروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذٍ بسهمٍ، فوقع في رُكبته، فما زال يسحّ حتّى مات. وفي بعض طُرُقه: رماه بسهمٍ، وَقَالَ: هذا ممّن أعان على عثمان[٥].

---

(١) تاريخ خليفة (١٨٥)، دول الإسلام للذهبي (١/ ٢٨).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٨٨) **بإسناد صحيح**، والسنة لعبد الله بن أحمد (٢/ ٥٦٦، ٥٨٩).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٧٥).

(٤) تاريخ الطبري (٤/ ٥١٢، ٥١٤) من طريق سيف بن عمر.

(٥) فتح الباري (٧/ ٨٢)، والسنة لأبي بكر الخلال (٣/ ٥١٧)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٦٠)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ١٥٩).

وفي أثناء المعركة قال علي للزبير: أتذكر حديث رسول الله ﷺ حين قال: **يا زبير، أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له.** [١] روى الحاكم في المستدرك من طرق متعددة[٢]، أن عليًا ذكّر الزبير بأن النبي ﷺ قال له: **"لتقاتلن عليًا وأنت ظالم له"**، فلذلك رجع.

وأخرج إسحاق من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد السلام - رجل من حيه - قال: خلا علي بالزبير يوم الجمل فقال: أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول وأنت لاوي يدي: **" لتقاتلنه وأنت ظالم له ثم لينتصرن عليك "**، قال: قد سمعت، لا جرم لا أقاتلك. [٣]

وروى أن الزبير ﷺلما عزم على الرجوع إلى المدينة عرض له ابنه عبد الله فقال: مالك؟ قال: ذكّرني علي حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ وإني راجع، فقال له ابنه: وهل جئت للقتال؟ إنما جئت تصلح بين الناس، ويصلح الله هذا الأمر. [٤]

وبالفعل فإن موقف الزبير ﷺكان السعي في الإصلاح حتى آخر لحظة، وهذا ما أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق أبي حرب بن أبي الأسود الديلي، وفيه أن الزبير ﷺسعى في الصلح بين الناس ولكن لما قامت المعركة واختلف أمر الناس مضى الزبير وترك القتال. [٥]

وهذا الفعل من الزبير ﷺ هو الذي ينسجم مع مقصده الذي قدم البصرة من أجله، لا كما تصوره بعض الروايات من أنه كان من المحرضين على القتال.

وأثناء انسحابه ﷺ رآه ابن جرموز، فتبعه فأدركه وهو نائم في القائلة بوادي السباع، فهجم عليه فقتله ﷺ، ثم سلب سيفه ودرعه. [٦]

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٨/ ٤١٠: ٤٠٨).
(٢) الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٦٥-٣٦٦).
(٣) ذكره الحافظ في الفتح (١٣/ ٦٠)، وانظر المطالب العالية (٤/ ٣٠١).
(٤) ابن عساكر في تاريخه (١٨/ ٤١٠)، وابن كثير في البداية (٧/ ٢٤٢).
(٥) الحاكم في المستدرك (٣/ ٤١٣، ٣٦٦)، وقال الذهبي: **صحيح**.
(٦) الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٤/ ٢٣٩). **وقال ابن كثير**: أن هذا القول هوالأشهر. انظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٥٠). نقلًا عن كتاب- صدق النبأ في بيان حقيقة عبد الله بن سبأ (٩٨).

وجاء إلى علي ﷺ متقربًا إليه بذلك، فأمسك علي السيف بيده وقال: طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ وقال: " **بشر قاتل ابن صفية بالنار**". [١]

وذكره أحمد في كتاب فضائل الصحابة **بإسناد حسن** بلفظ قريب وفيه[٢]: جاء قاتل الزبير يستأذن، فجاء الغلام فقال: هذا قاتل الزبير فقال: " **ليدخل قاتل الزبير النار،**

وجاء قاتل طلحة يستأذن فقال الغلام: هذا قاتل طلحة يستأذن، فقال: ليدخل قاتل طلحة النار"، وهذا الخبر يؤيده ما أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة[٣] بإسناد حسن، وفيه أن ابن جرموز استأذن على عليّ ﷺ فقال: من هذا؟ فقال: ابن جرموز يستأذن. فقال: " **ائذنوا له ليدخل قاتل الزبير النار، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لكل نبي حواريّ وإن حواريّ الزبير** ".

وفي تعليل هذه الجرأة من ابن جرموز على قتل الزبير ﷺ يقول الحافظ أبونعيم الأصفهاني في كتاب الإمامة[٤]: وكثر في أيامه - أيام عثمان ﷺ- من لم يصحب الرسول، وفُقد من عَرَفَ فضل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

هنا ذهب كعب بن سَور بالخبر إلى أم المؤمنين فقال لها: أدركي الناس قد تقاتلوا.

وكانت المعركة قريبة من البصرة، فوضع لها الهودج فوق البعير – وَرَدَ أن اسم البعير عسكر - فجلست فيه وغطي بالدروع، وذهبت إلى أرض المعركة لعل أن يوقف الناس القتال عندما يشاهدونها، فلما وصلت، أعطت عائشة المصحف لكعب وقالت له: خلِّ البعير وتقدم وارفع كتاب الله وادعهم إليه، فشعر أهل الفتنة بأن القتال سيتوقف إذا تركوا كعبًا يفعل ما طُلب منه، فلما قام كعب ورفع المصحف وأخذ ينادي تناولته النبال فقتلوه. [٥]

---

(١) ذكره الحافظ في الفتح (٦/ ٢٦٤-٢٦٥) و (٧/ ١٠٢) وانظر: المسند (١/ ٨٩، ١٠٢) وصححه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٧).

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٧٣٦-٧٣٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي نعيم الأصبهاني (ص٣٢٢).

(٥) كما جاء في رواية الطبري (٤/ ٥١٣) من طريق سيف بن عمر، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٨٨).

ثم أخذوا بالضرب نحو الجمل، بغية قتل عائشة لكن الله نجاها، فأخذت تنادي: أوقفوا القتال، وأخذ عليّ ينادي وهو من خلف الجيش: أن أوقفوا القتال، وقادة الفتنة مستمرين، فقامت أم المؤمنين بالدعاء على قتلة عثمان قائلة: اللهم العن قتلة عثمان، فبدأ الجيش ينادي معها، وحين سمع علي ﷺأثناء المعركة أهل البصرة يضجون بالدعاء، قال: ما هذه الضجة؟ فقالوا: عائشة تدعو ويدعون معًا على قتلة عثمان وأشياعهم، فأقبل عليّ يدعو ويقول: اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم.[(١)]

وروى ابن أبي شيبة في المصنف[(٢)]، والبيهقي في السنن الكبرى[(٣)]، أن عليًا سمع يوم الجمل صوتًا تلقاء أم المؤمنين فقال: انظروا ما يقولون، فرجعوا فقالوا: يهتفون بقتلة عثمان، فقال: اللهم أحلل بقتلة عثمان خزيًا.

ويؤيد هذا الخبر ما أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة بإسناد صحيح، من طريق محمد بن الحنفية قال: بلغ عليًا أن عائشة تلعن قتلة عثمان في المربد، قال: فرفع يديه حتى بلغ بهما وجهه فقال: وأنا ألعن قتلة عثمان، لعنهم الله في السهل والجبل، قال مرتين أوثلاثًا. وارتفعت أصوات الدعاء في المعسكرين.[(٤)]

يقول الحارث بن سويد الكوفي - شاهد عيان ثقة ثبت - لقد رأيتُنا يوم الجمل، وإن رماحنا ورماحهم لمتشاجرة ولو شاءت الرجال لمشت عليه، يقولون: الله أكبر، سبحان الله، الله أكبر.[(٥)]، ثم إن أهل الفتنة أخذوا يرشقون جمل أم المؤمنين بالنبال وعليّ يصرخ فيهم أن كفوا عن الجمل، لكنهم لا يطيعونه فصار الجمل كالقنفذ من كثرة النبال التي علقت به.[(٦)]

ويقدم الأشتر نحو الجمل فوقف له ابن الزبير فتقاتلا، ولهذا شاهد من حديث أخرجه

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٥١٣).

(٢) ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٢٧٧).

(٣) البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٨١).

(٤) فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٤٥٥).

(٥) تاريخ خليفة (١٩٨) بإسناد صحيح.

(٦) تاريخ الطبري (٤/ ٥١٣، ٥٣٣) من طريق سيف بن عمر.

ابن أبي شيبة في المصنف[١] بإسناد رجاله ثقات: أن الأشتر وابن الزبير التقيا فقال ابن الزبير: فما ضربته ضربة حتى ضربني خمسًا أوستًا، ثم قال: فألقاني برجلي، ثم قال: والله لولا قرابتك لرسول الله ﷺ ما تركت منك عضوًا مع صاحبه، قال: وقالت عائشة: واثكل أسماء، قال: فلما كان بعد أعطت الذي بشرها به أنه حيّ عشرة آلاف.

أما قصة صراع ابن الزبير مع الأشتر وقول ابن الزبير: اقتلوني ومالكًا، تعارضها الروايات الصحيحة، فقد أخرج الطبري[٢] بسند صحيح عن علقمة أن الأشتر لقي ابن الزبير في الجمل فقال: فما رضيت بشدة ساعدي أن قمت في الركاب فضربته على رأسه فصرعته. قلنا فهو القائل: اقتلوني ومالكًا؟ قال: لا، ما تركته وفي نفسي منه شيء، ذاك عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، لقيني فاختلفنا ضربتين، فصرعني وصرعته، فجعل يقول: اقتلوني ومالكًا، ولا يعلمون من مالك فلو يعلمون لقتلوني. [٣]

هنا وصل القعقاع إلى الجمل فخاف على أم المؤمنين أن تصاب فبدأ ينادي بالانسحاب فأخذ الجمل محمد بن طلحة بن عبيد الله، فقتل رضي الله عنه فأخذ القعقاع الجمل وسحبه خارج المعركة.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف[٤] بسند صحيح أن عبد الله بن بديل قال لعائشة: يا أم المؤمنين أتعلمين أني أتيتك عندما قتل عثمان فقلتُ ما تأمريني، فقلتِ الزم عليًا؟ فسكتت فقال: اعقروا الجمل فعقروه قال: فنزلت أنا وأخوها محمد واحتملنا الهودج حتى وضعناه بين يدي عليّ، فأمر به علي فأدخل في بيت عبد الله بن بديل. وأورده الحافظ في الفتح. [٥]

هنا علي رضي الله عنه أصدر الأوامر بأن لا تلحقوا هاربًا ولا تأخذوا سبيًا فثار أهل الفتنة وقالوا: تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم وأموالهم؟ فقال عليّ: أيكم يريد عائشة في سهمه فسكتوا،

---

(١) ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٠٨)، (١٥/ ٢٥٧).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٥٢٠).

(٣) ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٢٢٨).

(٤) السابق.

(٥) الحافظ في الفتح (١٣/ ٦٢).

فنادى لا تقتلوا جريحًا ولا تقتلوا مدبرًا، ومن أغلق بابه وألقى سلاحه فهو آمن[١].

وعن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: دخلت على مروان بن الحكم، فقال: ما رأيت أحدًا أكرم من أبيك، ما هو إلا أن ولينا يوم الجمل فنادى مناديه لا يقتل مدبرٌ ولا يذفف على جريح.[٢]

وكان علي ﷺيطوف على القتلى وهم يدفنون، ثم سار حتى دخل البصرة فمر على طلحة، وراه مقتولًا، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: عزيز عليّ أبا محمد أن أراك مجندلًا تحت نجوم السماء، ثم قال: إلى الله أشكو عجري وبجري - أي همومي وأحزاني - وبكى عليه وعلى أصحابه.[٣]

بعدها ذهب إلى بيت عبد الله بن بديل الخزاعي لزيارة عائشة والاطمئنان عليها فقال لها: غفر الله لكِ، قالت: ولك ما أردت إلا الإصلاح بين الناس.[٤]، ونقل الزهري[٥] قولها: إنما أريد أن يحجز بين الناس مكاني، ولم أحسب أن يكون بين الناس قتال، ولو علمت ذلك لم أقف ذلك الموقف أبدًا. وهذا هو الصحيح بخلاف من قال بأن عائشة نزلت في بيت عبد الله بن خلف الخزاعي.

ثم قام علي بتجهيز عائشة وإرسالها إلى مكة معززة مكرمة، وهذا الفعل من علي ﷺيعد امتثالًا لما أوصاه به النبي ﷺ[٦]، في حديث أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالبﷺ: إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر، قال: فأنا أشقاهم يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها.

وكان خروج عائشة رضي الله عنها يوم الجمل يعتبر زلة عن قصد حسن وهو الإصلاح، وقد

---

(١) البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٨٢)، وابن أبي شيبة (١٥/ ٢٥٧) و (١٥/ ٢٨٦) بإسناد صحيح.

(٢) وأخرجه الشافعي في الأم (٤/ ٣٠٨)، وأورده الحافظ في الفتح (١٣/ ٦٢).

(٣) تاريخ دمشق (٢٥/ ١١٥)، وأسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٨٨-٨٩).

(٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/ ٢٠٦).

(٥) في المغازي (١٥٤).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٣٩٣) بسند حسن.

ندمت على ذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أنها زوجته في الجنة كما في المستدرك وقال عمار: والله إنها لزوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، كما في الصحيح بهذا المعنى.

وبهذين الدليلين وبوصف الله لها في القرآن بأنها طيبة، تنقطع ألسنة الطاعنين في صحابة رسول الله ومنهم أم المؤمنين. [١]

وكانت رضي الله عنها إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٣) بكت حتى يبتل خمارها، وكانت حينما تذكر الجمل تقول: وددت أني كنت جلست كما جلس أصحابي، وفي رواية ابن أبي شيبة: وددت أني كنت غصنًا رطبًا ولم أسر مسيري هذا. [٢]

والعقل يقطع بأنه لامناص من القول بتخطئة إحدى الطائفتين المتقاتلتين اللتين وقع فيهما مئات القتلى، ولاشك أن عائشة رضي الله عنها هي المخطئة؛ لأسباب كثيرة وأدلة واضحة، منها ندمها على خروجها، وذلك هو اللائق بفضلها وكمالها، وذلك مما يدل على أن خطأها من الخطأ المغفور، بل المأجور.

قال الإمام الزيلعي في نصب الراية: وقد أظهرت عائشة الندم كما أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب عن ابن أبي عتيق – عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق – قال: قالت عائشة لابن عمر: يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟ قال: رأيت رجلًا غلب عليك – يعني ابن الزبير – فقالت: أما والله لو نهيتني ما خرجت.

قال الشيخ الألباني: ولهذا الأثر طرق أخرى، فقال الذهبي في السير: عن قيس قال: قالت عائشة، وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها فقالت: إني قد أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثًا، ادفنوني مع أزواجه، فدفنت بالبقيع رضي الله عنها، قلت – أي الذهبي -: تعني بالحدث مسيرها يوم الجمل، فإنها ندمت ندامة كلية وتابت من ذلك، على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة، قاصدة للخير، كما اجتهد طلحة والزبير وجماعة من كبار الصحابة – رضي الله عن الجميع – [٣].

(١) الصحيح المسند من دلائل النبوة للشيخ مقبل الوادعي (٤١٧) في الهامش.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٧٧)، مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٢٣٨) وابن أبي شيبة (١٥/ ٢٨١).
(٣) انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٨٥٤-٨٥٥).

يقول شيخ الإسلام: إن عائشة لم تخرج للقتال، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين الناس وظنت أن في خروجها مصلحة للمسلمين، ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتى تبل خمارها، وهكذا عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال فندم طلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين[١].

ويقول الإمام القرطبي: لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل. . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض - يشير إلى حديث أبي هريرة عند مسلم[٢] ونصه: أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: **" اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد"**[٣]، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانًا لم يكن بالقتل فيه شهيدًا. . ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من إخبار عليّ بأن قاتل الزبير في النار، وقوله سمعت رسول الله ﷺ يقول: **" بشر قاتل ابن صفية بالنار"** - تقدم تخريجه -، وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا آثمين بالقتال - أي أنهما معذوران باجتهادهما - لأن ذلك لو كان كذلك، لم يقل النبي ﷺ في طلحة شهيد، ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار، وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم، والبراءة منهم، وتفسيقهم وإبطال فضائلهم وجهادهم - رضي الله تعالى عنهم -.

وعلى ذلك إذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجوز عليهم الخطأ كما يجوز على كل بشر، فحينئذ نستطيع أن نقبل ما يحدث في تصرفاتهم من أخطاء غير مقصودة، وإنما وقعت نتيجة اجتهاد لم يوفقوا فيه إلى الصواب، لكنهم مثابون على الإخلاص في اجتهادهم إن شاء الله.

---

(١) منهاج السنة (٤/ ٣١٦-٣١٧، ٣٢١-٣٢٢) و (٦/ ٢٠٨، ٣٦٣).

(٢) مسلم (٤/ ١٨٨٠).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٣٢١-٣٢٢) في تفسير سورة الحجرات، والترمذي (٥/ ٦٤٤)، وانظر: كتاب فضائل الصحابة للنسائي (١١٣)، وابن ماجه في فضائل طلحة (١/ ٤٦)، والأصفهاني في الإمامة (٣٧١-٣٧٢).

ولقد أخطأ من قال بأن الباعث لخروج طلحة والزبير هو ما كانا عليه من الطمع في الخلافة والتآمر على الناس بذلك.

فينفي ابن شبّة في كتابه أخبار البصرة هذا الزعم بقوله: إن أحدًا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليًا في الخلافة، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة، وإنما أنكروا على علي منعه - أي تأخيره - من قتل قتلة عثمان وترك الاقتصاص منهم. [1]

ويقول ابن حزم: [2] فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها، أنهم لم يمضوا إلى البصرة لحرب علي ولا خلافًا عليه، ولا نقضًا لبيعته ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته، وهذا ما لا يشك فيه أحد ولا ينكره أحد، فصح أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ظلمًا.

وأما عن عدد قتلى معركة الجمل فقد بالغ المؤرخون في ذكرهم، فمن مقلل ومن مكثر على حسب ميل الناس وأهوائهم؛ لكن العدد الحقيقي لقتلى معركة الجمل فقد كان ضئيلًا جدًّا للأسباب التالية: -

١ - قصر مدة القتال، حيث أخرج ابن أبي شيبة **بإسناد صحيح** أن القتال نشب بعد الظهر، فما غربت الشمس وحول الجمل أحد ممن كان يذب عنه.

٢ - الطبيعة الدفاعية للقتال، حيث كان كل فريق يدافع عن نفسه ليس إلا.

٣ - تحرج كل فريق من القتال لما يعلمون من عظم حرمة دم المسلم.

٤ - قياسًا بعدد شهداء المسلمين في معركة اليرموك - ثلاثة آلاف شهيد، تاريخ الطبري[3]- ومعركة القادسية - ثمانية آلاف وخمسمائة شهيد، تاريخ الطبري[4] - وهي التي استمرت عدة أيام، فإن العدد الحقيقي لقتلى معركة الجمل يعد ضئيلًا جدًّا، هذا مع

(١) أورده الحافظ في الفتح (١٣/ ٦٠-٦١).

(٢) الفصل في الملل (٤/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٤٠٢).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٥٦٤).

الأخذ بالاعتبار شراسة تلك المعارك وحدتها لكونها من المعارك الفاصلة في تاريخ الأمم.

٥ - أورد خليفة بن خياط في تاريخه[١] بيانًا بأسماء من حفظ من قتلى يوم الجمل، فكانوا قريبًا من المائة. فلو فرضنا أن عددهم كان مائتين وليس مائة، فإن هذا يعني أن قتلى معركة الجمل لا يتجاوز المائتين. وهذا هو الراجح للأسباب والحيثيات السابقة. والله أعلم. [٢]

وهذا العدد مصداق لقوله ﷺ فيما رواه البزار عن ابن عباس رضي الله عنه قال: **" قال رسول الله ﷺ لنسائه: ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تخرج فتنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير، ثم تنجو بعد ما كادت".** [٣]

أما قولهم: بوجود عداوة قديمة بين عائشة وعلي سببها هو ماكان بين عائشة وفاطمة حيث كانت عائشة زوجة أبيها بعد أمها والبنت تكره زوجة أبيها إلى آخر ما قالوا في هذا المعنى، والرد عليه من وجوه:

أولها: فساد ما بني عليه هذا الكلام وهو أن عائشة وعلي كانا يقصدان قتال بعض وقد مر بيان ذلك.

ثانيها: النصوص الصحيحة تدل على حسن العلاقة بين عائشة وفاطمة.

ثالثها: لا يوجد أي دليل صحيح يدل على سوء العلاقة بين أسرة أبي بكر الصديق وأسرة على بن أبي طالب رضي الله عنه.

وإليك البيان بالتفصيل:

النصوص الصحيحة تدل على حسن العلاقة بين عائشة وفاطمة، وهذا من جهتين الأولى جهة عائشة، والثانية جهة فاطمة.

أما ما كان من جهة عائشة فهذه أدلته:

١ -عائشة هي التي روت حديث الكساء والذي يعتبر من أعظم المناقب لفاطمة رضي الله عنها،

---

(١) تاريخ خليفة (١٨٧-١٩٠).

(٢) انظر: حول هذا الموضوع كتاب: استشهاد عثمان ووقعة الجمل لخالد الغيث (٢١٤-٢١٥)، وكتاب- صدق النبأ في حقيقة عبد الله بن سبأ.

(٣) السلسلة الصحيحة (١/ ٨٥٣).

فعن عائشة: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي، فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣). [1]، وبداهة العقل تقول لو أن عائشة تبغض فاطمة وعليًا لما روت لنا هذا الحديث، وفي الحديث أنها صرحت بذكر اسم علي رضي الله عنه وهذا يرد على من زعم أنها تكره حتى ذكر اسمه.

٢-عن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: **" مرحبا بابنتي "**. ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثًا فبكت فقلت لها لم تبكين؟ ثم أسر إليها حديثًا فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتها عما قال فقالت: ما كنت لأفشي رسول الله ﷺ حتى قبض النبي ﷺ، فسألتها فقالت: **" أسر إلي إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي. فبكيت فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة أهل الجنة أو نساء المؤمنين ". فضحكت لذلك.** [2]

وفي رواية قالت: إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعًا لم تغادر منا واحدة، فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ولا والله لا تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها رحب وقال: **" مرحبًا بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أوعن شماله، ثم سارها فبكت بكاء شديدًا فلما رأى حزنها سارها الثانية فإذا هي تضحك، فقلت لها: أنا من بين نسائه خصك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا، ثم أنت تبكين فلما قام رسول الله ﷺ سألتها عم سارك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره، فلما توفي قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني قالت: أما الآن فنعم، فأخبرتني. قالت: أما حين سارني في الأمر الأول، فإنه أخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا**

(١) مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٨) من حيث عائشة.

(٢) البخاري (٣٦٢٤، ٣٦٢٣)، مسلم (٢٤٥٠).

لك. قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية قال: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة". (١)

قال أبو نعيم في الحلية: وروته فاطمة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة عن عائشة نحوه(٢).

وأما من جهة فاطمة فإنها تحب عائشة وذلك لوجوه:

١-أنها حبيبة أبيها، والمعروف أن المرء يحب محبوب حبيبه والذي أصل هذا هو رسول الله ﷺ كما روت عائشة رضي الله عنها قالت: أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مرطي فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة وأنا ساكتة. قالت: فقال لها رسول الله ﷺ أي بنية ألست تحبين ما أحب؟ فقالت: بلى. قال فأحبي هذه قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ: فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبدًا. (٣)

فقولها: بلى إجابة عن سؤاله الست تحبين ما أحب تصريح منها أنها تحب عائشة رضي الله عنها، وقوله: فأحبي هذه أمر منه ﷺ لفاطمة بحب عائشة، ومن من الناس أولى بطاعة أبيها من فاطمة التي هي أشبه الخلق به ﷺ كما سبق في رواية عائشة.

٢- لم يحدث في حياة فاطمة ولا حياة عائشة ما يدل على إساءة إحداهما إلى الأخرى لأن الواصلة بينهما هو رسول الله ﷺ، وهو يحبهما وهما يحبانه ويحبان ما يحب كما سبق بيانه.

٣- وهذه قصة تدل على احترام كل واحدة منهما للأخرى. عَنْ عَلِيٍّ، أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، شَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ أَثَرِ الرَّحَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ سَبْيٌ، فَانْطَلَقَتْ فَلَمْ تَجِدْهُ، فَوَجَدَتْ

---

(١) البخاري (٦٢٨٦، ٦٢٨٥).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٤٠).

(٣) مسلم (٢٤٤٢).

عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ بِمَجِيءِ فَاطِمَةَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْتُ لِأَقُومَ، فَقَالَ: «عَلَى مَكَانِكُمَا». فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي، وَقَالَ: «أَلاَ أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَانِي، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا تُكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ، وَتُسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَتَحْمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»[(١)]

وأما ما جرى بين الصديق وبين فاطمة رضي الله عنها بخصوص مسألة الميراث: وهو ما روت عائشة أن فاطمة أَرْسَلَتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَفَدَكٍ وَمَا بَقِيَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا الْمَالِ وَإِنِّي وَاللهِ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ شَيْئًا فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ قَالَ فَهَجَرَتْهُ فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ، وَعَاشَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ دَفَنَهَا زَوْجُهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَيْلًا وَلَمْ يُؤْذِنْ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا عَلِيٌّ، وَكَانَ لِعَلِيٍّ مِنْ النَّاسِ وِجْهَةٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ اسْتَنْكَرَ عَلِيٌّ وُجُوهَ النَّاسِ فَالْتَمَسَ مُصَالَحَةَ أَبِي بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ وَلَمْ يَكُنْ بَايَعَ تِلْكَ الْأَشْهُرَ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ ائْتِنَا وَلَا يَأْتِنَا مَعَكَ أَحَدٌ كَرَاهِيَةَ مَحْضَرِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: وَاللهِ لَا تَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَحْدَكَ، فَقَالَ أَبُوبَكْر: وَمَا عَسَاهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي إِنِّي وَاللهِ لَآتِيَنَّهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ فَتَشَهَّدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ثُمَّ قَالَ: إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَضِيلَتَكَ وَمَا أَعْطَاكَ اللهُ وَلَمْ نَنْفَسْ عَلَيْكَ خَيْرًا سَاقَهُ اللهُ إِلَيْكَ وَلَكِنَّكَ اسْتَبْدَدْتَ عَلَيْنَا بِالْأَمْرِ وَكُنَّا نَحْنُ نَرَى لَنَا حَقًّا لِقَرَابَتِنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَزَلْ يُكَلِّمُ أَبَا بَكْرٍ حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَا أَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي، وَأَمَّا الَّذِي شَجَرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ فَإِنِّي لَمْ آلُ فِيهَا عَنْ الْحَقِّ وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلَّا صَنَعْتُهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ لِأَبِي بَكْر: مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةُ لِلْبَيْعَةِ، فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ صَلَاةَ الظُّهْرِ رَقِيَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَتَشَهَّدَ وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِيٍّ وَتَخَلُّفَهُ عَنْ

---

(١) صحيح البخاري (٣٧٠٥) ومسلم (٢٧٢٧).

الْبَيْعَةِ وَعُذْرَهُ بِالَّذِي اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَتَشَهَّدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَعَظَّمَ حَقَّ أَبِي بَكْرٍ وَأَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى الَّذِي صَنَعَ نَفَاسَةً عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَا إِنْكَارًا لِلَّذِي فَضَّلَهُ الله بِهِ، وَلَكِنَّا كُنَّا نَرَى لَنَا فِي الْأَمْرِ نَصِيبًا فَاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا بِهِ فَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا، فَسُرَّ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا أَصَبْتَ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيبًا حِينَ رَاجَعَ الْأَمْرَ الْمَعْرُوفَ. (١)

ففي هذا الحديث مسائل لا تخلو من إشكالات:

١- هل يجوز لفاطمة أن تهجر أبا بكر على قطعة أرض تسببت في هجر المسلمين بعضهم لبعض طوال قرون؟ ومعلوم أن النبي ﷺ نهى عن أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاثة أيام؟ فمن كان أكثر طاعة؟! أبو بكر الذي منعه حديث "وإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا" أم فاطمة؟ أم أن الأمر متعلق بامتناع فاطمة عن تكليم عمر في شأن أرض فدك؟

فإن لفظ الحديث الذي رواه معمر عن الزهري الذي فيه "(فهجرته فاطمة. . فوقع عند عمر بن شبه من وجه آخر عن معمر ونصه: (فلم تكلمه في ذلك المال) ليس فيه لفظ هجران ولا غضب ولا غيره.

وكذا نقل الترمذي عن بعض مشايخه أن معنى قول فاطمة لأبي بكر وعمر: (لا أكلمكما) أي: في هذا الميراث. (٢)

قلت: وهذا شبيه بقولها رضي الله عنها في قصة عائشة مع نساء النبي ﷺ (والله لا أكلمه فيها أبدًا) فلا يفهم من هذا أنها خاصمت النبي ﷺ.

٢- بينت روايات خارج البخاري(٣) (فغضبت فاطمة وهجرته ولم تكلمه حتى ماتت.

إلخ الكلام الطويل: أنه مدرج من كلام الزهري وليس من نص الحديث. وقد نص البيهقي على أن الزهري أدرج في هذا الحديث.

٣- وذكر أن البيهقي روى من طريق الشعبي بسنده أنه قال: لما مرضت فاطمة أتاها

(١) البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩)، واللفظ له.
(٢) ذكر ذلك كله ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٠٢).
(٣) البيهقي (٦/ ٣٠٠).

أبوبكر الصديق، فاستأذن عليها، فقال علي: يا فاطمة، هذا أبو بكر الصديق يستأذن عليك؟ فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له فدخل عليها يترضاها، فقال: والله ما تركت الدار والمال، والأهل والعشيرة، إلا ابتغاء مرضاة الله، ومرضاة رسوله، ومرضاتكم أهل البيت، ثم ترضاها حتى رضيت. (١)

قال ابن كثير- رحمه الله-: وهذا إسناد جيد قوي والظاهر أن عامر الشعبي سمعه من علي أو ممن سمعه من علي. (٢)

قال الحافظ ابن حجر: إسناده إلى الشعبي صحيح، وبه يزول الإشكال في جواز تمادي فاطمة على هجر أبي بكر. (٣)

فائدة حديثية: اتفق المحدثون على أن مراسيل الزهري واهية شبه الريح(٤)، وباتفاقهم أن مراسيل الشعبي أقوى من ذلك، فمن أراد أن يحتج بمرسل الزهري لزمه الاحتجاج بمرسل الشعبي من باب الأولى، مع أن مرسل الزهري لم يثبت أصلًا.

وحديث عائشة في البخاري (أن فاطمة ماتت وهي غاضبة عليه) لا ينافي هذا الحديث فإن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حدثت بما علمت وبحسب علمها ومعرفتها وفي رواية الشعبي زيادة علم وثبوت زيارة أبي بكر لها وكلامها له ورضاها عنه.

وهنا قاعدة مهمة عند أهل الأصول: وهي أن عائشة نفت، والشعبي أثبت، والقول المثبت مقدم على القول المنفي؛ لأن احتمال الثبوت حصل بغير علم النافي، وكذلك كيف يغيب عن فاطمة قول النبي ﷺ: **"لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"**.

ولذلك قال القرطبي: ثم إنها أي فاطمة لم تلتق بأبي بكر لشغلها بمصيبتها برسول الله

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٣٠١).

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢٥٣).

(٣) فتح الباري (٦/ ٢٠٢).

(٤) تدريب الراوي (١/ ٢٠٥).

ﷺ ولملازمتها بيتها، فعبر الراوي عن ذلك بالهجران. [(١)]

وهناك أمر مهم - يفضل تذكره- وهو أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان في خلافته يحمل على كتفه الحسن رضي الله عنه، وهو يضحك ويقول: بأبي شبيه النبيّ وليس شبيها بعليّ، وكان عليّ يراهما ويضحك سرورًا.

كما رواه أحمد عن عمر بن سعيد عن ابن أبي مليكة أخبرني عقبة بن الحرث قال: (خرجت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه من صلاة العصر بعد وفاة النبي ﷺ بليال وعلي رضي الله عنه يمشي إلى جنبه فمر بحسن بن علي يلعب مع غلمان فاحتمله على رقبته وهو يقول:

وا بأبي شبه النبي ليس شبيهًا بعلي

قال: وعلي يضحك. [(٢)]، ولا يعقل أن يستطيب علي هذا من أبي بكر وفاطمة بنت الرسول ﷺ غاضبة من أبي بكر وساخطة عليه.

والأولى أن يفهم من الحديث ثبات أبي بكر على طاعة رسول الله، وقد كان ذلك من أثقل الفتن عليه. فإن فاطمة كانت أحب إليه من ولده. ولكن طاعة أبيها أولى.

ولقد كان علي يعلم بهذا الحديث الذي احتج أبو بكر به. ففي صحيح مسلم أن عمر قال لعلي والعباس: اتئدا. أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض! أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: **" لا نورث. ما تركنا صدقة "**قالوا: نعم. ثم أقبل على العباس وعليّ فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض! أتعلمان أن رسول الله قال: " لا نورث. ما تركناه صدقة "قالا: نعم) اهـ. [(٣)]

وقد قال بعض الأئمة: إنما كانت هجرتها انقباضًا عن لقائه والاجتماع به، وليس ذلك من الهجران المحرم لأن شرطه أن يلتقيا فيعرض هذا وهذا، وكأن فاطمة رضي الله عنها لما خرجت غضبى من أبي بكر تمادت في اشتغالها بحزنها ثم بمرضها، وأما سبب غضبها مع احتجاج

---

(١) المفهم على مسلم (١٢/ ٧٣).

(٢) مسند أحمد (١/ ٨)، وهو صحيح على شرط البخاري.

(٣) مسلم (١٧٥٧).

أبي بكر بالحديث المذكور فلاعتقادها تأويل الحديث على خلاف ما تمسك به أبو بكر، وكأنها اعتقدت تخصيص العموم في قوله: لا نورث، ورأت أن منافع ما خلفه من أرض وعقار لا يمتنع أن تورث عنه، وتمسك أبو بكر بالعموم واختلفا في أمر محتمل للتأويل، فلما صمم على ذلك انقطعت عن الاجتماع به لذلك فإن ثبت حديث الشعبي أزال الإشكال، وأخلق بالأمر أن يكون كذلك لما علم من وفور عقلها ودينها رضي الله عنها. (١)

وهذه بعض النقول المهمة عن أهل العلم في دحضها.

الوجه الأول: أن كتب القوم متناقضة في نقل هذه الحادثة، فبعضها تذكر أن فاطمة طالبت بفدك؛ لأن رسول الله ﷺ منحها إياها، وبعضها تذكر أن فاطمة رضي الله عنها طالبت بإرثها، وهذا تناقض واضح يدل على اضطراب القوم وجهلهم بأصل هذه المسألة، وبالتالي سقوط ما بنوا عليها من أحكام.

قال ابن تيمية: إن ما ذكر من ادعاء فاطمة رضي الله عنها فدك فإن هذا يناقض كونها ميراثًا لها، فإن كان طلبها بطريق الإرث امتنع أن يكون بطريق الهبة، وإن كان بطريق الهبة امتنع أن يكون بطريق الإرث، ثم إن كانت هذه هبة في مرض الموت فرسول الله ﷺ منزه، إن كان يُورث كما يُورث غيره أن يوصي لوارث، أو يخصه في مرض موته بأكثر من حقه، وإن كان في صحته فلابد أن تكون هذه هبة مقبوضة، وإلا فإذا وهب الواهب بكلامه، ولم يقبض الموهوب شيئًا حتى مات الواهب كان ذلك باطلًا عند جماهير العلماء، فكيف يهب النبي ﷺ فدكًا لفاطمة، ولا يكون هذا أمرًا معروفًا عند أهل بيته والمسلمين، حتى تختص بمعرفته أم أيمن أوعليّ -رضي الله عنهما. (٢)

الوجه الثاني: أن الصحيح الثابت في هذه الحادثة أن فاطمة رضي الله عنها طالبت أبا بكر بميراثها من رسول الله ﷺ، فاعتذر إليها من ذلك محتجًا بقول النبي ﷺ: **"لا نورث، ما تركنا صدقة"** على ما أخرج ذلك الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (إن فاطمة بنت

---

(١) فتح الباري (٦/ ٢٠٢)، أحاديث يحتج بها الشيعة (١٢١).

(٢) الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم للنباطي (٢/ ٢٨٢)، ومنهاج السنة (٤/ ٢٢٨).

رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر، فقال أبوبكر: إن رسول الله ﷺ، قال: **"لا نورث، ما تركنا صدقه"**، إنما يأكل آل محمد ﷺ في هذا المال، وإني والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ، فأبى أبو بكر أن يدفع لفاطمة منها شيئًا، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت).

فقد كانت فاطمة رضي الله عنها مجتهدة في ذلك، اعتقدت أن الحق معها، ثم لما رأت من عزم الخليفة على رأيه أمسكت عن الكلام في المسألة، وما كان يسعها غير ذلك.

قال ابن حجر في توجيه اجتهادها: وأما سبب غضبها -أي فاطمة- مع احتجاج أبي بكر بالحديث المذكور فلاعتقادها تأويل الحديث على خلاف ما تمسك به أبو بكر، وكأنها اعتقدت تخصيص العموم في قوله: "لا نورث" ورأت أن منافع ما خلفه من أرض وعقار لا يمتنع أن تورث عنه، وتمسك أبو بكر بالعموم، واختلفا في أمر محتمل للتأويل، فلما صمم على ذلك انقطعت عن الاجتماع به لذلك. (١)

الوجه الثالث: أن السنة والإجماع قد دلا على أن النبي ﷺ لا يورث، فيكون الحق في هذه المسألة مع أبي بكر رضي الله عنه.

قال ابن تيمية: كون النبي ﷺ لا يورث ثبت بالسنة المقطوع بها، وبإجماع الصحابة، وكل منهما دليل قطعي، فلا يعارض ذلك بما يظن أنه عموم، وإن كان عمومًا فهو مخصوص، لأن ذلك لو كان دليلًا لما كان إلا ظنيًا فلا يعارض القطعي، إذ الظني لا يعارض القطعي، وذلك أن هذا الخبر رواه غير واحد من الصحابة في أوقات ومجالس، وليس فيهم من ينكره، بل كلهم تلقاه بالقبول والتصديق، ولهذا لم يصرّ أحد من أزواجه على طلب الميراث ولا أصرّ العم على طلب الميراث، بل من طلب من ذلك شيئًا فأخبر

(١) فتح الباري (٦/ ٢٠٢).

بقول النبي ﷺ رجع عن طلبه، واستمر الأمر على ذلك على عهد الخلفاء الراشدين إلى علي، فلم يغير من ذلك شيئًا، ولا قسم له تركة. (١)

وبإجماع الخلفاء الراشدين على ذلك احتج الخليفة العباسي أبو العباس السفاح على بعض مناظريه في هذه المسألة على ما نقل ابن الجوزي في تلبيس إبليس قال: وقد روينا عن السفاح أنه خطب يومًا، فقام رجل من آل علي رضي الله عنه قال: أنا من أولاد علي رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين أعدني على من ظلمني قال: ومن ظلمك؟ قال: أنا من أولاد علي رضي الله عنه والذي ظلمني أبو بكر رضي الله عنه حين أخذ فدك من فاطمة، قال: ودام على ظلمكم؟ قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ قال: عمر رضي الله عنه قال: ودام على ظلمكم؟ قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ قال عثمان رضي الله عنه قال: ودام على ظلمكم؟ قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ فجعل يلتفت كذا وكذا ينظر مكانًا يهرب منه. . . . (٢)

وبتصويب أبي بكر رضي الله عنه في اجتهاده صرح بعض أولاد عليّ من فاطمة رضي الله عنها على ما روى البيهقي بسنده عن فضيل بن مرزوق قال: قال زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: أما لو كنت مكان أبي بكر، لحكمت بما حكم به أبو بكر في فدك). (٣)

كما نقل القرطبي اتفاق أئمة أهل البيت بدءًا بعلي رضي الله عنه ومن جاء بعده من أولاده، ثم أولاد العباس الذين كانت بأيديهم صدقة رسول الله ﷺ، أنهم ما كانوا يرون تملكها، وإنما كانوا

(١) منهاج السنة (٤/ ٢٢٠).

(٢) تلبيس إبليس (١٣٥).

(٣) السنن الكبرى (٦/ ٣٠٢)، وهو أثر إسناده حسن. وهاهم رجاله: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ -هو الإمام الحاكم- أنا أبو عبد الله الصفار -هو محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام المحدث القدوة. سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٣٧)، ثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي - قال أبو حاتم: ثقة صدوق الجرح والتعديل (٢/ ١٥٨)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ١٥٩) ثنا نصر بن علي الجهضمي: ثقة ثبت. التقريب (٧١٢٠)، وثنا ابن داود - هو عبد الله بن داود بن عامر الهمداني ثقة عابد. التقريب (٣٢٩٧) عن فضيل بن مرزوق -صدوق يهم ورمي بالتشيع. التقريب (٥٤٣٧) قال: قال زيد بن علي بن الحسين بن عليّ أما أنا فلو كنت مكان أبي بكر لحكمت بمثل ما حكم به أبو بكر في فدك، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٧٤).

ينفقونها في سبيل الله قال -رحمه الله-: إن عليًا لما ولي الخلافة لم يغيرها عما عمل فيها في عهد أبي بكر، وعمر، وعثمان، ولم يتعرض لتملكها، ولا لقسمة شيء منها، بل كان يصرفها في الوجوه التي كان من قبله يصرفها فيها، ثم كانت بيد حسن بن عليّ، ثم بيد حسين بن علي، ثم بيد علي بن الحسين، ثم بيد الحسين بن الحسن، ثم بيد زيد بن الحسين، ثم بيد عبد الله بن الحسين، ثم تولاها بنو العباس على ما ذكره أبو بكر البرقاني في صحيحه، وهؤلاء كبراء أهل البيت - رضي الله عنهم - لم يأخذها واحد منهم وقد صار أمرها إليه. (١) فظهر بهذا إجماع الخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة، وأئمة أهل البيت - رضي الله عنهم - أجمعين، على أن رسول الله ﷺ لا يورث، وأن ما تركه صدقة، وعلى ذلك جرى عمل الخلفاء الراشدين وأئمة أهل البيت الذين كانت بأيديهم صدقة رسول الله ﷺ (٢).

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ إنما أراد بغضب فاطمة الذي يغضب له هو: أن تغضب بحق، وإلا فالرسول ﷺ لا يغضب لنفسه، ولأحد من أهل بيته بغير حق، بل ما كان ينتصر لنفسه- ولو بحق- ما لم تنتهك محارم الله، كما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (ما خيّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله). (٣)

وفاطمة رضي الله عنها على جلالتها، وكمال دينها، وفضلها، هي مع ذلك ليست معصومة، بل قد كانت تصدر منها بعض الأمور التي ما كان النبي ﷺ يقرها عليها، وقد تطلب من النبي ﷺ الشيء فلا يجيبها له: كسؤالها النبي ﷺ خادمًا فلم يعطها وأرشدها وعليًا للتسبيح كما ثبت في حديث علي رضي الله عنه في الصحيحين. (٤)

وفي سنن أبي داود عن عمر بن عبد العزيز: (إن فاطمة سألت الرسول ﷺ أن يجعل

(١) المفهم للقرطبي (٣/ ٥٦٤).
(٢) الانتصار للصحب والآل (٤٢٦).
(٣) البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٤) البخاري (٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧).

لها فدكًا فأبى). [(١)]

وثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: أن فاطمة جاءت لرسول الله ﷺ وقالت له: إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقال لها رسول الله ﷺ: **" أي بنية ألست تحبين ما أحب؟ فقالت: بلى، قال: فأحبي هذه. . . "**. [(٢)]

فلم يجبها النبي ﷺ لشيء من ذلك، فدل على عدم موافقته لها في كل شيء، بل قد تفعل الأمر مجتهدة فتخطئ فلا يقرها عليه، وبالتالي فأن لا يغضب لغضبها من باب أولى. وطلبها ميراث رسول الله ﷺ من أبي بكر من جنس ذلك، فقد كانت رضي الله عنها مجتهدة وكان الحق في ذلك مع أبي بكر للنص الصريح في ذلك، ولموافقة الصحابة له في رأيه، فكان إجماعًا معتضدًا بالنص كما تقدم، فأبو بكر في ذلك قائم بالحق متبع للنص مستمسك بعهد رسول الله ﷺ في هذه المسألة، فكيف يتصور أن يسخط بفعله هذا رسول الله، وهو إنما يعمل بشرعه ويهتدي بهديه.

الوجه الخامس: أن قول النبي ﷺ: **"فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني"**[(٣)]، من نصوص الوعيد المطلق التي لا يستلزم ثبوت موجبها في حق المعنيين، إلا بعد وجود الشروط، وانتفاء الموانع. [(٤)]

هذا مع أن ما في هذا الحديث من الوعيد لو كان لازمًا لكل من أغضبها مطلقًا، لكان لازمًا لعلي قبل أبي بكر، ولكان لحوقه بعلي أولى من لحوقه بأبي بكر، إذ أن مناسبة هذا الحديث هو خطبة علي رضي الله عنه لابنة أبي جهل وشكوى فاطمة له على النبي ﷺ على ما روى الشيخان من حديث المسور بن مخرمة قال: (إن عليًا خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح

---

(١) سنن أبي داود (٢٩٧٢).

(٢) مسلم (٢٤٤٢).

(٣) البخاري (٣٧٦٧).

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٣٧٢، ٢٨/ ٥٠٠-٥٠١).

بنت أبي جهل، فقام رسول الله ﷺ فسمعته حين تشهد يقول: " **أما بعد أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد فترك علي الخطبة**". (١)

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: " **فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني**". (٢)

فظهر أن مناسبة الحديث هي خطبة علي رضي الله عنه لابنة أبي جهل وغضب فاطمة من ذلك، والنص العام يتناول محل السبب، وهو نص فيه باتفاق العلماء، حتى قالوا لا يجوز إخراج السبب بدليل تخصيص، لأن دلالة العام على سببه قطعية وعلى غيره على وجه الظهور(٣)، وعلى هذا فلو كان هذا الحديث متنزلًا على كل من أغضب فاطمة لكان أول الناس دخولًا في ذلك عليّ رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ضمن رده على الرافضة في هذه المسألة وبعد أن ذكر الحديث: فسبب الحديث خطبة علي رضي الله عنه لابنة أبي جهل والسبب داخل في اللفظ قطعًا، إذ اللفظ الوارد على سبب لا يجوز إخراج سببه منه، بل السبب يجب دخوله بالاتفاق.

وقد قال في الحديث: " **يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها** "، ومعلوم قطعًا أن خطبة ابنة أبي جهل عليها رابها وآذاها، والنبي ﷺ رابه ذلك وآذاه، فإن كان هذا وعيدًا لاحقًا بفاعله لزم أن يلحق هذا الوعيد علي بن أبي طالب، وإن لم يكن وعيدًا لاحقًا بفاعله، كان أبوبكر أبعد عن الوعيد من علي. (٤)

الوجه السادس: أن فاطمة رضي الله عنها كانت قد رجعت عن قولها في المطالبة بإرث رسول الله ﷺ، كما نص على ذلك غير واحد من الأئمة في الحديث والسير. قال القاضي عياض: وفي ترك فاطمة منازعة أبي بكر بعد احتجاجه عليها بالحديث: التسليم للإجماع على قضية،

---

(١) البخاري (٣٧٢٩)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٢) البخاري (٣٧١٤).

(٣) انظر: المسودة في أصول الفقه للأئمة الثلاثة من آل تيمية: شيخ الإسلام وأبيه شهاب الدين وجده أبي البركات (١١٩)، وتخريج الفروع على الأصول للزنجاني (٣٦٠).

(٤) منهاج السنة (٤/ ٢٥١).

وأنها لما بلغها الحديث وبين لها التأويل، تركت رأيها ثم لم يكن منها ولا من ذريتها بعد ذلك طلب ميراث، ثم ولي علي الخلافة فلم يعدل بها عما فعله أبوبكر، وعمر. (١)

وقال القرطبي: فأما طلب فاطمة ميراثها من أبيها من أبي بكر فكان ذلك قبل أن تسمع الحديث الذي دل على خصوصية النبي ﷺ بذلك، وكانت متمسكة بما في كتاب الله من ذلك، فلما أخبرها أبو بكر بالحديث توقفت عن ذلك ولم تعد إليه. (٢)

وقال ابن تيمية: فهذه الأحاديث الثابتة المعروفة عند أهل العلم، وفيها ما يبين أن فاطمة رضي الله عنها طلبت ميراثها من رسول الله ﷺ على ما كانت تعرف من المواريث، فأخبرت بما كان من رسول الله ﷺ فسلمت ورجعت. (٣)

وقال ابن كثير: وقد روينا أن فاطمة رضي الله عنها احتجت أولًا بالقياس، وبالعموم في الآية الكريمة، فأجابها الصدّيق رضي الله عنه بالنص على الخصوص بالمنع في حق النبي ﷺ، وأنها سلمت له ما قال، وهذا هو المظنون بها رضي الله عنها. (٤) فظهر بهذا رجوع فاطمة رضي الله عنها إلى قول أبي بكر وما كان عليه عامة الصحابة، وأئمة أهل البيت من القول بعدم إرث رسول الله ﷺ، وهذا هو اللائق بمقامها في الدين والعلم رضي الله عنها.

الوجه السابع: أنه ثبت عن فاطمة رضي الله عنها أنها رضيت عن أبي بكر بعد ذلك، وماتت وهي راضية عنه، على ما روى البيهقي بسنده عن الشعبي أنه قال: (لما مرضت فاطمة أتاها أبو بكر الصديق فاستأذن عليها، فقال عليّ: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك؟ فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له فدخل عليها يترضاها، فقال: والله ما تركت الدار والمال، والأهل والعشيرة، إلا إبتغاء مرضاة الله، ومرضاة رسوله،

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٢/ ٧٣).
(٢) المفهم (٣/ ٥٦٣).
(٣) منهاج السنة (٤/ ٢٣٤).
(٤) البداية والنهاية (٥/ ٢٥٢).

ومرضاتكم أهل البيت، ثم ترضاها حتى رضيت). [١]

قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي. والظاهر أن الشعبي سمعه من علي أو ممن سمعه من علي رضي الله عنه. [٢]

وقال ابن حجر: وهو وإن كان مرسلًا فإسناده إلى الشعبي صحيح، وبه يزول الإشكال في جواز تمادي فاطمة عليها السلام على هجر أبي بكر. [٣]

وقال أيضًا: فإن ثبت حديث الشعبي أزال الإشكال وأخلق بالأمر أن يكون كذلك، لما علم من وفور عقلها ودينها، عليها السلام. [٤]

على أن الذي ذكره العلماء أن فاطمة رضي الله عنها لم تتعمد هجر أبي بكر رضي الله عنه أصلًا، ومثلها ينزه عن ذلك لنهي النبي ﷺ عن الهجر فوق ثلاث، وإنما لم تكلمه لعدم الحاجة لذلك.

قال القرطبي في سياق شرحه لحديث عائشة المتقدم، ثم إنها (أي فاطمة) لم تلتق بأبي بكر لشغلها بمصيبتها برسول الله ﷺ، ولملازمتها بيتها فعبر الراوي عن ذلك بالهجران، وإلا فقد قال رسول الله ﷺ: **" لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"**. [٥]، وهي أعلم الناس بما يحل من ذلك ويحرم، وأبعد الناس عن مخالفة رسول الله ﷺ كيف لا يكون كذلك وهي بضعة من رسول الله ﷺ وسيدة نساء أهل الجنة. [٦]

وقال النووي: وأما ما ذكر من هجران فاطمة أبا بكر رضي الله عنه فمعناه انقباضها عن لقائه، وليس هذا من الهجران المحرم، الذي هو ترك السلام والإعراض عند اللقاء، وقوله في هذا الحديث (فلم تكلمه) يعني في هذا الأمر، أو لانقباضها لم تطلب منه حاجة ولا

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٣٠١).

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢٥٣).

(٣) فتح الباري (٦/ ٢٠٢).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

(٦) المفهم (٣/ ٥٦٨-٥٦٩).

اضطرت إلى لقائه فتكلمه، ولم ينقل قط أنهما التقيا فلم تسلم عليه ولا كلمته[١].

وبهذا يظهر الحق في هذه المسألة، وتبطل الدعوى وتندحض الشبهة بما تم تقريره من خلال النصوص والأخبار الصحيحة الدالة على براءة الصديق من مطاعن أعدائه، وأن ما جرى بين الصديق وفاطمة لا يعدو أن يكون اختلافًا في مسألة فقهية ظهر لفاطمة رضي الله عنها الحق فيها فرجعت له، وعرف لها الصديق فضلها، فعادها قبل وفاتها واسترضاها فما ماتت إلا وهي راضية عنه. [٢]

وأما قولهم إن عائشة رضي الله عنها كانت حريصة على أن يتولى طلحة الخلافة لتعود إلى بني تيم، فذالك باطل من وجوه:

١-ما مر بيانه من اعتراف عائشة ومن معها بالخلافة لعليّ رضي الله عنه.

٢-لم يأت أي دليل صحيح يبين أنها دعت لطلحة بالخلافة وهذا أيضًا قد مر بيانه.

٣-أن المعهود من سيرة عائشة رضي الله عنها هو البعد عن هذا الأمر كسائر الصحابة.

ومن ذلك: قولها إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه إن يقم مقامك لا يسمع الناس، تريد بذلك صرف الخلافة عن أبيها. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ الله ﷺ جَاءَ بِلَالٌ يُوذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: **"مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ وَإِنَّهُ مَتَى مَا يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ فَلَو أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ. فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ فَلَو أَمَرْتَ عُمَرَ. قَالَ: إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ وَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ فِي نَفْسِهِ خِفَّةً فَقَامَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ وَرِجْلَاهُ يَخُطَّانِ فِي الْأَرْضِ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ ذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ يَتَأَخَّرُ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي قَائِمًا وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي قَاعِدًا يَقْتَدِي أَبُوبَكْرٍ بِصَلَاةِ رَسُولِ الله ﷺ وَالنَّاسُ مُقْتَدُونَ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه."**[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٢/ ٧٣).

(٢) الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال (٤٢١- ٤٣٦).

(٣) البخاري (٧١٣).

وفي لفظ عن عائشة قالت: **لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْتِي قَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ فَلَو أَمَرْتَ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ. قَالَتْ: وَالله مَا بِي إِلَّا كَرَاهِيَةُ أَنْ يَتَشَاءَمَ النَّاسُ بِأَوَّلِ مَنْ يَقُومُ فِي مَقَامِ رَسُولِ الله ﷺ. قَالَتْ: فَرَاجَعْتُهُ مَرَّتَيْنِ أَو ثَلَاثًا، فَقَالَ: لِيُصَلِّ بِالنَّاسِ أَبُوبَكْرٍ فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ"**.(١)

فكيف تدفع الأمر عن أبيها ثم تتطلبه بعد ذلك لابن عمها بالحرب والقتال على أن المعول عليه في هذا الشأن هو ما صح من النقل ولا نقل يصح فيه فآل كأشباهه إلى النكارة والبطلان.

وأما قولهم إنها لا تطيق ذكر اسم عليّ فباطل أيضًا لأنه مبني على الظن والتخمين وهذا لا يعوَّل عليه على أنه صح ذكرها لاسمه في أكثر من موطن ومنها:

١-ماسبق أن ذكرناه من حديث الكساء وهو من أعظم مناقب عليّ رضي الله عنه.

٢-تصريحها بذكر اسمه أكثر من مرة في حديث قضية الميراث التي كانت بين الصديق وبين السيدة فاطمة رضي الله عنها، وقد سبق ذكره.

٣- عن شريح بن هانئ قال: سألت عائشة عن المسح فقالت: (ائت عليًا فهو أعلم مني قال: فأتيت عليًا فسألته عن المسح على الخفين قال: فقال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نمسح على الخفين يومًا وليلة، وللمسافر ثلاثًا). (٢)

كما أخرج مسلم بسنده إلى شريح بن هانئ قال: (أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين فقالت: عليك بابن أبي طالب فسله. . . ألخ)(٣).

٤-عن أبي سهلة عن عائشة قالت: قال رسول الله: ادعوا لي بعض أصحابي. قلت أبو بكر قال: لا. قلت: عمر قال: لا. قلت: ابن عمك عليّ. قال: لا، قالت: قلت: عثمان قال نعم فلما جاء قال تنحى- جعل يساره- ولون عثمان يتغير فلما كان يوم الدار وحصر فيها قلنا يا

(١) مسلم (٤١٨).

(٢) فضائل الصحابة لأحمد (١١٩٩). والمسند (١/ ٩٦ و١٠٠ و١١٣ و١١٧)، ولفظه عن المقدام بن شريح عن أبيه قال: سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبريني برجل من أصحاب النبي ﷺ أسأله عن المسح على الخفين، فقالت: ائت عليًا رضي الله عنه فسله فإنه كان يلزم النبي ﷺ. . . الحديث.

(٣) مسلم (٢٧٦).

أمير المؤمنين: ألا تقاتل قال: لا إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهدًا وإني صابر نفسي عليه. (١)

٥- وقال الإمام أحمد في مسنده ثنا يعقوب قال: حدثني أبى عن محمد بن إسحاق قال: حدثني يزيد بن أبى حبيب عن سليمان بن أبي سليمان عن أمه أم سليمان- وكلاهما كان ثقة- قالت: دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ فسألتها عن لحوم الأضاحي، فقالت: قد كان رسول الله ﷺ نهى عنها ثم رخص فيها. قدم عليّ بن أبى طالب من سفر فأتته فاطمة بلحم من ضحاياها فقال: أولم ينه عنها رسول الله ﷺ، فقالت: إنه قد رخص فيها. قالت، فدخل عليّ على رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك، فقال له: كلها من ذي الحجة إلى ذي الحجة. (٢)

أما الزيادة التي قال فيها ابن عباس: إن عائشة لا تطيب لها بذكر أوعلي أولا تقدر على أن تذكره بخير وهي تستطيع. **والجواب على هذا من وجوه:**

الأول: أنها زيادة شاذة ولاتصح عن ابن عباس- رضي الله عنهما-، وانظر التخريج وبيان وجه الشذوذ في الحاشية. (٣)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٥١)، **وإسناده صحيح.**

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٢)، وإسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق وقد صرح هنا بالتحديث.

(٣) هذه الزيادة مدارها على الزهري ـ رحمه الله ـ ولها إليه ثلاثة طرق:

الأولى: طريق يعقوب بن عتبة عنه أخرجها البلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٢٣٦)، والطبري في التاريخ (٢/ ٤٢٣و٤٣٢) من طريق ابن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن الزهري به مع ذكر هذه الزيادة وهي من هذه الطريق منكرة؛ لأنه اجتمع فيها ضعف رجال الإسناد مع المخالفة. أما الضعف ففي طريق البلاذري عبد الله بن أبي أمية. قال الدارقطني: ليس بالقوي. السنن (١/ ٢٨٢)

وطريقا الطبري فيهما محمد بن حميد الرازي -وهومتروك على الصحيح في شأنه- (الكاشف للذهبي (١/ ١٦٦)، والمجروحين (٢/ ٣٠٣)، وضعفاء العقيلي (٤/ ٦١).

وأما الاختلاف فعلى ابن إسحاق. حيث رواها عنه يونس بن بكير من غير هذه الزيادة كما أخرجها البيهقي في الدلائل من طريق الحاكم وأبي سعيد بن عمر؛ كلاهما عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم، ثنا أحمد بن عبد الجبار، ثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، حدثنا يعقوب بن عتبة به، **وهذا إسناد حسن**، يونس قال فيه ابن حبان: لم أر في حديثه شيئًا يجب أن يعدل به عن سبيل العدول إلى سبيل المجروحين الثقات (٨/ ٤٥)، وقال ابن حجر: ضعيف وسماعه للسيرة صحيح. (التقريب٦٤)، وهذا من روايته للسيرة.

قال الدارقطني: لابأس به وسئل عن مغازي يونس؟ فقال مروإلى غلام بالكناس سمع معنا مع أبيه (تهذيب

التهذيب)، فبعد هذا الاختلاف يتبين أن الرواية المحفوظة عن ابن إسحاق هي التي صرح فيها بالتحديث؛ وهي التي لم يذكر فيها الزيادة، وهذه أول طريق لهذه الزيادة قد أعلت بالنكارة.

الطريق الثانية: طريق معمر ويونس عن الزهري رواها عنهما ابن المبارك، واختلف عليه أيضًا فروى الحديث عنه أحمد ابن الحجاج مع ذكر هذه الزيادة كما عند ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٣٢)، ورواها عنه سويد بن نصر بن سويد من غير هذه الزيادة كما عند النسائي في الكبرى (٧٠٨٣)، وكذلك بشر بن محمد كما عند البخاري (٥٧١٤)، وبهذا ترى أن أحمد بن الحجاج عن ابن المبارك خالفه سويد بن نصر وبشر بن محمد في الرواية من غير الزيادة وأحمد بن الحجاج ثقة لكن سويد بن نصر لقبه الشاه براوية حديث ابن المبارك، ومعه بشر بن محمد وهوصدوق اتهم بالإرجاء. تهذيب الكمال (٤/ ٢٤٥)، وبهذا تكون رواية ابن المبارك عن معمر ويونس بذكر الزيادة المذكورة شاذة والرواية من غيرها هي المحفوظة.

الطريق الثالثة: رواية معمر عن الزهري وهى أيضا اختلف فيها على معمر

فرواها عنه عبد الرزاق واختلف عليه هوالآخر فرواية المصنف مع ذكر الزيادة (٥/ ٤٢٨)، وخالف هذه الرواية محمد بن عبد الله بن مهل الصنعاني وإسحاق الدبري، ومحمد بن يحيى؛ فرواها ثلاثتهم من غير هذه الزيادة كما عند أبي عوانة في المستخرج (١٢٩٨)، وعبد بن حميد ومحمد بن رافع كما عند مسلم (٩٦٤)، وبهذا تكون رواية عبد الرزاق عن معمر بذكر هذه الزيادة شاذة. فتبقى رواية عبد الأعلى عن معمر عن الزهري بذكر هذه الزيادة وهي التي أخرجها أحمد (٦/ ٩٨) وهذا إسناد ظاهره الصحة.

لكن خالف عبد الأعلى هؤلاء:

١-عبد الرزاق، كما سبق في الرواية المحفوظة عنه.

٢-وعبد الله بن المبارك في الرواية المحفوظة عنه؛ وهي عند البخاري من طريق بشر بن محمد (٥٧١٤)، والنسائي في الكبرى، من طريق سويد بن نصر (٧٠٨٣).

٣-وهشام بن يوسف، كما رواها عنه البخاري (٦٦٥) من طريق إبراهيم بن موسى.

٤-ومحمد بن إسحاق، كما عند أبي يعلى في المسند (٤٥٧٦-٨/ ٥٦) عن جعفر بن مهران، عن عبد الأعلى، عن ابن إسحاق به، عن الزهري؛ وقد صرح بالتحديث.

وبهذه المخالفة الواضحة تكون رواية عبد الأعلى عن معمر عن الزهري بهذه الزيادة شاذة. والمحفوظ عن معمر هو الرواية من غير هذه الزيادة.

والحاصل أن هذه الزيادة لها ثلاثة طرق: واحدة منكرة، واثنتان شاذتان، ثم الحديث رواه جماعة آخرون عن الزهري من غير هذه الزيادة:

١-فرواه سفيان، كما عند النسائي في الكبرى (٧٠٨٨).

٢-وشعيب بن أبي حمزة، كما عند البخاري (١٩٨) باب الغسل والوضوء.

٣-وعقيل بن خالد، عند مسلم باب استخلاف الإمام والبلاذري ١/ ٢٣٦

فعلى فرض أن الرواة عن الزهري بهذه الزيادة لم يحصل عليهم اختلاف وأن روايتهم سلمت، فهذا اختلاف

٢-ولو صحت؛ فإن ابن عباس قد علم شيئًا، وخفيت عليه أشياء، ومما خفي عليه ثناء عائشة على عليّ رضي الله عنه في الحديث الذي ذكرته سابقًا.

٣-ثم إن حديث الخروج إلى الصلاة بين رجلين قد جاء أيضًا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: (فخرج يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض)، وعلى قاعدة الكاتب يكون ابن عباس عدوًا لأبيه العباس، ولعليّ بن أبي طالب، لعدم تصريحه بأسمائهما؛ وهذا باطل؛ لأن ابن عباس من كبار أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أما الحكمة في إبهام الرجل الآخر: **فقد قال البدر العيني**: الحكمة في أن عائشة رضي الله عنها قالت: ورجل آخر ولم تعينه مع أنه كان هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان في قلبها منه ما يحصل في قلوب البشر مما يكون سببًا في الإعراض عن ذكر اسمه.

قلت: وهذا مردود بما سبق من روايتها لفضائل عليّ وأهل بيته.

وجاء في رواية بين الفضل بن عباس، وفي أخرى بين رجلين أحدهما أسامة، وطريق الجمع أنهم كانوا يتناوبون الأخذ بيده الكريمة تارة هذا وتارة هذا، وكان العباس أكثرهم أخذًا بيده الكريمة؛ لأنه كان أدومهم لها إكرامًا له واختصاصًا به، وعليّ، وأسامة والفضل؛ يتناوبون اليد الأخرى فعلى هذا يجاب بأنها صرحت بالعباس وأبهمت الآخر لكونهم ثلاثة. وهذا الجواب أحسن من الأول. (١)

* * *

على الزهري يحكم به على الرواية التي وردت فيها الزيادة بالشذوذ، هذا وقد وافق الزهري على عدم ذكر هذه الزيادة موسى بن أبي عائشة كما أخرجه مسلم (٩٦٣) من طريق أحمد بن عبد الله بن يونس، عن زائدة، عن موسى بن أبي عائشة فهذه متابعة أخرجها مسلم وهي موافقة للرواية المحفوظة، عن الزهري ـ رحمه الله ـ.
ولا يعكر على الحكم بالشذوذ على هذه الرواية ما قال الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ من أن إسنادها صحيح، فإن صحة الإسناد في الظاهر لا تنافي الحكم بالشذوذ. والله أعلم.

(١) عمدة القاري (٤/ ٤٣٠).

٧ـ موقف الصحابة في معركة صفين.

نص الشبهة:

كيف يتقاتل أمثال هؤلاء الصحابة من أجل أشخاص أو صراع على سلطة؟

والرد على ذلك كما يلي.

أولًا: إجمال التأويل الذي ذهب إليه كل من الفريقين في قتال الآخر، وأنه لم يكن البحث عن الخلافة والملك من معاوية ﷺ، ولم يكن رضًا بقتل عثمان من جهة عليّ ﷺ ولا دفاعًا عن قتلته في معركة صفين، وذلك في نقول عن أهل العلم نجعلها في نقاط كما يلي:

الوجه الأول: ذكر الرواية بذلك

لقد شاع بين الناس قديمًا وحديثًا أن الخلاف بين عليّ ومعاوية- رضي الله عنهما -كان سببه طمع معاوية في الخلافة، وأن خروج هذا الأخير على عليّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام. (١) جاء في كتاب: الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري رواية تذكر أن معاوية ادعى الخلافة، وذلك من خلال الرواية التي ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبي موسى ﷺ: اعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة، فإن صدقك فقد حل خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه. (٢)

ونقل الذهبي رحمه الله أن معاوية قال لجرير بن عبد الله ﷺ: اكتب إلى عليّ أن يجعل لي الشام وأنا أبايع له، وذكر يحيى الجعفي في كتاب صفين بإسناده أن معاوية قال لجرير بن عبد الله: اكتب إلى عليّ أن يجعل لي الشام وأنا أبايع له قال: وبعث الوليد بن عبد الله: اكتب إلى عليّ أن يجعل لي الشام وأنا أبايع له قال: وبعث الوليد بن عقبة إليه يقول:

معاوي إن الشام شامك فاعتصم بشامك لا تدخل عليك الأفاعيا
وحام عليها بالقبائل والقنا ولا تك محشوش الذراعين وانيًا
فإن عليًّا ناظر ما تجيبه فاهد له حربًا تشيب النواصيا. (٣)

(١) فتنة مقتل عثمان (١٤٣).
(٢) الإمامة والسياسة (١/ ١١٣).
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٤٦٥).

الوجه الثاني: نقد الرواية وتوجيه المسألة:

وهذا كله باطل وكذب. والصحيح أن الخلاف بين عليّ ومعاوية ﷺكان حول مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعليّ قبل توقيع القصاص على قتلة عثمان أو بعده، وليس هذا من أمر الخلافة في شئ.

وعلى هذا، فلم تكن معركة صفين مختلفة عن واقعة الجمل بأطرافها أو الغاية منها، لذا ذكر علماء التاريخ أن سبب الخلاف والقتال بين عليّ ومعاوية في صفّين لم يكن بسبب أن لمعاوية طمعًا وتطلعًا للخلافة كما يدّعي ويروج له الكثير من الكتاب.

فمعاوية لم يرفع إلى الخلافة رأسًا، ولم يبايع له بها أحد من المسلمين، ولم يقاتل عليًا على أنه خليفة، بل كان سبب الخلاف بين خليفة المسلمين عليّ بن أبى طالبﷺ، وأمير الشام معاويةﷺ أنه لم يمتثل بما أمره به خليفة المسلمين من عزله من ولاية الشام والإقرار له بالخلافة.

كان معاوية يريد إنفاذ القصاص في قتلة خليفة المسلمين المغدور به عثمان، وقد أشيع عند أهل الشام أن الخليفة عليًاﷺ امتنع عن معاقبة وملاحقة قتلة عثمانﷺ عند توليه خلافة المسلمين، وبدلًا من ذلك قاتل أهل الجمل، وترك أيضًا المدينة وسكن الكوفة وهي معقل قاتلي عثمان، وأن في جيشه من هو متهم في قتل خليفة المسلمين السابق. [1]

ويذكر ابن العربي تباين وجهة النظر، واختلاف الاجتهاد الذي أدى إلى الحرب فيقول: ودارت الحرب بين أهل الشام وأهل العراق هؤلاء يدعون إلى عليّ بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان ويقولون لا نبايع من يؤوي القتلة، وعليّ يقول: لا أمكن طالبًا من مطلوب ينفذ فيه مراده بغير حكم ولا حاكم، ومعاوية يقول: لا نبايع متهمًا بقتله أو قاتلًا له هو أحدُ من نطلب فكيف نحكمه أو نبايعه وهو خليفة عداء وتسور؟. [2]

ويرد ما خالف هذا الأصل بقوله: وذكروا في تفاصيل ذلك كلمات آلت إلى استفعال

(١) نهج البلاغة: (٣٦٦)، وبحار الأنوار: (٣٣/ ٧٦). نقلًا عن كتاب ما قاله الثقلان في أولياء الرحمن.

(٢) العواصم من القواصم (١٦٦).

رسائل واستخراج أقوال، وإنشاء أشعار، وضرب أمثال تخرج عن سيرة السلف، يقرؤها الخلْف وينبذها الخلَف. (١)

وقال الجويني: ومعاوية- وإن قاتل عليًا- فإنه كان لا ينكر إمامته ولا يدّعيها لنفسه وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظانًّا أنه مصيب- وكان مخطئًا- وعليّ ﷺ متمسك بالحق. (٢)

قال ابن تيمية: والحديث المذكور: "إذا اقتتل خليفتان فأحدهما ملعون " كذب مفترى لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث ولا هو في شيء من دواوين الإسلام المعتمدة، ومعاوية لم يدّع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل عليًا، ولم يقاتل على أنه خليفة ولا أنه يستحق الخلافة ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقر بذلك لمن سأله عنه ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا عليًا وأصحابه بالقتال ولا يعلوا، بل لما رأى عليّ ﷺوأصحابه أنه يجب عليهم طاعته، ومبايعته إذ لا يكون للمسلمين إلا خليفة واحد، وأنهم خارجون عن طاعته يمتنعون عن هذا الواجب وهم أهل شوكة، رأى أن يقاتلهم حتى يؤدوا هذا الواجب فتحصل الطاعة والجماعة، وهم قالوا إن ذلك لايجب عليهم وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين. قالوا لأن عثمان قتل مظلومًا باتفاق المسلمين وقتلته في عسكر عليّ وهم غالبون لهم شوكة، فإذا امتنعنا ظلمونا واعتدوا علينا، وعليّ ﷺ لا يمكنه دفعهم كما لم يمكنه الدفع عن عثمان ﷺ، وإنما علينا أن نبايع خليفة يقدر على أن ينصفنا ويبذل لنا الإنصاف، وكان في جهال الفريقين من يظن بعليّ وعثمان ظنونًا كاذبة- برأ الله منها عليًّا وعثمان- كان يظن بعليّ أنه أمر بقتل عثمان وكان عليٌّ يحلف- وهو البار الصادق بلا يمين- أنه لم يقتله، ولا رضي بقتله ولم يمالئ على قتله وهذا معلوم بلا ريب من عليّ ﷺ فكان أناس من محبّي عليّ ومن مبغضيه يشيعون ذلك عنه، فمحبوه يقصدون بذلك الطعن على عثمان بأنه كان يستحق القتل وأن عليًّا أمر بقتله، ومبغضوه يقصدون بذلك الطعن على عليّ، وأنه أعان على قتل الخليفة المظلوم الشهيد الذي

(١) الخلْف بفتح الخاء وسكون اللام: الطالح. والخلَف بفتح الخاء واللام: الصالح، والمقصود بهم: علماء الحديث محاربي المبتدعة والمعطلة. المرجع السابق.

(٢) لمع الأدلة (١/ ١٢٩).

صبر نفسه ولم يدفع عنها، ولم يسفك دم مسلم في الدفع عنه فكيف في طلب طاعته وأمثال هذه الأمور التي يتسبب بها الزائغون على المتشيعين العثمانية والعلوية! ، وكل فرقة من المتشيعين مقرة مع ذلك بأن معاوية ليس كفًا لعليّ بالخلافة ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف عليّ ﷺ، فإن فضل عليّ وسابقيته وعلمه ودينه وشجاعته وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معروفة كفضل إخوانه أبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم ﷺ (1).

ولم يكن بقي من أهل الشورى غيره وغير سعد، وسعد كان قد ترك هذا الأمر وكان الأمر قد انحصر في عثمان وعليّ، فلما توفي عثمان لم يبق لها معين إلا عليّ ﷺ، وإنما وقع الشر بسبب قتل عثمان. فحصل بذلك قوة أهل الظلم والعدوان وضعف أهل العلم والإيمان حتى حصل من الفرقة والاختلاف ما صار يطاع فيه مَن غيره أولى منه بالطاعة ولهذا أمر الله بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف. ولهذا قيل ما يكرهون في الجماعة خير مما يجمعون من الفرقة.

دفع إشكال حديث "ويح عمار تقتله الفئة الباغية".

١-قد تأوله بعضهم على أن المراد بالباغية الطالبة بدم عثمان كما قالوا نبغي ابن عفان بأطراف الأسل، وليس بشيء.

٢-بل يقال: ما قاله رسول الله ﷺ فهو حق كما قاله، وليس في كون عمار تقتله الفئة الباغية ماينافي ما ذكرناه فإنه قد قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ٩-١٠) فقد جعلهم- مع وجود الاقتتال والبغي- مؤمنين إخوة، بل مع أمره بقتال الفئة الباغية جعلهم مؤمنين، وليس كل ما كان بغيًا وظلمًا أو عدوانًا يخرج عموم الناس عن الإيمان ولا يوجب لعنتهم. فكيف يخرج ذلك من كان من خير القرون!

وكل من كان باغيًا أو ظالمًا أو معتديًا أو مرتكبًا ما هو ذنب فهو قسمان: متأول، وغير

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٢).

متأول، فالمتأول: المجتهد كأهل العلم والدين الذين اجتهدوا واعتقد بعضهم حل أمور واعتقد الآخر تحريمها كما استحل بعضهم بعض أنواع الأشربة، وبعضهم بعض المعاملات الربوية وبعضهم بعض عقود التحليل والمتعة وأمثال ذلك فقد جرى ذلك

وأمثاله من خيار السلف. فهؤلاء المتأولون المجتهدون غايتهم أنهم مخطئون، وقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، و قد ثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء. وقد أخبر سبحانه عن داود وسليمان -عليهما السلام- أنهما حكما في الحرث وخص أحدهما بالعلم والحكم، مع ثنائه على كل منهما بالعلم والحكم، والعلماء ورثة الأنبياء فإذا فهم أحدهم من المسألة ما لم يفهمه الآخر لم يكن بذلك ملومًا ولا مانعًا لما عرف من علمه ودينه، وإن كان ذلك مع العلم بالحكم يكون إثمًا وظلمًا والإصرار عليه فسقًا، بل متى علم تحريمه ضرورة كان تحليله كفرًا. فالبغي هو من هذا الباب، أما إذا كان الباغي مجتهدًا ومتأولًا ولم يتبين له أنه باغ، بل اعتقد أنه على الحق، وإن كان مخطئًا في اعتقاده لم تكن تسميته باغيًا موجبة لإثمه فضلًا عن أن توجب فسقه، والذين يقولون بقتال البغاة المتأولين يقولون مع الأمر بقتالهم: قتالنا لهم لدفع ضرر بغيهم لا عقوبة لهم، بل للمنع من العدوان، ويقولون: إنهم باقون على العدالة لا يفسقون ويقولون: هم كغير المكلف كما يمنع الصبي، والمجنون، والناسي، والمغمى عليه، والنائم من العدوان أن لا يصدر منهم، بل تمنع البهائم من العدوان. ويجب على من قتل مؤمنًا خطأ الدية بنص القرآن مع أنه لا إثم عليه في ذلك، وهكذا من رفع إلى الإمام من أهل الحدود، وتاب بعد القدرة عليه فأقام عليه الحد، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له والباغي المتأول يجلد عند مالك والشافعي وأحمد، ونظائره متعددة ثم بتقدير أن يكون البغي بغير تأويل يكون ذنبًا، والذنوب تزول عقوبتها بأسباب متعددة بالحسنات الماحية والمصائب المكفرة وغير ذلك.

٣-ثم إن عمارًا تقتله الفئة الباغية ليس نصًا في أن هذا اللفظ لمعاوية وأصحابه، بل يمكن أنه أريد به تلك العصابة التي حملت عليه حتى قتلته وهى طائفة من العسكر ومن

رضي بقتل عمار كان حكمه حكمها، ومن المعلوم أنه كان في المعسكر من لم يرض بقتل عمار كعبد الله بن عمرو بن العاص، وغيره، بل كل الناس كانوا منكرين لقتل عمار حتى معاوية، وعمرو.

٤-والفقهاء ليس فيهم من رأيه القتال مع من قتل عمارًا لكن لهم قولان مشهوران كما كان عليهما أكابر الصحابة. منهم من يرى القتال مع عمار وطائفته، ومنهم من يرى الإمساك عن القتال مطلقًا.

وفى كل من الطائفتين طوائف من السابقين الأولين:

في القول الأول عمار، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب.

وفي الثاني سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر ونحوهم، ولعل أكثر الأكابر من الصحابة كانوا على هذا الرأي.

ولم يكن في العسكرين بعد عليّ أفضل من سعد بن أبي وقاص، وكان من القاعدين.

٥-وحديث عمار قد يحتج به من رأى القتال؛ لأنه إذا كان قاتلوه بغاة فالله يقول: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي. . . ﴾

٦-والممسكون يحتجون بالأحاديث الصحيحة عن النبيّ ﷺ في أن القعود عن الفتنة خير من القتال فيها، وتقول إن هذا القتال ونحوه هو قتال الفتنة كما جاءت أحاديث صحيحة تبين ذلك.

٧-وأن النبي ﷺ لم يأمر بالقتال ولم يرض به، وإنما رضي بالصلح. وإنما أمر الله بقتال الباغي ولم يأمر بقتاله ابتداءً، بل قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩) قالوا: والاقتتال الأول لم يأمر الله به، ولا أمر كل من بغي عليه أن يقاتل من بغي عليه، فإنه إذا قتل كل باغ كفر، بل غالب المؤمنين، بل غالب الناس لا يخلو من ظلم وبغي، ولكن إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين فالواجب

الإصلاح بينهما وإن لم تكن واحدة منهما مأمورة بالقتال فإذا بغت الواحدة بعد ذلك قوتلت، لأنها لم تترك القتال ولم تجب إلى الصلح، فلم يندفع شرها إلا بالقتال، فصار قتالها بمنزلة قتال الصائل الذي لا يندفع ظلمه عن غيره إلا بالقتال كما قال النبيﷺ: " **مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**"[(١)]، قالوا: فبتقدير أن جميع العسكر بغاة فلم نؤمر بقتالهم ابتداء بل أمرنا بالإصلاح بينهم وأيضًا فلا يجوز قتالهم إذا كان الذين مع عليّ ناكلين عن القتال فإنهم كانوا كثيري الخلاف عليه ضعيفي الطاعة له، والمقصود أن هذا الحديث لايبيح لعن أحد من الصحابة ولا يوجب فسقه وأما أهل البيت فلم يسبوا قط ولله الحمد. [(٢)]

٨-**وقال الهيثمي**: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أن ما جرى بين معاوية وعليّ-رضي الله عنهما-من الحروب فلم يكن لمنازعة معاوية لعليّ في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعليّ، فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية ومن معه طلبوا من عليّ تسليم قتلة عثمان إليهم لكون معاوية ابن عمه، فامتنع عليّ ظنًّا منه أن تسليمهم إليهم على الفور مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بعسكر علي يؤدي إلى اضطراب وتزلزل في أمر الخلافة التي بها انتظام كلمة أهل الإسلام سيما وهي في ابتدائها لم يستحكم الأمر فيها، فرأى عليّ ﷺ أن تأخير تسليمهم أصوب إلى أن يرسخ قدمه في الخلافة ويتحقق التمكن من الأمور فيها على وجهها ويتم له انتظام شملها، واتفاق كلمة المسلمين ثم بعد ذلك يلتقطهم واحدًا فواحدًا ويسلمهم إليهم. ويدل لذلك أن بعض قتلته عزم على الخروج على عليّ ومقاتلته لما نادى يوم الجمل بأن يخرج عنه قتلة عثمان، وأيضًا فالذين تمالؤا على قتل عثمان كانوا جموعًا كثيرة كما علم مما قدمته في قصة محاصرتهم له إلى أن قتله بعضهم جمع من أهل مصر قيل سبعمائة، وقيل ألف، وقيل خمسمائة، وجمع من الكوفة، وجمع من البصرة، وغيرهم قدموا كلهم المدينة وجرى منهم ما جرى، بل ورد أنهم هم وعشائرهم

(١) أصله في البخاري (٢٣٤٨)، ومسلم (١٤١)، وهذا لفظ الترمذي (١٤٨٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٢-٧٩).

نحو من عشرة آلاف. فهذا هو الحامل لعليّ ﷺ على الكف عن تسليمهم لتعذره كما عرفت، ويحتمل أن عليًا ﷺ رأى أن قتلة عثمان بغاة حملهم على قتله تأويل فاسد استحلوا به دمه ﷺ لإنكارهم عليه أمورًا، كجعله مروان ابن عمه كاتبًا له ورده إلى المدينة بعد أن طرده النبي ﷺ منها، وتقديمه أقاربه في ولاية الأعمال، والباغي إذا انقاد إلى الإمام العدل لا يؤاخذ بما أتلفه في حال الحرب عن تأويل دمًا كان أو مالًا كما هو المرجح من قول الشافعي ﷺ، وبه قال جماعة آخرون من العلماء. وهذا الاحتمال -وإن أمكن- لكن ما قبله أولى بالاعتماد منه؛ فإن الذي ذهب إليه كثيرون من العلماء أن قتلة عثمان لم يكونوا بغاة، وإنما كانوا ظلمة وعتاة لعدم الاعتداد بشبههم ولأنهم أصروا على الباطل بعد كشف الشبهة وإيضاح الحق لهم، وليس كل من انتحل شبهة يصير بها مجتهدًا، لأن الشبهة تعرض للقاصر عن درجة الاجتهاد، ولا ينافي هذا ما هو المقرر في مذهب الشافعي ﷺمن أن من لهم شوكة دون تأويل لا يضمنون ما أتلفوه في حال القتال كالبغاة لأن قتل عثمان ﷺلم يكن في قتال، فإنه لم يقاتل، بل نهى عن القتال حتى إن أبا هريرة ﷺ لما أراده قال له عثمان: عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت بسيفك إنما تراد نفسي وسأقي المسلمين بنفسي كما أخرجه ابن عبد البر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة.

٩-ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أيضا أن معاوية ﷺ لم يكن في أيام عليّ خليفة؛ وإنما كان من الملوك وغاية اجتهاده أنه كان له أجر واحد على اجتهاده، وأما عليّ ﷺ فكان له أجران أجر على اجتهاده، وأجر على إصابته.(١)

١٠-وهكذا تتضافر الروايات وتشير إلى أن معاوية خرج للمطالبة بدم عثمان وأنه صرح بدخوله في طاعة علي ﷺ إذا أقيم الحد على قتلة عثمان ولو فرض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال عليّ طمعا في السلطان، فماذا سيحدث سيحدث لو تمكن عليّ من إقامة الحد على قتلة عثمان حتمًا ستكون النتيجة خضوع معاوية لعليّ ومبايعته له؛ لأنه التزم

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر المكي (٢/ ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤).

بذلك في موقفه من تلك الفتنة كما أن كل من كان معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان على أن معاوية إذا كان يخفي في نفسه شيئًا آخر لم يعلن عنه سيكون هذا الموقف مغامرة ولا يقدم عليه إذا كان ذا أطماع، ومعاوية كان من كتاب الوحي، ومن أفاضل الصحابة، وأصدقهم لهجة، وأكثرهم حلمًا فكيف يعتقد أن يخالف الخليفة الشرعي ويهرق دماء المسلمين من أجل ملك زائل، وهو القائل: والله لا أخير بين أمرين بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: **"اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهد به"**[١]، وقال: **" اللهم علمه الكتاب وقه العذاب"**[٢]. [٣]

ثانيا: إذا كان الأمر على ما مر بالنسبة لموقف معاوية فمع من كان الصواب في هذه الحرب؟

وإذا كان الصواب في جانب عليّ فما هو الخطأ في جهة معاوية رضي الله عنه؟.

١-قال ابن العربيّ-رحمه الله-: وأما الصواب فيه فمع عليّ رضي الله عنه

لأن الطالب للدم لا يصح أن يحكم وتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج عليه، بل يطلب الحق عنده فإن ظهر له قضاء وإلا سكت وصبر، فكم من حق يحكم الله فيه، وإن لم يكن له دين فحينئذ يخرج عليه فيقوم له عذر في الدنيا، ولئن اتهم عليّ بقتل عثمان فليس في المدينة أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا وهو متهم به أو قل معلوم قطعًا أنه قتله؛ لأن ألف رجل جاءوا لقتل عثمان لا يغلبون أربعين ألفًا.

وهب أن عليًا وطلحة والزبير تضافروا على قتل عثمان فباقي الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن اعتد فيهم وضوى إليهم ماذا صنعوا بالقعود عن نصرته؟

فلا يخلو أن يكون لأنهم رأوا أولئك طلبوا حقًا وفعلوا حقًا فهذه شهادة قائمة على عثمان فلا كلام لأهل الشام، وإن كانوا قعدوا عنه استهزاء بالدين وأنهم لم يكن لهم رأس مال في الحال ولا مبالاة عندهم بالإسلام ولا فيما يجري فيه من اختلال، فهي ردة ليست

(١) رواه الترمذي (٣٨٤٢)، وصححه الألباني في المشكاة (٦٢٣٥).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٢٧).

(٣) فتنة مقتل عثمان (١٥٠).

معصية لأن التهاون بحدود الدين وإسلام حرمات الشريعة للتضييع كفر وإن كانوا قعدوا؛ لأنهم لم يروا أن يتعدوا حد عثمان وإشارته فأي ذنب لهم فيه. وأي حجة لمروان، وعبد الله بن الزبير، والحسن، والحسين، وابن عمر، وأعيان العشرة معه في داره يدخلون إليه ويخرجون عنه في الشكة والسلاح والمطالبون ينظرون، ولو كان بهم قوة أو أووا إلى ركن شديد لما مكنوا أحدًا أن يراه منهم ولا يداخله، وإنما كانوا نظارة، فلو قام في وجوههم الحسن، والحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير ما جسروا ولو قتلوهم ما بقي على الأرض منهم حيّ. والذي يكشف الغطاء في ذلك أن معاوية لما صار إليه الأمر لم يمكنه أن يقتل من قتلة عثمان أحدًا إلا بحكم إلا من قتل في حرب بتأويل أو دس عليه فيما قيل حتى انتهى الأمر إلى زمان الحجاج وهم يقتلون بالتهمة لا بالحقيقة، فتبين لكم أنهم ما كانوا في ملكهم يفعلون ما أضحوا له يطلبون.

٢-والذي تثلج به صدروكم أن النبي ﷺ ذكر في الفتن، وأشار وبين وأنذر الخوارج وقال: تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق، فبين أن كل طائفة منهما تتعلق بالحق، ولكن طائفة عليّ أدنى إليه. قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩)، فلم يخرجهم عن الإيمان بالبغي بالتأويل ولا سلبهم اسم الأخوة بقوله بعده ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٞ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠)

٣-وقال ﷺ في عمار: **"تقتله الفئة الباغية"**، وقال في الحسن: **" ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"**، فحسن له خلعه نفسه وإصلاحه وكذلك يروى أنه أذن في الرؤيا لعثمان في أن يستسلم ويفطر عنده الليلة.

٤-فهذه كلها أمور جرت على رسم النزاع ولم تخرج عن طريق من طرق الفقه ولا تعدت سبيل الاجتهاد الذي يؤجر فيه المصيب عشرة والمخطئ أجرًا واحدًا. [1]

---

(١) الحديث عند البخاري (٦٩١٩) عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " إذا حكم الحاكم

٥-وما وقع من روايات في كتب التاريخ عدا ما ذكرنا فلا تلتفتوا إلى حرف منها؛ فإنها كلها باطلة. [(١)]

٦-وقال ابن تيمية بعد اعتذاره عن معاوية ومن معه من المطالبين بدم عثمان- كما سبق نقله-: وهذا وأمثاله مما يبين شبهة الذين قاتلوه ووجه اجتهادهم في قتاله، لكن لا يدل على أنهم كانوا مصيبين في ترك مبايعته وقتاله، وكون قتلة عثمان من رعيته لا يوجب أنه كان موافقًا لهم، وقد اعتذر بعض الناس عن عليّ، بأنه لم يكن يعرف القتلة بأعيانهم، أو بأنه كان لا يرى قتل الجماعة بالواحد، أو بأنه لم يدع عنده ولي الدم دعوى توجب الحكم له، ولا حاجة إلى هذه الأعذار. بل لم يكن عليّ مع تفرق الناس عليه متمكنًا من قتل قتلة عثمان إلا بفتنة تزيد الأمر شرًا وبلاء، ودفع أفسد الفاسدين بالتزام أدناهما أولى من العكس؛ لأنهم كانوا عسكرًا وكان لهم قبائل تغضب لهم، والمباشر منهم للقتل وإن كان قليلًا، ا فكان ردؤهم أهل الشوكة ولولا ذلك لم يتمكنوا، ولما سار طلحة والزبير إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان قام بسبب ذلك حرب قتل فيها خلق.

ومما يبين ذلك أن معاوية قد أجمع الناس عليه بعد موت عليّ وصار أميرًا على جميع المسلمين، ومع هذا فلم يقتل قتلة عثمان الذين كانوا قد بقوا، فمعاوية ﷺالذي يقول المنتصر له إنه كان مصيبًا في قتال عليّ؛ لأنه كان طالبًا لقتل قتلة عثمان لّما تمكن وأجمع الناس عليه لم يقتل قتلة عثمان.

فإن كان قتلهم واجبًا وهو مقدور له كان فعله بدون قتال المسلمين أولى من أن يقاتل عليا وأصحابه لأجل ذلك، ولو قتل معاوية قتلة عثمان لم يقع من الفتنة أكثر مما وقع ليالي صفين.

٧-وإن كان معاوية معذورًا في كونه لم يقتل قتلة عثمان، إما لعجزه عن ذلك، أو لما يفضي إليه ذلك من الفتنة وتفريق الكلمة وضعف سلطانه فعليّ أولى أن يكون معذورًا أكثر من

فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر".

(١) العواصم من القواصم (١٦٨)، وما بعدها، وارجع إلى ما سبق نقله عن الهيتمي في الفقرة السابقة، وما سبق نقله عن ابن تيمية.

معاوية؛ إذ كانت الفتنة وتفريق الكلمة وضعف سلطانه بقتل القتلة لو سعى في ذلك أشدّ.

٨-ومن قال إن قتل الخلق الكثير الذين قتلوا بينه وبين عليّ كان صوابًا منه لأجل قتل قتلة عثمان، فقتل ما هو دون ذلك لأجل قتل قتلة عثمان أولى أن يكون صوابًا وهو لم يفعل ذلك لما تولى ولم يقتل قتلة عثمان.

٩-وذلك أن الفتن إنما يعرف ما فيها من الشر إذا أدبرت فأما إذا أقبلت فإنها تزين ويظن أن فيها خيرًا، فإذا ذاق الناس ما فيها من الشر والمرارة والبلاء صار ذلك مبينًا لهم مضرتها وواعظًا لهم أن يعودوا في مثلها كما أنشد بعضهم:

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ... ولت عجوزًا غير ذات حليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت ... مكروهة للشم والتقبيل

والذين دخلوا في الفتنة من الطائفتين لم يعرفوا ما في القتال من الشر ولا عرفوا مرارة الفتنة حتى وقعت وصارت عبرة لهم ولغيرهم.

١٠-ومن استقرأ أحوال الفتن التي تجري بين المسلمين تبين له أنه ما دخل فيها أحد فحمد عاقبة دخوله لما يحصل له من الضرر في دينه ودنياه، ولهذا كانت من باب المنهي عنه والإمساك عنها من المأمور به الذي قال الله فيه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣). [1]

اعتراض على كون الحق مع علي والجواب عليه من كلام ابن تيمية رحمه الله:

قال -رحمه الله-: وأما قول القائل إن عليًا بدأهم بالقتال؟

قيل له: وهم أولًا امتنعوا من طاعته ومبايعته وجعلوه ظالمًا مشاركًا في دم عثمان وقبلوا عليه شهادة الزور ونسبوه إلى ما هو بريء منه.

وإذا قيل هذا وحده لم يبح له قتالهم؟

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٤/ ٤٠٧-٤١٠).

قيل: ولا كان قتاله مباحًا لكونه عاجزًا عن قتل قتلة عثمان.

بل لو كان قادرًا على قتل قتلة عثمان وقدر أنه ترك هذا الواجب إما متأولًا وإما مذنبًا لم يكن ذلك موجبًا لتفريق الجماعة والامتناع عن مبايعته ولمقاتلته، بل كانت مبايعته على كل حال أصلح في الدين وأنفع للمسلمين وأطوع لله ولرسوله من ترك مبايعته.

وبيان ذلك ما يلي:

١-فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **"إن الله يرضى لكم ثلاثًا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم".** [١]

٢-وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **" على المرء المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وأثره عليه ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".** [٢]

٣-وعن عبادة رضي الله عنه قال: **" بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في يسرنا وعسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أو نقوم بالحق حيث ما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ".** [٣]

٤-وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **" مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ**[٤]، **وفي رواية" فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلاَّ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ".** [٥]

٥-وعن ابن عمر رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: **" من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعه مات ميتة جاهلية".** [٦]

(١) البيهقي بلفظه (٨/ ١٦٣)، وأصله في صحيح مسلم (١٧١٥).
(٢) رواه البخاري (٦٧٢٥)، ومسلم (١٨٣٩).
(٣) رواه البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٧٠٩).
(٤) رواه الترمذي (٣١٠٢).
(٥) رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٨٤٩).
(٦) رواه مسلم (١٨٥١).

٦-وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: " **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم رجل: ". . . ، ورجل بايع رجلًا لا يبايعه إلا للدنيا إن أعطاه ما يريد وفّى له وإلا لم يفِ له. . . . " الحديث.** [١]

٧-وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: " **اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة".** [٢]

١١-ومن الأدلة على أن موقف عليّ هو الصواب: أن عليًا ﷺكان قد بايعه أهل الكوفة ولم يكن في وقته أحق منه بالخلافة وهو خليفة راشد تجب طاعته، ومعلوم أن قتل القاتل إنما شرع عصمة للدماء، فإذا أفضى قتل الطائفة القليلة إلى قتل أضعافها لم يكن هذا طاعة ولا مصلحة، وقد قتل بصفين أضعاف أضعاف قتلة عثمانﷺ.

١٢-وأيضًا فقول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: " تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق" يدل على أن عليًّا وأصحابه أدنى إلى الحق من معاوية وأصحابه، فلا يكون معاوية وأصحابه في قتالهم لعليّ أدنى إلى الحق.

١٣-وكذلك حديث عمار بن ياسر" تقتلك الفئة الباغية" قد رواه مسلم في صحيحه من غير وجه، ورواه البخاري- لكن في كثير من النسخ لم يذكره تامًا.

وأما تأويل من تأوله أن عليًا وأصحابه قتلوه، وأن الباغية الطالبة بدم عثمان، فهذا من التأويلات الظاهرة الفساد التي يظهر فسادها للعامة والخاصة. والحديث ثابت في الصحيحين، وقد صححه أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة، وإن كان قد روى عنه أنه ضعفه فآخر الأمرين منه تصحيحه.

قال يعقوب بن شيبة في مسنده في المكيين في مسند عمار بن ياسر لما ذكر أخبار عمار: سمعت أحمد بن حنبل سئل عن حديث النبي ﷺ في عمار تقتلك الفئة الباغية؟ فقال أحمد قتلته الفئة الباغية كما قال النبيﷺ، وقال في هذا غير حديث صحيح عن النبي ﷺ وكره

(١) رواه البخاري (٦٧٨٦).

(٢) منهاج السنة (٤/ ٤١٠) وما بعدها، والحديث رواه البخاري (٦٧٢٣٢).

أن يتكلم في هذا بأكثر من هذا. وقال البخاري في صحيحه حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال: قال لي ابن عباس ولابنه انطلقا إلى أبي سعيد واسمعا من حديثه، فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه فأخذ رداءه فاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى على ذكر بناء المسجد فقال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرآه رسول الله ﷺ، فجعل ينفض التراب عنه ويقول: " **ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**"، قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

والحديث ثابت صحيح عن النبي ﷺ عند أهل العلم بالحديث والذين قتلوه هم الذين باشروا قتله. والحديث أطلق فيه لفظ البغي لم يقيده بمفعول كما قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، وكما قال النبي ﷺ: "**الذين هم فيكم تبع لا يبغون أهلًا ولا مالًا**".

ولفظ البغي إذا أطلق فهو الظلم كما قال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾، وقال: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾.

وأيضًا فإن النبي ﷺ ذكر هذا لما كانوا ينقلون اللبن لبناء المسجد وكانوا ينقلون لبنة لبنة وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين فقال النبي ﷺ: "**ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**"، وهذا ليس فيه ذم لعمار، بل مدح له ولو كان القاتلون له مصيبين في قتله لم يكن مدحًا له، وليس في كونهم يطلبون دم عثمان ما يوجب مدحه.

وكذلك من تأول قاتله بأنهم الطائفة التي قاتل معها؛ فتأويله ظاهر الفساد ويلزمهم ما ألزمهم إياه علي وهو أن يكون النبي ﷺ وأصحابه قد قتلوا كل من قتل معهم في الغزو كحمزة وغيره، وقد يقال فلان قتل فلانًا إذا أمره بأمر كان فيه حتفه، ولكن هذا مع القرينة لا يقال عند الإطلاق، بل القاتل عند الإطلاق الذي قتله دون الذي أمره.

ثم هذا يقال لمن أمر غيره، وعمار لم يأمره أحد بقتال أصحاب معاوية، بل هو كان من أحرص الناس على قتالهم وأشدهم رغبة في ذلك وكان حرصه على ذلك أعظم من حرص غيره، وكان هو يحض عليًا وغيره على قتالهم.

ولهذا لم يذهب أحد من أهل العلم الذين تذكر مقالاتهم إلى هذا التأويل، بل أهل العلم في هذا الحديث على ثلاثة أقوال:

١-فطائفة ضعفته لما روى عندها بأسانيد ليست ثابتة عندهم، ولكن رواه أهل الصحيح، رواه البخاري كما تقدم من حديث أبي سعيد، ورواه مسلم من غير وجه من حديث الحسن عن أمه عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من حديث أبي سعيد عن أبي قتادة وغيره.

٢-ومنهم من قال: هذا دليل على أن معاوية وأصحابه بغاة، وأن قتال علي لهم قتال أهل العدل لأهل البغي، لكنهم بغاة متأولون لا يكفرون ولا يفسقون. ولكن يقال ليس في مجرد كونهم بغاة ما يوجب الأمر بقتالهم؛ فإن الله لم يأمر بقتال كل باغ، بل ولا أمر بقتال البغاة ابتداء، ولكن قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فلم يأمر بقتال البغاة ابتداء، بل أمر إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يصلح بينهما، وهذا يتناول ما إذا كانتا باغيتين أو إحداهما باغية.

ثم قال: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قد يقال المراد به البغي بعد الإصلاح، ولكن هذا خلاف ظاهر القران؛ فإن قوله ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يتناول الطائفتين المقتتلتين سواء أصلح بينهما، أو لم يصلح كما أن الأمر بالإصلاح يتناول المقتتلتين مطلقًا، فليس في القران أمر بقتال الباغي ابتداء، لكن أمر إذا اقتتلت طائفتان أن يصلح بينهما وأنه إن بغت إحداهما على الأخرى بعد القتال أن تقاتل حتى تفيء، وهذا يكون إذا لم تجب إلى الإصلاح بينهما وإلا فإذا أجابت إلى الإصلاح بينهما لم تقاتل، فلو قوتلت ثم فاءت إلى الإصلاح لم تقاتل لقوله تعالى ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، فأمر بعد القتال- إلى أن تفيء- أن يصلح بينهما بالعدل وأن يقسط. وقتال

الفتنة لا يقع فيه هذا، وذلك قد يكون لأن الله لم يأمر بالقتال ابتداء، ولكن أمر إذا اقتتلوا وبغت إحداهما على الأخرى بقتال الفئة الباغية، وقد تكون الآية أمرًا بالإصلاح وقتال الباغية جميعًا لم يأمر بأحدهما، وقد تكون الطائفة باغية ابتداء، لكن لما بغت أمر بقتالها وحينئذ لم يكن المقاتل لها قادرًا لعدم الأعوان أو لغير ذلك، وقد يكون عاجزًا ابتداء عن قتال الفئة الباغية، أو عاجزًا عن قتالٍ تفيء فيه إلى أمر الله. فليس كل من كان قادرًا على القتال كان قادرًا على قتالٍ يفيء فيه إلى أمر الله، وإذا كان عاجزًا عن قتالها حتى تفيء إلى أمر الله لم يكن مأمورًا بقتلاها لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب، ولكن قد يظن أنه قادر على ذلك فتبين له في آخر الأمر أنه لم يكن قادرًا، فهذا من الاجتهاد الذي يثاب صاحبه على حسن القصد. وفعل ما أمر وإن أخطأ فيكون له فيه أجر ليس من الاجتهاد الذي يكون له في أجران؛ فإن هذا إنما يكون إذا وافق حكم الله في الباطن.

كما قال النبي ﷺ: "**إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر، وإذا اجتهد فأصاب فله أجران**".[1]

ومن الاجتهاد أن يكون ولي الأمر أو نائبه مخيرًا بين أمرين فأكثر تخيير تحرٍّ للأصلح لا تخيير شهوة كما يخير الإمام في الأسرى بين القتل، والاسترقاق، والمن، والفداء عند أكثر العلماء.

فإن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ليس بمنسوخ، وكذلك تخيير من نزل العدو على حكمه كما نزل بنو قريظة على حكم النبي ﷺ فسأله حلفاؤهم من الأوس أن يمن عليهم كما من على بني النضير حلفاء الخزرج، فقال النبي ﷺ ألا ترضون أن أحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس فرضيت الأوس بذلك، فأرسل النبي ﷺ خلف سعد بن معاذ فجاء وهو راكب وكان تمرض من أثر جرح به في المسجد، وبنو قريظة شرقي المدينة بينهم نصف نهار أو نحو ذلك. فلما أقبل سعد قال النبي ﷺ: "**قوموا إلى سيدكم**"، فقاموا وأقاربه في الطريق يسألونه أن يمن عليهم ويذكرونه بمعاونتهم ونصرهم له في الجاهلية، فلما دنا قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فأمره النبي ﷺ أن يحكم فيهم،

(١) البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

فحكم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم، فقال النبي ﷺ لسعد: **" قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات"**[(١)].

وعن بريدة عن النبي ﷺ قال: **" إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك"**[(٢)]. فدل هذان الحديثان الصحيحان على أن لله حكمًا معينًا فيما يكون ولي الأمر مخيرًا فيه تخيير مصلحة، وإن كان لو حكم بغير ذلك نفذ حكمه في الظاهر فما كان من باب القتال فهو أولى أن يكون أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله إما فعله وإما تركه، ويتبين ذلك بالمصلحة والمفسدة فما كان وجوده خيرًا من عدمه لما حصل فيه من المصلحة الراجحة في الدين، فهذا مما يأمر الله به أمر إيجاب أو استحباب وما كان عدمه خيرًا من وجوده فليس بواجب ولا مستحب، وإن كان فاعله مجتهدًا مأجورًا على اجتهاده، والقتال إنما يكون لطائفة ممتنعة، فلو بغت ثم أجابت إلى الصلح بالعدل لم تكن ممتنعة، فلم يجز قتالها ولو كانت باغية، وقد أمر بقتال الباغية إلى أن تفيء إلى أمر الله أي ترجع، ثم قال: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾، فأمر بالإصلاح بعد قتال الفئة الباغية كما أمر بالإصلاح إذا اقتتلتا ابتداء، وقد قالت عائشة رضي الله عنها لما وقعت الفتنة ترك الناس العمل بهذه الآية. وهو كما قالت فإنهما لما اقتتلتا لم يصلح بينهما، ولو قدر أنه قوتلت الباغية، فلم تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله، ثم أصلح بينهما بالعدل. والله تعالى أمر بالقتال إلى الفيء، ثم الإصلاح لم يأمر بقتال مجرد، بل قال ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وما حصل قتال حتى تفيء إلى أمر الله، فإن كان ذلك مقدورًا فما وقع -وإن كان معجوزًا عنه- لم يكن مأمورًا به.

وعجز المسلمين يوم أحد عن القتال الذي يقتضي انتصارهم كان بترك طاعة الرسول وذنوبهم وكذلك التولي يوم حنين كان من الذنوب يبين ذلك أنه لو قدر أن طائفة بغت

---

(١) البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨).

(٢) مسلم (١٧٣١).

على طائفة وأمكن دفع البغي بلا قتال لم يجز القتال، فلو اندفع البغي بوعظ أو فتيا أو أمر بمعروف لم يجز القتال، ولو اندفع البغي بقتل واحد مقدور عليه أو إقامة حد أو تعزيز مثل قطع سارق وقتل محارب وحد قاذف لم يجز القتال، وكثيرًا ما نثور الفتنة إذا ظلم بعض طائفة لطائفة أخرى فإذا أمكن استيفاء حق المظلوم بلا قتال لم يجز القتال، وليس في الآية أن كل من امتنع من مبايعه إمام عادل يجب قتاله بمجرد ذلك، وإن سمى باغيًا لترك طاعة الإمام فليس كل من ترك طاعة الإمام يقاتل.

والصديق قاتل ما نعي الزكاة لكونهم امتنعوا عن أدائها بالكلية فقوتلوا بالكتاب والسنة وإلا فلو أقروا بأدائها وقالوا لا نؤديها إليك لم يجز قتالهم عند أكثر العلماء وأولئك لم يكونوا كذلك، ولهذا كان:

٣-القول الثالث: في هذا الحديث حديث عمار إن قاتل عمار طائفة باغية ليس لهم أن يقاتلوا عليًا ولا يمتنعوا عن مبايعته وطاعته، وإن لم يكن على مأمورًا بقتالهم ولا كان فرضًا عليه قتالهم لمجرد امتناعهم عن طاعته مع كونهم ملتزمين شرائع الإسلام، وإن كان كل من المقتتلتين متأولين مسلمين مؤمنين وكلهم يستغفر لهم ويترحم عليهم عملًا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.[1]

ثالثًا: خبر التحكيم وبراءة الصحابة الكرام مما نسب إليهم من الأباطيل في هذا الخبر:

ذكر الرواية في ذلك.

قال الطبري: قال أبو مخنف حدثني أبو جناب الكلبي أن عمرًا وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام يقول: إنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن مني فتكلم وأتكلم، فكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في كل شيء اغتزى بذلك كله أن يقدمه فيبدأ بخلع عليّ. قال: فنظر في أمرهما وما اجتمعا عليه فأراده عمرو على معاوية

(١) منهاج السنة (٤/ ٤٠٧) وما بعدها.

فأبى، وأراده على ابنه فأبى، وأراد أبو موسى عمرًا على عبد الله بن عمر فأبى عليه، فقال له عمرو: خبرني ما رأيك؟ قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت، فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال: يا أبا موسى، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق، فتكلم أبو موسى، فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفقا على أمر نرجو أن يصلح الله ﷻ به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق وبر يا أبا موسى، تقدم فتكلم، فتقدم أبو موسى ليتكلم، فقال له ابن عباس: ويحك والله إني لأظنه قد خدعك! إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم أنت بعده. فإن عمرًا رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك. وكان أبو موسى مغفلًا، فقال له: إنا قد اتفقنا، فتقدم أبو موسى فحمد الله ﷻ وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع عليًا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلًا، ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص، فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية؛ فإنه ولي عثمان بن عفان، والطالب دمه، وأحق الناس بمقامه، فقال أبو موسى: مالك -لا وفقك الله- غدرت وفجرت. إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا، وحمل شريح بن هانئ على عمرو فقنعه بالسوط، وحمل على شريح ابن لعمرو فضربه بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهم وكان شريح بعد ذلك يقول: ما ندمت على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط ألا أكون ضربته بالسيف آتيًا به الدهر ما أتى، والتمس أهل الشام أبا موس، ى فركب راحلته ولحق بمكة.

قال ابن عباس: قبح الله رأي أبي موسى! حذرته وأمرته بالرأي فما عقل، فكان أبو موسى

يقول: حذرني ابن عباس غدرة الفاسق، ولكني اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئًا على نصيحة الأمة، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي، وكان إذا صلى الغداة يقنت فيقول: اللهم العن معاوية، وعمرًا، وأبا الأعور السلمي، وحبيبًا، وعبد الرحمن بن خالد، والضحاك بن قيس، والوليد. فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنت لعن عليًا، وابن عباس والأشتر، وحسنًا، وحسينًا. (١)

والجواب: الرواية منكرة، وإسنادها واه. وفيها ما يلي:

١-الانقطاع: لأن الطبري لم يذكر من حدثه عن أبي مخنف، وبينه وبين أبي مخنف اثنان أو ثلاثة.

٢-لوط بن يحيى، أبو مخنف إخباري تالف لا يوثق به. تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف، وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء، وقال بن عدى: شيعي محترق صاحب أخبارهم. (٢)

٣-أبو جناب الكلبي، ضعيف، وقال أبو حاتم: صدوق مدلس ولم يصرح(٣)، وقال ابن سعد: أبو جناب الكلبي واسمه: يحيى بن أبي حية، وكان ضعيفًا في الحديث. (٤)

٤- والحكاية مرسلة، أبو جناب لم يشهد الحدث، والمرسل ضعيف لا تقوم به الحجة.

هذا، وللرواية طريق آخر عند ابن سعد قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني أبو بكر ابن عبد الله بن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن عمرو بن الحكم بنحوه. (٥)

وهذا إسناد يزيد الأول ضعفًا ويؤكد على رد روايته؛ لأن متابعة الكذابين لبعض تؤكد كذبهم كما أن متابعة المقبولين والثقات لبعض تؤكد صحة الرواية، وإليك ما فيه:

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١١٢).
(٢) لسان الميزان (٤/ ٤٩٢).
(٣) تقريب التهذيب (٧٥٣٧).
(٤) الطبقات الكبرى (٦/ ٣٦٠).
(٥) السابق (٤/ ٢٥٦).

١-محمد بن عمر: متروك الرواية سبقت ترجمته.

٢-أبو بكر بن أبي سبرة. قال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ليس بشيء كان يضع الحديث ويكذب، وقال الدوري ومعاوية بن صالح عن ابن معين: ليس حديثه بشيء، وقال ابن المديني: كان ضعيفًا في الحديث، وقال مرة: كان منكر الحديث، وقال البخاري: ضعيف، وقال مرة: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه غير محفوظ وهو في جملة من يضع الحديث، وقال ابن حبان: كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات لا يجوز الاحتجاج به، وقال الساجي: عنده مناكير، وقال الحاكم أبو عبد الله: يروي الموضوعات عن الأثبات مثل هشام بن عروة وغيره. [(١)]، وقال الحافظ: رموه بالوضع. [(٢)]

٣-إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة: قال البخاري: تركوه، وقال أحمد: لا تحل عندي الرواية عنه، وفي رواية: ليس بأهل أن يحمل عنه، وقال ابن معين في رواية معاوية بن صالح حديثه: ليس بذاك، وفي رواية ابن أبي مريم عنه: لا يكتب حديثه ليس بشيء، وفي رواية أبي داود والغلابي عنه ليس بثقة، وقال الدوري عنه: بنو أبي فروة ثقات إلا إسحاق، وفي رواية علي بن الحسن الهسنجاني عنه: كذاب. وقال عمرو بن علي وأبو زرعة وأبو حاتم النسائي: متروك الحديث، وقال النسائي في موضع آخر: ليس بثقة ولا يكتب حديثه. وزاد أبو زرعة: ذاهب الحديث. وذكره يعقوب بن سفيان في باب من يرغب عن الرواية عنهم. [(٣)]، وقال الحافظ: متروك من الرابعة. [(٤)]

ثانيا نقد الرواية من حيث المتن:

١-الرواية تصور الخلاف بين الحكمين تبعًا للخلاف بين عليّ ومعاوية على الخلافة، وقد سبق أن بينا أن موضوع الخلاف هو سرعة الأخذ بالقصاص من قتلة عثمان. [(٥)]

---

(١) تهذيب التهذيب (١٢/ ٣١).

(٢) التقريب (ت٧٩٧٣).

(٣) تهذيب التهذيب (١/ ٢١٠).

(٤) التقريب (٣٦٨).

(٥) تحقيق موقف الصحابة في الفتنة (٢٢٤).

٢-الرواية تنص على عزل الحكمين لمعاوية فيما بينهما وعلى تثبيت عمرًا لمعاوية أمام الناس مع أن معاوية لم يكن خليفة ولا ادعى الخلافة طرفة عين حتى قتل علي ﷺ، ولهذا فإن العزل والتثبيت جاءا على غير محلهما، وهذا مما يدل على عدم إحكام الكذابين لكذبتهم فليرجعوا إليها إن شاءوا ليحذفوا منها ما دل على كذبهم.

٣-الرواية تصور أبا موسى مغفلًا سبابًا وتصور عمرًا ماكرًا مخادعًا سبابًا هو الآخر، وتصور ابن عباس وهو يطعن في أبي موسى وفي اختيار عليّ له، وهذا ينافي الثابت من الفضائل لهؤلاء الكبار- رضي الله عنهم ورضوا عنه-. (١)

د- ومما يؤكد عدم صحة هذه الرواية التي قبلها أهل العلم لقضية التحكيم والتي ينكشف بها كذب الكذابين أكثر من ذي قبل:

قال ابن العربي: وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه مالا يرضاه الله، وإذا لاحظتموه بعين المروءة دون الديانة رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر عدم الدين وفي الأقل جهل بيّن، والذي صح من ذلك ما روى الأئمة كخليفة بن خياط والدراقطني أنه لما خرج الطائفة العراقية في مائة ألف والشامية في سبعين أو تسعين ألفًا ونزلوا على الفرات بصفين. اقتتلوا في أول يوم وهو الثلاثاء على الماء فغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت، ورفعت المصاحف من أهل الشام. . . ، حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعويين بالحق فكان من جهة عليّ الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت ورفعت المصاحف من أهل الشام ودعوا إلى الصلح وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل: أبو موسى من جهة عليّ، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص.

وكان أبو موسى رجلًا تقيًا ثقفًا فقيها عالمًا حسبما بيناه في كتاب (سراج المريدين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم. وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعًا في القول، وأن ابن العاص كان ذا دهاء وأرب

(١) انظر السابق (٢٢٥، ٢٢٦).

حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيدًا لما أرادت من الفساد، وتبع في ذلك بعض الجهال بعضًا وصنفوا فيه حكايات. وغيره من الصحابة كان أحذق منه وأدهى وإنما بنوا ذلك على أن عمرًا لما غدر أبا موسى في قصة التحكيم صار له الذكر في الدهاء والمكر. (١) ثم قال بعد سوق الرواية بنحو ما مر في الرواية السابقة: هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك فتوارثته أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع. وإنما الذي روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر في عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ونحوه عزل عمرو معاوية.

ذكر الدارقطني بسنده إلى حصين بن المنذر: لما عزل عمرو معاوية جاء حصين بن المنذر فضرب فسطاطه قريبًا من فسطاط معاوية، فبلغ ثناه معاوية، فأرسل إلي، فقال إنه بلغني عن هذا أي عن عمرو كذا وكذا، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه، فأتيته فقلت: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما. قال: فكانت هي التي قتل معاوية منها نفسه، فأتيته فأخبرته فأتى حصين معاوية فأخبره أن الذي بلغه عنه كما بلغه، فأرسل إلى أبي الأعور الذكواني فبعثه في خيله، فخرج يركض فرسه ويقول: أين عدو الله؟ أين هذا الفاسق؟. قال أبو يوسف: أظنه قال إنما يريد حوباء نفسه فخرج عمرو إلى فرس تحت فسطاطه فجال في ظهره عريانًا، فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية وهو يقول: إن الضجور قد تحتلب العلبة يا معاوية إن الضجور قد تحتلب العلبة، فقال معاوية: أحسبه ويريد الحالب فتدق أنفه وتكفأ إناءه.

قال الدارقطني وذكر سندًا عدلًا وساق الحديث ربعي عن أبي موسى أن عمرو بن

---

(١) العواصم من القواصم لأبي بكر العربي (١/ ١٤٠).

العاص قال: والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحل لهما منه شيء لقد غبنا ونقص رأيهما وايم الله ما كان مغبونين ولا ناقصي الرأي ولئن كانا امرأين يحرم عليهما هذا المال الذي أصبناه بعدهما لقد هلكنا، وايم الله ما جاء الوهم إلا من قبلنا.

فهذا كان بدء الحديث ومنتهاه، فأعرضوا عن الغاوين، وازجروا العاوين، وعرجوا عن سبيل الناكثين إلى سنن المهتدين وأمسكوا الألسنة عن السابقين إلى الدين وإياكم أن تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله ﷺ، فقد هلك من كان أصحاب النبي ﷺ خصمه دعوا ما مضى، فقد قضى الله فيه ما قضى وخذوا لأنفسكم الجد فيما يلزمكم اعتقادًا وعملًا ولا تسترسلوا بألسنتكم فيما لا يعنيكم مع كل ماجن اتخذ الدين هملً، ا فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا. ورحم الله الربيع بن خثيم فإنه لما قيل له قتل الحسين قال: اقتلوه قالوا: نعم، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر: ٤٦)، ولم يزد على هذا أبدًا فهذا العقل والدين والكف عن أحوال المسلمين، والتسليم لرب العالمين.[(١)]

وبعد. فإن تلك الخلافات والفتن التي حدثت بين أصحاب النبي ﷺ من قتال فيما بينهم، مع بغي أحدهم على الآخر، وما حصل بينهم بعد ذلك من إصلاح وتحكيم بما يرضي الله ﷻ، ثم قبول كل من الطرفين بهذا الحكم، إنما يذكرنا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ٩-١٠). والحرص على الإصلاح والسعي، وإلى لمّ شعث المسلمين كان رجاء أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، وكذلك البعد عن كل ما يوقع البغضاء والفرقة في نفوس المسلمين، لهذا سعى أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه إلى البعد عن كل ما يثير الأحقاد ويفرق الصفوف ومن ذلك: القول السيئ، فنهى من كان في جيشه عن لعن

---

(١) العواصم من القواصم (١٧٥-١٨٢).

وشتم جيش معاوية بن أبي سفيان، مع حدوث القتال فيما بينهم.

ومما يدل على التلاحم الأخوي والتراحم الديني بين أمير المؤمنين عليّ ومعاوية- رضي الله عنهما - مع ما كان بينهما من اختلاف اجتهادي - فقد كان معاوية كلما تذكر عليًا بعد استشهاده بكى على فقده وترحم عليه.

فعن الأصبغ بن نباتة قال: (دخل ضرار بن ضمرة النهشلي على معاوية بن أبي سفيانﷺ، فقال له: صف لي عليًا؟ قال: أو تعفيني؟ فقال: لا، بل صفه لي. قال ضرار: رحم الله عليًا! كان والله فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، ويقربنا إذا زرناه، لا يغلق له دوننا باب، ولا يحجبنا عنه حاجب، ونحن -والله- مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيبته، ولا نبتديه لعظمته، فإذا تبسم فمن مثل اللؤلؤ المنظوم.

فقال معاوية: زدني في صفته. فقال ضرار: رحم الله عليًا كان -والله- طويل السهاد، قليل الرقاد، يتلو كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار.

قال: فبكى معاوية وقال: حسبك يا ضرار! كذلك والله كان عليّ، رحم الله أبا الحسن).

هذا هو حال الإخوة في الزمن الماضي، لم يمنع اختلافهم في الاجتهاد من تراحمهم وخلو قلوبهم من الغل والبغضاء، والتاريخ خيرُ معين لفهم حوادث الزمن الماضي، بعيدًا عن أقوال مبناها عاطفة هوجاء تتقاذف بالمسلم في كل صوب، وليس له من بعد ذلك إلا زيغ الشيطان وشبهاته تتحكم به، والعياذ بالله. (١)

ثالثا: ما عند النصارى من الاقتتال على حطام الدنيا وفيهم نبيهم وقد خذله بعضهم.

١- ومن أعظم المخازي في ذلك أن يهوذا الإسخريوطي أحد أصحاب عيسى الاثنا عشر هو الذي أسلمه للصلب، وهذا في العهد الجديد ففي إنجيل (متى ١٠/ ٤) قال وهو يعد أصحاب عيسى ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه.

وفي نفس الإنجيل (٢٦/ ١٦: ١٤): **حِينَئِذٍ ذَهَبَ وَاحِدٌ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يُدْعَى يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ، إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ ١٥ وَقَالَ: «مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُعْطُونِي وَأَنَا أُسَلِّمُهُ**

(١) من مقالة الثقلان في أولياء الرحمن. عبد الله بن جوران الخضير.

إِلَيْكُمْ؟ » فَجَعَلُوا لَهُ ثَلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. ١٦ وَمِنْ ذلِكَ الْوَقْتِ كَانَ يَطْلُبُ فُرْصَةً لِيُسَلِّمَهُ.

ثم جاء فيه (٢٦/ ٢٥: ٢٠): وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ اتَّكَأَ مَعَ الاثْنَيْ عَشَرَ. ٢١ وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ قَالَ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي». ٢٢ فَحَزِنُوا جِدًّا، وَابْتَدَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَارَبُّ؟ » ٢٣ فَأَجَابَ وَقَالَ: «الَّذِي يَغْمِسُ يَدَهُ مَعِي فِي الصَّحْفَةِ هُوَ يُسَلِّمُنِي! ٢٤ إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ، وَلكِنْ وَيْلٌ لِذلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِذلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ! ». ٢٥ فَأَجَابَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ وَقَالَ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا سَيِّدِي؟ » قَالَ لَهُ: «أَنْتَ قُلْتَ». ثم قال في كيفية القبض على المسيح (٢٦/ ٥٠: ٤٧): وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ، إِذَا يَهُوذَا أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ قَدْ جَاءَ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ. ٤٨ وَالَّذِي أَسْلَمَهُ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلاً: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ». ٤٩ فَلِلْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى يَسُوعَ وَقَالَ: «السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي! » وَقَبَّلَهُ. ٥٠ فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟ » حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ.

٢-ومن العجب في قصة يهوذا الإسخريطي هذا أن صلب المسيح لم يكفر عنه خطيئته مع أنه أسلم للصلب ليكفر خطايا بني آدم ولذلك شنق نفسه.

كما في إنجيل متى (٢٧/ ٧: ١): وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ تَشَاوَرَ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخُ الشَّعْب عَلَى يَسُوعَ حَتَّى يَقْتُلُوهُ، ٢ فَأَوْثَقُوهُ وَمَضَوْا بِهِ وَدَفَعُوهُ إِلَى بِيلاَطُسَ الْبُنْطِيِّ الْوَالِي.

٣ حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى يَهُوذَا الَّذِي أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ، نَدِمَ وَرَدَّ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ ٤ قَائِلاً: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا». فَقَالُوا: «مَاذَا عَلَيْنَا؟ أَنْتَ أَبْصِرْ! » ٥ فَطَرَحَ الْفِضَّةَ فِي الْهَيْكَلِ وَانْصَرَفَ، ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ. ٦ فَأَخَذَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْفِضَّةَ وَقَالُوا: «لاَ يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِي الْخِزَانَةِ لأَنَّهَا ثَمَنُ دَمٍ». ٧ فَتَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِيِّ مَقْبَرَةً لِلْغُرَبَاءِ.

٣-ومن الفضائح والمخازي في ذلك ما فعله بطرس وهو من أصحاب المسيح فيما سطره

كتابهم حيث تبرأ منه حال كونه يحاكم قبل الصلب وحلف أنه لا يعرفه كما في إنجيل (متى ٢٦/ ٣٥: ٣١): حِينَئِذٍ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ. ٣٢ وَلكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ». ٣٣ فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «وَإِنْ شَكَّ فِيكَ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ أَبَدًا». ٣٤ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ دِيكٌ تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». ٣٥ قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ!» هكَذَا قَالَ أَيْضًا جَمِيعُ التَّلاَمِيذِ.

ثم تحققت النبوءة عند القبض على الرب كما يلي (٢٦/ ٧٥: ٦٩): أَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ جَالِسًا خَارِجًا فِي الدَّارِ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ قَائِلَةً: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ الْجَلِيلِيِّ!». ٧٠ فَأَنْكَرَ قُدَّامَ الْجَمِيعِ قَائِلاً: «لَسْتُ أَدْرِي مَا تَقُولِينَ!» ٧١ ثُمَّ إِذْ خَرَجَ إِلَى الدِّهْلِيزِ رَأَتْهُ أُخْرَى، فَقَالَتْ لِلَّذِينَ هُنَاكَ: «وَهذَا كَانَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ!» ٧٢ فَأَنْكَرَ أَيْضًا بِقَسَمٍ: «إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ الرَّجُلَ!» ٧٣ وَبَعْدَ قَلِيل جَاءَ الْقِيَامُ وَقَالُوا لِبُطْرُسَ: «حَقًّا أَنْتَ أَيْضًا مِنْهُمْ، فَإِنَّ لُغَتَكَ تُظْهِرُكَ!» ٧٤ فَابْتَدَأَ حِينَئِذٍ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ الرَّجُلَ!» وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدِّيكُ. ٧٥ فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ كَلاَمَ يَسُوعَ الَّذِي قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». فَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ وَبَكَى بُكَاءً مُرًّا.

قلت وماذا ينفعه بكاؤه وقد سلم إلهه ومعبوده فلمن يتوب؟

ثم يقال: أين هذا التصرف من قول خبيب بن عدي ﷺ وهو مصلوب والله ما أحب أن أكون معافى في أهلي ورسول الله تصيبه شوكة في مكانه الذي هو فيه.

٣-ومن العيوب اللاصقة بالجبين أمام كل ناظر هروب الأصحاب عند القبض على الرب فقد جاء في إنجيل متى ٢٦/ ٥٦ قوله بعد القبض على المسيح حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

قلت: حتى لو نهاهم عن القتال فما كان ينبغي لهم أن يتركوه ولو ماتو معه، فالهرب في مثل هذا الموقف عار، فإن عثمان رضي الله عنه نهى المسلمين عن القتال وأقسم عليهم وقد ثبت معه في الدار جماعة.

٤-ولم لا يفعلو ذلك وقد عاتبوا امرأة ولاموها على أنها سكبت على رأسه قارورة طيب

وقالوا لها كان يمكن أن يباع بثمن غال كما في (متى٢٦/ ١٢: ٦): وَفِيمَا كَانَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ عَنْيَا فِي بَيْتِ سِمْعَانَ الأَبْرَصِ، ٧ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ مَعَهَا قَارُورَةُ طِيبٍ كَثِيرِ الثَّمَنِ، فَسَكَبَتْهُ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ مُتَّكِئٌ. ٨ فَلَمَّا رَأَى تَلاَمِيذُهُ ذلِكَ اغْتَاظُوا قَائِلِينَ: «لِمَاذَا هذَا الإِتْلاَفُ؟ ٩ لأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هذَا الطِّيبُ بِكَثِيرٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ». ١٠ فَعَلِمَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُزْعِجُونَ الْمَرْأَةَ؟ فَإِنَّهَا قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلاً حَسَنًا! ١١ لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ. ١٢ فَإِنَّهَا إِذْ سَكَبَتْ هذَا الطِّيبَ عَلَى جَسَدِي إِنَّمَا فَعَلَتْ ذلِكَ لأَجْلِ تَكْفِينِي.

٥-ثم هم يعتذرون عن تسليم المسيح وعن قتله بأن الكتب بشرت بذلك كما جاء في (متى ٢٦: ٥٦) وأما هذا كله، فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

فلماذا يستنكرون قتل عثمان، وقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ فإذا كان قتل المسيح لتكتمل الكتب فقتل عثمان لتتحقق البشارة، فيكون قتله دليلًا على صدق النبي ﷺ فآمنوا خيرًا لكم.

٦-تزعمون أن الصحابة اقتتلو على الخلافة وهي من أمر الدنيا فهل احتياج الرب إلى أتان من أمر الآخرة؟ (متى ٢١/ ١١: ١): وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ وَجَاءُوا إِلَى بَيْتِ فَاجِي عِنْدَ جَبَلِ الزَّيْتُونِ، حِينَئِذٍ أَرْسَلَ يَسُوعُ تِلْمِيذَيْنِ ٢ قَائِلاً لَهُمَا: «اِذْهَبَا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمَامَكُمَا، فَلِلْوَقْتِ تَجِدَانِ أَتَانًا مَرْبُوطَةً وَجَحْشًا مَعَهَا، فَحُلاَّهُمَا وَأْتِيَانِي بِهِمَا. ٣ وَإِنْ قَالَ لَكُمَا أَحَدٌ شَيْئًا، فَقُولاَ: الرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمَا. فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُهُمَا». ٤ فَكَانَ هذَا كُلُّهُ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: ٥ «قُولُوا لابْنَةِ صِهْيَوْنَ: هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِيكِ وَدِيعًا، رَاكِبًا عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ». ٦ فَذَهَبَ التِّلْمِيذَانِ وَفَعَلاَ كَمَا أَمَرَهُمَا يَسُوعُ، ٧ وَأَتَيَا بِالأَتَانِ وَالْجَحْشِ، وَوَضَعَا عَلَيْهِمَا ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ عَلَيْهِمَا. ٨ وَالْجَمْعُ الأَكْثَرُ فَرَشُوا ثِيَابَهُمْ فِي الطَّرِيقِ. وَآخَرُونَ قَطَعُوا أَغْصَانًا مِنَ الشَّجَرِ وَفَرَشُوهَا فِي الطَّرِيقِ. ٩ وَالْجُمُوعُ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا وَالَّذِينَ تَبِعُوا كَانُوا يَصْرَخُونَ قَائِلِينَ: «أُوصَنَّا لابْنِ دَاوُدَ! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! أُوصَنَّا فِي الأَعَالِي! ». ١٠ وَلَمَّا دَخَلَ أُورُشَلِيمَ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا قَائِلَةً: «مَنْ هذَا؟ » ١١ فَقَالَتِ الْجُمُوعُ: «هذَا يَسُوعُ النَّبِيُّ الَّذِي مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ».

قلت: ويلاحظ في هذا النص أمور منها:

١-أنه الرب في أول النص

٢-أنه محتاج إلى أتان!

٣-وفي آخر النص أنه النبيّ!

٦-يستنكرون على الصحابة وقوع الفتنة في عهدهم على أيدي من ليس منهم ولا يستنكرون على ربهم -في زعمهم-- نحو هذا، بل أشد كما في (متى١٠/ ٣٦: ٣٤): **لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. ٣٥ فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. ٣٦ وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ.**

وبناءً على ذلك كانوا يسمون المجازر عقابًا وتأديبًا لبسط الهيبة وترويع الناس كانت سياسة الاجتياح المسيحي: أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة فيها. . مجزرة ترتجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة)).

وأنه كثيرًا ما كان يصف لك القاتل والمبشر في مشهد واحد فلا تعرف من تحزن: أمن مشهد القاتل وهو يذبح ضحيته أو يحرقها أو يطعمها للكلاب، أم من مشهد المبشر الذي تراه خائفًا من أن تلفظ الضحية أنفاسها قبل أن يتكرم عليها بالعماد فيركض إليها لاهثًا يجرجر أذيال جبته وغلاظته وثقل دمه لينصرها بعد أن نضج جسدها بالنار أو اغتسلت بدمها، أو التهمت الكلاب نصف أحشائها.

إن العقل الجسور والخيال الجموح ليعجزان عن الفهم والإحاطة، فإبادة عشرات الملايين من البشر في فترة لا تتجاوز الخمسين سنة هول لم تأت به كوارث الطبيعة. ثم إن كوارث الطبيعة تقتل بطريقة واحدة. أما المسيحيون الأسبان فكانوا يتفننون ويبتدعون ويتسلون بعذاب البشر وقتلهم. كانوا يجرون الرضيع من بين يدي أمه ويلوحون به في الهواء، ثم يخبطون رأسه بالصخر أو بجذوع الشجر، أو يقذفون به إلى أبعد ما يستطيعون. وإذا جاعت كلابهم قطعوا لها أطراف أول طفل هندي يلقونه، ورموه إلى أشداقها ثم أتبعوها بباقي الجسد. وكانوا يقتلون الطفل ويشوونه من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه قائلين: إنها أشهى لحم الإنسان.

رأى لاس كازاس كل ذلك بعينيه، وأرسل الرسائل المتعددة إلى ملك أسبانيا يستعطفه ويسترحمه ويطالبه بوقف عذاب هؤلاء البشر. وكانت آذان الملك الأسباني لا تسمع إلا رنين الذهب. ولماذا يشفق الملك على بشر تفصله عنهم آلاف الأميال من بحر الظلمات ما دامت جرائم عسكره ورهبانه في داخل إسبانيا لا تقل فظاعة عن جرائم عسكره ورهبانه في العالم الجديد؟ كان الأسبان باسم الدين المسيحي الذي يبرأ منه المسيح عليه السلام يسفكون دم الأندلسيين المسلمين الذين ألقوا سلاحهم وتجردوا من وسائل الدفاع عن حياتهم وحرماتهم. وكان تنكيلهم بهم لا يقل وحشية عن تنكيلهم بهنود العالم الجديد. لقد ظلوا يسومون المسلمين أنواع العذاب والتنكيل والقهر والفتك طوال مائة سنة فلم يبق من الملايين الثلاثة الثلاثين (حسبما ذكر الكتاب) مسلم واحد كما ساموا الهنود تعذيبًا وفتكًا واستأصلوهم من الوجود. كانت محاكم التفتيش التي تطارد المسلمين وتفتك به ورجال التبشير الذين يطاردون الهنود ويفتكون بهم من طينة واحدة.

إن أحدًا لا يعلم كم عدد الهنود الذين أبادهم الأسبان المسيحيين ثمة من يقول إنه مائتا مليون، ومنهم من يقول إنهم أكثر. أما لاس كازاس فيعتقد أنهم مليار من البشر، ومهما كان الرقم فقد كانت تنبض بحياتهم قارة أكبر من أوروبا بسبعة عشر مرة، وها قد صاروا الآن أثرًا بعد عين.

أما المسيحيون فعاقبوهم بمذابح لم تعرف في تاريخ الشعوب. كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلًا أو حاملًا أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة. وكانوا يراهنون على من يشق رجلًا بطعنة سكين، أو يقطع رأسه أو يدلق أحشاءه بضربة سيف.

كانوا ينتزعون الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رءوسهم بالصخور. أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين. وحين يسقط في الماء يقولون: ((عجبًا إنه يختلج)). كانوا يسفدون الطفل وأمه بالسيف وينصبون مشانق طويلة ينظمونها مجموعة مجموعة كل مجموعة ثلاث عشر مشنوقًا، ثم يشعلون النار ويحرقونهم

أحياء. وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيها النار.

كانت فنون التعذيب لديهم أنواعًا منوعة. بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعًا ناقصًا لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم، ثم يقول لهم: ((هيا احملوا الرسائل)) أي: هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات. أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة، ثم يربط هؤلاء المساكين بها، وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين.

ولقد شاهدت مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة. وبما أنهم يصرخون صراخًا شديدًا أزعج مفوض الشرطة الأسبانية الذي كان نائمًا (أعرف اسمه، بل أعرف أسرته في قشتالة) فقد وضعوا في حلوقهم قطعًا من الخشب أخرستهم، ثم أضرموا النار الهادئة تحتهم.

رأيت ذلك بنفسي، ورأيت فظائع ارتكبها المسيحيون أبشع منها. أما الذين هربوا إلى الغابات وذرى الجبال بعيدًا عن هذه الوحوش الضارية، فقد روض لهم المسيحيون كلابًا سلوقية شرسة لحقت بهم، وكانت كلما رأت واحدًا منهم انقضت عليه ومزقته وافترسته كما تفترس الخنزير. وحين كان الهنود يقتلون مسيحيًا دفاعًا عن أنفسهم كان المسيحيون يبيدون مائة منهم لأنهم يعتقدون أن حياة المسيحي بحياة مائة هندي أحمر.

وشهد شاهد من أهلها ...كما يقولون. .

ألم تذكرنا هذه الفظاعات والوحشية بما حصل في البوسنة والشيشان؟ من وراء ذلك كله أليسوا هم دعاة المسيحية الذين يتشدقون بالحرية والإنسانية والمساواة والعدالة؟ ويتهمون الإسلام بالإرهاب؟

لا تنـــه عن خلق وتأتي مثلـــه   عـــار عليك إذا فعلت عظيـــم[1]

٧-بولس يعترف أنه كذاب! !

فهو القائل: ((وَلكِنْ، إِنْ كَانَ كَذِبِي يَجْعَلُ صِدْقَ اللهِ يَزْدَادُ لِمَجْدِهِ، فَلِمَاذَا أُدَانُ أَنَا بَعْدُ

(١) هذا الكتاب من تأليف المطران برتولومي دي لاس كازاس. ترجمة سميرة عزمي الزين. من منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. لمن أراد أن يستزيد فالكتاب ملئ بالفضائح التي تقشعر لها الأبدان.

بِاعْتِبَارِي خَاطِئًا؟)) [رومية ٣: ٧].

أنه ينشر دين الله بالكذب والطرق الملتوية، وهذا هو حال المبشرين اليوم.

أما نحن فأصحاب نبينا كلهم عدول بفضل الله على أمة الإسلام.

٨-بولس يعترف أنه إنسان تعيس ولا يسكن في جسده الصلاح!

يقول في رسالته إلي أهل روما (٧: ١٥ - ٢٤): ((فَإِنَّ مَا أَفْعَلُهُ لاَ أَمْلِكُ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهِ: إِذْ لاَ أُمَارِسُ مَا أُرِيدُهُ، وَإِنَّ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَعْمَلُ. ١٦فَمَا دُمْتُ أَعْمَلُ مَا لاَ أُرِيدُهُ، فَإِنِّي أُصَادِقُ عَلَى صَوَابِ الشَّرِيعَةِ. ١٧فَالآنَ، إِذَنْ، لَيْسَ بَعْدُ أَنَا مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ، بَلِ الْخَطِيئَةُ الَّتِي تَسْكُنُ فِيَّ. ١٨لأَنَّنِي أَعْلَمُ أَنَّهُ فِيَّ، أَيْ فِي جَسَدِي، لاَ يَسْكُنُ الصَّلاَحُ: فَأَنْ أُرِيدَ الصَّلاَحَ ذَلِكَ مُتَوَفِّرٌ لَدَيَّ؛ وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَهُ، فَذَلِكَ لاَ أَسْتَطِيعُهُ. ١٩فَأَنَا لاَ أَعْمَلُ الصَّلاَحَ الَّذِي أُرِيدُهُ؛ وَإِنَّمَا الشَّرُّ الَّذِي لاَ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أُمَارِسُ. ٢٠ وَلكِنْ، إِنْ كَانَ مَا لاَ أُرِيدُهُ أَنَا إِيَّاهُ أَعْمَلُ، فَلَيْسَ بَعْدُ أَنَا مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، بَلِ الْخَطِيئَةُ الَّتِي تَسْكُنُ فِيَّ. ٢١ إِذَنْ، أَجِدُ نَفْسِي، أَنَا الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ مَا هُوَ صَالِحٌ، خَاضِعًا لِهَذَا النَّامُوسِ: ٢٢أَنَّ لَدَيَّ الشَّرَّ. فَإِنَّنِي، وَفْقًا لِلإِنْسَانِ الْبَاطِنِ فِيَّ، أَبْتَهِجُ بِشَرِيعَةِ الله. ٢٣وَلكِنَّنِي أَرَى فِي أَعْضَائِي نَامُوسًا آخَرَ يُحَارِبُ الشَّرِيعَةَ الَّتِي يُرِيدُهَا عَقْلِي، وَيَجْعَلُنِي أَسِيرًا لِنَامُوسِ الْخَطِيئَةِ الْكَائِنِ فِي أَعْضَائِي. فَيَا لِي مِنْ إِنْسَانٍ تَعِيسٍ!))

إن هذا الكلام الذي قاله بولس يتعارض مع ما قال يوحنا في رسالته الأولى: ((كل من هو مولود من الله لا يفعل خطيةٍ، لأَنَّ طَبِيعَةَ الله صَارَتْ ثَابِتَةً فِيهِ. بَلْ إِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَارِسَ الْخَطِيئَةَ، لأَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنَ الله. ١٠إِذَنْ، هَذَا هُوَ الْقِيَاسُ الَّذِي نُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ أَوْلاَدِ الله وَأَوْلاَدِ إِبْلِيسَ.)) (رسالة يوحنا الأولى ٣: ٩).

وللمزيد انظر: فصل تحريف الكتاب المقدس من هذه الموسوعة.

* * *

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

رقم المجلد	عنوان المجلد
المجلد الأول	المقدمة وبطلان ألوهية المسيح
المجلد الثاني	الصلب والفداء والتحريف
المجلد الثالث	شبهات عن العقيدة
المجلد الرابع	شبهات عن علوم القرآن
المجلد الخامس	شبهات عن القرآن الكريم وعلومه
المجلد السادس	شبهات عن القرآن الكريم
المجلد السابع	شبهات عن السنة النبوية والأنبياء
المجلد الثامن	شبهات عن النبي ﷺ
المجلد التاسع	شبهات عن زوجات النبي ﷺ والصحابة
المجلد العاشر	شبهات عن الفقه والمرأة
المجلد الحادي عشر	شبهات عن المرأة
المجلد الثاني عشر	شبهات عن اللغة والإعجاز العلمي

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب
ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد العاشر

شبهات في الفقه وعن المرأة

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

١٠

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال – هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ – ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء – مجمع الخير – الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي – شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم
للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

شبهات حول الفقه

وفيها:

١- الصيام يقلل الإنتاج.

٢- نكاح المتعة.

٣- الملاعنة.

٤- تحريم زواج المسلمة بغير المسلم.

٥- نكاح البهائم.

٦- تحريم أكل الخنزير.

٧- الجزية في الإسلام.

٨- المؤلفة قلوبهم.

٩- الرق في الإسلام.

١٠- الحدود.

١١- السرقة.

١٢- الخمر.

١٣- الزنا.

١٤- لا تمنع امرأتي يد لامس.

١٥-اللواط.

١٦-الردة.

١- شبهة: الصيام يقلل حركة الإنتاج.

نص الشبهة:

يقولون إن الصيام يقلل حركة الإنتاج.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: فضل الصيام.

الوجه الثاني: الصوم في الأمم الماضية كما في القرآن والسنة.

الوجه الثالث: أحوال السلف في رمضان.

الوجه الرابع: الجهاد الذي وقع في رمضان خير دليل على أن الصوم لا يقلل الإنتاج.

الوجه الخامس: فوائد الصيام.

الوجه السادس: الصيام في الكتاب المقدس.

واليك التفصيل

الوجه الأول: فضل الصيام.

فضل الصوم عظيم، وثوابه جسيم، وجزاؤه كبير عند الله ﷻ، وقد وردت آيات وأحاديثٌ وأخبارٌ كثيرة تبين لنا هذا الفضل الكبير صحاح وحسان ذكرها الأئمة في مسانيدهم، فمن الآيات التي دلت على فضل هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة وآمرًا لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله ﷻ، لما فيه من زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وقال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾؛ لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان[١].

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٣).

وقيل: معناه هنا تضعفون، فإنه كلما قل الأكل ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت الشهوة قلت المعاصي، وقيل: لتتقوا المعاصي(١).

وقيل: يعني به: لتتقوا أكل الطعام وشرب الشراب وجماع النساء فيه، يقول: فرضت عليكم الصوم والكفّ عما تكونون بترك الكف عنه مفطرين، لتتقوا ما يُفطركم في وقت صومكم(٢).

وقيل: أي تجعلون بينكم وبين سخطه تعالى وقاية بالمسارعة إليه والمواظبة عليه رجاء لرضاه تعالى(٣).

فهذه هي الغاية من الصيام، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وورد من الأحاديث الكثير ومنها:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا". (٤)

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: " مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ". (٥)

وعَنْ سَهْلِ بن سعد الساعدي ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ. يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ". (١)

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٧٩)، والشوكاني (١/ ٢٦٥)، وزاد المسير (١/ ١٨٥).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ١٣٠).

(٣) تفسير القاسمي (٢/ ٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٨٠٦)، ومسلم (١٤٠٠).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " قَالَ اللهﷻ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ". (٢)

قال النووي: قَوْله ﷺ: " قَالَ الله تَعَالَى: كُلّ عَمَلِ اِبْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ هُوَ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ"، اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي مَعْنَاهُ مَعَ كَوْن جَمِيع الطَّاعَات للهِ تَعَالَى، فَقِيلَ: سَبَب إِضَافَتِهِ إِلَى الله تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُعْبَدْ أَحَدٌ غَيْرُ الله تَعَالَى بِهِ، فَلَمْ يُعَظِّم الْكُفَّارُ فِي عَصْرٍ مِنْ الْأَعْصَارِ مَعْبُودًا لَهُمْ بِالصِّيَامِ، وَإِنْ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ بِصُورَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ وَالصَّدَقَةِ وَالذِّكْرِ وَغَيْر ذَلِكَ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلصَّائِمِ وَنَفْسه فِيهِ حَظٌّ، قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ، قَالَ: وَقِيلَ: إِنَّ الِاسْتِغْنَاء عَنْ الطَّعَام مِنْ صِفَاتِ الله تَعَالَى، فَتَقَرَّب الصَّائِم بِمَا يَتَعَلَّق بِهَذِهِ الصِّفَة وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ الله تَعَالَى لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَا الْمُنْفَرِدُ بِعِلْمِ مِقْدَار ثَوَابه أَوْ تَضْعِيف حَسَنَاته وَغَيْره مِنْ الْعِبَادَات، وَقِيلَ: هِيَ إِضَافَة تَشْرِيف، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ مَعَ أَنَّ الْعَالَمَ كُلّه لله تَعَالَى. وَقَوْله تَعَالَى: "وَأَنَا أَجْزِي بِهِ" بَيَان لِعِظَمِ فَضْله، وَكَثْرَةِ ثَوَابه. (٣)

وعنه أيضًا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ الله نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ الله هَذَا خَيْرٌ. فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ -فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

(٣) شرح النووي (٣/ ٢٩).

قَالَ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ ". [١]

حقيقة الصوم:

لما كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ الصِّيَامِ حَبْسَ النَّفْسِ عَنْ الشَّهَوَاتِ وَفِطَامَها عَنْ الْمَأْلُوفَاتِ، وَتَعْدِيلَ قُوَّتِهَا الشَّهْوَانِيَّةِ لِتَسْتَعِدّ لِطَلَبِ مَا فِيهِ غَايَةُ سَعَادَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَقَبولِ مَا تَزْكُو بِهِ مِمّا فِيهِ حَيَاتُهَا الْأَبَدِيَّةُ، وَيَكْسِرُ الْجُوعُ وَالظَّمأُ مِنْ حِدّتِهَا وَسَوْرَتِهَا، وَيُذَكِّرُهَا بِحَالِ الْأَكْبَادِ الْجَائِعَةِ مِنْ الْمَسَاكِينِ. وَتُضَيِّقُ مَجَارِي الشّيْطَانِ مِنْ الْعَبْدِ بِتَضْييقِ مَجَارِي الطّعَامِ وَالشّرَابِ، وَتَحْبِسُ قُوَى الْأَعْضَاءِ عَنْ اسْتِرْسَالِهَا لِحُكْمِ الطّبِيعَةِ فِيمَا يَضُرّهَا فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، وَيُسَكّنُ كُلّ عُضْوٍ مِنْهَا وَكُلّ قُوّةٍ عَنْ جِمَاحِهِ، وَتُلْجَمُ بِلِجَامِهِ، فَهُوَ لِجَامُ الْمُتّقِينَ، وَجُنّةُ الْمُحَارِبِينَ، وَرِيَاضَةُ الْأَبْرَارِ وَالْمُقَرّبِينَ، وَهوَ لِرَبّ الْعَالَمِينَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْمَالِ. فَإِنّ الصّائِمَ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا، وَإِنّمَا يَتْرُكُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ؛ فَهُوَ تَرْكُ مَحْبُوبَاتِ النّفْسِ وَتَلَذّذَاتِهَا إيثَارًا لِمَحَبّةِ الله وَمَرْضَاتِهِ، وَهُوَ سِرّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبّهِ لَا يَطّلِعُ عَلَيْهِ سِوَاهُ، وَالْعِبَادُ قَدْ يَطّلِعُونَ مِنْهُ عَلَى تَرْكِ الْمُفْطِرَاتِ الظّاهِرَةِ، وَأَمّا كَوْنُهُ تَرْكَ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَشَهْوَتِهِ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ، فَهُوَ أَمْرٌ لَا يَطّلِعُ عَلَيْهِ بَشَرٌ، وَذَلِكَ حَقِيقَةُ الصّوْمِ.

وَلِلصَّوْمِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي حِفْظِ الجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، وَالقُوَى البَاطِنِةِ، وَحِمايتِهَا عنِ التَّخْليطِ الجَالِبِ لها المواد الفَاسِدةَ الَّتِي إِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَيهَا أَفْسَدَتْهَا، وَاسْتِفْرَاغِ المَوادِّ الرَّدِيئَةِ المَانِعَةِ لَهَا مِنْ صِحَّتِهَا، فَالصَّوْمُ يَحْفَظُ عَلَى القَلْبِ وَالجَوَارِحِ صِحَّتَهَا وَيُعِيدُ إِلَيْهَا مَا اسْتَلَبَتْهُ مِنْهَا أَيْدِي الشّهَوَاتِ فَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى التّقْوَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ **يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ** ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١٨٣)، وَقَالَ النّبِيّ ﷺ: "الصّوْمُ جُنّةٌ "، وَأَمَرَ مَنْ اشْتَدّتْ عَلَيْهِ شَهْوَةُ النّكَاحِ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ بِالصّيَامِ وَجَعَلَهُ وِجَاءَ هَذِهِ الشّهْوَةِ. وَالْمَقْصُودُ أَنّ مَصَالِحَ الصّوْمِ لَمّا كَانَتْ مَشْهُودَةً بِالْعُقُولِ السّلِيمَةِ وَالْفِطَرِ الْمُسْتَقِيمَةِ شَرَعَهُ الله لِعِبَادِهِ رَحْمَةً بِهِمْ وَإِحْسَانًا إلَيْهِمْ وَحِمْيَةً لَهُمْ وَجُنّةً[١].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

الوجه الثاني: الصوم في الأمم السابقة كما في القرآن والسنة.

إن الصوم من العبادات التي لم ينفرد بها الإسلام، فقد أخبر القرآن الكريم أن الصوم كان مفروضًا أيضًا على الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾.

بين الله ﷻ في هذه الآية أنه كما أوجبه عليهم، فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وَليَجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨).[٢]

قال الطبري: معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا فُرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم من أهل الكتاب، ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾، وهي شهر رمضان كله. لأن مَن بعدَ إبراهيم ﷺ كان مأمورًا باتباع إبراهيم، وذلك أن الله جل ثناؤه كان جَعله للناس إمامًا.

وقال: هذا القول هو الأولى بالصواب.[٣] والصحيح: أن المراد عموم من كان قبلنا ممن أرسل الله إليهم رسلًا وأنزل إليهم كتبًا وشرع لهم شرائع، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣).[٤]

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، قال: كتب الله تعالى شهر رمضان على الناس كما كتبه على الذين من قبلهم، وقد كان كُتب على الناس قبل أن ينزل شهر رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر.[٥]

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٠: ٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٣).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ١٣٠)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٠٤)، والقرطبي (٢/ ٢٧٨).

(٤) التسهيل لتأويل التنزيل للشيخ مصطفى العدوي (٣/ ٦٨).

(٥) تفسير عبد الرزاق (١٧٨)، والطبري (٢/ ١٢٩)، وابن أبي حاتم (١٦٢٤) عن الضحاك بن مزاحم، والدر المنثور للسيوطي (١/ ٤٢٩)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

ومن الأدلة على ذلك: صيام نبي الله داود ﷺ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا"[١].

الوجه الثالث: أحوال السلف في رمضان

كان العلماء من السلف وهم الذين أناروا للأمة طريقها بسنة رسُولِ الله ﷺ وببيان الأحكام، وهم أشد الناس اجتهادًا في العمل والعبادة إذا دخل شهر رمضان، وهذه نبذة تبين أحوالهم:

أولًا: حالهم مع قراءة القرآن:

قال ابن رجب: وفي حديث فاطمة رضي الله عنها، عن أبيها ﷺ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ. [٢]

وفي حديث ابن عباس: وَكَانَ جِبْرِيلُ ﷺ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخ.[٣] ما يدل على أنّ المدارسة بينه وبين جبريل كانت ليلًا، فدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلًا؛ فإنّ الليل تنقطع فيه الشواغل، وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٦)، وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة: ١٨٥). [٤]

وكان ﷺ إذا دخل عليه العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله[٥]

قال النووي: اختلف العلماء في معنى شد المئزر **فقيل:** هو الاجتهاد في العبادات زيادة

(١) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٢٨)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٣) جزء من حديث صحيح أخرجه البخاري (١٨٠٣) ومسلم (٢٣٠٨).

(٤) لطائف المعارف لابن رجب ١/ ١٨٣.

(٥) أخرجه البخاري (١٩٢٠)، ومسلم (١١٧٤).

على عادته ﷺفي غيره ومعناه التشمير في العبادات يقال شددت لهذا الأمر مئزرى أى: تشمرت له وتفرغت. **وقيل**: هو كناية عن اعتزال النساء للاشتغال بالعبادات. وقولها (أحيا الليل) أي: استغرقه بالسهر في الصلاة وغيرها، وقولها (وأيقظ أهله) أي: أيقظهم للصلاة في الليل وجد في العبادة زيادة على العادة. ففي هذا الحديث أنه يستحب أن يزاد من العبادات في العشر الأواخر من رمضان، واستحباب إحياء لياليه بالعبادات.

ولهذا حرص السلف رحمهم الله على الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان:

١- عن إبراهيم قال: كان الأسود بن يزيد يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، وكان ينام بين المغرب والعشاء، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ست ليالٍ[١].

٢- وعن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير أنّه كان يختم القرآن في كل ليلتين وقيل: كان الوليد بن عبد الملك يختم في كل ثلاثٍ، وختم في رمضان سبع عشرة ختمة وكان يقول: لو لا أنّ الله ذكر قوم لوطٍ ما شعرت أن أحدًا يفعل ذلك.[٢]

٣- وعن أبي عوانة قال: شهدت قتادة يدرس القرآن في رمضان[٣].

٤- وقال سلام بن أبي مطيع: كان قتادة يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاثٍ، فإذا جاء العشر ختم كل ليلةٍ[٤].

ثانيًا: حالهم في قيام الليل:

١- عن السائب بن يزيد أن عمر جمع الناس في رمضان على أبي بن كعب وعلى تميم الداري على إحدى وعشرين ركعة يقرؤون بالمئين وينصرفون عند فروع الفجر[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٧).

(٣) المرجع السابق (٥/ ٢٧٣).

(٤) المرجع السابق (٥/ ٢٧٦).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٧٧٣٠)، واللفظ له، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٩٥).

٢- عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر قال: سمعت أبي يقول: كنا ننصرف في رمضان من القيام، فيستعجل الخدم بالطعام مخافة الفجر(١).

٣- وعن أبي عثمان النهدي قال: أمر عمر بثلاثة قراء يقرءون في رمضان، فأمر أسرعهم أن يقرأ بثلاثين آية، وأمر أوسطهم أن يقرأ بخمس وعشرين، وأمر أدناهم أن يقرأ بعشرين(٢).

٤- وعن داود بن الحصين عن عبد الرحمن بن هُرْمز قال: سمعته يقول: ما أدركت الناس إلاّ وهم يلعنون الكفرة في شهر رمضان، قال: فكان القراء يقومون بسورة البقرة في ثمان ركعات، فإذا قام بها القراء في اثنتي عشرة ركعة رأى الناس أنه قد خفف عنهم(٣).

٥- وقال نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما يقوم في بيته في شهر رمضان، فإذا انصرف الناس من المسجد أخذ إداوةً من ماءٍ ثم يخرج إلى مسجد رسول الله ﷺ، ثم لا يخرج منه حتى يصلي فيه الصبح(٤).

ثالثا: حالهم في الجود والكرم إذا أقبل شهر رمضان:

١- عن ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.(٥)

وفي الحديث فوائد: منها: بيان عظم جوده ﷺ، **ومنها**: استحباب إكثار الجود في رمضان، **ومنها**: زيادة الجود والخير عند ملاقاة الصالحين وعقب فراقهم للتأثر بلقائهم. **ومنها**: استحباب مدارسة القرآن.(٦)

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١١٦)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٩٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٧٧٣٢)، واللفظ له، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٩٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في الصنف (٧٧٣٤)، واللفظ له، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٩٧).

(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢/ ٤٩٤).

(٥) أخرجه البخاري (١٨٠٣)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٦) شرح النووي (٤/ ١٨٠٣).

قال المهلب: وفيه بركة أعمال الخير، وأن بعضها يفتح بعضًا، ويعين على بعض؛ ألا ترى أن بركة الصيام، ولقاء جبريل وعرضه القرآن عليه زاد في جود النبي ﷺ وصدقته حتى كان أجود من الريح المرسلة. [١]

وقال الزين بن المنير: أي فيعم خيره وبره من هو بصفة الفقر والحاجة، ومن هو بصفة الغنى والكفاية أكثر مما يعم الغيث الناشئة عن الريح المرسلة ﷺ[٢].

وقال ابن رجب: قال الشافعي: أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداءً برسول الله ﷺ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثيرٍ منهم بالصَّوم والصلاة عن مكاسبهم. [٣]

٢- كان ابن عمر ﵄يصوم، ولا يفطر إلَّا مع المساكين، فإذا منعهم أهله عنه، لم يتعشَّ تلك الليلة، وكان إذا جاءه سائل وهو على طعامه، أخذ نصيبه من الطعام وقام، فأعطاه السائل، فيرجع وقد أكل أهله ما بقي في الجِفْنَةِ، فيصبح صائمًا ولم يأكل شيئًا[٤].

٣- يقول يونس بن يزيد: كان ابن شهاب إذا دخل رمضان، فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام[٥].

٤- كان حماد بن أبي سليمان يفطِّر في شهر رمضان خمسَ مائة إنسان، وإنه كان يعطيهم بعد العيد لكل واحد مائة درهم[٦].

رابعًا: التقليل من الطعام:

١- قال إبراهيم بن أبي أيوب: كان محمد بن عمرو الغزي يأكل في شهر رمضان أكلتين[٧].

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ٢٢-٢٣).

(٢) فتح الباري (٤/ ١١٦).

(٣) لطائف المعارف (١٨٣).

(٤) المرجع السابق.

(٥) التمهيد لابن عبد البر (٦/ ١١١).

(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٣٤).

(٧) المرجع السابق (١١/ ٤٦٤).

٢- وقال أبو العباس هاشم بن القاسم: كنت عند المهتدي عشيَّةً في رمضان، فقمت لأنصرف، فقال: اجلس، فجلست، فصلى بنا، ودعا بالطعام، فأحضر طبقَ خِلافٍ، عليه أرغفةٌ، وآنية فيها ملحٌ وزيتٌ وخلٌّ. فدعاني إلى الأكل، فأكلت أكل من ينتظر الطبيخ، فقال: ألم تكن صائمًا؟ قلت: بلى، قال: فكل واستوفِ، فليس هنا غير ما ترى! [(١)].

خامسًا: حفظ اللسان، وقلة الكلام وتوقي الكذب:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ"[(٢)].

قال المهلب: وفيه دليل أن حُكم الصيام الإمساك عن الرفث، وقول الزور، كما يمسك عن الطعام والشراب، وإن لم يمسك عن ذلك فقد تنقَّص صيامه، وتعرض لسخط ربه وترك قبوله منه.[(٣)]

٢- وفي رواية مسلم: "إذاَ أَصْبَحَ أَحُدُكُمْ يومًا صائمًا، فَلا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَل، فَإِنِ امرؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائمٌ إِنِّي صَائمٌ". [(٤)]

قال المازري في قوله: (إِنِّي صَائِمٌ): يحتمل أن يكون المراد بذلك أن يخاطب نفسه على جهة الزجر لها عن السباب والمشاتمة. [(٥)]

٣- قال عمر بن الخطاب ﷺ: (ليس الصيام من الطعام والشراب وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو والحلف). [(٦)]

٤- وعن علي بن أبي طالب ﷺقال: (إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب، ولكن من الكذب والباطل واللغو). [(١)]

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٠٤).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ٢٣).

(٤) أخرجه مسلم (١١٥١).

(٥) المعلم بفوائد مسلم (١/ ٣١٨).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٤).

٥- وعن طلق بن قيس قال: قال أبو ذر ﷺ: إذا صمت فتحفظ ما استطعت، وكان طلق إذا كان يوم صومه دخل فلم يخرج إلاّ لصلاة. [٢]

٦- وعن أبي متوكل أن أبا هريرة ﷺوأصحابه كانوا إذا صاموا جلسوا في المسجد. [٣]

٧- وعن عطاء قال: سمعت أبا هريرة ﷺ يقول: (إذا كنت صائمًا فلا تجهل، ولا تساب، وإن جُهِل عليك فقل: إني صائم). [٤]

٨- وعن مجاهد قال: خصلتان من حفظهما سلم له صومه: الغيبة والكذب. [٥]

٩- وعن أبي العالية قال: الصائم في عبادة ما لم يغتب. [٦]

ومما سبق يعلم أن الصحابة الكرام يشتغلون ويجتهدون طوال العام بالذكر، وبالجهاد، وبقراءة القرآن، وبالصدقة، وبالتفكر في ملكوت السموات والأرض؛ لكن! إذا جاء هذا الشهر؛ ضاعفوا ذلك وغيَّروا طريقة حياتهم، واستقبلوه استقبال البصير العالم بقيمته وأهميته، دل ذلك أنهم ما ضعفوا وما استكانوا، وإنما بذلوا الطاقات للوصول إلى رضا رب البريات وماقلل الصيام منهم.

الوجه الرابع: الجهاد الذي وقع في رمضان خير دليل على أن الصوم لا يضعف القوة ولا يقلل الإنتاج.

إن المسلم يمتنع عن الطعام والشراب وعن كل الشهوات من طلوع الفجر حتى غروب الشمس، وهذا يعني أن المسلم يقضي يومه كله وهو وقت العمل المعتاد وهو صائم على هذا النحو، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله يتوهم البعض أن الصوم يقلل حركة الإنتاج لدى الفرد والمجتمع.

---

(١) المرجع السابق (٣/ ٤).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٣).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٣).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٧٤٥٦).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٢٢).

(٦) المرجع السابق (٣/ ٤).

والصوم في الحقيقة بريء من التهمة، فالصوم يعمل على تصفية النفوس والتسامي بالأرواح، وهذا يمد الإنسان بالطاقة التي تجعله قادرًا على الإنتاج والعمل أكثر مما لو لم يكن صائمًا، -وأكبر دليل على ذلك- الغزوات التي حدثت في شهر رمضان المبارك، فقد وقعت أحداثٌ تاريخيةٌ فاصلةٌ كبرى في شهر رمضان تدل على أن الإسلام يقدر الأمور حق قدرها، وأن شعار الصوم هو الجهاد والقوة والعمل لا الضعف والهروب والفتور والكسل، فالمسلم يتفاعل مع الحياة، ولا يصح لمسلم أن يقول إن الصوم يعطل الأعمال ويؤخر المجتمعات، فسبيل الإسلام معروف وهو الجهاد ودين الله وشرعه يسرٌ لا عسرٌ، ودليل ذلك الكلام هذه الأحداث الكبرى التي وقعت في رمضان، ونكتفي بذكر أشهرها:

١- معركة بدر الكبرى: في السابع عشر من شهر رمضان (٢هـ) وهي يوم الفرقان، فرق الله فيه بين الحق والباطل، وانتصر فيه الإسلام واندحر الشرك والوثنية، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (آل عمران: ١٢٣)،وفيها قُتل فرعون الأمة أبو جهل أكبر أعداء الإسلام.

٢- فتح مكة: وهو الفتح الأكبر﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح: ١)، حدث في ١٠ رمضان (٨ هـ)، وقد تم فيه القضاء على فلول الوثنية، وتم فيه تحطيم الأصنام حول الكعبة.

٣- وقعت بعض أحداث غزوة تبوك: في رمضان سنة ٩ هـ.

٤ـ انتشر الإسلام في اليمن في السنة العاشرة في رمضان.

٥- هدم خالد بن الوليدﷺ -لخمس بقين من رمضان في السنة الثامنة - البيت الذي كانت تُعبد فيه العزى في نخلة وقال للرسولﷺ: تلك العزى ولا تُعبد أبدًا[1].

٦- قدم في السنة التاسعة من رمضان وفد ثقيف من الطائف إلى رسول اللهﷺ يريدون الإسلام، وهُدم فيها صنم اللات الذي كانت تعبده ثقيف.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣١٦).

٧- في صبيحة يوم الجمعة في ٢٥ رمضان ٤٧٩ هـ حدثت موقعة الزلاقة (سهل يقع على مقربة من البرتغال الحالية)، وانتصر فيها جيش المرابطين المسلمين في الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين على جيش الفرنجة البالغ ثمانين ألف مقاتل بقيادة الفرنس.

٨- موقعة عين جالوت (قرية بين بيسان ونابلس) حدثت في صبيحة يوم الجمعة في الخامس عشر من رمضان ٦٥٨ هـ الموافق ٣ أيلول (سبتمبر)١٢٦٠م، بقيادة السلطان قطز سلطان المماليك في مصر.

٩- فتح الأندلس: في ٢٨ رمضان ٩٢هـ/ ١٩ يوليو (تموز)٧١١م بقيادة طارق بن زياد بعد أن هزم ذريق قائد القوط في موقعة البحيرة، بعد أن استولى على مضيق جبل طارق. [1]

١٠- وحارب الجنود المصريون عام ١٩٧٣م وهم صائمون، حيث كان ذلك في شهر رمضان، وانتصروا، ولم يقلل الصوم من نشاطهم.

كل ذلك يثبت أن الصوم لا يقلل حركة الإنتاج، بل يزيد في الإنتاج والنشاط والعمل، أما ما نراه في بعض الدول الإسلامية من قلة الإنتاج في شهر الصوم يرجع إلى أسباب أخرى غير الصوم من أعظمها:

١- ضعف جانب التقوى: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

٢- من عادة الكثيرين أن يظلوا مستيقظين في شهر الصوم معظم الليل ولا ينامون، فنجدهم متعبين أثناء النهار، ومن هنا يقل إنتاجهم ويعتذرون بأنهم صائمون، حجتهم داحضة عند ربهم، ومن هنا نعلم أن دعوى أن الصيام يقلل حركة الإنتاج دعوى غير صحيحة.

وكذلك من الأدلة والبراهين على بطلان هذه الدعوى أيضًا ما كان يقوم به العلماء والمصنفون في تأليفهم للكتب، وتصانيفهم المشهورة وبذل المجهود والطاقة في ذلك، فقد

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ٨٥، ٣٦٢- و٥/ ٥، ٣٥، ١٣ و١٣/ ١٤، ٢٥٥)، وزاد المعاد (٣/ ١٠١، ٣٦١، ٤٣٦)، والفقه الإسلامي وأدلته (٢/ ٥٧٥-٥٧٦).

ذكر صاحب الظنون أمثلة عديدة على ذلك، قال: الملخص في الهيئة البسيطة قال وشرحه كمال الدين التركماني محمد بن أحمد الحنفي المتوفى سنة٧٥٠هـ فرغ من تأليفه بمدينة كلستان في رمضان سنة٧٥٥ هـ. [١]

وذكر أيضًا: ثم إن الشيخ ولي الدين أبا عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب كمل المصابيح وسماه (مشكاة المصابيح) فصار كتابًا كاملًا فرغ من جمعه آخر يوم الجمعة من رمضان سنة ٧٣٧هـ[٢]. والمستصفى في الأمثال للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري فرغ من تأليفه في شهر رمضان ٤٩٩هـ. [٣]

وصنف الشيخ الإمام أبو عبد الله حسين بن علي الصميري كتابًا في مناقبه فرغ منه في رمضان ٤٠٤ هـ[٤].

فهذا كله خير دليل على أن الصوم لا يقلل حركة الإنتاج كما يدعي الخصوم.

الوجه الخامس: فوائد الصيام.

الصوم طاعة لله تعالى يثاب عليها المؤمن ثوابًا مفتوحًا لا حدود له؛ لأنه لله سبحانه. وكرم الله واسع[٥].

أولًا: فوائد شرعية

وللصيام من الثمرات والفوائد الكثير والكثير منها:

١- الوعد بالبشرى والفوز بالجنة. ٢- طهرة للنفس ووقاية للبدن.

٣- يثمر محبة الله وطاعته. ٤- يهذب الطباع ويكبح جماح النفس.

٥- دليل صلاح العبد واستقامته. ٦- صيام أمن من الوقوع في المحرمات.

---

(١) كشف الظنون لحاجي خليفة (٢/ ١٨١٩).

(٢) السابق (٢/ ١٦٩٩).

(٣) السابق (٢/ ١٦٧٤).

(٤) نفس المصدر (٢/ ١٨٣٩).

(٥) الفقه الإسلامي وأدلته (٢/ ٥٦٧).

٧- يورث الخشية من الله ﷻ.		٨- يثمر مراقبة الله ﷻ في السر.

٩- ينزه الإنسان عن مشابهة بقية المخلوقات.

١٠ـ فيه ناحية صحية.		١١- فيه حرب على الشيطان.

١٢ـ فيه إحساس بألم الفقير والمريض الممنوع من الطعام.[١]

ثانيًا: فوائد طبية تعود على الصائم

إن الطب الحديث لم يعد يعتبر الصيام مجرد عملية إرادية يجوز للإنسان ممارستها أو الامتناع عنها، فإنه وبعد الدراسات العلمية والأبحاث الدقيقة على جسم الإنسان ووظائفه الفسيولوجية. ثبت أن الصيام ظاهرة طبيعية يجب للجسم أن يمارسها حتى يتمكن من أداء وظائفه الحيوية بكفاءة، وأنه ضروري جدًّا لصحة الإنسان تمامًا كالأكل والتنفس والحركة والنوم، وأنه لا بد أن يصاب بسوء في جسمه لو امتنع عن الصيام.

ومن فوائده العظيمة:

١- وقاية من الأورام:

يقوم الصيام مقام مشرط الجرَّاح الذي يزيل الخلايا التالفة والضعيفة من الجسم، فالجوع الذي يفرضه الصيام على الإنسان يحرك الأجهزة الداخلية لجسمه لاستهلاك الخلايا الضعيفة لمواجهة ذلك الجوع، فتُتاح للجسم فرصة ذهبية كي يسترد خلالها حيويته ونشاطه، كما أنه يستهلك أيضًا الأعضاء المريضة ويجدد خلاياها.

٢- يحمي من السكر:

فعلًا هو خير فرصة لخفض نسبة السكر في الدم إلى أدنى معدلاتها، وعلى هذا فإن الصيام يعطي غدة البنكرياس فرصةً رائعةً للراحة، فالبنكرياس يفرز الأنسولين الذي يحول السكر إلى مواد نشوية ودهنية تخزن في الأنسجة، فإذا زاد الطعام عن كمية الأنسولين المفرزة؛ فإن البنكرياس يصاب بالإرهاق والإعياء، ثم أخيرًا يعجز عن القيام بوظيفته،

---

(١) موسوعة نضرة النعيم (٧/ ٢٦٦٢)، ونداء الريان لسيد العفاني (١/ ٨٧)، وزاد المعاد (٤/ ٣٣٥: ٣٣٤).

فيتراكم السكر في الدم وتزيد معدلاته بالتدريج حتى يظهر مرض السكر. وقد أقيمت دور للعلاج في شتى أنحاء العالم لعلاج مرضى السكر باتباع نظام الصيام لفترة تزيد على عشر ساعات وتقل عن عشرين كلٌّ حسب حالته.

٣- علاج الأمراض الجلدية:

إن الصيام يفيد في علاج الأمراض الجلدية، والسبب في ذلك أنه يقلل نسبة الماء في الدم فتقل نسبته بالتالي في الجلد، مما يعمل على:

أ-زيادة مناعة الجلد ومقاومة الميكروبات والأمراض المعدية الجرثومية

ب- التقليل من حدة الأمراض بالجلد.

٤- الحماية من جلطة القلب والمخ:

أكد الكثيرون من أساتذة الأبحاث العلمية والطبية ـ وأغلبهم غير مسلمين ـ أن الصوم ينقص من الدهون في الجسم مما يؤدي إلى نقص مادة (الكوليسترول) فيه، وهي عادة تترسب على جدار الشرايين، وبزيادة معدلاتها مع زيادة الدهون في الجسم تؤدي إلى تصلب الشرايين، كما تسبب تجلط الدم في شرايين القلب والمخ.

٥- علاج لآلام المفاصل:

ثبت بالتجارب العلمية في بلاد روسيا أنه يمكن للصيام أن يكون علاجًا حاسمًا لهذا المرض، وقد أرجعوا هذا إلى أن الصيام يخلص الجسم تمامًا من النفايات والمواد السامة، وذلك بصيام متتابع لا تقل مدته عن ثلاثة أسابيع، وفي هذه الحالة فإن الجراثيم التي تسبب هذا المرض تكون جزءًا مما يتخلص منه الجسم أثناء الصيام، وقد أجريت التجارب على مجموعة من المرضى وأثبتت النتائج نجاحًا ملموسًا. !

فالصوم يساعد على شفاء آلام الظهر والعمود الفقري والرقبة. وقد أوضحت دراسة نرويجية أن الصوم علاج ناجح لالتهاب المفاصل بشرط أن يستمر الصوم لمدة أربعة أسابيع (وتأمل أخي الحبيب هذه المدة وكم هي قريبة لصيام شهر واحد هو رمضان.

٦- الحرمان من الماء أثناء الصيام وفوائده:

أ ـ وجدت علاقة بين العطش وبين تحلل الجليكوجين، إذ يسبب العطش إفراز جرعات تتناسب وقوة العطش من (هرموني الأنجوتنسين ٢ (Angiotensin II) والهرمون القابض للأوعية الدموية (Vasopressin)، واللذان يسببان تحلل الجليكوجين في إحدى مراحل تحلله بخلايا الكبد، فكلما زاد العطش زاد إفراز هذين الهرمونين بكميات كبيرة، مما يساعد في إمداد الجسم بالطاقة خصوصًا في نهاية اليوم.

ب- زيادة الهرمون المضاد لإدرار البول (ADH) المستمر طوال فترة الصيام في شهر رمضان، قد يكون له دور هام في تحصين القدرة على التعلم وتقوية الذاكرة، وقد ثبت ذلك على حيوانات التجارب. لذلك فالقدرة العقلية قد تتحسن عند الصائمين بعكس ما يعتقد عامة الناس.

جـ- كما أن الحرمان من الماء أثناء الصيام، يسبب زيادة كبيرة في آليات تركيز البول في الكلى، مع ارتفاع في القوة الأزموزية البولية قد يصل من (١٠٠٠ إلى ١٢ ألف) مل أزمو/ كجم ماء، وهكذا تنشط هذه الآليات الهامة لسلامة وظائف الكلى.

د- كما أن عدم شرب الماء خلال نهار الصيام يقلل من حجمه داخل الأوعية الدموية، وهذا بدوره يؤدي إلى تنشيط الآلية المحلية بتنظيم الأوعية وزيادة إنتاج البروستاجلاندين (Prostaglandine)، والذي له تأثيرات عديدة وبجرعات قليلة، إذ إن له دورًا في حيوية ونشاط خلايا الدم الحمراء، وله دور في التحكم في تنظيم قدرة هذه الخلايا لتعبُر من خلال جدران الشعيرات الدموية، وبعض أنواعه له دور في تقليل حموضة المعدة، ومن ثم تثبيط تكوّن القُرَح المعدية كما ثبت في حيوانات التجارب، كما أن له دورًا في علاج العقم؛ حيث يسبب تحلل الجسم الأصفر، ومن ثم فمن الممكن أن يؤدي دورًا في تنظيم دورة الحمل عند المرأة.

لذلك فالعطش أثناء الصيام له فوائد عديدة بطريق مباشر أو غير مباشر نتيجة لزيادة مادة البروستجلاندين، كما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل للجسم البشري مقدرة على صنع الماء من خلال العمليات والتحولات الكيمائية العديدة، التي تحدث في جميع خلايا

الجسم، إذ تتكوّن - أثناء عمليات استقلاب الغذاء، وتكوين الطاقة في الكبد، والكلى، والمخ، والدم، وسائر الخلايا تقريبًا - جزيئات ماء، وقد قدّر العلماء كمية هذا الماء في اليوم من ثلث إلى نصف لتر. (١)

٧- الصوم أقوى سلاح للاضطرابات النفسية!

من أغرب الأشياء التي لفتت انتباهي في الصوم قدرته على علاج الاضطرابات النفسية القوية مثل الفصام! ! حيث يقدم الصوم للدماغ وخلايا المخ استراحة جيدة، وبنفس الوقت يقوم بتطهير خلايا الجسم من السموم، وهذا ينعكس إيجابيًا على استقرار الوضع النفسي لدى الصائم.

حتى إن الدكتور يوري نيكولايف Dr. Yuri Nikolayev مدير وحدة الصوم في معهد موسكوالنفسي- قد عالج أكثر من سبعة آلاف مريض نفسي باستخدام الصوم، حيث استجاب هؤلاء المرضى لدواء الصوم فيما فشلت وسائل العلاج الأخرى، وكانت معظم النتائج مبهرة وناجحة! واعتبر أن الصوم هو الدواء الناجع لكثير من الأمراض النفسية المزمنة مثل مرض الفصام والاكتئاب والقلق والإحباط.

٨- سلاح ضد البدانة والوزن الزائد:

حالما يبدأ الإنسان بالصيام تبدأ الخلايا الضعيفة والمريضة أو المتضررة في الجسم لتكون غذاءً لهذا الجسم حسب قاعدة: الأضعف سيكون غذاءً للأقوى، وسوف يمارس الجسم عملية الهضم الآلي للمواد المخزنة على شكل شحوم ضارة، وسوف يبدأ بالتهام النفايات السامة والأنسجة المتضررة ويزيل هذه السموم. ويؤكد الباحثون أن هذه العملية تكون في أعلى مستوياتها في حالة الصيام الكامل، أي الصيام عن الطعام والشراب، وبكلمة أخرى الصيام الإسلامي، فتأمل عظمة الصيام الذي فرضه الله علينا والفائدة التي يقدمها لنا.

---

(١) مجلة الإعجاز العلمي (العدد ١٦) من فوائد عدم شرب الماء في الصيام د. عبد الجواد الصاوي.

هنالك أكثر من ٦٠٪ من الشعب الأمريكي زائد الوزن عن الحدود الطبيعية! وهؤلاء كلّفوا الدولة ١١٧ بليون دولار في سنة واحدة عام ٢٠٠٢م. بالإضافة إلى ٣٠٠ ألف وفاة سنويًا بسبب مشاكل الوزن الزائد الذي يكون بدوره سببًا رئيسيًا في مرض السكر وأمراض القلب والتهاب المفاصل ومشاكل في الجهاز التنفسي والاضطرابات النفسية مثل الاكتئاب، وجميع هذه الأمراض الخطيرة ترتبط بالبدانة بشكل مباشر.

وليس غريبًا أن يكون الصيام سلاحًا ناجعًا ضد السمنة وما ينتج عنها من أمراض، ولو أنهم طبقوا القواعد الإسلامية في الصوم، فكم سيوفّروا من المال والمعاناة؟.

٩- الصوم: هل يخفّض الشهوة الجنسية؟

إن إنتاج الهرمون الجنسي يكاد يكون معدومًا أثناء الصوم، وهذا ما حدثنا عنه الحبيب الأعظم صلوات الله وسلامه عليه بقوله: " فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ ". والوِجاء هو: رضّ عروق البيضتين فيكون شبيهًا بالخصاء، وفي هذه الكلمة إشارة قوية وعلمية لانخفاض شهية الصائم الجنسية بسبب انخفاض هرمون الجنس عنده حتى الحدود الدنيا.

١٠- الصوم من أجل طاقة أكبر للجسم!

أكثر من عُشر طاقة الجسم تُستهلك في عمليات مضغ وهضم الأطعمة والأشربة التي نتناولها، وهذه الكمية من الطاقة تزداد مع زيادة الكميات المستهلكة من الطعام والشراب، في حالة الصيام سيتم توفير هذه الطاقة طبعًا ويشعر الإنسان بالارتياح والرشاقة. وسيتم استخدام هذه الطاقة في عمليات إزالة السموم من الجسم وتطهيره من الفضلات السامة، ويؤكد الباحثون اليوم أن مستوى الطاقة عند الصائم يرتفع للحدود القصوى! !

١١- الصوم مفيد حتى لمدمني المخدرات والتدخين!

حتى إن الصوم أعطى نتائج ممتازة لمدمني المخدرات حيث تنخفض شهيتهم لتعاطي المخدرات بشكل كبير- وسبحانك ياربّ العالمين - حتى عبادك من العاصين والبعيدين عن طريقك القويم، جعلتَ الصوم نافعًا ومفيدًا لهم، فهل هنالك أوسع من رحمة الله

بعباده؟ أيضًا الصوم يساعد على ترك التدخين! فهو يعمل في جسم الإنسان مثل السلاح الخفي الذي لا يُرى فيطرد المواد السامة مثل النيكوتين، وبنفس الوقت ينظف الدم فتنخفض الشهوة للدخان بسرعة مذهلة.

١٢- أمراض الجهاز الهضمي علاجها مؤكد مئة بالمئة!

كم هو عدد الأشخاص المصابين بالإمساك المزمن وقد تناولوا الكثير من الأدوية دون أية فائدة، ليتهم يجرّبون الصوم وسيجدون التحسُّن السريع لحالتهم بإذن الله تعالى. وكذلك الأمراض المزمنة للجهاز الهضمي يمكن أن يجدوا في الصيام حلًا مؤكدًا لشفائها. وكذلك التهاب القولون والتهاب الأمعاء المزمن. ونجد الباحثين يؤكدون بأن ٨٥ ٪ من الأمراض تبدأ في القولون غير النظيف والدم الملوث.

١٣- إضافة لما تقدم: قائمة طويلة من الأمراض يختصّ الصوم بعلاجها!

أثبتت الدراسات الحديثة والتي شملت عشرات الآلاف من المرضى، والتي أجريت في بلاد غير إسلامية، أن الصوم يساعد بشكل فعال في شفاء العديد من الأمراض ونذكر منها:

١- ضغط الدم العالي يعالجه الصيام بشكل جيد.

٢- وحتى مرضى السكر فإن الصوم لا يضُرّهم، بل يساعدهم على الشفاء.

٣- الصوم وسيلة جيدة لعلاج الربو وأمراض الجهاز التنفسي.

٤- الأمراض القلبية وتصلب الشرايين.

٥- أمراض الكبد مهما كان نوعها، فقد أثبت الصوم قدرته على علاجها بدون آثار سلبية.

٦- أمراض الجلد وبشكل خاص الحساسية والأكزيما المزمنة.

٧- الوقاية من مرض الحصى الكلوية.

٨- علاج الأمراض الخبيثة مثل السرطان.

٩- كما أن الصوم يعتبر السلاح رقم واحد في الطب الوقائي. [١]

١٠- يقي الصيام الجسم من أخطار السموم المتراكمة في خلاياه، وبين أنسجته، من جراء تناول الأطعمة، وخصوصًا المحفوظة والمصنعة منها وتناول الأدوية واستنشاق الهواء الملوث بهذه السموم

١١-يخفف الصيام ويهدئ ثورة الغريزة الجنسية، وخصوصًا عند الشباب، وبذلك يقي الجسم من الاضطرابات النفسية والجسمية، والانحرافات السلوكية، وذلك تحقيقًا للإعجاز في حديث النبي ﷺ: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ ". [٢] وذلك إذا التزم الشاب الصيام المتواصل وأكثر منه.

١٢-يعالج الصيام الإسلامي ارتفاع حموضة المعدة، وبالتالي يساعد في التئام قرحة المعدة مع العلاج المناسب.

١٣ -لا يسبب الصيام أي خطر على المرضعات، أو الحوامل، ولا يغير من التركيب الكيميائي، أوالتبدلات الاستقلابية في الجسم عند المرضعات، وخلال الشهور الأولى والمتوسطة من الحمل.

١٤-يحسن الصيام خصوبة المرأة والرجل على السواء. . .

١٥-ثبت بالدليل العلمي القاطع أن الصيام الإسلامي ليس له أي تأثير سلبي على الأداء العضلي وتحمل المجهود البدني، بل بالعكس أظهرت نتائج البحث القيم الذي أجراه الدكتور أحمد القاضي وزملاؤه دليلًا جديدًا على الإعجاز العلمي لآية ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ بالولايات المتحدة الأمريكية أن درجة تحمل المجهود البدني وبالتالي كفاءة الأداء العضلي قد ازداد بنسبة ٢٠٠ ٪ عند ٣٠ ٪ من أفراد التجربة، و٧ ٪عند ٤٠ ٪ منهم، وتحسنت سرعة

---

(١) الصوم. . عمليَّة بدون جراحة/ بقلم المهندس عبد الدائم الكحيل- نقلًا عن موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٠٦)، ومسلم (١٤٠٠) عن ابن مسعود ﷺ.

دقات القلب بمقدار ٩٪، كما تحسنت درجة الشعور بإرهاق الساقين بمقدار ١١٪ (د. أحمد القاضي - معهد الطب الإسلامي للتعليم والبحوث -بنماسيتي فلوريدا - الولايات المتحدة)، وهذا يبطل المفهوم الشائع عند كثير من الناس من أن الصيام يضعف المجهود البدني، ويؤثر على النشاط فيقضون معظم النهار في النوم والكسل.

١٦-يعتبر الصيام الإسلامي تمثيلًا غذائيًا فريدًا، إذ يشتمل على مرحلتي البناء والهدم، فبعد وجبتي الإفطار والسحور، يبدأ البناء للمركبات الهامة في الخلايا، وتجديد المواد المختزنة، والتي استهلكت في إنتاج الطاقة، وبعد فترة امتصاص وجبة السحور، يبدأ الهدم، فيتحلل المخزون الغذائي من الجليكوجين وا لدهون ليمد الجسم بالطاقة اللازمة، أثناء الحركة والنشاط في نهار الصيام لذلك كان تأكيد النبي ﷺ وحثه على ضرورة تناول وجبة السحور، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً "[1]. وذلك لإمداد الجسم بوجبة بناء يستمر لمدة ٤ ساعات، محسوبة من زمن الانقطاع عن الطعام وبهذا أيضًا يمكن تقليص فترة ما بعد الامتصاص إلى أقل زمن ممكن، كما أن النبي ﷺحث على تعجيل الفطر حيث قال: " لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ. [2]

وتأخير السحور فقد ورد عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنهقَالَ: تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ. قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَ الأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟ قَالَ: قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةً[3].

وهذا من شأنه تقليص فترة الصيام أيضًا إلى أقل حد ممكن، حتى لا يتجاوز فترة ما بعد الامتصاص ما أمكن، وبالتالي فإن الصيام الإسلامي لا يسبب شدة، ولا يشكل ضغطًا نفسيًا ضارًا على الجسم البشري، بحال من الأحوال.

وبناء على هذه الحقائق يمكننا أن نؤكد أن الذي يتوقف أثناء الصيام، هو عمليات

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٥٦)، ومسلم (١٠٩٨)عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٢١)، ومسلم (١٠٩٧).

الهضم والامتصاص، وليست عمليات التغذية، فخلايا الجسم تعمل بصورة طبيعية، وتحصل على جميع احتياجاتها اللازمة لها من هذا المخزون بعد تحلله، والذي يعتبر هضمًا داخل الخلية، فيتحول الجليكوجين إلى سكر الجلوكوز، والدسم والبروتينات إلى أحماض دهنية وأحماض أمينية، بفعل شبكة معقدة من الإنزيمات، والتفاعلات الكيمائية الحيوية الدقيقة، والتي يقف الإنسان أمامها مشدوهًا معترفًا بجلال الله وعلمه، وعظيم قدرته وإحكام صنعه. فمن أخبر محمدًا ﷺ أن في الصيام وقاية للإنسان من أضرار نفسية وجسدية؟ ومن أخبره أن فيه منافع وفوائد يجنيها الأصحاء؟ بل ومن يستطيع الصيام من المرضى وأصحاب الأعذار! ! ومن أخبره ﷺ بأن الصيام سهل ميسور لا يضر بالجسم، ولا يجهد بالنفس؟ ومن أطلعه على أن كثرة الصوم تثبط الرغبة الجنسية؟ وتخفف من حدتها وثورتها خصوصًا عند الشباب! ! فيصير الشباب آمنًا من الاضطرابات الغريزية النفسية، ومحصنًا ضد الانحرافات السلوكية! ! وخصوصًا أنه نشأ في بيئة لا تعرف هذا الصيام ولا تمارسه إنه الله. . آمنت بالله(١).

الوجه السادس: الصيام في الكتاب المقدس.

الصوم في اليهودية والنصرانية هو عبارة عن امتناع عن الطعام والشراب والجنس في بعض أنواع الصوم، وامتناع عن الطعام فقط في أنواع أخرى، ووقته في اليهودية من قبل شروق الشمس إلى غروب الشمس، ولديهم كذلك من أنواع الصوم ما يكون ليلة واحدة، ومنها ما يكون ثلاثة أيام، ومنها ما يكون سبعة أيام، وعند النصارى امتناع لبعض الوقت بالكلية، ثم تناول أي طعام غير اللحوم، ولهم فيها مشارب شتى، سبقت الإشارة إليها.

مع عدم وضوح هذه الشعيرة في الديانتين اليهودية والنصرانية، كدأبهم في كل شعائرهم، والأمر مختلف تمامًا في الإسلام، فمدة الصوم محددة بدقة بالغة، وعدد الأيام كذلك واضح كل الوضوح، وأنواع الصوم التطوعي واضحة كذلك من خلال سنة النبيﷺ، فليس هناك

(١) من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام د/ عبد الجواد الصاوي.

غموض ولا لبس في هذه الشعيرة في الإسلام، ولا تطور فيها، فالصوم كشعيرة تمارس اليوم، هي هي الشعيرة التي مارسها النبيﷺ وأصحابه منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة.

وإليك تفصيل هذا الأمر عند اليهود والنصارى:

فترة الصوم في اليهودية:

الصوم في اليهودية لون من ألوان الحداد، ومواجهة للأزمات بالانقطاع عن الطعام، ولسوف يلاحظ القارئ أن الصوم لا يشتمل على أبعاد تربوية في اليهودية، إنما هو تعبير عن الحزن بالانقطاع عن الطعام، وفترات الانقطاع هذه تتراوح ما بين يوم وثلاثة أيام وقد يكون لمدة ليلة، وأكثر من ذلك، وفيما يلي عرض لفترات الصوم في اليهودية:

١-الصوم لمدة يوم واحد من شروق الشمس إلى مغربها وهو الصوم المعتاد عندهم، يدل على هذا النص التالي: وَجَاءَ جَمِيعُ الشَّعْبِ لِيُطْعِمُوا دَاوُدَ خُبْزًا، وَكَانَ بَعْدُ نَهَارٌ. فَحَلَفَ دَاوُدُ قَائِلًا: «هكَذَا يَفْعَلُ لِيَ اللهُ وَهكَذَا يَزِيدُ، إِنْ كُنْتُ أَذُوقُ خُبْزًا أَوْ شَيْئًا آخَرَ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْس (صموئيل الثاني: ٣/ ٣٥).

٢-الصوم ليلة واحدة ويدل على هذا المعنى التالي: حِينَئِذٍ مَضَى الْمَلِكُ إِلَى قَصْرِهِ وَبَاتَ صَائِمًا، وَلَمْ يُؤْتَ قُدَّامَهُ بِسَرَارِيهِ وَطَارَ عَنْهُ نَوْمُه (دانيال: ٦/ ١٨).

٣-الصوم لمدة ثلاثة أيام ليلًا ونهارًا، ويبدو أن هذه كانت حالة خاصة، يدل عليه النص التالي: اذْهَبِ اجْمَعْ جَمِيعَ الْيَهُودِ الْمَوْجُودِينَ فِي شُوشَنَ وَصُومُوا مِنْ جِهَتِي وَلاَ تَأْكُلُوا وَلاَ تَشْرَبُوا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لَيْلًا وَنَهَارًا. وَأَنَا أَيْضًا وَجَوَارِيَّ نَصُومُ كَذلِكَ (استير: ٤/ ١٦).

٤-الصوم لمدة سبعة أيام كصوم أهل يابيش جلعاد شاول، كما جاء في صموئيل الثاني: وأخذوا عظامهم ودفنوها تحت الأثلة في يابيش وصاموا سبعة أيام (صموئيل الأول: ٣١/ ١٣).

صوم موسى عليه السلام: وقد صام موسى أربعين يومًا: وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ الرَّبِّ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، لَمْ يَأْكُلْ خُبْزًا وَلَمْ يَشْرَبْ مَاءً. فَكَتَبَ عَلَى اللَّوْحَيْنِ كَلِمَاتِ الْعَهْدِ، الْكَلِمَاتِ الْعَشَر (الخروج: ٣٤/ ٢٨).

وجاء في سفر الملوك الأول: فَقَامَ وَأَكَلَ وَشَرِبَ، وَسَارَ بِقُوَّةِ تِلْكَ الأَكْلَةِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً إِلَى جَبَلِ اللهِ حُورِيب (الملوك الأول: ١٩/ ٨).

ويتضح مما سبق أن الصوم المعتاد هو من شروق الشمس إلى مغربها، ولكن أنواعًا أخرى من الصوم كصوم ليلة أو صوم عدة أيام وردت كذلك.

طقوس الصوم في اليهودية:

لليهود طقوس في صومهم ففي يوم الغفران والتاسع من آب يمتنع اليهود عن الشراب وعن تناول الطعام، أو الجماع الجنسي، كما يمتنع اليهود عن ارتداء الأحذية الجلدية لمدة خمس وعشرين ساعة من غروب الشمس في اليوم السابق حتى غروب الشمس في يوم الصيام. أما أيام الصوم الأخرى، فهي تمتد من شروق الشمس حتى غروبها ولا تتضمن سوى الامتناع عن الطعام والشراب. وفي الماضي كان الصائمون يرتدون الخيش ويضعون الرماد على رؤوسهم تعبيرًا عن الحزن. وإذا وقع يوم الصيام في يوم سبت، فإنه يُؤَجَّل إلى اليوم التالي ما عدا صيام عيد يوم الغفران. هذا ولا يعترف اليهود الإصلاحيون بأي من أيام الصيام هذه، كما أن معظم يهود العالم داخل وخارج فلسطين لا يقيمون هذه الشعيرة ولا حتى في يوم الغفران. [1]

فهي شعيرة معطلة عند اليهود، وإن كانت تمارس، فإنها تمارس على نطاق ضيق.

والصوم عند اليهود يبتدئ من الشروق وينتهي عند ظهور أول نجوم الليل، إلا صوم يوم الكفارة، واليوم التاسع من شهر آب، فإنه يستمر من المساء، وليس هناك أحكام وتقاليد للصيام العادية[2]، ويضاف إلى ذلك بعض صور الامتناع عن الطعام، كالامتناع عنه ليلة، وكذلك مواصلة الصيام لمدة ثلاثة أيام، أو سبعة أيام كما وردت بذلك نصوص الكتاب المقدس.

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية للدكتور عبد الوهاب المسيري (٥/ ٢١٤).

(٢) الأركان الأربعة لأبي الحسن الندوي (١٧٠).

فالصوم في اليهودية بناء على ما سبق تذلل وخضوع، يقابل به الشعب اليهودي الأزمات والضوائق بترك الطعام والشراب كلية أو بصورة جزئية، وهو بهذا المعنى قد يكون من بقايا الحق التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، والتذلل والتضرع من صور التقرب إلى الله تعالى، والتي تبرز حاجة العبد إلى ربه، بقول تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الأنعام: ٤٣).

والذي يعاب على هؤلاء القوم أنهم يضيفون عبادات من عند أنفسهم، ويتصرفون في شعائر دينهم كما يشاءون، ولا أدل على ذلك من تشريع صوم أيام بعينها لم تشرعها حتى التوراة المحرفة.

دور الحاخامات في شريعة الصوم:

ليس تشريع الصوم بمنزه عن تدخلات رجال الدين وليس وحيًا منزهًا -في صورته الحالية- عن التدخلات البشرية، فالحاخامات، بل والأشخاص العاديون أيضًا لهم تدخلات في تشريع ما يشاؤون من ألوان الصيام فقد قرر الحاخامات أيام صيام أخرى إضافية من بينها صيام أسابيع الحداد الثلاثة، بين السابع عشر من تموز والتاسع من آب، باعتبارها الفترة التي نهب الجنود الرومان أثناءها الهيكل والقدس، وأيام التكفير العشرة (بين عيد رأس السنة ويوم الغفران)، وأكبر عدد ممكن من الأيام في أيلول، وأول يومي اثنين وخميس من كل شهر، وثاني يوم اثنين بعد عيد الفصح وعيد المظال. وقد فُسِّر هذا الصوم بأنه تكفير عما قد يكون المرء قد ارتكبه من إفراط أثناء العيدين السابقين. ويصومون السابع من آذار باعتباره تاريخ موت موسى، يوم الغفران الصغير (يوم كيبور قاطان)، وهو آخر يوم من كل شهر. كما يمكن أن يصوم اليهودي في أيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، فهي الأيام التي تُقرأ فيها التوراة في المعبد.

وإلى جانب أيام الصيام التي وردت في العهد القديم، والتي قررها الحاخامات توجد أيام الصيام الخاصة. فيصوم اليهودي في ذكرى موت أبويه أو أستاذه، كما يصوم

العروسان يوم زفافهما. وفي الماضي، كان اليهودي يصوم بعد رؤيته كابوسًا في نومه. وإذا سقطت إحدى لفائف التوراة كان من المعتاد أن يصوم الحاضرون[(١)].

وهذه الأنواع من الصيام سالفة الذكر تدل دلالة قوية على التدخل البشري في شريعة الصوم عند اليهود، حيث إن هذه الأنواع من الصيام لم ترد بها نصوص، وإنما هي لون من ألوان الحداد الذي فرضه اليهود على أنفسهم.

الصوم في النصرانية

الصوم عند النصارى يعني: (الامتناع عن الطعام من الصباح حتى منتصف النهار، ثم تناول طعام خال من الدسم)[(٢)].ومعنى الحزن والكآبة المرتبطين بالصوم عند اليهود موجود كذلك في النصرانية يدل على ذلك النص التالي في الإنجيل: حِينَئِذٍ أَتَى إِلَيْهِ تَلاَمِيذُ يُوحَنَّا قَائِلِينَ: «لِمَاذَا نَصُومُ نَحْنُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ كَثِيرًا، وَأَمَّا تَلاَمِيذُكَ فَلاَ يَصُومُونَ؟ » ١٥فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «هَلْ يَسْتَطِيعُ بَنُو الْعُرْسِ أَنْ يَنُوحُوا مَا دَامَ الْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟ وَلكِنْ سَتَأْتِي أَيَّامٌ حِينَ يُرْفَعُ الْعَرِيسُ عَنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ يَصُومُونَ (متى: ٩/ ١٤-١٥).فالصوم في نظر المسيح عليه السلام- حسب النص الإنجيلي- إنما هو نواح، وهو لا يتلاءم مع أيام الرخاء التي يمثلها بقاء المسيح عليه السلام مع تلامذته.

أوقات الصوم عند النصارى:

للصوم في النصرانية أوقات معينة، وهي على النحو التالي:

١- يوم الأربعاء؛ لأنه يوافق يوم المؤامرة التي انتهت بالقبض على المسيح عليه السلام.

٢- يوم الجمعة؛ لأن المسيح صلب يوم الجمعة في اعتقادهم.

٣- صوم الميلاد، وعدد أيامه ٣٤ يومًا تنتهي بعيد الميلاد.

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (٥/ ٢١٤).

(٢) المسيحية للدكتور أحمد شلبي (١٩٧).

٤- الصوم المقدس، وعدد أيامه ٥٥ يومًا تشمل عدد الأربعين يومًا التي صامها المسيح عليه السلام مضافًا إليها خمسة عشر يومًا أخرى هما أسبوعا الاستعداد والآلام.

٥- صوم الرسل، وعدد أيامه يزيد وينقص حسب الطوائف النصرانية، وتتراوح مدته ما بين ١٥، ٤٩ يومًا.

٦- صوم العذراء، ومدته ١٥ يوما تبدأ من أول شهر مسرى.

٧- صوم أهل نينوي ومدته ٣ أيام ويبدأ الاثنين. (١)

المحرمات أثناء الصوم: هناك محرمات لا يقربها النصراني فترة صيامه، فقد (حرم النصارى على أنفسهم أكل كل حيوان، أو ما يتولد منه أو ما يستخرج من أصله، بل يقتصرون على أكل البقول، وتحريمهم أكل اللحوم هو ما أحدثوه بالرأي بعد المسيح عليه السلام وتلاميذه متشبهين بالمانوية أصحاب مذهب ماني، مع أن ماني زنديق على زعمهم). (٢)

وللنصارى مشارب شتى في هذا الصدد (ففي روما صيام يختلف عن الصيام في (لانان) و(الإسكندرية)، وكان بعضهم يمتنع عن البيض والفواكه، وبعضهم يجتزئ بالخبز اليابس، وبعضهم يكف عن كل ذلك. (٣)

يقول الإمام ابن القيم: والمسيح عليه السلام ما شرع لهم هذا الصوم الذي يصومونه قط ولا صامه في عمره مرة واحدة ولا أحد من أصحابه ولا صام صوم العذارى في عمره ولا أكل في الصوم ما يأكلونه ولا حرم فيه ما يحرمونه. (٤)

وإنما ورد أنه صام أربعين يومًا قبل الرسالة، والمرجح أنه كان يصوم يوم الكفارة الذي زامن الصوم المفروض في الشريعة الموسوية، ككل يهودي مخلص، إنه لم يشرع أحكامًا للصوم،

---

(١) النصرانية والإسلام (٨٧-٨٨).

(٢) السابق.

(٣) الأركان الأربعة (١٧٢).

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢٧٤).

إنه خلف المبادئ وترك كنيسته تقنن قوانين لتطبيقها، وليس لأحد أن يزعم أنه أصدر قوانين عن الصوم رأسًا. . . ومما هو ثابت تاريخيًا أن النصارى الذين كانوا من السلالة الإسرائيلية ظلوا يصومون يوم الكفارة، ولكنّ النصارى الذين ينتمون إلى أصول أخرى لم يلحوا على ذلك، وبانتهاء القرن المسيحي الأول ونصف قرن بعد وفاة القديس بولس نواجه رغبة ملحة في تقنين القوانين للصوم. وقد كان ذلك موكولًا إلى تقوى الصائم فنرى الرهبان وبعض رجال الكنيسة يقترحون صيامًا ليقاوم به النصارى الإغراءات المادية والجنسية. . . ولم ينل الصوم في النصرانية قسطًا من التنظيم والتقنين إلا في فترة ما بين القرن الثاني والقرن الخامس المسيحيين، فقد أصدرت الكنيسة قائمة أحكام وتوجيهات عن الموضوع[١].

وهو واضح في الدلالة على أن شريعة الصوم عند النصارى، ليس لها من مصدرها الإلهي إلا اسم الصوم فقط، أما جوهرها ولبابها فهو عبارة عن وضع بشري لا صلة له بوحي الله.

ملاحظات على الصوم في اليهودية والنصرانية:

هناك ملاحظات مهمة، يقف عليها الدارس للصوم في اليهودية والنصرانية، منها ما يلي:

أولًا: يلاحظ أن الصوم عندهم ليس فرضًا. [٢]

فالصوم الوحيد المذكور في الكتاب المقدس هو صوم يوم الكفارة، لم يذكر صراحة بل ذكر كنوع من تذليل النفس، ثم ذكرت أنواع أخرى من الأصوام قام بها الأنبياء والقديسون، ولا دلالة في كل ذلك على فرضيته، كما أن الممارسة العملية لشريعة الصوم في الوقت الحاضر تدل على ذلك، وفي النصرانية (لا يوجد في الأناجيل نص يقضي بفرض الصوم، وإنما فيه ذكره ومدحه واعتباره عبادة فقط، وذلك كالنهي عن الرياء، وعدم العبوس في الصوم). [١]

(١) الأركان الأربعة (١٧٢، ١٧١) بتصرف.

(٢) إلا صوم الكفارة عند اليهود فهو صوم الفرض عندهم على الرغم من عدم ورود الأمر بالصوم فيه صراحة في التوراة.

ثانيًا: يلاحظ كذلك تصرف الكهنة والحاخامات ورجال الدين النصراني كذلك في هذه الشريعة بالزيادة والنقصان.

ثالثا: الصوم لديهم عبارة عن إمساك كلي عدة ساعات عن الطعام والشراب. وبعد ذلك إمساك عن مطعوم معين خلال فترة معينة، وهو مخالف تمامًا لطبيعة الصوم في الإسلام.

وعند إنعام النظر في الفرق بين شريعة الصوم في الإسلام والديانات الأخرى نجد فروقًا جوهرية من حيث طبيعة الصيام، وعدد الأيام، والحكمة من الصيام، وتنظيم الشعيرة، وكل هذه الفروق تصب لمصلحة الشعيرة في الإسلام. [٢]

* * *

(١) النصرانية والإسلام للمستشار الطهطاوي (٨٨).

(٢) شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام/ ناصر محمد السيد بتصرف (٢٨٦-٢٩٢).

٢- شبهة نكاح المتعة.

نص الشبهة:

قالوا: بأن الإسلام أحل نكاح المتعة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾، وقد أحل الرسول ﷺ نكاح المتعة لأصحابه، وقد استمتع الصحابة على عهد أبي بكر وعمر حتى نهى عنها عمر رضي الله عنه وكانت مباحة؛ فهو الذي حرمها من نفسه، وقد أنكر الصحابة عليه، والأحاديث الواردة في النهي عنها متضاربة في وقت التحريم فبقي الأمر على الإباحة. ! !

و الجواب عليها من هذه الوجوه:

الوجه الأول: تعريف نكاح المتعة.

الوجه الثاني: الأدلة على تحر يم نكاح المتعة.

الوجه الثالث: أدلة من أباح نكاح المتعة، والرد عليها.

الوجه الرابع: الرد على بعض الشبهات التي استدلوا بها على إباحة نكاح المتعة.

الوجه الخامس: الزواج غير الشرعي في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تعريف المتعة.

تعريف نكاح المتعة: نكاح المتعة هو: أن يتزوج الرجل المرأة – يوم أو يومين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل- في مقابل شيء يعطيه لها من مال أو طعام أو ثياب أو غير ذلك، فإذا انقضى الأجل تفرقا من غير طلاق ولا ميراث فيها. (١)

---

(١) الأم للشافعي (٥/ ٧٩)، والمحلى لابن حزم (٩/ ٥١٩)، والحاوي للماوردي (١١/ ٤٤٩٩) وتفسير البغوي (١/ ٤١٣)، وشرح مسلم للنووي (٥/ ٢٠٠)، وفتح الباري (٩/ ٧٤)، والمغني (٧/ ٥٧١)، والمنتقى شرح الموطأ للباجي (٥/ ١٤١).

الوجه الثاني: أدلة تحريم نكاح المتعة.

لقد حرم الله نكاح المتعة، وقد ثبت تحريمه بالكتاب والسنة والإجماع والقياس والمعقول.

أولًا: أدلة التحريم من القرآن

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المؤمنون: ٥-٧).

قال الجصاص: فَقَصَرَ إِبَاحَةَ الْوَطْءِ عَلَى أَحَدِ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ وَحَظَرَ مَا عَدَاهُمَا بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾، وَالْمُتْعَةُ خَارِجَةٌ عَنْهُمَا فَهِيَ إِذًا مُحَرَّمَةٌ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا أَنْكَرْت أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ الْمُسْتَمْتَعُ بِهَا زَوْجَةً، وَأَنَّ الْمُتْعَةَ غَيْرُ خَارِجَةٍ عَنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ قُصِرَ الْإِبَاحَةُ عَلَيْهِمَا؟ قِيلَ لَهُ: هَذَا غَلَطٌ؛ لِأَنَّ اسْمَ الزَّوْجَةِ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَيْهَا وَيَتَنَاوَلُهَا إِذَا كَانَتْ مَنْكُوحَةً بِعَقْدِ نِكَاحٍ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ الْمُتْعَةُ نِكَاحًا لَمْ تَكُنْ هَذِهِ زَوْجَةً.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُتْعَةَ لَيْسَتْ بِنِكَاحٍ؟ قِيلَ لَهُ: الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النِّكَاحَ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى أَحَدِ مَعْنَيَيْنِ: وَهُوَ الْوَطْءُ وَالْعَقْدُ، -وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا سَلَفَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِي الْوَطْءِ مَجَازٌ فِي الْعَقْدِ-، وَإِذَا كَانَ الِاسْمُ مَقْصُورًا فِي إطْلَاقِهِ عَلَى أَحَدِ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ وَكَانَ إطْلَاقُهُ فِي الْعَقْدِ مَجَازًا عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَوَجَدْنَاهُمْ أَطْلَقُوا الِاسْمَ عَلَى عَقْدِ تَزْوِيجٍ مُطْلَقٍ أَنَّهُ نِكَاحٌ وَلَمْ نَجِدْهِمْ أَطْلَقُوا اسْمَ النِّكَاحِ عَلَى الْمُتْعَةِ فَلَا يَقُولونَ إنَّ فُلَانًا تَزَوَّجَ فُلَانَةَ إذَا شَرَطَ التَّمَتُّعَ بِهَا، لَمْ يَجُزْ لَنَا إطْلَاقُ اسْمِ النِّكَاحِ عَلَى الْمُتْعَةِ؛ إذْ الْمَجَازُ لَا يَجُوزُ إطْلَاقُهُ إلَّا أَنْ يَكُونَ مَسْمُوعًا مِنْ الْعَرَبِ أَوْ يَرِدُ بِهِ الشَّرْعُ، فَلَمَّا عَدِمْنَا إطْلَاقَ اسْمِ النِّكَاحِ عَلَى الْمُتْعَةِ فِي الشَّرْعِ وَاللُّغَةِ جَمِيعًا وَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْمُتْعَةُ مَا عَدَا مَا أَبَاحَهُ اللهُ وَأَنْ يَكُونَ فَاعِلُهَا عَادِيًا ظَالِمًا لِنَفْسِهِ مُرْتَكِبًا لِمَا حَرَّمَهُ اللهُ.

ومن الوجوه أيضًا:

أَنَّ النِّكَاحَ لَهُ شَرَائِطُ قَدْ أُخْتُصَّ بِهَا مَتَى فُقِدَتْ لَمْ يَكُنْ نِكَاحًا؛ مِنْهَا: أَنَّ مُضِيَّ الْوَقْتِ لَا يُؤَثِّرُ فِي عَقْدِ النِّكَاحِ وَلَا يُوجِبُ رَفْعَهُ، وَالْمُتْعَةُ عِنْدَ الْقَائِلِينَ بِهَا تُوجِبُ رَفْعَ النِّكَاحِ بِمُضِيِّ الْمُدَّةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ النِّكَاحَ فِرَاشٌ يَثْبُتُ بِهِ النَّسَبُ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ، بَلْ لَا يَنْتَفِي الْوَلَدُ الْمَوْلُودُ عَلَى فِرَاشِ النِّكَاحِ إِلَّا بِاللِّعَانِ؛ وَالْقَائِلُونَ بِالْمُتْعَةِ لَا يُثْبِتُونَ النَّسَبَ مِنْهُ، فَعَلِمْنَا أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنِكَاحٍ وَلَا فِرَاشٍ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الدُّخُولَ بِهَا عَلَى النِّكَاحِ يُوجِبُ الْعِدَّةَ عِنْدَ الْفُرْقَةِ، وَالْمَوْتُ يُوجِبُ الْعِدَّةَ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وَالْمُتْعَةُ لَا تُوجِبُ عِدَّةَ الْوَفَاةِ، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ وَلَا تَوَارُثَ عِنْدَهُمْ فِي الْمُتْعَةِ.

فَهَذِهِ هِيَ أَحْكَامُ النِّكَاحِ الَّتِي يُخَصُّ بِهَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ رِقٌّ أَوْ كُفْرٌ يَمْنَعُ التَّوَارُثَ؛ فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي الْمُتْعَةِ مَانِعٌ مِنَ الْمِيرَاثِ مِنْ أَحَدِهِمَا بِكُفْرٍ أَوْ رِقٍّ وَلَا سَبَبَ يُوجِبُ الْفُرْقَةَ وَلَا مَانِعَ مِن ثُبُوتِ النَّسَبِ مَعَ كَوْنِ الرَّجُلِ مِمَّنْ يَسْتَفْرِشُ وَيَلْحَقُهُ الْأَنْسَابُ لِفِرَاشِهِ، ثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنِكَاحٍ؛ فَإِذَا خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ نِكَاحًا أَوْ مِلْكَ يَمِينٍ كَانَتْ مُحَرَّمَةً بِتَحْرِيمِ اللهِ إِيَّاهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [1].

عن الزهري عن القاسم بن محمد قال: إني لأرى تحريمها في القرآن، قال: فقلت: أين؟ قال: فقرأ علي هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ (المؤمنون: ٥-٦)[2].

الدليل الثاني: قالﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ . . .﴾ (النساء: ٢٥).

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (٢/ ١٥٠: ١٤٩)، وانظر بدائع الصنائع للكاساني (٢/ ٢٧٣: ٢٧٢)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٢/ ١٠٧)، وأضواء البيان (١/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٤٠٣٦).

ووجه الدلالة: أن الله بين عند تعذر نكاح المحصنات (الحرائر) أن يتزوج الإماء فإذا كانت المتعة جائزة فهي أولى لمن لم يستطع نكاح المحصنات.

فبين الله في هذه الآية أن يتزوج الجارية المملوكة دل على تحريمه، ولم يقل ومن لم يستطع منكم طولًا أي صداقًا، والطول هو الغني بالصداق، فليتمتع بامرأة بأجر معلوم إلى أجل مسمى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، فلو كان حلالًا لما سكت عنه القرآن. ولو كانت المتعة تباح بحال لأبيحت لهذا المضطر الذي لم يجد صداقًا للمحصنات، ولكون المقام مقام ضرورة والمقال جرى على حالة المخرج من هذه الضرورة، فلما أباح الله له أن ينكح الجارية المملوكة لكونه مضطرًا، مع علمه باسترقاق أولاده فيها تبعًا لأمهم، ولم يبح له التمتع، دل هذا على التحريم.

ثانيًا: أدلة التحريم من السنة.

الدليل الأول: عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ" أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَعَنْ أَكْلِ الْحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ"(١).

الدليل الثاني: عَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: " رَخَّصَ رَسُولُ الله ﷺ عَامَ أَوْطَاسٍ فِي الْمُتْعَةِ ثَلاَثًا ثُمَّ نَهَى عَنْهَا"(٢).

الدليل الثالث: عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ أَنَّ أَبَاهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتْحَ مَكَّةَ قَالَ: فَأَقَمْنَا بِهَا خَمْسَ عَشْرَةَ - ثَلاَثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ - فَأَذِنَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي مُتْعَةِ النِّسَاءِ فَخَرَجْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ قَوْمِي وَلِي عَلَيْهِ فَضْلٌ فِي الْجَمَالِ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الدَّمَامَةِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا بُرْدٌ فَبُرْدِي خَلَقٌ، وَأَمَّا بُرْدُ ابْنِ عَمِّي فَبُرْدٌ جَدِيدٌ غَضٌّ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِأَسْفَلِ مَكَّةَ أَوْ بِأَعْلاَهَا فَتَلَقَّتْنَا فَتَاةٌ مِثْلُ الْبَكْرَةِ الْعَنَطْنَطَةِ فَقُلْنَا هَلْ لَكِ أَنْ يَسْتَمْتِعَ مِنْكِ أَحَدُنَا؟ قَالَتْ وَمَاذَا تَبْذُلاَنِ؟ فَنَشَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بُرْدَهُ فَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ وَيَرَاهَا صَاحِبِي تَنْظُرُ إِلَى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٦٩)، ومسلم (١٤٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠٥).

عِطْفِهَا فَقَالَ: إِنَّ بُرْدَ هَذَا خَلَقٌ وَبُرْدِي جَدِيدٌ غَضٌّ. فَتَقُولُ بُرْدُ هَذَا لاَ بَأْسَ بِهِ. ثَلاَثَ مِرَارٍ أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ اسْتَمْتَعْتُ مِنْهَا فَلَمْ أَخْرُجْ حَتَّى حَرَّمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ(١).

ثالثًا: الإجماع.

قال الجصاص: قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْمُتْعَةِ وَحُكْمِهَا فِي التَّحْرِيمِ مَا فِيهِ بَلَاغٌ لِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ، وَلَا خِلَافَ فِيهَا بَيْنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ عَلَى مَا بَيَّنَّا؛ وَقَدْ اتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ مَعَ ذَلِكَ عَلَى تَحْرِيمِهَا وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيه(٢).

وقال أبو عبيد: المسلمون اليوم مجمعون على أن متعة النساء قد نسخت بالتحريم نسخها الكتاب والسنّة هذا قول أهل العلم جميعًا من أهل الحجاز الشام والعراق من أصحاب الأثر والرأي، وأنه لا رخصة فيها لمضطر ولا لغيره(٣).

قال ابن المنذر: جاء عن الأوائل الرخصة فيها ولا أعلم اليوم أحدًا يجيزها إلا بعض الرافضة ولا معنى لقول يخالف كتاب الله وسنة رسوله(٤).

وقال عياض: ثم وقع الإجماع من جميع العلماء على تحريمها إلا الروافض(٥).

وقال ابن عبد البر: اتفق أئمة علماء الأمصار من أهل الرأي والآثار منهم مالك وأصحابه من أهل المدينة، وسفيان وأبو حنيفة من أهل الكوفة، والشافعي ومن سلك سبيله من أهل الحديث والفقه والنظر، والليث بن سعد في أهل مصر والمغرب، والأوزاعي في أهل الشام وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد وداود والطبري على تحريم نكاح المتعة لصحة نهي رسول الله ﷺ عندهم عنها(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٦).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٢/ ١٥٣).

(٣) تفسير الخازن (١/ ٣٦٢).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٨).

(٥) شرح مسلم للنووي (٥/ ٢٠٢)، وفتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٨).

(٦) الاستذكار (١٦/ ٣٠٠).

قَالَ الْمَازِرِيّ: ثَبَتَ أَنَّ نِكَاح الْمُتْعَة كَانَ جَائِزًا فِي أَوَّل الْإِسْلَام، ثُمَّ ثَبَتَ أَنَّهُ نُسِخَ بما ذكر من الْأَحَادِيثِ في هذا الكتاب وفي غيره، وتقرر الْإِجْمَاع عَلَى منعه، وَلَمْ يُخَالِف فِيهِ إِلَّا طَائِفَة مِنْ المبتدعة[١].

قال الكاساني: فَإِنَّ الْأُمَّةَ بِأَسْرِهِمْ امْتَنَعُوا عَنْ الْعَمَلِ بِالْمُتْعَةِ مَعَ ظُهُورِ الْحَاجَةِ لهم إلَى ذَلِكَ[٢].

ذَلِكَ[٢].

قال ابن تيمية: فهذا نكاح المتعة الذي اتفق الأئمة الأربعة وغيرهم على تحريمه[٣].

قال القرطبي: الروايات كلها متفقة على أن زمن إباحة المتعة لم يطل وأنه حرم ثم أجمع السلف والخلف على تحريمها إلا من لا يلتفت إليه من الروافض[٤].

قال الآلوسي: ولا خلاف الآن بين الأئمة وعلماء الأمصار إلا الشيعة في عدم جوازها، ونقل الحل عن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ غلط لا أصل له، بل في حد المتمتع روايتان عنه[٥].

قال الخطابي: تحريم المتعة كالإجماع إلا عن بعض الشيعة ولا يصح على قاعدتهم في الرجوع إلى المختلفات إلى علي وآل بيته؛ فقد صح عن علي رضي الله عنه أنها نسخت، ونقل البيهقي[٦] عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال: هي الزنا بعينه[٧].

قال الزجَّاج: بعد أن ذكر هذه الآية: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ (النساء: ٢٤) قد غلط فيها قوم غلطًا عظيمًا؛ لجهلهم باللغة؛ وذلك أنهم ذهبوا إلى

---

(١) المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٣٩٠).

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٢/ ٢٧٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٠٧).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٩).

(٥) روح المعاني (٥/ ٧).

(٦) السنن الكبرى (٧/ ٢٠٧).

(٧) معالم السنن (٣/ ١٦٢).

أن قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ من المُتْعة التي قد أجمع أهل العلم أنها حرام). [١]

رابعًا: بيان التحريم من القياس.

قال الماوردى: أَنَّهُ كلُّ عَقْدٍ جازَ مُطْلَقًا، فَبَطَلَ مُؤَقَّتًا كَالْبَيْعِ طَرْدًا وَالْإِجَارَةِ عَكْسًا، وَلِأَنَّ لِلنِّكَاحِ أَحْكَامًا تَتعَلَّقُ بِصِحَّتِهَا، وَيَنْتَفِي عَنْ فَاسِدِهَا، وَهِيَ الطَّلَاقُ وَالظِّهَارُ، وَالْعِدَّةُ وَالْمِيرَاثُ، فَلَمَّا انْتَفَتْ عَنِ الْمُتْعَةِ هَذِهِ الْأَحْكَامُ دَلَّ عَلَى فَسَادِهِ كَسَائِرِ الْمَنَاكِحِ الْفَاسِدَةِ[٢].

خامسًا: بيان التحريم بالمعقول.

قال الجصاص: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ الْمُتْعَةِ مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ، أَنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ عَقْدَ النِّكَاحِ وَإِنْ كَانَ وَاقِعًا عَلَى اسْتِبَاحَةِ مَنَافِعِ الْبُضْعِ؛ فَإِنَّ اسْتِحْقَاقَ تِلْكَ الْمَنَافِعِ بِعَقْدِ النِّكَاحِ بِمَنْزِلَةِ الْعُقُودِ عَلَى الْمَمْلُوكَاتِ مِنْ الْأَعْيَانِ وَأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِعُقُودِ الْإِجَارَاتِ الْوَاقِعَةِ عَلَى مَنَافِعِ الْأَعْيَانِ. أَلَا تَرَى أَنَّ عَقْدَ النِّكَاحِ يَصِحُّ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ شَرْطِ مدَّةٍ مَذْكُورَةٍ لَهُ، وَأَنَّ عُقُودَ الْإِجَارَاتِ لَا تَصِحُّ إلَّا عَلَى مُدَدٍ مَعْلُومَةٍ أَوْ عَلَى عَمَلٍ مَعْلُومٍ؟ فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ حُكْمَ الْعَقْدِ عَلَى مَنَافِعِ الْبُضْعِ أَشْبَهَ عُقُودَ الْبِيَاعَاتِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا إذَا عُقِدَتْ عَلَى الْأَعْيَانِ، فَلَا يَصِحُّ وُقُوعُهُ مُؤَقَّتًا كَمَا لَا يَصِحُّ وُقُوعُ التَّمْلِيكَاتِ فِي الْأَعْيَانِ الْمَمْلُوكَةِ مُؤَقَّتَةً، وَمَتَى شُرِطَ فِيهِ التَّوْقِيتُ لَمْ يَكُنْ نِكَاحًا فَلَا يصِحُّ اسْتِبَاحَةُ الْبُضْعِ كَمَا لَا يَصِحُّ الْبَيْعُ إذَا شُرِطَ فِيهِ تَوْقِيتُ الْمِلْكِ، وَكَذَلِكَ الْهِبَاتُ وَالصَّدَقَاتُ؛ وَلَا يَمْلِكُهُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْعُقُودِ مِلكًا مُؤَقَّتًا؛ وَكَذَلِكَ مَنَافِعُ الْبُضْعِ لِمَا جَرَتْ مَجْرَى الْأَعْيَانِ الْمَمْلُوكَةِ لَمْ يَصِحَّ فِيهَا التَّوْقِيتُ[٣].

والنكاح ما شرع لقضاء الشهوة فقط؛ وإنما شرع مؤبدًا لأغراض ومقاصد اجتماعية وأخلاقية سامية، ومقاصد أخرى يتوسل به إليها، منها: سكن النفس وإنجاب الأولاد

(١) تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢٥٢).

(٢) الحاوي الكبير (١١/ ٤٥٣).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ١٥٢).

وتكوين الأسرة، وبقاء النوع الإنساني على وجه يليق بكرامة الإنسان، وأن غريزة الجنس إنما تأصلت في الفطرة، لتكون حافزًا على النكاح الصحيح المشروع الذي من شأنه أن يحقق تلك المقاصد السامية، كي لا يتسافد الرجل والمرأة تسافد الحيوان، وفي ذلك تضييع المرأة لنفسها وإذلالها وامتهانها، إذ تصبح كالسلعة التي تنتقل من يد إلى يد، فيضر هذا بها وبأولادها؛ حيث لا يجدون البيت الذي يستقرون فيه ويتعهدهم بالتربية والتأديب. وهذا تغيير لمجرى سنة الله في خلقه، ونزع المرأة عن وظيفتها الشريفة السامية التي خلقها الله تعالى لها، وأحكم تكوينها الفطري لأدائها ولتكون زوجة يسكن إليها زوجها من عناء الحياة وتكون أمًّا تحنو على أولادها، وتتولى تنشئتهم النشأة الصالحة، وبذلك تكون الأسرة هي المحضن الطبيعي، للقادة والساسة والعظماء والعباقرة والعلماء ومن إليهم ولا يتصور أن يتخرج أمثال هؤلاء في غير الأسرة الشريفة النظيفة التي ينقطع فيها تعهد الآباء والأمهات بأبنائهم وإلا كانت الإباحية والانحلال الاجتماعي، وفي ذلك القضاء المبرم على أي أمة.

لقد أراد الشارع الحكيم من عقد النكاح أن يكون عقدًا للألفة والمحبة والشراكة في الحياة، وأية ألفة ومحبة تأتي من عقد لا يقصد منه إلا قضاء الشهوة على شرط واحد أو على عرض واحد. . . . وإذا فرغ فليحول وجهه؟! !

كيف يقع الزنا إذا لم يكن هذا النوع بالذات من النكاح زنا؟! !

أليس الزنا يقع بالتراضي بين الطرفين على قضاء الوطر؟

وهل تقل المفاسد التي تترتب على الزنا عن المفاسد التي تترتب على المتعة إذا أبيح مثل هذا النوع من النكاح؟! ، فكيف يعرف الناس أبناءهم؟ بل وكيف يعرف الأبناء آباءهم؟

ومن ذا الذي يضمن استبراء المرأة رحمها بحيضة أو حيضتين أو خمسة وأربعين يومًا؟ أوبعد مفارقة المتمتع لها، لتعرف نفسها هل هي حامل أم حائل؟

وإذا لم يعرف الناس أبناءهم فمن يعرفون؟ وأين العاقدون وقد قضى كل منهم وطره ومضى لسبيله..؟ ولاسيما أن القائلين بالمتعة يقولون إن صاحب المتعة لو نفى الولد انتفى بلا لعان!. (١)

الوجه الثالث: أدلة من قال بجواز نكاح المتعة والرد عليها.

أولًا: الأدلة من القرآن

الدليل الأول: قال ﷻ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٣)

ووجه الدلالة: أنهم جعلوا النكاح في الآية عَلَى عُمُومِهِ فِي الْمُتْعَةِ الْمُقَدَّرَةِ وَالنِّكَاحِ الْمُؤَبَّدِ.

والجواب عليه:

فَهُوَ أَنَّ الْمُتْعَةَ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي النِّكَاحِ؛ لِأَنَّ اسْمَ النِّكَاحِ يَنْطَلِقُ عَلَى مَا اخْتَصَّ بِالدَّوَامِ لِذَلِكَ قِيلَ: قَدِ اسْتَنْكَحَهُ الْمَدَى لِمَنْ دَامَ بِهِ، فَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ الْمُتْعَةُ الْمُؤَقَّتَةُ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ عَامًّا لَخُصَّ بِمَا ذَكَرْنَا(٢).

الدليل الثاني: قال ﷻ: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ (النساء: ٢٤)، وقد استدلوا بهذه الآية علي نكاح المتعة بعدة أشياء:

الطريق الأول: قالوا أنها نزلت في نكاح المتعة.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن الجمهور من أهل العلم على أنها في النكاح الشرعي.

فقد اختلف أهل العلم في تأويل الآية علي قولين:

الأول: حملها على الاستمتاع بالنساء بطريق النكاح الشرعي المؤبد، وممن قال به الحسن البصري.(١)

---

(١) تحريم المتعة في الكتاب والسنة ليوسف جابر (١/ ٤١)، وانظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني (٢/ ٢٧٣)، وروائع البيان للصابوني (١/ ٤٥٩)، والفقه الإسلامي للزحيلي (٧/ ٧٠)، وفقه السنة لسيد سابق (٢/ ٣٣٢: ٣٢٩).

(٢) الحاوي الكبير للماوردي (١١/ ٤٥٣).

قال ابن زيد: في قوله: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾، قال: هذا النكاح، وما في القرآن إلا نكاحٌ. إذا أخذتَها واستمتعت بها، فأعطها أجرَها الصداقَ. فإن وضعت لك منه شيئًا، فهو لك سائغ. فرض الله عليها العدة، وفرض لها الميراث. قال: والاستمتاع هو النكاح ههنا، إذا دخل بها. (٢)

الثاني: حملها علي نكاح المتعة والمعنى أي فما تمتعتم به منهن من أجر تمتع اللذة.

وقد أورد الطبري جملة من الآثار منها ما جاء عن أبى نضرة قال: سألت ابن عباس عن متعة النساء. قال: أما تقرأ"سورة النساء"؟ قال قلت: بلى! قال: فما تقرأ فيها: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ..﴾ (إلى أجل مسمى)؟ قلت: لا! لو قرأتُها هكذا ما سألتك! قال: فإنها كذا. (٣)

قال الطبري: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من تأوَّله: فما نكحتموه منهن فجامعتموه، فآتوهن أجورهن لقيام الحجة بتحريم الله متعة النساء على غير وجه النكاح الصحيح أو الملك الصحيح على لسان رسوله(٤). وهذا ما رجحه كثير من أهل العلم بأن الآية في النكاح الشرعي المؤبد، وهو قول الجمهور(٥).

وعلى هذا يكون المعنى كما قاله ابن تيمية:

قال: فقوله: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ ﴾ (النساء: ٢٤) يتناول كل من دخل بها من النساء فإنه أمر بأن يعطي جميع الصداق بخلاف المطلقة قبل الدخول لتي لم يستمتع بها فإنها لا تستحق إلا نصفه.

---

(١) إسناده صحيح. أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٥٥٢) ومن طريقه الطبري في تفسيره (٥/ ١٢).

(٢) إسناده صحيح. أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ١٢).

(٣) إسناده صحيح. أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ١٢).

(٤) جامع البيان (٥/ ١٣).

(٥) الزجاج في معاني القرآن (٢/ ٣٨)، وزاد المسير (٢/ ٥٤: ٥٣)، والرازي في تفسيره (١٠/ ٤٩). والخازن في تفسيره (١/ ٣٦٢: ٣٦١)، وابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٨).

وهذا كقوله ﷻ: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ (النساء: ٢١)، فجعل الإفضاء مع العقد موجبًا لاستقرار الصداق. يبين ذلك أنه ليس لتخصيص النكاح المؤقت بإعطاء الأجر فيه دون النكاح المؤبد معنى؛ بل إعطاء الصداق كاملًا في المؤبد أولى، فلا بد أن تدل الآية على المؤبد إما بطريق التخصيص وإما بطريق العموم.

يدل على ذلك أنه ذكر بعد هذا نكاح الإماء فعلم أن ما ذكر كان في نكاح الحرائر مطلقًا.

الوجه الثاني: ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها يدل على أنها في النكاح الشرعي.

فإن الآية لها سباق ولحاق، وسياق الآية مرتبط بالسباق واللحاق، وكما هو مقرر في الأصول أن السياق من المقيدات، وعند التطبيق نجد أن الآية في النكاح الشرعي وبيانه كالتالي:

(أ) **سباق الآية (ما قبلها)**:

بين سبحانه من يحرم نكاحهن من الأقارب فقال ﷻ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ٢٣).

(ب) **سياق الآية**: فقد بين الله فيها ما أحله بعد هذا التحريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ٢٤).

(ج) **لحاق الآية (ما بعدها)**: فقد بين الله ماذا يفعل الإنسان إن لم يكن يستطيع أن يتزوج المحصنات الحرائر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ

بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (النساء: ٢٥)

ولا جرم أن هذا السياق من أول الآية إلى آخرها خاص بالنكاح الدائم فكان هذا مانعًا أن يقحم نكاح المتعة في وسطها ومانعًا أيضًا من الدلالة على ذلك لوحدة السياق الذي ينتظم وحدة الموضوع التي تتناولها الآيات بأحكامها، فالاستدلال بهذه الآية على جواز المتعة تكلف وتأويل للآية الكريمة تأويلًا مستكرهًا ويؤكد هذا النظر أنك لو أمعنت النظر في السابق واللاحق لوجدت أن قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ مراد به الاستمتاع بالنكاح الصحيح المشروع لا هذا السفاح المتعة! ! لأن منطوق الآية من أوله إلى آخره في موضوع النكاح الدائم المشروع فقد ذكر الله ثلاث مرات لفظة " النكاح " تارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ وثانية بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ﴾، وثالثة بقوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ (النساء: ٢٥).

ولم يذكر المتعة ولا الإجارة فيصرف قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ إلى النكاح، فحمل العبارة المتوسطة بقطع الكلام من السياق والسباق تحريف صريح لكلام الله تعالى لأن العطف بالفاء مانع من قطع المعنى بعدها عما قبلها؛ فالفاء تربط ما بعدها بما قبلها وإلا تفكك النظم القرآني، فيتعين أن يكون قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ منصرفًا إلى النكاح الدائم الصحيح لا إلى المتعة؛ لأن العطف يمنع هذا الانقطاع كما هو مبين في النحو، ولو كانت هذه الجملة لبيان المتعة لاختل نظم هذه الآيات الثلاث ولبقى الكلام الأول في أصل النكاح أبتر، ولبطل التفريع بالفاء وهذا غير صحيح لغة. (١)

---

(١) تحريم المتعة في الكتاب والسنة (١/ ٨٤: ٨٢)، وانظر بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني (٢/ ٢٧٣)، وروح المعاني للآلوسي (٥/ ٦)، وأضواء البيان للشنقيطي (١/ ٢٨٥).

الوجه الثالث: الآية نفسها (فحوى الآية) تدل على النكاح الشرعي.

قال الجصاص: وَفِي فَحَوَى الْآيَةِ مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ النِّكَاحُ دُونَ الْمُتْعَةِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

أحدُها: أَنَّهُ عَطْفٌ عَلَى إبَاحَةِ النِّكَاحِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وَذَلِكَ إبَاحَةٌ لِنِكَاحِ مَنْ عَدَا الْمُحَرَّمَاتِ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ النِّكَاحَ مُرَادٌ بِذَلِك فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ الِاسْتِمْتَاعِ بَيَانًا لِحُكْمِ الْمَدْخُولِ بِهَا بِالنِّكَاحِ فِي اسْتِحْقَاقِهَا لِجَمِيعِ الصَّدَاقِ.

وَالثَّانِي: قَوْله تَعَالَى: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾، وَالْإِحْصَانُ لَا يَكُونُ إلَّا فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْوَاطِئَ بِالْمُتْعَةِ لَا يَكُونُ مُحْصَنًا وَلَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الِاسْمُ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ أَرَادَ النِّكَاحَ.

وَالثَّالِثُ: قَوْلهﷻ: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ فَسَمَّى الزِّنَا سِفَاحًا لِانْتِفَاءِ أَحْكَامِ النِّكَاحِ عَنْهُ مِنْ ثُبُوتِ النَّسَبِ وَوُجُوبِ الْعِدَّةِ وَبَقَاءِ الْفِرَاشِ، إلَى أَنْ يُحْدِثَ لَهُ قَطْعًا؛ وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي مَوْجُودَةً فِي الْمُتْعَةِ كَانَتْ فِي مَعْنَى الزِّنَا، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مَنْ سَمَّاهَا سِفَاحًا ذَهَبَ إلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ إذْ كَانَ الزَّانِي إنَّمَا سُمِّيَ مُسَافِحًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنْ وَطْئِهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحُكْمِهِ إلَّا عَلَى سَفْحِ الْمَاءِ بَاطِلًا مِنْ غَيْرِ اسْتِلْحَاقِ نَسَبٍ بِهِ؛ فَمِنْ حَيْثُ نَفَى الله تَعَالَى بِمَا أَحَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَثْبَتَ بِهِ الْإِحْصَانُ اسْمَ السِّفَاحِ وَجَبَ أَنْ لَا يَكُونَ الْمُرَادُ بِالِاسْتِمْتَاعِ هُوَ الْمُتْعَةُ إذْ كَانَتْ فِي مَعْنَى السِّفَاحِ، بَلْ الْمُرَادُ بِهِ النِّكَاحُ[1].

الطريق الثاني: استدلوا على أنها في المتعة بقراءة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: هذه قراءة شاذة لم تثبت قرآنًا.[2]

(١) أحكام القرآن (٢/ ١٤٨).

(٢) راجع بحث " قراءات القرآن " في الموسوعة.

قال الطبري: أما ما روي عن أُبيّ بن كعب وابن عباس من قراءتها: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ (إلى أجل مسمى)، فقراءة بخلاف ما جاءت به مصاحف المسلمين. وغير جائز لأحد أن يلحق في كتاب الله تعالى شيئًا لم يأت به الخبرُ القاطعُ العذرَ عمن لا يجوز خلافه. (١)

قال الجصاص: وَأَمَّا احْتِجَاجُ مَنْ احْتَجَّ فِيهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وَأَنَّ فِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: ﴿إِلَىٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ إثْبَاتُ الْأَجَلِ فِي التِّلَاوَةِ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَالْأَجَلُ إذًا غَيْرُ ثَابِتٍ فِي الْقُرْآنِ. (٢)

قال المازري: وَفِي قِرَاءَة اِبْن مَسْعُود: (فَمَا اِسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَل)، وَقِرَاءَة اِبْن مَسْعُود هَذِهِ ليست عندنا بحجة، لأنها من طريق الآحاد، والقرآن لايثبت بخبر الواحد، وَلَا يَلْزَم الْعَمَل بخبر الواحد في مثل هذا المنقول على أنه قرآن على الصحيح من القول في ذلك. (٣)

قال الشنقيطي: إن قولهم (إلى أجل مسمى) لم يثبت قرآنًا لإجماع الصحابة على عدم كتبه في المصاحف العثمانية، وأكثر الأصوليين على أن ما قرأه الصحابي على أنه قرآن، ولم يثبت كونه قرآنًا لا يستدل به على شيء؛ لأنه باطل من أصله... (٤)

الوجه الثاني: على فرض العمل (الاحتجاج) بها

فالجواب عليه من هذه الوجوه:

أولًا: أنها لا تدل على نكاح المتعة.

قال الجصاص: وَلَوْ كَانَ فِيهِ ذِكْرُ الْأَجَلِ لَمَا دَلَّ أَيْضًا عَلَى مُتْعَةِ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّ الْأَجَلَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا عَلَى الْمَهْرِ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ: فَمَا دَخَلْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ بِمَهْرٍ إلَى أَجَلٍ مسَمًّى فَآتُوهُنَّ مُهُورَهُنَّ عِنْدَ حُلُولِ الْأَجَلِ. (١)

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ١٣).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ١٤٨).

(٣) المعلم بفوائد مسلم (١/ ٣٩١).

(٤) أضواء البيان (١/ ٢٨٣).

ثانيًا: أنها منسوخة.

قال الرازي: فإن تلك القراءة بتقدير ثبوتها لا تدل إلا على أن المتعة كانت مشروعة، ونحن لا ننازع فيه، إنما الذي نقوله: إن النسخ طرأ عليه.[2]

ثالثا: عارضها أقوى منها فالعمل عليه وهو قول الجمهور.

لو قلنا أنه يحتج به، كالاحتجاج بخبر الآحاد كما قال به قوم، أو على أنه تفسير للآية بذلك، فهو معارض بأقوى منه؛ لأن القرآن على خلافه لقوله ﷻ في آيتي المؤمنون والمعارج: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ (المؤمنون٥: ٧)؛ إذ كلتاهما تدلان على تحريم المتعة وهما ترشدان أيضًا إلى أن آية النساء غير واردة في المتعة وبالتالي يسقط الاستدلال بخبر آحاد عورض بنص قرآني، ولأن الأحاديث الصحيحة الصريحة قاطعة بكثرة بتحريم نكاح المتعة، وصرح ﷺ بأن ذلك التحريم دائم إلى يوم القيامة، كما ثبت من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة. فقال: " يأيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا"[3]، وجمهور العلماء على خلافه[4].

رابعًا: أن الدليلين إذا تساويا في القوة وتعارضا في الحل والحرمة قدم دليل الحرمة منهما:

هذه القراءة على الرغم من شذوذها ومعارضتها بأقوى منها فلو فرضنا جدلًا أن الدليلين متساويان في القوة وتعارضا في الحل والحرمة يلزم تقديم دليل الحرمة منهما؛ لأن

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ١٤٨).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ٥٣)، وأضواء البيان (١/ ٢٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٠٦).

(٤) أضواء البيان (١/ ٢٨٤)، وروح المعاني (٥/ ٧).

الحظر مقدم على الإباحة أصوليًا؛ وذلك لأن تقديم المحرم قد يؤدي إلى ترك المباح وتقديم المبيح قد يؤدي إلى ارتكاب الحرام وترك المباح أولى من ارتكاب الحرام[١].

فكيف والقراءة شاذة ومعارضة لأقوى منها؟.

خامسًا: أنها لا تدل على أن الاستمتاع إلى أجل مسمى حلال.

إنه ليس في الآية ما يدل على أن الاستمتاع إلى أجل مسمى حلال فإنه تعالى لم يقل: وأحل لكم أن تستمتعوا بهن إلى أجل بل قال ﷻ: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.[٢]

سادسًا: هذه الزيادة لا تدل على إباحة نكاح المتعة، وإنما فيها دليل على وجوب المهر على من ارتكب الحرام.

لو سلمنا ما ذكروا من الزيادة في القراءة، فليس فيها دليل على إباحة نكاح المتعة، وإنما فيها دليل على وجوب المهر على من ارتكب الحرام من ذلك ووطيء فيه، ولهذا يجب المهر في النكاح الفاسد بالسنة والاتفاق والمتمتع إذا اعتقد حل المتعة وفعلها فعليه المهر، وأما الاستمتاع المحرم فلم تتناوله الآية، فإنه لو استمتع بالمرأة من غير عقد مع مطاوعتها لكان زنىً ولا مهر فيه وإن كانت مستكرهة ففيه نزاع مشهور[٣].

ونحن نقول: إن المهر يلزم بالوطء فيه لأجل الشبهة التي سقط الحد لأجلها عنه، فهو كما لو وجد امرأة نائمة على فراشه فوطأها معتقدًا أنها زوجته، فإنه يجب عليه مهر مثلها لأجل الشبهة، فكذلك ها هنا.

الطريق الثالث: قالوا إن المذكور في الآية إنما هو مجرد الابتغاء بالمال، ثم إنه تعالى أمر بإيتائهن أجورهن بعد الاستمتاع بهن، وذلك يدل على أن مجرد الابتغاء بالمال يجوز الوطء، ومجرد الابتغاء بالمال لا يكون إلا في نكاح المتعة.

---

(١) روح المعاني للآلوسي (٥/ ٦) بتصرف.

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤/ ١٨٧).

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤/ ١٨٧) بتصرف.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: سياق الآية يرد هذا القول.

قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ (النساء: ٢٤)، ولاشك أن هذا في النكاح الشرعي بدليل قوله ﷻ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

قال ابن العربي: قَوْله تَعَالَى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾: يَعْنِي بِالنِّكَاحِ أَوْ بِالشِّرَاءِ، فَأَبَاحَ الله الْحَكِيمُ الْفُرُوجَ بِالْأَمْوَالِ وَالْإِحْصَانِ دُونَ السِّفَاحِ وَهُوَ الزِّنَا؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الصَّدَاقِ فِي النِّكَاحِ، لَكِنْ رُخِّصَ فِي جَوَازِ السُّكُوتِ عَنْهُ عِنْدَ الْعَقْدِ[1].

قال ابن عاشور: قوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ يجوز أن يكون بدل اشتمال من (ما) باعتبار كون الموصول مفعولًا لـ ﴿أَحَلَّ﴾، والتقدير: أن تبتغوهنّ بأموالكم؛ فإنّ النساء المبَاحات لا تحلّ إلاّ بعد العقد وإعطاء المهور؛ فالعقد هو مدلول ﴿تَبْتَغُوا۟﴾، وبذل المهر هو مدلول ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾، ورابط الجملة محذوف: تقديره أن تبتغوه، والاشتمال هنا كالاشتمال في قول النابغة:

مخافة عمرو أن تكون جياده ... يقدن إلينا بين حاف وناعل

ويجوز أن يجعل ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾ معمولًا للام التعليل محذوفةٍ، أي: أحَلَّهن لتبتغوهنّ بأموالكم، والمقصود هو عين ما قرّر في الوجه الأول[2].

الطريق الرابع: قالوا: إن لفظة "الاستمتاع " يراد بها نكاح المتعة أو الزواج المؤقت.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: معنى الاستمتاع في الآية.

إن أئمة اللغة قالوا: إن الاستمتاع في اللغة الانتفاع، وكل ما انتفع به فهو متاع، يقال: استمتع الرجل بولده، ويقال فيمن مات في زمان شبابه: لم يتمتع بشبابه، قال تعالى عن

---

(١) أحكام القرآن (١/ ٣٨٧)، وزاد المسير (٢/ ٥٢)، وتفسيرا القرطبي (٥/ ١٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٨).

الكفار أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ وقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ (الأحقاف: ٢٠) يعني تعجلتم الانتفاع بها، وقال ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ يعني بحظكم ونصيبكم من الدنيا[١].

قال ابن عبد البر: الاستمتاع عندنا التزويج.[٢]

قال الجصاص: الاستمتاع: الدخول.[٣]

فهذا ما قاله أهل العلم في الاستمتاع ولم يقل أحد من الأئمة المعتبرين أن الاستمتاع يراد منه المتعة.

الوجه الثاني: أن لفظ "الاستمتاع" ورد في غير هذا الموضع من القرآن ولم يرد به المتعة اتفاقًا.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ (الأنعام: ١٢٨).

قال الشوكاني: أما استمتاع الجن بالإنس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي فوقعوا فيها وتلذذوا بها فذلك هو استمتاعهم بالجن وقيل: استمتاع الإنس بالجن أنه كان إذا مر الرجل بواد في سفره وخاف على نفسه قال: أعوذ برب هذا الوادي من جميع ما أحذر يعني ربه من الجن ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وقيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة واستمتاع الإنس بالجن أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب وينالون بذلك شيئا من حظوظ الدنيا[٤].

---

(١) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٨)، وتهذيب اللغة للأزهري –مادة "متع"- (١/ ٢٥٣).

(٢) الاستذكار (١٦/ ٢٩١).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ١٤٦).

(٤) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٣٤).

وقال ابن جُرَيْج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة، وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان - فيما ذكر -ما ينال الجنّ من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن[١]. وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (التوبة: ٦٩).

قوله ﷻ: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾، قيل بنصيبهم من خيرات الدنيا، ويحتمل استمتاعهم باتباع شهواتهم، وفيه: أنه استمتاعهم بدينهم الذي أصروا عليه[٢].

قال الشنقيطي: أي أنتم كالذين من قبلكم، فعلتم كفعل الذين من قبلكم، وقد وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولعنهم كلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم[٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٠).

﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أي: بالطيبات، والمعنى: أنهم اتبعوا الشهوات واللذات التي في معاصي الله سبحانه، ولم يبالوا بالذنب تكذيبًا منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب[٤].

ويؤيده قول القرطبي: أي تمتعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات، يعني المعاصي[٥].

الوجه الثالث: الاستمتاع في السنة يراد به الزواج الشرعي.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦).

(٢) النكت والعيون (٢/ ٣٨٠).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٢٥٨).

(٤) فتح القدير (٥/ ٣١).

(٥) تفسير القرطبي (١٦/ ١٧١).

ثم إن السنة تفسر القرآن وتبين ما أشكل منه، وقد فسرت السنة هذا الاستمتاع وأن المراد به النكاح الشرعي.

فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلاَقُهَا"(١).

فدل هذا الحديث على نفس ما دلت عليه الآية وأن المراد بقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾، أي: بالنكاح الشرعي الذي يتخلله الطلاق عند عدم الوفاق، كما قالﷺ: " وكسرها طلاقها" ونكاح المتعة ليس فيه طلاق، ولا نفقة، ولا ميراث والزوجة تسمى متاعًا. فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ "(٢).

الطريق الخامس: قالوا: إن الله تعالى ذكر الاستمتاع وأعقبه بالأجر عليه فدل ذلك على جواز الاستمتاع والآية صرحت بلفظ " أجورهن" ولا أجر في النكاح الدائم بل هو مهر أو صداق.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الآية فيها تقديم وتأخير.

قال الكاساني: فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ إذَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ، أَيْ: إذَا أَرَدْتُمْ الِاسْتِمْتَاعَ بِهِنَّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أَيْ: إذَا أَرَدْتُمْ تَطْلِيقَ النِّسَاءِ عَلَى أَنَّهُ إنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ الْآيَةِ الْإِجَارَةَ وَالْمُتْعَةَ فَقَدْ صَارَتْ مَنْسُوخَةً(٣).

الوجه الثاني: معنى (أجورهن): مهورهن.

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٧).

(٣) بدائع الصنائع (٢/ ٢٧٣).

جمهور أهل العلم على أن معني قوله تعالي: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهن[1].

الوجه الثالث: المهر أو الصداق يسمي أجرا كما صرح بذلك القرآن الكريم

القرآن الكريم استعمل " الأجر " بمعنى " المهر"، قال ﷻ: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ (النساء: ٢٥).

قال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ (المائدة: ٥).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ (الأحزاب: ٥٠)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠).

الوجه الرابع: الحكمة في تسمية المهر (الصداق) أجرا.

وإنما سمى المهر أجرًا؛ لأنه بدل عن المنافع وليس ببدل عن الأعيان كما سمى بدل منافع الدار والدابة أجرًا[2].

الطريق السادس من الآية: قالوا: لو كان المراد بهذه الآية النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد، وقالوا أيضًا إن الآية أمرت بوجوب إعطاء المهر بالاستمتاع وذلك يقتضي أن يكون معناها هذا العقد المسمى "نكاح المتعة". لأن الله علق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع وذلك يقتضي أن يكون معناه هذا العقد المخصوص دون الجماع.

---

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٤٩٨)، وأحكام القرآن للجصاص (٢/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (١٠/ ٤٨) والقرطبي (٥/ ١٣٥)، والنسفي (١/ ٢١٩)، والخازن (١/ ٣٦١).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (١٠/ ٤٨)، وبدائع الصنائع (٢/ ٢٧٣)، وروح المعاني للآلوسي (٥/ ٥).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الآية تتناول المدخول بها.

قال ابن تيمية: فقوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ يتناول كل من دخل بها من النساء؛ فإنه أمر بأن يعطى جميع الصداق بخلاف المطلقة قبل الدخول التي لم يستمتع بها فإنها لا تستحق إلا نصفه. وهذا كقوله ﷻ: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ (النساء: ٢١)؛ فجعل الإفضاء مع العقد موجبًا لاستقرار الصداق يبين ذلك أنه ليس لتخصيص النكاح المؤقت بإعطاء الأجر فيه دون النكاح المؤبد معنًى، بل إعطاء الصداق كاملًا في المؤبد أولى، فلا بد أن تدل الآية على المؤبد إما بطريق التخصيص وإما بطريق العموم. يدل على ذلك أنه ذكر بعد هذا نكاح الإماء، فعلم أن ما ذكر كان في نكاح الحرائر مطلقًا[1].

الوجه الثاني: الآية فيها تأكيد المهر بعد الاستمتاع وعدم قابليته للسقوط بعد هذا الاستمتاع.

إن المقصود بالاستمتاع في سياق الآية الكريمة هو الاستمتاع بالزوجة المعقود عليها نكاحًا صحيحًا مشروعًا دائمًا؛ وإنما أورده الله تعالى هنا للدلالة على تأكيد المهر بعد الاستمتاع وعدم قابليته للسقوط بعد هذا الاستمتاع، إذ من المعلوم أن عقد الزواج وإن كان يثبت به المهر كاملًا، أثر إبرامه، وتستحقه الزوجة بنفس العقد، غير أنه يثبت ثبوتًا قابلًا لسقوط بعضه، كالطلاق قبل الدخول مثلًا حيث يثبت نصفه فقط، أما بعد الاستمتاع بالزوجة فيتأكد المهر كاملًا ويصبح العقد غير قابل لأن يسقط شيء منه.

فالآية الكريمة: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ تفيد أن المهر يتأكد وجوبه كاملًا بالاستمتاع، لا بعقد الزواج وحده؛ لأنه عرضة لأن يسقط نصفه بالطلاق قبل الدخول

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ١٨٧).

فيتأكد حق المرأة في تمام المهر بالدخول؛ فالاستمتاع هنا أثر لعقد النكاح الصحيح الدائم الذي يثبت به المهر كاملًا غير قابل للسقوط وليس إنشاء لعقد المتعة.

فالآية الكريمة تبين حكم المرأة المدخول بها التي سمي لها الصداق ولم تستلمه فقال سبحانه: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ أي بالدخول فعلًا بموجب العقد وقد سميتم لهن الصداق ولكن لم تسلموه إليهن فآتوهن أجورهن فريضة لازمة لا يحق لكم أن تنقصوهن منه شيئًا كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ (النساء: ٢١).

فتكون الآية مبينة لحكم صداق المدخول بها المسمى لها المستمتع منها. فالآية: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ أمر بإيتائهن وهو إنشاء الإيتاء.

وآية: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ (النساء: ٢٠)، إخبار عن إيتاء سابق والفرق بينهما هو الفرق بين مدلول الأمر الذي للإنشاء والخبر الواقع بالفعل.

فآية: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ تتكلم عن استمتاع سابق وقع بهن وحصل الرجل عليهن منهن، فطولبوا بدفع أجورهن إليهن. وهذا الاستمتاع الواقع بالفعل المطلوب إعطاء الأجر عليه لا بد له من عقد سابق يبيحه ولا يكون إلا بالملك أو النكاح الدائم.

فالزوجات مع المهر لهن أربع حالات:

أ- معقود عليها ولم يسم لها ولم يدخل بها.

ب- معقود عليها وسمي لها وغير مدخول بها.

جـ- معقود عليها ولم يسم لها ودخل بها.

د- معقود عليها وسمي لها ودخل بها.

وقد جاء القرآن الكريم ببيان تلك الحالات بالنسبة لاستحقاق المهر كله أو بعضه قبل الدخول أو بعده، أي: في حالة الفرقة بالطلاق.

الحالة الأولى: إذا عقد عليها ولم يسم لها صداقًا ولم يدخل بها وطلقها قال ﷻ: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ (البقرة: ٢٣٦).

الحالة الثانية: المعقود عليها والمسمى لها ولم يدخل بها وطلقها فقال ﷻ: ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

الحالة الثالثة: فشملها عموم قوله ﷻ: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةً ﴾، وقد أجمع الفقهاء على أن المدخول بها التي لم يسم لها أن لها صداق المثل؛ ولعل التعبير عن الصداق بنحلة مما يؤيد ذلك؛ لأنه بعد الدخول والتمكين أصبح كالهبة والعطية يعطيه الزوج نحلة وإلا لتوقفت عن تسليم نفسها حتى تقبض صداقها.

الحالة الرابعة: فلعل هذه الهدية تعتبر تتمة حلقة التشريع وذلك في حق المدخول بها المسمى لها ولم تستلم صداقها فقال ﷻ: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ ﴾ أي بالدخول فعلًا بموجب العقد السابق وقد سميتم لهن الصداق ولكن لم تسّلموه إليهن: ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ لازمة لا يحق لكم أن تنقصوهن منه شيئًا؛ ﴿ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾﴾؛ فاستوجب الإفضاء والمسيس كامل الصداق: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ (النساء: ٤)، وهذا لا يكون إلا في غير المدفوع فتكون الآية: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ مبينة لحكم صداق المدخول بها المسمى لها المستمتع منها.

وقد أشار **القرطبي** إشارة مجملة خفيفة إلى هذا **فقال**: ولو قال قائل إن آية: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ (النساء: ٢٠)، كافية عن هذا المعنى فإنما يقال له

ليست كافية، لأن تلك فيها آتاها وسلّمها بالفعل فلا يعود للأخذ منه وهذه لمن لم يسلمها شيئًا فليؤتها أجرها فريضة لازمة.

ومما يشهد لهذا تقدم الآية بقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

فحرم أن يرثوهن كرهًا، وهذا يشمل عدم إعطائهن ما لهن من الصداق ونهى عن عضلهن للذهاب ببعض ما آتيناهن وهذا يشمل ما قد تسلمنه فعلًا ليسترجع منهن بعضه فقد فرقت الآية هنا بين المسلّم لها فعلًا وما لم يسلّم فما لم يسلّم لا يحل له ميراثه كرها عليها، إلا إن طبن نفسًا عن شيء منه وما سلم فعلًا فلا يضيعه عليهن لاسترجاع بعض منه ولو كان قنطارًا.[1]

الدليل الثالث: قال ﷻ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ (النساء: ٢٤).

ووجه الدلالة أنهم حملوها على نكاح المتعة وقالوا: وبه قال السدي.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الأثر لا يصح فكيف يحتج به؟.

عن السدي: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى - يعني الأجرة التي أعطاها على تمتعه بها — قبل انقضاء الأجل

(١) تحريم المتعة في الكتاب والسنة (١/ ٩٦).

بينهما، فقال: أتمتع منك أيضًا بكذا وكذا، فازداد قبل أن يستبرئ رحمها، ثم تنقضي المدة. وهو قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾. [1]

قال الطبري: فأما الذي قاله السدي: فقولٌ لا معنى له، لفساد القول بإحلال جماع امرأة بغير نكاح ولا ملك يمين[2].

الوجه الثاني: الآية في النكاح الشرعي.

قد ذكر أهل العلم للآية أكثر من قول، والراجح أنها في النكاح الشرعي

قال ابن الجوزي: فيها ستة أقوال:

أحدها: أن معناه: لا جناح عليكم فيما تركته المرأة من صداقها، ووهبته لزوجها، هذا مروي عن ابن عباس، وابن زيد.

والثاني: ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من مقام، أو فرقة بعد أداء الفريضة، روي عن ابن عباس أيضًا.

والثالث: ولا جناح عليكم أيها الأزواج إذا أعسرتم بعد الفرض لنسائكم فيما تراضيتم به من أن ينقصنكم أو يُبرِئنكم، قاله أبو سليمان التيمي.

والرابع: لا جناح عليكم إذا انقضى أجل المتعة أن يزدنكم في الأجل، وتزيدونهن في الأجر من غير استبراء، قاله السدي: وهو يعود إلى قصّة المتعة.

والخامس: لا جناح عليكم أن تهب المرأة للرجل مهرها، أو يهب هو للتي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب عليه. قاله الزجاج.

والسادس: أنه عام في الزيادة، والنقصان، والتأخير، والإِبراء، قاله القاضي أبو يعلى[1].

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري في التفسير (٥/ ١٤)، وفيه أسباط بن نصر (صدوق كثير الخطأ يغرب)، أحمد بن مفضل (صدوق شيعي)، فلعل هذا منه ترويجًا لمذهبه، ومعلوم أن أهل البدعة لا تقبل روايتهم فيما عدا ما وافق بدعتهم، وهو هنا كذلك.

(٢) تفسير الطبري (٥/ ١٤).

وقد ذكر الطبري جملة من هذه الأقوال ثم قال:

وأولى هذه الأقوال بالصواب، قولُ من قال: معنى ذلك: ولا حرج عليكم، أيها الناس، فيما تراضيتم به أنتم ونساؤكم من بعد إعطائهن أجورهن على النكاح الذي جرى بينكم وبينهن، من حطٍّ ما وجب لهنَّ عليكم، أو إبراء، أو تأخير ووضع.

وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾ (سورة النساء: ٤). (٢)

ثانيًا: الأدلة التي استدلوا بها من السنة والرد عليها:

استدل المخالفون بأحاديث إما صحيحة ونُسخت، أو تأولوها لتوافق أهواءهم، أو ضعيفة لا يُعتبر بها.

فقد استدلوا بأحاديث وهي إما منسوخة، أو أنهم أولوها علي مرادهم في إباحة نكاح المتعة.

الدليل الأول: عَنْ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بن مسعودﷺ يَقُولُ: كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْسَ لَنَا نِسَاءٌ فَقُلْنَا: أَلاَ نَسْتَخْصِي فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ رَخَّصَ لَنَا أَنْ نَنْكِحَ الْمَرْأَةَ بِالثَّوْبِ إِلَى أَجَلٍ ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾. (٣)

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الحديث نفسه يبين أن النبي ﷺ نهى عنها بعد ذلك.

قلت: وهذه فائدة جمع طرق الحديث فبها يتضح المراد فقد أخرجه عبد الرزاق في المصنف عن عبد الله بن مسعود قال: " كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، فتطول عزبتنا فقلنا:

---

(١) زاد المسير (٢/ ٥٥: ٥٤).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٧٥)، ومسلم (١٤٠٤).

ألا نختصي يا رسول الله! فنهانا، ثم رخص أن نتزوج المرأة إلى أجل بالشيء، ثم نهانا عنها يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الإنسية". [١] وبهذا يتضح أنها كانت مباحة ثم نهى عنه ﷺ.

الوجه الثاني: هذا الحديث منسوخ بأحاديث النهي عن المتعة

قَالَ الشافعي: ذَكَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ (الإِرْخَاصَ فِي نِكَاحِ الْمُتْعَةِ وَلَمْ يُوَقِّتْ شَيْئًا يَدُلُّ أَهُوَ قَبْلَ خَيْبَرَ أَوْ بَعْدَهَا وَأَشْبَهَ حَدِيثَ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ (فِي نَهْيِ النبي ﷺ عَنِ الْمُتْعَةِ أَنْ يَكُونَ وَاللهُ أَعْلَمُ نَاسِخًا لَهُ[٢].

قال ابن حجر: وَظَاهِر اِسْتِشْهَاد اِبْن مَسْعُود بِهَذِهِ الْآيَة هُنَا يُشْعِر بِأَنَّهُ كَانَ يَرَى بِجَوَازِ الْمُتْعَة، فَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: لَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ بَلَغَهُ النَّاسِخ، ثُمَّ بَلَغَهُ فَرَجَعَ بَعْد. قُلْت: يُؤَيِّدهُ مَا ذَكَرَهُ الْإِسْمَاعِيلِيّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي رِوَايَة أَبِي مُعَاوِيَة عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد " فَفَعَلَهُ ثُمَّ تَرَك ذَلِكَ " قَالَ: وَفِي رِوَايَة لِابْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ إِسْمَاعِيل " ثُمَّ جَاءَ تَحْرِيمهَا بَعْد "وَفِي رِوَايَة مَعْمَر عَنْ إِسْمَاعِيل " ثُمَّ نُسِخَ ". [٣]

ومما يدل على أن هذا الحديث متقدم ما جاء عند مسلم (وَنَحْنُ شَبَابٌ)

قال البيهقي: وَفِى هَذِهِ الرِّوَايَةِ مَا دَلَّ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ قَبْلَ فَتْحِ خَيْبَرَ أَوْ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ فَإِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ تُوُفِّىَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلاَثِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ وَكَانَ يَوْمَ مَاتَ ابْنَ بِضْعٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَكَانَ الْفَتْحُ فَتْحُ خَيْبَرَ فِى سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ وَفَتْحُ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ فَعَبْدُ اللهِ زَمَنَ الْفَتْحِ كَانَ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا وَالشَّبَابُ قَبْلَ ذَلِكَ[٤].

الوجه الثالث: الحظر مقدم على الإباحة

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٤٠٤٨).

(٢) سنن البيهقي (٧/ ٢٠١).

(٣) فتح الباري (٩/ ٢١).

(٤) سنن البيهقي (٧/ ٢٠١).

قال الجصاص: هذه المتعة هي التي حرمها رسول الله ﷺ في سائر الأخبار التي ذكرنا ولم ننكر نحن أنها قد كانت أبيحت في وقت ثم حرمت وليس في حديث ابن مسعود ﷺ ذكر التاريخ فأخبار الحظر قاضية عليها؛ لأن فيها ذكر الحظر بعد الإباحة وأيضًا لو تساويا لكان الحظر أولى(١).

الوجه الرابع: الحكمة من قراءة (عبد الله) لهذه الآية.

قال ابن القيم: يحتمل أن يكون أراد آخر هذه الآية وهو الرد على من أباحها مطلقًا وأنه معتد؛ فإن رسول الله ﷺ إنما رخص فيها للضرورة وعند الحاجة في الغزو وعند عدم النساء وشدة الحاجة إلى المرأة فمن رخص فيها في الحضر مع كثرة النساء وإمكان النكاح المعتاد فقد اعتدى والله لا يحب المعتدين. (٢)

كل هذا على فرض أنه لم يُنسخ، فكيف إذا نُسخ؟.

قال الجصاص: فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ النَّهْيَ عَنْ الِاسْتِخْصَاءِ وَتَحْرِيمَ النِّكَاحِ الْمُبَاحِ، وَيَحْتَمِلُ الْمُتْعَةَ فِي حَالِ مَا كَانَتْ مُبَاحَةً.

فَلَوْ كَانَتْ الْإِبَاحَةُ بَاقِيَةً لَوَرَدَ النَّقْلُ بِهَا مُسْتَفِيضًا مُتَوَاتِرًا لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ وَلَعَرَفَتْهَا الْكَافَّةُ كَمَا عَرَفَتْهَا بَدِيًّا، وَلَمَا اجْتَمَعَتْ الصَّحَابَةُ عَلَى تَحْرِيمِهَا لَوْ كَانَتْ الْإِبَاحَةُ بَاقِيَةً، فَلَمَّا وَجَدْنَا الصَّحَابَةَ مُنْكَرِينَ لِإِبَاحَتِهَا مُوجِبِينَ لِحَظْرِهَا مَعَ عِلْمِهِمْ بَدِيًّا بِإِبَاحَتِهَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى حَظْرِهَا بَعْدَ الْإِبَاحَةِ أَلَا تَرَى أَنَّ النِّكَاحَ لَمَّا كَانَ مُبَاحًا لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي إبَاحَتِهِ؟ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَلْوَاهُمْ بِالْمُتْعَةِ لَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً كَبَلْوَاهُمْ بِالنِّكَاحِ؛ فَالْوَاجِبُ إذًا أَنْ يَكُونَ وُرُودُ النَّقْلِ فِي بَقَاءِ إبَاحَتِهَا مِنْ طَرِيقِ الِاسْتِفَاضَةِ(٣).

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ١٥١).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٦٢).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ١٥٢).

الدليل الثاني: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله وَسَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ قَالاَ: خَرَجَ عَلَيْنَا مُنَادِي رَسولِ اللهﷺ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَسْتَمْتِعُوا (يَعْنِي مُتْعَةَ النِّسَاءِ)[1].

والجواب عليه:

الوجه الأول: الحديث منسوخ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله البخاري:. . . وَبَيَّنَهُ عَلِيٌّ عَنِ النبي ﷺ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ. [2]

الوجه الثاني: أن سلمة بين أن النبي ﷺ نهي عنها.

عَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَخَّصَ رَسُولُ الله ﷺ عَامَ أَوْطَاسٍ فِي الْمُتْعَةِ ثَلاَثًا ثُمَّ نَهَى عَنْهَا. [3]

الدليل الثالث: عن عمران بن حصين قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله تبارك وتعالى وعملنا بها مع رسول اللهﷺ، فلم تنزل آية تنسخها ولم ينه عنها النبي ﷺ حتى مات.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: أن هذا الحديث في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما في كتاب الحج لا في كتاب النكاح وليس فيه لفظ (متعة النساء)

فقد أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحج باب (التمتع على عهد رسول اللهﷺ)[4].

وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الحج باب (جواز التمتع)[5].

وأخرجه النسائي في سننه في كتاب الحج (باب القران)[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٥١١٧)، ومسلم (١٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٠٥).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ٥٠٥).

(٥) أخرجه مسلم (١٢٢٦).

(٦) أخرجه النسائي في (الصغرى) (٥/ ١٥٠: ١٤٩).

وأخرجه ابن ماجه في سننه من كتاب الحج باب (التمتع بالعمرة إلى الحج) فهذه التبويبات من الأئمة -رحمهم الله- تدل علي أن المراد بآية المتعة في الحديث هي متعة الحج وهذه الآية هي قوله ﷻ: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ (البقرة: ١٩٦).

أضف إلي ذلك أن الإمام البخاري أخرجه في صحيحه في كتاب التفسير باب: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾.

الوجه الثاني: أن عمران ﷺ صرح فيه بأنه يقصد متعة الحج.

عن أبي رجاء قال: قال عمران بن حصين ﷺ: نزلت آية المتعة في كتاب الله (يعني متعة الحج) وأمرنا بها رسول الله ﷺ، ثم لم تنزل آية تنسخ آية متعة الحج ولم ينه عنها رسول الله ﷺ حتى مات قال رجل برأيه بعد ما شاء[1].

ثالثا: أطبق شراح صحيح البخاري كابن حجر، وشراح صحيح مسلم كالنووي وغيرهم على تفسير المتعة هنا "بمتعة الحج".

وعلق الحافظ ابن حجر على الحديث الأول في فتح الباري ما لفظه: قوله أي قول عمران ونزل القرآن أي بجوازه يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾. [2]

قال النووي: وهذه الروايات كلها متفقة على أن مراد عمران أن التمتع بالعمرة إلى الحج جائز وكذلك القران وفيه التصريح بإنكاره على عمر بن الخطاب ﷺ منع التمتع وقد سبق تأويل فعل عمر أنه لم يرد إبطال التمتع بل ترجيح الإفراد عليه[3].

ثالثا: القياس.

فقَالُوا: وَلِأَنَّهُ عَقْدُ مَنْفَعَةٍ، فَصَحَّ تَقْدِيرُهُ بِمُدَّةٍ كَالْإِجَارَةِ.

والجواب عليه:

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٢٦).

(٢) فتح الباري (٣/ ٥٠٥).

(٣) شرح مسلم (٤/ ٤٦٦).

قال الماوردي: وَأَمَّا قِيَاسُهُمْ عَلَى الْإِجَارَةِ فَالْمَعْنَى فِيهِمَا: أَنَّهَا لَا تَصِحُّ مُؤَبَّدَةً، فَصَحَّتْ مُؤَقَّتَةً، وَالنِّكَاحُ لَمَّا صَحَّ مُؤَبَّدًا لَمْ يَصِحَّ مُؤَقَّتًا. (١)

الوجه الرابع: الرد على بعض الشبهات التي استدلوا بها على إباحة نكاح المتعة.

الشبهة الأولى: قالوا بأن عمر هو الذي حرم المتعة من نفسه

واحتجوا علي ذلك بالآتي:

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله فَأَتَاهُ آتٍ فَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ اخْتَلَفَا فِي الْمُتْعَتَيْنِ فَقَالَ جَابِرٌ: فَعَلْنَاهُمَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ نَهَانَا عَنْهُمَا عُمَرُ فَلَمْ نَعُدْ لَهُمَا(٢).

قَالَ عُمَرُ ﷺ: مُتْعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْهَى عَنْهُمَا: مُتْعَةُ الْحَجِّ، وَمُتْعَةُ النِّسَاءِ(٣).

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: نهي عمر موافق لنهي النبي ﷺ

فإن عمر ﷺ لم يحرمه من نفسه؛ وإنما بسنة النبي ﷺ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَذِنَ لَنَا فِي الْمُتْعَةِ ثَلاَثًا ثُمَّ حَرَّمَهَا، وَالله لاَ أَعْلَمُ أَحَدًا تَمَتَّعَ وَهُوَ مُحْصَنٌ إِلاَّ رَجَمْتُهُ بِالْحِجَارَةِ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَنِي بِأَرْبَعَةٍ يَشْهَدُونَ أَنَّ رَسُولَ الله أَحَلَّهَا بَعْدَ إِذْ حَرَّمَهَا(٤).

فالفاروق رضوان الله عليه نهى عن هذا النكاح بعد أن تأكد من نهيُ وتحريمُ النبيِّ ﷺ له. وليس هذا بتشريع من عنده، بل هو مُبَلِّغ ومُنَفِّذ لنهي النبي ﷺ.

وفي تهديد عمر ﷺ برجم المحصن الذي باشر هذا النكاح بعد علمه بالتحريم، دليلٌ على ثبوت نهي رسول الله ﷺ عنها عنده، وعلمه به. وإلاّ فما كان هو الملقّب بالفاروقِ

(١) الحاوي (١١/ ٤٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠٥).

(٣) مستخرج أبي عوانة (٢٧٠٩)، وشرح معاني الآثار (٢/ ١٤٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٦٣٠)، وصحح إسناده ابن حجر كما في تلخيص الحبير (٢/ ٢٩٤).

لِيُقْدِم على التهديد بإقامة حدّ من حدود الله، فيه إزهاقُ روحٍ بدون بيّنة من أمره وبدون ضياء من مشكاة النبوة. ولمّا كان الأمر كذلك لم يعارضه أحدٌ لاستناده إلى دليلٍ بخلاف متعة الحج، فإنه لما نهى عنها وقصد أولوية الإفراد عارضه جمعٌ من الصحابة.

وهذا يدل على صحة ما قُلناه من الإجماع على تحريمها، لأن عمر بن الخطاب ﷺ في هذه الأخبار، وفيما تقدّمها نهى عنها على المنبر وتوعّد عليها، وغلّظ أمرها، وذكر أن رسول الله ﷺ حرّمها ونهى عنها وذلك بحضرة المهاجرين والأنصار، فلم يعارضه أحدٌ منهم ولا ردّ عليه قولَه في ذلك، مع ما كانوا عليه من الحرص على إظهار الحق وبيان الواجب وردّ الخطأ.

ألا ترى أن أبي بن كعب ﷺ عارضه في متعة الحج، وقد عارضه مُعاذ بن جبل في رجم الحامل.... لأنّه لا يجوز لمثلهم المداهنة في الدين ولا السكوت على استماع الخطأ، لا سيما فيما هو راجع إلى الشريعة، وثابت في أحكامها على التأبيد، فلما سكتوا على ذلك ولم ينكره أحدٌ منهم، علم أن ذلك هو الحقّ وأنه ثابتٌ في الشريعة من نسخ المتعة وتحريمها كما ثبت عنده، فصار ذلك كأنّ جميعهم قرّروا تحريمها وتثّبتوا من نسخها، فكانت حرامًا على التأبيد.

الوجه الثاني: عدم إنكار الصحابة عليه وإقرارهم على ذلك دليل على التحريم

قال الجصاص: فَلَمْ يُنْكِرْ هَذَا الْقَوْلَ عَلَيْهِ مُنْكِرٌ، لَا سِيَّمَا فِي شَيْءٍ قَدْ عَلِمُوا إبَاحَتَهُ وَأَخْبَارَهُ بِأَنَّهُمَا كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَلَا يَخْلُو ذَلِكَ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: **إمَّا أَنْ يَكُونُوا** قَدْ عَلِمُوا بَقَاءَ إبَاحَتِهَا فَاتَّفَقُوا مَعَهُ عَلَى حَظْرِهَا، وَحَاشَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونُوا مُخَالِفِينَ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ عِيَانًا، وَقَدْ وَصَفَهُمْ الله تَعَالَى بِأَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ؛ فَغَيْرُ جَائِزٍ مِنْهُمْ التَّوَاطُؤُ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ يؤَدِّي إلَى الْكُفْرِ وَإِلَى الِانْسِلَاخِ مِنْ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ إبَاحَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُتْعَةِ ثُمَّ قَالَ هِيَ مَحْظُورَةٌ مِنْ غَيْرِ نَسْخٍ لَهَا فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْمِلَّةِ[1].

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ١٥٣).

وإمَّا أنْ يَكُونُوا قَدْ عَلِمُوا حَظْرَهَا بَعْدَ الْإِبَاحَةِ.

فَإِذَا لَمْ يَجُزْ -الوجه الأول- أي: أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَلِمُوا بَقَاءَ إِبَاحَتِهَا فَاتَّفَقُوا مَعَهُ عَلَى حَظْرِهَا -عَلِمْنَا أَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا-الوجه الثاني- حَظْرَهَا بَعْدَ الْإِبَاحَةِ وَلِذَلِكَ لَمْ يُنْكِرُوهُ، وَلَوْ كَانَ مَا قَالَ عُمَرُ مُنْكَرًا وَلَمْ يَكُنْ النَّسْخُ عِنْدَهُمْ ثَابِتًا لَمَا جَازَ أَنْ يقروه عَلَى تَرْكِ النَّكِيرِ عَلَيْهِ؛ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى إجْمَاعِهِمْ عَلَى نَسْخِ الْمُتْعَةِ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ حَظْرُ مَا أَبَاحَهُ النَّبِيُّ ﷺ إلَّا مِنْ طَرِيقِ النَّسْخِ[1].

قال الرازي: ذكر هذا الكلام في مجمع الصحابة وما أنكر عليه أحد، فالحال ههنا لا يخلو إما أن يقال: أنهم كانوا عالمين بحرمة المتعة فسكتوا، أو كانوا عالمين بأنها مباحة ولكنهم سكتوا على سبيل المداهنة، أو ما عرفوا إباحتها ولا حرمتها. فسكتوا لكونهم متوقفين في ذلك.

والأول: هو المطلوب.

والثاني: يوجب تكفير عمر وتكفير الصحابة! ؛ لأن من علم أن النبي ﷺ حكم بإباحة المتعة، ثم قال: إنها محرمة محظورة من غير نسخ لها فهو كافر بالله، ومن صدقه عليه مع علمه بكونه مخطئا كافرًا، وهذا يقتضي تكفير الأمة وهو على ضد قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ (آل عمران: ١١٠).

والقسم الثالث: وهو أنهم ما كانوا عالمين بكون المتعة مباحة أو محظورة فلهذا سكتوا، فهذا أيضا باطل، لأن المتعة بتقدير كونها مباحة تكون كالنكاح، واحتياج الناس إلى معرفة الحال في كل واحد منهما عام في حق الكل، ومثل هذا يمنع أن يبقى مخفيًا، بل يجب أن يشتهر العلم به، فكما أن الكل كانوا عارفين بأن النكاح مباح، وأن إباحته غير منسوخة، وجب أن يكون الحال في المتعة كذلك، ولما بطل هذان القسمان ثبت أن الصحابة إنما سكتوا عن الإنكار على عمر ﷺ لأنهم كانوا عالمين بأن المتعة صارت منسوخة في الإسلام.

فإن قيل: ما ذكرتم يبطل بما أنه روي أن عمر قال: لا أوتى برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته، ولا شك أن الرجم غير جائز، مع أن الصحابة ما أنكروا عليه حين ذكر ذلك، فدل هذا على أنهم كانوا يسكتون عن الإنكار على الباطل.

---

(١) المصدر السابق.

قلنا: لعله كان يذكر ذلك على سبيل التهديد والزجر والسياسة، ومثل هذه السياسات جائزة للإمام عند المصلحة، ألا ترى أنه ﷺ قال: "ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله"(١).

ثم إن أخذ شطر المال من مانع الزكاة غير جائز، لكنه قال النبي ﷺ ذلك للمبالغة في الزجر، فكذا ههنا والله أعلم(٢).

الوجه الثالث: عمر رضي الله عنه لم يكن وحده الذي روى أحاديث التحريم بل وافقه الصحابة.

فعن عَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْر أنه قَامَ بِمَكَّةَ فَقَالَ: إِنَّ نَاسًا - أَعْمَى الله قُلوبَهُمْ كَمَا أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ - يُفْتُونَ بِالْمُتْعَةِ - يُعَرِّضُ بِرَجُلٍ - فَنَادَاهُ فَقَالَ: إِنَّكَ لَجِلْفٌ جَافٍ فَلَعَمْرِى لَقَدْ كَانَتِ الْمُتْعَةُ تُفْعَلُ عَلَى عَهْدِ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ يُرِيدُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَجَرِّبْ بِنَفْسِكَ فَوَ الله لَئِنْ فَعَلْتَهَا لأَرْجُمَنَّكَ بِأَحْجَارِكَ(٣).

وعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يُلَيِّنُ فِى مُتْعَةِ النِّسَاءِ فَقَالَ: مَهْلًا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنْهَا يَوْمَ خَيْبَرَ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ (الإِنْسِيَّةِ)(٤).

وفي رواية: سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول لفلان: إنك رجل تائه، نهانا رسول الله ﷺ (أي: متعة النساء).

وعن سالم بن عبد الله قال: أتى عبد الله بن عمر فقيل له: إن ابن عباس يأمر بنكاح المتعة، فقال ابن عمر سبحان الله! ما أظن ابن عباس يفعل هذا! قالوا: بلى إنه يأمر به فقال:

---

(١) سنن الدارمي (١٦٧٧)، وصحيح ابن خزيمة (٢٢٦٦)، وقال الألباني: إسناده حسن، وصححه الحاكم والذهبي، وابن الجارود. صحيح أبي داود (١٤٠٧).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ٤٩)، وانظر شرح معاني الآثار للطحاوي (٣/ ٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٠٦).

(٤)أخرجه مسلم (١٤٠٧).

وهل كان ابن عباس إلا غلامًا صغيرًا إذ كان رسول الله ﷺ، ثم قال ابن عمر: نهانا عنها رسول الله ﷺ وما كنا مسافحين. (١)

الوجه الرابع: تشديد عمر رضي الله عنه في النهي لحِكَم.

١- عمر خليفة راشد وقد أمر رسول الله ﷺ بإتباع ما سنه الخلفاء الراشدون وَإنه كَانَ إِمَامًا فَاخْتَصَّ بِالْإِعْلَانِ وَالتَّأْدِيبِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالَّذِي يُقْدِمُ عَلَى تَحْرِيمٍ بِغَيْرِ دَلِيلٍ(٢).

٢- تأكيد لمن لم يبلغه النسخ(٣).

الشبهة الثانية: قالوا: كان علي بن أبي طالب المنكر الأول على من حرم المتعة وهو عمر كما قال علي: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الأثر عن علي لا يصح فكيف يحتج به.

فقد روى عنه من طريقين ولا يصحان عنه.

الأول: طريق الحكم بن عتيبة قال: قال علي رضي الله عنه: (لولا أن عمر رضي الله عنه نهى عن المتعة ما زنى إلا شَقِيٌّ). ولا يصح لأن الحكم لم يلق عليًا. (٤)

الثاني: طريق ابن جريج قال: وأخبرني من أصدق أن عليا قال بالكوفة: (لولا ما سبق من رأي عمر بن الخطاب - أو قال: من رأي ابن الخطاب - لأمرت بالمتعة، ثم ما زنا إلا شقي). ولا يصح أيضًا. (١)

---

(١) **إسناده قوي**. أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٢١٥)، وإسناده قوي كما قاله ابن حجر في التلخيص (٣/ ١٥٤)، وانظر: إرواء الغليل للألباني (٨/ ٣١٨).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٦٢)، والحاوي الكبير (١١/ ٤٥٤).

(٣) الرازي في التفسير (١٠/ ٥٤)، وزاد المعاد (٣/ ٤٦٢)، وروح المعاني (٥/ ٦).

(٤) إسناده ضعيف، أخرجه الطبري في التفسير (٥/ ١٢) فيه الحكم بن عتيبة توفي سنة (١١٣) وله نيف وستون سنة أي: ولد في حدود سنة ٤٤ على أكبر تقدير وتوفي علي رضي الله عنه سنة (٤٠) فهو لم يسمع منه جزمًا، راجع جامع التحصيل (١/ ١٦٧)، تهذيب التهذيب (٢/ ٣٧٣).

الوجه الثاني: الثابت عن علي أنه أنكر علي من أباحها وقد روى ما يدل على تحريمها.

الثابت الذي لا يقبل الشك أن عليًا ﷺ كان المنكر الأول على من استحل المتعة، وإنكاره على ابن عمه (حبر الأمة) معروف.

عَنْ عَلِيٍّ ﷺأَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍﷺ يُلَيِّنُ فِى مُتْعَةِ النِّسَاءِ فَقَالَ: مَهْلًا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَإِنَّ رسول اللهﷺ نهى عنها يوم خيبر وعن لحوم الحمر الإنسية[٢].

وفي رواية: سمع علي بن أبي طالب ﷺ يقول لفلان: إنك رجل تائه، نهانا رسول اللهﷺ (أي متعة النساء).

الشبهة الثالثة: قالوا: إن جابر بن عبد الله كان يرى إباحتها وأنكر على عمر تحريمه للمتعة. وقالوا: لو كان هناك نهي من رسول الله ﷺ لما غاب عن الصحابة الذين تمتعوا في عهد أبي بكر وشطر من عهد عمر نفسه، وهذا ينفي نسخها في عهد الرسول وإلا كان الخليفة الأول محللًا لما حرم الله ورسولهﷺ

وهم يستدلون على ذلك بالآتي:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَسَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ قَالاَ: كُنَّا فِى جَيْشٍ فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِّ ﷺ فَقَالَ «إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُمْ أَنْ تَسْتَمْتِعُوا فَاسْتَمْتِعُوا»[٣].

وعن أَبِي الزُّبَيْرِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: كُنَّا نَسْتَمْتِعُ بِالْقَبْضَةِ مِنَ التَّمْرِ وَالدَّقِيقِ الأَيَّامَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِى بَكْرٍ حَتَّى نَهَى عَنْهُ عُمَرُ فِي شَأْنِ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ.[٤]

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: نقول متى أنكر جابر على عمر؟ وهذه الأحاديث عن جابر إنما يحكي عن واقع كان كما هو شأن من يخبر عن أي خبر كان، ولا يوجد في واحد منها أنه عارضه أو أنكر عليه

---

(١) ضعيف. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٤٠٢٩) لجهالة شيخ ابن جريج.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥١١٧)، ومسلم (١٤٠٥).

(٤) أخرجه مسلم (١٤٠٥).

الوجه الثاني: الثابت عن جابر أنه عمل برأي عمر ﷺ

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله فَأَتَاهُ آتٍ فَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ اخْتَلَفَا فِي الْمُتْعَتَيْنِ فَقَالَ جَابِرٌ: فَعَلْنَاهُمَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ نَهَانَا عَنْهُمَا عُمَرُ فَلَمْ نَعدْ لَهُمَا(١).

الوجه الثالث: الحديث عن جابر في الإذن بالمتعة منسوخ.

هذا كان زمن الفتح قبل التحريم ثم حرمها بعد ذلك بدليل ما رواه مسلم.

عن سلمة بن الأكوع قال: رخص لنا رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثًا ثم نهى عنها(٢).

الوجه الرابع: الذين فعلوا ذلك لم يبلغهم النسخ

قَوْلُهُ: اسْتَمْتَعْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّ الَّذِي اسْتَمْتَعَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّسْخُ. وَقَوْلُهُ: حِينَ نَهَانَا عَنْهُ عُمَرَ يَعْنِي حِينَ بَلَغَهُ النَّسْخُ(٣).

الوجه الخامس: ليس في الحديث دلالة على أن أبا بكر ﷺ يرى حلها.

ليس في الحديث دلالة على أن أبا بكر ﷺ يرى حلها إذ لم يذكر جابر إطلاع أبي بكر على فاعلها والرضى به، كما أن كتب السنة لم تذكر رأي أبي بكر ﷺ في المتعة والظاهر أن موقفه - وهو الملازم لرسول الله ﷺ في جميع غزواته وأغلب حالاته -التحريم لها، والذي نقصده في هذه السطور أنه لا يلزم من كون البعض فعلها أو مارسها في عهد أبي بكر أن يكون مطلعًا عليها.

ونقول لو اطلع الصديق على فاعلها في خلافته لوقف منها موقف الفاروق عمر ﷺ لأن الفاروق فُعلت في عهده ولم يطلع عليها كما يدل عليه حديث جابر الثاني ثم اطلع بعد ذلك، فنهى عنها وقال فيها أشد القول؛ ولعل السبب في عدم إطلاع الصديق عليها

---

(١) السابق.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٦٢).

(٣) شرح النووي على مسلم (٥/ ٢٠٣)، وفتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٨: ٧٧)، وشرح معاني الآثار (٣/ ٢٧)، ونيل الأوطار للشوكاني (٦/ ٢٥٢).

لكونها - نكاح سر- حيث لم يشترط فيها الإشهاد، ولما كانت خالية عن الإعلان حق لها أن تخفي على القريب فضلًا عن المضطلع بأعباء الخلافة وأمر المسلمين كافة كأبي بكرﷺ.

وفي ذلك يقول ابن العربي عن حديث جابر بما لفظه: فأما حديث جابر بأنهم فعلوها على عهد أبي بكر فذلك من اشتغال الخلق بالفتنة عن تمهيد الشريعة فلما علا الحق على الباطل وتفرغ المسلمون ونظروا في فروع الدين بعد تمهيد أصوله أنفذوا في تحريم المتعة ما كان مشهورًا لديهم، حتى رأى عمر معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن حريث فنهاهما.

فغاية الأمر أنهم لم يبلغهم النسخ وهذا ليس معناه أنهم استمتعوا بعلم من النبي ﷺ أو أن النبي ﷺ وافقهم وأقرهم، أو أن الصدّيق أقرهم لقول جابر بأنهم فعلوها على عهد أبي بكر، أو أن عمر أقرهم قبل بيانه لتحريم رسول الله ﷺ عنها.

وليس معنى هذا أن ممارستها دليل على حلها كما يظن بعض الجهال. . . . ؛ لأن أشياء كثيرة يمنعها القانون وتمارس من غير علم الحاكم، وإذا بلغ ذلك للحاكم وقف منها الموقف الذي يجب.

وما أحسن ما قاله شارح بلوغ المرام وهو: إن المبيحين إنما بنوا على الأصل لما لم يبلغهم الدليل الناسخ وليس مثل هذا من باب الاجتهاد وإنما هم معذورون لجهل الناسخ، فالمسألة لا اجتهاد فيها بعد ظهور النص، على أن الذي أوجب هذا الخفاء على بعض الصحابة ولم يعلم بالنسخ أمور أهمها:

أ- إن هذا النكاح (نكاح سر) حيث لم يشترط فيها الإشهاد، ولما كانت خالية عن الإعلان حق لها أن تخفى حتى على القريب.

ب - إن هذا النكاح وقع فيه الترخيص مرتين وقد يحضر الصحابي موطن الرخصة فيسمعه ويفوته سماع النهي مما أدى إلى تمسك بعضهم بالرخصة فيه.

والذي يعتقده أهل السنة في صحابة رسول الله ﷺ بصورة عامة أنهم أحرص الناس على امتثال أوامر الله تعالى والابتعاد عن نواهيه، فكل من بلغه نهي رسول الله عن المتعة فذلك

موقفه منها، وكل من لم يبلغه النهي في عصر النبوة ثم بلغه بعد ذلك فإنه التزمه، وقال به إلا ابن عباس ﵄؛ فإن له مسلكًا ومع هذا فلا ينكر أن بعض الصحابة لم يبلغه النهي إطلاقًا إلا بعد وفاة الرسول ﷺ وهذا ليس بغريب؛ فقد حدث مثل هذا كثير قد خفي على عدد من كبار الصحابة أحاديث كثيرة مع قربهم من رسول الله ﷺ وتقدمهم في السن وطول صحبتهم[١].

الشبهة الرابعة: قالوا: إن عبد الله بن عمر أنكر على أبيه تحريمه لمتعة النساء كما عند الترمذي أن رجلًا من أهل الشام سأل ابن عمر عن متعة النساء فقال: هي حلال. فقال: إن أباك قد نهى عنها. فقال ابن عمر: أرأيت إن كان أبي قد نهى عنها وقد سنها رسول الله ﷺ أنترك السنة ونتبع قول أبي؟

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الحديث ليس بهذا اللفظ، وهو في متعة الحج.

فقد حرفوا لفظ الحديث حتى يروجوا سلعتهم وهذا شأنهم، والحديث إنما هو في متعة الحج وهذا لفظه الصحيح:

فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ الله حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَهُوَ يَسْأَلُ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ عَنِ التَّمَتُّعِ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: هِيَ حَلَالٌ. فَقَالَ الشَّامِيُّ: إِنَّ أَبَاكَ قَدْ نَهَى عَنْهَا. فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَبِي نَهَى عَنْهَا وَصَنَعَهَا رَسُولُ الله ﷺ أَأَمْرَ أَبِي نَتَّبِعُ أَمْ أَمْرَ رَسولِ الله ﷺ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: بَلْ أَمْرَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: لَقَدْ صَنَعَهَا رَسُولُ الله ﷺ[٢].

الوجه الثاني: ابن عمر ممن قال بتحريم المتعة.

عن سالم عن أبيه قال: سئل ابن عمر عن متعة النساء فقال: لا نعلمها إلا السفاح[٣].

---

(١) تحريم المتعة في الكتاب والسنة (١٤٤: ١٤٢).

(٢)أخرجه الترمذي (٨٢٤) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٦٥٨ - ٨٣٠).

(٣) إسناده صحيح، مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٢٩٢-٢٩٣).

الشبهة الخامسة: قالوا ابن عباس يرى جواز نكاح المتعة

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: اختلف عن ابن عباس ﷺ في نكاح المتعة.

الذي حصل من أقاويل ابن عباس، فيها:

الأول: القول بإباحة المتعة.

والثاني: إباحتها عند الضرورة.

والثالث: رجوعه عنها وقال منسوخة. ورجح ابن حجر عدم رجوعه(١).

الوجه الثاني: الصحابة أنكروا عليه القول بإباحة المتعة.

عَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ قَامَ بِمَكَّةَ فَقَالَ إِنَّ نَاسًا - أَعْمَى الله قُلُوبَهُمْ كَمَا أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ - يُفْتُونَ بِالْمُتْعَةِ - يُعَرِّضُ بِرَجُلٍ - (ابن عباس) فَنَادَاهُ فَقَالَ: إِنَّكَ لَجِلْفٌ جَافٍ فَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتِ الْمُتْعَةُ تُفْعَلُ عَلَى عَهْدِ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ يُرِيدُ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَجَرِّبْ بِنَفْسِكَ فَوَ الله لَئِنْ فَعَلْتَهَا لأَرْجُمَنَّكَ بِأَحْجَارِكَ(٢).

وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يُلَيِّنُ فِي مُتْعَةِ النِّسَاءِ فَقَالَ: (مَهْلًا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنْهَا يَوْمَ خَيْبَرَ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ)(٣).

وفي رواية: سمع علي بن أبي طالب يقول لفلان إنك رجل تائه نهانا رسول الله (أي متعة النساء).

عن سالم بن عبد الله قال: أتى عبد الله بن عمر فقيل له: إن ابن عباس يأمر بنكاح المتعة فقال ابن عمر: سبحان الله ما أظن ابن عباس يفعل هذا! ! قالوا: بلى إنه يأمر به فقال: وهل

(١) أحكام القرآن (٢/ ١٥٣)، والرازي في التفسير (١٠/ ٥٤)، إرواء الغليل للألباني (٨/ ٣١٩).

(٢)أخرجه مسلم (١٤٠٦).

(٣)أخرجه مسلم (١٤٠٧).

كان ابن عباس إلا غلاما صغيرًا؛ إذ كان رسول الله ﷺ. ثم قال ابن عمر: نهانا عنها رسول الله ﷺ وما كنا مسافحين(١).

الوجه الثالث: الحظر مقدم على الإباحة.

قال صاحب المنار: وهو اجتهاد منه معارض بالنصوص ويقابله اجتهاد السواد الأعظم من الصحابة والتابعين وسائر المسلمين. (٢)

ولا شك أن الحق مع الجماعة أقرب منه إلى الواحد، وخاصةً في مثل الصحابة.

الشبهة السادسة قالوا: إنَّ تحْلِيلَ الْمُتعَةِ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ وَالْمُجْمَعُ عَلَيْه قَطْعِيٌّ، وَتحْرِيمُهَا مُختَلَفٌ فِيهِ وَالْمُختَلَفُ فِيهِ ظَنِّيٌّ وَالظَّنِّيُّ لَا يَنسَخُ الْقَطْعِيَّ.

وقالوا: بِأنَهُ قَدْ ثبَتَ إِبَاحَتهَا بِالْإِجْمَاعِ، فَلَمْ يُعْدَلْ إِلَى تحْرِيمِهَا إِلَّا بِالْإِجْمَاعِ

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: هذه الدعوى مرفوضة.

قال الشوكاني: فَيُجَابُ عَنْهُ أَوَّلًا بِمَنْعِ هَذِهِ الدَّعْوَى، أَعْنِي كَوْنَ الْقَطْعِيِّ لَا يَنْسَخُهُ الظَّنِّيُّ فَمَا الدَّلِيلُ عَلَيْهَا؟ وَمُجَرَّدُ كَوْنِهَا مَذْهَبَ الْجُمْهُورِ غَيْرُ مُقْنِعٍ لِمَنْ قَامَ فِي مَقَامِ الْمَنْعِ يُسَائِلُ خَصْمَهُ عَنْ دَلِيلِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

وَثَانِيًا: بِأَنَّ النَّسْخَ بِذَلِكَ الظَّنِّيِّ إِنَّمَا هوَ لِاسْتِمْرَارِ الْحِلِّ لَا لِنَفْسِ الْحِلِّ، وَالِاسْتِمْرَارُ ظَنِّيٌّ لَا قَطْعِيٌّ وَأَمَّا قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فَلَيْسَتْ بِقُرْآنٍ عِنْدَ مشْتَرِطِي التَّوَاتُرِ، وَلَا سنَّةٍ

---

(١) إسناده قوي. أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٢١٥)، وإسناده قوي كما قال ابن حجر في التلخيص (٣/ ١٥٤)، وانظر إرواء الغليل للألباني (٨/ ٣١٨).

(٢) تفسير المنار (٥/ ١٥).

لِأَجْلِ رِوَايَتِهَا قُرْآنًا فَيَكُونُ مِنْ قَبِيلِ التَّفْسِيرِ لِلْآيَةِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحُجَّةٍ، وَأَمَّا عِنْدَ مَنْ لَمْ يَشْتَرِطْ التَّوَاتُرَ فَلَا مَانِعَ مِنْ نَسْخِ ظَنِّيِّ الْقُرْآنِ بِظَنِّيِّ السُّنَّةِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ(١).

الوجه الثاني: ما ثبتَ بهِ إباحتها هوالّذي ثبتَ به تحريمُها والإجماع منعقد على التحريم

قال الماوردي: وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمَا بِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ إِبَاحَتُهَا بِالْإِجْمَاعِ، فَلَمْ يُعْدَلْ إِلَى تَحْرِيمِهَا إِلَّا بِالْإِجْمَاعِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَا ثَبَتَ بِهِ إِبَاحَتُهَا هُوَ الَّذِي ثَبَتَ بِهِ تَحْرِيمُهَا، فَإِنْ كَانَ دَلِيلًا فِي الْإِبَاحَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا فِي التَّحْرِيمِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْإِبَاحَةَ الثَّابِتَةَ بِالْإِجْمَاعِ هِيَ إِبَاحَةٌ مُؤَقَّتَةٌ تَعَقَّبَهَا نَسْخٌ، وَهِمْ يَدَّعُونَ إِبَاحَةً مُؤَبَّدَةً لَمْ يَتَعَقَّبْهَا نَسْخٌ، فَلَمْ يَكُنْ فِيمَا قَالُوهُ إِجْمَاعٌ. (٢)

الشبهة السابعة: قالوا بأن الأحاديث الواردة في تحديد زمن التحريم مضطربة وغير محددة وهذا يدل على أنها لم تحرم ويبقى العمل على الإباحة.

و الجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: عند الجمع بين هذه الأحاديث، لا يكون هناك تعارض.

فبعض المواطن المذكورة في ثبوت التحريم فيها نظر وهى ضعيفة، وبعضها رد إلى بعض، فحصل في آخر الأمر أنها كانت مباحة، ثم حرمت، ثم أبيحت، ثم حرمت واستقر، الأمر على هذا التحريم(٣).

الوجه الثاني: تفصيل هذه المسألة.

ليس هناك تضارب في وقت التحريم، وحاصل الأمر أنها كانت مباحة، ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت وحرمت تحريمًا مؤبدًا عام الفتح.

أولًا: تحريمها في عمرة القضاء:

---

(١) نيل الأوطار (٦/ ١٥٣).

(٢) الحاوي (١١/ ٤٥٥).

(٣) شرح مسلم للنووي (٥/ ٢٠٠)، وفتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٥).

روي عن الحسن البصري، قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة في عمرته، تزين نساء أهل المدينة[١]. فشكا أصحاب رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ قال: تمتعوا منهن واجعلوا الأجل بينكم وبينهن ثلاثًا، فما أحسب رجلًا يتمكن من امرأة ثلاثًا إلا ولاها الدبر[٢].

والجواب عليه:

أولًا: أنه مرسل ضعيف فلا يصح الاحتجاج به.

ثانيًا: يرده الأحاديث الثانية في تحريمها يوم خيبر[٣].

ثالثًا: على تقدير ثبوته فلعله أراد أيام خيبر لأنها كانت في سنة واحدة كما في الفتح وأوطاس سواء[٤].

وبهذا تبين أن الإذن والإباحة في عمرة القضاء لا يصح.

ثانيًا: من قال حرمت في غزوة تبوك.

١-لقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فنزلنا ثنية الوداع، فرأى رسول الله ﷺ مصابيح، ورأى نساء يبكين فقال: « ما هذا؟ »، فقيل: نساء

---

(١) لعل الصواب ما صوبه المعلق على سنن سعيد بن منصور (١/ ٢١٧).

(٢) **مرسل ضعيف**. أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٤٥: ٨٤٤)من طريق منصور، واللفظ له، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٤٠٤٣) من طريق مالك بن مغول، ولفظه (ما كانت المتعة إلا ثلاثة حتى حرمها الله عز وجل ورسوله ﷺ) بدون تحديد زمن التحريم وأخرجه عبد الرزاق أيضًا (١٤٠٤٠) من طريق عمرو بن عبيد (في المطبوع عن معمر والحسن قالا:. . . . والصواب معمر عن عمرو عن الحسن كما في الاستذكار (١٦/ ٢٩٢)، فتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٥) ولفظه (ما حلت المتعة إلا ثلاثًا في عمرة القضاء ما حلت قبلها ولا بعدها)، قال ابن حجر فى الفتح (٩/ ٧٤) وهذه الزيادة (ما حلت قبلها ولا بعدها) منكرة من رواية عمرو بن عبيد، وهو ساقط الحديث وبالجملة فهو مرسل ضعيف، من مر اسيل الحسن وهي ضعيفة.

(٣) شرح مسلم للنووي (٥/ ٢٠١).

(٤) فتح الباري (٩/ ٧٥).

تمتع منهن يبكين، فقال رسول الله ﷺ: "حرم - أو قال: هدم - المتعة النكاح، والطلاق، والعدة، والميراث"(١).

و الجواب عليه من هذه الوجوه:

الأول: الحديث ضعيف فلا يحتج به.

قال ابن حجر: عَلَى أَنَّ فِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة مَقَالًا، فَإِنَّهُ مِنْ رِوَايَة مُؤَمَّل بْن إِسْمَاعِيل عَنْ عِكْرِمَة بْن عَمَّار وَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا مَقَال(٢).

الثاني: الذين فعلوا ذلك لم يبلغهم النسخ فاستمروا على الرخصة(٣).

الثالث: الحديث لم يصرح بِأَنَّهُمْ اِسْتَمْتَعُوا مِنْهُنَّ فِي تِلْكَ الْحَالَة، فَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون ذَلِكَ وَقَعَ قَدِيمًا، ثُمَّ وَقَعَ التَّوْدِيع مِنْهُنَّ حِينَئِذٍ وَالنَّهْي(٤).

٢- عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قال: نهى ﷺ في غزوة تبوك عن نكاح المتعة(٥).

و الجواب عليه من هذه الوجوه:

الأول: إسناده ضعيف تفرد به إسحاق وهو غلط منه(١).

---

(١) ضعيف. أخرجه أبو يعلى (٦٥٩٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٤١٤٩)، والدار قطني في سننه (٣٦٠٢)، والبيهقي في السنن (٧/ ٢٠٧) كلهم عن المؤمل بن إسماعيل عن مكرمة بن عمار عن سعيد المقبري عن أبي هريرة به، وفيه عكرمة بن عمار صدوق يغلط، المؤمل بن إسماعيل صدوق سيىءالحفظ، وقد انفرد به المؤمل بن إسماعيل، قال محمد بن نصر المروزى: المؤمل إذا انفرد بحديث وجب أن يتوقف ويتثبت فيه، وقد خالفه بكربن يزيد، فذكره عن المقبري عن أبيه عن أبي هريرة كما في العلل للدار قطني (١٠/ ٣٦٩)، ولهذا فقد ذكره الدار قطني في أطراف الغرائب والأفراد (٥١٢٦).

(٢) فتح الباري (٩/ ٧٥).

(٣) فتح الباري (٩/ ٧٥).

(٤) فتح الباري (٩/ ٧٥).

(٥) إسناده ضعيف وهو حديث منكر، أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار (١٦/ ٢٨٩)، من رواية إسحاق بن راشد، عن الزهري، عن عبد الله بن محمد بن علي، عن أبيه، عن علي، وفيه إسحاق بن راشد تفرد به وفي حديثه عن الزهري بعض الوهم (التقريب ١/ ٤٢).

الثاني: هذا المتن منكر لم يصح عن عليﷺ، وأن النهى كان في خبير كما في الصحيح[٢].

الثالث: ليس فيه تصريح بإباحتها، وإنما فيها النهي، ولعله لزيادة التأكيد.

٣- حديث جابر بن عبد اللهﷺ : قَالَ: "خَرَجْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ إِلَى غَزْوَة تَبُوك حَتَّى إِذَا كُنَّا عِنْد الْعَقَبَة مِمَّا يَلِي الشَّام جَاءَتْ نِسْوَة قَدْ كُنَّا تَمَتَّعْنَا بِهِنَّ يَطُفْنَ بِرِحَالِنَا، فَجَاءَ رَسول الله ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: فَغَضِبَ وَقَامَ خَطِيبًا فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَنَهَى عَنْ الْمُتْعَة، فَتَوَادَعْنَا يَوْمئِذٍ فَسُمِّيَتْ ثَنِيَّة الْوَدَاع"[٣].

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الأول: الحديث لا يصح فلا يحتج به.

الثاني: الحديث ليس فيه التصريح بأنه أذن في المتعة، وإنما النهي عنها. ألا تراه غضب لتقدم النهي في ذلك؟ [٤].

الثالث: لعل الذين فعلوا ذلك لم يبلغهم النسخ.

وبعد هذا فقد تبين أن الإباحة في غزوة تبوك لا تصح.

ثالثا: من قال حرمت في غزوة خيبر.

وصح هذا عن علي ﷺ "أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية"[٥].

رابعًا: من قال حرمت عام أوطاس.

---

(١) شرح مسلم للنووي (٥/ ٢٠٠)، وفتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠٧).

(٣) أخرجه الحازمي كما في الفتح (٩/ ٧٤)، وفيه عباد بن كثير، وهو متروك. التقريب (١/ ٢٧٣).

(٤) فتح الباري (٩/ ٧٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥١١٥)، ومسلم (١٤٠٧).

وصح هذا عن سلمة بن الأكوع، قال: رخص رسول ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثًا ثم نهى عنها[١]. ولكن حمل هذا على أنه كان في عام الفتح؛ لأنهما كان في زمن واحد (سنة واحدة) لأن غزوة أوطاس متصلة بفتح مكة[٢].

خامسًا: من قال حرمت في الفتح، وحجة الوداع

ومنشأ الخلاف فيه حديث سبرة بن معبد الجهني فقد جاء عنه في بعض الطرق أن التحريم كان عام الفتح، وفي طرق أخرى أن النهي كان في حجة الوداع، وفي طرق أخرى جاء التحريم غير مؤقت بزمن، وعند الجمع ترجح رواية من روى أن التحريم كان عام الفتح، وحمل من روى بغير زمن على ذلك، وبيانه كالتالي: فعَنْ سَبْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: أَذِنَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِالْمُتْعَةِ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ كَأَنَّهَا بَكْرَةٌ عَيْطَاءُ فَعَرَضْنَا عَلَيْهَا أَنْفُسَنَا فَقَالَتْ: مَا تُعْطِي؟ فَقُلْتُ: رِدَائِي، وَقَالَ صَاحِبِي: رِدَائِي، وَكَانَ رِدَاءُ صَاحِبِي أَجْوَدَ مِنْ رِدَائِي، وَكُنْتُ أَشَبَّ مِنْهُ فَإِذَا نَظَرَتْ إِلَى رِدَاءِ صَاحِبِي أَعْجَبَهَا، وَإِذَا نَظَرَتْ إِلَيَّ أَعْجَبْتُهَا، ثُمَّ قَالَتْ: أَنْتَ وَرِدَاؤُكَ يَكْفِينِي، فَمَكَثْتُ مَعَهَا ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: " مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ النِّسَاءِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهَا"[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٥).

(٢) ابن حبان (٩/ ٤٥٨)، وشرح مسلم للنووي (٥/ ٢٠٠)و فتح الباري لابن حجر (٩/ ٧٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٤)، وزاد المعاد (٣/ ٤٦٢).

(٣) هذا الحديث جاء عن الربيع بن سبرة من طرق:

الطريق الأول: طريق الليث، أخرجه مسلم (١٤٠٦)، والبيهقي (٧/ ٢٠٢)، وأحمد (٣/ ٤٠٥)، والطبراني في (الكبير) (٦٥٢١)، والطحاوي في معاني الآثار (٣/ ٢٥) كلهم عن الليث به بدون تحديد زمن التحريم.

الطريق الثاني: طريق أبي فروة أخرجه الطبراني (٦٥٣٨)، بدون تحديد زمن التحريم، فيه محمد بن ماهان (مجهول).

الطريق الثالث: عمر بن عبد العزيز واختلف عليه في تحديد زمن التحريم فأخرجه النسائي في الكبرى (٥٥٥٤)، والبيهقي (٧/ ٢٠٣)، والطبراني (٦٢٥٦: ٦٥٢٥) من طريق إبراهيم بن أبي عبلة عنه عمر بن عبد العزيز به (بدون تحديد زمن التحريم)، وأخرجه النسائي في الكبرى (٥٥٤٥)، وابن أبي عاصم في

الآحاد والمثاني (٢٥٦٩)، والترمذي في العلل الكبير (٢٧٥)، والطبراني (٦٥٢٧) من طريق جرير بن حازم عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عمر بن عبد العزيز به وفيه (تحديد التحريم يوم فتح مكة).
قلت: والصحيح الأول (بدون تحديد)؛ لأن طريق الزهري لا يصح، قال الترمذي: سألت محمدًا (البخاري) عن هذا الحديث، فقال: هذا خطأ، والصحيح عن الزهري عن الربيع بن سبرة عن أبيه ليس فيه عمر بن عبد العزيز؛ وإنما أتى هذا الخطأ من جرير بن حازم- العلل للترمذي (١٦٢) أضف إلى ذلك عنعنة محمد بن إسحاق وهو مدلس.
الطريق الرابع: عبد الملك بن الربيع، أخرجه مسلم (١٤٠٦)، والطبراني (٦٥٣٩: ٦٥٣٧)، من حديث إبراهيم بن سعد، وأخرجه البيهقي (٧/ ٢٠٢)، من حديث زيد بن الحباب كلاهما (إبراهيم، وزيد) عن عبد الملك به (بتحديد التحريم يوم فتح مكة).
الطريق الخامس: عمارة بن غزية، أخرجه مسلم (١٤٠٦)، وابن حبان (٤١٤٨)، والطبراني (٦٥٢٣)، والبيهقي (٧/ ٢٠٢)، من حديث بشر بن المفضل، وأخرجه مسلم (١٤٠٦)، وأحمد (٣/ ٤٠٥)، وأبو عوانة في مسنده (٤٠٥٦: ٤٠٥٥) من حديث وهيب، وأخرجه الطبراني (٦٥٢٢) من حديث المعمر جميعًا (بشر، وهيب، المعتمر)عن عمارة بن غزية (تحريم يوم فتح مكة).
الطريق السادس: عبد العزيز بن الربيع، أخرجه مسلم (١٤٠٦)، من حديث يحيى بن يحيى، وأخرجه أبو عوانة (٤٠٥٩)، والبيهقي (٧/ ٢٠٣)، من حديث حرملة بن عبد العزيز كلاهما (يحيى، حرملة) عن عبد العزيز به (تحريم يوم فتح مكة).
الطريق السابع: عمرو بن الحارث بتحديد زمن التحريم، أخرجه سعيد بن منصور (٨٤٦)، وأبو عوانة (٤٠٦١)، والطبراني (٦٥٢٤)، كلهم من حديث ابن وهب عن عمرو به (تحريم يوم فتح مكة).
الطريق الثامن: من طريق الزهري، واختلف عليه في تحديد زمن التحريم أيضًا:
١- أخرجه مسلم (١٤٠٦)، من حديث صالح بن كيسان، وابن حبان (٤١٤٦)من حديث عمرو بن الحارث، والطبراني (٦٥٣٣)، من حديث بحر السقاء، والطبراني أيضًا (٦٥٣٤)، من حديث يونس، وأخرجه أبو بكر بن أبي شيبة (٣/ ٣٨٩) من طريق مسلم (١٤٠٦)، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٠٤، ٤٠٥) من حديث إسماعيل بن عليه عن معمر، وأخرجه الحميدي في مسنده (٨٢٦)، وسعيد بن منصور (٨٤٧)، والدارمي (٢١٩٦)، عن سفيان بن عيينة كلهم عن الزهري بتحديد التحريم يوم فتح مكة.
٢- أخرجه أبو داود (٢٠٧٣)ن وأبو عوانة (٢٠٦٤)، والطبراني (٦٥٢٨) من حديث عبد الرزاق، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥٥٤٦) من حديث يزيد زريع كلاهما (عبد الرزاق، يزيد)عن الزهري (بدون تحديد)، وأخرجه مسلم (١٤٠٦) من حديث عمرو الناقد، وابن نمير، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٠٥) جميعًا

وبالنظر إلى حديث سبرة بن معبد الجهني ﷺ من الروايات المتقدمة نرى أن أرجح الروايات من روى أن ذلك كان فى عام الفتح، وهذا ما رجحه أهل العلم وهذا كلامهم:

قال البيهقي: بعد أن ذكر حديث عبد العزيز بن عمر عن الربيع (في حجة الوداع) قال: وكذا رواه جماعة من الأكابر كابن جريج، والثوري، وغيرهما عن عبد العزيز بن عمر، وهو وهم منه، فرواية الجمهور عن الربيع بن سبرة أن ذلك كان عام الفتح. وقال أيضًا: والصحيح رواية الجماعة عن الزهري عام الفتح[1].

وقال ابن القيم: وَاخْتُلِفَ فِي الْوَقْتِ الّذِي حُرّمَتْ فِيهِ الْمُتْعَةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ. . . ذكرها- رحمه الله- ثم قال: وَالرّابِعُ أَنّهُ عَامَ حَجّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ وَهْمٌ مِنْ بَعْضِ الرّوَاةِ سَافَرَ فِيهِ وَهْمُهُ مِنْ فَتْحِ مَكّةَ إلَى حَجّةِ الْوَدَاعِ كَمَا سَافَرَ وَهْمُ مُعَاوِيَةَ مِنْ عُمْرَةِ الْجِعِرّانَةِ إلَى حَجّةِ

(عمرو، ابن نمير، أحمد)عن سفيان بن عيينة عن الزهري (بدون تحديد)، وهذه الروايات تحمل مع من روى عن محمد وسفيان على أنها فى فتح مكة.

٣-أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٤)، وأبو داود (٢٠٧٢) من حديث إسماعيل بن أمية عن الزهري (تحريم يوم حجة الوداع)، فخالف إسماعيل وهو ثقة ثبت، كل هؤلاء عن الزهري، فهذه رواية شاذة كما في (الإرواء) للألباني (١٩٠١).

الطريق التاسع: عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، واختلف عليه

فأخرجه عنه: ١-عبد الله بن نمير، مسلم (١٤٠٦)

٢-عبده سليمان ابن أبي شيبة (٣/ ٣٩٠)

٣-عبد ربه بن سليمان (ثقة) النسائي في الكبرى (٥٥٤٢، ٥٥٤٣)، والطبراني (٨/ ٦٥)

٤-الحميدي في مسنده (٨٤٧)، هؤلاء (بدون تحديد)

وأخرجه عنه: ١-أنس بن عياض (ثقة) شرح معاني الآثار (٣/ ٢٥)

٢-وكيع، أحمد (٣/ ٤٠٥)

٣-جعفر بن عون (صدوق)، الدارمي (٢١٩٥) هؤلاء (بتحديد التحريم يوم حجة الوداع)، والحديث كما ترى فيه خلاف، ولعل هذا الاختلاف من عبد العزيز بن عمر حيث قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطيء، ولذلك ذكره مسلم في الشواهد والمتابعات، وليس في الأصول، راجع إرواء الغليل للألباني (٦/ ٣١٤)

والراجح في الحديث أن التحريم كان في عام الفتح.

(١) السنن الكبرى (٧/ ٢٠٤)، والصغرى (٢/ ٤٤)، ومعرفة السنن (١٠/ ١٦٧) للبيهقي.

الْوَدَاعِ حَيْثُ قَالَ قَصَّرْت عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمِشْقَصٍ عَلَى الْمَرْوَةِ فِي حَجَّتِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَجِّ وَسَفَرُ الْوَهْمِ مِنْ زَمَانٍ إلَى زَمَانٍ وَمِنْ مَكَانٍ إلَى مَكَانٍ وَمِنْ وَاقِعَةٍ إلَى وَاقِعَةٍ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ لِلْحُفَّاظِ فَمَنْ دُونَهُمْ.

وَالصّحِيحُ: أَنّ الْمُتْعَةَ إنّمَا حُرّمَتْ عَامَ الْفَتْحِ. (١)

قال ابن حجر: وأما حجة الوداع فهو اختلاف على الربيع بن سبرة، والرواية عنه بأنها في الفتح أصح وأشهر(٢).

قال القاضي عياض: فيؤخذ من حديثه (سبرة بن معبد) ما اتفق عليه جمهور الرواة ووافقه عليه غيره من الصحابة رضي الله عنهم من النهي عنها يوم الفتح(٣).

وعلى القول بأن النبي ﷺ حرمها في حجة الوداع؛ فليس هذا بمعارض للأحاديث الأخرى؛ وذلك لأن الحديث ليس فيه إباحة المتعة، وإنما هو مجرد النهي عنها كما في بعض الروايات، فلعله ﷺ أراد إعادة النهي ليشيع ويسمعه من لم يسمعه قبل ذلك، وذلك لكثرة من حضرها من الخلائق، فهذا أعم وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِد الْغَائِب، وَلِتَمَامِ الدِّين، وَتَقَرُّر الشَّرِيعَة كَمَا قَرَّرَ غَيْر شَيْء وَبَيَّنَ الْحَلَال وَالْحَرَام يَوْمئِذٍ، وَبَتَّ تَحْرِيم الْمُتْعَة حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ: " إِلَى يَوْم الْقِيَامَة ". (٤)

وبعد هذا: فقد تبين أن الصحيح من ذلك هو أن المتعة كانت مباحة، ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت، ثم حرمها النبي ﷺ يوم الفتح وهو الذي عليه الجمهور، وتحريمها في أوطاس داخل في عام الفتح كما سبق؛ لأنهما في سنة واحدة. وأما عن حجة الوداع، فليس فيها إلا كما قدمنا إعادة النهي وإشاعته.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٥٩).

(٢) فتح الباري (٩/ ٧٥).

(٣) شرح مسلم (٥/ ٢٠١).

(٤) شرح مسلم للنووي (٥/ ٢٠١)، وفتح الباري (٩/ ٧٥)، وتلخيص الحبير (٢/ ١٥٦).

ولهذا قال النووي: وَالصَّوَاب الْمُخْتَار: أَنَّ التَّحْرِيم وَالْإِبَاحَة كَانَا مَرَّتَيْنِ، وَكَانَتْ حَلَالًا قَبْل خَيْبَر، ثُمَّ حُرِّمَتْ يَوْم خَيْبَر، ثُمَّ أُبِيحَتْ يَوْم فَتْح مَكَّة وَهُوَ يَوْم أَوْطَاس لِاتِّصَالِهِمَا، ثُمَّ حُرِّمَتْ يَوْمئِذٍ بَعْد ثَلَاثَة أَيَّام تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا إِلَى يَوْم الْقِيَامَة، وَاسْتَمَرَّ التَّحْرِيم(١).

الشبهة الثامنة: قالوا: إن نكاح المتعة أبيح بالقرآن، والنسخ كان بالسنة، والسنة لا تنسخ القرآن، وبأن النسخ بالسنة حديث آحاد.

و الجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: نكاح المتعة أبيح بالسنة، وليس بالقرآن.

فقد استدلوا على إباحتها بقوله ﷻ: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (النساء: ٢٤)، وقالوا: هي في نكاح المتعة، وهذا ليس بصحيح؛ فإن الآية عند جمهور أهل العلم إنما هي في النكاح الشرعي، وقد قدمنا بيان ذلك فيما سبق.

قال ابن الجوزي: وقد تكلف قوم من مفسّري القُرّاء، فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلُّف لا يُحتاج إليه؛ لأن النبي ﷺ أجاز المتعة، ثم منع منها فكان قوله منسوخًا بقوله. وأما الآية، فإنها لم تتضمّن جواز المتعة. لأنه تعالى قال فيها: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ (النساء: ٢٤)، فدل ذلك على النكاح الصحيح.

قال الزجاج: ومعنى قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ فما نكحتموهن على الشريطة التي جرت، وهو قوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: عاقدين التزويج: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن. ومن ذهب في الآية إلى غير هذا، فقد أخطأ، وجهل اللغة. (٢)

---

(١) شرح مسلم للنووي (٥/ ٢٠١: ٢٠٢).

(٢) زاد المسير (٢/ ٥٤: ٥٣).

الوجه الثاني: على الفرض بأنها أبيحت بالقرآن فقد نسخها القرآن أيضًا.

فقد نسخها قوله سبحان وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (المؤمنون: ٥-٦)، وهذا ما استدلت به عائشة -رضي الله عنها- لما سُئلت عن متعة النساء فقالت: بيني وبينكم كتاب الله وقرأت هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ. . . ﴾ فمن ابتغى وراء ما زوجه الله أو ملكه فقد عدا[(١)]. وأيضًا استدل بها القاسم بن محمد[(٢)].

الوجه الثالث: السنة تنسخ القرآن عند الأصولين[(٣)].

وهذه المسألة فيها خلاف لأهل العلم والراجح ثبوته.

قال الشوكاني: يجوز نسخ القرآن بالسنة المتواترة عند الجمهور كما حكى ذلك عنهم أبو الطيب الطبري وابن برهان وابن الحاجب.

ثم قال ابن حزم: اختلف الناس في هذا بعد أن اتفقوا على جواز نسخ القرآن بالقرآن، وجواز نسخ السنة بالسنة، فقالت طائفة: لا تنسخ السنة بالقرآن، ولا القرآن بالسنة، وقالت طائفة: جائز كل ذلك، والقرآن ينسخ بالقرآن وبالسنة، والسنة تنسخ بالقرآن وبالسنة.

وبهذا نقول وهو الصحيح، وسواء عندنا السنة المنقولة بالتواتر والسنة المنقولة بأخبار الآحاد، كل ذلك ينسخ بعضه بعضًا، وينسخ الآيات من القرآن، وينسخه الآيات من القرآن،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٥)، وعنه البيهقي (٧/ ٢٠٧).

(٢) **صحيح**. تقدم وهو عند عبد الرزاق. (١/ ٥٩)، والأحكام لابن حزم (٢/ ٥١٣: ٥٠٥)، وأصول السرخسي (٢/ ٦٧)، وتفسير ابن عطية (١/ ٣١٧)، ومجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٩٧)، ومزيد تفصيل في المسألة يراجع بحث النسخ.

(٣) الناسخ المنسوخ للنحاس (١/ ٤٢٣: ٤١٦)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (١٠٢: ٩٧)، وأحكام القرآن للجصاص (١/ ٥٩).

وبرهان ذلك ما بيناه في باب الإخبار من هذا الكتاب، من وجوب الطاعة لما جاء عن النبي ﷺ، كوجوب الطاعة لما جاء في القرآن ولا فرق، وأن كل ذلك من عند الله بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾، فإذا كان كلامه وحيًا من عند الله عز وجل، والقرآن وحي، فنسخ الوحي بالوحي جائز؛ لأن كل ذلك سواء في أنه وحي[1].

الوجه الرابع: التحريم بالسنة استفاض، بل كاد أن يصل إلى التواتر، ويؤيده الإجماع على التحريم.

فقد روى أحاديث التحريم جماعة عن النبى ﷺ منهم:

١-علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2].

٢-سبرة بن معبد رضي الله عنه[3].

٣-سلمه بن الأكوع رضي الله عنه[4].

وجاء التحريم عن جماعة من الصحابة منهم:

١ - عبد الله الزبير رضي الله عنه[5].

٢ - ابن عمر رضي الله عنه[6].

أضف إلى ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والإجماع المنقول في تحريم نكاح المتعة، فكيف يقال أنه خبر آحاد، وعلى فرض أنه خبر آحاد، فالحديث إذا صح عن النبي ﷺ، وجب العمل به لا فرق بين متواتر وآحاد.

الوجه الخامس: النكاح غير الشرعي في الكتاب المقدس.

---

(١) الأحكام لابن حزم ١/ ٥٠٥.

(٢) أخرجه البخاري (٥١١٥)، ومسلم (١٤٠٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٠٦).

(٤) أخرجه مسلم (١٤٠٥).

(٥) أخرجه مسلم (١٤٠٦).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٤٠٣٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٩٠)، وسعيد بن منصور (٨٥١).

الرب يأمر بالرذيلة ويوقع الناس في الزنا عقابًا لهم:

سفر صموئيل الثاني (١١٢٠١١: ١٢):

(هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هاأنذا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ).

النبي عاموس يقول لامصيا كاهن بيت إيل:

سفر عاموس (١٦: ٧) (أَنْتَ تَقُولُ: لاَ تَتَنَبَّأْ عَلَى إِسْرَائِيلَ وَلاَ تَتَكَلَّمْ عَلَى بَيْتِ إِسْحَاقَ. ١٧ لِذلِكَ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: امْرَأَتُكَ تَزْنِي فِي الْمَدِينَةِ، وَبَنُوكَ وَبَنَاتُكَ يَسْقُطُونَ بِالسَّيْفِ).

داود وبثشبع سفر صموئيل الثاني (١١/ ٥: ٢) (وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جدًّا. ٣ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ». ٤ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلًا وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥ وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: إِنِّي حُبْلَى.).

سفر أرميا (١٠: ٨) (يقول الرب لِذلِكَ أُعْطِي نِسَاءَهُمْ لآخَرِينَ، وَحُقُولَهُمْ لِمَالِكِينَ، لأَنَّهُمْ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، كُلُّ وَاحِدٍ مُولَعٌ بِالرِّبْحِ. مِنَ النَّبِيِّ إِلَى الْكَاهِنِ، كُلُّ وَاحِدٍ يَعْمَلُ بِالْكَذِبِ).

سفر إشعياء (٣/ ١٧: ١٦) (وَقَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ بَنَاتِ صِهْيَوْنَ يَتَشَامَخْنَ، وَيَمْشِينَ مَمْدُودَاتِ الأَعْنَاقِ، وَغَامِزَاتٍ بِعُيُونِهِنَّ، وَخَاطِرَاتٍ فِي مَشْيِهِنَّ، وَيُخَشْخِشْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ، ١٧ يُصْلِعُ السَّيِّدُ هَامَةَ بَنَاتِ صِهْيَوْنَ، وَيُعَرِّي الرَّبُّ عَوْرَتَهُنَّ.).

الرب يحث على اختطاف بنات شيلوه واغتصابهن:

سفر القضاة (٢١/ ٢٠) (وَأَوْصَوْا بَنِي بَنْيَامِينَ قَائِلِينَ: «امْضُوا وَاكْمِنُوا فِي الْكُرُومِ. [٢١] وَانْظُرُوا. فَإِذَا خَرَجَتْ بَنَاتُ شِيلُوهَ لِيَدُرْنَ فِي الرَّقْصِ، فَاخْرُجُوا أَنْتُمْ مِنَ الْكُرُومِ وَاخْطِفُوا لأَنْفُسِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَتَهُ مِنْ بَنَاتِ شِيلُوهَ، وَاذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ بَنْيَامِينَ.).

الرب يأمر هوشع أن يأخذ لنفسه امرأة:

وفي سفر هوشع (١/ ٣: ٢) (إني ولا تتساءل إذا كان هذا تشجيعًا للزانيات أن يتمادين في بغائهم فإن الرب سينصفهن وسيزوجهن من أنبياء وقضاة) (أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى، لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ». [٣] فَذَهَبَ وَأَخَذَ جومَرَ بِنْتَ دِبْلاَيِمَ، فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا).

يهوذا جد المسيح يزني بكنته ثامار (أوجه ابنه):

سفر التكوين (١٥: ٣٨): فَنَظَرَهَا يَهُوذَا وَحَسِبَهَا زَانِيَةً، لأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهَا. [١٦] فَمَالَ إِلَيْهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ: «هَاتِي أَدْخُلْ عَلَيْكِ». لأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا كَنَّتُهُ. فَقَالَتْ: «مَاذَا تُعْطِينِي لِكَيْ تَدْخُلَ عَلَيَّ؟ » [١٧] فَقَالَ: «إِنِّي أُرْسِلُ جَدْيَ مِعْزَى مِنَ الْغَنَمِ». فَقَالَتْ: «هَلْ تُعْطِينِي رَهْنًا حَتَّى تُرْسِلَهُ؟ ». [١٨] فَقَالَ: «مَا الرَّهْنُ الَّذِي أُعْطِيكِ؟ » فَقَالَتْ: خَاتِمُكَ وَعِصَابَتُكَ وَعَصَاكَ الَّتِي فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهَا وَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَحَبِلَتْ مِنْهُ. وَلَمَّا كَانَ نَحْوُ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ، أُخْبِرَ يَهُوذَا وَقِيلَ لَهُ: «قَدْ زَنَتْ ثَامَارُ كَنَّتُكَ، وَهَا هِيَ حُبْلَى أَيْضًا مِنَ الزِّنَا.

سفر صمويل الثاني (٢٣/ ٢٣: ١) (وَجَرَى بَعْدَ ذلِكَ أَنَّهُ كَانَ لأَبْشَالُومَ بْنِ دَاوُدَ أُخْتٌ جَمِيلَةٌ اسْمُهَا ثَامَارُ، فَأَحَبَّهَا أَمْنُونُ بْنُ دَاوُدَ. [٢] وَأُحْصِرَ أَمْنُونُ لِلسُّقْمِ مِنْ أَجْلِ ثَامَارَ أُخْتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَذْرَاءَ، فنصحه أحد زملائه يُونَادَابُ: «اضْطَجِعْ عَلَى سَرِيرِكَ وَتَمَارَضْ. وَإِذَا جَاءَ أَبُوكَ لِيَرَاكَ فَقُلْ لَهُ: دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي فَتَأْتِيَ وَتُطْعِمَنِي خُبْزًا، وَتَعْمَلَ أَمَامِي الطَّعَامَ لأَرَى فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا». [٦] فَاضْطَجَعَ أَمْنُونُ وَتَمَارَضَ، فَجَاءَ الْمَلِكُ لِيَرَاهُ. فَقَالَ أَمْنُونُ لِلْمَلِكِ: دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي فَتَأْتِيَ وَتَصْنَعَ أَمَامِي كَعْكَتَيْنِ فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا. فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى ثَامَارَ إِلَى الْبَيْتِ قَائِلًا: اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ أَمْنُونَ أَخِيكِ وَاعْمَلِي لَهُ طَعَامًا. ثُمَّ قَالَ أَمْنُونُ لِثَامَارَ: «إِيتِي بِالطَّعَامِ

إِلَى الْمِخْدَعِ فَآكُلَ مِنْ يَدِكِ. فَأَخَذَتْ ثَامَارُ الْكَعْكَ الَّذِي عَمِلَتْهُ وَأَتَتْ بِهِ أَمْنُونَ أَخَاهَا إِلَى الْمِخْدَعِ. [١١] وَقَدَّمَتْ لَهُ لِيَأْكُلَ، فَأَمْسَكَهَا وَقَالَ لَهَا: تَعَالَيِ اضْطَجِعِي مَعِي يَا أُخْتِي. [١٢] فَقَالَتْ لَهُ: «لاَ يَا أَخِي، لاَ تُذِلَّنِي لأَنَّهُ لاَ يُفْعَلُ هكَذَا فِي إِسْرَائِيلَ. لاَ تَعْمَلْ هذِهِ الْقَبَاحَةَ. أَمَّا أَنَا فَأَيْنَ أَذْهَبُ بِعَارِي فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَسْمَعَ لِصَوْتِهَا، بَلْ تَمَكَّنَ مِنْهَا وَقَهَرَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا. فخرجت صارخة فقال لها أخوها أبشالوم فالآن يا أختي اسكتي أخوك هو نبي الله حزقيال يشجع النساء على الزنا والفجور).

(حزقيال / ٣٤-٣٣: ١٦) شكيم يزني وبنيهك شرف ابنه بنى الله يعقوب أدينه (١: ٣٤) بين الله أو بين يزنى بزوجه أبيه بلهه.

(تكوين ٤-٣: ٤٩؛ ٢٢: ٣٥) شمشون يذهب إلى غزه ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها (قضاه ١: ١٦) لوط يسكر ويزنى بابنتيه: تكوين (٣٨-٣٠: ١٩٩).

داود لا ينام إلا في حضن امرأة عذراء

ملوك الأول (٤-١: ١) شاول يزوج ابنته زوجة داود من شخص آخر وهى لم تطلق من زوجها الأول، أي يدفعها للزنا صموئيل (١٦-١٤: ٣) صموئيل الأول (٤٤: ٢٥) نبي الله إبراهيم يتزوج أخته لأبيه تزوج بني اللهي إبراهيم عليه السلام من سارة وهى أخته من أبيه تكوين (١٢: ٢٠) على الرغم من أن سفر اللاويين (١٢: ١٨٩): "يحرم الزواج من الأخت الآب آه ألأم عوده أخت أبيك لا تكشف إنها قريبة أبيك نبي الله يعقوب يجمع بين الأختين فقد تزوج ليئة وراحيل الأختين وأنجب منها" تكوين (٣٠-٢٣: ٢٩)، ويحرم سفر اللاويين الجمع بين الأختين اللاويين (١٨: ١٨).

إذا كان كل هذا الفساد في كتابكم المقدس، فكيف تعيبون على الإسلام أمر المتعة ولم تعلموا ضابطها ونسخها في الإسلام؟.

* * *

٣- شبهة: الملاعنة بين الزوجين.

نص الشبهة:

جاء في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٦) وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٧) وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٨) وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (النور: ٦-٩)

والسؤال: لماذا كانت شهادة الأزواج الذين يرمون زوجاتهم أربع شهادات؟! ويقول: ﴿لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لماذا لا يقول: يجلد أو تجلد؟ إننا نسمع كلمة (لعنة الله عليه) مئات المرات حولنا، فيمكن للزوج أن يفترى على زوجته ويُقبل ذلك بكلمة: ﴿لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ أي: بلعنه نفسه؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معرفة أصل الحكم في القضايا بين الناس في الإسلام- سواء كانت قضايا أسرية أو غيرها- وطرق إثباتها.

الوجه الثاني: فقه اللعان.

الوجه الثالث: سبب النزول، وتفسير آيات اللعان.

الوجه الرابع: لماذا تقع الملاعنة بين الزوجين دون غيرهما؟.

الوجه الخامس: الحكمة من مشروعية الملاعنة.

الوجه السادس: موقف التوراة والإنجيل من زنا الزوجة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معرفة أصل الحكم في القضايا بين الناس في الإسلام - سواء كانت قضايا أسرية أو غيرها- وطرق إثباتها.

إن وظيفة القضاء في الإسلام تختلف نوعًا ما عن نظيره في النظام الوضعي، فالمتهم مثلًا في القوانين الوضعية بريء حتى تثبت إدانته، فإذا لم تثبت إدانته فهو بريء حتى ولو كان مجرمًا

محترفًا، فالعبرة هنا بالحقيقة القضائية لا الحقيقة الواقعية، ومن ثَمَّ الضبطية القضائية.

أما في التشريع القرآني فليست العبرة فقط بهذه الضبطية القضائية، ولكن بضمير الإنسان نفسه أي: التقوى. أي: أن تحقيق العدل عملية مركبة لا تتوقف فقط على ضمير القاضي وورعه- خاصة إذا علمنا أن القاضي الشرعي أيضًا يحكم باسم المجتمع لا باسم الله رغم قيامه بوظيفة من وظائف الله على الأرض- وإنما بنصيب وافر على نزاهة الخصوم، مما يضاعف من دور القاضي في إعمال تزكية الخصوم، وذلك بحثِّ الخصوم على تقوى الله وخشيته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٥٣) وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

وذلك يعكس الفهم السليم لعمل القاضي الشرعي وإظهار دوره بأمر يتعلق بجانب مهم جدًّا ذي صلة قوية بالمدنية الحديثة ألا وهو الجانب المالي وهو يستصحب أثر الرسول ﷺ الذي ربَّى أصحابه على حرية الرأي، واستقلال الإرادة، وقوة الشخصية مما يمكنه من تحليل الأمور، واقتراح العلاج المناسب عند القضاء والتشريع.

طرق الإثبات: ليس للبينات عدد يحصرها، وإنما المدار فيها على ثبوت الحق وإظهاره، فكل ما يؤدي إلى معرفة الحق، وإقامة العدل، وإشاعة الأمن - فهو بينة متى كان متفقًا مع أحكام الشريعة الإسلامية، ومبادئها العامة، وقواعدها الكلية، ويحقق مقاصدها، ولا شك أن القول بهذا يفتح ميادين واسعة للاستفادة من كل ما توصل إليه الفكر البشري من تجربة ومخترعات، ومكتشفات، الأمر الذي يوجب على رجال القضاء وأجهزة الأمن وسلطات التحقيق - التوجه نحو الاستفادة من الوسائل العلمية الحديثة في سبيل مكافحة الجريمة وكشفها وإثباتها، طالما أن المجرمين بدورهم قد طوعوا هذه الوسائل لخدمة مخططاتهم الإجرامية، فليس من العدالة حرمان الأجهزة المسئولة عن أمن المجتمع وطمأنينته من الأخذ بها.

ومن طرق الإثبات ما يلي:

١- البينة، وهي: كُل مَا يُبَيِّنُ الْحَقَّ وَيُظْهِرُهُ فيَكُونُ دَلِيلًا يَقْضِي بِهِ الْقَاضِي وَيَبْنِي عَلَيْهِ حُكْمَهُ.

٢-الإقرار، وهو: سيد الأدلة إذا كان صادرًا عن طواعية واختيار واعتراف بالمسئولية وارتكاب المخالفة.

٣- الشهادة، وتتفاوت مراتبها على أحوال عدة، فيكتفي أحيانًا بشاهد واحد لإثبات هلال رمضان، أو امرأة واحدة فيما لا يطَّلع عليه إلا النساء كالإرضاع، وإثبات النسب، والبكارة أو الثيبوبة، أو شاهد ويمين في إثبات الحق في الأموال، أو شهادة رجلين في إثبات الأهلة عدا رمضان، أو رجل وامرأتان في إثبات الحقوق في الذمم، أو شهادة ثلاثة رجال في إثبات الإعسار أو حصول الجوائح، أو شهادة أربعة رجال في إثبات جريمة الزنا، أو أداء أربعة إيمان والدعاء على نفسه باللعنة إن كان من الكاذبين، والدعاء على نفسها بغضب الله إن كان من الصادقين في قضية اللعان.

٤- اليمين، وهو فيما إذا عجز المدعي عن البينة، فيكتفي بيمين المدعى عليه.

٥- النكول عن اليمين، ويعد حجة في إثبات الحق في ذمة المدعى عليه.

٦- القسامة، تعد القسامة بينة في إثبات الدعوى على الجاني، والقسامة خمسون يمينًا يؤديها أولياء الدم.

٧ – العرف، فللعرف تأثير في تعيين الشيء الذي تنازع عليه المتخاصمان ولو تغيرت العادة وزال هذا العرف مع الزمن يزول معه هذا الأثر. (١)

الوجه الثاني: فقه اللعان.

أولًا: معناه لغة: الملاعنة واللعان: المباهلة. (٢)

الملاعنة بضم الميم وفتح العين مفاعلة من لاعن: لعن كل واحد الآخر–شهادات

---

(١) ندوة القضاء الشرعي في العصر الحاضر الواقع والمأمول الفترة الواقعة في ربيع الأول ١٤٢٧هـ- بتصرف.

(٢) مختار الصحاح باب اللام (١/ ٦١٢).

مؤكدات بأيمان مقرونة باللعن قائمة مقام حد القذف في حق الرجل. [١]

واللَّعْنُ: الإِبْعادُ والطَّرْد من الخير، وقيل: الطَّرْد والإِبعادُ من الله، ومن الخَلْق السَّبُّ والدُّعاء[٢].

ثانيًا: **معنى الملاعنة شرعًا**: شَهَادَاتٌ مُؤَكَّدَاتٌ بِالْأَيْمَانِ مَقْرُونَةٌ بِاللَّعْنِ قَائِمَةٌ مَقَامَ حَدِّ الْقَذْفِ فِي حَقِّهِ وَمَقَامَ حَدِّ الزِّنَا فِي حَقِّهَا[٣].

أو: كَلِمَاتٌ مَعْلُومَةٌ جُعِلَتْ حُجَّةً لِلْمُضْطَرِّ إِلَى قَذْفِ مَنْ لَطَّخَ فِرَاشَهُ وَأَلْحَقَ الْعَارَ بِهِ أَوْ إِلَى نَفْيِ وَلَدٍ[٤].

ثالثًا: **متى يُشرع؟**

يَجِبُ اللِّعَانُ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ مُجْمَعٍ عَلَيْهِمَا: أَنْ يَدَّعِيَ رُؤْيَةَ زِنَاهَا كَالْمِرْوَدِ فِي الْمُكْحُلَةِ، ثُمَّ لَمْ يَطَأْ بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ يَنْفِي حَمْلًا قَبْلَهُ اسْتِبْرَاءً فِي نِكَاحِهِ وَإِلَّا حُدَّ[٥].

رابعًا: **شروط اللعان**:

١ - كونه بين زوجين مكلفين لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ (النور: ٦) فلا لعان بقذف أمة ولا حد، وأما اعتبار التكليف فلأن قذف غير المكلف لا يوجب حدًا، واللعان إنما وجب لإسقاط الحد.

٢ - أن يتقدمه قذفها بالزنا ولو في دبر؛ لأنه قذف يجب به الحد، ولا فرق بين الأعمى والبصير لعموم الآية.

٣ - أن تكذبه الزوجة في قذفها ويستمر تكذيبها إلى انقضاء اللعان. [٦]

خامسًا: **بم يثبت اللعان؟**

---

(١) معجم الفقهاء (٢/ ٥٧).

(٢) لسان العرب مادة (لعن) (١٣/ ٣٨٧).

(٣) فتح القدير (١٠/ ٧٠)، وشرح منتهى الإيرادات (٩/ ١٤٧).

(٤) أسنى المطالب (١٧/ ٢٩٧).

(٥) التاج والإكليل لمختصر خليل (٦/ ١٨٩).

(٦) منار السبيل (٢/ ١٨٥)

يثبت بالزنا بنفي الولد، أو بغير نفي الولد[١]، ويثبت كذلك بالبينة. [٢]

ويثبت اللعان بأمرين:

١-قذف الزوج للزوجة بالزنا ولإقراره بذلك أمام القاضي.

٢-إقامة المرأة البينة على أن زوجها قذفها بالزنا، وقد يكون اللعان لنفي الولد وإثبات أنه ليس منه، وإنما هو ابن زنا.

سادسًا: كيفية اللعان: وَاللِّعَانُ الَّذِي يَبْرَأُ بِهِ مِنْ الْحَدِّ أَنْ يَقُولَ الزَّوْجُ بِمَحْضَرٍ مِنْ الْحَاكِمِ: أَشْهَدُ بِالله لَقَدْ زَنَتْ، وَيُشِيرَ إلَيْهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَاضِرَةً سَمَّاهَا، وَنَسَبَهَا، حَتَّى يُكْمِلَ ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يُوقَفُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ، وَيُقَالُ لَهُ: اتَّقِ الله، فَإِنَّهَا الْمُوجِبَةُ، وَعَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ. فَإِنْ أَبَى إلَّا أَنْ يُتِمَّ، فَلْيَقُلْ: وَلَعْنَةُ الله عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنْ الزِّنَا، وَتَقُولُ هِيَ: أَشْهَدُ بِالله لَقَدْ كَذَبَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ تُوقَفُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ، وَتُخَوَّفُ كَمَا خُوِّفَ الرَّجُلُ، فَإِنْ أَبَتْ إلَّا أَنْ تُتِمَّ فَلْتَقُلْ: وَغَضَبُ الله عَلَيْهَا إنْ كَانَ مِنْ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَانِي بِهِ مِنْ الزِّنَا[٣].

سابعًا: الآثار المترتبة على اللعان: يترتب على اللعان بين الزوجين أمام القاضي الآثار التالية:

١ - سقوط حد القذف أو التعزير عن الزوج، وسقوط حد الزنا عن الزوجة، فإن لم يلاعن الرجل وجب عليه عند غير الحنفية حد القذف إن كانت الزوجة الملاعنة محصنة، والتعزير إن كانت غير محصنة، وإن لم تلاعن المرأة وجب عليها عند الشافعية والمالكية حد الزنا من جلد البكر ورجم المحصنة (المتزوجة).

٢- تحريم الوطء والاستمتاع بعد التلاعن من كلا الزوجين، ولو قبل تفريق القاضي،

(١) انظر بدائع الصنائع (٨/ ٥٥٠).

(٢) والبينة هي: الإقرار أو شهادة رجلين، ولا تقبل فيه شهادة النساء.

(٣) المغني (٩/ ٦٠).

لحديث: "المتلاعنان لا يجتمعان أبدًا". [١]

٣- وجوب التفريق بينهما: لا تتم الفرقة عند الحنفية إلا بتفريق القاضي، لقول ابن عباس في قصة هلال بن أمية: (ففرَّق النبي ﷺ بينهما)، وهذا يقتضي أن الفرقة لم تحصل قبله، فلو مات أحدهما قبل التفريق ورثه الآخر، ولو طلقها الزوج وقع طلاقه.

وقال المالكية والحنابلة في الراجح من الروايتين عن أحمد: تقع الفُرقة باللعان دون حكم حاكم؛ لأن سبب الفرقة وهو اللعان قد وجد، فتقع الفرقة به من غير حاجة إلى تفريق القاضي، ولقول عمر ﷺ: (المتلاعنان يفرق بينهما، ولا يجتمعان أبدًا).

وقال ابن قدامة في المغني: قال الشافعي: تَحْصُلُ الْفُرْقَةُ بِلِعَانِ الزَّوْجِ وَحْدَهُ، وَإِنْ لَمْ تَلْتَعِنْ الْمَرْأَةُ؛ لِأَنَّهَا فُرْقَةٌ حَاصِلَةٌ بِالْقَوْلِ، فَتَحْصُلُ بِقَوْلِ الزَّوْجِ وَحْدَهُ، كَالطَّلَاقِ.

وعقب ابن قدامة على قول الإمام الشافعي بقوله: وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا وَافَقَ الشَّافِعِيَّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ[٢]، وإذا كان الطلاق بائنًا وجب للمرأة النفقة والسكنى في عدتها، ويثبت نسب ولدها إلى سنتين إن كانت معتدة، وإن لم تكن معتدة فإلى ستة أشهر[٣].

فوائد: الأولى: لماذا كان اللعان من جانب الزوج دون الزوجة؟

فإن اللعان خاص بالأزواج دون الزوجات، ووجه ذلك: أن الله ﷻ لما جعل في نفوس الرجال حبًا للزوجات غالبًا وغَيْرةً عليهن وعدم احتمال رؤية الزنا بهن؛ دفع عنهم حد القذف بما شرع لهم وخصهم به من الملاعنة، ويبين هذا أنه لما نزلت آيات القذف وتقرر حد القاذف اشتد الأمر على الأزواج الذين يعثرون على ريبة في زوجاتهم فأنزل الله ﷻ آيات الملاعنة

(١) أخرجه أبو داود (١٨١٩) بلفظ: "مضت السنة بعد في المتلاعنين أن يفرق بينهما ثم لا يجتمعان"، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٦٥).

(٢) المغني لابن قدامة (١٧/ ٣٦٩).

(٣) انظر غير مأمور في ذلك الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٢/ ١١٣).

تخصص عموم المحصنات اللاتي يحد من رماهن ولم يأت بأربعة شهداء. وإن من المعلوم أن زنا الزوجة يلحق زوجها به من العار والذم وخلط أولاده بغيرهم ما لا يلحقها هي بزناه.

وعلة ذلك هو: أن في نفوس الأزواج وازعًا يزعهم عن أن يرموا نساءهم بالفاحشة كذبًا وهو وازع التعيير من ذلك ووازع المحبة في الأزواج غالبًا، ولذلك سمى الله ادعاء الزوج عليها باسم الشهادة بظاهرة الاستثناء في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ وفي نفوسهم من الغيرة عليهن ما لا يحتمل معه السكوت على ذلك، وكانوا في الجاهلية يقتلون على ذلك، وكان الرجل مصدقًا فيما يدعيه على امرأته، وقد قال سعد بن عبادة: لو وجدت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصفِح، ولكن الغيرة قد تكون مفرطة وقد يذكيها في النفوس تنافس الرجال في أن يشتهروا بها، فمنع الإسلام من ذلك، إذ ليس من حق أحد إتلاف نفس إلا الحاكم، ولم يقرر جعل أرواح الزوجات تحت تصرف مختلف نفسيات أزواجهن[1].

الثانية: لم اختير لفظ اللعن مع الرجل دون المرأة؟

واختير لفظ اللعن على لفظ الغضب - وإن كانا مذكورين في الآية- لتقدمه فيهما ولأن جانب الرجل فيه أقوى من جانب المرأة؛ لأنه قادر على الابتداء باللعان دونها ولأنه قد ينكف لعانه عن لعانها ولا ينعكس، واختصت المرأة بالغضب لعظم الذنب بالنسبة إليها؛ لأن الرجل إن كان كاذبًا لم يصل ذنبه إلى أكثر من القذف، وإن كانت هي كاذبة؛ فذنبها أعظم لما فيه من تلويث الفراش، والتعرض لإلحاق من ليس من الزوج به، فتنتشر المحرمية وتثبت الولاية والميراث لمن لا يستحقهما، وجُوِّز اللعان لحفظ الأنساب، ودفع المعرة عن الأزواج. وأجمع العلماء على صحته، وتخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادّته، ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة، ومع استكثارهنّ منه لا يكون له في قلوبهنّ كبير موقع بخلاف الغضب[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٨٧٨).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٩٠).

الثالثة: هل اللعان طلاق أم فسخ؟

وفُرقة اللعان فسخ. وبهذا قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: هي طلاق؛ لأنها فرقة من جهة الزوج تختص النكاح فكانت طلاقًا كالفرقة بقوله: أنت طالق، ولنا أنها فرقة توجب تحريمًا مؤبدًا فكانت فسخًا كفرقة الرضاع، ولأن اللعان ليس بصريح في الطلاق ولا نوى به الطلاق فلم يكن طلاقًا كسائر ما ينفسخ به النكاح، ولأنه لو كان طلاقًا لوقع بلعان الزوج دون لعان المرأة. (1)

وقال الشوكاني: ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إلَى أَنَّهُ فَسْخٌ، وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَرِوَايَةٌ عَنْ مُحَمَّدٍ إلَى أَنَّهُ طَلَاقٌ(2).

الرابعة: عدة اللعان.

وَكُلّ فُرْقَةٍ بَيْنَ زَوْجَيْنِ فَعِدَّتُهَا عِدَّةُ الطَّلَاقِ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِخُلْعٍ، أَوْ لِعَانٍ، أَوْ رَضَاعٍ، أَوْ فَسْخٍ بِعَيْبٍ، أَوْ إعْسَارٍ، أَوْ إعْتَاقٍ، أَوْ اخْتِلَافِ دِينٍ، أَوْ غَيْرِهِ، فِي قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عِدَّةَ الْمُلَاعَنَةِ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ.

وَأَبَى ذَلِكَ سَائِرُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَالُوا: عِدَّتُهَا عِدَّةُ الطَّلَاقِ؛ لِأَنَّهَا مُفَارِقَةٌ فِي الْحَيَاةِ، فَأَشْبَهَتْ الْمُطَلَّقَةَ. (3)

الوجه الثالث: سبب النزول، وتفسير آيات اللعان.

أولًا: سبب نزول الآية الكريمة.

عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: البينة أو حد في ظهرك، فقال: يا رسول الله، إذا رأي أحدنا مع امرأته رجلًا ينطلق يلتمس

(1) المغني (١٧/ ٣٢٧).

(2) نيل الأوطار (١٠/ ٣٤٧)، وقال الألباني: "المتلاعنان إذا تفرقا لا يجتمعان أبدًا "(صحيح). ، والحديث صالح للاحتجاج به على أن فرقة اللعان إنما هي فسخ، وهو مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما، وذهب أبو حنيفة إلى أنه طلاق بائن، والحديث يرد عليه، وبه أخذ مالك أيضًا والثوري وأبو عبيدة وأبو يوسف. وهو الحق الذي يقتضيه النظر السليم في الحكمة من التفريق بينهما على ما شرحه ابن القيم رحمه الله تعالى في زاد المعاد، وإليه مال الصنعاني في سبل السلام. انظر: السلسلة الصحيحة (٥/ ٥٩٨).

(3) المغني لابن قدامة (١٧/ ٤٠٠).

البينة؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول: البيِّنة أو حد في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

ثانيا: تفسير الآية.

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة فيها فَرَج للأزواج وزيادة مخرج؛ إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله ﷻ، وهوأن يحضرها إلى الإمام، فيدَّعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما رماها به من الزنا ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبدًا، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ ولهذا قال: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ يعني: الحد ﴿أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يقدم على فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه[2].

وقال الشيخ مصطفى العدوى: وهذه أيضًا إحدى الاستثناءات من الآية العامة التي تقدمت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ (النور: ٤) فقد استثني منها الزوج

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ١٤).

مع زوجته، ولكن إذا رمت المرأة زوجها بالزنا فالراجح أنها لا تلاعنه؛ إذ من أسباب الملاعنة: نفي الولد، وهذا شيء لا يتعلق بالمرأة بل تأتي بالشهود أو يقام عليها الحد. [١]

الوجه الرابع: لماذا تقع الملاعنة بين الزوجين دون غيرهما؟

قال الفخر الرازي: إنما اعتبر الشرع اللعان في الزوجات دون الأجنبيات لوجهين:

أ- أنه لا معرّة على الرجل في زنا الأجنبية والأولى له سترهُ، أما زنا الزوجة فيلحقه العار والنسب الفاسد فلا يمكنه الصبر عليه.

ب- إن الغالب المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته أنه لا يقصدها بالقذف إلا عن حقيقة، فإذا رماها فنفس الرمي يشهد بكونه صادقًا إلا أن شهادة الحال ليست بكاملة فضم إليها ما يقويها من الأيمان. [٢]

وقال السعدي: وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته دارئة عنه الحد؛ لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته التي يدنسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقًا، ولأن له في ذلك حقًا وخوفًا من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحِكم المفقودة في غيره فقال: نهى شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو[٣].

الوجه الخامس: الحكمة من نزول آيات اللعان.

وهذه الآيات فيها رحمة من الله تبارك وتعالى بعباده؛ لأن النساء يختلفن في العفة والبُعد عن الوقوع في الفاحشة، فلو أن الله تبارك وتعالى أوقف الزوج بين الخيارات الثلاثة: بين أن يَقْتُل فيُقْتَل، وبين أن يسكت على الغيظ، وبين أن يقذف فيُجْلَد الحد، والعياذ بالله! لكان في ذلك من البلاء ما لا يعلمه إلا الله، فنزلت هذه الآيات رحمة من الله بعباده، ولطفًا من الله

---

(١) سلسلة التفسير للعدوي (٣٣/ ٧).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٥٩).

(٣) تفسير السعدي (٥٦٢).

بخلقه، ولذلك قال العلماء: إن الغالب في الزوج أن لا يقدم على تهمة زوجته إلا إذا كان عنده ما يوجب ذلك، فلا يعقل أن الإنسان يفسد فراشه وينفي ولده إلا وهو معتمد على دليل، ولذلك كان هذا الحكم من الشرع قمةً في السوية والعدالة، ذلك أن الله ﷻ لو قال لنبيه أو أوحى لنبيه: أن اقبل قذف الأزواج، وأقم على الزوجات الحد مطلقًا لكان في ذلك ضرر بالزوجات، ولفُتِح باب انتقام الأزواج من زوجاتهم، ولو قال بالعكس: لا تَقْبَل شهادة الزوج مطلقًا، وأقم عليه حد القذف لكان في ذلك من الضرر بالرجال ما لا يعلمه إلا الله، ولكنَّ الله ﷻأقام الميزان العدل، فأمره أن يقيم هذه الشهادة، وهي شهادات اللعان؛ خمس من الزوج، وخمس من الزوجة بالغة في النكال والعقوبة والعياذ بالله، يُوقف عند الخامسة فيُذكَّر بالله ﷻ، وتُوقف المرأة عند الخامسة فتذكر بالله ﷻ، وكل يمين من هذه الخمس بمثابة الشاهد، فما أنسبه من حكم! وما أعدله من شرع!. (١)

وفي هذه النصوص تيسير على الأزواج، يناسب دقة الحالة وحرج الموقف. ذلك حين يطلع الزوج على فعلة زوجته، وليس له من شاهد إلا نفسه، فعندئذ يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق في دعواه عليها بالزنا، ويحلف يمينًا خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وتسمى هذه شهادات؛ لأنه الشاهد الوحيد، فإذا فعل أعطاها قدر مهرها، وطلقت منه طلقة بائنة، وحق عليها حد الزنا وهو الرجم، ذلك إلا أن ترغب في درء الحد

---

(١) تفسير سورة النور للشنقيطي (٣/ ٢٦).

قلت: وخلاصة ما تقدم من حكمة مشروعية اللعان: أن الله لم يجعل الحكم في ذلك الجلد أو الرجم؛ لأن اللعان خاص بالزوجين، وأن الزوج له حالات ثلاث:

أ-أن يقتل زوجته، فيقتل بها قصاصًا حكمًا بالظاهر وتوكل سريرته إلى الله.

ب-إذا عجز عن الإتيان بأربعة شهود يحد حد القذف.

ج- أن يلاعن زوجته وتحق عليه اللعنة إن كان كاذبًا، ويحق غضب الله عليها إن كانت كاذبة، ويفرق بينهما، ولا يلحقه نسب الولد، ثم نزيد فنقول للمعترض: كيف تستدل علينا بشيء أنت تنكره؟ قديمًا أنكرت الجلد فكيف تستدل به الآن؛ واستبشعت الرجم من قبل فالآن نقول لك: (أثبت العرش ثم انقش)، وانظر تفسير القشيري (٥/ ٣٠٥).

عنها؛ فإنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات إنه كاذب عليها فيما رماها به، وتحلف يمينًا خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقًا وهي كاذبة؛ بذلك يدرأ عنها الحد، وتبين من زوجها بالملاعنة، ولا ينسب ولدها إن كانت حاملًا إليه بل إليها، ولا يقذف الولد ومن يقذفه يحد، وقد عقب على هذا التخفيف والتيسير، ومراعاة الأحوال والظروف بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾. ولم يبين ما الذي كان يكون لولا فضل الله ورحمته بمثل هذه التيسيرات وبالتوبة بعد مفارقة الذنوب لم يبينه ليتركه مجملًا مرهوبًا يتقيه المتقون، والنص يوحي بأنه شر عظيم.[1]

وَلَوْلاَ تَفَضُّلُ الله تَعَالَى، وَلَوْلاَ رَحْمَتُهُ بِكُمْ يَا أَيُّها المُؤْمِنُونَ فِي قَبُول تَوْبَتِكُم فِي كُلِّ آنٍ، وَأَنَّهُ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ، وَفِعْلِهِ، وَحُكْمِهِ، وَمِنْهَا مَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ اللِّعَانِ، لَفَضَحَكُمْ، وَلَعَاجَلَكُمْ بالعُقُوبَةِ، وَلَكِنَّهُ سَتَرَ عَلَيْكُمْ، وَدَفَعَ عَنْكُم الحَدَّ باللِّعَانِ، إِذْ لَوْ لَمْ يَشْرَعْ ذَلِكَ لَوَجَبَ عَلَى الزَّوْجِ حَدُّ القَذْفِ، مَعَ أَنَّ قَرَائِنَ الأَحْوَالِ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ؛ لأَنَّهُ لاَ يَفْتَرِي عَلَى زَوْجَتِهِ؛ لأَنَّهُمَا مُشْتَرِكانِ فِي الفَضِيحَةِ.

وَلَوْ جَعَلَ شَهَادَةَ الرَّجُلِ مُوجِبَةً لِحَدِّ الزنا وَحْدَهَا لَكَثُرَ افْتِراءُ الأَزْوَاجِ عَلى زَوْجَاتِهِمْ لِضَغِينَةٍ قَدْ تَكُونُ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ جَعَلَ شَهَادَاتِ كُلٍّ مِنْ الزَّوْجَيْنِ مَعَ الجَزْمِ بِكَذِبِ الآخَرِ تَدْرَأُ عَنْهُ العُقُوبَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ[2].

ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك (اللعان) لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما في الفضاحة، وبعد ما شرع لهم لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر إليها، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة، فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتمًا دارئة لما

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٤).

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد (١/ ٢٦٨١).

توجه إليه من الغائلة الدنيوية، وقد ابتلى الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأطم، وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى؛ أما على الصادق فظاهر، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبئ عنه التعرض لعنوان توابيته تعالى، فسبحانه ما أعظم شأنه! وأوسع رحمته! وأدق حكمته! قاله شيخ الإسلام[(١)].

الوجه السادس: موقف التوراة والإنجيل من زنا الزوجة.

عند النصارى يحرم الطلاق إلا لعلة الزنا فقط: ففي متى (٥/ ٣٢): (وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي.)، ومعنى ذلك: أن المرأة التي تريد الطلاق في المسيحية ليس أمامها إلا الرضوخ للحياة الكئيبة التي تحياها مع رجل تكرهه تكيد له ويكيد لها، ويتمنى كل منهما التخلص من الآخر، أو على الأقل موت الآخر، أو أنها تزني في بيت الزوجية ليضبطها زوجها فيقتلها، أو يأتي بشهود عليها ليتخلص منها، وقد يأتي الرجل بشهود زور ليشهدوا على زوجته بالزنا دون وقوعه ليتمكن من طلاقها، فأين بناء الأسرة في ظل جو المشاحنات، والكيد، والكره الذي يملأ البيت! هل عدم الطلاق أو تعليقه على شرط الزنا يقيم أسرة قويمة نفسيًا أو أخلاقيًا؟ وهل هذا من صالح المجتمع الذي يعيش فيه النصارى؟ [(٢)].

ويظهر من تعاليم الإنجيل: أنها تحض على الحد من الطلاق، ففي إنجيل متى الإصحاح (١٩/ ٨: ٣): وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟ » ٤ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ ٥ وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٦ إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». ٧ قَالُوا

---

(١) روح المعاني للآلوسي (١٣/ ٣٦٠)

(٢) إنسانية المرأة علاء أبو بكر (٣٦٣).

لَهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَق فَتُطَلَّقُ؟ » ٨ قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هكَذَا.

ولكن في نفس الإنجيل الإصحاح (٥/ ٣٢): (وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي.). فالجمع بين النصين يقتضي التقييد لا المنع، وبانتشار المسيحية وتقوى الكنائس اختلف اتباعها اختلافًا شديدًا حول تفسير موقف الإنجيل من الطلاق، فمنهم من يرى أن الإنجيل لم يبح الطلاق، وإنما أباح الفراق أو الانفصال الجسدي، ومنهم من يرى أنه أباح الطلاق لعلة الزنا فقط، وفى رأى فريق ثالث؛ فإن النص على التطليق للزنا مجرد مثال يقاس عليه كل الحالات الأخرى التي تشبهه، والتي ينبغي اعتبارها كذلك نظرًا لخطورتها، ومع ذلك؛ فإن الظروف السياسية كثيرًا ما أبعدت اتجاهًا وقربت آخر، ولم تستطع الكنيسة الغربية -بوجه أخص- فرض مبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال إلا في غضون القرن العاشر الميلادي.

وتعتبر الكنيسة الأرثوذكسية أكثر الكنائس توسعًا في التطليق، أما الكنيسة الكاثوليكية فهي أكثرها تشددًا، بل لا تبيح التطليق البتة، وإن وسعت من أسباب بطلان الزواج لتستوعب جزءًا من أسباب الطلاق. [١]

* * *

(١) الطلاق الانفرادي. . تدابير الحد منه- لأحمد بخيت الغزالي (١/ ١٧، ١٨).

٤- شبهة: تحريم زواج المسلمة بغير المسلم.

نص الشبهة:

هل تحريم زواج المسلمة بغير المسلم يُعد نزعة عنصرية؟

والرد على تلك الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: الآية التي حرمت ذلك ومعناها.

الوجه الثاني: أقوال فقهاء المذاهب في زواج المسلمة بالكافر.

الوجه الثالث: حكمة منع المسلمات من نكاح الكفار.

الوجه الرابع: منع زواج الأجنبيات عند أهل الكتاب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية التي حرمت ذلك ومعناها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ (البقرة: ٢٢١).

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: أن الله قد حرَّم على المؤمنات أن ينكحن مشركًا كائنًا من كان المشرك، ومن أيّ أصناف الشرك كان، فلا تنكحوهنَّ أيها المؤمنون منكم؛ فإنّ ذلك حرام عليكم، ولأن تزوجوهن من عبدٍ مؤمن مصدق بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، خير لكم من أن تزوجوهن من حر مشرك، ولو شرُف نسبه وكرُم أصله، وإن أعجبكم حسبه ونسبه[١].

وقال ابنُ جُزَيّ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تزوّجوهم نساءكم، وانعقد الإجماع على أن الكافر لا يتزوّج مسلمة سواء كان كتابيًا أو غيره[٢].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٨٨).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١١١)، وانظر: تفسير البغوي (١/ ٢٥٦).

وقال ابن عطية: أجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما في ذلك من الغضاضة على دين الإسلام[١].

وقال أبو السعود: ولا تنكحوا المشركين من الإنكاح، والمراد بهم الكفار على الإطلاق لما مر أي: لا تزوجوا منهم المؤمنات سواءً كن حرائر أو إماء حتى يؤمنوا ويتركوا ما هم فيه من الكفر. ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ مع ماله من عز المالكية ولو أعجبكم مما فيه من دواعي الرغبة فيه الراجعة إلى ذاته وصفاته، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ استئناف مقرر لمضمون التعليلين المارين أي: أولئك المذكورون من المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى ما يؤدي إليها من الكفر والفسوق، فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم.[٢]

وقال الرازي: أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ فلا خلاف ههنا أن المراد به الكل، وأن المؤمنة لا يحل تزويجها من الكافر البتة على اختلاف أنواع الكفر، أما قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذه الآية نظير قوله: ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (غافر: ٤١).

فإن قيل: فكيف يدعون إلى النار وربما لم يؤمنوا بالنار أصلًا، فكيف يدعون إليها؟

وجوابه: أنهم ذكروا في تأويل هذه الآية وجوهًا:

أحدها: أنهم يدعون إلى ما يؤدي إلى النار، فإن الظاهر أن الزوجية مظنة الألفة والمحبة والمودة، وكل ذلك يوجب الموافقة في المطالب والأغراض، وربما يؤدي ذلك إلى انتقال المسلم عن الإسلام بسبب موافقة حبيبه فإن قيل: احتمال المحبة حاصل من الجانبين، فكما

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٢٤٧)، وانظر تفسير القرطبي (٣/ ٧٢).

(٢) تفسير أبي السعود (١/ ٢٢١).

يحتمل أن يصير المسلم كافرًا بسبب الألفة والمحبة، يحتمل أيضًا أن يصير الكافر مسلمًا بسبب الألفة والمحبة، وإذا تعارض الاحتمالان وجب أن يتساقطا فيبقى أصل الجواز.

قلنا: إن الرجحان لهذا الجانب؛ لأن بتقدير أن ينتقل الكافر عن كفره يستوجب المسلم به مزيد ثواب ودرجة، وبتقدير أن ينتقل المسلم عن إسلامه يستوجب العقوبة العظيمة، والإقدام على هذا العمل دائر بين أن يلحقه مزيد نفع، وبين أن يلحقه ضرر عظيم، وفي مثل هذه الصورة يجب الاحتراز عن الضرر، فلهذا السبب رجح الله تعالى جانب المنع على جانب الإطلاق.

التأويل الثاني: أن في الناس من حمل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أنهم يدعون إلى ترك المحاربة والقتال، وفي تركهما وجوب استحقاق النار والعذاب، وغرض هذا القائل من هذا التأويل أن يجعل هذا فرقًا بين الذمية وبين غيرها، فإن الذمية لا تحمل زوجها على المقاتلة فظهر الفرق.

التأويل الثالث: أن الولد الذي يحدث ربما دعاه الكافر إلى الكفر فيصير الولد من أهل النار، فهذا هو الدعوة إلى النار، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ حيث أمرنا بتزويج المسلمة حتى يكون الولد مسلمًا من أهل الجنة.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ ففيه قولان:

القول الأول: أن المعنى وأولياء الله يدعون إلى الجنة، فكأنه قيل: أعداء الله يدعون إلى النار وأولياء الله يدعون إلى الجنة والمغفرة فلا جرم يجب على العاقل أن لا يدور حول المشركات اللواتي هن أعداء الله تعالى، وأن ينكح المؤمنات؛ فإنهن يدعون إلى الجنة والمغفرة.

والثاني: أنه سبحانه لما بين هذه الأحكام وأباح بعضها وحرم بعضها، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾؛ لأن من تمسك بها استحق الجنة والمغفرة، أما قوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ فالمعنى بتيسير الله وتوفيقه للعمل الذي يستحق به الجنة والمغفرة[١].

وقال ابن كثير: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْ﴾ أي: لا تُزَوّجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة: ١٠)، ثم ذكر قول عمر ﷺ: (المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة)، قال: وهذا أصح إسنادًا من الأول. [٢]

وعن عكرمة: في اليهودية والنصرانية تكون تحت النصراني أو اليهودي فتسلم هي؟ قال: يفرق بينهما، الإسلام يعلو ولا يعلى. [٣]

وقال ابن عادل: هذا بالإجماع المراد منه الكُلّ، وأَنَّ المُؤْمِنة لا يحلُّ تزويجها بكافرٍ البَتَّة على اختلاف أنواع الكُفر. [٤]

وقال الآلوسي: فإن قيل: كما أن الكفار يدعون المؤمنين إلى النار، كذلك المؤمنون يدعونهم إلى الجنة بأحد الأمرين؟

أجيب: بأنّ المقصود من الآية: أنّ المؤمن يجب أن يكون حذرًا عما يضره في الآخرة، وأن لا يحوم حول حمى ذلك، ويجتنب عما فيه الاحتمال مع أن النفس والشيطان يعاونان على ما يؤدّي إلى النار، وقد ألفت الطباع في الجاهلية ذلك؟

قاله بعض المحققين: والجملة. . . الخ معللة لخيرية المؤمنين والمؤمنات من المشركين والمشركات، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ بواسطة المؤمنين من يقاربهم ﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: إلى

---

(١) تفسير الرازي (٣/ ٢٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٣-٥٨٤).

(٣) أخرجه الطحاوي (٤٨٦٩)، وقال الألباني: إسناده موقوف صحيح؛ الإرواء (٥/ ١٠٩).

(٤) تفسير اللباب (٣/ ٦٢).

الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما، وتقديم الجنة على المغفرة مع قولهم: التخلية أولى بالتقديم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداءً ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ أي: يدعو إلى ذلك متلبسًا بتوفيقه الذي من جملته إرشاد المؤمنين لمقاربيهم إلى الخير فهم أحقاء بالمواصلة.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يتعظوا أو يستحضروا معلوماتهم بناءً على أنّ معرفة الله تعالى مركوزة في العقول، والجملة تذييل للنصح والإرشاد، والواو اعتراضية أو عاطفة، وفصلت الآية السابقة بـ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢١٩)؛ لأنها كانت لبيان الأحكام والمصالح والمنافع، والرغبة فيها التي هي محل تصرف العقل والتبيين للمؤمنين فناسب التفكر، وهذه الآية بـ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنها تذييل للإخبار بالدعوة إلى الجنة والنار التي لا سبيل إلى معرفتها إلا النقل والتبيين لجميع الناس فناسب التذكر[1].

وقال القاسمي: أن الزوجية مظنة الألفة والمحبة والمودة، وكل ذلك يوجب الموافقة في المطالب والأغراض، فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا[2].

وقال ابن عاشور: وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ تحريم لتزويج المسلمة من المشرك، فإن كان المشرك محمولًا على ظاهره في لسان الشرع، فالآية لم تتعرض لحكم تزويج المسلمة من الكافر الكتابي، فيكون دليل تحريم ذلك الإجماع؛ وهو إما مستند إلى دليل تلقاه الصحابة من النبي ﷺ وتواتر بينهم، وإما مستند إلى تضافر الأدلة الشرعية كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، فعلق النهي بالكفر وهو أعم من الشرك وإن كان المراد حينئذ المشركين، وكقوله تعالى هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كما سنبينه، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ غاية للنهي، وأُخذ منه أن الكافر إذا أسلمت زوجته يفسخ النكاح بينهما، ثم إذا أسلم هو كان أحق بها ما دامت في العدة، وقوله:

---

(١) روح المعاني (٢/ ٢١٨).

(٢) تفسير القاسمي (٣/ ٢١٩).

﴿وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ هو كقوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكَةٍ﴾، وأن المراد به المملوك، وليس المراد الحر المشرك وقد تقدم ذلك.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الإشارة إلى المشركات والمشركين إذ لا وجه لتخصيصه بالمشركين خاصة لصلاحيته للعود إلى الجميع والواو في ﴿يَدۡعُونَ﴾ واو جماعة الرجال ووزنه (يفعون) وغلب فيه المذكر على المؤنث كما هو الشائع والجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لتعليل النهي عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين، ومعنى الدعاء إلى النار: الدعاء إلى أسبابها؛ فإسناد الدعاء إليهم حقيقة عقلية، ولفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ مجاز مرسل أطلق على أسباب الدخول إلى النار، فإن ما هم عليه يجر إلى النار من غير علم. (١)

وقال سيد قطب: فأما الأمر في زواج الكتابي من مسلمة فهو محظور؛ لأنه يختلف في واقعه عن زواج المسلم بكتابية - غير مشركة- ومن هنا يختلف في حكمه، إن الأطفال يدعون لآبائهم بحكم الشريعة الإسلامية، كما أن الزوجة هي التي تنتقل إلى أسرة الزوج وقومه وأرضه بحكم الواقع، فإذا تزوج المسلم من الكتابية (غير المشركة) انتقلت هي إلى قومه، ودعي أبناؤه منها باسمه، فكان الإسلام هو الذي يهيمن ويظلل جو المحصن، ويقع العكس حين تتزوج المسلمة من كتابي، فتعيش بعيدًا عن قومها، وقد يفتنها ضعفها ووحدتها هنالك عن إسلامها كما أن أبناءها يدعون إلى زوجها، ويدينون بدين غير دينها، والإسلام يجب أن يهيمن دائمًا، على أن هناك اعتبارات عملية قد تجعل المباح من زواج المسلم بكتابية مكروهًا»(٢).

الوجه الثاني: أقوال فقهاء المذاهب في زواج المسلمة بالكافر.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٢٠).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٢٢٠).

قَالَ السرخسي: وَإِذَا تَزَوَّجَ الذِّمِّيُّ مُسْلِمَةً حُرَّةً فُرِّقَ بَيْنَهُمَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ وَلِقَوْلِهِ ﷺ: "الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى". (١)

فَاسْتَقَرَّ الْحُكْمُ فِي الشَّرْعِ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَةَ لَا تَحِلُّ لِلْكَافِرِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَلَالًا فِي الِابْتِدَاءِ فَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا، وَيُوجِعُ عُقُوبَةً إنْ كَانَ قَدْ دَخَلَ بِهَا. (٢)

وقال الكاساني: لَا يَجُوزُ إنْكَاحُ الْمُؤْمِنَةِ الْكَافِرَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾، وَلِأَنَّ فِي إنْكَاحِ الْمُؤْمِنَةِ الْكَافِرَ خَوْفَ وُقُوعِ الْمُؤْمِنَةِ فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَ يَدْعُوهَا إلَى دِينِهِ، وَالنِّسَاءُ فِي الْعَادَاتِ يَتْبَعْنَ الرِّجَالَ فِيمَا يُؤْثِرُونَ مِنْ الْأَفْعَالِ وَيُقَلِّدُونَهُمْ فِي الدِّينِ إلَيْهِ وَقَعَتْ الْإِشَارَةُ فِي آخِرِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ لِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْمُؤْمِنَاتِ إلَى الْكُفْرِ، وَالدُّعَاءُ إلَى الْكُفْرِ دُعَاءٌ إلَى النَّارِ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ يُوجِبُ النَّارَ، فَكَانَ نِكَاحُ الْكَافِرِ الْمُسْلِمَةَ سَبَبًا دَاعِيًا إلَى الْحَرَامِ فَكَانَ حَرَامًا، وَالنَّصُّ وَإِنْ وَرَدَ فِي الْمُشْرِكِينَ لَكِنَّ الْعِلَّةَ وَهِيَ الدُّعَاءُ إلَى النَّارِ يَعُمُّ الْكَفَرَةَ أَجْمَعَ فَيَتَعَمَّمُ الْحُكْمُ بِعُمُومِ الْعِلَّةِ، فَلَا يَجُوزُ إنْكَاحُ الْمُسْلِمَةِ الْكِتَابِيَّ كَمَا لَا يَجُوزُ إنْكَاحُهَا الْوَثَنِيَّ وَالْمَجُوسِيَّ؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ قَطَعَ وَلَايَةَ الْكَافِرِينَ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٤١)، فَلَوْ جَازَ إنْكَاحُ الْكَافِرِ الْمُؤْمِنَةَ لَثَبَتَ لَهُ عَلَيْهَا سَبِيلٌ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ. (٣)

وَلَا يَجُوزُ تَزَوُّجُ الْمُسْلِمَةِ من مُشْرِكٍ وَلَا كِتَابِيٍّ. (٤)

وقال الشافعي: ويحل نكاح حرائر أهل الكتاب لكل مسلم؛ لأن الله تعالى أحلهن بغير استثناء، وأَحَبُّ إِلَيَّ لو لم ينكحهن مسلم. أخبرنا عبد المجيد عن ابن جريج عن أبي الزبير أنه

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا (١/ ٤٥٤)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٢٦٨).

(٢) المبسوط (٦/ ١٤٧).

(٣) بدائع الصنائع (٥/ ٤٥٦).

(٤) الفتاوى الهندية (١/ ٢٨٢).

سمع جابر بن عبد الله يُسأل عن نكاح المسلم اليهودية والنصرانية؟ فقال: تزوجناهن زمان الفتح بالكوفة مع سعد بن أبي وقاص، ونحن لا نكاد نجد المسلمات كثيرًا فلما رجعنا طلقناهن وقال: فقال: لا يرثن مسلمًا ولا يرثوهن، ونساؤهن لنا حل، ونساؤنا حرام عليهم[١].

وقال الماوردي: فَالْمُسْلِمَةُ لَا تَحِلُّ لِكَافِرٍ بِحَالٍ سَوَاءٌ كَانَ الْكَافِرُ كِتَابِيًّا أَوْ وَثَنِيًّا. [٢]

وقد جاء في حاشية العدوي أن من مواضع الفرقة بين الزوجين: أن تسلم الزوجة، ويظل الزوج على كفره حتى تنقضي العدة[٣].

وقال ابن حزم: وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمَةٍ نِكَاحُ غَيْرِ مُسْلِمٍ أَصْلًا، وَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ أَنْ يَمْلِكَ عَبْدًا مُسْلِمًا، وَلاَ مُسْلِمَةً أَمَةً أَصْلًا، برهان ذَلِكَ: قَوْلُ الله ﷻ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. [٤]

وقال ابن تيمية: وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَرِثُ الْمُسْلِمَ، وَلَا يَتَزَوَّجُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَةَ، وَالله سُبْحَانَهُ قَدْ قَطَعَ الْوِلَايَةَ فِي كِتَابِهِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَأَوْجَبَ الْبَرَاءَةَ بَيْنَهُمْ مِنْ الطَّرَفَيْنِ، وَأَثْبَتَ الْوِلَايَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. [٥]

وقال محمد رشيد رضا: وجملة القول أن هؤلاء المشركين الذين أشركوا وهم الذين بينكم وبينهم غاية الخلاف والتباين في الاعتقاد؛ لا يجوز لكم أن تتصلوا بهم برابطة الصهر لا بتزويجهم ولا بالتزوج منهم، وأما الكتابيات فقد جاء في سورة المائدة أنهن حل لنا، وسكت هناك عن تزويج الكتابي بالمسلمة وقالوا- ورضيه الأستاذ الإمام محمد عبده-: أنه على أصل المنع، وأيدوه بالسنة والإجماع، وقد بين أنه قد ترجى فائدة دينية من تزويج

(١) الأم (٥/ ١٠)، وسنن البيهقي الكبرى (٧/ ١٧٢) عن جابر رضي الله عنه.
(٢) الحاوي في الفقه الشافعي (٩/ ٢٥٥).
(٣) حاشية العدوي (٥/ ١٤٢).
(٤) المحلى (٩/ ٤٤٩).
(٥) الفتاوى الكبرى (٣/ ١٣٠).

المسلم بالكتابية، ولكن هذه الفائدة لا تظهر من تزويج المسلمة بالكتابي؛ لأن المرأة أسيرة الرجل لاسيما في ما ليس للنساء فيها من الحقوق ما أعطاهن الإسلام. [١]

وقال ابن بطال:قال المهلب: وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾، فإنه خاطب الأولياء ونهاهم عن إنكاح المشركين ولياتهم المسلمات من أجل أن الولد تابع للأب في دينه بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ٢٢١)، ولا مدعو في نفس الاعتبار يمكنه الإجابة إلا الولد، إذ هو تبع لأبيه في الدين[٢].

وقال الصنعاني: خطاب للأولياء بأن لا ينكحوا المسلمات المشركين، ولو فرض أنه يجوز لها إنكاح نفسها لما كانت الآية دالة على تحريم ذلك عليهن؛ لأن القائل بأنها تنكح نفسها يقول بأنه ينكحها وليها أيضًا، فيلزم أن الآية لم تفِ بالدلالة على تحريم إنكاح المشركين للمسلمات؛ لأنها إنما دلت على نهي الأولياء من إنكاح المشركين لا على نهي المسلمات أن ينكحن أنفسهن منهم، وقد علم تحريم نكاح المشركين المسلمات، فالأمر للأولياء دال على أنه ليس للمرأة ولاية. [٣]

وقال ابن حجر: قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾، ووجه الاحتجاج من الآية والتي بعدها: أنه تعالى خاطب بإنكاح الرجال ولم يخاطب به النساء، فكأنه قال: لا تنكحوا أيها الأولياء مولياتكم للمشركين[٤].

وقال البدر العيني: وجه الاستدلال به أن الله خاطب الأولياء ونهاهم عن إنكاح المشركين مولياتهم المسلمات[٥].

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٣٥١) ببعض تصرف.

(٢) شرح البخاري لابن بطال (٧/ ٢٤٤).

(٣) سبل السلام (٣/ ١٢٠).

(٤) فتح الباري (٩/ ١٨٤).

(٥) عمدة القاري (٢٩/ ٢٩٩).

ولما كانت مخالطة أهل الشرك مظنة الفساد الذي ربما أدى إلى التهاون بالدين فربما دعا الزوج زوجته إلى الكفر فقاده الميل إلى إتباعه؛ قال منبهًا على ذلك ومعللًا لهذا الحكم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين هم أهل للبعد من كل خير ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: الأفعال المؤدية إليها ولا بد، فربما أدى حب الزوج المسلم إلى الكفر، ولا عبرة باحتمال ترك الكافر للكفر وإسلامه.(١)

الوجه الثالث: حكمة منع المسلمات من نكاح الكفار.

١ - الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه.

الحكمة من منع زواج المسلمة من كتابي أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فالزوج له قوامة على زوجته، وهذا ممنوع في حق الكافر، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ثم إنه لا يُؤمَن على المرأة - وهي تميل إلى العاطفة أكثر من الرجل- أن تتأثر بزوجها إذا دعاها لدينه، وكذلك لا يؤمن على الأولاد أن يتابعوا أباهم على كفره، فهذه بعض الحِكم من منع زواج المسلمة بالكتابي، أما زواج المسلم بالكتابية فليست فيه هذه المفاسد فالقوامة للمسلم، وقد يؤثر عليها فيهديها الله تعالى على يديه، كما أنه مكلف بتنشئة أولاده تنشئة إسلامية تقيهم متابعة أمهم في دينها، وإذا قصر في ذلك فهو محاسب أمام الله، كما أن المسلم إذا تزوج كتابية فهو يؤمن بكتابها - غير المبدل- ورسولها، فيكوِّن معها أساسًا للتفاهم في الجملة يمكن معه للحياة أن تستمر، أما الكتابي فإذا تزوج بمسلمة فهو لا يؤمن بدينها ولا أحكامه إطلاقًا، ولا مجال للتفاهم معه في أمر لا يؤمن به كلية، وبالتالي فلا مجال للتفاهم والوئام، ولهذا منع هذا الزوج ابتداء.

فللمسلم أن يتزوج باليهودية أو النصرانية، وليس لليهودي أو النصراني أن يتزوج بالمسلمة، وقد بيَّن الباري جل وعلا السبب بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يدعون إلى الكفر الذي هو سبب دخول نار جهنم، فالرجل له سلطة وولاية على المرأة، فربما

(١) نظم الدرر (١/ ٣٤١).

أجبرها على ترك دينها وحملها على أن تكفر بالإسلام، والأولاد يتبعون الأب. فإذا كان الأب نصرانيًا أو يهوديًا ربّاهم على اليهودية أو النصرانية، فيصير الولد من أهل النار. ومن ناحية أخرى، فإن المسلم يعظّم موسى وعيسى عليهما السلام، ويؤمن برسالتهما ويعتقد بالتوارة والإنجيل التي أنزلها الله ولا يحمله إيمانه على إيذاء زوجته (اليهودية) أو (النصرانية) مثلًا بسبب العقيدة؛ لأنه يلتقي معها على الإيمان بالله، وتعظيم رسله، فلا يكون اختلاف الدين سببًا للأذى أو الاعتداء، بخلاف غير المسلم الذي لا يؤمن بالقرآن ولا برسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فإن عدم إيمانه يدعوه إلى إيذاء المسلمة والاستخفاف بدينها. [١]

٢- الرجل قيم على المرأة ومؤثر عليها بخلاف المرأة.

وقد أحل الله الزواج من الكتابية، ولم يحل نكاح الكتابي للمسلمة؛ لأن الرجل غالب للمرأة، فالغالب أن المرأة تتأثر به، وقد تسلم، وإذا لم تسلم على يد زوجها فقد تسلم على يد أولادها، ولكن إذا كان الزوج كافرًا والمرأة مسلمة، فقد يكون الأمر بالعكس، فأحلَّ اللهُ النكاح للرجال ولم يحله للنساء[٢]، ولما كانت رابطة النكاح رابطة اتصال ومعاشرة نُهي عن وقوعها مع من يدعون إلى النار خشية أن تؤثر تلك الدعوة في النفس؛ فإن بين الزوجين مودة وإلفًا يبعثان على إرضاء أحدهما الآخر، ولما كانت هذه الدعوة من المشركين شديدة لأنهم لا يوحدون الله ولا يؤمنون بالرسل -كان البون بينهم وبين المسلمين في الدين بعيدًا جدًّا لا يجمعهم شيء يتفقون عليه؛ فلم يبح الله مخالطتهم بالتزوج من كلا الجانبين، أما أهل الكتاب فيجمع بينهم وبين المسلمين اعتقاد وجود الله، وانفراده بالخلق، والإيمان بالأنبياء، ويفرق بيننا وبين النصارى الاعتقاد ببنوة عيسى والإيمان بمحمد ﷺ، ويفرق بيننا وبين اليهود الإيمان بمحمد ﷺ وتصديق عيسى؛ فأباح الله تعالى للمسلم أن

---

(١) تفسير آيات الأحكام (١/ ١٢٦).

(٢) شرح زاد المستقنع للشنقيطي (٩/ ٣٢٦).

يتزوج الكتابية، ولم يبح تزويج المسلمة من الكتابي اعتدادًا بقوة تأثير الرجل على امرأته، فالمسلم يؤمن بأنبياء الكتابية وبصحة دينها قبل النسخ، فيوشك أن يكون ذلك جالبًا إياها إلى الإسلام؛ لأنها أضعف منه جانبًا، وأما الكافر فهو لا يؤمن بدين المسلمة ولا برسولها، فيوشك أن يجرها إلى دينه لذلك السبب[1].

الوجه الرابع: منع زواج الأجنبيات عند أهل الكتاب.

وقد يقال لغير المسلمين الذين يعترضون على عدم تزويج المسلمة منهم: إنه قد جاء في كتبهم ما يشبه ذلك من منعهم الزواج من بنات الكنعانيين، ففي سفر (التكوين٣: ٢٤) مثلًا يقول: فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلهِ السَّمَاءِ وَإِلهِ الأَرْضِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ.

وجاء أيضًا: وَوَلَدَتْ سَارَةُ امْرَأَةُ سَيِّدِي ابْنًا لِسَيِّدِي بَعْدَ مَا شَاخَتْ، فَقَدْ أَعْطَاهُ كُلَّ مَا لَهُ. ٣٧ وَاسْتَحْلَفَنِي سَيِّدِي قَائِلًا: لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ فِي أَرْضِهِمْ، ٣٨ بَلْ إِلَى بَيْتِ أَبِي تَذْهَبُ وَإِلَى عَشِيرَتِي، وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي. ٣٩ فَقُلْتُ لِسَيِّدِي: رُبَّمَا لاَ تَتْبَعُنِي الْمَرْأَةُ. ٤٠ فَقَالَ لِي: إِنَّ الرَّبَّ الَّذِي سِرْتُ أَمَامَهُ يُرْسِلُ مَلاَكَهُ مَعَكَ وَيُنْجِحُ طَرِيقَكَ، فَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ عَشِيرَتِي وَمِنْ بَيْتِ أَبِي. ٤١ حِينَئِذٍ تَتَبَرَّأُ مِنْ حَلْفِي حِينَمَا تَجِيءُ إِلَى عَشِيرَتِي. وَإِنْ لَمْ يُعْطُوكَ فتكُونُ بَرِيئًا مِنْ حَلْفِي (التكوين/ ٢٤: ٤١: ٣٦).

ويعتقد اليهود أن الزواج بالأجنبيات ضرر وخطيئة فنهت بعض أسفارهم عن هذا، وإن أباحته أسفار أخرى للضرورة.

ففي سفر عزرا الإصحاحات من ٧ إلى ١٠ نجد أن عزرا عندما لاحظ كثرة زواج قومه بالأجنبيات غضب وطاردهن وأطفالهن، واعتبر هذا الزواج خطيئة كَفَّرَ عنها الشعبُ بالصلاة عام ٤٥٨ق. م، فانظر مثلًا قوله: فَاجْتَمَعَ كُلُّ رِجَالِ يَهُوذَا وَبَنْيَامِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ فِي الثَّلاَثَةِ الأَيَّامِ، أَيْ فِي الشَّهْرِ التَّاسِعِ، فِي الْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَجَلَسَ جَمِيعُ الشَّعْبِ فِي

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٢١).

سَاحَةِ بَيْتِ اللهِ مُرْتَعِدِينَ مِنَ الأَمْرِ وَمِنَ الأَمْطَارِ. ١٠ فَقَامَ عَزْرَا الْكَاهِنُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّكُمْ قَدْ خُنْتُمْ وَاتَّخَذْتُمْ نِسَاءً غَرِيبَةً لِتَزِيدُوا عَلَى إِثْمِ إِسْرَائِيلَ. ١١ فَاعْتَرِفُوا الآنَ لِلرَّبِّ إِلهِ آبَائِكُمْ وَاعْمَلُوا مَرْضَاتَهُ، وَانْفَصِلُوا عَنْ شُعُوبِ الأَرْضِ وَعَنِ النِّسَاءِ الْغَرِيبَةِ». ١٢ فَأَجَابَ كُلُّ الْجَمَاعَةِ وَقَالُوا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «كَمَا كَلَّمْتَنَا كَذلِكَ نَعْمَلُ. ١٣ إِلاَّ أَنَّ الشَّعْبَ كَثِيرٌ، وَالْوَقْتَ وَقْتُ أَمْطَارٍ، وَلاَ طَاقَةَ لَنَا عَلَى الْوُقُوفِ فِي الْخَارِجِ، وَالْعَمَلُ لَيْسَ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ أَوْ لاثْنَيْنِ، لأَنَّنَا قَدْ أَكْثَرْنَا الذَّنْبَ فِي هذَا الأَمْرِ. ١٤ فَلْيَقِفْ رُؤَسَاؤُنَا لِكُلِّ الْجَمَاعَةِ. وَكُلُّ الَّذِينَ فِي مُدُنِنَا قَدِ اتَّخَذُوا نِسَاءً غَرِيبَةً، فَلْيَأْتُوا فِي أَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ وَمَعَهُمْ شُيُوخُ مَدِينَةٍ فَمَدِينَةٍ وَقُضَاتُهَا، حَتَّى يَرْتَدَّ عَنَّا حُمُوُّ غَضَبِ إِلهِنَا مِنْ أَجْلِ هذَا الأَمْرِ». ١٥ وَيُونَاثَانُ بْنُ عَسَائِيلَ وَيَحْزِيَا بْنُ تِقْوَةَ فَقَطْ قَامَا عَلَى هذَا، وَمَشُلاَّمُ وَشَبْتَايُ اللاَّوِيُّ سَاعَدَاهُمَا. ١٦ وَفَعَلَ هكَذَا بَنُو السَّبْيِ. وَانْفَصَلَ عَزْرَا الْكَاهِنُ وَرِجَالٌ رُؤُوسُ آبَاءٍ، حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ، وَجَمِيعُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، وَجَلَسُوا فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ الْعَاشِرِ لِلْفَحْصِ عَنِ الأَمْرِ. ١٧ وَانْتَهَوْا مِنْ كُلِّ الرِّجَالِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا نِسَاءً غَرِيبَةً فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ الأَوَّلِ. (عزرا١٠/ ١٧ : ٩).

وهكذا قسا نحميا على الأجنبيات (إصحاح: ١٣) فانظر مثلًا قوله:

١٣فِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَيْضًا رَأَيْتُ الْيَهُودَ الَّذِينَ سَاكَنُوا نِسَاءً أَشْدُودِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَمُوآبِيَّاتٍ. ٢٤ وَنِصْفُ كَلاَمِ بَنِيهِمْ بِاللِّسَانِ الأَشْدُودِيِّ، وَلَمْ يَكُونُوا يُحْسِنُونَ التَّكَلُّمَ بِاللِّسَانِ الْيَهُودِيِّ، بَلْ بِلِسَانِ شَعْبٍ وَشَعْبٍ. ٢٥ فَخَاصَمْتُهُمْ وَلَعَنْتُهُمْ وَضَرَبْتُ مِنْهُمْ أُنَاسًا وَنَتَفْتُ شُعُورَهُمْ، وَاسْتَحْلَفْتُهُمْ بِاللهِ قَائِلًا: «لاَ تُعْطُوا بَنَاتِكُمْ لِبَنِيهِمْ، وَلاَ تَأْخُذُوا مِنْ بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكُمْ، وَلاَ لأَنْفُسِكُمْ. ٢٦ أَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ أَخْطَأَ سُلَيْمَانُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ يَكُنْ فِي الأُمَمِ الْكَثِيرَةِ مَلِكٌ مِثْلُهُ؟ وَكَانَ مَحْبُوبًا إِلَى إِلهِهِ، فَجَعَلَهُ اللهُ مَلِكًا عَلَى كُلِّ إِسْرَائِيلَ. هُوَ أَيْضًا جَعَلَتْهُ النِّسَاءُ الأَجْنَبِيَّاتُ يُخْطِئُ. ٢٧ فَهَلْ نَسْكُتُ لَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا كُلَّ هذَا الشَّرِّ الْعَظِيمِ بِالْخِيَانَةِ ضِدَّ إِلهِنَا بِمُسَاكَنَةِ نِسَاءٍ أَجْنَبِيَّاتٍ؟ » ٢٨ وَكَانَ وَاحِدٌ مِنْ بَنِي يُويَادَاعَ بْنِ أَلْيَاشِيبَ الْكَاهِنِ الْعَظِيمِ صِهْرًا لِسَنْبَلَّطَ الْحُورُونِيِّ، فَطَرَدْتُهُ مِنْ عِنْدِي. ٢٩ اذْكُرْهُمْ يَا

إِلِهي، لأَنَّهُمْ نَجَّسُوا الْكَهَنُوتَ وَعَهْدَ الْكَهَنُوتِ وَاللاَّوِيِّينَ. ٣٠ فَطَهَّرْتُهُمْ مِنْ كُلِّ غَرِيبٍ، وَأَقَمْتُ حِرَاسَاتِ الْكَهَنَةِ وَاللاَّوِيِّينَ، كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِهِ، ٣١ وَلأَجْلِ قُرْبَانِ الْحَطَبِ فِي أَزْمِنَةٍ مُعَيَّنَةٍ وَلِلْبَاكُورَاتِ. فَاذْكُرْنِي يَا إِلِهي بِالْخَيْرِ. (نحميا١٠/ ٣١: ٢٣).

وهكذا يجد النصارى غضاضة في الزواج بغير بني ملتهم، ولا يفعل هذا إلا المنحلون والساقطات، أو المنحلات غير المتمسكات بنصرانيتهم، ولهم إجراءات كنسية معقدة إذا اختلف مذهبا الزوجين، وهذا يعني أن الزواج مع اختلاف المذهب لا يكون إلا ضرورة، فإن اختلف الدين كان أمرًا إدًّا، ولا تكاد تجد زواجًا يتم بين اثنين أحدهما مسيحي، والآخر يهودي إلا وراءه بعد سياسي، أو أن الاثنين لهما علاقات عاطفية ترتفع بهما فوق مستوى شعائرهما الدينية، أو أن هناك ضرورة تعليمية أو اقتصادية أو غير ذلك من الضرورات، وتحرم القوانين الوضعية زواج الدبلوماسيين بأجنبيات إلا بإذن، ولعلة ترتضيها الدولة لكيلا تتسرب أسرار الدولة عن طريق الزوجات الأجنبيات إلى دول أجنبية، وأخيرًا فإن الدعوة إلى الزواج مع التغاضي عن دين الطرف الآخر ومذهبه مرفوضة في الإسلام والمسيحية واليهودية ولم يدعُ إليها إلا المارقون كالماسونية، والبهائية، والملاحدة، والمعصوبة عيونهم عن نور الإسلام. (١)

* * *

(١) انظر في ذلك: جريمة الزواج بغير المسلمات فقهًا وسياستها –لعبد المتعال الجبري (١١٤-١١٥).

٥- شبهة: نكاح البهائم.

نص الشبهة:

زعموا أن الإسلام أحل نكاح البهائم، واستدلوا بحديث " من ينكح بهيمة فلا حد عليه"، واستدلالات أخرى لا تصح أن تكون دليلًا يحتج به.

والجواب على ذلك كما يلي من وجوه:

الوجه الأول: تحريم إتيان البهائم من القرآن الكريم.

الوجه الثاني: إجماع أهل العلم على حرمة إتيان البهائم.

الوجه الثالث: إتيان البهائم معصية توجب الحد أو التعزير، وفي ذلك دليل على حرمة إتيان البهائم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تحريم إتيان البهائم من القرآن الكريم.

١- قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧)[1].

٢- وقال تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٠)، وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

الوجه الثاني: إجماع أهل العلم على حرمة إتيان البهائم.

ذكر الإجماع الشوكاني فقال: وهو مجمع على تحريم إتيان البهيمة كما حكي ذلك صاحب البحر[2].

---

(١) راجع: شبهة اللواط في هذه الموسوعة.

(٢) نيل الأوطار للشوكاني (٧/ ٢٦٥)، وفقه السنة (٣/ ٢٠٨).

وذكره ابن حزم فقال: واتفقوا أن إتيان البهائم حرام[١].

الوجه الثالث: إتيان البهائم معصية توجب الحد أو التعزير، وفي ذلك دليل على حرمة إتيان البهائم.

قال ابن قدامة: اختلفت الرواية عن أحمد في الذي يأتي البهيمة، فروى عنه أنه يعزر ولا حد عليه روى ذلك عن ابن عباس، وعطاء، والشعبي، والنخعي، ومالك، والثوري، وأصحاب الرأي، وإسحاق، وهو قول الشافعي، قلت: وهذا مذهب الجمهور. والرواية الثانية: حكمه حكم اللائط سواء، وقال الحسن حده حد الزنا، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن يقتل هو والبهيمة[٢].

قال الخطابي: وقد اختلف العلماء فيمن أتى هذا الفعل، فقال إسحاق بن راهويه: يقتل إذا تعمد ذلك وهو يعلم ما فيه عن رسول الله ﷺ، فإن درأ عنه إمامٌ القتلَ فلا ينبغي أن يدرأ عنه جلد مائة تشبيهًا بالزنا. وروى عن الحسن أنه قال: يرجم إن كان محصنًا، ويجلد إن كان بكرًا، وقال الزهري: يجلد مائة أحصن أو لم يحصن، وقال أكثر الفقهاء يعزر، وكذلك قال عطاء والنخعي، وبه قال مالك، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، وكذلك قال أبو حنيفة، وأصحابه، وهو أحد قولي الشافعي؛ وقوله الآخر إن حكمه حكم الزاني[٣].

ويرجع سبب هذا الاختلاف إلى اختلافهم في صحة الروايات في هذا الباب الرواية الأولى:

(١) مراتب الإجماع لابن حزم (٢١٦).

(٢) المغني لابن قدامة (١٠/ ١٦٣).

(٣) معالم السنن للخطابي (٣/ ٢٨٨)، وانظر نيل الأوطار للشوكاني (٧/ ٢٦٥)، وسنن الترمذي (٤/ ٥٦)، وفقه السنة للسيد سابق (٣/ ٢٠٨)، وصحيح فقه السنة (٤/ ٥١).

١ ـ عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "من وجدتموه على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة"، فقيل لابن عباس: ما شأن البهيمة؟ قال ما سمعت من رسول الله في ذلك شيئًا، ولكن أرى رسول الله ﷺ كره أن يؤكل من لحمها أو ينتفع بها وقد عمل بها ذلك العمل(١).

الرواية الثانية: عن ابن عباس قال: من أتى بهيمة فلا حد عليه. (٢) - فتبين أن الاستدلال الأول أقوى من حيث الصحة وعليه فمن وقع على بهيمة يقتل، أما عن البهيمة التي فعل بها هذا الفعل فاختلف أهل العلم في قتلها من عدم القتل.

---

(١) **صحيح**. أخرجه الترمذي (١٤٥٥) من طريق عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعًا، ومن نفس الطريق أيضًا أخرجه أبو داود (٤٤٦٤)، وأحمد (١/ ٢٦٩)، والنسائي في الكبرى (٧٣٤٠)، والبيهقي (٨/ ٢٣٣)، والحاكم (٤/ ٣٥٥)، والدارقطني (١٤٣)، وأبو يعلي في المسند (٢٤٦٢، ٢٧٤٣).

– ومن طريق داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠)، وابن ماجه (٢٥٦٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢٢٦)، والدارقطني (١٤٢)، والبيهقي (١٦٨١٤)، وعبد الرزاق (١٣٤٩٢).

ومن طريق عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس أخرجه أحمد موقوفًا (١/ ٣٠٠)، والبيهقي (٨/ ٢٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٤٣).

قلت: ومدار هذا الحديث على الطريق الأول (طريق عمرو بن أبي عمرو)، قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة،

وقال أبو داود: ليس هذا بالقوي، وصححه الحاكم في المستدرك وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٣٤١٨)، وقال: فتأملنا هذين فوجدنا حديث يوسف يرجع إلى عمرو بن أبي عمرو- وهو رجل قد تكلم في روايته بغير إسقاط لها-، وقال البيهقي في السنن (٨/ ٢٣٣): وقد روينا من غير وجه عن عكرمة، ولا أرى عمرو بن أبي عمرو يقصر عن عاصم بن بهدله في الحفظ، كيف وقد تابعه على روايته جماعة! ، وعكرمة عند أكثر الأئمة من الثقات الأثبات، وصححه الألباني في الإرواء (٢٣٤٨) ثم قال بعد ما ذكر كلامًا طويلًا يصحح فيه طرق الحديث: فتبين أنه- أي عمرو بن أبي عمرو- أقوى من عاصم؛ فحديثه أرجح عند التعارض.

(٢) أخرجه الترمذي (١٣٧٥)، وقال: وهو أصح من الحديث الأول والعمل على هذا عند أهل العلم؛ وهو قول أحمد وإسحاق، وأخرجه أبو داود (٤٤٦٥) موقوفًا وقال: حديث عاصم يضعف عمرو، والحاكم (٤/ ٣٥٦)، والنسائي (٧٣٤١) وقال: هذا غير صحيح، وعاصم بن عمرو ضعيف، والبيهقي في السنن

قال ابن قدامة: وقد اختار قتلها وألزم الفاعل بها وبغرامتها إن لم يكن صاحبها - قال - ويجب قتل البهيمة وهذا قول أبي سلمة بن عبد الرحمن وأحد قولي الشافعي، وسواء كانت مملوكة له أو لغيره، مأكولة أو غير مأكولة؛ قال أبو بكر: الاختيار قتلها، وإن تركت فلا بأس؛ وقال الطحاوي: إن كانت مأكولة ذبحت، وإلا لم تقتل، وهذا قول ثانٍ للشافعي، ثم قال ابن قدامة: فإن الحيوان إن كان للفاعل ذهب هدرًا، وإن كان لغيره فعلى الفاعل غرامته لأنه سبب إتلافه فيضمنه، ثم ذكر هل تؤكل أم لا؟ فقال: ثم إن كانت مأكولة فهل يباح أكلها على وجهين وللشافعي في ذلك قولان. [1]

* * *

الكبرى (٨/ ٢٣٤)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣٤٢٠) وصححه، وقال الألباني في الإرواء (٨/ ١٤) يرد على كلام أبي داود: فحديثه مرفوع - أي حديث عمرو - وحديث عاصم موقوف؛ فتضعيفه بالموقوف ليس جاريًا على قواعد أهل الحديث في ترجيح الرواية على الرأي خلافًا للحنفية.

(١) المغني لابن قدامة (١٠/ ١٦٤)، والشوكاني في نيل الأوطار (٧/ ٢٦٦).

٦- شبهة: تحريم الشريعة للحم الخنزير.

نص الشبهة:

لماذا حرمت شريعة الإسلام لحم الخنزير؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الأصل أن المسلم يطيع الله فيما أمر، وينتهي عما نهى عنه، سواء أظهرت حكمته سبحانه في ذلك أم لم تظهر.

الوجه الثاني: اللهﷻ يهدي الإنسان للطريق المستقيم الذي فيه هداه ومنفعته.

الوجه الثالث: آيات تحريم لحم الخنزير.

الوجه الرابع: أضرار لحم الخنزير على صحة الإنسان.

الوجه الخامس: الكتاب المقدس يحرم أيضًا لحم الخنزير.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأصل أن المسلم يطيع الله فيما أمر، وينتهي عما نهى عنه، سواء أظهرت حكمته سبحانه في ذلك أم لم تظهر.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦).

قال ابن كثير: فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النساء: ٦٥). ولهذا شدد في خلاف ذلك،

فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣). [1]

قال الشوكاني: ومعنى الآية: أنه لا يحلّ لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمرًا أن يختار من أمر نفسه ما شاء بل يجب عليه أن يذعن للقضاء، ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه واختاره له. [2]

الوجه الثاني: الله ﷻ يهدي الإنسان للطريق المستقيم الذي فيه هداه ومنفعته.

إن الله- جلت مشيئته وحكمته- وفر على الإنسان الجهد المضني، وهداه إلى ما ينفعه في دينه ودنياه. . . وحذره مما يضره في دينه ودنياه!.

إن هذه الشريعة خير كلها ومصالح كلها وعدل كلها، فلم تدع خيرًا إلا دلت عليه ولا شرًا إلا حذرت منه، وقد جاءت بأصلين عظيمين هما: تقرير المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما ترك النبي ﷺ خيرًا إلا دلنا عليه، ولا شرًا إلا حذرنا منه، فلا تجد فعلًا أو قولًا فيه مصلحة إلا والشريعة قد أمرت به أمر إيجاب أو استحباب، ولا فعلًا أو قولًا فيه مفسدة إلا والشريعة قد نهت عنه إما نهي تحريم أو كراهة. فالواجب إذًا هو فعل المصالح كلها، واجتناب المفاسد كلها، بحيث لا يقر الإنسان على ترك مصلحة ولا فعل مفسدة. [3]

ولا ينبغي أن يدفعنا البحث عن علة التحريم إلى تجاهل أمر هام ذلك هو: أن الحلال ما أحله الله، وأن الحرام ما حرمه الله، وأن النص الصحيح له هيمنته على كل اجتهاد وكل بحث وكل تعليل.

ولا مانع من البحث عن الحكمة بعد ذلك لكي تكون عونًا للمسلم على إقناع الآخرين وإقامة الحجة عليهم، ويزداد المؤمن إيمانًا.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٠٣).

(٣) تلقيح الأفهام العلية بشرح القواعد الفقهية (٣/ ١٠).

والله سبحانه وتعالى أباح لِعباده الكثير من الطيبات وحرّم عليهم الخبائث. قال ربنا تبارك وتعالى في بعض مهام نبيِّه ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾

الوجه الثالث: آيات تحريم لحم الخنزير.

إن في القرآن الكريم آيات تحرم الخنزير تحريمًا قاطعًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ (البقرة: ١٧٢-١٧٣)، وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ (النحل: ١١٥)، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾﴾ (الأنعام: ١٤٥)، وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾﴾ (النحل: ١١٤-١١٥).

قال الرازي: واعلم أن تحريم الميتة موافق لما في العقول؛ لأن الدم جوهر لطيف جدًّا، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وفسد وحصل من أكله مضار عظيمة. والثاني: الدم: قال صاحب «الكشاف» كانوا يملؤون المعي من الدم ويشوونه ويطعمونه الضيف، فالله تعالى حرم ذلك عليهم. والثالث: لحم الخنزير، قال أهل العلم: الغذاء يصير جزءًا من جوهر المغتذي، فلا بدّ أن يحصل للمغتذي أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلًا في الغذاء، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهيات، فحرم أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية، وأما الشاة فإنها حيوان في

غاية السلامة، فكأنها ذات عارية عن جميع الأخلاق، فلذلك لا يحصل للإنسان بسبب أكل لحمها كيفية أجنبية عن أحوال الإنسان(١).

الوجه الرابع: أضرار لحم الخنزير على صحة الإنسان. (٢)

أثبتت الدراسات العلمية أن الإنسان عندما يتناول دهون الحيوانات آكلة العشب؛ فإن دهونها تستحلب في أمعائه وتمتص، وتتحول في جسمه إلى دهون إنسانية، أما عندما يأكل دهون الحيوانات آكلة اللحوم أو الخنزير؛ فإن استحلابها عسير في أمعائه وإن جزيئات الجليسريدات الثلاثية لدهن الخنزير تمتص كما هي دون أن تتحول وتترسب في أنسجة الإنسان كدهون حيوانية أو خنزيرية.

ومن المدهش حقًا ملاحظة د. هانس هايترش: أن الذين يأكلون شحم الخنزير من منطقة ما من جسمه؛ فإنها تترسب في المنطقة ذاتها عند الآكل، وهكذا وجد أن النساء اللواتي يأكلن فخذ لحم الخنزير يشاهد لديهن تشوه واضح في الفخذين والإليتين.

والكولسترول الناجم عن تحلل لحم الخنزير في البدن يظهر في الدم على شكل كولسترول جزئي كبير الذرة يؤدي بكثرة إلى ارتفاع الضغط الدموي وإلى تصلب الشرايين، وهما من عوامل الخطورة التي تمهد لاحتشاء العضلة القلبية، وقد وجد البروفيسور Raff أن الكولسترول المتواجد في خلايا السرطان الجوالة يشابه الكولسترول المتشكل عند تناول لحم الخنزير.

ولحم الخنزير غني بالمركبات الحاوية على نسب عالية من الكبريت وكلها تؤثر على قابلية امتصاص الأنسجة الضامة للماء كالإسفنج مكتسبة شكلًا كيسيًا واسعًا، وهذا يؤدي إلى تراكم المواد المخاطية في الأوتار والأربطة والغضاريف ويجعلها رخوة مما يؤهب للإصابة بالتهاب المفاصل التنكسي، وخاصة المفاصل بين الفقرات، وإلى تنكس في

(١) تفسير الرازي ٥/ ٤٦٢.

(٢) هذا البحث منتدى كنانة أون لاين

العظام، والأنسجة الحاوية على الكبريت تتخرب بالتعفن والتخمر منتجة روائح كريهة فواحة لانطلاق غاز كبريت الهدروجين.

وقد لوحظ أن الآنية الحاوية على لحم الخنزير، على الرغم من أنها محكمة السد إلا أنه يتعين إخراجها من الغرفة بعد عدة أيام نظرًا للروائح الكريهة النتنة وغير المحتملة الناجمة عنها.

وبالمقارنة فإن لحومًا أخرى مختلفة خضعت لنفس التجربة، فإن لحم البقر كان أبطأ تعفنًا من لحم الخنزير ولم تنطلق منه تلك الروائح النتنة، ويحتوي لحم الخنزير على نسبة عالية من هرمون النمو والتي لها تأثير أكيد للتأهب للإصابة بخامة النهايات علاوة على تأثيره في زيادة نمو البطن (الكرش) وزيادة معدل النمو وخاصة نمو الأنسجة المهيأة للنمو والتطور السرطاني.

وحسب دراسات Raff فإن تلك الوجبة المسائية الدسمة الحاوية على لحم الخنزير تعتبر الأساس في التحول السرطاني للخلايا لاحتوائها على هرمون النمو علاوة على أثرها في رفع كولسترول الدم.

كما تؤكد أبحاث د. هانس هايترش احتواء لحم الخنزير على كمية عالية من الهستامين تؤهب عند آكليها لحدوث الأمراض التحسسية الجلدية مثل الأكزيمة، والشرى، والتهاب الجلد العصبي وغيرها بكثرة.

وقد وجد أن الشرى والحكة المعندة عند آكلي لحم الخنزير تتلاشى عند الامتناع عن أكله بشكل مطلق، بما في ذلك السجق المصنوع منه.

الأمراض التي ينقلها الخنزير:

لقد حرمت الشريعة الإسلامية لحم الخنزير، ونفذها المتدينون امتثالًا لأمر الله الخالق سبحانه وطاعة له دون أن يناقشوا العلة من التحريم، لكن العلماء المحدثين توصلوا إلى نتائج مدهشة في هذا المجال: أليس من المدهش أن نعلم أن الخنزير مرتع خصب لأكثر من

٤٥٠ مرضًا وبائيًا، وهو يقوم بدور الوسيط لنقل ٥٧ منها إلى الإنسان، عدا الأمراض التي يسببها أكل لحمه من عسرة هضم وتصلب للشرايين وسواها.

والخنزير يختص بمفرده بنقل ٢٧ مرضًا وبائيًا إلى الإنسان وتشاركه بعض الحيوانات الأخرى في بقية الأمراض لكنه يبقى المخزن والمصدر الرئيسي لهذه الأمراض: منها الكلب الكاذب، وداء وايل، والحمى اليابانية، والحمى المتوهجة، والحميرة الخنزيرية غيرها.

هذه الأوبئة يمكن أن تنتقل من الخنزير إلى الإنسان بطرق مختلفة

الأول: عن طريق مخالطته أثناء تربيته أو التعامل مع منتجاته (وتعتبر أمراضًا مهنية) وهي لا تقل عن ٣٢ وباء تصيب في الأغلب، عمال الزرائب والمجازر والبيطريون منها أنواع من الفطور العميقة، والزحار، والديدان، والزحار الزقي، والحمى اليابانية الدماغية، والتهاب الفم البثري الساري.

الثاني: عن طريق تلوث الطعام والشراب بفضلاته وهي لا تقل عن ٢٨ مرضًا منها: الزحار، والأسكاريس، والانسمام الوشيقي، والديدان القنفذية، والكبدية، والمفلطحة، وشوكية الرأس، والدودة المسلحة الخنزيرية، والشعيرات الحلزونية وغيرها.

الثالث: عن طريق تناول لحمه ومنتجاته وهي أكثر من ١٦ مرضًا منها داء المبيضات ـ داء الحويصلات الخنزيرية، الحمى المالطية ـ الدودة الكبدية، وداء وايل، والدودة الشعرية الحلزونية والشريطية، والسل وغيرها. وهذا يؤكد ما ذهب إليه العالم –كرول– من أن الحظر المفروض على المسلمين بعدم ملامسة الخنازير ليس بحاجة إلى تبرير.

طفيليات الخنزير

رأينا كيف أن الخنزير يؤوي في بدنه عددًا كبيرًا من الطفيليات وأكثر من ٥٠ نوعًا منها. يصيب الإنسان فهي داخلة فيما يسمى بالأمراض الحيوانية البشريةZoonosis ، ويمكن أن نقسمها ضمن المجموعات التالية:

الأمراض الفيروسية والجرثومية:

منها داء الكلب، والحمى الصفراء والمالطية، والسل، لكن أهمها ما يخص الخنزير بنقله وهي:

١- الالتهاب السحائي المخي، وتسمم الدم الناجم عن الإصابة بالمكورات السبحية الخنزيرية المكتشفة عام ١٩٦٨ والتي فسرت الحالات الغامضة من الوفيات التي حصلت حينئذ في الدانيمارك وهولندا.

وقد تبين أن هذه الجراثيم شديدة الفتك بالإنسان مسببة التهاب السحايا المغلفة للمخ وبإفراز سموم معينة في دم المصاب، والذين أصيبوا بهذا المرض ونجو من الموت بعد علاج شاق أصيبوا بالصمم الدائم وفقدان التوازن.

٢- جائحات الكريب حيث يؤكد د. هانس هايترش إن فيروس الكريب الذي ينقله الخنزير هو العامل الأكثر سمية، وينقل عن معهد الأبحاث الفيروسية في لندن أن فيروس الكريب يتضح بكثرة في رئة الخنازير التي تدخل في صنع السجق، وتمكن الفيروسات في الأماكن الحيوية للبدن إلى أن تتاح لها الفرصة في ظروف مواتية من البرد وقلة الشمس لتأتي بشكل جائحة إنسانية كالتي حدثت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حينما تناول الشعب الألماني هدايا الولايات المتحدة من اللحوم ومشتقاتها مصنوعة من لحم الخنزير.

٣-أنفلونزا الخنزير ينتشر هذا المرض على هيئة وباء يصيب الملايين من الناس ومن مضاعفاته الخطيرة التهاب المخ، وتضخم القلب، والوهط الدوائي، وآخر جائحة أصابت العالم عام ١٩١٨ حيث أصيب بها أكثر من ٢٠ مليونًا من البشر.

٤-الحمرة الخنزيرية وينتقل من الخنزير إلى اللحامين والدباغين وسواهم وتكون بشكل لوحة محمرة مؤلمة جدًّا، وحارقة على الأيدي مع أعراض عامة من ترفع حراري وقشعريرة والتهاب العقد والأوعية اللمفاوية.

الأمراض الناجمة عن الحيوانات الأوالي:

يعتبر الخنزير العائل الخازن لنوعين من المثقبات Trypanosome أولاهما: هو طفيلي داء النوم الإفريقي، وثانيهما: يحدث داء شاغاس المستوطن في أمريكا الجنوبية، كما يعتبر الخنزيرالعائل الأكبر لنوع من الزحار الأميبي، لكن أخطر هذه الطفيليات هي المتحول

الأميبي الهدبي المسمى بالزقيات الكولونية Balantidium Coli يتطفل في الأمعاء الغليظة للخنزير والقردة، لكن فرص الاتصال النادرة بين القردة والإنسان تجعل الخنزير المصدر الوحيد لعدوى الإنسان وإصابته بما يسمى بالزحار الزقي.

والزحار الزقي من الأمراض المهنية التي يصاب بها العاملون على تربية الخنازير أو ذبحها، أو الاتجاه بها حيث تتلوث أيديهم بمفرغات الخنزير ومنها تنتقل بالطعام إلى أمعائهم، فيصاب بحالات من الإسهال الشديد والمتكرر مع مغص ودوار وهزال أحيانًا، ويمتد الأمر لظهور تقرحات في الأمعاء، قد تثقب وقد تؤدي إلى وفاة المصاب.

الأمراض الناجمة عن الحشرات والحلم: حيث يعتبر الخنزير عائلًا لعدد من الطفيليات الخارجية للإنسان منها: أنواع من البعوض والبراغيث والقمل، ومنها ذبابة تسي تسي الناقلة لطفيلي داء النوم وأنواع من ذباب الجلد تصيب يرقاتها الفم والعين والأنف والجروح المكشوفة، ومنها: أنواع من الحلم قريبة من طفيلي الجرب.

الأمراض الناجمة عن الديدان المفلطحة:

١- صنف المثقوبات: التي تصيب الدم حيث يصاب الخنزير بديدان البلهارسيا اليابانية والتي تنزل بويضاتها مع برازه، كما يصاب بنوع من المثقوبات يصيب الرئتين، وتنتقل للإنسان في كثير من بلدان العالم، أما عن المثقوبات المعوية والكبدية فللخنزير منها نصيب غير قليل وأهمها:

المتوارقة البسكية Fasciolopsis Buski من الديدان المعوية ـ الكبدية وهي تنتشر في آسيا من الصين إلى البنغال وتعيش الديدان البالغة في الأمعاء محدثة التهابات موضعية ونزوف وتقرحات في جلد المعي الدقيق مع إسهال مزمن وفقر دم، وقد تحدث استسقاء البطن مؤدية إلى الوفاة

ومنها الدودة الكبدية الصينية Chlonorihis Sineasis وتنتشر في بلدان الشرق الأقصى كاليابان والصين، والخنزير العائل الرئيسي بها. تعيش هذه الديدان في القنوات

الصفراوية وإذا كثرت أعدادها عند المصاب أحدثت تضخمًا في الكبد وإسهالًا مزمنًا ويرقانًا شديدًا ينتهي بالوفاة.

٢- صنف الديدان الشريطية: ويصيب الخنزير منها نوعان: الشريطية العوساء العريضة D. Latum ويصاب الإنسان بالطور البالغ منها. والنوع الأهم هو الشريطية المسلحة Taenia Solium والمسماة الدودة الوحيدة المسلحة وهي تعيش في طورها البالغ في أمعاء الإنسان، طولها من ٢ـ٣ أمتار، لها رأس أصغر من الدبوس مزود بأربع ممصات ويطوق قمته طوق من الأشواك، يلي الرأس عنق قصير ينمو منه باستمرار قطع أو أسلات صغيرة تنمو كلما بعدت عن الرأس مكونة جسم الدودة الذي يشبه الشريط والذي يحتوي أكثر من ١٠٠٠ قطعة وتمتلئ القطع الناضحة بآلاف البيوض، حتى تصبح في النهاية مجرد كيس مثقل بذلك البيض الوبيل، والذي ينمو في كل واحدة منها جنين كروي مسدس الأشواك.

وتنفصل الأسلات النهائية لتخرج مع براز المصاب، وتعيش في التربة الرطبة زمنًا طويلًا حتى يأتي خنزير فيلتهمها مع ما فيها من بيض وفي أمعاء الخنزير تعمل عصاراته الهاضمة على حل غلاف هذه البيوض لتنطلق منها الأجنة مخترقة جدًّار الأمعاء إلى الدورة الدموية للحيوان، وبواسطة الدم تستقر في عضلات الخنزير مكونة حويصلات كروية أو بيضاوية بطول ١٨ -٦ ملم، في كل منها يرقانة لها رأس صالح لكي يكون دودة جديدة كاملة ويحدث هذا إذا ما تناول الإنسان من اللحم المصاب دون أن ينضج تمامًا لقتل ما فيه من تلك اليرقانات.

والخنزير هنا يقوم بدور العائل الوسيط والذي يعتبر المصدر الوحيد لعدوى البشر، ونمو هذه الحويصلات في المخ يؤدي إلى الإصابة بحالات من الصرع، وإلى ظهور شلل عضوي جزئي، مع دوار واضطرابات عصبية حسية.

كما ينطلق منها إلى الدم ذيفانات سامة، وقد يؤدي إلى الموت، علمًا بأنه لم يعرف لهذا المرض حتى اليوم أي علاج ناجح.

صحيح، كما يقول المدافعون عن الخنزير، أن البقر يصاب بدودة مشابهة هي الشريطية العزلاء، وأن الإنسان عند أكله للحم البقر المصاب يصاب بتلك الدودة بالطور البالغ مع أعراض مشابهة لما تحدثه الشريطية المسلحة (الخنزيرية)، لكن لو ابتلع بيضها. وهذا فرق هام للغاية إذ إن داء الحويصلات عند الإنسان ينجم فقط عن دودة الخنزير الشريطية علمًا بأنه مرض خطير للغاية ولا مقابل له في دودة البقر.

الديدان الشوكية الرأس: وهي شائعة في الخنزير واكتشفت بين مربيه بين فلاحي وادي الفولغا في جنوب روسيا الديدان الخيطية أو الأسطوانية: منها ثعبان البطن أو الأسكاريس. وقد أثبت Smyth أن الخنزير يساعد على انتشارها، ومنها الديدان شعرية الرأس، لكن أشدها خطرًا على بني البشر هي الدودة الشعرية الحلزونيةTrichinella Spiralis .

تعيش الديدان البالغة في أمعاء الإنسان والخنزير وهي ديدان قصيرة طولها من ٢-٤ ملم تتغلغل الإناث المثقلة بالبيوض بين الزغابات المعوية لتضع صغارها (اليرقانات) هناك، فهي لا تضع بيضًا، إذ يفقس البيض وهو في بطِنها، وتخترق اليرقانات جدر الأمعاء إلى الدم وتطوف معه لتستقر في عضلات مضيفها حيث تنمو ليصل طولها إلى ١ملم ثم تلتف على نفسها وتتحوصل، فإذا أكل إنسان لحم الخنزير المصاب انحلت الحويصلات في أمعائه وتخرج منها الأجنة لتتطور في أمعائه إلى الديدان البالغة والدودة الشعرية البالغة ليست الخطرة على الإنسان، لكنها تتزاوج في أمعائه وتموت الذكور، ترقد الإناث الملقحة في جدران الأمعاء لتضع يرقاناتها بعد أسبوع واحد، تخترق هذه اليرقانات جدر الأمعاء إلى الدم حيث تستقر في أي جزء من بدن الإنسان محدثة ما يسمى بداء الشعريات الخنزيرية Trichinosis وهي تكثر في عضلات الحجاب الحاجز للمصاب وفي حنجرته ولسانه وعينيه.

وتتميز المرحلة الأولى من المرض باضطرابات معدية ـ معوية والإسهال الشديد، والحمى مع الضعف العام.

أما المرحلة الثانية والتي تظهر بعد انتشار اليرقانات في الجسم فكثيرًا ما تكون قاتلة، ومن أعراضها انتفاخ الأجفان، وخزب تحت العينين، وآلام عضلية مبرحة، واضطرابات حركة العينين وعضلات التنفس والبلع، كما يصاب بحمى قد تكون مستمرة مع عرق غزير وهذيان. وإذا توضعت في السائل الدماغي الشوكي ظهرت أعراض التهاب الدماغ والسحايا.

وبعد تكلس تلك الحويصلات، تبدأ المرحلة الثالثة بانتشار الارتشاح في الوجه والبطن والأطراف مع ضعف شديد ووهن عام، وطفوح جلدية، ونزوف، وضخامة في الطحال واضطرابات عصبية عقلية، وتحدث معظم الوفيات بين الأسبوعين الرابع والتاسع.

والمعروف أنه لا يوجد عقار نوعي لداء الشعيرات. والمشكلة الحقيقة هي الغذاء أو الحمى الرثوية يجعل التشخيص صعبًا، وقد لا نتمكن من وصفه قبل الوفاة وفحص خزعة من الحجاب الحاجز.

شهادات علماء الغرب بفضل الإسلام:

يؤكد د. عبد الحافظ حلمي محمد: على فضل الإسلام على حماية أتباعه من أمراض الخنزير الوبيلة.

فالارتباط واضح بين انتشار الشريطية المسلحة، وما ينجم عنها كداء الحويصلات الخنزيرية، وبين العادات الغذائية لبلد ما، والدين الذي يدين به قاطنوه.

وهكذا فإن Noble يؤكد أن دودة الخنزير هذه تحدث عددًا كبيرًا من الإصابات الدماغية سنويًا عند سكان المكسيك الذين اعتادوا تناول لحم الخنزير، في حين يؤكد لاباج وولكوكس وماتسون في كتابهما عن طب البلاد الحارة أن هذه الدودة نادرة الوجود في البلاد الإسلامية.

أما تشاندر وريد فيذكران في كتابهما عن علم الطفيليات ما نصه: أما في البلاد اليهودية والإسلامية، حيث يعد أكل لحم الخنزير خطيئة دينية كبيرة فليس لهذا الطفيلي أدنى فرص للبقاء، وهو دليل فاضح على فساد الأخلاق حين حدوثه.

وعندما يتكلم نلسون عن انتشار داء الشعريات الحلزونية في دول أوربا وأمريكا فهو يتعجب قائلًا: أما العلة في إدماننا ـ نحن أهل العالم الغربي على أكل لحم الخنزير، فإنه لغز محير، خاصة، وأننا نذكر على الدوام بمخاطر ذلك ونحن نقرأ الكتاب المقدس (مشيرًا إلى الإصحاح الرابع عشر من سفر التثنية التوراة).

أما اليهود الملتزمون وأتباع محمد فإنهم مضوا في نفورهم من الخنازير وعدم استساغتهم لحمها فخلت جماعاتهم من داء الشعريات الخنزيرية خلوًا تامًا.

عدوى الخنازير:

لعل أهم مصدر لعدوى الخنازير هي الطريقة المتبعة من تربية الخنازير على القمامة وعادة الخنازير الذميمة من التهاب الفضلات والنفايات، إذ أن القمامة تضم بقايا خنزيرية مصابة حتى إن أحد الباحثين يسمي الدودة الشعرية الحلزونية بدودة القمامة، وهكذا تجتمع الدودة مع الخنزير في القذارة والرجس. وسبب هام آخر لاحظه بعض الباحثين، وهو أن الخنازير تصاب أيضًا نتيجة أن بعضها يأكل أذيال بعض في المرابي المكتظة بها.

وتقوم الجرذان أو الفئران بدور هام، فهي تصاب بالمرض إذا أكلت ما ينبذ من بقايا من لحوم الخنازير المصابة، وتعدي الجرذان بعضها بعضًا؛ لأنها تأكل لحوم بعضها البعض، حية وميتة، ثم تنتقل العدوى إلى الخنازير إذا أكلت جيف تلك الجرذان في أكوام القمامة، وهكذا تحدث دورات عدوى مختلفة من جرذ إلى جرذ، ومن خنزير إلى جرذ ومن جرذ إلى خنزير ومن خنزير إلى إنسان[(١)].

هل يمكن توقي الأمراض التي تنقلها الخنازير؟

---

(١) وسبحان الله، ونحن في آخر مراحل المراجعة لهذه الموسوعة طرأ على الساحة العالمية مرض فتاك وهو طاعون إنفلونزا الخنازير، وهو طاعون مدمر إن استشرى في أمة أهلكها، وعندها تبرأ النصارى من أكله وتربيته واضطروا إلى إعدامها في مزارعها بل والتنكر من تربيتها! !.

يتساءل البعض لم لا تربى الخنازير تربية صحية نظيفة؟ ولم لا تتخذ الوسائل لاكتشاف اللحوم المصابة وإتلافها؟ وإذا كان ذلك ممكنًا في مكان وظروف معينة فهل يمكن تحقيقه في كل الظروف؟ أوليس الأولى عدم المخاطرة وتجنب المهالك؟ بل الحقيقة أن هذه الوسائل كلها لم تكن مجدية في واقع الحال في أي زمان ومكان.

ويأتينا الدليل من الولايات المتحدة حيث مستوى المعيشة فيها على ما نعلم فبينما نرى أن أفقر قطر إسلامي قد نجا من هذا البلاء، فإنه يوجد في الولايات المتحدة ثلاثة أمثال ما في العالم أجمع من الإصابات بالطفيليات الخنزيرية، علمًا بأن الإحصاءات غير دقيقة؛ لأن الآفات لا تشخص سريريًا إلا إذا كانت شديدة ومعظم الحالات لا تشخص إلا بعد الوفاة. وتجري في الغرب إجراءات شاقة ومحاولات باهظة لوقاية الخنازير وآكليها من الديدان الشعرية الحلزونية وغيرها.

ففي الولايات المتحدة التي يربى فيها أكثر من مليون ونصف من الخنازير، جزئيًا أو كليًا على القمامة، صدرت قوانين تقضي بتعريض القمامة للبخار الساخن مدة نصف ساعة قبل تقديمها للخنازير. ولكن ما هي نتيجة هذه الجهود الكبيرة؟

لقد قدرت الإحصاءات أن نحوًا من ٥ ٪من خنازير بوسطن و١٨. ٥٪ من ذبائح متشيغان مصابة بهذه الآفة (ويلككس وماتسون با) (أما اللحوم فإن معالجتها بالكوبالت والسيزيوم المشعين يؤدي إلى إصابة الديدان الناشئة بالعقم مما يمنع تكاثرها، لكن هذا الإجراء دقيق وليس من الميسور تطبيقه، ثم إن التجميد السريع بالتبريد ثم التخزين الطويل في درجات حرارة شديدة الانخفاض تقضي على الطفيليات الدقيقة فيه.

وتقضي التعليمات الصحية في الولايات المتحدة بخزن لحوم الخنازير التي تؤكل نيئة ٢٠ يومًا كاملًا في درجة حرارة ١٥ تحت الصفر. كما أن غلي اللحوم تقتل الطفيليات لذا يوصى بغليها فترة تتناسب وحجمها: ومع كل هذه الجهود الشاقة والنفقات الباهظة فما تزال الإحصاءات تشير إلى تلك النسب المرتفعة من الإصابة.

أو ليس الأيسر بداهة هو تجنب تلك اللحوم أصلًا؟ ثم أينسى هؤلاء أن عملهم قد احتاج قرونًا طويلة ليكتشف عددًا من الآفات التي يسببها أكل لحم الخنزير. فمن الذي يجزم بأن هناك آفات أخرى لم يكشف العلم النقاب عنها بعد؟ أفلا تستحق الشريعة الإسلامية التي سبقت العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها وندع كلمة الفصل لها نحرم ما حرمت، ونحلل ما حللت وهي آتية من لدن حكيم خبير؟.

الآثار السلوكية (الخلقية) التالية لأكل لحم الخنزير:

أشار النبي ﷺ إلى أثر الطعام على خلق آكليه فقال: " الفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم". [١]

وكما ذكرنا قول الفخر الرازي: قال أهل العلم ـ الغذاء يصير جزءًا من جوهر المغتذي فلابد أن يحصل له أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلًا في الغذاء، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهيات فحرم أكله لئلا يتكيف بتلك الكيفية.

ويقول ابن خلدون: أكلت الأعراب لحم الإبل فاكتسبوا الغلظة، وأكل الأتراك لحم الفرس فاكتسبوا الشراسة، وأكل الإفرنج لحم الخنزير فاكتسبوا الدياثة.

وحديثًا اختلف العلماء في أثر الغذاء على الطباع والخلق، لكن ملاحظات كثير من العلماء قادتهم إلى اختلاف الآثار الخلقية باختلاف نوع اللحوم المكثر من تناولها، وبأن لحم الخنزير وشحمه له تأثير سيء على العفة والغيرة على العرض إذا داوم الإنسان على تناوله توصلوا في نهايتها إلى القول بأن نوعية الطعام تؤثر على شخصية وسلوك الإنسان وتصرفاته.

وعن مقالة للدكتور الفنجري يؤكد فيها أن الذين يأكلون لحوم الحيوانات الكاسرة عادة ما تكون طباعهم شريرة، غير متسامحين، ويميلون إلى ارتكاب الآثام والجرائم.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣١٢٥)، ومسلم (٨٥).

وإن أكل لحم الخنزير لابد وأن يؤثر على شخصية الإنسان وسلوكه العام والذي يتجلى واضحًا في كثير من المجتمعات الغربية حيث يكثر اللواط، والسحاق، والزنا. وما نراه متفشيًا من نتاج تلك التصرفات من ارتفاع نسبة الحمول غير الشرعية والإجهاض وغيرها.

الوجه الخامس: الكتاب المقدس يحرم أيضًا لحم الخنزير.

(القرآن الكريم) ليس هو الكتاب الوحيد الذي يؤكد النهي عن لحم الخنزير. ويشدد في حرمته، وهذه نصوص الأسفار قديمها وجديدها، تؤكد هذا وتقرره.

الخنزير محرم؛ لأنه لا يجتر:

وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا لَهُمَا: ٢ «كَلِّمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: هذِهِ هِيَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ: ٣ كُلُّ مَا شَقَّ ظِلْفًا وَقَسَمَهُ ظِلْفَيْنِ، وَيَجْتَرُّ مِنَ الْبَهَائِمِ، فَإِيَّاهُ تَأْكُلُونَ. ٤ إِلاَّ هذِهِ فَلاَ تَأْكُلُوهَا مِمَّا يَجْتَرُّ وَمِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ: الْجَمَلَ، لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. ٥ وَالْوَبْرَ، لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. ٦ وَالأَرْنَبَ، لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. ٧ وَالْخِنْزِيرَ، لأَنَّهُ يَشُقُّ ظِلْفًا وَيَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ، لكِنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. ٨ مِنْ لَحْمِهَا لاَ تَأْكُلُوا وَجُثَثَهَا لاَ تَلْمِسُوا. إِنَّهَا نَجِسَةٌ لَكُمْ. (سفر اللاويين ١١: ١-٨).

لاَ تَأْكُلْ رِجْسًا مَّا. ٤ هذِهِ هِيَ الْبَهَائِمُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا: الْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالْمَعْزُ ٥ وَالإِيَّلُ وَالظَّبْيُ وَالْيَحْمُورُ وَالْوَعْلُ وَالرِّئْمُ وَالثَّيْتَلُ وَالْمَهَاةُ. ٦ وَكُلُّ بَهِيمَةٍ مِنَ الْبَهَائِمِ تَشُقُّ ظِلْفًا وَتَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ وَتَجْتَرُّ فَإِيَّاهَا تَأْكُلُونَ. ٧ إِلاَّ هذِهِ فَلاَ تَأْكُلُوهَا، مِمَّا يَجْتَرُّ وَمِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ الْمُنْقَسِمَ: الْجَمَلُ وَالأَرْنَبُ وَالْوَبْرُ؛ لأَنَّهَا تَجْتَرُّ لكِنَّهَا لاَ تَشُقُّ ظِلْفًا، فَهِيَ نَجِسَةٌ لَكُمْ. ٨ وَالْخِنْزِيرُ لأَنَّهُ يَشُقُّ الظِّلْفَ لكِنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. فَمِنْ لَحْمِهَا لاَ تَأْكُلُوا وَجُثَثَهَا لاَ تَلْمِسُوا. (سفر التثنية ١٤: ٣-٨).

يقول قاموس الكتاب المقدس تعليقًا على هذا النص: وذلك لأنه قذر ولا يجتر طعامه ويولد لحمه بعض الأمراض إذا لم ينضج عند طبخه. وكان محرمًا على العرب تربيته. وقد حرم القرآن أكله كما حرمته التوراة.

وقد حسبه الفينيقيون والأثيوبيون والمصريون نجسًا مع أنهم في مصر كانوا يقدمون خنزيرًا ذبيحةً في العيد السنوي لإله القمر ولأوزوريس باخوس. ومع ذلك فإنه كان يتحتم على من يلمس خنزيرًا ولو عرضًا أن يغتسل، ولم يكن يسمح لراعي الخنزير أن يدخل الهيكل، ولم يكن يتزوج إلا من بنات الرعاة مثله؛ لأن أحدًا لا يرضى أن يزوج ابنته من راعي الخنازير. [1]

والخنزير قذر: خِزَامَةُ ذَهَبٍ فِي فِنْطِيسَةِ خِنْزِيرَةٍ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ الْعَدِيمَةُ الْعَقْلِ (الأمثال ١١: ٢٢).

وإذا تركنا أسفار (العهد القديم)، وانتقلنا إلى أسفار (العهد الجديد).

فإننا نجدها تقول: لاَ تُعْطُوا الْقُدْسَ لِلْكِلاَبِ، وَلاَ تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ الْخَنَازِيرِ (متى: ٦٧).

قَدْ أَصَابَهُمْ مَا فِي الْمَثَلِ الصَّادِقِ: «كَلْبٌ قَدْ عَادَ إِلَى قَيْئِهِ»، وَ«خِنْزِيرَةٌ مُغْتَسِلَةٌ إِلَى مَرَاغَةِ الْحَمْأَةِ». (رسالة بطرس الرسول الثانية ٢: ٢٢).

وتقرر أسفار العهد الجديد أن رعي الخنازير أحط المهن وأدناها لا يقربها إلا الفقراء المعدمون.

وَقَالَ: «إِنْسَانٌ كَانَ لَهُ ابْنَانِ. ١٢ فَقَالَ أَصْغَرُهُمَا لأَبِيهِ: يَا أَبِي أَعْطِنِي الْقِسْمَ الَّذِي يُصِيبُنِي مِنَ الْمَالِ. فَقَسَمَ لَهُمَا مَعِيشَتَهُ. ١٣ وَبَعْدَ أَيَّامٍ لَيْسَتْ بِكَثِيرَةٍ جَمَعَ الابْنُ الأَصْغَرُ كُلَّ شَيْءٍ وَسَافَرَ إِلَى كُورَةٍ بَعِيدَةٍ، وَهُنَاكَ بَذَّرَ مَالَهُ بِعَيْشٍ مُسْرِفٍ. ١٤ فَلَمَّا أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ، حَدَثَ جُوعٌ شَدِيدٌ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ، فَابْتَدَأَ يَحْتَاجُ. ١٥ فَمَضَى وَالْتَصَقَ بِوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْكُورَةِ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى حُقُولِهِ لِيَرْعَى خَنَازِيرَ (إنجيل لوقا ١٥: ١١-١٥).

وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ الْجِبَالِ قَطِيعٌ كَبِيرٌ مِنَ الْخَنَازِيرِ يَرْعَى، ١٢ فَطَلَبَ إِلَيْهِ كُلُّ الشَّيَاطِينِ قَائِلِينَ: «أَرْسِلْنَا إِلَى الْخَنَازِيرِ لِنَدْخُلَ فِيهَا». ١٣ فَأَذِنَ لَهُمْ يَسُوعُ لِلْوَقْتِ. فَخَرَجَتِ الأَرْوَاحُ النَّجِسَةُ وَدَخَلَتْ فِي الْخَنَازِيرِ، فَانْدَفَعَ الْقَطِيعُ مِنْ عَلَى الْجُرْفِ إِلَى الْبَحْرِ. وَكَانَ نَحْوَ أَلْفَيْنِ،

---

(١) قاموس الكتاب المقدس (٣٥٠).

فَاخْتَنَقَ فِي الْبَحْرِ. (مرقس ٥: ١١-١٣).

على أن هناك حقيقة ينبغي أن تكون نصب أعيننا، هي أن المسيح جاء مقررًا للتوراة ومؤكدًا لما جاء فيها: لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ١٨ فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. (إنجيل متى ٥: ١٧-١٨).

هكذا تكلم المسيح. . . فكيف تكلم بطرس. . . !

بطرس فتح الباب على مصراعيه، فأحل كل حرام، ونقض الناموس.

حديث ملاءة بطرس: ثُمَّ فِي الْغَدِ فِيمَا هُمْ يُسَافِرُونَ وَيَقْتَرِبُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، صَعِدَ بُطْرُسُ عَلَى السَّطْحِ لِيُصَلِّيَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. ١٠ فَجَاعَ كَثِيرًا وَاشْتَهَى أَنْ يَأْكُلَ. وَبَيْنَمَا هُمْ يُهَيِّئُونَ لَهُ، وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَيْبَةٌ، ١١ فَرَأَى السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَإِنَاءً نَازِلًا عَلَيْهِ مِثْلَ مُلاَءَةٍ عَظِيمَةٍ مَرْبُوطَةٍ بِأَرْبَعَةِ أَطْرَافٍ وَمُدَّلاَةٍ عَلَى الأَرْضِ. ١٢ وَكَانَ فِيهَا كُلُّ دَوَابِّ الأَرْضِ وَالْوُحُوشِ وَالزَّحَّافَاتِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. ١٣ وَصَارَ إِلَيْهِ صَوْتٌ: «قُمْ يَا بُطْرُسُ، اذْبَحْ وَكُلْ». ١٤ فَقَالَ بُطْرُسُ: «كَلاَّ يَارَبُّ! لأَنِّي لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئًا دَنِسًا أَوْ نَجِسًا». ١٥ فَصَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا صَوْتٌ ثَانِيَةً: «مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تُدَنِّسْهُ أَنْتَ! » ١٦ وَكَانَ هذَا عَلَى ثَلاَثِ مَرَّاتٍ، ثُمَّ ارْتَفَعَ الإِنَاءُ أَيْضًا إِلَى السَّمَاءِ. (أعمال الرسل ١٠: ٩- ١٦).

هكذا. . هكذا. . كل دواب الأرض. . حتى الوحوش والزحافات والخنازير. . . لم يعد شيء حرامًا. . . ! ولكنه (بطرس) وبطرس من حقه أن يحل ما يشاء، وأن يحرم ما يشاء. . . فإرادة الله تابعة لإرادته- ألم يقل الله له: وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. ١٩ وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاوَاتِ (إنجيل متى ١٦: ١٨- ١٩).

* * *

٧- شبهة: الجزية.

نص الشبهة:

لقد حاول أعداء الإسلام أن يظهروا أن الجزية من مساوئ الإسلام؛ لأن فيها إذلالًا للشعوب غير المسلمة، ولقد زعم بعضهم أن الإسلام هو أول من فرض الجزية وألزم بها.

والردُّ على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى الجزية، ومشروعيتها، وتفسير آية الجزية.

الوجه الثاني: أن فرض الجزية يندرج ضمن ما يسمى بعقد الذمة، وهذا العقد يحمل في مضمونه كل الأمن والأمان لمن أراد أن يمكث في دولة الإسلام وهو على دينه.

الوجه الثالث: في بيان الحكمة من مشروعية الجزية، وفي ذلك نقاط:

الوجه الرابع: ترفع الإسلام عن سقطات السابقين عليه في مسألة الجزية.

الوجه الخامس: أمر الله بأخذ الجزية من المقاتلين دون غيرهم.

الوجه السادس: في المرأة منهم إذا بذلت الجزية.

الوجه السابع: لم يكن المبلغ المدفوع للجزية كبيرًا تعجز عن دفعه الرجال.

الوجه الثامن: التحذير من ظلم أهل الذمة.

الوجه التاسع: صور مشرقة في تعامل المسلمين مع أهل الذمة.

الوجه العاشر: لم يكن الإسلام أول الأديان والملل أخذًا للجزية.

الوجه الحادي عشر: مقارنة بين شريعة الإسلام في عقد الذمة وبين ما قام به النصارى واليهود تجاه البشرية عامة وتجاه من أحسن إليهم من المسلمين خاصة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى الجزية، ومشروعيتها، وتفسير آية الجزية.

١- **تعريف كلمة الجزية، وتأصيلها**: ذهب جماعة من العارفين بلغة الفرس في تأصيل كلمة الجزية إلى أنها لفظ فارسي محض، وأن أصله: كزيت، وأن الجزية إنما هي تعريب له، واستشهدوا في ذلك بورود هذا اللفظ في كلام شعرائهم على زِنته الأصلية.

قال الحكيم سوزني: كتاب خويش نخوانيم وزو عمل نكنيم كه تا كزيت ستانند خودز أهل كتاب.

وقال النظامي: كهش قيصر كزيت دين فرستد كهش خاقان خراج جبن فرستد.

ونقول: لما ثبت من تصريحاتهم (وهم أعرف بلسانهم) وهي فارسية، فإما أن يقال: إنها عربية أيضًا كما هو شأن توافق اللغات، وذلك احتمال بعيد لا يُلجأ إلى أمثاله إلا عند ضرورة محوجة.

وإما أن يقال: إنها فارسية الأصل، وإنما سبيله في تداوله عند العرب سبيل الدعي والدخيل في القوم.

وهذا الاحتمال تعاضده قرائن وأمارات: منها: العرب خالطوا العجم قديمًا وعاشروهم، فأغاروا على جانب عظيم من لغتهم واستباحوها وتصرفوا فيها كيف ما شاءوا ولعبوا بها كل ملعب.

وذلك كالكوز، والإبريق، والطست، والخوان، والقصعة، وغيرها مما أحصاها الثعالبي في كتابه فقه اللغة، فليس من المستنكر أن تكون الجزية أيضًا من جملتها.

ومنها: أن العرب كانوا قبل الإسلام أصحاب البؤس والشقاء، رعاة الإبل والشاء، وما ملكوا أرضًا ولا استعبدوا قومًا.

فلم يتفق لهم وضع الألفاظ بإزاء المعاني التي هي من مختصات المدنية والعمران، ولذلك لا تجد في كلام العرب العرباء ألفاظًا تقوم مقام الوزير، والصاحب، والعامل، والتوقيع، والدست، وغيرها، ولما كانت الجزية أيضًا من خصائص الملكية كفوا مؤنة وضع لفظ بإزائها، ومنها: أن الحيرة (وكانت منازل آل نعمان) كانت تدين للعجم وتؤدي إليهم الإتاوة والخراج.

ولما كان (كسرى أنوشروان) هو الذي سن الجزية أولًا- كما نبينه فيما سيأتي- فيغلب على الظن أن العرب أول ما عرفوا الجزية في ذاك العهد وتعاوروا اللغة العجمية بعينها.

ومن مساعدة الجد أن اللفظ كان زنته زنة العربي، فلم يحتاجوا في تعريبه إلى كبير مؤنة، بعد ما أبدل كافها جيمًا صارت كأنها عربي الأصل والنجار.[١]

وشرعًا: عقد تأمين، ومعاوضة، وتأبيد من الإمام، أو نائبه على مال مقدر يؤخذ من الكفار كل سنة برضاهم في مقابلة سكنى دار الإسلام.[٢]

ورد الجويني قوله: (في مقابلة سكنى دار الإسلام) بقوله:

وهذا غير سديد؛ لأن المرأة تقيم في دار الإسلام، ولا جزية عليها.[٣]

والأصح هو أنها خلف عن النصرة.[٤]

وقال ابن القيم: فالجزية هي الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالًا، وصغارًا، والمعنى: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم.[٥]

وقال ابن قدامة: هي الوظيفة المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام، وهي فعلة من جزى يجزي إذا قضى قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (البقرة: ٤٨) تقول العرب: جزيت ديني إذا قضيته[٦].

وقال الجصاص: وَالْجِزْيَةُ وَالْجَزَاءُ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَخْذُ الْمَالِ مِنْهُمْ عُقُوبَةً وَجَزَاءً عَلَى إقَامَتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ.[٧]

٢- أول من سن الجزية.

---

(١) مجلة المنار السنة الأولى العدد (٤٤) رسالة لشمس العلماء الشيخ شبلي النعماني.

(٢) التعاريف (٢٤٣).

(٣) نهاية المطلب (١٨/ ٧).

(٤) المبسوط للسرخسي (١٢/ ١٥٩).

(٥) أحكام أهل الذمة (٢٨).

(٦) المغني (١٢/ ٧٥٦).

(٧) أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٢٨٦).

قال الطبري: وكان ملوك فارس يأخذون من كور من كورهم قبل ملك كسرى أنوشروان في خراجها الثلث ومن كور الربع، ومن كور الخمس، ومن كور السدس على قدر شربها، وعمارتها، ومن جزية الجماجم شيئًا معلومًا فأمر الملك (قباذ بن فيروز) في آخر ملكه بمسح ا لأرض سهلها وجبلها ليصح الخراج عليها فمسحت غير أن (قباذ) هلك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة حتى إذا ملك ابنه كسرى أمر باستتمامها وإحصاء النخل والزيتون والجماجم، ثم أمر كتابه فاستخرجوا جمل ذلك وأذن للناس إذنًا عامًا، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليهم الجمل التي استخرجت من أصناف غلات الأرض وعدد النخل والزيتون والجماجم، فقرأ ذلك عليهم، ثم قال لهم كسرى: إنا قد رأينا أن نضع على ما أحصي من جربان هذه المساحة من النخل والزيتون والجماجم وضائع، ونأمر بإنجامها في السنة في ثلاثة أنجم ونجمع في بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا عن ثغر من ثغورنا أو طرف من أطرافنا فتق أو شيء نكرهه، واحتجنا إلى تداركه أو حسمه ببذلنا فيه مالًا كانت الأموال عندنا معدة موجودة، ولم نرد استئناف اجتبائها على تلك الحال، فما ترون فيما رأينا من ذلك وأجمعنا عليه؟.

فلم يشر عليه أحد منهم فيه بمشورة، ولم ينبس بكلمة، فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات، فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى: أتضع أيها الملك عمرك الله الخالد من هذا الخراج على الفاني من كرم يموت، وزرع يهيج، ونهر يغور، وعين أو قناة ينقطع ماؤها، فقال له كسرى: يا ذا الكلفة المشؤوم، من أي طبقات الناس أنت؟ قال: أنا رجل من الكتاب، فقال كسرى: اضربوه بالدوي حتى يموت، فضربه بها الكتاب خاصة تبرؤا منهم إلى كسرى من رأيه وما جاء منه حتى قتلوه، وقال الناس: نحن راضون أيها الملك بما أنت ملزمنا من خراج، وإن كسرى اختار رجالًا من أهل الرأي والنصيحة فأمرهم بالنظر في أصناف ما ارتفع إليه من المساحة، وعدة النخل، والزيتون، ورؤوس أهل الجزية، ووضع الوضائع على ذلك بقدر ما يرون أن فيه صلاح رعيته ورفاعة معاشهم، ورفعه إليه فتكلم كل امرئ منهم بمبلغ

رأيه في ذلك من تلك الوضائع، وأداروا الأمر بينهم، فاجتمعت كلمتهم على وضع الخراج على ما يعصم الناس والبهائم، وهو الحنطة، والشعير، والأرز، والكرم، والرطاب، والنخل، والزيتون، وكان الذي وضعوا على كل جريب أرض من مزارع الحنطة والشعير درهمًا، وعلى كل جريب أرض كرم ثمانية دراهم، وعلى كل جريب أرض رطاب سبعة دراهم، وعلى كل أربع نخلات فارسية درهمًا، وعلى كل ست نخلات دقل مثل ذلك، وعلى كل ستة أصول زيتون مثل ذلك، ولم يضعوا إلا على كل نخل في حديقة أو مجتمع غير شاذ، وتركوا ما سوى ذلك من الغلات السبع فقوي الناس في معاشهم، وألزموا الناس الجزية ما خلا أهل البيوتات، والعظماء، والمقاتلة، والهرابذة، والكتاب، ومن كان في خدمة الملك، وصيروها على طبقات اثني عشر درهمًا وثمانية وستة وأربعة كقدر إكثار الرجل وإقلاله، ولم يلزموا الجزية من كان أتي له من السن دون العشرين أو فوق الخمسين، ورفعوا وضائعهم إلى كسرى فرضيها وأمر بإمضائها والاجتباء عليها في السنة في ثلاثة أنجم كل نجم أربعة أشهر وسماها أبراسيار وتأويله: الأمر المتراضي، وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد الفرس وأمر باجتباء أهل الذمة عليها؛ إلا أنه وضع على كل جريب أرض عامر على قدر احتماله مثل الذي وضع على الأرض المزروعة وزاد على كل جريب أرض مزارع حنطة أو شعيرًا قفيزًا من حنطة إلى القفيزين ورزق منه الجند، ولم يخالف عمر بالعراق خاصة وضائع كسرى على جربان الأرض، وعلى النخل، والزيتون، والجماجم، وألغى ما كان كسرى ألغاه من معايش الناس، وأمر كسرى فدونت وضائعه نسخًا، فاتخذت نسخة منها في ديوانه قبله، ودفعت نسخة إلى عمال الخراج ليجتبوا خراجهم عليها، ونسخة إلى قضاة الكور، وأمر القضاة أن يحولوا بين عمال الكور والزيادة على أهل الخراج فوق ما في الديوان الذي دفعت إليه نسخته، وأن يرفعوا الخراج عن كل من أصاب زرعه أو شيئًا من غلاته آفة بقدر مبلغ تلك الآفة وعمن هلك من أهل الجزية أو جاوز خمسين سنة ويكتبوا إليه بما يرفعون من ذلك ليأمر بحسبه للعمال، وألا يخلوا بين العمال وبين اجتباء من أتي له دون عشرين سنة.

أما المعنى الذي توخاه كسرى في استثناء الجند ونحوهم، فبينه العلامة ابن الأثير في كتابه (الكامل) ناقلًا عن كلام كسرى فقال: ولما نظرت في ذلك وجدت المقاتِلة أجراء لأهل العمارة، وأهل العمارة أجراء للمقاتِلة، فإنهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم ومجاهدتهم عمن وراءهم، فحق أهل العمارة أن يوفوهم أجورهم، فإن العمارة والأمن والسلامة في النفس والمال لا يتم إلا بهم، ورأيت أن المقاتلة لا يتم لهم المقام والأكل والشرب وتثمير الأموال والأولاد إلا بأهل الخراج والعمارة، فأخذت للمقاتلة من أهل الخراج ما يقوم بأودهم، وتركت على أهل الخراج من مستغلاتهم ما يقوم بمؤونتهم وعمارتهم، ولم أجحف بواحد من الجانبين.

وحاصله: أنه يجب على كل فرد من أفراد الملة المدافعة عن نفسه وماله، فمن كان يقوم بهذا العبء بنفسه فليس عليه شيء، وهؤلاء أهل الجند والمقاتلة، وأما من كان يشغله أمر العمارة وتدبير الحرث على المخاطرة بالنفس فيحق عليه أن يؤدي شيئًا معلومًا في كل سنة، يصرف في وجوه حمايته والدفاع عنه.

وهذا هو المعني بالجزية؛ فإنها تؤخذ من أهل العمارة وتعطى للمقاتلة والجند اللذين نصبوا أنفسهم لحماية البلاد واستتباب وسائل الأمن والسلامة لكافة العباد. [١]

وقال المؤرخ الشهير أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (وهو أقدم زمانًا من الطبري) في كتابه: (الأخبار الطوال في ذكر كسرى أنوشروان): ووظف الجزية على أربع طبقات، وأسقطها على أهل البيوتات، والمرازبة، والأساورة، والكتاب ومن كان في خدمة الملك، ولم يلزم أحدًا لم تأتِ له عشرون سنة أو جاوز الخمسين. [٢]

ومن خلال هذا يعلم أن الجزية كانت موجودة قبل الإسلام، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

٣- **مشروعية الجزية**: ثبتت مشروعية الجزية بالكتاب، والسنة، والإجماع.

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٤٥٣)، والكامل لابن الأثير ذكر ملك كسرى أنو شروان، ومجلة المنار (٤٤/ ٦).

(٢) مجلة المنار (٤٤/ ٦).

أما من الكتاب: فقوله تبارك وتعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة: ٢٩).

وجه الاستدلال بالآية: تنصُّ الآية صراحة على وجوب القتال حتى يتم إعطاء الجزية، فإذا دفعت الجزية رفع القتال.

أما من السنة النبوية الشريفة، فقد ثبت جواز أخذها من أهل الكتاب بالسنة القولية بجملة أحاديث منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ بُرَيْدَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: " اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله اغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ؛ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ الله فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ الله فِيهِمْ أَمْ لَا". [1]

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

ومن السنة الفعلية فقد أخذها رسول الله ﷺ من مجوس هجر[١].

وأما الإجماع فقد أجمع الفقهاء على جواز أخذ الجزية في الجملة[٢].

ولا يجوز عقد الذمة المؤبدة إلا بشرطين:

أحدهما: أن يلتزموا إعطاء الجزية في كل حول.

والثاني: التزام أحكام الإسلام وهو قبول ما يحكم به عليهم من أداء حق أو ترك محرم لقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[٣].

٤- تاريخ تشريع الجزية في الإسلام.

بعد أن تمّ فتح مكّة في أواخر السّنة الثّامنة للهجرة، ودخل النّاس في دين الله أفواجًا، واستقرّت الجزيرة العربيّة على دين الله تعالى -أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ بمجاهدة أهل الكتاب من اليهود والنّصارى في قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (التوبة: ٢٩) ولهذا جهّز رسول الله ﷺ لقتال الرّوم، ودعا المسلمين إلى ذلك، وندب الأعراب الّذين يسكنون حول المدينة المنوّرة إلى قتالهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفًا، وتخلّف بعض النّاس من أهل المدينة، ومن حولها من المنافقين وغيرهم.

وخرج رسول الله ﷺ بمن معه يريد الشّام في السّنة التّاسعة للهجرة، فبلغ تبوك ونزل بها، وأقام فيها نحوًا من عشرين يومًا يبايع القبائل العربيّة على الإسلام، ويعقد المعاهدات مع القبائل الأخرى على الجزية إلى أن تمّ خضوع تلك المنطقة لحكم الإسلام، وبعد أنَّ أخذها ﷺ من نصارى نجران ومجوس هجر أخذها من بعض القبائل اليهوديّة،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨).

(٢) المغني (١٢/ ٧٥٦، ٧٥٧) بتصرف يسير، وانظر نهاية المطلب (١٨/ ٥).

(٣) المغني ١٢/ (٧٦٤).

والنّصرانيّة في تبوك في السّنة التّاسعة للهجرة فأخذها من أهل أيلة حيث قدم يوحنًّا بن رؤبة على رسول الله ﷺ في تبوك، وصالحه على كلِّ حالم بالغ بأرضه في السّنة دينار، واشترط عليهم قرى من مرّ بهم من المسلمين، وكتب لهم كتابًا بأن يحفظوا ويمنعوا.

وأخذها من أهل أذرح، وأهل الجرباء، وأهل تبالة، وجرش، وأهل أذرعات، وأهل مقنا وكان أهلها يهودًا، فصالحهم رسول الله ﷺ على ربع غزولهم، وثمارهم، وما يصطادون على العروك.

وأخذها رسول الله ﷺ بعد ذلك من أهل اليمن، حيث أرسل معاذ بن جبل إليهم، فقال معاذ: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأمرني أن آخذ من كلِّ حالم دينارًا[1].

وروى أبو عبيد كتاب الرّسول إلى أهل اليمن حيث جاء فيه: من محمّد إلى أهل اليمن. وأنّه من أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ؛ فإنّه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديّته أو نصرانيّته فإنّه لا يفتن عنها وعليه الجزية[2].

٥- تفسير الآية، وبيان الصواب في معنى: (الصغار).

قال ابن كثير: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ (التوبة: ٢٩) فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم، وأهواءهم، وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانًا صحيحًا - لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن جميع الأنبياء (الأقدمين) بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به، وهو أشرف الرسل، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٢٣)، وأحمد (٥/ ٢٣٠)، والنسائي (٥/ ٢٥)من طرق عن معاذ بن جبل به، وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في الإرواء (٥/ ٩٦).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية تحت مصطلح (جزية).

وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم، وأفضلهم، وخاتمهم، وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله ﷺ بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأَوْعَبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفًا، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة، ومن حولها من المنافقين، وغيرهم، وكان ذلك في عام جَدْب ووقت قَيْظ وحر، وخرج ﷺ يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها، وأقام على مائها قريبًا من عشرين يومًا، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال، وضعف الناس، وقوله: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ أي: إن لم يسلموا ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة ﴿ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾: ذليلون حقيرون مهانون[١].

وقال القرطبي: أمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لاتفاقهم على هذا الوصف، وخص أهل الكتاب بالذكر إكرامًا لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد، والرسل، والشرائع، والملل، وخصوصًا ذكر محمد ﷺ، وملته، وأمته. فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة، فنبه على محلهم ثم جعل للقتال غاية؛ وهي إعطاء الجزية بدلًا عن القتل؛ وهو الصحيح[٢].

قال ابن العربي: سمعت أبا الوفاء علي بن عقيل في مجلس النظر يتلوها ويحتج بها. فقال: ﴿قَاتِلُوا﴾ وذلك أمر بالعقوبة، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك بيان للذنب

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٥٦.

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ١٠١).

الذي أوجب العقوبة، وقوله: ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ زيادة للذنب في مخالفة الأعمال، ثم قال: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف، والمعاندة، والأنفة عن الاستسلام، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تأكيدًا للحجة؛ لأنهم كانوا يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ثم قال: ﴿عَن يَدٖ﴾ فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة، وعين البدل الذي ترتفع به، والذي دلَّ عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين؛ لأنه تعالى قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ فيقتضي ذلك وجوبها على منَ يقاتل، ويدل على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلًا؛ لأنه لا مال له، ولأنه تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ﴾ ولا يقال: لمن لا يملك حتى يعطي.

وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يقاتلون دون النساء، والذرية، والعبيد، والمجانين المغلوبين على عقولهم، والشيخ الفاني، واختلف في الرهبان، فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تؤخذ منهم، قال مطرف، وابن الماجشون: هذا إذا لم يترهب بعد فرضها فإن فرضت ثم ترهب لم يسقطها ترهبه، وقال أيضًا: إذا أعطى أهل الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شيء من ثمار هم، ولا تجارتهم، ولا زروعهم إلا أن يتجروا في بلاد غير بلادهم التي أقروا فيها، وصولحوا عليها[(١)].

وقال الشافعي: قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ (التوبة: ٢٩) قال: فكان بينا في الآية، والله تعالى أعلم أن الذين فرض الله ﷻ قتالهم حتى يعطوا الجزية الذين قامت عليهم الحجة

(١) تفسير القرطبي (٨/ ١٠١)، وانظر المغني (١٢/ ٧٧٦).

بالبلوغ فتركوا دين الله ﷻ وأقاموا على ما وجدوا عليه آباءهم من أهل الكتاب، وكان بينا أن الذين أمر الله بقتالهم عليها الذين فيهم القتال؛ وهم الرجال البالغون، ثم أبان رسول الله ﷺ مثل معنى كتاب الله ﷻفأخذ الجزية من المحتلمين دون من دونهم، ودون النساء، وأمر رسول الله ﷺ أن لا تقتل النساء من أهل الحرب ولا الولدان، وسباهم فكان ذلك دليلًا على خلاف بين النساء والصبيان، والرجال، ولا جزية على من لم يبلغ من الرجال، ولا على امرأة، وكذلك لا جزية على مغلوب على عقله من قبل أنه لا دين له تمسك به ترك له الإسلام، وكذلك لا جزية على مملوك؛ لأنه لا مال له يعطى منه الجزية. [1]

والصواب في الآية أن (الصغار) هو: التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية فإن التزام ذلك هو الصغار[2].

وقال الشافعي: فلم يأذن الله ﷻ في أن تؤخذ الجزية ممن أمر بأخذها منه حتى يعطيها عن يد صاغرًا، وسمعت عددًا من أهل العلم يقولون: الصغار أن يجرى عليهم حكم الإسلام، فإذا جرى عليهم حكمه فقد أصغروا بما يجرى عليهم منه[3].

وقال البغوي: ﴿عَن يَدٍ﴾ عن قهر وذل، قال أبو عبيدة: يقال لكل من أعطى شيئًا كرهًا من غير طيب نفس: أعطاه عن يد[4].

وقال الشوكاني: والمعنى: عن يد مواتية غير ممتنعة، وقيل معناه: يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحدًا، وقيل: معناه: نقدًا غير نسيئة، وقيل: عن قهر، وقيل: معناه: عن إنعام منكم عليهم؛ لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم، وقيل معناه: مذمومون[5].

---

(١) الأم (٤/ ١٨٥).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢٩).

(٣) الأم (٤/ ١٨٦، ٢٢٣، ٣٠٣).

(٤) تفسير البغوي (١/ ٣٣).

(٥) فتح القدير (٢/ ٥٠٩).

فظهر من تعريف العلماء للجزية أنها في مقابل ما هو أعظم، وظهر من تفسير الآية أن المسلمين يخرجون دعاة إلى دين الحق لأجل نجاة هؤلاء في الدنيا، والآخرة فإذا منعوهم قاتلوهم مهما كلفهم ذلك حتى يسلموا، أو يقروا بالجزية فإذا أسلموا فالأمر واضح، وإذا اختاروا الجزية فهذا هو الصغار بعينه لأنهم رفضوا الإسلام، وقبلوا أحكامه لتجري عليهم.

الوجه الثاني: أن فرض الجزية يندرج ضمن ما يسمى بعقد الذمة، وهذا العقد يحمل في مضمونه كل الأمن والأمان؛ لمن أراد أن يمكث في دولة الإسلام؛ وهو على دينه.

والعقد في لغة العرب: التوثيق، والإبرام، ومنه: عقد الحبل، ويطلق العقد على المحسوسات، كما تقول: عقدتُ الحبل إذا جمعتَ بين طرفيه، وعقدتَه، وأوثقتَه، وقد يطلق على المعنويات، فتقول: هذا عقد بيع، وينبني على الإيجاب، والقبول، وقد ورد في كتاب الله ﷻ قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ (المائدة: ١) والمراد به المعنوي.

والذمة في اللغة: الأمان، والعهد.[1]

وأما في الاصطلاح: فمعناه إقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية، والتزام أحكام الملة، فهو أمان مخصوص لطائفة مخصوصة على هيئة مخصوصة، وهذا الأمان المخصوص المراد به: أن يؤمَّن من أعطي هذا العهد على نفسه، وماله، وأهله، وعرضه، فالكافر إذا جرى بينه، وبين المسلمين عقد الذمة فله ذمة الله ورسوله ﷺ كما ثبتت بذلك

---

(١) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ ﴾ (التوبة: ١٠)، والإل بمعنى القرابة والذمة بمعنى العهد؛ لأن الأصل أن الإنسان يحتمي بأمرين: إما بالقرابة، وإما بالعهد، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ (الإسراء: ٣٤) وقوله ﷺ في حديث بريدة بن الحصيب ﵁: «إذا حاصرت أهل حصن فأرادوا أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ﷺ فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ﷺ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ﷺ»، وعلى هذا فالذمة معناها: العهد. اهـ. من الشرح الممتع (٣/ ٤٥٩).

الأخبار، فلا يسفك دمه، ولا ينتهك عرضه، ولا يؤخذ ماله، ويكون له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين.

لكن هناك نوعان من الأمان أو من الذمة:

النوع الأول: **الذمة الخاصة**، وهي التي تكون لأفراد الناس؛ كأن يستجير مشرك، أو كافر بمسلم، فيقول له: أنا في جوارك، وفي أمانك، وفي ذمتك، فإن قال له: أنت في ذمتي، فحينئذ يكون هذا الجوار، والأمان خاصًا، فعلى المسلم أن يؤمنه حتى يسمع كلام الله، فإذا قبل الإسلام فالحمد لله، وإذا لم يقبل أبلغه مأمنه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (التوبة: ٦) فهذا يسمى بالذمة الخاصة، أو العهد الخاص، أو الأمان الخاص، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، وهم حرب على من سواهم"[(١)] فهذا الحديث الصحيح يدل على أن الكافر إذا دخل في جوار مسلم واحد فإنه في جوار المسلمين كلهم، ولا يجوز لأحد أن يتعرض له بسوء حتى يسمع كلام الله، أو يُبْلَغ مأمنه، ولذلك ثبت في الصحيح أنه لما دخل المشرك على أم هانئ وهي امرأة واستجار بها، وأراد علي قتله انطلقت إلى رسول الله ﷺ فوجدته يغتسل، فقال: من؟ قالت: أم هانئ، قال: مرحبًا بأم هانئ، فقالت: يا رسول الله! زعم فلان أنه قاتل فلانًا وقد أجرته، فقال ﷺ: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ"[(٢)]، فدل هذا على أن ذمة المسلمين واحدة، وأن العهد إذا أخذ من مسلم لكافر فهو عهد على جميع المسلمين لا يجوز لأحد أن ينقضه، أو ينكثه، حتى يكون الكافر على بينة.

النوع الثاني: **الذمة العامة** التي تكون مؤبدة، والفرق بينهما: أن الذمة الأولى خاصة مؤقتة، أما الذمة التي نبحثها هنا فهي الذمة العامة المؤبدة، أي: التي تبقى إلى الأبد، فإذا أراد المسلمون فتح مدينة، وقالوا لأهلها: أسلموا فقالوا: لا نريد الإسلام، فقيل لهم:

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠) عن علي بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٧١).

ادفعوا الجزية، فقالوا: ندفع الجزية، وكانوا من أهل الكتاب ومن في حكمهم، فإنهم يبقون ما أبقاهم الله ﷻ، ويكون هذا العهد ذمة لهم إلى الأبد ما لم يحدث النكث أو النقض.

ما يلتزم به المسلمون في عقد الذمة.

فعندنا محل ورد عليه عقد الذمة؛ وهو التزامات من الطرفين، من المسلمين التزامات، ومن الكفار التزامات، فيرد عقد الذمة على هذين الجانبين، فيلتزم المسلمون:

أولًا: بحقن دمه، فلا يُقتَل بدون حق.

ثانيًا: بحفظ عرضه، فلا يؤذى في عرضه.

ثالثًا: بحفظ ماله، فلا يُؤخذ بغير حق.

رابعًا: بحفظ أهله وعياله، فيدخل الأولاد والذراري، بالتبع لآبائهم؛ لأنهم تابعون لآبائهم في هذا الحكم، كما ثبت من فعل الصحابة ﵃، فإن خالد بن الوليد ﵁لما كتب في الكتاب جعل الذراري تابعة للأصول (آباء وأمهات)، ثم يلتزم المسلمون بالدفاع عنهم، فإذا فتحت بلاد الكفار فنزلوا على حكم المسلمين بالذمة فيجب على المسلمين نصرتهم وحفظهم، ولذلك لما نزل الروم بالشام - وكان أبو عبيدة ﵁قد فتح مع خالد أطراف الشام وأخذ الجزية على بعضها في معركة اليرموك- كتب أبو عبيدة إلى أمراء الأجناد، أن يردوا الجزية إلى أهلها حتى يقع النصر، فكانوا لا يلتزمون بالجزية إلا مع الالتزام بالنصرة، فيكون هذا الذمي له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم، فهو يلتزم بأمور، والمسلم يلتزم بأمور، فمن هذه الأمور التي يلتزم له بها المسلم: حفظ دمه -كما قلنا- وماله، وعرضه، وأهله، وولده، وكذلك أيضًا يكون له حق النصرة؛ فإذا اعتدى عليه الكفار وجب على المسلمين نصرته، ومنع الكفار من أذيته، كذلك أيضًا لا يعتدي عليهم المسلمون.

ما يلتزم به أهل الذمة.

الأمر الثاني الذي يلتزم به أهل الذمة؛ يلتزمون بأمور كثيرة يجمعها أصلان:

الأصل الأول: دفع الجزية.

الأصل الثاني: التزام أحكام الإسلام، وعدم التعرض للإسلام أو أهله بضرر أو سوء.

فهنا جانبان: الجانب الأول: دفع الجزية؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩). وأما الجانب الثاني: فهو تعظيمهم للإسلام، فيحفظون حرمة الإسلام، ويحفظون حق الإسلام، فلا يتعرضون لسب الله، ولا لسب رسوله ﷺ، ولا سب الإسلام، ولا يطعنون في القرآن، ولا في السنة، ولا يستهزئون بشيء من الإسلام، ولا بالمسلمين، مع أمور أُخر هي من لوازم عقد الذمة، حتى يستقيم عيشهم تحت الإسلام في ذلة، وصغار، لا في عزة وقوة واستكبار، حتى لا تكون لهم شوكة على المسلمين، فيكون الأمر محقِّقًا لخلاف ما قصده الشرع أو عناه من هذا الحكم التشريعي[1].

فظهر جليًا أن عقد الذمة ملزم لطرفين طرف المسلمين، والطرف الآخر، وأن على كل منهما حقوق تجاه الآخر حتى يمكن التعايش بينهما في بلد واحد مع اختلاف الدين، وما بذله المسلمون إنما هو من قبيل الإحسان الذي أمر الله به، وما طلب من أهل الذمة إنما هو من قبيل رد الجميل وأداء الحق، والسياسة الحكيمة التي تضمن استقرار المجتمع، وعقد كهذا سبق إليه الإسلام في التعامل مع الآخرين لاشك منقبة من مناقب الإسلام.

و هذا العقد اختياري من بين أمور ثلاثة، وليس إجباريًا في أول الأمر.

وبيان ذلك أن أهل الحل والعقد منهم هم الذين يختارون إبرام هذا العقد، ولا يجبرون عليه في أول الأمر، والأصل في ذلك أن الإسلام هو دين الحق، وأن الله تعالى كلف المسلمين بدعوة الناس إليه لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وهؤلاء بتمسكهم بدينهم الباطل لا يرضون بذلك فيصدون المسلمين فيقع القتال، ولكنهم قبل القتال يخيرون بين الإسلام، أو الجزية، أو القتال، فأي واحدة اختاروها كانت لهم فإن اختاروا

---

(١) شرح زاد المستقنع لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي (٥/ ٤٦٠)، وانظر الحاوي للماوردي (١٤/ ٢٩٧) وما بعدها، والروض المربع، والمبدع لابن مفلح، والشرح الممتع لابن عثيمين؛ باب عقد الذمة وأحكامها، والموسوعة الفقهية الكويتية مادة عقد الذمة، وانظر كذلك لسان العرب (٣/ ٢٩٦).

القتال وانهزموا أعقبه القتل أو الاسترقاق، فإذا اختار الإمام المن عليهم وعقد لهم الذمة على أن يبقوا أحرارًا فقد أحسن إليهم، وذلك كما فعل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في فتح سواد العراق، وهكذا خفف الله تعالى الأمر وسهله، واكتفى منهم بدفع الجزية، والخضوع لأحكام الإسلام. (١)

فجباية المال ليست هي الهدف الأساسي من تشريع الجزية، وإنّما الهدف الأساسي هو تحقيق خضوع أهل الذّمّة إلى حكم المسلمين، والعيش بين ظهرانيهم ليطّلعوا على محاسن الإسلام وعدل المسلمين، فتكون هذه المحاسن بمثابة الأدلّة المقنعة لهم على الإقلاع عن الكفر، والدّخول في الإسلام، والّذي يؤيّد ذلك: أنّ الجزية تسقط عمّن وجبت عليه بمجرّد دخوله في الإسلام.

وأنّ الحكومة الإسلاميّة لا تقدم على فرض الجزية على الأفراد إلاّ بعد تخييرهم بين الإسلام والجزية، وهي تفضّل دخول أهل البلاد المفتوحة في الإسلام، وإعفاءهم من الجزية على البقاء في الكفر ودفع الجزية لأنّها دولة هداية لا جباية(٢).

ومما يساعد على فهم ذلك معرفة:

الوجه الثالث: في بيان الحكمة من مشروعية الجزية، وفي ذلك نقاط:

الأولى: أن فريضة الجزية في خط الدفاع، وليست في خط الهجوم حتى يتهم بها الإسلام

فهي دفاع عن ألوهية الله تعالى التي انتهكوها، ودفاع عن أنبيائه الذين اعتدوا عليهم بتكذيبهم، وعن الكتب التي حرفوها، وعن حرية الإنسان في اختيار دينه حيث طلبوا منه أن يكون عبدًا لغير الله تعالى فهم الذين سبقوا بالاعتداء على هذه الأصول، والإسلام يدافع عنها، ولا ريب أن الذي يرفع راية الحرب على الحق والمبادئ هم رؤساؤهم، وحكامهم، وألو الأمر منهم، وهم يمنعون غيرهم من الدخول في هذا الدين الحق،

---

(١) انظر هذا المعنى في الشرح الممتع (٣/ ٥٠٢، ٥٠٣)

(٢) انظر الموسوعة الفقهية الكويتية تحت مصطلح (جزية).

ويحاربونه بكل ما أوتوا كما هو تاريخهم، وعليه فلا يستقيم الأمر إلا بإسلامهم أو بدفعهم الجزية، وهم صاغرون لا حكم لهم في الديار، ولذلك أمر سبحانه وتعالى بقتالهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد، وهم صاغرون: فقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التوبة: ٢٩).

وقد حدد السياق من هذه الصفات القائمة:

أولًا: أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ثانيًا: أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

ثالثًا: أنهم لا يدينون دين الحق.

ثم بين في الآيات التالية كيف أنهم لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق؛ وذلك بأنهم:

أولًا: قالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وأن هذا القول يضاهي قول الذين كفروا من قبلهم من الوثنيين، فهم مثلهم في هذا الاعتقاد الذي لا يعد صاحبه مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر.

ثانيًا: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، والمسيح ابن مريم، وأن هذا مخالف لدين الحق، وهو الدينونة لله وحده بلا شركاء، فهم بهذا مشركون لا يدينون دين الحق.

ثالثًا: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فهم محاربون لدين الله، ولا يحارب دين الله مؤمن بالله واليوم الآخر يدين دين الحق أبدًا.

رابعًا: يأكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل، فهم إذن لا يحرمون ما حرم الله، ورسوله (سواء كان المقصود برسوله رسولهم أو محمد ﷺ).

وهذه الصفات كلها كانت واقعة بالقياس إلى نصارى الشام والروم، كما أنها واقعة بالقياس إلى غيرهم منذ أن حرفت المجامع المقدسة دين المسيح عليه السلام، وقالت ببنوة

عيسى ﷺ، وبتثليث الأقانيم - على كل ما بين المذاهب والفِرق من خلاف يلتقي كله على التثليث - على مدار التاريخ حتى الآن.

وإذن فهو أمر عام يقرر قاعدة مطلقة في التعامل مع أهل الكتاب، الذين تنطبق عليهم هذه الصفات التي كانت قائمة في نصارى العرب ونصارى الروم، ولا يمنع من هذا العموم أن الأوامر النبوية استثنت أفرادًا وطوائف بأعيانها لتترك بلا قتال كالأطفال، والنساء، والشيوخ، والعجزة، والرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الأديرة بوصفهم غير محاربين - فقد منع الإسلام أن يقاتل غير المحاربين من أية ملة -، وهؤلاء لم تستثنهم الأوامر النبوية لأنهم لم يقع منهم اعتداء بالفعل على المسلمين، ولكن لأنه ليس من شأنهم أصلًا أن يقع منهم الاعتداء، فلا محل لتقييد هذا الأمر العام بأن المقصود به هم الذين وقع منهم اعتداء فعلًا - كما يقول المهزومون الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام الاتهام - فالاعتداء قائم ابتداءً؛ الاعتداء على ألوهية الله، والاعتداء على العباد بتعبيدهم لغير الله، والإسلام حين ينطلق للدفاع عن ألوهية الله سبحانه، والدفاع عن كرامة الإنسان في الأرض، لا بد أن تواجهه الجاهلية بالمقاومة، والحرب، والعداء، ولا مفر من مواجهة طبائع الأشياء.

إن هذه الآية تأمر المسلمين بقتال أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ والذي يقول ببنوة عزير لله، أو بنوة المسيح لله لا يمكن أن يقال عنه: إنه يؤمن بالله، وكذلك الذي يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، أو أن الله ثالث ثلاثة، أو أن الله تجسد في المسيح. . . إلى آخر التصورات الكنسية التي صاغتها المجامع المقدسة على كل ما بينها من خلاف.

والذين يقولون: إنهم لن يدخلوا النار إلا أيامًا معدودات مهما ارتكبوا من آثام بسبب أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعب الله المختار، والذين يقولون: إن كل معصية تغفر بالاتحاد بالمسيح، وتناول العشاء المقدس، وأنه لا مغفرة إلا عن هذا الطريق، هؤلاء وهؤلاء لا يقال: إنهم يؤمنون باليوم الآخر.

وهذه الآية تصف أهل الكتاب هؤلاء بأنهم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وسواء كان المقصود بكلمة ﴿رَسُولَهُۥ﴾ هو رسولهم الذي أرسل إليهم، أو هو النبي ﷺ فالفحوى واحدة، ذلك أن الآيات التالية فسرت هذا بأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، وأكل أموال الناس بالباطل محرم في كل رسالة، وعلى يد كل رسول، وأقرب النماذج لأكل أموال الناس بالباطل هو المعاملات الربوية، وهو ما يأخذه رجال الكنيسة مقابل (صك الغفران)؛ وهو الصد عن دين الله، والوقوف في وجهه بالقوة، وفتنة المؤمنين عن دينهم، وهو تعبيد العباد لغير الله، وإخضاعهم لأحكام وشرائع لم ينزلها الله؛ فهذا كله ينطبق عليه: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وهذا كله قائم في أهل الكتاب كما كان قائمًا يوم ذاك.

كذلك تصفهم الآية بأنهم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا واضح مما سبق بيانه. فليس بدين الحق أي اعتقاد بربوبية أحد مع الله، كما أنه ليس بدين الحق التعامل بشريعة غير شريعة الله، وتلقي الأحكام من غير الله، والدينونة لسلطان غير سلطان الله، وهذا كله قائم في أهل الكتاب كما كان قائمًا فيهم يوم ذاك.

والشرط الذي يشترطه النص للكف عن قتالهم ليس أن يسلموا ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ ولكن أن يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فما حكمة هذا الشرط؟ ولماذا كانت هذه هي الغاية التي ينتهي عندها القتال؟

إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقادًا وسلوكًا، كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله، ومنهج الجاهلية الممثلة في عقيدة أهل الكتاب وواقعهم - وفق ما تصوره هذه الآيات - كما أن الواقع التاريخي قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم وعدم إمكان التعايش بين المنهجين؛ وذلك بوقوف أهل الكتاب في وجه دين الله فعلًا، وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية (وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضًا).

والإسلام - بوصفه دين الحق الوحيد القائم في الأرض- لا بد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه، ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق؛ على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك.

وإذن؛ فإن الوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام في الوقت نفسه - هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق حتى تستسلم وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلًا.

وعندئذ تتم عملية التحرير فعلًا، بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع. فإن لم يقتنع بقي على عقيدته وأعطى الجزية لتحقيق عدة أهداف:

أولها: أن يعلن بإعطائها استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الله الحق.

وثانيها: أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه، وماله، وعرضه، وحرماته التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة الذين يؤدون الجزية فيصبحون في ذمة المسلمين وضمانتهم، ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

وثالثها: المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل؛ بما في ذلك أهل الذمة بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعي الزكاة. [1]

الثانية: الدعوة إلى الإسلام عن طريق معايشة المسلمين، والإطلاع على سلوكياتهم التابعة لشريعة الإسلام.

وذلك لأنهم إذا بقوا بين المسلمين ورأوا تعاملهم، ورأوا دين الإسلام وسماحته، وما عليه المسلمون من التواصل، والتراحم، والتعاطف- أحبوا دينهم، ولربما نشأت ذراريهم وقد رأوا عزة الإسلام فيتأثرون به، حتى حفظ في البلدان التي فتحت على هذا الوجه أنه لم تمضِ ثلاثة أجيال إلى أربعة أجيال على الأكثر إلا أسلم منهم الكثير، فهذا نوع من الاستدراج للدخول في الإسلام، ولو بعد حين.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ١١)، وانظر موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ.

فالمقصود أن يلتزم المسلمون بهذا، فإذا رأى الذمي أن له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم، وإذا وقف في المواقف المحرجة ورأى نصرة الإسلام له - أحب هذا الإسلام، فإن النفوس جُبِلت على حب من أحسن إليها، وهذا الإحسان من المسلم فيه نوع من الاستمالة لقلبه، والتأليف له للإسلام، وكل هذه أسرار عظيمة، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦) فهو نوع من الحكمة البالغة في إقناع الناس بهذا الإسلام، فهم إذا لم يسلموا عن طريق مواجهتهم بالحكمة والموعظة الحسنة - ربما أثر فيهم تعامل المسلمين، ووقوف المسلمين معهم، ونصرتهم لهم؛ فيكون سببًا في دخولهم في دين الإسلام، ورضاهم به، فكان عقد الذّمّة للدّعوة إلى الإسلام لا للرّغبة أو الطّمع فيما يؤخذ منهم من الجزية. [(١)]

وبهذا يعلم الفرق بين أخذ المال على هذا الوجه وإقراره على دينه، وبين أخذ المال مقابل الإقرار على الزنا؛ فإن الأول فيه من المصلحة رجاء الإسلام، والثاني مفسدة صرف لا مصلحة فيها.

ولقد أورد السرخسي[(٢)] في المبسوط هذه المسألة بعينها، وأجاب عنها فقال:

وقد طعن بعض الملحدين قال: كيف يجوز تقرير الكافر على الشرك الذي هو أعظم الجرائم بمال يؤخذ منه، ولو جاز ذلك جاز تقرير الزاني على الزنا يؤخذ منه؟

والكلام في هذا يرجع إلى وجوه:

الأول: في إثبات وجود الله تعالى، وأن هذا شرعه، وأنه حكيم لا يسأل عما يفعل.

والثاني: في إثبات النبوة، وأن النبي ﷺ مبلغ عن الله تعالى.

الثالث: المقصود ليس هو المال بل الدعاء إلى الدين بأحسن الوجوه؛ لأنه بعقد الذمة يترك القتال أصلًا، ولا يقاتل من لا يقاتل ثم يسكن بين المسلمين فيرى محاسن الدين، ويعظه واعظ فربما يسلم، إلا أنه إذا سكن دار الإسلام فما دام مصرًا على كفره لا يُخَلّا عن

---

(١) شرح زاد المستنقع للشنقيطي كتاب الجهاد باب عقد الذمة.

(٢) نسبة إلى سرخس بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح الخاء وقيل بتحريك ثانيه؛ والأول أشهر، وهي مدينة قديمة من مدن خراسان (٣/ ٢٠٨).

صغار، وعقوبة وذلك بالجزية التي تؤخذ منه؛ ليكون ذلك دليلًا على ذل الكافر وعز المؤمن، ثم يأخذ المسلمون الجزية منه خلفًا عن النصرة التي فاتت بإصراره على الكفر؛ لأن من هو من أهل دار الإسلام فعليه القيام بنصرة الدار، وأبدانهم لا تصلح لهذه النصرة؛ لأنهم يميلون إلى أهل الدار المعادية فيشوشون علينا أهل الحرب فيؤخذ منهم المال ليصرف إلى الغزاة الذين يقومون بنصرة الدار. [1]

وقد أحسن محمد علي بن حسين المكي المالكي في تقرير هذا الفرق حيث قال:

الفرق بين قاعدة: إن أخذ الجزية على التمادي على الكفر يجوز، وبين قاعدة: إن أخذ الأعواض على التمادي على الزنا وغيره من المفاسد لا يجوز إجماعًا.

وهو: أن قاعدة أخذ المال على مداومة الزنا أو غيره من المفاسد مفسدة صرفة؛ لأنه من باب ترجيح المصلحة الحقيرة التي هي أخذ الدراهم على المفسدة العظيمة التي هي معصية الله تعالى، وهو لم يقع في الشريعة بل الشريعة تحرمه ولا تبيحه، وإنما الذي من الشرائع الواقعة وتبيحه القواعد الشرعية هو عكس ذلك، وهو ترجيح المصلحة العظيمة التي هي إزالة منكر من المنكرات العظيمة على المفسدة الحقيرة التي هي دفع الدراهم لمن يأكلها حرامًا كما في دفع المال في فداء الأسرى الكفار؛ وهم من حيث كونهم مخاطبين بفروع الشريعة يحرم عليهم أكل ذلك المال ليتوصل بذلك المحرم لتخليص الأسير من أيدي العدو.

ومن ذلك أخذ الجزية فهو مصلحة صرفة لأنه من باب التزام المفسدة الدنيا التي هي الإقرار على الكفر بأخذها لدفع المفسدة العليا التي هي انسداد باب الإيمان، وباب مقام سعادة الجنان على الكافر إذا قتل ليتحتم الكفر عليه والخلود في النيران، وغضب الديان حينئذ، ولتوقع المصلحة العليا التي هي:

(١) المبسوط للسرخسي (١٢/ ١٥٨) بتصرف.

إما رجاء الإسلام في مستقبل الأزمان من المقر على الكفر بأخذ الجزية منه سيما مع اطلاعه على محاسن الإسلام والإلجاء إليه بالذل والصغار في أخذ الجزية فيلزم من إسلامه إسلام ذريته فتتصل سلسلة الإسلام من قبله بدلًا عن ذلك الكفر المقر عليه.

وإما رجاء إسلام ذريته المخلفين من بعده أو من ذرية ذريته إلى يوم القيامة، وساعة من إيمان تعدل دهرًا من كفر، ألا ترى أن الله تعالى خلق آدم على وفق الحكمة وعدَّ النبيُّ ﷺ خلقه في يوم الجمعة من جملة البركات الموجبة لتعظيمه، فقال في الحديث الصحيح: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أهبط من الجنة، وفيه تيب عليه، وفيه تقوم الساعة"[١]؛ لأن خلقه سبب وجود الأنبياء عليهم السلام، والصالحين، وأهل الطاعة، والمؤمنين، وإن كان أكثر ذريته كفارًا؛ ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى يقول لآدم عليه السلام: ابعث بعث النار، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فيبقى من كل ألف واحد"[٢]، والبقية كفار فُجّار من أهل النار والمعاصي والفجور، إذ لا عبرة بكثرة الكفار لأجل ذلك المسلم الواحد؛ لأن ذلك الواحد تربو مصلحة إسلامه على مفسدة أولئك الكفار، وأنهم كالعدم الصرف بالنسبة إلى نور الإيمان وعبادة الرحمن فتأمل ذلك.

وبالجملة فعقد الجزية لما كانت ثمرته توقع الإيمان من الأصل أو من أحد الذراري الذي لا يعادله شيء من ذلك الكفر الواقع من غيره لا مجرد تحصيل مصلحة تلك الدراهم المأخوذة منه - كان من آثار رحمة الله تعالى، ومن الشرائع الواقعة على وفق الحكمة الإلهية؛ فلذا أباحته القواعد الشرعية، ولم يُلتفت إلى قول بعض الطاعنين في الدين في إيراده سؤالًا في الجزية: إن شأن الشرائع دفع أعظم المفسدتين بإيقاع أدناها، وتفويت المصلحة الدنيا بدفع المفسدة العليا، ومفسدة الكفر تربو على مصلحة المأخوذ من الجزية من أموال الكفار

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢٤١)، والنسائي (١٤٣٠)، وأبو داود (١٠٤٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٩٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢).

بل على جملة الدنيا وما فيها؛ فضلًا عن هذا النزر اليسير فلم وردت الشريعة المحمدية بذلك ولم لم تحتم القتل درءًا لمفسدة الكفر؟.

ولما كان أخذ المال على مداومة الزنا أو غيره من المفاسد ثمرته مجرد أخذ الدراهم الذي هو مصلحة حقيرة لا تعادل المداومة على المفسدة العظيمة التي هي معصية الله تعالى - لم يقع في الشريعة بل منعته من حيث إنه مفسدة صرفة فهذا هو الفرق بين القاعدتين، والله سبحانه وتعالى أعلم.[١]

وتظهر حكمة الدعوة في تشريع الجزية من جانبين:

الأوّل: الصّغار الّذي يلحق أهل الذّمّة عند دفع الجزية، والسبب فيه أن طبع العاقل ينفر عن تحمل الذل والصغار، فإذا أمهل الكافر مدة وهو يشاهد عز الإسلام، ويسمع دلائل صحته، ويشاهد الذل والصغار في الكفر- فالظاهر أنه يحمله ذلك على الانتقال إلى الإسلام، فهذا هو المقصود من شرع الجزية.[٢]

والثاني: ما يترتّب على دفع الجزية من إقامة في دار الإسلام، واطّلاع على محاسنه.

وقال الحطّاب - في بيان الحكمة -: الحكمة في وضع الجزية أنّ الذّلّ الّذي يلحقهم[٣] يحملهم على الدّخول في الإسلام مع ما في مخالطة المسلمين من الاطّلاع على محاسن الإسلام.[٤]

وبهذا التقرير نعلم أن أخذ الجزية من باب دفع أعظم المفسدتين بارتكاب أدناهما، ويحصل أعلى المصلحتين بتفويت أدناهما.[٥]

---

(١) تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية (٣/ ١٧).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١/ ٢٢٠٢).

(٣) المقصود هو الذل الحاصل بسبب دفعهم الجزية لأهل دين لا يؤمنون به.

(٤) نقلًا عن الموسوعة الفقهية الكويتية تحت مصطلح جزية

(٥) المنثور في القواعد للزركشي (١/ ١٤٨).

فأعظم المفسدتين هنا هو أن يموت على الكفر، ويغلق باب الإيمان، وأقلهما أن تقبل منه الجزية رجاء الإسلام منه أو من ذريته، وأعظم المصلحتين هنا هي إسلامه ونجاته من النار، وأقلهما هي قتله على الكفر.

ومن خلال هذا التأصيل يعلم الجواب عن سؤال بعض الملحدين الطاعنين في القرآن حيث قال: إن القرآن ذكر في تعظيم كفر النصارى قوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ (مريم: ٩٠- ٩٢) فبين أن إظهارهم لهذا القول بلغ إلى هذا الحد، ثم إنه لما أخذ منهم دينارًا واحدًا قررهم عليه وما منعهم منه؟

والجواب ما سبق تقريره، وخلاصته: ليس المقصود من أخذ الجزية تقريره على الكفر، بل المقصود منها حقن دمه وإمهاله مدةً رجاء أنه ربما وقف في هذه المدة على محاسن الإسلام وقوة دلائله، فينتقل من الكفر إلى الإيمان. (١)

وأجاب ابن العربي عن هذا السؤال بما حاصله ما مر، وهذا نص كلامه لما فيه من فائدة: قال: لو قتل الكافر ليئس من الفلاح، ووجب عليه الهلكة، فإذا أعطى الجزية وأمهل لعله أن يتدبر الحق ويرجع إلى الصواب، لا سيما بمراقبة أهل الدين والتدرب بسماع ما عند المسلمين، ألا ترى أن عظيم كفرهم لم يمنع من إدرار رزقه سبحانه عليهم.

وقد قال النبي ﷺ: "ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم". (٢)

وقد بين علماء خراسان هذه المسألة، فقالوا: إن العقوبات تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: ما فيه هلكة المعاقب.

والثاني: ما يعود بمصلحة عليه من زجره عما ارتكب، ورده عما اعتقد وفعل.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١/ ٢٢٠١)، وأحكام القرآن للجصاص (٤/ ٢٩٨).

(٢)أخرجه البخاري (٦٩٤٣)، ومسلم (٢٤٠٨).

قلت: والجزية من الثاني.

الثالثة: أن الجزية تدفع ضمن بنود عقد الذمة ويقابلها حقوق يتمتع بها أهل الذمة؛ وعلى رأسها ما يلي:

١-**حماية الدّولة لهم** كما سبق، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الحق في مسألة كلام الفقهاء عن أهل الذمة.

٢- **حق الإقامة والتنقّل**، فلأهل الذّمّة أن يقيموا في دار الإسلام آمنين مطمئنّين على أنفسهم وأموالهم، ما لم يظهر منهم ما ينتقض به عهدهم؛ لأنّهم إنّما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا في أصل الحرمة، والمسلمون على شروطهم.

لكنّ الفقهاء اتّفقوا على عدم جواز إقامة الذّمّيّ واستيطانه في مكّة والمدينة على خلافٍ وتفصيلٍ فيما سواهما لقوله ﷺ: "لا يجتمع في أرض العرب دينان"[١]، ولقوله ﷺ: "لئن عشت - إن شاء الله- لأخرجنّ اليهود والنّصارى من جزيرة العرب"[٢]. أمّا في غيرها من المدن والقرى في دار الإسلام فيجوز لأهل الذّمّة أن يسكنوا فيها مع المسلمين أو منفردين، لكن ليس لهم رفع بنائهم على المسلمين بقصد التّعلّي، وإذا لزم من سكناهم في المصر بين المسلمين تقليل الجماعة أمروا بالسّكنى في ناحيةٍ - خارج المصر- ليس فيها جماعة المسلمين إذا ظهرت المصلحة في ذلك.

وأمّا حق التنقّل فيتمتّع أهل الذّمّة به في دار الإسلام أينما يشاؤون للتّجارة وغيرها، إلاّ أنّ في دخولهم مكّة والمدينة وأرض الحجاز تفصيل.

٣- **عدم التعرّض لهم في عقيدتهم وعبادتهم**، إنّ من مقتضى عقد الذّمّة ألا يتعرّض المسلمون لأهل الذّمّة في عقيدتهم، وأداء عبادتهم دون إظهار شعائرهم، فعقد الذّمّة ترك الكفّار على كفرهم بشرط بذل الجزية، والتزام أحكام الملّة، وإذا كان هناك احتمال دخول

---

(١) أخرجه أحمد٦/ ٢٧٤. بلفظ (لايترك)، وإسناده صحيح.

(٢)أخرجه مسلم (١٧٦٧).

الذِّمِّيِّ في الإسلام عن طريق مخالطته للمسلمين ووقوفه على محاسن الدّين، فهذا يكون عن طريق الدّعوة لا عن طريق الإكراه، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وهذا الأصل متّفق عليه بين الفقهاء، لكن هناك تفصيل وخلاف في بعض الفروع نذكره فيما يلي:

أ - معابد أهل الذّمّة، قسّم الفقهاء أمصار المسلمين على ثلاثة أقسامٍ:

الأوّل: ما اختطّه المسلمون، وأنشئوه كالكوفة، والبصرة، وبغداد، وواسط؛ فلا يجوز فيه إحداث كنيسةٍ، ولا بيعةٍ، ولا مجتمعٍ لصلاتهم، ولا صومعةٍ بإجماع أهل العلم، ولا يمكّنون فيه من شرب الخمر، واتّخاذ الخنازير، وضرب النّاقوس، ولأنّ هذا البلد ملك للمسلمين فلا يجوز أن يبنوا فيه مجامع للكفر، ولو عاقدهم الإمام على التّمكّن من ذلك فالعقد باطل.

الثّاني: ما فتحه المسلمون عنوةً، فلا يجوز فيه إحداث شيءٍ من ذلك بالاتّفاق؛ لأنّه صار ملكًا للمسلمين، وما كان فيه شيء من ذلك هل يجب هدمه؟ قال المالكيّة: وهو وجه عند الحنابلة: لا يجب هدمه؛ لأنّ الصّحابة ﭭ فتحوا كثيرًا من البلاد عنوةً فلم يهدموا شيئًا من الكنائس.

ويشهد لصحّة هذا وجود الكنائس والبيع في البلاد الّتي فتحها المسلمون عنوةً، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عمّاله: ألاّ يهدموا بيعةً، ولا كنيسةً، ولا بيت نارٍ. وفي الأصحّ عند الشّافعيّة، وهو وجه عند الحنابلة: يجب هدمه، فلا يقرّون على كنيسةٍ كانت فيه؛ لأنّها بلاد مملوكة للمسلمين، فلم يَجُزْ أن تكون فيها بيعة، كالبلاد الّتي اختطّها المسلمون. وذهب الحنفيّة إلى أنّها لا تهدم، ولكن تبقى بأيديهم مساكن، ويمنعون من اتّخاذها للعبادة.

الثّالث: ما فتحه المسلمون صلحًا، فإن صالحهم الإمام على أنّ الأرض لهم والخراج لنا، فلهم إحداث ما يحتاجون إليه فيها من الكنائس عند الحنفيّة، والمالكيّة، والحنابلة، وهو الأصحّ عند الشّافعيّة؛ لأنّ الملك والدّار لهم، فيتصرّفون فيها كيف شاؤوا.

وفي مقابل الأصحّ عند الشّافعيّة: المنع؛ لأنّ البلد تحت حكم الإسلام.

وإن صالحهم على أنّ الدّار لنا ويؤدّون الجزية فالحكم في الكنائس على ما يقع عليه الصّلح، والأولى ألاّ يصالحهم إلاّ على ما وقع عليه صلح عمر ﷺ من عدم إحداث شيءٍ منها.

وإن وقع الصّلح مطلقًا لا يجوز الإحداث عند الجمهور: الحنفيّة، والشّافعيّة، والحنابلة، ويجوز في بلدٍ ليس فيه أحد من المسلمين عند المالكيّة.

ولا يتعرّض للقديمة عند الحنفيّة، والحنابلة، وهو المفهوم من كلام المالكيّة، والأصحّ عند الشّافعيّة المنع من إبقائها كنائس.

ب - إجراء عباداتهم.

الأصل في أهل الذّمّة تركهم وما يدينون، فيتركون على الكفر، وعقائدهم، وأعمالهم الّتي يعتبرونها من أمور دينهم كضرب النّاقوس خفيفًا في داخل معابدهم، وقراءة التّوراة والإنجيل فيما بينهم، ولا يمنعون من ارتكاب المعاصي الّتي يعتقدون بجوازها كشرب الخمر، واتّخاذ الخنازير وبيعها، أو الأكل والشّرب في نهار رمضان، وغير ذلك فيما بينهم أو إذا انفردوا بقريةٍ.

ويشترط في جميع هذا ألاّ يظهروها، ولا يجهروا بها بين المسلمين، وإلا منعوا وعزّروا، وهذا باتّفاق المذاهب، فقد جاء في شروط أهل الذّمّة لعبد الرّحمن بن غنمٍ: «ألاّ نضرب ناقوسًا إلاّ ضربًا خفيًّا في جوف كنائسنا، ولا نظهر عليها صليبًا، ولا نرفع أصواتنا في الصّلاة، ولا القراءة في كنائسنا، ولا نظهر صليبًا، ولا كتابًا في سوق المسلمين».

هذا وقد فصّل بعض الحنفيّة بين أمصار المسلمين وبين القرى، فقالوا: لا يمنعون من إظهار شيءٍ من بيع الخمر، والخنزير، والصّليب، وضرب النّاقوس في قريةٍ أو موضعٍ ليس من أمصار المسلمين، ولو كان فيه عدد كثير من أهل الإسلام، وإنّما يكره ذلك في أمصار المسلمين؛ وهي الّتي تقام فيها الجمع والأعياد والحدود؛ لأنّ المنع من إظهار هذه الأشياء لكونه إظهار شعائر الكفر في مكان إظهار شعائر الإسلام، فيختصّ المنع بالمكان المعدّ لإظهار الشّعائر وهو المصر الجامع.

وفصّل الشّافعيّة بين القرى العامّة والقرى الّتي ينفرد بها أهل الذّمّة، فلا يمنعون في الأخيرة من إظهار عباداتهم.(١)

ومما ينبغي أن يعلم أن أخذ الجزية منهم وتركهم على عقيدتهم وعبادتهم ممتد إلى زمن معين ثم لا تقبل منهم الجزية، ولا يقبل منهم إلا الإسلام، وهذا عند نزول المسيح ﵇، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم ﷺ حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها" ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (النساء: ١٥٩).(٢)

فقوله: "حكمًا مقسطًا"أي: حاكمًا، والمعنى أنه ينزل حاكمًا بهذه الشريعة؛ فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى ﵇حاكمًا من حكام هذه الأمة، (والمقسط العادل بخلاف القاسط فهو الجائر).

وقوله: "فيكسر الصليب ويقتل الخنزير" أي: يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه، قوله: "ويضع الجزية"أي: أن الدين يصير واحدًا فلا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدي الجزية، وقيل: معناه أن المال يكثر حتى لا يبقى من يمكن صرف مال الجزية له فتترك الجزية استغناءً عنها، وقال عياض: يحتمل أن يكون المراد بوضع الجزية تقريرها على الكفار من غير محاباة، ويكون كثرة المال بسبب ذلك، وتعقبه النووي وقال: الصواب في معناه أنه لا يقبلها ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام ومن بذل منهم الجزية لم يكفِ عنه بها، بل لا يقبل إلا الإسلام أو القتل. قلت: - ابن حجر- ويؤيده أن عند أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة: "وتكون الدعوى واحدة" قال النووي:

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية مصطلح عقد الذمة.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٠٩، ٣٢٦٤)، ومسلم (٢٤٢).

ومعنى وضع عيسى الجزية مع أنها مشروعة في هذه الشريعة أن مشروعيتها مقيدة بنزول عيسى لما دل عليه هذا الخبر، وليس عيسى بناسخ لحكم الجزية بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ بقوله هذا، قوله: ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، و(وإن) بمعنى: ما؛ أي: لا يبقى أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا نزل عيسى إلا آمن به، وهذا مصير من أبي هريرة إلى أن الضمير في قوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ وكذلك في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ عود على عيسى؛ أي: إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وبهذا جزم ابن عباس فيما رواه ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عنه بإسناد صحيح، ومن طريق أبي رجاء عن الحسن قال: قبل موت عيسى، والله إنه الآن لحي ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون، ونقله عن أكثر أهل العلم ورجحه ابن جرير وغيره.

قال العلماء: الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين الله تعالى كذبهم وأنه الذي يقتلهم، أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها[(١)].

٤- اختيار العمل.

يتمتّع الذّمّيّ باختيار العمل الّذي يراه مناسبًا للتكسّب، فيشتغل بالتّجارة والصّناعة كما يشاء، فقد صرّح الفقهاء أنّ الذّمّيّ في المعاملات كالمسلم، هذا هو الأصل، أمّا الأشغال والوظائف العامّة فما يشترط فيه الإسلام كالخلافة، والإمارة على الجهاد، والوزارة وأمثالها- فلا يجوز أن يعهد بذلك إلى ذمّيٍّ، وما لا يشترط فيه الإسلام كتعليم الصّغار الكتابة، وتنفيذ ما يأمر به الإمام أو الأمير، يجوز أن يمارسه الذّمّيّون[(٢)].

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٩١).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية تحت مصطلح عقد الذمة.

الرابعة: الجزية من عوامل الاستقرار في المجتمع، وعلامة عليه لأنها دليل الخضوع والانقياد لحكم الدولة.

لقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ وقد سبق بيان الصحيح في معنى الصغار؛ وهو جريان أحكام الإسلام عليهم، وإذا جرى عليهم حكم الإسلام وأذعنوا له وجاؤوا لدفع الجزية بأيديهم كان هذا علامة انقيادهم للدولة التي أنعمت عليهم بهذا العقد.

الخامسة: الجزية إنعام من الإسلام عليهم لأنهم تخلصوا بها من القتل والاستئصال.

الجزية نعمة عظمى تسدى لأهل الذّمّة، فهي تعصم أرواحهم، وتمنع عنهم الاضطهاد، وقد أدرك هذه النّعمة أهل الذّمّة الأوائل، فلمّا ردّ أبو عبيدة الجزية على أهل حمص لعدم استطاعته توفير الحماية لهم قالوا لولاته: (والله لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممّا كنّا فيه من الظّلم والغشم)[1] فقد أقرّ أهل حمص بأنّ حكم المسلمين مع خلافهم لهم في الدّين أحبّ إليهم من حكم أبناء دينهم، وذلك لما ينطوي عليه ذلك الحكم من ظلم وجور واضطهاد وعدم احترام للنّفس الإنسانيّة.

فإذا قارنّا بين الجزية بما انطوت عليه من صغار، وبين تلك الأعمال الوحشيّة الّتي يمارسها أهل العقائد مع المخالفين لهم في المعتقد تكون الجزية نعمة مسداة إلى أهل الذّمّة، ورحمة مهداة إليهم، وهي تستلزم شكر الله تعالى، والاعتراف بالجميل للمسلمين.[2]

السادسة: الجزية ضريبة مالية تنتفع بها الدولة في قضاء مصالح الشعب ومنهم أهل الذمة.

---

(١) أخرجه البلاذري في فتوح البلدان (١/ ١٦٢) بلاغًا

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية تحت مصطلح (الجزية). وسيأتي إن شاء الله في آخر البحث فصل يذكر فيه شيء من هذه الممارسات الوحشية.

الجزية مورد ماليّ من موارد الدّولة الإسلاميّة تنفق منه على المصالح العامّة والحاجات الأساسيّة للمجتمع: كالدّفاع عن البلاد، وتوفير الأمن في المجتمع، وتحقيق التّكافل الاجتماعيّ، والمرافق العامّة: كبناء المدارس، والمساجد، والجسور، والطّرق، وغير ذلك.

قال ابن العربيّ في بيان الحكمة من مشروعيّة الجزية: في أخذها معونة للمسلمين ورزق حلال ساقه الله إليهم. [1] ولا شيء في ذلك، فقد فرض الله على المسلمين الزكاة وليس على أهل الذمة زكاة.

الوجه الرابع: ترفع الإسلام عن سقطات السابقين عليه في مسألة الجزية.

حيث جعلها ضمن عقد ترعاه الشريعة الإسلامية. فالإسلام كعادته لا يتوقف عند ممارسات البشر السابقة عليه، بل يترفع عن زللهم، ويضفي خصائصه الحضارية، فقد ارتفع الإسلام بالجزية ليجعلها، لا إتاوة يدفعها المغلوبون لغالبهم، بل لتكون عقدًا مبرمًا بين الأمة المسلمة، والشعوب التي دخلت في رعايتها. عقد بين طرفين، ترعاه أوامر الله بالوفاء بالعهود، واحترام العقود، ويوثقه وعيد النبي ﷺ لمن أخل به، وتجلى ذلك بظهور مصطلح أهل الذمة، الذمة التي يحرم نقضها، ويجب الوفاء بها، ورعايتها بأمر النبي ﷺ وهذا يبين أن القصد منها ليس مجرد الإذلال، والصغار، وإنما يقع الصغار مصاحبًا لها إذا أقروا بها مع رفضهم للإسلام.

الوجه الخامس: أمر الله بأخذ الجزية من المقاتلين دون غيرهم

كما نصت الآية على ذلك ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

(١) أحكام القرآن لابن العربي الآية الثالثة عشر.

قال القرطبي: قال علماؤنا: الذي دل عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من المقاتلين. . . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفاني(١).

وقد كتب عمر إلى أمراء الأجناد: لا تضربوا الجزية على النساء، والصبيان، ولا تضربوها إلا على من جرت عليه المواسي(٢).

أي ناهز الاحتلام. قال أبو عبيد: قال أبو عبيد: يعني من أنبت، وهذا الحديث هو الأصل فيمن تجب عليه الجزية، ومن لا تجب عليه، ألا تراه إنما جعلها على الذكور المدركين، دون الإناث، والأطفال؟ وذلك أن الحكم كان عليهم القتل لو لم يؤدوها، وأسقطها عمن لا يستحق القتل، وهم الذرية. وقد جاء في كتاب النبي ﷺ إلى معاذ باليمن الذي ذكرناه: "أن على كل حالم دينارًا" ما فيه تقوية لقول عمر. ألا ترى أنه ﷺ خص الحالم دون المرأة، والصبي؟ (٣)، ثم ذكر أبو عبيد الأحاديث في النهي عن قتل النساء والذرية ثم قال بعدها: فلما أعفيت الذرية - وهم النساء والولدان - من القتل أسقطت عنهم الجزية، وثبتت على كل من يستحق القتل إن منعها، وهم الرجال، ومضت السنة بذلك، وعمل به المسلمون(٤).

الوجه السادس: في المرأة منهم إذا بذلت الجزية:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٧٢).

(٢) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٨٥)، (١٠/ ٣٣١) قال: أخبرنا عبد الله بن عمر، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٨١)قال: حدثنا عبدة بن سليمان، عن عبيد الله، وأبو عبيد في الأموال (٩٣) فقال: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ثنا أيوب السختياني ويحيى بن آدم (٢٣١) من طريق الحسن بن الحر كلهم – عبد الله وعبيد الله ابنا عمر وأيوب، والحسن بن الحر– عن نافع عن أسلم مولى عمر عن عمر به، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٥٥).

(٣) الأموال لأبي عبيد باب من تجب عليه الجزية، ومن تسقط عنه من الرجال والنساء (١/ ٨٦).

(٤) الأموال (١/ ٩٢).

قال ابن قدامة: وإن بذلت المرأة الجزية أخبرت أنها لا جزية عليها فإن قالت: فأنا أتبرع بها، أو أنا أؤديها قبلت منها، ولم تكن جزية بل هبة تلزم بالقبض فإن شرطته على نفسها ثم رجعت كان لها ذلك، وإن بذلت الجزية لتصير إلى دار الإسلام مكنت من ذلك بغير شيء ولكن يشترط عليها التزام أحكام الإسلام، وتعقد لها الذمة، ولا يؤخذ منها شيء إلا أن تتبرع به بعد معرفتها أنه لا شيء عليها، وإن أخذ منها شيء على غير ذلك رد إليها؛ لأنها بذلته معتقدة أنه عليها، وأن دمها لا يحقن إلا به فأشبه من أدى مالا إلى من يعتقد أنه له، فتبين أنه ليس له، ولو حاصر المسلمون حصنًا ليس فيه إلا نساء فبذلن الجزية لتعقد لهن الذمة عقدت لهن بغير شيء، وحرم استرقاقهن كالتي قبلها سواء، فإن كان في الحصن معهن رجال فسألوا الصلح لتكون الجزية على النساء، والصبيان دون الرجال لم تصح؛ لأنهم جعلوها على غير من هي عليه وبرؤوا من تجب عليه، وإن بذلوا جزية عن الرجال، ويؤدوا عن النساء، والصبيان من أموالهم جاز، وكان ذلك زيادة في جزيتهم، وإن كان من أموال النساء، والصبيان لم يجز؛ لأنهم يجعلون الجزية على من لا تلزمه فان كان القدر الذي بذلوه من أموالهم مما يجزئ في الجزية أخذ منهم، وسقط الباقي[1].

وهذا مع ما قبله مما يبين أن الجزية وسيلة من وسائل الدعوة، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولذلك فرضت على المقاتلة فقط.

وهنا ما هو أبلغ وأكثر، وهو أن الرجل من أهل الذمة لو كان فقيرًا عاجزًا عن الكسب أعطاه المسلمون من بيت المال.

عن جسر أبي جعفر قال: شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، قرئ علينا بالبصرة: أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام، واختار الكفر عتيًا، وخسرانًا مبينًا، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم، وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحًا لمعاش المسلمين، وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك

(١) المغني (١٢/ ٧٧٦و٧٧٧)، ونهاية المطلب (١٨/ ٢٢، ٢٣).

من أهل الذمة قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه، فلو أن رجلًا من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت، أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: ما أنصفناك، أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك» قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه(١).

قال القرطبي: قال عكرمة: الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين، فقراء أهل الكتاب، وقال أبو بكر العبسي: رأى عمر بن الخطاب ذميًا مكفوفًا مطروحًا على باب المدينة فقال له عمر: مالك؟ قال: استكروني في هذه الجزية حتى إذا كف بصري تركوني وليس لي أحد يعود علي بشيء فقال عمر: ما أنصفت إذًا، فأمر له بقوته وما يصلحه ثم قال: هذا من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ الآية وهم زمنى أهل الكتاب. (٢)

وقال السرخسي: فأما خراج الرؤوس لا يؤخذ من النساء والصبيان لما بينا أنه خلف عن النصرة التي فاتت بإصرارهم على الكفر ونصرة القتال لو كانوا مسلمين على الرجال دون النساء والصبيان، ولأن في حقهم الوجوب بطريق العقوبة كالقتل، وإنما يقتل الرجال منهم دون النساء والصبيان حين كانوا حربيين، فكذلك حكم الجزية بعد عقد الذمة، ولئن كان

---

(١) **حسن لغيره**. أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٢٣)، ومن طريقه أخرجه حميد بن زنجويه في الأموال (١٧٩)فقال: حدثنا محمد بن كثير، عن أبي رجاء الخراساني، عن جسر أبي جعفر به ، وهذا الإسناد فيه جسر بن فرقد ضعيف- الكامل لابن عدي (٢/ ١٧٠)وله شاهد أخرجه أبو يوسف في الخراج (١٢٦) وأخرجه حميد بن زنجويه (١٦٥) عن الهيثم بن عدي كلاهما- أبو يوسف، والهيثم بن عدي- عن عمر بن نافع، قال: حدثني أبو بكر العبسي عن عمر في قصة الرجل الذي رآه، وصرح أبو بكر في رواية أبي يوسف أنه رأى ذلك الرجل وأبو بكر العبسي هو صلة بن زفر ثقة – تهذيب التهذيب (٤/ ٣٨٤)، وتاريخ بغداد (٩/ ٣٣٥)والهيثم بن عدي متروك، والاعتماد على رواية أبي يوسف.

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ١٥١).

مؤنة السكنى، فالنساء والصبيان في السكنى تبع وأجرة السكنى على من هو الأصل دون التبع، ولكن الأول أصح؛ فإنه لا تؤخذ الجزية من الأعمى، والشيخ الفاني، والمعتوه، والمقعد مع أنهم في السكنى أصل، ولكن لا يلزمه أصل النصرة ببدنه لو كان مسلمًا فكذلك لا يؤخذ منه ما هو خلف عن النصرة. وعن أبي يوسف أن الأعمى والمقعد إذا كان صاحب مال ورأي يؤخذ منه؛ لأنه يقاتل برأيه، وإن كان لا يقاتل ببدنه لو كان مسلمًا، وعجزه لنقصان في بدنه ولا نقصان في ماله فيؤخذ منه ما هو خلف عن النصرة، والفقير الذي لا يستطيع أن يعمل لا تؤخذ منه الجزية؛ لأن الجزية مال يؤخذ منه ولا مال له، والعاجز عن الأداء معذور شرعًا فيما هو حق العباد قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾، ففي الجزية أولى، وهذا؛ لأن الجزية صلة مالية وليست بدين واجب.

ألا ترى أنها سميت خراجًا في الشرع. والخراج اسم لما هو صلة قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ (الكهف: ٩٤)، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ (المؤمنون: ٧٢)، والصلة المالية لا تكون إلا ممن يجد للمال، فأما من لا يجد يعان بالمال فكيف يؤخذ منه ولا خراج على رؤوس المماليك، لأنه خلف عن النصرة والمملوك لا يملك نصرة القتال في نفسه أن لو كان مسلمًا فلا يلزمه ما هو خلف عن النصرة ثم هو أعسر من الحر الذي لا يجد شيئًا؛ لأنه ليس من أهل الملك أصلًا ثم المملوك في السكنى تبع لمولاه. (١)

الوجه السابع: لم يكن المبلغ المدفوع للجزية كبيرًا تعجز عن دفعه الرجال.

فهو مرتبط على الأصح بالقدرة، والحالة، وقد كان ميسورًا، لم يتجاوز على عهد النبي ﷺ الدينار الواحد في كل سنة، فيما لم يتجاوز الأربعة دنانير سنويًا زمن الدولة الأموية.

فحين أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن أخذ من كل حالم منهم دينارًا، يقول معاذ: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن، فأمرني أن آخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعًا، أو تبيعة، ومن كل

(١) المبسوط للسرخسي (١٢/ ١٦٢).

أربعين مسنة (هذه زكاة على المسلمين منهم)، ومن كل حالم دينارًا، أو عدله مَعافر (للجزية). [١]، والمعافري: الثياب.

وفي عهد عمر بن الخطاب ﵁ ضرب الجزية على أهل الذهب: أربعة دنانير، وعلى أهل الورِق: أربعين درهمًا؛ مع ذلك أرزاق المسلمين، وضيافة ثلاثة أيام[٢].

قال أبو عبيد: ولو عجز أحدهم لحظة، عن دينار لحطه من ذلك، حتى لقد روي عنه - يعني عمر ﵁- أنه أجرى على شيخ منهم من بيت المال، وذلك أنه مر به شيخ وهو يسأل على الأبواب[٣].

ومن أهل العلم من يفرق بين الجزية المضروبة على سبيل الصلح وبين الجزية التي تضرب بعد قتالنا لهم؛ لأنهم اختاروا القتال ثم هزموا حيث قالوا: وهي على ضربين: جزية توضع بالتراضي والصلح فتقدر بحسب ما يقع عليه الاتفاق لأن الموجب هو التراضي فلا يجوز التعدي إلى غير ما وقع عليه الاتفاق، وجزية يبتدئ الإمام وضعها إذا غلب الإمام على الكفار، وأقرهم على أملاكهم، فيضع على الغني الظاهر الغنى في كل سنة ثمانية، وأربعين درهمًا يأخذ منهم في كل شهر أربعة دراهم.

وعلى وسط الحال أربعة وعشرين درهمًا في كل شهر درهمين، وعلى الفقير المعتمل اثني عشر درهما في كل شهر درهمًا[٤].

وهذا الوجه يتفق مع القاعدة الفقهية التي تقول: لا واجب مع عجز، ولا حرام مع ضرورة.[٥]

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٢٣)، وأبو داود في سننه (١٥٧٦)، والنسائي (٢٤٥٠)، وصححه الألباني في مواضع متفرقة، منها صحيح الترمذي (٥٠٩).

(٢) مشكاة المصابيح (٣٩٧٠).

(٣) الأموال ١/ ١٠٤.

(٤) فتح القدير ٦/ ٤٥، باب الجزية.

(٥) إعلام الموقعين (٢/ ٤١).

ولأجل هذا قال ابن القيم: والصحيح أنها لا تجب على عاجز عنها، فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها. وإنما فرضها عمر ﷺعلى الفقير المعتمل لأنه يتمكن من أدائها بالكسب. وقواعد الشريعة كلها تقتضي ألا تجب على عاجز كالزكاة والدية والكفارة والخراج. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾، ولا واجب مع عجز، ولا حرام مع ضرورة.

فإن قيل: نحن لا نكلفه بها في حال إعساره، بل تستقر دينًا في ذمته، فمتى أيسر طولب بها لما مضى كسائر الديون، قيل: هذا معقول في ديون الآدميين؛ وأما حقوق الله تعالى فإنه إنما أوجبها على القادرين دون العاجزين. (١)

والكل يدل على إحسان الإسلام إليهم، ووفاء المسلمين بالعهد ولو كان القصد هو الإذلال ما سقطت عن الفقير والعاجز والمرأة فظهر المراد من أنها من المحاسن والحمد لله.

الوجه الثامن: التحذير من ظلم أهل الذمة

حيث يأمر الله في كتابه والنبيﷺ في حديثه بالإحسان لأهل الذمة، وحسن معاملتهم، وتحرم الشريعة أشد التحريم ظلمهم، والبغي عليهم، فقد حثّ القرآن على البر، والقسط بأهل الكتاب المسالمين الذين لا يعتدون على المسلمين ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة: ٨). والبر أعلى أنواع المعاملة، فقد أمر الله به في باب التعامل مع الوالدين، وهو الذي وضحه رسول الله ﷺ في حديث آخر بقوله: "البر حسن الخلق". (٢)

ويقول ﷺ في التحذير من ظلم أهل الذمة وانتقاص حقوقهم: " من ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة". (٣)

---

(١) أحكام أهل الذمة (٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢) البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٠٥). وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٢٧٤٩).

ويقول: من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا. (١)

وحين أساء بعض المسلمين معاملة أهل الجزية كان موقف العلماء العارفين صارمًا، فقد مرّ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا. قال: وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين، فدخل عليه، فحدثه، فأمر بهم فخُلوا. (٢)

قال القرطبي معلقًا على هذا الحديث: قال علماؤنا: أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكين فجائز، فأما مع تبين عجزهم فلا تحل عقوبتهم؛ لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه. ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء. (٣)

وقال النووي: (فأمر بهم فخلوا) ضبطوه بالخاء المعجمة والمهملة، والمعجمة أشهر وأحسن. (٤)

وأما الأمر بالصغار الوارد في قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، فقد بيناه سابقًا في تفسير الآية وهو معنى لا يمكن أن يتنافى مع ما رأيناه في أقوال النبي ﷺ من وجوب البر، والعدل، وحرمة الظلم، والعنت، وهو ما فهمه علماء الإسلام، ففسره الشافعي بأن تجري عليهم أحكام الإسلام، أي العامة منها، فالجزية علامة على خضوع الأمة المغلوبة للخصائص العامة للأمة الغالبة.

وفسره التابعي عكرمة مولى ابن عباس بصورة دفع الجزية للمسلمين، فقال: أن يكونوا قيامًا، والآخذ لها جلوسًا، إذ لما كانت اليد المعطية على العادة هي العالية، طلب منهم أن يشعروا العاطي للجزية بتفضلهم عليه، لا بفضله عليهم.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦١٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١١٥).

(٤) شرح مسلم للنووي (٢٦١٣).

يقول القرطبي: فجعل يد المعطي في الصدقة عليا، وجعل يد المعطي في الجزية سفلى، ويد الآخذ عليا.[1]

وقال ابن حجر: وعن الشافعي المراد بالصغار هنا التزام حكم الإسلام، وهو يرجع إلى التفسير اللغوي؛ لأن الحكم على الشخص بما لا يعتقده، ويضطر إلى احتماله يستلزم الذل.[2]

وأما ما ورد في بعض كتب الفقه من جرهم، وأخذ تلابيبهم، وضربهم على قفاهم، وإطالة وقوفهم على الأبواب، فمما لا دليل عليه ونحن نذكر بعض ذلك مع الرد عليه.

١-**قال الرافعي**: وتؤخذ على وجه الصغار والإهانة؛ بأن يكون الذمي قائمًا والمسلم جالسًا، ويأمره أن يخرج يده من جيبه، ويحني ظهره، ويطأطئ رأسه، ويصب ما معه في كفة الميزان، ويأخذ المستوفي بلحيته، ويضرب في لهزمته، وفي مجمع اللحم بين الماضغ، والأذن وهذا معنى الصغار عند بعضهم، وهل هذه الهيئة واجبة أم مستحبة؟ وجهان أصحهما مستحبة.

قال النووي: هذه الهيئة باطلة، ولا نعلم لها أصلًا معتمدًا وإنما ذكرها بعضهم. قال الجمهور: تؤخذ برفق كأخذ الديون فالصواب الجزم ببطلانها وردها على من اخترعها، ولم ينقل أنه ﷺ، ولا أحد من الخلفاء الراشدين فعل شيئًا منها.

قال الرافعي: والأصح عند الأصحاب تفسير الصغار بالتزام أحكام الإسلام وجريانها عليهم وقالوا: أشد الصغار على المرء أن يحكم عليه بما لا يعتقده ويضطر إلى احتماله والله أعلم، وقد نص الشافعي على ذلك: أي على الأخذ بالرفق والله أعلم.[3]

٢- **قال ابن القيم**: واختلف الناس في تفسير الصغار الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية فقال عكرمة: أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخذ جالسًا، وقالت طائفة: أن يأتي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١١٥)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٥١-٣٥٢)، وانظر: الجزية في الإسلام للسقار.

(٢) فتح الباري (٦/ ٢٥٩).

(٣) كفاية الأخيار فصل شرائط وجوب الجزية، وانظر المغني (١٠/ ٦٢٠)، وروضة الطالبين للنووي، وحواشي الشرواني (٩/ ٢٧٥)، والمجموع (١٩/ ٤٠٨).

بها بنفسه ماشيًا لا راكبًا، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف ثم تجر يده ويمتهن، وهذا كله مما لا دليل عليه ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ، ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك. والصواب في الآية أن الصغار هو: التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم وإعطاء الجزية؛ فإن التزام ذلك هو الصغار.

وقد قال الإمام أحمد في رواية حنبل: كانوا يجرون في أيديهم، ويختمون في أعناقهم إذا لم يؤدوا الصغار الذي قال الله تعالى﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾. وهذا يدل على أن الذمي إذا بذل ما عليه، والتزم الصغار لم يحتج إلى أن يجر بيده ويضرب. (١)

الوجه التاسع: صور مشرقة في تعامل المسلمين مع أهل الذمة، وذلك في نقاط.

لنعلم أن هذه القوانين لم تكن يومًا من الأيام في معزل عن الحياة، فقد قدم الإسلام ضمانات فريدة لأهل الذمة، لم، ولن تعرف لها البشرية مثيلًا، ففي مقابل دراهم معدودة يدفعها الرجال القادرون على القتال من أهل الذمة، فإنهم ينعمون بالعيش الآمن، والحماية المطلقة لهم من قبل المسلمين علاوة على أمنهم على كنائسهم، ودينهم.

وقد تجلى ذلك في وصايا الخلفاء لقادتهم، كما أكدته صيغ الاتفاقات التي وقعها المسلمون مع دافعي الجزية، ونود أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى تأمل الضمانات التي يضمنها المسلمون وما يدفعه أهل الجزية في مقابلها، وذلك فيما يلي:

١- **كتاب النبي ﷺ لربيعة الحضرمي**؛ وكتب رسول الله ﷺ لربيعة بن ذي مرحب الحضرمي وإخوته وأعمامه: أن لهم أموالهم، ونخلهم، ورقيقهم، وآبارهم، وشجرهم، ومياههم، وسواقيهم، ونبتهم، وشِراجهم بحضرموت، وكل مال لآل ذي مرحب، وإن كل رهن بأرضهم يُحسب ثمره، وسدره، وقبضه من رهنه الذي هو فيه. ، وأن كل ما كان في ثمارهم من خير فإنه لا يسأل أحد عنه، وأن الله، ورسوله براء منه، وأن نَصْرَ آل ذي

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ١٢١).

مرحب على جماعة المسلمين، وأن أرضهم بريئة من الجور، وأن أموالهم، وأنفسهم، وزافر حائط الملك الذي كان يسيل إلى آل قيس، وأن الله جار على ذلك، وكتب معاوية[١].

وقوله: وأن نصر آل ذي مرحب على جماعة المسلمين فيه لفتة هامة، وهي أن المسلمين يقدمون حياتهم وأرواحهم ودماءهم فدىً لمن دخل في حماهم، وأصبح في ذمتهم، إنها ذمة الله تعالى وذمة رسول الله ﷺ[٢].

يقول القرافي: فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صونًا لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم[٣].

٢- **كما كتب النبي ﷺ كتاب ذمة**، وعهد إلى أهل نجران النصارى، ينقله إلينا ابن سعد في طبقاته، فيقول: وكتب رسول الله ﷺ لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران، وكهنتهم، ومن تبعهم، ورهبانهم أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بيعهم، وصلواتهم، ورهبانهم، وجوار الله، ورسوله، لا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه، ما نصحوا، وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين، وكتب المغيرة.[٤]

٣- **أصحاب النبي ﷺ يطبقون ما تعلموه من نبيهم العظيم**، ويلتزمون لأهل الجزية بمثل الإسلام، وخصائصه الحضارية، وقد أورد المؤرخون عددًا مما ضمنوه لأهل الذمة، ومن ذلك العهدة العمرية التي كتبها عمر لأهل القدس، وفيها: بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم،

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٦).

(٢) الجزية في الإسلام للسقار.

(٣) الفروق (٣/ ١٤-١٥).

(٤) أخرجه ابن سعد (١/ ٢٦٦).

ولا يُنتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم.

ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يُسَكَّن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم، واللصوص، فمن خرج منهم؛ فإنه آمن على نفسه، وماله حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. . . ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة" وبمثله كتب عمر لأهل اللد[1].

٤-**وحين فتح خالد بن الوليد دمشق** كتب لأهلها مثله، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أمانًا على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم،

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٩). وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى طرق هذه القصة ثم قال: وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها؛ فإن الأئمة تلقوها بالقبول، وذكروها في كتبهم واحتجوا بها ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء، وعملوا بموجبها.

فذكر أبو القاسم الطبري من حديث أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا عبيد بن جناد، حدثنا عطاء بن مسلم الحلبي، عن صالح المرادي، عن عبد خير، قال: رأيت عليًا صلى العصر فصف له أهل نجران صفين فناوله رجل منهم كتابًا، فلما رآه دمعت عينه ثم رفع رأسه إليهم، قال: يا أهل نجران، هذا والله خطي بيدي وإملاء رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أعطنا ما فيه، قال: ودنوت منه، فقلت: إن كان رادًا على عمر يوما فاليوم يرد عليه، فقال: لست براد على عمر شيئا صنعه، إن عمر كان رشيد الأمر، وإن عمر أخذ منكم خيرًا مما أعطاكم ولم يجر عمر ما أخذ منكم إلى نفسه إنما جره لجماعة المسلمين.

وذكر ابن المبارك، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: أن عليًا ﷺقال لأهل نجران: إن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيئًا صنعه عمر. وقال الشعبي: قال علي حين قدم الكوفة ما جئت لأحل عقدة شدها عمر.

وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله، وذمة رسول الله ﷺ، والخلفاء، والمؤمنين، لا يُعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية. (١)

٥- ويسجل عبادة بن الصامت هذه السمات الحضارية للجزية في الإسلام،وهو يعرض الموقف الإسلامي الواضح على المقوقس عظيم القبط، فيقول: إما أجبتم إلى الإسلام. فإن قبلت ذلك أنت، وأصحابك فقد سعدت في الدنيا، والآخرة، ، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم، ولا التعرض لكم، فإن أبيتم إلا الجزية، فأدوا إلينا الجزية عن يد، وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن، وأنتم في كل عام أبدًا ما بقينا، وبقيتم، نقاتل عنكم من ناوأكم، وعرض لكم في شيء من أرضكم، ودمائكم، وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا(٢).

ونلحظ ثانية كيف يتقدم المسلم بنفسه لحماية أهل الجزية، وأموالهم، ونرى فداءه لهم بماله ودمه نقاتل عنكم من ناوأكم، وعرض لكم في شيء من أرضكم، ودمائكم، وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم.

٦- حرص المسلمين على الوفاء بعقد الذمة

وقد خشي الخلفاء أن يقصر المسلمون في حقوق أهل الذمة، فتفقدوا أحوالهم، ومن ذلك:

أ- ما رواه الطبري في تاريخه، في سياقه لحديث عمر إلى وفد جاءه من أرض الذمة، فقال عمر للوفد: لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى، وبأمور لها ما ينتقضون بكم؟ فقالوا: ما نعلم إلا وفاء، وحسن ملكة. (٣)

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (١٢٠).

(٢) مرسل. أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها (٧٨) من طريق ابن لهيعة عن عبيدالله بن أبي جعفر، وعياش بن عباس القتباني، وغيرهما يزيد بعضهم على بعض. ، وذكره ضمن قصة فتح مصر.

(٣) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ٥٠٣) قال: كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وعمرو وسفيان عن الحسن قال: قال عمر للوفد وذكره، وفي إسناده سيف بن عمر. قال ابن حجر في

ب- ولما تدانى الأجل به ﷺلم يفُته أن يوصي المسلمين برعاية أهل الذمة فقال: أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتلوا من ورائهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم.(١)

ج- عن جبير بن نفير قال: أتي عمر بمال كثير، -قال أبو عبيد - أحسبه قال من الجزية فقال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس؟ قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفوًا صفوًا. قال: بلا سوط، ولا نوط؟ قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني.(٢)

د - وهذه صورة عظيمة من صور الوفاء من المسلمين لهم مع إصرارهم على الخيانة العظمى للدولة. عن ابن سيرين، أن عمر بن الخطاب؛ استعمل عمير بن سعيد، أو سعد على طائفة من الشام، فقدم عليه قدمة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها: عرب السوس، وإنهم لا يخفون على عدونا من عوراتنا شيئًا، ولا يظهروننا على عوراتهم، فقال له عمر: فإذا قدمت فخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين، ومكان كل بعير بعيرين، ومكان كل شيء شيئين فإن رضوا بذلك فأعطهم، وخربها فإن أبوا فانبذ إليهم وأجلهم سنة، ثم خربها، فقال: اكتب لي عهدًا بذلك، فكتب له عهدًا، فلما قدم عمير عليهم عرض عليهم ذلك، فأبوا فأجلهم سنة، ثم أخربها قال أبو عبيد: وهذه مدينة بالثغر من ناحية الحدث يقال لها: عرب سوس، وهي معروفة هناك، وقد كان لهم عهد، فصاروا إلى هذا، وإنما نرى عمر عرض عليهم ما عرض من الجلاء، وأن يعطوا الضعف من أموالهم؛ لأنه لم يتحقق ذلك عنده من أمرهم، أو أن النكث كان من طوائف منهم دون

التقريب (٢٧٢٤): ضعيف الحديث عمدة في التاريخ. وهذا الخبر من أخبار التاريخ لايحتوي على شريعة جديدة، ولا يخالف أصلًا ثابتًا فيعتمد فيه على سيف وأمثاله، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري برقم (١٣٢٨).

(٢) أخرجه أبو عبيد في الأموال حديث (١١٨) من طريق بقية بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه به، وهذا إسناد ضعيف فيه بقيه بن الوليد مدلس، وقد عنعن، وانظر المغني (٩/ ٢٩٠)، وأحكام أهل الذمة (١/ ١٣٩).

إجماعهم، ولو أطبقت جماعتهم عليه ما أعطاهم من ذلك شيئًا إلا القتال والمحاربة، وقد كان نحو من هذا قريبًا الآن في دهر الأوزاعي بموضع بالشام، يقال له: جبل اللبنان، وكان به ناس من أهل العهد فأحدثوا حدثًا، وعلى الشام يومئذ صالح بن علي، فحاربهم وأجلاهم فكتب إليه الأوزاعي، فيما ذكر لنا محمد بن كثير عنه، برسالة طويلة، فيها: قد كان من إجلاء أهل الذمة، من أهل جبل لبنان، مما لم يكن تمالأ عليه خروج من خرج منهم، ولم تطبق عليه جماعتهم، فقتل منهم طائفة، ورجع بقيتهم إلى قراهم، فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة؟ فيخرجون من ديارهم وأموالهم؟ وقد بلغنا أن من حكم الله ﷻ أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة، ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة، ثم يبعثهم على أعمالهم، فأحق ما اقتدي به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى، وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله ﷺ وقوله: "من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه، من كانت له حرمة في دمه فله في ماله والعدل عليه مثلها فإنهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة، يرجم محصنهم على الفاحشة، ويحاص نساؤهم نساءنا من تزوجهن منا القسم، والطلاق، والعدة سواء - ثم ذكر رسالة طويلة، قال أبو عبيد: ثم كان بعد ذلك حدث من أهل قبرص، وهي جزيرة في البحر بين أهل الإسلام والروم، قد كان معاوية صالحهم وعاهدهم على خرج يؤدونه إلى المسلمين، وهم مع هذا يؤدون إلى الروم خرجا أيضًا، فهم ذمة للفريقين كليهما فلم يزالوا على ذلك حتى إذا كان زمان عبد الملك بن صالح على الثغور، فكان منهم حدث أيضًا، أو من بعضهم، رأى عبد الملك أن ذلك نكث لعهدهم والفقهاء يومئذ متوافرون، فكتب إلى عدة منهم يشاورهم في محاربتهم، فكان ممن كتب إليه: الليث بن سعد، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وموسى بن أعين، وإسماعيل بن عياش، ويحيى بن حمزة، وأبو إسحاق الفزاري، ومخلد بن حسين، فكلهم أجابه على كتابه. قال أبو عبيد: فوجدت رسائلهم إليه قد استخرجت من ديوانه، فاختصرت منها المعنى الذي أرادوه وقصدوا له، وقد اختلفوا عليه في الرأي، إلا

أن من أمره بالكف عنهم والوفاء لهم، وإن غدر بعضهم، أكثر ممن أشار بالمحاربة، فكان مما كتب إليه الليث بن سعد: إن أهل قبرص لم نزل نتهمهم بالغش لأهل الإسلام والمناصحة لأهل الروم، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ (الأنفال: ٥٨) ولم يقل تبارك وتعالى: لا تنبذ إليهم حتى تستبين خيانتهم وإني أرى أن تنبذ إليهم، ثم ينظروا سنة يأتمرون، فمن أحب منهم اللحاق ببلاد المسلمين، على أن يكون ذمة يؤدي الخراج فعل، ومن أراد أن ينتحي إلى الروم فعل، ومن أراد أن يقيم بقبرص على الحرب أقام، فيقاتلهم المسلمون كما يقاتلون عدوهم؛ فإن في إنظارهم سنة قطعًا لحجتهم ووفاء بعهدهم، وكان فيما كتب إليه سفيان بن عيينة: إنا لا نعلم النبي ﷺ عاهد قوما فنقضوا العهد إلا استحل قتلهم، غير أهل مكة فإنه من عليهم، وإنما كان نقضهم الذي استحل به غزوهم: أن قاتلت حلفاؤهم من بني بكر حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة فنصر أهل مكة بني بكر على حلفائه، فاستحل بذلك غزوهم، ونزلت في الذين نقضوا ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (التوبة: ١٣- ١٤) ونزلت فيهم أيضًا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (الأنفال: ٥٥ – ٥٧)، وكان فيما أخذ النبي ﷺ على أهل نجران في صلحه: أن من أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة. والذي انتهى إلينا من العلم: أن من نقض شيئًا مما عوهد عليه، ثم أجمع القوم على نقضه، فلا ذمة لهم. وكان فيما كتب إليه مالك بن أنس: إن أمان أهل قبرص كان قديمًا متظاهرًا من الولاة لهم، يرون أن أمانهم وإقرارهم على حالهم ذل وصغار لهم، وقوة للمسلمين عليهم: لما يأخذون من جزيتهم ويصيبون بهم من

الفرصة على عدوهم، ولم أجد أحدًا من الولاة نقض صلحهم، ولا أخرجهم من مكانهم، وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومنابذتهم حتى يعذر إليهم، وتؤخذ الحجة عليهم، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾ فإن لم يستقيموا بعد ذلك ويتركوا غشهم، ورأيت أن الغدر يأتي من قبلهم أوقعت بهم عند ذلك، وكان بعد الإعذار إليهم، فكان أقوى لك عليهم، وأقرب من النصر لك والخزي لهم إن شاء الله.

وكان فيما كتب إليه موسى بن أعين: إنه قد كان يكون مثل هذا فيما خلا، فينظر فيه الولاة، ولم أر أحدًا ممن مضى نقض عهد أهل قبرص، ولا غيرها، ولعل جماعتهم لم تمالئ على ما كان من خاصتهم، وإني أرى الوفاء لهم وإتمام تلك الشروط، وإن كان منهم الذي كان. قال موسى: وقد سمعت الأوزاعي يقول في قوم صالحوا المسلمين ثم أخبروا المشركين بعورتهم ودلوهم عليها - قال: إن كان من أهل الذمة فقد نقض عهده، وخرج من ذمته، فإن شاء الوالي قتله وصلبه وإن كان مصالحًا لم يدخل ذمة نبذ إليهم الوالي على سواء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾. وكان فيما كتب إليه إسماعيل بن عياش: أن أهل قبرص أذلاء مقهورون، تغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم، وقد كتب حبيب بن مسلمة في عهده وأمانه لأهل أرمينية أنه إن عرض للمسلمين شغل عنكم وقهركم فإنكم غير مأخوذين، ولا ناقض ذلك عهدكم، بعد أن تفُوا للمسلمين، وإني أرى أن يقروا على عهدهم وذمتهم، فإن الوليد بن يزيد قد كان أجلاهم إلى الشام، فاستفظع ذلك واستعظمه فقهاء المسلمين، فلما ولي يزيد بن الوليد ردهم إلى قبرس، فاستحسن المسلمون ذلك ورأوه عدلًا.

وكان فيما كتب إليه يحيى بن حمزة: إن أمر قبرص كأمر عربسوس، فإن فيها قدوة حسنة وسنة متبعة، فإن صارت قبرص لعدو المسلمين إلى ما صارت إليه عربسوس، فإن تركها على حالها والصبر على ما كان فيها، لما في ذلك للمسلمين من جزيتها وما يحتاجون إليه مما فيها أفضل، وإنما كان أمانها وتركها لذلك وليس من أهل عهد بمثل منزلتهم فيما

بين المسلمين وبين عدوهم إلا ومثل ذلك يتقى منهم قديمًا وحديثًا، وكل أهل عهد لم يقاتل المسلمون من ورائهم وتمض أحكامهم فيهم، فليسوا بذمة، ولكنهم أهل فدية، يكف عنهم ما كفوا، ويوفى لهم بعهدهم ما وفوا، ويقبل منهم عفوهم ما أدوا، ولا ينبغي أن يكون ذلك من المسلمين إليهم إلا بعد تقية يتقونها منهم أو ضعف عن محاربتهم، أو شغل عنهم بغيرهم، وقد روي عن معاذ بن جبل: أنه كره أن يصالح أحدًا من العدو على شيء معلوم، إلا أن يكون المسلمون مضطرين إلى صلحهم؛ لأنه لا يدري لعلهم يكونون أغنياء أعزاء في صلحهم، ليست عليهم ذلة ولا صغار. وكان فيما كتب إليه أبو إسحاق، ومخلد بن حسين: وإنا لم نر شيئًا أشبه بأمر قبرس من أمر عربسوس، وما حكم فيها عمر بن الخطاب، ثم ذكرا مثل الحديث الذي ذكرناه فيها، وقد كان الأوزاعي يحدث أن المسلمين فتحوا قبرص، فتركوا أهلها على حالهم، وصالحوهم على أربعة عشر ألف دينار: سبعة آلاف للمسلمين، وسبعة آلاف للروم، على أن لا يكتموا المسلمين أمر عدوهم، ولا يكتموا الروم أمر المسلمين، فكان الأوزاعي يقول: ما وفى لنا أهل قبرص قط، وإنا نرى أن هؤلاء القوم أهل عهد، وأن صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم وشرط عليهم، وأنه لا يستقيم إلا بأمر يعرف به غدرهم ونكث عهدهم. قال أبو عبيد: فأرى أكثرهم قد وكد العهد ونهى عن محاربتهم حتى يجمعوا جميعًا على النكث، وهذا أولى القولين بأن يتبع وأن لا يؤخذ العوام بجناية الخاصة، إلا أن يكون ذلك بممالأة منهم ورضا بما صنعت الخاصة، فهناك تحل دماؤهم وقد روي عن علي بن أبي طالب شيء يدل على هذا المعنى[1].

ولما أخذ الوليد بن عبد الملك كنيسة يوحنا من النصارى قهرًا، وأدخلها في المسجد، اعتبر المسلمون ذلك من الغصب، فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكا إليه النصارى ذلك، فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاد في المسجد عليهم[2].

---

(١) أخرجه أبو عبيد عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين به، وانظر فتوح البلدان (١٥٦).

(٢) فتوح البلدان (١٣٢).

٧- وحين عجز المسلمون عن أداء حقوق أهل الذمة وحمايتهم من عدوهم ردوا إليهم ما أخذوه من الجزية لفوات شرطها، وهو الحماية، فعن مكحول؛ أن الأخبار تتابعت على أبي عبيدة بجموع الروم، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين، فكتب أبو عبيدة لكل والٍ ممن خلَّفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جُبي منهم من الجزية والخراج، كتب إليهم أن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم، لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم(١).

وحين قام أهل الذمة بالمشاركة في الذود عن بلادهم أسقط عنهم المسلمون الجزية، كما صنع معاوية ﷺ مع الأرمن.

يقول لوران المؤرخ الفرنسي في كتابه -أرمينية بين بيزنطة والإسلام-: (إن الأرمن أحسنوا استقبال المسلمين ليتحرروا من ربقة بيزنطة، وتحالفوا معهم ليستعينوا بهم على مقاتلة الخزر، وترك العرب لهم أوضاعهم التي ألفوها وساروا عليها، والعهد أعطاه معاوية سنة ٦٥٣م، إلى القائد تيودور رختوني ولجميع أبناء جنسه ماداموا راغبين فيه، وفي جملته: أن لا يأخذ منهم جزية ثلاث سنين، ثم يبذلون بعدها ما شاؤوا، كما عاهدوه وأوثقوه على أن يقوموا بحاجة خمسة عشر ألف مقاتل من الفرسان منهم بدلًا من الجزية، وأن لا يرسل الخليفة إلى معاقل أرمينا أمراء ولا قادة ولا خيلًا ولا قضاة. . . وإذا أغار عليهم الروم أمدهم بكل ما يريدونه من نجدَّات. وأشهد معاويةُ الله على ذلك(٢).

ولا يتوقف حق أهل الذمة على دفع العدو عنهم، بل يتعداه إلى دفع كل أذى يزعجهم، ولو كان بالقول واللسان.

---

(١) الخراج (١٣٥)، وانظره في: فتوح البلدان للبُلاذري، وفتوح الشام للأذر.

(٢) انظر فتوح البلدان (٢١٠- ٢١١).

يقول القرافي: إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقًا علينا لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا (حمايتنا) وذمتنا وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة، فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام(١).

وواصل المسلمون بهدي من دينهم عطاءهم الحضاري حين تحولوا من آخذين للجزية إلى باذلين للمال رعاية وضمانًا للفقراء من أهل الذمة، فقد روى ابن زنجويه بإسناده أن عمر بن الخطاب رأى شيخًا كبيرًا من أهل الجزية يسأل الناس فقال: ما أنصفناك إن أكلنا شبيبتك، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله أن لا يأخذوا الجزية من شيخ كبير. (٢) وكان مما أمر به ﷺ: من لم يطق الجزية خففوا عنه، ومن عجز فأعينوه(٣).

وأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على البصرة عدي بن أرطأة يقول: وانظر من قبلك من أهل الذمة، قد كبرت سنه وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه(٤). أما إذا امتنع الذمي عن دفع الجزية مع القدرة عليها فإنه يعاقب، من غير أن تنقض ذمته.

يقول القرطبي: وأما عقوبتهم إذا امتنعوا عن أدائها مع التمكين فجائز، فأما مع تبين عجزهم فلا تحل عقوبتهم، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه، ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء(٥).

لقد أدرك فقهاء الإسلام أهمية عقد الذمة وخطورة التفريط فيه، وأنه لا ينقض بمجرد الامتناع عن دفع الجزية.

---

(١) الفروق (٣/ ١٤).

(٢) الأموال (١/ ١٦٣).

(٣) تاريخ مدينة دمشق (١/ ١٧٨).

(٤) الأموال (١/ ١٧٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٧٣-٧٤).

يقول الكاساني الحنفي: وأما صفة العقد (أي عقد الذمة) فهو أنه لازم في حقنا، حتى لا يملك المسلمون نقضه بحال من الأحوال، وأما في حقهم (أي الذميين) فغير لازم. [(١)]

٨- شهادة المؤرخين الغربيين

ولسائل أن يسأل: هل حقق المسلمون هذه المثُل العظيمة، هل وفوا ذمة نبيهم طوال تاريخهم المديد؟ وفي الإجابة عنه نسوق ثلاث شهادات لغربيين فاهوا بالحقيقة التي أثبتها تاريخنا العظيم.

يقول ولديورانت: لقد كان أهل الذمة، المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زيّ ذي لون خاص، وأداء ضريبة عن كل شخص باختلاف دخله، وتتراوح بين دينارين وأربعة دنانير، ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ، والأرقاء والشيوخ، والعجزة، والعمى الشديد والفقر، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية. . ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنان ونصف في المائة من الدخل السنوي، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم[(٢)].

يقول المؤرخ آدم ميتز في كتابه -الحضارة الإسلامية-: كان أهل الذمة يدفعون الجزية، كل منهم بحسب قدرته، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون، وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار[(٣)].

---

(١) بدائع الصنائع (٧/ ١١٢).

(٢) قصة الحضارة (١٢/ ١٣١).

(٣) الحضارة الإسلامية (١/ ٩٦).

ويقول المؤرخ سير توماس أرنولد في كتابه -الدعوة إلى الإسلام- موضحًا الغرض من فرض الجزية ومبينًا على مَن فُرضت: ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين -كما يردد بعض الباحثين- لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة. وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول دياناتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين.

وهكذا تبين بجلاء ووضوح براءة الإسلام بشهادة التاريخ والمنصفين من غير أهله، ثبتت براءته مما ألحقه به الزاعمون، وما فاهت فيه ألسنة الجائرين.

٩- من أقوال الفقهاء المسلمين في حراسة وتقرير حقوق أهل الذمة

ونلحظ فيما سبق أن الإسلام شرع لحراسة حقوق أهل الذمة في إقامة شعائر دينهم، وكنائسهم ما يلي :جاء في قوانين الأحكام الشرعية: المسألة الثانية: فيما يجب لهم علينا، وهو التزام إقرارهم في بلادنا إلا جزيرة العرب وهي الحجاز واليمن، وأن نكف عنهم، ونعصمهم بالضمان في أنفسهم وأموالهم، ولا نتعرض لكنائسهم ولا لخمورهم وخنازيرهم ما لم يظهروه[١]

ب-وينقل الطحاوي إجماع المسلمين على حرية أهل الذمة في أكل الخنازير، والخمر، وغيره مما يحل في دينهم، فيقول: وأجمعوا على أنه ليس للإمام منع أهل الذمة من شرب الخمر، وأكل لحم الخنازير، واتخاذ المساكن التي صالحوا عليها، إذا كان مِصرًا ليس فيه أهل إسلام (أي في بلادهم التي هم فيها الكثرة)[٢].

ج- وتصون الشريعة نفس الذمي وماله، وتحكم له بالقصاص من قاتله، فقد أُخذ رجل من المسلمين على عهد علي ﷺ وقد قتل رجلًا من أهل الذمة، فحكم عليه بالقصاص، فجاء أخوه واختار الدية بدلًا عن القود، فقال له علي: لعلهم فرقوك أو فزّعوك أو هددوك؟ فقال:

(١) قوانين الأحكام الشرعية (١٧٦).

(٢) اختلاف الفقهاء (٢٣٣).

لا، بل قد أخذت الدية، ولا أظن أخي يعود إلي بقتل هذا الرجل، فأطلق عليٌّ القاتل، وقال: أنت أعلم، من كانت له ذمتنا، فدمه كدمنا، وديته كديّتنا[(١)].

د-وصونًا لمال الذمي فإن الشريعة لا تفرق بينه، وبين مال المسلم، وتحوطه بقطع اليد الممتدة إليه، ولو كانت يد مسلم.

يقول القرطبيُّ: الذمي محقون الدم على التأبيد، والمسلم كذلك، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقِق ذلك أنّ المسلم يقطع بسرقة مال الذمي، وهذا يدل على أنّ مال الذمي قد ساوى مال المسلم، فدل على مساواته لدمه، إذ المال إنّما يحرم بحرمة مالكه[(٢)].

قال الماورديّ: ويلتزم ـ أي الإمام ـ لهم ببذل حقَّين: أحدهما: الكفُّ عنهم. والثانِي: الحماية لهم، ليكونوا بالكفِّ آمنين، وبالحماية محروسين[(٣)].

وقال النوويّ: ويلزمنا الكفُّ عنهم، وضمان ما نُتلفه عليهم، نفسًا، ومالًا، ودفعُ أهلِ الحرب عنهم. [(٤)] وتوالى تأكيد الفقهاء المسلمين على ذلك.

يقول ابن النجار الحنبلي: يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يؤذيهم وفكُّ أسرهم ودفع من قصدهم بأذى[(٥)].

ولما أغار أمير التتار قطلوشاه على دمشق في أوائل القرن الثامن الهجري، وأسر من المسلمين، والذميين من النصارى، واليهود عددًا، **ذهب إليه الإمام ابن تيمية**، ومعه جمع من العلماء، وطلبوا فك أسر الأسرى، فسمح له بالمسلمين، ولم يطلق الأسرى الذميين، فقال له شيخ الإسلام: لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم

---

(١) مسند الشافعي (١/ ٣٤٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٤٦).

(٣) الأحكام السلطانية (١٤٣).

(٤) مغني المحتاج (٤/ ٢٥٣).

(٥) مطالب أولي النهى (٢/ ٦٠٢).

أهل ذمتنا، ولا ندع لديك أسيرًا، لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة، فإن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فأطلقهم الأمير التتري جميعًا[(١)].

قال محمد علي بن حسين المكي المالكي: عقد الذمة لما كان عقدًا عظيمًا فيوجب علينا حقوقًا لهم منها ما حكاه ابن حزم في مراتب الإجماع: ، ونجعلهم في جوارنا، وفي حق ربنا، وفي ذمة الله تعالى وذمة رسول الله ﷺ، وذمة دين الإسلام.

والذي إجماع الأمة عليه أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع، والسلاح، ونموت دون ذلك صونًا لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ؛ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة، ومنها أن من اعتدى عليهم، ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام تعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يؤدي إلى أحد الأمرين أحدهما ما يدل ظاهره على مودات القلوب وثانيهما ما يدل ظاهره على تعظيم شعائر الكفر وذلك كالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم، والرحمة لا على سبيل الخوف، والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفا منا بهم لا خوفا، وتعظيما، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم، ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم، وعيالهم، وأعراضهم، وجميع حقوقهم، ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع عدوه؛ فإن ذلك من مكارم الأخلاق.

إلا أنه ينبغي أن يكون لا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم بل امتثالًا منا لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا ﷺ مع كوننا نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٧-٦١٨).

بغضنا، وتكذيب نبينا ﷺ، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا، واستولوا على دمائنا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا عز وجل ليمنعنا ذلك الاستحضار من الود الباطن لهم المحرم علينا خاصة، لا لأن نظهر آثار تلك الأمور التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة؛ لأن عقد العهد يمنعنا من ذلك(١).

الوجه العاشر: لم يكن الإسلام أول الأديان والملل أخذًا للجزية،

بل هي شريعة معهودة عند أهل الكتاب يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهاهم بنو إسرائيل عندما دخلوا بأمر الرب إلى الأرض المقدسة مع نبيهم يشوع أخذوا الجزية من الكنعانيين، فيقول النص في سفر يشوع (١٦: ١٠): (فَلَمْ يَطْرُدُوا الْكَنْعَانِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي جَازَرَ. فَسَكَنَ الْكَنْعَانِيُّونَ فِي وَسَطِ أَفْرَايِمَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، وَكَانُوا عَبِيدًا تَحْتَ الْجِزْيَةِ).

وفي سفر القضاة (١: ١) نجد أن بني إسرائيل سألوا الرب قائلين: (مَنْ مِنَّا يَصْعَدُ إِلَى الْكَنْعَانِيِّينَ أَوَّلًا لِمُحَارَبَتِهِمْ؟ » ٢فَقَالَ الرَّبُّ: «يَهُوذَا يَصْعَدُ. هُوَذَا قَدْ دَفَعْتُ الأَرْضَ لِيَدِه)، وفي الأعداد (٣٠ – ٣٣) نجدهم يضعون الجزية على الكنعانيين. وعلى سكان قطرون وسكان نهلول وسكان بيت شمس وسكان بيت عناة وغيرهم ونجد في كتابهم المقدس أيضًا أن نبي الله سليمان عليه السلام كان متسلطًا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر. وكانت هذه الممالك تقدم له الجزية وتخضع له كل أيام حياته. ملوك الأول (٤: ٢١).

فيقول النص كما في ترجمة كتاب الحياة: (فَكَانَتْ هَذِهِ المَمَالِكُ تُقَدِّمُ لَهُ الجِزْيَةَ وَتَخْضَعُ لَهُ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ) وفي ترجمة الفانديك: (كَانُوا يُقَدِّمُونَ الْهَدَايَا وَيَخْدِمُونَ سُلَيْمَانَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ.)

بل إن كتابهم المقدس فيه من الشرائع والأحكام ما هو أشد وأعظم بكثير من حكم الجزية، فالرب مثلًا يأمر أنبياءه أن يضعوا الناس تحت نظام التسخير والعبودية بخلاف الجزية التي أهون بكثير من هذا النظام فعلى سبيل المثال نجد في سفر التثنية (٢٠: ١٠) أن الرب يأمر

---

(١) تهذيب الفروق، والقواعد السنية في الأسرار الفقهية (٣/ ٢٣)، الفروق (٣/ ١٤-١٥).

نبيه موسى قائلًا: (حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، ١١ فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ)

ويقول كاتب سفر صموئيل الثاني ٨: ١ كما في ترجمة كتاب الحياة عن نبي الله داود: (وَضَرَبَ الْمُوآبِيِّينَ وَقَاسَهُمْ بِالْحَبْلِ. أَضْجَعَهُمْ عَلَى الأَرْضِ، فَقَاسَ بِحَبْلَيْنِ لِلْقَتْلِ وَبِحَبْلٍ لِلاسْتِحْيَاءِ. وَصَارَ الْمُوآبِيُّونَ عَبِيدًا لِدَاوُدَ يُقَدِّمُونَ هَدَايَا). وفي العدد: (وَكَانَ الرَّبُّ يَنْصُرُ دَاوُدَ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ)

لقد كانت الجزية من شرائع التوراة والمسيح عليه السلام لم يذكر كلمة واحدة لإلغائها أو استنكارها. وقد نقل العهد الجديد شيوع هذه الصورة حين قال المسيح لسمعان: (مَاذَا تَظُنُّ يَا سِمْعَانُ؟ مِمَّنْ يَأْخُذُ مُلُوكُ الأَرْضِ الْجِبَايَةَ أَوِ الْجِزْيَةَ، أَمِنْ بَنِيهِمْ أَمْ مِنَ الأَجَانِبِ؟ » قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «مِنَ الأَجَانِبِ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «فَإِذًا الْبَنُونَ أَحْرَارٌ). (متى ١٧/ ٢٤-٢٥).

والأنبياء عليهم السلام حين غلبوا على بعض الممالك بأمر الله، ونصرته أخذوا الجزية من الأمم المغلوبة، بل واستعبدوا الأمم المغلوبة، كما صنع النبي يشوع مع الكنعانيين حين تغلب عليهم (فَلَمْ يَطْرُدُوا الْكَنْعَانِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي جَازَرَ. فَسَكَنَ الْكَنْعَانِيُّونَ فِي وَسَطِ أَفْرَايِمَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، وَكَانُوا عَبِيدًا تَحْتَ الْجِزْيَةِ) (يشوع ١٦/ ١٠)[1]، فجمع لهم بين العبودية والجزية.

والمسيحية لم تنقض شيئًا من شرائع اليهودية، فقد جاء المسيح متممًا للناموس لا ناقضًا له (انظر متى ٥/ ١٧)، بل وأمر المسيح أتباعه بدفع الجزية للرومان، وسارع هو إلى دفعها، فقد قال لسمعان: (اذْهَبْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَّارَةً، وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلًا خُذْهَا، وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَارًا، فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ) (متى ١٧/ ٢٤-٢٧).

ولما سأله اليهود (حسب العهد الجديد) عن رأيه في أداء الجزية أقر بحق القياصرة في أخذها (فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تَلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ. ١٧ فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى

(١) سفر يشوع نقلًا عن المصدر السابق ١/ ٣٨٢.

جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ » ١٨فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟ ١٩أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ». فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَارًا. ٢٠فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟ » ٢١قَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ) (متى ٢٢/ ١٦-٢١).

ولم يجد المسيح غضاضة في مجالسة، ومحبة العشارين الذين يقبضون الجزية، ويسلمونها للرومان (انظر متى ١١/ ١٩)، واصطفى منهم متى العشار ليكون أحد رسله الاثني عشر (انظر متى ٩/ ٩).

ويعتبر العهد الجديد أداء الجزية للسلاطين حقًا مشروعًا، بل، ويعطيه قداسة، ويجعله أمرًا دينيًا، إذ يقول: لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ، ٢حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً. ٣فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ. أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّلاَحَ فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ، ٤لأَنَّهُ خَادِمُ اللهِ لِلصَّلاَحِ! وَلكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ فَخَفْ، لأَنَّهُ لاَ يَحْمِلُ السَّيْفَ عَبَثًا، إِذْ هُوَ خَادِمُ اللهِ، مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّرَّ. ٥لِذلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ، لَيْسَ بِسَبَبِ الْغَضَبِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِسَبَبِ الضَّمِيرِ. ٦فَإِنَّكُمْ لأَجْلِ هذَا تُوفُونَ الْجِزْيَةَ أَيْضًا، إِذْ هُمْ خُدَّامُ اللهِ مُواظِبُونَ عَلَى ذلِكَ بِعَيْنِهِ. ٧فَأَعْطُوا الْجَمِيعَ حُقُوقَهُمْ: الْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِزْيَةُ. الْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِبَايَةُ. وَالْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ الْخَوْفُ. وَالإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ الإِكْرَامُ. (رومية ١٣/ ١-٧).

وفى التفسير التطبيقي يقول المعلق على المادة (متى ١٧/ ٢٤-٢٧): وهى قوله: فإذًا البنون أحرار أجاب بطرس كعادته على سؤال دون معرفة حقيقية للإجابة، وبذلك وضع يسوع والتلاميذ في موقف حرج، ولكن الرب يسوع استخدم هذا الموقف الحرج لإثبات دوره الملكي، فكما أن الملوك لا يدفعون ضرائب لا هم، ولا عائلاتهم فلم يكن على يسوع كملك أن يدفع ضرائب، ولكنه دبر دفع الضريبة عنه، وعن بطرس لكي لا يعثر الذين لم يدركوا أنه ملك، ومع أن بطرس قد أعطى مبلغ الضريبة إلا أنه كان عليه أن يذهب

للحصول عليها، وفى الحقيقة إن كل ما لدينا يأتينا من موارد الله، ولكنه يريدنا أن ننشط في العمل نحن كشعب الله غرباء في الأرض؛ لأن ولاءنا إنما هو لملكنا الحقيقي يسوع، ومع ذلك علينا أن نتعاون مع السلطات، وأن نكون مواطنين ملتزمين. فالسفير لدولة أخرى يراعى القوانين المحلية لكي يحسن تمثيل من أرسله، ونحن سفراء المسيح فهل أنت سفير صالح له في هذا العالم؟. [1]

إن بولس قد أكد على ضرورة الالتزام بها وذلك في قوله في رسالة رومية ١٣: ٧: (فَأَعْطُوا الْجَمِيعَ حُقُوقَهُمْ: الْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِزْيَةُ. الْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِبَايَةُ. وَالْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ الْخَوْفُ. وَالإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ الإِكْرَامُ)

وبالتالي كيف يصح لعاقل من النصارى قرأ كتابه المقدس أن يعيب ويطعن على حكم الجزية؟! ألا يعلم المبشرون أن طعنهم على هذا الحكم هو في الحقيقة طعن على كتابهم المقدس؟!

الوجه الحادي عشر: مقارنة بين شريعة الإسلام في عقد الذمة من خلال ما سبق وبين ما قام به النصارى واليهود تجاه البشرية عامة وتجاه من أحسن إليهم من المسلمين خاصة

حيث إن المسلمين بالجزية يبذلون السلام، والأمن، والحرية، والحماية للشعوب غير المسلمة في البلاد التي دخلها المسلمون. ، والأيام دول فماذا صنع النصارى في البلاد التي دخلوها متمكنين منها؟! إليك هذا التقرير لنهديه إلى دعاة الحرية، والسلام، والأمن، وحقوق الإنسان من النصارى، ولتقارن بينه، وبين حقوق أهل الذمة في الإسلام.

١- وثائق تاريخية عن فظائع الحروب الصليبية

٣٤ لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاَمًا، بَلْ سَيْفًا. ٣٥ فَإِنِّي جِئْتُ لأَجْعَلَ الإِنْسَانَ عَلَى خِلاَفٍ مَعَ أَبِيهِ، وَالْبِنْتَ مَعَ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ مَعَ حَمَاتِهَا. ٣٦ وهَكَذَا يَصِيرُ أَعْدَاءَ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ! (إنجيل متى: ١٠)

(١) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس (١٩٣٠).

يتغنى النصارى بمقولة المسيح: (مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا) ليدللوا على أن دينهم دين سلام ورحمة، وفي المقابل نجدهم ينعقون ليلًا نهارًا بأن الإسلام دين السيف والإرهاب. فهل التاريخ والواقع يصدق ذلك؟ ؟ ذكر ابن الأثير في تاريخه عن دخول الصليبيين للقدس في الحروب الصليبية فقال: ملك الفرنجة القدس نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف ولبث الفرنجة في البلدة أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، وقتل الفرنجة بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف. (١)

كما وصف ستيفن رنسيمان في كتابه تاريخ الحروب الصليبية ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون فقال: وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند اجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه، وتركت مذبحة بيت المقدس أثرًا عميقًا في جميع العالم، وليس معروفًا بالضبط عدد ضحاياها غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود، بل إن كثيرًا من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث.

وقد وصف كثير من المؤرخين أحداث المذبحة التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين إليها، وكيف أنهم كانوا يزهون بأنفسهم؛ لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع، وقد كان من وسائل الترفيه لدى الصليبيين أن يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج. ويذكر الكثيرون ماذا فعل ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة عند احتلاله لعكا بأسرى المسلمين فقد ذبح ٢٧٠٠ أسير من

(١) الكامل في التاريخ (٨/ ١٨٩-١٩٠).

أسرى المسلمين الذين كانوا في حامية عكا، وقد لقيت زوجات وأطفال الأسرى مصرعهم إلى جوارهم. فأي سلام يحمله هؤلاء؟ ؟ ؟

فقد أمَّنَهم الإسلام على أنفسهم لكنهم لا يعرفون معنىً للقيم والعهد والسلام. ومع ما فعله الصليبيون في القدس، فإننا نرى رحمة الإسلام ومسا محته حتى مع هؤلاء الظلمة، فقد وصف المؤرخون ما حدث في اليوم الذي دخل فيه صلاح الدين الأيوبي إلى القدس فاتحًا لم ينتقم أو يقتل أو يذبح، بل اشتهر المسلمون الظافرون في الواقع بالاستقامة والإنسانية. فبينما كان الصليبيون منذ ثمانٍ وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم المسلمين لم تتعرض أي دار من دور بيت المقدس للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه إذ صار رجال الشرطة يطوفون بالشوارع والأبواب تنفيذًا لأمر صلاح الدين لمنع كل اعتداء يحتمل وقوعه على المسيحيين، وقد تأثر الملك العادل لمنظر بؤس الأسرى فطلب من أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير، فوهبهم له فأطلق العادل سراحهم على الفور، وأعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز.

وأقبل نساء الصليبيين وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين ماذا يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم، أو وقعوا في الأسر؟ فأجاب صلاح الدين: بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته، فكانت رحمته وعطفه نقيض أفعال الصليبيين الغزاة.

أما بالنسبة لرجال الكنيسة أنفسهم وعلى رأسهم بطريرك بيت المقدس، فإنهم لم يهتموا إلا بأنفسهم، وقد ذهل المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل وهو يؤدي عشرة دنانير (مقدار الفدية المطلوبة منه) ويغادر المدينة وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعته عربات تحمل ما بحوزته من الأموال والجواهر والأواني النفيسة.

ولو نظرنا إلى عصرنا الحاضر لما احتجنا كثيرًا لقراءة التاريخ. فالتاريخ أسود والواقع أشد سوادًا، فما يزالون يحملون أحقادهم ضد المسلمين في كل مكان وضد الإنسانية التي

يتغنون بها، وجنوب السودان، وصبرا، وشاتيلا، والبوسنة، والفلبين، والشيشان، وكوسوفا، وأبخازيا، وأذربيجان تشهد على دمويتهم وحقدهم. فقد خرجوا من جحورهم واستأسدوا عندما غابت الليوث! ، ومهما طال ليل الباطل فلا بد له أن يندحر وتشرق شمس الحق من جديد.

وذكر غوستاف لوبون في كتابه- الحضارة العربية- نقلًا عن روايات رهبان ومؤرخين رافقوا الحملة الصليبية الحاقدة على القدس ما حدث حين دخول الصليبيين للمدينة المقدسة من مجازر دموية لا تدل إلا على حقد أسود متأصل في نفوس ووجدَّان الصليبيين. فقال الراهب روبرت أحد الصليبيين المتعصبين وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس واصفًا سلوك قومه (٣٢٥): كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها! كانوا يذبحون الأولاد والشباب ويقطعونهم إربًا إربًا وكانوا يشنقون أناسًا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية- فيا للشره وحب الذهب-، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث.

وقال كاهن أبوس (ريموند داجميل) شامتا (٣٢٦-٣٢٧):

حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها فقد قطعت رؤوس بعضهم. فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار وحرق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا.

وقال واصفًا مذبحة مسجد عمرﷺ: لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح

كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها. ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء! ! ! بذلك، فعقدوا مؤتمرًا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفًا، فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة ولا ولدًا ولا شيخًا.

ويقول أيضًا: وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها. ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع والمختبئين في السراديب، فأهلكوا في صبرا ما يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية وغيرها بيد الصليبيين. فأي إنسانية يتغنى بمثلها هؤلاء؟ هل فعلًا يديرون الخد الأيسر لمن يصفعهم على خدهم الأيمن؟ تاريخهم يجيب عن ذلك!. [١]

٢- وهذه وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الأسبان

هذا الكتاب من تأليف المطران برتولومي دي لاس كازاس. ترجمة سميرة عزمي الزين. من منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية. لمن أراد أن يستزيد فالكتاب ملئ بالفضائح التي تقشعر لها الأبدان واسمحوا لي هنا أقوم بعرض موجز لبعض ما جاء في هذا الكتاب، من مقدمة الكتاب:

قول المؤرخ الفرنسي الشهير (مارسيل باتييون) أن مؤلف كتابنا (برتولومي دي لاس كازاس) أهم شخصية في تاريخ القارة الأمريكية بعد مكتشفها (كر يستوف كولومبوس)، وأنه ربما كان الشخصية التاريخية التي تستحق الاهتمام في عصر اجتياح المسيحيين الأسبان لهذه البلاد. ولولا هذا المطران الكاهن الثائر على مسيحية عصره، وما ارتكبه من فظائع، ومذابح في القارة الأمريكية لضاع جزء كبير من تاريخ البشرية. فإذا كان كولومبوس قد اكتشف لنا القارة؛ فإن برتولومي هو الشاهد الوحيد الباقي على أنه كانت في هذه القارة

---

(١) المجموع في الرد على النصارى/ الجزء الأول المسيحية، والسيف.

عشرات الملايين من البشر الذين أفناهم الغزاة بوحشية لا يستطيع أن يقف أمامها لا مستنكرًا لها شاكًا في إنسانية البشر الذين ارتكبوها.

ولد ((برتولومي دي لاس كازاس)) عام ١٤٧٤م في قشتالة الأسبانية من أسرة اشتهرت بالتجارة البحرية. ، وكان والده قد رافق كولومبوس في رحلته الثانية إلى العالم الجديد عام ١٤٩٣م أي في السنة التالية لسقوط غرناطة، وسقوط الأقنعة عن وجوه الملوك الأسبان، والكنيسة الغربية. كذلك فقد عاد أبوه مع كولومبوس بصحبة عبد هندي فتعرف برتولومي على هذا العبد القادم من بلاد الهند الجديدة. بذلك بدأت قصته مع بلاد الهند، وأهلها، وهو ما يزال صبيًا في قشتاله يشاهد ما يرتكبه الأسبان من فضائع بالمسلمين، وما يريقونه من دمهم، وإنسانيتهم في العالم الجديد. لقد جرى الدميان بالخبر اليقين أمام عيني هذا الراهب الثائر على أخلاق أمته، ورجال كنيستها، وبعثات تبشيرها: دم المسلمين، ودم الهنود سكان القارة الأمريكية.

كانوا يسمون المجازر عقابًا، وتأديبًا لبسط الهيبة، وترويع الناس كانت سياسة الاجتياح المسيحي: أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية، أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة فيها. . مجزرة ترتجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة)).

وأنه كثيرًا ما كان يصف لك القاتل، والمبشر في مشهد واحد فلا تعرف من تحزن: أمن مشهد القاتل، وهو يذبح ضحيته، أو يحرقها، أو يطعمها للكلاب أم من مشهد المبشر الذي تراه خائفًا من أن تلفظ الضحية أنفاسها قبل أن يتكرم عليها بالعماد فيركض إليها لاهثًا يجرجر أذيال جبته، وغلاظته، وثقل دمه لينصرها بعد أن نضج جسدها بالنار، أو اغتسلت بدمها، أو التهمت الكلاب نصف أحشائها.

إن العقل الجسور والخيال الجموح ليعجزان عن الفهم، والإحاطة فإبادة عشرات الملايين من البشر في فترة لا تتجاوز الخمسين سنة هول لم تأت به كوارث الطبيعة. ثم إن كوارث الطبيعة تقتل بطريقة واحدة. أما المسيحيون الأسبان فكانوا يتفننون، ويبتدعون، ويتسلون بعذاب البشر، وقتلهم. كانوا يجرون الرضيع من بين يدي أمه ويلوحون به في

الهواء، ثم يخبطون رأسه بالصخر، أو بجذوع الشجر، أو يقذفون به إلى أبعد ما يستطيعون. وإذا جاعت كلابهم قطعوا لها أطراف أول طفل هندي يلقونه، ورموه إلى أشداقها ثم أتبعوها بباقي الجسد. ، وكانوا يقتلون الطفل، ويشوونه من أجل أن يأكلوا لحم كفيه، وقدميه قائلين: إنها أشهى لحم الإنسان.

رأى لاس كازاس كل ذلك بعينيه، وأرسل الرسائل المتعددة إلى ملك أسبانيا يستعطفه، ويسترحمه ويطالبه بوقف عذاب هؤلاء البشر. وكانت آذان الملك الأسباني لا تسمع إلا رنين الذهب. ولماذا يشفق الملك على بشر تفصله عنهم آلاف الأميال من بحر الظلمات ما دامت جرائم عسكره، ورهبانه في داخل أسبانيا لا تقل فظاعة عن جرائم عسكره ورهبانه في العالم الجديد؟ كان الأسبان باسم الدين المسيحي الذي يبرأ منه المسيح عليه السلام يسفكون دم الأندلسيين المسلمين الذين ألقوا سلاحهم، وتجردوا من وسائل الدفاع عن حياتهم، وحرماتهم. وكان تنكيلهم بهم لا يقل، وحشية عن تنكيلهم بهنود العالم الجديد. لقد ظلوا يسومون المسلمين أنواع العذاب، والتنكيل، والقهر، والفتك طوال مائة سنة فلم يبق من الملايين الثلاثة والثلاثين (حسبما ذكر الكتاب) مسلم واحد كما ساموا الهنود تعذيبًا، وفتكًا، واستأصلوهم من الوجود. كانت محاكم التفتيش التي تطارد المسلمين، وتفتك بهم، ورجال التبشير الذين يطاردون الهنود، ويفتكون بهم من طينة واحدة.

إن أحدًا لا يعلم كم عدد الهنود الذين أبادهم الأسبان المسيحيون ثمة من يقول إنهم مائتا مليون، ومنهم من يقول إنهم أكثر. أما لاس كازاس فيعتقد أنهم مليار من البشر، ومهما كان الرقم فقد كانت تنبض بحياتهم قارة أكبر من أوروبا بسبعة عشر مرة، وها قد صاروا الآن أثرًا بعد عين.

أما المسيحيون فعاقبوهم بمذابح لم تعرف في تاريخ الشعوب. كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلًا، أو حاملًا، أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم، ويقطعون أوصالهم

كما يقطعون الخراف في الحظيرة. ، وكانوا يراهنون على من يشق رجلًا بطعنة سكين، أو يقطع رأسه، أو يدلق أحشاءه بضربة سيف.

كانوا ينتزعون الرضع من أمهاتهم، ويمسكونهم من أقدامهم، ويرطمون رؤوسهم بالصخور. أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين. وحين يسقط في الماء يقولون: (عجبا انه يختلج). كانوا يسفدون الطفل، وأمه بالسيف، وينصبون مشانق طويلة ينظمونها مجموعة مجموعة كل مجموعة ثلاث عشر مشنوقًا، ثم يشعلون النار، ويحرقونهم أحياء. وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس، ويشعل فيها النار.

كانت فنون التعذيب لديهم أنواعًا منوعة. بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعًا ناقصًا لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم ثم يقول لهم: (هيا احملوا الرسائل) أي: هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات. أما أسياد الهنود، ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة ثم يربط هؤلاء المساكين بها وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب، والألم، والأنين.

ولقد شاهدت مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة. وبما أنهم يصرخون صراخًا شديدًا أزعج مفوض الشرطة الأسبانية الذي كان نائمًا (أعرف اسمه بل أعرف أسرته في قشتاله) فقد وضعوا في حلوقهم قطعًا من الخشب أخرستهم ثم أضرموا النار الهادئة تحتهم.

رأيت ذلك بنفسي، ورأيت فظائع ارتكبها المسيحيون أبشع منها. أما الذين هربوا إلى الغابات، وذرى الجبال بعيدًا عن هذه الوحوش الضارية فقد روض لهم المسيحيون كلابًا سلوقية شرسة لحقت بهم، وكانت كلما رأت واحدًا منهم انقضت عليه، ومزقته، وافترسته كما تفترس الخنزير. ، وحين كان الهنود يقتلون مسيحيًا دفاعًا عن أنفسهم كان المسيحيون يبيدون مائة منهم؛ لأنهم يعتقدون أن حياة المسيحي بحياة مائة هندي أحمر[1].

---

(١) نفس المصدر تحت عنوان- إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحين الأسبان-.

ورغم كل الإحسان الذي قدمه لهم المسلمون إلا أنهم لم يفوتوا فرصة للخيانة إلا انتهزوها وخانوا المسلمين وهذه بعض الأمثلة من التاريخ

١-خيانتهم في الأندلس:

عندما فتح المسلمون الأندلس كان أهلها من النصارى، وبعضهم من اليهود لم يعاملهم المسلمون معاملة الفاتح المتجبر الذي يستبيح الديار، والأعراض، ولم يكرههم على ترك دينهم إنما ترك لهم حرية الاعتقاد، وقامت دولة الإسلام في الأندلس بقوة، وتمكن خاصة في عهد الدولة الأموية، عبد الرحمن الداخل، ومن جاء بعده، وكان النصارى المعاهدون قد أصبحوا أقلية بسبب إسلام معظم أهل الأندلس بعد الفتح اختيارًا لا إجبارًا، وكانوا يعيشون آمنين مطمئنين على دارهم وأعرضهم ومالهم في ظل الحكومة الإسلامية، وكانوا يستوطنون القواعد الأندلسية الكبرى مثل قرطبة، وإشبيلية، وطليطلة، وبلنسي، وسرقسطة، ويتمتع النابهون من أبنائهم بعطف الخلفاء، وثقتهم، وتقديرهم.

فلما سقطت دولة الخلافة الأموية بالأندلس، وقامت دولة الطوائف المشؤومة على الإسلام والمسلمين. طرأ تغيير ملحوظ على أحوال النصارى المعاهدين حيث تمتعوا بحرية مطلقة في كل شيء أكبر من الأول بكثير، واعتنى ملوك الطوائف بالآخر بشدة، وأولوهم رعاية فائقة، وبذلوا جهودًا كبيرة في تأمينهم، وحمايتهم، وكسب مودتهم، وان ملوك قرطبة، وإشبيلية، وسرقسطة يتسابقون في العطف على، وكانت بواعث هذه السياسة الودية، واضحة؛ ذلك لأن أسبانيا النصرانية في تلك المرحلة كانت بدأت تتفوق على الأندلس المسلمة، وبدأت تشن ما يسمى بـ (حرب الاسترداد)، وكان ملوك الطوائف يشعرون في المعاهدين أنهم مكمن للخطر، والدسائس، وكان بنو عباد ملوك قرطبة أكثر الناس تسامحًا معهم، وبلاط بني عباد يغص بالنصارى، واليهود، وعلى شاكلته كان باقي الملوك فهذا (عبد الله بن بلقين) يصطنع النصارى، ويعتمد على الفرسان النصارى، ويتخذهم نصحاء، وأمناء، ووزراء يعاونونه في حربه ضد المسلمين! ، وهذا ابن هود نكبة

الإسلام في شمال شرق الأندلس كان أكبر ملوك الطوائف تسامحًا نحو هم، وكان هو السبب، وراء بطولة الفارس الصليبي الشهير (الكمبيادور).

هذه كانت حالهم في ظل حكم المسلمين بالأندلس رفاهية، وأمان، ورعاية، وحماية، ووزارة، وبطانة، وكلها أمور يجب أن تجعل ولاءهم الأول لهذا الحكم، وهذا المجتمع، ولكن كيف كان رد فعلهم تجاه كل هذه المزايا، والنعم؟

كان النصارى المعاهدون بالرغم من هذه الرعاية، والحماية، ، وهذا التسامح الكبير من جانب ملوك الطوائف لم يشعروا أبدًا أنهم جزء من المجتمع المسلم، ولم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومة المسلمة التي كانت تبذل وسعها لحمايتهم واسترضائهم بل لبثوا دائمًا على ضغنهم، وخصومتهم لها، وتبصرهم بها ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها، وممالأة ملوك أسبانيا النصرانية، ومعونتهم بكل وسيلة على محاربتها، وتسهيل مهمتهم في غزوها، والتنكيل بها، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

أ ـ حصار قلمرية سنة ٤٥٦ هـ: وفيه قام النصارى المعاهدون، وقد كانوا كثرة في هذه المنطقة بدور بارز في معاونة الجيش الأسباني الصليبي، وقام رهبان دير (لورفان) القريب من قلمرية بمؤنهم المختزنة بإمداد الجيش الصليبي دلوهم على عورات المدينة حتى سقطت بيد الصليبيين

ب ـ سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ: دأب النصارى في طليطلة على تدبير الدسائس، وبث الفتن، والاضطرابات داخل المدينة، والاتصال المستمر بألفونسو الصليبي زعيم صليبي أسبانيا، ومؤازرة الناقمين من المسلمين الأغبياء ضد الحكومة القائمة، والعمل على تحطيم كل جبهة حقيقية للمقاومة، ولعبو دورهم على أكمل وجه حتى سقطت طليطلة بيد ألفونسو الصليبي سنة ٤٧٨ هـ.

ج ـ غزوة الأندلس الكبرى ٥١٩ هـ: هذه الغزوة تمثل قمة الاجتراء، والخيانة، وذروة نكران الجميل من جانبهم عندما قام النصارى المعاهدون باستدعاء (ألفونسو الأرجوني)

المعروف بالمحارب، وكان أخوي ملوك الصليبيين، وقتها لغزو الأندلس، واحتلالها، ووعدوه بانضمام عشرات الألوف منهم، وأرسلوا له بأسمائهم في عرايض لضمان ولائهم، ووعدوه بالمساعدة بالذخائر، والمؤن، والأرواح، والدماء، وبالفعل قام ألفونسو المحارب بغزوته الشهيرة، واخترق قواعد الأندلس يعيث فيها فسادًا، وجنود النصارى ينضمون إليه أثناء سيره يدلونه على المسالك، والطرق، ومداخل البلاد، ولكن بفضل الله عز وجل وحده فشلت تلك الغزوة الجريئة، وعاد ألفونسو خائبًا فما كان من النصارى إلا أن شعرو بخطورة موقفهم ففرو في صحبة (ألفونسو) وتركو ديارهم وأهلهم.

بالجملة كان النصارى في الأندلس نكبة على البلاد، والعباد، ورغم كل ما لاقوه من عون، ورعاية، وحماية من الحكومات الإسلامية، وكانوا طابورًا خامسًا للأعداء، وهذا ما أقر به مؤرخو الصليبيين أنفسهم فهذا الأستاذ (بيدال) يقول (إن نجم المعاهدين قد بزغ ثانية عقب انحلال الدولة الأندلسية، وقيام دول الطوائف الضعيفة، واستطاعوا أن يؤدوا خدمات جليلة لقضية النصرانية، والاسترداد النصراني)، بل إن الحرية الممنوحة لهم دفعتهم للتطاول على المسلمين، وأصلهم كما نرى من الرسالة الشهيرة التي كتبها (ابن جرسيا) في تفضيل العجم على العرب سنة ٤٥٠ هـ، وهي رسالة تفيض تحاملًا ضد الجنس العربي، وتنوه بوضاعة منبته، وخسيس صفاته، وحقارة عيشه، وميوله وانغماسه في شهوات الجنس، وتشيد بالعكس بصفات العجم (كل من ليس عربي)، وترفعهم عن الشهوات الدنية، وتبحرهم في العلوم، وغير ذلك، مما يوضح نتاج سياسة التسامح، واللين معهم، والجدير بالذكر أن خياناتهم، وجرائمهم المتكررة دفعت فقهاء المسلمين لئن يحملوا الحكام على عقابهم كما حدث من كبير فقهاء الأندلس (ابن رشد الجد) عندما أصدر فتوى بوجوب تغريب المعاهدين من الأندلس إلى المغرب، وذلك سنة ٥٢١ هـ، في عهد أمير المسلمين على بن يوسف.

٢- صورة أخرى عن دورهم مع التتار في دمشق في مقابلة الإحسان، والتسامح، والعدل الإسلامي:

دائمًا يذكر المؤرخون أن سبب خروج التتار على بلاد المسلمين كان بسبب ما وقع بين جنكيز خان ملك التتار وعلاء الدين خوارزم ملك المسلمين وقتها، ولكن السبب الحقيقي الذي ذكره المحققون من المؤرخين هو الكيد الصليبي الذي خاف من إسلام قبائل التتر باحتكاكهم مع المسلمين كما حدث لأبناء عمومتهم من الترك مثل السلاجقة والتركمان، والذي لو وقع لأصبح المسلمون قوة لا يقف أمامها أحد فعمل الصليبيون على إرسال الرسل للتتار يحسنوا فيها لهم غزو بلاد الإسلام، وغلّاتها، ومنتجاتها وخيراتها، وجمالها، وكان سلاح النساء النصرانيات يعمل بقوة في التتار عندما دخلوا على شكل خليلات، وعاهرات. المهم خرج التتار كالجراد المنتشر الذي يأكل الأخضر واليابس، ولا يذر شيئًا حتى تمكنوا من إسقاط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ، وواصلوا زحفهم حتى وصلوا إلى دمشق في شهر صفر سنة ٦٥٨ هـ، وجعلوا على المدينة واليًا من قبلهم رجلًا اسمه (إبل سيان)، وكان معظمًا لدين النصارى، وهذا يوضح أثر الصليبيين على التتر منذ البداية، فاجتمع هذا الشقي بأساقفة، وقساوسة النصارى الذين كانوا يمثلونهم في هذا الوقت، وعظمهم جدًّا، وزار كنائسهم، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا، وتحفًا، وقدموا من عنده، ومعهم أمان فرمان من جهته، ودخلوا من باب (توما)، ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس، ومن ينادون بشعارهم، ويقولون (ظهر الدين الصحيح دين المسيح) ويذمون دين الإسلام وأهله، ومعهم أواني الخمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرًا، ويرشون منها على وجوه الناس، وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة، والأسواق أن يقوم لصليبهم، ووقف خطيبهم إلى دكة دكان في السوق فمدح دين النصارى، وذم دين الإسلام، وأهله ثم دخلوا كنيسة مريم، وأخذوا في ضرب النواقيس ابتهاجًا بما فعلوه، وكان في نيتهم إن طالت مدة

التتار أن يخربوا كثيرًا من المساجد، وغيرها، ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين، والشهود، والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها إبل سيان فأهينوا، وطردوا، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم، وكان هذا فصلًا آخر من فصولهم عندما يجدون فرصة للتنفيث عن مكنونات صدرهم ودفائن حقدهم. (١)

٣-وهذه صفحة جديدة تصف النصارى، ودورهم في الحملة الفرنسية على مصر:

وفي مصر كان لهم جولة، وجولات تطفح بمدى خيانتهم لمن أحسن إليهم من المجتمعات المسلمة التي ظلوا في حمايتها قرونًا عديدة، ولكن أبرز هذه الخيانات وأخس هذه الأدوار ما كان منهم عندما احتل الفرنسيون مصر سنة ١٢١٣ هـ بدافع صليبي مغلف بدوافع اقتصادية، وتجارية، وسياسية، وجدوا أمامهم معارضة شعبية إسلامية قوية، وصامدة من مسلمي مصر، فقرروا الاستفادة من وجود النصارى بالديار المصرية، ولعبوا على وتر العقيدة الصليبية عندهم ونجح الفرنسيون في استثارتهم، وجندوا العناصر النصرانية المصرية التي طالما عاشت، وترعرعت آمنة مطمئنة بأرض مصر، ، وكان وفر الخيانة منهم وقتها ممثلًا في شخصية المعلم (يعقوب حنا) الذي يعد أبرز من خانوا بلادهم في المجتمع الحديث حيث قام هذا الصليبي الخائن بتكوين فرق عسكرية من النصارى المصريين، وقام الضباط الفرنسيون بتدريبهم على نظم أوروبا العسكرية، وتزويدهم بالأسلحة الحديثة لمساعدتهم في قمع الثورات الشعبية، وقد منحه الفرنسيون رتبة (جنرال)، ولقب القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسي.

وقد استطاعت القوات الفرنسية بمعاونة ميليشيات يعقوب القبطي من قمع ثورة القاهرة الأولى سنة ١٢١٣ هـ، وثورة القاهرة الثانية سنة ١٢١٤هـ، وقد أباح الكلب (كليبر) للمعلم يعقوب القبطي أن يفعل بأهل القاهرة ما يشاء بعد أن قمع ثورة القاهرة الثانية، فقام بإحراق الدور، ونهب الأموال، وتهديم المساجد، وانتهك الأعراض، ووقع

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٢١٩)

منه من المنكرات، والأحقاد ما يعجز القلم عن وصفه، وكانت أفعال يعقوب بن حنا النصراني، وفرقته النصرانية العسكرية بداية لما عرف في التاريخ المصري باسم الفتنة الطائفية، والعجيب أنه صار بعد ذلك قديسًا يقام له بأرض مصر مولدًا، واحتفالًا بذكراه في الجهاد ضد المسلمين، ولكن العجيب من ذلك موقف المؤرخين النصارى المعاصرين حيث يثنون على ما قام به هذا الخائن الصليبي؛ فهذا هو الكاتب الصليبي الشهير د. لويس عوض المعروف بكراهيته الشديدة للإسلام يقول: إن الدور الذي قام به المعلم يعقوب حنا مع الفرنسيين ضد العثمانيين يعتبر تعاونًا يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب في أكبر ميادين القاهرة، ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر في العصر الحديث.

٤-وهذا دور جديد من أدوار الخيانة يبدو في هدم الخلافة العثمانية:

ونحن هنا قد وصلنا للدور الأروع، والأفظع، والجريمة الأشنع التي قام بها أهل الذمة رغم ما أحسن إليهم الإسلام في شريعته وفي تطبيق هذه الشريعة عليهم ورغم ما عاشوا وترعرعوا في هذه دولته، وهو الذي قام به اليهود والنصارى من رعايا الدولة العثمانية، حيث كانت أوروبا الصليبية في حربها ضد الدولة العثمانية حريصة على تمزيق الدولة بإثارة الفتن، وتفجير الثورات الدينية الداخلية، وكانت أدواتهم في ذلك، وسلاحهم الشرير في تنفيذ مخططهم الآثم هو (الآخر) اليهود، والنصارى، رغم ما كان يلقاه (الآخر) من عناية، ورعاية، وعطف من سلاطين الدولة العثمانية حتى إن كثيرًا من هؤلاء السلاطين قد تزوجوا من نسائهم ولربما يضطلع اليهود بالدور الأكبر في هدم الخلافة العثمانية، ولكن هذا لا يقلل دور النصارى في إثارة الفتن، والقلاقل، وكان القساوسة، ورجال الدين على صلات، وثيقة بزعماء الدول الأوروبية، وخصوصًا روسيا، وهذا يتضح من نص الوثيقة التاريخية الهامة التي أرسلها بها البطريرك (جريجوريوس) إلى قيصر روسيا يبين له فيها كيفية هدم الدولة العثمانية من الداخل، التي يركز فيها على كيفية

تحطيم الروح الإيمانية، والمعنوية للمسلمين، وتمزيق الروابط التي تجمعهم نحو النصر (عقيدة الولاء والبراء). ولنعرض لدور طرفي اليهود والنصارى في هدم الخلافة العثمانية:

أولًا: دور النصارى في هدم الخلافة العثمانية:

كانت الدولة العثمانية تنظر إلى رعاياها النصارى على أنهم جزء من نسيج هذه الدولة يتولون المناصب ويشتركون في المعارك، وينعمون بالأمن، والأمان، والرفاهية التامة، وازداد نفوذهم مع تدهور الدولة العثمانية، وانتشار الأفكار التغريبية، خاصة من بداية عهد السلطان محمود الثاني المتوفى سنة ١٨٣٩ م ـ ١٢٥٥هـ، والذي فتح المجال على مصراعيه للنصارى، ومسخ عقيدة الولاء والبراء تمامًا، فها هو يقول في إحدى خطبه: إني لا أريد ابتداءً من الآن أن يميز المسلمون إلا في المسجد، والمسيحيون إلا في الكنيسة، واليهود في المعبد، إني أريد ما دام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق.

لذلك نعمت النصرانية في عهده بحرية تامة جدًّا، ثم جاء من بعد السلطان عبد المجيد الأول المتوفى عام ١٨٦٠م ـ ١٢٧٧ هـ، وكان شابًا في السادسة عشر فعبث برأسه المفتونون بالغرب، وعلى رأسهم (مصطفى باشا رشيد) الذي أصدر (خط شريف جلخانة) الذي ينص على المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلم، وغير المسلم، ثم أتبعه بالخط الهمايوني الأكثر انحلالًا، والذي ينص على ٨ نقاط ترشح، وتؤكد على المساواة بين المسلم، وغير المسلم في كافة الحقوق، والواجبات، وتكتب شهادة بوفاة عقيدة الولاء والبراء عند هؤلاء القوم، ورغم كل هذه الحريات التي تصل لمرحلة التمييع الشديد، والطمس الكامل لعقيدة الولاء والبراء كيف جاء رد فعل الآخر على هذه التنازلات؟ وهل شعر أنه جزء من هذا الوطن الذي لا يفرق بينه، وبين غيره؟ الجواب: لا، فالنصارى دأبوا على التحريض، والثورات، ويتضح ذلك جليًا في ثورة اليونان الكبيرة سنة ١٨٢١م ـ ١٢٣٧؟ في عهد محمود الثاني الذي فتح الباب للنصارى على مصراعيه، وفي هذه الثورة كان النصارى يهاجرون من بلادهم إلى اليونان للاشتراك في ثورتها ضد الدولة العثمانية،

وتسببت تلك الثورة في إضعاف الدولة العثمانية وتنازلها لروسيا عن الكثير من الموانئ والبلاد، وانفصال الشام ومصر تحت حكم العميل محمد علي باشا.

ويتضح أيضًا هذا الدور من ثورات النصارى الدائمة بأرمينيا وجورجيا الذين كانوا يرون دائمًا في الدولة العثمانية عدوًا أبديًا يجب التخلص منه.

ويتضح أيضًا هذا الدور في المحافل الماسونية التي دخلت بلاد الإسلام مع الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣ هـ، حيث كانت معظم هذه المحافل مكونة من النصارى، ومنها انبسقت الأفكار العلمانية والقومية فنجد أن فكرة القومية العربية التي وضعت أصلًا لضرب الولاء والبراء بين المسلمين نشأت ببيروت على يد رجال أمثال بطرس البستاني، وإبراهيم اليازجي، وغيرهم من رجال (الآخر) المشهورين.

دور اليهود في هدم الخلافة العثمانية:

إن كان للنصارى دور كبير في هدم الخلافة العثمانية فإن اليهود هم أصحاب الدور الأكبر، والأخبث في تلك المهمة القذرة؛ ذلك لأن النصارى كانوا يعتمدون سياسة الثورة والقوة التي تهدف لتحطيم الدولة عسكريًا، أما اليهود فقد كانوا يعملون في الخفاء وينخرون في جسد الأمة كالسوس يقفون بالمرصاد أمام محاولات الإحياء، والصحوة، ويروجون لكل المنظمات، والأفكار الهدامة التي من شأنها على المدى البعيد أن تقوض هذا الملك الكبير، هذا رغم كبير الجميل الذي قام به العثمانيون تجاه اليهود؛ ذلك لأنه في عهد سليمان القانوني المتوفى سنة ٩٧٤ هـ، وقعت محنة محاكم التفتيش بالأندلس للمسلمين، واليهود، وتشرد من اليهود مئات الألوف، وهاموا على وجوههم، ورفضت كل البلاد استقبالهم لسابق سوء صنيعهم، وسمعتهم الشهيرة في الفساد، والشر، وكان سليمان متوجًا من امرأة يهودية كالأفعى اسمها (روكسلان) ظلت تستعطف سليمان ليتقبل اليهود ببلاده حتى وافق وأذن لهم بالاستيطان بالبلاد العثمانية، فاستوطنوا الأناضول خاصة (إزمير، سلانيك، أدرنة)، وتمتعوا بقدر كبير من

الاستقلال الذاتي، وتولوا المناصب، واقتنوا الثروات، وعاشوا في حرية ورفاهية تامة، فماذا كان رد فعلهم؟ وكيف تعاملوا مع دولتهم ومجتمعهم؟

أخذ اليهود في إنشاء جماعة خاصة بهم غرضها إفساد عقائد المسلمين والدعوة لتجميع اليهود من شتى أنحاء العالم لاتخاذ القدس مقرًا لهم وهؤلاء المعروفين (يهود الدونمة) وداعيتهم (شتباي زيفي) الذي ادعى النبوة، وذاع أمره بأوروبا، والشام، ومصر، وجاءته وفود اليهود لتبايعه، ولما أخذته الدولة العثمانية لتعاقبه ادعى الإسلام، وأظهر أنه مسلم، وسمى نفسه (محمد البواب)، وطلب من الدولة أن تأذن له في الدعوة للإسلام بين اليهود، وظل (شتباي زيفي) على يهوديته في الباطن يمارس العمل للصهيونية في الخفاء، ويظهر الإخلاص للإسلام في العلن، ويعتبر ضرته (يهود الدونمة) سياسته موجهة ضد الدولة العثمانية أكبر من كونها حركة دينية، وكان لها إسهامات عديدة في هدم الخلافة عن طريق:

أ ـ هدم القيم الإسلامية في المجمع العثماني المسلم، والعمل على نشر الإلحاد، والأفكار الغربية، والدعوة للعري، والاختلاط بين الرجال، والنساء خاصة في المدارس والجامعات.

ب ـ قام يهود الدونمة بدور فعّال في نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد، والتي تحركت من (سلانيك) لعزله، وهم الذين سمموا أفكار الضباط للشباب، وتغلغلوا داخل صفوف الجيش.

ج ـ قام اليهود بالتأثير في جمعية الاتحاد والترقي، تحكموا فيهم، وحركوهم كالدمى حتى ينفذوا مخططهم الشرير في عزل عبد الحميد، وتطبيق الدستور العلماني.

د ـ أسسوا المحافل الماسونية داخل الدولة العثمانية، واستخدموا شعارات خادعة مثل الحرية، ومكافحة الاستبداد، ونشر الديمقراطية لاجتذاب البسطاء، وترويج الأفكار الهدامة.

ويعتبر (شتباي زيفي) والذي هلك سنة ١٦٧٨م ـ ١٠٦٧ هـ، أول من نادى باتخاذ فلسطين وطن قومي لليهود، ويعتبر المؤسس الحقيقي للصهيونية العالمية، وذلك قبل

(تيودور هيرتزل) بثلاثة قرون، ويكفي أن نعرف أن (مصطفى كمال) ينتسب إلى هذه الطائفة اليهودية الخبيثة لندرك مدى دورهم في تحطيم الخلافة العثمانية.

ويعتبر اليهودي (موئيز كوهين) مؤسس الفكر القومي الطوراني، وكتابه في القومية الطورانية هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية التي قوضت الخلافة العثمانية، وأحبطت فكرة الجامعة الإسلامية، واليهود ويؤكدون على دورهم في تحطيم الخلافة العثمانية بإرسال أحد كبار اليهود، وهو (إيمانويل قراصو) وهو من قادة الاتحاد، والترقي ليسلم السلطان عبد الحميد قرار عزله كنوع من التشفي، والانتقام، وإظهار عاقبة رفض عبد الحميد لطلبهم باستيطان فلسطين.

هذه كانت جولة سريعة في أحداث التاريخ السابقة التي ربما تكون غائبة عن ذهن المسلمين الآن كعادتهم مع تاريخهم التليد، وضحنا فيها موقف أهل الذمة من المسلمين الذين طالما أحسنوا إليهم. أما واقعنا الحاضر وتاريخنا القريب فهو مليء أيضًا بالمواقف التي تبرهن لنا على حقيقة موقف الآخر في مجتمعه المسلم نذكر منها رؤوس أقلام للتذكرة والتنبيه:

- ما جرى منهم في بلاد البوسنة، والهرسك، والمجازر البشعة التي ارتكبت في حق المسلمين لا لشيء إلا لأنهم أرادوا أن يكون لهم دولة خاصة ترفع شعار الإسلام.
- ما جرى منهم في بلاد كوسوفا ومقدونيا.
- ما جرى منهم في الشيشان.
- ما جرى منهم في جنوب السودان وجنوب نيجيريا وساحل العاج وأثيوبيا وإريتريا.
- ما جرى منهم في لبنان وخيانة الآخر الكبيرة بتكوين جيش صليبي بقيادة أنطوان الدحداح.

وما زالت دماء المسلمين تراق كل يوم وليلة في شتى بقاع الأرض على يد اليهود والنصارى والذين نعموا مئات السنين تحت حكم الإسلام.

مما سبق عرضه من تلك الدراسة التاريخية الموجزة، والعرض السريع لأحداث التاريخ القديم والمعاصر يتضح لنا أن إعطاءهم الجزية عن يد وهم صاغرون بجريان أحكام الإسلام عليهم هو السبيل الأوحد للأمن، والأمان، والسلام في العالم. أما سيادة هؤلاء فليس فيها إلا الدماء، والأشلاء لمن لم يوافقهم حتى لو كان من أهل ملتهم ولا تزال جعبة التاريخ مليئة لمن أراد أن يستفرغ منها ما يدلل بها سلامة المنهج الإسلامي في التعامل مع الآخر، وعلى فشل الآخر في حسن التعامل مع غيره[١].

* * *

(١) انظر: كتاب (لماذا يمزق القرآن؟) لعلي نايف الشحود؛ فصل موقف الآخر من قضية الولاء والبراء.

٨- شبهة: المؤلفة قلوبهم.

نص الشبهة:

هل الأموال التي تدفع للمؤلفة قلوبهم عبارة عن أموال تقدم إلى هؤلاء تطميعًا لهم للدخول في دين الإسلام؟.

و الجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أقوال العلماء في معنى المؤلفة قلوبهم، والحكمة من إعطائهم من أموال الزكاة.

الوجه الثاني: هل حكم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم نسخ؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أقوال العلماء في معنى: المؤلفة قلوبهم، والحكمة من إعطائهم من أموال الزكاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠).

قال الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي: أن الله جعل الصدقة في معنيين: أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمين، والآخر: معونة الإسلام وتقويته.

فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه؛ فإنه يُعطاه الغني والفقير؛ لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونةً للدين، وذلك كما يعطى الذي يُعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه يعطى ذلك غنيًّا كان أو فقيرًا للغزو لا لسدّ خلته، وكذلك المؤلفة قلوبهم يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحًا بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده، وقد أعطى النبي ﷺ مَنْ أعطى مِنْ المؤلفة قلوبهم، بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام وعز أهله، فلا حجة لمحتجّ بأن يقول: لا يتألف اليوم على الإسلام أحد لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى منهم في الحال التي وصفت[١].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٣١٦).

وقال ابن كثير: المؤلفة قلوبهم أقسام: منهم من يعطى ليُسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركًا، حتى قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار، وإنه لأحب الناس إلي(١).

ومنهم من يُعْطَى ليحسُن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مائة من الإبل، وقال: "إني لأعطي الرجل وغيره أحبُّ إلي منه، مخافة أن يَكُبَّه الله على وجهه في نار جهنم". (٢)

وقال البغوي: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ فالصنف الرابع من المستحقين للصدقة هم: المؤلفة قلوبهم، وهم قسمان: قسم مسلمون، وقسم كفار.

فأما المسلمون فقسمان:

قسم دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه، فكان النبي ﷺ يعطيهم تألفًا كما أعطى عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، أو أسلموا ونيتهم قوية في الإسلام، وهم شرفاء في قومهم مثل: عدي بن حاتم، والزِّبْرِقان بن بدر، فكان يعطيهم تألفًا لقومهم، وترغيبًا لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة، والفيء سهم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات.

والقسم الثاني من مؤلفة المسلمين: أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار في موضع مُتَنَاطٍ لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيرة، وهم لا يجاهدون إما لضعف نيتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة، وقيل: من سهم المؤلفة، ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام، فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات، وقيل: من سهم سبيل الله.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣٣٩)، ومسلم (٢٣١٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٦٧)، وانظر صحيح البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

وأما الكفار من المؤلفة: فهو مَنْ يُخشى شره منهم، أو يرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يعطي هذا حذرًا من شره، أو يعطي ذلك ترغيبًا له في الإسلام.

فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس، كما أعطى صفوان بن أمية لِمَا يرى من ميله إلى الإسلام، أما اليوم فقد أعزَّ الله الإسلام -فله الحمد-، وأغناه أن يُتَأَلَّف عليه رجال، فلا يُعطى مشرك تألفًا بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم: أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط. رُوي ذلك عن عكرمة، وهو قول الشعبي، وبه قال مالك والثوري، وأصحاب الرأي، وإسحاق بن راهويه.

وقال قوم: سهمهم ثابت، يُروى ذلك عن الحسن، وهو قول الزهري، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي ثور، وقال أحمد: يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك. (١)

وفي شرح الموطأ: وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ قَوْمٌ ذُو وَعْدٍ وَسَعَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى الْأَدَاءِ أَجَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ نُفُوسِهِمْ؛ هَذَا الَّذِي قَالَهُ شُيُوخُنَا، وَيَحْتَمِلُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ تَمَكَّنَ مِنْ نُفُوسِهِمْ غَيْرَ أَنَّ الطَّاعَةَ لِأَحْكَامِهِ لَا تَتَمَكَّنُ مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يستألفهم بِالْعَطَاءِ، وَيُحَبِّبُ إِلَيْهِمْ الْإِيمَانَ، وَيَكُفُّ بِهِ أَذِيَّتَهُمْ، وَقَدْ انْقَطَعَ هَذَا الصِّنْفُ لَمَّا فَشَا الْإِسْلَامُ وَكَثُرَ. (٢)

وقال ابن حجر: والمراد بالمؤلفة: ناس من قريش أسلموا يوم الفتح إسلامًا ضعيفًا، وقيل: كان فيهم مَنْ لم يسلم بعد كصفوان بن أمية، وقد اختلف في المراد بالمؤلفة قلوبهم الذين هم أحد المستحقين للزكاة، فقيل: كفار يُعْطون ترغيبًا في الإسلام، وقيل: مسلمون لهم أتباع كفار ليتألفوهم، وقيل: مسلمون أول ما دخلوا في الإسلام ليتمكن الإسلام من قلوبهم، وأما المراد بالمؤلفة هنا فهذا الأخير لقوله في رواية الزهري في الباب: "فإني أعطى

(١) تفسير البغوي (٤/ ٦٤)، وراجع النكت والعيون للماوردي (٢/ ١١٧).

(٢) المنتقى شرح الموطأ (٢/ ١١٥)، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/ ٣٧٧).

رجالًا حديثي عهد بكفر أتألفهم" ووقع في حديث أنس الآتي في- باب قسم الغنائم في قريش، والمراد بهم من فتحت مكة وهم فيها[١].

الحكمة من إعطائهم:

أُعْطُوا تَثْبِيتًا لإسلامهم، أو اِسْتِكْفَاءً لِشَرِّهِمْ وَاسْتِعَانَةً لِلْمُجَاهِدِينَ الْمُحَارِبِينَ بِهِمْ كما قال ابن العربي، وقد تقدم، وقد ذكر ابن الجوزي جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم لحفظ العرض[٢].

والنبي ﷺ قد كان يتألف قلوب أولئك القوم من الصدقات ومن غيرها[٣].

فالعلة في إعطاء المؤلف من الزكاة ليست إعانته لنا حتى يسقط ذلك بفشوِّ الإسلام وغلبته؛ بل المقصود مِنْ دفعها إليه ترغيبه في الإسلام، وإنقاذ مهجته من النار، فبقاء سهم المؤلفة من أجل هذه الحاجة يعد وسيلة من وسائل الدعوة[٤].

والخلاصة: أن النبي ﷺ كان يتألف قلوب بعض الناس بالعطاء دفعًا لشرهم، أو أملًا في نفعهم، أو رجاء هدايتهم[٥].

الوجه الثاني: هل حكم المؤلفة قلوبهم باقٍ بعد ظهور الإسلام أم نسخ؟

والصحيح أن هذا الحكم غير منسوخ، وأن للإمام أن يتألف قومًا على هذا الوصف ويدفع إليهم سهم المؤلفة؛ لأنه لا دليل على نسخه البتة. [٦]

وقد قيل: إنّ الصحابة أجمعوا على سقوط سهم المؤلّفة قلوبهم من عهد خلافة أبي بكر؛ حكاه القرطبي. ولا شكّ أن عمر قَطع إعطاء المؤلّفة قلوبهم -مع أنّ صنفهم لا يزال موجودًا-، رأى أنّ الله أغنى دين الإسلام بكثرة أتْباعه، فلا مصلحة للإسلام في دفع

(١) فتح الباري (٨/ ٤٨-٤٩)، وشرح النووي (١/ ٢٧٥).

(٢) كشف المشكل (١/ ١٠٨).

(٣) مشكل الآثار (١٢/ ٧٠).

(٤) حاشية الصاوي على بلغة السالك (١/ ٢٣٢).

(٥) التفسير الوسيط (١/ ١٩٨١)، وانظر: فقه الزكاة للقرضاوي (١/ ١٥٢).

(٦) تفسير الرازي (٨/ ٧٤)، وانظر: زاد المسير (٣/ ١٩٥)، وفتح القدير (٣/ ٢٧٢).

أموال المسلمين لتأليف قلوب مَنْ لم يتمكّن الإسلام من قلوبهم، ومِن العلماء من جعل فعل عمر وسكوتَ الصحابة عليه إجماعًا سكوتيًا، فجعلوا ذلك ناسخًا لبعض هذه الآية وهو من النسخ بالإجماع[١]، وفي عدّ الإجماع السكوتي في قوة الإجماع القولي نزاع بين أئمّة الأصول، وفي هذا البناء نظر كما علمت آنفًا. وقال كثير من العلماء: هم باقون إذا وُجدوا؛ فإنّ الإمام ربما احتاج إلى أن يستألف على الإسلام، وبه قال الزهري، وعمر بن عبد العزيز، والشافعي، وأحمد بن حنبل، واختاره عبد الوهاب، وابن العربي من المالكية؛ قال ابن العربي: الصحيح عندي أنّه إن قوي الإسلام زالوا، وإن احتيج إليهم أعطوا[٢].

وقال ابن القيم: فإن قيل: فلو دعت حاجة الإمام في وقت من الأوقات إلى مثل هذا مع عدوه هل يسوغ له ذلك؟

قيل: الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم وقيام الدين، فإن تعين ذلك للدفع عن الإسلام والذب عن حوزته واستجلاب رؤوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون شرهم - ساغ له ذلك، بل تعين عليه؛ وهل تُجوِّزُ الشريعةُ غير هذا؟

فإنه -وإن كان في الحرمان مفسدة-، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين[٣].

وقال محمد رشيد رضا: ومنهم: من يُخشى شره ويُرجى بإعطائه كفُّ شرهِ وشرِّ غيرهِ معه، ومنهم من دخل حديثًا في الإسلام فيعطى إعانةً له على الثبات على الإسلام.

ومنهم: قوم من سادات المسلمين وزعمائهم لهم نظراء من الكفار إذا أعطوا رُجِيَ إسلام نظرائهم، واستشهدوا له بإعطاء أبي بكر ﷺ لعدي بن حاتم، والزبرقان بن بدر،

---

(١) الإجماع لا ينسخ الأدلة الشرعية، وإنما يقال: الإجماع دليل على ناسخ من القرآن والسنة.

(٢) تفسير ابن عاشور (٦/ ٣١٦).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٤٢٤).

ومنهم زعماء ضعفاء الإيمان من المسلمين مطاعون في أقوامهم ويرجى بإعطائهم تثبيتُهم، وقوةُ إيمانهم، ومناصحتُهم في الجهاد وغيره.

ومنهم: قوم من المسلمين في الثغور وحدود بلاد الأعداء يُعْطون لما يُرجى مِنْ دفاعهم عمن وراءهم من المسلمين إذا هاجمهم العدو.

ثم قال: وأولى منهم بالتأليف في زماننا قوم من المسلمين يتألفهم الكفار ليدخلوهم تحت حمايتهم أو في دينهم، فإننا نجد دول الاستعمار الطامعة في استعباد جميع المسلمين وفى ردهم عن دينهم - يخصصون من أموال دولهم سهمًا للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، فمنهم من يؤلفونه لأجل تنصيره وإخراجه من حظيرة الإسلام، ومنهم من يؤلفونه لأجل الدخول في حمايتهم ومشاقة الدول الإسلامية والوحدة الإسلامية ككثير من أمراء جزيرة العرب وسلاطينها، أفليس المسلمون أولى بهذا منهم؟!

ومنهم: قوم من المسلمين يُحتاج إليهم لجباية الزكاة ممن لا يعطيها إلا بنفوذهم وتأثيرهم إلا أن يقاتلوا، فيختار بتأليفهم وقيامهم بهذه المساعدة للحكومة أخف الضررين وأرجح المصلحتين، وهذا سبب جزئي قاصر، فمثله ما يشبهه من المصالح العامة(١).

والحق: أن كلا الأمرين غير صحيح، فالنسخ لم يقع، والحاجة إلى تأليف القلوب لم تنقطع، ولا عجب أن يعطى كافر من صدقات المسلمين تأليفًا لقلبه على الإسلام، أو تمكينًا له في صدره، فإن هذا -كما ذكر القرطبي- ضرب من الجهاد، فالمشركون ثلاثة أصناف: صنف يرجع عن كفره بإقامة البرهان، وصنف بالقهر والسنان، وصنف بالعطاء والإحسان. والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سببًا لنجاته وتخليصه من الكفر. (٢)

وقد يكون ذلك بإعطاء مساعدات لبعض الحكومات غير المسلمة؛ لتقف في صف المسلمين، أو معونة بعض الهيئات والجمعيات والقبائل ترغيبًا لها في الإسلام، أو مساندة

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٤٩٤)، وما بعدها بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ١٥١).

أهله، أو شراء بعض الأقلام والألسنة للدفاع عن الإسلام وقضايا أمته ضد المفترين عليه.

كما أن الذين يدخلون في دين الله أفواجًا كل عام لا يجدون من حكومات البلاد الإسلامية أي معاونة أو تشجيع، والواجب أن يُعْطوا من هذا السهم ما يشد أزرهم ويسند ظهرهم؛ كما جاء عن الإمام الزهري والحسن البصري. . .

على حين تقوم الإرساليات التبشيرية باحتضان كل من يعتنق المسيحية وإمداده بكافة المساعدات المادية والأدبية.

ولا عجب؛ فإن هذه الجمعيات التبشيرية المسيحية تمولها وتمدها مؤسسات، ودول بالملايين، وعشرات الملايين كل عام، وليس في دينهم ما في ديننا الإسلام من وضوح، وأصالة، وملائمة للفطرة السليمة والعقل الرشيد، ينشر نفسه بنفسه، في كثير من الأقطار، ولكن الذين يعتنقون الإسلام لا يجدون من الرعاية المادية والتوجيهية ما يمكنهم من التبصر في هذا الدين والانتفاع بهداه، ويعوضهم عن بعض ما قدموه من تضحيات، وما لقوه من اضطهاد من عشائرهم أو حكوماتهم.

وكثير من الجمعيات الإسلامية في بلدان شتى تحاول أن تسد هذه الثغرة، ولكنها لا تجد المدد اللازم والعون الكافي.

إن قارة كإفريقيا يدور فيها صراع سياسي ومذهبي رهيب، حيث تتنافس شتى القوى لكسب حكوماتها وشعوبها وزعمائها؛ فالتبشير الاستعماري، أو الاستعمار التبشيري من ناحية، والتسلل الصهيوني الإسرائيلي من ناحية ثانية، والتغلغل الشيوعي الماركسي من ناحية ثالثة. . . كلٌّ يريد أن يصبغ القارة بصبغته، أو يضمها إلى جانبه.

والإسلام لا يجوز أن يقف مكتوف اليدين إزاء هذا التدخل أو التسلل أو التغلغل؛ لو كانت له دولة تتبنى رسالته، وتنشر دعوته، وتقيم شريعته في الأرض، لقد كان الإسلام في موقف الهجوم فأصبح اليوم في موقف الدفاع، فهو يُنتقص من أطرافه ويُغزى في عقر داره.

وبعد هذا كله فلسنا نحتم أن يكون كل ما يرصد لتأليف القلوب من الزكاة وحدها،

فإن في موارد بيت المال الأخرى متسعًا للإسهام في هذا الشأن مع الزكاة أو الاستقلال به. وخاصةً إذا كان المستحقون للزكاة من الأصناف الأخرى أشد حاجة وأوفر عددًا، فهنا يعمل بما جاء عن الشافعي وغيره؛ وهو إعطاء المؤلفة من سهم المصالح، ومرد ذلك إلى رأى ولى الأمر العادل، وتقدير أهل الرأي، ومشورة أهل الشورى في الأمة(١).

لقد جُبل الإنسان على حب المال ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ (العاديات: ٨) فبهذه الطريقة يفتح المرء قلبه للإسلام ويتدبره بجدية وهمة، فيقوى إيمانه وتعلقه بالدين بهذا التدبر والتفكر في الإسلام. . . وقد اعتاد الإنسان أن يصغي بقلبه وجوارحه لمن يعطيه ويكرمه، فتكون هذه فرصة حتى يصغي غير المسلم للإسلام فيهديه الله إلى طريقه المستقيم.

ومن الأمثلة على ذلك:

عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة - وذكر حنينًا- قال: فأعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة.

قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي. (٢)

فهذه أمثلة تدل على صحة ما وصلنا إليه. . . وأكبر دليل على ذلك أيضًا أن المنظمات التنصيرية تستخدم هذه الوسيلة كسبيل وحيد لإقناع الناس بالنصرانية بعد أن فشلت في ميدان الحجة والإقناع. . . فهذه المنظمات تقوم بتقديم العلاج والطعام للفقراء حتى يدخلوا في النصرانية، وتَعِد من يدخل منهم فيها بالمال، والمتع الحسية الدنيوية. . . فإن كان هذا مقبولًا في الإسلام الذي يدعو الناس لإقامة الدنيا والآخرة، ولإعمار الأرض والقلوب، ولا يحارب الأغنياء، فكيف يستساغ من دين يدعو إلى نبذ الدنيا ولا يدخل فيه الأغنياء الملكوت؟!

---

(١) راجع فقه الزكاة للقرضاوي (١/ ٥٣) الجزء الثاني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٣).

ولنا مما نشهد نماذج: فَيَعِدُونَ المسلم بالسفر للخارج، والزواج، وفرص العمل اللامعة، والمال الوفير. . . إلى آخر المتع الدنيوية الحسية، وهذا كله حتى يدخل في النصرانية رغم أن كل هذه المتع منبوذة في دينهم، وعبور الجمل من سم الخياط أيسر من دخول الغني في الملكوت. [1]

* * *

(١) راجع المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٦/ ٣١٦) بتصرف.

٩- الرق في الإسلام.

نص الشبهة

لو كان الإسلام صالحًا لكل عصر لما أباح الرق، وإن إباحته للرق لدليل قاطع على أن الإسلام قد جاء لفترة محدودة، وأنه أدى مهمته وأصبح في ذمة التاريخ، فكيف يريد الإسلام للناس أن ينقسموا أبدًا إلى سادة وعبيد؟ أو يرضى الله للمخلوق الذي أكرمه إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أن يصير طائفة منه سلعة تباع وتشترى كما كان الحال مع الرقيق؟ وإذا كان الله لا يرضى بذلك، فلماذا لم ينص القرآن صراحةً على إلغاءِ الرِّقِّ، كما نص على تحريم الخمر والميسر والربا وغيرها مما كرهه الإسلام؟

كذلك من استخدام الأمة كالزوجة بالاستمتاع بها.

والرد على ذلك من وجوه

الوجه الأول: تعريف الرق.

الوجه الثاني: نظرة الإسلام للرق.

الوجه الثالث: سبب الرق والحكمة منه.

الوجه الرابع: انتشار الرق بكثرة قبل ظهور الإسلام، والأسباب المتعددة لهذا الانتشار.

الوجه الخامس: إن الإسلام جعل الرقَّ مقصورًا على الحرب المشروعة فقط، فبذلك ضيَّق مورد الرِّق، وعمل على سَدِّ منابع الرقِّ المختلفة.

الوجه السادس: هناك أسباب كثيرة أوجدها الإسلام لتحرير الرقيق من قيود العبودية.

الوجه السابع: المكاتبة أيسر طريق كي يتحرر العبد إذا أغلقت أسباب العتق أمامه.

الوجه الثامن: ترغيب الإسلام في عتق الرقيق، والترهيب لمن استرق حرًا بغير حق.

الوجه التاسع: حقوق الرقيق في الإسلام.

الوجه العاشر: التسري والحكمة منه.

الوجه الحادي عشر: حسن معاملة النبيﷺ والمسلمين مع الرقيق والأسرى.

الوجه الثاني عشر: أهمية الموالي في بناء الدولة الإسلامية.

الوجه الثالث عشر: لماذا لم يُحرم الإسلام الرق تحريمًا قطعيًا، كتحريمه للخمر؟

الوجه الرابع عشر: الأرقاء المعاصرون قد يصلون إلى حالة أسوأ من الأرقاء الغابرين.

الوجه الخامس عشر: الرق في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل:

الوجه الأول: تعريف الرق.

١ - الِاسْتِرْقَاقُ لُغَةً: الْإِدْخَال فِي الرِّقِّ، وَالرِّقُّ: كَوْنُ الْآدَمِيِّ مَمْلُوكًا مُسْتَعْبَدًا. [١] وَلاَ يَخْرُجُ الِاسْتِعْمَال الْفِقْهِيُّ عَنْ ذَلِكَ.

فالرق في اللغة الضعف ومنه رقة القلب، والعتق ضده؛ لأنه قوة حكمية.

فالرقيق هو المملوك كُلًا أو بعضًا، والقن: هو المملوك كُلًا، والرق: ضعف حكمي يصير الشخص به عرضة للتملك والابتذال.

والملك: عبارة عن المطلق الحاجر؛ أي المطلق للتصرف لمن قام به الملك الحاجر عن التصرف لغير من قام به.

وقد يوجد الرق ولا ملك ثمة: كما في الكافر الحربي في دار الحرب والمستأمن في دار الإسلام؛ لأنهم خلقوا أرقاء جزاء للكفر، ولكن لا ملك لأحد عليهم، وقد يوجد الملك ولا رق كما في العروض والبهائم؛ لأن الرق مختص ببني آدم، وقد يجتمعان كالعبد المشتري. [٢]

٢ - الْأَسْرُ هُوَ: الشَّدُّ بِالإِسَارِ، وَالإِسَارُ: مَا يُشَدُّ بِهِ، وَقَدْ يُطْلَقُ الْأَسْرُ عَلَى الْأَخْذِ ذَاتِهِ. وَالسَّبْيُ هُوَ: الْأَسْرُ أَيْضًا، وَلَكِنْ يَغْلِبُ إِطْلاَقُ السَّبْيِ عَلَى أَخْذِ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ. وَالْأَسْرُ وَالسَّبْيُ مَرْحَلَةٌ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَى الِاسْتِرْقَاقِ فِي الْجُمْلَةِ، وَقَدْ يَتْبَعُهَا اسْتِرْقَاقٌ أَوْ لاَ يَتْبَعُهَا، إِذْ قَدْ يُؤْخَذُ الْمُحَارِبُ، ثُمَّ يُمَنُّ عَلَيْهِ، أَوْ يُفْدَى، أَوْ يُقْتَل وَلاَ يُسْتَرَقُّ. [٣]

---

(١) لسان العرب مادة: (رق ق)

(٢) الكليات لأبى البقاء الكفومي (١/ ٧٥٠).

(٣) لسان العرب، وتاج العروس: مادة (رق) و(أسر) و(سبى)، والمغني (٨/ ٣٧٥).

الوجه الثاني: نظرة الإسلام للرق.

١ -الرق مُقيد للحرية التي هي الأصل، حيث خلق الله الإنسان عليها.

ففي قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ والفك: هو حل القيد، والرق قيد، وسمى المرقوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته وسمي عنقها.

قال حسان:

كم مِن أسيرٍ فككناه بلا ثَمنٍ   وجَزّ ناصية كُنّأ مَواليها [(١)]

فعتق الرقيق: هو الخروج من ذل الرق إلى كرم الحرية.

٢- الرق يُشبه الموت من وجه:

قال تعالى عن كفارة القتل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، فمن أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكمًا، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ ولذا منع من تصرف الأحرار. [(٢)]

٣- الرق في الإسلام مجرد مسئولية توضع على العبد تجاه سيده، لا أنها سيطرة مطلقة من السيد على عبده:

فعند النظر للحقوق التي أعطاها الإسلام للأرقاء -وهذا ما سيأتي بيانه- نرى أن العبد قد شارك الحر في كثير من الحقوق، بالإضافة إلى أنه قد كُفل له طعامه وشرابه وأمنه ومتطلباته في بيت سيده، وكأن العمل الذي يعمله في هذا البيت يتقاضى عليه؛ تلك الراحة التي كُفلت له.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٦٨).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٣٩) بتصرف.

فهناك من الأحرار من يوضع عليهم مسؤوليات، بل وقيود تجاه أحرار مثلهم: فالجنود عليهم مسؤوليات تجاه القائد، وكذلك الرعية مع الحاكم: فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ". (١)

ولقد قال رسول الله ﷺ: "ألا واستوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة". (٢)

قال ابن الأثير: عوان عندكم أي: أُسَرَاء، أو كالأُسَرَاء. (٣)

إنما هن عوان عندكم جمع عانية أي أسراء. كالأسراء: شبههن بهم عند الرجال لتحكمهم فيهن، فالعاني: الأسير، وكل من ذل واستكان وخضع فقد عنا يعنو، أو هو عان، والمرأة عانية، وجمعها عوان. ليس تملكون منهن شيئًا: أي شيئًا من الملك، أو شيئًا من الهجران؛ والضرب غير ذلك أي غير الاستيصاء بهن الخير(٤).

٤- الحرية من الرق هي حرية صغرى، والإسلام يريد للناس الحرية الكبرى:

فالحرية في الإسلام ليست مجرد الخروج من الرق.

قال ابن تيمية: إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته فما استرق القلب واستعبده فهو عبده.

ولهذا يقال: العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

وقال الشاعر: أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرًّا

ويقال: الطمع غل في العنق قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل. (٥)

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٨٧)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٤١٠٠)، وابن ماجه (٣٠٥٥). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٠).

(٣) النهاية في غريب الأثر (٣/ ٥٩٨).

(٤) تحفة الأحوذي (٨/ ٣٨٣).

(٥) العبودية (١/ ٨١)، إقامة الدليل على إبطال التحليل لابن تيمية (٣/ ٤٢٢).

قال الأصفهاني: فالحرية ضربان: الأول: من لم يجر عليه حكم الشيء نحو: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ والثاني: من لم تتملكه الصفات الذميمة من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تضاد ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: " تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار"، وقول الشاعر: ورقُّ ذوي الأطماع رق مخلد. وقيل: عبد الشهوة أذل من عبد الرق. والتحرير جعل الإنسان حرًا، فمن الأول: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ومن الثاني: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ قيل هو أنه جعل ولده بحيث لا ينتفع به الانتفاع الدنيوي المذكور في قوله ﷻ: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ بل جعله مخلصًا للعبادة، ولهذا قال الشعبي معناه مخلصًا. وقال مجاهد: خادمًا للبيعة، وقال جعفر: معتقًا من أمر الدنيا، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد، وحررت القوم أطلقتهم وأعتقتهم عن أسر الحبس، وحر الوجه ما لم تسترقه الحاجة، وحر الدار وسطها. [١]

قال الرازي: وفي وجه آخر لتفسير قوله تعالى﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾: وهو أن يكون المراد أن يفك المرء رقبة نفسه بما يتكلفه من العبادة التي يصير بها إلى الجنة؛ فهي الحرية الكبرى، ويتخلص بها من النار[٢].

قال الإمام ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له … فبلوا برق النفس والشيطان

لا ترض ما اختاروه هم لنفوسهم … فقد ارتضوا بالذل والحرمان. [٣]

فمن ثمرات الشهادتين: تحرير القلب والنفس من الرق للمخلوقين، والاتباع لغير المرسلين[٤].

---

(١) المفردات في غريب القرآن (١/ ١١١).

(٢) تفسير الرازي (١٧/ ٣٢).

(٣) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (٢/ ٧٢).

(٤) إقامة الحجة على العالمين بنبوة خاتم النبيين (١/ ١٧٩).

الوجه الثالث: سبب الرق والحكمة منه.

الحكمة من الرق: شُرِعَ جزاء للكفر الأصلي؛ لأن الكفرة لما استنكفوا أن يكونوا عبادًا لله جازاهم الله بأن جعلهم عبيد عبيده. [١]

وسبب الملك بالرق: هو الكُفر، ومحاربة الله ورسوله. فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم، وجميع قواهم، وما أعطاهم الله لِتكون كلمة الله هي العليا على الكفار ـ ومراعاة لقواعد الحرب الشرعية-جعلهم ملكًا لهم بالسبي. إلا إذا اختار الإمام المن أو الفداء، لما في ذلك من المصلحة على المسلمين[٢].

الحكمة من الرق هو تمرد الكفار على ربهم فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير جلّ وعلا عقوبة تناسب جريمتهم:

وهذا الحكم من أعدل الأحكام، وأوضحها، وأظهرها حكمة؛ وذلك أن الله جلَّ وعلا خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ (الذاريات: ٥٧، ٥٦)، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة. كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، وفي الآية الأخرى في سورة النحل: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١٨)، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨)، فتمرد الكفار على ربهم وطغوا وعتوا، وأعلنوا الحرب على رسله لئلا تكون كلمته هي العليا، واستعملوا جميع

---

(١) كتاب الكليات لأبى البقاء الكفومى (١/ ٧٥٠).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٣٠).

المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته، وارتكاب ما يسخطه، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره. وهذا أكبر جريمة يتصورها الإنسان.

فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير جلَّ وعلا عقوبة شديدة تُناسب جريمتهم. فسلبهم التصرف، ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات، فأجاز بيعهم وشِراءهم، وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلبًا كليًا. (١)

ولو فرضنا ولله المثل الأعلى أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرق، وتشنع في ذلك على دين الإسلام، قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان، ودبر عليها ثورة شديدة يريد بها إسقاط حكمها، وعدم نفوذ كلمتها، والحيلولة بينها وبين ما تريده من تنفيذ أنظمتها التي يظهر لها أن بها صلاح المجتمع، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتلة. ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه. فهو أشد سلبًا لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل. والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ليحول دون إقامة نظام الله الذي شرعه. ليسير عليه خلقه فينشر بسببه في الأرض الأمن والطمأنينة والرخاء والعدالة، والمساواة في الحقوق الشرعية، وتنتظم به الحياة على أكمل الوجوه وأعدلها وأسماها: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل: ٩٠)، فعاقبه الله هذه المعاقبة بمنعه التصرف. ووضع درجته وجريمته تجعله يستحق العقوبة بذلك. (٢)

قال عبد الله ناصح علوان: عندئذ لم يكن في وسع الإسلام أن يطلق سراح من يقع في يده من أسرى الأعداء، فليس من حسن السياسة أن تشجع عدوك عليك بإطلاق أسراه، بينما

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٣٠).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٣٠).

أهلك وعشيرتك وأتباع دينك يسامون الخسف والعذاب عند هؤلاء الأعداء، والمعاملة بالمثل هنا هي أعدل قانون تستطيع استخدامه في رد الاعتداء، بل هي القانون الوحيد(١).

قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾ (الشورى: ٤٠-٤٢).

أما عن قولهم، إذا كان الرقيق مسلماً، فما وجه ملكه بالرق؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال؟

فالجواب: أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء: أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق، والأحقية بالأسبقية ظاهرة لا خفاء بها. فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي؛ ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع، وهو الحكيم الخبير. فإذا استقر هذا الحق وثبت، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبوقًا بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه؛ كما هو معلوم عند العقلاء. نعم؛ يحسن بالمالك ويجمل به أن يعتقه إذا أسلم، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه، وفتح له الأبواب الكثيرة كما قدمنا ـ فسبحان الحكيم الخبير(٢).

من الأحرار من يطلب أن يعيش رقيقًا تحت راية الإسلام لما علموا من كرم أخلاقه:

وجاء عن زيد بن حارثة لما أخذ أسيرًا وأهدته خديجة - رضي الله عنها- لخدمته ﷺ وجاء أهله بالفداء يفادونه من رسول الله ﷺ فقال لهم: "ادعوه وأخبروه فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء" فقال زيد: والله لا أختار على صحبتك أحدًا أبدًا فقال له أهله: ويحك أتختار الرق على الحرية فقال نعم؛ والله لقد صحبته فلم يقل لي لشيء فعلته لم فعلته

(١) نظام الرق في الإسلام (٧٩-٨٠).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٣١).

قط، ولا لشيء لم أفعله لم لم تفعله قط؛ ورجع قومه وبقي هو عند رسول الله ﷺ فأخذ بيده وأعلن تبنيه على ما كان معهودا قبل البعثة[1].

يقول جوستاف لوبون: الذي أراه صادقًا هو أن الرق عند المسلمين خير منه عند غيرهم، وأن حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوروبا، وأن الأرقاء في الشرق يكونون جزءًا من الأسرة. . . وأن الموالي الذين يرغبون في التحرر ينالونه بإبداء رغبتهم. . ومع هذا لا يلجئون إلى استعمال هذا الحق. [2]

الوجه الرابع: انتشار الرق بكثرة قبل ظهور الإسلام، والأسباب المتعددة لهذا الانتشار.

في جزيرة العرب؛ فهناك طائفة لأسماء نصرانية خالصة تسمى بها نفر من الجاهلين قبل الإسلام، ومن بين هذه الأسماء ما كانت خاصة بطبقة الموالي الذين جلبوا من الخارج، وبيعوا في أسواق النخاسة، فحافظوا على أسمائهم القديمة التي تشير إلى أصولهم في النصرانية. [3]

وفي غير الجزيرة العربية: نرى أن الإسلام أول دين شرّع العتق. لقد حث على تحرير العبيد ولم يشرع الرق، لأن هذا كان موجودًا منذ أقدم العصور. [4]

فلقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر وأسبابه متعددة، والإسلام لم يختص بالرق، ولم يُوجِدْه بداية، بل كان الرق منتشرًا في جميع أقطار الأرض قبل الإسلام؛ فالرق نظام قديم قدم المظالم والاستعباد والطبقية والاستغلال والحروب في تاريخ الإنسان، وكان له أسباب لديهم:

*** فأسباب الاستعباد متعددة:**

١- أمر مقرّ به في الحروب: بصرف النظر عن حظها من الشرعية والمشروعية، فالأسرى يتحولون إلى أرقاء، والنساء يتحولن إلى سبايا وإماء. [1]

---

(١) انظر التاريخ الكبير (٣/ ٣٧٩).

(٢) حضارة العرب (٤٥٩-٤٦٠).

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١/ ٣٨٥٠).

(٤) تفسير القطان (١/ ٩٥).

٢- **العجز عن سداد الديون**: كان يحوِّل الفقراء المدينين إلى أرقاء لدى الأغنياء الدائنين.

إذ كان الفقر والدين يحمل الناس على بيع أبنائهم رقيقًا، وكان المدين يُسترق للدائن إن عجز عن السداد، وذلك معلوم مقرر في التوراة وكذلك في الأمصار النصرانية في عصر حكم الكنيسة الغابر؛ حتى صنفت الأدبيات تحكي هذه المآسي كشهيرة وليم شكسبير (تاجر البندقية).

٣- **الخطف**: فالخطف، يتحول به المخطوفون إلى رقيق.

وما انتشر الرق ذلك الانتشار الرهيب في قارات الدنيا إلا عن طريق هذا الاختطاف، بل كان المصدر الأعظم في أوربا وأمريكا في القرون الأخيرة. (٢)

فالاختطاف بالتلصص والقرصنة، والهجوم على المدن المسالمة بلا دعوة إلى الله ولا دفع لضرر، وإنما بغرض الغدر والاستعباد والقتل المجرد.

٤- **من وجد أحدًا انقطعت به السُبل قد يتخذه رقيقًا**:

فإلى ذلك أشار إليه القرآن الكريم في قصة يوسف ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا . . .﴾ (يوسف: ١٩-٢١).

٥- **ارتكاب الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا كان يحكم على مرتكبيها بالاسترقاق.**

وكان الاسترقاق من عقوبات السرقة عند العبرانيين القدماء، وعندما سئل إخوة يوسف عن جزاء السارق لصواع الملك ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ (يوسف: ٧٥).

٦- **الرق نظام طبقي في الدولة والإمبراطورية**:

---

(١) جاء في الموسوعة التاريخية المسماة تاريخ العالم: (٢٢٧٣) ما ترجمته: وفي سنة ٥٩٩ رفض الإمبراطور (الروماني) موريس- بسبب رغبته في الاقتصاد- أن يفتدي بضع ألوف من الأسرى وقعوا في يد الآوار، فقتلهم خان الآوار عن بكرة أبيهم.

(٢) الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل (١/ ١٨٥).

ففي الحضارات القديمة كان الرق عماد نظام الإنتاج والاستغلال، وفى بعض تلك الحضارات كالفرعونية المصرية والكسروية الفارسية كان النظام الطبقي المغلق يحول دون تحرير الأرقاء، مهما توفرت لأي منهم الرغبة أو الإمكانات.

فالفراعنة استعبدوا بني إسرائيل أبشع استعباد، حتى قتلوا أبناءهم، واستحيوا نساءهم. وفى بعض تلك الحضارات كالحضارة الرومانية كان السادة هم الأقلية الرومانية، وكانت الأغلبية في الإمبراطورية برابرة أرقاء، أو في حكم الأرقاء. . وللأرقاء في تلك الحضارات ثورات من أشهرها ثورة " اسبارتاكوس" (٧٣٧١ق م).

٧- نظام عقائدي:

يعتقد الهنود أن الرقيق (المنبوذين) خلقوا من قدم الإله، ومن ثم فهم بخلقتهم حقراء مهينون، ولا يمكن أن يرتفعوا عن هذا الوضع المقسوم لهم إلا بتحمل الهوان والعذاب، عسى أن تنسخ أرواحهم بعد الموت في مخلوقات أفضل! وبذلك تضاف إلى لعنة الوضع السيِّئ الذي يعيشون فيه لعنة أخرى روحية تقضي عليهم أن يرضوا بالذل ولا يقاوموه.

٨ – **سلطان الوالد على أولاده**: كان ذلك يبيح للوالد أن يبيع هؤلاء الأولاد، فينتقلون من الحرية إلى العبودية. كما يحدث في أفريقيا الآن.

٩- وبعضهم يعدون الفلاحين أرِقاء.

١٠- استغلال أهل الأماكن التي تم اكتشافها:

فالأوربيون- بعد أن اكتشفوا أمريكا- عاملوا الأمريكيين الأصليين أسوأ معاملة.

١١- سلطان الإنسان على نفسه: كان يبيح له بيع حريته، فيتحول إلى رقيق.

١٢- وكذلك النسل المولود من كل هؤلاء الأرقاء يصبح رقيقًا، حتى ولو كان أبوه حرًا. [1]

الوجه الخامس: إن الإسلام جعل الرقّ مقصوراً على الحرب المشروعة فقط: فبذلك ضيَّق مورد الرِّق، وعمل على سَدِّ منابع الرقّ المختلفة

---

(١) حقائق الإسلام وشبهات المشككين (٦١٥-٦١٧) بتصرف.

١-لما جاء الإسلام عمل على سَدِّ منابع الرقِّ هذه، وجعل الرقَّ مقصورًا على الحرب المشروعة. ثم فتح عدة مصارف شرعية للتخلُّص من الرق القائم، حيث لم يكُنْ موجودًا من أبواب العتق إلا إرادة السيد في أنْ يعتق عبده.

ومع كثرة واتساع هذه الروافد التي تمد نهر الرقيق في كل وقت بالمزيد، والمزيد من الأرقاء، كانت أبواب العتق والحرية إما مؤصدة تمامًا، أو ضيقة عسيرة على الولوج منها.

وأمام هذا الواقع، اتخذ الإسلام، إبان ظهوره، طريق الإصلاح الذي يبتغي تحرير الأرقاء، وإلغاء نظام العبودية، وطيّ صفحته من الوجود، لكن في " واقعية ثورية " إذا جاز التعبير. . فهو لم يتجاهل الواقع ولم يقفز عليه. . وأيضًا لم يعترف به على النحو الذي يبقيه ويكرسه.

لقد بدأ الإسلام فأغلق وألغى وحرّم أغلب الروافد التي كانت تمد نهر الرقيق بالمزيد من الأرقاء. . فلم يبق منها إلا أسرى الحرب المشروعة والشرعية، والنسل إذا كان أبواه من الأرقاء. . وحتى أسرى الحرب المشروعة فتح الإسلام أمامهم باب العتق والحرية المنّ أو الفداء: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد: ٤)، فعندما تضع الحرب أوزارها، يتم تحرير الأسرى، إما بالمن عليهم بالحرية، وإما بمبادلتهم بالأسرى المسلمين لدى الأعداء. .

ومع إغلاق الروافد روافد الاسترقاق ومصادره التفت الإسلام إلى كتلة واقع الأرقاء، فسعى إلى تصفيتها بالتحرير، وذلك عندما عدد، ووسع مصابّ نهر الرقيق[١].

إذ جعل الناس كلهم أحرارًا لا يطرأ عليهم الرق إلا بسبب واحد: (وهو أن يؤسروا وهم كفار مقاتلون مع أن الواجب على القائد أن يختار الأصلح من الرق، أو الفداء، أو الإطلاق بلا فداء، حسب المصلحة العامة.

(١) حقائق الإسلام وشبهات المشككين (١/ ١٣٠).

فهذا هو السبب وحده في الرق، وهو سبب جاء في النقل الصحيح، فإنه يوافق العقل الصحيح أيضًا.

فإن من وقف في سبيل عقيدتي ودعوتي، وأراد الحدَّ من حريتي، وألب عليَّ وحاربني، فجزاؤه أن أمسكه عندي، ليفسح المجال أمامي وأمام دعوتي.

هذا هو سبب الرق في الإسلام، لا النهب، والسلب، وبيع الأحرار واستعبادهم كما هو عند الأمم الأخرى. (١)

٢- باب الأسر واحد، وهو أرض المعركة، بينما أبواب الخروج من الرق متعددة:

فإذا كان الورود من باب واحد والخروج من أبواب متعددة فهل يبقى في البيت أحد؟ ثم باب الأسر واحد، أو كما يقال: باب الورود واحد فقط، وهو أرض المعركة، بينما أبواب الخروج متعددة، فإذا كان الورود من باب واحد والخروج من أبواب متعددة فهل يبقى في البيت أحد؟ لا يبقى أحد بخلاف العكس، لو كان أبواب الورود متعددة والخروج من باب واحد، فسيحصل زحام وأزمة، أو كما يقولون: خطر سوء التفريغ، ولذا فمن أول حساب الهندسة المعمارية عند بناء المسجد، أو المعهد، أو الكلية، أنه لابد أن يعمل حساب الأبواب للخروج، حتى لو حصلت أزمة مفاجئة استطاع الموجودون الخروج بسرعة، أما إذا كان هناك باب واحد، وهناك ألف نفر، فمتى يخرجون؟ سيقتل بعضهم بعضًا في الزحام، لكن لو عُمل خمسون بابًا فسيخلو المكان بسرعة. (٢)

٣- وصف الحرب الشرعية التي أباحها الإسلام التي قد يكون بها استرقاق.

قال ناصح علوان: والحرب التي تبيح استرقاق الأسرى - في نظر الإسلام - هي ما تتصف بالحرب الشرعية، ولا يعني هذا أن الرق بطل نهائيًا وانتهى تشريعيًا كما يتوهم البعض، وإنما يعني أن الإمام استعمل صلاحيته في اختيار المن والفداء على اختياره

---

(١) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام للبسام (٢/ ٢٤٦).

(٢) شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم (١٣/ ٢٢٤).

الاسترقاق في معاملة الأسرى لسياسة شرعية، وربما يأتي يوم تستبيح فيه النظم الاجتماعية في العالم استرقاق أسرى الحرب، فلا يعقل أن يقف الإسلام مكتوف اليدين تجاه هذا الحدث الجديد، والاستباحة العامية الطارئة، وإنما سيقابل ولا شك المعاملة بالمثل.

وصفوة القول:

إن الإسلام جفف منابع الرق القديمة كلها، فيما عدا منبعًا واحدًا هو منبع استرقاق أسرى حرب شرعية إذا رأى إمام المسلمين مصلحة في ذلك. وللإمام أن يعدل عن الاسترقاق إلى المن أو الفداء، إذا اصطلح العالم على تحرير الرق في الحروب كما فعل الإمام العثماني محمد الفاتح، باعتبار أن الإسلام خوله في معاملة الأسرى أربعة أمور: المن، أو الفداء، أو القتل، أو الاسترقاق. فيختار واحدة على ضوء المصلحة التي يعود خيرها على الإسلام والمسلمين والإنسانية جمعاء. [1]

وقال أيضًا:

١-جفف الإسلام جميع منابع الرق في دول العالم عدا منبعًا واحدًا، وهو رق أسرى الحرب.

جفف منبع الاسترقاق لشهوة الاستعباد في الحرب وامتصاص دماء الشعوب.

جفف منبع الاسترقاق بسبب الفقر أو عدم وفاء الدين.

جفف منبع الاسترقاق بسبب الوراثة من الميلاد في جنس محدد، وطبيعة معينة.

جفف منبع الاسترقاق بسبب العمل في الأرض والإقامة فيها.

جفف منبع الاسترقاق بسبب الإساءة إلى طبقة الأشراف والكبراء.

إلى غير ذلك من هذه المنابع التي جففها وكانت سائدة في العالم.

٢-اشترط الإسلام أن تكون الحرب التي تؤدي إلى استرقاق الأسرى حربًا شرعية، وسبق أن ذكرنا مواصفات هذه الحروب الشرعية التي تكون مبررًا لاسترقاق الأسير.

---

(١) نظام الرق في الإسلام (٢٤-٢٦).

٣- أعطى الإسلام للإمام صلاحية واسعة في أن يعامل ا لأسرى بعد أن تضع الحرب أوزارها بما يراه المصلحة، بل خيَّره بين المن، والفداء، أو القتل، أو الاسترقاق، فإن رأى أن يصرف النظر عن استرقاق أسرى الحروب بموجب معاهدة دولية توقعها الدول فله ذلك كما فعل السلطان محمد الفاتح.

٤- في حالة وجود الرق، فالإسلام فتح من المصبات في تحرير الرق ما يكفل القضاء عليه في فترة زمنية قد تطول أو تقصر. وسبق أن ذكرنا المنهج الكامل أو بعبارة أوضح المصبات الكثيرة التي تقضي على الرقيق في ظل التشريع الإسلامي.

والإسلام في منهاجه في تحرير الرقيق أعطى للدول قدوة، بل سبق الأمم في تحريره سبعة قرون. [1]

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرقِّ في الحروب أنهم يقارنون بين الرِّق والحرية، لكن المقارنة هنا ليستْ كذلك، المقارنة هنا بين الرق والقتل؛ لأنه لا يُسترقّ إلا مَنْ قدر المسترقُّ عليه وتمكَّن منه في المعركة، وكان باستطاعته قَتْله، لكن رحمة الله بعباده منعتْ قتله، وأباحت أَخْذه رقيقًا، فالنفعية للمقاتل المنتصر يقابلها حَقْن دم الآخر، ثم بعد انتهاء الحرب نحثُّ على عتقه، ونفتح له أبواب الحرية.

إذن: لا تقارن بين عبد وحر، إنما قارن بين العبودية والقتل: أيهما أقلّ ضررًا؟

لذلك قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ (التوبة: ١٤ - ١٥). [2]

الوجه السادس: هناك أسباب كثيرة أوجدها الإسلام لتحرير الرقيق من قيود العبودية.

---

(١) نظام الرق في الإسلام (٧٩-٨٠).

(٢) تفسير الشعراوي (١/ ٦٠٩٤).

فقد جعل عدة أبواب لتحرير الرقيق: العتق: بالكفارات – وبالمكاتبة – وبكفالة الدولة – وبأم الولد – عتقه إذا ضُرِب ظُلمًا: –عتقه إجباريًا– الوصية بالعتق.

العتق بالكفارات:

١- **فنجد كثيراً من الكفارات فيها عتق**: مثل كفارة اليمين، والظهار، والوطء في رمضان، وقتل الخطأ، وتبدأ الكفارة –سواءً كانت على الترتيب أو التخيير– بعتق رقبة[(١)].

– **كفارة القتل الخطأ، وكفارة قتل قوم بيننا وبينهم ميثاق**: قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢).

– **كفارة الحنث باليمين المنعقدة**: قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة: ٨٩)

– **كفارة الظهار**: قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (المجادلة: ٣ – ٤)

– **كفارة إفطار الصائم بالجماع عمدًا في رمضان**: عن أبي هريرة ﷺقَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: هَلَكْتُ وَقَعْتُ عَلَى أَهلي في رَمَضَانَ. قَالَ: " أَعْتِقْ رَقَبَةً ". قَالَ: لَيْسَ لِي. قَالَ: " فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ". قَالَ: لاَ أَسْتَطِيعُ. قَالَ: " فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا ". قَالَ: لاَ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٣١).

أَجِدُ. فَأُتِيَ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ - قَالَ إِبْرَاهِيمُ: الْعَرَقُ الْمِكْتَلُ فَقَالَ: " أَيْنَ السَّائِلُ؟ تَصَدَّقْ بِهَا ". قَالَ: عَلَى أَفْقَرَ مِنِّى! وَاللهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنَّا. فَضَحِكَ النبي ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. قَالَ: " فَأَنْتُمْ إِذًا ". (١)

٢- العتق: إجباريًا:

-فقد يكون العتق إجباريًا على الإنسان، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَنْ أَعْتَقَ شِقْصًا لَهُ مِنْ عَبْدٍ - أَوْ شِرْكًا أَوْ قَالَ نَصِيبًا - وَكَانَ لَهُ مَا يَبْلُغُ ثَمَنَهُ بِقِيمَةِ الْعَدْلِ، فَهْوَ عَتِيقٌ، وَإِلاَّ فَقَدْ عَتَقَ مِنْهُ مَا عَتَقَ "(٢).

فإن كان المعتق موسرًا- بحيث يستطيع دفع قيمة نصيب شريكه عتق العبد كله، نصيبه ونصيب شريكه، وقوم عليه نصيب شريكه بقيمته التي يساويها وأعطى شريكه القيمة. وإن لم يكن موسرًا- بحيث لا يملك قيمة نصيب صاحبه- فلا إضرار على صاحبه، فيعتق نصيبه فقط، ويبقى نصيب شريكه رقيقًا كما كان.

٤- العتق: بضرب العبد ظلمًا:

- فمن لطم عبده فكفارته أن يعتقه:

- عن معاوية بن الحكم السلمي قال: كانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أحد والجوانية فاطلعت ذات يوم، فإذا الذيب (الذئب) قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺفعظم ذلك علي قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: " ائتني بها فأتيته بها فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة". (٣)

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٤)، ومسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩١)، ومسلم (٣٨٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧).

- عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَطَمْتُ مَوْلًى لَنَا فَهَرَبْتُ ثُمَّ جِئْتُ قُبَيْلَ الظُّهْرِ فَصَلَّيْتُ خَلْفَ أَبِي فَدَعَاهُ وَدَعَانِي، ثُمَّ قَالَ امْتَثِلْ مِنْهُ. فَعَفَا ثُمَّ قَالَ: كُنَّا بَنِي مُقَرِّنٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ لَيْسَ لَنَا إِلاَّ خَادِمٌ وَاحِدَةٌ فَلَطَمَهَا أَحَدُنَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ النبي ﷺ، فَقَالَ: " أَعْتِقُوهَا " قَالُوا: لَيْسَ لَهُمْ خَادِمٌ غَيْرُهَا قَالَ: " فَلْيَسْتَخْدِمُوهَا فَإِذَا اسْتَغْنَوْا عَنْهَا فَلْيُخَلُّوا سَبِيلَهَا ". [1]

- عَنْ زَازَانَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ دَعَا بِغُلاَمٍ لَهُ فَرَأَى بِظَهْرِهِ أَثَرًا فَقَالَ لَهُ: أَوْجَعْتُكَ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: فَأَنْتَ عَتِيقٌ. قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الأَرْضِ، فَقَالَ: مَا لِي فِيهِ مِنَ الأَجْرِ مَا يَزِنُ هَذَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " مَنْ ضَرَبَ غُلاَمًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ أَوْ لَطَمَهُ، فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ"[2].

٥- العتق: بكفالة الدولة (من مصرف الزكاة)

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠).

قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد فقيرًا، ولم نجد من يأخذها منا. فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس. فاشتريت بها رقابًا فأعتقتهم. [3]

٦- العتق: بأم الولد (بسبب ولادة الولد من الحر)

فإن ذلك العتق يعتبر وسيلة من وسائل التحرير، وكذلك مأثرة من مآثر الإسلام:

٧- العتق: بالمكاتبة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (النور: ٣٣)

٨- الوصية بالعتق:

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٨٩).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (٥٩).

عن الشريد بن سويد الثقفي قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: إن أمي أوصت أن تعتق عنها رقبة، وإن عندي جارية نوبية أفيجزئ عني أن أعتقها عنها؟ قال: "ائتني بها، فأتيته بها، فقال لها النبي ﷺ: من ربك؟ قالت: الله قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله قال: فأعتقها فإنها مؤمنة"[١].

الوجه السابع: المكاتبة أيسر طريق كي يتحرر العبد إذا أغلقت أسباب العتق أمامه.

مع أن أفضل العتق في الإسلام هو الذي يكون بدون مقابل:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الضحى: ١٧-٢١).

فما لبلال عند أبي بكر حين اشتراه فأعتقه من الرق وخلّصه من العذاب نعمةٌ سلفت جازاه عليها بذلك إلا ابتغاء وجه ربه وعتقه[٢].

إلا أنه إذا أغلقت الأبواب أمام العبد، فإن الله جعل له سبيلًا فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (النور: ٣٣).

١- **الكتاب**: مصدر كاتب إذا عاقد على تحصيل الحرية من الرق على قدر معين من المال يُدفع لسيده.[٣]

٢- فالمكاتبة إما واجبة على السيد تجاه عبده أو مستحبة:

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٨٣)، والنسائي (٣٦٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٢٢).

(٢) النكت والعيون (٤/ ٤٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٤٧٧).

ذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر إيجاب، يجب على المولى أن يكاتب عبده الذي علم فيه خيرًا إذا سأل العبد ذلك، على قيمته أو أكثر، وإن سأل على أقل من قيمته فلا يجب، وهو قول عطاء وعمرو بن دينار:

* وذلك لما روي أن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عنه، فشكا إلى عمر، فعلاه بالدرة وأمره بالكتابة فكاتبه[1].

وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر ندب واستحباب. ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي- منجمًا، أي موزعًا على مواقيت معينة، كانوا في الغالب يوقتونها بمطالع نجوم المنازل مثل الثريا، فلذلك سموا توقيت دفعها نجمًا وسموا توزيعها تنجيمًا؛ لأنه عقد جوز إرفاقًا بالعبد، ومن تتمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل حتى يؤديه على مهل، فيحصل المقصود، كالدية في قتل الخطأ، وجبت على العاقلة على سبيل المواساة فكانت عليهم مؤجلة منجمة، وجوَّز أبو حنيفة الكتابة على نجم واحد وحالة.[2]

٣- رأفة الإسلام بالعبد أنه لا يُكاتب إلا إذا عُلم منه خيرًا حتى لا يُهلك نفسه وحتى لا يُفسد في المجتمع:

قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ اختلفوا في معنى الخير، فقال ابن عمر: قوة على الكسب. وهو قول مالك والثوري، وقال الحسن ومجاهد والضحاك: مالًا كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ (البقرة: ١٨٠) أي: مالًا، وروي أن عبدًا لسلمان الفارسي قال له كاتبني، قال: ألك مال؟ قال: لا. قال: تريد أن تطعمني من أوساخ الناس، ولم يكاتبه[3].

قال الزجاج: لو أراد به المال لقال: إن علمتم لهم خيرًا.

---

(١) أخرجه الطبري (١٨/ ١٢٦)، وعبد الرزاق في المصنف (٨/ ٣٧٢)، وبمعناه عن قتادة عند البيهقي (١٠/ ٣١٩)، وعلقه البخاري (٥/ ١٨٤)، وانظر فتح الباري (٥/ ١٨٦-١٨٧).

(٢) تفسير البغوي (٦/ ٤١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨/ ٣٧٤)، والبيهقي (١٠/ ٣٢٠).

وقال إبراهيم وابن زيد وعبيدة: صدقًا وأمانة. [١]

وقال طاووس، وعمرو بن دينار: مالًا وأمانة. [٢]

وقال الشافعي: وأظهر معاني الخير في العبد: الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من كتابته إذا كان هكذا.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله". [٣]

وحكى محمد بن سيرين عن عبيدة: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: أقاموا الصلاة. [٤]

وقيل: هو أن يكون العبد بالغًا عاقلًا، فأما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما؛ لأن الابتغاء منهما لا يصح. وجوز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق. [٥]

٤- مساعدة المكاتب لتيسير تحريره من الرق:

قوله ﷻ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هذا خطاب للموالي، يجب على المولى أن يحط عن مكاتبه من مال كتابته شيئًا، وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة، وبه قال الشافعي.

ثم اختلفوا في قدره، فقال قوم: يحط عنه ربع مال الكتابة، وهو قول علي، ورواه بعضهم عن علي مرفوعًا[١]، وعن ابن عباس ﷺ يحط عنه الثلث. وقال الآخرون: ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء. [٢] وهو قول الشافعي.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٨/ ٣٧٠، ٣٧١)، والبيهقي (١٠/ ٣١٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٨/ ٣٧٠)، والبيهقي (١٠/ ٣١٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٥٥)، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٠).

(٤) أخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف (٨/ ٣٧١).

(٥) تفسير البغوي (٦/ ٤٣).

قال نافع: كاتب عبد الله بن عمر غلامًا له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع عنه من آخر كتابته خمسة آلاف درهم. [٣]

وقال سعيد بن جبير: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئًا من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته، ووضع من آخر كتابته ما أحب. [٤]

وقال بعضهم: هو أمر استحباب. والوجوب أظهر.

وقال قوم: أراد بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ أي: سهمهم الذي جعله الله لهم من الصدقات المفروضات، بقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ (التوبة: ٦٠) وهو قول الحسن وزيد بن أسلم[٥].

وقال إبراهيم: هو حث لجميع الناس على معونتهم. [٦]

٥- ولو مات المكاتب قبل أداء النجوم، اختلف أهل العلم فيه: فذهب كثير منهم إلى أنه يموت رقيقًا، وترتفع الكتابةُ سواء ترك مالًا، أو لم يترك، كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع. وهو قول عمر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه قال عمر بن عبد العزيز، والزهري، وقتادة، وإليه ذهب الشافعي وأحمد. وقال قوم: إن ترك وفاءً بما بقي عليه من الكتابة كان حرًا وإن كان فيه فضل، فالزيادة لأولاده الأحرار، وهو قول عطاء، وطاووس، والنخعي، والحسن، وبه قال مالك، والثوري، وأصحاب الرأي. ولو كاتب

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن علي مرفوعًا (٧/ ٣٧٥)، والبيهقي (١/ ٣٢٩)، وأخرجه البيهقي من طريق آخر موقوفًا، وقال: هذا هو الصحيح موقوف، وكذلك عبد الرزاق (٧/ ٣٧٦)، والطبري (١٨/ ١٣١).

(٢) انظر: الطبري (١٨/ ١٣١)، والمصنف لعبد الرزاق (٨/ ٣٧٧).

(٣)أخرجه الطبري (١٨/ ١٣١).

(٤)أخرجه الطبري (١٨/ ١٣١)، وعبد الرزاق (٨/ ٣٧٧)، والبيهقي (٣/ ٣٣٠).

(٥)أخرجه الطبري (١٨/ ١٣١-١٣٢)، ورجح الطبري هذا القول وهو قول من قال: عني به إيتاءهم سهمهم من الصدقة المفروضة. انظر بالتفصيل (١٨/ ١٣٢).

(٦) أخرجه عبد الرزاق عن إبراهيم (٨/ ٣٧٦-٣٧٧) تفسير البغوي (٦/ ٤٣).

عبده كتابة فاسدة يعتق بأداء المال؛ لأن عتقه معلق بالأداء، وقد وجد وتبعه الأولاد والاكتساب كما في الكتابة الصحيحة، ويفترقان في بعض الأحكام: وهي أن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم، ولا تبطل بموت المولى، ويعتق بالإبراء[(١)].

الوجه الثامن: ترغيب الإسلام في عتق الرقيق، والترهيب في من استرق حرًا بغير حق.

١- العتق يُدخل الجنة:

قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (البلد: ١١-١٣).

قال قتادة رحمه الله: للناس عقبة دون الجنة واقتحامها فك رقبة[(٢)].

وهذه الآية أصل من أصول التشريع الإسلامي وهو تشوف الشارع إلى الحرية[(٣)].

٢- العتق يُنجي من النار:

عن أبي هريرةﷺ: عن النبي ﷺ قال: "من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار حتى فرجه بفرجه"[(٤)].

٣- العتق يرفع الدرجات:

عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول اللهﷺ: " أيما رجل كانت عنده وليدة-أي جارية- فعلَّمها، فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران، وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وأيما مملوك أدى حق مواليه وحق ربه فله أجران ". [(٥)]

---

(١) تفسير البغوي (٦/ ٤٣).

(٢) قال في الدر المنثور: أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر (٨/ ٥٢٣)، ولم أجده في مسند عبد بن حميد.

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٨٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٣٧)، ومسلم (١٥٠٩).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٩٥).

وقد يعتق امرأة ويكون العتق مهرًا لها. عن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ أعتق صفية وجعل عتقها صداقها[١].

*** الترهيب فيمن استرق حرًا بغير حق:**

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " قال الله ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل بَاعَ حرًا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره". [٢]

الوجه التاسع: حقوق الرقيق في الإسلام.

سعى الإسلام إلى إدماجهم في القبائل والعشائر والعصبيات التي كانوا فيها أرقاء، فأكسبهم عزتها وشرفها ومكانتها ومنعتها وما لها من إمكانات، وبذلك أنجز إنجازًا عظيمًا وراء وفوق التحرير عندما أقام نسيجًا اجتماعيًا جديدًا التحم فيه الأرقاء السابقون بالأحرار، فأصبح لهم نسب قبائلهم عن طريق - الولاء - الذي قال عنه الرسول ﷺ: "الولاء لُحْمَةٌ كلُحْمَة النسب". [٣] حتى لقد غدا أرقاء الأمس سادة في أقوامهم، بعد أن كانوا عبيدًا فيهم.

وقال عمر بن الخطاب وهو من هو في الحسب والنسب عن بلال الحبشي، الذي اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه: أبو بكر سيدنا أعتق سيدنا!. . كما تمنى عمر أن يكون سالم مولى أبى حذيفة حيًا فيختاره لمنصب الخلافة، فالمولى الذي نشأ رقيقًا، قد حرره الإسلام، فكان إمامًا في الصلاة وأهلًا بخلافة المسلمين[٤].

وهذه إشارات لبعض قواعد المعاملة المطلوبة عدلًا وإحسانًا مع هؤلاء:

- الرقيق هم أمثالنا في الآدمية:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٩٨)، ومسلم (١٣٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢١١٤).

(٣)أخرجه الدارمي في سننه (٣١٩٥)، وابن حبان في صحيحه (٤٩٥٠)، والحاكم (٤/ ٣٧٩)، وصححه، وصححه الألباني في الإرواء (٦/ ١٠٩).

(٤) شبهات المشككين (٦١٨).

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾، ففي قوله: ﴿مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي مملوكُكُم مِثْلُكم من جميع الوجوه إذا تحرَّرَ، ومثلُكم في الآدميَّةِ حالةَ الرِّق[1].

قد يصير العبد مثلكم من جميع الوجوه بل هو في الحال مثلكم في الآدميَّةِ حال الرق حتى إنكم ليس لكم تصرفٌ في روح وآدميته بقطع وقتل، وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة[2].

فالرق صفة زائلة عرضية: قال عمر بن علي النعماني: فكلمة أمة: ذاتٌ موصوفة بالرِّق، وصفة الرِّقِّ صفة زَائِلَةٌ[3].

- **الزواج وتكوين أسرة:**

كفالة الإسلام للعبد بتكوين أسرة يرعاها:

ففي قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ (النور: ٣٢) فالآية بها حث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء مع الرق[4].

- فلما ذُكر وعد الله مَن يزوج من العبيد الفقراء بالغنى، وكان من وسائل غناه أن يذهب يكتسب بعمله، وكان ذلك لا يستقل به العبد؛ لأنه في خدمة سيده جعل الله للعبيد حقًا في الاكتساب لتحرير أنفسهم من الرق ويكون في ذلك غنى للعبد إن كان من ذوي الأزواج. أمر الله السادة بإجابة من يبتغي الكتابة من عبيدهم تحقيقًا لمقصد الشريعة من بث الحرية في الأمة، ولمقصدها من إكثار النسل في الأمة، ولمقصدها من تزكية الأمة

(١) الدر المصون في علم الكتاب المكنون (١/ ٤٠٤٢).

(٢) اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٤٨٩).

(٣) السابق (٥/ ١٣١).

(٤) السابق (١٢/ ٩٥).

واستقامة دينها[١].

- **الزكاة:**

فعندما جعل الإسلام لتحرير العبيد نصيبًا من الصدقات، منع العبد أن يأخذ هذا النصيب ليتصرَّف فيه هو، فقد يأخذه ولا يفك رقبته به، كما أن المَدِين قد يُعطى مالًا ليتخلص من دينه، ثم هو يقبضه ولا يتخلص منه. بل يُوكَّل من ينوب عنهم في ذلك. فهذا يُبين محافظة الإسلام على تحرير العبد أكثر مما يحافظ العبد على طلب حريته:

قال الرازي: وأما ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ فيوضع نصيبهم في تخليص رقبتهم عن الرق، ولا يدفع إليهم ولا يمكنوا من التصرف في ذلك النصيب كيف شاؤوا، بل يوضع في الرقاب بأن يؤدي عنهم، وكذا القول في الغارمين يصرف المال في قضاء ديونهم[٢].

وإذا صار العبد مكاتبًا حل له أخذ الزكاة سواء أدى فعتق، أو عجز فعاد إلى الرق. والكتابة تبعثه على الاجتهاد في الكسب، ولولاها لم يكن ليفعل ذلك[٣].

- **الرقيق لهم أحقية في التعلم**

عن زينب بنت أبي سلمة أنها قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب، فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت منه جارية، ثم مست بعارضيها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا"[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٤٧٧).

(٢) تفسير الرازي (٨/ ٧٥).

(٣) اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٢٤)، ومسلم (١٤٦٨).

وقد رد التقي الغزي على من ينتقص من قدر الإمام أبي حنيفة لأنه كان من الموالي؛ قائلًا: فإن شرف العلم مُقدم على شرف النسب، وشرف الدين مقدم على شرف المنتسبين، وأكرم الناس عند الله أتقاهم، وما يضر العالم كونه من الموالي، وما ينفع الغوي الجاهل كونه حجازيًا، أو تميميًا، وهو لا يعرف اليمين من الشمال، ولا يفرق بين الهدى والضلال[١].

- العبادة:

وإنه ليس للأحرار منع العبيد من العبادة وقضاء الحاجة[٢].

- يقرر الإسلام مبدأ الإخوة بين السادة والعبيد:

قال تعالى: ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (النساء: ٢٥).

ففي قوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ موافق لقول رسول الله ﷺ: " إخوانكم خولكم". [٣]

أي: الذين يخولون أموركم - أي يصلحونها - من العبيد والخدم هم إخوانكم في الدين أو الآدمية.

- حرمة تعذيب العبد حتى ولو أخطأ:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ صارخًا، فقال له رسول الله ﷺ: " ما لك؟ قال: سيدي رآني أقبل جارية له، فجب مذاكيري فقال النبي ﷺ: "عليَّ بالرجل، فطلب، فلم يقدر عليه، فقال رسول الله ﷺ: "اذهب فأنت حر. قال: على من نصرتي يا رسول الله؟ قال يقول: أرأيت إن استرقني مولاي، فقال رسول الله ﷺ: "على كل مؤمن أو مسلم. [٤]

---

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ٤٣).

(٢) اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٤٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٦٨٠)، وأبو داود (٤٥١٩)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٧٤٤).

- الأمر بالإحسان إليهم:

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦).

- تنظيف العبيد والرعاية بهم:

عن عائشة، قالت: عثر أسامة بعتبة الباب فشج في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: "أميطي عنه الأذى، فتقذرته، فجعل يمص عنه الدم ويمجه عن وجهه، ثم قال: " لو كان أسامة جارية لحليته وكسوته حتى أنفقه"[١].

- حفظ كرامتهم والنهي عن سبهم :

عن المعرور بن سويد، قال: رأيت أبا ذر بالربذة، وعليه برد غليظ وعلى غلامه مثله قال: فقال القوم: يا أبا ذر، لو كنت أخذت الذي على غلامك فجعلته مع هذا فكانت حلة وكسوت غلامك ثوبًا غيره قال: فقال أبو ذر: إني كنت سابيت رجلًا -وكانت أمه أعجمية- فعيرته بأمه فشكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: " يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية قال: "إنهم إخوانكم فَضَّلَكُمُ الله عليهم، فمن لم يلائمكم فبيعوه، ولا تعذبوا خلق الله"[٢].

- المفاضلة بين السادة وبين العبيد عند الله لا تكون إلا بالتقوى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وعن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ. أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِي عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى ". [٣]

---

(١)أخرجه ابن ماجه (١٩٧٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٣)، ومسلم (١٦٦١)، واللفظ لأبي داود (٥١٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (/ ٤١١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٠٠).

- لا مانع أن يتقدم العبد على الحر في بعض الأشياء:

فيما يفضله فيه من شئون الدين والدنيا، وقد صحت إمامته في الصلاة، وكان لعائشة أم المؤمنين عبد يؤمها في الصلاة، بل لقد أُمِر المسلمون بالسمع والطاعة إذا ملك أمورهم عبدٌ!

-ولقد تزوج زيد بزينب بنت جحش، وجاء اسم زيد في القرآن صراحة كما في سورة الأحزاب: (٣٧) ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، ومنه: تأمير أسامة على الجيش.

-تحريم إطلاق لفظة العبد أو الأمة على الرقيق فقال رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ (سورة الأحزاب: ٥).

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي ادعوا الأدعياء –أي الذين جعلتموهم أبناءً لكم بالتبني- لآبائهم أي: انسبوهم لهم يا فلان بن فلان. فإن دعوتهم إلى آبائهم أقسط وأعدل في حكم الله وشرعه. ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ فادعوهم باسم الإخوة الإسلامية فقولوا: هذا أخي في الإسلام. ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي بنو عمكم فادعوهم بذلك فقولوا: يا بن عمي وإن كان الدعي ممن حررتموه فقولوا له مولاي[(١)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي"[(٢)].

وكان من نتيجة معاملة المسلمين للأرقاء هذه المعاملة، اندماج الأرقاء في الأسر الإسلامية إخوة متحابين، حتى كأنهم بعض أفرادها.

- ضمان الغذاء والكساء مثل أوليائهم:

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (٤١٧٧).

عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺقَالَ: قال رسول الله ﷺ: "هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمْ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ الله أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا يُكَلِّفُهُ مِنْ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ"(١).

- حفظ كرامتهم باعتبار إنسانيتهم:

عن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺيَقُولُ: "مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ"(٢).

وأعتق ابن عمر ﷺمملوكًا له، ثم أخذ من الأرض عودًا أو شيئًا فقال: ما لي فيه من الأجر ما يساوي! هذا سمعت رسول الله ﷺيقول: " مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ"(٣).

- العدل مع الرقيق والإحسان إليهم:

روى أن عثمان بن عفان ﷺدَعَك أُذُن عَبْدٍ له على ذنب فعله، ثم قال له بعد ذلك: تقدم واقرص أذني، فامتنع العبد فألح عليه، فبدأ يقرص بخفة، فقال له: اقرص جيدًا، فإني لا أتحمل عذاب يوم القيامة، فقال العبد: وكذلك يا سيدي: اليوم الذي تخشاه أنا أخشاه أيضًا.

وكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ إذا مشى بين عبيده لا يميزه أحد منهم؛ لأنه لا يتقدمهم، ولا يلبس إلا من لباسهم.

ومر عمر بن الخطاب ﷺ يومًا فرأى العبيد وقوفًا لا يأكلون مع سادتهم، فغضب، وقال لمواليهم: ما للقوم يستأثرون على خدامهم؟ ثم دعا الخدم فأكلوا معهم.

ودخل رجل على سلمان ﷺ فوجده يعجن - وكان أميرًا - فقال له: يا أبا عبد الله ما هذا؟! فقال بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين!

*** حقوق خاصة بالأمة في الإسلام:**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٥٧).

صفات توجب فضل الأمة على الحرة:

قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾. ولأمة مؤمنة مع ما فيها من خساسة الرق وقلة الخطر خير مما اتصفت بالشرك مع ما لها من شرف الحرّية ورفعة الشأن. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها(١).

الأمة لها أن تمتلك:

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

قال الإمام مالك: الآية على ظاهرها والمهر للأمة، وهذا يوجب كون الأمة مالكة مع أنه لا ملك للعبد فلا بد أن تكون مالكة له يدًا كالعبد المأذون له بالتجارة لأن جعلها منكوحة إذن لها فيجب التسليم إليهن كما هو ظاهر الآية.

والمعروف فيه أنه متعلق بآتوهن، والمراد: أدوا إليهن من غير مماطلة وإضرار، ويجوز أن يكون حالًا أي متلبسات بالمعروف غير ممطولات أو متعلقًا بأنكحوهن أي فانكحوهنّ بالوجه المعروف يعني بإذن أهلهنّ -أي مواليهن- ومهر مثلهنّ(٢).

عدم إكراههن على الحرام:

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: كَانَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيِّ ابْنُ سَلُولَ يَقُولُ لِجَارِيَةٍ لَهُ: اذهبي فَابْغِينَا شَيْئًا فَأَنْزَلَ الله: ﷻ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾ (النور: ٣٣).(٣)

---

(١) تفسير الآلوسي (٢/ ٢١٧).

(٢) تفسير الآلوسي (٤/ ٢١).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٢٩).

حرمة التفريق بين الجارية وولدها:

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، فَرَّقَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١).

بل يُسمح لها بالبحث عن ولدها إذا فقدته:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَدِمَ عَلَى النبي ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: "أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لاَ وَهْيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ. فَقَالَ: " الله أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا". (٢)

بل ومن حقوقها الخاصة التسري بها، ولكن بضوابط. وهذا مايدعونا أن نفصل الكلام عليه في الوجه القادم.

الوجه العاشر: التسري والحكمة منه

التسرِّي هو: اتخاذ مالك الأمة منها سُرِّيَّةِ يعاشرها معاشرة الأزواج في الشرع الإسلامي.

وكما لم يكن الرق والاسترقاق تشريعًا إسلاميًا مبتكرًا، ولا خاصية شرقية تميزت به الحضارات الشرقية عن غيرها من الحضارات، وإنما كان موروثًا اجتماعيًا واقتصاديًا إنسانيًا، ذاع وشاع في كل الحضارات الإنسانية عبر التاريخ. . فكذلك كان التسري الذي هو فرع من فروع الرق والاسترقاق نظامًا قديمًا ولقد جاء في المأثورات التاريخية المشهورة والمتواترة أن خليل الله إبراهيم ﷺ قد تسرى بهاجر المصرية، عندما وهبه إياها ملك مصر، ومنها وُلد له إسماعيل ﷺ. . فمارس التسري أبو الأنبياء، وولد عن طريق التسري نبي ورسول. . وكذلك جاء في المأثورات التاريخية أن نبي الله سليمان ﷺ قد تسرى

(١) أخرجه الترمذي (١٥٦٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٩٦).

(٢)أخرجه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤).

بثلاثمائة سرية!. . وكما شاع التسري عند العرب قبل الإسلام، فلقد مارسه، في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، غير المسلمين مثل المسلمين.

وإذا كان التسري، هو اتخاذ مالك الأمة منها سريّه، أي جعله لها موضعًا للوطء، واختصاصها بميل قلبي ومعاشرة جنسية، وإحصان واستعفاف. . فلقد وضع الإسلام له ضوابط شرعية جعلت منه زواجًا حقيقيًا، تشترط فيه كل شروط الزواج، وذلك باستثناء عقد الزواج؛ لأن عقد الزواج هو أدنى من عقد الملك، إذ في الأول تمليك منفعة، بينما الثاني يفضي إلى ملك الرقبة، ومن ثم منفعتها.

ولقد سميت الأمة التي يختارها مالكها سرية له سُميت " سُرِّيَّةِ "؛ لأنها موضع سروره، ولأنه يجعلها في حالٍ تسُرها دون سواها، أو أكثر من سواها. . فالغرض من التسري ليس مجرد إشباع غرائز الرجل، وإنما أيضًا الارتفاع بالأَمة إلى ما يقرب كثيرًا من مرتبة الزوجة الحرة. .

ولأن التسري مثله مثل الزواج من الحرائر. . فلقد اشترط الإسلام براءة رحم الأمة قبل التسري بها، فإباحة التسري قد جاء في آية إباحة الزواج: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾ (النساء: ٣). والتكليف الإسلامي بحفظ الفروج عام بالنسبة لمطلق الرجال والنساء، أحرارًا كانوا أم رقيقًا، مسلمين كانوا أم غير مسلمين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ (المؤمنون: ٥، ٦). . ولقد قال رسول الله ﷺ في سبايا -أوطاس - أي حنين: "لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة. . "(١).

(١) أخرجه أبو داود (٢١٥٧)، والدرامي (٢٢٩٥)، وأحمد (٢/ ٢٢٤)، وصححه الألباني كما في صحيح أبي داود (١٨٧٣)، وغيره.

وكذلك الحال مع المقاصد الشرعية والإنسانية من وراء التسري. . فهي ذات المقاصد الشرعية والإنسانية من وراء الزواج:

تحقيق الإحصان والاستعفاف للرجل والمرأة، وتحقيق ثبوت أنساب الأطفال لآبائهم الحقيقيين. . ففي هذا التسري كما يقول الفقهاء: استعفاف مالك الأمة. . وتحصين الإماء لكيلا يملن إلى الفجور، وثبوت نسب أولادهن. وأكاد ألمح في التشريع القرآني أمرًا إلهيًا بالإحصان العام للرجال والنساء، أحرارًا كانوا أو أرقاء. . ففي سياق التشريع لغض البصر، وحفظ الفروج، جاء التشريع للاستعفاف بالنكاح الزواج للجميع. . وجاء النهى عن إكراه الإماء على البغاء، لا بمعنى إجبارهن على الزنا فهذا داخل في تحريم الزنا، العام للجميع وإنما بمعنى تركهن دون إحصان واستعفاف بالزواج أو التسري أكاد ألمح هذا المعنى عندما أتأمل سياق هذه الآيات القرآنية: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(النور: ٣٠ - ٣٣).

فالتشريع للاستعفاف، والإحصان بالنكاح الزواج، والتسري عام وشامل للجميع. .

بل لقد جعل الإسلام من نظام التسري سبيلًا لتحقيق المزيد من الحرية للأرقاء، وصولًا إلى تصفية نظام العبودية والاسترقاق. . فأولاد السرية في الشرع الإسلامي، يولدون أحرارًا بعد أن كانوا يظلون أرقاء في الشرائع والحضارات غير الإسلامية والسرية، بمجرد أن تلد، ترتفع إلى مرتبة أرقى هي مرتبة " أم الولد " ثم تصبح كاملة الحرية بعد وفاة والد أولادها. . (١)

أما أنه وسيلة من وسائل التحرير فلأن الأمة حينما تكون مملوكة لمسلم فيجوز له أن يعاشرها معاشرة الزوجات، فإذا ولدت له ولدًا واعترف بالولد أنه ابنه أصبحت في نظر الشرع (أم ولد)، وفي هذه الحالة يحرم على السيد أن يبيعها، وإذا مات ولم يعتقها في حياته فإنها تصبح حرة بعد مماته مباشرةً. وكم من إماء في العصور السالفة تحررن بهذه الوسيلة، وكم رقيقة نعمت بالحرية حين أصبحن أمهات أولاد.

وأما أنه مأثرة عظيمة من مآثر الإسلام في تكريم المرأة؛ فلأن المرأة التي كانت تسترق في الحروب في غير بلاد المسلمين كان عرضها نهبًا مباحًا لكل طالب على طريقة البغاء، بل كانت منهوكة الكرامة رخيصة العرض مهدرة الحقوق.

أما استرقاقها في ظل النظام الإسلامي فيختلف عما كانت تلقاه قبل الإسلام من ذل ومهانة واستهتار، فالإسلام قد حفظ لها حقها وصان لها عرضها وشرفها، فهي ملك يمين لصاحبها فقط لا يجوز لغير مالكها أن يدخل عليها، ويعاشرها معاشرة الزوجات اللهم إلا إذا أذن لها بالزواج تزوجت، فعندئذ لا يحل لمالكها أن يقربها ولا أن يخلو بها، وجعل من حقها نيل الحرية بالمكاتبة إن شاءت، وتُحرر بعد موت مالكها إن كانت أم ولد، ويُحرر معها ولدها، عدا عما يجب أن تتلقاه من السيد من حسن معاملة وكرم معاشرة كما أمرت

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (٦٢٢- ٦٢٥)بتصرف.

شريعة الإسلام، بهذه المعاملة تستشعر المرأة كيانها وتحس بوجودها وتظل عزيزة مكرمة في ظل مبادئ الإسلام. (١)

١- الرحمة بالأمة بقضاء حاجتها من شهوته.

٢- أن وطأها قد يجر لها مزيدًا من عناية سيدها فيعتني بغذائها وكسوتها ونظافتها وما إلى غير ذلك.

٣- الإرفاق بالمسلم الذي قد يعجز عن مؤونة الحرائر من النساء، فرخص في وطء الإماء تخفيفًا عليه ورحمة به.

٤- إعدادها لتصبح أم ولد فتعتق بموت سيدها.

أحكام أم الولد:

أم الولد شرعًا هي الأمة التي ولدت من سيدها. (٢)

وقد اتفق أهل العلم على أن أمة الرجل إذا حملت منه، فإن الولد يتحرر في بطن أمه، مع أن العبرة في رق الولد برق الأم، وحرية الوالد لا تقتضي حرية الولد، فلم يكن عتق الولد من جهة كون الأب حرًا، وإنما كان من جهة أن الولد لو علق رقيقًا، لكان ملكًا للوالد، ولا يثبت الملك للوالد على الولد أصلًا(٣). ولأم الولد عشرة أحكام: خمسة منها كأحكام الحرائر، وخمسة منها كأحكام الإماء.

أما الخمسة الأولى: فأحدها: لا يجوز بيعها، والثاني: لا يجوز هبتها، والثالث: لا يجوز رهنها.

والرابع: لا يجوز التصدق بها، والخامس: لا يجوز دفعها في الجناية.

أما الخمسة الأخرى: فأحدها: يجوز وطؤها، والثاني: يجوز استخدامها، والثالث: يجوز عتقها، والرابع: يجوز تزويجها، وهو أن يستبرئها بحيضة ثم يتزوجها.

---

(١) نظام الرق في الإسلام (٦٣-٦٤).

(٢) مطالب أولي النهى (٤/ ٧٦٧).

(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٣).

والخامس: يجوز أن يكاتبها فتؤدي كتابتها[(١)].

المقارنة بين التسري في الإسلام وبين ما في أوربا الآن من كثرة البغاء والبغايا:

كان الإسلام قد أباح للسيد أن يكون عنده عدد من الجواري من سبى الحرب يستمتع بهن وحده، ويتزوج منهن أحيانًا إذا شاء. وأوروبا تستنكر هذا اليوم وتتعفف عن هذه الحيوانية البشعة التي تعتبر الجواري متاعًا مباحًا، وأجسادًا لا حرمة لها ولا كرامة، كل مهمتها في الحياة إشباع لذة بهيمية بغيضة، لرجل لا يرتفع عن مستوى الحيوان.

١- أسيرات الحرب في أوربا لا عائل لهن: قد كانت أسيرات الحرب في البلاد الأخرى يهوين إلى حمأة الرذيلة بحكم أنه لا عائل لهن، ولأن سادتهن لا يشعرن نحوهن بحمية العرض، فيشغلونهن في هذه المهمة البغيضة، ويكسبون من هذه التجارة القذرة: تجارة الأعراض. ولكن الإسلام لم يقبل البغاء، وحرص على حفظ المجتمع نظيفًا من الجريمة، فقصر هؤلاء الجواري على سيدهن، عليه إطعامهن وكسوتهن وحفظهن من الجريمة، وإرضاء حاجتهن الجنسية - عرضًا - وهو يقضي حاجته.

٢- جواري أمس عفيفات وجواري اليوم بغايا: أباحت أوربا البغاء ومنحته رعاية القانون وحمايته! وراحت تنشره عامدة في كل بلد وطئته أقدامها مستعمرة. فما الذي تغير من الرق حين تغير عنوانه؟ وأين كرامة البغي وهي لا تملك رد طالب - وما يطلبها أحد إلا لأقذر معنى يمكن أن تهبط إليه البشرية: دفعة الجسد الخالصة التي لا تلطفها عاطفة، ولا ترتفع بها روح؟ وأين من هذه القذارة الحسية والمعنوية ما كان بين السادة والجواري في الإسلام؟

لقد كان الإسلام صريحًا مع نفسه ومع الناس، فقال: هذا رق. وهؤلاء جوار. وحدود معاملتهن هي كذا وكذا. ولكن الحضارة المزيفة لا تجد في نفسها هذه الصراحة، فهي لا تسمي البغاء رقًا، وإنما تقول عنه إنه ضرورة اجتماعية!

٣- اعتبار البغاء في أوربا ضرورة اجتماعية أسوأ حالًا من اعتبار التسري ضرورة اجتماعية:

---

(١) فتاوى السعدي (١/ ٣١٤).

البغاء في أوربا ضرورة اجتماعية: لأن الرجل الأوربي المتحضر لا يريد أن يعول أحدًا: لا زوجة ولا أولادًا. يريد أن يستمتع دون أن يتحمل تبعة. يريد جسد امرأة يفرغ فيه شحنة الجنس. ولا يعنيه من تكون هذه المرأة، ولا تعنيه مشاعرها نحوه ولا مشاعره نحوها. فهو جسد ينزو كالبهيمة، وهي جسد يتلقى هذه النزوة بلا اختيار، ويتلقاها لا من واحد بعينه، ولكن من أي عابر سبيل.

هذه هي الضرورة الاجتماعية التي تبيح استرقاق النساء في الغرب في العصر الحديث. وما هي بضرورة لو ارتفع الرجل الأوربي إلى مستوى الإنسانية، ولم يجعل لأنانيته كل هذا السلطان عليه.

- والدول التي ألغت البغاء في الغرب المتحضر لم تلغه لأن كرامتها أوجعتها، أو لأن مستواها الخلقي والنفسي والروحي قد ارتفع عن الجريمة. كلا! ولكن لأن الهاويات قد أغنين عن المحترفات. ولم تعد الدولة في حاجة إلى التدخل!

وبعد ذلك يجد الغرب من التبجح ما يعيب به نظام الجواري في الإسلام، ذلك النظام الذي كان قبل ألف وثلاثمائة عام - وعلى أنه نظام غير مطلوب له الدوام - أكرم بكثير وأنظف بكثير من النظام الذي يقوم اليوم في القرن العشرين، وتعتبره المدنية نظامًا طبيعياً، لا يستنكره أحد، ولا يسعى في تغييره أحد، ولا يمانع أحد في أن يظل باقيًا إلى نهاية الحياة!

٤- البغايا قد تكن مكرهات على البغاء، كما يُظن أن التسري فيه إكراه السيد لجاريته على الجماع:

ولا يقل قائل إن هؤلاء الهاويات يتطوعن دون إكراه من أحد، وهن مالكات لحريتهن الكاملة. فالعبرة بالنظام الذي يدفع الناس بأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية إلى قبول الرق أو الوقوع فيه. ولا شك أن الحضارة الأوربية هي التي تدفع إلى البغاء وتقره، سواء كان البغاء الرسمي، أو بغاء المتطوعات الهاويات!.

تلك قصة الرق في أوربا حتى القرن العشرين: رق الرجال والنساء والأمم والأجناس. رق متعدد المنابع متجدد الموارد، في غير ضرورة ملجئة، اللهم إلا خسة الغرب وهبوطه عن المستوى اللائق لبني الإنسان.[(١)]

الوجه الحادي عشر: حسن معاملة النبي ﷺ والمسلمين مع الرقيق والأسرى.

أحوال النبي ﷺ مع الرقيق

- قبل البعثة:

- فإن في ذلك دلالة واضحة على أن النبي ﷺ كان مستقرًا في نفسه أهمية تحرير العبيد من قيود الرق، وأن تقييد الحرية بالرق بغير حق لم يكن ذلك من صفته ﷺ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[(٢)].

فإن زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأن أعتقه من الرق، وكان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية وأعتقه، لذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾.[(٣)] ولقد اختار من قبل الرق مع رسول الله ﷺ على حريته وقومه.

بعد البعثة:

والنبي ﷺ مَنَّ على أهل مكة، فإن الأسير يجوز المن عليه للمصلحة، وأعطاهم مع ذلك ذراريهم وأموالهم، كما مَنَّ على هوازن لما جاؤوا مسلمين بإحدى الطائفتين: السبي أو المال، فاختاروا السبي فأعطاهم السبي، وكان ذلك بعد القسمة، فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم، وكان قد قسم المال فلم يرده عليهم، وقريش لم تحاربه كما حاربته

(١) شبهات حول الإسلام (١/ ٥٢، ٥٠، ٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٠٩).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٠٤).

هوازن، وهو إنما مَنَّ على مَنْ لم يقاتله منهم كما قال: من أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فلما كف جمهورهم عن قتاله، وعرف أنهم مسلمون أطلقهم، ولم يغنم أموالهم ولا حريمهم، ولم يضرب الرق لا عليهم ولا على أولادهم، بل سماهم الطلقاء من قريش، بخلاف ثقيف، فإنهم سموا العتقاء، فإنه أعتق أولادهم بعد الاسترقاق والقسمة، وكان في هذا ما دل على أن الإمام يفعل بالأموال والرجال والعقار والمنقول ما هو أصلح، فإن النبي ﷺ فتح خيبر فقسمها بين المسلمين، وسبى بعض نسائها، وأقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك، فلم يسترقهم، ومكة فتحها عنوة ولم يقسمها لأجل المصلحة.

ولو فتح الإمام بلدًا وغلب على ظنه أن أهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، كما فعل النبي ﷺ بأهل مكة، فإنهم أسلموا كلهم بلا خلاف، بخلاف أهل خيبر فإنه لم يسلم منهم أحد، فأولئك قسم أرضهم؛ لأنهم كانوا كفارًا مصرين على الكفر، وهؤلاء تركها لهم؛ لأنهم كلهم صاروا مسلمين(١).

أحوال النبي مع الرقيق والإماء:

١- مساعدتهم في الخلاص من الرق:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَدْرٌ وَأُحُدٌ - قَالَ - ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: " كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ "، فَكَاتَبْتُ صاحبي عَلَى ثَلاثِمِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺلأَصْحَابِهِ: "أَعِينُوا أَخَاكُمْ"، فأعانوني بِالنَّخْلِ الرَّجُلُ بِثَلاثِينَ وَدِيَّةً، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسِ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ يَعْنِي الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلاثُمِائَةِ وَدِيَّةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: "اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَائْتِنِي أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بيدي، فَفَقَّرْتُ لَهَا، وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مَعِي إِلَيْهَا، فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الوَدِيّ، وَيَضَعُهُ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (٥/ ٤٧٦).

رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ، فَوَ الذي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ، فَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ الْمَغَازِي، فَقَالَ: "مَا فَعَلَ الفارسي الْمُكَاتَبُ؟. قَالَ: فَدُعِيتُ لَهُ فَقَالَ: "خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ، فَقُلْتُ: وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ الله مِمَّا عَلَيَّ؟ قَالَ: " خُذْهَا فَإِنَّ الله ﷻ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ. قَالَ: فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا –وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ- أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ، وَعُتِقْتُ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ الْخَنْدَقَ ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ"(١).

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعتق من جاءه من العبيد قبل مواليهم إذا أسلموا، وقد أعتق يوم الطائف رجلين. (٢)

يردفهم النبي خلفه:

عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: رَدِفْتُ رَسُولَ الله ﷺ مِنْ عَرَفَاتٍ(٣).

زيارتهم في بيوتهم:

عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَى مَوْلًى لَهُ خَيَّاطًا، فَأُتِيَ بِدُبَّاءٍ فَجَعَلَ يَأْكُلُهُن فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّهُ مُنْذُ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَأْكُلُهُ(٤).

أحوال الصحابة مع الرقيق:

فقد روي عن أبي بكر أنه كان يعطي الأحرار والعبيد. وروينا عن عمر قوله: (إلا ما ملكت أيمانكم)، فهو يتأول على وجهين، أحدهما: ما ذهب إليه أبو عبيد أن الاستثناء يرجع إلى مماليك بأعيانها كانوا شهدوا بدرًا، وروى بإسناده عن مخلد الغفاري: أن مملوكين

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٦) بسند حسن لغيره.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٥٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠١٣).

أو ثلاثة لبني غفار شهدوا بدرًا، فكان عمر يعطي كل رجل منهم في كل سنة ثلاثة آلاف درهم. قال: فأحسب أنه أراد هؤلاء المماليك(١).

ويروى أنّ مكاتبًا قام إلى أبي موسى الأشعري وهو يخطب الناس يوم الجمعة فقال له: أيها الأمير حثّ الناس عليّ، فحث أبو موسى، فألقى الناس ملاءة وعمامة وخاتمًا حتى ألقوا عليه سوادًا كثيرًا، فلمّا رأى أبو موسى ما ألقى الناس، قال أبو موسى: اجمعوه فجُمع، ثم أمر به فبيع فأعطى المكاتب مكاتبته، ثم أعطى الفضل في الرقاب، ولم يردّه على الناس، وقال إنما أعطى الناس في الرقاب(٢).

يعترضون فيسمع لقولهم:

عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ فَرَخَّصَ، فَقَالَ لَهُ مَوْلًى لَهُ: إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الْحَالِ الشَّدِيدِ، وَفِي النِّسَاءِ قِلَّةٌ أَوْ نَحْوَهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ(٣).

أحوال الصحابة مع العبيد:

عكرمة مولى ابن عباس، العلامة، الحافظ، المفسر، أبو عبد الله القرشي، مولاهم، المدني، البربري الأصل.

كان لحصين بن أبي الحر العنبري، فوهبه لابن عباس.

عن عكرمة أن ابن عباس قال: انطلق فأفت الناس، وأنا لك عون قال: انطلق فأفتهم، فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه، فلا تفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤنة الناس(٤).

نساء النبي يهتممن بالعتق توجيهًا من النبي ﷺ:

---

(١) شرح السنة للإمام البغوي (١١/ ١٤٠)، وجامع الأصول في أحاديث الرسول (٢/ ٣٨٤).

(٢) تفسير الثعلبي (١/ ١٠٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٤).

(٤) انظر سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢- ٣٦).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَرَادَتْ أَنْ تَشْتَرِيَ بَرِيرَةَ لِلْعِتْقِ، وَأَرَادَ مَوَالِيهَا أَنْ يَشْتَرِطُوا وَلَاءَهَا، فَذَكَرَتْ عَائِشَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: "اشْتَرِيهَا فَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ"، قَالَتْ: وَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِلَحْمٍ، فَقُلْتُ: هَذَا مَا تُصُدِّقَ بِهِ عَلَى بَرِيرَةَ، فَقَالَ: "هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ"(١).

عن ميمونة بنت الحارث أنها أعتقت وليدة في زمان رسول الله ﷺ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك. (٢)

أحوال النبي ﷺ مع الأسرى:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ (الأنفال: ٧٠ -٧١)، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، وظاهر الآية على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم امتناع القتل بعد الأسر، وبه قال الحسن.

وفي حكم الأسارى خلاف، فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخيار:

١- إن شاء قتلهم إن لم يسلموا؛ لأنه ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط صبرًا. وطعيمة بن عدى. والنضر بن الحارث التي قالت فيه أخته أبياتًا تخاطب النبي ﷺ منها:

ما كان ضرك لو مننت وربما   من الفتى وهو المغيظ المحنق

وإن في قتلهم حسم مادة فسادهم بالكلية.

- وليس لأحد من الغزاة أن يقتل أسيرًا بنفسه، فإن فعل بلا ملجيء كخوف شر الأسير: كان للإمام أن يعزره إذا وقع على خلاف مقصوده، ولكن لا يضمن شيئًا.

٢- وإن شاء استرقهم؛ لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٦١)، ومسلم (١٥٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٤)، ومسلم (٩٩٩).

٣- وإن شاء تركهم ذمة أحرارًا للمسلمين كما فعل عمرﷺ ذلك في أهل السواد، الأسارى مشركي العرب والمرتدين؛ فإنهم لا تقبل منهم جزية، ولا يجوز استرقاقهم، بل الحكم فيهم إما الإسلام أو السيف، وإن أسلم الأسارى بعد الأسر لا يقتلهم؛ لاندفاع شرهم بالإسلام، ولكن يجوز استرقاقهم، فإن الإسلام لا ينافي الرق جزاء على الكفر الأصلي، وقد وجد بعد انعقاد سبب الملك وهو الاستيلاء على الحربي غير المشرك من العرب، بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحرارًا؛ لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم، ولا يفادي بالأسارى في إحدى الروايتين عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله لما في ذلك من معونة الكفر؛ لأنه يعود الأسير الكافر حربًا علينا، ودفع شر حرابته خير من استنقاذ المسلم؛ لأنه إذا بقي في أيديهم كان ابتلاء في حقه فقط، والضرر بدفع أسيرهم إليهم يعود على جماعة المسلمين[1].

والرواية الأخرى عنه أنه يفادي وهو قول محمد. وأبي يوسف. والإمام الشافعي. ومالك. وأحمد إلا بالنساء، فإنه لا يجوز المفاداة بهن عندهم، ومنع أحمد المفاداة بصبيانهم، وهذه رواية السير الكبير، قيل: وهو أظهر الروايتين عن الإمام أبي حنيفة، وقال أبو يوسف: تجوز المفاداة بالأسارى قبل القسمة لا بعدها، وعند محمد تجوز بكل حال. ووجه ما ذكره الأئمة من جواز المفاداة أن تخليص المسلم أولى من قتل الكافر للانتفاع به، ولأن حرمته عظيمة، وما ذكر من الضرر الذي يعود إلينا بدفعه إليهم يدفعه ظاهرًا المسلم الذي يتخلص منهم؛ لأنه ضرر شخص واحد فيقوم بدفعه واحد مثله ظاهرًا فيتكافآن وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى فإن فيها زيادة ترجيح.

ثم إنه قد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ: أخرج مسلم. وأبو داود. والترمذي. وعبد بن حميد. وابن جرير عن عمران بن حصين "أن رسول الله ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين "، ويحتج لمحمد بما أخرجه مسلم أيضًا عن إياس بن سلمة عن أبيه

---

(١) تفسير الآلوسي (١٩/ ١٠١).

سلمة قال: خرجنا مع أبي بكر رضي الله عنه أمره علينا رسول الله ﷺ إلى أن قال: فلقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: يا سلمة، هب لي المرأة -يعني التي نفله أبو بكر إياها - فقلت: يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبًا، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: " يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك " فقلت: هي لك يا رسول الله فوالله ما كشفت لها ثوبًا فبعث به رسول الله ﷺ، ففدى بها ناسًا من المسلمين أسروا بمكة، ولا يفادي بالأسير إذا أسلم وهو بأيدينا؛ لأنه لا يفيد إلا إذا طابت نفسه وهو مأمون على إسلامه، فيجوز لأنه يفيد تخليص مسلم من غير إضرار بمسلم آخر، وأما المفاداة بمال فلا تجوز في المشهور من مذهب الحنفية لما بين في المفاداة بالمسلمين من ردهم حربًا علينا.

وفي السير الكبير أنه لا بأس به إذا كان بالمسلمين حاجة، قيل: استدلالًا بأسارى بدر فإنه لا شك في احتياج المسلمين، بل في شدة حاجتهم إذ ذاك فليكن محمل المفاداة الكائنة في بدر بالمال، وأما المن على الأسارى وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز عند أبي حنيفة. ومالك. وأحمد، وأجازه الإمام الشافعي؛ لأنه ﷺ منّ على جماعة من أسرى بدر منهم أبو العاص بن أبي الربيع على ما ذكره ابن إسحق بسنده. وأبو داود من طريقه إلى عائشة لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنائه عليها، فلما رأى النبي ﷺ ذلك رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه: "إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرنا وتردوا لها الذي لها "، ففعلوا ذلك مغتبطين به، ورواه الحاكم وصححه وزاد: "وكان النبي ﷺ قد أخذ عليه أن يخلي زينب إليه ففعل"، ومنّ ﷺ على ثمامة بن أثال بن النعمان الحنفي سيد أهل اليمامة، ثم أسلم وحسن إسلامه، وحديثه في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ويكفي ما ثبت في (صحيح البخاري) من قوله عليه الصلاة والسلام: " لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى يعني أساري بدر لتركتهم له "، فإنه ﷺ أخبر وهو الصادق المصدوق بأنه يطلقهم لو

سأله المطعم، والإطلاق على ذلك التقدير لا يثبت إلا وهو جائز شرعًا لمكان العصمة، وكونه لم يقع لعدم وقوع ما علق عليه لا ينفي جوازه شرعًا.

واستدل أيضًا بالآية التي نحن فيها فإن الله تعالى خير فيها بين المن والفداء، والظاهر أن المراد بالمن الإطلاق مجانًا؛ وكون المراد المن عليهم بترك القتل وإبقاءهم مسترقين أو تخليتهم لقبول الجزية وكونهم من أهل الذمة خلاف الظاهر، وبعض النفوس يجد طعم الإلاء أحلى من هذا المن.

وأجاب بعض الحنفية بأن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ (التوبة: ٥)، فإنه يقتضي عدم جواز المن، وكذا عدم جواز الفداء وهي آخر سورة نزلت في هذا الشأن، وزعم أن ما وقع من المن والفداء إنما كان في قضية بدر وهي سابقة عليها وإن كان شيء من ذلك بعد بدر فهو أيضًا قبل السورة.

والقول بالنسخ جاء عن ابن عباس. وقتادة. والضحاك. ومجاهد في روايات ذكرها الجلال السيوطي في (الدر المنثور)، وقال العلامة ابن الهمام: قد يقال إن ذلك يعني ما في سورة براءة في حق غير الأسارى بدليل جواز الاسترقاق فيهم، فيعلم أن القتل المأمور به في حق غيرهم، وما ذكره في جواز الاسترقاق ليس على إطلاقه إذ لا يجوز كما علمت استرقاق مشركي العرب ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أي آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره.[1]

وهذا صلاح الدين عامل الأسرى الصليبيين بالعفو وقبول الفداء بعد أن انتصر عليهم في معركة حطين الحاسمة، ولو أراد قتلهم لكان ذلك عدلًا على مبدأ المعاملة بالمثل، لكون الصليبيين قتلوا من المسلمين في يوم واحد في الحرب الصليبية الأولى أكثر من سبعين ألف أسير، ورحم الله من قال:

ملكنا فكان العفو منا سجيةً　　　فلما ملكتم سال بالدم أبطح

(١) تفسير الآلوسي (١٩/ ١٠٢).

وحللتم قتل الأسارى وطالما غدونا عن الأسرى نعف ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

وهذا ما فعله الخليفة العثماني السلطان (محمد الفاتح) حينما اصطلح مع دول العالم في معاهدة دولية على إلغاء استرقاق الأسرى في الحرب، ومنذ ذلك الحين تعارفت الدول على هذا الاصطلاح، وحرَّم الاسترقاق في الحرب.

الوجه الثاني عشر: أهمية الموالي في بناء الدولة الإسلامية.

- مساعدة النبي ﷺ في هجرته:

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِي ﷺ قَالَتْ: لَحِقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنْ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ[1].

- صانع منبر رسول الله ﷺ كان مولىً:

عن أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَأَلُوا سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ الْمِنْبَرُ؟ فَقَالَ: مَا بَقِيَ بِالنَّاسِ أَعْلَمُ مِنِّي. هُوَ مِنْ أَثْلِ الْغَابَةِ عَمِلَهُ فُلَانٌ مَوْلَى فُلَانَةَ لِرَسُولِ الله ﷺ، وَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ عُمِلَ، وَوُضِعَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ كَبَّرَ، وَقَامَ النَّاسُ خَلْفَهُ[2].

- منهم من كان في مرتبة أئمة للمسلمين في صلاتهم:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ الْعُصْبَةَ مَوْضِعٌ بِقُبَاءٍ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ كَانَ يَؤُمُّهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤).

- **ولاة على البلاد:**

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ اسْتَعْمَلَ مَوْلًى لَهُ يُدْعَى هُنَيًّا عَلَى الْحِمَى فَقَالَ: يَا هُنَيُّ، اضْمُمْ جَنَاحَكَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَأَدْخِلْ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ وَرَبَّ الْغُنَيْمَةِ، وَإِيَّايَ وَنَعَمَ ابْنِ عَوْفٍ، وَنَعَمَ ابْنِ عَفَّانَ، فَإِنَّهُمَا إِنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا يَرْجِعَا إِلَى نَخْلٍ وَزَرْعٍ، وَإِنَّ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ وَرَبَّ الْغُنَيْمَةِ إِنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا يَأْتِنِي بِبَنِيهِ فَيَقُولُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. أَفَتَارِكُهُمْ أَنَا لاَ أَبَا لَكَ فَالْمَاءُ وَالْكَلأُ أَيْسَرُ عَلَيَّ مِنَ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَايْمُ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَيَرَوْنَ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُهُمْ، إِنَّهَا لَبِلاَدُهُمْ فَقَاتَلُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَسْلَمُوا عَلَيْهَا فِي الإِسْلاَمِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ الْمَالُ الَّذِي أَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا حَمَيْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ بِلاَدِهِمْ شِبْرًا[٢].

الموالي أصبحوا سادة وملوكًا في الدولة الإسلامية

عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري قال: قدمت على عبد الملك بن مروان، فقال لي: من أين قدمت يا زهري؟ قلت: من مكة، قال: فمن خلفت يسود أهلها؟ قال: قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: وبم سادهم، قال: قلت: بالديانة، والرواية، قال: إن أهل الديانة، والرواية لينبغي أن يسودوا، فمن يسود أهل اليمن؟ قال: قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: وبم سادهم، قال: قلت: بما سادهم به عطاء، قال: إنه لينبغي، فمن يسود أهل مصر؟ قال: قلت: يزيد بن أبي حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي، قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قال: قلت: مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قال: قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣١).

قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: ويلك، فمن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهري، فرجت عني، والله ليسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر، والعرب تحتها، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد، ومن ضيعه سقط(١).

كتبة: عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ سَالِمٍ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ الله، وَكَانَ كَاتِبَهُ قَالَ: كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الله بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ"(٢).

قُراء للقرآن: عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ فَبَدَأَ بِهِ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ". (٣)

حملة الحديث: عدد الموالي الذين حدثوا بأحاديث في الكتب الستة هم: ثلاثمائة وعشرون مولىً.

الوجه الثالث عشر: لماذا لم يُحرم الإسلام الرق تحريمًا قطعيًا، كتحريمه للخمر؟.

قال الرازي: الإنسان مخلوق لخدمة الله تعالى وعبوديته، فإذا تمرد عن طاعة الله تعالى عوقب بضرب الرق عليه، فإذا أزيل الرق عنه تفرغ لعبادة الله تعالى، فكان ذلك عبادة مستحسنة. (٤)

---

(١) تاريخ دمشق (٤٠/ ٣٩٣)، والنور السافر عن أخبار القرن العاشر (١/ ١٦٤)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٨١)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٢٤).

(٤) تفسير الرازي (٦/ ١٧٧).

فكانت نظرة الإسلام لعدم تحريم الرق تحريمًا قطعيًا لاعتبارات كثيرة: عالمية، وسياسية، ونفسية، واجتماعية، وتشريعية. وإليك تفصيلها:

أولًا: الاعتبارات العالمية:

فالأوضاع الاجتماعية المعقدة تحتاج إلى تعديل شامل لمقوماتها وارتباطاتها قبل تعديل ظواهرها وآثارها، فقد كان الأمر أمر وضع اجتماعي اقتصادي، وأمر عرف دولي وعالمي في استرقاق الأسرى وفي استخدام الرقيق، والعرف الدولي يحتاج إلى اتفاقات دولية ومعاهدات جماعية. فلقد وجد الإسلام الرق نظامًا عالميًا يقوم عليه الاقتصاد العالمي. ووجد استرقاق الأسرى عرفًا دوليًا يأخذ به المحاربون جميعًا. . فلم يكن بد أن يتريث في علاج الوضع الاجتماعي القائم والنظام الدولي الشامل.

وقد اختار الإسلام أن يجفف منابع الرق وموارده حتى ينتهي بهذا النظام كله - مع الزمن - إلا الإلغاء، دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها ولا قيادتها. وذلك مع العناية بتوفير ضمانات الحياة المناسبة للرقيق، وضمان الكرامة الإنسانية في حدود واسعة. بدأ بتجفيف موارد الرق فيما عدا أسرى الحرب الشرعية ونسل الأرقاء. . ذلك أن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين حسب العرف السائد في ذلك الزمان. وما كان الإسلام يومئذ قادرًا على أن يجبر المجتمعات المعادية على مخالفة ذلك العرف السائد، الذي تقوم عليه قواعد النظام الاجتماعي والاقتصادي في أنحاء الأرض. ولو أنه قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان هذا إجراء مقصورًا على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين، بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيئ في عالم الرق هناك. وفي هذا إطماع لأعداء الإسلام في أهل الإسلام.[1]

قال عبد الله ناصح علوان: الإسلام جاء والرق معترف به في جميع أنظمة العالم، بل كان عملة اقتصادية متداولة وضرورة اجتماعية هامة لا يستنكرها أحد، ولا يمكن أن

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢١٠).

يفكر في إمكان تغييرها إنسان في العالم ولا سيما نظام استرقاق أسرى الحرب، ويصبح الرق نظامًا عالميًا قائمًا وعملة اقتصادية متداولة وضرورة اجتماعية هامة، وبعد أن تمت المرحلة التي ألغى فيها الرق مَن يدري؟ لعله يأتي يوم يعود فيه نظام الاسترقاق.

فلا يعقل والحال هذه أن يقف الإسلام مكتوف اليدين تجاه هذا الحدث الجديد، بل سيسير على مبدأ المعاملة بالمثل، ويتخذ من الوسائل والتدابير ما يغير هذا النظام أو يلغيه، وهذا يحتاج إلى زمن مطرد ووقت طويل، ويحتاج إلى أن يفهم الناس حقيقة الإسلام ونظرته الكلية الشاملة في الكون والحياة والإنسان، ويحتاج أيضًا إلى أن يتذوق المستعبدون معنى العزة الآدمية وحقيقة الكرامة الإنسانية ليطالبوا بعد هذا التذوق والاستشعار بتحريرهم من الذل، وتخليصهم من العبودية.(١)

ثانيًا: الاعتبارات السياسية:

ولا شك أن الإمام حينما ينظر للأمر بعين الحكمة والمصلحة وحينما ينظر للقضية النظرة السياسية العميقة الشاملة ليعامل الأسرى على أساسها، فلا بد أن يصل في نهاية المطاف إلى الحل الأسلم والمصلحة المتوخاة، فلا يبعد أن يعامل الأسرى على أساس القتل إذا رأى حالة المسلمين في تزعزع وضعف، ولا يبعد أن يعامل الأسرى على أساس المن أو الفداء إذا رأى حالة المسلمين في مركز نفوذ وقوة، ولا يبعد أن يعامل الأسرى على أساس الاسترقاق إذا رأى الأعداء يسترقون أسرانا معاملة بالمثل، وهكذا يفعل الإمام ما يرى فيه مصلحة سياسية وضرورة حربية وحاجة مالية.(٢)

ثالثًا: الاعتبارات النفسية:

فالمقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿تَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن

---

(١) الإسلام والرق (٧١).

(٢) المصدر السابق (٧٢).

التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير.[1]

قال عبد الله ناصح علوان: وسبق أن ألمحنا أيضًا أن الإسلام قبل أن يحرر الرقيق من عالم الواقع حرره من داخل النفس وأعماق الضمير لكي يحس بكيانه وكرامته فيطلب بنفسه الحرية، وحينما يطلبها يجد التشريع خير ضامن لهذه الحرية وخير كافل لتحقيقها، وهذا ما بيناه مفصلًا في العتق بالمكاتبة.

و (إبراهام لنكولن) خير شاهد لما نقول، فالعبيد الذين حررهم (لنكولن) من الخارج بالتشريع لم يطيقوا الحرية وعادوا إلى سادتهم يرجونهم أن يقبلوهم عبيدًا كما كانوا، لأنهم من الداخل في الضمير لم يكونوا تحرروا بعد، ولم يكونوا استشعروا بلذة الآدمية وكرامة الإنسانية بتحريرهم الفجائي.

بينما الإسلام يختلف كثيرًا عن الأنظمة الاجتماعية الأخرى في معاملة الرقيق، فالإسلام يعامل الرقيق في ظل عبوديته معاملة إنسانية سمحة حتى إذا تذوق هذه المعاملة واستشعرها طالب بحريته في ظل التشريع وخرج من عبوديته، وهو أكرم إنسانًا، وأسمى شعورًا ووجدًانًا، وأفضل كرامة وكيانًا، وهنا تتجلى الحكمة في إبقاء الإسلام الرقيق على الرق ريثما يحس بوجوده ويستشعر بكيانه، فعندئذ يطالب عن طريق المكاتبة بحريته في الوقت الذي يريد وفي الحال الذي يناسبه، من أجل هذا الاعتبار لم يلغ الإسلام الرق نهائيًا بمرسوم فاصل ونص قاطع.

أما الاعتبارات الاجتماعية:

فقد يكون في وجود الرق أحيانًا مصلحة اجتماعية كبرى كأن يكون وجوده تطهير المجتمع من فوضى الجنس والإباحية، وتيارات الميوعة والانحلال، فمن لم يستطع الزواج من حرة مثلًا لغلاء المهر تزوج من أَمَة أو ملك يمين اشتراها، ليشبع غريزته من حلال

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٩٢).

ويعصم نفسه بملك اليمين، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ . . . فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾إلى أن يقول: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٢٥-٢٧).

ومن المعلوم أن استرقاق المرأة في ظل النظام الإسلامي يجعلها ملكًا لصاحبها فقط لا يدخل عليها أحد غيره، وجعل من حقها نيل الحرية بالمكاتبة، وتُحرر كذلك حين تلد لسيدها ولدًا بعد موت السيد مباشرةً، عدا ما تلقاه من كفالة ورعاية وحسن معاملة في بيت سيدها كما أمر الإسلام.

بينما استرقاقها في غير بلاد الإسلام عرضة كما مر لانتهاك عرضها وامتهان كرامتها، بل يصبح عرضها نهبًا لكل طالب على طريقة البغاء فضلًا عما تلقاه من معاملة سيئة وهوان ظاهر ملموس.

إذن يكون من الاسترقاق أحيانًا مصلحة اجتماعية واعتبارًا أخلاقيًا وفائدة تكافلية إنسانية رحيمة لا يعقلها إلا العالمون.

أما الاعتبارات التشريعية:

فهي لا تخفى على كل ذي عقل وبصيرة، فالقضاء على الرق في نظام الإسلام لم يكن طفرة، ولم يكن بنزول نص قاطع من السماء يحرمه، وإنما بالتدرج التشريعي والتطور الزمني الذي ينتهي في نهاية المطاف إلى مرحلة تشبه الإلغاء دون إثارة ضجة أو إحداث أزمة.

لذلك نقول:

١-لا يليق بشريعة الله العادلة التي نزلت لتحفظ للإنسان نفسه وعرضه وماله، لا يليق بها أن تفرض على الناس الخروج من أموالهم بالجملة.

٢- كما أنه ليس في صالح الكثير من الأرقاء التحرر، إذ من النساء والأطفال وحتى الرجال أنفسهم من لا يستطيع أن يكفل نفسه بنفسه لعجزه عن الكسب وجهله بمعرفة طرقه، فكان بقاؤه مع سيده المسلم الذي يطعمه مما يطعم، ويكسوه مما يلبس ولا يكلفه ما

لا يطيق خيرًا ألف مرة من إقصائه عن البيت الذي كان يحسن إليه ويرحمه إلى جحيم القطيعة والحرمان.

الوجه الرابع عشر: الأرقاء المعاصرون قد يصلون إلى حالة أسوأ من الأرقاء الغابرين.

قال عبد الله ناصح علوان: هل في العالم اليوم رق؟

صحيح أن الثورة الفرنسية ألغت الرق في أوروبا، وصحيح أن (لنكولن) ألغى الرق في أمريكا، ثم اتفق العالم بعد هذا وذاك على إبطال الرق.

صحيح أنه حصل كل هذا، ولكن علينا أن لا ننخدع بالأسماء وأن لا نغتر بالشعارات، وإلا فأين هو الرق الذي أُلغي؟ وما يمكن أن نسمي ما يحدث اليوم في كل أنحاء العالم؟ وما اسم الذي كانت تصنعه فرنسا في المغرب الإسلامي؟ وما اسم الذي تصنعه أمريكا في الزنوج، وإنجلترا في الملونين في جنوب إفريقيا، وروسيا في البلاد الإسلامية التي تحت سلطتها.

أليس الرق في حقيقته -كما يقول محمد قطب- هو تبعية قوم لقوم آخرين، وحرمان طائفة من البشر من الحقوق المباحة لآخرين؟ أم هو شيء غير ذلك؟ ، وماذا يعني أن يكون هذا تحت عنوان الرق، أو تحت عنوان الحرية والإخاء والمساواة؟ ماذا تجدي العناوين البراقة إذا كانت الحقائق التي ورائها هي أخبث ما عرفته البشرية من الحقائق في تاريخها الطويل.

لقد كان الإسلام صريحًا مع نفسه ومع الناس فقال هذا رق، وسببه الوحيد هو كذا والطريق إلى التحرر منه مفتوح، والطريق إلى إنهائه إذا اقتضى الأمر موجود، أما الحضارة الزائفة التي نعيش اليوم في أحضانها فلا تجد في نفسها هذه الصراحة، فهي تعرف براعتها في تزييف الحقائق وطلاء اللافتات البراقة، فقد قُتل مئات الألوف في تونس والجزائر ومراكش، لا لشيء سوى أنهم يطالبون بالحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية، وقُتل مئات الألوف في أفريقيا للغرض نفسه ليعيشوا في بلادهم أسيادًا مكرمين يعتقدون

عقيدتهم ويتكلمون لغتهم ولا يخدمون إلا أنفسهم، وقُتل مئات الألوف من المسلمين في روسيا لكونهم لا يقبلون عقيدة روسيا الإلحادية ونظامها الشيوعي الماركسي، قتل هؤلاء الأبرياء وحبسهم في السجون القذرة بلا طعام ولا ماء وانتهاك أعراضهم والسطو على نسائهم، وقتلهن عاريات وشق بطونهن للتراهن على نوع الجنين، هذا ما يسمونه في القرن العشرين حضارة ومدنية تحت شعارات زائفة: الحرية والإخاء والمساواة، ونحن نسميه عبودية وظلمًا واسترقاقًا من نوع جديد.

أما المعاملة المثالية الكريمة التي كان يمنحها الإسلام للرقيق قبل ثلاثة عشر قرنًا تطوعًا منه وإكرامًا للجنس البشري في جميع حالاته فهذا اسمه في نظر الحاقدين تأخر وانحطاط وهمجية، وحين يضع الأمريكان على فنادقهم ونواديهم لافتات (للبيض فقط)، أو تقول في وقاحة كريهة (ممنوع دخول السود والكلاب).

وحين يفتك جماعة من البيض برجل ملون يضربونه بأحذيتهم حتى يسلم الروح، ورجل البوليس واقف لا يتحرك ولا يتدخل ولا يهتم لنجدة أخيه في الوطن وفي الدين وفي اللغة، كل ذلك لأنه وهو ملون تجرأ فمشى إلى جانب أمريكية بيضاء، ويكون هذا أقصى ما وصل إليه القرن العشرون من التحضر والارتفاع والتقدمية، وقصة الملونين في إفريقية وحرمانهم من حقوقهم البشرية وقتلهم واصطيادهم حسب تعبير الجرائد الإنكليزية الوقحة؛ لأنهم تجرءوا فأحسوا بكرامتهم وطالبوا بحريتهم، هذا هو العدل في قمته، وتجيز برفعها المزيف، وطرحها الخادع الوصاية على العالم.

ودع عنك استرقاق الدولة الشيوعية لأفراد شعبها أو استرقاقها لأبناء المسلمين الواقعين تحت سيطرتها ونفوذها، فإنه وصمة عار على جبين الإنسانية، بل همجية واستعباد وتسلط لم يشهد مثله التاريخ.

اسألوا عن هذه الهمجية والاستعباد والتسلط، خنادق القتل الجماعي، ومسابح حمامات الدم التي تسيطر عليها الشيوعية اليوم هنا وهناك، لقد أبادت الصين الشيوعية

وروسيا الشيوعية من المسلمين ستة عشر مليونًا بمعدل مليون في السنة، لقد نكلت يوغوسلافيا الاشتراكية بالمسلمين أشد تنكيل حتى أبادت مليون منذ الفترة التي صارت فيها اشتراكية شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم، وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي ماضية حتى الآن.

وما يجري في يوغوسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية الآن في هذا الزمان، وكم سمعنا عن مجازر شيوعية أليمة وقعت في اليمن الجنوبية وفي أفغانستان الآن، وفي كل مكان لهم فيه نفوذ وسلطان، وكم سمعنا في الماضي عن مجازر الشيوعية في العراق، وعن فتكهم وإجرامهم في مدينة الموصل في عهد عبد الكريم قاسم، وعن حوادث السحل والسجن، والقتل والتمثيل بالدعاة المؤمنين.

هذا فيما يتعلق في استرقاق الفكر والعقيدة، أما فيما يتعلق في استرقاق الحرية والإرادة فحدث عنها ولا حرج. فالإنسان الذي يعيش تحت حكم الشيوعية في أي مكان لا يملك حرية اختيار العمل الذي يريده، ولا المكان الذي يعمل فيه، ولا يملك أن يُدلي برأيه ولا أن ينتقد أي اعوجاج.[1]

إذًا فما الفرق بين الحر والعبد في الإسلام؟.

١- لقد ذهب الإسلام فساوى بين العبد والحر في كل الحقوق الدينية، فالمساواة تامة في التكاليف الدينية، وفى الحساب والجزاء.

٢- وساوى بين العبد والحر في أغلب الحقوق المدنية

٣- وكان التمييز فقط، في أغلب حالاته بسبب التخفيف عن الأرقاء مراعاة للاستضعاف والقيود التي يفرضها الاسترقاق على الإرادة والتصرف. . .

٤- وشهادة الرقيق معتبرة في بعض المذاهب الإسلامية عند الحنابلة

(١) نظام الرق في الإسلام (٨٣).

٥- وله حق الملكية في ماله الخاص، وإعانته على شراء حريته بنظام المكاتبة والتدبير مرغوب فيها دينيًا ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ (النور: ٣٣).

٦- والدماء متكافئة في القصاص.

٧- بل ومطلوب من السيد أيضًا إلغاء كلمة العبد والأمة واستبدالها بكلمة الفتى والفتاة.

- وبعد أن كان الرق من أكبر مصادر الاستغلال والثراء لملاك العبيد، حوّله الإسلام بمنظومة القيم التي كادت أن تسوى بين العبد وسيده إلى ما يشبه العبء المالي على ملاك الرقيق.[1]

بل لقد مضى الإسلام في هذا السبيل إلى ما هو أبعد من تحرير الرقيق، فلم يتركهم في متاهة عالم الحرية الجديد دون عصبية.

الوجه الخامس عشر: الرق في الكتاب المقدس.

والكتاب المقدس ذكر الاستعباد هذا عند العجز عن الديون صراحة كما في (متى ١٨: ٢٥) (وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُوفِي أَمَرَ سَيِّدُهُ أَنْ يُبَاعَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَأَوْلاَدُهُ وَكُلُّ مَا لَهُ، وَيُوفَي الدَّيْنُ).

وبالعودة إلى الكتاب المقدس سنجد تقنين الإله لبيع الأب لابنته بنص صريح فيقول: (الخروج ٢١: ٧): (وَإِذَا بَاعَ رَجُلٌ ابْنَتَهُ أَمَةً، لاَ تَخْرُجُ كَمَا يَخْرُجُ الْعَبِيدُ) ووجدنا إله الكتاب المقدس يسمح حتى للإسرائيلي أن يملك أخاه الإسرائيلي بسبب الفقر، ولكن فقط يحسن معاملته ولا يعامله كما يعامل العبيد المستعبدين بسبب الفقرمن غير اليهود، ويظل خادمًا له خمسين سنة!

وأما الأمم الأخرى من غير بني إسرائيل فيكون استعبادهم وإذلالهم أبديًا! ! (وَإِذَا افْتَقَرَ أَخُوكَ عِنْدَكَ وَبِيعَ لَكَ، فَلاَ تَسْتَعْبِدْهُ اسْتِعْبَادَ عَبْدٍ. ٤٠ كَأَجِيرٍ، كَنَزِيل يَكُونُ عِنْدَكَ. إِلَى سَنَةِ الْيُوبِيلِ يَخْدِمُ عِنْدَكَ، ٤١ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِكَ هُوَ وَبَنُوهُ مَعَهُ وَيَعُودُ إِلَى عَشِيرَتِهِ، وَإِلَى مُلْكِ آبَائِهِ

---

(١) شبهات المشككين (٦١٨).

يَرْجِعُ. ٤٢ لأَنَّهُمْ عَبِيدِي الَّذِينَ أَخْرَجْتُهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ يُبَاعُونَ بَيْعَ الْعَبِيدِ. ٤٣ لاَ تَتَسَلَّطْ عَلَيْهِ بِعُنْفٍ، بَلِ اخْشَ إِلهَكَ. ٤٤ وَأَمَّا عَبِيدُكَ وَإِمَاؤُكَ الَّذِينَ يَكُونُونَ لَكَ، فَمِنَ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَكُمْ. مِنْهُمْ تَقْتَنُونَ عَبِيدًا وَإِمَاءً. ٤٥ وَأَيْضًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْتَوْطِنِينَ النَّازِلِينَ عِنْدَكُمْ، مِنْهُمْ تَقْتَنُونَ وَمِنْ عَشَائِرِهِمِ الَّذِينَ عِنْدَكُمُ الَّذِينَ يَلِدُونَهُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَيَكُونُونَ مُلْكًا لَكُمْ. ٤٦ وَتَسْتَمْلِكُونَهُمْ لأَبْنَائِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ مِيرَاثَ مُلْكٍ. تَسْتَعْبِدُونَهُمْ إِلَى الدَّهْرِ. وَأَمَّا إِخْوَتُكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلاَ يَتَسَلَّطْ إِنْسَانٌ عَلَى أَخِيهِ بِعُنْفٍ.) (لاويين ٢٥: ٣٩.)

وهذا وجدناه فالاختطاف بالتلصص والقرصنة، والهجوم على المدن المسالمة بلا دعوة إلى الله ولا دفع لضرر، وإنما بغرض الغدر والاستعباد والقتل المجرد في كثير من نصوص التوراة منها: (وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ، وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَسْلاَبٍ، فَاغْنَمُوهَا لأَنْفُسِكُمْ، وَتَمَتَّعُوا بِغَنَائِمِ أَعْدَائِكُمُ الَّتِي وَهَبَهَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ لَكُم (تثنية ٢٠: ١٤) (وَأَخَذَ دَاوُدُ أَيْضًا سَرَارِيَ وَنِسَاءً مِنْ أُورُشَلِيمَ بَعْدَ مَجِيئِهِ مِنْ حَبْرُونَ، فَوُلِدَ أَيْضًا لِدَاوُدَ بَنُونَ وَبَنَاتٌ.) (صموئيل الثاني ٥: ١٣).

وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ مِدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَنَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ، وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَمْلاَكِهِمْ. ١٠ وَأَحْرَقُوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ. ١١ وَأَخَذُوا كُلَّ الْغَنِيمَةِ وَكُلَّ النَّهْبِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ (العدد٣١: ٩)

(فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا. ١٨ لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ) (العدد ٣١: ١٧).

(٣٢ وَكَانَ النَّهْبُ فَضْلَةُ الْغَنِيمَةِ الَّتِي اغْتَنَمَهَا رِجَالُ الْجُنْدِ: مِنَ الْغَنَمِ سِتَّ مِئَةٍ وَخَمْسَةً وَسَبْعِينَ أَلْفًا، ٣٣ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ أَلْفًا، ٣٤ وَمِنَ الْحَمِيرِ وَاحِدًا وَسِتِّينَ أَلْفًا، ٣٥ وَمِنْ نُفُوسِ النَّاسِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ، جَمِيعِ النُّفُوسِ اثْنَيْنِ وَثَلاَثِينَ أَلْفًا) (العدد٣١: ٢٢).

ففي كل هذه النصوص وقع القتل للأبرياء من الأطفال والاستعباد للشعوب والتسري بنسائهم، بل وبأطفالهم الإناث بيد أن هذه المعارك لم تكن كما أسلفنا بسبب خطر شكلته هذه الممالك، أو رفضهم الدعوة إلى الله، أو رفضهم الخضوع لحكم الله بدفع الجزية، بل كانت غدرًا مقصودًا وقتلًا متعمدًا أصلًا، ولذلك وجدنا إله الكتاب المحرف - ونقصد بذلك الصفات والتعاليم التي نسبوها للإله ببهتهم -والله إله التوراة والإنجيل الحق منها براء -يغدر ولا يفي بالعهد فيأمر بني إسرائيل أن يدعو من يذهبوا إليهم من الأمم للصلح؛ فإن قبلوا يغدرا بهم ويستعبدونهم، وإن أبوا الصلح يقتلون، فأين المفر إذًا؟!

اقرأ في (سفر التثنية٢٠/ ١٠-١٥): (حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، ١١فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ. ١٢وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. ١٣وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. ١٤وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. ١٥هكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هؤُلاَءِ الأُمَمِ هُنَا).

كيفية معاملة غير المسلمين للرقيق، وتحليل الكتاب المقدس للرق:

١- فـ (أرسطو) من الأقدمين، يرى أنهم غير مخلدين، لا في عذاب، ولا في نعيم، بل هم كالحيوانات. [1]

٢- موقف الرومان من الرقيق:

ففظائع الرق الروماني في العالم القديم لم يعرفها قط تاريخ الإسلام، ومراجعة بسيطة للحالة التي كان يعيش عليها الأرقاء في الإمبراطورية الرومانية، كفيلة بأن ترينا النقلة الهائلة التي نقلها الإسلام للرقيق، حتى لو لم يكن عمل على تحريره – وهذا غير صحيح-!

(١) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام للبسام (٢/ ٢٤٦).

* كان الرقيق في عرف الرومان شيئًا لا بشرًا. شيئًا لا حقوق له البتة، وإن كان عليه كل ثقيل من الواجبات.

* ولنعلم أولًا من أين كان يأتي هذا الرقيق. كان يأتي من طريق الغزو. ولم يكن هذا الغزو لفكرة ولا لمبدأ. وإنما كان سببه الوحيد شهوة استعباد الآخرين وتسخيرهم لمصلحة الرومان.

فلكي يعيش الروماني عيشة البذخ والترف، يستمتع بالحمامات الباردة والساخنة، والثياب الفاخرة، وأطايب الطعام من كل لون، ويغرف في المتاع الفاجر من خمر ونساء ورقص وحفلات ومهرجانات، كان لا بد لكل هذا من استعباد الشعوب الأخرى وامتصاص دمائها.

-ومصر مثلٌ لذلك حين كانت في قبضة الرومان، قبل أن يخلصها من نيرانهم الإسلام. إذ كانت حقل قمح للإمبراطورية، وموردًا للأموال. ففي سبيل هذه الشهوة الفاجرة كان الاستعمار الروماني، وكان الرق الذي نشأ من ذلك الاستعمار. أما الرقيق فقد كانوا – كما ذكرنا – أشياء ليس لها كيان البشر ولا حقوق البشر. كانوا يعملون في الحقول وهم مصفدون في الأغلال الثقيلة التي تكفي لمنعهم من الفرار. ولم يكونوا يُطْعَمون إلا إبقاء على وجودهم ليعملوا، لا لأن من حقهم – حتى كالبهائم والأشجار – أن يأخذوا حاجتهم من الغذاء. وكانوا – في أثناء العمل – يساقون بالسوط، لغير شيء إلا اللذة الفاجرة التي يحسها السيد أو وكيله في تعذيب هذه المخلوقات. ثم كانوا ينامون في زنزانات مظلمة كريهة الرائحة تعيث فيها الحشرات والفئران، فيلقون فيها عشرات عشرات قد يبلغون خمسين في الزنزانة الواحدة – بأصفادهم – فلا يتاح لهم حتى الفراغ الذي يتاح بين بقرة وبقرة في حظيرة الحيوانات.

ولكن الشناعة الكبرى كانت شيئًا أفظع من كل ذلك، وأدل على الطبيعة الوحشية التي ينطوي عليها ذلك الروماني القديم، والتي ورثها عنه الأوربي الحديث في وسائل الاستعمار والاستغلال.

- تلك كانت حلقات المبارزة بالسيف والرمح، وكانت من أحب المهرجانات إليهم، فيجتمع إليها السادة وعلى رأسهم الإمبراطور أحيانًا، ليشاهدوا الرقيق يتبارزون مبارزة حقيقية، توجه فيها طعنات السيوف والرماح إلى أي مكان في الجسم بلا تحرز ولا احتياط من القتل، بل كان المرح يصل إلى أقصاه، وترتفع الحناجر بالهتاف والأكف بالتصفيق، وتنطلق الضحكات السعيدة العميقة الخالصة حين يقضي أحد المتبارزين على زميله قضاء كاملًا، فيلقيه طريحًا على الأرض فاقد الحياة!

ذلك كان الرقيق في العالم الروماني. ولا نحتاج أن نقول شيئًا عن الوضع القانوني للرقيق عندئذ، وعن حق السيد المطلق في قتله وتعذيبه واستغلاله دون أن يكون له حق الشكوى، ودون أن تكون هناك جهة تنظر في هذه الشكوى أو تعترف بها، فذلك لغو بعد كل الذي سردناه.

٣- ولم تكن معاملة الرقيق في فارس والهند وغيرها، تختلف كثيرًا عما ذكرنا من حيث إهدار إنسانية الرقيق إهدارًا كاملاً، وتحميله بأثقل الواجبات دون إعطائه حقًا مقابلها، وإن كانت تختلف فيما بينها قليلًا أو كثيرًا في مدى قسوتها وبشاعتها. [1]

٤ - موقف اليهود من الرقيق:

- ينقسم البشر عند اليهود إلى قسمين: بنو إسرائيل قسم، وسائر البشر قسم آخر.

فأما بنو إسرائيل فيجوز استرقاق بعضهم حسب تعاليم معينة نص عليها العهد القديم.

وأما غيرهم، فهم أجناس منحطة عند اليهود، يمكن استعبادها عن طريق التسلط والقهر، لأنهم سلالات كتبت عليها الذلة باسم السماء من قديم، جاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج (٢- ١٢) ما نصه: (إِذَا اشْتَرَيْتَ عَبْدًا عِبْرَانِيًّا، فَسِتَّ سِنِينَ يَخْدِمُ، وَفِي السَّابِعَةِ يَخْرُجُ حُرًّا مَجَّانًا. ٣إِنْ دَخَلَ وَحْدَهُ فَوَحْدَهُ يَخْرُجُ. إِنْ كَانَ بَعْلَ امْرَأَةٍ، تَخْرُجُ امْرَأَتُهُ مَعَهُ. ٤إِنْ أَعْطَاهُ سَيِّدُهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ بَنِينَ أَوْ بَنَاتٍ، فَالْمَرْأَةُ وَأَوْلاَدُهَا

(١) الإسلام والرق- محمد قطب.

يَكُونُونَ لِسَيِّدِهِ، وَهُوَ يَخْرُجُ وَحْدَهُ. ٥وَلكِنْ إِنْ قَالَ الْعَبْدُ: أُحِبُّ سَيِّدِي وَامْرَأَتِي وَأَوْلاَدِي، لاَ أَخْرُجُ حُرًّا، ٦يُقَدِّمُهُ سَيِّدُهُ إِلَى اللهِ، وَيُقَرِّبُهُ إِلَى الْبَابِ أَوْ إِلَى الْقَائِمَةِ، وَيَثْقُبُ سَيِّدُهُ أُذْنَهُ بِالْمِثْقَبِ، فَيَخْدِمُهُ إِلَى الأَبَد).

*أما استرقاق غير العبراني فهو بطريق الأسر والتسلط؛ لأنهم يعتقدون أن جنسهم أعلى من جنس غيرهم، ويلتمسون لهذا الاسترقاق سندًا من توراتهم المحرفة، فيقولون: إن حام بن نوح – وهو أبو كنعان- كان قد أغضب أباه، لأن نوحًا سكر يومًا ثم تعرى وهو نائم في خبائه، فأبصره حام كذلك، فلما علم نوح بهذا بعد استيقاظه غضب، ولعن نسله الذين هم كنعان، وقال – كما في التوراة في -سفر التكوين- إصحاح (٩/ ٢٥- ٢٦): (مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». ٢٦وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ). وفي الإصحاح نفسه (٢٧): يَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُم).

٥- موقف النصرانية من الرقيق:

* جاءت النصرانية فأقرت الرق الذي أقره اليهود من قبل، فليس في الإنجيل نص يحرمه أو يستنكره.

والغريب أن المؤرخ (وليم موير) يعيب نبينا محمدًا ﷺ بأنه لم يبطل الرق حالًا، مع تغاضيه عن موقف الإنجيل من الرق، حيث لم ينقل عن المسيح، ولا عن الحواريين ولا عن الكنائس شيئًا في هذه الناحية.

* بل كان بولس يوصي في رسائله بإخلاص العبيد في خدمة سادتهم، كما قال في رسالته إلى أهل إفسس. الإصحاح السادس (٥-٩): (أَيُّهَا الْعَبِيدُ، أَطِيعُوا سَادَتَكُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، فِي بَسَاطَةِ قُلُوبِكُمْ كَمَا لِلْمَسِيحِ ٦لاَ بِخِدْمَةِ الْعَيْنِ كَمَنْ يُرْضِي النَّاسَ، بَلْ كَعَبِيدِ الْمَسِيحِ، عَامِلِينَ مَشِيئَةَ اللهِ مِنَ الْقَلْبِ، ٧خَادِمِينَ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ كَمَا لِلرَّبِّ، لَيْسَ لِلنَّاسِ. ٨عَالِمِينَ أَنْ مَهْمَا عَمِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَيْرِ فَذلِكَ يَنَالُهُ مِنَ الرَّبِّ، عَبْدًا كَانَ أَمْ حُرًّا).

وفي المعجم الكبير للقرن التاسع عشر (لاروس): (لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم، فإن نواب الدين الرسميين يقرون صحته ويسلمون بمشروعيته.

والخلاصة: أن الدين المسيحي ارتضى الاسترقاق تمامًا، إلى يومنا هذا، ويتعذر على الإنسان أن يثبت أنه سعى في إبطاله.

* وأقر القديسون أن الطبيعة جعلت بعض الناس أرقاء.

فرجال الكنيسة لم يمنعوا الرق ولا عارضوه، بل كانوا مؤيدين له، حتى جاء القديس الفيلسوف توماس الأكويني فضم رأي الفلسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين، فلم يعترض على الرق بل زكاه لأنه - على رأي أستاذه أرسطو - حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب. (١)

وجاء في قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج يوسف: إن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي ولا من وجهها الاقتصادي، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية، حتى ولا المباحثة فيها، ولم تقل شيئًا ضد حقوق أصحاب العبيد، ولا حركت العبيد إلى طلب الاستقلال، ولا بحثت عن مضار العبودية، ولا عن قساوتها، ولم تأمر بإطلاق العبيد حالًا، وبالإجماع لم تغير النسبة الشرعية بين المولى والعبد بشيء، بل بعكس ذلك فقد أثبتت حقوق كل من الفريقين، وواجباته.

٤ - قانون الرق عند أوربا:

- إن الرق في الإسلام يتميز عن جميع طوائف العالم، وأن قانون الرق في أوروبا كان ينص على منع السيد من عتق رقيقه إلا بإذن الحاكم، وكان يستوجب أسر الأفراد لأوهى الأسباب، أما الإسلام فلم يجز استرقاق الإنسان إلا في أرض المعركة حينما يحاد الله ورسوله، ويقف سدًا منيعًا أمام زحف الإسلام إلى الناس فيؤخذ أسيرًا.

---

(١) حقائق الإسلام للعقاد (٢١٥).

- فالشريعة تتلمس الأسباب للعتق، بخلاف القوانين الأخرى، فإنه يشمئز الإنسان أن يوردها، كانوا يبيحون لأنفسهم إطلاق السباع الجارحة المفترسة على العبد في ميدانٍ ليتفرجوا كيف يفترسه الأسد! ولا أحد يمنعهم من ذلك، والقانون يبيح لهم ذلك! وهذه أمة لطمها سيدها في حالة غضب أسفًا على الشاة التي أكلها الذئب، فيتأسف ويسأل عن عتقها، فيقول له ﷺ: "أعتقها". (١)

وأين دولة الإسلام الرحيمة، التي جعلت الناس على اختلاف طبقاتهم وأديانهم وأجناسهم- أمة واحدة في مالَهَا وما عَليها، مما فعلته فرنسا-المجرمة- بأحرار الجزائر، في بلادهم وبين ذويهم؟! إنها دعاوى باطلة.

بعد هذا، ألم يَأنِ للمصلحين ومُحِبِّي السلام أن يبعدوا عن أعينهم الغشاوة، فيراجعوا تعاليم الإسلام بتدبر وإنصاف، ليجدوا ما فيه من سعادة الإنسانية في حاضرها ومستقبلها؟! (٢)".

* * *

(١) شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم (٢٢٤/ ١٣).

(٢) تيسير العلام شرح عمدة الحكام للبسام (٢/ ٢٤٨).

١٠- شبهات حول الحدود في الإسلام

أولًا: مقدمة في تعريف الحد، وأهداف إقامة الحدود في الإسلام.

تعريف الحدود:

الحد في اللغة: المنع، ولذا سمي البواب حدادًا لمنعه الناس عن الدخول، وسميت العقوبات حدودًا؛ لكونها مانعةً من ارتكاب أسبابها، وحدود الله محارمه؛ لأنها ممنوعة، بدليل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة: ١٨٧).

وحدود الله أيضًا: أحكامه أي: ما حده وقدره، فلا يجوز أن يتعداه الإنسان، وسميت حدودًا؛ لأنها تمنع عن التخطي إلى ما ورائها، بدليل قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وأنها تَحُدُّ أي: تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها، ولأنها نهايات نهى الله عن تعديها، وهي أيضًا: المنع والفصل بين الشيئين، فكأن حدود الشرع فصلت بين الحلال، والحرام. [١]

- الحد في الشرع: عقوبة مقدرة وجبت حقًا لله تعالى. [٢]

على من يقام الحد؟ لا يقام الحد إلا على بالغ عاقل عالم بالتحريم. [٣]

أما البلوغ والعقل فلا خلاف في اعتبارهما في وجوب الحد وصحة الإقرار؛ لأنهما قد رفع القلم عنهما قال ﷺ: " رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ ". [٤]، وفي حديث ابن عباس في قصة ماعز أن النبي

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢١٢)، وسبل السلام (٤/ ٣)، والبدائع (٧/ ٣٣)، والمبسوط (٩/ ٣٦)، وتبيين الحقائق للزيلعي (٤/ ٣)، ولسان العرب (٣/ ١٤٠)، والفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ٣٤٨)، والمجموع (٢٠/ ٣)، ونيل الأوطار (٧/ ٢٣٠)، والفقه الإسلامي وأدلته (٦/ ١٢).

(٢) التعريفات للجرجاني (١١٣).

(٣) المغني لابن قدامة (١٠/ ١١٩).

(٤) صححه الألباني في مختصر إرواء الغليل (٢٠٣٤).

ﷺ سأل قومه: " أمجنون هو؟ " قالوا ليس به بأس. [(١)]، وعنه أن النبي ﷺ قال له حين أقر عنده " أبك جنون "[(٢)].

وروى أبو داود بإسناده قال: أُتِيَ عمر بمجنونة قد زنت، فاستشار فيها أناسًا، فأمر عمر بها أن ترجم، فمر بها علي بن أبي طالب فقال: ما شأن هذه؟ فقالوا: مجنونة بني فلان زنت فأمر بها عمر أن ترجم، فقال: ارجعوا بها، ثم أتاه فقال يا أمير المؤمنين: أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ قال: بلى، قال: فما بال هذه ترجم؟ قال: لا شيء، قال: فأرسِلْها، قال: فجعل عمر يكبر. [(٣)]، ولأنه إذا سقط عنه التكليف في العبادات والإثم في المعاصي فالحد المبني على الدرء بالشبهات أولى بالإسقاط. [(٤)]

جرائم الحدود[(٥)]

وقد قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة، تسمى (جرائم الحدود).

وهذه الجرائم هي: الزنا، والقذف، والسرقة، والسكر، والمحاربة، والرِّدة، والبغي، فعلى من ارتكب جريمة من هذه الجرائم عقوبة محددة، قررها الشارع.

فعقوبة جريمة الزنا:

الجلد للبكر، والرجم للثيب، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ (النساء: ١٥).

---

(١) أخرجه أبوداود(٤٤٢١)، وصحح الألباني إسناده في الإرواء (٢٣٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٠)، ومسلم (١٦٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٩٩)، وقال الألباني: قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وانظر إرواء الغليل (٢/ ٥).

(٤) الشرح الكبير على المغني (١٠/ ١١٩).

(٥) فقه السنة (٣/ ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥).

والرسول ﷺ يقول: " خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ ". (١)

وعقوبة جريمة القذف:

ثمانون جلدة، يقول الله سبحانه﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور: ٤).

وعقوبة جريمة السرقة:

قطع اليد، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ (المائدة: ٣٨).

وعقوبة جريمة الفساد في الأرض:

القتل أو الصلب أو النفي، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ (المائدة: ٣٣).

وعقوبة جريمة السكر: ثمانون جلدة، أو أربعون.

وعقوبة الردة: القتل، لقول رسول الله ﷺ: " من بدل دينه، فاقتلوه ". (٢)

وعقوبة جريمة البغي:

القتل، لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ (الحجرات: ٩)

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٧).

ولقول رسول الله ﷺ: "إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهْيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ ". (١)

الحدود الإسلامية تحمي الضروريات الخمسة للإنسان:

المقاصد الخمسة التي لم تخلو من رعايتها ملة من الملل ولا شريعة من الشرائع هي (الدين، والنفس، والنسل أو العرض، والمال، والعقل)، وحفظ هذه المقاصد من الضروريات(٢) في الشريعة الإسلامية، فتقرر لذلك الحدود لحماية هذه المقاصد الخمسة والضرورية في حياة الإنسان، ولأن الدنيا التي يعيش فيها الإنسان تقوم على هذه المصالح ولا تتوافر معاني الحياة الإنسانية الكريمة إلا إذا توافرت هذه الأمور، وهي من تكريم الله للإنسان إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء: ٧٠)

فهذا التكريم يقتضي وجود الأمور الخمسة والمحافظة عليها ومنع أي اعتداء يمتد إليها بتقرير العقاب الصارم ينزل بمن يقع منه الاعتداء(٣).

فالدين هو أعز ما يملكه الإنسان، ودين المسلم أعز عليه وأقدس من كل ما عداه – وهو بالنسبة لمجتمع المسلمين الوطن الحقيقي وقد وضع الله (الدين) في كفه وما عداه من مقدمات الحياة كلها في كفه، ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (التوبة: ٢٤).

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٢).

(٢) الموافقات (١/ ٢٨)، والإحكام للآمدي (٣/ ٢٤٠).

(٣) تنظيم الإسلام للمجتمع، نظام الأسرة والعقوبات – د/ رمزي نعناعة (١٠١).

واعتبر القرآن فتنة المؤمن عن دينه أكبر من قتله وأشد﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧)، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ١٩١).

والدين هو أول الحرمات، والمقدم قبل جميع المقدسات، والعدوان عليه في شخص المؤمن به فتنة أو إكراهًا أكبر من العدوان على ذات نفسه[1].

فهو محفوظ بشرع الزواجر عن الردة والمقاتلة مع أهل الحرب، وقد نبه الله تعالى بقوله ﴿ قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (التوبة: ٢٩)، فحفظ الدين بشرعية القتل بالردة والقتال للكفار[2].

وحفظ النفس بشرعية القصاص؛ فإنه لولا ذلك لتهارج الخلق واختل نظام المصالح، فحفظ النفس بشرع القصاص، وقد نبه الله تعالى عليه بقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٩). [3]

وحفظ العقل: بشرعية الحد على شرب المسكر؛ فإن العقل هو قوام كل فعل تتعلق به مصلحة فاختلاله يؤدي إلى مفاسد عظيمة، فحفظ العقل محفوظ بتحريم المسكر، وقد نبه الله تعالى عليه بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المائدة: ٩١). [4]

لذا كان الحفاظ عليه من الضروريات حتى لا تناله آفة تجعل صاحبه عبئًا على المجتمع، ومصدر شر وأذى فيه، من أجل ذلك حرم الإسلام الخمر، وكل ما من شأنه أن يؤثر في العقل تأثيرها فكل أنواع المخدرات سواء أكانت مشروبات أم كانت غير

---

(١) بحوث في علوم التفسير د/ محمد حسين الذهبي (٤٣٩-٤٤٠) بتصرف يسير واختصار.

(٢) المحصول للرازي (٥/ ١٦٠)، وإرشاد الفحول (٢١٦).

(٣) المصدرين السابقين.

(٤) السابق.

مشروبات محرم في الإسلام، ووضع لشرب الخمر عقابًا شديدًا؛ لأنها فوق أنها تفسد العقول في المجتمع تقطع حبال المودة فيه(١). والخمر تفقد الشارب عقله ورشده، وإذا فقد الإنسان رشده وعقله ارتكب كل حماقة وفحش، فإذا جلد كان جلده مانعًا له من المعاودة من جانب، ورادعًا لغيره من اقتراف جريرته من جانب آخر(٢).

وحفظ النسل: بتحريم الزنا، وإيجاب العقوبة عليه بالحد؛ فالنسل محفوظ بشرع الزواجر عن الزنا، لأن المزاحمة على الأبضاع، تفضي إلى اختلاط الأنساب، المفضي إلى انقطاع التعهد عن الأولاد، وفيه التوثب على الفروج بالتعدي والتغلب، وهو مجلبة الفساد والتقاتل(٣).

وحفظ المال: يكون بأحد أمرين: أحدهما: إيجاب الضمان على المتعدي؛ فإن المال قوام العيش، وثانيهما: القطع بالسرقة؛ فالمال محفوظ بشرع الضمانات والحدود(٤).

وحفظ المجتمع كله وعدم انتهاك حرماته بحد الحرابة. لذا كان التغليظ في حدها فوق كل ما عداها، فإذا أمن الفرد على دينه ونفسه، وسلم له عقله، وعرضه، حفظ له ماله، فقد جمعت أطراف الأمن كلها.

وإذا أمن المجتمع من الخارجين عليه ممن يسمون في عصرنا (مخلين بالأمن العام) فقد تهيأ مناخ صالح يتنفس فيه الأفراد حرياتهم، وينعمون بالطمأنينة والزمان، فتنطلق الطاقات في ميادين العمل المنتج، وقد وقفت من ورائها دوافع قوية منشؤها توافر مقومات الحياة التي وضع نظام الحدود لصيانتها والحفاظ عليها حينما قال القرآن: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ (الملك: ١٥)، كان لا بد له من تأمين حركة الإنسان على الأرض، وإشاعة جو من الأمن والطمأنينة بحيث ينطلق الناس متحررين من الخوف

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع نظام الأسرة والعقوبات د/ رمزي نعناعة (١٠٢).

(٢) فقه السنة (٣/ ١٢٦).

(٣) المحصول (٥/ ١٦٠)، وإرشاد الفحول (٢١٦).

(٤) المصدر السابق.

ولقد كان من أول ما امتن الله به على من دعاهم لدينه، أن أطعمهم من بعد جوع، وآمنهم من بعد خوف: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ (قريش: ٣ - ٤).[(١)]

الحكمة من مشروعية الحدود

قال ابن القيم: فكان من بعض حكمته سبحانه ورحمته أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض في النفوس والأبدان والأعراض والأموال كالقتل، والجرح والقذف، والسرقة، فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع، فلم يشرع في الكذب قطع اللسان ولا القتل، ولا في الزنا الخصاء، ولا في السرقة إعدام النفس، وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه وصفاته من حكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وعدله لتزول النوائب، وتنقطع الأطماع عن النظام والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما آتاه مالكه وخالقه، فلا يطمع في استلاب غيره حقه[(٢)].

وقال الشافعي: الحدود حيث شرعت، إنما شرعت لردع وزجر الغواة عن الإقدام على تلطخ فراش الغير واختلاط المياه والاضطراب واشتباه الأنساب على الآباء والأجداد والأولاد والأحفاد.[(٣)]

وقد قال ابن تيمية فيمن اقترف جرمًا: ولا يظن الظان أنه إذا حصل له استمتاع بمحرم يسكن بلاؤه، بل ذلك يوجب له انزعاجًا عظيمًا وزيادة في البلاء والمرض في المآل؛ فإنه وإن سكن بلاؤه وهدأ ما به عقيب استمتاعه أعقبه ذلك مرضًا عظيمًا عسيرًا لا يتخلص منه، بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء الذي

(١) المصدر السابق.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٩٩- ١٠٠).

(٣) مغيث الخلق في ترجيح القول الحق للجو يني (٧٢- ٧٣).

ترامى به إلى الهلاك والعطب. ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر وأخف من ألم المرض الباقي، وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم الدخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧). فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض؛ فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلا الخير؛ إذ هو في ذلك جاهل أحمق كما يفعله بعض النساء والرجال الجهال بمرضاهم وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير رأفة بهم، فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم.[1]

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ (البقرة: ١٧٩) أي: في شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه سيقتل انكف عن صنيعه؛ فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب المتقدمة (القتل أنفى للقتل)، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾.

قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل...، ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: يا أولي العقول والأفهام والنهي لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.[2].

وفي هذا المعنى يقول الشافعي: والقصاص حيث شرع إنما شرع صيانة للدماء في أهبها وحفظًا للنفوس في نصبها، وردعًا للغواة وزجرًا للجناة، وحقنًا للدماء عن أصحاب الحكمة الكلية والمصلحة الجلية، قال تعالى ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ معناه: أن الرجل إذا

---

(١) الفتاوى (١٥/ ٢٨٩- ٢٩٠).

(٢) ابن كثير (١/ ٢٨٤).

فكر في نفسه، ودبر في خلده، وعلم أنه إذا قَتل قُتل امتنع من القتل، فيبقى هو حيًا والمهموم بقتله حيًا، وهذا معنى القصاص والزجر والردع.(١)

قال ابن القيم: فلولا القصاص لفسد العالم وأهلك الناس بعضهم بعضًا ابتداءً واستيفاءً، فكأن في القصاص دفعًا لمفسدة التجري على الدماء بالجناية وبالاستيفاء. . . .، وبسفك الدماء تحقن الدماء، فلم تغسل النجاسة بالنجاسة، بل الجناية نجاسة، والقصاص طهرة، وإذا لم يكن بد من موت القاتل ومن استحق القتل فموته بالسيف أنفع له في عاجلته وآجلته والموت به أسرع الموكات وأوحاها وأقلها ألما، فموته به مصلحة له ولأولياء القتيل ولعموم الناس(٢).

والرأفة بالمجرمين تشجع على الإجرام، والعذاب الذي يصحب العقوبة هو الذي يؤدب من أجرم ويزجر من لم يجرم، والعقوبة التي تحابي الأفراد على حساب الجماعة إنما تضيع مصلحة الفرد والجماعة معًا؛ لأنها تؤدي إلى ازدياد الجرائم واختلال الأمن، ثم توهين النظام وانحلال المجتمع، وإذا دب الانحلال في مجتمع فقل على الأفراد والمجتمع العفاء، وإن إقامة الحدود عبادة وجهاد ويجب على الأفراد أن يعاونوا أولي الأمر عليها، وإذا كان الجهاد في قتال الأعداء لدفع أذى المعتدين وحماية الأمة منهم، فإن تنقية الأمة من عناصر الفساد من الجهاد أيضًا؛ لأنه جهادٌ لحماية الدين والأخلاق والفضيلة وصون للمجتمع من عناصر الفساد التي تنخر في عظامه ولا قوة لأمة يسودها الانحلال الخلقي ولا أمن فيها ولا سلامة، وفوق ذلك لا سبيل إلى محاربة الأعداء إلا إذا كان المجتمع سليمًا من الفساد، وحسبنا نراه في بعض الدول التي اعتصمت بقوة السلاح ولم تعتصم بقوة الأخلاق فقد خرت صريعة عند أول لقاء بأعدائها(٣).

---

(١) مغيث الخلق في ترجيح القول الحق للجويني (٧٠-٧١).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) تنظيم الإسلام للمجتمع د/ رمزي نعناعة (٩٤-٩٥).

لذلك يقول شيخ الإسلام: إن إقامة الحد من العبادات كالجهاد في سبيل الله فينبغي أن يعرف أن إقامة الحدود رحمة من الله لعباده، فيكون الوالي شديدًا في إقامة الحد لا تأخذه رأفة في دين الله فيعطله، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات لا شفاء غيظه وإرادة العلو على الخلق، بمنزلة الوالد إذا أدب ولده، فإنه لو كف عن تأديب ولده كما تشير به الأم رقة ورأفة لفسد الولد، وإنما يؤدبه رحمة به وإصلاحًا لحاله مع أنه يود ويؤثر ألا يحوجه إلى تأديب، وبمنزلة الطبيب الذي يسقي المريض الدواء الكريه، وبمنزلة قطع العضو المتآكل والحجم(١)، وقطع العروق بالفصاد(٢)، ونحو ذلك، بل بمنزلة شرب الإنسان الدواء الكريه وما يدخله على نفسه من المشقة لينال به الراحة فهكذا شرعت الحدود(٣).

والحدود حينما تصبح تشريعًا نافذًا يلتزم به الأفراد ويطبقه المجتمع ويصبح من المعلوم بداهة أن من قَتل قُتل، وأن من زنا جلد أو رجم، وأن من قذف حد، وأن من شرب خمرًا جلد فيها، وأن من حارب قتل أو صلب. . . . إلخ، وأن من بدل دينه وفارق الجماعة فقد حكم على نفسه بالموت، حينما يصبح الأمر كذلك، ويوقن أفراد من سائر هؤلاء، وتسد عليهم منافذ التفلت من الحد بالشفاعة أو المحسوبية أو بوضعهم فوق متناول التطبيق، فقد أقام المجتمع سورًا منيعًا لا يفكر في اقتحامه إلا صنف من البشر شاذ التكوين أو شاذ الدوافع(٤).

وفي ظل الحدود ينعم الناس بالأمن الشامل على ما تتقوم به الحياة المثلى، وفي ظل الحدود يتفيأ الناس ظلال حرية شاملة يتحررون فيها من قيود الهوى في داخلهم، ومن عوامل الخوف تأتي من خارجهم، ماذا يبقى من جوهر الحياة بعد الأمن الشامل والحرية الشاملة؟.

---

(١) الحجم: مص الدم.

(٢) الفصاد: شق العرق.

(٣) السياسة الشرعية (١٠٦)، والفتاوى (٢٨/ ٣٢٩- ٣٣٠).

(٤) مباحث في علوم التفسير محمد حسين الذهبي (٤٦٢).

إن الحدود تؤدي بالنسبة لأمن الناس وحريتهم وظيفة مزدوجة فهي من جانب تروع الخارجين ومن يشذون عن الدخول في السلم كافة ليأمن من قبلوا إعطاء السلم من جانبهم، ترويع لقلة من أجل تأمين الكثرة، وهي من جانب كذلك تهيأ مناخًا حرًا يتنفس فيه من عرف كيف يحترم حريات الآخرين، وفي الوقت نفسه تضيق الخناق وتطارد من يحدقون أنفسهم بالعدوان على حريات الناس وهل يحتاج المجتمع بعد الحرية الشاملة والأمن المطرد لشيء آخر لكي ينعم بالاستقرار والطمأنينة؟! [١]

والعجيب أن هؤلاء الغربيين الذين يرون في الحدود الإسلامية شدة وقسوة لا تليق بعصرنا المتحضر، والذين يدعون إلى إلغاء عقوبة (القتل، والزنا، وقطع يد السارق. . . .) إلخ، هم أنفسهم يفعلون ما تشيب له الرءوس وتنخلع لهوله الأفئدة، فالحروب الهمجية التي يثيرونها، والأعمال الوحشية التي يقومون بها من قتل الأبرياء، والاعتداء على الأطفال والنساء، وتهديم المنازل على من فيها، لا تعتبر في نظرهم وحشية، ولقد أحسن الشاعر حين صوّر منطق هؤلاء الغربيين بقوله:

قتل امرئ في غابةٍ ... جريمةٌ لا تغتفر
وقتلُ شعبٍ آمن ... مسألةٌ فيها نظر. [٢]

درء الحدود بالشبهات

الحد عقوبة من العقوبات، التي توقع ضررًا في جسد الجاني وسمعته، ولا يحل إستباحة حرمة أحد، أو إيلامه إلا بالحق، ولا يثبت هذا الحق إلا بدليل، الذي لا يتطرق إليه الشك، فإذا تطرق إليه الشك كان ذلك مانعًا من اليقين الذي تنبني عليه الأحكام، من أجل هذا كانت التهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها، لأنها مظنة الخطأ[٣]، فالحدود

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير آيات الأحكام للصابوني (١/ ٥٥٧).
(٣) فقه السنة (٣/ ١٢٩).

تدرأ بالشبهات قال ابن المنذر: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم أن الحدود تدرء بالشبه[١]، لما ورد أن ماعزًا لما أقر بين يدي رسول الله ﷺ بالزنا لقنه الرجوع فقال ﷺ "ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه"[٢].

وجاءته أيضا امرأة من غامد فقال لها "ويحك! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه"[٣].

قال الإمام النووي: في تلقين النبي ﷺ للمقر بالرجوع فيه استحباب تلقين المقر بحد الزنا والسرقة وغيرهما من حدود الله تعالى، وأنه يقبل رجوعه عن ذلك؛ لأن الحدود مبنية على المساهلة الدرء بخلاف حقوق الآدميين وحقوق الله تعالى المالية كالزكاة والكفارة لا يجوز التلقين فيها ولو رجع لم يقبل رجوعه، وقد جاء تلقين الرجوع عن الإقرار بالحدود عن النبي ﷺوعن خلفاء الراشدين ومن بعدهم، واتفق العلماء عليه. [٤]

فعدم الإقرار شبهة في تطبيق الحد ومن الشبهات أيضًا عدم وجود بينة، فعنه ﷺ "لو رجمت أحدًا بغير بينه رجمتُ هذه" قال ابن عباس: تلك امرأة كانت تظهر في الإسلام السوء. [٥]

قال المهلب: فيه أن الحد لا يجب على أحد بغير بينة أو إقرار ولو كان متهمًا بالفاحشة[٦].

وقال النووي: معنى تظهر السوء أنه اشتهر عنها وشاع، ولكن لم تقم البينة عليها بذلك ولا اعترفت، فدل على أن الحد لا يجب بالاستفاضة. [٧]

فالحد لا يقام بمجرد التهم، ولا شك أن إقامة الحد إضرار بمن لا يجوز الإضرار به وهو قبيح عقلًا وشرعًا، فلا يجوز منه إلا ما أجازه الشارع كالحدود والقصاص وما أشبه

---

(١) المغني (١٠/ ١٥٥)، والإجماع لابن المنذر (١١٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) مسلم بشرح النووي (٦/ ٢١٦).

(٥) أخرجه البخاري (٦٨٥٦)، ومسلم (١٤٩٧).

(٦) فتح الباري (١٢/ ١٨٨).

(٧) المصدر السابق.

ذلك بعد حصول اليقين؛ لأن مجرد الحدس والتهمة والشك مظنة للخطأ والغلط، وما كان كذلك، فلا يستباح به تأليم المسلم وإضراره بلا خلاف[١].

الشفاعة في الحدود

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمُ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِى سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَكَلَّمَ رَسولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: " أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ. ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ قَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا"[٢].

وقد بوب الإمام البخاري على هذا الحديث باب: كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان. [٣]

وقال أبو عمر: لا أعلم بين أهل العلم اختلافًا في الحدود إذا بلغت إلى السلطان لم يكن فيها عفو لا له ولا لغيره، وجائز للناس أن يتعافوا الحدود ما بينهم ما لم يبلغ السلطان وذلك محمود عندهم. [٤]، فلا يجوز الشفاعة في الحدود بعد وصولها للحاكم، والثبوت عنده؛ لأنه طلب ترك الواجب؛ لأن النبي ﷺ أنكر على أسامة بن زيد في شفاعته للمخزومية كما سبق في الحديث، وأما قبل الوصول إليه فعند جمهور الفقهاء تجوز الشفاعة عند الرافع له إلى الحاكم ليطلقه؛ لأن وجوب الحد قبل ذلك لم يثبت، فالوجوب لا يثبت بمجرد الفعل. [٥]

إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله.

كان رسول الله ﷺ أشد تعظيمًا لحقوق الله عز وجل على حرماته وقد بوب الإمام البخاري في ذلك باب: إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، ثم أورد هذا الحديث عن

---

(١) نيل الأوطار (٧/ ٢٤٩) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٨).

(٣) المصدر السابق.

(٤) التمهيد (١١/ ٢٢٤)، والاستذكار (٢٤/ ١٧٦، ١٧٧).

(٥) الموسوعة الفقهية (١٧/ ١٣٣).

عائشة رضي الله عنها: قَالَتْ: "مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَأْثَمْ، فَإِذَا كَانَ الإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ، وَالله مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ، حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ الله، فَيَنْتَقِمُ لله"[(١)].

فكان ﷺ لاينتقم لنفسه، بل كان ينتقم لحرمات الله عز وجل، فلا فرق بين شريف ووضيع، ولا غني ولا فقير، ولا قريب ولا بعيد. فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " أَقِيمُوا حُدُودَ الله فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي الله لَوْمَةُ لَائِمٍ. [(٢)]، وحديث المرأة المخزومية أكبر دليل على ذلك في تعظيم حرمات الله، فقال ﷺ" وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا"[(٣)].

الحدود كفارة للآثام:

عن عبادة بن الصامت ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺفِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: "تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ الله عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ"[(٤)].

قال النووي: وفي هذا الحديث فوائد: ومنها: أن من ارتكب ذنبًا يوجب الحد، فحُدّ سقط عنه الإثم[(٥)].

قال القاضي عياض: قال أكثر العلماء: الحدود كفارة. استدلالًا بهذا الحديث. [(٦)]

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٠)، وانظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢٠٥٦)، والسلسلة الصحيحة (٦٧٠، ١٩٤٢)، والمشكاة (٣٥٨٧)، وقال الشيخ الألباني: حديث حسن.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٧٠٩).

(٥) مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٤٠).

(٦) المصدر السابق، وفتح الباري (١/ ٨٤).

قال ابن حزم: كل من أصاب ذنبًا فيه حد فأقيم عليه ما يجب في ذلك، فقد سقط عنه ما أصاب من ذلك -تاب أو لم يتب- حاش المحاربة؛ فإن إثمها باق عليه وإن أقيم عليه حدها، ولا يسقطها عنه إلا التوبة لله تعالى فقط. ، واستدل بهذا الحديث أيضًا[(١)].

وإقامة الحد وإن كانت مكفرة للآثام؛ فإنها مع ذلك زاجرة عن اقترافها، فهي جوابر وزواجر معًا[(٢)].

وعن عبادة بن الصامت ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: " مَنْ أَصَابَ مِنْكُمْ حَدًّا فَعُجِّلَتْ لَهُ عُقُوبَتُهُ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَإِلَّا فَأَمْرُهُ إِلَى الله"[(٣)].

فضل إقامة الحدود:

عن ابن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: " إِقَامَةُ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله خَيْرٌ مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فِي بِلَادِ الله ﷻ". [(٤)]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: " حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ". [(٥)]

* * *

(١) المحلي (١١/ ١٢٤).

(٢) فقه السنة (٣/ ١٣٤)

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٦٠٣)، وقال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢١٠٩).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٥٣٧)، وقال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢٠٥٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٥٣٨)، وقال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢٠٥٧).

١١- شبهة: حد السرقة.

نص الشبهة:

دارت هذه الشبهة على بعض الاعتراضات من القرآن والسنة، وأيضًا بعض الاعتراضات العقلية ستذكر في محلها عند الجواب عليها، وقبل إبداء هذه الشبه نجيب بجواب مجمل فنقول:

حماية رب العالمين الأموال والأعراض من انتهاب المعتدين:

لما كان المال سلطانًا قويًا في نفوس الناس، وكان له منهم جهد مبذول في جمعه، ثم لما كان وجود الناس في هذه الحياة رهن بما يملكون فيها من مال ومتاع، حيث لا تقوم حياتهم إلا على الطعام، والشراب، والكساء، والمسكن ونحو هذا، لما كان ذلك كذلك؛ فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يقيم الناس على شريعة ذات سلطان وازع، يأمنون به على ما يملكون من عدوان أهل البغي والعدوان، وفي ظل هذا الأمن يعمل العاملون، ويجنون ثمرات ما يعملون.

فإذا كانت شريعة الإسلام قد حذرت من طغيان المال وفتنته؛ فإن ذلك لا يعني أن الشريعة عدو المال، وإنما هي عدو له حين يصبح في يد أصحابه سلطانًا طاغيًا، وشيطانًا مريدًا تستباح به الحرمات، ويذهل أصحابه عن الحقوق المتعلقة في هذا المال لذوي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل، وللجهاد في سبيل الله بالنفس، وبالسلاح، والمؤن، والعتاد، للمجاهدين. . . ،. . . ، وإنه ما أكثر أن تتحول النعم إلى نقم في أيدي كثير من الناس. . . ، وما أكثر الذين آتاهم الله تعالى من المال ووسع عليهم من الرزق، فطغوا، وبغوا، ونسوا فضل الله، وكفروا به، فساقهم هذا النسيان وذلك الكفر إلى محاربة الله تعالى بالمعاصي والعدوان على غيرهم بالسرقة، أو الغصب، أو النهب، ثم إنه ما أكثر أولئك الذين فترت هممهم وخارت عزائمهم، فناموا في ظل الكسل والعجز، وزين لهم الشيطان أن يتربصوا بالعاملين وما وقع لأيديهم من ثمرات العمل من مال، فتسلطوا عليهم بالسرقة وسلب ما يقع لأيديهم من مال الناس ومتاعهم، ولهذا رصد الله تعالى لمن

يعتدون على أموال الناس عقوبة رادعة، يلقاهم الناس بها في هذه الحياة الدنيا، ولهم عذاب أليم من الله في الآخرة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ (المائدة: ٣٨)[1].

أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنكيلًا من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، أي: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره[2].

ومعناها أيضًا: لا ترثوا لهم أن تقيموا فيهم الحدود، فإنه والله ما أمر الله بأمر قط إلا وهو صلاح، ولا نهى عن أمر قط إلا وهو فساد، وكان عمر بن الخطاب يقول: اشتدوا على السُّراق فاقطعوهم يدًا يدًا، ورجلًا رجلًا، وقوله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يقول ـ جل ثناؤه ـ: والله عزيز في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهل معاصيه، حكيم في حكمه فيهم وقضائه عليهم، يقول: فلا تفرطوا أيها المؤمنون في إقامة حكمي على السراق وغيرهم من أهل الجرائم الذين أوجبت عليهم حدودًا في الدنيا عقوبة لهم، فإني بحكمي قضيت ذلك عليهم، وعلمي بصلاح ذلك لهم ولكم[3].

فوضع عقوبة قطع اليد للسارق تعتبر بحق رادعة زاجرة، تقتلع الشر من جذوره، وتقضي على الجريمة في مهدها وتجعل الناس في أمن، وطمأنينة، واستقرار.

وأعداء الإنسانية يستعظمون قتل القاتل، وقطع يد السارق، ويزعمون أن هؤلاء المجرمين ينبغي أن يحظوا بعطف المجتمع؛ لأنهم مرضى بمرض نفساني، وأن هذه العقوبات الصارمة لا تليق بمجتمع متحضر يسعى لحياة سعيدة كريمة، إنهم يرحمون المجرم من

(١) الحدود في الإسلام. عبد الكريم الخطيب (٦٢- ٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢١٤).

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٢٢٩-٢٣٠).

المجتمع، ولا يرحمون المجتمع من المجرم الأثيم الذي سلب الناس أمنهم واستقرارهم، وأقلق مضاجعهم وجعلهم مهددين بين كل لحظة ولحظة في الأنفس والأموال والأرواح، وقد كان من أثر هذه النظريات التي لا تستند على عقل ولا منطق سليم أن أصبح في كثير من البلاد (عصابات) للقتل وسفك الدماء وسلب الأموال، وزادت الجرائم واختل الأمن، وفسد المجتمع وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق(١). فحكمة مشروعية القطع الجزاء على السرقة جزاء يقصد منه الردع وعدم العودة، أي: جزاء ليس بانتقام، ولكنه استصلاح وضل من حسب القطع تعويضًا عن المسروق(٢).

ومن وجهة النظر أن الأموال خلقت مهيأة للانتفاع بها للخلق أجمعين، ثم الحكمة الأولية حكمت فيها بالاختصاص الذي هو الملك شرعًا، وبقيت الأطماع متعلقة بها، والآمال محومة عليها، فتكفها المروءة والديانة في أقل الخلق، ويكفها الصون والحرز عن أكثرهم، فإذا أحرزها مالكها فقد اجتمع فيها الصون والحرز الذي هو غاية الإمكان للإنسان؛ فإذا هُتكا فَحُشت الجريمة فعظمت العقوبة، وإذا هتك أحد الصونين وهو الملك وجب الضمان والأدب(٣).

وهذه اليد الخبيثة الخائنة التي خلقها الله لتبطش وتكتسب في كل ما يرضيه من امتثال أوامره واجتناب نهيه، والمشاركة في بناء المجتمع الإنساني، فمدت أصابعها الخائنة إلى مال الغير لتأخذه بغير حق، واستعملت قوة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر، وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح، يد نجسة قذرة، ساعية في الإخلال بنظام المجتمع، إذ لا نظام له بغير المال، فعاقبها خالقها بالقطع والإزالة، كالعضو الفاسد الذي يجر الداء بسائر البدن، فإنه

---

(١) تفسير آيات الأحكام للصابوني (١/ ٥٥٧) بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٦/ ١٩٣).

(٣) القرطبي (٦/ ١٦٠).

يزال بالكلية إبقاءً على البدن، وتطهير له من العرض، ولذلك فإن قطع اليد يطهر السارق من دنس ذنب ارتكاب معصية السرقة، مع الردع البالغ بالقطع عن السرقة. (١)

فإذا أقام الإسلام هذه الحراسة المشددة على المال، ولرصد تلك العقوبة الرادعة لمن يسرقون المال؛ فإنما ذلك ليحفظ على الجماعة أمنها وسلامها، ويفتح لها طرق العمل والمسعى لكسب المال، الذي تقوم عليه الحياة للفرد والجماعة. (٢)

مقدمات لا بد منها بين يدي الموضوع

أولًا: "تعريف السرقة ":

- **في اللغة**: أخذ الشيء من الغير على وجه الخفية، وسرق الشيء يسرقه سرقًا، واسترق السمع أي استرق مستخفيًا، ومنه أيضًا تسترق الجن السمع، هو تفتعل من السرقة، ومنه: استراق السمع، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ (الحجرات: ١٨)، وقال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ قال: السارق عند العرب من جاء مستترًا إلى حرزٍ فأخذ منه ما ليس له. (٣)

في الشرع: هي أخذ العاقل البالغ نصابًا محرزًا، أو ما قيمته نصابًا ملكًا للغير لا شبهة له فيه على وجه الخفية. (٤)

ثانيًا: "بم يثبت حد السرقة":

---

(١) محاسن الإسلام للشنقيطي (٤٩).

(٢) الحدود في الإسلام. عبد الكريم الخطيب (٦٩).

(٣) التعريفات للجرجاني (١٥٦)، ولسان العرب (٣/ ١٩٩٨)، والقاموس المحيط (٢/ ١١٨٦)، ومعجم المصطلحات والألفاظ الفقهية (٢/ ٢٦٣)، وقليوبي وعميرة (٤/ ١٨٦)، والمغني (١٠/ ٢٣٩)، والبحر الرائق لابن نجيم (٥/ ٥٤)، وفتح القدير (٥/ ٣٥٤).

(٤) الإختيار لتعليل المختار (٤/ ١٠٩)، وقليوبي وعميرة (٤/ ١٨٦)، والبحر الرائق لابن نجيم (٥/ ٥٤). المغني (١٠/ ٢٩٠)، وفتح القدير (٥/ ٣٦٢)، وبداية المجتهد (٣/ ٤١٤)، والإجماع لابن المنذر (١١١)، والإقناع (١/ ٣٣١، ٣٣٢)، وبدائع الصنائع (٧/ ٨١).

يثبت حد السرقة ويجب الحد بأحد أمرين:

١- **البينـــة**: فيشترط فيها أن يشهد رجلان مسلمان عدلان، سواء كان السارق مسلمًا أو ذميًا. . . . ، ويشترط أن يصفا السرقة والحرز وجنس النصاب وقدره ليزول الاختلاف فيه فيقولان: نشهد أن هذا سرق كذا قيمته كذا من حرز ويصفا الحرز. (١)

٢- **الإقـرار أو الاعتـراف**: بأن يعترف السارق على نفسه أنه سرق وقد اختلف العلماء في عدد الإقرار. (٢)

شروط وجوب قطع يد السارق

١- **شروط في السارق**(٣):

أ- أن يكون مكلفًا: سواء كان حرًا أو عبدًا، ذكرًا أو أنثى، مسلمًا أو ذميًا، فلا قطع على غير مكلف، ولا قطع على العبد إذا سرق من مولاه.

ب- أن يكون بالغًا: وحد البلوغ الذي يوجب الحدود أمور، وهي:

١-الاحتلام: لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (النور: ٥٩).

٢-إنبات شعر العانة الخشن لحديث عطية القرظي قال الشافعي -رحمه الله- فبكتاب الله ﷻ-ثُمَّ بهذا الْقَوْلِ- نأخذ. قال الله ﷻ:

---

(١) المغني (١٠/ ٢٩٠)، وفتح القدير (٥/ ٣٦٢)، وبداية المجتهد (٣/ ٤١٤)، والإجماع لابن المنذر (١١١)، والإقناع (١/ ٣٣١، ٣٣٢)، وبدائع الصنائع (٧/ ٨١).

(٢) المغني (١٠/ ٢٩١)، وفتح القدير (٥/ ٣٦٠)، وبداية المجتهد (٣/ ٤١٤)، والإقناع (٣٣١، ٣٣٢)، وبدائع الصنائع (٧/ ٨١).

(٣) بداية المجتهد (٣/ ٤٠١)، والإقناع (١/ ٣٣٢) بتصرف يسير، والأم (٦/ ١٤٧)، وبدائع الصنائع (٧/ ٦٧)، والمدونة (٦/ ٢٩٢، ٢٩٣)، والإجماع لابن المنذر (١١١).

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ (النساء: ٦) فمن بلغ النكاح من الرجال وذلك الاحتلام والحيض من النساء خرج من الذرية وأقيم عليه الحدود كلها، ومن أبطأ ذلك عنه واستكمل خمسة عشر سنة أقيمت عليه الحدود كلها السرقة وغيرها[١].

فأهلية وجوب القطع وهي: العقل، والبلوغ، فلا يقطع الصبي والمجنون لما روي عن النبيﷺ أنه قال: "رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِل"[٢].

٢- شروط في المسروق منه:

أ- هُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ يَدٌ صَحِيحَةٌ، وَهُوَ يَدُ الْمِلْكِ، أَوْ يَدُ الْأَمَانَةِ كَيَدِ الْمُودِعِ، وَالْمُسْتَعِيرِ، وَالْمُضَارِبِ، وَالْمُبْضِعِ، أَوْ يَدُ الضَّمَانِ كَيَدِ الْغَاصِبِ، وَالْقَابِضِ عَلَى سَوْمِ الشِّرَاءِ، وَالْمُرْتَهِنِ فَيَجِبُ الْقَطْعُ عَلَى السَّارِقِ مِنْ هَؤُلَاءِ، أَمَّا مِنْ الْمَالِكِ فَلَا شَكَّ فِيهِ، وَكَذَا مِنْ أَمِينِهِ؛ لِأَنَّ يَدَ أَمِينِهِ يَدُهُ؛ فَالْأَخْذُ مِنْهُ كَالْأَخْذِ مِنْ الْمَالِكِ[٣].

٣- شروط في المال المسروق:

أن يكون المسروق مالًا محترمًا: بأن يجوز بيعه، ولا قطع فيما يوجد تافهًا في دار الإسلام وأن يكون مالًا مطلقًا لا قصور في ماليته ولا شبهه وهو أن يكون مما يتموله الناس ويعدونه مالًا لأن ذلك يشعر بعزته وخطره عندهم وما لا يتمولونه فهو تافه حقير[٤].

ب- أن يبلغ المسروق نصابًا، فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال: "تقطع يد السارق في ربع دينار"[٥].

---

(١) الأم (٦/ ١٤٨).

(٢) بدائع الصنائع (١٥/ ١٥٨)، والحديث أخرجه البيهقي (٦/ ٢٠٦، ٨٤)، وأحمد (٦/ ١٠١)، واللفظ له، وصححه الألباني في الإرواء (٢٩٧).

(٣) بدائع الصنائع (٧/ ٨٠)، ورد المحتار على الدر المختار (٣/ ١٩٣).

(٤) الشرح الكبير المغني (١٠/ ٢٤٢)، والخرشي (٧/ ٩٦)، وفتح القدير (٥/ ٣٦٤)، والبدائع (٧/ ٦٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦٧٩٠)، ومسلم (١٦٨٤) واللفظ للبخاري.

قال النووي: أجمع العلماء على قطع يد السارق، وقال جماهير العلماء لا تقطع إلا في نصاب. . . ، وقال كثيرون أو الأكثرون، وهو قول عائشة، وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي والليث وأبي ثور وإسحاق، وغيرهم، روى أيضًا عن داود، وقال مالك وأحمد وإسحاق في رواية: تقطع في ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما قيمته أحدهما، ولا تقطع فيما دون ذلك[١].

٣- أن يكون المسروق محرزًا: اتفق الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار، وأتباعهم، على مراعاة الحرز في ما يسرقه السارق فقالوا: ما سرقه من غير حرزٍ[٢] فلا قطع عليه، بلغ المقدار الذي يجب فيه القطع أم لم يبلغ[٣].

والرد مفصلًا عن الشبه كما يلي:

الشبهة الأولى: (**أن دية اليد خمسمائة دينار إذا جُني عليها، وإذا سرقت تقطع في ربع دينار) أو ما يعادلها من الدراهم.**

والجواب في كلام ابن القيم[٤] **كافٍ وشافٍ، فقال**: وأما قطع اليد في ربع دينار وجعل ديتها خمسمائة دينار فمن أعظم المصالح والحكمة، فإنه احتاط في الموضوعين للأموال والأطراف، فقطعها في ربع دينار حفظًا للأموال، وجعل ديتها خمسمائة دينار حفظًا لها وصيانة، وقد أورد بعض الزنادقة هذا السؤال وضمنه بيتين فقال:

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار؟
تناقض مالنا إلا السكوت له ... ونستجير بمولانا من العار

فأجابه بعض الفقهاء بأنها كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت، وضمنه الناظم قوله:

---

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ١٩٩)، والاستذكار (٢٥/ ١٥٩).

(٢) الحرز عند الفقهاء: ما لايعد صاحبه مضيعًا له، أو ما لا يعد الواضع فيه مضيعًا عرفًا، أو ما قصد بها وضع فيه حفظه به إن استقل بحفظه أو بحافظ غيره إن لم يستقل، وهو بمعنى المكان المعد للإحراز كالبيوت والدور. . ، والصندوق. معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية (١/ ٥٦٢).

(٣) الاستذكار (٢٤/ ١٧٩).

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ٧١، ٧٢).

يد بخمس مئين من عسجد وديت لكنها قطعت في ربع دينار
حماية الدم أغلاها، وأرخصها خيانة المال، فانظر حكمة الباري

وروي أن الشافعي -رحمه الله -أجاب بقوله:

هناك مظلومة غالت بقيمتها وههنا ظلمت هانت على الباري

وأجاب شمس الدين الكردي بقوله:

قل للمعري عار أيما عار جهل الفتى وهو عن ثوب التقى عار
لا تقدحن زناد الشعر عن حكم شعائر الشرع لم تقدح بأشعار
فقيمة اليد نصف الألف من ذهب فإن تعدت فلا تسوى بدينار

وذكر الحافظ ابن حجر -رحمه الله- ردًا على ذلك فقال: قال المازري ومن تبعه: ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حماية لليد، ثم لما خانت هانت، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله:

صيانة العضو أغلاها وأرخصها صيانة المال فافهم حكمة الباري

وشرح ذلك: أن الدية لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال، فظهرت الحكمة من الجانبين، وكان ذلك صيانة من الطرفين. (١)

ومنهم من قال: هذا تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإنه في باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار لئلا يجنى عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار لئلا يتسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا

---

(١) فتح الباري (١٢/ ١٠٠).

هو عين الحكمة عند ذوي الألباب ولهذا قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (المائدة: ٣٨)، أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك[١]، ثم إن الشرع إنما قطع يده بسبب أنه تحمل الدناءة والخساسة في سرقة ذلك القدر القليل، فلا يبعد أن يعاقبه الشرع بسبب تلك الدناءة بهذه العقوبة العظيمة[٢].

وقال أيضًا: وأما قطع يد السارق في ثلاثة دراهم، وترك قطع المختلس والمنتهب والغاصب فمن تمام حكمة الشارع. . . ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه، فإنه ينقب الدور ويهتك الحرز ويكسر القفل، ولا يمكن صاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك، فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضًا، وعظم الضرر، واشتدت المحنة بالسراق، بخلاف المنتهب والمختلس؛ فإن المنتهب هو الذي يأخذ المال جهرة بمرأى من الناس، فيمكنهم أن يأخذوا على يديه، ويخلصوا حق المظلوم، أو يشهدوا له عند الحاكم، وأما المختلس فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكه وغيره، فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه، وإلا فمع كمال التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس، فليس كالسارق، بل هو بالخائن أشبه، وأيضًا فالمختلس إنما يأخذ المال من غير حرز مثله غالبًا، فإنه الذي يغافلك ويختلس متاعك في حال تخليك عنه وغفلتك عن حفظه، وهذا يمكن الاحتراز منه غالبًا، فهو كالمنتهب، وأما الغاصب فالأمر فيه ظاهر، وهو أولى بعدم القطع من المنتهب، ولكن يسوغ كف عدوان هؤلاء بالضرب والنكال والسجن الطويل والعقوبة بأخذ المال.[٣]

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١١٠).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٢٦).

(٣) إعلام الموقعين (٢/ ٧٠).

وأورد ابن حجر رحمه الله ردًا على ذلك فقال: قال المازري ومن تبعه: صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها وخص السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر. (١)

وقال أيضًا: وقد عسر فهم المعنى في الفرق بين السرقة والنهب ونحوه على بعض منكري القياس فقال: القطع في السرقة دون الغصب وغيره غير معقول المعنى، فإن الغصب أكثر هتكًا للحرمة من السرقة، فدل على عدم اعتبار القياس؛ لأنه إذا لم يعمل به في الأعلى فلا يعمل به في المساوي، وجوابه: أن الأدلة على العمل بالقياس أشهر من أن يتكلف لإيرادها. (٢)

الشبهة الثانية: (**أن العقوبة بالقطع محض ضرر السارق**):

وأجاب ابن القيم فقال: السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ودفع الضرر عنهم وخير إلى متولي القطع أمرًا وحكمًا لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عمومًا بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به مشكور عليه يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة، وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم. فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم فكيف عقوبة من يصول على أديانهم ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به، أفليس في عقوبة هذا الصائل خيرٌ محض وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد، وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي فالشر ماقام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة، فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك على مسألة

(١) فتح الباري (١٢/ ١٠٠).

(٢) فتح الباري (١٢/ ١٠٠، ١٠١) بتصرف يسير.

القدر ويفتح لك الطريق إلى الله، ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وإنه سبحانه كما أنه البر الرحيم الودود المحسن فهو الحكيم الملك العدل فلا تناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله أن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء ولا فرق أصلًا، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة وتأمل القرآن من أوله إلى أخره كيف تجده كفيلًا بالرد على هذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه نفسه عنها كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (القلم: ٣٥، ٣٦). وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الجاثية: ٢١)، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ (ص: ٢٨).

فأنكر سبحانه على من ظن هذا الظن ونزه نفسه عنه فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلاهيته، لا إله إلا هو تعالى عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا، وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة، والإحسان ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة؛ فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان، وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرمه؛ فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا وتشهد على سفه من فعله هذه فطرة الله الذي فطر الناس عليها فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته

البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة؟ وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق ولظهرت مناقضة الحكمة كما قال الشاعر:

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استقبحت على أقوام. [(١)]

الشبهة الثالثة: سوء فهم لحديث: (قطع يد السارق في البيضة والحبل)، وقال ﷺ: "لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده"[(٢)].

والجواب:

قال الحافظ في الفتح: قال الخطابي:..... ، أنه ليس بالشائع في الكلام أن يقال في مثل ما ورد فيه الحديث من اللوم والتثريب: أخزى الله فلانًا عرض نفسه للتلف في مال له قد ومزية وفي عرض له قيمة إنما يضر المثل في مثله بالشيء الذي لا وزن له ولا قيمة، هذا حكم العرف الجاري في مثله، وإنما وجه الحديث وتأويله ذم السرقة وتهجين أمرها وتحذير سوء مغبتها فيما قل وكثر من المال كأنه يقول إن سرقة الشيء اليسير الذي لا قيمة له كالبيضة المذرة والحبل الخلق الذي لا قيمة له إذا تعاطاه فاستمرت به العادة لم ييأس أن يؤديه ذلك إلى سرقة ما فوقها حتى يبلغ قدر ما تقطع فيه اليد فتقطع يده، كأنه يقول فليحذر هذا الفعل وليتوقه قبل أن تملكه العادة ويمرن عليها ليسلم من سوء مغبته ووخيم عاقبته.... [(٣)].

ونقل ابن حجر عن محمد بن قتيبة فيما حكاه عن ابن بطال أنه قال: ولأن من عادة العرب والعجم أن يقولوا قبح الله فلانًا عرض نفسه للضرب في عقد جوهر وتعرض للعقوبة بالغلول في جراب مسك، وإنما العادة في مثل هذا أن يقال لعنه الله تعرض لقطع اليد في حبل رث أو في كبة شعر أو رداء خلق. . . [(٤)].

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧).

(٣) فتح الباري (١٢/ ٨٤).

(٤) المصدر السابق.

قال القرطبي: فالجواب أن هذا خرج مخرج التحذير بالقليل عن الكثير، كما جاء في معرض الترغيب بالقليل مجرى الكثير في قوله ﷺ: "من بنى لله مسجدًا ولو مثل مفحص قطاة بنى الله له بيتًا في الجنة". (١) وقيل: إن ذلك مجاز من وجه آخر، وذلك أنه إذا ضرى بسرقة القليل سرق الكثير فقطعت يده. وأحسن من هذا ما قاله الأعمش وذكره البخاري(٢) في آخر الحديث كالتفسير قال: كانوا يرون أنه بيض الحديد، والحبل كانوا يرون أن منها ما يساوي دراهم. (٣)

وقال بعضهم: البيضة في اللغة تستعمل في المبالغة في الذم، فمن الأول قولهم فلان بيضة البلد إذا كان فردًا في العظمة وكذا في الاحتقار، ومنه قول أخت عمرو بن عبدُ وُدّ لما قتل علي أخاها يوم الخندق في مرثيتها له:

لكن قاتله من لا يعاب له　　　من كان يدعى قديمًا بيضة البلد

ومن الثاني قول الآخر يهجو قومًا:

تأبى قضاعة أن تبدي لكم نسبًا　　　وابنًا تزار فأنتم بيضة البلد

ويقال في المدح أيضًا: بيضة القوم أي وسطهم وبيضة السنام أي شحمته، فلما كانت البيضة تستعمل في كل من الأمرين حسن التمثيل بها كأنه قال يسرق الجليل والحقير فيقطع فرب أنه عذر بالجليل فلا عذر له بالحقير، وأما الحبل فأكثر ما يستعمل في التحقير كقولهم: ما ترك فلان عقالًا ولا ذهب من فلان عقال، فكأن المراد أنه إذا اعتاد السرقة لم يتمالك مع غلبة العادة التمييز بين الجليل والحقير وأيضًا فالعار الذي يلزمه بالقطع لا يساوي ما حصل له ولو كان جليلًا، وإلى هذا أشار القاضي عبد الوهاب بقوله:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٣٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٦٠٣).

(٢) أخرجه ا لبخاري (٦٧٨٣).

(٣) القرطبي (٦/ ١٦٢).

صيانة العضو أغلاها وأرخصها صيانة المال فافهم حكمة الباري. [(١)]

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: لا يذم في العادة من خاطر بيده في شيء له قدر، وإنما يذم من يخاطر بها فيما لا قدر له فهو موضع تقليل لا تكثير، والصواب أن المراد التنبيه على عظيم ما خسر، وهي يده في مقابلة حقير من المال وهو ربع دينار؛ فإنه يشارك البيضة والحبل في الحقارة، أو أنه إذا سرق البيضة فلم يقطع جره ذلك إلى سرقة ما هو أكثر منها فقطع، فكانت سرقة البيضة هي سبب قطعه، أو أن المراد به قد يسرق البيضة أو الحبل فيقطعه بعض الولاة سياسة لا قطعًا جائزًا شرعًا، وقيل: إن النبي ﷺ قال هذا عند نزول آية السرقة مجملة من غير بيان نصاب، فقاله على ظاهر اللفظ. والله أعلم. [(٢)]

وعليه فالحديث يحتمل وجوهًا كما نقل ابن كثير عن الجمهور بأنهم أجابوا بأجوبة عن هذا الحديث وهي:

أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة[(٣)]، وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ.

والثاني: أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه.

والثالث: أن هذا وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة. [(٤)]

وفيه أيضًا، الإشارة إلى سد الذرائع، فإنه أخبر أن سرقة الحبل والبيضة لا تدعه حتى تقطع يده. [(٥)]

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٨٥).

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٠٠)، وسنن النسائي بشرح السيوطي (٨/ ٦٦، ٦٧).

(٣) حديث عائشة "تقطع يد السارق في ربع دينار" في البخاري ومسلم.

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٨).

(٥) زاد المعاد (٥/ ٥٣).

الشبهة الرابعة: قولهم: (السارق تقطع يده والزاني لا يقطع فرجه مع أنهما آلة فعل الجريمة).

والجواب:

قال الماردوي: جعل حد السرقة قطع اليد لتناول المال بها، ولم يجعل حد الزنا قطع الذكر مع موافقة الفاحشة به، لثلاثة معان:

أحدها: أن للسارق مثل يده التي قطعت فإن إنزجر بها اعتاض بالثانية، وليس للزاني مثل ذكره إذا قطع فلم يعتض بغيره لو انزجر بقطعه.

والثاني: أن الحد زجر للمحدود وغيره، وقطع اليد في السرقة ظاهر، وقطع الذكر في الزنا باطن.

والثالث: أن في قطع الذكر إبطال النسل وليس في قطع اليد إبطاله. [١]

وقال ابن القيم: وأما معاقبة السارق بقطع يده وترك معاقبة الزاني بقطع فرجه ففي غاية الحكمة والمصلحة، وليس في حكمة الله ومصلحة خلقه وعنايته ورحمته بهم أن يتلف على كل جان كل عضو به، فيشرع قلع عين من نظر إلى المحرم، وقطع أذن من استمع إليه، ولسان من تكلم به، ويد من لطم غيره عدوانًا، ولا خفاء بما في هذا الإسراف والتجاوز في العقوبة وقلب مراتبها، وأسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة تأبى ذلك، وليس مقصود الشارع مجرد الأمن من المعاودة ليس إلا، ولو أريد هذا لكان قتل صاحب الجريمة فقط؛ وإنما المقصود الزجر والنكال والعقوبة على الجريمة، وأن يكون إلى كف عدوانه أقرب، وأن يعتبر به غيره، وأن يحدث له ما يذوقه من الألم توبةً نصوحًا، وأن يذكره ذلك بعقوبة الآخرة، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح[٢].

وقال أيضًا: وأما الزاني فإنه يزنى بجميع بدنه، والتلذذ بقضاء شهوته يعم البدن، والغالب من فعله وقوعه برضا المزني بها، فهو غيرخائف ما يخافه السارق من الطلب،

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ٣٥)، وتفسير القرطبي (٦/ ١٧٠- ١٧١).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٠٩).

فعوقب بها يعم بدنه من الجلد مرة والقتل بالحجارة مرة، ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبار المعاصي لما فيه من اختلاط الأنساب الذي يبطل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا هلاك الحرث والنسل فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك، فزجر عنه بالقصاص؛ ليرتدع عن مثل فعله من يهم به، فيعود ذلك بعمارة الدنيا وصلاح العالم الموصل إلى إقامة العبادات الموصلة إلى نعيم الآخرة.[1]

تجارب مسجلة بين تطبيق حد السرقة وعدم تطبيقه:

يقول ج. دي شابرول[2]: أحد علماء الحملة الفرنسية الذي كتب المجلد الأول من كتاب وصف مصر (٢/ ١٤) في وصف عادات وتقاليد المصريين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر: تعاقب السرقة بقسوة، وبرغم ذلك فلا يعاقب المذنب مطلقًا بالموت، إلا إذا كانت السرقة قد اقترنت بالقتل، والشخص الذي يدان بالسرقة داخل محل تجاري، أو داخل بيت، أو داخل نطاق ما تقطع يده ويطلق سراحه بعد ذلك، ولكنه إذا ارتكب هذه السرقة من شخص أو من معروضات، وباختصار إذا سرق خارج مكان مسور، فإن القانون يحكم فقط بضربه بالعصا وبإعادة المسروقات. . . فلم نسمع على الإطلاق أية شكوى من سرقات المنازل، أو قل إن هذه الحالة نادرة تمامًا، بل إننا سوف ندهش أكثر من ذلك إذا ما علمنا أن البيوت والمحلات التي تضم بضائع غالية لا يقفل معظمها إلا بضبات من الخشب غير جيدة الصنع.

وباستثناء العربان والبدو يتميز المصريون بالاستقامة التي تعود في جانب كبير منها إلى قسوة العقوبات التي توقع على اللصوص، فكثيرًا ما تبقى بالات البضاعة الغالية الثمن لأيام عدة على الرصيف أو في الطرق العامة في حراسة سلوك الآهلين، ولم نسمع أن مالكًا قد شكا من نتائج مثل هذه الثقة "[3].

---

(١) المصدر السابق (١١٠).

(٢) ذكر صاحب النقل أن هذا الكاتب أظهر في مواقع كثيرة أنه لايؤمن بأن الإسلام دين سماوي.

(٣) نقلًا عن كتاب (اليقين الإسلامي) د/ حافظ يوسف (٤٦١، ٤٦٢).

وقد نشر في مجلة (journal of criminal justice) عام ١٩٩٤ مقال عن عقوبة قطع اليد للسرقة في القانون الإسلامي (٤٦) اشترك فيها اثنان مسيحيان من الولايات المتحدة، ومسلم من السعودية، انتهوا فيها إلى أن توقيع عقوبة قطع اليد في الحالات المحددة التي تستوفى قواعد الإثبات المتشددة – كما يقررها حد السرقة الإسلامي –يمكن حقيقة أن يكون لها ما يبررها، بل وضرورية في التشريع الإسلامي الذي يسعى إلى حفظ المجتمع آمنًا، وأن الهدف ليس هو القصاص من الجاني بقدر ما هو الحفاظ على المجتمع الخير. [1]

ومن العجب أن يشنع أعداء الإسلام على الإسلام، الذي جعل قطع يد السارق عقوبة له على ما اقترف من عدوان على ما بأيدي الآخرين وعدّوا ذلك من مساوئ الإسلام، إذ يعامل المجتمع الإسلامي معاملة البهائم، يقطع أيدي الآدميين، وننظر في المجتمعات الغربية الأوربية والأمريكية التي ترمي الإسلام بهذه التهمة، وكيف يعيش الناس هناك في فزع دائم، وخوف مستمر من سطو اللصوص على الناس في الطرقات، وسطوهم على المنازل، والمصارف، والمتاجر نهارًا جهارًا، يأخذون ما تصل إليه أيديهم، دون خوف من رادع يردعهم، أو عقوبة تنزل بهم، فإن كانت عقوبات فهي السجن الذي يجدون فيه كل ما يشتهون[2].

يقول أحد الصحفيين: إذا سرت في شوارع أمريكا فلا تحمل فلوسًا كثيرة، فقد يستوقفك أحد الزنوج وفي يده سكين، وإذا ذهبت إلى محل الشراء لشراء شيء فلا تخرج من جيبك مالًا كثيرًا للسبب نفسه، إن الأمريكيين يتعاملون بالبطاقات المالية ودفاتر الشيكات ولا يحملون مالًا. . . . ، وفي الفنادق يطلبون منك أن تضع فلوسك عندهم وإلا فأنت المسئول إذا سرقت أموالك أو أشياؤك الثمينة! وقد تجد مكتوبًا على باب الحمام: أغلق عليك الحمام من الداخل،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الحدود في الإسلام – عبد الكريم الخطيب (٦٩).

وإذا هاجمك فاطلب رقم كذا بسرعة! ، وهم ينصحونك ألا تمشي وحدك في الشوارع فإذا اضطررت إلى ذلك فكن متجهمًا بادي القوة حتى لا يظن بك الخوف.

ثم قال: ونزلت أتمشى وحدي قريبًا من البيت الأبيض، وكان الشارع خاليًا تمامًا من المارين، وفجأة وجدت رجلًا يتوكأ على عصاه، استوقفني وسألني: كم الساعة؟

فتوقفت انظر في ساعتي، فإذا هو يخرج سكينًا من بين ملابسه. . . فأعطيته الساعة!

ونظرت فإذا هو يزيح القناع عن وجهه، ويبدو شابًا صغيرًا لم يكن شيخًا ولا زنجيًا، وضحك وضحكت، وبينما أنا انظر إلى الشاب إذ قفذ إلى جواري شاب آخر فرفعت يدي إلى أعلى مظهرًا أنه ليس معي شيء، فأشار إليه اللص الأول من بعيد فتركني، وعرفت أن الزنوج ليسوا وحدهم قطاع طرق في أمريكا[1].

وقدّر هؤلاء فيما قدّروا أن الحياة ستشهد المجتمع الذي تمضي فيه هذه العقوبة وقد شوّهت الإنسانية فيه، بهذه الأيدي التي زايلتها أكفّها، وبانت عنها معاصمها، ووقع في حسابهم أنه لو قطعت أيدي من تضمهم السجون، من أجل السرقة لكانوا أعدادًا كثيرة من المشوهيين، الذين تتأذى بهم العيون، وتتضرر النفوس، وتألم الضمائر، ولا شك أن هذا حساب خاطئ، قام على نظرة غافلة أو جاهلة، أو مُغْرضة. . . فلو أنه أقيم حد السرقة كما شرعه الإسلام لما كان هذا العدد الكبير مما يحترفون السرقة، ويقدمون عليها. . . . ولكان في هذه العقوبة التي فرضها الإسلام، وقدر آثارها، لكان فيها زاجرًا يزجر معظم الذين يقترفون هذا الذنب، ويعاودون اقترافه، واحترافه[2].

وقد جاءت في جريدة الأهرام تحت هذا العنوان " تضاعف خمس مرات في خمس سنوات سرقات في وضح النهار " الآتي:

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام- محمد الغزالي (٢٥٣).

(٢) التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث – عبد الكريم الخطيب (٢٥٦، ٢٥٩).

في الماضي كان الذي يرتكب جريمة السرقة يبحث لنفسه عن مكان خالي من البشر يقترف فيه جريمته، أو يرتكبها بعيدًا عن أعين الناس، لكن هذه الأيام الجريمة ترتكب في وضح النهار، والأخطر من ذلك أن هناك أسواقًا للمسروقات في بعض المناطق والأحياء الشعبية وتباع بربع الثمن، تحت أعين وبصر الجميع، في البداية نشير إلى أن معدلات جرائم السرقة تزايدت بصورة ملحوظة في كل مكان في الريف والمدن وفي المناطق الشعبية والأحياء الراقية، وكل منطقه أصبح لها روادها في مجال السرقة، وعلى حسب قول أحد ضباط المباحث الكبار في مديرية أمن القاهرة: نحن لدينا تفاصيل بنوعية جرائم السرقة ونوعية مرتكبيها، فهناك لصوص متخصصون في سرقة الشقق وهؤلاء يسرقون الأجهزة الإلكترونية مثل الكمبيوترات والتليفزيونات والفيديوهات والأموال والتحف وغيرها من محتويات المنازل، وهناك لصوص متخصصون في سرقة السيارات، وآخرون في المحلات والمخازن. . . . ، وهذا ليس بجديد على المجتمع، لكن الجديد الآن هو زيادة عدد بلاغات السرقة فقد تضاعفت خلال السنوات الخمس الأخيرة إلى خمسة أضعاف، وهذا يعني ظهور حالة انقلاب في المجتمع وأظن هذه الجرائم بالمقارنة بجرائم القتل والمشكلات الزوجية والخناقات العائلية ونزاعات الشقق والأراضي والمحلات أصبحت تمثل إرهاقًا كبيرًا لكل ضباط الشرطة وطاقة الأقسام، وكذلك النيابات التي أصبحت أمامها قضايا عديدة وكثيرة جدًّا[1].

فالقول بأن السجن ردع لا شك أن هذه الفلسفة التي لا تستند على منطق سليم فلسفة خاطئة، والدليل على ذلك ما نلاقيه يوميًا من حوادث السرقة بكافة أشكالها وألوانها، فزادت الجرائم وكثرت العصابات، وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق الذين يهددون الأمن والاستقرار، يسرق السارق وهو آمن مطمئن لا يخشى شيئًا اللهم إلاذلك السجن الذي يطعم ويكسى فيه فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه القانون الوضعي ثم

(١) الأهرام عدد (١٣١) بتاريخ ١٧/ ٣/ ٢٠٠٧ جزء من المقال.

يخرج منه وهو إلى الإجرام أميل وعلى الشر أقدر، يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه على تعدد الجرائم وزيادتها يومًا بعد يوم، وذلك لقصور العقل البشري عن الوصول إلى الدواء النافع والشفاء النافع لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة، أما الإسلام فقد استطاع أن يقتلع الشر من جذوره، ويدٌ واحدة تقطع كافية لردع المجرمين فيا له من تشريع حكيم(١).

وفي عقوبة السجن مضار منها: إرهاق خزانة الدولة(٢)، وتعطيل الإنتاج، وذلك بوضع المحكوم عليهم بعقوبة الحبس في محابس يقيمون بها حتى تنتهي مدة العقوبة والمحكوم عليهم يكونون في الغالب من الأشخاص الأصحاء القادرين على العمل، فوضعهم في السجون تعطيل لقدرتهم على العمل، وتضييع لمجهود كبير كان من الممكن أن يبذلوه فيستفيد منه المجتمع لو عوقبوا بعقوبة أخرى غير الحبس تكفي لتأديبهم وردع غيرهم، ولا شك أن هناك من العقوبات ما يمكن أن يؤدي وظيفة الزجر والردع، ويكون له أثره في محاربة الجريمة دون أن يؤدي إلى تعطيل مجهود المحكوم عليه كالجلد مثلًا؛ فإن تنفيذ هذه العقوبات ليس له أثر في الغالب على إنتاج المحكوم وقيامه بعمله اليومي، ومن مضار السجون أيضًا إفساد المسجونين؛ لأن السجن يجمع بين المجرم الذي ألف الإجرام، وبين المجرم العادي كما يضم السجن أشخاصًا ليسوا بمجرميين حقيقيين كالمحكوم عليهم من جرائم الخطأ والإهمال، وإجتماع هؤلاء جميعًا في صعيد واحد يؤدي إلى تفشي عدوى الإجرام بينهم، ومنها: قتل الشعور بالمسئولية، وعقوبة الحبس فوق أنها غير رادعة تؤدي إلى قتل الشعور بالمسئولية في نفس المجرمين وتحبب إليهم التعطل. فالكثير من

---

(١) صفوة التفاسير (١/ ٣٤٣) بتصرف يسير.

(٢) جاء في جريدة الأهرام المسائي عدد (٦١٢٣) بتاريخ (١/ ٢/ ٢٠٠٨)في الصفحة الأولى ما نصه: (إطلاق ١٦ ألف سجين لتكدس السجون البريطانية)، وورد في التقرير أن المسجونين تم إطلاقهم قبل انتهاء مدة عقوبتهم القانونية نتيجة لتكدس السجون البريطانية، وأوضحت شبكة (سكاى نيوز) البريطانية أن الإفراج عن هذا العدد الضخم تقرر من أجل إفساح السجون لاستقبال مساجين جدد، وذلك لعدم وجود ميزانية لإنشاء سجون جديدة في بريطانيا.

المسجونين يقضون في السجن مددًا طويلة ينعمون فيها بالتعطل عن العمل ويكفون فيها مؤونة أنفسهم من مطعم وملبس وعلاج، والشاهد أن هؤلاء يكرهون أن يلقى بهم خارج السجن ليواجهوا حياة العمل والكد من جديد وأنه يموت فيهم كل شعور بالمسئولية نحو أسرهم، بل نحو أنفسهم فلا يكادون يخرجون من السجن حتى يعملوا للعودة إليه لا حبًا في الجريمة ولا حرصًا عليها، وإنما حبًا إلى العودة على السجن وحرصًا على حياة البطالة، وقد يؤدي ازدحام السجون وعدم توفر الوسائل الصحية بها وحرمان المسجونين من الاتصال بزوجاتهم إلى انتشار الأمراض السرية، والجلدية، والصدرية، وغيرها من الأمراض الخطيرة بين المسجونين. فالسجون تؤدي إلى فساد الأخلاق في خارجها؛ لأن وضع الرجال في السجون معناه تعريض زوجات هؤلاء الرجال وبناتهم وأخواتهم إلى الحاجة وإلى الفتنة ووضعهن وجهًا لوجه أمام الشيطان[1].

الوجه الخامس: كيف عالج الكتاب المقدس جريمة السرقة؟

والكلام على هذا من وجوه:

أولًا: الرب يأمر بالسرقة في الكتاب المقدس:

وليس هذا كلامًا لا أساس له، بل حقيقة، فلو نظرنا إلى النصوص لوجدنا كيف أن الرب عند القوم يأمرهم بالسرقة والنهب ويدَّعون أنه كتاب من عند الله، وكذبوا؛ لأن هذا الكلام لا يليق أن يكون لبشر فضلًا أن يكون لله تعالى، فتعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ففي سفر الخروج (٣/ ٢٢: ٢١): أُعْطِي نِعْمَةً لِهذَا الشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ. ٢٢بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا، وَتَضَعُونَهَا عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الْمِصْرِيِّين.

فلا شك أن هذا إرشاد واضح إلى المكر والدهاء حتى يسلب المصريون ويسرقون، فهل يليق أن يأمر الرب بهذا؟.

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع د/ رمزي نعناعة (١١٣، ١١٤، ١١٥).

وفي التثنية (٢/ ٣٦: ٣٢): فَخَرَجَ سِيحُونُ لِلِقَائِنَا هُوَ وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ إِلَى يَاهَصَ، ٣٣فَدَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا، فَضَرَبْنَاهُ وَبَنِيهِ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ. ٣٤وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ، وَحَرَّمْنَا مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. لَمْ نُبْقِ شَارِدًا. ٣٥لكِنَّ الْبَهَائِمَ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا، وَغَنِيمَةَ الْمُدُنِ الَّتِي أَخَذْنَا، ٣٦مِنْ عَرُوعِيرَ الَّتِي عَلَى حَافَةِ وَادِي أَرْنُونَ وَالْمَدِينَةِ الَّتِي فِي الْوَادِي، إِلَى جِلْعَادَ، لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ قَدِ امْتَنَعَتْ عَلَيْنَا. الْجَمِيعُ دَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا.

وفي إشعياء (١٣/ ١٧: ١٦): كُلُّ مَنْ وُجِدَ يُطْعَنُ، وَكُلُّ مَنِ انْحَاشَ يَسْقُطُ بِالسَّيْفِ. ١٦وَتُحَطَّمُ أَطْفَالُهُمْ أَمَامَ عُيُونِهِمْ، وَتُنْهَبُ بُيُوتُهُمْ وَتُفْضَحُ نِسَاؤُهُمْ.

وفي زكريا (١٤/ ٢): وَأَجْمَعُ كُلَّ الأُمَمِ عَلَى أُورُشَلِيمَ لِلْمُحَارَبَةِ، فَتُؤْخَذُ الْمَدِينَةُ، وَتُنْهَبُ الْبُيُوتُ، وَتُفْضَحُ النِّسَاءُ، وَيَخْرُجُ نِصْفُ الْمَدِينَةِ إِلَى السَّبْيِ، وَبَقِيَّةُ الشَّعْبِ لاَ تُقْطَعُ مِنَ الْمَدِينَةِ.

فهذه بعض النصوص التي وردت في الكتاب المقدس في الحض على السرقة والنهب والسلب.

ثانيًا: اتهام السابقين من الأنبياء بالسرقة:

ومن ناحية أخرى، نرى أن يسوع يتهم كل من جاء قبله من الأنبياء بأنهم لصوص وسراق، فورد في نص يوحنا (١٠/ ٨: ٧): فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا بَابُ الْخِرَافِ. ٨جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ، وَلكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ.

ثالثًا: عقوبة السرقة في الكتاب المقدس:

لو نظرنا إلى عقوبة السرقة في الكتاب المقدس لوجدنا قصورًا واضحًا في هذه العقوبة، وهذا بوجه عام في تصنيف الجرائم في الكتاب المقدس، فورد في دائرة المعارف في تصنيف الجريمة ما نصه: (لم تضع الشريعة حدودًا واضحة بين الجرائم العامة والإساءات الفردية، أو كما نقول بين الجنايات والمخالفات)[1].

وتقول دائرة المعارف الكتابية: كان حكم الشريعة الموسوية أن السارق التائب عليه أن يرد ما اغتصبه، ويزيد عليه خمسة، ولم يكن في إمكانه أن يتقدم إلى الرب بذبيحة لإثمه إلا

(١) دائرة المعارف الكتابية، انظر (جريمة-جرائم).

بعد أن يقوم بذلك التعويض، ففي لاويين (٦/ ٧: ٢): (إذا أخطأ أحد وخان خيانة بالرب وجحد صاحبه وديعة أو أمانة أو مسلوبًا أو اغتصب من صاحبه، أو وجد لقطة

وجحدها وحلف كاذبًا على شيء من كل ما يفعله الإنسان مخطئًا به، فإذا أخطأ وأذنب يرد المسلوب الذي سلبه أو المغتصب الذي اغتصبه أو الوديعة التي أودعت عنده أو اللقطة التي وجدها، أو كل ما حلف عليه كاذبًا يعوضه برأسه ويزيد عليه خمسة إلى الذي هو له يدفعه يوم ذبيحة إثمه، ويأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشًا صحيحًا من الغنم بتقويمك ذبيحة إثم إلى الكاهن). ويجمع سفر اللاويين بين الاغتصاب والسلب وعدم دفع أجرة الأجير في يومه، كنوع واحد من الجرائم المنهي عنها، فيقول: (لا تغصب قريبك، ولا تسلب، ولا تبت أجرة أجير عندك إلى الغد). ولكنه لم يقرر لها عقوبة معينة (وكانت العقوبة في قانون حمورابي-مادة ٢٢- هي الإعدام). أما السطو على المنازل، فكان يمكن لرب البيت أن يدفعه؟ ولو أدى الأمر إلى قتل اللص، وهناك جريمة سرقة المواشي، وكانت عقوبتها أن يعوض باثنتين عن كل واحدة سرقها إذا وجدت السرقة في يده حية، أما إذا كان ذبحها أو باعها، فكان عليه أن يعوض بخمسة ثيران، وبأربعة من الغنم عن الشاة: ففي الخروج (٢٢/ ٤: ١). (إذا سرق إنسان ثورًا أو شاة فذبحه أو باعه يعوض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم، إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم، ولكن إن أشرقت عليه الشمس فله دم أنه يعوض إن لم يكن له يبع بسرقته، إن وجدت السرقة في يده حية ثورًا كانت أم حمارًا أم شاة يعوض باثنين). [1]

وهكذا جريمة السرقة في الكتاب المقدس، فلم تضع الشريعة عندهم حدودًا واضحة في التفرقة بين الجرائم العامة والمخالفات، ففي هذه العقوبة لم يوضحوا أن هناك فرقًا بين السرقة والسلب والاختلاس، كما هو عندنا واضحًا ومبينًا بالضوابط والشروط، فلا شك أن هذا قصور وعجز في التشريع، ويخرجون علينا أن قطع اليد ليس من الرحمة والشفقة، على الرغم

(١) دائرة المعارف (المصدر السابق)بتصرف.

من أن هذه العقوبة لا تطبق جزافًا، بل بضوابط وشروط كما أشرنا سابقًا، وفي الكتاب المقدس نصوص تحمل في طياتها أبلغ درجات البشاعة والظلم والجور ومنها على سبيل المثال: في الخروج (٢١/ ١٦). : (ومن سرق إنسانًا وباعه، أو وجد في يده، يقتل قتلًا).

وفي التثنية (٢٥/ ١٢: ١١): إِذَا تَخَاصَمَ رَجُلاَنِ، رَجُلٌ وَأَخُوهُ، وَتَقَدَّمَتِ امْرَأَةُ أَحَدِهِمَا لِكَيْ تُخَلِّصَ رَجُلَهَا مِنْ يَدِ ضَارِبِهِ، وَمَدَّتْ يَدَهَا وَأَمْسَكَتْ بِعَوْرَتِهِ، ١٢فَاقْطَعْ يَدَهَا، وَلاَ تُشْفِقْ عَيْنُكَ.

فأين الشفقة والرحمة في أن يقتل إنسان في السرقة، كما ورد في النص السابق من سفر الخروج؟ وأين الرحمة والشفقة في النص السابق؟ فهذه شريعتكم تأمر بقطع اليد، فلم الاعتراض؟ بل هناك نصوص واضحة الدلالة على قطع الأيدي والأرجل، بل وقلع الأعين، في إنجيل متى (١٨/ ٩: ٨): فَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ أَوْ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْرَجَ أَوْ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي النَّارِ الأَبَدِيَّةِ وَلَكَ يَدَانِ أَوْ رِجْلاَنِ.

وفيه أيضًا (١٩/ ١٢): وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ.

فمن يضحي بهذا العضو من أجل الملكوت؟ وهل يمنعه أن يضحي بيده من أجل أنه سرق أموال الناس؟. وفي سفر الخروج (٣١/ ١٤). انظر كيف يعاقب من يدنس يوم السبت (فَتَحْفَظُونَ السَّبْتَ لأَنَّهُ مُقَدَّسٌ لَكُمْ. مَنْ دَنَّسَهُ يُقْتَلُ قَتْلًا. إِنَّ كُلَّ مَنْ صَنَعَ فِيهِ عَمَلًا تُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ بَيْنِ شَعْبِهَا). وقصة الرجل الذي كان يجمع الحطب ليست بعيدة عنا، وفيها كما جاء في سفر العدد (٢٥/ ٣٦: ٣٢): (وَلَمَّا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَجَدُوا رَجُلًا يَحْتَطِبُ حَطَبًا فِي يَوْمِ السَّبْتِ. ٣٣فَقَدَّمَهُ الَّذِينَ وَجَدُوهُ يَحْتَطِبُ حَطَبًا إِلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَكُلِّ الْجَمَاعَةِ. ٣٤فَوَضَعُوهُ فِي الْمَحْرَسِ لأَنَّهُ لَمْ يُعْلَنْ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِ. ٣٥فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَتْلًا يُقْتَلُ الرَّجُلُ. يَرْجُمُهُ بِحِجَارَةٍ كُلُّ الْجَمَاعَةِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ». ٣٦فَأَخْرَجَهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَرَجَمُوهُ بِحِجَارَةٍ، فَمَاتَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى).

وأما من يعتدي على أموال الناس بالسرقة فلا شئ عليه، فهل هذا عدل ورحمة وشفقة لمن عمل يوم السبت أن يرجم ويترك السارق؟

فلا شك أن هذا عجز تشريعي واضح ولا يوافق العقل والمنطق، وتعاليم الكتاب تحض على ذلك، في لوقا (٦/ ٣٠: ٢٩) (من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضًا، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا. . . ، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه). ولو نظرت إلى مبدأ العقوبات في الإسلام لرأيت العدل والرحمة والشفقة، بلا إفراط ولا تفريط.

* * *

١٢ـ شبهة: الخمر.

نص الشبهة:

تتكون من مسائل: الأولى: زعموا أن الإسلام أحل شرب الخمر واستندوا إلى هذه الأدلة.

١ - من القرآن: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ (النحل: ٦٧)، وآيات التدرج في تحريم الخمر.

٢ - من السنة: أن النبي محمدًا ﷺ كان يشرب النبيذ، والنبيذ هو الخمر. كذا زعموا

الثانية: اتهامهم النبي محمدًا ﷺ بشرب الخمر.

الثالثة: اتهامهم النبي محمدًا ﷺ بالوضوء بالخمر.

الرابعة: قالوا: كيف يحرم الخمر في الدنيا ويحلها في الجنة؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: القرآن حرم الخمر.

الوجه الثاني: آية تحريم الخمر ناسخة للآيات الأُخَرَ.

الوجه الثالث: السنة حرمت الخمر.

الوجه الرابع: إقامة الحد على شارب الخمر دليل على تحريم الخمر.

الوجه الخامس: أجمعت الأمة على تحريم الخمر.

الوجه السادس: الخمر حُرم تدريجيًا فلا تعارض بين الآيات.

الوجه السابع: العقوبات التي تلحق بشارب الخمر دليل على تحريم شرب الخمر.

الوجه الثامن: الرد على قولهم: أن النبي محمد ﷺ كان يشرب الخمر أو النبيذ.

الوجه التاسع: الرد على قولهم: أن النبي محمد ﷺ توضأ بالخمر.

الوجه العاشر: الرد على قولهم: كيف يحرم الله الخمر في الدنيا ويحلها في الآخرة؟

الوجه الحادي عشر: آثار شرب الخمر في المجتمع الغربي.

الوجه الثاني عشر: الخمر في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن حرم الخمر.

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (المائدة: ٩٠)

قال القنوجي: وفي هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الأمر بالاجتناب من الوجوب وتحريم الصد ولما تقرر في الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلًا عن جعله شرابًا يشرب[1].

قال الزمخشري: أكد تحريم الخمر والميسر وجوهًا من التأكيد منها:

١- تصدير الجملة بإنما.

٢- ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام.

٣- ومنها أنه جعلهما رجسًا، قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ (الحج: ٣٠).

٤- ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت.

٥- ومنها أنه أمر بالاجتناب.

٦- ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا، كان الارتكاب خيبة ومحقة.

٧- ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقُمار، وما يؤدّيان إليه من الصدّ عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة.

٨- وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى عنه، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟ فإن قلت: إلام يرجع الضمير في ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾؟ قلت: إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال: ﴿

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن (٤/ ٤٦).

﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾. فإن قلت: لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولًا ثم أفردهما آخرًا؟ قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أنّ ذلك جميعًا من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنمًا وأشرك بالله في علم الغيب، وبين من شرب خمرًا أو قامر[1].

قال الطبري: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، إن الخمر التي تشربونها، والميسِرَ الذي تَتَياسرونه، والأنصاب التي تذبحُون عندها، والأزلام التي تستقسمون بها ﴿رِجۡسٞ﴾ يقول: إثم ونَتْنٌ سَخِطه الله وكرهه لكم ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يقول: شربكم الخمر، وقمارُكم على الجُزُر، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام، من تزيين الشيطانِ لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربُّكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ يقول: فاتركوه وارفضوه ولا تعملوه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ يقول: لكي تنجَحُوا فتدركوا الفلاحَ عند ربكم بترككم ذلك[2].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: ولما بين جل جلاله علة تحريم الخمر والميسر وحكمته أكده بقوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، فهذا استفهام يتضمن الأمر بالانتهاء ثم ذكر كلام الكشاف.

ثم قال وتبعه في ذلك الرازي وغيره ونحن نبين المؤكدات بأوضح مما بينوها به وأوسع فنقول: **أحدها**: أن الله تعالى جعل الخمر والميسر رجسًا، وكلمة الرجس تدل على منتهى القبح والخبث، ولذلك أطلقت على الأوثان كما تقدم، فهي أسوأ مفهومًا من كلمة الخبيث وقد علم من عدة آيات أن الله أحل الطيبات وحرم الخبائث.

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٦٧٤، ٦٧٥).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٢)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٨٠).

ثانيها: أنه صدر الجملة بإنما الدالة على الحصر للمبالغة في ذمهما كأنه قال ليست الخمر وليس الميسر إلا رجسًا فلا خير فيهما البتة.

ثالثها: أنه قرنها بالأنصاب والأزلام التي هي من أعمال الوثنية وخرافات الشرك.

رابعها: أنه جعلها من عمل الشيطان لما ينشأ عنها من الشرور والطغيان، وهل عمل الشيطان إلا موجبًا لسخط الرحمن؟

خامسها: أنه جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب، وهو أبلغ من الترك لأنه يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك بأن يكون التارك في جانب بعيد عن المتروك.

سادسها: أنه جعل اجتنابهما معدًا للفلاح ومرجاة له، فدل ذلك على أن ارتكابهما من الخسران والخيبة في الدنيا والآخرة.

سابعها وثامنها: أنه جعلهما مثارًا للعداوة والبغضاء، وهما شر المفاسد الدنيوية المتعدية إلى أنواع من المعاصي في الأموال والأعراض والأنفس ولذلك سميت الخمر بأم الخبائث وأم الفواحش.

تاسعها وعاشرها: أنه جعلهما صَادَّيْنِ عن ذكر الله وعن الصلاة وهما روح الدين وعماده.

الحادي عشر: الأمر بالانتهاء عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء السببية، وهل يصح الفصل بين السبب والمسبب. وفي الآية التالية ثلاثة مؤكدات أخرى نوردها معدودة مع ما قبلها.

الثاني عشر: قوله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ (المائدة: ٩٢). أي: أطيعوا الله فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر وغيرهما كما تجتنبون الأنصاب والأزلام أو أشد اجتنابًا وفي كل شيء، وأطيعوا الرسول فيما بَيَّنَهُ لكم مما نزله الله عليكم ومنه قوله: " كل مسكر خمر وكل خمر حرام ".

الثالث عشر: قوله عز وجل: ﴿وَٱحْذَرُواْ﴾ أي: احذروا عصيانهما أو ما يصيبكم إذا خالفتم أمرهما من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة فإنه ما حرم عليكم إلا ما يضركم في دنياكم وآخرتكم قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣).

الرابع عشر: الإنذار والتهديد في قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (المائدة: ٩٢) أي: فإن توليتم وأعرضتم عن الطاعة فاعلموا أنما على رسولنا أن يبين لكم ديننا وشرعنا؛ وقد بلغه وأبانه، وقرن حكمه بأحكامه وعلينا نحن الحساب والعقاب وسترونه في إبانه كما قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤٠). وإنما الحساب لأجل الجزاء. [1]

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ ... ﴾ (الأعراف: ٣٣)، والخمر من الإثم.

قال أبو جعفر النحاس: قال جماعة من الفقهاء: تحريم الخمر بآيتين من القرآن بقولهﻷ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وبقوله ﻷ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾، فلما حرم الإثم وأخبر أن في الخمر إثمًا وجب أن تكون محرمة[2].

الوجه الثاني: آية تحريم الخمر ناسخة للآيات الأخَر.

قال الشنقيطي: قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾. هذه الآية الكريمة يفهم منها أن السُكر المتخذ من ثمرات النخيل والأعناب لا بأس به لأن الله امتن به على عباده في سورة الامتنان التي هي سورة النحل، وقد حرّم تعالى الخمر بقوله: ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾؛ لأنه وصفها بأنها رجس وأنها من عمل الشيطان وأمر باجتنابها ورتب عليه رجاء الفلاح، ويفهم منه أن من لم يجتنبها لم يفلح وهو كذلك، وقد بيّن ﷺ أن كل ما خامر العقل فهو خمر وأن كل مسكر حرام وأن ما أسكر كثيره فقليله حرام.

(١) تفسير المنار (٧/ ٦٣- ٦٥).

(٢) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس (١/ ٥٧٩).

والجواب ظاهر وهو أن آية تحريم الخمر ناسخة لقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾. الآية. ونسخها له هو التحقيق. وإنما قلنا إن التحقيق هو كون تحريم الخمر ناسخًا لإباحتها؛ لأن قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ يدل على إباحة الخمر شرعا، فرفع هذه الإباحة المدلول عليها بالقرآن رفع حكم شرعي فهو نسخ بلا شك، ولا يمكن أن تكون إباحتها عقلية إلا قبل نزول هذه الآية كما هو ظاهر، ومعلوم عند العلماء أن الخمر نزلت في شأنها أربع آيات من كتاب الله:

الأولى: هذه الآية الدالة على إباحتها.

الثانية: الآية التي ذكر فيها بعض معايبها، وأن فيها منافع وصرحت بأن إثمها أكبر من نفعها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، فشَرِبها بعد نزولها قوم للمنافع المذكورة، وتَركها آخرون للإثم الذي هو أكبر من المنافع.

الثالثة: الآية التي دلت على تحريمها في أوقات الصلاة دون غيرها، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ الآية.

الرابعة: الآية التي حرمتها تحريمًا باتًا مطلقًا، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، والعلم عند الله تعالى.

وأما على قول من زعم أن السكر: الطعم، كما اختاره ابن جرير وأبو عبيدة، أو أنه الخل فلا إشكال في الآية. (١)

قلت: وسيأتي الكلام عن كيف حرمت الخمر وأنه حُرِّمَ تدريجيًا.

الوجه الثالث: السنة حرمت الخمر.

وفي ذلك أحاديث كثيرة ثابتة عن النبي ﷺ منها.

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١٣٢- ١٣٤) بتصرف.

١- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ ساقي الْقَوْمِ يَوْمَ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ في بَيْتِ أَبِى طَلْحَةَ وَمَا شَرَابُهُمْ إِلاَّ الْفَضِيخُ: الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِى فَقَالَ: اخْرُجْ فَانْظُرْ فَخَرَجْتُ فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِى: أَلاَ إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، قَالَ: فَجَرَتْ في سِكَكِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا. فَهَرَقْتُهَا. . . الحديث".

وفي رواية: " لَقَدْ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ وَكَانَتْ عَامَّةُ خُمُورِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَلِيطَ الْبُسْرِ وَالتَّمْرِ"[(١)].

٢- حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَسْقِى أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ وَأَبَا طَلْحَةَ وَأُبَىَّ بْنَ كَعْبٍ شَرَابًا مِنْ فَضِيخٍ وَتَمْرٍ؛ فَأَتَاهُمْ آتٍ، فَقَالَ: إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أَنَسُ قُمْ إِلَى هَذِهِ الْجَرَّةِ فَاكْسِرْهَا. فَقُمْتُ إِلَى مِهْرَاسٍ[(٢)] لَنَا فَضَرَبْتُهَا بِأَسْفَلِهِ حَتَّى تكَسَّرَتْ.[(٣)]

قال النووي: وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيث الَّتِي ذَكَرَهَا مُسْلِم تَصْرِيح بِتَحْرِيمِ جَمِيع الْأَنْبِذَة الْمُسْكِرَة، وَأَنَّهَا كُلّهَا تُسَمَّى خَمْرًا، وَسَوَاء فِي ذَلِكَ الْفَضِيخ وَنَبِيذ التَّمْر وَالرُّطَب وَالْبُسْر وَالزَّبِيب وَالشَّعِير وَالذُّرَة وَالْعَسَل وَغَيْرهَا، وَكُلّهَا مُحَرَّمَة، وَتُسَمَّى خَمْرًا.[(٤)]

٣- عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَامَ عُمَرُ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَهْىَ مِنْ خَمْسَةٍ الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ، وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ.[(٥)]

قال ابن حجر: (وَالْخَمْر مَا خَامَرَ الْعَقْل) أَيْ: غَطَّاهُ أَوْ خَالَطَهُ فَلَمْ يَتْرُكهُ عَلَى حَالِهِ وَهُوَ مِنْ مَجَاز التَّشْبِيه، وَالْعَقْل هُوَ آلَة التَّمْيِيز فَلِذَلِكَ حُرِّمَ مَا غَطَّاهُ أَوْ غَيَّره، لِأَنَّ بِذَلِكَ يَزُول الْإِدْرَاك الَّذِي طَلَبَهُ الله مِنْ عِبَاده لِيَقُومُوا بِحُقُوقِهِ.[(٦)]

٤- سئل رسول الله عن عن البتع[(١)] فقال: "كل شراب أسكر فهو حرام"[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٨٢)، ومسلم (١٩٨٠)، واللفظ له.

(٢) قال النووي في شرح مسلم (٧/ ١٦٦) المهراس: بكسر الميم هو حجر منقور.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٨٢)، ومسلم (١٩٨٠).

(٤) شرح مسلم للنووي (٧/ ١٦٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٨٨).

(٦) فتح الباري (١٠/ ٤٩).

٥- عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ"(٣).

قال ابن حجر: وَدَلَّ ـ أي الحديث ـ عَلَى أَنَّ عِلَّة التَّحْرِيم الْإِسْكَار فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ كُلّ شَرَاب وُجِدَ فِيهِ الْإِسْكَار حَرُمَ تَنَاوُل قَلِيله وَكَثِيره. اهـ. (٤)

وقال: وَاسْتُدِلَّ بِمُطْلَقِ قَوْله: " كُلّ مُسْكِر حَرَام " عَلَى تَحْرِيم مَا يُسْكِر وَلَوْ لَمْ يَكُنْ شَرَابًا، فَيَدْخُل فِي ذَلِكَ الْحَشِيشَة وَغَيْرهَا. (٥)

٦ - حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: " لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشَرَةِ وُجُوهٍ: لُعِنَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا، وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَآكِلُ ثَمَنِهَا ". (٦)

الوجه الرابع: إقامة الحد على شارب الخمر دليل على تحريم الخمر.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نبي الله ﷺ جَلَدَ فِي الْخَمْرِ بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، ثُمَّ جَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ. فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ وَدَنَا النَّاسُ مِنَ الرِّيفِ وَالْقُرَى قَالَ: مَا تَرَوْنَ فِي جَلْدِ الْخَمْرِ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَأَخَفِّ الْحُدُودِ. قَالَ: فَجَلَدَ عُمَرُ ثَمَانِينَ. (٧)

---

(١) قال النووي في شرح مسلم (٧/ ١٨٩): البتع هو: نبيذ العسل وهو شراب أهل اليمن.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٨٥)، ومسلم (٢٠٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٣).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٥).

(٥) السابق (١٠/ ٤٧).

(٦) **صحيح**. أخرجه أحمد (٢/ ٢٥)، وابن ماجه (٣٣٨٠)، وأبو داود (٣٦٥٧)، وابن أبي شيبة (٥/ ١٨٩)، قال الحافظ في التلخيص (٤/ ٧٣): صححه ابن السكن، والبيهقي في السنن (٨/ ٢٧٨) من طريق عبد الله بن داود عن عبد العزيز بن عمر عن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي عن ابن عمر، وفي الباب عن ابن عباس عند أحمد في المسند (١/ ٣١٦)، وعن ابن مسعود عند الطبراني في الكبير (١٠/ ٩٢)، وعن أنس عند الترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١) قال الحافظ في التلخيص (٤/ ٧٣): ورواته ثقات، والحديث صححه الألباني في الإرواء (١٥٢٩)، فالحديث صحيح بمجموع طرقه.

(٧) أخرجه البخاري (٦٧٧٣)، ومسلم (٧٠٦)، واللفظ له.

وفي رواية: أن عليًا قال بعد ما جلد أربعين: جَلَدَ النبي ﷺ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، وَعُمَرُ ثَمَانِينَ، وَكُلٌّ سُنَّةٌ وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ. (١)

قال النووي: وَأَمَّا الْخَمْر فَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيم شُرْب الْخَمْر، وَأَجْمَعُوا عَلَى وُجُوب الْحَدّ عَلَى شَارِبهَا، سَوَاء شَرِبَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا. (٢)

الوجه الخامس: أجمعت الأمة على تحريم الخمر.

قال ابن المنذر: وأجمعوا على تحريم الخمر. (٣)

قال ابن قدامة: الخمر محرم بالكتاب والسنة والإجماع. (٤)

قال النووي: وأما الخمر فقد أجمع المسلمون على تحريم شرب الخمر. (٥)

قال ابن العربي: لا خلاف بين الأمة أن الخمر حرام بتحريم الله ورسوله وسؤال أخيار الصحابة في ذلك ورغبتهم فيه. (٦)

الوجه السادس: الخمر حُرم تدريجيًا فلا تعارض بين الآيات.

عن أبي ميسرة قال: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتِ الآيَةُ التي في الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ الآيَةَ، قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتِ الآيَةُ التي في النِّسَاءِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ الله

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٧)

(٢) النووي على شرح مسلم (٦/ ٢٣٣).

(٣) الإجماع لابن المنذر (١١١).

(٤) المغني لابن قدامة (١٠/ ٣٢٥).

(٥) شرح مسلم للنووي (٦/ ٢٣٣).

(٦) عارضة الأحوذي (٨/ ٥٠).

ﷺ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ يُنَادِي أَلاَ لاَ يَقْرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكْرَانُ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنا في الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾) قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا. [1]

قال الرازي: قال القفال ـ رحمه الله ـ: والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيرًا، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدريج، وهذا الرفق[2].

قال الصابوني: في تحريم الخمر بهذا الترتيب حكمة بليغة وذلك أن القوم ألفوا شرب الخمر وأصبحت جزءًا من حياتهم، فلو حُرمت عليهم دفعة واحدة لشق ذلك على نفوسهم وربما لم يستجيبوا لذلك النهي، وذلك من الخطة الحكيمة التي انتهجها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعية، فقد سلك بالناس طريق (التدرج في تشريع الأحكام): فبدأ بالتنفير منه بطريق غير مباشر كما في الآية الأولى، ثم بالتنفير المباشر عن طريق المقارنة بين شيئين شيء فيه نفع ضئيل وشيء فيه ضرر وخطر جسيم كما في الآية الثانية، ثم بالتحريم الكلي في جميع الأوقات كما في الآية الرابعة، فلله ما أدق هذا التشريع وما أحكمه! [3]

قال صاحب الظلال في الحكمة من التدرج في تحريم الخمر وما وصل إليه الإسلام وما وصل إليه الغرب الكافر: كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع، فالروايات الكثيرة تدلل تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع الجاهلي.

---

(١) **صحيح**. أخرجه الترمذي (٣٠٤٩)، أبو داود في السنن (٣٦٧٠)، والطبري في التفسير (٢/ ٣٦٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٤٣)كلهم من طرق عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن شرحبيل، عن عمر بن الخطاب به.

(٢) تفسير الرازي (٦/ ٤٠).

(٣) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام للصابوني (٢/ ٢٧٣).

فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة، التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبدًا؟ ماذا صنع ليقف في وجه عادة أصيلة قديمة، تتعلق بها تقاليد اجتماعية؛ كما تتعلق بها مصالح اقتصادية؟

لقد عالج المنهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن؛ وعلى مراحل، وفي رفق وتؤدة، وكسب المعركة دونَ حربٍ، ودون تضحيات، ودون إراقة دماء، والذي أريق فقط هو دنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت في أفواه الشاربين - حين سمعوا آية التحريم- فمجوها من أفواههم.

في مكة - حيث لم يكن للإسلام دولة ولا سلطان. . إلا سلطان القرآن - وردت في القرآن المكي تلميحة سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر. تُدْرَكُ من ثنايا العبارة. وهي مجرد إشارة. جاء في سورة النحل: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (النحل: ٦٧)

فوضع « السكر » وهو الشراب المسكر الذي كانوا يتخذونه من ثمرات النخيل والأعناب في مقابل الرزق الحسن؛ مُلَمِّحًا بهذا التقابل إلى أن السكر شيء. والرزق «الحسن » شيء آخر، وكانت مجرد لمسة من بعيد للضمير المسلم الوليد!

ولكن عادة الشراب، أو تقليد الشراب - بمعنى أدق - فقد كان أعمق من عادة فردية، كان تقليدًا اجتماعيًا له جذور اقتصادية، كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة وفي المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان، لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان، إنما كان أولًا سلطان القرآن. وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر، وفي خبرة بالنفس البشرية، والأوضاع الاجتماعية.

بدأ بآية البقرة ردًا على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)

وكانت هذه هي الطرقة الأولى، ذات الصوت المسموع. . في الحس الإسلامي، وفي الضمير الإسلامي وفي المنطق الفقهي الإسلامي. ، فمدار الحل والحرمة. . أو الكراهية. . على رجحان الإثم أو رجحان الخير، في أمر من الأمور. ، وإذا كان إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما. . فهذا مفرق الطريق. .

ولكن الأمر كان أعمق من هذا. . وقال عمرﷺ: اللهم بين لنا بيانًا شافيًا في الخمر. . عمر!! وهذا وحده يكفي لبيان عمق هذا التقليد في نفس العربي.

ثم حدثت أحداث - كالتي رويناها - ونزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣)، وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل. . لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة، بين التنفير من الخمر، لأن إثمها أكبر من نفعها وبين التحريم البات، لأنها رجس من عمل الشيطان. وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة: هي « قطع عادة الشراب » أو « كسر الإدمان ». ، وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة. وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار، وبينها فترات لا تكفي للشراب - الذي يرضي المدمنين - ثم الإفاقة من السكر الغليظ حتى يعلموا ما يقولون فضلًا على أن للشراب كذلك أوقاتًا ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق. . صباحًا ومساء. . وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة. ، وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب. . ، وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة.

ومع ذلك. . فقد قال عمر ﷺ وهو عمر! - اللهم بين لنا بيانًا شافيًا في الخمر. . ثم مضى الزمن. ووقعت الأحداث. وجاء الوعد المناسب - وفق ترتيب المنهج - للضربة الحاسمة فنزلت الآيتان في المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المائدة: ٩٠-٩١).

وانتهى المسلمون كافة. وأريقت زقاق الخمر، وكسرت دنانها في كل مكان. . بمجرد سماع الأمر.

لقد انتصر القرآن. وأفلح المنهج. وفرض سلطانه - دون أن يستخدم السلطان! ! !

ولكن كيف كان هذا؟ كيف تمت هذه المعجزة، التي لا نظير لها في تاريخ البشر؛ ولا مثيل لها في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان.

لقد تمت المعجزة، لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة. ، أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته.

لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغًا تملؤه بنشوة الخمر، وخيالات السكر، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء. . في الهواء. .

ملأ فراغها باهتمامات. منها: نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها، من تيه الجاهلية الأجرد، وهجيرها المتلظي، وظلامها الدامس، وعبوديتها المذلة، وضيقها الخانق، إلى رياض الإسلام البديعة، وظلاله الندية، ونوره الوضيء، وحريته الكريمة، وسعته التي تشمل الدنيا والآخرة!

وملأ فراغها - وهذا هو الأهم - بالإيمان بهذا الإحساس الندي الرضي الجميل البهيج، فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر تحلق بها في خيالات كاذبة وسمادير! وهي ترف بالإيمان المشع إلى الملأ الأعلى الوضيء. . وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله. . وتذوق طعم هذا القرب، فتمج طعم الخمر ونشوتها، وترفض خمارها وصداعها. إن هذه كلها ليست إلا تعبيرًا عن الخواء الروحي. . من الإيمان أولًا. . ومن الاهتمامات الكبيرة التي تستنفد الطاقة ثانيًا. . ، وليست إلا إعلانًا عن إفلاس هذه الحضارة في إشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية. . ، ذلك الخواء وهذا الإفلاس هما اللذان يقودان إلى الخمر والميسر لملء الفراغ، كما يقودان إلى كل أنواع الجنون التي ذكرنا. وإلى المرض النفسي والعصبي. . وإلى الشذوذ وغير ذلك.

إنها لم تكن كلمات. . هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة. . ، إنما كان منهج. منهج هذه الكلمات متنه وأصله، منهج من صنع رب الناس. لا من صنع الناس، وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج، لا تؤدي إلى كثير! (١)

الوجه السابع: العقوبات التي تلحق بشارب الخمر دليل على تحريم شرب الخمر.

١- عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ مِنْ جَيْشَانَ - وَجَيْشَانُ مِنَ الْيَمَنِ - فَسَأَلَ النبي ﷺ عَنْ شَرَابٍ يَشْرَبُونَهُ بِأَرْضِهِمْ مِنَ الذُّرَةِ يُقَالُ لَهُ الْمِزْرُ فَقَالَ النبي ﷺ: "أَوَ مُسْكِرٌ هُوَ؟. قَالَ نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ إِنَّ عَلَى الله ﷻ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ"(٢).

٢- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِى الدُّنْيَا حُرِمَهَا فِى الآخِرَةِ"(٣).

٣- عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: "لاَ يَزْنِى الزَّانِي حِينَ يَزْنِى وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ". (٤)

٤- **قال ابن حجر**: قَالَ اِبْن بَطَّال: هَذَا أَشَدُّ مَا وَرَدَ فِي شُرْب الْخَمْر، وَبِهِ تَعَلَّقَ الْخَوَارِج فَكَفَّرُوا مُرْتَكِب الْكَبِيرَة عَامِدًا عَالِمًا بِالتَّحْرِيمِ، وَحَمَلَ أَهْل السُّنَّة الْإِيمَان هُنَا عَلَى الْكَامِل، لِأَنَّ الْعَاصِي يَصِير أَنْقَص حَالًا فِي الْإِيمَان مِمَّنْ لَا يَعْصِي. (٥)

الوجه الثامن: الرد على قولهم " أن النبي محمد ﷺ كان يشرب الخمر أو النبيذ.

فقد ورد عن ابن عباس قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُنْتَبَذُ لَهُ أَوَّلَ اللَّيْلِ فَيَشْرَبُهُ إِذَا أَصْبَحَ يَوْمَهُ ذَلِكَ وَاللَّيْلَةَ الَّتِى تَجِىءُ وَالْغَدَ وَاللَّيْلَةَ الأُخْرَى وَالْغَدَ إِلَى الْعَصْرِ، فَإِنْ بَقِىَ شَىْءٌ سَقَاهُ الْخَادِمَ أَوْ أَمَرَ بِهِ فَصُبَّ. (١)

---

(١) بتصرف يسير من تفسير الظلال لسيد قطب (٥/ ٦٦٣- ٦٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧٦)، ومسلم (٢٠٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٧٨).

(٥) فتح الباري (١٠/ ٣٧).

وحديث عائشة: عن ثمامة قال: قَالَ لَقِيتُ عَائِشَةَ فَسَأَلْتُهَا عَنِ النَّبِيذِ فَدَعَتْ عَائِشَةُ جَارِيَةً حَبَشِيَّةً فَقَالَتْ: سَلْ هَذِهِ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْبِذُ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتِ الْحَبَشِيَّةُ: كُنْتُ أَنْبِذُ لَهُ فِي سِقَاءٍ مِنَ اللَّيْلِ وَأُوكِيهِ وَأُعَلِّقُهُ فَإِذَا أَصْبَحَ شَرِبَ مِنْهُ. (٢)

والجواب على ذلك كما يلي من عدة وجوه:

أولًا: تعريف النبيذ: عند أهل اللغة

قال ابن الأثير: النَّبِيذ: وهو ما يُعْمَلُ من الأشْرِبة من التَّمرِ والزَّبيب والعَسَل والحِنْطَة والشَّعير وغير ذلك يقال: نَبَذْتُ التَّمر والعِنَب إذا تَركْتَ عليه الماء لِيَصِيرَ نَبِيذًا فصُرِفَ من مفعول إلى فَعِيل. وانْتَبَذْتُه: اتَّخَذْتُه نَبِيذًا، وسَوَاء كان مِسْكِرًا أو غيرَ مُسْكِر فإنه يقال له نَبِيذٌ. وَيقال للخَمْر المُعْتَصَر من العنَب نَبِيذٌ. كما يقال للنَّبيذ خَمْرٌ. (٣)

وقال ابن منظور: وإنما سمي نبيذًا لأَن الذي يتخذه يأْخذ تمرًا أو زبيبًا فينبذه في وعاء أَو سقاء عليه الماء ويتركه حتى يفور فيصير مسكرًا، والنبذ الطرح وهو ما لم يسكر حلال فإِذا أَسكر حرم. (٤)

قلت: إذن فالنبيذ اسم لكل ما ينبذ في الماء من الطعام، فإن لم يشتد ويسكر فهو حلال طيب، وإن اشتد وتخمر فأسكر فهو الحرام الخبيث.

ثانيًا: تعريفه في الشرع:

قال ابن القيم: وَهَذَا النَّبِيذُ هُوَ مَا يُطْرَحُ فِيهِ تَمْرٌ يُحَلِّيهِ وَهُوَ يَدْخُلُ فِي الْغِذَاءِ وَالشَّرَابِ وَلَهُ نَفْعٌ عَظِيمٌ فِي زِيَادَةِ الْقُوَّةِ وَحِفْظِ الصِّحَّةِ وَلَمْ يَكُنْ يَشْرَبُهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ خَوْفًا مِنْ تَغَيُّرِهِ إِلَى الْإِسْكَارِ. (٥)

ثالثًا: كلام العلماء على هذه الروايات وإجماعهم على أن النبي ﷺ ما شرب مسكرًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٠٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٧).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٥١١).

(٥) زاد المعاد لابن القيم (٤/ ٢١٧).

قال النووي: في هذه الأحاديث دلالة على جواز الانتباذ، وجواز شرب النبيذ ما دام حلوًا لم يتغير ولم يغل، وهذا جائز بإجماع الأمة، وأما سقيه الخادم بعد الثلاث وصبه، فلأنه لا يؤمن بعد الثلاث تغيره، وكان النبي ﷺ يتنزه عنه بعد الثلاث. وقوله: (سقاه الخادم أو صبه) معناه تارة: يسقيه الخادم، وتارة يصبه، وذلك الاختلاف لاختلاف حال النبيذ، فإن كان لم يظهر فيه تغير ونحوه من مبادئ الإسكار سقاه الخادم ولا يريقه؛ لأنه مال تحرم إضاعته، ويترك شربه تنزهًا، وإن كان قد ظهر فيه شيء من مبادئ الإسكار والتغير أراقه؛ لأنه إذا أسكر صار حرامًا ونجسًا فيراق ولا يسقيه الخادم؛ لأن المسكر لا يجوز سقيه الخادم كما لا يجوز شربه، وأما شربه ﷺ قبل الثلاث فكان حيث لا تغير، ولا مبادئ تغير ولا شك أصلًا. والله أعلم.

وحَدِيث عَائِشَة: " يُنْبَذ غَدْوَة فَيَشْرَبهُ عِشَاء وَيُنْبَذ عِشَاء فَيَشْرَبهُ غَدْوَة "فَلَيْسَ مُخَالِفًا لِحَدِيثِ اِبْن عَبَّاس فِي الشُّرْب إِلَى ثَلَاث؛ لِأَنَّ الشُّرْب فِي يَوْم لَا يَمْنَع الزِّيَادَة،؛ وَقَالَ بَعْضهمْ: لَعَلَّ حَدِيث عَائِشَة كَانَ زَمَن الْحَرّ وَحَيْثُ يُخْشَى فَسَاده فِي الزِّيَادَة عَلَى يَوْم، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي زَمَن يُؤْمَن فِيهِ التَّغَيُّر قَبْل الثَّلَاث، وَقِيلَ: حَدِيث عَائِشَة مَحْمُول عَلَى نَبِيذ قَلِيل يَفْرُغ فِي يَوْمه، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي كَثِير لَا يَفْرُغ فِيهِ. وَاللهُ أَعْلَم[1].

قال ابن العربي: **حديث ابن عباس الذي ذكرناه**: قلنا هذا صحيح سندًا ومتنًا ظاهرًا ومعنًى، كان النبي ﷺ يشرب حلوًا فإذا تغير شيء من ريحه سقاه الخدم إن شاءوه أو أراقه وذلك قبل أن يصل إلى حد الإسكار. فإن قيل فكيف يعطي الخدم ما لا يرضى.

قلت: إذا رضوه جاز وكان خيرًا من إراقته وكذلك سواه من الناس يجوز ذلك له وسوى النبيذ من الأطعمة والأشربة يجوز ذلك فيه[2].

---

(١) النووي على شرح مسلم (٧/ ١٩٥).

(٢) عارضة الأحوذي لابن العربي (٨/ ٥٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلَكِنَّ بَعْضَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ سَمِعُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَّصَ فِي النَّبِيذِ؛ وَأَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَشْرَبُونَ النَّبِيذَ: فَظَنُّوا أَنَّهُ السُّكْرُ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ بَلْ النَّبِيذُ الَّذِي شَرِبَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَالصَّحَابَةُ هُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْبِذُونَ التَّمْرَ أَوْ الزَّبِيبَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فِي الْمَاءِ حَتَّى يَحْلُوَ فَيَشْرَبُهُ أَوَّلَ يَوْمٍ وَثَانِيَ يَوْمٍ؛ وَثَالِثَ يَوْمٍ؛ وَلَا يَشْرَبُهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ؛ لِئَلَّا تَكُونَ الشِّدَّةُ قَدْ بَدَتْ فِيهِ؛ وَإِذَا اشْتَدَّ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يُشْرَبْ[1].

قال ابن حجر العسقلاني: وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ شَرِبَ مُسْكِرًا فَقَدْ دَخَلَ فِي أَمْر عَظِيم وَبَاء بِإِثْمٍ كَبِير، وَإِنَّمَا الَّذِي شَرِبَهُ كَانَ حُلْوًا وَلَمْ يَكُنْ مُسْكِرًا. وَقَدْ رَوَى ثُمَامَة بْن حَزْن الْقُشَيْرِيُّ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَة عَنْ النَّبِيذ فَدَعَتْ جَارِيَة حَبَشِيَّة فَقَالَتْ: سَلْ هَذِهِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْبِذ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ الْحَبَشِيَّة: كُنْت أَنْبِذ لَهُ فِي سِقَاء مِنْ اللَّيْل وَأُوكِيهِ وَأُعَلِّقهُ فَإِذَا أَصْبَحَ شَرِبَ مِنْهُ " أَخْرَجَهُ مُسْلِم. وَرَوَى الْحَسَن الْبَصْرِيّ عَنْ أُمّه عَنْ عَائِشَة نَحْوه ثُمَّ قَالَ: فَقِيَاس النَّبِيذ عَلَى الْخَمْر بِعِلَّةِ الْإِسْكَار وَالِاضْطِرَاب مِنْ أَجَلّ الْأَقْيِسَة وَأَوْضَحهَا، وَالْمَفَاسِد الَّتِي تُوجَد فِي الْخَمْر تُوجَد فِي النَّبِيذ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عِلَّة الْإِسْكَار فِي الْخَمْر لِكَوْنِ قَلِيله يَدْعُو إِلَى كَثِيره مَوْجُودَة فِي النَّبِيذ، لِأَنَّ السُّكْر مَطْلُوب عَلَى الْعُمُوم، وَالنَّبِيذ عِنْدهمْ عِنْد عَدَم الْخَمْر يَقُوم مَقَام الْخَمْر لِأَنَّ حُصُول الْفَرَح وَالطَّرَب مَوْجُود فِي كُلّ مِنْهُمَا، وَإِنْ كَانَ فِي النَّبِيذ غِلَظ وَكُدْرَة وَفِي الْخَمْر رِقَّة وَصَفَاء لَكِنْ الطَّبْع يَحْتَمِل ذَلِكَ فِي النَّبِيذ لِحُصُولِ السُّكْر كَمَا تُحْتَمَل الْمَرَارَة فِي الْخَمْر لِطَلَبِ السُّكْر، قَالَ: وَعَلَى الْجُمْلَة فَالنُّصُوص الْمُصَرِّحَة بِتَحْرِيمِ كُلّ مُسْكِر قَلَّ أَوْ كَثُرَ مُغْنِيَة عَنْ الْقِيَاس وَالله أَعْلَم. وَقَدْ قَالَ عَبْد الله بْن الْمُبَارَك: لَا يَصِحّ فِي حِلّ النَّبِيذ الَّذِي يُسْكِر كَثِيره عَنْ الصَّحَابَة شَيْء وَلَا عَنْ التَّابِعِينَ، إِلَّا عَنْ إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، قَالَ: وَقَدْ ثَبَتَ حَدِيث عَائِشَة " كُلّ شَرَاب أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَام "[2].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٩/ ١٥٦).

(٢) فتح الباري (١٠/٥٨- ٥٩).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: أما نبينا ﷺ فلم يكن يشرب الخمر في الجاهلية ولا في الإسلام كما صرحوا به في سيرته. ولكنه كان يشرب النبيذ قبل تحريمها وبعده فإذا اشتبه في وصوله إلى حد الإسكار لم يشرب منه كما تقدم.

ويقول بعض النصارى: أن النبي ﷺ شرب الخمر مع بحيرا الراهب وبعض الصحابة وأن بعض من سكر من الصحابة قتل الراهب بسيف النبي ﷺ فكان ذلك سبب تحريم النبي ﷺ للخمر.

وهذا قول مختلق لا أصل له البتة فلم يرو من طريق صحيح ولا ضعيف ولا موضوع وبحيرا الراهب لم يجيء الحجاز، إنما روي أنه رأى النبي ﷺ مع عمه أبي طالب وغيره من تجار مكة في بصرة بالشام، ولما اختبر حاله علم أن سيكون هو النبي الذي بشر به عيسى والأنبياء عليهم السلام، وأوصى به عمه وحذره من اليهود أن يكيدوا له.

وكانت سن النبي ﷺ اثنتى عشرة سنة، ولم يثبت أن بحيرًا أدرك البعثة وليس النبي ﷺ هو الذي حرم الخمر كما حرم صيد المدينة وخلاها، بل كان ذلك بوحي تدريجي كما تقدم[١].

وجملة القول: أنه لم يصح في هذا المعنى شيء على أنه يمكن حمل معناه على ما يوافق سائر النصوص وهو الإذن بشرب النبيذ (النقيع). إذا علم أنه لم يختمر فيصير مسكرًا لئلا يسكر به.

وأما حمل الأحاديث الكثيرة في تحريم كل مسكر وفي تسميته خمرًا على المسكر بالفعل فهو تحريف للغة وإفساد لها كما تقدم وإني لأتعجب كيف يقول عاقل أن النبي ﷺ يأمر الصحابة بأن يشربوا من المسكر وألا يسكروا.

هل يتيسر لواحد من ألف من الناس أن يشرب من المسكر ولا يسكر[٢].

الوجه التاسع: الرد على قولهم أن النبي محمدًا ﷺ توضأ بالخمر.

(١) تفسير المنار (٧/ ٨٧- ٨٨).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٨٢).

واستدلوا بحديث ابن مسعود في ليلة الجن قال: سألني النبي ﷺ ما في إداوتك؟ فقلت نبيذ فقال: "تمرة طيبة وماء طهور. قال: فتوضأ منه"، وفي رواية" توضأ منه ثم صلى"(١).

---

(١) **ضعيف**. والحديث جاء عن ابن مسعود من ستة طرق هي:

١- أخرجه أحمد (١/ ٤٥٥)، والدار قطني في سننه (٢٤٤)، وابن شاهين. الناسخ والمنسوخ (٩٧)، وابن الجوزي في العلل (٥٨٨)، والدار قطني (٢٤٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٩٥)، من طرق عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي رافع عن ابن مسعود.

وفيه: علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

٢ - وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٩٣)، ومن طريقه أحمد (١/ ٤٤٩)، وابن ماجه (٣٨٤)، والطبراني (٩٩٦٣)، والبيهقي (١/ ٩)، والشاشي (٢٢٨)، وابن المنذر في الأوسط (١٧٣)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٩١) من طرق عن سفيان الثوري.

- وأخرجه الطبراني (٩٩٦٢)، والبيهقي (١/ ٩) من طريق قيس بن الربيع.
- وأخرجه أبو يعلى (٥٠٢٤)، وابن شاهين في الناسخ والمنسوخ (ص- ٩٧)، وابن حبان في المجروحين (٣/ ١٥٨)، وأبو داود (٨٤)، والترمذي (٨٨)، والشاشي (٨٢٢)، والطبراني (٩٩٦٤) جميعًا من طريق شريك بن عبد الله.
- وأخرجه أحمد (١/ ٤٥٨)، والطبراني (٩٩٦٦) من طريق أبي عميس عتيبة بن عبد الله بن عتيبة.
- وأخرجه أبو يعلى (٥٢٨٠)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٨)، وابن ماجه (٣٨٤)، والطبراني (٩٩٦٧) من طريق الجراح بن مليح.
- وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٩٢) من طريق ليث بن أبي سليم.
- أخرجه عبد الرزاق (٦٩٣)، ومن طريقه الطبراني (٩٩٦٣)، وأخرجه أحمد (١/ ٤٠٢، ٤٥٠)، ومن طريقه ابن الجوزي (٥٨٧)، وأخرجه الشاشي (٨٢٨)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٩١) من طريق إسرائيل جميعًا (سفيان، قيس، شريك، أبو عميس، الجراح، ليث، إسرائيل) عن أبي فزارة عن أبي زيد مولى عمرو بن حريث عن ابن مسعود به.

فيه أبو زيد مولى عمرو بن حريث "مجهول". قال ابن أبي حاتم (المجروحين ٣/ ١٥٨) يروي عن ابن مسعود مالم يتابع عليه لا يدري من هو لا يعرف بلده ولا أبوه والإنسان إذا كان بهذا النعت ثم لم يرو! لا خبرًا واحدًا خالف فيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس والنظر والرأي يستحق مجانبته فيها ولا يحتج به.

وَرَد هذا الحديث عن ابن مسعود، وعن ابن عباس:

١ - حديث ابن مسعود:

والجواب على الحديث من وجوه:

الوجه الأول: الحديث لا يصح عن النبي ﷺ فلا يجوز الاحتجاج به وذلك من وجوه:

١ - كل الطرق التي جاءت في هذا الحديث لا يصح منها طريق كما سبق ذلك في التخريج.

٢ - إنكار كون ابن مسعود شهد ليلة الجن.

٣- وأخرجه أحمد (١/ ٣٩٨)، وأخرجه الدارقطني (٢٤٠)، والطبراني (٩٩٦١)، والبزار في المسند (١٤٣٧)، والطحاوي في معاني الآثار (١/ ٩٤)، وابن ماجه (٣٨٥)، والدار قطني (٢٤١) من حديث ابن لهيعة عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس عن عبد الله بن مسعود. . . . الحديث.

فيه ابن لهيعة وهو ضعيف مدلس، قال الدار قطني: لا يحتج بحديثه، وقال البزار (٤/ ٢٦٨) في مسنده هذا الحديث لا يثبت لابن لهيعة لأن ابن لهيعة كانت قد احترقت كتبه فكان يقرأ من كتب غيره فصار في أحاديثه أحاديث منكره وهذا منها.

٤ - أخرجه الدار قطني (٢٤٧)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل (٨٩٠)، وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٣٩٨) من حديث الحسن بن قتيبة عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة وأبي الأحوص عن ابن مسعود. . . . الحديث.

فيه أبو إسحاق السبيعي ثقة مكثر اختلط وهو مدلس وقد عنعن، والحسن بن قتيبة متروك الحديث والراوي عنه محمد بن عيسى. ضعيف. العلل للدارقطني (٥/ ٣٤٧)، والسنن له أيضًا (١/ ٥٥)

٥ - أخرجه الدار قطني (٢٤٦)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل (٥٨٩) من حديث الحسين بن عبيد الله العجلي عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي وائل قال سمعت ابن مسعود. . . الحديث.

فيه الحسين بن عبيد العجلي؛ قال الدار قطني السنن (١/ ٥٥)، كان يضع الحديث على الثقات.

٦- أخرجه الدار قطني (٢٤٨) من حديث أبي سلام عن فلان بن غيلان الثقفي أنه سمع عبد الله بن مسعود. . . . الحديث.

فيه فلان بن غيلان قال الدار قطني: الرجل الثقفي الذي أخرجه عن ابن مسعود مجهول السنن (١/ ٥٦)، وبه أعله أبو زرعه، وأبو حاتم، كما في الجرح والتعديل (١/ ٤٥)، وقالا ولا يصح في الباب شيء؛ " وبالجملة فالحديث لا يصح فيه طريق ".

وقد اختلف في ذلك لاختلاف ما ورد في ذلك: ما ورد أنه لم يشهد ليلة الجن ما رواه مسلم من حديث الشعبي عن علقمة قال: سألت ابن مسعود هل شهد منكم أحد مع رسول الله ﷺ: قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب. . . . . الحديث. [١]

وقد جمع البيهقي بين من قال: إن ابن مسعود كان معه ومن أنكر وهو صحيح فقال في دلائل النبوة: وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن ابن مسعود رضي الله عنه لم يكن مع النبي ﷺ ليلة الجن، وإنما كان معه حين انطلق به وبغيره يريهم آثارهم وآثار نيرانهم. [٢]

وقيل: بأن ليلة الجن كانت مرتين: ففي أول مرة خرج إليهم لم يكن مع النبي ﷺ ابن مسعود ولا غيره كما هو ظاهر حديث مسلم، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى. [٣]

٣ ـ إجماع أهل الحديث على ضعفه.

قال ابن حجر: وهذا الحديث أطبق علماء السلف على تضعيفه[٤].

النووي: فحديث ابن مسعود ضعيف بإجماع المحدثين[٥].

وقال في شرحه لمسلم: وحديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدثين[٦].

ابن عدي: ولا يصح هذا الحديث عن النبي ﷺ وهو خلاف القرآن[٧].

ابن المنذر: فحديث ابن مسعود في إسناده مقال[٨].

(١)أخرجه مسلم (٤٤٩).

(٢) ذكره الزيلعي في نصب الراية (١/ ١٤٣).

(٣) السابق (١/ ١٤٤).

(٤) فتح الباري (١/ ٤٢٢).

(٥) المجموع (١/ ٩٤).

(٦) شرح النووي مسلم (٢/ ٤٠٦).

(٧) الكامل (٧/ ٢٩٢).

(٨) الأوسط (١/ ١٨).

أبو حاتم وأبو زرعة: لا يصح في الباب شيء، وقالا عن حديث ابن مسعود: هذا حديث ليس بقوي[(١)].

ابن قدامة: "وحديثهم (ابن مسعود في الوضوء بالنبيذ) لا يثبت، ورواية أبو زيد مجهول عن أصل الحديث. . . "[(٢)]

البيهقي: وأما حديث ابن مسعود. . . . فقد روي من أوجه كلها ضعيفة.[(٣)]

ابن حزم: أما الخبر المذكور (حديث ابن مسعود) فلم يصح؛ لأن في جميع طرقه من لا عرف، أو من لا خير فيه[(٤)].

الوجه الثاني: على فرض صحته.

فالجواب عليه من هذه الوجوه:

١ ـ **قال ابن حجر:** وعلى تقدير صحته إنه منسوخ؛ لأن ذلك كان بمكة ونزل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ (النساء: ٤٣)؛ إنما كان بالمدينة بلا خلاف.[(٥)]

٢ ـ أو هو محمول على ما ألقيت فيه تمرات يابسة لم تغير له وصفًا، وإنما كانوا يصنعون ذلك؛ لأن غالب مياههم لم تكن حلوة.[(٦)]

٣ ـ **قال النووي:** المراد بقوله نبيذ أي ماء نبذت فيه تمرات ليعذب ولم يكن متغيرًا، وهذا تأويل سائغ لأن النبي ﷺ قال: "تمرة طيبة وماء طهور" فوصف النبي ﷺ شيئين ليس النبيذ

---

(١) العلل (١/ ٤٤- ٤٥).

(٢) المغني (١/ ٣٦).

(٣) المعرفة (١/ ٢٣٧).

(٤) المحلى (١/ ٢٠٤).

(٥) فتح الباري (١/ ٤٢٢)، الطهور لأبي عبيد (٣١٨)، والمحلى (١/ ٢٠٤).

(٦) فتح الباري (١/ ٤٢٢).

واحدًا منهما؛ فإن قيل: فابن مسعود نفى أن يكون معه ماء، وأثبت أن معه ماء نبذ فيه تمر معدًا للشرب، وحمل كلام النبي ﷺ على الحقيقية وتأويل كلام ابن مسعود أولى من عكسه[1].

٢ ـ الحديث الثاني: حديث ابن عباس.

عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: " النبيذ وضوء لمن لم يجد الماء ".[2]

---

(١) المجموع (١/ ٩٣).

(٢) **ضعيف**. أخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ١٧٠)، ومن طريقه البيهقي في السنن (١/ ١٢) من حديث محمد بن تمام.

وأخرجه الدار قطني (٢٣٢) من حديث محمد بن محمد بن سليمان كلاهما (محمد بن تمام، محمد بن محمد) عن المسيب عن مبشر بن إسماعيل عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة عن ابن عباس موقوفًا.

وأخرجه ابن عدي (٧/ ١٧٠)، ومن طريقه البيهقي (١/ ١٢) من حديث يوسف بن بحر وأخرجه الدارقطني (٢٣١)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل (٥٩١) من حديث يحيى بن عبد الباقي كلاهما (يوسف، يحيى) عن المسيب به، غير أنه رفعه إلى النبي ﷺ.

قلت: والمسيب كثير الوهم والخطأ فلا يُحتج بانفراده.

قال أبو حاتم: صدوق يخطئ كثيرًا؛ الجرح والتعديل (٨/ ٢٩٤)، وقال البيهقي كما في السنن (١/ ١٢): ، وكان المسيب رحمنا الله وإياه كثير الوهم.

والحديث ضعفه الدارقطني في سننه حيث قال عقبه: وَوَهِمَ فِيهِ الْمُسَيَّبُ بْنُ وَاضِحٍ فِى مَوْضِعَيْنِ فِى ذِكْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَفِى ذِكْرِ النَّبِىِّ ﷺ وَقَدِ اخْتُلِفَ فِيهِ عَلَى الْمُسَيَّبِ.

وَالْمَحْفُوظُ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ عِكْرِمَةَ غَيْرُ مَرْفُوعٍ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ وَلاَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالْمُسَيَّبُ ضَعِيفٌ.

قلت: ومما يدل على أن هذا الأثر من كلام عكرمة موقوفًا عليه في المتابعات.

١ - فقد تابع مبشَر بن إسماعيل، هقلُ بن زياد، والوليد بن مسلم، أخرجه الدار قطني (٢٣٣) من حديث هقل بن زياد، وأخرجه أبو يعلى (٥٣٩٥)، والدار قطني (٢٣٤) من حديث الوليد بن مسلم كلاهما (هقل، الوليد) ثنا الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة موقوفًا عليه (وقد صرح الوليد بن مسلم بالتحديث عند أبي يعلى)، وهقل بن زياد من أثبت الناس في الأوزاعي انظر: تهذيب الكمال (٣٠/ ٢٩٢: ٢٩٥).

٢- وقد تابع الأوزاعي، شيبان النحوي، وعلي بن المبارك موقوفًا أيضًا على عكرمة، أخرجه الدارقطني (٢٣٥) من حديث علي بن المبارك كلاهما (شيبان، علي) عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة أنه قال:. . . موقوفًا على عكرمة.

٣- وقد تابع يحيى بن أبي كثير، عيسى بن عبيد، أخرجه الدارقطني (٢٣٧) من حديث أبي تميلة عن عيسى بن عبيد به، فهذا كله يبين أنه من كلام عكرمة موقوفًا عليه.

والجواب: أن الحديث ضعيف كسابقه لا يُحتج به.

والسؤال الآن هل يجوز الوضوء بالنبيذ؟

قال الطحاوي: وإن كان من طريق النظر، فإنا قد رأينا الأصل المتفق عليه، أنه لا يتوضأ بنبيذ الزبيب، ولا بالخل، فكان النظر على ذلك أن يكون نبيذ التمر أيضًا كذلك.

وقد أجمع العلماء أن نبيذ التمر إذا كان موجودًا في حال وجود الماء، أنه لا يتوضأ به لأنه ليس بماء. فلما كان خارجًا من حكم المياه في حال وجود الماء، كان كذلك هو في حال عدم الماء.

ثم قال: فثبت بذلك أنه لا يجوز التوضؤ به في حال من الأحوال، وهو قول أبي يوسف، وهو النظر عندنا.[١]

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وإن الذي عندنا في النبيذ هذا القول: أنه لا يتوضأ به، ولا يكون طهورًا أبدًا؛ لأن الله ﷻ، اشترط للطهور شرطين ثم لم يجعل لهما ثالثًا. وهما: الماء والصعيد، وأن النبيذ ليس بواحد من هذين.[٢]

قال النووي: أما النبيذ فلا يجوز الطهارة به عندنا على أي صفة كان من عسل أو تمر أو زبيب أو غيرها مطبوخًا كان أو غيره. وبه قال أحمد، وأبو يوسف، والجمهور، وعن أبي حنيفة أربع روايات:

إحداهن: يجوز الوضوء بنبيذ التمر المطبوخ إذا كان في سفر وعدم الماء.

والثانية: يجوز الجمع بينه وبين التيمم وبه قال صاحبه محمد بن الحسن.

قلت: وقد أخرجه الدارقطني (٢٣٨) من حديث عبد الله بن محرر عن قتادة عن عكرمة موقوفًا على ابن عباس وهو ضعيف جدًّا فيه عبد الله بن محرر متروك الحديث؛ (١/ ٥٣)، وأخرجه الدار قطني (٢٣٩)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل (٥٩٢) من حديث مجاعة عن أبان عن عكرمة به مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

وهو ضعيف جدًّا فيه أبان هو: ابن أبي عياش متروك الحديث ومجاعة: ضعيف. السنن للدارقطني (١/ ٥٣). وبالجملة فالحديث لا يصح مرفوعًا عن النبي ﷺ. انظر المجموع (١/ ٩٥)، والبيهقي في المعرفة (١/ ٢٣٨).

(١) معاني الآثار (١/ ٩٦).

(٢) الطهور (١٤).

والثالثة: يستحب الجمع بينهما.

والرابعة: أنه رجع عن جواز الوضوء به، وقال: يتيمم، وهو الذي استقر عليه مذهبه كذا قاله العبدري قال: وروى أنه قال: الوضوء بنبيذ التمر منسوخ.

ثم قال: واستدل أصحابنا بالآية ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (المائدة: ٦).

فمن توضأ بالنبيذ فقد ترك المأمور به، وبحديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: "الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين؛ فإذا وجد الماء فليمسه بشرته".[١] (حديث صحيح). . . والاستدلال منه كالاستدلال من الآية.

ومن القياس: كل شيء لا يجوز التطهر به حضرًا لم يجز سفرًا كماء الورد، ولأنه مائع لا يجوز الوضوء به مع وجود الماء فلم يجز مع عدمه كماء الباقلا: ولأنه شراب فيه شدة مطربة فأشبه الخمر، ولأنه مائع لا يطلق عليه اسم ماء كالخل.

ثم أجاب النووي ـ رحمه الله ـ عن الحجج التي استدل بها من أباح الوضوء بالنبيذ فقال:

وأجاب أصحابنا مع هذا بأربعة أجوبة:

أحدها: أنه حديث مخالف الأصول فلا يحتج به عند أبي حنيفة.

والثاني: أنهم شرطوا لصحة الوضوء بالنبيذ السفر، وإنما كان النبي ﷺ في شعاب مكة كما ذكرناه.

الثالث: أن المراد بقوله نبيذ أي: ماء نبذت فيه تمرات ليعذب، ولم يكن متغيرًا وهذا تأويل سائغ؛ لأن النبي ﷺ قال: "تمرة طيبة وماء طهور"، فوصف النبي ﷺ شيئين ليس النبيذ واحدًا منهما.

الرابع: أن النبيذ الذي زعم أنه كان مع ابن مسعود لا يجوز الطهارة به عندهم؛ لأنه نقيع لا مطبوخ، فإن العرب لا تطبخه، وإنما تلقى فيه حبات تمر حتى يحلو.

قال الإمام النووي: ولقد أحسن وأنصف الإمام ابن جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي إمام الحنفية في الحديث والمنتصر لهم حيث قال في أول كتابه: إنما ذهب أبو حنيفة ومحمد إلى الوضوء بالنبيذ اعتمادًا علي حديث ابن مسعود ولا أصل له[١].

(١) أخرجه الترمذي (١٢٤)، والنسائي (١/ ١٧١)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣١١).

قال الترمذي: وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ منهم سفيان (الثوري)، وغيره، وقال: بعض أهل العلم لا يتوضأ بالنبيذ وهو قول الشافعي، وأحمد، وإسحاق (و) قال: إسحاق إن ابتلى رجل بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيمم أحب إليّ.

قال أبو عيسى: وقول من يقول لا يتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب وأشبه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (المائدة: ٦).

الوجه العاشر: الرد على قولهم؛ كيف يحرم الله الخمر في الدنيا ويحلها في الآخرة؟

وللجواب نقول:

أولًا: بقولكم هذا أنكم سلمتم أو معترفون بأن الإسلام حرم الخمر في الآية التي ذكرتموها في تحريم الخمر وهذا لا شك فيه عندنا.

ثانيًا: أن قياس خمر الدنيا على خمر الآخرة قياس مع الفارق فقد اجتمعا في المسمى فقط كما هو سائر المشتهيات والمسميات في الآخرة وافترقا في النوع والمضمون، فخمر الدنيا معروفة كريهة الطعم تذهب عقل شاربها لا يستطعمها شاربها كريهة الرائحة إلى آخر هذه الأوصاف التي تعرف بها خمر الدنيا.

أما عن خمر الآخرة فانظر ما وصفها به رب العالمين تبارك وتعالى قال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وقال لذة للشاربين ولم يكتف بلذة فقط؛

لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه آخر، ولذلك قال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لأن جميع من يشربهاتكون له لذة.

(١) المجموع (١/ ٩٣: ٩٥)، ويراجع الأوسط لابن المنذر (١/ ٢٥٣: ٢٥٧)، والمحلى لابن حزم (١/ ٢٠٢: ٢٠٦)، وفتح الباري (١/ ٤٢١: ٤٢٢).

قال الرازي: قال في الخمر لذة للشاربين: لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسرهم، ولأن الخمر كريهة الطعم: فقال لذة أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم. (١)

قال ابن كثير: في قوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والفعل والرائحة(٢).

قال ابن عاشور: فوصف خمر هنا بأنها لذة معناه يجد شاربها لذاذة في طعمها أي بخلاف خمر الدنيا فإنها حريقة الطعم؛ فلولا ترقب ما تفعله في الشارب من نشوة وطرب لما شربها لحموض طعمها(٣).

الوجه الحادي عشر: أثر شرب الخمر في الجاهلية، وفي المجتمع الغربي.

الجاهلية والخمر.

كان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وشغلت جانبًا كبيرًا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسمائها وصفاتها في لغتهم وكثرفيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب. وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائمًا يرفرف عليها علم يسمى غاية.

يقول لبيد:

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

وكان من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفة لبيع الخمر، كما قال لبيد: وغاية تاجر

وقال عمرو بن قميئة:

(١) تفسير الرازي (٢٨/ ٥٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٧).

إذا أسحب الريط والمروط إلى أدني تجاري وأنفض اللمما

ويقول المنخل اليشكري:

ولقد شربت من المدامة بالصغير وبالكبير

فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي، ورواية الحوادث التي صاحبت مراحل تحريم الخمر في المجتمع المسلم والرجال الذين كانوا أبطال هذه الحوادث وفيهم عمر وعلي وحمزة وعبدالرحمن بن عوف، وأمثال هذا الطراز من الرجال تشي بمدى تغلغل هذه الظاهرة في الجاهلية العربية. (١)

الغرب والخمر

كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع كما أنها كادت تكون ظاهرة مميزة جاهلية في القديم والحديث أيضًا، الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته وللمجتمع الفارسي أيضًا وكذلك هي ظاهرة مميزة للمجتمع الأوربي والمجتمع الأمريكي في أوج جاهليته.

السويد والخمر

يقول سيد قطب في الظلال: في السويد - وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة - كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تعد الخمر الخاصة بها. وكان متوسط ما يستهلكه الفرد، حوالي عشرين لترًا. وأحست الحكومة خطورة هذه الحال، وما ينشره من إدمان؛ فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمور، وتحديد الاستهلاك الفردي، ومنع شرب الخمور في المحال العامة؛ ولكنها عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة! فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام. ثم أبيحت الخمر في عدد محدود من المحال

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٦٦٣/ ٦٦٤) بتصرف.

العامة، حتى منتصف الليل فقط! وبعد ذلك يباح شرب النبيذ والبيرة فحسب! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف. . ! [(١)]

أمريكا والخمر.

يقول صاحب الظلال: أما في أمريكا، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونًا في سنة ١٩١٩ سُمِّيَ قانون الجفاف « من باب التهكم عليه، لأنه يمنع » الري « بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائمًا مدة أربعة عشر عامًا، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة١٩٣٣. وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونًا من الدولارات. وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة.

وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عامًا لا يقل عن٢٥٠ مليون جنيه، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس، وسجن كذلك ٥٣٢٣٣٥ نفس، وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيهًا، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه، وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون. [(٢)]

إن أمريكا قد عجزت عجزًا تامًا عن تحريم الخمر بالرغم من الجهود الضخمة التي بذلتها، ولكن الإسلام الذي ربى الأمة على أساس من الدين، وغرس في نفوس أفرادها غراس الإيمان الحق، وأحيا ضميرها بالتعاليم الصالحة والأسوة الحسنة لم يصنعا شيئًا من ذلك، ولم يتكلف مثل هذا الجهد، ولكنها كلمة صدرت من الله استجابت لها النفوس استجابة مطلقة. [(٣)]

---

(١) تفسير الظلال لسيد قطب (٥/ ٦٦٢).

(٢) السابق (٥/ ٦٦٣)، وفقه السنة للسيد سابق (٣/ ٤٤).

(٣) فقه السنة (٣/ ١٤٤).

وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية وفي علاج المجتمع الإنساني بين منهج الله ومناهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء. (١)

أما المشاكل الاجتماعية للخمر عند المجتمع الأمريكي:

فقد ظهر أن الطلاق بين الزوجين الذي يعاني أحدهما من شرب الخمر يزيد ثلاثة أضعاف احتمالات الطلاق العادي.

وتظهر مشاكل كبيرة بين أفراد الأسرة التي تشرب الخمر لضعف الاتصال فيما بينهم ولضعف قدرتهم على حل واستيعاب المشاكل، كما أنه من مليون طفل سجل تعرضهم لسوء المعاملة أو الإهمال يأتي ٨١٪ ضحايا بسبب الخمر، الكحول هو مفتاح ٨٦٪ من القتل غير العمد، ٥٤٪ من القتل المتعمد والشروع فيه، ٦٢٪ من حوادث الاغتصاب، ٤٨٪ من وقائع اللصوص، ٤٤٪ من السطو على المنازل، ٦٦٪ من المدمنيين يستخدمون المخدرات الأخرى. (٢)

أضرار الخمر.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: والضرر يكون في البدن، والنفس، والعقل، والمال، ويكون في التعامل، وارتباط الناس بعضهم ببعض، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كل شيء كالخمر من الأفعال والكذب من الأقوال وأنواع هذا الضرر كثيرة.

١ ـ الأضرار الصحية: فمن مضرات الخمر الصحية إفساد المعدة والإقهاء ـ فقد شهوة الطعام وتغيير الخلقة، فالسكارى يسرع إليهم التشوه فتجحظ أعينهم وتمتقع سحنتهم وتعظم بطونهم، بل قال أحد أطباء الألمان إن السكور ـ أي كثير السكر ـ ابن الأربعين يكون نسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين ويكون كالهرم جسمًا وعقلًا، ومنها مرض الكبد والكلى وداء السل الذي يفتك في البلاد الأوروبية فتكًا ذريعًا على عناية أهلها

---

(١) الظلال لسيد قطب (٥/ ٦٦٣).

(٢) من موقع مفكرة الإسلام.

بقوانين الصحة، وقد قيل إن نحو نصف الوفيات في بعض بلاد أوروبا بداء السل.

٢ ـ الأضرار العقلية: وأما ضرر الخمر في العقل فهو مُسَلَّم عند الناس وليس ضرره عنه خاصًا بما يكون من فساد التصور والإدراك عند السكر، بل السكر يضعف القوة العاقلة وكثيرًا ما ينتهي بالجنون. ولأحد أطباء ألمانيا كلمة اشتهرت كالأمثال وهي: اقفلوا لي نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والبيمارستانات والملاجئ والسجون.

وقد قال الأطباء: إن المسكر لا يتحول إلى دم كما تتحول سائر الأغذية بعد الهضم، بل يبقى على حاله فيزاحم الدم في مجاريه، فتسرع حركة الدم وتختل موازنة الجسم وتتعطل وظائف الأعضاء أو تضعف ويخرج عن وضعها الطبيعي المعتدل، فمن تأثيره في اللسان إضعاف حاسة الذوق، وفي الحلق الالتهاب، وفي المعدة ترشيح العصارة الفعالة في الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حركتها وقد يُحدث فيها احتقانًا والتهابًا، وفي الأمعاء التقرح، وفي الكبد تمديده وتوليد الشحم الذي يضعف عمله؛ وكل هذا يتعلق بما يسمونه الجهاز الهضمي. ومن تأثيره في الدم أنه بممازجته له يعوق دورته وقد يوقفها أحيانًا فيموت السَّكُور فجأة، ويضعف مرونة الشرايين فتتمدد وتغلظ حتى تنسد أحيانًا فيفسد الدم ولو في بعض الأعضاء فتكون الغرغرينا التي تقضي بقطع العضو الذي تظهر فيه؛ لئلا يسري الفساد إلى الجسد كله فيكون هالكًا، وتصلب الشرايين يسرع الشيخوخة والهرم.

ومن تأثيره في الجهاز التنفسي إضعاف مرونة الحنجرة وتهييج شعب التنفس، وأهون ضرر ذلك بحة في الصوت والسعال وأعظمها تدرن الرئة أي: السل الفاتك بالشبان والقاطع لجميع لذات الإنسان.

وأما تأثيره في المجموع العصبي فهو الذي يولد الجنون ويهلك النسل فولد السكور لا يكون نجيبًا وولد ولده يكون شرًا من ولده وأضعف بدنًا وعقلًا، وقد يؤدي تسلسل هذا الضعف إلى انقطاع النسل البتة ولا سيما إذا جرى الأبناء على طريق الآباء كما هو الغالب.

٣ ـ **أضرار الخمر في التعامل**: وقوع النزاع والخصام بين السكارى بعضهم مع بعض وبينهم وبين من يعاشرهم ويعاملهم تثير ذلك أدنى بادرة من أحدهم فيوغلون فيه حتى يكون عداوة وبغضاء. وهذه العلة في التحريم من أكبر العلل في نظر الدين ولذلك ورد بها النص: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ (المائدة: ٩١).

ومنها: إفشاء السر وهو ضرر يتولد منه مضرات كثيرة، ولا سيما إذا كان السر يتعلق بالحكومة وسياسة الدولة ومصالحها العسكرية وعليها يعتمد الجواسيس.

ومنها: الخسة والمهانة في أعين الناس فإن السكران يكون في هيأته وكلامه وحركاته بحيث يضحك منه ويستخف به كل من يراه حتى الصبيان لأنه يكون أقل منهم عقلًا وأبعد عن التوازن في حركاته وأعماله وعن الضبط في أفكاره وأقواله.

ومنها: أن جريمة السكر تغري بجميع الجرائم التي تعرض للسكران وتجرئ عليها، ولا سيما الزنا والقتل.

٤ ـ **الأضرار المالية**: أنها تستهلك المال وتفني الثروة كما قال عنترة: فإذا شربت فإني مستهلك مالي.

٥ ـ **الأضرار الدينية**: من مضرات الخمر في الدين من حيث روحه ووجهة العبد إلى الله تعالى أن السكران لا تتأتى منه عبادة من العبادات لا سيما الصلاة التي هي عماد الدين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (المائدة: ٩١)، فهذا شيء من البيان لكون إثم الخمر كبيرًا بمعنى أن كبره بكبر ضرره أو كونه كثيرًا لكثرة أنواعه، وقد يتشبه بعض المبتلين بشرب الخمر بعض تلك المضرات الصحية أو يتوهمون أنه يسهل عليهم التوقي منها هيهات هيهات لما يتوهمون؛ فإن المزاج الذي يتحمل سم الخمر يسمى الكحول أو الغول زمنا طويلًا بحيث يغتر الناس بحس صحبة صاحبه قليل في الناس، ولكن هؤلاء المبتلين يقيسون على النادر ويجهلون الأصل الغالب؛ وهو أنه لا يكاد يسلم مدمن السكر

من ضرره في جسمه أو عقله ومداركه أو ولده وذريته بل تجتمع كلها في الغالب[١].

في دارسة أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية تبين أن:

٦٤٪ من حوادث القتل العمد له علاقة مباشرة بالخمر.

٤١٪ من حوادث التعدي ترجع إلى الخمر.

٣٠٪ من حوادث الانتحار.

٣٤٪ من حوادث الاغتصاب لها علاقة بالخمر.

٦٠٪ من جرائم القسوة ضد الأطفال تعود إلى الخمر.

٧٥٪ من حوادث السيارات تعود إلى السكر.

وأن المدمن أكثر تعرضًا لإصابة العمل بنسبة ١٠٠٪، وأن معدل عمره ينقص ١٢ عامًا على أقرانه، وأن خسائر الإدمان المالية تقدر بحوالي ٣٢ مليون دولار سنويًا. [٢]

الوجه الثاني عشر: الخمر في الكتاب المقدس.

بعد أن بينا بالأدلة والبراهين القاطعة حكم الخمر في الإسلام وأنها محرمة لا شك في ذلك ولا يختلف على ذلك اثنان من أهل الإسلام.

نبين أيضًا من (الكتاب المقدس) كيف يدعوا للخمر ولشربها بالدليل من العهد القديم والعهد الجديد لنرى الفارق في الأحكام التي تؤخذ من دين الإسلام كيف هي موافقة للمجتمع بأسره من جميع النواحي من ناحية العبادة والمعاملة والاجتماع والصحة وكل هذه السبل ، وبين الأحكام التي تكون في الكتاب المقدس المحرف والذي لا نشك في تحريفه وأنه ليس من كلام رب العالمين فانظر إلى هذه النصوص التي تحدثت عن الخمر وأمرت به.

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٣٢٥/ ٣٢٨).

(٢) أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي مقاله د/ ماهر حتحوت، أمراض مستعصية في المجتمع الأمريكي واقتراح علاج إسلامي. نقلًا من الموسوعة الطبية الفقهية د/ أحمد كنعان (٤٣٤).

١ ـ ففي الأمثال (٣١/ ٦: ٧): ٦أَعْطُوا مُسْكِرًا لِهَالِكٍ، وَخَمْرًا لِمُرِّي النَّفْسِ. ٧يَشْرَبُ وَيَنْسَى فَقْرَهُ، وَلاَ يَذْكُرُ تَعَبَهُ بَعْدُ.

٢ ـ يوحنا (٢ / ١: ١٠): ١وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَكَانَتْ أُمُّ يَسُوعَ هُنَاكَ. ٢وَدُعِيَ أَيْضًا يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ إِلَى الْعُرْسِ. ٣وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ، قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ». ٤قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ؟ لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ». ٥قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ: «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ». ٦وَكَانَتْ سِتَّةُ أَجْرَانٍ مِنْ حِجَارَةٍ مَوْضُوعَةً هُنَاكَ، حَسَبَ تَطْهِيرِ الْيَهُودِ، يَسَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِطْرَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً. ٧قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «امْلأُوا الأَجْرَانَ مَاءً». فَمَلأُوهَا إِلَى فَوْقُ. ٨ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «اسْتَقُوا الآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ». فَقَدَّمُوا. ٩فَلَمَّا ذَاقَ رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْمَاءَ الْمُتَحَوِّلَ خَمْرًا، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ، لكِنَّ الْخُدَّامَ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اسْتَقَوُا الْمَاءَ عَلِمُوا، دَعَا رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْعَرِيسَ ١٠وَقَالَ لَهُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً، وَمَتَى سَكِرُوا فَحِينَئِذٍ الدُّونَ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ إِلَى الآنَ!».

٣ ـ رسالة بولس إلى ثيموتاوس (٥ / ٢٣): الذي عين نفسه تلميذًا للمسيح ينصح بشرب الخمر: لاَ تَكُنْ فِي مَا بَعْدُ شَرَّابَ مَاءٍ، بَلِ اسْتَعْمِلْ خَمْرًا قَلِيلًا مِنْ أَجْلِ مَعِدَتِكَ وَأَسْقَامِكَ الْكَثِيرَةِ.

٤ ـ مزمور (٧٨ / ٦٥): فَاسْتَيْقَظَ الرَّبُّ كَنَائِمٍ، كَجَبَّارٍ مُعَيِّطٍ مِنَ الْخَمْرِ.

٥ ـ سفر التكوين (٩ / ٢١): نوح يشرب الخمر ويعري نفسه: وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ.

٦- لوط يشرب الخمر ويزني بابنتيه (التكوين ١٩/ ٣٦: ٣٢): هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». ٣٣فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. ٣٤وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ،

فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا». ٣٥فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، ٣٦فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا.

٧ ـ في صموئيل الثاني (٦ / ١٩): وَقَسَمَ عَلَى جَمِيعِ الشَّعْبِ، عَلَى كُلِّ جُمْهُورِ إِسْرَائِيلَ رِجَالًا وَنِسَاءً، عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ رَغِيفَ خُبْزٍ وَكَأْسَ خَمْرٍ وَقُرْصَ زَبِيبٍ.

٨ ـ أيوب ١ / ١٣ " أيوب مع أبنائه يشربوا الخمر ": وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذْ جَاءَ آخَرُ وَقَالَ: «بَنُوكَ وَبَنَاتُكَ كَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ خَمْرًا فِي بَيْتِ أَخِيهِمِ الأَكْبَرِ.

٩ ـ الأمثال (٩ / ٥): هَلُمُّوا كُلُوا مِنْ طَعَامِي، وَاشْرَبُوا مِنَ الْخَمْرِ الَّتِي مَزَجْتُهَا.

١٠ ـ الجامعة (٩ / ٧): اِذْهَبْ كُلْ خُبْزَكَ بِفَرَحٍ، وَاشْرَبْ خَمْرَكَ بِقَلْبٍ طَيِّبٍ، لأَنَّ اللهَ مُنْذُ زَمَانٍ قَدْ رَضِيَ عَمَلَكَ.

١١ ـ الجامعة (١٠ / ١٩): لِلضَّحِكِ يَعْمَلُونَ وَلِيمَةً، وَالْخَمْرُ تُفَرِّحُ الْعَيْشَ.

العشاء الرباني عند النصارى(١).

العشاء الرباني من أهم الأسرار المسيحية ولذلك يدعى عندهم " سر الأسرار " ولذا أطلقوا عليه أسماء كثيرة منها " سر الشكر " العشاء الرباني " العشاء السري " مائدة الرب " مائدة المسيح " المائدة السرية " وأنسب العبارات للإشارة إلى هذه السرية في كلام الإنجيلين " عشاء الرب" مائدة الرب " بينما أنسب العبارات بالنسبة للكاثوليك " الأفخار ستيا " وعند الأرثوزكس " القربان " التناول " أو " الشكر " والشاهد من ذكرنا لهذا العشاء

هي العناصر التي تستعمل فيه " الخبز والخمر عنصر العشاء الرباني "

والخمر المستعمل في هذا العشاء هو عصير العنب المختمر في الحالة التي يستعمل فيها والتي يعرف فيها أنه خمر. (٢)

---

(١) راجع تفصيله في تحريف الكتاب المقدس من هذه الموسوعة.

(٢) تأثر المسيحية بالأديان الوضعية د/ أحمد علي عجيبة صـ (٦١٠).

وبعد فهذه قطوف من بحر الخمر الذي يعيش فيه أصحاب الكتاب المقدس! وتعيش الكنائس مع العشاء الرباني وغيره ذكرناها لترى الفارق بين الإسلام الحق والمسيحية المحرفة لتكون على بصيرة.

*　　*　　*

١٣- شبهات حد الزنا.

في واحدة من المسائل التي لازال الحاقدون على دين الإسلام يبثون الشك فيها؛ بل ويريدون هدمها بكل الصور وشتى الطرق؛ تأتي مسألة حد الزنا ليهدموها عن بكرة أبيها ويبثون أن الإسلام يحرض على الفاحشة أو متشدد من ناحية أخرى في تطبيق حد الزنا – رجمًا كان أو جلدًا – لتعرف التناقض عندهم من خلال بثهم لهذه السموم التي يفترون بها على هذا الدين الحنيف؛ ولذا كان لزامًا علينا أن نرد على هذه المفتريات مرتبة تحت مسألتين:

المسألة الأولى: مقدمة تأصيلية لهذا الحد وفيها.

١- تمهيد.

٢- تعريف الزنا.

٣- أدلة تحريم الزنا وإثبات حده.

٤- بم يثبت حد الزنا.

٥- أقسام الزناة.

٦- الشروط الموجبة لحد الزنا.

٧- سد الذرائع الموصلة إلى الزنا.

٨- مخالفة الفطرة والحصاد المر.

٩- الكتاب المقدس يشيع الفاحشة ويحض على الزنا.

المسألة الثانية: الرد على الشبهات

الشبهة الأولى: حد الزنا في الإسلام.

الشبهة الثانية: لماذا جعل الإسلام الشهود أربعة في إثبات حد الزنا؟

الشبهة الثالثة: حذف آية الرجم.

الشبهة الرابعة: ادعاء أن القرآن يحض على الزنا.

وإليك التفصيل

المسألة الأولى: مقدمة تأصيلية لهذا الحد؛ وفيها:

١- تمهيد:

لما كانت جريمة الزنا من أبشع الجرائم التي ترتكب ضد الشرف والأخلاق والفضيلة والكرامة، وتؤدي إلى تقويض بناء المجتمع وتفتيت الأُسر واختلاط الأنساب، وقطع العلاقات الزوجية، وسوء تربية الأولاد؛ بل تفضي إلى ضياع الطفل الذي هو قتل له معنى؛ فإن ولد الزنا ليس له من يربيه، والأم بمفردها لا تستطيع تربيته والقيام بشؤونه لقصور يدها، فيشب على أسوأ الأحوال ويصير عضوًا فاسدًا في جسد المجتمع الإنساني؛ ينشر الحقد والبغضاء، ويبث الفساد والإجرام؛ لأنه ثمرة الجريمة البشعة المنكرة.

فجريمة الزنا من أخطر أمور الحياة كلها؛ بل أشدها تعلقًا بنظامها ودوام سعادتها وهنائها، وتمسكها وترابطها؛ ولذلك اهتم الشارع الحكيم بهذا الحد أكبر اهتمام؛ صونًا للحياة المنزلية من الانهيار، وحفظًا للروابط الأسرية مما يتهددها من بلاء وأخطار، فذكر عقاب من لا يحفظ فرجه وبينه أعظم بيان، وجعله من أشد العقوبات وأفظعها، وأوجب أن لا تأخذنا شفقة ولا رحمة بالجناة، وأن يشهد إقامة الحد جماعة من المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢).(١)

وقد تكلم ابن القيم عن الحكمة من عقوبة حد الزنا وتغليظه ولما لا تكون بقطع الفرج، وفي الشتم بقطع اللسان؛ كقطع يد السارق؛ فقال: وأما الزاني فإنه يزني بجميع بدنه والتلذذ بقضاء شهوته يعم البدن، والغالب من فعله وقوعه برضا المزني بها؛ فهو غير خائف ما يخافه السارق من الطلب، فعوقب بما يعم بدنه من الجلد مرة، والقتل بالحجارة مرة، ولما كان الزنا من أمهات الجرائم، وكبار المعاصي لما فيه من اختلاط الأنساب الذي يبطل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا هلاك الحرث والنسل فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك، فزجر عنه بالقصاص ليرتدع عن مثل فعله من يهم به؛ فيعود ذلك

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ٥/ ٤٢.

بعمارة الدنيا وصلاح العالم الموصل إلى إقامة العبادات الموصلة إلى نعيم الآخرة.

ثم إن للزاني حالتين: إحداهما: أن يكون محصنًا قد تزوج فعلم ما يقع به من العفاف عن الفروج المحرمة واستغنى به عنها، وأحرز نفسه عن التعرض لحد الزنا؛ فزال عذره من جميع الوجوه في تخطي ذلك إلى مواقعة الحرام.

والثانية: أن يكون بكرًا لم يعلم ما علمه المحصن ولا عمل ما عمله فحصل له من العذر بعض ما أوجب له التخفيف فحقن دمه وزجر بإيلام جميع بدنه بأعلى أنواع الجلد ردعًا على المعاودة للاستمتاع بالحرام وبعثًا له على القنع بما رزقه الله من الحلال وهذا في غاية الحكمة والمصلحة جامع للتخفيف في موضعه والتغليظ في موضعه، وأين هذا من قطع لسان الشاتم والقاذف وما فيه من الإسراف والعدوان؟

ثم إن قطع فرج الزاني فيه من تعطيل النسل وقطعه عكس مقصود الرب تعالى من تكثير الذرية وذريتهم فيما جعل لهم من أزواجهم، وفيه من المفاسد أضعاف ما يتوهم فيه من مصلحة الزجر، وفيه إخلاء جميع البدن من العقوبة، وقد حصلت جريمة الزنا بجميع أجزائه فكان من العدل أن تعمه العقوبة ثم إنه غير متصور في حق المرأة وكلاهما زانٍ، فلا بد أن يستويا في العقوبة، فكان شرع الله سبحانه أكمل من اقتراح المقترحين(١).

فشُرع حد الزنا للحفاظ على المجتمعات من اختلاط للأنساب وشيوع الفساد، وللمحافظة على الجنس البشري الطاهر النقي الذي يعلم الناس الخير، ففي الزنا فسادًا عريضًا على المجتمعات ولا ينتج منه إلا الشر والفساد.

قال الرازي: الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد:

أولها: اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم.

(١) إعلام الموقعين (١١١ : ١١٠)، وقد أوردنا هذا الكلام في الرد على شبهة (حد السرقة).

وثانيها: أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا.

وثالثها: أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم، وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق.

ورابعها: أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت. وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب.

وخامسها: أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية.

وسادسها: أن الوطء يوجب الذل الشديد، والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع، ولولا أن الوطء يوجب الذل، وإلا لما كان الأمر كذلك، وأيضًا فإن جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء إلا في المواضع المستورة، وفي الأوقات التي لا يطلع عليهم أحد وأن جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن، ولولا أن الوطء ذل، وإلا لما كان كذلك.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما كان الوطء ذلًا كان السعي في تقليله موافقًا للعقول، فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل، وأيضًا ما فيه من الذل يصير مجبورًا بالمنافع الحاصلة في النكاح، أما الزنا فإنه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصر

مجبورًا بشيء من المنافع فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر، فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح. (١)

فالواقع يشهد للشريعة وخاصةً في حد الزنا، ولعل ما حدث في أوربا والبلاد الغربية عامة يؤيد نظرية الشريعة، فقد تحللت الجماعات الأوربية وتصدعت وحدتهم وذهب ريحها وما لذلك من سبب إلا شيوع الفاحشة والفساد الخلقي والإباحية التي لا تعرف حدًا تنتهي إليه، وما أشاع الفاحشة وأفسد الأخلاق ونشر الإباحية إلا إباحة الزنا وترك الأفراد لشهواتهم واعتبار الزنا من الأمور الشخصية التي لا تمس صالح الجماعة. (٢)

حكمة التشريع في تحريم الزنا وتغليظ حده:

تناول ابن القيم حكمة التشريع في تحريم الزنا، وتتبع أسرار التشريع في ذلك مبينًا آثار الزنا من مفاسد للبلاد والعباد، ونجملها في العناصر التالية:

١- الزنا يجمع خلال الشر كلها:

قال ابن القيم: والزنا يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة فلا تجد زانيًا معه ورع ولا وفاء بعهد ولا صدق في حديث ولا محافظة على صديق ولا غيرة تامة على أهله فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته، ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة ومنها سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين ومنها ظلمة القلب وطمس نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له ومنها الفقر اللازم(٣).

٢- مناقضة الزنا لصلاح العالم واختلاط الأنساب وانتهاك الأعراض:

---

(١) تفسير الرازي (الإسراء: ٣٢).

(٢) التشريع الجنائي في الإسلام ٣/ ٣٧٨.

(٣) روضة المحبين (٣٦٠).

ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس وإن حملت من الزنا فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل وإن حملته الزوج أدخلت على أهلها وأهله أجنبيا ليس منهم فورثهم وليس منهم ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم إلى غير ذلك من مفاسد زناها وأما زنا الرجل فإنه يوجد اختلاط الأنساب أيضًا وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة فكم في الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم[1].

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهى منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفى ذلك خراب العالم كانت تلي مفسدة القتل في الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله في سننه، قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا، وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ (الفرقان: ٦٨) فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين ما لم يرفع العبد وجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾، فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون

(١) الداء والدواء (٢٠٨).

الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنا بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموها حتى ماتا[١]، ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلًا فأنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال[٢].

٣- الزنا سبيل لقطيعة الأرحام وكسب الحرام:

ومنها أن الزنا يجرئه على قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وكسب الحرام وظلم الخلق وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسرا إلى سفك الدم الحرام وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها ويتولد عنها أنواع أخر من المعاصي بعدها فهي محفوفة بجند من المعاصي قبلها وجند بعدها وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاذه وأعيى الأطباء دواؤه فأسيرها لا يفدى وقتيلها لا يودى وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم فإذا ابتلي بها عبد فليودع نعم الله فإنها ضيف سريع الانتقال وشيك الزوال قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[٣].

٤- مفسدة الزنا بعد مفسدة القتل، لذلك كان التشديد في الحد:

فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت، وقال سعيد بن عبادةﷺ: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله فقال تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤٩).

(٢) الداء والدواء (١٩٣ : ١٩٢).

(٣) روضة المحبين (٣٦٣).

مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن[١]، وعنه: إن الله يغار وإن المؤمن يغار غيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه[٢]، وقال أيضًا: لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثني على نفسه[٣]، وفى الصحيحين في خطبته في صلاة الكسوف أنه قال يا أمة محمد والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزني أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا ثم رفع يديه فقال: اللهم هل بلغت[٤].

وفى ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله.

وظهور الزنا من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: لأحدثكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي سمعته من النبي ﷺ يقول من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد[٥]، وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة[٦].

٥- الزنا يشتت القلب ويُغضب الرب ويضيق الصدر:

ومن خاصيته أيضًا أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ويجلب الهم والحزن والخوف ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان.

---

(١)أخرجه البخاري (٧٤١٦).

(٢)أخرجه البخاري (٤٦٣٤).

(٣)أخرجه البخاري (٤٦٣٧).

(٤)أخرجه البخاري (١٠٤٤).

(٥)أخرجه البخاري (٦٨٠٨).

(٦) الداء والدواء (صـ٢٠٨ -٢٠٩).

وقال: ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة، ومنها سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين ومنها ظلمة القلب وطمس نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له ومنها الفقر اللازم وفي أثر يقول الله تعالى: أنا الله مهلك الطغاة ومفقر الزناة.

ومنها أنه يذهب حرمة فاعله ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن[1].

وقال أيضًا: ومنها الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه فالعفيف على وجهه حلاوة وفي قلبه أنس ومن جالسه استأنس به والزاني تعلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به، ومنها قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم بخلاف العفيف فإنه يرزق المهابة والحلاوة ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمنه أحد على حرمته ولا على ولده ومنها ضيقة الصدر وحرجه فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف أضعاف ما حصل له[2].

ونجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جدًّا ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركا فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر وكلما كان أعظم إخلاصا

---

(١) روضة المحبين (٣٦٠).

(٢) روضة المحبين (٣٦٢: ٣٦٠) بتصرف.

كان منها أبعد كما قال تعالى عن يوسف الصديق‍‍: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)، فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله فإنهما من أعظم الخبائث فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب وكلما ازداد خبثا ازداد من الله بعدا ولهذا قال المسيح عليه السلام فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد: لا يكون البطالون من الحكماء ولا يلج الزناة ملكوت السماء[(١)].

٦- سبيل الزنا أسوأ سبيل ومقيله الجحيم:

فأما سبيل الزنا فأسوأ سبيل ومقيل أهلها في الجحيم شر مقيل ومستقر أرواحهم في البرزخ في تنور من نار يأتيهم لهبها من تحتهم فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا ثم يعودون إلى موضعهم فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي في منامه، ورؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها[(٢)].

٢- تعريف الزنا.

لغةً: زَنَى يَزْنِي زِنىً وزِناءً بكسرهما: فَجَرَ. وزاني مُزاناةً وزِناءً: بمعناهُ وفلانًا: نَسَبَه إلى الزِنَا[(٣)].

والمرأة تُزانِي مُزاناةً وزِناء أي تُباغِي، وزَنا الموضعُ يَزْنُو ضاق، ووِعاءٌ زَنِيٌّ ضيِّق[(٤)].

شرعًا: هُوَ وَطْءُ مُكَلَّفٍ طَائِعٍ مُشْتَهَاةً حَالًا أَوْ مَاضِيًا فِي الْقُبُلِ بِلَا شُبْهَةِ مِلْكٍ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ أَوْ تَمْكِينِهِ مِنْ ذَلِكَ أَوْ تَمْكِينِهَا[(٥)].

وعرَّفه الحنابلة: أنه من أتى الفاحشة من قُبُل أو دُبُر[(٦)].

---

(١) إغاثة اللهفان (٧١: ٧٠) بتصرف.

(٢) روضة المحبين (٣٥١).

(٣) القاموس المحيط ٢/ ١٦٩٥.

(٤) لسان العرب ١٤/ ٣٦٠: ٣٥٩.

(٥) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٥/ ٤، شرح فتح القدير ٥/ ٢٤٧.

(٦) المغني ١٠/ ١٥١.

وعند الشافعية: إيلاج قدر الحشفة من الذكر في فرج محرم يشتهي طبعًا لا شبهة فيه[١].

وعند المالكية: وطء مكلف مسلم فرج آدمي لا ملك له فيه باتفاق تعمدًا[٢].

وعند الظاهرية: من وطئ من لا يحل له النظر إلى مجردها وهو عالم بالتحريم فهذا هو العاهر الزاني[٣].

فالشَّرْعَ لَمْ يَخُصَّ اسْمَ الزِّنَا بِمَا يُوجِبُ الْحَدَّ مِنْهُ بَلْ هُوَ أَعَمُّ، وَالْمُوجِبُ لِلْحَدِّ مِنْهُ بَعْضُ أَنْوَاعِهِ، وَلِذَا قَالَ ﷺ: ((الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ))[٤]، وَلَوْ وَطِئَ رَجُلٌ جَارِيَةَ ابْنِهِ لَا يُحَدُّ لِلزِّنَا وَلَا يُحَدُّ قَاذِفُهُ بِالزِّنَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ فِعْلَهُ زِنًا، وَإِنْ كَانَ لَا يُحَدُّ بِهِ[٥].

لذلك فإن حد الزنا الذي يُحد به صاحبه له ضوابط وشروط سنوضحها إن شاء الله.

٣- أدلة تحريم الزنا، وإثبات حده.

أولًا: من القرآن: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٢)، وقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٢)، وقال أيضًا: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٣)، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ (الفرقان: ٦٨: ٦٩)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ

(١) روضة الطالبين٧/ ٣٠٥.

(٢) الخرشي على مختصر خليل٨/ ٧٥.

(٣) المحلى لابن حزم١١/ ٢٢٩.

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، مسلم (٢٦٥٧).

(٥) شرح فتح القدير٥/ ٢٤٧.

شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ١٢).

ثانيًا: من السنة: عن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رضي الله عنه وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا، وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: " بايعوني عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ الله، فَهُوَ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ"، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ(١).

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا "(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ. . . . ، ثُمَّ قَالَ " إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله، لاَ يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا الله وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا ". ثُمَّ قَالَ " يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَالله مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا "(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ - قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ - وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ "(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨)، مسلم (١٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٨٠)، مسلم (٢٦٧١).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، مسلم (٩٠١).

(٤) أخرجه مسلم (١٠٧).

وعنه أيضًا قال: إِنَّ النبي ﷺ قَالَ: "لاَ يَزْنِى الزاني حِينَ يَزْنِى وَهْوَ مُؤْمِنٌ. . . "[١].

وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّى رَسُولُ الله إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزاني، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ"[٢].

وعن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: مُرَّ عَلَى النبي ﷺ بيهودي مُحَمَّمًا مَجْلُودًا فَدَعَاهُمْ ﷺ فَقَالَ: " هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزاني في كِتَابِكُمْ "، قَالُوا نَعَمْ. فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ " أَنْشُدُكَ بِالله الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزاني في كِتَابِكُمْ ". قَالَ لاَ وَلَوْلاَ أَنَّكَ نشدتني بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ نَجِدُهُ الرَّجْمَ وَلَكِنَّهُ كَثُرَ في أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ قُلْنَا تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شيء نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " اللهمَّ إني أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ ". فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يَقُولُ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا. فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ في الْكُفَّارِ كُلُّهَا[٣].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِىِّ قَالاَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ فَقَالَ: أَنْشُدُكَ الله إِلاَّ قَضَيْتَ بَيْنَنَا بِكِتَابِ الله. فَقَامَ خَصْمُهُ وَكَانَ أَفْقَهَ مِنْهُ فَقَالَ صَدَقَ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ الله، وَأْذَنْ لي يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ النبي ﷺ: " قُلْ ". فَقَالَ إِنَّ ابني كَانَ عَسِيفًا[٤] في أَهْلِ، هَذَا

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، مسلم (٥٧).

(٢)أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، مسلم (١٦٧٦).

(٣)أخرجه البخاري (٦٨١٩)، مسلم (١٧٠٠) واللفظ له.

(٤) العسيف: الأجير، وجمعه: عسفاء.

فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَخَادِمٍ وإني سَأَلْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فأخبروني أَنَّ عَلَى ابني جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغرِيبَ عَامٍ، وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ. فَقَالَ: " والذي نفسي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ الله، الْمِائَةُ وَالْخَادِمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَيَا أُنَيْسُ اغْدُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا فَسَلْهَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا ". فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا(١).

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ "(٢).

ثالثا: الإجماع:

وقد أجمع أهل العلم قاطبةً على تحريم الزنا(٣)، وأجمعوا على وجوب الرجم على الزاني المحصن رجلًا كان أو امرأة، وهذا قول عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار في جميع الأعصار(٤)، ولا نعلم فيه مخالفًا، وأجمعوا على أن الجلد للزاني الغير محصن(٥).

٤- بم يثبت حد الزنا.

يثبت حد الزنا بأحد أمور منها: الإقرار والشهادة.

أولًا: الإقرار: فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه رجم ماعزًا والغامدية بإقراريهما(٦).

ويشترط في الإقرار أن يكون مفصّلًا مبيّنًا لحقيقة الوطء لتزول التّهمة والشّبهة، ولقول النّبيّ ﷺ لماعز: لعلّك قبّلت أو غمزت أو نظرت؟ قال: لا يا رسول الله، قال: أنِكْتها(١)؟ لا يكنّي فعند ذلك أمر برجمه "(٢).

(١)أخرجه البخاري (٦٨٢٨: ٦٨٢٧)، مسلم (١٦٩٨: ١٦٩٧).

(٢)أخرجه مسلم (١٦٩٠).

(٣) الإجماع لابن المنذر (١١٢).

(٤) المغني ١٠/ ١٢٦: ١٢٠.

(٥) الإجماع لابن المنذر (١١٢).

(٦)أخرجه مسلم (١٦٩٥).

وفي رواية: قال: "حتّى غاب ذلك منك في ذلك منها؟ قال: نعم، قال: كما يغيب المرود في المكحلة والرّشاء في البئر؟ قال: نعم، قال: فهل تدري ما الزّنى؟ قال: نعم أتيت منها حرامًا ما يأتي الرّجل من امرأته حلالًا "[٣].

ثانيًا: الشهادة: أجمع العلماء على أن الشهادة على الزنا أربع لا يُقبل أقل منهم لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ ﴾ (النساء: ١٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ (النور: ٤)، وقوله: ﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (النور: ١٣).

قال ابن عبد البر: أجمع العلماء أن البينة في الزنى أربعة شهداء رجال عدول يشهدون بالصريح من الزنا لا بالكناية وبالرؤية كذلك والمعاينة[٤].

ولما كان للزنا أثر سيء في نفس الرجل والمرأة وانحطاط كرامتيهما في أدنى درجة وتلطخ سمعتيهما أمام المجتمع، كان من ثبوت الزنا هو ثبوته بالشهود، واشترط العلماء شروطًا لذلك، فأورد ابن قدامة هذه الشروط في المغني فقال:

ذكر الخرقي في شروط الزنا سبعة شروط:

الشرط الأول: أن يكونوا أربعة وهذا إجماع لا خلاف فيه بين أهل العلم.

الشرط الثاني: أن يكونوا رجالًا كلهم ولا تقبل فيه شهادة النساء بحال ولا نعلم فيه خلافًا إلا شيئًا يروى عن عطاء وحماد أنه يقبل فيه ثلاثة رجال وامرأتان وهو شذوذ لا

---

(١) فائدة: هذه الكلمة فيها دلالة على حقيقة الفعل، وأن حد الزنا لا يطبق جزافًا، بل يدرء بالشبهات وللتحقق من حاله، وقد حاولوا الطعن في رسول الله ﷺ لأنه أتى بهذه الكلمة، وقد بينًا ذلك في شبهات النبوة، فراجعه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٢٤).

(٣) الموسوعة الفقهية ٢٤/ ٤١.

(٤) الاستذكار ٢٤/ ٦٤: ٦٣.

يعول عليه لأن لفظ الأربعة اسم لعدد المذكورين ويقتضي أن يكتفي فيه بأربعة ولا خلاف في أن الأربعة إذا كان بعضهم نساء لا يكتفى بهم وإن أقل ما يجزئ خمسة وهذا خلاف النص ولأن في شهادتهن شبهة لتطرق الضلال إليهن قال الله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ والحدود تدرأ بالشبهات.

الشرط الثالث: الحرية فلا تقبل فيه شهادة العبيد ولا نعلم في هذا خلافًا إلا رواية حكيت عن أحمد أن شهادتهم تقبل وهو قول أبي ثور لعموم النصوص فيه ولأنه عدل ذكر مسلم فتقبل شهادته كالحر.

ولنا أنه مختلف في شهادته في سائر الحقوق فيكون ذلك شبهة تمنع من قبول شهادته في الحد لأنه يندرئ بالشبهات

الشرط الرابع: العدالة ولا خلاف في اشتراطها فان العدالة تشترط في سائر الشهادات فههنا مع مزيد الاحتياط أولى فلا تقبل شهادة الفاسق ولا مستور الحال الذي لا تعلم عدالته لجواز أن يكون فاسقًا.

الشرط الخامس: أن يكونوا مسلمين فلا تقبل شهادة أهل الذمة فيه سواء كانت الشهادة على مسلم أو ذمي لأن أهل الذمة كفار لا تتحقق العدالة فيهم ولا تقبل روايتهم ولا أخبارهم الدينية فلا تقبل شهادتهم كعبدة الأوثان.

الشرط السادس: أن يصفوا الزنا فيقولوا رأينا ذكره في فرجها كالمرود في المكحلة والرشاء في البئر وهذا قول معاوية بن أبي سفيان والزهري والشافعي وأبي ثور وابن المنذر وأصحاب الرأي، لما روي في قصة ماعز أنه لما أقر عند النبي ﷺ بالزنا فقال: أنكتها؟ فقال: نعم فقال: حتى غاب ذلك منك في ذلك منها كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر؟ قال نعم، وإذا اعتبر التصريح في الإقرار كان اعتباره في الشهادة أولى.

الشرط السابع: مجيء الشهود كلهم في مجلس واحد ذكره الخرقي فقال: وإن جاء أربعة متفرقين والحاكم جالس في مجلس حكمه لم يقم قبل شهادتهم وإن جاء بعضهم بعد أن قام الحاكم كانوا قذفة وعليهم الحد، فالشهادة تكون في مجلس واحد[١].

٥- أقسام الزناة.

والزاني إما أن يكون بكرًا، وإما أن يكون محصنًا، ولكلٍ منهما حكمًا خاصًا.

أولًا: حد البكر (غير المحصن):

قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (النور: ٢).

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: خُذُوا عَنِّى خُذُوا عَنِّى قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْىُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ[٢].

قال ابن قدامة: ولا خلاف في وجوب الجلد على الزاني إذا لم يكن محصنًا وقد جاء بيان ذلك في كتاب الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾، وجاءت لأحاديث عن النبي ﷺموافقة لما جاء به الكتاب، ويجب مع الجلد تغريبه عامًا في قول الجمهور روي ذلك عن الخلفاء الراشدين وعن أبي وأبي ذر وابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم، وإليه ذهب عطاء وطاوس وابن أبي ليلى والشافعي وإسحاق وأبو ثور[٣].

ثانيًا: حد المحصن:

على أنّ حدّ الزّاني المحصن الرّجم حتّى الموت رجلًا كان أو امرأةً وقد حكى غير واحد الإجماع على ذلك[٤].

(١) المغني ١٠/ ١٧٥ باختصار.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) المغني١٠/ ١٣٣.

(٤) الموسوعة الفقهية٢٤/ ٢٢.

وقال ابن قدامة: الرّجم على الزّاني المحصن رجلًا كان أو امرأةً، وهذا قول عامّة أهل العلم من الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار(١).

وقال أيضًا: وقد ثبت الرّجم عن رسول الله ﷺ بقوله وفعله، في أخبارٍ تشبه التّواتر وأجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ(٢).

فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا فَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِى كِتَابِ اللهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ وَإِنَّ الرَّجْمَ فِى كِتَابِ اللهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوِ الِاعْتِرَافُ(٣).

وقد وضع العلماء شروطًا للمحصن، فقال ابن قدامة: وللإحصان شروط سبعة:

أحدها: الوطء في القبل ولا خلاف في اشتراطه لأن النبي ﷺ قال: (والثيب بالثيب الجلد والرجم)، والثيابة تحصل بالوطء في القبل فوجب اعتباره ولا خلاف في أن النكاح الخالي عن الوطء لا يحصل به إحصان سواء حصلت فيه خلوة أو وطء فيما دون الفرج أو في الدبر أو لم يحصل شيء من ذلك لأن هذا لا تصير به المرأة ثيبًا ولا تخرج به عن حد الأبكار الذي حدهم جلد مائة وتغريب عام بمقتضى الخبر، ولا بد أن يكون وطأ حصل به تغييب الحشفة في الفرج لأن ذلك الوطء الذي تتعلق به أحكام الوطء.

الثاني: أن يكون في نكاح لأن النكاح يسمى إحصانًا بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني المتزوجات ولا خلاف بين أهل العلم في أن وطء الزنا

---

(١) المغني ١٠/ ١٢٠.

(٢) المغني ١٠/ ١٢١.

(٣)أخرجه مسلم (٤٥١٣).

ووطء الشبهة لا يصير به الواطئ محصنًا، ولا نعلم خلافًا في أن التسري لا يحصل به الإحصان لواحد منهما لكونه ليس بنكاح ولا تثبت فيه أحكامه.

الثالث: أن يكون النكاح صحيحًا وهو قول أكثر أهل العلم منهم عطاء وقتادة ومالك والشافعي وأصحاب الرأي.

الرابع: الحرية وهي شرط في قول جميع أهل العلم إلا أبا ثور قال: العبد والأمة هما محصنان يرجمان إذا زنيا إلا أن يكون الإجماع يخالف ذلك.

الشرط الخامس والسادس: البلوغ والعقل فلو وطئ وهو صبي أو مجنون ثم بلغ أو عقل لم يكن محصنًا هذا قول أكثر أهل العلم وقول الشافعي.

الشرط السابع: أن يوجد الكمال فيهما جميعًا حال الوطء فيطأ الرجل العاقل الحر امرأة عاقلة حرة وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه ونحوه قول عطاء والحسن وابن سيرين والنخعي وقتادة والثوري وإسحاق[1].

٦- الشروط الموجبة لحد الزنا.

أولًا: إدخال الحشفة أو قدرها من مقطوعها:

فالزنا الموجب للحد هو إدخال قدر الحشفة، فلو لم يدخلها أو أدخل بعضها فليس عليه الحد، وليس الإنزال شرط، فسواء أنزل أم لا فعليه الحد[2].

ثانيًا: أن يكون من صدر منه الفعل مكلفًا:

أي يكون عاقلًا بالغًا، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: رُفع القلمُ عن ثلاثة: عن المجنون حتى يُفيق، وعن الصَّبيِّ حتى يبلُغ، وعن النَّائم حتى يستيقظ[3]. فلا حدَّ على النائم والمجنون والصبي[1].

---

(١) المغني ١٠/ ١٢٦.

(٢) الموسوعة الفقهية ٢٤/ ٢٣، الممتع في شرح المقنع ٥/ ٦٦٣.

(٣) سبق تخريجه.

ثالثا: أن يكون من صدر منه الفعل عالما بالتحريم:

لا حد على من لم يعلم تحريم الزنا قال عمر وعثمان وعلي: لا حد إلا على من علمه وبهذا قال عامة أهل العلم، لا تقبل دعوى الجهل بالتّحريم إلاّ ممّن ظهر عليه أمارة ذلك، بأن نشأ وحده في شاهق، أو بين قوم جهّال مثله لا يعلمون تحريمه، أو يعتقدون إباحته، إذ لا ينكر وجود ذلك. فمن زنى وهو كذلك في فور دخوله دارنا لا شكّ في أنّه لا يحدّ، إذ التّكليف بالأحكام فرع العلم بها، وعلى هذا يحمل قول من اشترط العلم بالتّحريم، وما ذكر من نقل الإجماع بخلاف من نشأ في دار الإسلام بين المسلمين، أو في دار أهل الحرب المعتقدين حرمته، ثمّ دخل دارنا فإنّه إذا زنى يحدّ ولا يقبل اعتذاره بالجهل، وَأَنّ الْحَدّ لَا يَجِبُ عَلَى جَاهِلٍ بِالتّحْرِيمِ لِأَنّهُ ﷺ سَأَلَهُ ماعز عَنْ حُكْمِ الزّنَى: فَقَالَ أَتَيْتُ مِنْهَا حَرَامًا مَا يَأْتِي الرّجُلُ مِنْ أَهْلِهِ حَلَالًا(٢).

رابعًا: أن يكون من صدر منه الفعل مختارًا:

لا حد على مكره في قول عامة أهل العلم، رُوي ذلك عن عمر، والزهري، وقتادة، والثوري، والشافعي، وأصحاب الرأي، ولا نعلم فيه مخالفًا وذلك لقول النبيﷺ: " عفي لأمّتي عن الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه"(٣). ومن أكرهه السلطان حتى زنى فلا حد عليه(٤).

خامسًا: انتفاء الشبهة:

فمن الشروط الموجبة لحد الزنا والمتفق عليها أيضًا هي انتفاء الشبهة لقول النبيﷺ: "ادرءوا الحدود بالشبهات "(٥)، فلا يقام الحد إذا وُجدت شبهة، وقد تكلم الفقهاء بالتفصيل عن هذا.

---

(١) الموسوعة الفقهية٢٤/ ٢٣، رد المحتار على الدرر المختار٣/ ١٤١.

(٢) المغني١٠/ ١٥٦، رد المحتار على الدرر المختار٣/ ١٤٢، الموسوعة الفقهية٢٤/ ٢٤.

(٣) إرواء الغليل (١٠٢٧) وقال الألباني: صحيح.

(٤) المغني١٠/ ١٥٨، فتح القدير٥/ ٢٧٣، الموسوعة الفقهية٢٤/ ٣٢: ٣١.

(٥) سبق تخريجه.

٧- سد الذرائع الموصلة إلى الزنا.

قاعدة التشريع التي لا تنخرم أن الله سبحانه وتعالى إذا حرَّم شيئًا حرم الأسباب والدوافع الموصلة إليه سدًا للذريعة وكفًا عن الوقوع في حمى الله ومحارمه ليعيش في مجتمع مملوء بالإباء والشمم عن كافة الرزائل والطرائق الموصلة إليها حتى يلقى الله وهو على هدى من الله وصراط مستقيم.

ولهذا فإن علماء الشريعة استنبطوا بطريق التتبع والاستقراء لمواطن التنزيل قاعدة شريفة هامة تعتبر من الكليات التشريعية التي تعايش المسلم في كل لحظة وآن، تلك هي قاعدة: سد الذرائع الموصلة إلى المحرمات(١).

قال ابن القيم: لَمَّا كَانَتْ الْمَقَاصِدُ لَا يُتَوَصَّلُ إلَيْهَا إلَّا بِأَسْبَابٍ وَطُرُقٍ تُفْضِي إلَيْهَا كَانَتْ طُرُقُهَا وَأَسْبَابُهَا تَابِعَةً لَهَا مُعْتَبَرَةً بِهَا، فَوَسَائِلُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَعَاصِي فِي كَرَاهَتِهَا وَالْمَنْعِ مِنْهَا بِحَسَبِ إفْضَائِهَا إلَى غَايَاتِهَا وَارْتِبَاطَاتِهَا بِهَا، وَوَسَائِلُ الطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ فِي مَحَبَّتِهَا وَالْإِذْنِ فِيهَا بِحَسَبِ إفْضَائِهَا إلَى غَايَتِهَا؛ فَوَسِيلَةُ الْمَقْصُودِ تَابِعَةٌ لِلْمَقْصُودِ، وَكِلَاهُمَا مَقْصُودٌ، لَكِنَّهُ مَقْصُودٌ قَصْدَ الْغَايَاتِ، وَهِيَ مَقْصُودَةٌ قَصْدَ الْوَسَائِلِ؛ فَإِذَا حَرَّمَ الرَّبُّ تَعَالَى شَيْئًا وَلَهُ طُرُقٌ وَوَسَائِلُ تُفْضِي إلَيْهِ فَإِنَّهُ يُحَرِّمُهَا وَيَمْنَعُ مِنْهَا، تَحْقِيقًا لِتَحْرِيمِهِ، وَتَثْبِيتًا لَهُ، وَمَنْعًا أَنْ يُقْرَبَ حِمَاهُ، وَلَوْ أَبَاحَ الْوَسَائِلَ وَالذَّرَائِعَ الْمُفْضِيَةَ إلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ نَقْضًا لِلتَّحْرِيمِ، وَإِغْرَاءً لِلنُّفُوسِ بِهِ، وَحِكْمَتُهُ تَعَالَى وَعِلْمُهُ يَأْبَى ذَلِكَ كُلَّ الْإِبَاءِ، بَلْ سِيَاسَةُ مُلُوكِ الدُّنْيَا تَأْبَى ذَلِكَ(٢).

وقال أيضًا: وَبَابُ سَدِّ الذَّرَائِعِ أَحَدُ أَرْبَاعِ التَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَالْأَمْرُ نَوْعَانِ؛ أَحَدُهُمَا: مَقْصُودٌ لِنَفْسِهِ، وَالثَّانِي: وَسِيلَةٌ إلَى الْمَقْصُودِ، وَالنَّهْيُ نَوْعَانِ؛ أَحَدُهُمَا: مَا يَكُون

(١) الحدود والتعزيرات عند ابن القيم بكر أبو زيد (١٠٦).

(٢) إعلام الموقعين٣/ ١١٢: ١١١.

الْمَنْهِيُّ عَنْهُ مَفْسَدَةً فِي نَفْسِهِ، وَالثَّانِي: مَا يَكُونُ وَسِيلَةً إِلَى الْمَفْسَدَةِ؛ فَصَارَ سَدُّ الذَّرَائِعِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْحَرَامِ أَحَدَ أَرْبَاعِ الدِّينِ[١].

فقاعدة سد الذرائع ثابتة في شريعتنا، ولهذا اعتنت الشريعة كل الاعتناء بكل الأسباب والوسائل والدوافع المؤدية إلى الزنا، ومنعت من ذلك سدًا للذريعة، ففي ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾، يقول تعالى ناهيًا عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه[٢].

وقال القرطبي: قال العلماء: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنى[٣].

فالقرب المنهي عنه هو أقل الملابسة، وهو كناية عن شدة النهي عن ملابسة الزنا، وقريب من هذا المعنى قولهم: ما كاد يفعل[٤].

فرب العزة سبحانه وتعالى يحذرنا من المقاربة لهذه الجريمة، فالزنى مئنة لإضاعة الأنساب ومَظَنّةٌ للتقاتل والتهارج فكان جديرًا بتغليظ التحريم قصدًا وتوسلًا[٥].

قال السعدي: والنهي عن قربان الزنا أبلغ من النهي عن مجرد فعله لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه فإن: "من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه"[٦].

وهذه بعض الضروب والوجوه مما ورد في الكتاب والسنة من سد الذرائع الموصلة إلى فاحشة الزنا:

١- شهود طائفة من المؤمنين للحدود وهي تقام:

---

(١) إعلام الموقعين٣/ ١٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير٣/ ٥٥.

(٣) تفسير القرطبي١٠/ ٢٢٢.

(٤) التحرير والتنوير١/ ٢٤٥٣.

(٥) التحرير والتنوير١/ ٢٤٥٣.

(٦) تفسير السعدي١/ ٤٥٧.

فلا شك أن جانب الترهيب عليه عامل كبير في إصلاح النفس البشرية وفي إقامة الحد على المذنب، يجعل الآخرين ممن يريدون اقتراف نفس ما اقترف هذا المذنب لا يفكر في أن يفعل مثل ما فعل، وعندما يشهد إقامة الحد عليه، فهو رادع وزاجر في أن يفعل مثل ما فعل(١)، لذلك صار إقامة الحدود وشهود طائفة من المؤمنين لإقامة الحدود لهو من الموانع القوية في اقتراف فاحشة الزنا(٢).

٢- الأمر بغض الأبصار:

وهو للرجال والنساء على السواء، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور٣١: ٣٠).

قال ابن كثير: ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: "النظر سهام سم إلى القلب"؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك(٣).

فلما كان النظر بريد الزنى ورائد الفجور، والبلوى فيه أشدّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، كان الأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار لأن النظر رائد الزنى، وثمرة حفظ الفرج لا تكون إلا بغض البصر(٤).

قال القرطبي: البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله(١).

---

(١) انظر: (مقدمة الحدود، فضل إقامة الحدود).

(٢) انظر (شبهة إقامة الحد علانية).

(٣) تفسير ابن كثير٣/ ٣٧٦.

(٤) الكشاف٣/ ٢٣٠.

وفي الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ "إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ"[٢].

قال الشنقيطي: ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: فزنى العين النظر، فإطلاق اسم الزنا على نظر العين إلى ما لا يحل دليل واضح على تحريمه والتحذير منه، ومعلوم أن النظر سبب الزنا فإن من أكثر من النظر إلى جمال امرأة مثلًا قد يتمكن بسببه حبها نم قبله تمكنًا يكون سبب هلاكه، والعياذ بالله، فالنظر بريد الزنا وقال مسلم بن الوليد الأنصاري:

كسبت لقلبي نظرة لتسره   عيني فكانت شقوة ووبالا
ما مر بي شيء أشد من الهوى   سبحان من خلق الهوى وتعالى

وقال آخر:

ألم ترى أن العين للقلب رائد   فما تألف العينان فالقلب آلف

وقال آخر:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائدًا   لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر   عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وقال المتنبي:

وأنا الذي اجتلب المنية طرفه   فمن المطالب والقتيل القاتل[٣]

قال ابن القيم: فلما كان غض البصر أصلًا لحفظ الفرج بدأ بذكره... وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته[١].

(١) تفسير القرطبي١٢/ ٢٠٠.
(٢)أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، مسلم (٢٦٥٧).
(٣) أضواء البيان٦/ ١٩٢: ١٩١.

وقال: وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة..... فأما اللحظات (النظرات) فهي رائد الشهوة ورسولها وحفظها أصل حفظ الفرج فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك[٢].

٣- نهي النساء عن الضرب بالأرجل:

فمن الذرائع التي سدتها الشريعة أيضًا ألا تظهر النساء زينتها بالصوت، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

قال ابن كثير: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يسمع صوته - ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورًا، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[٣].

وقال القرطبي: وسماع هذه الزينة أشد تحريكًا للشهوة من إبدائها[٤].

قال الرازي: ومعلوم أن الرجل الذي يغلب عليه شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهن[٥].

قال الآلوسي: فإن ذلك مما يورث الرجال ميلًا إليهن ويوهم أن لهن ميلًا إليهم[٦].

قال ابن القيم: فمنعهن من الضرب بالأرجل وإن كان جائزا في نفسه لئلا يكون سببًا إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن[٧].

---

(١) روضة المحبين (٩١).

(٢) الداء والدواء (١٩٤).

(٣) تفسير ابن كثير٣/ ٣٧٨.

(٤) تفسير القرطبي١٢/ ٢٠٥.

(٥) تفسير الرازي١١/ ٣١٠.

(٦) روح المعاني١٨/ ١٤٦.

(٧) إعلام الموقعين٣/ ١١٣.

قال السعدي: ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحًا، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه(١).

٤- النهي عن الخلوة بأجنبية:

وقد نهى النبيﷺ عن الخلوة بالأجنبية، وشدد في ذلك بأحاديث كثير منها: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النبي ﷺقَالَ: "لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ مَعَ ذِى مَحْرَمٍ"(٢).

وعن عامر بن ربيعة ﷺأن النبيﷺ قال: "ألا لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له فإن ثالثهما الشيطان"(٣).

وعن جابرﷺ أن النبيﷺ قال: "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم منها فإن ثالثهما الشيطان"(٤).

وهذا كله سدًا للذريعة وغلقًا لباب الفساد والفتنة، فكل ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام، وقال ابن القيم تحت باب منع ما يؤدي إلى الحرام: أنه ﷺ حرم الخلوة بالأجنبية ولو في إقراء القرآن(٥).

فخلوة الرجل بالمرأة الأجنبية مدرجة الهلاك وداعية الإثم والفجور، وكيف لا يكون ذلك، والفرصة سانحة وقد مهدت الخلوة للغريزة أن تستيقظ، ووقتها يحدث ما لا تُحمد عقباه(٦).

٥- النهي عن سفر المرأة بلا محرم:

(١) تفسير السعدي١/ ٥٦٦.

(٢)أخرجه البخاري (٥٢٣٣)، مسلم (١٣٤١).

(٣) مسند أحمد٣/ ٤٤٦.

(٤) مسند أحمد٣/ ٣٣٩.

(٥) إعلام الموقعين٣/ ١١٥.

(٦) عودة الحجاب (٤٥)بتصرف.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النبي ﷺ يَقُولُ: "لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلاَ تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلاَّ وَمَعَهَا مَحْرَمٌ". فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله، اكْتُتِبْتُ فِى غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، وَخَرَجَتِ امرأتي حَاجَّةً. قَالَ " اذْهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ "[١].

قال النووي: الْمَرْأَة مَظِنَّة الطَّمَع فِيهَا، وَمَظِنَّة الشَّهْوَة وَلَوْ كَانَتْ كَبِيرَة، وَقَدْ قَالُوا: لِكُلِّ سَاقِطَة لَاقِطَة. وَيَجْتَمِع فِي الْأَسْفَار مِنْ سُفَهَاء النَّاس وَسَقَطهمْ مَنْ لَا يَرْتَفِع عَنْ الْفَاحِشَة بِالْعَجُوزِ وَغَيْرهَا لِغَلَبَةِ شَهْوَته وَقِلَّة دِينه وَمُرُوءَته وَخِيَانَته وَنَحْو ذَلِكَ[٢].

وقال المناوي:

قال ابن العربي: النساء لحم على وضم كل أحد يشتهيهن وهن لا مدفع عندهن بل الاسترسال فيهن أقرب من الاعتصام، فحصَّن الله عليهن بالحجاب وقطع الكلام وحرم السلام وباعد الأشباح إلا مع من يستبيحها وهو الزوج أو يمنع منها وهو أولو المحارم ولما لم يكن بد من تصرفهن أذن لهن فيه بشرط صحبة من يحميهن وذلك في مكان المخالفة وهو السفر مقر الخلوة ومعدن الوحدة[٣].

فسفرها بغير محرم قد يكون ذريعة إلى الطمع فيها والفجور بها[٤].

٦- النهي عن خروج المرأة متطيبة:

عَنِ الأشعري قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِىَ زَانِيَةٌ"[٥].

وعَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ الله قَالَتْ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهﷺ "إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلاَ تَمَسَّ طِيبًا"[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٦)، مسلم (١٣١٤).

(٢) شرح النووي٥/ ١١٧.

(٣) فيض القدير٦/ ٣٩٨.

(٤) إعلام الموقعين٣/ ١٢٤.

(٥) مسند أحمد٤/ ٤١٤، الحاكم ٢/ ٣٩٦ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وهذا كله لأن الطيب من ألطف وسائل المخابرة والمراسلة، والحياء الإسلامي يبلغ من رقة الإحساس أن لا يحتمل حتى هذا العامل اللطيف الخفي(٢).

فنهى النبي ﷺ المرأة عن التطيب عند خروجها حتى لا تجذب إليها أنظار الرجال.

٧- تحريم الخضوع بالقول:

كذلك من السبل الموصلة إلى هذه الفاحشة خضوع النساء بالقول، ورب العزة يقول: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

قال الطبري: وقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ يقول: فلا تلن بالقول للرجال فيما يبتغيه أهل الفاحشة منكن(٣). ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها(٤).

٨- تحريم التبرج وإظهار الزينة والتجمل للفت نظر الأجانب:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

قال ابن كثير: أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية(٥).

٩- تشريع الاستئذان:

فقد حرم الله ﷻ الدخول إلى البيوت إلا بالاستئذان، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

(١) أخرجه مسلم (٤٤٣).

(٢) عودة الحجاب (القسم الثالث: ٥٠).

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٣٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٣٦.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (النور ٢٧: ٢٨).

قال ابن كثير: هذه آداب شرعية، أدّب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثًا، فإن أذن له، وإلا انصرف[١].

قال الشوكاني: لما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف، شرع في ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدّي إلى أحد الأمرين المذكورين، وأيضًا: إن الإنسان يكون في بيته، ومكان خلوته على حالة قد لا يحبّ أن يراه عليها غيره، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية، هي قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾، والاستئناس: الاستعلام، والاستخبار أي: حتى تستعلموا من في البيت، والمعنى: حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم، وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم، فإذا علمتم ذلك دخلتم[٢].

قال أبو بكر الجزائري: نظرًا إلى خطر الرمي بالفاحشة وفعلها وحرمة ذلك كان المناسب هنا ذكر وسيلة من وسائل الوقاية من الوقوع في مثل ذلك ففرض الله تعالى على المؤمنين الاستئذان[٣].

وهذا المسلك يدل على مدى عناية الإسلام بصيانة البيوت وحفظها من النظر إلى ما فيها[٤]، من ظهور العورات وانكشافها، فلولا الاستئذان لتعرضت الأعراض للانكشاف ولكثر الخبث، وكان ذلك سبيلًا إلى الزنا، فلذلك كان التحريم حتى يستأذن الشخص[١].

(١) تفسير ابن كثير٣/ ٣٧٢.

(٢) فتح القدير٤/ ٢٩.

(٣) أيسر التفاسير٣/ ٥٥.

(٤) عودة الحجاب (القسم الثالث: ٤٠).

فسدَّ الشرع بذلك ذريعة يتوصل بها إلى الزنا، وجعل الاستئذان حتى استئذان الرجل على أمه وأخته من الأمور التي دلت عليها شريعتنا الغراء[٢].

١٠- تحريم مس الأجنبية ومصافحتها:

فهذه أيضًا من الذرائع الموصلة إلى الزنا، فلمس المرأة باليد يحرك كوامن النفس ويفتح أبواب الفساد، ويسهل مهمة الشيطان، من أجل ذلك صار التحريم وتوعَّد الله من يفعل ذلك، فعن معقل ابن يسار رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له[٣].

فهذا بمجرد المس، فما بالك بما فوقه، والذي يتهاون ويتساهل في هذا الأمر فهو على خطر عظيم[٤]، ولما كان مس المرأة الأجنبية مما يتوصل به إلى هذه الفاحشة صار التحريم في مس يدها.

١١- منع إشاعة الفاحشة ونشر الرذيلة في أوساط المؤمنين:

بل حرم الله تعالى مجرد حب إشاعة الفاحشة في البلاد والعباد[٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (النور: ١٩) وكل هذا من رحمة الله بعباده

---

(١) وقد دل الشرع على بعض أحكام الاستئذان وآدابه ومنها أن يكون الاستئذان ثلاثًا، فإن أُذن للشخص وإلا انصرف، وكذلك إلقاء السلام بقول المستأذن (السلام عليكم)، ولا يستقبل الباب، بل يكون المستأذن عن اليمين أو اليسار كي لا يطلع على عورات البيوت، ويُستحب أيضًا للمستأذن أن يُعرِّف بنفسه وليقل: أنا فلان إذا لم يكن صوته معروفًا لدى أهل البيت، وكل هذه الآداب والسنن لإشاعة الطهارة والسماحة والآداب بين الناس، وحتى لا يقع أحد فيما يغضب الله، ولا يكون سبيلًا إلى فعل الفاحشة (تفسير سورة النور للشيخ/ مصطفى العدوي).

(٢) (تفسير سورة النور للشيخ/ مصطفى العدوي).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩١٠) وقال: حسن صحيح.

(٤) عودة الحجاب (القسم الثالث: ٤٣).

(٥) عودة الحجاب (القسم الثالث: ٣٨).

المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه[١].

ولما كان حب إشاعة الفاحشة وانتشار الرذيلة في أوساط المؤمنين مما يتوصل به إلى فساد عظيم بين الناس باقتراف الفاحشة صار التحريم.

١٢- تحريم الاختلاط:

قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب: ٣٣) ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة. . . فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال والمشي بينهم متبرجات متجملات ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية قبل الدين لكانوا أشد شيء منعا لذلك[٢].

فعن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سَلَّمَ مَكَثَ قَلِيلًا وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ كَيْمَا يَنْفُذَ النِّسَاءُ قَبْلَ الرِّجَالِ[٣].

قال ابن شهاب: فَنُرَى – وَالله أَعْلَمُ – لِكَيْ يَنْفُذَ مَنْ يَنْصَرِفُ مِنَ النِّسَاءِ[٤].

---

(١) تفسير السعدي١/ ٥٦٣.

(٢) الطرق الحكمية (٤٠٨: ٤٠٧).

(٣) أخرجه أبو داود (١٠٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (٨٤٩).

وعن أم سلمة قالت: كَانَ ﷺ يُسَلِّمُ فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ، فَيَدْخُلْنَ بُيُوتَهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْصَرِفَ رَسُولُ الله ﷺ(١).

وروى النسائي: أَنَّ النِّسَاءَ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ كُنَّ إِذَا سَلَّمْنَ مِنْ الصَّلَاةِ قُمْنَ وَثَبَتَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَنْ صَلَّى مِنْ الرِّجَالِ مَا شَاءَ الله فَإِذَا قَامَ رَسُولُ الله ﷺ قَامَ الرِّجَالُ(٢).

قال ابن حجر: وفي الحديث كراهة مخالطة الرجال للنساء في الطرقات فضلًا عن البيوت(٣).

فحرصت الشريعة كل الحرص على إغلاق هذا الباب لما فيه من فتنة عظيمة قد تؤدي إلى فاحشة الزنا، فصار تحريم الاختلاط من أجل ذلك، فصار سدًا للذريعة.

١٣- النهي أن تصف المرأة المرأة لزوجها:

قال ابن القيم: نَهَى ﷺ أَنْ تَنْعَتَ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إلَيْهَا وَلَا يَخْفَى أَنَّ ذَلِكَ سَدٌّ لِلذَّرِيعَةِ وَحِمَايَةٌ عَنْ مُفْسِدَةِ وُقُوعِهَا فِي قَلْبِهِ وَمَيْلِهِ إلَيْهَا بِحُضُورِ صورتها فِي نَفْسِهِ، وَكَمْ مِمَّنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ بِالْوَصْفِ قَبْلَ الرُّؤْيَةِ(٤).

١٤- الأمر بالتفريق بين الأولاد في المضاجع:

قال ابن القيم: أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْأَوْلَادِ فِي الْمَضَاجِعِ، وَأَنْ لَا يُتْرَكَ الذَّكَرُ يَنَامُ مَعَ الْأُنْثَى فِي فِرَاشٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ ذَرِيعَةً إلَى نَسْجِ الشَّيْطَانِ بَيْنَهُمَا الْمُوَاصَلَةَ الْمُحَرَّمَةَ بِوَاسِطَةِ اتِّحَادِ الْفِرَاشِ وَلَا سِيَّمَا مَعَ الطُّولِ، وَالرَّجُلُ قَدْ يَعْبَثُ فِي نَوْمِهِ بِالْمَرْأَةِ فِي نَوْمِهَا إلَى جَانِبِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَلْطَفِ سَدِّ الذَّرَائِعِ(٥).

١٥- النهي عن الشياع:

---

(١) أخرجه البخاري (٨٥٠).

(٢) أخرجه النسائي٣/ ٦٦.

(٣) فتح الباري٢/ ٣٩٢.

(٤) إعلام الموقعين٣/ ١٢٢.

(٥) إعلام الموقعين٣/ ١٢٣.

قال ابن القيم: أَنَّهُ حَرَّمَ الشِّيَاعَ، وَهُوَ الْمُفَاخَرَةُ بِالْجِمَاعِ؛ لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى تَحْرِيكِ النُّفُوسِ وَالتَّشَبُّهِ وَقَدْ لَا يَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ مَنْ يُغْنِيه مِنْ الْحَلَالِ فَيَتَخَطَّى إِلَى الْحَرَامِ، وَمِنْ هَذَا كَانَ الْمُجَاهِرُونَ خَارِجِينَ مِنْ عَافِيَةِ الله، وَهُمْ الْمُتَحَدِّثُونَ بِمَا فَعَلُوهُ مِنْ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّ السَّامِعَ تَتَحَرَّكُ نَفْسُهُ إِلَى التَّشَبُّهِ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ الْفَسَادِ الْمُنْتَشِرِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله(١).

١٦- إبطال أنواع من الأنكحة يتراضاها الزوجان:

قال ابن القيم: أَنَّهُ أَبْطَلَ أَنْوَاعًا مِنْ النِّكَاحِ الَّذِي يَتَرَاضَى بِهِ الزَّوْجَانِ سَدًّا لِذَرِيعَةِ الزِّنَا؛ فَمِنْهَا النِّكَاحُ بِلَا وَلِيٍّ؛ فَإِنَّهُ أَبْطَلَهُ سَدًّا لِذَرِيعَةِ الزِّنَا؛ فَإِنَّ الزَّانِيَ لَا يَعْجِزُ أَنْ يَقُولَ لِلْمَرْأَةِ: "أَنْكِحِينِي نَفْسَك بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ" وَيُشْهِدُ عَلَيْهَا رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ، فَمَنْعُهَا مِنْ ذَلِكَ سَدًّا لِذَرِيعَةِ الزِّنَا، وَمِنْ هَذَا تَحْرِيمُ نِكَاحِ التَّحْلِيلِ الَّذِي لَا رَغْبَةَ لِلنَّفْسِ فِيهِ فِي إمْسَاكِ الْمَرْأَةِ وَاتِّخَاذِهَا زَوْجَةً بَلْ لَهُ وَطَرٌ فِيمَا يَقْضِيه بِمَنْزِلَةِ الزَّانِي فِي الْحَقِيقَةِ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الصُّورَةُ، وَمِنْ ذَلِكَ تَحْرِيمُ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ الَّذِي يَعْقِدُ فِيهِ الْمُتَمَتِّعُ عَلَى الْمَرْأَةِ مُدَّةً يَقْضِي وَطَرَهُ مِنْهَا فِيهَا؛ فَحَرَّمَ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ كُلَّهَا سَدًّا لِذَرِيعَةِ السِّفَاحِ، وَلَمْ يُبِحْ إلَّا عَقْدًا مُؤَبَّدًا يَقْصِدُ فِيهِ كُلٌّ مِنْ الزَّوْجَيْنِ الْمُقَامَ مَعَ صَاحِبِهِ وَيَكُونُ بِإِذْنِ الْوَلِيِّ وَحُضُورِ الشَّاهِدَيْنِ أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهُمَا مِنْ الْإِعْلَانِ؛ فَإِذَا تَدَبَّرْت حِكْمَةَ الشَّرِيعَةِ وَتَأَمَّلْتها حَقَّ التَّأَمُّلِ رَأَيْت تَحْرِيمَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنْ بَابِ سَدِّ الذَّرَائِعِ، هِيَ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ وَكَمَالِهَا(٢).

فهذه جملة من النواهي التي وردت في الشريعة الإسلامية سدًا لإثارة الغرائز وتهييج الشهوات حمايةً للمجتمع وصيانةً له من الوقوع في جريمة الزنا، فهذا باب في الشريعة مطرد، إذا حرم الله شيئًا سد الأبواب الموصلة إليه، والله أعلم(٣).

٨- مخالفة الفطرة والحصاد المر.

---

(١) إعلام الموقعين٣/ ١٢٦.

(٢) إعلام الموقعين٣/ ١٢٨.

(٣) الحدود والتعزيرات، بكر أبو زيد (١١٤).

عندما نتأمل في مخلوقات الله ﷻ سترى بكل وضوح أن بني الإنسان قد استحوذوا علي حُلل الكرامة من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة واكتساب العلوم وغيرها من الأشياء التي فيها كرامة الإنسان[1]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾(الإسراء: ٧٠)، ولما كان هذا التفضيل صارت خلافة الإنسان في الأرض لكن يعمرها ويشيدها ويتكاثر ويتناسل فيها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

ولا شك أن الخلافة لا تتحقق ولا تزدهر إلا عن طريق النسل، ولا يكون النسل إلا إذا كان زوجان ذكر وأنثى ويكون بينهما سكن، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١)، ولا سكون للزوجين إلا إذا ارتبطا بعقد شرعي[2]، وفي هذه الآية الكريمة يضع القرآن الكريم الأساس السليم لبناء اللبنة الأولى في صرح المجتمع السوي، بل إنه ينبه الأذهان إلى نوع هام من الطب لم يفطن إليه العلماء إلا حديثًا عندما اتفقوا علي ضرورة تعديل برامج التعليم الطبي في العالم عن طريق إدخال بعض العلوم المستحدثة في دراسة الطب وأهمها علم الطب الاجتماعي الذي يبحث عن بناء مجتمع صالح خال من الجهل والفقر والمرض والخوف والقلق[3].

---

(١) عجائب النظر والتأمل في عظمة الله ﷻ (٢٣٥)بتصرف.

(٢) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة (٧٠).

(٣) رحيق العلم والإيمان (٢١٩).

ولما كان للأسرة أهمية بالغة في بناء المجتمع اهتم الإسلام بهذا الجانب اهتمامًا بالغًا ففتح باب الزواج على مصراعيه، وأغلق سائر الأبواب التي لا يأتي من ورائها إلا الخراب والدمار والضياع، فهناك ضحايا أبرياء من اللقطاء والأبناء غير الشرعيين لم يقترفوا ذنبًا سوي أنهم جاءوا إلى الحياة نتيجة الخطيئة ونظرة ملؤها الأحقاد والازدراء، ويعتبروا من المعوقين الذين تتولى الدولة رعايتهم، وقد يلجأ هؤلاء إلى الجريمة، وذلك كنتيجة محتمة لنفسيتهم المعقدة، ومن الصعب تقويم هؤلاء لأن إحساسهم بأنهم أتوا الحياة عن طريق البغاء يجعلهم ناقمين على المجتمع(١).

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الشهوة الجنسية ليست غاية، بل هي وسيلة فإن الحكمة من الفرج عند الإنسان هي لإقامة النسل وخروج الفضلات(٢)، وقد شُرع الزواج لدفع غوائل الشهوة ولتحصين الفرج وإبقاء النسل، وفيه يحصل السكن بين الذكر والأنثى فصار في الزواج الكرامة والفطرة، فلما انخلع الإنسان من هذه الكرامة وهذه الفطرة كان الحصاد المر أن جعل الله لمن يتخطى هذا الأمر من الإباحية والفجور أمراضًا عجز الأطباء أن يجدوا لها علاجًا، فتعتبر الأمراض الجنسية من أخطر الأمراض وأشدها فتكًا بالإنسان خصوصًا في هذا العصر، حيث تشير آخر التقارير لمنظمة الصحة العالمية أن الأمراض الجنسية هي أكثر الأمراض انتشارًا في العالم، وأنها أهم وأخطر المشاكل الصحية العاجلة التي تواجه دول الغرب، فعدد الإصابات في ارتفاع مستمر في كل الأعمار خصوصًا في مرحله الشباب.

يقول د/ جولد: لقد حُسب أن في كل ثانية يصاب أربعة أشخاص بالأمراض الجنسية في العالم، هذا وفق الإحصائيات المسجلة والتي يقول عنها الدكتور (جورج كوس) أن

---

(١) قضايا ومسائل طبية واجتماعية في ضوء الإسلام (العدد٢٠٧ص- ٢٨).

(٢) الحكمة في مخلوقات الله ﷻ للغزالي (٥٧).

الحالات المعلن عنها رسميًا لا تتعدى ربع أو عشر العدد الحقيقي[١]، وقد حدثنا النبي ﷺ: " أنه لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ التي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا"[٢].

فلم يسبق أن اكتشف فيروس الإيدز وهو مرض فقدان المناعة المكتسبة، ولا عُرفت أعراضه قبل عام ١٩٨١م حيث أُكتشف المرض ثم الفيروس المسبب له عام ١٩٨٤م، [٣] وبعد سلسلة طويلة من الافتراضات والنظريات والأبحاث في مراكز مختلفة من العالم توصل العلماء إلى اكتشاف الفيروس[٤]، دائري الشكل صغير الحجم يبلغ قطرة جزءًا واحدًا من عشرة آلاف جزء من المليمتر الواحد (١/ ١٠٠٠٠من الملم)، وهو معقد التركيب فيه ما يميزه عن غيره من الفيروسات الأخرى، والإصابة بهذا الفيروس ليس أمرًا سهلًا، فهو لا ينتقل عن طريق الطعام أو الشراب أو الهواء، بل ينتقل بوسائط منها السائل المنوي، ويكون إما عن الشذوذ الجنسي أو الزنا أو غير ذلك[٥].

وسبب هذا الفيروس التهابات انتهازية وسرطانات وهي كالآتي[٦]:

الالتهابات الطفيلية:

١- التهاب الرئة الحاد (pcp) الذي يسببه (pneumocystis).

٢- إسهالات لمدة طويلة يسببها (cryptosporidia).

٣- إسهالات لمدة طويلة يسببها (isospora).

٤- التهابات الدماغ والجهاز العصبي والرئتين بسبب (toxoplasma).

---

(١) مجلة الإعجاز العلمي (العدد الثاني: الأمراض الجنسي الحصاد الحتمي للإباحية).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٦).

(٣) مجلة الإعجاز العلمي (العدد الثاني: الأمراض الجنسي الحصاد الحتمي للإباحية).

(٤) الأمراض الجنسية عقوبة إلهية (١١٨).

(٥) المصدر السابق (١١٩).

(٦) المصدر السابق (١٢٩: ١٢٧).

الالتهابات الفطرية:

١ - التهاب المريء والقصبات الهوائية والحلق والرئتين بسبب (candidia).

٢ - التهاب الدماغ وأغشيته مع الرئتين بسبب (cryptococus).

٣- التهابات حادة في المخيخ بسبب (aspergillus).

٤ - التهابات حادة ومنتشرة بسبب (histoplasmosis).

٥ - التهابات حادة ومنتشرة بسبب (coccidioidomycosis).

الالتهابات الفيروسية:

١ - التهابات المخ والعين والرئتين والقناة الهضمية بسبب (c. m. v).

٢ - التهابات الرئتين والقناة الهضمية والجلد بسبب (herpes).

٣- التهابات أغشية الدماغ بسبب (hiv).

٤ - التهابات جلدية وفروة الرأس وسقوط الشعر بسبب (ebv).

الالتهابات البكتيرية:

١ - التهابات صعبة المعالجة تسببها أشباه جرثومة السل (atypical mycobacteria).

٢ - التهاب ذات الرئة.

٣- مرض السل.

٤ - تجرثم الدم بالسالمونيلا.

السرطانات:

١ - سرطان كابوسي.

٢ - سرطان الغدد اللمفاوية.

٣- سرطان هوجكنز.

٤ - سرطان الفم والشرج.

٥- سرطان عنق الرحم.

فتأمل هذا فيرس لا يكاد يُرى بالعين المجردة وهو من الحصاد المر الذي جاء من وراء الإباحية المطلقة لِمَا يسبب من الأمراض من التهابات وسرطانات وغير ذلك.

إن الإيدز مرض يفضي إلى الموت، وليس لدى الأطباء ولا في المعامل أدوية مضادة حتى الآن، والإصابة به ترتبط في غالب صورها بممارسة الجنس بغير الطريق الذي رسمه لنا الشرع، لأن في شرع الله ﷻ الوقاية، والوقاية خير من العلاج، فما بالك بفيروس لا يوجد له علاج أصلًا، فحكمة رب العاملين فاقت ولا شك في ذلك عقول الناس أجمعين في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٢)، ولا شك أن فضل الله على الإسلام والمسلمين عظيم، حيث إن دول الشرق الأوسط من دول عربية وإسلامية لا يكاد ينتشر فيها هذا المرض، فهي أقل كثيرًا من باقي دول العالم، وقدَّرت منظمة الصحة العالمية أن كل يوم يصاب ١٦٠٠٠ إنسان بفيروس الإيدز ويموت في جنوب الصحراء الإفريقية يوميًا بمعدل ٥٥٠٠ إنسان من الإيدز، وأكثر المناطق في العالم يتزايد فيها الإيدز بعد إفريقيا هي دول أوروبا الشرقية والهند وروسيا وجنوب شرق أسيا، فهي براميل إيدز موقوتة انفجارها يهدد بخطر عظيم، ومعدل تكلفة المريض الواحد في أمريكا مائة ألف دولار[(١)].

وكذلك من الأمراض التي تنتج عن المعاشرة الجنسية غير الشرعية هو (مرض الزُهري)*، عُرف هذا المرض مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وهو عادة لا يصيب الإنسان كوباء جنسي، وتسببه جرثومة لولبية الشكل اسمها (تريبونيماباليديم) اكتشفها

---

(١) نفس المصدر (١١٧) بتصرف

* ويسمى: السلفس.

عام١٩٠٥ العالمان سكاورن وهوفمان، وهي جرثومة صغيرة ودقيقة لا تُرى بالعين المجردة[١]، ويظهر هذا المرض على شكل[٢]:

١- طفح جلدي إما في منطقة محدودة من الجسم أو في كل أجزائه وبخاصة راحة اليد والقدم والفم وفتحة الشرج.

٢- إفرازات صديدية من الأنف.

٣- تضخم الكبد وتليفه، وتضخم الطحال أيضًا نتيجة لوجود العديد من التورمات الصمغية.

٤- التهاب رئوي والتهاب بالأغشية المحيطة بالعظام.

٥- وكذلك يعمل على فقدان حاسة السمع، ويؤثر على الجهاز العصبي المركزي.

وفي عام ١٩٢٣م قامت وزارة الصحة الأمريكية بدراسة غير إنسانية على ٦٠٠ مصاب بهذا المرض من الزنوج السود، وقد استمر ٤٠عامًا دون أن تعالجهم، وسميت بدراسة (تسكيفي)، وقد نشر تفاصيلها الدكتور (ميلر) رئيس لجنة مكافحة الأمراض الجنسية في أطلانطا، وخلاصة هذه الدراسة أن لجنة البحث قد استنتجت أن هذا المرض (السفلس) ينتشر بالاتصال الجنسي ويؤدي إلى أضرارًا عدة ذكرناها منذ قليل[٣].

وذكر البروفيسور (زنسر) أن من الأسباب التي أدت إلى ظهور أعداد هائلة من المصابين بهذا المرض يقول: كان أهمها على الإطلاق هي الحرية الجنسية ونظرة المجتمع المتراخية للجنس، وعدم الجدية في إيجاد ما ينظم علاقات الناس جنسيًا، ثم انتشار الزنا ودور البغاء والشذوذ الجنسي واللواط وازدياد ظهور الصراعات الجديدة في فنون الجنس خاصة عند المراهقين، ويذكر أن الملك هنري الثامن كان مصابًا بمرض السلفس من قبل

(١) المصدر نفسه (٥٣).

(٢) قضايا ومسائل طبية واجتماعية في ضوء الإسلام (العدد٢٠٧- ص- ٢٨) بتصرف.

(٣) الأمراض الجنسية عقوبة إلهية (٦٥).

زوجته الأولى، فرفضت الكنيسة طلاقه فأنشأ كنيسة خاصة حتى يبيح لنفسه الزواج بأخرى ليست حاملة للمرض، وذكر المؤرخون أن زوجته السادسة كانت غير مصابة بهذا المرض، وكذلك الملك تشارلز الثامن ملك فرنسا كان مصابًا بهذا المرض، بل وجميع أقاربه فتسبب ذلك في أن ينتقل العرش إلى أسرة حاكمة أخرى، وهذا المرض في تزايد وتضاعف مستمر ينتشر بطريقة عجيبة بسبب الفوضى الجنسية، وبسبب العقول العفنة التي تلهث وراء الجنس زنًا وشذوذًا وبغاءً، وفي بريطانيا زادت الإصابات بالسلفس ٤٨. ٦٪ في السبع سنوات الأخيرة حسبما ورد في التقرير التحذيري الذي صدر عام٢٠٠٥[1].

ومن الأمراض أيضًا (السيلان) وهو مرض من غضب الله ﷻ على الزناة، فهو يحدث عن طريق الملامسة الجنسية[2]، وهو أكثر الأمراض البكتيرية المعدية انتشارًا في الوقت الحاضر، يُصاب به ٢٥٠: ٢٠٠ مليون شخص في كل عام معظمهم في ريعان الشباب، وعلاج المريض الواحد ٤٠٠: ٢٥٠دولار، فإن مرض السيلان وحده يكلف العالم سنويًا أكثر من مائة مليار دولار، وهذا المرض تسببه جرثومة صغيرة جدًّا جدًّا لا تُرى بالعين المجردة تسمى (ناسيريا قنوريا- neisseria conorrhoae)، وهذا الجرثومة حساسة جدًّا للحرارة والجفاف فهي تموت بسرعة في درجة حرارة الغرفة، ورغم أن درجة حرارة الحيوانات تشبه درجة حرارة الإنسان إلا إنها لا تعيش إلا عليه، ولا تسبب مرض السيلان إلا له فقط دون مخلوقات الله[3].

ومما يزيد الأمر تعقيدًا في مرض السيلان أن أعدادًا كثيرة جدًّا من المصابات لا تظهر عليهن علامات هذا المرض رغم أنهن معديات جدًّا، وبذلك لا يُعرف أمرهن إلا بعد أن

---

(١) المصدر السابق (٧١: ٧٠)بتصرف.

(٢) قضايا ومسائل طبية (٢٥).

(٣) راجع: الأمراض: الجنسية عقوبة إلهية (٧٢: ٧).

يكن قد نقلن هذا المرض إلى أعداد كبيرة من الناس الذين ينقلونه شرقًا وغربًا[١]، وقد ذكرنا هذه الأمراض لشهرتها، فهناك أمراضًا أخرى لا تُعد ولا تُحصى، فمنها: [٢]

مرض القرحة الرخوة، المرض الحبيبي الليمفاوي الجنسي، والورم الحبيبي الإربي، التهابات الإحليل المختلفة، التريكومانياسس، الكانديداسس، الجرب، مرض تقمل العانة، مرض المولوسكم الفيروسي المعدي، مرض هربس الجنسي، تآليل الأعضاء الجنسية المعدية، وينتج أيضًا: التهاب الشرج والمستقيم والتهاب الفرج، ويسبب أمراضًا معوية، والتهاب الكبد الفيروسي، وأمراض الفطريات الجلدية والأمراض الطفيلية المعوية.

هذا من جانب الأمراض، فلو نظرنا من جانب الأموال التي تُنفق في سبيل دفع هذه الأضرار التي أحاطت ببني البشر لوجدنا عجبًا، فصدر عن مركز مراقبة الأوبئة في أطلنطا (cdc) عام ٢٠٠٥ ظهر أن الولايات المتحدة الأمريكية تنفق سنويًا ١٣ مليار دولار على ١٩ مليون إصابة جديدة سنويًا في الأمراض المنقولة جنسيًا[٣]، بل نجد منذ عام ١٩٤٦ أسست منظمة الصحة العالمية قسمًا خاصًا يسمى (قسم الأمراض المنقولة جنسيًا)، ويعني بجمع المعلومات ووضع التدابير والأبحاث اللازمة لحل مشكلة الأمراض المنقولة جنسيًا عالميًا، وقد خُصص لهذا القسم ميزانية خاصة، ووُظف له طاقم من الاختصاصيين والفنيين، وما زالت تصدر تقاريرها وصيحاتها بسبب هذا الهوث الجنسي المستمر[٤].

فلا علاج ولا خروج من هذه الأوبئة الفتاكة إلا بالرجوع إلى الفطرة والإنسانية التي تتحلى بالكرامة التي من أجلها فضلنا على سائر الخلق، فهذه الأمراض والأوبئة لا تصيب إلا الإنسان الذي يخرج عن فطرته ويتخلى عن كرامته، ويكون لها القدرة العجيبة في

---

(١) المصدر السابق (٨٠: ٧٩).

(٢) ذكرها د/ عبد الحميد القضاة في نفس الكتاب.

(٣) المصدر السابق (٨٠).

(٤) نفس المصدر (١٨١) بتصرف.

اختراق جسد الإنسان وتصل الإصابة إلى عمق الأجهزة التناسلية، بل وإلى عموم الجسد، بعكس الحيوان قد يوجد نفس الفيروس عليه، ولكن لا يسبب له ضررًا، وهذه حكمته ﷻ، إذ العقل هو مناط التكليف، فلما كان الحيوان لا عقل له سقط عنه هذا الأمر، أما الإنسان لما تخلى عن عقله أصيب بهذا الفيروس بسبب اتصاله الجنسي[(١)].

والنصوص الإسلامية تفيد أن من مقاصد الزواج في تشريع الإسلام تحصين الزوجين من الفساد السلوكي المترتب على الإباحية الجنسية، فإن المتزوج تقنع نفسه غالبًا بما أحل الله له ولا يتعدى حدود الله بانتهاك المحرمات، لذلك أمر النبي ﷺ القادر على تكاليف الزواج بالمبادرة إليه، فقال: يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[(٢)].

ولتأكيد مقصد العفة الجنسية بين مقاصد الزواج يقول النبي ﷺ: "إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ"[(٣)].

ويأمر الإنسان بممارسة النشاط الجنسي كاملًا في الزواج، ويُعتبر ذلك عملًا يؤجر عليه الزوجان، ويوصي بالملاطفة والمداعبة واستثارة الشهوة قبل الجماع، وقد نص القرآن نصًا جامعًا على حصر النشاط الجنسي في الزواج، واعتبار كل نشاط جنسي خارجه عدوانًا محرمًا، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾ (المؤمنون ٥: ٧)[(٤)].

(١) المصدر السابق (١٥٢: ١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، مسلم (١٤٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٠٣).

(٤) الهدي الصحي (دور الدين والأخلاقيات في الوقاية من الإيدز ومكافحته٩: ٨).

فالإسلام لما كان دين الفطرة السوية لم ينكر غرائز الإنسان، ومنها الغريزة الجنسية، وإنما نظمها ووضع لها الشروط والقواعد الحضارية التي تلائم الإنسان المستمدة من تكريم خالقه ﷻ إياه، فأخذ موقف الوسطية لأنه هو الدين الوسط ولم يطلق العنان، وإنما كبح جماح الشهوة حتى لا يلحق الإنسان بالحياة الحيوانية، فحلول الإسلام فيها الوسطية والاعتدال بلا إفراط ولا تفريط[1]، بل عالج القضايا من منطلق فطرة الإنسان وكرامته، فتأمل جيدًا حكمة العليم الخبير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء: ٣٢)، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: ١٥١)، هذا عن عدم القرب فما بالك بالجريمة نفسها وإتيان الفعل نفسه، فلا شك أنه يسبب أضرارًا لا يعلمها إلا الله، وقد رأينا بعضًا منها، وهو الحصاد المر الذي خلفه لنا كل من أطلق العنان لنفسه من أجل شهوة تنتهي في بضع دقائق، ولم يكبح جماحها كما أمر رب العزة سبحانه وتعالى.

٩- الكتاب المقدس يشيع الفاحشة ويحض على الزنا.

ما هي فائدة الكتب السماوية التي تأتي للبشرية عن طريق الأنبياء والرسل؟ لا شك أن الإجابة معروفة وجلية لكثير من الناس، فأي كتاب من عند الله يشمل منافع ووصايا للتعليم والتقويم والتأديب، وهذا ما نص عليه الكتاب: "كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحًى بِهِ مِنَ اللهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ" (تيموثاوس٢ (٣/ ١٦)).

وها هو الكتاب نفسه يشيع الفاحشة ويحض على الزنا، ويحفل في طياته كثير من الممارسات الجنسية الآثمة، بل وتراها بالوصف الدقيق، وإن القلم ليستحي أن يكتب مثل هذه الألفاظ التي تخدش الحياء، ولكن الضرورة تدعو لذلك حتى يتبين للعاقل أنه أقرب

(١) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة (٧١: ٧٠) بتصرف.

من أن يكون كتابًا جنسيًا، ونسبته في أنه وحي من الله هو محض افتراء وكذب، وأنه مقدس دعوى باطلة لا أساس لها من الصحة.

وقد يظن الظان أنها حكت ذلك في باب النهر والتأديب والتبصر في عاقبة المجرمين، فالكتاب المقدس الذي حوى بين دفتيه عشرات النصوص القبيحة التي تمثل صورة لأدب الفراش والجنس المكشوف، كما تمتلئ بقصص العفن، مع تركيز على عنصر الجريمة، ثم قلَّ أن تجد عقوبة أو تحذيرًا على هذه الجريمة.

فما الفائدة إذًا من ذكر هذا كله في كتاب يزعم النصارى واليهود أنه موحى به من الله؟ ما الفائدة من ذكر عشر حالات من زنا المحارم في كتاب مقدس؟ والعجب أن كل هذه الحالات العشر تتعلق بالأنبياء وأبنائهم على حد زعمهم، ناهيك عن قصص الحب القذرة، فما الفائدة من ذكر كل هذه الإباحية المكشوفة[1].

بل تتعجب عندما ترى نصًا صريحًا يأمر فيه الرب بالزنا، ففي (صموئيل الثاني١٢/ ١١): هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. فلا غبار على أن يكون في مثل هذا الكتاب ما يساعد على الزنا وما يساعد على التهيج الجنسي.

ونشيد الإنشاد أكبر دليل على ذلك، فهو من الأسفار المنسوبة إلى سليمان عليه السلام على حد زعمهم.

يقول ابن حزم: معناه شعر الأشعار وهو على الحقيقة هوس الأهواس لأنه كلام أحمق لا يعقل ولا يدري أحد منهم مراده إنما هو مرة يتغزل بمذكر ومرة يتغزل بمؤنث ومرة يأتي منه بلغم لزج بمنزلة ما يأتي به المصدوع والذي فسد دماغه وقد رأيت بعضهم يذهب إلى أنه رموز على الكيمياء وهذا وسواس آخر ظريف. . . هل في الملحدة أكثر من هذا وهل يضاف هذا الحمق إلى رجل معتدل فكيف إلى بني إسرائيل وهل هذا الإشراك صحيح وحاش لله أن يقول سليمان عليه السلام هذا الكلام تالله ما غبط أهل الإلحاد بإلحادهم إلا

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله (١٠٣) بتصرف.

هذا ومثله ورأيت بعضهم يخرج هذا على أنه إنما أراد علم الله تعالى. . . ولا يعجز من لا حياء له عن أن يقلب كل كلام إلى ما اشتهى بلا برهان ووصف الكلام عن موضعه ومعناه إلى معنى آخر لا يجوز إلا بدليل صحيح غير ممتنع المراد في اللغة(١).

وتتعجب كل العجب عندما تسمع علماء النصارى يقولون كما جاء في التفسير التطبيقي: تزخر وسائل الإعلام الأجنبية الآن بقصص المغامرات الجنسية والعلاقات الجنسية بدون زواج، وأن الالتزام عفا عليه الزمن، والجنس الذي خلقه الله وقال عنه أنه حسن، قد التوت به الأهواء وحولته إلى نشاط غير شرعي طارئ للإشباع الذاتي، وتحول الحب إلى شهوة، والعطاء إلى أخذ، والالتزام الدائم إلى شيء بلا قيود(٢).

وسياق هذا الكلام سببه موضوع نشيد الإنشاد، والغرض منه أن يعرض لنا الرب الجنس الحسن الذي يكون بالزواج، وحتى تعلم مدى التلفيق والكذب ففي سفر نشيد الإنشاد الذي يحكي قصة عشق بين رجل وامرأة أن المرأة قالت: لَيْتَكَ كَأَخٍ لِي الرَّاضِعِ ثَدْيَيْ أُمِّي، فَأَجِدَكَ فِي الْخَارِجِ وَأُقَبِّلَكَ وَلاَ يُخْزُونَنِي. ٢وَأَقُودُكَ وَأَدْخُلُ بِكَ بَيْتَ أُمِّي، وَهِيَ تُعَلِّمُنِي، فَأَسْقِيكَ مِنَ الْخَمْرِ الْمَمْزُوجَةِ مِنْ سُلاَفِ رُمَّانِي (نشيد الإنشاد: ٨/ ٢: ١).

وحتى نعلم أنه عشق وليس زواج، وأنه دعوى للإباحية والشذوذ، وحتى لو كان زوجين، فإن صاحب الحياء والفطرة السليمة يستحي من أن يكون هذا الكلام بلسانه، فما بالك أنهم ينسبونه إلى رب العزة، وعلى لسان أحد أنبيائه فتقول بكل وقاحة (ليتك أخي) حتى لا تفتضح بهذا العشق، فهذه دعوى للشذوذ بين الأخوة، فكيف يكون قصة علاقة حميمة بين رجل وامرأة وقصة حب وود وزواج، وأن هذا هو الجنس والزواج الصحيح كما قصدهما الله(٣).

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/ ١٥٥.

(٢) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس (١٣٦٤).

(٣) التفسير التطبيقي.

فما هو إلا كتابًا جنسيًا كسائر الكتب الجنسية التي تعرض قصصًا ومغامرات جنسية وهذه بعض النصوص في هذا السفر: (لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلاَتِ فَمِهِ، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ- مَا أَجْمَلَ خَدَّيْكِ بِسُمُوطٍ، وَعُنُقَكِ بِقَلاَئِدَ- صُرَّةُ الْمُرِّ حَبِيبِي لِي. بَيْنَ ثَدْيَيَّ يَبِيتُ) هل هذا يليق بالكتاب المقدس، أين الحياء والفطرة، ثم تقول بعد ذلك: (ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْ ظَبْيَةٍ) ويقول أيضًا: (قَدْ دَخَلْتُ جَنَّتِي يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ. قَطَفْتُ مُرِّي مَعَ طِيبِي. أَكَلْتُ شَهْدِي مَعَ عَسَلِي. شَرِبْتُ خَمْرِي مَعَ لَبَنِي).

أيها العاقلون بالله عليكم ما فائدة هذا الكلام إلا لاستثارة الشهوة، وهل هذا إلا لمخاطبة الضعفاء جنسيًا، ولعله ذلك فإن فطرة الإنسان قائمة فيها هذه الغريزة فلا شك أنه لمعالجة الضعف الجنسي عند البشر.

ثم يعود المحبوب واصفًا محبوبته ويقول: مَا أَجْمَلَ رِجْلَيْكِ بِالنَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الْكَرِيمِ! دَوَائِرُ فَخْذَيْكِ مِثْلُ الْحَلِيِّ، صَنْعَةِ يَدَيْ صَنَّاعٍ. [٢] سُرَّتُكِ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لاَ يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْزُوجٌ. بَطْنُكِ صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ. [٣] ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْنِ، تَوْأَمَيْ ظَبْيَةٍ. [٤] عُنُقُكِ كَبُرْجٍ مِنْ عَاجٍ. عَيْنَاكِ كَالْبِرَكِ فِي حَشْبُونَ عِنْدَ بَابِ بَثِّ رَبِّيمَ. أَنْفُكِ كَبُرْجِ لُبْنَانَ النَّاظِرِ تُجَاهَ دِمَشْقَ. [٥] رَأْسُكِ عَلَيْكِ مِثْلُ الْكَرْمَلِ، وَشَعْرُ رَأْسِكِ كَأُرْجُوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ. [٦] مَا أَجْمَلَكِ وَمَا أَحْلاَكِ أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ بِاللَّذَّاتِ! [٧] قَامَتُكِ هذِهِ شَبِيهَةٌ بِالنَّخْلَةِ، وَثَدْيَاكِ بِالْعَنَاقِيدِ. [٨] قُلْتُ: "إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى النَّخْلَةِ وَأُمْسِكُ بِعُذُوقِهَا". وَتَكُونُ ثَدْيَاكِ كَعَنَاقِيدِ الْكَرْمِ، وَرَائِحَةُ أَنْفِكِ كَالتُّفَّاحِ، [٩] وَحَنَكُكِ كَأَجْوَدِ الْخَمْرِ.

ويدعي منيس عبد النور أحد القساوسة ويقول: هذا السفر يصف مباهج الحياة الزوجية، ولا خطأ في الجنس الذي هو داخل إطار الزواج.

ولو قرأ السفر فعلًا ما قال هذا الكلام، ويقول أيضًا: وقد بلغ من اعتزاز الكنيسة بهذا السفر أن قام القديس أوريجانوس في القرن الثالث الميلادي بتفسيره في عشرة مجلدات،

ووجد في كل جملة من السفر معنى روحيًا. وفي القرن الثالث عشر كتب "برنارد أوف كليرفو" ٨٦ موعظة على آيات الإصحاحين الأول والثاني من هذا السفر(١).

فلا عجب لهذا الكلام، فإن الكنيسة يوم اعتزت بهذا كانت الفضيحة والشذوذ والإباحية من داخلها، فتقول القديسة كثرين السينائية: " إنك أينما وليت وجهك - سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا، سواء كانوا صغارًا في السن أو كبارًا - لم تر إلا شرًا ورذيلة، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة. . إنهم كلهم ضيقوا العقل، شرهون، بخلاء. . تخلوا عن رعاية الأرواح. . اتخذوا بطونهم إلهًا لهم، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة حيث يتمرغون في الأقذار ويقضون حياتهم في الفسق والفجور.

ويصف ماستشيو الرهبان بأنهم: "خدم الشيطان، منغمسون في الفسق واللواط، والشره، وبيع الوظائف الدينية، والخروج على الدين، ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقًا من رجال الدين".

ويذكر بورانت: سجلات الأديرة على عشرين مجلدًا من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات(٢).

ولقد رأينا أكبر حالات الزنا تأتي من المتبتلين في الكنيسة من الرؤوس وحتى الحراس ولعل حياة البابا إسكندر السادس تصور مدى الفساد الذي استحوذ على حياة البابوات، فقد اتخذ له عشيقة موفورة الجمال صغيرة السن اغتصبها من خطيبها واحتفظ بها بعد ارتقائه كرسي البابوية، وإلى جانب ذلك فقد كان شديد الولع بالفتيات ويظل مشدوهًا بمنظر الفتيات شبه العاريات وهن يرقصن أمامه(٣).

---

(١) شبهات وهمية (٢٠٩).

(٢) موقف الإسلام والكنيسة من العلم (١٠٤: ١٠٣).

(٣) المصدر السابق.

وهكذا تتضح حقيقة الكنيسة التي هي طارئة على المسيحية والتي تعتز بهذا النشيد الجنسي الذي أفضى إلى فساد رجال الدين فيها، وجعلهم في موقف حرج أمام العالم، فماذا يتعلم القارئ من نشيد الإنشاد، ففي مقدمة الآباء اليسوعيين: "لا يقرأ نشيد الإنشاد إلا القليل من المؤمنين، لأنه لا يلائمهم كثيرًا"(١).

فنشيد الإنشاد لاشك هو مصدر إلهام لمن يسلك طريق الغزل الجنسي الفاضح والسؤال: هل يجرؤ الآباء بقراءة هذا الكلام في القداس أمام الرجال والنساء؟ (٢).

بل ترى بكل جرأة من يدافع عن هذا السفر الجنسي الفاضح، فيرد منيس عبد النور قائلًا: أما عن أسلوب السفر وتسمية صاحب السؤال له أنه أدب مكشوف، فهو ظلم للكاتب، الذي عاش في عصر غير عصرنا، اعتاد أهل عصره على مثل هذه التعبيرات(٣).

أي عصر هذا؟ ، عصر الإباحية والشذوذ والتفلت الأخلاقي، وعندما يفسرون هذا السفر تراهم متخبطين في التفسير، فيقولون: هناك ثلاث طرق لتفسير سفر نشيد الإنشاد: التفسير الحرفي: ويقول إن نشيد الإنشاد قصيدة حب بين الملك سليمان وزوجته، ولو أن المفسرين لا يعرفون أية زوجة قصد من بين زوجاته السبعمائة وسراريه الثلاثمائة (١ملوك ١١: ٣)، ويقول بعضهم إنه قصد زوجته ابنة فرعون (١ملوك ١١: ١)، ويقول غيرهم إنها فتاة بسيطة اسمها شولميث (نشيد ٦: ١٣). فالسفر في رأيهم قصيدة محبة لزوجة، تعلِّمنا قداسة الزواج ونقاوته وجماله.

التفسير الرمزي: ويهدف للتخلُّص من الأوصاف البدنية للمرأة التي أحبها الملك.

التفسير النبوي: وقد أدخله إلى الفكر الكنسي كلٌّ من أوريجانوس وهيبوبوليتس، ويقول إن السفر نبوَّة عن مجيء المسيح وإعلان محبته للكنيسة(١).

---

(١) هل العهد القديم كلمة الله (١٠٦).

(٢) تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة، أحمد عبد الوهاب (٣٥٢) بتصرف.

(٣) شبهات وهمية (٢١٠).

فلا شك أن هذا كله تخبط ولا يبرره إلا الهروب من هذه الفضائح الجنسية.

وكما ورد في التفسير التطبيقي (أن الأسفار الإلهية تحتوى على العديد من الإرشادات المختصة بالعلاقة الجنسية)[٢]، فهذه بعض الإرشادات التي هي في الواقع إباحية مطلقه وشيوع للفاحشة:

في صموئيل الثاني وردت هذه الفضيحة:

وَجَرَى بَعْدَ ذلِكَ أَنَّهُ كَانَ لأَبْشَالُومَ بْنِ دَاوُدَ أُخْتٌ جَمِيلَةٌ اسْمُهَا ثَامَارُ، فَأَحَبَّهَا أَمْنُونُ بْنُ دَاوُدَ. ٢ وَأُحْصِرَ أَمْنُونُ لِلسُّقْمِ مِنْ أَجْلِ ثَامَارَ أُخْتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَذْرَاءَ، وَعَسُرَ فِي عَيْنَيْ أَمْنُونَ أَنْ يَفْعَلَ لَهَا شَيْئًا. ٣ وَكَانَ لأَمْنُونَ صَاحِبٌ اسْمُهُ يُونَادَابُ بْنُ شِمْعَى أَخِي دَاوُدَ. وَكَانَ يُونَادَابُ رَجُلًا حَكِيمًا جِدًّا. ٤ فَقَالَ لَهُ: "لِمَاذَا يَا ابْنَ الْمَلِكِ أَنْتَ ضَعِيفٌ هكَذَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَى صَبَاحٍ؟ أَمَا تُخْبِرُنِي؟ " فَقَالَ لَهُ أَمْنُونُ: "إِنِّي أُحِبُّ ثَامَارَ أُخْتَ أَبْشَالُومَ أَخِي". ٥ فَقَالَ يُونَادَابُ: "اضْطَجعْ عَلَى سَرِيرِكَ وَتَمَارَضْ. وَإِذَا جَاءَ أَبُوكَ لِيَرَاكَ فَقُلْ لَهُ: دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي فَتَأْتِيَ وَتُطْعِمَنِي خُبْزًا، وَتَعْمَلَ أَمَامِي الطَّعَامَ لأَرَى فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا". ٦ فَاضْطَجَعَ أَمْنُونُ وَتَمَارَضَ، فَجَاءَ الْمَلِكُ لِيَرَاهُ. فَقَالَ أَمْنُونُ لِلْمَلِكِ: "دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي فَتَأْتِيَ وَتَصْنَعَ أَمَامِي كَعْكَتَيْنِ فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا". ٧ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى ثَامَارَ إِلَى الْبَيْتِ قَائِلًا: "اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ أَمْنُونَ أَخِيكِ وَاعْمَلِي لَهُ طَعَامًا". ٨ فَذَهَبَتْ ثَامَارُ إِلَى بَيْتِ أَمْنُونَ أَخِيهَا وَهُوَ مُضْطَجِعٌ. وَأَخَذَتِ الْعَجِينَ وَعَجَنَتْ وَعَمِلَتْ كَعْكًا أَمَامَهُ وَخَبَزَتِ الْكَعْكَ، ٩ وَأَخَذَتِ الْمِقْلاَةَ وَسَكَبَتْ أَمَامَهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ. وَقَالَ أَمْنُونُ: "أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي". فَخَرَجَ كُلُّ إِنْسَانٍ عَنْهُ. ١٠ ثُمَّ قَالَ أَمْنُونُ لِثَامَارَ: "ايتِي بِالطَّعَامِ إِلَى الْمِخْدَعِ فَآكُلَ مِنْ يَدِكِ". فَأَخَذَتْ ثَامَارُ الْكَعْكَ الَّذِي عَمِلَتْهُ وَأَتَتْ بِهِ أَمْنُونَ أَخَاهَا إِلَى الْمِخْدَعِ. ١١ وَقَدَّمَتْ لَهُ لِيَأْكُلَ، فَأَمْسَكَهَا وَقَالَ لَهَا: "تَعَالَيِ اضْطَجِعِي مَعِي يَا أُخْتِي". ١٢ فَقَالَتْ لَهُ: "لاَ يَا أَخِي، لاَ تُذِلَّنِي لأَنَّهُ لاَ يُفْعَلُ

(١) بين القوسين تعجبًا من عند الكاتب.

(٢) التفسير التطبيقى (١٣٦٤).

هكَذَا فِي إِسْرَائِيلَ. لاَ تَعْمَلْ هذِهِ الْقَبَاحَةَ. [١٣] أَمَّا أَنَا فَأَيْنَ أَذْهَبُ بِعَارِي؟ وَأَمَّا أَنْتَ فَتَكُونُ كَوَاحِدٍ مِنَ السُّفَهَاءِ فِي إِسْرَائِيلَ! وَالآنَ كَلِّمِ الْمَلِكَ لأَنَّهُ لاَ يَمْنَعُنِي مِنْكَ". [١٤] فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَسْمَعَ لِصَوْتِهَا، بَلْ تَمَكَّنَ مِنْهَا وَقَهَرَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا. [١٥] ثُمَّ أَبْغَضَهَا أَمْنُونُ بُغْضَةً شَدِيدَةً جِدًّا، حَتَّى إِنَّ الْبُغْضَةَ الَّتِي أَبْغَضَهَا إِيَّاهَا كَانَتْ أَشَدَّ مِنَ الْمَحَبَّةِ الَّتِي أَحَبَّهَا إِيَّاهَا. وَقَالَ لَهَا أَمْنُونُ: "قُومِي انْطَلِقِي". [١٦] فَقَالَتْ لَهُ: "لاَ سَبَبَ! هذَا الشَّرُّ بِطَرْدِكَ إِيَّايَ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ الَّذِي عَمِلْتَهُ بِي". فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَسْمَعَ لَهَا، [١٧] بَلْ دَعَا غُلاَمَهُ الَّذِي كَانَ يَخْدِمُهُ وَقَالَ: "اطْرُدْ هذِهِ عَنِّي خَارِجًا وَأَقْفِلِ الْبَابَ وَرَاءَهَا". [١٨] وَكَانَ عَلَيْهَا ثَوْبٌ مُلَوَّنٌ، لأَنَّ بَنَاتِ الْمَلِكِ الْعَذَارَى كُنَّ يَلْبَسْنَ جُبَّاتٍ مِثْلَ هذِهِ. فَأَخْرَجَهَا خَادِمُهُ إِلَى الْخَارِجِ وَأَقْفَلَ الْبَابَ وَرَاءَهَا. [١٩] فَجَعَلَتْ ثَامَارُ رَمَادًا عَلَى رَأْسِهَا، وَمَزَّقَتِ الثَّوْبَ الْمُلَوَّنَ الَّذِي عَلَيْهَا، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا وَكَانَتْ تَذْهَبُ صَارِخَةً. [٢٠] فَقَالَ لَهَا أَبْشَالُومُ أَخُوهَا: "هَلْ كَانَ أَمْنُونُ أَخُوكِ مَعَكِ؟ فَالآنَ يَا أُخْتِي اسْكُتِي. أَخُوكِ هُوَ. لاَ تَضَعِي قَلْبَكِ عَلَى هذَا الأَمْرِ". فَأَقَامَتْ ثَامَارُ مُسْتَوْحِشَةً فِي بَيْتِ أَبْشَالُومَ أَخِيهَا. [٢١] وَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ دَاوُدُ بِجَمِيعِ هذِهِ الأُمُورِ اغْتَاظَ جِدًّا. [٢٢] وَلَمْ يُكَلِّمْ أَبْشَالُومُ أَمْنُونَ بِشَرّ وَلاَ بِخَيْرٍ، لأَنَّ أَبْشَالُومَ أَبْغَضَ أَمْنُونَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَلَّ ثَامَارَ أُخْتَهُ. صموئيل الثاني (١٣/ ١- ٢٢).

فهل يليق بالكتاب الذي هو من عند الله أن يأتي بهذا التفصيل وهذه الإباحية المطلقة، بل تتعجب كل العجب حينما تسمع أن داود لما علم أغتاظ جدًّا ولم يفعل شئ وكذلك ابشالوم ما تكلم لا بشر ولا خير فما وجه الاستفادة من هذه الفضيحة إلا شيوع الفاحشة في المجتمعات والشذوذ والانحلال.

وفي حزقيال (كان هذا الشذوذ بين أختين زانيتين): وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: [٢] "يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، [٣] وَزَنَتَا بِمِصْرَ. فِي صِبَاهُمَا زَنَتَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. [٤] وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا. وَكَانَتَا لِي، وَوَلَدَتَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ. وَاسْمَاهُمَا: السَّامِرَةُ "أُهُولَةُ"، وَأُورُشَلِيمُ "أُهُولِيبَةُ". [٥] وَزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وَعَشِقَتْ

مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الأَبْطَالَ ٦ اللاَّبِسِينَ الأَسْمَانْجُونِيَّ وُلاَةً وَشِحَنًا، كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ، فُرْسَانٌ رَاكِبُونَ الْخَيْلَ. ٧ فَدَفَعَتْ لَهُمْ عُقْرَهَا لِمُخْتَارِي بَنِي أَشُّورَ كُلِّهِمْ، وَتَنَجَّسَتْ بِكُلِّ مَنْ عَشِقَتْهُمْ بِكُلِّ أَصْنَامِهِمْ. ٨وَلَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضًا، لأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا، وَزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عِذْرَتِهَا وَسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ. ٩ لِذلِكَ سَلَّمْتُهَا لِيَدِ عُشَّاقِهَا، لِيَدِ بَنِي أَشُّورَ الَّذِينَ عَشِقَتْهُمْ. ١٠ هُمْ كَشَفُوا عَوْرَتَهَا. أَخَذُوا بَنِيهَا وَبَنَاتِهَا، وَذَبَحُوهَا بِالسَّيْفِ، فَصَارَتْ عِبْرَةً لِلنِّسَاءِ. وَأَجْرَوْا عَلَيْهَا حُكْمًا. ١١"فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَا أُخْتِهَا. ١٢ عَشِقَتْ بَنِي أَشُّورَ الْوُلاَةَ وَالشِّحَنَ الأَبْطَالَ اللاَّبِسِينَ أَفْخَرَ لِبَاسٍ، فُرْسَانًا رَاكِبِينَ الْخَيْلَ كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ. ١٣ فَرَأَيْتُ أَنَّهَا قَدْ تَنَجَّسَتْ، وَلِكِلْتَيْهِمَا طَرِيقٌ وَاحِدَةٌ. ١٤ وَزَادَتْ زِنَاهَا. وَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى رِجَال مُصَوَّرِينَ عَلَى الْحَائِطِ، صُوَرُ الْكَلْدَانِيِّينَ مُصَوَّرَةً بِمُغْرَةٍ، ١٥ مُنَطَّقِينَ بِمَنَاطِقَ عَلَى أَحْقَائِهِمْ، عَمَائِمُهُمْ مَسْدُولَةٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. كُلُّهُمْ فِي الْمَنْظَرِ رُؤَسَاءُ مَرْكَبَاتٍ شِبْهُ بَنِي بَابِلَ الْكَلْدَانِيِّينَ أَرْضُ مِيلاَدِهِمْ، ١٦ عَشِقَتْهُمْ عِنْدَ لَمْحِ عَيْنَيْهَا إِيَّاهُمْ، وَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ رُسُلاً إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ. ١٧ فَأَتَاهَا بَنُو بَابِلَ فِي مَضْجَعِ الْحُبِّ وَنَجَّسُوهَا بِزِنَاهُمْ، فَتَنَجَّسَتْ بِهِمْ، وَجَفَتْهُمْ نَفْسُهَا. ١٨ وَكَشَفَتْ زِنَاهَا وَكَشَفَتْ عَوْرَتَهَا، فَجَفَتْهَا نَفْسِي، كَمَا جَفَتْ نَفْسِي أُخْتَهَا. ١٩ وَأَكْثَرَتْ زِنَاهَا بِذِكْرِهَا أَيَّامَ صِبَاهَا الَّتِي فِيهَا زَنَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ. ٢٠ وَعَشِقَتْ مَعْشُوقِيهِمِ الَّذِينَ لَحْمُهُمْ كَلَحْمِ الْحَمِيرِ وَمَنِيُّهُمْ كَمَنِيِّ الْخَيْلِ. ٢١ وَافْتَقَدْتِ رَذِيلَةَ صِبَاكِ بِزَغْزَغَةِ الْمِصْرِيِّينَ تَرَائِبَكِ لأَجْلِ ثَدْيِ صِبَاكِ. (حزقيال٢٣/ ٢١: ١).

وفى سفر التكوين (لوط يزني بابنتيه): ٣٠وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. ٣١ وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: "أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. ٣٢ هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً". ٣٣ فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. ٣٤ وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: "إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ،

فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلًا". ٣٥ فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، ٣٦ فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. ٣٧ فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ "مُوآبَ"، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. ٣٨ وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ "بِنْ عَمِّي"، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ. التكوين (١٩/ ٣٠- ٣٨).

أين الأسوة والقدوة إذا، وهل وصل الحال بالأنبياء إلى هذه الدرجة ؟! وماذا فعل لوط لما علم بهذه الفاحشة؟ وماهي العقوبة المقررة في ذلك وماهو رد فعل الآخرين حيال هذه الجريمة؟ كان المفروض أن تتم هذه القصة بالإجابة على هذه الأسئلة وإلا فما الفائدة من ذكرها بهذه الطريقة إلا لشيوع الفاحشة، كيف يحسن أن يبتلي الله من اصطفاه وارتضاه لرسالته بهذه الكبيرة؟ وكيف يحميه بالأمس ويهتك ستره اليوم؟ فأيّ فائدة في نشر هذه الفاحشة وتخليدها الكتب ليقرع بها الأنبياء قرنًا بعد قرن وحقبًا بعد حقب؟. الله أكرم من ذلك[1].

في صموئيل الثاني (داود يزني بزوجة جاره): وَكَانَ عِنْدَ تَمَامِ السَّنَةِ، فِي وَقْتِ خُرُوجِ الْمُلُوكِ، أَنَّ دَاوُدَ أَرْسَلَ يُوآبَ وَعَبِيدَهُ مَعَهُ وَجَمِيعَ إِسْرَائِيلَ، فَأَخْرَبُوا بَنِي عَمُّونَ وَحَاصَرُوا رِبَّةَ. وَأَمَّا دَاوُدُ فَأَقَامَ فِي أُورُشَلِيمَ. ٢ وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا. ٣ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: "أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟ ". ٤ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلًا وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥ وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: "إِنِّي حُبْلَى". ٦ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: "أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ"(زوجها). . . وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ. ١٤ وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. ١٥ وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: "اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٥٦٦.

وَيَمُوتَ". ١٦ وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. ١٧ فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوآبَ، فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عَبِيدِ دَاوُدَ، وَمَاتَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضًا. صموئيل الثاني (١١/ ١٧: ١).

وفي حزقيال أيضًا (ألفاظ تحض على الفاحشة): أَمَّا مِيلاَدُكِ يَوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِي بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِي تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِي تَقْمِيطًا. ٨ فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيْلِي عَلَيْكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي. ٩ فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ، ١٥ "فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيْتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. ١٦ وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيَابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفِعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيْتِ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. ١٧ وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيْتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيْتِ بِهَا. ١٨ وَأَخَذْتِ ثِيَابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيْتِهَا بِهَا، وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيْتِي وَبَخُورِي. ٢٢ وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. ٢٥ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. ٢٦ وَزَنَيْتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي. ٢٩ وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَبِهذَا أَيْضًا لَمْ تَشْبَعِي. ٣٠ مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ سَلِيطَةٍ، ٣١ بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقَرَةً الأُجْرَةَ. ٣٢ أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣ لِكُلِّ الزَّوَانِي يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَايَاكِ، وَرَشَيْتِهِمْ لِيَأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. ٣٤ وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ. "فَلِذلِكَ يَا زَانِيَةُ اسْمَعِي كَلاَمَ الرَّبِّ: ٣٦ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أُنْفِقَ نُحَاسُكِ وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُكِ بِزِنَاكِ

بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكِ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكِ الَّذِينَ بَذَلْتِهِمْ لَهَا، ٣٧ لِذلِكَ هأَنَذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتِ لَهُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيْكِ مِنْ حَوْلِكِ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكِ لَهُمْ لِيَنْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكِ. ٣٨ وَأَحْكُمُ عَلَيْكِ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكِ دَمَ السَّخْطِ وَالْغَيْرَةِ. ٣٩ وَأُسَلِّمُكِ لِيَدِهِمْ فَيَهْدِمُونَ قُبَّتَكِ وَيُهَدِّمُونَ مُرْتَفَعَاتِكِ، وَيَنْزِعُونَ عَنْكِ ثِيَابَكِ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ، وَيَتْرُكُونَكِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. حزقيال (١٦/ ٣٩: ٤).

وفي التثنية (دعوى للاغتصاب): ٢٨ "إِذَا وَجَدَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ غَيْرَ مَخْطُوبَةٍ، فَأَمْسَكَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، فَوُجِدَا. ٢٩ يُعْطِي الرَّجُلُ الَّذِي اضْطَجَعَ مَعَهَا لأَبِي الْفَتَاةِ خَمْسِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَتَكُونُ هِيَ لَهُ زَوْجَةً مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أَذَلَّهَا. لاَ يَقْدِرُ أَنْ يُطَلِّقَهَا كُلَّ أَيَّامِهِ. تثنية (٢٢/ ٢٨- ٢٩).

بكل بساطة وسهولة ينتهي هذا الأمر بهذه الساذجة بأن يدفع الجانى التعويض ولا ينظر إلى جرم ما فعل وإلى الله المشتكي.

وفى إشعياء (يأخذ الرب أجرة الزانية): ٥ وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ صُورَ تُنْسَى سَبْعِينَ سَنَةً كَأَيَّامِ مَلِكٍ وَاحِدٍ. مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً يَكُونُ لِصُورَ كَأُغْنِيَّةِ الزَّانِيَةِ: ١٦ "خُذِي عُودًا. طُوفِي فِي الْمَدِينَةِ أَيَّتُهَا الزَّانِيَةُ الْمَنْسِيَّةُ. أَحْسِنِي الْعَزْفَ، أَكْثِرِي الْغِنَاءَ لِكَيْ تُذْكَرِي". ١٧ وَيَكُونُ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً أَنَّ الرَّبَّ يَتَعَهَّدُ صُورَ فَتَعُودُ إِلَى أُجْرَتِهَا، وَتَزْنِي مَعَ كُلِّ مَمَالِكِ الْبِلاَدِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. ١٨ وَتَكُونُ تِجَارَتُهَا وَأُجْرَتُهَا قُدْسًا لِلرَّبِّ. لاَ تُخْزَنُ وَلاَ تُكْنَزُ، بَلْ تَكُونُ تِجَارَتُهَا لِلْمُقِيمِينَ أَمَامَ الرَّبِّ، لأَكْلٍ إِلَى الشِّبَعِ وَلِلِبَاسٍ فَاخِرٍ. إشعياء (٢٣/ ١٥ – ١٨).

وبعد هذه الدعوى الصريحة للفاحشة والإباحية تأتي نصوص في التبتل وعدم الزواج وما هذا إلا لدعوي الإباحية والفساد الأخلاقي وإليكم النصوص الدالة على ذلك:

ففي كورنثوس الأولى (دعوى للتبتل وعدم الزواج): وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الأُمُورِ الَّتِي كَتَبْتُمْ لِي عَنْهَا: فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لاَ يَمَسَّ امْرَأَةً. كورنثوس (٧/ ١).

ويرى بولس من وجهة نظره عدم الزواج وأن الرب لم يوحي بشيء في العذارى فيقول: وَأَمَّا الْعَذَارَى، فَلَيْسَ عِنْدِي أَمْرٌ مِنَ الرَّبِّ فِيهِنَّ، وَلكِنَّنِي أُعْطِي رَأْيًا كَمَنْ رَحِمَهُ الرَّبُّ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا. ٢٦ فَأَظُنُّ أَنَّ هذَا حَسَنٌ لِسَبَبِ الضِّيقِ الْحَاضِرِ، أَنَّهُ حَسَنٌ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ هكَذَا: ٢٧ أَنْتَ مُرْتَبِطٌ بِامْرَأَةٍ، فَلاَ تَطْلُبِ الانْفِصَالَ. أَنْتَ مُنْفَصِلٌ عَنِ امْرَأَةٍ، فَلاَ تَطْلُبِ امْرَأَةً. ٢٨ لكِنَّكَ وَإِنْ تَزَوَّجْتَ لَمْ تُخْطِئْ. وَإِنْ تَزَوَّجَتِ الْعَذْرَاءُ لَمْ تُخْطِئْ. وَلكِنَّ مِثْلَ هؤُلاَءِ يَكُونُ لَهُمْ ضِيقٌ فِي الْجَسَدِ. وَأَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُشْفِقُ عَلَيْكُمْ. كورنثوس (٧/ ٢٨: ٢٥).

ويقول أيضًا: إِذًا، مَنْ زَوَّجَ فَحَسَنًا يَفْعَلُ، وَمَنْ لاَ يُزَوِّجُ يَفْعَلُ أَحْسَنَ. ٣٩ الْمَرْأَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّامُوسِ مَا دَامَ رَجُلُهَا حَيًّا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَ رَجُلُهَا، فَهِيَ حُرَّةٌ لِكَيْ تَتَزَوَّجَ بِمَنْ تُرِيدُ، فِي الرَّبِّ فَقَطْ. ٤٠ وَلكِنَّهَا أَكْثَرُ غِبْطَةً إِنْ لَبِثَتْ هكَذَا، بِحَسَبِ رَأْيِي. وَأَظُنُّ أَنِّي أَنَا أَيْضًا عِنْدِي رُوحُ اللهِ. كورنثوس (٧/ ٤٠ : ٣٨).

وفى متى (تشجيع النساء على الزنا وعدم الزواج): لأَنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلِدُوا هكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ". متى (١٩/ ١٢).

ومن هذا المنطلق صار هذا الهوس الجنسي والعفن الأخلاقي وعلى حد قول القائل (من الثمر تعرف الشجرة) وكما ورد في تعاليم المسيح: مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟ ١٧ هكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، ١٨ لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. ١٩ كُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. ٢٠ فَإِذًا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. (متى٧/ ٢٠ : ١٦).

* * *

المبحث الثاني: الرد على الشبهات

الشبهة الأولى: حد الزنا في الإسلام.

نص الشبهة:

جاء في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

والسؤال: هل إيقاع هذه العقوبة علنًا يصلح المخطئ ويطهر قلبه، ونسأل أيضًا: أليس الأجدر أن يعالج أمثال هؤلاء المذنبين بروح الوداعة والشفقة، والمسيحية لا تأمر بجلد المخطئ، بل بمفرده من الجماعة تخجيلًا له، ثم قبوله والترحيب به إذا ندم وأعلن توبته.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الوجه الثاني: في العلة من نهي العباد من أن تأخذهم رأفة بالزناة.

الوجه الثالث: العلة من قوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفيه:

أولًا: في بيان كم هذه الطائفة التي تشهد الحد.

ثانيًا: في بيان العلة من حضور الطائفة.

الوجه الرابع: الحد ثابت في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قال الطبري: أي: لا تأخذكم بالزاني والزانية أيها المؤمنون من أخذ الرأفة بهما، فقال بعضهم: هو ترك إقامة حدّ الله عليهما، فأما إذا أقيم عليهما الحد فلم تأخذهم بهما رأفة في

دين الله، وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ فتخفِّفوا الضرب عنهما، ولكن أوجعوهما ضربًا(١).

ثم قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ولا تأخذكم بهما رأفة في إقامة حدّ الله عليهما الذي افترض عليكم إقامته عليهما.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب، لدلالة قول الله بعده: "في دين الله"، يعني في طاعة الله التي أمركم بها. ومعلوم أن دين الله الذي أمر به في الزانيين: إقامة الحد عليهما، على ما أمر من جلد كل واحد منهما مئة جلدة، مع أن الشدّة في الضرب لا حدّ لها يوقف عليه، وكل ضرب أوجع فهو شديد، وليس للذي يوجع في الشدة حدّ لا زيادة فيه فيؤمر به. وغير جائز وصفه جلّ ثناؤه بأنه أمر بما لا سبيل للمأمور به إلى معرفته، وإذا كان ذلك كذلك، فالذي للمأمورين إلى معرفته السبيل، هو عدد الجلد على ما أمر به، وذلك هو إقامة الحد على ما قلنا. وللعرب في الرأفة لغتان: الرأفة بتسكين الهمزة، والرآفة بمدها، كالسأمة والسآمة، والكأبة والكآبة. وكأن الرأفة المرّة الواحدة، والرآفة المصدر، كما قيل: ضؤل ضآلة مثل فعل فعالة، وقبح قباحة(٢).

---

(١) الطبري ١٠/ ٦٨: ٦٦، ومعنى (في دين الله) أيضًا: أي في حكم الله وطاعته كما قال تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) أي في حكمه، وقيل: أي في طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود، راجع: تفسير القرطبي لسورة النور (٢)، فتح القدير للشوكاني النور (٢).

(٢) ورجح هذا القول الرازي وعلق بقوله: لأن الذي تقدم ذكره الأمر بنفس الجلد، ولم يذكر صفته، فما يعقبه يجب أن يكون راجعًا إليه وكفى برسول الله أسوة في ذلك حيث قال: « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » ونبه بقوله في دين الله على أن الدين إذا أوجب أمرًا لم يصح استعمال الرأفة في خلافه. وقال القرطبي: هذا قول جماعة أهل التفسير.

وقال ابن كثير: وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية [ألا تكون حاصلة] على ترك الحد، [وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد] فلا يجوز ذلك.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ يقول: إن كنتم تصدّقون بالله ربكم وباليوم الآخر، وأنكم فيه مبعوثون لحشر القيامة، وللثواب والعقاب، فإن من كان بذلك مصدّقا، فإنه لا يخالف الله في أمره ونهيه؛ خوف عقابه على معاصيه. وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وليحضر جلد الزانيين البكرين وحدّهما إذا أقيم عليهما طائفة من المؤمنين. والعرب تسمي الواحد فما زاد: طائفة. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: من أهل الإيمان بالله ورسوله[١].

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي: فافعلوا ذلك: أقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرِّحًا؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك. وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: "ولك في ذلك أجر".

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلِدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحة إذا كان الناس حضورًا[٢].

وقال السعدي: ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة (بهما) في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد

---

(١) تفسير الطبري٩/ ٢٥٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٨.

فعلًا فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر به الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزاد فيه ولا ينقص، والله أعلم(١).

الوجه الثاني: في العلة من نهي العباد عن أن تأخذهم رأفة بالزناة.

ذكر ابن القيم: أن الله سبحانه خص حد الزنا من بين الحدود بثلاث خصائص، منها: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم، فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم منكم بهم ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره(٢).

ثم تكلم عن الحكمة من تشريع هذه الخاصية فقال: وهذا وإن كان عامًا في سائرالحدود ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم! من أرباب الجرائم والوقائع والواقع مما بعد ذلك فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله ﷻ، وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفي النفوس أقوى الدواعي إليه والمشارك فيه كثير وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربه، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليها ولا يستنكر هذا الأمر فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثيرًا كثرة عن ناقصي العقول والأديان كالخدم والنساء، وأيضًا فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانين فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه.وفيها شهوة غالبة له فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٥٦١.

(٢) الداء والدواء (٢١٠).

إقامة الحد وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقًا لربه ورحمته(١).

فإن من رحمة الله على عباده إقامة الحد فلا يسقط الحد لعل ذلك تطهيرًا لهم ورحمة لهم.

قال أبو بكر الجزائري: لا تشفقوا عليهما فتعطلوا حَدَّ الله تعالى وتحرموهما من التطهير بهذا الحد لأن الحدود كفارة لأصحابها(٢).

وقال السعدي: ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب(٣). فالحدود مقدَّرة من عند الله ﷻ.

وأورد القرطبي في معنى قريب لذلك من الحكمة والعلة من هذا الأمر فقال: نص الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقذف، وثبت التوقيف في الخمر على ثمانين من فعل عمر في جميع الصحابة، فلا يجوز أن يتعدى الحد في ذلك كله(٤).

ثم نقل كلامًا لابن العربي في تهاون الناس والجرأة على المعاصي، فقال ابن العربي:

وَهَذَا مَا لَمْ يَتَتَابَعْ النَّاسُ فِي الشَّرِّ، وَلَا احْلَوْلَتْ لَهُمْ الْمَعَاصِي، حَتَّى يَتَّخِذُوهَا ضَرَاوَةً (معناها: العادة)(٥)، وَيَعْطِفُ النَّاسُ عَلَيْهِمْ بِالْهَوَادَةِ، فَلَا يَتَنَاهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ؛ فَحِينَئِذٍ تَتَعَيَّنُ الشِّدَّةُ، وَيَزِيدُ الْحَدُّ، لِأَجْلِ زِيَادَةِ الذَّنْبِ.

وَقَدْ أُتِيَ عُمَرُ بِسَكْرَانٍ فِي رَمَضَانَ، فَضَرَبَهُ مِائَةً: ثَمَانِينَ حَدُّ الْخَمْرِ، وَعِشْرِينَ لِهَتْكِ حُرْمَةِ الشَّهْرِ؛ فَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ تَتَرَكَّبَ الْعُقُوبَاتُ عَلَى تَغْلِيظِ الْجِنَايَاتِ، وَهَتْكِ الْحُرُمَاتِ.

---

(١) الداء والدواء (٢١٠).

(٢) أيسر التفاسير ٣/ ٤٦.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٥٦١.

(٤) تفسير القرطبي ١٢/ ١٤٣.

(٥) لسان العرب (مادة: ضرا).

وَقَدْ لَعِبَ رَجُلٌ بِصَبِيٍّ، فَضَرَبَهُ الْوَالِي ثَلَاثَمِائَةِ سَوْطٍ، فَلَمْ يُغَيِّرْ ذَلِكَ مَالِكًا حِينَ بَلَغَهُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَى زَمَانَنَا هَذَا بِهَتْكِ الْحُرُمَاتِ وَالِاسْتِهْتَارِ بِالْمَعَاصِي، وَالتَّظَاهُرِ بِالْمَنَاكِرِ، وَبَيْعِ الْحُدُودِ، وَاسْتِيفَاءِ الْعَبِيدِ لَهَا فِي مَنْصِبِ الْقُضَاةِ؟ ؛ لَمَاتَ كَمِدًا، وَلَمْ يُجَالِسْ أَحَدًا؛ وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١).

فبيَّن لنا من هذا كله أن الله ﷻ أوقف هذه العقوبات ولم يجعل لأحد فيها شيئًا حتى لا تأخذهم رأفة في ذلك، لأن هذا دين الله، ففيه الرحمة والتطهير والعبرة والاتعاظ.

قال ابن تيمية: نَهَى تَعَالَى عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطَانُ فِي الْعُقُوبَاتِ عُمُومًا وَفِي أَمْرِ الْفَوَاحِشِ خُصُوصًا فَإِنَّ هَذَا الْبَابَ مَبْنَاهُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالشَّهْوَةِ وَالرَّأْفَةِ الَّتِي يُزَيِّنُهَا الشَّيْطَانُ بِانْعِطَافِ الْقُلُوبِ عَلَى أَهْلِ الْفَوَاحِشِ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ حَتَّى يَدْخُلَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْآفَةِ فِي الدِّيَاثَةِ وَقِلَّةِ الْغَيْرَةِ إذَا رَأَى مَنْ يَهْوَى بَعْضَ الْمُتَّصِلِينَ بِهِ أَوْ يُعَاشِرُهُ عِشْرَةً مُنْكَرَةً أَوْ رَأَى لَهُ مَحَبَّةً أَوْ مَيْلًا وَصَبَابَةً وَعِشْقًا وَلَوْ كَانَ وَلَدُهُ رَأَفَ بِهِ وَظَنَّ أَنَّ هَذَا مِنْ رَحْمَةِ الْخَلْقِ وَلِينِ الْجَانِبِ بِهِمْ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ دِيَاثَةٌ وَمَهَانَةٌ وَعَدَمُ دِينٍ وَضَعْفُ إيمَانٍ وَإِعَانَةٌ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَتَرْكٌ لِلتَّنَاهِي عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ(٢).

الوجه الثالث: العلة من قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أولًا: في بيان كم هذه الطائفة التي تشهد الحد.

ولأهل العلم أقوال في معنى (الطائفة):

أحدها: رجل واحد فما فوقه، وهو قول مجاهد.

الثاني: اثنان فأكثر، وهو قول عكرمة وعطاء، وبه أخذ المالكية.

الثالث: ثلاثة فأكثر، لأنه أقل الجمع، وهو قول الزهري.

الرابع: أربعة فأكثر بعدد شهود الزنى، وهو قول ابن عباس، وبه أخذ الشافعية.

---

(١) تفسير القرطبي١٢/ ١٤٣.

(٢) مجموع الفتاوى١٥/ ٢٨٨/ ٢٨٧.

وقال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: أقل ما ينبغي حضور ذلك من عدد المسلمين: الواحد فصاعدًا؛ وذلك أن الله عمّ بقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ والطائفة: قد تقع عند العرب على الواحد فصاعدًا. فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن الله تعالى ذكره وضع دلالة على أن مراده من ذلك خاص من العدد، كان معلومًا أن حضور ما وقع عليه أدنى اسم الطائفة ذلك المحضر مخرج مقيم الحدّ مما أمره الله به بقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾غير أني وإن كان الأمر على ما وصفت، أستحب أن لا يقصر بعدد من يحضر ذلك الموضع عن أربعة أنفس عدد من تقبل شهادته على الزنا؛ لأن ذلك إذا كان كذلك، فلا خلاف بين الجمع أنه قد أدّى المقيم الحدّ ما عليه في ذلك، وهم فيما دون ذلك مختلفون[1].

وأيده الزمخشري حيث قال: وفضل قول ابن عباس، لأنّ الأربعة هي الجماعة التي يثبت بها هذا الحدّ والصحيح أن هذه الكبيرة من أمّهات الكبائر، ولهذا قرنها الله بالشرك وقتل النفس في قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (الفرقان: ٦٨)، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء: ٣٢)، ولذلك وفّى الله فيه عقد المائة بكماله، بخلاف حدّ القذف وشرب الخمر. وشرع فيه القتلة الهولة وهي الرجم، ونهى المؤمنين عن الرأفة على المجلود فيه. وأمر بشهادة الطائفة للتشهير، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير، والواحد والاثنان ليسوا بتلك المثابة، واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل[2].

---

(١) تفسير الطبري١٩/ ٩٥.

(٢) الكشاف١/ ٨٢٧.

وقال الآلوسي: والحق أن المراد بالطائفة هنا جماعة يحصل بهم التشهير، والزجر وتختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص فرب شخص يحصل تشهيره وزجره بثلاثة وآخر لا يحصل تشهيره وزجره بعشرة، وللقائل بالأربعة هنا وجه وجيه كما لا يخفى(١).

وقال أبو بكر الجصاص: والأولى أن تكون الطائفة جماعة يستفيض الخبر بها ويشيع فيرتدع الناس من مثله؛ لأن الحدود موضوعة للزجر والردع(٢).

ثانيًا: في بيان العلة من حضور الطائفة.

ذكر ابن القيم أيضًا أنه من خصائص حد الزنا: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة حيث لا يراهما أحد وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر(٣).

قال ابن كثير: هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلِدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعًا وتوبيخا وفضيحة إذا كان الناس حضورًا(٤).

وقال القرطبي: فيه قولان للعلماء أن المراد بحضور الجماعة، هل المقصود بها الأغلاظ على الزناة والتوبيخ بحضرة الناس، وأن ذلك يدع المحدود، ومن شهده وحضره يتعظ به ويزدجر لأجله، ويشيع حديثه فيعتبر به من بعده، أو الدعاء لهما بالتوبة والرحمة(٥).

وقال الكاساني: وينبغي أن تقام الحدود كلها في ملأ من الناس لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، والنص وإن ورد في حد الزنا لكن النص الوارد فيه يكون واردا في سائر الحدود دلالة لأن المقصود من الحدود كلها وهو زجر العامة وذلك لا يحصل إلا وأن تكون الإقامة على رأس العامة لأن الحضور ينزجرون بأنفسهم

---

(١) روح المعاني١٨/ ٨٤.

(٢) أحكام القرآن٥/ ١٠٦.

(٣) الداء والدواء (٢١١).

(٤) تفسير ابن كثير٣/ ٣٤٨.

(٥) تفسير القرطبي١٢/ ١٤٣.

بالمعاينة والغيب ينزجرون بإخبار الحضور فيحصل الزجر للكل وكذا فيه منع الجلاد من المجاوزة عن الحد الذي جعل له لأنه لو جاوز لمنعه الناس عن المجاوزة وفيه أيضًا دفع التهمة والميل فلا يتهمه الناس أن يقيم الحد عليه بلا جرم سبق منه والله تعالى الموفق(١).

وقال الماوردي: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ يعني بالعذاب الحد يشهده عند الإقامة طائفة من المؤمنين ليكونوا زيادة في نكاله وبيِّنة على إقامة حده(٢).

وقال ابن العربي: وَفِقْهُ ذَلِكَ أَنَّ الْحَدَّ الْمَحْدُودَ، وَمَنْ شَهِدَهُ وَحَضَرَهُ يَتَّعِظُ بِهِ وَيَزْدَجِرُ لِأَجْلِهِ، وَيَشِيعُ حَدِيثُهُ؛ فَيَعْتَبِرُ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ(٣).

وقال السعدي: وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلا فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر به الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزاد فيه ولا ينقص(٤).

وقال ابن عاشور: أمر أن تحضر جماعة من المسلمين إقامة حد الزنا تحقيقًا لإقامة الحد وحذرًا من التساهل فيه فإن الإخفاء ذريعة للإنساء، فإذا لم يشهده المؤمنون فقد يتساءلون عن عدم إقامته فإذا تبين لهم إهماله فلا يعدم بينهم من يقوم بتغيير المنكر من تعطيل الحدود.

وفيه فائدة أخرى وهي أن من مقاصد الحدود مع عقوبة الجاني أن يرتدع غيره، وبحضور طائفة من المؤمنين يتعظ به الحاضرون ويزدجرون ويشيع الحديث فيه بنقل الحاضر إلى الغائب(٥).

---

(١) بدائع الصنائع (٦١: ٦٠).

(٢) النكت والعيون٤/ ٧٢.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١٣٢٧.

(٤) تفسير السعدي١/ ٥٦١.

(٥) التحرير والتنوير١/ ٢٨٧٣.

ونختم بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في العلة من شهود طائفة من المؤمنين، فيقول: فَأَمَرَ بِعُقُوبَتِهِمَا وَعَذَابِهِمَا بِحُضُورِ طَائِفَةٍ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَذَلِكَ بِشَهَادَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ بِشَهَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ إذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ عُقُوبَتُهَا ظَاهِرَةً؛ كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ: " مَنْ أَذْنَبَ سِرًّا فَلْيَتُبْ سِرًّا وَمَنْ أَذْنَبَ عَلَانِيَةً فَلْيَتُبْ عَلَانِيَةً " وَلَيْسَ مِنْ السَّتْرِ الَّذِي يُحِبُّهُ الله تَعَالَى - كَمَا فِي الْحَدِيثِ: " مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله "، بَلْ ذَلِكَ إذَا سُتِرَ كَانَ ذَلِكَ إقْرَارًا لِمُنْكَرِ ظَاهِرٍ: وَفِي الْحَدِيثِ "إنَّ الْخَطِيئَةَ إذَا خَفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إلَّا صَاحِبَهَا وَإِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُنْكَرْ ضَرَّتْ الْعَامَّةَ " فَإِذَا أُعْلِنَتْ أُعْلِنَتْ عُقُوبَتُهَا بِحَسَبِ الْعَدْلِ الْمُمْكِنِ. وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُعْلِنِ بِالْبِدَعِ وَالْفُجُورِ غِيبَةٌ كَمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَعْلَنَ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ عُقُوبَةَ الْمُسْلِمِينَ لَهُ وَأَدْنَى ذَلِكَ أَنْ يُذَمَّ عَلَيْهِ لِيَنْزَجِرَ وَيَكُفَّ النَّاسُ عَنْهُ وَعَنْ مُخَالَطَتِهِ وَلَوْ لَمْ يُذَمَّ وَيُذْكَرْ بِمَا فِيهِ مِنْ الْفُجُورِ وَالْمَعْصِيَةِ أَوْ الْبِدْعَةِ لَاغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ وَرُبَّمَا حَمَلَ بَعْضَهُمْ عَلَى أَنْ يَرْتَكِبَ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَيَزْدَادَ أَيْضًا هُوَ جُرْأَةً وَفُجُورًا وَمَعَاصِيَ فَإِذَا ذُكِرَ بِمَا فِيهِ انْكَفَّ وَانْكَفَّ غَيْرُهُ عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ صُحْبَتِهِ وَمُخَالَطَتِهِ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَتَرْغَبُونَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ اُذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ.

وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا و" الْفُجُورُ " اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مُتَجَاهِرٍ بِمَعْصِيَةِ أَوْ كَلَامٍ قَبِيحٍ يَدُلُّ السَّامِعَ لَهُ عَلَى فُجُورِ قَلْبِ قَائِلِهِ. وَلِهَذَا كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْهَجْرِ إذَا أَعْلَنَ بِدْعَةً أَوْ مَعْصِيَةً أَوْ فُجُورًا أَوْ تَهَتُّكًا أَوْ مُخَالَطَةً لِمَنْ هَذَا حَالُهُ بِحَيْثُ لَا يُبَالِي بِطَعْنِ النَّاسِ عَلَيْهِ فَإِنَّ هَجْرَهُ نَوْعُ تَعْزِيرٍ لَهُ فَإِذَا أَعْلَنَ السَّيِّئَات أُعْلِنَ هَجْرُهُ وَإِذَا أَسَرَّ أُسِرَّ هَجْرُهُ إذْ الْهِجْرَةُ هِيَ الْهِجْرَةُ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَهِجْرَةُ السَّيِّئَاتِ هِجْرَةُ مَا نَهَى الله عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وَقَالَ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أَنَّ ابْنَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَمَّا شَرِبَ الْخَمْرَ بِمِصْرِ وَذَهَبَ بِهِ أَخُوهُ إلَى أَمِيرِ مِصْرَ عَمْرِو بْنِ العاص لِيَجْلِدَهُ الْحَدَّ جَلَدَهُ الْحَدَّ سِرًّا وَكَانَ النَّاسُ يَجْلِدُونَ عَلَانِيَةً فَبَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إلَى عَمْرٍو

يُنْكِرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ. وَلَمْ يَعْتَدَّ عُمَرُ بِذَلِكَ الجَلْدِ حَتَّى أَرْسَلَ إِلَى ابْنِهِ فَأَقْدَمَهُ المَدِينَةَ فَجَلَدَهُ الحَدَّ عَلَانِيَةً وَلَمْ يَرَ الْوُجُوبَ سَقَطَ بِالحَدِّ الْأَوَّلِ وَعَاشَ ابْنُهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُدَّةً ثُمَّ مَرِضَ وَمَاتَ وَلَمْ يَمُتْ مِنْ ذَلِكَ الجَلْدِ وَلَا ضَرَبَهُ بَعْدَ المَوْتِ كَمَا يَزْعُمُهُ الْكَذَّابُونَ(١).

الوجه الرابع: الحد ثابت عندهم في الكتاب المقدس.

حد الزنا: (التثنية٢٢/ ٢٢): إِذَا وُجِدَ رَجُلٌ مُضْطَجِعًا مَعَ امْرَأَةٍ زَوْجَةِ بَعْلٍ، يُقْتَلُ الاثْنَانِ: الرَّجُلُ المُضْطَجِعُ مَعَ المَرْأَةِ، وَالمَرْأَةُ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ إِسْرَائِيلَ.

(اللاويين٢٠/ ٢١: ١٠): وَإِذَا زَنَى رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ، فَإِذَا زَنَى مَعَ امْرَأَةِ قَرِيبِهِ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ. ١١ وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةِ أَبِيهِ، فَقَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَبِيهِ. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ كِلاَهُمَا. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. ١٢ وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ كَنَّتِهِ، فَإِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ كِلاَهُمَا. قَدْ فَعَلاَ فَاحِشَةً. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. ١٣ وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ، فَقَدْ فَعَلاَ كِلاَهُمَا رِجْسًا. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. ١٤ وَإِذَا اتَّخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَأُمَّهَا فَذلِكَ رَذِيلَةٌ. بِالنَّارِ يُحْرِقُونَهُ وَإِيَّاهُمَا، لِكَيْ لاَ يَكُونَ رَذِيلَةٌ بَيْنَكُمْ. ١٥ وَإِذَا جَعَلَ رَجُلٌ مَضْجَعَهُ مَعَ بَهِيمَةٍ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، وَالْبَهِيمَةُ تُمِيتُونَهَا. ١٦ وَإِذَا اقْتَرَبَتِ امْرَأَةٌ إِلَى بَهِيمَةٍ لِنِزَائِهَا، تُمِيتُ المَرْأَةَ وَالْبَهِيمَةَ. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا. ١٧ وَإِذَا أَخَذَ رَجُلٌ أُخْتَهُ بِنْتَ أَبِيهِ أَوْ بِنْتَ أُمِّهِ، وَرَأَى عَوْرَتَهَا وَرَأَتْ هِيَ عَوْرَتَهُ، فَذلِكَ عَارٌ. يُقْطَعَانِ أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي شَعْبِهِمَا. قَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أُخْتِهِ. يَحْمِلُ ذَنْبَهُ. ١٨ وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ طَامِثٍ وَكَشَفَ عَوْرَتَهَا، عَرَّى يَنْبُوعَهَا وَكَشَفَتْ هِيَ يَنْبُوعَ دَمِهَا، يُقْطَعَانِ كِلاَهُمَا مِنْ شَعْبِهِمَا. ١٩ عَوْرَةَ أُخْتِ أُمِّكَ، أَوْ أُخْتِ أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهُ قَدْ عَرَّى قَرِيبَتَهُ. يَحْمِلاَنِ ذَنْبَهُمَا. ٢٠ وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةِ عَمِّهِ فَقَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ عَمِّهِ. يَحْمِلاَنِ ذَنْبَهُمَا. يَمُوتَانِ عَقِيمَيْنِ. ٢١ وَإِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةَ أَخِيهِ، فَذلِكَ نَجَاسَةٌ. قَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ. يَكُونَانِ عَقِيمَيْنِ.

(١) مجموع الفتاوى١٥/ ٢٨٧: ٢٨٥.

الشبهة الثانية: لماذا جعل الإسلام الشهود أربعة في إثبات حد الزنا؟

نص الشبهة: جاء في سورة النور ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور: ٤)، ونحن نسأل كيف يتسنى لأربعة أن يكونوا شهود الحادثة فيها دائما كتمان وسرية؟ وكيف يحكم بالجلد على ثلاثة شهود ولو رأوا بأعينهم ارتكاب الحادث، ولم يشهد الرابع؟ إن المطالبة بأربعة شهود أمر أقرب إلى المستحيل وتعجيز وتعطيل لتبرئة المذنب.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: في تفسير الآية.

الوجه الثاني: في الحكمة من وجود أربعة شهود، وأن هذا الحكم ثابت في التوراة والإنجيل.

الوجه الثالث: بيان معنى القذف وبيان حرمته وحده.

الوجه الرابع: الشهادة في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: في تفسير الآية.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور: ٤).

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة هي الحرة البالغة العفيفة فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا وليس في هذا نزاع بين العلماء فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم

يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة (الثاني) أنه ترد شهادته أبدًا (الثالث) أن يكون فاسقًا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس(١).

وقال السعدي: لما عظم تعالى أمر الزاني بوجوب جلده، وكذا رجمه إن كان محصنا، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي: النساء الأحرار العفائف، وكذاك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرمي الرمي بالزنا، بدليل السياق، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ﴾ على ما رموا به ﴿بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحا، ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإتلاف، وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصنًا مؤمنًا، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير. ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حد على القذف، حتى يتوب كما يأتي، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب(٢).

الوجه الثاني: في الحكمة من وجود أربعة شهود، وأن هذا الحكم ثابت في التوراة والإنجيل.

الحكمة من وجود أربعة شهود:

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾، أي من المسلمين، فجعل الله الشهادة على الزنا خاصة أربعة تغليظًا على المدعي وسترًا على العباد)،

---

(١) تفسير ابن كثير (الآية السابقة).

(٢) تفسير السعدي (نفس الآية).

وقال أيضًا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾: الذي يفتقر إلى أربعة شهداء دون سائر الحقوق هو الزنا رحمة بعبادة وسترا لهم(١).

فصار شهادة الأربعة في غاية الحكمة لأمور:

أولًا: تغليظًا على المدعي وتضييقًا عليه.

فأي إنسان يمكن أن يدعي على آخر أنه زنا لعداوة صارت بينهما أو لأمر ما، حتى ينتقم منه. فكان بأربعة تعجيزًا للمدعي على الإتيان بأربعة فضلًا عن أنه لا يستطيع أن يأتي بواحد معه، فلا إفراط ولا تفريط. وتعجيزًا للألسنة في أن تخوض في أعراض العفيفات بتلك التهمة النكراء وحتى لا يكون المجتمع مهددًا بالانهيار والظن والشكوك، فيصبح الزوج شاك في زوجه وكل رجل شاك في أصله، فيكون فساد المجتمع وشيوع الفاحشة والرذيلة في أوساط الناس، فصار الأربعة شهود تعجيزًا لأهل الأهواء، وأصحاب القلوب المريضة في أن يتعرضوا للعفيفات الحرائر والشرفاء، فكان ذلك حفاظًا على شوكة المجتمع من كل خبيث.

ثانيًا: سترًا على العباد وأن الله يتوب على من تاب.

وهذا باب له حتى يرجع ويتوب، ولعل الله يتوب عليه، فجعل لنا الشرع باب الستر على أهل الحدود لقوله ﷺ: "يا هزال لو سترته بثوبك كان خيرًا لك"(٢).

قال ابن تيمية: وبين ﷺ أن الزنا من الكبائر وأن قذف المحصنات الغافلات من الكبائر وهو من نوع الكبائر إذ لم يأت عليه القاذف بأربعة شهداء وإن كان قد وقع فإنه أظهر ما يحب الله أخفاه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (سورة النور: ١٩)، وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول يا

---

(١) تفسير القرطبي (النساء: ١٥، النور: ٤).

(٢) مسند أحمد (٢١٩٤٢)، وأبو داود (٤٣٧٧)، والحاكم (٨٠٨٠)، وقال: صحيح الإسناد.

فلان عملت البارحة كذا وكذا بات يستره ربه ويصبح يكشف ستره"[١]. ، وقال: " من ابتلى من هذه القاذورة بشيء فليستتر بستر الله فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله"[٢].

ثالثا: زجرًا للعاصي وتضييقًا عليه.

فالعاصي الذي يجاهر بالمعصية في أوساط الناس، كما هو واضح في أوساط الذين يتقممون الرذيلة ويحبون شيوع الفاحشة باسم الحرية، ينزجر عندما يعلم أن الشهود أربعة وليس أكثر من ذلك كأن يكون خمسة أو سبعة حتى لا يكون الإفراط، والإسلام لا يعاقب إلا المتبجحين والمتجرئين على فعل الفاحشة، وحتى لا تكون المجاهرة بالمعصية أمام الناس وحفاظًا على المجتمع من شيوع الفاحشة فيه، فلا إفراط ولا تفريط.

رابعًا: تعظيم حرمة المسلم.

قال السعدي: في قوله تعالى﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ ولم يقل "فأولئك هم الكاذبون" وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق[٣].

فيستهدف الإسلام حماية أعراض الناس، والمحافظة على سمعتهم، وصيانة كرامتهم، وهو لهذا يقطع ألسنة السوء ويسد الباب على الذين يلتمسون للبرآء العيب، فيمنع ضعاف النفوس من أن يجرحوا مشاعر الناس ويغلوا في أعراضهم، ويحظر أشد الحظر إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا حتى تتطهر الحياة من سريان هذا الشر فيها، فهو يحرم القذف تحريمًا قاطعًا، ويجعله كبيرة من كبائر الإثم والفواحش، ويوجب على القاذف ثمانين جلدة – رجلًا كان أو

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢١)، ومسلم (٢٩٩٠).

(٢) الاستقامة (١/ ٤٥٣، ٤٥٢، ٤٥١)، والحديث عند الحاكم٤/ ٢٧٢، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٦٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (النور/ ١٣).

امرأةً - ويمنع من قبول شهادته، ويحكم عليه بالفسق واللعن والطرد من رحمة الله، واستحقاق العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، اللهم إلا إذا ثبت صحة قوله بالأدلة التي لا يتطرق إليها الشك، وهي شهادة أربع شهداء بأن المقذوف تورط في الفاحشة[١].

خامسًا: حكمة تشريع حد القذف فيمن قذف غيره بالزنا دون من قذف بالكفر[٢].

أورد ابن القيم الحكمة من ذلك بقوله: وأما إيجاب حد الفرية على من قذف غيره بالزنا دون الكفر ففي غاية المناسبة فإن القاذف غيره بالزنا لا سبيل للناس إلى العلم بكذبه فجعل حد الفرية تكذيبًا له وتبرئة لعرض المقذوف وتعظيمًا لشأن هذه الفاحشة التي يجلد من رمى بها مسلما وأما من رمى غيره بالكفر فإن شاهد حال المسلم واطلاع المسلمين عليها كاف في تكذيبه ولا يلحقه من العار بكذبه عليه في ذلك ما يلحقه بكذبه عليه في الرمي بالفاحشة ولا سيما إن كان المقذوف امرأة فإن العار والمعرة التي تلحقها بقذفه بين أهلها وتشعب ظنون الناس وكونهم بين مصدق ومكذب لا يلحق مثله بالرمي بالكفر[٣].

فظهرت لنا الحكمة من تشريع حد القذف ومدارها على: عدم القدرة من المقذوف بنفي ما رمى به من الزنا فجعل حد القذف تكذيبًا للقاذف، وتبرئة للمقذوف، وتعظيمًا لشأن هذه الفاحشة التي تبهرج المجتمع، وتلطخه بالعار والمعرة، ولا سبيل للمقذوف ظلمًا إلى نفي ما قذف به من الزنا إلا بمجرد التكذيب للقاذف، وهذا غير مقنع لنفوس البشر ولا يكون مذهبًا لتشعب ظنونهم فجعل الله حد الفرية لكف هذه الآثام وحماية لمجتمع الإسلام من أن يزن بريبة أو يرمى بنقيصة، فتبقى أعراض المسلمين محترمة تحت

(١) انظر: فقه السنة- سيد سابق٢/ ٤٤٠.

(٢) على أن هذا لا يعفي قاذف غيره بالكفر من عقوبة تعزيرية فإن الشريعة أمسكت بلسان السليط ورميت به في مكان بعيد عن الفحش والبذاء والتطاول على قيم الناس ومعنوياتهم ومقومات حياتهم فتواترت نصوص الكتاب والسنة بصيانة هذا الثغر وحراسته من أن ينطق بفحش أو يفري في عرض، ولهذا قرر العلماء في مدوناتهم الفقهية تعزير من قذف مسلمًا بغير الزنا في باب التعزير، والله أعلم.

(٣) إعلام الموقعين٢/ ٨٤: ٨٣.

ستر الله ورحمته، الألسنة عنها مقفلة والظنون عنها محجمة وبذلك يكون الإسلام قد حفظ للمسلمين ضرورة من ضروريات معاشهم وقيام مدنيتهم وذلك بحفظ أعراضهم وصيانتها فأوجب حد القذف ثمانين جلدة للقاذف الكاذب الجاني بكذبه الزمن، على حرمة الأعراض تقويضًا لمعنوياتهم وإدخالًا لعنصر الفساد في مصلحة تعايشهم قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (النور: ٤)[1].

سادسًا: حكمة تشريع أربعة شهود في الزنا دون القتل بشاهدين فقط.

وقال ابن القيم في ذلك أيضًا: وأما اكتفاؤه في القتل بشاهدين دون الزنا ففي غاية الحكمة والمصلحة فإن الشارع احتاط للقصاص والدماء واحتاط لحد الزنا فلو لم يقبل في القتل إلا أربعة لضاعت الدماء وتواثب العادون وتجرؤوا على القتل وأما الزنا فإنه بالغ في ستره كما قدر الله ستره فاجتمع على ستره شرع الله وقدره فلم يقبل فيه إلا أربعة يصفون الفعل وصف مشاهدة ينتفي معها الاحتمال وكذلك في الإقرار لم يكتف بأقل من بأربع مرات حرصًا على ستر ما قدر الله ستره وكره إظهاره والتكلم به وتوعد من يحب إشاعته في المؤمنين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة[2].

سابعًا: هذا الحكم ثابت في التوراة والإنـجيل والقرآن.

وتعديل الشهود بالأربعة في الزنا حكم ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ وقال هنا: ﴿ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾. وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم قد زنيا فقال النبي ﷺ: "ائتوني بأعلم رجلين منكم" فأتوه

---

(١) انظر: الحدود والتعزيزات لبكر أبو زيد (٢٠٩).

(٢) إعلام الموقعين ٢/ ٨٤.

بابني صوريا فنشدهما: "كيف تجدّان أمر هذين في التوراة"؟ قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة رُجِما. قال: "فما يمنعكما أن ترجموهما"، قالا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل، فدعا رسول الله ﷺ بالشهود، فجاؤوا فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة، فأمر رسول الله ﷺبرجمهما(١).

الوجه الرابع: بيان معنى القذف وبيان حرمته وحده، وفيه مسائل:

أولًا: في تعريف القذف وبيان حرمته.

تعريف القذف: في اللغة: أصل القذف رمي الشيء بقوة ثم استعمل في الرمي بالزنا ونحوه من المكرهات يقال قذف قذفا يقذف قذفا فهو قاذف وجمعه قذاف وقذقة كفساق وفسقة وكفار وكفرة(٢)، والقَذْف هاهنا رَمْيُ المرأَة بالزنا أَو ما كان في معناه وأَصله الرّمْيُ(٣).

القذف في الشرع: هو الرمي بوطء، أو نفي نسب، موجب للحد فيهما(٤).

الرمي بوطء: وهو الرمي بالزنا، أو لواط، أوالشهادة به عند عدم اكتمال الشهود، ونفي نسب وهو قذف يوجب الحد عند الجميع، وموجب للحد فيهما أي يتوفر فيها شروط القاذف والمقذوف به والمقذوف(٥).

حرمة القذف وأنه من أكبر الكبائر.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٥٢)، البيهقي (١٦٧٩٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٤٥٢).

(٢) المطلع على أبواب الفقه١/ ٣٧٢: ٣٧١ كتاب الحدود.

(٣) لسان العرب٩/ ٢٧٦.

(٤) أورد الشيخ بكر أبو زيد- رحمه الله- تعريف القذف عند المذاهب الأربعة ثم قال: (هذه التعاريف ليس في واحد منها ما يفيد الشمول لكل ما يوجب حد القذف وأقربها تعريف المالكية لكن لا يخلو من طول وتحديد مذهبي، والتعاريف مبناها على الاختصار ولا دخل للشروط فيها، وعليه فإن التعريف الشامل هو أن يقال- وذكر هذا التعريف-) راجع في ذلك الحدود والتعزيزات لبكر أبو زيد (١٩٧ وما بعدها).

(٥) راجع: الحدود والتعزيرات (١٩٩).

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور: ٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (النور٢٤: ٢٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: " اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ الله وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِالله وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ"[١].

ثانيًا: في بيان حد القاذف.

تضمنت الآية ثلاثة أحكام في القاذف: جلده ورد شهادته أبدًا وفسقه[٢].

وقدر الحد ثمانون إذا كان القاذف حرًا للآية والإجماع رجلًا كان أو امرأةً، ويشترط أن يكون بالغًا عاقلًا غير مكره لأن هذه مشترطة لكل حد[٣].

ثالثًا: في شروط يجب توافرها في القاذف والمقذوف به والمقذوف.

قال ابن العربي: وَشُرُوطُ الْقَذْفِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ تِسْعَةٌ: شَرْطَانِ فِي الْقَاذِفِ، وَشَرْطَانِ فِي الْمَقْذُوفِ بِهِ، وَخَمْسَةٌ فِي الْمَقْذُوفِ.

فَأَمَّا الشَّرْطَانِ اللَّذَانِ فِي الْقَاذِفِ: فَالْعَقْلُ وَالْبُلُوغُ.

وَأَمَّا الشَّرْطَانِ فِي الشَّيْءِ الْمَقْذُوفِ مِنْهُ: فَهُوَ أَنْ يَقْذِفَهُ بِوَطْءٍ يَلْزَمُهُ فِيهِ الْحَدُّ، وَهُوَ الزِّنَا أَوْ اللِّوَاطُ، أَوْ يَنْفِيهِ مِنْ أَبِيهِ، دُونَ سَائِرِ الْمَعَاصِي[٤].

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، مسلم (٨٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي النور/ ٤.

(٣) المغني ١٠/ ١٩٥.

(٤) كأن يقال: فلان زنا أو فلانة زنت أو فلان فعل - أو فُعِل به - فعل قوم لوط مع فلان أو فلانة (ويسمي الأشخاص) أو يقول الشخص: فلان ليس بابن لفلان يعني أنه ولد زنا) تفسير سورة النور/ مصطفى العدوى.

وَأَمَّا الْخَمْسُ الَّتِي فِي الْمَقْذُوفِ فَهِيَ: الْعَقْلُ، وَالْبُلُوغُ، وَالْإِسْلَامُ، وَالْحُرِّيَّةُ، وَالْعِفَّةُ عَنْ الْفَاحِشَةِ الَّتِي رُمِيَ بِهَا كَانَ عَفِيفًا عَنْ غَيْرِهَا أَوْ لَا.

فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْبُلُوغِ وَالْعَقْلِ فِي الْقَاذِفِ؛ فَلِأَنَّهُمَا أَصْلَا التَّكْلِيفِ؛ إذْ التَّكْلِيفُ سَاقِطٌ دُونَهُمَا، وَإِنَّمَا شَرَطْنَاهُمَا فِي الْمَقْذُوفِ وَإِنْ لَمْ يَكُونَا فِي مَعَانِي الْإِحْصَانِ لِأَجْلِ أَنَّ الْحَدَّ إنَّمَا وُضِعَ لِلزَّجْرِ عَنْ الْإِذَايَةِ بِالْمَعَرَّةِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْمَقْذُوفِ، وَلَا مَعَرَّةَ عَلَى مَنْ عَدِمَ الْعَقْلَ وَالْبُلُوغَ؛ إذْ لَا يُوصَفُ الْوَطْءُ فِيهِمَا وَلَا مِنْهُمَا بِأَنَّهُ زِنًا.

وَأَمَّا شُرُوطُ الْإِسْلَامِ فِيهِ؛ فَلِأَنَّهُ مِنْ مَعَانِي الْإِحْصَانِ وَأَشْرَفِهَا، كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ، وَلِأَنَّ عِرْضَ الْكَافِرِ لَا حُرْمَةَ لَهُ يَهْتِكُهَا الْقَذْفُ، كَالْفَاسِقِ الْمُعْلِنِ لَا حُرْمَةَ لِعِرْضِهِ؛ بَلْ هُوَ أَوْلَى لِزِيَادَةِ الْكُفْرِ عَلَى الْمُعْلِنِ بِالْفِسْقِ.

وَأَمَّا شَرَفُ الْعِفَّةِ؛ فَلِأَنَّ الْمَعَرَّةَ لَاحِقَةٌ بِهِ، وَالْحُرْمَةُ ذَاهِبَةٌ، وَهِيَ مُرَادَةٌ هَاهُنَا إجْمَاعًا وَأَمَّا الْحُرِّيَّةُ فَإِنَّمَا شَرَطْنَاهَا لِأَجْلِ نُقْصَانِ عِرْضِ الْعَبْدِ عَنْ عِرْضِ الْحُرِّ، بِدَلِيلِ نُقْصَانِ حُرْمَةِ دَمِهِ عَنْ دَمِه[1].

رابعًا: بم يثبت حد القذف.

اتفق العلماء على أنه يثبت بالإقرار وشهادة عدليين[2].

فيثبت حد القذف بأمرين، أو بأحدهما:

الأمر الأول: إقرار القاذف على نفسه.

والأمر الثاني: شهادة الشهود على أن القاذف قد قذف فلانًا من الناس.

خامسًا: حد القذف حماية للأعراض.

وفيه غاية الزجر عن الوقوع في أعراض الناس بالقذف، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾ (النور: ٤)، شرع حد القذف حماية للأعراض؛ وهذا الذي قذف محصنًا وعابه وألحق به عارًا، أو ألحق به عيبًا لا شك أنه قد

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي سورةالنور: ٤، وكذلك تفسير القرطبي نفس الآية.

(٢) انظر بداية المجتهد ٢/ ٤٤٥، انظر فتح القدير لابن الهمام (كتاب الحدود/ التعزير).

ارتكب في حقه إثمًا وأنه قد ظلمه، والشرع قد حافظ على الناس بحماية أعراضهم بعدم الوقوع فيها، وذلك بإيجاب حد القذف.

وقال الشنقيطي: وقد جاء القرآن بالمحافظة علي العرض بأقوم الطرق وأعدلها. فنهى المسلم عن أن يتكلم في أخيه بما يؤذيه، وأوجب عليه إن رماه بفرية حد القذف ثمانين جلدة. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم﴾ (الحجرات: ١٢)، فقبح جلَّ وعلا غيبة المسلم غاية التقبيح. بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢)، وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١)[١].

فحد القذف فيه غاية الزجر عن الوقوع في أعراض الناس، وفيه زجر العاصي عن الرجوع إلى المعصية، ومنع غيره من الوقوع فيها، وفيه معنى الزجر لأنه مؤلم للقلب كما أن الجلد مؤلم للبدن وقد آذى المقذوف بلسانه فعوقب بإهدار منافعه جزاءً وفاقًا[٢].

وقال القرطبي: الحد إنما وضع للزجر عن الإذاية بالمضرة الداخلة على المقذوف، فصار بذلك حماية للأعراض وفيه غاية الزجر عن الوقوع في أعراض الناس بالقذف[٣].

الوجه الخامس: الشهادة في الكتاب المقدس.

في الكتاب المقدس نصوص صريحة وواضحة، في أنه لا يقبل في الشهادة أقل من اثنين بل أكثر من ذلك وإليك بعض النصوص:

كُلُّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا فَعَلَى فَمِ شُهُودٍ يُقْتَلُ الْقَاتِلُ. وَشَاهِدٌ وَاحِدٌ لاَ يَشْهَدْ عَلَى نَفْسٍ لِلْمَوْتِ. (العدد٣٥/ ٣٠).

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي٣/ ٤٩: ٤٨.

(٢) تفسير أبي السعود (النور/ ٤).

(٣) تفسير القرطبي (النور/ ٤).

عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ يُقْتَلُ الَّذِي يُقْتَلُ. لاَ يُقْتَلْ عَلَى فَمِ شَاهِدٍ وَاحِدٍ. أَيْدِي الشُّهُودِ تكُونُ عَلَيْهِ أَوَّلًا لِقَتْلِهِ، ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيرًا، فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ. (تثنية ١٧/ ٧: ٦).

لاَ يَقُومُ شَاهِدٌ وَاحِدٌ عَلَى إِنْسَانٍ فِي ذَنْبٍ مَّا أَوْ خَطِيَّةٍ مَّا مِنْ جَمِيعِ الْخَطَايَا الَّتِي يُخْطِئُ بِهَا. عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ عَلَى فَمِ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ يَقُومُ الأَمْرُ (تثنية ١٩: ١٥).

وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ، فَخُذْ مَعَكَ أَيْضًا وَاحِدًا أَوِ اثْنَيْنِ، لِكَيْ تَقُومَ كُلُّ كَلِمَةٍ عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ. (متى١٦: ١٨).

هذِهِ الْمَرَّةُ الثَّالِثَةُ آتِي إِلَيْكُمْ. "عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ وَثَلاَثَةٍ تَقُومُ كُلُّ كَلِمَةٍ (رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١: ١٣).

لاَ تَقْبَلْ شِكَايَةً عَلَى شَيْخٍ إِلاَّ عَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ. (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ٥: ١٩).

فهذه نصوص هذا الكتاب، فإن دل فيدل على أن الشهادة لا تقوم لأقل من اثنين، وهذا أقل الشهادات، والنصوص فحواها أنها تلزم بأكثر من اثنين إن أمكن.

وكما ورد في التفسير التطبيقي (أن وجود عدة شهود مانعًا من أن يقوم فرد واحد غاضب بتأدية شهادة زور)، فوجود أكثر من شاهد لا شك أنه من الحكمة حتى لا تكون التهم بقول واحد دون أن يعضد قوله بآخرين.

* * *

الشبهة الثالثة: حذف آية الرجم.

نص الشبهة:

يقولون أن القرآن محرف وناقص، والدليل آية الرجم التي حذفت.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الدليل على أن حد الرجم ثابت بالقرآن، والسنة، والإجماع.

الوجه الثاني: بيان أنه منسوخ تلاوة، وبيان الحكمة من النسخ، وأن آية الرجم مما نُسخ تلاوته وبقي حكمه، والحكمة من نسخ تلاوتها.

الوجه الثالث: تحريف الكتاب المقدس باستشهاده بأسفار غير موجودة فيه.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الدليل على أن حد الرجم ثابت بالقرآن والسنة والإجماع.

فقد دل كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ على حد الرجم للزاني المحصن، فمن الأدلة ما أثبتت الرجم عن رسول الله ﷺ بقوله وفعله في أخبار تشبه التواتر، وأجمع عليه أصحاب الرسول ﷺ.

أولًا: من القرآن:

وقد أنزل الله تعالى آية الرجم في كتابه، فنُسخت قراءتها وبقي حكمها، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إِنَّ الله قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا فَرَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ[1].

(١) أخرجه مسلم (١٦٩١).

قال النووي: قَوْله: (فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ الله عَلَيْهِ آيَة الرَّجْم قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا) أَرَادَ بِآيَةِ الرَّجْم: (الشَّيْخ وَالشَّيْخَة إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّة) وَهَذَا مِمَّا نُسِخَ لَفْظه وَبَقِيَ حُكْمه[1].

ثانيًا: من السنة:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ قَالاَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺفَقَالَ: أَنْشُدُكَ الله إِلاَّ قَضَيْتَ بَيْنَنَا بِكِتَابِ الله. فَقَامَ خَصْمُهُ وَكَانَ أَفْقَهَ مِنْهُ فَقَالَ صَدَقَ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ الله، وَأْذَنْ لِي يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ النبي ﷺ: " قُلْ ". فَقَالَ إِنَّ ابني كَانَ عَسِيفًا في أَهْلِ، هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَخَادِمٍ وإني سَأَلْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فأخبروني أَنَّ عَلَى ابني جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغْرِيبَ عَامٍ، وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ. فَقَالَ: " والذي نفسي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ الله، الْمِائَةُ وَالْخَادِمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَيَا أُنَيْسُ اغْدُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا فَسَلْهَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا ". فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا[2].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: خُذُوا عَنِّى خُذُوا عَنِّى قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْىُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ[3].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّى رَسُولُ الله إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِى، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ"[4]. وثبت عنه ﷺ أيضًا أنه رجم ماعزًا والغامدية[5].

ثالثًا: الإجماع:

---

(١) شرح النووي ٦/ ١١.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٢٨ : ٦٨٢٧)، مسلم (١٦٩٨ : ١٦٩٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، مسلم (٥٧).

(٥) انظر: صحيح مسلم (١٦٩٥).

أجمع الجمهور من فقهاء المسلمين أهل الفقه والأثر من لدن الصحابة إلى يومنا هذا أن المحصن من الزناة حده الرجم(١)، سواء رجلًا أو امرأةً، وهذا قول عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار في جميع الأعصار(٢).

الوجه الثاني: بيان أنه منسوخ تلاوة، وبيان الحكمة من النسخ، وأن آية الرجم مما نُسخ تلاوته وبقي حكمه، والحكمة من نسخ تلاوتها.

أولًا: القرآن الكريم وضح لنا وردَّ على ذلك بأن هناك نسخ في القرآن لِحَكَمٍ بالغة فقال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال ابن كثير: والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه(٣).

وقال ابن الجوزي: اتفق جمهور علماء الأمم على جواز النسخ عقلًا وشرعًا(٤).

وقال الآمدي: وقد اتفق أهل الشرائع على جواز النسخ عقلًا وعلى وقوعه شرعًا(٥).

وقال ابن النجار: يجوز النسخ عقلًا باتفاق أهل الشرائع(٦).

وقال الشوكاني: النسخ جائز عقلًا واقع شرعًا من غير فرق بين كونه في الكتاب أو السنة، وقد حكى جماعة من أهل العلم اتفاق أهل الشرائع عليه(٧).

ثانيًا: الحكمة من النسخ:

(١) الاستذكار ٢٤/ ٤٨، التمهيد ٩/ ٧٩.

(٢) المغني ١٠/ ١٢٦: ١٢٠، الإجماع لابن المنذر (١١٢).

(٣) تفسير ابن كثير (البقرة: ١٠٦).

(٤) نواسخ القرآن (٧٨).

(٥) الإحكام للآمدي ٣/ ١٠٦.

(٦) شرح الكوكب المنير ٣/ ٥٣٣.

(٧) إرشاد الفحول (١٨٥).

قال الشافعي: إن الله خلق الخلق لما سبق في علمه مما أراد بخلقهم وبهم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب(١). فحكمته قد تكون ظاهرة وقد تكون غير ذلك، فالأمر له سبحانه، وأوامر الله ونواهيه مشتملة على الحكم والمصالح، فإذا انتهت الحكمة والمصلحة من الخطاب الأول وصارت في غيره، أمر جل وعلا بترك الأول الذي زالت حكمته، والأخذ بالخطاب الجديد المشتمل على الحكمة الآن(٢).

والنسخ في الشريعة فيه كثير من الحِكَم ومنها:

الرحمة والتخفيف على العباد:

قال الشافعي: وأنزل عليهم الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وفرض فيهم فرائض أثبتها وأخرى نسخها رحمة لخلقه بالتخفيف عنهم وبالتوسعة عليهم زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم جنته والنجاة من عذابه فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ فله الحمد على نعمه(٣).

فمن أمثلة التخفيف عن العباد كما ذكر الطبري: كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل، ثم نسخ ذلك فوضع عنهم، فكان ذلك خيرًا لهم في عاجلهم، لسقوط عبء ذلك وثقل حمله عنهم(٤).

ومثل نسخ وجوب مصابرة المسلم عشرة من الكفار المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ (الأنفال: ٦٥)، بمصابرة المسلم اثنين من

---

(١) الرسالة (١٠٦).

(٢) معالم أصول الفقه للجيزاني (٢٦٣)بتصرف.

(٣) الرسالة (١٠٦).

(٤) تفسير الطبري ٢/ ٤٨٢.

الكفار المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ (الأنفال: ٦٦)(١).

تكثير الأجر للمؤمنين:

وهذه الحكمة تتضح في نسخ الأخف بالأثقل، كنسخ التخيير بين الصوم والإطعام في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ (البقرة: ١٨٤)، بتعيين إيجاب الصوم في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (البقرة: ١٨٥)(٢).

وقال الطبري: فكان فرض صوم شهر كامل كل سنة، أثقل على الأبدان من صيام أيام معدودات. غير أن ذلك وإن كان كذلك، فالثواب عليه أجزل، والأجر عليه أكثر، لفضل مشقته على مكلفيه من صوم أيام معدودات، فذلك وإن كان على الأبدان أشق، فهو خير من الأول في الآجل لفضل ثوابه وعظم أجره، الذي لم يكن مثله لصوم الأيام المعدودات(٣).

الابتلاء والاختبار:

قال تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

قال الرازي: أي ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب(٤).

وتتضح هذه الحكمة في نسخ الأمر قبل التمكن من فعله، وذلك مثل أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه ثم نسخ الله عنه هذا الحكم بفدائه بذبح عظيم قبل أن يتمكن من الفعل، والحكمة من ذلك الابتلاء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾(١).

---

(١) معالم أصول الفقه للجيزاني (٢٦١).

(٢) المصدر السابق

(٣) تفسير الطبري ٢/ ٤٨٢.

(٤) تفسير الرازي ٩/ ٤٦٦.

فالحكمة في الأمر الأول هو الابتلاء، وهل يتهيأ للامتثال ويظهر الطاعة فيما أمر به أو لا، فالابتلاء والاختبار ليظهر المؤمن فيفوز، والمنافق فيهلك ليميز الله الخبيث من الطيب(٢).

التدرج في التشريع وعدم مفاجأة المكلفين(٣):

وهذا التدرج لا شك أن يمهد للمكلفين الحكم دون مشقة أو نفور في النفوس، ويتضح ذلك في التدرج في تحريم الخمر، وكذلك في عقوبة الزنا فكانت في بداية الأمر الإمساك في البيوت، قال تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾.

قال القرطبي: هذه أول عقوبات الزناة، وكان هذا في ابتداء الإسلام(٤).

ثم نُسخ ذلك بوجوب جلد غير المحصنين ورجم المحصنين من الزناة. والحِكَم والمصالح في النسخ عديدة وكثيرة، فمصلحة العباد تقتضي ذلك، وأوامر الله ونواهيه مشتملة على الحكم والمصالح، فإذا انتهت الحكمة والمصلحة من الخطاب الأول وصارت في غيره، أمر جل وعلا بترك الأول الذي زالت حكمته، والأخذ بالخطاب الجديد المشتمل على الحكمة الآن(٥).

وقيل الحكمة بشارة المؤمنين برفع الخدمة عنهم، وبأن رفع مؤنتها عنهم في الدنيا مؤذن برفعها في الجنة(٦).

ثالثا: آية الرجم مما نسخ تلاوته وبقي حكمه(٧).

---

(١) معالم أصول الفقه للجيزاني (٢٦٢).

(٢) مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي (٨٧)، مناهل العرفان٢/ ١٥٣.

(٣) مقدمات النسخ د. أسامة عبد العظيم (٧٤).

(٤) تفسير القرطبي ٥/ ٨٤.

(٥) معالم أصول الفقه للجيزاني (٢٦٣)بتصرف.

(٦) إرشاد الفحول (١٨٦: ١٨٥)، وانظر مزيدًا على ما تقدم في مبحث (النسخ)من هذه الموسوعة.

(٧) قال الآمدي: اتفق العلماء على جواز نسخ التلاوة دون الحكم، بالعكس ونسخهما معًا (الإحكام في أصول الأحكام٣/ ٢٨، وانظر الفقيه والمتفقه١/ ٢٤٨: ٢٤٧.

النسخ عند العلماء يقع على ثلاثة أوجه:

أحدها: ما نُسخ حكمه وتلاوته.

الثاني: ما نُسخ تلاوته دون حكمه.

الثالث: ما نُسخ حكمه وبقيت تلاوته[١].

وآية الرجم مما نُسخ تلاوته وبقي حكمه.

قال ابن قدامة: وقد تظاهرت الأخبار بنسخ آية الرجم، وحكمها باق[٢].

قال ابن النجار: فهذا الحكم فيه باق، واللفظ مرتفع لرجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية واليهوديين[٣].

وقال الكرمي: ما رُفع رسمه من غير بدل وبقي حكمه مجمعًا عليه نحو آية الرجم[٤].

وقال الغزالي: فقد تظاهرت الأخبار بنسخ تلاوة آية الرجم مع بقاء حكمها[٥].

ثانيًا: الحكمة من نسخ تلاوة آية الرجم وبقاء حكمها.

قال ابن الجوزي: إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام والمنام أدنى طرق الوحي[٦].

فآية الرجم المقصود منها إثبات حكمها، لا التعبد بها، ولا تلاوتها، فأنزلت وقرأها الناس، وفهموا منها حكم الرجم، فلما تقرر ذلك في نفوسهم نسخ الله تلاوتها، والتعبد بها، وأبقى حكمها الذي هو المقصود[١].

---

(١) الفقيه والمتفقه ١/ ٢٤٥، روضة الناظر ١/ ٢٣٠.

(٢) روضة الناظر ١/ ٢٣٢.

(٣) شرح الكوكب المنير ٣/ ٥٥٥.

(٤) الناسخ والمنسوخ للكرمي (٢٥).

(٥) المستصفى للغزالي (٩٩).

(٦) نقلًا من: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٣٧.

وقد أجاب الزرقاني أيضًا على الحكمة من ذلك، وذلك بشبهة قد أثيرت فقال: ندفع هذه الشبهة بجوابين:

أحدهما: أن نسخ الآية مع بقاء الحكم ليس مجردًا من الحكمة ولا خاليًا من الفائدة حتى يكون عبثًا، بل فيه فائدة أي فائدة وهي: حصر القرآن في دائرة محدودة تيسر على الأمة حفظه واستظهاره وتسهل على سواد الأمة التحقق فيه وعرفانه وذلك سور محكم وسياج منيع يحمي القرآن من أيدي المتلاعبين فيه بالزيادة أو النقص لأن الكلام إذا شاع وذاع وملأ البقاع ثم حاول أحد تحريفه سرعان ما يعرف وشد ما يقابل بالإنكار وبذلك يبقى الأصل سليما من التغيير والتبديل مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾.

والخلاصة أن حكمة الله قضت أن تنزل بعض الآيات في أحكام شرعية عملية حتى إذا اشتهرت تلك الأحكام نسخ سبحانه هذه الآيات في تلاوتها فقط رجوعًا بالقرآن إلى سيرته من الإجمال وطردًا لعادته في عرض فروع الأحكام من الإقلال تيسيرًا لحفظه وضمانًا لصونه والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ثانيهما: أنه على فرض عدم علمنا بحكمة ولا فائدة في هذا النوع من النسخ فإن عدم العلم بالشيء لا يصلح حجة على العلم بعدم ذلك الشيء وإلا فمتى كان الجهل طريقا من طرق العلم ثم إن الشأن في كل ما يصدر عن العليم الحكيم الرحمن الرحيم أن يصدر لحكمة أو لفائدة نؤمن بها وإن كنا لا نعلمها على التعيين وكم في الإسلام من أمور تعبدية استأثر الله بعلم حكمتها أو أطلع عليها بعض خاصته من المقربين منه والمحبوبين لديه وفوق كل ذي علم عليم وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا.

---

(١) أضواء البيان ٥/ ٣٨٣.

ولا بدع في هذا فرب البيت قد يأمر أطفاله بما لا يدركون فائدته لنقص عقولهم على حين أنه في الواقع مفيد وهم يأتمرون بأمره وإن كانوا لا يدركون فائدته والرئيس قد يأمر مرؤوسيه بما يعجزون عن إدراك سره وحكمته على حين أن له في الواقع سرًا وحكمة وهم ينفذون أمره وإن كانوا لا يفهمون سره وحكمته، كذلك شأن الله مع خلقه فيما خفي عليهم من أسرار تشريعه وفيما لم يدركوا من فائدة نسخ التلاوة دون الحكم ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم(١).

الوجه الثالث: تحريف الكتاب المقدس باستشهاده بأسفار غير موجودة فيه. (٢)

الكتاب المقدس جاء لنا بأسفار غير موجودة، ولا يدري أحد أين هذه الأسفار، وهل هي مفقودة أم حُذفت؟ ، فهذا دليل على التحريف بحذف كثير من الأسفار في الكتاب، وإليكم بعض الأسفار المحذوفة:

١- سفر حروب الرب: لِذلِكَ يُقَالُ فِي كِتَابِ "حُرُوبِ الرَّبِّ": "وَاهِبٌ فِي سُوفَةَ وَأَوْدِيَةِ أَرْنُونَ. (العدد٢١/ ١٤)، فأين هذا السفر؟

٢- سفر ياشر: وذلك في موضعين:

فَدَامَتِ الشَّمْسُ وَوَقَفَ الْقَمَرُ حَتَّى انْتَقَمَ الشَّعْبُ مِنْ أَعْدَائِهِ. أَلَيْسَ هذَا مَكْتُوبًا فِي سِفْرِ يَاشَرَ؟ فَوَقَفَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ تَعْجَلْ لِلْغُرُوبِ نَحْوَ يَوْمٍ كَامِلٍ. (يشوع١٠/ ١٣).

وَقَالَ أَنْ يَتَعَلَّمَ بَنُو يَهُوذَا "نَشِيدَ الْقَوْسِ". هُوَذَا ذلِكَ مَكْتُوبٌ فِي سِفْرِ يَاشَرَ (صموئيل الثاني١/ ١٨)، فأين سفر ياشر؟.

٣- سفر أمور سليمان وَبَقِيَّةُ أُمُورِ سُلَيْمَانَ وَكُلُّ مَا صَنَعَ وَحِكْمَتُهُ أَمَا هِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي سِفْرِ أُمُورِ سُلَيْمَانَ؟ (الملوك الأول١١/ ٤١).

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ١٧١: ١٧٠.

(٢) راجع بحث " تحريف الكتاب المقدس " في هذه الموسوعة المباركة.

٤- سفر مرثية إرميا على يوشيا: وَرَثَى إِرْمِيَا يُوشِيَّا. وَكَانَ جَمِيعُ الْمُغَنِّينَ وَالْمُغَنِّيَاتِ يَنْدُبُونَ يُوشِيَّا فِي مَرَاثِيهِمْ إِلَى الْيَوْمِ، وَجَعَلُوهَا فَرِيضَةً عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَهَا هِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي الْمَرَاثِي. (أخبار الأيام الثاني٣٥/ ٢٥) فأين هي؟

٥- سفر أخبار ناثان النبي، وسفر نبوة أخيا الشليوني، وسفر رؤى يعدو الرائي: وَبَقِيَّةُ أُمُورِ سُلَيْمَانَ الأُولَى وَالأَخِيرَةِ، أَمَاهِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي أَخْبَارِ نَاثَانَ النَّبِيِّ، وَفِي نُبُوَّةِ أَخِيَّا الشِّيلُونِيِّ، وَفِي رُؤَى يَعْدُو الرَّائِي عَلَى يَرُبْعَامَ بْنِ نَبَاطَ؟ (أخبار الأيام الثاني٩/ ٢٩).

٦- سفر أخبار جاد الرائي، وسفر أخبار صموئيل الرائي: وَأُمُورُ دَاوُدَ الْمَلِكِ الأُولَى وَالأَخِيرَةُ هِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي سِفْرِ أَخْبَارِ صَمُوئِيلَ الرَّائِي، وَأَخْبَارِ نَاثَانَ النَّبِيِّ، وَأَخْبَارِ جَادَ الرَّائِي (أخبار الأيام الأول٢٩/ ٢٩).

٧- سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا: وذلك في موضعين:

وبقية أمور أمون التي عمل أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا (الملوك الثاني٢١/ ٢٥).

وبقية أمور يهوياقيم وكل ما عمل إما هي مكتوبة في سفر ملوك إسرائيل ويهوذا (الملوك الثاني٢٤/ ٥).

٨- سفر ملوك إسرائيل ويهوذا: وَبَقِيَّةُ أُمُورِ يُوثَامَ وَكُلُّ حُرُوبِهِ وَطُرُقِهِ، هَاهِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي سِفْرِ مُلُوكِ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا. (أخبار الأيام الثاني٢٧/ ٧).

٩- سفر أخبار شمعيا النبي وعدو الرائي: وَأُمُورُ رَحُبْعَامَ الأُولَى وَالأَخِيرَةُ، أَمَاهِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي أَخْبَارِ شَمْعِيَا النَّبِيِّ وَعِدُّو الرَّائِي عَنِ الانْتِسَابِ؟ وَكَانَتْ حُرُوبٌ بَيْنَ رَحُبْعَامَ وَيَرُبْعَامَ كُلَّ الأَيَّامِ. . (أخبار الأيام الثاني ١٢/ ١٥).

١٠- سفر كتاب إشعياء بن آموص النبي: وَبَقِيَّةُ أُمُورِ عُزِّيَّا الأُولَى وَالأَخِيرَةُ كَتَبَهَا إِشَعْيَاءُ بْنُ آمُوصَ النَّبِيُّ. . (أخبار الأيام الثاني٢٦/ ٢٢).

١١- سفر أخبار الرائيين: وَصَلاَتُهُ وَالاسْتِجَابَةُ لَهُ، وَكُلُّ خَطَايَاهُ وَخِيَانَتُهُ وَالأَمَاكِنُ الَّتِي بَنَى فِيهَا مُرْتَفَعَاتٍ وَأَقَامَ سَوَارِيَ وَتَمَاثِيلَ قَبْلَ تَوَاضُعِهِ، هَا هِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي أَخْبَارِ الرَّائِينَ. . (أخبار الأيام الثاني ٣٣/ ١٦). [١]

فهل هذه الأسفار سقطت من النسخ أم نسخت أم أزالها الأحبار والكهنة أي جواب عن هذه التساؤلات مر

* * *

(١) راجع بحث (النسخ) من الموسوعة، فقد أشبعنا القول هناك في إثبات النسخ عندهم.

الشبهة الرابعة: ادعاؤهم أن القرآن يحض على الزنا.

نص الشبهة:

يقولون: إن القرآن يحض على الزنا، والدليل على ذلك قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ (هود: ٧٨).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

الوجه الثاني: في بيان ﴿أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

الوجه الثالث: في بيان أفعل التفضيل، وأن أفعل التفضيل في الآية ليس على بابه.

الوجه الرابع: الإسلام أصَّل قاعدة سد الذرائع الموصلة للزنا.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ (الشعراء: ١٦٥، ١٦٦)، وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (الحجر: ٧٠) أي: ألم ننهك عن ضيافة الرجال﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الحجر: ٧١، ٧٢)، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾، قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمَّتِهِ، وكل نبي أبو أمَّتِه. وكذا روي عن قتادة، وغير واحد.

وقال ابن جُرَيْج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحًا، وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم، هن بَنَاته، وهو أب لهم، ويقال في بعض القراءات (النبي أولى

بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم). وكذا روي عن الربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم[(١)].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه لما جاءوه يراودونه عن ضيفه: هؤلاء يا قوم بناتي -يعني نساء أمته- فانكحوهن فهنّ أطهر لكم[(٢)].

الوجه الثاني: في بيان ﴿أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ والمراد منها.

أولًا: معناها في اللغة:

قال ابن منظور: هن أطهر لكم: أي أحل لكم[(٣)]. والتطهر: التنزه عما لا يحل[(٤)]. ومعناها أيضًا: من الطهر نقيض الحيض، ونقيض النجاسة، والجمع أطهار[(٥)].

ثانيًا: بيان معناها عند المفسرين:

قال الطبري: قال: أمرهم لوط بتزويج النساء وقال: (هن أطهر لكم). وقال أيضًا: عن مجاهد قال: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرضْ عليهم سفاحًا[(٦)].

وقال ابن كثير: قال ابن جُرَيْج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحًا[(٧)].

وقال الماوردي: أي أحل لكم بالنكاح الصحيح[(٨)].

وقال البغوي: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يعني: بالتزويج[(٩)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩٥.

(٢) تفسير الطبري ٧/ ٨١.

(٣) لسان العرب٤/ ٥٠٤، تهذيب اللغة٦/ ١٧٢.

(٤) تهذيب اللغة٦/ ١٧٢.

(٥) لسان العرب ٤/ ٥٠٤.

(٦) تفسير الطبري٧/ ٨١.

(٧) تفسير ابن كثير٢/ ٥٩٥.

(٨) النكت والعيون٢/ ٢١٤.

(٩) تفسير البغوي١/ ١٩١.

وقال الرازي: ظاهر قوله: ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يقتضي كون العمل الذي يطلبونه طاهرًا ومعلوم أنه فاسد ولأنه لا طهارة في نكاح الرجل، بل هذا جار مجرى قولنا: الله أكبر، والمراد أنه كبير ولقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ (الصافات: ٦٢) ولا خير فيها، ولما قال أبو سفيان: اعل أحدًا واعل هبل قال النبيﷺ: " الله أعلى وأجل " ولا مقاربة بين الله وبين الصنم[١].

وقال القرطبي: ابتداء وخبر، أي أزوجكموهن، فهو أطهر لكم مما تريدون، أي أحل، والتطهر التنزه عما لا يحل[٢].

ومعنى أطهر: أنظف فعلًا. وقيل: أحل وأطهر بيتًا ليس أفعل التفضيل، إذ لا طهارة في إتيان الذكور[٣].

وقال الشوكاني: أي: تزوّجوهنّ، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي، أي: أحلّ وأنزه والتطهر: التنزه عما لا يحل[٤].

وقال ابن عاشور: ومعنى ﴿هُنَّ أَطْهَرُ﴾ أنهنّ حلال لكم يَحُلْنَ بينكم وبين الفاحشة، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة قصد به قوّة الطهارة[٥].

الوجه الثالث: في بيان أفعل التفضيل، وأن أفعل التفضيل في الآية ليس على بابه.

قال ابن هشام: واسم التفضيل وهو الصفة الدالة على المشاركة والزيادة كأكرم[٦].

ولأفعل إذا كان للتفصيل ثلاثة أحوال[٧]:

---

(١) تفسير الرازي١٨/ ٣٣.

(٢) تفسير القرطبي٩/ ٦٦.

(٣) البحر المحيط٥/ ١٤٧.

(٤) فتح القدير٢/ ٧٤٢.

(٥) التحرير والتنوير١/ ٢١٣٠.

(٦) قطر الندى (٣٠٦).

(٧) ولاسم التفضيل ثلاث حالات:

الأول: أن يكون معه. من نحو، زيد أفضل من عمرو. والثاني: أن تدخل عليه الألف واللام. نحو: زيد الأفضل. والثالث: أن يكون مضافًا. نحو: زيد أفضل القوم وعمرو أفضلكم[1].

ومما سبق يظهر أن اسم التفضيل إما أن يكون معرَّفًا بأل، أو الإضافة، أو خاليًا منهما وإذا كان اسم التفضيل غير معرف بأل وغير مضاف لزم أن يأتي بعده (بمن) جارة للمفضول، وإن حُذفت كان موضعها ظاهرًا، والآية كما هو واضح خارجة عن هذه الحالات الثلاث لاسم التفضيل، ولذا كان اسم التفضيل غير دال على معنى التفضيل، بل هو دال على مطلق الوصف والانفراد بالفعل، أي: الطهارة، وانفراد الزواج وإتيان النساء لأنها فطرة الله عن غير ذلك مما حرمه.

وقد جاء اسم التفضيل بمعنى اسم الفاعل، أو الصفة المشبهة قياسًا عند المبرد، سماعًا عند غيره. وهو الأصح كما في البيت، فإنهما بمعنى صغير وكبير.

وهذا البيت أورده المبرد في الكامل عند شرح قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا   بيتًا دعائمه أعز وأطول

أ- أن يكون مجردًا من أل والإضافة، فيجب له حكمان: أحدهما: أن يكون مفردًا مذكرًا دائمًا، الثاني: أن يأتي بعده (بمن)جارة للمفضول، وقد تُحذف نحو قوله تعالى: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ . . . . أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ . . .﴾، وإن حُذفت من الجارة كان المعنى ظاهرًا بها لا يستغني عنها نحو ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾، وقد جاء الإثبات والحذف في قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: منك.

ب – أن يكون بأل، فيجب له حكمان: أحدهما: أن يكون مطابقًا لموصوفه، الثاني: ألا يأتي معه بمن، نحو: زيدُ الأفضل.

ج- أن يكون مضافًا، فإن كانت إضافته نكرة لزمه أمران: التذكير والتوحيد، كما يلزمان المجرد لاستوائهما في التنكير، ويلزم في المضاف إليه أن يطابق، وإن كانت الإضافة إلى معرفة فإن أوَّل أفعل بما لا تفضيل فيه وجبت المطابقة، وإن كان على أصله من إفادة المفاضلة جازت المطابقة بنحو قوله تعالى: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا . . .﴾ أوضح المسالك إلى ألفية مالك (٢٨٧).

(١) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٧٨، باب (ما جاء على أفعل. . .).

قال: وجائزٌ أن يكون التقدير: دعائمه عزيزة طويلة، كما قال الآخر:

قبحتم يا آل زيدٍ نفرا ...... البيت

قال: يريد صغارًا وكبارًا.

وقال العُكبري: وأما (أَمْيَلُ) فهو أفعل بمعنى فاعل كما جاءَ أكبرُ بمعنى كبير وأَوْحَدُ بمعنى واحدٍ وليسَ المعنى أنّي أكثرُ مَيْلًا منكم[1].

فقد تستعمل للمنفرد بالفعل، كقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ (يونس: ٣٥)، وقال تعالى: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ (الأنعام: ٨١) وقال لوط: ﴿بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (هود: ٧٨) أي من أدبار الرجال، ولا طهارة فيهم[2].

وصيغة التفضيل قد ترد مرادًا بها مطلق الوصف، لا حصول التفضيل بين شيئين وصيغة التفضيل في الآيات المذكورة لمطلق الوصف لا للتفضيل، والآيات التي ذكر معلوم أنها لا يمكن أن تكون للتفضيل، لأن الأصنام لا نصيب لها من أحقِّيَّة الاتباع أصلًا في قوله: ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ (يونس: ٣٥) ولأن الكفار لا نصيب لهم في الأحقية بالأمن، ولأن أدبار الرجال لا نصيب لها في الطهارة[3].

الوجه الرابع: الإسلام أصّل قاعدة سد الذرائع الموصلة للزنا[4].

وضع الإسلام وأصّل قاعدة هامة وهي قاعدة سد الذرائع، فالقاعدة تبين أن أي شيء يؤدي إلى الحرام فهو حرام، وأن الله إذا حرَّم شيء حرَّم أسبابه، وكما قال ابن القيم: فَإِذَا حَرَّمَ الرَّبُّ تَعَالَى شَيْئًا وَلَهُ طُرُقٌ وَوَسَائِلُ تُفْضِي إلَيْهِ فَإِنَّهُ يُحَرِّمُهَا وَيَمْنَعُ مِنْهَا، تَحْقِيقًا

---

(١) إعراب لامية العرب للعكبري ١/ ٥٨، البيت الأول: أَقِيمُوا بني أُمي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ فإني إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ.

(٢) المغني لابن قدامة ١٠/ ٢١٦.

(٣) أضواء البيان للشنقيطي ٦/ ١٠٩.

(٤) مقدمة حد الزنا، باب: (سد الذرائع الموصلة إلى الزنا).

لِتَحْرِيمِهِ، وَتَثْبِيتًا لَهُ، وَمَنْعًا أَنْ يُقْرَبَ حِمَاهُ، وَلَوْ أَبَاحَ الْوَسَائِلَ وَالذَّرَائِعَ الْمُفْضِيَةَ إِلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ نَقْضًا لِلتَّحْرِيمِ، وَإِغْرَاءً لِلنُّفُوسِ بِهِ، وَحِكْمَتُهُ تَعَالَى وَعِلْمُهُ يَأْبَى ذَلِكَ. وَبَابُ سَدِّ الذَّرَائِعِ أَحَدُ أَرْبَاعِ التَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ[1].

والأمثلة في الشريعة من سد الذرائع الموصلة إلى الزنا كثيرة وعديدة، فمنها:

- إقامة الحدود، وشهود طائفة من المؤمنين هذه الحدود.
- الأمر بغض البصر.
- نهي المرأة أن تسافر بغير محرم.
- تشريع الاستئذان.
- منع إشاعة الفاحشة ونشر الرذيلة.
- تحريم الاختلاط.
- إبطال أنواع من الأنكحة يتراضاها الزوجان.

فالأمثلة كثيرة وعديدة، وقد توسعنا في هذا الباب في مقدمة حد الزنا، باب: (سد الذرائع الموصلة إلى الزنا).

* * *

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١١٢ - ١٣٠.

١٤ـ حديث امرأتي لا تمنع يد لامس.

نص الشبهة:

في الآية﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٣).

وفي الحديث: عن ابن عباس، وفيه: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لامسٍ قال: "غَرِّبْها"، قال: أخاف أن تتبعها نفسي، قال: "فاستمتع بها".

فالآية الكريمة تدل على أن الزاني من المؤمنين لا ينكح إلا زانيةً أو مشركةً، وكذا الزانية بينما ظاهر الحديث يدل على أنه يجوز للرجل أن يستمر على نكاح من زنت وهي تحته، ويدل أيضًا على أن هذه المرأة لا تمتنع ممن يطلب منها الفاحشة.

الرد على هذه الشبهة من وجوهٍ:

الوجه الأول: تخريج الحديث، وبيان درجته.

الوجه الثاني: الفهم الصحيح للحديث على تقدير ثبوته.

الوجه الثالث: سبب نزول الآية.

الوجه الرابع: تفسير الآية.

الوجه الخامس: توجيهات العلماء وتوفيقهم بين الحديث والآية.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تخريج الحديث، وبيان درجته.

حديث ابن عباس، وفيه: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لامسٍ قال: "غَرِّبْها"، قال: أخاف أن تتبعها نفسي، قال: "فاستمتع بها".

وفي روايةٍ عن ابن عباس أيضًا: جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن عندي امرأةً هي من أحب الناس إليَّ، وهي لا تمنع يد لامس، قال: "طلقها"، قال: لا أصبر عنها، قال: "استمتع بها".[1]

---

(١) **إسناده صحيح وأعل بالإرسال** أخرجه النسائي في الكبرى (٥٦٥٨)، والصغرى (٦/ ١٧٠)، وأبو داود (٢٠٤٩)، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٥٤)، وفي معرفة السنن والآثار (١٣٧٦٧) كلهم من طريق الحسين بن واقد، عن عمارة بن أبي حفصة، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعًا. قلت: وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات.

وللحديث طرق أخرى عن ابن عباس، أخرجه ابن أبي شيبة (١٦٥٩٣)، والنسائي في الكبرى (٥٣٤٠) والصغرى (٦/ ٦٧)، والبيهقي (٧/ ١٥٤) كلهم من طرق عن حماد ابن سلمة، عن عبد الكريم بن أبي المخارق، عن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي، عن ابن عباس مرفوعًا به.

وإسناده ضعيف لضعف عبد الكريم بن أبي المخارق، فقد أجمع جمهور الأئمة على تضعيفه، انظر تهذيب الكمال (١٨/ ٢٦٥: ٢٦١)، وتهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٩)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٨٣).

وقد خولف، خالفه هارون بن رئاب فأخرجه مرسلًا. أخرجه عبد الرزاق عن معمر بن راشد (١٢٣٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥٣٤٠)، والصغرى (٦/ ٦٧)، والبيهقي (٧/ ١٥٤) عن حماد بن سلمة، وأخرجه الشافعي في المسند (١/ ٢٨٩)، ومن طريقه البغوي في شرح السنة (٢٣٨٢)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١٣٧٦٦) ثلاثتهم (معمر، وحماد، وسفيان بن عيينة) عن هارون بن رئاب الأسدي عن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي مرسلًا.

قال النسائي في الكبرى له (٣/ ٢٧٠-٢٧١): هذا الحديث ليس بثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون بن رئاب أثبت منه وقد أرسل الحديث، وهارون ثقة، وحديثه أولى بالصواب، من حديث عبد الكريم.

وأخرجه عبد الرزاق (١٢٣٦٦) عن الثوري، عن عبد الكريم الجزري، عن رجل، عن هشام مولى رسول الله ﷺ وهو ضعيف لجهالة الرجل.

وأخرجه البيهقي ٧/ ١٥٥، وابن قانع في معجم الصحابة (١١٧١)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٥٨٠)، والاستيعاب (٢٧١٧) عن الثوري، عن عبد الكريم الجزري، عن أبي الزبير، عن هشام مولى لبني هاشم، وهشام لم يرد له ذكر سوى في هذا الحديث، وأيضًا فيه أبو الزبير وقد عنعن وهو مدلس.

وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٧٢) من طريق أبي الزبير مرسلًا.

وللحديث طرق أخرى، راجع البدر المنير لابن الملقن ٨/ ١٧٧، وقد صححه هناك.

الوجه الثاني: الفهم الصحيح للحديث على تقدير ثبوته.

للعلماء في هذا الحديث عدةُ تأويلاتٍ:

- أن الحديث ضعيفٌ لا يثبت.
- أن المراد أن المرأة لا ترد من أراد منها الفاحشة.
- أن المرأة لا ترد من أراد منها شيئًا من مالها، أو من مال زوجها.
- أنها سهلة الأخلاق ليس فيها نفورٌ وحشمةٌ عن الأجانب لا أنها تأتي الفاحشة – وهو الراجح–والله أعلم.

عقد ابن القيم فصلًا بعنوان (فتاوى إمام المفتين. . . في الطلاق) عن قول الرجل للرسولﷺ: "إن امرأتي لا ترد يد لامسٍ" فقال: فعورض بهذا الحديث المتشابه الأحاديث المحكمة الصريحة في المنع من تزويج البغايا، واختلفت مسالك المحرمين لذلك فيه.

فقالت طائفةٌ: المراد باللامس ملتمس الصدقة، لا ملتمس الفاحشة.

وقالت طائفةٌ: بل هذا في الدوام غير مؤثرٍ، وإنما المانع ورود العقد على زانيةٍ. فهذا هو الحرام. وقالت طائفةٌ: بل هذا من التزام أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

فإنه لما أمر بمفارقتها خاف أن لا يصبر عنها فيواقعها حرامًا، فأمره حينئذٍ بإمساكها، إذ مواقعتها بعد عقد النكاح أقل فسادًا من مواقعتها بالسفاح.

وقالت طائفةٌ: بل الحديث ضعيفٌ لا يثبت.

وقالت طائفةٌ: ليس في الحديث ما يدل على أنها زانيةٌ، وإنما فيه أنها لا تمتنع ممن لمسها أو وضع يده عليها أو نحو ذلك، فهي تعطي الليان لذلك، ولا يلزم أن تعطيه الفاحشة الكبرى، ولكن هذا لا يؤمن معه إجابتها لداعي الفاحشة، فأمره بفراقها تركًا لما يريبه إلى

قال الشوكاني: قال ابن الجوزي: لا أصل له، وعده في الموضوعات، قال ابن حجر– لما سئل عن هذا الحديث–: إنه حسن صحيح ولم يصب من قال إنه موضوع، وقد أخرجه أبو داود في سننه والنسائي، قال المنذري في مختصر السنن: رجال إسناده محتج بهم في الصحيحين على الاتفاق والانفراد. وبالجملة فإدخال مثل هذا الحديث في الموضوعات مجازفة ظاهرة. اهـ الفوائد المجموعة ١/ ١٢٩. وانظر: تلخيص الحبير ٣/ ٢٢٥.

ما لا يريبه، فلما أخبره بأن نفسه تتبعها وأنه لا صبر له عنها رأى مصلحة إمساكها أرجح من مفارقتها لما يكره من عدم انقباضها عمن يلمسها، فأمره بإمساكها، وهذا لعله أرجح المسالك، والله أعلم.

و باختصارٍ بليغٍ يبين أنه لا تعارض بين الآية والحديث فيقول: ولا يعارض ذلك حديث ابن عباسٍ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي لا تمنع يد لامسٍ قال: "غربها"، قال: أخاف أن تتبعها نفسي، قال: "فاستمتع بها".

وقال: فإنه في الاستمرار على نكاح الزوجة الزانية، والآية في ابتداء النكاح فيجوز للرجل أن يستمر على نكاح من زنت وهي تحته، ويحرم عليه أن يتزوج بالزانية. (١)

وذكر الصنعاني المسألة باختصارٍ وأن الاختلاف فيها على قولين:

الأول: أن معناه الفجور؛ وأنها لا تمنع من يريد منها الفاحشة. وهذا قول أبي عبيد، والخلال، والنسائي، وابن الأعرابي، والخطابي، واستدل به الرافعي على أنه لا يجب تطليق من فسقت بالزنا إذا كان الرجل لا يقدر على مفارقتها.

والثاني: أنها تبذر بمال زوجها، ولا تمنع أحدًا طلب منها شيئًا منه، وهذا قول أحمد والأصمعي ونقله عن علماء الإسلام، وأنكر ابن الجوزي على من ذهب إلى الأول. قال في النهاية: وهو أشبه بالحديث؛ لأن المعنى الأول يشكل على ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وإن كان في معنى الآية وجوهٌ كثيرةٌ:

قلت: الوجه الأول في غاية من البعد، بل لا يصح للآية، ولأنه ﷺ لا يأمر الرجل أن يكون ديوثًا فحمله على هذا لا يصح.

والثاني: بعيدٌ؛ لأن التبذير إن كان بمالها فمنعها ممكن، وإن كان من مال الزوج فكذلك ولا يوجب أمره بطلاقها على أنه لم يتعارف في اللغة أن يقال: فلان لا يرد يد لامس كناية عن الجود.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ٣٤٨)، وزاد المعاد (٥/ ١٠٤). على قول من قال: إن المرأة كانت لا ترد من أراد الفاحشة منها، وقد رجح ابن القيم خلافه.

فالأقرب المراد: أنها سهلة الأخلاق ليس فيها نفور وحشمة عن الأجانب لا أنها تأتي الفاحشة، وكثير من النساء والرجال بهذه المثابة مع البعد من الفاحشة، ولو أراد به أنها لا تمنع نفسها عن الوقاع من الأجانب لكان قاذفًا لها.(١)

وفي تعليق السندي على هذا الحديث ذاكرًا اختلاف العلماء في حكم النهي عن نكاح الزانية (وقد رجح كونه مكروهًا) قائلًا: **قِيلَ**: هُوَ نَهْيُ تَنْزِيهٍ، أَوْ هُوَ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ وَعَلَيْهِ الجُمْهُور، وَقِيلَ: حَرَامٌ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ قَوْله: (وَهِيَ لَا تَمْنَع يَد لَامِسٍ) أَيْ: أَنَّهَا مُطَاوِعَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ الْفُجُورِ.

وقِيلَ: بَلْ هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ بَذْلِهَا الطَّعَامَ، **قِيلَ**: وَهُوَ الْأَشْبَه، وَقَالَ أَحْمَد: لَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرَهُ بِإِمْسَاكِهَا وَهِيَ تَفْجُر، **وردَ** بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ السَّخَاءَ لَقِيلَ: لَا تَرُدُّ يَدَ مُلْتَمِسٍ؛ إِذْ السَّائِل يُقَال لَهُ الْمُلْتَمِس لَا لَامِس، وَأَمَّا اللَّمْس فَهُوَ الجِمَاعُ أَوْ بَعْضُ مُقَدَّمَاتِهِ، وَأَيْضًا السَّخَاء مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ فَلَا تَكُون الْمَرْأَةُ مُعَاقَبَةً لِأَجْلِهِ مُسْتَحِقَّةً لِلْفِرَاقِ فَإِنَّهَا إِمَّا أَنْ تُعْطِيَ من مَالِهَا أَوْ من مَالِ الزَّوْجِ، وَعَلَى الثَّانِي عَلَى الزَّوْج صَوْنُه وَحِفْظُه. وَعَدَمُ تَمْكِينهَا مِنْهُ فَلَمْ يَتَعَيَّنْ الْأَمْرُ بِتَطْلِيقِهَا، **وقِيلَ**: الْمُرَادُ أَنَّهَا تَتَلَذَّذُ بِمَنْ يَلْمِسهَا فَلَا تَرُدُّ يده وَلَمْ يُرِدْ الْفَاحِشَةَ الْعُظْمَى، وَإِلَّا لَكَانَ بِذَلِكَ قَاذِفًا -**وهو الراجح**-، **وقِيلَ**: الْأَقْرَبُ أَنَّ الزَّوْج عَلِمَ مِنْهَا أَنَّ أَحَدًا لَوْ أَرَادَ مِنْهَا السُّوء لَمَا كَانَتْ هِيَ تَرُدّهُ لَا أَنَّهُ تَحَقَّق وُقُوعُ ذَلِكَ مِنْهَا بَلْ ظَهَرَ لَهُ ذَلِكَ بِقَرَائِن فَأَرْشَدَهُ الشَّارِع إِلَى مُفَارَقَتهَا اِحْتِيَاطًا فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى فِرَاقهَا لِمَحَبَّتِهِ لَهَا وَأَنَّهُ لَا يَصْبِر عَلَى ذَلِكَ رَخَّصَ لَهُ فِي إِثْبَاتهَا لِأَنَّ مَحَبَّتَه لَهَا مُحَقَّقَةٌ وَوُقُوعَ الْفَاحِشَة مِنْهَا مُتَوَهَّمٌ.

"اِسْتَمْتِعْ بِهَا" أَيْ: كُنْ مَعَهَا قَدْرَ مَا تَقْضِي حَاجَتَك، ثُمَّ لَا دَلَالَة فِي الْحَدِيث عَلَى جَوَاز نِكَاح الزَّانِيَة اِبْتِدَاءً ضَرُورَة أَنَّ الْبَقَاء أَسْهَل مِنَ الِابْتِدَاء عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ مُحْتَمِلٌ كَمَا تَقَدَّمَ.(١)

---

(١) سبل السلام (٣/ ١٩٥)، وانظر للشوكاني (نيل الأوطار٦/ ٢٠١)، وفتح القدير (٥/ ١٨٤) والسيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (١/ ٣٧٧).

وفي توجيه ابن حجر للحديث أجملَ القولَ في ذكر الاختلاف فقال: اختلف العلماء في معنى قوله: (لا ترد يد لامس):

فقيل: معناه الفجور، وأنها لا تمتنع ممن يطلب منها الفاحشة. وبهذا قال أبو عبيد، والخلال، والنسائي، وابن الأعرابي، والخطابي، والغزالي، والنووي وهو مقتضى استدلال الرافعي به هنا.

وقيل: معناه التبذير، وأنها لا تمنع أحدًا طلب منها شيئًا من مال زوجها. وبهذا قال أحمد، والأصمعي، ومحمد بن ناصرٍ، ونقله عن علماء الإسلام، وابن الجوزي، وأنكر على من ذهب إلى الأول.

وقال بعض حذاق المتأخرين: قولهﷺ له: "أمسكها" معناه: أمسكها عن الزنا -أو عن التبذير إما بمراقبتها، أو بالاحتفاظ على المال، أو بكثرة جماعها.

ورجح القاضي أبو الطيب الأول بأن السخاء مندوبٌ إليه، فلا يكون موجبًا لقوله: "طلقها"، ولأن التبذير إن كان من مالها فلها التصرف فيه، وإن كان من ماله فعليه حفظه، ولا يوجب شيئًا من ذلك الأمر بطلاقها.

التأويل الراجح عند ابن حجر العسقلاني:

قيل: **والظاهر** أن قوله: (لا ترد يد لامس) أنها لا تمنع من يمد يده ليتلذذ بلمسها، ولو كان كنى به عن الجماع لعُدَّ قاذفًا، أو أن زوجها فهم من حالها أنها لا تمتنع ممن أراد منها الفاحشة لا أن ذلك وقع منها. [٢] وهذا ما رجحه ابن القيم، والصنعاني، والسندي -كما سبق-.

الوجه الثالث: سبب نزول الآية.

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ الأَخْنَسِ أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ -وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الْأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمْ الْمَدِينَةَ- قَالَ: وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا عَنَاقٌ وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ، وَإِنَّهُ كَانَ وَعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى

---

(١) حاشية السندي على النسائي (٦/ ٦٧-٦٨)، وانظر شرح السنة للبغوي (٩/ ٢٨٨)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري (١٠/ ٢٩٦).

(٢) تلخيص الحبير (٣/ ٤٨٦).

مَكَّةَ يَحْمِلُهُ، قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَتْ عَنَاقٌ فَأَبْصَرَتْ سَوَادَ ظِلِّي بِجَنْبِ الحَائِطِ فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْهُ، فَقَالَتْ: مَرْثَدٌ؟ فَقُلْتُ: مَرْثَدٌ، فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا عَنَاقُ، حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا، قَالَتْ: يَا أَهْلَ الخِيَامِ، هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أَسْرَاكُمْ، قَالَ: فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ، وَسَلَكْتُ الخَنْدَمَةَ فَانْتَهَيْتُ إِلَى كَهْفٍ أَوْ غَارٍ فَدَخَلْتُ، فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي فَبَالُوا، فَظَلَّ بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي، وَأَعْمَاهُمُ اللهُ عَنِّي، قَالَ: ثُمَّ رَجَعُوا، وَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ -وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا- حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الإِذْخِرِ فَفَكَكْتُ عَنْهُ كَبْلَهُ، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُعْيِينِي حَتَّى قَدِمْتُ المَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْكِحُ عَنَاقًا؟ فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا مَرْثَدُ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فَلَا تَنْكِحْهَا.[1]

وعن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأةٌ يقال لها- أم مهزول-، وكانت تسافح الرجل وتشترط أن تنفق عليه، فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يتزوّجها، فأنزل الله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٣).[2]

وقيل: إِنَّها نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ، وَكَانُوا قَوْمًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْمَدِينَةِ مَسَاكِنُ وَلَا عَشَائِرُ، فَنَزَلُوا صُفَّةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانُوا أَرْبَعَمِائَةِ رَجُلٍ يَلْتَمِسُونَ الرِّزْقَ بِالنَّهَارِ، وَيَأْوُونَ إِلَى الصُّفَّةِ بِاللَّيْلِ، وَكَانَ بِالْمَدِينَةِ بَغَايَا مُتَعَالِنَاتٌ بِالْفُجُورِ، مَخَاصِيبُ بِالْكِسْوَةِ وَالطَّعَامِ، فَهَمَّ أَهْلُ

(١) أخرجه الترمذي (٣١٠١) وقال: حسن غريب، وأبو داود (١٧٥٥)، وصحح الألباني إسناده في صحيح أبي داود (١٧٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٣٥٩)، والحاكم (٢٧٨٥)، وكذا الألباني كما في الإرواء (١٨٨٧).

الصُّفَّةِ أَنْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ، فَيَأْوُوا إِلَى مَسَاكِنِهِنَّ، وَيَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِنَّ وَكِسْوَتِهِنَّ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ؛ قَالَهُ ابْنُ أَبِي صَالِحٍ وَقَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَزَادَ: أَنَّهُنَّ كُنَّ يُدْعَيْنَ الجَهَنَّمِيَّاتُ، نِسْبَةً إِلَى جَهَنَّمَ. (١).

الوجه الرابع: تفسير الآية:

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ﴾ يَتَزَوَّج -أو يطأ- ﴿ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾أَيْ: المُنَاسِب لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَا ذُكِرَ ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ نِكَاح الزَّوَانِي ﴿ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الْأَخْيَار. نَزَلَ ذَلِكَ لَمَّا هُمْ فُقَرَاء المُهَاجِرِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا بَغَايَا الْمُشْرِكِينَ وَهُنَّ مُوسِرَاتٌ لِيُنْفِقْنَ عَلَيْهِمْ، فَقِيلَ: التَّحْرِيم خَاصٌّ بِهِمْ، وَقِيلَ: عَامٌّ وَنُسِخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾.

فالذين يرتكبون هذه الفعلة لا يرتكبونها وهم مؤمنون. إنها يكونون في حالةٍ نفسيةٍ بعيدةٍ عن الإيهان وعن مشاعر الإيهان. وبعد ارتكابها لا ترتضي النفس المؤمنة أن ترتبط في نكاحٍ مع نفسٍ خرجت عن الإيهان بتلك الفعلة البشعة؛ لأنها تنفر من هذا الرباط وتشمئز. حتى لقد ذهب الإمام أحمد إلى تحريم مثل هذا الرباط بين زانٍ وعفيفةٍ، وبين عفيفٍ وزانيةٍ؛ إلا أن تقع التوبة التي تطهر من ذلك الدنس المنفر. وعلى أية حالٍ، فالآية تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية، ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني، واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكذلك تفيد تقبيحًا لأمر الزاني أشدَّ تقبيحٍ ببيان أنه بعد أن رضي بالزنا لا يليق به أن ينكح العفيفة المؤمنة؛ فبينهما كما بين سهيلٍ والثريا، فترى هذه شاميةً إذا ما استقلت، وترى ذاك إذا ما استقل يمانيًا، وإنما يليق به أن ينكح زانيةً هي في ذلك طبقه ليوافق كما قيل شن طبقه، أو مشركةً هي أسوأ منه حالًا وأقبح أفعالًا، فـ﴿ لَا يَنكِحُ﴾ خبرٌ مرادٌ منه: لا يليق به أن ينكح كما تقول: السلطان لا يكذب، أي لا يليق به أن

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٥/ ٤٨٧)، وانظر تفسير الرازي (١١/ ٢٤٠)، وما بعدها.

يكذب. نزل فيه عدم لياقة الفعل منزلة عدمه وهو كثيرٌ في الكلام، ثم المراد اللياقة وعدم اللياقة من حيث الزنا فيكون فيه من تقبيح الزنا ما فيه. [١]

الوجه الخامس: توجيهات العلماء وتوفيقهم بين الحديث والآية:

بدايةً تكاد تتفق كلمة الفقهاء على أن الزاني المسلم والزانية المسلمة إذا تابا وأرادا الزواج جاز لهما ذلك، وأما إذا لم يتوبا فلا، أما المشرك فلا ينكح المسلمة بحال حتى ولو تاب من زناه ما دام باقيًا على كفره، وكذا المسلم لا ينكح المشركة بحالٍ حتى وإن تابت من زناها ما بقيت على شركها وهذا إجماع، وسيأتي توجيه ابن القيم للآية والحديث حيث خص الآية في ابتداء الزواج، وخص الحديث باستمراره فمنع الأول وأجاز الثاني، وقد اختلفوا هل الآية محكمةٌ أم منسوخةٌ؟ فمِن مؤيِّدٍ للأول ومن مؤيِّدٍ للثاني، وسيتضح ذلك من خلال نُقُول العلماء في التوفيق بين الآية والحديث.

أولًا: سبب الاختلاف:

قال ابن رشد الحفيد: وسبب اختلافهم: اختلافهم في مفهوم قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هل خرج مخرج الذم أو مخرج التحريم؟ وهل الإشارة في قوله: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى الزنا أو إلى النكاح؟ وإنما صار الجمهور لحمل الآية على الذم لا على التحريم لما جاء في الحديث: أن رجلًا قال للنبي ﷺ في زوجته: إنها لا ترد يد لامس فقال له النبي ﷺ: "طلقها"، فقال له: إني أحبها، فقال له: "فأمسكها"، وقال قوم أيضًا: إن الزنا يفسخ النكاح بِناءً على هذا الأصل. وبه قال الحسن[٢].

ثانيًا: توجيهات العلماء:

للعلماء في الآية عدة توجيهات:

---

(١) انظر تفسير الجلالين (٦/ ٣٠٥)، والظلال (٥/ ٢٤٩)، وروح المعاني (١٣/ ٣٢١).

(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٢/ ٤٠).

١-أن الآية على معنى الخبر، أي: أن الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحل الزنا، أو مشركةٍ تستحل الزنا، والزانية لا يزني بها إلا زانٍ أو مشركٌ. وعلى هذا فمعنى النكاح في الآية: الوطء.

٢-أن الزاني لا يليق به أن يتزوج إلا زانيةً مثله أو مشركةً، والزانية لا يليق بها أن تتزوج إلا بزانٍ مثلها أو مشركٍ-وهذا على سبيل الزجر والتقبيح، ولا يفهم منه جواز نكاح مسلمٍ أيًّا كان حاله بمشركةٍ، أو مسلمةٍ أيًّا كان حالها بمشركٍ.

٣-أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ فِي الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً مَحْدُودَةً، وَلَا يَنْكِحُ الزَّانِيَةَ الْمَحْدُودَةَ إِلَّا زَانٍ.

١- أَنَّهُ عَامٌّ فِي تَحْرِيمِ نِكَاحِ الزَّانِيَةِ عَلَى الْعَفِيفِ، وَالْعَفِيفِ عَلَى الزَّانِيَةِ.

٥- أن الآية منسوخةٌ بقول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٣٢) فدخلت الزانية في أيامى المسلمين، وبقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ . .﴾ (النساء: ٣).

وقد رجح **أبو جعفر الطبري** قول من عني بالنكاح الوطء فقال: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عنى بالنكاح في هذا الموضع الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان، فمعلوم إذ كان ذلك كذلك، أنه لم يُعْن بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، ولا ينكح إلا بزانية أو مشركة، وإذ كان ذلك كذلك، فبين أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحلّ الزنا أو بمشركة تستحله.[1]

وارتضاه أيضًا ابن كثير فبين أن هذا خَبَر من الله تعالى بأن الزاني لا يَطأ إلا زانية أو مشركة. أي: ولا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاص بزناه، ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه.

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٠١).

قال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عَمَرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك.

وهذا إسناد صحيح عنه. . وقال قتادة، ومقاتل بن حَيّان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا.[(١)]

وأما أبو السعود فقد رجح أن النكاح بمعنى العقد، وأنه حكمٌ مؤسَّسٌ على الغالبِ المُعتادِ جيءَ به لزجرِ المؤمنينَ عن نكاحِ الزَّواني بعدَ زجرِهم عن الزِّنا بهنَّ. . . وعدمِ التَّعرضِ في الجُملة الثَّانيةِ للمشركةِ للتنبيهِ على أنَّ مناطَ الزَّجرِ والتَّنفيرِ هو الزِّنا لا مجردُ الإشراكِ وإنَّما تعرَّضَ لها في الأُولى إشباعًا في التَّنفير عن الزَّانيةِ بنظمها في سلكِ المُشركةِ ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي نكاحُ الزَّواني ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما أنَّ فيهِ من التَّشبهِ بالفسقةِ والتَّعرضِ للتُّهمةِ والتَّسببِ لسوءِ القالةِ والطَّعنِ في النَّسبِ، واختلالِ أمرِ المعاشِ، وغيرِ ذلكَ من المفاسدِ ما لا يكادُ يليقُ بأحدٍ من الأداني والأراذلِ فضلًا عنِ المُؤمنينَ، ولذلكَ عبَّر عن التنزيهِ بالتَّحريمِ مُبالغةً في الزَّجرِ. وقيل: النَّفيُ بمعنى النَّهيِ وقد قُرِىءَ بهِ. والتَّحريمُ على حقيقته والحكمُ إمَّا مخصوصٌ بسبب النُّزولِ أو منسوخٌ بقولهِ تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، فإنَّه متناولٌ للمسافحاتِ.[(٢)]

وحول القول بالنسخ من عدمه يذكر أبو جعفر النحاس للعلماء في الآية أربعة أقوال:

الأول: منهم من قال: هي منسوخة.

الثاني: ومنهم من قال: النكاح هاهنا الوطء.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٩).

(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٦) بتصرف.

الثالث: ومنهم من قال: الزاني هنا المجلود في الزنا لا ينكح إلا زانيةً مجلودةً في الزنا أو مشركةً وكذا الزانية.

الرابع: ومنهم من قال: هي الزانية التي تتكسب بزناها وتنفق على زوجها واحتج بأن الآية في ذلك أنزلت.

فممن قال: هي منسوخةٌ، سعيد بن المسيب. . . قال ابن عمر: إنها نسخت بالآية التي بعدها ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ (النور: ٣٢)، فدخلت الزانية في أيامى المسلمين وهذا القول الذي عليه أكثر العلماء وأهل الفتيا. . . [١]

ونقل عن الشافعي قوله: القول فيها كما قال سعيد بن المسيب إن شاء الله أنها منسوخة ثم قال: وهذا الحديث يجوز أن يكون منسوخًا كما نسخت الآية في قول سعيد بن المسيب، وانتهى به القول إلى اختياره قول الإمام الشافعي من كون الآية منسوخة. . [٢]

ولما تردد القول عند العلماء في هذه الآية بين النسخ وعدمه صحح ابن جزي قول من قال: إنه عني الوطء: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ الآية: معناها ذم الزناة وتشنيع الزنا، وأنه لا يقع فيه إلا زان أو مشرك، ولا يوافقه عليه من النساء إلا زانية أو مشركة، وينكح على هذا بمعنى: يجامع. [٣]

ورجح ابن نجيم الحنفي المصري: أن قَوْله تَعالَى: ﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ منْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ عَلَى مَا قِيلَ بِدَلِيلِ الْحَدِيثِ أَنَّ رَجُلًا أَتى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله: إِنَّ امْرَأَتِي لَا تَدْفَعُ يَدَ لَامِسٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "طَلِّقْهَا"، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا وَهِيَ جَمِيلَةٌ، فَقَالَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: "اسْتَمْتِعْ بِهَا"، وَفِي

---

(١) واختاره الآلوسي ورجحه في (روح المعاني١٣/ ٣٢٥).

(٢) الناسخ والمنسوخ (١/ ٥٨٢)، وانظر الناسخ والمنسوخ للكرمي (١/ ١٤٩)، والمقري (١/ ١١٧)، وابن سلامة (١/ ٢٠) بتصرف.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٢١٣ باختصار.

الْمُجْتَبَى مِنْ آخِرِ الحَظْرِ وَالْإِبَاحَةِ: لَا يَجِبُ عَلَى الزَّوْجِ تَطْلِيقُ الْفَاجِرَةِ وَلَا عَلَيْهَا تَسْرِيحُ الْفَاجِرِ إلَّا إذَا خَافَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلَا بَأْسَ أَنْ يَتَفَرَّقَا. (١)

وفي فتاوى ابن عليش: وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَيِّنَةٍ فِي نَفْسِهَا اُسْتُحِبَّ لَهُ فِرَاقُهَا مِنْ غَيْرِ قَضَاءٍ إلَّا أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهَا نَفْسُهُ لِحَدِيثِ: (إنَّ زَوْجَتِي لَا تَرُدُّ يَدَ لَامِسٍ)، وَلَا يَأْمَنُ أَنْ تُلْحِقَ بِهِ وَلَدَ غَيْرِهِ. ونقل عن الأصمعي قوله في تأويل الحديث: إنَّمَا كَنَّى عَنْ بَذْلِهَا الطَّعَامَ، وَمَا يُدْخِلُهُ عَلَيْهَا لَا غَيْرُ. (٢)

وقال الإمام الشَّافِعِيُّ: فَالِاخْتِيَارُ لِلرَّجُلِ أَنْ لَا يَنْكِحَ زَانِيَةً وَلِلْمَرْأَةِ أَنْ لَا تَنْكِحَ زَانِيًا، فَإِنْ فَعَلَا فَلَيْسَ ذلك بِحَرَامٍ على وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَيْسَتْ مَعْصِيَةُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا في نَفْسِهِ تُحَرِّمُ عليه الحَلَالَ إذَا أَتَاهُ، قال: وَكَذَلِكَ لو نَكَحَ امْرَأَةً لم يَعْلَمْ أنها زَنَتْ فَعَلِمَ قبل دُخُولِهَا عليه أنها زَنَتْ قبل نِكَاحِهِ أو بَعْدَهُ لم تَحْرُمْ عليه، ولم يَكُنْ له أَخْذُ صَدَاقِهِ منها وَلَا فَسْخُ نِكَاحِهَا، وكان له إنْ شَاءَ أَنْ يُمْسِكَ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُطَلِّقَ، وَكَذَلِكَ إنْ كان هو الذي وَجَدَتْهُ قد زَنَى قبل أَنْ يَنْكِحَهَا أو بعد ما نَكَحَهَا قبل الدُّخُولِ أو بَعْدَهُ فَلَا خِيَارَ لها في فِرَاقِهِ وَهِيَ زَوْجَتُهُ بِحَالِهَا وَلَا تَحْرُمُ عليه، وَسَوَاءٌ حُدَّ الزَّانِي مِنْهُمَا أو لم يُحَدَّ، أو قَامَتْ عليه بَيِّنَةٌ أو اعْتَرَفَ لَا يُحَرِّمُ زِنَا وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَلَا زِنَاهُمَا، وَلَا مَعْصِيَةٌ من الْمَعَاصِي الحَلَالَ إلَّا أَنْ يَخْتَلِفَ دِينَاهُمَا بِشِرْكٍ وَإِيمَانٍ. . .

وقال أيضًا: أخبرنا سُفْيَانُ عن يحيى بن سَعِيدٍ عن سَعِيدِ بن الْمُسَيِّبِ أَنَّهُ قال: هِيَ مَنْسُوخَةٌ نَسَخَتْهَا ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فَهِيَ من أَيَامَى الْمُسْلِمِينَ؛ فَهَذَا كما قال ابن الْمُسَيِّبِ إنْ شَاءَ الله (يعني أنها منسوخة)، وَعَلَيْهِ دَلَائِلُ من الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. (٣)

واستطرد القرطبي في معنى الآية، وأن مقصد الآية تشنيع الزنا، وتبشيع أمره، وأنه محرمٌ على المؤمنين.

---

(١) البحر الرائق (٨/ ٧١).

(٢) فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك (٣/ ١١٩-١٢٠).

(٣) الأم (٥/ ١٢).

ويريد بقوله: ﴿ لَا يَنكِحُ ﴾ أي لا يطأ؛ فيكون النكاح بمعنى الجماع. فالمعنى: الزاني لا يطأ في وقت زناه إلا زانية من المسلمين، أو من هي أخس منها من المشركات. وقد روي عن ابن عباس وأصحابه أن النكاح في هذه الآية الوطء. وأنكر ذلك الزجاج وقال: لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج. وليس كما قال؛ وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٣٠) وقد بينه النبيﷺ أنه بمعنى الوطء،. . . فهذا قول.

أو: أنها نزلت في شأن بغي يقال لها عناق، وكانت صديقة مرثد، قال الخطابي: هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة، فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ.

أو: أنها مخصوصةٌ في رجلٍ من المسلمين أيضا استأذن رسول اللهﷺ في نكاح امرأةٍ يقال لها أم مهزول. . . ثم قال: في هذه الآية دليل على أن التزوج بالزانية صحيح. وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته؛ وهذا على أن الآية منسوخة. وقيل إنها محكمة. . .

ثم ذكر قول ابن خويز منداد: من كان معروفًا بالزنا أو بغيره من الفسوق معلنًا به فتزوج إلى أهل بيت ستر وغرهم من نفسه فلهم الخيار في البقاء معه أو فراقه؛ وذلك كعيب من العيوب؛ فأما من لم يشتهر بالفسق فلا.

ثم قال: قال قوم من المتقدمين: الآية محكمة غير منسوخة، وعند هؤلاء: من زنى فسد النكاح بينه وبين زوجته، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها. وقال قوم من هؤلاء: لا ينفسخ النكاح بذلك، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أثم، ولا يجوز التزوج بالزانية ولا من الزاني، بل لو ظهرت التوبة فحينئذ يجوز النكاح.[1]

---

(١) انظر تفسير القرطبي بتصرف (١٢/ ١٦٧-١٧١).

وخص الكيا الهراسي الآية بالبغايا فقال: فأقوى التأويلات أن الآية نزلت في بغايا الجاهلية، والمسلم ممنوعٌ من التزوج بهن، فإذا تُبنَ وأسلمن صح النكاح، وإذا ثبت ذلك، فلا يجب كونه منسوخًا. (١)

وقد رجح النووي قول إمامه الشافعي أن الآية منسوخة وأن من زنى بامرأة لم يحرم عليه نكاحها لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وجمع بين الأحاديث المانعة والمبيحة قائلًا: ويمكن الجمع بين الأحاديث بأن المنع لمن كانت مستمرة في مزاولة البغاء أي والإباحة لمن تابت مبينًا أن المرأة غير العفيفة يستحب طلاقها مستدلًا بقول الرسول ﷺ للرجل: "طلقها". (٢)

و مجمل القول:

* أن الزاني لا يزني إلا بزانيةٍ أو مشركةٍ – أي لا يطاوعه إلا هذان الصنفان–، والزانية لا يزني بها إلا زانٍ أو مشركٌ (أي أن الآية على معنى الخبر).

* أو أن الزاني لا يليق به أن يتزوج إلا زانيةً مثله أو مشركةً، والزانية لا يليق بها أن تتزوج إلا بزانٍ مثلها أو مشركٍ–وهذا على سبيل الزجر والتقبيح، ولا يفهم منه جواز نكاح مسلمٍ أيًّا كان حاله بمشركةٍ، أو مسلمةٍ أيًّا كان حالها بمشركٍ–.

* أو أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ فِي الزَّانِي لَا يَنكِحُ إلَّا زَانِيَةً مَحْدُودَةً، وَلَا يَنكِحُ الزَّانِيَةَ المَحْدُودَةَ إلَّا زَانٍ.

أو كانت على معنى التحريم – تحريم الزواج– ولم تنسخ.

* أو أَنَّهُ عَامٌّ فِي تَحْرِيمِ نِكَاحِ الزَّانِيَةِ عَلَى الْعَفِيفِ، وَالْعَفِيفِ عَلَى الزَّانِيَةِ.

* أن الآية منسوخةٌ بقول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٣٢)، فدخلت الزانية في أيامى المسلمين، وبقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ .﴾ الآية (النساء: ٣).

---

(١) أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢١).

(٢) المجموع شرح المهذب (١٦/ ٢٢٠ - و١٧/ ٦٩) بتصرف، وانظر الحاوي الكبير للماوردي (١١/ ٢٥٦).

فلا تنافي بين معنى الآية والحديث: إذ لو كان معنى الحديث أن المرأة لا ترد من طلب منها الفاحشة – وهذا بعيد- فالتحريم يكون في ابتداء الزواج لا في استمراره -كما سبق-.

ولو كان معنى الحديث أنها سهلة الأخلاق ليس فيها نفورٌ وحشمةٌ عن الأجانب، وأنها لا تمنع من يمد يده ليتلذذ بلمسها- وهو الراجح- لا أنها تأتي الفاحشة، وكثيرٌ من النساء والرجال بهذه المثابة مع البعد من الفاحشة، فلا علاقة بين معنى الآية والحديث.

* * *

١٥ـ شبهة: الإسلام أباح اللواط.

نص الشبهة:

قالوا: إن الإسلام أحل اللواط واستدلوا بما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ (البقرة: ٢٢١) (أي: لا تتزوجوا).

٢- قوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ (النساء: ١٢٧).

٣- قوله تعالى: ﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ (العنكبوت: ٢٩)

٤- قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ. . . ﴾ (آل عمران: ١٤)

٥- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ (النساء: ١٦).

٦- ذكر القرآن لفعل قوم لوط.

و الجواب على ذلك من وجوه

الوجه الأول: تحريم اللواط من القرآن العزيز.

الوجه الثاني: تحريم اللواط من السنة.

الوجه الثالث: إجماع الصحابة على قتل الفاعل والمفعول به دليل على حرمة اللواط.

الوجه الرابع: إجماع أهل العلم على تحريم اللواط.

الوجه الخامس: الإسلام جاء بسد الزريعة حتى لا يقع أمر اللواط.

الوجه السادس: عقوبة اللواط؛ وفي ذلك دليل علي الحرمة.

الوجه السابع: الأضرار التي تعود على اللائط من الناحية الطبية.

الوجه الثامن: ردود حول ما استدلوا به من الآيات.

الوجه التاسع: الشذوذ في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تحريم اللواط من القرآن العزيز

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ (المؤمنون٧: ٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ (المعارج ٣١: ٢٩).

قال ابن كثير: أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: المعتدون[1].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ فسمى من نكح ما لا يحل عاديا، وأوجب عليه الحد لعدوانه، واللائط عاد قرآنًا ولغة، بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، فوجب أن يقام الحد عليهم، وهذا ظاهر لا غبار عليه[2].

الدليل الثاني: قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأعراف ٨٠: ٨٤). وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ١١٤).

﴿١٧٣﴾ (الشعراء ١٦٠: ١٧٣) وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (النمل ٥٤: ٨٥). وقال تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (هود: ٨٩).

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عبده لوط عليه السلام، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[1].

قال الشوكاني: وَمَا أَحَقَّ مُرْتَكِبَ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ وَمُقَارِفَ هَذِهِ الرَّذِيلَةِ الذَّمِيمَةِ؛ بِأَنْ يُعَاقَبَ عُقُوبَةً يَصِيرُ بِهَا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَيُعَذَّبَ تَعْذِيبًا يكْسِرُ شَهْوَةَ الْفَسَقَةِ الْمُتَمَرِّدِينَ، فَحَقِيقٌ بِمَنْ أَتَى بِفَاحِشَةِ قَوْمٍ مَا سَبَقَهُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ؛ أَنْ يَصْلَى مِنْ الْعُقُوبَةِ بِمَا يَكُونُ فِي الشِّدَّةِ وَالشَّنَاعَةِ مُشَابِهًا لِعُقُوبَتِهِمْ؛ وَقَدْ خَسَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ وَاسْتَأْصَلَ بِذَلِكَ الْعَذَابِ بِكْرَهُمْ وَثَيِّبَهُمْ[2].

قال الشيخ سيد سابق: إن جريمة اللواط من أكبر الجرائم، وهي من الفواحش المفسدة للخلق وللفطرة وللدين والدنيا، بل وللحياة نفسها، وقد عاقب الله عليها بأقسى عقوبة؛ فخسف الأرض بقوم لوط، وأمطر عليهم حجارة من سجيل جزاء فعلتهم القذرة، وجعل ذلك قرآنا يتلى ليكون درسًا؛ قال الله سبحانه: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٢)، وهذه الآيات التي تحكي قصة قوم لوط، وما حدث لهم بسبب اقترافهم لهذه الفاحشة.

(٢) نيل الأوطار للشوكاني (٧/ ٢٦٤).

﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾ (الأعراف: ٨٠- ٨٤)، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾ (هود: ٧٧ - ٧٨)[١].

الدليل الثالث: قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ . .﴾ (الأنعام: ١٢٠)

قال الشيخ محمد رشيد رضا: الإثم في اللغة القبيح الضار، وفي الشرع كل ما حرمه الله تعالى؛ وهو لم يحرم على العباد إلا ما كان ضارًا بالأفراد في أنفسهم، أو أموالهم، أو عقولهم، أو أعراضهم أو دينهم أو ضارًا بالجماعات في مصالحهم السياسية أو الاجتماعية. [٢]

الدليل الرابع: سمى الله اللواط بالفاحشة وقد حرم علينا الفواحش.

أنكر الله على لسان سيدنا لوط هذه الفاحشة فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ (الأعراف: ٨٠)، وقد حرم الله علينا الفواحش قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: ١٥١).

وقد قال النبي ﷺ: "لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن"[٣].

وقد قال سعد بن عبادة: لو رأيت مع امرأتي رجلًا لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: " أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير مني من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ". [٤]

---

(١) فقه السنة للسيد سابق (٣/ ١٩٨)، وتفسير المنار (٨/ ٢١).

(٢) تفسير المنار (الآية).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، مسلم (١٤٩٩).

وقال أيضًا في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام١٥١)، أي لا تقربوا ما عظم قبحه من الأفعال والخصال؛ كالزنا واللواط وقذف المحصنات ونكاح الآباء، وكل منها سمي في التنزيل فاحشة فهو مما يثبت شدة قبحه شرعًا وعقلًا[(١)].

الوجه الثاني: تحريم اللواط من السنة.

عن ابن عباس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به"[(٢)].

الوجه الثالث: إجماع الصحابة على قتل الفاعل والمفعول به دليل على حرمة اللواط.

قال ابن تيميه بعد ذكره لأحاديث النبي ﷺ: ولأن أصحاب النبي ﷺ اتفقوا على قتلهما. [(٣)]

وذكر هذا الإجماع ابن قدامة في المغني[(٤)]، ونقله ابن القيم عن ابن القصار وعن ابن تيمية. [(٥)]

الوجه الرابع: إجماع أهل العلم على تحريم اللواط.

نقل هذا الإجماع ابن قدامه في المغني فقال: أجمع أهل العلم على تحريم اللواط، وقد ذمه الله في كتابه وعاب من فعله وذمه رسول الله ﷺ. [(٦)]

وذكره القرطبي أيضًا في تفسيره فقال: واختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه. [(٧)]

الوجه الخامس: الإسلام جاء بسد الزريعة حتى لا يقع أمر اللواط.

١ - نهى النبي ﷺ أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل، فما بالك باللواط؟!

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٨٧).

(٢) صحيح، وسيأتي تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٤/ ١٨٢).

(٤) المغني لابن قدامة (١٠/ ١٦١).

(٥) زاد المعاد لابن القيم (٥/ ٤٠).

(٦) المغني لابن قدامة (١٠/ ١٦٠).

(٧) تفسير القرطبي (٧/ ٢٣٤)، وانظر تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٨/ ٥٢٠).

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ: "لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَة، وَلَا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ؛ وَلَا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ"(١).

قال النووي: فَفِيهِ تَحْرِيم نَظَر الرَّجُل إِلَى عَوْرَة الرَّجُل، وَالْمَرْأَة إِلَى عَوْرَة الْمَرْأَة، وَهَذَا لَا خِلَاف فِيهِ. وَأَمَّا قَوْله ﷺ: "وَلَا يُفْضِي الرَّجُل إِلَى الرَّجُل فِي ثَوْب وَاحِد"، وَكَذَلِكَ فِي الْمَرْأَة مَعَ الْمَرْأَة. فَهُوَ نَهْي تَحْرِيم إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنهمَا حَائِل، وَفِيهِ دَلِيل عَلَى تَحْرِيم لَمْس عَوْرَة غَيْره بِأَيِّ مَوْضِع مِنْ بَدَنه كَانَ، وَهَذَا مُتَّفَق عَلَيْهِ. (٢)

قلت: فهذا نص صريح في حرمة ما ذكر النبي ﷺ؛ ومن باب أولى فاحشة اللواط.

٢- الأمر بالتفرقة بين الأولاد في النوم:

حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع"(٣)

الوجه السادس: عقوبة اللواط؛ وفي ذلك دليل على الحرمة.

اختلف الفقهاء في عقوبة اللواط علي نحو ما يلي:

الاتجاه الأول: لا حد عليه؛ وإنما يعزر فاعله.

وهو مذهب أبي حنيفة، وابن حزم. (٤) وحجتهم في هذا مايلي:

١- أنه لم يرد في الشرع للواط عقوبة مقدرة، فصار فيه التعزير ليكف ضرره عن الناس.

وأجيب عليه: بأنه قد ثبت في السنة حد معين للواط، وقد ذكر غير واحد من أهل العلم إجماع الصحابة على قتل فاعله.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٣٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، أحمد (٢/ ١٨٠) وإسناده حسن.

(٤) بدائع الصنائع (٧/ ٣٤)، المحلي (١١/ ٣٨٥).

ولذا قال ابن قدامة: (وقول من أسقط الحد عنه؛ يخالف النص والإجماع). [(١)]

٢- استدلوا بحديث النبي ﷺ "لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ؛ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ". [(٢)]

وأجيب عليه بقول ابن عبد البر رحمه الله حيث قال: وهذا حديث قيل في وقت، ثم نزل بعده إباحة دم الساعي بالفساد في الأرض، وقاطع السبيل، وعامل عمل قوم لوط، ومن شق عصى المسلمين، وقد قال رسول الله: ﷺ"إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا"[(٣)]، وجاء النص فيمن عمل عمل قوم لوط (فاقتلوه).

وهذا من نحو قول الله ﷻ ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ . . ﴾ (الأنعام١٤٥). ثم حرم الله ﷻ بعد ذلك أشياء كثيرة في كتابه، أو على لسان نبيه، منها أن اللوطي زان، واللواط زنى وأقبح من الزنا، وبالله التوفيق. [(٤)]

قال الشوكاني معقبًا علي من قال (لا حد عليه): وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذَا الْمَذْهَبِ مِنْ الْمُخَالَفَةِ لِلْأَدِلَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي خُصُوصِ اللُّوطِيِّ؛ وَالْأَدِلَّةِ الْوَارِدَةِ فِي الزَّانِي عَلَى الْعُمُومِ. [(٥)]

القول الثاني: أن عليه الحد.

وهذا ماعليه جمهور العلماء، لكنهم اختلفوا في نوعية الحد وصفة تطبيقه علي قولين:

الأول: يحد حد الزنا فيفرق بين المحصن وغيره.

وبه قال سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والحسن وقتادة والنخعي والثوري والأوزاعي والشافعي في قول له، وأحمد في إحدي الروايتين عنه، وصاحبا أبي حنيفة: (أبو يوسف ومحمد بن الحسن). [(١)]

---

(١) المغني (١٠/ ١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، مسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٣) من حديث أبي سعيد.

(٤) الاستذكار (٢٤/ ٨٤: ٨٣).

(٥) نيل الأوطار (٧/ ١١٨).

واستدلوا بالآتي:

١- حديث أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أتي الرجل الرجل فهما زانيان". [٢]

و أجيب عليه بأن الحديث لايصح، فلا يحتج به.

٢- قياس اللواط على الزنا؛ بجامع أن كلًا منهما إيلاج فرج محرم في فرج محرم شرعًا؛ فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة في الزاني المحصن والبكر.

وأجيب عليه: بِأَنَّ الْأَدِلَّةَ الْوَارِدَةَ بِقَتْلِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ مُطْلَقًا؛ مُخَصِّصَةٌ لِعُمُومِ أَدِلَّةِ الزِّنَا الْفَارِقَةِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالثَّيِّبِ؛ عَلَى فَرْضِ شُمُولِهَا لِلُّوطِيِّ، وَمُبْطِلَةٌ لِلْقِيَاسِ الْمَذْكُورِ عَلَى فَرْضِ عَدَمِ الشُّمُولِ؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ فَاسِدَ الِاعْتِبَارِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ[٣].

ولذا قال الصنعاني: لَا يَخْفَى أَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الَّتِي جَمَعُوهَا عِلَّةٌ لِإِلْحَاقِ اللِّوَاطِ بِالزِّنَى لَا دَلِيلَ عَلَى علتها[٤].

الثاني: يقتل حدًا على كل حال محصنًا أو غير محصن؛ وهو مذهب مالك وإسحق وأبو ثور وأحمد في أصح الروايتين عنه، والشافعي في أحد قوليه، وصاحبا أبي حنيفة. [٥]، واستدلوا بالآتي:

---

(١) الاستذكار (٢٤/ ٧٨: ٧٧)، وسنن الترمذي (٤/ ٥٨)، ونيل الأوطار (٧/ ١١١).

(٢) **ضعيف**. أخرجه الآجري في ذم اللواط (١٦) من حديث بشر بن الفضل البجلي، وأخرجه الآجري أيضًا في ذم اللواط (١٧)، والبيهقي في السنن الكبري (٨/ ٢٣٣) من حديث محمد بن عبد الرحمن القرشي، كلاهما (بشر، محمد) عن خالد الحذاء، عن أنس بن سيرين، عن أبي يحيى المعرقب، عن أبي موسي به. . . غير أن محمد بن عبد الرحمن لم يذكر المعرقب، والحديث ضعيف، ضعفه الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٥)، والألباني في الإرواء (٢٣٤٩).

(٣) نيل الأوطار (٧/ ١١٨).

(٤) سبل السلام (٤/ ١٩).

(٥) جامع الترمذي (٤/ ٥٨)، والاستذكار (٢٤/ ٧٩)، والمغني (١٠/ ١٦١: / ١٦٠)، وذم اللواط للآجري (٧٠: ٦٦)، ونيل الأوطار (٧/ ٢٦٤)، وسبل السلام (٤/ ١٩).

١-حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ: "مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ"(١).

وهذا ليس فيه تفصيل لمن أحصن أو لم يحصن، فدل بعمومه علي قتله مطلقًا.

٢- الإجماع المنقول عن الصحابة على قتله، وإنما اختلفوا في صفة القتل.

وبعد هذا فقد تبين أن الذي يترجح أن اللوطي يقتل على كل حال سواء كان محصنًا أو غير محصن، والمختار أن يقتل بالرجم كما رآه الجمهور، وذلك للآتي:

١-أن الله تعالي سمي اللواط فاحشة، فقال تعالي ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (العنكبوت٢٨).

---

(١) **حسن لغيره**. أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، الترمذي (١٤٥٦) وابن ماجه (٢٥٦١) وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٢٧)، الآجري في ذم اللواط (٢٧)، الدار قطني (٣٢٠٧)، البيهقي (٨/ ٢٣٢) من طريق محمد بن عبد العزيز الداروردي، وأخرجه ابن الجارود (٨٢٠)، والبيهقي (٨/ ٢٣١)، والآجري في ذم اللواط (٢٦) من طريق سليمان بن بلال، وأخرجه عبد بن حميد (٥٧٣) من طريق عبد الله بن جعفر جميعًا (الداروردي، سليمان، عبدالله بن جعفر) عن عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس عن النبيﷺ. وأخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٣٩)، ومن طريقه البيهقي (٨/ ٢٣٢)، وأخرجه الآجري في ذم اللواط (٢٥) من طريق عباد بن منصور عن عكرمة به.

وأخرجه عبد الرزاق (١٣٤٩٢)، وابن عدي في الكامل (١/ ٢٢٢)، والطبراني (١١٥٦٩) من طريق إبراهيم ابن محمد بن أبي يحيى الأسلمي، وأخرجه أحمد (١/ ٣٠٠)، الطبراني (١١٥٦٨)، والبيهقي (٨/ ٢٣٢) من طريق إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، كلاهما (إبراهيم بن محمد، إبراهيم بن إسماعيل) عن داود بن الحصين عن عكرمة به.

وقد قوي الحديث بعض أهل العلم بمجموع طرقه وشواهده، قال ابن الطلاع في أحكامه: لَمْ يَثْبُتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ رَجَمَ فِي اللِّوَاطِ، وَلَا أَنَّهُ حَكَمَ فِيهِ وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ (اُقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ)

(التلخيص الحبير٤/ ٦٢) (زاد المعاد٥/ ٤٠)، والحديث صححه الألباني في الإرواء (٢٣٥٠) ومن شواهد الحديث: حديث ابن عباس أن رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ "مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ به" أخرجه ابن ماجه (٢٥٦٢) بإسناد ضعيف.

وسمي سبحانه الزنا فاحشة؛ فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء٣٢). فيكون الحد على اللواط كالزنا بجامع ما بينهما من الوصف المشترك، غير أنه في اللواط القتل رجمًا في جميع الأحوال بالنص.

٢-أن الله تعالي عاقب قوم لوط بالرجم، قال سبحانه﴿. . . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ (هود٨٢).

وهناك ثلاثة آراء أخري للصحابة في كيفية قتل اللوطي، وهي:

١- الرمي من أعلي بناء في البلد ثم يتبع بالحجارة، وهو مروي عن ابن عباس وأبي بكر[1].

٢- يلقي عليه حائط، وهو مروي عن عمر وعثمان[2].

٣- إحراق اللوطي بالنار، وهو مروي عن أبي بكر وعلي[3]. (ولا يصح).

الوجه السابع: الأضرار التي تعود على اللائط من الناحية الطبية.

قال الشيخ محمد رشيد: وجملة القول في هذه الفاحشة أنها:

١- جناية على الفطرة البشرية.

٢- مفسدة للشبان بالإسراف في الشهوة؛ لأنها تنال بسهولة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٤٩٦)، ذم اللواط للآجري (٣٠)، ذم الملاهي لابن أبي الدنيا (١٣٠) والبيهقي في السنن (٨/ ٢٣٢)، سبل السلام (٣/ ٢٠).

(٢) نيل الأوطار (٧/ ١١٧).

(٣) المغني (١٠/ ١٦١)، نيل الأوطار (٧/ ١١٧)، سبل السلام (٤/ ١٩) ولا يصح ذلك.

والقصة أخرجها ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٤٥)، والآجري في ذم اللواط (٢٩) من حديث عبيد الله بن عمر القواريري، وأخرجها البيهقي (٨/ ٢٣٢) من حديث يحيى بن يحيى، كلاهما (عبيد الله، يحيى) عن عبدالعزيز بن أبي حازم عن داود بن بكر عن محمد بن المنكدر عن خالد بن الوليد قال: كتبت إلي أبي بكر. . . القصة. وهذا مرسل، والمرسل من أقسام الضعيف، محمد بن المنكدر توفي (١٣٠) وخالد بن الوليد توفي (٢١)، وعلي هذا يكون بين وفاتها (١٠٩) سنة، وهذا شاهد علي أنه لم يسمع منه. أضف إلي ذلك: أنه لم يسمع من أبي هريرة ولم يلقه. (جامع التحصيل) وأبو هريرة مات سنة (٥٩) فكيف وأن خالد توفي سنة (٢١) ولذا ضعفه البيهقي في السنن (٨/ ٢٣٢).

٣- مذلة للرجال بما يحدثه فيهم من داء المهانة.

٤- مفسدة للنساء اللواتي تصرف أزواجهن عنهن حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصانهن.

٥- قلة النسل بفشوها؛ فإن من لوازمها الرغبة عن الزواج، والرغبة في إتيان الأزواج في غير مأتى الحرث.

٦- أنها ذريعة للاستمناء ولإتيان البهائم، وهما معصيتان قبيحتان شديدتان الضرر في الأبدان والآداب، ومحرمتان كاللواط والزنا في جميع الأديان، وذلك مما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن رسوله لوط ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ (الأعراف: ٨١).[١]

قال الرازي: اعلم أن قبح هذا العمل كالأمر المقرر في الطباع، فلا حاجة فيه إلى تعديد الوجوه على التفصيل؛ ثم نقول موجبات القبح فيه كثيرة:

أولها: أن أكثر الناس يحترزون عن حصول الولد، لأن حصوله يحمل الإنسان على طلب المال وإتعاب النفس في الكسب، إلا أنه تعالى جعل الوقاع سببًا لحصول اللذة العظيمة؛ حتى أن الإنسان بطلب تلك اللذة يقدم على الوقاع، وحينئذ يحصل الولد شاء أم أبى، وبهذا الطريق يبقى النسل ولا ينقطع النوع، فوضع اللذة في الوقاع، كشبه الإنسان الذي وضع الفخ لبعض الحيوانات؛ فإنه لا بد وأن يضع في ذلك الفخ شيئًا يشتهيه ذلك الحيوان حتى يصير سببًا لوقوعه في ذلك الفخ؛ فوضع اللذة في الوقاع يشبه وضع الشيء الذي يشتهيه الحيوان في الفخ، والمقصود منه إبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع. إذا ثبت هذا فنقول: لو تمكن الإنسان من تحصيل تلك اللذة بطريق لا تفضي إلى الولد؛ لم تحصل الحكمة المطلوبة، ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل؛ وذلك على خلاف حكم الله؛ فوجب الحكم بتحريمه قطعًا؛ حتي تحصل تلك اللذة بالطريق المفضي إلي الولد.

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٨/ ٥٢١، ٥٢٢).

ثانيها: الاشتغال بمحض الشهوة تشبه بالبهيمة، وإذا كان الاشتغال بالشهوة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة؛ فليكن قضاء الشهوة من المرأة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة، وهو حصول الولد وإبقاء النوع الإنساني الذي هو أشرف الأنواع؛ فأما قضاء الشهوة من الذكر فإنه لا يفيد إلا مجرد قضاء الشهوة، فكان ذلك تشبهًا بالبهائم، وخروجًا عن الغريزة الإنسانية، فكان في غاية القبح.

ثالثها: هب أن الفاعل يلتذ بذلك العمل؛ إلا أنه يبقى في إيجاب العار العظيم، والعيب الكامل بالمفعول على وجه لا يزول ذلك العيب عنه أبد الدهر، والعاقل لا يرضى لأجل لذة خسيسة منقضية في الحال؛ إيجاب العيب الدائم الباقي بالغير[1].

تبيين أن الشرع حرم اللواط لمصلحة المسلم جسديًا

١ـ اللواط يصرف الرغبة عن المرأة:

من شأن اللواطة أن تصرف الرجل عن المرأة، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج، وهي إيجاد النسل؛ ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج، فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا، فلا تظفر بالسكن، ولا بالمودة، ولا بالرحمة التي هي دستور الحياة الزوجية، فتقضي حياتها معذبة معلقة، لا هي متزوجة ولا مطلقة.

٢ـ التأثير في الأعصاب:

فإن هذه العادة تغزو النفس، وتؤثر في الأعصاب تأثيرا خاصا؛ أحد نتائجها الإصابة بالانعكاس النفسي في خلق الفرد؛ فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلا، وينقلب الشعور إلى شذوذ؛ به ينعكس شعور اللائط انعكاسًا غريبًا؛ فيشعر بميل إلى بني جنسه، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية. ومن هذا تتبين العلة الحقيقية في إسراف بعض الشبان الساقطين في التزين وتقليدهم النساء في وضع المساحيق المختلفة على وجوههم، ومحاولتهم الظهور بمظهر الجمال بتحمير أصداغهم، وتزجيج حواجبهم،

---

(١) بتصرف من تفسير الرازي (١٤/ ١٦٩).

وتثنيهم في مشيتهم، إلى غير ذلك مما نشاهده جميعًا في كل مكان، وتقع عليه أبصارنا في كثير من الأحيان، ولقد أثبتت كتب الطب كثيرا من الوقائع الغريبة التي تتعلق بهذا الشذوذ؛ أضرب صفحا عن ذكرها، ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسي؛ بل هنالك ما تسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية في الشخص كذلك، وما تحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة وعلل نفسية شائنة، تفقده لذة الحياة، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة، فتحيي فيه لوثات وراثية خاصة، وتظهر عليه آفات عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة، وتدعو إلى تسلطها عليه. ومثل هذه الآفات العصبية النفسية: الأمراض السادية، والماسوشية، والفيتشزم وغيرها.

٣ـ التأثير على العقل:

واللواط بجانب ذلك؛ يسبب اختلالًا كبيرًا في توازن عقل المرء، وارتباكًا عامًا في تفكيره، وركودا غريبا في تصوراته، وبلاهة واضحة في عقله، وضعفا شديدا في إرادته؛ وإن ذلك يرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التي تفرزها الغدة الدرقية، والغدد فوق الكلى، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثرا مباشرا، فيضطرب عملها وتختل وظائفها. وإنك لتجد هنالك علاقة وثيقة بين (النيورستانيا) واللواط، وارتباطا غريبا بينهما، فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفكر وضياع العقل والرشاد.

٤ـ السويداء:

واللواط إما أن يكون سببًا في ظهور مرض السويداء؛ أو يغدو عاملًا قويًا على إظهاره وبعثه. ولقد وجد أن هذه الفاحشة وسيلة شديدة التأثير على هذا الداء؛ من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأعراضه؛ ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم.

٥ـ عدم كفاية اللواط:

واللواط علة شاذة، وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية؛ وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية، لا تقوم بإرضاء المجموع العصبي، شديدة الوطأة على الجهاز العضلي، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن.

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التي تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة؛ ثم قارنا ذلك بما يحدث في اللواط؛ وجدنا الفرق بعيدا والبون بين الحالتين شاسعا، ناهيك بعدم صلاحية الموضع، وفقد ملاءمته للوضع الشاذ.

٦ـ ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه:

وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى؛ وجدته سببًا في تمزق المستقيم، وهتك أنسجته، وارتخاء عضلاته، وسقوط بعض أجزائه، وفقد السيطرة على المواد البرازية، وعدم استطاعة القبض عليها؛ ولذلك تجد الفاسقين دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة؛ بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور.

٧ـ سوء الأخلاق:

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسي خطير، فتجد جميع من يتصفون به سيئي الخلق فاسدي الطباع، لا يكادون يميزون بين الفضائل والرذائل؛ ضعيفي الإرادة ليس لهم وجدًان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم، لا يتحرج أحدهم، ولا يردعه رادع نفسي عن السطو على الأطفال، والصغار واستعمال العنف، والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة، والتجرؤ على ارتكاب الجرائم التي نسمع عنها كثيرا ونطالع أخبارها في الجرائد السيارة وفي غيرها، ونجد تفاصيل حوادثها في المحاكم وفي كتب الطب.

٨ـ تأثير اللواط على الصحة العامة:

واللواط فوق ما ذكرت يصيب مقترفيه بضيق الصدر ويرزؤهم بخفقان القلب، ويتركهم بحال من الضعف العام؛ يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأوصاب، ويضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم، ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه، ويؤثر على تركيب مواد المني؛ ثم ينتهي الأمر

بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال.[١]

مما تقدم تتبين حكمة التشريع الإسلامي في تحريم اللواط.

الوجه الثامن: ردود حول ما استدلوا به من الآيات.

الرد على الشبهة في الآية الأولى:

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا. . . ﴾ (البقرة: ٢٢١) فمعناها كما قال أهل التفسير: النهي هنا بضم التاء لولي الأمر؛ أي لا تزوجوا المسلمة من المشرك.

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا﴾ أي لا تزوجوا المسلمة من المشرك، والقراء على ضم التاء ﴿ تَنكِحُوا ﴾[٢].

قال ابن كثير: وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾: أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات. كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة: ١٠).[٣]

قال الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك أن الله قد حرم على المؤمنات أن ينكحن مشركًا كائنًا من كان المشرك؛ من أي أصناف الشرك كان؛ فلا تُنكحونهن أيها المؤمنون منهم؛ فإن ذلك حرام عليكم.[٤]

الرد علي الشبهة في الآية الثانية: أما قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ (النساء: ١٢٧)؛ فمعناها كما قال ابن كثير: والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها؛ فتارة يرغب في أن يتزوجها؛ فأمره الله

---

(١) الإسلام والأطباء د/ محمد وصفي نقلًا من فقه السنة للسيد سابق (٣/ ٢٠٠).

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ١٥٢).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦١).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٩).

ﷻأن يمهرها؛ أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء؛ فقد وسع الله ﷻ، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة. وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة لِدَمَامَتِهَا عنده؛ أو في نفس الأمر، فنهاه الله ﷻأن يُعضِلها عن الأزواج خشية أن يَشْركوه في ماله الذي بينه وبينها. [١]

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها في قوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾: هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِيمَةُ هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا فَأَشْرَكَتْهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعَذْقِ[٢]، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا رَجُلًا فَيَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرِكَتْهُ فَيَعْضُلُهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. [٣]

الرد علي الشبهة في الآية الثالثة:

أما قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤) فالمعنى الصحيح ما قاله المفسرون:

قال الشيخ محمد رشيد: الشهوات جمع شهوة؛ وهي انفعال النفس بالشعور بالحاجة إلى ما تستلذه، والمراد هنا المشتهيات على طريق المبالغة؛ وهي شائعة الاستعمال، يقال هذا الطعام شهوة فلان؛ أي مشتهاه. [٤]

قال الشوكاني: والشهوات جمع شهوة، وهي نزوع النفس إلى ما تريده؛ والمراد هنا: المشتهيات؛ عبر عنها بالشهوات؛ مبالغة في كونها مرغوبًا فيها، أو تحقيرًا لها؛ لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية. [١]

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٧١)

(٢) العذق: قال ابن حجر في الفتح (٨/ ٨٧) بفتح الأول وسكون الثاني النخلة.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٢٤، ٤٥٧٣، ٤٥٧٤)، مسلم (٣٠١٨).

(٤) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٨).

قال الآلوسي في قوله ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: أي المشهيات، وجعلها نفس الشهوات إشارة إلى ما ركز في الطباع من محبتها والحرص عليها؛ حتى كأنهم يشتهون اشتهاءها كما قيل لمريض: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي أن أشتهي، أو تنبيهًا على خستها؛ لأن الشهوات خسيسة عند الحكماء والعقلاء؛ ففي ذلك تنفير عنها وترغيب فيما عند الله تعالى(٢).

قلت: فيكون المعنى: لكل إنسان مشتهى في هذه الأمور التي ذكرها رب العالمين؛ فالمشتهى من المرأة ما يطلب منها، والمشتهى من البنين من الذرية وغير ذلك، والمشتهى من القناطير المقنطرة من حب الاقتناء والثروة وغير ذلك؛ وهكذا ففي كل شهوة مشتهى فيما يتمناه الإنسان وإلا؛ فلو أن الشهوة واحدة في معناها الظاهر فكيف تكون بالنسبة للقناطير المقنطرة والحرث؛ وهذه الأمور التي ذكرها رب العالمين.

الرد على الشبهة في الآية الرابعة:

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ. . ﴾ (العنكبوت: ٢٩)؛ فهذه الآية متعلقة بقصة لوط ﷺ ومعلوم ـ كما بينا ـ أن الله أنكر عليهم، وعذبهم بسبب هذا الفعل؛ بل وتوعد من وقع في مثل ما وقعوا فيه فقال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ (هود: ٨٣)

قال ابن كثير: فيما يتعلق بالآية: يقول تعالى مخبرًا عن نبيه لوط ﷺ، إنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال؛ في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذّبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل.(٣)

الوجه التاسع: الشذوذ في الكتاب المقدس.

الحب بين الرجال:

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٨٢).

(٢) روح المعاني للآلوسي (٣/ ٩٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٨).

صموائيل (١/ ٢٦): لَقَدْ تَضَايَقْتُ عَلَيْكَ يا أخي يُونَاثَانُ. كُنْتَ عَزِيزًا جدًّا عَلَيَّ، وَمَحَبَّتُكَ لِي كَانَتْ مَحَبَّةً عَجِيبَةً، أَرْوَعَ مِنْ مَحَبَّةِ النِّسَاءِ.

قصة داود ويوناثان بن شاول الذي تنبأ وهو عريان.

وقصة داود مع يوناثان ابن شاول قصة عجيبة فعلًا؛ تبدأ بعد أن قتل داود جليات الفلسطيني في الحرب؛ وداود هو ذلك الفتى الجميل أصفر الشعر جميل العينين؛ كما يصفه الكتاب المقدس في صموائيل الأول ١٦ عدد١٢ هكذا: فَأَرْسَلَ وَأَتَى بِهِ. وَكَانَ أَشْقَرَ مَعَ حَلاَوَةِ الْعَيْنَيْنِ وَحَسَنَ الْمَنْظَرِ. فَقَالَ الرَّبُّ: «قُمِ امْسَحْهُ، لأَنَّ هذَا هُوَ».

وداود أيضًا هو جد يسوع الذي يعبده النصارى؛ كما هو معلوم للجميع، وهو أبو سليمان، وسليمان هو ابن بثشبع زوجة أوريا الحثي التي اغتصبها داود من زوجها أوريا الحثي وقتل زوجها غدرًا في الحرب وأنجب منها من الزنى سليمان وبعد أن قتل داود جليات الفلسطيني؛ أُعجِب به شاول أبو يوناثان جدًّا خاصة أن داود كان يعمل عنده عازف على العود ثم أحبه يوناثان كثيرا فقال في صموائيل الأول ١٨ عدد٥: ١ هكذا: وَكَانَ لَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ شَاوُلَ أَنَّ نَفْسَ يُونَاثَانَ تَعَلَّقَتْ بِنَفْسِ دَاوُدَ، وَأَحَبَّهُ يُونَاثَانُ كَنَفْسِهِ. ٢فَأَخَذَهُ شَاوُلُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَمْ يَدَعْهُ يَرْجعُ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ. ٣وَقَطَعَ يُونَاثَانُ وَدَاوُدُ عَهْدًا لأَنَّهُ أَحَبَّهُ كَنَفْسِهِ. ٤وَخَلَعَ يُونَاثَانُ الْجُبَّةَ الَّتِي عَلَيْهِ وَأَعْطَاهَا لِدَاوُدَ مَعَ ثِيَابِهِ وَسَيْفِهِ وَقَوْسِهِ وَمِنْطَقَتِهِ.

ولا أدري ما العهد الذي يقطعه رجلان مع بعضهما فيخلع أحدهما ملابسه بعد هذا العهد.

حتى أن يوناثان قد حل منطقته التي يلف بها وسطه كما قرأت ولكن شاول بدأ يشعر بشئ ما تجاه داود فقرر أن يوقعه في فخ حتى يتخلص منه فيضع له العصا والجزرة كما يقول في نفس السفر ١٨ عدد٢٠-٢١ هكذا: وَمِيكَالُ ابْنَةُ شَاوُلَ أَحَبَّتْ دَاوُدَ، فَأَخْبَرُوا شَاوُلَ، فَحَسُنَ الأَمْرُ فِي عَيْنَيْهِ. ٢١وَقَالَ شَاوُلُ: «أُعْطِيهِ إِيَّاهَا فَتكُونُ لَهُ شَرَكًا وَتَكُونُ يَدُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ عَلَيْهِ». وَقَالَ شَاوُلُ لِدَاوُدَ ثَانِيَةً: «تُصَاهِرُنِي الْيَوْمَ».

وهكذا شعر الملك شاول بخطر داود على بيته فداود أصبح على علاقة بيوناثان وقد خلع له يوناثان ملابسه ثم إن أخت يوناثان ميكال قد أحبت داود فأصبح الولد وأخته يحبان داود

فقرر شاول أن يتخلص منه كما قرأت وقرر أن يوقعه بين فكي الفلسطينيين ولا تنسى أن شاول هو نبي من الأنبياء بنص الكتاب المقدس ولكنه أراد أن يقتل داود فهو يشعر بخطره على آل بيته خاصة على ابنه يوناثان فماذا قال شاول في نفس السفر ١٨ عدد٢٥ هكذا ٢٥: فَقَالَ شَاوُلُ: «هكَذَا تَقُولُونَ لِدَاوُدَ: لَيْسَتْ مَسَرَّةُ الْمَلِكِ بِالْمَهْرِ، بَلْ بِمِئَةِ غُلْفَةٍ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ لِلانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ». وَكَانَ شَاوُلُ يَتَفَكَّرُ أَنْ يُوقِعَ دَاوُدَ بِيَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ.

ولما أفلت داود من هذا الفخ ضج شاول جدًّا منه فأراد أن يختبر ابنه يوناثان صاحب العلاقة مع داود فقال له في الإصحاح التاسع عشر بنفس السفر١٩ عدد١ هكذا: وَكَلَّمَ شَاوُلُ يُونَاثَانَ ابْنَهُ وَجَمِيعَ عَبِيدِهِ أَنْ يَقْتُلُوا دَاوُدَ. ٢وَأَمَّا يُونَاثَانُ بْنُ شَاوُلَ فَسُرَّ بِدَاوُدَ جِدًّا. فَأَخْبَرَ يُونَاثَانُ دَاوُدَ

ولكن يوناثان بالطبع كان مخلصًا جدًّا لداود نظرًا للعلاقة الحميمة التي بينهما فخان يوناثان أبيه نظرًا لحبه لداود وبلغ داود بالمؤامرة ضده هكذا: وَأَمَّا يُونَاثَانُ بْنُ شَاوُلَ فَسُرَّ بِدَاوُدَ جِدًّا. فَأَخْبَرَ يُونَاثَانُ دَاوُدَ قَائِلاً: «شَاوُلُ أَبِي مُلْتَمِسٌ قَتْلَكَ، وَالآنَ فَاحْتَفِظْ عَلَى نَفْسِكَ إِلَى الصَّبَاحِ، وَأَقِمْ فِي خُفْيَةٍ وَاخْتَبِئْ. ٣وَأَنَا أَخْرُجُ وَأَقِفُ بِجَانِبِ أَبِي فِي الْحَقْلِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَأُكَلِّمُ أَبِي عَنْكَ، وَأَرَى مَاذَا يَصِيرُ وَأُخْبِرُكَ».

ويبدوا أن العلاقة بين داود ويوناثان وصلت إلى مرحلة خطيرة فانظر ماذا يقول له يوناثان في الفقرة التالية مباشرة ٢٠ عدد٤ هكذا: فَقَالَ يُونَاثَانُ لِدَاوُدَ: «مَهْمَا تَقُلْ نَفْسُكَ أَفْعَلْهُ لَكَ».

مهما يخطر على بال داود فإن يوناثان مستعد أن يفعله له! ! ! لا عجب في ذلك لكن العجب أن يكون مكان الاختباء الذي يختاره داود هو الحقل يريد داود أن يلتقي بيوناثان في الحقل ليلًا فتأمل ما جاء في ٢٠ عدد٥ هكذا: فَقَالَ دَاوُدُ لِيُونَاثَانَ: «هُوَذَا الشَّهْرُ غَدًا حِينَمَا أَجْلِسُ مَعَ الْمَلِكِ لِلأَكْلِ. وَلكِنْ أَرْسِلْنِي فَأَخْتَبِئَ فِي الْحَقْلِ إِلَى مَسَاءِ الْيَوْمِ الثَّالِثِ.

وقد وافقه يوناثان وطلب منه أن يخرجا للحقل معًا فيقول في ٢٠ عدد١١ هكذا: فَقَالَ يُونَاثَانُ لِدَاوُدَ: «تَعَالَ نَخْرُجُ إِلَى الْحَقْلِ». فَخَرَجَا كِلاَهُمَا إِلَى الْحَقْلِ.

المحبة واضحة أيها السادة فلا داعي أن نسيء الظن ولكن كما قال يوناثان ٢٠ عدد١٧ هكذا: ثُمَّ عَادَ يُونَاثَانُ وَاسْتَحْلَفَ دَاوُدَ بِمَحَبَّتِهِ لَهُ لأَنَّهُ أَحَبَّهُ مَحَبَّةَ نَفْسِهِ. وَقَالَ لَهُ يُونَاثَانُ: «غَدًا الشَّهْرُ، فَتُفْتَقَدُ لأَنَّ مَوْضِعَكَ يَكُونُ خَالِيًا.

نعم سيفتقد يوناثان مكان داود فمكانه لا يعوضه أحد أبدًا، ولكن شاول أبو يوناثان قد اكتشف ما بين داود ويوناثان وأدرك حقيقة الأمر فكان قوله في شدة القسوة وإن أردت فقل في شدة الصراحة لقد قال لابنه يوناثان كلمات في نظر من كتبوا هذا الكتاب كلمات رائعة يترفع أي إنسان عفيف أن يذكرها أمام أحد فانظر ما قاله شاول النبي لابنه يوناثان بعد أن اكتشف ما بينه وبين داود النبي من علاقة يندى لها الجبين لقد قال له في الإصحاح ٢٠ عدد٣٠ هكذا: فَحَمِيَ غَضَبُ شَاوُلَ عَلَى يُونَاثَانَ وَقَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ الْمُتَعَوِّجَةِ الْمُتَمَرِّدَةِ، أَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ قَدِ اخْتَرْتَ ابْنَ يَسَّى لِخِزْيِكَ وَخِزْيِ عَوْرَةِ أُمِّكَ؟.

وكفى بالعبارة السابقة شاهدًا على مستوى أسلوب الكتاب المقدس إن صح أن نسميه مقدسًا وعلى ما كان يفكر به شاول فعبر عنه بهذه العبارة. ولك أن تتابع أيضًا قصة الفتى الذي كان يسوع يحبه وكان دائم الاضطجاع على صدر يسوع فتابع هذه الفقرات:

يوحنا١٣ عدد٢٣: وَكَانَ مُتَّكِئًا فِي حِضْنِ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ.

فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ. ٢٥فَاتَّكَأَ ذَاكَ عَلَى صَدْرِ يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، مَنْ هُوَ؟ »

يوحنا٢١ عدد٢٠: فَالْتَفَتَ بُطْرُسُ وَنَظَرَ التِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ يَتْبَعُهُ، وَهُوَ أَيْضًا الَّذِي اتَّكَأَ عَلَى صَدْرِهِ وَقْتَ الْعَشَاءِ، وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، مَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُكَ؟ »

٢ملوك٤ عدد٣٤: ثُمَّ صَعِدَ وَاضْطَجَعَ فَوْقَ الصَّبِيِّ وَوَضَعَ فَمَهُ عَلَى فَمِهِ، وَعَيْنَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَيَدَيْهِ عَلَى يَدَيْهِ، وَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ فَسَخُنَ جَسَدُ الْوَلَدِ. ٣٥ثُمَّ عَادَ وَتَمَشَّى فِي الْبَيْتِ تَارَةً إِلَى هُنَا

وَتَارَةً إِلَى هُنَاكَ، وَصَعِدَ وَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ فَعَطَسَ الصَّبِيُّ سَبْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ فَتَحَ الصَّبِيُّ عَيْنَيْهِ.

واضطجاع الرجل مع الرجل رجس فلم توردون اضطجاع يسوع، لاويين٢٠ عدد١٣: وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ، فَقَدْ فَعَلاَ كِلاَهُمَا رِجْسًا. إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا.

لا أدري ما حكاية الاستاه (مؤخرة الإنسان) في الكتاب المدعو مقدس:

٢صموائيل١٠ عدد٤: فَأَخَذَ حَانُونُ عَبِيدَ دَاوُدَ وَحَلَقَ لِحَاهُمْ وَقَصَّ ثِيَابَهُمْ مِنَ الْوَسَطِ عِنْدَ السَّوْءَةِ ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ.

إشعياء٢٠ عدد٤: هكَذَا يَسُوقُ مَلِكُ أَشُّورَ سَبْيَ مِصْرَ وَجَلاَءَ كُوشَ، الْفِتْيَانَ وَالشُّيُوخَ، عُرَاةً وَحُفَاةً وَمَكْشُوفِي الأَسْتَاهِ خِزْيًا لِمِصْرَ.

بوعز وراعوث ونعمى (من أجداد يسوع الزناة كما يقولون)
جاء في راعوث ٢ عدد١٩-٢٣ هكذا:

راعوث: ٢ عدد١٩: فَقَالَتْ لَهَا حَمَاتُهَا: «أَيْنَ الْتَقَطْتِ الْيَوْمَ؟ وَأَيْنَ اشْتَغَلْتِ؟ لِيَكُنِ النَّاظِرُ إِلَيْكِ مُبَارَكًا». فَأَخْبَرَتْ حَمَاتَهَا بِالَّذِي اشْتَغَلَتْ مَعَهُ وَقَالَتِ: «اسْمُ الرَّجُلِ الَّذِي اشْتَغَلْتُ مَعَهُ الْيَوْمَ بُوعَزُ». ٢٠فَقَالَتْ نُعْمِي لِكَنَّتِهَا: «مُبَارَكٌ هُوَ مِنَ الرَّبِّ لأَنَّهُ لَمْ يَتْرُكِ الْمَعْرُوفَ مَعَ الأَحْيَاءِ وَالْمَوْتَى». ثُمَّ قَالَتْ لَهَا نُعْمِي: «الرَّجُلُ ذُو قَرَابَةٍ لَنَا. هُوَ ثَانِي وَلِيِّنَا». ٢١فَقَالَتْ رَاعُوثُ الْمُوآبِيَّةُ: «إِنَّهُ قَالَ لِي أَيْضًا: لاَزِمِي فِتْيَانِي حَتَّى يُكَمِّلُوا جَمِيعَ حَصَادِي». ٢٢فَقَالَتْ نُعْمِي لِرَاعُوثَ كَنَّتِهَا: «إِنَّهُ حَسَنٌ يَابِنْتِي أَنْ تَخْرُجِي مَعَ فَتَيَاتِهِ حَتَّى لاَ يَقَعُوا بِكِ فِي حَقْلٍ آخَرَ». ٢٣فَلاَزَمَتْ فَتَيَاتِ بُوعَزَ فِي الالْتِقَاطِ حَتَّى انْتَهَى حَصَادُ الشَّعِيرِ وَحَصَادُ الْحِنْطَةِ. وَسَكَنَتْ مَعَ حَمَاتِهَا.

الإصحاح الثالث:

راعوث: ٣ عدد١: ١وَقَالَتْ لَهَا نُعْمِي حَمَاتُهَا: «يَابِنْتِي أَلاَ أَلْتَمِسُ لَكِ رَاحَةً لِيَكُونَ لَكِ خَيْرٌ؟ ٢فَالآنَ أَلَيْسَ بُوعَزُ ذَا قَرَابَةٍ لَنَا، الَّذِي كُنْتِ مَعَ فَتَيَاتِهِ؟ هَا هُوَ يُذَرِّي بَيْدَرَ الشَّعِيرِ اللَّيْلَةَ. ٣فَاغْتَسِلِي وَتَدَهَّنِي وَالْبَسِي ثِيَابَكِ وَانْزِلِي إِلَى الْبَيْدَرِ، وَلكِنْ لاَ تُعْرَفِي عِنْدَ الرَّجُلِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ. ٤وَمَتَى اضْطَجَعَ فَاعْلَمِي الْمَكَانَ الَّذِي يَضْطَجِعُ فِيهِ،

وَادْخُلِي وَاكْشِفِي نَاحِيَةَ رِجْلَيْهِ وَاضْطَجِعِي، وَهُوَ يُخْبِرُكِ بِمَا تَعْمَلِينَ». ٥فَقَالَتْ لَهَا: «كُلَّ مَا قُلْتِ أَصْنَعُ». ٦فَنَزَلَتْ إِلَى الْبَيْدَرِ وَعَمِلَتْ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَتْهَا بِهِ حَمَاتُهَا. ٧فَأَكَلَ بُوعَزُ وَشَرِبَ وَطَابَ قَلْبُهُ وَدَخَلَ لِيَضْطَجِعَ فِي طَرَفِ الْعَرَمَةِ. فَدَخَلَتْ سِرًّا وَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ رِجْلَيْهِ وَاضْطَجَعَتْ. ٨وَكَانَ عِنْدَ انْتِصَافِ اللَّيْلِ أَنَّ الرَّجُلَ اضْطَرَبَ، وَالْتَفَتَ وَإِذَا بِامْرَأَةٍ مُضْطَجِعَةٍ عِنْدَ رِجْلَيْهِ. ٩فَقَالَ: «مَنْ أَنْتِ؟» فَقَالَتْ: «أَنَا رَاعُوثُ أَمَتُكَ. فَابْسُطْ ذَيْلَ ثَوْبِكَ عَلَى أَمَتِكَ لأَنَّكَ وَلِيٌّ». ١٠فَقَالَ: «إِنَّكِ مُبَارَكَةٌ مِنَ الرَّبِّ يَابِنْتِي لأَنَّكِ قَدْ أَحْسَنْتِ مَعْرُوفَكِ فِي الأَخِيرِ أَكْثَرَ مِنَ الأَوَّلِ، إِذْ لَمْ تَسْعَيْ وَرَاءَ الشُّبَّانِ، فُقَرَاءَ كَانُوا أَوْ أَغْنِيَاءَ. ١١وَالآنَ يَابِنْتِي لاَ تَخَافِي. كُلُّ مَا تَقُولِينَ أَفْعَلُ لَكِ، لأَنَّ جَمِيعَ أَبْوَابِ شَعْبِي تَعْلَمُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ فَاضِلَةٌ. ١٢وَالآنَ صَحِيحٌ أَنِّي وَلِيٌّ، وَلكِنْ يُوجَدُ وَلِيٌّ أَقْرَبُ مِنِّي. ١٣بِيتِي اللَّيْلَةَ، وَيَكُونُ فِي الصَّبَاحِ أَنَّهُ إِنْ قَضَى لَكِ حَقَّ الْوَلِيِّ فَحَسَنًا. لِيَقْضِ. وَإِنْ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَقْضِيَ لَكِ حَقَّ الْوَلِيِّ، فَأَنَا أَقْضِي لَكِ. حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ. اِضْطَجِعِي إِلَى الصَّبَاحِ».

المرأة تحرض زوجة الابن على الزنا

وفى سفر التكوين افتراء على نبي الله نوح عليه السلام ٩(٢٠-٢٦): وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. ٢١وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. ٢٢فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. ٢٣فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. ٢٤فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، ٢٥فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ».

* * *

١٦ـ شبهة: الردة.

نص الشبهة:

ادعى المعارض قسوة الشريعة وإجبارها على معتقداتها، ودللوا على هذا ببعض الآيات والأحاديث النبوية.

والرد على ذلك في مبحثين:

المبحث الأول: مقدمة عن الردة في الإسلام.

المبحث الثاني: شبهات حول الردة، والرد عليها، ومنها:

الشبهة الأولى: قتل المرتد يتعارض مع الآية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

الشبهة الثانية: الإنسان لم يختر بإرادته أن يصبح مسلمًا، ليس إلا أنه وُلد في بيئة مسلمة، فلماذا يُطبَّق عليه حد الردة، أليس هذا تناقض مع حرية الاعتقاد الديني؟.

الشبهة الثالثة: حكم الردة يتعارض مع الآيات الدالة على عدم التعرض بالقتل للمرتدين.

الشبهة الرابعة: يقولون بتضعيف حديث "من بدل دينه فاقتلوه ".

الشبهة الخامسة: حول حديث " من بدل دينه فاقتلوه".

وإليك التفصيل

المبحث الأول: مقدمة عن الردة في الإسلام.

١ـ تعريف الردة: الردة في اللغة: الرجوع عن الشيء إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ (المائدة: ٢١).

والرد: صرف الشيء ورجعه، والارتداد: الرجوع، ومنه (المرتد)، والردة بالكسر اسمٌ منه أي: الارتداد. (١)

٢ـ الردة في الشرع:

الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، ومنه الردة عن الإسلام أي الرجوع عنه، وارتد فلان عن دينه إذا كفر بعد إسلامه، وهي أفحش الكفر، وأغلظه حكمًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ

---

(١) الحاوي الكبير (١٦/ ٤٠٦)، لسان العرب (٣/ ١٧٢)، مختار الصحاح (٢٣٩).

بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة: الآية٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ (النساء: ١٣٧). [١]

٣ـ شروط صحة الردة:

أولًا: العقل:

فلا تصح ردة المجنون والصبي الذي لا يعقل، لأن العقل من شرائط الأهلية خصوصًا في الاعتقادات، فلا تصح ردتهما لقوله ﷺ" رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق "[٢].

ثانيًا: الاختيار أو الطواعية:

فالمكره لا تصح ردته لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (النحل: ١٠٦)، وإن تلفظ بكلمة الكفر وهو أسير لم يحكم بردته، لأنه مكره. [٣]

فمن أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فلا شيء عليه في الدنيا ولا في الآخرة[٤].

ولا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز الإذن في التكلم بكلمة الكفر لغرض من الأغراض إلا المكره إذا اطمأن قلبه بالإيمان[٥].

---

(١) الحاوي الكبير (١٦/ ٤٠٦)، لسان العرب (٣/ ١٧٣)، المغني (١٠/ ٧٤)، البحر الرائق شرح كنز الرقائق (٥/ ١٢٩)، الخرشي (٨/ ٦٢).

(٢) بدائع الصنائع (٧/ ١٣٤)، المجموع (١٩/ ٢٢١)، الأم (٦/ ١٥٩)، الحاوي الكبير (١٦/ ٤١٤)، المغني والشرح الكبير (١٠/ ٨٨) والحديث صحيح، أخرجه أبو داود (٤٤٠١)، والترمذي (١٤٢٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٢٨٧).

(٣) المجموع: نفس المصدر، المغني (١٠/ ١٠٥)، المبسوط (٢٤/ ٣٨، ٣٩)، بدائع الصنائع (٧/ ١٧٦).

(٤) القوانين الفقهية (٣٨٢).

(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٤٥).

٤- **حكم المرتد**: عن عكرمة قال " أتى علي ﷺ بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ "لا تعذبوا بعذاب الله"، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ "من بدل دينه فاقتلوه"[(١)].

وعندما قدم معاذ بن جبل على أبي موسى في اليمن ألقى له وسادة؛ قال: انزل، وإذا رجل عنده موثق، قال: ما هذا؟ قال: كان يهوديًا فأسلم ثم تهود، قال: اجلس، قال: لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله – ثلاث مرات – فأمر به فقتل). [(٢)]

قال النووي: فيه وجوب قتل المرتد، وقد أجمعوا على قتله. [(٣)]

قال الصنعاني: الحديث دليل على أنه يجب قتل المرتد، وهو إجماع. [(٤)]

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " لا يحل دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعه "[(٥)].

قال النووي في قوله: " المفارق لدينه التارك للجماعة ": فهو عام في كل مرتد عن الإسلام بأي ردة كانت؛ فيجب قتله إن لم يرجع إلى الإسلام. [(٦)]

وقال ابن دقيق العبد: الردة سبب لإباحة دم المسلم بالإجماع. [(٧)]

وقال السرخسي في المبسوط: وقتل المرتد على ردته مرويٌّ عن علي، وابن مسعود، ومعاذ، وغيرهم من الصحابة ﷺ، وهذا لأن المرتد بمنزلة مشركي العرب أو أغلظ منهم جناية[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٣)، مسلم (١٧٣٣).

(٣) مسلم بشرح النووي (٦/ ٤٤٨).

(٤) سبل السلام (٣/ ٣٥٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، مسلم (١٦٧٦).

(٦) مسلم بشرح النووي (٦/ ١٨٠).

(٧) فتح الباري (١٢/ ٢١٠).

وقال أيضًا: الْقَتْلَ جَزَاءٌ عَلَى الرِّدَّةِ؛ لِأَنَّ الرُّجُوعَ عَنْ الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ مِنْ أَعْظَمِ الْجَرَائِمِ، وَلِهَذَا كَانَ قَتْلُ الْمُرْتَدِّ مِنْ خَالِصِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَكُونُ مِنْ خَالِصِ حَقِّ اللَّهِ فَهُوَ جَزَاءٌ. . . ، والْجِنَايَةَ بِالرِّدَّةِ أَغْلَظُ مِنْ الْجِنَايَةِ بِالْكُفْرِ الْأَصْلِيِّ، فَإِنَّ الْإِنْكَارَ بَعْدَ الْإِقْرَارِ أَغْلَظُ مِنْ الْإِصْرَارِ فِي الِابْتِدَاءِ عَلَى الْإِنْكَارِ كَمَا فِي سَائِرِ الْحُقُوقِ[٢].

وقال الكاساني في بدائع الصنائع: وكذا العرب لما ارتدت بعد وفاة رسول الله ﷺ أجمعت الصحابة رضي الله عنهم على قتلهم[٣].

قال ابن قدامة: وأجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتدين؛ روى ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنه ومعاذ وأبي موسى وابن عباس وخالد رضي الله عنهم وغيرهم، فلم ينكر فكان إجماعًا[٤].

وقال ابن حزم: وصح أمر رسول الله ﷺ بقتل من بدل دينه؛ فصرنا إلى ذلك[٥].

وقال ابن تيمية: وقتل المرتد أوجب من قتل الكافر الأصلي والذمي إذا سب، فإنه يصير كافرًا محاربًا سابًا بعد عهدٍ متقدم، وقتل مثل هذا أغلظ[٦].

٥ـ بيان من هو الزنديق والمنافق والساحر:

أولًا: الزنديق:

وهو القائل ببقاء الدهر، فارسيٌّ معرب، وهو بالفارسية: زندكراي، يقول بدوام بقاء الدهر، والزندقة: الضيق، وقيل: الزنديق منه لأنه ضيق على نفسه.

قال الأزهري: الزنديق معروف، وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق.

---

(١) المبسوط (١٠/ ٩٨).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ١٠٩).

(٣) بدائع الصنائع (٧/ ١٣٤).

(٤) المغني والشرح الكبير (١٠/ ٧٤)، العدة شرح العمدة (٦١٦) (باب حكم المرتد).

(٥) المحلي (١١/ ٤٠).

(٦) الصارم المسلول (١٦٦).

وقال أحمد بن يحيى: ليس زنديق ولا فَرْزين من كلام العرب، ثم قال: ولكن البياذقة هم الرَجَّالةُ وقال: وليس في كلام العرب زنديق، وإنما تقول العرب: رجل زندق وزندقي إذا كان شديد البخل، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا: ملحد ودهري، فإذا أرادوا معنى السن قالوا: دهري قال: وقال سيبويه: الهاء من زنادقة وفرازنة عوض من الياء في زنديق وفرزين، وأصله الزناديق.

الجوهري: الزنديق من الثنوية: وهو معرب، والجمع الزنادقة، وقد تزندق والاسم زندقة[١].

والزنديق بالكسر: من الثنوية، أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أو هو معرب زن دين أي: دين المرأة[٢].

وقال ابن حجر: إن أصل الزنادقة أتباع ديصان، ثم ماني، ثم مزدك. . . . ، وحاصل مقالتهم أن النور والظلمة قديمان، وأنهما امتزجا فحدث العالم كله منهما، فمن كان من أهل الشر فهو من الظلمة، ومن كان من أهل الخير فهو من النور، وأنه يجب السعي في تخليص النور من الظلمة فيلزم إزهاق كل نفس، وإلى ذلك أشار المتنبي حيث قال قصيدته المشهورة:

فكم لظلام الليل عندك من يد   تخبر أن المانوية تكذب

وكان بهرام جد كسرى تحيل على ماني حتى حضر عنده وأظهر له أنه قبل مقالته ثم قتله، وقتل أصحابه؛ وبقيت منهم بقايا اتبعوا مزدك المذكور، وقام الإسلام والزنديق يطلق على من يعتقد ذلك، وأظهر جماعة منهم الإسلام خشية القتل؛ ومن ثم أطلق الاسم على كل من أسر الكفر وأظهر الإسلام، حتى قال مالك: الزندقة ما كان عليه المنافقون. وكذا أطلق جماعة من الفقهاء الشافعية وغيرهم أن الزنديق هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر، فإن أرادوا اشتراكهم في الحكم فهو كذلك، وإلا فأصلهم ما ذكرت. وقد قال النووي في لغات الروضة: الزنديق الذي لا ينتحل دينًا.

---

(١) لسان العرب (٣/ ١٨٧١ -باب: تزندق).

(٢) القاموس المحيط (٢/ ١١٨٤ – باب: القاف: فصل: الزاي).

وقال محمد بن معن في (التنقيب على المهذب): الزنادقة من الثنوية، يقولون ببقاء الدهر وبالتناسخ، قال: ومن الزنادقة الباطنية وهم قوم زعموا أن الله خلق شيئًا؛ ثم خلق منه شيئًا آخر فدبر العالم بأسره ويسمونها العقل والنفس، وتارة العقل الأول والعقل الثاني، وهو من قول الثنوية في النور والظلمة إلا أنهم غيروا الاسمين، قال: ولهم مقالات سخيفة في النبوات وتحريف الآيات وفرائض العبادات؛ وقد قيل إن سبب تفسير الفقهاء الزنديق بما يفسر به المنافق قول الشافعي في المختصر: وأي كفر ارتد إليه مما يظهر أو يسر من الزندقة وغيرها ثم تاب سقط عنه القتل، وهذا لا يلزم منه اتحاد الزنديق والمنافق؛ بل كل زنديق منافق من غير عكس، وكان من أطلق عليه في الكتاب والسنة منافق؛ يظهر الإسلام ويبطن عبادة الوثن أو اليهودية، وأما الثنوية فلا يحفظ أن أحدًا منهم أظهر الإسلام في العهد النبوي والله أعلم. [(١)]

الفرق بين الزنديق وغيره من أصناف الكفار:

قال العلامة ابن كمال باشا في رسالته: الزنديق في لسان العرب يطلق على من ينفي الباري تعالى، وعلى من يثبت الشريك، وعلى من ينكر حكمته والفرق بينه وبين المرتد العموم الوجهي؛ لأنه قد لا يكون مرتدًا؛ كما لو كان زنديقًا أصليًا غير منتقل عن دين الإسلام، والمرتد قد لا يكون زنديقًا كما لو تنصر أو تهود، وقد يكون مسلمًا فيتزندق، وأما في اصطلاح الشرع فالفرق أظهر لاعتبارهم فيه إبطان الكفر والاعتراف بنبوة نبينا ﷺ. . . ، والفرق بين الزنديق والمنافق والدهري والملحد مع الاشتراك في إبطان الكفر؛ أن المنافق غير معترف بنبوة نبينا ﷺ، والدهري كذلك مع إنكاره إسناد الحوادث إلى الصانع المختار سبحانه وتعالى، والملحد وهو من مال عن الشرع القويم إلى جهة من جهات الكفر من: ألحد في الدين؛ حاد وعدل، لا يشترط فيه الاعتراف بنبوة نبينا ﷺ ولا بوجود الصانع

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٨٣).

تعالى، وبهذا فارق الدهري أيضًا، ولا إضمار الكفر وبه فارق المنافق، ولا سبق الإسلام، وبه فارق المرتد، فالملحد أوسع فرق الكفر حدًا أي هو أعم من الكل[(١)].

وقال ابن قدامة: والزنديق هو الذي يظهر الإسلام ويستتر بالكفر وهو المنافق؛ كان يسمى في عصر النبي ﷺ منافقًا ويسمى اليوم زنديقًا[(٢)].

حكم الزنديق: إذا عثر عليه: قتل ولا يستتاب، ولا يقبل قوله في دعوى التوبة، إلا إذا جاء تائبًا قبل ظهور زندقته، وقال الشافعي وأبو حنيفة: تقبل توبته ولا يقتل. [(٣)]

ثانيًا: المنافق:

منه: نفق اليربوع تنفيقًا ونافق، أي دخل في نفقائه، ومنه اشتقاق المنافق في الدين، والنفاق بالكسر فعل المنافق.

والنفاق: الدخول في الإسلام من وجهٍ والخروج عنه من آخر، مشتق من نافقاء اليربوع، وقد نافق منافقة ونفاقًا، وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق، وما تصرف منه اسمًا وفعلًا، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفًا يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقًا، وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق، وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره. [(٤)]

قال أبو عبيد: سمي المنافق منافقًا للنفق، وهو السرب في الأرض، وقيل: إنما سمي منافقًا لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه: يقال: قد نفق به ونافق. [(٥)]

وقال الجرجاني (النفاق): إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب. [(٦)]

---

(١) رد المحتار على الدر المختار (٣/ ٢٩٦).

(٢) المغني (٧/ ١٧١).

(٣) القوانين الفقهية (٣٨٢).

(٤) لسان العرب (٦/ ٤٥٠٩، من مادة: نفق).

(٥) المرجع السابق (٦/ ٤٥٢٨، مادة: نفق).

(٦) التعريفات (٣١١).

وقال ابن رجب الحنبلي: النفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه، وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين: أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار، والثاني: النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحه ويبطن ما يخالف ذلك(١).

إجراء أحكام الإسلام الظاهرة على المنافقين:

والمنافقون تجرى عليهم في الظاهر أحكام الإسلام، ولم يكن أحد من الطلقاء بعد الفتح يظهر المحادة لله ورسوله، بل يرث ويورث ويصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين، وتجرى عليه أحكام الإسلام التي تجرى على غيره(٢).

حكم النفاق:

فقد نطق القرآن بكفر المنافقين في غير موضع، وجعلهم أسوأ حالًا من الكافرين، وأنهم في الدرك الأسفل من النار، وأنهم يوم القيامة يقولون للذين آمنوا ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحديد١٥: ١٣).

وأمر نبيه في آخر الأمر بأن لا يصلي على أحد منهم، وأخبر أن لن يغفر لهم، وأمره بجهادهم والإغلاظ عليهم، وأخبر أنهم إن لم ينتهوا ليغرين الله نبيه بهم حتى يقتلوا في كل موضع(٣).

---

(١) جامع العلوم والحكم (٥٢٠، ٥٢١. الحديث الثامن والأربعون).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٦٩).

(٣) الصارم المسلول (٣٦، ٣٧).

ثالثا: الساحر:

قال الأزهري: السحر عمل تقرب فيه إلى الشيطان وبمعونةٍ منه، كل ذلك الأمر كينونة للسحر، ومن السحر الأخذة التي تأخذ العين حتى يظن أن الأمر كما يرى، وليس الأصل على ما يرى(١).

وقال أيضًا: وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق، وخيل الشيء على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه، وقال الفراء في قوله تعالى ﴿. . . فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٩): معناه فأنى تصرفون، ومثله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أفك وسحر سواء(٢). وسَحَرهْ: بمعنى خدعه، وكذلك إذا علله(٣).

قال ابن قدامة: وهو عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له(٤). وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال "اجتنبوا الموبقات: الشرك بالله، والسحر"(٥).

وقال الراغب وغيره: (السحر يطلق على معان: أحدها ما لطف ودق، ومنه سحرت الصبي خادعته واستملته، وكل من استمال شيئًا فقد سحره، ومنه إطلاق الشعراء سحر العيون لاستمالتها النفوس، وقول الأطباء: الطبيعة ساحرة، ومنه قوله تعالى ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (الحجر: ١٥) أي: مصرفون عن المعرفة، ومنه حديث: " إن من البيان لسحرًا"(٦). . . . ، والثاني ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذ من

---

(١) لسان العرب (٣/ ١٩٥١، مادة –سحر).

(٢) المرجع السابق (٣/ ١٩٥٢).

(٣) الصحاح (٢/ ٥٨٤).

(٤) المغني (١٠/ ١١٣).

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٦٤)، مسلم (٨٩).

(٦) أخرجه البخاري (٥٧٦٧).

صرف الأبصار عما يتعطاه بخفة يده، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ (الأعراف: ١١٦)(١).

ونقل إمام الحرمين الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على فاسق، ونقل النووي في زيادات الروضة عن المتولي نحو ذلك(٢).

حكم الساحر:

فيقتل إذا عثر عليه، كالكافر(٣).

٦ـ استتابة المرتدين وسماحة هذا الدين العظيم.

لقد تقرر لدى جمهور الفقهاء أن استتابة المرتد واجبة قبل تنفيذ العقوبة(٤)، ويكفي الإسلام تسامحًا في هذا المقام أن يقرر حق المرتد في الاستتابة وفي حوار يكشف شبهته، وأنه لا يقتل ما بقيت له شبهة لم يجب عنها جوابًا شافيًا يقطع حجته أو تعلته، لقد كان في فسحة من أمره أن يبقى على دينه أو معتقده قبل أن يدخل في الإسلام مختارًا دون ما إكراه، أما وقد قبل باختياره الانتماء فقد أصبح مسئولًا – بحكم هذا الانتماء والاختيار– عن الإخلاص والوفاء لهذا الدين: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ (الزمر: ١٤)(٥).

وكثيرًا ما تكون الردة نتيجة الشكوك والشبهات التي تساور النفس، وتزاحم الإيمان، ولا بد أن تتهيأ فرصة للتخلص من هذه الشبهات والشكوك، وأن تقدم الأدلة والبراهين

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٣٢).

(٢) المرجع السابق (١٠/ ٢٣٣).

(٣) القوانين الفقهية (٣٨٢).

(٤) انظر الموسوعة الفقهية (٣/ ١٧٥، استتابة)، المغني (١٠/ ٧٦، وما بعدها)، فتح القدير (٦/ ٦٨، ٦٩) وفيه قول لأبي حنيفة وأبي يوسف (أنه يستحب أن يؤجل ثلاثة أيام)، فالأمر معتبر سواء أكانت واجبه أم مستحبة، فديننا لا يمنع من كشف شبهات المرتد وتبصيره بهذا الحق العظيم، أيضًا نيل الأوطار (٨/ ٨) كتاب الردة –باب قتل المرتد، الصارم المسلول (٣١٣) قال شيخ الإسلام: والذي عليه عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين أنه تقبل توبة المرتد في الجملة.

(٥) بحوث في علوم التفسير (٤٥٩).

التي تعيد الإيمان إلى القلب، واليقين إلى النفس، وتريح ما علق بالوجدان من ريب وشكوك، ومن ثم فمن الواجب أن يستتاب المرتد، ولو تكررت ردته، ويمهل فترة زمنية يراجع فيها نفسه، وتفند فيها وساوسه، وتناقش فيها أفكاره، فإن عدل عن موقفه بعد كشف شبهاته ورجع إلى الإسلام، وأقر بالشهادتين، واعترف بما كان ينكره، وبرئ من كل دين يخالف الإسلام، قبلت توبته وإلا أقيم عليه الحد(١).

وما دام المشتبه صادق النية، مخلصًا للبحث متطلعًا لطلب الحق، فلا بد أن تزول الشبهة، فيرجع إلى الحق وقد سجل لنا تاريخ المسلمين أمثلة كثيرة وعديدة لذلك منها:

حوار المأمون مع نصراني خرساني؛ أسلم ثم ارتد، فكان هذا الحوار:

قال المأمون: أخبرني ما الذي أوحشك مما كنت به آنسًا من ديننا، فوالله لأن أستحييك بحق أحب إلي من أن أقتلك بحق، وقد صرت مسلمًا بعد أن كنت كافرًا، ثم عدت كافرًا بعد أن صرت مسلمًا، فإن وجدت عندنا دوًاء لدائك تداويت به، وإن أخطأك الشفاء ونبا عليك الدواء كنت قد أبليت العذر في نفسك ولم تقصر في الاجتهاد لها، فإن قتلناك قتلناك في الشريعة، وترجع أنت نفسك إلى الاستبصار واليقين ولم تفرط في الدخول من باب الحزم.

قال المرتد: أوحشتني منكم ما رأيت من الاختلاف في دينكم.

قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما: كاختلافنا في الأذان، والتكبير في الجنائز، وصلاة العيدين والتشهد، والتسليم من الصلاة، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه ذلك، وهذا ليس باختلاف، وإنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من السنة، فمن أذن مثنى وأقام مثنى لم يأثم ومن ربع لم يأثم. والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتاب الله، وتأويل الحديث عن نبينا مع اجتماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان إنما أوحشك هذا فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقًا على تأويله كما يكون متفقًا على تنزيله، ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات ولو شاء الله

---

(١) فقه السنة (٣/ ٢٣٢).

أن ينزل كتبه مفسره، ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يختلف في تأويله لفعل، ولكنا لم نجد شيئًا من أمور الدين والدنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتحصيل والنظر، ولو كان الأمر كذلك؛ لسقطت البلوى والمحن وذهب التفاضل والتباين، ولما عرف الحازم من العاجز، ولا الجاهل من العالم، وليس على هذا بنيت الدنيا.

قال المرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن المسيح عبد الله وأن محمدًا لصادق، وأنك أمير المؤمنين[١]، فأقبل المأمون على أصحابه فقال: احفظوا عليه عرضه ولا تبروه في يومه ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوه أسلم رغبة، ولا تنسوا بعد نصيبكم من بره وتأنيسه ونصرته، والعائدة عليه[٢].

فتأمل هذا الحوار الرائع، من رغبة الخليفة وحبه في بقائه حيًا، ولم يكن متعطشًا لسفك الدماء كما يدعي القوم، إنه حوار إنساني عظيم يدرس في معاقل حقوق الإنسان التي تخالف اسمها حوار فيه إظهار الحق وعدم التعطش للدماء، فيا له من دين ذي سماحة عظيمة ورحمة فائقة.

٧ـ الحكمة من قتل المرتد:

إن حفظ الدين والعقيدة من عبث العابثين هو مقصد لكل تشريع ولكل دين من الأديان لذلك كان قتل المرتد لحفظ هذا الدين ولأنه ترك الحق بعد معرفته، واعتدى على العقيدة التي هي أقوى أسباب الأمن[٣].

وتعاقب الشريعة على الردة بالقتل، لأنها تقع ضد الدين الإسلامي، وعليه يقوم النظام الاجتماعي للجماعة، فالتساهل في هذه الجريمة يؤدي إلى زعزعة هذا النظام، ومن ثم عوقب عليها بأشد العقوبات استئصالًا للمجرم من المجتمع، وحماية للنظام الاجتماعي من ناحية،

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٩٧، ٩٨)، البيان والتبيين (٣/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) البيان والتبيين (المصدر السابق) بتصرف يسير.

(٣) مجلة البحوث الإسلامية عدد (٢١/ ١٠٦) بتصرف.

ومنعًا للجريمة وزجرًا عنها من ناحية أخرى، ولا شك أن عقوبة القتل أقدر العقوبات على صرف الناس عن الجريمة، ومهما كانت العوامل الدافعة إلى الجريمة، فإن عقوبة القتل تولد غالبًا في نفس الإنسان من العوامل الصارفة عن الجريمة ما يكبت العوامل الدافعة إليها، ويمنع من ارتكاب الجريمة في أغلب الأحوال، وأكثر الدول اليوم تحمي نظامها الاجتماعي بأشد العقوبات التي تفرضها على من يخرج على هذا النظام أو يحاول هدمه أو إضعافه، وأول العقوبات التي تفرضها القوانين الوضعية لحماية النظام الاجتماعي، وهي عقوبة الإعدام أي: القتل، فالقوانين الوضعية اليوم تعاقب على الإخلال بالنظام الاجتماعي بنفس العقوبة التي وضعتها الشريعة لحماية النظام الاجتماعي الإسلامي. (١)

ولعلك تفكر في مسألة أن الإنسان إذا اتبع الحق، ودخل فيه واعتنق هذا الدين الوحيد الصحيح الذي أوجبه الله، ثم نجيز له أن يتركه بكل سهولة في أي وقت يشاء، وينطق بعبارة الكفر التي تخرج منه؛ فيكفر بالله ورسوله وكتابه ودينه؛ ثم لا تحدث العقوبة الرادعة له؟! كيف سيكون تأثير ذلك عليه وعلى الداخلين الآخرين في الدين؟ ألا ترى أن ذلك يجعل الدين الصحيح الواجب اتباعه كأنه محل أو دكان يدخل فيه الشخص متى يشاء ويخرج متى يشاء؟! وربما يشجع غيره على ترك الحق، ثم هذا ليس شخصًا لم يعرف الحق، ولم يمارس ويتعبد، وإنما شخص عرف ومارس وأدى شعائر العبادة، فليست العقوبة أكبر مما يستحق، وإنما مثل هذا الحكم القوي لم يوضع إلا لشخص لم تعد لحياته فائدة، لأنه عرف الحق واتبع الدين، ثم تركه وتخلى عنه، فأي نفس أسوأ من نفس هذا الشخص؟. (٢)

وحد الردة يغلق بابًا خطرًا في وجه من يريدون إفساد الإسلام من داخله أو التجسس عليه، وقد عانى الإسلام كثيرًا ممن تبطنوا الكفر والتحقوا بالإسلام، وإذا سلم بحق المجتمع في قتل البغاة والمحاربين، وهم لم يعلنوا كفرًا ولا ردة، فحق المجتمع في قتل من فارق دينه

(١) التشريع الجنائي الإسلامي١ (٦٦١، ٦٦٢) عبد القادر عودة.
(٢) موقع الإسلام سؤال وجواب، فتوى رقم (٢٠٣٢٧).

وترك جماعته متبرئًا منها معلنًا عداوته لها أظهر وأحق، ولا يجوز قياس الردة عن الإسلام خاصة بترك العقيدة أو تغييرها من شخص ينتمي للدين أو مجتمع غير دين الإسلام ومجتمعه.

فمجتمعات العالم اليوم إما مجتمعات ملحدة رسميًا وواقعًا، وإما مجتمعات ملحدة واقعًا، وإن ظلت ترفع شعار دين من الأديان كشكل رسمي، وفي هذه الأخيرة ينظر إلى قضية الدين على أنها مسألة شخصية تمامًا، وهو موقف متفرع على موقف آخر يعتبر أصلًا، وهو الفصل بين الدين والدولة في تلك المجتمعات، ففي الإسلام لا فرق بين رفض نظام الدولة والخروج عليه وتحديه، وبين الردة عن الإسلام لأن نظام الدولة في مجتمع الإسلام جزء من الإسلام، أو هو التطبيق الزمني للإسلام في ذلك المجتمع، ورفض الإسلام بالردة يعني ضمنًا رفض النظام المنبثق منه، لأن الإسلام لا يفصل بين الدين والدولة، ومسألة الإيمان بالدين ليست مسألة شخصية في الإسلام، وإنما هي مسألة فردية اجتماعية في آن واحد، ومن هنا لا يجوز السماح بالخيانة الوطنية، وهي أعظم جريمة في منطق قوانين الأرض قاطبة. [1]

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان:

أما سبب عقوبة المرتد وجعلها القتل، فيرجع إلى أمرين خطيرين:

الأول: أن المسلم بردته أخل بالتزامه؛ لأن المسلم بإسلامه يكون قد التزم أحكام الإسلام وعقيدته، فإذا ارتد كان ذلك منه إخلالًا خطيرًا في أصل التزامه، ومن يخل بالتزامه عمدًا يعاقب، وقد تبلغ عقوبته الإعدام، ألا يرى أن من تعاقد مع الدولة لتوريد الطعام لأفراد الجيش ثم أخل بالتزامه عمدًا في حالة احتياج الجيش للأرزاق؛ أن جزاءه قد يصل إلى الإعدام!.

الثاني: أن المرتد مع إخلاله بالتزامه يقوم بجريمة أخرى هي الاستهزاء بدين الدولة، والاستخفاف بعقيدة سكانها المسلمين، وتجريء لغيره من المنافقين ليظهروا نفاقهم،

(١) بحوث في علوم التفسير (٤٥٩، ٤٦٠) محمد حسين الذهبي.

وتشكيك لضعاف العقيدة في عقيدتهم، وهذه كلها جرائم خطيرة يستحق معها المرتد استئصال روحه، وتخليص الناس من شره، وإنما قلنا: إن المرتد من يرتكب هذه الأمور لأنه لا يعرف ارتداده إلا بالتصريح، وإلا لو أخفى ردته لما عُرف[١].

إن الارتداد ثم الإصرار عليه بعد كشف الشبهة التي يدعي أنها كانت سببًا فيه، وبعد إزالة كل الأسباب الداعية إليه لما يشكك في صدق إسلام هذا المرتد، ويجعل الظن بنفاقه ومحاولته الكيد للإسلام بالتشكيك فيه أمرًا مقبولًا ومعقولًا، وتصبح الردة هنا رفعًا كاملًا لقناع النفاق يضع صاحبه في وضع أشد على الإسلام باعتبار نتائجه من وضع المحاربين وأهل البغي، وقد قص علينا القرآن الكريم من مواقف أهل الكتاب ما يؤكد هذه المعاني، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٢). [٢]

فالرجوع عن الإيمان إلى الكفر يشبه الآفة التي تصيب المخ والقلب فتودي بالحياة، فكذلك الذي يقع في ظلمات الكفر بعد أن هدى إلى نور الإيمان تفسد روحه، ويسقم قلبه، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة؛ فإذا كان مريض القلب والعقل يقضي عليه مرضه بالموت، فكذلك الارتداد عن الإسلام، فساد في العقل، وفساد في الوجدّان، وفساد في السلوك يستلزم بتر هذا العضو ليسلم سائر المجتمع.

إن حطة الأفكار أشد خطرًا على الأمة من فاتك المرض، إن سلامة الفكر واستقامة القلب هما الروح القوي الذي يحفظ على الأمة؛ أية أمة كيانها وبقاءها[٣].

فالإسلام مبني على العقل والمنطق، وقائم على الدليل والبرهان، وليس في عقيدته ولا شريعته ما يصادم فطرة الإنسان أو يقف حائلًا دون الوصول إلى كماله المادي والأدبي،

---

(١) أصول الدعوة (٢٩٧).

(٢) بحوث في علوم القرآن (٤٥٩).

(٣) الرد الجميل على المشككين في الإسلام (١٠٤) عبد المجيد صبح.

ومن دخل فيه عرف حقيقته، وذاق حلاوته، فإذا خرج منه وارتد عنه بعد دخوله فيه وإدراكه له كان في الواقع خارجًا عن الحق والمنطق، ومتنكرًا للدليل والبرهان، وحائدًا عن العقل السليم، والفطرة المستقيمة، والإنسان حين يصل إلى هذا المستوى يكون قد ارتد إلى أقصى درجات الانحطاط، ووصل إلى الغاية من الانحدار والهبوط، ومثل هذا الإنسان لا ينبغي المحافظة على حياته، ولا الحرص على بقائه، لأن حياته ليست لها غاية كريمة ولا مقصد نبيل، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن الإسلام كمنهج عام للحياة، ونظام شامل للسلوك الإنساني لا غنى له من سياج يحميه وردع يقيه، فإن أي نظام لا قيام له إلا بالحماية والوقاية، والحفاظ عليه من كل ما يهز أركانه، ويزعزع بنيانه، ولا شيء أقوى في حماية النظام ووقايته من منع الخارجين عليه، لأن الخروج عليه يهدد كيانه، ويعرضه للسقوط والتداعي، إن الخروج على الإسلام والارتداد عنه إنما هو ثورة عليه، والثورة عليه ليس لها من جزاء إلا الجزاء الذي اتفقت عليه القوانين الوضعية فيمن خرج على نظام الدولة وأوضاعها المقررة، إن أي إنسان سواء كان في الدولة الشيوعية أم الدول الرأسمالية، إذا خرج على نظام الدولة، فإنه يتهم بالخيانة العظمى ببلاده، والخيانة العظمى جزاؤها الإعدام للمرتدين؛ منطقي مع نفسه، ومتلاقٍ مع غيره من النظم.[1]

المبحث الثاني: شبهات والرد عليها

(١) فقه السنة (٣/ ٢٣١).

الشبهة الأولى: قتل المرتد يتعارض مع الآية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

يقولون: قتل المرتد يتعارض مع نص الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

والرد من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآية.

الوجه الثاني: لا تناقض بين الآية وقتل المرتد.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآية.

يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحدًا على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره، ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا.[1]

لما بين الله تعالى دلائل التوحيد بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر، أخبر بعد ذلك أنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر، إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ (الكهف: ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ (يونس: ٩٩). وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٣، ٤)[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (البقرة: ٢٥٦).

(٢) تفسير القاسمي (البقرة: ٢٥٦).

و﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾أي لا إكراه في الدخول فيه، لأن الإيمان إذعان وخضوع، ولا يكون ذلك بالإلزام والإكراه، وإنما يكون بالحجة والبرهان.

وكفى بهذه الآية حجة على من زعم من أعداء الدين، بل من أوليائه، أن الإسلام ما قام إلا والسيف ناصره، فكان يعرض على الناس، فإن قبلوه نجوا، وإن رفضوه حكم فيهم السيف حكمه، فهل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الإسلام حين كان النبي ﷺ يصلي مستخفيًا، والمشركون يفتنون المسلمين بضروب من التعذيب، ولا يجدون زاجرًا حتى اضطر النبي وصحبه إلى الهجرة، أو كان ذلك الإكراه في المدينة بعد أن اعتز الإسلام؟ اللهم لا هذا ولا ذاك، وقد نزلت هذه الآية في مبدأ هذه الغزوة، فإن غزوة بني النضير كانت في السنة الرابعة من الهجرة.

هذا وقد كان معهودًا عند بعض الملل ولا سيما النصارى إكراه الناس على الدخول في دينهم، ثم أكد عدم الإكراه قوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي: قد ظهر أن هذا الدين الرشد والفلاح، وأن ما خالفه من الملل الأخرى غيّ وضلال(1).

الوجه الثاني: لا تناقض بين الآية وقتل المرتد.

وقد يتساءل البعض: أليست هذه العقوبة مناقضة للحرية الدينية التي أقرها الإسلام بقوله تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، ولقوله تعالى للنبي الأمين ﷺ ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾؟.

والجواب: أن الإكراه المنفي في الآيتين إنما هو الإكراه على الدخول في الإسلام، والإسلام يريد ممن يدخل فيه أن يكون مخلصًا في طلبه في الدخول فيه؛ مدركًا حقائقه ومزاياه، ولذلك قرن نفي الإكراه في الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

(1) تفسير المراغي (البقرة/ ٢٥٦)، المنار (البقرة/ ٢٥٦).

عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ (البقرة: ٢٥٦)، فمن دخل في الإسلام حرًّا مدركًا، عالمًا الغيّ من الرشد. فليس له من بعد أن ينفصم منه؛ لأنه لن يخرج منه ببينة صادقة وحجة مستقيمة، إنما هو الضلال والتضليل، فإذا حارب الإسلام اتخاذ الأديان هزوًا ولعبًا وعبثًا وتضليلًا، فإنما يفعل ذلك لحماية حرية الفكر والرأي من هؤلاء العابثين[1].

وهنا مظنة سؤال: لعل العصر بما يموج فيه من أخلاط الفكر يجعله أكثر إلحاحًا! أليست قضية الاعتقاد مسألة شخصية تمامًا بحيث لا يحق التدخل فيها؟ ، أليس القرآن نفسه يقرر هذا المبدأ الذي نستند إليه عندما نتحدث عن سماحة الإسلام: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ (البقرة: ٢٥٦)!

ونقول: بلى، جوابًا عن كل من السؤالين، ولكن هل ردة المرتد مسألة شخصية تمامًا لا تمس الجماعة التي كان يؤمن بدينها، فهل عقوبتها تتناقض مع مبدأ حرية العقيدة التي تقرره الآية؟

فرق بين موقفين: موقف يرفض فيه صاحبه من البداية –وهو غير مسلم- أن يدخل في الإسلام، وموقف يرتد فيه صاحبه عن الإسلام بعد أن دخل فيه.

الموقف الأول يقر الإسلام صاحبه، ويحمي حقه الكامل في البقاء على حاله التي هو عليها، بل في تغييرها إلى أي دين آخر يختاره غير الإسلام، وهنا يتجسد المبدأ العظيم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ تجسيدًا لا شبهة فيه. وإقرار الإسلام لمثل هذا يحتسب له، ويشاد به من أهله.

أما الموقف الآخر فليس كذلك، لم يعد موقفًا شخصيًا خالصًا، ولم يعد الأمر فيه قاصرًا في آثاره على صاحبه؛ لقد دخل في الإسلام طوعًا، فلماذا ارتد عنه؟ إنه أبسط سؤال يترتب على ردته؟ ، وهو سؤال ينطوي على كثير من التشكيك في الإسلام، وإلا ففيم دخل

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع (١١٨) د/ رمزي نعناعه.

فيه راضيًا غير مكره ثم خرج منه؟.

ما أخرجه إلا اقتناع بعدم صلاحيته أو بأفضلية غيره عليه، فإذا كان المرتد ممن كانت لهم مكانة وموضع مرموق في الجماعة قويت الشبه واشتد التشكيك؟. [1]

الشبهة الثانية:

يقولون: الإنسان لم يختر بإرادته أن يصبح مسلمًا، ليس إلا أنه وُلد في بيئة مسلمة، فلماذا يُطبَّق عليه حد الردة، أليس هذا تناقض مع حرية الاعتقاد الديني؟.

والرد على هذه الشبهة بالآتي:

عن أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠). [2]

قال ابن حجر: وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام، قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الإسلام، واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وبحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم"[3].

وقد رواه غيره فزاد فيه (حنفاء مسلمين)[4]، ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لأنها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها، فعلم أنها الإسلام[1].

---

(١) بحوث في علوم التفسير (٤٥٨، ٤٥٩) محمد حسين الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، مسلم (٢٦٥٨).

(٣) جزء من حديث في مسلم (٢٨٦٥).

(٤) إسناده صحيح، أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٣٢٦١) والطبراني في الكبير (١٤٨١٦).

وقال النووي: وقيل معناه كل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به، فليس أحد يولد إلا وهو يقر بأن له صانعًا، وإن سماه بغير اسمه أو عبد معه غيره والأصح أن معناه أن كل مولود يولد متهيئًا للإسلام، فمن كان أبواه أو أحدهما مسلمًا؛ استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا، وإن كان أبواه كافرين جرى عليه حكمهما في أحكام الدنيا وهذا معنى (يهودانه وينصرانه ويمجسانه) أي يحكم له بحكمهما في الدنيا، فإن بلغ استمر عليه حكم الكفر ودينهما، فإن كانت سبقت له سعادة أسلم، وإلا مات على كفره[٢].

وأيضًا يهودانه: أي يهودان المولود بعد أن خلق على الفطرة تشبهًا بالبهيمة التي جُدعت بعد أن خلقت سليمة[٣].

وقيل: معناه (أي الحديث) أن كل مولود يولد في مبدأ الخلقة على الفطرة؛ أي الجبلة السليمة، والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لأن هذا الدين موجود حسنه في العقول، وإنما يعدل عنه من يعدل إلى غيره لآفة من آفات النشوء والتقليد، فلو سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره. . . ، ثم يتمثل بأولاد اليهود والنصارى واتباعهم لآبائهم، والميل إلى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والمحجة المستقيمة[٤].

وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الروم: ٣٠).

يقول ابن كثير: يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، التي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم

(١) فتح الباري (٣/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٦٣).

(٣) فتح الباري (٣/ ٢٩٤).

(٤) البغوي (تفسير آية ٣٠ من سورة الروم).

فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره[(١)].

ثم قال في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ معناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه، كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لدين الله.[(٢)]

وقال البخاري: باب: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾: لدين الله، ﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: دين الأولين والفطرة: الإسلام.[(٣)]

وأهل التأويل قد أجمعوا في تأويل قوله ﷻ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ على أن قالوا: فطرة الله دين الإسلام، واحتجوا بقول أبي هريرة في هذا الحديث: " اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ "[(٤)].

ومن هذا يتضح أن أي مولود يولد فإنما يولد على الفطرة، وهو دين رب العالمين، دين الإسلام، فلا سبيل للطعن بأنه من غير اختياره لأن هذا هو الفطرة، وكل ما دون هذه الفطرة فهو منتكس، ليس له حظ في هذا الأمر العظيم، فإرادته هي فطرته، وغير ذلك فهو تبديل وتغيير لهذه الفطرة.

وإذا نظرنا في دين النصارى؛ سنجد هذا التغيير واضحًا جليًّا بما يسمونه بالمعمودية، وهم يوجبون تعميد الأطفال، وذلك على حد قولهم أنها ضرورية للخلاص طبقًا لوضع

(١) تفسير ابن كثير الآية (٣٠) سورة الروم.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تبويب على حديث رقم (٤٧٧٥) البخاري "كل مولود يولد. . . ".
(٤) أحكام أهل الذمة (٢/ ٣٢).

السيد المسيح، وأنها هي الباب الأول ولا بد منها لدخول الإنسان ملكوت النعمة[1]، والدليل على ذلك من كتابهم، وإليكم النصوص:

(فتقدم يسوع وكلمهم قائلًا: دفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس). متى (٢٨/ ١٨، ١٩).

(ربٌ واحد، إيمانٌ واحد، ومعمودية واحدة). الرسالة إلى أهل أفسس (٤/ ٥).

(إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله) يوحنا (٣/ ٥).

(من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن) مرقس (١٦/ ١٦).

(توبوا وليعتمد كل منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس) أعمال الرسل (٢/ ٣٨).

فيفهم من هذه النصوص: أن من لا يعتمد لا يستحق الدخول في الملكوت، بل يدان على عدم تعميده، وهذه بعض النصوص وليست كلها، فالنصوص كثيرة على تغييرهم لفطرة البشرية التي فطروا عليها، وهذا يتضح في معنى الحديث "وأبواه ينصرانه"، فلماذا يجبر منهم من يريد أن يستعيد فطرته على البقاء في دين لم يكن لهم إرادة في اختياره منذ البداية؟! أليس هذا هو التناقض بعينه؟

الشبهة الثالثة:

يقولون: أن حكم الردة خاطئ بشهادة القرآن ويستدلون بالآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤)، وغيرها من الآيات.

والرد عليها كالآتي:

الوجه الأول: تفسير الآية.

(١) أسرار الكنيسة السبعة (٢٩) بتصرف، مؤلفه - "حبيب جرجس".

يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله وبرسوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، أي: صدّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾، يقول: من يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه اليوم، فيبدله ويغيره بدخوله في الكفر، إما في اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من صنوف الكفر، فلن يضر الله شيئًا، وسيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، يقول: فسوف يجئ الله بقومٍ خير من الذين ارتدوا وأبدلوا دينهم يحبهم الله ويحبون الله، وكان هذا الوعيد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة نبيه محمد ﷺ، وكذلك وعده من وعد المؤمنين ما وعده في هذه الآية، لمن سبق له في علمه أنه لا يبدل ولا يغير دينه، ولا يرتد، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد أقوام من أهل الوبَرِ، وبعض أهل المَدَر، فأبدل الله المؤمنين بخيرٍ منهم كما قال تعالى ذكره، ووفى للمؤمنين بوعده، وأنفذ فيمن ارتد منهم وعيده. [1]

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة أن من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سبيلًا كم قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ (محمد: ٣٨)، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ (النساء: ١٣٣)، وقال تعالى ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (إبراهيم ٢٠: ١٩) أي: بممتنع ولا صعب وقال تعالى ها هنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ (المائدة: ٥٤) أي: يرجع عن الحق إلى الباطل[2].

فأخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم؛ فإن الله يأتي عوضًا عن ذلك بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم ولين الجانب، والقسوة والشدة

(١) تفسير الطبري المائدة (٥٤) بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير (المائدة: ٥٤).

على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر الله نبيه ﷺ، فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ (الحجر: ٨٨).

وقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥)، وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (التوبة٧٣)، وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) الآية، وصرح بأن ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين، من صفات الرسول ﷺ وأصحابه ﭫ، بقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ (الفتح: ٢٩)[١].

فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله المعاندين لآياته المكذبين لرسله، أعزة: قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.[٢]

ويقول الشيخ أبو بكر الجزائري: هذه الآية الكريمة تضمنت خبرًا من أخبار الغيب التي يخبر بها القرآن فتتم طبق ما أخبر به، فتكون آية أنه كلام الله حقًا، وأن المنزل على رسوله صدقٌ؛ فقد أخبر تعالى أن من يرتد من المؤمنين سوف يأتي الله- عز وجل- بخير

(١) أضواء البيان (المائدة: ٥٤).

(٢) تفسير السعدي، الآية نفسها.

منه ممن يحبون الله ويحبهم الله تعالى رحماء بالمؤمنين أشداء على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوم من يلوم ولا عتاب من يعتب عليهم، وما إن مات الرسول ﷺ حتى ارتد فئات من أجلاف الأعراب ومنعوا الزكاة وقاتلهم أبو بكر الصديق مع الصحابة رضوان الله عليهم حتى أخضعوهم للإسلام وحسن إسلامهم، فكان أبو بكر وأصحابه ممن وصف الله تعالى؛ يحبون الله ويحبهم الله، يجاهدون في سبيله، ولا يخافون لومة لائم، وقد روى بل وصح "أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية وتلاها ﷺ وأبو موسى الأشعري أمامه فأشار إليه وقال قوم هذا"[1] وفعلًا بعد وفاة الرسول جاء الأشعريون وظهرت الآية وتمت المعجزة وصدق الله العظيم[2].

وهذه الآية الكريمة تدل على أن الله هيأ للمرتدين من يقاومهم من المؤمنين المجاهدين الذين وصفهم الله تعالى بما وصفهم في الآية مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فأنقذوا الإسلام من هذه الفتنة العظيمة ألا وهي فتنة الردة.

وقد بوب الإمام البخاري باب – حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم –تحت كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، ثم أتى بآيات منها هذه الآية الكريمة، ثم أورد حديثًا فيه" أن عليًا أتى بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس؛ فقال لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ " لا تعذبوا بعذاب الله "، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ " من بدل دينه فاقتلوه "[3].

وقال الشوكاني: والمراد بالقوم الذين وعد الله سبحانه بالإتيان بهم؛ هم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وجيشه من الصحابة والتابعين الذين قاتل بهم أهل الردة، ثم كل من جاء بعدهم

---

(١) **صحيح**. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٢٦١) والشيباني في الآحاد والمثاني (٢٥١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٦٨).

(٢) أيسر التفاسير (المائدة: ٥٤).

(٣) فتح الباري (١٢/ ٢٧٩).

من المقاتلين للمرتدين في جميع الزمن، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف العظيمة المشتملة على غاية المدح ونهاية الثناء من كونهم يحبون الله وهو يحبهم(١).

وتفسير الآية يوضح هذا المعنى، وليس بحكم خاطئ قتل المرتد بهذه الآية، إنما هي دليل على الشروع في أحكام المرتدين، الذي جاءت به السنة ووضحت هذه الأحكام وبينت ذلك، وتفسير الآية بعيدٌ عن هذه الشبهة، بل عندما تنظر إلى كتب المفسرين نجد أن بعض المفسرين أتى وبين أن هناك طوائف ارتدت في حياة النبي ﷺ وبعد موته ﷺ، فتولى أبو بكر وغيره من الصحابة قتالهم وتوالي المسلمون على ذلك، حتى يحفظوا شوكة الدين من دنس المعتدين والمارقين(٢).

الشبهة الرابعة: يقولون بتضعيف حديث "من بدل دينه فاقتلوه".

تدور الشبهة حول تضعيف حديث"من بدل دينه فاقتلوه "، قالوا: فيه عكرمة مولى ابن عباس، وأنه متهم بالكذب على ابن عباس، وأنه كان من دعاة الخوارج والحرورية والإباضية ولا يحتج بحديثه.

الرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ترجمة عكرمة وأقوال العلماء فيه.

الوجه الثاني: ويشهد لحديث عكرمة شواهد وهي:

الوجه الثالث: لم ينفرد عكرمة بالحديث، فقد تابعه أنس عن ابن عباس به.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ترجمة عكرمة وأقوال العلماء فيه.

عكرمة البربري، أبو عبد الله المدني مولى ابن عباس أصله من البربر، كان لحصين بن أبي الحر العنبري، فوهبه لابن عباس لما ولى البصرة لعلي. (٣)

---

(١) فتح القدير (المائدة: ٥٤).

(٢) الكشاف (المائدة/ ٥٤)، القاسمي (الآية). في بيان الطوائف التي ارتدت في حياة النبيﷺ.

(٣) تهذيب التهذيب (٥/ ٦٣٠) ترجمة رقم (٤٨١٢).

قال ابن حجر: ذكره ابن حبان في "الثقات" وقال: كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن. . . ، وقال: وعكرمة حمل عنا أهل العلم الحديث، والفقه في الأقاليم كلها ما أعلم أحدًا ذمه بشيء إلا بدعابة كانت فيه. (١)

وقال ابن منده في صحيحه: أما حال عكرمة في نفسه فقد عدله أمة من نبلاء التابعين فمن بعدهم، وحدثوا عنه واحتجوا بمفاريده في الصفات والسنن والأحكام.

روى عنه زهاء ثلاثمائة رجل من البلدان منهم زيادة على سبعين رجلًا من خيار التابعين ورفعائهم، وهذه منزلة لا تكاد توجد لكثير أحد من التابعين على أن من جرحه من الأئمة لم يمسك من الرواية عنه، ولم يستغنوا عن حديثه، وكان يتلقى حديثه بالقبول، ويحتج به قرنًا بعد قرن، وإمامًا بعد إمام إلى وقت الأئمة الأربعة الذين أخرجوا الصحيح وميزوا ثابته من سقيمة وخطأه من صوابه، وهم: البخاري ومسلم، وأبو داود، والنسائي، فأجمعوا على إخراج حديثه واحتجوا به على أن مسلمًا كان أسوأهم رأيًا فيه، وقد أخرج عنه مقرونًا وعدله بعدما جرحه.

وقال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي: قد أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا منهم: أحمد بن حنبل، وابن راهوية، ويحيى بن معين، وأبو ثور، ولقد سألت إسحاق بن راهوية عن الاحتجاج بحديثه، فقال عكرمة عندنا إمام الدنيا تعجب من سؤالي إياه، وحدثنا غير واحد أنهم شهدوا يحيى بن معين، وسأله بعض الناس عن الاحتجاج بعكرمة، فأظهر التعجب.

قال أبو عبد الله: وعكرمة قد ثبتت عدالته بصحبة ابن عباس وملازمته إياه، وبأن غير واحد من العلماء قد رووا عنه وعدلوه قال: وكل رجل ثبتت عدالته لم يقبل فيه تجريح أحد

---

(١) هكذا في تهذيب التهذيب (المصدر السابق٦٣٧)، ثقات ابن حبان (٥/ ٢٢٩، ٢٣٠)، وورد فيه (أما عكرمة فحمل أهل العلم عنه الحديث والفقه في الأقاليم كلها. . .).

حتى يبين ذلك عليه بأمر لا يحتمل غير جرحه، وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وأبو عبد الله الحاكم، وأبو عمر بن عبد البر: فيه نحوًا مما تقدم عن محمد بن نصر.[١]

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن عكرمة فقال ثقة قلت يحتج بحديثه قال نعم إذا روى عنه الثقات، والذي أنكر عليه مالك إنما هو بسبب رأيه على أنه لم يثبت عنه من وجه قاطع أنه كان يرى ذلك، وإنما كان يوافق في بعض المسائل فنسبوه إليهم، وقد برأه أحمد والعجلي من ذلك، فقال في كتابه الثقات له (عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما مكي تابعي ثقة برئ مما يرميه الناس به من الحرورية)[٢]، وقال ابن جرير لو كان كل من ادعى عليه مذهبًا من المذاهب الرديئة ثبت عليه ما ادعى به، وسقطت عدالته وبطلت شهادته بذلك؛ للزم ترك أكثر محدثي الأمصار لأنه ما منهم إلا وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه[٣].

وقال ابن حجر أيضًا: وإذ فرغنا من الجواب عما طعن عليه به، فلنذكر ثناء الناس عليه من أهل عصره وهلم جرا، قال محمد بن فضيل: عن عثمان بن حكيم كنت جالسًا مع أبي أمامة بن سهل بن حنيف إذ جاء عكرمة، فقال: يا أبا أمامة أذكرك الله هل سمعت ابن عباس يقول ما حدثكم عني عكرمة فصدقوه، فإنه لم يكذب علي؟ ، فقال أبو أمامة: نعم، وهذا إسناد صحيح، وقال يزيد النحوي: عن عكرمة قال لي ابن عباس انطلق، فأفت الناس، وحكى البخاري عن عمرو بن دينار قال: أعطاني جابر بن زيد صحيفة فيها مسائل عن عكرمة فجعلت كأني أتباطأ، فانتزعها من يدي، وقال: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا أعلم الناس، وقال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة[٤].

وقال جرير عن مغيرة: قيل لسعيد بن جبير تعلم أحدًا أعلم منك قال: نعم، عكرمة[٥].

---

(١) المرجع السابق، تهذيب التهذيب (٦٣٧، ٦٣٨).

(٢) تاريخ الثقات للعجلي (٣٣٩).

(٣) مقدمة الفتح لابن حجر (٤٤٩).

(٤) مقدمة الفتح لابن حجر (٤٤٩، ٤٥٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ٩٦) قريبًا من ذلك.

(٥) تذكرة الحفاظ، المصدر السابق.

وقال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة؛ فذكره فيهم قال: وكان أعلمهم بالتفسير، وقال معمر عن أيوب: كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة، فإني لفي سوق البصرة إذ قيل لي: هذا عكرمة فقمت إلى جنب حماره، فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظ، وقال حماد بن زيد: قال لي أيوب لو لم يكن عندي ثقة لم أكتب عنه، وقال يحيى بن أيوب: سألني جريج؛ هل كتبتم عن عكرمة؟ قلت: لا، قال: فاتكم ثلث العلم، وقال حبيب بن الشهيد كنت عند عمرو بن دينار فقال: والله ما رأيت مثل عكرمة قط، وقال سلام بن مسكين كان عكرمة من أعلم الناس بالتفسير، وقال سفيان الثوري خذوا التفسير من أربعة فبدأ به، وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا احتج بعكرمة، وقال جعفر الطيالسي عن ابن معين إذا رأيت إنسانًا يقع في عكرمة فاتهمه على الإسلام(١).

وأما القول بأنه كان صاحب بدعة يدعوا إليها:

قال ابن حجر: فأما البدعة فإن ثبتت عليه، فلا تضر حديثه؛ لأنه لم يكن داعية مع أنها لم تثبت عنه.(٢)

الوجه الثاني: ويشهد لحديث عكرمة شواهد وهي:

حديث أنس: أن عليًا أتى بناس من الزط يعبدون وثنًا، فأحرقهم، قال ابن عباس: إنما قال رسول الله ﷺ " من بدل دينه فاقتلوه "(٣).

وحديث الحسن مرفوعًا، قال: قال رسول الله ﷺ " من بدل دينه فاقتلوه"(٤)

- وحديث أبي هريرة ﷺ به(١).

---

(١) مقدمة الفتح لابن حجر (٤٥٠).

(٢) نفس المصدر (٤٤٧).

(٣) أخرجه النسائي (٧/ ١٠٥)، أحمد في مسنده (١/ ٣٢٢، ٣٢٣)، والطبراني "ك" (١٠٦٣٨)، والبيهقي (٨/ ٢٠٢)، وقال الشيخ الألباني في الإرواء (٨/ ٢٥): إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) النسائي (المصدر السابق)، صحيح سنن النسائي للألباني (٣٧٨٧) وقال صحيح.

- وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن أبي بردة قال: (قدم على أبي موسى؛ معاذ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجل كان يهوديًا فأسلم، ثم تهود، ونحن نريده على الإسلام منذ قال: أحسبه شهرين؛ فقال: والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه فضربت عنقه، فقال: قضى الله ورسوله " أن من رجع عن دينه فاقتلوه" أو قال "من بدل دينه فاقتلوه "[(٢)].

الوجه الثالث: لم ينفرد عكرمة بالحديث، فقد تابعه أنس عن ابن عباس به[(٣)].

فالحديث ثابت عن رسول الله ﷺ ولا مجال للطعن بعدما أوردنا شواهد لهذا الحديث من غير طريق ابن عباس رضي الله عنه، وكما ذكرنا لم ينفرد عكرمة بالحديث، هذا من جانب ومن جانب آخر هذا الحديث في أعلى كتب الصحيح ألا وهو صحيح البخاري، فيكفينا في ذلك سندًا ومتنًا.

الشبهة الخامسة: حول حديث " من بدل دينه فاقتلوه".

قالوا: عموم الحديث يفيد شموله لكل من غير دينه، ومن ثم فإن اليهودي الذي يتنصر أو المسيحي الذي يعتنق الإسلام يدخل تحت حكم الحديث فيجب قتله.

الرد على الشبهة:

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩).

قال ابن كثير: وهو إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمد ﷺ بدين غير شريعته، فليس بمتقبل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل

---

(١) الطبراني في الأوسط (٨/ ٢٧٥) برقم (٨٦٢٣)، قال الشيخ الألباني: إسناده حسن (الإرواء/ المصدر السابق)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٦٤): إسناده حسن.

(٢) مسند أحمد (٥/ ٢٣١)، وقال الشيخ الألباني: إسناده صحيح على شرط الشيخين وهو عندهما بنحوه دون قوله "أن من رجع. . .) انظر الإرواء (المصدر السابق).

(٣) صحيح ابن حبان (١٠/ ٣٢٧) رقم (٤٤٧٥))، النسنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٢٠٥)، والنسائي (٣٥٢٧)، صحيح سنن النسائي (٣٧٨٩) للألباني.

عمران: ٨٥)، وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[١].

قال البغوي: قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه، فلا يقبل غيره، ولا يجزى إلا به.[٢]

وقال ابن القيم: يعني الذي جاء به محمد، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (آل عمران: ٨٥). وقد دل قوله ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ على أنه دين أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه؛ قال أول الرسل ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٧٢)، وقال إبراهيم وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً ﴾ (البقرة: ١٢٨)، ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٢) وقال يعقوب لبنيه عند الموت ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٣)، وقال موسى لقومه ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٨٤)، وقال تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢)، وقالت ملكة سبأ ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠) ط. دار الراية – آية (١٩) آل عمران.

(٢) تفسير البغوي (١/ ٢٨٦) نفس الآية.

فالإسلام دين أهل السماوات ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان، فدين الرحمن هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة ودين المشركين. (١)

قال النووي: قال الشافعي: فلم يزل ما حرم الله تعالى على بني إسرائيل من اليهود وغيرهم محرمًا من حين حرمه حتى بعث الله عز وجل محمدًا ﷺ، ففرض الإيمان به، وأعلم خلقه أن دينه الإسلام، الذي نسخ به كل دين قبله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)، وأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية إن لم يسلموا، وأنزل فيهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

قال الشافعي: فلم يبق خلق يعقل منذ بعث الله ﷻ محمداً ﷺ من جن ولا إنس بلغته دعوته إلا قامت عليه حجة الله تعالى باتباع دينه(٢).

فإن الدين هو الإسلام، وهو ناسخ لكل دين، ولقد توالى رسل الله جميعًا يدعون الناس إلى هذه الحقيقة الخالدة، وبهذا نفهم أن كل ما عداه من دين فهو باطل، لا يعتد به ولا ينظر إليه، وأن الإسلام هو الأصل والذي يعتد به، ويكون من الأحكام والمعاملات، فعندما يقول رسول الله ﷺ " من بدل دينه فاقتلوه " فنفهم من ذلك أنه دين الأنبياء والمرسلين، دين الفطرة، دين رب العالمين، دين الإسلام.

---

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم (٢٠١-٢٠٢).

(٢) المجموع (٩/ ٧٠، ٧١).

أما قولهم أن عموم الحديث يشمل من انتقل من الكفر إلى الإسلام، وهذا يدخل في عموم الخبر، والجواب:

أن معنى (من بدل دينه) أي انتقل من الإسلام لغيره بقول أو فعل مكفر وأصر[١].

ومعناه أيضًا: أنه محمول على دين الإسلام إذ هو الدين المعتبر شرعًا[٢].

وقال السندي: المراد بالدين الحق وهذا ظاهر بالسوق، فلا يشمل عمومه من أسلم من الكفرة، ولا من انتقل منهم من ملة إلى ملة أخرى من ملل الكفر[٣].

ومعنى من بدل قتل؛ معنى يدل على أن من بدل دينه الحق وهو الإسلام لا من بدل غير الإسلام وذلك أن من خرج من غير دين الإسلام إلى غيره من الأديان، فإنما خرج من باطل إلى باطل، إنما يقتل على الخروج من الحق لأنه لم يكن على الدين الذي أوجب الله ﷻ عليه الجنة وعلى خلافه النار إنما كان على دين له النار إن أقام عليه قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ وقال ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٤].

وقال مالك: ولم يعن بذلك فيما نرى والله أعلم من خرج من اليهودية إلى النصرانية ولا من النصرانية إلى اليهودية، ولا من يغير دينه من أهل الأديان كلها إلا الإسلام، فمن خرج من الإسلام إلى غيره وأظهر ذلك فذلك الذي عني به، والله أعلم[٥].

وعلى قول مالك هذا؛ جماعة من الفقهاء[٦].

---

(١) فيض القدير (٦/ ٩٥).

(٢) الشرح الكبير للشيخ الدردير (٤/ ٣٠٨) وانظر: الخرشي على مختصر الخليل (٨/ ٦٩).

(٣) حاشية السندي على النسائي (٧/ ١٠٤، ١٠٥).

(٤) الأم (١/ ٢٥٧).

(٥) الموطأ (٥٦٥)، الاستذكار (٢٢/ ١٣٨)، تفسير القرطبي (٣/ ٥١) في نفس المعنى.

(٦) التمهيد (٥/ ٣١٢) القرطبي "المصدر السابق".

وقال الشوكاني: المراد من بدل دينه الذي هو دين الإسلام؛ لأن الدين في الحقيقة هو دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، ويؤيده أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[(١)].

وقد ورد في بعض طرق الحديث ما يدل على ذلك، فأخرج الطبراني من وجه آخر عن ابن عباس رفعه: " من خالف دينه دين الإسلام فاضربوا عنقه"[(٢)(٣)].

فتغيير اليهودية إلى نصرانية، وتغيير النصرانية إلى يهودية؛ ليس هو المقصود بالتغيير، إنما المقصود هنا التغيير من الإسلام إلى غيره، وإذا كان ثمة قياس، فإنه يكون لمن غير من دين إلى دين أسوأ منه، أو إلى غير دين كم انتقلت من اليهودية أو النصرانية إلى المجوسية أو غيرها، وإن كنا لا نرى محلًا لعمل القياس في هذا المجال لأن القياس لا يعمل في مجال العقوبات، والحديث خاص بعقوبة[(٤)].

وبهذا كله يتضح أن العموم في هذا الحديث ليس مرادًا.

وأخيرًا: حد الردة في كتاب النصارى.

أولًا: في العهد القديم: (مَنْ ذَبَحَ لآلِهَةٍ غَيْرِ الرَّبِّ وَحْدَهُ، يُهْلَكُ) الخروج (٢٢: ٢٠).

(وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرًّا أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ، أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوِ امْرَأَةُ حِضْنِكَ، أَوْ صَاحِبُكَ الَّذِي مِثْلُ نَفْسِكَ قَائِلًا: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ ٧مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَكَ، الْقَرِيبِينَ مِنْكَ أَوِ الْبَعِيدِينَ عَنْكَ، مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلَى أَقْصَائِهَا، ٨فَلاَ تَرْضَ مِنْهُ وَلاَ تَسْمَعْ لَهُ وَلاَ تُشْفِقْ عَيْنُكَ عَلَيْهِ، وَلاَ تَرِقَّ لَهُ وَلاَ تَسْتُرْهُ، ٩بَلْ قَتْلًا تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَلَيْهِ أَوَّلًا لِقَتْلِهِ، ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيرًا. ١٠تَرْجُمُهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، لأَنَّهُ الْتَمَسَ أَنْ يُطَوِّحَكَ

(١) انظر فتح الباري (١٢/ ٢٨٤) قريبًا من هذا المعنى.

(٢) أخرجه الطبراني (١١٦١٧) قال الهيثمي (٦/ ٢٦٦): فيه الحكم بن أبان وهو ضعيف.

(٣) نيل الأوطار (٨/ ٦).

(٤) مجلة البحوث الإسلامية (١٠/ ٣١٩، ٣٢٠)؛ بعنوان مساوئ الزواج من أجنبيات.

عَنِ الرَّبِّ إِلهِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. ١١فَيَسْمَعُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ وَيَخَافُونَ، وَلاَ يَعُودُونَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ الشِّرِّيرِ فِي وَسَطِكَ) التثنية (١٣/ ١١: ٦).

إله الكتاب المقدس يأمر بقتل عبدة العجل كما أخبرهم بذلك نبيه موسى عليه السلام:

(فأطاع اللاويون أمر موسى. فقتل من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. عندئذ قال موسى للاويين " لقد كرستم اليوم أنفسكم لخدمة الرب، وقد كلف ذلك كل واحد منكم قتل أبيه أو أخيه، ولكن لينعم عليكم الرب في هذا اليوم ببركة) (الخروج٣٢/ ٢٩: ٢٨).

النبي أو صاحب الحلم لا يطاع في أمره بعبادة آلهة أخرى، وتكون عقوبته القتل، وإن كان صاحب معجزات عظيمة:

إِذَا قَامَ فِي وَسَطِكَ نَبِيٌّ أَوْ حَالِمٌ حُلْمًا، وَأَعْطَاكَ آيَةً أَوْ أُعْجُوبَةً، ٢وَلَوْ حَدَثَتِ الآيَةُ أَوِ الأُعْجُوبَةُ الَّتِي كَلَّمَكَ عَنْهَا قَائِلًا: لِنَذْهَبْ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا وَنَعْبُدْهَا، ٣فَلاَ تَسْمَعْ لِكَلاَمِ ذلِكَ النَّبِيِّ أَوِ الْحَالِمِ ذلِكَ الْحُلْمَ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ يَمْتَحِنُكُمْ لِكَيْ يَعْلَمَ هَلْ تُحِبُّونَ الرَّبَّ إِلهَكُمْ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ. ٤وَرَاءَ الرَّبِّ إِلهِكُمْ تَسِيرُونَ، وَإِيَّاهُ تَتَّقُونَ، وَوَصَايَاهُ تَحْفَظُونَ، وَصَوْتَهُ تَسْمَعُونَ، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، وَبِهِ تَلْتَصِقُونَ. ٥وَذلِكَ النَّبِيُّ أَوِ الْحَالِمُ ذلِكَ الْحُلْمَ يُقْتَلُ، لأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِالزَّيْغِ مِنْ وَرَاءِ الرَّبِّ إِلهِكُمُ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَفَدَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ، لِكَيْ يُطَوِّحَكُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ أَنْ تَسْلُكُوا فِيهَا. فَتَنْزِعُونَ الشَّرَّ مِنْ بَيْنِكُمْ. (التثنية (١٣/ ٥: ١).

وهنا حد الردة ظاهرًا وجليًا:

(إذا ارتكب بينكم، رجل أو امرأة، مقيم في إحدى مدنكم التي يورثكم إياها الرب إلهكم، الشر في عيني الرب متعديا عهده، ٢. فغوى وعبد آلهة أخرى وسجد لها أو للشمس أو للقمر أو لأي من كواكب السماء مما حظرته عليكم، ٣. وشاع خبره، فسمعتم به، وتحققتم بعد فحص دقيق أن ذلك الرجس اقترف في إسرائيل، ٤. فأخرجوا ذلك

الرجل أو تلك المرأة، الذي ارتكب ذلك الإثم إلى خارج المدينة، وارجموه بالحجارة حتى يموت٥. لا تقتله إلا بعد أن تقوم عليه شهادة اثنين أو ثلاثة ويحظر أن تقتل بموجب شهادة واحد فقط. ٦ويكون الشهود هم أول من يرجمونه، ثم يتعاقب عليه الشعب. فتستأصلون عندئذ الشر من بينكم٧.) التثنية (١٧/ ٧: ٢).

٦- وفي سفر الملوك الأول: أن إيليا ذبح في وادي قيشون ٤٥٠ رجلًا من الذين كانوا يدعون نبوة البعل: (ثم قال إيليا للشعب: «أنا بقيت نبيًا للرب، وأنبياء البعل أربع مئة وخمسون رجلًا) الملوك الأول (١٨/ ٢٢).

وعلى نهر قيشون كانت المذبحة (فقال إيليا: أمسكوا أنبياء البعل ولا يفلت رجل منهم، فأمسكوهم، فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك) الملوك الأول (١٨/ ٤٠).

حكم الردة في العهد الجديد:

ورد في الرسالة إلى العبرانيين: (فَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأْنَا بِاخْتِيَارِنَا بَعْدَمَا أَخَذْنَا مَعْرِفَةَ الْحَقِّ، لاَ تَبْقَى بَعْدُ ذَبِيحَةٌ عَنِ الْخَطَايَا، بَلْ قُبُولُ دَيْنُونَةٍ مُخِيفٌ، وَغَيْرَةُ نَارٍ عَتِيدَةٍ أَنْ تَأْكُلَ الْمُضَادِّينَ.مَنْ خَالَفَ نَامُوسَ مُوسَى فَعَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ يَمُوتُ بِدُونِ رَأْفَةٍ.) رسالة إلى العبرانيين (١٠/ ٢٨: ٢٦).

* * *

شبهات عن المرأة

وفيها:

١- شبهة: الختان.

٢- شبهة: الحجاب.

٣- شبهة: القوامة.

٤- شبهة: خروج المرأة.

٥- شبهة تعليم المرأة.

٦- شبهة المساواة بين الرجل والمرأة.

٧- شبهة: عمل المرأة.

٨- شبهة: شخصية المرأة المسلمة.

٩- شبهة: ضرب الزوجات.

١٠- شبهة: كيد المرأة.

١١- شبهة: صوت المرأة.

١٢- شبهة: البغاء.

١٣- شبهة: اشتراط الولي.

١٤- شبهة: تعدد الزوجات.

١٥- شبهة: نكاح الواهبة.

١٦- شبهة: نكاح الكتابيات.

١٧- شبهة: جماع المرأة في الحيض.

١٨- شبهة: نكاح المرأة في دبرها.

١٩- شبهة: زواج التحليل.

٢٠- شبهة: نكاح المحارم.

٢١- شبهة: الاستمناء.

٢٢- شبهة: السِّحاق.

٢٣- شبهة: تبادل الزوجات.

٢٤- شبهة: المستأجرة من الزنا.

٢٥- شبهة: الطلاق.

٢٦- شبهة: رضاع الكبير.

٢٧- شبهة: شهادة المرأة نصف الرجل.

٢٨- شبهة: الميراث.

٢٩- شبهة: إمامة المرأة.

٣٠- شبهةحول: نقصان عقل المرأة.

٣١- شبهة حول: حديث الوصية بالنساء.

٣٢- شبهة: لماذا أكثر أهل النارالنساء؟

٣٣- شبهةحول: حديث كمل من الرجال كثير.

٣٤- شبهة حول: حديث لولا حواء لم تخن أنثى زوجها.

٣٣- شبهةحول: حديث كمل من الرجال كثير.

٣٦- شبهات حول: أحاديث ضعيفة تحط من شأن المرأة.

واليك التفصيل

مقدمة

لم يعتبر الإسلام المرأة جرثومة خبيثة كما اعتبرها الكثيرون، وإنما جعلها قسيمة للرجل في أمور كثيرة وعديدة، فخاطب الله ﷻ الرجل والمرأة على حد سواء، وساوى بينهما في الأصل البشري، والمولاة، وتكاليف الإيمان، وحسن المثوبة، وادِّخار الأجر، وارتقاء الدرجات العلى في الجنة.

فالنساء والرجال في أصلهما البشرى سواء، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النساء: ١).

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾(الأعراف: ١٨٩).

بل ترى أن خلق المرأة وجعلها زوجه من نعم الله ﷻ وآياته على الرجال، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم: ٢١).

وقال تعالى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (النحل: ٧٢).

وكذلك في المولاة سواء، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧٢).

وكذلك في الإيمان، فإيمان النساء كإيمان الرجال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾ (الأحزاب: ٣٥).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ (الممتحنة: ١٠).

وأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات على حد سواء، فقال ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ (محمد: ١٩).

وكذلك المساواة في مصيرهما وبحسب العمل يكون الجزاء، ولا أحد أفضل من الآخر لكون أن هذه أنثى وهذا ذكر، فقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النجم: ٣٩-٤١).

وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧).

وتلك النصوص دليل على أن المرأة في الإسلام لها شخصيتها، وكيانها المستقل، وهذه بعض النصوص، وسيأتي تفصيلها-، ولقد اعتنى الإسلام بالمرأة عناية فائقة، فالمرأة في الإسلام مجتمعًا كاملًا، فإن صلحت واستقامت صلح المجتمع، وإن اعوجت كان الفساد في المجتمع.

ولو نظرنا إلى مكانة المرأة قبل الإسلام، بل وعند الأمم الأخرى التي لم تهتدي بنور الرسالات

الإلهية، لعلمنا أن المرأة قد جُرد ت من جميع حقوقها، وإنسانيتها، وكيف حرَّر الإسلام المرأة ورفع من شأنها، قال عمر بن الخطاب ﷺ: " وَاللهِ إِنْ كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ". [١]

وتتعجب كل العجب عندما ترى وضع المرأة اليوم في ديار الكفار، فترى من الإذلال والمهانة، والمجون، والخلاعة، والابتذال، والاستغلال، في أقسى صورها، وما وصلت إليه من انحطاط أخلاقي، وانهيار اجتماعي، وتفكك أسرى[٢]، فتلك تعاليم حضارة الغرب، التي لا ينتج عنها إلا الفساد والإفساد، والنزول بالإنسان إلى درجة أقل من درجة الحيوان، وتعاليم الإسلام، حرصت كل الحرص على إخراج المرأة في صورة يتشرف بها المجتمع، وجعلت من المرأة كيانًا مستقلًا، يخرج من وراءه أجيالًا يتحدث عنهم التاريخ، فكم أخرجت بطون الأمهات الفضليات المتربيات على تعاليم الإسلام عظماء أشاعوا الخير والصلاح في الأرض، وجعلوا الأمن والآمان للبشرية.

وبعد: فهذه مجموعة من الشبهات ألقاها بعض الحاقدين على الإسلام والمسلمين يريدون بها ـ زعموا ـ تشكيك المسلمين في دينهم وتلبيس الأمور عليهم، فجمعنا من ذلك أهم ما يدندنون به ويروجون له، وقد رددنا عليهم بالحجة العلمية والعقلية ونقضنا قولهم من أقوالهم ومذاهبهم وأصولهم التي يعتمدون عليها، فلله الحمد والفضل،

وقد رتبنا هذه الشبهات على أبواب الفقه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) البخاري (٤٩١٣)، مسلم (١٤٧٩).

(٢) عودة الحجاب للمقدم–القسم الثاني– المرأة (صـ٥٥) بتصرف.

١- شبهة: الختان

نص الشبهة:

ادعاؤهم أن ختان المرأة ليس عليه دليل؛ بل هو عادة سيئة، وفيه امتهان للمرأة واعتداء على حقوقها، وأن المرأة المختونة لا يوجد لديها أي شهوة ورغبة جنسية. وأنه يؤدي إلى إصابة النساء بالأمراض أثناء إجراء عملية الختان أو بعدها، بل يؤدي إلى الوفاة.

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه

الوجه الأول: تعريف الختان.

الوجه الثاني: الأدلة على مشروعية ختان المرأة.

الوجه الثالث: الإجماع على مشروعية ختان الإناث.

الوجه الرابع: الختان كان معروفًا قبل الإسلام.

الوجه الخامس: الأسباب الطبية لجراحة الختان.

الوجه السادس: فوائد ختان المرأة.

الوجه السابع: الأضرار الناتجة عن الختان تحدث نتيجة الممارسات الخاطئة على أيدي الجهال.

الوجه الثامن: ختان المرأة ليس فيه امتهان لها واعتداء على حقوقها.

الوجه التاسع: الختان لا يؤدي للبرود الجنسي عند المرأة.

الوجه العاشر: التعب الذي تجده المرأة أثناء الختان يكون أقل من عمليات التجميل.

الوجه الحادي عشر: الطريقة الصحيحة لختان المرأة من الناحية الشرعية والطبية.

الوجه الثاني عشر: الختان في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

١- شبهة: الختان

الوجه الأول: تعريف الختان.

الختان لغةً:

قال ابن منظور: ختن الغلام والجارية يخْتِنُهما ويخْتُنُهما ختنًا.

والاسم الختان والختانة، وهو مختون، وقيل: الختن للرجال والخفض للنساء.

والختين: المختون الذكر والأنثى في ذلك سواء.

والختانة: صناعة الخاتن.

والختن: فعل الخاتن الغلام.

والختان: ذلك الموضع كله وعلاجه، والختان: موضع القطع من نواة المرأة.

قال أبو منصور: هو موضع القطع من الذكر والأنثى، وهما موضع القطع من ذكر الغلام وفرج الجارية، ويقال لقطعهما الإعذار والخفض. . . .

وأصل الختن: القطع. (١)

الختان شرعًا:

قال النووي: وختان الرجل قطع الجلدة التي تغطي الحشفة حتى تنكشف جميع الحشفة ويقال لتلك الجلدة القلفة، وأما من المرأة فتقطع من اللحمة التي في أعلى الفرج فوق مخرج البول وتشبه تلك اللحمة عرف الديك فإذا قطعت بقي أصلها كالنواة ويكفي أن يقطع ما يقع عليه الاسم. (٢)

الوجه الثاني: الأدلة على مشروعية ختان المرأة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٢٤).

(١) لسان العرب مادة خ ت ن.

(٢) روضة الطالبين وعمدة المفتين٣/ ٤٨٧، وانظر: فتح الباري ١٠/ ٤١٠.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﷻ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ قَالَ: ابْتَلاَهُ اللهُ ﷻ بِالطَّهَارَةِ خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ، وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ، فِي الرَّأْسِ: قَصُّ الشَّارِبِ وَالْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ وَالسِّوَاكُ وَفَرْقُ الرَّأْسِ،

وَفِي الْجَسَدِ: تَقْلِيمُ الأَظْفَارِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَالْخِتَانُ وَنَتْفُ الإِبْطِ وَغَسْلُ مَكَانِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ[(١)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَاخْتَتَنَ بِالْقَدُومِ".[(٢)]

قال ابن عاشور: ولأن دين إبراهيم هو أصل الحنيفية وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه فهو أشهر الأديان بين العرب وكانوا على أثارة منه في الحج والختان والقرى والفتوة. ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام وأما دين عيسى فلأنه الدين الذي سبق دين الإسلام ولم يكن بينهما دين آخر وليتضمن التهيئة إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام.[(٣)]

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨)

قال القرطبي: في قوله﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾:

وروي عن مجاهد، والحسن، وأبي العالية، وقتادة: الصبغة الدين، وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمودية ويقولون: هذا تطهير لهم. وقال ابن عباس: هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال له ماء المعمودية، فصبغوه بذلك ليطهروا به مكان الختان، لأن الختان تطهير فإذا

---

(١) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (البقرة: ١٢٤)، ومن طريقه الطبري في تفسيره (البقرة: ١٢٤)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٩٣، والبيهقي في سننه ١/ ١٤٩. من طريق معمر، عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس به.

(٢) البخاري (٦٢٩٨)، ومسلم (٢٣٧٠).

(٣) التحرير والتنوير (الشورى: ١٣).

فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانيًا حقًا، فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: صبغة الله أحسن صبغة وهي الإسلام، فسمي الدين صبغة استعارة ومجازًا من حيث تظهر أعماله، وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب. (١)

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقُول: "الْفِطْرَةُ خَمْسٌ الْخِتَانُ، وَالاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الآبَاطِ". (٢)

قال ابن القيم: والفطرة فطرتان: فطرة تتعلق بالقلب وهي: معرفة الله ومحبته، وإيثاره على ما سواه. وفطرة عملية وهي: هذه الخصال. فالأولى: تزكي الروح وتطهر القلب، والثانية: تطهر البدن. وكل منهما تمد الأخرى وتقويها، وكان رأس فطرة البدن الختان(٣).

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: " سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِثْلُ مَنْ أَنْتَ حِينَ قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ. قَالَ: أَنَا يَوْمَئِذٍ مَخْتُونٌ. قَالَ: وَكَانُوا لَا يَخْتِنُونَ الرَّجُلَ حَتَّى يُدْرِكَ"(٤).

وهذه الأحاديث وإن كانت عامة أو أنها تتحدث عن الرجال فالحكم يشمل النساء أيضًا لأنه لم يرد دليل يخصصه للرجال فقط ومعلوم قول النبي ﷺ: " إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ". (٥)

ومع هذا فقد جاءت الأحاديث تدل على مشروعية ختان الإناث منها:

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: " اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ رَهْطٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّونَ: لَا يَجِبُ الْغُسْلُ إِلَّا مِنَ الدَّفْقِ أَوْ مِنَ الْمَاءِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: بَلْ إِذَا خَالَطَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ. قَالَ. قَالَ أَبُو مُوسَى: فَأَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ. فَقُمْتُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَأَذِنَ لِي، فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهْ أَوْ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شَيْءٍ وَإِنِّي أَسْتَحْيِيكِ،

---

(١) تفسير القرطبي (البقرة: ١٣٨).

(٢) البخاري (٥٨٩١)، مسلم (٢٥٧).

(٣) تحفة المودود (١/ ١٦١).

(٤) البخاري (٦٢٩٩).

(٥) **حسن**. أخرجه الدارمي (٧٦٤) من حديث أنس. وأخرجه أحمد٦/ ٢٥٦، وأبوداود (٢٣٦)، والترمذي(١١٣)، والبيهقي في سننه ١/ ١٦٨ من حديث عائشة. وانظر: الصحيحة (٢٨٦٣).

فَقَالَتْ: لَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَسْأَلَنِي عَمَّا كُنْتَ سَائِلًا عَنْهُ أُمَّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ فَإِنَّمَا أَنَا أُمُّكَ قُلْتُ فَمَا يُوجِبُ الْغُسْلَ قَالَتْ عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الْأَرْبَعِ وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ". (١)

والشاهد في قولها: " وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ" والمراد ختان الرجل وختان المرأة.

قال أحمد: وفي هذا أن النساء كن يختتن. (٢)

عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ الأَنْصَارِيَّةِ أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ تَخْتِنُ بِالْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهَا النبي ﷺ: "لاَ تنهكي فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْظَى لِلْمَرْأَةِ وَأَحَبُّ إِلَى الْبَعْلِ ". (٣)

وفي لفظ" إذا خفضت فأشمي ولا تنهكي، فإنه أسرى للوجه وأحظى للزوج. "

قال الألباني: واعلم أن ختن النساء كان معروفًا عند السلف خلافًا لما يظنه من لا علم عنده. (٤)

فإليك بعض الآثار في ذلك:

١ - عن الحسن قال: " دعي عثمان بن أبي العاص إلى طعامه، فقيل: هل تدري ما هذا؟ هذا ختان جارية! فقال: هذا شيء ما كنا نراه على عهد رسول الله ﷺ فأبى أن يأكل ". (٥)

---

(١) مسلم (٣٤٩).

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ١/ ١٩٢.

(٣) أبو داود (٥٢٧١)، والبيهقي في سننه ٦/ ٣٩٦، والحاكم في المستدرك ٣/ ٦٠٣، والطبراني (٨١٣٧). والحديث صححه بطرقه وشواهده الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٢٢).

(٤) السلسلة الصحيحة ٢/ ٢٢١.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٣٨٢، ٨٣٨١) من طريق أبي حمزة العطار عنه.

قال الألباني: و أبو حمزة اسمه إسحاق بن الربيع: حسن الحديث، كما قال أبو حاتم، وسائر رواته موثقون، فإن كان الحسن سمعه من عثمان فهو سند حسن. و قد رواه محمد بن إسحاق، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، عن الحسن به. دون ذكر " جارية ". أخرجه الطبراني أيضًا، وأحمد (٤/ ٢١٧)، و إسناده جيد لولا عنعنة ابن إسحاق، فإنه مدلس، وبه أعله الهيثمي (٤/ ٦٠). السلسلة الصحيحة ٢/ ٢٢١.

٢ – عن أم المهاجر قالت: " سبيت وجواري من الروم، فعرض علينا عثمان الإسلام، فلم يسلم منا غيري وغير أخرى فقال: اخفضوهما وطهروهما، فكنت أخدم عثمان ". [(١)]

٣ – عن أم علقمة " أن بنات أخي عائشة ختن، فقيل لعائشة: ألا ندعو لهن من يليهن؟ قالت: بلى، فأرسلت إلى عدي[(٢)]، فأتاهن، فمرت عائشة في البيت، فرأته يتغنى، ويحرك رأسه طربًا – وكان ذا شعر كثير – فقالت: أف شيطان! أخرجوه أخرجوه ". [(٣)]

وعليه فإن الحكم الشرعي يؤخذ من مصادره التي ذكرها العلماء، أما الطب فهو علم بشرى متطور.

قال الشيخ جاد الحق: وإذ قد استبان مما تقدم أن ختان البنات من فطرة الإسلام، وطريقته على الوجه الذي بينه رسول الله ﷺ، فإنه لا يصح أن يترك توجيهه وتعليمه إلى قول غيره ولو كان طبيبًا؛ لأن الطب علم والعلم متطور تتحرك نظرته ونظرياته دائمًا".

الوجه الثالث: الإجماع على مشروعية ختان الإناث.

قال ابن هبيرة: اتفقوا على أن الختان في حق الرجال، والخفاض في حق الأنثى مشروع. [(٤)]

قال ابن رجب: وختان المرأة مشروع بغير خلاف. [(٥)]

قال ابن حزم: واتفقوا أن من ختن ابنه فقد أصاب، واتفقوا على إباحة الختان للنساء. [(٦)]

فلم يختلف فقهاء المذاهب في مشروعية الختان للإناث، وإنما كان الاختلاف في درجة حكمه هل هو واجب أم سنة. [(٧)]

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٤٥، ١٢٤٦). وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد (١٩٧).

(٢) قال الألباني: كذا الأصل ولعل الصواب (مغني) ثم رأيت في سنن البيهقي (فلان المغني).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٤٥).

(٤) اختلاف الأئمة العلماء ١/ ٣٤٢.

(٥) فتح الباري لابن رجب ١/ ٣٧٢.

(٦) مراتب الإجماع ١/ ١٥٧.

(٧) فذهب إلى وجوبه في حق الإناث الشافعي وأحمد وهو المشهور من مذهبهما. المجموع ١/ ٣٠٠، البيان للعمراني ١/ ٩٥، الروض المربع صـ ٢٧.

ولم يقل أحد منهم قط بأنه عادة جاهلية وغير ذلك.

الوجه الرابع: الختان كان معروفًا قبل الإسلام.

الختان عند الفراعنة.

هناك صورًا على المعابد وفيها أن رجلًا يأخذ بآلة ليزيل غلفة رجل آخر.

وفي دائرة المعارف الكتابية (حرف الخاء: كلمة ختان): نظرية هيرودوت: يرجح هيرودوت ـ عند كلامه عن الختان عند قدماء المصريين ـ أن الدافع إليه كان دافعًا صحيًا، إلا أن تعليل نشأة الختان بأسباب غير دينية، إنما هو تجاهل لمكانة وأهمية الدين في حياة الإنسان البدائي.

الختان عند اليهود

ففي حديث عبد الله بن عباس -في قصة هرقل مع أبي سفيان -"قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنْ الْيَهُودِ. . . . ". [1]

الختان عند العرب.

كان العرب في الجاهلية يختتنون لأنهم كانوا متمسكين بشريعة من شرائع إبراهيم، وليس الختان بعادة اخترعوها بل يعتبرونها عبادة يتعبدون بها، والإسلام عضد ذلك بضوابطه.

قال الآلوسي: ومن يتتبع الأخبار يعلم أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام من الحج والختان وإيقاع الطلاق والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر وغير ذلك، وأن النبي ﷺكان أحرص الناس على اتباع دين إبراهيم عليه السلام وفي الصحيح أنه ﷺ كان أي قبل البعثة يتحنث بغار حراء وفسر التحنث بالتحنف أي اتباع الحنفية وهي دين إبراهيم عليه السلام. [2]

وذهب إلى أنه مكرمة في حق الإناث أبو حنيفة ومالك في المشهور عنهما ورواية عن أحمد. فتح القدير لابن الهمام ١/ ٦٣، شرح الخرشي ٣/ ٤٨، المغني ١/ ٧٠.

(١) البخاري (٧).

(٢) روح المعاني٢٥/ ٥٩.

ففي حديث عبد الله بن عباس -في قصة هرقل مع أبي سفيان - لما جاءه- هرقل- خبر الرسول ﷺ فأرسل يسأل عن حال هذا الرجل وعن العرب وفيه أنه قال: " أذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر.

وفي قصة قتل وحشي لحمزة بن عبد المطلب وفيها"خَرَجَ سِبَاعٌ فَقَالَ: هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟! قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا سِبَاعُ يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ الْبُظُورِ أَتُحَادُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ". [1]

قوله: "يا ابن مقَطِّعة البُظُور" جمْع بَظْر وَدَعَاه بذلك لأنّ أمه كانت تَخْتِن النساء. [2]

وهذا يدل على أن ختان الإناث كان معروفًا عند العرب قديمًا.

أضف إلى ذلك ما ذكره أهل اللغة في مادة (خ ت ن) من تعريف الختان.

الوجه الخامس: الأسباب الطبية لجراحة الختان.

١ـ أسباب عضوية.

ـ حجم القلفة وزيادة طولها.

ـ وجود التهابات بينها وبين البظر مما يؤدي إلى شدة حساسية البظر والألم عند لمسه.

ـ تراكم اللخن مما يزيد من تكاثر البكتريا والتهابات الجهاز البولي الصاعد.

ـ الالتصاقات التي تحدث نتيجة لهذه الالتهابات، والتي تؤدي إلى قفل المجرى البولي والتناسلي خاصة في الأطفال قبل سن البلوغ وفي مرحلة الكبر (نسبة لقلة هرمون الإستروجين).

٢ـ أسباب جنسية.

ـ قلة الارتواء الجنسي نسبة لضيق القلفة أو كبر حجمها وبعد البظر إلى داخل الجسم.

ـ شدة الشبق الجنسي نتيجة للالتصاقات والحكة وكثرة الانشغال بالمنطقة وملامستها.

٣ـ أسباب نفسية.

---

(١) البخاري (٤٠٧٢).

(٢) النهاية في غريب الأثر ١/ ٣٥٧.

البرود الجنسي، الهستريا، التبول اللاإرادي، بعض حالات الاكتئاب النفسي، حالة اللنمفومينيا (الهوس الجنسي). (١)

الوجه السادس: فوائد ختان المرأة.

لو اختلف العقلاء في الختان ثم اتضح لهم منافعه الجمة، وأضرار عدم الاختتان، فحري بهم أن يتفقوا على أهمية الختان، اتباعًا لسنة الأنبياء، ولأنه من شعائر الإسلام.

فالبظر (هو النواة)، والجلدة التي عليه وهي التي تقطع في الختان، والتي شبهها الفقهاء بعرف الديك والمسماة بالقلفة، والتي تتجمع فيها مفرزات اللخن (مفرزات باطن القلفة) مثل ما يحدث في الذكر عندما تكون تلك القلفة مفرطة النمو.

وأما ما يتم في مناطق من العالم من أخذ البظر بكامله، أوالبظر مع الشفرين الصغيرين، أو حتى مع الشفرين الكبيرين أحيانًا، فهو مخالف للسنة ويؤدي إلى مضاعفات كثيرة. وهو الختان المعروف بالختان الفرعوني، وهو على وصفه، لا علاقة له مطلقًا بالختان الذي أمر به النبي ﷺ.

لذا فإن الضجة المفتعلة ضد ختان البنات لا مبرر لها، لأن المضاعفات التي يتحدثون عنها ناتجة عن شيئين لا ثالث لهما: مخالفة السنة، وإجراء العملية من قبل الجاهلين قليلي الخبرة.

وأما عن فوائد الختان:

١ـ الخفاض أمر تعبدي فيفعل ويتحصل بأدنى شيء. (٢)

قال ابن القيم: مع أنه لا ينكر أن يكون قطع هذه الجلدة علما على العبودية فإنك تجد قطع طرف الأذن وكي الجبهة ونحو ذلك في كثير من الرقيق علامة لرقهم وعبوديتهم حتى إذا أبق رد إلى مالكه بتلك العلامة فما ينكر أن يكون قطع هذا الطرف علما على عبودية صاحبه لله سبحانه حتى يعرف الناس أن من كان كذلك فهو من عبيد الله الحنفاء فيكون الختان علما لهذه السنة التي لا أشرف منها. (٣)

---

(١) ختان الإناث رؤية طبية د/ ست البنات خالد محمد علي صـ٨.

(٢) شرح خليل للخرشي ٩/ ١١٠.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود ١/ ١٨٩.

٢ـ الختان أسرى للوجه.

قال المناوي: قوله ﷺ: " فإنه أنضر للوجه " أي: أكثر لمائه ودمه، وأبهج لبريقه ولمعته. (١)

وتعليل ذلك كما وضحه الأستاذ محمد محمد اللبان؛ أن الإشمام للنساء فيه إزالة لذلك الزائد الذي يمنع من نقاء دم الحيض والبول، ولا تصل به المياه المطهرة إلى الداخل، فتبقى رواسب وبقايا دماء الحيض والبول على جوانبه مما يؤدي إلى الروائح الكريهة ويفسد بتكوين البقايا نشاط دورة الشعيرات الدموية. (٢)

٣ـ الختان أحظى عند الزوج.

قال المناوي: قوله ﷺ: "وأحظى عند الزوج" ومن في معناه من كل واطئ كسيد الأمة يعني أحسن لجماعها عنده وأحب إليه وأشهى له لأن الخافضة إذا استأصلت جلدة الختان ضعفت شهوة المرأة فكرهت الجماع فقلت حظوتها عند حليلها كما أنها إذا تركتها بحالها فلم تأخذ منها شيئا بقيت غلمتها فقد لا تكتفي بجماع زوجها فتقع في الزنا فأخذ بعضها تعديل للشهوة والخلقة. (٣)

٤ـ الختان نظافة وتزيين.

قال ابن القيم: هذا مع ما في الختان من الطهارة والنظافة والتزيين وتحسين الخلقة وتعديل الشهوة التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات فالختان يعدلها ولهذا تجد الأقلف من الرجال والقلفاء من النساء لا يشبع من الجماع، ولهذا يذم الرجل ويشتم ويعير بأنه ابن القلفاء إشارة الى غلمتها وأي زينة أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحد من جلدة القلفة. (٤)

---

(١) فيض القدير ١/ ٢٧٩.

(٢) ختان الإناث بين علماء الشريعة والأطباء د/ مريم إبراهيم هندي صـ ٧٧.

(٣) فيض القدير ١/ ٢٧٩.

(٤) تحفة المودود بأحكام المولود ١/ ١٨٨.

وهذه النظافة والطهارة التي تترتب على الختان تمنع من تجمع الإفرازات الدهنية التي تكون سببًا في وجود رائحة كريهة، وسببًا في الالتهابات في هذه المنطقة وفى مجرى البول، والجهاز التناسلي، فضلًا عن أنها تسبب الإصابة بالأمراض الخبيثة.

وقد ذكر الدكتور منير محمد فوزي، والدكتور حاتم سعد شلبي، والدكتور عادل حسن عبد الفتاح، والدكتور يحيى زايد في بحث لهم أن المسلمات أقل النساء إصابة بسرطان الفرج بسبب الختان وإزالة شعر العانة من خلال بعض المراجع الطبية الأجنبية والعربية.

وفى نهاية البحث قالوا: وفى النهاية فإننا نؤكد أهمية اتباع سنة ختان الإناث، وسنة الاستحداد (إزالة شعر العانة)، وكذلك كل سنن الفطرة التي وردت في الحديث الشريف "خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط". . . كما نؤكد خطورة عدم الالتزام بها من الناحية الطبية.[1]

٥ـ الختان يعدل الشهوة

قال ابن تيمية: وَالْمَقْصُودُ مِنْ خِتَانِ الْمَرْأَةِ تَعْدِيلُ شَهْوَتِهَا فَإِنَّهَا إذَا كَانَتْ قلفاء كَانَتْ مُغْتَلِمَةً شَدِيدَةَ الشَّهْوَةِ. وَلِهَذَا يُقَالُ فِي الْمُشَاتَمَةِ: يَا ابْنَ القلفاء فَإِنَّ القلفاء تَتَطَلَّعُ إلَى الرِّجَالِ أَكْثَرَ وَلِهَذَا يُوجَدُ مِنْ الْفَوَاحِشِ فِي نِسَاءِ التتر وَنِسَاءِ الْإِفْرِنْجِ مَا لَا يُوجَدُ فِي نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَإِذَا حَصَلَتْ الْمُبَالَغَةُ فِي الْخِتَانِ ضَعُفَتْ الشَّهْوَةُ فَلَا يَكْمُلُ مَقْصُودُ الرَّجُلِ فَإِذَا قُطِعَ مِنْ غَيْرِ مُبَالِغَةٍ حَصَلَ الْمَقْصُودُ بِاعْتِدَالِ.[2]

قال د/أحمد خفاجي: وإذا كان الهدف من ختان الذكور هو تعديل الشهوة، ومنع الإفرازات الصادرة من الحشفة، فإن الختان للإناث مرتبط أساسًا بتقليل الشهوة أو تعديلها، فأكثر أعضاء الإناث استثارة البظر، ويأتي من بعده الشفران الصغيران ثم الكبيران، ولذلك فإن من يختنون البنات بإزالة كل هذه الأجزاء الحساسة إنما يظلمونهن،

---

(١) ختان الإناث بين علماء الشريعة والأطباء صـ ٧٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٢١/ ١١٤.

ويمنعونهن نعمة وهبها الله لهن. بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى ما هو أخطر منه، حيث تصاب الأنثى - أحيانًا- بضيق في فتحة البول، أو في المهبل، ينتج عنه مشاكل بولية، أو مشاكل في الولادة بعد ذلك، ونحن نتفق كلية مع الذين يحاربون الختان بهذه الطريقة البشعة المشوهة للأنثى، أما إزالة جزء معين من البظر، فإنه تعديل لهذه الشهوة التي قد تؤذى الأنثى وترهقها، وتكون سببًا في عدم إشباعها من الطرق الطبيعية عن طريق زوجها، وحافزًا لها على تكملته من طرق أخرى.

وقال د/حامد الغوابي أيضًا في رده على من انتقده قائلًا:

ثم يقول الزميل المحترم: إن للأنثى عضوًا حساسًا يسمى البظر، يقابل عضو الرجل من الوجهة التكوينية، وهو صغير يبلغ طوله ٣ سنتيمترات، وبه نسيج انتصابي اسفنجي، وهو حساس، وبطرفه حشفة (رأس) هي الأخرى جزء من نسيج انتصابي، وهأنذا أرى أن هذا الزميل المحترم قد ناقض نفسه بنفسه فإنه ذكر أن هذا العضو ينتصب كما ينتصب عضو الرجل، وإن كان في حدود ٣ سنتيمترات، إلا أنه قد يكون في بعض الحالات أكثر من ذلك، وإن كانت قليلة فكيف لرجل أن يختلط بزوجه وهى لها عضو كعضوه ينتصب كانتصابه أليس ذلك أدعى إلى استئصال جزء من هذا العضو كما جاء في حديث رسول الله ﷺ؟ وإذا كان قد نهى عن المساحقة بين البنات وهن بلا بظر ينتصب فكيف بهذه العادة بينهن وعندهن عضو ينتصب كما جاء في كلام الزميل المحترم. [1]

٦ـ يمنع الروائح الكريهة ويعمل على انخفاض معدل التهابات المجاري البولية والتناسلية.

الإفرازات الدهنية المنفرزة من (الشفرين الصغيرين) إن لم يقطعهما مع جزء من البظر في الختان تتجمع وتتزنخ ويكون لها رائحة غير مقبولة، وتحدث التهابات قد تمتد إلى المهبل، بل إلى قناة مجرى البول.

(١) ختان الإناث بين علماء الشريعة والأطباء صـ ٧٤.

قال د/محمد علي البار: وفيه- ختان الإناث- فوائد كبيرة: والختان في النساء سنة، ويقطع شيء من البظر، والبظر في المرأة يقابل القضيب في الرجل إلا أن حجمه صغير جدًّا ولا تخترقه قناة مجرى البول، وعلى البظر قلفة وإن كانت صغيرة، ولها عيوب القلفة في الرجل، إذ تتجمع فيها الإفرازات، وتنمو الميكروبات، والبظر عضو حساس جدًّا مثل حشفة القضيب، وهو عضو انتصابي كذلك، ولا شك أنه مما يزيد الغلمة والشبق، وذلك من دواعي الزنا إذا لم يتسنَّ الزواج، ومع هذا فقد أمر الرسول ﷺ الخاتنة أن تزيل شيئًا يسيرًا من البظر، ولا تخفض حتى لا تصاب المرأة بالبرود الجنسي، فقد روت أم عطية قوله ﷺ: " إذا ختنت فلا تنهكي، فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعل "، وهكذا تتضح حكمة الختان في الرجال والنساء... ، وتبدو ملة أبينا إبراهيم الذي سمانا المسلمين... والذي سَنَّ لنا الختان... تبدو ناصعة نقية تهتم للصغير كما تهتم بالكبير، والختان من المسائل التي تبدو هينة بسيطة... ولكن في طياته خير كثير... ، وفي تركه أذى وشر مستطير. (١)

كما قدم الدكتور البار إلى المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة بحثًا جاء فيه:

إن ختان الأنثى أو خفضها الذي ورد في السنة له محاسن كثيرة ذكرها الباحثون في المؤتمر الطبي الإسلامي ـ عن الشريعة والقضايا الطبية المعاصرة ـ هذه الفوائد يمكن أن تلخص في:

ـ ذهاب الغلمة والشبق (وتعني شدة الشهوة والانشغال بها والإفراط فيها)، وذهابهما يعني تعديل الشهوة عند المختونين من الرجال والنساء.

ـ منع الروائح الكريهة الناتجة عن تراكم اللخن تحت القلفة.

ـ انخفاض معدل التهابات المجاري البولية.

ـ انخفاض معدل التهابات المجاري التناسلية. (٢)

٧- أنه ألذ في الجماع وأسرع لمجيء شهوة الوقاع ومع وجودها يكون أبعد للشهوة وقد

---

(١) ختان الإناث بين علماء الشريعة والأطباء ١/ ٣٢.

(٢) ختان الإناث رؤية طبية د/ ست البنات خالد محمد على صـ ١٢.

تكون الغرلة إذا طالت مكسلة عن الإنزال.

وفي حاشية الطحاوي على المراقي: الختان للرجال سنة وللنساء مكرمة قال في المعراج: يعني مكرمة للرجال لأن جماع المختونة ألذ. (١)

٨- أن خروج الماء الدافق من غير غلفة وانزعاجه أشد، فإن الغلفة إذا طالت ربما نقصت من انزعاجه وفترته، وإذا كان كذلك وخرج الماء فاترًا قد لا يقع في المحل الذي تنعقد فيه النطفة فلا ينعقد الولد، ويكون هذا كالعزل، ومقصود الشرع في الغالب تكثير النسل.

الوجه السابع: الأضرار الناتجة عن الختان تحدث نتيجة الممارسات الخاطئة على أيدي الجهال.

فقد قالوا: بأن الختان له أضرار كثيرة منها النزف، والتهاب في الجرح، والجهاز التناسلي ومجرى البول والمثانة، وحرمانها من ذروة اللذة الجنسية، وأن بعض حالات الطلاق كانت بسبب الختان.

ويرد عليهم بأن كل هذه الآثار تكون إذا لم نتبع هدى رسول الله ﷺ، أو استخدمت أدوات غير نظيفة. فقد بين لنا رسول الله ﷺ بأنه يؤخذ شئ ويترك المكان أشم وهذا أنظر للوجه وأحظى عند الزوج، فالخير كل الخير في اتباع هدى رسول الله ﷺ؛ لأنه شرع لنا ما فيه المصلحة في الدنيا والآخرة.

قال د/منير محمد فوزي: عندما سئل: ما رأيك في حالات الوفيات والنزيف وكافة الأضرار والمشاكل التي تنتج عن ختان البنات؟ قال: " لا أساس لكل ذلك من الواقع، فجميع هذه الأضرار والمشاكل تحدث نتيجة الممارسات الخاطئة للختان، وهي نفس المشاكل التي قد تحدث للذكور بالممارسة الخاطئة على أيدي الجهلاء، والدايات وحلاقي الصحة، فلو أن من يؤدي الختان يقوم به كما أمر رسول الله ﷺ اتباعًا لحديثه الشريف " اخفضي ولا تنهكي " لما حدثت أية مشاكل إطلاقًا".

(١) حاشية الطحاوي على المراقي ١/ ٦٤. حاشية ابن عابدين ٧/ ١١٥.

وإذا كان قد توفى بعض الإناث أو حدثت التهابات أو حدث نزيف نتيجة الممارسة الخاطئة أو استخدام أدوات غير معقمة هل نمنع الختان مطلقًا من أجل هذا؟ أم نبحث عن الخطأ ونعالجه، ولماذا لم نمنع جميع العمليات الجراحية؛ لأنه قد مات البعض بسبب العمليات أو حدث لهم نزيف؟

لماذا لم يقل بهذا أحد من الأطباء؟.

يضاف إلى هذا أن عددًا من الأساتذة في الاجتماع والصحة النفسية قد أكدوا على أهمية ختان الإناث، وعدم حدوث أضرار من ورائه إذا أجرى بالطريقة السليمة. [١]

الوجه الثامن: ختان المرأة ليس فيه امتهان لها واعتداء على حقوقها.

ذلك لأن هدى رسول الله ﷺ ليس فيه إلا المصلحة للإنسان في الدنيا والآخرة.

قال ابن حجر-عند شرح حديث خمس من الفطرة-:

"أن هذه الأشياء إذا فعلت اتصف فاعلها بالفطرة التي فطر الله العباد عليها وحثهم عليها واستحبها لهم ليكونوا على أكمل الصفات وأشرفها صورة". [٢]

فالختان به تشريف وتكميل للمرأة ليس امتهانًا ولا انتقاصًا لها.

وقد رَدَّ د/ منير محمد فوزي على من يدعي أن الختان امتهان للمرأة وضياع لحقوقها فأحسن حيث قال: في جريدة الوطن تحت عنوان " أية حقوق يزعمونها؟ ": " تعليقًا على المقال الموضوعي الهادف الذي نشر في جريدتكم الموقرة بتاريخ ٣٠/ ٦/ ١٩٩٧م للأستاذة نجوى طنطاوي تحت عنوان " فرمان أمريكي ممنوع ختان الإناث في مصر " فإننا تعليقًا على هذه الحملة التي تقوم بها بعض الجهات الأجنبية وبعض المنظمات المحلية منذ بضع سنوات والتي تستفز إلى أقصى الدرجات - المشاعر الدينية والقومية لكل مسلم ولكل مصري ونتوقف أمام الحقائق الآتية:

---

(١) ختان الإناث بين علماء الشريعة والأطباء صـ٤٨: ٤٧.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٣٣٩.

أولًا: إن هذه الحكومات والمنظمات الغربية ترفع شعارات (حقوق الإنسان) كمبرر لهذه الحملة المشبوهة ونحن لا ننتظر أن نتعلم حقوق الإنسان من الغرب أو من الشرق، فالإسلام يكفل حقوق كل إنسان في المجتمع كبيرًا أو صغيرًا، رجلًا أو امرأة بما يحقق للمجتمع الإسلامي كله الاستقرار والترابط الأسرى والتراحم والأواصر العائلية وصلة الرحم بين الأهل وبين أفراد المجتمع، وهى كلها قيم متأصلة في مجتمعنا بحمد الله، ونابعة من ديننا الحنيف، ولا تعرفها كل هذه المجتمعات التي تتحدث عن حقوق الإنسان، وترفع شعاراته، وتريد أن تفرض وصايتها علينا فكرًا وسلوكًا ومعتقدًا تحت هذه الشعارات الخادعة والزائفة.

ثانيًا: إن أول حقوق الإنسان هو حقه في حرية ممارسة عقيدته، وحقه في أن يسلك أمور حياته الشخصية والعائلية والخاصة بما يتفق مع معتقده طالما أنه في هذا المسلك لا يعتدي على غيره أو يضر به أحدًا، ومن هنا فإن أبسط حقوق أي إنسان أن يتبع ما يعتنقه من أمور دينه، ومن البديهي أن ذلك ينطبق على قضية ختان الإناث التي تثيرها هذه المنظمات الأجنبية ذات الأهداف المشبوهة إذ أن التزام معظم المصريين بسنة ختان الإناث والتي تصل إلى ٨٥٪ من النساء كتقدير وزارة الصحة إنما يرجع إلى الارتباط بالدين والالتزام بأوامره، ومن ثم فإنه لا يحق لأي أجنبي أن يتدخل في هذا الأمر الذي يبلغ أقصى درجات الخصوصية والحساسية فيحاول منعه بالقوة كما يطالب هؤلاء، بل وأكثر من ذلك يطالبون بمعاقبة من يلتزمون به من المسلمين، ومن يقومون بإجرائه من الأطباء فأين إذن حقوق الإنسان المزعومة التي يتشدق بها هؤلاء؟.

ثالثًا: يدعى هؤلاء أن إجراء الختان للطفلة قبل سن الرشد هو اعتداء على حقوقها (حيث أن قرار الختان يكون للأبوين وليس للطفلة) وهذا الادعاء يقوم على نمط التفكير الغربي المنحرف الذي لا يجعل الأب مسئولًا عن تربية أبنائه، بل ويحرض الأبناء على أبيهم تحت شعارات (حقوق الطفل) أما في الشريعة الإسلامية فإن الأب أو الولي الشرعي

مسئولًا عن تربية الأبناء مصداقًا للحديث الشريف " كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته " (٢٢٦) فالأب المسلم يكون مسئولًا عن تربية أبنائه وتعليمهم أمور دينهم، وتهذيب سلوكهم، ومن ثم فإنه يكون طبيعيًا أن يلتزم في تربيته لبناته بإجراء سنة الختان لهن طالما أنه يعلم أنها سنة صحيحة أمر بها سيدنا رسول الله ﷺ. ومن الغريب أن أى إنسان من هؤلاء الذين يرددون هذا التبرير الساقط يبيحون لكل أب أن يذهب بابنته إلى الطبيب إذا مرضت، وأن يكون له هو قرار العلاج أو الجراحة إذا اقتضى الأمر ذلك، فكيف يمنعون هذا الحق عن الأب في إجراء سنة الختان وهى عملية تجميلية بسيطة لا يحدث من ورائها أي ضرر جسماني إذا أجريت بالطريقة الصحيحة على أيدي متخصصين وكما أمر رسول الله ﷺ بالخفض وعدم الإنهاك في الحديث الشريف " اخفضي ولا تنهكي ".

رابعًا: يكفى للتدليل على أهمية هذه السنة في تحقيق الاستقرار العائلي والحياة الزوجية الطبيعية أن هناك كثيرات من النساء يطلبن إجراء هذه العملية البسيطة بعد الزواج إذا لم تكن قد أجريت لهن من قبل لما تستشعره الزوجة من أهميتها وضرورتها كما يؤكد هذا إصرار كثير من الأمهات على إجراء الختان لبناتهن.

كما يكفى دليلًا على أهميتها أن مجتمعنا في مصر في ظل تمسكه بهذه السنة – هو أكثر المجتمعات على وجه الأرض تحقيقًا للخصوبة وتمتعًا بالاستقرار الأسري والارتباط العائلي.[1]

الوجه التاسع: الختان لا يؤدي للبرود الجنسي عند المرأة.

أولًا: الختان الذي وصفه رسول الله ﷺ في حديثه " اخفضي ولا تنهكي" لا يؤدى إلى البرود الجنسي، ولكنه يقلل من شهوتها فقط كما اتضح من كلام الفقهاء والأطباء.

ثانيًا: " البظر " ليس هو العضو الوحيد في العملية الجنسية وإنما توجد مواطن أخرى للإثارة الجنسية، كما أن هناك مؤثرات خارجية وهرمونات وأكثر من هذا فإن الأعصاب المغذية لعضو البظر والتي تقطع عند الختان بدرجات متفاوتة تبقى لها بعض الحساسية

(١) ختان الإناث صـ٥٥: ٥١.

التي لا تزول مع الأيام وإذا أزيل البظر رغم أن الرسول نهى عن إنهاكه وإزالته ينتقل الإحساس إلى أماكن أخرى منها المنطقة المحيطة بفتحة المهبل.

وذكرت الدكتورة صافيناز السيد شلبي أن دراستها كشفت عن عدم وجود علاقة هامة بين درجة الختان والنشاط الجنسي وأن العمر الإنجابية والعمل للنساء اللاتي تمت دراستهن يؤثر على نوع المشكلة الجنسية أكثر من حدوثها، كما أن الدراسة ذكرت التأثير الهام لاستعمال الموانع الهرمونية على النشاط الجنسي.

ثالثا: أن البرود الجنسي له أسباب متعددة منها:

- التمزقات في الأعضاء التناسلية للمرأة بعد الولادة.
- ومنها الأسباب النفسية مثل عدم المحبة بين الزوجين أو من مخافة المرأة من حدوث حمل.
- كما أن البرود الجنسي قد يكون خلقيًا فتولد به البنت وتكبر ولا رغبة لها في المسائل الجنسية سواء عمل لها الختان أو لم يعمل.[1]

قال د. حامد الغوابي: والختان يقلل الحساسية المفرطة للبظر الذي قد يكون شديد النمو بحيث يبلغ أكثر من ٣سنتيمترات عند انتصابه، فكيف للرجل أن يختلط بزوجته ولها عضو كعضوه، ينتصب كانتصابه.

ويَرُدُّ د. حامد الغوابي على من يدعي أن ختان البنات يؤدي إلى البرودة الجنسية عندهن؛ بأن البرود الجنسي له أسباب كثيرة، وأن هذا الإدعاء ليس مبنيًا على إحصاءات وشواهد بين المختتنات وغير المختتنات، طبعًا إلا أن يكون ختانًا فرعونيًا أدى إلى قطع البظر بكامله.

ثم ينقل عن البروفسور هوهنر ـ أستاذ أمراض النساء في جامعة نيويورك ـ بأن التمزقات التي تحدث في المهبل أثناء الوضع تحدث برودًا جنسيًا بعكس ما كان منتظرًا، في حين أن الأضرار التي تصيب البظر نادرًا ما تقود إلى البرود الجنسي.[1]

---

(١) ختان الإناث بين علماء الشريعة والأطباء صـ٥٦: ٥٥.

الوجه العاشر: التعب الذي تجده المرأة أثناء الختان يكون أقل من إجراء بعض عمليات التجميل.

قالت د/ست البنات خالد: جراحة الختان من العمليات الجراحية القديمة والتي لا تزال تُجرى إلى الآن، وتعد من فروع العمليات الصغرى، وكانت تجرى في كل أنحاء العالم على درجات متفاوتة ولأسباب مختلفة في كل مراحل عمر الأنثى.

إن ختان الإناث الذي شرعه الإسلام عملية جراحية بسيطة ومأمونة إذا أجريت من قبل طبيبة أو قابلة خبيرة ومدربة وكانت الأدوات معقمة. ومضاعفاته نادرة جدًّا ولا تتعدى مضاعفات العمليات البسيطة الأخرى كحدوث نزيف بسيط أو التهابات خفيفة. ولا بد من الكشف الطبي على الطفلة قبل القيام بإجراء الختان. [٢]

ولنتساءل هل القانون له الحق لمنع الختان؟

و نجيب على هذا السؤال إذا أجبنا على سؤال مشابه لهذا السؤال ألا وهو:

هل القانون له الحق لمنع عمليات التجميل؟

فإن هناك عمليات تجميل ليست ضرورية، وبالرغم من ذلك كانت تجرى عمليات جراحية مؤلمة من أجل تجميل الملامح الجسدية للمرأة.

ففي الماضي القريب عملية تكبير أو تصغير ثدي المرأة أو غير ذلك- حيث فيها كان يتم شق الثدي، ووضع مواد كيميائية تساعد على تكبير الثدي. والقانون لا يعترض على ذلك، فالختان فيه مصلحة راجحة لما أشرنا إلى فوائده، وتركه يؤدي إلى مفسدة متوقعة، فهو أولى بألا يمنعه القانون.

الوجه الحادي عشر: الطريقة الصحيحة لختان المرأة من الناحية الشرعية والطبية.

ذكر بعض الفقهاء أن ختان الأنثى يكون بقطع أدنى جزء من الجلدة التي في أعلى فرج المرأة التي تشبه النواة أو عرف الديك.

(١) روائع الطب الإسلامي د/ محمد نزار الدقر ١/ ١٠٨.

(٢) ختان الإناث رؤية طبية صـ١١.

وذهب البعض الآخر إلى أنه يكون بقطع الجلدة التي في أعلى الفرج والتي تشبه النواة بشرط ألا تستأصل.

وأرى أن الفرق بين الفريقين هو في حجم الجزء المقطوع حيث إنه عند الفريق الأولى أدنى جزء أي جزء قليل، لكنه عند الفريق الثاني يمكن أن يكون كبيرًا لكنه مشروط بعدم استئصال البظر كاملاً.

وأرى أيضًا أن الفريقين جميعًا متفقون مع حديث رسول الله ﷺ" أشمي ولا تنهكي " أي اقطعي بشرط أن تتركي المكان أشم، ولا تستأصلي هذا العضو.

وهم بهذا متفقون مع الدرجة الأولى والثانية من درجات الختان التي تحدث في الواقع في قطع الجلدة التي فوق البظر أو قطع جزء من البظر وجزء من الشفرين الصغيرين.

فليس في كلام الفقهاء ما يمنع من ذلك وليس في حديث الرسول ﷺ: " أشمي ولا تنهكي" ما يمنع ذلك أيضًا حيث إنه ليس فيه أسلوب قصر ولكن لعله ﷺكان يعلم أن الختان يتم باستئصال البظر فأرشد من تقوم به بألا تستأصل دون ذكر لكل ما يقطع.

بل إن حديث الرسول ﷺ: " إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل " يشير إلى ذلك؛ لأنه إذا جاوز ختان الرجل ختان المرأة (أي موضع قطع شفريها الصغيرين) يجب الغسل؛ لأنه يكون قد غابت الحشفة في فرج المرأة.

وعلى ذلك يكون حديث رسول الله ﷺ: "أشمي ولا تنهكي"، وحديثه: "إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل" متفقة مع الدرجة الأولى والثانية من درجات الختان التي تتم في الواقع.

وقد ذكرت الدكتورة عبير عبده محمد بركات: " أن ختان الدرجة الأولى والثانية يسمى بختان السنة – حتى في الكتب الأجنبية.

الوجه الثاني عشر: الختان في الكتاب المقدس

الختان في الكتاب المقدس ينجي من المهالك ويرضي الرب.

ففي: سفر الخروج (٤/ ٢٦: ٢٤): وَحَدَثَ فِي الطَّرِيقِ فِي الْمَنْزِلِ أَنَّ الرَّبَّ الْتَقَاهُ وَطَلَبَ أَنْ يَقْتُلَهُ. ٢٥ فَأَخَذَتْ صَفُّورَةُ صَوَّانَةً وَقَطَعَتْ غُرْلَةَ ابْنِهَا وَمَسَّتْ رِجْلَيْهِ. فَقَالَتْ: «إِنَّكَ عَرِيسُ دَمٍ لِي». ٢٦ فَانْفَكَّ عَنْهُ. حِينَئِذٍ قَالَتْ: «عَرِيسُ دَمٍ مِنْ أَجْلِ الْخِتَانِ.

المسيح ختن وقد أمرهم بالاقتداء به في جميع أفعاله وأقواله.

فقد انفرد لوقا في إنجيله بذكر حادثتي ختان كل من يحيى بن زكريا والمسيح عيسى عليهما السلام، حسب شريعة التوراة وطقوس الختان التوراتية. ولا يوجد في الأناجيل الأربعة المتداولة حاليًا قولا صريحًا للمسيح عن الختان. ولكن بتتبع سيرته العطرة المسجلة في الأناجيل نجد أنه عليه السلام: قال: "قد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا أنتم أيضًا ما صنعت إليكم "(يوحنا ١٣: ١٥)

وقد اختتن عليه السلام حسب شريعة التوراة وهو طفل صغير وقدمت عنه يمامتين لبيت الرب.

وبتتبع سيرته نجد أن هناك أمورًا كثيرة قد وافق عليها وأقرها لقومه، وهناك أمور أخرى أحلها لقومه بعد أن كانت محرمة عليهم وهناك أمور جديدة شرعها لقومه. فلماذا لم ينهى نهيًا قطعيًا عن الختان، ففي سفر اللاويين (١٢/ ٣: ١): وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: إِذَا حَبِلَتِ امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَرًا، تَكُونُ نَجِسَةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ. كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِ عِلَّتِهَا تَكُونُ نَجِسَةً. ٣ وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ يُخْتَنُ لَحْمُ غُرْلَتِهِ. [(١)]

* * *

(١) قال القرطبي: وهذا نص لا إشكال فيه ثم إن النصارى بتحكمهم واستهانتهم بالشرائع تركوا العمل، وذلك من غير أصل يعتمدون عليه ولا نسخ يثبت عندهم له، ومن ادعى منهم شيئًا من ذلك طالبناه بنص من الإنجيل وليس لذلك من سبيل غير التحكم بالقال والقيل، فإنهم كذبوا على الله حيث قالوا: إنما أراد الله بهذا الحكم إزالة غلوفية القلوب. ولو كان ذلك حقًا لبينه موسى للناس ولما جاءهم بالختان ولما فعله ولما فعل بيحيى وعيسى وسائر الأنبياء الذين حكموا بالتوراة ولم يزالوا يختتنون ويأمرون بالختان إلى زمان المسيح ثم إن المسيح لم ينه عنه ولا أمر بتركه فهذا على الله ورسله كذب صراح وقول وقاح. الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام (٤٢٠).

٢- شبهة: الحجاب.

نص الشبهة:

دارت هذه الشبهة على اعتراضات وهي:

١ - إن حجاب النساء لم يكن موجودًا من قبل، وإنما هو نظام ابتدعه الإسلام.

٢- إن في الحجاب كبت للطاقة الجنسية عند الشباب مما يترتب عليه حالات اغتصاب.

٣- الأصل في عفة المراة أخلاقها التي تنبع من الباطن وليس حجابها الذي يهتم بالظاهر.

٤ - الحجاب مظهر غير حضاري وعائق عن تقدم المرأة.

٥ - الحجاب فيه حرمان المرأة من إظهار زينتها، وتقييد لحريتها الشخصية.

والجواب عن هذا الكلام من هذه الوجوه.

الوجه الأول: فضائل الحجاب من الناحية الشرعية.

الوجه الثاني: قبائح التبرج من الناحيه الشرعية.

الوجه الثالث: فوائد الحجاب وخطورة التبرج على الفرد والمجتمع.

الوجه الرابع: من هم أعداء المرأة؟

الوجه الخامس: ماذا قال الغرب المنصف عن فضل الحجاب وخطورة التبرج؟.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فضائل الحجاب من الناحية الشرعية.

تعبَّد الله نساء المؤمنين بفرض الحجاب عليهن، الساتر لجميع أبدانهن وزينتهن، أمام الرجال الأجانب عنهن، تعبدًا يثاب على فعله ويعاقب على تركه، ولهذا كان هتكه من الكبائر الموبقات، ويجر إلى الوقوع في كبائر أخرى، مثل: تعمّد إبداء شيء من البدن، وتعمّد إبداء شيء من الزينة المكتسبة، والاختلاط، وفتنة الآخرين، إلى غير ذلك من آفات هتك الحجاب.

فعلى نساء المؤمنين الاستجابة إلى الالتزام بما افترضه الله عليهن من الحجاب والستر والعفة والحياء طاعةً لله تعالى، وطاعة لرسوله ﷺ قال الله عز شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾(الأحزاب: ٣٦)

كيف ومن وراء افتراضه حكم وأسرار عظيمة، وفضائل محمودة، وغايات ومصالح كبيرة، منها:

١ـ الحجاب طاعةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ.

وقد أوجب الله تعالى طاعته وطاعة رسوله ﷺ: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(الأحزاب: ٣٦).

وقد أمر الله تعالى بالحجاب فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١)

٢ـ الحجاب إيمان.

لأن الله تعالى لم يخاطب به إلا المؤمنات لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور: ٣١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ (الأحزاب: ٥٩).

٣ـ الحجاب طهارة.

الحجاب داعية إلى طهارة قلوب المؤمنين والمؤمنات، وعمارتها بالتقوى، وتعظيم الحرمات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

٤ـ الحجاب عفة.

الحجاب علامة شرعية على الحرائر العفيفات في عفتهن وشرفهن، وبعدهن عن دنس الريبة والشك، وصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن، وإن العفاف تاج المرأة، وما رفرفت العفة على دارٍ إلا أكسبتها الهناء.

ومما يستطرف ذكره هنا: أن النُّميري لما أنشد عند الحجاج قوله:

يُخَمِّرْنَ أطراف البنان من التُّقى ويَخْرجن جُنحَ الليل معتجرات

قال الحجاج: وهكذا المرأة الحرة المسلمة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

٥ـ الحجاب ستر.

قال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأعراف: ٢٦).

٦ـ الحجاب حفظ العِرض.

الحجاب حِرَاسةٌ شرعية لحفظ الأعراض، ودفع أسباب الرِّيبة والفتنة والفساد.

٧ـ الحجاب داعية إلى مكارم الأخلاق.

الحجاب داعية إلى توفير مكارم الأخلاق من العفة والاحتشام والحياء والغيرة، والحجب لمساويها من التَلوُّث بالشَّائِنات كالتبذل والتهتك والسُّفالة والفساد.

٨ـ الحجاب يقطع الأطماع والخواطر الشيطانية.

الحجاب وقاية اجتماعية من الأذى، وأمراض قلوب الرجال والنساء، فيقطع الأطماع الفاجرة، ويكف الأعين الخائنة، ويدفع أذى الرجل في عرضه، وأذى المرأة في عرضها ومحارمها، ووقاية من رمي المحصنات بالفواحش، وَإِدباب قالة السوء، ودَنَس الريبة والشك، وغيرها من الخطرات الشيطانية.

٩ـ الحجاب فيه حفظ الحياء.

وهو مأخوذ من الحياة، فلا حياة بدونه، وهو خلُق يودعه الله في النفوس التي أراد سبحانه تكريمها، فيبعث على الفضائل، ويدفع في وجوه الرذائل، وهو من خصائص الإنسان، وخصال الفطرة، وخلق الإسلام، والحياء شعبة من شعب الإيمان، وهو من محمود خصال العرب التي أقرها الإسلام ودعا إليها، قال عنترة العبسي:

وأَغضُّ طَرفي إن بَدَت لي جارتي   حتى يُواري جارتي مأواها

فآل مفعول الحياء إلى التحلي بالفضائل، وإلى سياج رادع، يصد النفس ويزجرها عن تطورها في الرذائل.

وما الحجاب إلا وسيلة فعالة لحفظ الحياء، وخلع الحجاب خلع للحياء.

١٠- الحجاب يمنع نفوذ التبرج والسفور والاختلاط إلى مجتمعات أهل الإسلام.

١١- الحجاب حصانة ضد الزنا والإباحية، فلا تكون المرأة إناءً لكل والغ.

١٢- حفظ الغيرة. (١)

الوجه الثاني: قبائح التبرج من الناحيه الشرعية.

١ـ التبرج معصية لله ورسول ﷺ.

ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "كُلُّ أُمَّتِى يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، إِلاَّ مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَنْ يَأْبَى! قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى". (٢)

٢ـ التبرج يجلب اللعن والطرد من رحمة الله.

قال رسول الله ﷺ: " سيكون في آخر أمتي نساء كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت، العنوهن فإنهن ملعونات. . . ". (٣)

---

(١) عودة الحجاب ٣/ ١٢٣: ٩١بتصرف.

(٢) البخاري (٧٢٨٠).

(٣) حسن. أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٧٥٣)، والطبراني في الصغير صـ ٢٣٢. من حديث عبد الله بن عمرو. والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٨٣).

٣ـ التبرج من صفات أهل النار.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا ". [(١)]

٤ـ التبرج تهتك وفضيحة.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " مَا مِنِ امْرَأَةٍ تَضَعُ ثِيَابَهَا فِى غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلاَّ هَتَكَتِ السِّتْرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا ".

٥ـ التبرج فاحشة.

فإن المرأة عورة وكشف العورة فاحشة ومقت قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (الأعراف: ٢٨).

والشيطان هو الذي يأمر بهذه الفاحشة ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا يَعْنِي زَانِيَةً". [(٢)]

٦ـ التبرج سنة إبليسية.

إن قصة آدم مع إبليس تكشف لنا مدى حرص عدو الله إبليس كشف السوءات، وهتك الأستار، وأن التبرج هدف أساسي له، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ (الأعراف: ٢٧)، فإذن إبليس هو

---

(١) مسلم (٢١٢٨).

(٢) حسن. أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٤٠٠، والنسائي في سننه٨/ ١٥٣، والترمذي في سننه (٢٧٨٦)، وأبو داود في سننه (٤٠٧٣) من طرق عن ثابت بن عمارة، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى الأشعري به. والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٠١).

صاحب دعوة التبرج والتكشف، وهو زعيم زعماء ما يسمي بتحرير المرأة.

٧ـ التبرج طريقة يهودية

لليهود باع كبير في مجال تحطيم الأمم عن طريق فتنة المرأة وهم أصحاب خبرة قديمة في هذا المجال، حيث قال النبي ﷺ: " فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء".[(١)]

٨ـ التبرج جاهلية منتنة.

قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وقد وصف النبي ﷺ دعوى الجاهلية بأنها منتنة أي خبيثة فدعوى الجاهلية شقيقة تبرج الجاهلية، وقد قال النبي ﷺ: "كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي "، سواء في ذلك تبرج الجاهلية، ودعوى الجاهلية، وحمية الجاهلية.

٩ـ التبرج تخلف وانحطاط.

إن التكشف والتعري فطرة حيوانية بهيمية، لا يميل إليه الإنسان إلا وهو ينحدر ويرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان الذي كرمه الله، ومن هنا كان التبرج علامة على فساد الفطرة وانعدام الغيرة وتبلد الإحساس وموت الشعور:

لحد الركبتين تشمرينا ... بربك أي نهر تعبرين

كأن الثوب ظلٌّ في صباح ... يزيد تقلصًا حينًا فحينا

تظنين الرجال بلا شعور ... لأنكِ ربما لا تشعرينا

١٠ـ التبرج باب شر مستطير.

وذلك لأن من يتأمل نصوص الشرع وعبَر التاريخ يتيقن مفاسد التبرج وأضراره على الدين والدنيا، لا سيما إذا انضم إليه الاختلاط المستهتر.

فمن هذه العواقب الوخيمة:

* تسابق المتبرجات في مجال الزينة المحرمة، لأجل لفت الأنظار إليهن. . مما يتلف

---

(١) مسلم (٢٧٤٢).

الأخلاق والأموال ويجعل المرأة كالسلعة المهينة.

* فساد أخلاق الرجال خاصة الشباب ودفعهم إلى الفواحش المحرمة.

* المتاجرة بالمرأة كوسيلة للدعاية أو الترفيه في مجالات التجارة وغيرها.

* الإساءة إلى المرأة نفسها باعتبار التبرج قرينة تشير إلى سوء نيتها وخبيث طويتها مما يعرضها لأذية الأشرار والسفهاء.

* انتشار الأمراض لقوله ﷺ: " لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ".

* تسهيل معصية الزنا بالعين: قال ﷺ: " فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ. "[1]

وتعسير طاعة غض البصر التي هي قطعًا أخطر من القنابل الذرية والهزات الأرضية قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا ﴾ (الإسراء: ١٦).[2]

الوجه الثالث: فوائد الحجاب وخطورة التبرج على الفرد والمجتمع.

الحجاب يقضي على الكآبة.

أظهرت الدراسة أن الفتاة تبدأ بالقلق والشعور بالكآبة منذ سن الـ١٢عامًا، وهو سن بلوغ الأنثى، وهو الوقت نفسه الذي فرض فيه الإسلام الحجاب على المرأة، فهو - الإسلام- يحميها إذن من تلك الكآبة النفسية، وذاك القلق الذهني، قبل بدئهما.

أوضحت الدراسة أن الشعور بالكآبة يقل وينعدم أحيانًا، عندما تشعر الفتاة بالرضا عن نفسها. وهذا ما يوفر الحجاب قدرًا كبيرًا منه للفتاة؛ حين يطمئنها إلى أنها مثل غيرها في حجابها، وأن أحدًا لا ينظر إلى غيرها نظرة إعجاب لا ينظر مثلها إليها.

لاحظت الدراسة أن الفتاة الكئيبة - نتيجة لقلقها العام على مظهرها الخارجي - يسودها

---

(١) مسلم (٢٦٥٧).

(٢) عودة الحجاب ٣/ ١٤٢: ١٥٢ بتصرف.

اقتناع تام بأنها إما تكون قصيرة، أو طويلة، أو نحيفة؟ أو بدينة، . . والحجاب أيضًا ينجيها من هذا أيضًا؛ لأن مواصفات الحجاب الإسلامي تستر الكثير من هذه الصفات الجسدية:

يحرم على المرأة أن تلبس ثيابًا رقيقة تشف عن جسمها، أو أن تلبس ثوبًا يصف حجم عظامها وهيئة جسمها.

ويجب ألا يكون رقيقًا يظهر لون البشرة، وألا يصف أو يحدد معالم الجسم، وألا يكون ضيقًا أو ألوانه زاهية، فالثوب لابد أن يكون فضفاضًا واسعًا لا يبرز شيئًا من الجسم.

يشتمل المظهر الخارجي على اللباس، وهذا يحمل أعباء مالية ونفسية للفتاة التي تضنيها متابعة الموضات، ومنافسة الزميلات والصديقات والقريبات، في الظهور بما يشد أنظار الشباب إليهن.

وهذا أيضًا يريح الحجاب الفتاة منه؛ فلا تحتاج إلى كثرة التغيير في لباسها إذا خرجت إلى الشارع، أو ذهبت إلى مدرستها، أو إلى عملها إذا كانت عاملة؛ لأنها تذهب إلى هذه الأماكن جميعها وغيرها في حجابها الذي يستر جسدها كله.

الحجاب يعمل على زيادة التنمية:

زيادة التنمية، وتحسين وسائل الإنتاج، واستثمار الوقت أفضل استثمار، أمور تسعى إليها كل دولة من الدول.

ولا نحسب من يقف أمام تحقيق هدف من هذه الأهداف، بأي عمل من الأعمال، يملك بأن يقول إنه حر التصرف!

وعليه؛ فإن المرأة السافرة المتكشفة المتبرجة التي تشغل العاملين عن أعمالهم، وتكون سببًا في قلة إنتاجهم، وتراجع عطائهم؛ لا تملك أن تقول إنها حرة.

وأنقل خبرًا صغيرًا؛ لكن دلالته كبيرة، على صدق ما نقول:

أصدرت إحدى أهم المؤسسات البريطانية باركليز كارد مرسومًا داخليًا، طلبت فيه من العاملات. . عدم ارتداء الملابس المثيرة، وعلل المسئولون في المؤسسة هذا المرسوم؛ بانشغال العاملين الرجال عن عملهم بسبب طريقة لبس بعض زميلاتهم.

هذه مؤسسة خاصة، أدركت تأثير طريقة لباس العاملات فيها، على إنتاج العاملين الرجال وخفضه؛ بسبب انشغالهم بالنظر إلى النساء العاملات، فعملت على إلغاء السبب؛ حرصًا منها على مستوى الإنتاج، وزيادته لا انخفاضه، ولم يملك أحد في هذه المؤسسة أو خارجها أن يعترض، أو يرى في هذا المرسوم حدًا للحرية الشخصية؛ لأن صاحب المؤسسة أيضًا حر في فعل ما يرى فيه مصلحة لمؤسسته، وحماية لمستوى إنتاجها.

والأمر في مؤسسة الحياة والمجتمع أولى وأهم؛ لأنه يمس مصلحة الأمة جميعها، والناس كلهم، ومن ثم فليس من الحرية، أن تخرج المرأة سافرة متبرجة متكشفة شاغلة بهذا الرجال عن مهماتهم في الحياة، من إنتاج، وبناء ونماء.

الحجاب يعمل على العدل.

إذا كانت المرأة تحاور رجلًا، بهدف إقناعه بوجهة نظرها، في قضية من القضايا، وتعرض له خلال ذلك أدلتها وبراهينها؛ لكن الرجل كان - أثناء ذلك- ينظر إلى شعرها تارة، وإلى ذراعها تارة أخرى، وإلى رقبتها وجيدها تارة ثالثة، دون أن يهتم بما تعرضه من أدلة وبراهين؛ ألا ترى المرأة في نظرات الرجل هذه، وانصرافه عن سماعها باهتمام وتركيز؛ امتهانًا لها، ونيلًا من حريتها في عرض أفكارها، والإقناع بها دون تأثير سلبي أو إيجابي من شكلها وجسمها ومظهرها؟!.

إذا أعلنت جهة من الجهات؛ عن حاجتها إلى موظفة للعمل، حسب قدرات وخبرات معينة، وتقدمت مجموعة من النسوة إلى هذه الوظيفة، وهن يحملن معهن شهادات ووثائق تثبت ما يملكن من قدرات وخبرات لكن اللجنة المكلفة باختيار الموظفة لم تنظر في هذه الأوراق بقدر نظرها في شكل الموظفة، ومدى جمالها وقوامها وجاذبيتها، فهل يعد هذا تحريرًا للمرأة، وعدلًا في اختيار الموظفة الصالحة للعمل. . ؟

وهكذا، فالأمثلة كثيرة، وجميعها تؤكد أن التكشف والسفور يشكلان قيدين على المرأة، يمنعانها من تقديم كفاءتها، ويحولان دون ممارسة العدالة تجاهها، ويحرمانها من حقوقها الإنسانية الطبيعية المجردة البعيدة عن شكلها ومظهرها.

الحجاب يعمل على منع الأمراض الجنسية.

هل من الحرية أن تقوم امرأة بالخروج عارية إلى الشارع؟ هل تملك أي امرأة في العالم كله أن تخرج من بيتها عارية؟

لا نحسب أن هنالك من يجيب بـ: نعم إن من حرية المرأة فعل هذا! ولا نحسب أن هنالك امرأة تجرؤ عليه! ولا نحسب - فيما نعلم - أن امرأة خرجت من بيتها عارية دون أن يمنعها من متابعة سيرها أحد! اللهم إلا إن كانت في مجتمعات السقوط والرذيلة وممن قنع بحياة البهائم.

إذن، المرأة لا تملك الحرية في هذا، وعليها أن تستر من جسمها ما تستر قبل أن تخرج، ولا يخالفنا على هذا أحد.

يبقى السؤال: ماذا تستر من جسمها؟ ومن يقرر كم تستر؟

تعالوا نقرأ ما كتبه دكتور فرنسي متخصص في جراحة الأمراض النسائية:

إن أغلب الأمراض الجنسية التي نعاني منها سببها الاختلاط غير المشروع بين الرجل والمرأة، ولو عدنا إلى أصول هذه المشكلة لوجدنا أن سببها تخلي المرأة والرجل عن حيائهما الذي وضعه الله في كل رجل وامرأة. وبخاصة، وبشكل كبير، لدى المرأة، فالمرأة بعد أن تخلت عن حيائها، وخالفت بذلك طبيعتها الإنسانية، راحت تختار الألبسة التي تكشف عن مفاتنها، فانتشرت الفتنة في المجتمع، وانتشرت الأمراض بعد ذلك.

ويضيف قائلًا: لابد من التزام المرأة بلباس موحد على مدى الأزمان، لا تتغير مواصفات الحشمة فيه وإن تغيرت نوعيته، فاللباس المحتشم للمرأة في العصور الوسطى هو نفسه لباس الوقحات في العصور القديمة، ولباس المرأة المحتشمة اليوم هو نفس لباس العاهرات في القرون الوسطى، في البداية كانت المرأة تغطي وجهها بغطاء سميك مع تغطية سائر جسمها.

وكانت الوقحات في ذلك الوقت يضعن خمارًا شفافًا على وجوههن مع الحفاظ على اللباس الساتر لأجسادهن، وبعد زمن راحت فئة من النساء غير المحتشمات تقصر أثوابها

الطويلة شبرًا فوق الكعب، ثم بعد زمن آخر، أصبح هذا اللباس هو نفسه لباس المحتشمات، بينما راحت الوقحات يكشفن أذرعهن وشيئًا من صدورهن وهكذا حتى أصبحت الشريفات اليوم يلبسن ما كانت تلبسه عاهرات الأزمان الماضية.

إذن، كما يقول هذا الجراح الفرنسي: لابد من التزام المرأة بلباس موحد على مدى الأزمان، لا تتغير مواصفات الحشمة فيه، وإن تغيرت نوعيته.

لتتطور صناعة الأقمشة التي تُفصل منها الألبسة، ولتُصنع من الصوف أو القطن، أو الحرير الطبيعي، أو الحرير الصناعي، ولكن التطور ينبغي ألا ينقص من الحشمة، ألا يمسها، فالحشمة لا تتطور ولا تتغير ولا تتناقص، والله سبحانه وحده من يبين مواصفات هذه الحشمة، مواصفات اللباس الذي يحققها، والحجاب الذي يحفظها.

وعليه فإذا كانت المرأة لا تملك أن تخرج عارية، فإنها لا تملك كذلك أن تخرج كاشفة ذراعها أو شعرها أو نحرها أو ظهرها أو ساقها؛ لأن السِتْر لا يتجزأ، والحشمة لا تتقسم، ولأن الشهوة لا تتغير، والغريزة لا تتطور.

لقد نظمت حركات تحرير المرأة في أميركا يومًا كاملًا عن الاغتصاب، وألقيت عنه محاضرات ودراسات مختلفة، وكان تعريفها للاغتصاب:

إن المرأة تغتصب حتى بمجرد نظرة إعجاب في الشارع من أحد المارة، وعليه فإن جميع النساء ضحايا الاغتصاب الجنسي.

كيف بربكم يمكن حماية المرأة من هذا الاغتصاب، كما عرفته حركات تحرير المرأة في أميركا، إلا بالحجاب الإسلامي؟!

السفور قيد على سرعة الحركة والتنقل.

إذا كان على الإنسان إذا أراد الخروج من بيته أن يلبس ثيابًا معينه، تحتاج إلى عناية خاصة، وأن يلتزم بأصباغ معينة على وجهه، واقتضاه هذا كله الوقوف أمام المرآة فترة غير قصيرة من الزمان، فهل نملك أن نقول: إن هذه الأفعال دلائل على حرية هذا الإنسان؟!

أليست قيودًا تقلل من حركته وتؤخر خروجه من بيته، وتحول دون سرعة إنجازه أعماله، تأخذ من وقته الكثير؟!!

وهكذا المرأة التي لا تلتزم الحجاب، عليها أن تراقب شكلها قبل كل خروج من بيتها، وتختار لباسها، وتضع من الأصباغ على وجهها، وتمشط ما شاءت أن تمشط من شعرها، وتضيع ما تضيع من وقت أمام المرآة لمراقبة هذا كله لباسها، ووجهها، وشعرها، وماكياجها. فأين الحرية في هذا؟ أين هي من المحجبة التي إذا اضطرت إلى الخروج من منزلها، لحاجة طارئة، بادرت إلى حجابها تستر به جسدها كله في لحظات، وهي متحررة من جميع ما ابتليت به المرأة السافرة المتكشفة!

وتقول أكينو:

في ليلة محاولة الانقلاب الفاشلة في ٢٨ آب (أغسطس) الماضي (٤/ ١/ ١٤٠٨) عندما تم إيقاظي من سباتٍ عميق؛ لإبلاغي بنبأ محاولة جنود متمردين اغتيالي، انصرف ذهني حينئذٍ إلى الاهتمام بمظهري.

وتابعت حديثها الذي أدلت به في مأدبة غداء لرابطة الصحفيين الأجانب في الفلبين:

لو كنت رئيسًا - أي رجلًا - فكل ما يتعين على أن أفعله هو ارتداء ملابسي. وهذا كل ما في الأمر. ولكن في حالة كون رئيس البلاد امرأة، فإن الأمر يتطلب الاهتمام بالمكياج.

ومضت تقول: لا يمكنني أن أسمح بأن تلتقط لي صور وقد استيقظت لتوي من الفراش.

وهكذا يوفر الحجاب للمرأة جوًا آخر من أجواء الحرية، ومعنى آخر من معانيها، يحررها من التكشف والسفور اللذين يقيدان حركة المرأة، ويؤخران خروجها من بيتها، ويرهقان أعصابها، ويسلبانها كثيرًا من وقتها.

التبرج دعوة صريحة للبغاء والإباحة المطلقة

يقول الأستاذ عبد الله أمين: تعري الفتيات والسيدات مع الفتيات والرجال على الشواطئ المحاذية للطرق العامة الغاصة بالناس غادين ورائحين في وضح النهار، لا يكفي أن يحكم عليه بأنه تبرج أو تهتك أو بغير ذلك من الألفاظ العربية التي ليس في

اللغة أقسى منها لوصف المستهترات بالصيانة والآداب. فقد كان أجدَّادنا العرب، الذين ورثنا دمهم وحضارتهم ودينهم ولغتهم إذا رأوا المرأة أظهرت محاسن وجهها ورقبتها، أو تكسرت وتبخترت في مشيتها وصفوها بالمتبرجة، وإذا رأوها لا تبالي أن يظهر بعض منها كالساق والذراع، وصفوها بالمتهتكة، وأصل التهتك أن ينشق سترها أو ثوبها ويظهر منها بدون إرادتها، ومع ما كان في معيشتهم، وهي معيشة رحلة وانتقال، وما في بيوتهم وهي أخبية لكل أسرة خباء من تعسر الاحتجاب والتستر، هذا ما كان عند العرب منذ جاهليتهم، الجهلاء عن مدلول هذه الألفاظ. أما الكشف عن الصدور والظهور والأذرع والسيقان والأفخاذ والأعجاز والأطراح أو الجلوس على هذه الصور الذميمة، وعلى مرأى من جماهير الناس بلا مبالاة، فإنه من بدع هذا الزمان، ولم يعهد فيما مضى من الأزمان، ولا يمكن أن يقاس بما كان في الدول العربية المختلفة من مظاهر التبرج والتهتك، ولا يصح أن يكون مدلولًا للألفاظ التي وضعت لوصف النساء المستهترات.

إن لهذا التعري ناحيتين: ناحية قريبة وناحية بعيدة، أما الناحية القريبة فالحكم الذي يصدق عليه أبلغ صدق هو أنه دعوة صريحة مكشوفة للبغاء والإباحة المطلقة، فإن لم يكن لذلك وكان لما يزعمون من التمتع بالماء والهواء والشمس، فلم هجرت الحمامات النسوية حتى انقرضت، ولم تهجر الآن الشواطئ المختصة بالإناث؛ ولئن كان هذا الضرب من الفجور قبيحًا بالبغايا المرتزقات، إنه بالحرائر المسلمات أقبح القبائح، وأفظع، التي يقشعر لهولها البدن، ويقف لفداحتها الشعر، إن هذا التعري يغري الرجال والشبان والنساء بالفساد وفي هذا الفساد ما فيه من هتك حرمات الفضائل، وضياع الأنساب وخراب البيوت والانصراف عن الزواج، وانقراض النسل، وانصراف الشبان عن تكميل أنفسهم بالعلم والفضيلة إلى هذا العبث، والاستهداف لأخطار الأمراض الجسدية والخلقية؛ وكل ذلك بلا شك يفضي في نهاية إلى تدمير المجتمع. أما ما يزعمه أنصار العري من أن الملابس حائل بين الأجسام وبين الهواء والشمس فباطل ينكره العقل، ويكذبه الحس، وإلا لما

اكتسى حيوان بصوف أو وبر أو شعر ولا اكتسى طير بريش، ولا حاول الإنسان منذ نشأته الأولى أن يكتسي.

وأما زعم من يزعم أن الناس إذا ألفوا التعري فإنه يفقد تأثيره فلا يغري أحدًا بفساد فزعم باطل أيضًا؛ لأن التعري ليس من الأمور التي تفقد تأثيرها بتكرارها، وإيلاف الناس إياها. إنه ليس كقصف المدافع، وفرقعة القنابل التي يألفها جنود الميدان وينامون أو يستذكرون دروسهم عليها؛ لأن وراء التعري ما ليس وراء المدافع والقنابل من غريزة جامحة وثابة لا تكل ولا تمل، ونشاطها في تجدد مستمر، كنشاط غريزة الطعام، وسرعان ما تهيج حين يعرض لها ما يهيجها إذا لم تشبع كما يسيل لعاب الجائع على الأكل حين يعرض عليه.

وإن الإنسان وبخاصة المدني الذي أوقظت حواسه وملكاته ومشاعره أبلغ إيقاظ بالعلم والفن والتدريب، وأرهف حسه أيما إرهاف، وعرف معنى الجمال في كل شيء وفي المرأة، ودرب على تذوقه والالتذاذ به وأخذ يغذي نفسه وروحه بضروب الجمال المختلفة في المساكن والأثاث والطعام والبساتين والمسارح والنساء لجدير أن يتأثر أبلغ تأثر بالمرأة العارية ويهيج هياج.

وإن الأمم التي لا تزال عارية على الفطرة كبعض أمم أوساط أفريقية وجنوبيها لتشيع فيها المفاسد والأمراض الخبيثة، ولبعض القبائل العارية قوانين صارمة لحماية البنات من مهاوي الفساد من جراء العري، ومع ذلك فيها ما فيها مما لا يلائم الفضيلة التي ينشدها العالم المتحضر.

الوجه الرابع: من هم أعداء المرأة؟. [١]

قضية الحجاب ليست مجرد اصطلاح بشري، أو مذهب لقوم من الناس، أو قانون وضعي، أو عرف لبيئة من البيئات تقرره أو ترفضه وتلغيه أو تعدله؛ كما تنعق الأبواق المسلطة على حياة الناس وشرفهم وعفافهم؛ لتدمير إنسانيتهم، وتحطيم كرامتهم، وفق

(١) جريدة آفاق عربية. محمد عبد الله الخطيب.

الخطة الصهيونية الحقيرة والخطيرة التي وضعتها بروتوكولات شياطين صهيون، والتي تقول بالنص:

يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، لتسهل سيطرتنا، إن فرويد معنا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس، لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار الأخلاق.

هذه هي الحقيقة التي يجب أن نتأملها في واقعنا المعاصر، فلا نجري وراء الذين يتاجرون بقضية المرأة وتهدر حياتنا وتدمر بيوتنا، ونقع في مخالب الأعداء، ولقد نفذ اليهود الخبثاء شياطين الفساد والإفساد في الأرض خطتهم من خلال الغزو الثقافي، ومن خلال عملاء الاستشراق والتبشير، حتى أصبحنا نرى الكثير من أجهزة الإعلام تصمم على عرض الحياة من جميع جوانبها، وكأنها تدور أساسًا حول الجنس وتنبع منه، وما الأفلام والمسلسلات والحوارات والروايات الساقطة المسمومة، إلا الدليل العملي على ذلك، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم.

إن هذه القضايا إنما هي من الثوابت في ديننا وهي فطرة خلقها الله في الإنسان، وهي شريعة محكمة أنزلها الله لجميع البشر، وأقدرهم على تطبيقها وتنفيذها والنزول على أحكامها، بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق، منذ خلق الله أدم عليه السلام، ومنذ دبت الحياة على ظهر الأرض، يقول الحق سبحانه وتعالى وهو ينادينا جميعًا أن نعتصم برسالته، حتى لا نقع في قبضة الشيطان: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الأعراف٢٦-٢٧).

يقول عبد الرحمن بن أسلم ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾(الأعراف: ٢٦): يتقي فيواري عورته، فذاك لباس التقوى. [1] وينبغي أن نعلم أن هناك تلازمًا بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة، وبين تقوى الله كلاهما لباس، فهذا يستر عورات القلب ويزينه وينوره، وذاك يستر عورات الجسد ويزينه ويكرمه. إن شعور التقوى والحياء والخوف من هو الذي ينبع منه الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه، والذي لا يستحي من الله ولا يتقيه ولا يخشاه، لا يهم أن تنكشف سوءته، بل هو يدعو للعري والسفور، وهو الإنسان التافه الساقط، الذي تعرى من الإيمان والأخلاق ومن الحياء، والآية تقول: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف: ٢٧) وهنا تحذر شديد، ودعوة إلى الحذر، وتخويف من الله لنا، من أن الشيطان يرى هؤلاء، من حيث لا يرونه، مما يسهل علينا فتنتهم.

كما تؤكد الآية هذا الأمر الخطير ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٧) وهذه حقيقة أيضًا، فالشيطان ولي هؤلاء الذين تجرءوا على الله ولم يخشوا عقابه، ويا ويل من كان الشيطان وليه، وهو عدوه الأكبر﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (فاطر: ٦) ويا ويل من يسيطر عليه عدوه، ويستهويه ويقوده كما يشاء بلا عون ولا نصير.

إن الحجاب الذي تعلن عليه اليوم الحرب، هو الستر وهو جملة الآداب والأخلاق السامية التي جاء بها الإسلام؛ ليهدم ما كانت عليه المرأة في الجاهلية من تبرج وتحلل وإثارة، وإن النماذج المشرفة للفتيات المؤمنات الملتزمات في المجتمعات العربية والإسلامية اليوم، لهي صورة عظيمة للمرأة المسلمة تستحق من كل غيور على مستقبل هذه الأمة؛ أن يعمل على تثبيتها وتقويتها واستمرارها وشيوعها في المجتمع، ويجب أن تحاط بكل

---

(١) **صحيح**. أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٣٦٨ من طريق يونس، عن ابن وهب، عن ابن زيد به.

رعاية، وأن يدفع عنها كل شر وأن ترد عنها بشتى الأساليب والوسائل والأقلام المنحرفة والعقول التي مردت على الإثم والدنس والدفاع عن الباطل، وتزييف الحقائق.

إنها قضية حيوية في مستقبل أجيالنا وبلادنا، وإن وجود هذا المستوى الكريم في الالتزام بهذا الدين؛ لهو صفعة على وجوه أعداء الإسلام من دعاة التبرج والانحلال، كما يجب علينا أن نفضح الدعوات المشبوهة التي تنطلق وتنادي بتحرير المرأة، وتعمل على سلخها من دينها وأخلاقها والسير بها في فلك الشهوات والمتعة والهوى.

إن تبرج المرأة وتقليدها للمرأة الأوربية هو السم الذي يقضي على كل مقومات أمتنا العربية والإسلامية، وعلى الشباب المؤمن بوجه خاص.

وكل دعاة السفور والتبرج والخروج عما أمرهم الله كالشياطين، يحبون أن تشيع الفاحشة في الناس، ليبلغ فيها ويرضى عنها كلُّ شِرِّير فاحش وإن تستر بادعاء غير ذلك.

وفي كلِّ عصر نجد دعاة التبرج ونجد لهم قوة ولدعوتهم استجابة؛ لأن الشر أقرب إلى هوى النفس وأدخل في ممارستها للملذات، وأدعى إلى تخلص الإنسان من قيود الدين والتزاماته.

وهم جميعًا - سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم - يشتركون في صفة واحدة وهي أنهم يعيشون على هدم الأخلاق الفاضلة وحرب ما جاء به الإسلام، وإخراج الإنسان من تكريم الله له إلى جعله أقرب ما يكون من الحيوان.

وإن مجتمعات المسلمين قد تأثرت بهذه الدعوة الخبيثة بصورة أسوأ مما تأثرت مجتمعات الغرب، وذلك أن المسلمة المتبرجة أو السافرة تعصي ربها فتستحق عقابه، وتسهم في إفساد المجتمع الذي تعيش فيه اجتماعيًا واقتصاديًا وأخلاقيًا، وتحمل وزر ذلك كله؛ لأنها تسببت بتبرجها فيه، ويشاركها في ذلك كل داع إلى هذا الشر وكل راض عنه أو قادر على منعه بما له من ولاية شرعية على إحدى النساء ثم لم يمنعها.

وإن المرأة المتبرجة لتعطي أسوأ المثل لأبنائها أو أخواتها أو صديقاتها، وتشجعهن بعملها على معصية الله ورسوله واستحقاق عقاب الله سبحانه.

وإن كل امرأة تستجيب للسفور أو التبرج تهدم نفسها ومجتمعها وتحطم القيم الإسلامية فيه وتعين بنفسها على نفسها؛ لأنها سريعًا ما تقع في أسر الخوف من الذئاب البشرية، المفتونة بجسد المرأة وما ظهر منه، والتي تتربص بهؤلاء النساء؛ لتنطلق في ممارسة شهواتها ونزواتها لا تلوي على شيء، فذلك هو اللحم العاري وتلك هي الذئاب الجائعة، إن المرأة المتبرجة عندئذٍ تفقد الإحساس بالأمن في حياتها سواء أكانت متزوجة أم غير ذات زوج.

وإن المرأة المتبرجة المخالفة لما أمر الله به تعود بنفسها وببنات جنسها إلى عهد الرقيق، يوم كانت المرأة تعرض مفاتنها على من يدفع أكثر من الرجال؛ لأنَّ المرأة مطلب للرجل بحكم الفطرة، وقد أحل الله له أن يطلبها في إطار من الشرعية النظيفة، فإذا تبرجت المرأة أعطت الرجل طريقًا آخر يطلبها منها، ليست شرعية ولا نظيفة، فمن الضحية؟ الرجل أم المرأة؟!

إن غفلة ما مثلها غفلة أن تستجيب المرأة لدعاة التبرج، سواء أكان هؤلاء الدعاة رجالًا أم نساءً؛ لأنها تستجيب لمن يدعوها إلى الإضرار بنفسها أبلغ الضرر، إنها تستجيب لمن يدعوها إلى الضياع في الدنيا والعذاب في الآخرة.

ولابدَّ لنا أن نعرف دعاة السفور ومن وراءهم بصفاتهم لا بأسمائهم؛ لتحذرهم كل مسلمة وكل مسلم، وليحذرهم المخدوعون من غير المسلمين؛ لأن الأديان كلها حرمت التبرج والسفور قبل أن يدخلها التحريف والتزوير.

الوجه الخامس: ماذا قال الغرب المنصف عن فضل الحجاب وخطورة التبرج؟.

مما لا شك فيه أن التبرج يتنافى مع الأخلاق الحميدة مثل خلق الحياء الذي فطر الله المرأة عليه، كما أن التبرج يؤدي إلى انتشار الفساد في البلاد، حيث يترتب عليه إثارة الشهوات، بما يؤدي إلى انتشار الزنا، بما يترتب عليه من عواقب وخيمة تعاني منها المجتمعات الآن، مما دفع الكثير من المفكرين والكتاب إلى المناداة بالتصدي لهذا التبرج الذي، لا يقل خطورة عن القنبلة الذرية كما قال المفكر جورج بالوش هورفت في كتابه الثورة الحسية:

والآن. وبعد أن كادت أذهاننا تكف عن الخوف من الخطر الذري ووجود ستروثيتوم في عظامنا وعظام أطفالنا، لا يفتقر العالم إلى عناصر بشرية تقلق للأهمية

المتزايدة التي يكتسبها الجنس في حياتنا اليومية. وتشعر بالخطر إذ ترى العري وغارات الجنس لا تنقطع.

إن التبرج والعُري يؤدي إلى ضياع الأسرة وفساد المجتمع، ولذلك ظهرت أصوات بالغرب تنادي بنبذ هذا التبرج ومحاربة هذا العُري، ومما جاء على لسان الغربيين أنفسهم ما قاله غليوم إمبراطور ألمانيا عندما زار تركيا، وأحب أعضاء جمعية الاتحاد والترقي أن يظهروا له تمدنهم فأخرجوا بعض فتيات المدارس لاستقباله وهن متبرجات ليقدمن له باقات الزهور، فاستغرب لما رآه، وقال للمسئولين:

إني كنت آمل أن أشاهد في تركيا الحشمة والحجاب بحكم دينكم الإسلامي، وإذا بي أشاهد التبرج الذي نشكو منه في أوربا، ويقودنا إلى ضياع الأسرة، وخراب الأوطان، وتشريد الأطفال.

يقول البروفيسور فون هامر: الحجاب في نظر الإسلام وتحريم اختلاط النساء بالأجنبي عنهن، ليس معناه انتزاع الثقة بهن. وإنما هو وسيلة إلى الاحتفاظ بما يجب لهن من الاحترام وعدم التبذل. فالحق أن مكانة المرأة في الإسلام قمينة[1] بأن تغبط عليها.

ويقول هملتن -أحد علماء الإنجليز وكتَّاب الغرب المعروفين-:

إن أحكام الإسلام في شأن المرأة صريحة في وفرة العناية برقابتها من كل ما يؤذيها، ويمس سمعتها، ويتناول كرامتها. ولم يضيق الإسلام في الحجاب كما يزعم بعض الكتاب الغربيين، بل إنه تمش مع مقتضيات الغيرة والمروءة.

تقول لورافيشيا فاغليري: اجتنابًا للإغراء بسوء السلوك ودفعًا لنتائجه يتعين على المرأة المسلمة أن تتخذ حجابًا، وأن تستر جسدها كله، ما عدا تلك الأجزاء التي تعتبر حريتها ضرورة مطلقة كالعينين والقدمين. وليس هذا ناشئًا عن قلة احترام للنساء، أو ابتغاء كبت إرادتهن، ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال. وهذه القاعدة العريقة في القدم، القاضية

---

(١) خَلِيقٌ وجَدِيرٌ. لسان العرب ١٣/ ٣٤٧.

بعزل النساء عن الرجال، والحياة الأخلاقية التي نشأت عنها، قد جعلنا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية في البلدان الشرقية، إلا حيثما كان للأجانب نفوذ أو سلطان. وإذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر قيمة هذه المكاسب، فيتعين علينا أن نستنتج أن عادة الحجاب. . كانت مصدر فائدة لا تثمن للمجتمع الإسلامي.

ولقد نشرت صحيفة الجمهورية المصرية بتاريخ ٩يونيو ١٩٦٢م تحت عنوان: كاتبة أمريكية تقول: امنعوا الاختلاط وقيدوا المرأة.

ونلخص المقال فيما يلي: واسم الكاتبة هليسيان ستا تسبري الصحفية، زارت الجامعات ومعسكرات الشباب والمؤسسات الاجتماعية في مصر فكان مما قالته:

إن المجتمع العربي مجتمع كامل وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التي تقيد الفتاة والشباب في حدود المعقول، فعندكم تقاليد تحتم عدم الإباحية الغربية التي تهدد اليوم المجتمع والأسرة في أوروبا وأمريكا. . لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط، وقيدوا حرية الفتاة، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب فهذه هي أصوات الغرب الذي أطلق العنان للمرأة وأعلن الإباحية تنادي بالعودة إلى الماضي بعد أن تجرع الغرب جزاء ما اقترفت يداه وصدق الله إذا يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ (الطلاق: ٨).

لقد نشرت مجلة التايمز الأميركية في عددها الصادر في ١١/١١/١٩٩١ مقالة لكاتب يطالب فيها الدولة بالتدخل وإقناع النساء بارتداء ملابس محتشمة؛ والملابس الإسلامية خاصة.

وتناولت التايمز هذه الدعوة بمناسبة الضجة التي أثيرت حول ازدياد موجة الاعتداء على السكرتيرات والمجندات؛ حيث رأى كاتب المقال أن إلزام النساء أو نصحهن بارتداء الملابس الإسلامية سيعود عليهن بالخير الكثير، ويحدّ من ثم من الاعتداءات الجنسية وغيرها من الممارسات الخاطئة.

وقد دعت أيضًا شرطة مانشستر إلى الحجاب. جاء هذا في مجلة النهضة عدد ١١٨١ في ١/ ١٢/ ١٤١٠هـ وذكر في الخبر أن الهيئة العامة للشرطة تنظم حملة متعددة الجوانب؛ للحد من هذه الجرائم حوادث الاغتصاب، فأصدرت كتابين:

الأول: منهما يحمل عنوان (نصائح بسيطة للمرأة عن العنف الجنسي).

الثاني: بعنوان (نصائح بسيطة للرجل لتحاشي العنف الجنسي مع النساء).

وركز كتاب النساء على إزالة دواعي الاغتصاب، ولا سيما الملابس التي ترتديها المرأة سواء كانت طفلة أو فتاة، وطريقة ارتدائها لها، بل يصل المؤلف إلى حد لوم المرأة على الخلاعة والكشف عن المفاتن، إلى الحد الذي يثير الشباب الصعاليك والمهووسين جنسيًا، ويقول المؤلف: إنه إذا اقتربت المرأة أو الفتاة من الحجاب، فلن يلهث وراءها أحد، وإلا فالمرأة أو حتى الطفلة هي الملومة أولًا وأخيرًا- لما يحدث لها.

وقد ذكرت في مجلة أمريكية هذه الأسباب التي لا تزال تؤدي إلى رواج الفحشاء، وقبولها هناك بالكلمات الآتية: عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم، وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض:

أولها: الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية بسرعة عجيبة.

والثاني: الأفلام السينمائية التي لا تزكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب. بل تلقنهم دروسًا عملية في بابه.

والثالث: انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء، الذي يظهر في ملابسهن، بل في عريهن، وفي إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام، هذه المفاسد الثلاثة تسير فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام.

كتاب محجبات الإسلام لهند التعارجي باللغة الفرنسية والكاتبة صحفية والكتاب عبارة عن استطلاع صحفي فريد من نوعه يتضمن تسجيلات لاستجوابات مباشرة،

قامت بها الكاتبة مع نساء محجبات ومنقبات وسافرات من جميع الاتجاهات الفكرية والنقابية والمذهبية، ومن مختلف الأوساط الاجتماعية حول موضوع الحجاب.

وتنقلت الكاتبة الصحفية من مصر إلى الإمارات العربية المتحدة والكويت ولبنان وتركيا والجزائر ولم يفتها أن تستمع إلى بعض الرجال أيضًا والكاتبة وإن كانت ضد الحجاب ولا تخفي رفضها للإسلام عمومًا، فإنها مع ذلك كانت مخلصة لمهمتها، وأثبتت التصريحات التي تخالف موقفها بأمانة، أن كانت لا تزيد في التعبير عن موقفها الرافعة في التعقيبات التي تتخلل ما تثبته من تلك التصريحات.

والحمد لله، فإن موقفها السلبي هذا لم يؤثر على قيمة الكتاب. ونحن نعتقد أن هذا الكتاب وإن كانت صاحبته أرادت منه أن تكون إسهامًا ومشاركة في (نضال المرأة) ضد الحجاب وضد الوضع الذي اختاره الإسلام للمرأة فإنه سيأتي بنتيجة عكسية، وسيصبح هذا الكتاب بما تضمن من أقوال وآراء الفتيات المؤمنات خير دعاية للحجاب، وخير دفاع عن الشريعة في هذا الموضوع بالذات ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لقد كانت الكاتبة صريحة في التعبير عن انتمائها الثقافي والفكري إلى الغرب وافتتانها بحضارته وأنها ثمرة النظام التربوي الفرنسي.

لقد صرحت في غير ما موضوع من الكتاب بما يفيد شرعًا عدم انتسابها للإسلام وذلك مثل قولها في صـ ٣٧ وفي لحظة تركت نفسي أعترف بأنني من جهتي لا أمارس الإسلام في حياتي قطعًا وأكثر من ذلك فإنني لا أومن بأية عقيدة دينية. . .

ومع ذلك قالت في التفسيرات التي أعطتها المرأة المسلمة لالتزامها بالحجاب فتتلخص فيما يلي:

أولًا: المرأة المسلمة لا ترى في الحجاب أي رمز لإخضاعها واستسلامها، بل على العكس ترى فيه رمزًا لتحررها.

ثانيًا: أنها بالحجاب تبرز خصوصيتها كامرأة وتفرض شخصيتها.

ثالثًا: أنها بالحجاب تعلن عن هويتها وانتمائها إلى الإسلام.

رابعًا: أنها بالحجاب تشعر باطمئنان داخلي وأمن نفسي.

خامسًا: أن الحجاب يحمي المرأة من مضايقات الرجال والسيارات في الشارع.

سادسًا: أن الحجاب يساعد المرأة على مراقبة نفسها وضبط أقوالها وأفعالها.

سابعًا: الحجاب وسيلة لاختراق العالم الخارجي؛ لأن المرأة لو كانت تريد القعود في البيت وعدم المشاركة في الحياة العامة لما كانت في حاجة إلى حجاب.

ثامنًا: لا يتعارض الحجاب مع العمل.

تاسعًا: الحجاب يحرر المرأة من الاهتمام الذي توليه عادة لجمال مظهرها ويجعلها تتفرغ للمهم.

عاشرًا: الحجاب لا يتعارض مع الأناقة.

الحادي عشر: المحجبة متميزة بهدوئها النفسي ووعيها الكامل.

وها هي شبهاتهم حول الحجاب ودحضها:

الشبهة الأولى: إن حجاب النساء لم يكن موجودًا من قبل، وإنما هو نظام ابتدعه الإسلام.

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ثبوت الحجاب بنص التوراة والإنجيل.

من الأوهام الشائعة خاصة عند الغربيين أن حجاب النساء نظام ابتدعه الإسلام، وأنه لم يكن له وجود قبل الإسلام لا في جزيرة العرب، ولا في غيرها، وكادت المرأة المحجبة عندهم أن تكون مرادفة للمرأة المسلمة، أو المرأة التركية التي كانت تمثل الإسلام في نظرهم من خلال (تركيا) دار الخلافة، وهذا الوهم مما يبين مدى جهلهم لا بحقائق الإسلام نفسه فحسب، بل أيضًا بحقائق التاريخ، ونصوص كتبهم الدينية التي يتداولونها، ويتعصبون لها، ولا يكلفون أنفسهم عناء قراءتها ومراجعتها، ونخص بالذكر التوراة والإنجيل.

فمن يقرأ كتبهم يعلم بغير عناء كبير في البحث، أن حجاب المرأة كان معروفًا بين العبرانيين من عهد إبراهيم عليه السلام، وظل معروفًا بينهم في أيام أنبيائهم جميعًا، إلى ما بعد ظهور النصرانية.

فالحجاب مذكور في شريعة اليهود، ففي (سفر التكوين ٢٤/ ٦٣-٦٦) قصة طويلة عن امرأة اسمها (رفقة) وفيها: وَخَرَجَ إِسْحَاقُ لِيَتَأَمَّلَ فِي الْحَقْلِ عِنْدَ إِقْبَالِ الْمَسَاءِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا جِمَالٌ مُقْبِلَةٌ. وَرَفَعَتْ رِفْقَةُ عَيْنَيْهَا فَرَأَتْ إِسْحَاقَ فَنَزَلَتْ عَنِ الْجَمَلِ. وَقَالَتْ لِلْعَبْدِ: «مَنْ هذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحَقْلِ لِلِقَائِنَا؟ » فَقَالَ الْعَبْدُ: «هُوَ سَيِّدِي». فَأَخَذَتِ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ.

وفي (سفر التكوين٣٨/ ١١-١٤): فَقَالَ يَهُوذَا لِثَامَارَ كَنَّتِهِ: «اقْعُدِي أَرْمَلَةً فِي بَيْتِ أَبِيكِ حَتَّى يَكْبُرَ شِيلَةُ ابْنِي». لأَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّهُ يَمُوتُ هُوَ أَيْضًا كَأَخَوَيْهِ». فَمَضَتْ ثَامَارُ وَقَعَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا، وَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ مَاتَتِ ابْنَةُ شُوعٍ امْرَأَةُ يَهُوذَا. ثُمَّ تَعَزَّى يَهُوذَا فَصَعِدَ إِلَى جُزَّازِ غَنَمِهِ إِلَى تِمْنَةَ، هُوَ وَحِيرَةُ صَاحِبُهُ الْعَدُلاَّمِيُّ. فَأُخْبِرَتْ ثَامَارُ وَقِيلَ لَهَا: «هُوَذَا حَمُوكِ صَاعِدٌ إِلَى تِمْنَةَ لِيَجُزَّ غَنَمَهُ». فَخَلَعَتْ عَنْهَا ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا، وَتَغَطَّتْ بِبُرْقُعٍ وَتَلَفَّفَتْ، وَجَلَسَتْ فِي مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ، لأَنَّهَا رَأَتْ أَنَّ شِيلَةَ قَدْ كَبُرَ وَهِيَ لَمْ تُعْطَ لَهُ زَوْجَةً.

وذكر أيضًا أن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن كما جاء في الإصحاح من سفر أشعياء (٢٤: ١٦) ما يلي: قد انتصب الرب للمخاصمة وهو قائم لدينونة الشعوب. . .

وَقَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ بَنَاتِ صِهْيَوْنَ يَتَشَامَخْنَ، وَيَمْشِينَ مَمْدُودَاتِ الأَعْنَاقِ، وَغَامِزَاتٍ بِعُيُونِهِنَّ، وَخَاطِرَاتٍ فِي مَشْيِهِنَّ، وَيُخَشْخِشْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ، يُصْلِعُ السَّيِّدُ هَامَةَ بَنَاتِ صِهْيَوْنَ، وَيُعَرِّي الرَّبُّ عَوْرَتَهُنَّ. يَنْزِعُ السَّيِّدُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ زِينَةَ الْخَلاَخِيلِ وَالضَّفَائِرِ وَالأَهِلَّةِ، وَالْحَلَقِ وَالأَسَاوِرِ وَالْبَرَاقِعِ وَالْعَصَائِبِ وَالسَّلاَسِلِ وَالْمَنَاطِقِ وَحَنَاجِرِ الشَّمَّامَاتِ وَالأَحْرَازِ، وَالْخَوَاتِمِ وَخَزَائِمِ الأَنْفِ، وَالثِّيَابِ الْمُزَخْرَفَةِ وَالْعُطْفِ وَالأَرْدِيَةِ وَالأَكْيَاسِ، وَالْمَرَائِي وَالْقُمْصَانِ وَالْعَمَائِمِ وَالأُزُرِ. فَيَكُونُ عِوَضَ الطِّيبِ عُفُونَةٌ، وَعِوَضَ الْمِنْطَقَةِ حَبْلٌ، وَعِوَضَ الْجَدَائِلِ قَرْعَةٌ، وَعِوَضَ الدِّيبَاجِ زُنَّارُ مِسْحٍ، وَعِوَضَ الْجَمَالِ كَيٌّ!

فهذا نص على فاعلات تلك المحرمات يعاقبن يوم القيامة، حيث تنزع عنهن الزينة

والملابس الجميلة، ويظهرن قُرعًا جزاء ما كشفنه من شعورهن وتكوى أجسادهن بالنار لما أبدينه من جمالهن.

ويقول القس متى المسكين: (١)

كانت المرأة اليهودية مغطاة الرأس بحيث لا تظهر معالم وجهها على الإطلاق، حبيسة المنزل، تحت سلطان زوجها أو أبيها. ويؤكد ذلك ما قامت به رفقة زوجة إسحاق عندما قابلته لأول مرة: وَقَالَتْ لِلْعَبْدِ: «مَنْ هذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحَقْلِ لِلِقَائِنَا؟ » فَقَالَ الْعَبْدُ: «هُوَ سَيِّدِي». فَأَخَذَتِ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ. (التكوين ٢٤: ١٥، ١٦).

والحجاب مذكور في الإنجيل:

في رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس (١١/ ١٣- ١٤)

قال: احْكُمُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: هَلْ يَلِيقُ بِالْمَرْأَةِ أَنْ تُصَلِّيَ إِلَى اللهِ وَهِيَ غَيْرُ مُغَطَّاةٍ؟ ١٤ أَمْ لَيْسَتِ الطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا تُعَلِّمُكُمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِنْ كَانَ يُرْخِي شَعْرَهُ فَهُوَ عَيْبٌ لَهُ؟ ١٥ وَأَمَّا الْمَرْأَةُ إِنْ كَانَتْ تُرْخِي شَعْرَهَا فَهُوَ مَجْدٌ لَهَا، لأَنَّ الشَّعْرَ قَدْ أُعْطِيَ لَهَا عِوَضَ بُرْقُعٍ.

ويقول أيضًا: احكموا في أنفسكم. هل يليق بالمرأة أن تصلي إلى الله وهي غير مغطاة.

وكانت الكنيسة في القرون الوسطى تخصص جانبًا منها للنساء حتى لا يختلطن بالرجال.

قال الكونت هنري دي كاستري:

(ربَّما كان الإنجيل أكثر تدقيقًا في التشديد - يعني في الحجاب - ولكنه لا يعمل به إلا قوم خصهم الله بمواهب الكمال) اهـ من كتاب (الإسلام خواطر وسوانح).

ليس للمسيحية لبس خاص للمرأة أي: له شروط خاصة، ولكن اللبس يشترط فيه الحشمة والوقار، ويلاحظ أن لبس الراهبات في المسيحية فيه بعض التشابه للبس المسلمات المفروض شرعًا، كما أن المسيحية لا تجيز أي أنواع الزينة للوجه، كما لا تجيز إجراء أي تعديلات في الوجه بالماكياج أو العمليات الجراحية.

---

(١) حقوق المرأة وواجباتها (٢٧).

يقول بطرس داعيًا النساء بالحشمة: وَلاَ تَكُنْ زِينَتُكُنَّ الزِّينَةَ الْخَارِجِيَّةَ، مِنْ ضَفْرِ الشَّعْرِ وَالتَّحَلِّي بِالذَّهَبِ وَلِبْسِ الثِّيَابِ، ٤ بَلْ إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ الله كَثِيرُ الثَّمَنِ. ٥ فَإِنَّهُ هكَذَا كَانَتْ قَدِيمًا النِّسَاءُ الْقِدِّيسَاتُ أَيْضًا الْمُتَوَكِّلاَتُ عَلَى الله، يُزَيِّنَّ أَنْفُسَهُنَّ خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ، ٦ كَمَا كَانَتْ سَارَةُ تُطِيعُ إِبْرَاهِيمَ دَاعِيَةً إِيَّاهُ «سَيِّدَهَا». الَّتِي صِرْتُنَّ أَوْلاَدَهَا، صَانِعَاتٍ خَيْرًا، وَغَيْرَ خَائِفَاتٍ خَوْفًا الْبَتَّةَ. (بطرس ٣: ٣-٦).

كما يوصى بولس في تيموثاوس (٢: ٩- ١٠): وَكَذلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ يُزَيِّنَّ ذَوَاتِهِنَّ بِلِبَاسِ الْحِشْمَةِ، مَعَ وَرَعٍ وَتَعَقُّل، لاَ بِضَفَائِرَ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ لآلِئَ أَوْ مَلاَبِسَ كَثِيرَةِ الثَّمَنِ، ١٠ بَلْ كَمَا يَلِيقُ بِنِسَاءٍ مُتَعَاهِدَاتٍ بِتَقْوَى الله بِأَعْمَال صَالِحَةٍ.

كما توصى التعاليم الدسقولية[1] بعدم التزين للغرباء: فإذا أردت أن تكوني مؤمنة وأن ترضي الله أيتها المرأة لا تتزيني لترضي رجلًا غريبًا، ولا تشتهى أن تلبسى مقانع وثيابًا وأحقافًا، هذه التي

تليق بالزانيات ليتبعك الذين هكذا يُصادون بهذه الأعمال.

المسيحية لا تؤمن بادعاء النساء: أن الزينة من أجل الزينة وتحذر من الفتنة الناتجة عنها: ولكن أيضًا تزينت فقط من أجل الزينة والجمال، فلن تفلتي من الحكم، غضب الله والتشبه بالزانيات، لأنك من جهة هذا تلزمين آخر ليتبعك ويشتهيك فتحفظى لكيما لا تقعي في الخطيئة ولا أيضا ينشكك آخرون لأجلك.[2]

وتحرم المسيحية النظرة الحرام (متى ٥: ٢٨): إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ.

---

(١) التعليم الدسقولية: تعاليم للرسل- حسب ادعاء المسيحيين- أي التلاميذ، وفي اعتقاد المسيحيين أن هذه التعاليم وصايا من الرسل ورثتها الكنائس.

(٢) الأب متى المسكين: المرأة حقوقها وواجباتها (٦٦).

وتحرم المسيحية الصوت العالي أو المتصنع للمرأة يقول بولس (١ كورنثوس ١١: ١١): ليصمت نساؤكم في الكنائس، لأن ليس مسموحًا أن يتكلمن، بل يخضعن كما يقول الناموس.

تغطية رأس المرأة من الاحترام والتقديس:

يقول بولس آمرًا النساء (١ كورنثوس ١١: ٦): (إِذِ الْمَرْأَةُ، إِنْ كَانَتْ لاَ تَتَغَطَّى، فَلْيُقَصَّ شَعَرُهَا. وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا بِالْمَرْأَةِ أَنْ تُقَصَّ أَوْ تُحْلَقَ، فَلْتَتَغَطَّ.)؛ ولذلك كانت وصايا آباء المسيحيين عن الاحتشام حتى في الاحتفال بالعرس.

يقول يوحنا[1] في العظة رقم ٢ على الرسالة الأولى كورنثوس:

حتى يحذر المسيحيين مما قد يؤدي إليه حفل الزواج من إفساد للنقاوة الأخلاقية للمرأة المسيحية ويعرضها للخطر: (. . . ولكن عندما تجرى احتفالات الزفاف تحدث أشياء تدعوا للسخرية والضحك. . . فهناك رقص وصنوج وآلات للنفخ وأغنيات وكلمات هابطة وسكر حتى الثمالة ثم يتم تقديم كل تفاهات الشيطان).

ثم يوضح تأثير ذلك على العروس فيقول: (كيف لا توجه أقسى أنواع الإدانة لتلك العادات التي تجبر عذراء عاشت طوال حياتها داخل نطاق منزلها، وعُلمت دروس الحياء، منذ نعومة أظافرها، أن تتخلى فجأة عن حياتها تمامًا، لكي تتعلم أن تنزع برقع الحياء منذ بداية زواجها، وأن توضع وسط رجال شهوانيين أجلاف دنسين ومخنثين؟)

وقد أوضح أنه لا ينقد الزواج ولكن ما يصاحبه من شرور فقال: أنتقدُ مجموعة الشرور المصاحبة لصحوة الزواج، وعمل الماكياج، وظلال العيون، وكل الأشياء غير الضرورية من هذا القبيل، حقًا فمنذ ذلك اليوم فإنها سوف تصبح مطمعًا للعشاق قبل أن تكن محط أنظار عريسها المقبل.

وفي يوم من الأيام حكمت الكنيسة الأرثوذكسية بحرمان المرأة حقها في المجتمع! فحظرت عليها حضور المآدب والحفلات، وألزمتها الحجاب صامتة صابرة، لا شأن لها

(١) الآباء والمرأة: إليزابيت. أ. كلارك (٥٩، ٦٠).

إلا الطاعة للزوج، والقيام بالغزل والنسيج، وطهي الطعام، وإذا خرجت من بيتها خرجت مستورة الجسم من قمة رأسها إلى أخمص قدمها.

ولعله لهذا بقيت آثار البرقع والحجاب عند أهل الكتاب حتى يومنا هذا، وذلك واضح في زي راهبات النصارى، ودخول النصرانيات الكنيسة، وقد غطين رءوسهن بساتر، بل هن حتى اليوم في حفلات أعراسهن يغطين وجوههن بنقاب شفاف فلعله من بقايا دينهم.

الوجه الثاني: إثبات الحجاب في الحضارات القديمة.

إن كلَّ قارئ للتاريخ، فضلا عن أن يكون منقِّبًا في صفحاته ليعلم أن حجاب المرأة كان معروفًا قبل الإسلام بقرون عديدة.

١ـ اليونان.

ففي الحضارة اليونانية قبل انهيارها كان الحجاب معروفًا للمرأة، وكان عفاف المرأة وتصونها من أغلى ما يعتز به المجتمع اليوناني قبل أن تنهار حضارته[1].

---

(١) فرضت أثينا وأغلب بلاد اليونان الحجاب على النساء الحرائر، ورفعته عن الإماء والبغايا. ففي بيوت الحريم – على سبيل المثال – كانت المرأة أو الفتاة التي لم تتزوج بعد، تقبع في ركن الحريم لا تغادره حتى زواجها؛ حيث يتم نقلها إلى بيت الزوجية. ولم يكن الزوجان يرى أحدهما الآخر إلا ليلة الزفاف. . ولم يكن الزواج يخول المرأة حرية الاختلاط بالرجال، ولا حرية الخروج من المنزل. فلم تكن المرأة تستقبل في دارها سوى النساء، أو أقاربها الأقربين من الذكور، ولا يسمح لها باستقبال ضيوف زوجها، أو مجالستهم، أو تناول الطعام معهم ولو بحضور زوجها، بل كان مجرد حضور الزوج مصحوبًا بأحد أصدقائه سببًا في اختفاء المرأة في الجزء الخارجي من الدار، لتحتمي في الغرف المخصصة للنساء.

وعندما قدم (كورنيلوس تيبوس)، المؤرخ الروماني، لزيارة اليونان في القرن الأول قبل الميلاد، أدهشته حياة العزلة والانفصال التي تعيشها المرأة اليونانية، وهو الذي تعود في بلده على اختلاط الجنسين، فكتب يقول:

(كثير من الأشياء التي نظمها الرومان بلباقة، يرى فيها اليونانيون منافاة لحسن الآداب. فأي روماني يستشعر العار من اصطحابه زوجته إلى مأدبة؟ والرومانيات يشغلن عادة الحجرات الأولى من المنزل، والأكثر تعرضًا للرؤية، حيث يستقبلن كثيرًا معارفهن. وأما عند اليونانيين فالأمر على النقيض. فنساؤهم لا يشتركن في مأدبة إلا إذا كانت لدى أقاربهن، وهن يشغلن دائمًا الجزء الأكثر انزوَاء من المنزل، والذي دخوله محرم على كل رجل غير قريب).

وكان حجاب المرأة شائعًا في البيوتات العالية، بل كانوا يبنون بيوتهم على أساس الفصل التام بين الرجال والنساء، لكلِّ بيت ما يخصه.

ولما أخذت هذه الحضارة في الانهيار كان من بين أسباب انهيارها أن التقيد بالحجاب لم يعد معمولًا به، وإنما حل محله التبرج والفسوق حتى أصبحت العاهرات في مكانة مرموقة، وأصبحت بيوت العاهرات تقصد من سائر طبقات المجتمع، بل إن المومسات أصبحن خوادم للمعابد وسمي بغاؤهن بالبغاء المقدس.

٢ـ الرومان.

وكان الرومان في بعض فترات حضارتهم يسنون القوانين التي تحرم على المرأة الظهور بالزينة في الطرقات، بل كان من قوانينهم قانون أوبيا الذي يحرم على المرأة المغالاة في الزينة حتى ولو كانت في البيت.

ثم تساهلت هذه الحضارة في حجاب المرأة وتركت للمرأة حبل التبرج على غاربه فكان الفسق والفجور، وكان ذلك إيذانًا بانهيار الحضارة فانهارت.

وكانت النساء الرومانيات مغاليات في الحجاب في العهد الأول للجمهورية، حتى إن القابلة كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة، ووجهها ملثم، وعليها رداء طويل يلامس كعبيها، وفوقه عباءة لا تبدي شيئًا من قوامها، ثم تغيرت الحال في عهد الإمبراطورية، حتى هالت بعض المصلحين، وهب ينذر بالخطر المحدق الذي سيلتهم كل شيء.

٣ـ الفرس.

ولم يكن يسمح للمرأة أن تخرج من دارها إلا بإذن زوجها، ولم يكن ذلك عادة إلا لسبب وجيه، كزيارة قريبة، أو عيادة مريض، أو أداء واجب العزاء. وفي الحالات التي كان يسمح فيها للمرأة بالخروج كانت التقاليد تلزمها بوضع حجاب يخفي معالم وجهها.

ويصف (ديكايرش) حجاب نساء (طيبة) – إحدى المدن اليونانية – فيقول:

(إنهن كن يلبسن ثوبهن حول وجههن بطريقة يبدو معها هذا الأخير وكأنه غطي بقناع، فلم يكن يرى منهن سوى العينين. انظرتطور المرأة عبر التاريخ (٣٥-٣٦).

كذلك عرف الفرس القدماء الحجاب، وعَدُّوا كشف المرأة أو الرجل عن شيء من جسده غير الوجه مظهرًا منافيًا للاحتشام والأدب، وكانت النساء يغطين أجسامهن من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وبعد حكم دارا الأول كان احتجاب نساء الطبقة الراقية عن المجتمعات نظامًا ضروريًا مراعى، فصرن لا يجسرن على الخروج إلا في هوادج تغطيها الستائر، وحظر عليهن أن يخالطن الرجال في مجتمع خاص أو عام؛ بل لقد منعت المتزوجات من رؤية أدنى الرجال إليهن قرابة حتى الآباء والأخوة، ونشأ عن ذلك أننا لم نجد للنساء ذكرًا أو صورًا في النقوش أو التماثيل التي خلفتها إيران القديمة، أما الخليلات والمحظيات فكن على ضد ذلك، يتمتعن بحرية عظيمة؛ لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن مواليهن وضيوفهم.

٤ـ الهنود.

وشاع الحجاب عند الهنود أيضًا، حتى في عصر المهابراتة.

٥ـ الأثينيون القدماء.

وعرفه الأثينيون القدماء، وقد ورد في الإلياذة قول هكتور: (لست أرضى الغار إذا اشتجرت النصول بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب) ومن هذا، ومن ذكر قناع إيقاب، وبرقع هيلانة، وبراقع النساء والربات، نعرف أن اليونانيات استعملن النقاب.

على أنه ما زال شائعًا إلى العصور الوسطى وما بعدها، وما زالت له آثار، ولم تغير منه النصرانية شيئًا، لذلك كان ذائعًا في الدولة البيزنطية، وإن لم يكن عامًا.

٦ـ آشور القديمة.

وكذلك عُرف الحجاب في آشور القديمة. [1]

(١) أكدت الحفريات في آشور القديمة، على أن الحجاب معروفًا عندهم حيث عُثر على لوحات طينية ترجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، تحتوى على قواعد قانونية أقدم من ذلك عهدًا. وفي إحدى فقرات اللوحة الأولى منها بيان مفصل عن نظام الحجاب الذي كان مطبقًا على الحرائر، دون الإماء والداعرات والعواهر. بل كانت توقع على الأمة أو العاهر التي تتحجب عقوبات شديدة. فالأمة كانت تُصْلَمُ أذنها على سبيل المثال،

٧ـ العصر الجاهلي للعرب.

وعرف أيضًا في العصر الجاهلي للعرب. [(١)]

والعاهر كانت تجلد خمسين جلدة ويصب القطران على رأسها. وكان من الواجب على كل من يشاهد أمة، أو عاهرة، أو داعرة متحجبة أن يقبض عليها، ويأتي بها إلى محكمة القصر وكان يكافأ على عمله بمنحه ثيابها. وعلى العكس من ذلك إذا شاهد إنسان أمة، أو عاهرة، أو داعرة متحجبة ولم يقبض عليها تعرض لعقاب شديد، فكان يجلد خمسين جلدة، وتثقب أذناه، وتربطان بخيط يعقد عند ظهره. ويأخذ من أقام عليه الدعوى ثيابه، ويسخر في خدمة الملك شهرًا.

ونلاحظ أن الأمة إذا خرجت مع سيدتها وجب عليها أن تتحجب، وكذلك تفعل العاهر أو الداعر إذا تزوجت.

وتبين فقرة أخرى من اللوحة نفسها الإجراءات التي ينبغي اتباعها عندما يريد الرجل إعطاء سريته صفة الزوجة؛ فينبغي عليه أن يستدعي خمسة أو ستة من معارفه؛ ويحجبها أمامهم قائلًا: (إنها زوجتي)، فتصبح زوجة له.

(١) أما دعوى (فير) أن الحجاب لم يكن معروفًا في الجاهلية فغير صحيحة تدحضها الأخبار، وتبطلها الأشعار.

فالأخبار صحيحة في ممارسة النساء للحجاب، منها أنه كان السبب في اليوم الثاني من أيام الفجار الأول أن شبابًا من قريش وبني كنانة رأوا امرأة جميلة وسيمة من بني عامر بسوق عكاظ، وسألوها أن تسفر فأبت، فامتهنها أحدهم، فاستغاثت بقومها فقامت حرب.

ومنها أن السبب في اعتلاق عبد الله بن علقمة بصاحبته حبيش أنه نزل ضيفًا عند آلها، فأجلسوه في متحدث لهم، فخرجت حبيش وعلى وجهها سب أخضر، فضربه الهواء. فانكشف وجهها ويداها، فهام بها عبد الله.

وكانت هند بنت صعصعة جد الفرزدق تفاخر بقولها: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لي أن أضع خماري معهم فلها صرمتي: أبى صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع، وزوجي الزبرقان بن بدر. وهي ذات الخمار؛ لأنها دخلت على هؤلاء الأربعة فألقت خمارها، فقالوا لها: ما هذا، ولم تكوني متبرجة؟ فقالت: داخلتني خيلاء حين رأيتكم، فأي امرأة من العرب وضعت خمارها عند مثلكم فلها صرمتي، وفي أمثالهم ما يؤيد معرفتهم الحجاب، كقولهم: (إن العوان لا تعلم الخمرة) أي لا تحتاج إلى تعلم الاختمار، تضرب مثلا للرجل المجرب.

والشعر الجاهلي حافل بذكر الحجاب كما حفل بذكر السفور، فمثلا يقول النمر بن تولب في امرأته التي هجرته:

وصدت كأن الشمس تحت قناعها ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ويقول الربيع بن زياد العبسى بعد مقتل مالك بن ظهير:

من كان مسرورًا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار

قد كن يخبأن الوجوه تسترا ... فاليوم حين بدون للنظار

يخمشن حرات الوجوه على امرئ ... سهل الخليقة طيب الأخبار

الوجه الثالث: الفطرة السليمة التى خلق الله عليها العباد تجعلهم يواروا عوراتهم

إن الله ﷻ خلق الناس على الفطرة، والفطرة السليمة تجعل الإنسان يواري عورته من غير حاجة إلى آيات أو أحاديث وبدون أوامر أو نواهٍ مثلما حدث مع أبينا آدم وأمُّنا حواء، حيث يقول الله ﷻ: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾(طـه: ١٢٠) فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما. حينما عصى سيدنا آدم وزوجته ربهما ظهر شؤم المعصية فظهرت عوراتهما فماذا صنعا بفطرتهما عليهما السلام؟ يقول سبحانه وتعالى بعد الآيات السابقة موضحًا الإجابة على هذا السؤال: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

ويتغزل الحطيئة في قوام محبوبته ووجهها، ويكني عن وجهها بأنه موضع النقاب:

طافت أمامة بالركبان آونة ... ياحسنه من قوام ما ومنتقبا

ويعجب الشنفري بحبيبته وهي منتقبة لا تكشف وجهها:

فقد أعجبني لا سقوط قناعها ... إذا ما مشت ولا بذات تلفت

وتحرض أم عمرو بنت وقدان قومها على الثأر بأنهم إن لم يثأروا فعليهم أن يدعوا السلاح ويتكحلوا وينتقبوا كالنساء:

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم ... فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق

وخذوا المكاحل والمجاسد وألبسوا ... نقب النساء فبئس رهط المرهق

ولقد يتمثل الحجاب في أن تتخدر المرأة، فلا يراها إلا الأقربون، ولا تبرز إلا في الفواجع. يدل على ذلك قول زهير:

وما أدرى وسوف إخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مخبآت ... فحق لكل محصنة هداء

وفي قول مهلهل يرثى كليبًا

على أن ليس عدلًا من كليب ... إذا برزت مخبأة الخدور

وفي قول عدى بن زيد:

يسارقن من الأستار طرفا مفترا ... ويبرزت من فتق الخدور الأصابعا

انظر المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي، وظاهرة حجاب المرأة في الأدب الجاهلي للدكتور زينب محمد جكلي بمجلة الأحمدية العدد الأول (٣٥١).

عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٢).

أخذ كل منهما من ورق الجنة؛ ليستر به ما ظهر من عورته، وهكذا تكون الفطرة.

ويقول سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ (الأعراف: ٢٧).

فما حدث لآدم عليه السلام مع عدوه إبليس نرى أن الحياء من التعري وانكشاف السوءة شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته، ويحكي الله عن قصة بلقيس مع سيدنا سليمان عليه السلام حينما دخلت الصرح وظنت أن به ماء ولم تكن تعرف أنه زجاج، فماذا فعلت قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ (النمل: ٤٤) والكشف عن الساق يدل على أن بلقيس كانت ترتدي ملابس طويلة وكانت محجبة، هذا على الرغم من أنها لم تسمع آيات ولا أحاديث، بل كانت كافرة، ولكن كانت ذات فطرة سليمة.

وكل هذه الآيات توحي بأهمية هذه المسألة وعمقها في الفطرة البشرية، فاللباس، وستر العورة: زينة للإنسان، وستر لعوراته الجسدية، كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية.

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوءاتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها ومواراتها، والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى ومن الحياء من الله، ثم من الناس. والذين يطلقون ألسنتهم، وأقلامهم، وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة- في شتى الصور والأساليب الخبيثة- هم الذين يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته، وخصائص إنسانيته، التي بها صار إنسانًا متميزًا عن الحيوان.

قال تبارك وتعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء: ٧٠).

إن العري فطرة حيوانية، ولم تزل الحيوانات في انكشاف منذ خلقت، لم يتغير حالها

يومًا، بعكس الإنسان الذي يصحَّ أن نَصِفَهُ بأنه حيوان مستور. وهذه الفطرة الحيوانية لا يميل الإنسان إليها إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان.

إن رؤية العُرْي والتكشف جمالًا هو انتكاس في الذوق البشري قطعًا، ومؤشر واضح يبين انتشار التخلف في المجتمع البشري.

وحتى هؤلاء الذين يتشدقون بالتقدم المزعوم، يقولون:

إن الإنسان بدأ حياته على طريقة الحيوان عاريًا من كل ستر إلا شعره، ثم رأى أن يستر جسمه بأوراق الشجر، ثم بجلود الحيوانات، ثم جعل يترقى في مدارج الحضارة حتى اكتشف الإبرة، وابتدع وسيلة الحياكة، فاستكمل ستر جسمه.

وهكذا كانت نزعة التستر وليدة التقدم المدني، فكل زيادة في هذا التقدم كانت مؤدية إلى زيادة في توكيد الحشمة، وكل خلل في كمال الستر عنوان التخلف والرجعية.

وآية ذلك أن المتخلفين في أواسط أفريقيا عراة، وحين تشرق حضارة الإسلام في هذه المناطق، يكون أول مظاهر هذه الحضارة اكتساء العراة، وانتشالهم من وهدة التخلف، والتسامي بهم إلى مستوى الحضارة بمفهومها الإسلامي الذي يستهدف استنفاذ خصائص الإنسان وإبرازها.

الشبهة الثانية: الحجاب فيه كبت للطاقة الجنسية عند الشباب.

تقول هذه الشبهة: بأن الطاقة الجنسية في الإنسان طاقة كبيرة وخطيرة، وخطورتها تكمن في كبتها، وزيادة الضغط تولد الانفجار، وحجاب المرأة يغطي جمالها وبالتالي فإن الشباب يظلون في كبت جنسي يكاد أن ينفجر؛ أو ينفجر أحيانًا على شكل حوادث اغتصاب وغيرها، والعلاج لهذه المشكلة إنما يكمن في المرأة من هذا الحجاب؛ لكي ينفس الشباب الكبت الذي فيهم، وبالتالي يحدث التشبع لهذه الحاجة، فيقل طبقًا لذلك خطورة الانفجار بسبب الكبت والاختناق.

والرد على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: حال المجتمع الذي نادى بالتبرج لإخراج الكبت النفسى عند الشباب.

لو أن الحجاب يسبب الكبت الجنسى عند الشباب لكانت أمريكا والدول الأوربية وما شاكلها هي أقل الدول في العالم في حوادث الاغتصاب والتحرش في النساء وما شاكلها من الجرائم الأخلاقية.

ذلك لأن أمريكا والدول الأوربية قد أعطت هذا الجانب عناية كبيرة جدًّا بحجة الحرية الشخصية إلى درجة أنك ترى المجلات الخليعة تباع في كل مكان، وبرامج التلفزيون مليئة بالبرامج الخليعة والمثيرة جنسيًا، والمرأة هناك إذا ما أقبل الصيف فإنها تخلع ثيابها وتبقى بالمايوه؛ لتستحم على شاطئ البحر، فماذا كانت النتائج التي ترتبت على هذا الانفلات والإباحية، هل قلت حوادث الاغتصاب؟ وهل حدث التشبع الذي يتحدثون عنه؟! وهل حُميت المرأة من هذه الخطورة؟!

في كتاب تصدره الفيدرالية في أمريكا يقول الكتاب: إنه تتم جريمة اغتصاب بالقوة، كل ستة دقائق في أمريكا، وهو يتحدث في سنة (١٩٨٨) ويعني بالقوة، أي تحت تأثير السلاح.

وفي نفس الكتاب يعرض لنا الإحصائية التالية:

في سنة ١٩٧٨ كانت عدد حالات الاغتصاب في أمريكا (١٤٧. ٣٨٩) ألف حالة.

في سنة ١٩٧٩ كانت عدد حالات الاغتصاب في أمريكا (١٦٨. ١٣٤) ألف حالة.

في سنة ١٩٨١ كانت عدد حالات الاغتصاب في أمريكا (١٨٩. ٤٥) ألف حالة.

في سنة ١٩٨٣ كانت عدد حالات الاغتصاب في أمريكا (٢١١. ٦٩١) ألف حالة.

في سنة ١٩٨٧ كانت عدد حالات الاغتصاب في أمريكا (٢٢١. ٧٦٤) ألف حالة. (١)

وهذه الإحصائية وما يشابهها من أخبار موثقة تدل على ازدياد معدل الجريمة الجنسية في تلك البلاد ما هي إلا بمثابة تفسير عملي لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

---

(١) الجريمة في أمريكا Crime in U. S. A صـ ٦. وهذا يعني أن إحصائيات الكتاب موثقة من قبل الحكومة، وليس من قبل شركات الإحصاء.

وهذه إحصائيات قديمة ونحن اليوم في عصر الانفتاح الإعلامي وانتشار شبكة الإنترنت في البيوت.

يقول الأستاذ محمد رشيد العويد: [(١)]

حين هاجم الداعون إلى التحرر - بل التحلل- من خلق العفة، قالوا: إنها – أي العفة – تسبب الكبت، والكبت يسبب العقد النفسية.

وحين يحاربون هذا الكبت، لينقذوا المجتمع منه، دفعوا المرأة إلى الخروج من بيتها سافرة بزينتها، ودعوا إلى الاختلاط، قالوا إن الاختلاط يجعل الأمور عادية، فلا ينظر الرجل إلى المرأة نظرة شهوة، فهي معه في كل مكان، في الشارع والعمل، وسيارة المواصلات العامة.

وصدق من صدق، فبعد أن كان من يدعو إلى هذا واحدًا أو أثنين، صاروا خمسة وستة، ثم صارت لهم مجلات وصحف وجمعيات، تحمل دعوتهم وتروج لها.

وتصدى لهم أهل الصلاح والتقوى، من الشيوخ والعلماء، حذروا من مغبة هذه الدعوات، وذكروهم بأنها تخالف شرع الله، وكل ما خالف شرع الله فهو باطل. . ولا يأتي بخير.

ومضى أهل الباطل في دعواتهم الفاسدة، يمدهم شياطين الإنس والجن، يمدونهم بما يعينهم على ما مضوا فيه، وذهبوا إليه، حتى مكنوهم مما أرادوا. . وكان ما كان من نتائج مفزعة، أيقظت من كان غافلًا، ونبهت من كان سادرًا، فبدأت دعوات الخير تقوى، وأصوات الحق ترتفع، وعادت ملايين المسلمات إلى دينهن، وحجابهن، قبل فوات الأوان. والصحوة الإسلامية ماضية إن شاء الله، حتى يقوم المجتمع الإسلامي كما أراده الله.

ونريد هنا، أن نبين لدعاة الباطل أي كارثة كانوا يسوقون إليها مجتمعاتنا، وأي غابية رهيبة كانت ستؤول إليها. . لو لا لطف الله وعنايته. سنجبلهم إلى المجتمع الغربي الذي انطلقت، أول ما انطلقت، دعواتهم فيه، فمنه صدرت نظريات فرويد في رد كل شيء إلى الجنس،

---

(١) رسالة إلى حواء (٤٥٥-٤٥٩).

والكبت الجنسي، ومنه – من الغرب – انطلقت دعوات الحرية الجنسية، والاختلاط، والتحلل. . فهل نجحوا في تهذيب المشاعر، وتلطيف الغريزة الجنسية، كما كانوا يزعمون؟!.

الاختلاط عندهم في المدارس والجامعات، في المؤسسات والشركات، في المحال والمتديات. والمرأة عندهم تخرج كما تشاء، وتلبس ما تشاء، تستر ما تشاء وتكشف ما تشاء. والقانون لا يحاسبها إذا زنت ما دامت راضية، كما لا يحاسب الشاب كذلك. أليس هذا ما أرادوه؟

حسن. النتيجة التي أرادوها لهذا، وهي تلطيف المشاعر الجنسية، لم تتحقق! بل العكس، اكتسبت طبيعة حيوانية بشعة في صورة: الاغتصاب في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من نصف مليون عملية اغتصاب سنويًا.

وفي مدينة لوس أنجلوس - التي أصبحت تشتهر بأنها عاصمة حوادث الاغتصاب في العالم- تشير الإحصائيات إلى أن واحدة من كل ثلاث فتيات في سن ١٤ عامًا معرضة للاغتصاب في تلك المدينة. وفي عام واحد أدخل إلى غرف الطوارئ، في مستشفيات المدينة، ٣٦٤٦ ضحية اغتصاب أي: عشر حوادث اغتصاب كل يوم في مدينة واحدة!

لقد بلغت الحالة ذروتها من السوء إلى حد دفع لحاكم ولاية كاليفورنيا أن يعلن في حديث تلفزيوني حربًا لمدة عشر سنوات بكلفة خمسة مليارات دولار لمكافحة الجريمة.

وقال: إن مستوى الخوف، ودرجة العنف البشعة ضد الصغار والكبار على حد سواء، أوجدت جوًا من شأنه تعويض حقنا الأساسي في أن نكون أحرارًا في مجتمعنا.

وتأملوا عبارته الأخيرة: (أن نكون أحرارًا في مجتمعنا)، فهذا هو المفهوم الحقيقي للحرية، فحين أكون آمنًا فأنا على قدرٍ كبيرٍ من الحرية، أما حين تكون زوجتي وابنتي وأختي مهددات بالاغتصاب، فأي حرية هذه؟!

ولننتقل إلى أوروبا، لنقرأ في ملفات الأمن عن بعض حوادث الاغتصاب، إنهم يقولون: إن مرتكبي جرائم الاغتصاب كثيرًا ما يكونون أناسًا عاديين سنحت لهم الفرصة فلجؤوا إلى الاغتصاب، أي: أنهم لم يكونوا ليغتصبوا لو لم تكن المرأة قريبة منهم.

واقرأوا هذه الأمثلة كما يوردها تقرير من البوليس الفرنسي:

(. . . المغتصبون ليسوا دائمًا من الشاذين أو المتخلفين عقليًا، ومن هنا يزداد حجم الرعب في أوساط النساء من كل الأعمار، حتى أولئك اللواتي تجاوزن سن الأربعين. وتزداد معه حيرة علماء النفس وعلماء الاجتماع أو خبراء الجريمة خصوصًا.

وهم يأخذون – كعينة – ذلك المواطن في مدينة غرينوبل (٣٧ سنة) فهو أب لتسعة أولاد، ومع ذلك اشتهر في سجلات البوليس كمدمن على الاغتصاب فقد ارتكب في عام ١٩٦٧م أربعين حادث اغتصاب منها أربعة حوادث في يوم واحد، وجميع المغتصبين أناس عاديون لا يشكون أي مرض، ومع ذلك استطابوا الجنس القهري، وكأنه أصبح موضة العصر، تُرى هل هم كثيرو العدد أولئك المجرمون بالمغامرة؟.

تجيب كوليت دومار غريبة المحامية المتخصصة في جرائم الاغتصاب بقولها: لم يعد هناك حالات استثنائية. . إن الأمر يكاد يكون موجة واسعة الانتشار.

والبوليس الفرنسي يلاحق آلافًا من مرتكبي جرائم الاغتصاب كل عام، ولكنه لا يلقي القبض في النهاية إلا على نسبة ضئيلة، كذلك فإن ثماني فتيات من كل عشر فتيات يرفضن الادعاء المغتصب. وهناك تقرير مبدئي يقول: إن عدد النساء المغتصبات في فرنسا كل عام أكثر من مائة ألف امرأة.

وهناك أزمة غطاء أمني إزاء ترويع النساء وخطفهن والاعتداء عليهن. فقد تقدمت الفتاة الباريسية (سيلفي) إلى قسم البوليس في المنطقة السابعة من باريس بشكوى ضد مجهول اعتدى عليها بقوة السلاح، وبدلًا من أن يقول لها المفوض: أعطينا أوصافه ودعي الأمر لنا، إذا به يواجهها قائلًا: أنت السابعة منذ الصباح. . فتشي بنفسك عن مهاجمك. . وعندئذ نتدخل! !

هذا هو الاغتصاب في الغرب. . إحدى الثمار الفجة الرمة. . لخروج المرأة من بيتها، سافرة متبرجة، يراها كل الرجال.

فأين مزاعم الزاعمين بأن الاختلاط يخفف من حدة الغرائز الجنسية، أين دعاوى المدعين بأن خروج المرأة من بيتها يهذب الشهوات الجنسية. . ؟!

وهذا معناه أن المتبرجة التي أبدت مفاتنها وأبرزتها لكل غاد ورائح معرضة للأذى من قبل ذئاب البشر؛ لأنها بذلك تثير الشهوات الكامنة، أما المتحجبة فإنها تخفي تلك المفاتن والزينة فلا يرى منها إلا الكف والوجه في قول، وفي قول آخر: لا يرى منها شيء سوى العين، فأي شهوة تثيرها تلك المتحجبة، وأي غريزة تحركها تلك المتغطية. والله شرع الحجاب ليكون حماية للمرأة من الأذى؛ لأنه يعلم سبحانه وتعالى بأن التبرج دعوة إلى زيادة الجرائم الجنسية بما يحرك من الغرائز الساكنة.

وأمام الذين يصرون بعد ذلك على تلك الشبهة، ويعتقدون صوابها أربع حقائق وهي:

الحقيقة الأولى: أن الإحصائيات تكذبهم.

الحقيقة الثانية: أن الغريزة الجنسية موجودة في الرجال والنساء، وهي سر إلهي أودعه الله في الرجل والمرأة لحكم كثيرة منها: استمرار النسل، ولنا أن نتخيل لو لم توجد هذه الغريزة، ثم يطلب من الرجال أن يتصرفوا طبيعيًا أمام مناظر التكشف والتعري دونما اعتبار لوجود تلك الغريزة.

الحقيقة الثالثة: أن الذي يثير الرجل هو رؤيته لمفاتن المرأة سواء وجهها أو باقي مواضع الإثارة فيها، ولا يمكن أن يصادم الفطرة التي خلقه الله عليها فتخبو شهوته عند رؤية ما يثير.

الحقيقة الرابعة: إن الذي يدَّعي أنه يمكن معالجة الكبت الجنسي بإشاعة مناظر التبرج والتعري ليحدث التشبع، فإنه بذلك يصل إلى نتيجتين:

الأولى: أن هؤلاء الرجال الذين لا تثيرهم الشهوات والعورات البادية، من فئة المخصيين، فانقطعت شهوتهم فما عادوا يشعرون بشيء من ذلك الأمر.

الثانية: أن هؤلاء الرجال الذين لا تثيرهم العورات الظاهرة من الذين أصابهم مرض البرود الجنسي.

فهل الذين يدعون صدق تلك الشبهة يريدون من رجال أمتنا أن يكونوا ضمن إحدى هاتين الطائفتين من الرجال؟ ؟! (١)

الوجه الثاني: كيف واجه الإسلام المشاكل الجنسية عند الشباب؟ (٢)

هدف الإسلام الأساسي في علاج المشكلة الجنسية هو مبدأ سد الذرائع، ومبدأ الوقاية خير من العلاج، منعًا للإثارة المؤدية إلى الفساد، لقد حرَّم الإسلام التكشف وإظهار الزينة والاختلاط، كل ذلك حفاظًا على نظافة الأسرة المسلمة من أن ينحدر بعض أفرادها في بؤرة الفساد؛ وأقول: بعضها لا كلها؛ لأن مقاومة البعض ضعيفة أمام المغريات والمثيرات وإن الإسلام حين وضع هذه القاعدة كان حريصًا على أن لا تشذ حتى ولو أسرة واحدة؛ لكي يبقى المسلمون جميعهم مثالًا في الاستقامة والنصاعة والسمو والشرف والنقاء؛ لأن وجود بؤر الفساد في المجتمع الإسلامي إنما هو نذير بانتشار الفساد وعمومه.

يقول سيد قطب: إن الميل الفطري بين الرجل والمرأة، ميل عميق في التكوين الحيوي؛ لأن الله قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض، وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها وهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود، وإثارته في كل حين تزيد عراقته وتدفع به إلى الإفضاء المادي للحصول على الراحة فالنظرة تثير والضحكة تثير، والحركة تثير والدعابة تثير والنبرة المعبرة عن هذا الميل تثير، والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل في حدود طبيعته، هذا هو المنهج الذي اختاره الإِسلام مع تهذيب الطبع وشغل الطاقة البشرية بهموم أخرى في الحياة. غير تلبية دافع اللحم والدم، فلا تكون هذه التلبية هي المنفذ الوحيد!. (١)

---

(١) ما المانع من الحجاب (١٣ - ١٧).

(٢) إلى غير المحجبات أولًا (٦٤-٦٦).

لقد أصاب سيد قطب رحمه الله تعالى في وصفه لهذا الميل قال الرسول ﷺ: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء وإن فتنة بني إسرائيل كانت من النساء". (٢)

ذلك لأن الميل الجنسي بين الرجل والمرأة من فطرة الله التي فطر الناس عليها، فكما أن فطرة الطعام ضرورية للحياة والنماء فكذلك فطرة الجنس ضرورية لبقاء النوع واستمرار الحياة.

هذا الشد والجذب إلى الطعام وإلى الجنس لا يتوقف بعد تناوله أو ممارسته، فهو يحرك هاتين الشهوتين بعد زمن طال أم قصر فيشعر الإنسان بالرغبة إليهما كلما حركهما منظر الطعام أو النساء.

ولا تهدأ هذه الرغبة بكثرة الاختلاط كما يدعي المخالطون، فكما لا تهدأ الرغبة إلى الطعام بالنظر إليه حين يجوع الإنسان؛ كذلك لا تهدأ الرغبة إلى الجنس باعتياد النظر إليه، وكما تثير رائحة الطعام الذكية شهوة الإنسان الشبع إلى الطعام وإن أخره عن تناوله الشبع كذلك يثير تكشف المرأة رغبة الرجل إليها، وإن منعه من هذا اللقاء الحياء والأخلاق والدين وكلما كانت عوامل الإثارة قوية كالبسمة الجذابة والحركة المثيرة ومنظر اللحم المكشوف والثوب المحجم الشفاف، كلما كان الاندفاع قويًا والإقدام على مخالفة القيم والاستعداد لارتكاب الفاحشة ممكنًا، وصدق الله العظيم حين وصف موقف سيدنا يوسف من امرأة العزيز فقال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣٣)، ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (يوسف: ٥٣).

وفي أحد أقوال المفسرين أنه من قول يوسف ﷺ، والاختلاط إما أن يؤدي إلى إثارة شهوة الجنسين وزيادة حدتها، فيتحول الاتصال إلى فوضى لا ضابط لها، كما هو الأمر في أوربا وروسيا، وفي كل مجتمعات الخلط، وإما أن يؤدي هذا الاختلاط والابتذال إلى التآلف بين الجنسين فينتهي إلى البرود الجنسي وهذان أمران أحلاهما مر.

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦.

(٢) البخاري (٥٠٩٦)، مسلم (٢٧٤٢).

الشبهة الثالثة: اتكالهم على أن العبرة بالأخلاق وليس بالثياب.

قالوا: إن تربية المرأة تنبع من الباطن، فالفتاة التي تربت ونشئت على الأخلاق الفاضلة لن يشرد بها عن الفضيلة شكل الثوب الذي ترتديه، كما أن الفتاة التي نشأت على الانحراف وربيت بعيدة عن الفضيلة، لن تكسبها الفضيلة جلباب سابغ ترتديه، أو خمار تديره على أطراف وجهها أو حتى نقاب تسدله عليه، وربما ضربوا أمثلة وهمية أو صحيحة بفتيات متحجبات وربما متنقبات، ضبطن بأعمال وسلوكيات شائنة.

الجواب على هذه الشبهةمن هذه الوجوه:

الوجه الأول: كلام حق أريد به باطل.

نقول: صحيح أن التربية تنبع من الباطن، ولا تلتصق عن طريق ثياب من الخارج، وما كان لشكل الثياب أو نوعها أن يقوم يومًا ما مقام التربية ومناهجها.

ولكن من الذي قال لكم، من علماء الشريعة الإسلامية: إن الحجاب إنما شرع ليكون ضابط خلق وأداة تربية سلوكية للفتاة، أو في أي مصدر من مصادر الشريعة الإسلامية عثرتم على نص يؤكد ذلك؟

إن هذا الافتراض الوهمي الذي لا يوجد أي سند له، ينطبق على المثل العربي القائل: زنَّاه فحده. (١)

الوجه الثاني: من الحكم التى شرع من أجلها الحجاب إخفاء المثيرات الجنسية والمفاتن الغريزيةعند الشباب.

إن الحكمة الباعثة على مشروعية الحجاب تتمثل في ذلك البيان المنطقي الذي أتينا عليه مفصلًا، والذي لا مجال لإدخال أي ريبة فيه، وقد ذكرها القرآن في نص جامع مركز، وهو قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ تلك هي الحكمة، هل قرأتموها ووقفتم بأدنى تدبر عندها؟

---

(١) أي ألصق به الزنا افتراءً، ليخضعه للعقاب عليه قسرًا.

الحكمة أن تختفي المثيرات الجنسية والمفاتن الغريزية عن أبصار الرائين والناظرين إليها من الرجال، فلا يستثيرهم منها شئ إلى أي تحرش أو إيذاء، ولا يبصروا من الفتاة أو المرأة إلا شريكة معهم في الخدمات الإنسانية، وبذل الجهود الاجتماعية المتنوعة، ما دام المجال الذي يتم فيه التلاقي بينهما مجالًا اجتماعيًا يتداعى فيه الجميع إلى التعاون في بناء المجتمع وإقامة دعائمه الحضارية.

أي أن الحكمة من الحجاب ليست إعانة المرأة بواسطته على الانضباط بالأخلاق الفاضلة، ولكن الحكمة منه إعانة الرجال الناظرين إليها على هذا الانضباط ذاته، وعلى أن ينظروا إليها ويتعاونوا معها إنسانةٌ مثلهم ذات مقومات علمية وثقافية وقدرات اجتماعية، لا على أنها كتلة من المهيجات الغريزية.

الوجه الثالث: ليس عيبًا في الحجاب حينما تتستر واحدة فيه لفعل الفواحش.

نفترض أن في النساء اللائى يمارسن السلوكيات الشائنة، من قد تستر وراء مظهر الحشمة أو الحجاب، ولكن فهل هذا يستوجب - بحكم المنطق- ازدراء الحشمة ومقاومة الحجاب الشرعي؟!

إن كان الأمر كذلك، فمظاهر السفور والإغراء أولى إذًا بالمقاومة والازدراء، لأن المنحرفات اللائى يجنحن في انحرافهن إلى عرض زينتهن ومفاتنهن، أضعاف المنحرفات اللائى يتسترن في بعض الأحيان بمظهر الحشمة والتستر.

ومع ذلك، فالعجيب أن الحشمة وحدها هي التي توضع من قبل هؤلاء الناس في قفص الاتهام، وتبقى المثيرات والمهيجات التي تعلن عن نفسها، مبرأة عن أي تسبب لتهييج الرجال وإضعاف الوازع الخلقي في نفوسهم، فضلًا عن أن يشار إليها بأي من أصابع الاتهام! !.[1]

---

(١) المرأة بين طغيان النظام الغربي، ولطائف التشريع الرباني ١٦٠-١٦٢.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن عفة الفتاة حقيقة كامنة في ذاتها، وليست غطاء يلقى ويسدل على جسمها، وما كان للثياب أن تنسج لصاحبها عفة مفقودة أو تخلق له استقامة معدومة. وما شرع الله حجاب المرأة ليخلق لها هذه العفة والطهارة في أخلاقها، وإنما شرعه محافظة على عفة الرجال الذين قد تقع أبصارهم على مفاتنها، ولو كان المأمول في الحجاب أن يكون- كما يتوهم البعض- مجرد تصعيد لخلق الفتاة وعفتها، إذن لأجازت الشريعة الإسلامية أن تبرز الفتاة المحصنة الخلوقة عارية أمام الرجال كلهم، في أبهى مظاهر الفتنة والجمال[1].

وقد تبين أيضًا أن شرعة الحجاب لا تهدف إلى خلق الفضيلة في كيان الفتاة، أو المرأة المتحجبة. فما من عاقل إلا ويعلم أن الثياب والأردية لم تكن يومًا ما لتغني عن أعمال التربية، والتنشئة الفاضلة.

ولكنه إنما شرع حماية لنفوس الرجال الناظرين إليها أن لا تستثيرهم الغرائز، فتحجبهم عن عقلانية المرأة وعن جهودها معهم في الفكر والعلم والبناء، ولكي لا يتيهوا عن مستوى أدبها وشعرها، منحطين إلى ما قد رأوه بأعين غرائزهم، من جمال شعرها، والمثير من زينتها وشكلها.

الشبهة الرابعة: الحجاب مظهر غير حضاري وعائق عن تقدم المرأة.

يقولون: إن شكل الحجاب الخارجي من مظاهر التخلف في المجتمعات، وهو مظهر غير حضاري، ويرددون مثل هذه الألفاظ الإسلام كبل المرأة بأثقال الحجاب. . ! الإسلام فرض على المرأة التخلف عندما ألزمها بالحجاب. . تقدم المرأة وتحررها رهن بتحررها من قيود الحجاب. . إلخ.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: التقدم لا يقاس بالمظاهر الخارجية.

---

(١) على طريق العودة إلى الإسلام ١٨١ -١٨٢.

إن التقدم لا يقاس بالمظاهر الخارجية، مثل اللباس والبناء والدواب، والزخارف وغيرها من الأمور الظاهرية، والذي يقيس تقدم المجتمعات بهذه المظاهر الخارجية، فإنه فاقد للموضوعية والمنطق.

والحضارة كلمة تطلق على مجموع الأخلاق والسلوك والقيم لأمة من الأمم، أما المظاهر الخارجية فلا علاقة لها بالحضارة، بل هي من المدنية.

يقول د/جلال الدين عبد الرحمن: ومما يلزم تغييره جذريًا، ويجب على الأمة أن تبتره من مجتمعاتها سفور المرأة وتبرجها في الطرقات، وكشف عوراتها للناس بدون حياء، غير مكترثة بالأخلاق، ولا متعظة بالأموات، ولا متأثرة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٩)، وإذا سألناهن عما دفع بهن إلى هذا - زعمت صويحبات يوسف- أن المدنية والمصلحة تقضي أن تتطور المرأة، ولا تتخلف عن ركب الحضارة.

بئست الحضارة هذه التي حطت من قيمة المرأة، بل جعلتها سلعة رخيصة يعف عليها الذباب، تعافها النفوس الأبية، وتنهشها الكلاب الضارية.

ولتحقيق ما أقول فلنستحضر في فكرنا ما نشاهده في الطرقات مما يتعرض له من المعاكسات، وما نراه في مكاتب الموظفين والموظفات، وما يتبادلونه من عبارات تجردت من الحياء، وأصبحت وباء تفر منه الحيية، وتسعد به الخبيثة الدنية، وصدق شوقي إذ يقول:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء. [1]

الوجه الثاني: ماهى علاقة الحجاب بالتقدم؟

والجواب الذي يمليه الفكر الموضوعي المتحرر من الأسبقيات، هو أنه لا تبدو أي علاقة بين الحجاب الذي شرعه الله وبين التخلف، كما أنه لا توجد أي علاقة بينه وبين التقدم، فلم يكن يومًا ما شكل الثوب الذي ترتديه المرأة، أو نظامه، طولًا وقصرًا، أو

---

(١) غاية الوصول إلى دقائق علم الأصول صـ ١١٩.

عرضًا واتساعًا، ذا أثر في توجهها العقلي أو نشاطها الإنساني، ومنذ أقدم العصور إلى اليوم كانت البلاد والمجتمعات الإنسانية ذات تقاليد متنوعة ومختلفة جدًّا في هندسة الثياب وأشكالها، بالنسبة لكل من الرجال والنساء معًا، فما سمعنا وما سمع أحد، أن تنوع الثياب هذا لعب دورًا في تفاوت تلك الأمم والجماعات في حظوظ التقدم العلمي والحضاري.

إن الثياب التي ترتديها الهنود، رجالًا ونساء، ذات طابع فريد من نوعه، والثياب التقليدية العريقة التي ترتديها نساء اليابان، كانت ولا تزال ذات طابع فريد مختلف، كما أن الثياب التي تستريح إليها الأوربيات والأمريكيات، هي الأخرى ذات طابع مختلف، ولم يشعر أي من هذه الأمم بأن هذا التنوع الكبير في موديلات الثياب، ينبغي أن ينتج عنه تنوع مماثل في درجة التقدم، والحضارات التي سادت يومًا ما، كالحضارة الساسانية والبيزنطية والإسلامية وغيرها، لم تقف عند شيء اسمه مشكلة الثياب، ولم تناقش فيها، بل لم تشعر بها.

فمن أين جاءت ومتى ولدت هذه الحقيقة التي لا علم للعالم كله ولا لتاريخه بها؟

وفي عمق بلادنا العربية: كالشام ومصر، نساء متحجبات، بلغن الذروة في اختصاصات علمية متنوعة، وساهمن إلى أقصى الحد في الأنشطة والخدمات الاجتماعية المتنوعة، فهل أهدرت حشمتهن التي استجبن فيها لحكم الله ﷻ، كل ما قد شهد لهن به مجتمعاتهن من الامتياز العلمي والسبق الحضاري والنشاط الاجتماعي، فتحولن في لحظة سحرية عجيبة إلى جاهلات رجعيات متخلفات؟!.

كما تبين أن الحجاب بحدوده الشرعية المعروفة، لم يكن يومًا ما عثرة في طريق تقدم، أو عائقًا عن الوصول إلى أعلى قمم العلم والمعرفة.

الشبهة الخامسة: الحجاب فيه حرمان المرأة من إظهار زينتها، وتقييد لحريتها الشخصية.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: وهل حَرَّم الإسلام على المرأة الزينة؟

هل تقبل المرأة أن تكون سلعة رخيصة يعاينها الجميع، الخسيس والكريم؟ وهل تقبل أن تسلم جسدها لعيون الذئاب البشرية؟

وهل تقبل أن تكون رخيصة إلى هذه الدرجة؟

والإسلام لا يحرم المرأة من أن تتزين أمام زوجها، وإنما حرم أن تتزين للرجال الأجانب لشيء يرجع إلى مصلحتها أولًا، وهذا يتضح جليًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ (الأحزاب: ٥٩).

فهنا يأمر الله نبيه بأن يأمر أزواجه وبناته وكل النساء المؤمنات بأن يتحجبن ويرتدين الملابس الطويلة الواسعة؛ لأن ذلك أحرى أن يعرف أنهن شريفات عفيفات فلا يؤذيهن أحد، لا بكلمة ولا بنظرة، ولا غير ذلك.

الوجه الثاني: حال المرأة المتبرجة والمحجبة وسط مجتمعها.

فانظر إلى الشباب الذي يقف في الطرقات يتربص الفتيات إذا مرت فتاة متبرجة من أمامه يوجه إليها الغمز واللمز، وإذا مرت فتاة محجبة على الهيئة التي أمرها الله بها، فإن هذا الشباب يتوقف تلقائيًا عن المعاكسة أو المضايقة حتى تمر هذه الفتاة التي حفظت الله في نفسها فحفظها من غيرها.

يقول الشيخ الشعراوي: سألتني صحفية إنجليزية لماذا يمنع الدين الإسلامي المرأة من أن ترتدي ما تشاء؟ لماذا يقيد حريتها في أن تختار ثيابها، وترتدي ما تحب، أليست هذه حرية شخصية للمرأة؟

قلت: قبل أن أجيب على هذا السؤال، لابد أن نتفق على نقطة هامة، هي أنه ليس لإنسان يعيش في مجتمع ما يسمى بالحرية المطلقة، فلابد أن تكون حريته حرية نسبية لا تعتدي على حريات الآخرين، وبعيدًا عن مخالفة الدين وتعاليمه.

هل تستطيعين أنت أن تفعلي ما تريدين؟ إذا أردت أن تمشي في الطريق العام بدون ملابس على الإطلاق، فهل يمكنك ذلك بدعوى أنك حرة تفعلين ما تشائين؟!

إذا أردت أن تستمعي إلى موسيقي عالية بعد منتصف الليل، فهل تستطيعين أن تستمعي إلى الراديو في أعلى صوت؟ أو إذا أردت أن تصلحي شيئًا في منزلك والناس نيام فهل تستطيعين إحضار النجار أو النقاش ليفعل ما يشاء؟..

هل تستطيعين أن تتركي سيارتك وسط الطريق، أو في مكان ممنوع فيه الانتظار، لأنك حرة، ومن حريتك أن تضعي سيارتك في المكان الذي تريدينه؟ بل هل تستطيعين أن تتجاوزي بسيارتك السرعة المسموح بها، وهل تستطيعين أن ترتكبي فعلًا فاضحًا أمام الناس؛ لأن ذلك من حريتك؟..

وأستطيع أن أمضى إلى ألوف الأمثلة؛ لأنه لا يوجد شيء اسمه الحرية المطلقة في أي مجتمع، ولكنها حرية نسبية، تعطيك من التصرف الذي تريدينه ما ليس فيه اعتداء على حرية الآخرين، فإذا حدث اعتداء على هذه الحرية، فإن المجتمع يتدخل؛ ليوقفك عند حدك قائلًا: هذا ليس من حريتك؛ لأنك اعتديت على حرية الآخرين.

الطريق الوحيد لكي تتمتعي بالحرية المطلقة، هو أن تذهبي إلى مكان لا يعيش فيه أحد، مكان تعيشين فيه وحدك دون أن يكون فيه آخرون، حينئذ تستطيعين أن تتمتعي بحريتك كما تشائين، فما دام لا يوجد أحد حولك، ولا أحد من الناس يراك، إنك تستطيعين أن تفعلي ما تشائين.

هذا بعيد عن منطق الدين، وبعيد عن منهج السماء، فإذا كان هذا هو منطق الحياة في الكون. فكيف تريدين من منهج الله أن يخلق مجتمعًا من الفوضى الذي يضيع فيه كل شيء؟.

يقول الله في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ (الأحزاب: ٥٩).

ويقول ﷻ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور: ٣١) هذا هو حكم الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمرأة، وهو إخفاء الزينة التي تلفت الأنظار.

وبداية أحب أن أقول: إن من اختار الدين فعليه أن يقبل أحكام هذا الدين، حتى ولو كانت هذه الأحكام تقيد حريته في: افعل ولا تفعل؛ لأن تقييد الحرية هنا هو لخير الإنسان وليس شرًا له.

إن هذه الأحكام جاءت من الله تعالى وهو أعلم بنا من أنفسنا فإذا كانت تقيد حركتنا. فهي تعطينا الخير، وتذهب عنا السوء، فلا يوجد دين بلا منهج إلا أن يحاول الإنسان أن يرضي غريزة التدين فيه، وفي نفس الوقت يفعل ما يشاء فيعبد الأصنام أو الشمس، أو غير ذلك مما لا يقيده بمنهج في الحياة، يخلص نفسه من تعاليم الله ليفعل ما يشاء، وفي هذه الحالة يكون قد كفر والعياذ بالله؛ لأنه لا يريد منهجًا سماويًا يقيد حريته.

والمرأة التي تتضرر من الحجاب بزعم أنه يقيد من حريتها بستر ما أمر الله من مفاتنها، عليها ألَّا تعترض على منح هذه الحرية لغيرها فإن أباحت لنفسها أن تتزين وتكشف عن مفاتنها؛ لتجذب إنسانًا وتفتنه، فعليها ألا تعترض على قيام غيرها بكشف زينتها ومفاتنها لتجذب زوج هذه المرأة أو ابنها. [1]

الوجه الثالث: هدف الإسلام من منع إبداء زينة المرأة.

إن الهدف هو صيانة المجتمع كله من الفتنة، وإبقاء للاستقرار والأمن بالنسبة للمرأة، حتى لا يخرج زوجها من بيته وهي لا تعلم هل ستفتنه امرأة أخرى فيتزوجها، أم أنه سيعود إلى بيته؟.

إن الله ﷻ قد وضع من القواعد والضوابط ما يمنع الفتنة للمرأة والرجل حفاظًا لاستقرار الأسرة وأمنها وأمانها، وحرم أي شيء يمكن أن تكون فيه فتنة من امرأة لرجل غريب عنها، ولذلك حرم إبداء الزينة إلا لمحارم المرأة، حرمه الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ

(١) المرأة في القرآن (٨٤-٩٥).

ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النور: ٣١).

وهؤلاء الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة، هم من محارم المرأة التي لا تحرص على إبداء زينتها أمامهم. . وحتى إذا فعلت. . فإن هذه الزينة لا تثير في نفوسهم أية شهوة. . إما لأنهم لم يبلغوا السن التي يحسون فيها بالشهوة، وإما أنهم تعدوا هذه المرحلة تمامًا، بل إن الله سبحانه وتعالى حرَّم على النساء أن يضربن بأرجلهن كنوعٍ من التحايل؛ لإظهار الزينة التي أخفتها الثياب، وذلك بتعمد اهتزاز الجسم؛ لتظهر مفاتنه، وقال الحقُّ جلَّ جلاله ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ (النور: ٣١).

كل هذا قد يفهمه البعض على أنه تقييد لحرية المرأة، ولكنه في الحقيقة حماية لها.

لو أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض الحجاب، لكان على المرأة أن تطالب به؛ لأنه أكبر تأمين لها ولحياتها، ذلك أن نضارة المرأة موقوتة، وفترة جمالها – لو حسبناها- فلن تزيد على خمسة عشر عامًا، ثم بعد ذلك تبدأ في الذبول. هب أن امرأة بدأت في الذبول، وزوجها ما زال محتفظًا بنضارته قادرًا على الزواج، وخرج إلى الشارع، ووجد فتاة في مقتبل العمر، وفي أتم نضارتها، وقد كشفت عن زينتها، ماذا سيحدث؟

إما أن يفتن بهذه الفتاه، ويترك زوجته ويتزوجها، وإما أنه عندما يعود إلى المنزل يلحظ الفرق الكبير بين امرأته، وبين هذه الفتاه، فيزهد في زوجته، ويبدأ في الانصراف عنها.

لكن لو حجبت النساء مفاتنهن عن الرجال. . لصارت كل منهن آمنة من فقدان زوجها، ومن تغير نفسه من ناحية زوجته. . ولظلت محتفظة بحبه لها وإقباله عليها. . لماذا؟ لأن الجمال نمو. . والنمو في المخلوقات والنبات والحيوان والإنسان لا يدركه المتتبع له. . ولذلك تجد الرجل وله ولد ينظر إليه كل يوم. . فلا يمكن أن يلحظ أنه يكبر. .

ولكن لو غاب عنه شهرًا. . يتجمع نمو الشهر كله وهو بعيد عنه. . وعندما يعود يحس بأنه قد كبر.

والفلاح مثلًا إذا جلس بجوار الزرع. . لا يلحظ نموه ولا يراه. . فإذا غاب عنه فترة لاحظ هذا النمو. .

الرجل مع زوجته كذلك. فهو عندما يتزوجها وهي عروس تكون في أبهى زينتها ونضارتها، لكن لأنه يراها كل يوم، فإنه لا يلحظ فيها أي تغيير. . وتكبر وتذهب نضارتها وجمالها من أمامه شيئًا فشيئًا، دون أن يلاحظ هذا الذبول. . بل تظل في عينيه هي نفس العروس الجميلة التي زفت إليه. .

ولكن إذا رأى امرأة غيرها. . أصغر منها ولا تزال في قمة نضارتها. . بدأت المقارنة وأحس بالتغيير. . وأثر ذلك في نفسه.

ولذلك ونحن نرى أمهاتنا بعد أن كبرن وملأت وجوههن التجاعيد. . لا نشعر بهذا. . بل نجد في أمهاتنا نضارة لا نشبع من النظر إليها.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حجب المرأة من أن تستلفت الأنظار إليها بالكشف عن زينتها. . وهو قد حجب غيرها ممن هن أصغر وأجمل، وأكثر نضارة من أن يستلفتن أنظار زوجها فيعرض عنها.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣١: ٣٠)

لماذا حرِّمت النظرة بين الرجل والمرأة؟. . ولم تُحرَّم بالنسبة لباقي مخلوقات الكون؟!. . لأن النظرة هي بداية النزوع بالنسبة للرجل والمرأة. . وما دامت النظرة قد بدأت. . فأنت لا تستطيع أن تتحكم في نفسك. . بالنسبة لما يمكن أن يحدث بعد ذلك. .

النظرة قد أوجدت تغييرًا يقودك إلى المعصية. . ولذلك نجد مثلًا عندما حرم الله سبحانه وتعالى على آدم وحواء أن يأكلا من الشجرة المحرمة في الجنة. . لم يقل لهما لا تأكلا من هذه الشجر. . بل قال جل جلاله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ (البقرة: ٣٥).

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى: لا تأكلا من هذه الشجرة. . لأنه أراد أن يحميهما من إغراء المعصية. . فلو أنه قال لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة. . ربما جلسا إلى جوارها. . فأغراهما لون ثمارها أو شكل هذه الثمار. . أو الرائحة المنبعثة منها. . ولذلك قال لهما سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ليقيهما الإغراء الذي يمكن أن يوقعهما في المعصية. .

وكما يقول رسول الله ﷺ: " فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ ". [1]

إذن فتحريم النظر بين الرجل والمرأة. . حماية لكليهما، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

على أننا لابد أن نلتفت إلى حقيقة هامة. . هي أن الله سبحانه وتعالى يريد أن تعتدل الموازين في كونه، ويريد للعقل الذي ميز الله به الإنسان أن يعطي حرية الاختيار دون أية مؤثرات، حتى تستقيم الأمور في الكون، وإظهار المرأة لمفاتنها يجعل الميزان يختل لماذا؟.

لأن المرأة إذا تَعمَّدت إغراء رجل غريب بزينتها، والكشف عن جسدها. . تتدخل في عمل العقل؛ لأنه في هذه الحالة قد يتخذ قرارًا ويعلم أنه باطل؛ لينال من هذه المرأة أو يرضيها. . وكلنا يعلم تأثير النساء في الصفقات التي تحدث في العالم كله، وكيف أنهن يتخذن كوسيلة للأغراء؛ ليقضى الإنسان بغير الحق، ويختل ميزان الحكم.

---

(١) البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩).

كل هذا موجود في شركات عالمية كبيرة تستخدم إغراء المرأة؛ لتتم أعمالًا وصفقات مشبوهة، ما كانت لتتم لو أن الميزان كان معتدلًا. . والعقل هو الحكم الوحيد في هذه المسائل من أمور الدنيا.

الوجه الرابع: لماذا لا تحترم حرية المحجبة في اختيار الحجاب؟

إذا كان من يدعو إلى السفور ينطلق من دعوى الحرية؛ فلماذا لا يحترم حرية المحجبة في اختيار الحجاب؟

لقد ردت على هؤلاء امرأة غير مسلمة، وحجتهم بالمنطق نفسه، منطق حرية الاختيار، إنها الروائية الفرنسية أني أرنو تقول- معلقة على منع طالبات مسلمات في فرنسا من دخول المدارس وهن محجبات-:

أرى أن الحجاب وسيلة تؤكد بواسطته المسلمات هويتهن الثقافية، وهو أمر يجب أن يحترم؛ لأن منعه خرق للحرية الشخصية، صحيح أن المدارس الفرنسية علمانية، لكن هذه مسألة حرية شخصية، فهناك فرنسيات مسيحيات يأتين إلى المدارس بملابس دينية دون أن يحتج أحد.

وترد على هؤلاء أيضًا رئيسة اتحاد التلميذات في فرنسا كورين سيلر وسنها (١٧) سنة، فتقول: إن الكبار هم الذين يصنعون هذه المشاكل، ولقد سمعنا كثيرًا من ردود الفعل المتخلفة، إن كل شيء بسيط بالنسبة إلينا أن تلبس فتاة الإيشارب أو الحجاب ليس مشكلة في مدرستنا فتاتان ترتديان الحجاب منذ سنتين، دون أن يثير ذلك أي مشكلات، كما أن الطالبات اليهوديات اللاتي يتغيبن يوم السبت ينقلن بعد ذلك الدروس.

وكان قريبًا من هذا موقف وزير التعليم الفرنسي ليونيل جوسبان الذي أكد على ضرورة احترام آراء الآخرين. وكذلك ميشيل رو كار رئيس الوزراء الذي يدعو إلى ضرورة احترام حرية الآخرين وآرائهم.

وفي بريطانيا. . تكررت المعركة نفسها؛ حين أقدم رئيس إدارة إحدى المدارس في لندن؛ على طرد طالبتين مسلمتين بريطانيتين من أصل باكستاني من المدرسة، بسبب إصرارهما على ارتداء الزي الشرعي الإسلامي. وتلقفت الصحافة والإذاعة ومحطات

التلفزة الخبر، فما إن مضت أيام قليلة حتى سيطرت معركة الزي الشرعي الإسلامي على الساحة السياسية والإعلامية والدينية في بريطانيا.

وسارع والد الطالبتين - وهو من مشاهير أطباء العيون الاختصاصيين في لندن - إلى رفع عدة شكاوى إلى الهيئات التي تدافع عن حقوق الإنسان، وإلى الهيئات التي تحارب التفرقة العرقية والعنصرية مطالبًا بإلغاء قرار رئيس إدارة المدرسة البريطانية، باعتباره قرارًا ينتهك الحرية الشخصية وحرية العقيدة، وباعتباره قرارًا يحمل رائحة التمييز العرقي والعنصري كون الطالبتين من أصل أسيوي.

ولم تأخذ معركة الزي الشرعي الإسلامي وقتًا طويلًا، إذ سرعان ما اضطر رئيس إدارة المدرسة أمام ضعف حججه ومبرراته، إلى التراجع عن قراره، وسمح للطالبتين بالعودة إلى المدرسة وهما تلتزمان بالزي الشرعي الإسلامي.

ونقلت محطات الإذاعة والتلفزة خبر عودة الطالبتين إلى المدرسة بالبث الحي المباشر، وشاهد ملايين البريطانيين عدة مئات من الطالبات البريطانيات يرحبن بالأناشيد والتصفيق بعودة الطالبتين المسلمتين إلى المدرسة، وشاهد الملايين أيضًا الأب وهو يحتضن ابنتيه قبل أن تدلفا إلى داخل المدرسة وقد انهمرت دموع الفرح من عينيه وعيني ابنتيه فرحًا بالنصر الذي حققه الله لهما في معركتهما من أجل الالتزام بطاعة الله عز وجل، وإطاعة أحكام شريعته.

وهكذا تنتصر المحجبات في فرنسا وإنكلترا، حيث الحرية الشخصية مصونة، بينما يمنع الحجاب في بعض أقطار المسلمين في الوقت الذي لا يُمنع فيه التكشف، بل العري!

يقول د/عبد الكبير العلوي المدغري: فأين أدبيات الحرية الشخصية وأين حقوق الإنسان المعلن عنها في التصريح العالمي في حقوق الإنسان والتي تتصدر دساتير الدول المتمدنة؟! وأين المراقبة التي يمارسها منظمة العفو الدولية على الدول والحكومات لغرض احترام حقوق الإنسان، وهي ترى وتسمع حكومة فرنسا تطرد الفتيات المسلمات

المحجبات من المدارس والجامعات، وترى وتسمع المحاكم هناك وهنالك تصدر الأحكام والقرارات بالطرد، بدعوى أن الحجاب يتعارض مع مبدأ علمانية الدولة؟!

هل بلغ الخزي بهذا العالم المادي العلماني هذه الدرجة التي تسمح لضمائر القضاة بحرمان إنسان من نور العلم والمعرفة وطرده من مدرسته أو جامعته بسبب أنه اختار أن يضع منديلًا على رأسه؟! هل هذه هي الحضارة الغربية والمدنية الغربية والثقافة؟!

لقد كان الإسلام يبسط سلطانه على إمبراطورية عظيمة تمتد من شرق آسيا إلى غرب إفريقيا وجنوب أوروبا، وكانت الشريعة هي دستور تلك الإمبراطورية، وما سمعنا أن المسلمين منعوا المسيحيين أو اليهود من ارتداء ملابسهم المميزة، سواء في معاهد العلم أو في الشارع بدعوى تعارض تلك الأزياء مع المبادئ التي تقوم عليها الدولة:

إن هذه القرارات التي اتخذها القضاء، سواء في فرنسا أو في تركيا أو في بلد علماني آخر، تعتبر مظهرًا من مظاهر إفلاس الفكر اللائكي، وصورة من صور انحطاطه وأنه فكر متطرف وبعيد كل البعد عن الموضوعية.[1]

* * *

(١) المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير (٢٨٠-٢٨١).

٣ـ شبهة: القوامة

نص الشبهة: لماذا جعلت القوامة بيد الرجل؟ أليس هذا يضاد ما تدعونه من تسوية الإسلام بين الرجل والمرأة؟

والرد عليها من وجوه

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: قوامة الرجل على المرأة ليست قضية إهانة كرامة؛ إنما هي قضية تميز واختصاص.

الوجه الثاني: لماذا كانت القوامة للرجال؟

الوجه الثالث: الفروق بين الرجل والمرأة.

الوجه الرابع: قوامة الرجل على المرأة لا تعني أن ذات الرجل أفضل من ذات المرأة.

الوجه الخامس: المرأة العاقلة لا يسعدها أن تتساوى مع الرجل في القوامة.

الوجه السادس: القوامة في الإسلام بلغت بالمرأة أعلى مكانة تدليل وتشريف وإعزاز.

الوجه السابع: المرأة تسكن في ظل قوامة الرجل.

الوجه الثامن: أهمية القائد لأي تجمع بشري.

الوجه التاسع: وشهد شاهد من أهلها.

الوجه العاشر: القوامة في اليهودية والمسيحية فهي تسلط أي الرياسة بالضغط والإكراه.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: قوامة الرجل على المرأة ليست قضية إهانة كرامة، إنما هي قضية تميز واختصاص.

قضية قوامة الرجل على المرأة ليست قضية إهانة كرامة كما يتصور بعض الناس، إنما هي قضية تميز واختصاص ليس في حد ذاته منقصًا من شأن من يتصف به، فالمهندس يتخصص في بناء البيوت، والطبيب يعالج الأبدان والنفوس، والمدرس يعلم العلم، ويفتح العقول على ميادين التفكير، والمجتمع محتاج لكل منهم - ولغيرهم- غير مستغن عنهم، ولا يكون تخصص أي منهم فيما تخصص فيه حاملًا على احتقاره، أو الغض منه.

الوجه الثاني: لماذا كانت القوامة للرجال؟

١ـ الرجل أقرب إلى تحكيم النظر العقلي في الأمور.

الواقع ومشاهدات الحياة كلها تدل على أن الرجل أقرب إلى تحكيم النظر العقلي في الأمور منه إلى الاستجابة للعاطفة، أما المرأة فهي على وجه العموم أقرب في معظم حالاتها إلى الاستجابة للعاطفة ومتطلباتها، وأيضًا فإن المرأة تعتريها حالات خاصة من الحمل والحيض، والولادة، وسن اليأس تتسبب عنها متاعب صحية ونفسية تنتهي بها إلى أنواع من عدم الاستقرار المزاجي والنفسي، تكون فيها بعيدة شيئًا ما عن النظرة العقلية المتوازنة الهادئة إلى الأمور، وحتى في غير هذه الحالات الخاصة أقرب من الرجل إلى تحكيم المشاعر والأحاسيس العاطفية في الأمور، ومشاهدات الحياة المتروية تدلنا في وضوح على أن ثقافة المرأة وحصولها على أعلى الشهادات العلمية في مختلف التخصصات لا ينقض هذه الحقيقة، ولا ينسخ طبيعة الأنثى في المرأة، فما تزال هي هي طبيبة كانت، أم مهندسة، أم عالمة، أم قانونية أم أستاذة. [١]

يقول د/أحمد شلبي: على أن قوامة الرجل يلزم أن تكون قوامة رحيمة يتعاون فيها مع الزوجة ويرفق بها ويلزم كذلك أن تكون عادلة، فليس له أن يطلب من زوجته مطلبًا غير عادل قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾، ثم إن الإسلام أعطى المرأة الحق في التدخل في اختيار زوجها وبهذا تشترك المرأة في اختيار القيم عليها، ولها أن تلاحظ فيه المقدرة على القوامة الرشيدة.

إننا جميعًا لا نشك أن أفراد الأسرة إذا شعروا في جنح ليل مظلم بلصٍّ يتسوَّر الدار، أو يعبث برتاج الباب، هبَّ الزوج الأب؛ ليقف في وجه الخطر الداهم، وقبعت الزوجة الأم في زاوية مظلمة آمنة من الدار. وكذلك الأمر إذا طرق الدار طارق سوء، أو اقتحمها عدو، أو طالب ثأر. وقد تجد ما يشذ عن هذه القاعدة، ولكن الشَّاذ لا حكم له.

(١) مكانة المرأة د/ البلتاجي (٩٩-١٠٠).

من أجل هذا حرر الإسلام المرأة من مسئولية العمل في الوقت الذي لم يمنعها من ممارسته. حررها من مسئوليته لكي لا تقع تحت ضرورات العمل الذي يستعبدها. ولم يمنعها من ممارسته، لكي تملك السبيل إلى معيشة أَرْفَه مع قدرتها على اختيار الأنسب والأليق، ومع امتلاكها للانضباط بما يقتضيه سُلَّم الأولويات، من تقديم مهام رعاية الأسرة في الداخل على رغبات العمل والكدح من أجل الرزق في الخارج.

وهكذا، فإن قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٣٤) إخبار عن واقع يفرض نفسه، أكثر من أن يكون تقريرًا لحكم مفروض.

أما هناك في المجتمعات الغربية، فقد حُمِّلت المرأة مسئولية الكدح من أجل توفير رزقها، فاستعبدها العمل والجهد المضني، ثم لم تنل بعد خضوعها لهذه الضريبة الفادحة، القوامة التي ظلت بيد الرجل. . كل ما قد حصل، هو أن بنيان الأسرة تهاوى وتحوَّل إلى حطام في غمار تسابق الزوجين إلى الكدح من أجل الرزق وتوفير لقمة العيش، وبقي الزوج مع ذلك هو المهيمن والمتنفذ! [1].

ونعود إلى المحور الذي انطلقنا منه، وهو بيان أن القوامة التي أخبر عنها بيان الله ﷻ، قوامة إدارة ورعاية، لا قوامة تسلط وتحكم، ومصدر اختيار الرجل لها أفضلية صلاحيته لها من جانب، وتحمله لمسئولية الإنفاق من جانب آخر. والنظام العالمي يقول: من ينفق يشرف[2] [3].

(١) مقارنة الأديان (٢١٤).

(٢) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني (١٠٥-١٠٦).

(٣) يقول د/ القرضاوي في كتابه الإسلام وحضارة الغد (٤٨-٥٤) ومن أحدث الوقائع، وأغرب الأنباء: ما هو واقع في أمريكا الآن من ابتزاز الرجال للنساء، بدعوى المساواة بين الجنسين التي طالب بها النساء في أول الأمر، وذلك عند وقوع طلاق الزوج الفقير، أو المتوسط من زوجة غنية، وقد كتبت عن هذه القضية الصحفية المصرية مها عبد الفتاح وبعثت برسالتها من أمريكا إلى صحيفة أخبار اليوم في ٦/ ٨/ ١٩٩٤م تقول: ((في الأعوام الأخيرة زادت نسبة النساء ذوات الدخول الكبيرة زيادة ملحوظة وممثلات ومصممات أزياء وصحفيات ومحاميات وعضوات مجالس إدارة صعدن السلم الوظيفي والواحدة منهن ستواجه محنة فيما

لو انتهت علاقتها الزوجية لسبب أو لآخر، وكان الزوج أقل منها دخلًا سيطالبها - غالبًا - أن تعوله! وأقسم بالله إن هذا هو التعبير المستخدم اجتماعيًا وقانونيًا (Tosupport Him) وعلى ذات المستوى الذي تعوَّد عليه معها! ! والقضاة يطبقون على النساء حاليًا ذات القوانين التي تُطبَّق على الرجال في حالة إعالتهم للمرأة. . فإذا كانت الزوجة هي الأكبر دخلًا في شركة الزواج، فلماذا لا تعول الرجل، أو تدفع له نفقة تساعده في حياته الجديدة من بعدها. . وما دام القانون في معظم الولايات الأمريكية يبيح للزوجة أن تحصل على نصف ثروة زوجها، ويظل يدفع لها نفقة طالما لم تتزوج، فلماذا تُستثنى من ذلك المرأة ذات الإمكانات. .

إن النساء هن اللاتي دفعن إلى ذلك بفتح باب المساواة على مصراعيه. وما تفعله المحاكم الأمريكية اليوم هو تطبيق لما ينادين به. . تُردن مساواة؟ خُذن إذن. . اشربن من كأس الرجل. . وادفعن من دم قلوبكن وعرقكن! ولهذا يشجعون النساء ذوات الدخول الكبيرة أن يحتطن للمستقبل، ويفعلن ما يلجأ إليه الآن أثرياء الرجال خصوصًا المزواجين منهم، وهو أن يعقدا تسوية للطلاق، ويوقعا عليها من قبل الزواج!

أي للاحتياط. . . والاحتياط واجب ولا عيب في الحذر. . وخصوصًا إذا كانت نسبة الطلاق قد بلغت ٥٠ من حالات الزواج!

وامتدت هذه الظاهرة حتى بلغت الطبقة المتوسطة أيضًا أي ما دون الدخول ذات الستة أرقام، عندما يكون دخل المرأة أكبر من دخل الزوج بمسافة، كي يحق له فيما لو وقع الطلاق أن يطلب النفقة! كل ما هنالك أن الإعلام الأمريكي لا يهتم بغير قضايا المشاهير، وأما العاديون فالظاهرة بينهم تفشت، والنسبة أصبحت كبيرة ولا تزال في ازدياد.

ولأعدد من الذاكرة فقط بعض أشهر القضايا التي تابعناها في السنوات القليلة الماضية لمشاهير النساء اللاتي حكمت عليهن المحاكم بدفع النفقة لأزواجهن السابقين، سنجد باقة من أشهر الشخصيات والأسماء: من مذيعة التليفزيون المشهورة التي تقدم برنامج صباح الخير أمريكا في شبكة أي بي سي واسمها جون لاندن، إلى الممثلة الشهيرة جين سيمور، وجين فوندا، وكيم باسنجر، وروزان وغيرهن. . وهذا يقرر ما تستطيع الذاكرة حصره.

وشيء أصبح عاديًا أن يقوم الزوج والذي يطلق عليه هابي على الطريقة الأمريكية في اختصار الأسماء، والتعبيرات، والأشياء. . ويقوم الهابي بالاتصال مع زوجته - أو بالأصح طليقته- يستعجلها لإرسال الشيك الذي يتضمن النفقة الشهرية، ويطمئن أنه في الطريق، واسألوا جون، وجان، وجين، وكيم، وماري. . إلى آخر القائمة.

والذي أثار هذا الموضوع لأكتب فيه هو قضية جديدة رفعها هذا الأسبوع ممثل معروف إلى حد ما، اسمه توم أرنولد ضد زوجته الممثلة المشهورة روزان، يطالبها فيها بنفقة شهرية قدرها مائة ألف دولار، ليستطيع العيش في نفس المستوى الذي تعوَّد عليه معها! وروزان هذه هي أشهر كوميديانة في التلفزيون الأمريكي، وهي بذيئة اللسان والحركة إلى حدٍّ قد يصيب من يشاهدها لأول مرة - لهول ما يرى- بالسكتة! ولكن

٢- قوامة الرجل على المرأة بأن يتولى الإنفاق عليها.

حصر علماء النفس في الولايات المتحدة المخاوف الرئيسية التي تشغل بال المرأة الأمريكية.

ومن أهم هذه المخاوف: الخوف من الفقر فالكثيرات يخشين ألا يتمكن من تأمين ضروريات الحياة، كالطعام والملبس والمأوى. كما أن المرأة الأمريكية تخاف ألا تتمكن من إعالة نفسها عندما تشيخ فتضطر للاستعانة بالحكومة.

ويقول الدكتور هارفي روبن: إن النساء يخشين الفقر أكثر من الرجال.

وتخاف المرأة الأمريكية من أن يرفضها من تحبه، فالزوجات اللواتي أنفقن السنوات من أعمارهن لتربية أطفالهن، يتحسسن حساسية خاصة من أن يتعرضن للرفض أو الهجر. كما أن النساء الكبيرات اللواتي يطلقن بعد ٣٥ سنة من الزواج مثلًا ليست لهن وسيلة لكي يَعُلْنَ أنفسهن.

ثم يأتي خوفها من فقدان الصحة، فهي تخشى من أن ضياع صحتها سيجعلها تبدو كبيرة هرمة. . فضلًا عن أن فقدان صحتها سيحرمها من القدرة على رعاية أفراد عائلتها.

وأخيرًا يأتى الخوف من خسارة استحسان المجتمع. . فبعض النساء في - رأى الدكتور روبن - يشعرن بضرورة انتمائهن إلى المجتمع. . ويبذلن الكثير من الجهد حتى يكن مقبولات اجتماعيًا. . إلى درجة أن ينتهي بهن الأمر إلى أن يسيطر عليهن القلق وتظل حياتهن غير متوازنة.

يقول الدكتور روبن بأن المرأة يمكنها أن تعوض عن فقدان جمالها بأن تصبح طاهية جيدة، أو ربة منزل مدبرة، أو أمًا مثاليّة.

وينصح الأطباء المرأة بأن تقلل من اعتمادها على آراء الآخرين، فعلى الرغم من أن معظم الناس يحتاجون إلى استحسان الآخرين. . إلا أنهم ليسوا بحاجة إلى استحسان كل إنسان.

ألا توافقين على أن المرأة المسلمة لا تشكو من هذه المخاوف جميعها؟ فخوف الفقر

جمهورها بالملايين، وتكسب الملايين، ولا تزال تدفع نفقة لزوجها الأسبق، والذي سينضم إليه زوجها اللاحق مطالبًا إياها هو الآخر بالنفقة!

وعدم تأمين ضروريات الحياة؛ بعيد عن المرأة المسلمة التي يتحمل مسؤولية الإنفاق عليها زوجها أو أبوها أو أخوها أو ابنها مهما بلغت من العمر.

يقول الشيخ على الطنطاوي: حدثني الأستاذ بهجت البيطار، أنه كان يتكلم عن المرأة المسلمة، في إحدى محاضراته في أمريكا، وذكر فيها استقلال المرأة المسلمة في شئون المال، لا ولاية عليها في مالها لزوجها ولا لأبيها، وأنها إن كانت معسرة كلف بنفقتها أبوها أو أخوها، فإن لم يكن لها أب أو أخ، فأي واحد من أقربائها الذين يرثونها، ولو كان ابن عم عمها، وأن هذه النفقة تستمر إلى أن تتزوج، أو يكون لها مال، وأنها إن تزوجت كلف زوجها بنفقتها، ولو كانت تملك مليونًا وكان زوجها عاملًا. إلى غير ذلك مما نعرفه نحن ويجهلونه هم عنا.

فقامت سيدة أمريكية من الأدبيات المشهورات وقالت: إذا كانت المرأة عندكم على ما تقول، فخذوني أعيش عندكم ستة أشهر ثم اقتلوني.

وعجب من مقالها، وسألها عن حالها، فشرحت له حالها، وحال البنات هناك، فإذا المرأة الأمريكية تبدو حرة وهي مقيدة، وترى معززة وهي مهانة. إنهم يعظمونها في التوافه ويحقرونها في جسيمات الأمور.

يمسكون بيدها عند النزول من السيارة، ويقدمونها قبلهم عند الدخول للزيارة، وربما قاموا لها في الزحام لتقعد، أو فسحوا لها في الطريق لتمر.

ولكنهم في مقابلة ذلك يسيئون إليها إساءات لا تحتمل. إذا بلغت البنت هناك سن الرشد، قبض أبوها يده في وجهها، وقال لها: اذهبي فتكسبي وكلي، فلا شيء لك عندي بعد اليوم.

فتذهب المسكينة تخوض غمرة الحياة وحجها، ولا يبالون أعاشت بجدها أم بجسدها؟ ولا يسألون هل أكلت خبزها بيديها أم بثدييها؟ وليس هذا في أمريكا وحدها، بل هو شأن القوم في ديارهم كلها.

الوجه الثالث: الفروق بين الرجل والمرأة.

لقد أشارت الدراسات الطبية والنفسية والاجتماعية إلى جوانب الاختلاف والفروق بين الرجل والمرأة، وهذه الفروق تنقسم إلى ثلاثة أقسام.

١ - فروق جسمية.

٢ - فروق عقلية.

٣- فروق وجدانية.

١ـ الفروق الجسمية بين النوعين:

يؤكد العلماء أن جميع الفروق بين النوعين من الناحية الجسمية تنتج عن الاختلاف في الوحدة الأساسية لتكوين الجسم وهي الخلية، وفي ذلك يقول ألكساس كاريل:

إن الأمور التي تفرق بين الرجل والمرأة لا تحدد في الأشكال الخاصة بأعضائهما الجنسية والرحم والحمل، وهي لا تحدد أيضًا في اختلاف طرق تعليمهما، بل إن هذه الفوارق هي ذات طبيعة أساسية، من اختلاف نوع الأنسجة في جسم كليهما، كما أن المرأة تختلف عن المرء كليًا، في المادة الكيماوية التي تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها، والذين ينادون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية، فيدعون أنه لابد أن يكون لهما نوع واحد من التعليم والمسؤوليات والوظائف. ولكن المرأة في الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف، فكل خلية من جسمها تحمل طابعًا أنثويًا، وهكذا تكون أعضاؤها المختلفة، بل وأكثر من ذلك هذه هي حال نظامها العصبي (كاريل، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٩٣).

وقد توصل العلماء إلى كثير من الفروق بين النوعين نشير إلى أهمها فيما يلي:

من حيث الشكل:

بنية المرأة أدق من بنية الرجل، وجسمها مزود بأجزاء تساعدها على الحمل والرضاعة، وهناك فروق ظاهرة تبرز في شكل الأعضاء التناسلية. ومن حيث الوزن: يزيد الذكور على الإناث عند الولادة بنحو ٥٠٪، ويظل هذا الفارق واضحًا حتى سن الحادية عشرة، حيث ينقص ليصبح الذكور في حوالي الرابعة عشرة أقل وزنًا من الإناث بنحو ١٥٪ ثم يستعيد الذكور وزنهم عند الخامسة أو السادسة عشرة وفي العشرين يتفوق وزن الذكور وزنهم عند الخامسة عشرة أو السادسة عشرة وفي العشرين يتفوق وزن

الذكور على الإناث بنحو ٢٠٪. ومن حيث الطول: الذكور أطول من الإناث منذ الولادة وحتى سن الحادية عشرة بنحو ٢٪، وفيما بين الحادية عشرة والرابعة عشرة، ينعكس الأمر لتصبح البنات أطول حتى حوالي السابعة عشرة حيث يأخذ طول الذكور في الازدياد، ويستمر حتى حوالي العشرين، حيث يزداد نمو الذكور بنحو ١٠٪.

ومن حيث حجم المخ:

متوسط حجم مخ الرجال أكبر قليلًا من متوسط حجم مخ الإناث، كذلك فإن الجزء المتعلق بالعاطفة لدى الإناث أكبر، في حين أن الجزء المتعلق بالتفكير أكبر لدى الذكور.

ومن حيث الطاقة الحيوية: فهي لدى الذكور أشد وأقوى

وذلك على النحو التالي:

في السادسة بنحو ٧٪.

في العاشرة من ١٠-١٢٪.

في العشرين بنحو ٣٥٪.

ومن حيث قوة العضلات:

يتفوق الذكور على الإناث في مختلف مراحل العمر، فمثلًا قوة ضغط اليد اليمنى عند الولد أقوى من البنت بنسبة ١٠٪ في سن السابعة، وتنمو عندهما تدريجيًا إلى أن تتوقف عند البنت في السادسة عشر، بينما تستمر عند الولد حتى سن التاسعة عشر، ويبلغ معدل التفوق ما بين ٥٠-٦٠٪، ومثل ذلك يلاحظ في عضلات الظهر والأرجل. ومن حيث البلوغ: ترجع كثير من الفوارق الجسمية مباشرة إلى عامل النضج والبلوغ، وغالبًا ما تبلغ الإناث قبل الذكور بحوالي سنة مما ينتج عنه تطورات سريعة لديهن. وتتعرض الفتيات في فترة البلوغ إلى مجهودات عصبية قد تجعلهن أقل قابلية للعمل، ويمكن أن تحد بعض الشيء من انتباههن العقلي، وهناك فروق أخرى من أبرزها:

- صوت المرأة أكثر لطفًا ونعومة من الرجل.

- مقاومة المرأة لغالبية الأمراض أكثر من مقاومة الرجل.
- المرأة أسرع من الرجل في العجز عن الإنجاب.
- أعصاب المرأة أقل قوة من الرجل.
- قدرة المرأة على تحمل الألم أكبر من الرجل.
- عمر المرأة أطول من عمر الرجل بحسب الإحصاءات الحديثة.
- عدد الكريات الحمراء لديها أقل.
- قدرتها على التنفس أضعف.

٢ـ الفروق العقلية بين النوعين:

تشير الدراسات إلى أن المرأة ليست أقل ذكاء من الرجل، لكن ذلك لا ينفي وجود فروق عقلية أخرى لا تظهر في العمليات العقلية المعقدة، وإنما تظهر في العمليات العقلية البسيطة، من بينها أن البنين يدركون الأفكار والآراء قبل إدراك الأشخاص الذين تصدر عنهم تلك الأفكار، في حين تنصرف عناية البنات إلى الأشخاص بالدرجة الأولى. ولذلك نجد اهتمام الإناث ينصبّ على الأشكال الظاهرة بصورة مباشرة، في حين ينصرف اهتمام الذكور إلى ما هو أبعد وأكثر عمقًا.

ويؤكد كثير من العلماء وجود فروق كبيرة في النمو اللغوي بين الذكور والإناث، فالإناث يتفوقن في الثالثة ثم يلحق بهن الصبيان فيما بين الثالثة والحادية عشرة، حيث تستعيد الإناث تفوقهن. وقد أكدت نتائج إحدى الدراسات تفوق الإناث من أفراد العينة على الذكور مدى الحياة.

كما أوضحت دراسة أجريت حديثًا، أن الفروق اللغوية بين الذكور والإناث ترجع إلى أن هناك فوارق متميزة في التعامل مع الأمور اللغوية من قبل دماغ كل منهما، فالرجل يستخدم الجانب الأيسر فقط من الدماغ للتعامل مع المسائل اللغوية، في حين تستخدم النساء الجانبين، لذلك فهم

أكثر إتقانًا في الأداء[1].

كما أظهرت الملاحظات على جميع الأطفال العاديين والموهوبين وضعاف العقول، أن الإناث يبدأن في الكلام قبل الذكور، وأنه في جميع المراحل العمرية تكون نسبة الإصابة باضطرابات الكلام أو التأخر في القراءة أقل عند البنات.

وقد وجد أنه في مرحلة المراهقة تظهر الإناث تفوقًا على الذكور في اختبارات المهارة اليدوية والرشاقة، في حين يتفوق الذكور في القدرة الميكانيكية.

٣ـ الفروق الوجدانية بين النوعين:

يعد ضبط هذه الفروق أكثر صعوبة من تحديد الفروق الجسمية والعقلية، وما توصل إليه الدارسون هنا يتعلق بما أمكنه ملاحظته من ظواهر، قد تبطلها المقارنات ونتائج الاستقصاء.

ومن أهل الفوارق الوجدانية التي لاحظها العلماء:

١ - المرأة أكثر انفعالًا وأكثر هيجانًا من الرجل.

٢- المرأة أقل ثباتًا من الناحية العاطفية.

٣- المرأة أكثر خوفًا من الرجل.

٤ - المرأة أكثر رقة وسريعة التوسل بالبكاء والحيلة أحيانًا.

٥- تميل المرأة بشدة إلى التزين بعكس الرجل.

٦ - المرأة ألسن من الرجل.

٧- المرأة أكثر قدرة على الصمود أمام متاعب الحياة اليومية من الرجل.

٨- تحجم المرأة عن استخدام العنف ضد الآخرين وضد نفسها، ولذلك تنخفض نسبة الانتحار بين النساء.

٩- إحساسات الرجل مطبوعة بالحاجة، بينما إحساسات المرأة مطبوعة بالإثارة.

---

(١) مجلة الشرق الأوسط، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، عدد ٤٧٦، صـ٣٣.

١٠- الرجل يجد في أعماقه رغبة في اقتحام الأخطار، في حين تحرص المرأة على الابتعاد عنها.

١١- المرأة لا تجد حرجًا في طلب المساعدة من الآخرين، في حين يحب الرجل الاعتماد على نفسه ولا يلجأ إلى طلب المساعدة إلا عند الضرورة التي يعجز فيها عن تحمل المسؤولية.

١٢- عادة ما يتميز الذكور منذ الصغر بالقلق والعناد والإصرار، في حين تستسلم الإناث لتيار الحياة السهلة حتى وهن رُضَّع.

١٣- الذكور أكثر ميلًا للعدوان، ويظهر ذلك مبكرًا جدًّا. وتشير الدراسات إلى أن الذكور يصرفون من وقتهم في العدوان ضعف الوقت الذي تصرفه البنات فيه.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم: ٢١) ولو نظرنا إلى الحضارة الحديثة التي يمر بها المسلمون، وقارنا بين نظرتها للمرأة ونظرة الإسلام إليها لوجدنا البون شاسعًا جدًّا.

فالإسلام ينظر إلى كل من الرجل والمرأة باعتبارهما متكاملان، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

في حين تنظر الحضارة الحديثة إليهما على أن كلًا منهما صورة طبق الأصل للآخر. والإسلام يقضي باختلاف دوائر عمل كل من النوعين، في حين ترى الحضارة الحديثة أن مجال عملهما واحد[1].

إن القوامة للرجل على المرأة في الإسلام ليست معناها سيطرة الرجل على المرأة.

يقول أ/محمد رشيد العويد: يخطئ كثير من الناس في فهم قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ (النساء: ٣٤) فليس من هدف القوامة السيطرة على المرأة سيطرة تنمحي معها شخصيتها في البيت أو المجال الإنساني؛ لأن

---

(١) خان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٢٨.

هذا الفهم خاطئ من غير شك وآية ذلك أن المرأة في الشريعة، تتمتع تمتعًا ملحوظًا بحقوقها كاملة من غير نقصان، سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجة، فهي حرة في حقوقها المدنية، بعد بلوغها سن الرشد، إذ لها الرأي في كثير من المجالات المالية كالبيع والشراء وهلم جرّا.

والمرأة المتزوجة مستقلة الاستقلال كله عن زوجها في مالها وثروتها، ولا يحق له أن يتصرف في مالها دون رضاها. في حين أن المرأة في القوانين الحديثة عند الأمم كفرنسا، مغلولة في كثير من الحقوق المدنية. وتنص المادة ٢١٧ من القانون المدني الفرنسي على أن المرأة المتزوجة لا يجوز لها أن تنقل ملكيتها إلا بالاشتراك مع زوجها.

ولو تدبرت المرأة- أية امرأة- نظرة الشريعة إليها والمكانة التي يرفعها إليها لما رضيت بغير الإسلام منظمًا لشؤونها وعلاقاتها بغيرها في المجتمع والحياة.

ولو عرض وضع المرأة في الإسلام على النساء الغربيات وأحسن العرض، لقامت الغربيات هناك بمظاهرات تطالب بالحقوق التي منحها الإسلام للمرأة.

الوجه الرابع: قوامة الرجل على المرأة لا تعني أن ذات الرجل أفضل من ذات المرأة.

وقضية قوامة الرجل على المرأة لا تعني أن ذات الرجل أفضل من ذات المرأة، فالذي يُختار أميرًا، أو رئيسًا من القوم، ليس بالضرورة أفضلهم وأعلاهم مرتبة عند الله ﷻ.

يقول ابن تيمية: فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص، فربَّ حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش. [١]

ويقول في موضع آخر: فهذا الأصل يوجب أن يكون جنس الحاضرة أفضل من جنس البادية، وإن كان بعض أعيان البادية أفضل من أكثر الحاضرة. [٢]

فالقوامة ليست عنوانًا على أفضلية ذاتية عند الله ﷻ، يتميز بها الأمير أو المدير، وإنما ينبغي أن تكون عنوانًا على كفاءة يتمتع بها القائم بأعباء هذه المسئولية.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٦٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٤٧.

ففهم الأفضلية الذاتية للرجال على النساء، مما يتناقض بشكل حاد مع صريح كتاب الله في نصوص كثيرةٍ منه، فالله ﷻ يقرر ويؤكد أن النساء والرجال متساوون في ميزان القرب من الله، وإنما يفاوت بين درجاتهم في ذلك تفاوت أعمالهم الصالحة التي يقومون بها ابتغاء مرضاة الله ﷻ، فهو ﷻ يقول: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

ويقول أيضًا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧)، ويقول ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (النساء: ١٢٤)، ويقول في تفصيل وبيان لا يقبل الريب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ (الأحزاب: ٣٥).

ثم إنَّ البيان الإلهي يعود فيزيد هذه الحقيقة تأكيدًا، إذ يبرزها فيما يشبه الصياغة المحددة القانونية، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣). فقد أسقط قرار الله ﷻ فوارق الذكورة والأنوثة واختلاف الأقوام والقبائل وتمايز ما بين الشعوب المتنوعة، عن الاعتبار في ميزان القرب إلى الله أو البعد عنه، بعبارة محددة حاسمة، بعد أن أثبت هذه الحقيقة ذاتها بأساليب متنوعة شتى في الآيات السابقة.

فهل من الممكن بعد هذا، تفسير الأفضلية في قوله ﷻ، في آية القوامة ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٤) أي: بأفضلية الرجل من حيث إنه رجل على المرأة من

حيث إنها امرأة؟ بل هل يتسنى، حتى مع شيء من التّحمل، الجنوح إلى هذا التفسير الذي تقف منه هذه النصوص القرآنية التي أوردناها، موقف النقيض من النقيض؟!.

فمصدر هذه القوامة لا يتمثل في أفضلية ذات الرجل عند الله على ذات المرأة، وإنما مصدرها الأفضلية المصلحية الآتية من توافق إمكانات الرجل ووظيفته الإنفاقية، مع ما تحتاج إليه الأسرة في مجال الرعاية والسهر على مصالحها الخطيرة. كما أن إسناد مهام رعاية الطفولة المتمثلة في الحضانة والرضاعة وجزء كبير تستقل به المرأة عن الرجل في التربية، ليس مصدره أفضلية ذاتية للمرأة على الرجل، وإنما مصدرها الأفضلية المصلحية ذاتها التي تتجلى في توافق إمكانات المرأة مع هذه المهام.

بل ربَّ رجل أسندت إليه مهامُّ هذه القوامة، وهو من أفسق الناس وأبعدهم عن رضا الله ﷻ، ورب امرأة عاشت في ظل هذه القوامة، وهي من أفضل الناس صلاحًا وأسماهم مكانة عند الله.

والذين أدركوا معنى النظام وقيمته في الحياة الإنسانية، ونُشِّئوا في ظلال النظام يعلمون هذه الحقيقة، ويتعاملون مع مؤيداتها في سائر تقلبات الحياة.

وفي إيجاز شديد نقول لهؤلاء:

إن القوامة للزوج على زوجته في ظل نظام الزواج الإسلامي ليست تسلطًا ولا اعتسافًا، وإنما هي أسلوب رشيد في الإدارة والتوجيه، ولو تجاوز أحد الأزواج هذا الأسلوب فتسلط واعتسف لكان مخالفًا لمنهج الإسلام ومفتاتًا على حق الزوجة وعاصيًا لله سبحانه، إذ لا يحق له أن يظلم أو يجور؛ لأن الله سبحانه حرم ذلك على الناس جميعًا كما حرمه على نفسه.

الوجه الخامس: المرأة العاقلة لا يسعدها أن تتساوى مع الرجل في القوامة.

شواهد الحياة كلها تدل - عند التحقق - على أنه قد لا يسعد المرأة سعادة حقيقية أن تتساوى بالرجل في كل شيء، بل إنني لأقول - عن تجربة ومشاهدة-: إن سعادتها الحقيقية تكمن في أن تراعي وجوه اختلافها عن الرجل فسيكولوجيا، وبيولوجيًا، وفسيولوجيًا، ولا تكمن في أي خروج على هذه الأوجه، أو تجاهل لها. وأشير إشارات سريعة -

لأسباب معروفة - إلى ما هو مشاهد ثابت من غلبة الاكتئاب المرضي، والرغبة في الانتحار - بل الإقدام عليه أحيانًا- وغلبة الشقاء النفسي، والفشل في الحياة الخاصة على كثير من المتزعمات لما يطلق عليه حركات المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة، في مقابل السعادة الحقيقية التي تجنيها المرأة المتوافقة في حياتها مع طبيعة الأنثى بكل صفاتها، وأبرزها ما تختلف فيه مع الرجل من تكوين نفسي، وعضوي.

يقول GA. adfieid في كتابه علم النفس والأخلاق:

وغريزة الخضوع تقوى أحيانًا فيجد صاحبها لذة في أن يكون متسلطًا عليه، ويحتمل لذلك الألم بغبطة، وهذه الغريزة شائعة بين النساء وإن لم يعرفنها، ومن أجلها اشتهرت بالقدرة على احتمال الألم أكثر من الرجل، والزوجة من هذا النوع تزداد إعجابًا بزوجها كلما ضربها وقسا عليها. ولا شيء يحزن بعض النساء مثل الزوج الذي يكون رقيق الحاشية دائمًا، لا يثور أبدًا على الرغم من تحديهن، ولا يعرف شقاء هذه العيشة إلا النسوة اللاتي جربن الحياة مع زوج من هذا الطراز.

وقريب من هذا الاتجاه، رأى الأستاذ محمد زكي عبد القادر الذي يقول فيه: المرأة تحب الرجل العصي. تحب أن تصطدم إرادتها بإرادته، تحب الصراع للظفر، ولكنها تغضب وتملأ الدنيا صياحًا، وفي قرارة نفسها حلاوة الضعف أمام قوة الرجل.

وكتبت كاتبة أمريكية وهي تقول: إذا كانت لي ابنة لأوصيتها بأنه لا ينبغي لها أن تعد نفسها مساوية لزوجها في المقام والمنزلة، ولو أحبها زوجها حبًا جمًا واحترمها، إن هناك نساء يعملن في المصانع ومصالح الحكومات، وربما يكسبن من عملهن عائدات تعادل عائدات أزواجهن، ومع ذلك عليهن أن يقدرن محبة أزواجهن، فلا تزعمن أنهن أصبحن مثل أزواجهن في مقام العمل. صحيح إن بعض النساء نلن في المنزلة العلمية والفكرية ما ناله الرجال في المقام، ومع ذلك فإن ادعاء الانفراد والأنانية لا يجوز أبدًا للنساء.

عندما زار وفد المغتربين العرب سورية جرت محادثة صحفية بين أحد الصحفيين في دمشق، وإحدى المغتربات حول المرأة، فكان مما قالته المغتربة عن الحياة في الغرب، وعن المرأة فيها، بعد أن تنهدت ألمًا وحرقة:

ليت رحلتنا تدوم، أو ليت البقاء يكتب لي هنا، وأشارت بيدها إلى البعيد وتابعت:

هناك. . حيث، بعيدًا، بعيدًا. . حركة وضجيج، ومادة، وسرعة، وتعايش غير إنساني، كل إنسان يريد أن يفهم الدنيا كسبًا، وأن ينتهبها لذة، وأن يسيطر عليها نفوذًا، وما أصعب الحياة الصاخبة، وما أحلى أن يعيش الإنسان في حدود إنسانيته، يفعل ما يرى أنه بحاجة إليه نابعًا من ذاته، ويعمل ما يريد؛ لأن المجتمع أراد، ويتحمس لما لا يحسن؛ لأن المجموعة متحمسة، ويخالف ضميره ومزاجه ومبادئه في كثير من الأحيان، لأن سنة السرعة والحركة تفرض عليه هذا، ولا يستطيع الهرب أو الانطلاق من السلسة التي تطوقه.

ثم تابعت حديثها بلغة عربية غير سليمة، ولكنها مفهومة تجيب على سؤال الصحفي حين سألها عن المرأة. وهل هي متزوجة؟ فأجابت: لم أتزوج بعد، لأنني لم أجد الزوج الذي يقدس المرأة ويميزها، ويقدمها على نفسه ويعرف قدرها كالزوج العربي، هناك يعامل الزوج زوجته على قدم المساواة مع أي جار أو صديق! إنها شيء في حياته يجوز الاستغناء عنه، وفي أحسن الحالات يجوز أن يتساوى معه، أما هنا فالزوجة والمرأة بشكل عام، مفضلة، مدللة، محترمة المكانة يسعى الرجل لإسعادها قبل أن يسعد نفسه، وعندما قال الصحفي الدمشقي للمغتربة: إن النساء هنا لا يرضين عن هذه المعاملة، إنهن يطالبن بالمساواة مع الرجل. . ضحكت المغتربة ساخرة، وقالت: لو ذهبن إلى أمريكا وأذعن ما يطالبن به هنا لضحكت كل النساء الأميركيات من هذه المطالب. . إن المرأة الأمريكية تحسد المرأة العربية، وتتمنى حياة زوجية كحياتها.

وهذه فرانسوازساغان المستشرقة الفرنسية تقول:

أيتها المرأة الشرقية إن الذين ينادون باسمك ويدعون إلى مساواتك بالرجل إنهم يضحكون عليك وقد ضحكوا علينا من قبلك! !

جاء في جريدة المنار (٦/ ١٤٩) ما تستحسنه المرأة في الرجل: ألقي هذا الموضوع على كثيرات من نخبة الكاتبات الأنكليزيات فكتبت سارة يولى تقول: إن المرأة تعجب بشجاعة الرجل واستقلاله وتود أن يكون زوجها متسلطًا عليها ولقد كان ذلك شأنها منذ العصور الغابرة وإن كان العمران الحاضر قد ساوى في الحقوق، لكن الاعجاب بقوة الرجل لا يزال ديدن المرأة ولذلك تراها تعجب بالجنود؛ لأنهم يمثلون القوة البدنية وبخدمة الدين؛ لأن لهم سلطة أدبية ودينية.

يقول د/عبد الله مبارك الخاطر: إن نسيت فلن أنسى خلال إقامتي في ديار الغرب صورتين متناقضتين غاية التناقض لامرأة مشهورة تعمل في المحاماة.

الصورة الأولى: توفرت في هذه المرأة الصفات التالية: قوة البنية، ذرابة اللسان، الحماسة لما تؤمن به وتعتقده، النشاط الدائب: فمره تقرأ مقالاتها في الصحف، ومرة أخرى تسمعها تتحدث في التلفاز، وتقارع فحول الرجال الحجة بالحجة. . . ومرة ثالثة تستمع إليها في المحاكم تدافع عن القضية التي نذرت نفسها من أجلها.

قد يظن القارئ الكريم أنها محامية لشركة من الشركات أو لمؤسسة من المؤسسات. لا يا أخي. إن عملها الوحيد الدفاع عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، ولهذا تجد عندها إحصائيات عجيبة عن الوزارات والمؤسسات والشركات وعن نسبة الرجال والنساء في كل منها. . وكم أرغمت هذه الجهة أو تلك على قبول عدد من النساء وفصل الزيادة من الرجال. . وكم ربحت الحكم ضد شركات أقدمت على تسريح مجموعة من النساء بسبب عدم الحاجة إليهن.

كانت هذه المرأة ذائعة الصيت، ولها مكانة كبيرة في المجتمع الغربي، كما كانت مثالًا يحتذى به للنساء، بل وللرجال الذين ينادون بالمساواة المطلقة بين الجنسين.

الصورة الثانية: صورة هذه المرأة وهي مريضة، وقد حوّلها طبيبها الخاص إلى قسم الطوارئ في مستشفي الأمراض النفسية الذي كنت أعمل به.

وقد شاهدت بعيني مشهدًا يختلف تمامًا عن المشهد الذي يراه الناس على شاشة التلفاز أو في قاعة المحكمة: شاهدت امرأة ضعيفة منهارة محطمة تشعر أنها تعيش وحدها في هذه الدنيا، ليس لها ابن ولا زوج ولا أخ ولا والد. . أما النساء فيعرفنها محامية قوية تدافع عن حقوقهن، ولا حاجة لهن بها إذا كانت مريضة في المستشفى، أو مقعدة في بيتها، أو في مأوى العجزة. . كنت أعرف مشكلتها قبل أن أسألها، ومع ذلك سألتها حيث لا بد من سؤال المريض والاهتمام بكل ما يقوله. . قلت لها: ما مرضك وبماذا تشعرين؟ فأجابت: أريد رجلًا يشاركني الحياة ويقول لي: لا! !. . لقد مللت الحياة التي عشتها، والعمل الذي اخترته.

هذا مرضها أنقله بأمانة ودقة. . وقد قمت بواجبي وأعطيتها العلاج اللازم للمصاب بحالة الاكتئاب، ولكنني أشعر بأنها لن تشفى من هذا المرض؛ لأنها لن تجد رجلًا عاقلًا يغامر بحياته وعقله ويتزوجها، وإذا وجدت فسوف يكون من أشباه الرجال ولن يقول لها: لا! ! ومثل هذا الرجل لا يحل مشكلتها، ومن جهة ثانية، فلو شفيت من مرضها وعادت إلى عملها السابق، فسوف تعيد سيرتها الأولى؛ لأن أمثالها يبحثن عن الشهرة، والطبع عندهن يغلب التطبع. . فهي تريد أن يتحدث الناس عنها مهما كانت النتائج.

أرأيتم المرأة عندما تصطدم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها؟!.

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الروم: ٣٠).

وهذا رد أراه مفحمًا لكل ناعق بمثل هذا القول.

وهناك رد آخر هو أن الأسرة وهي الوحدة الأساسية في بناء المجتمع، وهي في الوقت نفسه مكونة من أكثر من فرد، وعملها الذي تقوم به في دعم المجتمع وقيمه وآدابه يقوم بها

أكثر من واحد - الزوج والزوجة والأبناء-فلابد من إدارة لهذه الأسرة تكون مقاليدها في يد أحد أفراد هذه الأسرة، لا في يد واحد من خارجها.

فبيد من تكون هذه الإدارة أو القوامة؟

أتكون لمن هيأه الله وفطره على أن يقوم بأعباء هذه القوامة، وهو الرجل؟ أم تكون لغير من هيئ وفطر على ذلك، وهي المرأة؟

إن الفروق الحادة بين الرجل والمرأة في هذا المجال لا تنقص من قدر المرأة وإنما هي حكمة الله وبالغ حكمته، وإلا لاعتبرنا أن تهيئة المرأة للحمل والولادة ينقص من قدر الرجل؛ لأنه لا يستطيع ذلك، ولا قائل بذلك من العقلاء.

والمقياس الدقيق في ذلك والتعليل المقبول لهذه القوامة التي أعطاها للرجل على زوجته هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (النساء: ٣٤).

وهذا التفضيل داخل في قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقد فطر الرجال والنساء على أن يميل كل جنس منهما إلى الجنس الآخر، وجعل هذا الميل المنتهي أخيرًا بالزواج الشرعي سببًا في العمران، وإنشاء التمدن ونمو الحياة، وإن البداية الصحيحة لذلك هي تكوين الأسرة وما يجب أن يحاط به الأطفال من حب وحنان وحضانة.

وإن من قوانين الفاطر سبحانه وتعالى - لكي يحفظ لكل طرف حقه ويلزمه بواجبه- أن جعل القوامة للرجل على المرأة، وأعد جسده وعقله وقدراته كلها على أن تحمل أعباء تأمين احتياجات الحياة لأسرته، في حين لم تفطر المرأة على ذلك، بل هي تتعرض لحالة مرضية في كل شهر تمتد من ثلاثة أيام إلى خمسة عشر يومًا، تصيبها- كما يرى علماء الأحياء - بتبلد في الحس، وتكاسل في الأعضاء، وتراجع لقوة التركيز، ونقص في الذكاء، وضعف في الأعصاب، وإذا كان هذا في فترة الحيض فما بالنا بفترة الحمل والولادة والإرضاع؟

هل يمكن مع هذه الفطرة أن تكون القوامة لها على البيت؟

نعم يوافق الإسلام على أن يتقاسم الرجل مع المرأة ما يستطيع أن يقوم به من عمل في البيت، معاونة منه لأهله وتأدبًا بأدب الإسلام الذي أوضح لنا أن رسولنا وقدوتنا ﷺكان في خدمة أهله.

ذلك هو المفهوم الصحيح للقوامة أن يحمل الرجل أعباء البيت من الخارج سعيًا وكدًا، وأن يعين في أعبائه الداخلية تعاونًا وخدمة، وكل ما عدا هذا الفهم مما قد يشاهد عند بعض الأزواج إنما هو انحراف عن المنهج ومعصية لله ورسوله ﷺ وقعود عن واجب، أو استبداد بسلطة قد تؤدي إلى أبغض الحلال إلى الله، وهو الطلاق.

وإن من نافلة القول التأكيد على أن أعداء الإسلام يخلطون عامدين بين المنهج والناس المنفذين له، ويحسبون أخطاء الناس على المنهج نفسه، وهو قياس فاسد المقدمات فاسد النتائج، ممعن في المغالطة والتضليل.

وإن الزعم بأن المرأة في الغرب تنعم بنظام زواج حسن يمكن أن يحاكى، زعم باطل شجع عليه رؤية الانحناءات أمام المرأة وتقبيل يدها من الأجانب عنها، وتلك قشرة رقيقة تخفي تحتها من امتهان المرأة مالا يعرفه إلا الذين عاشوا هناك ورأوا مفردات الحياة الزوجية عن قرب، وعرفوا ما تحت القشرة.

إن امتهان المرأة هناك على الرغم من تلك اللامعة الخالية بلغ حد إلزامها بالعمل في المصانع والمناجم أو تموت جوعًا، وبلغ أن الزوج ليس مطالبًا بالإنفاق على زوجته وأولاده، بل إن الزوجين إذا تناولا الطعام خارج البيت - وكثيرًا ما يفعلان - دفع كل منهما ثمن طعامه من حسابه الخاص!.

إن بعض النساء الغربيات يطالبن اليوم بالتخلي عما حصلت عليه المرأة من مميزات؛ لتعود إلى بيتها تجد رجلًا قوامًا على زوجه وبيته؛ لتتفرغ هي لتربية أبنائها والعناية بهم.

وليس هنا مجال الحديث عن هذه الأخطاء فنحن لا نكتب في تاريخ نظام الزواج عند الغربيين، ولكننا نكتفي بأن نقول:

إن علامة فشل هذا النظام الغربي في الزواج هي:

شيوع الفاحشة وإقرار الزنا بالقانون ما دام برضا الطرفين.

وتدهور العلاقة الزوجية إلى حد أن يكون الجسم للزوج، والقلب والحب لرجل آخر، بل الجسم كذلك لرجلين أو أكثر.

وتخلص الرجل من واجبات النفقة على الزوجة والبيت.

وإهدار حقوق الزوجة المادية والمعنوية كما أوضحنا ذلك من قبل.

وما أصاب الأبناء من قلق واضطراب.

وما أصاب المجتمع من تدهور أخلاقي خطير.

وانعكاسات ذلك كله على بقاء كثرة غالبة من غير زواج.

الوجه السادس: القوامة في الإسلام بلغت بالمرأة أعلى مكانة تدليل وتشريف وإعزاز.

القوامة في الإسلام تعني حق الطاعة الواجبة على الزوجة تجاه زوجها، وهي طاعة عَطاء وبذل متبادل بلا منافسة ولا شحناء، فالرجل هو القائد والمرأة مركز القيادة، دون إخلال بإنسانيتها أو كرامتها، بل إن هدف القائد رفعة المرأة سواء كانت كزوجة أو ابنة أو أم، فعليه حق العناء ولها حق الرفاهية والإعزاز، فإدارة دفة الحياة لا تصلح بقائدين متساويين، والرجل في قيادته ليس له حق الاستبداد والاستعلاء، ولكن عليه مشاورة المرأة فيما يخص الأسرة من قرارات.

وحق القوامة في الإسلام فيه كامل حماية المرأة مما يواجهها من أخطار تمس الشرف أو الكرامة أو الكبرياء، فهي جوهرة مصونة لا يعبث بها أي طامح أو طامع، فإن احتاجت التقويم والإرشاد فهناك ضمانات لعدم إهانتها أو مس كبريائها، وإن شهدت كان لها حق شهادة مع مراعاة طبيعتها كامرأة بلا نقصان في أهليتها، وإن وليت أمرًا فلا بد أن يكون في حدود إمكانياتها وطاقاتها وطبيعتها حتى تفلح فيه، ولها حرية امتلاك الأموال والتصرف فيها، وحرية مفارقة الزوج إن رغبت في ذلك بالخلع فإرادتها في الإسلام كاملة، وكرامتها مصونة وهي المشاركة للرجل في شتى مناحي الحياة، وهي السكن والمودة والرحمة.

الوجه السابع: المرأة تسكن في ظل قوامته.

حاولوا كثيرًا أن يمسخوا فطرة المرأة، ويزعموا أنها لا تطيق قوامة الرجل؛ ولا تميل إلى طاعته، وزينوا لها الخروج من تحت كنفه. وقالوا: إن هذا تحرير لها، وعتق لشخصيتها وإطلاق لطاقاتها المدفونة.

وجاءت الدراسات السيكولوجية الحديثة لتبطل دعاواهم، وتفند مزاعمهم، وتؤكد أن المرأة ترتاح إلى طاعة الرجل وتطمئن في العيش تحت قيادته وحمايته.

يعرض بييرداكو في كتابه (المرأة بحث في سيكولوجية الأعماق) بعض الأمثلة على ما أسماه الثنائية المتكاملة، فيقول:

قالت لي إحدى النساء: لو كنت تعلم كم يتقن زوجي فرض الطاعة بنظرة واحدة! أحبه لأنني أشعر بلذة في خضوعي إلى سلطانه.

وقالت أخرى: الحقيقة أنني أرتاح عندما يرفع صوته، وأتظاهر أنني أتمرد، ولكنني لا أعتقد بأي كلمة أقولها عن تمردي.

وقالت ثالثة: زوجي كثيرًا وهو نصف جاد ونصف غاضب، فأتحول عندئذ إلى بنت صغيرة كل الصغر وأشعر أنني محبوبة مثل بنت صغيرة.

وقالت رابعة: أشعر أنني ضائعة منذ أن يتغيب زوجي برهة، إنني أحتاج إلى حضوره الذي يوحي بالطمأنينة. . . حاجة كبيرة.

وقالت خامسة: إنني بحاجة إلى أن يكون معي باستمرار، على بعد خطوتين مني، وأن يحكي لي ويحبني، وأن يكون بحاجة إليّ.

هكذا ينطلق صوت فطرة المرأة قويًا، واضحًا صريحًا مباشرًا، ليرد على ما حاولوا خنقه، أو تزييف نبراته.

والشهادات التي أوردها بييرداكو في كتابه، نذر يسير جدًّا من آلاف الشهادات التي تزخر بها كتب مذكرات الشهيرات، والمقابلات التي تجري معهن، إضافة إلى مئات الدراسات والاستطلاعات التي تجريها المؤسسات والجامعات ومراكز البحوث.

ولا شك في أن عرض جميع هذه الشهادات يحتاج كتابًا مستقلًا، وأكتفي هنا بعرض إحدى نتائج استطلاع أجرته مجلة وومان المرأة البريطانية، حيث ذكرت ٩٠٪ من النساء أنهن لا يرغبن مشاهدة أزواجهن يبكون أمام الناس. . . إن البكاء ضعف، والرجل ينبغي عليه ألا يضعف.

واعترضت ٩٢٪ من النساء على استعمال الرجل للأقراط، وامرأة واحدة فقط من كل عشرين امرأة كانت مرتاحة للشعر المستعار، إذا استعمله زوجها.

وقالت إحدى قارئات المجلة: إن كثيرًا من المجوهرات التي يتحلى بها الرجل تعني أنه مغرور بنفسه، وأنه رجل غامض ومحير.

وكانت الإجابة المثالية التي حظيت بإجماع المشاركات في الاستطلاع: إنني أريد رجلًا يبدو فعلًا رجلًا، وربما أتمنى الموت إذا رأيت زوجي يستعمل أدوات المكياج ويحمل حقيبة يد، أو يلبس المشد.

لا تريد المرأة إذن أن يكون الرجل شبيهًا بالمرأة، بل تريده رجلًا قويًا، تحتمي في قوته، وتأمن في حمايته، وتسكن في ظل قوامته.

الوجه الثامن: أهمية القائد لأي تجمع بشري.

ومما لا ينازع فيه عاقل أن الأسرة تجمع بين الجنسين، ومن مقتضى أمور الحياة أن كل تجمع لابد له من قائد ورئيس من بين أفراده؛ ليتولى مهام إصدار القرارات والإشراف على تنفيذها، ومهما تكن درجة الشورى والديمقراطية في التجمع فلا غنى له في النهاية عن القائد والرئيس الذي يوازن بين المشورات والآراء المعروضة عليه ليصدر من بينها قراره التنفيذي، فليست الشورى والديمقراطية في أعلى صور تحققها بمغنية عن منصب الزعيم القائد.

وقد حرص الإسلام على أن تكون روح النظام هي السائدة في المجتمع كله بسائر مرافقه، وفي كل الأحوال والظروف. وإنما يسود النظام في المجتمع بهيمنة ضوابط المسئولية فيه. ولن تُترجَم المسؤولية الفعلية إلا بوجود الأمير الذي إليه تعود مسئولية

الإدارة والإشراف. وحيث كان الأمر كذلك فإنه فيما يتصل بالأسرة كتجمع، فلا بد أنها محتاجة لقيادة، إما أن تكون من الرجال، وإما أن تكون من النساء.

والله يخبرنا أن جنس الرجل هو المهيأ بما أودعه الله فيه من صفات لهذه القيادة، وأيضًا بما أوجبه التشريع من أن تكون النفقات المالية عليه، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤)، ومعنى هذه الدرجةِ أن الله قد خلق الرجل على فطرة وطبيعة يكون فيها هو المهيأ لقيادة الأسرة، وتولي تصريف أمور الحياة التي تجمع بينهما، ومن ثم فقد أوجب عليه الإنفاق المالي في أمور المعيشة.

الوجه التاسع: وشهد شاهد من أهلها.

قد لا تعرف المرأة في باريس أو لندن أو نيويورك أو موسكو حقيقة الإكرام الذي تناله المرأة المسلمة في الشرق، لأنها بعيدة عنها، فإذا ما نقلت وسائل الإعلام بعض الأخبار عنها، فإنها تنقل صورة مشوهة لا تمثل الحقيقة.

لكنها -أي المرأة الغربية- إذا سافرت إلى الشرق المسلم، واقتربت من المرأة فيه، أدركت الحقيقة الغائبة عنها؛ ولمست بنفسها السعادة التي تعيش فيها المسلمة، السعادة المحرومة منها في المجتمع الغربي.

وهذا ما حدث للمحامية الفرنسية كريستين التي يروي لنا قصتها وينقل لنا حكايتها، ياسر عبد ربه في مجلة ياسمين.

عبر قرنين، خاضت المرأة الفرنسية معركة ضارية مع الرجل والدولة والقوانين. فقد وجدت أن الرجل يحتل المراكز الحكومية فطالبت بمساواتها معه، ثم وجدت أن الرجل يعمل ويكسب في جميع الحقوق التجارية والاقتصادية والسياسية فرفعت صوتها وكافحت وناضلت مطالبة بالمساواة.

ثم وجدت أن الرجل استعمل الطائرة والسيارة فصرخت في وجهه قائلة: ولماذا لا أقود أنا الطائرة والسيارة؟

الحكومات الفرنسية أعطت للمرأة الفرنسية بالتدريج كل ما طالبت به.

والمرأة اليوم تعيش بفرنسا في ظل قوانين تساويها تمامًا بالرجل حيث لم تعد وظيفة ما حكرًا على الرجل وحده، بل أصبحت المرأة تطالب بالمنصب نفسه وقد حصلت عليه بالفعل. فالمرء يجد أن المرأة الفرنسية أصبحت وزيرة، ونائبة في البرلمان، وضابطة في البوليس، وقاضية في المحاكم، وسائقة للتاكسي، وفلاحة في المزرعة، وشرطية توقف المخالفين من الرجال أو النساء وتكتب بحقهم مخالفة مالية. . . . فهل حققت المرأة الفرنسية سعادتها؟

كريستين فتاة فرنسية ولدت في باريس من أب باريسي وأم من مدينة مرسيليا، ولأنها البنت البكر فقد اعتنى بها الأهل حتى أخذت حظها من الثقافة ونالت شهادتها الجامعية في كلية الحقوق بنجاح، وكان عليها أن تعمل في مكتب أحد المحامين وترافع حتى يحق لها أن تعمل وحدها وفي مكتب خاص بها.

تقول كريستين:

أستيقظ في السادسة صباحًا حيث يبتدئ عملي في التاسعة، فأخذ حمامي وأشرب قهوتي على عجل ثم أهرول من المنزل حتى محطة المترو التي تنقلني عبر ست وعشرين محطة إلى مركز عملي. والرحلة تستغرق أكثر من ساعة، وحين أصل إلى المكتب يكون أستاذي -تقصد المحامي الذي تعمل عنده- لم يصل بعد، فأقرأ الصحف وأتسلى بسماع أخبار المترفين من الناس حتى يحضر الأستاذ الذي يكون كعادته متجهم الوجه، فيوجه لي الأوامر، فأتوجه إلى هذه المحكمة أو تلك لأرافع في قضية لا يهمني من سيربحها -واستطرادًا من يخسرها-، عند الظهر أتوجه إلى أي مطعم شعبي فأزدرد بعض لقيمات دون أية لذة في الطعام، وأعود بعدها للمكتب لأدرس بعض القضايا التي يكلفني بها الأستاذ، وفي المساء أعود لأتسلق المترو في رحلة الست وعشرين محطة وأتحمل هذا السكير الذي يدعوني للعشاء أو ذلك الذي يطرح علي أسئلة غبية بقصد مغازلتي ولابد من أن أجيب رغم معرفتي المسبقة بنواياه.

أصل إلى البيت متعبة فأشاهد برامج التلفزيون دون أن يشدني أي موضوع منها ثم أتناول طعام العشاء ثم. . آه من ثم. . ثم أنام.

في الصباح يعود المشهد ذاته حتى تأتي عطلة الأسبوع وهي يومان فماذا أصنع؟

في البيت شغل أيضًا وهو شغل شاق. ففي يوم السبت لا بد من شراء الأغراض للبيت، أي مؤونة الأسبوع وترتيب بعض الأغراض. ويوم الأحد لا بد من أن أغسل ثيابي التي اتسخت طوال الأسبوع ولا بد من كنس البيت وتنظيفه، والعمل في حديقة المنزل فهذه شجرة يجب تهذيب غصونها وتلك وردة تحتاج إلى سماد خاص وهذه غرسة جديدة آن وقت غرسها، وهذه الحديقة التي أعتني بها لا أرى فيها الشجرة حين تثمر ولا الوردة حين تشرق ولا الزنبقة حين تنبت، فالحياة تضطرني دومًا للركض وأتساءل لماذا؟ فلا أجد جوابًا. أنظر في المرآة فأجد أنني جميلة لكن رجلًا لم يحضر ليخطبني أو يتزوجني، ثم أعطيه كل ما تملكه الأنثى من حب ورعاية وحنان. فأنا أعرف أن الرجل يريد في النهاية أن يتزوج من أنثى تملك مواصفات الأنثى في الرقة والنعومة، وأنا كفتاة عاملة فقد افتقدت كل هذه المؤهلات. صحيح أنني أكسب بعض المال؛ لكن هل المال وحده يعطي السعادة؟

في السنة الماضية -تقول كريستين- حصلت على إجازة وعزمت على أن أزور بلدان المشرق العربي، بعض الصديقات نصحنني بألا أقوم بهذه المغامرة غير المضمونة النتائج!

كيف تذهبين لبلدان متخلفة، لا تزال المرأة فيها جارية عند الرجل والرجل هو سيد البيت وسيدها؟ هكذا قلن لي واستطردن:

بل كيف تذهبين إلى بلدان لا تعرف المرأة فيها أي حق من حقوقها بل هي لا ترى إلا من خلال الرجل حتى في عينيها؟ لكنني -تقول كريستين- كنت قد قررت ولأنني قررت فقد ذهبت. سبعة أسابيع قضيتها في زيارة كل من بيروت ودمشق وعمان وبغداد وها أنذا أعود إلى باريس فماذا وجدت؟ وجدت رجلًا يذهب إلى عمله في الصباح ويتعب ويشقى ويعمل حتى إذا كان المساء عاد إلى زوجته ومعه خبز ومع الخبز حب وعطف ورعاية لها

ولصغاره، الأنثى في تلك البلاد لا عمل لها إلا تربية جيل والعناية بالرجل الذي تحب، أو على الأقل بالرجل الذي كان قدرها. . . في الشرق تنام المرأة وتحلم وتحقق ما تريد؛ فالرجل قد وفر لها خبزًا وحبًا وراحة ورفاهية، وفي بلادنا حيث ناضلت المرأة من أجل المساواة فماذا حققت؟

انظر إلى المرأة في غرب أوروبا فلا ترى أمامك إلا سلعة. فالرجل يقول لها: انهضي لكسب خبزك، فأنت قد طلبت المساواة ومادمت أعمل فلا بد أن تشاركيني بالعمل لنكسب خبزنا معًا. ومع الكد والتعب والعمل لكسب الخبز تنسى المرأة أنوثتها وينسى الرجل شريكته في الحياة وتبقى الحياة بلا معنى ولا هدف.

المرأة في الغرب مضطرة للعمل لكسب خبزها حتى في بيت أهلها أو بيت زوجها. المرأة في الغرب ربما كسبت المساواة ولكنها خسرت أنوثتها.

الوجه العاشر: القوامة في اليهودية والمسيحية تسلط بالضغط والإكراه.

وقد آمنت التوراة بضرورة قوامة الرجل على المرأة حيث فشلت المرأة في أن تكون المعين والمساعد للرجل في الجنة، فتسببت في إخراجه منها، ولذلك فله حق القيادة والرئاسة والإدارة في الدنيا والتي وصفت بلفظ ثقيل المعنى والمفهوم وهو التسلط، أي الرياسة بضغط وإكراه، وكان من حق الوالد على ابنته أن يبيعها لسداد ديونه.

ومن حق الزوج على زوجته اللواط معها بدون رغبتها ومن حق الأب تزويج ابنته بدون أخذ رأي أمها.

وكان من آثار هذا التسلط:

عدم احتفاظ المرأة باسم عائلتها إذا تزوجت من عائلة أخرى.

عدم الحق في مباشرة إدارة الأموال إلا بوصاية زوجها.

وقد لخصت الموسوعة اليهودية العلاقة بين الرجل والمرأة فقالت: الرجل سيد على المرأة، وأنها ملك له، وإن كانت تستشار بعض الوقت.

وتؤمن المسيحية بأن العدل هو خضوع المرأة للرجل؛ لأن المساواة في الكرامة تجلب الصراع، والمرأة لا تستحقها، لأنها أساءت استخدام السلطة في الجنة فخرجت منها هي وزوجها، وعبر بولس عن خضوع المرأة للرجل وجعله كالعبادة تمامًا حيث قال: ٢٢ أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ، ٢٣ لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ. أفسس ٥: ٢٢، ٢٣.

كما يقول: رأس المرأة هو الرجل. كورنثوس ١١: ٣.

ونتج عن هذا التسلط عدة أحكام مجحفة بالمرأة منها:

أ- لا ينبغي أن تكون المرأة معلمة للرجل.

ب- الصمت في الكنيسة وعدم الكلام نهائيًا.

جـ- تحريم عملها كداعية دينية أو العمل الكهنوتي بالكنيسة.

د- عدم حقها في الاستقلال بذمتها المالية ومزاولة أعمال التجارة والتصرفات المالية.

* * *

الفهـــرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب

ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد الحادي عشر

تابع: شبهات عن المرأة

دار إيلاف الدولية

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

١١

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال – هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ – ٩٦٩٩٩١٨٢ - الكويت.

الفرع الأول: الجهراء – مجمع الخير – الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي – شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم

للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

تابع
شبهات عن المرأة

٤ـ شبهة: خروج المرأة.

نص الشبهة:

لقد حلا لأعداء الله أن يصوروا للمرأة أن الإسلام يريدها سجينة، وأن سجانها الغليظ هو الرجل، الذي يمسك بالمفتاح، يتحكم كيف يشاء، إن شاء سمح بالنور أو سمح بالهواء، وإن لم يشأ لم يسمح!

ونسوق على سبيل المثال لا الحصر، تلك الفقرة التي ذكرها المؤرخ بنتر pinter مصورًا مركز المرأة الغربية في عصر الإقطاع، ثم مقارنته لها بمركز معاصرتها المسلمة، يقول بنتر: "مركز المرأة في المجتمع الإقطاعي كان بالغ التعقيد، فطالما أنها كانت لا تستطيع أن تمارس القتال، فإنها كانت قاصرًا في العرف الإقطاعي، كانت دائمًا تحت وصاية رجل، فقبل أن تتزوج تكون تحت وصاية والدها، بعد ذلك تصبح تحت وصاية زوجها، وعندما يموت تصبح تحت وصاية سيده أو أكبر أبنائها، لم يكن للمرأة أية حقوق قبل زوجها، وهي بشخصها وممتلكاتها كانت خاضعة تمامًا لسيطرته، وبينما حاولت الكنيسة تقييد وحشية الأزواج تجاه زوجاتهم بتحديد حجم العصا التي يضربونهن بها، إلا أن لمستها هذه لم تحسن وضع المرأة، فقد كانت مصدر كل شر و إثم وخطيئة حواء، تسببت في طرد الرجل من الجنة، وهي نفسها كانت الوعاء الذي يتراكم فيه الإثم، علاوة على ذلك فإن الكنيسة أصرت على خضوع الزوجة لزوجها وكان الزوج بالنسبة لزوجته مثل الله بالنسبة له، ولكن قبل أن نتحسر على مركز المرأة في الفترة المبكرة من العصر الإقطاعي، يجب أن نقارن مركزها مع مركز مثيلتها في المجتمعات المعاصرة؛ فالمرأة المسلمة كانت سجينة في الحريم تحت المراقبة المستمرة للخدم".

هكذا زعم بنتر أن المرأة المسلمة حبيسة الجدران تحت المراقبة المستمرة لها.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان ما ورد في الشرع مما يدل على خروج المرأة.

الوجه الثاني: الآداب التي تلتزم بها المرأة عند خروجها.

الوجه الثالث: حال المرأة في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان ما ورد في الشرع مما يدل على خروج المرأة.

أولًا: خروج المرأة للصلاة:

١ـ للصلوات المفروضة

وللمرأة أن تخرج إلى المسجد للصلاة فيه، دلَّت على ذلك الأحاديث الآتية:

١- عن ابْن عُمَرَ قَالَ: "كَانَتْ امْرَأَةٌ لِعُمَرَ تَشْهَدُ صَلَاةَ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لَهَا: لِمَ تَخْرُجِينَ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمَرَ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَغَارُ؟ قَالَتْ: وَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي؟ قَالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رسول الله ﷺ: "لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله". [1]

٢- عن عائشة قالت: "كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول ﷺ صلاة الفجر مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ ثُمَّ ينقلبن إِلَى بُيُوتِهِنَّ حين يقضين الصلاة لا يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ من الغلس"[2].

٣- عن عَائِشَةَ قَالَتْ: " أَعْتَمَ رَسولُ الله ﷺ بالعتمة حَتَّى نَادَاهُ عُمَرُ: نَامَ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ، فَخَرَجَ النبي ﷺ، فَقَالَ: "مَا يَنْتَظِرُهَا أَحَدٌ غَيْرُكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَلَا يُصَلَّى يَوْمَئِذٍ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ" وَكَانُوا يُصَلُّونَ العتمة فِيمَا بَيْنَ أَنْ يَغِيبَ الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ"[3].

٤- عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ الله قالت: قَالَ لنا رَسُولُ الله ﷺ: "وَإِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْعِشَاءَ فَلَا تطيب تلك الليلة"[4].

وجه الدلالة من الأحاديث:

دلت هذه الأحاديث على أن النبي ﷺ قد أذن للنساء مطلقًا في الخروج إلى المسجد لأداء الصلوات فيه في جماعة، وأن النساء كن يشهدن الصلوات في المسجد، ولا فرق في ذلك بين الشابات منهن والعجائز؛ لعموم النساء في هذه الأحاديث.

قال ابن رجب الحنبلي: والمراد هاهنا من ذلك: أن النساء كنَّ يشهدن الصلاة خلف رسول الله ﷺ في المسجد، ومعهن صبيانُهُنَّ، وأن النبي ﷺ كان يعلم ذلك ويراعي في

---

(١) البخاري (٩٠٠)، مسلم (٤٤٢)، وهذا لفظ مسلم.

(٢) البخاري (٣٧٢)، مسلم (٦٤٥).

(٣) البخاري (٥٦٦)، مسلم (٦٣٨).

(٤) مسلم (٤٤٣).

صلاته حالهن، ويؤثر ما يهوّن عليهن، ويجتنب ما يشقُّ عليهن، وذلك دليل على أن حضورهن الجماعة معه غير مكروه، ولولا ذلك لنهاهنَّ عن الحضور معه للصلاة. اهـ.[(١)]

وقال القرطبي: ولا تمنع -أي المرأة- أيضًا من الصلاة في المساجد ما لم يخف عليها الفتنة.[(٢)]

قال ابن هبيرة: والذي أرى حضورهن الجماعات، وأنهن يكن في آخر الصفوف من الرجال على ما جاء في الأحاديث، ومضى عليه زمن المصطفى ﷺ والصدر الأول غير مكروه بل مسنون، وأن من علل كراهية ذلك تخوف الافتتان، فإن ذلك مردود عليه بالحج.[(٣)]

وقال الشوكاني: وفي الحديث أنه لا بأس بحضور النساء الجماعة في المسجد.[(٤)]

٢ـ خروج المرأة لصلاة الجمعة.

ويجوز خروج المرأة لصلاة الجمعة[(٥)]، وذلك: لعموم قول النبي ﷺ: "لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ".

وعن عَبدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَعْنٍ، عَنْ بِنْتٍ لِحَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَتْ: مَا حَفِظْتُ ﴿قٓ﴾ إِلَّا مِنْ فِي رسول الله ﷺ يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ.[(٦)]

فدل هذا الحديث على أن النساء كن يحضرن صلاة الجمعة في عهد النبي ﷺ.

٣ـ خروج المرأة إلى المسجد لصلاة النوافل:

يجوز للمرأة الخروج إلى المسجد لصلاة النوافل كالتراويح وغير ذلك، دلَّ على ذلك ما روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: "مَا هَذَا الحَبْلُ؟" قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا، حُلُّوهُ

---

(١) فتح الباري لابن رجب ٥/ ٣٠٨.

(٢) جامع الأحكام الفقهية١/ ١٦٤.

(٣) الإفصاح (١٠٦).

(٤) نيل الأوطار ٢/ ٣١٥.

(٥) وصلاة الجمعة على النساء ليست واجبة، وذلك بإجماع أهل العلم.

(٦) مسلم (٨٧٣).

لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ. فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ[١]".

٤ - استحباب خروج المرأة لصلاة العيدين

يستحب خروج المرأة لصلاة العيدين دلَّ على ذلك ما يلي:

١ - عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ قَالَتْ: كُنَّا نَمْنَعُ جَوَارِيَنَا أَنْ يَخْرُجْنَ يَوْمَ الْعِيدِ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ، فَنَزَلَتْ قَصْرَ بَنِي خَلَفٍ، فَأَتَيْتُهَا فَحَدَّثَتْ أَنَّ زَوْجَ أُخْتِهَا غَزَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ غَزْوَةً، فَكَانَتْ أُخْتُهَا مَعَهُ فِي سِتِّ غَزَوَاتٍ، فَقَالَتْ: فَكُنَّا نَقُومُ عَلَى الْمَرْضَى وَنُدَاوِي الْكَلْمَى[٢]، فَقَالَتْ يَا رسول الله: أَعَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا جِلْبَابٌ أَنْ لَا تَخْرُجَ؟ فَقَالَ: "لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا فَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ" قَالَتْ حَفْصَةُ: فَلَمَّا قَدِمَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ أَتَيْتُهَا، فَسَأَلْتُهَا أَسَمِعْتِ فِي كَذَا وَكَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، بِأَبِي، وَقَلَّمَا ذَكَرَتْ النَّبِيَّ ﷺ إِلَّا قَالَتْ: بِأَبِي، قَالَ: "لِيَخْرُجْ الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ[٣]، -أَوْ قَالَ- الْعَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الْخُدُورِ وَالْحُيَّضُ وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ الْمُصَلَّى وَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ[٤]" قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهَا أَلْحُيَّضُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَلَيْسَ الْحَائِضُ تَشْهَدُ عَرَفَاتٍ وَتَشْهَدُ كَذَا وَتَشْهَدُ كَذَا؟ ".

وجه الدلالة من الحديث:

قال ابن رجب الحنبلي: وفي الحديث أَمْرُ النساء بالخروج حتى شوابُّهنَّ وذوات الخدور منهن[٥].

وقال الخطابي: أمر جميع النساء بحضور المصلى يوم العيد لتصلي من ليس لها عذر، وتصل بركة الدعاء إلى من لها عذر.[٦]

---

(١) البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

(٢) الكَلْمُ: الجرح، والمراد: الجرحى.

(٣) (الخدور) الخدر: ناحية في البيت عليها ستر فتكون فيه الجارية البكر، خُدِّرت فهي مُخَدَّرة، وجمع الخدر: الخدور. (النهاية في غريب الحديث) مادة (خدر).

(٤) البخاري (٣٢٤)، مسلم (٨٩٠) ٠

(٥) فتح الباري لابن رجب ٦/ ١٣٩.

(٦) عون المعبود٣/ ٤٨٨.

وقال العيني: وفيه خروج النساء أيضًا، وسواءٌ فيه الطاهرات والحُيَّض كما جاء في الحديث. (١)

٢- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺقَالَ: "قَامَ النَّبِي ﷺ يَوْمَ الْفِطْرِ، فَصَلَّى، فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ، فَلَمَّا فَرَغَ نَزَلَ، فَأَتَى النِّسَاءَ فَذَكَّرَهُنَّ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى يَدِ بِلَالٍ، وَبِلَالٌ بَاسِطٌ ثَوْبَهُ يُلْقِينَ النِّسَاءُ فيه الصدقة"(٢).

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَابِسٍ قال: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ -رضي الله عَنْهُمَا- قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَشَهِدْتَ الْخُرُوجَ مَعَ رسول الله ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَوْلَا مَكَانِي مِنْهُ مَا شَهِدْتُهُ حتى أَتَى الْعَلَمَ الَّذِي عِنْدَ دَارِ كَثِيرِ بْنِ الصَّلْتِ، ثُمَّ خَطَبَ، ثُمَّ أَتَى النِّسَاءَ فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَّقَةِ، فرأيتهن يهوين بأيديهن يقذفنه فِي ثَوْبِ بِلَالٍ، ثُمَّ أَتَى هُوَ وَبِلَالٌ بيته(٣)

وجه الدلالة من الحديثين:

أفاد هذان الحديثان أن النساء في عهد النبي ﷺ كن يحضرن صلاة العيد، وأن النبي ﷺ كان يعظهن بعد أن يعظ الرجال.

قال المهلب: فيه جواز خروج النساء الطاهرات والحُيَّض إلى العيدين وشهود الجماعات، ويعتزل الحُيَّض المصلى، ويكنَّ فيمن يدعو، ويُؤَمِّنَّ؛ رجاء بركة المشهد الكريم. (٤)

وقال ابن بطال: وهذا يدل على تأكيد خروج النساء إلى العيدين؛ لأنه إذا أمرت أن تلبس من لا جلباب لها، فمن لها جلباب أولى أن تخرج وتشهد دعوة المؤمنين رجاء بركة ذلك اليوم. (٥)

وقال ابن قدامة: ولا بأس بخروج النساء يوم العيد إلى المصَلى، وقال ابن حامد: يستحب ذلك، ثم أورد جملة آثار وأقوال، وقال: وإنما يستحب لهن الخروج غير متطيبات، ولا يلبسن ثوب شهرة، ولا زينة، ولا يخرجن في ثياب البذلة؛ لقول رسول الله ﷺ :

(١) عمدة القاري٥/ ٤٠١.

(٢) البخاري (٩٥٨)، مسلم (٨٨٥).

(٣) البخاري (٨٦٣).

(٤) نقله عنه ابن بطال في شرح البخاري١/ ٤٥٠.

(٥) شرح البخاري٢/ ٥٦٩.

وليخرجن تفلات، ولا يخالطن الرجال، بل يكنَّ ناحية منهم.[(١)]

٥- خروج المرأة لصلاة الكسوف:

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ -رضي الله عنهما- أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ خَسَفَتْ الشَّمْسُ - فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ يُصَلُّونَ، وَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ تُصَلِّي فَقُلْتُ مَا لِلنَّاسِ؟ فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا إِلى السَّمَاءِ، وَقَالَتْ: سُبْحَانَ الله. فَقُلْتُ: آيَةٌ؟ فَأَشَارَتْ، أَيْ نَعَمْ، فَقُمْتُ حَتَّى تَجَلَّانِي الْغَشْيُ[(٢)]، فَجَعَلْتُ أَصُبُّ فَوْقَ رَأْسِي مَاءً، فَلَمَّا انْصَرَفَ رسول الله ﷺ حَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "مَا مِنْ شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ أَوْ قَرِيبَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ" قَالَتْ أَسْمَاءُ: يُؤْتَى أَحَدُكُمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُوقِنُ: لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ، فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ الله جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا وَاتَّبَعْنَا، فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ صَالِحًا فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُؤْمِنًا وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ لَا أَدْرِي أَيتهما قَالَتْ أَسْمَاءُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ"[(٣)].

وفي رواية[(٤)]: كَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَفَزِعَ، فَأَخْطَأَ بِدِرْعٍ حَتَّى أُدْرِكَ بِرِدَائِهِ بَعْدَ ذَلِكَ. قَالَتْ: فَقَضَيْتُ حَاجَتِي، ثُمَّ جِئْتُ وَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَرَأَيْتُ رسول الله ﷺ قَائِمًا فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ حَتَّى رَأَيْتُنِي أُرِيدُ أَنْ أَجْلِسَ، ثُمَّ أَلْتَفِتُ إِلَى الْمَرْأَةِ الضَّعِيفَةِ فَأَقُولُ: هَذِهِ أَضْعَفُ مِنِّي فَأَقُومُ، فَرَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأَطَالَ الْقِيَامَ حَتَّى لَوْ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَرْكَعْ.

قلت: وفي الحديث دليل على جواز خروج المرأة لصلاة الكسوف، وقد بوَّب البخاري

---

(١) المغني ٢/ ٣٧٥.

(٢) (تجلاني الغشي)، أي: علاني مرض قريب من الإغماء؛ لطول تعب الوقوف.

(٣) البخاري (٨٦)، مسلم (٩٠٥).

(٤) كما عند مسلم (٩٠٦).

على الحديث بقوله: باب صلاة النساء مع الرجال في الكسوف.

قال الحافظ: أشار بهذه الترجمة إلى ردِّ قول من منع ذلك، وقال: يصلين فرادى. [١]

وقال ابن حزم: ويصليها – أي: صلاة الكسوف – والنساء والمنفرد والمسافر. اهـ [٢]

ثانيًا: خروج المرأة للقيام على خدمة المسجد:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَ يَقُمُّ[٣] الْمَسْجِدَ - وفي رواية للبخاري: ولا أراه إلا امرأة- فَمَاتَ فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ فَقَالُوا، مَاتَ. قَالَ: "أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي بِهِ؟ دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ -أَوْ قَالَ- قَبْرِهَا" - فَأَتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا[٤].

قال ابن حجر: فيه صحة تبرع تلك المرأة بإقامة نفسها لخدمة المسجد لتقرير النبيﷺ لها على ذلك.

ثالثا: خروج المرأة إلى المسجد للاعتكاف فيه

ويجوز للمرأة أن تخرج إلى المسجد للاعتكاف فيه، ودليل ذلك مايلي:

١- عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّﷺ " إِنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، حَتَّى تَوَفَّاهُ الله، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ"[٥].

٢- وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكر أن يَعْتَكِفَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، فَاسْتَأْذَنَتْه عَائِشَةُ فَأَذِنَ لَهَا، وسألت حَفْصَةُ عَائِشَةَ أن تستأذن لها، ففعلت، فَلما رَأَتْ ذلك زَيْنَبُ بنت جَحْشٍ أمرت ببناء، فبني لها، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى انصرف إلى

(١) الفتح٢/ ٥٤٣.

(٢) المحلى٥/ ١٠٥.

(٣) يقم: بقاف مضمومة، أي: يجمع القمامة وهي الكناسة

(٤) البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦).

(٥) البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧٢).

بنائه فأبصر الأبنية، فقال: ما هذا؟ قالوا: بناء عائشة وحفصة وزينب، فقال رسول الله: آلبرَّ أَرَدْنَ بهذا[١]؟ ما أنا بِمعتِكفٍ. فرجع، فلما أفطر اعْتَكَفَ عَشْرًا مِنْ شَوَّال.[٢]

وجه الدلالة من الحديثين:

أفاد هذان الحديثان أن نساء النبي ﷺ كنَّ يعتكفن في المسجد، وقد أذن لهن رسول الله ﷺ في الاعتكاف فيه فدلَّ ذلك على جواز خروج المرأة إلى المسجد للاعتكاف فيه.

رابعًا: خروج المرأة لزيارة القبور:

يستحب خروج المرأة لزيارة القبور للأحاديث الآتية:

١- عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: "نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ النَّبِيذِ إِلَّا فِي سِقَاءٍ فَاشْرَبُوا فِي الْأَسْقِيَةِ كُلِّهَا، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا"[٣].

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: "زار النبي ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي تَعَالَى عَلَى أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَاسْتَأْذَنْتُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأَذِنَ لِي فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ بِالْمَوْتِ"[٤].

وجه الدلالة من الحديثين:

قال الشيخ الألباني: عموم قوله ﷺ: "فزوروا القبور" فيدخل فيه النساء، وبيانه أن النبي ﷺ لما نهى عن زيارة القبور في أول الأمر، فلا شك أن النهي كان شاملًا للرجال والنساء معًا، فلما قال: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور" كان مفهومًا أنه كان يعني الجنسين، ضرورة أنه يخبرهم عما كان في أول الأمر من نهي الجنسين، فإذا كان الأمر كذلك

---

(١) قوله: (آلبر أردن) استفهام إنكاري، وسبب إنكاره (أنه خاف أن يكن غير مخلصات في الاعتكاف، بل أردن القرب منه؛ لغيرتهن عليه.

(٢) البخاري (٢٠٣٣، ٢٠٣٤)، ومسلم (١١٧٣).

(٣) مسلم (٩٧٧).

(٤) مسلم (٩٧٦).

كان لزامًا أن الخطاب في الجملة الثانية من الحديث، وهو قوله: "فزروها" إنما أراد به الجنسين أيضًا، ويؤيده أن الخطاب في بقية الأفعال المذكورة في زيادة مسلم في حديث بريدة المتقدم آنفًا: "وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ النَّبِيذِ إِلَّا فِي سِقَاءٍ فَاشْرَبُوا فِي الْأَسْقِيَةِ كُلِّهَا، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا" أقول: فالخطاب في جميع هذه الأفعال موجه إلى الجنسين قطعًا، كما هو الشأن في الخطاب الأول "كنت نهيتكم" فإذا قيل بأن الخطاب في "فزوروها" خاص بالرجال، اختل نظام الكلام وذهبت طراوته؛ الأمر الذي لا يليق بمن أوتي جوامع الكلم، ومن هو أفصح من نطق بالضاد ﷺ ويزيده تأييدًا ... مشاركتهن الرجال في العلة التي من أجلها شُرعت زيارة القبور، فإنها ترقق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة. اهـ.[١]

٣- عن أَنَس بْن مَالِكٍ قال: مَرَّ النبي ﷺ بامرأة وَهِيَ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: "اتَّقِي الله وَاصْبِرِي" فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لم تصب مُصِيبَتِي، ولم تعرفه،[٢] فقيل لها: أنه النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقَالَ: "إِنماَّ الصَّبْرَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى"[٣].

وجه الدلالة:

قال الحافظ: وموضع الدلالة منه أنه ﷺ لم ينكر على المرأة قعودها عند القبر، وتقريره حجة.[٤]

---

(١) أحكام الجنائز صـ ١٨٠.

(٢) (لم تعرفه) أي: لم تعرف أنه رسول الله.

(٣) (فلم تجد عنده بوابين) قال الزين بن المنير: فائدة هذه الجملة من هذا الخبر بيان عذر هذه المرأة في كونها لم تعرفه، وذلك أنه كان من شأنه أن لا يتخذ بوابًا مع قدرته على ذلك، تواضعًا، وكان من شأنه لا يستتبع الناس وراءه إذا مشى، كما جرت عادة الملوك والأكابر، فلذلك اشتبه على المرأة، فلم تعرفه مع ما كانت فيه من شاغل الوجد والبكاء. وقال الطيبي: فائدة هذه الجملة أنه لما قيل لها إنه النبي ﷺ استشعرت خوفًا وهيبة في نفسها، فتصورت أنه مثل الملوك له حاجب وبواب يمنع الناس من الوصول إليه، فوجدت الأمر بخلاف ما تصورته. قاله في الفتح (٣/ ١٧٨).

(٤) الفتح ٣/ ١٧٨.

وقال العيني: وفيه جواز زيارة القبور مطلقًا، سواء كان الزائر رجلًا أو امرأة. . لعدم الفصل في ذلك[١].

وقال ابن بطال: وفي هذا الحديث دليل على جواز زيارة القبور؛ لأن ذلك لو كان لا يجوز لما ترك.[٢]

وقال أيضًا: لما ترك ﷺبيان ذلك، ولأنكر على المرأة جلوسها عند القبر[٣].

وحديث أنس في هذا الباب يشهد لصحة أحاديث الإباحة؛ لأن النبي ﷺ إما عرض على المرأة الباكية الصبر ورغبها فيه، ولم ينكر عليها جلوسها عنده، ولأنهاها عن زيارته؛ لأنه ﷺلا يترك أحدًا يستبيح ما لا يجوز بحضرته ولا ينهاه؛ لأن الله- تعالى- فرض عليه التبليغ والبيان لأمته.

حالات يحرم فيها خروج المرأة لزيارة القبور.

قال الشيخ مصطفى العدوي:

١ - إذا عُلم من حال النساء أنهن - بذهابهن إلى القبور- يصحن وينحن ويعددن على الأموات، ويفعلن البدعة والمحرمات، فتحرم حينئذٍ زيارتهن للقبور، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

٢- إذا عُلم من أحوالهن كذلك أنهن يذهبن إلى قبور بعض ما يطلقون عليهم الصالحين أو أولياء، يلتمسون عندهم تفريج الكربات، وقضاء الحاجات، وكشف الغمات، فهذا شرك، وتحرم عندئذٍ الزيارة بلا شك.

٣- إذا ذهبت النساء متبرجات متعطرات، فكذلك يحرم خروجهن.

---

(١) عمدة القاري (٣/ ٧٦).

(٢) شرح البخاري (٣/ ٢٤٩).

(٣) شرح البخاري (٣/ ٢٧١).

٤- إذا خصصت النساء يومًا لزيارة القبور فيه - كما يحدث من تخصيص أيام الجمع والأعياد ونحو ذلك، فهذا من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، وفقنا الله لاتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ. (١)

خامسًا: خروج المرأة لأداء الحج أو العمرة:

لا خلاف بين الفقهاء في أن للمرأة أن تخرج لأداء حجة الفريضة أو الحج المنذور، أو لقضاء الحج أو حج التطوع، وأن لها أن تخرج لأداء العمرة إذا كانت تخرج لذلك مع محرم أو زوج، دلَّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب: فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧). وقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦).

وأما السنة: فروى البخاري، ومسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان".

وأما الإجماع:

فقال النووي: وأجمعوا على أن الحج يجب على المرأة إذا استطاعت، ولم نتوسع في هذا الباب؛ لكونه معلومًا لدى جميع المسلمين. (٢)

فهذه الأدلة دلت على وجوب الحج على المكلفين رجالًا كانوا أو نساء.

خروج المرأة لأداء الشهادة:

يجب على المرأة الخروج لأداء الشهادة إذا تحملتها، وذلك للأدلة الآتية:

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

٢- قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ (النساء: ١٣٥).

---

(١) جامع أحكام النساء١/ ٥٨١.

(٢) شرح مسلم٣/ ٣١٣.

٣- قال جل شأنه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾.

فهذه الآيات قد دلت على وجوب أداء الشهادة، والقيام بها بالعدل سواء من الرجال أو النساء.

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "إذا استأذنت المرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها"[(١)].

قال العيني: وإذا كان حق عليهن أن يأذنوا فيما هو مطلق لهن الخروج فيه، فالإذن لهن فيما هو فرض عليهن أو يندب الخروج إليه أولى، كخروجهن لأداء شهادة. اهـ.[(٢)]

سادسًا: خروج المرأة للجهاد:

وكان النساء في عهد النبي ﷺ يخرجن مع النبي ﷺ وصحابته للجهاد فيقمن بأعمال تتناسب مع طبيعتهن، ومن هذه الأعمال:

١- سقي العطشى.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ، وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِن تَنْقُزَانِ[(٣)] الْقِرَبَ، وَقَالَ غَيْرُهُ: تَنْقُلَانِ الْقِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ[(٤)].

٢- مداواة الجرحى.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كانَ رسول الله ﷺ، يَغْزُو بِأُمِّ سُلَيْمٍ وَنِسْوَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ مَعَهُ إِذَا غَزَا، فَيَسْقِينَ الْمَاءَ، وَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى[(٥)].

---

(١) صحيح. تقدم تخريجه.

(٢) عمدة القارئ ٥/ ٢٣٨.

(٣) (تنقزان) قال الداودي: معناه تسرعان المشي كالهرولة، وفي رواية تنقلان القرب.

(٤) البخاري (٢٨٨٠)، (٣٨١١)، (٤٠٦٤)، ومسلم (١٨١١).

(٥) مسلم (١٨١٠).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: كَانَ رسول الله ﷺ يَغْزُو بِالنِّسَاءِ، وَقَدْ كَانَ يَغْزُو بِهِنَّ، فَيُدَاوِينَ الْجَرْحَى، وَيُحْذَيْنَ(١) مِنْ الْغَنِيمَةِ(٢).

٣- رد القتلى والجرحى.

عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ، قَالَتْ: كُنَّا نغزو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فنَسْقِي القوم، ونخدمهم، وَنَرُدُّ الْجَرْحَى والْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ(٣).

٤- خياطة القرب.

عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي مَالِكٍ قال: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَسَمَ مُرُوطًا بَيْنَ نِسَاءٍ مِنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ، فَبَقِيَ مِرْطٌ جَيِّدٌ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ عِنْدَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطِ هَذَا ابْنَةَ رسول الله ﷺ الَّتِي عِنْدَكَ يُرِيدُونَ -أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عَلِيٍّ-، فَقَالَ عُمَرُ: أُمُّ سَلِيطٍ أَحَقُّ. وَأُمُّ سَلِيطٍ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ بَايَعَ رسول الله ﷺ، قَالَ عُمَرُ: فَإِنَّهَا كَانَتْ تَزْفِرُ لَنَا الْقِرَبَ يَوْمَ أُحُدٍ(٤).

٥- القيام على المرضى.

عن حفصة بنت سيرين عن امرأة من الأنصار: أن زوج أختها غزا مع النبي ﷺ ثنتى عشرة غزوة، فكانت أختها معه في ست غزوات، قالت: فكنا نقوم على المرضى(٥).

٦- صنع الطعام.

عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ: قَالَتْ: غَزَوْتُ مَعَ رسول الله ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ؛ أَخْلُفُهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، وَأَصْنَعُ لَهُمْ الطَّعَامَ(٦).

حكم خروج المرأة للجهاد

---

(١) (ويحذين) أي: يعطين الحذوة، وهي العطية، وتسمى الرضخ، والرضخ: العطية القليلة.

(٢) مسلم (١٨١٢)

(٣) البخاري (٢٨٨٢، ٢٨٨٣)، (٥٦٧٩)

(٤) البخاري (٢٨٨١)، (٤٠٧١)

(٥) صحيح. تقدم تخريجه.

(٦) مسلم (١٨١٢).

لا يجب على المرأة الخروج إلى الجهاد، إذا كان الكفار ببلادهم غير قاصدين بلدة من بلاد المسلمين، وذلك لما رُوي عَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رسول الله، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلَا نُجَاهِدُ؟ قَالَ: "لَا، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ، حَجٌّ مَبْرُورٌ"(١).

فأفاد هذا الحديث أن المرأة لا يجب عليها القتال في سبيل الله؛ إذ لم يأذن رسول الله ﷺ لعائشة في الخروج إليه.

وأما إذا دخل الكفار بلدة من بلاد المسلمين، فذهب الفقهاء إلى أنه يتعين على المرأة في هذه الحالة الجهاد، بحسب قدرتهن. والله أعلم.

سابعًا: خروج المرأة لقضاء حوائجها الضرورية

يجوز خروج المرأة للبيع والابتياع، وطلب حقها عند القاضي، وحضور خصومة هي طرف فيها، ونحو ذلك من حوائجها التي يقضي العرف خروج مثلها لها، وإن لم يأذن لها الزوج في ذلك إن كانت ذات زوج، دلَّ على ذلك ما يلي:

١- عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَ مَا ضُرِبَ عَلَيْهَا الْحِجَابُ، لِتَقْضِيَ حَاجَتَهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً(٢) تَفْرَعُ النِّسَاءَ جِسْمًا لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا(٣)، فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ والله مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ؟ قَالَتْ: فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً، ورسول الله ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ(٤) فَدَخَلَتْ، فَقَالَتْ: يَا رسول الله إِنِّي خَرَجْتُ لبعض حاجتي، فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَأُوحِيَ الله إِلَيْهِ، ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ، وَإِنَّ الْعَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ(٥).

---

(١) البخاري (١٥٢٠).

(٢) (جسيمة) أي: عظيمة الجسم.

(٣) (لا تخفى على من يعرفها)، يعني: لا تخفى إذا كانت متلففة في ثيابها ومرطها في ظلمة الليل ونحوها، على من سبقت لها معرفة طولها؛ لانفرادها بذلك.

(٤) العرق: هو العظم الذي عليه بقية لحم.

(٥) البخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠).

٢- وفي حديث الإفك قالت عَائِشَةَ ﵂: خَرَجْتُ بعدما نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ(١) وَهو متبَرَّزُنَا، وَكُنَّا لا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ(٢) قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التبرز قِبَلَ الْغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ(٣).

٣- عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ -رضي الله عَنْهُمَا- قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ، وَلَا مَمْلُوكٍ، وَلَا شَيْءٍ غَيْرَ نَاضِحٍ، وَغَيْرَ فَرَسِهِ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ، وَأَخْرِزُ غَرْبَهُ وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ، وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ، وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ - الَّتِي أَقْطَعَهُ رسول الله ﷺ- عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ، فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيتُ رسول الله ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَدَعَانِي، ثُمَّ قَالَ: "إِخْ إِخْ"؛ لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسِيرَ مَعَ الرِّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وَغَيْرَتَهُ -وَكَانَ أَغْيَرَ النَّاسِ- فَعَرَفَ رسول الله ﷺ أَنِّي قَدْ اسْتَحْيَيْتُ فَمَضَى، فَجِئْتُ الزُّبَيْرَ، فَقُلْتُ: لَقِيَنِي رسول الله ﷺ وَعَلَى رَأْسِي النَّوَى وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَنَاخَ لِأَرْكَبَ، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ، فَقَالَ: "وَاللهِ لَحَمْلُكِ النَّوَى كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِكِ مَعَهُ، قَالَتْ حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ تَكْفِينِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي(٤).

وقال النووي أيضًا: في الحديث جواز خروج المرأة من بيت زوجها لقضاء حاجة الإنسان إلى الموضع المعتاد لذلك، بغير استئذان الزوج؛ لأنه مما أذن فيه الشرع.

(١) (المناصع) موضع خارج المدينة، كانوا يتبرزون فيها.

(٢) (الكنف) جمع كنيف، والكنيف في اللغة: الساتر، وقيل للمرحاض: كنيف؛ لأنه يسترُ قاضي الحاجة. انظر (المصباح المنير) مادة (كنف).

(٣) البخاري (١٨٧٩، ٢٦٣٧، ٢٦٦١، ٤٠٢٥)، ومسلم (٢١٣٧).

(٤) البخاري (٣١٥١) (٥٢٢٤)، ومسلم (٢١٨٢).

٤ - عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رسول الله، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: يَا أُمَّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ؛ فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا(١).

٥- عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْت أَبِي طَالِبٍ، قالت: ذَهَبْتُ إِلَى رسول الله ﷺ عَامَ الْفَتْحِ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ. قالت: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: "مَنْ هَذِهِ؟" فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: "مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ" فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: يَا رسول الله! زَعَمَ ابْنُ أُمِّي: أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلَانُ بْنُ هُبَيْرَةَ. فَقَالَ رسول الله ﷺ: "قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ" قَالَتْ: أُمُّ هَانِئٍ وَذَاكَ ضُحًى(٢).

ومن ذلك أيضًا خروج المعتدة البائن والمتوفى عنها زوجها لحاجتها

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه قال: طُلِّقَتْ خَالَتِي، فَأَرَادَتْ أَنْ تَجُدَّ نَخْلَهَا، فَزَجَرَهَا رَجُلٌ أَنْ تَخْرُجَ فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: "بَلَى فَجُدِّي نَخْلَكِ، فَإِنَّكِ عَسَى أَنْ تَصَدَّقِي، أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفًا"(٣).

قال النووي: هذا الحديث دليل لخروج المعتدة البائن للحاجة. (٤)

ثامنًا: خروج المرأة لزيارة والديها وأقاربها

وتخرج المرأة لصلة أرحامها، فقد حث الإسلام على صلة الأرحام.

وتستأذن المرأةُ زوجها لزيارة والديها وعيادتهما في مرضيهما وتعزيتهما في موت قريب، وكذلك تستأذنه في زيارة محارمها.

ففي حديث الإفك استأذنت عائشة النبي ﷺ لزيارة والديها، وفيه : قُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أن آتي أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيقَنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رسول الله ﷺ، فجئت

---

(١) البخاري (٣٧٨٦، ٥٢٣٤، ٦٦٤٥)، ومسلم (٢٥٠٩).

(٢) مسلم (٣٣٦).

(٣) مسلم (١٤٨٣).

(٤) شرح مسلم ١٠/ ١٠٨.

أَبَوَيَّ[١]. . . الحديث.

قال الحافظ: وفيه توقف أن خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبويها.

فإن أذن لها الزوج جاز لها الخروج، وأما إذا لم يأذن لها زوجها، فقد اختلف الفقهاء، فمنهم من أجاز زيارتها وإن لم يأذن لها، ومنهم من منع زيارتها، والذي يظهر لي -والله أعلم- أنه يجوز زيارتها لوالديها وأقاربها وإن لم يأذن لها زوجها، ويستدل لذلك بالكتاب والسنة. [٢]

أما الكتاب:

١- فقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (النساء: ٣٦).

٢- وقال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٣- ٢٤).

٣-وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان: ١٤).

ووجه الدلالة من هذه الآيات:

أن الله -سبحانه وتعالى- أمر ببر الوالدين والإحسان إليهما، ومصاحبتهما في الدنيا معروفًا، وليس من البر والإحسان والمصاحبة بالمعروف الامتناع عن زيارتهما، أو عيادتهما في مرضهما.

وأما السنة فهي:

١- عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ﵁قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله"[٣].

---

(١) صحيح. تقدم تخريجه.

(٢) فتح الباري٨/ ٣٣٨.

(٣) البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

٢- عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "إِنَّ الله حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"(١).

٣-عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى، يَا رسول الله! قَالَ "الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ"(٢).

٤- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ(٣) لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ له فِي أَثَرِهِ(٤)، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ"(٥)،(٦).

وجه الدلالة من الأحاديث:

حثّت هذه الأحاديث الشريفة على بر الوالدين وصلتهم حتى لو كانا مشركين، وبينت أيضًا أَنْ مِنْ أكبر الكبائر عند الله - سبحانه وتعالى- عقوق الوالدين، ومن قبيل عقوقهما الامتناع عن زيارتهما، أو خدمتهما، أو تمريضهما عند حاجتهما إلى ذلك.

وقد حثت أيضًا الأحاديث الشريفة على صلة الأرحام، وبينت أن من قطع رحمه فإنه لا يدخل الجنة؛ فدلَّ ذلك كله على جواز خروج المرأة لصلة والديها، وأقاربها، وإن لم يأذن لها زوجها.

٧- عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَ مَا ضُرِبَ الْحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً تَفْرَعُ النِّسَاءَ جِسْمًا، لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا، فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ، أما وَالله مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ؟ قَالَتْ: فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً، ورسول الله ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ، فَدَخَلَتْ، فَقَالَتْ: يَا رسول الله، إِنِّي خَرَجْتُ

---

(١) البخاري (١٤٧٧، ٢٤٠٨، ٥٩٧٥)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) البخاري (٢٦٥٤)، (٥٩٧٦)، (٦٢٧٣، ٦٢٧٤)، (٦٩١٩)، ومسلم (٨٧).

(٣) (يبسط) أي: يوسع، وبسط الرزق توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه.

(٤) (ينسأ له في أثره) أي: يؤخر في أجله. (الغريب للخطابي ١/ ٣٤٠).

(٥) (رحمه) الرحم يطلق على الأقارب، وهم من بينه وبين الآخر نسب، سواء كان يرثه أم لا، سواء كان ذا محرم أم لا. قاله في (الفتح ١٠/ ٤٢٨).

(٦) البخاري (٢٠٦٧)، (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

لبعض حاجتي، فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَأُوحِيَ إِلَيْهِ، ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ، وَإِنَّ الْعَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ، فقَالَ: إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ(١).

قال النووي: وفي الحديث جواز خروج المرأة من بيت زوجها لقضاء حاجة الإنسان إلى الموضع المعتاد لذلك بغير استئذان الزوج؛ لأنه مما أذن فيه الشرع(٢).

٨- وفي حديث الإفك قالت عَائِشَةُ رضي الله عنها: خَرَجْتُ بعدما نَقَهْتُ، فَخَرَجْت مَعَي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ، وَهو متبرَّزُنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التبرز قِبَلَ الْغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ(٣).

قال الحافظ: فيه توجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها وبغير إذن خاص من زوجها(٤).

قال ابن بطال: وفائدة هذا الباب أنه يجوز التصرف للنساء فيما بهن الحاجة إليه؛ لأن الله أذن لهن في الخروج إلى البراز بعد نزول الحجاب، فلما جاز لهن ذلك؛ جاز لهن الخروج إلى غيره من مصالحهن، أو صلة أرحامهن التي أوجبها الله عليهن، وقد أمر الرسول ﷺ النساء بالخروج إلى العيدين. (٥)

٩- عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "إِذَا استأذنت امرأة أَحَدِكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَا يَمْنَعْهَا(٦).

قال ابن عبد البر: وإذا لم يكن للرجل أن يمنع امرأته المسجد إذا أستأذنته في الخروج إليه، كان أوكد أن يجب عليه أن لا يمنعها الخروج لزيارة من في زيارته صلة لرحمها(٧).

---

(١) صحيح. تقدم تخريجه.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٤/ ١٥١.

(٣) صحيح. تقدم تخريجه.

(٤) الفتح٧/ ٣٣٧.

(٥) شرح البخاري لابن بطال ١/ ٢٤٠.

(٦) صحيح. تقدم تخريجه.

(٧) التمهيد ٢٤/ ٢٨١.

قال ابن بطال: قال الطبري: في إطلاقه ﷺ لهن الخروج إلى المساجد - وذلك إباحة لا ندب ولا فرض- دليل أن نظير ذلك الإذن لهن في كل ما كان مطلقًا الخروج فيه، نحو عيادة إحداهن بعض أهلها، وشهودها أعياد المسلمين، أو زيارة قبر ميت لها، وإذا كان حقًّا عليهم أن يأذنوا لهن فيما هو مطلق الخروج فيه؛ فالإذن لهن فيما هو فرض عليهن أو ندب الخروج إليه أولى كخروجهن لأداء شهادة لزمتهن، أو لتعرف أسباب دينهن، أو لأداء فرض الحج وشبهه من الفرائض، أو لزيارة أمهاتهن وآبائهن وذوي محارمهن. (١)

فلهذه الأدلة يجوز للمرأة أن تخرج لصلة رحمها، وليس للزوج منعها، لكن قد يقول قائل: إن طاعة الزوج واجبة، فكيف تخرج بغير إذنه؟ قلنا: إنما الطاعة في المعروف، وليس من المعروف أن يمنع الزوج زوجته من زيارة أقاربها؛ لأن الإسلام حث على صلة الرحم كما سبق. وقد يعترض آخر على ذلك فيقول: قد روي عن أنس أن رجلًا انطلق غازيًا في سبيل الله وأمر امرأته أن لا تخرج من بيتها، فاشتكى أبوها فأرسلت إلى النبي ﷺ تسأله وتستخيره وتستأمره، فأرسل إليها النبي ﷺ: اتقي الله وأطيعي زوجك، قال: فشهد النبي ﷺ أباها قال: فلما دفنه أرسل إليها يقرؤها السلام، وقال: إن الله قد غفر لأبيك بطواعيتك زوجك(٢).

وعليه فيجوز للزوجة الخروج لزيارة رحمها، وليس للزوج منعها، وليس معنى ذلك أن تكثر الزوجة من زيارة أقاربها مهملةً في ذلك شئون بيتها، فالزوجة راعية في بيتها، وهي مسئولة عن رعيتها، فينبغي أن تكون زيارتها لأقاربها بالمعروف.

قال ابن رشد: وسُئل مالك عن المرأة يغيب عنها زوجها، فيمرض أخوها أو أمها أو أختها، فتريد أن تأتيهم تعودهم، ولم يأذن لها زوجها حين خرج؟

---

(١) شرح البخاري لابن بطال ٢/ ٤٧٤.

(٢) (هذا حديث لا يثبت عن النبي) فقد أخرجه ابن عدي في) الكامل) ٧/ ١٥٤-١٥٣) من طريق يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس.

وآفة هذا الطريق يوسف بن عطية ، في المجروحين (٣/١٣٤) كان ممن يقلب الأسانيد، ويلزق المتون الموضوعة بالأسانيد الصحيحة، ويُحدِّثُ بها، لا يجوز الاحتجاج به بحال.

قال: لا بأس أن تأتيهم، وإن لم يأذن لها حين خرج.

قال محمد بن رشد: وهذا كما قال؛ لأنه لو كان حاضرًا فأراد أن يمنعها من ذلك لم يكن ذلك له، فليس على المرأة واجبًا أن تستأذن زوجها إلا فيما له أن يمنعها منه[١].

تاسعًا: خروج المرأة لطلب الدعاء من الصالحين الأحياء

وكانت المرأة في عهد النبي ﷺ تخرج إليه لطلب الدعاء منه، سواء لنفسها أو لولدها.

دلَّ على ذلك ما يلي:

١- عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي. قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا[٢].

٢- عَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، يَقُولُ: ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَى رسول الله ﷺ، فَقَالَتْ: يَا اللهِ إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَقِعٌ[٣]، فَمَسَحَ رَأْسِي وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ، ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النبوةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِثْلَ زِرِّ الْحَجَلَةِ[٤].[٥]

٣- عَنْ أَسْمَاءَ رضي الله عنها، أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. قَالَتْ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ[٦]، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَنَزَلْتُ بِقُبَاءٍ، فَوَلَدْتُهُ بِقبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَوَضَعْتُهُ فِي حجْرِهِ، ثُمَّ

---

(١) البيان والتحصيل ٤/ ٣١٨.

(٢) البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

(٣) ابن أختى وقع أي: مريض مشتكٍ.

(٤) زر الحجلة، الزر: واحد الأزرار، التي تُشد بها الكلل والستور على ما يكون في حجلة العروس، وقيل: إنما هو بتقديم الراء على الزاى، ويريد بالحجلة القبجة، مأخوذ من أرزّتِ الجرادة إذا كبست ذنبها في الأرض فباضت، ويشهد له ما رواه الترمذي في كتابه بإسناده، عن جابر بن سمرة وكان خاتم رسول الله ﷺ الذي بين كتفيه غدة حمراء مثل بيضة الحمامة. (النهاية ٢/ ٣٠٠).

(٥) البخاري (١٩٠)، ومسلم (٢٣٤٥).

(٦) (متم) أي مقاربة للولادة.

دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رسول الله، ثُمَّ حَنَّكَهُ(١) بِتَمْرَةٍ، ثُمَّ دَعَا لَهُ وَبَرَّكَ عَلَيْهِ وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ. (٢)

٤-عَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ، أَنَّهَا أَتَتْ بِابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ إِلَى رسول الله ﷺ، فَأَجْلَسَهُ رسول الله فِي حِجْرِهِ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَنَضَحَهُ، وَلَمْ يَغْسِلْهُ(٣).

٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: " أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ بِصَبِيٍّ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ! ادْعُ اللهَ لَهُ فَلَقَدْ دَفَنْتُ ثَلَاثَةً، قَالَ: دَفَنْتِ ثَلَاثَةً؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: لَقَدْ احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ(٤)شَدِيدٍ مِنْ النَّارِ"(٥).

عاشرًا: خروج المرأة لزيارة جاراتها وصديقاتها

وللمرأة أن تخرج لزيارة الجيران والأصدقاء من النساء، دلَّ على ذلك ما يلي:

١- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْهَى عَنْهَا -أي الركعتين بعد العصر- ثُمَّ رَأَيْتُهُ يُصَلِّيهِمَا حِينَ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ وَعِنْدِي نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي حَرَامٍ مِنْ الْأَنْصَارِ(٦).

ورد في "فتح الباري"وفيه - أي الحديث- زيارة النساء المرأة ولو كان زوجها عندها.

٢- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قال: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: "لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا" قَالَتْ: بَلَى، يَا رسول الله! فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "قَدْ قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾"(٧).

---

(١) حنّكه حنكتُ الصبي تحنيكًا: مضغتُ تمرًا ونحوه. (المصباح المنير) مادة [حنك].

(٢) البخاري (٣٩٠٩)، ومسلم (٢١٤٦).

(٣) البخاري (٢٢٣)، ومسلم (٢٨٧).

(٤) (لقد احتظرت بحظار شديد) والاحتظار: فعل الحِظَار، أراد لقد أُحْتَميت بحمى عظيم من النار، يقيك حرَّها، ويُؤَمِّنك دخولها. (النهاية) مادة (حظر).

(٥) مسلم (٢٦٣٦).

(٦) أخرجه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

(٧) أخرجه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

٣- عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: من هَذِهِ؟ ، قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: "مَهْ[١]! عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ[٢]، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا"[٣].

٤- وعنهاأيضا : في حديث الإفك قالت فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يُفيضُون في قول أصحاب الإفك، قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ولَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حتى إني لأظن أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي. فَبَيْنَمَا أبواي جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي. قَالَتْ: فبينا نحن على ذلك، دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم، ثم جلس.

وفي رواية للبخاري: فحمد الله وأثنى عليه ثُمَّ قَالَ: "أما بعد. . . يَا عَائِشَةُ، إن كنت قارفت سوءًا أو ظلمت فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده"قالت: وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب، فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئًا![٤].

٥- عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، قَالَ: وَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، وَهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا، عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺزَائِرَةً. وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ. فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم[٥].

فهذه الأحاديث دلت على أن المرأة في عهد النبي ﷺ كانت تخرج لزيارة جيرانها وصديقاتها من النساء.

الحادي عشر: خروج المرأة لعيادة الرجل إذا أمنت الفتنة

---

(١) (مه!) قال الجوهري: هي كلمة مبنية على السكون، وهي اسم سُمي به الفعل، والمعنى: اكفف. والمراد: النهي عن قيام جميع الليل، وإنما السنة في ذلك أنه ينام ويصلي.

(٢) (عليكم بما تطيقون) أي: : اشتغلوا من الأعمال بما تستطيعون المداومة عليه.

(٣) البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).

(٤) صحيح. تقدم تخريجه.

(٥) البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ الْمَدِينَةَ، وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ. قَالَتْ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا. فَقُلْتُ: يا أَبَتِ! كَيْفَ تَجِدُكَ؟ وَيَا بِلَالُ كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَتْ: فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:

كُلُّ امْرِئٍ مصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَ عَنْهُ يَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ(١)

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجِئْتُ رسول الله ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: اللهم حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّهَا وَصَاعِهَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا، فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ(٢).

وقد أورد البخاري في كتاب المرضى في صحيحه باب (عيادة النساء الرجال)، قال: "وعادت أم الدرداء رجلًا من الأنصار". (٣)

قلت: وفي الحديث دلالة على جواز عيادة النساء الرجال بالشرط المذكور آنفًا، وذلك لأن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عادت بلالًا، وهو أجنبي كما هو معروف.

الثاني عشر: خروج المرأة للعرس:

ويجوز للمرأة أن تخرج للعرس، ودليل ذلك ما يلي:

١- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: أَبْصَرَ النَّبِيُّ ﷺ نِسَاءً وَصِبْيَانًا مُقْبِلِينَ مِنْ عُرْسٍ، فَقَامَ مُمْتَنًّا(٤)، فَقَالَ: اللهم أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ(٥).

٢- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ،

---

(١) (شامة وطفيل) جبلان قرب مكة.

(٢) البخاري (١٨٨٩)، ومسلم (١٣٧٦).

(٣) البخاري ٥/ ٢١٤٠. وقال: وذلك مشروط بالتستر وأمن الفتنة وعدم الخلوة.

(٤) (فقام ممتنًا) أي، قام إليهم مسرعًا مشتدًّا في ذلك فرحًا بهم، وفي رواية (فقام ممثلًا) أي: انتصب قائمًا.

(٥) البخاري (٣٧٨٥)، ومسلم (٢٥٠٨).

فَنَزَلْنَا فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ، فَوُعِكْتُ[(١)]، فَتَمَرَّقَ شَعَرِي[(٢)] فَوَفَى جُمَيْمَةً[(٣)]، فَأَتَتْنِي أُمِّي أُمُّ رُومَانَ، وَإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَةٍ[(٤)]، وَمَعِي صَوَاحِبُ لِي، فَصَرَخَتْ بِي، فَأَتَيْتُهَا لَا أَدْرِي مَا تُرِيدُ بِي، فَأَخَذَتْ بِيَدِي حَتَّى أَوْقَفَتْنِي عَلَى بَابِ الدَّارِ وَإِنِّي لَأُنْهِجُ، حَتَّى سَكَنَ بَعْضُ نَفَسِي، ثُمَّ أَخَذَتْ شَيْئًا مِنْ مَاءٍ فَمَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي وَرَأْسِي، ثُمَّ أَدْخَلَتْنِي الدَّارَ، فَإِذَا نِسْوَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْبَيْتِ، فَقُلْنَ: عَلَى الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، وَعَلَى خَيْرِ طَائِرٍ[(٥)]. فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِنَّ، فَأَصْلَحْنَ مِنْ شَأْنِي فَلَمْ يَرُعْنِي[(٦)] إِلَّا رسول الله ﷺ ضُحًى فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ[(٧)].

٣- عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّهَا زَفَّتْ امْرَأَةً إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ نَبِيُّ الله ﷺ: يَا عَائِشَةُ! مَا كَانَ مَعَكُمْ لَهْوٌ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمْ اللهوُ. [(٨)]

وجه الدلالة من الأحاديث: أفادت هذه الأحاديث أن النساء في عهد النبي ﷺ، كن يذهبن إلى الأفراح، ولم ينكر النبي ﷺ عليهن، فدلَّ هذا على جواز خروج المرأة؛ لشهود العرس، سواء كان عرس أقاربهن، أو غيرهم.

الثالث عشر: خروج المرأة ليلًا:

عَنْ عَلِيِّ بْنُ الْحُسَيْنِ -رضي الله عنهما- أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا: جَاءَتْ إِلَى رسول الله ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ

---

(١) (فوعكت) أي: أخذني ألم الحمى.

(٢) (فتمرق شعري) يقال: مرق شعره، وتمرق وأمرق، إذا انتثر وتساقط من مرض أو غيره. (النهاية) ٤/ ٣٢١.

(٣) (جميمة) تصغير جمة: وهي الشعر النازل إلى الأذنين ونحوهما، أي: صار إلى هذا الحدِّ بعد أن كان قد ذهب بالمرض.

(٤) (أرجوحة) هي خشبة يلعب عليها الصبيان والجواري الصغار، يكون وسطها على مكان مرتفع. ويجلسون على طرفيها ويحركونها، فيرتفع جانب منها وينزل جانب.

(٥) (طائر) الطائر: الحظ، يطلق على الحظ من الخير والشر، والمراد هنا: على أفضل حظ وبركة.

(٦) (فلم يرعني) أي، لم يفجأني، ويأتني بغتة إلا هذا.

(٧) البخاري (٣٨٩٤)، ومسلم (١٤٢٢).

(٨) أخرجه البخاري (٥١٦٢).

سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رسول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: "عَلَى رِسْلِكُمَا. إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ" فَقَالَا: سُبْحَانَ الله، يَا الله! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا". (١)

الرابع عشر: خروج النفساء

قال الشيخ ابن باز: النفساء كغيرها من النساء لا حرج عليها من مغادرة بيتها للحاجة، فإن لم يكن حاجة، فالأفضل لجميع النساء لزوم البيوت؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (الأحزاب: ٣٣). (٢)

الوجه الثاني: الآداب التي تلتزم بها المرأة عند خروجها

فلا شك أن ما سبق يدل على أن المرأة في الإسلام ليست حبيسة الجدران، كما يزعم بذلك المفترون على الإسلام، فالمرأة في الإسلام تخرج من بيتها لحاجتها، إلا أن هناك آدابًا لابدَّ للمرأة أن تراعيها عند خروجها، وهذه الآداب هي:

١ـ أن تلتزم بالحجاب.

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (الأحزاب: ٥٩). وقال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور: ٣١).

فينبغي عند خروجها أن تكون حالتها على وفق ما يقتضيه الشرع، وما يلزم به من العفة، والتستر الذي ينافي التبرج والسفور.

٢ـ أن تلتزم الحياء في مشيتها.

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ (القصص: ٢٥).

٣ـ ألا تمس طيبًا:

(١) البخاري (٢٠٣٥، ٢٠٣٨، ٢٠٣٩، ٣١٠١، ٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) فتاوى العلماء للنساء ص٢٣.

وذلك لما روي عن زينب امرأة عبد الله، قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: "إذا شهدت إحداكن المسجد، فلا تمس طيبًا"[١].

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: "أيما امرأة أصابت بخورًا فلا تشهد معنا العشاء الآخرة".[٢]

قال ابن حزم: ولا يحل لهن أن يخرجن متطيبات. وهذا التحريم محله إذا كانت ستمر في طريقها على الرجال، أما إذا كان خروجها لمجمع النساء، ولا تمر في الطريق على الرجال، ففي هذه الحالة يجوز لها أن تمس من الطيب والعطور[٣].

قال الشيخ ابن باز: يجوز للمرأة -أي التطيب- إذا كان خروجها لمجمع نسائي، ولا تمر في الطريق على الرجال، أما خروجها بالطيب في الأسواق التي فيها الرجال فلا يجوز؛ لقول النبي ﷺ: " أَيُّما امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُورًا، فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ" ولأحاديث أخرى وردت في ذلك؛ ولأن خروجها بالطيب في طريق الرجال ومجامع الرجال كالمساجد من أسباب الفتنة بها. [٤]

وقال الشيخ ابن عثيمين: خروج المرأة متطيبة إلى السوق مُحَرَّم لما في ذلك من الفتنة، أما إذا كانت المرأة ستركب في السيارة، ولا يظهر ريحها إلا لمن يحل له أن تظهر الريح عنده، وستنزل فورًا بدون أن يكون هناك رجال حول المدرسة، فهذا لا بأس به؛ لأنه ليس في هذا محذور، فهي في سيارتها كأنها في بيتها. [٥]

٤ـ أن تترك مزاحمة الرجال.

---

(١) صحيح. تقدم تخريجه.

(٢) مسلم (٤٤٤).

(٣) المحلى٣/ ١٢٩.

(٤) فتاوى العلماء للنساء (٤٩).

(٥) فتاوى العلماء للنساء (١٢٤-١٢٥).

وقد دلَّ على ذلك ما روي عن هند بنت الحارث "أن أم سلمة زوج النبي ﷺ أخبرتها، أن النساء في عهد رسول الله ﷺ، كن إذا سلمن من المكتوبة، قمن وثبت رسول الله ﷺ ومن صلى من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال".

ومما سبق يتبين لمن عنده ذرة من إنصاف أن المرأة في الإسلام ليست حبيسة، كما يدعي البعض، فقائل هذا القول، لا يخرج حاله عن وصفين فهو: إما جاهل بأحكام الإسلام، وإما حاقد للإسلام.

الوجه الثالث: حال المرأة في الكتاب المقدس
عليها أن تلزم بيتها وتخضع لزوجها:

يتحدث بولس عن واجبات النساء قائلًا: مُتَعَقِّلاَتٍ، عَفِيفَاتٍ، مُلاَزِمَاتٍ بُيُوتَهُنَّ، صَالِحَاتٍ، خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ، لِكَيْ لاَ يُجَدَّفَ عَلَى كَلِمَةِ الله (تيطس ٢: ٥)

هذا ولا يحل للمرأة في الكنيسة القبطية أن تكون حاضرة بتاتا أثناء قيام الكاهن بإعداد القربان المقدس. هذا القربان لا يقوم بإعداده سوى كاهن أو راهب بعد غروب الشمس عشية السبت السابق للقداس ولا يحل للمرأة الحائض أن تتناول من هذا القربان المقدس بل ولا أن تدخل الكنيسة كما هو معروف ومتبع لديهم، وقد نقل ابن العسال في المجموع الصفوي نص القانون الصادر في مجمع نيقية في ذلك وهو: (لا تدخل الحائض الكنيسة ولا تتقرب إلى أن تنقضي أيام حيضتها ولو كانت من نساء الملوك وإن تعدى على ذلك كاهن فليسقط) (ومن الأمور المحرمة على المرأة المسيحية هي دخولها للهيكل عامةً، وهذا المنع كان ضمن القوانين التي صدرت في المجمع الثامن في اللاذقية وقد أصدر هذا المجمع ٥٩ قانونًا من بينها تحريم دخول النساء الهيكل، كما هو مذكور في كتاب (مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة) للعالم النصراني ابن كبر من علماء القرن الرابع عشر - الجزء الأول - ولا ندري كيف يتفق كل هذا مع قولهم إنه لا ذكر أو أنثى في المسيح بل الجميع واحد و بالمسيح و للمسيح؟!

وأخيرًا ننقل لك - عزيزي القارىء - ماذكره المفسر المسيحي -وليم باركلي- عن المرأة ومنزلتها بحسب النظرة اليهودية فيقول: بحسب الناموس اليهودي كانت المرأة تعتبر أقل من الرجل بكثير. فقد خلقت من ضلع من أضلاع آدم (تكوين ٢: ٢٢ و ٢٣)،

وخلقت لأجل الرجل لتكون معينًا له ورفيقًا (تكوين ٢: ١٨). ويصور التلمود، تفسيرًا لذلك، فيقول والكلام للمفسر المسيحي وليم باركلي: إن الله لم يخلق المرأة من رأس الرجل لئلا تتكبر وتتفاخر عليه ولا من عينه لئلا تحقد وتحسد، ولا من يده لئلا تصبح طماعة جشعة، ولا من قدمه لئلا تصبح مجرد جسم هائم على وجهه، ولكنه خلقها من ضلع من أضلاعه. والضلع دائمًا مغطى، ولذلك فالتواضع ينبغي أن يكون صفتها الأولى ". ومن الحقائق التعسة أن المرأة بحسب الناموس اليهودي كانت تعتبر شيئًا، وجزءًا من ممتلكات زوجها، له عليها السلطان الكامل وحق التصرف المطلق.

وفي السنهدريم مثلًا، لم يكن للنساء أي حق في المشاركة في العبادة، ولكنهن كن يعزلن تمامًا عن الرجال في رواق خاص يغلق عليهن في أي جزء من المبنى. ولم يكن يخطر بالبال، بحسب الناموس والتقليد اليهودي، أن النساء يمكن أن يطالبن بأي نوع من المساواة مع الرجال.

وفي (١كورنثوس ١٠-١١(نجد عبارة غريبة وهي أن النساء يجب أن تتغطي " من أجل الملائكة. "ولسنا نستطيع أن نحدد ما تعنيه هذه العبارة على وجه التأكيد، ولكن من المحتمل جدًّا أنها تحمل المعنى عينه الذي ورد في القصة القديمة الغريبة الواردة في (تكوين ٦: ٢١) التي تحكي لنا كيف وقع الملائكة في شرك فتنة النساء الحسنات وهكذا أخطأوا. فربما تكون الفكرة أن السيدة غير المغطاة تكون تجربة وفخًّاحتى بالنسبة للملائكة، لأن تقليدًا تلموديًا قديمًا يقول إن الذي أغوى الملائكة كان جمال شعر النساء الطويل. (١)

* * *

(١) نقلًا عن تفسير الدكتور وليم باركلي للعهد الجديد

٥ـ شبهة: تعليم المرأة.

نص الشبهة:

يموه بعض المغرضين ويزعم بعض الجاهلين، أن الإسلام لا يشجع على تعليم المرأة، وأنه يفضّل أن تبقى جاهلة أو أقرب إلى الجهل، وأن نبي الإسلام قال: "لا تعلموهن الكتابة" هكذا زعموا وهكذا افتروا على الإسلام.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الحديث لايصح فلا يجوز الاحتجاج به.

الوجه الثاني: على فرض صحة الحديث فهو محمول على ترتب تعليمها فسادًا يضر بها وبالمجتمع.

الوجه الثالث: حرص الإسلام على تعلم وتعليم المرأة.

الوجه الرابع: أن الإسلام حثَّ على طلب العلم وما فُرق في ذلك بين رجل وامرأة.

الوجه الخامس: أن النساء كنَّ في عهد النبي ﷺ يخرجن؛ ليسألن عن الحكم في نوازل وقعت لهن، وقد أقرهن رسول الله ﷺ على الخروج لمثل ذلك؛ فدل هذا على جواز خروج المرأة لطلب العلم.

الوجه السادس: أن فقهاء المسلمين قالوا بوجوب تعلم المرأة.

الوجه السابع: طلب العلم حق للمرأة كما هو حق للرجل وهذه هي المساواة بين الرجل والمرأة التي حافظ عليها الإسلام.

الوجه الثامن: المسئولية التي كلفت بها المرأة المسلمة تستوجب عليها أن تكون طالبة علم.

الوجه التاسع: تاريخ تعليم وتعلم المرأة المسلمة في ظل الحضارة الإسلامية.

الوجه العاشر: تاريخ غير المسلمين في مسألة تعليم المرأة عبر عصورهم.

الوجه الحادي عشر: ماذا عن تعليم المرأة في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الحديث لايصح فلا يجوز الاحتجاج به.

أي حديث: لا تعلموهن الكتابة ولا تسكنوهن الغرف. [١]

قال شمس الحق آبادى: وأحاديث النهى عن الكتابة كلها من الأباطيل والموضوعات

إلى أن قال: وخلاصة الكلام أنه لا ريب في جواز تعليم الكتابة للنساء البالغات المشتهيات بواسطة النساء الأخريات أو بواسطة محارمهن، أما البنات غير البالغات وغير المشتهيات فيتعلمن ممن شئن.

وليست الكتابة سببًا للافتتان لأنها إن كانت سببًا للفتنة لما أباحها الشارع، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: ٦٤)، والتي تصاب بفتنة إنما تصاب بأمر غير الكتاب.

قال الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود: أما ما يذكر من نهي النساء عن الكتابة فإن الحديث مكذوب على رسول الله ﷺ، وقد حقق العلماء بطلانه فسقط الاحتجاج به.

وقول الحق هو أن المرأة كالرجل في تعلم الكتابة والقراءة والمطالعة في كتب الدين والأخلاق وقوانين الصحة والتدبير وتربية العيال ومبادئ العلوم والفنون، من العقائد الصحيحة والتفاسير والسير والتاريخ وكتب الحديث والفقه، كان هذا حسن في حقها،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٧١٣)، والخطيب فى تاريخ بغداد١٤/ ٢٢٤، والبيهقى فى الشعب (٢٤٥٤) من طريق محمد بن إبراهيم الشامي، قال البيهقي في الشعب (٢٤٥٤): وهو بهذا الإسناد منكر.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٤/ ٩٣: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن إبراهيم الشامي، قال الدراقطني: كذاب.

وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة صـ ١٢٩: رواه الخطيب مرفوعًا، وفي إسناده محمد بن إبراهيم الشامي كان يضع الحديث.

وأخرجه الحاكم فى المستدرك٢/ ٤٣٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٥٣) كلاهما من طريق عبد الوهاب بن الضحاك، عن شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة.

قال الحاكم: صحيح الاسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبى معلقا: بل موضوع.

قال الحافظ ابن حجر فى الأطراف: إن في إسناده الحاكم عبد الوهاب بن الضحاك وهو متروك.

وانظر: تعليق الألباني رحمه الله على حديث (٢٠١٧) من (سلسلة الأحاديث الضعيفة).

تخرج به عن حضيض جهلها، ولا يجادل في حسنه عاقل، مع الالتزام بالحشمة والصيانة وعدم الاختلاط بالرجال الأجانب.

الوجه الثاني: على فرض صحة الحديث فهو محمول على ترتب تعليمها فسادًا يضر بها وبالمجتمع.

قال الشوكاني: فالنهي عن تعليم الكتابة في هذا الحديث محمول على من يخشى من تعليمها الفساد[١].

قال القرطبي: كذلك تعليم الكتابة ربما كان سببا للفتنة وذلك إذا علمت الكتابة كتبت إلى من تهوى والكتابة عين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب والخط هو آثار يده وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان فهو أبلغ من اللسان فأحب رسول الله ﷺ أن ينقطع عنهن أسباب الفتنة تحصينا لهن وطهارة لقلوبهن[٢].

الوجه الثالث: حرص الإسلام على تعلم وتعليم المرأة.

إن الإسلام حرص كل الحرص على تعليم المرأة ما تكون به عنصر صلاح وإصلاح في مجتمع إسلامي متطور إلى الكمال، متقدم إلى القوة والمجد، آمن مطمئن سعيد. ولتحقيق هذا الهدف حرص على اشتراكها في المجامع الإسلامية العامة الكبرى منها والصغرى، فأذن لها بحضور صلاة الجماعة، وأن تشهد صلاة الجمعة وخطبتها. ورغبها في أن تشهد صلاة العيد وخطبتها حتى ولو كانت في حالة العذر المانع لها من أداء الصلاة، وأمرها بالحج والعمرة. وحثها على حضور مجالس العلم. وخاطب الله النساء بمثل ما خاطب به الرجال، وجعلهن مندرجات في عموم خطاب الرجال في معظم الأحوال حرصًا على تعليمهن وتثقيفهن وتعريفهن أمور دينهن ومشاركتهن في القضايا العامة.

---

(١) نيل الأوطار٩/ ٨٥.

(٢) تفسير القرطبى٢٠/ ١١١.

وقد كان الرسول ﷺ يخصص للنساء أيامًا يجتمعن فيها، ويعلمهن مما علمه الله، إضافة إلى الأيام التي يحضرن فيها مع الرجال، ليتزودن من العلم ما يخصهن ويتعلق بشؤونهن مما ينفردن به عن الرجال بمقتضى تكوينهن الجسدي والنفسي.

إن أول ما بدئ به من الوحي قول الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ (العلق: ١-٥)، ولقد بدأ الوحي بالأمر بالقراءة؛ لأنها أهم وسائل تثبيت المعرفة ومتابعة حلقاتها، والقراءة إنما تكون بعد الكتابة، ومن أجل ذلك أظهر الله منته على عباده إذ علم بالقلم، فعلم الإنسان -كل الإنسان بشطريه الذكر والأنثى- ما لم يعلم.

وهذه الدعوة التي دعا الله بها الإنسان إلى العلم منذ اللحظات الأولى التي بدأ بها إنزال تعاليم الإسلام أكبر برهان يدل على التسوية التامة بين شطري الإنسان الذكر والأنثى في ميدان دعوتها إلى العلم والمعرفة.

الوجه الرابع: أن الإسلام حثَّ على طلب العلم وما فُرق في ذلك بين رجل وامرأة.

قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ (المجادلة: ١١)، وقال سبحانه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩)، وقال ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ (طه: ١١٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ (سورة البقرة: ٢٦٩)، وقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾ (آل عمران: ١٨)، وقال النبي ﷺ: "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين".

وقال ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، وقال ﷺ: "نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها كما سمعها".

وكل هذه النصوص عامة، يدخل فيها الرجال والنساء.

الوجه الخامس: أن النساء كنَّ في عهد النبي ﷺ يخرجن؛ ليسألن عن الحكم في نوازل وقعت لهن، وقد أقرهن رسول الله ﷺ على الخروج لمثل ذلك؛ فدل هذا على جواز خروج المرأة لطلب العلم.

وهاهي بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

١- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: قَالَتْ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ[١]، فَاجْعَلْ لَنَا[٢] يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: "مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنْ النَّارِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: وَاثْنَتَيْنِ"[٣].

قال الحافظ: وفي الحديث ما كان عليه نساء الصحابة من الحرص على تعلم أمور الدين.[٤]

٢- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رسول الله ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رسول الله! إِنَّ الله لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ[٥]، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِذَا

---

(١) غلبنا عليك الرجال، أي: أن الرجال أخذوا كل وقتك ومجلسك.

(٢) فاجعل لنا، أي: عين لنا.

(٣) البخاري (١٠١، ١٠٢)، ومسلم (٢٦٣٣، ٢٦٣٤)

(٤) الفتح ١/ ٢٣٧. ففي الحديث: أن النساء طلبن من النبي ﷺ أن يخصص لهن يومًا لتعليمهن أمور الدين؛ لأن الرجال أخذوا كل وقت النبي ﷺ، ولقد لبى النبي ﷺ طلبهن.

قال شيخنا/ مصطفى العدوي: لا أعلم مانعًا من أن يخصص العالم يومًا لتعليم النساء ما دام هذا العالم متخلقًا بالأخلاق الشرعية والآداب النبوية التي سنها النبي ﷺ، وما دامت الفتنة مأمونة، والخلوة منتفية، والتستر موجودًا وقائم، واستحب أن يكون ذلك من وراء حجاب، لقول الله- تعالى-: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

وكذلك ليكن النساء متخلقات بأخلاق المسلمات التي سنها لهن رسول الله ﷺ عند الخروج من البيوت، وعند الحديث، وعند السؤال، والمعصوم من عصمه الله -تعالى- والله أعلم.

(٥) (إن الله لا يستحيي من الحق) قدمت هذا القول تمهيدًا لعذرها في ذكر ما يستحي منه

رَأَتْ الْمَاءَ"[١] فَغطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ -تَعْنِي وَجْهَهَا -وَقَالَتْ: يَا رسول الله! أَوَ تَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: "نَعَمْ تَرِبَتْ يَمِينُكِ فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا؟ "[٢].

٣- عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ غُسْلِهَا مِنْ الْمَحِيضِ، فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ، قَالَ: "خُذِي فِرْصَةً[٣] مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا" قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ؟ قَالَ: "تَطَهَّرِي بِهَا" قَالَتْ: كَيْفَ؟ قَالَ: "سُبْحَانَ الله تَطَهَّرِي" فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ، فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ.[٤][٥]

٤- عن أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ؛ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فقَالت: يَا نَبِيَّ الله! لَيْسَ لِي شيء إلا مَا أَدْخَلَ عَلَيَّ الزُّبَيْرُ، فَهَلْ عَلَي جُنَاحٌ أَنْ أَرْضَخَ[٦] مِمَّا يُدْخِلُ عَلَي؟ فَقَالَ: "ارْضَخِي مَا اسْتَطَعْتِ، وَلا تُوعِي[٧] فَيُوعِيَ الله عَلَيْكِ.[٨]

٥- عَنْ أَسْمَاءَ قَالت: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ لِي ضَرَّةً[٩]، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَتَشَبَّعَ مِنْ مَالِ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: "الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ"[١٠][١].

---

(١) (إذا رأت الماء) أي المني: بعد الاستيقاظ. قاله في (الفتح) ١/ ٤٦٣.

(٢) البخاري (١٣٠)، ومسلم (٣١٣).

(٣) (فرصة) الفرصة: هي القطعة من الصوف أو القطن، أو جلدة عليها صوف.

(٤) (أثر الدَّم) يعني: الفرج، قال النووي: والسنة في حق المغتسلة مـن الحـيض أن تأخـذ شـيئًا مـن مسـك فتجعله في قطنة، أو خرقة أو نحوها، وتدخلها في فرجها بعد اغتسالها، ويستحب هذا للنفساء أيضًا؛ لأنها في معنى الحائض والمقصود باستعمال المسك تطييب المحل، ورفع الرائحة الكريهة. اهـ.

(٥) البخاري (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢).

(٦) أرضخ؛ الرضخ: هو العطاء القليل، ومعناه: أُعطِي شيئًا قليلًا. القاموس المحيط مادة (رضخ).

(٧) لا توعي أي: لا تقتري ولا تشحي. (النهاية٥/ ٢٠٨).

(٨) البخاري (١٤٣٤)، (٢٥٩٠)، ومسلم (١٠٢٩).

(٩) (ضرة) ضَرَّة المرأة: امرأة زوجها، والجمع ضَرَّات. (المصباح المنير) (ص٣٦٠).

(١٠) (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور) قال أبو عبيد في (غريب الحديث): يعني المتزين بأكثر مما عنـده، يتكثر بذلك، ويتزين بالباطل. كالمرأة تكون للرجل، ولها ضرة فتشبع بما تدعي من الحظوة عند زوجها بـأكثر مما عنده لها؛ تريد بذلك غيظ صاحبتها، وإدخال الأذى عليها، وكذلك هذا في الرجال أيضًا.

٦- عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ، أَنَّ أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصٍ طَلَّقَهَا الْبَتَّةَ(٢) وَهُوَ غَائِبٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وَكِيلُهُ بِشَعِيرٍ، فَسَخِطَتْهُ(٣)، فَقَالَ: وَاللهِ مَا لَكِ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ، فَجَاءَتْ رسول الله ﷺ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: "لَيْسَ لَكِ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ" فَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَّ(٤) فِي بَيْتِ أُمِّ شَرِيكٍ، ثُمَّ قَالَ: "تِلْكِ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي اعْتَدِّي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ، فَإِذَا حَلَلْتِ(٥) فَآذِنِينِي"(٦) قَالَتْ: فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي، فَقَالَ رسول الله ﷺ: "أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ(٧)، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ(٨) لَا مَالَ لَهُ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ"، فَكَرِهْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: "انْكِحِي أُسَامَةَ"، فَنَكَحْتُهُ، فَجَعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا وَاغْتَبَطْتُ(٩)(١٠).

٧- عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيِّ، يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ، فَيَسْأَلَهَا عَنْ حَدِيثِهَا، وَعَمَّا قَالَ لَهَا رسول الله ﷺ حِينَ اسْتَفْتَتْهُ، فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ يُخْبِرُهُ: أَنَّ سُبَيْعَةَ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ وَهُوَ فِي بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ

---

(١) البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠).

(٢) (البتة) أي: طلقها ثلاثًا.

(٣) (فسخطته) أي: ما رضيت به لكونه شعيرًا، أو لكونه قليلًا.

(٤) أن تعتد أي: تستوفي عدتها.

(٥) حللت أي: انتهيتي من عدتك.

(٦) فآذنيني أي: أعلميني.

(٧) لا يضع عصاه عن عاتقه كناية عن كثرة ضربه للنساء.

(٨) صعلوك أي: فقير في الغاية.

(٩) اغتبطت الغبطة: أن يتمنى مثل حال المغبوط من غير إرادة زوالها عنه، وليس هو بحسد.

(١٠) مسلم (١٤٨٠).

وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا[١] تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ- رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ مُتَجَمِّلَةً! لَعَلَّكِ تَرْجِينَ النِّكَاحَ؟ إِنَّكِ وَاللهِ، مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي[٢] حِينَ أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رسول الله ﷺ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي.[٣].

٨- عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ -رضي الله عَنْهُمَا- قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رسول الله ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رسول الله ﷺ، قُلْتُ: إن أمي قدمت وَهِيَ رَاغِبَةٌ[٤]: أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ[٥].

٩- عَنَ سعد بن أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رسول الله ﷺ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ يسألنه وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رسول الله ﷺ، وَرسول الله ﷺ يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ يَا رسول الله بأبي أنت وأمّي، فَقَالَ: "عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تبادَرْنَ الْحِجَابَ" فقَالَ: أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رسول الله، ثُمَّ أقبل عليهنَّ فقَالَ يا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ! أَتَهَبْنَنِي وَلَا تَهَبْنَ رسول الله ﷺ! قُلْنَ: نَعَمْ، إِنْكَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رسول الله ﷺ، قَالَ رسول الله ﷺ: "إيه يا ابن الخطاب، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا[٦] غَيْرَ فَجِّكَ"[١].

---

(١) تعلّت من نفاسها المراد: انتهت فترة نفاسها، وطهرت منه.

(٢) جمعت علي ثيابي أي: لبست الثياب التي نبرز بها إلى الناس من الإزار والعمامة والدرع والخمار. النهاية١/ ٢٩٧.

(٣) أخرجه مسلم (١٤٨٤).

(٤) راغبة أي: راغبة في صلتي.

(٥) البخاري (٢٦٢٠، ٣١٨٣)، ومسلم (١٠٠٣).

(٦) فجًا الفجاج: جمع فج، وهو الطريق الواسع. (النهاية) (٣/ ٤١٢).

الوجه السادس: أن فقهاء المسلمين قالوا بوجوب تعلم المرأة، وها هي بعض أقوالهم شاهدة على ذلك.

قال ابن حزم: ويجب عليهن - أي النساء- النفار للتفقه في الدين كوجوبه على الرجال، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة، والصلاة، والصيام، وما يحل، وما يحرم: من المآكل، والمشارب، والملابس كالرجال، ولا فرق، وأن يُعَلمن الأقوال والأعمال، إما بأنفسهن، وإما بالإباحة لهن لقاء من يعلمهن، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك(٢).

وقال ابن الجوزي: المرأة شخص مُكَلف كالرجل، فيجب عليها طلب علم الواجبات عليها؛ لتكون من أدائها على يقين، فإن كان لها أب، أو أخ، أو زوج، أو محرم يعلمها الفرائض، ويُعرِّفها كيف تؤدي الواجبات، كفاها ذلك، وإن لم يكن؛ سألت وتعلمت، فإن قدرت على امرأة تعلم ذلك تعرفت منها، وإلا تعلمت من الأشياخ، وذوي الأسنان من غير خلوة بها، وتقتصر على قدر اللازم، ومتى حدثت لها حادثة في دينها سألت عنها، ولم تستح، فإن الله لا يستحي من الحق. (٣)

وقال الغزالي: فإن كان الرجل قائمًا بتعليمها، فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قَصُرَ علم الرجل، ولكنه ناب عنها في السؤال، فأخبرها بجواب المفتي، فليس لها الخروج، فإن لم يكن ذلك، فلها الخروج للسؤال، بل عليها ذلك، ويعصى الرجل بمنعها، ومهما تعلمت من الفرائض، فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر، ولا إلى تعلم فضل - أي علم زائد عما يجب - إلا برضاه. (٤)

الوجه السابع: طلب العلم حق للمرأة كما هو حق للرجل وهذه هي المساواة بين الرجل والمرأة التي حافظ عليها الإسلام.

---

(١) البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦).

(٢) إحكام الأحكام١/ ٣٢٥، ٤١٣.

(٣) أحكام النساء (٣٨).

(٤) إحياء علوم الدين ٢/ ٤٤.

قال الألباني: والحق أن الكتابة والقراءة، نعمة من نعم الله تبارك و تعالى على البشر كما يشير إلى ذلك قوله ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ١-٥)، وهي كسائر النعم التي امتن الله بها عليهم وأراد منهم استعمالها في طاعته، فإذا وجد فيهم من يستعملها في غير مرضاته، فليس ذلك بالذي يخرجها عن كونها نعمة من نعمه، كنعمة البصر و السمع والكلام و غيرها، فكذلك الكتابة و القراءة، فلا ينبغي للآباء أن يحرموا بناتهم من تعلمها شريطة العناية بتربيتهن على الأخلاق الإسلامية، كما هو الواجب عليهم بالنسبة لأولادهم الذكور أيضا، فلا فرق في هذا بين الذكور و الإناث.

والأصل في ذلك أن كل ما يجب للذكور وجب للإناث، و ما يجوز لهم جاز لهن ولا فرق، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: "إنما النساء شقائق الرجال"، فلا يجوز التفريق إلا بنص يدل عليه، وهو مفقود فيما نحن فيه، بل النص على خلافه، وعلى وفق الأصل، وهو هذا الحديث الصحيح، فتشبث به ولا ترض به بديلًا، ولا تصغ إلى من قال:

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابة ... هذا لنا ولهن منا أن يبتن على جنابة!

فإن فيه هضما لحق النساء و تحقيرا لهن، وهن كما عرفت شقائق الرجال.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإنصاف والاعتدال في الأمور كلها[1]

يقول د/على عبد الواحد وافي: يسوي الإسلام بين الرجل والمرأة في حق التعلم والثقافة. فقد أعطى المرأة الحق نفسه الذي أعطاه الرجل في هذه الشئون. فأباح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من علم وأدب وثقافة وتهذيب؛ بل إنه ليوجب عليها ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن قيامها بوظائفها في الحياة.

---

(١) السلسلة الصحيحة ١/ ٢٩٧: ٢٩٦.

ولا يفرق الإسلام في حق التعلم والثقافة بين الحرة والأمة، بل إن الرسول ﷺلم يحث على تعليم الحرة ولم يرغب في تثقيفها بمقدار ما حث على تعليم الأمة ورغب في تثقيفها وتأديبها. فقد روى البخاري في "صحيحه" عن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "أيما رجل كانت عنده وليدة -أي جارية- فعلمها فأحسن تعليمها. وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران".

وقد ضرب الرسول ﷺأروع مثل في تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في حق التعلم والثقافة وفي حرصه على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجه حفصة أم المؤمنين. فقد روت كتب السنة والتاريخ أن الشفاء العدوية، وهي سيدة من بني عدى رهط عمر بن الخطاب، كانت كاتبة في الجاهلية، وكانت تعلم الفتيات، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول ﷺ. ولما تزوجهاﷺطلب إلى الشفاء العدوية أن تتابع تثقيفها وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة. عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا عند حفصة، فقال لي: "ألا تعلمين هذه رُقية النملة كما علمتها الكتابة"، ويقصد برقية النملة تحسين الخط وتزيينه[1][2].

ومن هذا يظهر أن الإسلام قد هيأ للنساء على العموم فرصًا للتربية الراقية من انتهزنها منهن بلغن أعلى المراتب التي قدر للرجال بلوغها، فلم يكن السبب في الجهل الذي كان فاشيًا بين النساء المسلمات في الجيل الماضي راجعًا إلى النظم التربوية في الإسلام، وإنما كان

---

(١) المرأة في الإسلام (٢٤-٣٠).

(٢) قلت: الحديث أخرجه النسائى فى الكبرى (٧٥٤٣)، مصنف عبد الرزاق (١٩٧٦٨)، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٧٨) ثم قال معلقًا على الحديث: و في الحديث فوائد كثيرة أهمها اثنتان:

الأولى: مشروعية ترقية المرء لغيره بما لا شرك فيه من الرقى، بخلاف طلب الرقية من غيره فهو مكروه لحديث " سبقك بها عكاشة " و هو معروف مشهور.

والأخرى: مشروعية تعليم المرأة الكتابة. و من أبواب البخاري في" الأدب المفرد " (١١١٨): " باب الكتابة إلى النساء و جوابهن ".

السبب في ذلك انحراف المسلمين عما سنه الإسلام من نظم في شئون التربية والتعليم. وإذا كانت الأمم الإسلامية قد اتجهت في العصر الحاضر إلى تربية البنت وتثقيفها، فإنها بذلك لم تأت بدعًا من العمل في تاريخها، وإنها أحيت سنة صالحة سنها النبي ﷺ وأخذ بها الخلفاء والأمراء من بعده.

الوجه الثامن: المسئولية التي كلفت بها المرأة المسلمة تستوجب عليها أن تكون طالبة علم.

يقول ابن حزم: ويجبر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهن ما ذكرنا – يعني الطهارة والصلاة والصيام وما يحل وما يحرم من المآكل والمشارب والملابس والفروج والدماء والأقوال والأعمال –إما بأنفسهم وأما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهن، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواما لتعليم الجهال(١).

هذا هو الحد الأدني الذي ينبغي توفيره في التعليم، والمسئول عن كفالة حق التعليم للفرد رجلا كان أو امرأة، حرا كان أو عبدًا هي الدولة. وأكثر من هذا، فقد جعل الإسلام للمرأة الحق في أن تخرج طلبا للعلم الذي يجب عليها أن تعلمه أن كانت جاهلة ولم يعلمها زوجها، ذلك أن الإسلام كلف المرأة ببعض المسئوليات، ودعاها في الوقت نفسه إلى طلب العلم؛ لتتمكن من القيام بمسئولياتها على خير ما يرام.

ومن أوائل ما دعا الإسلام المرأة كلف المرأة ببعض المسئوليات، ودعاها في الوقت نفسه إلى طلب العلم لتتمكن من القيام بمسئولياتها على خير ما يرام. ومن أوائل ما دعا الإسلام المرأة إلى معرفته هو الحلال والحرام في سائر التصرفات. ومعرفة العقائد والعبادات والأخلاق الفاضلة وتهذيب النفوس. وقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات معا أن يقوا انفسهم وأهليهم النار فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا﴾ (التحريم: ٦) ولا يمكن أن يقوم الرجل أو المرأة بالوقاية ما لم يكن كلاهما قد تعلم كي يستطيع وقاية نفسه وغيره. وحكم

---

(١) الإحكام لابن حزم ٥/ ١١٤.

الذين آمنوا في هذه الآية تشمل المؤمنين والمؤمنات معًا.

لقد قال ﷺ: "والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها"(١)، فكيف تستطيع المرأة إدارة شئون منزلها إذا كانت جاهلة؟ ، وكيف تستطيع أن توجه طفلها توجيها سليما صائبا هادفا إذا لم تكن عارفة مطلعة على التعاليم الإسلامية؟.

وقد مهد الإسلام السبيل لطلب العلم، وجعل من واجب الحكومة الإسلامية أن تقوم بالإنفاق على الأولاد ذكورا وإناثا إذا ضاقت بآبائهم سبل الحياة، وكانوا فقراء عاجزين عن الإنفاق على تعليم أولادهم وبناتهم. إن الإسلام لم يمنع المرأة من تعليم شتى العلوم والفنون، ولم يحرم هذه العلوم عليها، ولكن المصلحة العامة –مصلحة الأمة- تقضي بأن تمارس المرأة بعض هذه العلوم دون البعض كالتدريس والتطبيب والتمريض وما شابه ذلك مما ينسجم وطبيعة تكونها ومقتضيات وظيفتها كأم. . . والإسلام يراعي دائما وأبدا مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة.

الوجه التاسع: تاريخ تعليم وتعلم المرأة المسلمة في ظل الحضارة الإسلامية.

كان تاريخًا مشرفًا في العلم والتعلم وقد برزت المرأة المسلمة في كثير من مجالات العلم في ظل حضارة الإسلام، والتاريخ الإسلامي حافل بأخبار النساء اللاتي بلغن منه العلم درجة رفيعة ومكانة عالية.

يقول الدكتور/علي عبد الحليم: فإذا كانت تلك هي الأصول الثابتة في تعلّم المرأة المسلمة؛ وتعليمها لتمارس حياتها وواجبها في الدعوة إلى الله، وهذا هو موقف الإسلام من تعلم المرأة وتعليمها، فمن أين جاءت تلك التهمة أو الفرية التي تزعم أن المرأة المسلمة غارقة في الجهل والتخلف؟ ومن أين جاءت المفتريات التي تزعم أن الإسلام قد حرم المرأة المسلمة من التعلم والتعليم، ومنعها من الخروج من البيت لتعلم أو لغيره؟ (٢).

(١) البخاري (٨٥٣)، مسلم (١٨٢٩).

(٢) المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله (٣٣٦ - ٣٤٠).

إن هذه الفرية رددها الحاقدون على الإسلام، من بعض المستشرقين والمبشرين والمستعمرين، على أمل أن تنطلي الخدعة على المسلمين، فتظل المرأة جاهلة غير متعلمة، لكي يحرموا الأسرة المسلمة من أم متعلمة واعية واسعة الثقافة، تحسن تربية أبنائها، وتنشئهم على القيم والمبادئ الإسلامية الرفيعة.

إن هؤلاء الأعداء نظروا إلى المرأة المسلمة في فترة كان العالم الإسلامي فيها في أسوأ حالاته، مقهورًا بأعدائه، متراجعًا عن حضارته، متخليًا عن أخلاق دينه وآدابه، محكومًا بمنهج فرضه عليه عدوه، فكان لابد أن يصيب المرأة المسلمة من هذا نصيب، كما كان لابد أن يحال بينها وبين التعليم والتعلم بسبب سياسة الأعداء للإسلام والمسلمين، فلما حدث هذا بسببهم قالوا: إن المرأة المسلمة جاهلة، وغير متحضرة، وأن هذا الجهل وذلك التراجع الحضاري راجع إلى أسباب دينية وتقاليد إسلامية!

إن مقولتهم تلك من أكذب الكذب على الإسلام؛ لأنه دين العلم والثقافة والمعرفة، الدين الذي كان أول ما نزل من كتابه على الرسول الخاتم ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق: ١ : ٥).

أي دين مجد القراءة والكتابة والعلم والتعلم والثقافة، كهذا الدين؟ أي دين جعل طلب العلم أو التعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟

إن تاريخ ومكانة المرأة المسلمة في ظل الحضارة الإسلامية، وقبل أن يقع العالم الإسلامي في براثن أعدائه من شرق وغرب، كان تاريخًا مشرفًا في العلم والتعلم والتعليم، إن المرأة المسلمة برزت في مجالات العلم وبخاصة العلوم الإسلامية حتى بلغ بعضهن في تلك العلوم شأوا بعيدًا، إن الإسلام لم يكتفِ بأن يجيز للمرأة أن تتعلم ما شاءت من علوم الدين والدنيا، بل أوجب عليها ذلك كما أوجبه على الرجل، وقد كانت النساء على عهد النبي ﷺ يتعلمن كالرجال، بل كان الرسول ﷺ قد حدد لهن موعدًا يحضرن فيه للعلم والتعلم، كما ورد ذلك في سنة النبي ﷺ، وسيرته.

وكان بعض أزواجه ﷺ كأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يؤخذ عنها العلم، وكانت بذلك تُعلِّم عددًا من الرجال الذين كانوا يتوجهون إليها بالسؤال عن حال رسول الله ﷺ، وهديه، كما كانت تعلم عددًا لا بأس به من النساء، وكان لبعض زوجات النبي ﷺ معرفة بكثير من قضايا التفسير لبعض آيات القرآن الكريم، وكثير من مسائل الفقه.

إن الإسلامَ حرَّض النساء على طلب العلم والتعلم كما أسلفنا، وبعد عهد الرسول ﷺ كان لبعض النساء المسلمات قدم راسخة في العلم، ولم يكن عددُهن قليلًا في أي قرن من القرون التي كانت الحضارة الإسلامية فيها مزدهرة.

وسوف أدلل على هذا بما يلي:

١- ذكر الحافظ ابن عساكر (٤٤٩-٥٧١هـ) المؤرخ المحدث الرحالة أن عدد شيوخه وأساتذته من النساء كان بضعًا وثمانين امرأة، فهل كان هؤلاء هن المتعلمات وحدهن؟ وله معجم سماه "معجم النسوان".

٢- وذكر الحافظ الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ) المؤرخ المحدث المحقق، وله مؤلفات عديدة في رواة الحديث النبوي، وقد قال عن روايات الحديث من النساء: وما علمت من النساء من اتهمت، ولا من تركوها. أي: لم يتهم أحد من المحدثين الذين رووا عن النساء إحداهن بما يطعن في روايتها، ولم يتركوا الرواية عن واحدة منهن، لفقدها شروط حمل الحديث وروايته.

وقد روى الإمام البخاري عددًا من الأحاديث النبوية في صحيحه عن بعض النساء من راويات الحديث.

وكان ممن عَلَّم الإمام الشافعي، وابن خلكان، وأبا حيان بعضُ النساء، كما حكى هؤلاء الأعلام ذلك بأنفسهم.

فقد ذكر ابن خلكان أن أستاذته أم المؤيد زينب بنت الشعري أخذتِ العلم من كبار العلماء وروته عنهم، وقد منحوها إجازة علمية في ذلك، ثم يقول ابن خلكان بعد ذلك: إنها منحته إجازة علمية كتبتها له سنة ٦١٠هـ".

وكان من النساء المسلمات من اشتغلن بالفقه والتدريس، ومنهن من اشتغلن بالطب والسياسة والاجتماع، والكثرة الكاثرة منهن اشتغلن بالتدريس، وكان عدد لا بأس به منهن قد انقطعن لتدريس العلوم الدينية.

وقد اشتُهر عدد كبير منهن في معظم مجالات العلم، يلتمس في كتب الطبقات مثل: "طبقات المحدثين"، "طبقات الأدباء"، "طبقات الأطباء" وغيرها، كما يلتمس في الكتب الموسعة، ولا نستطيع هنا أن نذكر مسردًا بأسمائهن، حتى لا نخرج عن سمت الكتاب. اهـ.

يقول الأستاذ إبراهيم النعمة: هكذا غرس الإسلام في نفس المرأة المسلمة خطب الجمع والعيدين وهي من وسائل التعليم والتربية وتهذيب النفوس. فقد أمر الرسول ﷺ أن تخرج البنات البالغات، أو اللائي قاربن المحيض واللائي تكون في حالة الحيض في عيدي الفطر والأضحى؛ ليتعلمن ما ينفعهن من تعاليم الإسلام[1].

فكانت هذه الأحاديث وغيرها دروسا قيمة ألقاها رسول الله ﷺ على ذلك المجتمع الذي غرق في ازدراء المرأة إلى الأذقان. . وقد أثمرت دروسه تلك، وآتت نتائج طيبة حيث أقبلت النساء في صدر الإسلام على رواية الحديث إقبالا عظيمًا، حتى أتى ابن سعد في الجزء الذي عقده من طبقاته لرواية الحديث من النساء على سبعمائة امرأة روين عن رسول الله ﷺ أو عن بعض أصحابه. وترجم ابن حجر في كتابه "الإصابة في تمييز الصحابة" لثلاثة وأربعين وخمسمائة وألف من المحدثات، وشهد لهن بالعلم ووثقهن.

وقد كتب كثير من العلماء الأوائل عن مراكز بعض النساء العلمية كالخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" والنووي في "تهذيب الأسماء واللغات" والسخاوي في "الضوء اللامع". . . إلخ، ونبغ في التاريخ الإسلامي عالمات خلد التاريخ ذكرهن، فكانت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عالمة جليلة، تحدث الناس، وتصحح للصحابة وتفتيهم، بل

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي العدد (١) ص٨٣.

وتستدرك على فتاواهم وأقوالهم، حتى ألف الإمام بدر الدين الزركشي كتابا سماه "الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة".

وكانت السيدة فاطمة بنت الشيخ علاء الدين السمرقندي مثلًا من آلاف الأمثلة التي يزخر بها تاريخنا الإسلامي، فقد درست العلوم والفنون حتى صارت الفتوى تخرج من بيت والدها وعليها خطها وخط والدها، فلما تزوج الشيخ علاء الدين الكاساني صارت الفتوى تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها. بل كانت ترد زوجها إلى الصواب إذا أخطأ وهو من هو في العلم، هو الذي شرح تحفة الشيخ السمرقندي حتى قيل: شرح تحفته وزوجه ابنته.

ومن العالمات اللائي خلد التاريخ ذكرهن: أم الواحد: ستيتة بنت القاضي الحسين بن إسماعيل الضبي المحاملي التي كانت من أحفظ الناس للفقه الشافعي. وكانت تحدث ويكتب عنها الحديث، وكانت تفتي من العلماء. توفيت سنة ٣٧٧هـ.

وكانت أم الفتح بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة من أعلم زمانها. كانت تتسم بتمسكها الشديد بتعاليم الإسلام، وكانت عاقلة رزينة حصيفة. أخذ عنها كثير من العلماء كثيرًا من العلوم توفيت سنة ٣٩٠هـ.

وكانت زينب بنت عبد الرحمن الشعري عالمة جليلة. وقد أخذ عنها أعيان العلماء رواية وإجازة. وممن أجازها الحافظ أبو الحسن الفارسي، وأبو القاسم الزمخشري صاحب تفسير "الكشاف" وقد أجازت هي ابن خلكان وكان صغيرًا؛ تشجيعًا له.

أما كريمة بنت أحمد المروزي، فكانت من أعلم الناس بالحديث بمكة، وقد قرأ عليها الخطيب البغدادي "صحيح البخاري".

وكانت عنيدة جدة أبي الخير التيناني الأقطع تجلس للتدريس فيجلس أمامها خمسمائة تلميذ من الرجال والنساء. وقل مثل ذلك عن الشيخة شهدة التي كانت تلقب بـ (فخر النساء). ونفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسين بن علي. . . إلخ.

ويكفينا أن نذكر في هذا المقام أن ابن عساكر عد أساتذته الذين أخذ عنهم، فكان منهم إحدى وثمانون امرأة كما قال ياقوت في "معجم الأدباء".

وذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان بالربض الشرقي في قرطبة ١٧٠ امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي علمًا بأن عدد أرباض –أحياء– مدينة قرطبة واحد وعشرون ربضًا كما يقول المقري في "نفح الطيب".

وكان لبعض الشواعر أثر كبير في الإسلام منهن ليلى الأخيلية، وحميدة بنت النعمان، وسكينة بنت الحسين التي كانت تنقد الشعراء في قصائدهم وتكون حكما بينهم. وبدانية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون التي كانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر لأبي علي الفارسي وتشرحهما، ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري التي من شعرها حين كبرت:

وما يرتجى من بنت سبعين حجة ... وسبع، كنسج العنكبوت المهلهل

تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصا ... ويمشي بها مشي الأسير المكبل

وقل مثل هذا عن رابعة العدوية، وزبيدة أم جعفر زوجة الرشيد، وحفصة بنت الحاج الدكوني، وتقية أم علي بنت أبي الفرج. . . وقد ألف السيوطي كتابا قيما في أشعار النساء عنوانه: "نزهة الجلساء في أشعار النساء".

هذه أمثلة أقل من القليل، تدلنا على مكانة المرأة العلمية في العصر الإسلامي، ومشاركتها في شتى العلوم والفنون، فقد كان كثير من النساء أساتذة للرجال، يدرسونهم، ثم يجيزونهم. ونجد في الإجازات العلمية أسماء عدد من النساء اللاتي أجزن الرجال. وإذا كان التاريخ لم ينقل إلينا أخبار كثير منهن، فإن من ذكرهن شاهد على المنزلة العلمية الكبيرة التي وصلت إليها المرأة المسلمة، وفي الوقت الذي كانت المرأة في أوربا تباع وتشترى، وقد سموها رجسا وجعلوها من سقط المتاع وقالوا عنها: إنها كائن لا نفس له، بل كانوا يبيعون زوجاتهم ويأخذون جميع أموالهن. يقول سان بونا فنتور من رجال

الكنيسة إلى تلاميذه: إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنًا بشريًا، بل ولا كائنا وحشيا، وإنما الذي ترون هو الشيطان بذاته، والذي تسمعون هو صفير الثعبان.

ويقول: ترتوليان من أقطاب المسيحية عن المرأة: إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان. وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة، ناقضة لقانون الله، ومشوهة لصورة الله - أي الرجل-.

وقد اعترف كثير من المستشرقين المنصفين والمستشرقات بالمنزلة العالية التي كانت تتبوأها المرأة المسلمة.

يقول بعض الذين أرخوا الحكم الثاني في الأندلس: إن نساء ذلك الزمن الذي كان للعلم والأدب شأن عظيم فيه ببلاد الأندلس كن محبات للدرس في خدورهن، وكان الكثير منهن يتميزن بدماثتهن ومعارفهن، وكان قصر الخليفة يضم لبنى، أي هذه الفتاة الجميلة العالمة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم والكاتبة البارعة التي كان الخليفة يعتمد عليها في كتابة رسائله الخاصة، والتي لم يكن في القصر مثلها دقة تفكير وعذوبة قريض، كما كان يضم أيضًا فاطمة التي كانت تكتب بإتقان نادر وتنسخ كتبا للخليفة، ويعجب جميع العلماء برسائلها، وتملك مجموعة ثمينة من كتب الفن والعلوم.

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع، ويلقين المحاضرات في المساجد ويفسرن أحكام الدين فكانت السيدة تنهي دراستها على يد كبار العلماء ثم تنهي دراستها على يد كبار العلماء ثم تنال منهم تصريحًا لتدرس هي بنفسها ما تعلمه، فتصبح الأستاذة الشيخة. كما لمعت من بينهن أديبات وشاعرات. والناس لا ترى في ذلك غضاضة أو خروجًا على التقليد.

على أن أحدًا لا يستطيع أن يجد نصًا واحدًا في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا في أقوال سلفنا الصالح يحرم تعليم البنات أو النساء، بل وجدنا على العكس نصوصًا كثيرة

تحث وتحض على طلب العلم، فالمرأة المسلمة بفضل من كانت مثالًا مشرفًا في ظل حضارة الإسلام، ويصف شوقي أمير الشعراء ذلك فيقول:

هذا رسول الله لـم ينقص حقوق المؤمناتِ
العلم كان شريعـة لنسائـــه المتفقِّهـات
رُضنَ التجارة والسياسة والشئون الأخريات
ولقـد عَلَـتْ ببنَاته لُجُجُ العلوم الزخـرات
كانت سكَيْنَةُ تملأ الد نـيـا وتهـزأ بالـرُّواةِ
روتِ الحديث وفسَّرتْ آي الكتـاب البَيِّنـاتِ

الوجه العاشر: تاريخ غير المسلمين في مسألة تعليم المرأة عبر عصورهم.

ويظهر سمو المبادئ الإسلامية-التي ذكرناها- بالموازنة بينها وبين ما تقرره الشرائع الأخرى في هذه الشئون.

فقوانين أثينا مثلًا، التي يعدها المؤرخون أكثر القوانين ديمقراطية في العصور القديمة، لا تتيح فرصة التعلم والثقافة إلا للأحرار من ذكور اليونان، بينما توصدها إيصادًا تامًا أمام النساء. وقد عبر عن وجهة نظرهم هذه أصدق تعبير، وصاغها في صورة نظرية علمية كبير فلاسفتهم أرسطو، إذ يقرر في كتابه "السياسة" أن الطبيعة لم تزود النساء بأي استعداد عقلي يعتد به، ولذلك يجب أن تقتصر تربيتهن على شئون تدبير المنزل والحضانة والأمومة. ولم يكن أرسطو في ذلك معبرًا عن رأيه الشخصي، وإنما كان مسجلًا لما كان يجرى عليه العمل في دولة أثينا التي يعدون نظامها أرقى نظام ديمقراطي في الأمم السابقة للإسلام. ولذلك حينما قرر أفلاطون في مدينته الخيالية "الجمهورية" مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في حق التعلم والثقافة والاضطلاع بمختلف الوظائف، كانت آراؤه موضع تهكم وسخرية من مفكري أثينا فلاسفتها وشعرائها، حتى أن أرستوفان عميد شعراء الكوميديا في ذلك العصر وقف تمثيليتين اثنتين من تمثيلياته على السخرية بهذه الآراء، وهما "برلمان النساء" و"بلوتوس".

وقد ظلت الأممَ الأوربية في العصور الحديثة نفسها تنكر على المرأة حق التعلم والثقافة حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير في منتصف القرن السابع عشر الميلادي شاعر فرنسا موليير Moliere (١٦٢٢-١٦٧٣) إذ يقول في مسرحيته: "النساء المتحذلقات" Les Femmes Savantes على لسان أحد أبطالها: إنه لا يليق بامرأة، لعدة اعتبارات، أن تضيع وقتها في التعلم والثقافة، فوظائفها الأساسية التي ينبغي أن تستأثر بكل جهودها وفلسفتها لا تتجاوز تربية الأولاد وشئون التدبير المنزلي، والسهر على حاجة أفراد الأسرة، والاقتصاد في نفقات البيت.

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلادي ظهرت أصوات ضعيفة تنادي بتعليم المرأة في حدود ضيقة كل الضيق، وكان على رأس المنادين بذلك العلامة الفرنسي فينلون Fenelon (١٦٥١-١٧٥١) في كتابه الذي ظهر سنة ١٦٨٠ تحت عنوان: "تربية البنات" L'Education des Filles ولكن هذه الأصوات- مع شدة تحفظها وتواضعها فيما نادت به- لم تلق استجابة يعتد بها من معظم الأمم الأوربية في ذلك العهد.

بل لقد ظلت التيارات المعادية لتعليم المرأة مسيطرة على أوربا الحديثة حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. وإليكم مثلًا عاهل بروسيا بسمارك Bimarck (١٨١٥-١٨٨٩) الذي حدد للمرأة الألمانية ثلاث مجالات لنشاطها لا تخرج عنها، وهي: تربية أطفالها؛ وشئون مطبخها؛ وأداء شعائرها الدينية في الكنيسة. ويطلق الألمان على هذه الوظائف اسم "الكافات الثلاث"؛ لأن كل وظيفة منها يبدأ اسمها في الألمانية بحرف "كاف" (drei k: kinder, kuch, kirch).

إن المرأة الأوربية هي التي كانت غارقة في الجهل، لا في العصور الوسطى-عندهم- وحدها، ولكن إلى وقت قريب لا يزيد عن قرن ونصف قرن إلى الوراء من وقتنا هذا - والعصور الوسطى عندهم عصور الظلام والتخلف كما وصفوها هم، توازي عندنا معشر

المسلمين عصور التقدم والرقي العلمي والفني، والتفوق في مختلف مجالات الحضارة الإنسانية.

إن الحضارة الأوربية في تلك القرون كانت تعتبر المرأة جزءًا من المتاع الذي يتلهى به الرجال عندما يريدون، دون زواج مشروع، ودون حقوق في كثير من الأحيان.

إن المرأة الأوربية حُرمت في ظل هذه الحضارة من كثير من حقوقها، حيث لم تكن ترث، ولا تملك، ولا تحتفظ باسم أبيها وعائلتها، وإنما تحمل اسم زوجها، وكانت عند الزوج كالأمة، حتى إنه كان يأمرها فلا تملك غير الطاعة، حتى في الأمور التي لا تقبلها الفطرة السوية.

ولم يكن هذا مكان المرأة، ولا تلك مكانتها في عصورهم الوسطى فحسب، ولكنه استمر إلى وقت قريب إلى قرن ونصف قرن من زماننا هذا -العقد الأخير من القرن العشرين- وعلى سبيل المثال لا الحصر:

فإن الإنجليز كانوا يعتبرون تعليم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال. فلما كانت "اليصابات بلاكويل" تتعلم في جامعة جنيف سنة ١٨٤٩م - وهي أول طبيبة في العالم- كانت النسوة المقيمات معها يقاطعنها، ويأبين أن يكلمنها، ويزوين ذيولهن عن طريقها احتقارًا لها، كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مَسَّها.

وإن الأمريكان عندما اجتهد بعضهم في إقامة معهد يعلم النساء الطب في مدينة "فلادلفيا" الأمريكية، أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل أن يعلم بهذا المعهد، وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء.

وإن الألمان هم الذين تنسب إليهم الكلمة التالية: إن خزائن ملابس المرأة هي مكتبتها، وأن الفرنسيين هم أصحاب فكرة أن المرأة يجب أن تحبس بين جدران أربعة[1].

---

(١) المرأة المسلمة، وفقه الدعوة إلى الله (٣٣٦ – ٣٤٠).

الوجه الحادي عشر: ماذا عن تعليم المرأة في الكتاب المقدس.

١كورنثوس ١٤: ٣٤ " لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا. وَلَكِنْ إِنْ كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئًا فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ لأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي كَنِيسَةٍ".

وفي الترجمة الكاثوليكية هكذا النص: " ولْتَصمُتِ النِّساءُ في الجَماعات، شَأنَها في جَميعِ كَنائِسِ القِدِّيسين، فإِنَّه لا يُؤذَنُ لَهُنَّ بِالتَّكلُّم. وعلَيهِنَّ أَن يَخضَعْنَ كما تَقولُ الشَّريعةُ أَيضًا. فإِن رَغِبْنَ في تَعلُّمِ شَيء، فلْيَسأَلْنَ أَزواجَهُنَّ في البَيت، لأَنَّه مِن غَيرِ اللاَّئِقِ لِلمَرأَةِ أَن تَتكلَّمَ في الجَماعة ".

والمقصود بعبارة: " كما تقول الشريعة " أو " كما يقول الناموس " هو ما جاء في (تكوين ٣: ١٦) من أن الرب جعل الرجل متسلطًا على المرأة فقال: " وَقَالَ لِلْمَرْاةِ: تَكْثِيرا أَكَثِّرُ اتْعَابَ حَبَلِكِ. بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلادًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ ". أي يتسلط عليك.

وعبارة: " شَأنَها في جَميعِ كَنائِسِ القِدِّيسين ". تفيد عمومية الطلب خلافًا لما ذهب إليه البعض من أن هذه الأوامر هي للمؤمنين في كورنثوس فقط.

وفي١تيموثاوس ٢: ١٢ - ١٤: "وَلَكِنْ لَسْتُ آذَنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلاَ تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ، لأَنَّ آدَمَ جُبِلَ أَوَّلًا ثُمَّ حَوَّاءُ، وَآدَمُ لَمْ يُغْوَ لَكِنَّ الْمَرْأَةَ أُغْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّي".

في هذا النص يؤكد بولس على سكوت المرأة وخضوعها وعدم قيامها بالتعليم لعدة أسباب:

١) لأن آدم جبل أولا ثم حواء أي السيادة للرجل وليس للمرأة.

٢) لأن المرأة أغويت أولا من قبل الشيطان، فالمرأة تستطيع بمشاعرها أن تعلم تعاليم خاطئة إذ تستطيع استمالة الرجال أيضًا وهذا ما حدث في كنيسة ثياتيرا (رؤيا يوحنا ٢٠: ٢) وكما حدث مع ألن هوايت نبيّة السبتيين.

٣) لأن مجال المرأة هو في تعليم أولادها في البيت أو في مدارس الأحد (التعليم المسيحي للأطفال) ١ تيموثاوس ١٥: ٢.

ويأكد المفسر المسيحي متى هنري هذا المعنى في تفسيره لما جاء في ١ كورنثوس ١٤: ٣٤ فيقول:
هنا يلزم الرسول النساء بالآتي:

١) أن يصمتن في الاجتماعات العامة، إذ لا يجب أن يسألن عن أي معلومة في الكنيسة بل يسألن أزواجهن في البيت. ويعد هذا حقيقته إشارة إلى أن النساء كن يصلين ويتنبأن أحيانًا في اجتماعات الكنيسة (١ كو ١١: ٥). ولكنه هنا يمنعهن عن أي عمل عام، حيث إنه غير مسموح لهن أن يتكلمن في الكنيسة (عدد ٣٤)، كما لا يجب السماح لهن بأن يعلمن في الجماعة، ولا حتى يسألن أسئلة في الكنيسة، بل يتعلمن في صمت.

أما إذا واجهتهن الصعوبات " فليسألن رجالهن في البيت ". وكما أن واجب المراة أن تتعلم في خضوع، فمن واجب الرجل أيضًا أن يمارس سلطانه، بأن يكون قادرًا على تعليمها، فإن كان قبيحًا بها أن تتكلم في الكنيسة، حيث يجب أن تصمت، فقبيح بالرجل أن يصمت حينما يكون من واجبه أن يتكلم، عندما تسأله في البيت.

٢) يختم الرسول بأنه قبيح بالمرأة أن تتكلم في الكنيسة فالقباحة أو العار هنا انعكاس غير مريح للذهن على شيء تم فعله بدون لياقة، وأي شيء لا يليق أكثر من أن تترك المرأة مكانها، إذ أنها خلقت لتخضع للرجل، وعليها الاحتفاظ بمكانها وترضى به.

يقول الدكتور. كامبل:

في الكتاب المقدس ستة وستون سفرًا جميعها كتبت بواسطة رجال. والله لم يختر امرأة واحدة لكتابة جزء واحد من فصول هذا الكتاب. كذلك لم يسمح لامرأة من سبط لاوي أن تتقلد كهنوتية للخدمة في خيمة الاجتماع أو في الهيكل في العهد القديم. أيضًا لم يختر الرب امرأة واحدة بين الإثني عشر رسولًا الذين كانوا جميعًا رجالًا. وبالإضافة إلى هؤلاء الإثني عشر أرسل الرب سبعين آخرين ولم نسمع عن أي منهم كان من النساء. وفي أعمال ٦ انتخب سبعة رجال مشهودًا لهم ومملوئين من الروح القدس والحكمة لأجل خدمة الموائد وحاجات الأرامل وليس بينهم امرأة واحدة.

وفي ١ كورنثوس ١٥ ذكر شهود كثيرون لتثبيت قيامة الرب وسميت أسماء رجال كثيرين ليس من بينهم اسم امرأة واحدة. وهذا له معناه الخصوصي، لأن مريم وهي أول من رأي الرب المقام والتي أرسلت منه بأول بشارة عن القيامة، ولكن حذف اسمها ضمن قائمة الشهود، أليس هذا دليلًا قويًا على أن الكتاب لا يعطي المرأة مكانًا في الشهادة العلنية؟

وفي الكنيسة الأولى ذكر عن إقامة أساقفة وشمامسة وشيوخ على التفصيل الوارد في رسالتي تيموثاوس الأولى ورسالة تيطس وجميع هؤلاء كانوا رجالًا ليس بينهم امرأة واحدة. كما أننا لا نقرأ عن امرأة مبشرة أو راعية أو معلمة بالمعنى العام المعروف في العهد الجديد. كذلك ولا امرأة واحدة ورد اسمها بين من صنعوا المعجزات العلنية. وفي رؤيا ١١ نقرأ عن شاهدين نبيين من الرجال، وليست نبيتين، ولا نبي ونبية، بل اثنين من الرجال.

المرأة ليست مجد الله وهي دون الرجل! !

قال بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس (١١: ٣ -٩): " وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَأْسَ كُلِّ رَجُلٍ هُوَ الْمَسِيحُ. وَأَمَّا رَأْسُ الْمَرْأَةِ فَهُوَ الرَّجُلُ. وَرَأْسُ الْمَسِيحِ هُوَ الله. . . . الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ الله وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ. لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ".

* * *

٦ـ شبهة: المساواة بين الرجل والمرأة.

نص الشبهة:

يفتري البعض كذبًا وزورًا أن الإسلام فضّل الرجل على المرأة ولم يسو بينهما وفى هذا ظلم بيّن للمرأة.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: الأمور التي جعل فيها الرجل والمرأة على قدم المساواة.

الوجه الثاني: لماذا خص الإسلام الرجال ببعض الأمور عن المرأة؟.

الوجه الثالث: ليست المساواة في كل الأحيان من العدالة.

الوجه الرابع: المساواة التي يدعو إليها الغرب مساواة زائفة.

الوجه الخامس: عدم المساواة بين الرجل والمرأة عند غير المسلمين.

واليك التفصيل

الوجه الأول: الأمور التي جعل فيها الرجل والمرأة على قدم المساواة.

١ـ التساوي في أصل الخلق:

يقرر القرآن الكريم أن المرأة خلقت من نفس الرجل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا. . . ﴾ (النساء: ١)، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الأعراف: ١٨٩)، وقال سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر: ٦).

ومعنى هذا أن المرأة لم تخلق من شيء مغاير لما خلق منه الرجل، بل خلقت منه، وأيضًا فإن هناك مساواة بين الرجال والنساء في أن كلًا منهما تولد عن المخلوقين اللذين خلقهما الله آدم عليه السلام وزوجه.

أ- فهي أخت الرجل؛ إذ تنسب وإياه إلى أب واحد، وأم واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ..﴾ (الحجرات: ١٣) ينادي الجميع بكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ معلنًا أنه خلقهم من أب واحد، وأم واحدة ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ...﴾ ولفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾

في اللغة يشمل أفراد الإنسان كافة رجالًا ونساء، فهو على هذا يقرر الأخوة -أخوة النسب- بين الرجل والمرأة؛ إذ خلقهما من ﴿ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾، فكل منهما شقيق الآخر، ورسوله ﷺ يقرر هذه الحقيقة بقوله: "إنما النساء شقائق الرجال" . . وأخوة النسب على هذا النحو تقتضي المساواة فيه؛ إذ لا يكون أحد الشقيقين أوفر حظًا في النسبة إلى أبويه من الآخر، فالمرأة على هذا مساوية للرجل في النسبة إلى الأبوين، لا تزيد فيها عنه ولا تنقص. وهي إنسان مثله مساوية في الإنسانية.

وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١)، وشاهدنا يتعلق من هذه الآية الكريمة بثلاث جمل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ فهو إذ يُنادي الجميع بكلمة (النَّاسُ) يختلف عن سابقه في المراد بالنداء، فهو هنا يطلب إليهم أن يتقوا ربهم، وهناك يخبرهم بخصائص روحية في النفس، ولا صلة لها بتة بها بين الأفراد من روابط النسب، وعلائق اللحم والدم: فإذا نودي (النَّاسُ) أن يتقوا ربهم، فالنداء متوجه إليهم باعتبار خصوصية الإنسانية فيهم، تلك الخصوصية التي تجعلهم نوعًا قائمًا بذاته بين (أنواع) كائنات هذه الأرض. . . وبما أن المرأة داخلة مع الرجل في مفهوم كلمة الناس- على ما قدمناه- فهي مخاطبة معه بتكاليف التقوى، أي: أن الخطاب متوجه إليها باعتبار خصوصية الإنسانية فيها، فهي -إذًا- إنسان كما هو إنسان.

والجملة الثانية: مما يتعلق به مرادنا قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ فإن دلالة هذا القول على النسبة الروحية أوضح وأوكد من دلالتها على قوة النسب الحسي الذي لا بد فيه من نفسين اثنتين (نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) ولا سيما أن النفس في اللغة تدلُّ على الروح، وعلى الصفات المعنوية للمرأة، ولا تقتصر دلالتها على شخص الإنسان الظاهر للحس.

والجملة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فإنها مع سابقتيها تسهم في توكيد

الدلالة على وحدة المعنى الإنساني، ذلك أن الجملة السابقة ترد الجميع إلى نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام أما هذه الجملة فتنفرد بتقرير نسبة الزوجة أم الجميع حواء عليها السلام إلى نفس المصدر الروحي الذي نسب إليها بنوها، فالأبناء -إذًا- وأمهم داخلون في التقويم الإنساني المستمد من خصائص تلك النفس الواحدة، ونعتقد أن ليس ثمة نص في قديم أو حديث عالج -في إيجاز وإعجاز- تقرير إنسانية المرأة من جميع النواحي، وبأبعد الأعماق أصالة وبمختلف طرق التقدير والتعبير على مثل ما نجد في ذلك النظم القدسي الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

٢- التساوي في الجزاء الأخروي:

لقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الجزاء الأخروي، فالرجل إذا عمل صالحًا في دنياه فإنه يثاب عليه في الآخرة، وأمَّا إذا عمل غير ذلك فإنه يحاسب عليه أيضًا.

وكذلك الحال بالنسبة للمرأة، فهي مساوية للرجل تمامًا في ذلك دونما أي فارق بينهما في ذلك، دلَّ على ذلك ما يلي: قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ (آل عمران: ١٩٥). وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (النساء: ١٢٤)، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ (التوبة: ٧٢)، وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ

وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٥)، وقال ﷻ: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(غافر: ٤٠)، وقال ﷻ: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(الفتح: ٥).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ (الحديد: ١٢).

فهذه الآيات الكريمات، تدل على أن أجور الناس على أعمالهم الصالحة واحدة في الكم والقيمة، بحيث لا يكون للذكورة، أو الأنوثة مدخل في تفاوت الأجور.

٣ـ التساوي في التكاليف الشرعية:

يقرر الإسلام مبدأ تساوي الرجال والنساء أمام التكليف الشرعي، دونما أي فارق بينهما في ذلك، ويكفي أن تقرأ الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة: ٧٢)، وقال ﷻ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣٠ -

٣١)، قال جل وعلا: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨)، وقال ﷻ: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٢)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٤).

والإجماع منعقد دون خلاف على تساوى الرجال والنساء في هذا الحكم بالنسبة للقاذفين والمقذوفين، كذلك ساوت الشريعة بينهما في الدماء، وقررت أن يقتل الرجل بالمرأة، قال جل وعلا: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩).

وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٨).

وهذه الآية تبين حكم النوع، إذا قتل نوعه، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر، فهي محكمة، وفيها إجمال يبينه قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (المائدة: ٤٥).

ومما له مغزاه في هذا المقام أن الله تعالى أشرك حواء مع آدم - عليهما السلام - فيما خاطبه به، وأمره ونهاه. . فحين أمره أن يسكن الجنة، ونهاه أن يأكل من الشجرة، وجَّه إليهما الخطاب معًا: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا

﴿ تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ (البقرة: ٣٥) وحين أنكر - سبحانه- ما كان من مخالفة أمره، وجه الإنكار إليهما معًا: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾(١).

٤ـ التساوي في الحقوق المادية:

أكد الإسلام احترام شخصية المرأة المعنوية، وَسَوَّاها بالرجل في أهلية الوجوب والأداء، وأثبت لها حقها في التصرف، ومباشرة جميع العقود: كحق البيع، وحق الشراء، وحق الدائن، وحق المدين، وحق الراهن، وحق المرتهن، كذلك حق الوكالة، والإجارة، والاتجار في المال الخاص، وما إلى ذلك، وكل هذه الحقوق المدنية واجبة النفاذ.

---

(١) يقول د/ محمد البلتاجي في مكانة المرأة (٨٨).

ونستطيع أن نقارن هذه المساواة بما في قانون العقوبات المصرى- الوضعى- المتأثر بالقانون الفرنسي- حيث ورد فيه: (مادة ٢٧٣- لا تجوز محاكمة الزانية إلا بناءً على دعوى زوجها، إلا أنه إذا زنى الزوج في المسكن المقيم فيه مع زوجته (كالمبين في المادة ٢٧٧) لا تسمع دعواه عليها.

مادة ٢٧٤- المرأة المتزوجة التي ثبت زناها يحكم عليه بالحبس مدة لا تزيد على سنتين، لكن لزوجها أن يقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرته لها كما كانت.

مادة ٢٧٥- ويعاقب أيضًا الزاني بتلك المرأة بنفس العقوبة هذا فيما يتصل بزنى الزوجة، أما ما يتصل بزنى الزوج فقد تناولته المادة ٢٧٧ ونصها: (كل زوج زنى في منزل الزوجية وثبت عليه هذا الأمر بدعوى الزوجة يجازي بالحبس مدة لا تزيد عن ستة شهور).

والأمر أوضح من أن نعلق عليه! فليس في القانون حق الله تعالى، وإنما فيه كرامة الزوج التي لا اعتبار لها أيضًا إذا لم يُقِم الدعوى ورضي بمعاشرة الزوجة الزانية وأصبح (ديوثًا) لا يغار على عرضه! وحتى في هذا النطاق الضيق فلم يُسوِّ القانون الوضعي بين الرجل والمرأة في العقوبة! ولا في إطلاق مكان الزنى بالنسبة للزوجة وتحديده بالنسبة للزوج بأن يكون زناه في (مسكن الزوجية)، فإن زني في هذا المسكن حقَّ عليه العقاب، إذًا الحكمة التي توخاها واضع هذه المادة (هي صيانة الزوجة الشرعية من الإهانة المحتملة التي تلحق بخيانة زوجها إياها في منزل الزوجية).

وواضح جدًّا أن منطلق التقنين هنا مختلف جذريًّا عن منطلق الإسلام السابق في التسوية بين الرجل والمرأة في العقوبة حين تتساوى الجريمة.

ولقد أطلق الإسلام للمرأة حرية التصرف في هذه الأمور بالشكل الذي تريده، دون أية قيود تقيد حريتها في التصرف، سوى القيد الذي يقيد الرجل نفسه فيها، ألا وهو قيد المبدأ العام: أن لا تصدم الحرية بالحق، أو الخير.

فلها أن تملك الضياع، والدور، وسائر أصناف المال بكافة أسباب التملك، ولها أن تمارس التجارة، وسائر تصرفات الكسب المباح، ولها أن تضمن غيرها، وأن يضمنها غيرها، وأن تهب الهبات، وأن توصي لمن تشاء من غير ورثتها، وأن تخاصم غيرها إلى القضاء لها أن تفعل ذلك ونحوه بنفسها، أو بمن توكله عنها باختيارها.

ويعلق الإمام محمد عبده على ذلك بقوله: هذه الدرجة التي رفع الله النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق، ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من أمم قبل الإسلام ولا بعده، وهذه الأمم الأوربية التي كان من تقدمها في الحضارة أن بالغت في احترام النساء، وتكريمهن، وعنيت بتربيتهن، وتعليمهن الفنون والعلوم، لا تزال دون هذه الدرجة التي رفع الإسلام النساء إليها، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها بدون إذن زوجها، وغير ذلك من الحقوق التي منحتها إياها الشريعة الإسلامية من نحو ثلاثة عشر قرنًا ونصف قرن، وقد كان النساء في أوربا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء في كل شيء، كما كن في عهد الجاهلية عند العرب، بل أسوأ حالًا. . إلى أن قال: (وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا في إعلاء شأن النساء ويفخرون علينا، بل يرموننا بالجهل في معاملة النساء، ويزعم الجاهلون منهم أن ما نحن عليه هو أثر ديننا[1].

ومن المعلوم أن الأمم القديمة لم تكن تعترف للمرأة بأي أهلية، ومن ثم فلم تكن تتمتع بأي من الحقوق المدنية. . وإذا كانت تلك الأمم ترى أن الرجل هو المالك لشخص المرأة، وأن بوسعه أن يفعل بها ما يشاء، فإنَّ من الطبيعي أن ترى أن العبد أو المستعبد، وما ملكت يداه ملك لسيده.

---

(١) الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة (٢٤).

لقد كانت الهند البرهمية، والصين، والجرمان، وبرابرة أوروبة، لا يملِّكون المرأة ولا يورِّثونها. وجرت اليونان على منوالهم، فلم تورِّث البنات إلا عندما لا يوجد ذكور. أما الشريعة الرومانية فقد اختلفت معاملتها للمرأة كما قلنا ما بين مدٍّ وجزرٍ. بل بقيت هذه النظرة إلى المرأة مهيمنة حتى على كثير من المدنيات الحديثة إلى عهد قريب.

أما الإسلام الذي هو امتداد للرسالات السماوية السابقة، فقد جاء مؤكدًا استقلالية المرأة عن الرجل في حقوقها المدنية المختلفة، معلنًا عن حريتها التامة في التصرف بأموالها دون وصاية من أحد عليها ما دامت رشيدة متحررة عن عوامل الحجر والوصاية، بل معلنًا عن تمتعها بكل ما يتمتع به الرجل من حقوق معنوية كحق الإجارة والضَّمان ونحوهما.[1]

٥ـ التساوي في حق الحياة:

وصف القرآن الكريم حال الرجل في الجاهلية عندما كانت تلد زوجه "أنثى" حيث يقول: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل ٥٨، ٥٩).

وقد دُفنت قبل الإسلام في رمال صحراء شبه الجزيرة العربية من الإناث ما لا يعلم عددهن إلا الله تعالى، حيث كان الأب الجاهلي يرى الأنثى تأكل ولا تقاتل عن القبيلة، ويراها مصدرًا لجلب العار له حين تؤسر من العدو فيفترشها آسِرُها عَنْوَة واقتدارًا أو طواعية واختيارًا، فيعير الأب وقبيلته بها.

وحين أتى الإسلام ونزل قوله تعالى- مستنكرًا فعْل الجاهلية الشنيع: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير ٨، ٩) أدرك الذين هداهم الله إلى نور الإسلام كم كانوا ظالمين لبناتهم.

وقد نزل القرآن الكريم مشددًا النهي عن قتل الأولاد حيث قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟

(١) المرأة بين طغيان النظام الغربي، ولطائف التشريع الرباني ٤٩-٥٠.

أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ (الإسراء: ٣١).

وقال ابن كثير: وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم -كما سولت لهم الشياطين ذلك- فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار، ولهذا جاء في "الصحيحين" من حديث عبد الله بن مسعود ﷺقلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك[١].

وهكذا سوى الإسلام بين الذكر والأنثى في حق الحياة، وحرم التعدي على هذا الحق، وجعله من أكبر الذنوب التي لا تتفق مع تكريم الله تعالى للإنسان[٢].

٦ـ التساوي في الحرية:

وفي نطاق حق الحرية، لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في شيء من الجوانب المختلفة مما يشمله هذا الحق. كالحرية السياسية والفكرية والدينية وحرية العمل. بل ضمن لكل منهما من ذلك ما قد ضمنه للآخر.

فلكل فرد عاقل رشيد، رجلًا كان أو امرأة، أن يشترك في إدارة شئون الدولة وأن يراقب سيرها وينقد أعمالها.

وقد فرغ الفقهاء من بيان أن مجلس الشورى في أنظمة الحكم الإسلامي يجوز أن يضم نساء مسلمات يساهمن في عرض المشورة والتنبه إلى المصالح، دون أن يُرَاعى في ذلك شيء أكثر من الشروط العامة التي يجب أن تتوفر في أعضاء هذا المجلس، رجالًا ونساءً، من البصيرة النافذة والعلم الكافي والإخلاص للأمة. [٣]

٧ـ التساوي في الأخوة:

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٦.

(٢) مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة (٨١، ٨٢)، باختصار.

(٣) على طريق العودة إلى الإسلام (١٧٤).

لقد شرع الله للمؤمنين شِرعة الإخاء بقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)، فلم يكن يفرق بين المسلمة والمسلم، ولا بين المسلم والمسلمة، وكذلك استنَّ رسول الله ﷺ سنة المساواة بقوله: "المسلم أخو المسلم". (١)

مزَّق الإسلام حجب الفوارق بينَّ النساء كما مزقها بين الرجال، فتطامنت الرءوس، وتساوت النفوس، فلم يكن بين المرأة والمرأة إلا الخير تتقدم به، أو العمل الصالح تسبق إليه، فأما أن تُدِلَّ بعَرَض طارف، أو تعتز بحسب قديم فذلك ما لا يقدمها أُنملة، ولا يغني عنها من الله شيئًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) قال:"يا معشر قريش! -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفيةُ عمةَ رسول الله، لا أغني عنكِ من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنكِ من الله شيئًا"(٢)، ولا أدل على ما نقول من: حديث فاطمة بنت الأسود المخزومية – وهي امرأة من ذوات الشرف والحسب في قريش – وَهَنت نفسها، فسرقت، فقامت عليها البينة، فوجب عليها الحد فأَهَمَّ ذلك قريشًا، فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ، فكلَّم رسول الله ﷺ، فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ، فقال: "أتشفع في حَدٍّ من حدود الله؟ " فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان بالعشي، قام فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: "أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"(٣)، ثم أمر ﷺ بتلك المرأة التي سرقت،

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٠) ومسلم (٢٥٦٤).

(٢) رواه البخاري (٢٦٠٢)، ومسلم (٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٣٢٨٨)، ومسلم (١٦٨٨).

فقُطِعَتْ يَدُها. قالت عائشة رضي الله عنها فحسنت توبتها بعدُ وتزوجت، وكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ.

ومن ذلك أن الله ذم سخرية بعض النساء من بعض، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا﴾ يسخر ﴿نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ المسخور بهن ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾ (الحجرات: ١١)، يعني: من الساخرات بهن.

٨ـ التساوي في الذمة

فللمرأة ذمة تامة كذمة الرجل سواء بسواء، تجير بها من تشاء من الناس، ومن ثم فلا يحلُّ لحاكم، أو قاضٍ، أو أي من الناس أن يخرق جوارها. . ولا يلغي حق هذا الجوار ما دام مستمرًا إلا شيء واحد، هو أن يصدر حكم قضائي بتجريم الشخص المجار، وإخضاعه للعقاب الشرعي المتعلق بجريمته.

وتطبيقًا لهذا الحكم قال رسول الله ﷺ لأم هانئ أخت على بن أبي طالب –رضي الله عنهما– وقد جاءت تشكو إليه أنها أجارت رجلًا من المشركين زعم ابن أمها – أي: على رضي الله عنه أنه قاتله: "قد أجَرنا من أجرتِ يا أم هانئ"[1].

وفي حين قرر الإسلام ذلك، كان يثار في مجامع النصارى من التساؤل:

هل للمرأة روح أو خلود؟ وهل هي من جملة البشر؟ وهل تصح منها العبادة؟

وأين هذا مما عند الهندوك من أن المرأة "لا تكلف بأمر من أمور الدين قط، ويكفيها لسعادتها في الدنيا والآخرة، أن تطيع زوجها، وتقدسه كما تقدس الله، ولو كان عاريًا من كل فضيلة، وكان يميل إلى غيرها".

كما ورد بالنص في كتاب "الهندوس المقدس" (منوسمرتي) ويقول معربه الأستاذ/ إحسان حقي – وقد قارنه بكتب الديانات السماوية الثلاث– إن حال المرأة في

(١) رواه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٣٣٦).

هذا هو نفس حالها في الديانتين اليهودية، والنصرانية.

وإذا كان الحق المطابق لإنسانية المرأة يقتضي تقرير هذه الحقوق لها، فهل من الحق والعدل اطراد هذا الأصل متجاهلًا أنوثتها، إن تجاهل فارق النوع ظلم ينتهي إلى تفريط، يعود على المرأة نفسها بالظلم، وعلى المجتمع بالفساد، من حيث زعمنا الرغبة في الصلاح والإنصاف.

الوجه الثاني: ليست المساواة في كل الأحيان من العدالة.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة:

ليست المساواة دائمًا هي العدالة، بل المساواة في كثير من الأحيان هي الظلم المبين والصراح، فالمساواة إذا لم تلاحظ فيها الطبيعة لكل عمل، ومن يكون له أهلًا، ومن لا يكون له أهلًا تكون ظالمة. فهل يتساوى ذو المرة القوى في ميدان الجهاد مع الضعيف في بدنه. . فكيف يدعون إلى المساواة من غير تفرقة بين نوع ونوع، إن الواجبات الأصلية والحقوق الأصلية للجميع متساوية؛ فحق حماية النفس للجميع على سواء، وحق الكرامة الإنسانية على سواء، وحق الحرية في دائرة الحق والواجب للجميع على سواء، أما الحقوق الأخرى كحق الوظائف، ونحوها فقد يكون فيها الظلم؛ لعدم النظر إلى الكفاية، وعدم النظر إلى الفطرة والطبيعة، وعدم النظر إلى التكوين الجسمي، وعدم النظر إلى تآلف المجتمع وتضافر أجزائه وتجميع عناصره مؤتلفة غير متدابرة فإن الجسم الهندسي السليم يقتضي في تكوينه أن يكون بعض أبعاده أطول من الآخر، وأن تكون عناصره متداخلة ولو كان يستعان به في بعضها أقل من العنصر الأخر، بل إن ذلك شأن كل مزيج مؤتلف حتى يكون المزيج النافع، ويكون ذا قوة فعالة، وذا كون قائم بذاته.

وكذلك المجتمع يتكون من رجل وأنثي، ولا يمكن أن يكون منهما شكل هندسي، ومزيج فعال إذا تساوت الأضلاع وتساوت مقادير العناصر، إنما يتكون ذلك المؤتلف إذا أخذ من كل بقدر ما يتم به التنسيق، ويتوافق فيه التأليف. لأن الله تعالى لم يسوِ بينهما في أصل التكوين في الجسم والعاطفة والنوازع الإنسانية ولكن سوي فقط بين ما عليها من

واجبات وما لها من حقوق ممكنة من أداء الواجبات ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ (البقرة: ٢٢٨).

إننا لا نعارض في تعليم المرأة مطلقًا، ولا نعارض في عملها، ولكن على أنه ليس هو وظيفتها في هذا الوجود الإنساني، بل إنه يكون أمرًا عارضًا استوجبته طبيعة الحياة الاجتماعية في عصرنا، وسنة المعاونة بين الرجل والمرأة؛ ليؤدي الرجل واجبه على أنه ليس حقًا عليها، بل هو تبرع منها.

الوجه الثالث: لماذا خص الإسلام الرجل بأمور عن المرأة؟

خصَّ الإسلام الرجل عن المرأة بأمور، كما في القوامة، والشهادة، ورياسة الدولة، والميراث. . ، وقد يتساءل البعض: إذا كان الإسلام قد اعتبر إنسانية المرأة مساوية لإنسانية الرجل، فما باله فضَّل الرجل عليها في بعض المواقف والأحوال، كما في الشهادة، والميراث، والدية، وقوامة المنزل، ورياسة الدولة، وبعض الأحكام الجزئية الأخرى؟

والواقع أن تمييز الرجل عن المرأة في هذه الأحكام، ليس لأن جنس الرجل أكرم عند الله، وأقرب إليه من جنس المرأة. فإن أكرم الناس عند الله أتقاهم –رجلًا كان أو امرأة– كما قال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) ولكن هذا التمييز اقتضته الوظيفة التي خصصتها الفطرة السليمة لكل من الرجل والمرأة.

الوجه الرابع: المساواة التي يدعو إليها الغرب مساواة زائفة.

بريجيدا أولف هامر قاضية سويدية، طافت عواصم الشرق الأوسط وقراه. حاولت أن تدرس لحساب الأمم المتحدة مشكلات المرأة الشرقية العربية على الطبيعة.

ترى هذه القاضية أن المرأة الشرقية، في قطاعات كثيرة وبارزة من البلاد العربية، أكثر حرية من المرأة السويدية؛ لأن الحرية كما تقول بريجيدا، هي: أن يكون للإنسان عالمه الخاص المستقبل، على العكس من حال المرأة السويدية التي ليس لها عالم لا يشاركها فيه الرجل.

وتضيف بريجيدا: إن حرية المرأة الغربية حرية وهمية؛ لأنها لم تمنح المرأة –في الحقيقة المساواة بالرجل إلا بعد أن جردتها من صفاتها الأنثوية، وحريتها الأنثوية، وحقوقها الأنثوية؛ لتجعل منها كائنًا أقرب إلى الرجل، إنها حرية الغني الذي سعى للمساواة

بالفقراء وحرية ساكن الجنة الذي سعى للنزول إلى الأرض.

هذا ما قالته هذه القاضية السويدية، وهي تقارن بين الحرية الوهمية للمرأة الغربية والحرية الحقيقية المرأة الشرقية. فكيف يمكن أن نقول: إن المرأة الغربية تمتلك الحرية؟ وهي أسيرة لقمة العيش، أسيرة الشقاء المقصور على الرجال، الشقاء الذي يسلب المرأة صفاتها الأنثوية، ويجعلها كائنًا أقرب إلى الرجل؟.

جاء في مجلة الوعي الإسلامي تحت عنوان (لا مساواة لا عدالة لا تكافؤ):

هذه صرخة المرأة في المجتمعات الغربية كما جاء في الدراسة التي نشرتها صحيفة العرب القطرية بتاريخ ١١ من يونية ١٩٨٠م وقالت: إن الكونجرس الأمريكي ليس به إلا ١٧ امرأة. وواحدة في مجلس الشيوخ الأمريكي- وفي فرنسا ١٨ نائبة من أصل ٤٩١ وفي سويسرا ثلث النساء حرمن من التصويب.

وفي أمريكا: لا تتمتع المرأة في الولايات المتحدة بمساواتها مع الرجل حتى من الناحية الشكلية- وهذا الحكم أطلقته اللجنة الأمريكية للحقوق المدنية- وتؤكد هذه اللجنة أن القوانين السارية في الولايات المتحدة- تقنن الظلم الذي تتعرض له النساء الأمريكيات عبر إعطائها امتيازات للرجل على المرأة أكثر من ٨٠٠ فصل ومادة من هذه القوانين السائدة.

وقالت الدراسة: ومنذ نصف قرن لم يبت في مصير التعديل السابع والعشرين للدستور الذي ينص على المساواة أمام القانون بغض النظر عن الجنس - وذلك لأن التعديل يحتاج إلى موافقة ٣٨ ولاية من الخمسين وحتى الآن لم يوافق على هذا التعديل سوى ٣٥ ولاية.

كان أجر المرأة في عام ١٩٥٩ هو ٦٣. ٩٪، من أصل أجر الرجل الحاصل على نفس المؤهل، وفي عام ١٩٧٨ انخفض إلى ٥٨. ٩٪. وقالت مجلة بنش: إن واقع المرأة الأمريكية هو الأجر المنخفض وظروف العمل الصعبة والتمييز المهني وقلة مؤسسات تربية الأطفال.

في إيطاليا: تحصل المرأة على أجر يقل عن الرجل بـ ٣٠٪.

وفي فرنسا: يصل الفرق إلى ٣٣٪.

وفي اليابان: يصل إلى ٤٠٪.

وفي سويسرا: نشرت اللجنة الاتحادية السويسرية تقريرًا حول وضع المرأة قالت فيه:

إن ثلث النساء السويسريات محرومات حتى الآن -لأسباب مختلفة- من حق التصويت في انتخابات هيئة الإدارة المحلية وأن قضية مساواة المرأة بالرجل في سويسرا ما زالت دون حل.

وفي أمريكا: لا تشغل المرأة سوى ٥٪ من الوظائف المنتجة وبصورة أساسية في هيئات السلطة المحلية -إذ يبلغ عددهن حوالي ٥٩. ٣٪ من السكان، و٥٣. ٢٪ من الناخبين ومن أصل ٥٥٤٧ مقعدًا في برلمان السوق المشتركة التسعة يوجد ٣٥٧ نائبة أي أقل من ٦٪ من البرلمانيين – بينما تقترب نسبة النساء في هذه البلدان من ٥٢٪.

والبرلمان الياباني ليس به إلا ٣٪ من النساء من أعضاء البرلمان.

البطالة: وتقول الدراسة إن البطالة تنتشر في صفوف النساء في أمريكا أكثر بمرة ونصف المرة من انتشارها في صفوف الرجال - وتبلغ نسبة النساء اللواتي يعشن تحت مستوى الفقر المتعارف عليه ٦٣٪ من الأمريكيين.

وفي أمريكا كانت نسبة الفتيات خلال عام ٧٦/ ٧٧ الدراسي من طالبات الجامعة على النظام الآتي: من طالبات الطب ٢٥٪ ومن طالبات الهندسة ٦٪ ومن طالبات الحقوق ٢٠٪ ومن طالبات الفيزياء ١٪ ومن العاملات المؤهلات فنيا ٣٪.

وتقول مجلة واس نيوزاندود ولد ريبورت: إن ٨٠٪ من الأمريكيات العاملات يتقاضين رواتب متدنية قياسا إلى رواتب الرجال.

وفي فرنسا: كثير من المعاهد العليا والمدارس المهنية الفرنسية مغلقة في وجه الفتيات ولا يدرس في المعاهد التجارية الفرنسية سوى ٧٠ طالبة من مجمل ٥٢٠٠ وفي معهد الإلكترونات والأجهزة الإلكترونية يدرس به ٦٢ طالبة من أصل ٢٦٠٠ ونسبة المهندسات ١. ٨٪ والطبيبات ٦٪ والفنيات ١١٪.

في اليابان: لا تزيد نسبة من يلتحقن بالمعاهد العليا هناك عن ١٠٪ ممن انهين الدراسة الثانوية -أما فرص الحصول على عمل بعد الدراسة الثانوية فهي قليلة- وفي عام ١٩٧٩ لم يحصل سوى ٢٠٪ من خريجات المعاهد العليا والكليات التي تستمر مدة الدراسة فيها سنتين على عمل، وتشكل النساء ٨٪ من المدرسين في المعاهد، ١٠٪ من الأطباء.

ونسبة النساء اللاتي يتمتعن بعضوية النقابات الأمريكية في تناقص مستمر -فقد كانت النسبة ١٧٪ في عام ١٩٥٠ وأصبحت ١٢. ٥٪ في عام ١٩٧٨ والأمريكيات غير النقابيات محرومات عمليا من الحماية القانونية ومن المعاش التقاعدي والإجازات السنوية والإجازات المرضية المدفوعة الأجر- وأجور هذه الفئة من النساء تقل بنسبة ٢٥٪ عن النساء النقابيات مما يزيد من متاعب المرأة العاملة في المجتمعات الغربية - ومما يزيد من متاعب المرأة عدم وجود مؤسسات لتربية الأطفال والأمومة أو ضمانات لأجازات الحمل والولادات المدفوعة الأجر - وفي هذا الصدد ذكرت مجلة بوليتكل افريزر الأمريكية مثلًا: إن مؤسسات حضانة الأطفال في الولايات المتحدة لا تتسع لأكثر من مليون طفل وهذا رقم متواضع للغاية.

هموم المرأة الأمريكية:

وقد نشرت صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٩٨٠ دراسة تحت عنوان هموم المرأة الأمريكية قالت فيها: تقول جلوريا ستاتيم رئيسه تحرير مجلة مز:

إن هذه القضية أساسية؛ لأنها تمس آدمية المرأة -ولا بد أن يتحرر جسد المرأة كأساس للتحرر السياسي وهذه القضايا هي:

الاعتداء على الفتيات والنساء وضرب الزوجات والاضطهاد بسبب الجنس والعنف داخل العائلة والإجهاض - ولكن ليس معنى هذا أن المرأة الأمريكية تركت جانبا بقية القضايا وفي مقدمتها المساواة في الأجر - فمن الثابت حسب إحصاءات مكتب العمل أن المرأة التي تقوم بنفس العمل - عمل الرجل - تحصل على أجر يوازي ٦٣٪ من أجره فقط ومنها فرص التدريب والتقدم المهني.

ومنها الأمن والأمان في وظيفة -فالمرأة نظرا لحداثة عهدها بالعمل هي آخر من يعين وأول من يفصل.

ومنها الاضطهاد بسبب الجنس.

ومنها دور الحضانة - فإحصاءات ١٩٧٨ تقول: إن ٥. ٨ مليون امرأة أي ٤٤٪ من مجموع قوى العمل النسائية لديهن طفل واحد على الأقل في سن ما قبل الدارسة - وذلك مقابل ٣٠٪ سنة ١٩٧٠ وهذا يعني أنه مطلوب ٥. ٨ مليون مكان على الأقل في دور الحضانة - بينما المتاح هو مليون مكان فقط.

الأرقام تقول، وماذا تقول الأرقام عن المرأة؟

إن الأرقام تقول: إنه من بين ٤٤١ مهنة وعمل ووظيفة، فإن المرأة لا تعمل سوى عشرين نوعًا.

وأن النساء اللاتي يمكن القول بأنهن وصلن إلى مراكز مرموقة لا تزيد نسبتهن عن ٢. ٣: والمعيار هنا هو ألا يقل المرتب عن ١٥ ألف دولار.

والمرأة في مجموعها لا تحصل على أجر متساو مع الرجل وتتحمل أعباء أكثر من طاقتها فهي تعمل في البيت بالإضافة إلى ٨ ساعات يوميًا.

قضايا أخرى:

وتستمر الدراسة قائلة: إن قضايا ضرب الزوجات وإساءة معاملتهن أصبحت تمثل المكان الأول في قضايا الطلاق وبلاغات الشرطة - فضلًا عن أن الزوجة تستمد رخصها الاقتصادي من زوجها - بمعنى أنه بمجرد طلاقها تفقد حقها في أن يكون لها وضع اقتصادي يسمح لها أن تبتاع بالتقسيط وهي قضية أساسية في أمريكا.

بالإضافة إلى أن عمل الزوجة -وبخاصة في الريف - لا يعتبر عملًا إنتاجيًا اقتصاديًا لها - إذ يخضع نصيبها في الميراث الضريبة التركات بعكس زوجها المعترف بدوره الانتاجي فميراثه من زوجته لا يخضع للضريبة - والمرأة الأمريكية بعد زواجها تدفع ضرائب دخل بنسبة أعلى

من غير المتزوجة- ولذلك فقد بدأ عدد من الأزواج ينفصلون بالطلاق عندما يقترب موعد تقديم الإقرار الضريبي ثم يتزوجون من جديد بعد تقديم الإقرار الضريبي.

جاء في جريدة اليمامة العدد ١٤٤٣ بتاريخ ١٥/ ٢/ ١٩٩٧م ما يلي:

الفرنسيات يعترفن: نحن ألعوبة بيد الرجل ولا نتساوى معه!

ربما تتساوى المرأة مع الرجل في السويد على مستوى السياسة ولكنها لا تزال تنظف المنزل وتعد الطعام وتعنى بالأطفال أكثر بكثير من الرجال. كما أن دائرة نفوذها ضيقة أو لا تملك نفوذا على الإطلاق في عالم المال والأعمال.

تشيد الأمم المتحدة بالسويد كواحدة من أكثر الدول تحقيقًا للمساواة بين الجنسين في العالم ورائدة للحقوق مثل حق الإجهاض والحصول على فترة راحة لعناية بالطفل.

ولكن في الحقيقة يتعين عليها أن تقطع شوطًا طويلا لتحقيق مساواة فعلية وفقا لإحصاءات ودراسات حديثة.

الوجه الخامس: مقارنة بين الإسلام وغيره في شأن المساواة بين الرجل والمرأة.

أولا: في التوراة

إن من يطالع التوراة والتلمود[1] يجد فيهما أنهما تفرقة بين الرجل والمرأة في أمور العبادة ومن هذه الفوارق ما يلي: -

١- لا يصح صلاة الجماعة عند اليهود إلا بحضور عشرة من الرجال على الأقل أو عشرة من الأولاد الذين زادت أعمارهم عن الثلاث عشرة سنة بينما لا تصح الجماعة مهما كان العدد من النساء كذلك لا تكمل صلاة الجماعة بهن[2].

٢- الذكور مفضلون في الحصول على جزء من لحم القرابين بما يخص شريعة التقدمة وهي تخصيص جزء من اللحوم المقدمة كقرابين الأكل الذكور من الناس دون النساء وقد جاء في سفر اللاويين بخصوص ذلك التفضيل بين الذكور والنساء ما يأتي (يقدم بنو

---

(١) التلمود: هو الكتاب المقدس الثاني لليهود بعد التوراة وهو شارح للتوراة وموضح لها.

(٢) السيد محمد عاشور: مركز المرأة في الشريعة اليهودية ص٩٧.

هارون أمام الرب إلى قدام المذابح، والباقي منها يأكله هارون وبنوه فطيرا يؤكل في مكان مقدس في دار خيمة الاجتماع يأكلونه. . . ، كل ذكر من بني هارون يأكل منها فريضة دهرية في أجيالكم) وجاء أيضًا عن ذبيحة الخطيئة أو ذبيحة الإثم (وكل ذكر من الكهنة يأكل منها في مكان مقدس تؤكل. إنها قدس أقداس)[(١)] (اللاويين ٦، ٧).

٣- موقف المرأة من النذر: لا تتساوى المرأة اليهودية مع الرجل في الحل من الخطيئة وجاء في سفر اللاويين ما يأتي "فإذا نذر رجل نذرًا للرب أو قسمًا أن يلزم فلا ينقض كلامه حسب كل ما خرج من فمه يفعل، وأما المرأة فإذا نذرت نذرًا للرب والتزمت بلازم في بيت أبيها في صباها وسمع أبوها نذرها واللازم الذي ألزمت نفسها به تثبت وإن نهاها أبوها يوم سمعة فكل نذورها ولوازمها لا تثبت.

"وإن كانت لزوج ونذرها عليها أو نطق شفتيها الذي ألزمت نفسها بها وسمع زوجها فإن سكت في يوم سمعه تثبت نذورها ولوازمها وإن نهاها رجلها في يوم سمعه فسخ نذرها الذي عليها ونطق شفتيها الذي ألزمت نفسها به والرب يصفح عنها" (اللاويين ٣٠: ٢-٨).

فالمرأة دائمًا لها ولى أمر نهى في وصاية أبيها في صباها وفي وصاية زوجها وبإمكان أي من أبيها وزوجها أن يحلها من نذرها وهو صاحب الكلمة العليا عليها. [(٢)]

٤- مدة نجاسة المرأة إذا ولدت بنتا ضعفها إذا ولدت ذكرًا عندما تضع الأم ولدا تكون مدة النجاسة أربعين يوما أما إذا وضعت بنتا فمدة النجاسة ثمانون يومًا كما في التوراة إذا تقول: "وكلم الرب موسى قائلًا كلم بني إسرائيل قائلًا: إذا حبلت امرأة وولدت ذكرًا تكون نجسة سبعة أيام كما في أيام طمث علتها تكون نجسة وفي اليوم الثامن يختن لحم غرلته ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوما في دم تطهيرها كل شيء مقدس لا تمس وإلى المقدس لا تجيء حتى تكتمل أيام طهرها. وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في

---

(١) المرجع السابق صـ٩٩.

(٢) المرجع السابق صـ١٠٠.

طمثها ثم تقيم ستة وستين يومًا في دم تطهيرها". [١]

٥- للزوج أن يرث زوجته وليس لها أن ترثه.

٦- قيمة نذر البنت نصف قيمة نذر الولد.

٧- لم يكن مسموحًا للمرأة دراسة التوراة[٢] "وكان استبعاد المرأة من دراسة التوراة هو رأى الأغلبية وكان "إليزر" يقول بأن من يعلم ابنته التوراة فإنه يعلمها الفسق والدعارة، إلا أنه كان هناك اتفاق عام على أن المرأة ليست مضطرة إلى دراسة التوراة نتيجة لذلك تعلمها القليل من النساء.

وتقول دائرة المعارف اليهودية عن الحالة الشرعية والمشاركة الدينية للمرأة "ثم الاعتراف بحالة المرأة باعتبارها كائن إنسائى، وكان صاحب الثور يدفع نفس الغرامة إذا قتل حيوانه رجلًا أو امرأة أو طفلًا، وقد أعطى اهتمام خاص للضرر الذي كانت تعانية المرأة الحامل أثناء مشاجرة الرجال، وكان هناك اعتراف أيضًا بالفرق بين الرجل والمرأة، وكانت الحجات السنوية الثلاث مفروضة على الرجل فقط، ولكن الرجال غالبًا ما اصطحبوا زوجاتهم، وكان الاحتفال باجتماع العام السابع يتطلب حضور النساء والأطفال، ولكن قدرة المرأة على التراتيل الدينية كانت مقيدة، وتكون صالحة فقط ومسموح بها إذا كان كافلها الأب، والزوج لم يتدخل.

وعلى ذلك لم تكن المساواة بين الرجل والمرأة من الناحية الدينية مطلقة أو عادلة، فكانت المرأة مهضومة الحق، حتى إن الكثير من العلماء اعتبرها مصدرًا للغواية والإغراء وسبب كل شر، لدرجة أن كتاب الصلوات الرسمي جاء فيه "بوركت يا إلهي يا من لم تخلقني امرأة".

ثانيا: في الإنجيل

وهناك فروق جوهرية بين الرجل والمرأة في الإنجيل في أمور العبادة منها:

أـ الصلاة: الصلاة مفروضة على الرجل والمرأة، فالصلاة مفروضة عليهما معًا

---

(١) مركز المرأة في الشريعة اليهودية صـ١٠٠.

(٢) دائرة المعارف اليهودية.

والتكريم للرجل في هيئة الأداء.

"فأريد أن يصلي الرجال في كل مكان رافعين أيادي طاهرة دون غضب ولا جدًّال، وكذلك النساء يزين ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بضفائر أو ذهب" (تيموثاوس ٢: ٨).

ومع ذلك فقد أعطى الرجال ميزة تكريم وهي: " فإن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده. . . "

وعن المرأة يقول بولس. (كورنثوس ١١: ٧، ٥).

" وأما كل من تصلى أو تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها".

والفقرات توضح أن كشف رأس الرجل لأنه أفضل من المرأة حيث إنه صورة الله ومجده، وتغطية رأس المرأة ليس بهدف الحشمة ولكن لأنها أقل من الرجل.

بـ تعليم الرجال:

يقول بولس (كورنثوس ١١: ٧، ٥).

(١٢) لست أسمح للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل، بل عليها أن تلزم السكوت (١٣) ذلك لأن آدم كون أولًا، ثم حواء (١٤) ولم يكن آدم هو الذي انخدع "بمكر الشيطان"، بل المرأة انخدعت فوقعت في المعصية" (تيموثاوس ٢: ١٤).

فها هو بولس يوضح سبب عدم السماح للمرأة في أن تكون مُعلمة، وهو أنها حاولت تعليم آدم فضلت وأضلته.

جـ ـ العمل كرجال دين "قسوس":

يقول القديس إبيفانيوس أسقف قبرص:لم يحدث قط أن اختيرت امرأة لتكون "صاحبة درجة" بين القسوس والأساقفة، ولكن قد يقول واحد إنه كانت توجد أربع عزارى، بنات فيلبس المبشر كن يتنبأن، هذا صحيح؛ ولكن لم يقمن بممارسة الكهنوت، وأنه حقًا توجد في الكنيسة درجة الشماسات، ولكن غير مسموح لهن أن يعملن كقسوس،

أو يقمن بأي عمل له علاقة بهذه الوظيفة.[(١)]

كما يحرم عليها السؤال الديني في الكنيسة:

يقول بولس عن ذلك : ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فليسألن رجالهن في البيت، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن في كنيسة" (كورنثوس ١٤: ٣٥).

د- آداب حضور الكنيسة:

ممنوع الكلام للمرأة في الكنيسة: "(٣٤) ليصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذونًا أن يتكلمن، بل يخضعن كما يقول الناموس[(٢)])(كورنثوس ١٤: ٣٤).

وبالطبع طالما هناك صمت كامل فلا مجال للتعليم أو التعلم. ". . . ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فليسألن أزواجهن في البيت، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن في كنيسة" والمسيحية ترى أن صوت المرأة عورة ولا ينبغي لها الكلام وسط جماعة حتى لمن تنبأن[(٣)] من نساء يقول "أوريجانوس".[(٤)]

"إن بنات فيلبس كن يتنبأن (أ.ع ٢١: ٩)، غير أنهن لم يكن يتكلمن وسط الجماعة. . . وإن دبورة كانت نبية (القضاة ٤: ٤) وكذلك مريم أخت هارون كانت تقود تسبيح النساء، ماسكة الدف في يديها (خروج ١٥: ٢٠- ٢١) ولكننا لا نرى دبورة[(٥)] تكلم الشعب كما فعل أشعياء وأرمياء".

وعلى ذلك بالرغم من تساوي الرجل والمرأة في العبادة وجزاء الأعمال إلا أن المرأة أقل منه درجة فغير مسموح لها تعليم الرجل أو التعلم داخل الكنيسة أو العمل كقسيسة.

---

(١) المرأة حقوقها وواجباتها ٧٢، ٧٣، ويقصد بالشماسة (المرأة القسيسة)، ولكن درجتها في الكنسية أقل بكثير من القسيس.

(٢) الناموس شريعة موسى.

(٣) التنبؤ: بمعنى أن الله يوحي لرجل أو امرأة بنبوءات عن المستقبل وليس شريعة أو دين كالمفهوم الإسلامي.

(٤) عالم مسيحي كبير- المرجع السابق ٦٢.

(٥) دبورة: كانت تحكم وتفصل في المنازعات تحت شجرة أي أنها كانت تكلم الشعب.

هذا وقد سئل البابا شنودة عن عمل المرأة في الدعوة أو الكنيسة المسيحية فجاء في ذلك[1].

س- عينتم قداستكم بعض النساء في عضوية مجلس شماسة الكنيسة، فما تفسيركم لهذا، بينما خدمة الشماسية قاصرة على الرجال فقط؟

الإجابة: إن خدمة المذبح وأسرار الكنيسة، هي القاصرة على الرجال ولكن توجد خدمة شماسية للنساء، خارج خدمة المذبح، ولقب الشماسات، وعمل الشماسات، ورد كثيرا في الدستولين[2] وفي قوانين الرسل، وفي قوانين الكنيسة وقوانين الآباء والكبار. النساء في كنيستنا بعيدات عن ممارسة الكهنوت[3]، ولكن خدمة الكنيسة ليست عملًا كهنوتيًا، إنها خدمة في أعمال مالية وإدارية، يمكن أن تقوم بها المرأة. والدسقولية ذكرت خدمة الشماسية في الباب الرابع فقالت: "وشماسة المرأة، فلتكن جليلة عندكم".

إذن عمل المرأة المصرح به في الكنيسة هو العمل الإداري والمالي والخدمة، وليس العمل الروحي، ويرجع ذلك لأنه لا يجب رفع صوت المرأة في الكنيسة.

لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا. ٣٥ وَلكِنْ إِنْ كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئًا، فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ، لأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي كَنِيسَةٍ. (١ كورنثوس ١٤: ٣٤، ٣٥).

كما لا يجب على المرأة تعليم الرجل: وَلكِنْ لَسْتُ آذَنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلاَ تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ (١ تيموثاوس ٢: ١٢).

ولذلك عارض كثير من علماء المسيحية ما أفرزته مؤتمرات المرأة من مطالب وقوانين للمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة.

ثالثا: في الإسلام

---

(١) البابا شنودة الثالث: سنوات مع أسئلة الناس ٥/ ٥٥.

(٢) أي تعاليم آباء الكنيسة -كبار القسس والعلماء والباباوات.

(٣) الكهنوت: طقوس العبادة.

لقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في أمور العبادات والجزاء الأخروي بينما ميَّزت اليهودية والنصرانية الرجل على المرأة في ذلك يتضح لنا ذلك من خلال النقاط التالية:

١- في صلاة الجماعة في اليهودية لا تصح الصلاة بالنساء فقط أو بإكمال نصاب الجماعة وهو عشرة رجال، من النساء. وهذا لا نظير له في الإسلام.

٢- ضرورة إذن المرأة من وليها حتى تنذر نذرًا لله، وذلك ليس في الإسلام، كما أن قيمة نذر البنت نصف نذر الرجل.

٣- نجاسة المرأة إذا ولدت ولدًا "النفاس" لمدة ٤٠ يومًا، وإذا ولدت بنتًا ٨٠ يومًا، وليس ذلك في الإسلام.

٤- ليس للمرأة دراسة التوراة، أما في الإسلام فللمرأة دراسة القرآن الكريم وحفظه وتجويده وتفسيره.

٥- ليس للمرأة في المسيحية أن تعلم الرجل، أما في الإسلام فيجوز ذلك وكم من أئمة تعلموا على يد نساء، ونسبة كبيرة من الأحاديث النبوية روتها نساء.

٦- ليس للمرأة في المسيحية الكلام في الكنيسة حتى للسؤال الديني، أما في الإسلام، فللمرأة أن تسأل في المسجد وغيره، وهناك امرأة صححت فتوى للفاروق عمر، وهي بشأن مهر المرأة، ورَدَّته في المسجد.

٧- ليس للمرأة في المسيحية الدعوة إلى الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أما الإسلام فلا يمنع ذلك بل يشجع عليه.

وعلى ذلك نستطيع القول: إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أعلى شأن المرأة دينيًا ولم يُنقص من قدرها شيئًا. [١]

* * *

(١) انظر المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام ٣١٥- ٣٢٩.

٧ـ شبهة: عمل المرأة.

نص الشبهة:

ينادي دائمًا المعترضون علي شريعة الإسلام بوجوب عمل المرأة خارج بيتها، ويزعمون أن الإسلام سلبها حريتها حيث حرمها من هذا الأمر، ويستدلون على ذلك بالآتي:

١ - إنَّ الغرب وهو أكثر منا تقدمًا ورقيًا في مضمار الحضارة قد سبقنا إلى تشغيل المرأة، فإذا أردنا الرقي مثله فلنحذُ حذوه في كل شيء، فإن الحضارة لا تتجزأ.

٢- إن المرأة نصف المجتمع، وإبقاؤها في البيت بلا عمل تعطيل لهذا النصف، وضرر على الاقتصاد القومي، فمصلحة المجتمع تقضي بعمل المرأة.

٣- ومصلحة الأُسرة كذلك تقضي بعملها، فإنَّ تكاليف الحياة قد تزايدت في هذا العصر، وعمل المرأة يزيد من دخل الأُسرة، ويعاون الرجل على أعباء المعيشة، وخصوصًا في البيئات المحدودة الدخل.

٤- ومصلحة المرأة نفسها تدعو إلى العمل، فإنَّ الاحتكاك بالناس، وبالحياة وبالمجتمع خارج البيت يصقل شخصيتها، ويمدها بخبرات وتجارب، ما كان لها أن تحصل عليها داخل الجدران الأربعة.

٥ - كما أنَّ العمل سلاح في يدها ضد عوادي الزمن فقد يموت أبوها أو يُطلقِّها زوجها، أو يهملها أولادها، فلا تذلها الفاقة والحاجة، ولا سيما في زمن غلبت فيه الأنانية، وشاع فيه العقوق، وقطيعة الأرحام، وقول كل امرئ: نفسي نفسي.

٦ - إن اشتغال المرأة يزيد في الثروة القومية للبلاد، ومن ثمَّ تخسر البلاد كثيرًا بقصر عمل المرأة على أعمال البيت، عدا ما فيه من تعويد على الكسل وقتل وقتها بما لا يفيد، ويتندر بعضهم بسمن النساء في بلادنا سمنًا لا يوجد مثيله في البلاد الغربية التي يشتغل فيها نساؤها.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: لا مانع من عمل المرأة. . . ولكن!

الوجه الثاني: المرأة في الغرب تختلف عن الشرق.

الوجه الثالث: أيهما أولًا أسرتها أم وظيفتها؟

الوجه الرابع: أعظم عمل للمرأة أن ترعى أولادها.

الوجه الخامس: فطرة المرأة هي الفيصل في الأمر.

الوجه السادس: مصلحة المرأة وسعادتها تكمن في بيتها.

الوجه السابع: الآثار المترتبة على عمل المرأة. وإهمالها بيتها.

الوجه الثامن: عمل المرأة زاد نسبة البطالة.

الوجه التاسع: الإنسان ليس آلة لا روح فيها.

الوجه العاشر: شكوى الغرب من عمل المرأة.

الوجه الحادي عشر: ومع عمل المرأة لم تتحقق المساواة.

الوجه الثاني عشر: الضرر الصحي على المرأة.

الوجه الثالث عشر: وهل سلمت المرأة في عملها من الذئاب البشرية.

الوجه الرابع عشر: خروج المرأة إلى العمل أدى إلى ضعف مستوى التعليم لدى الأطفال.

الوجه الخامس عشر: طبيعة الرجل لا تؤيد خروج المرأة للعمل.

الوجه السادس عشر: خروج المرأة للعمل يؤدي إلى انتشار الإباحية ويهدد الحياة الزوجية.

الوجه السابع عشر: كلٌ مُيسَّر لما خلق له.

الوجه الثامن عشر: مهما فعلت فهي أم.

الوجه التاسع عشر: وكما قال الإسلام قالت التوراة والإنجيل.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا مانع من عمل المرأة. . . ولكن!

أولًا: لا خلاف بين أهل العلم في جواز خروج المرأة للعمل.

فالمرأة إنسان، كالرجل، هي منه وهو منها، كما قال القرآن: ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍ ﴾ (النساء: ٢٥) والإنسان كائن حي من طبيعته أن يفكر ويعمل، وإلا لم يكن إنسانًا.

والله إنما خلق الناس ليعملوا، بل ما خلقهم إلا ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، فالمرأة مكلفة كالرجل بالعمل، وبالعمل الأحسن على وجه الخصوص، وهي مثابة عليه كالرجل من الله، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ (آل عمران: ١٩٥) وهي مثابة على عملها الحسن في الآخرة ومكافأة عليه في الدنيا أيضًا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧).

والمرأة أيضًا -كما يقال دائمًا- نصف المجتمع الإنساني، ولا يتصور من الإسلام أن يعطل نصف مجتمعه، ويحكم عليه بالجمود أو الشلل، فيأخذ من الحياة ولا يعطيها، ويستهلك من طيباتها، ولا ينتج لها شيئًا.

على أن عمل المرأة الأول والأعظم الذي لا ينازعها فيه منازع، ولا ينافسها فيه منافس، هو تربية الأجيال، الذي هيأها الله له بدنيًا، ونفسيًا، ويجب ألا يشغلها عن هذه الرسالة الجليلة شاغل مادي أو أدبي مهما كان؛ فإن أحدًا لا يستطيع أن يقوم مقام المرأة في هذا العمل الكبير، الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتكون أعظم ثرواتها، وهي الثروة البشرية.

ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم حين قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبًا طيب الأعراق

ومثل ذلك عملها في رعاية بيتها؛ وإسعاد زوجها، وتكوين أسرة سعيدة، قائمة على السكون والمودة والرحمة، وقد ورد: إن حسن تبعل المرأة لزوجها يعد جهادًا في سبيل الله.

وهذا لا يعني أن عمل المرأة خارج بيتها محرم شرعًا، فليس لأحد أن يحرم بغير نص شرعي صحيح الثبوت، صريح الدلالة، والأصل في الأشياء والتصرفات العادية الإباحة كما هو معلوم.

وعلى هذا الأساس نقول: إن عمل المرأة في ذاته جائز، وقد يكون مطلوبًا طلب استحباب، أو طلب وجوب، إذا احتاجت إليه: كأن تكون أرملة أو مطلقة ولا مورد لها ولا عائل، وهي قادرة على نوع من الكسب يكفيها ذلَّ السؤال أو المنة.

وقد تكون الأسرة هي التي تحتاج إلى عملها كأن تعاون زوجها، أو تربي أولادها، أو إخوتها الصغار، أو تساعد أباها في شيخوخته، كما في قصة ابنتي الشيخ الكبير التي ذكرها القرآن الكريم في سورة القصص وكانتا تقومان على غنم أبيهما: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ (القصص ٢٣).

وكما ورد أن أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين كانت تساعد زوجها الزبير بن العوام في سياسة فرسه، ودق النوى لناضحه، حتى إنها لتحمله على رأسها من حائط له -أي بستان- على مسافة من المدينة [1]

وقد يكون المجتمع نفسه في حاجة إلى عمل المرأة كما في تطبيب النساء، وتمريضهن، وتعليم البنات، ونحو ذلك من كل ما يختص بالمرأة، فالأولى أن تتعامل المرأة مع امرأة مثلها، لا مع رجل.

وقبول الرجل في بعض الأحوال يكون من باب الضرورة التي ينبغي أن تقدر بقدرها، ولا تصبح قاعدة ثابتة. [2]

يقول د/صابر أحمد طه: إن قولهم: إن الإسلام يرفض عمل المرأة عارٍ من الصحة؛ لأنه لم يرد نص في القرآن الكريم ولا في سُّنة النبي ﷺ يحرم عمل المرأة، كلُّ ما هنالك أن الإسلام لم يفرض العمل على المرأة، ولم يلزمها به، بل جعله واجبًا على الرجال وفرضًا لازمًا منذ بداية الخليقة، يدل على ذلك ما جاء في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ

(١) رواه البخاري (٢٩٨٢)، ومسلم (٢١٨٢).

(٢) فتاوى معاصرة للقرضاوي ٢/ ٣٠٥: ٣٠٣.

قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ (طـه: ١١٦، ١١٧)، فإفراد "فتشقى" بعد التثنية في "فلا يخرجنكما" دليل على أن الرجل وحده هو المسئول عن تدبير شئون الأسرة مع العلم بأن هذا القول ليس خاصًا بالإسلام وحده، فقد أقرته الرسالات السماوية السابقة جاء في سفر التكوين (وقال لآدم- أي قال الله تعالى لآدم- لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلًا: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك، تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها).

ويُفهم من هذا النص أن اليهودية والنصرانية تبعًا لها تجعلان العمل واجبًا على الرجل؛ لأن الله ﷻ ألزم آدم به في قوله: (بعرق وجهك).

إذًا فالرسالات السماوية الصحيحة اتفقت على أن الرجل هو المكلف بالعمل وبالتالي بالإنفاق على المرأة؛ لما يمتاز بالخشونة وقوة العضلة والجلد والصبر، أما المرأة فلها عمل آخر وهو تربية الأطفال وهو عمل شاق تدركه كل أم تبغي الفلاح لأطفالها.

أما إذا لم تجد المرأة من يعولها من زوج أو أقرباء، ولم يقم بيت المال بواجبه نحوها، أجاز لها الإسلام أن تعمل؛ لتعول نفسها، أو لتعول أبوين مريضين أو كبيرين، أو لتعين زوجها الذي أقعده المرض عن اكتساب رزقه[1].

يقول د/البوطي: وإن الشريعة الإسلامية لا تحرم على المرأة ممارسة أي وظيفة أو القيام بأي عمل تستطيع النهوض به على وجهه، ولا تضيق عليها من ذلك إلا بالقدر الذي يستدعيه القيام بواجبات أخرى كلفها الشارع بها، كما تستحق المرأة من الأجر على العمل الذي تتقنه، مثل ما يستحقه الرجل دون أي تفريق، فما يسمى بأجر المثل لا دخل للذكورة والأنوثة فيه تحديدًا، إذا كان العمل سليمًا ومتقنًا[1].

---

(١) نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام صـ٢١٩.

ثانيًا: شروط خروج المرأة للعمل:

وهناك شروط يجب على المرأة أن تلتزم بها، كي تخرج للعمل:

١- أن يكون خروجها للعمل بإذن الزوج، فالزوجة لا يجوز لها الخروج من منزل الزوجية والعمل بأي عمل كان إلا بإذن زوجها.

قال ابن نجيم:

وللزوج أن يمنع القابلة والغاسلة من الخروج، لأن في الخروج إضرارًا به، وهي محبوسة لحقه، وحقه مقدم على فرض الكفاية.

٢- **أن يكون العمل في ذاته مشروعًا**، بمعنى ألا يكون عملها حرامًا في نفسه أو مفضيًا إلى ارتكاب حرام، كالتي تعمل خادمًا لرجل عزب، أو سكرتيرة خاصة لمدير تقتضي وظيفتها أن يخلو بها وتخلو به، أو راقصة تثير الشهوات والغرائز الدنيا، أو عاملة في "بار" تقدم الخمر التي لعن رسول الله ﷺ ساقيها وحاملها وبائعها، أو مضيفة في طائرة يوجب عليها عملها تقديم المسكرات والسفر البعيد بغير محرم، بما يلزمه من المبيت وحدها في بلاد الغربة، أو غير ذلك من الأعمال التي حرمها الإسلام على النساء خاصة، أو على الرجال والنساء جميعًا.

٣- **أن تلتزم أدب المرأة المسلمة إذا خرجت من بيتها** في الزي والمشي والكلام والحركة: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ (النور: ٣١) ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ (النور: ٣١) ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب: ٣٢).

٤- **ألا يكون عملها على حساب واجبات أخرى لا يجوز إهمالها**، كواجبها نحو زوجها وأولادها، وهو واجبها الأول وعملها الأساسي.

إن الإسلام لا يحرِّم على المرأة العمل إلا أنه يفضل لها أن تتفرغ لرعاية بيتها ما دامت لا

---

(١) على طريق العودة إلى الإسلام صـ ١٧٦.

تحتاج إلى العمل[١].

الوجه الثاني: المرأة في الغرب تختلف عن الشرق.

إن المرأة في الغرب هناك مضطرة للعمل اضطرارًا لعدة أسباب منها:

أولًا: إن المرأة عندهم هي التي تهيئ بيت الزوجية فلابدَّ لها أن تعمل وتجمع المال حتى تقدمه مهرًا لمن يريد الزواج بها، وكلما كان مالها أكثر كانت رغبة الرجال فيها أكثر.

ثانيًا: إن الأب هناك غير مكلف بالإنفاق على ابنته إذا بلغت الثامنة عشر من عمرها لذا فهو يجبرها على أن تجد لها عملًا إذا بلغت ذلك السن، فكثيرًا ما يكلفها دفع أجرة الغرفة التي تسكنها في بيت أبيها فضلًا عن أجرة غسل الثياب وكيها.

ثالثًا: إن الناس هناك يحيون لشهواتهم فهم يريدون المرأة في كل مكان فأخرجوها من بيتها؛ لتكون معهم. . . ولهم. . ألا ترين كيف يسخرونها لشهواتهم الدنيئة في الأفلام الهابطة والصور العارية والإعلانات.

رابعًا: إن البخل والأنانية شديدان عندهم، فهم لا يقبلون أن ينفقوا في زعمهم على من يعمل أعمالًا بسيطة وهم لا يرون تربية الأولاد أمرًا هامًا ومهما لأنهم لا يبالون بدين ولا تربية.

يقول د. محمد على البار: وقد لا يدرك القارئ أن على الفتاة إذا بلغت سن السادسة عشرة أن تغادر منزل والديها وتبحث عن عمل؛ لأن الوالدين لا يستطيعون الإنفاق عليها بعد هذه السن، وإن عليها أن تعيش من دخلها، وهذه إحدى دلائل المساواة في المجتمع الأمريكي والأوربي حيث تطرد الفتاة من منزل أمها وأبيها بعد سن تتراوح ما بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة تمامًا كما يطرد الفتى، ويقال لكليهما: الآن انتهى دورنا عليكما أن تبحثا عن عمل تعيشان منه، ولا شأن لنا بكما، تفضلا اخرجا من المنزل، أو يمكنكما البقاء بشرط دفع أجرة السكن والأكل! ! ولا غرابة بعد ذلك أن نرى الأولاد عندما يكبرون يكيلون لآبائهم وأمهاتهم الصاع صاعين. . فيموت الأب أو الأم دون أن يدري عنه أحد

(١) فتاوى معاصرة للقرضاوي ٢/ ٣٠٦: ٣٠٥.

في غرفة باردة. . حتى يبدأ الجيران في الشك فيطلبون الشرطة التي تفتح الباب عنوة لتجد المسن قد توفي منذ أيام(١).

يقول د. القرضاوي: وقد ذكر أستاذنا/ محمد يوسف - رحمه الله- في كتابه: "الإسلام وحاجة الإنسانية إليه" أثناء حديثه عن عناية الإسلام بالأُسرة قال: ولعل من الخير أن أذكر هنا أني حين إقامتي بفرنسا كانت تخدم الأُسرة التي نزلتُ في بيتها فترة من الزمن فتاة يظهر عليها مخايل كرم الأصل، فسألت ربَّ البيت: لماذا تخدم هذه الفتاة؟ أليس لها قريب يجنبها هذا العمل، ويوفر لها ما تقيم به حياتها؟ فكان جوابها: إنها من أُسرة طيبة في البلدة، وعمها غني موفور الغِنَى، ولكنه لا يعني بها ولا يهتم بأمرها. فسألت: لماذا لا ترفع الأمر للقضاء، ليحكم لها عليه بالنفقة؟ فدهشت السيدة من هذا القول، وعرَّفتني أن ذلك لا يجوز لها قانونًا. وحينئذٍ أفهمتها حكم الإسلام في هذه الناحية، فقالت: ومَن لنا بمثل هذا التشريع؟ لو أنَّ هذا جائز قانونًا عندنا لما وجدتَ فتاة أو سيدة تخرج من بيتها للعمل في شركة أو مصنع أو معمل أو ديوان من دواوين الحكومة، يعني: أن خوفهن من الجوع والضياع هو الذي دفع تلك الجيوش من النساء إلى العمل بحكم الضرورة.

ويقول د/نور الدين عتر: أمَّا الإسلام فقد كرم المرأة تكريمًا لا يوجد في أي نظام سواه، ورحم ضعفها أن تجبر على خوض غمار الحياة، تقديرًا لمهمتها، وهي صنع المجتمع، بتربية النشء على قيم الأمومة الإنسانية، التي هي ضرورية لنشأة الإنسان سوي الأخلاق، سوي النفس، مستقيم التفكير، سليم البنية، فهي إذًا مصدر للتنمية بأنواعها الاجتماعية والخلقية والاقتصادية، لذلك لم يفرض عليها أن تعمل لكسب المال، بل ألزم نفقتها على أبيها، أو ابنها أو زوجها، ممن تلزمه نفقتها، كما هو مفصل في باب النفقات في كتب الفقه، وبالتالي فإنه لا يجوز للأب أن يُلْزِم ابنته أن تعمل لكسب المال، إلا إذا كان فقيرًا، ولا يجوز للزوج أن يلزم امرأته أن تعمل لكسب المال، وهكذا تتمتع المرأة في الإسلام بحظ أكبر من

---

(١) عمل المرأة في الميزان صـ٢٢٣.

حظ الرجل، كما أن الشرع الإسلامي كفل حماية المرأة أن تكون مهينةً مبتذلةً تحمل هم العيش والكد؛ لكسب لقمة الغذاء، لكي تتوفر على هذه المُهِمَّة. (١)

الوجه الثالث: أيهما أولًا أسرتها أم وظيفتها؟

إن الأعمال الوظيفية والمهنية عندما تتزاحم بحكم المتطلبات الأسرية والاجتماعية، فلا مناص من اتباع ما يقتضيه سلم الأولويات، في تفضيل الأهم، فما دونه، فما دونه، من حيث رعاية الضروريات ثم الحاجيات ثم التحسينات من مصالح المجتمع.

إن المرأة المتزوجة التي أنجبت أطفالًا، يلاحقها المجتمع بطائفة من الأعمال الكثيرة، التي لا تقدر في الأغلب على النهوض بها كلها، فهي ملاحقة برعاية زوجها وتوفير مقومات إسعاده، وهي ملاحقة في الوقت ذاته برعاية أطفالها وتربيتهم، كما أنها بحكم ثقافتها واختصاصها العلمي الذي تتمتع به، مدعوة إلى أن تساهم في خدمة مجتمعها من خلال وظيفة تعليمية في إحدى المدارس، وقد تكون ذات نشاط اجتماعي فهي مدعوة بحكم مزيتها هذه إلى أن تبذل من نشاطها هذا ما تساهم به في رعاية مجتمعها وحل بعض مشكلاته.

إن الوقت لا يسعفها في النهوض بسائر هذه المهام والوظائف، وهي كلُّها جيدة ومفيدة، فما الحل الذي يجب المصير إليه؟.

ليس ثمة حل منطقي سليم، إلا اللجوء إلى ما تقتضيه رعاية سُلَّم الأولويات.

وسلم الأولويات يقول، فيما يقرره سائر علماء الاجتماع: إن نهوض الزوجة الأم بمسئولية رعاية زوجها وتربية أولادها والعمل على تنشئتهم النشأة الصالحة، يرقى إلى مستوى الضروريات من مصالح المجتمع.

ذلك لأن صلاح الأسرة هو الأساس الأول لصلاح المجتمع، فإذا فسدت الأسرة، وعصفت بها رياح الفوضى والإهمال، فإن سائر الأنشطة العلمية والثقافية، يتبعها سائر القوى والمدخرات الاقتصادية، لا يمكن أن يحل محل الأسرة في إقامة المجتمع على نهج

---

(١) عمل المرأة واختلاطها صـ ٤٢: ٤١.

سوي إنَّ المجتمع كان ولا يزال هو التابع لحال الأسرة وما هي عليه من صلاح وفساد، ولم يثبت عكس ذلك في وقت من الأوقات.

وانطلاقًا من هذا الواقع، فإذا لم تتمكن الزوجة الأم، من الجمع بين النهوض بمهام الأسرة، والأنشطة الثقافية والاجتماعية الأخرى، فإن عليها فيما يقضي به اتباع سلم الأولويات - أن توفر وقتها للنهوض بالضروري الذي هو السهر على رعاية الأسرة، وإن اقتضى ذلك التضحية بوظائف وأعمال أخرى.

ويزداد الحق في هذا الذي نقوله وضوحًا، عندما تجد الزوجة نفسها مندفعة إلى الوظيفة أو العمل، لمجرد طمع في وجاهة اجتماعية، أو لمجرد رغبة في التمتع بمزيد من المال. إنها في هذه الحالة تغامر بدون شك بحياتها الزوجية أو بالسعادة التي ينبغي أن تشيع بينها وبين زوجها، كما تغامر بما قد يكون أهم من ذلك، ألا وهو رعاية الأولاد والتفرغ لحسن تربيتهم، في سبيل هوى من الأهواء العابرة، وابتغاء متعة سرعان ما تتحول إلى أعباء ثقيلة من المغارم.[1]

في بحث علمي نفسي نشرت جريدة أخبار اليوم القاهرية ١١/ ٤/ ١٩٨٧م ما يلي: لقد حصلت المرأة في العالم على بعض المناصب العليا، ولكن إذا أحصينا عدد الرجال والنساء بالنسبة لهذه الوظائف نجد الرجل يحتل ٩٠٪ إن لم يكن أكثر، ويقول علماء النفس: إن عدم تولي المرأة المناصب الكبيرة، بنسبة متساوية مع الرجل، لم يكن بسبب عدم جهدها، أو قلة ذكائها، وإنما هناك عوامل أخرى تتحكم في حياتها وطبيعتها، فهي مطالبة بأعمال المنزل، وهي التي تعني بأفراد العائلة كلها، والمرأة إذا أعطت كل الوقت لعملها، فهي تشعر بالذنب في داخلها، ذلك أنه حين يكون المنزل غير مرتب فإنها تشعر بالذنب في داخلها، فهي تحس أن المنزل هو عنوانها، ومهما علت في المناصب فإن المنزل مملكتها، وذلك بعكس الرجل، والمرأة لا تشعر بالراحة إذا تركت أولادها وزوجها بدون طعام،

(١) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني صـ ٦٤.

لذلك هي تحب أن تشرف على منزلها بنفسها، والمرأة لا تحب أن يكون لها في بيتها مكتب خاص، بخلاف الرجل. والمرأة لا تحب أن تنجح هي بقدر ما تحب أن ينجح زوجها وأولادها، وأن تصنع النجاح لهم، ولا يوجد لنا جواب يفسر هذه الطبيعة أكثر من أنها هي الطبيعة التي ولدت مع المرأة. . . ".

الوجه الرابع: أعظم عمل للمرأة أن ترعى أولادها.

الأمومة هي أعظم عمل للمرأة. إن عمل المرأة الأول والأعظم الذي لا ينازعها فيه منازع، ولا ينافسها فيه منافس، هو تربية الأجيال، والذي هيأها الله له بدنيًّا، ونفسيًا، ويجب ألا يشغلها عن هذه الرسالة الجليلة شاغل مادي أو أدبي مهما كان، فإنَّ أحدًا لا يستطيع أن يقوم مقام المرأة في هذا العمل الكبير، الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتكوَّن أعظم ثرواتها، وهي الثروة البَشرية. (١)

يقول د/نور الدين: قد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة في أوربا وأمريكيا أهمية الأم أهمية ضرورية إلى أبعد حد في نشأة الطفل صحيح البدن تام النمو، سليم العقل، سوي النفس والسلوك.

فقد أجريت دراسة على مجموعة من الأطفال متنوعة: مجموعة ترعاها مربية، ومجموعة أطفال ترعاهم أمهاتهم، ووضع الجميع في ظروف متماثلة، وقد لاحظوا بعد مدة سنتين من المراقبة أن الأطفال المحرومين من عطف الأم وحنانها لم ينجحوا في تعلم الكلام ولا المشي، ولا تناول الطعام بمفردهم، بينما نجح الآخرون الذين تحيطهم عواطف أمهاتهم في ذلك، ثم كان الأشد من ذلك والأمرُّ أنه لم تقع أي حادثة وفاة بين الأطفال الذين ترعاهم أمهاتهم بينما مات من الآخرين (٣٧٪) سبع وثلاثون بالمائة في مدة السنوات الخمس، التي استغرقتها التجربة.

---

(١) مركز المرأة في الحياة الإسلامية صـ ١٦٠.

هذا فضلًا عن التخلف النفسي، الذي يكون أشد من تخلف النمو الجسدي، فالإجرام والعنف العصبي والتعقيد النفسي والتصرفات الاجتماعية، الشاذة وغيرها من اضطرابات السلوك يمكن تفسيرها جميعًا بالحرمان الذي يكون قد عاناه الشخص وهو صغير في فترة طفولته(١).

ويقول الشيخ الشعراوي: وعمل المرأة يوجد في البيت فراغًا كبيرًا، وإذا كانوا يقولون أن المرأة هي نصف المجتمع فكيف لا تعمل؟. . نقول: إن عمل المرأة قد أفسد المجتمع كله وليس نصفه، فالطفل محتاج إلى أمه احتياجًا كبيرًا، فعندما يولد هو محتاج إلى لبن الأم.

إن العالم كله الآن يصرخ بالعودة إلى الرضاعة الطبيعية بعد أن عرفوا معنى أن يرضع الابن من ثدي أمه. إن هذا أمر هام جدًّا بالنسبة للتكوين النفسي للطفل. وإن تفرغ الأم لطفلها، يجعل الطفل يحس بالأمن والأمان طوال حياته، وقد يستطيع الأب أن يأتي لطفله بعشرين خادمة، ولكنه لن يستطيع أن يأتي له بقلب أم واحدة ترضعه حنان الأمومة؛ ذلك أن الابن وهو يرضع لبن الأم يصبح جزءًا منها(٢).

الوجه الخامس: **فطرة المرأة هي الفيصل في الأمر.**

فطرة المرأة تفضل الزواج والنجاح فيه عن النجاح في العمل، ذكرت محررة باب مع المرأة في أهرام ٢١/ ١٢/ ١٩٦٠م تحت عنوان: الإحصائيات أثبتت أن المرأة تفضل النجاح في زواجها عن النجاح في عملها ما يلي:

في ألمانيا أجريت إحصائيات ضخمة بين السيدات اللاتي يمتلكن المراكز الكبيرة في الشركات والمصالح، وسئلت كل واحدة: هل تفضل نجاحها في العمل؟ أم نجاحها في الحياة الزوجية؟

(١) عمل المرأة واختلاطها صـ٤٥.

(٢) المرأة في القرآن صـ١١٦: ١١٢.

ومن الغريب جدًّا أن الإجابات كانت واحدة بدون استثناء! فقد أجابت كل سيدة متزوجة بأنها تفضل النجاح في حياتها الزوجية علـى النجاح في عملها، وأنها مستعدة للتضحية بعملها ومركزها الكبير، ولا يمكن أن تضحي ببيتها وزوجها وأولادها.

وأجابت مجموعة كبيرة من السيدات المتزوجات: بأنهن كن يفضلن الزواج، مع البقاء في مراكز صغيرة جدًّا، وتقاضي مرتبات ضئيلة جدًّا من الوصول إلـى هـذِه المراكز المرموقة بدون زواج، فقد تبين لهن أن النجاح في العمل لم يعطهن الاستقرار والسعادة الحقيقية التي تتمناها كل واحدة لنفسها!.

وفي ألمانيا قامت إحدى الهيئات باستفتاء شمل عدة آلاف من البنين والبينات في سن الرابعة عشرة، وكان السؤال الذي وجه إلـى هـؤلاء جميعًا: ما أهم أمل تتمنـى تحقيقه في مستقبل حياتك، كانت نتيجة الاستفتاء كالتالي: ٨٢٪ من البنين أملهم النجاح في العمل ٨٤٪ من البنات أملهن النجاح في تكوين أسرة.

وفي هـذا المقام أسوق اعتراف أستاذة جامعية، نالت من العلم والشهرة ما عَزَّ علـى كثير من الرجال، نشرته صحيفة "الأهرام" في ٢٩/ ٥/ ١٩٦١

أستاذة جامعية في إنجلترا، وقفت هـذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها، تلقي خطبة الوداع بمناسبة استقالتها من التدريس، قالت الأستاذة: ها أنا قد بلغت الستين من عمري، وصلت فيها إلـى أعلـى المراكز، نجحت، وتقدمت في كلِّ سنة من سنوات عمري، وحققت عملًا كبيرًا في المجتمع كلُّ دقيقة في يومي كانت تأتي علـى بالربح.

حصلت علـى شهرة كبيرة، وعلـى مال كثير، أتيحت لي الفرصة أن أزور العالم كله، ولـكن هل أنا سعيدة الآن؟ بعد انشغالي في التدريس والتعليم، والسفر والشهرة، أن أفعل ما هو أهم من ذلك كله، بالنسبة للمرأة نسيت أن أتزوج وأن أنجب أطفالًا، وأن أستقر، إنني لم أتذكر ذلك إلا عندما جئت لأقدم استقالتي! شعرت في هـذِه اللحظة أنني لم أفعل شيئًا في حياتي، وأن كل الجهد الذي بذلته طوال هـذِه السنوات قد ضاع هباء، سوف

أستقيل، وسيمر عام، أو اثنان على استقالتي، وبعدها ينساني الجميع، في غمرة انشغالكم بالحياة. ولكن لو كنت تزوجت، وكونت أسرة كبيرة لتركت أثرًا كبيرًا، وأحسن في الحياة. إن وظيفة المرأة هي أن تتزوج، وتكوِّن أسرة، وأي مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له في حياتها بالذات، إنني أنصح كل طالبة أن تضع هذه المهام أولًا في اعتبارها، وبعدها تفكر في العمل والشهرة!!

وتقول أ/عزيزة عباس عصفور: تعليقًا على قرار أصدره وزير العدل المصري بتعيين بعض النساء حقوقيات- في نيابات الأحداث:

"لو كانت الخطوة التي خطاها وزير العدل بتعيين "الحقوقيات" في نيابات الأحداث كسبًا للمرأة لكنت أول من تدعو الله أن يبارك للمرأة فيها، أما وإني ممن خرجتهن كلية الحقوق في الأفواج الأولى، وزاولتُ المحاماة أكثر من عشر سنين، وبلوت فيها حلاوتها ومرارتها معًا، فإنني أعلن بصراحة أن النيابة والمحاماة معًا تتنافيان مع طبيعة المرأة وتتعارضان مع مصلحتها، وأعلن إشفاقي على البقية الباقية من فتياتنا المثقفات اللاتي مازلن بخير أن يجربن هذه التجربة المريرة المضنية، وأهيب بهن أن ينجون بأنفسهن من عاقبة لا يدركن مرارتها إلا بعد أن يقعن فيها، ويهدمن بأيديهن صرح سعادتهن، لقد تحطمت أعصابنا- نحن المحاميات- من إرهاق المهنة وعنائها، ومن محاربتنا للطبيعة وتنكبنا طريق الواقع، بماذا تكون العاقبة إذا خضعت النائبة لطبيعتها واستجابت لحقها في الحياة فتزوجت ورزقت أطفالًا، فاقتلعتها من بينهم طبيعة التحقيقات والانتقالات والمعاينات، وتركت زوجها قعيد الدار يربي الأولاد، ويرضع الصغار، وهي في الخارج تدور في كلِّ مكان كأنها رجل الشارع يهجر بيته آناء الليل وأطراف النهار، وماذا تصنع إذا عينت في بلاد نائية عن أهلها، وليس بها مكان للسكن غير استراحة الموظفين، هل تبيت ليلتها مع زملائها مع الرجال؟ إن الدين والأخلاق والعرف الحميد تحتم أن تعيش المرأة

بعيدة عن مواطن الفتنة والإغراء والزلل، واختلاطها علـى هـذِه الصورة يعرضها لخطر محقق وضرر مؤكد، ويضع سيرتها في ألسن الناس تلوكها بالمذمة والمسبة والعار.

إن رسالة المرأة في الحياة لها جلالها وقدسيتها التي لا تعادلها حقوق تمنحها ولا امتيازات تعطاها وإن كثرت".

ثم تقول: "ولقروية ساذجة في حجرها طفل أفضل للأمة وأنفع للبلاد من ألف نائبة وألف محامية، وحكمة الله فيكن أن تكنَّ أمهات"[(١)].

الوجه السادس: مصلحة المرأة وسعادتها تكمن في بيتها

إنَّ سعادة الأسرة ليست في مجرد زيادة الدَخْل، الذي يُنفَق معظمه في أدوات الزينة، وثياب الخروج، وتكاليف الحياة المختلطة، التي تقوم على التكلف والتصنع وسباق الأزياء، و"الموضات" وما إلى ذلك، ويقابل هذه الزيادة في الدَخْل حرمان البيت من السكينة والأُنس، الذي تشيعه المرأة في جو الأسرة، أما المرأة العاملة فهي مكدودة الجسم، مرهفة الأعصاب، وهي نفسها في حاجة إلى مَنْ يروِّح عنها، وفاقد الشيء لا يعطيه.

إنَّ مصلحة المرأة ليست في إخراجها عن فطرتها واختصاصها وإلزامها أن تعمل عمل الذَّكر، وقد خلقها الله أُنثى، فهذا كذب على المرأة وعلى الواقع، وقد تفقد المرأة من هذا الصنف أُنوثتها بالتدريج، حتى أطلق عليها بعض الكُتَّاب "الجنس الثالث"، وهذا ما اعترف به كثير من النساء من ذوات الشجاعة الأدبية. [(٢)]

ونشرت جريدة الأهرام تحت عنوان "مع المرأة" وتحررها سيدة:

إنهم في إنجلترا طعنوا في المرأة العاملة في أنوثتها، بعد أن عجزوا عن ردها عن العمل، وأقاموا استفتاء بين عدد كبير من الرجال في مختلف الطبقات؛ لمعرفة رأيهم في أهم الصفات التي تعبر عن أنوثة المرأة وادعوا أن نتيجة الاستفتاء كانت كالآتي:

---

(١) حوار هادي لسلمان العودة نقلًا عن كتاب (من هنا نعلم) للغزالي صـ١٦١.

(٢) مركز المرأة في الحياة الإسلامية صـ١٥٦.

١- طبقة العمال قالت: إن الأُنوثة تبرز في الفتاة التي تتدلل وتمتنع في نفس الوقت، فتفر من الرجل إن قرب منها، وإذا ابتعد عنها عادت من نفسها قبل ضياع الفرصة!

٢- واتفق الفنانون على أن الفتاة الهادئة، هي الأكثر أنوثة؛ لأنها توحي بالضعف، والضعف هو الأنوثة.

٣- أما الموظفون والطلبة الجامعيون الذين هم أكثر احتكاكًا بالمرأة، فقد اتفقوا على أن الأنوثة لا تتمتع بها إلا المرأة التي تجلس في بيتها، حيث ترعى أولادها بنفسها، وتقوم بجميع أعمال المنزل، أما المرأة العاملة فهي مجردة نهائيًا من الأنوثة، وكان هذا رأي الأغلبية هناك.

ثم قالت المحررة نفسها في باب "مع المرأة" في عدد آخر:

محاولة هدم المرأة انتقلت هذا الأسبوع من إنجلترا إلى أمريكا، فقد اجتمع أعضاء الكونجرس الأمريكي لمناقشة موضوع منع الأم التي لديها أطفال من الاشتغال مهما كلفها ذلك.

قال عضو منهم في تبريره للمنع: إن اشتغال الأمهات يسبب مشكلات اجتماعية واقتصادية لا حصر لها.

وقال آخر: إن الله عندما منح المرأة ميزة إنجاب الأولاد لم يطلب منها أن تتركهم لتعمل في الخارج، بل جعل في البقاء في المنزل لرعاية هؤلاء الأطفال.

وقال ثالث: إن المرأة تستطيع أن تخدم الدولة حقًا، إذا بقيت في البيت الذي هو كيان الأسرة.

وقال رابع: إنه لمن الواجب اتخاذ قرار سريع بمنع المرأة التي لديها أطفال دون الثامنة من العمل.

وقال خامس: إن الأم كالفيتامين، إذا حرم الأولاد منها، مرضوا وماتوا، واتفقوا في النهاية على السماح للمرأة بالتعليم حتى تفيد أولادها مستقبلًا، أما العمل فلا.

ثم أخذت هذه المحررة تهاجم هذه الآراء، وتزعم أنها ليست أكثر من غيره من الرجل لمنافسة المرأة له في العمل.

وأعلنت في عدد آخر من الأهرام هزيمتها في مهاجمة القائلين بمنع المرأة من العمل فقالت: يبدو أنني سأكف عن مرافعتي بعد أن تبينت أني خسرت القضية بهذا الجواب

الذي وصلني من واحدة منا، صاحبته سيدة، تشغل مركزًا محترمًا، وتعمل من خمس وعشرين سنة! تقول لي بالحرف الواحد:

"إما أنك تخدعين نفسك، وإما أنك ما زلت في أول سنوات العمل، إن الرجال على حق فيما يقولون. . فالمرأة العاملة تفقد أنوثتها فعلًا بالعمل، وقد يدهشك أنني أتمنى بعد أن أمضيت مدة طويلة في العمل المضني - وأشعر أن غيري كثيرات يشاركني هذا التمني- أن لا أخرج من بيتي، وأن لا أترك أولادي صباح كل يوم لأذهب إلى مكتبي، ولكنني أعمل وأشقى، لأفقد أنوثتي فعلًا على سبيل العند (العناد) إنني مثلك أخشى أن يقول الرجال إننا تراجعنا عن ميدان العمل وفشلنا، ولذلك فأنا وغيري نضحي بأنفسنا؛ لكي نغيظ الرجال، قولي الحقيقة: إن المرأة مهما تقدمت في عملها، فهي لا تحب أن تصبح رجلًا، بل تتمنى أن تتمتع بأنوثتها إلى أقصى حد، حالة واحدة تتمنى فيها المرأة أن تعمل، عندما يكبر الأولاد، ويذهب كل منهم إلى حال سبيله، وفي هذه الحالة تستشعر رغبة شديدة في العمل؛ إذ لم يعد هناك ما يذكرها بأنوثتها، إنها تعود إلى العمل بإحساس الرجل لا بإحساس المرأة". (١)

الوجه السابع: الآثار المترتبة على عمل المرأة، وإهمالها بيتها

أثبتت الدراسات العلمية إلى أن وجود الطفل في دور الحضانة أو تركه في البيت مع مربية أو خادمة، لها مخاطر ومضاعفات نفسية في حياة الطفل؛ وذلك لأن الأسرة هي محضن الطفولة وسكن الإنسان مهما امتد به العمر، وهو حين يفتقدها فإنه يصاب بالخلل ويضطرب توازنه، فكيف يكون إذًا! إذا عاش طفولته وحيدًا أو بعيدًا عن دفء الأسرة واستقرارها وعطائها من الحب والرعاية والاهتمام والضبط، تلك المعاني التي لابد منها في تربية الطفل وإعداده للحياة إنسانًا صالحًا فاضلًا.

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون صـ ١٧٣ : ١٧٢ .

فالطفل في سنواته الأولى في حاجة ماسة وضرورية إلى الأب والأم، أو أحدهما على الأقل؛ ليشعر بالأمن، والطمأنينة، والحب، تلك الأرضية الصلبة والوحيدة لتشكيل أنماط سلوكه وتفاعلاته ونشاطاته مع المحيط بشكل سوي سليم، وكل ما عدا هذه القاعدة من الأمن تبع له والأمن المقصود هنا يشكله الحب والحنان والاهتمام الذي يقدمه الأبوان أو أحدهما أو الكفل لهذا الطفل الذي يقع في حيز مسئوليتهم.

إن خروج الأم من البيت إلى العمل، وترك الأسرة للخادمة أو لحياة الفوضى والعشوائية يقضي على الأمن الذي ينشده أفراد الأسرة كبيرهم وصغيرهم والأطفال بالدرجة الأولى، إن المرأةَ خلقت؛ لتكون سكنًا وأمنًا وطمأنينة لأسرتها ومن يحيط بها من ذويها، وأي إعراض أو تنكر لهذا من المرأة يكون إعراضًا عن منهج الله سبحانه وتعالى؛ لأن مثل تلك الفلسفات التي تجعل من المرأة رجلًا يصارع الحياة، تحمل الخراب والدمار للإنسانية، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

لقد أظهرت الدراسات فروقًا واضحة بين أبناء العاملات وغير العاملات، إذ وجد أن الميول العدوانية والجناحية موجودة بنسبة أكبر بين أبناء العاملات، وهي بنسبة أقل بين أبناء العاملات لوقت قصير، وبنسبة أقل بين أبناء غير العاملات على الإطلاق.

وقد حدد علماء النفس العوامل الضارة في تشكيل نفسية الطفل بسبب الأم، يقول (ستيفاني): إن اشتغال الأم خارج المنزل، أو ولادة طفل جديد يستحوذ على اهتمامها ووقتها، والتغير في المحيط والبيئة للطفل بما في ذلك الأشخاص، كلها تشكل عوامل اضطرابات في التكيف الطبيعي للطفل.

وتبدو هذه الظاهرة في عمل الأم أكثر وضوحًا حين يكون رب الأسرة- الأب- مفقودًا فيها بوفاة أو طلاق أو سفر؛ ذلك أن الأم هنا سوف تقوم بدور الأب لتترك البيت فترات طويلة مما يعد عاملًا من عوامل انحراف الطفولة ويظهر هذا في أحياء الطبقات

الفقيرة وأحياء الزنوج في المجتمعات الأمريكية حيث تكون الأم هي ربة البيت والساعي في طلب الرزق.

الوجه الثامن: عمل المرأة زاد نسبة البطالة.

إنَّ اشتغال المرأة يؤثر على الحياة الاقتصادية تأثيرًا سيئًا، باعتبار أن اشتغالها في مزاحمة الرجل في ميدان نشاطه الطبيعي، مما يؤدي إلى نشر البطالة في صفوف الرجال، كما وقع في بلادنا منذ أخذت المرأة طريقها إلى وظائف الدولة فقد أصبح عدد كبير من حملة الشهادات الثانوية والعليا عاطلين عن العمل يملئون المقاهي، ويقرعون أبواب الحكومة طلبًا للوظائف، بينما تحتل أمكنتهم فتيات لا يحملن غالبًا مثل مؤهلاتهم وكفاءاتهم.

ومثل ذلك يقع الآن في أمريكا فقد أدت مزاحمة المرأة للرجل إلى بطالة متفشية في الرجال تزداد يومًا بعد يوم، وسترى في الملاحق ما يؤيد هذا.

إذا ثبت أن اشتغال المرأة يؤدي إلى بطالة الرجل، كان من المحتمل أن يكون هذا الرجل الذي زاحمته زوجها أو أباها أو أخاها، فأي ربح اقتصادي للأسرة، إذا كان اشتغال المرأة يؤدي إلى بطالة عميدها والمكلف بالإنفاق عليها؟. [1]

يقول أ/محمد رشيد العويد: في إحدى الجامعات الأمريكية طرحت محاضرة عن البطالة شارك فيها عدد من الطلبة في تقديم حلول مختلفة، منهم من قال: إن افتتاح مزيد من المصانع والمشاريع يمكنه أن يستوعب العاطلين عن العمل أو أكثرهم، ومنهم من قال: إن تأميم جميع الشركات والمصانع وجعلها تابعة للدولة يوفر فرصًا للعمل حين تقوم الدولة بتوزيع العمل وتنظيمه. وبعضهم رأى الحل في تخفيض ساعات العمل وزيادة أيام الإجازة الأسبوعية، مما يقتضي تعيين مزيد من العاملين لإنجاز العمل.

كان بين الطلبة مسلم من الكويت، يستمع إلى ما يطرحه زملاؤه من حلول لمشكلة البطالة. رفع يده بعد أن أنهى من أراد من زملائه تقديم الحلول. دعاه الأستاذ المحاضر

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون صـ ١٣٠.

لعرض رأيه في الحلول المناسبة لمشكلة البطالة، توجه الطالب الكويتي إلى اللوح ورسم ثلاث دوائر، كتب داخل إحداها "رجال عاملون" وفي الأخرى "نساء عاملات" وفي الثالثة "رجال عاطلون".

وصار يشرح فيقول: الحل هو في أن ينتقل "الرجال العاطلون" إلى دائرة "النساء العاملات" وتنتقل "النساء العاملات" إلى بيتوهن؛ لتربية أطفالهن ورعاية أزواجهن،
و أضاف الطالب: وبهذا نكون قد ألغينا البطالة وحفظنا المجتمع من أمراض خطيرة معظمها ناتج عن تصدع الأسر وغياب الأمهات عن البيوت! ! ختم الطالب شرحه البسيط الواضح. والموجز بقوله: يبقى أن أذكر أن هذا الحل قرره الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا.

نعم أكثر من اثنى عشر مليون عاطل عن العمل في أوروبا الغربية وحدها، مئات آلاف الجرائم التي ترتكب فيها سنويًا، يمكن أن تتراجع تراجعًا كبيرًا إذا ضمنا عودة المرأة إلى بيتها[1].

الوجه التاسع: الإنسان ليس آلة لا روح فيها.

إنَّ مصالح الشعوب لا تقاس دائمًا بالمقياس المادي البحت، فلو فرضنا أن اشتغال المرأة يزيد من الثروة القومية، إلا أنه من المؤكد أن الأمة تخسر بذلك خسارة معنوية واجتماعية لا تقدر، تلك هي خسارتها بانسجام الأسرة وتماسكها، إن الغرب خسر كثيرًا باشتغال المرأة، حيث إنها صرح الأسرة، وفسدت أخلاق الأولاد، فأي الخسارتين أبلغ ضررًا في الأمة؟ الخسارة المادية! أم الخسارة الاجتماعية؟.

إن الذين يلحون على ضرورة اشتغال المرأة خارج بيتها؛ لتكسب البلاد نتيجة عمل المرأة، لا يبالون بما تخسره البلاد من تفكك الأسرة، وفقدان الرقابة والرعاية على تربية أبنائها وبناتها، ومثل هؤلاء يتبنون فلسفة مادية بحتة – وهذا ما تفعله الشيوعية تمامًا- ولكن المجتمع لا تتم سعادته إذا نظر إلى القيم الأخلاقية والروحية والعائلية نظرة ثانوية أو نظرة ازدراء، ومجتمعنا

---

(١) رسالة إلى حواء صـ ٢٠٥: ٢٠٤.

مجتمع متدين تسير سلوكه المبادئ الأخلاقية التي جاءت بها أديانه، فلا يمكن أبدًا أن ينظر إلى الأسرة بالمنظار الذي تنظر به الشيوعية والحضارة الغربية المادية إليها، وإلا كان ذلك خرابًا للمجتمع في نظر أديانه ومبادئه ومثله الخلقية، ورسالته الإنسانية.

إن النظر إلى كل فرد في المجتمع كآلة منتجة لا تهتم الدولة إلا بزيادة إنتاجها، هو رجوع بالإنسان إلى الوراء. . إلى عهود الرق والعبودية والسخرة. . وهذا ما لا ترضاه الإنسانية الكريمة في إنسان مجتمعنا المتدين الراقي بعواطفه وأخلاقه ومثله العليا.

على أن النظرة المادية لا تنطبق على واقع حياتنا وحياة المجتمعات الأخرى حتى في الشيوعية نفسها، فهناك - في كل مجتمع- فئات معطلة عن الإنتاج المادي، فالجيوش والموظفون لا يزيدون في ثروة الأمة المادية، وقد رضيت كل الأمم بأن يتفرغ الجيش لحماية البلاد، دون أن تلزمه بالعمل والكسب، فهل يقال: إن هذا تعطيل للثروة البشرية يؤدي إلى انخفاض الثروة القومية في البلاد؟ أم إن هؤلاء المنادين باشتغال المرأة خارج بيتها يوافقون على حرمان الأمة من جهود أفراد الجيش الاقتصادية في سبيل مصلحة أعلى وأثمن من المنفعة الاقتصادية؟ وإذا كان كذلك، فهل يكون التفرغ لشئون الأسرة أقل فائدة للأمة من تفرغ الجيش لحماية البلاد؟ أم يريدون أن ترهق المرأة بالعملين معًا؟

إن حياة الناس - أي ناس كانوا- ليست كلها تحسب بحساب الربح والخسارة المادية، فالكرم والشهامة والتضحية والوفاء وبذل العون للآخرين كل ذلك خسران مادي، ولكنه ربح عظيم لا يتخلى عنه الناس الشرفاء الذين يعتزون بكرامتهم الإنسانية.

وليست صيانة الأسرة، ورعاية الطفولة، وتربية الأولاد بأقل شأنًا في نظر الإنسان الراقي المعتز بإنسانيته من تلك القيم الأخلاقية التي لا تقاس بالمقياس المادي البحت.

وأخيرًا فإن خوض الأمة معارك الدفاع عن حياتها، أو انتزاع استقلالها من أيدي المغتصبين، ترحب به كل أمة، بل لا تستطيع أي أمة كانت أن تفعل غيره، فكم تلحق بالأمة من خسائر مادية وبشرية في سبيل الدفاع المشروع؟ وهل يجرؤ أحد على أن يدعو

الأمة إلى تسريح جيشها، وعدم شراء الأسلحة والذخائر أو صنعها، وعدم مقاومة المغيرين المعتدين بحجة أن في ذاك كله خسائر مادية، وإضرارًا بالإنتاج القومي والثروة العامة في البلاد؟

ثم أي معنى لقول من يقول: إن وجود المرأة في البيت يعودها الكسل ولذلك تسمن نساؤنا أكثر من الغربيين، إن مثل هؤلاء لا يعرفون متاعب البيت وأعماله، وكيف تشكو المرأة من عنائه، فما يمسي المساء إلا وهي منهوكة القوى تروح عن نفسها بالاجتماع إلى جاراتها وصديقاتها.

والبنت ما دامت في المدرسة فهي تلقى العلم فلا يجوز إرهاقها بالعمل معه وإذا انتهت من المدرسة لا تمكث في بيت أبيها وأمها إلا بمقدار ما تتهيأ للانتقال إلى بيت الزوجية، فهي في هذه الحالة تتلقى دروسًا عملية عن أمها في إدارة البيت وأعماله وشئونه، فلا يجوز مع ذلك إرهاقها بالعمل خارج البيت.

إن الذي أؤكده في الموضوع أن أعمال المرأة في البيت - بنتًا كانت أم زوجة - لا تقل عن أعمالها خارج البيت مشقة وعناء. وكثيرًا ما تكون أكثر مشقة وإرهاقًا.

أما ما يزعمون من سمن المرأة الشرقية، فهذه نكتة لا تستحق المناقشة لولا أننا سمعناها كثيرًا من هؤلاء المتحمسين لعمل المرأة خارج بيتها، ذلك أن السمن والنحافة تابعان لنظام التغذية، ومما لا ينكر أن نظامنا في الطعام يؤدي إلى السمنة في الرجل والمرأة على السواء، بل الملاحظ أن السمن عند الرجال في الغرب كما شاهدنا ذلك، ويؤكد هذا أن الأعراب المقيمين في الصحراء قل أن يوجد فيهم السمين، ولقد لاحظت في إحدى المرات التي أديت فيها فريضة الحج، وقد حضره من مختلف أنحاء الجزيرة العربية ما يبلغ نحوًا من ثلاثمائة ألف بدوي، لاحظت حينئذٍ أنه قل أن يوجد بينهم سمين، بل إني لم أر في هذا العدد الضخم سمينًا واحدًا قط.

فالقضية تابعة لنظام التغذية ونوع الغذاء لا إلى الراحة أو التعب[1].

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون صـ ١٣٢ : ١٣٠.

الوجه العاشر: شكوى الغرب من عمل المرأة

إنَّ الغرب الذي يقتدون به أصبح اليوم يشكو من عمل المرأة وما جرَّه من آثار، وأصبحت المرأة نفسها هناك تشكو من هذا البلاء، الذي لم يكن لها فيه خيار، وهاهي أقوال عقلاء الغرب في عمل الغرب تدلك على ذلك:

قال الفيلسوف الملحد "برتراند راسل": إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة، وأظهر الاختيار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة وتأبى أن تظل وفية للرجل إذا تحررت اقتصاديًا.

بل إن "هتلر" و"موسوليني" أخذا يقدمان جوائز مغرية للنساء اللاتي يتركن أعمالهن خارج البيت ليعدن إلى بيوتهن يعملن فيها، فهل من مذكر؟.

يقول الدكتور "سوليفان": "إن السبب الحقيقي في جميع مفاسد أوربا وفي انحلالها بهذه السرعة، هو إهمال النساء للشئون العائلية المنزلية، ومزاولتهن الوظائف والأعمال اللائقة بالرجال في المصانع المعامل المكاتب جنبًا إلى جنب".

ونشرت جريدة "أخبار اليوم" القاهرية: أن حركة قوية في بريطانيا الآن تطالب ببقاء النساء في منازلهن، وعدم خروجهن إلى ميادين العمل، ويقول زعماء هذه الحركة: إن اشتغال المرأة خارج بيتها هو المسئول عن تعاسة الأطفال وانحراف الأحداث، وعن إصابة الأزواج بالعقد النفسية؛ لأنهم يشعرون بإذلال كبريائهم عندما يرون الشيكات بأيدي زوجاتهم، ويؤكدون أن خروج المرأة إلى العمل يصيب الزوج بالقرحة المعدية بسبب تناوله الأطعمة المحفوظة بصورة دائمة.

وقالت الكاتبة الإنجليزية "اللادي كوك": إن الاختلاط يألفه الرجال؛ ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا، وههنا البلاء العظيم على المرأة إلى أن قالت: علموهن الابتعاد عن الرجال، أخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بالمرصاد.

وقالت الدكتورة "إيدالين": إن سبب الأزمات العائلية في أمريكا، وسر كثرة الجرائم في المجتمع، هو أن الزوجة تركت بيتها؛ لتضاعف دخل الأسرة، فزاد الدخل وانخفض مستوى الأخلاق، ثم قالت: إن التجارب أثبتت أن عودة المرأة إلى الحريم هو الطريقة الوحيدة لإنقاذ الجيل الجديد من التدهور الذي يسير فيه.

قال البروفسور دكتور "كلين" رئيس أطباء المستشفى الحكومي للنساء في مؤتمر للأطباء قال: إن في الجمهورية الاتحادية الألمانية اليوم حوالي سبعة ملايين من النساء العاملات، وهذا أكثر من ثلث المجموع من عدد العمال، إن أكثر من ثلث النساء متزوجات، ومعظمهن عندهن طفل أو أكثر من الذين لا يزالون في سن الطفولة تحت سن السابعة، وهؤلاء الأطفال بحاجة خاصة إلى عناية الأم، إن هذا العبء المثلث على تلك النساء هو السبب الوحيد الذي يؤدي إلى تدهور حالتهن الصحية التي بدورها تؤدي إلى تدهور الطفولة، ومن ثم المجتمع العام.

ثم من الذي قال: إن عمل المرأة في بيتها هو تقشير البطاطس وغسل الصحون؟ لو كان الأمر كذلك لأغنى عنها أي طباخ أو طباخة؟! أهكذا تُسفهون برسالة المرأة إلى هذا الحد؟ هل الخطر الذي تعترفون به على الأسرة والمجتمع، هو عدم وجود امرأة في البيت تقشر البطاطس، وتغسل الصحون؟ أم هو عدم وجود زوجة تشرف على البيت، وأم تعني بتربية الأطفال؟!

ثم أي عاقل يعرف خطورة رسالة المرأة في البيت، يعتبر تفرغها لأداء هذا الواجب سجنًا؟ فلم لا نقول: إن الموظف الممنوع من ترك وظيفته ليعمل ويكتسب يعتبر في ديوانه في الوظيفة سجينًا؟!.

الروس يدعون لبقاء المرأة في بيتها:

ومما يزيد الأمر إيضاحًا: أن روسيا معقل الشيوعية وموطن النظرة العارمة الداعية لخروج المرأة للعمل قد رجع سكانها عن نظرتهم السابقة، ففي استطلاعٍ للرأي أجراه

معهد الرأي ونشرت نتائجه وكالة "إيتار تاس" الروسية للأنباء في السادس من مارس (٢٠٠٠) تبين ما يلي:

(٤٧٪) من الروس يرون أنَّ المرأة يجب أن لا تعمل إذا كان وضعها المالي أو وضع شريكها يسمحان بذلك.

(٤٦. ٥٪) من الأشخاص الذين شملهم الاستطلاع أن النساء يجب أن يَبْقَينَ في المنزل، إذا كان الشريك قادرًا على تأمين احتياجاتهن.

(٣٧٪) فقط هم الذين أيَّدُوا حقَّ المرأة في العمل[1].

الفرنسيات: ملَلْنا المساواة مع الرجال، والجري وراء مترو المواصلات!!

أجرت مجلة (ماري كير" في فرنسا استفتاءَ للفتيات الفرنسيات من جميع الأعمار والمستويات الاجتماعية والثقافية، وكان عنوان الاستفتاء: "وداعًا عَصرَ الحُرِّيَّة، وأهلًا عصرَ الحَريم".

وشمل الاستفتاءُ مليونين ونصف المليون من النساء الفتيات المنخرطات في مجالات العمل، وكذا المستقرات في البيوت.

وكانت النتيجة أنَّ (٩٠٪) من النساء يُفَضِّلْنَ البقاء في المنزل وعدم الخروج للعمل، وقُلْنَ: لقد مَلَلْنَا المساواة مع الرجل.

مَلَلْنَا حياة التوتُّر، ليلَ نهار.

مَلَلْنَا الاستيقاظ عند الفجر للجري وراء المترو.

مَلَلْنَا الحياة الزوجية التي لا يَرى الزوجُ فيها زوجتَه إلا عند النوم.

مَلَلْنَا الحياة التي لا ترى فيها الأُمُ أطفالَها إلا عند مائدة الطعام[2].

الوجه الحادي عشر: ومع عمل المرأة لم تتحقق المساواة.

(١) انظر: (جريدة الرياض) العدد (١١٥٨٠) الأربعاء ١٢/ ١٢/ ١٤٢٠ هـ.

(٢) انظر: (مجلة الأسرة) العدد (١٠٧) صفر ١٤٢٣هـ الصادرة عن مؤسسة الوقف بهولندا.

انتفاء المساواة بين المرأة والرجل في العمل، على الرغم من أنها - المساواة- أحد الشعارات التي شدوا المرأة من خلالها؛ لتعمل في أعمال الرجال، لقد أعطوها أجرًا أقل من الرجل، وما زالوا يعطونها أجرًا أقل.

وقرأنا في الإحصاءات أن الرجال يأخذون رواتب بنسبة ٣٤ في المائة من رواتب النساء، ولم يفتحوا أمامها جميع الأعمال، فقد قرأنا أيضًا أنه على الرغم من (٤٥٥) مهنة تمَّ إحصاؤها فقد لوحظ أن النساء يتواجدن بكثافة في قرابة ٢٠ مهنة فقط، ولم يوفروا لها أعمالًا مستقرة، فقد قرأنا أن العمل بدوام جزئي مخصص للنساء؛ إذ يشمل نسبة تصل إلى ٢٥ في المائة بينما لا تصل نسبته عند الرجال إلى أكثر من ٢ في المائة فقط.

وأردؤها مرفهة لهم، شاغلة لأوقاتهم، ولهذا ارتفعت نسبة المشتغلات في فنون المنوعات إلى ٤١ في المائة، ولم تتجاوز نسبة ٦ في المائة في أعداد النواب ومديري الإدارات[1].

استقلت المرأة اجتماعيًا، أجل، ولكنها دفعت ثمنًا غاليًا كما جاء في كتاب: "المعهد الوطني الفرنسي":

١- وحدة.

٢- مسئوليات في العمل أكثر من الرجال.

٣- أجور أقل.

٤- أقساط من الراحة أقل.

الوجه الثاني عشر: الضرر الصحي على المرأة.

إن خروج المرأة إلى العمل أدَّى إلى ضعفها صحيًّا حيث أظهرت أحدث الدراسات الأمريكية أن دخول المرأة ميدان العمل كان له تأثير كبير على توازنها النفسي، فالملاحظ أن نسبة كبيرة من النساء العاملات يعانين التوتر والقلق الناتج عن المسئوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهن، والموزعة ما بين المنزل والزوج والأولاد والعمل، فقد سجلت الإحصائيات الأخيرة

---

(١) من أجل تحرير حقيقي للمرأة صـ ١٢٢.

أن ٧٦٪ من نسبة الأدوية المهدئة تصرف للنساء العاملات، كما كان من نتيجة هذا التوتر ارتفاع نسبة تدخين السجائر بين النساء [١]، وكلنا يعلم أضرار التدخين على الصحة وغيرها.

وجاء في جريدة الأهرام[١] أيضًا: لقد أصبحت نسبة عدد النساء المهددات بالإصابة بأمراض القلب تزداد يومًا بعد يوم- هذا ما يصرح به أخصائيو أمراض القلب في العالم فبعد أن كانت من الأمراض التي يتعرض لها الرجال بنسبة أكبر أصبح اليوم يتعرض لها الجنسان بنفس النسبة، وقد أرجعت المحررة مرفت عثمان السبب في ذلك إلى تعرض النساء لنفس الانفعالات والظروف التي يتعرض لها الرجال الناتجة عن متطلبات العمل.

ويؤكد ذلك ما قاله الدكتور أحمد مصطفى عيسى، أستاذ أمراض القلب بجامعة الأزهر، أن إصابة القلب من تصلب الشرايين وإصابات الذبحة، كانت مقصورة على الرجال في الخمسينيات، أمَّا المرأة فكانت لا تُصاب بهذه الأمراض؛ لأنها في حماية طبيعية نتيجة وجود هرمون الإستروجين، وهذا الهرمون يمنع تراكم الدهنيات وتصلب الشرايين لدرجة أن بعض الرجال كانوا يعالجون بهذا الهرمون الأنثوي؛ لإنقاذهم من مضاعفات تصلب الشرايين، وتراكم ثلاثيات الجلسرين التي تسبب الإصابة بالذبحة الصدرية.

ولكن بعد أن دخلت المرأة مجال العمل وأصبحت تتعرض لعوامل التوتر والضغوط النفسية نتيجة لمشاكل الحياة الحديثة، بالإضافة إلى تحملها مسئولية العمل في المنزل أصبح هذا الهرمون لا يستطيع أن يحميها فأصيبت المرأة بالذبحة الصدرية، وتصلب الشرايين وضغط الدم وغير ذلك.

تقول طبيبة نمساوية: كنا نظن أن انخفاض نسبة الولادات بين العاملات ترجع لحرص المرأة العاملة على التخفيف من أعباء الحياة في الحمل والولادة والرضاع تحت ضغط الحاجة إلى الاستقرار في العمل، ولكن ظهر من الإحصائيات إن هذا النقص يرجع إلى عقم استعصى علاجه، ويرجع علماء الأحياء سبب ذلك إلى قانون طبيعي معروف وهو أن الوظيفية تخلق

---

(١) جريدة (الأهرام المصرية) ١٥/ ١١/ ١٩٨١ م.

العضو، وهذا يعني أن وظيفة الأمومة خلقت خصائص مميزة للأنوثة، وإنها لابد أن تضمر تدريجيًا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة بسبب اندماجها مع عالم الرجال.

وأيضًا إن نسبة كبيرة من العاملات يعانين من التوتر والقلق الناجمين عن المسئوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهن والموزعة بين المنزل والأولاد والعمل.

كشفت دراسة أجرتها إحدى المتخصصات السعوديات (د. أسماء الحسين) وجاء فيها (٥٧٪) من النساء السعوديات العاملات يعانين من الاكتئاب، بسبب توتر العلاقات الزوجية[١].

الوجه الثالث عشر: وهل سلمت المرأة في عملها من الذئاب البشرية.

إن المنادين بوجوب خروج المرأة للعمل لم يوفروا لها الحماية من الابتزاز الجنسي في العمل.

نشرت مجلة النيوزويك الأمريكية في عددها الصادر في ١٧ مارس ١٩٨٠ تحقيقًا عامًا بعنوان: "Abusing sex at the office"" "سوء استخدام الجنس في المكاتب"، وبعنوان فرعي: sexual Harrassment, the boss dirty little fringe benefit, is out of the closet, and it's illegal).

"إن مضايقة الرئيس لمرؤوسيه جنسيًّا أمر قد خرج عن دورة المياه- أي عن السرية- وأصبح غير قانوني".

وتقول المحامية جوديت كيرتز من فرانسسكو: إن النساء بدأن يدركن أن هذه المضايقات الجنسية نوع من التفرقة بين الجنسين وليست أمرًا يسيرًا (and it's not O. K) إن الزيادة في الشكاوى من المضايقات الجنسية في العمل توازي الزيادة في عدد العاملات في الولايات المتحدة، ومع هذا فلا تزال المرأة في مجال العمل مرءوسة برجل في أغلب الحالات، وأكثر العاملات هن سكرتيرات، أو كاتبات على الآلة الكاتبة، أو بائعات في المتاجر والحوانيت والمراكز التجارية -السوبر ماركت- أو نادلات -جرسونات- وفي كل

---

(١) جريدة (الوطن) ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٢ م.

تلك الأحوال يكون رئيسها المباشر رجلًا تعمل من أجله ولحسابه، وله سلطة عليها، ويملك أن يرفع أجرها أو يخفضه، ويمكن أن يرقيها في وظيفتها أو يطردها منها، وعليها أن ترضيه؛ لتبقى في وظيفتها، ولترقى فيها، وليزداد أجرها، ومن ضمن تلك الترضية السكوت على اعتداءاته الجنسية أو موافقته عليها.

وتقول الأستاذة جاكلين بولس من جامعة جورجيا: ليس الدافع إلى هذه المضايقات هو الرغبة الجنسية الجامحة لدى الرجل، فإنه يستطيع بكل سهولة ويسر قضاءها كيفما أراد، ولكنها الرغبة العارمة في إظهار القوة. نعم، إن هذه المضايقات الجنسية تشبه إلى حد كبير حالات الاغتصاب التي انتشرت في الولايات المتحدة انتشارًا ذريعًا، والتي ليس دافعها الرغبة الجنسية؛ إذ الجنس متوفر لمن أراد وبدون أي كلفة، ولكن دافعها الحقيقي هو حب السيطرة وإظهار القوة.

وتقول كيرين سويفيجن رئيسة معهد النساء العاملات في نيويورك: إن المضايقات الجنسية لا تقتصر على الاعتداء الجسدي بل إن الكلام البذيء والنكت الفاضحة تشكل نوعًا من الاعتداء على المرأة الحساسة، وليس كل النساء يستطعن تحمل هذا الكلام البذيء والنكت الفاضحة، فكم من واحدة أصيبت بالأمراض الجسدية مثل الصداع والقيء وعدم النوم وفقدان الشهية؛ نتيجة لهذا الوضع السيئ التي تضطر فيه المرأة العاملة إلى سماع هذه الاعتداءات الجنسية الكلامية؟!

وكم من واحدة اضطرت إلى أخذ الحبوب المهدئة، لتستطيع الذهاب إلى العمل كل صباح وسماع تلك الأسطوانة الممجوجة من الغزل البذيء؟!.

ولقد اضطرت بعض النساء الحساسات إلى ترك أعمالهن بسبب هذا الاعتداء الكلامي، وقالت أحد السكرتيرات اللائي اضطررن للاستقالة من وظيفتها في أتلانتا بالولايات المتحدة؛ نتيجة لهذه البذاءة الكلامية: إنهم يعرونك من كرامتك.

وتعلق المجلة أخيرًا: إن القانون لا يستطيع أن يقوم بأي عمل إزاء هذا العدوان الكلامي، بل لا يوجد قانون فيدرالي حتى الآن يمنع المضايقات الجنسية البدنية فضلًا عن الكلامية، وولاية ويسكنسون هي الوحيدة حتى الآن التي تعتبر المضايقات الجنسية نوعًا من التفرقة بين الجنسين، وتستمر المجلة في تعليقها قائلة:

وحتى لو صدر قانون بمنع المضايقات الجنسية في العمل فإنه من الصعب إثباته قانونيًا، ولا بدَّ من البراهين والأدلة، وحتى البراهين المكتوبة قد لا تعتبر دليلًا على المضايقات الجنسية، فقد حدث أن السكرتيرة كاتي بيتر في مدرسة نيوجرسي احتملت كثيرًا مضايقات رئيسها الجنسية؛ لأنها لا تستطيع أن تقدم دليلًا ماديًا على شكواها، وفي ذات مرة ترك رئيسها ورقة بخط يده كاتبًا عليها صفات السكرتيرة الجيدة:

"يجب أن يكون مظهرها جميلًا وجسمها رشيقًا ومستعدة للذهاب إلى الفراش مع رئيسها ورضاؤها أكيد" وعندما اشتكت إلى إدارة التعليم رئيسها المحترم مدير المدرسة أهملت شكواها، وأخيرًا قدمت شكواها إلى المحكمة فكسبت القضية، وحكمت لها المحكمة بتعويض قدره ١٤٠٠٠دولار وتوبيخ المدير (نعم، توبيخ المدير فقط!).

وأخيرًا أصدر المجلس الفيدرالي قرارًا يمنع الترقية في العمل على أساس الخدمات الجنسية التي تقدمها الموظفات لرؤسائهم وينبغي أن تكون الترقية على أساس العمل وحده ولا يدخل في العمل أي خدمات جنسية سواء كانت في محل العمل أم في خارجه! !

الوجه الرابع عشر: خروج المرأة إلى العمل أدى إلى ضعف مستوى التعليم لدى الأطفال.

يقول الأستاذ/محمد عثمان عقال:

مجلة "بلين تروث" (The Plain Truth) مجلة تبشيرية تنصيرية، تصدر بسبع لغات ويوزع منها ٢٠ مليون نسخة شهريًا مجانًا، وقد ورد في عدد أكتوبر ١٩٨٧ منها مقال حول انحطاط المستوى التعليمي في الغرب تحت عنوان: "أعيدوا دور الوالدين في التعليم". وقد وجدنا من المفيد ترجمة هذا المقال؛ لما فيه من حقائق تحتاج إلى معرفة.

المدارس العليا تخرج جهلة وأشباه متعلمين!

شباب لا يستطيعون قراءة صحيفة أو كتابة رسالة مفهومة إلا بصعوبة بالغة! ماذا يحدث في مدارس اليوم؟!

مثال واحد يوضح المشكلة. .

طلبة الولايات المتحدة وضعوا صحراء سيناء في فيتنام!

بعضهم الآخر قال: إن رئيس وزراء كندا السابق "بيير ترودو" كان لاعب هوكي من مدينة مونتريال!

فهل هناك أية غرابة إذا كان أولياء الأمور والمربون قلقين من نوعية ومستوى التعليم لدى الشباب؟

وقد كشفت إحصائيات أخرى أجريت في أمريكا في صفوف طلبة في سن السابعة عشرة، قام بها "المعهد القومي لتقويم التقدم التعليمي" عن حقائق مرة:

ثلثان منهم لم يستطيعوا تحديد تاريخ الحرب الأهلية في أمريكا في الفترة ما بين ١٨٥٠- ١٩٠٠م.

وثلث آخر كانوا يجهلون أن كولومبس أبحر للعالم الجديد قبل ١٧٥٠م، ثم إن إحصائية أخرى أكثر حداثة وجدت أن ٢٠٪ من طلبة أمريكا لا يستطيعون تحديد موضع أمريكا من خريطة العالم!

وكما قال مدير المعهد القومي للدراسات الجغرافية في الولايات المتحدة وفي أسلوب مفعم بالمرارة: نحن الآن قد وصلنا إلى حد أن "جوني" ليس عاجزًا عن القراءة فحسب بل إنه لا يعرف حتى موضع قدميه!

والأغرب من هذا أن كثيرًا من طلبة المعاهد في أمريكا- ممن هم في سن التاسعة عشر يجهلون من هي الأطراف المتصارعة في الحرب العالمية الثانية.

وهذا الجهل ليس محصورًا في الولايات المتحدة فقط؛ ففي دراية ١٥-١٩ عامًا لا يستطيعون فهم تعليمات إنذار الحريق البسيطة، وأن ٤٤٪ منهم غير قادرين على حل رموز

جداول الحافلات ووسائل الانتقال، هذا وعلى الرغم من إدخال بعض التحسينات الطفيفة على نظام التعليم؛ فإن المشاكل الأساسية لا تزال قائمة[١].

الوجه الخامس عشر: طبيعة الرجل لا تؤيد خروج المرأة للعمل.

الرجال الذين يزعمون أنهم يؤيدون عمل المرأة مع الرجال كم تبلغ نسبتهم من مجموع الرجال؟ ، ثم هل هم جادون صادقون في تأييدهم هذا؟

في كتاب صدر في الولايات المتحدة الأمريكية اسمه "كيف يشعر الرجل إزاء مطالبة المرأة بالمساواة والسلطة" وهو من تأليف أنتوني استراكان في هذا الكتاب دراسة تشير إلى أن ٨٨٪ من الرجال الأمريكان يقولون: إنهم لا يمانعون أن تعمل زوجاتهم أو أخواتهم وأمهاتهم ولكن بعد استجواب هؤلاء الرجال بدقة تبين أن الذين يؤيدون فعلًا عمل المرأة على قدم المساواة مع الرجل لا يتجاوزون ٥: ١٠٪[٢].

الوجه السادس عشر: خروج المرأة للعمل يؤدي إلى انتشار الإباحية ويهدد الحياة الزوجية.

هذا ما أيده مقال نشر في مجلة ستيرن حيث جاء فيه ما يلي[٣]:

في ألمانيا ما يقرب من أربعة ملايين امرأة عاملة غير متزوجة، لهن في محل عملهن علاقة مباشرة بأرباب العمل وبالزملاء، وفي أكثر الحالات يضطررن لأن يكن لطيفات جدًا مع رجال يكرهنهم ولا يطقن التحدث إليهم، في الوقت الذي لا يستطعن أن يخبرن الرجل الذي يحببنه أنهن يحببنه.

جميع الأنوار مطفأة في البناء الضخم في مدينة ميونيخ. . وقت العمل انتهى. . ولكننا نرى في أحدى النوافذ في طابق من الطوابق العليا ضوءًا منبعثًا منها فنظن أن ذلك العمل إضافي، ولكن رؤساء العمل هم الذين يعلمون حقيقة هذا الأمر.

أن أحد مفتشي الأعمال في مدينة ميونيخ يقول بهذا الصدد: في هذه الساعات الإضافية لا تدفع "الفابريكة" أجرة عمل منتج وإنما أجرة مغامرة غرامية فحسب؛ لأن ساعات

---

(١) مجلة (البيان) العدد التاسع ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ، صـ ٨٧.

(٢) مجلة (المجلة) العدد (٣٤٧).

(٣) هذه ترجمة لمقال نُشر في مجلة (stern) الصادرة من هامبورج بتاريخ ١ أيلول ١٩٦٣م.

العمل الإضافية هي أحسن فرصة يستطيع فيها الرئيس أو المسئول عن العمال والعاملات أن يكون معهن تقاربًا في نطاق ضيق. . هنالك يعترف الرؤساء لسكرتيراتهم الجميلات بالوضع الذي تمر به حياتهم الزوجية والجحيم الذي يعيشون فيه مع زوجاتهم، ويحاول الرؤساء العزاب أن يتخلصوا من ملل ليلة بمغامرة غرامية من هذا النوع.

وفي استفتاء أجري مع كثير من العاملات كان الجواب كما يلي:

لا يفكر الرجال في هذا الصدد إلا بمغامرة عاطفية عابرة، ولا يفكرون في الحب الحقيقي، والقضية لا تتعدى سوى مساء وليلة واحدة، وقد تمتد إلى عدة ليال، ولا تتوقع الفتاة أكثر من هذا، وحتى تصل المرأة إلى هذه الحقيقة لابد لها أن تمر بكثير من الخيبة ومرارة غدر الرجال، ومع كل هذا فإن ٣. ٧ مليون من هؤلاء العاملات غير المتزوجات يعتقدن حتى الآن بأن مكان العمل هو خير وسيلة للزواج.

وقد وجه لكثير منهن سؤال هو: لماذا تعملين؟ فكان جواب الأكثرية: لأني يجب أن أكسب لأعيش، ولأني آمل، إلى جانب هذا، بأن أحصل على الرجل الذي يتزوجني.

وقد وجه لهن سؤال آخر: لماذا تريدين التعرف على الرجل خاصة في مكان العمل؟

فكان جواب العدد الأكبر منهن:

١- لأني أستطيع أن أعرفه على حقيقته أثناء العمل اليومي، ولأني أعرف حقيقة دخله تمامًا وما هي الفرص التي تتاح له لزيادة دخله ومناصبه.

٢- ولا يمكن أيضًا لأحد الطرفين أن يقول للآخر أننا تزوجنا قبل أن يعرف بعضنا الآخر معرفة جيدة.

الوجه السابع عشر: كلٌ مُيَسَّر لما خلق له .

لقد أثبتت العلوم الطبية والاجتماعية أن الحضانات أو الخادمات والمربيات لا تكون بديلًا عن الأم، وقد سبق بيان ذلك، لكن ربما يقول قائل: لماذا لا يكون الأب هو الذي يتولى شئون البيت وتربية الأولاد والزوجة هي التي تتولى العمل خارج البيت لاسيما إذا كان دخلها المادي أعلى من دخل زوجها؟

نقول لهذا القائل: إن طبيعة الرجل لا تصلح لهذا العمل.

ولعل هذه القصة التي جاءت في مجلة الوطن تظهر لنا ذلك بوضوح حيث جاء فيها ما يلي:

"كانت تختلف عن النساء اللواتي ينادين بتحرير المرأة، فقد كانت تؤمن بما تقول، وتقرن القول بالعمل!

أقنعت زوجها بأن مكانه في البيت، وأنها هي رب الأسرة وعليها إعالتها والإنفاق عليها. واقتنع الزوج المسكين، وقدم استقالته من التدريس ووضع حول عنقه سترة العمل المنزلية، انصرف للكنس والغسيل، والطبخ، وتربية أطفالهما الأربعة.

وذات يوم ضاق الرجل ذرعًا، فقد رفضت الطفلة "ماريش" أن تتناول زجاجة الحليب، ولم تنفع معها كل خبرته وتجاربه في تربية الأطفال.

لاعبها، وهمهم في أذنها بكل ما وعته ذاكرته من أهازيج. ثم هددها بأنه سيشكوها لـ "ماما" ولكن عبثًا.

وثار "بايرون إيفانز" فصفع ماريش، فبكت وأهاجه بكاؤها، فدق رأسها في الطاولة، ثم أمسكها وقذف بها أرضًا بكل ما يملك من قوة.

وسكتت "ماريش" سكتت إلى الأبد وهدأت ثورة بايرون، فنزع السترة المنزلية وتناول الهاتف وأبلغ زوجته بما فعل، وقال لها: أنه تحول من أب مثالي في لحظة غضب إلى أب قاتل.

وعادت "دوت" إلى منزلها، وذهب "بايرون" إلى السجن، ولم تنفع دموع الزوجة في إقناع قاضي مقاطعة "بيتربورو" البريطانية بتعديل القانون.

قالت له: إنها تعتبر نفسها شريكة في الجرم، وتوسَّلت إليه أن يعيده إليها؛ رأفة بأطفالها.

وحكم عليه القاضي بالسجن المؤبد وهو أقصى عقوبة في القانون لأب قاتل.

لقد خسرت حركة تحرير النساء امرأة واحدة، ولكن الأمهات كسبن أمًّا واحدة اقتنعت بأن مكانها هو إلى جانب أطفالها، فذلك هو واجبها، ونضالها الحقيقي، وحريتها الأساسية.

يقول البروفسور الألماني المعروف في جامعة برلين رودولف باوماشن "إن المرأة قادرة على تحمل الإرهاق والصدمات النفسية أكثر من الرجل" وأضاف استنادًا إلى نتائج سلسلة من التجارب الطبية والعلمية أن جسم المرأة يتفاعل بسرعة عنيفة وسريعة مع حالات الإرهاق النفسي ويفرز كميات كبيرة من هرمونات الإرهاق كمادة الأدرينالين والنورادنالين وأسيدات دهنية متحركة.

إلا أن هذه الهرمونات تتقلص بسرعة كبيرة لدى المرأة بعد الإرهاق أو الانفعال النفسي.

واستخلص البروفسور من هذه التجارب أن المرأة تنفعل بصورة أسرع من الرجل إلا أنها تهدأ بنفس السرعة.

وخلافًا لذلك فإن جسم الرجل يفرز هذه الهرمونات الناجمة عن الإرهاق بشكل بطيء مما يجعلها تستقر لفترة أطول في الدورة الدموية.

من هنا فإن الإرهاق يفعل مفعوله أكثر على الرجال بالمقارنة مع النساء كما أكد البرفسور البرليني أن أسيدات الإرهاق التي يفرزها جسم الرجل تتألف من مواد مؤثرة سلبيًا على الدورة الدموية مما يزيد من خطر الجلطة الدموية في القلب لدى الرجال نتيجة للإرهاق الجسدي والنفسي.

هل رأيت حواء هذه القوة التي حباك الله إياها؟

ولكن لماذا خلق الله سبحانه المرأة أقدر من الرجل على تحمل الإرهاق والصدمات النفسية؟ ، وإذا أردنا أن نجيب والإجابة لأن الله سبحانه خلق المرأة لمهام، وخلق الرجل لمهام أخرى، والمهام التي خلق الله تعالى المرأة لها تتطلب منها هذه القدرة الأكبر على تحمل الإرهاق والصدمات النفسية.

التعامل مع الطفل، والصبر على العناية المستمرة به، وتلبيه طلباته المتكررة والمختلفة، أمور تحتاج إلى مثل هذه القدرة المتوفرة لدى المرأة أكثر من الرجل.

معايشة الأطفال طويلًا- ويعلم هذا جيدًا معلمو المرحلتين الابتدائية والمتوسطة- سبب في إثارات متعددة للانفعالات النفسية، الانفعالات التي تهدأ سريعًا لدى المرأة بينما يستمر أثرها طويلًا على الرجل.

ومن هنا نجد أن المرأة أصبر في تربية الأطفال من الرجل.

ولعل في القصة التي ذكرناها آنفًا خير دليل.

فالزوج لم يكن يملك هذه القدرة على احتمال بكاء طفلته بينما كانت الزوجة -الأم- تمتلكها.

فلا شك أن الطفلة بكت مرارًا، ولكن أمها لم تكن ليصل ضيقها بها إلى حد أن تدق رأسها بالطاولة ثم تلقى بها على الأرض.

وتأملوا صورة أبسط في المقارنة.

هل وجدتم أمًّا تضيق ليلًا بطفلها أو طفلتها، فتغادر الغرفة إلى غرفة أخرى؛ لتواصل نومها تاركة طفلها يبكي؟!

إننا نجد كثيرًا من الآباء يضيقون ببكاء أطفالهم ليلًا، فيغادرون إلى غرف أخرى، ليوصلوا نومهم فيها[1].

الوجه الثامن عشر: مهما فعلت فهي أم.

مهما شاركت المرأة في العمل السياسي، وتقلدت في مناصب الحكم، فإنها لا تستطيع أن تتجرد من عواطفها، ولا يمكنها أن تتخلى عن أنوثتها، ولهذا فإننا كثيرًا ما نجدها إلى هذه الأنوثة وهي في أوج مجدها السياسي وتتغلب عليها عاطفتها وهي مسئولة سياسية تقتضي منها هذه المسئولية أن تكون عقلانية لا تخضع لعاطفتها.

هذه رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر يُفقد ابنها في صحراء شمال إفريقيا بينما كان في جولة هناك، فتظهر على شاشات التلفزيون وهي تبكي، وتظل في حالة انهيار تام، تعتذر بسببها عن ممارسة عملها كرئيسة للوزراء حتى عثروا على ابنها المفقود.

---

(١) رسالة إلى حواء صـ ١٦٠: ١٥٨.

وأنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند الراحلة، كانت عند ذكر ابنها سانجاي الذي قتل في حادث طائرة تعود امرأة ضعيفة وأمًّا مثل سائر الأمهات الثكالى، فألم الفراق مازال ينزف في فؤادها، فقد كان سانجاي نقطة الضعف الكبرى في حياتها عملت في سبيله المستحيل وكادت تفقد مكانتها السياسية عندما خذلها الناخبون في الانتخابات.

وغاندي أيضًا مثل سائر النساء تهتم بمظهرها وتحرص على شكلها تقول: عندما تعلو إبرة الميزان عن سبعة وخمسين كيلو غرامًا أمتنع مدة أربع وعشرين ساعة.

وهي كما تصفها إحدى الصحف شأنها شأن كل امرأة في العالم، تحن إلى حياة الأسرة وتتلهف إلى الاجتماعات الأسرية، وتترقب بشوق السهرات برفقة ابنها راجاي وزوجته سونيا وولديهما.

وإذا كانت شهادة تاتشر وشهادة غاندي لم تأتيا على لسانيهما صراحة وإنما نطقت بهما حالهما فإن غيرهما من النساء الشهيرات يعلن شهادتهن في صراحة واضحة لا تحتاج إلى تعليق أو بيان.

أجاثا كريستي الكاتبة الإنجليزية الشهيرة وصاحبة أشهر القصص والمسرحيات البوليسية تقول في كتاب صدر عن حياتها في عام ١٩٧٨م "العام الذي توفيت فيه".

"إن المرأة الحديثة مغفلة؛ لأن مكانة المرأة في المجتمع تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، نحن النساء نتصرف تصرفًا أحمقًا؛ لأننا بذلنا الجهد الكبير خلال السنوات الماضيات للحصول على حق العمل والمساواة في العمل مع الرجل.

والرجال هم غير أغبياء شجعونا على ذلك معلنين أنه لا مانع مطلقًا من أن تعمل الزوجة وتضاعف دخل الزوج.

إنه من المحزن أننا أصبحنا اليوم- بعد أن أثبتنا نحن النساء أننا الجنس اللطيف الضعيف- نتساوى في الجهد والعرق الذي كان من نصيب الرجل وحده.

لقد كانت المرأة في الماضي تعمل في الحقل، وفي المنزل من أجل إرضاء الرجل ونجحت المرأة بعد ذلك في إقناع الرجل أن مكانها في المنزل، وأن ضعفها الجسماني لا

يسمح لها بالجهد والنضال، كما أقنعت الرجل أنها في حاجة دائمة لعطفه وحنانه، طالبة منه تدليلها وإرضاءها دائمًا.

وفي عهد الملكة فكتوريا، كانت المرأة في أسعد حالاتها، وما يقال عكس ذلك كانت المرأة في هذا العهد تحترم الرجل ورجولته ومسئوليته تجاه منزله العائلي، واضطرت المرأة إلى الاعتراف بتفوق الرجل حتى لا تهينه أو تجرح كرامته.

كانت الحياة سعيدة عندما كان الرجل سيد البيت والمسئول الأول عن رفاهية الأسرة، أما اليوم فالمرأة تطالب بحريتها، وحصلت على حريتها وأصبحت مضطرة إلى العمل المضني ولتنافس الرجل في جميع الميادين وبذلك فقدت سعادتها المنزلية، وفقدت أنوثتها التي كانت تسحر الرجل في الماضي".

شهادة واضحة، من امرأة أديبة، مثقفة، عرفها كثيرون من خلال روايتها البوليسية تصف المرأة الحديثة بأنها مغفلة، فقدت أنوثتها وسعادتها المنزلية.

ماذا يعنى هذا؟ ألا يعني من جهة مقابلة أن المرأة التي لزمت بيتها واحتفظت بأنوثتها وألقت بعبء العمل خارج المنزل على زوجها، امرأة عاقلة[1].

الوجه التاسع عشر: وكما قال الإسلام قالت التوراة والإنـجيل.

إن الديانة اليهودية والنصرانية ترى أن أهم عمل للمرأة هو رعاية البيت:

جاء في التوراة عن طبيعة عمل آدم وحواء في الدنيا كعقاب عن المعصية: وقال لآدم: لأنك أذعنت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك بالمشقة تقتات منها طوال عمرك. . . يعرق جبينك وتكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض، ومن تراب أخذت وإلى تراب تعود (التكوين ٣: ١٧-١٩).

إذن كُتب على آدم الشقاء والكد والتعب والعمل حتى الموت، أما عن المرأة ثم قال للمرأة: أكثر تكثيرًا أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولادًا، وإلى زوجك يكون اشتياقك

---

(١) رسالة إلى حواء صـ١٥٢: ١٥٠.

وهو يتسلط عليك" (التكوين ٣: ١٦).

إذن مهمة المرأة الأساسية هي الزوجة أم الأولاد وسكن آدم، ويؤكد بولس هذه النظرية فيقول ناصحا كبار السن من النساء بتدريب الشابات على حسن التبعل لأزواجهن وتربية أولادهن.

كذلك أن تكون العجائز ذوات سيرة موافقة للقداس، وغير نمامات ولا مدمنات للخمر، بل معلمات لما هو صالح لكي يدربن الشابات على أن يكن محبات لأزواجهن ولأولادهن متعقلات عفيفات مهتمات بشئون بيوتهن صالحات خاضعات لأزواجهن. . . " (تيطس ٢: ٣-٥).

وعن طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة تقول الموسوعة اليهودية: "في علم الأجناس البشرية في التوراة، كان السبب الأول في وجود الجنسين هو الحاجة للتكاثر، فالكائن البشري ولد من امرأة، وكانت العلاقة الزوجية أكثر ودًا وحميمة من تلك العلاقة بين الوالد والمولود، وكانت الوظيفة الرئيسية للمرأة هي حمل الأطفال، وكانت الزوجة الجيدة والأم الجيدة تتمتع بالمديح من زوجها وأولادها، وكان عدم إنجاب الأطفال سببا في التوبيخ والمعاناة الشخصية".

ومن آراء كبار علماء المسيحية في ذلك يوحنا ذهبي الفم الذي يقول: ". . . إن للزوجة هدفا واحدا فقط، أن تحرس الممتلكات التي جمعناها وأن تراقب الدخل، وأن تهتم بأهل المنزل، ولهذا السبب أعطاها لك الله وبالإضافة لأمور أخرى معينة لك، إن حياتنا تدور في حيزين: شئون عامة، وأمور خاصة، وكلاهما مرتب من قبل الله، فالمرأة متروك لها الإشراف على شئون المنزل، وأما الرجل فعليه الإشراف على كل شئون الدولة والتجارة، وتحقيق العدالة والحكم والشئون العسكرية وكل المهام الأخرى، فالمرأة لا تستطيع أن ترشق حربة، ولا أن تطلق سهما، ولكنها تستطيع أن تمسك بفلكة المغزل، وتنسج على النول، وتقوم بكل الأعباء المنزلية بصورة صحيحة، وهي لا تستطيع أن تعبر عن رأيها في مجتمع تشريعي، ولكن يمكن أن تعبر عن رأيها في البيت، وفي الأغلب فهي أكثر إلماما

بشئون المنزل من زوجها، وهي لا تستطيع أن تدبر شئون الدولة جيدًا، ولكنها تستطيع أن تربي الأطفال تربية صحيحة، والأطفال هم ثروتنا الرئيسية.

وهذه الأمور لا يمكن أن يؤديها بنجاح الزوج، ولو تولاها هو بنفسه حتى وإن بذل جهودًا مكثفة في ذلك".

إذن الديانة والنصرانية ترى أن مهمة المرأة الأولى وعملها الأساسي التي خلقت من أجله هو زوجة مستقرة بمنزل زوجها وما يتبع ذلك من مهام ومسئوليات وأعباء جسام، لا يستطيعها رجل، إلا أن اليهودية والمسيحية ترى أن هذا عقاب من الله لها؛ لأنها أول من عصى أمر الله وأكل الشجرة المحرمة ثم أغوت زوجها، فهي بداية كل خطأ ومنتهى كل خطيئة، وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ». (التكوين ٣: ١٦).

أما الإسلام فلم يوصم المرأة بذنب ارتكاب المعصية الأولى، ولكنه اعتبرها شريكة للرجل فيها: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٣٦)، ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٣).

إن التزام المرأة بالسكن في البيت وإدارته ليس نتيجة لعقابها من الله أو امتهانها والحط من قيمتها، ولكنه في مفهوم الإسلام إعزاز وتكريم يتناسب مع طبيعتها والهدف من خلقها[1].

وهذا التعريف في حقيقة الأمر أول من يتلظى به ويتضرر هو النساء، وذلك لما فيه من الإغفال الكبير لأنواع المعاناة التي يقاسينها والوظائف الكبرى التي يقدمنها بالنظر إلى طبائعهن الفسيولوجية والبيولوجية والسيكولوجية، والمهام الاجتماعية الجبلية التي يتولينها، ثم بعد كل هذا لا تحسب لهن هذه الأعمال، ولا يعترف لهن بالفضل في القيام بها، فأين المساواة المدعاة والمزعومة؟! !

---

(١) رسالة إلى حواء المرأة في اليهودية والنصرانية والإسلام صـ ٢٠٣، ١٩٤: ١٩٣.

ولهذا فإن التعريف الصحيح للعمل ينبغي أن يرتكز على مدى ما يكون للشخص من الإنتاج الذي يعود عليه وعلى مجتمعه ومن حوله بالخير والنماء.

وإذا ما أردنا الإجابة على التساؤل السابق فإن ذلك يكون بالنظر في المحصلة النهائية للإيجابيات والسلبيات الناشئة عن عمل المرأة في المنزل أو في خارجه.

فإذا كانت الإيجابيات المحصلة جراء عمل المرأة خارج منزلها هي الغالبة فإنها تكون حينئذٍ امرأة عاملة منتجة غير عاطلة.

وأما إذا كانت السلبيات هي الغالبة فإنها تكون حينئذٍ امرأة موظفة، ولكنها عاطلة، أو في حكم العاطلة، لأن العمل لابد له من نتيجة إيجابية تنتفع بها المرأة وتنتفع أسرتها ومجتمعها، وإلا كان عدمه هو الأفضل.

وقل مثل ذلك في عمل المرأة في بيتها، فإن كانت منتجة من خلال إدراتها له وتصريفا لشئونه ومتابعتها لأهل البيت ورعايتهم، والعناية بهم، فذلك هو العمل والإنتاج.

وأما إن كانت تمضي شطر أوقاتها بالنوم والشطر الآخر بالخروج للأسواق وغيرها مما لا تستدعيه الحاجة لتضيع بذلك مسئولياتها وتكلها للخادمات والمربيات، فتلك العطالة والبطالة.

ويقول د. مصطفى السباعي: حين كنت في لندن عام ١٩٥٦ سألني أحد الأساتذة الإنجليز: ما هو موقف الإسلام من الحضارة الغربية؟

فأجبته: نأخذ أحسن ما فيها، ونترك أسوأ ما فيها.

قال: إن هذا غير ممكن، فالحضارة لا تتجزأ، وسأضرب لك مثلا: إننا في أوربا منذ بدأ عندنا عصر التصنيع بدأ تفكك الأسرة؛ لأن المرأة صارت تشتغل في المعامل، وهذا أمر لابد منه، ومن هنا تفككت الأسرة؟

فأجبته بأن تفكك الأسرة عندكم ليس راجعًا في رأيي إلى التصنيع، بل ناشئ من إخراج المرأة من بيتها، وأنتم الغربيين أخرجتموها لباعثين: الأول نفسي: وهو رغبتكم في أن تروا المرأة بجانبكم في دواوين الدولة، والثاني مادي أناني: وهو أنكم لا تريدون أن

تتحملوا نفقات المرأة من بنت أو زوجة أو أم، فأجبرتموها على العمل؛ لتعيل نفسها بنفسها، فاضطرت لمغادرة البيت، ومن هنا تفككت الأسرة عندكم.

قال: وأنتم ماذا تفعلون في مثل هذه المشكلة؟

قلت: إن نظام النفقات في الإسلام يجبر الأب على الإنفاق علي بنته حتى تتزوج، فإذا تزوجت كانت نفقتها ونفقة أولادها على الزوج وحده، فإذا مات زوجها ولم يكن لها مال ولا ولد، فنفقتها على والدها وهكذا، إنها لا تجد نفسها في فترة من فترات حياتها في الغالب محتاجة إلى أن تدخل المعمل لتأكل وتعيش.

وهنا قال صاحبي متعجبًا: نحن الغربيين لا نستطيع أن نتحمل مثل هذه التضحيات! وأذكر أننا حين كنا على ظهر الباخرة من ميناء (دوفر) بإنجلترا إلى ميناء (أوستن) في بلجيكا في تلك الرحلة العلمية، التقينا بفتاة إيطالية تدرس الحقوق في جامعة (أكسفورد) وتحدثنا عن المرأة المسلمة، وكيف تعيش وما هي حقوقها في الإسلام، وكيف وفر الإسلام لها كل مظاهر الاحترام حين أعفاها من مؤنة العمل لتعيش، بل جعلها تتفرغ لأداء رسالتها كزوجة وأم وربة بيت، وبعد أن أفضنا في هذا الحديث وقارنا بين حال المرأة في الإسلام وبين حالها في الحضارة الغربية، قالت الفتاة بكل بساطة ووضوح: إنني أغبط المرأة المسلمة وأتمنى أن لو كنت مولودة في بلادكم؟ وهنا اغتنمت هذه الفرصة فقلت لها، هل ستحاولين أن تطلبي إلى المرأة الغربية العودة إلى البيت وأن يقوم الرجل بواجبه نحوها؟

قالت: هيهات! لقد فات الأوان! إن المرأة الغربية بعد أن اعتادت حرية الخروج من البيت وغشيان المجتمعات، يصعب عليها جدًّا أن تعتاد حياة البيت بعد هذا، ولو أني أعتقد في ذلك سعادة لا توازيها سعادة. (١)

* * *

---

(١) وقفات حول معاناة الأيدي العاملة الناعمة صـ ١٦٠: ١٥٨.

٨ـ شبهة: شخصية المرأة المسلمة.

نص الشبهة:

لقد صور البعض أن المرأة في الإسلام ليست لها شخصية مستقلة، وإن شئت فقل شخصية سلبية ليس لها أي دور في مجتمعها بخلاف المرأة الأخرى لها أدوار كبيرة في وسط مجتمعها.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إثبات شخصيتها في الهجرة إلى الله تعالى.

الوجه الثاني: إثبات شخصيتها في الجهاد.

الوجه الثالث: إثبات شخصيتها في الأمور السياسية.

الوجه الرابع: إثبات شخصيتها في العلم وفى تعليم الرجال.

الوجه الخامس: إثبات شخصيتها في بيتها.

الوجه السادس: إثبات شخصيتها في أمور متفرقة.

الوجه السابع: ماذا عن شخصية المرأة في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إثبات شخصيتها في الهجرة إلى الله تعالى.

١ـ المرأة المسلمة شاركت الرجل في الهجرة إلى الحبشة:

عن أبي موسى قال: وقد كانت أسماء بنت عميس هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر[١].

٢ـ المرأة المسلمة شاركت الرجل في الهجرة إلى المدينة:

عن مروان، والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما: قالا جاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذٍ - أي خلال هدنة الحديبية- وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم.[٢]

الوجه الثاني: إثبات شخصيتها في الجهاد.

شاركت المرأة المسلمة في الجهاد؛ دفاعًا عن الإسلام:

(١) البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢).

(٢) صحيح سيأتي تخريجه.

١- عن الرُّبِّيع بنت مُعوِّذ، قالت: كنا نغزو مع النبي ﷺ، فنسقي القوم ونخدمهم، ونداوي الجرحى، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة.

٢- عن أنس بن مالك ﷺقال:. . . قال رسول الله ﷺ: "ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرَّة. فقالت أم حرام: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها. . . .[(١)].

إعلان المرأة الولاء لرسول لله ﷺ وهو إمام المسلمين:

٣- عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يعزوا من أهل خبائك. قال: "وأيضًا والذي نفسي بيده"[(٢)].

الوجه الثالث: إثبات شخصيتها في الأمور السياسية.

لقد شاركت المرأة المسلمة في الأمور السياسية، وذلك بالرأي والمشورة والمعارضة أيضًا، ونشر الوعي السياسي، وهذا ما سيتضح لنا من النماذج الآتية:

أم سلمة تستجيب لنداء إمام المسلمين وهو على المنبر:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ رَافِعٍ قَالَ: كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهِيَ تَمْتَشِطُ: "أَيُّهَا النَّاسُ" فَقَالَتْ لِمَاشِطَتِهَا: كُفِّي رَأْسِي.

وفي رواية: فَقُلْتُ لِلْجَارِيَةِ: اسْتَأْخِرِي عَنِّي. قَالَتْ: إِنَّمَا دَعَا الرجال ولم يدع النساء، فقلت: إني من الناس.[(٣)]

أم سلمة تنصت إلى خطبة إمام المسلمين يوم النفير إلى بني قريظة:

(١) البخارى (٢٦٣٦، ٥٩٢٦). ومسلم (١٩١٢).

(٢) البخارى (٣٦١٣)، ومسلم (١٧١٤).

(٣) مسلم (٢٢٩٥).

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ، فَجَعَلَ يُحَدِّثُ، ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ: "مَنْ هَذَا"؟ أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَ: قَالَتْ: هَذَا دِحْيَةُ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: ايْمُ اللهِ مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ، حَتَّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ: يُخْبِرُ عن جِبْرِيلَ. (١)

فاطمة بنت قيس تلبي الدعوة لاجتماع عام مع إمام المسلمين:

عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ قالت: فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي، منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم. وفي رواية: فانطلقت فيمن انطلق من الناس، فكنت في الصف المقدم من النساء، وهو يلي المؤخر من الرجال فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ، ثم قال: "ليلزم كل إنسان مصلاة" ثم قال: "أتدرون لم جمعتكم؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة". (٢)

زينب بنت المهاجر يشغلها مستقبل الأمة المسلمة:

عن قيس بن أبي حازم قال: "دخل أبو بكر على امرأة من أحمس، يقال لها: زينب بنت المهاجر، فرآها لا تكلَّمُ. فقال: ما لها لا تَكلَّم؟ قالوا: حَجَّتْ مُصْمِتَةً. قال لها: تكلَّمي، فإن هذا لا يحل. هذا من عمل الجاهلية. فتكلمت، فقالت: من أنت؟ قال: امرؤ من المهاجرين. قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش. قالت: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسئول، أنا أبو بكر. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رءوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى، قال: فهم أولئك على الناس"(٣).

عائشة تتحرى أحوال أحد الأمراء:

---

(١) البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١).

(٢) مسلم (١٤٨٠).

(٣) البخاري (٣٨٣٤).

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ، قَالَ: "أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَتْ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ. فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَ: مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا؛ إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة. . . "[1].

أم سلمة تشير على رسول الله ﷺ يوم الحديبية:

عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ - يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ- قَالَا: خَرَجَ رسول الله زمن الحديبية، . . . ، فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا. فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" فَقَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهم كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اكتب باسمك اللهم". . . فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ" فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ. فَكَتَبَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟. . قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ الله ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حَقًّا؟ قَالَ: "بَلَى" قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: "بَلَى" قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذن؟ قَالَ: "إِنِّي رسول الله وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي" قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: "بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟ " قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: "فإنك آتيه ومطوف به". . . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رسول الله ﷺ لِأَصْحَابِهِ: "قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا" قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ الله، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ

---

(١) مسلم (١٤٥٩، ١٨٢٨).

بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل

بعضهم يحلق بعضًا. . "(١).

أم سُليم تشير على رسول الله ﷺ يوم حنين:

عن أنس رضي الله عنه أن أم سُليم. . . يوم حنين. . . قَالَتْ: يَا رسول الله! اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِن الطُّلَقَاءِ انْهَزَمُوا بِكَ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: "يَا أُمَّ سُلَيْمٍ! إِنَّ رسول الله قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ"(٢).

حفصة تشير على أخيها عبد الله بعد طعن عمر بن الخطاب في المسجد:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: دخلت على حفصة فقالت: أعلمت أن أباك غير مستخلف(٣)؟ قال: قلت: ما كان ليفعل. قالت: إنه فاعل، قال: فحلفت أني أكلمه في ذلك، فسكتُّ حتى غدوتُ ولم أكلمه. قال: فكنت كأنما أحمل بيميني جبلًا، حتى رجعت فدخلت عليه فسألني عن حال الناس، وأنا أخبره. قال: ثم قلت له: إني سمعت الناس يقولون مقالة فآليت(٤) أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف، وإنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم، ثم جاءك وتركها رأيت أن قد ضيع(٥)، فرعاية الناس أشد. قال: فوافقه قولي فوضع رأسه ساعة، ثم رفعه إلي فقال: إن الله- عز وجل- يحفظ دينه، وإني لئن لَا أَسْتَخْلِفْ فَإِنْ رسول الله ﷺ لم يسْتَخْلِف، وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف. قال: فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ، و أَبَا بَكْرٍ، فعلمت أنه لم يكن ليعدل برسول الله ﷺ أحدًا، وأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ(٦).

حفصة تشير على أخيها عبد الله يوم التحكيم بين علي ومعاوية:

---

(١) البخاري (١٦٩٤).

(٢) مسلم (١٨٠٩).

(٣) (غير مستخلف) أي: غير موص بالخلافة إلى أحد بعده.

(٤) (فآليت) أي: حلفت.

(٥) (ضيع) هنا بمعنى: أهمل وفرط، وربما أدى الإهمال إلى الهلاك.

(٦) مسلم (١٨٢٣).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺقَالَ: دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَنَسْوَاتُهَا[١] تَنْطُفُ[٢]، قُلْتُ: قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ مَا تَرَيْنَ[٣]، فَلَمْ يُجْعَلْ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَقَالَتْ: الْحَقْ، فَإِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ فِي احْتِبَاسِكَ عَنْهُمْ فُرْقَةٌ. فَلَمْ تَدَعْهُ حَتَّى ذَهَبَ[٤].

المرأة تنشر الوعي بالهدي النبوي في الحكم:

عَنْ ضَبَّةَ بْنِ مِحْصَنٍ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زوج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ أَنَّه قَالَ: "إنه يستعمل عليكم أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ[٥]، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ[٦]" قَالُوا: يا رسول الله! أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: "لَا، مَا صَلَّوْا"[٧].

عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ، عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ قَالَ: سَمِعْتُهَا تَقُولُ: حَجَجْتُ مَعَ رسول الله ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، قَالَتْ: فَقَالَ رسول الله ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: "إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ أَسْوَدُ -يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ الله فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا"[٨].

---

(١) (نسواتها) أي: ذوائبها.

(٢) (تنطف) أي: تقطر كأنها اغتسلت.

(٣) قال الحافظ بن حجر: قوله: قد كان من أمر الناس ما ترين. مراده بذلك ما وقع بين علي ومعاوية من القتال في صفين يوم اجتماع الناس على الحكومة بينهم فيما اختلفوا فيه... وتواعدوا على الاجتماع؛ لينظروا في ذلك، فشاور ابن عمر أخته في التوجه إليهم أو عدمه فأشارت عليه باللحاق بهم خشية أن ينشأ من غيبته اختلاف يفضي إلى استمرار الفتنة... وفي رواية عند عبد الرزاق بسند حسن عن ابن عمر قال: لما كان في اليوم الذي اجتمع فيه معاوية بدومة الجندل، قالت حفصة: إنه لا يجمل بك أن تتخلف عن صلح يصلح الله به بين أمة محمدﷺ، وأنت صهررسول اللهﷺ، وابن عمر بن الخطابﷺ.

(٤) البخاري (٤١٠٨).

(٥) (فتعرفون وتنكرون) أي: فتستحسنون بعض أفعالهم، وتستقبحون بعضها.

(٦) (ولكن من رضي وتابع) أي: من رضي وتابع لم يبرأ، ولم يسلم.

(٧) مسلم (١٤٨١).

(٨) مسلم (١٢٩٨).

عن عبيد الله بن القبطية قال: دخل الحارث بن أبي ربيعة، وعبد الله بن صفوان، وأنا معهما على أم سلمة- أم المؤمنين- فسألاها عن الجيش الذي يخسف به- وكان ذلك في أيام الزبير - فقالت: قال رسول الله ﷺ: "يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم" فقلت: يا رسول الله فكيف بمن كان كارهًا؟ قال: "يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته"(١).

أم الدرداء تنكر على عبد الملك بن مروان بعض سلوكه:

عن زيد بن أسلم، أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء بأنجاد من عنده، فلما أن كان ذات ليلة قام عبد الملك من الليل، فدعا خادمه، فكأنه أبطأ عليه، فلعنه، فلما أصبح، قالت له أم الدرداء: سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته، فقالت: سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: "لا يكون اللعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة"(٢).

المرأة كانت تخرج للصلح بين المسلمين:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ زِيَادٍ الْأَسَدِيِّ قَالَ: لَمَّا سَارَ طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَائِشَةُ إِلَى الْبَصْرَةِ بَعَثَ عَلِيٌّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، وَحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، فَقَدِمَا عَلَيْنَا الْكُوفَةَ، فَصَعِدَا الْمِنْبَرَ. فَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَوْقَ الْمِنْبَرِ فِي أَعْلَاهُ، وَقَامَ عَمَّارٌ أَسْفَلَ مِنْ الْحَسَنِ. فَاجْتَمَعْنَا إِلَيْهِ فَسَمِعْتُ عَمَّارًا يَقُولُ: إِنَّ عَائِشَةَ قَدْ سَارَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَ وَالله إِنَّهَا لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ابْتَلَاكُمْ لِيَعْلَمَ إِيَّاهُ تُطِيعُونَ أَمْ هِيَ(٣).

وهذه أسماء تواجه أحد الطغاة بالنصح والتأنيب:

عَنْ أَبِي نَوْفَلٍ قال: رَأَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى عَقَبَةِ(٤)، الْمَدِينَةِ (مصلوبًا) قَالَ: فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَمُرُّ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ، حَتَّى مَرَّ عَلَيْهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَبَا

---

(١) مسلم (٢٨٨٢).

(٢) مسلم (٢٥٩٨).

(٣) البخاري (٦٦٨٧).

(٤) (عقبة المدينة) يقصد مدخل مدينة مكة.

خُبَيْبٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ. أَمَا وَالله لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا. أَمَا وَالله لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا، أَمَا وَالله إن كُنْتَ مَا عَلِمْتُ صَوَّامًا قَوَّامًا وَصُولًا لِلرَّحِمِ، أَمَا وَالله لَأُمَّةٌ أَنْتَ أَشَرُّهَا لَأُمَّةُ خَيْرٍ. ثُمَّ نَفَذَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ. فَبَلَغَ الْحَجَّاجَ مَوْقِفُ عَبْدِ الله وَقَوْلُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأُنْزِلَ عَنْ جِذْعِهِ[(١)]، فَأُلْقِيَ فِي قُبُورِ الْيَهُودِ، ثُمَّ أَرْسَلَ لأُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ فَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهَا الرَّسُولَ: لَتَأْتِيَنِّي أَوْ لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكِ مَنْ يَسْحَبُكِ بِقُرُونِكِ[(٢)] قَالَ: فَأَبَتْ، وَقَالَتْ: وَالله لَا آتِيكَ حَتَّى تَبْعَثَ إِلَيَّ مَنْ يَسْحَبُنِي بِقُرُونِي. قَالَ: فَقَالَ: أَرُونِي سِبْتَيَّ[(٣)]، فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ ثُمَّ انْطَلَقَ يَتَوَذَّفُ[(٤)]، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتِنِي صَنَعْتُ بِعَدُوِّ الله؟ قَالَتْ: رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ، بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ! أَنَا وَالله ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ[(٥)]. أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكُنْتُ أَرْفَعُ بِهِ طَعَامَ رسول الله ﷺ، وَطَعَامَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الدَّوَابِّ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَنِطَاقُ الْمَرْأَةِ الَّتِي لَا تَسْتَغْنِي عَنْهُ. أَمَا إِنَّ رسول الله ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا[(٦)]، فَأَمَّا الْكَذَّابُ[(٧)]، فَرَأَيْنَاهُ. وَأَمَّا الْمُبِيرُ، فَلَا إِخَالُكَ[(٨)] إِلَّا إِيَّاهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا"[(٩)].

وهكذا وقفت امرأة مسلمة موقف المعارضة من حاكم ظالم، وهو في عنفوان طغيانه، غير هيابة، ولا وجلة، وقرعته بكلمات كان لها وقع أشد من وقع السياط.

الوجه الرابع: إثبات شخصيتها في العلم وفى تعليم الرجال.

---

(١) (عن جذعه) أي: الجذع المصلوب عليه.

(٢) (قرونك) جمع قرن، وهو شعر المرأة وضفيرتها أي يجرك بضفائر شعرك.

(٣) (سبتي) السبت: كل جلد مدبوغ، والمقصود نعله.

(٤) (يتوذف): يسرع متبخترًا.

(٥) (النطاقين) النطاق: ما يشد به الوسط، وقد قسمت أسماء نطاقها قسمين.

(٦) (مبيرًا) المبير: المهلك، وتشير إلى كثرة قتله.

(٧) (الكذاب) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي تنبأ وحورب هو وأتباعه حتى قتل.

(٨) (إخالك): أي أظنك.

(٩) مسلم (٢٥٤٥) من طريق الأسود بن شيبان، عن أبى نوفل به.

١ـ الرجال يطلبون تعلم السنة من أمهات المؤمنين:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادة النبي ﷺ. . . "[١].

عن ثمامة - يعني ابن حزن القشيري- قال: لقيت عائشة فسألتها عن النبيذ، فدعت عائشة جارية حبشية فقالت: سل هذه فإنها كانت تنبذ لرسول الله. [٢]

عن عبد الله بن صفوان قال: أخبرتني حفصة، أنها سمعت النبي ﷺ يقول: "ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه. . . [٣].

٢ـ النساء يحاورن الرجال في أمور العلم:

عن أم الفضل بنت الحارث أن ناسًا تماروا[٤] عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺفقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلت له بقدح لبن، وهو واقف على بعيره فشربه"[٥].

قال ابن حجر: وفي الحديث من الفوائد. . المناظرة في العلم بين الرجال والنساء.

أسماء بنت عميس تحاور عمر بن الخطاب، ثم رسول الله ﷺ، ثم تروي قصة الحوار لرفاق الهجرة، وذلك دون حضور زوجها، وربما حضر المرحلة الأخيرة فحسب:

قال عمر لأسماء: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق بالله منكم. فغضبت، وقالت: كلا، والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايم الله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ. . . فقال لها رسول الله ﷺ: ". . . ليس بأحق بي منكم، وله

---

(١) البخاري (٥٠٦٣).

(٢) مسلم (٢٠٠٥).

(٣) مسلم (٢٨٨٣).

(٤) (تماروا) أي: اختلفوا.

(٥) صحيح. تقدم تخريجه.

ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان" قالت: فلقد رأيت أبا موسى، وأصحاب السفينة يأتوني أرسالًا يسألوني عن هذا الحديث[١].

أم يعقوب تحاور عبد الله بن مسعود:

عَنْ عبد الله بن مسعود قَالَ: "لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ[٢]، وَالْمُوتَشِمَاتِ[٣]، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ[٤]، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ[٥]، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ". فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ (وكانت تقرأ القرآن)، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ! ، فَقَالَ: وَمَا لِي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رسول الله ﷺ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ. قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ (الحشر: ٧) قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ. قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ. قَالَ: فَاذْهَبِي فَانْظُرِي، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ، فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا"، [٦].

٣ـ النساء يطالبن الرسول ﷺ بمزيد من فرص التعليم:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قال: قَالَتْ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: "مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنْ النَّارِ" فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: "وَاثْنَتَيْنِ"[٧].

---

(١) صحيح. تقديم تخريجه.

(٢) (الواشمات) الواشمة: فاعلة الوشم، وهي أن تغرس إبرة، أو نحوها في مكان الوشم، حتى يسيل الدم، ثم تحشو هذا الموضع بالكحل، وغيره فيخضر لونه.

(٣) (والموتشمات): اللاتي يطلبن فعل الوشم بهن.

(٤) (المتنمصات) قال الفراء النامصة: هي التي تنتف الشعر من الوجه، ومنه قيل للمنقاش: المنماص؛ لأنه ينتف به الوجه، والمتنمصة: التي يفعل بها ذلك (الغريب للهروي) (٣/ ٢١٥

(٥) (المتفلجات للحسن): هن اللاتي يبردن أو يفرقن بين أسنانهن الأمامية للزينة، وإظهار صغر السن.

(٦) البخاري (٤٨٨٦، ٤٨٨٧)، ومسلم (٢١٢٥)

(٧) تقدم تخريجه.

قال ابن حجر: وفي الحديث ما كان عليه نساء الصحابة من الحرص على تعلم أمور الدين.

حقًا إنه حرص بالغ من النساء؛ لم يكتفين بمشاركة الرجال في سماع أحاديث الرسول ﷺ، في المسجد، فأردن أن يكون لهن حديث خاص بهن، ثم إنه تقرير من الرسول ﷺ لهن على هذا الحرص، واستجابة كريمة وسريعة لمطلب النساء.

سبيعة بنت الحارث تعرف كيف تتحرى لتصل إلى اليقين:

عن سبيعة بنت الحارث الأسلمية. . . أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ، وَهُوَ فِي بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ -رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار- فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ تجملت للخطاب، تَرْجِينَ النِّكَاحَ؟ فَإِنَّكِ وَالله، مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رسول الله ﷺ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي[1].

قال ابن حجر: وفي قصة سبيعة من الفوائد. . ما كان في سبيعة من الشهامة، والفطنة حيث ترددت فيما أفتاها به حتى حملها ذلك على استيضاح الحكم من الشارع، وهكذا ينبغي لمن ارتاب في فتوى المفتي أو الحاكم في مواضع الاجتهاد، أن يبحث عن النص في تلك المسألة، وفيها من الفوائد أيضًا. . . مباشرة المرأة السؤال عما ينزل بها، ولو كان مما يستحي النساء من مثله.

الوجه الخامس: إثبات شخصيتها في بيتها.

المرأة ترد زوجها إلى المعروف:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر رضي الله عنه: فبينا أنا في أمر أتأمره، إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: مالك ولما هاهنا؟ فيما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت: عجبًا لك يا ابن

(١) تقدم تخريجه.

الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان، فقام عمر، فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة، فقال لها: يا بنية! إنك لتراجعين رسول الله ﷺ، حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله، إنا لنراجعه. فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله، وغضب رسوله ﷺ، يا بنية! لا يغزنك هذه التي أعجبها حسنها، حب رسول الله ﷺ إياها - يريد عائشة-، قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة؛ لقرابتي منها، فكلمتها، فقالت أم سلمة: عجبًا لك يا ابن الخطاب! دخلت في كل شيء حتى تبغي أن تدخل بين رسول الله ﷺوأزواجه؟! فأخذتني والله، أخذًا كسرتني عن بعض ما أجد"[(١)].

وفي رواية مسلم، قال عمر: فدخلت على عائشة، فقلت: يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ، فقالت: ما لي، ومالك يا ابن الخطاب عليك بعيبتك.

نهي الإسلام أولياء الأمور عضل مولياتهم.

عن الحسن: أن معقل بن يسار كانت أخته تحت رجل فطلقها، ثم خلى عنه حتى انقضت عدتها، ثم خطبها، فَحَمِيَ معقل من ذلك أَنَفًا فقال: خَلِّي عنها، وهو يقدر عليها، ثم يخطبها! فحال بينه وبينها وفي رواية: كان الرجل لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (البقرة: ٢٣٢)؛ فدعاه رسول الله ﷺفقرأ عليه، فترك الحَمِيَّة، واستقاد لأمر الله.[(٢)]

المرأة المسلمة تتصرف في مالها، بدون إذنٍ من زوجها.

ميمونة تعتق جاريتها بدون علم زوجها:

عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ مَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ رضي الله عنها أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهَا أَعْتَقَتْ وَلِيدَةً[(٣)]، وَلَمْ

(١) البخاري (٨٩)، مسلم (١٤٧٩).

(٢) البخاري (٥١٣٠).

(٣) تطلق الوليدة على الجارية، والأمة، وإن كانت كبيرة (النهاية٥/ ٢٢٤).

تَسْتَأْذِنُ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيهِ، قَالَتْ أَشَعَرْتَ يَا رسول الله أَنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيدَتِي؟ قَالَ: "أَوَفَعَلْتِ؟" قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: "أَمَا إِنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكِ"(١).

أسماء بنت أبي بكر تتصدق بثمن جاريتها دون علم زوجها:

عَنْ أَسْمَاءَ قَالَتْ: كُنْتُ أَخْدُمُ الزُّبَيْرَ خِدْمَةَ الْبَيْتِ، وَكَانَ لَهُ فَرَسٌ وَكُنْتُ أَسُوسُهُ فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْخِدْمَةِ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ سِيَاسَةِ الْفَرَسِ. كُنْتُ أَحْتَشُّ لَهُ، وَأَقُومُ عَلَيْهِ، وَأَسُوسُهُ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهَا أَصَابَتْ خَادِمًا، جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ سَبْيٌ(٢)، فَأَعْطَاهَا خَادِمًا. قَالَتْ: كَفَتْنِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ، فَأَلْقَتْ عَنِّي مَئُونَتَهُ، فَجَاءَنِي رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أُمَّ عبد الله! إِنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَ فِي ظِلِّ دَارِكِ، قَالَتْ: إِنِّي إِنْ رَخَّصْتُ لَكَ أَبَى ذَاكَ الزُّبَيْرُ، فَتَعَالَ، فَاطْلُبْ إِلَيَّ، وَالزُّبَيْرُ شَاهِدٌ، فَجَاءَ فَقَالَ: يَا أُمَّ عبد الله! إِنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَ فِي ظِلِّ دَارِكِ: فَقَالَتْ مَا لَكَ بِالْمَدِينَةِ إِلَّا دَارِي؟ فَقَالَ لَهَا الزُّبَيْرُ: مَا لَكِ أَنْ تَمْنَعِي رَجُلًا فَقِيرًا يَبِيعُ؟ فَكَانَ يَبِيعُ إِلَى أَنْ كَسَبَ فَبِعْتُهُ الْجَارِيَةَ، فَدَخَلَ عَلَيَّ الزُّبَيْرُ وَثَمَنُهَا فِي حَجْرِي، فَقَالَ: هَبِيهَا لِي، قَالَتْ: إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِهَا"(٣).

المرأة المسلمة تهدى باسمها، لا باسم زوجها.

أم سليم بنت ملحان تهدى رسول الله ﷺيوم عرسه، وذلك باسمها لا باسم زوجها:

قالت أم سليم: يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل: بعثت بهذا إليك أمي وهي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله... "(٤).

المرأة تتمسك بحقها في مفارقة الزوج:

زوجة ثابت بن قيس ـ حين كرهت زوجها ـ تتمسك بحقها في مفارقته:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رسول الله! مَا أَنْقِمُ عَلَى ثَابِتٍ فِي دِينٍ، وَلَا خُلُقٍ. إِلَّا أَنِّي أَخَافُ الْكُفْرَ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: "فَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ" فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَرَدَّتْ عَلَيْهِ وَأَمَرَهُ فَفَارَقَهَا(١).

---

(١) البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٢) (سبي) السَّبْيُ: أخذ الناس عبيدًا، وإماءًا (النهاية٢/ ٣٤٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) مسلم (١٤٢٨).

الوجه السادس: إثبات شخصيتها في أمور متفرقة.

أم هانئ تجير محاربًا، وتشكو أخاها المعترض:

عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ، قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح. . . فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ... فَقَالَ: "مرحبًا بأم هانئ... " فَقُلْتُ: يَا رسول الله! زَعَمَ ابْنُ أُمِّي -ابن أبي طالب-: أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلَانُ ابْنُ هُبَيْرَةَ. فَقَالَ رسول الله ﷺ: "قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ"(٢).

حفصة بنت عمر تستدرك على عبد الله بن عمر:

عَنْ نَافِعٍ قَالَ: لَقِيَ ابْنُ عُمَرَ ابْنَ صَائِدٍ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ قَوْلًا أَغْضَبَهُ، فَانْتَفَخَ حَتَّى مَلَأَ السِّكَّةَ، فَدَخَلَ ابْنُ عُمَرَ عَلَى حَفْصَةَ وَقَدْ بَلَغَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: رَحِمَكَ الله، مَا أَرَدْتَ مِن ابْنِ صَائِدٍ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: "إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ غَضْبَةٍ يَغْضَبُهَا"(٣).

عاتكة بنت زيد تتمسك بحقها في شهود الجماعة:

عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كَانَتِ امْرَأَةٌ لِعُمَرَ ابن الخطاب تَشْهَدُ صَلَاةَ الصُّبْحِ وَالْعِشَاءِ فِي الْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لَهَا: لِمَ تَخْرُجِينَ؟ وَقَدْ تَعْلَمِينَ أَنَّ عُمَرَ يَكْرَهُ ذَلِكَ وَيَغَارُ؟ قَالَتْ: وَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْهَانِي؟ قَالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رسول الله ﷺ: "لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله"(٤).

مبايعة المرأة المسلمة النبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (الممتحنة: ١٢).

الرجال يحتكمون عند اختلافهم إلى النساء:

عَنْ طَاوُسٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ إِذْ قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: تُفْتِي أَنْ تَصْدُرَ الْحَائِضُ قَبْلَ أَنْ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مسلم (٢٩٣٢).

(٤) صحيح تقدم تخريجه.

يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهَا بِالْبَيْتِ؟ فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِمَّا لَا، فَسَلْ فُلَانَةَ الْأَنْصَارِيَّةَ، هَلْ أَمَرَهَا بِذَلِكَ رسول الله ﷺ؟ قَالَ: فَرَجَعَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: مَا أَرَاكَ إِلَّا صَدَقْتَ(١).

عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس، وأبو هريرة جالس عنده، فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت: قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة-، فأرسل ابن عباس غلامه كريبًا إلى أم سلمة يسألها فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية، وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها(٢).

المرأة تختار أكرم الرجال، وتعرض نفسها عليه:

عن سهل بن سعد: أن امرأة جاءت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي. . . فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئًا جلست. . . "(٣).

وعن ثابت البناني قال: كنت عند أنس، وعنده ابنة له، قال أنس: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها، قالت: يا رسول الله! ألك بي حاجة؟ فقالت بنت أنس: ما أقل حياءها واسوأتاه واسوأتاه. قال: هي خير منك؛ رغبت في النبي ﷺ، فعرضت عليه نفسها(٤).

الوجه السابع: ماذا عن شخصية المرأة في الكتاب المقدس؟.

لقدكان بولس (شاول) - مؤسس المسيحية الحالية - يعتبر النساء أقل منزلة من الرجال، فهو القائل في الرسالة الأولى إلى كورنثوس (١٤/ ٣٥: ٣٤): لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا. ٣٥وَلكِنْ إِنْ كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئًا، فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ، لأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي كَنِيسَةٍ.

---

(١) مسلم (١٣٢٨).

(٢) البخاري (٤٩٠٩).

(٣) البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥).

(٤) صحيح تقدم تخريجه. وحديث الواهبة أثيرت حوله شبهات وقد أجبنا عنها في ملف (شبهات المرأة)

وفي الترجمة الكاثوليكية هكذا النص: ولتصمت النساء في الجماعات، شأنها في جميع كنائس القديسين، فإنه لا يؤذن لهن بالتكلم. وعليهن أن يخضعن كما تقول الشريعة أيضًا فإن رغبن في تعلم شيء، فليسألن أزواجهن في البيت، لأنه من غير اللائق للمرأة أن تتكلم في الجماعة "
والمقصود بعبارة: "كما تقول الشريعة " أو " كما يقول الناموس " هو ما جاء في تكوين ٣: ١٦ من أن الرب جعل الرجل متسلطًا على المرأة فقال: "وقال للمرأة: تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا، وإلي رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك " أي يتسلط عليك".

وعبارة: (شأنها في جميع كنائس القديسين) تفيد عمومية الطلب خلافًا لما ذهب إليه البعض من أن هذه الأوامر هي للمؤمنين في كورنثوس فقط..

وقد كتب بولس أيضًا قائلًا في ١تيموثاوس ٢: ١٢ - ١٤: لست آذن للمرأة أن تعلّم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت، لأن آدم جُبلَ أولًا ثم حواء، وآدم لم يُغوَ، لكن المرأة أُغويَت فحصلت في التعد.

في هذا النص يؤكد بولس على سكوت المرأة وخضوعها وعدم قيامها بالتعليم لعدة أسباب:

أولًا: لأن آدم جبل أولا ثم حواء أي السيادة للرجل وليس للمرأة.

ثانيًا: لأن المرأة أغويت أولًا من قبل الشيطان (١ تيموثاوس١٤: ٢) فالمرأة تستطيع بمشاعرها أن تعلم تعاليم خاطئة إذ تستطيع استمالة الرجال أيضًا وهذا ما حدث في كنيسة ثياتيرا (رؤيا يوحنا (٢ :٢٠ وكما حدث مع ألن هوايت نبيّة السبتيين.

ثالثًا: لأن مجال المرأة هو في تعليم أولادها في البيت أو في مدارس الأحد (التعليم المسيحي للأطفال) ١ تيموثاوس ١٥: ٢.

ويأكد المفسر المسيحي متى هنري هذا المعنى في تفسيره لما جاء في ١ كورنثوس ١٤: ٣٤ فيقول: هنا يلزم الرسول النساء بالآتي:

١- أن يصمتن في الاجتماعات العامة، إذ لا يجب أن يسألن عن أي معلومة في الكنيسة بل يسألن أزواجهن في البيت. ويعد هذا حقيقته إشارة إلى أن النساء كن يصلين ويتنبأن

أحيانًا في اجتماعات الكنيسة (١ كو ١١: ٥). ولكنه هنا يمنعهن عن أي عمل عام، حيث إنه غير مسموح لهن أن يتكلمن في الكنيسة (عدد ٣٤)، كما لا يجب السماح لهن بأن يعلمن في الجماعة، ولا حتى يسألن أسئلة في الكنيسة، بل يتعلمن في صمت.

أما إذا واجهتهن الصعوبات "فليسألن رجالهن في البيت " وكما أن واجب المراة أن تتعلم في خضوع، فمن واجب الرجل أيضًا أن يمارس سلطانه، بأن يكون قادرًا على تعليمها، فإن كان قبيحًا بها أن تتكلم في الكنيسة، حيث يجب أن تصمت، فقبيح بالرجل أن يصمت حينما يكون من واجبه أن يتكلم، عندما تسأله في البيت.

٢- يختم الرسول بأنه قبيح بالمرأة أن تتكلم في الكنيسة فالقباحة أو العار هنا انعكاس غير مريح للذهن على شيىء تم فعله بدون لياقة، وأي شيء لا يليق أكثر من أن تترك المرأة مكانها، إذ أنها خلقت لتخضع للرجل، وعليها الاحتفاظ بمكانها وترضى به.

المرأة ليست مجد الله وهي دون الرجل! !

قال بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس (١١/ ٩: ٣): وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَأْسَ كُلِّ رَجُلٍ هُوَ الْمَسِيحُ. وَأَمَّا رَأْسُ الْمَرْأَةِ فَهُوَ الرَّجُلُ. وَرَأْسُ الْمَسِيحِ هُوَ اللهُ. ٤كُلُّ رَجُلٍ يُصَلِّي أَوْ يَتَنَبَّأُ وَلَهُ عَلَى رَأْسِهِ شَيْءٌ يَشِينُ رَأْسَهُ. ٥وَأَمَّا كُلُّ امْرَأَةٍ تُصَلِّي أَوْ تَتَنَبَّأُ وَرَأْسُهَا غَيْرُ مُغَطًّى فَتَشِينُ رَأْسَهَا لأَنَّهَا وَالْمَحْلُوقَةَ شَيْءٌ وَاحِدٌ بِعَيْنِهِ. ٦إِذِ الْمَرْأَةُ إِنْ كَانَتْ لاَ تَتَغَطَّى فَلْيُقَصَّ شَعَرُهَا. وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا بِالْمَرْأَةِ أَنْ تُقَصَّ أَوْ تُحْلَقَ فَلْتَتَغَطَّ. ٧فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ. ٨لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. ٩وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ.

* * *

٩- شبهة: ضرب الزوجات.

نص الشبهة:

١- أباح الإسلام للرجل عند نشوز الزوجة وعصيانها أن يعالج هذا النشوز بالضرب الخفيف الذي لا يوجع، وذلك بعد نصح الزوجة أولًا، ثم هجرانها ثانيًا، ولقد فهم البعض هذه القضية فهمًا خاطئًا.

٢-ثم لماذا لم يبح الإسلام للزوجات ضرب أزواجهن عند الشذوذ، كما أباح ذلك للأزواج، وذلك من باب المساواة والعدل؟

والجواب على الأمر الأول من وجوه:

الوجه الأول: الآية المبيحة للضرب والتفسير الصحيح لها.

الوجه الثاني: ماهو المباح من الضرب؟.

الوجه الثالث: متى يكون الضرب؟.

الوجه الرابع: من المرأة التى تُضْرَبُ؟.

الوجه الخامس: كيف يعالج الرجل نشوز المرأة.

الوجه السادس: لماذا شرع الله تعالى الضرب؟

الوجه السابع: إن الضرب المشروع ضرب غير موجع، بخلاف غيرنا من الغرب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الآية المبيحة للضرب والتفسير الصحيح لها

قال الله تعالى :﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤).

قال القرطبي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ((وَاضْرِبُوهُنَّ)) أَمَرَ الله أَنْ يَبْدَأَ النِّسَاءُ بِالْمَوْعِظَةِ أَوَّلًا ثم بالهجران، فإن لم ينجعا فَالضَّرْبُ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُصْلِحُهَا لَهُ وَيَحْمِلُهَا عَلَى تَوْفِيَةِ حَقِّهِ. وَالضَّرْبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ ضَرْبُ الْأَدَبِ غَيْرُ الْمُبَرِّحِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَكْسِرُ عَظْمًا وَلَا يَشِينُ

جَارِحَةً كَاللَّكْزَةِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ الصَّلَاحُ لَا غَيْرَ. فَلَا جَرَمَ إِذَا أَدَّى إِلَى الْهَلَاكِ وَجَبَ الضَّمَانُ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي ضَرْبِ الْمُؤَدِّبِ غُلَامَهُ لِتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَالْأَدَبِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: (اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ) الْحَدِيثَ. أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ فِي الْحَجِّ، أَيْ لَا يُدْخِلْنَ مَنَازِلَكُمْ أَحَدًا مِمَّنْ تَكْرَهُونَهُ مِنَ الْأَقَارِبِ وَالنِّسَاءِ الْأَجَانِبِ . وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَحْوَصِ أَنَّهُ شَهِدَ حجة الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَّرَ وَوَعَظَ فَقَالَ: (أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إليهن في كسوتهن وطعامهن (. قال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. فَقَوْلُهُ: (بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) يُرِيدُ لَا يُدْخِلْنَ مَنْ يَكْرَهُهُ أَزْوَاجُهُنَّ وَلَا يُغْضِبْنَهُمْ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الزِّنَى، فَإِنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ وَيَلْزَمُ عَلَيْهِ الْحَدُّ. وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (اضْرِبُوا النِّسَاءَ إِذَا عَصَيْنَكُمْ فِي مَعْرُوفٍ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ). قَالَ عَطَاءٌ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ مَا الضَّرْبُ غَيْرُ الْمُبَرِّحِ؟ قَالَ بِالسِّوَاكِ وَنَحْوِهِ. وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ فَعُذِلَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (لَا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ أَهْلَهُ)(١).

الوجه الثاني: ما هو المباح من الضرب؟

الضرب الذي أباحه الله للأزواج لتأديب أزواجهن ضرب غير مُبَرِّح، أي: أنه ضرب لا يكسر عظمًا، ولا يشين عضوًا، ولا يدميها، ولا يؤثر فيها شيئًا، ولا يقترن بشيء من

(١) تفسير القرطبي (٥/ ١٧٢).

التقبيح، أو الإهانة، فهو ضرب خفيف غير موجع أقرب إلى العلاج النفسي البسيط من الزوج لحالة الزوجة الخاصة.

الوجه الثالث: متى يكون الضرب؟

إن الزوج لا يبدأ بضرب زوجته عند نشوزها، وإنما يبدأ بوعظها، فإن أصرت على العصيان والنشوز تدرج بعد ذلك في التأديب، فينتقل إلى مرتبة الهجر، فيهجرها في الفراش، فإن لم ينصلح حالها فحينئذٍ يلجأ إلى الضرب.

الوجه الرابع: من المرأة التى تضرب؟

إن هذا الضرب مخصوص بصنف واحد من النساء، لسن من الكريمات، وإنما هو مخصوص بنوع قليل من النساء، سليطة اللسان، مجاهرة بعصيان زوجها ومعاندته، حريصة على إهانته ومخالفة أمره، غير مكرمة لنفسها أو لما بينهما من عشرة، ولا تكون مثل هذه المرأة عادة من البيوت الكريمة الأصيلة؛ لأن سليلة هذه البيوت تعرف من الوسائل ما يجعلها أكرم على نفسها وعلى غيرها من اتباع أسلوب الوقاحة والسلاطة والعصيان، وحين ترى أن العشرة قد استحالت بينها وبين زوجها فإنها تتخذ من الوسائل ما تسعى به في تحقيق رغبتها دون اللجوء إلى وسائل تحمل زوجها على ضربها، وذلك كله على فرض أن الزوج مؤد لها كافة حقوقها غير ظالم لها في شيء مما يأمرها به، أما من تلجئ الزوج إلى ضربها على أمل إصلاحها وحملها على الطاعة - لأن المسلم الحق لا يضرب عندئذٍ إلا على هذا الأمل - فإن تكوينها النفسي والثقافي كثيرًا ما يكون في صورة يؤدي الضرب الخفيف معها إلى الإصلاح، والحمل على الطاعة، بل إن في الحياة تجارب تدل على أن أعدادًا من النسوة -قد تكون نادرة لكنها موجودة- تأخذ الضرب عندئذٍ -أو التهديد به- على محمل أنه تعبير عن شيء من صفات الرجولة في زوجها، وقد يقترن بإظهار الغضب منه شيء من

الرضا النفسي الخفي، وتلك حالات نادرة لكنها غيرُ منعدمة، لكنَّ الضرب المباح أيضًا في الشريعة إنما يباح في مثل هذه الحالات، ولا يباح في كلِّ امرأة يقينًا. (١)

الوجه الخامس: كيف يعالج الرجل نشوز المرأة.

نريد أن نسأل القوم الذين يستكبرون مشروعية تأديب الناشز، ولا يستكبرون أن تنشز هي، وتترفع على زوجها، فتجعله - وهو رئيس البيت- مرءوسًا بل محتقرًا، وتصر على نشوزها، وتمشي على غُلَوائها، حتى إنها لا تلين لوعظه، ولا تستجيب لنصحه، ولا تبالي بإعراضه وهجره، تُرى كيف يعالجون هذا النشوز؟ وبم يشيرون على أزواجهن أن يعاملوهن به؟

هل من كرامة الرجل أن يُهرع إلى طلب محاكمة زوجته كلما نشزت؟

لقد أمر القرآن الكريم بالصبر والأناة، وبالوعظ، والإرشاد، ثم بالهجر في المضاجع، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل، فحينئذٍ يلجأ إلى الضرب غير الموجع(٢).

الوجه السادس: لماذا شرع الله تعالى الضرب؟

إن مشروعية هذا التأديب لا يستنكرها عقل ولا فطرة، حتى نحتاج إلى تأويلها، فالضرب طريق من طرق العلاج، ينفع في بعض الحالات مع بعض النفوس الشاذة المتمردة، التي لا تفهم الحسنى، ولا ينفع معها الجميل، وإن من النساء، بل من الرجال من لا يقيمه إلا التأديب، ومن أجل ذلك وضعت العقوبات، وفتحت السجون.

يقول الشيخ الشعراوي: قد يقول بعض الناس. إن ضرب الزوج لزوجته معناه الكراهية، ونقول لهؤلاء! ألا يضرب الأب ابنه؟. أيكره الأب ابنه الذي هو قطعة منه؟ طبعًا لا. بل إنه لا يحب شيئًا في الدنيا أكثر من ابنه، ولكنه يريد مصلحته، وقد يسبب له ألمًا خفيفًا ليقيه من آلام كثيرة سيتعرض لها لو استمر في الطريق الخاطئ الذي يمشي فيه.

إن المجتمعاتِ الإسلاميةَ هي أقل المجتمعات إيذاء للنساء؛ لأن الشرع الحنيف يحضُّ الأب والزوج على الترفق بهن لضعفهن وقلة حيلتهن، أما في أوربا وأمريكا فإن الأزواج

---

(١) مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة صـ ١١٠: ١٠٩.

(٢) عودة الحجاب ٢/ ٤٦٩ بتصرف.

يضربون زوجاتهم ضربًا مبرحًا لدرجة أنه بدأت تنشأ هناك جمعيات لحماية الزوجات من ضرب الأزواج، والله سبحانه وتعالى قد جعل بين الأزواج والزوجات مودة ورحمة، وذلك مصداقًا لقوله تبارك وتعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١).

هذه المودة والرحمة هي الرابطة بين الزوج وزوجته أوجدها الله لذلك لا تجد من هو أكثر تسامحًا من الزوج مع زوجته أو الزوجة مع زوجها، يحدث بينهما الكثير، وبعد ساعة أو أقل تجدهما نسيا ما حدث، وعادا إلى الحب والصفاء، ورسول الله ﷺ يقول: "استوصوا بالنساء خيرًا" الحديث. وهكذا نرى أن الضرب ليس علامة الكراهية، ولكنه قد يكون علامة حب، وأنه ما دام غير مبرح فإنه يسبب ألمًا بسيطًا وأن الإنسان قد يلجأ إلى ضرب خفيف مع من يحب؛ لأنه يحب مصلحته ويهمه أمره.

والمرأة بطبيعتها تتفهم ذلك من زوجها وتعرف أن غضبه عليها ومعاقبته لها، سرعان ما يتلاشى ويزول بزوال أسبابه فتدوم بينهما العشرة وكأن شيئًا لم يكن. [1]

الوجه السابع: إن الضرب المشروع ضرب غير موجع، بخلاف غيرنا من الغرب.

قال د/محمد سعيد رمضان البوطي: وقد انتشرت في أمريكا أخيرًا ملاجئ من نوع خاص، تستقبل النساء اللواتي أتيح لهن الفرار من وابل الضرب والتحطيم من قبل الأزواج أو الأصدقاء، وتحيط بمباني هذه الملاجئ عادةً جدران مزخرفة وديكورات لا توحي بطبيعة ما وراءها للتمويه، ابتغاء قطع السبيل إلى معرفة الأماكن التي يأوى إليها هذا القطيع الكبير من النساء المنكوبات، كي لا يلاحقهن الأزواج والأصدقاء بالضرب والأذى إلى المأمن الذي التجأن إليه. . !

وقد امتدَّ من هذا البلاء الصاعق وباء عمَّ الولايات المتحدة كلها، وهو الآن ينتشر بسرعة في مختلف البلاد الأوربية. [1]

---

[1] المرأة في القرآن صـ ٨١.

وقد كتب (Richard. F. Jones) الأستاذ في معهد القبالة وأمراض النساء في أمريكا (American College Obstetricias and Gynecologists) كتب مقالًا عن هذه الظاهرة الوبائية المخيفة، في المجلة العائدة لهذا المعهد، في عدد يناير عام ١٩٩٣م بعنوان:

.Domestic Violence: Let our voices be heard

أي: الاغتصاب العائلي، أو المنزلي: فلندع أصواتنا تسمع.

افتتحه بقوله: "هنالك وباء يجتاح بلدنا. . إنه لشنيع. . وإنه غير قابل للتجاوز عنه أو التساهل في أمره. . إنه يجب أن يوقف، وإنه لمرض يبعث على الاشمئزاز ولا يمكن لأي بلد حضاري أن يقبل به.

ثم قال الكاتب: إنه في كل (١٢) ثانية في الولايات المتحدة الأمريكية تخضع امرأة لهذا الوباء. . في كلِّ (١٢) ثانية امرأة تُضرب إلى درجة القتل أو التحطيم من قبل زوج أو صديق!. . وفي كلِّ يوم نرى نتائج هذا الضرب وآثاره في مكاتبنا. . وفي غرف الطوارئ. . وفي عياداتنا!.

ثم يقول الدكتور/البوطي: فالذي يعاقَبُ في شخص المرأة في ديننا هو شذوذها المتمرد الذي تطاول أمده، ومن ثم فهو أندر ما يكون في البيوتات الإسلامية.

وأما الذي يُعاقبُ في شخص المرأة في الغرب، فهو إنسانيتها الوديعة التي لا تنشد أكثر من حقها، ومن ثم فهو بلاء ماض في التفاقم والانتشار، وأذكرك بالتقرير الأمريكي القائل: في كلِّ اثنتي عشرة ثانية امرأة تضرب إلى درجة القتل أو التحطيم من قبل زوج أو خليل، في الولايات المتحدة الأمريكية.

والزوجة المسلمة التي تعيش في دار إسلامية مع زوج مسلم، لا يدعها إسلامها تنزلق إلى النشوز أصلًا، فإن انزلقت بدافع من نزق أو هياج نفسي عارض، فلسوف تعود، مستغفرة الله، خلال المرحلة العلاجية الأولى، ولن يدعها التزامها الإسلامي تبقى حبيسة هذا الانزلاق إلى المرحلة الثالثة قط، والزوج المسلم الذي يعيش مع زوجته المسلمة، لن

---

(١) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني صـ ٣٢: ٣١.

يجنح في التعامل مع زوجته إلى أي إساءة بضرب أو شتيمة بلسان، حتى ولو بدر منها خطأ أو نشوز، أي: إن الالتزام الحقيقي بالإسلام يشكل لدى كل من الزوجين صمام أمان ضد تطاول الآخر بالسوء في حق صاحبه، وإن تجاوز كلٌّ منهما الحدَّ لبعض الوقت.

والبيوتات الإسلامية عندنا، خير شاهد ناطق بما نقول.

أما البيوتات الأخرى. فإنما وبال جنوحها عليها ومن الأعاجيب التي يعرفها الناس جميعًا -ولا عجب- أن الذين يتظاهرون بالغيرة على المرأة وحقوقها، من حيث ينتقصون الإسلام ويعيبون فيه آية النشوز التي ورد فيها ذكر الضرب، هم أسرع الناس إيذاء لزوجاتهم، وأطولهم أيْدي إليهن بالضرب واللكم. وفي الذهن أسماء كثيرة، وقصص مؤلمة مثيرة، ولكن الله أمر بالسّتر.

قلت: نعم أمر الله بالستر، ولكن هؤلاء لا يستحقون الستر، فإنهم على ما هم فيه يلقون التهم على الإسلام فهم كما قال الشاعر: رمتني بدائها وانسلت.

فنحن نقول بأنهم أسرع الناس إيذاءً لزوجاتهم.

دليل ذلك ما ذكره، الأستاذ/محمد رشيد العويد:

من أن دراسة أمريكية جرت في عام (١٤٠٧هـ) (١٩٨٧م) أشارت إلى أن "٧٩٪" من الرجال يقومون بضرب النساء، بخاصة إذا كانوا متزوجين بهن، وكانت الدراسة قد اعتمدت على استفتاء أجراه د/ جون بيرير الأستاذ المساعد لمادة علم النفس في جامعة "كارولينا الجنوبية" بين عدد من طلبة الجامعة.

وقد أشارت الدراسة إلى أن استعداد الرجال لضرب زوجاتهم عالٍ جدًّا، فإذا كان هذا بين طلبة الجامعة، فلا شك في أنه أعلى نسبة بين من هم دونهم تعليمًا. [1]

وفي دراسة أعدها المكتب الوطني الأمريكي للصحة النفسية: جاء أن "١٧٪" من النساء اللواتي يدخلن غرف الإسعاف: هن ضحايا ضرب الأزواج أو الأصدقاء. وأن

(١) من أجل تحرير حقيقي للمرأة صـ ٢٤: ١٦ بتصرف.

"٨٣٪" دخلن المستشفيات سابقًا مرة على الأقل، للعلاج من جروح وكدمات أُصِبن بها، كان دخولهن نتيجة للضرب.

وقال إفان ستارك معد هذه الدراسة التي فحصت (١٣٦٠) سجلًا للنساء في المستشفيات: "إن ضرب النساء في أمريكا ربَّما كان أكثر الأسباب شيوعًا للجروح التي تصاب بها النساء، وأنها تفوق حتى ما يلحق بهنَّ من أذى نتيجة حوادث السيارات، والسرقة، والاغتصاب مجتمعة".

وأكدت الدكتورة/آن فليتكرافت التي ساهمت في وضع الدراسة: "أن ضرب النساء هو إحدى حقائق المجتمع الأميركي. . ومشكلة اجتماعية واسعة الانتشار".

وقالت جانيس مور -وهي منسقة في منظمة "الائتلاف الوطني ضد العنف المنزلي" ومقرها واشنطن-: "إن هذه المأساة المرعبة وصلت إلى حد هائل، فالأزواج يضربون نساءهم في سائر أنحاء الولايات المتحدة، مما يؤدي إلى دخول عشرات الآلاف منهن إلى المستشفيات للعلاج.

وأضافت: إن نوعية الإصابات تتراوح بين كدمات سوداء حول العينين، وكسور في العظام، وحروق وجروح وطعن بالسكين، وجروح الطلقات النارية، وبين ضربات أخرى بالكراسي والسكاكين والقضبان المحماة.

وأشارت إلى أن الأمر المرعب، هو أن هناك نساء أكثر يصبن بجروح وأذى على أيدي أزواجهن، ولكنهن لا يذهبن إلى المستشفى طلبًا للعلاج، بل يضمدن جراحهن في المنزل.

وقالت جانيس مور: "إننا نقدر بأن عدد النساء اللواتي يُضربن في بيوتهن كل عام، يصل إلى ستة ملايين امرأة، وقد جمعنا معلومات من ملفات مكتب التحقيقات الفدرالي، ومن مئات الملاجئ التي توفر المأوى للنساء الهاربات من عنف وضرب أزواجهن". مائة ألف ألمانية يضربهن الرجال سنويًا.

وذكرت دراسة ألمانية أن ما لا يقل عن مائة ألف امرأة تتعرض سنويًا لأعمال العنف

الجسدي أو النفساني التي يمارسها الأزواج، أو الرجال الذين يعاشرونهن، مع احتمال أن يكون الرقم الحقيقي يزيد على المليون.

وقالت الدراسة: إن الأسباب المؤدية إلى استخدام العنف هي البطالة زمنًا طويلًا، والديون المالية، والإدمان على المشروبات الكحولية، والغيرة الشديدة.

وقد وضعت الوزارة الألمانية الاتحادية لشئون الشبيبة والأسرة والصحة مشروعًا لتقديم المساعدة من قبل منظمة خيرية، على أن يتم ذلك خلال عامين.

وفي فرنسا تتعرض حوالي مليوني امرأةٍ للضرب، وأمام هذه الظاهرة، التي تقول الشرطة إنها تشمل حوالي عشرة في المائة من العائلات الفرنسية، أعلنت الحكومة أنها ستبدأ حملة توعية لمنع أن تبدو أعمال العنف هذه كأنها ظاهرة طبيعية.

وقالت أمينة سر الدولة لحقوق المرأة ميشال أندريه: حتى الحيوانات تعامل أحيانًا أحسن منهن، فلو أن رجلًا ضرب كلبًا في الشارع فسيتقدم شخص ما بشكوى إلى جمعية الرفق بالحيوان، ولكن إذا ضرب رجل زوجته في الشارع فلن يتحرك أحد.

وأضافت في تصريح إلى وكالة "فرانس برس": يجب إفهام الجميع بأن الضرب مسألة تطالها العدالة، أريد أن يتم التوقف عن التفكير بأن هذا الأمر عادي.

وتابعت: إن عالمنا يقر بأن هنالك مسيطرًا ومسيطَرًا عليه، إنه منطق يجب إيقافه.

ونقلت صحيفة "فرانس سوار" عن الشرطة، في تحقيق نشرته حول الموضوع: أن (٩٢.٧٪) من عمليات الضرب التي تتم بين الأزواج تقع في المدن. وأن (٦٠٪) من الدعوات الهاتفية التي تتلقاها شرطة النجدة في باريس أثناء الليل، هي نداءات استغاثة من نساء يسيء أزواجهن معاملتهن.

وذكرت أمانة سر الدولة لحقوق المرأة: أن هنالك أنواعًا من العنف الذي يمارس على النساء، منها معنوي (تهديدات وإهانات) ومنها جسدي (ضرب).

ولاحظت جمعية (نجدة النساء اللواتي يتعرضن للضرب) أن النساء اللواتي تستقبلهن تتراوح أعمارهن بين (٢٥) و (٣٥) سنة، ولهن ما معدله طفلان، ومستواهن التعليمي متدنٍ، وهن غالبًا معزولات عن عائلاتهن أو جيرانهن، وكثيرًا ما أدت ذريعة مثل: المرض، أو إدمان الكحول، أو البطالة إلى تفاقم العنف الذي يمارس أساسًا عليهن، ولكن قليلات من الضحايا يجسرن على فضح عمليات العنف هذه بسبب الخوف من الانتقام، أو بسبب نقص الشجاعة.

وأظهر استطلاع نُشرت نتائجه في بريطانيا، تزايد العنف ضد النساء، ففي استطلاع شاركت فيه سبعة آلاف امرأة قالت (٢٨) من المشاركات إنهن تعرضن لهجوم من أزواجهن أو أصدقائهن.

وحسب تقدير للوكالة الأميركية المركزية للفحص والتحقيق f. p. T فإن هناك زوجة يضربها زوجها كلَّ (١٨) ثانية في أمريكا.

وكتبت جريدة (Paychology Today) أن امرأة من كلِّ عشر نسوة يضربها زوجها، فعقبت عليها جريدة (Family Relation) بقولها: لا، بل واحدة من كل امرأتين تتعرض للظلم والعدوان من قبل زوجها!.

ويفيد تقرير بريطاني أن الزوج يضرب زوجته دون أن يكون هناك سبب يبرر الضرب، ويشكل هذا نسبة (٧٧٪) من عمليات الضرب.

ويستفاد من التقرير نفسه أن امرأة ذكرت أن زوجها ضربها ثلاث سنوات ونصف السنة منذ بداية زواجها. وقالت: لو قلت له شيئًا إثر ضربي لعاد إلى الضرب ثانية، ولذا أبقى صامتة. وهو لا يكتفي بنوع واحد من الضرب، بل يمارس جميع أنواع الضرب من اللطمات، واللكمات، والركلات والرفسات، وضرب الرأس بعرض الحائط، ويحكى التقرير عن امرأة أَذِنَتْ أذنها إلى زوجها فضربها ضربة انصدع منها صمام الأذن.

ولا يبالي الزوج إذا وقعت لكماته أو ركلاته في أعضاء من الجسد ذات حساسية زائدة، وربما تكون المرأة حاملًا وهو لا يكترث لذلك، فيركل برجله في بطنها فيسقط حملها، وقد وقعت عدة

أحداث بالفعل من هذا النوع. كما انكسرت أضلاع عدد من النساء نتيجة الضرب. وقد يبلغ الأمر ببعض الرجال إلى حد يمسكون فيه بأعناقهن، ثم يضيقون عليهن الخناق، ويجن جنون بعضهم فيحرقها بالسجائر، أو يكبلها بالسلاسل والأغلال ثم يغلق عليها الباب.

وفي الصين: نشرت صحيفة "العمال" اليومية نبأ إعدام مسئول صغير بتهمة الاعتداء على فتيات، وتعذيب زوجته بالسجائر والكهرباء، والإبر والأحزمة.

ونشرت صحيفة تشوانغ منغ المحلية رسالة كتبتها "تشاي جيانكسيونغ" وهي طبيبة في مقاطعة شانكسي وصفت فيها كيف ضربها زوجها على وجهها ومعدتها وأطرافها؛ لأنها رفضت الموافقة على الطلاق، وعولجت في المستشفى من إصابات خارجية وداخلية خطيرة. ثم حاولت والدة الزوج طردها من المستشفى، وقد حدث ذلك دون أن يعاقب الزوج.

وفي قضية أخرى: قام رجل بكسر ذراع زوجته في أثناء شجار بينهما، ولم تجرؤ الزوجة على البقاء في المنزل، واضطرت إلى قضاء عدة ليالٍ في قن البط.

وكتبت إحدى الزوجات إلى مجلة "النساء" في الصين تشكو من سوء معاملة زوجها وأفراد أسرته الذين يقيمون معها في منزل واحد، وتحكي كيف ضربها زوجها؛ لأنها رفضت أن تعطي والديه مبلغًا من المال يعادل عشرة دولارات.

وفي الصين لا توجد مراكز للزوجات اللواتي يتعرضن للضرب، ويلجأن في العادة إلى اللجان الاجتماعية القريبة، أو إلى فروع الاتحاد النسائي، وفي بعض الحالات إلى المحاكم، ولكن المرأة الصينية تخاف في الأغلب من تحدي زوجها، وتخجل من طلب المساعدة.

وفي كندا: مائة وخمسون ألف كندي يضربون زوجاتهم، والمؤسسات الاجتماعية والثقافية في البلاد تعتبر الأمر فضيحة. و"التجمع الذكوري ضد العنف العائلي" أنشئ خصيصًا في مونتريال للحد من عمليات ضرب النساء. وقد وضع في تصرف الرجال السريعي الغضب خط هاتفي، على مدى ٢٤ ساعة، يتصل به الزوج ليفرغ غضبه إلى الطرف الآخر. لعلَّ هذا يغنيه عن ضرب زوجته.

ونشرت مجلة "التايم" الأميركية أن حوالي أربعة آلاف زوجة، من حوالي ستة ملايين زوجة مضروبة، تنتهي حياتهن نتيجة ذلك الضرب.

وأشار خبر نشره مكتب التحقيقات الفيدرالية جاء فيه أن أربعين في المائة من حوادث قتل السيدات ارتكبها أزواجهن.

وأشار أيضًا إلى دراسة جرت في إحدى المستشفيات الأميركية الكبيرة، واستغرقت أربع سنوات، وجاء فيها أن (٢٥٪) من محاولات الانتحار التي تُقدم عليها الزوجات يسبقها تاريخ من ضرب الأزواج لهن، أي: أنهن لا يجدن نجاة من هذا الضرب إلا في الانتحار.

جاء في جريدة الرأي العام العدد ١٠٦٨٥ بتاريخ ٩/ ٥/ ١٤١٧هـ ما يلي:

بات مشروعًا للأزواج الإيطاليين أن يضربوا زوجاتهم في لحظات الغضب والغيرة الشديدة بعد أن ألغت محكمة إيطالية حكمًا أصدرته محكمة ابتدائية وقضي بسجن زوج ثمانية أشهر لضربه زوجته التي اتهمها بالإكثار من الخروج الأمر الذي أثار الشائعات بين الجيران في شأن سلوكها.

واشترطت المحكمة في ضرب الزوجات ألا يتكرر كثيرًا وأن لا يكون عنيفًا جدًّا مبررة حكمها بأن العلاقات الزوجية علاقات معقدة وفيها كثير من الخصوصية وتداخل الأمور بحيث يصعب على أطراف خارجية مثل المحكمة أدراك كثير من تفاصيلها ورأت المحكمة أن ضرب الزوجة أو الزوج بسبب انفعال عارض تثيره الغيرة أو الغضب المباغت لا يعد أمرًا يصلح لقضية أمام المحاكم.

وتعود القضية إلى حادثة وقعت في صقلية حين ضرب فرانسيسكو كومباردو (٤٢ عامًا وهو عامل بناء من صقلية زوجته أنا (٣٩ عامًا) في لحظة غضب وغيره محتجًا على تصرفاتها التي باتت تثير الريب وخروجها الكثير من منزل الزوجية وتركها أولادها الثلاثة منه مما أثار الشائعات في أوساط الجيران عن أنها تخرج لملاقاة عشيق سرًا.

وعبرت السيدة عن ارتياحها لحكم محكمة الاستئناف الذي ألغى الحكم الأول بسجن زوجها ثمانية أشهر وقالت: "أنا سعيدة بإلغاء حكم السجن على زوجي، لم يكن الأمر سوى اشتباك بيني وبين زوجي كما يحصل في كل أسرة في صقلية، وكل الأزواج في منطقتي تنتابهم الغيرة الشديدة. نعم كان فرانسيسكو عنيفًا معي لكنني أفضل أن أراه خارج السجن"

ويتوقع أن يشير الحكم جدلًا واسعًا تثيره منظمات الدفاع عن النساء الأوروبيات؛ لأنه يشكل سابقة في القضاء الأوربي لكن موقف السيدة سيضعف دفاع مثل هذه المنظمات كثيرًا.

وكتب الأستاذ/ محمد مصطفى غنيم في (يوميات الأخبار) بتاريخ ٤ سبتمبر ١٩٧٣م (الصفحة الثامنة) تحت عنوان (ذروة الحضارة، وضرب الزوجات): هل تعرف الموضوع الذي يشغل بال الرأي العام البريطاني في هذه الأيام أكثر من أي موضوع سواه؟ أنه ليس الأزمة الاقتصادية الطاحنة، وليس سياسة الوفاق، بل إن المشكلة التي لا تكاد تخلو منها صحيفة واحدة أو ينقطع الحديث عنها في أي لقاء، وهي ظاهرة ضرب الزوجات التي تفشت في المجتمع البريطاني، وروى أن المشكلة نوقشت في أعلى المستويات الحكومية؛ لأنه في أغلب الأحيان ضرب قاسٍ عنيف أدى في أحيان كثيرة إلى موت الزوجة، وقد تبين أن بعض الأزواج اعتاد أن يضرب زوجته كل ليلة بصورة منتظمة دون أن يجرؤ أحدٌ على التدخل أو الشكوى، فالبوليس البريطاني لا يتدخل حتى لا يتهم بالتدخل في شئون العائلات.

ويقول تقرير أعدته جماعة (مساعدة المرأة المعتدى عليها) إن بعض الزوجات استمرت عمليات ضربهن سنوات دون أن تتقدم إحداهن بالشكوى، وذلك أما خجلًا أو خوفًا، وقال التقرير إن كثيرات من الزوجات أصبن بكسور وكدمات، بل إن البعض كان يتحمل (علقة) الزوج حتى خلال فترة الحمل.

وقد تعهد (إدوارد هيث) رئيس الوزارة بالتحقيق ومعالجة هذه الظاهرة المتفشية. "والطريف بعد ذلك أن عددًا كبيرًا من الزوجات يرفضن طلب الطلاق من أزواجهن رغم تكرار الاعتداء عليهن بالضرب، ويفضلن البقاء تحت سقف الزوجية رغم الآلام

التي يعانينها" وهذه هي ذروة الحضارة الغربية.

فإذا تركنا الحضارة الغربية إلى اليابان هذه القوة الحضارية العملاقة التي صعدت إلى القمة في التفوق التكنولوجي والمدنية المادية المعاصرة - سوف نجد أن رئيس وزرائها السيد كاكوي تاناكا أصدر أخيرًا كتابًا بعنوان (حياتي) قال فيه: إنه يؤمن بأن أفضل أسلوب لمعاملة المرأة هو ضربها بين الحين والحين، واعترف تاناكا بأنه يضرب زوجته وابنته كثيرًا، ورغم ذلك فالعلاقة بينهم تعتبر مثالية؛ بل إنه نصح زوج ابنته - ليلة زفافها- بضرورة ضربها حتى تنصلح حالها، وقد فوجئ زوج الابنة بما يطلبه منه حموه، ولكن تاناكا عاد وأكد أن الضرب بدون سبب هو الذي قد يغضب الزوجة.

أمَّا ضربها لارتكابها بعض الأخطاء فإن هذا قد يؤلمها ويوجعها، ولكنها ستزداد حبًا لزوجها بعد أن يتبدد الألم والوجع (جريدة أخبار اليوم ٢٤نوفمبر ١٩٧٣م الصفحة الثانية).

يقول أ/محمد رشيد العويد: هكذا يضرب غير المسلمين زوجاتهم، دون قيد، ودون حساب، ولأتفه الأسباب، فأين هم من الإسلام الذي جعل الضرب الوسيلة الأخيرة في الإصلاح، "ضرب لا يُقصد منه الإيلام وإطفاء الغيظ، بقدر ما يُقصد منه إعلان الأسف، وعدم الرضا بالسلوك، ولذا ورد النص مطلقًا في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ (النساء: ٣٤) أي: أدنى ما يتحقق به مفهوم الضرب، فهو ضرب تأديب وإصلاح - كما يقول المفسرون- وضرب تقويم وعلاج، وليس ضرب إيلام وإزعاج، وجاءت أقوال الفقهاء في تحديد آلة الضرب بنحو السواك، وباجتناب ضرب الوجه، ومواطن الضرر، وإذا ترتب على الضرب ضرر ما، كالذي يترك أثرًا، فإنه يكون مضمونًا على الزوج، مستحقًا به التعزير الكافي والتغريم بحسب ما يراه الحاكم كافيًا".

"فالضرب المؤذي مرفوض، وغير مقبول شرعًا، بل هو من التجاوزات التي يعزر عليهاالشارع،

ويكون للمرأة بسببها طلب التفريق من الزوج، قضاء، وإذا ثبت في المحاكم أرغم القاضي الزوج المسرف على طلاق زوجته، وإن لم يطلقها طلقها القاضي عليه، وفرق بينه وبينها بحكمه". (١)

ومن يرجع إلى السنة النبوية يجد أن الضرب ورد في حال معينة، وهي حال الانحراف في سلوك الزوجة، في بيت الزوجية، وقد ورد الضرب في هذه مقيدًا أيضًا بعدم الشدة:

وهو ذلك أن النبي ﷺ- لما حج حجة الوداع - وقف يوم عرفة، وخطب الناس، وعلى ناقته القصواء، بعد أن استنصت الناس، واستشهد اليوم والزمان والمكان، ولخص للناس أمهات شريعتهم، فكان فيما قال لهم: "اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضربًا غير مبرح". (٢)

وفسرَّ المحدثون الضرب غير المبرح، بأنه ضرب غير شديد ولا شاق، ولا يكون الضرب كذلك إلا إذا كان خفيفًا، وبآلة خفيفة، كالسواك ونحوه، إذ لم يكن القصد فيه إلى البطش والتعذيب، ولكن إلى التأديب والزجر، والتربية والتوجيه، ومع ذلك قال الشاعر العربي القديم:

رأيت رجالًا يضربون نساءهم ... فشلت يميني يوم أضرب زينبا

ولم يرد في الشريعة ضرب النساء، إلا في هذه المناسبة، وهي مناسبة خطيرة في الحياة الزوجية، وكان الضرب تعزيرًا وتأديبًا، وكان آخر مراحل التأديب والتعزير، ومما تستوجبه طبيعة الحياة الزوجية، وتفرضه التزاماتها.

أما عن قولهم لماذا لم يبح الإسلام للزوجات ضرب أزواجهن عند الشذوذ، كما أباح للأزواج، وذلك من باب المساواة والعدل؟

فالجواب : "نحن البشر نعلم جميعًا - فضلًا عن الإله الذي خلقهم وأودع في الرجل صفة الرجولة، وفي النساء معنى الأنوثة - أن المرأة لو أقدمت على ضرب زوجها الناشز تأديبًا له، لتحولت الرجولة التي في كيانه إلى وحشية مستشرية ضارية لا يضبطها لجام

---

(١) من أجل تحرير حقيقي للمرأة صـ ٢٧: ٢٤.

(٢) مسلم (١٢١٨) من حديث جابر.

غريزة كالتي في الوحوش، ولا ضياء عقل كالذي في بني الإنسان، ولا نقْضَ عليها في ضراوة مرعبة، ثم لم يفلتها إلا وهي محطمة أو هالكة، أي: فالنتيجة هي أن تقدم حياتها - على الأغلب- قربانًا لمساواة، لا في أصلِ الكرامة التي متع الله بها كلًا من الرجل والمرأة على السواء، بل من أجل وحدة السبيل إلى رعايتها في كل منهما، فهل يستأهل هذا الموقف الذي لا موجب له، أن تقدم المرأة حياتها قربانًا في سبيله؟. [1]

لقد كان جواب الشريعة الإسلامية، أن الزوج الناشز أو المسيء يجب أن يلقى عقابه، على أن لا يعرض السبيل إلى ذلك الزوجة، لأي خطر يحوم حولها أو لأي أذى ينزل بها، وإنما تتم ضمانة ذلك بأن تقيم الشريعة من القاضي نائبًا عن الزوجة في الانتصار لها وإنزال العقوبة اللازمة بزوجها، وقد لا تقف العقوبة التي يستحقها الزوج عند حد الضرب، بل قد تتجاوزها إلى السجن وغيره.

وهذا هو منهج الشريعة الإسلاميةِ في إنزال العقوبات على مستحقيها، فهي تكلف بذلك السلطة القضائية وما يستتبعها من السلطة التنفيذية، كلَّما غلب على الظن أن الطرف المظلوم لا يستطيع أن يستقل بالانتصار لنفسه، أو يستطيع في الظاهر، ولكنها استطاعة من شأنها أن تجر وراءها ذيولًا من الفتن قد يكون هذا المظلوم ذاته هو أول من يحترق بنارها.

ينبغي أن نعلم أولًا أن الشريعةَ الإسلاميةَ أخضعت كلًا من الزوج والزوجة لهذا العقاب، إذا تحقق موجبه، ولم تخضع الزوجة فقط له، غير أن الشريعة فرقت بينهما في طريقة التنفيذ ففي الوقت الذي مكنت الزوج من تطبيق هذا العقاب على الزوجة بشروطه وقيوده، إنما مكنت القاضي دون غيره من تطبيق هذا العقاب وأشدَّ منه على الزوج بشروطه وقيوده أيضًا للسبب الذي أوضحناه.

فبين الرجل والمرأة مساواة دقيقة في التعرض لهذا العقاب عند حصول موجباته، ولكنَّ الاختلافَ إنما هو في السبيل التي ينبغي أن تتخذ إلى هذه المساواة بينهما.

* * *

(١) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني صـ١١٦: ١١٥.

١٠ـ شبهة: كيد المرأة.

نص الشبهة:

يدعي البعض بأن الإسلام يصف كيد الشيطان بأنه ضعيف، ويصف كيد المرأة بأنه عظيم، الذين نظروا للمرأة على أنها أسوأ من الشيطان نفسه وأكثر شرًّا ودعوة إلى الفساد والإفساد، واستدلوا على ذلك بأن الله قال عن كيد الشيطان إنه ضعيف، وعن كيد المرأة إنه عظيم.

والجواب على ذلك من هذا الوجه

الوجه الأول: الفهم الصحيح لآيات الكيد.

الواقع أن السياقين مختلفان: فالآية الأولى هي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٦).

أما علة هذا الضعف فترجع إلى أن الله تعالى يكيد لأوليائه؛ أي: يدبر لهم أمورهم ويهيئ لهم خيرها، ويكيد أعداءه- وأولهم الشيطان- فيبطل كيدهم ومكرهم وعملهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الطارق: ١٥، ١٦). وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ ﴾ (يوسف: ٧٦). فإذا قورن كيد الله بكيد الشيطان المخذول الذي ليس له سلطان على الذين آمنوا - ثبت ضعف كيده وهوانه.

أما الآية الثانية: فسياقها وموضوعها مختلف، إذ إنها تصور موقف هروب يوسف ﵇ من فتنة امرأة العزيز، وهي تطلبه؛ ليرجع ويفعل ما تأمره به، فإذا بهما أمام زوجها لدى الباب، فلم ترتبك ولم تتلجلج في هذا الموقف العصيب، بل على الفور قلبت الحقيقة وارتدت ثوب المرأة الفاضلة حين تشكو من يحاول إغراءها، فالكيد العظيم هنا هو سرعة الانتقال النفسي - في لحظة واحدة- من موقف من تطارد الرجل لموقف العفيفة المتأبية على الفتنة، وانتقال مشاعر بعض النساء من النقيض إلى النقيض في لمحة واحدة كان مما يستوقف الرجال ويثير عجبهم، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن

كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ (يوسف: ٢٨، ٢٩). فالموقف مختلف، وسياق الكلام فيه مختلف، ونوع الكيد مختلف، فلا يصح مقارنة الكيد هنا بالكيد هناك؛ لأنه إنما يعني هنا براعة انتقال المرأة وسرعتها بين المشاعر المختلفة، مما قد لا يستطيعه الرجل، ومن هنا جاءت عظمة الكيد، أما هناك فهو في مقابل كيد الله – تعالى- لأولياوئه، ولا شيء من فعل المخلوقات إلا وهو ضعيف حقير في جنب الله – تعالى- لأنَّ كيده تعالى متين كما قال: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ٤٥﴾ (الأعراف: ١٨٣).

يقول العقاد: جاء وصف النساء بالكيد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، مرتين على لسان يوسف ﷺ، ومرة على لسان العزيز، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ (يوسف: ٣٣)، ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ (يوسف: ٥٠)، ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ (يوسف: ٢٨).

والكيد صفة مذكورة في مواضع كثيرة من القرآن، بعضها منسوب إلـى الإنسان، وبعضها منسوب إلـى الشيطان، ومن الرجال الذين نسبت إليهم صالحون مؤمنون، ومنهم كفرة مفسدون، بل وردت وصفًا لله مع المقابلة بين الكيد الإلهي وكيد المخلوقات، وبغير مقابلة في آيات.

ويدخل في الكيد صفات كثيرة تمدح وتذم، وتطلب وتمنع، تشترك كلها في معاني التدبير والمعالجة والحيلة، وقد يجمع الحميد والذميم منها قولهم: "الحرب مكيدة" لأنها تدبير ومعالجة وحيلة تتطلبها مواقف القتال، وقد تذم أحيانًا في هـذِه المواقف، كما تذم في سواها.

وقد جاء وصف الكيد في سورة يوسف نفسها منسوبًا إلـى أخوة يوسف، إذ جاء فيها علـى لسان يعقوب ﷺ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ (يوسف: ٥).

وجاء منسوبًا إلـى الله ﷻ بمعنـى التدبير: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ (يوسف: ٧٦).

أما الكيد الذي وصفت به امرأة العزيز وصاحباتها، فهو كيد يعهد في المرأة ولا ينسب إلـى غيرها، أو هو كيدهن الذي يتسمن به ويصدر عن خلائقهن وطبائعهن، كما يفهم من الإضافة المتكررة في الآيات الثلاث، ويدل عليه عمل امرأة العزيز فيما غشَّت به زوجها، واحتالت له من مراودة غلامها عن نفسه، ثم من اتهامه بمراودتها وتنصلها من فعلها، وكلها أعمال تتلخص في"الرياء" أو في إظهار غير ما تبطنه، واحتيالها للدس والإخفاء.[1]

والرياء صفة عامة تشاهد في كثير من المستضعفين من الرجال والنساء، وأسبابه الاجتماعية تحدث لكل ضعيف يقهره غيره، فلا يخص المرأة دون الرجل، ولا ينحصر بين فئة من الناس دون فئة، وقد يحدث للحيوان الضعيف ويلجئه إلـى المراوغة والملق، وهو لا يتكلف لذلك كما يتكلف الإنسان الذي يفكر فيما يعمل وفيما يقصد إليه.

وينسب رياء المرأة إلـى الضرورات التي فرضها عليها في حياتها الاجتماعية أو حياتها البيتية، وقد يظهر فيها علـى نحو يناسبها حتـى يتلبَّس بالبواعث الأنثوية المقصورة عليها، فلا تختص به في أصوله، إذ كانت أصوله من الضعف الذي يشاركها فيه جميع الضعفاء، وإنَّما تختص به؛ لأن بواعثها الأنثوية مقصورة علـى جنسها.

---

(١) المرأة في القرآن صـ ١٣-١٦.

إلا أن "الرياء" الأنثوي الذي يصح أن يقال فيه: إنه رياء المرأة خاصة إنما يرجع إلـى طبيعة في الأنوثة تلزمها في كل مجتمع، ولا تفرضه عليها الآداب والشرائع، ولا يفارقها باختيارها أو بغير اختيارها، بل لعلها هي تأبـى أن يفارقها لو وكل إليها الاختيار فيه.

فمن أصول هـذا الرياء في تكوين الأنثـى أنها مجبولة علـى التناقض بين شعورها بغريزة حب البقاء، وشعورها بغريزتها النوعية، فهي تتعرض للخطر علـى الحياة وتفوح بوفاء أنوثتها في وقت واحد، وهي إذ تضع حملها تتألم أشد الألم، وتعاني جزع الخشية علـى حياتها حين تخامرها وتسري في كيانها غبطة الأم التي أتمت وجودها، وتوجت حياتها الجنسية بأعز ما تصبو إليه وتتمناه، ويستوي كيانها كله علـى أن تفرح وهي تتألم، وتتألم وهي تفرح، فلا يستقيم شعورها خالصًا من النقيضين في أعمق وظائفها التي خلقت لها، ومثل هـذا التناقض يلازم عواطفها جميعًا فيما هو دون ذلك من نزعتها وأهوائها.

ومن أصول هـذا الرياء في تكوينها، أنها مجبولة كذلك علـى التناقض بين شعورها بالشخصية الفردية، وشعورها بالحب والعلاقة الزوجية، فهي كجميع المخلوقات الحية ذات وجود شخصي مستقل تحرص عليه، وتأبـى أن تلغيه أو تتخلـى عن ملامحه ومعالم كيانه وهي في حوزتها الشخصية مدفوعة إلـى صدِّ كل الفتيات ينذرها بالفناء في شخصية أخرى، ولكنها في أشد حالات الوحدة لا تتوق إلـى شيء، كما تتوق إلـى الظفر بالرجل الذي يغلبها بقوَّته، ويستحق منها أن تأوي إليه، وتلحق وجودها بوجوده، وأسعد ما تكون في حبها أو في علاقتها الزوجية؛ إذ يملكها الرجل الذي يفوقها بالقدرة المطاعة، والعزيمة النافذة، ونتيجة المقاومة عندها أن تجمع بين الانتصار والخذلان في لحظة واحدة، فهي منتصرة حين تظفر بالرجل الذي يغلبها ويستولي عليها.

وشبيه بهـذا التناقض مع اختلاف أسبابه، أن الرغبة الجنسية عندها تنفصل عن الغريزة النوعية في معظم أيامها، فليست الرغبة الجنسية - بحكم الطبيعة- عبثًا في وقت من الأوقات عند الرجل، ولكنها عبث عند المرأة في أوقات حملها، وفي غير أوقات الحمل

من أيام دوراتها الشهرية، وقد عوفيت أنثى الحيوان من هـذا العبث؛ لأنها إذا حملت صدت عن الذكر وصد الذكر عنها، ولـكن المرأة التي تحس أنها عابثة في أحق الوظائف النوعية بالجد والمبالاة، يختلط عندها العبث بالجد، والسرور العقيم بالوظيفة الطبيعية، وقد تقضي بعد سن اليأس زمنًا يحكمها فيه هـذا العبث الذي لا نظير له في حياة الرجولة.

وحب الزينة أصل من أصول الرياء يشاركها فيه الرجل في ظاهر الأمر، ولكنه يخصها في جانب غير مشترك بينها وبين زينة الرجولة، فإن الرجل يتزين ليعزز إرادته، وإنما تتزين المرأة لتعزز إرادة غيرها في طلبها، وزينة المرأة كافية إذا راقت بمنظرها الظاهر في عين الرجل، ولـكن زينة الرجل تجاوز ظاهره إلـى الدلالة علـى قوته ومكانته وكفايته لمؤنة أهله، وليست الزينة التي تراد للإغراء بالقبول كالزينة التي تراد للإغراء بالطلب، فإن الفرق بينهما هو الفرق بين الإرادة والانقياد، وبين من يريد ومن ينتظر أن يُراد.

وجملة القول أن الرياء علـى عمومه هو إظهار غير ما في الباطن، وهو حالة تعرض للرجال والنساء في الحياة الجنسية وغير الحياة الجنسية، ولـكن الأنوثة تختص بلون منه؛ لأنها إذا لجأت إليه فإنما تلجأ إليه اضطرارًا؛ لأن من خلقها ألا تظهر كل ما في نفسها، وإن كان من الأمور الطبيعية التي لا إثم فيها، ولا مخالفة بها لوظيفتها.

* * *

١١ـ شبهة: صوت المرأة.

نص الشبهة:

يقولون: إن الإسلام جعل صوت المرأة عورة لا يجوز أن يسمعه الرجال بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ. . . . .﴾ (الأحزاب: ٣٢)

والجواب على هذا من وجوه:

الوجه الأول: الأدلة على أن صوت المرأة ليس بعورة.

الوجه الثاني: ضوابط صوت المرأة.

الوجه الثالث: ماذا عن صوت المرأة كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الأدلة على أن صوت المرأة ليس بعورة.

إن صوت المرأة ليس بعورة، وذلك لأن النساء كن يكلمن الرجال في زمن النبي ﷺ، وفي زمن أصحابه ﷺ بالسلام، والسؤال، والاستفهام، والاستفتاء في أمور الدين، والمشاورة، وغير ذلك كما هو معروف من سيرهن وسيرهم، ولو كان صوت المرأة عورة لا يحل لرجل أجنبي سماعه منها، لما استحل هؤلاء الصحابة لأنفسهم سماعه من نساء أجنبيات عنهم، فهم أورع من أن يفعلوا ما حرمه الشارع عليهم أو لأنكر عليهم رسول الله ﷺ، أو أنكر بعضهم على بعض، ولكن لم يرد عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه نكير على ذلك، فدل هذا على أن صوت المرأة ليس بعورة، وأنه يحل لأجنبي عنها سماعه منها.

وأيضًا: لو كان صوت المرأة عورة لأمرت بستره وحجبه عن الرجال الأجانب عنها، كما أمرت بستر العورة من بدنها عنهم، فلما لم تؤمر بستر صوتها، وعدم التحدث مع الرجال الأجانب عنها، دل هذا على أنه ليس بعورة منها.

قال د/يوسف القرضاوي: القرآن أجاز سؤال أزواج النبي ﷺ من وراء حجاب، رغم التغليظ في أمرهن، حتى حرم عليهن ما لم يحرم على غيرهن؟ ومع هذا قال الله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ (الأحزاب: ٥٣) والسؤال يقتضي جوابًا، وهو

ما كانت تفعله أمهات المؤمنين، حيث كن يفتين من استفتاهن، ويروين الأحاديث لمن يريد أن يتحملها عنهن، وقد كانت المرأة تسأل النبي ﷺ في حضرة الرجال، ولم تجد في ذلك حرجًا، ولا منعها النبي ﷺ.

وقد رأينا الفتاة ابنة الشيخ الكبير المذكور في سورة القصص تقول لموسى: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (القصص: ٢٥).

كما تحدثت إليه هي وأختها من قبل حين سألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص: ٢٣).

كما حكى لنا القرآن ما جرى من حديث بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ، ومثل ذلك بينها وبين قومها من الرجال.

وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ما ينسخه من شرعنا، كما هو المذهب المختار.

كل ما يمنع هنا هو التكسر والتميع في الكلام، الذي يراد به إثارة الرجل وإغراؤه، وهو ما عبر عنه القرآن باسم الخضوع بالقول، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب: ٣٢).

فالمنهي عنه هنا هو هذا الخضوع الذي يطمع الذين أمرضت قلوبهم الشهوات، وهذا ليس منعًا للكلام كله مع الرجال كلهم، بدليل قوله تعالى تتمة للآية: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب:٣٢). (١)

الوجه الثاني: ضوابط صوت المرأة. (٢)

وأما سماع الرجال صوت النساء غير المرقق أو المقطع فيباح عند أمن الفتنة، إذا كان ثمة ضرورة أو حاجة تقتضيه، ولا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف، فقد كان أصحاب رسول الله

---

(١) فتاوى معاصرة ٢/ ٢٥٥.

(٢) أحكام العورة في الفقه الإسلامي ٢/ ٥٥٨.

ﷺ يذهبون إلى بيوت أزواجه يسألونهن عن عبادته وما يعن لن من أسئلة حتى بعد نزول آيات الحجاب، ولم ينكر رسول الله ﷺ على هؤلاء السائلين أن سمعوا أصوات زوجاته، ولو كان صوتهن عورة لأنكر عليهن، أو لنزل الوحي بأمرهن بمنع التحدث مع الرجال الأجانب عنهن، كما نزل بأمرهن بالاحتجاب، بل إن آيات الحجاب قد أبيح فيها للرجال الأجانب عنهن أن يسألوهن الفتوى في بعض المسائل، وهذا يقتضي أن يسمع السائلون أصوات أمهات المؤمنين بالجواب عن ذلك، كما أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد رووا الأحاديث عن النساء، وقامت امرأة من بين صفوف النساء تسأل رسول الله ﷺ عن السبب في أن أكثر النساء حطب جهنم، وقامت أخرى من بين النساء في آخر المسجد تجادل عمر وتحاوره في دعوته إلى عدم المغالاة في المهور[1]، ولم ينكر رسول الله ﷺ على الأولى أن تحدثت في حضرة الرجال الأجانب عنها، فقد سمعها جابر بن عبد الله -راوي الحديث- وهو في صفوف الرجال في مقدمة المسجد، وسمعها بلال الذي كان مع رسول الله ﷺ حينئذ، وكذلك لم ينكر عمر رضى الله عنه على المرأة الثانية الكلام بحضرة الرجال الأجانب عنها، فلو كان صوت المرأة عورة لأنكر على هاتين المرأتين، فدل هذا على أن صوتها ليس بعورة وأنه يجوز للرجال الأجانب عنها سماعه منها عند الحاجة إلى ذلك، كسماعه منها عند التعليم، أو المعاملة، أو تشخيص المرض، أو الشهادة، أو الفتوى، أو ما شابه ذلك إذا أمنت الفتنة. اهـ.

قال د/البلتاجي: إذا كنا نتكلم في إطار الإسلام الذي أتى به النبي محمد ﷺ فاذكروا لنا نص القرآن الكريم، أو السنة الصحيحة التي قالت إن صوت المرأة عورة يجب سترها عن عالم الرجال، فهل عندكم مثل هذا النص؟.

إن الذي ورد في القرآن الكريم متصلًا بذلك هو قوله تعالى لنساء النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ (الأحزاب: ٣٢). أي- كما

(١) ورد هذا الأثر من طرق كلها لا تخلو من مقال.

يقول ابن كثير وغيره- أن تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، ولا ترقيق للصوت، كالكلام الذي تخاطب به المرأة زوجها، فالممنوع إذن هو تضمين الصوت ما يطمع الرجل في المرأة، أما القول الجاد الذي لا خضوع فيه ولا إثارة، وهو صوت المرأة الإنسان وليس صوت المرأة الأنثى، فلا شيء فيه مطلقًا، وقد سجلت لنا كتب السيرة، والسنة، وتراجم الصحابة والصحابيات آلاف الحوارات الشريفة بين الرجال والنساء في كل مجال، ولم يقل أحد عندئذ: إن مجرد صوت المرأة يعتبر عورة، فمن أين أتى هذا؟ (١).

الوجه الثالث: ماذا عن صوت المرأة كما في الكتاب المقدس.

صمت المرأة!!

قال بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس (١٤: ٣٤): " لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، فَلَيْسَ مَسْمُوحًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَكُنَّ خَاضِعَاتٍ، عَلَى حَدِّ ما تُوصِي بِهِ الشَّرِيعَةُ أَيْضًا. وَلكِنْ، إِذَا رَغِبْنَ فِي تَعَلُّمِ شَيْءٍ مَا، فَلْيَسْأَلْنَ أَزْوَاجَهُنَّ فِي الْبَيْتِ، لأَنَّهُ عَارٌ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي الْجَمَاعَةِ ".

فالرجل هو وحده المُعلِّم، وهو الذي يفهم، وهو الذي عليه أن يتكلم، أما الخادمة زوجته فتفعل فقط ما يمليها عليها زوجها، وتَعلم فقط ما علمه وفهمه زوجها. . . ونحن نسأل هل التزمت الكنيسة بهذه التعاليم؟

إننا نجد المرأة تتكلم بل تغني وبصوت مرتفع في الكنائس، فلماذا تخالف الكنيسة تعاليم بولس وتسمح للمرأة أن تتكلم وتغني في الكنيسة؟ (٢)

* * *

---

(١) مكانة المرأة في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة (٤١٣).

(٢) نقلًا من مكانة المرأة فى الإسلام ليوسف عبد الرحمن (من موقع شبكة ابن مريم الإسلامية).

١٢ـ شبهة: البـغاء.

نص الشبهة:

ادعى المدعي في هذه الشبهة أن البغاء أحله الله تعالى في كتابه واستدل على ذلك بآيات من القرآن وببعض الوقائع التي حدثت؛ فهل هذا صواب؟

والجواب على ذلك من وجوه

الوجه الأول: ما هو البغاء؟.

الوجه الثاني: إثبات حكم البغاء في الشريعة الإسلامية والإجابة عن الآيات التي استدلوا بها.

الوجه الثالث: الإجابة عن الوقائع التي زعموا أنها حجة على الإسلام مع ذكر حال المجتمع الغربي مع البغاء.

الوجه الرابع: البغاء في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ما هو البغاء؟

البغاء: الزنا، مصدر: بغت المرأة تبغي بغاء، أي: زنت، وهو مختص بزنا النساء[١]، وقال النسفي: ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة والبغاء الزنا للنساء خاصة وهو مصدر لبغت[٢]، وقال الماوردي: البغاء (الزنى). [٣]

الوجه الثاني: إثبات حكم البغاء في الشريعة الإسلامية والإجابة عن الآيات التي استدلوا بها.

حكم البغاء:

يدعي هذا المدعي أن الله أحل البغاء في كتابه وأحله النبي ﷺ في أحاديثه ونحن نقول: إن حرمة البغاء ثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع. وهذه هي الأدلة على ذلك:

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)﴾ (النور: ٣٣).

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ١٢/ ٩٩.

(٢) تفسير النسفي٣/ ١٤٤.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٠١.

يقول تعالى ذكره: زوجوا الصالحين من عبادكم وإمائكم ولا تكرهوا إماءكم على البغاء وهو الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ يقول: إن أردن تعففًا عن الزنا.

﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول: لتلتمسوا بإكراهكم إياهن علي الزنا عرض الحياة الدنيا. وذلك ما تعرض لهم إليه الحاجة من رياشها وزينتها وأموالها، (ومن يكرهن) يقول: ومن يكره فتياته على البغاء، فإن الله من بعد إكراهه إياهن على ذلك، لهن ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ووزر ما كان من ذلك عليهن دونهن[(١)].

وعن جابر، أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة فكان يكرههما على الزنى فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [(٢)]

فهذا أول دليل على تحريم البغاء في الشريعة الإسلامية، ولكن العجيب أنه استدل بها على العكس، فماذا قال فيها علماء الإسلام وما هي شبهته في هذه الآية؟

وقال البغوي: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ إماءكم، ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي: الزنا. [(٣)]

وقال البقاعي: ولما أمر الله سبحانه بالجود في أمر الرقيق تارة بالنفس، وتارة بالمال، نهاهم عما ينافيه، فقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي: إماءكم، ولعله عبر بلفظ الفتوة هزًا لهم إلى معالي الأخلاق، وتخجيلًا من طلب الفتوة من أمة ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي الزنى لتأخذوا منهن مما يأخذنه من ذلك، ولما كان الإكراه على الزنى لا يصح إلا عند العفة وكان ذلك نادرًا من أمة ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي: الزنى لتأخذوا منهن مما يأخذنه من ذلك، ولما كان الإكراه على هذا الفعل حيث كانت النساء مطلقًا يتعففن عنه مع أنهن مجبولات على حبه، فكيف

(١) تفسير الطبري ١٩/ ١٧٤.

(٢) مسلم (٣٠٢٩).

(٣) تفسير البغوي٣/ ٣٤٤.

إذا لم يمنعهن مانع خوف أو حياء كالإماء؟ فكيف إذا أذن لهن فيه؟ ، فكيف إذا ألجئن إليه؟ وأشار بصيغة التفعل وذكر الإرادة إلى أن ذلك لا يكون إلا عن عفة بالغة، وزاد في تصوير التقبيح بذكر علة التزام هذا العار في قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾ أي تطلبوا طلبًا حثيثًا فيه رغبة قوية بإكراههن على الفعل الفاحش ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فإن العرض متحقق فيه الزوال والدنيا مشتقة من الدناءة.

ولما نهي سبحانه عن الإكراه رغب الموالي في التوبة عند المخالفة فيه، فقال ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ﴾ دون أن يقول: وإن أكرهن، وعبر بالمضارع إعلامًا بأن يقبل التوبة ممن خالف بعد نزول الآية، وعبر بالاسم العلم في قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ إعلامًا بأن الجلال غير مؤيس من الرحمة، ولعله عبر بلفظ ﴿بَعۡدِ﴾ إشارة إلي العفو عن الميل إلى ذلك الفعل عند مواقعته إن رجعت إلى الكراهة بعده، فإن النفس لا تملك بغضه حينئذ، فقال ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ﴾ أي: لهن وللموالي يستر ذلك الذنب إن تابوا ﴿رَّحِيمٞ﴾ بالتوفيق إلى ما يرضيه.[1]

وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهي الله المؤمنين عن ذلك وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي بن سلول، فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلبًا لخراجهن ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم[2].

إنه سبحانه لما أرشد الموالي إلى نكاح الصالحين من المماليك نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا، فقال: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾، والمراد

(١) نظم الدرر ٥/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) تفسير ابن كثير٣/ ٢٨٢.

بالفتيات هنا الإماء وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار في موضع آخر، والبغاء: الزنا مصدر بغت المرأة تبغي بغاء إذا زنت وهذا مختص بزنا النساء، فلا يقال للرجل إذا زنا إنه بغي[١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ إلى آخرة جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهي وتأكيد وجوب العمل ببيان خلاص المكرهات من عقوبة المكره عليه عبارة، ورجوع غائلة الإكراه إلى المكرهين إشارة أي ومن يكرههن على ما ذكر من البغاء فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهن كما في قراءة ابن مسعود وقد أخرجها عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عنه لكن بتقديم لهن على غفور رحيم ورويت كذلك أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنه وينبئ عنه على ما قيل قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ أي كونهن مكرهات على أن الإكراه مصدر المبني للمفعول، فإن توسيطه بين اسم إن وخبرها للإيذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة[٢].

قلت: فهذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية، وهي واضحة في أنهم استدلوا بها على تحريم البغاء، فما هي شبهة المتكلم على هذه الآية حيث استدل بها على العكس؟

أجاب العلماء على ذلك من وجوه:

أحدها: أن الكلام ورد على سبب، وهو الذي ذكرناه، فخرج النهي عن صفة السبب وإن لم يكن شرطًا فيه[٣].

وقال الماوردي: أنه وارد على سبب فخرج النهي على صفة السبب وإن لم يكن شرطًا فيه، وهذا ما روى جابر بن عبد الله أن عبد الله بن أبي بن سلول كانت له أمة يقال لها مسيكة، وكان يكرهها على الزنى، فزنت ببُرْدٍ فأعطته إياه، فقال: ارجعي فازني على آخر،

---

(١) فتح القدير سورة النور: ٣٣.

(٢) روح المعاني ١٨/ ١٥٨.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٣٨.

فقالت: لا والله ما أنا براجعة، وجاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن سيدي يكرهني على البغاء، فأنزل الله هذه الآية وكان مستفيضًامن أفعال الجاهلين طلبًا للولد والكسب(١).

والثاني: إنه إنما شرط إرادة التحصن، لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن، فأما إذا لم ترد المرأة التحصن، فإنها تبغي بالطبع(٢).

وقال الخازن: إنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن، فأما إذا لم ترد المرأة التحصن فإنها تبغي بالطبع طوعها(٣).

وقال الجصاص: وإنما (إن أردن تحصنًا) لأنها لو أرادت الزنا ولم ترد التحصن ثم فعلته على ما ظهر من الإكراه وهي مريدة له، كانت آثمة بهذه الإرادة، وكان الإكراه زائلًا عنها في الباطن وإن كان ثابتًا في الظاهر(٤).

والثالث: أن (إن) بمعنى (إذا) ومثله قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (البقرة: من الآية٢٧٨)، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحۡزَنُوا وَأَنتُمُ الۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ (آل عمران: ١٣٩). (٥)

والرابع: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ﴿وَأَنكِحُوا الۡأَيَٰمَىٰ﴾ إلى قوله ﴿وَإِمَآئِكُمۡ﴾ ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴿لِّتَبۡتَغُوا عَرَضَ الۡحَيَوٰةِ

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٣/ ١٧٢.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٣٩.

(٣) تفسير الخازن ٥/ ٤، وانظر: تفسير البغوي، والنسفي حيث قالا: وإنما قيده بهذا الشرط لأن الإكراه لا يكون إلا بالتحصن فأمر المطيعة للبغاء لايسمى مكرهًا ولا أمره إكراهًا، ولأنها نزلت على سبب فوقع النهي علي تلك اللفظة، وفيه توبيخ للموالي أي إذ رغبن في التحصن فأنتم أحق بذلك. وانظر تفسير الزمخشري، ومما قال: كلمة (إن) وإيثارها علي إذ إيذان بأن المساعيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن، وأن ماوجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر، تفسير البغوي٦/ ٤٤.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٥/ ١٨٧.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٣٩.

﴿ٱلدُّنْيَا﴾ وهو كسبهن وبيع أولادهن ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمكرهات ﴿رَّحِيمٌ﴾ وقرأ ابن عباس، وأبو عمران الجوني، وجعفر بن محمد ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وعلى هذا يكون: وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَي مِنْكُمْ إن أردن تحصنًا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء.[2]

الخامس: قال البيضاوي: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففًا شرط للإكراه، فإنه لا يوجد دونه، وإن جعل شرطًا للنهي لم يلزم من عدمه جواز الاكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي بامتناع المنهي عنه، وإيثار إن على إذا، لأن إرادة التحصن من الإماء بالشاذ النادرة هي غالب أحوال الإماء البغايا المؤمنات إذ كن يحببن التعفف أو لأن القصة التي كانت سبب نزول الآية كانت معها إرادة التحصن، والداعي إلى ذكر القيد تشنيع حالة البغاء في الإسلام بأنه عن إكراه وعن منع من التحصن ففي ذكر القيدين إيماء إلى حكمة تحريمه وفساده وخباثة الاكتساب به[3].

السادس: قال الآلوسي:

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا و أخراج ما عداها عن حكمه، كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهن الزنا لخصوص الزاني أو لخصوص الزمان أو لخصوص المكان، أو لغير ذلك الأمور المصححة للإكراه في الجملة، بل هو للمحافظة على عادة من نزلت فيهم الآية حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور وقصورهن في معرفة الأمور الداعية إلى محاسن الزاجرة عن تعاطي القبائح، وفيه من الزيادة لتقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبائح مالا يخفى، فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه بينه من إمائه، فضلًا عن أمرهن به أو إكراههن عليه لاسيما عند إرادة التعفف

---

(١) زاد المسير آية٣٣من سورة النور ٦/ ٣٦.

(٢) البغوي ٥/ ١٥٥.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٢٩٠٥.

وتوفر الرغبة فيها، كما يشعر به التعبير بأردن بلفظ الماضي وإيثار كلمة إن علي إذا لأن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ والنادر، أو للإيذان بوجوب الانتهاء عن الاكراه عند كون إرادة التحصن في حيز التردد والشك، فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع؟ (١).

وقال أبو السعود: للمحافظة على عادتهم المستمرة حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور وقصورهن في معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطي القبائح، فإن عبد الله بن أبي كانت له ست جوار يكرهن على الزنا، وضرب عليهن ضرائب، فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح ما لا يخفى، فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه فضلًا عن أمرهن به أو إكراههن عليه لا سيما إرادتهن التعفف فتأمل!. (٢)

السابع: **وقال الآلوسي**: ويعلم من توجيه هذا الشرط ما أشرنا إليه بيان حسن موقع الفتيات هنا باعتبار مفهومها الأصلي أنه لا مفهوم لها ولو فرضت صفة لأن شرط اعتبار المفهوم عند القائلين به أن لا يكون المذكور خرج مخرج الغالب، وقد تمسك جمع بالآية لإبطال القول بالمفهوم فقالوا: إنه لو اعتبر يلزم جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن والإكراه على الزنا غير جائز بحال من الأحوال إجماعًا ومما ذكرنا يعلم الجواب عنه، وفي شرح المختصر الحاجي للعلامة العضد الجواب عن ذلك أولًا أنه مما خرج مخرج الأغلب إذ الغالب أن الإكراه عند إرادة التحصن ولا مفهوم في مثله وثانيًا أن المفهوم اقتضى ذلك وقد انتفى لمعارض أقوى منه وهو الإجماع، وقد يجاب عنه بأنه يدل على عدم الحرمة عند عدم الإرادة وأنه ثابت إذ لا يمكن الإكراه حينئذ لأنهن إذ لم يردن التحصن لم يكرهن البغاء والإكراه إنما هو إلزام فعل مكروه، وإذا لم يمكن لم يتعلق به التحريم لأن شرط

---

(١) روح المعاني١٨/ ١٥٧، وانظر تفسير البغوي (النور: ٣٣).

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٧٣.

التكليف الإمكان ولا يلزم من عدم التحريم الإباحة انتهى، ولعل ما ذكرناه أولًا هو الأولى وجعل غير واحد زيادة التقبيح والتشنيع جوابا بتغيير يسير ولا بأس به. [١]

الثامن: وقال ابن عثيمين: إنما هذا القيد للتعليل أي للعلة هذه وليست للاحتراز.

العاشر: وقال السيوطي في الإتقان فائدة، قال بعضهم: وقع في القرآن إن بصيغة الشرط وهو غير مراد في ستة مواضع ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (النور: ٣٣). [٢]

ثم تعلق بكلمة أخرى من الآية وهي قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حيث فهم أنه إذا لم يبتغ عرض الحياة الدنيا جاز له إكراهها، وجواب ذلك أنه:

لا حجة لهم في قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فإنه كما في إرشاد العقل السليم قيد للإكراه لا باعتبار أنه مدار للنهي عنه، بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم أيضًا جيء به تشنيعًا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لأجل الوزر الحقير، أي: لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال، فالمراد بالابتغاء الطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل إذ هو الصالح لكونه غاية للإكراه مترتبًا عليه، لا المطلق المتناول للطلب السابق الباعث عليه ولا اختصاص لعرض الحياة الدنيا بكسبهن أعني أجورهن التي يأخذها على الزنا بهن وإن كان ظاهر كثير من الأخبار يقتضي ذلك، بل ما يعمه، وأولادهن من الزنا، وبذلك فسره سعيد بن جبير كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم وفي بعض الأخبار ما يشعر بأنهم كانوا يكرهونهن على ذلك للأولاد.

أخرج الطبراني والبزار وابن مردوية بسند صحيح عن ابن عباس أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية فولدت له أولادًا من الزنا فلما حرم الله تعالى الزنا، قال لها: ما لك لا تزنين قالت والله لا أزني أبدًا فضربها فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟﴾ الآية، ولا يقتضي هذا

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٨/ ١٥٨.

(٢) الإتقان١/ ١٧٨.

وأمثاله تخصيص العرض بالأولاد كما لا يخفى، وسمعت أن بعض قبائل أعراب العراق كآل عزة يأمرون جواريهم بالزنا للأولاد كفعل الجاهلية، ولا يستغرب ذلك من الأعراب لا سيما في مثل هذه الأعصار التي عرا فيها كثير من رياض الأحكام الشرعية في كثير من المواضع أعصار، فإنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

وقال الشوكاني: وهذا التعليل أيضًا خارج مخرج الغالب، والمعنى: أن هذا العرض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب، لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصلًا لا يصدر مثله عن العقلاء، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها إذا لم يكن مبتغيًا بإكراهها عرض الحياة الدنيا، وقيل إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عادتهم كانت لا أنه مدار للنهي عن الإكراه لهن وهذا يلاقي المعنى الأول ولا يخالفه ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هذا مقرر لما قبله ومؤكد له والمعنى أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات[2]، فظهر بما سبق أن الآية لا تدل على الإباحة وإنما تدل على الحرمة صراحة لا ضمنا وعلى هذا أجمع علماء التفسير، وهذا هو الدليل الأول على تحريم البغاء في الإسلام.

الدليل الثاني: الآيات التي دلت على تحريم الزنا ومنها.

١- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء: ٣٢):

يقول تعالى ذكره: وقضى أيضًا أن ﴿تَقْرَبُوا۟﴾ أيها الناس ﴿ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ يقول: إن الزنا كان فاحشة ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، يقول: وساء طريق الزنا طريقًا، لأنه طريق أهل معصية الله والمخالفين أمره فأسوئ به طريقًا يورد صاحبه نار جهنم[3].

٢- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ

(١) روح المعاني، وإرشاد العقل السليم ١٨/ ١٥٨.

(٢) فتح القدير ٤/ ٤٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٥٥.

وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ (الأحزاب: ٣٠):

يقول تعالى جل ذكره لأزواج النبي ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾، يقول: من يزن منكن الزنى المعروف الذي أوجب الله عليه الحد يضاعف لها العذاب على فجورها في الآخرة ضعفين على فجور أزواج الناس غيرهم.

٣- قوله في وصف عباد الرحمن: يقول تعالى ذكره: وما عند الله للذين آمنوا ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الشورى: ٣٧).

٤- ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ (لنجم: ٣٢)، وقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ يقول: الذين يبتعدون عن كبائر الإثم التي نهى الله عنها وحرمها عليهم فلا يقربونها، وذلك الشرك بالله، وقد بيناه في قوله ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ (النساء: ٣١)، وقوله: ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهي الزنا وما أشبه مما أوجب الله فيه حدًا.

٥- ما جاء في البيعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (الممتحنة: ١٢)، وقوله تعالى ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾، وفي حديث سمرة: ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت "جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله ﷺ، فأخذ عليها ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا

يَزۡنِينَ﴾ الآية، قال: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة

فوالله ما بايعنا إلا على هذا قالت: فنعم إذا فبايعها بالآية[1].

٦- ﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ (النساء٢٥: ٢٤).

فهذه الآية واضحة في الدلالة على حرمة السفاح والبغاء والزنى، لكن قال من لا يفهم معناها إن الأجر المذكور في الآية هو أجر الزنى لأن المهر في الإسلام يكون مقدمًا وهذا مؤخر فهل هذا الاستدلال صحيح؟

والجواب:

أنه لا يعرف الصحة ولا تعرفه كذلك، وهذا بيان معنى الآية:

قال أبو جعفر: فأما المحصنات، فإنهن جمع محصنة وهي التي قد منع فرجها بزوج يقال منه "أحصن الرجل امرأته فهو يحصنها إحصانًا" وحصنت هي فهي تحصن حصانة، إذا عفت وهي حاصن من النساء عفيفة كما قال العجاج:

وحاصن من حاصنات ملس   عن الأذى وعن قراف الوقس

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ١٠٠.

ويقال أيضًا، إذا هي عفت وحفظت فرجها من الفجور: " قد أحصنت فرجها فهي محصنة"، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (التحريم: من الآية١٢)، بمعنى: حفظته من الريبة ومنعته من الفجور، وإنما قيل لحصون المدائن والقرى "حصون" لمنعها من أرادها وأهلها، وحفظها ما وراءها ممن بغاها من أعدائها، ولذلك قيل للدرع: درع حصينة.

فإذا كان أصل الإحصان ما ذكرنا من المنع والحفظ، فبين أن معنى قوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ والممنوعات من النساء حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم، وإذا كان ذلك معناه وكان الإحصان قد يكون بالحرية كما قال جل ثناؤه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (المائدة: من الآية٥)، ويكون بالإسلام كما قال تعالى ذكره ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (النساء: من الآية٢٥)، ويكون بالعفة، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ (النور: من الآية٤)، ويكون بالزوج، ولم يكن تبارك وتعالى خص محصنة دون محصنة في قوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ فواجب أن تكون كل محصنة بأي معاني الإحصان كان إحصانها حراما علينا سفاحًا أو نكاحًا إلا ما ملكته أيماننا منهن بشراء كما أباحه لنا كتاب الله جل ثناؤه، أو نكاح على ما أطلقه لنا تنزيل الله، فالذي أباحه الله تبارك وتعالى لنا نكاحًا من الحرائر: الأربع، سوى اللواتي حرمن علينا بالنسب والصهر، ومن الإماء: ما سبينا من العدو سوى اللواتي سبيناهن من أهل الكتابين ولهن أزواج، فإن السباء يحلهن لمن سباهن بعد الاستبراء، وبعد إخراج حق الله تبارك وتعالى الذي جعله لأهل الخمس منهن، فأما السفاح، فإن الله تبارك وتعالى حرمه من جميعهن، فلم يحله من حرة، ولا أمة، ولا مسلمة، ولا كافرة مشركة، وأما الأمة التي لها زوج فإنها لا تحل لمالكها إلا بعد طلاق زوجها إياها، أو وفاته وانقضاء عدتها منه فأما بيع سيدها إياها فغير موجب بينها وبين زوجها فراقًا ولا تحليلًا لمشتريها لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ: أنه خير

بريرة إذ أعتقتها عائشة بين المقام مع زوجها الذي كان سادتها زوجوها منه في حال رقها، وبين فراقه ولم يجعل ﷺ عتق عائشة إياها لها طلاقًا، ولو كان عتقها وزوال ملك عائشة إياها لها طلاقًا، لم يكن لتخيير النبي ﷺ إياها بين المقام مع زوجها والفراق معنى ولوجب بالعتق الفراق وبزوال ملك عائشة عنها الطلاق، فلما خيَّرها النبي ﷺ بين الذي ذكرنا وبين المقام مع زوجها والفراق، كان معلومًا أنه لم يخير بين ذلك إلا والنكاح عقده ثابت كما كان قبل زوال ملك عائشة عنها، فكان نظيرًا للعتق الذي هو زوال ملك مالك المملوكة ذات الزوج عنها البيع، الذي هو زوال ملك مالكها عنها إذ كان أحدهما زوال ا لبيع، والآخر بعتق في أن الفرقة لا تجب بينها وبين زوجها بهما ولا بواحد منهما، ولا يجب بهما ولا بواحد منهما طلاق، وإن اختلفا في معان أخر: من أن لها في العتق خيار في المقام مع زوجها والفراق لعلة مفارقة معنى البيع، وليس ذلك لها في البيع.

قال أبو جعفر: فإن قال قائل: وكيف يكون معنيًا بالاستثناء من قوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ما وراء الأربع من الخمس إلى ما فوقهن بالنكاح والمنكوحات به غير مملوكات؟

قيل له: إن الله تعالى لم يخص بقوله ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ المملوكات الرقاب دون المملوك عليها بعقد النكاح أمرها، بل عم بقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ كلا المعنيين أعني ملك الرقبة، وملك الاستمتاع بالنكاح لأن جميع ذلك ملكته أيماننا، أما هذه فملك استمتاع، وأما هذه فملك استخدام واستمتاع وتصريف فيها أبيح لمالكها منها. (١)

وقال الشوكاني: بعد ذكر كلام العلماء على الآية:

ومعنى الآية، والله أعلم واضح لا سترة به، أي: وحرمت عليكم المحصنات من النساء، أي: المزوجات أعم من أن يكن مسلمات، أو كافرات إلا ما ملكت أيمانكم منهن إما بسبي فإنها تحل ولو كانت ذات زوج أو بشراء فإنها تحل ولو كانت متزوجة وينفسخ

(١) تفسير الطبري٥/ ٨.

النكاح الذي كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذي زوجها، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية إن شاء الله، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقد قرئ (المحصنات) بفتح الصاد وكسرها، فالفتح على أن الأزواج أحصنوهن، والكسر على أنهن أحصن فروجهن من غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن. (١)

وقال السعدي: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ذوات الأزواج فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج حتى تطلق وتنقضي عدتها ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: بالسبي، فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول ولقصة بريرة حين خيرها النبي ﷺ(٢).

٢- وأما قوله ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ ففي محل نصب على العلة، أي: حرم عليكم ما حرم وأحل لكم ما أحل لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء اللاتي أحلهن الله لكم، ولا تبتغوا بها الحرام، فتذهب حال كونكم: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أي: متعففين عن الزنا، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: غير زانين، والسفاح: الزنا، وهو مأخوذ من سفح الماء أي: صبه وسيلانه، فكأنه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح، لا على وجه السفاح، وقيل: إن قوله ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ بدل من ﴿مَّا﴾ في قوله ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: وأحل لكم الابتغاء بأموالكم والأول أولى، وأراد سبحانه بالأموال المذكورة ما يدفعونه في مهور الحرائر وأثمان الإماء. (٣)

وقال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما نحن مبينوه، وهو أن الله جل ثناؤه بين لعباده المحرمات بالنسب والصهر، ثم المحرمات من المحصنات من النساء، ثم

---

(١) فتح القدير ١/ ٦٧٧.

(٢) تفسير السعدي١٧٣.

(٣) فتح القدير١/ ٦٧٧.

أخبرهم جل ثناؤه أنه قد أحل لهم ما عدا هؤلاء المحرمات المبينات في هاتين الآيتين أن نبتغيه بأموالنا نكاحًا وملك يمين، لا سفاحًا[(١)].

وقال السعدي: وقوله ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾ أي: مستعفين عن الزنا ومعفين نساءكم. ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصنا لزوجته، وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف لقوله ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ (النور: ٣)

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ أي: إتيانكم إياهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده أو معنى قوله فريضة: أي: مقدرة قد قدرتموها فوجبت عليكم فلا تنقصوا منها شيئًا.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ﴾ أي بزيادة من الزوج أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس (هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالا في أول الإسلام ثم حرمها النبي ﷺ وأنه يؤمر بتوقيتها وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما تراضيًا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم والسعة، كامل الحكمة: فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام[(٢)].

وقال النسفي: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ يعني المهور، وفيه دليل على أن النكاح لا يكون إلا بمهر، وأنه يجب وإن لم يسم، وأن غير المال لا يصلح مهرًا وأن القليل لا يصلح مهرًا إذ

(١) تفسير الطبري ٥/ ٩.

(٢) تفسير السعدي ١٧٤.

الحبة لا تعد مالًا عادة ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾ في حال كونكم محصنين، ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا أنفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دينكم ودنياكم، ولا فساد أعظم من الجمع بين الخسرانين، والإحصان العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام، والمسافح الزاني من السفح وهو صب المني، ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ فما نكحتموه منهن ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن لأن المهر ثواب على البضع.[1]

٣- وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ (النساء: ٢٥)

أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات أي: الحرائر المؤمنات وخاف على نفسه العنت أي: الزنا والمشقة الكثيرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات، وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ أي: المملوكات ﴿بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ أي: سيدهن واحدا أو متعددا.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحرة فكذلك يجب للأمة، ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ أي: عفيفات عن الزنا ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ أي: زانيات علانية، ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ أي: أخلاء في السر، فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة إلا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان

(١) تفسير النسفي ١/ ٢١٩.

بهن، والعفة ظاهرًا وباطنًا، وعدم استطاعة طول الحرة، وخوف العنت فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن، ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل لما فيه من تعريض الأولاد للرق ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن الصبر فإن لم يكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قلت: فهذا معنى الآية وليس فيها أدنى إشارة إلى حل السفاح أو الزنى، أما المهر في الإسلام فقد يكون مقدمًا وقد يكون مؤخرًا، وقد يتجزأ مقدمًا ومؤخرًا وفي كل الأحوال لا بد من العقد الصحيح المتكامل الشروط التي شرطها الله تعالى على ما سبق بيانه.

٤- ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١).

٥- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ (النور: ٢).

٦- ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٣) فقرن فيها الزنى بالشرك وقدمه.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ (آل عمران: ١٣٥).

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فعلة بالغة في القبح كالزنى[3].

---

(١) تفسير السعدي١٧٤، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٠، وتفسير الطبري ٤/ ١٥، وفتح القدير للشوكاني ١/ ٦٧٢، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤١.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٧٢.

(٣) تفسير البيضاوي١/ ٩٣.

ومن ذلك أن الله حرم القذف بالزنى كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ (النور: ٥: ٤).

وفي الكلام حذف، المعنى والذين يرمون المحصنات بالزنى، ثم حذف لأن قبله ذكر الزانية والزاني[1]، وأثنى الله في كتابه على مريم عليها السلام بقوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝٢٨﴾ (مريم: ٢٨).

الدليل الثالث: ومن ذلك ما جاء في السنة:

فعن أبي مسعود الأنصاري أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن.[2]

قال ابن عبد البر: في هذا الحديث ما اتفق عليه وفيه ما اختلف فيه، فأما مهر البغي: والبغي الزانية، ومهرها ما تأخذ على زناها، فمجتمع على تحريمه، تقول العرب بغت المرأة إذا زنت تبغي بغاء فهي بغي وهن البغايا، قال الله ﷻ ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ يعني زانية، وال ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ يعني الزنا وهو مصدر.

وقال أيضًا: ولا معنى لمن شبه المهر اليسير بمهر البغي، لأن مهر البغي لو كان قنطارًا لم يجز ولم يحل لأن الزنى ليس على شروط النكاح بالشهود، والولي، والصداق المعلوم، وما يجب للزوجات من حقوق العصمة وأحكام الزوجية.[3]

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٠٣.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٣٣٨) رواية يحيي الليثي باب بيع اللحم باللحم، والبخاري (٥٣٤٦، ٥٧٦١) باب ثمن الكلب، وباب مهر البغي والنكاح الفاسد، ومسلم (١٥٦٧) باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي والنهي عن بيع السنور.

(٣) التمهيد ٢/ ١٨٨.

وقال: فلما جاء الإسلام أبطل به رسول الله ﷺ حكم الزنى (لتحريم الله إياه) وقال للعاهر الحجر فنفي أن يلحق في الإسلام ولد الزنى، وأجمعت الأمة على ذلك نقلًا عن نبيها ﷺ وجعل رسول الله ﷺ كل ولد يولد على فراش لرجل لاحقًا به على كل حال إلى أن ينفيه بلعان. [١]

وقال محمد فؤاد عبد الباقي: (ومهر البغي) فهو ما تأخذه الزانية على الزنا، وسماه مهرًا لكونه على صورته وهو حرام بإجماع المسلمين. [٢]، وعن رافع بن خديج عن رسول الله ﷺ قال: (ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث): وعنه قال سمعت النبي ﷺ يقول (شر الكسب مهر البغي، وثمن الكلب، وكسب الحجام)[٣].

الوجه الثالث: الإجابة عن الوقائع التي زعموا أنها حجة على الإسلام مع ذكر حال المجتمع الغربي مع البغاء.

ثم عاد الكاتب بأمور من وقائع ليحتج بها على الإسلام ومعلوم أن انحراف بعض الأفراد ليس حجة على أي دين ما دامت نصوص الدين تمنع ذلك وتحرمه ومع ذلك سأرفع له تقريرا عن حال الغرب في بلادهم للنظر فيه قبل أن يتهم الإسلام بما قد حرمه ونهى عنه كما هو.

وهذا شيء من كيسهم، ونتيجة لتحطم نظام الأسرة، وبقاء الرجل دون زوجة أو أطفال، وخروج المرأة للعمل حتى تكسب لقمة عيشها، وبقاؤها دون زوج أو أطفال، وعدم قدرتها على تكوين أسر جديدة نتيجة للفقر المدقع والتمزق الاجتماعي الرهيب، فإن الرغبات الجنسية الطبيعية لدى كل من الرجل والمرأة واجهت كبتًا شديدًا في أول الأمر، وخاصة أن المعتقدات الدينية لدى العامة لم تزل قوية حتى ذلك العهد، وما كان من الفلاسفة والمنظرين اليهود إلا أن قاموا بحل هذه المعضلة واعتبار العلاقات الجنسية

---

(١) التمهيد ٨/ ١٨٣.

(٢) تعليقه على صحيح مسلم الحديث السابق.

(٣) مسلم (١٥٦٨).

خارج نطاق الزوج أمرًا لا غبار عليه، بل هو أمر مرغوب فيه لأنه يزيل الكبت والعقد النفسية ولقد جاء في البروتوكول الثاني عشر من بروتوكولات حكماء صهيون:

(الأدب والصحافة هما أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين، ولقد نشرنا في كل الدول الكبرى ذوات الزعامة أدبًا مرضًا قذرًا يقذي النفوس)!!

وجاء في موضع آخر من البروتوكولات:

(لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء، لا حظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل والأثر الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكرة الأممي الجوييم (أي غير اليهودي) سيكون واضحًا لنا على التأكيد).

وأقيم من أجل الوصول إلى هذه الغاية ثورة ثقافية كبرى اشترك فيها آلاف الكتاب والأدباء والفنانين، ومجدوا الانحدار نحو مستنقع الرذيلة وألفت آلاف القصص وأقيمت آلاف المسرحيات والتمثيليات التي تشجع الرجال والنساء على البغاء واعتباره عملًا بطوليًا رائعًا وخاصة أولئك النساء اللاتي تبرعن بفروجهن للجنود في زمن الحرب وأقيمت لهن حفلات التكريم التي كان يحضرها رئيس الدولة كما أقيمت لهن التماثيل.

يقول الأستاذ أبو الأعلي المودودي رحمه الله في كتاب الحجاب:

(وجاءت الحرب العالمية الأولى فابتدعت بدعة البغاء المتطوع علاوة على البغاء التجاري المعروف وبلغ هذا النوع المبتكر للفحشاء من عظم الشأن أن أكرمت النساء المحبات للوطن اللاتي كن خدمن الأبطال المدافعين عن أرض فرنسا وولدن من جراء تلك الخدمة أولادًا لا يعرف أباؤهم، ملقبين بلقب أمهات زمان الحرب war bad mothers، وأصبح تشجيعهن وأعالتهن فضيلة خلقية عند أولي الدعارة والفجور، وعنيت الجرائد اليومية الكبرى عناية بالغة باستمالة رجال الأعمال إليهن، وقامت بهذه الخدمة أكثر من غيرها الجريدتان المصورتان السيارتان فنتاسيو (fantasio) ولا في باريزيان (la via parisenne) حتى جاء عدد واحد من هذه الأخيرة يشتمل على ١٩٩ إعلانًا عن أمرهن).

وغلفت هذه القاذورات بورق السولفان والورق المذهب وأعطيت أريج الحب ونكهته: وتحدث فرويد عن العقد النفسية الناتجة عن الكبت والحرمان، واستمر الهراء حتى بلغ فرويد أن يقول إن حب الفتى لأمه إنما هو حب جنسي بحت وحقيقته عقدة أوديب، وإن حب الفتاة لأبيها ليس إلا حبًا جنسيًا محضًا وحقيقته عقدة إليكترا.

ووجد هؤلاء المتفلسفون والمنظرون في الأساطير الإغريقية ملاذهم فكسوها ثوبًا فضفاضًا كثير البريق واللمعان تحت مسميات ضخمة حتى يوهموا العوام وأنصاف المثقفين بأن تحت ذلك الهراء السخيف علم غزير، ومجد هؤلاء الفساق ودعاة الرذيلة، وأعطيت لهم أضخم الجوائز التشجيعية ليواصلوا إفساد الأخلاق وصورت المومسات على أنهن نجوم وكواكب يهتدى بها ويقتدى بأعمالها وفعالها. . .

ولهواة علم النفس الفرويدي نقول قد انكشف الزيف على لسان من تؤلهونهم وتتبعونهم، فقد نشرت مجلة التايم الأمريكية في عددها الصادر ٩ إبريل سنة ١٩٧٩ تحقيقًا طويلًا عن علم النفس جاء فيه: إن علم النفس الحديث وخاصة مدرسة فرويد الجنسية مدرسة صممها وروج لها اليهود في العالم أجمع وفي أمريكا على وجه الخصوص وأنها ليس لها أي مستند علمي حقيقي، وأن تمسك الناس بها في الولايات المتحدة ليس إلا من قبيل التمسك بالعادات الضارة كالتدخين وشرب الخمور، رغم أن الجميع يدركون الآن مضار هاتين العادتين وهكذا أصبح الحال بالنسبة لمدرسة فرويد وخاصة من يسمون بعلماء النفس فرغم أنهم يدركون زيفها وبطلانها، إلا أن كثيرًا منهم يستمر في اجترار هذا الزيف بحكم العادة حينًا وحكم المصلحة حينًا آخر.

وخلاصة القول في خروج المرأة للعمل في أوربا أنه جاء نتيجة لمخططات الرأسماليين اليهود الذين قاموا بتحطيم نظام الأسرة، واستغلال الرجال أولًا فلما بدأ هؤلاء يجتمعون لأخذ بعض حقوقهم لجأوا إلى استغلال النساء والأطفال الذين دفع بهم العوز والمسغبة على براثن الرأسماليين، ومنذ خروج المرأة في أوربا وهي تدور في الدوامة الرهيبة تلهث وراء لقمة

العيش، وتجتذب الجميلات منهن لتجارة الرقيق الأبيض الذي يعتبر من أكثر المهن تنظيمًا ويقول مسيو فردنيان دريفوس عضو البرلمان الفرنسي: (أن حرفة البغاء لم تعد الآن عملًا شخصيًا، بل قد أصبحت تجارة واسعة وحرفة منظمة بفضل ما تجلب وكالاتها من الأرباح)، ويقول مسيو بول بيورو (إن احتراف البغاء قد أصبح في زماننا نظامًا محكم التركيب يجري بما شئت من التنظيم على أيدي الموظفين والعاملين المأجورين، ويخدمه ويعمل فيه أرباب القلم، وناشروا الكتب، والخطباء، والمحاضرون، والأطباء، والقابلات، والشركات السياحية، ويستعمل له كل جديد من فنون النشر والعرض والإعلان[١].

وهكذا تتسع تجارة الجنس، والأفلام، والقصص، والخمور، والمخدرات لتعود بالبلايين إلى العقول الخبيثة الماكرة التي تستخدم هذه الجيوش كلها بدهاء نادر لا يملكه في العادة إلا اليهود، ومن هذه الدوائر القذرة تتسع رقعة للنفوذ اليهودي الأخطبوطي لتشمل رجال السياسة والفكر والإعلام، وتسيطر بالتالي على معتقدات وأفكار العامة، واستمع إلى زعيم الحزب الديمقراطي الألماني يتحدث للتأكد مما قلناه في الأسطر السابقة يقول الزعيم ببيل (وهل الرجل والمرأة إلا نوع من الحيوان؟ وهل يكون بين أزواج الحيوانات شيء من قبيل الزواج، فكيف بالزواج الأبدي؟).

ويكتب الدكتور دريسدل قائلًا: (أن العاطفة المطلقة من قيد الزواج مظهر للخلق العلي، لأنها أدنى إلى نواميس الفطرة، ولأنها تنشأ من العواطف والأحاسيس والحب المحض مباشرة وأن الشوق والنزوع التي تتولد منه هذه العلاقة شيء عظيم القدر غالي القيمة في الأخلاق)

ويقول في موضع آخر (الحاجة ماسة إلى اتخاذ التدابير التي تجعل الحب بغير قيد الزواج شيئًا يجل ويكرم، ومما يسر أن سهولة الطلاق في هذا الزمان لا تزال تمحق طريق الزواج رويدًا رويدًا).

---

(١) عمل المرأة في الميزان لمحمد علي البار (٨٧).

ويقول بول روبين الزعيم الفرنسي: (من المغانم الحقيقية أننا قد بلغنا من النجاح في مساعينا لمدة ربع القرن الماضي أنه قد أصبح ولد الزنا في منزلة أولاد الحلال، فلا يبقى بعد هذا إلا أن يكون أولادنا جميعًا من هذا النوع الأول فقط حتى نستريح من هذه الموازنة بين النوعين من الأولاد).

ويلخص الأستاذ أبو علي المودودي موقف المرأة في أوروبا اليوم بأصدق عبارة في كتابه القيم (الحجاب) حيث يقول:

(كان من نتائج (النظام الرأسمالي) أن أصبحت المرأة كلًا على زوجها، وأصبح الولد عبئًا على أبيه، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه فضلًا عن أن يعول غيره من المتعلقين به، وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع عاملًا مكتسبًا، فاضطرت جميع طبقات النسا من الأبكار والأيامى والثياب أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويدًا ولما كثر بذلك اختلاط الجنسين واحتكاك الذكور بالإناث وأخذت تظهر عواقبه الطبيعية في المجتمع تقدم هذا التصور للحرية الشخصية وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق فهدأ من قلق الآباء والأخوة والأخوات والبعولة والزوجات وجعل نفوسهم المضطربة تطمئن إلى أن الذي هو واقع أمام أعينهم لا بأس به، فلا يوجد منه خيفة إذ ليس هبوطاً ولا ترديًا بل هو نهضة وارتقاء وليس فسادًا خلقيًا بل هو عين اللذة والمتعة التي يجب أن يقتنيها المرء في حياته وأن هذه الهاوية التي يدفع بهم إليها الرأسمالي ليست بهاوية النار بل هي جنة تجري من تحتها الأنهار[1].

وقال محمد رشيد رضا:

(البغاء): وما أدراك ما هو؟! ارتياد الفاحشة الكبرى وتطلب النقيصة السوأى من جماعة من النساء يستعددن لذلك ويتجاهرن به.

---

(١) عمل المرأة في الميزان لمحمد علي البار (٨٧).

الزنا مولد الأدواء المشوهة القاتلة، ومقلل النسل، ومضيع الأنساب ومتلف الأموال، ومفسد نظام العائلات، وإن المجاهرة به مدعاة لتعميمه وتعميمه فتنة في الأرض وفساد كبير وبلاء على الأمم وبيل فشا في الأمة الفرنسوية وهي مفيضة العلم على أوربا وقدوتها في التربية العملية التي بها قوام المدنية فصدمها صدمة وقفت بنموها وقللت رجالها فقد كان متوسط المواليد فيها أوائل هذا القرن ٣٢ في الألف، فهبط في بعض بلادهم إلى ١٤، وفي بعضها على ٢٢في الألف ولقد كان سكان أوربا يومئذ نحو مائة مليون ربعهم من الفرنسيون فزادت بروسيا في مدة القرن خمسة أضعاف، وبريطانيا أربعة أضعاف، وروسيا ثلاثة أضعاف، وفرنسا ضعفًا واحدًا، وأصبح أهل فرنسا عشر أهل أوربا وسبب ذلك الأكبر فشو الزنا فيهم وساستهم الآن في حيرة من تلافيه هذا، وإن لهذه المصيبة من الضرر المالي في مثل هذه البلاد ما لا نظير له في فرنسا وذلك لأن معظم المال الذي ينفق على الفحش هنا إنما ينقصه الأجانب من ثروة البلاد، لأن معظم المسافحات وذوات الأخدان فيها من الإفرنج، لا سيما صواحب الأمراء والوجهاء اللواتي يفاض عليهن المال جزافًا بلا عد ولا كيل، وبهذا المعنى نعد البغايا والمومسات من الجند الفاتح للبلاد، فإنهن ما نزلن في عراص قوام إلا مهدن لأبناء جنسهن فيها المقام وأورثنهم أرضهم وديارهم وأموالهم وشاهد ذلك بين يدينا وتحت مواقع أبصارنا فعلى من ابتلى بذلك أن يقلع حفظًا لدينه ودنياه، وإن كان استحوذ عليه الشيطان وملك عليه أمره فليستتر، لا سيما عن أهله وبنيه لئلا يجني عليهم فيفسدهم كما فسد ويضيع الأمل من مستقبل البلاد بهم، وليحجبهم ويمنعهم من قرناء السوء أمثاله ولا يأتمن عليهم الخدم فإنهم في الغالب على دينه ومشربه الخبيث ولقد بلغنا أن هؤلاء الخدم يغشون مواخير المومسات ومعهم الأولاد الصغار

الذين عهد إليهم بخدمتهم فيتربون على مشاهدة الفاحشة وبئست التربية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ (التحريم: من الآية٦) (١).

وهذه بعض الإحصائيات الخطيرة في بلاد الغرب:

١. ٥ تريليون دولار سوق البغاء في أمريكا.

١. ٢ مليون امرأة وفتاة تحت ١٨ سنة يجرى الاتجار كل عام لأغراض البغاء من إحصاءات حتى ١-٦-١٤٢٣ والمنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم.

ومن عام ١٩٨٠م إلى عام١٩٩٠م كان بالولايات المتحدة ما يقارب مليون امرأة يعملن في البغاء.

وفي عام ١٩٩٥م بلغ دخل مؤسسات الدعارة وأجهزتها الإعلامية ٢٥٠٠مليون دولار.

وفي عام ١٩٨٢م ٦٥ حالة اغتصاب لكل ١٠آلاف امرأة.

وفي عام ١٩٩٥م ألف جريمة اغتصاب، ٨٠٪ منها في محيط الأسرة والأصدقاء بينما تقول الشرطة: إن الرقم الحقيقي ٣٥ ضعفًا.

وفي عام ١٩٩٧م بحسب قول جمعيات الدفاع عن حقوق المرأة: اغتصبت امرأة كل٣ ثوان، بينما ردت الجهات الرسمية بأن الرقم مبالغ فيه، في حين أن الرقم الحقيقي هو حالة اغتصاب كل ٦ ثوان.

نشرت مجلة التايم في عام ١٩٩٧م أن ٦ ملايين امرأة في أمريكا عاني سوء المعاملة الجسدية والنفسية بسبب الرجال، ٧٠٪ من الزوجات يعانين الضرب المبرح، و٤ آلاف يقتلن كل عام ضربًا على أيدي أزواجهن أو من يعيشون معهن، وأن رجال الشرطة يقضون ٣٣٪ من وقتهم للرد على مكالمات حوادث العنف المنزلي.

---

(١) مجلة المنار ١٧/ ٦، ٧.

يشار إلى أن هذا التقرير السنوي المسمي ب (قاموس المرأة) صدر عن معهد الدراسات الدولية حول المرأة، ومقره مدريد، وهو معهد عالمي معترف به.

نشرت (ذي وورلد لمانك) في سنة ١٩٦٠م عن الأولاد غير الشرعيين في أمريكا وقد جاء فيها (ص٣٠٩) تحت عنوان (الأولاد غير الشرعيين وأعمار الأمهات في سنة ١٩٥٧م) والمصدر في هذه الإحصائية هو المكتب الوطني للموازنات الحيوية قسم الصحة والثقافة والرفاهية: ٤٦٠٠ ولد غير شرعي بالنسبة للأمهات الأقل من ١٥سنة، ٧٦٥٠٠ بالنسبة للأمهات من ١٥ إلى ١٦سنة، ٣٩١٠٠ بالنسبة للأمهات من ١٧ إلى ١٨سنة، ٣٧١٠٠بالنسبة للأمهات من ١٨ إلى١٩سنة، ٦٠٥٠٠بالنسبة للأمهات من ٢٠ إلى ٢٤ سنة، ٢٩٩٠٠ بالنسبة للأمهات من ٢٥إلى ٢٩سنة، ١٨٢٠٠بالنسبة للأمهات من ٣٠إلى ٣٤سنة، ٩٤٠٠بالنسبة للأمهات من ٣٥إلى٣٩سنة، ٢٤٠٠ بالنسبة للأمهات الأكثر من ٤٠سنة.

ذكر الكاتب الأمريكي "إريك جون ونج وول" في كتابه (المرأة الأمريكية) أن في الولايات المتحدة نحو عشرين مليونا ممن يعانون الأمراض النفسية والعصبية.

وكتب الأستاذ جابر رزق في مجلة الدعوة في مقاله (سقوط المجتمع الأمريكي):

(والظاهرة التي بدأت تقلق بال علماء الاجتماع الأمريكيين في مجال ممارسة الجنس الطبيعي بين الرجل والمرأة وهي ظاهرة البغاء بين الفتيات الصغيرات طالبات المدارس الإعدادية، فالأسرة الأمريكية تدفع أبناءها في سن الرابعة عشر والخامسة عشر سواء بنات أو بنين إلى الاكتساب والاعتماد على النفس في الإنفاق فلا تجد الفتيات الصغيرات أسهل من احتراف البغاء لاكتساب نفقات الحياة).

في يوليو ١٩٧٠م أصدرت الحكومة الأمريكية قانونًا يبيح الإجهاض لولاية نيويورك، وقد بلغ عدد عمليات الإجهاض التي أجرتها المستشفيات والعيادات الخارجية خلال ٢٠ شهرًا من صدور القانون ٢٧٨١٢٢ عملية، مع العلم بأن هذه الجهات لا تجري العمليات إلا إذا كان الحمل دون ثلاثة أشهر.

كتبت جريدة الأهرام في ٢٩/ ٥/ ١٩٧٤م: (زادت أعداد الأمهات اللائي يعرضن الأولاد غير الشرعيين لبيع في أوربا بعد أن وصل السعر إلى أكثر من ألف جنيه للطفل الواحد وأكثر من ذلك، إن صفقات البيع تتم قبل أن يولد الطفل وقوائم الانتظار تضم مئات الطلبات وتجري الآن دراسات واسعة حول انتشار هذه الظاهرة الخطيرة في بريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وأمريكا بعد أن بدأت تأخذ شكل سوق سوداء يديرها طبيب إنجليزي اسمه: د. سانج، له مستشفى ولادة خاص به في لندن).

في عام ١٩٨١م أشار (شتراوس) إلى أن حوادث العنف الزوجي منتشرة في ٥٠-٦٠٪ من العلاقات الزوجية في الولايات المتحدة الأمريكية في حين قدر (راسل) عام ١٩٨٢م هذه النسبة ب٢١٪ وقدرت (باغلو) النسبة بأنها تتراوح بين ٢٥-٣٥٪، كما بين (ابلتون) في بحثه الذي أجراه ١٩٨٠م على ٦٢٠امرأة أمريكية أن ٣٥٪ منهن تعرضن للضرب مرة واحدة على الأقل من قبل أزواجهن، ومن جهتها أشارت (والكر) استنادًا إلى بحثها عام ١٩٨٤م إلى خبرة المرأة الأمريكية الواسعة بالعنف الجسدي فبينت أن ٤١٪ من النساء أفدن أنهن كن ضحايا العنف الجسدي من جهة أمهاتهن، و٤٤٪من جهة آبائهن، كما بينت أن ٤٤٪منهن كن شهودا لحوادث الاعتداء الجسدي لآبائهن على أمهاتهن.

في عام ١٩٨٥م قتل ٢٩٢٨ شخصًا على يد أحد أفراد عائلته، وإذا اعتبرنا ضحايا القتل الإناث وحدهن لوجدنا أن ثلثهن لقين حتفهن على يد زوج أو شريك حياة، وكان الأزواج مسؤولين عن قتل ٢٠٪ من النساء اللاتي قتلن في عام ١٩٨٤م، في حين أن القتلة كانوا من رفاقهن الذكور في ١٠٪ من الحالات.

أما إحصاءات مرتكبي الاعتداءات ضد النساء في أمريكا، فثلاثة من بين أربعة معتدين هم من الأزواج: ٩٪ أزواج سابقين، ٣٥٪ أصدقاء، و٣٢٪ أصدقاء سابقين. إحصائية أخرى تدرس نسبة المعتدين تبين أن الأزواج المطلقين أو المنفصلين عن زوجاتهم ارتكبوا ٧٩٪ من الاعتداءات، بينما ارتكب الأزواج ٢١٪.

وقد ثبت أن ضرب المرأة من قبل شريك ذكر لها هو المصدر الوحيد، والأكثر انتشارًا الذي يؤدي إلى جروح للمرأة. وهذا أكثر انتشارًا من حوادث السيارات والسلب والاغتصاب كلها مجتمعةً.

وفي دراسة أخرى تبين أن امرأة واحدة من بين أربع نساء، يطلبن العناية الصحية من قبل طبيب العائلة، يُبلغن عن التعرض للاعتداء الجسماني من قبل شركائهن.

من مجموع النساء اللواتي سعين في طلب العناية الصحية من طبيب العائلة أبلغ ٣٧٪ منهن على كونهن من الناجيات من حوادث التعذيب الجنسي في مرحلة الطفولة، و٢٩٪ أبلغن أنه تم الاعتداء عليهن جنسيًا بعد البلوغ. والنساء اللواتي كن ضحية لمثل هذه الاعتداءات الجنسية أكثر اكتئابًا من اللواتي لم يتعرضن لها.

تم توزيع بيانات على مستوى الولايات شملت ٦٠٠٠ عائلة أمريكية، ونتج عنها أن ٥٠٪ من الرجال الذين يعتدون بشكل مستمر على زوجاتهم يعتدون أيضًا وبشكل مستمر على أطفالهم.

الأطفال الذين شهدوا عنف آبائهم معرضون ليكونوا عنيفين ومعتدين على زوجاتهم بنسبة ثلاثة أضعاف من الذين لم يشهدوا العنف في طفولتهم، أما أولياء الأمور العنيفون جدًّا فأطفالهم معرضون ألف ضعف ليكونوا معتدين على زوجاتهم في المستقبل.

أكثر من ثلاثة ملايين طفل في السنة هم عرضة لخطر العنف الصادر عن الأبوين.

مليون امرأة في السنة تعاني من كونها ضحية للعنف الذي لا يصل إلى درجة الموت، ويكون هذا الاعتداء من قبل شخص قريب للضحية. هذه الإحصائية تعتبر من أكثر الإحصائيات اعتدالًا.

أربعة ملايين أمريكية تقع تحت اعتداء خطير من قبل شريك قريب لها خلال سنة. وقرابة ١ من ٣ نساء بالغات يواجهن تجربة الاعتداء عليهن جسمانيًا على الأقل مرة واحدة من قبل شريك في فترة النضج. وفي عام ١٩٩٣م تم توقيف ٥٧٥ ألف أي: ما يزيد عن نصف مليون رجل لارتكابهم العنف ضد النساء.

خلال عام١٩٩٤م ٢١٪ من حالات العنف التي وقعت المرأة ضحيتها قد ارتكبت من قبل قريبين، ولكن فقط ٤٪ من حالات العنف ضد الرجل قد ارتكبت من قبل قريبات.

٩٠-٩٥٪ من ضحايا العنف العائلي هم من النساء.

الأطفال الذين يعيشون في منازل يتم فيها اعتداء الأزواج على بعضهم معرضون للإيذاء بنسبة تفوق الأطفال الآخرين بـ١٥٠٠ مرة.

في دراسة واحدة ٢٧٪ من ضحايا القتل داخل العائلة هم من الأطفال.

في عام ١٩٩٤م ٢٤٣ ألف شخص من الذين تلقوا الإسعاف في غرفة الطوارئ بسبب الجروح التي نتجت عن العنف، كان قريبًا للعائلة هو السبب، وفاق عدد ضحايا الإناث ضحايا الذكور بنسبة ١ . ٩.

هناك على الأقل أربعة ملايين تقرير في حوادث العنف العائلي ضد المرأة كل عام، وقرابة ٢٠٪ من هذه الحوادث حصلت في المنازل.

في عام ١٩٩١م أكثر من تسعين امرأة قُتلت أسبوعيًا، تسع نساء من عشر قتلن من قبل رجل.

تستخدم الأسلحة بنسبة ٣٠٪ من حوادث العنف العائلي.

في ٩٥٪ من الاعتداءات الناتجة عن العنف العائلي الجرائم ترتكب من قبل الرجال ضد النساء.

الأزواج والعشاق المؤذون يضايقون في مجال العمل ٧٤٪ من النساء المتعرضات للضرب، إما بطريقة مباشرة أو مضايقات عبر الهاتف.

في العلاقات الحميمة تفوق ضحايا النساء المتعرضات للعنف ضحايا الرجال بعشر مرات.

في ٢٩/ ٥/ ١٩٨٠م نشرت جريدة الشرق الأوسط اللندنية أن ٧٥٪ من الأزواج يخونون زوجاتهم، وأن عددًا أقلّ من ذلك من الزوجات يفعلن نفس الشيء، ويتم علم أحد الزوجين بخيانة الآخر دون أن يؤثر ذلك على استمرار الحياة الزوجية بينهما، وقد أذاع التلفزيون الفرنسي في ٢٣/ ٩/ ١٩٧٧م أن المحكمة ردت الدعوى التي أقامها زوج

ضد زوجته التي خانته مصحوبة بالدليل، لأن المحكمة رأت أن ليس من حق الزوج التدخل في الشئون الخاصة بزوجته.

(المعاشرة الجنسية بين المجموعة) وهو تبادل الزوجات، فالزوج يتنازل عن زوجته لآخر مقابل زوجة هذا الشخص مدة قد تصل إلى ليلة كاملة، وقد يكون هذا التبادل في حجرة واحدة بين الأربعة، ويكثر هذا التبادل في الحفلات الخاصة وفي بعض الأندية، والدولة تقر ذلك ولا تعارضه.

نشر مكتب التحقيقات الفدرالي الأمريكي عام ١٩٧٩م أن ٤٠٪ من حوادث قتل النساء بسبب المشكلات الأسرية، وأن ٢٥٪ من محاولات الانتحار التي قد تقدم عليها الزوجات يسبقها نزاع عائلي.

إن هناك ٧٥٪ من نساء ألمانيا يشعرن بالخوف خارج المنزل عند حلول الظلام، وترتفع النسبة في بعض المدن إلى ٨٥٪، وقد خصصت بلدية لندن حافلات خاصة بالنساء من الساعة السادسة مساء إلى منتصف الليل بسبب الاعتداء عليهن.

في تقرير إحصائي أصدرته منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٦٢م ذكرت منظمة الصحة أنه يجري في كل عام ١٥ مليون حادثة إجهاض أو قتل جنين، وهذا الرقم يمثل فقط العمليات السرّية غير المشروعة قانونًا، أما الدول التي تسمح بهذا العمل كالدول الإسكندنافية ومعظم دول أوربا التي تبيح الإجهاض فهي غير داخلة في الإحصاء.

وفي المجر أعلن بروفسور مجري أن عدد حالات الإجهاض التي تحدث في العالم أصبحت تبلغ ٣٠ مليون حالة سنويًا، وأن عدد تلك العمليات في بعض الدول كألمانيا والنمسا وبلجيكا يفوق عدد حالات الوضع.

وفي إنجلترا يبلغ العدد الإجمالي لحوادث الإجهاض عام ١٣٩١هـ تقريبا ٨٠٧٢٣ حادثة، والأرقام في زيادة مستمرة.

ورد في تقرير رسمي خطير لوزارة الشئون الاجتماعية السويدية: أعلنت الدولة أن ٢٥٪ من السكان في السويد مصابون بأمراض عصبية ونفسية، وأن ٣٠٪ من مجموع المصروفات الطبية في السويد تنفق في علاج الأمراض العصبية والنفسية، وأن ٤٠٪ من مجموع الأشخاص الذين يحالون إلى التقاعد قبل سن المعاش بسبب العجز التام عن العمل هم من المرضى المصابين عقليًا[1].

واقع الحال في الغرب اليوم:

وقد بلغ الأمر اليوم أفظع بكثير مما تصوره ول ديوارنت والكسي كاريل وغيرهم من الفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين. فقد نشرت الصحف في بريطانيا عام قصة مدرسة شابة في الخامسة والعشرين كانت تدرّس لمجموعة من الأولاد المراهقين. . وكانت تقوم بتدريسهم الجنس عمليًا في الفصل، وتخلع ثيابها قطعة قطعة أمامهم. . فما كان من إدارة المدرسة إلا أن أبلغت وزارة التربية والتعليم، واتفقت الإدارة والوزارة على إيقاف هذه المدرسة الشابة وطلب منها أن تكف عن عرض دروسها المثيرة على الطلبة المراهقين. . وفي اليوم التالي نشرت جريدة الديلي ميرور DAILY MIRROR صورة هذه المدرسة الجميلة عارية في صفحتها الأولى. . وقامت بحملة ضخمة ضد إدارة المدرسة ووزارة التربية والتعليم الرجعية التي تمنع هذه الشابة العبقرية من مواصلة دروسها المهمة لتعليم الشاب المراهق الجنس! ! ودعت الصحيفة إلى قيام مظاهرات تأييدًا للمدرسة الشابة وحريتها في التعبير ودعوتها إلى مواصلة جهودها العظيمة في تربية النشء تربية جنسية سليمة خالية من العقد! ! وبالفعل قامت في الأيام التي تلت نشر هذه المقالات مظاهرات ضخمة تؤيد المدرسة الشابة فيما فعلته وتطالب بإعادتها فورًا إلى حقل التدريس. . الذي خسر خسارة هائلة بإيقافها!

---

(١) معاناة المرأة في الغرب٣-٩.

ولم تجد إدارة المدرسة الموقرة ووزارة التربية والتعليم بدًا من أعادة المدرسة الشابة إلى ممارسة وظيفتها الحيوية مع الشباب المراهق، وانصاعت صاغرة للرأي العام الذي هيجته الجرائد الواسعة الانتشار (الديلي ميل والديلي ميرو). . وهكذا كسبت حرية المرأة وحرية الجنس قضيتها ضد إدارة المدرسة ووزارة التربية الرجعية! !

هل تصدق أن هذا قد حدث! إنه أمر أشبه بالأسطورة والخيال. .

دولة تدعي أنها في قمة الحضارة- وما أتعسها من حضارة - تقوم فيها مدرسة شابة بتلقين طلبتها المراهقين الجنس عمليًا في المدرسة. . وضمن برامج التعليم! ولا تستطيع إدارة المدرسة ووزارة التربية حتى أن توقفها عن إسداء دروسها ونصائحها العملية في هذا المجال، وتقوم حملة صحفية ضخمة تأييدًا للمدرسة التي تبذل جسمها لتعليم الطلبة الجنس على الأسس العلمية الصحيحة! !

نعم. . نعم هل تصدق أن هذا يمكن أن يحصل. . وباسم التقدم والعلم والحرية والمساواة. . الخ. . الخ. . وفي بلد محافظ بطبيعته كما يقولون في بريطانيا! !

إنها بشارة لنا ونذير لهم بقرب نهاية هذه الحضارة النكدة والتعيسة، ونهاية هذه الأمم التي فجرت وتجبرت وطغت. .

وربما يظن القارئ أننا نبالغ كثيرًا في هذا الوصف. . وله الحق في ذلك، ولكن مثقفينا الذين عاشوا في أوروبا وأمريكا فترة كافية من الزمان يعرفون هذه الحقائق معرفة جيدة ولا يستطيعون إنكارها وربما يقولون ليس كل الناس في أوروبا على هذه الشاكلة، ونقول لهم نعم، صدقتم ولا يمكن أن يكون الناس جميعًا على هذا المستوى المنحط من البهيمية والحيوانية ولكن يكفي أن توجد هذه الحالات ويسكت عنها المجتمع، فكيف وأنت ترى من واقعة المدرسة الشابة أن أجهزة الأعلام وجزءًا كبيرًا من الرأي العام يؤيد تدريس الجنس عمليًا للفتيان والفتيات، كما يقر الرأي العام بأغلبيته تدريس الجنس حتى للأطفال وهو أمر واقع ومقرر. ونحن نتحدى من ينكر هذا الواقع.

وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط الصادرة في ٦/ ١/ ١٩٨٠ مقالًا تحت عنوان " شيء للتفكير " بأن أعظم خطر يتهدد المجتمعات الغربية هو التدهور الأخلاقي وليس خطر التضخم أو التسلح أو حتى نشوب حرب عالمية ثالثة. ، ونقل ذلك عن عدد من كبار المفكرين الغربيين قائلًا " ويتفق عدد منهم على أن أعظم تلك الأخطار هو الخطر الكامن في التدهور الأخلاقي الذي يتمثل في فوضى الجنس وانحلال بناء الأسرة التقليدي ".

مليون طفل من الزنا كل عام في أمريكا ومليون حالة إجهاض: " ومن أبلغ ما كتب بهذا الصدد مقال لكاتب أمريكي نشره قبل أيام في صدر أحدى المجلات الفكرية الكبرى ويحذر فيه الغرب من عواقب ذلك التدهور الذي سيحول الدول الغربية - في رأيه - إلى دوائر إغاثة وإعاشة " لضحايا الجنس والطلاق " ويستهل مقاله بقوله: أن إحصائيات عام ١٩٧٩ تدق ناقوس الخطر، فعدد اللواتي يلدن سنويًا من دون زواج شرعي وفي سن المراهقة لا يقل عن ستمائة ألف فتاة بينهن لا أقل من عشرة آلاف فتاة دون سن الرابعة عشر من العمر. وإذا أضيف إلى ذلك عدد اللواتي يلدن بدون زواج بعد سن المراهقة فإن العدد الإجمالي يتجاوز المليون. . ومعنى هذا أن الولايات المتحدة الأمريكية تستقبل مليون طفل سنويًا (من الزنا والسفاح) وأن على الدولة أن تقوم بإعالتهم وأمهاتهم مما يشكل كارثة اقتصادية لأن كل طفل يكلف الدولة ما يقرب من ١٨ ألف دولار. . ومما يزيد في حجم الكارثة ارتفاع نسبة الطلاق فقد بلغت في عام ١٩٧٩ ما يقرب من ٤٠ بالمئة من جميع حالات الزواج. ، ومعنى هذا أن على الدولة أن تقوم بإعالة المطلقات اللائي لا يعملن ".

ويعلق الدكتور محمود زائد كاتب المقال في الشرق الأوسط قائلًا: " والكارثة في الواقع ليست اقتصادية فحسب. ، فهي اجتماعية قبل كل شيء وقد تزلزل بنيان الأسرة التقليدي وتهدم. وفي هذا عبرة وأي عبرة للدولة النامية ". اهـ

وإذا علمنا أن هناك ما يزيد عن مليون حالة إجهاض تجري في الولايات المتحدة سنويًا (٣٩). . وأن وسائل منع الحمل منتشرة، بل وتقوم المدارس بتدريسها للطلبة والطالبات

منذ المراحل الابتدائية لأن تدريسها في المراحل الثانوية والجامعية أصبح بدون جدوى وذلك لأن معظم حالات الحمل تقع في سن المراهقة. .

إذا علمنا ذلك وعلمنا أن سبب ارتفاع الطلاق هو الاتهام المتبادل بالخيانة الزوجية. .

لهالنا أن نعرف أن الزنا أمر شائع جدًّا. . وأنه من النادر جدًّا أن تجد إنسانًا ما في تلك المجتمعات لم يمارس الزنا.

بل لقد وصل الأمر إلى السخرية من العذرية. . وأن وجود فتاة عذراء في المجتمعات الغربية يعتبر مجلبة للعار والخزي، لأنها رجعية وبالية الأفكار.

ولم يكتف أهل الغرب بذلك فإن السعار الجنسي الذي لا يريد أن يشبع. . ينتقل من نوع من السلوك الجنسي إلى نوع آخر ومن جريمة إلى أبشع. .

انتشار الشذوذ الجنسي في الغرب:

ورغم وفرة النساء وسهولة العثور عليهن. . ورغم شيوع الزنا لدرجة مخيفة فيالمجتمعات الغربية فإننا نجد كثيرًا من الظواهر التي لا يمكن تفسيرها بسهولة، مثل انتشار حالات الاغتصاب الجنسي، وانتشار الشذوذ الجنسي وانتشار نكاح المحرمات، وانتشار الاعتداء الجنسي على العاملات والموظفات. فقد كان يقال قديمًا إن الكبت الجنسي وعدم تفريغ هذه الطاقة الضخمة يؤدي إلى هذا الشذوذ. . ولكن الغربي لا يعاني من الكبت الجنسي والحرمان ومع ذلك فإننا نرى زيادة مرعبة في الشذوذ الجنسي واكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ونرى زيادة مخيفة في حالات الاغتصاب، وظهرت في الفترة الأخيرة إلى السطح موضة نكاح المحرمات من الأخوات والبنات. . ونكاح الابن لأمه والأخ لأخته والوالد لابنته، مما يثير التقزز في أكثر الناس ولوغا في الجريمة.

وقد بلغ من انتشار الشذوذ الجنسي في الحضارة الغربية اليوم أن قنّنت القوانين بإباحته واعتباره أمرًا طبيعيًا لا غبار عليه إذا ما كان بين بالغين بدون إكراه، وتكونت آلاف الجمعيات التي ترعى شؤون الشاذين جنسيًا، وقد بلغ عدد هؤلاء الشاذين في الولايات

المتحدة الأمريكية فحسب سبعة عشر مليونًا، وهناك معابد وكنائس في الولايات المتحدة تزوج الرجال على الرجال والنساء على النساء في احتفالات خاصة.

وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط نقلًا عن وكالات الأنباء في عددها الصادر ١٣/ ٧/ ١٤٠٠ الموافق ٢٧/ ٥/ ١٩٨٠ أن السناتور كيندي اجتمع بممثلي الشاذين جنسيًا، وتعهد لهم بأنه سيدافع عن حقوقهم وسينفذ تعهداته إذا ما انتخب رئيسًا للجمهورية.

وقد خصصت بعض الجامعات في الولايات المتحدة منحًا دراسية للشاذين جنسيًا ومن تلك الجامعات جامعة سير جورج وليامز التي تخصص كثيرًا من منحها الدراسية للمصابين بالشذوذ الجنسي، ولا يمكن الحصول على تلك المنحة إلا إذا كان المتقدم مصابًا بالشذوذ الجنسي. .

وفي مدينة لوس انجلوس فقط يتجمع ثلاثمائة ألف شاذ جنسي، ومن أغرب الأنباء أن مجلة اللوطية في بريطانيا نشرت هجومًا على الدين لأنه يحرم الشذوذ الجنسي، وأن الدين لذلك هو سبب لكل المشاكل في الدنيا، فما كان إلا أن رد عليه أحد كبار القساوسة قائلًا: " إن الكنيسة في حالة مخاض الآن، وأنه عما قريب ستعترف الكنيسة بالشذوذ الجنسي، وأن الشاذ جنسيًا إنسان عادي وله الحق إذا أراد أن يصبح قسيسًا أو أي شيء آخر " والجدير بالذكر أن الكنيسة سبق لها أن اعترفت بأن المخاللة والمخادنة أمر لا اعتراض عليه وإنما تعترض الكنيسة إلى الآن على البغاء والعهر وهي التجارة، أما أن يعيش رجل وامرأة كزوجين بدون عقد زواج فهو أمر طبيعي ولا تعترض عليه الكنيسة.

وكانت المجلات والصحف البريطانية وخاصة الديلي اكسبريس والديلي ميل قد قامت عام ١٩٧٠ بحملة واسعة ضد الرهبنة والكنيسة. . وقد ذكرت في إحصائيات - نتيجة تحقيقات بارعة - أن ما يقرب من ثمانين بالمائة من الرهبان والراهبات والقسس قد مارسوا الجنس (أي أنهم من الزناة)، وأن ما يقرب من أربعين بالمائة منهم أيضًا قد مارسوا الشذوذ الجنسي، ولذا فقد ركزت هاتان الصحيفتان حملتاهما على نظام الرهبنة الذي يمنع الرهبان والراهبات والقسس من الزواج. ، ونادت بأن يلغى هذا النظام المبني على الخداع والكذب فيحاول أن يلغي الفطرة ويمنع الزواج،

فتكون النتيجة هي هذه النسبة العالية من الزنا والشذوذ الجنسي ونشرت مذكرات أحدى العاهرات في فرنسا فجاء فيها أسماء ثلاثة من البابوات وأحد عشر كردينالا، ونشرت مجلة النيوزويك في ١/ ٨/ ١٩٧٤ أن أحد كبار كرادلة فرنسا مات وهو في أحضان أحدى العاهرات في باريس، وبعد عدة أشهر مات كردينال آخر بنفس الطريقة.

الخيانة الزوجية والخليلات:

وقد نشرت صحيفة الشرق الأوسط التي تصدر في لندن في عددها الصادر ١٥/ ٧/ ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٩/ ٥/ ١٩٨٠ م أن ٧٥٪ من الأزواج يخونون زوجاتهم في أوروبا، وأن نسبة أقل من المتزوجات يفعلن الشيء ذاته، وفي كثير من هذه الحالات يعلم الزوج بخيانة زوجته وتعلم الزوجة بخيانة زوجها ومع هذا قد تستمر العلاقات الزوجية الشكلية دون أن يطرأ عليها أي انفصام. أما العلاقات قبل الزواج فإن ٨٠٪ إلى ٨٥٪ من الرجال البالغين لهم خليلات. ، وأن لكل واحد منهم خليلة واحدة فقط وأن خيانة المخاللين للخليلات أقل من خيانتهم للزوجات واكتشفت الدراسة أن خيانة الخليلات لأخلائهن هي أكثر من خيانة الزوجات لأزواجهن، وتقول الدراسة أن ما بقي من أفراد المجتمع غير المتزوجين والذين ليس لهم خليلات هم من الزناة الذين يتنقلون من امرأة إلى أخرى وليست لهم علاقة دائمة. وتشيد الدراسة بالأخلاق العالية للمجتمع الأوروبي الذي ارتفعت فيه نسبة العشاق والمتخذين أخدانًا بحيث أنها وصلت إلى ٨٥٪ من مجموعة غير المتزوجين وأن الخيانة بين المتخاللين والمتخذين أخدانًا هي أقل منها بين المتزوجين.

وتذكر الدراسة أن الرجل الفرنسي يأتي في المرتبة الأولى من حيث اتخاذ الخليلات وعدم خيانتهن، يليه الألماني، ثم يليه البريطاني، ثم يأتي في آخر القائمة الإيطالي والأسباني.

وقد نشرت صحيفة الشرق الأوسط في عددها الصادر ١٢/ ٧/ ١٤٠٠ الموافق ٢٦/ ٥/ ١٩٨٠ تحت عنوان (بريطانيا الجديدة) أزمات زوجية وعائلية وارتفاع حالات الخيانات على أنواعها " بريطانية مقبلة على أزمة اجتماعية كبيرة، وتتحدث أرقام رسمية

نشرت أمس في لندن عن تزايد المخاوف من زيادة نسبة الطلاق وانخفاض نسبة الزواج وارتفاع نسبة الخيانة الزوجية بين الطرفين، وتقول الأرقام ما يلي:

١- ٣٠ بالمائة من الأزواج الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و ٢٤ عامًا عليهم أن يتوقعوا سلسلة عمليات طلاق خلال ١٥ عامًا الآتية.

٢- ارتفع عدد الأمهات المطلقات إلى مليون وربع المليون أم، والرقم مرشح للزيادة.

٣- ٥٠ بالمئة من الأزواج الجدد يرفضون الإنجاب خلال السنوات الثلاث الأولى من زواجهم.

٤-٩٠ بالمئة من المراهقين بين سن ١٣ و١٦ يقبلون على شرب الخمور بصورة مزعجة. وقد أدخل كثير منهم إلى المستشفيات بسبب انغماسهم في الشراب.

٥- ارتفاع نسبة الذين يتعاطون المخدرات من الشباب والمراهقين.

وفي بحث عن الطلاق نشرته مجلة U. S. News of World Report الصادرة في ٢١ نوفمبر ١٩٨٣ جاء فيه أن الطلاق في الولايات المتحدة يزداد بسرعة رهيبة فهناك مليون حالة طلاق في كل عام في الولايات المتحدة أي بمعدل طلاق واحد كل ٢٧ ثانية. . والغريب حقًا إنهم اتجهوا إلى إجراء الطلاق بدون إثبات أو اتهام الخيانة الزوجية الذي كانت المحاكم تطالب به لتحكم بالطلاق. . وبينما نرى الغرب يتجه رويدًا رويدًا إلى ما يقارب التشريع الإسلامي في الطلاق نرى الدول العربية مثل تونس واليمن الجنوبية ومصر وغيرها تتجه إلى القوانين الغربية التي عفا عليها الزمن.

الوجه الرابع: البغاء في الكتاب المقدس.

يقول الكتاب: وَسَلْمُونُ وَلَدَ بُوعَزَ مِنْ رَاحَابَ. (متى ١ : ٥).

ويقول يشوع عن راحاب: فَذَهَبَا وَدَخَلاَ بَيْتَ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ اسْمُهَا رَاحَابُ وَاضْطَجَعَا هُنَاكَ. (يشوع٢: ١).

نبي الله شمشون يذهب إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها (قضاه ١٦ : ١)

نبي الله حزقيال يشجع النساء على الزنا والفجور (حزقيال ١٦-٣٣-٣٤).

قال الراهب الإنجليزي اسكندر نكهام: إنه نظرًا لأن المرأة لا تشبع جنسيًا، فإنها غالبًا ما تصطاد بائسًا لينام معها في فراشها ليشبع نهمها إذا كان زوجها غير موجود في لحظة شبقها، ونتيجة لذلك كان على الأزواج أن يربوا أولادًا غير أولادهم. (١)

وفي (الأمثال ٧: ٧-٢٢) فَرَأَيْتُ بَيْنَ الْجُهَّالِ، لاَحَظْتُ بَيْنَ الْبَنِينَ غُلاَمًا عَدِيمَ الْفَهْمِ، ٨ عَابِرًا فِي الشَّارِعِ عِنْدَ زَاوِيَتِهَا، وَصَاعِدًا فِي طَرِيقِ بَيْتِهَا. ٩ فِي الْعِشَاءِ، فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ، فِي حَدَقَةِ اللَّيْلِ وَالظَّلاَمِ. ١٠ وَإِذَا بِامْرَأَةٍ اسْتَقْبَلَتْهُ فِي زِيِّ زَانِيَةٍ، وَخَبِيثَةِ الْقَلْبِ. ١١ صَخَّابَةٌ هِيَ وَجَامِحَةٌ. فِي بَيْتِهَا لاَ تَسْتَقِرُّ قَدَمَاهَا. ١٢ تَارَةً فِي الْخَارِجِ، وَأُخْرَى فِي الشَّوَارِعِ، وَعِنْدَ كُلِّ زَاوِيَةٍ تَكْمُنُ. ١٣ فَأَمْسَكَتْهُ وَقَبَّلَتْهُ. أَوْقَحَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ لَهُ: ١٤ «عَلَيَّ ذَبَائِحُ السَّلاَمَةِ. الْيَوْمَ أَوْفَيْتُ نُذُورِي. ١٥ فَلِذلِكَ خَرَجْتُ لِلِقَائِكَ، لأَطْلُبَ وَجْهَكَ حَتَّى أَجِدَكَ. ١٦ بِالدِّيبَاجِ فَرَشْتُ سَرِيرِي، بِمُوَشَّى كَتَّانٍ مِنْ مِصْرَ. ١٧ عَطَّرْتُ فِرَاشِي بِمُرٍّ وَعُودٍ وَقِرْفَةٍ. ١٨ هَلُمَّ نَرْتَوِ وُدًّا إِلَى الصَّبَاحِ. نَتَلَذَّذُ بِالْحُبِّ. ١٩ لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ فِي الْبَيْتِ. ذَهَبَ فِي طَرِيق بَعِيدَةٍ. ٢٠ أَخَذَ صُرَّةَ الْفِضَّةِ بِيَدِهِ. يَوْمَ الْهِلاَلِ يَأْتِي إِلَى بَيْتِهِ». ٢١ أَغْوَتْهُ بِكَثْرَةِ فُنُونِهَا، بِمَلْثِ شَفَتَيْهَا طَوَّحَتْهُ. ٢٢ ذَهَبَ وَرَاءَهَا لِوَقْتِهِ، كَثَوْرٍ يَذْهَبُ إِلَى الذَّبْحِ، أَوْ كَالْغَبِيِّ إِلَى قَيْدِ الْقِصَاصِ، ٢٣ حَتَّى يَشُقَّ سَهْمٌ كَبِدَهُ. كَطَيْرٍ يُسْرِعُ إِلَى الْفَخِّ.

ثم ما هذا الكلام الذي يقال في مدينة القدس الشريفة، وهل هذا يرد في كتاب مقدس جاء من عند الله، ففي (حزقيال: ١٦: ١-٣٤): ١ وَكَانَتْ إِلَيَّ كَلِمَةُ الرَّبِّ قَائِلَةً: ٢ «يَا ابْنَ آدَمَ، عَرِّفْ أُورُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا، ٣ وَقُلْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِيٌّ وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. ٤ أَمَّا مِيلاَدُكِ يَوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِي بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِي تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِي تَقْمِيطًا. ٥ لَمْ تَشْفُقْ عَلَيْكِ عَيْنٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هذِهِ لِتَرِقَّ لَكِ، بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يَوْمَ وُلِدْتِ. ٦ فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِي، قُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ

(١) إنسانية المرأة/ ٢٠٠.

عِيشِي. ٧ جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيَانِ. نَهَدَ ثَدْيَاكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. ٨ فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيْلِي عَلَيْكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِي عَهْدٍ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِي. ٩ فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ، ١٠ وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ، وَكَسَوْتُكِ بَزًّا، ١١ وَحَلَّيْتُكِ بِالْحُلِيِّ، فَوَضَعْتُ أَسْوِرَةً فِي يَدَيْكِ وَطَوْقًا فِي عُنُقِكِ. ١٢ وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِي أَنْفِكِ وَأَقْرَاطًا فِي أُذُنَيْكِ وَتَاجَ جَمَالٍ عَلَى رَأْسِكِ. ١٣ فَتَحَلَّيْتِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلِبَاسُكِ الْكَتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمُطَرَّزُ. وَأَكَلْتِ السَّمِيذَ وَالْعَسَلَ وَالزَّيْتَ، وَجَمُلْتِ جِدًّا جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. ١٤ وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِي الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلًا بِبَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيْكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. «فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيْتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. ١٦ وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيَابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيْتِ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. ١٧ وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِي وَمِنْ فِضَّتِي الَّتِي أَعْطَيْتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيْتِ بِهَا. ١٨ وَأَخَذْتِ ثِيَابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيْتِهَا بِهَا، وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيْتِي وَبَخُورِي. ١٩ وَخُبْزِي الَّذِي أَعْطَيْتُكِ، السَّمِيذَ وَالزَّيْتَ وَالْعَسَلَ الَّذِي أَطْعَمْتُكِ، وَضَعْتِهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُرُورٍ. وَهكَذَا كَانَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ.

٢٠ «أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِي، وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَامًا. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ ٢١ أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِيَّ وَجَعَلْتِهِمْ يَجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا؟ ٢٢ وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. ٢٣ وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرِّكِ. وَيْلٌ، وَيْلٌ لَكِ! يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، ٢٤ أَنَّكِ بَنَيْتِ لِنَفْسِكِ قُبَّةً وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ. ٢٥ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. ٢٦ وَزَنَيْتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي. ٢٧ «فَهأَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِي عَلَيْكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ، بَنَاتِ

الْفِلِسْطِينِيِّينَ، اللَّوَاتِي يَخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. ٢٨ وَزَنَيْتِ مَعَ بَنِي أَشُّورَ، إِذْ كُنْتِ لَمْ تَشْبَعِي فَزَنَيْتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيْضًا. ٢٩ وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَبِهذَا أَيْضًا لَمْ تَشْبَعِي. ٣٠ مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ سَلِيطَةٍ، ٣١ بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيق، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقِرَةً الأُجْرَةَ. ٣٢ أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. ٣٣ لِكُلِّ الزَّوَانِي يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَايَاكِ، وَرَشَيْتِهِمْ لِيَأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. ٣٤ وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ.

ثم ما هذا الأسلوب القصصي الرائع الذي يبدوا أن مؤلفه كان مغرمًا بالبغاء والعاملات فيه، وذلك في قصة العاهرتين: أهولا وأهوليبا: رمز للمدينتين السامرة وأورشليم لكن بإسلوب جنسي مثير.

وفي (حزقيال ٢٣- ٢٩: ١): وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: ٢ «يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، ٣ وَزَنَتَا بِمِصْرَ. فِي صِبَاهُمَا زَنَتَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. ٤ وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا. وَكَانَتَا لِي، وَوَلَدَتَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ. وَاسْمَاهُمَا: السَّامِرَةُ «أُهُولَةُ»، وَأُورُشَلِيمُ «أُهُولِيبَةُ». ٥ وَزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وَعَشِقَتْ مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الأَبْطَالَ ٦ اللاَّبِسِينَ الأَسْمَانْجُونِيَّ وُلاَةً وَشِحَنًا، كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ، فُرْسَانٌ رَاكِبُونَ الْخَيْلَ. ٧ فَدَفَعَتْ لَهُمْ عُقْرَهَا لِمُخْتَارِي بَنِي أَشُّورَ كُلِّهِمْ، وَتَنَجَّسَتْ بِكُلِّ مَنْ عَشِقَتْهُمْ بِكُلِّ أَصْنَامِهِمْ. ٨ وَلَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضًا، لأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا، وَزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عِذْرَتِهَا وَسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ. ٩ لِذلِكَ سَلَّمْتُهَا لِيَدِ عُشَّاقِهَا، لِيَدِ بَنِي أَشُّورَ الَّذِينَ عَشِقَتْهُمْ. ١٠ هُمْ كَشَفُوا عَوْرَتَهَا. أَخَذُوا بَنِيهَا وَبَنَاتِهَا، وَذَبَحُوهَا بِالسَّيْفِ، فَصَارَتْ عِبْرَةً لِلنِّسَاءِ. وَأَجْرَوْا عَلَيْهَا حُكْمًا. ١١ «فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَا أُخْتِهَا. ١٢ عَشِقَتْ بَنِي أَشُّورَ الْوُلاَةَ وَالشِّحَنَ الأَبْطَالَ اللاَّبِسِينَ

أَفْخَرَ لِبَاسٍ، فُرْسَانًا رَاكِبِينَ الْخَيْلَ كُلُّهُمْ شُبَّانُ شَهْوَةٍ. ١٣ فَرَأَيْتُ أَنَّهَا قَدْ تَنَجَّسَتْ، وَلِكِلْتَيْهِمَا طَرِيقٌ وَاحِدَةٌ. ١٤ وَزَادَتْ زِنَاهَا. وَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى رِجَال مُصَوَّرِينَ عَلَى الْحَائِطِ، صُوَرُ الْكَلْدَانِيِّينَ مُصَوَّرَةً بِمُغْرَةٍ، ١٥ مُنَطَّقِينَ بِمَنَاطِقَ عَلَى أَحْقَائِهِمْ، عَمَائِمُهُمْ مَسْدُولَةٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. كُلُّهُمْ فِي الْمَنْظَرِ رُؤَسَاءُ مَرْكَبَاتٍ شِبْهُ بَنِي بَابِلَ الْكَلْدَانِيِّينَ أَرْضِ مِيلاَدِهِمْ، ١٦ عَشِقَتْهُمْ عِنْدَ لَمْحِ عَيْنَيْهَا إِيَّاهُمْ، وَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ رُسُلاً إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ. ١٧ فَأَتَاهَا بَنُو بَابِلَ فِي مَضْجَعِ الْحُبِّ وَنَجَّسُوهَا بِزِنَاهُمْ، فَتَنَجَّسَتْ بِهِمْ، وجَفَتْهُمْ نَفْسُهَا. ١٨ وَكَشَفَتْ زِنَاهَا وَكَشَفَتْ عَوْرَتَهَا، فَجَفَتْهَا نَفْسِي، كَمَا جَفَتْ نَفْسِي أُخْتَهَا. ١٩ وَأَكْثَرَتْ زِنَاهَا بِذِكْرِهَا أَيَّامَ صِبَاهَا الَّتِي فِيهَا زَنَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ. ٢٠ وَعَشِقَتْ مَعْشُوقِيهِم الَّذِينَ لَحْمُهُمْ كَلَحْمِ الْحَمِيرِ وَمَنِيُّهُمْ كَمَنِيِّ الْخَيْلِ. ٢١ وَافْتَقَدْتِ رَذِيلَةَ صِبَاكِ بِزَغْزَغَةِ الْمِصْرِيِّينَ تَرَائِبَكِ لأَجْلِ ثَدْيِ صِبَاكِ. ٢٢ «لأَجْلِ ذلِكَ يَا أُهُولِيبَةُ، هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُهَيِّجُ عَلَيْكِ عُشَّاقَكِ الَّذِينَ جَفَتْهُمْ نَفْسُكِ، وَآتِي بِهِمْ عَلَيْكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ: ٢٣ بَنِي بَابِلَ وَكُلَّ الْكَلْدَانِيِّينَ، فَقُودَ وَشُوعَ وَقُوعَ، وَمَعَهُمْ كُلُّ بَنِي أَشُّورَ، شُبَّانُ شَهْوَةٍ، وُلاَةٌ وَشِحَنٌ كُلُّهُمْ رُؤَسَاءُ مَرْكَبَاتٍ وَشُهَرَاءُ. كُلُّهُمْ رَاكِبُونَ الْخَيْلَ. ٢٤ فَيَأْتُونَ عَلَيْكِ بِأَسْلِحَةٍ مَرْكَبَاتٍ وَعَجَلاَتٍ، وَبِجَمَاعَةِ شُعُوبٍ يُقِيمُونَ عَلَيْكِ التُّرْسَ وَالْمِجَنَّ وَالْخُوذَةَ مِنْ حَوْلِكِ، وَأُسَلِّمُ لَهُمُ الْحُكْمَ فَيَحْكُمُونَ عَلَيْكِ بِأَحْكَامِهِمْ. ٢٥ وَأَجْعَلُ غَيْرَتِي عَلَيْكِ فَيُعَامِلُونَكِ بِالسَّخَطِ. يَقْطَعُونَ أَنْفَكِ وَأُذُنَيْكِ، وَبَقِيَّتُكِ تَسْقُطُ بِالسَّيْفِ. يَأْخُذُونَ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ، وَتُؤْكَلُ بَقِيَّتُكِ بِالنَّارِ. ٢٦ وَيَنْزِعُونَ عَنْكِ ثِيَابَكِ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ. ٢٧ وَأُبَطِّلُ رَذِيلَتَكِ عَنْكِ وَزِنَاكِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فَلاَ تَرْفَعِينَ عَيْنَيْكِ إِلَيْهِمْ وَلاَ تَذْكُرِينَ مِصْرَ بَعْدُ. ٢٨ لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُسَلِّمُكِ لِيَدِ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، لِيَدِ الَّذِينَ جَفَتْهُمْ نَفْسُكِ. ٢٩ فَيُعَامِلُونَكِ بِالْبُغْضَاءِ وَيَأْخُذُونَ كُلَّ تَعَبِكِ، وَيَتْرُكُونَكِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً، فَتَنْكَشِفُ عَوْرَةُ زِنَاكِ وَرَذِيلَتُكِ وَزِنَاكِ.

وهذا لمن يقولون إنهما مدينتان.[1]

---

(١) الجنس في الكتاب المقدس (٦٠).

(حزقيال ٢٣/ ٤٤): فَدَخَلُوا عَلَيْهَا كَمَا يُدْخَلُ عَلَى امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ. هكَذَا دَخَلُوا عَلَى أُهُولَةَ وَعَلَى أُهُولِيبَةَ الْمَرْأَتَيْنِ الزَّانِيَتَيْنِ.

ولا مشكلة عندي أن كاتب الكتاب يضرب مثالًا للمدينتين السامرة وأورشليم بهاتين المرأتين العاهرتين الزانيتين الفاجرتين المفضوحتين الفاسقتين أهولة وأهوليبة، ولكن ألم يجد الرب مثالا غير هذا المثال أوليس عند الرب ألفاظًا يقولها للناس في كتابه غير هذه الألفاظ الجميلة الرائعة؟!

وفي (هوشع ١: ٢-٤): أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى، لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ». ٣ فَذَهَبَ وَأَخَذَ جُومَرَ بِنْتَ دِبْلاَيِمَ، فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا، ٤ فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «ادْعُ اسْمَهُ يَزْرَعِيلَ، لأَنَّنِي بَعْدَ قَلِيل أُعَاقِبُ بَيْتَ يَاهُو عَلَى دَمِ يَزْرَعِيلَ، وَأُبِيدُ مَمْلَكَةَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ.

وفي (هوشع ٢: ١-٤): ١ «قُولُوا لإِخْوَتِكُمْ «عَمِّي» وَلأَخَوَاتِكُمْ «رُحَامَةَ». ٢ حَاكِمُوا أُمَّكُمْ حَاكِمُوا، لأَنَّهَا لَيْسَتِ امْرَأَتِي وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا، لِكَيْ تَعْزِلَ زِنَاهَا عَنْ وَجْهِهَا وَفِسْقَهَا مِنْ بَيْنِ ثَدْيَيْهَا، ٣ لِئَلاَّ أُجَرِّدَهَا عُرْيَانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيَوْمِ وِلاَدَتِهَا، وَأَجْعَلَهَا كَقَفْرٍ، وَأُصَيِّرَهَا كَأَرْضٍ يَابِسَةٍ، وَأُمِيتَهَا بِالْعَطَشِ. ٤ وَلاَ أَرْحَمُ أَوْلاَدَهَا لأَنَّهُمْ أَوْلاَدُ زِنًى.

وفي (هوشع ٣: ١): ١ وَقَالَ الرَّبُّ لِي: «اذْهَبْ أَيْضًا أَحْبِبِ امْرَأَةً حَبِيبَةَ صَاحِبٍ وَزَانِيَةً، كَمَحَبَّةِ الرَّبِّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ مُلْتَفِتُونَ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى وَمُحِبُّونَ لأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ».

* * *

١٣ـ شبهة: اشتراط الولي.

نص الشبهة:

يرى البعض أن اشتراط الإسلام الولي لصحة عقد زواج المرأة يُعدُّ حجرًا عليها.

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه.

الوجه الأول: اشتراط الولي في صحة النكاح يُعدُّ في مصلحة المرأة، وليس حجرًا عليها.

الوجه الثاني: اشتراط الولي فيه صيانة للمرأة وحفاظًا على كرامتها

الوجه الثالث: للولي دور كبير في زواج موكلته، لا تستطيع أن تقوم به المرأة.

الوجه الرابع: لابد من اجتماع الإرادتين إرادة الولي وإرادة المرأة.

الوجه الخامس: وأخيرًا كلمة انصاف في هذه المسألة لكل العقلاء.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: اشتراط الولي في صحة النكاح يُعدُّ في مصلحة المرأة، وليس حجرًا عليها.

النكاح يقصد به السكن والاستقرار؛ لتحصيل النسل وتربيته، ولا يتحقق ذلك مع كل زوج، والتفويض إليهن مُخِلٌّ بهذه المقاصد؛ لأنهن سريعات الاغترار، سيئات الاختيار، فيخترن من لا يصلح، خصوصًا عند غلبة الشهوة وهو غالب أحوالهن، فالأنوثة مظنة قصور الرأي لما غلب على طبعهن من العاطفة. [1]

فالمرأة لقلة تجربتها في المجتمع، وعدم معرفتها شئون الرجال وخفايا أمورهم غير مأمونة حين تستبد بالأمر؛ لسرعة انخداعها، وسهولة اغترارها بالمظاهر البراقة دون تروٍّ وتفكير في العواقب، وقد اشترط إذن الولي مراعاة لمصالحها؛ لأنه أبعد نظرًا، وأوسع خبرةً، وأسلم تقديرًا، وحكمه موضوعي لا دخل فيه للعاطفة أو الهوى، بل يبنيه على اختيار من يكون أدوم نكاحًا وأحسن عشرة[2].

فمهمة الولي هنا أن يقوم بدور الفاحص المتحقق من حقيقة حال وظروف الرجل. [3]

---

(١) أحكام إذن الإنسان ٢/ ٤١٧.

(٢) عودة الحجاب ٢/ ٣٥٦.

(٣) دراسات في أحكام الأسرة (١٨٦).

الوجه الثاني: اشتراط الولي فيه صيانة للمرأة وحفاظًا على كرامتها.

إن من مقاصد هذا التشريع الحكيم صيانة المرأة عن أن تباشر بنفسها ما يشعر بوقاحتها، ورعونتها، وميلها إلى الرجال، مما ينافي حال أرباب الصيانة والمروءة.

فالمرأة إذا باشرت بنفسها عقد النكاح أمام جمع الناس، فإنها تظهر بمظهر المشتاقة إلى النكاح، الطالبة له على نحو صريح، لكن القول باشتراط الولي يحقق للمرأة كرامتها، فقيام الولي بذلك عنها مظهر من مظاهر إكرام الشريعة لها، وإعزازها وتقديرها لما ينبغي نحوها من واجب حمايتها من أي موقف يمس حياءها وعزتها[1].

الوجه الثالث: للولي دور كبير في زواج موكلته، لا تستطيع أن تقوم به المرأة.

١- كيف لا يكون لولي المرأة سلطان في زواجها وهو الذي سيكون -شاءت أم أبت، بل شاء هو أو أبى- المرجع في حالة الاختلاف، وفي حالة فشل الزواج يبوء هو بآثار هذا الفشل، ويجني ثمرات خطأ فتاته التي تمردت عليه، وانفردت بتزويج نفسها؟!

فمما يبرر أن يكون لأولياء المرأة شأن معتبر في تزويجها؛ أنه تلحقهم معرة سوء الاختيار أو تبعاته – ماديًا ونفسيًا-؛ لأن زواج ابنتهم، أو أختهم يضاف إلى أسرتهم ضرورة بمجرد العقد، فهب أن فتاة ما عاقلة بالغة - على قدر ما من الرشد- اغترت بكلام رجل وتظاهره، فسارعت إلى الزواج به دون ولي، ثم ظهر أنه قواد، أو فاسق، أو ملحد، أو خائن لوطنه أحيانًا - كما هو معروف مسجل - وسواء رضيت هي بذلك حتى تبين الأمر، أو لم ترض، ألا تلحق أسرتها وأولياءها معرة هذا الزواج؟ بل إن الأمر لا يقتصر على مجرد المعرة، والذلة النفسية بين الناس، بل يتجاوز ذلك إلى أضرار واقعية تلحق بهم مثل امتناع الناس عن خطبة أخواتها وقريباتها، وغيره من الأضرار الفادحة.[2]

٢- إن الهدف من رقابة الولي على اختيار الزوج ليس فقط تسهيل الزواج، وإنما أيضًا تأمينه وتوفير عوامل الاستقرار له، ورعاية مصالح الفتاة التي ائتمنه الله عليها، وإن قصر

(١) المصدر السابق.

(٢) دراسات في أحكام الأسرة (١٨٧).

نظرها عن إدراكها، ومن هنا كان مبنى الولاية على حسن النظر والشفقة، وذلك معتبر بمظنته، وهي القرابة، فأقربهم منها أشفقهم عليها، وهذا أغلب ما يكون في العصبة. [١]

الوجه الرابع: لابد من اجتماع الإرادتين إرادة الولي وإرادة المرأة فلا يجوز للولي إجبار المرأة على الزواج.

القول باشتراط الولي لا يعد حجرًا على المرأة، وذلك لأن للمرأة أيضًا في زواجها رأيًا لا يغفل، فالمرأة إذا كانت عاقلة لا يستطيع الولي إجبارها على الزواج بدون إذنها. [٢]

قلت: والقول باشتراط الولي في النكاح قال به جمهور أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: جمهور العلماء يقولون: النكاح بغير ولي باطل. [٣]

وقال أيضًا: وإذا رضيت رجلًا، وكان كفؤًا لها، وجب على وليها - كالأخ ثم العم- أن يزوجها به، فإن عضلها أو امتنع عن تزويجها زوجها الولي الأبعد منه أو الحاكم بغير إذنه باتفاق العلماء، فليس للولي أن يجبرها على نكاح مَنْ لا ترضاه؛ ولا يعضلها عن نكاح مَنْ ترضاه إذا كان كفؤًا باتفاق الأئمة. وقدأوجب الله على أولياء النساء أن ينظروا في مصلحة المرأة، لا في أهوائهم كسائر الأولياء والوكلاء عن تصرف لغيره، فإنه يقصد مصلحة من تصرف له، لا يقصد هواه، فإن هذا من الأمانة التي أمر الله أن يؤدي إلى أهلها فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء: ٥٨)، وهذا من النصيحة الواجبة، وقد قال النبيﷺ: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ قَالَ: لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ". [٤] والله أعلم. [٥]

قال ابن بطال: اتفق جمهور العلماء أنه لا يجوز نكاح إلا بولي.

---

(١) عودة الحجاب ٢/ ٣٥٦.

(٢) دراسات في أحكام الأسرة (١٨٧).

(٣) مجموع الفتاوى ٣٢/ ٢١.

(٤) مسلم (٥٥).

(٥) مجموع الفتاوى ٣٢/ ٥٣ بتصرف يسير.

وقال أيضًا: وأجمعوا أن السلطان يُزَوِّجُ المرأة إذا أرادت النكاح أودعت إلى كفء، وامتنع الولي من أن يزوجها. (١)

قال النووي: ولو أرادت أن تتزوج كفؤًا فامتنع الولي، أُجبر، فإنْ أصرَّ زَوَّجها القاضي. (٢)

وذلك لأن الإسلام اشترط لصحة عقد الزواج اجتماع إرادتين، وهما إرادة الولي، وإرادة المرأة، وهذا لا يخلو من الصور الآتية:

الصورة الأولى: أن تجتمع الإرادتان معًا، إرادة الولي، وإرادة موليته، وفي هذه الحالة يصح العقد، بشرط أن يباشر الولي عقد التزويج.

الصورة الثانية: أن الولي وحده راضٍ عن الخاطب، بيد أن المرأة غير راضية به.

وفي هذه الحالة لا يستطيع الولي أن يجبرها على تزويجها بمن لا تريده.

الصورة الثالثة: أن ترضي المرأة - بكرًا كانت أم ثيبًا-؛ رجلًا -كفؤًا بمقياس الشريعة - تريد أن تتزوج منه، ولكن وليها يعضلها فيرفض أن يجلس معه في مجلس العقد؛ ليزوجه إياها، فما الحكم؟.

وفي هذه الصورة يسقط إذن الولي في هذه الحالة إذا أصر على الامتناع وتنتقل الولاية لغيره وتُزَوَّجُ بمن تريد إذا كان كفؤًا.

الصورة الرابعة: أن يكون الذي رضيته المرأة وطلبت من وليها تزويجه منها غير كفءٍ بمقياس الشريعة في الكفاءة، فما الحكم؟

وهنا يكون للولي أن يمتنع من تزويجها، ولا يجوز لها أن تتزوج في هذه الصورة بدون إذن وليِّها، ولا يقال: إن الولي يعدُّ في هذه الصورة حجرًا على المرأة في اختيار من تريد الزواج به؛ لأن مصلحة المرأة في هذه الصورة تقتضي منع هذا التزويج، فأي مصلحة تعود على المرأة لو زوجت من غير كفءٍ كأن يكون مثلًا غير متدين، أوليس عنده مال، ولا

---

(١) شرح البخاري٧/ ٢٤٩: ٢٤١.

(٢) شرح مسلم ٩/ ٢٠٤.

يستطيع أن يتحمل أعباء الحياة؟ والمرأة كما هو معروف عنها ترجح جانب العاطفة على جانب العقل وسريعة الاغترار كما بينا من قبل.

ومن هذا يتضح أن المرأة إذا رضيت رجلًا كفئا، فليس لوليها أن يمنعها من التزويج به، ولو أصر على الامتناع يسقط اعتبار إذنه، ويزوجها وليٌ آخر غيره.

الوجه الخامس: وأخيرًا كلمة إنصاف في هذه المسألة لكل العقلاء.

ولعله قد تبين من مجموع ما سبق كله أن موضوع الولي في الإسلام لم يُشرع ليكون حجرًا على المرأة في اختيار شريك حياتها، أو عضلها عن ذلك، أو امتهانًا لكرامتها، وعقلها، وانتقاصًا منها، وزراية عليها - كما يغلط بذلك معارضون - إنما قد شرع لنقيض ذلك كله من حفظ حياء المرأة، وإعزازها، ومساندتها في أهم العقود والتصرفات المتصلة بها، وإرشادها في ذلك كله ومعاونتها لمزيد الاهتمام بها، مع أنه- بجوار هذه المكاسب لهما - لا ضرر عليها مطلقًا منه، ولا تعطيل لمصالحها، ولا إهدار. وإذا وازن المنصفون بين هذه المكاسب التي تتبدى من الفهم المتكامل الذي قدمناه في مجموع النصوص، وبين ما قد تتعرض له المرأة من تأخير زواجها وقتًا ما حتى يستفسر الولي عنه، ونحو ذلك، لرجح جانب مصلحتها في هذا الفهم رجحانًا عظيمًا، ولمثل هذا وجه هام من وجوه تكريم الإسلام للمرأة، وعنايته العظمى بمصالحها. [1]

يقول د/صابر أحمد طه[2]: لقد زعم بعض المستشرقين أن الإسلام لم يكن منصفًا حينما قيد حرية المرأة في جميع أطوار حياتها، ولم يعطها الحق في أن تتصرف فيما تريد كيفما تشاء.

وللرد على هذا الزعم أقول:

لقد ذكرتُ أن الإسلام أعطى للمرأة الحق في قبول أو رفض منْ جاء يطلب يدها، ولا حق لوليها أن يُجبرها على قبول من لا تريد، وأن يمنعها أن تتزوج من رضيته من أهل

---

(١) مكانة المرأة في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة (٤٨٧).

(٢) نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام (٢١٥-٢١٨) بتصرف يسير.

الخُلق والدين، فذلك شأنها وحدها، بل إنه أخص خصائصها، تتصرف فيه بالمعروف على ما ترى فيه استقرارها وأُلفتها.

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "لاَ تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ وَلاَ تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ. قَالُوا يَا رَسُولَ الله: وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ: أَنْ تَسْكُتَ". [١]

والأحاديث في إعطاء المرأة حرية الاختيار كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

عن عائشة أنها سألت النبيﷺ عَنِ الْجَارِيَةِ يُنْكِحُهَا أَهْلُهَا أَتُسْتَأْمَرُ أَمْ لاَ؟ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهﷺ : نَعَمْ تُسْتَأْمَرُ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ: فَإِنَّهَا تَسْتَحْيِي. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَذَلِكَ إِذْنُهَا إِذَا هِيَ سَكَتَتْ. [٢] أي سكوتها يُكتفى به، فلا تُكلّف التصريح لحيائها، وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة، والتي يفهم منها أن الإسلام قد أعطى المرأة حرية الاختيار، وأنه لا مكان لدعوى المستشرقين الزائفة حول حرية المرأة، لكن المستشرقين لا يعنون هذه الحرية، وإنما يعنون بالحرية هي أن تنطلق المرأة بلا قيد، وأن تتحرر من كل ضابط، وأن تتخلص من كل رقابة، فلا دين يكبح جماحها، ولا أخلاق تهذب طباعها، ولا زوج ولا والد يغير عليها، ويتدخل في حياتها.

هذه الحرية يرفضها الإسلام ولا يقرها؛ لأنها تُحوّل المرأة عن طبيعة فطرتها ورسالتها، ولأنها تدفع المرأة إلى طريق مُظلم مضلل، تكون فيه أداة للأهواء والرغبات، وهذا يؤدى بدوره إلى تحطيم القيم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية، والتي تؤدي بدورها حتمًا إلى تدمير المجتمع وهدم الأسرة، كما أن هذه الحرية تجعل المرأة تدوس على أقدس واجباتها كزوجة وأم وربة منزل، فتهدم تلك الأصول الثلاثة، أضف إلى هذا أن إعطاء الحرية للمرأة، كما يطالب بها الزاعمون تؤدي إلى تفشي الفساد في البلاد، وإلى انتشار الخلاعة والفجور، وإلى فتك الأمراض التناسلية بالعباد، وزهد أكثرهم في الزواج، واتخاذهم الخليلات والأخدان.

---

(١) البخاري (٥١٣٦)، مسلم (١٤١٩).

(٢) البخاري (٥١٣٧)، مسلم (١٤٢٠) واللفظ له.

ولا أدلَّ على ذلك مما يحدث في البلاد التي أعطت المرأة الحرية، تقول صحف أمريكا أرحب بلاد العالم صدرًا بالحرية الجنسية: إن هناك مشكلة اجتماعية خطيرة يتزايد خطرها كل يوم حتى أصبحت تقلق بال المسئولين، فيفزعون إلى المختصين من علماء الاجتماع يسألونهم العون في هذه المشكلة التي تُنذر بالويل والثبور، تلك هي مشكلة الاختطاف، فكل يوم تأتى الأخبار المزعجة بأن بعض الفتيان قد اختطفوا فتيات في سياراتهم، فقضوا منهن وطرهم، وتركوهن بعيدًا عن منازلهن بمسافات شاسعة، لا يتيسر لهنّ الرجوع منها إلا بعد أمد طويل.

ويتبادر إلى الذهن هذا السؤال: فيم الاختطاف والحرية مُباحة للجميع إباحة كاملة لا قيد فيها ولا حدود؟ والسؤال على عجبه مردود ببساطة: إنه لا مناص حين تُطلق الحرية يصنعون ما يشاءون أن تتعارض الأهواء وتصطدم الرغبات فيحدث أن يعشق فتىً فتاة لا تحبه، وإنما تميل بمشاعرها إلى غيره، وما دامت النوازع والشهوات قد أُطلقت من عقالها ولم يضبطها ضابط خوفًا من تقييد الحرية، فإن هذا العاشق المتهوس لن يضبط عواطفه (أستغفرُ الله) بل شهوته إلى تلك الفتاة بعينها، فلا يجد سبيلًا إلا استدراجها واختطافها، وهكذا يحدث هذا الأمر الشنيع في البلد الذي أباح كل شيء للجميع، بل يحدث نتيجة لهذه الإباحة التي لا تقف عند حد. هذا خطر تعترف به أمريكا وتُنذر به الصحف وتطلب تدخل المسئولين، وإن تزايده يومًا بعد يوم لينذر بأنه مقدمة لما هو أخطر منه في الحياة الاجتماعية الأمريكية.

كما أن بريطانيا أعلنت أن عصابات النساء المراهقات قد ازدادت، فقد أُلقى القبض على (٧٤٢٠٠٠) فتاة وسيدة بتهمة السطو والسرقة، و (١٠٠٠٠) فتاة بتهمة الدعارة، و (٢٦٨٠) فتاة دخلت السجن بتهمة السرقة بالإكراه وغير ذلك كثير.

وفي إيطاليا يصل حجم الأعمال اليومي في سوق الدعارة إلى (٥٠٠) مليون جنيه إسترليني في اليوم الواحد، وليس ذلك في شهر أو حتى أسبوع، وهذه الملايين اليومية تذهب جميعها إلى العصابات التي تُدير تجارة الرقيق الأبيض، وتقوم باستغلال حوالي مليون امرأة من مختلف الأعمار.

وفي فرنسا أصدرت منظمة فرق مقاومة تجارة الرقيق الأبيض بيانًا ذكرت فيه المكاسب التي يحققها زعماء شبكات الدعارة خلال عام واحد في فرنسا نحو (٣٠٠٠ مليون فرنك) أي حوالي ٢٣٠ مليون جنيه استرليني، كما أوضح البيان أنه لا توجد فتاة في السويد والدانمارك لا تعرف العلاقة الجنسية قبل الزاوج.

وقد كتبت مجلة تايم الأمريكية أن العذرية قد فقدت أهميتها وأصبحت مسألة غير ذات أهمية بالنسبة للفتيات؛ ولذلك فقد دلت الإحصائيات أن سدس الفتيات الأمريكيات يتزوجن وهنّ حاملات من علاقات جنسية سابقة، وارتفعت نسبة الفتيات اللاتي وضعت أولًادًا من علاقات جنسية غير مشروعة ممن تقل أعمارهن عن العشرين، من (٨٠٤ في الألف) سنة ١٩٤٠م إلى (١٦ في الألف) سنة ١٩٦١م، فكم تكون بلغت الآن؟

وأما من هن فوق العشرين إلى (٢٥) سنة فنسبتهن من (١١ في الألف) إلى (٤١ في الألف)، ولا شك أن هذه النسبة زادت نظرًا لازدياد الإباحية والفجور.

كما نشرت مجلة مستشفى اليوم اللندنية في مقالها الافتتاحي لعدد إبريل سنة ١٩٧٥ موجزًا عن التقرير السنوي للمسئول الطبي في وزارة الصحة والشئون الاجتماعية قال فيه: وبالرغم من التوافر الواسع في حبوب منع الحمل والإجهاض القانوني فإن (٨. ٦٪) من الأطفال يولدون لأمهات غير متزوجات، وتبين وجود (٢٨) حالة حمل لفتيات في الثالثة عشر، (٢٥٥) لفتيات في الرابعة عشر، (٦٦٠٠) حالة إجهاض قانونية في نفس العام، كما أن (٥٠٪) من هذا العدد أي (٨٣٠٠٠) حالة إجهاض لنساء غير متزوجات.

هذه هي الحرية عند الغرب، وهذه هي عاقبتها، الأمر الذي جعل العقلاء منهم ينصحون بأن نمنع الاختلاط، وأن نقيد حرية الفتاة، وأن نتمسك بتقاليدنا وأخلاقنا وديننا وتعاليمنا فهي تعاليم صالحة ونافعة.

إذًا فلا ضرر في أن يقيد الإسلام حرية المرأة من أجل الحفاظ عليها، ولأداء رسالتها الاجتماعية الكبرى.

* * *

١٤ـ شبهة: تعدد الزوجات.

نص الشبهة:

اعترضوا على تعدد الزوجات وكان مجمل اعتراضاتهم في النقاط التالية:

١ - اعتراضهم على تعدد الزوجات بصفة عامة.

٢ - اعتراضهم على تعدد زوجات النبي ﷺ بصفة خاصة.

٣ - اعتراضهم على الزواج بمن هي في ملك اليمين.

٤ - سؤالهم عن نكاح الواهبة نفسها، وحل ذلك إن وقع النبي ﷺ في هواها.

والجواب على هذه الشبهات في هذه المباحث

المبحث الأول: تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية.

ويشتمل على الوجوه الآتية:

الوجه الأول: واقعية التعدد.

الوجه الثاني: ضوابط تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية.

الوجه الثالث: الحكمة من مشروعية التعدد في الشريعة الإسلامية.

الوجه الرابع: تعدد الزوجات كان معروفًا قبل الإسلام.

المبحث الثاني: تعدد زوجات النبي ﷺ

ويشتمل على الوجوه الآتية:

الوجه الأول: النبي ﷺ لم يتزوج بكرًا إلا عائشة، ولم يُعدِّد ﷺ إلا بعد بلوغ سن الشيخوخة.

الوجه الثاني: الحكمة من تعدد زوجات النبي ﷺ.

الوجه الثالث: لو فرض أن النبي ﷺ عدد لقضاء الوطر؛ لم يكن في ذلك قصورًا في مقام النبوة.

الوجه الرابع: الكلام في قصة كل زوجة على حدة بما يرد هذا الزعم الباطل ويبين نبل أخلاق النبي ﷺ. والرد على شبهة زواج النبي ﷺ من عائشة وهي صغيرة السن.

الوجه الخامس: في كتابهم المقدس تعدد نساء الأنبياء؛ وكذلك التسري.

المبحث الثالث: الرد على الشبهات.

الشبهة الأولى: التعدد مشروط بالعدل وهو مستحيل؛ فالتعدد لا يجوز؟

الشبهة الثانية: ما دام التعدد جائزًا فلماذا خلق الله لآدم زوجة واحدة؟

الشبهة الثالثة: لماذا لم يجعل تعدد الزوجات بيد القاضي حتى يتأكد من وجود ضوابط التعدد عند الرجل؟

الشبهة الرابعة: لماذا تعدد الزوجات للرجال؟ ولم يجز تعدد الأزواج للنساء؟

الشبهة الخامسة: لماذا حد النساء بأربع وليس كذلك الإماء؟

الشبهة السادسة: أن التعدد يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة.

الشبهة السابعة: لماذا لم يوافق النبي ﷺ على زواج علي بن أبي طالب من ابنة أبي جهل؟

المبحث الرابع: التعدد في اليهودية والنصرانية.

وإليك التفصيل

المبحث الأول: تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية.

الوجه الأول: واقعية التعدد.

إن شريعة التعدد تعني أنه لا يمكن أن يتعدد شيء إلا إذا كان المتعدد فائضًا، فطبيعي أن يتعدد، وهب أن جماعة دخلوا حجرة فيها عشرة كراسي وهم عشرة، فكل واحد سوف يجلس على كرسي، فإذا دخل العشرة فوجدوا اثنى عشر كرسيًا، فإنَّ واحدًا يمكن أن يجلس على كرسي ويتكئ على كرسي آخر، ولا يمكن أن يعدد لنفسه كرسيين إلا إذا كان هناك فائض، فالتعدد لا يتأتى إلا عن فائض وهذه القضية خدمتها الإحصاءات. (١)

فإذا نظرنا إلى الإحصائيات التي تنشر في أوربا وأمريكا عن ازدياد نسبة الأولاد غير الشرعيين زيادةً تقلق الباحثين الاجتماعيين، وهؤلاء ليسوا إلا نتيجة لاقتصار الرجل على امرأة واحدة وكثرة عدد الفائض من النساء اللاتي لا يجدن طريقًا مشروعًا للاتصال الجنسي. (٢)

---

(١) شبهات وأباطيل للشعراوي (٧٧، ٧٨).

(٢) المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي (٨٢).

فإذا نظرت حولك وجدت أن عدد الإناث أكثر من عدد الذكور، فإذا أعطينا كل ذكر أنثى لوجدنا الفائض عددًا كبيرًا، هذا العدد ما موقفه في المجتمع؟!

إن هذا العدد سيعمل على إغراء الذكور بخيانة زوجاتهم، أو انتزاعهم من أحضان زوجاتهم، وتنتشر الرذيلة في المجتمع، ويكثر الأولاد غير الشرعيين، أما إذا أُخِذَ بالتعدد فإنه يمنع الكارثة، ويحل قضية الفائض من النساء، فلقد شرع الإسلام هذا التعدد لكي يحمي المجتمع من الفوضى والفساد، فالحل الإسلامي حَلٌّ طبيعي في حل مشكلة الفائض، والمُشَرِّعُ الأعلى يعلم أنه سيوجد فائض فيمن يخلق، ولكنه فائض لحكمة؛ وهذه الحكمة لجأ إليها كثير من الدول الآن حين لاحظوا نقصًا في عدد الرجال نتيجة الحروب، فأحبوا أن يعددوا حتى يخصب الرجل الواحد مجموعة من الإناث، فقد دخلت أوربا حربين عالميتين خلال ربع قرن ففني فيها ملايين الرجال، وأصبحت جماهير من النساء ما بين فتيات وما بين متزوجات قد فقدن عائلهن، وليس أمامهن إلا أن يتعرفن على المتزوجات الذين بقوا أحياء، فوجدت النساء المتزوجات قلقًا وهجرًا وحرمانًا نتيجة مخادنة النساء اللاتي ليس لهن عائل أو رجل لأزواجهن، فقامت جمعيات نسائية في أوربا تطلب بتعدد الزوجات لتلافي الخسارة البالغة والضياع الحتمي. اهـ[(١)]

فها قد رأيت واقعية الإسلام في شريعة تعدد الزوجات، ولكنه شرعها بضوابط، وهي الثانية.

الوجه الثاني: ضوابط تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية.

الضابط الأول: العدل بين الزوجات.

المراد بالعدل هنا: هو التسوية بين الزوجات في الأمور المادية: كالطعام، والكسوة، والسكن، والمبيت؛ من غير تفرقة بين زوجة غنية وفقيرة، وعظيمة وحقيرة.[(٢)]

---

(١) المرأة بين الفقة والقانون للسباعي (٨٣)، نقلًا عن تعدد الزوجات في الأديان، وانظر أضواء البيان للشنقيطي تفسير الآية: ٢ من سورة النساء، والظلال لسيد قطب آية: ٣ من سورة النساء.

(٢) الزواج للحفناوي (٣).

والذين يأخذون حكم الله في التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضًا في العدل، وتطبيقًا لهذا الشرع يجب أن يعدل بينهما في ما يملك، فيعد لكل واحدة مكانًا كالأخرى، وزمانًا، وفي متاع المكان، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه، فليس له أن يجعل شيئًا له قيمة عند واحدة؛ وشيئًا لا قيمة له عند أخرى، لابد من المساواة لا في متاعها فقط بل متاع الزوج الذي يتمتع به عندها، حتى إن بعض المسلمين الأوائل كان يساوي بينهن في النعال التي يلبسها في بيته، فيأتي بها من لون واحد، وشكل واحد، وصنف واحد، وذلك حتى لا تقول واحدة منهن للأخرى: إن زوجي يكون عندي في أحسن هندامًا منه عندك. إلى آخر العدالة في كل ما يدخل في اختيار العبد، لأن العدالة التي لا تدخل في الاختيار لا يكلف الله بها، إذا تم العدل في المكان، والزمان والمتاع وكل الأمور المختارة، أما الميل القلبي فهذا ليس بيد العبد ولا في قدرته واختياره ومثال ذلك:

أن يرتاح عند واحدة ولا يرتاح عند أخرى، أو يرتاح جنسيًا عند واحدة ولا يرتاح عند أخر، لكن الأمر الظاهر لكلٍّ يجب أن تكون القسمة فيه بالسوية حتى لا تُفضَّل واحدة على الأخرى.[1]

فإذا خاف الرجل الظلم وعدم العدل بينهن حرم عليه الجمع بينهن، قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ (النساء: ٣).

ولا يشترط اليقين من عدم العدل لحرمة الزواج بالثانية، بل يكفي غلبة الظن[2].

الضابط الثاني: القدرة على الإنفاق.

فهي شرط للإقدام على الزواج سواءً كان الرجل يريد التزويج بواحدة أو أكثر، فإن عجز عن الإنفاق لا يحل له شرعًا أن يقدم على الزواج وإن كان زواجه الأول كما قال ﷺ:

---

(١) تعدد الزوجات في الأديان (٣٤، ٣٥).

(٢) الزواج للحفناوي (٢٣١)، وانظر: تفسير المنار ٤/ ٣٥٠، وأضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٣٧٧، والمنار ٤/ ٣٦٤، والظلال لسيد قطب ١/ ٥٨٢.

"من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء". [(١)]

ولو قدر على الإنفاق على زوجة واحدة فقط لا يحل له شرعًا أن يتزوج من ثانية لأن هذا يعتبر ظلمًا للثانية، ويوصف الرجل عندئذ بعدم المبالاة بحقوق الغير، وقد اتفق الفقهاء على هذين الشرطين العدالة والقدرة على الإنفاق، لا بد من توافرهما لكل من يريد الزواج وعنده زوجة، لكن إذا حصل وتزوج مع فقد هذين الشرطين أو أحدهما فالزواج صحيح مع الإثم، بمعنى أن الله سيحاسبه على الظلم وعدم القيام بتكاليف الزواج. [(٢)]

وإنما حكم العلماء بصحة الزواج مع الإثم لما يلي:

(١) هذان الشرطان ليسا من شروط صحة الزواج، وفساد العقود وصحتها يرتبطان بأمور واقعة لا بأمور متوقعة، ولو حكمنا بفساد العقد لخشية الظلم أو لعدم الإنفاق لحكمنا بفساد العقد لأمر متوقع قد يقع وقد لا يقع.

(٢) إن خوف الظلم أمر نفسي، وأحكام العقود بالصحة والفساد لا يصح أن ترتبط بأمور نفسية خفية لا تجري عليها أحكام القضاء، والقدرة على الإنفاق أمر يتصل بالرزق، والرزق أمره عند علام الغيوب، فليس لأحد أن يجيء إلى عاقدين علم كل منهما بأمر صاحبه وقدرته وقد رضيا بالزواج؛ فيقول لهما لا تتزوجا، أو الزواج بينكما غير صحيح؛ لأنه في المستقبل لا يستطيع الإنفاق عليها. اهـ[(٣)]

الضابط الثالث:

ومن ضوابط التعدد أن لا يزيد على أربع إلا ما كان من رسول الله ﷺ فهذه خصوصية له قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣)

---

(١) البخاري (٥٠٦٦).

(٢) الأحوال الشخصية لأبي زهرة (٩١)، وانظر: الزواج للحفناوي (٢٣٣، ٢٣٤)، وانظر: الفقه الإسلامي وأدلته لوهبه الزحيلي ٧/ ١٦٨.

(٣) الزواج للحفناوي (٢٣٤)، وانظر: تعدد الزوجات في الأديان (٣٧-٤٠).

وهذه مسألة مجمع عليها بين علماء أهل السنة والجماعة وقد نقل الإجماع فيها الحافظ ابن حجر، وابن قدامة، وابن كثير، وابن حزم، إلا ما استنفره من لاحظ له في الإسلام، أو رافضي ونحوه، ومن أسلم وتحته أكثر من أربع أُمِرَ بفراق ما زاد على الأربع، ولا يشترط أن يفارق الأخريات بعينهن أو الأوليات، بل يفارق مَنْ شاء بشرط ألا يزيد ما تحته على أربع نسوة.

أما إذا كان مسلمًا وعنده أربع نسوة وعقد على خامسة أُمر بفراقها؛ لأن عقدها فاسد إلا إذا طلق إحدى الأربع وانقضت عدتها. (١)

الضابط الرابع:

عدم الجمع بين الأختين، أو البنت وعمتها، أو خالتها، نسبًا أو رضاعًا لقوله تعالى:

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ (النساء: ٢٣).

وعن زَيْنَبَ ابْنَة أَبِي سَلَمَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله انْكِحْ أختي بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ. فَقَالَ: أَوَتُحِبِّينَ ذَلِكَ؟. فَقُلْتُ: نَعَمْ؛ لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ، وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرٍ أُخْتِي، فَقَالَ النبي ﷺ: "إِنَّ ذَلِكَ لاَ يَحِلُّ لِي، قُلْتُ: فَإِنَّا نُحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنَّهَا لاَبْنَةُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ فَلاَ تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلاَ أَخَوَاتِكُنَّ". (٢)

ويدخل في هذا منع الشرع من الزواج بالمحرمات نسبًا أو رضاعًا من باب أولى.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ (النساء: ٢٢، ٢٣). (٣)

---

(١) فتح الباري ٩/ ٤٢، والمحلي ٩/ ٤٤١، والأم ٥/ ١٦٤.

(٢) البخاري (٥١٠١)، ومسلم (١٤٤٩).

(٣) الطبري ٨/ ١٣٢، وإسناده صححه الشيخ مصطفى العدوي في جامع أحكام النساء٣/ ٣٣.

فالجمع بين الأختين حرام بالإجماع، سواءٌ كانتا شقيقتين، أَمْ من أب، أَمْ من أُمّ، وسواء الرضاع والنسب، وإذا كان بملك اليمين فالجمهور وفقهاء الأمصار على المنع.

قال الشافعي: ولا يجمع بين الأختين أبدًا بنكاح ولا وطء ملك، وكل ما حرم من الحرائر بنسب أو رضاع حرم من الإماء مثله إلا العدد؛ والعدد ليس من النسب والرضاع بسبيل، فإذا نكح امرأة ثم نكح أختها فنكاح الآخرة باطل ونكاح الأولى ثابت وسواء دخل بها أو لم يدخل بها ويفرق بينه وبين الآخرة. (١)

حتى إن من أسلم وتحته أختان خُيِّرَ فَيُمْسِكَ إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة. (٢)

وكما أنه لا يجمع بين الأختين، يحرم عليه أن يجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها" (٣)

والعمل على هذا عند أهل العلم، لا يعلم بينهم اختلاف أنه لا يحل للرجل أن يجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فإن نكح امرأة على عمتها، أو خالتها، أو على بنت أخيها، أو أختها؛ فنكاح الأخرى منها مفسوخ وبه يقول عامة أهل العلم. (٤)

فأيتهما نكح أولًا ثم نكح عليها أخرى فسد نكاح الآخرة، ولو نكحهما في عقدة واحدة كانت العقدة مفسوخة وينكح أيتهما شاء بعد. (٥)

وممن نقل الإجماع في هذه المسألة على التحريم ابن عبد البر، والقرطبي، والنووي، وابن حزم، واستثنى بعض العلماء الخوارج والشيعة ولا عبرة بخلافهم لأنهم يَرُدُّون الأحاديث. (٦)

---

(١) الأم٣/ ١٥٠، وانظر تفسير الطبري للآية المذكورة

(٢) ابن كثير ١/ ٤٧٢، وانظر: المغني ٦/ ٥٧١، وزاد المعاد ٥/ ١٢٥.

(٣) البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

(٤) سنن الترمذي (٣/ ٤٢٤).

(٥) الأم ٣/ ١٥٠، وانظر: المحلي ٩/ ٥٢١، وزاد المعاد ٥/ ١٢٧.

(٦) فتح الباري ٩/ ٦٦.

وعن ابن عمر ﷺ: أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشرُ نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره النبي ﷺ أن يتخير أربعًا منهن ". (١)

ولعل المعترض يقول مادام التعدد لا بد فيه من العدل والقدرة على الإنفاق فلماذا لا تمنعه الشريعة الإسلامية سدًا لباب الظلم، ودفعًا لإضاعة الأهل والعيال بسبب قلة المال في يوم من الأيام؟ وهي النقطة الثالثة.

الوجه الثالث: الحكمة من تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية.

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٢٨)، وابن ماجه (١٩٥٣)، والشافعي في مسنده (٢٧٤٠)، وأحمد (٢/ ١٣-١٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٢) من طرق عن معمر، عن الزهري به، وقال الترمذي عقبه هكذا رواه معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: هذا حديث محفوظ، والصحيح ما روى شعيب بن أبي حمزة وغيره عن الزهري، وحمزة قال: حُدِّثت عن سويد الثقفي أن غيلان بن سلمة أسلم وعنده عشرُ نسوة، والعمل على حديث غيلان عند أهل العلم، وقال الألباني رحمه الله: لكن لم يتفرد معمر بوصله فقد رواه سرار أبو عبيدة العنزي عن أيوب عن نافع وسالم عن ابن عمر به أخرجه البيهقي (٧/ ١٨٣) من طريق النسائي، وقال البيهقي: قال أبو علي الحافظ: تفرد به سرار بن مجشر وهو بصري ثقة، وقال الحافظ بعد أن ذكره من طريق النسائي بإسناده: ورجال إسناده ثقات ومن هذا الوجه أخرجه الدارقطني، قلت- الألباني-: فهو شاهد جيد ودليل قوي على أن لحديث موصولٌ أصلًا عن سالم عن ابن عمر، ثم قال الحافظ: واستدل به ابن القطان على صحة حديث معمر، ثم قال الألباني: وبالجملة فالحديث صحيح بمجموع طريقيه عن سالم عن ابن عمر، وقد صححه ابن حبان والحاكم والبيهقي وابن القطان كما في الخلاصة (١/ ١٤٥)، لاسيما وفي معناه أحاديث أخرى، وقال الألباني رحمه الله: وله شاهد من حديث عروة بن مسعود الثقفي، قال: أسلمت وتحتي عشرُ نسوة، أربع منهن من قريش إحداهن بنت أبي سفيان، فقال لي رسول الله ﷺ: اختر منهن أربعًا وخل سائرهن، فاخترت منهن أربعًا منهن ابنة أبي سفيان " أخرجه الحافظ ابن المظفر في حديث حاجب بن أبي ركين (١/ ٢٥١)، والبيهقي (٧/ ١٨٤)، والضياء المقدسي في الأحاديث والحكايات (٣/ ١)، من طريق محمد بن عبد الله الثقفي عن عروه به، وقال المقدسي: رجاله ثقات إلا أن عروة الثقفي قتلته ثقيف في زمان رسول الله ﷺ، ومحمد بن عبيد الله لم يدركه. اهـ الإرواء حديث، (٦/ ٢٩١. ١٨٨٣).

قلت: و منها حديث قيس بن الحارث، قال: أسلمت وعندي ثماني نسوة، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: " أختر منهن أربعا " أخرجه أبو داود (٢٢٤١)، وابن ماجه (١٩٥٢)، والبيهقي (٧/ ١٨٣)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٨٨٥).

١ـ إن لتشريع تعدد الزوجات فضلًا كبيرًا في بقاء المجتمع الإسلامي نقيًا، بعيدًا عن الرذائل الاجتماعية والنقائص الخلقية التي فشت في المجتمعات التي تحارب التعدد وتحرمه فقد لوحظ في المجتمعات التي تحرم التعدد ما يلي:

أ- شيوع الفسق وانتشار الفجور حتى زاد عدد البغايا على عدد المتزوجات في بعض البلاد.

ب- انتشار الأمراض البدنية والعقد النفسية.

جـ- انحلال عرى الصلات الوثيقة بين الزوج والزوجة.

د- كثرة المواليد من الزنا. (١)

٢ ـ قد يوجد عند بعض الرجال بحكم طبيعتهم النفسية والبدنية رغبة جنسية جامحة حتى لا تشبعه امرأة واحدة، ولا سيما في بعض المناطق الحارة، فبدلًا من أن يتخذ خليلة أو عشيقة تفسد عليه أخلاقه أُبيح له أن يشبع غريزته من طريق حلال مشروع. (٢)

٣ ـ إذا كان للزوج- الرجل - زوجة واحدة واعتراها مرض لا يرجى منه الشفاء، أو كانت عقيمة لا تلد وهي مع ذلك راغبة في استمرار الحياة الزوجية، فهل يؤذيها بالفراق؟ أو يوفق بين رغبتها ورغبته؛ فيتزوج بأخرى ويبقى عليها، فتلتقي مصلحته ومصلحتها معًا؟

لا شك أن الحل الأخير هو الحل الوحيد الذي لا يسع صاحب ضمير حي إلا أن يتقبله ويرضى به. (٣)، وذلك لأنه ليس من المروءة ولا الإنسانية طلاقها وليس لها من يعولها، وهي لا تستطيع الكسب، ولا تستطيع ولا يمكن أن تتزوج بغيره، وليس من الحكمة منعه من التزوج؛ لئلا يتعطل نسله أو تميل به الشهوات الطبيعية إلى الزنا. (٤)

---

(١) فقه السنة (٢/ ٢٥٠)، والزواج للحفناوي (٢٢٣) بتصرف ٢/ صـ٤٤١.

(٢) فقه السنة ٢/ ٢٤٩، والزواج للحفناوي ٢٢٣، وتفسير المراغي ٤/ ١٨٢، الفقه الإسلامي وأدلته ٧/ ١٧١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) محمد رسول الله لمحمد رضا (١/ ٥٩١)، وتفسير المراغي (٤/ ١٨١)، والفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ١٧٠)، والظلال (١/ ٥٨٠).

ومما يتعلق بهذا أن تبلغ المرأة سن اليأس والرجل قادر على الإنجاب، وهو يريد ذلك. (١)

٤ ـ إن المجتمع في نظر الإسلام كالميزان يجب أن تتعادل كفتاه ومن أجل المحافظة على التوازن يجب أن يكون عدد الرجال بقدر عدد النساء، ولكن كيف نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟

أتُحرم المرأة من نعمة الزوجية ونعمة الأمومة، ونتركها تسلك طريق الفاحشة والرذيلة، أم نحل هذه المشكلة بطريقة شريفة فاضلة نصون فيها كرامة المرأة، وطهارة الأسرة، وسلامة المجتمع.

أيهما أفضل لدى العاقل: أن ترتبط المرأة برباط مقدس تنضم فيه مع امرأة أخرى تحت حماية رجل بطريق شرعي شريف، أم نجعلها عشيقة لهذا الرجل؛ وتكون العلاقة بينهما علاقة إثم وإجرام؟ لاشك أن التعدد حينئذ فيه صيانة للمرأة وحفظ كرامتها. (٢)

٥ ـ وهذا يتضح أكثر في أعقاب الأزمات، والثورات، والأوبئة، والكوارث العامة، والتي يموت فيها كثير من الرجال، فتبقى نساء عديدة بلا أزواج ينتج عن ذلك نقص في عدد المواليد لا محالة، فإذا لم يُسمح بالتعدد في هذه الحالة كما فعل الإسلام فسوف تنتشر في المجتمع الدعارة، ومشكلة الخليلات، والخيانة الزوجية، ويكثر فيه اللقطاء، والأولاد غير الشرعيين. فليس لهذه المشكلة حل أسلم وأكرم من تعدد الزوجات، وهو ما فعله الإسلام؛ لأن المرأة التي لا تتزوج تعيش عيش البطالة والفتنة وتحدث فوضى جنسية تسبب في النهاية تفكيك الأسرة. (٣)

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) روائع البيان للصابوني ٢/ ٢١٦، وانظر الزواج للحفناوي ٢٢٤، وتعدد الزوجات في الأديان ٥٠، ٥١، ٥٢، وتفسير المراغي، والمنار آية: ٣ من سورة النساء، والفقة الإسلامي وأدلته ٧/ ١٦٩، والظلال ١/ ٥٧٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٣٧٧.

(٣) تعدد الزوجات في الأديان (٥٢٠)، وانظر الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان (١٤٨، ١٤٩).

٦ ـ ومع قلة الرجال عن النساء نجد أن الإناث كلهن مستعدات للزواج، وكثير من الرجال لا قدرة لهم على القيام بلوازم الزواج لفقرهم، فالمستعدون للزواج من الرجال أقل من المستعدات له من النساء؛ لأن المرأة لا عائق لها، والرجل يعوقه الفقر وعدم القدرة على لوازم النكاح فلو قصر الواحد على الواحدة لضاع كثير من المستعدات للزواج أيضًا بعدم وجود أزواج؛ فيكون ذلك سببًا لضياع الفضيلة وتفشي الرذيلة والانحطاط الخلقي وضياع القيم الإنسانية كما هو واضح.[١]

٧ ـ أن يكون للرجل امرأةٌ لا يأويها غيرهُ وهو متزوج، فمن الحذلقة المرذولة أن يقال في هذه الحالة أن الإحسان إليها بالصدقة أكرم لها من كفالتها في عصمته، ورضاها أولى بالتقديم من رضى زوجته التي تعميها الأثرة عن كل شعور غير شعورها، فكلتاهما امرأة وكلتاهما إنسان، يحق له العطف والحماية من الكدر والشقاء.[٢]

٨ ـ أن يكون الرجلُ مسئولًا عن يتامى يتولى رعايتهم وهم يعيشون في حضانة أمهم الشابة ومن حق هذه المرأة أن تأخذ نصيبها من الحياة الزوجية، فإذا تزوجت بزوج أجنبي عن الأولاد فإنهم سيتعرضون للضياع وعدم الرعاية، وأيضًا فإن الوصي قد يتحرج من الدخول على اليتامى وبينهم أمهم الأيِّم، وفي هذا الجو من خوف الفتنة والإغراءات النفسية ما لا يخفى والمؤمن لا ينبغي أن يضع نفسه وضعًا يكون فيه فاتنًا أو مفتونًا، والخلاص الوحيد من هاتين المشكلتين أن يتزوج أم اليتامى مع زوجته الأولى فيجمع بذلك بين رعاية اليتامى على الوجه المطلوب، وبين وقاية نفسه، ووقاية أم اليتامى من عوامل السوء والفتنة.[٣]

٩ ـ أن يشتد كره الزوج لزوجته بحيث لم ينفع معه علاج التحكيم، والطلاق الأول، والثاني، وما بينهما من هدنة العدة التي تمتد في كل مرة فترة زمنية تسمح بمراجعة النفس،

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٧٧.

(٢) المرأة في القرآن للعقاد (١٠٩)، وتعدد الزوجات في الأديان (٥٤).

(٣) تعدد الزوجات في الأديان (٥٤).

وهنا يجد الزوج نفسه بين احتمالين:

الأول: إما أن يطلقها ويتزوج غيرها.

والثاني: أن يبقيها عنده لها حقوقها المشروعة كزوجة ويتزوج عليها أخرى، ولا شك أن الاحتمال الثاني أكرم للزوجة الأولى، وأكثر عزمًا على الزوج، والدليل على وفائه ونبل خلقه وهو في الوقت نفسه أضمن لمصلحة الزوجة خصوصًا بعد تقدم السن وإنجاب الأولاد. [١]

١٠ـ أن يكون الرجل بحكم عمله كثير الأسفار، ويقيم في غير بلدته ما قد يستغرق في بعض الأحيان شهورًا، ومن الصعوبة بمكان أن ينقل معه زوجته وأولاده، ويشق عليه الصبر والصوم.

فنحن أمام حلين:

الأول: إما أن يعيش في أسفاره مع امرأة يأنس بها عن طريق غير شرعي، وليس لها حق الزوجة، ولا لأولادها حقوق الأولاد الشرعيين.

والثاني: أن يتزوج بأخرى، ويقيم معها في أسفاره إقامة مشروعة في نظر الدين، والأخلاق والمجتمع، وأولادُه منها أولادٌ شرعيون، وأعتقد أن التفكير المتزن والحل الواقعي يختار الحل الثاني. [٢]

١١ـ إن الذين يقولون بأن التعدد ظلم للمرأة نَسَوا وغفلوا عن أن الزوجة الثانية امرأة أيضًا، وبهذا فالزواج فيه مصلحة للمرأة بوجه عام، وإن كان فيه إدخال للألم على الزوجة الأولى، ولا شك أن هذا مضرة، ولكن بالموازنة بين الضرر الذي يلحق بالمتزوجة ابتدًاء والضرر الذي يلحق بمجموع النساء عامة؛ يتبين أن ضرر المنع أشد من ضرر الإباحة، ولقد ثبت بالعرف ومجرى الأمور أن المرأة في الغالب لا تقدم على الزواج من رجل متزوج إلا إذا كانت مضطرة إما لأنه استهواها واستهوته ولا مناص لهما من الاتصال إما الحلال

---

(١) تعدد الزوجات في الأديان (٥٤، ٥٥)، والفقه الإسلامي وأدلته ٧/ ١٧١.

(٢) تعدد الزوجات في الأديان (٥٥، ٥٦).

أو الحرام، ولا شك أن حلالًا كهذا أولى من حرام مؤكد، وأن زواجًا تصان فيه المرأة وتثبت لها كل حقوق الزوجية ولأولادها كل حقوق الأولاد، أَو من سفاح لا يثبت لها حقوقها ولا لأولادها نسبًا ولا ميراثًا، ولو منع الزواج الرسمي لكثر الزواج من غير توثيق وأدى إلى ضياع الحقوق للنساء والأولاد، وقد يكون إقدامها على الزواج إذا لم يتقدم لها أحد، فإما أن تموت أنوثتها وتضطرب أعصابها إلا أن تكون من ذوات الإرادات الخارقة وكلاهما ضرر شديد بالمرأة وقد ثبت في البلاد التي يمنع فيها التعدد أنه تكثر الخلائل واتخاذ الأخدان، وخير للمرأة أن تكون حليلة بدلًا أن تكون خليلة. [١]

١٢ـ من فوائده وحكمه الحاجة إلى توثيق الروابط بين عائلتين، أو بين رئيس وبعض أفراد رعيته؛ حيث إن مما يحقق هذه الروابط المصاهرة حتى ولو ترتب على ذلك تعدد الزوجات. [٢]

١٣ـ يترتب على التعدد كثرة النسل وكثرة الأيدي العاملة، وفي هذه الكثرة قوة للأمة وزيادة في إنتاجها[٣].

وقد كتب العالم الإنجليزي هربرت سبنسر في كتاب أصول علم الاجتماع:

إذا طرء على الأمة حالة اجتاحت رجالها بالحروب، ولم يكن لكل رجل من الباقين إلا زوجة واحدة وبقيت نساء عديدات بلا أزواج؛ ينتج من ذلك نقص في عدد المواليد لا محالة، ولا يكون عددهم مساويًا لعدد الوفيات. فإذا تقابلت أمتان مع فرض أنهما متساويتان في كل الوسائل المعيشية، وكانت إحداهما لا تستفيد من جميع نسائها بالاستيلاد، فلا تستطيع أن تقاوم خصيمتها التي يستولد رجالُها جميعَ نسائها، وتكون النتيجة أن الأمة الموحدة للزوجات تفنى أمام الأمة المعددة للزوجات. [٤]

---

(١) تعدد الزوجات في الأديان ٥٨، والفقة الإسلامي وأدلته٧/ ١٧١.

(٢) المفصل ٦/ ٢٩٠، ٢٩١، نقلًا عن الزواج للحفناوي (٢٢٤).

(٣) المفصل ٦/ ٢٩٠، ٢٩١ نقلًا عن الزواج للحفناوي (٢٢٥).

(٤) محمد رسول الله لمحمد رضا ١/ ٥٩١، وانظر الفقه الإسلامي وأدلته٧/ ١٩٩.

١٤ـ إن نظام التعدد نظام أخلاقي إنساني، أما إنه أخلاقي فلأنه لا يسمح للرجل بأي حال من الأحوال أن يتصل بأكثر من أربع نساء، وهذا الاتصال لا يكون سرًا بأي واحدة منهن، بل لابد أن يكون عن طريق إجراء عقد وإعلان هذا العقد، ولابد من أن يعلم أولياء المرأة بهذا الاتصال الشرعي ويوافقون عليه، ويسجل هذا العقد طبقًا للتنظيم الحديث في محكمة مخصصة لعقود الزواج، وأن يشهر هذا الاتصال وسط جمع من الناس بكل فرح وإكرام فخلق المسلم يحتم عليه ذلك، وأما أنه نظام إنساني فلأن الرجل يقوم بدور فعال في المجتمع عن طريق تخفيفه من أعباء المجتمع؛ بأن يتحمل مسئولية امرأة ويكون زوجًا لها وينقلها إلى مصاف الزوجات المحصنات، ومقابل اتصاله بها؛ فإنه يدفع مهرًا ونفقات وأثاثًا يعادل فائدته الاجتماعية من بناء خلية اجتماعية تنتج للأمة نسلًا عاملًا، وإنه ليتحمل قسطًا من أعباء حملها فلا يخلى بينها وبين متاعب حملها، بل ينفق عليها أثناء حملها وولادتها، وإنه ليعترف بالأولاد الذين أنجبهم منها، ويعتز بهم، وتعتز بهم أمته في المستقبل. إن نظام التعدد يحدد الإنسانُ فيه شهوته إلى قدر محدود، ولكنه يضاعف أعباءه ومتاعبه إلى قدر غير محدود، فهو لا جرم نظام أخلاقيٌّ يحفظ الأخلاق، إنساني يشرف الإنسان(١).

١٥ـ إن الشريعة قد حرمت الزنا، وضيقت في تحريمه؛ لما يجر إليه من الفساد في الأخلاق، والأنساب، ونظام العائلات، فناسب أن توسع على الناس في تعدد النساء لمن كان من الرجال ميالًا إلى التعدد مجبولًا عليه. (٢)

١٦ـ قصد الابتعاد عن الطلاق إلا لضرورة. (٣) كما هو واضح في حالة كره الرجل لزوجته أو حبه لغيرها وإرادته الزواج منها، وفي حالة المرض والعقم، وأمثال هذا.

(١) تعدد الزوجات في الأديان ١٤، ١٥.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٢٢٦.

(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٢٢٦.

١٧ـ إن المرأة تحيض وتمرض وتنفس، وغير ذلك من العوائق المانعة بأخص اللوازم الزوجية، والرجل مستعد للتسبب في زيادة الأمة، فلو حبس عليها في أحوال أعذارها لعطلت منافعه باطلًا من غير ذنب. (١)

١٨ـ وبعد هذا فإني أسأل سؤالًا وهو: ما الحل عندكم في رجل له زوجة يحبها وله منها أولاد، ولا يستطيع أن يفارقها ثم طابت لنفسه امرأةٌ أخرى وهام على وجهه خلف غبار هواها، وليس أمامه إلا الطلاق لزوجته ليتزوج بهذه، فما ذنبها؟ ، وإما أن يظل محرومًا تائهًا حتى الموت، وإما أن يزني، وإما أن يتزوجها، فأي الحلول يختاره العقلُ السليمُ والفطرةُ السليمةُ؟ لا شك أن ديننا يقول لنا ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣)، وهذا هو الحل الصحيح الوحيد من هذه الحلول فاعتبروا يا أولي الأبصار.

الوجه الرابع: تعدد الزوجات كان معروفًا قبل الإسلام.

إن التعدد لم يكن أمرًا جديدًا جاء به الإسلام، إنما هو أمر موافق للفطرة البشرية، ولذا تراه عند سائر الأمم، لكن الإسلام وجهه في الطريق السليم نحو العدل والبناء والتعمير. ومن ذلك ما يلي:

تعدد الزوجات عند العرب.

١ – عند الحديث عن منشأ تعدد الزوجات، فإننا نتناوله في بلاد العرب، أو في الشرق على الجملة قبل بعثة النبي محمد ﷺ، فليس تعدد الزوجات من خواص المشرق، ولا وحدة الزوجة من خواص المغرب، بل في المشرق شعوب لا تعرف تعدد الزوجات كالتبت والمغول، والمغرب فيه شعوب تعرفه وقد انتشر فيهما كالغولوا والجرمانيين في زمن ناسيت، بل أباحه بعد البابوات لبعض الملوك بعد دخول الدين المسيحي إلى أوربا باكشرلمان ملك فرنسا.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٧٧.

وكان ذلك بعد الإسلام، كان الرؤساء وأهل الثروة يميلون إلى تعدد الزوجات في بلاد يزيد فيها عدد النساء عن عدد الرجال توسعًا في التمتع، وكانت البلاد العربية مما تجري فيها هذه العادة لا إلى حد محدود، فكان الرجل يتزوج من النساء ما تسمح له أو تحمله عليه قوة الرجولة وسعة الثروة للإنفاق عليهن وعلى ما يأتي له من الولد.

٢- وعندما جاء الإسلام وأشرق فجره على العرب، كان بعض العرب تحته عشرُ نسوة وقد أسلم غيلان ﷺ، وعنده عشرُ نسوة، فأمره النبي ﷺ بإمساك أربعٍ منهن ومفارقة الباقيات، فسبب الإكثار من الزوجات إنما هو الميل إلى التمتع بتلك اللذة المعروفة وبكثرة النساء، وكان العرب قبل البعثة في شقاق وقتال دائمين والقتال إنما كان بين الرجال، فكان عدد الرجال ينقص بالقتل؛ فيبقى عدد كثير من النساء بلا أزواج، فمن كانت عنده قدرة مالية وبدنية وأراد التمتع بأكثر من واحدة فعل من غير حرج ولا عدد معين.

٣- وكان العرب ينكحون بالاسترقاق، ولكن لا يستكثرون من ذلك، بل كان الرجل يأخذ السبايا؛ فيختار منهن واحدة، ثم يوزع على رجاله ما بقي منهن واحدة واحدة.

٤- ثم جاء النبي ﷺ وحال الرجال مع النساء كما ذكرنا لا فرق بين متزوجة وسرية في المعاملة، ولا حد لما يبتغي الرجل من الزوجات، فأراد الله أن يجعل في شرعه رحمة للنساء وتقريرًا لحقوقهن، وحكمًا عدلًا يرتفع به شأنهن وليس الأمر كما يقول الكتبة الأوربيين أن ما كان عند العرب عادة جعله الإسلام دينًا، وإنما أخذ الافرنج ما ذهبوا إليه من سوء استعمال المسلمين لدينهم وليس له مأخذ صحيح منه. (١)

الغرب وتعدد الزوجات.

أ - إن المجتمعات الغربية تجهل حكم الإسلام فيما يتعلق بالمرأة عامة وبتعدد الزوجات خاصة، وهذه هي مارجريت ماركوس الأمريكية؛ والتي كانت يهودية ثم

---

(١) تعدد الزوجات في الأديان (١٨، ١٩)، وانظر المؤامرة على المرأة المسلمة للدكتور السيد فرج (١٧٨)، ومكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية (١٩٣، ١٩٤).

أسلمت، وأصبح اسمها المهدية مريم جميلة، قد نشرت كتابها الإسلام بين النظرية والتطبيق، فقالت عن الإسلام وتعدد الزوجات:

" لم يُفْتَرَ على الإسلام في شيء؛ كما افترى عليه في نظام تعدد الزوجات، وهو عند الغرب يعتبر برهانًا لا يقبل الرفض على انحطاط المرأة في الإسلام، وتقول: وإن المصلحين من المسلمين في أحسن الأحوال ينتقصون من أهميته، فيعتبرونه خاصًا بالمجتمعات المتأخرة، ولا يقبل إلا في أحوال استثنائية جدًا وغير عادية، ثم تقول: وعلينا أن نفهم أن هذا التفسير الذي يدافع به المجددون المسلمون ليس له أساس في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف، وإنما هو النتيجة المطلقة للعبودية الفكرية لقيم الحضارة الغربية، فالفزعُ الذي ينظر به الغرب إلى تعدد الزوجات معزوٌّ على الفردية الغالبة التي تسيطر على المجتمع الحاضر، لدرجة أن الزنا يعتبر أقل بغضًا من تعدد الزوجات. إن النظرة الغربية لتعدد الزوجات نظرة لا تتصل بفوائد هذا التعدد وأضراره، بل ترجع إلى إنكار هؤلاء للرسول والرسالة التي جاء بها، لهذا اتخذ المتعصبون من نظام الأسرة في الإسلام وسيلة للطعن على هذا الدين الذي لا يعيب فيه، سوى أنه حرم الزنا، وما يتصل به أو يؤدي إليه؛ من الأقوال والأعمال وما يسمى حضارة الغرب التي تعد الزنا من التقدم أو الحرية الشخصية؛ وليس جريمة في ذاته، وقد جعل هؤلاء من تعدد الزوجات للرسول ﷺ وسيلة للطعن في الرسول والرسالة، ولو كانت المسألة هي الطعن على نظام تعدد الزوجات بصفة عامة؛ لما آمن هؤلاء بصدق كتابهم المقدس حيث تضمن الجزء الأول منه أن نبي الله سليمان قد تزوج بألف امرأة، ولكن عندما يشفق النبي الكريم ﷺ على العجائز اللاتي فقدن عائلهن فيتزوجهن لأسباب إنسانية يصبح الزواج من الأرملة العجوز جريمة في حق الإنسانية. "[1]

ب - وأين هذا التعدد الأخلاقي النبيل الشريف من التعدد الواقع من حياة الغربيين؟ حتى تحداهم أحد كتابهم أن يكون أحدهم وهو على فراش الموت يدلي باعترافاته للكاهن،

---

(١) مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية (٢٠٥، ٢٠٦)، وانظر كتاب الإسلام بين النظرية والتطبيق (٨٠).

تحداهم أن يكون فيهم واحد لا يعترف للكاهن بأنه اتصل بامرأة ولو مرة واحدة في حياته إن هذا التعدد واقع عند الغربيين من غير قانون، بل واقع تحت سمع القانون وبصره، إنه لا يقع باسم الزوجات ولكنه يقع باسم الصديقات والخليلات، إنه ليس مقتصرًا على أربعٍ فحسب، بل هو إلى ما لا نهاية له من العدد، إنه لا يقع علنًا تفرح به الأسرة، ولكن سرًا لا يفرح ولا يعلم به أحد، إنه لا يلزم صاحبه بأية مسئولية مالية نحو النساء اللاتي يتصل بهن، بل حسبه أن يلوث شرفهن ثم يتركهن للخزي والعار وتحمل آلام الولادة غير المشروعة.

إنه لا يلزم صاحبه بالاعتراف بما نتج عن هذا الاتصال من أولاد، بل يعتبروا غير شرعيين يحملون حياتهم خزي السفاح ما عاشوا، ولا يملكون أن يرفعوا بذلك رأسًا، إنه تعدد قانوني من غير أن يسمى تعدد الزوجات، خالٍ من كل تصرف أخلاقي، أو يقظة وجدانية، أو شعور إنساني، إنه تعدد تبعث عليه الشهوة والأنانية ويفر من تحمل كل مسئولية، فأي النظامين ألصق بالأخلاق وأكبح للشهوة وأكرم للمرأة وأدل على الرقي وأبر بالإنسانية؟. [1]

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون للدكتور السباعي (٩٤).

المبحث الثاني: تعدد زوجات النبي ﷺ

ومما يتعلق بمسألتنا في التعدد، تعدد زوجات نبينا ﷺ، حيث قال المعترض إن هذا يدل على أنه كان شهوانيًا يجري وراء هواه، وهل يبيح كتاب من عند الله لرسول من عند الله أن يتزوج بمن ملكت يمينه من الأسرى وبأية امرأة تهواه فتهبه نفسها إن وقع هو في هواها؟

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: النبي ﷺ لم يتزوج بكرًا إلا عائشة،ولم يعدد ﷺ إلا بعد بلوغ سن الشيخوخة.

فأما رد الشبهة بصفة عامة فهناك نقطتان جوهريتان تدفعان الشبهة عن النبي الكريم ﷺ، وتلقمان الحجر لكل مفتر أثيم؛ يجب ألا نغفل عنهما، ونضعهما نصب أعيننا حين نتحدث عن أمهات المؤمنين وعن حكمة زوجاته الطاهرات، هاتان النقطتان هما:

١ -لم يعدد الرسول ﷺ زوجاته إلا بعد بلوغ سن الشيخوخة أي بعد أن جاوز من العمر الخمسين.

٢ - جميع زوجاته الطيبات الطاهرات ثيبات أرامل ما عدا السيدة عائشة رضي الله عنها فهي بكر، وهي الوحيدة من بين نسائه التي تزوجها في حالة الصبا والبكارة، ومن خلال هاتين ندرك بكل وضوح بطلان هذا الادعاء الذي ألصقه به المستشرقون الحاقدون، فلو كان المراد من الزواج الجري وراء الشهوة أو السير وراء الهوى أو مجرد الاستمتاع بالنساء لتزوج في سن الشباب لا في سن الشيخوخة، ولتزوج الأبكار الشابات لا الأرامل المسنات، وهو القائل لجابر بن عبد الله حين جاءه وعلى وجهه أثر التطيب والنعمة: "هل تزوجت؟ ، قال: نعم، قال: بكرًا أم ثيبًا، قال: بل ثيبًا، فقال له ﷺ: فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك؟ "

فالرسول الكريم ﷺ أشار عليه بتزوج البكر، وهو صلوات الله عليه يعرف طريق الاستمتاع وسبيل الشهوة، فهل يعقل أن يتزوج الأرامل ويترك الأبكار، ويتزوج في سن الشيخوخة ويترك سن الصبا إذا كان غرضه الاستمتاع والشهوة؟ خصوصًا والصحابة

ﷺكانوا يفدونه ﷺ بالمهج والأرواح، ولو أنه طلب منهم الأبكار لما ترددوا، فلماذا لم يعدد الزوجات في مقتبل العمر وريعان الشباب؟ ، ولماذا ترك الزواج بالأبكار وتزوج الثيبات؟

إن هذا بلا شك يدفع كل تَقَوُّلٍ وافتراء، ويدحض كل شبهة وبهتان، ويرد على كل أفاك أثيم يريد أن ينال من قدسية الرسول ﷺ أو يشوه سمعته، فما كان زواج رسول الله ﷺ بقصد الهوى أو الشهوة؛ وإنما كان لحكم نبيلة وغايات جليلة وأهداف حامية؛ سوف يقر الأعداء بنبلها وجلالها إذا ما تركوا التعصب الأعمى وحَكَّمَوا منطق العقل والوجدان، وسوف يجدون في هذا الزواج المثل الأعلى في الإنسان الفاضل الكريم والرسول النبي الرحيم الذي يضحي براحته في سبيل مصلحة غيره وفي سبيل مصلحة الدعوة والإسلام.

الوجه الثاني: الحكمة من تعدد زوجات النبي ﷺ.

وهي كثيرة ومتشعبة ويمكننا أن نجملها فيما يلي:

١- الحكمة التعليمية. ٢ - الحكمة التشريعية.

٣- الحكمة الاجتماعية. ٤- الحكمة السياسية.

وهذه إشارة سريعة نحو كل حكمة من هذا الحكم

أولًا: الحكمة التعليمية.

لقد كانت الغاية الأساسية من تعدد زوجات رسول ﷺ هي تخريج بضع معلمات للنساء يعلمنهن الأحكام الشرعية فالنساء نصيف المجتمع، وقد فرض عليهن من التكاليف ما فرض على الرجال، وقد كان الكثيرات منهن يستحيين من سؤال النبي ﷺ عن بعض الأمور الشرعية وخاصة المتعلقة بهن كأحكام الحيض، والنفاس، والجنابة، والأمور الزوجية وغيرها من الأحكام، وقد كانت المرأة تغالب حياءها عندما تريد أن تسأل رسول الله ﷺ عن مسألة من هذه المسائل، كما كان من خُلق الرسول الحياء الكامل وكان كما تروي كتب السنة أشد حياءً من العذراء في خدرها، فما كان ﷺ يستطيع أن يجيب عن كل سؤال يعرض عليه من جهة النساء بالصراحة الكاملة، كان يُكَنِّي في بعض الأحيان ولربما لم تفهم المرأة عن طريق الكناية مراده ﷺ.

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النبي ﷺ عَنْ غُسْلِهَا مِنَ الْمَحِيضِ، فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ قَالَ: " خذي فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتطَهَّرِي بِهَا"(١). قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ؟ قَالَ: " تَطَهَّرِي بِهَا ". قَالَتْ: كَيْفَ؟ قَالَ: " سُبْحَانَ الله تَطَهَّرِي". فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ. (٢)

فكان صلوات الله عليه يستحي من مثل هذا التصريح، وهكذا كان القليل من النساء من تستطيع التغلب على نفسها وعلى حيائها فتجاهر النبي ﷺ بالسؤال عما يقع لها. ومن ذلك حديث أم سلمة ﵂، قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ، فقالت له "يا رسول الله: إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت، فقال لها النبي ﷺ: نعم إذا رأت الماء، فقالت أم سلمة لقد فضحت النساء، ويحك أو تحتلم المرأة، فأجابها النبي ﷺ بقوله: إذًا فبما يشبهها ولدها؟ ". (٣)

مراده ﷺ أن الجنين يولد من ماء الرجل وماء المرأة؟ ولهذا يأتي له شبه بأمه، وهكذا مثل هذه الأسئلة المحرجة كان يتولى الجواب عنها فيما بعد زوجاته الطاهرات.

ولهذا تقول السيدة عائشة ﵂: "نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين "(٤).

وكانت المرأة تأتي السيدة عائشة في الظلام لتسألها عن بعض أمور الدين وعن أحكام الحيض والنفاس والجنابة وغيرها من الأحكام، فكان نساء الرسول خير معلمات وموجهات لهن وعن طريقهن تفقه النساء في دين الله.

ثم إنه من المعلوم أن سنة النبي ﷺ ليست قاصرة على قول النبي ﷺ فحسب، بل هي تشمل قوله وفعله وتقريره؛ وكل هذا من التشريع الذي يجب على الأمة اتباعه، فمن ينقل

---

(١) قطعة من القطن بها أثر طيب.

(٢) البخاري (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢).

(٣) البخاري (١٣٠)، ومسلم (٣١٣).

(٤) ذكره البخاري معلقًا في كتاب العلم، باب: الحياء في العلم، ومسلم (٣٣٢).

لنا أخباره وأفعاله ﷺ في المنزل غير هؤلاء النسوة اللاتي أكرمهن الله ﷻ؛ فكن أمهات للمؤمنين وزوجات لرسوله الكريم في الدنيا والآخرة؟!

لا شك أن لزوجاته الطاهرات رضوان الله عليهن أكبر الفضل في نقل جميع أحواله وأطواره وأفعاله المنزلية ﷺ، ولقد أصبح من هؤلاء الزوجات معلمات ومحدثات فقلن هديه عليه الصلاة والسلام، واشتهرن بقوة الحفظ والنبوغ والذكاء.

ثانيًا: الحكمة التشريعية.

ونتحدث الآن عن الحكمة التشريعية التي هي جزء من حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ، وهذه الحكمة ظاهرة تدرك بكل بساطة؛ وهي أنها كانت من أجل إبطال بعض العادات الجاهلية المستنكرة ونضرب لذلك مثلًا: بدعة التبني التي كان يفعلها العرب قبل الإسلام، فقد كان دينًا متوارثًا عندهم؛ يتبنى الرجل ولدًا ليس من صلبه ويجعله في حكم الولد الصلبي، ويتخذه ابنًا حقيقيًا له حكم الأبناء من النسب في جميع الأحوال: في الميراث، والطلاق، والزواج... إلخ

حيث كان الواحد منهم يتبنى ولد غيره، فيقول: له أنت ابني وترثني، وما كان الإسلام ليقرهم على باطل ولا ليتركهم يتخبطون في ظلمات الجهالة، فمهد بذلك أنه ألهم رسوله ﷺ أن يتبنى زيد بن حارثة على عادة العرب قبل بعثته ﷺ، وبعد ذلك زوجه الرسول ﷺ بابنة عمه زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها، وقد عاشت معه مده من الزمن، ولحكمة يريدها الله تعالى: ساءت العلاقة بينهما، ثم طلقها زيد، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يتزوجها ليبطل بدعة التبني ويقيم أسس الإسلام، ويأتي على الجاهلية من قواعدها، ولكنه ﷺ كان يخشى من ألسنة المنافقين أن يتكلموا فيه ويقولوا تزوج محمد امرأة ابنه؛ فكان يتباطأ حتى نزل العقاب الشديد لرسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الأحزاب: ٣٧) وهكذا انتهى حكم التبني وبطلت تلك العادات التي كانت متبعة في الجاهلية؛ وكانت دينًا تقليديًا لا محيد عنه، ونزل قوله تعالى مؤكدًا هذا التشريع الجديد

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، وسيأتي مزيد لذكر حكم هذا الزواج فيما يأتي إن شاء الله. اهـ.

ثالثًا: الحكمة الاجتماعية.

أما الحكمة الثالثة فهي الحكمة الاجتماعية، وهي تظهر بوضوح في تزوج النبي ﷺ بابنة الصديق الأكبر أبي بكر ﷺ ووزيره الأول، ثم بابنة وزيره الثاني عمر ﷺ وأرضاه، ثم باتصال ﷺبقريش اتصال مصاهرة ونسب وتزوجه العديد منهن مما ربط بين هذه البطون والقبائل برباط وثيق، وجعل القلوب تلتف حوله وتلتقي حول دعوته في إيمان وإكبار وإجلال، لقد تزوج النبي ﷺ بالسيدة عائشة بنت أحب الناس إليه وأعظمهم قدرًا لديه الذي كان أسبق الناس إلى الإسلام وقدم نفسه وروحه وماله في سبيل نصرة هذا الدين والذود عن رسوله وتحمل ضروب الأذى في سبيل الله؛ حتى قال ﷺ: " ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله ". (١)

فلم يجد رسول الله ﷺ مكافأة لأبي بكر في الدنيا أعظم من أن يقر عينه بهذا الزواج بابنته ويصبح بينهما قرابة ومصاهرة تزيد في صداقتهما وترابطهما الوثيق.

رابعًا: الحكمة السياسية.

لقد تزوج ﷺببعض النسوة من أجل تأليف القلوب عليه وجمع القبائل حوله، فمن المعلوم أن الإنسان إذا تزوج من قبيلة أو عشيرة يصبح بينه وبينهم قرابة ومصاهرة وذلك بطبيعته يدعوهم إلى نصرته وحمايته، ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك أثناء الكلام على المحور الثاني؛ وهو الإشارة إلى قصة زواج النبي ﷺ بكل واحدة منهن على حدة ليظهر ما فيها من الروعة والجمال الأخلاقي

---

(١) الترمذي في سننه (٣٦٦١) المناقب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٩٤).

والإنساني الذي انفرد به رسول الله ﷺ.[1]

الوجه الثالث: لو فرض أن النبي ﷺ عدد لقضاء الوطر؛ لم يكن في ذلك قصوراً في مقام النبوة.

وهذه فتوى للشيخ الفاضل ابن عثيمين رحمة الله عليه عن زوجات النبي ﷺ:

سئل رحمه الله عمن قال: إن تزوج النبي ﷺ كان لغرضين: أحدهما: مصلحة الدعوة، والثاني: التمشي مع ما فطره الله عليه من التمتع بما أحل الله له؟

فأجاب بقوله:

من المعلوم أن النبي ﷺ بشر أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة إلى الناس كافة، وأن اتصافه بما تقتضيه الطبيعة البشرية من الأكل، والشرب، والنوم، والبول، والغائط ومدافعة البرد، والحر، والعدو، ومن التمتع بالنكاح، وأطايب المأكول والمشروب وغيرها من مقتضيات الطبيعة البشرية لا يقدح في نبوته ورسالته؛ بل قد قال الله له: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ (الأنعام: ٥٠)، وقال هو عن نفسه: "إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ".

وانتفاء علم الغيب وطرو النسيان على العلم قصور في مرتبة العلم من حيث هو علم، لكن لما كان من طبيعة البشر الذي خلقه الله ضعيفًا في جميع أموره، لم يكن ذلك قصورًا في مقام النبوة ونقصًا في حق النبي ﷺ، ولا ريب أن شهوة النكاح من طبيعة الإنسان، فكمالها فيه من كمال طبيعته، وقوتها فيه تدل على سلامة البنية واستقامة الطبيعة، ولهذا ثبت في صحيح البخاري من حديث أنس ابن مالك ﷺ قال "كنا نتحدث أنه يعني النبي ﷺ أعطى قوة ثلاثين "يعني على النساء، وهذا والله أعلم ليتمكن من إدراك ما أحل الله منهن بلا حصر ولا مهر ولا ولي فيقوم بحقوقهن، ويحصل بكثرتهن ما حصل من المصالح

---

(١) روائع البيان للصابوني ٢/ ٣١٨، وتنزيه سيد الأنبياء عن مطاعن السفهاء (٢٤)، وانظر تعدد زوجات الأنبياء للواء أحمد عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ.

العظيمة الخاصة بهن والعامة للأمة جميعًا، ولولا هذه القوة التي أمده الله بها ما كان يدرك أن يتزوج بكل هذا العدد، أو يقوم بحقهن من الإحصان والعشرة.

ولو فرض أن النبي ﷺ تزوج امرأة لمجرد قضاء الوطر من الشهوة والتمشي مع ما تقتضيه الفطرة بل الطبيعة لم يكن في ذلك قصور في مقام النبوة، ولا نقص في حقه ﷺ كيف وقد قال ﷺ: " تنكح المرأة لأربع: مالها، وحسبها، وجمالها، ودينها، فاظفر بذات الدين"، بل قد قال الله له: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٢).

لكننا لا نعلم حتى الآن أن رسول الله ﷺ تزوج امرأة لمجرد قضاء الوطر من الشهوة، ولو كان كذلك لاختار الأبكار الباهرات جمالًا، الشابات سنًا، كما قال لجابر ﷺ حين أخبره أنه تزوج ثيبًا، قال: " فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك"؟ وفي رواية " تضاحكها وتضاحكك" وفي رواية "مالك وللعذارى ولعابها "، رواه البخاري، وإنما كان زواجه ﷺ إما تأليفًا، أو تشريفًا، أو جبرًا، أو مكافأة، أو غير ذلك من المقاصد العظيمة، وقد أجملها في فتح الباري (٩/ ١١٥) حيث قال: " والذي تحصل من كلام أهل العلم في الحكمة في استكثاره من النساء عشرة أوجه:

١- أن يكثر من يشاهد أحواله الباطنة فيتتفي عنه ما يظن به المشركون من أنه ساحر أو غير ذلك.

٢- لتتشرف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم.

٣- الزيادة في تألفهم لذلك.

٤- الزيادة في التكليف حيث كلف أن لا يشغله ما حبب إليه منهن عن المبالغة في التبليغ.

٥- لتكثر عشيرته من جهة نسائه فتزداد أعوانه على من يحاربه.

٦- نقل الأحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال، لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله.

٧- الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنة، فقد تزوج أم حبيبه وأبوها يعاديه، وصفية بعد قتل أبيها وعمها وزوجها، فلو لم يكن أكمل الخلق في خلقه لنفرن منه، بل الذي وقع أنه كان أحب إليهن من جميع أهلهن.

٨- خرق العادة له في كثرة الجماع مع التقليل من المأكول والمشروب وكثرة الصيام والوصال، وقد أمر من لم يقدر على مؤن النكاح بالصوم، وأشار أن كثرته تكثر شهوته، فانخرقت هذه العادة في حقه ﷺ.

٩، ١٠- ما تقدم عن صاحب الشفاء من تحصينهن والقيام بحقوقهن. اهـ

وقد أضاف ابن العثيمين خمسة أوجه وهي:

١١- وهو إظهار كمال عدله في معاملتهن لتتأسى به الأمة في ذلك.

١٢- كثرة انتشار الشريعة فإن انتشارَها من عدد؛ أكثرُ من انتشارها من واحدة.

١٣- جبر قلب من فات شرفها كما في صفيه بنت حيي وجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق.

١٤- تقرير الحكم الشرعي وانتشال العقيدة الفاسدة التي رسخت في قلوب الناس من منع التزوج بزوجة ابن التبني، كما في قصة زينب فإن اقتناع الناس بالفعل أبلغ من اقتناعهم بالقول، وانظر اقتناع الناس بحلق النبي ﷺ رأسه في الحديبية ومبادرتهم بذلك حين حلق بعد أن تباطؤوا في الحلق مع أمره لهم به.

١٥- التأليف وتقوية الصلة كما في أمر عائشة وحفصة، فإن النبي ﷺ شد صلته بخلفائه الأربعة عن طريق المصاهرة، مع ما لبعضهم من القرابة الخاصة فتزوج ابنتي أبي بكر وعمر، وزوج بناته الثلاث بعثمان وعلي رضي الله عن الجميع، فسبحان من وهب نبيه ﷺ هذه الحكم وأمده بما يحققها قدرًا وشرعًا، فأعطاه قوة الثلاثين رجلًا، وأحل له ما شاء من النساء يرجي من يشاء منهن، ويؤوي إليه من يشاء وهو سبحانه الحكيم العليم.

وأما عن تزوجه بالواهبة نفسها، فلا يدل على أنه تزوج من سواها لمجرد الشهوة وقضاء وطر النكاح، وأما ابنة الجون فلم يعدل عن تزوجه بل دخل عليها وخلا بها،

ولكنها استعاذت بالله منه فتركها النبي ﷺ وقال: " لقد عذت بعظيم فالحقي بأهلك " ولكن هل تزوجها النبي ﷺ لمجرد جمالها وقضاء وطر النكاح أو لأمر آخر؟ إن كان لأمر آخر سقط الاستدلال به على أن النبي ﷺ كان يتزوج لمجرد قضاء الوطر، وإن كان لأجل قضاء الوطر فإن حكمة الله تعالى أن حال بينه وبين هذه المرأة بسبب استعاذتها منه.

وأما سودة رضي الله عنها فقد خافت أن يطلقها النبي ﷺ لكبر سنها فوهبت يومها لعائشة، وخوفها منه لا يلزم منه أن يكون قد هم به، وأما ما روي أنه طلقها بالفعل فضعيف لإرساله.

وأما زواجه ﷺ بزينب فليس لجمالها بل هو لإزالة عقيدة سائدة بين العرب، وهي امتناع الرجل من تزوج مفارقَةِ من تبناه فأبطل الله التبني، وأبطل الأحكام المترتبة عليه عند العرب، ولما كانت تلك العقيدة السائدة راسخة في نفوس العرب كان تأثير القول في اقتلاعها بطيئًا، وتأثير الفعل فيها أسرع، فقيض الله سبحانه بحكمته البالغة أن يقع من النبي ﷺ في تزوجه بمفارقة مولاه زيد بن حارثة الذي كان تبناه من قبل ليطمئن المسلمون إلى ذلك الحكم الإلهي ولا يكون في قلوبهم حرج منه، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحكمة بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فإنه يشعر بأن تزويجها إياه لم يكن عن طلب منه أو تشوف إليها، وإنما هو قضاء من الله لتقرير الحكم الشرعي وترسيخه وعدم الحرج منه وبهذا يعرف بطلان ما يروي: أن النبي ﷺ أتى زيدًا ذات يوم لحاجة فرأى زينب فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها فقال: " سبحان الله مقلب القلوب" فأخبرت زينب زيدًا بذلك ففطن له فكرهها وطلقها بعد مراجعة النبي ﷺ وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٣٧) فهذا الأثر باطل مناقض لما ذكر الله تعالى من الحكمة في تزويجها إياه، وقد أعرض عنه ابن كثير رحمه الله فلم يذكره، وقال: أحببنا أن نضرب عنها أي عن الآثار

الواردة عن بعض السلف صفحًا لعدم صحتها فلا نوردها، ويدل على بطلان هذا الأثر أنه لا يليق بحال الأنبياء فضلًا عن أفضلهم وأتقاهم لله ﷻ. (١)

وما أشبهه هذه القصة بتلفيق قصة دواد عليه السلام وتحيُّلِهِ على التزوج بزوجة من ليس له إلا زوجة واحدة، على ما ذكر في بعض كتب التفسير عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ (ص: ٢١) إلى آخر القصة فإن من علم قدر الأنبياء وبعدهم عن الظلم والعدوان والمكر والخديعة علم أن هذه القصة مكذوبة على نبي الله داود عليه السلام. (٢)

والحاصل أنه وإن جاز للنبي ﷺ أن يتزوج لمجرد قضاء الوطر من النكاح وجمال المرأة وأن ذلك لا يقدح في مقامه، فإننا نعلم أن النبي ﷺ تزوج زواجًا استقرت به الزوجة وبقيت معه من أجل هذا الغرض. والله أعلم. (٣)

الوجه الرابع: الكلام في قصة كل زوجة على حدة بما يرد هذا الزعم الباطل ويبين نبل أخلاق النبي ﷺ. والرد على شبهة زواج النبي ﷺ من عائشة وهي صغيرة السن.

والآن أسوق إليك عزيزي القارئ شيئًا يبدي لك ما تقر به عين كل محب إن شاء الله، ويكشف الحق أمام طالبه.

أولًا: خديجة رضي الله عنها.

* كانت خديجة رضي الله عنها أوسط نساء قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا، فهي ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى.

* تزوجت مرتين قبل النبي ﷺ.

* بينما كانت هي أول زوجات النبي ﷺ.

* تزوجها وهو في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين من عمرها.

---

(١) يراجع شبهة زواج النبي ﷺ من زينب من هذه الموسوعة

(٢) يراجع شبهة داود والخصم من هذه الموسوعة.

(٣) كتب ورسائل ابن عثيمين٩/ ٦٩.

* كانت خديجة تاجرة ذات مال وكانت تبعث من يتاجر لها في مالها، فلما سمعت بأمانته ﷺ بعثت إليه ليتاجر لها، ثم رغبت هي فيه زوجًا لها لما رأت فيه ما لم تر في غيره من الرجال، ففاتحته صديقتها نفيسة بنت منية. . . . ، ثم خطبها النبي ﷺ، وكان اختياره لها لسداد رأيها ووفرة ذكائها، وكان زواجه بها زواجًا حكيمًا موفقًا؛ لأنه كان زواج؛ العقل للعقل ولم يكن فارق السن بينهما بالأمر الذي يقف عقبه في طريق هذا الزواج لأنه لم يكن الغرض منه قضاء الوطر والشهوة؛ وإنما كان هدفًا إنسانيًا ساميًا. محمد رسول الله ﷺ قد هيأه الله لتحمل الرسالة وأعباء الدعوة، وقد يسر الله له هذه المرأة التقية النقية العاقلة الذكية لتعينه على المضي في تبليغ الدعوة ونشر الرسالة وهي أول من آمن بهﷺ.

* ومما يشهد لقوة عقلها وسداد رأيها أن الرسول ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء رجع إلى زوجه يرجف فؤاده فدخل عليها وهو يقول: زملوني زملوني، الحديث. وفيه أنه قال لها: لقد خشيت على نفسي، فقالت له: خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. . . إلخ الحديث. (١)

* قضى ﷺ معها زهرة شبابه، فلم يتزوج عليها مع أنها تفوقه في السن بخمسة عشر عامًا.

* بل وما أَحَبَّ أحدًا مثل حبه لها حتى غارت منها عائشة رضي الله عنها بعد موتها بسبب كثرة ذكره ﷺ لها.

* عاشت رضي الله عنها مع النبي ﷺ خمسة وعشرين عامًا، وماتت وهي في الخامسة والستين بينما كان هو في الخمسين من عمره ﷺ، ولم يكن عنده سواها عندما ماتت.

* لقد حزن ﷺ حزنًا شديدًا لفراقها، ولم يفرح لأنه تخلص منها ليتزوج بالشابات الجميلات حتى عرف هذا العام من سيرته ﷺ بعام الحزن.

* وصفها ﷺ بالكمال حتى بعد موتها.

* ظل بعدها من غير زوج حتى عُرض عليه ﷺ الزواج كما سيأتي

---

(١) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

- فهل يفعل هذا رجل يجري وراء الشهوة. ويريد أن يتمتع بالنساء، ويكون هذا هو غرضه؟. . ، ثم انظر يرحمك الله:

من الزوجة الثانية؟

إن الثانية في العقد هي عائشة وهي في السادسة من العمر؛ وفي الدخول هي سودة التي تزيد عليه في العمر، فأين الشهوة في هذه أو تلك؟!

وهكذا كان الزواج الأول لمحمد ﷺ من امرأة أرملة تزيد عليه في العمر كما مر يقضي معها ربع قرن كما مر في حياة زوجية كريمة، حتى إذا ماتت ظل يصرح لمن حوله بحبها وإكبارها، ثم يقسم أنها خير نسائه لأسباب هي:

الإيمان برسالته، ودعمه ماديًا ومعنويًا، ثم إنجابها الذرية له، وجميعها أسباب لا تمت إلى متعة الجسد وشهوته المشروعة من قريب أو بعيد، وحتى إذا كانت تلك المتعة والشهوة المشروعة دافعًا لزواج رسول الله محمد ﷺ -سواء بخديجة أو بغيرها فما ذلك بعيب طالما كان إنسان كاملًا يملك نفسه ولا تملكه أهواء النفس، ومن مثل محمد ﷺ يملك نفسه كما قالت عائشة رضي الله عنها فيما بعد، فهو أولًا وأخيرًا بشر كما قال القرآن بوضوح: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (الكهف: ١١٠) لكنه بحق أفضل البشر، فهل يقال لمن أدى شبابه مع امرأة واحده تكبره في السن بخمسة عشر عامًا إنه عدد قبل ذلك للشهوة فأين كانت الشهوة أيام الشهوة عند الشباب.

وأعود فأقول مرة ثانية، من هي الزوجة الثانية، وكيف تم الزواج بها، وكم سنها آن ذلك.

الزوجة الثانية: سودة بنت زمعة رضي الله عنها.

* كانت سودة رضي الله عنها أرملة السكران بن عمرو الأنصاري.

* كان النبي ﷺ بعد وفاة خديجة وأبي طالب في عام واحد يناله أذى قريش، وقبل ذلك كان أبو طالب يمنعه في الخارج، وكانت خديجة تضمد جراحه في الداخل، أما الآن قد ماتا جميعًا، وكان الصحابة يودون أن لو تزوج رسول الله ﷺ، حتى فاتحته خولة بنت حكيم السلمية، واقترحت عليه عائشة ثم سوده.

* ولقد كانت سودة رضي الله عنها مسنة حيث كانت قرابة الستين من العمر، وليس لها من الجمال أو المال نصيب، وما تزوجها رسول الله ﷺ إلا ليجبر كسرها ويرحم شيخوختها، وقد أبلت في الإسلام بلاء حسنًا وتحملت المخاطر والأهوال في الهجرة مع زوجها إلى الحبشة ثم في العودة إلى مكة، ولما مات زوجها صارت مهيضة الجناح معرضة لنكال أبيها الذي كان مشركًا.

* كان الحل الوحيد لسوده أن يتزوجها رجل من المسلمين - والمسلمون يومئذ قليل- ليحميها ويرد عنها الفتنة في دينها.

* لم يكن غير رسول الله ﷺ لينقذ هذه المسكينة، ويعوضها خيرًا فيتخذها زوجًا ويجعلها أمًا راعية لبناته.

* لقد ظل النبي ﷺ معها قرابة ثلاث سنوات حتى دخل بعائشة، وعلى هذا كان ﷺ فوق الثلاث والخمسين ولم يكن عَدَّدَ الزوجات.

* لما تزوج ﷺ بعائشة تنازلت سوده عن ليلتها لعائشة حبًا لرسول الله ﷺ، ولم يكن رغب في طلاقها كما تذكر بعض الروايات، إنما الصحيح أنه ﷺ تزوج عائشة وكانت صغيرة فرحمت سودة وحشتها وأرضت رسول الله بدرجة أكثر فتنازلت عن ليلتها لعائشة.

* وبهذا ترى أن التعدد الفعلي لم يبدأ إلا بعد زواج النبي ﷺ بحفصة رضي الله عنها كما سنذكر.

* مَنْ أولى العقول قال إن مَنْ أراد أن يرضي شهوته بعد وفاة زوجته لأنها شهوة جامحة فليذهب ليتزوج بامرأة عجوز مسنة أرملة أكبر منه في السن وهو فوق الخمسين؟

* وبهذا ترى وتعلم أن الزواج بسودة لا يوجد فيه أدنى شيء ولا اتهام بشهوة؛ ولو كان لما كان عيبًا ما دام في الطيب الحلال المشروع، فمن الثالثة. . . ؟

الزوجة الثالثة: عائشة رضي الله عنها.

* تزوجها النبي ﷺ وكانت بكرًا؛ وهي البكر الوحيدة من بين نسائه الطاهرات؛ فلم يتزوج بكرًا غيرها، وكانت عائشة أذكى أمهات المؤمنين وأحفظهن، بل كانت أعلم من

أكثر الرجال، فقد كان كثير من علماء الصحابة ﷺيسألونها عن بعض الأحكام التي تشكل عليهم فتحلها لهم.

* كان الزواج من عائشة بمثابة المكافأة لأبيها على سبقه في الإسلام، وتقوية للصلة بينه وبين قائده وحبيبه ﷺ.

* خطبها رسول الله وهي بنت ست وقيل سبع ودخل بها وهي بنت تسع وقيل عشر.

٤. كان من عادة العرب ولا يزال إلى اليوم أن تخطب الفتاة مبكرًا ثم تتزوج خلال بضع سنين بعد أن ينضج ويكتمل بناؤها، وهذا ما كان أمر عائشة رضي الله عنها قبل خطبتها إلى رسول الله ﷺ، فقد خطبها المطعم بن عدي لابنه جبير، فلما جاءت خولة بنت حكيم لتخطبها لرسول الله ﷺ؛ قال لها أبو بكر: انتظريني حتى أرجع، وقالت أم رومان (زوجه): فجلوا الموقف للخاطبة أن المطعم بن عدي كان قد ذكر عائشة على ابنه جبير، ولا والله ما وعد أبو بكر شيئًا قط فأخلف، فدخل أبو بكر على المطعم وعنده امرأته أم جبير وكانت مشركة فقالت العجوز يا ابن أبي قحافة لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك، أن تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟

فلم يرد عليها أبو بكر، بل التفت إلى زوجها المطعم، فقال: ما تقول هذه؟

فأجاب: إنها تقول ذلك الذي سمعت، فخرج أبو بكر وقد شعر بارتياح لما أحله الله من وعده وعاد إلى بيته، فقال لخولة: ادعي لي رسول الله "

وهذا الكلام مهم جدًا لأنهم يقولون كيف يخطبها وهي صغيرة هكذا مازالت طفلة، ويبدوا مما سبق أن هذه كانت عادة عند العرب، ولا شيء فيها فقد كانت عائشة نفسها مخطوبة لجبير بن مطعم قبل أن تذكر لرسول الله ﷺ، فلما أحل الله أباها من تلك الخطبة خطبها رسول الله ﷺ.

* ولقد خاض جهلة المستشرقين في أمر فارق السن بين رسول الله ﷺ وبين عائشة رضي الله عنها، إذ غابت عنهم خصائص تلك البيئة العربية وما شابهها قديمًا وحديثًا والتي لا تجعل فارق

السن بين الزوجين محل اعتبار، حيث إن إنجاب الذرية هدف أساسي يرجع تحقيقه في حالة الزوجة صغيرة السن ذات الخصوبة العالية التي لا تلبث أن تتضاءل كلما مرت الأيام، فلقد تزوج عبد المطلب الشيخ هالة بنت عم آمنة في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ترب هالة: آمنة بنت و هب، وتزوج عمر بن الخطاب بنتَ علي وهو أكبر من أبيها، وكان عمر يعرض ابنته على أبي بكر وعثمان وهما أكبر منه سنًا، وفي تاريخ الأنبياء السابقين مثل ذلك؛ بل أكثر من ذلك، فها هو إبراهيم خليل الله وأبو الأنبياء يخبرنا كتبة التوراة أنه لما خرج مهاجرًا إلى أرض كنعان كان ابن خمس وسبعين سنة (تكوين ١٢ : ٤)

وبعد ذلك حدثت مجاعة اضطرته أن ينحدر إلى مصر ليتغرب هناك وبعد ما حدث من فرعون مصر لسارة وما منح إبراهيم بسببها من عبيد وجواري وأنعام عاد ثانية إلى أرض كنعان (التكوين ١٢ : ١٠-٢٠).

ولما كان لا يزال من غير ذرية بسبب عقم، فقد أخذت هذه هاجر المصرية وأعطتها لإبراهيم رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت. (تكوين ١٦ : ١١٦)

وباعتبار أن هاجر قدمت لإبراهيم سارة كهدية فرعونية كانت لم تتعد العشرين ربيعًا وهي السن المقبولة لهؤلاء الفتيات نجد أن عمر إبراهيم عندما تزوج هاجر ٨٦-١=٨٥ سنة، وعمر هاجر عندما تزوجت إبراهيم ٧٥- ٢٠=٥٥سنة وبذلك يكون فارق السن ٥٥سنة وفي حالة داود نجد أنه لما توفى كان عمره حسب (سفر صموئيل الثاني ٥ : ٤) يبلغ سبعين عامًا:

" ولما شاخ الملك داود وتقدم في الأيام. . . . فتشو على فتاة جميلة. . . فوجدوا أبيشنج الشونمية فجاؤا بها إلى الملك "، وهذه الفتاة ما كانت لتتعدى العشرين ربيعًا أو دون الخامسة والعشرين على أقصى الفروض وهي حاضنة لداود يداعبها وتداعبه، لقد كان فارق السن بين داود وبين آخر نسائه يتعدى ٤٥ سنة على أقل تقدير.

* وفوق هذا كله كان زواج عائشة بوحي من الله تعالى، ففي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: " أريتك في المنام ثلاث ليال يجيء بك "أي

بصورتك" الملك في سَرْقه من حرير، فقال لي: هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب؛ فإذا أنت هي، فقلت: إن يكن هذا من عند الله يمضي". (١)

* كان لصغر سن عائشة رضي الله عنها أكبر الأثر في حفظ ونقل أحاديث النبي ﷺ، فقد عاشت فترة طويلة بعده صلوات الله عليه وسلامه تروي عن رسول الله ﷺ ويروي عنها أصحابه ﷺ، وبالنظر في زواج عائشة من النبي ﷺ نرى أن دعواهم بعيدة عن الحقيقة كل البعد، فهو زواج اجتماعي دعوي تربوي تعليمي أكثر منه في أي جانب آخر في عين كل من أراد أن يسلك سبيل الإنصاف.

الزوجة الرابعة حفصة رضي الله عنها.

* حفصة هي بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

* كانت قبل رسول الله ﷺ عند خنيس بن حذاقة السهمي وهو من أشد أنصار رسول الله ﷺ واستشهد في غزوة بدر.

* عرضها عمر على أبي بكر وعثمان، ثم خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها إكرامًا لعمر رضي الله عنه وتقوية للصلة بينهما.

* لم تكن حفصة رضي الله عنها ناهده عذراء؛ وإنما كانت أرملة، وكان النبي ﷺ قد بلغ آنذاك الخامسة والخمسين من عمره، وهذه هي بداية التعدد الحقيقي لرسول الله ﷺ لأنه سبق أن ذكرنا أن سودة وهبت نوبتها لعائشة رضي الله عنها، فأين الشهوانية في هذا التعدد؟

إنه لاشك زواج يدل على البر، والرحمة، وبعد النظر، وسمو الخلق، بعيدًا كل البعد عن الشهوة وحب النساء ومباهج الدنيا، ومن هنا نرى أن النبي ﷺ في الخامسة والخمسين من عمره كان له ثلاث زوجات، يقسم لاثنتين وتنازلت الثالثة عن ليلتها.

الزوجة الخامسة: زينب بنت خزيمة أم المساكين رضي الله عنها.

* تزوجها الرسول ﷺ بعد حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

(١) البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (٢٤٣٨).

* وهي أرملة البطل المقدام شهيد الإسلام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الذي استشهد في أول مبارزة في غزوة بدر.

* كانت حين استشهد زوجها تقوم بواجبها في إسعاف الجرحى.

* لم يشغلها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها حتى كتب الله النصر للإسلام.

* لما علم الرسول ﷺ بصبرها وثباتها، وأنه لم يعد هناك من يعولها خطبها لنفسه وآواها وجبر خاطرها بعد أن انقطع عنها الناصر والمعين.

* وكانت قد بلغت الستين من عمرها حينما تزوج بها النبي ﷺ.

* لم تُعَمَّرْ عند النبي الكريم ﷺ سوى عامين، ثم توفاها الله إليه راضية مرضية.

* ما رأيكم إذًا في هذا الزواج الشريف وهذه الغاية النبيلة، وهل يجد أحد فيه أثرًا للشهوة والهوى؟ ، أم هو النبل، والعفاف، والعظمة، والرحمة، والفضل، والإحسان من الذي جاء رحمة العالمين.

الزوجة السادسة: أم سلمة رضي الله عنها.

* تزوج بها رسول الله ﷺ وهي أرملة عبد الله بن عبد الأسد وكان زوجها من السابقين الأولين إلى الإسلام.

* استشهد زوجها في غزوة أحد؛ فبقيت هي وأيتامها بلا كفيل ولا معيل، فلم ير ﷺ عزاءً لها، ولا كافلًا لها ولأولادها غير أن يتزوج بها.

* لما خطبها لنفسه اعتذرت إليه بسنها وأيتامها وغيرتها فأزال النبي ﷺ ذلك بطيب الكلام حتى رضيت فتزوجها ولم يعبأ بالسن، وقام على تربية أيتامها ووسعهم قلبه الكبير حتى أصبحوا لا يشعرون بفقد الأب إذ عوضهم أبًا أرحم من أبيهم رسول الله ﷺ.

* وقد اجتمع لأم المؤمنين النسب الشريف والبيت الكريم والسبق في الإسلام.

* على أن لها فضيلة أخرى وهي جودة الرأي، ويدل على ذلك استشارة النبي ﷺ لها في أمر الحلف يوم صلح الحديبية.

* تعد أم سلمة من أكثر أمهات المؤمنين رواية عن النبي ﷺ بعد عائشة رضي الله عن الجميع، فنقلت إلى الأمة فقهًا غزيرًا وعلمًا كثيرًا من هدى النبي ﷺ في شتى أنواع الأحكام والعبادات.

وبعد، فماذا ترى في هذا الزواج؟ هل ترى فيه غير الرحمة والشفقة ونفع الأمة بعقل هذه المرأة وفقهها وجودة رأيها؟!.

الزوجة السابعة: زينب بنت جحش رضي الله عنها.

* كانت زينب زوجة لزيد بن حارثة الذي تبناه النبي ﷺ قبل ذلك.

* وتزوجها زيد قبل الهجرة بنحو ثماني سنوات، وعاش معها ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا.

* كانت الحياة الزوجية في هذه الفترة عبئًا ثقيلًا عليهما.

* لما بلغ السيل الزبى واستحالت العشرة طلقها زيد.

* فرض الله على نبيه الزواج منها حتى يبدأ شريعة جديدة في مسألة التبني حيث حرمها الله تعالى وبدأ تحريمها بعبده ورسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الأحزاب: ٣٧).

* لكن هذا الزواج الوحيد الذي تم بأمر من السماء أثار من أحاديث الهمز واللمز والأقاويل الشيء الكثير، فقديمًا قال المشركون:

حرم محمد ﷺ نساء الولد وتزوج امرأة ابنه، وقد سبق الجواب عن هذا بأن هذه بداية لتحريم التبني الذي كان عليه أهل الجاهلية، فكأن مثل هذا الكلام كان متوقعًا منهم، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

* ثم لمز البعض بأنها أعجبت رسول الله ﷺ ووقع حبها في قلبه وسيطر عليه، ولذلك تزوجها بمجرد أن طلقها زيد رضي الله عنه، واعتمدوا في ذلك على روايات مكذوبة لا تصح، أما أهل الحق فيقولون إن زينب كانت بنت عمه ﷺ ربيبة نظره ما يشمل البنت مع والدها لأول الأمر، حتى أنه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها وإباء أخيها وعد إباءها هذا عصيانا، ولا زالت

كذلك حتى نزل في شأنها قرآنا، فكأنه أرغمها على زواجه لما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك، ونزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ولو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينها وبينه حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة، ولكنه لم يرغبها لنفسه ورغبها لمولاه، فكيف يحيد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية؟

وكذلك لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر شهوة القريب وولعه بالقريب إلى درجة تبلغ حد العشق خصوصًا إذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهاده الأقرباء بعضهم في بعض متى تعود بعضهم النظر إلى بعض من بداية السن إلى أن يبلغ حدًا منه يحول فيه نظر الشهوة، فكيف يظن أو يتوهم أن النبي الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه: ١٣١).

يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله في ذلك؟

أم كيف يخطر ببال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان الشهوة في بنت عمته بعد أن زوجها لعبد من عبيده.

* عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها، قال ﷺ لزيد بن حارثة: اذهب فاذكرها عليَّ، فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع انظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة حتى أؤامر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن. . . وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن،

وهذا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب لئلا يظن أن ذلك وقع قهرًا بغير رضاه، وفيه اختبار ما كان عنده منها هل بقي منه شيئًا أم لا؟. (١)

* عن أنس ﷺ قال: إن زينب كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: " زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات "(٢)، فكان وليها في الزواج هو الله تعالى والسفير أو وكيلها جبريل ﷺوزوجها رسول الله ﷺ.

* ومن هنا نرى أن هذا الزواج غلبت عليه الحكمة التشريعية التي كان لابد أن يبدأ فيها رسول الله ﷺ بنفسه، ولقد جاء الأمر من عند الله ﷻ، فماذا يقول الحاقدون وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأحزاب: ٣٨).

فهذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة، أعلمهم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحله لهم أي سنه لمحمد رسول الله ﷺ من التوسعة في النكاح هو سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان عليهما السلام، ثم إنه تعالى نفى الحرج عن المؤمنين فيما ذكر واندرج الرسول ﷺ فيهم إذ هو سيد المؤمنين، ونفي عنه الحرج مرتين إحداهما في الإندراج في العموم والأخرى في الخصوص.(٣)

الزوجة الثامنة: أم حبيبة رضي الله عنها.

* تزوج النبي ﷺ بالسيدة أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما).

* كان أبو سفيان في ذلك الحين حامل لواء الشرك وألد الأعداء لرسول الله ﷺ.

* كانت ابنته قد أسلمت في مكة ثم هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فرارًا بدينها.

* وفي الحبشة مات زوجها فبقيت وحيدة فريدة لا معين لها ولا أنيس.

---

(١) مسلم (١٤٢٨).

(٢) البخاري (٧٤٢٠).

(٣) القرطبي (١٤/ ١٩٠).

* فلما علم الرسول الكريم بأمرها أرسل إلى النجاشي ملك الحبشة ليزوجه إياها، فأبلغها النجاشي بذلك، فسرت سرورًا لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لأنها لو رجعت إلى أبيها وأهلها لأجبروها على الكفر والردة أو عذبوها عذابًا شديدًا، وقد أصدقها عنه أربعمائة دينار وهدايا نفيسة، ولما عادت إلى المدينة المنورة تزوجها النبيﷺ.

* لما بلغ هذا الزواج أبا سفيان أقره وافتخر بالنبي ﷺ.

* كان هذا الزواج مباركًا لبني أمية فلانت قلوبهم القاسية للإسلام وبعد مدة أسلم كثير منهم.

* لقد تزوج النبي ﷺ أم حبيبة وقد بلغت من الكبر عتيا، وهي أرملة، وفي دار غربة، ولم يكن يرها في ذلك الوقت حتى يقال فتن بها، وإنما تزوجها رحمة ورأفة بها.

* كان هذا الزواج فيما بعد من العوامل الأساسية التي دفعت أبا سفيان إلى الدخول في الإسلام في العام التالي عام الفتح وخفف الرسول ﷺ بهذا الزواج عداوة بني أمية للإسلام.

* فهل هناك مجال بعد هذا كله للطعن في هذا الزواج الطيب بأنه كان للهوى والشهوة؟ إنه دليل على عظمة صاحب الرسالة محمد ﷺ وعلى بعد نظره، وثاقب رأيه، وكريم عطفه، ورحمته بالمؤمنين والمؤمنات ﷺ.

الزوجة التاسعة: جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

* هي جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وكانت قد أسرت مع قومها وعشيرتها ثم بعد أن وقعت تحت الأسر أرادت أن تفتدي نفسها، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تستعينه بشيء من المال فعرض عليها أن يدفع عنها الفداء وأن يتزوج بها، فقبلت ذلك فتزوجها.

* لما رأى المسلمون ما فعله النبي ﷺ مع جويرية بعد أن كانوا قد اقتسموا بني المصطلق قالوا: إن أصهار الرسول ﷺ لا يسترقون فأعتقوا ما في أيديهم من الأسرى.

* ونتيجة لهذا الإحسان أسلم بنو المصطلق وحسن إسلامهم.

* كان لهذا الزواج بجويرية أفضل الآثار وأحسن النتائج، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية أعتق بسببها عدد كثير، وسمع أبوها بما حدث فأعلن إسلامه رضي الله عنه.

* وبهذا صارت جويرية أمًا للمؤمنين، وزوجة لسيد المرسلين ﷺ عالمة بما تسمع،

عاملة بما تعلم، فقيهه، عابده، تقيه، ورعة تقية الفؤاد، مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله، وتحب الخير للمسلمين، راوية لأحاديث الرسول ﷺ، ناقلة لدين الله من مقره ومحل تنزله ﷺ، فأي بركة وخير أعظم من هذا الزواج الذي يشنع به الأعداء؟!

الزوجة العاشرة: صفيه بنت حُيي رضي الله عنها.

* والدها حُيي بن أخطب زعيم يهود بني النضير.

* كانت صفية قد أسرت في غزوة خيبر بعد قتل زوجها ووقعت في سهم دحيه الكلبي رضي الله عنه.

* أعطاها دحيه للنبي ﷺ وأخذ مكانها جارية.

* خيرها النبي ﷺ بين أمرين:

أ- إما أن يعتقها ويتزوجها. ب- وإما أن يطلق سراحها فتلحق بأهلها.

* اختارت رضي الله عنها أن يعتقها وتكون زوجة له؛ وذلك لما رأته من جلالة قدره وعظمته وحسن معاملته، وقد أسلمت وأسلم بإسلامها عدد من الناس.

* وهكذا تم الزواج باختيار صفية رضي الله عنها لتتحول من صفية بنت ألد أعداء الدولة الإسلامية إلى صفية زوجة القائد الأعلى والرسول الأعظم ﷺ، وإلى صفية أم المؤمنين رضي الله عنها.

* ويبدو من سياق قصتها في روايات السيرة الصحيحة؛ أنه ﷺ رأى أنها بنت ملك وزوجة ملك، ومثلها لا يوهب كما توهب السبايا الأخريات، ولهذا استرجعها النبي ﷺ من دحيه الكلبي رضي الله عنه مما يدل على إكرام النبي ﷺ لهذه السيدة عملًا بالقاعدة الإنسانية والإسلامية التي تقول ارحموا عزيز قوم ذل، وليس أكرم لها وأجبر لخاطرها من أن تكون زوجة للنبي ﷺ بدلًا من أن تكون مملوكة عند رجل من الناس، فلو لم يكن باعث استرجاع صفية رضي الله عنها من دحيه الكلبي هو باعث إسلامي إنساني شريف؛ ما خيرها النبي الكريم ﷺ بعد أن حررها من الأسر بين أن تعود إلى أهلها حرة مكرمة وبين أن يتزوجها لتكون إحدى أمهات المؤمنين، ولو أراد ﷺ أخذها جارية لنفسه لفعل، ولا يمكن أن يجد أي طاعن مجالًا للطعن في تصرفه ﷺ؛ لأن قوانين الحرب المتفق عليها بين الشعوب والأمم والتي عمل بها الإسلام وطبقها كعمل حربي مقابل في ذلك العصر تبيح للنبي ﷺ

أن يعامل صفية كنوع من الرقيق فيتخذها لنفسه جارية دونما أخذ موافقتها؛ لأنها أسيرة حرب تعتبر مملوكة بموجب قانون الحرب الدولي المعمول به في ذلك العصر، ولكن النبي ﷺ تكريمًا لهذه السيدة العظيمة في قومها أبى إلا أن يخصها من بين جميع السبايا بإعطائها مطلق الحرية في أن تختار أي السبيلين تريد بمحض إرادتها العودة إلى عشيرتها مع البقاء على دينها، أو الدخول في الإسلام لتكون زوجة للرسول ﷺ، لا فرق بينها وبين ابنة أبي بكر الصديق في الحقوق والواجبات، فاختارت الزواج بمحض اختيارها. وكان النبي ﷺ يبالغ في إكرام هذه السيدة ويراعي شعورها لعلمه بما هي عليه من حسياسة وشعور مرهف كامرأة عزيزة في قومها فقدت الوالد والزوج وكلاهما عزيز على قومه، حتى كانت صفية رضي الله عنها تتحدث عن هذه المعاملة النبيلة والمواساة النابعة من أشرف قلب.

ولعل من أسباب اصطفائه لها أن مثلها في السبايا قليل، فإذا صارت لرجل آخر لعل الآخر يغضب، فقطع النبي ﷺ وسد الباب بذلك، وهكذا يتضح نبل القصد وشرف الغاية في كل عمل يعمله النبي ﷺ وصحابته الكرام، كما تنكشف أمام أضواء هذه الحقيقة المشرقة الناصعة خبث نوايا وسوء قصد الذين يفسرون تزوج النبي ﷺ بصفية ذلك التفسير المقصود به الطعن في مقام الرسول ﷺ؛ حيث يرون أنه تزوجها لمجرد الشهوة والمتعة، وهذا عجب لأن المسلمات كثير ويتمنين ذلك، فكأن المتكلم يرى أن ليس في المجتمع الإسلامي امرأة تصلح للزواج حتى جاءت صفية رضي الله عنها ! !.

الزوجة الحادية عشرة: ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.

* هذه السيدة المباركة تزوجت قبل النبي ﷺ رجلين:

الأول منهما: ابن عبد ياليل الثقفي مات عنها أو فارقها، والثاني: أبو رهم بن عبد العزى ومات عنها.

* تزوجها النبي ﷺ وهي آخر زوجاته ﷺ لم يتزوج بعدها.

* تزوجها النبي ﷺ سنة سبع من الهجرة، قالت عنها السيدة عائشة رضي الله عنها: أَمَا إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم.

* تزوجها النبي ﷺ وهي أرملة قد بلغت من الكبر عتيًا.

* من الحكم في زواجه ﷺبها ربط صلته ﷺ بأقاربه المصاهرين لأقاربها ونشر أحكام الدين والدعوة.

فهل نجد أثرًا للهوى والشهوة في مثل هذا الزواج الكريم، أم إنه الفضل، والمروءة، والبر والإحسان، والعطف، والرحمة، والسياسة، والكياسة، لكل ذلك دعاه إلى مثل هذا الزواج النبيل الذي دل على بعد نظر الرسول ﷺ وسمو قصده وجميل إحسانه بالمؤمنات.

وهكذا نرى أن تعدد زوجات النبي ﷺ كان في بعضٍ إنسانيًا؛ كزواجه بنساء فقدن أزواجهن فضمهن إليه وقام على أمرهن كالسيدة سوده بنت زمعة، وأم سلمة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وكان في بعضه الآخر وفاء بحق صاحبين جليلين وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان في بعضه اكتمال التشريع كإبطال التبني، وكذا للمساهمة الكبرى في رواية السنة وانتشار التعليم؛ حيث إن نصف المجتمع نساء وأنهن بحاجة إلى الثقافة والتعليم كالرجال سواء بسواء، وإن واحدة أو اثنتين أو ثلاثة لا يمكن أن يقمن بدورهن في إرشاد النساء وتعليم البنات في المجتمع الإسلامي الجيد، لذلك فالأمر يتطلب أن يقوم بعض نسوة في أداء رسالتهن كمرشدات ومعلمات حتى يتعلم النساء كل ما ينفعهن في أمر دينهن ودنياهن، ولاسيما في الأمور التي يستحيين أن يسألن عنها رسول الله ﷺ كمسائل الحيض والنفاس و. . غيرها.

ومن الحكمة أيضًا أن اكتسب النبي ﷺ من التأييد بسبب زواجه من قبائل قريش، وأصبحوا يدخلون في الإسلام تباعًا ويعتنقون الإسلام طواعية واختيارًا، وينبغي ألا يغيب عن البال أن النبيﷺ بشر تسري عليه طبيعة البشر؛ ولكنه لم يخضع لأهواء هذه الطبيعة، بل أوتي القدرة على كبحها لينصرف إلى المهمة العليا التي اختير من أجلها.

الوجه الخامس: أنه قد ثبت في كتابهم المقدس تعدد نساء الأنبياء؛ وكذلك التسري.

فإن كان كتابهم هذا من عند الله؛ فقد أباح ما اعترضوا عليه بأنه لا يبيحه كتاب من عند الله لرسول من عند الله، وإن كان التعدد والتسري لا يمكن أن يتأتى في كتاب من عند الله؛

فحاصل هذا أن كتابهم هذا ليس من عند الله، فإما أن يلتزموا بها في كتابهم وأنه أباح التعدد والتسري، وقد سبق النقل عنهم في هذا الأمر – فيلزمهم الرجوع عن قولهم، وإما أن يلتزموا بما قالوه فيلزم عليه أن كتابهم ليس من عند الله، فلابد من الرجوع إلى كتاب من عند الله، فأين هو وما الذي فيه بخصوص هذا الأمر؟ وليس إلا كتاب الله القرآن الكريم[1].

المبحث الثالث: الرد على شبهات التعدد.

الشبهة الأولى:

يقولون: مادام جواز التعدد مشروط بالعدل، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء: ١٢٩)، فالعدل مستحيل؛ فالتعدد لا يجوز بنص القرآن؟

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه.

الوجه الأول:

لا يوجد تعارض بين الآيتين مطلقًا، ولا بين اشتراط العدل في آية والإخبار عن عدم استطاعته في آية أخرى؛ لأن العدل في الآية الأولى التي يستدل بها على وجوبه مقصود به العدل في الأمور المادية التي يستطيعها العبد.

أما العدل المنفي في الآية الثانية فهو الحب، والمودة، والجماع، وميل القلب، فهذه أمور خارجة عن قدرة الرجل، ولا يستطيع التحكم فيها. [2]

الوجه الثاني:

إن شرط العدل في هذه الآية شرط مرجعه إلى شخص المكلف لا يدخل تحت سلطان التشريع والقضاء، فإن الله قد أذن للرجل بصيغة الأمر أن ينكح ما طاب له من النساء دون قيد بإذن القاضي، أو بإذن القانون، أو بإذن الحاكم أو غيره، وأمره أنه إذا خاف في نفسه ألا يعدل بين الزوجات أن يقتصر على واحدة، وبالبداهة أَنْ ليس لأحد سلطان على قلب المريد للزواج حتى يستطيع أن يعرف ما في دخيلة نفسه من خوف الجور أو عدم

---

(١) انظر المبحث الرابع من هذا الشبهة.

(٢) معالم السنن ٣/ ٦٣، تفسير القرطبي سورة النساء، والزواج للحفناوي ٢٣٢ بتصرف.

خوفه بل ترك الله ذلك لتقديره في ضميره وحده، ثم أعلمه الله ـ سبحانه ـ أنه على الحقيقة لا يستطيع إقامة ميزان العدل بين الزوجات إقامة تامة لا يدخلها ميل فأمره أن لا يميل كل الميل، فيذر بعض زوجاته كالمعلقة، فاكتفى ربه منه في طاعة أمره بالعدل أن يعمل منه بما استطاع، ورفع عنه ما لم يستطع، وهذا العدل المأمور به مما يتغير بتغير الظروف ومما يذهب ويجيء بما يدخل في نفس المكلف، ولذلك لا يعقل أن يكون شرطًا في صحة العقد، بل هو شرط نفسي متعلق بنفس المكلف وبتصرفه في كل وقت بحسبه، فرب رجل عازم على الزواج المتعدد وهو مُضْمِرٌ في قلبه عد م العدل، ثم لم ينفذ ما كان مصرًا عليه، وعدل بين أزواجه، فهذا لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أن يدعي أنه خالف أمر ربه إذ أنه أطاع الله بالعدل، وعزيمته في قلبه من قبل لا أثر لها في صحة العقد أو بطلانه بداهة، خصوصًا وأن النصوص صريحة في أن الله لا يؤاخذ العبد بما حدَّث به نفسه ما لم يعمل به أو يتكلم، ورب رجل تزوج زوجة أخرى عازمًا في نفسه على العدل ثم لم يفعل، فهذا قد ارتكب الإثم بترك العدل ومخالفة أمر ربه، ولكن لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أن يدعي أن هذا الجور المحرم منه قد أثر على أصل العقد بالزوجة الأخرى، فنقله من الحل والجواز إلى الحرمة والبطلان، إنما إثمه على نفسه فيما لم يعدل، ويجب عليه طاعة ربه في إقامة العدل، وهذا شيء بديهي لا يخالف فيه من يفقه الدين والتشريع. اهـ.[1]

الوجه الثالث:

ومما يبين أن العدل في الحب القلبي لا يجب، أن هذا الحب يتغير بتغير الظروف، وهذه الظروف قد تجعلها إحدى الزوجات موافقة للحب، وقد تجعلها الأخرى موافقة لغيره، كأن تكون إحدى الزوجتين في غاية الحب لزوجها، والطاعة، والاحترام، والأدب، والتضحية لأجله، والمواساة بالمال والنفس، والمؤازرة في الشدائد لكل ما تملك، لا تقعد إذا وقف ولا تتكلم إذا نطق، إذا أمرها أطاعته، وإذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته. . . إلخ.

(١) عمدة التفسير لأحمد شاكر ٣/ ١٠٣-١٠٦، وانظر جامع أحكام النساء٣/ ٤٤٩.

فهذه لا شك تحب، فكيف به إذا كانت الأخرى على الضد منها في كل شيء؟ فهي رفيق سوء وجار سوء، وشريكٌ وعشيرٌ سوء، ومركب سوء، ومنظر سوء، تفرح في حزنه، وتحزن في فرحه، فهل من الحكمة والعقل والدين أن يكون حب هذه كحب تلك؟! أقول: لا بل ولا من العدل.

نعم: ليس من العدل الذي أمر الله به أن يكون حب المحسن كحب المسيء، هذا إذا كان الحب والبغض بيده، فكيف والأمر بيد من يقلب القلوب كيف يشاء سبحانه ﷻ؟!

الوجه الرابع:

ومن تمام العدل أن يسوى بينهم في القَسَم، حتى لو كان يميل إلى إحداهن أو يبغض إحداهن فهو مكلف على كل حال بالعدل في القسم بينهن قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)، وليس مع الميل معاشرة بالمعروف، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ (المائدة: ٨).

وعن أنس رضي الله عنه قال: " كان للنبي ﷺ تسع، فكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسع". (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال "مَنْ كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل". (٢)

---

(١) مسلم (١٤٦٢).

(٢) أبو داود (٣١٣٣)، والترمذي (١١٤١) وإسناده صحيح، جامع أحكام النساء ٣/ ٤٨١.

ففي الحديثين دليل على أنه يجب على الزوج التسوية بين الزوجات ويحرم عليه الميل إلى إحداهن، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾، والمراد: الميل في القسم والإنفاق لا في المحبة. (١)

ويقسم للحائض، ولا يجوز له أن يجامعها، ويقسم لكل امرأة يومًا وليلة، ولا يخرج من بيت امرأة في الليل إلى بيت غيرها إلا لحاجة، ولا يجامع امرأة في وقت غيرها إلا إذا أذنت ورضيت بذلك، والحرة والأمة في القسم سواء، وكذا المسلمة والكتابية، ولا قسم على الرجل فيما ملكت يمينه، وبهذا ترى أن الضابط في التعدد هو العدل في كل ما يملكه العبد ولا يحمله كره واحدة أو حب الأخرى على عدم العدل، والعدل بين الزوجات في القسم محل إجماع بين أهل العلم.

قال ابن قدامة: لا نعلم بين أهل العلم في وجوب التسوية بين الزوجات في القسم خلافًا. (٢)

الشبهة الثانية.

يقولون: ما دام التعدد جائزًا فلماذا خلق الله لآدم زوجة واحدة؟

والجواب على هذه الشبهة.

نعم هذه ظاهرة واقعة وثابتة في جميع الرسالات السماوية، ولكن على أساس هذه الظاهرة لا يصح القول: بأن نظام الزوج الواحد والزوجة الواحدة هو النظام الطبيعي الوحيد ولا يجوز التعدد؛ وذلك لأن خلقَ حواءَ واحدةٍ لآدمَ عليه السلام كان لحكمة سامية، هي أن يكون البشرُ جميعًا أبناءَ رجلٍ واحدٍ وامرأة واحدة، فلا يفاضل بعضهم بعضًا بحسب أو نسب؛ فيزعم مثلًا أنه ينتهي إلى أب أو إلى أم أشرف من أم الآخرين، فليس هناك أبناء لله، أو شعب خاص مختار عنده، بل الجميع بشر ممن خلق، كلهم من آدمَ وحواءَ وبالتالي لا تفاضل بينهم إلا بالإيمان والعمل الصالح والتقوى(١).

---

(١) جامع أحكام النساء للعدوي ٣/ ٤٨٧.

(٢) المغني٨/ ١٣٨.

الشبهة الثالثة.

يقول المعترض: لماذا لم يجعل تعدد الزوجات بيد القاضي حتى يتأكد من وجود ضوابط التعدد عند الرجل"؟

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه.

الوجه الأول:

إن الله تعالى أناط بالراغب في الزواج وحده تحقيق شرطي التعدد فهو الذي يقدر الخوف من عدم العدل لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

فإن الخطاب فيه لنفس الراغب في الزواج، لا لأحد سواه من قاضٍ أو غيره، فيكون تقدير مثل هذا الخوف من قبل غير الزوج مخالفًا لهذا النص، وكذلك البحث في توافر القدرة على الإنفاق، فإنه منوط بالراغب في الزواج لقوله ﷺ " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج "، فهو خطاب للأزواج لا لغيرهم

الوجه الثاني:

إن إشراف القاضي على الأمور الشخصية أمر عبث؛ إذ لا يطلع على السبب الحقيقي، ويخفى الناس عادة عليه ذلك السبب، فإن اطلع على الحقائق كان اطلاعه فضحًا لأسرار الحياة الزوجية وتدخلًا في حريات الناس، وإهدارًا لإدارة الإنسان وخوضًا في قضايا ينبغي توفير وقت القضاة لغيرها ومنعًا وأمرًا في غير محله فالزواج أمر شخصي بحت يتفق فيه الزوجان مع أولياء المرأة، لا يستطيع أحد تغيير وجهته وتبديل قيمه، وإن أسرار البيت المغلقة لا يعلم بها أحد غير الزوجين. [٢]

الشبهة الرابعة.

يقول المعترض: لماذا تعدد الزوجات للرجال؟ ولم يجز تعدد الأزواج للنساء؟

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجه:

---

(١) تعدد الزوجات للدكتور العطار (٨٣) نقلًا عن الزواج للحفناوي (٢٣٦).

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته لوهبه الزحيلي (٧/ ١٧٢، ١٧٣)، وانظر الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية لزكي الدين شعبان (١٩٦).

الوجه الأول:

إن المساواة بين الرجل والمرأة في أمر التعدد مستحيلة، وذلك لأن المرأة في طبيعتها لا تحمل إلا في وقت واحد مرة واحدة في السنة كلها، أما الرجل فغير ذلك، فمن الممكن أن يكون للرجل أولاد متعددون من نساء متعددات، لكن المرأة لا يكون لها إلا مولود واحد من رجل واحد.

الوجه الثاني:

إن تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة يضيع نسبة ولدها إلى شخص معين، وليس الأمر كذلك بالنسبة للرجل.

وهذا يعني اختلاط الأنساب، ولا يقال يمكن التعرف عليه بالعلوم الحديثة لأن الإسلام جاء لكل عصر ومصر، وليس كل البلاد؛ ولا كل الأمكنة تحتوي على إمكانيات الأجهزة الحديثة، وهذا على التسليم بأنها تغلب عليها الإصابة في التعرف على نسب الجنين.

الوجه الثالث:

أن تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة فيه إهدار للطاقة البشرية عندما تحتاج إلى كثرة النسل.

الوجه الرابع:

أن تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة سبب لكثير من الأمراض النفسية والبدنية بالنسبة لها، وللرجال كذلك، وهذا ثابت.

الوجه الخامس:

أن هذا يستدعي أن تكون المرأة هي القيم على البيت، مَنْ احتاجته من الرجال وجدته تحت يدها، وإلا فما معنى أن ينفق الرجل على المرأة فإذا احتاجها وجدها تحت رجل آخر؟!

الوجه السادس:

إذا نفست المرأة أو مرضت بحيث لا يستطيع أحد الاقتراب منها فماذا يصنع أزواجها؟

الوجه السابع:

إذا اختلفوا على الولد، وكلهم يريده فماذا تصنع هي وكلهم أزواج؟ وكذا إذا نفاه الكل فماذا تصنع هي ومن يعوله وينفق عليه؟

الوجه الثامن:

إن هذا أمر تأباه النفس الشريفة المعتدلة، أما الشواذ ومرضى النفس والقلب فلا يقاس عليهم.

الوجه التاسع:

إن هذا وضع فيه اجهاد للمرأة، ولعلهم ينتظرونها خلف بعض ليقعوا عليها، ولعلها لا تحتمل ذلك فماذا تصنع هل تقسم لهم؟!

الوجه العاشر:

لا أدري كيف يستقيم حال امرأة فيها شركاء متشاكسون، يقتل بعضهم بعضًا لأجلها وكيف يُربى الأبناء في هذا البيت؟

الوجه الحادي عشر:

هذا الأمر لا وجود له في نص سماوي أو في أي كتاب سماوي، ولا فعله نبي من الأنبياء، ولا صاحب نبي، ولا تابع للنبي، بخلاف تعدد الزوجات؛ فقد كثر واشتهر في الكتب السماوية وعن أنبياء الله تعالى. (١)

قال ابن القيم: فإن قيل كيف روعي جانب الرجل وأطلق له العنان أن يسيم طرفه ويقضي وطره، ويتنقل من واحدة إلى واحدة بحسب شهوته وحاجته، داعي المرأة داعية وشهوتها شهوته؟ قيل: لما كانت المرأة من عادتها أن تكون مخبَّأة من وراء الخدور، ومحجوبة في بيتها، وكان مزاجها أبرد من مزاج الرجل، وحركتها الظاهرة والباطنة أقل من حركته، كان الرجل قد أعطي من القوة والحرارة التي هي سلطان الشهوة أكثر مما أعطيته المرأة، وبلي بما لم تبل به، أطلق له عدد من المنكوحات ما لم يطلق للمرأة، وهذا مما خص الله به الرجال وفضلهم به على النساء، كما فضلهم عليهن بالرسالة والنبوة والملك والإمارات وولاية الحكم والجهاد وغير ذلك، وجعل الرجال قوامين على النساء ساعين في مصالحهن يدأبون في أسباب معيشتهن، ويركبون الأخطار، ويجوبون القفار، ويعرضون أنفسهم لكل بلية ومحنة في مصالح الزوجات، والرب تعالى شكور حليم متشكر لهم ذلك، وجبرهم بأن مكنهم مما لم يمكن منه الزوجات، وأنت إذا قايست بين تعب الرجال وشقائهم وكدهم ونصبهم في مصالح النساء وبين ما ابتلي به النساء من الغيرة وجدت حظ الرجال من تحمل الغيرة فهذا من كمال عدل الله

(١) مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين الأخرى (١٩٣٠).

وحكمته ورحمته؛ فله الحمد كما هو أهله.

وأما قول القائل: إن شهوة المرأة تزيد على شهوة الرجل؛ فليس كما قال، والشهوة منبعها الحرارة، وأين حرارة الأنثى من حرارة الذكر؟ ، ولكن المرأة لفراغها وبطالتها يغمرها سلطان الشهوة ويستولي عليها ولا يجد عندها ما يعارضه، بل يصادف قلبًا فارغًا ونفسًا خالية فيتمكن منها كل التمكن فيظن الظان أن شهوتها أضعاف شهوة الرجل وليس كذلك، ومما يدل على هذا أن الرجل إذا جامع زوجته أمكنه أن يجامع غيرها في الحال.

وكان النبي ﷺ يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وطاف سليمان على تسعين امرأة في ليلة؛ ومعلوم أن له عند كل امرأة شهوة وحرارة باعثة في الوطء، والمرأة إذا قضي الرجل وطره فترت شهوتها وانكسرت نفسها، ولم تطلب قضاءها من غيره في ذلك الحين؛ فتطابقت حكمة القدر والشرع والخلق والأمر والحمد لله[1].

ثم كيف أنتم الآن تقولون بعظم شهوتها؟ فإذا تكلمتم في الختان قلتم إن الختان يضعف شهوتها ويؤدي إلى البرود فنرجو منكم أن تكونوا في جهة واحدة، هل تريدون إشعال شهوتها بترك الختان لتكفي زوجًا واحدًا، أم تريدون إطفاء شهوتها بكثرة الأزواج؟

ولقد سخر بعض الكتاب من إثارة هذا السؤال فقال: أما عدم إباحة زواج المرأة بأكثر من رجل؛ فإني أحسب هذه من مسائل الهزل والمزح التي لا تثار في مسائل النقد العلمي، فهل عندكم في دينكم أو حتى مدنيتكم زوجة لعدد من الرجال؟

إن المرأة وعاء فهل يتسع إناء لضدين؟

لقد عرف زواج المرأة من عدة رجال في الشعوب البدائية، وما زال يوجد هذا النوع في جنوب الهند وعلى حدودها الشمالية، والحكومات الهندية تحاول إخضاع هذه القبائل لقوانينها العامة التي لا تبيح مثل هذا الزواج، وهذا الزواج كذلك موجود في جنوب أمريكا وأماكن أخرى تجمعها كلها البداوة وعدم التحضر، وقد كان هذا أحد أنواع الزواج التي أبطلها

---

(١) إعلام الموقعين ٢/ ٩١، ٩٢.

الإسلام في سبيل إصلاحاته وإخراجه البشر من ظلمات الجهل والجاهلية.

الشبهة الخامسة.

يقول المعترض: لماذا حد النساء بأربع وليس كذلك الإماء؟

والجواب على هذه الشبهة.

أن هذا من تمام نعمته وكمال شريعته وموافقتها للحكمة والرحمة والمصلحة، فإن النكاح يراد للوطء وقضاء الوطر ثم من الناس ما يغلب عليه سلطان هذه الشهوة؛ فلا تندفع حاجته بواحدة فأطلق له الثانية وثالثة ورابعة، وكان هذا العدد موافقًا لعدد طباعه وأركانه وعدد فصول سنته، ولرجوعه إلى الواحدة بعد صبر ثلاث عنها، والثلاث أول مراتب الجمع، وقد علق الشارع بها عدة أحكام، ورخص للمهاجر أن يقيم بمكة بعد أداء النسك ثلاثًا، وأباح للمرأة أن تحد على غير زوجها ثلاثًا، فَرَحِمَ الضرةَ بأن جعل غاية انقطاع زوجها عنها ثلاثًا ثم يعود؛ فهذا ملخص الرحمة والحكمة والمصلحة. وأما الإماء فلما كن بمنزلة سائر الأموال من الخيل والعبيد وغيرها لم يكن لقصر المالك على منهن أربع أو غيرها من العدد معنى، فكما ليس في حكمة الله ورحمته أن يقصر السيد على أربعة عبيد أو أربع دواب وثياب ونحوها، فليس من حكمته أن يقصره على أربع إماء.

وأيضًا فللزوجة حق على الزوج اقتضاء عقد النكاح يجب على الزوج القيام به؛ فإن شاركها غيرها وجب عليه العدل بينهما، فقصر الأزواج على عدد يكون العدل فيه أقرب مما زاد عليه، ومع هذا فلا يستطيعون العدل ولو حرصوا عليه، ولا حق لإمائه عليه في ذلك؛ ولهذا لا يجب لهن قسم ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ والله أعلم. [1]

الشبهة السادسة.

وهو أن التعدد يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة؛ لأنه كلما أرضى إحدى الطرفين سخطت الأخرى، فهو بين سخطتين دائمًا، وأن هذا ليس من الحكمة؟

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٩٠).

والجواب على هذه الشبهة.

إن هذا كلام ساقط يظهر سقوطه لكل عاقل؛ لأن الخصام والمشاغبة بين أفراد أهل البيت لا انفكاك عنه البتة، فيقع بين الرجل وأمه، وبينه وبين أبيه، وبينه وبين أولاده، وبينه وبين زوجته الواحدة، فهو أمر عادي ليس له كبيرُ شأن، وهو في جنب المصالح العديدة العظيمة التي ذكرنا في تعدد الزوجات؛ من صيانة النساء وتيسير التزويج لجميعهن وكثرة عدد الأمة لتقوم بعددها الكبير في وجه أعداء الإسلام لأن المصلحة العظمى يقدم جلبها على المفسدة الصغرى، فلو فرضنا أن المشاغبة المزعومة في تعدد الزوجات مفسدة، أو أن إيلام قلب الزوجة الأولى بالضرة الثانية مفسدة، لقدمت عليها تلك المصالح الراجحة التي ذكرنا كما هو معروف في الأصول.

فالقرآن الكريم أباح تعدد الزوجات لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج ولمصلحة الرجل بعدم تعطيل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة فيكثر عددها فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو تشريع حكيم خبير لا يطعن فيه إلا من أعمى الله بصيرته بظلمات الكفر، وتحديد الزوجات بأربع تحديد من حكيم خبير؛ وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطيل منافع الرجال؛ وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية للجميع؛ والعلم عند الله تعالى. [1]

الشبهة السابعة.

يقول المعترض: لماذا لم يوافق النبي ﷺ على زواج علي بن أبي طالب من ابنة أبي جهل؟

ووجه السؤال أن النبي ﷺ منع عليًا من الزواج من بنت أبي جهل وهذا يدل على التحريم.

والجواب على هذه الشبهة.

إن الذي أوقعهم في ذلك أنهم لم يسوقوا لفظ الحديث كاملًا؛ وإنما لخصوا القصة تلخيصًا مريبًا ليستدلوا على أن النبي ﷺ يمنع تعدد الزوجات؛ وهذا غير صحيح، ولا

---

(١) الوسطية في القرآن الكريم: علي محمد الصلابي ٣/ ١٥٠.

تدل القصة عليه؛ لأن تمام القصة بقوله ﷺ " وإني لست أحرم حلالًا؛ ولا أحل حرامًا، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله مكانًا واحدًا أبدًا ". [(١)]

فهذا رسول الله ﷺ المبلغ عن الله، والذي كلمته الفصل في بيان الحلال والحرام؛ يصرح باللفظ العربي المبين في أدق حادث يمس أحب الناس إليه وهي ابنته الكريمة السيدة الزهراء بأنه لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، ولكن يستنكر أن تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في مكان واحد.

قال الشيخ أحمد شاكر: وعندي وفي فهمي أن النبي ﷺ لم يمنع عليًا من الجمع بين ابنته وبنت أبي جهل بوصفه رسولًا مُبلّغًا عن ربه حكمًا شرعيًا بدلالة تصريحه بأنه لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، وإنما منعه منه منعًا شخصيًا؛ بوصفه رئيس الأسرة التي فيها عليّ ابن عمه وفاطمة ابنته؛ بدلالة أن أسرة بنت أبي جهل هي التي جاءت تستأذنه فيما طلب إليهم عليّ ﷺ، وكلمة رئيس الأسرة مطاعة وخصوصًا إذا كان هذا الرئيس هو سيد قريش وسيد العرب وسيد الخلق أجمعين[(٢)].

المبحث الرابع: تعدد الزوجات في اليهودية والنصرانية.

تعدد الزوجات في اليهودية.

لقد جاءت التوراة مبيحة تعدد الزوجات دون أن تحدد عددًا معينًا، وكانت تذكر الأنبياء الذين عددوا الزوجات من غير قدر محدود كما تذكر غيرهم[(٣)].

ففي سفر اللاويين (١٨/ ١٨): وَلاَ تَأْخُذِ امْرَأَةً عَلَى أُخْتِهَا لِلضِّرِّ لِتَكْشِفَ عَوْرَتَهَا مَعَهَا فِي حَيَاتِهَا.

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٣١١٠) عن المسور بن مخرمة: أن علي بن أبي طالب ﷺ خطب ابنة أبي جهل على فاطمة رضي الله عنها فسمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في ذلك على منبره هذا وأنا يومئذ المحتلم فقال: "إن فاطمة مني وأنا أتخوف أن تفتن في دينها. . . . وإني لست أحرم حلالًا ولا أحلل حرامًا ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ مع بنت عدو الله أبدًا "

(٢) عمدة التفسير لأحمد شاكر آية: ٣ من سورة النساء، وانظر: جامع أحكام النساء للعدوي ٣/ ٤٥٠.

(٣) المرأة ومكانتها في الإسلام (١٥٧) نقلًا عن تعدد الزوجات في الأديان (١١).

ومعنى هذا الكلام أن التعدد ليس حرامًا، ولكن المحرم هو أن يتزوج الرجل شقيقة زوجته أثناء حياتها معه في عصمته.

ثم هذه التوراة نفسها، تقول: إن النبي داود كان له تسع وتسعون زوجة من الحرائر وثلاثمائة من الجواري، وكان لعيسى بن إسحاق أكثر من زوجة كما في التوراة: فَذَهَبَ عِيسُو إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَأَخَذَ مَحْلَةَ بِنْتَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، أُخْتَ نَبَايُوتَ، زَوْجَةً لَهُ عَلَى نِسَائِهِ. (التكوين ٢٨/ ٩).

وفي التوراة كذلك أن سيدنا سليمان عليه السلام كان له أكثر من زوجة: وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ (الملوك الأول ١١/ ٣)

وعلى هذا فتعدد الزوجات في الشرائع السابقة كان موجودًا، ولما بعث الله موسى عليه السلام أقر بتعدد الزوجات بدون أن يحدد للرجل عددهن، حتى قرر بنو التلمود تحديد الزوجات؛ إلا أن بعض علماء بني إسرائيل منعوه وبعضهم أباحه، وتعللوا في ذلك إذا كانت الزوجة مريضة أو عقيمة أو للخيانة وغير ذلك وعلمًا بأن التلمود عند اليهود أباح تعدد الزوجات ولكن قيده بعدد محدد ومعين.[1]

ولقد جاء في التوراة ما يثبت هذا التعدد في نساء أعظم أنبيائهم وملوكهم كداود عليه السلام حيث تقول: فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ! هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَنَا مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ، ^٨وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ سَيِّدِكَ وَنِسَاءَ سَيِّدِكَ فِي حِضْنِكَ، (صموئيل الثاني ١٢/ ٧).

ثم وبخه على قتله لأوريا الحثي وأخذ زوجته فقال: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجِعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ (صموئيل الثاني ١٢/ ٧).

وبهذا نرى أن تعدد الزوجات كان شائعًا ومنتشرًا عند اليهود من غير نكير، ولقد ظل اليهود طيلة العصور الوسطى يجمعون بين عدة زوجات؛ حتى منع الأحبار الربانيون تعدد

(١) المرأة ومكانتها في الإسلام لأحمد عبد العزيز (١٥٨).

الزوجات لضيق أحوال المعيشة التي كان يعانيها اليهود في تلك العصور، وقد صدر هذا المنع في القرن الحادي عشر وقرر المجمع الكنيسي في مدينة وارمس بألمانيا، وكان هذا المنع في أول الأمر قاصرًا على يهود ألمانيا ويهود شمال فرنسا، ثم عم جميع يهود أوربا، وقد أخذت قوانين الأحوال الشخصية لليهود بعدئذٍ بمنع تعدد الزوجات، وألزمت الزوج أن يحلف يمينًا حين إجراء العقد على ذلك، وإذا شاء الرجل أن يتزوج بامرأة أخرى فعليه أن يطلق زوجته، ويدفع إليها جميع حقوقها إلا إذا أجازته بالزواج وكان في وسعه أن يعيل الزوجتين، وقادرًا على العدل بينهما، وكان هناك مسوغ شرعي لهذا الزواج كعقر الزوجة. (١)

يقول ينيوفيلد صاحب كتاب قوانين عند العبرانيين الأقدمين:

إن التلمود والتوراة معًا قد أباحا تعدد الزوجات على إطلاقه، وإن كان بعض الربانين ينصحون بالقصد في عدد الزوجات، وإن قوانين البابليين وجيرانهم من الأمم التي اختلط بها بنو إسرائيل كانوا جميعًا على مثل هذه الشريعة في اتخاذ الزوجات والإماء. (٢)

يقول ديشتر: لقد سمح الكتاب المقدس بتعدد الزوجات والمعاشرة الجنسية للإماء، وسبايا الحرب والعاهرات، وغير المتزوجات اللاتي خرجن من كنف آبائهن بل أكثر من ذلك، فقد كان يمكن للأب أن يعطي أبناءه عند وصول سن البلوغ إماءً للزوم الفراش، وأي علاقة جنسية خارج هذا الإطار للسيدة المتزوجة كانت تقابل بعقوبة الموت، كما كانت هذه سنة الأنبياء جميعًا، وانظر ما يلي: وَاتَّخَذَ لاَمَكُ لِنَفْسِهِ امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ الْوَاحِدَةِ عَادَةُ، وَاسْمُ الأُخْرَى صِلَّةُ. (تكوين ٤-١٩).

فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشَرِ سِنِينَ لإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي

---

(١) تعدد الزوجات في الإسلام (١٣)، وانظر اليهود في تاريخ الحضارات الأولى لغوستاف لويون ترجمة عادل زعيتر (٥٠، ٥١)، وأحكام الأحوال الشخصية لغير المسلمين من المصريين لتوفيق حسن (٥٩٢)، وقانون الأحوال الشخصية للطائفة اليهودية في لبنان (٩٨، ١٠١).

(٢) في محكمة التاريخ (٩٨) نقلًا عن إنسانية المرأة (٢٦١).

أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ. (تكوين ١٦-٣).

وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ (تكوين ٢٥-١).

تزوج يعقوب من أربعة على الأقل: ليئة وراحيل وبلهة وزلفة، وكان في المساء أنه أخذ ليئة ابنته وأتى بها إليه فدخل عليها (التكوين ٢٩-٢٣).

فعل يعقوب هذا فأكمل أسبوع هذه فأعطاه راحيل ابنته زوجه له (التكوين٢٩-٢٨).

فأعطته بلهة جاريتها زوجة فدخل عليها يعقوب.

ولما رأت ليئة أنها توقفت عن الولادة أخذت زلفة جاريتها وأعطتها ليعقوب زوجة (التكوين ٣٠-٩).

كما تزوج موسى من اثنتين، ابنة يثرون وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان (الخروج٣-١).

وامرأة كوشية: وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها لأنه كان قد اتخذ امرأة) كوشية عدد (١٢-١)

ويقول سفر القضاه: إنه كان لجدعون ٧٠ولدًا: (وكان لجدعون سبعون ولدًا خارجون من صلبه لأنه كانت له نساء كثيرات وسريته التي في شكيم ولدت له أيضًا ابنًا فسماه أبيمالك) قضاة (٨-٣٠-٣١).

وتزوج رحبعام من ١٨ امرأة و٦٠من السواري: (٢١. وأحب رحبعام معكة بنت أبشالوم أكثر من جميع نسائه وسرارية لأنه اتخذ ثماني عشرة امرأة وستين سريه).

من الجدير بالذكر أن تعدد الزوجات أباحته كل الأديان، ولم تفرضه، وكانت الكنيسة والدولة تقرانه إلى منتصف القرن الثامن عشر (١٨)، وكانت العلة من الاكتفاء بواحدة هي مهانة المرأة إذ عللوا ذلك بالاكتفاء بشر واحد، لذلك كانت الرهبنة عندهم وعدم الزواج من الأمور السامية التي يتخلصون فيها من الشر الذي هو الأنثى، فهل ظهر الآن أن تعدد الزوجات رفعة لشأن المرأة فلو كان الرجل يحتقرها لاكتفى بواحدة أو زهد

فيهن، أضف إلى ذلك أقوال التوراة الصريحة بتعدد الزوجات.

إن اتخذ لنفسه أخرى لا ينقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها (أخبار الأيام الثاني ١ : ٢١).

إذا كان للرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين المحبوبة والمكروهة فإن كان الابن البكر للمكروهة١٦ . فيوم يقسم لبنيه ما كان ليس له أن يقدم ابن المحبوبة بكرًا على ابن المكروهة البكر. . . (تكوين ٢٦-٣٤).

وأخذ داود أيضًا سراري ونساء من أورشليم بعد مجيئه من حبرون (صموئيل الثاني ٥- ١٣).

ويقول القمص أندراوس عزيز؛ وهو يتكلم عن تعدد الزوجات في اليهودية:

ولا يمكن أن تنسى في سياق هذا الحديث ذكر داود النبي والذي قال عنه الله: (فتشت قلب عبدي داود فوجدته مثل قلبي) (صموئيل الأول١٣/ ١٤).

نعم لقد أخطأ داود خطيئة كبيرة ضد الناموس الذي يقول: لا تزن ولا تقتل فزنى وقتل، وعاقبه الله، وتاب وشملته رحمة الله الواسعة، عاقبه الله على الزنا ولم يعاقبه أو يؤنبه على تعدد الزوجات. . . ، ثم قال: عاقبه على زناه مع امرأة أوريا الحثي، ولكنه لم يعاقبه على أخذ عدد كبير من النساء زوجات له يتراوح عددهن بين ثماني زوجات وعشر سراري[1]. . . إلخ، ما كُتِبَ استدلالٌ على تعدد زوجات نبي الله داود ﷺ، وحتما ولابد لا نوافقه على أن نبي الله داود زنى، ولا نستدل تأصيلًا على كلامه في تعدد الزوجات إنما نلزمهم بما في كتبهم.

يقول أندراوس عزيز بعد ذكر تعدد نساء الأنبياء:

فقد كان تعدد الزوجات شائعًا في العهد القديم، ولم يكن قضية خلاصية تعوق خلاص الإنسان أو تقوده إلى هلاك نفسه، ولم تكن مخالفة للوصية السابقة –لاتزن- (تثنية: ٥-١٨)

وطبعًا هؤلاء جميعًا إبراهيم، أو يعقوب البطاركة الكبار الأبرار، أو داود، أو سليمان، أو غيرهم الذين تركوا للكنيسة الأولى تراثًا لا يقدر بثمن وكتبوا أسفارًا بأكملها وصلوات روحية عميقة كثيرة ترددها الكنيسة في كل عصر ومصر على مدى الأجيال، هؤلاء الذين

(١) الزواج المسيحي بين الدين والدولة (١١٤).

تتلمس الكنيسة خطاهم وتتبع آثارهم وتردد قصصهم مدى الأجيال ولقد ملكوا من الأزواج والسراري عددًا وفيرًا ولم يكونوا عائقًا في دخولهم الملكوت. (١)

وانظروا في هذا الجدول من الكتاب (المقدس) ثم نعود للكلام عن الموضوع في العهد الجديد:

اسم النبي	عدد أولاده	عدد زوجاته	الشاهد
إبراهيم	٢+٦+٥	٤+٣ السراري سارة وهاجر وقطورة وحجورة	تك ٢٠/١٢٠ تك ١٦/٤
يعقوب	٦+٢+٢+٢ =١٢	٤+ السراري ليئه، راحيل، بلهه، زلفه	تك ٢٩/٢٣ تك ٢٩/٢٨ تك ٣٠/٤، تثنيه ١٢/٥
موسى		٢+ السراري صفوره، الكوشيه	خروج ٣/١ عدد ١٢/١
داود		٩+٢٠+٤٠=٦٩	صموائيل الثاني ١٢/١. ٢
جدعون	٧٠ ولدًا	٢٣	قضاه ٨/٣٠
سليمان		٧٠٠+٣٠٠	ملوك الأول ١١/٣
رحبعام	٢٨+٦٠	١٨+٦٠	أخبار الأيام الثاني ١١/٢١
عبدون	٤٠ ولدًا	١٣+السراري	قضاه ١٢/١٣=١٤

تعدد الزوجات في العهد الجديد ـ عند النصارى – المسيحيين.

(١) الزواج المسيحي بين الدين والدولة (١١٥).

الذي يراجع تعليمات بولس في رسالته حالأولى إلى تيموثاوس لا يخفى عليه أن استحسانه بوجود زوجة واحدة فقط للأسقف والشماس، حتى يمكنه تدبير بيته وبالتالي يحسن تدبيره لكنيسته، ومعنى ذلك أنه يجوز على الأقل للآخرين أن يكون لهم أكثر من زوجة واحدة: ليكن الشماسه كلُّ بعل امرأة واحدة مدبرين أولادهم وبيوتهم حسنًا (تيموثاوس الأولى ٣: ١٢)[١].

فيجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة، صاحبًا، عاقلًا، محتشمًا، مضيفًا للغرباء، صالحًا للتعليم غير مدمن الخمر، ولا ضراب، ولا طامع بالربح القبيح، بل حليمًا، غير مخاصم، ولا محب للمال يدبر بيته حسنًا، له أولاد في الخضوع بكل وقار، وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته فكيف يعتني بكنيسة الله؟. [٢]

ولم تحرم المسيحية التعدد مطلقًا وانظر ما يلي:

* كان شارلمان الإمبراطور الروماني المسيحي متزوجًا بأكثر من زوجة، ومن زوجاته (سوارت) و (هولجاور) إلى جانب عدد كبير من المحظيات.

* وكان للامبراطور (ليو السادس) في القرن العاشر الميلادي ثلاث زوجات وتسرى برابعة، وهي التي ولدت له ابنه الإمبراطور قسطنطين الذي حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

* وكان لملك انجلترا هنري الثامن ثلاث زوجات فقد تزوج كاترين، آن بولين، حنا سيمور.

* وقد قرر الإمبراطور فلنتيان الثاني الذي ولي الحكم عام٣٧٥م أي في القرن الرابع الميلادي: أن الاقتصار على زوجة واحدة إنما هو من آثار الوثنية الرومانية، ولذلك أصدر أمرًا بجواز الجمع بين أكثر من زوجة، قائلًا: إن المسيحية لم تمنع ذلك، وهذا الاتجاه في التعدد يتلاءم مع ما رآه مارتن لوثر زعيم طائفة البروتستانت، الذي قرر: أن التعدد أمر لم

---

(١) وعلى الشمامسة أن يكون الواحد منهم زوج امرأة واحدة، وأن يحسنوا رعاية أبنائهم وبيوتهم.

(٢) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى (٢٦٩).

يحرمه الرب، وضرب مثلًا بإبراهيم الذي كان له ثلاث أو أربع زوجات، لذلك سمح لوثر لأمير هيس الأمير فليب أن يجمع بين زوجتين وقال:

إذا نظر الرجل إلى امرأة وحسنت في عينيه وأحبها وهو متزوج فخير له أن يتزوجها من أن يتخذها خليلة، الأمر الذي جعل طائفة (برسير) في إنجلترا تقرر أن من حق المسيحي أن يجمع بين عدد زوجات.

* ومن علماء المسيحية أنفسهم من يقرر أن نظام الزوجة الواحدة نظام مصطنع، ولا يتصل مطلقًا بالديانة المسيحية في نشأتها الأولى، وإنما هو نظام وضعته الكنيسة كما قرر وول ديورانت قال أرثر فيلبس في كتابه (دراسة الزواج والأسرة في أفريقيا):

كما أن بعضهم يرى أن التعدد إنما فرضه المسيحيون الأوربيون على أنفسهم، لينفذوه في البلاد التي استعمروها؛ ليبقى لهم فائض خيرات هذه المستعمرات، والمنع لم يكن لسبب ديني وإنما كان لسبب استعماري.

* وبقى تعدد الزوجات في العالم المسيحي مباحًا إلى القرن الثامن عشر؛ وبالتحديد إلى عام ١٧٥٠، أما قبل هذا التاريخ فلم يكن التعدد ممنوعًا؛ وإنما كان مباحًا تقره الكنائس المسيحية وتباركه كما جاء في تواريخ الزواج بين الأوربيين.

يقول وسترماك في تاريخه:

وفي الحق إن العهد الجديد اتخذ هذا النظام كمثل أعلى للزواج ولكن مع ذلك لم يحرم تعدد الزوجات، تحريمًا ظاهرًا إلا للشماس أو القسيس، ويكفي أن نعلم أننا لم نجد مجلسًا كنيسيًا واحدًا عارض تعدد الزوجات، أو وضع عقبات في سبيله عند الملوك أو الحكام الذين كانوا يمارسونه في الدول الوثنية في قرون المسيحية الأولى، ثم قال:

إن ديارمنت ملك إيرلندا كان له زوجتان وسريتان وتعدد زوجات الملوك الميروفنجيين غير مره في القرون الوسطى، وكان لشارلمان زوجتان كما يظهر في بعض قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولًا بين رجال الدين أنفسهم، وبعد ذلك بزمن كان

فيليب أوف هيس وفردريك وليام الثاني البروس بيرمان عقد الزواج مع اثنتين بموافقة القساوسة اللوثريين، وأقر مارتن لوثر نفسه تصرف الأول منهما، كما أقره ملانكستون، وكان لوثر يتكلم في شتى المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض، فإنه لم يحرم بأمر من الله، ولم يكن إبراهيم يحجم عنه إذْ كان له زوجتان { وهو هنا قد نسى أن إبراهيم قد تزوج بقطروة} نعم إن الله أذن بذلك لرجال من العهد القديم في ظروف خاصة، ولكن المسيحي الذي يريد أن يقتدي بهم يحق له أن يفعل ذلك؛ متى تيقن أن ظروفه تشبه تلك الظروف فإن تعدد الزوجات على كل حال أفضل من الطلاق.

* وعقب الحرب العالمية الأولى، قام جورج أنكيتي بالمطالبة بإلغاء النص في القانون الذي يعاقب على الجمع بين زوجتين بالأشغال الشاقة المؤقتة، وطالب بإباحة تعدد الزوجات للقضاء على شيوع الفجور الذي كان لوجود عدد كبير من النساء بدون رجال، وحتى يكون لكل امرأة حقها الطبيعي في تحقيق نزعة الأمومة المشروعة.

* في سنة ١٨٣٠م قامت فرقة تسمى فرقة المورنتر التي أسسها جوزيف سمث تبيح التعدد وتقول: إن إفرادية الزوجة أمر غير طبيعي.

* وقال جرجي زيدان: فالنصرانية ليس فيها نص صريح يمنع أتباعها من التزوج بامرأتين فأكثر لو شاءوا لكان تعدد الزوجات جائز عندهم، ولكنَّ رؤساءهم القدماء وجدوا نظام الزوجة الواحدة أقرب لحفظ نظام العائلة واتحادها – وكان ذلك شائعًا في الدولة الرومانية.

* ونرى المسيحية المعاصرة تعترف بالتعدد في إفريقيا السوداء، فقد وجدت الإرساليات التبشيرية نفسها أمام واقع اجتماعي، وهو تعدد الزوجات لدى الإفريقيين الوثنيين، ورأوا أن الإصرار على منع التعدد يَحُوْلُ بينهم وبين الدخول في النصرانية، فنادوا بوجوب السماح للإفريقيين المسيحيين بالتعدد إلى غير حد محدود، وقد ذكر السيد تورجيه مؤلف كتاب (الإسلام والنصرانية في أواسط أفريقية) هذه الحقيقة، ثم قال:

فقد كان هؤلاء الإرساليون يقولون إنه ليس من السياسة أن نتدخل في شئون الوثنيين الاجتماعية التي وجدناهم عليها وليس من الكياسة أن نُحَرِّمَ عليهم التمتعَ بأزواجهم ماداموا نصارى يدينون بدين المسيح، بلا ضرر من ذلك مادامت التوراة؛ ـ وهي الكتاب الذي يجب على المسيحيين أن يجعلوه أساس دينهم ـ تتيحُ هذا التعدد فضلًا عن أن المسيح قد أقر ذلك بقوله: لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. (متى٥: ١٧).

وأخيرًا أعلنت الكنيسة رسميًا: السماح للأفريقيين النصارى بتعدد الزوجات إلى غير حد.

* كما وجدت الشعوب الغربية نفسها ـ تجاه زيادة عدد النساء على الرجال عندهم خاصةً بعد الحربين العالميتين ـ إزاءَ مشكلةٍ اجتماعية خطيرة لا تزال تتخبط في إيجاد الحل المناسب لها، وقد كان بين الحلول التي برزت؛ إباحة تعدد الزوجات، فقد حدث أن مؤتمر الشباب العالمي عقد في ميونغ بألمانيا عام ١٩٤٨م، واشترك فيه بعض المسلمين الدارسين من البلاد العربية، وكان من لجانهِ لجنةٌ تبحث مشكلة زيادة عدد النساء في ألمانيا أضعافًا مضاعفةً عن عدد الرجال بعد الحروب، وقد استعرضت مختلف الحلول بهذه المشكلة، وتقدم الأعضاء المسلمون في هذه اللجنة باقتراح تعدد الزوجات، وقوبل هذا الرأي بشيء من الدهشة والاشمئزاز، ولكن أعضاء اللجنة اشتركوا جميعًا في مناقشته، فتبين بعد البحث الطويل أنه لا حل غيره، وكانت النتيجة أن قررت اللجنة توصية المؤتمر بالمطالبة بإباحة تعدد الزوجات لحل المشكلة.

* ويقول هنري هلامhenrihallam: إن المصلحين الألمان من علماء الدين المسيحي قد أقروا التزوج بثانية وزوجة ثالثة مع الزوجة الأولى، واستمر العمل بذلك حتى القرن السادس الميلادي، وكذلك قال الألماني إدواردفون هارتمان آراء تشبه هذه الآراء فهو يرى أن الغريزة الطبيعية للرجل تميل إلى تعدد الزوجات.

* وفي عام ١٩٤٩م تقدم أهالي بون عاصمة ألمانيا الاتحادية في ذلك الوقت بطلب إلى السلطات المختصة، يطلبون فيه أن ينص في الدستور الألماني على تعدد الزوجات.

* بل ذكرت الصحف الألمانية في ذلك الوقت أن الحكومة الألمانية أرسلت إلى مشيخة الأزهر تطلب منها نظام تعدد الزوجات في الإسلام؛ لأنها تفكر في الاستفادة منه كحل لمشكلة زيادة النساء، ثم أتبع ذلك وصول وفد من العلماء الألمان اتصلوا بشيخ الأزهر لهذه الغاية، كما التحقت بعض الألمانيات المسلمات بالأزهر لتطلع بنفسها على أحكام الإسلام في موضوع المرأة عامةً وتعدد الزوجات خاصةً، وقد حدثت محاولة قبل هذه الحالات في ألمانيا أيام الحكم النازي لتشريع تعدد الزوجات.

يقول د/عبد الودود شلبي: حدثنا الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر: أن هتلر حدثه برغبته في وضع قانون يبيح تعدد الزوجات وطلب إليه أن يضع له في ذلك نظامًا مستمدًا من الإسلام، ولكن قيام الحرب العالمية الثانية حالت بين هتلر وبين تنفيذ هذا الأمر، وقد سبق أن حاول "إدوارد السابع" مثل هذه المحاولة، فأعد مرسومًا يبيح فيه التعدد ولكن مقاومة رجال الدين قضت عليه.

ثم إن المفكرين الغربيين الأحرار أثنوا على تعدد الزوجات خاصة عند اليهود والمسلمين، فقد عرض جروثيوس العالم القانوني المشهور لموضوع تعدد الزوجات، فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والأنبياء خاصة في العهد القديم في إقرارها تعدد الزوجات، وكذلك استحسن القديس أوغسطين أن يتخذ الرجل إلى جانب زوجته سرية إذا ما كانت زوجته عقيمًا وثبت عقمها، وإن كان لم يسمح بمثل ذلك للزوجة إذا ثبت أن زوجها هو العقيم، وليس ذلك خوفًا من اختلاط الأنساب، ولكن لأمن الأسرة لأنه كما قال في كتابه الزواج الأفضل: لا يصح أن يكون في الأسرة سيدان.

* وقال الفيلسوف الألماني الشهير "شوبنهاور" في رسالته كلمة عن النساء:

إن قوانين أوربا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة، فأفقدتنا نصف حقوقنا، وضاعفت علينا واجباتنا، على أنها مادامت أباحت للمرأة حقوقًا مثل الرجل كان من اللازم أن تمنحها أيضًا عقلًا مثل عقله. . . . ، إلى أن

قال: ولا تَعْدَمُ امرأة من الأمم التي تجيز تعدد الزوجات زوجًا يتكفل بشؤونها، والمتزوجات عندنا نفر قليل، وغيرهن لا يحصين عددًا، تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هائمة متحسرة، ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن شاق الأعمال، وربما ابتُذِلْنَ فيعشن تعيسات متلبسات بالخزي والعار، ففي مدينة لندن وحدها ثمانون ألف بنت عمومية -هذا على عهد شوبنهاور- سُفِكَ دمُ شرفهن على مذبحة الزواج نتيجة الاقتصار على زوجة واحدة نتيجةَ تعنتِ السيدة الأوربية وما تدعيه لنفسها من أباطيل.

وهنا طائفة أخرى من الطوائف المسيحية في أمريكا تسمي طائفة المورمون وقد أسسها جوزيف سميث سنة ١٨٣٠م، تحدث عنها الأستاذ ذكي نجيب محمود في كتابه "أيام في أمريكا"، وقد قال أحد أتباع هذه الطائفة عندما سئل عما إذا كان يحب زوجاته الخمس، فقال: لقد سئلت هذا السؤال مرارًا كأنه لغز لا حل له، وجوابي دائمًا على هذا السؤال هو الآتي:

هل يمكن لرجل أن يحب خمسة من أبنائه دفعة واحدة؟

هل يمكن أن يحب خمسة من أصدقاء دفعة واحدة؟

أروني رجلًا واحدًا ممن يدعون الالتزام بنظام الزوجة الواحدة لا تكون له امرأة غير زوجته يبادلها الحب وتبادله، ثم قال ونحن لا نعشق سرًا إننا لا نحب حبًا يلفه العار بل نحب جهرًا وعلانية حبًا يزدان بالشرف، ليس بيننا المرأة التي تحمل جنينها في خفاء من القانون ثم تضع حملها إجهاضًا، فنساؤنا جميعًا يحملن الأجنة من أزواج ويلدهن أطفالا ذوي نمو كامل.

ما هو رأي عيسى عليه السلام في تعدد الزوجات؟

في الواقع لو راجعنا كتب الأناجيل والرسائل الحالية؛ لن نجد فيها نصًا يحرم تعدد الزوجات إلا على القساوسة والشمامسة فقط، وهي من رسائل بولس، فلم يأت في أحاديث عيسى عليه السلام تصريح بتحريم تعدد الزوجات، ونلمس إشارات لموافقته ضمنيًا من هذه النصوص:

١- لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ١٨ فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. (متى: ١٧-١٨).

كذلك نفهم إقراره لتعدد الزوجات من مثل (العشر عذارى) الذي ضربه متى: حِينَئِذٍ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ عَشْرَ عَذَارَى، أَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَخَرَجْنَ لِلِقَاءِ الْعَرِيسِ. ٢ وَكَانَ خَمْسٌ مِنْهُنَّ حَكِيمَاتٍ، وَخَمْسٌ جَاهِلاَتٍ. ٣أَمَّا الْجَاهِلاَتُ فَأَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَلَمْ يَأْخُذْنَ مَعَهُنَّ زَيْتًا، ٤وَأَمَّا الْحَكِيمَاتُ فَأَخَذْنَ زَيْتًا فِي آنِيَتِهِنَّ مَعَ مَصَابِيحِهِنَّ. ٥وَفِيمَا أَبْطَأَ الْعَرِيسُ نَعَسْنَ جَمِيعُهُنَّ وَنِمْنَ. ٦ فَفِي نِصْفِ اللَّيْلِ صَارَ صُرَاخٌ: هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ، فَاخْرُجْنَ لِلِقَائِهِ! ٧ فَقَامَتْ جَمِيعُ أُولئِكَ الْعَذَارَى وَأَصْلَحْنَ مَصَابِيحَهُنَّ. ٨ فَقَالَتِ الْجَاهِلاَتُ لِلْحَكِيمَاتِ: أَعْطِينَنَا مِنْ زَيْتِكُنَّ فَإِنَّ مَصَابِيحَنَا تَنْطَفِئُ. ٩ فَأَجَابَتِ الْحَكِيمَاتُ قَائِلاتٍ: لَعَلَّهُ لاَ يَكْفِي لَنَا وَلَكُنَّ، بَلِ اذْهَبْنَ إِلَى الْبَاعَةِ وَابْتَعْنَ لَكُنَّ. ١٠ وَفِيمَا هُنَّ ذَاهِبَاتٌ لِيَبْتَعْنَ جَاءَ الْعَرِيسُ، وَالْمُسْتَعِدَّاتُ دَخَلْنَ مَعَهُ إِلَى الْعُرْسِ، وَأُغْلِقَ الْبَابُ. ١١ أَخِيرًا جَاءَتْ بَقِيَّةُ الْعَذَارَى أَيْضًا قَائِلاَتٍ: يَا سَيِّدُ، يَا سَيِّدُ، افْتَحْ لَنَا! ١٢ فَأَجَابَ وَقَالَ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُنَّ: إِنِّي مَا أَعْرِفُكُنَّ. ١٣ فَاسْهَرُوا إِذًا لأَنَّكُمْ لاَ تَعْرِفُونَ الْيَوْمَ وَلاَ السَّاعَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا ابْنُ الإِنْسَانِ. (متى ٢٥: ١-١٣).

أي إن العريس قد اكتفى بخمس زوجات، ولم تستطع العذارى الخمس الباقيات أن يلحقن بالعريس، وضاعت أمامهن فرصة للزواج به، مع التحفظ الشديد أن المثل قد ضربه يسوع إشارة إلى وجوب الاستعداد بالعلم والعمل لاستقبال المسيَّا (رسول الله والنبي الخاتم)

وكان هذا التعدد شائعًا بين نصارى العالم كله ولم تحرمه الكنيسة إلا في عام ١٧٥٠، إذن فالنصارى الأقدمون لم يفهموا نصوص الكتاب وتعاليم يسوع بصورة خاطئة، ولو كانوا غير ذلك فما حكمهم إذًا في الآخرة؟. (١)

---

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى (٢٦٨-٢٧٧)، وانظر حقوق المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى (١٥٥) وما بعدها، والإسلام والنصرانية في أواسط إفريقية (٩٢-٩٨)، وانظر كتاب أيام في أمريكا

الخلاصة لما سبق بالنسبة لكلام النصارى.

من المعروف أن الإنجيل ليس فيه تشريعات وأحكام لأن سيدنا عيسى عليه السلام كان يعمل بشريعة التوراة، ويطلق المسيحيون الآن على مجموع العهدين القديم والجديد اسم الكتاب المقدس، وإن عمل أهل الإنجيل لا ينفصل أبدًا عن عمل أهل التوراة؛ وليس ناسخًا لها لأنه لم يأتي بشرعة، وكذلك لأن أهل الإنجيل لا يمكنهم العمل بتعاليم الإنجيل الروحية وحدها منفردة دون العمل بشريعة التوراة، ولأن العمل بالإنجيل منفردًا يعني العمل بلا شريعة، فعندما يطعن في أمر النساء من حيث تعدد الزوجات؛ ويكون هذا الطعن مصدره من يؤمنون بالكتاب المقدس وينتمون إليه، فإن الكتاب المقدس يرد عليهم، وذلك أنه يشتمل على أن الزواج بأكثر من واحدة جائز وموجود في الشرائع السابقة؛ لأن إبراهيم عليه السلام تزوج بسارة ثم بهاجر في حياة سارة، وكذا غيره من الأنبياء، ولا يفهم من موضوع من مواضع التوراة حرمة التزويج بأزيد من امرأة واحدة، ولو كان حرامًا لصرح موسى عليه السلام بحرمته كما صرح بسائر المحرمات وشدد في إظهار تحريمها، بل يفهم جوازه من مواضع، لأنك لو رجعت إلى سفر العدد بالعهد القديم لعلمت أن الأبكار التي كانت في غنيمة المديانيين كانت اثنتين وثلاثين ألفًا قسمت على بني إسرائيل سواء كانوا ذوي زوجات أو لم يكونوا ولا يوجد فيه تخصيص العزاب فقد ثبت أن كثرة الأزواج كانت موجودة في شريعة موسى ولذلك اتخذ كثيرون ممن جاء بعده زوجات كثيرة. [1]

فهل يأخذون بكتابهم المقدس؟ أم يفرون منه ويقولون بالنسخ وهم لا يؤمنون به، ولو آمنوا به في هذا الموضع لكذبهم العهد الجديد فيما ادعوه، حيث جاء المسيح ليكمل لا لينقص.

لزكي نجيب محمود، والزواج المسيحي بين الدين والدولة (٢١١٧)، وتعدد الزوجات في الأديان (١٤-١٧)، مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية (٢٠٣-٢٠٤).

(١) تعدد الزوجات في الأديان (٢٩: ٣١).

خاتمة: وجملة الحكمة في الجواب أنه ﷺ راعى المصلحة في اختيار كل زوج من أزواجه عليهن الرضوان في التشريع والتأديب، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم، وعلم أتباعه احترام النساء، وإكرام كرائمهن، والعدل بينهن، وقرر الأحكام بذلك.

وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم من الأحكام ما يليق بهن مما ينبغي أن يتعلمنه من النساء دون الرجال، ولو ترك واحدة فقط لما كانت تغني في الأمة غناء التسع، ولو كان ﷺ أراد بتعدد الزوجات ما يريده الملوك والأمراء من التمتع بالحلال فقط؛ لأختار حسان الأبكار على أولئك الثيبات الكهلات منهن؛ كما قال لمن اختار ثيبًا: " هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك "، كما أن تعدد الزوجات في ذلك العصر كان من الضرورات لكثرة القتلى من الرجال وحاجة نسائهم إلى من يكفلهن. (١)

النتائج:

* التعدد أمر واقعي مناسب لحال الناس ولا يمكن للبشرية أن تستقيم بدون شريعة التعدد.

* مشروعية التعدد لها ضوابط وهي:

١- العدل. ٢- القدرة على النفقة. ٣- لا يزيد على أربع لغير النبي ﷺ.

٤- أن لا يجمع بين الأختين، أو بين البنت وخالتها، أو عمتها، أو بين العمتين أو الخالتين نسبًا أو رضاعًا.

* لا يمكن في الشريعة الإسلامية جعل التعدد بإذن القاضي وتحت إشراف القضاء لما في ذلك من مفاسد.

* لمشروعية التعدد حكم كثيرة وفوائد جليلة يجلب الله بها النفع ويدفع بها الفساد والضرر عن الفرد والمجتمع.

* وفي التعدد مراعاة، للرجل، والمرأة، والمجتمع ككل.

---

(١) فتاوى محمد رشيد رضا (٥/ ١٩١٤)، وهذه مراجع هذه المسألة: روائع البيان للصابوني (٢/ ٣١٦، ٣٣٨)، وتنزيه سيد الأنبياء عن مطاعن السفهاء (٢٤: ٦٦).

* التعدد ليس ظلمًا للمرأة؛ لأن الثانية امرأة أيضًا، وكذا الثالثة والرابعة، وهي التي تختار الارتباط برجل متزوج لأمر ما.

* لا يمكن للمرأة تعدد الأزواج؛ لأنه مناف للفطرة ولا فائدة فيه، ويترتب عليه ضرر كبير صحيًا، واجتماعيًا، وأخلاقيًا.

* تعدد الزوجات نظام أخلاقي إنساني حيث يتحمل الرجل مسئولية المرأة ورعايتها.

* تعدد الزوجات لم يكن من الشرائع الخاصة بالإسلام؛ بل كان عند اليهود والعهد القديم فيه كم هائل من النصوص تدل على ذلك.

* كبار الأنبياء والرسل من بني إسرائيل عدَّد الزوجات.

* ليس من حق أحد أن يحرم تعدد الزوجات، وأن يصدر حكمًا بذلك.

* ولا يوجد في العهد الجديد نص صريح يمنع تعدد الزوجات.

* وفي تاريخ المسيحية كبار كثيرون عددوا الزوجات ولم تعارضهم الكنيسة.

* بقي التعدد في المسيحية مباحًا حتى عام ١٧٥٠م.

* من العجيب أن المسيحية المعاصرة تعترف بالتعدد في أفريقيا السوداء حتى الآن.

* كثير من الشعوب الغربية كالشعب الألماني تجد نفسها الآن مضطرة إلى إباحة تعدد الزوجات.

في حوالي عام ١٩٤٩ أرسلت الحكومة الألمانية إلى مشيخة الأزهر تطلب منهم نظام تعدد الزوجات في الإسلام كحل لمشكلة زيادة النساء.

* كذلك كان تعدد الزوجات موجودًا عند العرب وبدون نظام فنظمه الإسلام.

* من أكثر الأشياء التي يجهلها الغرب عن الإسلام نظام تعدد الزوجات.

* المجتمعات التي تمنع التعدد انتشرت فيها الرذائل والقبائح الأخلاقية.

* لقد كانت الشريعة الإسلامية في غاية الحكمة عندما عددت الزوجات بأربع ولم تحدد الإماء.

* إذا قام نظام التعدد على الأسس والضوابط الشرعية كان من أحسن الأسس والأنظمة، ولا يترتب عليه مشاكل، ولا اضطراب في البيوت.

* لم يمنع النبي ﷺ عليًا من التعدد وإنما منعه من زواج ابنة أبي جهل.

* لم يتزوج النبي ﷺ في شبابه إلا امرأة تكبره في السن بخمسة عشر عامًا.

لم يعدد النبي ﷺ إلا بعد الخمسين.

كانت إحدى الزوجتين كبيرة عجوز؛ فوهبت ليلتها للزوجة الثانية التي كانت في التاسعة.

وبهذا صار في حكم عدم المعدد من ناحية النساء والشهوة.

لم يتم القسم إلا بعد زواج حفصة رضي الله عنها وكان ذلك وهو في الخامسة والخمسين من عمره.

* كانت للتعدد حكم عظيمة ترجع إلى أربع: السياسية. التشريعية. الاجتماعية. التعليمية والدعوية.

الذي ينظر في قصة زواج كل زوجة من هؤلاء الزوجات لا يرى في واحدة منهن داعٍ من دواعي الشهوة، ولو كان فلا عيب فيه.

* * *

١٥ـ شبهة: نكاح الواهبة.

نص الشبهة:

أن رسول الله ﷺ نهى عن النكاح بغير ولي، وجعل الذي ينكح بغير ولي زانيًا، فما القول فيمن وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ بغير ولي؟!

الرد على هذه الشبهة من هذه الوجوه.

الوجه الأول: نهى النبي ﷺ عن النكاح بغير ولي.

الوجه الثاني: بيان معنى قوله ﷻ: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾.

الوجه الثالث: هل كان عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها له؟

الوجه الرابع: هل يلزم من قول من قال: إن فلانة وهبت نفسها للنبي ﷺ أن يكون قد دخل بها؟

الوجه الخامس: هل ثبت أن النبي ﷺ نكح امرأة بلا ولي؟

الوجه السادس: أنه لو سلمنا أنه ﷺ تزوج امرأة بلا ولي فلا تعارض بين ذلك وبين نهيه ﷺ عن النكاح بغير ولي.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: نهى النبي ﷺ عن النكاح بغير ولي.

قد ثبت عن النبي ﷺ النهي عن النكاح بغير ولي.

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا نكاح إلا بولي ". [1]

* عن حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: " أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل ثلاثًا، فإن أصابها فلها مهرها بما أصابها وإن تشاجروا فالسلطان ولي من لا ولي له ". [2]

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي (١١٠١)، وأبو داود (٢٠٨٥)، وأحمد (٤/ ٤١٨) وغيرهم. وصححه البخاري، وعلي بن المديني، ومحمد بن يحيى الذهلي، وعبد الرحمن بن مهدي، والترمذي؛ انظر: علل الترمذي الكبير (١٥٧)، والمستدرك للحاكم (٢/ ١٧٠).

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود (٢٠٨٣)، وأحمد (٦/ ٤٧)، وغيرهم، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦/ ٢٤٣).

الوجه الثاني: في بيان معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأحزاب: ٥٠)

قال ابن الجوزي: وللمفسرين في معنى خالصة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المرأة إذا وهبت نفسها لم يلزمه صداقها دون غيره من المؤمنين؛ قاله: أنس بن مالك، وابن المسيب، وهذا هو الذي عليه جماهير علماء التفسير. (١)

والثاني: أن له أن ينكحها بلا ولي ولا مهر دون غيره؛ قاله قتادة.

والثالث: خالصة لك أن تملك عقد نكاحها بلفظ الهبة دون المؤمنين؛ وهذا قول الشافعي، وأحمد. (٢)

وقد جاءت رواية عن عائشة ﵂ أنها كانت تعير النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وتقول: "ألا تستحي امرأة أن تعرض نفسها بغير صداق فأنزل الله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ (الأحزاب: ٥١).

الوجه الثالث: هل كان عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له؟

الجواب: اختلف أهل العلم في ذلك على قولين: (٣)

الأول: أنه لم يكن عنده ﷺ منهن أحد.

الثاني: أنه كان عنده ﷺ بعضهن.

القول الأول: من قال أنه لم يكن عنده ﷺ منهن أحد.

١. ابن عباس ﵄ حيث قال: "لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها". (١)

---

(١) وهذا القول قال به ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٢/ ٢١، والشافعي في أحكام القرآن ١٩٩، والبغوي في تفسيره ٣/ ٥٣٦، وابن أبي زمنين في تفسيره ٣/ ٤٠٦، والقرطبي في تفسيره ١٤/ ٢٠٢.

(٢) زاد المسير ٥/ ١٤٣.

(٣) انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٩/ ١٣٤)، وشرح مشكل الآثار للطحاوي ١٥/ ٣٤٢.

٢. مجاهد بن جبر قال: " ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ . .﴾ قال: لم تهب نفسها ". (٢)

٣. عطاء بن أبي رباح. (٣)

القول الثاني: أنه كان عنده ﷺ بعضهن. وقد اختلفوا في تعيين هذه المرأة على خمسة أقوال:

١. أنها ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.

٢. أنها خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

٣. أنها أم شريك رضي الله عنها.

٤. أنها زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

٥. أنها ليلى بنت الخطيم رضي الله عنها.

وإليك تفصيل من قال بكل قول من ذلك:

من قال إنها ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.

١. ابن عباس: عن ابن عباس قال "﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ . . .﴾ قال: هي ميمونة بنت الحارث. والأثر ضعيف. (٤)

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣١٤٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٦٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٥٥) من طرق عن عنبسة بن الأزهر، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس به، والأثر حَسَّن إسنادَه الحافظُ ابن حجر في فتح الباري كتاب التفسير باب﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ (٨/ ٥٢٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٧٣٤٠) من طريق غندر. وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٥) من طريق زيد بن الحباب؛ كلاهما عن شعبة عن الحكم عن مجاهد به، والأثر صحيح، رجاله أئمة ثقات.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٢٢٦٥) عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: اتَّهب النبي ﷺ؟ قال وهبت امرأة له نفسها فلم ينكحها وليس ذلك لأحد إلا النبي ﷺ". ، وقد صرح ابن جريج بالتحديث.

(٤) **منقطع**. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩/ ١٣٥) قال ثنا ابن بشار، ثنا عبد الأعلى، ثنا سعيد، عن قتادة، عن ابن عباس ضعيف، قال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٤٤): فيه انقطاع هذا مرسل، وقال الحافظ

٢. عكرمة مولى عباس: عن ابن جريج قال أخبرني أبو الزبير أنه سمع عكرمة يقول: وهبت ميمونة نفسها للنبي ﷺ. (١)

٣. قتادة بن دعامة الدوسي: عن قتادة أن ميمونة وهبت نفسها للنبي ﷺ. (٢)

٤. الزهري: قال الزهرى: إن ميمونة رضي الله عنها وهبت نفسها للنبي ﷺ. (٣)

٥. محمد بن كعب. ٦. عمر بن الحكم. ٧. عبد الله بن عبيدة.

أنهم قالوا: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ميمونة. (٤)

من قال أنها خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

١. عن عائشة رضي الله عنها قالت: " التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم". (٥)

ابن حجر في الفتح (٨/ ٥٢٥) كتاب التفسير باب قوله "﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وهذا منقطع وأورده من وجه آخر مرسل وإسناده ضعيف. اهـ

(١) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٢٢٦٦)، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٣٧) كلاهما من طريق محمد بن عمر الواقدي، الأثر صحيح: فالواقدي كذاب ولكن تابعه عبد الرزاق وهو ثقة إمام.

(٢) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٢٢٦٧) من طريق معمر، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥) كلاهما من طريق سعيد بن أبي عروبة، والأثر صحيح.

(٣) **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٢٢٦٧) من طريق معمر، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٤٣٣)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٢١) كلاهما من طريق حجاج بن أبي منيع عن جده عبد الله بن زياد كلاهما عن الزهري

(٤) **أخرجه** ابن أبي شيبة في مصنفه (١٧٣٤٤) ومن طريق ابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة (٢/ ٦٧٠)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣١٤٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسي- كلاهما عن وكيع، عن موسى بن عبيدة، ثلاثتهم عن موسى بن عبيدة، وهو ضعيف؛ قال ابن معين: لا يحتج بحديثه وقال أبو حاتم: منكر الحديث، وقال أبو زرعة: ليس بقوي الحديث؛ الجرح والتعديل (٨/ ١٥١)، وقال الإمام أحمد: منكر الحديث؛ الضعفاء الصغير للبخاري (٣٤٥).

(٥) **صحيح**. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣١٤٤)، وابن مردويه في تفسيره كما في تغليق التعليق لابن حجر (٤/ ٤١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٥٥) جميعًا من طريق منصور بن أبي مزاحم، عن محمد بن مسلم بن أبي الوضاح أبي سعيد المؤدب. وأخرجه أبو عوانه في مسنده (٤٤٨٣)، وابن بشكوال في

٢. عن عروة بن الزبير: قال: " خولة بنت حكيم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، زاد في رواية معمر: "ولم أسمع أنه قبلها". [١]

من قال أنها أم شريك رضي الله عنها. [٢]

من عدها في الواهبات:

١. ورد ذلك عنها من طريقين أحدهما متصل والآخر منقطع.

الطريق الأول (المتصل) عن أم شريك قالت أنها كانت فيمن وهبت نفسها للنبي ﷺ. [٣]

الطريق الثاني (المنقطع) أخرجه ابن سعد في الطبقات

قال ابن سعد: نا محمد بن عمر قال ثنى الوليد بن مسلم عن منير بن عبد الله الدوسي قال: أسلم زوج أم شريك؛ وهي غزية بنت جابر الدوسية من الأزد؛ وهو أبو العكر؛ فهاجر إلى رسول الله ﷺ مع أبي هريرة مع دوس حين هاجروا، قالت أم شريك: فجاءني أهل أبي العكر فقالوا: لعلك على دينه قلت أي والله أني لعلى دينه، قالوا: لا جرم لنعذبنك

غوامض الأسماء المبهمة (٢/ ٦٧٠) من طريق محمد بن فضيل. كلاهما (محمد بن مسلم، محمد بن فضيل) عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة به.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥١١٣).

(٢) اتفقوا على كنيتها أم شريك واختلفوا في اسمها ونسبتها، فقال ابن أبي حاتم: "اسمها بياض ويقال: غزية بنت دووان " الجرح والتعديل (٩/ ٤٦٤)، وقال ابن حبان: " أم شريك بنت جابر بن وهب بن حكيم اسمها غزية " الثقات (٣/ ٣٢٨)، وقال الأزدي: " أم شريك الدوسية اسمها غزية بنت جابر بن حكيم" أسماء من يعرف بكنيته (١٦٣)، وقال الذهبي: " أم شريك العامرية ويقال: الأنصارية واسمها غزية ويقال غزيلة " المقتني في سرد الكني (٦٩٧٤)، وقال الحافظ في الإصابة بعد ذكر الخلاف: " والذي يظهر في الجمع أن أم شريك واحدة اختلف نسبتها أنصارية، أو عامرية من قريش، أو أزدية من دوس واجتماع هذه النسب الثلاث ممكن كأن يقول: قرشية تزوجت في دوس، فنسبت إليهم ثم تزوجت في الأنصار فنسبت إليهم أو لم تتزوج بل هي أنصارية بالمعنى الأعم " (٨/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٤٦٢)، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٩٢٨) من طريق يونس بن محمد المؤدب. كلاهما (الإمام أحمد، يونس) عن حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن أم شريك، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٨/ ٢٤٠): ورجاله ثقات. اهـ

عذابًا شديدًا، فارتحلوا بنا من دارنا ونحن كنا بذي الخلصة وهو موضعنا، فساروا يريدون منزلًا وحملوني على جمل ثقال شر ركابهم وأغلظه، يطعموني الخبز بالعسل ولا يسقوني قطرة من ماء، حتى إذا انتصف النهار وسخنت الشمس ونحن قائظون فنزلوا فضربوا أخبيتهم وتركوني في الشمس حتى ذهب عقلي ومسمعي وبصري، ففعلوا ذلك بي ثلاثة أيام فقالوا لي في اليوم الثالث اتركي ما أنت عليه، قالت: فما دريت ما يقولون إلا لكلمة بعد الكلمة فأشير بأصبعي إلى السماء بالتوحيد قالت: فو الله إني لعلى ذلك وقد بلغني الجهد إذ وجدت برد دلو على صدري فأخذته فشربت منه نفسًا واحدًا ثم انتزع مني، فذهبت انظر فإذا هو معلق بين السماء والأرض فلم أقدر عليه، ثم ولي إلى ثانية فشربت منه نفسًا ثم رفع، فذهبت انظر فإذا هو بين السماء والأرض، ثم ولي إلى الثالثة فشربت منه حتى رويت وأهرقت على رأسي ووجهي وثيابي، قالت: فخرجوا فنظروا، فقالوا: من أين لك هذا يا عدوة الله؟ قالت: فقلت لهم إن عدوة الله غيري من خالف دينه، وأما قولكم من أين هذا؟ فمن عند الله رزقًا رزقنيه الله، قالت: فانطلقوا سراعًا إلى قربهم وأدواهم فوجدوها موكأة لم تحل، فقالوا: نشهد أن ربك هو ربنا وأن الذي رزقك ما رزقك في هذا الموضع بعد أن فعلنا بك ما فعلنا هو الذي شرع الإسلام، فأسلموا وهاجروا جميعًا إلى رسول الله وكانوا يعرفون فضلي عليهم وما صنع الله إلي، وهي التي وهبت نفسها للنبي ـ ﷺ ـ، وهي من الأزد فعرضت نفسها على النبي ـ ﷺ ـ، وكانت جميلة وقد أسنت، فقالت: إني أهب نفسي لك وأتصدق بها عليك فقبلها النبي ـ ﷺ ـ، فقالت عائشة: ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير، قالت أم شريك: فأنا تلك فسماها الله: " ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ. . . ﴾ فلما نزلت الآية قالت عائشة: إن الله يسرع لك في هواك. [1]

---

(١) **ضعيف جدًا**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٥)، وله أربع علل:

الأولى: الانقطاع، فإن منير بن عبد الله معدود في طبقة أوساط التابعين.

٢. روي عن ابن عباس: عن ابن عباس وذكر نحوًا من السياق السابق وفيه: "وأقبلت إلي النبيﷺ فوهبت نفسها له بغير مهر فقبلها ودخل عليها"[(١)].

٣. عروة بن الزبير: عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كنا نتحدث أن أم شريك كانت وهبت نفسها للنبي ﷺ وكانت امرأة صالحة. [(٢)]

٤. عكرمة: عن عكرمة قال في هذه الآية ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ. . . ﴾ قال: هي أم شريك الدوسية. [(٣)]

٥. علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين.

عن علي بن الحسين أن المرأة التي وهبت نفسها للنبي -ﷺ- أم شريك امرأة من الأزد. [(٤)]

الثانية: ضعف منير بن عبد الله، فقد ضعفه البخاري والأذدي؛ وجهله الحافظ ابن حجر، انظر المغني في الضعفاء للذهبي (٦٤٥٣)، واللسان (٦/ ١٠١٥)، وتلخيص الحبير (٢/ ١٦٨)

الثالثة: عنعنة الوليد بن مسلم وهو يدلس تدليس التسوية

الرابعة: الواقدي محمد بن عمر شيخ ابن سعد وهو متروك.

(١) **موضوع.** أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٦٦)، وله علتان:

الأولى: محمد بن السائب الكلبي.

قال أبو حاتم: مجتمعون على ترك حديثه لا يشتغل به هو ذاهب الحديث: الجرح والتعديل (٧/ ٢٧٠)، وقال ابن حبان " الكلبي هذا مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق، " المجروحين (٢/ ٢٥٣)

الثانية: محمد بن مروان السدي الصغير.

قال أبو حاتم: ذاهب الحديث متروك الحديث لا يكتب حديثه البتة، وقال ابن معين: ليس بثقة، الجرح والتعديل (٨/ ٨٥)، وقال البخاري: لا يكتب حديثة البتة، الضعفاء الصغير (٣٤٠)، وقال النسائي: متروك الحديث، الضعفاء والمتروكين (٥٣٨).

(٢) **صحيح.** أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/ ١٣٦)، وابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة (٢/ ٦٧٠) كلاهما من طريق عبد الله بن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه.

(٣) **ضعيف جدًّا.** أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٥) وعلته محمد بن عمر الواقدي شيخ ابن سعد: متروك.

(٤) **صحيح.** رجاله أئمة ثقات. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٧٣٤١)، والطبري في تفسيره (١٩/ ١٣٥) من طريق غندر، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٥١) من طريق أبي الوليد الطيالسي-

٦. محمد بن إبراهيم التيمي:

عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كانت أم شريك امرأة من بني عامر بن لؤي، وإنما وهبت نفسها لرسول الله -ﷺ- فلم تتزوج حتى ماتت. [(١)]

٧. الشعبي: عن الشعبي في قوله ﷻ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾.

قال: "كن نساءً وهبن أنفسهن للنبي -ﷺ- فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يتزوجن بعده منهن أم شريك الدوسية". [(٢)]

من قال أنها زينب بنت خزيمة.

١ - روي ذلك عن قدامة بن موسى بن عمر.

قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، فجعلت أمرها إليه، فتزوجها رسول الله ﷺ وأشهد وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشًا. . ."[(٣)]

٢. روي ذلك عن المطلب بن عبد الله بن حنطب بمثل ما ورد عن قدامة. [(١)]

وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٨) من طريق زيد بن الحباب؛ كلاهما (شعبة، جابر) ثلاثتهم عن شعبة، وأخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال (١/ ١٤٣)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٨)؛ كلاهما من طريق شريك عن جابر عن الحكم عن علي بن الحسين.

(١) **موضوع**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٤)، و فيه علتان.

الأولى: موسى بن محمد بن إبراهيم، قال عنه ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: حديثه مناكير، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال ابن حبان يروي عن أبيه ما ليس من حديثه، فلست أدري أكان المتعمد لذلك أو كان فيه غفلة فيأتي بالمناكير عن أبيه والمشاهير على التوهم، وأيما كان فهو ساقط الاحتجاج به، انظر تهذيب الكمال (٢٩/ ١٤١)، والمجروحين (٢/ ٢٤١).

الثانية: محمد بن عمر الواقدي شيخ ابن سعد: متروك.

(٢) **صحيح**. أخرجه الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال (١/ ١٤٣)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٥)، كلاهما من طريق وكيع، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٥٥) من طريق يونس بن بكير كلاهما (وكيع، يونس) عن زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي.

(٣) **ضعيف جدًا**. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١١٥) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٢٠٦) عن محمد بن عمر الواقدي عن محمد بن قدامة عن أبيه. آفته: الواقدي شيخ ابن سعد: متروك.

٣. ذكر ذلك عن الشعبي: [٢]

من قال أنها ليلى بنت الخطيم.

١-روي ذلك عن ابن عباس قال:

أقبلت ليلى بنت الخطيم إلى النبي ﷺ وهو مولي ظهره الشمس فضربت على منكبه فقال من هذا أكله الأسد وكان كثيرًا ما يقولها فقالت: أنا ابنة مطعم الطير ومباري الزيج أنا ليلى بنت الخطيم جئتك لأعرض عليك نفسي تزوجني قال قد فعلت فرجعت إلى قومها فقالت: تزوجني النبي ﷺ فقالوا: بئس ما صنعت أنت امرأة غيرى والنبي ﷺ صاحب نساء تغارين فيدعوا الله عليك فاستقيليه نفسك؛ فرجعت فقالت: يا رسول الله أقلني قال: قد أقلتك، قال: فتزوجها مسعود بن أوس بن سواد فولدت له فبينما هي في حائط من حيطان المدينة تغتسل إذ وثب عليها ذئب لقول النبي ﷺ فأكل بعضها وأدركت فماتت. [٣]

---

(١) موضوع. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١١٥) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٢٠٦) من طريق محمد بن عمر، وأخرجه الزبير بن بكار في المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ (ص٤٢) من طريق محمد بن حسن، عن إبراهيم بن محمد كلاهما، عن كثير بن زيد وعند الزبير زاد عبد المجيد بن سهيل عن المطلب بن عبد الله

آفته: طريق ابن سعد ففيه الواقدي وهو متروك، وأما طريق الزبير بن بكار ففيه إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى؛ قال عنه أحمد: لا يكتب حديثه، ترك الناس حديثه، كان يروي أحاديث منكرة لا أصل لها، وكان يأخذ أحاديث الناس يضعها في كتبه. وقال ابن معين: ليس بثقة، وكذبه يحيى بن سعيد، وقال النسائي: متروك الحديث، انظر تهذيب الكمال (٢/ ١٨٥).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٥٢٥) عند الكلام على الواهبات " ومنهن زينب بنت خزيمة جاء عن الشعبي وليس بثابت"

(٣) موضوع. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٠)، ومن طريق ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٢٤٤) عن هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

آفته: محمد بن السائب الكلبي؛ قال عنه ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: الناس مجمعون على ترك حديثه ولا يشتغل به، هو ذاهب الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة.

٢. روي ذلك عن عبد الواحد بن أبي عوان، قال: إن ليلى بنت الخطيم وهبت نفسها للنبي ﷺ ووهبن نساء أنفسهن فلم يسمع أن النبي ﷺ قبل منهن أحدًا. (١)

٣. روي ذلك عن عاصم بن عمر بن قتادة:

قال: كانت ليلى بنت الخطيم وهبت نفسها للنبي ﷺ فقبلها ثم ساق حديثًا بنحو سياق ابن عباس الماضي. (٢)

خلاصة الوجه الثالث: في خمس نقاط:

الأولى: ثبت عن ابن عباس ﷺ، ومجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح: أن النبي ﷺ لم يدخل بامرأة وهبت نفسها له ﷺ.

الثانية: ثبت عن عكرمة وقتادة والزهري أنهم قالوا: إن ميمونة وهبت نفسها للنبي ﷺ.

الثالثة: صح عن عائشة ﵂ وعروة أن خوله بنت حكيم وهبت نفسها للنبي ﷺ.

الرابعة: صح عن أم شريك، وعروة، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والشعبي: أن أم شريك وهبت نفسها للنبي ﷺ.

الخامسة: لم يصح عن أحد أن زينب بنت خزيمة وكذلك ليلى بنت الخطيم أن واحدة منهن وهبت نفسها للنبي ﷺ.

الوجه الرابع: هل يلزم من قول من قال: إن فلانة وهبت نفسها للنبي ﷺ أن يكون قد دخل بها؟

والجواب: أن ذلك ليس بلازم وذلك من خلال نقطتين:

الأولى: أنه لا يلزم من قولي لك وهبت لك كذا أن تكون قبلته، وعليه فلا يلزم من قول من قال: إن فلانة وهبت نفسها للنبي ﷺ أن يكون قد تزوجها وقبلها، ولذا قال

---

(١) ضعيف جدًّا. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٠) قال: أنا محمد بن عمر ثنا عبد الله بن جعفر عن أبي عوان. فيه محمد بن عمر الواقدي شيخ ابن سعد: متروك.

(٢) ضعيف جدًّا. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٠) قال: أنا محمد بن عمر ثنى محمد بن صالح بن دينار عن عاصم بن عمر بن قتادة. فيه الواقدي شيخ ابن سعد: متروك.

الإمام أبو بكر بن العربي معقبًا على قول عائشة رضي الله عنها: " كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن. . . . "، قال: " فاقتضى هذا اللفظ أن من وهبت نفسها للنبي ﷺ عدة ولكنه لم يثبت عندنا أنه تزوج منهن واحدة أم لا. [1]

فلو كان مجرد قول عائشة: "وهبن أنفسهن" دليل على الدخول بهن لما قال ابن العربي: لم يثبت عندنا أنه تزوج منهن واحدة أم لا.

الثانية: تحرير القول في (ميمونة، خولة، أم شريك)

١. **تحرير القول في ميمونة:** تقدم أنه قد صح عن عكرمة وقتادة والزهري أن ميمونة رضي الله عنها وهبت نفسها للنبي ﷺ وصح في غير ما حديث في الصحيحين أن ميمونة كانت زوجة نبينا ﷺ[2].

وهذا التعارض الظاهري بين هذا وبين ما قدمنا لا يعكر علينا وذلك كما يلي:

أ- أنه قد صح عن ابن عباس رضي الله عنه أن ميمونة رضي الله عنها جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل، وأن أم الفضل جعلت أمرها إلى العباس رضي الله عنه وأن العباس هو الذي قام بتزويجها. [3]

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٥٩٥).

(٢) من هذه المواضع عند البخاري (١١٧).

(٣) هذا الأثر روي من عدة طرق عن ابن عباس:

الطريق الأول: " عكرمة عن ابن عباس": أخرجه الدارقطني في سننه (٣/ ٢٦٣) قال أنا أبو عبد الله بن المهتدي بالله نا محمد بن عمرو بن خالد نا أبي قال: ونا بكر بن سهل نا عبد الله بن يوسف قالا نا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث محمية بن جزء ورجلين آخرين إلى ميمونة يخطبها وهي بمكة فردت أمرها إلى أختها أم الفضل فردت أم الفضل إلى العباس فأنكحها رسول الله ﷺ.

وهو: ضعيف يصلح للشواهد والمتابعات وذلك لما يلي:

-فيه ابن لهيعة وقد احترقت كتبه.

-بكر بن سهل شيخ الدارقطني ضعفه النسائي وقال الذهبي في الميزان (٢/ ٦١): حمل الناس عنه وهو مقارب الحال، وقال أيضًا في المغني (٩٧٨): متوسط. اهـ

الطريق الثاني: طريق أبي سلمة عن ابن عباس:

ب- أنه قد صح عن محمد بن عبد الرحمن القرشي أنه قال: إن رسول الله ﷺ بعث إلى ميمونة يخطبها فجعلت ذلك إلى أم الفضل، فولت أم الفضل العباس بن عبد المطلب فأنكحها إياه العباس. (١)

جـ - أنه لو فرضنا أنه قد تزوجها النبي ﷺ بلا ولي وهذا لم يكن كما مر فإنه حين زواجها لم يكن أحد من أوليائها حاضرًا، ولم يكن لها ولي حينئذ من قومها على الإسلام،

أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠٩٨)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٩٩) من طريق أحمد بن داود كلاهما عن يعقوب بن حميد، عن عبد الله بن عبد الله الأموي، عن عبد الله بن أبي لبيد، عن أبي سلمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ولت ميمونة أمرها أم الفضل وولت أم الفضل للعباس رضي الله عنه فزوجها من رسول الله ﷺ.

وهو ضعيف ينجبر ويصلح في المتابعات والشواهد وذلك لما يلي:

فيه عبد الله بن عبد الله الأموي ترجم له ابن حبان في الثقات وقال: (يخالف في حديثه) (٨/ ٣٣٦)، وقال ابن حجر في التقريب: "لين الحديث"، وهذا معناه إذا توبع قبل حديثه.

الطريق الثالث: طريق عطاء بن أبي رباح عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس.

أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٧٣) قال ثنا علي بن عبد العزيز ثنا أحمد بن محمد بن أيوب صاحب المغازي ثنا إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق ثنا أبان بن صالح وعبد الله بن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام كان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب. وهو صحيح.

الطريق الرابع: طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، أخرجه النسائي (٦/ ٨٨)، وفي الكبرى (٥٣٩٣) من طريق عثمان بن عبد الله بن فرزاذ، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٧٥٠) من طريق جعفر بن محمد الفريابي كلاهما عن إبراهيم بن الحجاج عن وهيب بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن النبي ﷺ نكح ميمونة وهو حرام جعلت أمرها إلى العباس فأنكحها إياه. وهو صحيح.

الطريق الخامس: طريق مقسم عن ابن عباس، أخرجه أحمد (١/ ٢٧٠) من طريق سريج، وأبو يعلي في المسند (٢٤٨١) من طريق ابن أبي خيثمة، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٩١) من طريق القاسم؛ جميعًا عن عباد عن الحجاج عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس أن النبي ﷺ خطب ميمونة فجعلت أمرها إلى العباس فزوجها النبي ﷺ.

وهو ضعيف: ضعفه أحمد كما في العلل (٢/ ١٢٢).

قال أحمد: قال شعبة: ولم يسمع الحكم من مقسم إلا أربعة أحاديث ليس هذا فيها.

(١) مرسل صحيح عن محمد بن عبد الرحمن.

ولا ولاية لكافر على مسلم، فعادت ولايتها لرسول الله ﷺ حيث قال: "والسلطان ولي من لا ولي له". [١]

ـ تحرير القول في خولة بنت حكيم:

تقدم أنه قد صح عن عائشة وعروة أن خولة بنت حكيم وهبت نفسها للنبيﷺ إلا أن النبيﷺ لم يتزوجها ولم يدخل بها وإليك بيان ذلك:

تقدم في المبحث الثالث في تخريج أثر عروة أن معمر ممن روي الأثر عن عروة[٢]، وقد زاد معمر في روايته أن عروة قال: " ولم أسمع أنه قبلها "، وهذه زيادة ثقة، فمعمر إمام ثقة، وهذه الزيادة لا تنافي.

أنه لم يذكرها أحد ممن ذكر أزواج رسول الله ﷺ مع أزواجه بل عدها ابن الجوزي في فيمن لم يدخل بهن ﷺ. [٣]

٣ ـ تحرير القول في أم شريك.

تقدم في الوجه الثالث أنه قد صح عن أم شريك، وعروة، وعلي بن الحسين، والشعبي: أن أم شريك وهبت نفسها للنبي ﷺ، إلا أن النبي ﷺ لم يتزوجها ولم يدخل بها، وإليك بيان ذلك:

أـ أنه قد تقدم أنه قد صح عن الشعبي أنه قال " وأرجأ بعضهن لم يتزوجن بعده، منهن أم شريك الدوسية "

ب ـ لم يذكرها أحد من أهل العلم فيمن دخل بهن النبي ﷺ.

جـ ـ أن ابن حبان عندما ترجم لها ذكر أن النبي ﷺ لم يدخل بها[٤]، وقال ابن عبد البر في ترجمة أم شريك قال: " وقد ذكرها بعضهم في أزواج النبي ﷺ ولا يصح من ذلك شيء لكثرة الاضطراب فيه ". [١]

---

(١) انظر: شرح مشكل الآثار (١٤/ ٤٥١).

(٢) كما عند عبد الرزاق في المصنف (١٢٢٦٩).

(٣) زاد المسير (٥/ ١٤٣).

(٤) الثقات (٣/ ٣٢٨)، وكذا ابن الجوزي في زاد الميسر (٥/ ١٤٣).

الوجه الخامس: هل ثبت أن النبي ﷺ نكح امرأة بلا ولي؟

إذا ثبت أنه ﷺ لم يدخل بامرأة وهبت نفسها له إلا ميمونة وتقدم أن وليها كان العباس فهل ثبت أنه ﷺ نكح امرأة بلا ولي؟

الجواب: أنه قد ثبت أن جميع زوجات النبي ﷺ زوجهن أولياؤهن، ودليل ذلك حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول "اتق الله وأمسك عليك زوجك". [٢]

قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات.

قال ابن حزم: فهذا إسناد صحيح بين أن جميع نسائه عليه السلام إنما زوجهن أولياؤهن حاشا زينب رضي الله تعالى عنها فإن الله تعالى زوجها منه ﷺ. [٣]

الوجه السادس: أننا لو سلمنا أن النبي ﷺ تزوج امرأة بغير ولي فلا تعارض البتة بين ذلك وبين نهيه ﷺ عن النكاح بغير ولي.

وذلك من خلال نقطتين:

الأولى: أن اشتراط الولي إنما كان لأجل الكفاءة، ولا أكفأ في الناس من رسول الله ﷺ.

قال الإمام الشافعي: لا أعلم في أن للولاة أمرًا مع المرأة في نفسها شيئًا جعل لهم أبين من ألا تزوج إلا كفؤً. [٤]

وقال ابن عساكر: وجاز له النكاح من غير ولي ولا شهود على الصحيح لأن الولي يراد لتحصيل الكفاءة، ولا كفء أكفأ منه ﷺ. [٥]

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٩٤٣).

(٢) البخاري (٧٤٢٠)

(٣) المحلي (٩/ ٤٥٨).

(٤) الأم (٦/ ٣٩).

(٥) الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين صـ٣٥.

والنبي ﷺ أحرص الناس على الناس وأنفع الناس للناس حيث قال فيه رب العالمين ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ (الأحزاب: ٦).

ولا يظن بولي يريد كفؤًا لابنته يؤمن بالله ورسله يأتيه نبي لينكح ابنته ثم يرده.

وقال ابن حزم: والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ. . .﴾ فهذا خارج من قوله ﷺ: " أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل". [1]

الثانية: أن النكاح بلا ولي من خصائصه ﷺ، وخصائص الأنبياء ثابتة شرعًا وعقلًا وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا شرعًا: من المتواتر شرعًا أن رب العالمين اختص الأنبياء بخصائص عن باقي البشر منها: الوحي، الرسالة، تكليم ربِّ العالمين بعضَهم، رؤية الملائكة وتكليمهم، المعجزات، وغير ذلك، وهذا كله ورد في القرآن وإليك غيض من فيض، قال رب العالمين: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقال رب العالمين: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ۝٥١﴾ (الشورى: ٥١)، وقال رب العالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ (النحل: ٤٣)، وقال رب العالمين: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ (هود: ٦٩)، وقال رب العالمين: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾.

ودلت السنة على اختصاص الأنبياء بخصائص أخرى نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

---

(١) المحلي (٩/ ٤٥٧).

١. أن الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم: دليله حديث أنس ﷺ وفيه " وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ". [١]

٢. أن الأنبياء يخيرون عند الموت: دليله حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: "ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة ". [٢]

٣. أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون: دليله حديث أبي بكر الصديق قال: قال ﷺ: "لن يقبر نبي إلا حيث يموت". [٣]

٤. أن الأرض لا تأكل أجسادهم: دليله حديث أوس بن أبي أوس أن النبي ﷺ قال: "إن الله ﷻ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء". [٤]

ثانيًا: عقلًا: وذلك أن العقلاء يقرون أن الأنبياء بشر لكنهم يوحى إليهم؛ وهذه خصوصية لهم، وهم مبلغون عن رب العالمين، فلا إنكار أن يحل الله لهم أشياء دون الناس أو يحرم عليهم أشياء أحلها للناس كما أيقن العقل بأن الله خصهم بالمعجزات.

وقد قسم أهل العلم ما اختص به النبي ﷺ إلى:

القسم الأول: ما أوجبه الله عليه دون الأمة.

القسم الثاني: ما حرمه الله عليه وأحله للأمة.

القسم الثالث: ما أحله الله له وحرمه على الأمة.

وإليك أمثلة لكل قسم مما ذكر

أمثلة على القسم الأول:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٦)، ومسلم (٢٤٤٢).

(٣) **صحيح**. أخرجه أحمد في المسند (١/ ٧)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع (٥٢٠١).

(٤) **صحيح**. أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ٩١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤/ ٣٢).

- قيام الليل وعليه يدل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٩)[١]

- تخيير نساءه وعليه يدل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢٨ - ٢٩). [٢]

أمثلة القسم الثاني:

- حرم الله عليه الصدقة: ويدل عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان ﷺ إذا أتى بطعام سأل عنه فإن قيل هدية أكل منها وإن قيل صدقة لم يأكل منها. [٣]

- حرم عليه أن يورث ماله: ويدل عليه حديث عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر - رضي الله عنه - قال: قال ﷺ " لا نورث ما تركنا صدقة "[٤].

أمثلة القسم الثالث:

- الوصال: ويدل عليه حديث ابن عمر "أن النبي ﷺ نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: إني لست كهيئتكم إني أطعم وأسقى". [٥]

- الزيادة على أربع، وهذا بإجماع العلماء: [٦]

- **الزواج بلا ولي**: وقد نص على ذلك عدة من أهل العلم منهم:

---

(١) وهذا فيه خلاف بين العلماء، انظر: الشريعة للآجري (٢/ ٣٧١)، والسنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٦٢)، وتلخيص الحبير (٣/ ١١٩).

(٢) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٣٧).

(٣) مسلم (١٠٧٧)، وانظر السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٣٠)، ومسلم (١٧٥٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٩٦٢)، ومسلم (١١٠٢).

(٦) انظر: الإقناع في مسائل الإجماع لابن القطان (٢/ ١٠)، والمغني (٩/ ٤٧٢).

الإمام أحمد[١]، والبغوي[٢]، وابن العربي[٣]، وابن قدامة[٤]. وابن عساكر[٥]، وابن حجر.[٦] وغيرهم كثير وليس غرضنا الاستقصاء.

وخلاصة هذه الوجوه: الأول: أنه ثبت أن النبي ﷺ نهى عن النكاح بغير ولي.

الثاني: بيان معنى قوله ﷻ: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وبينا أن جماهير أهل العلم وهو الصحيح على أن معناها: وهبت نفسها دون مهر، وأن هناك قولًا آخر وهو وهبت نفسها بلا ولي؛ وهو قول مرجوح.

الثالث: هل كان عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها له؟ وبينا أن الراجح أنه لم يكن عنده ﷺ امرأة منهن، وأن هناك قولًا آخر؛ وهو أنه كان عنده ﷺ منهن بعضهن.

الرابع: هل يلزم من قول من قال: إن فلانة وهبت نفسها للنبي ﷺ أن يكون قد دخل بها؟ وبينا أن ذلك ليس بلازم مع تحرير القول فيمن قيل أنها وهبت نفسها للنبي ﷺ.

الخامس: أنه قد ثبت أنه ﷺ لم يدخل بامرأة وهبت نفسها له إلا ميمونة، وقد زوجها العباس فهل تزوج النبي ﷺ امرأة بلا ولي؟ وبينا أن جميع أزواجه ﷺ زوجهن أولياؤهن إلا زينب زوجها رب العالمين.

السادس: أنه لو سلمنا أنه ﷺ تزوج امرأة بلا ولي فلا تعارض بين ذلك وبين نهيه ﷺ عن النكاح بغير ولي وذلك من نقطتين: **الأولى**: أن الولاية في النكاح جعلت لأجل الكفاءة ولا أكفأ من رسول الله ﷺ. **الثانية**: أن النكاح بلا ولي من خصائصه ﷺ.

* * *

---

(١) نقله ابن القيم في الزاد (١/ ١٠٢) عن ابن عقيل نصًا عن أحمد.

(٢) انظر: تفسير البغوي (٦/ ٣٦٣).

(٣) انظر: أحكام القرآن (٢/ ٢٨٤).

(٤) المغني (٧/ ٧).

(٥) الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين (١/ ٣٥).

(٦) فتح الباري (٩/ ١٢٩).

١٦ـ شبهة: نكاح الكتابيات.

نص الشبهة:

في القرآن: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة: ٥)

في هذه الآية بيان قرآني باحترام الدين المسيحي؛ حيث يجيز للمسلمين أن يتزوجوا المسيحيات، وفي هذه الحالة- الزوجة هي التي ستربي أولاد الزوج -بينما يحرم الإنجيل تحريمًا باتًا زواج المسيحيات بغير المسيحيين.

١-وكذلك الآية تدل على إباحة الزواج من غير الكتابيين. بينما جاء في آيات أخري ما يدل على التحريم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١)، وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠).

٢-وقد يقال كيف يبيح الله زواج الكتابيات وقد أمر بعدم موالاة أهل الكتاب واتخاذهم أولياء، والموالاة تشمل: المحبة والنصرة، والزوج لابد أن يحب امرأته، وقد يميل إلى بعض ما يهوى مما لا يقره الإسلام؟ ؟

والجواب كما يلي من وجوه

الوجه الأول: حكم نكاح الكتابيات.

الوجه الثاني: مساوئ الزواج من الكتابيات إن لم تتبع تعاليم وشروط الإسلام.

الوجه الثالث: الدين الإسلامي يؤمن ويحترم المسيحية؛ ولكن المسيحية والإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام.

الوجه الرابع: هذه هي مزية دين الإسلام.

الوجه الخامس: الإسلام يسمح بزواج المسلم من المسلمة أو أهل الكتاب، ولا يسمح بزواج المسلمة إلا من المسلم وذلك من عظمة هذا الدين.

الوجه السادس: أما عن قوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وقوله ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ متعارضة مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

الوجه السابع: الرد على قولهم كيف يبيح الله زواج الكتابيات وقد أمر بعدم موالاة أهل الكتاب واتخاذهم أولياء.

الوجه الثامن: الكتاب المقدس يسمح بزواج المرأة المسيحية من غير المسيحي ويأمرها بطاعته

وإليك التفصيل

الوجه الأول: حكم نكاح الكتابيات.
ويمكن تقسيم ذلك إلى قسمين:

الأول: الزواج من الكتابية في دار الإسلام.

الثاني: الزواج من الكتابية في دار الكفر أو الحربية.

أولا: الزواج من الكتابية في دار الإسلام

اختلف العلماء في حكم زواج المسلم بالكتابية في دار الإسلام على قولين:

القول الأول مذهب الجمهور: وهو جواز نكاح الكتابية في أرض الإسلام مع الكراهة.

قال السرخسي: ولا بأس بأن يتزوج المسلم الحرة من أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، (1)

وقال ابن حجر: وذهب الجمهور إلى أن عموم آية البقرة خص بآية المائدة وهي قوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾(2).

القول الثاني: عدم الجواز وهو قول ابن عمر رضي الله عنه

فكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ نِكَاحِ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ قَالَ: إِنَّ اللهَ حَرَّمَ الْمُشْرِكَاتِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ أَعْلَمُ مِنَ الإِشْرَاكِ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ رَبُّهَا عِيسَى، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ. (1)

(١) المبسوط (٤/ ٢١٠).

(٢) فتح الباري (٩/ ٣٢٧).

قال ابن حجر:وهذا مصير منه إلى استمرار حكم عموم آية البقرة فكأنه يرى أن آية المائدة منسوخة.

وقد رد الجمهور على هذا القول بأمور:

١-أن المشركات لا يتناول الكتابيات لقوله تعالى :﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٠٥)؛ فقد عطف المشركين على أهل الكتاب والعطف يقتضي المغايرة. [٢]

٢- ما قالوه في النسخ ليس بصحيح؛ لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر مانزل؛ فالراجح هو قول الجمهور، أو أن آية المائدة خصصت عموم آية البقرة[٣].

ثانيا: حكم الزواج من الكتابية الحربية

تمهيد

الآية التي دلت على جواز زواج المسلم بالكتابية، لم تفرق بين أن يتزوجها في دار الإسلام أو في دار الحرب. ولكن دار الحرب تختلف عن دار الإسلام؛ بأن السيطرة في دار الإسلام للمسلمين الذين هم أهل الحل والعقد يحكمون بشريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ، وتظهر فيها شعائر الإسلام، واحتمال ميل الزوجة إلى دين زوجها المسلم وارد كما أن احترامها لآداب الإسلام وعدم مجاهرتها بما يخالفها أقرب؛ إرضاءً لزوجها الذي يغيظه مخالفة دينه في الأخلاق وارتكاب المحرمات، وهذا بخلاف دار الحرب التي تكون الهيمنة والسيطرة فيها للكفار الذين هم أهل الحل والعقد.

والحكم فيها إنما يكون بقوانينهم التي تخالف الإسلام، كما أن الشعائر الظاهرة فيها هي شعائر الكفر وليست شعائر الإسلام؛ والأخلاق السائدة فيها هي أخلاق الكفار،

---

(١) البخاري (٥٢٨٥).

(٢) سيأتي هذا الكلام في التوفيق بين آية البقرة وآية المائدة.

(٣) فتح الباري ٩/ ٣٢٧.

ولهذا اختلف العلماء الذين أجازوا زواج المسلم بالكتابية في دار الإسلام في زواجه بها في دار الحرب. [١]

قال القرطبي: وأما نكاح أهل الكتاب إذا كانوا حربًا فلا يحل. وسئل ابن عباس عن ذلك فقال: لا يحل، وتلا قول الله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ. . . إلى قوله. . . وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾. قال المحدث: حدثت بذلك إبراهيم النخعي فأعجبه.

وكره مالك تزوج الحربيات، لعلة ترك الولد في دار الحرب، ولتصرفها في الخمر والخنزير. [٢]

وسبب التحريم: أن المسلم مأمور بقتال الكفار المحاربين وفي زواجه بالحربية في دار الحرب ركون إلى تلك الدار وداع إلى سكناه بها وبقائه فيها، وذلك يعود إلى معنى قتاله مع إخوانه المسلمين بالنقض؛ بل إن في بقائه في دار الحرب مع ذريته تكثير لسواد الكفار المحاربين على المسلمين.

ولذا قال النووي: وَتَحِلُّ كِتَابِيَّةٌ ولَكِنْ تُكْرَهُ حَرْبِيَّةٌ وَكَذَا ذِمِّيَّةٌ عَلَى الصَّحِيحِ، وقال في الحاشية: لكن الحربية أشد كراهة منها. [٣]

وقال الخرقي: ولا يتزوج في أرض العدو إلا أن تغلب عليه الشهوة فيتزوج مسلمة ويعزل عنها ولا يتزوج منهم ومن اشترى منهم جارية لم يطأها في الفرج وهو في أرضهم. [٤]

وقال ابن القيم: وإنما الذي نص عليه أحمد ما رواه عنه ابنه عبدالله قال: أكره أن يتزوج الرجل في دار الحرب أو يتسرى من أجل ولده، وقال في رواية إسحاق بن إبراهيم: لا يتزوج ولا يتسرى الأسير في دار الحرب، وإن خاف على نفسه لا يتزوج. وقال في رواية

---

(١) حكم زواج المسلم بالكتابية د/ عبد الله الأهدل.

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٧٣).

(٣) المنهاج مع الحاشية (٢/ ١٨٧).

(٤) المغني (٩/ ٢٩٢).

حنبل: ولا يتزوج الأسيرولا يتسرى بمسلمة إلا أن يخاف على نفسه؛ فإذا خاف على نفسه لا يطلب الولد. (١)

فدار الخلاف على الكراهة التنزيهية أو على التحريمية والأكثر على التحريمية.

أسباب تحريم العلماء لزواج المسلم بالكتابية في دار الحرب، أو كراهته.

١- الخوف على ذرية المسلم المولودين في دار الحرب.

٢- أن يترتب على زواجه مفاسد كمخالفته الأمر بالهجرة إلى بلاد الإسلام وغيرها من المفاسد التي سنذكرها في حينها إن شاء الله تعالى.

لقد وضع الإسلام ضوابط وشروط الزواج من الكتابيات وهي:

١-شرط الإحصان المذكور في الآية مفقود غالبًا في النساء الكتابيات، قال تعالى ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (المائدة: ٥)، فإن اشتراط صفة الإحصان يدل على عدم جواز زواج المسلم من الكتابية التي لا توجد فيها صفة الإحصان.

وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الصفة على قولين.

الأول: أن المراد بها: العفة، فإذا كانت الكتابية عفيفة لم تقارف الفاحشة جاز نكاحها، وممن فسر الإحصان بالعفة عمر بن الخطاب ﷺ؛ فإنه عندما كتب إليه حذيفة بن اليمان: أحرام هي ـ يعني الكتابية ـ، فكتب إليه عمر قائلًا: لا، ولكني أخاف أن توقعوا المومسات منهن. (٢)

قال أبو عبيدة: يعني العواهر.

وَقَالَ مُطَرِّفٌ عَنْ الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ قَالَ: إحْصَانُ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ أَنْ تَغْتَسِلَ مِنْ الْجَنَابَةِ وَأَنْ تُحْصِنَ فَرْجَهَا. (٣)

---

(١) أحكام أهل الذمة (٣٠٩).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٨). قال ابن كثير: إسناده صحيح. (١/ ٣٤٧). وصححه الألباني في الإرواء (١٨٨٩).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٢٤).

الثاني: الإحصان هنا: الحرية، أي يجوز نكاح الكتابية الحرة دون الأمة؛ وإن كانت أتت بفاحشة إذا تابت منها بشرط أن تكون بموضع لا يخاف الناكح فيه على ولده أن يجبر على الكفر.

٢- من شروط الزواج بالكتابية أن لا يخاف الناكح على ولده أن يجبر على الكفر. [1]

الوجه الثاني: مساوئ الزواج من الكتابيات إن لم تتبع تعاليم وشروط الإسلام.

١- ربما مال إليها قلبه ففتنته، أو أثرت عليه بعاداتها وأخلاقها ففتنته فمال إليها.

٢- ربما كان بينهما ولد فيميل إليها.

٣- فَقْدُ معنى الولاء والبراء الذي أمر الله به المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المائدة: ٥١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٥٥- ٥٧).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ (الممتحنة: ٤).

والغالب أن المسلم الذي يخالط الكفار ويؤاكلهم ويشاربهم ويصاهرهم يذهب من قلبه العداء لهم ويقل في قلبه ولاؤه لله ولرسوله ولعباده المؤمنين.

٤- الرضا بالمنكر الذي يراه يتكرر من زوجته الكتابية أو من أقاربها من وقوع في الكفر والمعاصي التي ظنوا أن دينهم يبيحها لهم ولا يستطيع أن ينكر هذا كله.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث: " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ. "[2]

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٠٨).

(٢) رواه مسلم (٤٩).

الوجه الثالث: الدين الإسلامي يؤمن ويحترم المسيحية؛ ولكن المسيحية والإنـجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام.

وهذا من سماحة الدين الذي يريد نشر الخير، فالمسلم إذا تزوج المسيحية كان ذلك في الغالب عاملًا على دعوتها إلى الخير وإلى الإسلام، فالمسلم غالبًا لا يرضى أن تظل زوجته على دين آخر، بل وتكون مربية لأولاده على دينها.

والدين الإسلامي يؤمن ويحترم المسيحية والإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام، وأنه رسول وبشروليس إلهًا، ويؤمن بأن ما يدعيه النصارى اليوم من التثليث وألوهية عيسى وغيرها من الأمور التي يسير عليها نصارى اليوم ليست في الإنجيل الذي لم يحرف الذي أنزل على عيسى.

الوجه الرابع: هذه هي مزية دين الإسلام.

فإن اتبع الناكح هذه الضوابط والشروط لنكاح الكتابية صارت قريبة جدًا من دين الحق دين الإسلام فتعلم عن الإسلام ما فيه من خير وفلاح ونجاة للعباد، للرجل والمرأة. فتعلم المرأة حقها الذي لا يهضم وهي زوجة، وهي أم، وهي بنت، في جميع أطوار حياتها. بل وينشأ ولدها منسوبًا إلى أبيه المسلم الذي يعلمه ويأخذ بيديه إلى تعلم الحق ومعرفته، فتصبح هذه الأسرة يغلب عليها الوازع الديني؛ لأن حكم البيت وقوامة البيت في يد الرجل المسلم. وفي ذلك دعوة إلى دين الله تبارك وتعالى. هذا هو الحال، ولو أن الحال على غير ذلك أن تزوجت هذه الكتابية بكتابي مثلها لهضم حقهاوأصبح بيتها مفتوحًا للأمور المنكرة التي ينكرها أي عقل وشرع، وتصبح ذليلة لرجل لا تستطيع أن تفارقه لو حدث بينهما مشاكل، وهذا ملموس بين صفوف هؤلاء الذين لا يجدون حلًا لمشاكلهم سوى الوقوع في المعاصي كالزنا وغيره.

الوجه الخامس: الإسلام يسمح بزواج المسلم من المسلمة أو أهل الكتاب، ولا يسمح بزواج المسلمة إلا من المسلم وذلك من عظمة هذا الدين.

يعترف المسلم بكل أنبياء الله، ويعترف بكل الكتب المنزلة على أنبيائه، الأمر الذي يختلف تمامًا في اليهودية والمسيحية؛ فأصحاب هاتين الديانتين لا يعترفون بالإسلام دينًاولا بمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

وترجع مسألة الزواج في الإسلام إلى ما يعرف في فقه الزواج باسم (الكفاءة)؛ لذلك إذا تزوج رجل مسلم زانٍ بامرأة مسلمة عفيفة فلا يُعتبر كفؤًا لها، وكذلك المسلم يحرُم عليه الزواج بالوثنية؛ لأنها لا تعترف بأي دين سماوي.

والمسلمة مؤمنة بكل الأنبياء، أما غير المسلم فهو جاحد لغير واحد منهم فهو أقل دينًا وإيمانًا فلا يستحق أن تكون له القوامة عليها، ثم إن الزوج غير المسلم ولو كان كتابيًا لا يعترف بدين المسلمة بل يكذب بكتابها ويجحد رسالة نبيها، ولا يمكن لبيت أن يستقر وهذه حالة (القيم) فيه، وعلى العكس من ذلك: إذا تزوج المسلم بالكتابية فإنه يعترف بدينها ويؤمن بنبيها وكتابها الذي أنزله الله، وبذلك يتحقق السكن والرحمة، الَّذَيْنَ يقوم عليهما الزواج، ولا يتأتى من إجبارها على ترك دينها.

ومن عظمة الإسلام في هذا العمل الذي يثبت فيه عدم أنانيته أنه لم يبح أن يرث الرجل زوجته الكتابية إذا ماتت على دينها، كما منع أن ترثه وهي على غير دينه.

ثم كيف يُسلم الإسلام ابنته لرجل كتابي يمنع المرأة من التعلم ويبيح بيع بناته القصر ويعتبر المرأة ذليلة وأسيرة خطإٍ ارتكبه آدم وحواء لا يبيح الطلاق؟ لماذا يرمي الإسلام بناته في نار جهنم. فكيف تنفك المسلمة من الكتابي إذا ظلمها أو سامها سوء العذاب؟ وكيف تحصل على حقوقها التي كفلها لها الإسلام وكرمها بها؟ فهل يجبر الزوج الكتابي على كل هذا، كيف والإسلام ينادي بأنه لا إكراه في الدين؟

وإذا كنا عرفنا من التاريخ الأسود للمرأة بسبب تعاليم الكنيسة وفهم رجالها لنصوص الكتاب فما هو الخير الذي سينتظر المرأة المسلمة لو تزوجت بمسيحي؟ كانت ستزيد من أعداد المعذبات، وكانت ستزداد صفحات تاريخ المرأة سوادً على سوادها، ثم

منعًا للتعصب وحقنًا للدماء وتركًا للقيم من أهل الكتاب وشأنه فيما يعتقده من أخلاق التعامل من غير أهل ملته؛ وحتى تستقيم أمور الأسرة جاء منع زواج المسلمة من غير المسلم. فنظرة المسيحية و اليهودية لمن يخالف دينهم أنه يستحق القتل، بل يستبيح التلمود سرقة غير اليهودي. (١)

الوجه السادس: أما عن قوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ **وقوله** ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ **متعارضة مع قوله تعالى:** ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾؛ **فظاهرها التعارض.**

وأجاب أهل العلم عن هذا بأقوال:

القول الأول:

١ـآية المائدة ناسخة لآية البقرة

قال الطبري: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾: اختلف أهل التأويل في هذه الآية: هل نزلت مرادًا بها كل مشركة، أم مراد بحكمها بعض المشركات دون بعض؟ وهل نسخ منها بعد وجوب الحكم بها شيء أم لا؟.

فقال بعضهم: نزلت مرادًا بها تحريم نكاح كل مشركة على كلّ مسلم من أيّ أجناس الشِّرك كانت عابدةَ وثن كانت أو كانت يهودية، أو نصرانية، أو مجوسية، أو من غيرهم من أصناف الشرك، ثم نسخ تحريم نكاح أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ (المائدة: ٤-٥).

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى لعلاء أبو بكر (٩٤).

ثم نسب هذا القول بإسناده إلى ابن عباس، وعكرمة، والحسن البصري، [١] وكذلك نسب هذا القولَ القرطبيُّ إلى: مالك، والثوري، والأوزعي. [٢]

ثم قال الطبري ردًا على من قال بالنسخ:

وقد بينا في غير هذا الموضع من كتابنا هذاوفي كتابنا (كتاب اللطيف من البيان): أن كل آيتين أو خبرين كان أحدهما نافيًا حكم الآخر في فطرة العقل، فغير جائز أن يقضَى على أحدهما بأنه ناسخ حكم الآخر إلا بحجة من خبر قاطع للعذر مجيئُه، وذلك غير موجود أن قوله: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ناسخٌ ما كان قد وجبَ تحريمه من النساء بقوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ﴾؛ فإذ لم يكن ذلك موجودًا كذلك، فقول القائل: "هذه ناسخة هذه"، دعوى لا برهان له عليها، والمدعي دعوَى لا برهان له عليها متحكم، والتحكم لا يعجز عنه أحدٌ. [٣]

القول الثاني:

٢ـآية المائدة مخصصة لعموم آية البقرة

قال الطبري: وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية مرادًا بحكمها مشركات العرب لم ينسخ منها شيء ولم يُستثن، وإنما هي آية عامٌّ ظاهرُها خاصٌّ تأويلها.

وذكر بإسناده إلى قتادة قال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ﴾، يعني: مشركات العرب اللاتي ليس فيهن كتاب يقرأنه. [٤]

ثم قال: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله قتادة: من أن الله ـ تعالى ذكره ـ عَنَى بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ﴾ مَنْ لم يكن من أهل الكتاب من المشركات، وأن الآية عام ظاهرها خاص باطنها، لم ينسخ منها شيء، وأن نساء أهل الكتاب غير

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٦).

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٧١).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٧).

(٤) إسناده صحيح. تفسير الطبري (٢/ ٣٧٧).

داخلات فيها؛ وذلك أنّ الله ـ تعالى ذكره ـ أحل بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ للمؤمنين من نكاح محصناتهن، مثلَ الذي أباح لهم من نساء المؤمنات. [١]

قال ابن حجر: وَذَهَبَ الْجُمْهُور إِلَى أَنَّ عُمُوم آيَة الْبَقَرَة خُصَّ بِآيَةِ الْمَائِدَة وَهِيَ قَوْله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فَبَقِيَ سَائِر الْمُشْرِكَات عَلَى أَصْل التَّحْرِيم. [٢]

القول الثالث: لفظ الشرك في آية البقرة لا يتناول أهل الكتاب لتفريق القرآن بين أهل الكتاب والشرك.

قال القرطبي: وقال بعض العلماء: وأما الآيتان فلا تعارض بينهما، فإن ظاهر لفظ الشرك لا يتناول أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾؛ ففرق بينهم في اللفظ، وظاهر العطف يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، وأيضا فاسم الشرك عموم وليس بنص، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ نص، فلا تعارض بين المحتمل وبين ما لا يحتمل. [٣]

قال شيخ الإسلام: قيل الجواب من ثلاثة أوجه: أن الشرك المطلق فى القرآن لا يدخل فيه أهل الكتاب؛ وإنما يدخلون في الشرك المقيد. قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ . . .﴾ (البينة: ١)، فجعل المشركين قسمًا غير أهل الكتاب.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ (الحج: ١٧) فجعلهم قسمًا غيرهم.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٧).

(٢) فتح الباري (٩/ ٢٣٧)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (٩/ ٢٤١).

(٣) تفسير القرطبي (٣/ ٧٢).

فأما دخولهم فى المقيد ففى قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (التوبة: ٣١) فوصفهم بأنهم مشركون.

وسبب هذا: أن أصل دينهم الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل ليس فيه شرك كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الزخرف: ٤٥)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦)، ولكنهم بدلوا وغيروا فابتدعوا من الشرك ما لم ينزل به الله سلطانًا فصار فيهم شرك باعتبار ما ابتدعوا لا باعتبار أصل الدين، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠) هو تعريف الكوافر المعروفات اللاتى كن فى عصم المسلمين وأولئك كن مشركات لا كتابيات من أهل مكة ونحوها. [١]

الوجه السابع: الرد على قولهم كيف يبيح الله زواج الكتابيات وقد أمر بعدم موالاة أهل الكتاب واتخاذهم أولياء.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (المائدة: ٥١) والموالاة تشمل المحبة والنصرة والزوج لا بد أن يحب امرأته وقد يميل إلى بعض ما تهوى مما لا يقره الإسلام؟

والجواب من وجوه:

١- أن الله تعالى الذي نهى المسلمين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، هو الذي أحل نساء أهل الكتاب للمسلمين، وهو يعلم ـ تعالى ـ ما يترتب على ذلك، والمؤمن مأمور أن يتقي الله ما استطاع.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيميه (٩/ ٢٤٠).

٢- أن محبة الزوج لامرأته، هي من نوع المحبة الطبيعية التي لا تدخل في المحبة المنهي عنها، وهي المحبة الدينية أي أن يحبها لدينها وأخلاقها وعاداتها التي تخالف شريعة الإسلام، فلا يضره أن يحب امرأته المحبة الطبيعية، وحكم امرأته الكتابية التي أحلها الله له كحكم أمه وأبيه وأقاربه المشركين الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الممتحنة ٧-٩)، والبر هو الصلة الدنيوية.

٣- أن الأصل في المسلم الذي يتزوج الكتابية، أن يجتهد في دعوتها إلى الإسلام، لأن من أهم أهداف حِلِّهَا له أن يرغبها في الإسلام لتدخل فيه، كما قال علاء الدين الكاساني: فكان في نكاحه إياها رجاء إسلامها، فيجوز نكاحها لهذه العاقبة الحميدة، بخلاف المشركة.[1]

الوجه الثامن: الكتاب المقدس يسمح بزواج المرأة المسيحية من غير المسيحي ويأمرها بطاعته

ففي بطرس الأولى ٣/ ١: (كَذلِكُنَّ أَيَّتُهَا النِّسَاءُ، كُنَّ خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِكُنَّ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ الْبَعْضُ لاَ يُطِيعُونَ الْكَلِمَةَ، يُرْبَحُونَ بِسِيرَةِ النِّسَاءِ بِدُونِ كَلِمَةٍ).

وقد يُفسر البعض لا يطيعون الكلمة؛ بأنهانصارى أيضًا لكن اسمًا فقط أولا يجتهدون في الطاعة. حيث تمنع قوانين الأحوال الشخصية الكنسية الزواج بين رجل وامرأة مختلفي العقيدة، فلا يجوز عندهم زواج يهودي أو مسلم بمسيحية ولا يجوز زواج أرثوذكسي من كاثوليكية. وهذا القانون مستمد من العهد القديم.

---

(١) أرشيف ملتقى أهل الحديث، وانظر: (بدائع الصنائع (٣/ ١٤١٤)، وراجع: حاشية منهاج النووي (٣/ ١٨٧).

ففي سفر التكوين (٢٨/ ١: ٢): فَدَعَا إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ، وَأَوْصَاهُ وَقَالَ لَهُ: «لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. ٢قُمِ اذْهَبْ إِلَى فَدَّانَ أَرَامَ، إِلَى بَيْتِ بَتُوئِيلَ أَبِي أُمِّكَ، وَخُذْ لِنَفْسِكَ زَوْجَةً مِنْ هُنَاكَ، مِنْ بَنَاتِ لاَبَانَ أَخِي أُمِّكَ.

والسبب فيه الحفاظ على ميراث كل سبط من أسباط بني إسرائيل

ففي العدد (٣٦/ ٧: ٩): ٧ فَلاَ يَتَحَوَّلُ نَصِيبٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سِبْطٍ إِلَى سِبْطٍ، بَلْ يُلاَزِمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَ سِبْطِ آبَائِهِ. ٨ وَكُلُّ بِنْتٍ وَرِثَتْ نَصِيبًا مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَكُونُ امْرَأَةً لِوَاحِدٍ مِنْ عَشِيرَةِ سِبْطِ أَبِيهَا، لِكَيْ يَرِثَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَ آبَائِهِ، ٩ فَلاَ يَتَحَوَّلُ نَصِيبٌ مِنْ سِبْطٍ إِلَى سِبْطٍ آخَرَ، بَلْ يُلاَزِمُ أَسْبَاطُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَهُ.

هذا على الرغم من أن موسى عليه السلام تزوج من امرأة كوشية.

ففي عدد (١٢/ ١): و تكلمت مريم و هرون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية.

ففي ملوك الأولى (١١/ ١: ٤): (وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ ٢مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: «لاَ تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهؤُلاَءِ بِالْمَحَبَّةِ. ٣وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. ٤وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ.).[1]

* * *

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى لعلاء أبو بكر (٩٢).

١٧ـ شبهة: جماع المرأة في الحيض.

نص الشبهة:

أن الإسلام أحل جماع المرأة في الحيض بدليل حديث ميمونة رضي الله عنها " أن النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض "[(١)]

الجواب عليها من وجوه:

الوجه الأول: حرمة جماع المرأة في الحيض بصريح الآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾.

الوجه الثاني: سبب نزول الآية يؤكدتحريم الجماع في الحيض.

الوجه الثالث: الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ تؤكد حرمة جماع الحائض.

الوجه الرابع: إباحةالمرأة الحائض للزوج في كل شيء عدا الفرج والدبر.

الوجه الخامس: نقل إجماع أهل العلم على تحريم وطء الحائض.

الوجه السادس: مفهوم الأذى الواردفي الآية من منظورطبي.

الوجه السابع: المرأة الحائض في الكتاب المقدس نجسة ومخطئة وكالمصابة بالجذام.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: حرمة جماع المرأة في الحيض بصريح الآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾.

قال الطبري: وإنما كان القوم سألوا رسول الله ﷺ فيما ذكر لنا عن الحيض لأنهم كانوا قبل بيان الله لهم ما يتبينون من أمره، لا يساكنون حائضًا في بيت ولا يؤاكلونهن في إناء ولا يشاربونهن، فعرفهم الله بهذه الآية أن الذي عليهم في أيام حيض نسائهم أن يجتنبوا جماعهن فقط دون ما عدا ذلك من مضاجعتهن ومؤاكلتهن ومشاربتهن.[(٢)]

وقال الآلوسي: " وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ" تقريرللحكم السابق لأن الأمر بالاعتزال يلزمه النهي عن القربان وبالعكس؛ فيكون كل منهما مقررًا وإن تغايرا بالمفهوم فلذا عطف

---

(١) رواه البخاري (٢٩٧)، ومسلم (٢٩٤).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٣٨٢)، وانظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٦، ٤٧٩).

أحدهما على الآخر وفيه بيان لغايته فإن تقييد الاعتزال بقوله "في المحيض" وترتيبه على كونه أذى يفيد تخصيص الحرمة بذلك الوقت ويفهم منه عقلًا انقطاعها بعده(١).

وقال محمد رشيد رضا: وقد أفادت عبارة الآية الكريمة تأكيد الحكم إذْ أمرت باعتزال النساء في زمن المحيض وهو كناية عن ترك غشيانهن فيه، ثم بينت مدة الاعتزال بصيغة النهي، والحكمة في التأكيد هي مقاومة الرغبة الطبيعية في ملابسة النساء وإيقافها دون حد الإيذاء، وكان يظن الناس أن الاعتزال وترك القرب حقيقة لا كناية، وأنه يجب الابتعاد عن النساء في المحيض وعدم القرب منهن بالمرة، ولكن النبي ﷺ بين أن المحرم هو الوقاع. (٢)

الوجه الثاني: سبب نزول الآية يؤكدتحريم الجماع في الحيض.

عن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

إلى آخر الآية، فقال النبي ﷺ " اصنعوا كل شيء إلا النكاح ". (٣)

فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضيروعباد بن بشرفقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ ؛ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أنه قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما. (٤)

الوجه الثالث: الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ تؤكد حرمة جماع الحائض.

١ - قوله ﷺ: "اصنعوا كل شيء إلا النكاح". (٥)

---

(١) روح المعاني للآلوسي (١/ ١٢٢).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٣٦٠).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢).

(٤) قال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢١٦): لم يجامعوهن في البيوت أي لم يساكنوهن، في بيت واحد.

(٥) سبق تخريجه.

٢- وقوله ﷺ "من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهنًا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد". (١)

الوجه الرابع: إباحة المرأة الحائض للزوج في كل شيء من أكل، وشرب، واضطجاع، وتلذذ فيما عدا الفرج والدبر.

أكرم الإسلام المرأة وأعلى قدرها وحفظ نفسها خاصة وهي حائض، فلم يأمر بهجرها ولم يأمر بمقاطعتها في الأكل، والشراب، والنوم. ولم يذكر أنها نجسة وتنجس من حولها ومن يمسها كما عند اليهود وغيرهم، ولكن ذكرشرعنا عن التعامل مع المرأة حال حيضتها أنها امرأة ولها حقوقها في التعامل، وفي المؤاكلة، وفي المشاربة، وفي مضاجعتها على فراش واحد، وفي التلذذ بها؛ إلا حالة واحدة ألا وهي: جماعها في فرجها. وبين العلة من ذلك كما في الآية: (قُلْ هُوَ أَذًى).

وإليك كلام النبي ﷺ في هذه المسألة وبعض كلام الصحابة الكرام، وأيضًا حال النبي مع زوجاته أثناء حيضتهن في جميع الأمورلتقف على هذه الأحكام التي ترفع قدر المرأة:

١- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٧٦)، و أبو داودفي السنن (٣٩٠٤)، والنسائي في الكبرى (٩٠١٧)، وابن ماجه في السنن (٦٣٩)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧)، والترمذي في السنن (١٣٥) كلهم من طرق عن حماد بن سلمة، عن حكيم الأثرم، عن أبي تميمة الهجيمي، عن أبي هريرة به. وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمة (الهجيمي) عن أبي هريرة رضي الله عنه وإنما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ.
قلت: فإن أبا تميمة -واسمه طريف بن مجالد -وثقه أهل العلم، وقال ابن حجر في التهذيب: قال ابن معين: ثقة، وقال ابن سعد: ثقة إن شاء الله، وقال الدارقطني: ثقة، والحديث صححه الألباني في إرواء الغليل حديث (٢٠٠٦).

قال النبي ﷺ "اصنعوا كل شيء إلا النكاح" فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: مايريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه. . . [1] الحديث.

٢- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فِيَّ فيشرب، وأَتَعَرَّقُ العَرْق[2] وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه عَلَى موضع فِيَّ[3].

٣- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن[4].

قال ابن حجر: وهو دال على أن ذات الحائض طاهرة، وعلى أن حيضها لا يمنع ملامستها. . . ، ثم قال: وفي الحديث دلالة على طهارة بدن المرأة وعرقها. [5]

٤- وقالت: قال لي رسول الله ﷺ «نَاوِلِينِى الْخُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ ». قَالَتْ: فَقُلْتُ إِنِّى حَائِضٌ. فَقَالَ « إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِى يَدِكِ»[6].

٥- وعنها أيضًا قالت: كان رسول الله ﷺ يُخْرِجُ إِلَيَّ رأسه من المسجد وأنا في حجرتي فَأُرَجِّلُ رأسه وأنا حائض[7].

٦- و ابن عباس -رضي الله عنهما-قال: سمعت ميمونة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يضطجع معي وأنا حائض وبيني وبينه ثوب[8].

---

(١) رواه مسلم (٣٠٢).

(٢) قال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢١٦): العَرْق بفتح العين وإسكان الراء وهو العظم الذي عليه بقية من اللحم.

(٣) رواه مسلم (٣٠٠).

(٤) رواه البخاري (٢٩٧، ٧٥٤٩)، ومسلم (٣٠١).

(٥) فتح الباري (١/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٦) رواه مسلم (٢٩٨).

(٧) رواه البخاري (٢٩٥) بنحوه، و مسلم (٢٩٧)، واللفظ له.

(٨) رواه مسلم (٢٩٨).

٧- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بينما أنا مضطجعة مع رسول الله ﷺ في الخميلة[١] إذ حضت فانسللت فأخذت ثياب حيضتي فقال لي رسول الله ﷺ: أنفستِ؟ قلت: نعم؛ فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة[٢].

٨. وعن حفصة رضي الله عنها قالت: كنا نمنع عواتقنا أن يخرجن في العيدين. . . فلما قدمت أم عطية سألتها أسمعت النبي ﷺ؟ قالت: بأبي نعم، وكانت لا تذكره إلا قالت. . "بأبي" سمعته يقول: " يخرج العواتق وذوات الخدور أو العواتق ذوات الخدور والحيض وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين ويعتزل الحيض المصلى ". قالت حفصة: فقلت الحيض؟ فقالت: أليس تشهد عرفة كذا وكذا؟ [٣].

قلت: سبحان الله ما أعظم هذا التكريم وهذا الإحسان بالمرأة هي حائض، ومع ذلك يأمرها النبي ﷺ أن تشهد مع المسلمين الخير؛ فهي ليست نجسة كما قالوا ولا تنجس؛ وإنما مسألة الحيض أمر كتبه الله عليها ولا يمنعها عن أي شيء كما قال النبي ﷺ " إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم"[٤].

وكذلك للزوج حق الاستمتاع بزوجته وهي حائض فيما عدا الفرج، وذلك بنص كلام النبي ﷺ:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضًا فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تتزر في فور حيضتها ثم يباشرها. قالت: وأيكم يملك إربه كما كان النبي ﷺ يملك إربه[٥].

---

(١) قال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢١١): الخميلة بفتح الخاء وكسر الميم هي القطيفة وقيل هو الأسود من الثياب.

(٢) رواه البخاري (٢٩٨)، ومسلم (٢٩٦).

(٣) رواه البخاري (٣١٨).

(٤) رواه البخاري (٢٩٠).

(٥) رواه البخاري (٢٩٦)، و مسلم (٢٩٣).

٢-وعن ميمونة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض[١].

قال ابن حجر: المراد بالمباشرة هنا التقاء البشرتين لا الجماع[٢].

وعن عمارة بن غراب أن عمة له حدثته أنها سألت عائشة قالت: إحدانا تحيض وليس لها ولزوجها إلا فراش واحد؛ قالت: أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ دخل فمضى إلى مسجده- يعني مسجد بيته -فلم ينصرف حتى غلبتني عيني وأوجعه البرد فقال: ادني مني فقلت: إني حائض فقال ﷺ: - وإن- اكشفي عن فخذيك فكشفت فخذي فوضع خده وصدره على فخذي وحنيت عليه حتى دفئ ونام[٣].

قلت: ومع ضعف الحديث كما بينا في الحاشية، ولا يجوز الاحتجاج به كما هو في الشبهة[٤]، فليس فيه ما يدل على جماع الحائض.

الوجه الخامس: **نقل إجماع أهل العلم على تحريم وطء الحائض.**

انعقد إجماع أهل العلم على تحريم وطء المرأة الحائض " أي نكاحها في فرجها "، وقد نقل هذا الإجماع كثير من أهل العلم.

ذكر الطبري في تفسيره قائلًا: مراد الله تعالى ذكره بقوله: ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ هو اعتزال بعض جسدها دون بعض وإذ كان ذلك كذلك وجب أن يكون ذلك هو الجماع المجمع على تحريمه على الزوج في قبلها. [١]

---

(١) رواه البخاري (٢٩٧)، ومسلم (٢٩٤).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٨١).

(٣) **ضعيف**. رواه أبو داود (٢٧٠). والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠) من طريق عبد الله بن عمر بن غانم، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، عن عمارة بن غراب به.

قال المنذري: عماره بن غراب، والراوي عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، والراوي عن الإفريقي عبد الله بن عمر بن غانم، وكلهم لا يحتج بحديثه (عون المعبود١/ ٣١٢).

(٤) وهذا سبب إيرادي لهذا الحديث.

ونقله القرطبي في تفسيره. [٢] **وابن كثير في تفسيره.** [٣] **والنووي في شرح مسلم.** [٤] **وابن تيمية في مجموع الفتاوى، فقال:**

وقد سُئل ـ رحمه الله تعالى ـ عن جماع الحائض هل يجوز أم لا؟ فأجاب: وطء الحائض لا يجوز باتفاق الأئمة كما حرم الله ذلك ورسوله. [٥]

الوجه السادس: مفهوم الأذى الوارد في الآية من منظور طبي.

الحكمة من تحريم معاشرة النساء في الحيض:

حرم الله على الرجال نكاح أزواجهن إذا كن حُيَّضًا، ونص القرآن على علة التحريم وهي كون المحيض أذى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

والدراسات العلمية في هذا المجال كشفت لنا عن شيء. الأذى الذي أشارت إليه الآية الكريمة، ولكنهم لم يصلوا إلى التعرف على جميع الأذى الذي أشارت إليه الآية الكريمة.

يقول د. محيي الدين خالد العليمي: يجب الامتناع عن جماع المرأة الحائض لأن جماعها يؤدي إلى اشتداد النزف الطمثي لأن عروق الرحم تكون محتقنة وسهلة التمزق وسريعة العطب كما أن جدار المهبل سهل الخدش وتصبح إمكانية حدوث الالتهابات كبيرة مما يؤدي إلى التهاب الرحم أيضًا، أو يحدث التهاب في عضو الرجل بسبب الخدوش التي تحصل أثناء الانتصاب والاحتكاك، كما أن جماع الحائض يسبب اشمئزاز لدى الرجل وزوجه على السواء بسبب وجود الدم ورائحته، وبالتالي قد يؤثر على الزوج فيصاب بالبرود الجنسي. [٦]

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٩٢).

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٧٨).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٨).

(٤) شرح مسلم (٣/ ٢٠٤)، والمجموع (٢/ ٣٥٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٢١/ ٦٢٤).

(٦) تطور الجنين (٤١٠) نقلًا من مجلة الشريعة للدراسات الإسلامية السنة الخامسة العدد الحادي عشر- بحث" الحيض والحمل والنفاس بين الفقه والطب" د. عمر الأشقر.

ويرى الدكتور البار أن الأذى لا يقتصر على ما ذكره ولكن يتعداه إلى أشياء أخرى هي:

١- امتداد الالتهابات إلى قناتي الرحم فتسدها، أو تؤثر على شعيراتها الداخلية التي لها دور كبير في دفع البويضة من المبيض إلى الرحم؛ وذلك يؤدي إلى العقم أو إلى الحمل خارج الرحم، وهو أخطر أنواع الحمل على الإطلاق ويكون الحمل عندئذ في قناة الرحم الضيقة ذاتها، وسرعان ما ينمو الجنين وينهش في جدار القناة الرقيق حتى تنفجر القناة الرحمية فتنفجر الدماء أنهارًا إلى أقتاب البطن، وإن لم تتدارك الأم في الحال بإجراء عملية جراحية سريعة فإنها لا شك تلاقي حتفها.

٢- امتداد الالتهاب إلى قناة مجرى البول، فالمثانة، فالحالبين، فالكلى وأمراض الجهاز البولي خطيرة ومزمنة.

٣- ازدياد الميكروبات في دم الحيض وخاصة ميكروب السيلان.

ويذكر الدكتور البار أيضًا أن الأذى لا يقتصر على الحائض في وطئها وإنما ينتقل إلى الرجل الذي وطئها فقال: إدخال القضيب إلى المهبل المليء بالدماء يؤدي إلى تكاثر الميكروبات والتهاب قناة مجرى البول لدى الرجل، وتنمو الميكروبات السبحية والعنقودية على وجه الخصوص في مثل هذه البيئة الدموية. (١)

وتنتقل الميكروبات من قناة مجرى البول إلى البروستاتا والمثانة، والتهاب البروستاتا سرعان ما يزمن لكثرة قنواتها الضيقة الملتفة، والتي نادرًا ما يصلها الدواء بكمية كافية لقتل الميكروبات المختفية في تلافيقها، فإذا أزمن التهاب البروستاتا فإن الميكروبات سرعان ما تغزو بقية الجهاز البولي التناسلي فتنتقل إلى الحالبين ومنه إلى الكلى، وما أدراك ما التهاب الكلى المزمن؛ إنه العذاب حتى يحين الأجل. . . ولا علاج، وقد تنتقل الميكروبات من البروستاتا إلى الحويصلات المنوية فالحبل المنوي فالبربخ فالخصيتين وقد يسبب ذلك عقمًا نتيجة إنسداد قناة المني أو التهاب الخصيتين كما أن الآلام المبرحة التي يعانيها المريض

---

(١) خلق الإنسان (١٠٤) نقلًا من مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة الخامسة العدد الحادي عشر.

تفوق ما قد ينتج عن ذلك الالتهاب من عقم.[(١)]

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، نعم هو أذى للزوجة وأذى للزوج، وعدم قربان المرأة في المحيض طهارة من الأنجاس والأمراض.

ويقول الدكتور البار متحدثا عن الأذى الذي في المحيض:

يُقذَف الغشاء المبطن للرحم بأكمله أثناء الحيض وبفحص دم الحيض تحت المجهر نجد بالإضافة إلى كرات الدم الحمراء والبيضاء قطعًا من الغشاء المبطن للرحم، ويكون الرحم متقرحًا نتيجة إلى ذلك تمامًا كما يكون الجلد مسلوخًا فهو معرض بسهولة لعدوان البكتريا الكاسح، ومن المعلوم طبيًا أن الدم هو خير بيئة لتكاثر الميكروبات ونموها، وتقل مقاومة الرحم للميكروبات الغازية نتيجة لذلك، ويصبح دخول الميكروبات الموجودة على سطح القضيب يشكل خطرًا داهمًا على الرحم، ومما يزيد الطين بلة أن مقاومة المهبل لغزو البكتريا تكون في أدنى مستواها أثناء الحيض، إذ يقل إفراز المهبل للحامض الذي يقتل الميكروبات، ويصبح الإفراز أقل حموضة إن لم يكن قلوي التفاعل، كما تقل المواد المطهرة الموجودة بالمهبل على أدنى مستوى لها. ليس ذلك فحسب، ولكن جدار المهبل المكون من عدة طبقات من الخلايا يرق أثناء الحيض ويصبح رقيقًا ومكونًا من طبقة من الخلايا بدلًا من الطبقات العديدة التي نراها في أوقات الطهر، وخاصة في وسط الدورة الشهرية حيث يستعد الجسم بأكمله للقاء الزوج؛ لهذا فإن إدخال القضيب إلى الفرج والمهبل في أثناء الحيض ليس إلا إدخالًا للميكروبات في وقت لا تستطيع فيه أجهزة الدفاع أن تقاوم، كما أن وجود الدم في المهبل والرحم يساعد على نمو تلك الميكروبات وتكاثرها.[(٢)]

الوجه السادس: المرأة الحائض في الكتاب المقدس نجسة ومخطئة وكالمصابة بالجذام:

في الكتاب المقدس عند النصارى: بماذا وصفوا المرأة حال حيضتها؟

ففي سفر اللاويين١٥: ١٩-٣٠ يقول: وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ لَهَا سَيْلٌ، وَكَانَ سَيْلُهَا دَمًا فِي لَحْمِهَا، فَسَبْعَةَ أَيَّامٍ تَكُونُ فِي طَمْثِهَا. وَكُلُّ مَنْ مَسَّهَا يَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٠وَكُلُّ مَا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) خلق الإنسان (١٠٥) نقلًا عن مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة الخامسة العدد الحادي عشر، وانظر القرآن والطب لمحمد وصفي نقلًا عن الفقه الواضح لـ د/ محمد بكر إسماعيل (١/ ١٠٥، ١٠٨).

تَضْطَجِعُ عَلَيْهِ فِي طَمْثِهَا يَكُونُ نَجِسًا، وَكُلُّ مَا تَجْلِسُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا. ٢١وَكُلُّ مَنْ مَسَّ فِرَاشَهَا يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٢وَكُلُّ مَنْ مَسَّ مَتَاعًا تَجْلِسُ عَلَيْهِ، يَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٣وَإِنْ كَانَ عَلَى الْفِرَاشِ أَوْ عَلَى الْمَتَاعِ الَّذِي هِيَ جَالِسَةٌ عَلَيْهِ عِنْدَمَا يَمَسُّهُ، يَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٤وَإِنِ اضْطَجَعَ مَعَهَا رَجُلٌ فَكَانَ طَمْثُهَا عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا. وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ يَسِيلُ سَيْلُ دَمِهَا أَيَّامًا كَثِيرَةً فِي غَيْرِ وَقْتِ طَمْثِهَا، أَوْ إِذَا سَالَ بَعْدَ طَمْثِهَا، فتكُونُ كُلَّ أَيَّامِ سَيَلاَنِ نَجَاسَتِهَا كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِهَا. إِنَّهَا نَجِسَةٌ. ٢٦كُلُّ فِرَاشٍ تَضْطَجِعُ عَلَيْهِ كُلَّ أَيَّامِ سَيْلِهَا يَكُونُ لَهَا كَفِرَاشِ طَمْثِهَا. وَكُلُّ الأَمْتِعَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَيْهَا تَكُونُ نَجِسَةً كَنَجَاسَةِ طَمْثِهَا. ٢٧وَكُلُّ مَنْ مَسَّهُنَّ يَكُونُ نَجِسًا، فَيَغْسِلُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَحِمُّ بِمَاءٍ، وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. ٢٨وَإِذَا طَهُرَتْ مِنْ سَيْلِهَا تَحْسُبُ لِنَفْسِهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ تَطْهُرُ.

ومعنى هذا: أن المرأة الحائض تقضي ربع عمرها واقفة لا تجلس ولا تنام لأن كل ما ستجلس عليه سيكون نجسًا، وإن اقترح أحدهم أن يكون لها كرسي مخصص، أو سرير مخصص لهذا الوقت. فلك أن تتخيل مدى الفضيحة التي ستكون فيها عند وجود أقرباء أو ضيوف بالبيت، ولك أن تتخيل مدى الإحراج الذي ستكون عليه بجلوسها منفردة معزولة. الكل يفر منها ويبتعد عنها حتى لا يتنجس! وقد كان اليهود لا يتركونهن يخرجن للشارع لكي لا يتنجس المارة وخاصة المؤمنين منهم، وكانوا يضعون سريرًا أو خيمة للمرأة في فناء البيت لتنام عليه قريبًا من الكلب أثناء فترة طمثها حتى تطهر، وكانت إذا لمست الكلب كان عليهم أن يُحَمّوه (من الاستحمام)! ؛ لأنه قد تنجس من ملامستها إياه وكانت القطط تهرب منها؛ لأنها تعلم لو لمستها امرأة ستستحم بالماء الأمر الذي تكرهه القطط.

فلك أن تحكم على قوم حكموا أن الكلب أطهر من المرأة فهل هذا كلام الله وهل هؤلاء أناس كرموا المرأة أم أهانوها؟. [1]

والأهم من هذا أن السيدة مريم أم الإله عند النصارى كانت نجسة بعد ولادتها الإله

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى، علاء أبو بكر (٧٣).

لمدة أربعين يومًا تقريبًا، وكان الإله أيضًا نجسًا في هذا الوقت لأنها كانت تحمله وترضعه وتغير له ملابسه التي يبول فيها أو يتبرز، كما ظل هذا الإله على الأقل ربع حياته نجسًا (سبعة أيام في الشهر التي تأتي أمه فيها الدورة الشهرية) إلى أن انفصل عنها.

أما إن كانت مريضة بمرض يسبب لها نزيفًا فقد قضى عليها الرب بالموت إهمالًا فأي طبيب هذا الذي سيتجرأ للكشف عليها لينجس نفسه، حتى من مسَّها واستحم سيكون نجسًا للمساء، ولا أدري هل لو مس فرد ما أحد هؤلاء الأنجاس حتى المساء هل سيتنجس هو الآخر معه حتى المساء، وكيف سيكون الحال لو مسها أحد في المساء، فإلى متى تستمر نجاسته؟ وبهذا الوضع تسبب المرأة الحائض شللًا للحياة العامة.

وعلى هذا تكون عندهم فكرة المواصلات العامة فكرة فاشلة؛ لأن الكل سيكونون أنجاس، أو على السائق أوالركاب تفتيش النساء تفتيشًا ذاتيًا حتى يضمنوا عدم نجاستهم لكي تقبل صلاتهم، ولا يمكن لها أن تبيع وتشتري لأن النقود التي ستمسكها ستكون نجسة وستنجس من يأخذها، ولا يمكنها خدمة زوجها أو أولادها في البيت أو تطبيب أو إسعاف أحد منهم، ولا يصح لها أن تعمل بالطب، أو التمريضن أو الصيدلة، أو المحاماة، أو التدريس، أو البيع والشراء، أو تصنيع الغذاء، أو أي شيء، فأي تعقيد و إهانة أرادها هذا الكتاب للمرأة! أي إذلال يمكن أن يكون بعد ذلك!

فعلى هذا فلا يمكن أن يكون هذا الكتاب الذي يفضح أخص خصوصيات المرأة ويعريها من الستر ويجردها من الحياء أمام البشر كتابًا منزلًا من عند الله، فإن هذا الدين وهذا الكتاب غير صالح لكل زمانٍ، بل غير صالح لأي زمانٍ. [1]

* * *

---

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى ـ علاء أبو بكر (٧٤، ٧٥).

١٨ـ شبهة: نكاح المرأة في دبرها.

نص الشبهة:

قالوا: إن الإسلام أحل نكاح دبر المرأة بدليل الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣). قالوا: إن الإسلام أحل نكاح دبر المرأة بدليل بعض الفتاوى التي أحلت ذلك. هذا ما وقفوا عليه تجاه هذه الشبهة؛

والرد على ذلك من الوجوه.

الوجه الأول: آية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ. .﴾ فيها دليل على حرمة الوطء في الدبر، وليس العكس.

الوجه الثاني: آية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: فيها دليل على حرمة الوطء في الدبر كما في كلمة ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

الوجه الثالث: آية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ تدل أيضًا من وجه آخر على حرمة وطء المرأة في الدبر.

الوجه الرابع: آية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ فيها دلالة أخرى.

الوجه الخامس: السنة النبوية تؤكد على حرمة وطء المرأة في الدبر.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: آية ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

فيها دليل على حرمة الوطء في الدبر، وليس العكس كما في كلمة (حَرْث)، حيث ذكر كلمة (حَرْث) يفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القبل خاصة؛ إذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات، فقد شبه ما يلقى في أرحامهم من النطفة التي منها النسل بما يلقي في الأرض من البذور التي منها النبات، بجامع أن كل واحدة منها مادة لما يحصل منه.

وقوله: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ أي محل زرعكم واستنباتكم الولد وهو القبل، وهذا على

سبيل التشبيه، فجعل فرج المرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالزرع. [(١)]

قال محمد رشيد رضا: فهو يقول أنه لم يأمر بإتيان النساء الأمر التكويني بما أودع في فطرة كل من الزوجين من الميل إلى الآخر، والأمر التشريعي بما جعل الزواج من أمر الدين وأسباب المثوبة والقربة إلا لأجل حفظ النوع البشري بالاستيلاد كما يحفظ النبات بالحرث والزرع، فلا تجعلوا استلذاذ المباشرة مقصودًافتأتوا النساء في المحيض حيث لاستعداد لقبول زراعة الولد وعلى ما في ذلك من الأذى، وهذا يتضمن النهي عن إتيانهن في غير المأتى الذي يتحقق به معنى الحرث. [(٢)]

الوجه الثاني: الآية ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.**فيها دليل على حرمة الوطء في الدبر كما في كلمة أنى شئتم:**

قال الطبري: معني قوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي من أي وجه شئتم؛ وذلك أن (أَنَّى) في كلام العرب كلمة تدل إذا ابتدئ بها في الكلام عن المسألة عن الوجوه والمذاهب فكأن القائل إذا قال لرجل أنى لك هذا المال؟ يريد من أي الوجوه لك، ولذلك يجيب المجيب فيه بأنه يقول: من كذا وكذا، كما قال تعالى ذكره مخبرًا عن زكريا في مسألته مريم: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٣٧). وهي مقاربة أين وكيف في المعنى؛ ولذلك تداخلت معانيها فأشكلت (أَنَّى) على سامعها ومتأولها حتى تأولها بعضهم بمعنى أين، وبعضهم بمعنى كيف، وآخرون بمعنى متى، وهي مخالفة جميع ذلك في معناها وهن لها مخالفات؛ وذلك أن أين إنما هي حرف استفهام عن الأماكن والمحال، وإنما يستدل على افتراق معاني هذه الحروف بافتراق الأجوبة عنها. ألا ترى أن سائلًا لو سأل آخر فقال أين مالك؟ لقال بمكان كذا ولو قال له أين أخوك؟ لكان الجواب أن يقول ببلدة كذا أو بموضع كذا فيجيبه بالخبر عن محل ما سأله عن محله؛ فيعلم أن أين مسأله عن المحل.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن (١/ ٤٤٩).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٣٦٢).

ولو قال قائل كيف أنت؟ لقال صالح، أو بخير، أو في عافية، وأخبره عن حاله التي هو فيها، فيعلم حينئذ أن كيف مسألة عن حال المسئول عن حاله، ولو قال له: أنى يحيى الله هذا الميت؟ لكان الجواب أن يقال من وجه كذا ووجه كذا، فيصف قولًا نظير ما وصف الله تعالى ذكره للذي قال: ﴿يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ فعلًا حين بعثه الله بعد مماته؛ ولذلك فرقت الشعراء بين ذلك في أشعارها فقال الكميت بن زيد:

تذكر من أنى ومن أين شربة يؤامر نفسيه كذي الهجمة الأبل

فيجاء بـ "أنّى" للمسألة عن الوجوه، وبـ" أين" للمسألة عن المكان؛ فكأنه قال: من أي وجه ومن أي موضع راجعك الطرب؟ والذي يدل على فساد قول من تأول قول الله تعالى ذكره: ﴿حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ بـ "كيف شئتم"، أو تأوله بمعنى" حيث شئتم"، أو تأوله بمعنى" متى شئتم". أن قائلًا لو قال للآخر: أنى تأتي أهلك؟ لكان الجواب أن يقول: من قبلها أو من دبرها. وإذا كان هذا هو الجواب فمعلوم أن معنى قول الله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾: إنما هو: فأتوا حرثكم من حيث شئتم من وجوه المأتى.

وأن ماعدا ذلك من التأويلات فليس للآية بتأويل، وإذا كان ذلك هو الصحيح؛ فيتبين خطأ قول من زعم أن قوله: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ دليل على إباحة إتيان النساء في أدبارهن. (١)

قال الطحاوي: ثم رجعنا على تأويل قول الله ﷻ ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾: فوجدنا الحرث إنما يطلب منه النسل، وكان النسل موجودًا في الوطء في الفرج ومعدومًا في الوطء في غيره؛ فدلّ أن المراد فيها هو ما أبيح منها مما يكون عنه النسل لا ما لا يكون عنه النسل، وهكذا كان الفقهاء الكوفيون جميعًا يذهبون إليه في هذا الباب. (١)

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٩٧-٣٩٨)، والبيت أنشده صاحب التاج في أبل، ونسبه إلي الكميت. يؤامر نفسه: يشاورها. والهجمة: عدد من الإبل قريب من المائة. والأبل: بكسر الباء، اسم فاعل من أبل كفرح: إذا أحسن رعية الإبل والقيام عليها.

وقال القنوجي: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القبل خاصة إذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات فقدشبه ما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقى في الأرض من البذورالتي منها النبات بجامع أن كل واحد منها مادة لما يحصل منه، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى أعني قوله: ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾.

﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ﴾ أي محل زرعكم واستنباتكم الولد وهو القبل، وهذا على سبيل التشبيه فجعل فرج المرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالزرع.

﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ أي من أي جهة شئتم من خلف وقدام وباركة ومستلقية ومضطجعة وقائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة إذا كان في موضع الحرث.

ثم قال: وقد ذهب السلف والخلف من الصحابة والتابعين والأئمة إلي ما ذكرناه من تفسير الآية، وأن إتيان الزوجة في دبرها حرام.[٢]

قال الشوكاني: فمن زعم منهم – أي من المخالفين – أنه فهم ذلك من الآية –أي على الإباحة –فقد أخطأ في فهمه وقد فسرها لنا رسول الله ﷺ وأكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطئ في فهمه كائنًامن كان، ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلًا أتى امرأته في دبرها؛ فليس في هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك فقد أخطأ، بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام[٣].

الوجه الثالث: آية ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ. . . ﴾ تدل أيضًا من وجه آخر على حرمة وطء المرأة في الدبر:

---

(١) مشكل الآثار للطحاوي (٣/ ٦٠٨).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (١/ ٤٤٩-٤٥٠).

(٣) فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٤٥).

إن الله أمر الرجال أن يعتزلوا النساء حال الحيض، فإذا تطهرن كان لهم الحق أن يأتوهن من موضع الإتيان الذي شرعه الله، وهو الفرج حيث قال: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. وقد أمر الله بالوطء في الفرج ولو كان الدبر مباحًا لبينه الله في الآية.

الوجه الرابع: آية ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ . . .) تدل أيضًا من وجه وهو:

لو أن إتيان المرأة في دبرها مباح لبينه الله حينما أمر باعتزال موضع الدم حال الحيض وكان بمثابة البديل عن الفرج في هذه المدة المحرمة، ولكن لعدم مشروعيته لم يذكره، بل ذكر أن المباح هو الفرج، وفي حال الحيضة يجب الاعتزال.

الوجه الخامس: السنة النبوية تؤكد على حرمة وطء المرأة في الدبر وترشدنا إلى المعنى الصحيح لآية ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾:

إذا تتبعنا بدقة وبفهم صحيح لكلام النبي ﷺ لوجدنا أن كل الأحاديث التي ثبتت في هذا الباب تدل على حرمة الوطء في الدبر، بل وتلعن فاعله.

فقد ثبت عن الصحابة الكرام الذين عايشوا النبي ﷺ إنكار هذا الأمر، ولم يثبت عن أحد إباحته وما نقل عن أحد منهم خلاف ذلك وسيأتي مناقشة هذا الأمر في حينه. وإليك أيها المعترض بعض الأحاديث التي تدلك على معنى الآية الصحيح وهي قوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، وسبب نزولها ليتأكد لك حرمة وطء المرأة في الدبر.

١ - عن جابر بن عبد الله: أَنَّ يَهُودَ كَانَتْ تَقُولُ: إِذَا أُتِيَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ دُبُرِهَا فِى قُبُلِهَا ثُمَّ حَمَلَتْ كَانَ وَلَدُهَا أَحْوَلَ. قَالَ: فَأُنْزِلَتْ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

وزاد مسلم في حديث النعمان عن الزهري " إِنْ شَاءَ مُجَبِّيَةً وَإِنْ شَاءَ غَيْرَ مُجَبِّيَةٍ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ فِى صِمَامٍ وَاحِدٍ ". (١)

(١) البخاري (٤٢٥٤)، ومسلم (١٤٣٥).

٢- عن عبد الرحمن بن سابط قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ ابْنَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقُلْتُ: إِنِّى سَائِلُكِ عَنْ أَمْرٍ، وَأَنَا أَسْتَحِى أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْهُ؛ فَقَالَتْ: لاَ تَسْتَحِى يَا ابْنَ أَخِى، قَالَ: عَنْ إِتْيَانِ النِّسَاءِ فِى أَدْبَارِهِنَّ؟ قَالَتْ: حَدَّثَتْنِى أُمُّ سَلَمَةَ أَنَّ الأَنْصَارَ كَانُوا لاَ يُجَبُّونَ النِّسَاءَ وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِنَّهُ مَنْ جَبَّى امْرَأَتَهُ كَانَ وَلَدُهُ أَحْوَلَ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ نَكَحُوا فِى نِسَاءِ الأَنْصَارِ فَجَبُّوهُنَّ، فَأَبَتِ امْرَأَةٌ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا؛ فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا: لَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى آتِىَ رَسُولَ الله ﷺ، فَدَخَلَتْ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهَا فَقَالَتِ: اجْلِسِى حَتَّى يَأْتِىَ رَسُولُ الله ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الله اسْتَحَتِ الأَنْصَارِيَّةُ أَنْ تَسْأَلَهُ، فَخَرَجَتْ، فَحَدَّثَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: "ادْعِى الأَنْصَارِيَّةَ. فَدُعِيَتْ فَتَلاَ عَلَيْهَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ (صِمَامًا وَاحِدًا) ". [(١)]

وهذا يدل على أمور:

ـ أن اليهود كانوا على علم أن المهاجرين كانوا يجامعون من الدبر في القبل وليس في الدبر؛ لأن الدبر ليس هو موضع الولادة، ولذلك قالوا: إن من فعل ذلك كان الولد أحول! فأنزل الله الآية.

ـ ولو أن المهاجرين كانوا يجامعون في الدبر ما سكت اليهود على ذلك وفضحوا أمرهم، ولذلك لما علموا أنهم كانوا يجامعون المرأة مجبية أي من دبر في فرجها أشاعوا أن من فعل ذلك كان ولده أحول فأنزل الله الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

- أن التجبية كما قال ابن منظورتكون في حالتين:

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٨/ ٨)، والترمذي (٢٩٧٩)، والطبري في تفسيره (٢/ ٣٩٦) من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن حفصة بنت عبد الرحمن، عن أم سلمة به، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال الألباني في كتاب آداب الزفاف (ص٣٠): وإسناده صحيح على شرط مسلم، قلت: ومدار هذا الحديث على عبد الله بن عثمان خُثَيْم، وقد وثقه أهل العلم في كتبهم. قال الحافظ ابن حجر في التهذيب٥/ ٢٧٥: قال ابن معين: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات.

١- أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم.

٢- أن ينكب على وجهه باركًا، وهذا الوجه هو المعروف عند العرب. (١)

وقال النووي: المُجَبِّيَة بميم مضمومة ثم جيم مفتوحة ثم باء موحدة مشددة مكسورة ثم ياء مثناة من تحت أي: مكبوبة على وجهها. ولذا قال: ففيه إباحة وطئها في قبلها إن شاء من بين يديها، وإن شاء من ورائها، وإن شاء مكبوبة. (٢)

قلت: وقد بينت الزيادة التي عند مسلم من قول الزهري: (إِنْ شَاءَ مُجَبِّيَةً وَإِنْ شَاءَ غَيْرَ مُجَبِّيَةٍ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ) والصمام الواحد هو القبل بأي وضع كان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إِنَّ ابْنَ عُمَرَ ﷺ وَالله يَغْفِرُ لَهُ - أَوْهَمَ؛ إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ - وَهُمْ أَهْلُ وَثَنٍ - مَعَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ يَهُودَ - وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ - وَكَانُوا يَرَوْنَ لَهُمْ فَضْلًا عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ فَكَانُوا يَقْتَدُونَ بِكَثِيرٍ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَأْتُوا النِّسَاءَ إِلاَّ عَلَى حَرْفٍ، وَذَلِكَ أَسْتَرُ مَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ، فَكَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ قَدْ أَخَذُوا بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَكَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ قُرَيْشٍ يَشْرَحُونَ النِّسَاءَ شَرْحًا مُنْكَرًا وَيَتَلَذَّذُونَ مِنْهُنَّ مُقْبِلاَتٍ وَمُدْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ؛ فَلَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْهُمُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ فَذَهَبَ يَصْنَعُ بِهَا ذَلِكَ فَأَنْكَرَتْهُ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ: إِنَّمَا كُنَّا نُؤْتَى عَلَى حَرْفٍ فَاصْنَعْ ذَلِكَ وَإِلاَّ فَاجْتَنِبْنِى حَتَّى شَرِىَ أَمْرُهُمَا فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أَىْ: مُقْبِلاَتٍ وَمُدْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ يَعْنِى بِذَلِكَ مَوْضِعَ الْوَلَدِ(٣).

---

(١) لسان العرب (١٤/ ١٣٠).

(٢) شرح مسلم (٥/ ٢٦١).

(٣) أبو داود (٢١٥٧)، والدارمي (١١٢٥)، والطبري في التفسير (٢/ ٣٩٢)، والحاكم، وصححه على شرط مسلم (٢/ ١٩٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٩٥)، كلهم من حديث ابن عباس، قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٨٢): ويشهد له بالصحة ماتقدم من الأحاديث ولاسيما رواية أم سلمة. قال ابن القيم في

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: " جَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله هَلَكْتُ قَالَ: « وَمَا أَهْلَكَكَ ». قَالَ: حَوَّلْتُ رَحْلِي اللَّيْلَةَ. قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَالَ: فَأَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِ الله ﷺ هَذِهِ الآيَةَ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالْحِيضَةَ". (١)

وفي هذا الحديث دليل على حرمة الوطء في الدبر أيضًا وليس العكس، وليس فيه دليل على أن عمر بن الخطاب ﷺ نكح في الدبر، وذلك لما يلي:

١ - أن عمر ﷺما نكح في دبر زوجته؛ لأنهم كانوا يعلمون حرمة ذلك من القرآن ومن كلام النبيﷺ.

٢- أن عمر ﷺما نكح في دبر زوجته؛ بل حول كيفية الجماع، ولذلك قال: حولت رحلي الليلة. قال ابن الأثيرفي مادة رحل(٢): كنى برحله عن زوجته، أراد به غشيانها في قبلها من جهة ظهرها؛ لأن المجامع يعلو المرأة ويركبها مما يلي وجهها، فحيث ركبها من جهة ظهرها كنى عنه بتحويل رحله، إما أن يريد به المنزل أو المأوى، وإما أن يريد به الرحل الذي تركب عليه الإبل وهو الكور. أهـ، ولذلك ظن – أي عمر - أنه خالف الشرع، فجاء إلى النبيﷺ يسأله عما وقع فيه.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه ".(٣)

تهذيب السنن (١/ ٣٠٨): وَهَذَا الَّذِي فَسَّرَ بِهِ اِبْن عَبَّاس فَسَّرَ بِهِ اِبْن عُمَر. وَإِنَّمَا وَهِمُوا عَلَيْهِ، ولَمْ يَهِم هُوَ. وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٠)، والبيهقي (٧/ ١٩٨)، والنسائي (٨٩٧٧)، وأحمد (١/ ٢٩٧)، والطبري في تفسيره (٢/ ٣٩٧)، وابن حبان (٤٢٠٤)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٠٧/ ٨)، وصححه ابن حجر في الفتح (٨/ ٣٩)، وحسن إسناده الألباني في آداب الزفاف (ص٣١).

(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير في مادة رحل (٢/ ٢٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٢)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٥٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٢)، وصححه الألباني في المشكاة (٣١٩٤).

وعنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: "من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهنًا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد". (١)

وعن سعيد بن يسار أبى الحباب قال: قلت لابن عمررضي الله عنهما ما تقول في الجواري حين أحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكرت الدبر، فقال: هل فعل ذلك أحد من المسلمين! ! (٢)

وعن خزيمة بن ثابت ﷺأنه سمع النبيﷺ يقول: "إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن "(٣)

وقول عبد الله بن عمرو في الذي يأتي امرأته في دبرها: هي اللوطية الصغرى. (١)

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٨)، والترمذي (١٣٥)، والنسائي (٩٠١٧)، وأبو داود (٣٨٩٩)، وابن ماجه (٦٣٩). قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمةعن أبي هريرة ثم قال: إنما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ، قلت: فإن أبا تميمة واسمه طريف بن مجالد وثقه أهل العلم: قال ابن حجر في التهذيب: قال ابن معين: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن سعد: كان ثقة إن شاء الله، وقال الدارقطني: ثقة، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٠٦).

(٢) أخرجه الدارمي (١١٤٣)، والنسائي (٨٩٧٩)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢١٨٢) وصحح إسناده الألباني في آداب الزفاف (ص٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٣)، والنسائي (٨٩٨٢)، والدارمي (١١٤٤)، والبيهقي (٧/ ١٩٧)، وصححه ابن حجر في الفتح (٨/ ٣٩)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٠٥)، وأخرجه الشافعي في الأم (٥/ ١٧٣) مطولًا قال: أخبرني عمي محمد بن علي بن شافع قال: أخبرني عبد الله بن علي بن السائب عن عمر أحيحة أو عمر بن فلان بن أحيحة بن الجلاح أما شككت (يعني الشافعي)، عن خزيمه بن ثابت أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن إتيان النساء في أدبارهن أو إتيان الرجال امرأته في دبرها فقال النبي ﷺ: " إي حلال "، فلما ولى الرجل دعاه أو أمر به فدعى فقال: كيف؟ قلت: في أي الحزبتين أوفى أي الخرزتين، أوفى أي الخصفتين أمن دبرها في قبلها فنعم أم من دبرها في دبرها فلا؛ فإن الله لا يستحي من الحق "لا تأتوا النساء في أدبارهن ". ثم قال الشافعي: قلت: عمي ثقة، وعبد الله بن علي ثقة، وقد أخبرني محمد عن الأنصاري المحدث بها أنه أثنى عليه خيرًا وخزيمة، فمن لا يشك عالم في ثقته، فلست أرخص فيه، أي في إتيان النساء في أدبارهن، بل أنهى عنه.

قال الطحاوي: فلما تواترت هذه الآثار عن رسول الله ﷺ بالنهي عن وطء المرأة في دبرها ثم جاء عن أصحابه وعن تابعيهم ما يوافق ذلك وجب القول به وترك ما يخالفه. (٢)

قلت: وهذا هو الثابت الصريح عن النبي ﷺ وعن الصحابة الكرام كما عرضنا أقوالهم.

وإليك الأسباب والعلل الشرعية التي منعت هذا الفعل:

١-إن من مقاصد الشريعة حفظ النفس وحفظ العرض ولذا حرم الوطء في الدبر:

فإن مما يجب أن يعلم أن شريعة الله تعالى فيها تحقيق لمصالح العباد، وهي كلها رحمة وحكمة وعدل، ليس فيها شيئ خارج عن ذلك، بل كل تشريع فيها يحقق للمكلف النفع والمصلحة في دينه ودنياه، وهذه المصالح المترتبة على التشريع فيها المصالح الضروريات والحاجيات والتحسينات، وهي المعروفة عندنا بمقاصد الشريعة، وهي التي لأجلها شرع الله الشرائع وأنزل الأحكام ورتب الثواب والعقاب ومن هذه المقاصد حفظ النفس وحفظ العرض، ومما شرع لحفظ النفس الزواج وذلك لبقاء النوع وتكثيره وعدم الوقوع في الفواحش، وقد جاء مقصد " حفظ العرض " مكملًا لذلك لوقايته من أسباب الفجور والرذيلة، ومن المسائل التي لها تعلق بهذين المقصدين مسألة "وطء المرأة في دبرها " فهي من جهة كونها مما يتفرع على عقد النكاح تندرج في المقصد الأول ومن جهة كونها أنتهاكًا كالعرض والشرف تندرج في المقصد الثاني الذي جاءت الشريعة بحمايته. (٣)؛ من أجل هذا كله حرم الله وطء المرأة في دبرها.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٩٥٦)، وأحمد (٢/ ١٨٢)، والنسائي مرفوعًا وموقوفًا (٨٩٩٦، ٨٩٩٩)، والبيهقي (٧/ ١٩٨)،. قال الحافظ في تلخيص الحبير (٣/ ١٨١): والمحفوظ عن عبد الله بن عمرو من قوله، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠١): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح.

(٢) شرح معاني الآثار للطحاوي (٣/ ٤٦).

(٣) نقلًا من مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السادسة عشرة العدد السابع والأربعين.

٢- كرم الإسلام المرأة وذكر لها حقوقها فحرم وطئها في دبرها: لقد كرم الإسلام المراة أعظم تكريم بعد ما كانت مهانة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام رفع شأنها وأعلى قدرها، فكرمها في جميع حياتها وأطوارها وهي بنت وهي زوجة، وهي أم، وكان لها حقوق كثيرة وهي زوجة مذكورة في القرآن وفي سنة النبي ﷺ، وكان من حقوقها على زوجها مسألة الجماع أو الوطء، وكان لها حق في أن تتمتع بهذا الأمر، ولذا إذا وطئت المرأة في دبرها كان في ذلك فواتًا لحقها الذي شرعه الله تبارك وتعالى فكيف يشرع الإسلام وطء المرأة في دبرها الذي يضيع حق المرأة ويفوت عليها لذتها؟ ، وهذا من تكريم الإسلام للمرأة لأنه إذا أبيح للرجل الوطء في الدبر فإن في هذا قضاء لشهوته وحرمان المرأة من حقها في الاستمتاع وفي هذا ضرر بها من وجهين:

أحدهما: تحريك باعث الشهوة فيها من غير أن تنال شيئًا من حقها في الاستمتاع وفي هذا ضرر بها.

الثاني: إن وطء المرأة في دبرها يضر بها في صحتها مع عدم منفعتها منه بشيء. (١)

من مقاصد النكاح النسل والنسل من غير وطء في القبل لا يكون فلا يأتي من الوطء في الدبر. (٢)

إن النكاح في الشرع الإسلامي له مقاصد عديدة منها النسل وقد حثنا النبي ﷺ على الإكثار من النسل كما في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وغيره عن أنس مرفوعًا" تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة". (٣)

ومن هنا لا يتأتى الإكثار من النسل بالوطء في الدبر بل يكون في القبل لذا شرع الإسلام القبل الذي يكون منه النسل، وحرم الدبر الذي لا يكون منه النسل بل منه الأذى والضرر.

---

(١) المدخل لابن الحاج (٢/ ١٩٤)، وانظر: مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة السادسة عشر العدد السابع والأربعون.

(٢) بتصرف من زاد المعاد لابن القيم (٤/ ٢٦٢)، والمجموع للنووي (١٦/ ٢٤٠)، ومجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة السادسة عشر العدد السابع والأربعون.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥)، وسعيد بن منصور (٤٩٠)، وابن حبان (٤٠٢٨)، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٤٧٤)، وصحح إسناده الألباني في إرواء الغليل (١٧٨٤).

قال الرازي: لو تمكن الإنسان من تحصيل تلك اللذة بطريق لا تفضي إلى الولد لم تحصل الحكمة المطلوبة ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل وذلك على خلاف حكم الله فوجب الحكم بتحريمه قطعًا حتى تحصل تلك اللذة بالطريق المفضي إلى الولد. (١)

إن الشرع قد شرع شرائعه على قواعد وأسس منها كما في الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥)، حديث النبي ﷺ"لا ضرر ولا ضرار"(٢)، ومن المعلوم كما أثبت أهل الطب أن وطء المرأة في دبرها يضر بالرجل والمرأة ويوقعهما في التهلكة ولذا حرم الله تعالى الوطء في الدبر، وإليك بيان ذلك:

قال ابن القيم: " عن الوطء في الدبر" فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل " أي الوطء " ولم يخلق له وإنما هيئ له الفرج.

وقال أيضًا: فإن ذلك مضر بالرجل، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم لأن الفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن وراحة الرجل منه والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء ولا يخرج كل المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعي. وأيضًا فإنه يحدث الهم والغم والنفره عن الفاعل والمفعول.

وأيضًا فإنه يضر من وجه آخر، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جدًا لمخالفته للطبيعة. (٣)

وقد أثبت الطب الحديث صحة ما ذهب إليه ابن القيم حيث بين د/ محمد عبد الحميد شاهين أستاذ الفقاريات وعلم الأجنة المساعد بقسم العلوم البيولوجية كلية التربية بجامعة عين شمس في بحثه حول العلاقة الجنسية بين الإسلام والطب دراسة نسيجية مقارنة بين المهبل والشرج: أن التركيب لكل من المهبل وقناة الشرج مرتبط ارتباطا كليًا بالوظيفة المنوط به القيام بها، فبطانة المهبل تختلف عن بطانة الشرج والوسط الحامضي

---

(١) تفسير الفخر الرازي (١٤/ ١٦٩).

(٢) رواه أحمد في المسند١/ ٣١٣، وصححه الألباني كما في الإرواء حديث (٨٩٦).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٢٦٣) باختصار.

يختلف عن وسط قناة الشرج، والعضلات التي تساهم في حركة المهبل تختلف عن تلك التي تتسبب الانقباضات في قناة الشرج، والألياف المرنة الكثيرة التي تسبب في مرونة المهبل لا توجد في الشرج، بمعنى أن المهبل مهيأ تمامًا لأداء وظيفته وهي استقبال عضو الجماع وكممر للولادة، بينما وظيفة الشرج الرئيسية هي المساهمة مع المستقيم في إخراج فضلات الطعام على هيئة براز، وسبحان الله كيف يستخدم ممر مهيأ لخروج الفضلات على هيئة براز كبديل لمكانٍ مهيأ لخروج خلق جديد.[(١)]

إن المهبل كمستقبل لعضو الجماع به ما يؤهله للمحافظة على هذا العضو فسيولوجيًا وما يسهل عملية الإيلاج، ويجعل للجماع كل أهدافه السامية التي تنتهي بتكوين خلق جديد بإذن الله تعالى.

يقول الدكتور محمد علي البار: وبما أن المصابين بالشذوذ الجنسي (اللواط) يقدرون في الولايات المتحدة ب١٨مليونًا حسب آخر الإحصائيات؛ فإن عددًا كبيرًا منهم يعاني من الأمراض الجنسية، وكذلك ينتشر بينهم الهربس[(٢)] بصورة تبلغ عدة أضعاف ما هي عليه عند الزناة ثم يقول: " وتنتشر الأمراض الجنسية في الشاذين بصورة مرعبة حقًا يكادون ينفردون ببعض الأمراض وأشهرها وأكثرها إثارة (الإيدز)، أو (مرض فقدان المناعة المكتسبة)، وخطورة هذا المرض أنه مميت في خلال عامين أو ثلاثة منذ ظهور الأعراض.[(٣)]

ومن أخطر الآثار المترتبة على وطء المرأة في دبرها:

أن ذلك يؤدي إلى توسعة الشرج وارتخاء المعرّة الشرجية وقد يصاب بسلس غائطي، أي يخرج البراز بشكل لا إرادي، وقد يصاب بالانعكاس النفسي لانعكاس الوطء من

---

(١) أبحاث المؤتمر العالمي الخامس عن الطب الإسلامي (صـ٤٩٩) الكويت. الطب الإسلامي نقلًا عن مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية نفس العدد السابق.

(٢) الهربس: هو مرض حاد جدًّا يتميز بتقرحات شديدة حمراء اللون تكبر وتتكاثر بسرعة ويسببه فيروس هربس مومنس ينتقل هذا المرض بالاتصال الجنسي إلى الأعضاء الجنسية أو الفم عند الشاذين. اهـ نقلًا من مجلة الشريعة.

(٣) الأمراض الجنسية د/ محمد البار (٣٧١) نقلًا من مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية المصدر السابق.

الوضع الطبيعي إلى الشذوذ. (١)

وبعد؛ فلقد سد الإسلام كل المنافذ التي تجعل الرجل ينحرف جنسيًا حفاظًا على صحته ونسله؛ لذا حرم وطء المرأة في دبرها، وقد جاء النهي صراحة في السنة النبوية – كما فصلنا قبل ذلك – علاوة على الأمراض التي تصيب الرجل والمرأة على حد سواء، فالتوازن الذي أوجده الله تعالى في جسم الإنسان بين الأجهزة المختلفة ووظيفة كل جهاز والملائمة بين الوظيفة والتركيب ليس عشوائيًا؛ إنما كل عضو له تركيب نسيجي معين مرتبط بوظيفة معينة، فما بالنا أبعد ما نكون عن فهم هذا التوازن في جسم الإنسان خاصة في عصرنا الحالي! !. (٢)

ولهذه العلل وهذه القواعد حرم الإسلام الدبر، وهذا التحريم موافق للمنقول والمعقول وقواعد الشريعة التي جاءت بإزالة الضرر وتقليله؛ حيث أثبت الطب أن الوطء في الدبر يكون سببًا في أمراض خبيثة منهكة كما ذكرنا.

وقد يحتج أصحاب هذه الشبهة بما ورد عن ابن عمر في المسألة. فقدروى نافع عنه: أنه كانﷺإِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَانٍ قَالَ: تَدْرِي فِيمَا أُنْزِلَتْ؟ قُلْتُ لاَ. قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا. ثُمَّ مَضَى. (٣)

وعنه أيضًا قال: كنت أمسك على ابن عمر رضي الله عنهما المصحف إذ تلا هذه الآية ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾، فقال: أن يأتيها في دبرها. (٤)

وعن أبي الحباب سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر رضي الله عنهما أنه –يعني عن الوطء في الدبر – فقال: لا بأس به. (١)

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث د. محمد ناظم النسيمي (٢/ ١٢٣) نقلًا من مجلة الشريعة المصدر السابق.

(٢) مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة السادسة عشر العدد السابع والأربعين.

(٣) البخاري (٤٥٢٦).

(٤) الطبري في التفسير (٢/ ٣٩٤).

والرد على ذلك بما يلي:

١- ذهب بعض العلماء إلى القول بوهم النقلة عن ابن عمر ونفي الوهم عنه كما قال ابن القيم، ومن هاهنا نشأ الغلط على من نقل عنه الإباحة من السلف والأئمة، فغلط عليهم الغالط أقبح غلط وأفحشه اهـ.(٢)

قلت: وقد ذكر ذلك نافع كما في الرواية التي سنذكرها الآن.

قال ابن الحاج: وأما ماحكي أن قومًا من السلف أجازوا ذلك فلا يصلح مع ما ذكر من إضافته إليهم بل يحمل على سوء ضبط النقلة والاشتباه عليهم فإن الدبر اسم للظهر؛ قال تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وقال: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾ أي ظهره والمرأة تؤتي من قبل ومن دبر أي، أنها تؤتى من جهة الظهر في قبلها. (٣)

٢- ثبت عن ابن عمر خلاف ذلك حيث قطع بالتحريم وهو الأولى أن يقدم في المسألة:

فعن أبي النضر أنه قال لنافع: قد أكثر عليك القول أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى بأن يؤتى النساء في أدبارهن! قال نافع: لقد كذبوا علي؛ ولكن سأخبرك كيف كان الأمر؛ إن ابن عمر عرض المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قال: يا نافع، هل تعلم ما أمر هذه الآية؟ إنا كنا معشر قريش نجبي النساء فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد من نسائنا فإذا هن قد

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤١)، والنسائي (٧٩، ٨٩) بلفظ عن عبد الرحمن بن القاسم قال: قلت لمالك: إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال: قلت لابن عمر: إنا نشتري الجواري فنحمض لهن؟ قال وما التحميض؟ قال: نأتيهن في أدبارهن. قال: أو يفعل هذا مسلم! ! قال لي مالك: فأشهد على ربيعة فحدثني عن سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر عنه قال: لا بأس به، قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٩٠)، ورواه الدارقطني في غرائب مالك من طريق عبد الرحمن القاسم وقال: هذا محفوظ عن مالك صحيح.

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٣٣).

(٣) المدخل لابن الحاج (٢/ ١٩٤).

كرهن ذلك وأعظمنه، وكانت نساء الأنصار إنما يؤتين على جنوبهن فأنزل الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. (١)

قال ابن القيم: فهذا هو الثابت عن ابن عمر، ولم يفهم عنه من نقل عنه غير ذلك. (٢)

قلت: وفي هذا تصريح من نافع أنه نفى أنه روى عن ابن عمر بجواز الإتيان في الدبر وهو الأولى أن يقدم في هذه المسألة، ووضح من هذا أيضًا ما جاءعن سعيد بن يسار قال: قلت لابن عمر: إنا نشتري الجواري فنحمض لهن! قال: وما التحميض؟ قال: نأتيهن في أدبارهن! قال: أف أويفعل هذا مسلم! ! !. (٣)

قال ابن القيم: فقد صح عن ابن عمر أنه فسر الإتيان في الفرج من ناحية الدبر، وهو الذي رواه عنه نافع وأخطأ من أخطأ على نافع فتوهم أن الدبر محل الوطء لا طريقًا إلى وطء الفرج فكذبهم نافع، وأيضًا إنه إن كان قد حفظ عن ابن عمر أنه رخص في الإحماض للجواري؛ فإنما مراده إتيانهن من طريق الدبر، فإنه قد صرح في الرواية الأخرى بالإنكار على من وطأهن في الدبر وقال أو يفعل هذا مسلم؟ فهذا يبين تصادق الروايات وتوافقها عنه.

ثم قال: فوقع الاشتباه في كون الدبر طريقًا إلى موضع الوطء أو هو مأتى، واشتبه على من اشتبه عليه "من" بمعنى "في" فوقع الوهم. (٤)

ولو سلمنا جدلًا أن ابن عمر قد ثبت عنه الجواز ولم يثبت عنه التحريم ما قبل رأيه؛ لأنه مخالف لكلام النبي ﷺ، وكلام النبي ﷺمقدم لأنه الأصل –على كلام الصحابة – فقد يتكلم الصحابي بكلام خلاف كلام النبي وهذا ليس لكونه يعارض كلام النبي، كلا وإنما لأن كلام

---

(١) النسائي (٨٩٧٨)، واستشهد بها ابن القيم في كتابه التهذيب قال: وهذا هو الثابت عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) تهذيب معالم السنن (٦/ ١٤١).

(٣) أخرجه النسائي (٨٩٧٩)، والدارمي (١١٤٣)، الطبري في تفسيره (٢/ ٣٩٤)، وصحح إسناده الألباني في آداب الزفاف (٢٩).

(٤) تهذيب مختصر سنن أبي داود، ومعالم السنن لابن القيم (٩/ ١٤١، ١٤٢).

النبي ﷺ لم يصله، وهذا ما عليه الصحابة أجمعون، وقد دلت آيات كثيرة على مثل هذا، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (النساء: ٥٩)، وقال ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ (النساء: ٦٥).

ومما احتجوا به في هذه الشبهة كلام بعض أهل العلم في هذه المسألة.

فاحتجوا بما ذكره النووي عن الشافعية فقال: قال أصحابنا: ولو غيب الحشفة في دبر أمرأة، أو دبر رجل، أو فرج بهيمة أو دبرها، وجب الغسل سواء كان المولج فيه حيًا، أو ميتًا، صغيرًا، أو كبيرًا، وسواء كان ذلك عن قصد أم نسيان، وسواء كان مختارًا أو مكرهًا. . . إلخ. [(١)]

والجواب على ذلك:

أولًا: هذا كلام ذكره الإمام النووي يبين فيه حكمًا فقهيًا لمن وقع في هذا الأمر، وليست له علاقة بإباحة وطء الدبر، وهذا واضح من خلال عرضه لهذه المسألة، ولذلك ذكرها في الأبواب الفقهية فذكرحكمًا شرعيًا افتراضيًا ليس إلا، ويؤكد هذا كلام النووي نفسه عن هذه المسألة من الناحية الشرعية من ناحية الحل والحرم.

فقد قال: قال أصحابنا: لا يحل الوطء في الدبر في شيء من الآدميين ولا غيرهم من الحيوان في حال من الأحوال. [(٢)]

وقال أيضًا: فقد استدل الجمهور بهذه الأحاديث التي تقرب من درجة التواتر على تحريم إتيان المرأة في دبرها. [(٣)]

قلت: سلمنا جدلًا أن الإمام النووي أوأحدًا من أهل العلم أفتى بجواز الوطء في الدبر السؤال: هل تعتمد على فتواه؟ الجواب: لا. ؛ لأنه ليس معصومًا من الخطأ، وليس

---

(١) شرح مسلم (٢/ ٢٧٦).

(٢) شرح مسلم (٥/ ٢٦٠).

(٣) المجموع (١٦/ ٤٢٠).

هناك معصوم إلا الأنبياء والمرسلين فإذا اجتهد وأخطأ فله أجر على اجتهاده، ولا تعتمد فتواه لأمر وهو أنه خالف الدليل، والأصل عندنا الأدلة من القرآن أو السنة بفهم سلف الأمة، ولذلك قال الإمام مالك: كل يأخذ منه ويرد إلا المعصوم ﷺ. [١]

ومن هنا نقول فالاحتجاج بمثل هذا باطل، وهذا ينطبق أيضًا على ما ورد، وفي صحة وروده خلاف بين أهل العلم عن الإمامين مالك والشافعي -رحمهما الله-وسيتبين أيضًا أنه قد ورد عنهم خلاف ذلك أي، بحرمة وطء المرأة في الدبر، أو رجعوا عن قولهم بالإباحة إلى المحرمة بعد ورود الدليل إليهم. أما الإمام مالك رحمه الله تعالى فله في المسألة قولان ذكرهما ابن العربي[٢]، والقرطبي[٣].

هذا، وقد ذكر ابن الحاج القول الثاني للإمام مالك. قال: عن عبد الرحمن بن القاسم أن شرطي المدينة دخل على مالك بن أنس رحمه الله تعالى فسأله عن رجل رفع إليه أنه أتى امرأته في دبرها! فقال مالك: أرى أن توجعه ضربًا؛ فإن عاد إلى ذلك ففرق بينهما. [٤]

وقال ابن حجر: وروى الخطيب في " الرواة عن مالك " من طريق اسرائيل بن روح قال: سألت مالكًا عن ذلك فقال: ما أنتم قوم عرب! هل يكون الحرث إلا موضع الزرع؟ قال الحافظ: وعلى هذه القصة اعتمد المتأخرون عن المالكية، فلعل مالكًا رجع عن قوله الأول. [٥]، والذي يترجح القول بالرجوع إلى القول التحريم[٦].

---

(١) ورد هذا المعنى عند أئمة أصحاب المذاهب الأربعة أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وانظر: أقوالهم في هذه المسألة كما في" إعلام الموقعين" لابن القيم في الجزء الثاني في مواطن متفرقة، وقد جمع هذا الشيخ الألباني في مقدمة كتابه" صفة صلاة النبيﷺ" فلتراجع فهي مهمة.

(٢) أحكام القرآن (١/ ١٧٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٩٦).

(٤) المدخل لابن الحاج (٢/ ١٩٤).

(٥) الفتح (٨/ ٣٨، ٣٩).

(٦) المدخل لابن الحاج (٢/ ١٩٤).

وأيضًا ما ورد عن الشافعي كما قال ابن القيم: فإن قيل فما تقولون فيما نقله محمد ابن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول: ليس فيه عن رسول الله ﷺ في التحريم والتحليل حديث ثابت، والقياس أنه حلال؟ [(١)].

قال ابن القيم: فلعل الشافعي ـ رحمه الله ـ توقف فيه أولًا، ثم لما تبين له التحريم وثبوت الحديث فيه رجع إليه، وهو أولى بجلالته ومنصبه وإمامته من أن يناظر على مسألة يعتقد بطلانها، ثم يقول: والقياس حله، ويقول: وليس فيه عن رسول الله ﷺ في التحريم والتحليل حديث ثابت على طريق الجدل؛ بل إن كان ابن عبد الحكم حفظ ذلك عن الشافعي فهومما قد رجع عنه لما تبين له صريح التحريم. والله أعلم.

والشافعي رحمه الله قد صرح في كتبه بالتحريم واحتج بحديث خزيمة الذي ذكرناه قبل ذلك كما في كتاب الأم فقال: أخبرنا عَمِّي محمد بن عَلِيٍّ بن شَافِعٍ عن عبد الله بن عَلِيٍّ بن السَّائِبِ عن عَمْرِو بن أحيحة أو بن فُلَانِ بن أحيحة بن فُلَانٍ الْأَنْصَارِيِّ قال: قال محمد بن عَلِيٍّ، وكان ثِقَةً عن خُزَيْمَةَ بن ثَابِتٍ أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عن إِتْيَانِ النِّسَاءِ في أَدْبَارِهِنَّ فقال رسول الله ﷺ: حَلَالٌ، ثُمَّ دَعَاهُ أو أَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ فقال: كَيْفَ قُلْتَ؟ في أَيِّ الْخَرِبَتَيْنِ أو في أَيِّ الْخَرَزَتَيْنِ أو في الْخَصْفَتَيْنِ أَمِنْ دُبُرِهَا في قُبُلِهَا فَنَعَمْ أَمْ من دُبُرِهَا في دُبُرِهَا فَلَا؛ إنَّ الله لَا يَسْتَحْيِ من الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ في أَدْبَارِهِنَّ"[(٢)].

ثم قال الشافعي: قلت: عمي ثقة، وعبد الله بن علي ثقة، وقد أخبرني محمد عن الأنصاري المحدث بها أنه أثنى عليه خيرًا وخزيمه ممن لا يشك علم في ثقته فلست أرخص فيه بل أنهى عنه[(٣)]، أي أنهى عن إتيان النساء في أدبارهن.

قلت: وهذا هو الأولى أن يحفظ عن الشافعي لموافقته للأدلة الثابتة عن النبي ﷺ اهـ.

---

(١) البيهقي في معرفة السنن والآثار (٤٤٥٣).

(٢) الحديث صحيح سبق تخريجه.

(٣) الأم للشافعي (٥/ ١٧٣).

وختامًا نذكر كلام البدر العيني والشوكاني في هذا الخلاف وترجيحه.

قال البدر العيني: قال شيخنا في شرح الترمذي قد انعقد الإجماع آخرًا على تحريم إتيان المرأة في الدبر وإن كان فيه خلاف قديم قد انقطع، وكل من روي عنه إباحته فقد روي عنه إنكاره"[١].

قال الشوكاني: وليس في أقوال هؤلاء حجة البتة، ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم؛ فإنهم لم يأتوا بدليل على الجواز. فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ في فهمه كائنًا من كان، ومن زعم منهم أن سبب نزول هذه الآية أن رجلًا أتى امرأته في دبرها فليس في هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك فقد أخطأ، بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام؛ فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازله في تحليله؛ فإن الآيات النازلات على أسباب تأتي تارة بتحليله هذا، وتارة بتحريمه". [٢].

* * *

(١) البناية في شرح الهداية (٥/ ٤٠).

(٢) فتح القدير (١/ ٣٣٩، ٣٤٠).

١٩ـ شبهة: زواج التحليل.

نص الشبهة:

اعتمدت شبهتهم أن القرآن أحل المحلل على محورين:

١ – قالوا: إن القرآن أحل المحلل كما فُهم من الآية: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٣٠).

٢– قالوا: إن الإسلام أحل المحلل بدليل أن النبي ﷺ اشترط أن ينكح المحلل الزوجة في فرجها؛ حيث قال: "حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك" وبدليل الآية أيضًا: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾، وهذا أيضًا فيه دعوى إلى ممارسة الجنس.

والرد على المحور الأول من وجوه

الوجه الأول: الفهم الصحيح للآية هو النكاح المطلق وليس النكاح المقيد وهو التحليل.

الوجه الثاني: الأمة التي تعايش القرآن تبين الفهم الصحيح للآية.

الوجه الثالث: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾، ونكاح المحلل ليس بنكاح عند الإطلاق.

الوجه الرابع: أن التحليل لو كان جائزًا لدعى إليه النبي ﷺ.

الوجه الخامس: كلام النبي ﷺ الثابت يحرم زواج التحليل ليؤكد على كلام القرآن الذي أنزل عليه.

الوجه السادس: النكاح في شرعنا مبني على الدوام والسكنى والمودة وزواج التحليل ليس فيه هذا فكيف يكون حلالًا؟!

الوجه السابع: إجماع الصحابة على حرمة التحليل دليل على عدم جوازه. [١]

الوجه الثامن: جمهور علمائنا على فساد نكاح التحليل الذي دخل فيه شرط التحليل.

والرد على المحور الثاني من وجوه أيضًا:

---

(١) نقل هذا الإجماع ابن تيمية في كتاب إقامة الدليل على بطلان التحليل (٤٨١).

الوجه الأول: السنة تضع شروطًا للزواج الصحيح ولا تحلل نكاح التحليل.

الوجه الثاني: زواج المرأة بالثاني كان عن رغبة وبدون قصد التحليل.

الوجه الثالث: لو أن زواج التحليل كان مباحًا ما أتت هذه المرأة واستخبرت عن أمرها.

الوجه الرابع: أمعاشرة الرجل لزوجته دعوة للجنس وفساد للأخلاق؟! !

الوجه الخامس: وأخيرًا ماذا عن المرأة في الكتاب المقدس؟

وإليك التفصيل

الرد على المحور الأول:

الوجه الأول: الفهم الصحيح للآية هو النكاح المطلق وليس النكاح المقيد وهو التحليل.

إن الآية ذكرت شرط رجوع الزوجة إلى زوجها بعد تطليقها ثلاثًا؛ وهو أن تنكح رجلًا آخر، ولم تذكر نكاحًا مقيدًا بالتحليل؛ فالنكاح لم يقيد بالنكاح المحلل؛ بل أطلق على عمومه، وإذا أريد بهذا الزواج التحليل لذكرته الآيةحتى يفهم سياقها وقيل فيها حتى تنكح محللًا غيره، ولكن لما كان هذا الزواجُ الثاني غير مقصودٍ للتحليل؛ جاء مطلقًا كما في الآية.

قال ابن تيمية: ونكاح المحلل ليس بنكاح عن الإطلاق، وليس المحلل بزوج؛ وذلك لأن النكاح في اللغة الجمع والضم على أتم الوجوه، فإن كان اجتماعًا بالأبدان فهو الإيلاج الذي ليس بعده غاية في اجتماع البدنين، وإن كان اجتماعًا بالعقود فهو الجمع بينهما على وجه الدوام واللزوم، ولهذا يقال استنكحه المذي إذا لازمه وداومه... ، ويبين هذا أن الزوج المطلق في الخطاب إنما يعقل منه الرجل الذي يقصد مقامه ودوامه مع المرأة؛ بحيث ترضى مصاهرته وتعتبر كفاءته ويطيب للمرأة ووليها أن يملكها،.وهذا المحلل الذي جيء به للتحليل ليس بزوج؛ وإنما هو تيس استعير لضرابه.

والنكاح المفهوم في عرف أهل الخطاب إنما هو نكاح الرغبة لا يعقلون عند الإطلاق إلا هذا، ولو أن الرجل قال لابنه: اذهب فانكح فصار محللًا؛ لعدّه أهل العرف غير ممتثلٍ لأمر أبيه، إنما يسمى ما دون هذا نكاحًا بالتقييد فيقال نكاح المحلل.

والله سبحانه قد قال: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ ولم يرد بكل ما يسمى نكاحًا مع الإطلاق أو التقييد بإجماع الأمة؛ فإن ذلك يدخل فيه نكاح ذوات المحارم، فلابد أن يراد به ما يفهم من لفظ النكاح عند الإطلاق في عرف المسلمين، ويقوي هذا أن التحريم قبل هذا النكاح ثابت بلا ريب ونكاح الرغبة رافع لهذا التحريم بالاتفاق، وأما نكاح المحلل فلا نعلمه مرادًا من هذا الخطاب، ولا هو مفهوم منه عند الإطلاق، فيبقى التحريم ثابتًا حتى يقوم الدليل على أنه نكاح مباح. والله سبحانه أطلق النكاح في هذه الآية وفسره لسهولة المبين مراده بأن النكاح التام الذي يحصل فيه مقصود النكاح وهو الجماع المتضمن ذوق العسيلة، فعلم أنه لم يكتفِ بمجرد نكاح على التقييد؛ وإنما أراد ما هو النكاح المعروف الذي يفهم عند الإطلاق؛ وذلك إنما هو نكاح الرغبة المتضمن ذوق العسيلة، وهذا بَيِّنٌ إن شاء الله تعالى. فإذا ثبت أن هذا ليس بنكاح ثبت أنه حرام؛ لأن الفرج حرام إلا بنكاح أو ملك يمين، وثبت أنها لا تحل للمطلق إذ الله حرمه عليه حتى تنكح زوجًا غيره. اهـ[1]

الوجه الثاني: الأمة التي تعايش القرآن تبين الفهم الصحيح للآية:

إن أهل القرآن هم الذين نعتوا بهذا الفهم الدقيق الذي استنبطوه من كلام رب العالمين، وكذلك أجمعوا قاطبة على حرمة نكاح التحليل، وفي شرحهم لهذه الآية بينوا الفهم الصحيح لها. ونحن نذكر بعض أقوالهم ليكون ذلك حجةً وأوضح بيانًا.

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجًا غيره، أي: حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، ثم قال: والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغبًا المرأة قاصدًا لدوام عشرتها، كما هو المشروع في التزويج. . .

ثم قال: فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحللها للأول فهذا هو المحلل الذي وردت فيه

(١) إقامة الدليل على بطلان التحليل (٥٠٠-٥٠٦) باختصار.

الأحاديث بذمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.[١]

وقال القنوجي: وفي الآية دليل على أنه لابد أن يكون ذلك نكاحًا شرعيًا مقصودًا لذاته لا نكاحًا غير مقصود لذاته؛ بل صلة للتحليل وذريعة إلى ردها للزوج الأول، فإن ذلك حرام للأدلة الواردة في ذمه وذم فعله وأنه التيس المستعار الذي لعنه الشارع ولُعِنَ مَنْ اتخذه لذلك.[٢]

وقال المراغي: والآية صريحة في أن النكاح الذي تحل به المطلقة ثلاثًا ما كان زواجًا صحيحًا عن رغبة مقصودة لذاتها، فمن تزوج بامرأة بقصد إحلالها للزوج الأول كان زواجًا غيرَ صحيحٍ ولا تحل به المرأة للأول إذا طلقها، وهو معصية لعن الشارع فاعلها؛ وبهذا قال أحمد، ومالك، والثوري.[٣]

وقال رشيد رضا: أفلا يعلم كل مسلم -وليعلم أيضًا غير المسلم- أن الآية صريحة في أن النكاح التي تحل به المطلقة ثلاثًا هو ما كان زواجًا صحيحًا عن رغبة، وقد حصل به مقصود النكاح لذاته، فمن تزوج بامرأة مطلقة ثلاثًا يقصد إحلالها للأول كان زواجه صوريًا غير صحيح، ولا تحل به المرأة للأول؛ بل هو معصية لَعَنَ الشارعُ فاعلَها، وهو لا يلعن من فعل فعلًا مشروعًا ولا مكروهًا؛ بل المشهور عند جمهور العلماء أن اللَّعنَ إنما يكون على كبائر المعاصي.[٤]

الوجه الثالث: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾، ونكاح المحلل ليس بنكاح عند الإطلاق.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٨٨).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (٢/ ٢٥).

(٣) تفسير المراغي (٢/ ١٧٥).

(٤) تفسير المنار (٢/ ٣٩٤).

فليس المحلل زوج؛ ذلك لأن النكاح في اللغة الجمع والضم على أتم الوجوه؛ فإن كان اجتماعًا بالأبدان فهو الإيلاج الذي ليس بعده غاية في اجتماع البدنين، وإن كان اجتماعًا بالعقود فهو الجمع بينهما على وجه التمام واللزوم.

والمحلل الذي لم يقصد شيئًا من ذلك لا يسمى ناكحًا، ويبين هذا أن الزوج المطلق في الخطاب إنما يعقل منه الرجل الذي يقصد مقامه ودوامه مع المرأة بحيث ترضى مصاهرته وتعتبر كفاءته، وهذا المحلل الذي جيء به للتحليل ليس بزوج؛ وإنما هو تيسٌ استعير لِضِرابِه، والنكاح المفهوم في عرف أهل الخطاب إنما هو نكاح الرغبة لا يعقلون عند الإطلاق إلا هذا، ولو تزوج محللًا لعده أهل العرف نكاحًا بالتقييد؛ فيقال نكاح المحلل، وفرق بين ما يقتضيه مطلق اللفظ وما يقتضيه مع التقييد، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، ولم يرد به كل ما يسمى نكاحًا مع الإطلاق أو التقييد بإجماع الأمة؛ فإن ذلك يدخل فيه نكاح ذوات المحارم، فلا بد أن يراد به ما يفهم من لفظ النكاح عند الإطلاق في عرف المسلمين، يقوي هذا أن التحريم قبل هذا النكاح ثابت بلا ريب، ونكاح الرغبة رافع لهذا التحريم بالاتفاق، وأما نكاح المحلل فلا نعلمه مرادًا من هذا الخطاب، ولا هو مفهوم منه عند الإطلاق، فيبقى التحريم ثابتًا حتى يقوم الدليل على أنه نكاح مباح، ومعلومٌ أنه لا يمكن أحدٌ أن يذكر نصًا يُحِلُّ مثل هذا النكاح ولم يثبت دخوله في اسم النكاح المطلق.[1]

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يدل على أن للزوج الثاني أن يطلق وأن يقيم، والتحليل ليس فيه هذا، فدلت الآية على أن النكاح المراد في قوله:

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ هو النكاح المطلق، وليس النكاح المقيد بالتحليل.

قال ابن تيمية في قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾.

(١) إقامة الدليل على بطلان التحليل لابن تيمية (٥٠٠-٥٠٣).

يعني: فإن طلقها هذا الزوج الثاني الذي نكحته فلا جناح عليهما، وعلى المطلق الأول ﴿أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وحرف "إن" في لسان العرب: لِمَا يمكن وقوعه أو عدم وقوعه فأما ما يقع لازمًا فيقولون فيه: " فإذا"، فلما قال: فإن طلقها علم أن ذلك النكاح المتقدم نكاح يقع فيه الطلاق تارة ولا يقع أخرى، ونكاح المحلل يقع فيه الطلاق لازما أو غالبًا. [١]

قال ابن القيم: في قوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾: أي فإن طلقها هذا الثاني فلا جناح عليهما وعلى الأول أن يرجع إليها بعقد جديد، فأتى بحرف " إن " الدالة على أنه يمكنه أن يطلق وأن يقيم، والتحليل لا يتمكن الزوج فيه من الأمرين بل يشرطون عليه أنه متى وطئها فهي طالق. [٢]

الوجه الرابع: أن التحليل لو كان جائزًا لدعى إليه النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ أرحم الناس بأمته وأحبهم لمياسر الأمور، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا فكان أبعد الناس منه[٣]، وقد جاءت امرأة رفاعه القرظي مرةً بعده مرةٍ كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ وهو يرى من حرصها على العود إلى الزوج الأول ما يرق القلب لحالها ويوجب إعانتها على مراجعة الأول إن كانت ممكنة، ومعلوم أن التحليل إذا لم يكن حرامًا فلا يخص من يتزوجها فيبيت عندها ليلة ثم يفارقها، ولو أنه من قد كان يستمتع – وقد كان– يمكن للنبي ﷺ أن يقول لبعض المسلمين حلل هذه لزوجها، فلما لم يأمر هو ولا أحد من خلفائه بشيء من ذلك مع مسيس الحاجة إليه علم أن هذا لا سبيل إليه، ومن تأمل هذا المسلك وعَلِمَ كثرة وقوع الطلاق على عهد النبي ﷺ وخلفائه وأنهم لم يأذنوا لأحد في تحليل ـ علم قطعًا أنه ليس من الدين؛ فإن المقتضى من الفعل إذا كان قائمًا وجب وجوده إلا أن يمنع منه

---

(١) السابق (٥٠٦).

(٢) إغاثة اللهفان (٢٧٨).

(٣) البخاري (٣٥٦٠)، و مسلم (٢٣٢٧).

مانع فلما لم يوجدْ تحليل مع قوة مقتضية ـ علم أن في الدين ما يمنع منه. (١)

الوجه الخامس: كلام النبي ﷺ الثابت يحرم زواج التحليل ليؤكد على كلام القرآن الذي أنزل عليه.

لقد أكدت السنة النبوية المطهرة حرمة زواج التحليل، وعدته من الكبائر، ووردت آثار كثيرة عن الصحابة تذم هذا الأمر وتعده من المحرمات، وهاك أيها المعترض بعض هذه الأحاديث لتزول شبهتك بإذن الله تعالى:

عن ابن مسعودﷺ قال: "لعن رسول الله المُحِلِّلَ والمُحَلَّلَ له". (٢)

وعن عقبة بن عامرﷺ قال رسول الله ﷺ" ألا أخبركم بالتيس المستعار، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له ". (٣)

وعن عمر بن نافع عن أبيه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثًا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول؟ قال: لا إلا نكاح رغبة؛ كنا نعد هذا سفاحًا على عهد رسول الله ﷺ". (٤)

وعن قبيصة بن جابر الأسدي قال عمر بن الخطاب: لا أوتي بمحلل ولا بمحلله إلا رجمتها. (١)

---

(١) إقامة الدليل على بطلان التحليل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٨٠) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٧٩٣)، والترمذي (١١٢٠)، وأبو داود من حديث علي (١٩٣٥) وابن عباس (١٩٣٤)، وابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة (٣/ ١٤٧/ ١٣). قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الحافظ في التلخيص (٣/ ١٧٠) بعد ذكره لرواية الترمذي: وصححه ابن القطان، وابن دقيق العيدعلى شرط البخاري، وقال الألباني في الإرواء: وهو كما قالا (١٨٩٧).

(٣) رواه الحاكم (٢/ ١٩٩) وابن ماجه (١٩٣٦)، والبيهقي (٧/ ٢٠٨)، قال الحاكم: حديث صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الإرواء (٦/ ٣١٠): قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد مختلف فيه من أجل أبي مصعب. قلت ـ أي الألباني ـ: والمتقرر فيه أنه حسن الحديث، ولهذا قال عبد الحق الإشبيلي في أحكامه (١٤٢/ ١) وإسناده حسن، وكذلك حسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه " إبطال الحيل " (١٠٥ - ١٠٦)

(٤) رواه الحاكم (٢/ ١٩٩) وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه، وقال الألباني في الإرواء (١٨٩٨): وهو كما قالا.

وعن عبد الله بن شريك قال: سمعت ابن عمر يسأل عن رجل طلق بنت عم له، ثم رغب فيها وندم، فأراد أن يتزوجها رجل يحلها له، فقال ابن عمر كلاهما زانٍ وإن مكثا كذا وكذا، ثم ذكر عشرين سنة أو نحو ذلك إذا كان الله يعلم أنه يريد أن يحلها له. (٢)

وعن عبد الملك بن المغيرة قال: سئل ابن عمر عن تحليل المرأة لزوجها، قال: ذَلِكَ السِّفَاحُ، لَوْ أَدْرَكَكُمْ عُمَرُ لَنَكَّلَكُمْ. (٣)

الوجه السادس: النكاح في شرعنا مبني على الدوام والسكنى والمودة وزواج التحليل ليس فيه هذا فكيف يكون حلالًا!

حينما ننظر إلى الشرع الإسلامي نجد أنه قد بُنِيَ على ضوابط وأسس من أهمها: الدوام، والسكنى، والرغبة في العيش.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١)، وفي النكاح طلب الذرية والولد الصالح الذي يتربى في بيت إيماني تربية حسنة قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٤).

قال ابن القيم: فإن الله سبحانه وتعالى جعل النكاح الثاني وطلاقه واسمه كنكاح الأول وطلاقه واسمه فهذا زوج وهذا زوج، وهذا نكاح وهذا نكاح، ثم قال ذاك زوج راغب قاصدٌ للنكاح باذل للمهر ملتزم للنفقة والسكنى والكسوة وغير ذلك من خصائص النكاح، والمحلل بريء من ذلك كله غير ملتزم لشيء منه، وكذلك المحلل الذي ليس له غرض إلا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠٧٧٧)، وسعيد بن منصور (١٩٩٢-١٩٩٣) بلفظ "لا أحد"، والبيهقي (٧/ ٢٠٨)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٤٧/ ١)، وقال الشيخ مصطفى العدوي في كتابه جامع أحكام النساء (٣/ ١٣٩): صحيح عن عمر.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٠٧٧٨)، وإسناده حسن عن ابن عمر.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٠٧٧٦)، وابن أبي شية (٣/ ٥٥٢)، والبيهقي (٧/ ٢٠٨)، وقال الألباني في الإرواء (١٨٩٨): إسناده صحيح.

قدر ما ينزو عليها كالتيس المستعار لذلك ثم يفارقها، وذلك كله محرم. (١)

كيف يكون حلالًا وقد أسماه الشرع بالمحلل لأنه أحل ما حرم الله ورسوله: (٢)

بعد أن بينا أن الشرع حرم نكاح التحليل ولذلك أطلق الشرع على من خالف وفعل هذه المعصية وسماه بالمحلل؛ لأنه أحل شيئًا حرمه الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فعلم أن المحلل اسم لمن قصد التحليل وجعلها حلالًا وحرامًا إما في ذاته أو في الاعتقاد، ثم إنه يقال للرجل أحل الشيء إذا أطلقه لمن يطيعه وحرمه إذا منع من يطيعه منه اهـ(٣).

الوجه السابع: إجماع الصحابة على حرمة التحليل دليل على عدم جوازه. (٤)

ذكرنا بعض الآثار المشهورة عن الصحابة الكرام ﷺ؛ والتي تنكل على من أقدم على التحليل، وقد ثبت ذلك عن أكثر من واحد كما قال عمر ﷺ "لا أوتي بمحلل أو محلل له إلا رجمتهما"، والصحابة هم أفضل الناس بعد الأنبياء وهم أحرص الناس على اتباع تعاليم النبي ﷺ، ولذا كان كلامهم موافقًا لكلام رسول الله ﷺ في زجر هؤلاء الذين يقدمون على هذا العمل الذي حرمه الله ورسوله ﷺاهـ. فدل ذلك على حرمة نكاح التحليل. (٥)

الوجه الثامن: جمهور علمائنا على فساد نكاح التحليل الذي دخل فيه شرط التحليل. (٦)

---

(١) إغاثة اللهفان (٢٧٥).

(٢) إغاثة اللهفان (٢٨٠) بتصرف.

(٣) إقامة الدليل على بطلان التحليل لابن تيمية (٤٦٣).

(٤) المصدر السابق (٤٨١).

(٥) المصدر السابق باختصار من (٤٨١: ٥٠٠) فليراجع فإن فيه فوائد مهمة.

(٦) انظر"كتاب الطلاق" د/ محمد إبراهيم الحفناوي (٣/ ٢٣٢) نقلًا عن المنهل العذب المورود: حيث قال: إن عقد النكاح إذا صرح فيه بشرط التحليل ففيه ثلاثة أقوال:

١ـ أن يكون العقد فاسدًا؛ لأنه في معنى النكاح المؤقت، والنكاح الفاسد لا يحل المرأه للزوج الأول باتفاق العلماء، وهذا قول: مالكٍ، والشافعي، وأبي يوسف، وابن حزم، ورواية عن أبي حنيفة وأحمد، وأصح الروايتين عن محمد بن الحسن، وعليه أكثر الفقهاء.

والسؤال كيف يحكم علماؤنا بهذا الحكم، أي على فساد نكاح التحليل والقرآن قد أحل نكاح التحليل؟ ما حَكَمَ علماؤنا بهذا الحكم إلا بعد علمهم القطعي أن القرآن قد حرم نكاح التحليل وأكد على ذلك النبي ﷺ، ولذلك استقروا على هذا الحكم. لِيُعْلَمَ أن القرآن ما أحلَّ هذا النكاح.

الرد على المحور الثاني:

وهذا المحور يدورحول ما زعموه أن القرآن أحل نكاح المحلل بدليل أنه أمره أن يطأها في فرجها كما في الآية ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾.

وما ورد عن النبيﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ امْرَأَةَ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ الله: " إِنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَنِى فَبَتَّ طَلاَقِى، وَإِنِّى نَكَحْتُ بَعْدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ الْقُرَظِىَّ، وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ الْهُدْبَةِ. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِى إِلَى رِفَاعَةَ؟ لاَ، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ وَتَذُوقِى عُسَيْلَتَهُ". [1] يعني الجماع.

وقالوا أيضًا: إن فيه دعوة للممارسة الجنسية وسوء الأخلاق! !

والرد على هذا المحور من وجوه أيضًا

الوجه الأول: السنة تضع شروطًا للزواج الصحيح ولا تحلل نكاح التحليل.

الوجه الثاني: زواج المرأة بالثاني كان عن رغبة وبدون قصد التحليل.

الوجه الثالث: لو أن زواج التحليل كان مباحًا ما أتت هذه المرأة واستخبرت عن أمرها.

الوجه الرابع: أمعاشرة الرجل لزوجته دعوة للجنس وسوء للأخلاق؟! !

وإليك التفصيل

٢ـ يبطل الشرط ويصح العقد مع الكراهة، وللزوج البقاء مع هذه الزوجة وإذا طلقها حلت لزوجها الأول، وهذا قول أبي حنيفة ورواية عن أحمد.

٣ـ يبطل الشرط ويصح العقد، وإذا طلقها لا تحل للأول معاملة بنقيض القصد وهذا قول محمد بن الحسن. اهـ بتصرف يسير، وانظر نيل الأوطار للشوكاني (٣/ ٢٥٤)، وإقامة الدليل على بطلان التحليل لابن تيمية.

(١) البخاري (٤٩٦٠)، ومسلم (١٤٣٣).

الوجه الأول: السنة تضع شروطًا للزواج الصحيح ولا تحلل نكاح التحليل.

فقد بينت الآيةأنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين فإنها تحرم عليه حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح. (١)كما جاءفي الحديث" حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ وَتَذُوقِى عُسَيْلَتَهُ"

فمن تزوجت برجل وطلقها ثلاثًا؛ ثم تزوجت بآخر عن رغبة في العشرة وبدون قصد التحليل، ثم كرهت معه العشرة أو مات عنها؛ فهل لها أن ترجع إلى الأول بعد طلاقها وانقضاء عدتهاأم لا؟ نعم لهاذلك بشرط الجماع لقولهﷺ" حَتَّى تَذُوقِى عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ. "

قال ابن تيمية: فمن الدلالة أن النبي ﷺ بين مع إرادتها أن ترجع إلى الزوج الأول لا تحل له حتى يجامعها، فعلم أنه إذا جامعها حلت للأول، ولو كانت إرادتها تحليلًا مفسدًا للنكاح أو محرمًا للعود إلى الأول لم تحل له سواء جامعها أولم يجامعها. (٢)

الوجه الثاني: زواج المرأة بالثاني كان عن رغبة وبدون قصد التحليل.

ليس هناك دليل يثبت أن نكاح المرأة للزوج الثاني قصده التحليل وإنما كان زواجًا عن رغبة، وقد ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: وأما حديث رفاعة فذاك كان قد تزوجها نكاحًا ثابتًا لم يكن قد تزوجها ليحلها للمطلِّق. (٣)

الوجه الثالث: لو أن زواج التحليل كان مباحًا ما أتت هذه المرأة واستخبرت عن أمرها.

هذه المرأة التي أتت النبيﷺ تسأله عن أمرها خشية أن تقع في المحرم، وهنا نقول: لو أن نكاح التحليل مباحًا ماجاءت المرأة وسألت عن حالها، واكتفت بما فعلت ورجعت إلى الأول، ولكن لعلمها أنها قد تقع في شبهة التحليل، جاءت إلى النبي ﷺ تسأله.

الوجه الرابع: أمعاشرة الرجل لزوجته دعوة للجنس وسوء للأخلاق!!

إن هذا لشيء عجاب، أليست زوجة لهذا الرجل وله أن يمارس معها ما شاء بما أحل الله؟ أأصبح جماع الرجل لزوجهِ ممارسة جنسية منكرة؟! وقد أحل الله للزوجين

(١) تفسيرابن كثير (١/ ٣٧٣).

(٢) إقامة الدليل على بطلان التحليل لابن تيمية (٥٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٥٣).

الاستمتاع كل منهما بالآخر وهذه دعوة للعفة والطهارة ليسد الإسلام بهذا التشريع أبواب الحرام ويقطع أسبابه.

الوجه الخامس: ماذا عن المرأة في الكتاب المقدس؟

وأخيرًا أيهما أكرم للمرأة أن تتزوج بأول وتطلق منه، ثم تتزوج بآخر زواج رغبة ويعاشرها معاشرة الأزواج وبدون تحليل للأول، ثم لم يكتب لهما الله ﷻ الاستمرار في هذه الحياة أو مات عنها، ويجيز الشرع الحنيف أن ترجع إلى الزوج الأول إن ظنا أن يقيما حدود الله -وفي الغالب يأبي كثير من الناس أن يتزوج بامرأة تزوجت مرتين -أم يُحكم بنجاستها ولا يجوز لها الرجوع؟

عندكم تقولون: إن هذه المرأة لا يجوز أن ترجع إلى الأول لأنها تنجست! ! أفي هذا تكريمٌ للمرأة وإعطاؤها حقها أم إطلاقُ ألفاظٍ مثل هذه عليها؟ أصارت المرأة نجسة بسبب زواجها الثاني؟! أي عقل سوي يقبل هذا الكلام؟

ففي سفر التثنية (٢٤/ ٤: ١): إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَق وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، ٢وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُل آخَرَ، ٣فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَق وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الَّذِي اتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً، ٤لاَ يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الَّذِي طَلَّقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لَهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذلِكَ رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ. فَلاَ تَجْلِبْ خَطِيَّةً عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا.

* * *

٢٠- شبهة: نكاح المحارم.

نص الشبهة:

١- زعموا أن الإسلام أحل نكاح المحارم.

٢- نقلوا في ذلك مذهب أبي حنيفة في إسقاط الحد على من تزوج إحدى المحارم.

٣- نقلوا عن الشافعي جواز نكاح البنت من الزنى.

وفهموا من هذا أن نكاح المحارم في الإسلام جائز!

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: القرآن والسنة يدلان على تحريم المحارم.

الوجه الثاني: مسألة من نكح امرأة أبيه أو أحدى محارمه عالمًا عامدًا.

الوجه الثالث: الحكمة من تحريم نكاح المحرمات.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن والسنة يدلان على تحريم المحارم.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ٢٢-٢٤).

وواضح أن هذه الآية أرشدت إلى أن أنواع المحرمات حرمة مؤبدة ثلاثة:

١- محرمات بالنسب. ٢- محرمات بالرضاع. ٣- محرمات بالمصاهرة.

فأما المحرمات بالنسب فهن: ١- الأمهات. ٢- البنات. ٣- الأخوات. ٤- العمات.

٥- الخالات. ٦- بنات الأخ. ٧- بنات الأخت.

وهؤلاء يحرم الزواج بهن على التأبيد، أي: لا يحل الزواج بهن بحال من الأحوال، ويدخل في الأمهات الجدات؛ وإن علون، كما يدخل في البنات بناتهن؛ وإن سفلن، وكذلك الأخوات سواء كن شقيقات أو لأب أو لأم، والعمات والخالات؛ وإن علين سواء كن من جهة الأب أم الأم.

وأما المحرمات من الرضاع:

فهن سبع أيضًا، كما هو الحال في النسب، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: "يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب". (١)

والآية الكريمة لم تذكر من المحرمات بالرضا ع سوى الأمهات والأخوات، والأم أصل، والأخت فرع، فنبه بذلك على جميع الأصول والفروع، ووضحت السنة النبوية ذلك بالتفصيل وبصريح العبارة كما في الحديث السابق.

وأما المحرمات بسبب المصاهرة:

فقد ذكرت الآية الكريمة منهن أربعًا، وهن كالتالي:

١-زوجة الأب: لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

٢-زوجة الابن. ٣-أم الزوجة.

٤-بنت الزوجة إذا دخل بأمها لقوله تعالى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾، والأصل في هذا أن أم الزوجة تحرم بمجرد العقد على البنت، ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم للآية الكريمة: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾

وقد استنبط العلماء هذه القاعدة:

العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات.

---

(١) البخاري (٤٨١١)، (٢٥٠٢)، ومسلم (١٤٤٧).

وقد أشارت الآية الكريمة إلى من يحرمن حرمة مؤقتة، وذكرت نوعين:

الجمع بين الأختين لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، وألحقت السنة المطهرةالجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها زيادة على الجمع بين الأختين، كما روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: " لا يجمع الرجل بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها". (١)

قال محمد بن الحسن: وبهذا نأخذ، وهو قول أبي حنيفة والعامة من فقهائنا.

زوجة الغير أو معتدته رعايةً لحق الزوج، لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: المتزوجات من النساء، والمعتدة حكمها حكم المتزوجة ما دامت في العدة. (٢)

فانظر أيها القارئ في هذه الآية وهي صريحة في التحريم، فكيف يقال إنها تدل على الحل كما زعم صاحب الشبهة؟! وهنا ضابط لا بد من معرفته للتفريق بين كلام الله وكلام المفسرين، فإذا كان الكلام في كتب التفسير فلا يقال القرآن أحل كذا وكذا، إنما يقال: فلان يستنبط حِلَّ كذا وكذا من آية كذا، وهذا عندنا يعني أنه بشر يُقبل منه ويُردُّ عليه.

أما القرآن فهو حق كله، ولذا فنحن نقول هذا تفسير للقرآن، ولا نقول هذا هو القرآن، بخلاف ما عليه النصارى مثلًا من كونهم يقولون ويكتبون -الكتاب المقدس أو العهد الجديد- وما هو إلا ترجمة من ترجماته؛ فإن كان الكاتب يتعامل مع المسلمين كما تعاملوا هم مع كتابهم فنقول له: لا، وليس الأمر كذلك، إنما هذا تفسير للقرآن قد يصيب قائله وقد يخطئ.

ولقد اختار الكاتب مفسرًا نسب إليه هذا الكلام وهو الإمام القرطبي، فما الرأي لو قرأنا معًا شيئًا من كلام القرطبي لنتعلم معًا الأمانة في النقل والصدق في الحديث.

قال رحمه الله:

---

(١) صحيح مسلم (١٤٠٨).

(٢) روائع البيان للصابوني (١/ ٤٤٤)، وانظر تفسير القرطبي، والرازي، وابن كثير، وأبي حيان الأندلسي، والمراغي، والمنار، والشنقيطي، والبقاعي، وصديق حسن خان، وغيرهم عند تفسير الآية [٢٢، ٢٣، ٢٤ من سورة النساء].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، يقال: كان الناس يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ فصار حرامًا في الأحوال كلها؛ لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أووطئها بغير زواج حرمت على ابنه. . . ثم قال رحمه الله بعد أن ذكر شيئًا من زواج العرب لحلائل الآباء: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ عقب بالذم البالغ المتتابع، وذلك دليل على أنه فعل انتهى من القبح إلى الغاية. . . [1]

ثم قال: قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ أي: نكاح أمهاتكم ونكاح بناتكم، فذكر الله ـ تعالى ـ في هذه الآية ما يحل من النساء، وما يحرم كما ذكر تحريم حليلة الأب، فحرم الله سبعًا من النسب وستًا من رضاع وصهر، وألحقت السنة المتواترة سابعة وهي الجمع بين المرأة وعمتها ونص عليه الإجماع، ثم سرد المحرمات على النحو السابق، ثم قال: قال الطحاوي: وكل هذا من المحكم المتفق عليه وغير جائز نكاح واحدة منهن بإجماع إلا أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن؛ فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة، ولا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم، وبهذا قول جميع أئمة الفتوى بالأمصار، وقالت طائفة من السلف: الأم والربيبة سواء لا تحرم منهما واحدة إلا بالدخول بالأخرى، قالوا: ومعنى قوله: ﴿ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ أي: اللاتي بهن دخلتم، ثم قال: وقول الجمهور مخالف لهذا وعليه الحكم والفتيا، وقد شدد أهل العراق في ذلك، وقالوا: لو وطئها بزنا أو قبلها أو لمسها بشهوة حرمت عليه ابنتها، وعندناوعند الشافعي إنما تحرم بالنكاح الصحيح، والحرام لا يحرم الحلال، ثم قال: قوله تعالى:

---

(١) تفسيرالقرطبي (٥/ ٩٩) بتصرف. قلت: فانظر إلى قوله: فصار حرامًا في الأحوال كلها، ولقوله: حرمت على ابنه، فهل هذا يفيد التحليل؟!

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمْ﴾ تحريم الأمهات عام في كل حال لا يتخصص بوجه من الوجوه، ولهذا يسميه أهل العلم المبهم أي لا باب فيه، ولا طريق إليه لانسداد التحريم فيه، وكذلك تحريم البنات والأخوات، ومن ذكر من المحرمات ثم قال أيضًا: أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء، وما عقد عليه الأبناء على الآباء؛ كان مع العقد وطء أو لم يكن لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ولقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾، فإن نكح أحدهمانكاحًا فاسدًاحرم على الآخر العقد عليها كما يحرم بالصحيح.

ونقل عن ابن المنذر: إجماع علماء الأمصار على أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وابنه وعلى أجداده وولد ولده، وقال أيضًا: قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ عطف على المحرمات والمذكورات قبل.[1]

فهذه مقتطفات من كلام القرطبي ـ رحمه الله ـ على الآية، وليس فيها ما يدل على جواز نكاح المحرمات كما زعم الزاعم، وبمثل ما قاله في هذه المسألة قال غيره من أهل العلم، ومن ذلك ما يلي:

قال الطبري: فكل هؤلاء اللواتي سماهن الله ـ تعالى ـ وبَيَّنَ تحريمهن في هذه الآية محرمات، غير جائز نكاحهن لمن حرم الله ذلك عليه من الرجال بإجماع جميع الأمة، لا

---

(١) المصدر السابق، وقال ابن المنذر: وأجمعوا على تحريم أن ينكح الرجل أمه، وأجمعوا على أن الرجل إذا تزوج المرأة حرمت على أبيه وابنه دخل بها، أو لم يدخل بها، وعلى أجداده وعلى ولده من الذكور والإناث أبدًا ما تناسلوا لا تحل لبني من بنيه ولا لبني من بناته، ولم يذكر الله في الآيتين دخولًا، والرضاع بمنزلة النسب. وأجمعوا على أن الرجل إذا وطئ نكاحًا فاسدًا أنها تحرم على ابنه، وأبيه، وعلى أجداده، وولدولده. وأجمعوا على أن عقد نكاح الأختين في عقد واحد لا يجوز، وأجمعوا على ألا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها لا الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى، وأجمعوا على أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، وأجمعوا على أن البكر التي لم تنكح ثم نزل بها لبن فأرضعت به مولودًا أنه ابنها ولا أب له من الرضاعة. اهـ الإجماع لابن المنذر صـ(٧٥-٧٧).

اختلاف بينهم في ذلك إلا في أمهات نسائنا اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن. [(١)]، فها هوذكر الإجماع على التحريم.

وقال ابن حزم: بعد ذكر هؤلاء المحرمات:

وكل هذا لا خلاف فيه بين أحد من المسلمين إلا الأمة وابنتها بملك اليمين، فإن قومًا أحلوهما. [(٢)]

وقال ابن كثير: يحرم تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم وإعظامًاواحترامًا أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه. [(٣)]

وقال الشنقيطي: نهى الله تعالى في هذه الآية عن نكاح المرأة التي نكحها الأب، ولم يبين ما المراد بنكاح الأب، هل هو العقد أو الوطء؟ لكنه بين في موضع آخر أن اسم النكاح يطلق على العقد وحده، وإن لم يحصل مسيس، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ (الأحزاب: ٤٩)، فصرح بأنه نكاح وأنه لامسيس فيه، وقد أجمع العلماء على أن من عقد عليها الأب حرمت على ابنه، وإن لم يمسها الأب، وكذلك عقد الابن محرم على الأب إجماعًا وإن لم يمسها. اهـ[(٤)]

الوجه الثاني: مسألة من نكح امرأة أبيه أو أحدى محارمه عالمًا عامدًا "

أولًا: عن يزيد بن البراء عن أبيه قال: "لقيت عمي ومعه راية، فقلت له أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه، فأمرني أن أضرب عنقه وآخذ ماله"[(٥)]

---

(١) جامع البيان (٨/ ١٤٣)، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٢، ٦٢)، والأم للشافعي (٥/ ٣٢).

(٢) المحلي (٩/ ٥٢٠)، وانظر: المغني (٦/ ٥٦٧).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٨).

(٤) أضواء البيان (١/ ٢٣٠).

(٥) **صحيح.** أخرجه أبو داود (٤٤٥٧)، ، والترمذي (١٣٦٢) وقال: حسن غريب، والنسائي (٣٣٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٥٣)، والحاكم (٢/ ٢٠٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله شواهد، وصححه الألباني في الإرواء (٢٣٥١).

ثانيًا: إن صاحب الدعوى التي نصُّها: أن الإسلام أباح نكاح زوجة الأب لم يعتمد على قرآن ولا سنة، ولا إجماع ولا قياس، ولا قول الجمهور، بل ولا قول أحد من أهل العلم أصلًا؛ لأنه كما سبق أجمع أهل العلم على تحريم ذلك، ولكن صاحب الدعوى يعتمد على عبارة جاءت في كتاب" الحدود من كتاب المحلي لابن حزم "وها هي:

وقال أبو حنيفة: لا حَدَّ على من تزوج أمه التي ولدته، وابنته، وأخته، وجَّدته، وعمته وخالته، وبنت أخيه، وبنت أخته عالمًا بقرابتهن منه عالمًا بتحريمهن عليه ووطئهن كلهن، فالولد لا حق به، والمهر واجب لهن عليه، وليس عليه إلا التعزير دون الأربعين فقط، وهو قول سفيان الثوري. اهـ[1]

هذه عبارة ابن حزم نقلًا عن أبي حنيفة، ولم ينقلها صاحب الشبهة بتمامها.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: إيرادها في كتاب الحدود يدل على إسقاط الحد بما يراه الإمام شبهة، وهذا ما اختلفت فيه الأنظار ـ لا على الحل والإباحة.

الوجه الثاني: أبو حنيفة مع غيره من العلماء يحرم ذلك كما سبق في نقلنا الإجماع.

الوجه الثالث: جميع العلماء على خلاف قوله في هذه المسألة – إسقاط الحد- حتى أصحابه ومقلدوه.

الوجه الرابع: لماذا انتقى صاحب الشبهة هذه العبارة من كتاب ابن حزم ليشنع بها وقد أوردها ابن حزم للرد عليها.

هذا بشكل إجمالي، وهذا هو الجواب بالتفصيل،

الوجه الأول:

إيرادها في كتاب الحدود يدل على أن المسألة في إقامة الحد على من أذنب ذنبًا كهذا، وأَنَّ أبا حنيفة يرى أَنَّ كونَه عقد عقدًا فهذه شبهة تسقط الحد فقط، لكن لا يدل على

---

(١) المحلي (١١/ ٢٥٣).

الإباحة عنده بدليل أنه قال في كلامه إعلامًا بتحريمهن: يعزر، فكيف يجمع بين قوله عالمًا بتحريمهن، وبين قول من يقول: إنَّ أبا حنيفة يرى الإباحة.

ومما يدل على هذا عند ابن حزم نفسه؛ وأنه لا يعتقد أن أبا حنيفة يقول بهذا أنه لما أورد المسألة في كتاب النكاح لم ينقل هذا الخلاف عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ فقال: وَلاَ يَجُوزُ لِلْوَلَدِ زَوَاجُ امْرَأَةِ أَبِيهِ، وَلاَ مَنْ وَطِئَهَا بِمِلْكِ الْيَمِينِ أَبُوهُ وَحَلَّتْ لَهُ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُ وَطْؤُهَا، أَوْ التَّلَذُّذُ مِنْهَا بِزَوَاجٍ أَوْ بِمِلْكِ يَمِينٍ، وَلَهُ تَمَلُّكُهَا، إلاَّ أَنَّهَا لاَ تَحِلُّ لَهُ أَصْلًا. وَكَذَلِكَ لاَ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ زَوَاجُ امْرَأَةٍ، وَلاَ وَطْؤُهَا بِمِلْكِ الْيَمِينِ إذَا كَانَتْ الْمَرْأَةُ مِمَّنْ حَلَّ لِوَلَدِهِ وَطْؤُهَا أَوْ التَّلَذُّذُ مِنْهَا بِزَوَاجٍ أَوْ بِمِلْكِ يَمِينٍ أَصْلًا. وَالْجَدُّ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْنَا وَإِنْ عَلاَ مِنْ قِبَلِ الأَبِ أَوْ الأُمِّ كَالأَبِ، وَلاَ فَرْقَ. وَابْنُ الأَبْنِ، وَابْنُ الأَبْنَةِ وَإِنْ سَفُلاَ كَالابْنِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْنَا، وَلاَ فَرْقَ.

ثم قال: أَمَّا مَنْ عَقَدَ فِيهَا الرَّجُلُ زَوَاجًافَلاَ خِلاَفَ فِي تَحْرِيمِهَا فِي الأَبَدِ عَلَى أَبِيهِ وَأَجْدَادِهِ، وَعَلَى بَنِيهِ وَعَلَى مَنْ تَنَاسَلَ مِنْ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ أَبَدًا. وَأَمَّا مَنْ حَلَّتْ لِلرَّجُلِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ، فَإِنْ وَطِئَهَا فَلاَ نَعْلَمُ خِلاَفًا فِي تَحْرِيمِهِ عَلَى مَنْ وَلَدَ، وَعَلَى مَنْ وَلَدَهُ وَفِيمَا لَمْ يَطَأْهَا خِلاَفٌ. . .[1]

فانظر لما كانت المسألة في الحل والحرمة نقل إجماعًا على الحرمة، ولم يذكر خلافًا عن أبي حنيفة، ولا غيره.

ولما كانت المسألة في الحد نقل الخلاف السابق، وبهذا يظهر أن المسألة التي نقلها صاحب الشبهة غير المسألة التي يتكلم فيها أصلًا، وهذه في الحدوإسقاطه بالشبهة، وفيها الخلاف المذكور، وهذه في الحل والحرمة ولا خلاف فيها على الحرمة.

الوجه الثاني: أبوحنيفة نفسه يرى كغيره من العلماء حرمة هذا النكاح، وأنه زنا، ولم ينقل عنه خلاف في ذلك:

وبيان ذلك: أن المعهود في كتب الحنفية التي تذكر الخلاف في المذهب، والتي تذكر خلاف المذهب مع غيره من المذاهب أنها تنقل خلاف أبي حنيفة لصاحبيه، ولمن معهم في المذهب إن

(١) المحلى (٩/ ٥٢٥).

حدث ذلك، فهل ذكر خلاف في هذه المسألةعن أبي حنيفة في كتب الحنفية أو غيرها؟!

وللإجابة على ذلك: نحتاج أن ننقل مسألة نكاح المحارم من كتب الحنفية لنقف سويًا على حقيقة الأمر، والله الهادي إلى سواء السبيل.

قال المرغيناني: لا يحل أن يتزوج بأمه، ولا بجدته من قبل الرجال أوالنساءلقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ (النساء: ٢٣)، والجدات أمهات إذ الأم هي الأصل لغة، أو ثبت حرمتهن بالإجماع، ولا ببنته لما تلوْنا، ولا ببنت ولده وإن سفلت للإجماع، ولا بأخته ولا ببنات أخته، ولا بعمته ولا بخالته لأن حرمتهن منصوص عليها في هذه الآية، وتدخل فيها العمات المتفرقات، وبنات الأخوات المتفرقات، وبنات الإخوة المتفرقين؛ لأن جهة الاسم عامة، ولا بأم امرأته التي دخل بابنتها أو لم يدخل. . . . إلخ.[1]

الوجه الثالث: إن جميع العلماء على خلاف قوله في مسألة إقامة الحد على من عقد على محرم، حتى تلاميذه وأتباع مذهبه سوى الثوري وزفر ومن ذلك ما يلي:

قال السرخسي: رَجُلٌ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِمَّنْ لَا يَحِلُّ لَهُ نِكَاحُهَا فَدَخَلَ بِهَا لَا حَدَّ عَلَيْهِ سَوَاءٌ كَانَ عَالِمًا بِذَلِكَ أَوْ غَيْرَ عَالِمٍ فِي قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ الله تَعَالَى، وَلَكِنَّهُ يُوجَعُ عُقُوبَةً إذَا كَانَ عَالِمًا بِذَلِكَ، وَعِنْدَ أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ رَحِمَهُمَا الله تَعَالَى إذَا كَانَ عَالِمًا بِذَلِكَ فَعَلَيْهِ الْحَدُّ فِي ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ وَكُلِّ امْرَأَةٍ إذَا كَانَتْ ذَاتَ زَوْجٍ أَوْ مُحَرَّمَةٍ عَلَيْهِ عَلَى التَّأْبِيدِ.

(وَحُجَّتُهُمَا) فِي ذَلِكَ أَنَّ فِعْلَهُ هَذَا زِنًى، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، وَكَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ وَالْفَاحِشَةُ اسْمُ الزِّنَا، وَفِي

(١) الهداية مع العناية للبدر العيني (٥/ ٢٠، ٢٢)، وانظر كلام البدر العيني في الشرح على هذا المتن الذي نقلناه، وذكر السرخسي في المبسوط (٤/ ١٩٨) مسألة المحرمات، ولم يذكر في الأمر خلافًا بين أهل العلم لا عن أبي حنيفة ولا عن غيره، وكذلك ابن نجيم في البحر الرائق (٣/ ٩٨) وما بعدها –، وفي سائر دواوين الإسلام لا يذكر في هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، وإنما الخلاف في مسألة إقامة الحد بين أبي حنيفة والجمهور، والفتوى والصواب قول الجمهور في أنه يقام عليه الحد، ويقتل عند البعض في الكل، وعند البعض يقتل في حليلة الأب عملًا بالحديث.

حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ "مَرَّ بِي خَالِي أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ وَمَعَهُ لِوَاءٌ فَقَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ مَنْكُوحَةَ أَبِيهِ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقْتُلَهُ "، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْعَقْدَ لَا يُتَصَوَّرُ انْعِقَادُهُ بِدُونِ الْمَحَلِّ وَمَحَلُّ النِّكَاحِ هُوَ الْحِلُّ؛ لِأَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمِلْكِ الْحِلِّ، فَالْمَحْرَمِيَّةُ عَلَى التَّأْبِيدِ لَا تَكُونُ مَحَلًّا لِلْحِلِّ، وَإِذَا لَمْ يَنْعَقِدْ الْعَقْدُ لَا تَحِلُّ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُصَادِفْ مَحَلَّهُ فَكَانَ لَغْوًا كَمَا يَلْغُوا إضَافَةُ النِّكَاحِ إلَى الذُّكُورِ وَالْبَيْعُ إلَى الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْعَقْدَ الْمُنْعَقِدَ لَوْ ارْتَفَعَ بِالطَّلَاقِ قَبْلَ الدُّخُولِ لَمْ يَبْقَ شُبْهَةً مُسْقِطَةً لِلْحَدِّ، فَالَّذِي لَمْ يَنْعَقِدْ أَصْلًا أَوْلَى. [1]

قال ابن نجيم:قوله "وَبِمُحرَّم نَكَحُهَا" أَيْ لَا يَجِبُ الْحَدُّ بِوَطْءِ امْرَأَةٍ مَحْرَمٍ لَهُ عَقَدَ عَلَيْهَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَقَالَا عَلَيْهِ الْحَدُّ إذَا كَانَ عَالِمًا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ عَقْدٌ لَمْ يُصَادِفْ مَحَلَّهُ فَيَلْغُو كَمَا إذَا أُضِيفَ إلَى الذُّكُورِ، ثم قال: قَدْ أَخَذَ الْفَقِيهُ أَبُو اللَّيْثِ بِقَوْلِهِمَا قَالَ فِي الْوَاقِعَاتِ وَنَحْنُ نَأْخُذُ بِهِ أَيْضًا وَفِي الْخُلَاصَةِ الْفَتْوَى عَلَى قَوْلِهِمَا[2].

وقال المرغيناني: وَمَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَا يَحِلُّ لَهُ نِكَاحُهَا فَوَطِئَهَا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْحَدُّ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ) وَلَكِنْ يُوجَعُ عُقُوبَةً إذَا كَانَ عَلِمَ بِذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَالشَّافِعِيُّ: عَلَيْهِ الْحَدُّ إذَا كَانَ عَالِمًا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ عَقْدٌ لَمْ يُصَادِفْ مَحَلَّهُ فَيَلْغُو كَمَا إذَا أُضِيفَ إلَى الذُّكُورِ[3].

وقال الجصاص: قال أبو حنيفة والثوري: لا يحد وإن علم عزر، وقال أبو يوسف ومحمد: يحد إذا علم بتحريمها عليه، وقال مالك: يحد ولا يلحق نسب الولد وإن لم تعلم هي ذلك، وإن كانت علمت وهو لم يعلم ألحقت به، وأقيم عليها الحد، وقال الحسن بن حي والشافعي: عليه الحد. [4]

---

(١) المبسوط (٩/ ٨٥، ٨٦).

(٢) البحر الرائق شرح كنز الرقائق (٥/ ١٦).

(٣) العناية شرح الهداية (٧/ ١٩٤).

(٤) مختصر اختلاف العلماء للجصاص الرازي (٣/ ٢٩٦٠).

ثم إن هذا المدعي لو أنه قرأ كلام ابن حزم كاملًا لأراح نفسه وأراحنا، ولذا فإني أسأله: إذا كنت تحتج علينا بنقل ابن حزم، فلماذا لا تأخذه كله؟ أم أنك تحتج علينا بما نقل عن أبي حنيفة في مسألة غير مسألتك التي تتحدث فيها، وقد ردها عليه علماء الإسلام، فماذا بقي لك؟

الوجه الرابع: لماذا انتقى صاحب الشبهة هذه العبارة من كتاب ابن حزم ليشنع بها وقد أوردها ابن حزم للرد عليها. وها هو شيء من كلام ابن حزم على هذه المسألة:

فقال: قالت طائفة: من تزوج أمه أو بنته أو حريمته، أو زنى بواحدة منهن فكل ذلك سواء وهو كله زنى، والزواج كله زواج. . . . إذا كان عالمًا بالتحريم وعليه حد الزنى كاملًا، ولا يلحق الولد في العقد، وهو قول: الحسن، ومالك، والشافعي، وأبي ثور، وأبي يوسف و، محمد بن الحسن؛ صاحبي أبي حنيفة، وقال أبو حنيفة: لا حدَّ عليه في ذلك كله، ولا حدَّ على من تزوج أمه التي ولدته وابنته وأخته وجدته وعمته وخالته وبنت أخيه وبنت أخته عالمًا بقرابتهن منه عالمًا بتحريمهن عليه ووطئهن كلهن فالولد لَاْحِقٌ به والمهر واجب عليه، وليس عليه إلا التعزير دون الأربعين فقط، وهو قول سفيان الثوري، فأما وطئهن بغير عقد نكاح فهو زنى عليه ما على الزاني من الحد.

وساق حجة أبي حنيفة وهي: أنه يفرق بين الزواج والزنى فلو قيل: زنى بأمه فعليه ما على الزاني، ولو قيل: تزوج أمه فالزواج غير الزنى فلا حد في ذلك؛ وإنما هو نكاح فاسد فحكمه حكم النكاح الفاسد من سقوط الحد وإلحاق الولد ووجوب المهر، وما نعلم لهم تمويهًا غير هذا، وهو كلام فاسد، واحتجاج فاسد، وعمل غير صالح.

وأما قوله: إن اسم الزنا غير اسم الزواج، فحق لا شك فيه إلا أن الزواج هو الذي أمر الله به وأباحه، وهو الحلال الطيب والعمل المبارك، وأن كل عقد أو وطء لم يأمر الله به ولا أباحه؛ بل نهى عنه فهو الباطل والحرام والمعصية والضلال، ومن سمى ذلك زواجًا فهو كاذبٌ آفكٌ متعدٍ، وليست التسمية في الشريعة إلينا ولا كرامة، إنما الله تعالى قال: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢٣).

أما من سمى كل عقد فاسد ووطء فاسد وهو الزنى المحض زواجًا ليتوصل به إلى إباحة ما حرم الله تعالى أو إلى إسقاط حدود الله ـ تعالى ـ: فهو كمن سمي الخنزير كبشًا ليستحله بذلك الاسم، وكمن سمى الخمر نبيذًا أو طلاء ليستحلها بذلك الاسم، وكمن سمى البيعة والكنيسة مسجدًا، واليهودية إسلامًا، وهذا هو الانسلاخ من الإسلام ونقض عقد الشريعة، وليس في المحال أكثر من قول القائل: هذا نكاح فاسد وهذا ملك فاسد؛ لأن هذا كلام ينقض بعضه بعضًا، ولئن كان نكاحًا أو ملكًا فإنه لصحيح حلال؛ لأن الله تعالى أحل الزواج والملك، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (المعارج: ٣٠).

فما كان زواجًا أو ملك يمين فهو حلال طلق ومباح طيب ولا ملامة فيه ولا مأثم، وكل ما كان فيه اللوم والإثم فليس زواجًا ولا ملكًا مباحًا للوطء، ولا كرامة بل هو العدوان والزنى المجرد، لا شيء إلا فراش أو عهر حرام، فإن وجد لنا يومًا ما أن نقول: نكاح فاسد، أو زواج فاسد، أو ملك فاسد، فإنما هو حكاية أقوال لهم وكلام على معانيهم كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الشورى: ٤٠).

ثم قال: فصح من هذا أن كل عقد لم يأمر الله به؛ فمن عقده فهو باطل، وإن وطئ فيه؛ فإن كان عالمًا بالتحريم عالمًا بالسبب المحرم فهو زانٍ مطلق، ومن جهل التحريم في شيء من ذلك بأن لم تبلغه أو بتأويل لم تقم عليه الحجة في فساده؛ فهو معذور لا حد عليه، ومن قذفه فعليه الحد، كمن دخل بلدًا فتزوج من لا يعرفها فوجدها أمه أو ابنته، فهذا يلحق فيه الولد ولا يحد فيه حد بالإجماع وبهذا بطل قول أبي حنيفة المذكور.

ثم قال: فصح أن من وطئ من امرأة أبيه بعقد سماه نكاحًا أو بغير عقد كما جاءت ألفاظ الحديث المذكورة، فقتله واجب ولا بد، وتخميس ماله فرض، ويكون الباقي لورثته إن كان مسلمًا وللمسلمين إن كان ارتد.

ثم قال :وأما نحن فلا يجوز أن نتعدى حدود الله فيها وردت به فنقول: إن من وقع على امرأة أبيه بعقد أو بغير عقد، أو عقد عليها باسم نكاح وإن لم يدخل بها، فإنه يقتل ولا بد محصنًا كان أو غير محصن ويخمس ماله، وسواء أمه كانت أو غير أمه، دخل بها أبوه أولم يدخل بها، وأما من وقع على غير امرأة أبيه من سائر ذوات محارمه، كأمه التي ولدته من زنى أو بعقد باسم نكاح فاسد مع أبيه، فهي أمه وليست امرأة أبيه، أو أخته، أو بنته، أو عمته، أو خالته، أو واحدة من ذوات محارمه بصهر أو رضاع فسواء كان ذلك بعقد أو بغير عقد، فهو زانٍ وعليه الحد فقط، وإن أحصن فعليه الجلد والرجم كسائر الأجنبيات لأنه زنا، وأما الجاهل في كل ذلك فلا شيء عليه. اهـ[1]

ثالثا: الحكمة من تحريم نكاح المحرمات "

لقد حرم الباري ـ جل وعلا ـ نكاح المحرمات سواء كانت القرابة عن طريق النسب أو الرضاع أو المصاهرة، وجعل هذه الحرمة مؤبدة لا تحل بحال من الأحوال، وذلك لحكم عظيمة جليلة نبينها بإيجاز فيما يلي:

أما تحريم النساء من النسب فإن الله ـ جل ثناؤه ـ جعل بين الناس من الصلة ما يتراحمون بها ويتعاونون على جلب المنافع ودفع المضار، وأقوى هذه الصلات صلة القرابة،ولما اقتضت طبيعة الوجود تكوين الأسرة، وكانت هذه الأسرة محتاجة إلى الاختلاط بين أفرادها بسبب هذه الصلة القوية (صلة النسب)، فلو أبيح الزواج من المحارم لتطلعت النفوس إليهن، وكان فيهن مطمع، والنفوس بطبعها مجبولة على الغيرة، فيغار الرجل من ابنه على أمه وعلى أخته، وتغار المرأة من بنتها على زوجها، وذلك يدعو إلى النزاع والخصام وتفكك الأسرة وحدوث القتل الذي يدمر الأسرة والمجتمع، ثم هذا الوليد يتكون جنينًا من دم الأم ثم يكون طفلًا يتغذى من لبنها، فيكون له مع كل مصة من ثديها عاطفة جديدة يستلها من قلبها، والطفل لا يحب أحدًا في الدنيا مثل أمه، أفليس من

---

(١)المحلى بالآثار (١٢/ ٢٠٠- ٢٠٥).

الجناية على الفطرة أن يزاحم هذا الحبَّ العظيم بين الوالدين والأولاد حبُ الاستمتاع بالشهوة؛ فيزحمه ويفسده وهو خير ما في هذه الحياة، ولأجل هذا كان تحريم الأمهات هو الأشد المقدم في الآية، ويليه تحريم البنات، ثم الأخوات، ثم العمات والخالات إلخ.

وقد أودع الله في الإنسان فطرة نقية تحجزه عن التفكير في محارمه فضلًا عن حب الاستمتاع بهن، ولولا ما عهد في الإنسان من الشذوذ والجناية على الفطرة، والعبث بها لكان للمرء أن يتعجب من تحريم الأمهات والبنات لأن هذا من قبيل المستحيلات في نظر الإنسان العاقل سليم الفطرة والتفكير.

ثم إن هنا حكمة جسدية حيوية عظيمة، وهي أن زواج الأقارب بعضهم ببعض يضعف النسل، فإذا تسلسلت واستمرت يستمر الضعف والنحافة حتى ينقرض النسل.

وأما المحرمات بالمصاهرة فإن الله ﷻ أكرم البشرية بهذه الرابطة الإنسانية، وامتن على الناس بقرابة الصهر التي تجمع بين النفوس المتباعدة المتنافرة بروابط الألفة والمحبة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ (الفرقان: ٥٤).

فإذا تزوج الإنسان من عشيرة صاركأحد أفرادها؛ فينبغي أن تكون أم زوجته كأمه في الاحترام، وبنتها التي في حجره كبنته التي من صلبه، وكذلك ينبغي أن تكون زوجة ابنه بمنزلة ابنته وهكذا، ومن القبح أن تكون البنت ضرة لأمها، والابن طامعًا في زوجة أبيه؛ فإن ذلك ينافي حكمة المصاهرة، ويكون سبب فساد العشيرة.

وأما المحرمات بالرضاع فإن الحكمة فيهن ظاهرة وهي: أن من رضع من امرأة كان بعض بدنه جزءًا منها؛ لأنه تكون من لبنها، فصارت في هذا كأمه التي ولدته وصار أولادها إخوة له؛ لأن لتكوين أبدانهم أصلًا واحدًا هو ذلك اللبن، والله أعلم. [1]

---

(١) روائع البيان للصابوني (١/ ٤٦١).

قلت: فهذه بعض الحكم من هذا التحريم، وبالنظر في هذه الحكمة ترى أنها تدل على عظمة هذا الدين وعلى كمال هذه الشريعة.

كذلكم احتجوا بأن الإسلام أحل نكاح المحارم بأن الشافعي ـ رحمه الله ـ أفتى بجواز نكاح الرجل ابنته من الزنا:

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: حكم نكاح البنت من الزناعند جمهور علماء المسلمين.

الوجه الثاني: هل نص الشافعي على ذلك في البنت من الصلب؟

الوجه الثالث: وإذا كان فما هي حجته ووجهة نظره، والرد عليها؟

وإليك التفصيل

الوجه الأول: حكم نكاح البنت من الزنى عند جمهور علماء المسلمين.

نكاح البنت من الزنا حرام عند جمهور العلماء والأدلة على ذلك فيما يلي:

١ـ قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾

قال ابن قدامة: وهذه بنته؛ فإنها أنثى مخلوقة من مائه، هذه حقيقة لا تختلف بالحل والحرمة.[1]

وقداستدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزنى عليه بعموم قوله ـ تعالى ـ ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ فإنها بنت، فتدخل في العموم، كما هو مذهب أبي حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل.[2]

وقال ابن النجار: المحرمات في النكاح ضربان: ضرب على الأبد، وهن خمسة أقسام: قسم بالنسب، وهن سبعة. . . ، وذكر منهن البنات، فقال: والبنات وبنات الولد وإِنْ سَفُلَ، ولو منفيات بلعان أو من زنا. . .

وقال البهوتي في الشرح: (وَالْبَنَاتُ) لِصُلْبٍ، (وَبَنَاتُ الْوَلَدِ) ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى (وَإِنْ سَفَلَ) وَارِثَاتٍ كُنَّ أَوْ غَيْرَ وَارِثَاتٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾، (وَلَوْ) كُنَّ (مَنْفِيَّاتٍ

(١) المغني لابن قدامة (٧/ ٤٨٥).

(٢) تفسيرابن كثير (٢/ ٢٤٨).

بِلِعَانٍ) أَوْ كُنَّ (مِنْ زِنًا) لِدُخُولِهِنَّ فِي عُمُومِ اللَّفْظِ. . . . . ، وَيَكْفِي فِي التَّحْرِيمِ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهَا بِنْتُهَا وَنَحْوُهَا ظَاهِرًا، وَإِنْ كَانَ النَّسَبُ لِغَيْرِهِ. . . . . اهـ(١)

٢ـ وقوله ﷺ: فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِىِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: " الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِى ظَهْرِكَ ». فَقَالَ يَا رَسُولَ الله: إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ؛ فَجعَلَ النَّبِىُّ ﷺ يَقُولُ: « الْبَيِّنَةَ وَإِلاَّ حَدٌّ فِى ظَهْرِكَ »، فَقَالَ هِلاَلٌ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّى لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ الله مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِى مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فَانْصَرَفَ النَّبِىُّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَجاءَ هِلاَلٌ، فَشَهِدَ، وَالنَّبِىُّ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ الله يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ»؟ ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَّفُوهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لاَ أَفْضَحُ قَوْمِى سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ. فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: « أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهْوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ». فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: « لَوْلاَ مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ الله لَكَانَ لِى وَلَهَا شَأْنٌ ". (٢)

والشاهد من الحديث قوله ﷺ " فَهْوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ " يعني الزاني لأنها مخلوقة من مائه، وهذه حقيقة لا تختلف بالحِلِّ والحرمة، فأشبهت المخلوقة من وطء بشبهة. (٣)

وَلِأَنَّهَا بِضْعَةٌ مِنْهُ، فَلَمْ تَحِلَّ لَهُ، كَبِنْتِهِ مِنْ النِّكَاحِ، وَتَخَلُّفُ بَعْضِ الْأَحْكَامِ لَا يَنْفِي كَوْنَهَا بِنْتًا، كَمَا لَوْ تَخَلَّفَ لِرِقٍّ أَوْ اخْتِلَافِ دِينٍ.

---

(١) شرح منتهى الإرادات (٥/ ١٥٥).

(٢) البخاري (٤٧٤٧).

(٣) المغني (٧/ ٤٨٥).

إِذَا ثَبَتَ هَذَا، فَلَا فَرْقَ بَيْن عِلْمِهِ بِكَوْنِهَا مِنْهُ، مِثْلُ أَنْ يَطَأَ امْرَأَةً فِي طُهْرٍ لَمْ يُصِبْهَا فِيهِ غَيْرُهُ، ثُمَّ يَحْفَظَهَا حَتَّى تَضَعَ، أَوْ مِثْلُ أَنْ يَشْتَرِكَ جَمَاعَةٌ فِي وَطْءِ امْرَأَةٍ، فَتَأْتِي بِوَلَدٍ لَا يُعْلَمُ هَلْ هُوَ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ؟ فَإِنَّهَا تَحْرُمُ عَلَى جَمِيعِهِمْ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا بِنْتُ مَوْطُوءَتِهِمْ.

وَالثَّانِي: أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا بِنْتُ بَعْضِهِمْ، فَتَحْرُمُ عَلَى الْجَمِيعِ. . . فَإِنْ أَلْحَقَتْهَا الْقَافَةُ بِأَحَدِهِمْ، حَلَّتْ لِأَوْلَادِ الْبَاقِينَ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ مِمَّنْ وَطِئَ أُمَّهَا؛ لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى رَبِيبَتِهِ.[1]

٣ـ ومن أدلة الجمهور على التحريم: ما ثبت في الصحيح أن الله تعالى أنطق ابن الراعي الزاني عندماساأله جريج من أبوك؟ فقال: أبي فلان الراعي، وهذا الإنطاق لايحتمل الكذب.[2]

٤ـ القياس على تحريم الاستمناء باليد، فإن الشافعي حرم ذلك.

قال ابن القيم: ثم من العجب كيف يحرم صاحب هذا القول أن يستمنى الإنسان بيده ويقول هو نكاحٌ لِيَدِهِ، ويُجّوز للإنسان أن ينكح بعضه، ثم يُجّوز له أن يستفرش بعضه الذي خلقه الله من مائه، وأخرجه من صلبه كما يستفرش الأجنبية[3].

أجمعت الأمة على تحريم أمه عليه، وخلقُه من مائها وماء الزاني خلقٌ واحدٌ، وإثمهما فيه سواء، وكونه بعضًا له مثل كونه بعضًا لها. . . .[4]

٥ـ ومن الأدلة للجمهور على هذا الحكم عدم ورود الإباحة للبنت من الزنا عن أحد من الصحابة والتابعين.

قال ابن تيمية: ولم يحل ذلك أحدٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ ولهذا لم يعرف أحمد بن حنبل وغيره من العلماء مع كثرة اطلاعهم في ذلك نزاعًا بين السلف فأفتى أحمد ابن حنبل إن فَعَلَ ذلك قُتِلَ، فقيل له: إنه حكى فلانٌ في ذلك خلافًا عن مالك، فقال: يكذب فلان.[1]

---

(١) المغني (٧/ ٤٨٥).

(٢) زاد المعاد (٥/ ٤٢٤). والحديث رواه البخاري (٢٣٥٠، ٣٢٥٣)، ومسلم (٢٥٥٠).

(٣) زاد المعاد (٥/ ٥٧٠).

(٤) المصدر السابق.

وتحريم هذا هو قول أبي حنيفة وأصحابه، وأحمد وأصحابه، ومالك وجمهور أصحابه، وهو قول كثير من أصحاب الشافعي، وأنكروا أن يكون الشافعي نص على خلاف ذلك، وقالوا إنما نص على بنته من الرضاع دون الزانية التي زنى بها والله أعلم. [٢]

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُلِيط[٣] أولاد الجاهلية بمن ادَّعاهم في الإسلام، وهذا إذا لم يكن هناك فراش لأنهم في الجاهلية كانوا يسافحون ويناكحون، وأكثر نكاحاتهم على حكم الإسلام غير جائزة، وقد أمضاها رسول الله ﷺ، فلما جاء الإسلام أبطل به رسول الله ﷺ حكم الزنى لتحريم الله إياه، وقال: "للعاهر الحجر"[٤]، فنفى أن يلحق في الإسلام ولد الزنى، وأجمعت الأمة على ذلك نقلًا عن نبيها ﷺ، وجعل رسول الله ﷺ كل ولد يولد على فراش لرجل لاحقًا به على كل حال إلى أن ينفيه بلعان. [٥]

ثم قال أبو عمر: وقد ظُنَّ أنَّ عمرَ بن الخطاب كان يليط أولاد الجاهلية بمن ادعاهم سواء كان هناك فراش أم لا، وذلك جهل وغباوة وغفلة مفرطة، وإنما الذي كان عمر يقضي به أن يليط أولاد الجاهلية بمن ادعاهم إذا لم يكن هناك فراش، وفيما ذكرنا من قول رسول الله ﷺ الولد للفراش، وللعاهر الحجر ما يكفي ويغني، وإن كان مستحيلًا أن يظن به أحدٌ أنه خالف بحكمه حكم رسول الله ﷺ في الولد للفراش وللعاهر الحجر ـ إلا جاهل، لا سيما مع استفاضة هذا الخبر عند الصحابة، ومن بعدهم. [٦]

٦ـ ومن الأوجه الدالة على تحريم هذه المسألة:

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٤٢).

(٣) أي: يلحق.

(٤) رواه البخاري (٤٦٣١)، ومسلم (١٤٥٧) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) التمهيد (٨/ ١٨٣).

(٦) التمهيد (٨/ ١٩٣).

القياس على التحريم بلبن الفحل، والمعني: أن الرجل لو أرضعت زوجته بنتًا حرمت عليه؛ لأنه هو المتسبب في اللبن الذي أثر في جسمها، فكونها تحرم لأنها تكونت من مائه مباشرةً، فهذا أولى وهذا قياس جلي.

قال ابن القيم: وقد دل التحريم بلبن الفحل على تحريم المخلوقة من ماء الزنى دلالة الأولى والأحرى؛ لأنه إذا حرم عليه أن ينكح من قد خُلق من نفس مائه بوطئه؟ وكيف يحرم الشارع بنته من الرضاع لما فيها من لبن كان وطءُ الرجلِ سببًا فيه؟ ثم يبيح له نكاح من خلقت بنفس وطئه ومائه؟! هذا من المستحيل، فإن البعضية التي بينه وبين المخلوقة من مائه أكمل وأتم من البعضية التي بينه وبين من تغذت بلبنه؛ فإن بنت الرضاع فيها جزء ما من البعضية، والمخلوقة من مائه كاسمها مخلوقة من مائه، فنصفها أو أكثرها بعضه قطعًا، والشطر الآخر للأم، وهذا قول جمهور المسلمين، ولا يعرف في الصحابة من أباحها، ونص الإمام أحمد على أن من تزوجها قتل بالسيف محصنًا كان أو غيره، وإذا كانت بنته من الرضاعة بنتًا في حكمين فقط الحرمة والمحرمية، وتخلف سائر أحكام البنت عنها لم تخرجها عن التحريم وتوجب حلها؛ فكذا بنته من الزنا تكون بنتًا في التحريم وتخلف أحكام البنت عنها لا يوجب حلها، والله ـ سبحانه ـ خاطب العرب بما تعقله في لغتها، ولفظ البنت لفظ لغوي لم ينقله الشارع عن موضعه اللغوي حتى يثبت نقل الشارع له عنه إلى غيره، فلفظ البنت كلفظ الأخ والعم والخال ألفاظ باقية على موضوعاتها اللغوية.

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أنطق ابن الراعي بقوله: أبي فلان الراعي، وهذا الإنطاق لا يحتمل الكذب.

وانقطاع الإرث بين الزاني والبنت لا يوجب جواز نكاحها.

وقال ابن قدامة: ويحرم على الرجل نكاح ابنته من الزنا، وأخته، وبنت ابنه، وبنت بنته، وبنت أخيه، وأخته من الزنا، وهو قول عامة الفقهاء.

وقال مالك والشافعي في المشهور من مذهبه: يجوز ذلك كله لأنها أجنبية منه، ولا تنسب إليه شرعًا، ولا يجرى التوارث بينهما، ولا تعتق عليه، ولا تلزمه نفقتها فلم تحرم عليه كسائر المحرمات، ولنا قوله ﷻ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ وهذه بنته، فإنها أنثى مخلوقة من مائه، وهذه حقيقة لا تختلف بالحل والحرمة، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ في امرأة هلال بن أمية: " انظروه – يعني ولدها- فإن جاءت به على صفة كذا فهو لشريك بن سمحاء" يعني الزاني، ولأنها مخلوقة من مائه، وهذه حقيقة لا تختلف بالحل والحرمة، فأشبهت المخلوقة من وطء بشبهة، ولأنها بضعة منه ما لم تحل له كبنته من النكاح، وتخلف بعض الأحكام لا ينفي كونها بنتًا، كما لو تخلف لرق أو اختلاف دين. إذا ثبت هذا فلا فرق بين علمه بكونها منه مثل: أن يطأ امرأة في طهرلم يصبها فيه غيره، ثم يحفظها حتى تضع، أو مثل: أن يشترك جماعة في وطء امرأة فتأتي بولد لا يعلم هل هو منه أو من غيره، فإنها تحرم على جميعهم. . .[1]

قلت: فليت الناقل عن ابن قدامة قرأ كلامه كاملًا، ولو نظر بعين الإنصاف والبحث عن الحق لم يقل ما قاله.

وقال ابن قدامة: تحرم أبدًا الأم وكل جدة وإن علت، والبنت وبنت الابن وبنتاهما من حلال وحرام وإن سفلت.

وقال ابن عثيمين وهو يشرح قوله: من حلال وحرام:

وبنت الزنا حرام خالص، فإذا زنى رجل بامرأة أو جامعها جماعًا في حكم الزنى مثل: أن يعقد عليها عقدًا باطلًا ويجامعها وهو يعلم أنه باطل، فهذا العقد صورةلا حقيقة، مثل أن يتزوج امرأة معتدة من غيره وهو يعلم أن ذلك حرام، ثم يجامعها وتأتي منه ببنت، فهذه بنت زنا؛ لأن وجود العقد هنا كعدمه، فهذه من حرام خالص فلا يتزوجها مع أنها لا تنسب إليه

(١) المغني (٧/ ٤٨٥). وقد سبق بعض كلامه.

شرعًا ولا يرثها ولا ترثه؛ لأن قوة التحريم في النكاح لها نفوذ أكثر من الإرث والنسب.[1]

وقال الشنقيطي في أضواء البيان: وقد أجمع أهل العلم أنها لا تدخل في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١).

فالإجماع على أنها لا ترث ولا تدخل في آيات المواريث دليل صريح على أنها أجنبية منه وليست بنتًا شرعًا، ولكن الذي يظهر لنا أنه لا ينبغي أن يتزوجها بحال وذلك لأمرين:

الأول: أن كونها مخلوقة من مائه يجعلها شبيهة شبهًا صوريًا بابنته شرعًا، وهذا الشبه القوي بينهما ينبغي أن يزعه عن تزويجها به.

الثاني: أنه لا ينبغي له أن يتلذذ بشيء سبب وجوده معصيته لخالقه ـ جل وعلا ـ فالندم على فعل الذنب الذي هو ركن من أركان التوبة لا يلائم التلذذ بما نشأ عن نفس الذنب.[2]

وسئل ابن تيمية: **هل تزوج بنت الزنا بأبيها؟**

فأجاب: الحمد لله ـ مذهب الجمهور من العلماء أنه لا يجوز التزويج بها وهو الصواب المقطوع به حتى تنازع الجمهور: هل يقتل من فعل ذلك؟ على قولين – والمنقول عن أحمد أنه يقتل من فعل ذلك، والذين سوغوا نكاح البنت من الزنا حجتهم في ذلك أنهم قالوا:

ليست هذه بنتًا في الشرع، بدليل أنهما لا يتوارثان، ولا يجب نفقتها، ولا يلي نكاحها ولا تعتق عليه بالملك ونحو ذلك من أحكام النسب، وإذا لم تكن بنتًا في الشرع لم تدخل آية التحريم فتبقى داخلة في قوله ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

---

(١) الشرح الممتع (٥/ ١٧٠ وما بعدها).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٤٢).

وأما حجة الجمهور فهو أن يقال: قول الله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ وهو متناول لكل من شمله هذا اللفظ سواء كان حقيقةً أو مجازًا، وسواء ثبت في حقه التوارث وغيره من الأحكام أم لم يثبت إلا التحريم خاصة، وليس العموم في آية التحريم كالعموم في آية الفرائض ونحوها.

وبيان ذلك من ثلاثة أوجه:

١- أن آية التحريم تتناول: البنت، وبنت الابن، وبنت البنت، ومثل هذا العموم لا يثبت لا في آية الفرائض ولا نحوها من الآيات والنصوص التي تتعلق فيها الأحكام بالأنساب.

٢- إن تحريم النكاح يثبت بمجرد الرضاعة؛ فقد حرم الله على المرأة أن تتزوج من طفل غذته من لبنها، أو تنكح أولاده. . . بل حرم على الطفلة المرتضعة من امرأة أن تتزوج بالفحل صاحب اللبن وهو الذي وطئ المرأة حتى در اللبن بوطئه، فإذا كان يحرم على الرجل أن ينكح بنته من الرضاع، ولا يثبت في حقها شيء من أحكام النسب سوى التحريم والحرمة، فكيف يباح له نكاح بنت خلقت من مائه، وأين المخلوقة من مائه من المتغذية بلبن در بوطئه؟! فهذا يبين التحريم من جهة عموم الخطاب، ومن جهة التنبيه والفحوى وقياس الأولى.

٣- أن الله تعالى قال: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾

قال العلماء: احتراز عن ابنه الذي تبناه كما قال تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ (الأحزاب: ٣٧)، ومعلوم أنهم في الجاهلية يستلحقون ولد الزنى أعظم مما يستلحقون ولد المتبنى، فإذا كان الله تعالى قيد ذلك بقوله: ﴿ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ علم أن لفظ البنات يشتمل كل من كان في لغتهم داخلًا في هذا الاسم.

ومثل هذه المسألة الضعيفة ليس لأحد أن يحكيها عن إمام من أئمة المسلمين لا على وجه القدح فيه ولا على وجه المتابعة له فيها، فإن في ذلك ضربًا من الطعن في الأئمة واتباع

الأقوال الضعيفة، وبمثل ذلك صار يلقي الفتنة بين مذاهب أهل السنة حتى يدعوهم إلى الخروج عن السنة والجماعة، ويوقعهم في مذاهب الرافضة وأهل الإلحاد. والله أعلم. (١)

الوجه الثاني: هل نص الشافعي رحمه الله على هذا الحكم في البنت من الصلب؟

والجواب على ذلك يظهر من إيراد الشافعي رحمه الله لهذه المسألة حيث أوردها في المحرمات بالرضاع، ولم يشر إليها مجرد إشارة في الحديث عن المحرمات من النسب، ولم يستثنها من البنت المذكورة في كتاب الله ـ تعالى ـ، وبعد قراءة نص كلامه ـ رحمه الله ـ يظهر وجه المسألة إن شاء الله ـ تعالى ـ، وهذه كلامه تحت عنوان:

الدليل الأول للشافعية: في لبن الرجل والمرأة قال:...

واللبن إذا كان من حمل ولا أحسبه يكون إلا من حمل، فاللبن للرجل وللمرأة، كما يكون الولد للرجل والمرأة، فانظر إلى المرأة، فإن كان لبنها نزل بولد من رجل؛ نُسِبَ ذلك الولد إلى والد لأن حمله من الرجل، فإن رضع به مولود فالمولود أو المرضع بذلك اللبن ابن الرجل الذي الابن ابنه من النسب، كما يثبت للمرأة، وكما يثبت الولد منها ومنه.... ، وإن كان اللبن الذي أرضعت به المولود لبن ولد لا يثبت نسبه من الرجل الذي الحمل منه فأسقط اللبن فلا يكون المرضع ابن الذي الحمل منه إذا سقط النسب الذي هو أكثر منه سقط اللبن الذي أقيم مقام النسب في التحريم، فإن النبي ﷺ قال "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب"، فإن ولدت امرأة حملت من الزنا اعترف الذي زنا بها أو لم يعترف؛ فأرضعت مولودًا فهو ابنها، ولا يكون ابن الذي زنا بها، وأكره له في الورع أن ينكح بنات الذي ولد له من الزنا كما أكرهه للمولود من زنا، وإن نكح من بناته لم أفسخه لأنه ليس بابنه في حكم رسول الله ﷺ، فإن قال قائل: فهل من حجة فيما وصفت؟

(١) مجموع الفتاوي (١٨/ ١٢٧، ٣٢/ ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢).

قيل لهم: قضى النبي ﷺ بابن أمة زمعه لزمعة، وأمر سودة أن تحتجب منه لما رأى من شبهه بعتبة فلم يرها، وقد قضى أنه أخوها حتى لقيت الله ﷻ. لأن ترك رؤيتها مباح وإن كان أخًا لها، وإنما منعني من فسخه أنه ليس بابنه إذا كان من زنا. [1]

قلت: وبعد النظر في كلام الشافعي يتبين الآتي:

١-أن المسألة التي أوردها في الرضاع ليست في الصُّلب، ويتأيد هذا بما نقله ابن تيمية -رحمه الله- عن بعض الشافعية من أنهم أنكروا أن يكون الشافعي قد صرح بذلك إلا في مسألة الرضاع (أي الناتج عن حمل من زنا).

٢-ثم إنه قال: وأكره له في الورع أن ينكح بنات الذي ولد له من زنا كما أكرهه للمولود من زنا، وإن نكح من بناته لم أفسخه لأنه ليس بابنه في حكم رسول الله ﷺ وفي هذه الفقرة ما يلي:

أ-أن قوله أكره له في الورع أن ينكح بنات الذي ولد له من زنا، ليس صريحًا في أنها بنته من الزنا؛ إنما قال بنات الذي ولد له أي بنات المرأة التي زنا بها، وهذا يمكن أن يراد به بناتها غير هذه البنت، وهذا موضوع آخر يدخل في التحريم بالمصاهرة، وليس في التحريم بالنسب، وهو مبني على أنه: هل الزنا يقوم في التحريم مقام النكاح أم لا؟ والشافعي يرى أنه لا يقوم مقامه، وهذه هي نفس المسألة التي أوردها هناك في التحريم بالمصاهرة، فأوردها هنا في المحرمات بالرضاع على اعتبار أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب؛ فإذا كان الزنا بالأم لا يحرم البنت، فالزنا بالأم من الرضاع لا يحرم بنتها من الرضاع من باب أولى وهذا هو الظاهر من كلام الشافعي ـ رحمه الله ـ، وعلى هذا فإن كلام الشافعي يحتمل بنات المزني بها من غيره رضاعًا، ويحتمل بنتها منه، أو سياق كلامه وبقية كلام

---

(١) الأم (٥/ ٤١، ٤٢)، والحديث أخرجه البخاري (١٢١٨)، والنسائي عن عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما، وفيه زيادة قوله ﷺ لسودة: "واحتجبي منه يا سودة فليس لك بأخ" قال الحافظ: إسناده حسن. ولم تصح هذه الزيادةعندالخطابي والنووي (فتح الباري١٢/ ٣٧).

العلماء يؤيد الأول، فلماذا يحمل على الثاني من غير مرجع.

ب-كما أكرهه للمولود من زنا، وإن نكح من بناته لم أفسخه لأنه ليس بابنه في حكم رسول الله ﷺ معناه أنه يكره للمولود من زنا أن ينكح البنات اللاتي رضعن بلبن الزاني المترتب على الزنا؛ لأنه ليس ابنًا له، وبالتالي فهن لسن أخوات له، ولذلك لا يفسخ، فأين التصريح في كلام الشافعي أن الزاني ينكح ابنته من الزنا؟! فالكلام في هذه الفقرة لا ذكر فيه للزاني، وإنما الضمير يعود في قوله: وإن نكح من بناته. . . . إلخ يعود على المولود من الزنى لأنه أقرب مذكور وهو المولود من الزنى، ومما يؤكد هذا أنه وإن نكح من بناته، فهذا لا يمكن أن يكون المراد به الزاني نفسه لاحتمال أن يكون له بنات من غير الزنى، والكلمة عامة، فهل يقال: إن الشافعي يجيز للزاني أن ينكح بناته من غير الزنا! وهذا حينئذ من أعجب العجب، ومن خلال هذا الذي مَرَّ يتبين قوة نظر من قال من الشافعية إنه لم ينص على البنت الصلبية؛ إنما نص على البنت من الرضاع، أي من الزنا، على النحو الذي مَرَّ، وإذا كان هذا؛ فإن هذه المسألة ينبغي أن لا تنسب إلى الشافعي، وإنما تنسب إلى الشافعية القائلين بذلك، ومما يدل على هذا إنكار أحمد أن يكون في المسألة خلافٌ، وهو معاصره وتلميذ للشافعي.

وأما الحديث الذي استدل به الشافعي من أن النبي ﷺ قال في الغلام الذي ولد على فراش سودة وهو يشبه عتبة بن أبي وقاص: "هولك يا عبدُ بن زمعة، الولد للفراش، وللعاهر الحجر"، ثم قال لسودة: " احتجبي منه لما رأى من شبهه بعتبة فما رآها حتى لقي الله "[1]

فقد يستدل به على أن لوطء الزنا حكم وطء الحلال في حرمة المصاهرة، وهو قول الجمهور، ووجه الدلالة أمر سودة بالاحتجاب بعد الحكم بأنه أخوها لأجل الشبهة بالزاني، وصحح ذلك الحافظ في الفتح. [2]

وقال ابن القيم: نص الشافعي على كراهة تزوج الرجل بنته من ماء الزنا، ولم يقل فقط

(١) البخاري (٦٧٤٩).

(٢) فتح الباري (١٢/ ٣٩).

إنه مباح ولا جائز والذي يليق بجلالته وإمامته ومنصبه الذي أحله الله به من الدين أن هذه الكراهة منه على وجه التحريم، وأطلق لفظ الكراهة لأن الحرام يكرهه الله ورسوله ﷺ، وقد قال الله ـ تعالى ـ عقب ذكر ما حرمه من المحرمات من عند قوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٣ - ٣١)، ثم قال ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾، وفي الصحيح "أن الله ﷻ كره لكم قيل، وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال "[1]، فالسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها الذي استعملت فيه في كلام الله ورسوله ﷺ، ولكن المتأخرين اصطلحوا على تخصيص الكراهة بما ليس بمحرم وتركه أرجح من فعله، ثم حمل من حمل منهم كلام الأئمة على الاصطلاح الحادث؛ فغلط في ذلك، وأقبح غلطًا منه من حمل لفظ الكراهة أو لفظ لا ينبغي في كلام الله ورسوله على المعنى الاصطلاحي الحادث. اهـ.[2]

وقال الألباني: ولهذا نقول لقد أخطأ من نسب إلى الشافعي القول بإباحة تزوج الرجل بنته من الزنى بحجة أنه صرح بكراهة ذلك، والكراهة لا تنافي الجواز إذا كانت للتنزيه، ثم

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٧)، ومسلم (٤٥٧٨).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٤٢).

نقل كلام ابن القيم السابق ذكره.[1]

ونحو ما سبق فيما نسب إلى الشافعي يقال فيما نسب إلى مالك، وهو أوضح.

قال ابن رشد: والرضاع يحرم بين المسلمين والمسلمات، الحرائر والإماء، الأحياء والأموات، من قبل الأم ومن قبل الفحل؛ إن كان الوطء حلالًا أو بوجه شبهة يلحق به الولد، واختلفوا إن كان الوطء حرامًا لا شبهة فيه كوطء الزنا، ومن تزوج من لا تحل له وهو عالم هل تقع الحرمة به من قبل الفحل أم لا؟ على قولين: فكان مالك ـ رحمه الله ـ يرى أن كل وطء لا يلحق به الولد فلا يحرم بلبنه يريد من قبل فحله، ثم رجع إلى أنه يحرم، وإلى هذا ذهب سُحْنون، وقال: ما علمت من قال من أصحابه إنه لا يحرم إلا عبد الملك، وهو خطأ صراح، وقد أمر النبي ﷺ سودة أن تحتجب من ولد ألحقه بأبيها لما رأى من شبهه بعتبة.

قال ابن المواز: إذا أرضعت بلبن الزنا صبيًا فهو لها ابن ولا يكون ابنًا للذي زنا بها، ولو كانت صبية فتزوجها الذي زنا بها لم أقض بفسخ نكاحه، وأحب إلي أن يتجنبه من غير تحريم، وأما ابنته من الزنا فلا يتزوجها. اهـ.[2]

وبهذا يتبين ما يلي:

١ – أن هذه هي عين المسألة التي تكلم فيها الشافعي، والتي نسب إليه وإلى مالك فيها القول بإباحة نكاح البنت من الزنا.

٢ – أن المسألة في الرضاع وليس في البنت الصلبية كما مر بيانه.

٣ – أن الراجح أنها (البنت من الرضاع) تحرم عند مالك رحمه الله.

٤ – وبهذا يتبين بطلان نسبة هذا القول إلى الشافعي ومالك.

٥ – من هنا يتضح وجهة أحمد ـ رحمه الله ـ في إنكاره أن في المسألة خلاف.

٦ – إن هذا الخلاف حدث بعد إجماع سبق، ولهذا فلا عبرة به كما يتضح ذلك من نقل ابن تيمية فيما مَرَّ.

---

(١) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد (١/ ٤٤).

(٢) المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته المدونة من الأحكام المطبوعة من المدونة (٥/ ٣١٤).

وقال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾:

وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزنى عليه بعموم قوله تعالى:

﴿وَبَنَاتُكُمْ ﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتًا شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١١)؛ فإنها لا ترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية، والله أعلم[(١)].

قلت: فهذا ابن كثير يؤخر قول الشافعي – مع أنه من أصحاب الشافعي – ويحكيه بصيغة التمريض (حكى) ولو كان كلام الشافعي في الأم في عين هذه المسألة لما خفي موضعه على ابن كثير، ولنسبه إليه بدلًا من قوله وحُكِيَ شيءٌ، والله أعلم.

ومما يدل على هذا قول الشافعي نفسه في تعريف البنت المحرمة:

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٢٣).

والبنات بنات الرجل لصلبه وبنات بنيه، وإن سفلن فكلهن يلزمهن اسم البنات. [١]

وقول غيره في تعريفها (هي كل أنثى لك عليها ولادة)[٢]، ولم يذكر في هذا الموضوع نكاحًا أو سفاحًا، وصنيعهم هذا يدل على عدم اعتبار هذا القيد في هذا الموضوع. . . . حتى أيام الشافعي وأحمد، رحمهم الله.

الوجه الثالث: حجة الشافعي ووجهة نظره، والرد عليها؟

وعلى فرض أنه قال بهذا، وعلى أنه قول علماء الشافعية، فما هي حجتهم في ذلك؟ وهل نسلم لهم تلك الحجة، وما هي القاعدة في قبول ورد هذه الأقوال الاجتهادية في شريعة الإسلام؟. . . وما هو البيان لذلك؟

استدل الشافعية على هذا الفرع بما يلي: [٣]

ليست هذه بنتًا في الشرع بدليل حديث وليدة سودة، وأن النبي ﷺ قال في وليدها هو لك يا عبد بن زمعة، واحتجبي منه يا سودة لما رأى من شبهه بعتبة. . . [٤]

وأجيب عن هذا الدليل من قبل الجمهور من وجوه:

الوجه الأول: أن العموم في آية التحريم ليس كالعموم في آية الفرائض ونحوها وبيان ذلك ما يلي:

١ـ إن آية التحريم تتناول البنت، وبنت الابن، وبنت البنت، كما يتناول لفظ العمة عمة الأب، والأم، والجدة، وكذلك بنت الأخت، ومثل هذا العموم لا يثبت لا في آية الفرائض، ولا في نحوها من الآيات والنصوص التي علق فيها الأحكام بالأنساب.

---

(١) الأم (٥/ ٣٢).

(٢) المقدمات لابن رشد، والمدونة، وانظر جامع أحكام النساء للعدوي (٣/ ٣٨).

(٣) قال ابن قدامة: ويحرم على الرجل نكاح ابنته من الزنا. . . . ، وهو قول عامة الفقهاء، وقال مالك، والشافعي في المشهور من مذهبه: يجوز ذلك كله لأنها أجنبية منه، ولا تنسب إليه شرعًا ولا يجري التوارث بينهما ولا تعتق عليه إذا ملكها ولا تلزمه نفقتها فلم تحرم عليه كسائر الأجانب. اهـ المغني (٧/ ٤٨٥).

(٤) تفسير الرازي (١٠/ ٢٨).

٢- إن تحريم النكاح يثبت بمجرد الرضاعة كما قال النبي ﷺ " يحرم من الرضاعة ما يحرم النسب"(١)، وهذا حديث متفق على صحته، وعمل الأئمة به: فقد حرم الله على المرأة أن تتزوج بطفل غذته بلبنها أو أن تنكح أولاده. . . بل حرم على الطفلة المرتضعة من اللبن أن تنكح الفحل صاحب اللبن، وهو الذي وطئ المرأة حتى در اللبن بوطئه، فإذا كان يحرم على الرجل أن ينكح ابنته من الرضاع، ولا يثبت في حقها شيء من أحكام النسب سوى التحريم، وما يتبعه من الحرمة، فكيف يباح له نكاح بنت خلقت من مائه، وأين المخلوقة من مائه من المتغذية بلبن در بوطئه؟ فهذا يبين التحريم من جهة عموم الخطاب، ومن جهة التنبيه والفحوى وقياس الأولى.

٣- أن الله تعالى قال: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾، قال العلماء: احتراز عن ابنه الذي تبناه كما قال: لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا، ومعلوم أنهم في الجاهلية كانوا يستلحقون ولد الزنا أعظم مما يستلحقون ولد المتبني، فإذا كان الله تعالى قيد ذلك بقوله: ﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ علم أن لفظ البنات، ونحوها يشمل كل من كان في لغتهم داخلًا في الاسم.(٢)

الوجه الثاني: أنه ﷺ قضى بالمولود لعبد بن زمعة لأن الفراش كان معلومًا فقضى بالظاهر ثم قال لسودة "احتجبي منه " فكأنه حكم بحكمين حكم ظاهر وهو الولد للفراش، وحكم باطن وهو الاحتجاب من أجل الشبهة، كأنه قال ليس بأخ لك يا سودة إلا في حكم الله بالولد للفراش فاحتجبي منه لما رأى من شبهه لعتبة، قاله بعض أصحاب مالك وضارع في ذلك قول العراقيين، وأما الكوفيون فذهبوا إلى أن الزنا يحرم، وأن له في هذه القصة حكمًا باطنًا أوجب الحجاب، والحكم الظاهر لحاق ابن وليدة زمعة بالفراش.(٣)

---

(١) رواه البخاري (٢٥٠٢)، ومسلم (١٤٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٣٥).

(٣) التمهيد (٨/ ١٨٥، ١٨٦).

وقال ابن القيم: وأما أمر سودة بالاحتجاب منه، فإما أن يكون على سبيل الاحتياط والورع لمكان الشبهة التي أورثها الشبه البَيِّنُ بعتبة، وإما أن يكون مراعاة للشبهين وإعمالًا للدليلين، فإن الفراش دليلُ لحقوقِ النسبِ، والشبه بغير صاحبه دليل نفيه، فأعمل أمر الفراش بالنسبة إلى المدعي لقوته، وأعمل الشبه بعتبة بالنسبة إلى ثبوت المحرمية بينه وبين سودة، وهذا من أحسن الأحكام وأبينها وأوضحها، ولا يمنع ثبوت النسب من وجه دون وجه؛ فهذا الزاني يثبت النسب منه بينه وبين الولد في التحريم والبعضية دون الميراث والنفقة وغيرها؛ وقد يختلف بعض أحكام النسب عنه مع ثبوته لمانع، وهذا كثير في الشريعة فلا ينكر من تخلف المحرمية بين سودة وبين هذا الغلام لمانع الشبه بعتبة، وهل هذا إلا محض الفقه. [(١)]

الوجه الثالث: ما نقله ابن عبد البر عن المزني:

أن النبي ﷺ أجاب عن المسألة، فأعلمهم بالحكم أن هذا يكون إذا ادعى صاحب الفراش وصاحب زنىً (يعني عند ذلك يكون الولد للفراش)؛ فهذا حكم خرج على المسألة ليعرفهم كيف الحكم في مثلها إذا نزل، ولذلك قال لسودة "احتجبي منه" لأنه حكم على المسألة، فلما لم يصح دعوى سعد لأخيه، ولا دعوى عبد بن زمعة، ولا أقرت سودة أنه ابن أبيها؛ فيكون أخاها؛ منعه من رؤيتها، وأمرها بالاحتجاب منه، ولو ثبت أنه أخوها ما أمرها بالاحتجاب منه لأنه ﷺ بُعِثَ بصلة الأرحام، وقال لعائشة في عمها من الرضاعة "إنه عمك فليلج عليك"[(٢)]، ويستحيل أن يأمر زوجة أن لا تحتجب من عمها من الرضاعة، ويأمر زوجة أخرى تحتجب من أخيها من أبيها[(٣)].

وقال الطبري: معنى قوله "هو لك يا عبد بن زمعه " أي: هو لك عبدُ ملكٍ؛ لأنه ابن وليدة أبيك، وكل أمة تلد من غير سيدها فولدها عبد، وهذا أبطله ابن عبد البر[(٤)]، وابن

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٤١٤).

(٢) رواه البخاري (٤٩٤١)، ومسلم (١٤٤٥).

(٣) التمهيد (٨/ ١٨٨، ١٨٩) بتصرف يسير.

(٤) التمهيد (٨/ ١٨٩).

القيم في زاد المعاد[1].

وقال الطحاوي: هو لك، يدك عليه، لا أنك تملكه، ولكن تمنع بيدك عليه كل من سواك منه، كما قال في اللقطة: هي لك، فيدُكَ عليها تدفعُ غيرك عنها حتى يجيء صاحبها، ليس على أنها ملك له، قال: ولا يجوز أن يجعله ﷺ ابنًا لزمعة ثم يأمر أخته تحتجب منه هذا محال، لا يجوز أن يضاف إلى النبي ﷺ.[2]

قال ابن القيم: فهذا الحكم النبوي أصل في ثبوت النسب بالفراش وفي أن الأمة تكون فراشًا بالوطء، وفي أن الشبه إذا عارض الفراش قدم، وفي أن أحكام النسب تتبعض فتثبت من وجه دون وجه آخر، وهو الذي يسميه الفقهاء حكما بين حكمين، وفي أن القافة[3] حق وأنها من الشرع.[4]

الدليل الثاني للشافعية: أنه لا يثبت في حقها الميراث:

وجوابه من قِبل الجمهور: أن النسب تتبعض أحكامه، فقد تثبت بعض أحكام النسب دون بعض، كما وافق أكثر المنازعين في ولد الملاعنة على أنه يحرم على الملاعن ولا يرثه، ومما يدل على أن النسب تتبعض أحكامه فيثبت بعضها دون بعض حديث ابن وليدة زمعة السابق، والذي استدلوا به على الجواز كما سبق حيث جعله النبي ﷺ أخاها في الميراث دون الحرمة.[5]

الدليل الثالث: أنه لا تلزمه نفقة هذه البنت لأنها أجنبية عنه:

والجواب عن ذلك: أنه إذا كانت بنته من الرضاعة بنتًا في حكمين فقط الحرمة والمحرمية، وتخلف سائر أحكام البنت عنها لم تخرجها عن التحريم وتوجب حلها، فكذا

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٤١٣).

(٢) التمهيد (٨/ ١٩٠).

(٣) القافة: الحكم بالقافة: تعويل على مجرد الشبه والظن والتخمين. وقد أورد المصنف فصل: الرابع: القافة، حكمُ رسول الله ﷺ وقضاؤه باعتبار القافة وإلحاق النسب بها.

(٤) زاد المعاد (٥/ ٤١٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٣٦، ١٣٧)، وزاد المعاد (٥/ ٤٢٤)، وتفسير الرازي (١٠/ ٢٨).

ابنته من الزنا تكون بنتًا في التحريم وتخلف أحكام البنت عنها لا يوجب حلها. (١)

" الخلاصة في مسألة نكاح البنت من الزنى "

١ - المسألة فيها قولان لأهل السنة قول بالإباحة، وهو خطأ، وهو المشهور من مذهب الشافعية، وقول بالحرمة؛ وهو قول الجمهور، وعلى هذا فأهل السنة هم الذين بينوا خطأ هذا القول الأول، فعلى كل حال لم يخرج الصواب عن قول أهل السنة.

٢-الشافعي لم يصرح بإباحة نكاح البنت من الزنى في شيء من كتبه فيما أعلم، وممن ذكر ذلك ابن القيم وعنه الألباني.

٣-لا يصح عن مالك أيضًا أنه قال بذلك.

٤-لم يرد عن أحد من السلف قبل الشافعي أنه أباح هذا الأمر، ولذلك نفى أحمد ـ رحمه الله ـ أن يكون في المسألة خلافٌ.

٥-أن من قال بهذه المسألة له مأخذ، وإن كان ضعيفًا، فإن الذي بَيَّن ضعفه وخطَّأه هم أهل السنة أيضًا فلم يخرج الصواب عن قولهم. (٢)

٦- إن مثل هذه المسألة الضعيفة ليس لأحد أن يحكيها عن إمام من أئمة المسلمين لا على وجه القدح فيه ولا على وجه المتاهة له فيها فإن في ذلك ضربًا من الطعن في الأئمة واتباع الأقوال الضعيفة. (٣)

ثالثا: نكاح المحرمات في كتابهم وواقعهم "

ونحن إن شاء الله تعالى في هذه الجولة نقسمها إلى قسمين:

الأول: نصوص من كتابهم المقدس.

الثاني: إحصائيات من واقعهم المعاصر أقرتها الكنيسة.

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٤٢٣)، وتفسير الرازي (١٠/ ٢٨).

(٢) منهاج السنة (٣/ ٤١٨) بتصرف، وقال ابن تيمية: المخلوقات من ماء الزنا يحرمها جمهورهم كأبي حنيفة وأحمد ومالك في أظهر الروايتين عنه، وحكى ذلك قولًا للشافعي.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٣٨).

١-نصوص من كتابهم المقدس:

بالنظر فيما سبق يتضح لنا أن العقد على المحارم يستوي مع عدمه؛ فالكل زنا يجب فيه الحد، ولذا فنحن لا نفرق بين العقد وعدمه، كذلك في النقل عن الكتاب المقدس؛ لأن الكل زنا، وإليك بعض هذه النصوص، ولكن قبل أن أسوق هذه النصوص أؤكد على أننا معشر المسلمين بريئون إلى الله تعالى من هذه الاعتقادات السوء في حق أنبياء الله – تعالى- ورسله، وما نقلت هذا القول إلا لزامًا على النصارى، وما ورد في كتابهم فهم يعترفون به، واعتقادنا في أنبياء الله ليس هكذا، وهم عندي أطهر خلق الله وأشرفهم، وأن الله اصطفاهم من خيرة خلقه.

أولًا: قولهم في نبي الله لوط عليه السلام:

في سفر التكوين (١٩-٢٩): وَحَدَثَ لَمَّا أَخْرَبَ اللهُ مُدُنَ الدَّائِرَةِ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرْسَلَ لُوطًا مِنْ وَسَطِ الانْقِلاَبِ. حِينَ قَلَبَ الْمُدُنَ الَّتِي سَكَنَ فِيهَا لُوطٌ. ٣٠وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. ٣١وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. ٣٢هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». ٣٣فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. ٣٤وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». ٣٥فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، ٣٦فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا. ٣٧فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ. ٣٨وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ.

ومن خلال هذا النص مع نصوص أخرى حسب زعمهم يكون ربهم من نسل زنا. . .
، مع أن الرب يقول عن أولاد الزنا: ٢لاَ يَدْخُلِ ابْنُ زِنًى فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الْجِيلِ الْعَاشِرِ لاَ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. (تثنية: ٢٣-١).

ويقول الكتاب وبوعذ ولد عوبيد من راعوث (متى: ١ : ٥)

ويمنع الكتاب دخول الموآبيين والعمونيين في جماعة الرب نهائيًا: لاَ يَدْخُلْ عَمُّونِيٌّ وَلاَ مُوآبِيٌّ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الْجِيلِ الْعَاشِرِ لاَ يَدْخُلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ إِلَى الأَبَدِ (تثنية: ٢٣: ٣)

ومع ذلك يدخل يسوع في جماعة الرب، وهو من نسل العمونيين.

ثانيًا: في صموئيل ٢: ١٣ عدد (١): ١وَجَرَى بَعْدَ ذلِكَ أَنَّهُ كَانَ لأَبْشَالُومَ بْنِ دَاوُدَ أُخْتٌ جَمِيلَةٌ اسْمُهَا ثَامَارُ، فَأَحَبَّهَا أَمْنُونُ بْنُ دَاوُدَ. ٢وَأُحْصِرَ أَمْنُونُ لِلسُّقْمِ مِنْ أَجْلِ ثَامَارَ أُخْتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَذْرَاءَ، وَعَسُرَ فِي عَيْنَيْ أَمْنُونَ أَنْ يَفْعَلَ لَهَا شَيْئًا. ٣وَكَانَ لأَمْنُونَ صَاحِبٌ اسْمُهُ يُونَادَابُ بْنُ شِمْعَى أَخِي دَاوُدَ. وَكَانَ يُونَادَابُ رَجُلاً حَكِيمًا جِدًّا. ٤فَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا يَا ابْنَ الْمَلِكِ أَنْتَ ضَعِيفٌ هكَذَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَى صَبَاحٍ؟ أَمَا تُخْبِرُنِي؟ » فَقَالَ لَهُ أَمْنُونُ: «إِنِّي أُحِبُّ ثَامَارَ أُخْتَ أَبْشَالُومَ أَخِي». ٥فَقَالَ يُونَادَابُ: «اضْطَجعْ عَلَى سَرِيرِكَ وَتَمَارَضْ. وَإِذَا جَاءَ أَبُوكَ لِيَرَاكَ فَقُلْ لَهُ: دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي فَتَأْتِيَ وَتُطْعِمَنِي خُبْزًا، وَتَعْمَلَ أَمَامِي الطَّعَامَ لأَرَى فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا». ٦فَاضْطَجَعَ أَمْنُونُ وَتَمَارَضَ، فَجَاءَ الْمَلِكُ لِيَرَاهُ. فَقَالَ أَمْنُونُ لِلْمَلِكِ: «دَعْ ثَامَارَ أُخْتِي فَتَأْتِيَ وَتَصْنَعَ أَمَامِي كَعْكَتَيْنِ فَآكُلَ مِنْ يَدِهَا». ٧فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى ثَامَارَ إِلَى الْبَيْتِ قَائِلاً: «اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ أَمْنُونَ أَخِيكِ وَاعْمَلِي لَهُ طَعَامًا». ٨فَذَهَبَتْ ثَامَارُ إِلَى بَيْتِ أَمْنُونَ أَخِيهَا وَهُوَ مُضْطَجعٌ. وَأَخَذَتِ الْعَجِينَ وَعَجَنَتْ وَعَمِلَتْ كَعْكًا أَمَامَهُ وَخَبَزَتِ الْكَعْكَ، ٩وَأَخَذَتِ الْمِقْلاَةَ وَسَكَبَتْ أَمَامَهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ. وَقَالَ أَمْنُونُ: «أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي». فَخَرَجَ كُلُّ إِنْسَانٍ عَنْهُ. ١٠ثُمَّ قَالَ أَمْنُونُ لِثَامَارَ: «ايتِي بِالطَّعَامِ إِلَى الْمِخْدَعِ فَآكُلَ مِنْ يَدِكِ». فَأَخَذَتْ ثَامَارُ الْكَعْكَ الَّذِي عَمِلَتْهُ. وَأَتَتْ بِهِ أَمْنُونَ أَخَاهَا إِلَى الْمِخْدَعِ. ١١وَقَدَّمَتْ لَهُ لِيَأْكُلَ، فَأَمْسَكَهَا وَقَالَ لَهَا: «تَعَالَيِ اضْطَجِعِي مَعِي يَا أُخْتِي». ١٢فَقَالَتْ لَهُ: «لاَ يَا أَخِي، لاَ تُذِلَّنِي لأَنَّهُ لاَ يُفْعَلُ هكَذَا فِي إِسْرَائِيلَ. لاَ تَعْمَلْ هذِهِ الْقَبَاحَةَ. ١٣أَمَّا أَنَا فَأَيْنَ أَذْهَبُ

بِعَارِي؟ وَأَمَّا أَنْتَ فَتَكُونُ كَوَاحِدٍ مِنَ السُّفَهَاءِ فِي إِسْرَائِيلَ! وَالآنَ كَلِّمِ الْمَلِكَ لأَنَّهُ لاَ يَمْنَعُنِي مِنْكَ». ١٤فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَسْمَعَ لِصَوْتِهَا، بَلْ تَمَكَّنَ مِنْهَا وَقَهَرَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا.

وفي صموئل (٢: ١٣) عدد (٢٠): فَقَالَ لَهَا أَبْشَالُومُ أَخُوهَا: «هَلْ كَانَ أَمْنُونُ أَخُوكِ مَعَكِ؟ فَالآنَ يَا أُخْتِي اسْكُتِي. أَخُوكِ هُوَ. لاَ تَضَعِي قَلْبَكِ عَلَى هذَا الأَمْرِ». فَأَقَامَتْ ثَامَارُ مُسْتَوْحِشَةً فِي بَيْتِ أَبْشَالُومَ أَخِيهَا.

ثالثا: زوجات الأب كما في صموائيل الثاني ١٦/ عدد ٢١- ٢٢: ، صموئيل (٢) ٢١: ٢١: ١٦): فقال أخيتوفل لأبشالوم: ادخل إلى سراري أبيك اللواتي تركهن لحفظ البيت، فيسمع كل إسرائيل أنك قد صرت مكروها من أبيك، فتتشدد أيدي جميع الذين معك. ٢٢. فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل.

رابعًا: الرجل مع زوجة ابنه كما في التكوين ٣٨ عدد ١١ـ ٣٠: فَقَالَ يَهُوذَا لِثَامَارَ كَنَّتِهِ: «اقْعُدِي أَرْمَلَةً فِي بَيْتِ أَبِيكِ حَتَّى يَكْبُرَ شِيلَةُ ابْنِي». لأَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّهُ يَمُوتُ هُوَ أَيْضًا كَأَخَوَيْهِ». فَمَضَتْ ثَامَارُ وَقَعَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا وَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ مَاتَتِ ابْنَةُ شُوعٍ امْرَأَةُ يَهُوذَا. ثُمَّ تَعَزَّى يَهُوذَا فَصَعِدَ إِلَى جُزَّازِ غَنَمِهِ إِلَى تِمْنَةَ، هُوَ وَحِيرَةُ صَاحِبُهُ الْعَدُلاَّمِيُّ. ١٣فَأُخْبِرَتْ ثَامَارُ وَقِيلَ لَهَا: «هُوَذَا حَمُوكِ صَاعِدٌ إِلَى تِمْنَةَ لِيَجُزَّ غَنَمَهُ». ١٤فَخَلَعَتْ عَنْهَا ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا، وَتَغَطَّتْ بِبُرْقُعٍ وَتَلَفَّفَتْ، وَجَلَسَتْ فِي مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ، لأَنَّهَا رَأَتْ أَنَّ شِيلَةَ قَدْ كَبُرَ وَهِيَ لَمْ تُعْطَ لَهُ زَوْجَةً. ١٥فَنَظَرَهَا يَهُوذَا وَحَسِبَهَا زَانِيَةً، لأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهَا. ١٦فَمَالَ إِلَيْهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ: «هَاتِي أَدْخُلْ عَلَيْكِ». لأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا كَنَّتُهُ. فَقَالَتْ: «مَاذَا تُعْطِينِي لِكَيْ تَدْخُلَ عَلَيَّ؟ » ١٧فَقَالَ: «إِنِّي أُرْسِلُ جَدْيَ مِعْزَى مِنَ الْغَنَمِ». فَقَالَتْ: «هَلْ تُعْطِينِي رَهْنًا حَتَّى تُرْسِلَهُ؟ ». ١٨فَقَالَ: «مَا الرَّهْنُ الَّذِي أُعْطِيكِ؟ » فَقَالَتْ: «خَاتِمُكَ وَعِصَابَتُكَ وَعَصَاكَ الَّتِي فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهَا وَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَحَبِلَتْ مِنْهُ. ١٩ثُمَّ قَامَتْ وَمَضَتْ وَخَلَعَتْ عَنْهَا بُرْقُعَهَا وَلَبِسَتْ ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا. ٢٠فَأَرْسَلَ يَهُوذَا جَدْيَ الْمِعْزَى بِيَدِ صَاحِبِهِ الْعَدُلاَّمِيِّ لِيَأْخُذَ الرَّهْنَ مِنْ يَدِ الْمَرْأَةِ، فَلَمْ يَجِدْهَا. ٢١فَسَأَلَ أَهْلَ مَكَانِهَا قَائِلاً:

«أَيْنَ الزَّانِيَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي عَيْنَايِمَ عَلَى الطَّرِيقِ؟ » فَقَالُوا: «لَمْ تَكُنْ ههُنَا زَانِيَةٌ». ٢٢فَرَجَعَ إِلَى يَهُوذَا وَقَالَ: «لَمْ أَجِدْهَا. وَأَهْلُ الْمَكَانِ أَيْضًا قَالُوا: لَمْ تَكُنْ ههُنَا زَانِيَةٌ». ٢٣فَقَالَ يَهُوذَا: «لِتَأْخُذْ لِنَفْسِهَا، لِئَلاَّ نَصِيرَ إِهَانَةً. إِنِّي قَدْ أَرْسَلْتُ هذَا الْجَدْيَ وَأَنْتَ لَمْ تَجِدْهَا».

٢٤وَلَمَّا كَانَ نَحْوُ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ، أُخْبِرَ يَهُوذَا وَقِيلَ لَهُ: «قَدْ زَنَتْ ثَامَارُ كَنَّتُكَ، وَهَا هِيَ حُبْلَى أَيْضًا مِنَ الزِّنَا». فَقَالَ يَهُوذَا: «أَخْرِجُوهَا فَتُحْرَقَ». ٢٥أَمَّا هِيَ فَلَمَّا أُخْرِجَتْ أَرْسَلَتْ إِلَى حَمِيهَا قَائِلَةً: «مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي هذِهِ لَهُ أَنَا حُبْلَى! » وَقَالَتْ: «حَقِّقْ لِمَنِ الْخَاتِمُ وَالْعِصَابَةُ وَالْعَصَا هذِهِ». ٢٦فَتَحَقَّقَهَا يَهُوذَا وَقَالَ: «هِيَ أَبَرُّ مِنِّي، لأَنِّي لَمْ أُعْطِهَا لِشِيلَةَ ابْنِي». فَلَمْ يَعُدْ يَعْرِفُهَا أَيْضًا.

٢٧وَفِي وَقْتِ وِلاَدَتِهَا إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. ٢٨وَكَانَ فِي وِلاَدَتِهَا أَنَّ أَحَدَهُمَا أَخْرَجَ يَدًا فَأَخَذَتِ الْقَابِلَةُ وَرَبَطَتْ عَلَى يَدِهِ قِرْمِزًا، قَائِلَةً: «هذَا خَرَجَ أَوَّلاً». ٢٩وَلكِنْ حِينَ رَدَّ يَدَهُ، إِذَا أَخُوهُ قَدْ خَرَجَ. فَقَالَتْ: «لِمَاذَا اقْتَحَمْتَ؟ عَلَيْكَ اقْتِحَامٌ! ». فَدُعِيَ اسْمُهُ «فَارِصَ». ٣٠وَبَعْدَ ذلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ الَّذِي عَلَى يَدِهِ الْقِرْمِزُ. فَدُعِيَ اسْمُهُ «زَارَحَ».

خامسًا: ثم إن هذا نبي الله موسى وأخوه هارون أولاد حرام (زواج غير شرعي):

يقول سفر اللاويين (١٨: ١٢): عورة أخت أبيك لا تكشف. إنها قريبة أبيك. إلا أن عمرام أبو نبي الله موسى قد تزوج عمته: {الخروج ٦: ٢٠}: وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى. وكانت سنو حياة عمرام مئة وسبعا وثلاثين سنة.

مع الأخذ في الاعتبار أن النصارى لا يقرون النسخ في دينهم.

سادسًا: وهذا نبي الله يعقوب يجمع بين الأختين:

فقد تزوج ليئة وراحيل الأختين وأنجب منهما -تكوين ٢٩: ٢٣-٣٠، بينما يحرم سفر اللاويين الجمع بين الأختين – اللاويين ١٨: ١٨.

سابعًا: وهذا نبي الله إبراهيم يتزوج من أخته لأبيه:

ففي سفر التكوين (٢٠: ١٢): - تزوج إبراهيم عليه السلام من سارة وهي أخته من أبيه هذا على الرغم من أن سفر اللاويين يحرم الزواج من الأخت لأب أو لأم.

قلت: فماذا ترى في كتابهم المقدس عن أنبياء الله من نكاح المحارم والزنا بهن، وإقرارهم على ذلك ونحن على كل حال نبرأ إلى الله من هذا -ولكن ذكرناه لهم -ونذكر لهم أيضًا أنهم لا يقولون بالنسخ - فما هو موقفهم من تلك النصوص التي في كتابهم المقدس؟!

ثم أنتقل بك أيها القارئ إلى إحصائيات من هذا القبيل أقرتها الكنيسة ورضيت بها.

في السويد التي تعتبر قمة في الحضارة. . . حيث أعلى مستوى للمعيشة، فإن الدولة تدرس هناك قانونًا يبيح العلاقة الجنسية بين الأخ وأخته! ! نعم لقد انتهوا من إباحة الزنا، ثم إباحة اللواط. . ، ثم إباحة الإجهاض. . . ، وتوصلوا إلى احترام الأمهات العذارى كما يسمونهن! ! ويالها تسمية تناقض الواقع مناقضة تامة! ! وأخيرًا بعد كل هذا وصلوا إلى إباحة الزنا بالأخت. . وقريبًا سيصدر تشريع بإباحته مع البنت والأم! !

ولذلك؛ فإن السويد تتمتع بأعلى معدلات الانتحار في العالم، كما تتمتع بأعلى معدلات الطلاق، وهكذا السويد دائمًا سباقة في كل ميدان من ميادين التقدم! !

وقد نشرت صحيفة الهيرالدتريبيون في عددها الصادر ٢٩/ ٦/ ١٩٧٩ ملخصًا لأبحاث قام بها مجموعة من الأخصائيين من القضاة والأطباء الأمريكيين حول ظاهرة غريبة ابتدأت في الانتشار في المجتمع الأمريكي، وفي المجتمعات الغربية بصورة عامة، وهي ظاهرة نكاح المحارم، ويقول الباحثون: إن هذا الأمر لم يعد نادر الحدوث، وإنما هو منتشر لدرجة يصعب تصديقها فهناك عائلة من كل عشر عائلات أمريكية يمارس فيها الشذوذ، والأغرب من هذا أن الغالبية العظمى (٨٥٪) من الذين يمارسون هذه العلاقات الشاذة مع بناتهم وأولادهم، أو بين الأخ وأخته، أو الابن وأمه؛ هم من العائلات المحترمة في المجتمع. . . والناجحة في أعمالها والتي لا تعاني من أي مرض نفسي، وليسوا من المجرمين ولا من العتاة، وإنما هم في الغالب من رجال الأعمال أو الفنيين الناجحين في أعمالهم وحياتهم. .

ويذكر التقرير أن حالة واحدة من بين عشرين حالة هي التي تصل إلى القضاء أو إلى الدوائر الطبية، ومعظم هذه الحالات هي حالات اعتداء من الأب على ابنته ولا يقتصر الاعتداء على الابنة البالغة، وإنما قد حصلت حالات كثيرة من اعتداء الأب على طفلته

الصغيرة، وسجلت حالات من الاعتداء ابتداء من سن ثلاثة أشهر إلى سن البلوغ، وينتج عن ذلك الاعتداء أمراض تناسلية وتهتكات في الجهاز التناسلي للطفلة بالإضافة إلى الإصابات النفسية البالغة للطفلة، كما أن عدة حالات حمل قد سجلت نتيجة اعتداء الأب على ابنته، وفي كثير من هذه الحالات كانت العلاقة بين الأب وابنته تمتد إلى سنوات عديدة، أما العلاقة بين الأخ وأخته فيعتبرها الباحثون علاقة شاذة، ولكنها ليست بذات ضرر، وينبغي أن لا يهتم بها الوالدان إذا لاحظوها، بل يتركوها للزمن فهو كفيل بمعالجتها، ولا يعتبرون أن في ذلك أية إساءة، ويستحسن أن تترك بدون علاج.

وأما العلاج الوقائي فيقترحون: أن لا ينام الأطفال مع والديهم في نفس السرير، وكذلك ينبغي عزل الأولاد عن البنات كما أن على الوالدين أن يتجنبا العلاقات الجنسية أمام أطفالهم (وهذا شبه شائع في أمريكا وأوربا الآن) كما أن عليهما أن يمنعا عن الأطفال المناظر الجنسية المثيرة سواء كانت على هيئة أفلام أو مجلات أو قصص، ويحتار الباحثون في علاج الحالات الموجودة، فوصولها إلى القضاء يعني سجن الوالد وتحطيم الأسرة، ولكنهم يقترحون إبعاد الطفل الْمُعْتَدَي عليه إلى مصحة نفسية، وإذا كانت الفتاة بالغة تغير بيئتها وتخرج إلى ميدان العمل وتبتعد عن جو الأسرة، وهذا ما يحصل في الواقع في كثير من الحالات تلقائيًا، ولا تقتصر حوادث العدوان على الآباء، ولكن هناك حالات من اتصال الأم من ابنها جنسيًا، ويعتبر التقرير هذه الحالات أشدها خطرًا على حياة الأسرة، كما أن هناك حالات من اتصال الجد أو العم أو الخال بحفيدته أو ابنة أخيه أو ابنة أخته، يقف الباحثون أمام هذه الظاهرة قلقين لكن دون أن يدركوا العلاج الحقيقي! !

وأخيرًا نشرت التايم الأمريكية في عددها الصادر ١٤ إبريل سنة ١٩٨٠ تحت عنوان مهاجمة التابو (المحرم المقدس) الأخير attacking the last taboo وتحته مباشرة بعنوان فرعي: الباحثون يعملون لإباحة المحرمات، وإليك نص الترجمة:

(يجب علماء الجنس أن يصدموا الجمهور من حين لآخر، ولكن يبدو أنه أصبح من العسير عليهم أن يفعلوا ذلك فقد تعودت الجماهير في الغرب أن تنظر إلى العلاقات الجنسية حتى الشاذة منها نظرة باردة، ولَكِنَّ الباحثين يعملون الآن بجد يساندهم في ذلك بعض الأكاديميين لإزاحة آخر صنم في المجال الجنسي وهو منع نكاح المحرمات من الأمهات والأخوات والبنات).

ويقول الباحث جون موني من جامعة جون هوبكتر وأحد أشهر الباحثين في الأمة الأمريكية: إن تجارب الطفل الجنسية مع أحد أقاربه الكبار أو غيرهم من البالغين لا يشكل بالضرورة ضررًا على حياة الطفل)، ويشكو الباحث وزميلته جيرترود وليامز في كتابهما (الأفعال الجنسية الضارة وإهمال الأطفال). . يشكو المؤلفان من أن الجمهور لا يزال يعتبر أي اتصال جنسي بالطفل مهما كان حميدًا؛ فإنه اتصال ضار ومحطم للطفل، ويواصل الباحثان فيقولان: (إن المجتمع يعتبر من يمارس الجنس مع المحرمات مثل الأمهات والأخوات والبنات وكأنه مارق على الدين في مجتمع متدين).

ويقولان: بينما قد استطاع المجتمع الأمريكي التغلب على مشكلة الدين؛ فلا ينظر إلى الإنسان بأنه مارق إذا خالف دين المجتمع، فإنه للأسف حتى الآن لم ينظر المجتمع بنفس التسامح لمن يقوم بنكاح أخته أو أمه أو ابنته.

ويقول الباحث واردل بومري بصراحة أكثر:

لقد آن الأوان بأن نعترف بأن نكاح المحرمات ليس شذوذًا ولا دليلًا على الاضطراب العقلي.

. . ، نعم في الواقع قد يكون نكاح المحرمات وخاصة الأطفال وذويهم أمرًا مفيدًا لكليهما! !

ويقول العالم الانثروبولجي سيمور باركر من جامعة يوتاوه بحذر:

(أنه من المشكوك فيه أن يكون الثمن الذي يدفعه من يقوم بنكاح المحرمات من الشعور بالذنب والجفوة بين أفراد الأسرة الواحدة أمر ضروري أو حتى مرغوب فيه، وعليه فينبغي إزاحة هذه الشعور بالذنب عندما يقوم شخص بنكاح ابنته أو أخته أو أمه:

وما هي الجدوى التي ستعود من ربط نكاح المحرمات بهذا الشعور من عدم الارتياح بدلًا من المحبة والدفء الذي يشعه نكاح المحرمات).

ولقد نشر تقرير سيكسي وهو النشرة الرسمية لمجلس المعلومات والتثقيف الجنسي في الولايات المتحدة هجومًا حادًا على منع نكاح المحرمات، وطالب بإباحته واعتبره (تابو) مقيت يجب إزاحته! !

وقال المؤلف جيمس رامزي: (إننا نقف اليوم نفس الموقف المتأخر الذي كنا نقفه منذ مائة عام من العادة السرية).

ومعلوم أن الاستمناء باليد (العادة السرية) يعتبر أمرًا لا غبار عليه ولا يؤثر صحيًا على من يقوم به باعتدال الآن، أما في الماضي فقد يعتبر جريمة تسبب الشعور بالذنب والقلق لمرتكبها.

ويواصل الباحث المشهور جيمس رامزي حديثه فيقول: إن مزيدًا من الاتصال الجسدي بين أفراد الأسرة سيحقق الدفء وسيخفف من هذا السعار الجنسي المحموم في سن المراهقة! !

ويقول الانثروبولوجي يهودي كوهين (دائمًا ترى كوهين خلف هذه المصائب):

(إن منع نكاح المحرمات ليس إلا من مخلفات الإنسان البدائي الذي احتاج لإجراء معاهدات واتفاقات تجارية خارج نطاق الأسرة، فقام عند ذاك بمنع نكاح المحارم، وبما أن ذلك لم يعد له أي أهمية؛ فإن هذا المنع يصبح أمرًا قد عفي عليه الزمن).

وقد قامت الباحثة جوان نيلسون وهي تحمل درجة الماجستير في علم النفس بإنشاء معهد لدراسة السلوك الجنسي وقد قامت ببحث ميداني للتفريق بين نكاح المحرمات المفيد ونكاح المحرمات الضار.

ويبدو أن الجمهور قد بدأ يهتم بموضوع نكاح المحرمات، ومما يدل على ذلك أن هوليود قد أنتجت ٦ أفلام فقط عن نكاح المحرمات عام ١٩٢٠م بينما هي أنتجت عام ١٩٧٩م ستين فلمًا، والمزيد في الطريق، وقد تكونت جماعة تطالب بحقوق الأطفال

الجنسية وأن من حق الطفل أن يكون له نشاط جنسي مع أي فرد من أفراد العائلة أو حتى خارج نطاقها! !

ويقول لأري قسطنطين الأستاذ المساعد في قسم الأمراض النفسية في جامعة تفتس: (أن للأطفال الحق في أن يعبروا عن أنفسهم جنسيًا مع أي فرد، حتى ولو كان أحد أفراد عائلته).

ويقول الباحثون الجنسيون: إن جميع أنواع الاتصالات الجنسية مفيدة ولو كانت بين الأب وابنته أو ابنه، وبين الأم وابنتها، وبين الأخ وأخته نعم كلها مفيدة ولكن الضار فقط هو الشعور بالذنب والإحساس بالخوف، وأخطر شيء هو الكبت، نعم، الكبت الجنسي!

إن مثل هذا الاتجاه سيقود معتنقيه حتمًا إلى إقامة حملات صليبية ضد جميع أنواع المنع الجنسي شاملًا بذلك نكاح المحرمات. انتهى مقال التايمز بدون تعليق.[1]

* * *

---

(١) عمل المرأة في الميزان د/ محمد علي البار (١٢٠: ١٢٥).

٢١ـ شبهة: الاستمناء. (١)

نص الشبهة:

إن الإسلام أحل الاستمناء بدليل:

إباحة بعض علماء المسلمين هذه الفعلة وعدم تحريمهم لها.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: القرآن الكريم حرم الاستمناء.

الوجه الثاني: السنة النبوية لم تدع إلى هذه الفاحشة وإنما دعت إلى تحصين الفرج.

الوجه الثالث: جمهور أهل العلم على حرمة الاستمناء باليد.

الوجه الرابع: فتاوى أهل العلم في حرمة الاستمناء وردهم على من أباح ذلك.

الوجه الخامس: الاستمناء وأضراره من الناحية الطبية.

الوجه السادس: الجنس فى الكتاب المقدس.

واليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن الكريم حرم الاستمناء (واليك الآيات التي حرمت الاستمناء).

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ (المؤمنون ٥ -٧)، فهذه صفة جليلة لعباد الله المؤمنين مثل الصفات السابقة واللاحقة وهي حفظ الفرج وصيانته مطلقًا، لا استثناء إلا للزوجة وملك اليمين، وما دون ذلك فلا يباح فعله ولا يجوز إتيانه.

قال ابن كثير عن هذه الآية: أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تَعَاطَى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا

(١) إنما أوردنا هذه الشبهة في هذا القسم لتعلقها بشبهة السحاق.

قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الأزواج والإماء: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: المعتدون.

وقد استدل الإمام الشافعي، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾. [١]

قال الآلوسي: فجمهور الأئمة على تحريمه (يقصد الاستمناء)، وهو داخل فيما وراء ذلك. [٢]

وقال البغوي: وفيه دليل على أن الاستمناء باليد محرم وهو قول أكثر أهل العلم. [٣]

وقال الشنقيطي: اعلم أنه لا شك في أن آية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ (المؤمنون: ١) هذه التي هي ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ تدل بعمومها على منع الاستمناء باليد المعروف بجلد عميرة، ويقال له الخضخضة، لأن من تلذذ بيده حتى أنزل منيه بذلك، قد ابتغى وراء ما أحله الله، فهو من العادين بنص هذه الآية الكريمة المذكورة هنا.

ثم قال: الذي يظهر لي أن استدلال مالك، والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة، على منع جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن، ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة. [٤]

الآية الثانية: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النور: من الآية٣٣) سبق هذه الآية آيةُ تحث وتدعو إلى النكاح وهي: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٠).

(٢) روح المعاني للآلوسي (١٨/ ١٠).

(٣) تفسير البغوي (٣/ ٣٠٣).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٧٦٩)، وانظر تفسير القرطبي (١٢/ ١١٢).

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ (النور: ٣٢)، أمر بالنكاح والدعوة إليه لتحصن الفروج وتغض الأبصار ولتسكن النفوس، فالزواج هو السبيل الأول للعفة دون غيره، ومن لم يستطع فماذا يصنع؟ أيقع في الفاحشة والشذوذ؟ لا، بل يأتي الأمر الثاني بالعفة والتنزيه ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾. (١)

قال ابن كثير: هذا أمر الله تعالى لمن لا يجد تزويجًا بالتعفف عن الحرام كما قال النبي ﷺ: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء". (٢)

الآية الثالثة: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ (النساء: ٢٥).

يقول ابن كثير عن هذه الآية: أي: ومن لم يجد طولًا أي سعة وقدرة أن ينكح المحصنات المؤمنات الحرائر العفائف فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات، أي: فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون. . . . ، ثم قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ أي: إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك كله، فحينئذ يتزوج الأمة، وإن ترك تزوج الأمة وجاهد نفسه في الكف عن الزنا، فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها

---

(١) الجاهلية الجنسية " بحث شامل في الشذوذ الجنسي طبيًا ودينًا " حسن السيد زهرة.

(٢) تفسير ابن كثير، والبغوي، والآلوسي، والقرطبي حول هذه الآية.

جاء أولاده أرقاء لسيدها إلا أن يكون الزوج عربيا فلا يكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهورُ العلماء في جواز نكاح الإماء، على أنه لا بد من عدم الطَّوْل لنكاح الحرائر ومن خوف العنت؛ لما في نكاحهن من مفْسَدة رق الأولاد، ولما فيهن من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن.(١)

فانظر شروط التسري أو نكاح الإماء لما في ذلك من دناءة فما بالك بدناءة الاستمناء وخسة السحاق واللواط، إذا كان الحلال والمباح للرجل فعله طلب منه أن يصبر عليه حتى يطلب العفائف الحرائر فما بالنا بما حرم علينا فعله من شذوذ واستمناء وسحاق ولواط وإتيان البهائم، وقد أخبر الحق تبارك وتعالى أنه أباح لنا نكاح الإماء لأنه لا يريد لنا العنت... ولا يريد لنا المشقة وطالما لم يذكر لنا الاستمناء والسحاق وغيرهما فلنعلم أنه لا راحة فيهما ولا هدوء للشهوة بهما؛ لأنهما لو فيهما خير لأباحهما لنا لوعده وأخذه على نفسه عدم إرهاقنا، ولزم من قال أن فيهما الراحة والسعادة أن يتهم ربه بالنسيان وعدم معرفته ما يريحنا وحاشا وكلا أن يتصف الله بذلك ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: ٦٤) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)(٢)

الوجه الثاني: السنة النبوية لم تدع إلى هذه الفاحشة وإنما دعت إلى تحصين الفرج. وإليك الأدلة على ذلك.

١ ـ عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء "(٣)

قال ابن حجر: وفي الحديث أيضا إرشاد العاجز عن مؤن النكاح إلى الصوم، لأن شهوة النكاح تابعة لشهوة الأكل تقوى بقوته وتضعف بضعفه، واستدل به الخطابي على جواز

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٦٣١.

(٢) الجاهلية الجنسية. لأبي عبد الرحمن حسن السيد زهرة (٤٥).

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

المعالجة لقطع شهوة النكاح بالأدوية، وحكاه البغوي في " شرح السنة "، وينبغي أن يحمل على دواء يسكن الشهوة دون ما يقطعها أصالة لأنه قد يقدر بعد فيندم لفوات ذلك في حقه، وقد صرح الشافعية بأن لا يكسرها بالكافور ونحوه، والحجة فيه أنهم اتفقوا على منع الجب والخصاء فيلحق بذلك ما في معناه من التداوي بالقطع أصلًا، واستدل به الخطابي أيضا على أن المقصود من النكاح الوطء ولهذا شرع الخيار في العنة. وفيه الحث على غض البصر وتحصين الفرج بكل ممكن وعدم التكليف بغير المستطاع، ويؤخذ منه أن حظوظ النفوس والشهوات لا تتقدم على أحكام الشرع بل هي دائرة معها، واستدل به بعض المالكية على تحريم الاستمناء لأنه أرشد عند العجز عن التزويج إلى الصوم الذي يقطع الشهوة، فلو كان الاستمناء مباحًا لكان الإرشاد إليه أسهل. وتعقب دعوى كونه أسهل لأن الترك أسهل من الفعل. (١)

فهذا حث نبوي وإرشاد سنة من المعصوم ﷺ للشباب من قدر وقوي على تكاليف الزواج ومؤنه " فليتزوج " فليتحصن بالحصن القوي الذي يتمم له العفة ويكمل له طهارته فهذا هو الحل الأول وهذا الطريق الأمثل لمن أراد العفة، ومن لم يقدر على الزواج ومؤنه ماذا يفعل أينساق وراء الشهوات؟ أيقع في الفاحشة والفجور؟ كلا، وإنما أرشد فقال ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " أي وقاية " أي حصنًا ثانيًا فإن لم يستطع التحصن بالأول وهو الزواج فعليه بالثاني وهو الصوم ولم يوضح لنا ﷺ طرقًا غير هذا. وفي ذلك الكفاية والحصن بإذن الله لمن أراد. (٢)

٢- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: " رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا". (٣)

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٤).

(٢) بهذا المعنى من الجاهلية الجنسية لأبي عبد الرحمن حسن السيد زهرة صـ (٤٧).

(٣) رواه البخاري (٥٠٧٣)، (٥٠٧٤)، ومسلم (١٤٠٢)، والتبتل هنا كما قال ابن حجر: الانقطاع عن النكاح وما يتبعه من الملاذ إلى العبادة.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: " كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء فقلنا ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب ثم قرأ علينا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (المائدة: ٨٧). (١)

فهذه الأحاديث الواردة عن الصحابة وسمو خلقهم وتنافسهم على الطاعة وصيانة النفس والأبصار والفروج تدل على تحريم الخصاء لما فيه من ضرر وتشويه للخلقة ورغم ذلك طلبوه حتى يحفظوا فروجهم ويغضوا أبصارهم. ولو كان لديهم سابق خبر على جواز الاستمناء لما حادوا عنه إلى البتر التام للشهوة، ولو كان الاستمناء مباحًا لقال النبي ﷺ لا عليكم قد رفع الله عنكم الحرج وأراد لكم التخفيف فاستمنوا فهو سهل وأقل ضررًا من الخصاء ولكن لم يقل فوضح أنه محرم كحرمة الإختصاء وغيره.

وقد روى في هذا الباب حديث صريح إلا أنه ضعيف، وهو: عن أنس مرفوعًا " سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين ويدخلهم النار في أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه الناكح يده. . . . . . ". (٢)

الوجه الثالث: جمهورأهل العلم على حرمة الاستمناء باليد.

قال الآلوسي: فجمهور الأئمة على تحريمه أي: الاستمناء، وهو داخل فيما وراء ذلك. (٣)

قال القرطبي: وعامةالعلماء على تحريمه. وقال بعض العلماء: إنه كالفاعل بنفسه، وهى معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس. (١)

---

(١) رواه البخاري (٥٠٧٥).

(٢) إسناده ضعيف. ذكره ابن كثير في تفسيره وقال: رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور ثم قال: هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته، وقال ابن الملقن: حَدِيث غَرِيب وَإِسْنَاده لَا يثبت بِمثلِهِ حجَّة: حسان بن حمير مَجْهُول، ومسلمة وَعلي ضعفهما الْأَزْدِيّ من أجل هَذَا الحَدِيث (البدرالمنير٧/ ٦٦٢)، وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺولا حسان يعرف ولا مسلمة (العلل المتناهية٢/ ٦٣٣). والله أعلم.

(٣) روح المعاني للآلوسي (١٨/ ١٠).

قال ابن تيمية: أما الاستمناء فالأصل فيه التحريم عند جمهور العلماء وعلى فاعله التعزير وليس مثل الزنا والله أعلم، وقال أيضًا في رد على سؤال لآخر:

أما الاستمناء باليد فهو حرام عند جمهور العلماء وهو أصح القولين في مذهب أحمد وكذلك يعزر من فعله وفى القول الآخر هو مكروه غير محرم وأكثرهم لا يبيحونه لخوف العنت ولا غيره. (٢)

الوجه الرابع: فتاوى أهل العلم في حرمة الاستمناء وردهم على من أباح ذلك.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الاستمناء هل هو حرام أم لا؟

فأجاب: أما الاستمناء باليد فهو حرام عند جمهور العلماء، وهو أصح القولين في مذهب أحمد وكذلك يعزر من فعله، وفى القول الآخر هو مكروه غير محرم وأكثرهم لا يبيحونه لخوف العنت ولا غيره، ونقل عن طائفة من الصحابة والتابعين أنهم رخصوا فيه للضرورة؛ مثل أن يخشى الزنا فلا يعصم منه إلا به، ومثل أن يخاف إنْ لم يفعله أن يمرض؛ وهذا قول أحمد وغيره، وأما بدون الضرورة فما علمت أحدًا رخص فيه والله أعلم. (٣)

وقد سئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء عن الاستمناء وحكمه.

فقالت: الاستمناء نفسه بغير زوجته وأمته محرم لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾، ولما فيه من الضرر ويعزر فاعله.

لا حجة لمن أباح الاستمناء.

فقد ذهب ابن حزم إلى إباحته مطلقًا وقال بذلك الإمام أحمد في رواية عنه.

وقد ذكر القرطبي قول الإمام أحمد في ذلك فقال: وأحمد بن حنبل على ورعه يجوزه

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ١١٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٤/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) السابق (٣٤/ ٢٢٩).

ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة؛ أصله الفَصْد والحجامة[١].

وذكر ابن تيمية الروايتين عن أحمد وسيأتي كلامه في الرد[٢].

وأباحه ابن حزم في المحلى فقال:

وكذلك الاستمناء للرجال سواء سواء لأن مس الرجل ذكره بشماله مباح ومس المرأة فرجها كذلك مباح بإجماع الأمة كلها فإذ هو مباح فليس هنالك زيادة على المباح إلا التعمد لنزول المني فليس ذلك حرامًا أصلًا. [٣]

وهذا مردود كما قال شيخ الإسلام لما سُئل عن حكم الاستمناء وتقدم نقل جوابه.

فكما ذكر ابن تيمية أن الرواية الصحيحة عن أحمد هي التحريم، وما أباحه إلا للضرورة، أما إذا أبيح للقياس فهذا باطل؛ لأن القياس لابد من توافق العلل والدواعي ولكنه قاس المني على الفصد و الحجامة رغم أن العلة ليست واحدة، فالفصد والحجامة لا مخرج لهما إلا بفتح أو شق أو خرقه لأنها لا تنصرف إلا بهذا مع عظيم ضررها، أما المني فله أكثر من طريق للخروج عند الضرورة كالزواج والتسري، أو الاحتلام، أو يدفعه البول إذا زاد عن حده، أو بالصوم وزيادة الطاعة لله يُسكن الله الشهوة ويهدأ الإنسان[٤].

ويرد أيضًا على من أباح ذلك:

أنه قد ثبت في القرآن والسنة ما يفيد حرمة الاستمناء، وقد نقلنا ذلك بالتفصيل فليراجع. فهذا هو الأصل.

قال القرطبي: وعامة العلماء على تحريمه. وقال بعض العلماء: إنه كالفاعل بنفسه، وهى معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قيلة، ويا ليتها لم تقل، ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها. [٥]

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ١١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٤/ ٢٢٩).

(٣) المحلى (١١/ ٣٩٢).

(٤) الجاهلية الجنسية (٧٦).

(٥) تفسير القرطبي (١٢/ ١١٣).

قلت: والحجة تلزم العباد بالكتاب والسنة الصحيحة وليس قول أحد من الأمة قاضيًا على الكتاب والسنة بل الكتاب والسنة مهيمنان على كل قول.

الوجه الخامس: الاستمناء وأضراره من الناحية الطبية.

قبل سرد أقوال علماء الطب المنصفين في ضرر الاستمناء لا بد من كلمة وهي:

أن الأصل في التحريم هو نهي المشرع الحكيم عن الفعل سواء كان به ضرر أو ليس به ضرر لا يظهر لنا، وربما يكون الشيء ضرره ليس صحيًا جسمانيًا فربما يكون اجتماعيًا أو نفسيًا أو غير ذلك، فالعلة هي الأمر المنزل والشرع الذي يقضي بين العباد وليس غير ذلك، فإذا كان هناك ضرر ظاهر جمع مع علة الأمر الإلهي مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ (البقرة: ٢٢٢) وهناك أمور حرمت وربما لا تذكر علتها، والمسلم من علامة إيمانه الاستجابة والإذعان. (١)

وإليك أقوال أهل الطب في أضرار الاستمناء:

في كتاب (المراهقة وسن البلوغ) يقول:

نلاحظ انتشار هذه العادة في المجتمعات التي تحرم ممارسة العملية الجنسية أو التي يعاني فيها الشباب من التضييق على ممارسة العملية الجنسية. . . وهناك أمراض كثيرة تصاحب الإدمان في ممارسة هذه العادة، وهناك مضاعفات خطيرة تنشأ من التمادي في مزاولتها، وقد تكون أعراضًا موضعية بسيطة؛ ولكنها تنتهي دائمًا بمضاعفات عامة تصيب أي جهاز من أجهزة الجسم منها احتقان وتضخم البروستاتا، وزيادة حساسية قناة مجرى البول، والأمر الذي يؤدي في النهاية إلى سرعة القذف عند مباشرة العملية الجنسية الطبيعية.

فقد يصاب بالتهابات في البروستاتا مع حدوث حرقان عند التبول، ونزول إفراز مخاطي لزج صباح كل يوم من قناة مجرى البول، ومن المعروف والمشاهد أن التهابات البروستاتا المزمنة تؤدي إلى اضطرابات مختلفة عند ممارسة العملية الجنسية الطبيعية؛ وأهما: الضعف الجنسي، وفقدان الرغبة في العملية الجنسية.

---

(١) الجاهلية الجنسية (٦٦).

ومدمن العادة السرية (الاستمناء) يلاحظ عليه الإرهاق الشديد من أي مجهود يقوم به، ويشكو من التعب والضعف الجسماني من أي عمل يوكل إليه وتراه شاحب الوجه، تعلوه صفرة باهتة، منطويًا على نفسه، يخشى المجتمعات، متلعثمًا في كلامه، لا يستطيع التركيز في عمله أو في مذاكرته، مضطرب النفس، يعاني من القلق وعدم الاستقرار، ينتابه صداع مستمر وآلام تشبه آلام الروماتزم في المفاصل والساقين والذراعين تصيب يده برعشة خفيفة حتى إنه لايستطيع التحكم في الأصابع، وضربات قلبه سريعة، وأعصابه دائمًا مشدودة، يكسوه عرق بارد مع زغللة في العينين، وحمرة باهتة في الوجه، سريع النسيان، قليل الانتباه، خجول وكسول، لا يهتم بما يجري حوله، ويهرب من تحمل أي مسئولية، وهذه الأمراض جميعًا سببها الاضطراب النفسي والتمزق الذهني، وحالة القلق وعدم الاستقرار والشعور بالذنب التي يعيشها مدمن العادة السرية.[1]

الوجه السادس: الجنس في الكتاب المقدس.

ويكفينا في هذا المقام نشيد الإنشاد

نشيد (١عدد٢): ٢لِيُقَبِّلْنِي بِقُبْلاَتِ فَمِهِ، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ. . . صُرَّةُ الْمُرِّ حَبِيبِي لِي. بَيْنَ ثَدْيَيَّ يَبِيتُ.

هذا كان في البداية حتى إذا زاد الأمر ودًا وعشقًا بدأوا في الدخول إلى بيت الخمر كما في الإصحاح الثاني من نشيد الإنشاد أنقل منه بعض الفقرات كما يلي: ٤أَدْخَلَنِي إِلَى بَيْتِ الْخَمْرِ، وَعَلَمُهُ فَوْقِي مَحَبَّةٌ. . . شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي. . . حَبِيبِي هُوَ شَبِيهٌ بِالظَّبْيِ أَوْ بِغُفْرِ الأَيَائِلِ. هُوَذَا وَاقِفٌ وَرَاءَ حَائِطِنَا، يَتَطَلَّعُ مِنَ الْكُوَى، يُوَصْوِصُ مِنَ الشَّبَابِيكِ.

ثم زاد في في الإصحاح الثالث ٣ (عدد١-٤): فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. ٢إِنِّي أَقُومُ وَأَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ، فِي الأَسْوَاقِ وَفِي الشَّوَارِعِ، أَطْلُبُ

---

(١) المراهقة وسن البلوغ د/ أحمد رفعت نقلًا من الجاهلية الجنسية وانظر حياتنا الجنسية د/ خيري الأمراض الجنسية د/ محمد البار ٤٠، وكتاب الرجل في الموسوعة الصحية صـ٩٣ لمجموعة من الأطباء.

مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. ٣وَجَدَنِي الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: «أَرَأَيْتُمْ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي؟ » ٤فَمَا جَاوَزْتُهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً حَتَّى وَجَدْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي، فَأَمْسَكْتُهُ وَلَمْ أَرْخِهِ، حَتَّى أَدْخَلْتُهُ بَيْتَ أُمِّي وَحُجْرَةَ مَنْ حَبِلَتْ بِي.

(نشيد: ٤ عدد١): هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي، هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ! عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ مِنْ تَحْتِ نَقَابِكِ. شَعْرُكِ كَقَطِيعِ مِعْزٍ رَابِضٍ عَلَى جَبَلِ جِلْعَادَ. ٢أَسْنَانُكِ كَقَطِيعِ الْجَزَائِزِ الصَّادِرَةِ مِنَ الْغَسْلِ، اللَّوَاتِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مُتْئِمٌ، وَلَيْسَ فِيهِنَّ عَقِيمٌ. ٣شَفَتَاكِ كَسِلْكَةٍ مِنَ الْقِرْمِزِ، وَفَمُكِ حُلْوٌ. خَدُّكِ كَفِلْقَةِ رُمَّانَةٍ تَحْتَ نَقَابِكِ. ٤عُنُقُكِ كَبُرْجِ دَاوُدَ الْمَبْنِيِّ لِلأَسْلِحَةِ. أَلْفُ مِجَنٍّ عُلِّقَ عَلَيْهِ، كُلُّهَا أَتْرَاسُ الْجَبَابِرَةِ. ٥ثَدْيَاكِ كَخِشْفَتَيْ ظَبْيَةٍ، تَوْأَمَيْنِ يَرْعَيَانِ بَيْنَ السَّوْسَنِ. ٦إِلَى أَنْ يَفِيحَ النَّهَارُ وَتَنْهَزِمَ الظِّلاَلُ، أَذْهَبُ إِلَى جَبَلِ الْمُرِّ وَإِلَى تَلِّ اللُّبَانِ. ٧كُلُّكِ جَمِيلٌ يَا حَبِيبَتِي لَيْسَ فِيكِ عَيْبَةٌ. ٨هَلُمِّي مَعِي مِنْ لُبْنَانَ يَا عَرُوسُ، مَعِي مِنْ لُبْنَانَ! انْظُرِي مِنْ رَأْسِ أَمَانَةَ، مِنْ رَأْسِ شَنِيرَ وَحَرْمُونَ، مِنْ خُدُورِ الأُسُودِ، مِنْ جِبَالِ النُّمُورِ. ٩قَدْ سَبَيْتِ قَلْبِي يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ. قَدْ سَبَيْتِ قَلْبِي بِإِحْدَى عَيْنَيْكِ، بِقَلاَدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُنُقِكِ. ١٠مَا أَحْسَنَ حُبَّكِ يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ! كَمْ مَحَبَّتُكِ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ! وَكَمْ رَائِحَةُ أَدْهَانِكِ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ الأَطْيَابِ! ١١شَفَتَاكِ يَا عَرُوسُ تَقْطُرَانِ شَهْدًا. تَحْتَ لِسَانِكِ عَسَلٌ وَلَبَنٌ، وَرَائِحَةُ ثِيَابِكِ كَرَائِحَةِ لُبْنَانَ. ١٢أُخْتِي الْعَرُوسُ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ، عَيْنٌ مُقْفَلَةٌ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ. ١٣أَغْرَاسُكِ فِرْدَوْسُ رُمَّانٍ مَعَ أَثْمَارٍ نَفِيسَةٍ، فَاغِيَةٍ وَنَارِدِينٍ. ١٤نَارِدِينٍ وَكُرْكُمٍ. قَصَبِ الذَّرِيرَةِ وَقِرْفَةٍ، مَعَ كُلِّ عُودِ اللُّبَانِ. مُرٌّ وَعُودٌ مَعَ كُلِّ أَنْفَسِ الأَطْيَابِ. ١٥يَنْبُوعُ جَنَّاتٍ، بِئْرُ مِيَاهٍ حَيَّةٍ، وَسُيُولٌ مِنْ لُبْنَانَ. ١٦اِسْتَيْقِظِي يَا رِيحَ الشَّمَالِ، وَتَعَالَيْ يَا رِيحَ الْجَنُوبِ! هَبِّي عَلَى جَنَّتِي فَتَقْطُرَ أَطْيَابُهَا. لِيَأْتِ حَبِيبِي إِلَى جَنَّتِهِ وَيَأْكُلْ ثَمَرَهُ النَّفِيسَ.

(نشيد: ٧ عدد١): ١مَا أَجْمَلَ رِجْلَيْكِ بِالنَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الْكَرِيمِ! دَوَائِرُ فَخْذَيْكِ مِثْلُ الْحَلِيِّ، صَنْعَةِ يَدَيْ صَنَّاعٍ. ٢سُرَّتُكِ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، لاَ يُعْوِزُهَا شَرَابٌ مَمْزُوجٌ. بَطْنُكِ صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ. ٣ثَدْيَاكِ كَخَشْفَتَيْنِ، تَوْأَمَيْ ظَبْيَةٍ. ٤عُنُقُكِ كَبُرْجٍ مِنْ عَاجٍ. عَيْنَاكِ

كَالْبِرَكِ فِي حَشْبُونَ عِنْدَ بَابِ بَثِّ رَبِّيمَ. أَنْفُكِ كَبُرْجِ لُبْنَانَ النَّاظِرِ تُجَاهَ دِمَشْقَ. ٥رَأْسُكِ عَلَيْكِ مِثْلُ الْكَرْمَلِ، وَشَعْرُ رَأْسِكِ كَأُرْجُوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ. ٦مَا أَجْمَلَكِ وَمَا أَحْلاَكِ أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ بِاللَّذَّاتِ! ٧قَامَتُكِ هذِهِ شَبِيهَةٌ بِالنَّخْلَةِ، وَثَدْيَاكِ بِالْعَنَاقِيدِ. ٨قُلْتُ: «إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى النَّخْلَةِ وَأُمْسِكُ بِعُذُوقِهَا». وَتَكُونُ ثَدْيَاكِ كَعَنَاقِيدِ الْكَرْمِ، وَرَائِحَةُ أَنْفِكِ كَالتُّفَّاحِ، ٩وَحَنَكُكِ كَأَجْوَدِ الْخَمْرِ. لِحَبِيبِي السَّائِغَةُ الْمُرَقْرِقَةُ السَّائِحَةُ عَلَى شِفَاهِ النَّائِمِينَ. ١٠أَنَا لِحَبِيبِي، وَإِلَيَّ اشْتِيَاقُهُ. ١١تَعَالَ يَا حَبِيبِي لِنَخْرُجْ إِلَى الْحَقْلِ، وَلْنَبِتْ فِي الْقُرَى. ١٢لِنُبَكِّرَنَّ إِلَى الْكُرُومِ، لِنَنْظُرَ: هَلْ أَزْهَرَ الْكَرْمُ؟ هَلْ تَفَتَّحَ الْقُعَالُ؟ هَلْ نَوَّرَ الرُّمَّانُ؟ هُنَالِكَ أُعْطِيكَ حُبِّي. ١٣اَللُّفَّاحُ يَفُوحُ رَائِحَةً، وَعِنْدَ أَبْوَابِنَا كُلُّ النَّفَائِسِ مِنْ جَدِيدَةٍ وَقَدِيمَةٍ، ذَخَرْتُهَا لَكَ يَا حَبِيبِي.

* * *

٢٢ـ شبهة: السِّحاق.

نص الشبهة:

قالوا إن الإسلام أحلَّ السِّحاق بدليل قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ ﴾ (النساء: ١٥).

والحديث: لا تباشر المرأةُ المرأةَ حتى تصفها لزوجها كأنما ينظر إليها.

والجواب على ذلك من وجوه

الوجه الأول: القرآن يحرم السحاق.

الوجه الثاني: نهى النبي ﷺ أن تنظر المرأة إلى عورة المرأة وأن تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد، فمن باب أولى حرمةُ السحاق.

الوجه الثالث: خطورة السحاق طبيًا ونفسيًا.

الوجه الرابع: لقد وضع الإسلام الحصون التي تقي المرأة من الوقوع في الفواحش كالزنا والسحاق وغير ذلك.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القرآن يحرم السحاق.
وفي ذلك أدلة كثيرة منها:

١-قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥-٧)(١)

الوجه الثاني: نهى النبي ﷺ أن تنظر المرأة إلى عورة المرأة، وأن تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضى الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد". (٢)

---

(١) راجع بحث الاستمناء فالآيات مشتركه في الحرمة وفيها فوائد مهمة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه باب تحريم النظر إلى العورات (٣٣٨).

قال النووي: ففيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا لا خلاف فيه.

ثم قال: وأما قوله: ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، وكذلك في المرأة مع المرأة فهو نهي تحريم إذا لم يكن بينهما حائل.

وفيه دليل على تحريم لمس عورة غيره بأي موضع من بدنه كان، وهذا متفق عليه. (١)

قلت: فهذا واضح في تحريم لمس المرأة عورة المرأة الأخرى فيكون أولى من هذا وأشد في الحرمة فاحشة السحاق.

أما عن حديث النبي ﷺ لا تباشر المرأةُ المرأةَ فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها. (٢) فلا يدل معناه على حل السِّحاق.

قال المناوي في فيض القدير: (لا تباشر) خبر بمعنى النهي (المرأةُ المرأةَ)، زاد النسائي (في الثوب الواحد): أي لا تمس امرأة بشرة أخرى ولا تنظر إليها، فالمباشرة كناية عن النظر؛ إذ أصلها التقاء البشرتين، فاستعير إلى النظر إلى البشرة يعني لا تنظر إلى بشرتها.

(فتنعتها) أي تصف ما رأت من حسن بشرتها وهو عطف على تباشر، (لزوجها كأنه ينظر إليها) فيتعلق قلبه بها فتقع بذلك فتنةٌ، والنهي منصب على المباشرة والنعت معًا فتجوز المباشرة بغير توصيف، قال القابسي: هذا الحديث أصل لمالك في سد الذرائع فإن حكمة النهي خوف أن يعجب الزوجَ الوصفُ فيفضي إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة. (٣)

وفي عون المعبود قال: والمباشرة بمعنى المخالطة والملامسة، وأصله من لمس البشرة البشرة، والبشرة ظاهر جلد الإنسان، (لتنعتها): وفي رواية البخاري (فتنعتها) أي فتصف نعومة بدنها ولين جسدها (كأنما ينظر إليها): فيتعلق قلبه بها ويقع بذلك فتنة. والمنهي في

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) البخاري (٥٢٤٠)، وفي مسند أحمد (١/ ٣٨٧)، وانظر: معنى المباشرة أيضًا في شبهة " مباشرة النبي ﷺ وهو صائم "، ومباشرة الرجل زوجته في الحيض.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (٦/ ٣٨٥).

الحقيقة هو الوصف المذكور.

قال الطيبي: المُعْنَي به في الحديث النظر مع اللمس فتنظر إلى ظاهرها من الوجه والكفين وتجس باطنها باللمس وتقف على نعومتها وسمنتها، فتنعتها عطف على تباشر، فالنفي منصب عليهما فيجوز المباشرة بغير التوصيف كذا في المرقاة. (١)

قال العلامة بدر العيني: أي هذا باب يذكر فيه: لا تباشر من المباشرة؛ وهي الملامسة في الثوب الواحد.(٢)

قال ابن حزم: فهذه نصوص جلية على تحريم مباشرة الرجل الرجل والمرأة المرأة على السواء، فالمباشرة منها لمن نهى عن مباشرته عاص لله تعالى مرتكب حرام على السواء فإذا استعملت بالفروج كانت حراما زائدا ومعصية مضاعفة. (٣)

أما عن استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ (النساء: من الآية١٥).

فالآية تذكر عقوبة من تقع في الفاحشة وكما عليه جمهور أهل العلم أن الآية منسوخة.

قال ابن كثير: كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك. (٤)

---

(١) عون المعبود لشرح سنن أبي داود (٦/ ١٣٢).

(٢) عمدة القاري (٢٠ ٢١٩).

(٣) المحلى لابن حزم (١١/ ٣٩٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٣).

قال البغوي: قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يعني: الزنا، ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ يعني: من المسلمين، وهذا خطاب للحكام، أي: فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود، وفيه بيان أن الزنا لا يثبت إلا بأربعة من الشهود.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾فاحبسوهن، ﴿فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾، وهذا كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود، كانت المرأة إذا زنت حُبست في البيت حتى تموت، ثم نسخ ذلك في حق البكر بالجلد والتغريب، وفي حق الثيب بالجلد والرجم. [(١)]

الوجه الثالث: خطورة السحاق طبيًا ونفسيًا.

قال صاحب الموسوعة الطبية الفقهية عن السحاق: هو انحراف جنسي مخالف لفطرة الله ـ عز وجل ـ الذي شرع الزواج بين الذكر والأنثى تحقيقًا لقيام الأسرة ودوام النوع البشري، والسحاق ـ من الوجهة الطبية ـ لا يقل خطورة عن اللواط وبقية المخالفات والممارسات الجنسية الشاذة المحرمة فهو مصدر خطير من مصادر العدوى بالأمراض الجنسية (Sexual Transmitted Diseases Studs)؛ لأن النسوة اللاتي يمارسن السحاق غالبًا ما يكن مصابات بهذه الأمراض، ومادمن يمارسن فاحشة السحاق بلا وازع من دين ولا خلق فإنهن لا يتورعن عن مخادنة الرجال والنساء ومن هب ودب، وفي غمرة هذا الوسط الموبوء يمسين مرتعًا موبوءًا بتلك الأمراض الخطيرة التي يؤدي كثير منها إلى العقم والتشوهات والعاهات. . . . . . والموت. [(٢)]

الوجه الرابع: لقد وضع الإسلام الحصون التي تقي المرأة من الوقوع في الفواحش كالزنا والسحاق وغير ذلك.

من هذه الحصون:

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ١٨١).

(٢) الموسوعة الطبية الفقهية د/ أحمد محمد كنعان.

أولًا الحجاب: (١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾﴾ (الأحزاب: ٥٩).

قال الطبري: يقول ـ تعالى ـ ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين: لا يتشبهن بالإماء في لباسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن، فكشفن شعورهن ووجوههن. ولكن ليدنين عليهن من جلابيبهنّ؛ لئلا يعرض لهن فاسق، إذا علم أنهن حرائر، بأذى من قول.

فالحجاب فرضه رب العالمين لحكم كثيرة، منها:

١ – ابتغاء رضا الله ورسوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦).

٢– طهارةٌ للقلوب ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

٣– حفظٌ للأعراض.

٤ – علامةٌ للعفة ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

٥ـ يقطع الأطماع والخواطر الشيطانية.

٦ـ يحفظ الحياء.

٧– حصانة ضد الزنا والإباحية.

٨– ستر لعورة المرأة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأعراف: ٢٦) هذا وقد وضع أهل العلم شروطا لحجاب المرأة أو للباسها: (٢)

١ –ستر جميع البدن على الراجح.

---

(١) للتفصيل في هذه المسألة راجع شبه الحجاب والرد عليها في محلها.

(٢) أخذت باختصار من كتاب أدلة الحجاب لمحمد إسماعيل المقدم، وراجع تفصيل ذلك في شبهة الحجاب.

٢- أن لا يكون الحجاب زينة في نفسه.

٣- أن يكون ثخينًا لا يشف.

٤- أن يكون فضفاضًا واسعًا غير ضيق.

٥- أن لا يكون مبخرًا.

٦- أن لا يشبه ملابس الرجال.

٧- أن لا يقصد به الشهرة بين الناس.

ثانيا: غض الأبصار.

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ (النور: ٣١).

قال الطبري: يقول ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ من أمتك ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ عما يكره الله النظر إليه مما نهاكم عن النظر إليه ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، يقول: ويحفظن فروجهنَّ عن أن يراها من لا يحلّ له رؤيتها، بلبس ما يسترها عن أبصارهم. [1]

قال السعدي: لما أمر المؤمنين بغض أبصار وحفظ الفروج، أمر المؤمنات بذلك، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات والرجال بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكين من جماعها، أو مسها، أو النظر المحرم إليها. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة، لا بد لها منها، قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: الثياب الظاهرة، التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبداؤها، يدخل فيها جميع البدن. [2]

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٢٤).

(٢) تفسير السعدي (٦٧١).

ثالثا: التفريق بين الأولاد في المضاجع

قَالَ رَسُول الله ﷺ: " مُرُوا أَوْلادكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ "(١)

رابعًا: النهى عن إفشاء سر الزوجية

عن أبى سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا". (٢)

وغيرها من الحصون التى وضعها الشر ع لصيانة المرأة المسلمة، فلنتعلم ذلك من كتاب ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ، والله تعالى المستعان والموفق.

أما عن هذا الشذوذ في الكتاب المقدس

فحدث ولا حرج كما حدثوا وأعلنوا، وقد مر هذا كثيرًا، فليراجع في محله؛ وعلى سبيل المثال يراجع في الرد على شبهة الزنا، ونكاح المحارم، واللواط وغيرها.

فإن القلم صار يستحي من كتابة وترديد هذه الفواحش التي أعلنوها وبدون استحياء.

* * *

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٢٧١)، والبهيقي في الشعب (٨٦٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٤٣٧).

٢٣ـ شبهة: تبادل الزوجات.

نص الشبهة:

زعم هؤلاء أن الإسلام أحلَّ تبادل الزوجات، ومصدر الشبهة عندهم سوء فهم الآيةوالاعتماد أيضا على حديث ضعيف وأُسيء فهمه أيضا، وكذلك الاعتماد على انحراف بعض من ينسب نفسه للإسلام.

والجواب علي هذه الشبهة يدور حول ما يلي:

الوجه الأول: بيان حكم تبادل الزوجات في الشريعة الإسلامية.

الوجه الثاني: الجواب عن الآية التي ذكروها وبيان معناها الصحيح.

الوجه الثالث: الإجابة عن الحديث الذي ذكروه، وكذلك الحوادث التي يتعللون بها ويحتجون بها علي الإسلام.

وإليك التفصيل

والجواب أن تبادل الزوجات في الشريعة الإسلامية حرام وذلك لوجوه:

١- أنه زنا، والزاني المحصن في الإسلام حده الرجم.

٢- أنه ينافي الغيرة التي تجعل المسلم يترفع عن خلق الدياثة؛ وهي كبيرة من الكبائر.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن أبيه: عن النبيﷺ قال: "ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء ". (١)

وعن زيد بن أسلم قال: قال النبيﷺ :"إن الغيرة من الإيمان، وإن البذاء من النفاق؛ والبذاء الديوث". (٢)

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدًا: الديوث من الرجال، والرجلة من النساء، ومدمن الخمر"؛ فقالوا: يا رسول الله، أما مدمن الخمر

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٤)، والنسائي (٢٥١٥)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٥١)، وأبو يعلي (٩/ ٤٠٨)، والحاكم (١/ ١٤٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقى فى الشعب (١٠٧٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٢، ٣٠٦٣).

(٢) مصنف عبدالرزاق (١٠/ ٤٠٩)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٤١١)، وقال: هكذا جاء مرسلًا.

فقد عرفناه، فما الديوث من الرجال؟ قال: "الذي لا يبالي من دخل على أهله"، قلنا: فالرجلة من النساء؟ قال: "التي تشبه بالرجال". (١)

٣- إن ملكية الرجل لبضع المرأة لاتبيح له هبته، ولا بيعه، ولا التصدق به، ولا تأجيره، ولا استخدامه بأي وجه لا يجوز؛ فهي ملكية مقيدة بماأذن الله فيه، فإذا خرجت عن هذا الإطار فلا يجوز للمرأة أن تطيعه؛ ولو أدى ذلك إلى الطلاق والانفصال. فعن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما الطاعة في المعروف". (٢)

وعن نافع عن عبد الله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ". (٣)

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". (٤)

وعن ابن مسعود ﷺ أنّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: يَا عَبْدَ الله، سَيَأْتِي بَعْدِي قَوْمٌ يُؤَخِّرُونَ الصَّلاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا، قَالَ عَبْدُ الله فَقُلْتُ: كَيْفَ تَأْمُرُنِي يَا رَسُولَ الله، قَالَ: يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ، إِنْ أَدْرَكْتَهُمْ فَلا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ. "(٥)،

وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"(٦)

وأيضا فإن هذا التصرف من الرجل فيه مبادلة وانتفاع كل منهما بالعين المستبدل بها وهذا لايجوز في المرأة الحرة.

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "قَالَ الله: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ"(١).

---

(١) البيهقي في الشعب (١٠٨٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦٢).

(٢) البخاري (٦٧٢٦).

(٣) البخاري (٦٧٢٥).

(٤) الطبراني في الكبير (٣٨١)، والشهاب (٨٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٢٠).

(٥) مسند البزار (١٩٨٨) قال: وهذا الكلام لا نعلمه يروى عن عبد الله إلا بهذا الإسناد.

(٦) رواه ابن أبي شيبة مرسلًا (٦/ ٥٤٥)، وأحمد بلفظ قريب (١/ ١٣١)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٦٩٦).

وهكذا فملك الرجل لهذه المتعة ملكٌ مقيد بشرع الله- تعالي- فهولا يملك أن يهبها أويعيرها لغيره فضلًا عن استبدال بهذا الشكل القبيح الذي لا يليق ببشر.

٤- إن هذا الوجه إن وجد عند العرب فهو من أنكحة الجاهلية التي أبطلها الإسلام.

قال ابن حجر وهو يتكلم عن نكاح الجاهلية:

الْأَوَّل: نِكَاح الْخِدْن وَهُوَ فِي قَوْله- تَعَالَى-: "وَلَا مُتَّخِذَات أَخْدَان "، كَانُوا يَقُولُونَ: مَا اِسْتَتَرَ فَلَا بَأْس بِهِ، وَمَا ظَهَرَ فَهُوَ لَوْمٌ.

الثَّانِي: نِكَاح الْمُتْعَة وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانه.

الثَّالِث: نِكَاح الْبَدَل، وَقَدْ أَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة: " كَانَ الْبَدَل فِي الْجَاهِلِيَّة أَنْ يَقُول الرَّجُل لِلرَّجُلِ اِنْزِلْ لِي عَنْ اِمْرَأَتك وَأَنْزِل لَك عَنْ اِمْرَأَتِي وَأَزِيدك " وَلَكِنْ إِسْنَاده ضَعِيف جِدًّا.

قُلْت: وَالْأَوَّل لَا يَرِدّ لِأَنَّهَا أَرَادَتْ ذِكْر بَيَان نِكَاح مَنْ لَا زَوْج لَهَا أَوْ مَنْ أَذِنَ لَهَا زَوْجهَا فِي ذَلِكَ، وَالثَّانِي يَحْتَمِل أَنْ لَا يَرِدّ لِأَنَّ الْمَمْنُوع مِنْهُ كَوْنه مُقَدَّرًا بِوَقْتٍ لَا أَنَّ عَدَم الْوَلِيّ فِيهِ شَرْط، وَعَدَم وُرُود الثَّالِث أَظْهَر مِنْ الْجَمِيع[٢]. فهذا الحافظ ابن حجر يقول بأن: الثالث وهو نكاح البدل لا يرد وعدم وروده أظهر من عدم ورود غيره.

فإن قيل: ما هو معني الآية على ماوفت من حرمة تبادل الزوجات في الإسلام؟

فالجواب أن للعلماء في هذه الآية ثمانية أوجه:

الوجه الأول: منهم من قال: هي منسوخة بالسنة يدل عليه حديث عائشة ﵂ قالت: "ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء"؛ فدل هذا الحديث على أن عائشة قد كان عندها أنه حظر عليه ﷺ التزوج ثم أطلق له وأبيح. [٣]

---

(١) البخاري (٢١١٤).

(٢) فتح الباري (٩/ ١٨٤)

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس صـ٦٢٨. والحديث أخرجه الترمذي (٣٢١٦)، وقال: حديث حسن، والنسائي في الصغرى (٣٢٠٤)، والكبري (٥٣١١)، وأحمد (٦/ ٤١)، والبيهقي فى السنن الكبرى

الوجه الثاني: ومنهم من قال: هي منسوخة بآية أخري وكان اللهﷻقد حظر عليه التزوج بعد من كان عنده، ثم أطلقه له وأباحه بقولهﷻ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ (الأحزاب: ٥١). وهو قول جماعة من التابعين.

وعن أم سلمة قالت: لم يمت رسول اللهﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله ﷻ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾. (١)

وهذا- والله تعالى أعلم- أولى ما قيل في الآية، وهوقول عائشة واحد في النسخ، وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحل له ذلك بالقرآن؛ وهو مع هذا قول علي بن أبي طالب ﷺ، وابن عباس، وعلي بن الحسين، والضحاك، وقد عارض بعض الفقهاء الكوفيين فقال: محال أن تنسخ هذه الآية يعني: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع المسلمون عليه، وقوى قول من قال: نسخت بالسنة لأنه مذهب بعض الكوفيين. قال أبو جعفر: وهذه المعارضة لا تلزم وقائلها غالط؛ لأن القرآن بمنزلة سورة واحدة كما صح عن ابن عباس « أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان » ويبين لك أن اعتراض هذا لا يلزم قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(٧/ ٥٤)، وعبدالرزاق (٧/ ٤٩١)، وابن أبي شيبة (٣/ ٥٣٩)، والحميدي (٢٣٥)، وإسحاق بن راهويه (١١٨٤)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ، والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٣٩) جميعهم من طريق عمروبن دينار، عن عطاء قال: قالت عائشة. وروايةعطاءبن أبي رباح عن عائشة لايحتج بها إلا أن يقول: سمعت؛ كما قال الإمام أحمد، ولم يقل هنا سمعت، ولكن الحديث أخرجه أحمد (٦/ ١٨٠)، والنسائي (٣٢٠٥)، والبيهقي (٧/ ٥٤)، وإسحق بن راهويه (١١٨٣)، وابن حبان (٦٣٦٦)، من طريق ابن جريج عن عطاءعن عبيد بن عمير عن عائشة؛ وهذا علي شرط مسلم فالحديث صحيح بهذين الطريقين إن شاء الله.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير، والطحاوي في مشكل الآثار، والنحاس في الناسخ والمنسوخ؛ ثلاثتهم من طريق عمر بن أبي بكر الموصلي، حدثني المغيرة بن عبدالرحمن الحزامي، عن أبي النضرمولي عمر بن عبيد الله، عن عبدالله بن وهب بن زمعة عن أم سلمة.

(البقرة: ٢٤٠) منسوخة على قول أهل التأويل - لا نعلم بينهم خلافًا- بالآية التي قبلها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤).

الوجه الثالث: ومن العلماء من قال الآية محكمة ولم يكن له ﷺ أن يتزوج سوي من كان عنده ثوابًا من الله تعالي لهن حين اخترن الله ورسوله والدار الآخرة. وهذا معناه أنه ﷺ حظر عليه أن يتزوج على نسائه لأنهن اخترن الله -جل وعز- ورسوله ﷺوالدار الآخرة فعوضن؛ هذا قول الحسن، وابن سيرين، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ. فإن قال: كيف يجوز أن ينسخ ما كان ثوابًا؟ قيل: يجوز أن ينسخ ما كان ثوابًا بما هو أعظم منه في الثواب، فيكون هذا نسخ وعوض منه أنهن أزواجه في الجنة فهذا أعظم خطرًا وأجل مقدارًا، كما قال: حذيفة لامرأته: لا تزوجي بعدي فإن آخر أزواج المرأة زوجها في الجنة، ولذلك حظر على نساء النبي أن يتزوجن بعده. [1]

وقال الطحاوي: ولما استحالت هذه الأقوال التي ذكرنا استحالتها لم يبق بعدها مما قيل في تأويل هذه الآية إلا ما قد رويناه فيه عن محمد بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعن الحسن، وابن سيرين؛ في أنها على أن لا يتزوج سوى نسائه التسع، فقال قائل: وكيف يكون ذلك كذلك وإنما كان الله قصره عليهن شكرًا منه لهن على اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة؛ فكيف يجوز أن ينزع ذلك منهن؟ فكان جوابنا له في ذلك أنه قد يحتمل أن يكون الله كان قد جعل ذلك لهن شكرًا على ما كان منهن مما ذكر من اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الدنيا، ثم أباح لنبيه بعد ذلك تزويج غيرهن فلم يشأ ذلك، وحبس نفسه عليهن شاكرًا لهن ما كان منهن من اختيارهن الله -تعالى- وإياه والدار الآخرة على الدنيا ليشكر الله ذلك له فيكون عليه مشكورًا منه، ويكون نساؤه اللاتي كن قصر عليهن ومنع من سواهن رضوان الله عليهن باقيات فيما كن عليه من حبس الله -

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس آية سورة الأحزاب (٥٢).

تعالى- إياه عليهن بأن عاد ذلك من النبي ﷺ اختيارًا بعد أن كان قبل ذلك عليه واجبًا، فهذا أحسن ما وجدناه في تأويل هذين الحديثين، والله نسأله التوفيق[1].

الوجه الرابع: ومنهم من قال: هي محكمة ولكن لما حظر عليهن أن يتزوجن بعد موته حظر عليه أن يتزوج غيرهن. وهو قول أبي أمامة بن سهل بن حنيف.

الوجه الخامس: ومنهم من قال: المعنى لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة يعني ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾. والمعني: لايحل لك النساء من بعد هذه الصفة؛ قول أبي رزين، وهو يروي عن أبي بن كعب؛ وهو اختيار محمد بن جرير.

الوجه السادس: ومنهم من قال: لايحل لك النساء بعد المسلمات ولاتتزوج يهودية ولانصرانية.

والمعني: لا يحل لك النساء من بعد المسلمات؛ قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، قال مجاهد: لئلا تكون كافرة أما للمؤمنين. هذا القول يبعد لأنه يقدره من بعد المسلمات ولم يجر للمسلمات ذكر.

الوجه السابع: ومنهم من قال: لاتبدل واحدة من أزواجك بيهودية ولانصرانية. وهذا أبعد من ذلك؛ لأن نص القرآن: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾. وليس في القرآن ولا أن تبادل، وحكى ابن زيد عن العرب أنها كانت تبادل بأزواجها، يقول: أحدهم خذ زوجتي وأعطني زوجتك. وهذا غير معروف عند الناقلين لأفعال العرب.

والوجه الثامن: أن النبي ﷺ لما قال الله تعالي: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ (الأحزاب: ٣٨) كان له أن يتزوج من النساء من شاء بغير عدد محظور كما كان للأنبياء قبلهﷺ، وهذا معناه: كان له حلال أن يتزوج من شاء من النساء ثم نسخ ذلك.

---

(١) مشكل الآثار (٢/ ٣٩).

قول محمد بن كعب القرظي قال: وكذا كانت الأنبياء قبله ﷺ، تزوج سليمان ﷺ سبعمائة امرأة حرة وكان له ثلاثمائة مملوكة فذلك ألف، وكان لداود ﷺ مائة امرأة منهن أم سليمان امرأة أورياء بن حنان. وقال عمر مولى غفرة: لما قالت اليهود ما لمحمد ﷺ شغل إلا التزوج فحسدوه على ذلك فأنزل الله ﷻ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (النساء: ٥٤)، وكان لسليمان ﷺ ألف امرأة منها سبعمائة حرة وكان لداود ﷺ مائة امرأة.[1]

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ولا أن تطلق أزواجك فتستبدل بهن غيرهن أزواجًا. فإن قال قائل: أفلم يكن لرسول الله ﷺ أن يتزوج امرأة على نسائه اللواتي كن عنده؟ فيكون موجهًا تأويل قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ إلى ما تأولت، أو قال: وأين ذكر أزواجه اللواتي كن عنده في هذا الموضع؟ فتكون الهاء من قوله ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ ﴾ من ذكرهن، وتوهم أن الهاء في ذلك عائدة على النساء في قوله: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾؟ قيل: قد كان لرسول الله ﷺ أن يتزوج من شاء من النساء اللواتي كان الله أحلهن له على نسائه اللاتي كن عنده يوم نزلت هذه الآية، وإنما نهي ﷺ بهذه الآية أن يفارق من كان عنده بطلاق أراد به استبدال غيرها بهالإعجاب حسن المستبدلة له بها إياه إذ كان الله قد جعلهن أمهات المؤمنين، وخيرهن بين الحياة الدنيا والدار الآخرة والرضا بالله ورسوله فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ فحرمن على غيره بذلك ومنع من فراقهن بطلاق، فأما نكاح غيرهن فلم يمنع منه بل أحل الله له ذلك على ما بيَّن في كتابه. وقد روي عن عائشة أن النبي ﷺ لم يقبض حتى أحل الله له نساء أهل الأرض.

فتأويل الكلام: لا يحل لك يا محمد النساء من بعد اللواتي أحللتهن لك في الآية قبل، ولا أن تطلق نساءك اللواتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فتبدل بهن من أزواج؛ ولو

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٦٣٥).

أعجبك حسن من أردت أن تبدل به منهن؛ إلا ما ملكت يمينك. وأن في قوله: ﴿أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ رفع؛ لأن معناها: لا يحل لك النساء من بعد، ولا الاستبدال بأزواجك، وإلا في قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء من النساء، ومعنى ذلك: لا يحل لك النساء من بعد اللواتي أحللتهن لك إلا ما ملكت يمينك من الإماء، فإن لك أن تملك من أى أجناس الناس شئت من الإماء. (١)

قلت: وبهذا يتضح للقارئ أن الآية لا علاقة لها بتبادل النساء على المعني الذي أراد، ولو كان لكانت علاقة المنع لا الإباحة.

وأما الحديث الذي استدل به علي إباحة التبادل في الإسلام للزوجات:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: كَانَ الْبَدَلُ فِى الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ: تَنْزِلُ لِى عَنِ امْرَأَتِكَ وَأَنْزِلُ لَكَ عَنِ امْرَأَتِى وَأَزِيدُكَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهﷻ: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، قَالَ: "فَدَخَلَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِىُّ عَلَى رَسُولِ الله ﷺوَعِنْدَهُ عَائِشَةُ فَدَخَلَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: (يَا عُيَيْنَةُ فَأَيْنَ الاِسْتِئْذَانُ)، فَقَالَ يَا رَسُولَ الله، مَا اسْتَأْذَنْتُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ مُضَرَ مُنْذُ أَدْرَكْتُ، قَالَ مَنْ هَذِهِ الْحُمَيْرَاءُ الَّتِى إِلَى جَنْبِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (هَذِهِ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ)، قَالَ: أَفَلاَ أَنْزِلُ لَكَ عَنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ، قَالَ: (يَا عُيَيْنَةُ، إِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ)، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ الله، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَحْمَقُ مُطَاعٌ وَإِنَّهُ عَلَى مَا تَرَيْنَ لَسَيِّدُ قَوْمِهِ". (٢)

---

(١) الطبري، وانظر تفسير القرطبي، الشوكاني، روح المعاني للآلوسي، آية (٥٢) من سورة الأحزاب.

(٢) الدارقطني في سننه٣/ ٢١٨ من طريق إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ أَبِى فَرْوَةَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ به. وفيه إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة؛ وهو متروك الحديث متهم بالكذب. وهذه بعض أقوال العلماء فيه: قال ابن معين: ليس بشيء؛ ولا يكتب حديثه، وقال عنه في رواية علي بن حسن الهسنجاني: كذاب. وقال أحمد: لاتحل عندي الرواية عن إسحاق بن أبي فروة، وماهو بأهل لأن يحمل عنه أو يروي عنه. وقال عمرو بن علي، وأبو زرعة، والنسائي، وأبو حاتم: متروك. وقال البخاري: تركوه. وقال ابن خزيمة: لايحتج بحديثه. وقال الدارقطني، والبرقاني: متروك. وقال ابن عدي: لايتابع علي أسانيده ولا

والجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول:

القصةالمذكورة ضعيفة جدًا من هذا الطريق وهي بهذا اللفظ لاأصل لها- كما بينا في الحاشية-؛ وهذا يكفي في إسقاط الاستدلال بها، لكن ربما يقول قائل: إن علماء الإسلام أوردوها محتجين بها علي إباحة تبادل الزوجات. لكن النظر في سياق القصة يبين بطلان ذلك.

الوجه الثاني:

والسؤال الآن: هل في هذا السياق مايدل على الإباحة أم يدل علي التحريم؟

وذلك أن النبي ﷺ قال: إن الله حرم هذا، ووصفه بعد ذلك بالحمق.

الوجه الثالث: ماذا قال العلماءعن هذا الحديث بهذا السياق بعد إيراده؟

أورده ابن كثير بإسناد البزار، وقال بعده: ثم قال البزار إسحاق بن عبد الله: لين الحديث جدًا؛ وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وبينا العلة فيه. [1]

وأورده القرطبي عند تفسير الآية ثم قال: وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب؛ من أنها كانت تبادل بأزواجها. قال الطبري: وما فعلت العرب قط هذا، وما روي من حديث عيينة بن حصن من أنه دخل على رسول الله ﷺ وعنده عائشة. . . الحديث؛ فليس بتبديل ولا أراد ذلك، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول[2].

وقال الحافظ في الفتح: حديث أبي هريرة في نكاح البدل ضعيف جدًا[3].

علي متونه، وهو بينُ الأمر في الضعفاء. وقال الخليلي في الإرشاد: ضعفوه جدًّا. وتكلم فيه مالك والشافعي وتركاه. وقال البزار: ضعيف. وذكره ابن الجارود، والعقيلي، والدولابي وأبو العرب، والساجي، وابن شاهين في الضعفاء. انظرالتاريخ الكبير للبخاري (١/ ٣٩٦)، تهذيب الكمال (٢/ ٤٤٦)، تهذيب التهذيب (١/ ٢١٠)، وتقريب التهذيب (١/ ١٠٢)، والكامل في الضعفاء (١/ ٣٢٦)، والضعفاءوالمتروكين للنسائي (١/ ١٩)، الضعفاءالمتروكين لابن الجوزي (١/ ١٠٢)، والضعفاءللعقيلي (١/ ١٠٢).

(١) تفسير ابن كثير آية الأحزاب (٥٢).

(٢) تفسير القرطبي آية (٥٢) من سورة الأحزاب.

(٣) فتح الباري (٩/ ١٨٤)، عمدة القاري (٢٠/ ١٢٣).

فبان بهذا أن منهم من أورده وبين ضعفه، ومنهم من أورده وبين أنه لايدل علي تبادل الزوجات ولا أراد ذلك عيينة. ومما يؤكد هذا الوجه ويدل عليه ماذكره ابن عبد البر في الاستيعاب فقال: فذكر سُنَيْدٌ حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: جاء عيينة بن الحصن إلى النبي ﷺوعنده عائشة فقال: من هذه وذلك قبل أن ينزل الحجاب قال: " هذه عائشة "، قال: أفلا أنزل لك عن أم البنين فتنكحها فغضبت عائشة وقالت: من هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ: "هذا أحمق مطاع" يعني في قومه.[1]

فانظر قوله: (أفلا أنزل لك عن أم البنين فتنكحها) وهذا واضح في أنه يعرض عليه أن يطلق زوجته حتى تستوفي عدتها ثم يتزوجها النبيﷺ، ولا ذكر فيه البتة لتبادل الزوجات الذي يدعيه صاحب الشبهة.

وهذا إسناد معلق ومرسل، ورواه الطبراني بنحوه موصولًا في الكبير؛ فقال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بن سَعِيدٍ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بن مُطِيعٍ الشَّيْبَانِيُّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بن عَبْدِ الْمَلِكِ بن أَبِي غَنِيَّةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ، عَنْ جَرِيرٍ، أَنَّ عُيَيْنَةَ بن حِصْنٍ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺوَعِنْدَهُ عَائِشَةُ، فَقَالَ: "مَنْ هَذِهِ الْجَالِسَةُ إِلَى جَانِبِكَ؟ قَالَ: (عَائِشَةُ)، قَالَ: أَفَلا أَنْزِلُ لَكَ عَنْ خَيْرٍ مِنْهَا؟ يَعْنِي امْرَأَتَهُ، فَقَالَ النَّبِيّ: ﷺ (لا)، قَالَ لَهُ النبي: ﷺ (اخْرُجْ فَاسْتَأْذِنْ)، قَالَ: إِنَّهَا يَمِينٌ عَلَيَّ أَنْ لا أَسْتَأْذِنَ عَلَى مُضَرِيٍّ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ -رَحِمَهَا الله-: مَنْ هَذَا؟ قَالَ (هَذَا أَحْمَقُ مُتَّبَعٌ)"[2].

وبنحوه أخرجه أبوزيد بن شبة في تاريخ المدينة عن إسماعيل عن قيس عن جرير[3].

وأخرجه ابن سعد من طريق الواقدي عن عائشة في الجزء المتمم للطبقات[1].

---

(١) الاستيعاب: ترجمة عيينة بن حصن.

(٢) المعجم الكبير (٢٢٦٩)، وفيه سعيد بن بشير؛ قال الدارقطني: تفرد بأحاديث لم يتابع عليها، وقال الشوكاني: مجروح وأكثر أهل العلم علي أنه حافظ.

(٣) ويحيي بن محمد بن مطيع الشيباني روي عنه أبوزرعة، ومحمد بن عبدالله الحضرمي، والحسين بن إسحق التستري ـ عند الطبراني في الكبير ـ ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة، وعلي بن سعيد بن بشير. وقال عنه الهيثمي: ثقة؛ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٩/ ١٨٦)، والثقات لابن حبان، ومجمع الزوائد (٧/ ٣٥٧)، (٨/ ٨٩).

وأورد نحوه الذهبي من طريق يزيد بن عياض، عن هشام بن عروة، عن أبيه، وقال مرسل، ويزيد متروك[٢].

ونحو ذلك ماجاء عن الضحاك بن سفيان الكلابي قال: عندي امرأتان أحسن من هذه الحميراء، أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها؟ وعائشة جالسة -قبل أن يضرب الحجاب- فقالت: أهي أحسن أم أنت؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم. فضحك النبي ﷺ لأنه كان دميًا[٣]. وهذا كله لاذكر للمبادلة ولا لإباحتها فيه، وإنما عرض عليه أن يطلقها ليتزوجهارسول اللهﷺ، فأين المبادلة؟

الوجه الرابع: في حال عيينة في هذا الوقت.

قال ابن عبد البر: أسلم بعد الفتح، وقيل: قبل الفتح وشهد الفتح مسلمًا، وهو من المؤلفة قلوبهم، وكان من الأعراب الجفاة[٤].

قال ابن حجر: قال ابن السكن: له صحبة وكان من المؤلفة ولم يصح له رواية، أسلم قبل الفتح وشهدها وشهد حنينًا والطائف، وبعثه النبي ﷺلبني تميم فسبي بعض بني العنبر، ثم كان ممن ارتد في عهد أبي بكر، ومال إلى طلحة فبايعه فأخذ أسيرًا وحمل إلي أبي بكرﷺفكان صبيان المدينة يقولون: ياعدوالله؛ أكفرت بعد إيمانك؟ فيقول: ما آمنت بالله طرفة عين، ثم عاد إلي الإسلام فأطلقه أبوبكر، وكان فيه جفاء سكان البوادي. قال إبراهيم النخعي: جاء عيينة بن حصن إلى النبيﷺوعنده عائشة، فقال: من هذه وذلك قبل أن ينزل الحجاب، فقال: " هذه عائشة " فقال: ألا أنزل لك عن أم البنين، فغضبت عائشة

---

(١) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي المدني القاضي نزيل بغداد، متروك الحديث مع سعة علمه، من التاسعة

(٢) سير أعلام النبلاء: ترجمة عائشة أم المؤمنين (٢/ ١٦٧).

(٣) قال العراقي: أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبدالله بن حسن مرسلًا أومعضلًا، وأورده السبكي في كتاب الأحاديث التي في الإحياء ولم يجد لها السبكي إسنادا(٦/ ٣٣).

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١٢٤٩).

وقالت: من هذا فقال النبيﷺ: " هذا الأحمق المطاع"يعني في قومه، رواه سعيد بن منصور عن أبي معاوية عن الأعمش عنه مرسلا ورجاله ثقات.

وأخرجه الطبراني موصولا من وجه آخر عن جرير أن عيينة بن حصن دخل على النبيﷺفقال وعنده عائشة: من هذه الجالسة إلى جانبك؟ قال: " عائشة "، قال: أفلا أنزل لك عن خير منها يعني امرأته؟ فقال له النبيﷺ: "اخرج فاستأذن"، فقال: إنها يمين على ألا أستأذن على مضري، فقالت عائشة: من هذا فذكره . . . .

وذكر أبو حاتم السجستاني في كتاب الوصايا: أن حصن بن حذيفة وصى ولده عند موته وكانوا عشرة قال: وكان سبب موته أن كرز بن عامر العقيلي طعنه فاشتد مرضه فقال لهم: الموت أروح مما أنا فيه فأيكم يطيعني؟ قالوا: كلنا، فبدأ بالأكبر فقال: خذ سيفي هذا فضعه على صدري ثم اتكيء عليه حتى يخرج من ظهري، فقال: يا أبتاه هل يقتل الرجل أباه؟ فعرض ذلك عليهم واحدًا واحدًا فأبوا إلا عيينة، فقال له: يا أبت أليس لك فيما تأمرني به راحة وهوى ولك فيه مني طاعة؟ قال: بلى، قال: فمرني كيف أصنع، قال: ألق السيف يا بني فإني أردت أن أبلوكم فأعرف أطوعكم في حياتي فهو أطوع لي بعد موتي، فاذهب أنت سيد ولدي من بعدي ولك رياستي، فجمع بني بدر فأعلمهم ذلك، فقام عيينة بالرياسة بعد أبيه وقتل كرزًا. وهكذا ذكر الزبير في الموفقيات. وفي صحيح البخاري أن عيينة قال لابن أخيه الحر بن قيس: استأذن لي على عمر، فدخل عليه فقال: ما تعطي الجزل ولا تقسم بالعدل فغضب، وقال له الحر بن قيس: إن الله يقول: ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ فتركه بهذا الحديث أو نحوه.

وذكر ابن عبد البر أن عثمان تزوج بنته فدخل عليه عيينة يومًا فأغلط له فقال له عثمان: لو كان عمر ما أقدمت عليه.

وقال البخاري في التاريخ الصغير: حدثنا محمد بن العلاء، وقال المحاملي في أماليه: حدثنا هارون بن عبد الله واللفظ له قالا: حدثنا عبد الرحمن بن حميد المحاربي، حدثنا

حجاج بن دينار عن أبي عثمان عن محمد بن سيرين، عن عبيدة بن عمرو قال: جاء الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن إلى أبي بكر الصديقﷺ فقالا: يا خليفة رسول الله، إن عندنا أرضًا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تقطعناها، فأجابهما وكتب لهما، وأشهد القوم وعمر ليس فيهم، فانطلقا إلى عمر ليشهداه فيه، فتناول الكتاب وتفل فيه ومحاه فتذمرا له وقالا له مقالة سيئة، فقال: إن رسول الله ﷺكان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل، إن الله قد أعز الإسلام، اذهبا فاجهدا علي جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما، فأقبلا إلى أبي بكر وهما يتذمران فقالا: ما ندري والله أنت الخليفة أو عمر، فقال: لا، بل هو لو كان شاء، فجاء عمر وهو مغضب حتى وقف على أبي بكر، فقال: أخبرني عن هذا الذي أقطعتهما أرض هي لك خاصة أو للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة قال: فما حملك على أن تخص بها هذين، قال: استشرت الذين حولي فأشاروا علي بذلك، وقد قلت لك إنك أقوى على هذا مني فغلبتني.

وقرأت في كتاب الأم للشافعي في باب من كتاب الزكاة: أن عمر قتل عيينة بن حصن على الردة ولم أرَ من ذكر ذلك غيره، فإن كان محفوظا فلا يذكر عيينة في الصحابة، لكن يحتمل أن يكون أمر بقتله فبادر إلى الإسلام فترك فعاش إلى خلافة عثمان، والله أعلم.

الوجه الخامس:

أنه لم يحدث أن طلب النبيﷺمثل هذا من أحد أصحابه، ولا عرضه عليه أحد ولا حدث بين أصحابهﷺ. وهذا هو الإسلام في القرن الخامس عشر ولم يقل أحد من أهل العلم بجواز ذلك، فكيف يحتج على الإسلام بفعل جماعة من السفهاء أو رواية لا تصح، وهي مع ذلك أُسيء فهمها لأنها علي فرض الصحة لاتدل على جواز مثل هذا في دين الإسلام.

وأما قولهم بأن جماعة من المسلمين يبيحون تبادل الزوجات فهذا منتسب مجرم يعاقب علي إجرامه، ولا تنسب جريمته إلى الإسلام الذي حرم هذا وأوجب العقوبة عليه بأشد أنواع القتل؛ وهي الرجم؛ لأن هذا الفعل في ميزان الإسلام زناوهذا الزاني محصن وحده الرجم حتي الموت.

ثم انظر إلي ماعندكم من (المعاشرة الجنسية بين المجموعة)؛ وهو تبادل الزوجات، فالزوج يتنازل عن زوجته لآخر مقابل زوجة هذا الشخص مدة قد تصل إلي ليلة كاملة، وقد يكون هذا التبادل في حجرة واحدة بين الأربعة، ويكثر هذا التبادل في الحفلات الخاصة وفي بعض الأندية، والدولة تقر ذلك ولا تعارضه.

وقد تقدم النقل عن كتابكم الذي تقدسونه وفيه من الإباحية ما يفسد الأخلاق وقد ذكرنا مواضع مما عندكم فلا داعي للتكرار.

* * *

٢٤ـ شبهة: المستأجرة من الزنا.

نص الشبهة:

قالوا: إن استئجار المرأة للزنى جائز، وموطن ذلك عبارة نقلها من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة عن المذهب الحنفي قال:

قالوا: إذ استأجر الرجل امرأة للزنى فقبلت ووطئها فلا يقام الحد عليهما.

والجواب على ذلك كما يلي:

١ - هذا النقل مبتور ناقص لا يبين المراد.

٢- لا خلاف بين علماء الإسلام أن استئجار المرأة للزنا حرام.

٣- يرى أبو حنيفة إسقاط الحد في هذه الصورة لا لأن الاستئجار مباح، وإنما لأنه شبهه حيث ظن هذا الفاعل أن الإجارة أباحت له ذلك، فأسقط عنه الحد في الدنيا وأوجب التعزيز وذكر أن عليه إثم الزنا في الآخرة، وذلك لأجل مصلحة أخرى وهي الحفاظ على الدماء.

١ - مذهب أبي حنيفة في هذه المسألة مذهب مرجوح عند أهل العلم والصواب ما ذهب إليه الجمهور في هذه المسألة من وجوب إقامة الحد.

ويستثنى من ذلك ما إذا ثبت فعلًا وبالقرائن القوية جهل هذا الرجل وهذه المرأة بهذا الحكم الشرعي كأن يكونا حديثي عهد بإسلام أو نشأ الرجل والمرأة ببلاد بعيدة ونحو ذلك.

وإليك نص ما ذكره صاحب الفقه على المذاهب الأربعة لتعلم مد التدليس والإيهام في هذا النقل المبتور:

قال مؤلف الكتاب رحمه الله:

استئجار المرأة للزنا:

الحنفية قالوا: إذ استأجر الرجل امرأة للزنا فقبلت ووطئها فلا يقام الحد عليهما ويعزران بما يرى الإمام وعليهما إثم الزنا يوم القيامة. [1]

---

(١) فهل من هذه العبارة الإباحة في المذهب أو في الإسلام أو عند مؤلف الكتاب أم أنه البغض الذي يعمي ويصم.

ثم ساق المؤلف الأمور التي من شأنها أن تدخل الشبهة على هذا الرجل وهذه المرأة في هذا الأمر قال الماردي:

١. لما روى أن امرأة طلبت من راعي غنم في الصحراء أن يسقيها لبنًا فأبى أن يسقيها لبنًا حتى تمكنه من نفسها ونظرًا لضرورتها وحاجتها إلى الطعام قبلت المرأة ووطئها الراعي ثم رفع الأمر إلى سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ فدرأ الحد عنهما وقال ذاك مهرها وعد هذا استئجارًا لها.

٢. ولأن الإجارة تمليك المنافع ومنفعة البضع من المنافع فأوردت شبهة عندهم.

٣. ولأن الله تعالى قد سمي المهر أجرًا في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فهو كمن قال: أمهرك كذا فهو نكاح فاسد.

٤. وسواء كان المؤجر لها وليها أم سيدها حرة كانت أو أمة إذا لم تكن في عصمة رجل.

٥. ولأن عقد الإجارة عنده شبهة تدرأ الحد عنه مع أنه يحرم الأقدام على ذلك. [1]

الصاحبان[2] **قالا**: يجب إقامة الحد عليهما لأن منافع البضع لا تملك بالإجارة فأصبح وجود الإجارة وعدمها سواءً فلا تعد شبهة تدرأ الحد عنهما وصار الرجل كأنه وطئها من غير شرط وذلك الرأي هو الراجح المعمول به في المذاهب. [3]

المالكية والشافعية والحنابلة قالوا:

يقام الحد عليهما ولا يصير الاستئجار شبهة تدرأ الحد عنهما لأن حد الإجارة لا يستباح به الفرج شرعًا ولا عرفًا فصار كما لو استأجرها للطبخ ونحوه ثم زنى بها فإنه يقام عليه الحد في هذا الحال من غير خلاف من العلماء.

انتهى كلام الجزيري في الفقه على المذاهب الأربعة. [1]

---

(١) إلى هنا آخر ما ينسب إلى أبي حنيفة رحمه الله من كلام الجزيري.

(٢) هما أبو يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة ومحمد بن الحسن الشيباني.

(٣) يعني مذهب الأحناف.

وهو واضح وفيه خلاصة ما جاء في كتب الإسلام في هذه المسألة فإذا كان هذا المعترض يرتاد لنفسه دينًا يعبد الله به فأنا أدعوه إلى الإنصاف والأمانة في النقل وادعوا الله له بالهداية بل في الأمر أوضح وأكثر بيانًا أن مذهب الأحناف لا يجيز استئجار المرأة ومن ذلك:

١-كره الحنفية استئجار المرأة للخدمة لأنه لا يؤمن معه الاطلاع عليها والوقوع في المعصية، ولأن الخلوة بها معصية. (٢)

٢- قال أبو حنيفة أكره أن يستأجر الرجل امرأة حرة يستخدمها ويخلوا بها وكذلك الأمة وهو قول أبي يوسف ومحمد أما الخلوة فلأن الخلوة بالمرأة- أي المرأة الأجنبية- معصية، وأما الاستخدام فلأنه لا يؤمن معه الإطلاع عليها والوقوع في المعصية. (٣)

* * *

(١) الفقه على المذاهب الأربعة (٥/ ٧٩).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢/ ٢٧٥)، وانظر الفتاوى الهندية فتوى (١٩٨٧٧) -شروط جواز استئجار المرأة للخدمة.

(٣) بدائع الصنائع (٤/ ٣٩) مسألة استئجار الصناع والعمال -قلت: فهل بعد هذا ينسب إلى أبي حنيفة أو إلى الإسلام أنه يحل استئجار المرأة للزنى؟! لا شك أن الذي دفع أبا حنيفة إلى هذا القول هو التورع لحفظ الدماء.

٢٥ـ شبهة: الطلاق.

نص الشبهة:

قالوا: إن الإسلام أباح الطلاق، وفيه استهانة بقدر المرأة، وفيه استهانة بقدسية الزواج، ثم لماذا يكون الطلاق بيد الرجل؟

وبيان بطلان هذا الكلام كما يلي:

الوجه الأول: الإطار العام الذي يتم فيه الطلاق في الشريعة الإسلامية.

الوجه الثاني: الرد على زعمهم أن الطلاق ظلم للمرأة، واعتداء على قدسية الزواج.

الوجه الثالث: بيان أن فطرة الناس يلزمها الطلاق.

الوجه الرابع: لماذا يكون الطلاق بيد الرجل وحده؟.

واليك التفصيل

الوجه الأول: الإطار العام الذي يتم فيه الطلاق في الشريعة الإسلامية.

وبيان ذلك ما يلي:

١. حسن المعاشرة بين الزوجين هو الأصل لأن الإسلام هيأ النفوس إلى الزواج لا إلى الطلاق فجعل عقد الزواج أوثق العقود وأكرمها على الله تعالى قال عز شأنه:

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١)، فهو أغلظ المواثيق على الله تعالى، وجعل الله تعالى الزواج من أعظم آياته في خلقه قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١)، فمن تمام رحمته تعالى ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة؛ وهي المحبة والرحمة والرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمته بها بأن يكون له منها ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما. [1]

ولهذا فقد حث الشرع الحنيف كلًا من الزوجين على حسن المعاشرة والتسامح فيما بينهما، وحض على إمساك زوجته ومعاشرتها بالمعروف حتى لو كره منها صفة ما دامت لم تتجاوز بها ما لا يقره الله تعالى قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٩).

تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾﴾ (النساء: ١٩).

فالأصل - إذن - في المعاشرة الزوجية أن يلزم كل من الزوجين معاشرة صاحبه بالمعروف، ولا يمطله حقه، ولا يظهر الكراهة لقوله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، والقرآن الكريم يقطع بأن المعاشرة تقوم على التماثل؛ والتماثل هنا في تأدية كل منهما ما عليه لصاحبه ببشاشة وطلاقة ولا يتبعه أذى ولا منة، لأن هذا من المعروف الذي أمر الله به، ولقد ندب الشرع الحكيم إلى حسن الصحبة في المعاشرة، فأوجب أن يتوفق كل صاحب بصاحبه، ويحتمل ما يكون من جهته، ولقد أوصى الرسول ﷺ بذلك، وبدأ بالرجال فقال: "استوصوا بالنساء خيرًا"[(١)]

وخلاصة القول: أن الله تعالى في الشريعة الغراء أوجب المعاشرة بالمعروف؛ والمعروف هو ما يجب دينًا وخلقًا ومروءة من مثله لمثلها ومن مثلها لمثله على الذي ارتضاه أهل المروءة والنبل من كرام الناس، وفي كل الأحوال ندب للزوج أن يأخذ بحديث رسول الله ﷺ " لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ"[(٢)]، ويفهم من حديث رسول الله ﷺ أن الرسول ﷺ يوصي بالصبر عليهن وهي الثانية.

٢. إن الشرع يأمر بالمعاشرة بالمعروف، فإذا صدر من المرأة ما يسوء الرجل فإن الشرع ندب إلى الصبر عليها وعلى ما لا يستقيم من أخلاقها:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا"[(٣)] وفي رواية " فدارها تعش بها ". [(٤)]

---

(١) مسلم (١٤٦٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٢).

(٣) رواه مسلم (١٠٩١).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٨)، وابن حبان، وإسناده على شرط مسلم (٤١٧٨)، والحاكم (٤/ ١٩٢)، وقال: على شرط الشيخين، وابن أبي شيبة (٤/ ١٩٨). والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٤٤).

وقد مر الحديث: "لا يبغض مؤمنٌ مؤمنةً ".

وفيه النهي عن البغض للزوجة بمجرد كراهة خلق من أخلاقها؛ فإنها لا تخلو مع ذلك عن أمر يرضاه منها وإن كانت مشتملة على المحبوب والمكروه فلا ينبغي ترجيح مقتضى الكراهة على مقتضى المحبة. (١)

٣. حتى لو لم يستطع أن يصبر عليها وأحب فراقها لا يجوز له أن يضيق عليها لتتنازل عن حقوقها إلا إن أتت بفاحشة ظاهرة بالبيِّنة قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾ (النساء: ١٩)، والخطاب هنا للأزواج، وفيه نهي لهم عن التضييق على الزوجات ولو كانوا لهن كارهين ولفراقهن محبين، والعضل هو المنع، والتضييق وهو محرم على الزوج إلا أن تأتي الزوجة بفاحشة مبينة، وهي هنا كما قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضوان الله عليهم وكذا الضحاك وقتادة:

البغض والنشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء. (٢)

فالكتاب والسنة أمر الأزواج بحسن الصحبة والعشرة، وفي ذلك قال الطبري رحمه الله: فلعلكم أن تكرهوهن فتمسكوهن فيجعل الله في إمساككم إياهن على كره منكم لهن خيرًا كثيرًا من ولد يرزقكم منهن أو عطفكم عليهن بعد كراهتكم إياهن. (٣)

٤. ومع الأمر بالعشرة بالمعروف والصبر على الأذى والنهي عن العضل رفض التشريع الحكيم أن يعتاد المسلم الطلاق وسَمَّى الذين يفعلون من المسلمين بالذواقين والذواقات لأنهم يسعون للطلاق كي يتزوجوا من آخرين:

عن أبي موسى ﷺقال: قال رسول الله ﷺ "لا تُطَلِّقُوا النِّسَاءَ، إلا مِنْ رِيبَةٍ، فَإِنَّ الله لا يُحِبُّ الذَّوَّاقِينَ وَلا الذَّوَّاقَات"(١)

(١) نيل الأوطار (٦/ ٢١١).

(٢) القرطبي تفسير الآية.

(٣) الطبري (٨/ ١٢٢).

قال العلماء: هذا دليل على كراهة الطلاق مع الإباحة.[٢]

٥. فإذا استمرت المرأة على السوء وعلى النشوز وجاء الرجل يسأل ماذا أفعل مع امرأتي؟ فقد نشزت عليّ أو ظهرت منها علامة نشوز:

فهل قال له الشرع طلقها لتعلم النساء أن من نشزت فجزاؤها الطلاق؟

كلا لم يأمره ولم يدله على الطلاق في هذه المرحلة، وإنما دله على أمور وهي:

١- الوعظ: قال تعالى ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ (النساء: ٣٤).

فالنشوز في الأصل هو الارتفاع، فالمراة التي تخرج عن حقوق زوجها قد ترفعت عليه، وحاولت أن تكون فوقه، بل ترفعت أيضًا عن طبيعتها وما يقتضيه نظام الفطرة في التعامل؛ فتكون كالناشز من الأرض التي خرجت عن الاستواء، وقد فسر بعضهم خوف النشوز بتوقعه فقط، وبعضهم بالعلم به، ولكن يُقال: لِمَ ترك لفظ العلم واستبدل به لفظ الخوف؟ أو لِمَ لَمْ يقل واللاتي ينشزن؟!

لا جرم أن في تعبير القرآن حكمة لطيفة، وهي: أن الله تعالى لما كان يجب أن تكون المعيشة بين الزوجين معيشة محبة ومودةٍ وتراضٍ والتآم لم يشأ أن يسند النشوز إلى النساء إسنادًا يدل على أن من شأنه أن يقع منهن بل عبر عن ذلك بعبارة تومئ إلى أن من شانه أن لا يقع؛ لأنه خروج عن الأصل الذي تقوم به الفطرة وتطيب به المعيشة. في هذا التعبير تنبيه لطيف إلى مكانة المرأة، وما هو الأولى في شأنها، وإلى ما يجب على الرجل من حسن السياسة لها وحسن التطلف في معاملتها حتى إذا آنس منها ما يخشى أن يَؤُول إلى الترفع

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٨٤٨) من حديث أبي موسى وقال: لم يرو هذا الحديث عن عمرو بن قيس إلا محمد بن عبد الملك تفرد به وهب بن بقية، وقال الهيثمي (٤/ ٦١٦) رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط وأحد أسانيد البزار فيه عمران القطان وثقه أحمد وابن حبان وضعفه يحيى بن سعيد وغيره. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٧٣-٢٤٣٠-٦٢٤٤) وفي غاية المرام (٢٥٥-٢٥٦)، وانظر: كشف الخفاء حديث (٩٧٣).

(٢) الفرقة بين الزوجين - تفسير القرطبي (١٦٦٨).

وعدم القيام بحقوق الزوجية؛ فعليه أولًا أن يبدأ بالوعظ الذي يرى أنه يؤثر في نفسها التخويف من الله ﷻوعقابه على النشوز، ومنهن من يؤثر في نفسها التهديد والتحذير من سوء العاقبة في الدنيا كشماتة الأعداء، والمنع من بعض الرغائب كالثياب الحسنة والحلي. والرجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذي يؤثر في قلب امرأته(١).

٦. فإذا قام الزوج بالوعظ ولم تتأثر المرأة ولم تكُفْ. . . فلا يقول له الشرع طلق إنما دله على الهجر في المضجع:

قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ (النساء: ٣٤).

والهجر ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره إياها، ويتحقق ذلك بهجرها في الفراش مع الإعراض والصدّ (وقد جرت العادة بأن الاجتماع في المضجع يهيج شعور الزوجية، فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويزول ما كان في نفوسهما من اضطراب أثارته الحوادث قبل ذلك)، فإذا هو فعل ذلك دعاها هذا إلى السؤال عن أسباب الهجر والهبوط بها من نَشَز المخالفة إلى مستوى الموافقة. (٢)

٧. فإن لم يفد الهجر فلا يسارع إلى الطلاقَ، بل له أن يجرب الضرب غير المبرح:

﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ (النساء: ٣٤): أي: غير المؤذي إيذاءً شديدًا كالضرب باليد أو بعصا صغيرة، وقد يستعظم البعض مشروعية ضرب المرأة الناشز، ولا يستعصمون أن تنشز هي وتترفع عليه، فتجعله وهو الرئيس مَرْءُوسًا محتقرًا، وتصرّ على نشوزها، فلا تلين لوعظه ونصحه، ولا تبالي بإعراضه وهجره، فإن كان ثقل عليهم ذلك، فليعلموا أن الإفرنج أنفسهم يضربون نساءهم العالمات المهذبات، بل فعل هذا حكماؤهم وعلماؤهم وملوكهم وأمراؤهم فهو ضرورة لا يستغنى عنها، ولا سيما في دين عام للبدو والحضر من جميع أصناف البشر، وكيف يُسْتَنْكَرُ هذا والإسلام والعقل يدعوان إليه إذا فسدت البيئة، وغلبت الأخلاق الفاسدة، ولم ير الرجل مناصًا منه، ولم ترجع المرأة عن نشوزها إلا به

---

(١) تفسير المنار (٥/ ٧٢)، تفسير المراغي (٥/ ٢٨).

(٢) المراغي (٥/ ٢٨-٢٩) بتصرف.

لكن إذا صلحت البيئة وصارت النساء يستجبن للنصيحة؛ أو يزدجرن بالهجر وجب الاستغناء عنه إذ نحن مأمورون بالرفق بالنساء، واجتناب ظلمهن، وإمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان. (١)

والخلاصة:

أن الضرب علاج مُرٌّ قد يستغنى عنه الخَيِّرُ الكريمُ، ولكنه لا يزول من البيوت إلا إذا عم التهذيب الرجالَ والنساءَ؟ وعرف كل ما له وما عليه من الحقوق، وكان للدين سلطان على النفوس تجعلها تراقب الله في السر والعلن، فإذا أتى الضرب غير المبرح بثمرته المرجوة، وأطاعت المرأة زوجها، أو أطاعت بغيره من الوسيلتين السابقتين؛ فإن الله يقول: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ أي: فإن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية فلا تبغوا، ولا تتجاوزوا ذلك إلى غيرها، فابدؤا بما بدأ الله به من الوعظ، فإن لم يُجْدِ فبالهجر، فإن لم يُفِدْ فبالضرب، ثم هدد وتوعد على الظلم والبغي على النساء، فقال في ختام الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فَذَكَّرَ عباده بقدرته وكبريائه عليهم ليتعظوا ويخشوه في معاملتهن، فكأنه يقول لهم: إن سلطانه عليكم فوق سلطانكم على نسائكم، فإذا بغيتم عليهن عاقبكم، وإن تجاوزتم عن هفواتهن كرمًا تجاوز عنكم؛ وكفر عنكم سيئاتكم. (٢)

٨. فإذا لم يُجْدِ الضربُ فهل يطلق؟

والجواب لا. لقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء: ٣٥).

وهذه فرجة جديدة لرأب الصدع، وإزالة الشقاق، وتفادِي الطلاق. وهذا الخطاب عام يدخل فيه الزوجان وأقاربُهما فإن قاموا بذلك فذاكَ، وإلا وجب على من بلغه أمرهما من المسلمين أن يسعى في إصلاح ذات بينهما.

---

(١) تفسير المراغي (٥/ ٢٨ ـ ٢٩) بتصرف يسير، و المنار (٥/ ٧٢ ـ ٧٣).

(٢) تفسير المراغي (٥/ ٢٨-٢٩) بتصرف يسير، والمنار (٥/ ٧٣-٧٧).

والخلاف بينهما قد يكون بنشوز المرأة، وقد يكون بظلم الرجل، فإن كان بالأول فعلاجه ما مر من المراحل الثلاث، وإن كان بالثاني أو عجز عن إنزالها عن نشوزها وخيف أن يحول الشقاق بينهما دون إقامتهما لأركان الزوجية الثلاثة:

من السكون والمودة والرحمة وجب على الزوجين وذوي القربى أن يبعثوا الحكمين، وعليهم أن يوجهوا إرادتهم إلى إصلاح ذات البين، ومتى صدقت الإرادة وصحت العزيمة؛ فالله كفيل بالتوفيق بفضله وجودة، وبهذا تعلم شدة عناية الله تعالى بأحكام الأسر والبيوت وكيف لم يذكر مقابل التوفيق وهو التفريق لأنه يبغضه؛ ولأنه يود أن يُشعر المسلمين بأنه لا ينبغي أن يقع، ثم ذكر أن ما شرع من الأحكام جاء وفق الحكمة والمصلحة لأنه حكيم خبير بأحوال عباده فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

وفي الآية إرشاد إلى أن ما يقع بين الزوجين من خلاف وإن ظن أنه مستعص يتعذر علاجه قد يكون في الواقع على غير ذلك من أسباب عارضة يسهل على الحكمين الخبيرين بدخائل الزوجين ـ لقربهما منهما ـ أن يمحصا ما علق من أسبابه بقلوبهما فيزيلاها متى حسنت النية وصحت العزيمة، ولتعلم أن الرابطة الزوجية أقوى الروابط التي تربط بين البشر فبها يشعر كل من الزوجين بشركة مادية ومعنوية بها يأخذ كل منهما شريكَةُ على أدق الأمور وأصغرها، فيحاسبه على فلتات اللسان، وبالظنة والوهم وخفايا حلجات القلب، فيغريهما ذلك بالتنازع في كل ما يقصر فيه أحدهما من الأمور المشتركة بينهما، وما أكثرها! وأعسر التوقي منها وكثيرًا ما يفضي التنازع إلى التقاطع، والعتاب إلى الكره والبغضاء، فعليك أن تكون حكيمًا في معاملة الزوجة خبيرًا بطباعها وبذا تحسن العشرة بينكما. اهـ[1]

٩. واستمرارًا لعلاج النشوز والشقاق قبل الوقوف على باب الطلاق يقول الله تعالى:

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٨) والمعنى: إن توقعت من بعلها نشوزًا، أو إعراضًا، ترفعًا

(١) تفسير المراغي (٥/ ٣١-٣٢)، المنار (٥/ ٧٧-٨٨).

عليها بما لاح لها من مخايل ذلك وأماراته؛ بأن منعها نفسه، ونفقته، والمودة، والرحمة التي تكون بين الرجل والمرأة، أو آذاها بسب، أو ضرب، أو نحو ذلك، أو إعراضًا عنها بأن قلل من محادثتها ومؤانستها لبعض أسباب من طعن في سن أو دمامة أو شيء في الأخلاق أو الخلق، أو ملال، لها أو طموح إلى غيرها، أو غير ذلك.

فالجواب: عليها أن تتثبت فيما تراه من علامات الإعراض فربما كان الذي شغله عن مسامرتها والرغبة عن مباعلتها مسائل من مشاكل الحياة الدينية أو الدنيوية، وهي أسباب خارجية لا دخل له فيها ولا تعلق لها بكرامتها والجفوة عنها، وحينئذ عليها أن تعذره وتصبر على مالا تحب من ذلك. أما إذا استبان لها أن ذلك لكراهته إياها ورغبة عنها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا﴾ أي فلا بأس بهما أن يصلحا بينهما صلحًا كأن تسمح له ببعض حقها عليه في النفقة أو المبيت معها أو بحقها كله فيهما أو في أحدهما لتبقى في عصمته مكرمة، أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق أو بكل ذلك ليطلقها كما جاء في قوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ "وإنما يحل له ذلك إذا كان برضاها لاعتقادها أن في ذلك الخير لها بلا ظلم لها ولا إهانة.

وقد روي أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكانت لها منه ولدٌ فقالت له:

لا تطلقني، ودعني أقوم على ولدي، وتقسم لي في كل شهرين، فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إليّ، فأقرها على ما طلبت. " والصلح خير" من التسرع والفراق لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحقها بالحفظ، وميثاقها من أغلظ المواثيق وعروض الخلاف بين الزوجين وما يترتب عليه من نشوز وإعراض وسوء معاشرة من الأمور الطبيعية التي لا يمكن زوالها من البشر، وأجمل في الإسلام لمنعه هو المساواة بينهما في كل شيء إلا القيام برياسة الأسرة لأنه أقوى من المرأة بدنًا وعقلًا، وأقدر على الكسب، وعليه النفقة كما جاء في قوله: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، فيجب على الرجل أن

يعاشرها بالمعروف، وأن يتحرى العدل بقدر المستطاع. (١)

وهذا واضح في عدم التسرع في أخذ قرار الطلاق من جهة المرأة والرجل بأمر الشارع الحكيم نظرًا لأنه مبدئيًا ليس من الأمور المرغب فيها.

وهذا كله تضييق في أمر الطلاق يبين لنا أن الأصل في الطلاق أنه يُكره لغير الحاجة – عند كثير من أهل العلم؛ وذلك لأنه عمل يهدم المصالح المترتبة على الزواج، وسبب لتشتت الأطفال، وسبب من أسباب القطيعة والوقيعة بين المسلمين، وسبب لتولد الضغائن بينهم ووقوع الشحناء، ولأنه عمل يسعد الشيطان كما تقدم ورب العزة يقول في كتابه الكريم ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٨).

فلذلك يكره لغير الحاجة أما إذا دعت الحاجة فَحُكْمُهُ بحسب الحاجة الداعية إليه. (٢)

ومما يبين ذلك ما أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: " إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ "(٣) أي: نعم الفعلة التي صنعتها؛ وهي التفريق بين المرء وزوجه وهذا مما يحبه إبليس أنه شكر له صنعه. (٤)

١٠. وبعد محاولات الصلح بين الزوجين، وبعد بعث الحكمين فإما أن تستقيم حياتهما فلا حاجة إلى الطلاق وهذا هو المطلوب، وإما أن تفشل عمليات الإصلاح ويستحكم الشقاق ويشتد النزاع بحيث يشعر كل من الزوجين أنه في سجن مع الآخر ويحتاج أن يحل قيده من هذا السجن وهنا نجد أن الطلاق مشتق من الإطلاق وهو الإرسال والترك:

فهو في اللغة الترك مطلقًا والتخلية من القيد سواء كان هذا القيد حسيًا كترك الناقة

(١) تفسير المراغي (٥/ ١٧١-١٧٢)، وانظر تفسير المنار سورة النساء (١٢٨).

(٢) جامع أحكام النساء للعدوي (١٤/ ١٨).

(٣) مسلم (٢١٦٧).

(٤) جامع أحكام النساء (٤/ ١٣).

وإرسالها ترعى أو معنويًا كتطليق الزوجة وطلاق النساء لمعنيين:

أحدهما: حل عقد النكاح، والآخر بمعنى: التخلية والإرسال.

قال الجرجاني: الطلاق في اللغة: إزالة القيد والتخلية وفي الشرع إزالة ملك النكاح، والطلاق لفظ جاهلي جاء الشرع بتقريره، فهو ليس من خصائص الأمة الإسلامية، وإنما حلٌ شرعيٌّ لضرورة شرعية تقتضي حل لفظ النكاح بلفظ طلاق ونحوه.

وقال الشيرازي: والطلاق والإطلاق ضد الحبس، وهو التخلية بعد اللزوم والإمساك.(١)

وبهذا المعنى يفهم من وَصَلَ حالُه مع زوجته إلى ما ذكرنا أن الطلاق فرج وفرجة نحو الخير لكل من الزوجين طلبًا للغنى من عند الله تعالى ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾(النساء: ١٣٠).

فالشريعة الإسلامية إذا كانت تحض الرجال على أن يُبقوا على زوجاتهم وألا يفصلوا ما بينهم وبينهن من روابط، فإنها في الوقت نفسه لا تغلق الباب في وجوههم إغلاقًا، ولا تلزمهم أن يبقوا على الزوجات وهم كارهون عاجزون عن عشرة طيبة وعن علاج ما يدب بينهم وبين زوجاتهم من سوء، وهي تحض النساء أيضًا على أن يسمعوا لأزواجهن، ويحاولن مرضاتهم بما وسعه جهدهن، وهي في الوقت نفسه لم تجبرهن على الخضوع البغيض، بل جعلت لإحداهن الحق في طلب الطلاق إذا رأت أنها لا تطيق الصبر على أذى زوجها وكيده لها وإذا كانت هناك زوجات مصدر للشقاء، فهناك أزواج لا ينبض قلب الواحد منهم بقطرة من الرحمة والمودة اللتين هما أساس الحياة الزوجية قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١).

فإذا ما حل الخلاف والنفرة محل المودة والرحمة والمحبة انهارت أركان الزوجية، ولم

---

(١) لسان العرب مادة طلق، التعريفات للجرجاني (١٢٣)، المهذب للشيرازي (٢/ ٧٧)، وانظر: الفرقة بين الزوجين لسيد أحمد فرج (٩).

يبق سوى اللجوء إلى الطلاق، وبهذا يتضح أمام الباحث المنصف الحكمة من وراء مشروعية الطلاق في الإسلام، وأنه من محاسنه ومزاياه؛ لأنه راعي واقع النفوس البشرية وطبيعتها وما يعتريها من تغير في كل الأزمان.(١)

١١. ومن خلال ما مر عليك أيها القارئ الكريم ترى أن من أقوى الأسباب الداعية إلى الطلاق حدوث الشقاق:

وهناك سبب آخر يدعو إلى الطلاق؛ وهو العقم، فإذا كان الرجل عقيمًا انقطع عن النسل الذي هو من ضمن حكم وفضائل الزواج؛ والمرأة بفطرتها تهوى الأمومة فكيف يمكن تحصيلها مع زوج لا حظ له في الأبوة؟ ، وكيف يمكن الارتباط بغيره إلا بعد الانطلاق منه والانحلال من قيده؟ وهذا واضح إذا كان العقم في الرجل، أما إذا كان في المرأة، فقد يقال: يمسكها ويتزوج بأخرى لكن القوم يمنعون تعدد الزوجات، وقد لا ترضى المرأة فتقول لا أحيا مع رجل يتزوج بغيري، فقل لي بربك كيف يمكن لهذا الرجل أن يشبع رغبته في حنان الأبوة بغير الطلاق الذي يتيح له الزواج بأخرى ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار. (٢)

١٢. وبعد استحكام الشقاق واستحالة الوفاق ووجوب الطلاق في نظر كل من الزوجين:

نرى أن الشارع الحكيم يفتح بابا جديدًا للتريث والتأني والإبقاء على الحياة الزوجية، فلعل الغضب يزول، ولعل الشقاق يُمحى لأي سبب من الأسباب، فإن الشدائد مثلًا تكشف عن معادن البشر؛ وكم من شدة يبدو بعدها خير كثير "وهذا الباب هو أنه نُهي عن إيقاع الطلاق في الحيض، أو في طهر جامعها فيه:

وسمي هذا الطلاق الواقع في الحيض أو في طهر جومعت فيه بدعيًا، وهذا فيه مراعاة

---

(١) أحكام الطلاق للحفناوي (١٢-١٣)، وانظر: حكمة التشريع الإسلامي وفلسفته (٢/ ٥٦)، والأحوال الشخصية للشيخ محي الدين عبد الحميد (ص٢٥٤)، والموسوعة الفقهية (٢٩/ ١٠-١١).

(٢) أحكام الطلاق للحفناوي (١٢)، وانظر: حكمة التشريع الإسلامي وفلسفته (٢/ ٥٦)، والأحوال الشخصية للشيخ محي الدين عبد الحميد (ص٢٥٤)، والموسوعة الفقهية (٢٩/ ١).

لحق المرأة من وجه آخر حيث اتفق العلماء[١] على أن وقوع الطلاق في الحيض ضار بالمرأة لأن فيه تطويل العدة عليها، وفي ذلك إضرار بها.

وأيضًا: فإن الطلاق أبيح للحاجة، ولذا وجب أن يكون في وقت كمال الرغبة في قربان الزوجة وزمان الحيض ليس كذلك، فلا يكون الطلاق فيه سنة، ولا يكون الإقدام لحاجة، فيكون مخالفًا للسنة ويكن سفهًا كذلك. [٢]، وأما أنه لا يطلقها في طهر جامعها فيه؛ فلربما تحمل منه؛ فيعدل عن الطلاق[٣].

وعن عبد الله بن عمر ﷺ أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك فقال رسول الله ﷺ: "مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ"[٤].

وهذه القصة أصل في باب الطلاق الموافق لما ورد في القرآن، وهو الذي يسمى طلاق السنة.

قال ابن العربي: قال علماؤنا: طلاق السنة ما جمع سبعة شروط: أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهرًا لم يمسها في ذلك الطهر، ولا تقدمه طلاق في حيض، ولا تبعه طلاق في طهر يتلوه، وخلا عن العوض[٥].

وهذه الشروط السبعة مستقرآت من حديث ابن عمر، وقد بقي من شروط طلاق السنة: أن يطلقها وهي حامل، وهذه الصورة أيضًا ثابتة في حديث ابن عمر في بعض رواياته: مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرًا أو حاملًا[٦]، [١]

---

(١) الفرقة بين الزوجين ـ فرج ـ (٤٢).

(٢) نفس المصدر، وانظر المهذب للشيرازي (٢/ ٧٩)، وبدائع الصنائع للكاساني (٣/ ٩٤)

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ٤٠٢)، وانظر: تفسير القرطبي، والشوكاني، وابن كثير لآية (١) من سورة الطلاق.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١١٩٦)، ومسلم (١٤٧١).

(٥) أحكام القرآن (٢/ ٢٦٤).

(٦) مسلم (١٤٧١)، وأبو داود (٢١٨١).

وبهذا يبدوا واضحًا الحفاظ على المرأة وعلى قدسية الزواج.

١٣. وهنا نـجد أن الله تعالى في شريعته الغراء منع من إيقاع الطلاق في الحيض أو في طهر جامعها فيه لما سبق بيانه، لكنه أصر على الطلاق فبين له أنه حقه المشروع هو إنفاذ طلقة واحدة فإذا جمع الثلاث في مجلس واحد فقد تعدى حدود الله وظلم نفسه ويكون آثمًا مستحقًا للعقاب. (٢)

فالشرع مع من أراد إلى النهاية، فيقول له في النهاية، إن كان لا بد من الطلاق فواحدة حتى لا تندم.

وعن ابن عباس ﷺ قال: طلق ركانة بن عبد يزيد أخو بني عبد المطلب امرأته ثلاثًا في مجلس واحد فحزن حزنًا شديدًا، قال: فسأله رسول الله ﷺ " كيف طلقتها؟ قال: طلقتها ثلاثًا، قال في مجلس واحد؟ قال. نعم. قال: فإنما تلك واحدة فأرجعها إن شئت، قال فراجعها "(٣)

فكان الناس في عهد رسول الله ﷺ يعملون بما أمر الله به في كتابه فيطلقون طلقة واحدة يستقبلون بها عدة نساء، ولذلك غضب رسول الله ﷺ لما بلغه أن رجلًا طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعًا، فقام غضبان ثم قال: " أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل وقال يا رسول الله ألا أقتله"(٤).

قال الشيخ أحمد شاكر: وأغلب الظن أن هذا الرجل هو ركانة بن عبد يزيد. (٥)

ومن هنا تعلم أن الزواج يحافظ على عقد الزواج إلى أخر مرحلة فيشرع طلقة واحدة

---

(١) نظام الطلاق في الإسلام (١٧) والفرقة بين الزوجين (٤٣)، والفقة الإسلامي وأدلته (٧/ ٤٠٢).

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ٤٠٥-٤١٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٥)، وأبو يعلي (٢٥٠٠)، والبيهقي (٧/ ٣٢٩-٣٣٩)، قال أحمد: حديث ركانة ليس بشيء. العلل المتناهية (٢/ ٦٣٩)، وصححه ابن القيم، والشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند وفي كتابة نظام الطلاق في الإسلام، وقال ابن تيمية: إسنادة جيد.

(٤) أخرجه النسائي (٥٥٩٤) من طريق مكرمة عن أبيه به؛ وإسناده متقطع فمكرمة لم يسمع من أبيه شيئًا. نص عليه أحمد، وابن معين، وغيرهما. (تهذيب الكمال (٢٧/ ٣٢٤).

(٥) نظام الطلاق في الإسلام (٢٦-٢٧)، الفرقة بين الزوجين (٦٦).

لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

١٤. فإذا حدث وزال الشقاق وانتهى النزاع وجد الزوج والزوجة فرصة للرجعة:

فبعد أن شرع له طلقة واحدة شرع له الرجعة والعودة إلى زوجته ما دامت في العدة، أو بعقد جديد إذا انتهت العدة، وذلك لمرتين بعد الطلقة الأولى، بعد الثانية فتلك فترتان متكررتان لمراجعة الحساب وتقدير الظروف ومحاكمة الأمور وتعقل النتائج والآثار وهذا يحدث غالبًا. فكل من الزوجين يندم ويتنازل عن أمور ويقلع عن أخلاق ويرضى بالعيش في ظل حياة زوجية لا توفر له كل ما يرغب بالمقارنة مع حياة العزلة والانفراد والاتكال على الأهل الذين يضايقهم عادة تحمل أعباء جديدة من النفقة والخدمة وغيرها[1].

وفي هذا فرصة لكل من الزوجين في المراجعة في العدة، أو العودة بعد انتهاء العدة ففي هذا تمام المراعاة لحق الرجل والمرأة معًا وفي تشريع العدة تمام التقديس لحق الزواج.

١٥. ونظرًا لأن بعض الأزواج قد يتعسف في استخدام حق الرجعة ضد المرأة:

فقد جعل الإسلام للطلاق حدًا لا يتعداه، فلم يتركه على ما كان عليه في الجاهلية حتى لا تبقى المرأة القوية في يد الرجل، كما أنه لم يجعله مرة واحدة تنقطع بها العلاقة الزوجية إلى غير رجعة لما يترتب على ذلك من بواعث الحسرة والألم حيث إن الطلاق كثيرًا ما يقع من الزوجين بناءً على تقدير سيء للواقع وعقله من عواقبه، ولكنه جعله ثلاث تطليقات وذلك لاعتبارين:

الأول: عدم استرسال الرجل فيه، واعتياده عليه لأن النطق به مؤلم موجع القلب.

الثاني: في تحديد الطلاق ردع للزوج وزجر له إذا وقع منه لعلمه أن الطلقة الثالثة هي التي لا مطمع بعدها إلا بعد أن تنكح زوجًا غيره نكاحًا مؤبدًا، ثم لو حدث شقاق وطلقها جاز له أن ينكحها من جديد، ومن يدري أن هذا يكون؟ ، ولا شك أن هذا فيه من الألم ما هو معلوم، فظهر بهذا أن تحديد الطلاق بثلاث فيه مراعاة لمصلحة الرجل

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ٣٥٩-٣٦٠).

والمرأة. (١)

١٦. ومما يتعلق بذلك الرجل إذا علم أن المرأة لا تحل له بعد أن يطلقها ثلاث مرات إلا إذا نكحت زوجًا غيره، فإنه يرتدع؛ لأنه مما تأباه غيرة الرجال وشهامتهم، ولا سيما إذا كان الزوج الآخر عدوًا أو مناظرًا للأول، وزيادة على ذلك: أن الذي يطلق زوجته ثم يشعر بالحاجة إليها فيرتجعها نادمًا على طلاقها، ثم يمقت عشرتها بعد ذلك، فيطلقها، ثم يبدوا له ويرجع عنده عدم الاستغناء عنها، فير تجعها ثانية، فإنه يتم له بذلك اختبارها؛ لأن الطلاق الأول ربما جاء عن غير روية تامة ومعرفة صحيحة منه بمقدار حاجته إلى امرأته، ولكن الطلاق الثاني لا يكون كذلك؛ لأنه لا يكون إلا بعد الندم على ما كان منه أولًا، والشعور بأنه كان خطًا ولذا قلنا أن الاختبار يتم به، فإذا هو راجعها بعده كان ذلك ترجيحًا لإمساكها على تسريحها، ويبعد أن يعود إلى ترجيح التسريح بعد أن رآه بالاختبار التام مرجوحًا، فإن هو عاد وطلق ثالثة كان ناقص العقل والتأديب، فلا يستحق أن تجعل المرأة كرة بيده يقذفها متى شاء، ويرتجعها متى شاء هواه، بل يكون من الحكمة أن يتبين منه، ويخرج أمرها من يده لأنه علم بأنه لا ثقة بالتآمهما وإقامتهما حدود الله تعالى. (٢)

ففي هذا أيضًا ردع للرجال عن الطلاق عن طريق هذه الصورة التي يستبشعها الغيور الشهم إذا تدبر فيها، وما هي إلا صورة من صور الدفاع عن المرأة في شريعة الطلاق.

الوجه الثاني: الرد على زعمهم أن الطلاق ظلم للمرأة واعتداء على قدسية الزواج.

أما قولهم: إن في مشروعية الطلاق امتهان للمرأة كلام باطل:

والصواب أن في الطلاق تكريم للمرأة، وإلا فما الكرامة مع رجل يسيء عشرتها، ولا يخجل أن يتخذ الأخدان بمرأى منها أو مسمع، أو يقتِّر عليها في الإنفاق، أو يقضي ليله على موائد القمار أو شرب الخمر، أو نحو ذلك. إن هذا هو أعظم امتهان يمكن أن تُمتهن به

(١) الطلاق للحفناوي (٢٥-٢٦)، وانظر الفرقة بين الزوجين (٢٣-٢٤)، والمرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية (٢٥١-٢٥٢)، وانظر تفسير المنار (٢/ ٣٨١-٣٨٢)

(٢) تفسير المنار (٢/ ٣٩٢).

المرأة التي يؤذيها وجودها على ذمة هذا الزوج حتى لتتحول الحياة معه في نظرها إلى جحيم لا يطاق، وبهذا يتضح أن في مشروعية الطلاق تكريمًا للمرأة، وليس امتهانًا لها كما زعم أعداء الإسلام. [١]

هذا ولقد طرحت مجلة اجتماعية أمريكية[٢] سؤالًا أمام قرائها عما إذا كانت الحياة العائلية في أمريكا تواجه المشكلات؟ فجاءت ٧٦ ٪ من الإجابات بـ "نعم "، وأعرب ٨٥٪من القراء عن خيبة أملهم في حياة زوجية سعيدة، وطبقًا لما نشرته مجلة نيوزويك في مايو ١٩٧٨م عن نتائج استطلاعها لآراء القراء حول الحياة العائلية الأمريكية فإن نصف الزيجات في الولايات المتحدة تنتهي إلى الطلاق ليعقد الزوج مرة أخرى ثم يحدث الطلاق. . ، ويصف رونالد كيلي وهو مستشار قانوني لشئون الزواج في الولايات المتحدة هذا الوضع المأساوي قائلًا: من أكثر ما يثير الأسى في نفسي كمستشار لشئون الزواج هو أن هناك أفرادًا كثيرين متزوجين إلا أنهم يعيشون في بيوتهم كغرباء فيبدوا أنهم لا يشارك بعضهم بعضًا إلا في قليل فالكل ينطلق في طريقه أو طريقها، وهم لا يتوقفون إلا للحديث في مناسبات قليلة، وكثيرًا ما تكون هذه مناقشات حادة حول المال، أو تربية الأولاد، أو الجنس. والمرء يستغرب كيف اجتمع هؤلاء في أول الأمر؟! [٣]

وهذا يبين مدى حاجة هذه البيوت إلى الطلاق ليغني الله كلًا من سعته.

ومما يظهر به تكريم المرأة في شريعة الطلاق طلاق المولي

والإيلاء من المرأة: أن يحلف الرجل ألا يقربها، وهو مما يكون من الرجال عند المغاضبة والغيظ، وفيه امتهان للمرأة وهضم لحقها وإظهار لعدم المبالاة بها، فترك المقاربة الخاصة المعلومة ضرارا معصية، والحلف عليه حلف على ما لا يرضى الله تعالى به لما فيه

---

(١) الطلاق للحفناوي (١٤-١٥)، وانظر: الأحوال الشخصية للشيخ محي الدين عبد الحميد (٢٥٥).

(٢) Better Homes And Gardens.

(٣) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية (١٣٣-١٣٤).

من ترك التوادّ والتراحم بين الزوجين وما يترتب على ذلك من المفاسد في أنفسهما وفي عيالهما وأقاربهما، وحكم هذا المولي أنه يجب عليه أن يحنث ويكفر عن يمينه، ولكنه إذا لم يفعل هذا الواجب لم يكن آثمًا في نفسه فقط فيقال:

حسبه ما يلقى من جزاء إثمه، بل يكون بإثمه هاضمًا لحق امرأته، ولا يبيع له العدل هذا الهضم والظلم ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم؛ وهو التربص مدة أربعة أشهر، وقد قيل إن هذه المدة هي التي لا يشق على المرأة البعد فيها عن الرجل وهي كافية لتروي الرجل في أمره ورجوعه إلى رشده، ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾. أي: صمموا وعزموا على أن لا يعودوا إلى ملامسة نسائهم، فإن الله سميع عليم، أي: فليراقبوا الله تعالى عالمين أنه سميع لإيلائهم وطلاقهم عليمٌ بنيتهم فيه، والمعنى أن من حلف على ترك غشيان امرأته فلا يجوز له أن يتربص أكثر من أربعة أشهر، فإن تاب وعاد قبل انقضائها لم يكن عليه إثم، وإن أتمها تعين عليه أحد الأمرين: الرجوع إلى المعاشرة الزوجية، أو الطلاق وعليه أن يراقب الله تعالى فيما يختاره منها، فإن لم يطلق هو بالقول كان مطلقًا بالفعل أي إنها تطلق منه بعد انتهاء المدة رغم أنفه منعًا للضرر وقيل ترفع أمرها للحاكم فيطلق عليه، والمسألة خلافية في هذا لكن لا خلاف في أنها لا تبقى على عصمته وعدم إباحة مضرتها وقد فضل الله الفيئة على الطلاق إذ جعل بعدها المغفرة والرحمة وهدى إلى مراقبته في العزم على الطلاق[1].

قلت: فأي ظلم يقع على المرأة أن تبقى مع رجل حلف أن لا يجامعها، أو تطلق منه ليثيبها الله بغيره وهل هذا في الإسلام دفاع عن حق الرجل أو عن حق المرأة؟!

ومن مظاهر التكريم للمرأة في هذه الشريعة:

أنها تأخذ إذا طلقت قبل الدخول تعويضًا لها قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾ (البقرة: ٢٣٦). لأن الطلاق قبل الدخول

(١) تفسير المنار (٢/ ٣٦٨).

ربما أوهم عند بعض الناس أن الزوج ما طلقها إلا وقد رابه منها شيء، فإذا هو متعها متاعًا حسنًا تزول هذه الغضاضة ويكون هذا المتاع الحسن بمنزلة الشهادة بنزاهتها والاعتراف بأن الطلاق كان من قبله أَيْ: لعذر يختص به لا من قِبَلِهَاْ، أي: لا لعلة فيها لأن الله تعالى أمرنا أن نحافظ على الأعراض بقدر الطاقة، فجعل هذا التمتيع كالمرهم لجرح القلب لكي يتسامع به الناس، فيقال: إن فلانًا أعطى فلانة كذا وكذا فهو لم يطلقها إلا لعذر وهو آسف عليها معترف بفضلها، لا أنه رأى عيبًا فيها، أو رابه شيء من أمرها.

ولما كان في الطلاق ظنونٌ تحوم حول المرأة أكثر ممن طلقت بعده، جعل بعض العلماء متعة المطلقة قبل الدخول واجبة على الرجل[1]، فما أكمل هذه الشريعة! وهذا الدين الذي يراعي حق الرجل؛ فيأذن له في الرجوع عما عزم عليه، أو حل ما دخل فيه من شركه، لكنها لا تنسى المرأة، فتعوضها في كل حال من الأحوال بما يناسبها.

هل يعجبك ويسرك أيها المدافع عن عقد الزواج أن يكون العقد مستمرًا بين زوجين كل منهما له علاقة جنسية بغير زوجه، أم تذهب إلى ما تراه بعض المحاكم الأوربية من أن الطلاق لا يقع إلا بعد وقوع جريمة الزنا، فيضطرُ الزوجان إلى أحد أمرين: إما إلى أن يكذبا ويعترفا بالزنا ولم يزنيا، وإما أن تزني من أجل الحصول على الطلاق؛ فيكون طريق الخلاص في هذه المحاكم المتعصبة لما تراه هو الزنا: بالله ما هذا السفه والازدراء للآدمية والبشرية؟!

إما أن يعيشا معًا وهي تزني، وإما أن تزني لكي يحصلا على الطلاق، وإما أن ينسبا الزنا من غير حدوثه لنفس الغاية، أليست الكرامة والستر في شريعة الطلاق خير من الإهانة والفضيحة في هذه التفاهات التي زعموا بها تقديس عقد الزواج؟!

إن المرأة قد يصل بها الحال إلى طلب الطلاق، فيرفض الرجل:

---

(١) المنار (٢/ ٤٣٠).

فتطلب منه أن تفدي نفسها بالمال وهو الخلع، فيرفض كذلك، وترى أن الضرر الواقع عليها لا يُحتمل دنيًا ودينًا، فترفع أمرها إلى القاضي، فإذا ثبت الضرر طلق القاضي:

والسؤال: أين الظلم والاستهانة بالمرأة في مثل هذه الصورة؟!

ومن خلال هذا ترى أن كل امرأة تستطيع شأنها شأن الرجل أن تنهي عقد الزواج؛ دون تعلل بأن المرأة التي تخلع نفسها تفقد حقوقها؛ على اعتبار أن الرجل الذي يطلق زوجته يفقد ما أنفقه عليها، كما يدفع كل التزاماته نحوها، بل ويفقدها هي نفسها، وعليها إذا شاءت إنهاء الزواج أن تتحمل نفس الأعباء التي يتحملها الرجل، أو مثلها على الأقل[1] وجوز الشرع الخلع دفعًا للضرر عن المرأة، والفقه أن الفداء إنما جعل للمرأة في مقابلة ما بيد الرجل من الطلاق فإنه لما جعل الطلاق

بيد الرجل إذا كره المرأة جعل الخلع بيد المرأة إذا كرهت الرجل.[2]

وقد حدث في صدر الإسلام فيما رواه ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ، فقالت: ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال النبي ﷺ " أتردين عليه حديقته؟ "، قالت نعم، قال رسول الله ﷺ " اقبل الحديقة وطلقها تطليقة "، وفي لفظ ولكني لا أطيقه.

وفي رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ عند ابن ماجه أن ثابت بن قيس كان دميمًا، وأن امرأته قالت: لولا مخافة الله لبصقت في وجهه"

ولأبي داود والترمذي وحسنه: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت منه فجعل النبي ﷺ عدتها حيضة.[1]

---

(١) المرأة بين الدين والمجتمع (٣٤٩).

(٢) الفرقة بين الزوجين وأحكامها في مذاهب أهل السنة للدكتور سيد أحمد فرج (١٢٨)، وانظر بداية المجتهد (٢/ ٨١)، وانظر في هذه المسألة المغني (٧/ ٥١)، ومجموع الفتاوي (٣٢/ ٢٨٢)، وفتح الباري (٩/ ٣١٥).

فإذا كرهت المرأة الرجل، وعلمت أنها لا تؤدي حق الله في طاعته حين ذلك جاز لها الخلع على العوض، وذلك لأن بين الزوجين عقدًا بموجب النكاح الصحيح له شروطه كسائر العقود، فلما كان من أسباب انعقاده وشروطه أن يدفع الزوج لها مهرًا ويلتزم بحقها في الإنفاق عليها بالمعروف، فإن أبغضته ونفرت منه بحيث لا تستطيع إمضاء العقد إلى الأبد مع الخوف من الوقوع من المعصية من عدم طاعته؛ كان لها كطرف من طرفي العقد أن تطلب فضه، ولما كان في ذلك إضرار لاحق به؛ كان لا بد من تعويضه عن هذا الضرر اللاحق به، ولأنها عندما قبلت العقد كان ذلك القبول بعوض هو المهر والنفقة قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

فدل على مشروعية فض العقد بفداء، فإن لم يكن خوفٌ لم يجز لها أن تخلع.[٢]

وهنا أسأل هذا المجادل: أين الظلم للمرأة في فض وإنهاء عقد الزواج عن طريق الخلع؟، وأين الاعتداء على قدسية الزواج؟، وهل من قدسية الزواج أن تبقى مع شريعة تأمرك أن تبقى مع زوجة كلما رأتك بصقت في وجهك، أو تبحث عن شريعة تعطيك ما أنفقت تعويضًا لك، وتعطي المرأة حقها الشرعي والطبيعي والإنساني في البحث عن رجل تؤدي حق الله فيه؟ إنها شريعة الإسلام فالحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

أما إذا لم تستطع الزوجة أن تحصل على الخلع ووقع الضرر عليها فرفعت أمرها للقاضي، فرق بينهما في هذه الحال دفاعًا عن حق المرأة:

وحالات التفريق هي:

أ- التفريق للعيب: والعيوب الموجبة للتفريق: العِنَّة، والخصاء، والجب؛ أي: قطع الذكر. بشرط أن ترفع المرأة أمرها للقاضي مطالبة بهذا التفريق، فأي دفاع عن المرأة في أن ترفع أمرها إلى القاضي لأن زوجها لا يقدر على الجماع أبدًا فيرفض القاضي لأن ما يجمعه

---

(١) البخاري (٧/ ٣٣٠)، وابن ماجه (١/ ٦٦٣) باب المختلعة تأخذ ما أعطاها، وأبو داود باب الخلع (١/ ٥٥٩)، والترمذي (٣/ ٤٩١) باب ما جاء في الخلع (٦/ ١٦٨).

(٢) الفرقة بين الزوجين ـ لأحمد فرج-(١٢٩-١٣٠).

الله لا يفرقه إنسان؟! ثم هب أن الزوج به جنون، أو برص، أو جذام، ولم تطق العيش، ولم يرض أن يطلقها ولم يوافق القاضي لأن الطلاق لا يجوز فماذا تفعل هذه المرأة؟!

ب- التفريق لعدم الإنفاق: فهب أنها لا تجد طعاما، ولا شرابًا، ولا لباسًا، ولا سكنًا، عند هذا الزوج وأبى أن يطلقها ليغنيها الله من سعته. فالقاضي يفرق بينهما لكن إذا امتنع حفاظا على قدسية الزواج المزعومة الممقوته فماذا تفعل؟!

جـ- التفريق للإساءة الشديدة: وهذه أيضًا في مسار التفريق دفعٌ للضرر عن المرأة.

د- التفريق للغياب الطويل وفقد الزوج إذا تضررت المرأة بذلك، ورفعت أمرها للقاضي، فهب أنها شابة ستنحرف، وعضها الفقر بنابه، وهي على ذمة رجل لا تعرف له أرضًا ولا سماءً، فرفعت أمرها إلى قاضي ممن يقولون بحرمة الطلاق إلا للزنا، هل تزني لتطلق فإذا طلقت لا يجوز لها أن تتزوج لأنها مطلقة أم تزني لتعيش؟ ، فإذا ثبتت عليها تهمة الزنا طُلقت نعوذ بالله من تقديس للزواج هذا مصيره. (١)

أن يقال لهذا المعترض على خالقه وبارئه هل رأيت بعينك أو سمعت بأذنك أن شركة من الشركات اشترطت على من يدخلها من الأطراف أن لا يخرج منها إلا بالموت؛

إن كان هذا فهو نهي عن الدخول فيها أصلًا: قال مّتى (٥-٣٢): إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي.

وهذا يقضي على مؤسسة الزواج؛ وهي الأسرة قضاءً كاملًا، وإلا فهل تخيل الرب بعلمه الأزلي أن الزوجين المتنافرين المتصارعين سيكونان أسرة سعيدة رحمة على أطفالهما ولم يكن عندهما أطفال؟ فلماذا يصر الرب على إفساد باقي حياتهما وهل منع الرب المشاكل التي تحدث بين الزوجين وهل مكن الرب الحب في قلب كل زوج وزوجة على وجه الأرض حتى لا تحتاج أسرة إلى طلاق؟(٢)

أمَا تدبر هذا المتكلم قول الله تعالى بعد ذكر آية الرجعة:

---

(١) الفرقة بين الزوجين بتصرف ـ للدكتور أحمد فرج بتصرف ـ (٢٦٩-٢٨٨).

(٢) إنسانية المرأة (٣٦٠).

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) (البقرة: ٢٢٩).

---

(١) قال الشيخ محمد رشيد رضا في المنار (٢/ ٣٧٥-٣٨١): هذه كلمة جليلة جمعت على إيجازها ما لا يؤدي بالتفصيل إلا في سفر كبير، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق؛ إلا أمرًا واحدًا عبر عنه بقوله: " وللرجال عليهن درجة"، وقد أحال في معرفة مالهن وما عليهن على المعروف بين الناس في معاشرتهم ومعاملاتهم في أهليهم، وما يجري عليه عرف الناس هو تابع لشرائعهم، وعقائدهم، وآدابهم، وعاداتهم، فهذه الجملة تعطي الرجل ميزانًا يزن به معاملته لزوجته في جميع الشئون والأحوال، فإذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور نذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه، ولهذا قال ابن عباس: إنني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي لهذه الآية، وليس المراد المثل بالمثل في أعيان الأشياء وأشخاصها، وإنما المراد أن بينهما حقوق متبادلة؛ وأنهما أكفاء فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها إن لم يكن مثله في شخصه، فهي مثله في جنسه، فهما متماثلان في الحقوق والأعمال؛ كما أنهما متماثلان في الذات، والإحساس، والشعور، والعقل، أي: أن كلًا منهما بشرٌ نامٍ له عقل يتفكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبدًا يستذله ويستخدمه في مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة؛ التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام لحقوقه، وهذه الدرجة التي رفع الله إليها النساء لم يرفعهن عليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده، وهذه الأوروبية التي كان من آثار تقدمها في الحضارة والمدنية أن بالغة في تكريم النساء، واحترامهن، وعنيت بتربيتهن، وتعليمهن العلوم والفنون؛ لا تزال قوانين تمنع المرأة من حق التصرف في مالها بدون إذن زوجها، وغير ذلك من الحقوق التي منحتها إياها الشريعة الإسلامية منذ عدة قرون؛ وقد كان النساء منذ عهد قريب في أوروبا بمنزلة الأرقاء في كل شيء، كما كن في الجاهلية عند العرب، وأسوأ حالًا. ونحن لا نقول إن الدين المسيحي أمرهم بذلك؛ لأننا نعتقد أن تعاليم المسيح لم تصل إليهم كاملة سالمة من البدع، وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا في إعلاء شأن المرأة؛ يفخرون علينا، بل يرموننا بالهمجية في معاملة النساء ويزعم الجاهلون منهم بالإسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا. . .

ثم قال: وأما قوله: وللرجال عليهن درجة "، فهو يوجب على المرأة شيئًا، وعلى الرجل أشياء، ذلك أن هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، فالحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف، لئلا يعمل كل على ضد الآخر، فتنفصم عروة الوحدة الجامعة، ويختل النظام، والرجل أحق لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله، ومن ثم كان هو المطالب

وهي درجة الإصلاح، والتقويم، والرعاية، والحماية، كقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وليست قوامة تسلط، وتشفي، وانتقام، ولكنها قوامة رأفة، ورحمة، وأخذ باليد إلى طريق النجاة في الدارين.

فهل يقال إن في هذا إعلاء للرجل وظلم؟ بل إعلاء للرجل لحماية المرأة ولرعايتها؟

أيها المدافع عن المرأة هب أن رجلًا تزوج امرأة، وله أم فقالت له زوجته: لا أعيش معك إلا إذا أخرجت أمك من البيت إلى أي مكان آخر – وهو لا يليق بها كأم – أفيطرد أمه ويسيء إليها بعد أن ربته وأحسنت إليه؟ ، أم يطلق زوجته؟ ، أم أنك لا ترى آلام امرأة؟!

وكذا هب أن رجلًا تزوج امرأة فماتت، وله منها بنت فتزوج امرأة أخرى فقالت: لا أريد هذه البنت في البيت، ولا أريدك تصلها لأن ذلك يدل على أنك تحب أمها أو تطلقني، وهذه البنت فلذة كبدك وجزء منك، فماذا تصنع لو كنت هذا الرجل؟ ، هل تطلق لأجل البنت، والمرأة تتزوج بآخر يرزقها الله به؟ أم ترمي بالبنت في الشارع لتكون عرضة لكل خبيث قبيح يتعدى عليها بكل وجه من أوجه الاعتداء؟ ، أم أن هذه البنت الآن ليست من النساء اللاتي تدافع عنهن أنت؟!

أرجو منك أن تكيل بمكيال واحد لكل النساء، وأن تزن بميزان واحد للأم، والبنت، والزوجة، والأخت،. . . إلخ،. وأن تراعي مصالح الكل.

إلا إذا كنت ممن يرون إلقاء الأم في دار المسنين، فهذا عار عليك، والبنت في دور الأيتام ـ فما مت بعد حتى تجعلها مع الأيتام ـ ولو تيتمت لكان خيرًا لها من العيش معك

شرعًا بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف، فإن نشزت عن طاعته كان له تأديبها بالوعظ، والهجر، والضرب غير المبرح إن تعين تأديبًا يجوز ذلك لرئيس البيت لأجل مصلحة العشيرة وحسن العشرة، كما يجوز مثله لقائد الجيش ولرئيس الأمة لأجل مصلحة الجماعة، وأما الاعتداء على النساء لأجل التحكم والتشفي أو شفاء الغيظ؛ فهو من الظلم الذي لا يجوز بحال، قال ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. . . . وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ولذكر العزة هنا وجهان:

(١) إعطاء المرأة من الحقوق مثل ما للرجل عليها بعد أن كانت مهضومة الحق عند جميع الأمم.

بهذا القلب المتحجر، وهذا العقل الضال، وهذا الفهم الخطأ، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

الوجه الثالث: بيان أن فطرة الناس يلزمها الطلاق.

الطلاق أمر موافق للفطرة ولذا تراه موجودًا عند جميع الأمم في كل العصور، ومن ذلك ما يلي:

١-**الطلاق عند قدماء المصريين:** لم تكن هناك قيود على الطلاق عندهم، فقد كان للرجل أن يطلق زوجته متى شاء.

٢- **في بابل القديمة:** أما في بابل القديمة، فنجد في قوانين حمورابي بعد أن قامت الروابط الزوجية على أسس غير مؤقتة؛ أن القانون يجعل للزوج الحق المطلق في الطلاق، أما بالنسبة للزوجة؛ فإنه قد جعل لها الحق في طلب الطلاق متى كان الخطأ من جانب الزوج، أما إذا طلبت الطلاق وكان الخطأ من جانبها، فإنها تعاقب بالموت لسوء عشرتها وجرأتها على طلب الطلاق.

٣-**أما في اليونان القديمة،** فللرجل أن يطلق زوجته متى شاء، ولأي سبب، وبدون أية إجراءات، ولم يكن يُصرَّح للمرأة إلا في عصر متأخر وهو العصر الكلاسيكي.

٤-**أما عند الرومان قبل عصر المسيحية،** فقد كان للرجل الحق أن يطلق زوجه بنفس الطريقة التي تم بها زواجه منها، فإذا كان الزواج قد تم في المعبد يتم الطلاق أيضًا في المعبد، وإذا كان الزواج تم عن طريق شراء الزوجة؛ فإن عليه أن يبيعها فيتم الطلاق، وكان لا يجوز للرجل الذي تزوج في المعبد في أول الأمر أن يطلق زوجته إلا إذا أثبت عليها جريمة الزنا، أو محاولة قتلة بالسم، وإذا ثبت عليها تزييف مفاتيح داره، ولكن عندما صدر قانون الألواح الاثنا عشر سنة ٤١١ق. م أبيح للرجل حرية الطلاق حتى كثرت حالات الطلاق بطريقة جعلت المرأة تحسب عمرها بعدد مرات طلاقها وقد حدث الطلاق الكثير من القياصرة أمثال: يوليو قيصر، وأنطونيوس، وأغسطس، ولكنه قبل مجيء عيسى عليه السلام بدأ تقييد عملية الطلاق، فأصبح من الضروري لإتمام عملية الطلاق

حضور سبعة من الشهود ثم تعطي المرأة وثيقة الطلاق، ولم يكن الأمر قاصرًا على الطلاق بل كان للرجل أن يقتل امرأته على بعض الجرائم مثل جريمة السكر كما أنه لم يكن من حقها طلب الطلاق. . . . إلخ. (١)

وبهذا ترى أن الإسلام سبق إلى شريعة الطلاق لكنه سبق إلى توجيهها توجيهًا إصلاحيًا.

٥ـ الطلاق عند العرب:

أما عند العرب قبل الإسلام، فقد جاء الإسلام والطلاق من النظم الاجتماعية السائدة؛ بمعنى أن الإسلام لم يبدأ فيهم شريعة الطلاق كما قد يتوهم البعض، فقد ظهر الإسلام وحق الرجل في الطلاق حق مقرر يمارسه الناس دون حرج أو إنكار من أحد، ولكنه كان حقًا واسعًا مسرفًا في سعته، فكان للرجل أن يطلق زوجته أي عدد يشاء من المرات، وله أن يراجعها ما دامت في عدتها، وكثيرًا ما كان يستخدم هذا الأسلوب للإضرار بالزوجة؛ الأمر الذي اقتضى من الإسلام ضرورة تعديله، فقد أظهرت أحدى الحالات فساد وشناعة عدم وضع حد أقصى لعدد الطلقات التي يمارسها الرجل، ضرورة وضع هذا الحد، فقد هدد رجل زوجته في عهد الرسول ﷺ مستندًا على هذا الحق بأنه لا يؤويها ولا يرسلها أبدًا، فلما استفسرت منه عن الطريقة أخبرها أنه يطلقها حتى إذا قاربت إنهاء عدتها راجعها ثم يمضي في هذا العمل إلى غير ما نهاية، فاضطرت المرأة إلى رفع الأمر على هذه الصورة إلى النبي ﷺ للفصل فيه، وقد استبان للرسول الكريم من هذه الحالة خطورة هذا الحق على سعادة المرأة وراحتها، فقد دلت هذه الحالة على أن هذا الحق قد ينقلب على يد من لا خلاق لهم إلى أداة تعذيب للزوجة وإرهاقها، وأنه لا بد لإنقاذ المرأة من وضع حد لهذه السلطة الدكتاتورية، ومن هنا نزلت شريعة التحديد من الآيتين الكريمتين ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى (٣٥٧).

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ وبهذا استل من يد الرجل هذا السلاح الرهيب الذي ييسر له إرهاق الزوجة، وتعذيبها، وابتزاز أموالها، إذا أرادت التخلص منه، فالإسلام لم يظهر في مجتمع لا يعرف الطلاق، وإنما ظهر في مجتمع لا يعرف الطلاق حدًا يقف عنده، ولا يهتم بما قد ينشأ عنه من عنت وإرهاق، فلم يحظر الطلاق؛ ولكنه حدده فجعل أقصاه ثلاث طلقات لا غير، وهذا في ضوء ما أمرنا إليه من آداب متعلقة في هذا الباب[1].

٦ـ الطلاق في شريعة موسى ﷺ:

اعلم أيها المتكلم أن الطلاق كان موجودًا في شريعة موسى ﷺ، فإن قلت إنه نسخ بما جاء في شريعة عيسى ﷺ، فقد اعترفت بالنسخ وعندئذ فلا مانع من كون التحريم في شريعة عيسى ﷺ نسخ بشريعة محمد ﷺ، وإن قلت لا نسخ كما تقول أنت وتعتقد، فيبقى الحال كما هو عليه في شريعة موسى ﷺ من إباحة الطلاق، ومما يدل على هذا ما جاء في العهد القديم سفر التثنية إصحاح (٢٤/ ١-٣): إذا أخذ الرجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينية لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجه لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتعود له زوجه بعد أن تنجست لأن ذلك رجس لدى الرب.

فكما قلت إما أن تقر بالنسخ؛ فتكون قد اعترفت به، ولهذا تكون الشريعة المحمدية نسخت أشياء في الشريعة العيسوية ومنها الطلاق، وإما أن تنكر النسخ، فيكون الأمر على ما جاء في الشريعة الموسوية من إباحة الطلاق[2].

وكما هو واضح في النص السابق أن الله شرع لهم الطلاق، وجعله في يد الزوج، ولا يحتاج الطلاق في اليهودية إلا إلى إثباته أمام القاضي، وللرجل مطلق الحق في تطليق زوجته

(١) المرأة بين الدين والمجتمع (٣٤٠) وانظر تفسير المنار (٢/ ٣٨١).

(٢) لكن جاء فيه أن المرأة بعد الزواج الثاني قد تنجست مع أنه زواج صحيح فالحمد لله على نعمة الإسلام فالمسلمة لا تنجس حية ولا ميتة حتى لو تزوجت بزوج آخر فالحمد لله

إذا لم تحسن في عينه، وإن كانت اليهودية تقرر أن من الأفضل أن يكون الطلاق بعذر.

يقول أ/زكي على السيد: بل أعطى الحق في الطلاق للأب تشاول اليهودي زوج ابنته لميكال، وكانت زوجة لداود، ووالد زوجة شمشون طلقها منه لغيابه فترة، ويقع الطلاق في شريعة التوراة بمجرد النية، فإذا نوى الرجل أن يطلق زوجته وجب عليه أن ينفذ ما نوى عليه فورًا، ومع ذلك فالطلاق في اليهودية لا يرغب فيه كما هو في الإسلام (فاحذروا لروحكم ولا يغدر أَحَدٌ بامرأة شبابه لأنه يكره الطلاق. [1]

وأشنع ما في الطلاق في اليهودية، أن المرأة لا عدة عليها بعد الطلاق، ولذلك؛ فإنها قد تتزوج وتكون حاملًا ويأتي الولد لغير اسم أبيه الحقيقي.

وقد جاء في سفر التكوين (٢-٢٤): لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا.

وذلك النص ما بني عليه المسيحيون القول بأن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان، وقد قال علماء اليهود في التلمود بأن هذا النص لا يناقض إباحة الطلاق، فليس معنى الجسد الواحد هو الرجل والمرأة بل المقصود نتاجهما وهو الطفل، وقد ظل الطلاق، معمولًا به في الشريعة اليهودية إلى أن قرر المجمع اليهودي في عهد الرومان تقييد حرية الرجل في الطلاق كما حصر حالات طلب المرأة للطلاق في سبعة أسباب لا يزال معمولًا بها إلى يومنا هذا ولم توضع هذه القيودُ في كتابهم المقدس، بل وضعت في المجامع البشرية وهي:

١- عدم القدرة على مضاجعة الزوجة.

٢- تغير الدين.

٣- إسراف الزوج.

٤- الامتناع عن الإنفاق.

٥- هروب الزوج من البلاد لجريمة ارتكبها.

---

(١) وانظر العهد القديم: ملاخي (٢: ١٥-١٦).

٦- سوء معاملة الزوجة باستمرار.

٧-إصابة الزوج بمرض خبيث أو ممارسته عملًا أو تجارة محرمة.[١]

٧- الطلاق عند النصارى:

والآن نصل معًا إلى النظر في شريعة النصارى في العهد الجديد وفي القانون لديهم؛ لنرى هل استطاع القوم الإبقاء على تحريم وضع الطلاق؟ أم أن هذا أمر لا يطاق؟ وبدايةً:

١- اعلم أن الذين نتكلم بلسانهم كانوا يحرمون الطلاق تحريمًا قطعيًا نهائيًا، وكانوا يعيبون على الإسلام أنه يبيح الطلاق، ولكنهم بعد أن وجدوا أنفسهم محرجين غاية الإحراج أمام مجتمعاتهم، وأن الكنيسة الغربية أفلست في هذا المضمار، ووجدوا أن الناس هناك قد ضربوا بقدسية الزواج عرض الحائط، وصار كل رجل وكل امرأة تحت ظل بيت الزوجية يوهم نفسه أنه زوج، أو توهم نفسها أنها زوجة؛ ثم ينطلق كل واحد منهما لإشباع رغباته وشهواته مع الأصدقاء، والأخلاء، والصديقات، والخليلات على غير رضا الله سبحانه وتعالى، وشاعت الفواحش، وما تزال شائعة حتى الآن، فوجدوا أنفسهم مجبرين أن يبيحوا الطلاق، فأباحوه، ولكن أباحوه على غير نظام، ولا اتزان، وبكل تعسف؛ إلى أن رأينا ما نرى، وسمعنا ما نسمع من نسب الطلاق المرتفعة جدًا في الغرب؛ بسبب أنهم لا يتبعون هدى الله، وإنما يتبعون أهواءهم وما تزينه لهم عقولهم، فهذا حال من نتكلم بلسانهم وندافع عنهم، وإلا فاعلم أن في المنع من الطلاق إهانة للمرأة وللرجل وللبشرية كافة ولعقد الزواج الذي ينادي باحترامه، وهذا واضح، وهذه تجربة الهند في تصعيب الحصول على الطلاق:

كان المصلحون الدينيون الأوائل قد حظروا الطلاق، فضلًا عن سد كافة الطرق أمام المرأة للحصول على الزواج الثاني؛ لاستئصال أي نزعة للحصول على الطلاق، والتشريعات التي وضعت في هذا الشأن قضت بأنه لا يحق للرجل أن يطلق امرأته بعد

---

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى (٣٦١-٣٦٢).

استكمال اجراءات الزواج كما لا يمكن للمرأة أن تتزوج مرة ثانية في حالة انفصالها عن زوجها الأول، إلا أن الأسلوب لم يطابق الطبيعة مما أدى بالمجتمع الهندوسي إلى أن يدفع ثمنه باهظًا فانعدام الانسجام والاتفاق بين رجل وامرأة هندوسيين بعد الزواج كان يعني تحول حياتهما إلى الجحيم بصفة دائمة، فلم يكن بوسع الرجل أن يطلق زوجته ولا بوسع المرأة أن تتزوج مرة ثانية بعد الطلاق، وكان السبيل الوحيد للمرأة الهندوسية أن تعيش في عذاب دائم مع زوج غير مرغوب فيه، وأن تسلم نفسها إلى النار المحرقة إذا مات زوجها في حياتها، وقد اتخذت هذه المشكلة وضعًا جديدًا في الوقت الحاضر، فبالرغم من أن القانون الهندي يبيح للمرأة أن تنفصل عن زوجها وتتزوج مرة أخرى إلا أن المجتمع الهندوسي مازال متشتتًا من الناحية العملية بالتقاليد الموروثة منذ آلاف السنين، ومن نتائجها المروعة ارتفاع عدد النساء اللاتي يقبلن على الانتحار؛ لعدم التوافق والانسجام مع أزواجهن، إلى جانب هذا الانتحار يعمد الأزواج للتخلص من زوجات غير مرغوب فيهن إلى حرقهن، ثم الادعاء بأنهن قد انتحرن، وحوادث الحرق هذه كثيرة في أنحاء الهند، والغالبية العظمى منها بين الهندوس إلا أن طوائف أخرى لم تسلم من هذه الجرائم. (1)

وهذا أمر من الأمور التي ترتبت على المنع من الطلاق أن يتم التخلص بهذه التي رأيت، وهناك شيء آخر نتج عن عدم إباحة الطلاق؛ وهو عدم الدخول في الزواج أصلًا، وهذا ملخص لما نشرته صحيفة هندية عن أوضاع المرأة الغربية نقلًا عن تقارير صحفية غربية:

الزواج الفعلي وهو أن يعيش رجل وامرأة معًا بدون زواج قانوني؛ لا يتزايد فقط في مدينة هامبورج الألمانية، بل أخذ هذا النوع من العيش المشترك طابعًا ألمانيًا متميزًا؛ بأن الزوجين يستعينان بالمحامين لإعداد عقود واضحة ومفصلة بين الزوجين غير المترابطين بالزواج، وقد زاد عدد الأزواج الذين يعيشون معًا بدون زواج على أربعة أضعاف خلال السنوات العشر السابقة طبقًا لإحصاء أجرته شركة إيميند أما في الشباب الذين تتراوح

---

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية (٢٦١-٢٦٢).

أعمارهم بين ١٨-٢٥ سنة زاد هذا النوع من الارتباط عشرة أضعاف عما كان عليه قبل عشر سنوات، وهذا يعني أن مليون ألماني ومليون ألمانية يستيقظان كل يوم معًا بدون ارتباط بزواج قانوني، وقريب من هذا في فرنسا حتى تساءل علماء الاجتماع: ما هذا الذي يحدث لمؤسسة الزواج؟.

وفي جوابهم عن ذلك جعلوا من أسباب انتشار هذا الزواج الغير قانوني سهولة الحصول على الطلاق فيه بسهولة.

ويقول المركز القومي لإحصاءات الصحة في الولايات المتحدة الأمريكية: إنّ نسبة الزواج بين النساء الأمريكيات قد وصل أدنى معدل له.

ويقول تقرير آخر: إن نسبة الزواج بين النساء البالغات من العمر ١٥-٤٤ سنة قد انخفض عن مائة لكل ألف امرأة، وهذا واضح إذا كان الحصول على الطلاق صعبًا؛ لأن النهي عن الخروج من الشركة نهي عن الدخول فيها. (١)

٢- جاء في إنجيل متىّ (٥: ١٧-١٩). قول عيسى: لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ١٨فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. ١٩فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. ٢٠فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.

وأمر الجموع من أتباعه أن يلتزموا به: حِينَئِذٍ خَاطَبَ يَسُوعُ الْجُمُوعَ وَتَلاَمِيذَهُ ٢قَائِلاً: «عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ، ٣فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ، وَلكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لاَ تَعْمَلُوا، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ.

فهذه نصوص تدل على أن المسيح جاء متبعًا مكملًا لشرع موسى عليه السلام لا ينقض الناموس.

---

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية (٢٦٠).

٣- وعلى الرغم من التزامه بالناموس والدعوة للعمل به والتمسك به فقد نسب إليه نقض الناموس بتحريمه الطلاق إلا لعلة الزنا وحدها كما في متىّ أنه قال: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي. (متىّ ٥-٣٢).

٤- ووجهة نظر المسيحية في الطلاق: أن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان؛ إنما أخذت من نظام الرومان في وثنيتهم، إذ كان يشترط لإحداث الطلاق إقامة حفل ديني بنفس الشروط والأوضاع التي أقيم بها حفل الزواج، إذ أن الآلهة وحدها هي التي تستطيع أن تفرق شمل ما جمعت.

٥- واستقرت المسيحية على شرط واحد من الشروط الثلاثة التي شرعها الرومان لإحداث الطلاق وهو الزنا، وإن كانت المرأة ليس لها حق في الطلاق حالة زنا الرجل لأنه لا يصح أن تتساوى معه.

٦- ومعنى ذلك أن المرأة التي تريد الطلاق في المسيحية ليس أمامها إلا الرضوخ للحياة الكئيبة التي تحياها مع رجل تكرهه؛ تكيد له، ويكيد لها ويتمنى كل منهما التخلص من الآخر، أو على الأقل موت الآخر، أو إنها تزني في بيت الزوجية ليضبطها زوجها فيقتلها، أو يأتي بشهود عليها ليتخلص منها.

٧- وقد يأتي الرجل بشهود زور ليشهدوا على زوجته بالزنا دون وقوعه ليتمكن من طلاقها، فأين بناء الأسرة في ظل جو المشاحنات والكيد والكره الذي يملأ البيت؟! هل عدم الطلاق أو تعليقه على شرط الزنا يقيم أسرة قويمة نفسيًا أو أخلاقيًا وهل هذا من صالح المجتمع الذي يعيش فيه النصارى؟

٨- هل النص المنسوب لعيسى عليه السلام قد نسخ ما قاله موسى في الناموس، وجعل الطلاق الذي شُرع لموسى وقومه من أجل غلاظة قلوب بني إسرائيل، وأوقفه على الزنا فقط.

قال (متّى١٩: ٣-١٢): " ٣ وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟ » ٤فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ

الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ ٥وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٦إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». ٧قَالُوا لَهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَق فَتُطَلَّقُ؟ » ٨قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هكَذَا. ٩وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَب الزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي». ١٠قَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: «إِنْ كَانَ هكَذَا أَمْرُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ، فَلاَ يُوافِقُ أَنْ يَتَزَوَّجَ! » ١١فَقَالَ لَهُمْ: «لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُونَ هذَا الْكَلاَمَ بَلِ الَّذِينَ أُعْطِيَ لَهُم.

٩- وبنظرة سريعة على النص نجد أن عيسى عليه السلام قاله على سبيل الاستحسان لا على سبيل الفرض لذا قال من استطاع أن يقبل فليقبل. (متّى ١٩-١٠).

١٠- ومقولة "أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى " حجه على النصارى لا لهم، فهو يحكي خبر لا شريعة فالطلاق لم يكن موجودًا عندما كانت البشريةُ رجلًا وامرأةً لهما نفس الطباع والثقافة ولا يوجد بشر غيرهما، ولكنه قد شرع لزيادة أعداد الناس وتطور المجتمعات وهذا ينفي وجود الرهبنة عندهم. . . ويناقض النص الذي يطالب الرجل المؤمن أن يخصي نفسه وما دام الله قد خلق الإنسان كذكر وأنثى للتناسل فلابد أن يكون الطلاق محللًا على الأقل في حالة العقم، إلا أن الطلاق عندهم لا يقع أيضًا حالة عقم الزوج أو الزوجة، أو الإصابة بمرض يمنع من القيام بواجبات الزوجية، أو للكراهة، أو سوء المعاشرة، أو عدم الإنفاق، أو عدم التوافق الجنسي، والعاطفي، والأخلاقي. . . . . إلخ.

ولا يسمحون بالتعدد الذي قد يَجْبُرَ هذا. أيُّ: جحيم هذا الذي يسمى بالزواج؟! وما هذا التحكم في الإنسان من إجباره على حياه كرهها أو كرهتها؟ قد تتغير حالته النفسية أو الأخلاقية فيما بعد دون وجود مخرج من هذه الزيجة؟

١١- وقد أدرك التلاميذ صعوبة تطبيق هذه التعاليم غير المثالية للبشر حتى إن الدكتور (هستون) أسقف درهام قال في حديث له عن الطلاق عام ١٩٢٣م:

إنه لو كان عيسى موجودًا في هذه الأيام لكان أعقل مما كان عليه من قبل!

١٢- أما الطوائف المسيحية الأولى فالطلاق كان متفشيًا فيهم بدليل أنه حين اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية سنة ٣٢٤م وجد الطلاق متفشيًا كما كان قبل عهد السيد المسيح ولذلك اضطر إلى أن يصدر أمرًا بتحديد الحالات التي يجوز فيها الطلاق، ثم جاء بعده الإمبراطور جستنيان سنة ٥٢٩ فحصرها في أربع حالات فقط، ومعنى ذلك أن نص عدم الطلاق لم يكن موجودًا وقتها في الأناجيل وإلا لما أَقْدَمَ قسطنطين أو جثنيان على اتخاذ هذا القرار، وأين كان آباء الكنيسة الذين كانوا يقومون بالتطليق وقتها؟!.

١٣- ولاستحالة تطبيق تعاليم الأناجيل التي تفرض على النصارى من العصمة والملائكية مالم تفرضه على الأنبياء فقد تحايل رجال الدين، والفكر، والقانون، النصارى على هذه التعاليم وشرعوا رغم أنفهم الطلاق المدني أي الذي يتم بغير الكنيسة، وأسموه بالتطليق حتى لا يقال إنهم نسخوا أو ألغوا الطلاق فاستبدلوا لفظ التطليق بالطلاق!

١٤- وكذلك تحايل النصارى للحصول على الطلاق من صور هذا التحايل:

(أ) تغيير المذهب أو الملة للحصول على الطلاق.

(ب) قد يتفق الزوجان على إثبات الزنا بأن يتهم أحدهما الآخر فيقر، أو بتدبير حيلة ما لإثباته، ولك أن تتخيل أن زوجتك أم أولادك تقف في المحكمة وتشهد على نفسها بالزنا لتطلق من زوجها وكيف تصبح صورة الأولاد في مجتمعهم بعد ذلك؟

(جـ) ومن الحيل التي تتخذ في تلك البلاد الأوربية أن تذهب المرأة مع عشيق لها إلى أحد الفنادق وتثبت اسمها واسم عشيقها في سجلات الفندق وتمكث مع عشيقها المدة التي تريدها ثم تذهب هي بعد ذلك إلى المحكمة لتبلغ عن جريمتها حتى توافق المحكمة على طلاقها، وبهذا قتلوا حياء المرأة الذي هو شعبة من الإيمان بسبب وقف الطلاق على الزنا فقط.

(د) القتل للتخلص من الزوج حتى يصبح القاتل أرملًا فيجوز له الزواج مرة أخرى.

(هـ) الهجرة وترك البلد بما فيها، وبالتالي تخلص الزوج من كل مسئولياته تجاه الزوجة وأولاده فأين نفقتها؟ وأين مؤخر صداقها؟ وإلى أن تثبت أنه هاجر أو اختفى ولن يعود، فلا بد من مرور أربع سنوات حتى يعترف القانون أن الرجل قد فُقد.

(و) الانفصال التام ولو بدون طلاق وكل طرف يمارس حياته الاجتماعية والشخصية ويقيم علاقات جنسية من معاشرة كاملة وغيرها مع عدم اعتراض من الطرف الآخر.

١٥- وبذلك يلاحظ أن الزواج الفاشل عند النصارى هو سجن إجباري لا فكاك منه إلا بارتكاب جرائم كالقتل والزنا والقذف، لذا ظهرت فكرة الـ (boy friend) في الغرب ليختبر الأحبة حياتهم قبل الدخول في سجن لا مخرج منه، فالنصرانية لم ترع يومًا واقع البشر، ويتغنى النصارى بتعاليم المسيح التي لا يمكن أن تكون من عند الله ولا نطق بها المسيح فهي تبدوا مثالية في الظاهر، ولكن في حقيقة الأمر هي تعاليم خربة لا تزيد اتباعها إلا شقاء.

١٦- فالمرأة لو طلقت ليس لها الحق في الزواج مرة أخرى ولتحيى هكذا كالأموات حتى لو طلقت بلا ذنب يقول بولس (٩. لتكتتب أرملة إن لم يكن عمرها أقل من ستين سنة امرأة رجل واحد ١٠. مشهودًا لها في أعمال صالحة إن تكن قد ربت الأولاد أضافت الغرباء غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين اتبعت كل عمل صالح ١١. أما الأرامل والحدثات فارفضهن لأنهن متى بطرن على المسيح يردن أن يتزوجن ١٢. ولهن دينونة لأنهن رفضن الإيمان الأول.

تيموثاوس الأولى (٥: ٩-١٢).

١٧- فها هو لا يبيح للمرأة الزواج إذا كانت أقل من الستين ويهينها ويتهجم عليها.

١٨- أما يسوع عندهم فقد حرم على المطلقة الزواج مرة أخرى حتى لو كان طلاقها بسبب الزنا كما أمر واعتبر كل من يتزوج بها زان.

١٩- وأيضًا فالمطلقة كانت تعامل دائمًا في الكتاب المقدس على أنها حقيرة شأنها شأن الزانية والمدنسة ولننظر بما أمر رجال الدين المقربون وفق التوراة:

(٦. مقدسين يكونون لإلههم ولا يدنسون اسم إلههم لأنهم يغربون وقائد الرب طعام إلههم فيكونون قدسًا ٧. امرأة زانية أو مدنسة لا يأخذوا ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها لأنه مقدس لإلهه. . . . إلخ (سفر اللاويين ٢١: ٦-٧).

(١٤. أما الأرملة والمطلقة والمدنسة والزانية فمن هؤلاء لا يأخذ بل يتخذ عذراء من قومه امرأة (لاويين ٢١: ١٤).

٢٠- وهكذا نستوعب وضع المطلقات والأرامل عند أهل الكتاب، وهو حلقة في سلسلة إهانة المرأة في هذا المعتقد بينما أنصف الإسلام، فجاء سيد الأولين والآخرين فعلمنا أن طلاق المرأة أو موت زوجها لا يقدح فيها أبدًا فكانت كل زوجاته أرامل ومطلقات باستثناء عائشة رضي الله عنها فالحمد لله على نعمة الإسلام[1]

٢١- وما ذكرنا سابقًا من إيقاع الطلاق بسبب العيوب المذكورة سابقًا إنما هو شريعة النبي ﷺ الإسلام، وكذا نحوه عند اليهود كما مر – أما شريعة النصارى فلا تجيز للمرأة حق طلب الطلاق لأي عيب من هذه العيوب، ثم هم يزعمون أنهم يدافعون عن حقوق المرأة.

٢٢- لكن الكنائس الأرثوذكسية خرجت عن هذا الاتجاه العام عندهم، وأباحوا للمرأة طلب التفريق بسبب العيوب، ولهم اتجاهان:

الأول: وهو الاتجاه القائم على اعتبار كل من الجنون، والعجز الجنسي، والمرض المعدي، من مبررات الطلاق وفي هذا تقول الخلاصة القانونية: إذا حدث لأحد الزوجين بعد الزواج

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى (٣٦٢-٣٦٨)، والمرأة بين الدين والمجتمع (٣٤٣). وقد ضرب مؤلف الكتاب بعض الأمثلة على هذا التعسف الديني عند النصارى فقال: ومن الأمثلة على ذلك أن الملك الإنجليزي الراحل إدوارد الثامن كان يعاشر ليدي سمبسون معاشرة الأزواج في قصره وهي على زمة زوج آخر وهذه الزوجة لما طلقها زوجها رفضت الكنيسة أن يتزوج الملك بها لأن زواجه بها من الناحية الدينية زنا ومن هنا اضطر الملك للتنازل عن العرش والتزوج بها، والمصور بيترتا ونسند عندما أراد زواج الأميرة مارجريت شقيقة الملكة أليزابيث ملكة بريطانيا رفضت الكنيسة أيضًا هذا الزواج على اعتبار أن بيتر كان متزوجًا من قبل وطلق زوجته ومن ثم فإن زواجه بتلك الأميرة في تلك الأوضاع يعتبر زنا. اهـ

ما يمتنع بواسطته الاجتماع المقصود بالزيجة؛ من الموانع الشخصية غير الممكن برؤها، ورغب المعافى منها الفرقة بعد أن تكون قد مضت مدة ثلاث سنوات مستمرًا مع قرينه من عهد ما أصيب بذلك المرض المانع، ولم يتمكنا من الاجتماع الزوجي التناسلي، وتحقق ذلك جليًا يجاب وتفسخ الزيجة[١]، كذلك نصت هذه الخلاصة على أن " العنة، والخنوثة، والخصاء، وعيب المرأة الذي يمنع المعاشرة، والجنون المطبق، والجذام، والبرص. . . . . . "[٢]

كذلك سلكت هذا المسلك المادة ٥٤ من مجموعة ١٩٣٨ حيث نصت على أنه: إذا أصيب أحد الزوجين بجنون مطبق أو بمرض معد يخشى منه على سلامة الآخر يجوز للزوج الآخر أن يطلب الطلاق إذا كان قد مضى ثلاث سنوات على الجنون أو المرض؛ وثبت أنه غير قابل للشفاء، ويجوز للزوجة أيضًا أن تطلب الطلاق لإصابة زوجها بالعنَّة إذا مضى على إصابته ثلاث سنوات؛ وثبت أنه غير قابل للشفاء وكانت الزوجة في سن يخشى فيه عليها من الفتنة.

الاتجاه الثاني: وهو قائم على الجنون والعنَّة من مبررات الطلاق دون غيرهما من العيوب والأمراض الأخرى وهذا هو نص المادة ٥٢ من مجموعة ١٩٥٥ حيث قالت: إذا أُصيب أحد الزوجين بجنون مطبق يجوز للآخر أن يطلب الطلاق إذا كان قد مضى خمس سنوات على الجنون، وثبت أنه غير قابل للشفاء، ويجوز للزوجة أيضًا أن تطلب الطلاق إذا أصيب زوجها بالعنة؛ وثبت أنه غير قابل للشفاء؛ وكانت الزوجة في سن يخشى عليها من الفتنة؛ ولم يكن قد مضى على الزواج خمس سنوات. [٣]

وهكذا أجمعت الكنيسة عند الأقباط الأرثوذكس على اعتبار كل من الجنون والعجز الجنسي والمرض المعدي من مبررات الطلاق ما عدا مجموعة ١٩٥٥ يتعارض مع اتجاه

---

(١) الخلاصة القانونية المسألة ١٧رقم ٤٥.

(٢) الخلاصة مسألة ٢٥رقم (٨١، ١٧) رقم ٤٥، وانظر تبديل المجموع الصفوي (٤٤١-٤٤٢).

(٣) الفرقة بين الزوجين (٧٩-٨٠).

نصوص المجموعات الكنسية ذلك الاتجاه الذي استقر عليه عرف الأقباط الأرثوذكس وبالتالي يتعين عدم التعويل عليه خصوصًا وإن مجموعة ١٩٥٥ ليست لها قوه ملزمة.(١)

وفي شريعة الأرمن من الأرثوذكس المادة ٣٩ من قانون الأحوال الشخصية: يجوز الحكم بالطلاق بعد مضي ثلاث سنوات من إصابة أحد الزوجين الجنون لا يشفي.

وفي المادة ٤٩ منه إصابة أحد الزوجين بمرض سري أثناء الزواج يجيز للآخر طلب الطلاق.(٢)

ومن خلال النظر في نصوص الأرثوذكس السابقة نفهم أن العلة التي توجب الفسخ بسبب العيوب والأمراض هي:

١- تفويض المقصود الأصلي من الزواج وهو التوالد والتناسل.

٢- الإعفاف عن المعاصي

٣- استحالة الحياة الزوجية وتعذرها.

٤- دفع الضرر الواقع على الزوج الآخر.(٣)

---

(١) أحكام الأسرة (٢٤٤)، نقلًا عن الفرق بين الزوجين لمحمد عبد الرحيم محمد (٨٠).

(٢) الفرق بين الزوجين لمحمد عبد الرحيم ٨١، تشريعات الأحوال الشخصية (٣٢٦-٣٢٧)، وانظر الزواج والطلاق في جميع الأديان (٣٢٦) والأحوال الشخصية لغير المسلمين د. جميل الشرقاوي (٣٦١-٣٦٣).

(٣) الخلاصة القانونية (٤٥) وأحكام الأسرة (٢٥٤) وتشريعات الأحوال الشخصية (٣٢٧) نقلًا عن كتاب الفرقه بين الزوجين لمحمد عبد الرحيم محمد (٨٩-٩٠)، وانظر كتاب الزواج المسيحي بين الدين والدولة ومما جاء فيه قول القمص أندراوس عزيز

الباب الثاني الطلاق: الفصل الأول في أسباب الطلاق:

وهي لائحة المجلس الملي لأقباط الأرثوذكس لسنة ١٩٣٨

١- يجوز لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق لعلة الزنا.

٢- إذا خرج أحد الزوجين عن الدين المسيحي وانقطع الأمل من رجوعه إليه جاز الطلاق بناءً على طلب الزوج الآخر.

٣- إذا غاب أحد الزوجين خمس سنوات متوالية بحيث لا تعلم مقره ولا تعلم حياته من وفاته وصدر حكم بإثبات غيبته جاز للزوج الآخر أن يطلب الطلاق.

وهكذا نرى أن الأرثوذكس رجعوا بأنفسهم في شريعة الطلاق إلى قريب مما عليه حال المسلمين، غير أنهم جعلوه عند القاضي لهذه الأسباب، وعلى كل حال فقد خرجوا عن أصلهم الموجود في الإنجيل أن الطلاق لا يجوز إلا لعلة الزنا، وعن أصلهم القائل إن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان، وما خرجوا هذا الخروج عن أصلهم؛ إلا لاستحالة تطبيق شريعة المنع من الطلاق، فهل يقول هذا المتكلم: إن التطليق عند الأرثوذكس بهذه الشروط عند القاضي هدم لقدسية الزواج واعتداء على المرأة؟ أم أنه سيكيل بمكيالين؟

(٢٣) " قولهم ما جمعه الله لا يفرقه إنسان "

هذه هي فلسفة النصارى في المنع من الطلاق لكن كيف أصحاب هذا الاتجاه من النصارى الذين يوافقون على الطلاق على هذه الفلسفة؟

٤- الحكم على أحد الزوجين بعقوبة الأشغال الشاقة أو السجن أو الحبس لمدة سبع سنوات فأكثر يسوغ للزوج الآخر طلب الطلاق.

٥- إذا أصيب أحد الزوجين بجنون مطبق أو بمرض معد يخشى منه على سلامة الآخر يجوز للزوج الآخر أن يطلب الطلاق إذا كان قد مضى ثلاث سنوات على الجنون أو المرض، وثبت أنه غير قادر على للشفاء، ويجوز للزوجة أيضًا أن تطلب الطلاق إذا أصيب زوجها بمرض العنة ومر عليه ثلاث سنوات؛ وثبت أنه غير قابل الشفاء وكانت زوجته شابه يخشى عليها من الفتنة.

٦- إذا اعتدى أحد الزوجين على الآخر أو اعتاد إيذاءه إيذاءًا جسميًا يعرض صحته للخطر جاز للزوج المجني عليه أن يطلب الطلاق.

٧- إذا ساء سلوك أحد الزوجين أو فسدت أخلاقه وانغمس في حمأة الرذيلة، ولم يُجْدِ في إصلاحه توبيخ الرئيس الديني ونصائحه؛ فللزوج الآخر طلب الطلاق.

٨- يجوز أيضًا طلب الطلاق إذا أساء أحد الزوجين إلى الآخر في المعاشرة، أو أخل بواجباته نحوه إخلالًا جسميًا مما أدى إلى استحكام النفور بينهما وانتهى الأمر بافتراقهما عن بعضهما واستمرت الفرقة ثلاث سنين متواليه.

٩- كذلك يجوز الطلاق إذا ترهبن أو ترهبن أحدهما برضا الآخر. اهـ (٦١-٦٢-١١٨-١٩٩)

يقول القمص أندراوس عزيز بعد بيانه أن المنع من الطلاق مع كون الزوجين لا يتفقان يقود إلى الزنا: ويجب أن نعرف جيدًا أنه بالنسبة لكلام الكتاب المقدس ما جمعه الله لا يفرقه إنسان (مّتى ١٩/ ١٦).

فالذي يقوم بدور الله في الوحدة بين العريس والعروس هو الكاهن الذي يربط الاثنان برباط الزوجية لا ينزل الله غير المرئي، ويعقد الزواج من دون أن نرى أحدًا ولكن الكاهن فيها محل الله الذي يجمع الاثنين هنا هو الله على يد الكاهن؛ والكاهن الذي جمع الاثنين يستطيع أن يفك ما جمعه الذي يستطيع أن يربط يستطيع أن يحل للأسباب الاستثنائية التي سنذكرها فيما بعد، وهذا بموجب السلطان المخول له من قبل الله " ما حللتموه على الأرض يكون محلولًا في السماء وما ربطموه على الأرض يكون مربوطًا في السماء " (متى ١٦: ١٩).

فهذا السلطان وضع أصلًا لحل هذه المشاكل، لا لكي يتخذ لأجل الخصام، أو الانتقام، أو الحقد، أو التشفي، بل لحل مثل هذه المشاكل التي ليس لها قاعدة وتختلف من إنسان لآخر.

(٢٤) يقول بولس: أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة كورنثوس الأولى (٧/ ٢٧).

فبولس يسمح بالطلاق وإعادة الزواج تحت ظروف محددة وإن لم يكن عنده في الطلاق من عند الرب شيء كما قال: وأما الباقون فأقول لهم أنا لا الرب.

ولكن عدم وروده عن الرب ليس حكمًا نهائيًا كونيًا، ففي رأي بولس أن القاعدة العامة تسمح الاستثناءات، فتحريم يسوع للطلاق هو قاعدة عامة، ولو وضعت كقانون فهو يحتاج إلى تفسيره وشرحه، إذ بولس يتلقى الوحي من نفس الروح الذي في يسوع، فهو يرغب أن يعطي رأيه في المطلقين الذين لم يتزوجوا ثانية، وبولس هنا يقرر حريتهم في الزواج مرة أخرى فالزواج مرة أخرى بعد الطلاق مباح في بعض الظروف.[1]

---

(١) الزواج في المسيحية (١٣٥).

وهكذا يرى بولس الطلاق في ظروف معينة، فهل هو في نظرك معتدٍ على المرأة وقدسية الزواج.

الوجه الرابع: لماذا يكون الطلاق بيد الرجل وحده؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نورد نحن سؤالًا آخر وهو: إذا كان لا بد من الطلاق وقد اعترفوا به وأباحته كنائِسُهم في كل بلادهم ودولهم وقوانينهم، إذا كان لا بد من الطلاق فما هي الصور التي يمكن أن تخطر في البال ليتم هذا الطلاق؟ ومن الذي يملك هذا الحق؟: إما أن يكون حق الطلاق بيد المرأة وحدها، وإما أن يكون بيد الرجل وحده، أو بيدهما معًا، أو بيد جهة أخرى لا الزوج ولا الزوجة، ولا يتصور أن نلغي الطلاق نهائيًا وهذا ليس من المصلحة في شيء وقد ذاقوا وبال أمرهم حينما كانوا يحرمونه نهائيًا فلنتصور كيف يكون الأمر ولماذا جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل وحده وكيف نعالج بقية الصور التي ذكرتها؟ (١)

وبداية ينبغي أن يعلم أن إنهاء العلاقة الزوجية في الإسلام حق مشترك بين الرجل والمرأة لكن وسيلة الحصول عليه تختلف في الرجل عن المرأة.

على النحو التالي:

أولًا: بالنسبة للرجل وسيلة الحق مباشرة فيملك الزوج الطلاق من جانبه وحده.

ثانيًا: وبالنسبة للمرأة وسيلة غير مباشرة فيقع الطلاق من الرجل بناءً على طلبها في حالتين:

١- الخلع وهو مقابل ما تدفعه المرأة لزوجها، وقد يكون المقابل هو تنازلها عن حقها في النفقة ومؤخر الصداق.

٢- أن يوقع الرجل الطلاق بناءً على طلب الزوجة تنفيذًا لشرط اشترطته في العقد كأن تشترط عليه عدم الزواج عليها، أو عدم السفر بها على موطن آخر ثم خالف الزوج الشرط.

ثالثًا: إذا كرهت الزوج ولم ترد الحياة معه وتعسف هو ولم يطلق ولم يقبل الخلع رفعت أمرها إلى القاضي فطلق عليه القاضي، وكذا التفريق للضرر والمرض المبيح لذلك

---

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى (٣٧٥-٣٧٧).

كالبرص، والجذام، والعنة. . . . . إلخ.[١]

إذا ثبت هذا فقد عرفت أن الطلاق بداية بيد الرجل. . . هذه واحد، وفي يد المرأة أحوال سبق ذكرها في الكلام الماضي ليظهر لك عدم التعسف ضد المرأة في هذه الشريعة لكن لماذا جعلت البداية بيد الرجل وحده؟ والجواب ما يلي:

١- جعله الإسلام بيد الرجل مع الإرشاد والتوجيه على الوضع المناسب للرجل والمرأة في ذلك وقد سبق بيان هذا[٢]

٢- أن القوامة في البيت بيد الرجل، ومن لوازمها أن يكون الطلاق بيد الرجل، وسبق أن ذكرنا أن القوامة لا تعني التسلط؛ إنما تعني الحفظ والرعاية والحماية من الانهيار والدمار. . . إلخ.

٣- إذا جعل الطلاق في يد المرأة وحدها ففي ذلك فساد ذلك أن نظام الأسرة قام على المغانم والمغارم، فكل من غنم مغنمًا يجب أن يغرم مقابله مغرمًا، ويقدم شيئًا من التنازل حتى يقوم نظام الأسرة، فإذا كان الرجل وحده هو الذي يدفع من جيبه المهر كاملًا، إذًا كان الرجل وحده هو الذي يجهز بيت الزوجية تجهيزًا كاملًا فتتمتع به المرأة ويتمتع به الأولاد، وإذا كان الرجل وحده هو الذي ينفق على بيت الزوجية، وينفق على زوجته، وعلى أولاده؛ ولو كانت المرأة ثريةً جدًا فإنها لا تطالب في الإسلام أن تنفق قرشًا واحدًا على البيت؛ إنما الرجل ولو كان فقيرًا يجب عليه وجوبًا شرعيًا أن ينفق النفقة الكاملة على بيت الزوجية منذ اليوم الأول إلى أن يلقيا وجه الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك وسلمت قضية الطلاق إلى المرأة فأي إنصاف هذا؟

فالرجل إذا أراد أن يطلق فإنه يحسب ألف حساب، فلو أنه طلق سيخسر هذا كله، وسيدفع مرة أخرى إذا أراد أن يتزوج؛ سيدفع مهرًا ويجهز بيتًا بنفقة جديدة، أما المرأة فقد

---

(١) مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية (٢١١).

(٢) في الشبهة الخاصة بمشروعية الطلاق.

يهون عليها إذا غضبت وما أكثر ما تغضب المرأة، وإذا فقدت أعصابها وما أكثر ما تفقد أعصابها، إذا خطر لها أن تطلق فإنها لا تجد كابحًا من الكوابح، فإن الطلاق لا يكلفها شيئًا ماديًا بل إذا طلقت نفسها لو كان الطلاق بيدها فإنها مباشرة إذا سعت لزوج جديد فإنها تكسب مهرًا جديدًا ونفقة جديدة وبيتًا جديدًا وزوجًا جديدًا، فليس من الحكمة مما يراه أي عاقل أن يكون الطلاق بيد المرأة.

أولًا: لأن الطلاق والزواج لا يكلفها شيئًا فيسهل عليها الطلاق، فمع أول هجمة من الشيطان عليها تقوم بهدم بيت الزوجية أي مصلحة في جعل الطلاق بيدها مبدئيًا ومن أول الأمر؟[(١)]

٤- إن المرأة في الغالب سريعة الغضب سريعة الانفعال سريعة التأثر، وطبيعتها تدفعها غالبًا إلى الانقياد وراء عاطفتها، أما الرجل فالغالب فيه الأناه والتؤدة والتروي في عواقب الأمور وقياس ما يكون من المنفعة والضرر بمقياس حكيم.[(٢)]

ويقرر الدكتور فروسية في دائرة المعارف له: أنه نتيجة لضعف دم المرأة ونمو مجموعها العصبي ترى مزاجها العصبي أكثر تهيجًا من مزاج الرجل، وتركيبها أقل مقاومة؛ لأن تأديتها لوظائف الحمل والأمومة والرضاع يسبب لها أحوالًا مرضية كثيرة أو قليلة الخطر[(٣)]

والدكتور أليكسس كارل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول)، يقرر بأن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة تنشأ من تكون الأنسجة نفسها ومن تلقيح الجسم كله بمواد محدده يفرزها المبيض، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقن الجنسان تعليمًا واحدًا وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة[(٤)]

---

(١) مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية (٢١٢، ٢١٣).

(٢) الطلاق للحفناوي (١٣).

(٣) مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية (٢١٢، ٢١٣).

(٤) نفس المصدر السابق.

ثم قال: فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعًا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الرجال، فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجل، يجب عليهن أن لا يتخلين عن وظائفهن المحددة.

ولما كان اختلاف التكوين واختلاف الوظائف الطبيعية في الحياة هما سبب اختلاف الأحكام التشريعية بين الرجال والنساء فيما تماثلا فيه كالحدود، والمعاملات المالية، والعبادات بصفة عامة، ولكنه في أحكام الصلاة أعفى المرأة منها نهائيًا في مدة الحيض مراعاة لظروف النساء وما خصهن الله به من وظائف الأمومة وما يتعلق بها، ثم اعفى الله النساء من فريضة القتال والجهاد لعدم استعدادهن الفطري لذلك ولانشغالهن بوظائف الأمومة، وفي هذا أو غيره لم يجامل الإسلام المرأة فالله خالق الرجال والنساء، فإذا خَصَّ الرجال بالقوامة، وفرق بين الرجال والنساء في أمور فلا مجال البتة للقول بالمساواة لأن المساواة؛ فيما تختلف فيه الوظائف الطبيعية ظلم وجهالة لا يرضى به ألو الألباب من الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٢). [١]

٥- إن الطلاق يُحَمِّلُ الزوجَ تبعاتٍ ماليةً كالمهر المؤجل، ونفقة العدة، وأجرة الرضاعة، والحضانة إن كانت له أطفال من زوجته المطلقة، وهذا يجعل الزوج يُحَكِّمُ عقلَه لاعاطفته حين الإقدام على الطلاق، وبهذا يظهر واضحًا جليًا أن الله جعل الطلاق بيد الرجل، لا لأنه أقدر على إيقاعه ولكن لأنه أقدر على عدم إيقاعه. [٢]

٦- ومن خلال ما مَرَّ ترى أن من الخير للحياة الزوجية وللزوجة نفسها أن يكون البَتُّ في مصير الحياة الزوجية في يد من هو أحرص عليها وأضن بها، على أن الشريعة الإسلامية لم تهمل جانب المرأة في إيقاع الطلاق كما مر، ومن خلاله نرى أن في الإسلام خمس طرق للطلاق:

---

(١) المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية (٢١٣-٢١٤).

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ٣٦٠)، الطلاق للحفناوي (١٣/ ١٤).

أ- الطلاق بيد الرجل.

ب- الطلاق بيد المرأة بأن تطلق نفسها من زوجها إذا فوض إليها.

ج- الطلاق بالاتفاق

د- الخلع.

وكما رأينا فإن الإسلام أعطى للمرأة ثلاث طرق لتطليق نفسها من الرجل، وجعل طريقة بالاتفاق بينهما وبين الرجل، وجعل بيد الرجل وحده بدون الرجوع إلى غير طريقة واحدة وضع له فيها ضوابط، وضيق عليه فيها كما مر ذكره، فصح أنه ليس في جعل الطلاق بيد المرأة بداية ظلم المرأة. [1]

٧- وبعد هذا نرى في الكتاب المقدس أن الطلاق بيد الرجل كما في سفر التثنية (إصحاح: ٢٤عدد١): إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَق وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، ٢وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُل آخَرَ، ٣فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَق وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ. . . . إلخ.

فها هو الرجل الأول أبغضها وأعطاها كتاب طلاق وكذا الثاني، والسؤال أليس في اعتقادكم أن رب العهد القديم هو رب العهد الجديد؟

فهل كان ربكم في هذا الكلام متعسفًا ضد المرأة؟!

* * *

(١) إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى (٣٧٦-٣٧٧).

٢٦ـ شبهة: رضاع الكبير.

نص الشبهة:

قالوا: لقد أحل الإسلام رضاع الكبير والدليل على ذلك ما يلي:

١-حديث سهلة بنت سهيل.

٢- حديث عائشة رضي الله عنها في الداجن.

٣-قول عائشة رضي الله عنها والعمل عليه.

٤-ترخيص بعض أهل العلم في رضاع الكبير، وعليه فيرضع الكبير من ثدي المرأة مباشرة.

٥-وأدلة فرعية أخرى ستذكر في ثنايا البحث.

وإليك الكلام والجواب على هذه الشبهة ويدور ذلك في مبحثين

أولًا: مقدمة فيها مسائل مهمة.

ثانيًا: الجواب عن شبهة رضاع الكبير من وجوه

الوجه الأول: أن الرضاع ثبت في الأصل للطفل دون الحولين.

الوجه الثاني: الأحاديث والآثار تؤكد على أن الأصل في الرضاع للطفل، وأن رضاع الكبير لا يُحرم.

الوجه الثالث: جمهور العلماء على أن رضاع الكبير لا يُحرم

الوجه الرابع: لو كان رضاع الكبير يؤثر مطلقًا لكان أولى الناس به الحمو.

الوجه الخامس: فيمن قال من أهل العلم بأن رضاع الكبير يُحرم مطلقًا وبيان حجتهم والرد عليها.

الوجه السادس: الرد على باقي أدلتهم حول هذه الشبهة -مثل حديث الداجن وغيره-.

الوجه السابع: أجيبونا عن رضاعة الجماهير المفتوحة في كتابكم المقدس؟

وإليك التفصيل

أولًا: مقدمة فيها مسائل مهمة:

إن مسألة رضاع الكبير من المسائل التي أثارت قلاقل بين صفوف كثير من الناس، مسلمين، وغير مسلمين، وذلك لأسباب منها جهلهم بشرع الله عز وجل الذي أنزله على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فصار المسلمون الذين لا يفقهون مثل هذه المسائل ينكرون هذه المسألة ظنا منهم أنهم يحاولون الدفاع عن شرع الله عز وجل، وهذا أمر في غاية الخطورة أن نعرض المسائل

الشرعية على عقولنا القاصرة فعندما لا تستوعب مثل هذه المسائل فما هو إلا أن يطرحها أرضًا بإنكارها.

أقول: عندنا أصول ثابتة يجب علينا أن نتعلمها، ونعلمها، ونسير عليها، منها:

منهجنا القرآن والسنة الصحيحة الثابتة بفهم سلف الأمة، فإذا ورد في الشرع في القرآن أو في السنة ننظر إلى الذين عايشوا الوحي عند نزوله؛ لأنهم كانوا أسرع الناس للعمل به، ما هو موقفهم تجاه مثل هذه المسائل؟ ولنضع نصب أعيننا أن كل واحد يؤخذ منه ويرد إلا المعصوم ﷺ، فالدليل هو الذي يحكمنا ليقودنا إلى الحق.

وصار أيضًا غير المسلمين يتفوهون ويطعنون في دين الله تبارك وتعالى بسبب مثل هذه الأحكام الشرعية التي لا يدركون المغزى منها، ولذا كان لزامًا علينا أن نقدم بهذه المقدمة قبل عرض الوجوه التي تدحض هذه الشبهة.

وأحب أن أتطرق إلى مسائل مرتبطة برضاع الكبير ليتبين لنا الحق بعدها بإذن الله ﷻ، وأُجمل ما أقول فيما يلي:

أولًا: مسألة التبني، وحال المُتَبَنَّي في الجاهلية والإسلام.

ثانيًا: من سالم الذي أذن له في الرضاع وهو كبير؟

ثالثًا: سهلة المرضعة، من هي؟ وما ورد عن احتشامها وعفتها؟

رابعًا: أبو حذيفة زوج المرضعة، من هو؟ وكيف وصف بالغيرة؟

خامسًا: عائشة أم المؤمنين التي أفتت بجواز رضاع الكبير، وعفتها واحتشامها، وما وصفت به من أخلاق جليلة تستحق أن تكون فقيهة الأمة، وماذا عن اجتهادها إن جانبها الصواب؟

سادسًا: الظروف التي أحاطت بحالة رضاع الكبير، فما هو الحل الشرعي لمثل هذه المواقف؟

فأعرني قلبك يا من تريد أن تصل إلى الحق لنُفصل ما أجملناه في هذه المقدمة.

أولًا: مسألة التبني وحال المتبني في الجاهلية والإسلام.

لقد حرم القرآنُ التبني، وقضى على هذه العادة الجاهلية التي انتقلت إلى العرب عن طريق الرومان؛ وذلك لكي يردُّوا الأنساب إلى أصولها الحقيقية؛ ولكي يقيم بناء الأسرة

على دعائم قوية من الترابط والتماسك تحقيقًا لهذه القاعدة التي قررها ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ٧٥)

وقد جاء التحريم في أول سورة الأحزاب إذ قال الله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ (الأحزاب: ٤) وقد كانوا يعطون الابن من التبني حقوق الابن من الصلب في الميراث وحرمة النكاح، وتلك عادة فاسدة، فكيف يكون هذا الدخيل مثل الابن الحقيقي يخلو بزوجة من تبناه وهي ليست أمه؟ وكيف يخلو ببناته وهن لسن بأخواته؟ وبأي حق يزاحمهم في الميراث ويحرم بقية العصبة من الأعمام والأخوة، أو يزاحم الولد من الصلب إن وجد؟ وكيف يترك المتبنى أباه وأمه وينسب إلى غير أهله، ويلتحق بقوم آخرين؟

من أجل هذه المفاسد حرم القرآن التبني، وقد طبق الرسول ﷺ ذلك تطبيقًا عمليًا، فكان أول من هدم تلك العادة؛ لأنه القدوة للناس، فتزوج حليلة متبناه زيد بن حارثة بأمر الله ﷻ، وقد صرح الله ـ تعالى ـ في كتابه أنه هو الذي زوج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، وأوضح الحكمة من هذا الزواج حيث قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الأحزاب: من الآية٣٧). [1]

وكانت هناك حالات أخرى متبناه عند بعض الصحابة كسالم مولى أبي حذيفة.

وإذا نظرنا إلى سالم وإلى حالته وجدناها حالة خاصة قد تكون فريدة، فسالم تربى في بيت أبي حذيفة، وكان متبني، فكان أولًا قبل ذلك مولى لثبيتة بنت يعار الأنصارية زوجة

---

(١) إبطال القرآن لعادة التبني د/ عبد العزيز صقر من مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية العدد (٢٥/ ١٧٠: ١٧٢).

أبي حذيفة، فأعتقته، فتبناه أبو حذيفة، وكان لا يستغني عن سالم بالدخول فلما حرم الله التبني كانت هذه الإشكالات مشقة منع سالم عن الدخول، لا يستغني عنه بالدخول، ولم يكن له بيت غير بيت أبي حذيفة، ثم أمر آخر، وهو من سالم؟ وهذه مسألة ثانية.

ثانيًا: من سالم الذي أذن له في الرضاع وهو كبير.

فسالم من الأخيار من السابقين الأولين البدريين المقربين العالمين، أصله من اصطخر، أعتقته ثبيتة بنت يعار الأنصارية، زوجة أبي حذيفة بن عتبة وتبناه أبو حذيفة[(١)]

قال عنه النبي ﷺ " خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَة ـ وذكر منهم ـ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِى حُذَيْفَةَ "[(٢)]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ استبطأني رسول الله ﷺ ذات ليلة، فَقَالَ « مَا حَبَسَكِ؟ قَالَتْ إِنَّ فِي الْمَسْجِدِ رَجُلًا لأَحْسَنُ مَنْ سمعت صوتًا بالقرآن، فأخذ رداءه وخرج يسمعه، فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة فقال: « الْحَمْدُ للهِ الذي جَعَلَ في أمتي مِثْلَكَ ». [(٣)]

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ الْعُصْبَةَ - مَوْضِعٌ بِقُبَاءٍ - قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ كَانَ يَؤُمُّهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِى حُذَيْفَةَ، وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا. [(٤)]

ثالثًا: سهلة بنت سهيل.

هي سهلة بنت سهيل، أسلمت قديما بمكة، وهاجرت إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعا مع زوجها أبي حذيفة بن عتبة، وولدت له هناك محمد بن أبي حذيفة، أترى امرأة تترك ديارها وأهلها مهاجرة مضحية بنفسها في سبيل الله عز وجل تخالف شرع ربها.

ثم إنها في حديث الرضاع جاءت تسأل النبي ﷺ عن حكم دخول سالم مولى أبي حذيفة عليها بعدما حرم التبني.

وذاك يدل على مدى عفتها وطلبها في معرفة الحق. [(١)]

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٠)، ومسلم (٢٤٦٤).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٥)، والحاكم (٣/ ٢٢٦)، وصححه، وقال الذهبي في السير (١/ ١٦٨): إسناده جيد.

(٤) رواه البخاري (٦٩٢)، ومسلم (١٤٤٥).

رابعا : أبو حذيفة بن عتبة.

أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، من السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى أرض الحبشة، وإلى المدينة. قتل يوم اليمامة شهيدًا، وكانت معه امرأته بأرض الحبشة

وكان من فضلاء الصحابة، جمع الله له الشرف. والفضل، وكان إسلامه قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. ولما هاجر إلى الحبشة عاد منها إلى مكة، فأقام مع رسول الله ﷺ حتى هاجر إلى المدينة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عباد بن بشر الأنصاري، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقتل يوم اليمامة شهيدًا، وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة. [٢]

وقد وصف أبو حذيفة بصفات جليلة منها الغيرة، كما في حديث الرضاع لما حرم الله التبني، وكان سالم يدخل بيت أبي حذيفة، يدخل على سهلة وهي في ثياب بيتها كانت سهلة ترى الكراهة في وجه أبي حذيفة، وكأنه يكره مخالفة شرع الله ﷻ.

والسؤال أترى رجلًا بمثل هذه الصفات يترك زوجه أو غلامه يفعل شيئًا يخالف شرع الله ﷻ! ، وسيأتي التفصيل في وقته.

خامسا : عائشة رضي الله عنها التي أفتت بجواز رضاع الكبير.

عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق أبي بكر ﷺ، تعلمت على يد النبي ﷺ، تربت في بيت النبوة كزوجة، كداعية، كمصلحة للأمة، فنقلت لنا كثيرًا من السنة النبوية، فرضي الله عنها وعن سائر أمهات المؤمنين.

وقد خالفت سائر الصحابة في مسألة رضاع الكبير وهذا اجتهاد منها رضي الله عنها؛ فهي التي رأت أن حديث سهلة عام وليس خاصًا، فعملت به وهي على اجتهادها مأجورة إن شاء الله ـ تعالى ـ، مع مخالفتها للصواب. [٣]

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٢١٢).

(٢) أسد الغابة (١/ ١١٥٩).

(٣) زاد المعاد لابن القيم (٥/ ٥٩٠)، وسيأتي في محله إن شاء الله تعالى.

أما أنها أفتت برضاع الكبير لتكون رخصة في دخول الناس عليها كما يفترون عليها فهذا أمر فيه خلل كبير، وهو مردود، وسيرتها تشهد بذلك، وإليك بعض الأمثلة:

١- التزامها بحجابها حتى في دعوتها إلى الله وتبليغها سنة النبي ﷺ للصحابة، ولو اتخذت فتوى رضاع الكبير ذريعة لدخول الناس عليها ما التزمت حجابها.

٢- في حديث مسلم أنها قالت " أَنَّ أَفْلَحَ - أَخَا أَبِى الْقُعَيْسِ - جَاءَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا وَهُوَ عَمُّهَا مِنَ الرَّضَاعَةِ بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَ الْحِجَابُ قَالَتْ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ أَخْبَرْتُهُ بالذي صَنَعْتُ فأمرني أَنْ آذَنَ لَهُ عَلَيَّ". وفي رواية قال ﷺ «لاَ تحتجبي مِنْهُ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ». (١)

٣- عن عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية عن عائشة قالت: ما زلت أضع خماري وأتفضل في ثيابي في بيتي حتى دفن عمر بن الخطاب فيه، فلم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيت بيني وبين القبور جدارًا فتفضلت بعد. قالا: ووصفت لنا قبر النبي ﷺ، وقبر أبي بكر وقبر عمر، وهذه القبور في سهوة بيت عائشة. (٢)

قلت: سبحان الله عائشة تلتزم ثيابها من ميت مقبور وتستحي منه، ما أجل حياءها! وما أعظم أخلاقها! إنها أم المؤمنين، عائشة رضي الله عنها.

ثانيًا: الجواب عن شبهة رضاع الكبير من وجوه

الوجه الأول: أن الرضاع ثبت في الأصل للطفل دون الحولين.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: من الآية٢٣٣)

واليك أقوال المفسرين وأهل العلم في الآية

(١) رواه مسلم حديث (١٤٤٥) باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٧٧) بسند صحيح.

قال القرطبي: انتزع مالك رحمه الله تعالى ومن تابعه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين، لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة. هذا قوله في موطئه. (١)

قلت: وهذا الخبر مع الآية والمعنى، ينفى رضاعة الكبير وأنه لا حرمة له. (٢)

قال ابن القيم: قَالَ أَصْحَابُ الْحَوْلَيْنِ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (الْبَقَرَة: ٢٣٣)، قَالُوا: فَجَعَلَ تَمَامَ الرَّضَاعَةِ حَوْلَيْنِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا حُكْمَ لِمَا بَعْدَهُمَا فَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّحْرِيمُ. (٣)

قال ابن كثير: هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات: أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾، وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم، من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم. ثم نقل ابن كثير هذا القول عن جمهور العلماء وهم الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة والأكابر من الصحابة وسائر أزواج النبي ﷺ سوى عائشة. (٤)

قال الشافعي: والدلالة على الفرق بين الصغير والكبير موجودة في كتاب الله ﷻ. قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ فجعل الله ﷻ تمام الرضاع حولين كاملين. وقال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ يعنى والله تعالى أعلم قبل الحولين فدل على أن إرخاصه ﷻ في فصال الحولين على أن ذلك إنما يكون باجتماعهما على فصاله قبل الحولين، وذلك لا يكون ـ والله تعالى أعلم ـ إلا

---

(١) ولفظ مالك كما جاء في الموطأ صـ (٤٧١) باب رضاعة الصغير " فأما ما كان بعد الحولين فإن قليله وكثيره لا يحرم شيئًا إنما هو بمنزلة الطعام ".

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ١٦٢: ١٦٣)

(٣) زاد المعاد ٥/ ٥٧٩.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٢، ٥٢٣.

بالنظر للمولود من والديه أن يكونا يريان أن فصاله قبل الحولين خير له من إتمام الرضاع له لعلة تكون به أو بمرضعته وأنه لا يقبل رضاع غيرها أو ما أشبه هذا.

وما جعل الله تعالى له غاية بالحكم بعد مضى الغاية فيه غيره قبل مضيها.

فإن قال قائل وما ذلك؟ قيل قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية فكان لهم أن يقصروا مسافرين وكان في شرط القصر لهم بحال موصوفة دليل على أن حكمهم في غير ذلك الصفة غير القصر.

وقال تعالى ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ فكن إذا مضت الثلاثة أقراء فحكمهن بعد مضيها غير حكمهن فيها. [1]

قلت: وقد استشهد البخاري بالآية لتكون دليلًا على أنه لا رضاع بعد حولين حيث وضع بابًا في كتاب النكاح أسماه. باب (من قال لا رضاع بعد حولين لقوله تعالى ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها " إنما الرضاعة من المجاعة ". [2]

في آية ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ ما يدل أيضًا أن رضاع الكبير لا يُحرِّم.

قال ابن القيم: قَالُوا: وَهَذِهِ مُدّةُ الثّدْيِ الّذِي قَالَ فِيهَا: لَا رَضَاعَ إلّا مَا كَانَ فِي الثّدْيِ أَيْ فِي زَمَنِ الثّدْيِ، وَهَذِهِ لُغَةٌ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ، فَإِنّ الْعَرَبَ يَقُولُونَ فُلَانٌ مَاتَ فِي الثّدْيِ أَيْ فِي زَمَنِ الرّضَاعِ قَبْلَ الْفِطَامِ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الذي رواه مسلم " إنّ إبْرَاهِيمَ مَاتَ

(١) الأم للشافعي (٥/ ٢٨).

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ٥٠)، وسيأتي الكلام على إشكالهم وهو لماذا وضع البخاري الرضاع تحت كتاب النكاح؟.

فِي الثَّدْيِ وَإِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ تُتِمّ رَضَاعَهُ"[١]، قَالُوا: وَأَكّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ " لَا رَضَاعَ إلّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءَ وَكَانَ فِي الثّدْيِ قَبْلَ الْفِطَامِ "[٢]

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ لِلرّضَاعِ الْمُحَرّمِ وَمَعْلُومٌ أَنّ رَضَاعَ الشّيْخِ الْكَبِيرِ عَارٍ مِنْ الثّلَاثَةِ. [٣]

الوجه الثاني: الأحاديث والآثار تؤكد على أن الأصل في الرضاع للطفل، وأن رضاع الكبير لا يُحرم.

١- عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها رجل، فكأنه تغير، وجهه كأنه كره ذلك، فقالت: إنه أخي، فقال: " انظرن ما إخوانكن؛ فإنما الرضاعة من المجاعة "[٤]

قال الحافظ في الفتح: والمعنى تأملن ما وقع من ذلك هل هو رضاع صحيح بشرطه من وقوعه في زمن الرضاعة ومقدار الارتضاع، فإن الحكم الذي ينشأ من الرضاع إنما يكون إذا وقع الرضاع المشترط، قال المهلَّب: معناه انظرن ما سبب هذه الأخوة؛ فإن حرمة الرضاع إنما هي في الصغر حتى تسد الرضاعة المجاعة، وقال أبو عبيد معناه: أن الذي جاع كان طعامه الذي يشبعه اللبن من الرضاع لا حيث يكون الغذاء بغير الرضاع

و قوله: " فإنما الرضاعة من المجاعة" فيه تعليل الباعث على إمعان النظر والفكر؛ لأن الرضاعة تُثبت النسب وتجعل الرضيع محرما، وقوله من المجاعة أي: الرضاعة التي تثبت بها الحرمة وتحل بها الخلوة هي حيث يكون الرضيع طفلًا لسد اللبن جوعته؛ لأن معدته ضعيفة يكفيها اللبن وينبت بذلك لحمه فيصير كجزء من المرضعة فيشترك في الحرمة مع أولادها فكأنه قال: لا رضاعة معتبرة إلا المغنية عن المجاعة أو المطعمة من المجاعة كقوله تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ (قريش: من الآية ٤)[٥]

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٦).

(٢) صحيح. وسيأتي تخريجه في محله.

(٣) زاد المعاد (٥/ ٥٨٠).

(٤) صحيح البخاري (٥١٠٢)، ومسلم (١٤٥٥)

(٥) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٥١، ٥٢).

قال ابن القيم: وَلَوْ كَانَ رَضَاعُ الْكَبِيرِ مُحَرِّمًا لَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ لِعَائِشَةَ - وَقَدْ تَغَيّرَ وَجْهُهُ وَكَرِهَ دُخُولَ أَخِيهَا مِنْ الرّضَاعَةِ عَلَيْهَا لَمّا رَآهُ كَبِيرًا: " اُنْظُرْنَ مَنْ إخْوَانُكُنّ "، فَلَوْ حَرّمَ رَضَاعُ الْكَبِيرِ لَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصّغِيرِ وَلَمَا كَرِهَ ذَلِكَ وَقَالَ اُنْظُرْنَ مَنْ إخْوَانُكُنّ "، ثُمّ قَالَ " فَإِنّمَا الرّضَاعَةُ مِنْ الْمَجَاعَةِ وَتَحْتَ هَذَا مِنْ الْمَعْنَى خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ قَدْ ارْتَضَعَ فِي غَيْرِ زَمَنِ الرّضَاعِ وَهُوَ زَمَنُ الْمَجَاعَةِ فَلَا يَنْشُرُ الْحُرْمَةَ فَلَا يَكُونُ أَخًا. (١)

قال أبو عبيد: قوله " إنما الرضاعة من المجاعة "

يقول: إن الذي إذا جاع كان طعامه الذي يشبعه اللبن إنما هو الصبي الرضيع، فأما الذي يشبعه من جوعه الطعام فإن أرضعتموه فليس ذلك برضاع. (٢)

١- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " لاَ يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ إِلاَّ مَا فَتَقَ الأَمْعَاءَ فِي الثدي وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ ". (٣)

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين.

٢- عن ابن عمر أنه قال " لا رضاع إلا لمن أرضع في الصغر، ولا رضاعة لكبير". (١)

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٥/ ٥٨٠).

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد الهروي (١/ ٢٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٦٢)، وابن حبان (٤٢٢٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٨٨)، والنسائي (٥٤٦٥)، وذكره ابن حجر في فتح الباري وأقر الترمذي وابن حبان على تصحيحهما (٩/ ٥٢)، وقد أعل ابن حزم هذا الحديث بالانقطاع من أجل فاطمة بنت المنذر لقيت أم سلمة صغيرًا (١٠/ ٢١).

قال ابن القيم في زاد المعاد (٥/ ٥٩٠): فَلَا يَلْزَمُ انْقِطَاعُ الْحَدِيثِ مِنْ أَجْلِ أَنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْمُنْذِرِ لَقِيَتْ أُمّ سَلَمَةَ صَغِيرَةً فَقَدْ يَعْقِلُ الصّغِيرُ جِدّا أَشْيَاءَ وَيَحْفَظُهَا وَقَدْ عَقَلَ مَحْمُودُ بْنُ الرّبِيعِ الْمَجّةَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ كما في حديث البخاري وَيَعْقِلُ أَصْغَرُ مِنْهُ. وَقَدْ قُلْتُمْ إنّ فَاطِمَةَ كَانَتْ وَقْتَ وَفَاةِ أُمّ سَلَمَةَ بِنْتَ إحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً على أقل تقدير وَهَذَا سِنّ جَيّدٌ. اهـ، وصححه الألباني في الإرواء حديث (٢١٥٠).

٣- عن ابن عباس قال " لا رضاع إلا ما كان في الحولين ". [٢]

٤- عن عبد الله بن دينار، قال: جاء رجل إلى ابن عمر ﷺ وأنا معه عند دار القضاء يسأله عن رضاعة الكبير، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: كانت لي وليدة وكنت أطؤها، فعمدت امرأتي إليها فأرضعتها، فدخلت عليها، فقالت: دونك فقد والله أرضعتها، فقال عمر: أوجعها وائت جاريتك، إنما الرضاعة رضاعة الصغير. [٣]

٥- جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إنها كانت معي امرأتي فحصر لبنها في ثديها، فجعلت أمصه ثم أمجه، فأتيت أبا موسى فسألته، فقال: حرمت عليك، قال: فقام وقمنا معه حتى انتهى إلى أبي موسى، فقال: ما أفتيت هذا؟ فأخبره بالذي أفتاه، فقال ابن مسعود وأخذ بيد الرجل: أرضيعًا ترى هذا؟ إنما الرضاع ما أنبت اللحم والدم، فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شئ ما كان هذا الحبر بين أظهركم. [٤]

٦- عن سعيد بن المسيب قال: لا رضاع إلا ما كان في المهد وإلا ما أنبت اللحم والدم. [٥]

---

(١) **صحيح**. أخرجه مالك في الموطأ حديث (١٣٩٤) وعنه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٩٠٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٦١)، و ابن أبي شيبه (٣/ ٣٨٩)، وسعيد بن منصور في سننه (٩٨٥)، والشافعي في (الأم) (٥/ ٢٩).

(٢) **صحيح**. أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٦٢) وقال: وهذا هو الصحيح -موقوفًا وأخرجه سعيد بن منصور في "سننه"(٩٨٠)، وأخرجه عبد الرزاق (١٣٩٠٣)، وابن حزم في المحلى (١٠/ ١٩)، وصححه الشيخ مصطفى العدوي في جامع أحكام النساء (٣/ ٧٣).

(٣) **صحيح**. أخرجه مالك في الموطأ (١٤٠٣) عن عبد الله بن دينار، وعبد الرزاق في المصنف (٧/ ٤٦٢)، وابن عبد البر في الاستذكار (١٢٥٠).

(٤) **صحيح**. أخرجه مالك في الموطأ (١٤٠٤)، وسعيد بن منصور في السنن (٩٨٧)، وعبد الرزاق في المصنف من طريق آخر (٧/ ٤٦٣) والطبري في التفسير (٢/ ٤٩٢) وقال الشيخ مصطفى العدوي في جامع أحكام النساء (٣/ ٧٢): صحيح عن ابن مسعود، وأبي موسى.

(٥) أخرجه عبد الرزاق حديث رقم (١٣٩٠٧)، ومالك في الموطأ (١٤٠٠)، وسعيد بن منصور في السنن (٩٧٧) الشطر الأول وابن أبي شيبه (٣/ ٣٨٩).

٧- عن الشعبي قال: كل سعوط، أو وجور، أو رضاع يرضع قبل الحولين فهو يحرم، وما كان بعد الحولين فلا يحرم. [(١)]

الوجه الثالث: جمهور العلماء على أن رضاع الكبير لا يُحرم

قال ابن قدامة: فَإِنَّ مِنْ شَرْطِ تَحْرِيمِ الرَّضَاعِ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَوْلَيْنِ. وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، رُوِيَ نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ، وَعَلِيٍّ، وَابْنِ عُمَرَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ سِوَى عَائِشَةَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّعْبِيُّ، وَابْنُ شُبْرُمَةَ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَالشَّافِعِيُّ، وَإِسْحَاقُ، وَأَبُو يُوسُفَ، وَمُحَمَّدٌ، وَأَبُو ثَوْرٍ. [(٢)]

قال النووي: اختلف العلماء في هذه المسألة، فقالت عائشة وداود: تثبت، وقال سائر العلماء من الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار: لا تثبت[(٣)] إلا من له دون سنتين، إلا أبا حنيفة. [(٤)]

قال الكاساني: و أما صفة الرضاع المحرم فالرضاع المحرم ما يكون في حال الصغر، فأما ما يكون في حال الكبر فلا يحرم عند عامة العلماء و عامة الصحابة ﷺ؛ إلا ما روي عن عائشة رضي الله عنها، ثم أورد رحمه الله أدلة كل فريق، واختار رأي الجمهور. [(٥)]

قال ابن حجر: الجمهور يعتبرون الصغر في الرضاع المُحرم. [(٦)]، ونقل الأدلة على ذلك.

الوجه الرابع: لو كان رضاع الكبير يؤثر مطلقًا لكان أولى الناس به الحمو.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٧/ ٤٦٣) وقال: والناس على هذا، سعيد بن منصور في سننه (٩٧٣).

(٢) المغني لابن قدامة (٩/ ٢٠١).

(٣) سيأتي بيان هذا القول.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٢٨٩).

(٥) بدائع الصنائع (٤/ ٥).

(٦) فتح الباري (٩/ ٥٢)، وانظر: زاد المعاد (٥/ ٥٧٧)، والأم للشافعي (٥/ ٢٨)، وجامع أحكام النساء للشيخ مصطفى العدوي (٣/ ٧٦)، وعون المعبود شرح سنن أبو داود (٦/ ٤٨ ـ ٤٩)، والتمهيد لابن عبد البر (٨/ ٢٦٠)، ومعالم السنن للخطابي (٢/ ٥٥٠).

لو كان إرضاع الكبير مؤثرًا لقال النبي ﷺ حينما سئل عن الحمو، ترضعه زوجة أخيه حتى يدخل عليها وتصبح امرأته من محارمه، ولكن قال "« إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ الله، أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ، قَالَ: «الحَمْوُ المَوْتُ»"[1]

قال النووي: قَالَ اللَّيْث بْن سَعْد: الحَمو أَخُو الزَّوْج، وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ أَقَارِب الزَّوْج: اِبْن الْعَمّ وَنَحْوه. اِتَّفَقَ أَهْل اللُّغَة عَلَى أَنَّ الأَحْمَاء أَقَارِب زَوْج المَرْأَة كَأَبِيهِ، وَأَخِيهِ، وَابْن أَخِيهِ، وَابْن عَمّه، وَنَحْوهمْ.

ثم قال: وَأَمَّا قَوْله ﷺ (الحَمو المَوْت) فَمَعْنَاهُ أَنَّ الخَوْف مِنْهُ أَكْثَر مِنْ غَيْره، وَالشَّرّ يُتَوَقَّع مِنْهُ، وَالْفِتْنَة أَكْثَر لِتَمَكُّنِهِ مِنْ الْوُصُول إِلَى المَرْأَة وَالخَلْوَة مِنْ غَيْر أَنْ يُنْكِر عَلَيْهِ، بِخِلَافِ الأَجْنَبِيّ. وَالمُرَاد بِالحَمْوِ هُنَا أَقَارِب الزَّوْج غَيْر آبَائِهِ وَأَبْنَائِهِ. [2]

الوجه الخامس: فيمن قال من أهل العلم بأن رضاع الكبير يُحرم مطلقًا وبيان حجتهم والرد عليها.

قد ثبت ذلك عن طائفة من السلف والخلف على أن رضاع الكبير يُحرم مطلقًا.

قال ابن القيم: وَهَذَا قَوْلٌ ثَابِتٌ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَيُرْوَى عَنْ عَلِيّ بن أبي طالب[3]، وَعُرْوَةَ بْنِ الزّبَيْرِ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَهُوَ قَوْلُ اللّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَأَبِي مُحَمّدِ بْنِ حَزْمٍ. [4]

قال ابن حزم: ورضاع الكبير ولو أنه شيخ يحرم كما يحرم رضاع الصغير ولا فرق. [5]

(وهذه أدلتهم).

١. حديث سهلة بنت سهيل عن عائشة قالت:

(١) البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (٧/ ٤١٠).

(٣) قال ابن عبد البر في التمهيد: وروي عن علي ولا يصح عنه والصحيح أنه لا رضاع بعد الفطام.

(٤) زاد المعاد لابن القيم (٥/ ٥٧٩)، وانظر نيل الأوطار للشوكاني (٧/ ١١٢).

(٥) المحلى لابن حزم (١٠/ ١٩).

جَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ إِلَى النبي ﷺ، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ الله إني أَرَى فِي وَجْهِ أَبِى حُذَيْفَة مِنْ دُخُولِ سَالِمٍ - وَهُوَ حَلِيفُهُ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ" «أَرْضِعِيهِ»، قَالَتْ وَكَيْفَ أُرْضِعُهُ وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ؟ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ « قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ »".

وفي رواية أخرى: عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ سَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ كَانَ مَعَ أَبِي حُذَيْفَةَ وَأَهْلِهِ فِي بَيْتِهِمْ فَأَتَتْ تَعْنِي ابْنَةَ سُهَيْلٍ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ إِنَّ سَالِمًا قَدْ بَلَغَ مَا يَبْلُغُ الرِّجَالُ وَعَقَلَ مَا عَقَلُوا وَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْنَا وَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ وَيَذْهَبْ الَّذِي فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ فَرَجَعَتْ فَقَالَتْ إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُهُ فَذَهَبَ الَّذِي فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ.

وفي رواية أخرى: أَنَّ ابْنُ أَبِى مُلَيْكَةَ قال: أَنَّ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِى بَكْرٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ سَهْلَةَ بِنْتَ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ الله إِنَّ سَالِمًا - لِسَالِمٍ مَوْلَى أَبِى حُذَيْفَةَ - مَعَنَا فِى بَيْتِنَا وَقَدْ بَلَغَ مَا يَبْلُغُ الرِّجَالُ وَعَلِمَ مَا يَعْلَمُ الرِّجَالُ. قَالَ « أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِى عَلَيْهِ »، قَالَ فَمَكَثْتُ سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا لاَ أُحَدِّثُ بِهِ وَهِبْتُهُ، ثُمَّ لَقِيتُ الْقَاسِمَ، فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ حَدَّثْتَنِى حَدِيثًا مَا حَدَّثْتُهُ بَعْدُ، قَالَ فَمَا هُوَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ فَحَدِّثْهُ عَنِّى أَنَّ عَائِشَةَ أَخبرَتْنيهِ.

وفي رواية أخرى: أن أُمُّ سَلَمَةَ قالت لِعَائِشَةَ: إِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكِ الْغُلَامُ الْأَيْفَعُ الَّذِي مَا أُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ قَالَ فَقَالَتْ عَائِشَةُ أَمَا لَكِ فِي رَسُولِ الله ﷺ أُسْوَةٌ قَالَتْ إِنَّ امْرَأَةَ أَبِي حُذَيْفَةَ قَالَتْ يَا رَسُولَ الله إِنَّ سَالِمًا يَدْخُلُ عَلَيَّ وَهُوَ رَجُلٌ وَفِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْهُ شَيْءٌ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ أَرْضِعِيهِ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْكِ.

وفي رواية أخرى: أن زينب بنت أبي سلمة تقول: سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول لعائشة والله ما تطيب نفسي أن يراني الغلام قد استغنى عن الرضاعةفقالت لم؟ قد جاءت سهلة بنت سهيل إلى رسول الله ﷺ، فقالت يا رسول الله إني لأرى في وجه أبي حذيفة من

دخول سالم، قالت فقال رسول الله ﷺ أرضعيه، فقالت إنه ذو لحية، فقال: أرضعيه يذهب ما في وجه أبي حذيفة، فقالت: والله ما عرفته في وجه أبي حذيفة.

وفي رواية أخرى: أن أم سلمة كانت تقول: أَبَى سائرُ أزواج النبي ﷺ أن يُدْخِلْنَ عليهن أحدا بتلك الرضاعة، وقُلْنَ لعائشة: والله ما نرى هذا إلا رخصة أرخصها رسول الله ﷺ لسالم خاصة، فما هو بداخل علينا أحدٌ بهذه الرضاعة ولا رَائِينَا. (١)

وعند أبي داود بسياق طويل عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس كان تبنى سالما وأنكحه ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، وهو مولى لامرأة من الأنصار كما تبنى رسول الله ﷺ زيدا، وكان من تبنَّى رجلًا في الجاهلية دعاه الناس إليه وورث ميراثه؛ حتى أنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ذلك: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ (الأحزاب: من الآية٥) فردوا إلى آبائهم، فمن لم يعلم له أب كان مولى وأخا في الدين، فجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشي ثم العامري وهي امرأة أبي حذيفة، فقالت يا رسول الله: إنا كنا نرى سالمًا ولدًا وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني فضلًا، وقد أنزل الله ﷻفيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ أرضعيه فأرضعته خمس رضعات فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة، فبذلك كانت عائشة رضي الله عنها تأمر بنات أخواتها وبنات إخوتها أن يرضعن من أحبت عائشة أن يراها ويدخل عليها، وإن كان كبيرًا خمس رضعات ثم يدخل عليها وأبت أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ أن يدخلن عليهن بتلك الرضاعة أحدا من الناس حتى يرضع في المهد، وقلن لعائشة والله ما ندري لعلها كانت رخصة من النبي ﷺ لسالم دون الناس. (٢)

---

(١) كل هذه الروايات أخرجها مسلم في صحيحه باب رضاعة الكبير حديث (١٤٥٣ ـ ١٤٥٤).

(٢) **صحيح**. حديث سهلة أخرجه مسلم (١٤٥٣، ١٤٥٤)، وأخرج البخاري طرفًا منه (٥٠٨٨)، وأخرج السياق الطويل أبو داود (٢٠٥١)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (٩/ ٥٣) ورواه أيضًا مرسلًا عن

٢. واحتجوا أيضًا بقول النبي ﷺ " إنما الرضاعة من المجاعة "، وقالوا حجة لنا لأن شرب الكبير للبن يؤثر في دفع مجاعته قطعًا كما في الصغير. (١)

٣. احتجوا أيضًا بفعل عائشة رضي الله عنها كما سبق في حديث سهلة.

قال ابن حزم: " فصح أن عائشة رضي الله عنها كان يدخل عليها الكبير إذا أرضعته في حال كبره أختٌ من أخواتها الرضاع المحرم، ونحن نشهد بشهادة الله ﷻونقطع بأنه تعالى لم يكن ليبيح سر رسول الله ﷺ ينتهكه من لا يحل له مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فنحن نوقن ونبتُّ بأن رضاع الكبير يقع به التحريم، وليس في امتناع سائرهن من أن يدخل عليهن بهذه الرضاعة شيء ينكر؛ لأن مباحا لهن أن لا يدخل عليهن من يحل له الدخول عليهن. (٢)

وإليك الجواب على هذه الحُجج.

أما حديث سهلة فالإجابة عنه من وجوه:

١. أن هذا الحديث منسوخ ذكره ابن القيم:

قال ابن القيم: قالوا: وأما حديث سهلة في رضاع سالم فهذا كان في أول الهجرة؛ لأن قصته كانت عقيب نزول قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ (الأحزاب: من الآية٥) وهي نزلت في أول الهجرة، وأما أحاديث اشتراط الصغر وأن يكون في الثدي قبل الفطام فهي من رواية ابن عباس وأبي هريرة، وابن عباس إنما قدم المدينة قبل الفتح، وأبو هريرة إنما أسلم عام فتح خيبر، بلا شك كلاهما قدم المدينة بعد قصة سالم في رضاعه من امرأة أبي حذيفة. (٣)

عروة بن الزبير (١٤٠٢)، ولكن قال ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ٢٥٠): هذا حديث يدخل في المسند للقاء عروة عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ وللقائه سهلة بنت سهيل، وقد رواه عثمان بن عمر عن مالك مختصر اللفظ متصل الإسناد.

(١) ذكره ابن القيم في زاد المعاد (٥/ ٥٨٣) واحتج به ابن حزم كما في المحلى (١٠/ ٢٣، ٢٤).

(٢) المحلى لابن حزم (١٠/ ٢٤) وذكره ابن القيم في زاد المعاد (٥/ ٥٨٤).

(٣) زاد المعاد (٥/ ٥٨١).

ونقل الحازمي عن بعض الشافعية قال: ما يدل على أن حديث عائشة منسوخ؛ وذلك أن قصة سالم كانت في أوائل الهجرة لأنها جرت عقب نزول الآية، والآية نزلت في أوائل الهجرة، والحكم الثاني رواه أحداث الصحابة وجماعة تأخر إسلامهم نحو أبي هريرة وابن عباس وغيرهما وهذا ظاهر في النسخ لاخفاء فيه.[١]

ويجاب على دعوى النسخ بما يلي:

قال ابن القيم: ولم يأتوا على النسخ بحجة سوى الدعوى، فإنهم لا يمكنهم إثبات التاريخ المعلوم التأخر بينه وبين تلك الأحاديث، ولو قلب أصحاب هذا القول عليهم الدعوى وادعوا نسخ تلك الأحاديث بحديث سهلة لكانت نظير دعواهم، وأما قولهم إنها كانت في أول الهجرة وحين نزول قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ (الأحزاب: ٥) ورواية ابن عباس ﷺ وأبي هريرة بعد ذلك ـ

فجوابه من وجوه:

أحدها: أنهما لم يصرحا بسماعه من النبي ﷺ، بل لم يسمع منه ابن عباس إلا دون العشرين حديثا وسائرها عن الصحابة ﷺ.

الثاني: أن نساء النبي ﷺ لم تحتج واحدة منهن بل ولا غيرهن على عائشة رضي الله عنها بذلك، بل سلكن في الحديث بتخصيصه بسالم وعدم إلحاق غيره به.

الثالث: أن عائشة ﵂ نفسها روت هذا وهذا، فلو كان حديث سهلة منسوخا لكانت عائشة رضي الله عنها قد أخذت به وتركت الناسخ أو خفي عليها تقدمه مع كونها هي الراوية له وكلاهما ممتنع وفي غاية البعد.

الرابع: أن عائشة ﵂ ابتليت بالمسألة، وكانت تعمل بها وتناظر عليها وتدعو إليها صواحباتها، فلها بها مزيد اعتناء، فكيف يكون هذا حكما منسوخا قد بطل كونه من الدين

---

(١) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ (٤٤٥)، وانظر أيضًا نيل الأوطار (٧/ ١١٢).

جملة ويخفى عليها ذلك ويخفى على نساء النبي ﷺ فلا تذكره لها واحدة منهن؟ (١)

٢. أن حديث سهلة خاص وهذا قول أم سلمة ومن معها من نساء النبي ﷺ وهو قول الجمهور أيضًا.

قال ابن عبد البر بعد ما ذكر رواية ابن أبي مليكة: أنه ترك الحديث سنة أو قريبا منها لا يحدث به رهبة له.

هذا يدلك على أنه حديث ترك قديما ولم يعمل به ولم يتلقه الجمهور بالقبول على عمومه، بل تلقوه على أنه خصوص، والله أعلم. (٢)

قال ابن القيم: ذاكرًا هذا الرأي ثم قال:

هذا مسلك أم سلمة ومن معها من نساء النبي ﷺ ومن تبعهن، وهذا مسلك أقوى من السابق. (٣)

قال الشوكاني: وذهب الجمهور إلى أن حكم الرضاع إنما يثبت في الصغير، وأجابوا عن قصة سالم بأنها خاصة. (٤)

قال الشافعي: وإذا كان هذا لسالم خاصة، فالخاص لا يكون إلا مخرجًا من حكم العام، وإذا كان مخرجا من حكم العام فالخاص غير العام، ولا يجوز في العام إلا أن يكون رضاع الكبير لا يحرم. (٥)

* قد يكون الحديث رخصة للحاجة لمن كان في مثل حالة سالم.

وقد رجح هذا المسلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والشوكاني.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٥/ ٥٨٦، ٥٨٧)، نيل الأوطار للشوكاني (٧/ ١١٢)، وسبل السلام للصنعاني (٣/ ٢٨٩).

(٢) التمهيد لابن عبد البر (٨/ ٢٦٠).

(٣) زاد المعاد لابن القيم (٥/ ٥٨٧).

(٤) نيل الأوطار للشوكاني (٧/ ١١٢).

(٥) الأم للشافعي (٥/ ٢٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٣)، وبدائع الصنائع للكاساني (٤/ ٥ ـ ٦). وسبل السلام للصنعاني (٣/ ٢٨٩).

قال ابن القيم: وقد يكون رضاع الكبير رخصة لمن لا يستغني عن دخوله على المرأة ويشق احتجابها عنه كحال سالم مع امرأة أبي حذيفة، فمثل هذا الكبير إذا أرضعته للحاجة أثر رضاعه، وأما من عداه فلا يؤثر إلا رضاع الصغير.

والأحاديث النافية للرضاع في الكبير إما مطلقة فتقيد بحديث سهلة، أو عامة في الأحوال فتخصيص هذه الحال من عمومها، وهذا أولى من النسخ ودعوى التخصيص بشخص بعينه، وأقرب إلى العمل بجميع الأحاديث من الجانبين، وقواعد الشرع تشهد له، والله الموفق. (١)

قلت: ومن هنا كان على من قال بهذا القول أن يضع الضوابط التي وضعها أصحاب هذا الرأي ويجليها؛ حتى يفهم هذا القول ومدى حجته.

وضبط هذه المسألة لا يكون إلا بمجموعة من أهل العلم المتخصصين تعرض عليهم المسألة، فإن كانت حالة المسألة مثل حالة سالم مع ضوابطها واتفقوا على ذلك فلا مانع بالقول بالرضاع كحل إسلامي شرعي؛ وخاصة مع انعدام حلول شرعية أخرى مقدمة وتكون المسألة فردية، فإن كررت عرضت على أهل العلم ولا تقاس على سابقتها، وإنما تكون كل حالة بعينها ينظر فيها وحدها، وتكون الأصل هي حالة سالم.

تأتي مسألة أخرى مهمة وهي:

إن أُفتي برضاع الكبير في مثل هذه الحالات النادرة على قول ابن تيمية ومن معه.

فما هي صفة الرضاع:

أيلتقم الثدي أم يُجلب له من لبنها في إناء ثم يشرب هذا اللبن على خمس مرات حتى تحرم عليه.

لنتعرف على الجواب الصحيح على هذه المسألة المهمة التي يُلقى من خلالها الشبهات.

صفة الرضاع المحرم.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٥/ ٥٩٣)، وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيميه (٣٤/ ٦٠)، ونيل الأوطار للشوكاني (٧/ ١١٣).

ولا يلزم من القول بالرخصة لمن كانت له حاجة في إرضاع الكبير أن يرضع من الثدي مباشرة، فإن هذا لم يحدث مع سهلة.

قال ابن عبد البر: هكذا إرضاع الكبير كما ذكر يحلب له اللبن ويسقاه وأما أن تلقمه المرأة ثديها كما تصنع بالطفل فلا؛ لأن ذلك لا يحل عند جماعة العلماء. (١)

قال النووي: قال القاضي: لعلها حلبته ثم شربه من غير أن يمس ثديها ولا التقت بشرتاهما، وهذا الذي قاله القاضي حسين، ويحتمل أنه عفى عن مسه للحاجة كما خص بالرضاعة مع الكبر. (٢)

ثم إن النص لم يصرح بأن الرضاع كان بملامسة الثدي، وسياق الحديث متعلق بالحرج من الدخول على بيت أبي حذيفة فكيف يرضى بالرضاع المباشر؟

قال ابن قتيبة: وقد كان سالم يدخل عليها وترى هي الكراهة في وجه أبي حذيفة، ولولا أن الدخول كان جائزًا ما دخل عليها، ولكان أبو حذيفة ينهاه، فأراد الرسول ﷺ بمحلها عنده وما أحب من ائتلافها ونفي الوحشة عنها ـ أن يزيل عن أبي حذيفة هذه الكراهة ويطيب نفسه بدخوله، فقال لها: " أرضعيه ". (٣)

ولم يرد ضعي ثديك في فيه كما يُفعل بالأطفال، ولكن أراد احلبي له من لبنك شيئًا ثم ادفعيه إليه ليشربه. ليس يجوز غير هذا؛ لأنه لا يحل لسالم أن ينظر إلى ثديها إلى أن يقع الرضاع، فكيف يبيح له ما لا يحل له وما لا يؤمن معه من الشهوة، ومما يدل على هذا التأويل أيضًا أنها قالت: يا رسول الله أرضعه وهو كبير، فضحك النبيﷺ وقال: ألست أعلم أنه كبير، وضحكه في هذا الموضع دليل على أنه تلطف بهذا الرضاع لما أراد من

---

(١) التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٢٥٧.

(٢) النووي على شرح صحيح مسلم ٥/ ٢٨٩.

(٣) راجع نص الحديث مرة أخرى ليتبين لك الحق إن شاء الله تعالى.

الائتلاف ونفي الوحشة من غير أن يكون دخول سالم كان حرامًا أو يكون هذا الرضاع أحل شيئًا كان محظورًا أو صار سالم لها به ابنًا. (١)

وقد رُوي أن سهلة كانت تحلب لبنها في مسعط أو إناء فيشربه سالم كل يوم خمسة أيام. (٢)

قال ابن عبد البر: وقد أجمع العلماء على التحريم بما يشربه الغلام الرضيع من لبن وإن لم يمصه من ثديها. (٣)

قلت: إلا أن المسألة فيها خلاف بين أهل العلم.

قال ابن تيمية: ولكن تنازع العلماء في السعوط وهوما إذا دخل في أنفه بعد تنازعهم في الوَجُور(٤)وهو ما يطرح فيه من غير رضاع، وأكثر العلماء على أن الوجور يحرم وهو أشهر الروايتين عن أحمد. (٥) ورجح قول الأكثريه وهو التحريم، واحتج بقول ابن مسعود لإرضاعَ إلا ما أنشر العظم وأنبت اللحم، وقال: ولأن هذا يصل إليه اللبن كما يصل بالإرضاع ويحصل من إنبات اللحم وانشاذ العظم ما يحصل بالرضاع فيجب أن يساويه في التحريم. (٦)

قال ابن حجر: واستدل به على أن التغذية بلبن المرضعة يحرم سواء كان بشرب أم أكل بأي صفة كان، حتى الوجور والسعوط والثرد والطبخ وغير ذلك إذا وقع ذلك بالشرط المذكور من العدد لأن ذلك يطرد الجوع، وهو موجود في جميع ما ذكر فيوافق الخبر والمعنى. (٧)

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) هذه الرواية أوردها ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢١٢) من رواية محمد بن عمر الواقدي، ومحمد هذا: متروك الحديث، انظر ترجمته في تهذيب التهذيب لابن الحجر (٧/ ٣٤٢: ٣٤٦).

(٣) الاستذكار لابن عبد البر (١٨/ ٢٧٤).

(٤) الوَجُور: هو صب اللبن في حلق الصبي من غير الثدي من إناء أو نحوه، والسعوط ما صب من الأنف، قاله ابن قدامة من المغني (٩/ ١٩٥).

(٥) مجموع الفتاوى لابن تيميه (٣٤/ ٥٥)، وتتمة المجموع للنووي (١٨/ ٢١٩).

(٦) المغني لابن قدامة (٩/ ١٩٥)، والشرح الكبير للخرقي (٩/ ٢٠٢).

(٧) فتح الباري (٩/ ١٤٨).

قال الشافعي: والوجور كالرضاع وكذلك السعوط لأن الرأس جوف. [١]

قال الكاساني: و يستوي في تحريم الرضاع الارتضاع من الثدي و الإسعاط و الإيجار، لأن المؤثر في التحريم هو حصول الغذاء باللبن و إنبات اللحم و إنشاز العظم و سد المجاعة لأن يتحقق الجزئية و ذلك يحصل بالإسعاط و الإيجار لأن السعوط يصل إلى الدماغ و إلى الحلق فيغذي و يسد الجوع و الوجور يصل إلى الجوف فيغذي. [٢]

وممن ذهب إلى عدم ثبوت الرضاع بالشرب من الإناء أو الوجور ابن حزم، وقول للحنفية.

"وحجتهم في ذلك المعنى العام للرضاع". [٣]

وقد انتقد هذا القول بعدة اعتراضات:

١- هذا خلاف ما عليه الجمهور من العلماء وهو الأصل من حيث ثبوت الأدلة التي ذكرناها.

٢- أن الرضاع في اللغة. " رضع أمه كسمع وضرب رضعا ويحرك ورضاعا ورضاعة إلى أن قال: امتص ثديها "[٤]وقال في مادة مصصته أنه بمعنى شربته شربا رفيقا. [٥]

ومن ثم فإن تعريف ابن حزم للرضاعة مبني على التعريف اللغوي لها بحيث وقف فيه عند مدلول النصوص ولم يتعد حدودها. [٦]

قلت: وقد بينا أنه على خلاف المعنى اللغوي أيضًا.

٣- أن المعنى الاصطلاحي للرضاع هو " اسم لحصول لبن امرأة أو ماحصل منه في جوف طفل بشروط، ومن ثم فإن الرضاع يحصل بالشرب ولا يشترط أن يمص الثدي"

---

(١) الأم للشافعي (٥/ ٣٨).

(٢) بدائع الصنائع للكاساني (٤/ ٩).

(٣) انظر المحلى لابن حزم (١٠/ ٧).

(٤) القاموس المحيط (٢/ ٩٦٩).

(٥) القاموس المحيط (١/ ٨٥٦).

(٦) الرضاع في الفقه الإسلامي. عبد الله العسيلي.

ثانيًا: أما عن احتجاجهم بحديث " إنما الرضاعة من المجاعة " بقولهم إن شرب اللبن يؤثر في الكبير كما يؤثر في الصغير. فهذا كلام غير صحيح.

قال ابن القيم: وقولكم إن الرضاعة تطرد الجوع عن الكبير كما تطرد الجوع عن الصغير كلام باطل، فإنه لا يُعهد ذو لحية قط يشبعه رضاع المرأة ويطرد عنه الجوع بخلاف الصغير فإنه ليس له ما يقوم مقام اللبن فهو يطرد عنه الجوع، فالكبير ليس ذا مجاعة إلى اللبن أصلا، والذي يوضح هذا أنهﷺ لم يرد حقيقة المجاعة، وإنما أراد مظنتها وزمنها ولا شك أنه الصغر. (١)

ثالثا: وأما احتجاجهم بقول ونقل عائشة رضي الله عنها.

فهذا لا دليل له.

فرضي الله عن أم المؤمنين فإنها وإن رأت أن هذا الرضاع يثبت المحرمية فسائر أزواج النبي ﷺ يخالفنها في ذلك ولايرين دخول هذا الستر المصون والحمى الرفيع بهذه الرضاعة، فهي مسألة اجتهاد، وأحد الحزبين مأجور أجرًا واحدًا والآخر مأجور أجرين.

وأسعدهما بالأجرين من أصاب حكم الله ورسوله في هذه الواقعة، فكل من المدخل للستر المصون بهذه الرضاعة والمانع من الدخول فائز بالأجر مجتهد في مرضاة الله وطاعة رسوله وتنفيذ حكمه، ولهما أسوة بالنبيين الكريمين - داود وسليمان اللذين أثنى الله عليهما بالحكمة والحكم وخص بفهم الحكومة أحدهما. (٢)

قلت: وقد بينا في المقدمة حرص عائشة ـ رضي الله عنها ـ على الخير ورفعة أخلاقها وتجنبها للشبهات وغير هذه الأمور.

الوجه السادس: الرد على باقي أدلتهم حول هذه الشبهة.

أما عن قولهم لماذا وضع البخاري الرضاع في كتاب النكاح.

والجواب على ذلك نقول:

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٥٨٩)، راجع كلام أهل العلم على معنى هذا الحديث فيما سبق بيانه من هذا البحث.

(٢) زاد المعاد (٥/ ٥٩٠).

لقد وضع البخاري تحت الرضاع بابًا وأسماه (باب من قال لا رضاع بعد حولين لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وما يحرم من قليل الرضاع وكثيره ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها" فإنما الرضاعة من المجاعة "(١)

وكل هذا واضح لا إشكال فيه،

فهل معنى أن البخاري وضع باب الرضاع تحت باب النكاح أنه أجاز لمن ارتضع من امرأة أن ينكحها؟ من قال هذا؟

وإنما وضع الرضاع تحت باب النكاح ليُعلم أن الرضاع محظور من محظورات النكاح وهو الرضاع الذي يكون قبل الحولين أما ما بعد الحولين، فلا إشكال فيه ولذا وضع هذا الباب الذي ذكرناه. (٢)

أما عن حديث عائشة قالت: لقد نزلت آية الرجم ورضعات الكبير عشرًا وكانت في ورقة تحت سرير في بيتي فلما اشتكى رسول الله ﷺ تشاغلنا بموته فدخل الداجن فأكلها"(٣)

---

(١) البخاري مع الفتح (٢ ـ ٥١).

(٢) راجع كلام الحافظ ابن حجر (٩/ ٥٠: ٥٣) وقد بينا تفصيل ذلك في هذا البحث فليراجع.

(٣) **شاذ بهذا اللفظ.** أخرجه أبو يعلى (٤٥٦٩) من حديث جعفر بن حميد الكوفي، والدارقطني (٤٣٣٠)، ومن طريقه البيهقي في المعرفة (١٥٤٦٨) من حديث محمد بن يحيى القطعي، وابن ماجه (١٩٤٤)، والطبراني في الوسيط (٧٨٠٥)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٢٣٥)، من حديث يحيى بن خلف ثلاثتهم (جعفر ـ ومحمد ـ ويحيى) عن عبد الأعلى قال: حدثنا محمد ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة الحديث.

وأخرجه أحمد (٦/ ٢٦٩) من حديث إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق، قال حدثني عبد الله به.

وأخرجه ابن الجوزي في الناسخ والمنسوخ (١٨٨) من حديث ابن أبي داود، قال: حدثنا عبد الله بن سعد قال: حدثني عمر، قال: حدثني أبي، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني عبد الله به. . . . وأخرجه أبو يعلى (٤٥٨٨)، والدار قطني (٤٣٣٠)، وابن ماجه (١٩٤٤)، والطبراني في الوسط (٧٨٠٥)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٢٣٥) عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه قال: قالت عائشة. . . . الحديث.

والجواب عليه: أن الحديث ضعيف – كما في الحاشية. لا يثبت

وقد تكلم أهل العلم على هذا الحديث وإليك بعض من تكلم فيه:

قال ابن قتيبة بعد ما ذكر حديث الداجن: وقد رجم رسول الله ﷺ، ورجم الناس بعده، وأخذ بذلك الفقهاء " أما رضاع الكبير عشرًا فنراه غلطًا من محمد بن إسحاق ولا نأمن أيضًا أن يكون الرجم الذي ذكر أنه في هذه الصحيفة كان باطلًا؛ لأن رسول الله ﷺ قد رجم ماعز

ومدار الحديث على محمد بن إسحاق؛ فمرة يرويه عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، ومرة يرويه عن عبد الرحمن بن القاسم وقد خولف ممن هو أثبت منه. خالفه مالك بن أنس كما أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الرضاع باب جامع ما جاء في الرضاعة. عن ابن أبي بكر، عن عمرة، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت « كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس رضعات معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهو مما يقرأ من القرآن »، وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٧)، وابن ماجه (١٩٤٢) من حديث عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عمرة به. وأخرجه مسلم (١٤٥٢)، وعبد الرزاق (١٣٩١٣)، والدارقطني (٤٣٣٨)، والشافعي في المسند (٣٠٧)، البيهقي (٧/ ٤٥٤) من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عمرة، عن عائشة، ولفظه؛ أنها كانت تقول: نزل القرآن بعشر رضعات معلومات يحرمن، ثم صرن إلى خمس يحرمن فكان لا يدخل على عائشة إلا من استكمل خمس رضعات ". ولفظ حديث القاسم " كان فيما أنزل من القرآن ثم سقط لا يحرم إلا عشر رضعات أو خمس معلومات "وليس فيه ذكرٌ للداجن ولا هذه الصحيفة، وأيضًا فإن حماد بن سلمة خالفه فرواه عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عمرة، عن عائشة أنها قالت: " كان فيما أنزل الله من القرآن ثم سقط لا يحرم إلا عشر رضعات أو خمس معلومات"أخرجه ابن ماجه (١٩٤٢)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٧).

ومحمد بن إسحاق دون مالك وحماد بكثير خاصة وقد تكلم فيه أهل العلم بكلام كثير وإن شئت راجع ذلك في تهذيب الكمال (٢٤/ ٤٠٥: ٤٢٨)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ ١٩١: ١٩٤).

قال الذهبي: وأما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن إلا فيما شذ فيه فإنه يعد منكرًا. سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١).

وقال أيضًا: فالذي يظهر لي أن ابن إسحاق حسن الحديث صالح الحال صدوق وما انفرد به ففيه نكارة فإن في حفظه شيئًا. ميزان الاعتدال (٣/ ٤٧٥).

فدلت المخالفة على شذوذ ابن إسحاق في الرواية ولم يذكر الداجن سواه وهو من علمت في سوء حفظه وقد انفرد بهذا اللفظ ولم يأت به أحد سواه، فالزيادة شاذة لا تعتمد.

بن مالك وغيره قبل هذا الوقت، فكيف ينزل عليه مرة أخرى؟ ولأن مالك بن أنس روى هذا الحديث بعينه عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات يحرمن فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن"إلى أن قال: وألفاظ حديث مالك خلاف ألفاظ حديث محمد بن إسحاق. ومالك أثبت عند أصحاب الحديث محمد بن إسحاق.[1]

قال القرطبي: وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة (يقصد آية الرجم) كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض.[2]

قال ابن عاشور: ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف فإنه لو صدق هذا لكانت هذه الصحيفة قد هلكت في زمن النبي ﷺ أو بعده، والصحابة متوافرون وحفاظ القرآن كثيرون، فلو تلفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ.

وكون القرآن قد تلاشى منه كثير هو أصل من أصول الروافض ليطعنوا به في الخلفاء الثلاثة والرافضة يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر فهو الذي يأتي بالقرآن وقر بعير.[3]

الوجه السابع: أجيبونا عن رضاعة الجماهير المفتوحة في كتابكم المقدس؟.

وفي المقابل فلننظر ليس على رضاعة الكبير ولكن على رضاعة الجماهير الموجودة في الكتاب المدعوِّ مقدسًا.

إشعياء: (٤٩ عدد٢٢): هكذا قال السيد الرب ها أنا أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي. فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن (٢٣) ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك فتعلمين إني أنا الرب الذي لا يخزي منتظروه.

---

(١) تأويل مختلف الحديث (٣١٤: ٣١٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن تفسير سورة الأحزاب (١٤/ ١١٢)، الكشاف للزمخشري (٣/ ٥١٨).

(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٤٧.

إشعياء: ٦٠ عدد١٦: وترضعين لبن الأمم وترضعين ثدي ملوك وتعرفين أني أنا الرب مخلصك ووليك عزيز يعقوب.

إشعياء: ٦٦ عدد١٢: لأنه هكذا قال الرب. هاأنذا ادير عليها سلاما كنهر ومجد الأمم كسيل جارف فترضعون وعلى الأيدي تحملون وعلى الركبتين تدللون.

نشيد: ١ عدد١٣: صرة المرّ حبيبي لي. بين ثديي يبيت.

وانظر ماذا في سفر (الأمثال)

من سفر الأمثال ٧ عدد٦-٢١ أنقل بعضًا منها كما يلي:

أمثال: ٧ عدد٦: لأني من كوة بيتي من وراء شباكي تطلعت

أمثال٧ عدد٨: عَابِرًا فِي الشَّارِعِ عِنْدَ زَاوِيَتِهَا، وَصَاعِدًا فِي طَرِيقِ بَيْتِهَا. ٩فِي الْعِشَاءِ، فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ، فِي حَدَقَةِ اللَّيْلِ وَالظَّلاَمِ. ١٠وَإِذَا بِامْرَأَةٍ اسْتَقْبَلَتْهُ فِي زِيِّ زَانِيَةٍ، وَخَبِيثَةِ الْقَلْبِ. ١١صَخَّابَةٌ هِيَ وَجَامِحَةٌ. فِي بَيْتِهَا لاَ تَسْتَقِرُّ قَدَمَاهَا. ١٢تَارَةً فِي الْخَارِجِ، وَأُخْرَى فِي الشَّوَارِعِ، وَعِنْدَ كُلِّ زَاوِيَةٍ تَكْمُنُ. ١٣فَأَمْسَكَتْهُ وَقَبَّلَتْهُ. أَوْقَحَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ لَهُ: ١٤«عَلَيَّ ذَبَائِحُ السَّلاَمَةِ. الْيَوْمَ أَوْفَيْتُ نُذُورِي. ١٥فَلِذلِكَ خَرَجْتُ لِلِقَائِكَ، لأَطْلُبَ وَجْهَكَ حَتَّى أَجِدَكَ. ١٦بِالدِّيبَاجِ فَرَشْتُ سَرِيرِي، بِمُوَشَّى كَتَّانٍ مِنْ مِصْرَ.

أمثال: ٧ عدد١٧: عطرت فراشي بمرّ وعود وقرفة هلم نرتو ودّا إلى الصباح. نتلذذ بالحب لأن الرجل ليس في البيت. ذهب في طريق بعيدة.

أمثال: ٧ عدد٢١: أغوته بكثرة فنونها بملث شفتيها طوحته.

النبي هوشع:

هوشع: ١ عدد٢: أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى، لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ». ٣فَذَهَبَ وَأَخَذَ جُومَرَ بِنْتَ دِبْلاَيِمَ، فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا، ٤فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «ادْعُ اسْمَهُ يَزْرَعِيلَ، لأَنَّنِي بَعْدَ قَلِيل أُعَاقِبُ بَيْتَ يَاهُو عَلَى دَمِ يَزْرَعِيلَ، وَأُبِيدُ مَمْلَكَةَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ.

هوشع: ٢ عدد١: قُولُوا لإِخْوَتِكُمْ «عَمِّي» وَلأَخَوَاتِكُمْ «رُحَامَةَ». ٢حَاكِمُوا أُمَّكُمْ حَاكِمُوا، لأَنَّهَا لَيْسَتِ امْرَأَتِي وَأَنَا لَسْتُ رَجُلَهَا، لِكَيْ تَعْزِلَ زِنَاهَا عَنْ وَجْهِهَا وَفِسْقَهَا مِنْ بَيْنِ ثَدْيَيْهَا، ٣لِئَلاَّ أُجَرِّدَهَا عُرْيَانَةً وَأَوْقِفَهَا كَيَوْمِ وِلاَدَتِهَا، وَأَجْعَلَهَا كَقَفْرٍ، وَأُصَيِّرَهَا كَأَرْضٍ يَابِسَةٍ، وَأُمِيتَهَا بِالْعَطَشِ. ٤وَلاَ أَرْحَمُ أَوْلاَدَهَا لأَنَّهُمْ أَوْلاَدُ زِنًى.

أول ما كلم الرب هوشع قال له اذهب وخذ لنفسك امرأة زنا. وثاني ما كلم الرب هوشع قال له اذهب وخذ لنفسك امرأة زنا. . . ماهذا العته المغولي؟ ؟ أفكلما كلم ربكم هوشع يقول له إذهب وخذ لنفسك امرأة زنا؟ ؟ ألا يريده أبدًا أن يتزوج من امرأة شريفة ولو لمرة واحدة؟ ؟

هوشع٣ عدد١: وَقَالَ الرَّبُّ لِي: «اذْهَبْ أَيْضًا أَحْبِبِ امْرَأَةً حَبِيبَةَ صَاحِبٍ وَزَانِيَةً، كَمَحَبَّةِ الرَّبِّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ مُلْتَفِتُونَ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى وَمُحِبُّونَ لأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ». ٢فَاشْتَرَيْتُهَا لِنَفْسِي بِخَمْسَةَ عَشَرَ شَاقِلَ فِضَّةٍ وَبِحُومَرَ وَلَثْكِ شَعِيرٍ. ٣وَقُلْتُ لَهَا: «تَقْعُدِينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً لاَ تَزْنِي وَلاَ تَكُونِي لِرَجُل، وَأَنَا كَذلِكَ لَكِ».

أيوب يسأل لم الثدي حتى يرضع؟ ؟ سؤال وجيه من أيوب ٣ عدد١٢ هكذا:

أيوب: ٣ عدد١٢: لماذا أعانتني الركب ولم الثدي حتى أرضع.

أما حزقيال:

حزقيال: ١٦ عدد٧: جعلتك ربوة كنبات الحقل فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان. نهد ثدياك ونبت شعرك وقد كنت عريانة وعارية.

حزقيال: ٢٣ عدد٣: وزنتا بمصر. في صباهما زنتا. هناك دغدغت ثديّهما وهناك تزغزغت ترائب عذرتهما.

إشعياء يوصي بالرضاعة حتى الشبع ثم العصر والتلذذ شئ عجيب حقًا كما في **إشعيا ٦٦ عدد١١ هكذا:**

إشعياء: ٦٦ عدد١١: لكي ترضعوا وتشبعوا من ثدي تعزياتها. لكي تعصروا وتتلذذوا من درة مجدها.

حزقيال: ٢٣ عدد٢١: وافتقدت رذيلة صباك بزغزغة المصريين ترائبك لأجل ثدي صباك حزقيال ينقل كلام الرب فيا ترى ماذا يقول الرب؟ ؟ **أنظر في حزقيال ٢٣ عدد٣٤ هكذا:**

حزقيال: ٢٣ عدد٣٤: فتشربينها وتمتصينها وتقضمين شقفها وتجتّين ثدييك لأني تكلمت يقول السيد الرب.

هوذا هوشع أول ما كلمه الرب قال له اذهب واتخذ لنفسك امرأة زنا ثم بعد أن تزوجها قرر أن يفضحها كما في **هوشع ٢ عدد٢ يقول هكذا:**

هوشع: ٢ عدد٢: حاكموا أمكم حاكموا لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها يبدوا أن هوشع يكره النساء؟ ؟ إنه يدعو على النساء بطريقة غريبة.

جاء في هوشع ٩ عدد١٤ هكذا:

هوشع: ٩ عدد١٤: أعطهم يا رب. ماذا تعطي. أعطهم رحما مسقطا وثديين يبسين.

وفي يوئيل ٢ عدد١٦ هكذا:

٢ عدد١٦: اجمعوا الشعب قدسوا الجماعة احشدوا الشيوخ اجمعوا الأطفال وراضعي الثدي ليخرج العريس من مخدعه والعروس من حجلتها.

* * *

٢٧ـ شبهة: شهادة المرأة نصف شهادة الرجل.

نص الشبهة:

قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

قالوا: جعل الله شهادة رجل بشهادة امرأتين، ألا يعد ذلك انتقاصًا للمرأة وتفضيلًا لجنس الرجل عليها؟.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: لماذا كانت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟

الوجه الثاني: شهادة المرأة نصف الرجل في موقف التحمل فقط.

الوجه الثالث: لا عبرة للذكورة أو الأنوثة في أمر الشهادة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لماذا كانت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟

جعل الله شهادة الرجل في الأموال نصًّا بشهادة امرأتين، وعلله بقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ (البقرة: ٢٨٢)

أي: مخافة أن تنسى إحداهما بعض جوانب المشهود عليه، أو تغفل عنه فتذكرها الأخرى به.

واحتمال نسيان المرأة وغفلتها عن بعض جوانب المشهود عليه وارد فيها جميعًا، لا يغيره زيادة علم ولا خبرة، ولا ثقافة؛ لأنه يرجع إلى طبيعة المرأة لما يعتريها في حالات معينة لا ينكرها إلا جاهلٌ أو مجادلٌ بالباطل، فالمرأة تعتريها فترات حرجة مثل فترة الحيض، والحمل، والإرضاع، والحضانة، ولا يحتاج الإنسان أكثر من أن يراقب أحوال المرأة النفسية أثناء الحيض والحمل، وعقب الولادة وعند الإرضاع ليرى مدى تأثر مزاجها بهذه الحالات مهما بلغت ثقافتها، ووصل عملها، ولا شك أن مثل هذه الحالات تؤدي إلى عدم التوازن الهرموني، أو اضطراب المزاج الخاص مما يؤثر قطعًا على تحمل الشهادة وأدائها.

قال العلامة أبو الأعلى المودودي في كتابه الحجاب:

قد أثبتت بحوث العلم وتحقيقاته أن المرأة تختلف عن الرجل في كلِّ شيء من الصورة والسمت. . والأعضاء الخارجية. . إلى ذرات الجسم والجواهر الهيولينية (البروتينية) لخلاياه النسيجية. . ومع بلوغها سن الشباب يعورها المحيض الذي تتأثر به أفعال كل أعضائها، وجوارحها، وتدل مشاهدات أساطير علمي الأحياء والتشريح، على أن المرأة تطرأ عليها في مدة حيضها التغيرات الآتية:

أ- تقل في جسمها قوة إمساك الحرارة، فتنخفض حرارتها.

ب- ويبطأ النبض، وينقص ضغط الدم، ويقل عدد خلاياه.

جـ- وتصاب الغدد الصماء، واللوزتان، والغدد الليمفاوية بالتغير.

د- ويختل الهضم، وتضعف قوة التنفس.

هـ- يتبلد الحس، فتتكاسل الأعضاء، وتتخلف الفطنة، وقوة تركيز الفكر.

وكل هذه التغييرات تدني المرأة الصحيحة إلى حالة المرض إدناء يستحيل معه التمييز بين صحتها ومرضها.

ويكتب الطبيب إميل نووك الذي هو محقق كبير في هذا الفرع من العلم: إن ما يعهد في الحوائض عامة من الأعراض هو: الصداع. . والتعب، ووجع العظم. . وتضعف الأعصاب. . وتخلف المزاج. . واضطراب المثانة، وسوء الهضم والغثيان في بعض الحالات.

وقد أورد أقوالًا لبعض الأطباء والعلماء في تأييد ما تقدم، وتقرير أثره في قدرتها على العمل إلى أن يقول عن الحمل: وأشد على المرأة من مدة الحيض زمان الحمل، فيكتب الطبيب ريبريف: لا تستطيع قوى المرأة أن تتحمل من مشقة الجهد البدني والعقلي ما تتحمله في عامة الأحوال. . وإن عوارض الحامل إن عرضت لرجل أو امرأة غير حامل لحكم عليه أو عليها بالمرض بدون شكٍّ، ففي هذه المدة يبقى مجموعها العصبي مختلًا على

أشهر متعددة، ويضطرب فيها الاتزان الذهني، وتعود جميع عناصرها الروحية في حالة فوضى دائمة.

وقد أورد أقوالًا لبعض الأخصائيين في تأييد ذلك وتقرير أثره في قدرتها على العمل. . ثم قال عن النفاس: أما عقب وضع الحمل فتكون المرأة عرضة لأمراض متعددة، إذ تكون جروح نفاسها مستعدة أبدًا للتسمم، وتصبح أعضاؤها الجنسية في حركة لتقلصها إلى حالتها الطبيعية قبل الحمل، مما يختل به نظام جسمها كله، ويستغرق بضعة أسابيع في عودته إلى نصابه وبذلك تبقى المرأة مريضة، أو شبه مريضة مدة سنة كاملة بعد قرار الحمل، وتعود قوة عملها نصف ما تكون في عامة الأحوال، أو أقل منه.

الوجه الثاني: شهادة المرأة نصف الرجل في موقف التحمل فقط.

نحن نسلّم أن الآية القرآنية جعلت المرأة في هذا الموقف على نصف تراجح الرجل، ولكن هذا في موقف التحمل للشهادة، لا في موقف الأداء، وتوضيح هذا أن الشاهد له موقفان:

أحدهما: هو موقفه حين يحضر الواقعة ويشهدها، ويعلم كيف وقعت، ويقف على الذي حصل عند حصوله، وهذا هو موقف التحمل.

ثانيهما: هو موقفه وهو يدلي بهذه الشهادة أمام الحاكم أو القاضي وهذا هو موقف الأداء، والآية واردة في الموقف الأول وهو موقف التحمل، فليس ما يمنع القاضي أو الحاكم من قبول شهادة رجل وامرأة في موقف الأداء، إذا رأى هذه الشهادة جديرة بالاعتبار، وبذلك تكون المرأة في موقف الأداء مساوية للرجل ليست ناقصة عنه، وقد يُؤخذ الدليل على هذا التساوي من الآية نفسها؛ إذ هي تفرض أن إحدى المرأتين قد تضل، أي: تنسى فتذكِّرَها الأخرى، فيكون الاعتماد عند الحكم على شهادة الأخرى التي ذكرت صاحبتها، أما إذا لم تضل فلا تحتاج إلى من يذكرها، وبهذا يكون قد آل الأمر إلى الحكم بشهادة رجل وإحدى المرأتين في الواقع، وبذلك يتبين لنا أن القرآن الكريم قد سوَّى في موقف الأداء بين الرجل والمرأة.

أما موقف التحمل فهو موقف استيثاق واحتياط؛ بدليل أن الآية الكريمة هنا تطلب الكتابة ثم تطلب الشهادة، وهي بهذا تُرشد إلى أفضل أنواع الاستيثاق الذي تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهما.

فالمسألة ليست مسألة تقليل من شأن المرأة وعدم اعتراف بأهليتها، وليس في ذلك انتقاص لمكانتها، كما يزعم بذلك عشاق تشويه الإسلام، وإنما هو مجرد احتمال نسيان في أمور لا تهتم بها المرأة غالبًا، وهي خارجة عن طبيعتها، ولا تحرص على الاحتفاظ بها في ذاكرتها.

الوجه الثالث: لا عبرة للذكورة أو الأنوثة في أمر الشهادة.

١- لو كانت الأنوثة والذكورة تلعبان دورًا في قيمة الشهادة ومدى شرعيتها، لسَمَت شهادة الرجل على شهادة المرأة في باب اللعان، أي: لكانت شهاداتها الأربع بقيمة شهادتين فقط من شهاداته، ولكن الواقع أنها متساويات.

وبيان ذلك أن الرجل إذا اتهم زوجته بالزنا كان عليه أن يدعم اتهامه بتقديم أربعة شهود ممن يعتد بشهادتهم وقد رأوا زوجته وهي تزني، فإذا عجز عن تقديم الشهود كان عليه أن يقسم أربع مرات بأنه صادق فيما يتهمها به. وهذه الأيمان تنزل في الشرع منزلة الشهادة.

وتعطي الزوجة التي تنكر هذه التهمة الفرصة ذاتها، فتقسم أربع مرات بأن زوجها كاذب فيما يتهمها به. ويتبين من ذلك أن أحدهما كاذب بالضرورة.

والثمرة الشرعية لهاتين الشهادتين المتكافئتين، أن يُقضى بالفصل بينهما فصلًا لا رجعة فيه، بعد أن يدعو الزوج على نفسه باللعن إن كان من الكاذبين، وتدعو الزوجة على نفسها بغضب الله إن كان من الصادقين.

ومحل الشاهد في هذا: أن الأيمان الأربعة التي يؤديها كل منهما تنزل منزلة الشهادات الأربع التي تثبت أو تنفي جريمة الزنا. وقد جعل الله قيمة الشهادات الأربع التي تثبت

الزنا، مكافئة لقيمة الشهادات الأربع التي تنكرها، وهو الأمر الذي يؤكد أن الأنوثة والذكورة بحد ذاتها لا مدخل لأي منهما في قيمة الشهادة. (١)

وإليك نصُ البيان الإلهي الذي يتضمن ذلك: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (النور: ٦: ٩).

٢- لو كان وصف الذكورة، أو الأنوثة في أمر الشهادة من حيث التسامي برجولة الرجل والهبوط بأنوثة المرأة، لو كان الأمر كذلك لما كانت الأولوية لشهادة المرأة في أمور الرضاعة والحضانة والنسب وغيرها مما تقوم الصلة فيه مع النساء أكثر من الرجال؛ ولما كانت الأولوية لشهادة النساء في كل خصومة جرت بين النساء بعضهن مع البعض، أيًّا كان سببها.

والإسلام يريد الشهادة أن تكون ناصعة واضحة الجوانب مشرقة مثل الشمس، ولا عجب فالشهادة تستحل الدماء والأنفس، والأعراض والأموال؛ لذلك شدد الإسلام في الشهادة، واحتاط لأمرها.

وليس فيما عبر به القرآن الكريم عن ذلك، وضع للمرأة موضع المهانة والازدراء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، حيث عبر الله بنفس هذا التعبير عن حالة النبي ﷺ، قبل البعثة حينما لم يكن وقد وصل بعد إلى عقيدة يطمئن معها. فقال له تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (الضحى: ٧).

وكذلك اشترطت نفس الآية ﴿ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وليس شهيدًا واحدًا لنفس العلة.

(١) العدالة في النظام الاجتماعي في الإسلام تأليف الدكتور محمد عبد الغني صـ١١٦

وأيضًا إننا نستدل بما نؤمن به جميعًا، ومما نؤمن به قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام: ١٩) وقد شهد تعالى بأنها قد تضل في الشهادة فتذكرها الأخرى، وليس بعد الله من شهيد، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وأيضًا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك: ١٤).

وأيضًا ليس معنى المفاضلة في أمر الشهادة أن الرجل أفضل عند الله في الآخرة من المرأة، فقد تكون المرأة عند الله في الآخرة أفضل من ألوف الرجال بعملها الصالح ودينها.

كما قدمنا ذلك في مبحث المساواة بين الرجل والمرأة، على أننا نخلص من هذا أن المراد بنقصان عقل المرأة في الحديث هو مخصوص بالشهادة، كما فسره النبي ﷺ نفسه، ولا ينبغي أن نتجاوز ذلك، وأن نفهمه كما وضحه لنا ديننا الحنيف.

* * *

٢٨ـ شبهة: الميراث.

نص الشبهة:

وهي من أكثر مسائل النساء التي يشغب بها كارهو الإسلام، ولا سيما في مؤتمرات الغرب، فهم يرون أن الإسلام ينتقص المرأة؛ لأنه جعل ميراثها نصف ميراث الرجل.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: لماذا أخذ الرجل أكثر من المرأة في بعض الحالات؟

الوجه الثاني: للمرأة أحقية النفقة عليها: (الرجل ينفق على المرأة وليس العكس).

الوجه الثالث: حرية المرأة الكاملة في التصرف في مالها كما شاءت.

الوجه الرابع: أحوال المرأة في الميراث.

الوجه الخامس: ميراث المرأة في الكتاب المقدس.

الوجه السادس: أقوال علماء الغرب في ميراث المرأة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لماذا أخذ الرجل أكثر من المرأة في بعض الحالات؟

إن الإسلام راعى وضع الوارث، ومدى حاجته، ونوع العلاقة بينه وبين مورِّثه ذكرًا كان أم أنثى.

فالابن يتعرض حال الكبر والاكتساب لمسئولية الإنفاق على أبويه، بالإضافة إلى مسئولية الإنفاق على زوجته، ومسئولية تقديم المهر إليها. في حين أن أخته لا تتعرض لهذه المسئولية، ولا تتحمل شيئًا منها؛ لذلك اقتضت حكمة الله أن يؤثر الرجل على المرأة في الميراث؛ لأن الرجل مترقب للنقص دائمًا بالإنفاق على نسائه وأولاده، وبذل المهور لهن، والبذل في نوائب الدهر، والنفقة على أقاربه الفقراء الذين يرثونه، وهو أصل عمود النسب، ومنزله مقصد للزائرين، أما المرأة فإنها مترقبة للزيادة، إذ يأتي يوم يضمها إليه رجل يتزوجها، يبذل لها مهرها نحلة، ويقوم هو بالإنفاق عليها، والقيام بشئونها، ولا يجب عليها أن تسهم بشيء من نفقات البيت على نفسها وعلى أولادها؛ ولو كانت غنية، كما أن مالها يزيد ربحه إذا نَمَّته بالتجارة أو بأية وسيلة من وسائل الاستثمار المشروعة.

والحاصل: أن إيثار مترقب النقص دائمًا على مترقب الزيادة دائمًا لجبر بعض نقصه المترقب -حكمة ظاهرة واضحة، لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي - عصمنا الله منهما- فلا عبرة بما يردده الملاحدة الذين فسقوا عن أمر ربهم من شبهات حول هذا الحكم الرباني وأمثاله[1]

قاعدة الغرْمُ بالغنم، والعدالة في توزيع الأعباء والواجبات:

يقول الدكتور/مصطفى السباعي[2]: فمن المستحيل أن ينقض الإسلام في ناحية ما يبينه في ناحية أخرى، وأن يضع مبدأً ثم يضع أحكامًا تخالفه، ولكن الأمر يتعلق بالعدالة في توزيع الأعباء والواجبات على قاعدة الغرْمُ بالغُنْم.

ففي نظام الإسلام يُلزم الرجل بأعباء وواجبات مالية لا تلزم بمثلها المرأة، فهو الذي يدفع المهر، وينفق على أثاث بيت الزوجية، وعلى الزوجة والأولاد.

أمَّا المرأة فهي تأخذ المهر ولا تسهم بشيء من نفقات البيت على نفسها وعلى أولادها؛ ولو كانت غنية، ومن هنا كان من العدالة أن يكون نصيبُها في الميراث أقلَّ من نصيب الرجل، وقد كان الإسلام معها كريمًا متسامحًا حين طرح عنها كل تلك الأعباء وألقاها على عبءِ الرجل ثم أعطاها نصف ما يأخذ.

لنفرض رجلًا مات عن ابن وبنت وترك لهما مالًا، فماذا يكون مصير المال غالبًا بعد أمدٍ قليل؟

إنه بالنسبة إلى البنت سيزيد ولا ينقص، يزيد المهر الذي تأخذه من زوجها حين تتزوج، ويزيد ربح المال حين تنميه بالتجارة أو بأية وسيلة من وسائل الاستثمار.

أما بالنسبة إلى أخيها الشاب فإنه ينقص منه المهر الذي سيدفعه لعروسه، ونفقات العرس، وأثاث البيت، وقد يذهب ذلك بكل ما ورثه ثم عليه دائمًا أن ينفق على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده.

---

(١) عودة الحجاب (٢/ ١٣٨).

(٢) المرأة بين الفقه والقانون ص٢٥-٢٦.

أفلا ترون معي أن ما تأخذه البنت من تركة أبيها يبقى مدخرًا لها لأيام النكبات، وفقد المعيل من زوج، أو أب، أو أخ، أو قريب، بينما يكون ما يأخذه الابن معرضًا للاستهلاك لمواجهة أعبائه المالية التي لابدَّ له من القيام بها؟

لقد وجهت مرة هذا السؤال إلى طلابي في الحقوق - وفيهم فتيان وفتيات - وأردفته بسؤال آخر:

هل ترون مع ذلك أن الإسلام ظلم المرأة في الميراث أو انتقصها حقها أو نقص من كرامتها؟

أما الطلاب فقد أجابوا بلسان واحد: لقد حابى الإسلام المرأة على حسابنا نحن الرجال[1]! وأما الفتيات فقد سكتن، ومنهن من اعترفن بأن الإسلام كان منصفًا كل الإنصاف حين أعطى الأنثى نصف نصيب الذكر.

إن الشرائع التي تعطي المرأة في الميراث مثل نصيب الرجل ألزمتها بأعباء مثل أعبائه وواجبات مالية مثل واجباته، لا جرم إن كان إعطاؤها مثل نصيبه في الميراث في هذه الحالة أمرًا منطقيًا ومعقولًا، أما أن نعفي المرأة من كل عبء مالي ومن كل سعي للإنفاق على نفسها وعلى أولادهاونلزم الرجل وحده بذلك ثم نعطيها مثل نصيبه في الميراث فهذا ليس أمرًا منطقيًا في شريعة العدالة.

وقد يقال: لِمَ لَم يلزم الإسلام المرأة بالعمل ويكلفها من الأعباء بمثل ما كلف الرجل؟ وجوابنا على هذا سنسمعه في آخر هذه الأبحاث حين نناقش هذا الموضوع: هل من مصلحة الأسرة والمجتمع أن تكلف المرأة بالعمل لتنفق على نفسها، أو تسهم في الإنفاق على نفسها، وعلى أولادها؟ أم أن تتفرغ لشئون بيتها وأولادها؟ [2]

وحسبنا أن نقول الآن: أنه لا مجال للمطالبة بمساواة المرأة مع الرجل في الميراث إلا بعد مطالبتها بمساواته في الأعباء والواجبات. . إنها فلسفة متكاملة، فلابدَّ من الأخذ بها

---

(١) الإسلام لا يحابي المرأة على الرجل، ولا الرجل على المرأة؛ لأنه شريعة العدل وشريعة الإنصاف.

(٢) راجع شبهة عمل المرأة.

كلها أو تركها كلها. . أما نحن كمسلمين فنرى أن فلسفة الإسلام في ذلك أصح وأكثر منطقية وأحرص على مصلحة الأسرة والمجتمع والمرأة ذاتها. .

وقبل أن أنتقل من بحث هذا الموضوع أرى من المفيد أن أتعرض لفائدتين تاريخيتين:

الأولى: أن نصارى جبل لبنان في عهد الحكم العثماني كان من أسباب نقمتهم عليه أنه أراد أن يطبق عليهم أحكام الشريعة الإسلامية، فيما يتعلق بالميراث فقد غضبوا؛ لأن الشريعة تعطي البنت نصيبًا من الميراث يعادل نصف نصيب أخيها، وليس من عادتهم توريثها؛ لأن ما تأخذه من المال يذهب إلى زوجها، وقد ذكر هذا الأب بولس سعد في مقدمة كتابه: مختصر الشريعة للمطران عبد الله قرا علي، وإليكم نص عبارته: جاء في الرسالة التي أنفذها البطريرك يوسف حبيش إلى رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس في ٢٩ أيلول (١٨٤٠) ما يلي: وأما الآن فمن حيث أن القضاة أخذوا يمشون كلشى (كل شيء) في الجبل على موجب الشرائع الإسلامية فصار عمال يقع السجن والاضطهاد من هذا التغيير وبالأخص من جهة توريث البنات؛ لأن الشرائع الإسلامية تحدد أن كل بنتين ترثان بقدر ما يرث صبي واحد، ومن هنا واقع خصومات ومنازعات وشرور متفاقمة واضطرابات من حيث إن العادة السابقة كانت سالكة في هذا الجبل عند الجمهور أغنياء وفقراء بأن الابنة ليس لها إلا جهاز معلوم بقيمة المثل من والديها، إلا إذا هم أوصوا بشيء خصوصي.

ومن سلوك القضاة الآن بخلاف ذلك صار الوالدان في اختباط حال جسيمة مضر بالأنفس والأجساد، من حيث إن الآباء لا يرتضون بتوريث بناتهم حسب وضع الشريعة الإسلامية حذرًا من تبذير أرزاقهم وخراب بيوتهم، ولذلك فيحتالون بأيام حياتهم أن يعطوا أرزاقهم لأولادهم الذكور بضروب الهبة والتمليك ليمنعوا عنهم دعوى البنات بعد موتهم.

ثم يقول البطريرك المذكور بعد أن شرح ما لحق الآباء من الضرر في هبة أموالهم لأولادهم الذكور: ومن حيث إن الشرور الناتجة من هذا النوع هي أثقل من باقي الأنواع كما لخصناه أعلاه، فمستبين لنا ضروريًا أن نسعى بترجيع توريث البنات والنساء للعادة

السالفة، نعني أنهن لا يرثن على الذكور بل لهن الجهاز بقيمة المثل كما ذكرنا أعلاه، ليحصل الهدوء بذلك، وتنقطع أسباب الشرور، الخ اهـ ص (٢٥).

الثانية: أن البلاد الاسكندنافية لا تزال بعضها حتى الآن تميز الذكر على الأنثى في الميراث فتعطيه أكثر منها، برغم تساويهما في الواجبات والأعباء المالية.

الوجه الثاني: للمرأة أحقية النفقة عليها: (الرجل ينفق على المرأة وليس العكس)

جعل الله للمرأة حقا معلومًا محددًا فلا يعتدى عليه فهو ظالم جعل الله عقابه نار جهنم والعذاب المهين. ومع هذا النصيب المفروض للمرأة في الميراث لم يكلفها الله بنفقة بل جعل الإنفاق وظيفة الرجل. فالرجل مسئول عن نفقات ما تحته من النساء.

يقول ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ (النساء: ٣٤)

وقال رسول الله ﷺ: "حق المرأة على الزوج: أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجر إلا في البيت"[١] وفي عطايا الآباء لأبنائهم يقول ﷺ: "ساووا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مفضلًا أحدًا لفضلت النساء".

نفقة المرأة الواجبة على الرجل:

١ - الزوجة: قال تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ (النساء: ٣٤).

*المطلب الأول: أدلة وجوب النفقة للزوجة في الشريعة الإسلامية:

١ - قوله تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ (النساء: ٣٤).

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٥٠)، وابن حبان (٤١٧٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥٠٠).

قال الطبري: فضل الله الرجال على أزواجهم من سوقهم إليهن مهورهن وإنفاقهم عليهن من أموالهن، وكفايتهم إياهن مؤنهن[١]، وذكر القاسمي[٢] أن المقصود في الآية المهور والنفقات، وقال القرطبي: متى عجز عن نفقتها لم يكن قوامًا عليها[٣].

*** المطلب الثاني: مقدار النفقة الواجبة للزوجة على زوجها:**

الفـــرع الأول: هل يراعي حال الزوج أو الزوجة أو هما معًا في تقدير النفقة؟

هناك خلاف بين الفقهاء[٤] في مقدار النفقة الواجبة للزوجة هل يراعى فيه حال الزوج أو الزوجة أو هما معًا فمن قال يراعى فيه حال الزوج فقط نظر على قوله تعالى ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ (الطلاق: ٧).

ومن قال يراعى حال الزوجة نظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٣٣). ومن قال يراعى كلا الجانبين كما قال ابن قدامة: ونفقتها مقيدة بحال الزوجين جميعًا فإن كانا موسرين فعليه نفقة الموسرين، وإن كان معسرين فعليه نفقة المعسرين، وإن كانا متوسطين فلها عليه نفقة المتوسطين، وكذا إن كان أحدهما موسرًا والآخر معسرًا. [٥]

الفرع الثانــي: جوانب النفقة للزوجة:

إذا كان الاختيار في تقدير النفقة أنه يراعى حال الزوجين معًا، فإن فقهاء الأمة قد حدوا معالم وجوانب واضحة تجب للزوجة في النفقة وأهم هذه الجوانب ما يلي:

---

(١) جامع البيان للطبري (٥/ ٣٧).

(٢) تفسير القاسمي (٥/ ١٣٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٧٣٩).

(٤) راجع المغني لابن قدامة (١١/ ٣٤٨-٣٤٩)، بدائع الصنائع للكاساني (٤/ ٢٤)، الأم للشافعي (٥/ ٨٦)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/ ٦٦٤٩)، نيل الأوطار للشوكاني (٦/ ٣٢٢-٣٢٣)، زاد المعاد (٥/ ٤٩١).

(٥) المغني لابن قدامة (١١/ ٣٤٨-٣٤٩).

أولًا: سكن الزوجية:

يقول الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ (الطلاق: ٦).

وقد تحدث كثير من الفقهاء عن مواصفات سكن الزوجية ونذكر منها ما يلي:

١ـ أن يكون سكنًا خاصًا بالزوجين فقط:

من حق المرأة أن تطلب للحياة الزوجية سكنًا خاصًا لا يشاركها فيه غيرها وهذه عبارات بعض الفقهاء صريحة في هذه المسألة: قال الكاساني: لو أراد إسكانها مع ضرتها او مع أحمائها كأم الزوج وأخته وابنته من غيرها وأقاربه فأبت فعليه أن يسكنها في منزل مفرد لأنهن ربما يضررنها في المساكنة. (١)

٢ـ أن يكون سكنًا مناسبًا للزوجة:

لعل هذا الشرط يكون ضمن ما سبق من شروط لكن النص يدل على مدى الاهتمام بالزوجة في بيتها ومسكنها يول الإمام الشافعي: والسكن مالا لا غنى لأمرأته عنه مما تعيش فيه نظائرها. (٢)

ثانــيًا: الطعام والشراب:

يقول الله تعالى ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ولعل المقصد الأول في الرزق هو الطعام والشراب، يقول ابن قدامة(٣) وجملة المر أن المرأة إذا سلمت نفسها إلى الزوج على الوجه الواجب عليها فلها عليه جميع حاجتها من مأكول ومشروب وملبوس ومسكن.

ثالثًا: الكسوة: جاءت النصوص في القرآن الكريم والسنة صريحة في إيجاب الكسوة للزوجة على زوجها، وفصل فقهاء الأمة(١) في حد هذه الكسوة على النحو التالي:

---

(١) بدائل الصنائع (٤/ ٢٣).

(٢) الأم للشافعي (٥/ ٨٧) ولعل هذا يؤكد ما سبق أن الشافعي كان يراعي حال الزوجين معا وليس حال الزوج فقط كما نسب غليه كثير من العلماء.

(٣) المغني (١١/ ٣٥١).

١- أوجب البعض للزوجة كسوة للصيف وأخرى للشتاء، وإن كان البرد قاسيًا يجب لها جبة محشوة وقطيفة ولحاف وسراويل وقميص وخمار ومقنعة يدفئ مثلها كما ذكر الشافعي.

٢-وأوجب البعض للزوجة كسوة للنوم في الليل وأخرى للمنزل، وأخرى للخروج ويشترط في الأخيرة أن تكون أثوابًا مستوفية الشروط الشرعية في كونها سابغة غير شفافة.

٣-ذكر آخرون أنه يجب أن يعد الزوج لزوجته أثوابًا للصلاة

رابعًا: أدوات الزينة والنظافة:

من الحقوق الواجبة للمرأة أدوات النظافة والزينة.

يقول ابن قدامة: ويجب للمرأة ما تحتاج إليه من المشط والدهن لرأسها والسدر أو نحوه مما تغسل به رأسها، وما يعود بنظافتها لأن ذلك يراد للتنظيف فكان عليه، وأما الطيب فما يراد منه لقطع السهوكة كدواء العرق لزمه لأنه يراد للتنظيف وما يراد للتلذذ والاستمتاع وكذا الخضاب لم يلزمه لأن الاستمتاع حق له. (٢)

١-وكذلك على الرجل نفقة البنت و الأم والقريبات من النساء (العمات-الخالات. . .)

الوجه الثالث: حرية المرأة الكاملة في التصرف في مالها كما شاءت

للمرأة أحقية ملكية و أعطى الإسلام للمرأة الحرية المالية الكاملة و جعلها مستقلة بمالها عن زوجها فإن شاءت أعطته وإن شاءت منعته، قال ﷻ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ (النساء: ٤) و من المواقف التى تؤكد هذه الاستقلالية المالية الكاملة هذا الموقف: عن عَطَاء قال: "أَشْهَدُ عَلَى ابنِ عَبّاسٍ وَشَهِدَ ابنُ عَبّاسٍ عَلَى رسولِ الله ﷺ أَنّهُ خَرَجَ يَوْمَ فِطْرٍ فَصَلّى ثُمّ خَطَبَ ثُمّ أَتَى النّسَاءَ وَمَعَهُ بِلاَلٌ ـ قال ابنُ كَثِيرٍ: أَكْبَرُ عِلْمِ شُعْبَةَ ـ فأمَرَهُنّ بالصّدَقَةِ فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ"فالمرأة فى نظر

(١) المحلى لابن حزم (١٠/ ١٠٨)، الأم للشافعي (٥/ ٨٧-٨٨)، تكملة المجموع (١٨/ ٢٥٨-٢٦٥)، ونهاية المحتاج للرملي. المغني لابن قدامة (١١/ ٣٥٩-٣٦٠)، بدائع الصنائع للكاساني (٤/ ٢٣)، شرح مختصر خليل (٤/ ١٨٥)، جواهر الآثار (٢٢٥)، المصنف للكندي (٣٥/ ٣٧).

(٢) المغني لابن قدامة (١١/ ٣٥٣-٣٥٤).

الإسلام عاقلة رشيدة لا تحتاج وصاية مالية عليها. . . بل هى قادرة على التصرف فى أموالها بمعرفتها و لها مطلق الحرية ومطلق الأهلية فى هذه المسألة.

الوجه الرابع: أحوال المرأة في الميراث.

ليس في كل الأحيان الذكر يأخذ ضعف الأنثى، بل أحيانًا يتساوى نصيب الرجل، ونصيب المرأة، وأحيانًا تأخذ المرأة أكثر من الرجل، وإليك هذه الأمثلة:

المبحث الأول: الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل

عند الاستقراء لكل الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل نجدها تنحصر في الحالات التالية:

أولًا: وجود البنت مع الابن: وذلك لقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾، وعليه إذا مات أب أو أم وتركا ميراث فإن البنت تأخذ نصف الذكر. ويلحق بهذه الحالة إذا وجد من أولاد الأولاد مهما نزلوا مع بنات الأولاد في درجتهم مثل ابن ابن مع بنت ابن، أو ابن ابن ابن مع بنت ابن ابن فيرثون جميعًا للذكر مثل حظ الأنثيين.

ثانيًا: وجود الأب مع الأم ولا يوجد أولاد ولا زوج أو زوجة:

وذلك لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾، فهنا فرض الأم الثلث، ويكون الباقي وهو الثلثان للأب

كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر). [١]

وبهذا يكون الأب قد أخذ ضعف الأم[٢]

---

(١) رواه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) إذا اعتبرنا أن الجهة واحدة في الجد والجدة فإذا وجدا وحدهما في مسألة تأخذ الجدة السدس والجد الباقي وسيأتي بيان أن هذا من الحالات النادرة والأكثر أن ترث الجدة ولا يرث نظيرها من الأجداد – غالبًا في البحث الأخير من هذا الفصل.

ثالثًا: وجود الأخت الشقيقة أو لأب مع الأخ الشقيق أو لأب: وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةً رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾

رابعًا: الزوجة تأخذ نصف الزوج:

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾

المبحث الثاني: حالات ترث فيها المرأة مثل الرجل

باستقراء مسائل الميراث نجد أن هناك حالات ترث فيها المرأة مثل الرجل منها:

أولًا: حالة ميراث الأم مع الأب (مع وجود ولد ذكر أو بنتين فأكثر أو بنت أحيانًا):

(أ) بل هناك حالة يتساوى فيها الأب والأم مع وجود بنت واحدة وذلك إذا ماتت امرأة عن: زوج، وأب، وأم، وبنت.

(ب) هناك حالات تأخذ فيها الجدة مثل الأب مع كونها جدة لأم وهي أبعد من الميت مثل[1]: توريث أب مع أم أم مع ابن، أو توريث أب مع أم أم مع بنتان.

ثانيًا: ميراث الإخوة لأم مع الأخوات لأم دائمًا في الميراث:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾[2].

---

(١) خرجت عن معيار التساوي بين الرجل والمرأة في درجة القرابة لأنها تظهر مدى إكرام الإسلام للمرأة مع كونها أبعد صلة بالميت من الرجل وورثت منه.

(٢) قال القرطبي: أجمع العلماء على أن الإخوة في الآية عنى بها الإخوة لأم، وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ: وله أخ أو أخت من أمه، ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة لأب ولأم ليس ميراثهم هكذا. الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧٨).

وهذا النص ظاهر الدلالة على تساوي حظ المرأة مع الرجل إن كانت الأخوة من جهة الأم.

ثالثا: المسألة المشتركة[1]: فإذا ماتت امرأة عن: زوج، وأم، و أختين لأم، وأخ شقيق:

فهنا الأختان لأم أخذت كل واحدة السدس لأنهما شركاء في الثلث ولم يبق شيء للأخ الشقيق، لكن قضاء سيدنا عمر وزيد وعثمان بن عفان أن هذا التوريث يعدل إلى:

فيقسم الثلث بين أختين لأم، وأخ شقيق بالتساوي لكل منهم سهم من ثلاثة، لأنه ورث باعتباره أخا لأم، ويلاحظ هنا أن الأخ الشقيق وهو الأقرب درجة إلى الميت ورث مثل الأخت لأم وهي أبعد درجة من الميت.

رابعًا: تساوي الرجل والمرأة عند انفراد أحدهما بالتركة:

إذا مات أحد عن رجل واحد أو امرأة واحدة تكون المحصلة الأخيرة هي أن يأخذ ما بقي من التركة كلها سواء أخذها الرجل كعصبة، أم أخذت المرأة حظها بالفرض والباقي ردًا عليها.

* هذه مجرد أمثلة لا تعني الحصر على التساوي بين الرجل والمرأة، وقد يقال قد أخذت المرأة مثل الرجل لعدم وجود من بحذائها من الرجال، ويرد على هذا بأنه من الوارد النص على عدم جواز أخذ ذوي الفروض من النساء أكثر من فرضهن خاصة أننا نجد خلافًا بين الفقهاء في قضية الرد أصلا (بلا تفرقة بين رجل وامرأة) حيث رفض الرد على ذوي الفروض

---

(١) هي من المسائل المشهورة في علم الميراث يوجد فيها: زوج وأم وأخوة لأم وأخ شقيق فأكثر فيكون للزوج النصف وللأم السدس وللإخوة لأم الثلث وللأخ الشقيق البقي تعصبيًا ولم يبق له شيء، وفقًا للحديث: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر، وبهذا كان يقضي سيدنا عمر وزيد وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وأبو موسى الأشعري، ولكن سيدناعمر رجع عن هذا القضاء عندما جاءه إخوة أشقاء فقالوا: يا أمير المؤمنين لنا أب وليس لهم أب، ولنا أم كما لهم، فإن كنتم قد حرمتمونا بأبينا فورثونا بأمنا كما ورثتم هؤلاء بإمهم واحسبوا أن أبانا كان حمارا، أو ليس قد تراكضنا في رحم واحدة، فقال عمر حينئذ: صدقتم فأشرك بينهم وبين الإخوة لأم في الثلث الباقي، ووافق زيد وعثمان عمر في قضائه وبقي سيدنا علي وابن عباس يقضيان بالقضاء الأول، راجع بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد (٢/ ٣٤٥)، والمغني (٩/ ٢٤-٢٦) لابن قدامة، وراجع أسبابًا أخرى في ترجيح ما قضي به سيدنا عمر في: محاضرات في الميراث والوصية. صلاح الدين سلطان (١٠٤، ١٠٥).

زيد بن ثابت ومالك والشافعي، وذهب الأكثر من الصحابة والفقهاء إلى جوازه[(١)] وبه أخذ القانون المصري في المادة رقم ١٤ من قانون المواريث رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣م.[(٢)]

خامسًا: حالات أخرى:

(١) تساوي الأخت الشقيقة مع الأخ الشقيق:

فحالة وجود زوج مع أخ شقيق تتساوى مع حالة وجود زوج مع أخت شقيقة، فبالرغم من أنهما حالتين مختلفتين إلا أن: الأخت الشقيقة تأخذ مثل نصيب الأخ الشقيق- ومثل ذلك أيضًا حالة: زوج مع بنت مع أخ شقيق، وحالة زوج مع بنت مع أخت شقيقة.

(٢) تساوي الأخت لأم مع الأخ الشقيق دون تشريك:

بحثنا سابقًا حالة تساوي الأخت لأم مع الأخ لأم، وتساوي الأخوات لأم مع الأخ الشقيق في المسألة المشتركة وهنا تتساوى الأخت لأم وهي أبعد القرابة مع الأخ الشقيق وهو الأدنى قرابة مثل: حالة زوج مع أم مع أخت لأم مع أخ شقيق، فيتساوى ميراث الأخت لأم مع ميراث الأخ الشقيق.

(٣) تساوي عدد النساء مع الرجال فيمن لا يحجبون:

هناك نوعان من الحجب: حجب حرمان وهم الذين يحرمون من التركة نهائيًا لوجود من يحجبهم مثل الأخ يحجب بالأب حجب حرمان، وهناك حجب نقصان وهم من يقل فرضهم لوجود آخر مثل نقصان نصيب الأم من الثلث إلى السدس لوجود الفرع الوارث.

وهناك ستة لا يحجبون حجب حرمان أبدًا هم: الزوج والزوجة، الابن والبنت، الأب والأم.

ويلاحظ أنهم ثلاثة من الذكور ومثلهم من الأناث، لا يحجبون حجب حرمان مطلقًا.

(٤) هناك في ميراث ذوي الأرحام[(١)] ثلاثة مذاهب:

(١) راجع: الأم للشافعي (٤/ ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١) والمغني لابن قدامة (٩/ ٤٨-٥١).

(٢) اختاروا واضعو القانون المصري أن يكون الرد على الزوجين إذا وجد أي من الورثة أرجح في هذه المسألة الرد على الزوجين أيضًا وهو مذهب سيدنا عثمان بن عفان بلا فرق بين الورثة، لأنهما يتحملان في الغرم عند العول، فيأخذان في الغنم عند الرد، ولأنهما ورث بسبب الزوجية وقد سماهما القرآن زوجين بعد وفاة أحدهما، راجع تفصيل ذلك في: محاضرات في الميراث والوصية: صلاح سلطان ص (١٤١ -١٤٣).

١- مذهب أهل الرحم وهم يسوون بين جميع ذوي الأرحام ذكورًا وإناثا سواء قربت درجتهم من المتوفى أم بعدت، فمن مات عن: بنت بنت وابن بنت وخال وخالة: تقسيم التركة على أربعة أسهم متساوية.

وهناك آراء أخرى مطروحة في الفقه الإسلامي، ونلاحظ معًا أن مذهب أهل الرحم لا يجد مطروحة في الفقه الإسلامي، ونلاحظ معًا أن مذهب أهل الرحم لا يجد حرجًا من تساوي الرجل مع المرأة عند اجتماعهما. [٢]

المبحث الثالث:

حالات ترث فيها المرأة أكثر من الرجل:

يقوم نظام المواريث في الشريعة الإسلامية على طريقتين رئيسيتين هما:

١ـ **الميراث بالفرض**: وهو الوارد في القرآن والسنة النبوية[٣] ومعناه أن يأخذ صاحب الفرض ما حدده النص من الثلثين أو الثلث أو السدس أو النصف أو الربع أو الثمن.

٢ـ **الميراث بالتعصيب**: وهو أن يرث ما بقي بعد أصحاب القروض، فهم الوارثون بغير تقدير وهم العصبة بالنفس مثل الابن وابن الابن وإن نزل، والأب والجد وإن علا والأخ الشقيق ولأب وأولادهم، والعم الشقيق وأولادهم وإن نزلوا، وهناك عصبة وهناك

---

(١) ورد في المادة ٣١ من القانون رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣: إذا لم يوجد أحد بالعصبة بالنسب، ولا أحد من ذوي الفروض النسبية كانت التركة أو الباقي منها لذوي الأرحام، وهذا ترجيح جيدًا خلافًا لما يراه سيدنا زيد، وابن عباس، ومالك، والأوزاعي، والشافعي، وداود، وابن جرير الطبري؛ أن ما بقي بعد ذوي الفروض والعصبات يكون لبيت المال، وقد خالفهم في ذلك عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبو عبيدة، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وشريح، وعمر بن عبد العزيز، وطاووس، وعلقمة، ومسروق، وأهل الكوفة، وأحمد، وأبو حنيفة. راجع: نيل الأوطار للشوكاني (٦/ ٦٣-٦٤) وقد أخذ واضعو القانون المصري بهذا المذهب الأخير.

(٢) لا يقلل من هذا عدم أخذ القانون المصري بالمذهب الأول بل أخذ بمذهب أهل القرابة في نفس المادة ٣١ من القانون.

(٣) وردت كل الفروض في القرآن الكريم ما عدا ميراث الجدة حيث وردت في السنة النبوية.

عصبة بالغير وهي الأخت مع الأخ، ، والابن مع البنت وابن الابن مع بنت الابن وإن نزلوا، وهناك عصبة مع الغير وهي الأخت الشقيقة أو لأب مع البنت أو بنت لابن.

ويجري نظام التوريث على أن يأخذ أصحاب الفروض ما فرض لهم أولًا، ثم يأخذ ذوو العصابات ما بقي بعد أصحاب الفروض أو كل التركة إن انفردوا بالتركة، وقد ثبت بالاستقراء أن النساء يرثن أكثر بالفرض، وأن إرثهن بالفرض أحظى لهن من ميراثهن بالتعصب في حالات كثيرة.

يبدو من الفروض الواردة في القرآن والسنة ومستحقوها ما يلي:

١- أكبر الفروض في القرآن الكريم هو الثلثان، ولا يحظي به واحد من الرجال بل هو للنساء فقط.

٢- النصف لا يأخذه من الرجال إلا الزوج عند عدم وجود فرع وارث وهو قليل الوقوع ويبقى فرض النصف لأربع من النساء.

٣- الثلث يأخذه اثنتان من النساء هما الأم عند عدم وجود فرع وارث أو عدم وجود الأخوين فأكثر، وتأخذه الأخوات لأم إذ لم يوجد أصل ولا فرع وارث اثنتان فأكثر بينما يأخذ الثلث الإخوة لأم بنفس الشروط أو لو وجد أخ لأم مع أخت لأم فبالتساوي

٤- السدس يأخذه ثمانية: خمسة من النساء وثلاثة من الرجال.

٥- الربع يأخذه الزوج إذا وجد فرع وارث للزوجة، وتأخذه الزوجة إذا لم يوجد فرع وارث للزوج.

٦- الثمن تأخذه الزوجة إذا وجد فرع وارث للزوج.

٧- وسيتضح أن النص القرآني على قدر محدد للمرأة مفيد لها فترث بالفرض أكثر من حالات ميراث الرجال، فترث النساء في سبع عشرة حالة بالفرض، بينما يرث الرجال في ست حالات بالفرض فقط، هذا التحديد مفيد للمرأة حقًا وقد يجعلها ترث أكثر من الرجل ويبدو ذلك من المقابلات الآتية:

أولًا: فرض الثلثين مفيد للمرأة عن التعصيب للرجل أحيانًا:

فبالمقارنة بين حالة ما إذا ماتت امرأة وتركت زوج و أب وأم وبنتان، وحالة ما إذا ماتت امرأة وتركت زوج و أب وأم وابنان فتأخذ البنتان الثلثين ومقداره ثمانية أسهم، بينما يأخذ الابنان: الباقي عصبيًا ومقداره خمسة أسهم.

يتضح من هذه المقابلة أن فرض الثلثين للبنتين قد أتاح لهما فرصة في بعض المسائل أن تأخذ كل بنت أكثر من نظيرها إذا وجد ابنان مكان البنتين، ولو جعلنا مكان البنتين بنتي الابن، وجعلنا مكان الابنين ابني ابن لكانت المسألة كما هي لأنهم ورثوا باعتبار البنوة وإن كانوا أبعد درجة.

وبالمقارنة بين حالة ما إذا ماتت امرأة وتركت زوج، وأم، وأختان شقيقتان.

وبين حالة ما إذا ماتت امرأة وتركت زوج، وأم، وأخوان شقيقان.

فمن الواضح أن فرض الثلثين أفاد الأختين فكان حظهما (٢٤سهم) في مقابل الأخوين اللذين ورثا بالتعصب فكان حظهما (١٦سهم). وهي نفس المسألة لو كانت الأختان لأب مع الأخوين لأب (في المقابلة مكان الأختين الشقيقين والأخوين الشقيقين).

ثانيًا: فرض النصف أفاد الإناث عن التعصب للرجل أحيانًا:

وهذا ما يبدوا مما يلي:

وبالمقارنة بين حالة ما إذا ماتت امرأة وتركت زوج، وأب، وأم، وبنت، و بين حالة ما إذا ماتت امرأة وتركت زوج، وأب، وأم، وابن.

فهنا أخذت البنت بالفرض (٦أسهم) ونقص لحقها نصيب الزوج والأب والأم لأن في المسألة عولًا، أما الابن الذي يرث بالتعصيب فقد كان نصيبه (٥أسهم) لأنه الباقي بعد أصحاب الفروض وهو اقل من نصيب البنت، (ولا تفترق المسألة إذا كان مكان البنت بنت الابن، ومكان الابن ابن الابن).

وبالمقارنة بين حالة ما إذا ماتت امرأة: وتركت زوج، وأم، وأخت شقيقة، وبين حالة ما إذا ماتت امرأة: وتركت زوج وأم وأخ الشقيق.

هنا فارق كبير جدًا حيث أخذت الأخت الشقيقة (٣أسهم) وذلك أكثر من ضعف نظيرها وهو الأخ الشقيق الذي ورث (سهم واحد).

ثالثًا: فرض الثلث قد يكون أحظى للمرأة من التعصيب للرجل أحيانًا:

ويبدو ما يلي: وبالمقارنة بين حالة ما إذا مات زوج وترك: زوجة، وأم، و أختان لأم، وأخوان شقيقان.

هنا أخذت كل واحدة من الأختين لأم (٤أسهم) وهما الأبعد قرابة على حين أخذ الأخوان الشقيقان (٣أسهم) وذلك أقل من ميراث أختيهما مما يؤكد أن الميراث بالفرض قد يكون أحظى للمرأة أحيانًا من الميراث بالتعصيب الذي يرث به الرجل.

وتوجد مسألة أكثر دلالة على أن فرض الثلث قد يكون أحظى للمرأة من التعصيب للرجل مثل: ففي حالة ما إذا ماتت امرأة: وتركت زوج، وأختان لأم، وأخوان شقيقان.

هنا كل أخت لأم ضعف نصيب الأخ الشقيق مع كونه أقرب إلى المتوفى.

توجد مسألة اشتهر فيها الخلاف وكثر حولها الحوار بين فقهاء الأمة حول نصيب الأم إذا وجد في المسألة معها أب وزوج فلو أُعطىَ الزوج النصف والأم الثلث يبقى للأب السدس بالتعصيب وهو نصف نصيب الأم فذهب سيدنا عمر وزيد إلى أن الأم تأخذ ثلث الباقي بعد نصيب الزوج ليظل الأب محتفظًا بأكثر من الأم وظل ابن عباس يدافع عن اختياره عملًا بظاهر النصوص أن فرض الأم إذا لم يوجد الفرع الوارث أو أخوان فأكثر هو الثلث مهما زاد حظها عن الأب فيقول لسيدنا زيد: أتجد ثلث الباقي في كتاب الله أو تقوله برأيك، قال: أقوله برأيي، لا أفضل أمًا على أب، ولكي يتضح مدى الخلاف الذي ما زال موجودًا في كل كتب الفقه إلى الآن.

ولئن بدا أن اختيار سيدنا عمر وزيد هو الأرجح أخذًا بالقواعد العامة فيبقى اختيار ابن عباس رأيًا فقهيًا يوافقه ظاهر النص، ومن حق أية حكومة إسلامية أن تأخذ بأي من الرأيين في أحكام المواريث.

رابعًا: فرض السدس قد يكون أحظى للمرأة من التعصيب للرجل أحيانًا:

ويتضح ذلك في مسائل منها: وبالمقارنة بين حالة ما إذا ماتت امرأة: وتركت زوج وأم وأخت شقيقة، و بين حالة ما إذا ماتت امرأة: وتركت زوج وأم وأخت لأم وأخوان شقيقان: فالأخت لأم تأخذ السدس فرضًا، والأخوان شقيقان يأخذن الباقي تعصبيًا (وهو السدس).

فهنا فرض السدس فقط للمرأة ضعف نصيب كل أخ شقيق، ولو زاد عدد الإخوة الأشقاء فسيظل نصيب الأخت لأم موفورًا ويتوزع السهم الواحد على أي عدد من الأخوة الأشقاء.

وهناك حالات قد يكون السدس للأم أفضل من التعصيب للأب.

المبحث الرابع: حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال.

هناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال منها ما يلي:

(أ) وبالمقارنة بين حالة ما إذا ماتت امرأة وتركت زوج، وأب، وأم، وبنت، وبنت ابن.

وبين حالة ما إذا ماتت امرأة: وتركت زوج، وأب، وأم، وبنت، وابن ابن.

هنا أخذت بنت الابن فرض السدس (سهمين) ولم يأخذ ابن الابن شيئا (فكان له الباقي تعصيبًا، ولكن لم يتبق له شيء)، وإذا قيل إن ابن الابن هنا له وصية واجبة فهذا ليس رأي الجمهور[1]وكون واضعي القانون المصري قد اختاروا في قانون الوصية رقم ٧١ لسنة ١٩٤٦العمل بالوصية الواجبة فلا تزال موضع نقد ومناقشة من علماء الأمة ودارسي علم المواريث[2].

وعلى كلٍ؛ هناك حالة أخرى نذكرها لا تدخل بأي حال في الوصية الواجبة وفق تحديد المقنن المصري لها هي:

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٥٧).

(٢) راجع ما كتبه أ. د. مصطفى شلبي في أحكام المواريث (٣٦٨)، وراجع محاضرات في الميراث والوصية: صلاح الدين سلطان (٢١١-٢١٥).

(ب) وبالمقارنة بين حالة ما إذا ماتت امرأة وتركت زوج وأخت شقيقة وأخت لأب، و بين حالة ما إذا ماتت امرأة: وتركت زوج وأخت شقيقة وأخت لأب، فهنا أخذت الأخت لأب بفرضها السدس (سهم) ولم يأخذ نظيرها وهو الأخ لأب (فكان له الباقي تعصيبًا، ولكن لم يتبق له شيء) ولا توجد وصية واجبة له لأنه ليس من فرع ولد الميت.

(جـ) ميراث الجدة:

فكثيرًا ما ترث ولا يرث نظيرها من الأجداد: ويجدر أن نذكر قاعدة ميراث الجد والجدة:

١-الجد الصحيح أي الوارث هو الذي لا يدخل في نسبته إلى الميت (أم): مثل أب الأب وأب أب الأب وإن علا، أما أب الأم أو أب أم الأم فهو جد فاسد أو جد غير وارث على خلاف في اللفظ الفقهي لدى الفقهاء.

٢-الجدة الصحيحة هي التي يدخل في نسبتها إلى الميت جد غير صحيح، أو هي كل جدة لا يدخل في نسبتها إلى الميت أب بين أمين وعليه تكون أم أب الأم جدة فاسدة لكن أم الأم، وأم أم الأب جدات صحيحات ويرثن، وبناء على ذلك يكون الأجداد الوارثون هم سالم وشاكر فقط والأجداد غير الوارثين هم جمال وهاني وخالد وسمير.

على حين ترث جميع الجدات في الشكل ماعدا خالدة لأنها جدة غير صحيحة أو غير وارثة حيث تدلي إلى الميت عن طريق جد غير صحيح.

بعد ذلك يتضح أن المرأة قد ترث ولا يرث نظيرها من الرجال مثل: امرأة ماتت وتركت أب أم، وأم أم.

فالجد هنا من ذوي الأرحام لا يرث بالفرض ولا بالرد، لكن الجدة التي تناظره بل قد تكون زوجته غالبًا ترث وحدها التركة كلها ولا يرث شيئًا إلا إذا أعطى شيئا عملًا بالآية: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (النساء: ٨).

الملخص لما سبق:

بعد هذا الاستقراء الذي أورد أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل أو أكثر منه أو ترث هي ولا يرث نظيرها من الرجال، في مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها

المرأة نصف الرجل لأسباب تتوافق مع الروافد الأخرى من الأحكام الشرعية التي تتكامل أجزاؤها في توازن دقيق لا يند عنه شيء، ولا يظلم طرفًا لحساب آخر لأنها شريعة الله تعالى الحكيم العليم الخبير العدل.

وإذا أردنا أن تتكامل صورة تكريم الإنسان للمرأة، وإعطائها حظًا موفورًا من الكرامة مع الحقوق المادية نبحث في القسم الثاني من هذه الدراسة حق المرأة في النفقة في الشريعة الإسلامية

هل يختلف الحكم إذا استغنت المرأة بعمل أو نحوه؟

يقول بعض الناس: كان هذا الذي تقول مقبولًا عندما كانت المرأة بعيدة عن الأسواق، والعمل، والوظائف. أما اليوم، وقد غدت المرأة شريكة الرجل في الأعمال كلِّها تقريبًا، فما المبرر لأن يبقى الابن وحده هو المسئول عن الإنفاق على أبيه الكبير الذي تقاعد عن الكسب؟ وما الذي يمنع أن تكون أخته التي تكسب مثله شريكة معه في هذه المسئولية؟. . بل لماذا يحمَّل الشاب وحده مؤونة الزواج، من مهر ومسكن ونفقة، ما دامت زوجته مثله في العمل والاكتساب وجمع المال؟. . فإذا اشترك الرجل والمرأة- نظرًا إلى ما آل إليه الأمر والحال- في المغانم والمغارم، وكانا يقفان من ذلك كلهِ على قدم المساواة، كما نرى الآن في كثير من الظروف والمجتمعات؛ فإن السبب الذي اقتضى تطبيق حكم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ في بعض حالات الميراث، لم يعد واردًا في هذا العصر.

والجواب: أن الشارع يفرق في هذه المسألة، أو الحالة التي نفرضها، بين الحافز الأخلاقي، والإلزام الشرعي أو القانوني.

أما من حيث النظر إلى الحافز الأخلاقي، فإنه يفتح المجال واسعًا أمام المرأة، بنتًا كانت أو زوجة، أو أختًا، للاشتراك مع أخيها أو زوجها أو بقية أقاربها الرجال، في سائر وجوه الإنفاق، فالمرأة مدعوة، بمقتضى الحافز الأخلاقي، إلى التخفيف من الأعباء الملقاة على زوجها، في نطاق المهر، ومجال النفقة الدائمة على البيت، سواء عن طريق مشاركتها له في كلِّ ذلك، أو في

تجاوز ما تستطيع أن تتجاوزه من حقوقها في المهر أو النفقات. كما أنها مدعوة بمقتضى الحافز الأخلاقي ذاته إلى أن تنفق على أبيها وأمها وبقية أصولها ما أمكنها ذلك.

وقد روى الشيخان من حديث زينب الثقفية زوجة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول للنساء: تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن. . قالت فرجعت إلى عبد الله بن مسعود، فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن الله قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله، فإن كان ذلك - أي التصدق عليك- يجزئ عني، وإلا صرفتها إلى غيركم، فقال عبد الله: بل ائتيه أنت؛ فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ، حاجتي حاجتها، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة. فخرج علينا بلال. فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن. فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله. . فقال له رسول الله: من هما؟ قال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ: أي الزيانب هي؟ قال: امرأة عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: لهما أجران؛ أجر القرابة، وأجر الصدقة.

غير أن الحافز الأخلاقي إنما تبرز قيمته في مناخ الحرية كما هو معلوم. إذ الإلزام بالإنفاق على الزوج والأب ونحوهما ليس من شأنه أن يبرز خلق الكرم والسخاء لدى الزوجة التي تلزم بذلك.

ولذا فإن استثارة الحافز الأخلاقي لا تصلح أن تكون بديلًا من الواجب الذي يلاحق الزوج، والأب، والولد بضرورة الإنفاق. . إذ لا يوجد لدى الزوجة مثلًا هذا الحافز.

وأما من حيث الإلزام الشرعي، فإن الشارع لو فعل ذلك، أي: ألزم الزوجة بالإنفاق على البيت أو لو ألزم الأم، أو البنت بذلك، لسرى ذلك إلى إلزام المرأة بالخروج إلى العمل لاكتساب الرزق. . ولجرَّ ذلك المرأة إلى الوقوع في المشكلات التي وقعت المرأة الغربية فيها عندما ألزمت بالعمل إلزامًا، وقد فصَّلنا القول في طرف من ذلك.

إن حماية المرأة من الوقوع في تلك المشكلات التي اتضح للقارئ مدى خطورتها، تقتضي أن تكون مطمئنة دائمًا إلى أن رزقها موفور من خلال حياة كريمة بوسعها أن تعيشها وتطمئن إليها، وذلك بمسئولية أبيها عنها طالما كانت في كنفه، ثم بمسئولية زوجها عنها إذا تحولت إلى الحياة الزوجية. . فإن هي رغبت مع ذلك في عمل من أعمال الكسب، لتوفير المال، أو بذل نشاط، فلسوف تجد السبل المشروعة إلى العمل مفتحة أمامها، دون أن تحملها الضرورة على ممارسة أعمال غير لائقة، أو أن تدفعها الحاجة إلى الغياب عن البيت، وترك مسئولياتها في تربية الأولاد ورعاية الزوج مهملة، كما هي الحال في المجتمعات الغربية(١).

الوجه الخامس: ميراث المرأة في الكتاب المقدس.

هذا موقف الإسلام رأيناه في القرآن و السنة. فما موقف كتب اليهود و النصارى في المقابل؟ هنا يمكننا أن نقول إن موقف النصارى ملخص في هذه الجملة من إنجيل متى ٥: ١٧ (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمّل.) وعليه فوجهة النصارى تابعة لوجهة اليهود ومستمدة من شرائع العهد القديم.

فلننظر إلى كتاب اليهود والنصارى المقدس لنتعرف على وجهة نظرهم في تلك المسألة كجزأ من نظرتهم إلى المرأة. فالمرأة في كتبهم لا ميراث لها ولا حق لها في أن ترث إلا في حالة واحدة: أن يكون لها أخوة ذكور. ولنقرأ هذا من سفر العدد: ٨وَتُكَلِّمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: أَيُّمَا رَجُل مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ، تَنْقُلُونَ مُلْكَهُ إِلَى ابْنَتِهِ. ٩ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ ابْنَةٌ، تُعْطُوا مُلْكَهُ لإِخْوَتِهِ. ١٠ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِخْوَةٌ، تُعْطُوا مُلْكَهُ لإِخوَةِ أَبِيهِ. ١١ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لأَبِيهِ إِخْوَةٌ، تُعْطُوا مُلْكَهُ لِنَسِيبِهِ الأَقْرَبِ إِلَيْهِ مِنْ عَشِيرَتِهِ فَيَرِثُهُ»

فصارت لبني إسرائيل فريضة قضاء كما أمر الرب موسى*هكذا نرى أن كتابهم المقدس جعل الميراث كاملا للابن الذكر. . . فإن لم يكن للمتوفى ابن ذكر ففي هذه الحالة

(١) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني (١٩٠).

فقط: ترث الأنثى. * بل الأسوأ للأنثى أنها ليست فقط محرومة من الميراث. . . بل أنها أيضا محرومة من المهر ذلك الحق الذي أعطاها لها الإسلام. . . بل و الأسوأ والأنكى أنها مطالبة بدفع بائنة (دوطة) لمن يتقدم لها للزواج. . . فهي تدفع حتى يرضى الرجل بالزواج منها وإلا كانت العنوسة مصيرها. والواقع أننا حينما نتحدث عن قضية ميراث المرأة في كتب اليهود و النصارى المقدسة إنما نتحدث عنه من نافلة القول. . . ذلك أن المرأة ذاتها جزء من الميراث عند اليهود والنصارى. فالمرأة التي يموت عنها زوجها جزء من ميراث أخو الزوج. . . . . يتزوجها وإن لم ترض به وإن كانت كارهة له. والواقع أن هذه العملية لا تعتبر زواجا بالمعنى المفهوم بل هي (ميراث) أو بالأدق (اغتصاب). لنقرأ هذا من كتابهم المقدس في سفر التثنية:

٥ «إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعًا وَمَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لَهُ ابْنٌ، فَلاَ تَصِرِ امْرَأَةُ الْمَيْتِ إِلَى خَارِجٍ لِرَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ. أَخُو زَوْجِهَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا وَيَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، وَيَقُومُ لَهَا بِوَاجِبِ أَخِي الزَّوْجِ. ٦ وَالْبِكْرُ الَّذِي تَلِدُهُ يَقُومُ بِاسْمِ أَخِيهِ الْمَيْتِ، لِئَلاَّ يُمْحَى اسْمُهُ مِنْ إِسْرَائِيلَ.

٧ «وَإِنْ لَمْ يَرْضَ الرَّجُلُ أَنْ يَأْخُذَ امْرَأَةَ أَخِيهِ، تَصْعَدُ امْرَأَةُ أَخِيهِ إِلَى الْبَابِ إِلَى الشُّيُوخِ وَتَقُولُ: قَدْ أَبَى أَخُو زَوْجِي أَنْ يُقِيمَ لأَخِيهِ اسْمًا فِي إِسْرَائِيلَ. لَمْ يَشَأْ أَنْ يَقُومَ لِي بِوَاجِبِ أَخِي الزَّوْجِ.

إن هؤلاء جعلوا المرأة مجرد حيوان يرثه أهل المتوفى و لهم مطلق الحرية في التصرف فيه. هل رأى أحد القراء أو سمع أو تخيل امتهان للمرأة وإنسانيتها وأنوثتها بل وعفتها أبشع من ذلك؟ ؟ ؟ فإن كان النص السابق من سفر التثنية هو القانون أو القاعدة فدعونا نقرأ من سفر التكوين تطبيق هذه النظرية: ٦ وَأَخَذَ يَهُوذَا زَوْجَةً لِعِيرٍ بِكْرِهِ اسْمُهَا ثَامَارُ. ٧ وَكَانَ عِيرٌ بِكْرُ يَهُوذَا شِرِّيرًا فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، فَأَمَاتَهُ الرَّبُّ. ٨ فَقَالَ يَهُوذَا لأُونَانَ: «ادْخُلْ عَلَى امْرَأَةِ أَخِيكَ وَتَزَوَّجْ بِهَا، وَأَقِمْ نَسْلاً لأَخِيكَ». ٩ فَعَلِمَ أُونَانُ أَنَّ النَّسْلَ لاَ يَكُونُ لَهُ، فَكَانَ إِذْ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةِ أَخِيهِ أَنَّهُ أَفْسَدَ عَلَى الأَرْضِ، لِكَيْ لاَ يُعْطِيَ نَسْلاً لأَخِيهِ. ١٠ فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ مَا فَعَلَهُ، فَأَمَاتَهُ أَيْضًا. ١١ فَقَالَ يَهُوذَا لِثَامَارَ كَنَّتِهِ: «اقْعُدِي أَرْمَلَةً فِي بَيْتِ أَبِيكِ

حَتَّى يَكْبُرَ شِيلَةُ ابْنِي». لأَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّهُ يَمُوتُ هُوَ أَيْضًا كَأَخَوَيْهِ». فَمَضَتْ ثَامَارُ وَقَعَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا.

يحكى النص هنا عن تطبيق نظرية ميراث أخو المتوفى لأرملة أخيه. . . . والمثال هنا هو: أن (عير) ابن (يهوذا) توفى عن امرأته (ثامار) فأمر (يهوذا) ابنه (أونان) أخو (عير) أن يدخل على امرأة أخيه حتى تلد ابنا يحمل اسم (عير). أرأيتم انحلالا أشد من هذا؟ ؟ ؟ لكن دعونا نستكمل فالبقية أشد و أنكي. . . فلما علم أونان أن أبناءه من ثامار لن يكونوا باسمه بل باسم أخيه المتوفى لم يقرب ثامار. . . . فغضب (إله الكتاب المقدس) على أونان فأماته. . . فأمر يهوذا امرأة ابنه ثامار أن تعود لبيت أبيها حتى يكبر ابنه الثالث فيرثها هو الآخر. ثم نتابع بقية القصة من سفر التكوين: ١٢ وَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ مَاتَتِ ابْنَةُ شُوعٍ امْرَأَةُ يَهُوذَا. ثُمَّ تَعَزَّى يَهُوذَا فَصَعِدَ إِلَى جُزَّازِ غَنَمِهِ إِلَى تِمْنَةَ، هُوَ وَحِيرَةُ صَاحِبُهُ الْعَدُلاَّمِيُّ. ١٣ فَأُخْبِرَتْ ثَامَارُ وَقِيلَ لَهَا: «هُوَذَا حَمُوكِ صَاعِدٌ إِلَى تِمْنَةَ لِيَجُزَّ غَنَمَهُ». ١٤ فَخَلَعَتْ عَنْهَا ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا، وَتَغَطَّتْ بِبُرْقُعٍ وَتَلَفَّفَتْ، وَجَلَسَتْ فِي مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ، لأَنَّهَا رَأَتْ أَنَّ شِيلَةَ قَدْ كَبُرَ وَهِيَ لَمْ تُعْطَ لَهُ زَوْجَةً. ١٥ فَنَظَرَهَا يَهُوذَا وَحَسِبَهَا زَانِيَةً، لأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهَا. ١٦ فَمَالَ إِلَيْهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ: «هَاتِي أَدْخُلْ عَلَيْكِ». لأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا كَنَّتُهُ. فَقَالَتْ: «مَاذَا تُعْطِينِي لِكَيْ تَدْخُلَ عَلَيَّ؟» ١٧ فَقَالَ: «إِنِّي أُرْسِلُ جَدْيَ مِعْزَى مِنَ الْغَنَمِ». فَقَالَتْ: «هَلْ تُعْطِينِي رَهْنًا حَتَّى تُرْسِلَهُ؟». ١٨ فَقَالَ: «مَا الرَّهْنُ الَّذِي أُعْطِيكِ؟» فَقَالَتْ: «خَاتِمُكَ وَعِصَابَتُكَ وَعَصَاكَ الَّتِي فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهَا وَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَحَبِلَتْ مِنْهُ. ١٩ ثُمَّ قَامَتْ وَمَضَتْ وَخَلَعَتْ عَنْهَا بُرْقُعَهَا وَلَبِسَتْ ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا. الْمَكَانِ أَيْضًا قَالُوا: لَمْ تَكُنْ ههُنَا زَانِيَةٌ». ٢٣ فَقَالَ يَهُوذَا: «لِتَأْخُذْ لِنَفْسِهَا، لِئَلاَّ نَصِيرَ إِهَانَةً. إِنِّي قَدْ أَرْسَلْتُ هذَا الْجَدْيَ وَأَنْتَ لَمْ تَجِدْهَا».

٢٤ وَلَمَّا كَانَ نَحْوُ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ، أُخْبِرَ يَهُوذَا وَقِيلَ لَهُ: «قَدْ زَنَتْ ثَامَارُ كَنَّتُكَ، وَهَا هِيَ حُبْلَى أَيْضًا مِنَ الزِّنَا». فَقَالَ يَهُوذَا: «أَخْرِجُوهَا فَتُحْرَقَ». ٢٥ أَمَّا هِيَ فَلَمَّا أُخْرِجَتْ أَرْسَلَتْ

إِلَى حَمِيهَا قَائِلَةً: «مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي هذِهِ لَهُ أَنَا حُبْلَى! » وَقَالَتْ: «حَقِّقْ لِمَنِ الْخَاتِمُ وَالْعِصَابَةُ وَالْعَصَا هذِهِ». ٢٦ فَتَحَقَّقَهَا يَهُوذَا وَقَالَ: «هِيَ أَبَرُّ مِنِّي، لأَنِّي لَمْ أُعْطِهَا لِشِيلَةَ ابْنِي». فَلَمْ يَعُدْ يَعْرِفُهَا أَيْضًا.

والعجيب أنه من نسل هذا الزنا (زنا المحارم) ولد شخص له شأن على حسب الأناجيل. . . إنه إله النصارى يسوع المسيح. مرة أخرى و ليست أخيرة. . . من أنصف المرأة؟ ؟ ؟ و من ظلمها؟ ؟ ؟ و مرة أخرى. . . . هنيئا للمسلمات إسلامهن.

حججهم الواهية

يعترضون على نصوص العهد القديم في الميراث، فيقولون:

١ – أن العهد الجديد يدعوا للتساوي في كل شئ و لم يعطى وصية بالوراثة وتقسيماتها لأن فكر المسيح كان يعطي للناس التفكير في الروحانيات لا المال، فقال أنه لا يوجد عبد يستطيع أن يخدم خادمين في نفس الوقت، فتبقى مسألة التقسيم المتساوية متروكة للأشخاص أو السلطات.

٢–في سفر الأمثال (١٩: ١٤) وقال: " البيت والثروة ميراث من الآباء أما الزوجة المتعقلة فمن عند الرب"

قلت: فمن كلامهم يتضح أن هناك نسخ للميراث في العهد القديم، مع أنه ليس هناك تفصيل لميراث المرأة في العهد الجديد، فهل معنى ذلك أن يفعل الناس ما تهوى أنفسهم من تقسيم للميراث، ويحدث شقاق بين الناس، وليس كوننا نجعل ميراث المرأة مثل الرجل: وندعي أن هذا هو الأفضل على الإطلاق، بل نقول أن تشريع الله هو الأفضل على الإطلاق: فنسأل العهد الجديد ونقول له: لماذا لم يشرع الله أحكامًا في ميراث المرأة، حتى لا يدع فرصة لأهواء البشر أن تتحكم؟

فكما قلنا أن الأناجيل التي بيد النصارى تخلو من أي تشريع للمواريث، وظل المسيحيون يتوارثون بها في التوراة التي بأيدي اليهود، إلى وقت قريب، حين وضعت لهم كنائسهم نظامًا[1].

هـ- وعند اليهود يرث البكر الذكر وحده كل التركة، ولا شيء لأحد غيره من الإناث، لا الأم، ولا البنت، ولا الزوجة[2]!

---

(١) يقول د/ صابر أحمد طه في (نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام١٩٧): نظام المواريث عند النصارى وضع بأيدي الأحبار والرهبان، فضلًا عن أنه متضارب ومتناقض، ولا يصلح للتطبيق العملي.
فليس للنصارى قانون موحد يحتكمون إليه في نظام المواريث، بل تختلف نظمهم على حسب المجتمعات التي يعيشون فيها، فنراهم إذا عاشوا في مجتمعات تساوي بين الرجل والمرأة في الميراث فعلوا مثل فعلهم، وإذا عاشوا في مجتمع إسلامي مثلًا فعلوا أيضًا مثل أهل هذا المجتمع، وهذا ما نراه واضحًا في نصارى مصر والأردن وغيره من الدول الإسلامية. اهـ.

(٢) يقول د/ صابر أحمد طه في المرجع السابق ص ٢١٤:
التشريع اليهودي يقضي بأن الأخ الأكبر البكري يرث نصيب اثنين من إخوته، وأن البنت لا ترث إلا في حالة عدم وجود أخ ذكر لها، وبشرط أن تتزوج من عشيرتها، كما أنها لا تعطي الزوجة الحق في الميراث من زوجها.
وقال أيضًا في ص١٨٤-١٨٥.
لقد سار المفكرون من اليهود على نظام توريث الولد دون البنت في جميع مراحلها ويتضح ذلك فيما يلي: -
١- أنه إذا مات ميت فأول من يرثه ولده الذكر، وإذا تعدد الذكور فللبكري حظ اثنين من إخوته، هذا إن كان جميع أبناء الميت من الذكور، أما لو كنَّ جميعًا إناثًا فإنه يقسم بينهن بالتساوي، فإن كانت بنتًا واحدة فإنها تأخذ جميع المال.
وشرط ميراث البنات ألا يكون للميت ذكر أو ابن ولد، فإن وجد ابن أو ابن ابن، فإنه يقدم على البنت، وكذلك تقدم بنت الابن على البنت أما إذا ترك الميت أولادًا ذكورًا وبناتًا، فإنه بحسب الشريعة يرث الأولاد كل التركة أما البنات فلا يرثن، ولكن إذا كانت البنات لم يبلغن سن الرشد أو لم يتزوجن بعد، فإنه يجب على الأولاد الذكور إعالتهن حتى يبلغن أو يتزوجن، وذلك بما يوازي عشر التركة إن كان فيها عقار، أما إذا لم يكن فيها عقار فلا نفقة ولا مهر، ولو ترك الرجل القناطير المقنطرة من الأموال السائلة أو المنقولة، أو المواشي فليس فيها عشر للبنت.
كما أن هذا العشر لا يستحقه البنات في ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يكون الميراث عن الأم فإنه وإن كان كذلك وخلفت بنين وبنات فالجميع للبنين.
الثانية: أن يكون الأب قد زوّج بناته في حياته فإن كان كذلك فليس لهن العشر.
الثالثة: أن يكنَّ قد أدركن وتزوجن بعد موت الأب، ولم يطالبن أخواتهن بشيء.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من ضياع حق المرأة في العُشر، بل إن هناك طريقًا آخر ألا وهو أن الورثة لا يتحملون ديون المورث إلا إذا كان في التركة عقار يُباع في الدين، ومعنى ذلك أن الورثة مسئولون بدفع دين المورث فيما لو ترك عقارًا، وأما لو ترك أموالًا سائلة نقودًا فلا يلتزمون بالدفع، هذه الطريقة هي سبب لضياع حق البنت؛ إذ إنه ما دام العُشر سيُقتطع من العقار، وما دام العقار سيُباع لسداد الدين، فمعنى ذلك أن البنت لن تحصل على نصيبها من العقار الذي قد لا يفي ثمن بيعه بما على المورث من دين ويفوز الأولاد الذكور بما تركه المورث من أموال ومنقولات دون أن يدفعوا شيئًا للدائن من ناحية ودون أن تحصل البنت على شيء من هذه الأموال المنقولة من ناحية أخرى.

٢- أما إذا لم يكن للميت أولاد ولا واحد من نسلهم فالوارث له أبوه، أما الأم فليس لها الحق في الميراث؛ لأنها لا ترث أبناءها سواء أكن ذكورًا أم إناثًا.

مع العلم بأن العهد القديم لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى توريث الأب وفي هذا دلالة واضحة على أن أسفار العهد القديم من صنع البشر.

٣- إذا لم يكن للمتوفى فرع وارث ولا واحد من نسلهم، ولا أب صار الميراث للأخ، وإن كان له أكثر من أخ قسم بينهم بالسوية مع مراعاة أن الفرع يقوم مقام الأصل عند فقده، فابن الأخ يرث نصيب والده عند فقده، وكذلك بنت الأخ، ولكن الذكر مقدم على الأنثى ويحجبها، فإذا مات الإخوة وتركوا أولادًا يقسم الميراث بينهم بالسوية على حسب حصص آبائهم.

٤- إذا لم يكن للمتوفى فرع وارث ولا واحد من نسلهم، ولا أب ولا إخوة ولا واحد من نسلهم فالميراث للجدِّ، وهنا أيضًا تعطي الشريعة اليهودية الميراث للجدِّ دون الجدَّة؛ إهمالًا لحق النساء.

٥- إذا لم يكن للميت فرع وارث ولا أب ولا أخ ولا واحد من نسلهم ولا جدّ، انتقل الميراث إلى العمِّ دون العمَّة، وإن كان له أكثر من عم قسم الميراث بينهم بالسوية مع مراعاة أن الفرع يقوم مقام الأصل عند فقده.

فابن العم يرث عند عدم وجود أبيه مع عمه وكذلك بنت العم ترثه عند عدم وجود أبيها مع عمها إذا لم يكن لها أخ.

وإذا مات الأعمام وتركوا أولادًا يقسم الميراث على حسب حصص آبائهم، مع مراعاة أن الذكر من الأولاد يحجب أخته الأنثى فابن العم مقدم على أخته، وابن العم مقدم على بنت العم وهكذا.

٦- ليس للزوجة أي حق في ميراث زوجها، حتى لو كتب الزوج أمواله لزوجته، فإن هذا يعتبر وصاية لا وصية، فليس للزوجة إلا الحقوق المنصوص عليها في عقد الزواج.

وإذا كان للميت ابن ابن، فكذلك لا شيء للإناث مطلقًا، ولو كان فيهم ابنة الميت.

وإذا كان ورثة الميت ذكورًا، تميز البكر بأخذ ضعف كل من الآخرين، ولا شيء للأب عند الفرع الوارث.

وإذا كان للميت بنات فقط، ليس معهن ذكر، كان للمورث أن يوصي بكل ماله لمن يشاء غيرهن، وأن يحرمهن كلهن!!

وفي إنجلترا مع خضوع كل إقليم لعاداته-يورث الذكور فقط.

وإذا كانت الذرية ذكورًا فقط، انفرد البكر بالميراث.

ولا ترث البنات إلا إذا لم يكن معهن الذكور، وكن منفردات.

والفرع الذكر، وإن نزل يحجب البنت وإن علت.

والأصول، وفيهم الأم لا ترث مع الفروع.

وفي سنة (١٥٦٧) – أي: بعد ظهور الإسلام بألف عام- صدر قرار من البرلمان الأيرلندي يحظر على المرأة أن يكون لها سلطة على شئ من الأشياء؛ ولهذا ما له من دلالة على أصالة الإسلام.

وإننا نجد أقباط مصر يتوارثون بالشريعة الإسلامية، وكان أمامهم - وهم غير مسلمين- مندوحة لاختيار ما تقرره الكنيسة المصرية، أو الغربية، ألا وهو: أن الفرنسيين عندما احتلوا مصر، بقيادة نابليون سنة (١٧٩٨م) عجبوا من علم الميراث، فيما عجبوا منه، من معالم الإسلام، ولم يدون التاريخ نقدهم بأنه يظلم المرأة!

فالرجل هو الذي يرث زوجته، ولكن بشرط أن يدخل بها قبل الوفاة، وألا يكون بينها وبينه خصومة بسببه، فإذا توفيت والرجل على كرهه لها فلا إرث له عنها، وكذلك لو توفيت وكان لم يدخل بها.

هذا عند طائفة الربانيين، أما طائفة القرائين فإنهم لا يورثون الزوج من زوجته والعكس، فقد نصت المادة رقم (٤٠٨) على أنه لا توارث شرعًا بين الزوجين.

إن الإسلام لم يترك الميراث لمشرع من البشر، كما لم يتركه لهوى المورِّث، فأنزل فيه قرآنًا محكمًا، على حين ليس في التوراة ولا الإنجيل نصوص في الميراث. فأي الفريقين خير مقامًا؟!.

إن من الغربيين من يوصي بتركته كلها للكلاب، من دون جميع أهله، وحدث في ألمانيا أن أوصى زوجان بكل ثروتهما لبائع صحف كان يصعد إليهما بالصحف، ففوجئ بوصيتهما بثروتهما كلها دون أحد من أهلهما!!

وهكذا يفعل هوى الإنسان في غير هدى من الدين(١)!!

الوجه السادس: أقوال علماء الغرب في ميراث المرأة.

لقد شهد علماء الغرب بما أعطاه الإسلام للمرأة من حقوق في الميراث، من هؤلاء لوبون الذي قال في كتابه: حضارة العرب، ما ترجمته: إن مبادئ المواريث التي نصَّ عليها القرآن الكريم على جانب عظيم من العدل والإنصاف، وقد ظهر لي من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية التي أعطتها للمرأة، أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات اللاتي يزعمن أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف حقوقًا في المواريث، لا نجد مثلها في قوانيننا ثم أضاف قائلًا: إن الدين الإسلامي هو الدين الأوحد الذي أعطى للمرأة حقًا في الميراث.

قال البروفيسور راماكرشناراو (K. S. rama krishna rao):

كان عند العرب. تقليد جامد بأن من يستطيع أن يطعن بالرمح، ويقارع بالسيف هو الذي ينفرد بحق الإرث.

ولكن الإسلام جاء مدافعًا عن الجنس الضعيف، وأهّل النساء ليشاركن في إرث الوالدين، ومنحهن حق التملك قبل قرون، في حين كانت بريطانية وهي تعتبر نفسها مهد الديمقراطية- تبنت هذا النظام الإسلامي في سنة ١٨٨١م بعد اثنى عشر قرنًا من الزمن، وأقرت مرسومًا يسمى: مرسوم النساء المتزوجات The married women's act.

(١) المرأة في الإسلام مكانها ومكانتها (١٢٠-١٢٨).

قال ول ديورانت[1]: رفع الإسلام من مقام المرأة في بلاد العرب. . . وقضى على عادة وأد البنات وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بما لها ومكاسبها، وأن ترث، وتتصرف في مالها كما تشاء، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع، وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن.

قال لويس سيديو[2]: إن القرآن وهو دستور المسلمين، رفع شأن المرأة بدلا من خفضه. . فجعل حصة البنت في الميراث تعدل نصف حصة أخيها مع أن البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية. . "وهو" وإن جعل الرجال قوامين على النساء بين أن للمرأة حق رعاية والحماية على زوجها. وأراد ألا تكون الأيامى جزءا من ميراث رب الأسرة فأوجب أن يأخذن ما يحتجن إليه مدة سنة وأن يقبض مهورهن وأن ينلن نصيبا من أموال المتوفى "

قال روم لاندو[3]: يوم كانت النسوة يعتبرن، في العالم الغربي، مجرد متاع من الأمتعة، ويوم كان القوم هناك في ريب جدي من أن لهن أرواحا، كان الشرع الإسلامي قد منحهن

---

(١) ول ديورانت: مؤلف أمريكي معاصر، و يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو ثلاثين مجلدًا واحد من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة عكف على تأليفه السنين الطوال وأصدر جزأه الأول عام ١٩٣٥، ثم تلته بقية الأجزاء ومن كتبه (قصة الفلسفة).

(٢) لويس سيديو (١٨٠٨-١٨٧٦) L. Sedillot مستشرق فرنسي عكف عن نشر مؤلفات أبيه جان جاك سيديو الذي توفي عام ١٨٣٢ قبل أن تتاح له فرصة إخراج كافة أعماله في تاريخ العلوم الإسلامية. وقد عين لويسا أمينا لمدرسة اللغات الشرقية (١٨٣١) وصنف كتابا بعنوان (خلاصة تاريخ العرب) فضلا عن (تاريخ العرب العام) وكتب العديد من الأبحاث والدراسات في المجلات المعروفة

(٣) روم لا ندر R. Landau نحات وناقد فني إنكليزي زار زعماء الدين في الشرق الأدنى (١٩٣٧)، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة (١٩٥٢-١٩٥٧)، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمالي أفريقيا في المجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية في سان فرانسيسكو (١٩٥٣).

حق التملك. وتلقت الأرامل نصيبًا من ميراث أزواجهن، ولكن البنات كان عليهن أن يقنعن بنصف حصة الذكر. . إلا أن علينا أن لا ننسى أن الأبناء الذكور وحدهم كانوا، حتى فترة حديثة نسبيايناالون في الديار الغربية حصة من الإرث "

يقول د/صابر أحمد طه(١): يقول تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧)، فلو نظرنا إلى هذه الآية فنجد أن الله ﷻ قال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ فلم يجمعها في جملة واحدة فتكون (للرجال وللنساء نصيب) ولكن أفرَدَ لكل منهما بجملة، وفي ذلك دليل على أن النساء نصيب أصلي مستقل كالرجال، وليست النساء فيه بتابعات أو مُلحقات، كما أن قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ يُشعر بأنه لا يوجد هناك فرق في أن يترك الميت مالًا كثيرًا أو قليلًا، فإذا كان هذا أو ذاك فإن النساء يشتركن فيه مع الرجال.

هذا هو نظم ميراث المرأة في الإسلام، والذي يجب أن تفتخر به كل امرأة مسلمة، وتباهي به غيرها من الشيوعيين والملاحدة، وغيرهم وتقول لهم: هذا هو نظام الأسرة في الإسلام، والذي توجهون سهامكم نحوه، فإن سهامكم مردودة عليكم، وسيظل الإسلام بشمسه المُشرقة على العالم، ونوره المنبعث في الأفئدة والقلوب وبمياهه العذبة التي يغترف منها كل من أراد الله هدايته، وهذا الزبد الذي تطرحونه فوق مائه سيذهب جفاء، وما ينفع الناس فسيمكث في الأرض، وهذا الباطل الذي تشيعونه عنه فقد جاء الحق فأزهقه: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١).

* * *

من آثاره: (الله ومغامراتي) (١٩٣٥)، (بحث عن الغد) (١٩٣٨)، (سلم الرسل) (١٩٣٩)، (دعوة إلى المغرب) (١٩٥٠)، (سلطان المغرب) (١٩٥١)، (فرنسا والعرب) (١٩٥٣)، (الفن العربي) (١٩٥٥) وغيرها.

(١) نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام (٢٣٧-٢٣٨).

٢٩ـ شبهة: إمامة المرأة.

نص الشبهة:

لماذا لم يسمح الإسلام للمرأة بالولاية والإمامة ورئاسة الدولة؟

الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ليس كل ولاية في حق المرأة مذمومة.

الوجه الثاني: طبيعة عمل الإمام أو رئيس الدولة.

الوجه الثالث: تعارض طبيعة المرأة وطبيعة الإمامة و القيادة.

الوجه الرابع: توافق الشرع مع القدر.

الوجه الخامس: منع الإسلام للمرأة من الرئاسة العليا ليس خدشا لحرية المرأة.

الوجه السادس: وأخيرًا الواقع خير شاهد.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ليس كل ولاية في حق المرأة مذمومة

يقول د/مصطفى السباعي:

يحتم الإسلام أن تكون رئاسة الدولة العليا للرجل، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

ما أفلح قوم ولو أمرهم امرأة وهذا النص يقتصر المراد من الولاية فيه على الولاية العامة العليا؛ لأنه ورد حين أبلغ الرسولﷺ أن الفرس ولّوا للرئاسة عليهم إحدى بنات كسرى بعد موته؛ ولأن الولاية بإطلاقها ليست ممنوعة عن المرأة بالإجماع، بدليل اتفاق الفقهاء قاطبة على جواز أن تكون المرأة وصية على الصغار وناقصي الأهلية، وأن تكون وكيلة لأية جماعة من الناس في تصريف أموالهم، وإدارة مزارعهم، وأن تكون شاهدة، والشهادة ولاية كما نص الفقهاء على ذلك؛ ولأن أبا حنيفة يجيز أن تتولى القضاء في بعض الحالات، والقضاء ولاية.

فنص الحديث كما نفهمه صريح في منع المرأة من رئاسة الدولة العليا، ويلحق بها ما كان بمعناها في خطورة المسئولية.

وهذا أيضًا مما لا علاقة له بموقف الإسلام من إنسانية المرأة وكرامتها أو أهليتها، وإنما هو وثيق الصلة بمصلحة الأمة، وبحالة المرأة النفسية، ورسالتها الاجتماعية[1].

الوجه الثاني: طبيعة عمل الإمام أو رئيس الدولة.

إن رئيس الدولة في الإسلام ليس صورة رمزية للزينة والتوقيع، وإنما هو قائد المجتمع ورأسه المفكر، ووجهه البارز، ولسانه الناطق، وله صلاحيات واسعة خطيرة الآثار والنتائج.

فهو الذي يعلن الحرب على الأعداء، ويقود جيش الأمة في ميادين الكفاح، ويقرر السلم والمهادنة، إن كانت المصلحة فيهما، أو الحرب والاستمرار فيها إن كانت المصلحة تقتضيها، وطبيعي أن يكون ذلك كله بعد استشارة أهل الحل والعقد في الأمة؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ولكنه هو الذي يعلن قرارهم، ويرجح ما اختلفوا فيه؛ عملًا بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ورئيس الدولة في الإسلام يتولى خطابة الجمعة في المسجد الجامع، وإمامة الناس في الصلوات، والقضاء بين الناس في الخصومات، إذا اتسع وقته لذلك.

الوجه الثالث: تعارض طبيعة المرأة وطبيعة الإمامة و القيادة

ومما لا ينكر أن هذه الوظائف الخطيرة لا تتفق مع تكوين المرأة النفسي والعاطفي، وبخاصة ما يتعلق بالحروب وقيادة الجيوش، فإن ذلك يقتضي من قوة الأعصاب، وتغليب العقل على العاطفة، والشجاعة في خوض المعامع، ورؤية الدماء، ، وإلا فقدت الحياة أجمل ما فيها من رحمة ووداعة وحنان.

وكل ما يقال غير هذا لا يخلو من مكابرة بالأمر المحسوس، وإذا وجدت في التاريخ نساءًا قدن الجيوش، وخضن المعارك، فإنهن من الندرة والقلة بجانب الرجال ما لا يصح أن يتناسى معه طبيعة الجمهرة الغالبة من النساء في جميع عصور التاريخ، وفي جميع الشعوب، ونحن حتى الآن لم نر في أكثر الدول تطرفًا في دفع المرأة إلى كل ميادين الحياة من

(١) المرأة بين الفقه والقانون صـ ٣٠: ٢٩.

رضيت أن تتولى امرأة من نسائها وزارة الدفاع، أو رئاسة الأركان العامة لجيوشها، أو قيادة فيلق من فيالقها، أو قطع حربية من قطعاتها. - ما عدا في إسرائيل- وليس ذلك مما يضير المرأة في شيء، فالحياة لا تقوم كلها على نمط واحد من العبوس، والقوة، والقسوة والغلظة، ولو كانت كذلك لكانت جحيمًا لا تطاق، ومن رحمة الله أن الله مزج قوة الرجل بحنان المرأة، وقسوته برحمتها، وشدته بلينها، وفي حنانها ورحمتها وأنوثتها سر بقائها وسر سعادتها وسعادتنا.

أما خطبة الجمعة والإمامة في الصلاة فلا ينكر أن العبادة في الديانات - وبخاصة في الإسلام- تقوم على الخشوع وخلو الذهن من كل ما يشغله، وليس مما يتفق مع ذلك أن تعظ الرجال امرأة، أو تؤمهم في الصلاة.

على أن السبب الحقيقي في رأينا ليس هو الخطبة والإمامة، ولا حل المشكلات، وإنما هو ما تقتضيه رئاسة الدولة من رباطة الجأش، وتغليب المصلحة على العاطفة، والتفرغ التام لمعالجة قضايا الدولة، وهذا مما تنأى طبيعة المرأة ورسالتها عنه.

يقول الدكتور/يوسف القرضاوي: وأما منعها من تولي منصب الخلافة أو رئاسة الدولة وما في حكمها، فلأن طاقة المرأة -غالبًا- لا تحتمل الصراع الذي تقتضيه تلك المسئولية الجسيمة. وإنما قلنا: غالبًا؛ لأنه قد يوجد مِنَ النساء مَنْ يكنَّ أقدر من بعض الرجال، مثل ملكة سبأ، التي قصَّ الله علينا قصتها في القرآن في سورة النمل، - ألا يتعارض هذا مع الحديث (لن يفلح قوم)-، حتى أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، ولكن الأحكام لا تُبنى على النادر، بل على الأعم الأغلب، ولهذا قال علماؤنا: النادر لا حكم له[1].

الوجه الرابع: توافق الشرع مع القدر

إن الإسلام بعد أن أعلن موقفه الصريح من إنسانية المرأة وأهليتها وكرامتها، نظر إلى طبيعتها وما تصلح له من أعمال الحياة، فأبعدها عن كلِّ ما يناقض تلك الطبيعة، أو يحول دون أداء رسالتها كاملة في المجتمع، ولهذا خصَّها ببعض الأحكام عن الرجل زيادة أو

(١) مركز المرأة في الحياة الإسلامية صـ ٣٢.

نقصانًا، كما أسقط عنها -لذات الغرض- بعض الواجبات الدينية والاجتماعية كصلاة الجمعة، وغير ذلك، وليس في هذا ما يتنافى مع مبدأ مساواتها بالرجل في الإنسانية والأهلية والكرامة الاجتماعية، ولا تزال الشرائع والقوانين في كلِّ عصر، وفي كلِّ أمةٍ تخص بعض الناس ببعض الأحكام لمصلحة يقتضيها ذلك التخصيص دون أن يفهم منه أي مساس بمبدأ المساواة بين المواطنين في الأهلية والكرامة.

الوجه الخامس: منع الإسلام للمرأة من الرئاسة العليا ليس خدشاً لحرية المرأة

يقول د/البوطي: نعم، لقد حجب الإسلام عن امرأة الرئاسة العليا لدولة، بذلك وردت أحاديث ثابتة، وبمقتضى ذلك قال الجماهير من الفقهاء وسائر علماء المسلمين:

إلا أن هذا ليس كما قد يتصور، خدشًا لحرية المرأة السياسية، أو غضًا من كرامتها الإنسانية، وإنما هو تنسيق بين المهام الكثيرة المختلفة للرئيس الأعلى في الدولة، وطبيعة من يتولى هذه الرئاسة، وهذا التنسيق ملاحظ في صفوف الرجال، كما هو ملاحظ في صفوف النساء.

فرئيس الدولة هو الذي يعلن الحرب، ويقود الجيوش، ويقرر السلم إن اقتضت المصلحة ذلك، أو الحرب إن اقتضت العكس، ورئيس الدولة هو الذي يتولى خطابة الجمعة في المسجد الجامع، وإمامة الناس في الصلوات، والقضاء بينهم في الخصومات، ومن المكابرة بالبديهي المحسوس أن يزعم زاعم بأن المرأة قادرة على النهوض بهذه الأعباء كلها، وأنها تملك من خشونة الطبع وصلابة العاطفة والوجدان ما تستطيع به خوض المعارك والإشراف على الحروب. وإننا لنحمد الله على أنها مكابرة كاذبة تترفع عنها المرأة التي أولاها الله من اللطف والعذوبة الإنسانية، ما جعلها من أكبر أسرار تعلق الإنسان بالحياة...

والذين يحلو لهم أن يأخذوا على الشريعة الإسلامية هذا الموقف، يعرضون عن واقع معظم دول العالم على اختلاف مذاهبها، وعن التزامها بموقف الإسلام ذاته، انطلاقًا من

الإيمان بالأسباب ذاتها، ثم يخصون الإسلام وحده بسهام نقدهم في أمر منسجم مع الفطرة والمصلحة، وما وسع معظم العالم إلا الخضوع له والعمل به. [١]

الوجه السادس: وأخيرًا الواقع خير شاهد.

يقول الدكتور البلتاجي: أما عدم تولي المرأة منصب الإمامة العظمي (رئاسة الدولة) فيكفي أن نشير هنا إلى تجارب النظم التي لا تصدر عن نصوص دينية مقدسة - إنما تصدر عن تجربتها الحياتية الخاصة مثل الاتحاد السوفيتي (الذي استمر من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٨٩م) ومثل الديموقراطيات الأوربية الغربية في أوربا وأمريكا. . إلخ: كم من هذه الدول انتخبت رئيسًا لها من بين النساء؟ وفي الإجابة عن هذا الدلالة القاطعة على ما أكدته نصوص الإسلام - في مواضع متعددة - من أن هناك فروقًا جوهرية في التكوين بين الجنسين أهلت بطبيعتها (الرجل) ليكون هو رئيس الدولة العام، وإلا كيف لم تصل (المرأة)- ولو بنسبة عشرة في المائة إلى الرئاسات في مجموع هذه الدول مع ما أتاحته نظمها من فرص متكافئة؟ ولا نقول بنسبة ثلاثين، أو خمسين في المائة (كما تقضي التسوية العادلة!)[٢].

يقول الأستاذ/محمد رشيد العويد

انتهت الانتخابات الأمريكية التي شغلت الناس في العالم زمنًا ليس قصيرًا ولا أريد الوقوف هنا عند نزاهة هذه الانتخابات، أو ما أنفق على الحملات الإعلامية فيها، أو حول نتائجها. . أو غير هذا وذاك وذلك أريد الوقوف عند المرأة الأمريكية في الانتخابات الأمريكية لأسجل الملاحظات التالية:

١ - منذ أن كانت هناك انتخابات أمريكية، أي منذ عشرات السنين، هل سمعتم أو قرأتم، أو علمتم أن هناك امرأة رشحت نفسها لتلك الانتخابات؟ لماذا لم ترشح أي أمريكية نفسها لانتخابات الرئاسة على الرغم من أن القانون لا يمنعها! وعدد النساء

(١) على طريق العودة إلى الإسلام صـ ١٧٥.

(٢) مكانة المرأة في القرآن والسنة الصحيحة.

الأمريكيات لا يقل عن عدد الرجال الأمريكيين إن لم يزد عليه! والأمريكية متعلمة، ومتحررة (بمفهومهم)، ومختلطة بالرجال، وتعمل في أعمالهم! !

٢- جميع المرشحين الأمريكيين الذين فازوا في انتخابات الرئاسة وأصبحوا رؤساء للولايات المتحدة منذ أن كانت هناك انتخابات الرئاسة في أميركا لم يغير أحد منهم مهنة زوجته. . لم يجعلها نائبة للرئيس. . أو وزيرة أو يسند إليها أي منصب سياسي لم تكن تتقلده قبل. . بل كان كل منهم يفخر بأن زوجته ربة بين قديرة وأم لأولاده ماهرة.

فلماذا نسمع في بلادنا من يعيب أن تكون المرأة ربة بيت، ويرى التأخر في أن تكون الزوجة متفرغة لتربية أولادها، ويرد كل بطء في التنمية إلى قعود المرأة في بيتها؟! ! هؤلاء هم رؤساء أكبر دولة وزعيمة العالم، كما يصفها بعضهم، لا يتحرجون، إن لم يكونوا يفخرون بأن زوجاتهم ربات بيوت.

٣- في مقدمة ما كان يصطاد كل مرشح لمنافسيه في انتخابات الرئاسة ماضية غير الخلقي مع النساء فهذا مرشح يتهم بأنه كان قد تحرش بزميلة له منذ عشرين عامًا، وذاك كان على علاقة مع سكرتيرته حين كان مديرًا للشركة الفلانية. . وثالث. .

إنهم إذن يحترمون الأسرة، ويحرصون عليها، ويرفضون الخيانة الزوجية، ويستهجنون قلة الأدب مع النساء، ومغازلتهن، والتحرش بهن.

لماذا إذن يثور بعض من بني جلدتنا على مسلم غيور؟!. (١)

إنها تكرهها بقدر ما تحبونها! !

في الانتخابات التي جرت في اليابان، في شهر المحرم ١٤١٤هـ (تموز- يوليو ١٩٩٣)، بلغت نسبة النساء اللواتي رشحن أنفسهن لخوضها ٧ في المائة من عدد المرشحين. وتُعدُّ هذه النسبة قياسية؛ لأن عدد المشاركات في الانتخابات السابقة كان أقل بكثير. ويسمح القانون الياباني للمرأة بترشيح نفسها منذ صدوره في عام ١٩٤٧م.

---

(١) رسالة إلى حواء صـ ٤٨٩: ٤٨٨.

وقد شارك الحزب الديمقراطي الحر الحاكم في الانتخابات بأكبر عدد من المرشحين إذ بلغ عددهم ٢٨٥ مرشحًا، غير أن عدد النساء من بينهم لا يتعدى مرشحتين فقط.

وكان المجلس السابق، وعدد أعضائه ٥١١ عضوًا، قد ضمَّ ١٢ عضوًا من النساء. (جريدة الأنباء الكويتية ٤/ ١/ ١٤١٤- ٦/ ٧/ ١٩٩٣).

أولًا: مضى على السماح للمرأة في اليابان بترشيح نفسها في الانتخابات ٤٦ عامًا، ومع هذا فلم تتجاوز نسبة المرشحات، في أعلى المعدلات، ٧ في المائة.

ثانيًا: بلغ عدد النساء المرشحات في الحزب الحاكم اثنتين فقط من مجموع ٢٨٥ مرشحًا، أي نسبة النساء أقل من واحد في المائة.

ثالثًا: إذا كانت نسبة المرشحات في أعلى معدلاتها بلغت ٧ في المائة، ووصفت بأنها قياسية! فإن نسبة الفائزات قد تكون أقل بكثير من نسبة المرشحات. والدليل هو أن نسبة الأعضاء النساء في المجلس السابق أقل من ٣ في المائة. (١٢ من مجموع ٥١١).

وكم أتمنى لو قامت جهة بدراسة أحوال وظروف وطبيعة النساء اللواتي رشحن أنفسهن. فأنا واثق من أنهن -في أغلبهن- قد أخفقن في زواجهن، أو أنهن غير متزوجات، أو متزوجات غير أمهات.

إن صاحبة الفطرة السوية تكره السياسة بقدر ما تحبونها أنتم معشر الرجال. (١)

* * *

(١) رسالة إلى مؤمنة صـ ١٨٧: ١٨٦.

٣٠ـ شبهة حول: نقصان عقل المرأة.

نص الشبهة:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: "يا معشر النساء، . . . مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا"(١).

قد فهم البعض من هذا الحديث أن الإسلام يصف المرأة بأنها ناقصة العقل أي: في متوسط الذكاء والدين.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: معنى قوله (ناقصات عقل).

الوجه الثاني: لابد من مراعاة المناسبة التي قيل فيها الحديث.

الوجه الثالث: أوجه نقصان عقل المرأة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى قوله (ناقصات عقل).

ليس المراد بـناقصات عقل النقص الفطري العام أي: في متوسط الذكاء، والدليل على ذلك ما يلي:

إن المرأة تشارك الرجل في المسئوليات الآتية:

أ) **المسئولية الإنسانية:** أي تحمل الإنسان مسئولية عمله، ومحاسبته عليها في الآخرة، وهذه مقررة في الكتاب العزيز.

ب) **المسئولية الجنائية**، وتحمل العقوبات الجزائية في الدنيا عن السلوك المنحرف، وهذه مقررة في الكتاب العزيز.

جـ) **المسئولية المدنية**، وحق التصرف في الأموال، وعقد العقود، والولاية على القصر، وهذه يقرها عامة الفقهاء بأدلتها من الكتاب والسنة.

---

(١) البخاري (٢٩٨)، ومسلم (١٣٢).

د) **مسئولية رواية السنة المبينة للكتاب**، وهذه يجمع عليها علماء المسلمين.[1]

ومن هذه المسئوليات ما تختص به وهو حضانة الأطفال، وهذه ما كان الله ليسندها إلا لإنسان سوي. وما كان لنا نحن الرجال أن نأمن على أبنائنا وبناتنا في كنف إنسان عاجز مختل العقل والدين.

الوجه الثاني: لابد من مراعاة مناسبة الحديث.

إن المناسبة التي قيل فيها النص خلال عظة للنساء في يوم عيد، فهل نتوقع من الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم أن يغض من شأن النساء، أو يحط من كرامتهن، أو ينتقص من شخصيتهن في هذه المناسبة البهيجة؟!

الوجه الثالث: أوجه نقصان عقل المرأة.

إن النبي ﷺ بيَّن بأن المراد من نقصان العقل هي أن شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل فقط، وعلى ذلك نرى أنفسنا ملزمين بالوقوف عند حدود تفسير رسول الله ﷺ للنقص لا نتعداه، أما إذا تجاوزنا هذه الحدود فسنخبط في متاهة الاحتمالات، وربما خضنا في الأوهام، ونكون عندها قد وقعنا في محظور اتباع المتشابه.

وقد بينا في الشبهة حول مساواة الرجل بالمرأة، لماذا جعل الله شهادة المرأة نصف شهادة الرجل.

الوجه الرابع: قول النبي ﷺ هذا تمهيد لما بعده.

إن من أوضح ما يدل عليه سياق الحديث، أنه ﷺ وجَّه إلى النساء كلامه هذا على وجه المباسطة التي يعرفها ويمارسها كل منا في المناسبات، لا أدل على ذلك من أنه جعل الحديث عن نقصان عقولهن توطئة وتمهيدًا لما يناقض ذلك من القدرة التي أوتينها، وهي خلب عقول الرجال، والذهاب بلب الأشداء من أولي العزيمة والكلمة النافذة منهم، فهو كما يقول أحدنا لصاحبه: قصير، ويتأتى منك كل هذا الذي يعجز عنه الآخرون، إذن

---

(١) تحرير المرأة في عصر الرسالة (١/ ٢٧٩).

فالحديث لا يركز على قصد الانتقاص من المرأة، بمقدار ما يركز على التعجب من قوة سلطانها على الرجال(١).

يقول د/مروان إبراهيم(٢): لا من ريب أن دماغ المرأة مثل دماغ الرجل تمامًا لا فرق بينهما، والدماغ غير العقل، فالعقل هو قوة التفكير، وهي عنصر مهم في حياة كل إنسان

---

(١) يقول الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه: (المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني١٧٤-١٧٧): (المرأة تبحث دائمًا في الرجل عن شريك جنسي لها، وعن حماية ورعاية لها في كنفه، وهذا يقتضي أن تكون أضعف منه. وهو ذاته الشرط الذي لابد منه ليجعلها تهيمن عليه. إنها ليست معادلة صعبة أن تفهم بأن سلاح المرأة إنما يكمن في ضعفها، وأن سلطانها على الرجل إنما يكمن في احتمائها به واحتياجها إليه، واحتياجُها إليه إنما يتمثل في أن يكون أقوى منها بدنيًا، وأقدر منها فكريًا.

(٢) دراسات في الأسرة في الإسلام (١٢١-١٢٣).

ولعل الرجال متهمون، عندما يكونون هم المدلون بهذا القرار.

إذن، فإليك ما تقوله الكاتبة الألمانية إسترفيلار، في كتابها المعمق والطريف، حق الرجل في التزوج بأكثر من واحدة: إن كانت القوة البدنية حَرِيَّة بأن تكون عاملَ ضغطٍ وتحكمٍ في طبقة اجتماعية ما، فهي لا يمكن البتة أن تنجح في إخضاع جنس إلى جنس آخر.

إن الشخص الذي يستطيع اضطهاد شخص آخر هو الشخص الضعيف المحتاج إلى المساعدة، وليس الشخص الأقوى بدنيًا، فليس العاشق هو صاحب السلطة، وإنما المعشوق.

وهي تؤكد في أكثر من موضع في كتابها هذا أن المرأة لا تركن إلا إلى الرجل، الذي هو أحدُّ منها ذكاءً، وقد تبدو إلى جانبه كغبية ساذجة، إذ إن ذلك شرط لابد منه؛ لاحتمائها به، وهي تبحث في الرجل عن الرعاية والحماية قبل البحث عن الجنس.

فهي تقول: بالنسبة للنساء فإن بإمكانهن بسط سلطتهن على الرجال، وذلك بالتحكم في غرائزهن الجنسية مما يجعل الرجال تابعين لها، وبما أن النساء في أغلب الأحيان هن أضعف جسميًا وفكريًا من الرجال، فإنهن يستطعن إضافة إلى إمكانية امتناعهن جنسيًا عنهم أن يلفتوا انتباه الرجال إليهن بمثابتهن مواضيع رعاية.

وتقول: فقط، عندما تكون المرأة أضعف من الرجل، ثم إضافة إلى ذلك أغبى منه، فإنها تصبح بالنسبة لهذا الأخير طرفًا مغريًا جذابًا.

وتمضي فتؤكد هذه الحقيقة على ألسنة النساء قائلة: والمعروف في النساء قولهن: إن الرجل الذي أبتغيه هو ذاك الذي باستطاعته أن يكون قادرًا على حمايتي، وهو لن يقدر على ذلك إلا إذا كان أطول قامة، وأقوى بنية، وأشد ذكاء مني. وتقول: إن الرجل الذي أبتغيه هو ذاك الذي أستظل بقامته، وأرفع عيني لمشاهدة وجهه.

يقابله العاطفة، وهي أيضًا إحدى قوى الإنسان وأحد عناصر حياته الهامة، وكل إنسان لديه هاتان القوتان: العقل، والعاطفة، وفي كثير من الأحيان يتعارض عمل كل منهما ودوره مع عمل الآخر ودوره.

فمن يريد أن يتخذ قرارًا عقلانيًا، لابد أن يتجرد عن العاطفة مؤقتًا، ومن اتخذ قرارًا عاطفيًا لابد أن يُغيب سلطان العقل مؤقتًا، أو يُضْعِفَه على الأقل، وكلَّما ظهر أحدهما غاب أو كاد أن يغيب الطرف الآخر مؤقتًا، وغياب أحدهما مؤقتًا لا يعني اختفاءه كليًا، فمتى زاد سلطان العقل ضعف سلطان العاطفة، لكن لا يُقال في هذه الحال: إنه لا عاطفة للإنسان حينئذ، ومتى زاد سلطان العاطفة ضعف سلطان العقل، ولكن لا يُقال أيضًا: إنه لا عقل للإنسان حينئذ. فهما كعنصري محلول مكون من ماء وملح، فإذا زادت كمية الماء خف التركيز، مع العلم أن كمية الملح لم تنقص، وإذا زاد الملح ازداد التركيز، مع العلم أن كمية الماء لم تنقص، ومن هنا فإن نقصان العقل الذي ورد في الحديث ليس المراد منه نقصان قوى التفكير عند المرأة، وإنما المراد منه زيادة العاطفة.

وزيادة العاطفة ليست عبثًا، فهي مهمة للأنثى حتى تكون من الجنس اللطيف، وهي ضرورية لها كأمٍ تحتاجها للصبر على أطفالها والعناية بهم، وتحتاجها كأخت وعمة وخالة، لذا كانت العاطفة من علامات كمال أنوثة المرأة.

إذن، فما هو ثابت علميًا، ومؤكد بشهادة النساء أنفسهن، أن المرأة أضعف من الرجل جسميًا وأقل منه ذكاء؛ وأنها لا تضيق بذلك، وإنما تراه مظهرًا لضعفها النسوي الذي هو في الواقع رأس مالها الذي تستخدمه في السيطرة على الرجل، في الوقت الذي تجعل منه راعيًا لها مهتمًا بحمايتها.

فهل قال رسول ﷺ للمرأة - بطريقة المباسطة - أقل أو أكثر من هذا الكلام؟

إن العجيب أن الذين يتبرمون بالإسلام، ويمارسون حرفة هابطة مكشوفة في التقول عليه، يجلجلون بهذا الحديث في الأوساط، وربَّما في الأوساط النسائية خاصة، ويطيلون ألسنتهم بالنقد عليه حتى إذا رأوا ما يقوله كتاب علم النفس، ووقفوا على ما يقوله أمثال هذه الكاتبة، مما أتينا على بعض نصوص منه، ألجموا ألسنتهم عن النقد، وأصغوا إليه بالاحترام والقبول إن لم نقل بالاستسلام والتقديس.

هذا الذي يسمونه الراديتير وهو جزء هام من أجزاء السيارة، يقوم بتبريد المحرك، ولولاه لاحترق. . . وتوقفت السيارة.

الراديتير هذا ببساطة، وعاء معدني يُملأ بالماء ويصل بأنابيب تحيط بالمحرك لتبرده وباستمرار حركة الماء داخل هذه الأنابيب مع الوعاء المائي الذي تبرده مروحة موجهة نحوه، تتم المحافظة على درجة محدودة للمحرك لا تزيد.

أريد أن أشبه المحرك بالعقل، والراديتر بالعاطفة، ولا يمكن للمحرك مهما كان نوعه، وجودته، أن يستغني عن تبريد الراديتر له.

وبعبارة مباشرة أقول: إن العاطفة كثيرًا ما تذكّر العقل بأشياء نسيها، أو تمنع العقل من أن ينسى أشياء بسبب شدة عمله في التفكير، فإذا ما نقصت العاطفة، فإن العقل قد ينسى أشياء هامة لا يذكره بها إلا العاطفة القوية.

هذا مدخل قصير لهذا الخبر الذي أرجو قراءته قبل أن نقف عنده قليلًا:

سان فرانسيسكو –رويتر:

توفيت طفلة عمرها ١٣ شهرًا بعد أن نسيها والدها في شاحنة ثماني ساعات في درجة حرارة مرتفعة وصلت إلى ٦٥. ٥٥ درجة مئوية وذهب إلى عمله.

وقال بوب نيكولاس المتحدث باسم الشرطة إن دارين رودريجز ٢٩ عامًا ربط طفلته بريانا في مقعد للأطفال في سيارته الفورد اكسبلورر وغادر منزله في تورلوك على بعد ١٦٠ كيلو مترًا جنوب شرقي سان فرانسيسكو صباح الأربعاء متوجهًا إلى عمله.

وكان رودريجز ينوي توصيل ابنته إلى مركز لرعاية الأطفال وهو في الطريق ولكنه نسي وتوجه إلى عمله مباشرة، وأوقف سيارته ناسيًا أن طفلته ما زالت في المقعد الخلفي.

وأضاف نيكولاس أن الأب عمل طوال النهار ولم يتذكر طفلته إلا في الساعة الخامسة مساءً عندما اتصلت به زوجته نيكول ٢٤ عامًا من مركز رعاية الأطفال الذي توجهت إليه لأخذ ابنتها بعد أن انتهت من عملها.

وقال نيكولاس: إن الأب هب مذعورًا وجرى إلى السيارة وأخرج الطفلة وتم استدعاء الأطباء والشرطة الأطباء والشرطة ولكن الطفلة كانت قد لفظت أنفاسها من شدة الحرارة.

وأضاف أن الأب والأم اعتادا توصيل ابنتهما إلى مركز رعاية الأطفال وفقًا لمواعيد عمليهما.(١)

ألا توافقونني على أنه لا يمكن للأم أن تنسى طفلتها هذه في السيارة كما نسيها أبوها؟

بل لا يمكن لأي أم أن تنسى ما قد ينساه الآباء!

هل رأيتم كيف أن نقص العقل في المرأة إنما هو لصالح العاطفة التي تمنعها من أن تنسى أطفالها؟ أو أن العاطفة تمنع العقل من أن ينسى... وهو العقل!

لقد كان انشغال تفكير الأب في عمله أكثر من انشغاله في طفلته التي تركها في السيارة، فنسيها، ولو كانت عاطفته أقوى... ما نسيها.

لقد ظل يعمل طوال النهار... ولم يتذكرها إلا حين اتصلت به زوجته التي ذهبت إلى مركز رعاية الأطفال لأخذ ابنتها في الساعة الخامسة مساءً... فلم تجدها.

كيف يكون الحال لو نقص مقدار العاطفة في المرأة... ليتساوى مع مقداره في الرجل.

.. وزاد مقدار العقل في المرأة ليتساوى مع مقداره في الرجل أيضًا؟!

سيخسر الأطفال المساكين كثيرًا... !

إذن، إذا كانت زيادة العقل في الرجل ميزة فإن زيادة العاطفة في المرأة ميزة كذلك، ولا تقل أهمية وخطورة عن ميزة الرجل.

لأن نقص العقل الذي أشار إليه الرسول ﷺ ليس نقصانًا ينتقص منها، وإلا لما كانت مكلفة مثل الرجل، وإنما هو نقصان لصالح العاطفة التي تزيد عندها لتعينها في إنجاز مهام خلقت لها... ولم يخلق لها الرجل، ولهذا أقول مطمئنًا: قد تنجح المرأة في القياس

---

(١) وكالة أنباء رويتر ٢٣/ ٢/ ١٤١٨هـ- ٢٨/ ٦/ ١٩٩٧.

بكثير من أعمال الرجل، وقد تتفوق عليه فيها. . . ولكن هل ينجح الرجل في القيام بكثير من أعمال المرأة. . . وبخاصة رعايتها أطفالها والعناية بهم؟! ! ![1]

الوجه الخامس: المراد بنقصان دين المرأة.

إن الرسول ﷺ حين سئل عن نقص الدين ذكر أمرًا محددًا، وهو نقص الصلاة والصيام في أيام الحيض والنفاس، فهو من ناحية نقص جزئي محصور في العبادة، بل في بعض الشعائر فحسب، حيث تقوم الحائض والنفساء بأداء مناسك الحج جميعًا عدا الطواف بالبيت، كما أنها لا تهجر ذكر الله، والدين القيم، إيمان وتقوى تتبع الإيمان، ثم عبادات، ثم أخلاق ومعاملات، وهو من ناحية ثانية نقص مؤقت، أي: ليس دائمًا في حياة المرأة كلها، وإنما يقع في فترات قصيرة، ثم إن الحيض ينقطع مع الحمل وهو تسعة أشهر متصلة، وينعدم مع سن اليأس، ومن ناحية ثالثة فإن النقص ليس من كسب المرأة واختيارها، والمرأة المؤمنة قد تشعر بالأسى؛ لحرمانها من الصلاة والصيام، ولكنها ترضى وتصبر على أمر قد كتبه الله عليها فيثيبها الله على هذا الرضا وذاك الصبر، وقد تقوم المرأة المؤمنة بنوعين من التعويض لما يفوتها من صلوات:

أولهما: تعويض عاجل بعبادات أخرى مثل: تلاوة القرآن، والدعاء الضارع، والذكر الخاشع، فتستغفر الله. وتسبحه وتحمده وتكبره، وهذا النوع من التعويض يذكرنا بما فعلته عائشة -رضي الله عنها- حين فرض الحجاب على أمهات المؤمنين، فَمُنِعْنَ الجهاد وهو أفضل العمل، فكان حرصها على الحج هو التعويض عما فاتها من فريضة الجهاد، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: يا رسول ألا نغزو ونجاهد معكم؟ - وفي رواية: نرى الجهاد أفضل العمل- فقال: لكُنَّ أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور. فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ.

---

(١) رسالة إلى مؤمنة (٢٤٩- ٢٥٢).

وثانيهما: تعويض آجل، وذلك بالإكثار من صلاة النفل بعد الطهر من الحيض، وهذا النوع الآجل يذكرنا بحرص عائشة على تعويض العمرة التي فاتتها بسبب الحيض، قالت عائشة: دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا أبكي، فقال: ما يبكيك؟ قلت: منعت العمرة – وفي رواية: قالت يا رسول الله: "أيرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر قال: وما شأنك؟ قلت: لا أصلي، قال: لا يضرك أنت من بنات آدم كتب عليك ما كتب عليهن، فكوني في حجتك عسى الله أن يرزقكها. قالت: فكنت حتى نفرنا من منى فنزلنا المحصب فدعا عبد الرحمن فقال: اخرج بأختك الحرم فلتهل بعمرة"[1].

وورد في فتح الباري: هل تثاب المرأة على ترك الصلاة لكونها مكلفة بها، كما يثاب المريض على النوافل التي كان يفعلها في صحته، وشغل بالمرض عنها، أم أن هناك فرقًا؛ لأنَّ المريض كان يفعلها بنية الدوام عليها مع أهليته، والحائض ليست كذلك؟ قال الحافظ ابن حجر: وعندي، في كون هذا الفرق مستلزمًا؛ لكونها لا تثاب، وقفة. أي: إن الثواب عند الحافظ ابن حجر محتمل، فتأملوا رعاكم الله كيف يُحتمل أن تثاب المرأة الحائض برغم تركها الصلاة.

ومع ذلك يبقى نقص الدين واردًا من وجوه: -

(أ) قد يعرض للمرأة ضعيفة الإيمان الاغتباط بعدم الصلاة، وكأنها تخففت من واجب ثقيل وذلك مما يحرمها الثواب.

(ب) أن النقص الناتج من عدم الصلاة ليس متعلقًا بأمر الثواب وحده، وإنَّما هناك نقص خشوع قلب المؤمن، لحرمانه من المثول بين يدي الله، وخاصة عند غياب التعويض الذي أشرنا إليه.

(جـ) وهناك نقص القوة على مغالبة المنكر، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا لم يتم التعويض بعبادة أخرى تأكد النقص.

وعليه فالمراد: بنقص الدين يمكن أن يعني أحد أمرين: أولهما: نقص تدين الإنسان، أي: نقص تقواه لله وطاعته له، وثانيهما: نقص ما افترضه الله على الإنسان من فرائض، أي: نقص

---

(١) رواه البخاري(١٧٨٨)، ومسلم(٢٨٩٣).

ما يقوم به من نشاط عبادي، ليس عن تقصير، ولكن عن إلزام من الإله المعبود. والحديث هنا يستدل على النقص بأمرٍ كتبه الله على المرأة وهو اجتناب الصلاة والصيام في أيام معدودات. على أن هذا النوع من النقص – أي: نقص ما افترضه الله على المرأة– قد يثمر نقصًا في تقواها لله، وهذا يعني: أنه أمر يحتمل وقوعه من بعض النساء لا من جميعهن[(١)].

يقول الدكتور/محمد سعيد رمضان البوطي[(٢)]: إن نقص الدين قد يطلق ويراد به قلة التكليفات السلوكية، لسبب ما، ولاشك أنها ليست مسئولية المكلف، أيًّا كان السبب وقد يطلق ويراد به التهاون، أو التقصير الذي يتلبس به المكلف بمسئولية واختيار منه.

فالطفل أو المراهق الذي لم يبلغ سن البلوغ بعد، يوصف بأنه ناقص الدين، ولا يعني ذلك أنه يتحمل جريرة، أي: تقصير أو تهاون فيه، بل ربما كان كثير القيام بالواجبات والفرائض والنوافل سريعًا إليها، نشيطًا في أدائها، أكثر من كثير من الرجال البالغين، غير أنه يوصف مع ذلك بأنه ناقص دين؛ نظرًا إلى أنه لم يكلف بعد بشيء من مبادئه وأحكامه، فهو يوصف بنقصان الدين بالمعنى الأول.

والإنسان المتهاون بأوامر الله وأحكامه، المستهتر بحدوده، يوصف أيضًا بنقصان الدين، ولكنه هنا يعني التقصير في الالتزام بمبادئ الدين بعزم منه واختيار، فهو يتحمل جريرة تقصيره والمسئولية المترتبة على نقصان دينه، فهو يوصف إذن بنقصان الدين بالمعنى الثاني.

إذا تبين هذا؛ فإن الوصف الذي به وصف الله المرأة من النقصان في الدين، إنما يصدق بالمعنى الأول، فهو عليه الصلاة والسلام يعني: أن المرأة خفف الله عنها بعض الوظائف الدينية، وأسقطها عنها، فهي لا تكلف بالصلاة أثناء المحيض، كما لا تكلف بها أثناء النفاس، ولا تكلف بقضاء شيء منها بعد ذلك.

---

(١) تحرير المرأة في عصر الرسالة (١/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) المرأة بين طغيان النظام الغربي، ولطائف التشريع الرباني (١٧٧-١٧٩).

ولكن دون أن ينقص شيء من أجرها بسبب ذلك؛ إذ إن الأمر ليس عائدًا إلى تقصير منها، ولكنه عائد إلى تخفيف من الله عنها.

والمرأة توصف في هذه الحال بأنها ناقصة دين، أي: ناقصة التكاليف الدينية، ومعاذ الله أن يكون المعنى أنها مقصرة في دينها، إذ ليس لها أي اختيار في أمر فرضه الله عليها.

ومن أوضح الأدلة على ما نقول أن البيان الإلهي قرر في أكثر من موضع من كتاب - الله ﷻ- أن أجر الرجل والمرأة الملتزمين بدين الله سواء، لا يعلو الرجل على المرأة ولا العكس، من ذلك قوله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (النساء: ١٢٤).

فإن قلت: فكلام الله هنا مشروط بالعمل الصالح، والمرأة ممنوعة في النفاس والمحيض من أهم الأعمال الصالحة وهو الصلاة، فلم يتحقق الشرط الذي أنيط به الأجر لكل من الرجل والمرأة.

فالجواب: أن الاستجابة لأوامر الله سعيًا لمرضاته، هي مصدر الأجر والثواب والاستجابة كما تكون بالأفعال الإيجابية، تكون أيضًا بالالتزامات السلبية، فالمرأة التي كلفها الله بعدم القيام إلى الصلاة مدة المحيض، لا شك أنها تثاب على النهوض بهذا التكليف، ما دام قصدها الاستجابة لأمر الله، فإحجامها عن الصلاة في هذه المدة، كقيام الآخرين إلى الصلاة في المدة ذاتها كلاهما مصدر مثوبة وأجر. ما دام كل منهما مندفعًا إلى اتخاذ الموقف الذي كلف به، تحقيقًا لأمر الله، وسعيًا إلى مرضاته.

إذن فقد وصف الله المرأة بواقع، لا تبعة عليها فيه، وليس فيها أي منقصة لها أو مسئولية عليها.

يقول د/مروان إبراهيم[1]: أمَّا نقصان الدين فقد أراد الرسول ﷺ أن يشير بأدب إلى العوارض الخلقية الطبيعية التي تنتاب المرأة، والتي لا شأن لها فيها؛ لأنها من خلق الله تعالى، كالحيض والنفاس، اللذين يتسببان في إسقاط الصلاة وفي تأخير الصوم إلى حين. وهذه العوارض ليست علامات نقص في المرأة، بل هي علامات كمال، فالمرأة التي لا تنتابها العادة لا تحمل، والحمل من ضرورات استمرار الحياة على وجه الأرض.

وهناك ملاحظة لابد من التنبه لها، وهي إشارة الرسول ﷺ إلى قوة المرأة على الرغم مما ذكر في الحديث، وقوله أغلب لذي لب منكن يدل على ذلك بوضوح، وصاحب اللب هو صاحب العقل الكبير، فليس لأحد أن يعترض بعد ذلك.

* * *

(١) دراسات في الأسرة في الإسلام (١٢١-١٢٣).

٣١ـ شبهة حول: حديث الوصية بالنساء

نص الشبهة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ. فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ". (١)

يستدل بعض الناس بهذا الحديث على الحط من منزلة المرأة في الإسلام

والجواب على ذلك من وجوه

الوجه الأول: الحديث تتضمن عدة أمور للرجل والمرأة.

الوجه الثاني: الحديث يؤكد الاهتمام بالمرأة والحرص عليها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الحديث تتضمن عدة أمور للرجل والمرأة.

(أ) توصية عامة بالنساء في قوله ﷺ: استوصوا بالنساء، وقيل معناه: تواصوا بهن، والباء للتعدية والاستفعال، بمعنى الإفعال كالاستجابة بمعنى الإجابة.

(ب) تعليل هذه الوصية بأمر يتصل بخلقة المرأة، وذلك في قوله ﷺ: فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فهي أولًا متميزة عن خلقة الرجل، ثم إن بها بعض عوج، والرسول ﷺ لم يبين مجال هذا العوج ولا مداه، وإنما أشار إلى أثر العوج الخلقي في بعض سلوك المرأة مما يضيق به الرجل. فهل يمكن بناء على الواقع المشاهد أن تفسر العوج بسرعة الانفعال وشدته، أو بفرط الحساسية، أو بتقلب المزاج؟ والعوج أصلًا يقابل الاستقامة، فإذا كان اتزان الانفعال وضبطه استقامة، فإن سرعة الانفعال وشدته عوج، وإذا كان ضبط الإنسان لعواطفه استقامة فغلبة العاطفة عليه عوج. والمرأة – بخاصة- قد تغلبها العاطفة، فتفوتها الحكمة في اتخاذ قرار، أو يكون منها ما لا يُحْمَل من قول أو فعل، وقد ينتج من سرعة انفعالها تقلب في المزاج، وصدق رسول الله ﷺ: لن

(١) البخاري (٣٣٣١)، (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨).

تستقيم لك على طريقة وهذا التقلب مما يكدر خاطر الرجل ويثير غضبه. ويرجح هذا التفسير ما قاله الرسول ﷺفي عظته للنساء: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير فهذا سلوك عادة ما يكون ساعة غضب، أي: نتيجة سرعة الانفعال وشدته، أما إذا أراد البعض أن يفسر (العوج) بأن المرأة ذات طبيعة ملتوية، والالتواء هنا يعني: المكر والخديعة، فإنا نعتقد أن في هذا القول بعدًا وغلوًا وتجريحًا لعموم النساء يعارض النصوص المتكاثرة عن حياة الصحابيات، التي تدل على براءتهن من المكر والخديعة والالتواء، ويخالف الواقع المشاهد بين أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا، وهل يعقل أن نوكل الإشراف على تربية أولادنا إلى إنسان ذي طبيعة ملتوية؟!

(ج) وفي الحديث توجيه الرجل إلى الصبر على ما يصدر من المرأة من سلوك مبعثه ذاك (العوج)، وذلك قوله ﷺ: وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها وعلى الرجل أن يتذكر أنها لا تتعمد هذا السلوك لمضايقته وإحراجه، فإنما هو نتيجة ما قدره الله على المرأة من طبيعة خاصة تتميز بسرعة الانفعال وشدته، فليصبر، وليكن سمحًا كريمًا، وليعلم أن هذه الخاصية من خصائص المرأة يمكن أن يكون لها أثر طيب في إقدارها على أداء مهمتها الأساسية من حمل وإرضاع وحضانة؛ إذ تحتاج إلى عاطفة بالغة وحساسية مرهفة؛ ثم ليعلم الرجل أيضًا أنه إذا حاول الوقوف عند كل خطأ من زوجه – نتيجة انفعالها البالغ – مؤاخذًا ومعاتبًا، فإن هذا لن يسفر عن شيء سوى مزيد من التباعد والشقاق، ثم يقع الفراق والطلاق.

وأخيرًا ليذكر الرجل أن لزوجته من الفضائل والمحاسن ما قد يعوض هذا العيب، وصدق رسول الله ﷺ في قوله الحكيم الذي فيه علاج عندما يبدر من المرأة ما يبدر: لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر .[1]

---

(١) رواه مسلم (٣٦٣٩).

(د) ولتأكيد الرفق بالنساء ينهي الرسول ﷺحديثه بقوله: فاستوصوا بالنساء تمامًا كما بدأه ﷺ. وفي شرح هذا القول قال الطيبي: (السين في قوله فاستوصوا للطلب، وهو للمبالغة، أي اطلبوا الوصية من أنفسكم في حقهن، أو اطلبوا الوصية من غيركم بهن، وقيل معناه: اقبلوا وصيتي فيهن، واعملوا بها، وارفقوا بهن، وأحسنوا عشرتهن.

قال الحافظ: وهذا القول الأخير أوْجَهُ الأوجه في نظري، وليس مخالفًا لما قال الطيبي.[١]

يقول د/مروان إبراهيم: يستدل بعض الناس بهذا الحديث على منزلة المرأة في الإسلام، ولا يؤسفني أن أقول: إن ما ذهبوا إليه من فهم يدل على جهل فاضح باللغة العربية وبالمعنى والسياق أو على سوء نية.

إن الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم تفيد أن حواء خلقت من آدم، وليس في ذلك ما يعيبها، إذ إن موضوع الخلق من أمر الله وتدبيره، وليس لأحد أن يعترض على خلق الله، فالله يخلق ما يشاء. وإذا كانت حواء خلقت من آدم، فليس في ذلك ما يعيبها أيضًا؛ لأن آدم نفسه خلق من تراب الأرض، كما أن في خلق حواء من آدم دلالة واضحة على مدى قرب المرأة من الرجل، فهي جزء منه في الأصل.[٢]

الوجه الثاني: الحديث يؤكد الاهتمام بالمرأة والحرص عليها

والأدلة على ذلك من الحديث نفسه ظاهرة بينة كما يلي:

١- نلاحظ أن الحديث بدأ وانتهى بالتوصية بالنساء، فتكررت عبارة استوصوا بالنساء خيرًا مرتين، في أول الحديث وفي نهايته.

٢- الحديث توجيه وخطاب للرجال لا للنساء، فهناك مُوصى هم الرجال، ومُوصى به هن النساء، والوصية عادة لا تكون إلا في مصلحة الموصى به.

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٦٨).

(٢) تحرير المرأة في عصر الرسالة (١/ ٢٨٨-٢٩٠).

٣- الحديث دلالة واضحة على رقة النساء ونعومتهن، وأن الرجل يجب أن يأخذ ذلك في الحسبان عند التعامل معهن؛ إذ من المعلوم أن أرق ما في الضلع أعلاه.

٤- إن المراد من العوج المذكور في الحديث لفت أنظار الرجال إلى التعامل بلطف، حين يريدون التأثير في شخصيات زوجاتهن، هذا هو المطلوب من الرجل وإلا تعرض الضلع للكسر، وكسر المرأة يكون بطلاقها، على أن الحزم مطلوب أحيانًا حينما يُعْصَى الله عز وجل، فليس هناك عندئذ حلول وسط، وإنما طاعة كاملة، وهذا طبعًا ليس فرضًا على المرأة وحدها، بل على الرجل أيضًا.

٥- وبناء على ما سبق فإن من فهم الحديث خطأ كان عليه أن يعي جهله بأساليب العربية التي جاءت بها الأحاديث النبوية، والتي تتضمن الكناية والتشبيه. . إلخ. (١)

* * *

(١) المصدر السابق.

٣٢ـ شبهة: لماذا أكثر أهل النار النساء؟

نص الشبهة:

عَنْ عبد الله بْنِ عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما- قَالَ: "انْخَسَفَتْ الشَّمْسُ فَصَلَّى رسول الله ﷺ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فَقَالَ ﷺ: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا الله قَالُوا: يَا رسول الله، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ كَعْكَعْتَ. قَالَ ﷺ: إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا. وَأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ قَالُوا: بِمَ يَا رسول الله؟ قَالَ: بِكُفْرِهِنَّ. قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِالله؟ قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ". (١)

وفيه أن الإسلام يقرر أن أكثر أهل النار النساء.

الجواب على ذلك من وجهين :

الوجه الأول: المعنى الصحيح للحديث.

الحديث يقرر أن النساء أكثر أهل النار، لا لأن الشر غالب على فطرتهن من دون الرجال لو كان الأمر كذلك لكُنَّ غير مسئولات عن الزيادة في فعل الشر، ولكن الحديث يقرر أنهن مسئولات ويعاقبن بما كسبت أيديهن من كفر العشير، وكفر الإحسان، وصدق الحافظ ابن حجر إذ يقول: ووقع في حديث جابر ما يدل على أن المرئي في النار من النساء من اتصف بصفات ذميمة ذُكرت ولفظه: وأكثر من رأيت فيها من النساء اللاتي إن أؤتمن أفشين، وإن سئلن بخلن، وإن سألن ألحفن، وإن أعطين لم يشكرن. وهذا يذكر بقول الرسول ﷺ: اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء فماذا قلل الأغنياء؟ إنه بما كسبت أيديهم من أخذ مال حرام، أو إنفاقه في حرام، أو بخل به وحبسه عن وجوه الخير.

---

(١) البخاري (٢٩، ٤٣١، ١٠٥٢، ٣٢٠٢، ٥١٩٧)، ومسلم (٩٠٧).

ثم إن الحديث ذكر النار؛ لكي يتقين النساء دخولها، وذلك باجتناب كفران العشير، وإكثار اللعن، وأن يكثرن من الصدقات والاستغفار، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: "خَرَجَ رسول الله ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ- وفي رواية مسلم: وأكثرن الاستغفار- فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رسول الله؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ".[1]

وقال ابن حجر[2]: وفي هذا الحديث الإغلاظ في النصح بما يكون سببًا لإزالة الصفة التي تعاب، وفيه أن الصدقة تدفع العذاب، وأنها قد تكفر الذنوب التي بين المخلوقين.[3]

الوجه الثاني: عقوبات خاصة بالنساء على صفحات الكتاب المقدس.

قطع يد المرأة: (تثنية ٢٥: ١١ - ١٢) "إذا تَخَاصَمَ رَجُلانِ رَجُلٌ وَأَخُوهُ وَتَقَدَّمَتِ امْرَأَةُ أَحَدِهِمَا لِتُخَلِّصَ رَجُلَهَا مِنْ يَدِ ضَارِبِهِ وَمَدَّتْ يَدَهَا وَأَمْسَكَتْ بِعَوْرَتِهِ فَاقْطَعْ يَدَهَا وَلا تُشْفِقْ عَيْنُكَ".

حرق المرأة بالنار: (لاويين ٢١: ٩)" وَاذَا تَدَنَّسَتِ ابْنَةُ كَاهِنٍ بِالزِّنَى فَقَدْ دَنَّسَتْ أَبَاهَا بِالنَّارِ تُحْرَقُ "

هذا ولا يحل للمرأة في الكنيسة القبطية أن تكون حاضرة بتاتا أثناء قيام الكاهن بإعداد القربان المقدس. هذا القربان لا يقوم بإعداده سوى كاهن أو راهب بعد غروب الشمس عشية السبت السابق للقداس ولا يحل للمرأة الحائض أن تتناول من هذا القربان المقدس بل ولا أن تدخل الكنيسة كما هو معروف ومتبع لديهم، وقد نقل ابن العسال في المجموع الصفوي نص القانون الصادر في مجمع نيقية في ذلك وهو: " لا تدخل الحائض الكنيسة ولا تتقرب إلى أن تنقضي أيام حيضتها ولو كانت من نساء الملوك وان تعدى على ذلك

---

(١) صحيح. تقدم تخريجه.

(٢) فتح الباري (١/ ٤٢٢).

(٣) تحرير المرأة في عصر الرسالة (١/ ٢٧٣-٢٧٤)

كاهن فليسقط ". (١)

ومن الأمور المحرمة على المرأة المسيحية هي دخولها للهيكل عامةً، وهذا المنع كان ضمن القوانين التي صدرت في المجمع الثامن في اللاذقية وقد أصدر هذا المجمع ٥٩ قانونًا من بينها تحريم دخول النساء الهيكل. (٢)

ولا ندري كيف يتفق كل هذا مع قولهم إنه لا ذكر أو أنثى في المسيح بل الجميع واحد و بالمسيح وللمسيح؟!

وأخيرًا ننقل لك - عزيزي القارىء - ماذكره المفسر المسيحي وليم باركلي عن المرأة ومنزلتها بحسب النظرة اليهودية فيقول:

بحسب الناموس اليهودي كانت المرأة تعتبر أقل من الرجل بكثير. فقد خلقت من ضلع من أضلاع آدم (تكوين ٢: ٢٢ و ٢٣)، وخلقت لأجل الرجل لتكون معينًا له ورفيقًا (تكوين ٢: ١٨). ويصور التلمود، تفسيرًا لذلك، فيقول والكلام للمفسر المسيحي وليم باركلي: إن الله لم يخلق المرأة من رأس الرجل لئلا تتكبر وتتفاخر عليه، ولا من عينه لئلا تحقد وتحسد، ولا من يده لئلا تصبح طماعة جشعة، ولا من قدمه لئلا تصبح مجرد جسم هائم على وجهه، ولكنه خلقها من ضلع من أضلاعة. والضلع دائمًا مغطى، ولذلك فالتواضع ينبغي أن يكون صفتها الأولى. ومن الحقائق التعسة أن المرأة بحسب الناموس اليهودي كانت تعتبر شيئًا، وجزءًا من ممتلكات زوجها، له عليها السلطان الكامل وحق التصرف المطلق.

وفي السنهدريم مثلًا، لم يكن للنساء أي حق في المشاركة في العبادة، ولكنهن كن يعزلن تمامًا عن الرجال في رواق خاص يغلق عليهن في أي جزء من المبنى. ولم يكن يخطر بالبال، بحسب الناموس والتقليد اليهودي، أن النساء يمكن أن يطالبن بأي نوع من المساواة مع الرجال.

---

(١) المجموع الصفوي صـ ٤٤.

(٢) انظر: كتاب مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة للنصراني ابن كبر.

و في ١كورنثوس (١١: ١٠) نجد عبارة غريبة وهي أن النساء يجب ان تتغطي من أجل الملائكة. ولسنا نستطيع أن نحدد ما تعنيه هذه العبارة على وجه التأكيد، ولكن من المحتمل جدًا أنها تحمل المعنى عينه الذي ورد في القصة القديمة الغريبة الواردة في تكوين ٦: ٢١ التي تحكي لنا كيف وقع الملائكة في شرك فتنة النساء الحسنات وهكذا أخطأوا. فربما تكون الفكرة أن السيدة غير المغطاة تكون تجربة وفخًا حتى بالنسبة للملائكة، لأن تقليدًا تلموديًا قديمًا يقول إن الذي أغوى الملائكة كان جمال شعر النساء الطويل.[1]

* * *

(١) نقلًا عن تفسير الدكتور وليم باركلي للعهد الجديد.

٣٣ـ شبهة حول: حديث كمل من الرجال كثير.

نص الشبهة:

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: "كَمُلَ[(١)] مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إلا آسِيَةَ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ، ومَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ"[(٢)].

أليس في هذا انتقاص لحق المرأة؟

والجواب:

الحديث ليس فيه حط من شأن المرأة، وإنما يشير إلى توفر الاستعداد الفطري للكمال لدى الرجل ولدى المرأة، أي أن الكمال غير ممتنع على المرأة، وليس قاصرًا على الرجل، وإذا كان الكمال ممكنًا؛ فبلوغ درجات في طريق الكمال أكثر إمكانًا.

وإذا كان الكمال ممكنًا (بالفطرة) فيمكن زيادة احتمالاته بالتربية والتوجيه، وبالجهد والاكتساب، كما هو الشأن مع الرجال، وعليه فينبغي اهتمام المرأة بعنصر الاكتساب؛ لتحقيق الكمال، وينبغي فتح مجالات التربية والتوجيه، وجميع المجالات التي ترفع من قدرات المرأة، وتصقل استعدادها الفطري وتزكيه

* * *

---

(١) (كمل) يقال: كمل بفتح الميم، وضمها، وكسرها، ثلاث لغات مشهورات، الكسر ضعيف، ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه، والمراد هنا: التناهي في جميع الفضائل، وخصال البر والتقوى.

(٢) البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

٣٤ـ شبهة حول: حديث لولا حواء لم تخن أنثى زوجها

نص الشبهة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ[١].

قد يفهم البعض من الحديث الآتي أن الإسلام يتهم المرأة بالخيانة.

والجواب: ليس هذا صحيحًا، وإنما المراد ما قاله الحافظ في الفتح حيث قال:

قوله: لم تخن أنثى زوجها فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة، ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو القول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش - حاشا وكلا - ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسنت ذلك لآدم عد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها وقريب من هذا حديث جحد آدم فجحدت ذريته، (وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم، بما وقع من أمهن الكبرى، وأن ذلك من طبعهن، فلا يُفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور، وينبغي لهن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع، بل يضبطن أنفسهن، ويجاهدن هواهن.[٢]

وقال الشيخ أحمد شاكر معلقًا على كلام الحافظ:

إنه لم يكن هناك رجال غير آدم حتى تكون الخيانة بارتكاب الفواحش فالمقصود بالخيانة: عدم النصيحة، وليست هي الخيانة الزوجية.

* * *

(١) البخاري (٣٣٣٠)، (٣٣٩٩)، ومسلم (١٤٧٠).

(٢) الفتح (٦/ ٤٢٤).

٣٥- شبهة حول: حديث الشؤم في ثلاث.

نص الشبهة:

قول النبي ﷺ: "الشُّؤْمُ فِي الدَّارِ وَالْمَرْأَةِ وَالْفَرَسِ".

فهم البعض أن الإسلام يصف المرأة بأنها شؤم لما ورد من الأحاديث الآتية:

١- عَنْ عبد الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: الشُّؤْمُ فِي الدَّارِ وَالْمَرْأَةِ وَالْفَرَسِ [١]

٢- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ أَنَّ رسول الله ﷺقَالَ: " إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ فَفِي الْمَرْأَةِ، وَالْفَرَسِ، وَالْمَسْكَنِ"[٢]. يعني: الشؤم.

٣-عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ رسول الله ﷺ قَالَ: "إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ فَفِي الرَّبْعِ، وَالْخَادِمِ، وَالْفَرَسِ"[٣].

والجواب عن هذه الشبهة ما يلي:

إن الطيرة والتشاؤم من عقائد أهل الجاهلية التي أتى الإسلام لهدمها، وإحلال الاعتقاد بالقدر، والتوكل على الله مكانها، بيد أن النبي ﷺ مع اعتقاده بأنه لا تشاؤم ولا تفاؤل في الإسلام، بمعنى أنه لا أثر لهما في الضر أو النفع، كان يحب أن يسمع الكلمة الحسنة الطيبة، والاسم الحسن الطيب المبشر؛ لأنهما يبعثان على السرور والرضا، والبشر في السامع فحسب، فلهما أثر نفسي في الانشراح والطمأنينة لا ينكران، وقد دلَّ على ذلك الأحاديث الآتية:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ. قيل: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ. [٤]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا طِيَرَةَ[٥] وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ. قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ يا رسول الله؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ". [١]

---

(١) البخاري (٢٨٥٨)، (٥٧٥٣)، ومسلم (٢٢٢٥).

(٢) البخاري (٢٨٥٩)، (٥٠٩٥)، ومسلم (٢٢٢٦).

(٣) مسلم (٢٢٢٧).

(٤) البخاري (٥٧٥٦)، (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٥) الطيرة: بكسر المهملة، وفتح التحتانية، وقد تسكن، هي التشاؤم بالشين، وهو مصدر تطير مثل تحير حيرة، قال بعض أهل اللغة: لم يجئ من المصادر هكذا غير هاتين، وتعقب بأنه سمع طيبة، وأورد بعضهم

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا غُولَ. (٢)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺيَوْمًا فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي؛ فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ. فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ. وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. فَتَفَرَّقَ النَّاسُ، وَلَمْ يُبَيَّنْ لَهُمْ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ وَلَكِنَّا آمَنَّا بِالله وَرَسُولِهِ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: هُمْ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ، أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رسول الله؟ قَالَ: نَعَمْ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ(٣).

التولة وفيه نظر، وأصل التطير أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر، فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع، وربما كان أحدهم يهيج الطير؛ ليطير فيعتمدها، فجاء الشرع بالنهي عن ذلك، وكانوا يسمونه السانح بمهملة ثم نون، ثم حاء مهملة، والبارح، بموحدة وآخره مهملة، فالسانح ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك، والبارح بالعكس، وكانوا يتيمنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح؛ لأنه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه، وليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضي ما اعتقدوه، وإنما هو تكلف بتعاطي ما لا أصل له؛ إذ لا نطق للطير ولا تمييز، فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه، وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله، وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير، ويمتدح بتركه، قال شاعر منهم:

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتم فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

وقال آخر: الزجر والطير والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال وكان أكثرهم يتطيرون، ويعتمدون على ذلك، ويصح معهم غالبًا لتزيين الشيطان ذلك، وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين.

(١) البخاري (٥٧٥٤، ٥٧٥٥)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٢) مسلم (٢٢٢٢).

(٣) البخاري (٣٤١٠، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسول الله، أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّانَ. قَالَ: فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ قَالَ: قُلْتُ: كُنَّا نَتَطَيَّرُ. قَالَ: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ. (١)

وظاهر هذه يمثل إشكالًا، فهذه كلها أحاديث صحيحة لا شك في شيء منها، قسم منها ينفي الشؤم مطلقًا بلا النافية للجنس، وقسم يثبته في هذه الأشياء الثلاثة: المرأة، الفرس، والدار، فكيف نفهم الأمور إذن؟

ومعلوم أن التعارض بين أدلة الشرع الصحيحة، إنما هو تعارض بين ظواهرها - وليس في حقيقتها - إذ إن الشريعة كلَّها تدور على أمور لا اختلاف فيها، ولا اضطراب، ولا تناقض، فكيف نفهم مجموع الأحاديث السابقة؟

والذي يظهر أن شؤم المرأة والدابة والدار ليس على ظاهره مما كان في الجاهلية، وإنما معناه عدم موافقة هذه الأشياء للإنسان، فشؤم الدار: ضيقها، وسوء جيرانها، وأذاهم.

وشؤم المرأة: سلاطة لسانها، وسوء خلقها، وشؤم الخادم سوء خلقه وقلة تعهده لما فوض إليه.

ووجه الحصر في الثلاثة: هو بالنسبة إلى العادة، لا إلى الخلقة؛ لأنها لم تخلق شؤمًا في سوء أفعالهن، وما مسهن من الكوارث فيما كسبوه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الشورى: ٣٠).

فالمرأة إذا كانت سيئة الخلق سليطة اللسان، ماذا نتوقع في معاشرتها لزوجها؟ لا شك أن زوجها سيعيش معها دائمًا في حال شجار وخلاف، وقد يترتب على هذا الخلاف شرٌ كبيرٌ من إضاعة المال وإهمال الرجل لعمله، وإتلاف أشياء من المنزل بسبب الغضب بينهما. . . . . إلخ.

(١) مسلم (٥٣٧).

وقد بَّوب البخاري -رحمه الله- على هذه الأحاديث بقوله: باب ما يتقى من شؤم المرأة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ (التغابن: ١٤).

وقد علق الحافظ على تبويبه فقال: كأنه يشير إلى اختصاص شؤم ببعض النساء دون بعض، مما دلت عليه من التبعيض. ا هـ.

قال الشيخ مصطفى العدوي[١]: ولعلَّ ما يفسر هذا الحديث هو حديث رسول الله ﷺالذي أخرجه أحمد (١/ ١١٦٨) من طريق مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ، ثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: "مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ: ثَلَاثَةٌ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ، مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ: الْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ".

وهذا الحديث من طريق محمد بن أبي حميد، وقد أطبق أهل العلم على تضعيفه، إلا أن محمدًا قد توبع عند الحاكم (٢/ ١٦٢) ولكن بلفظ: ثلاث من السعادة، وثلاث من الشقاوة، فمن السعادة: المرأة الصالحة تراها تعجبك، وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطية فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق، ومن الشقاوة: المرأة تراها فتسوءك وتحمل لسانها عليك، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفًا، فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركبها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق أخرجه الحاكم من طريق أبي عبد الله محمد بن أحمد بن بطة الأصبهاني، قال ثنا عبد الله بن محمد بن زكريا الأصبهاني، ثنا محمد بن بكير الحضرمي، ثنا خالد بن عبد الله أبو إسحاق الشيباني، عن أبي بكر بن حفص، عن محمد بن سعد، عن أبيه مرفوعًا، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد من خالد بن عبد الله الو اسطي إلى رسول الله ﷺ، تفرد به محمد بن بُكير عن خالد، إن كان حفظه فإنه صحيح

(١) جامع أحكام النساء (٣/ ٤٢٢).

على شرط البخاري، وقال الذهبي في محمد بن بكير: قال أبو حاتم: صدوق، يغلط. وقال يعقوب بن شيبة: ثقة.

قلت: وقد توبع محمد بن أبي حميد أيضًا، تابعه عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن ابن حبان(١٢٣٢)، ولكن بلفظ: أربع من السعادة فذكر نحو الحديث وزاد عليه.

وأشار الحافظ في الفتح إلى أن الطبراني أخرج نحوه مع اختلاف يسير من حديث أسماء رضي الله عنها، فالحديث بمجموع هذه الطرق يرتقي إلى الحسن، وهو خير ما يفسره قول النبي ﷺ: الشؤم في ثلاثة المرأة، والفرس، والدار والله أعلم.

والذي يظهر لي من ترجمة الإمام البخاري، أنَّه خصَّ الشؤم بالمرأة التي قد تكون سببًا في فتنة زوجها، وذلك كأن يفتتن الزوج بحب زوجته فيطيعها في المعصية.

فقد تكون سببًا في دخوله النار، لذلك أعقب البخاري هذه الأحاديث بحديث: ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء قال الحافظ في الفتح (٩/ ٤١):

قال الشيخ تقي الدين السبكي: في إيراد البخاري هذا الحديث عقب حديث ابن عمر، وسهل بعد ذكر الآية في الترجمة: إشارة إلى تخصيص الشؤم بمن تحصل منها العداوة والفتنة، لا كما يفهمه بعض الناس من التشاؤم بكعبها، أو أن لها تأثيرًا في ذلك، وهو شيء لا يقول به أحد من العلماء، ومن قال: إنها سبب في ذلك فهو جاهل، وقد أطلق الشارع على من ينسب المطر إلى النوء الكفر، فكيف بمن ينسب ما يقع من الشر إلى المرأة مما ليس لها فيه مدخل. اهـ

وأيًّا ما كان الأمر بالشؤم، وهو توقع الشر لا يكون خاصًا بالمرأة من حيث كونها امرأة، وإنما هو خاص ببعض النساء، وهي الزوجة السيئة الخلق، أو المرأة التي تكون سببًا في فتنة زوجها فيطيعها في المعصية، ولا شك أن هذا الشيء مشاهد ومجرب في الحياة، وعليه فالحديث ليس فيه انتقاص للمرأة كما يفهم البعض ذلك، والله أعلم.

* * *

٣٦ـ شبهات حول: أحاديث ضعيفة تحط من شأن المرأة

وأخيرًا هذه بعض أحاديث لم تثبت عن النبي ﷺ تحط من شأن المرأة يكفي في ذلك أن نبين ضعفها، والله المستعان.

١ـ حديث: " وإنما النساء لعب فمن اتخذ لعبة فليحسنها أو ليستحسنها".

قال الألباني -رحمه الله - في الضعيفة (رقم ٤٦٢):

ضعيف: رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده ص (١١٦- زوائده) حدثنا أحمد بن يزيد: ثنا عيسى بن يونس، عن زهير بن محمد، عن أبي بكر بن حزم مرفوعًا.

قلت: وهذا إسناد ضعيف، وفيه ثلاث علل: الإرسال؛

فإن أبا بكر، وهو ابن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، تابعي، مات سنة (١٢٠).

وضعف زهير بن محمد الخراساني الشامي.

وأحمد بن يزيد؛ لم أعرفه، ويحتمل أنه ابن الورتنيس المصري، فقد ذكر له رواية عن عيسى بن يونس في تهذيب الكمال فإن كان هو؛ ففيه ضعف، والله أعلم.

وهذا الحديث مما فات السيوطي، فلم يورده في الجامع الكبير ولا في اللآلي، وكذلك فات ابن عراق؛ فلم يورده في تنزيه الشريعة والمناوي في الجامع الأزهر!

٢ـ حديث: " هلكت الرجال حين أطاعت النساء".

أخرجه أحمد (٥/ ٤٥)، ابن عدي في الكامل (٢/ ٤٣)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٢٩-٤٣٠) رقم (٧٨٧٠)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٣٥) رقم (٤٢٥)، البزار (٣٦٩٢)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ٣٤)، وعزاه الألباني في الضعيفة (١/ ٦٢٥) إلى ابن ماسي في آخر جزء الأنصاري (١١/ ١). جميعًا من طريق بكار بن عبد العزيز، عن أبيه، عن أبي بكرة، وقال الحاكم عقبه: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وتعقبه المناوي في فيض القدير (٦/ ٣٥٦)، وقال: وأقول بكار بن عبد العزيز بن أبي بكرة أورده الذهبي في الضعفاء.

وتعقبه أيضًا الألباني فقال في الضعيفة (١/ ٦٢٦):

وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

قلت: وهذا ذهول منه عما ذكره في ترجمة بكار هذا في الميزان: قال ابن معين: ليس بشيء. وقال ابن عدي: هو من جملة الضعفاء الذين يكتب حديثهم.

وقال في الضعفاء: ضعيف، مشاه ابن عدي، وتعقبه الشيخ مقبل، في تعليقه على المستدرك فقال: بكار بن عبد العزيز، ضعيف كما في الميزان.

٣ـ حديث: " طاعة المرأة ندامة".

أخرجه العقيلي في الضعفاء (٤/ ٧٤)، وابن عدي في الكامل (٤/ ٤٩)، وعزاه الألباني في الضعيفة (١/ ٦٢٤) للقضاعي (ق١٢/ ٢) والباطرقاني في حديثه (١٦٨/ ١)، وابن عساكر (١٥/ ٢٠٠/ ٢). جميعًا من طريق محمد بن سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعًا.

قال العقيلي: محمد بن سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن عروة ببواطيل لا أصل له، منها ما حدثناه، ثم ذكر الحديث.

وقال ابن عدي: لم يروه عن هشام إلا ضعيف، وحدث به عن هشامٍ، خالدُ بن الوليد المخزومي، وهو أضعف من ابن أبي كريمة هذا.

وأورد الذهبي في الميزان الحديث في ترجمة ابن أبي كريمة، وكذا الحافظ في اللسان (٥/ ١٨٦).

وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٨) (١٦٤٨): طاعة النساء ندامة. وفيه ضعيف.

وقال أيضًا في موضع آخر (٢/ ٥٠٤) وروى القضاعي، والعسكري، والديلمي، وغيرهم بسند ضعيف، عن عائشة مرفوعًا: طاعة النساء ندامة.

وقال الألباني في الضعيفة (١/ ٦٢٥): وقد تعقَّب السيوطي ابن الجوزي كعادته، فذكر في اللآليء (٢/ ١٧٤) أن له طريقين آخرين عن هشام، وشاهدًا من حديث أبي بكرة،

لكن في أحد الطريقين خلف بن محمد بن إسماعيل، وهو ساقط الحديث؛ كما تقدم عن الحاكم في الحديث (٤٢٢)، وقد أخرجه من هذه الطريق أبو بكر المقري الأصبهاني في الفوائد (١٢/ ١٩٢)، وأبو أحمد البخاري في جزء من حديثه (١/ ٢).

وفي الطريق الأخرى أيوب البختري، واسمه: وهب بن وهب؛ وضَّاع مشهور.

وأخرجه أيضًا ابن عدي في الكامل (٥/ ٤٦٢) من طريق عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي، عن عنبسة بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذان عن أم سعد بنت زيد بن ثابت عن أبيها.

قلت: وهذا ضعيف من وجهين:

الأول: عنبسة بن عبد الرحمن. قال عنه أبو حاتم: كان يضع الحديث، وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين: لا شيء. وقال الدارمي عن يحيى بن معين: لا أعرفه، وقال ابن الجنيد عنه: ضعيف الحديث ليس بشيء وقال الدوري عنه: ليس حديثه بشيء.

وقال البخاري: متروك.

وقال أبو داود، والنسائي، والدارقطني: ضعيف، وقال النسائي في موضع آخر: متروك وقال الترمذي: يضعف، وقال أبو الفتح الأزدي: كذاب، وقال ابن حبان: هو صاحب أشياء موضوعة لا يحل الاحتجاج به. وانظر: تهذيب الكمال (٢٢/ ٤١٨).

وقال ابن عدي: وعنبسة هذا له غير ما ذكرت من الحديث منكر الحديث.

الثاني: عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي، قال عنه ابن عدي: لا بأس به؛ إلا أنه يحدث عن قوم مجهولين بعجائب، وتلك العجائب من جهة المجهولين.

والحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٧٢). وقال:

لا يصح، عنبسة ليس بشيء، وعثمان لا يحتج به.

وانظر: الضعيفة (٤٣٥). وكذا ضعيف الجامع (٢٧٢٢، ٣٢٨٨)، وأورده أيضًا ابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٢١٠).

يقول الدكتور البلتاجي[1]:

وهل يجوز إطلاق مثل هذا القول الذي استبعد تمامًا أن تأمر المرأة ببر، أو صلة رحم، أو خير، أو مشورة حكيمة؟ كأنها لا تشير ولا تأمر إلا بشر، فماذا عن طاعة النبي ﷺ لأم سلمة في الحديبية؟ وماذا عن طاعة أبي الفتاتين من مدين لابنته في صدق فراستها في موسى عليه السلام ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦) وماذا عن امرأة فرعون، وغيرهن كثيرات!

٤ـ حديث: " لولا النساء لعبد الله حقًا حقًا".

أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ٤٩٥) من طريق عبد الرحيم بن زيد العمي، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب مرفوعًا.

قال ابن عدي: وهذا حديث منكر ولا أعرفه إلا من هذا الطريق.

قلت: وهذا حديث ضعيف من وجوه:

الأول: هناك خلاف في سماع ابن المسيب من عمر رضي الله عنه.

الثاني: زيد العمِّي ضعيف.

الثالث: عبد الرحيم بن زيد،

قال ابن عدي: هذا حديث منكر، ولا أعرفه إلا من هذا الوجه، وعبد الرحيم بن زيد العمِّي أحاديثه كلها لا يتابعه الثقات عليها.

قلت: وقال البخاري: تركوه.

وقال أبو حاتم: يترك حديثه، منكر الحديث، كان يفسد أباه؛ يحدث عنه بالطامات.

وقال ابن معين: كذاب خبيث.

والحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٥٥) من طريق ابن عدي، ثم قال: لا أصل له، عبد الرحيم وأبوه متروكان، ومحمد بن عمران منكر الحديث.

---

(١) مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة (٥١٢).

والظاهر أن الشوكاني تبع ابن الجوزي في ذلك، فقال في الفوائد المجموعة (ص ١١٩) رواه ابن عدي، عن عمر مرفوعًا، وفي إسناده متروكان، ومنكر، وقد تعقب الألباني ابن الجوزي، فقال في الضعيفة (١/ ١٣٩-١٤٠): الظاهر أن ابن الجوزي توهم أن محمد بن عمران هذا هو الأخنسي الذي قال فيه البخاري في تاريخه الكبير (١/ ١/ ٢٠٢):

كان ببغداد، يتكلمون فيه، منكر الحديث عن أبي بكر بن عياش.

وليس صاحب هذا الحديث هو الأخنسي، بل هو الهمداني، كما صرح ابن عدي في روايته، وهو ثقة، وله ترجمة جيدة في تاريخ بغداد (٣/ ١٣٣-١٣٤) فعلة الحديث ممن فوقه.

وأما السيوطي فخفي عليه هذا، فإنه إنما تعقب ابن الجوزي بقوله في اللآليء (٢/ ١٥٩): له شاهده!

ومع ذلك فهذا تعقب لا طائل تحته؛ لأن الشاهد المشار إليه ليس خيرًا من المشهود له! وهو:

الحديث أخرجه أيضًا أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ٣٠)، وعزاه الألباني في الضعيفة (١/ ١٤٠) لأبي الفضل عيسي بن موسى الهاشمي في نسخة الزبير بن عدي (١/ ٥٥/ ٢) والثقفي في الثقفيات من طريق بشر بن الحسين، عن الزبير بن عدي، عن أنس مرفوعًا لولا النساء، دخل الرجال الجنة.

وبشر هذا قال عنه ابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٢٠٤): كذاب وضاع، فلا يصلح حديثه شاهدًا.

وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢١٥) رقم ٢١٢٨): رواه الديلمي، وفيه متروك.

- حديث قول النبي ﷺ لابنته فاطمة - رضي الله عنها-: " أي شيء خير للمرأة؟ قالت: ألا ترى رجلًا ولا يراها رجل فضمها إليه، وقال: ذرية بعضها من بعض.

أورده الغزالي في الإحياء.

وقال الحافظ العراقي: رواه البزار، والدارقطني، في الأفراد من حديث علي، بسند ضعيف.

٥ـ حديث: " شاوروهن وخالفوهن".

قال الألباني في الضعيفة (١/ ٦١٩): لا أصل له مرفوعًا! كما أفاده السخاوي، ثم المناوي (٤/ ٢٦٣)، وقال العجلوني في كشف الخفاء (رقم ١٥٢٩) باختصار، وبتصرف يسير شاورهن، وخالفوهن. قال في المقاصد: لم أره مرفوعًا، كذلك ورد بسند ضعيف جدًّا مع انقطاع عن أنس مرفوعًا: لا يفعلن أحدكم أمرًا حتى يستشير، فإن لم يجد من يشيره فليستشر امرأة ثم ليخالفها؛ فإن في خلافها البركة.

ومما يدل على نكارة الحديث أن النبي ﷺ نفسه استشار أم سلمة في صلح الحديبية، وعمل بمشورتها، وعمل أيضًا بمشورة خديجة -رضي الله عنها- حين جاءه الوحي أول مرة، حيث أشارت عليه بالذهاب إلى ورقة بن نوفل.

وقد ورد أثر ضعيف موقوف عن عمر بن الخطاب: خالفوا النساء فإن في خلافهن بركة.

قال الألباني في الضعيفة (١/ ٦١٩): رواه على بن الجعد الجوهري في حديثه (١٢/ ١٧٧/ ١) من طريق أبي عقيل، عن حفص بن عثمان بن عبيد الله، عن عبد الله بن عمر قال: قال عمر رحمه الله. . . فذكره.

قال الألباني: وهذا سند ضعيف، فيه علتان:

الأولى: جهالة حفص هذا، فقد أورده ابن أبي حاتم (١/ ٢/ ١٨٤) برواية أبي عقيل هذا وحده، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

وفي ثقات ابن حبان (٦/ ١٩٦):

حفص بن عثمان بن محمد بن عرادة، عن عكرمة، وعنه أبو عقيل.

فيحتمل أن يكون هو هذا، مع ملاحظة اختلاف اسم الجد، وذلك مما يؤكد جهالته كما يشير إليه أحمد في قوله الآتي.

والعلة الأخرى: أبو عقيل، واسمه يحيى بن المتوكل العمري، صاحب بهية، ضعيف كما في التقريب، وقال أحمد: رواه عن قوم لا أعرفهم.

ثم إن معنى الحديث ليس صحيحًا على إطلاقه؛ لثبوت عدم مخالفتهﷺ لزوجته أم سلمة حين أشارت عليه بأن ينحر أمام أصحابه في صلح الحديبية حتى يتابعوه في ذلك.

٦ـ حديث: "أعدى عدوك زوجتك التي تضاجعك وما ملكت يمينك".

قال الألباني -رحمه الله- في الضعيفة (٢٨٢٠): ضعيف، رواه الديلمي (١/ ١/ ١٢٢) عن أبي بكر السامري، حدثنا إبراهيم بن (الجنيد): حدثنا يحيى بن بكير، عن الليث عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي مالك الأشعري مرفوعًا.

قلت: وهذا إسناد ضعيف، فيه علل:

الأولى: الانقطاع بين سعيد وأبي مالك الأشعري، فإنهم ذكروا في ترجمة سعيد أنه لم يسمع من جابر بن عبد الله ﷺ، وجابر مات بعد السبعين، وأبو مالك الأشعري مات سنة ثماني عشرة.

الثانية: اختلاط سعيد نفسه؛ رماه بذلك أحمد وغيره.

الثالثة: إبراهيم بن الجنيد وهو الرقي؛ مجهول.

الرابعة: أبو بكر السامري؛ لم أعرفه.

والحديث بيَّض له المناوي، فكأنه لم يقف على إسناده.

قال الدكتور/ البلتاجي في مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة:

لا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه؛ لأنه مخالف لآيات وأحاديث صحيحة كثيرة: فكيف يمكن أن يمتن الله -تعالى- على عباده بالزواج ويجعله من آياته، ويعلله بسكون الزوج إلى زوجته التي هي أعدى أعدائه؟! وما معنى وصية النبيﷺ المتكررة بالزوجات وإحسان عشرتهن، وهن أعدى الأعداء؟.

٧ـ حديث: " احملوا النساء على أهوائهن".

أخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٣٧٩) عن محمد بن الحارث، ثنا محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعًا.

وهذا الحديث ضعيف من وجهين:

- ابن البيلماني روى عن أبيه نسخة موضوعة، كما قال ابن حبان.

- محمد بن الحارث ضعيف.

قال ابن عدي: ومحمد بن الحارث عامة ما يرويه غير محفوظ.

ثم قال في ترجمة شيخه ابن البيلماني: وإذا روى عن ابن البيلماني محمد بن الحارث فجميعًا ضعيفان، والضعف على حديثهما بيِّن.

والحديث أورده الذهبي في الميزان (٣/ ٥٠٥) في ترجمة محمد بن الحارث ضمن ما ينكر عليه.

٨ـ حديث: "ثلاث لا يركن إليها: الدنيا، والسلطان، والمرأة".

قال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٨٦) رقم ١٠٣٣): ليس بحديث كما في التمييز وغيره.

وفي المصنوع (١/ ٨٨) رقم (٩٩): ليس بحديث.

وانظر: الاتقان (٥٨٨)، الأسرار المرفوعة (١٥٠)، تحذير المسلمين (٩٥)، التمييز (٦٣)، الجد الحثيث (١٠٢)، الشذرة (٣١٦)، اللؤلؤ المرصوع (١٥٧)، المقاصد الحسنة (٣٥٦)، النخبة (٩٤)، مختصر المقاصد (٣٣٢).

٩ـ حديث : " أعرُوا النساءَ يلزمْنَ الحجالَ".

أخرجه ابن جميع في معجم الشيوخ (ص ١٠٥)، الطبراني (١٩/ ٤٣٨رقم ١٠٦٣)، والخطيب في التاريخ (٩/ ٣٦٨)، (١٢/ ٣١٩)، وعزاه الألباني في الضعيفة رقم (٢٨٢٧) لأبي العباس الأصم في حديثه (٣/ ١٤٩/ ١) وابن منده في المعرفة (٢/ ١٦٢/ ١)، وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه (١١٩/ ١)، وعنه القضاعي في مسنده (ق٥٧/ ٢)، السلفي في الطيوريات (٢١٧/ ٢)، وابن عساكر (٨/ ٣١٣/ ٢، ١١/ ٢٣١/ ١)، والضياء المقدسي في المنتقى في مسموعاته بمرو (١/ ١١٣) جميعًا عن بكر بن سهل، ثنا أبو يحيى شعيب بن يحيى التجيبي، ثنا يحيى بن أيوب، عن عمرو بن الحارث، عن مجمع بن كعب، عن مسلمة بن مخلد مرفوعًا به.

وهذا الطريق ضعيف من وجهين:

الأول: مجمع بن كعب، مجهول، قال عنه ابن القطان في أحكام النظر: لا يعرف.

الثاني: بكر بن سهل الدمياطي، قال عنه النسائي: ضعيف، وذكر مسلمة بن قاسم أن الناس تكلموا فيه، ووضعوه من أجل هذا الحديث، كما ذكر ذلك الحافظ في اللسان (٢/ ٥٢) والحديث قال عنه الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ١٣٥): لا أصل له.

١٠ـ حديث: " اتّقوا الدُّنيا، واتّقوا النساء، فإنَّ إبليس طلاَّعٌ ورصَّادٌ، صيَّادٌ، وما هو بشيءٍ من فخوخه بأوثق لصيده الأتقياء، من فخوخه في النساء".

قال الألباني في الضعيفة (٢٠٦٥): موضوع، رواه الديلمي (١/ ١/ ٤٥) عن سعيد بن سنان، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن معاذ بن جبل مرفوعًا.

وبيَّض له الحافظ في مختصره للديلمي، وسعيد بن سنان، قال في التقريب:

متروك، رماه الدارقطني وغيره بالوضع.

وقال الذهبي في الضعفاء: هالِك.

وانظر ضعيف الجامع (١١٦)، وكشف الخفاء (٥٥، ٧٦).

١١ـ حديث: "ليس للنساءِ نصيبٌ في الخروج إلا مضطرةً ـ يعني ليس لها خادمٌ ـ إلا في العيدين الأضحي والفِطْرِ، وليس لهنَّ نصيبٌ من الطريق إلا الحواشي".

رواه ابن عدي في الكامل (٤/ ٥٣٣) من طريق سوار بن مصعب عن عطية، عن ابن عمر مرفوعًا.

وقال: سوار بن مصعب عامة ما يرويه ليس بمحفوظ، وهو ضعيف كما ذكروه.

١٢ـ حديث: " ليس للنساءِ سلامٌ، ولا عليهن سلامٌ".

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٥٨): حُدِّثْتُ عن أبي طالب، ثنا علي بن عثمان النفيلي: ثنا هشام بن إسماعيل العطار ثنا سهل بن هشام، عن إبراهيم بن أدهم، عن الزبيدي، عن عطاء الخراساني يرفع الحديث قال: فذكره قال الزبيدي: أخذ على النساء ما أخذ على الحيات: أن ينحجرن في بيوتهن!

قال الألباني في الضعيفة (رقم ١٤٣٠).

قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ لانقطاعه في أعلاه، وفي أدناه، على جهالة فيه وضعف.

أما الأول: فلأن عطاء الخراساني، قال الحافظ في التقريب:

صدوق، يهم كثيرًا، ويرسل ويدلس، من الخامسة، مات سنة خمس وثلاثين يعني ومائة، فهو تابعي صغير.

وأما الآخر، فظاهر من قول أبي نعيم: وحدثت عن أبي طالبفلم يذكر الذي حدثه، وأبو طالب هذا هو ابن سوادة كما في إسناد آخر قبل هذا، ولم أعرفه.

وبقية الرجال ثقات غير سهل بن هشام، فلم أعرفه أيضًا، لكن الظاهر أن فيه خطأ مطبعيًا، والصواب سهل بن هاشم، وهو الواسطي البيروتي، فقد ذكروا في ترجمته أنه روى عن إبراهيم بن أدهم، وهو ثقة. والله أعلم.

١٣ـ حديث: "الحمد لله، دفن البنات من المكرمات".

أخرجه يعقوب الفسوي في المعرفة (٣/ ١٥٩)، الطبراني في الكبير (١١/ ٣٦٦ رقم ١٢٠٣٥)، والأوسط (٢/ ٣٧٢ رقم ٢٢٦٣)، ومسند الشاميين (٣/ ٣٢٤ رقم ٢٤٠٨)، والبزار (٧٩٠-زوائده)، والخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ٥٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٧٢-١٧٣ رقم ٢٥٠)، وابن عساكر (٢/ ٣٧٢ رقم ٢٢٦٣).

وعزاه الألباني في الضعيفة (١٨٥) إلى أبي القاسم المهراني في الفوائد المنتخبة (٣/ ٢٦/ ١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٢١٦، ٨/ ٥٠٣/ ١)، (١١/ ٢٦٢/ ١)، (١٥/ ١٥٩/ ٢).

جميعًا من طريق عراك بن خالد بن يزيد، عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما عزي رسول الله ﷺعلى رقية امرأة عثمان بن عفان قال: ... فذكره.

قلت: وهذا إسناد مسلسل بالضعفاء كما تبين من كلام ابن الجوزي الآتي فعراك بن خالد وعثمان بن عطاء وأبوه لا يحتج بهم.

وقد توبع خالد تابعه محمد بن عبد الرحمن بن طلحة القرشي كما عند ابن عدي في الكامل (٧/ ٤٠٤) وهذه المتابعة لا يفرح بها؛ إذ محمد بن عبد الرحمن هذا قال عنه ابن عدى يسرق الحديث ضعيف والظاهر أنه سرق هذا الحديث من عراك؛ لذا قال ابن عدى:

وهذا حديث عراك بن خالد المدني، عن عثمان عن عطاء حدث به عنه عبد الله بن ذكوان سرقه منه محمد بن عبد الرحمن هذا.

قال ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٣٦) لا يصح، عثمان ضعيف، وأبوه رديء الحفظ، وعراك ليس بالقوي، ومحمد بن عبد الرحمن ضعيف يسرق الحديث. قال: وسمعت شيخنا عبد الوهاب بن الأنماطي الحافظ يحلف بالله - عز وجل - أنه ما قال رسول الله ﷺ من هذا شيئًا قط.

وأخرجه ابن عدي في الكامل، والخطيب في التاريخ (٧/ ٢٩١) عن حميد بن حماد، عن مسعر بن كدام، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر مرفوعًا به.

قلت: وهذا الإسناد ضعيف من أجل حميد بن حماد، قال عنه أبو داود: ضعيف، وقال ابن عدي: يحدث عن الثقات بالمناكير.

وبه أعله ابن الجوزي، فأورد الحديث في الموضوعات (٣/ ٢٣٥) من هذا الوجه، ثم قال: لا يصح؛ حميد يحدث عن الثقات بالمناكير.

وقال الذهبي في تلخيص الموضوعات ص ٣٤٤ سنده في تاريخ بغداد مظلم، عن مسلم، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر.

١٤ـ حديث: "للمرأة ستران: القبر والزوج قيل: وأيهما أفضل؟ قال: القبر".

أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٤٣٢)، والطبراني في الأوسط (٨/ ١٥١ رقم ٨٢٤٠) وفي الصغير (٤٤٨)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٣٧)، وعزاه الألباني في الضعيفة (١٣٩٦) للطبراني في الكبير (٣/ ٢٧١/ ٢) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٤/ ٣٧٢/ ١) جميعًا من طريق خالد بن يزيد، حدثنا أبو روق الهمداني، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعًا.

وقال ابن الجوزي: حديث موضوع على رسول الله ﷺ، المتهم به خالد، وهو خالد بن يزيد بن أسد القسري، قال ابن عدي: أحاديثه كلها لا يتابع عليها لا متنًا ولا سندًا، وقال الذهبي في تلخيص الموضوعات صـ ٣٤٥: الخبر باطل.

قال الألباني في الضعيفة: وفيه علة أخرى، وهي الانقطاع بين الضحاك - وهو ابن مزاحم- وابن عباس؛ فإنه لم يلقه؛ كما تقدم غير مرة.

وقد تعقب السيوطي ابن الجوزي بأن له شاهدًا من حديث على رضى الله عنه، وما أظن ذلك يفيده قوة كما يأتي بيانه في الحديث التالي:

١٥ـحديث: " للنساءِ عشرُ عوراتٍ، فإذا زوجت المرأةُ سترَ الزوجُ عورةً، وإذا ماتت المرأةُ ستر القبرُ تسعَ عوراتٍ".

منكر. أخرجه الديلمي من طريق إبراهيم بن أحمد الحسني، حدثنا الحسين بن محمد الأشقر، عن أبيه محمد بن عبد الله، عن عبد الله بن محمد، عن أبيه عن أبيه الحسن بن الحسن بن علي، عن الحسن، عن علي مرفوعًا.

ذكره السيوطي في اللآلي (٢/ ٤٣٨) شاهدًا للذي قبله، وسكت عنه هو وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٣٧٢-٣٧٣).

وأقول: إسناده مظلم، من دون محمد الأشقر لم أعرفهم، وشيخه عبد الله بن محمد؛ الظاهر أنه عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب أبو محمد العلوي، قال الحافظ: مقبول.

يعني عند المتابعة، وإلا فهو لين الحديث.

ومن فوقهم من أهل البيت معروفون بالصدق، ومترجمون في التهذيب، فالعلة ممن دونهم.

١٦ـ حديث: " من كانت عنده ابنة فقد فدح، ومن كانت عنده ابنتان فلا حج عليه، ومن كانت عنده ثلاث فلا صدقة عليه ولا قرى ضيف، ومن كانت عنده أربع فيا عباد الله: أعينوه، أعينوه، أقرضوه، أقرضوه".

قال الشوكاني في الفوائد المجموعة ص (١٣٢): رواه الحاكم عن عبادة بن الصامت مرفوعًا، وقد عده ابن الجوزي في الموضوعات.

وقال الدكتور/ البلتاجي في مكانة المرأة في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة:

- فأين هذا الكذب الصريح بإسقاط الحج والزكاة من الحديث الصحيح من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو - وضم أصابعه صحيح مسلم، كتاب البر، باب فضل الإحسان إلى البنات.

- ومن هذه الأحاديث النساء حبالة الشيطان (رقم ١٥٣٠عند العجلوني، و٥١٣ عند ابن طولون).

- ومنها ضاع العلم بين أفخاذ النساء (وهو ١٦٣٦ عند العجلوني رقم ٥٥٧ عند ابن طولون) وكل منهما يقول عنه: إنه ليس بحديث، بل هو من كلام بشر الحافي الصوفي، لكنه شاع بين الناس على أنه حديث! وقارنه بالحديث الصحيح الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة وفي رواية: الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة رواه مسلم، وأحمد، والنسائي، وابن ماجة، وغيرهم عن ابن عمرو مرفوعًا، وقد فسرت الصالحة في الحديث بقوله ﷺ: التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله وقارن ما سبق من هذه الأقوال الموروثة المشتهرة بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١). (١)

١٧ـ حديث: " اتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر".

قال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٤): هو من كلام بعضهم.

وهذا غير صحيح؛ لأنه يصدر عن سوء الظن بالمرأة الخيرة وانتظار الفساد منها، وتوقعه في كل لحظة! وهذا يخالف الأمر القرآني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

١٨ـ حديث ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك: أولهم المرأة.

قال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٨٨ رقم ١٠٣٨): قال النجم: هو من كلام الشافعي، وليس في المرفوع، وذكره العجلوني أيضًا (٢/ ٢٤٤) من قول الشافعي.

وقال الدكتور/ البلتاجي: وأين ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك من الأحاديث الصحيحة الأخرى التي أوصى فيها النبي ﷺبالنساء وإكرامهن.

---

(١) مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة (٥١١).

وقد شكك الدكتور/ البلتاجي في صحة نسبة هذا القول إلى الشافعي رحمه الله.

١٩ـ حديث: "لا تعلموهن الكتابة ولا تسكنوهن الغرف".

لا يصح وقدسبق تخريجه فى شبهة تعليم المرأة.

٢٠ـ حديث: " فضلت على آدم بخصلتين: كانت زوجته عونًا له على المعصية، وأزواجي أعوان لي على الطاعة".

أورده الغزالي في الإحياء ٤/ ١١٤.

وقال عنه الحافظ العراقي: رواه الخطيب في التاريخ (٣/ ٣٣١) وفيه محمد بن وليد بن أبان القلانسى، قال ابن عدي كان يضع الحديث.

٢١ـ حديث: " أخروهن من حيث أخرهن الله"، يعني النساء.

قال الألباني في الضعيفة (رقم ٩١٨): لا أصل له مرفوعًا.

٢٢ـ حديث: " استعينوا على النساء بالعرى فإن أحداهن إذا كثرت ثيابها وأحسنت زينتها أعجبها الخروج ".

روى من طريق إسماعيل بن عباد، عن ابن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس. وإسماعيل بن عباد وهالك وانظر أسنى المطالب (١٧٩) تبيض الصحيفة (٦) التنزيه (٢/ ٢١٢) زخيرة الحفاظ (٤٩٦) ضعيف الجامع (٨١٩) الضعيفة (٢٠٢٢) الفوائد المجموعة (٣٨١) الكشف الإلهي (٤٤) كشف الحفظ (٣٤١) اللآلئ (٢/ ١٨١) المشتهر (١٣٧) المغير (٢٧) الموضوعات (٢/ ٢٨٢) ترتيب الموضوعات (٧٠٢).

أشد الحرب النساء، وأبعد اللقاء الموت، وأشد منهما الحاجة إلى الناس ولم يثبت. وانظر: ضعيف الجامع (٨٦٤).

٢٣- حديث ابن عباس رَضِي الله عَنْهما: **" أن امرأة أتت النبي ﷺ فجلست إليه فكلمته في حاجتها وقامت فأراد رجل أن يجلس مكانها فنهاه أن يقعد فيه حتى يرد مكانها".**

رواه الدارقطني في الأفراد، وفي إسناده شعيب بن مبشر، قال عنه ابن حبان في المجروحين: يتفرد عن الثقات بما ليس من حديث الأثبات لا يجوز الاحتجاج به.

٢٤ـ حديث: " النساء ينصرف بعضهن بعضًا".

لا يثبت عن النبي ﷺ. وانظر الأسرار المرفوعة (٥٨٨)، التمييز (١٨٣)، الجد الحثيث (٤٨٣)، الشذرة (١٠٧٢)، كشف الخفاء (٢٨٠٣)، مختصر المقاصد (١١٤١)، المصنوع (٣٨٠)، المقاصد الحسنة (١٢٤٦)، النوافح (٢٣٩٧).

٢٥ـ حديث: " عشر خصال تورث النسيان أكل الطين، وأكل سؤر الفأر، وأكل التفاحة الحامضة، والجلجلان، والحجامة على النقرة، والمشي بين امرأتين، والنظر إلى المصلوب، والبول في الماء الراكد، وإلقاء القمل، والقراءة في المقبرة".

لا يثبت وانظر تذكرة الموضوعات (١٦٧)، التنزيه (٢/ ٢٦١)، ذيل اللآلئ (١٣٨).

٢٦ـ حديث: " أجيعوا النساء جوعًا غير مضر، وأعروهن عريًا غير مبرح؛ لأنهن إذا سمنَّ واكتسين، فليس شيء أحبَّ إليهن من الخروج".

أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٣٣) عن محمد بن داود بن دينار الفارسي، عن أحمد بن يونس، عن سعدان بن عبده القداحي، عن عبيد الله بن عبد الله العتكي، عن أنس بن مالك مرفوعًا.

وقال ابن عدي بعد أن ساق هذا الحديث وغيره: وهذه الأحاديث مناكير كلها، وسعدان بن عبدة القداحى غير معروف، وأحمد بن إسحاق بن يونس لا يعرف أيضًا، وشيخنا محمد بن داود بن دينار كان يكذب. اهـ.

وقال الذهبي في الميزان ٣/ ١٠ بعد أن ساق هذا الحديث مع عدة أحاديث: ولعل هذه الأحاديث من وضع محمد بن داود، ولا يدري من شيخه، ولا من شيخ شيخه.

وانظر: أيضًا لسان الميزان ٤/ ١٠٦.

* * *

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب

ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

المجلد الثاني عشر

الشُّبهاتُ اللُّغويةُ، وشُبهاتُ الإعجازِ العِلمي

دار إيلاف الدولية

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام

١٢

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع
(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال - هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢ - الكويت.

الفرع الأول: الجهراء - مجمع الخير - الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي - شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

دار العلم

للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠

الشبهات اللغوية

أولا: مقدمة الرد على شبهاتهم اللغوية.

١- القرآن هو الحَكَم على اللغة العربية وليس العكس.

الحمد لله الذي أعزَّ العربَ برسالةِ نبينا محمد ﷺ ، وشَرَّفَ اللسان العربي بأشرف الكتب المنزلة، القرآن الكريم؛ أنزله بلسان عربي مبين على أمة عربية تملك ناصية البلاغة والفصاحة، وتعرف البيان وأسراره، وتحداهم الله بالقرآن فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل آية واحدة منه.

ومن أظهر أوجه إعجاز القرآن الكريم الإعجاز اللغوي والإعجاز البياني، فقد نزل القرآن على نبي كريم في بيئة تتقن الشعر وتملك زمام لغة من أقوى اللغات وأوسعها معجمًا.

وقد غَفَلَ الملقون للشبهات حول القرآن ولغته العربية عن حياطة الله وحفظه لهما، ومقرر أن كلام الله سابق على قواعد النحو التي وضعها أبو الأسود وأبو عمرو وطوَّرها الخليل وسيبويه معتمدين في استنباطهم لهذه القواعد على القرآن الكريم وأشعار العرب وكلامهم، فلا يمكن أن تكون هذه القواعد اللاحقة حَكَمًا على الأصل الذي صدرت عنه، فإجماع النحاة ليس بحجة ملزمة، وإنما الحجة الملزمة هي اللغة نفسها.

والقرآن الكريم حُجةٌ في نفسه، غير مفتقر لإقامة الدليل من خارجه على صحة شيء فيه، فهو النموذج الأعلى للسان العربي، لغةً، ونحوًا، وصرفًا، وبيانًا، وبلاغةً، على ما سيأتي.

أما دراسة اللسان العربي فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أو حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولَّدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولَّدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

إنَّ القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقًا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي؛ وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال

العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم. (١)

ومُدوّناتُ النّحو ما قُصد بها إلا ضبط قواعد العربية الغالبة ليجري عليها النّاشئون في اللّغة العربيّة، وليست حاصرة لاستعمال فصحاء العرب، والقرّاءُ حجّة على النّحاة دون العكس. (٢)

وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ (يوسف: ٢)، فإن القواعد التي يحتاج إليها المفسِّر في فهم القرآن ترتكز على قواعد العربية، وفهم أسسها، وتذوق أسلوبها، وإدراك أسرارها، ولذلك كله فصول متناثرة، ومباحث مستفيضة في فروع العربية وعلومها. (٣)

لا يخفى على أحد أن لغة القرآن تمثل اللغة المثلى الكاملة، بيد أن ثمة مواضع منها جاء ظاهرها مشكلًا على قواعد العربية، وضوابطها التي استقاها أهل الفن من أنواع السماع العربي الفصيح، ومن هنا حرص المفسرون وأهل اللغة على إجلاء ما يلتبس من الآيات، وبيان وجهته ونسبته إلى الصحة. (٤)

والعلوم المساعدة هي التي يُتمكَّنُ بها من ضبط العلم كعلم الأصول، وكذلك علم قواعد العربية التي يضبط بها دلالات الكتاب ودلالات السنة؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - جعل القرآن عربيًّا وبلسانٍ عربيٍّ مبين، وبين أن ذلك لكي يعقل ويفهم الناس ما في هذه اللغة من أسرار وحكمٍ عظيمة، فعلم اللغة وضبطها والإلمام بها علمٌ عزيز وعلمٌ له مكانته فإنه يساعد على فهم الكتاب وفهم السنة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ٣).

القرآن عربي ولن يفهم فهما مستقيما إلا بدراسة العربية:

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن).

---

(١) انظر: مقدمة تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور.

(٢) التحرير والتنوير٨/ ١٠٣.

(٣) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ١٩٨.

(٤) جهود سيبويه في التفسير لأحمد الخراط ص ٣٤.

وقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران١٣٨].

ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام، وحكمة الإبلاغ وسماه فرقانًا. فقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]. قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. [طه: ١١٣].

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء، والمكر، ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة فقال: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

وقال: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤].

ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم فقال: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون: ٤).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]؛ لأن الأمر على البيان والتبين وعلى الإفهام والتفهم. (١)

هذا ولا يخفى على كل مَن درس الإسلام في نشأته الأولى ما كان من عداوة قريش الشديدة لرسول الله ﷺ بعد أن دعاهم إلى الله وأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وهم قد أوتوا من الفصاحة والبيان وبلاغة اللسان ما يعجب الناس لحسنه سائر الأزمان، وكان وقع القرآن عليهم ثقيلا كبيرا وأرادوا محاربته ومعارضته بكل حيلة فلم يهتدوا سبيلا ومع ذلك لم ينغمسوا فيما انغمس فيه مستشرقي عصرنا من سفاهات تضحك منها العقول بأنَّ في القرآن مخالفة لنهج العرب في كلامها وأن به أخطاء نحوية، وهم ما عرفوا لغة العرب

(١) البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ ١/ ٥.

رأسًا حتى يفهموا المكتوب بها فضلا عن أن يستدركوا على النموذج المعجز، والمثال الكامل من كلام الله، المتحدَّى به العرب الحريصين على تكذيب رسول الله ﷺ الذي سفَّه آلهتهم وازدرى آباءهم، ولم يقع العرب الجاحدون في مثل هذا الهذيان؛ لأنه كان عندهم من العقل والأنفة ما ليس عند مشركي اليوم[١].

ثم إن من قام بجمع القرآن كان عنده من العلم والدقة والتحري والشروط الصعبة في قبول الرواية القرآنية من التواتر، وصحة الإسناد، وموافقة نحو العرب، وما كان من الغيرة في قلوب الصحابة ومن بعدهم أن يتركوا في القرآن مخالفة للغة العرب، ومن قبل ذلك قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]. [٢]

٢ـ تدوين اللغة وشروط لزومها.

كان أول من أسس العربية، وفتح بابها وأنهج سبيلها، ووضع قياسها[٣]:

أبو الأسود الدؤلي وكان رجلَ أهلِ البصرة، فكان أهل الشرف والسخاء يلحنون، فوضع باب الفاعل والمفعول به، والمضاف، وحروف الرفع والنصب والجر. [٤]

متى وضعت اللغة العربية:

يترجح رأي أبي الحسن الأَخفش، أن اللغة لم تُوضع كلّها في وقت واحد، بل وقعت متلاحقةً متتابعة. [٥]

شرائط لزوم اللغة:

أحدها: ثبوت ذلك عن العرب بنقل صحيح بوجوب العمل.

والثاني: عدالة الناقلين كما يعتبر عدالتهم في الشرعيات.

---

(١) وراجع تفصيل ذلك في قسم علوم القرآن من هذه الموسوعة، شبهة ادعاؤهم عدم وجود إعجاز في القرآن.

(٢) انظر: شبهات علوم القرآن، شبهات جمع القرآن.

(٣) هذا على قول الجمهور والمشهور عند أهل اللغة، ومن أراد أن يستزيد فليرجع إلى كتاب سبب وضع علم العربية، لعبد الرحمن السيوطي. ففصّل القول هناك.

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١/ ١٢.

(٥) المزهر في علوم اللغة للسيوطي ١/ ٥٥ والخصائص لابن جني ١/ ٩٤.

والثالث: أن يكون النقل عمن قوله حجة في أصل اللغة كالعرب العاربة مثل قحطان ومَعْدٍ وعدنان، فأما إذا نقلوا عمن بعدهم بعد فساد لسانهم واختلاف المولَّدين، فلا.

ووقع في كلام الزمخشري وغيره الاستشهاد بشعر أبي تمام؛ بل في "الإيضاح" للفارسي، ووجِّه بأن الاستشهاد بتقرير النقلة كلامهم وأنه لم يخرج عن قوانين العرب.

وقال ابن جني: يستشهد بشعر المولدين في المعاني كما يستشهد بشعر العرب في الألفاظ. [١]

وأفصح العرب قريش؛ قال ابن فارس في فقه اللغة: باب القول في أفصح العرب.

وروى عن إسماعيل بن أبي عبيد الله، قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشًا أفصحُ العرب ألسنةً، وأصفاهم لغة؛ وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم محمدًا، فجعل قريشًا قُطَّان حرمه، وولاة بيته؛ فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم؛ فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبعوا عليها؛ فصاروا بذلك أفصح العرب.

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم[٢]، ولا عجرفية قيس، ولا كَشْكَشَة أسد [٣]، ولا كَسْكَسَة ربيعة [٤]، ولا كسر أسد وقيس.

وأفصحُ الخَلْق على الإطلاق هو رسول الله ﷺ . [٥]

---

(١) البحر المحيط للزركشي ٢/ ٢٢، والمزهر للسيوطي ١/ ٥٨.

(٢) العنعنة: هي إبدال الهمزة المبدوء بها عينا، فيقال في: أنك عنك، وفي أسلم عسلم، وفي أذن عذن.

(٣) الكشكشة: هي النطق بالشين بعد كاف الخطاب في المؤنث، فيقال: رأيتكِش، وبكِش، وعليكِش.

(٤) الكسكسة: هي النطق بالسين بعد كاف الخطاب أو مكانها في المذكر. انظر: المزهر للسيوطي (١/ ١٨١).

(٥) المزهر للسيوطي ١/ ١٧٢، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ١/ ٢٨.

٣- من يُحتج بكلامه ومن لا يُحتج.

باب في ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر:

عِلَّةُ امتناع ذلك ما عَرَضَ للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل.

ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر. (١)

باب في الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فصاعداً:

ومن ذلك قولهم: بغداد، وبغدان. وقالوا أيضًا: مغدان.

وقالوا للحَيَّة: أَيْم، وأَيْن. وأَعْصُر، ويَعْصُر: أبو باهلة. . . ، وما اجتمعت فيه لغتان أو ثلاث أكثر من أن يحاط به. فإذا ورد شيء من ذلك - كأن يجتمع في لغة رجل واحد لغتان فصيحتان - فينبغي أن تتأمل حال كلامه، فإن كانت اللفظتان في كلامه متساويتين في الاستعمال، كثرتها واحدة، فإن أخلق الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت في ذلك المعنى على ذينك اللفظين؛ لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه في أوزان أشعارها، وسعة تصرُّف أقوالها. (٢)

باب اختلاف اللغات وكلها حجة:

اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك، ولا تحظره عليهم؛ ألا ترى أن لغة التميميين في ترك إعمال ما يقبلها القياس، ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك؛ لأن لكل واحد من القومين ضربًا من القياس يؤخذ به، ويخلد إلى مثله. وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها؛ لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها. (٣)

لكن غاية مالَكَ في ذلك أن تتخير إحداهما، فتقويها على أختها، وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها، وأشد أنسا بها. فأما رد إحداهما بالأخرى فلا. أولا ترى إلى قول

---

(١) الخصائص لابن جني ١/ ٣٩٣، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي ١/ ٢١٢.

(٢) الخصائص لابن جني ١/ ٣٧٢.

(٣) الرسيل: الموافق لك في النضال ونحوه، لسان العرب لابن منظور مادة، رسل.

النبيﷺ: " **نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف** ". [١]

هذا حكم اللغتين إذا كانتا فيش الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين، أو كالمتراسلتين. [٢]

الاحتجاج اللغوي:

قال ابن سلام الجمحي: وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون. . . وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول. [٣]

قال عبد القادر البغدادي في " خزانة الأدب: في الكلام الذي يصح الاستشهاد به في اللغة والنحو والصرف:

قال الأندلسي: علوم الأدب ستة: اللغة والصرف والنحو، والمعاني والبيان والبديع؛ والثلاثة الأول لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب، دون الثلاثة الأخرى فإنه يستشهد فيها بكلام غيرهم من المولَّدين؛ لأنها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم؛ إذ هو أمر راجع إلى العقل، ولذلك قُبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري، وأبي تمام، وأبي الطيب وهلم جرا.

وأقول (عبد القادر البغدادي): الكلام الذي يستشهد به نوعان: شعر وغيره.

والشعراء قسمهم العلماء على طبقات أربع:

الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون، وهم مَن قبل الإسلام، كامرئ القيس والأعشى.

الثانية: المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، كلبيد وحسان.

الثالثة: المتقدمون، ويقال لهم الإسلاميون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام، كجرير والفرزدق.

---

(١) أخرجه البخاري(٤٩٩٢)، ومسلم (٨١٩)ولفظ البخاري ((إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ)).

(٢) الخصائص لابن جني ١/٣٩٨، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي ١/ ٢٥٥، والصحابي في فقه اللغة لابن فارس ١/ ٦.

(٣) طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي ١/ ٣٨ والخصائص، لابن جني ١/ ٣٨١.

الرابعة: المولَّدون، ويقال لهم المحدَثون، وهم مَنْ بعدهم إلى زماننا، كبشّار بن برد وأبي نُواس.

فالطبقتان الأوليان: يستشهد بشعرهما إجماعًا. وأما الثالثة: فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها.

وقد كان أبو عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق، والحسن البصري، وعبد الله بن شبرمة، يُلحَنون الفرزدق والكميت وذا الرُمَّة وأضرابهم. . . ، في عدة أبيات أخذت عليهم ظاهرًا؛ وكانوا يعدونهم من المولَّدين؛ لأنهم كانوا في عصرهم، والمعاصرة حجاب.

وقال ابن رشيق في العمدة: كل قديم من الشعراء فهو محدَث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله. وكان أبو عمرو يقول: لقد أحسن هذا المولَّد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا برواية شعره - يعني بذلك شعر جرير والفرزدق - فجعله مولّدًا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين. وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للمتقدمين، قال الأصمعي: جلست إليه عشر حجج، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي.

وأما الرابعة: فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقًا؛ وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم، واختاره الزمخشري.

واستشهد الزمخشري أيضًا في تفسير أوائل البقرة ببيت من شعره، وقال[1]: وهو إن كان محدثًا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزل ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه. اهـ

واعترِض عليه بأن قبول الرواية مبني على الضبط والوثوق، واعتبار القول مبنيٌّ على معرفة أوضاع اللغة العربية والإحاطة بقوانينها، ومن البيّن أن إتقان الرواية لا يستلزم إتقان الدراية. وفي الكشف أن القول رواية خاصة، فهي كنقل الحديث بالمعنى.

وقال التفتازاني في القول بأنه بمنزلة نقل الحديث بالمعنى: ليس بسديد؛ بل هو بعمل

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٨٧.

الراوي أشبه، وهو لا يوجب السماع، إلا ممَّن كان من علماء العربية الموثوق بهم، فالظاهر أنه لا يخالف مقتضاها، فإن استؤنس به ولم يُجعل دليلًا، لم يَرِد عليه ما ذكر ولا ما قيل، من أنه لو فتح هذا الباب لزم الاستدلال بكل ما وقع في كلام علماء المحدثين كالحريري وأضرابه، والحجة فيما رووه لا فيما رأوه. وقد خطئوا المتنبي وأبا تمام والبحتري في أشياء كثيرة كما هو مسطور في شروح تلك الدواوين.

وقال السيوطي: أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدَثين في اللغة والعربية.

وأول الشعراء المحدثين بشار بن برد،. . . ، ونقل ثعلب عن الأصمعي أنه قال: خُتم الشعر بإبراهيم بن هَرْمة وهو آخر الحجج.

وكذا عدّ ابن رشيق في العمدة طبقات الشعراء أربعًا، قال: هم جاهلي قديم، ومخضرم، وإسلامي، ومحدث. قال: ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدريج هكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا.

وأما قائل الثاني(١) فهو إما ربنا تبارك وتعالى، فكلامه - عز اسمه - أفصح كلام وأبلغه، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه، كما بينه ابن جني في أول كتابه "المحتسب" وأجاد القول فيه.

وأما الاستدلال بحديث النبي ﷺ فقد جوَّزه ابن مالك،. . . ، وقد منعه ابن الضائع وأبو حيان، وسندهما أمران:

أحدهما: أن الأحاديث لم تنقل كما سُمعت من النبي ﷺ، وإنما رويت بالمعنى.

وثانيهما: أن أئمة النحو المتقدمين من المِصْرَين لم يحتجوا بشيء منه.

ورُدَّ الأول - على تقدير تسليمه - بأنَّ النقل بالمعنى إنما كان في الصدر الأول قبل تدوينه في الكتب، وقبل فساد اللغة، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به، فلا فرق. على أن اليقين غير شرط، بل الظن كاف.

---

(١) أي النوع الثاني من الكلام، وهو ما كان غير شعر.

ورُدّ الثاني بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به، والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحْويّ في ضبط ألفاظه. ويلحق به ما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم. [١]

ثانيا: الشبهات والرد عليها.

(١) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ١ / ٥ – ١٠، وفصَّل مسألة الاستشهاد بالحديث النبوي السيوطي في " الاقتراح في أصول النحو " من صـ ٥٥: ٦٠.

١- شبهة: رفع المعطوف على المنصوب.

نص الشبهة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المائدة: ٦٩).

فهذه الآية بها خطأ نحْوي؛ إذ (الصابئون) معطوفة على منصوب (الذين آمنوا)، فكان حقها أن تنصب؛ فيقال: (والصابئين) ولكنها جاءت مرفوعة.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ما جاء عن النحاة والمفسرين في توجيه رفع (الصابئون).

للنحاة في هذه الآية تسعة أقوال نذكر منها الآتي:

الأول: قول الخليل وسيبويه وأتباعهما من البصريين، أن (الصابئون) مرفوع على أنه مبتدأ وخبره محذوف يدل عليه خبر ما بعده: (والنصارى من آمن منهم بالله) - أي: أن الواو للاستئناف - قالوا: والنية فيه التأخير، أي: تأخير (والصابئون) إلى ما بعد (والنصارى)، وتقدير النظم والمعنى عندهم: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك). [1]

ومن شواهد هذا الحذف عند العرب قول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما   عندك راضٍ والرأي مختلف[2]

فقد حذف الخبر من المبتدأ الأول، وتقديره: راضون لدلالة الثاني عليه: راضٍ، والمعنى: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض، فحذف خبر الأول اكتفاءً بالثاني.[3]

وقول الآخر:

---

(١) الكتاب لسيبويه ٢/ ١٥٥، التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١/ ٢٢١، ومعاني القرآن للزجاج٢/ ١٩٣، وشرح كافية ابن الحاجب للرضي ٤/ ٣٧١، ومغني اللبيب لابن هشام٢/ ١٦٨.

(٢) هذا البيت نسبه سيبويه في الكتاب لقيس بن الخطيم، ونسبه صاحب خزانة الأدب لعمرو ابن امريء القيس الخزرجي في قصيدة له. خزانة الأدب ٤ / ٢٧٥.

(٣) الكتاب لسيبويه١/ ٧٥.

فمن يكُ أمسى بالمدينة رحله فإني وقيَّارًا بها لغريب

والتقدير: فإني لغريب وقيارٌ كذلك. [١]

وهكذا ورد في الاستعمال اللغوي عند العرب؛ أن الجملة الاسمية المؤكدة بـ (إنَّ) يجوز أن يذكر فيها مبتدأ آخر غير اسم (إنَّ) وأن يذكر خبر واحد يكون لاسم (إنَّ)، ويحذف خبر المبتدأ الثاني لدلالة خبر اسم (إنَّ) عليه، أو يحذف خبر اسم (إنَّ)، ويكون الخبر المذكور للمبتدأ الثاني دليلًا على خبر اسم (إنَّ) المحذوف.

وعلى هذا تُخَرَّجُ كَلِمَةُ "الصابئون" في الآية الكريمة.

واختار الزمخشري من المفسرين النحاة هذا المذهب فقال: (والصابئون) رفع على الابتداء، وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز (إنَّ) من اسمها وخبرها؛ كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا، والصابئون كذلك. [٢]

وقد تفيد الواو العطف على محل اسم (إنَّ) الذي حقه الرفع كمبتدأ قبل تمام الخبر. [٣]

قال الفراء: فإن رفع (الصابِئين) على أنه عطف على (الذين)، و(الذين) حرف على جهة واحدة فى رفعه ونصبه وخفضه، فلمّا كان إعرابه واحدا وكان نصب (إنّ) نصبًا ضعيفًا - وضعفه أنه يقع على الاسم ولا يقع على خبره - جاز رفع الصابئين. [٤]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف للزمخشري (١/ ٦٦٠) وانظر: فتح القدير للشوكاني (٢ / ٩٠).

(٣) وهذا مذهب الكوفيين، قال الشاعر:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة... حصين عبيطات السدائف والخمرُ

فرفع الخمر على الاستئناف، فكأنه قال: والخمر كذلك، وقال آخر:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع... من المال إلا مسحتًا أو مُجلفُ

فرفع مجلف على الاستئناف، فكأنه قال: أو مجلف كذلك، وهذا كثير في كلامهم؛ انظر الإنصاف لابن الأنباري ١/ ١٨٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٠، ٢٤٠.

الثاني: أنَّ (إنَّ) في قوله تعالى: (إنَّ الذين آمنوا) ليست هي (إنَّ) الناسخة، التي تنصب المبتدأ وترفع الخبر، بل هي بمعنى: نعم؛ يعنى: حرف جواب، فلا تعمل في الجملة الاسمية لا نصبًا ولا رفعًا، وعلى هذا فالذي بعدها مرفوع المحل؛ لأن (الذين) اسم موصول، وهو مبنيٌّ في محل رفع، وكذلك (الصابئون) فإنه مرفوع لفظًا، مفرده (صابئ).

وقد استعملها العرب كذلك؛ قال قيس بن الرقيات:

برز الغواني من الشبـــاب يلمنني، وآلو مُهُنَّهْ

ويقلن شيبٌ قد علا ك وقد كبرتَ، فقلت إنَّهْ. [1]

أي فقلت: نعم.

وعلى هذا فإن كلا من (الذين) و(الصابئون) و(النصارى) أسماء مرفوعة، فلا خطأ في الآية.

والواقع أن ما ذهب إليه البصريون، هو أقوى ما أورده النحاة في توجيه رفع: (الصابئون) في هذه الآية الكريمة.

وتبقت آراء دون رأي البصريين في الحجة، منها:

ـ أن يكون (الصابئون) عطفًا على المضمر المرفوع في (هادوا)، و(هادوا) بمعنى: تابوا. [2]

ـ أن (الصابئون) عطف على الصلة بحذف الصدر أي: الذين هم الصابئون، ولايخفى بعده. [3]

ـ أنه منصوب بفتحة مقدرة على الواو والعطف حينئذ مما لا خفاء فيه، واعترض بأن لغة بلحارث وغيرهم ـ الذين جعلوا المثنى دائمًا بالألف نحو: رأيت الزيدان ومررت بالزيدان، وأعربوه بحركات مقدرة ـ إنما هي في المثنى خاصة، ولم ينقل نحو ذلك عنهم في الجمع. [4]

---

(١) الكتاب لسيبويه١/ ٤٧٥.

(٢) قال ابن الأنباري: وهذا الوجه ضعيف؛ لأن العطف على المضمر المرفوع قبيح؛ الإنصاف ١/ ١٩٠، وقد نُقل ذلك عن الكسائي، وخطأ الزجاجُ هذا التوجيه.

(٣) روح المعاني للآلوسي ٦/ ٢٠٢، ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق.

الوجه الثاني: التوجيه البلاغي للآية.

إن مخالفة إعراب (الصابئون) عما قبلها وما بعدها فيه لمحة بلاغية رائعة تشير إلى وجود فرق كبير بين هذه الطوائف الأربع:

- الذين آمنوا، الذين هادوا، النصارى، الصابئون.

فالطوائف الثلاث الأولى يربط بينها رابط قوى هو أن كل طائفة منها لها كتاب ورسول من عند الله ﷻ.

أما الصابئون فليس لهم كتاب ولا رسول، والمقام الذي تتحدث عنه الآية هو فتح باب القبول عند الله لِكُلِّ مَن آمَنَ إيمانًا صحيحًا صادقًا وداوم على عمل الصالحات، فالإيمان يمحو ما قبله ولا ينظر الله إلى ماضيهم الذي كانوا عليه من كفر ومعاصٍ، والآية بدأت بالذين آمنوا ليستمروا على إيمانهم الذي هم فيه، ويلتزموا بعمل الصالحات والله سيجزيهم خير الجزاء على إيمانهم المستمر، وصلاحهم الدائم، ثم ثنت بالذين هادوا، يعنى: اليهود، وهم كانوا في عصر نزول القرآن قد غالوا في دينهم، وحادوا عن الحق، وغيَّروا وبدَّلوا فيما أنزله الله على أنبيائهم فوعدهم الله إذا آمنوا إيمانًا صحيحًا صادقًا، وتابوا إلى الله من كل ما ابتدعوه في عقائدهم واتبعوا ما أنزل الله على خاتم رسله؛ بأنهم سيكونون في أمنٍ من عذاب الله، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وكذلك النصارى حيث جعلوا لله صاحبة وولدًا وغالوا كثيرًا في دينهم؛ إذا آمنوا إيمانًا صحيحًا صادقًا، وبرئوا من عقائدهم التي ابتدعوها، وأصلحوا شأنهم، وآمنوا بما أنزله الله على خاتم رسله، ولزموا العمل الصالح - كان سعيهم عند الله مشكورًا، ووقاهم الله ﷻ من الخوف والحزن يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ثم زاد الله في ترغيب هذه الفرق الثلاث فيما عنده بأن يجعل هذا الفضل للصابئين الذين خرجوا عن جميع الرسالات السماوية، وإذا كان الله يقبل منهم إيمانهم إذا آمنوا ويثيبهم على عمل الصالحات، فإن الذين آمنوا واليهود والنصارى أولى بالقبول عند الله، إذا آمنوا وعملوا الصالحات، ومن أجل هذا خولف إعراب: (الصابئون) ليلفت الأذهان

عند قراءة هذه الآية أو سماعها إلى الوقوف أمام هذه المخالفة، وليتساءل القارئ أو السامع ما سبب هذه المخالفة، ثم يقوده هذا التساؤل إلى الحصول على هذا المعنى الذي تقدم.

فهذه المخالفة أشبه ما تكون بالنبر الصوتي في بعض الكلمات، التي يراد لفت الأنظار إليها عند السامعين؛ قالوا: والواو في (والصابئون) ليست لعطف المفردات على نظائرها، وإنما هي لعطف (الجمل) و(الواو) التي تعطف جملة على أخرى لا تعمل في مفردات الجملة المعطوفة لا رفعًا ولا نصبًا ولا جرًا، بل تربط بين الجملتين المعطوفة والمعطوفة عليها في المعنى دون الحركات الإعرابية.

وقد جاء ذكر الصابئين في سورة الحج مقدمًا على النصارى ومنصوبًا، كما جاءت منصوبة في سورة البقرة أي: متفقة إعرابيًا مع ما قبلها، فحصل هناك مقتضى حال واحدة وهي المبادرة بتعجيل الإعلام بشمول فصل القضاء بينهم، وأنهم أمام عدل الله يساوون غيرهم.[1]

* * *

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٦/ ٢٧٠ بتصرف.

٢ـ شبهة: نصب المعطوف على المرفوع.

الشبهة في آيتين:

الأولى في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ (النساء: ١٦٢)، فما قبل كلمة (المقيمين) وما بعدها مرفوع، والمعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه، فكان حقها الرفع فتقول: والمقيمون الصلاة.

الثانية: في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

فكلمة: (الصابرين) جاءت منصوبةً بـ (الياء) بعد: (والموفون)، وكان يجب أن يرفع المعطوف (الصابرين) على المرفوع (الموفون)؛ فيقول: والموفون والصابرون، على حد زعمهم.

ففي الموضعين عُطف على كلمة منصوبة بكلمة مرفوعة، أو جاءت كلمة مرفوعة في سياقٍ كُلُّه منصوب يربط بينه العطف.

الرد على الشبهة في الآية الأولى من وجوه:

الوجه الأول: العرب تخالف الإعراب بالنصب في حالات منها: النصب على الاختصاص بالمدح، وقطع النعوت.

فالاختصاص: مخالفة إعراب كلمة لإعراب ما قبلها بقصد المدح أو الذم، ويسمى الاختصاص والقطع.[1]

يقول الزمخشري: و(المقيمين) نُصِبَ على المدح لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع،

(١) الاختصاص النحوي هو النصب على المدح، والاختصاص البياني هو النصب بإضمار فعل لائق. كتاب الكليات لأبي البقاء الكفوي ص ٥٩.

وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنًا في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان، وغبي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة والإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم، وخرقًا يرفه من يلحق بهم.

وقيل: هو عطف على (بما أنزل إليك) أي: يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء، وفي مصحف عبد الله: (والمقيمون) بالواو، وهي قراءة مالك بن دينار والجحدري عيسى الثقفي.[١]

قال ابن عطية: وإنما هذا من قطع النعوت إذا كثرت على النصب بـ (أعني)، والرفع بعد ذلك بـ (هم)، وذهب إلى هذا المعنى بعض نحويي الكوفة والبصرة.[٢]

وانتصب (المقيمين) على المدح، وارتفع (والمؤتون) أيضًا على إضمار: (وهم) على سبيل القطع إلى الرفع، ولا يجوز أن يعطف على المرفوع قبله؛ لأنَّ النعت إذا انقطع في شيء منه لم يعد ما بعده إلى إعراب المنعوت، وهذا القطع لبيان فضل الصلاة والزكاة، فكثر الوصف بأن جُعل في جُمَل.[٣]

وعطفُ (المقيمين) بالنصب ثبتَ في المصحف الإمام، وقرأه المسلمون في الأقطار دون تنكير؛ فعلمنا أنه طريقةٌ عربيةٌ في عَطْفِ الأسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى صِفَات محامد على أمثالها، فيجوز في بعض المعطوفات النصب على التخصيص بالمدح، والرفع على الاستئناف للاهتمام، كما فعلوا ذلك في النعوت المتتابعة سواء كانت بدون عطف أم بعطف كقوله

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٥٨٨.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية٢/ ١٣٥.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان٣/ ٤١١، وانظر: فتح القدير للشوكاني١/ ٥٣٧.

تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ . . . ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٧٧). (١)

والعرب تعترض من صفات الواحد إذا تطاولت بالمدح أو الذم؛ فيرفعون إذا كان الاسم رفعًا، وينصبون بعض المدح فكأنهم ينوون إخراج المنصوب بمدحٍ مجدّدٍ غير مُتْبَع لأوّل الكلام. (٢)

الوجه الثاني: شواهد العرب على ذلك.

ومن الشواهد العربية على (النصب على الاختصاص) من الشعر العربي المحتج به لغويًا ونحويًا.

من ذلك ما أورده سيبويه (تحت باب: هذا ما ينتصب على التعظيم والمدح)

ومنه قول الخِرنِق بنت هفان:

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين هُمُ ... سَمُّ العُداة وآفةُ الجُزْرِ

النازلين بكل مُعْتَركٍ ... والطيبون معاقِدَ الأُزْرِ. (٣)

والشاهد في هذين البيتين نصب: (النازلين) وهو معطوف على مرفوع وهو: (سَمُّ العُدَاة).

وقول أُمية بن أبي عائذ:

ويأوي إلى نِسوةٍ عُطَّلٍ ... وشُعْثًا مراضيعَ مثلِ السَّعَالِي

والشاهد في هذا البيت نصب (شُعثًا) وهو معطوف على مجرور (عُطَّلٍ). (٤)

وهناك آراء أخرى ذكرها العلماء لتوجيه هذه الآية، ولكنها لا تبلغ من القوة والشيوع

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور٤/ ٣١٢.

(٢) معاني القرآن للفراء٢/ ١٠٥.

(٣) الكتاب لسيبويه ٢ / ٦٤ وقد أورده الأنباري في الإنصاف:

النازلون بكل معترك ... والطيبين معاقد الأزر.

وقال: فنصبت الطيبين على المدح، فكأنها قالت: أعني الطيبين؛ الإنصاف ٢/ ٤٦٨.

(٤) انظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٦٦.

ما بلغه هذا الرأي؛ أي: النصب على الاختصاص أو القطع (المدح أو الذم). [1]

والخلاصة: أنه ينبغي الركون إلى الرأي الأول المنسوب إلى سيبويه، وأبي البقاء العكبري، والزمخشري، وابن عطية؛ لقوته أما ما عداه من آراء فلا تخلو من الضعف.

فالنصب على (المدح) أسلوب شائع في الاستعمال اللغوي العربي، وفيه من البلاغة أمر زائد على مجرد التوجيه النحوي الذي لا يتجاوز بيان عامل النصب أو الرفع أو الجر.

فـ (المقيمين) منصوب على الاختصاص، المراد منه المدح في هذا الموضع بدلالة المقام؛ لأن المؤدين للصلاة بكامل ما يجب لها من طهارة ومبادرة وخشوع وتمكن جديرون بأن يُمدحوا من الله والناس.

وهذا الاختصاص أو القطع بيان لفضل الصلاة التي جعلها الله على الناس كتابًا موقوتًا، وأمر عباده بإقامتها والمحافظة عليها في كثير من آيات الكتاب العزيز.

الرد على الشبهة في الآية الثانية: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ انتصب: والصابرين على المدح. والقطعُ إلى الرفع أو النصب في صفات المدح والذم والترحم، وعطفُ الصفات بعضها على بعض مذكورٌ في علم النحو. [2]

ونظير هذا النصب من الشعر قول الخِرنِق؛ وقد سبق، ومثل هذا في هذا الابتداء قول ابن خياط العُكلي:

وكل قوم أطاعوا أمرَ مُرشِدهم إلا نُمَيرًا أطاعت أمرَ غاويها

الظاعنين ولمَّا يُظعنوا أحدًا والقائلون لمنْ دارٌ نُخلّيها. [3]

والشاهد فيه نصب " الظاعنين " بإضمار فعل ورفع " القائلون " على إضمار مبتدأ لما قصد من معنى الذم فيهما.

---

(١) انظرها في الإنصاف للأنباري ٢/ ٤٧١، التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١/ ٤٠٨.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان٢/ ١٠.

(٣) كتاب سيبويه٢/ ٦٤.

ويحسن بنا أن نذكر الآية بتمامها لننظر فيها نظرة عامة:

- ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾. ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾. ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾. ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

فكلمات هذه الآية إذا وزعت على صفات فأشدها وقعًا على النفس وأكثرها أعباء وأشقها كلفة هي الصبر في المحن والشدائد والأخطار؛ خاصةً في ملاقاة العدو والتعرض لزحفه وسلاحه، ولهذا جاء إعراب (الصابرين) مخالفًا لإعراب ما قبلها؛ ليلفت الله أذهان العباد إلى أهمية الصبر في هذه المجالات، وهذا الإعراب المخالف لما قبله يفيد مع تركيز الانتباه وتوفير العناية بتأمُّل هذا الخُلق العظيم ـ يفيد أمرًا آخر مبهجًا للنفوس هو مدح هؤلاء الصابرين شديدي العزيمة قويي الاحتمال، إنها بلاغة القرآن المعجز، وعبقرية لغة التنزيل.

وهذا الإعراب المخالف لإعراب ما قبله، هو الذي يسميه النحاة بـ(القطع) وهو إما للمدح كما في هذه الآية، وآية النساء: (والمقيمين الصلاة)، وإما بقصد الذم كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ (المسد: ٤) أي: امرأة أبي لهب التي كانت تحمل الشوك وتنثره في طريق رسول الله لتؤذيه؛ لأن كلمة (حمالة) جاءت منصوبة بعد رفع ما قبلها، وهى (امرأتُه) فهذا قطع كذلك القصد منه الذم أي: أذم أو ألعن حمالة الحطب.[1]

---

(١) قال الزمخشري: قرىء: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ بالنصب على الشتم، وأنا أستحب هذه القراءة. ٦/ ٤٥٨.

وقال الفراء: والشتم على الاستئناف كما قال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ لمن نصبه، وقال: وأما النصب فعلى جهتين: إحداهما أن تجعل الحمالة قطعًا، والوجه الآخر: أن تشتمها بحملها الحطب، فيكون نصبها على الذم؛ معاني القرآن ٢/ ٣٥٠، ٣/ ٢٩٨.

وأيًّا كان السبب الاختصاص أو القطع للمدح أو للذم فإنه من أرقى الأساليب البلاغية، إذ يحتوى على فضيلة الإيجاز وهى أن تكون المعاني أكثر وأوفر من الألفاظ التي تدل عليها أو المستعملة فيها؛ لأن كل كلمة قُطِعَ إعرابُها عما قبلها نابت هذه الكلمةُ مناب ثلاث قيم بيانية رامزة إلى وجودها في المقام، وإن كانت محذوفة وهى:

١ـ الكلام الذي عمل الإعراب المخالف في الكلمة المقطوع إعرابها عن إعراب ما قبلها، وهو في: (الصابرين) أمدح أو أخص الصابرين بالمدح، وكذلك (المقيمين الصلاة)، وفي آية المسد: أذم أو ألعن (حمالة الحطب).

٢ـ إفادة المدح أو الذم بغير الألفاظ التي تدل عليها.

٣ـ فضيلة الإيجاز البياني مع المعاني الضافية، فسبحان من هذا كلامه!

* * *

٣ـ شبهة: نصب الفاعل.

نص الشبهة: قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة: ١٢٤).

فيه خطأ نحوي هو: نصب الفاعل (الظَّالِمِينَ)؛ لأن: (الظَّالِمِينَ) فاعل، والفاعل حكمه الرفع أبدا، فكان حقه أن يكون هكذا: لا ينال عهدي الظالمون؛ لأنه جمع مذكر سالم وعلامة رفعه "الواو".

والرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: الفعل: (نال) له خواص في اللغة العربية.

(نول) النون والواو واللام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إعطاءٍ، ونَوَّلته: أعطيته، والنَّوال: العَطاء، ونُلْتُه نَولًا مثل أنلته، وقولك: ما نَوْلُكَ أن تفعل كذا؛ فمنه أيضًا أي: ليس ينبغي أن يكون ما تُعطِيناهُ مِنْ نوالِك هذا، وقولُ لبيد:

وقفتُ بهنَّ حتَّى قال صحبي ... جَزِعتَ وليس ذلك بالنَّوالِ

قالوا: النّوال: الصَّواب، وتلخيصه: ليس ذلك بالعطاء الذي [إن] أعطيتَناه كنتَ فيه مصيبًا. وكذا قوله:

فدَعِي الملامةَ ويْبَ غيرِكِ إنَّه ... ليس النّوال بلوم كلِّ كريم

والقياس في كلِّه واحد. (١)

ونص العلماء على أن من خواص الفعل "نال" أن فاعله يجوز أن يكون مفعولًا، ومفعوله يجوز أن يكون فاعلًا على التبادل بينهما: "لا ينال عهدي الظالمين" هذا هو المشهور على جعل العهد هو الفاعل، ويقرأ الظالمون على العكس، والمعنيان متقاربان لأن ما نلته فقد نالك. (٢)

الوجه الثاني: توجيه النصب لقوله: (الظالمين).

أما في قوله تعالى: "لا ينال عهدي الظالمين" فالفاعل هو: "عهدي" مرفوع بضمة مقدرة

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة نول.

(٢) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١/ ١١٢.

منع من ظهورها اشتغال المحل [١] بحركة المناسبة لـ "ياء" المتكلم، والمفعول به هو: "الظالمين" والمعنى: لا ينفع عهدي الظالمين، ومجيء "الظالمين" منصوبًا هو قراءة الجمهور من القراء. [٢]

وليس في مجيء "الظالمين" منصوبًا على المفعولية خلاف بين العلماء، ومعناه: أي لا يصل عهدي إلى الظالمين فيدركهم. [٣]

وذكر أنه في قراءة ابن مسعود: "لا ينال عهدي الظالمون"، بمعنى: أن الظالمين هم الذين لا ينالون عهد الله، وإنما جاز الرفع في: "الظالمين" والنصب، وكذلك في"العهد"؛ لأن كل ما نال المرءَ فقد ناله المرءُ، كما يقال: "نالني خيرُ فلان، ونلتُ خيرَه"، فيوجه الفعل مرة إلى الخير ومرة إلى نفسه. [٤] أي أن العهد يَنال كما يُنال. [٥]

واختلف أهل التأويل في العهد الذي حرم الله ـ جل ثناؤه ـ الظالمين أن ينالوه فقال بعضهم: ذلك العهد هو النبوة. . ، وقال آخرون: معنى ذلك أنه لا عهد عليك لظالم أن تطيعه في ظلمه. . ، وقال آخرون: معنى العهد في هذا الموضع الأمان. . ، وقال آخرون: بل العهد الذي ذكره الله في هذا الموضع دين الله. . [٦]

ولا يخفى ما في هذا التعبير القرآني من بلاغة؛ إذ العهد هو الذي يختار مَنْ يُسند إليه في رفعة وشرف، كما أنه لابد أن يقدم هنا، لأنه مضاف إلى الله تعالى فهل يُستساغ أن يُقدم الظالمون عليه؟!

* * *

(١) المحل هنا هو حرف الدال من "عهدي".

(٢) وانظر: معجم القراءات (١ / ١٨٩). وذكر أن أبا رجاء وقتادة والأعمش وابن مسعود وطلحة بن مصرف يقرؤون بالرفع.

(٣) الفتوحات الإلهية للجمل ١/ ١٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٥٣٢.

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٢٠٧.

(٦) تفسير الطبري ١/ ٥٣٠ وما بعدها.

٤ـ شبهة: تذكير المؤنث.

نص الشبهة: في سورة الأعراف (٥٦): ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي سورة الأحزاب (٦٣): ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، وفي سورة الشورى (١٧): ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وكان يجب أن يتبع الخبرُ المبتدأَ في التأنيث فيقول: قريبة.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تذكير المؤنث وتأنيث المذكر مشهور في اللغة العربية.

قال ابن جني في "باب الحمل على المعاني": اعلم أن هذا الشَّرْج [1] غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح. قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثورا ومنظوما، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعا وغير ذلك. مما تراه بإذن الله.

ثم ذكر ابن جني عدة شواهد على ذلك من القرآن فقال: ومنه قول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

أي هذا الشخص أو هذا المرئي ونحوه. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ لأن الموعظة والوعظ واحد.

ومن شواهده في الشعر:

من تذكير المؤنث قوله: (فلا مُزْنَةٌ ودَقَتْ وَدْقَها. . . ولا أرضَ أبقلَ إبقالها) [2]

ذهب بالأرض إلى الموضع والمكان.

ومن تذكير المؤنث أيضا قول الله تعالى قوله تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ لأنه تعالى

---

(١) الشَّرْج: الضَّرْب يقال هُما شَرْج واحدٌ وعلى شَرْج واحد أَي ضرْب واحد؛ لسان العرب لابن منظور شرج.

(٢) قاله عامر بن جوين الطائي، يصف أرضا مخصبة بكثرة ما نزل بها من الغيث. سيبويه ١/ ٢٤٠ الخصائص ٢/ ٤١١، الخزانة ١/ ٢١، ٣/ ٢٣٠. المزنة: القطعة من السحاب. ودقت: أمطرت. والودق: المطر. أبقلت: أخرجت البقل، والمراد النبات.

أراد بالسماء السّقْفَ لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾

ومن تأنيث المذكر قول الشاعر:

أتهجُرُ بيتًا بالحجازِ تلفّعَتْ به الخوفُ والأعداءُ من كلّ جانبِ[1]

أنّث الخوفَ لأنه ذهب به إلى المخافة، ومثله بيتُ الحماسة:

يا أيها الراكِبُ المُزْجي مطيّتُه سائلْ بني أسَدٍ ما هذه الصّوتُ[2]

أنّث الصوت؛ لأنه ذهب به إلى الاستغاثة، وإذا جازَ تأنيثُ المذكر في كلامِهم حمْلًا على المعنى، وهو منهم حمْلُ الأصلِ على الفرع، كان تذكيرُ المؤنث أجدرَ بالجَوازِ من حيثُ كان الأصلُ هو التذكير، ومن الحسَنِ الجميلِ ردُّ الفروعِ إلى الأصول.[3]

الوجه الثاني: توجيه العلماء لهذا اللفظ.

١ - إنما قيل: (قريب) لأن الرحمة والغفران في معنى واحد، وقال الأخفش: جائز أن تكون الرحمة ههنا في معنى: المطر.[4]

٢ - الرحمة والرحم عند العرب واحد فحملوا الخبر على المعنى، فذُكِّر- قريب - على معنَى: الرُّحْم[5]، وقيل: على معنى: الفَضْل.[6]

---

(١) ذكره ابن جني في الخصائص (٢ / ٤١٥) وابن منظور في اللسان (٩ / ٩٩ مادة خوف) وغيرهما ولم ينسبوه لقائل.

(٢) ديوان الحماسة (١ / ٤٧) ونسبه إلى رويشد بن كثير الطائي.

(٣) نضرة الإغريض في نصرة القريض للمظفر بن الفضل العلوي؛ الفصل الثاني: فيما يجوزُ للشاعر استعمالُه وما لا يجوز وما يُدركُ به صوابُ القولِ ويجوز، وانظر فقه اللغة للثعالبي ٣٣٢؛ فصل في حمل اللفظ على المعنى في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٤.

(٥) رَحِمَهُ رُحْمًا ورُحُمًا ورَحْمَةً ورَحَمَةً - حكا الأَخيرة سيبويه - ومَرحَمَةً، أما الرَّحِمُ والرِّحْمُ: بيت مَنْبِتِ الولد ووعاؤه في البطن. والرَّحِمُ رَحِيمُ الأُنثى وهي مؤنثة. والرُّحْمُ والرُّحُمُ في اللغة العطف والرَّحْمَةُ. قال رؤبة: يا مُنْزِلَ الرُّحْمِ على إِدْرِيس ومنزل اللعن على إبليس. لسان العرب لابن منظور رحم ١٢/ ٢٣٠وما بعدها.

(٦) المخصص لابن سيده ٥ / ١٠٨. باب: ما جاء على فَعُول مما هو صِفَة في أكثَر الكلامِ واسمٌ في أَقَلِّه.

٣ - قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بمعنى: إنعام الله قريب وثواب الله قريب فأجرى حكم أحد اللفظين على الآخر. [١]

٤ -ومنهم من جعله من باب النَّسَبِ؛ أي: ذات قرب، كقولهم في حائض: ذات حيض. [٢]

٥ - وقيل: الاسم إذا وصف بالمصدر كان واحدُه وجميعُه سواء وكذلك مذكره ومؤنثه كان بمعنى المفعول أو بمعنى الفاعل... تقول: (هو قريب منك وهم قريب منك)[٣].

٦ - وقيل: الرحمة مصدر والمصادر كما لا تجمع لا تؤنث. [٤]

٧ - وقيل من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مع الالتفات إلى المحذوف فكأنه قال: وإن مكان رحمة الله قريب، ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره.

وقيل من باب إكساب المضاف حكم المضاف إليه إذا كان صالحا للحذف والاستغناء عنه بالثاني. [٥]

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٤/ ١٣٧، وانظر المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٤١١، والبحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٣١٤، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٠٢.

(٢) وذلك قولك: امرأة حائض، وهذه طامث، كما قالوا: ناقة ضامر، يوصف به المؤنَّث وهو مذكّر. . . فزعم الخليل أنَّهم إذا قالوا حائض فإنَّه لم يخرجه على الفعل، كما أنه حين قال: دارع لم يخرجه على فعل، وكأنَّه قال: درعيٌّ. فإنَّما أراد: ذات حيضٍ ولم يجئ على الفعل. الكتاب لسيبويه٣/ ٣٨٣.
وللبصريين في نحو حائض وطامث وطالق مذهبان: فعند الخليل أنها على معنى النسب كلابن وتامر، كأنه قيل: ذات حيض وذات طمث. المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري تاء التأنيث القسم الأول ١/ ٢٤٩، وانظر شرح المفصل لابن يعيش٥/ ١٠٠.

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة ١/ ٣٨٧. وقيل: هو مصدر جاء على فعيل كالضغيث وهو صوت الأرنب، والنقيق - وهو صوت الضفدع - وإذا كان مصدرًا صح أن يخبر به عن المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع بلفظ المصدر؛ البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٣١٤.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣٦٠.

(٥) والمشهور في هذا تأنيث المذكر لإضافته إلى مؤنث كقوله:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت. . . أعاليها مر الرياح النواسم

فقال: تسفهت والفاعل مذكر؛ لأنه اكتسب تأنيثا من الرياح إذ الاستغناء عنه جائز وإذا كانت الإضافة على

٨ - وقيل من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه أي: إن رحمة الله شيء قريب أو لطيف أو بر أو إحسان. (١)

الوجه الثالث: لفظ (قريب) يستخدم لمعنيين: قرابة النَسَب، وقرابة المكان.

فإذا استخدم لقرابة المكان كان التذكير والتأنيث فيه سواء، قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قال الفراء: ذُكِّرَت (قريب) لأنه ليس بقرابة في النَّسَب، قال: ورأيت العرب تؤنث القريبة في النسب لا يختلفون فيها، فإذا قالوا: دارك منّا قريب، أو فلانة منك قريب في القرب والبعد ذكَّروا وأنَّثوا، وذلك أن القريب في المعنى وإن كان مرفوعا فكأنه في تأويل: هي من مكان قريب. فجعل القريب خَلَفا من المكان؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ولو أنَّث ذلك فبنى على بَعُدَتْ منك فهي بعيدة، وقَرُبت فهي قريبة كان صوابًا حسنًا، وقال عروة:

عشِيَّةَ لا عفراءُ مِنك قرِيبة فتدنو ولا عفراء مِنك بعِيد. (٢)

هذا تعطى المضاف تأنيثا لم يكن له فلأن تعطيه تذكيرا لم يكن له كما في الآية الكريمة أحق وأولى؛ لأن التذكير أولى والرجوع إليه أسهل من الخروج عنه.

وقيل: من الاستغناء بأحد المذكورين لكون الآخر تبعًا له ومعنى من معانيه، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: فظلت أعناقهم لها خاضعين فاستغنى عن خبر الأعناق بخبر أصحابها، والأصل هنا: إن رحمة الله قريب وهو قريب من المحسنين فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود وسوغ ظهور ذلك المعنى، ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى: وما يدريك لعل الساعة قريب، قال البغوي: لم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي ومجازها الوقت، وقال الكسائي: إتيانها قريب. البرهان للزركشي ٣/ ٣٦٠، وانظر تفسير البغوي المسمى: معالم التنزيل ٢/ ١٦٦.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣٦٠، وانظر شرح المفصل للزمخشري لابن يعيش: فصل:. . . يجوز تركه - أي: الموصوف - وإقامة الصفة مقامه ٣ / ٥٨.

(٢) هذا البيت لعروة بن حزام من قصيدة له أوّلها: (وإني لتعروني لذكراك روعة ** لها بين جلدي والعظام دبيب) انظر: خزانة الأدب ٣/ ٢١٥، الأغاني للأصفهاني ٢٤/ ١٢٩.

ومن قال بالرفع وذكَّر لم يجمع (قريب) ولم يثنّه، ومن قال: إنّ عفراء منك قريبة أو بعيدة ثنَّى وجمع.[(١)]

الوجه الثالث: الصيغة: (فعيل) يستوي فيها المذكر والمؤنث.

ويستوي المذكر والمؤنث في فعول ومفعال ومفعيل وفعيل بمعنى مفعول ما جرى على الاسم، تقول: هذه المرأة قتيل بني فلان، ومررت بقتيلتهم، وقد يشبه به ما هو بمعنى فاعل قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقالوا: ملحفة جديد.[(٢)]

وتذكير المؤنث كقوله:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى... وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

فإذا كان الاسم على وزن (فعيل) في معنى (مفعول) فهو في المؤنث والمذكر سواء وهو بمنزلة (فعول).[(٣)]

الوجه الرابع: (قريب وبعيد) للمفرد والمثنى والجمع؛ المذكر والمؤنث[(٤)].

ومعنى البيت: أن الشاعر جمع بين الوجهين التأنيث والتذكير والموصوف مؤنث؛ لأن " قريب " و" بعيد " أريد بهما القرب في المكان والبعد فيه، والآية الكريمة ليس القرب المذكور فيها مرادًا به قرب النسب فيلزم تأنيثه، وإنما المراد قرب الزمان، والعرب تجيز فيه الوجهين: التأنيث والتذكير.

ولامرئ القيس - وهو من شعراء الجاهلية وشعرهم حُجة في إثبات اللغة - بيتٌ نحا فيه هذا المنحى؛ فقال:

له الويل إن أمسى ولا أم سالم... قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

والشاهد في البيت تذكير " قريب " مع جريانه على مؤنث أم سالم وهو نظير " قريب " في الآية الكريمة.

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٠. وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، وقول عبيد بن الأبرص:

فنفضت ريشها وانتفضت... وهي من نهضة قريب.

(٢) المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري ١/ ٢٥٠. وانظر شرحه لابن يعيش ٥/ ١٠٢.

(٣) سيبويه في الكتاب ٣/ ٦٤٧.

(٤) قال الكسائي: قريب نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنًى ولفظ واحد؛ تفسير القرطبي ١٦/ ١٨، وانظر تفسير الشوكاني ٢/ ٣٠٢.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ هذا موضع يكون في المؤنثة والثنتين والجميع منها بلفظ واحد ولا يُدْخلون فيها الهاء؛ لأنه ليس بصفة ولكنه ظرف لهن وموضع، والعرب تفعل ذلك في قريب وبعيد قال:

فإن تمس ابنة السّهميّ منا بعيدا لا نكلّمها كلاما

وقال الشّنفرى:

تؤرقنى وقد أمست بعيدا وأصحابى بعيهم أو تباله

فإذا جعلوها صفة في معنى مقتربة قالوا: هي قريبة وهما قريبتان وهن قريبات. [(١)]

- ويجوز أن يسوى في قريب وبعيد، وقليل وكثير، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما. [(٢)]

كما قالوا: هو صديق، وهم صديق، وهي صديق، وهن صديق. [(٣)]

الوجه الخامس: قال: قريب، ولم يقل: قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي.

فقيل: لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي؛ قاله الجوهري. وتأنيث " رحمت " لما كان تأنيثًا مجازيًا لا حقيقيًا جاز في الاستعمال اللغوي تأنيث خبره وصفته، وجاز تذكيرهما على حدٍ سواء، سواء كان في ضرورة الشعر، أو في النثر. [(٤)]

ومن وراء هذه التوجيهات اللغوية والنحوية تكمن نكت بلاغية:

فقد أورد ابن القيم - يرحمه الله - في بدائع الفوائد اثنا عشر مسلكًا لتوجيه تذكير

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢١٦.

(٢) الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٢٢.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٣١٥.

(٤) وهذا ليس بجيد إلا مع تقديم الفعل، أما إذا تأخر فلا يجوز إلا التأنيث تقول: الشمس طالعة ولا يجوز طالع إلا في ضرورة الشعر بخلاف التقديم فيجوز: أطالعة الشمس وأطالع الشمس كما يجوز طلعت الشمس وطلع الشمس ولا يجوز طلع إلا في الشّعر؛ إعراب القرآن لابن سيدة: سورة الأعراف، وانظر: مغني اللبيب لابن هشام ٢/ ٢٢١.

(قريب) والتي كان حقها التأنيث ـ زعموا ـ وأقوى ما ذكره:

المسلك السادس: إن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر لكونه تبعًا له ومعنى من معانيه، فإذا ذكر أغنى عن ذكره؛ لأنه يفهم منه، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ الشعراء: ٤، فاستغنى عن خبر الأعناق بالخبر عن أصحابها، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه)؛ المعنى: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، فاستغنى بإعادة الضمير إلى الله إذ إرضاؤه هو إرضاء رسوله فلم يحتج أن يقول: يرضوهما، فعلى هذا يكون الأصل في الآية: إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله قريبة من المحسنين، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود وسوغ ذلك ظهور المعنى. وهذا المسلك مسلك حسن إذا كسي تعبيرًا أحسن من هذا وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الأفهام وهو من أسرار القرآن والذي ينبغي أن يعبر عنه به: أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه؛ لأن الصفة لا تفارق موصوفها فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منها، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين، وقد تقدم في أول الآية أن الله تعالى قريب من أهل الإحسان بإثابته ومن أهل سؤاله بإجابته وذكرنا شواهد ذلك، وأن الإحسان يقتضي قرب الرب من عبده كما أن العبد قريب من ربه بالإحسان، وأن من تقرب منه شبرًا تقرب الله منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين ورحمته قريبة منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة، وأن الله تعالى قريب من المحسنين وذلك يستلزم القربين: قربه وقرب رحمته، ولو قال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم؛ لأن قربة تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يسلتزم الأخص بخلاف قربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته فلا تستهن بهذا المسلك فإن له شأنًا وهو متضمن لسر بديع من أسرار

الكتاب وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم.

فهو مسلك سابع في الآية وهو المختار وهو من أليق ما قيل فيها، وإن شئت قلت قربه تبارك وتعالى من المحسنين وقرب رحمته منهم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر فإذا كانت رحمته قريبة منهم فهو أيضًا قريب منهم، وإذا كان المعنيان متلازمين صح إرادة كل واحد منهما، فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ وأشرفه وأجله على الإطلاق، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد، وهو قربة تبارك وتعالى من عبده الذي هو غاية الأماني ونهاية الآمال وقرة العيون وحياة القلوب وسعادة العبد كلها، فكان في العدول عن قريبة إلى قريب من استدعاء الإحسان وترغيب النفوس فيه ما لا يتخلف بعده إلا من غلبت عليه شقاوته ولا قوة إلا بالله تعالى. [1]

وبعد هذا العرض الذي ربما طال بعض الشيء لإحاطة القارئ بما حول الآية؛ فلا يخفى ما في تذكير (قريب) مع أنها تعود ـ ظاهرًا ـ على مؤنث (رحمت) من روعة في النظم، إذ هناك فرق بين قرب المكان وقرب النسب (المصاهرة)، وهذا من لطيف الفروق العربيّة في استعمال المشترك إزالةً للإبهام بقدر الإمكان.

وكذلك تغليب قرب الله ﷻ على قرب رحمته، فقربه ﷻ قرب لرحمته.

والإيجاز الذي في الاكتفاء بخبر واحد عن الله ﷻ وصفته (رحمت)؛ فالصفة لا تفارق موصوفها.

* * *

(١) فليراجع كلام ابن القيم في بدائع الفوائد ٣/ ٥٤٠ ففيه فوائد بديعة.

٥ـ شبهة: تأنيث العدد وجمع المعدود.

نص الشبهة: قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (الأعراف: ١٦٠)، وكان يجب أن يُذَكَّرَ العَدَدُ ويأتي به مفردًا فيقول: اثني عشر سبطًا.

والجواب من عدة وجوه:

الوجه الأول: الإعراب جاء على المعنى لا اللفظ.

فالحمل على المعنى قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثورًا ومنظومًا، كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث. . . [١]

قال الفراء: قال تعالى: " اثنتي عشرة "، والسبط[٢] ذُكِّر؛ لأن بعده أمم، فذهب التأنيث إلى الأمم، ولو كان (اثني عشر) لتذكير السبط كان جائزًا. [٣]

وهو مثل قول الشاعر:

وإنَّ كلابًا هذه عشر أبطنٍ   وأنت بريء من قبائلها العشر [٤]

ذهب بالبطن إلى القبيلة والفصيلة؛ فلذلك جمع البطن بالتأنيث. [٥]

فإن قلت: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعًا؟ وهلاّ قيل: اثني عشر سبطًا؟

قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقًا؛ لأنّ المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطًا موضع قبيلة، ونظيره:

. . . بينَ رِمَاحِيْ مَالِكٍ وَنَهْشَلِ.

---

(١) انظر: الخصائص لابن جني ٢/ ٨٠، وانظر الكتاب لسيبويه ٣/ ٥٥٩، وسبق هذا في جواب الشبهة المتقدمة.

(٢) الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهما السلام؛ تفسير القرطبي، وانظر أيضًا معاني القرآن للنحاس؛ سورة الأعراف.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٧.

(٤) البيت للنواح الكلابي؛ الدر المصون للسمين الحلبي؛ سورة الأعراف، وانظر: الكتاب لسيبويه ٣/ ٥٦٥، والخصائص لابن جني ٢/ ١٨٥.

(٥) تفسير الطبري ٦/ ٨٨، وانظر: تفسير البغوي ٢/ ٢٠٧، والمحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٤٦٥، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٥٩. وانظر: معاني القرآن للفراء البقرة: ٢١٢.

و (أُمَمًا) بدل من اثنتي عشرة بمعنى: وقطعناهم أممًا؛ لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمّه الأخرى، لا تكاد تأتلف. (١)

ويكون المعنى: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقةً أممًا. (٢)

ونظيرُ وصف التمييز المفرد بالجمع مراعاةً للمعنى قولُ الشاعر:

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودًا كخافِيةِ الغراب الأسحم. (٣)

ولم يقل: سوداء. (٤)

فوصف (حلوبة) وهي مفردةٌ لفظًا بـ (سُوْدًا) وهو جمع مراعاةً لمعناها، إذ المرادُ الجمع. (٥)

الوجه الثاني: يوجد تقديم وتأخير في الآية.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديرها: وقطعناهم أسباطًا أممًا اثنتي عشرة، والأسباط: القبائل واحدها: سبط. (٦)

الوجه الثالث: (أسباطًا) بدل لا تميز.

المعنى: قطعناهم اثنتي عشرة فرقة، أسباطًا من نعت فرقة، كأنه قال: جعلناهم أسباطًا وفرقناهم أسباطًا، فيكون أسباطًا بدلًا من اثنتي عشرة؛ وهو الوجه.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ١٦٨.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥، وتفسير الرازي ١٥/ ٣٣، روح المعاني للآلوسي ٩/ ٨٧.

(٣) البيت لعنترة؛ ذكره الفراء في معاني القرآن١/ ١٣٠. قال البغدادي: يجوز وصف المميز المفرد بالجمع باعتبار المعنى كما في البيت، فإن حلوبة مميز مفرد للعدد، وقد وصف بالجمع وهو سود: جمع سوداء.
خزانة الأدب: الشاهد السادس والأربعون بعد الخمسمائة، وقد عزاه إلى ابن السراج؛ انظر الأصول في النحو لابن السراج ١/ ٣٢٥.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٤٠٥.

(٥) الدر المصون في علم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٥ / ٣٥٠.

(٦) تفسير البغوي٢/ ٢٠٧، والبحر المحيط ٤/ ٤٠٦.

وقوله: (أممًا) من نعت أسباطًا. (١)

فقوله: "أممًا" إمَّا نعتٌ لـ« أسْبَاطًا »، وإما بدل منها بعد بدلٍ على قولنا: إنَّ «أسباطًا » بدلٌ من ذلك التَّمييز المقدَّر. (٢)

(قَطَّعْنَاهُمْ): صيَّرْناهم قطعًا متميزًا بعضهم عن بعض.

(اثْنَتَي عَشْرَةَ) مفعول ثان لقطع؛ فإنه متضمن معنى صير أو حال، وتأنيثه للحمل على الأمة أو القطعة، أسباطًا بدل منه ولذلك جمع، أو تمييز له على أن كل واحد من اثنتي عشرة أسباط فكأنه قيل: اثنتي عشرة قبيلة. (٣)

وقال الزجاج: المعنى: (وقطعناهم اثنتي عَشْرَةَ) فرقة (أَسْبَاطًا) فقوله: (أَسْبَاطًا) نعت لموصوف محذوف، وهو الفرقة.

وقال أبو علي الفارسي: ليس قوله: (أَسْبَاطًا) تمييزًا، ولكنه بدل من قوله: (اثنتي عَشْرَةَ). (٤)

ويجوز أن يكون تمييزًا؛ لأنه مفرد تأويلًا، فقد ذكروا أن السبط مفردًا ولد الولد، أو ولد البنت، أو الولد، أو القطعة من الشيء؛ أقوال ذكرها ابن الأثير، ثم استعمل في كل جماعة من بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، ولعله تسمية لهم باسم أصلهم كتميم، وقد يطلق على كل قبيلة منهم أسباطًا أيضًا كما غلب الأنصار على جمع مخصوص، فهو حينئذ بمعنى: الحي والقبيلة؛ فلهذا وقع موقع المفرد في التمييز. (٥)

وأيضًا إذا أردت أن تجمع جماعات مختلفة جاز أن تفسر العشرين ونحوها بجماعة، فتكون عشرون كل واحد منها جماعة، ومثل ذلك قولك: قد التقى الخيلان فكل واحد

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٨٣.

(٢) تفسير الدر المصون للسمين الحلبي ٥ / ٤٨٧، وانظر تفسير اللباب لابن عادل ٩ / ٣٤٩.

(٣) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١ / ٥٩٩ وانظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٦٦.

(٤) التفسير الكبير للرازي ١٥ / ٣٨٨.

(٥) روح المعاني للآلوسي ٩/ ٨٧.

منهما جماعة خيل، فعلى هذا تقول: التقى عشرون خيلًا على أن كل واحد من العشرين خيل؛ قال الشاعر:

تبقلت من أول التبقل بين رماحي مالك ونهشل

لأن مالكًا ونهشلًا قبيلتان، وكل واحدة منهما لها رماح، فلو جمعت على هذا لقلت: عشرون رماحًا قد التقت تريد عشرين قبيلة لكل منها رماح، ولو قلت: عشرون رُمْـحًا كان لكل واحد منها رمح. [1]

ومثل آية سورة الأعراف في القرآن قولُه تعالى في سورة الكهف الآية ٢٥: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥) بدلًا من ثلاثمائة سنة في التركيب المعتاد، والمعنى: ولبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة، وكلاهما صحيح على ما سبق توجيهه.

وبعدُ، فهذا التعبير القرآني لم يخالف اللغة العربية التي نزل بلسانها مخاطبًا أهلها، فالإعراب على المعنى يُجيز أن يذهب تأنيثُ (اثنتي عشرة) إلى ما يُفهم من معنى الكلام؛ وهو فرقة أو أمة. . أو غيرهما، ودليل ذلك (أممًا) التي جاءت بعد ذلك؛ كما جاء في بيت النواح الكلابي: (وإن كلابًا هذه عشر أبطن. . .).

وأما أسباطًا؛ فإن كانت تمييزًا فهي بمعنى المفرد للدلالة على جمع مخصوص كدلالة الأنصار على قبيلة أو جماعة أو فرقة ما، أو هي وصف لتمييز محذوف؛ وإن كان هذا التمييز مفردًا فيجوز وصفه بالجمع كما في بيت عنترة: (فيها اثنتان وأربعون حلوبة. . سودًا. . .)، وقد تكون (أسباطًا) بدلًا من (اثنتي عشرة)، أو يكون هناك تقديم وتأخير والتقدير: وقطعناهم أسباطًا أممًا اثنتي عشرة.

وقريب من ذلك ما جاء في سفر العدد ٢٩/ ١٣من كتابهم: (أربعة عشر حملًا حوليًا صحاح) بجمع صحاح على أساس أنها تابعة لأربعة عشر لا لحملًا حوليًا، وإلا لقال:

(١) العدد في اللغة لابن سيده اللغوي ١٢.

أربعة عشر حملًا حولًا صحيحًا، مثلما فعل في سائر المواضع الأخرى من نفس الفصل.

ومثله ما جاء في سفر الأيام الثاني ١٣/ ١٧ من أنه قد: (سقط قتلى من بني إسرائيل خمسمائة ألف رجل منتخبون) بدلًا من: خمسمائة ألف رجل منتخب بالإفراد والجر لا بصيغة جمع المذكر السالم.

ومثل الآية القرآنية بالضبط ما جاء قبل ذلك في الفقرة الثالثة من نفس الفصل من أن يربعام قد صاف أبيًا (بثمانمائة ألف منتخبين من جبابرة البأس، وما جاء في ١١/ ١٧ من السفر نفسه من أنه كان مع ألياداع (مائتا ألف مسلحون بالقسي والتروس ومع يوزاباد (مائة وثمانون ألفًا متجردون للحرب. .) إلخ.

* * *

٦ـ شبهة: عودة الجمع على مثنى.

نص الشبهة: جاء في سورة الحج الآية (١٩): ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ والقياس أن يثنى الضمير العائد على المثنى فيقول: خصمان اختصما في ربهما.

وهناك عدة آيات يُظَنُّ أنها خلطت بين المثنى والجمع، فأرجعت حديث الجمع على المثنى؛ منها:

- ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ (النساء: ١١).
- ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨).
- ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (يوسف: ٨٣).
- ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنبياء: ٧٨).
- ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الشعراء: ١٥).
- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ (ص: ٢١-٢٢).
- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ (الحجرات: ٩).
- ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الرد الإجمالي

أن عامة الآيات التي جاء بها كلام يفيد الجمع وظاهر اللفظ أنه يعود على مثنى، إما أنها تعود بالفِعْلِ عَلَى جَمْعٍ وهذا واضح من سياقها، وقد أَيَّدَ ذلك سبب نزول الآية أو ما ورد من الأخبار الصحيحة وغير ذلك، وإما أن اللفظة المستخدمة تقع على المفرد والمثنى والجمع مذكرًا ومؤنثًا سواء بسواء، وإما أن اللفظة وهي مثنى مفردها يفيد الجمع ولذا

صح الإخبار عنهما بالجمع.

الوجه الثاني: الرد التفصيلي على كل آية.

وبيان ذلك ما يأتي:

- آية النساء:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه دخل على عثمان بن عفان ﷺ فقال: « إن الأخوين لا يردَّان الأم عن الثلث » قال الله ﷻ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾« فالأخوان بلسان قومك ليسا بإخوة! »، فقال عثمان بن عفان: لا أستطيع أن أرد ما كان قبلي ومضى في الأمصار وتوارث به الناس. (١)

قال ابن العربي: يَنْطَلِقُ لَفْظُ الْإِخْوَةِ عَلَى الْأَخَوَيْنِ؛ بَلْ قَدْ يَنْطَلِقُ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ عَلَى الْوَاحِدِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: نَحْنُ فَعَلْنَا؛ وَتُرِيدُ الْقَائِلِ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً. قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾. وَقَالَ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وَقَالَ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾. وَقَالَ: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾. وَقَالَ: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وَالرَّسُولُ وَاحِدٌ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي: عَائِشَةَ؛ وَقِيلَ: عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ. قَالَ: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ وَكَانَا اثْنَيْنِ كَمَا نُقِلَ فِي التَّفْسِيرِ. وَقَالَ: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ وَهُمَا طَرَفَانِ، وَقَالَ: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾، وَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ وَكَانَ وَاحِدًا. وَهَذَا كُلُّهُ صَحِيحٌ فِي اللُّغَةِ سَائِغٌ. (٢)

- آية المائدة، وكذلك آية التحريم:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٥؛ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وانظر: الإرواء ٦/ ١٢٣.

(٢) أحكام القرآن ١/ ٣٤٠.

قال سيبويه: باب ما لفظ به مما هو مثنًّى كما لفظ بالجمع.

وهو أن يكون الشيئان كلُّ واحد منهما بعض شيء مفردٍ من صاحبه، وذلك قولك: ما أحسن رءوسهما، وأحسن عواليهما، وقال ﷻ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤)، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾، فرقوا بين المثنى الذي هو شيءٌ على حدةٍ وبين ذا.

وقال الخليل: نظيره قولك: فعلنا، وأنتما اثنان فتكلم به كما تكلم به وأنتم ثلاثة، وقد قالت العرب في الشيئين اللذين كل واحد منهما اسمٌ على حدة وليس واحدٌ منهما بعض شيء كما قالوا في ذا؛ لأن التثنية جمعٌ، فقالوا كما قالوا: فعلنا.

وزعم يونس أنهم يقولون: ضع رحالهما وغلمانهما، وإنما هما اثنان. قال الله عز وجل ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ ﴾ ص: ٢١ - ٢٢، وقال ﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ الشعراء: ١٥.

وزعم يونس أنهم يقولون: ضربت رأسيهما. وزعم أنه سمع ذلك من رؤبة أيضاً، أجروه على القياس، قال هميان بن قحافة:

ومهمهين قذفين مرتين[1] ظهراهما مثل ظهور الترسين

وقال الفرزدق:

هما نفثا في فيَّ من فمويهما على الناب العاوي أشد رجَامِ

وقال أيضًا:

بما في فؤادَينا الشوق والهوى فيجبر منهاض الفؤاد المشعف[2]

ومن سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريهما مجرى الجمع كما تقول عند ذكر العمرين

(١) المهمه: المفازة البعيدة، والقذف: البعيد، والمرت: الذي لا نبات فيه.

(٢) الكتاب لسيبويه ٣/ ٦٢١.

والحسنين: كرم الله وجوههما. (١)

وقال: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ لأنّ كل شيء موحَّد من خَلْق الإنسان إذا ذكر مضافًا إلى اثنين فصاعدًا جمع، فقيل: قد هشمت رءوسهما، وملأت ظهورهما وبطونهما ضربًا، وإنما اختير الجمع على التثنية؛ لأن أكثر ما تكون عليه الجوارح اثنين في الإنسان: اليدين والرجلين والعينين، فلما جرى أكثره على هذا ذُهِبَ بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب التثنية. (٢)

واعلم أن كل ما في الجسم منه شيء واحد لا ينفصل كالرأس، والأنف، والعين، واللسان، والظهر، والبطن، والقلب- فإنك إذا ضممت إليه مثله جاز فيه ثلاثة أوجه:

أحدهما: الجمع؛ وهو الأكثر نحو قولك: ما أحسن رؤوسهما؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وإنما عبروا بالجمع والمراد التثنية من حيث إن التثنية جمع في الحقيقة، ولأنه مما لا يلبس ولا يشكل؛ لأنه قد علم أن الواحد لا يكون له إلا رأس واحد أو قلب واحد، فأرادوا الفصل بين النوعين فشبهوا هذا النوع بقولهم: نحن فعلنا، وإن كانا اثنين في التعبير عنهما بلفظ الجمع. .

والوجه الثاني: التثنية على الأصل وظاهر اللفظ.

والوجه الثالث: الإفراد. (٣)

- آية يوسف:

يعود الكلام- جميعًا- على ثلاثة هم: يوسف عليه السلام، وأخوه الذي اتُّهِمَ بسرقة صواع الملك، وأخوه الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ

(١) فقه اللغة للثعالبي٣٢٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٠٧.

(٣) شرح المفصل لابن يعيش٤/ ١٥٥.

ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (يوسف: ٨٠). [١]

- آية الأنبياء:

حيث أضيف (حكم) إلى ضمير داود وسليمان - عليهما السلام- وهما حاكمان وغيرهما وهم المحكوم عليهم. [٢]

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ أي: لحكم الحاكمين، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري[٣]، والرضي، [٤]وتقدمهما إلى القول به الفراء. [٥]

وقيل: المراد الحاكمان والمحكوم عليه. [٦]

والضمير في (حكمهم) يعود على أقرب مذكور وهو (القوم). [٧]

- وفيما يتعلق بآية سورة الحج:

أولًا: الخصمان جمعان وهذا واضح في سبب نزول الآية:

---

(١) انظر تفسير الطبري١٣/ ٣٨، وتفسير ابن كثير٨/ ٦٣.

وقال السيوطي في الدر المنثور ١٣/ ٥٦٦: أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة ﷺ في قوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ قال: مصر، وفي قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾؛ قال: بيوسف وأخيه وروبيل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﷺ في قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾؛ قال: بيوسف وأخيه وكبيرهم الذي تخلف.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١١/ ٧٦.

(٣) قال: وجمع الضمير؛ لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما؛ الكشاف للزمخشري٣/ ١٢٨.

(٤) قال الرضي: يقع الجمع مقام واحده أو مثناه نحو قولهم: جب مذاكيره. المذاكير: جمع ذكر والجميع باعتبار الذكر مع الخصيين، وبعير أصهب العثانين. العثنون: شعيران طوال تحت حنك البعير، والصهبة من الألوان، وقطع الله خصاه أي: خصيتيه. شرح كافية ابن الحاجب، باب المثنى ٣/ ٤٣٢.

(٥) قوله: ﴿ لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ إذ جَمَع اثنين. . . يريد داود وسليمانَ، وقرأ ابن عباس وكُنَّا لحكمهما شاهِدِينِ فدلّ على أنهما اثنان؛ معاني القرآن للفراء٢/ ٢٠٨.

(٦) فتح القدير للشوكاني٣/ ٥٩٠.

(٧) انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، باب: في أقل الجمع ٤ / ٢.

عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: أنا أول من يجثوا بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم أنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾؛ قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة، وعلي، وعبيدة (أو أبو عبيدة) بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة. (١)

والخصم: صفة وصف بها الفوج أو الفريق، فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان مختصمان، وقوله: (هذان) للفظ، و(اختصموا) للمعنى. (٢)

وقوله: (اخْتَصَمُواْ) ولم يقل: اختصما لأنهما جَمعان ليسَا برجلين، ولو قيل: اختصما كان صَوَابًا، ومثله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ يذهب إلى الجمع، ولو قيل: اقتتلتا لجاز؛ يذهب إلى الطائفتين. (٣)

فالخصمان- مؤمنون هم: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وكافرون هم: ابنا ربيعة: شيبة، وعتبة، والوليد بن عتبة- كلُّ فريق منهم به أكثر من واحد؛ لذا جاءت (اختصموا) مفيدةً الجمعَ لهذا المعنى.

ثانيًا: الاثنان قد يعاملان معاملة الجميع.

فإذا اعتبرنا أن (الخصمان) مثنى لفظًا؛ فإن العرب تجيز أن يصيرا كالجمع.

قال سيبويه: وسألتُ الخليل -رحمه الله- عن: ما أحسنَ وجوهَهما؟ فقال: لأن الاثنين جميعٌ، وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ذاك، ولكنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما يكون منفردًا وبين ما يكون شيئًا من شيء، وقد جعلوا المفردين أيضًا جميعًا. (٤)

قول الله ﷻ ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قد جاء بلفظ العدد الذي فوق الاثنين وكان مثل

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٤٤).

(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ١٤٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٠.

(٤) الكتاب لسيبويه ٢/ ٤٨.

ذلك مما تقوله العرب: التقى العسكران فقتل بعضهم بعضًا. (١)

ثالثًا: لفظة (خصم) هي مصدر(٢) يوصف به الجمع والواحد، ويدل على أنه أراد الجمع قوله: (اختصموا) فإنها قراءة الجمهور. (٣)

والوصف الذي كان في الأصل مصدرًا نحو: صوم وغور(٤)

فيجوز أن يعتبر الأصل فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث؛ قال الله تعالى: ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (الذاريات: ٢٤)، وقال: ﴿نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ (ص: ٢١). (٥)

قال أبو العباس- ثعلب-: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾؛ قال: كان الخصمان واسطة القلادة من الفئتين يوم بدر، والخصم يكون واحدًا ويكون جمعًا. (٦) سمى المخاصم خصما، واستعمل للواحد والجمع وربما ثني. (٧)

وقد يكون الخَصم للاثنين والجمع والمُؤنث. (٨)

وقد قيل: اختصموا، وقد قال: خصمان؛ لأنهما جمعان. (٩)

---

(١) شرح مشكل الآثار للطحاوي ٤/ ٣٦٤؛ باب بيان مشكل ما روي عن علي ﷺ أو عن أبي ذر ﷺ مما نحيط علمًا أنه لم يأخذه إلا عن رسول الله ﷺ.

(٢) ويقال: الخصم اسم شبيه بالمصدر فلذلك قال: اختصموا؛ عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعلامة بدر الدين العيني؛ كتاب التفسير سورة الحج؛ ١٩/ ٦٩.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية٤/ ١١٤.

(٤) ماء غور؛ أي: غائر وذاهب في الأرض.

(٥) شرح كافية ابن الحاجب لرضي الدين٣/ ٤٣٧.

(٦) مجالس ثعلب ١/ ٤٩.

(٧) مفردات غريب القرآن للأصفهاني ١٤٩، مادة خصم.

(٨) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٥ / ٦٧.

(٩) معاني القرآن وإعرابه للزجاج٣/ ٤١٩.

فلمراعاة تثنية اللفظ في الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أتي باسم الإشارة الموضوع للمثنى، ولمراعاة العدد أتي بضمير الجماعة. [١]

ـ آية الشعراء:

قال: (اذهبا) لأن الأمر بالذهاب لاثنين هما: موسى وهارون- عليهما السلام-، فلما أثبت الاستماع قال: (معكم)؛ لأنهم: موسى، وهارون-عليهما السلام-، وفرعون، ومن كان حاضرًا معه، فصح عودة (معكم) عليهم جميعًا.

يقولون: ذكر (معكم) بلفظ الجمع وهما اثنان؛ أجراهما مجرى الجماعة، وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون. [٢]

ولا يخفى ما في الإتيان بـ (معكم) من الإحاطة والشمول.

ـ آية ص:

(خصم) خرج في لفظ الواحد؛ لأنه مصدر مثل: الزور والسفر، لا يثنى ولا يجمع. فالخَصْمُ يكون للاثنين والجمع والمؤنث.

ومنه قول لبيد:

وَخَصْمٍ يَعدوّنَ الدُّخُولَ كَأَنَّهُمْ   قُرُومٌ غَيَارَى كلَّ أَزْهَرَ مُصْعَب. [٣]

وأما قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ الآية؛ فهذه الآية تدل بظاهرها على أن الخصم مفرد، ولكن الضمائر بعده تدل على خلاف ذلك.

والجواب: أن الخصم في الأصل مصدر: خصمه، والعرب إذا نعتت بالمصدر أفردته وذكّرته، وعليه فالخصم يراد به الجماعة والواحد والاثنان، ويجوز جمعه وتثنيته لتناسي

(١) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور١٧/ ٢٢٩.

(٢) تفسير البغوي٣/ ٣٨٢.

(٣) لسان العرب ١٢ / ١٨٠. والبيت في ديوان لبيد بن ربيعة العامري، البيت رقم ٤٣. وصدر البيت هكذا: وخصْمٍ قيامٍ بالعَراءِ كأنَّهُمْ. . . . .

أصله الذي هو المصدر وتنزيله منزلة الوصف، قال ابن مالك:

ونعتوا بمصدر كثيرا. . . فالتزموا الإفراد والتذكيرا. (١)

وربّما ذهبت العرب بالاثنين إلى الجمع، كما يُذهب بالواحِدِ إلى الجمع. . ومثل ذلكَ قوله في سورة ص: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ ثم أعاد ذكرهما بالتثنية فقال: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. (٢)

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ يعني: الملكين اللذين تصورا في صورة خصمين من بني آدم، (إذ تسوروا المحراب) علوا غرفة داود ﷺ. (٣)

قال بعضهم: كانوا اثنين فذكر بلفظ الجماعة فقال: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾، وقال بعضهم: كانوا جماعة، ولكنهم كانوا فريقين فقال: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. (٤)

- آية الحجرات:

هذا اللفظ -(طائفتان)- مثنى غير حقيقي فهو مثنى في اللفظ جمع في المعنى.

فالطائفة في الأصل الجماعة التي من شأنها الطوف في البلاد للسفر، ويجوز أن يكون أصلها الجماعة التي تستوي بها حلقة يطاف عليها، ثم كثر ذلك حتى سمي كل جماعة طائفة. (٥)

قال: (إن طائفتان) ثم قال: (اقتتلوا) ولم يقل: اقتتلتا -ولو قاله لكان جائزًا- لأن كل

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، باب النعت ٣/ ١٥٦.

(٢) معاني القرآن للفراء٢/ ٣٩١، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض ١ / ٢٤٢، مادة خ ص م.

(٣) تفسير الواحدي المسمى بالوجيز ٩٢١.

(٤) بحر العلوم للسمرقندي ٣ / ١٥٦.

(٥) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ٣٣٤، الفرق بين الطائفة والجماعة.

طائفة منها جماعه.(١)

عن مجاهد في هذه الآية: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ قال: الطائفة واحد إلى الألف، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.(٢)

فالعرب تحمل على اللفظ وعلى المعنى كما قال ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.

ألا ترى أن الطائفتين لما كانتا في المعنى جمعًا لم يرجع الضمير إليهما مثنى، لكنه جمع على المعنى.(٣)

ويجوز تثنية اسم الجمع على تأويل: فرقتين وجماعتين. . . فالمراد من تثنية الجمع تضعيفه بجعله مثلين من نوعين، فلا تدافع بين التثنية والجمع. .

كما قال الشاعر:

لنا إبلان فيهما ما علمتم فعن أيةٍ ما شئتم فتنكبوا

والمشهور في الكتب: فعن أيها بتأنيث الضمير؛ على أنه راجع إلى فرقة وقطعة، وقوله: " فعن أيها " أعاد الضمير على مجموع الإبلين؛ لأنها جماعة.(٤)

وإذا قالوا: إبلان فإنما يريدون قطعتين من الإبل. . أرادوا به قطعتين: قطعة في جهة، وقطعة في أخرى، أو قطعتين من الإبل والغنم، أو إبلًا موصوفة بصفة غير الإبل الأخرى لتفيد التثنية معنًى ما، والمعنى: لنا قطيعان من الإبل فيهما ما علمتم من قرى الأضياف وتحمل الغرامات، فخذوا عن أيها ما شئتم وأردتم، فإنها مباحةٌ غير ممنوعة.(٥)

---

(١) انظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، لمحمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي أبي منصور ٣٧٤.

(٢) تفسير الطبري١٨/ ٦٩.

(٣) خزانة الأدب لعبد القاهر البغدادي؛ الشاهد السادس والسبعون بعد الخمسمائة.

(٤) البيت منسوب لعوف بن عطية التيمي كما في الأصمعيات، وخزانة الأدب ٧ / ٥٣٤.

(٥) مغني اللبيب لابن هشام١/ ٣٩٠، ٣٩١.

ـ آية التحريم:

قال السيوطي: ومن سنن العرب ذكرُ الجمع والمراد واحد أو اثنان؛ قال تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ " والمراد واحد، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ والمنادى واحد، " بِمَ يَرْجِعِ المُرْسلون " وهو واحد؛ بدليل ارجع إليهم، " فقد صَغَتْ قلوبكما " وهما قلبان. (١)

فالعرب تكره الجمع بين تثنيتين في لفظ واحد. (٢)

والأكثر في كلامهم إخراج مثل هذا-أي: المثنى-(٣) إلى الجمع كراهةً لاجتماع تثنيتين في اسمٍ واحد؛ لأن المضاف إليه من تمام المضاف، مع ما في التثنية من معنى الجمع، وأن المعنى لا يشكل، ولذلك قال: مثل ظهور الترسين، فجمع الظهر. (٤)

ويمكن أن يجاب عنه - أي: الجمع (قلوب) المسند إلى المثنى (هما)- بأن الخطاب وإن كان مع اثنين وأنه ليس لكل واحد منهما في الحقيقة سوى قلب واحد غير أنه قد يطلق اسم القلوب على ما يوجد للقلب الواحد من الترددات المختلفة إلى الجهات المختلفة مجازًا، ومن ذلك قولهم لمن مال قلبه إلى جهتين أو تردد بينهما: إنه ذو قلبين، وعند ذلك فيجب حمل قوله: (قلوبكما) على جهة لفظ الجمع على الاثنين حقيقة ويمكن أن يقال: إنما قال: (قلوبكما) تجوزًا حذرًا من استثقال الجمع بين تثنيتين.(٥)

* * *

---

(١) المزهر للسيوطي ١ / ٢٦٣.

(٢) فتقول: جاء المحمدان أنفسُهما وأعينُهما، وجاء المحمدون أنفسُهم وأعينُهم؛ شرح قطر الندى لابن هشام التوكيد ٣١٩.

(٣) تثنية الظهرين على الأصل. . قال هميان بن قحافة من الرجز: . . ظهراهما مثل ظهور الترسين.

(٤) خزانة الأدب للبغدادي ٧ / ٥١١.

(٥) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٢ / ٢٢٤.

٧ـ شبهة: أتى باسم الموصول العائد على الجمع مفردًا.

نص الشبهة: جاء في سورة التوبة: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ (التوبة: ٦٩)، والقياس أن يجمع الاسم الموصول العائد على ضمير الجمع فيقول: خضتم كالذين خاضوا.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: (الذي) و(أن) المصدرية يتقارضان (أي: يتبادلان)، فتقع (الذي) مصدرية (ينسبك منها مع ما بعدها مصدر) كقوله (من الطويل) وهو جميل بثينة:

أتقرَحُ أكبادُ المحبّينَ كالذي … أرى كبِدي منْ حُبِّ ميّةَ تقرَحُ [١]

والشاهد قوله: كالذي أرى- يريد: كرؤية كبدي.

ووقوع الذي مصدرية قال به يونُس والفرّاء والفارسيّ، وارتضاه ابن خروف وابن مالك، وجعلوا منه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ (الشورى: ٢٣)، ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾. [٢]

وعليه فيكون المعنى في قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ يريد: كخوضهم الذي خاضوا. [٣] فـ(الذي) صفة مصدر محذوف دل عليه الفعل. [٤]

فيكون التقدير: كالفوج الذي خاضوا، وكالخوض الذي خاضوه. [٥]

الوجه الثاني:

المعنى: كالذي يعني: كالذين خاضوا، وذلك أن (الذي) اسم ناقص مثل (ما) و(من) يعبر به عن الواحد والجميع، نظيره قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، ثم قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. [٦]

---

(١) البيت لجميل بثينة في ديوانه ص ٤٦، وشرح شواهد المغني ٨٩٧.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٢/ ٢٧٣، وانظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١/ ١٦٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٤٦.

(٤) تفسير الرازي ١٦/ ١٢٨.

(٥) إملاء ما مَنَّ به الرحمن للعكبري ٢/ ١٨، الكشاف للزمخشري ٢/ ٢٨٨، تفسير القرطبي ٨/ ١٨٦.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٠٩، البحر المحيط ٥/ ٧٠، تفسير القرطبي ٨/ ١٨٦.

الوجه الثالث.

أن (الّذِي) جنس؛ والتقدير: خوضًا كخوض الذين خاضوا، وقد ذكر مثله في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾.(١)

* * *

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن للعكبري ٢/ ١٨.

٨ـ شبهة: جزم الفعل المعطوف على المنصوب

نص الشبهة: هو قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ (المنافقون: ١٠).

والشبهة عندهم قوله تعالى: ﴿وَأَكُن﴾ وهو فعل معتل الوسط بالواو (أجوف) ولا تحذف الواو منه إلا إذا سكن آخره، ولا يسكن آخره إلا إذا كان مجزومًا، ويجزم المضارع إذا دخل عليه جازم أو عطف على مجزوم، ولم يحدث هذا هنا وإنما عطف الفعل على فعل منصوب فكان يجب أن ينصب هذا الفعل فيقال: ﴿فأصَّدَّقَ وأكونَ﴾.

والرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: وردت القراءة الصحيحة بالنصب والجزم.

قال ابن مجاهد: قرأ أبو عمرو "وأكونَ" بواو. [١]

وقال مكي بن أبي طالب: قرأ أبو عمرو بالنصب وإثبات الواو قبل النون، وقرأ الباقون بالجزم وحذف الواو. [٢]

وقال أبو جعفر النحاس: قرأ الحسن وابن محيصن وأبو عمرو وأكون بالنصب عطفا على ما بعد الفاء، وقد حكي أنّ ذلك في قراءة أبيّ وابن مسعود كذا. [٣]

فلم تكن هذه القراءة هي الوحيدة في جزم الفعل: " أكن ".

وحجة من نصب أنه عطفه على لفظ (فأصدق)؛ لأن (فأصدق) منصوب بإضمار (أن)؛ لأنه جواب التمني، فهو محمول على مصدر (أخرتني).

الوجه الثاني: هذا باب واسع في العربية.

وقد بوب ابن جني (فصل في الحمل على المعنى) [٤]**؛ يقول:**

---

(١) السبعة ٦٣٧.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع لأبي محمد مكي القيسي ٢/ ٣٢٢، ٣٢٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣ / ٢٨٩، وانظر: الموضح ٣، ١٢٧١، والبدور الزاهرة ٢ / ٣٦٩.

(٤) وقد سبق نقل كلامه.

اعلم أن هذا الشرْج[1] غور من العربية بعيد ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثورًا ومنظومًا؛ كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعا وغير ذلك. . .

والحمل على المعنى واسع في هذه اللغة جدًّا. . . ومن ذلك قوله:

بدا لي أنى لستُ مدركَ ما مضى ولا سابقٍ شيئا إذا كان جائيا[2]

لأن هذا موضع يحسن فيه لست بمدرك ما مضى ومنه قوله سبحانه: (فأصدَّقَ وأكنْ)، وقوله:

فأبلوني بليّتكم لعَلِّي أصالحُكم وأستدرجْ نَويّا [3]

حتى كأنه قال: أصالحْكم وأستدرجْ نويا. [4]

الوجه الثالث: توجيه جزم الفعل عطفا على المنصوب.

قال سيبويه: وسألت الخليل عن قوله ﷻ: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فقال: هذا كقول زهير:

بدا لي أنّي لست مدركَ ما مضى ولا سابقٍ شيئًا إذا كان جائيا

فإنّما جرّوا هذا؛ لأنَّ الأوّل قد يدخله الباء (وهو قوله: مدرك)، فجاءوا بالثاني(وهو

---

(١) الشَرْج: الضَّرْب يقال هُما شَرْج واحدٌ وعلى شَرْج واحد أَي ضرْب واحد؛ لسان العرب لابن منظور شرج.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٢٨٧.

(٣) البيت لأبي داود الإيادي، وكان أبو داود جاور هلال بن كعب من تميم، فلعب غلام له مع غلمان الحي في غدير، فغطسوه في الماء، ومات، فعزم أبو داود على مفارقتهم وذم جوارهم، وأحسن منهم أنهم يحاولون إرضاءه، فقال هذا البيت وبيتا آخر. وقد أعطاه هلال فوق الرضا، حتى ضرب به المثل في الوفاء فقيل: جار كجار أبي داود. وقوله: "فأبلوني" يقال: أبلاه إذا صنع به صنعًا جميلا، والبلية اسم منه. و"نويا" يريد نواي والنوي: النية، وهو الوجه الذي يقصد، و"أستدرج": أرجع أدراجي من حيث كنت. يقول: أحسنوا إليَّ فإن أحسنتم فلعلي أصالحكم وأرجع حيث كنت جارا لكم. وقد أحسنوا إليه، وظل على جوارهم. وانظر شرح شواهد المغني البغدادي في الشاهد ٦٦٩.

(٤) الخصائص لابن جني ٢/ ٤٢٣، ٤٢٤.

قوله: سابق) وكأنَّهم قد أثبتوا في الأول الباء، فكذلك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزمًا ولا فاء فيه تكلّموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهَّموا هذا. (١)

وكذلك وجَّه الإمام الزمخشري مجيء الفعل: " وأكن " مجزومًا مردوفًا على الفعل المنصوب " فأصدق "(٢) بأن قوله تعالى: " لولا أخرتني. . " في محل جزم لتضمنه معنى الشرط، فكأنه قيل: إن أخرتني أصدقْ وأكنْ من الصالحين.

قال الزمخشري: وقُرِئَ: «وأكنْ»، عطفًا على محل: (فَأَصَّدَّقَ) كأنه قيل: إِنْ أخرتني أصدَّقْ وأكنْ، ومن قرأ: «وأكونَ» على النصب فعلى اللفظ، وقرأ عبيد بن عمير: «وأكونُ»، على: «وأنا أكونُ» عِدَةٌ منه بالصلاح. (٣)

فالعطف على المحل المجزوم بالشرط المفهوم مما قبله جائز عند العرب، ولو لم تكن الفاء لكانت كلمة: (أصدق) مجزومة، فجاز العطف على موضع الفاء.

قال الفرَّاءُ: يقال: كيف جزم: (وأكن)، وهي مردودة على فعل منصوب؟

فالجواب في ذلك: أن ـ الفاء ـ لو لم تكن في أصدق كانت مجزومة، فلما رددت (وأكنْ) ـ ردّت على تأويل الفعل لو لم تكن فيه الفاء، ومَن أثبت الواو ردَّه على الفعل الظاهر فنصبه، وهي في قراءة عبد الله، "وأكونَ من الصالحين".

وَقد يجوز نصبها في قراءتنا، وإن لم تكن فيها الواو؛ لأن العربَ قد تسقط الواو في بعض الهجاء، كما أسقطوا الألف من سليمن وأشباهه، ورأيت في بعض مصاحف عبد الله: (فقولا): فقلا بغير واو. (٤)

فالتوجيه بأن هذا الفعل مجزوم على تضمن عبارة التمني: " لولا أخرتني إلى أجل

---

(١) الكتاب لسيبويه ٣/ ١٠٠.

(٢) قرأ الجمهور فأصدقَ وهو منصوب على جواب الرغبة. البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٢٧٠.

(٣) الكشاف للزمخشري ٤/ ٥٤٤.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٠.

قريب " أو على الشرط المقدر بـ" إن أخرتني " هو توجيه سديد، وقد سبق إلى القول به علمان من أئمة النحو، هما الخليل وسيبويه.

والذي سوَّغ إيثار عبارة التمني: " لولا أخرتني " على الشرط الصريح " إن أخرتني " ـ أن قائل هذه العبارة يقولها في ساعة يملكه فيها اليأس من التأخير وهى ساعة حضور الموت، والتمني كما نعلم يستعمل في طلب المحال أو المتعذر، أما الشرط فيستعمل في الأمور التي لا استحالة فيها ولا تعذر.

فهو إذن من تبادل الصيغ وإحلال بعضها محل بعض لداعٍ بلاغيٍّ، وقرينة إرادة الشرط من عبارة التمني هو جزم الفعل: " أكن " وسره البلاغي أن من حضرته الوفاة وهو مقصر في طاعة الله تدفعه شدة الحاجة التي نزلت به إلى طمعٍ من نوع ما هو مستحيل أو متعذر الوقوع، ومما تقدم يظهر لنا استقامة العبارة القرآنية وبُعْدُها عن كل خلل، ووفاؤُها بالمعنى المراد نحوًا وبيانًا.

* * *

٩ـ شبهة: جعل العائد على المفرد جمعًا.

نص الشبهة: جاء في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (البقرة: ١٧)، والقياس أن يجعل الضمير العائد على المفرد مفردًا، فيقول: (ذهب الله بنوره).

والرد على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول

إن (الذي) في جمعها لغتان:

(الذين) في الرفع والنصب والجر، و(الذي) بحذف النون؛ كما في قول أشهب بن رُمَيلَة:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد[(١)]

قال ابن يعيش: الشاهد في بيت رُميله هو حذف النون من الذين استخفافًا على ما تقدم، والذي يدل على أنه أراد الجمع قوله: (دماؤهم)، فعود الضمير من الصلة بلفظ الجمع يدل على أنه أراد الجمع، ومثله قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾، والمراد: الذين، لقوله: خاضوا. [(٢)]

قال الزمخشري: إن العرب لاستطالة الاسم الموصول بصلته مَعَ كَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ خَفَّفُوه من غير وجه، فقالوا: اللذِ بحذف الياء، ثم اللذ بحذف الحركة، ثم حذفوه رأسًا واجتزؤا عنه بالحرف الملتبس به وهو لام التعريف، وقد فعلوا ذلك بمؤنثه؛ فقالوا: (اللتِ واللت والضاربته هند)؛ بمعنى: التي ضربته هند، وقد حذفوا النون من مثناه ومجموعه؛ قال الفرزدق:

أبني كليب إن عمَّيَّ اللذا قتلا الملوك وفكاكا الأغلالًا[(٣)]

ولفظة الذي مفرد ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها وقد تقرر في علم الأصول أن

---

(١) البيت لأشهب بن رميلة، كما نسبه له ابن جني في سر صناعة الإعراب ٢ / ٥٣٧، وابن منظور في لسان العرب ١٥ / ٢٤٦.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١٥٤.

(٣) المفصل في صنعة الإعراب ١٨٣، ١٨٤.

الأسماء الموصولة كلها من صيغ العموم. [(١)]

فإذا حققت ذلك: فاعلم أن إفراد الضمير باعتبار لفظة الذي، وجمعه باعتبار معناها؛ ولهذا المعنى جرى على ألسنة العلماء أن الذي تأتي بمعنى الذين، ومن أمثلة ذلك في القرآن هذه الآية الكريمة، فقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ أي: كمثل الذين استوقدوا بدليل قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كالذين ينفقون بدليل قوله إليك ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ بناء على الصحيح من أن الذي فيها موصولة لا مصدرية وفي كلام العرب قول الراجز:

يا رب عبس لا تبارك في أحد   في قائم منهم ولا في من قعد

إلا الذي قاموا بأطراف المسد. [(٢)]

الوجه الثاني

قد تُحذف النون من اسم الموصول (الذين)، كما قال أشهب بن رُمَيْلَة:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد[(٣)]

يعني: الذين. [(٤)]

ويجوز في هذا أن يكون مفردًا وُصف به مقدرٌ مفردُ اللفظِ مجموعُ المعنى؛ أي: وإن الجمع الذي، أو: إن الجيش الذي. [(٥)]

---

(١) صرح بذلك القرافي والقاضي عبد الوهاب وابن السمعاني وانظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي٢/ ٢٤٧.

(٢) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي ص٩.

(٣) البيت لأشهب بن رميلة، كما نسبه له ابن جني في سر صناعة الإعراب ٢ / ٥٣٧، وابن منظور في لسان العرب ١٥ / ٢٤٦.

(٤) الصحاح للجوهري، مادة لذي ٦ / ٣٣١.

(٥) شرح كافية ابن الحاجب لرضي الدين٣/ ١٠٤.

ويجوز في التشبيه أن يشبه المفرد بالجمع والبسيط بالمركب على سبيل التجريد لتوضيح الحال. وكلًا من الترشيح والتجريد مشتمل على مبالغة في التشبيه. . ، وما يجري من الترشيح والتجريد في المجاز المفرد يجري في التمثيل فمثال التجريد فيه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فإن جمع الضمير مراعاة للمشبه لا للمشبه به؛ لأنه مفرد.[1]

الوجه الثالث:

إنما ضرب المثل- والله أعلم- للفعل لا للأعيان، وإنما هو مثل للنفاق، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، ولم يقل: (الذين استوقدوا)، وهو كما قال الله: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ (الأحزاب: ١٩)، وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (لقمان: ٢٨)، فالمعنى- والله أعلم-: إلا كبعث نفس واحدة، ولو كان التشبيه للرجال لكان مجموعًا كما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ (المنافقون: ٤)؛ أراد القِيَم والأجسام، وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ (الحاقة: ٧) فكان مجموعًا، إذا أراد تشبيه أعيان الرجال فأجز الكلام على هذا، وإن جاءك تشبيه جمع الرجال موحدًا في شعر فأجزه، وإن جاءك التشبيه للواحد مجموعًا في شعر فهو أيضًا يراد به الفعل فأجزه؛ كقولك: ما فعلك إلا كفعل الحمير، وما أفعالكم إلا كفعل الذئب، فابن على هذا، ثم تلقى الفعل فتقول: ما فعلك إلا كالحمير وكالذئب، وإنما قال الله ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لأن المعنى: ذهب إلى المنافقين فجمع لذلك، ولو وحد لكان صوابًا؛ كقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾.[2]

ومعناه: تمثيلُ الجماعة من المنافقين بالمستوقِدِ الواحد، فإنما جاز لأن المرادَ من الخبر عن

---

(١) انظر موجز البلاغة للطاهر بن عاشور ٣٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ١٥، المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٩٩.

مَثَل المنافقين الخبرُ عن مَثَل استضاءتهم بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار وهم لغيره مستبطنون - من اعتقاداتهم الرَّديئة، وخلطهم نفاقَهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر، والاستضاءةُ - وإن اختلفت أشخاصُ أهلها - معنىً واحد؛ لا معانٍ مختلفة، فالمثل لها في معنى المثَل للشخص الواحد من الأشياء المختلفة الأشخاص، وتأويل ذلك: مَثَلُ استضاءة المنافقين بما أظهروه من الإقرار بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به قولًا وهُم به مكذبون اعتقادًا كمثَل استضاءة المُوقِد نارًا، ثم أسقط ذكر الاستضاءة، وأضيف المثَلُ إليهم، كما قال نابغةُ بني جَعْدَة:

وَكَيْفَ تُوَاصِل من أَصْبَحَتْ ... خِلالَتُهُ كَأَبِي مَرْحَبِ[1]

يريد: كخلالة أبي مَرْحب، فأسقط "خلالة"، إذ كان فيما أُظهرَ من الكلام دلالة لسامعيه على ما حذف منه، فكذلك القول في آية البقرة؛ لما كان معلومًا عند سامعيه بما أُظهرَ من الكلام أنّ المثَلَ إنما ضُرِب لاستضاءة القوم بالإقرار دون أعيان أجسامهم - حَسُنَ حذفُ ذكر الاستضاءة، وإضافة المثل إلى أهله، والمقصود بالمثل ما ذكرنا، فلما وَصَفنا جاز وحَسُنَ قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، ويشبه مثل الجماعة في اللفظ بالواحد إذ كان المراد بالمثل الواحد في المعنى.[2]

وقيل: إنما وحد (الذي) و(استوقد)؛ لأن المستوقد كان واحدًا من جماعة تولى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال: (بنورهم).[3]

استعير المثل استعارة الأسد للمقدام للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارًا. على أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد؛ إنما شبهت

(١) ذكره سيبويه في الكتاب١/ ٢١٥، وانظر شرح كافية ابن الحاجب لرضي الدين ٣/ ١٠٤.

(٢) تفسير الطبري١/ ١٤٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي١/ ٢١٢.

قصتهم بقصة المستوقد.[١]

الوجه الرابع: التوجيه البلاغي.

والتشبيه في الآية من قبيل تشبيه المفرد بالمركب.

فالتشبيه مستدعٍ طرفين: مشبهًا ومشبهًا به، واشتراكًا بينهما من وجه وافتراقًا من آخر؛ مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة أو بالعكس.

تفصيل الكلام في مضمونه وهو: طرفا التشبيه، ووجه التشبيه، والغرض في التشبيه، وأحوال التشبيه ككونه قريبًا أو غريبًا مقبولًا أو مردودًا.

ووجه التشبيه إما أن يكون أمرًا واحدًا، أو غير واحد؛ وغير الواحد إما أن يكون في حكم الواحد لكونه إما حقيقة ملتئمة، وإما أوصافًا مقصودًا من مجموعها على هيئة واحدة، أو لا يكون في حكم الواحد، فهذه أقسام ثلاثة.

واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفًا غير حقيقي وكان منتزعًا من عدة أمور خص باسم التمثيل كالذي في قوله:

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التي لا تُمد بالحطب فيسرع فيها الفناء -ليس إلا في أمر متوهم له، وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه في المقاولة مع علمك بتطلبه إياها عسى أن يتوصل بها على نفثة مصدور من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك، وأنه كما ترى منتزع من عدة أمور، وكالذي في قوله:

وإن من أدبته في الصبا كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقًا ناضرًا بعد الذي أبصرت من يبسه

فإن تشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقي، أو أن الغرس المونق بأوراقه ونضرته ليس

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ١٠٩، ١١٠.

إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق مرضي السيرة حميد الفعال لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه وكمال استحسان حاله، وأنه كما ترى أمر تصوري لا صفة حقيقية، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور كالذي من قوله عز - من قائل-: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم في الآية هو رفع الطمع على تسني مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب، وأنه أمر تَوَهُّمِي كما ترى منتزع من أمور جمة، وكالذي في قوله تعالى أيضًا: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ وأصل النظم: أو كمثل ذوي صيب فحذف ذوي لدلالة يجعلون أصابعهم في آذانهم عليه، وحذف مثل لما دل عليه عطفه على قوله: كمثل الذي استوقد نارًا إذ لا يخفى أن التشبيه ليس بين مثل المستوقدين وهو صفتهم العجيبة الشأن وبين ذوات ذوي الصيب إنما التشبيه بين صفة أولئك وبين صفة هؤلاء.[١]

* * *

(١) مفتاح العلوم للسكاكي؛ في الكلام في التشبيه ٣٣٢، ٣٤٦: ٣٤٨.

١٠- شبهة: أتى بضمير فاعل مع وجود فاعل.

نص الشبهة: جاء في سورة الأنبياء: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (الأنبياء: ٣)، والقياس حذف ضمير الفاعل في (أَسَرُّواْ) لوجود الفاعل ظاهرًا وهو (الَّذِينَ).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ورد في (الذين) عدة أعاريب تبين أنها لم تأتِ فاعلًا.

الإعراب الأول: الرفع، وله عدة تأويلات:

الأول: قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فإنما يجيء على البدل، وكأنه قال: انطلقوا فقيل له: من؟ قال: بنو فلان، فقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على هذا فيما زعم يونس. [١]

والمعنى المقصود من ذلك: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في موضع رفع بدلًا من الواو من (أَسَرُّواْ) ومبينًا عن معنى الواو، والمعنى: إلا استمعوه وهم يلعبون وأسروا النجوى، ثم بين من هم هؤلاء، فكان بدلًا من الواو. [٢]

الثاني: وقيل: على حذف القول، التقدير: يقول الذين ظلموا، وحذف القول، مثل: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ (الرعد: ٢٣ - ٢٤).

واختار هذا القول النحاس؛ قال: والدليل على صحة هذا الجواب أنَّ بعده: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الأنبياء: ٣)[٣]

الثالث: ويجوز أن يكون رفعًا على الذم؛ على معنى: هم الذين ظلموا. [٤] أي: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: "هم".

---

(١) الكتاب لسيبويه ٢/ ٤١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٣، الكشاف للزمخشري ٣/ ١٠٢، المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٧٤.

(٣) تفسير القرطبي١١/ ٢٨٦، والمحررالوجيز٤/ ٧٤، والبحر المحيط٦/ ٢٧٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٣، تفسير الطبري ١٠/ ٢، المحرر الوجيز٤/ ٧٤، تفسير القرطبي ١١/ ٢٨٦، روح المعاني للآلوسي١٧/ ٨.

الرابع: أو على أن (الذين) مبتدأ، (أَسَرُّواْ النَّجْوَى) خبره؛ قاله الكسائي، فقدّم عليه، والمعنى: وهؤلاء (أَسَرُّواْ النَّجْوَى)، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلًا على فعلهم أنه ظلم. (١)

الخامس: وأجاز الأخفش (٢) الرفع على لغة من قال: أكلوني البراغيث، وهو حسن، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ (المائدة: ٧١)، وقال الشاعر:

بك نال النضال دون المساعي ... فاهتدين النبال للأغراض (٣)

وقال آخر:

ولكن ديافي أبوه وأمه ... بحوران يعصرن السليط أقاربه(٤)

السادس: وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير؛ مجازه: والذين ظلموا أسروا النجوى. (٥)

الإعراب الثاني:

ويجوز أن يكون في موضع نصب على معنى: أعني الذين ظلموا. "(٦) مفعول به لفعل محذوف تقديره: "أعني".

الإعراب الثالث: وأجاز الفراء أن يكون خفضًا بمعنى: اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم، ولا يوقف على هذا الوجه على (النَّجْوَى).(٧)

الوجه الثاني: الواو في (أسروا) ليست فاعلًا لكنها علامة للجمع.

قال سيبويه: اعلم أن من العرب من يقول: ضربوني قومُك، وضرباني أخواك، فشبّهوا هذا بالتاء التي يُظهرونها في قالت فُلانة، وكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامةً

---

(١) البحر المحيط٦/ ٢٧٥، الكشاف للزمخشري ٣/ ١٠٢، تفسير الرازي٢٢/ ١٤١.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢ / ٤٤٧.

(٣) البيت لأبي تمام وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٢ / ٣١٣.

(٤) البيت للفرزدق وهو في ديوانه ١ / ٤٦.

(٥) تفسير البغوي ٣ / ٢٣٨.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٣، الكشاف للزمخشري ٣/ ١٠٢، تفسير الرازي٢٢/ ١٣٠.

(٧) معاني القرآن للفراء ١ / ٣١٧.

كما جعلوا للمؤنّث، وهي قليلة؛ قال الشاعر وهو الفرزدق:

ولكنْ دِيافيٌّ أبوه وأمُّه　　　بحَورانَ يعصِرنَ السّليطَ أقاربُهْ.[١]

وتزاد الواو في الفعل علامة للجمع والضمير نحو: الرجال يقومون ويقعدون، وتزاد علامة للجمع مجردة من الضمير في قول بعض العرب: أكلوني البراغيث، وعلى هذا أحد وجهي ما تأولت عليه الآية: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فيمن لم يجعل في (أَسَرُّواْ) ضميرًا، ومثل ذلك سواء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ (المائدة: ٧١)، وقال الشاعر:

يلومونني في اشتراء النخيل　　　أهلي وكلُّهم أَلْوَمُ.[٢]

الوجه الثالث: (الذين ظلموا) تفسير للضمير في (أسروا).

الإضمار على شريطة التفسير:

وذلك مثلُ قولِهم: أكرمَني وأكرمتُ عبد الله. أردتَ: أكرَمني عبدُ الله وأكرمتُ عبد الله، ثم تركتَ ذكرَه في الأوّل استغناءً بذكره في الثاني. .[٣]

وضابط هذا الأسلوب هو أن تأتي بالضمير أولًا ثم تفسره بعد ذلك بذكر مرجعه، ومن أمثلته شعرًا قول الشاعر:

هي الدنيا تقول بملء فيها　　　حذار حذارِ من بطشي وفتكي

ولا يغرُركمُ منى ابتسام　　　فقولي مضحك والفعل مبكي

وتخريج الآية على هذا الأسلوب سائغ، فقد أتى بالضمير أولًا (وَأَسَرُّواْ) ثم فسره ثانيًا بـ (الَّذِينَ ظَلَمُوا).

وبلاغة هذا الأسلوب هي تحريك الشعور، وتشويق النفس إلى عقبى الكلام كيف

---

(١) الكتاب لسيبويه ٢/ ٤٠.

(٢) سر صناعة الإعراب لابن جني ٢/ ٦٢٩ زيادة الواو.

(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني؛ القول في الحذف ١٢٥.

تكون، فيتمكن المعنى في النفوس كل التمكن؛ لأن النفس إذا ظفرت بالشيء بعد انتظاره استقر ذلك الشيء فيها.

الوجه الرابع: التوجيه البلاغي.

إن في أساليب علم المعاني، وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة (المعاني ـ البيان ـ البديع) ما يسميه البلاغيون بـ "الاستئناف البياني"، وضابط هذا الأسلوب أن تتقدم جملة من الكلام تثير في ذهن السامع تساؤلًا لطيفًا يدب في نفسه فتأتى جملة أخرى تجيب على ذلك التساؤل، الذي ليس له صورة في الكلام، ومن أمثلته في القرآن:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الحجر: ٦٦)، فجملة ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ جواب على سؤال تقديره: ما هو ذلك الأمر الذي قضاه الله، فالآية جرت على نسق الاستئناف البياني؛ لأن جملة (وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى) تثير في النفس التساؤل: مَنْ هم هؤلاء؟ فكان الجواب: (الَّذِينَ ظَلَمُوا).

* * *

١١ـ شبهة: أتى بضمير المفرد للعائد على المثنى.

نص الشبهة: جاء في سورة التوبة الآية ٦٢: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾، فلماذا لم يُثَنَّ الضمير العائد على الاثنين: لفظ الجلالة (الله)، ورسوله؛ فيقول: أن يرضوهما؟

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: العرب ينسبون الفعل لأحد اثنين وهو لكليهما.

قال ابن الجوزي: [1] العرب ينسبون الفعل إلى اثنين وهو لأحدهما: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ (الكهف: ٦١). ، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ (الرحمن: ٢٢)، وينسبون الفعل إلى أحد اثنين وهو لهما: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾، ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: ١١)، وينسبون الفعل إلى جماعة وهو لواحد: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ (البقرة: ٧٢).

نسبة الفعل إلى أحد اثنين وهو لهما:

قال الشاعر (وهو حسان بن ثابت):

إنَّ شَرْخَ الشباب والشَّعرَ الأسودَ   ما لم يُعاصَ كان جنونا. [2]

وقال آخر:

نحنُ بما عندَنا وأنت بما عندكَ   راضٍ والرأيُ مختلِفُ. [3]

قال الفراء: وحَّدَ (يرضوه) ولم يقل: يرضوهما؛ لأن المعنى - والله أعلم- بمنزلة قولك: ما شاء الله وشئتُ؛ إنما يقصد بالمشيئة قصدُ الثاني، وقوله: (ما شاء الله) تعظيم لله

---

(١) المدهش لابن الجوزي ص٣٧، وانظر كذلك المزهر للسيوطي١/ ٢٦٤.

(٢) نسبه الفراء في معاني القرآن لحسان بن ثابت ١ / ٤٤٥. الشَّرْخُ في البيت تمامُ الشباب يقول: إن مُوهةَ الشبابِ وسوادَ الشعرِ داعيانِ إلى ما يُشْبِهُ الجُنونَ. انظر المخصص لابن سيده ١/ ٦١. وعاصَ يَعاصُ عياصًا وعَوَصًا: صَعُبَ والشيءُ: اشْتَدَّ؛ القاموس المحيط للفيروز آبادي ص٨٠٥.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص٥٥.

مقدّم قبل الأفاعيل؛ كما تقول لعبدك: قد أعتقك الله وأعتقتُك.[(١)]

ومن سنن العرب أن تقول: رأيت عمرًا وزيدًا وسلّمت عليه؛ أي: عليهما، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وتقدير الكلام: ولا ينفقونهما في سبيل الله، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾وتقديره: انفضوا إليهما، وقال جلّ جلاله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ والمراد: أن يرضوهما.[(٢)]

والمقصود: أن يرضوا أحدهما؛ لأن إرضاء أحدهما إرضاء للآخر.

وقد يُذْكَر شيئان ويعاد الضمير إلى أحدهما والغالب كونه الثاني نحو: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ (البقرة: ٤٥)، فأعيد الضمير للصلاة، وقيل: للاستعانة المفهومة من استعينوا، ﴿جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ (يونس: ٥)، أي: القمر؛ لأنه الذي يعلم به الشهور.[(٣)]

وإنما وَحَّد الضمير؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ، فكانا في حكم مرضيّ واحد؛ كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني، أو: والله أحقّ أن يرضوه، ورسوله كذلك.[(٤)]

هذا وتوحيد الضمير في الآية للدلالة على أن المقصود إرضاء الرسول، وأنَّ ذكرَ الله للإشعار بأن الرسول من الله بمنزلة عظيمة واختصاص قوي حتى سرى الإرضاء منه إليه.[(٥)]

واللغة العربية يجوز فيها رجوع الضمير لأحد المذكورين قبله. . . كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمًا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾، ومن

---

(١) معاني القرآن للفراء١/ ٤٤٥.

(٢) فقه اللغة للثعالبي١/ ١٢١٨.

(٣)شرح رضي الدين على كافية ابن الحاجب٢/ ٣٥١، وانظر: الإتقان للسيوطي ٢/ ١٠٤.

(٤) الكشاف للزمخشري٢/ ٢٨٥، وكذلك قال ابن سيده في إعراب القرآن٥/ ٢٩٠.

(٥) كتاب الكليات لأبى البقاء الكفوي ١/ ١٤٨٣.

أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ (الأنفال: ٢٠)، ونظيره من كلام العرب قول نابغة ذبيان:

وَقَدْ أَرَانِي وَنُعْمًا لاَهِيَيْنِ بها وَالدَّهْرُ والعَيْشُ لَمْ يَهْمُمْ بِإِمْرارِ. [١]

الوجه الثاني: هناك حذف في الآية، والحذف من الإيجاز والبلاغة.

وقوله: ﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ولم يقل: يرضوهما؛ لأن المعنى يدل عليه فحذف تخفيفًا، والمعنى: والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه.

قال الفراء: وإن شئت أردت: يرضوهما فاكتفيت بواحد؛ كقوله:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف

ولم يقل: راضون. [٢]

قال الرضي: ويجوز: زيد وعمرو قام؛ على حذف الخبر من الأول اكتفاء بخبر الثاني، وكذا يجوز: زيد قام وعمرو على حذف الخبر من الثاني اكتفاء بخبر الأول أي: وعمرو كذلك، وفي الموضعين: ليس المبتدأ وحده عطفًا على المبتدأ إذ لو كان كذلك لقلت: قاما. [٣]

وقد يكون في الكلام حذف؛ قال ابن عطية: مذهب سيبويه أنهما جملتان، حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها، والتقدير عنده: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه. [٤]

إذا دار الأمر بين كون المحذوف أولًا أو ثانيًا فكونه ثانيًا أولى، ومن ثم رجح أن

(١) البيت في ديوانه ص ٣١. وانظر: دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي ٢٣٨؛ سورة الجمعة، زاد المسير لابن الجوزي٣/ ٤٢٩.

(٢) معاني القرآن للفراء١/ ٤٤٥.

(٣) شرح رضي الدين الأستراباذي على كافية ابن الحاجب٢/ ٣٥١.

(٤) إعراب القرآن لابن سيده ٥/ ٢٩٠، وانظر المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٣.

المحذوف في نحو: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ أن المحذوف خبر الثاني لا الأول.

قال سيبويه: فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد؛ لأنه قد علم أن المخاطب سيستدل به على أن الآخرين في هذه الصفة. (١)

وكان الوجه أن يجيء: يرضوهما، ولكنه أفرد على تقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه، فحذف الخبر من الأول لدلالة الثاني عليه، وهو أولى من أن يجعل المحذوف خبر الثاني لما فيه من التفريق بين المبتدأ وخبره، ولأن في ذلك التقدير جعل الخبر للأقرب إليه.

وإضمار الخبر على أنواع: منها أن يضمر الخبر لتقدم ذكره؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، والتقدير: والله أحق أن ترضوه ورسوله أحق أن يرضوه، وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ (التوبة: ٣)، أي: ورسوله بريئ من المشركين. (٢)

قال ابن عاشور: أفرد الضمير في قوله: (أَن يُرْضُوهُ) مع أن المعاد اثنان لأنه أريد عود الضمير إلى أول الاسمين، واعتبار العطف من عطف الجمل بتقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، فيكون الكلام جملتين ثانيتهما كالاحتراس، وحذف الخبر إيجاز، ومن نكتة ذلك الإشارة إلى التفرقة بين الإرضاءين. (٣)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٦٢، وانظر: الكتاب١/ ٧٤.

(٢) إعراب القرآن المنسوب للزجاج ص٦٨. قال تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

استغنى بذكر خبر الأول عن ذكر خبر الثاني لعلم المخاطب أن الثاني قد دخل في ذلك، قال ضابئ البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيارًا بها لغريب

فاستغنى بذكر خبر الآخر عن ذكر خبر الأول، وقال الفرزدق:

إني ضمنت لمن أتاني ما جنى ... وأبي فكنت وكان غير غدور

فاستغنى بخبر الثاني عن الأول والشواهد على هذا النحو كثيرة؛ الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري ١/ ٩٥ وما بعدها.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور١٠/ ٢٤٥.

الوجه الثالث: هناك تقديم وتأخير.

ومذهب المبرد: أنّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وتقديره: والله أحق أن يرضوه ورسوله، وقيل: الضمير عائد على المذكور كما قال رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق. (١)

ويَلْزَمُ المبردَ من قوله أن يجوز: ما شاء الله وشئت – بالواو-؛ لأنه يجعل الكلام جملة واحدة، وقد نُهِيَ عن ذلك إلا بثم. (٢)

ويمكن أن نجمل القول فيما يلي:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ صح عن العرب بالشواهد الصحيحة عودة المفرد على المثنى؛ إما لأنهم يدخلون الاثنين في حكمٍ واحدٍ، أو أنهم يجعلون الكلام يرجع إلى أحدهما؛ ومن ثَمَّ يعود على الآخر معه.

ومذهب سيبويه أن الجملة الأولى حذفت لدلالة الثانية عليها تقديره عنده: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، فحذف: أن يرضوه الأول لدلالة الثاني، فالهاء على قوله في يرضوه تعود على الرسول ﷺ.

وقال المبرد: لا حذف في الكلام؛ لكن فيه تقديم وتأخير تقديره عنده: والله أحق أن يرضوه ورسوله فالهاء في يرضوه عند المبرد تعود على الله – جل ثناؤه-.

وقال الفراء: المعنى: ورسوله أحق أن يرضوه، و(الله) افتتاح كلام. ويلزم المبرد من قوله أن يجوز: ما شاء الله وشئت بالواو؛ لأنه يجعل الكلام جملة واحدة وقد نُهِيَ عن ذلك إلا بثم، ولا يلزم سيبويه ذلك؛ لأنه يجعل الكلام جملتين فقول سيبويه هو المختار في الآية. (٣)

* * *

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٢٨، إعراب القرآن لابن سيده ٥/ ٢٩٠، المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٣.

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي القيسي١/ ٣٣٢.

(٣) انظر مشكل إعراب القرآن لمكي القيسي١/ ٣٣١.

١٢ـ شبهة: جمع اسم علم حيث يجب إفراده.

نص الشبهة:

جاء في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات:١٢٣). ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ (الصافات:١٣٠) قال: (إِلْ يَاسِينَ) بالجمع عن إلياس المفرد.

وجاء في سورة التين: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين:٢) قال: (سِينِينَ) بالجمع عن سيناء المفرد، فلماذا جاء بالجمع؟ ومن الخطأ لغويًا تغيير اسم العلم للسجع المتكلف.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: إثبات القراءات الواردة في هذا الاسم.

قال قوله: (إِلْ ياسين) قرأه نافعٌ وابنُ عامر بالمد في (إل) وفتح الهمزة وكسر اللام فتكون (آلِ)، وقرأ الباقون بغير مد وإسكان اللام وكسر الهمزة (إِلْ).

وحجة من مده وفتح الهمزة أنه لما رآها في المصحف منفصلة من (ياسين) استدل على أن (أل) كلمة و(ياسين) كلمة؛ أُضيف (أل) إلى (ياسين)، فـ (ياسين) اسم أُضيف إليه (أل) فهو اسم نبيّ، فسُلِّم على أهله لأجله، فهو داخل في السلام أي: من أجله سُلِّم على أهله، وأهله أهل دينه ومن اتبعه ومن آمن به، وكذلك آل محمدﷺ.

وحجة من كسر الهمزة ولم يمدّ(إل) أنه جعله اسمًا واحدًا جمعًا منسوبًا إلى (إلياس) فيكون السلام واقعًا على من نسب إلى (إلياس) النبي عليه السلام، والسلام في القراءة الأولى واقع على النبي المرسل إليهم الذي اسمه (ياسين).

و(إلياس وإلياسين) بمعنًى، تأتي الأسماء الأعجمية بلفظين وأكثر؛ ومنه قوله: ﴿مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ المؤمنون: ٢٠، وقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ التين: ٢، فهو كما قال: ﴿مِيكَالَ﴾ البقرة: ٩٨ و(ميكائيل) فكان الأصل (سلام على إلياسين). [1]

قال الشاطبي في منظومته:

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ٢ / ٢٢٧، ٢٢٨.

وَمَاذَا تُرِى بِالضَّمِّ وَالْكَسْر (شَــائِعٌ) وَإِلْيَاسَ حَذْفُ الْهَمْزِ بِالْخُلْفِ (مُـ) ـثِّلاَ[١]

قال أبو شامة المقدسي: وإلياس سرياني تكلمت به العرب على وجوه كما فعلوا في جبريل وميكال فقالوا: إلياسين كجبرائيل، وإلياس كإسحاق، ووصلوا همزته كأنه في الأصل ياس دخلته آلة التعريف، وموضع هذا الخلاف-وإن إلياس-وصل همزته ابن ذكوان وقطعها غيره.

وَغَيْرُ (صِحَابٍ) رَفْعُهُ الله رَبَّكُمْ. . . وَرَبَّ وَإِلْيَاسِينَ بِالْكَسْرِ وُصِّلاَ

وأما (سلام على إلياسين) فكسر همزتها وقصرها وأسكن كسر لامها من ذكره في قوله:

مَعَ الْقَصْرِ مَعْ إِسْكَانِ كَسْرٍ (دَ) نَا (غِـ) ـنىً وَإِنِّي وَذُو الثُّنْيَا وَأَنِّي اجْمِلاَ

عنى بالقصر حذف المد بين الهمزة المفتوحة واللام المكسورة فقرأ مدلول قوله: دنا غنا على ما لفظ به في البيت السابق، وغنا في موضع نصب على التمييز أو الحال أي دنا غناه أو ذا غناء؛ لأن هذه القراءة استغنت بوضوحها عن تأويل القراءة الأخرى؛ لأن هذا لغة في اسم إلياس على ما سبق، وقرأه نافع وابن عامر- آل ياسين-كما جاء-آل عمران-وكتبت كذا مفصولة في المصحف كأن اسمه يس على وزن ميكال، فيكون اسمه جاء في القرآن بأربع لغات، وكذا سبق في قراءة اسم جبريل؛ وهي: إلياس بقطع الهمزة، ووصلها، وياسين، وإلياسين، وتكون القراءتان قد تضمنتا التسليم عليه وعلى آله. . .[٢]

الوجه الثاني: الجمع لم يقع للعلم في ذاته دون معنًى مقصود.

وإن شئت ذهبت بـ (إل ياسين) إلى أن تجعله جمعًا، فتجعَل أصحابه داخلين في اسمه، كما تقول للقوم رئيسُهم المُهَلَّب: قد جاءتكم المهالبة والمهلَّبون، فيكون بمنزلة قوله:

---

(١) الشاطبية رقم البيت ٩٩٨.

(٢) شرح الشاطبية المسمى بإبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع للإمام الشاطبي، تأليف الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة؛ الآبيات ٩٩٨-١٠٠٠. وانظر الحجة في القراءات السبع ٣٠٣، الدر المصون للسمين الحلبي ٢٦ / ٣٥٣.

الأشعرِين والسَّعْدِين، وشبهه قال الشاعر: [١] أنا ابن سعدٍ سَيِّدِ السَّعْدِينا

وهو في الاثنين أكثر: أن يضمّ أحدهما إلى صَاحبه إذا كان أَشهر منه اسمًا؛ كقول الشاعر [٢]:

جزانى الزَّهدمان جزاء سَوءٍ وكنتُ المرءَ يُجزَى بالكرامَهْ

واسم أحدهما زَهْدَم، وقال الآخر [٣]:

جزى الله فيهَا الأعوَرَين ذَمَامَةً وفروة ثَغْر الثورَةِ المتضَاجِم

واسم أحدهما أَعور. [٤]

فَجَمَعَ المنسوبَ إلى (إلياس) بالياء والنون، فوقع السلام على من نسب إليه من أمته المؤمنين، وهذه الياء تحذف كثيرًا من النسب في الجمع المُسلَّم والمُكسَّر؛ ولذلك قالوا: المهالبة والمسامعة وأحدهم: مِسمَعي ومُهلَّبي، وقالوا: الأعجمون والنُّميرون؛ والواحد أعجمي ونُميري، فحذفت ياء النسب في الجمعين استخفافًا لثقل الياء وثقل الجمع، فكذلك (إلياسين) في قراءة من كسر الهمزة إنما هو على النسب، وحذفت الياء من الجمع على ما ذكرنا، ولو لم يكن ذلك على النسب لكان كل واحد من أمة النبي اسمه (إلياس)؛ وليس كذلك، إنما (إلياس) اسم نبيهم فنسبوا إليه. [٥]

وإلياسين جمع فهو من باب قول الراجز:

(قدني من نصر الخبيبين قدني)، ورد هذا بأنه لو أريد لكان الوجه تعريفه فيقال: الإلياسين كقوله: الخبيبين، وقريء على إلياسين بوصل الهمزة؛ فهذا يمكن فيه ذلك لأن

---

(١) هو رؤبة. كما ذكره سيبويه في الكتاب ٢ / ١٥٣ بلفظ: أكرم بدل سيد. وانظر: ملحقات ديوان رؤبة ١٩١، وابن يعيش ١: ٤٦.

(٢) هو قيس بن زهير، كما في اللسان (زهدم). قال أبو عبيدة: الزهدمان هما: زهدم وكردم.

(٣) هو الأخطل، كما في اللسان (ثغر).

(٤) معاني القرآن للفراء٢/ ٣٩١.

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب القيسي ٢/ ٢٢٧.

فيه آلة التعريف؟ وقيل: ياسين اسم أبي إلياس أضيف الآل إليه فدخل إلياس فيهم. (١)

قال الأخفش: العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلب، قال: فعلى هذا إنه سمى كل رجل منهم بإلياسين(٢).

قال الفراء: يذهب بإلياسين إلى أن يجعله جمعًا، فيجعل أصحابه داخلين معه في اسمه.

قال أبو عليّ الفارسي: تقديره: إلياسيين، إلا أن الياءين للنسبة حذفتا كما حذفتا في الأشعرين والأعجمين. ورجح الفرّاء وأبو عبيدة قراءةَ الجمهور؛ قالا: لأنه لم يقل في شيء من السور على آل فلان، إنما جاء بالاسم كذلك إلياسين لأنه إنما هو بمعنى: إلياس، أو بمعنى: إلياس وأتباعه. وقال الكلبي: المراد بآل ياسين: آل محمد، قال الواحدي: وهذا بعيد؛ لأن ما بعده من الكلام وما قبله لا يدلّ عليه. (٣)

الوجه الثالث: العرب تتصرف في الأسماء الأعجمية.

إن (آل ياسين) لغة في إلياس، وكثيرًا ما يتصرفون في الأسماء غير العربية، وفي الكشاف: لعل لزيادة الياء والنون معنى في اللغة السريانية. (٤)

ومن هذا الباب سيناء وسينين، واختار هذه اللغة هنا رعاية للفواصل.

قال ابن عاشور: وللعرب في النطق بالأسماء الأعجمية تصرفات كثيرة؛ لأنه ليس من لغتهم فهم يتصرفون في النطق به على ما يناسب أبنية كلامهم. (٥)

قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ فجعله بالنون، والعجميُّ من الأسْمَاء قد يَفعل به هذا العربُ، تقول: ميكالُ، وميكائِيل، وميكائل، وميكائين - بالنون-؛ وهي في بني أسَدٍ يقولونَ: هذا إسْمَاعِينُ قد جَاء -بالنون-، وسَائر العرب باللام، قال: وأنشدني بعض بني

(١) شرح الشاطبية لأبي شامة؛ الأبيات ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٧.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٤٧٠.

(٤) الكشاف للزمخشري؛ الصافات: ١٣٠.

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور؛ الصافات: ١٢٣، ٢٣/ ٧٨.

نُمَير لضبٍ صَاده بعضُهم:

يقول أهلُ السوق لما جينا هذا وَربِّ البيت إسرائينا

وقد يَشهد عَلى صَوَاب هَذَا قوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ (المؤمنون: ٢٠)، ثم قَالَ في موضع آخر: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين: ٢)، وهو معنىً واحدٌ وموضع واحدٌ، والله أعلم. (١)

قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبًا؛ فياسين، وإلياس، وإلياسين شيء واحد. (٢)

إلياس اسم أعجمي والأسماء الأعجمية إذا وقعت إلى العرب غيرتها بضروب من التغيير فيقولون: إبراهيم، وإبراهم، وإبرهام، هكذا أيضًا: سيناء وسينين، وإلياس، وإلياسين، ويس، وفي قراءة " سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ" بمعنى واحد. (٣)

الوجه الرابع: طريقة العرب في التعريب.

كان العرب إذا عرّبوا كلمة صاغوها على غرار الأوزان التي تعرَّفوا عليها إلا ما ندر، وننقل هنا نصًا لصاحب المعرب أبي منصور الجواليقي يوضح مذهب العرب في النطق بالألفاظ الأجنبية يقول: اعلم أنهم كثيرًا ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجًا، وربما أبدلوا ما بَعُدَ مخرجُه أيضًا، وربما غيروا البناء من الكلام الفارسي إلى أبنية العرب؛ وهذا التغيير بإبدال حرف من حرف، أو زيادة حرف، أو نقصان حرف، أو إبدال حركة بحركة، أو إسكان محرك، أو تحريك ساكن، وربما تركوا الحرف على حاله ولم يغيروه، أي: إن العرب لنفورهم من العجمة واستثقالهم لها كانوا يتصرفون في اللفظ الأجنبي بأي طريق ليبعدوه بذلك عن أصل لغته ويلبسوه ثوبا جديدًا. (٤)

---

(١) معاني القرآن للفراء٢/ ٣٩١.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤ / ١٧٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٨.

(٤) الراموز على الصحاح لمحمد بن السيد حسن ٢٧، انظر المعرب للجواليقي٦١؛ ففيه كلام طيب وطويل عن أسماء الأنبياء الأعجمية التي عربت.

والصواب -والله أعلم- في ذلك أن أصل الكلمة آل ياسين كآل إبراهيم، فحذفت الألف واللام من أوله لاجتماع الأمثال ودلالة الاسم على موضع المحذوف، وهذا كثير في كلامهم إذا اجتمعت الأمثال كرهوا النطق بها كلها فحذفوا منها ما لا إلباس في حذفه، وإن كانوا لا يحذفونه في موضع لا تجتمع فيه الأمثال؛ ولهذا لا يحذفون النون من إني وأني وكأني ولكني ولا يحذفونها من ليتني، ولما كانت اللام في لعل شبيهة بالنون حذفوا النون معها، ولاسيما عادة العرب في استعمالها للاسم الأعجمي وتغييرها له فيقولون مرة: إلياسين، ومرة: إلياس، ومرة: ياسين، وربما قالوا: ياس، ويكون على إحدى القراءتين قد وقع على المُسلم عليه وعلى القراءة الأخرى على آله، وعلى هذا ففصل النزاع بين أصحاب القولين في الآل -أن الآل إن أُفرد دخل فيه المضاف إليه كقوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦)؛ ولا ريب في دخوله في آله هنا، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٠)، ونظائره، وقول النبي: اللهم صل على آل أبي أوفى، ولا ريب في دخول أبي أوفى نفسِهِ في ذلك، وقوله: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم؛ هذه أكثر روايات البخاري، وإبراهيم هنا داخل في آله، ولعل هذا مراد من قال: آل الرجل نَفْسُهُ، وأما إِنْ ذُكر الرجل ثم ذكر آله لم يدخل فيهم، ففرق بين المجرد والمقرون؛ فإذا قلت: أعط لزيد وآل زيد لم يكن زيد هنا داخلًا في آله: وإذا قلت: أعطه لآل زيد تناول زيدًا وآله. اهـ[1].

جملة القول: أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وكان لابد أن يوافق سَنَنَ العرب؛ لأنه يخاطبهم، والعرب عندما يستخدمون الكلمات الأعجمية يضعون عليها طابعًا عربيًا لتصير معربة، وللعرب طُرق ولغات معلومة في استخدام الأسماء الأعجمية، وقد اختار القرآن أحد هذه اللغات والتي وافقت الفواصل للآيات، فجمعت هذه الكلمةُ حسنَ الانتقاء إلى حسنِ التناسب.

* * *

(١) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام؛ في معنى: الآل واشتقاقه وأحكامه ٢٠٣ وما بعدها.

١٣ـ شبهة: أتى باسم الفاعل بدلًا من الـمصدر. [١]

نص الشبهة: جاء في سورة البقرة الآية ١٧٧: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ والصواب – زعموا– أن يُقال: ولكن البرَّ أن تؤمنوا؛ لأن البر هو الإيمان لا المؤمن.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: هناك حذف في الآية، ومن البلاغةِ الإيجازُ بالحذف.

تبعًا للقاعدة النحوية التي لا تجيز أن يُخبر عن اسم (جثة) بفعل (حدث أو معنى)[٢] فإن العلماء من اللغويين والنحاة والمفسرين قدَّروا محذوفًا؛ إما في الأول: ولكن ذا البرّ مَنْ. . . ، أو في الثاني: ولكن البرَّ برُّ مَنْ. . . ، وحذف المضاف شائع في اللغة.

قال ابن مالك:

وما يلي المضاف يأتي خلفا عنه في الإعراب إذا ما حذفا

والمعنى: يحذف المضاف لقيام قرينة تدل عليه ويقام المضاف إليه مقامه فيعرب بإعرابه. [٣]

قال ابن جني: قول الله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: برُّ من اتقى، وإن شئت كان تقديره: ولكن ذا البر من اتقى، والأَول أَجود؛ لأَن حذف المضاف ضَرْبٌ من

---

(١) ليس في هذا الآية اسم فاعل على الإطلاق؛ فلا البر اسم فاعل، ولا مَنْ اسم فاعل، ولا آمن اسم فاعل، ولا لفظ الجلالة الله اسم فاعل، ويمكن أن نطلق على هذه الشبهة: الإتيان بالموصول بدل المصدر، وللعلماء في توجيه وقوع من آمن خبرًا عن البر –وهو ظاهرًا خلافُ الأصل– عدةُ توجيهات؛ لأن البر معنىً ذهنيٌّ ومن آمن ذات، والذوات لا يخبر بها عن المعاني الذهنية.

(٢) قال ابن مالك: ولا يكون اسم زمان خبرا عن جثة وإن يُفِدْ فأخبرا

والمبتدأ على ضربين: جثة وحدث؛ فالجثة: ما كان عبارة عن شخص نحو: زيد وعمرو، والحدث: هو المصدر نحو: القيام والقعود. الإخبار بالظرف؛ اللمع في العربية لابن جني ١/ ٢٨.

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢ / ٧٢.

الاتساع، والخبر أَولى من المبتدأ؛ لأَن الاتساع بالأَعجاز أَولى منه بالصدور. (١)

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ البرُّ معنًى من المعاني؛ فلا يكون خبره الذوات إلاَّ مجازًا، فإمّا أن يُـجعل البرُّ هو نفس من آمن على طريق المبالغة؛ قاله أبو عبيدة، والمعنى: ولكنّ البارّ، وإمّا أن يكون على حذف من الأول؛ أي: ولكنّ ذا البر؛ قاله الزجاج، أو من الثاني أي: برُّ من آمن؛ قاله قطرب، وعلى هذا خرَّجه سيبويه؛ قال في كتابه: وإنما هو: ولكن البرَّ برُّ من آمن بالله.

وإنما اختار هذا سيبويه لأن السابق إنما هو نفي كون البر هو تولية الوجه قِبلَ المشرقِ والمغرِب، فالذي يستدرك إنما هو من جنس ما ينفى، ونظير ذلك: ليس الكرم أن تبذل درهمًا ولكنَّ الكرم بذل الآلاف، فلا يناسب: ولكنّ الكريم من يبذل الآلاف إلاَّ إن كان قبله: ليس الكريم بباذل درهم.

وقال المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: ولكن البَرَّ -بفتح الباء-، وإنما قال ذلك لأنه يكون اسم فاعل، تقول: بررت أبرّ فأنا بَرّ وبارّ، قيل: فبنى تارة على فَعْلٍ نحو: كهل وصعب، وتارة على فاعل، والأولى ادِّعاء حذف الألف من (البرّ)، ومثله: سرٌّ، وقرّ، ورَبّ؛ أي: سارٌّ، وقارّ، وبارّ، وراب. (٢)

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٦٣) أي: ذوو درجات. وذلك أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة وفرضت الفرائض وصرفت القبلة إلى الكعبة وحدت الحدود -أنزل الله هذه الآيةَ، فقال: ليس البر كله أن تصلوا ولا تعملوا غير ذلك، ولكن البر – أي: ذا البر – من آمن بالله، إلى آخرها؛ قاله ابنُ عباس، ومجاهد، والضحاك، وعطاء، وسفيان، والزجاج أيضًا. (٣)

---

(١) الخصائص ٢ / ٣٦٢.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان٢/ ٤.

(٣) تفسير القرطبي٢/ ٢٤٣.

ومثله في الاتساع قوله ﷻ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ (البقرة: ١٧١)، وإنما شبهوا بالمنعوق به، وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى.[١]

الوجه الثاني: يَرِدُ المصدرُ بمعنى: اسمِ الفاعل.

قال أبو عبيدة: ومن مجاز المصدر الذي في موضع الاسم أو الصفة قال: (ولكِن البِرّ مَن آمَنَ بِالله) خروج المعنى: البارُّ، وقال: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، والرتق: مصدر وهو في موضع مرتوقتين... ؛ فالعرب تجعل المصادر صفاتٍ، فمجاز البرّ ها هنا: مجاز صفة لـ (مَن آمن بالله)، وفي الكلام: ولكن البارَّ مَن آمن بالله، قال النابغة:

وقد خِفتُ حتى ما تَزيدُ مَخافتِي على وَعِلٍ في ذي القِفَارة عاقِلِ

والمخافة: فعل، والوَعل اسم، وفي آية أخرى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٧٧)؛ فـ (البرّ) ها هنا مصدر، و(مَن) في هذا الموضع اسم...

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ (البقرة: ١٨٩): البرّ هنا: في موضع البار، ومجازها: أي اطلبوا البرّ من أهله ووجهه، ولا تطلبوه عند الجهَلة المشركين.[٢]

لقوة شبه المصدر باسم الفاعل الذي هو صفة تَرى أن كل واحد منهما قد يقع موقع صاحبه؛ يقال: رجل عدل أي: عادل، فوقع المصدر موقع اسم الفاعل.[٣]

---

(١) كتاب سيبويه ١/ ٢١١. باب: استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٢، ١/ ٦٥، ١/ ٦٨.

(٣) انظر شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين ٤ / ١٢٩.

ويجوز أن يكون (الْبِرَّ) بمعنى: البارّ والبَر، والفاعل قد يسمى بمعنى: المصدر، كما يقال: رجل عدل، وصوم، وفطر، وفي التنزيل: ﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ (الملك: ٣٠) أي: غائرًا، وهذا اختيار أبي عبيدة. (١)

ووقوع المصدر موقع اسم الفاعل أو الفاعل من الأساليب الفصيحة، ومن شواهدها في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ (البلد: ٢)؛ فوقع المصدر (حِلٌّ) موقع اسم الفاعل (حالٌّ) أي: مقيم بهذا البلد.

الوجه الثالث: العرب تجعل الاسم خبرًا للفعل.

فـ (مَنْ آمَنَ) معناه: الإيمان، لـمَّـا وقع (مَنْ) موقع المصدر جُعِلَ خبرًا للأول؛ كأنه قال: ولكن البرَّ الإيمانُ بالله، والعرب تجعل الاسم خبرًا للفعل، وأنشد الفراء:

لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللحى ... ولكنما الفتيان كل فتى نَدِي

جعل نبات اللحية خبرًا للفتيان، والمعنى: لعمرك ما الفتوة أن تنبت اللحى. (٢)

والإخبار عن المصدر باسم الذات للمبالغة كعكسه في قول الخنساء:

ترتع ما رتعت حتى إذا أدركت ... فإنما هي إقبال وإدبار.

قال سيبويه: فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام، كقولك: نهارك صائم وليلك قائم. (٣)

وقال ابن جني: أن يكون من هذا أي كأنها مخلوقة من الإقبال والإدبار لا على أن يكون من باب حذف المضاف أي ذات إقبال وذات إدبار، ويكفيك من هذا كلِّه قولُ الله ﷻ: خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ وذلك لكثرة فعله إياه واعتياده له. (٤)

---

(١) تفسير القرطبي ٢/ ٢٤٤.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٥. وانظر: معاني القرآن ١/ ١٠٥ للفراء.

(٣) الكتاب ١/ ٣٣٧.

(٤) الخصائص ٢/ ٨، ويرجع إلى ٢/ ٤٠٥ كذلك.

وممّا قيل في صفة الإيمانِ: الإيمانُ هَيَوبٌ. [١]

جائز في كلام العرب أن يسمى الرجل باسم الفعل، ألا تسمع إلى قوله: (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) إنما تأويله فيما يقال -والله أعلم-: ولكن البر إيمان من آمن بالله، فقام الاسم مقام الفعل، وكذلك الإيمان هيوب؛ قام الإيمان مقام المؤمن. [٢]

الوجه الرابع: (البِرّ) اسمُ فاعل.

وهو مِنْ بَرَّ يَبَرُّ فهو بِرٌّ، والأصلُ: بَرِرٌ بكسرِ الراءِ الأولى بزنة (فَطِن)، فلما أُريد الإدغام نُقِلَتْ كسرةُ الراءِ إلى الباءِ بعد سَلْبِها حركتَها، فعلى هذه القراءةِ لا يَحتاج الكلامُ إلى حَذْفٍ وتأويلٍ؛ لأنَّ البِرَّ من صفاتِ الأعيان، كأنه قيل: ولكن الشخصَ البِرّ مَنْ آمن. . . وقُرِئ: (ولكنَّ البارَّ) بالألف وهي تقوِّي أنَّ (البِرَّ) بالكسرِ المرادُ به اسمُ الفاعلِ لا المصدرُ. [٣]

* * *

(١) مصنف ابن أبي شيبة؛ كتاب: ما قالوا في صفة الإيمان ٧/ ٢١١، ورُوي عن عبيد بن عُمَير أنه قال: الإيمان هيُوب، وله وجهان: أحدُهما: المؤمن يهابُ الذنبَ فيتَّقِيه، والآخر: المؤمن هَيوب أي: مهيوب لأنه يَهاب اللهَ فيهابهُ الناسُ، أي: يعظِّمون قدره ويُوقِّرونه؛ تهذيب اللغة للأزهري٦/ ٤٦٣.

(٢) غريب الحديث لابن سلام٤/ ٣٥٤.

(٣) الدر المصون للسمين الحلبي ٢ / ٢٤٥، ٢٤٦.

١٤ـ شبهة: رفع اسم إن.

نص الشبهة: رفع القرآن اسم "إن" ومن ذلك ما جاء في سورة طه من الآية ٦٣: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾، وكان يجب عليه أن يقول: إن هذين لساحرين.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ما ورد في الآية من قراءات وتوجيهها

قال مكي بن أبي طالب القيسي قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ قرأ ابن كثير وحفص (قالوا إنْ هذان لساحران) بتخفيف (إن)، وشدد الباقون، وقرأ أبو عمرو (هذين) بالياء، وقرأ الباقون بالألف. وحجة من خفف: أنه لما رأى القراءة وخط المصحف في (هذان) بالألف أراد أن يحتاط بالإعراب فخفف (إن) ليحسن الرفع بعدها على الابتداء؛ لأن (إنْ) إذا خففت حَسُن رفع ما بعدها على الابتداء لنقصها عن شبه الفعل، ولأنها لم تقوَ قوة الفعل فتعمل ناقصة كما يعمل الفعل ناقصًا في نحو: لم يكُ زيدٌ أخانا، ومنهم مَنْ يُعملها وهي مخففة عملها وهي مشددة، فالذي خفف (إن) اجتمع له في قراءته موافقة الخط وصحة الإعراب في (هذان).

وحجة مَنْ شددها أنه أتى بها على أصلها، فوافق الخط وتأوَّل في رفع (هذان) مما نذكره.

وحجة من قرأ (هذان) بالألف مع تشديد (إن) أنه اتبع خط المصحف، وأجرى (هذان) في النصب بألف على لغةٍ لبني الحارث بن كعب يلفظون بالمثنى على كل حال، وأنشد النحويون في ذلك قول الشاعر:

تزوَّدَ منَّا بين أذْناهَ ضَرَبةً ... دَعْته إلى هابي التُّرابِ عَقيم[1]

فأتى بالألف في موضع الخفض، وقد قيل: إنما أتى (هذان) بالألف على لغة من جعل (إن) بمعنى: (نعم) فيرتفع ما بعدها بالابتداء، واستبعد ذلك بعضُ النحويين لدخول اللام في (لساحران)، واللام إنما حقها أن تدخل في الابتداء دون الخبر، وإنما تدخل في

---

(١) البيت لهوبر الحارثي كما في اللسان (هبا) وانظر: تهذيب اللغة للأزهري مادة هبا.

الخبر إذا عملت (إن) في الاسم، وقد جاء دخول اللام في الخبر دون الابتداء في الشعر.

وقد قيل: إن (هذا) لما لم يظهر فيه الإعراب في الواحد والجمع أجريت التثنية على ذلك فأتي بالألف على كل وجه من الإعراب كما كان في الواحد والجمع.

وحجة من قرأ بالياء أنه أعمل (إن) في (هذان) فنصبته، وهي اللغة المشهورة المستعملة لكنه خالف الخط فضعف لذلك، وقد ذكرنا أن ابن كثير يشدد النون من (هذان) وذكرنا علته.[1]

الوجه الثاني: تأتي (إنْ) المخففة، مكسورة الهمزة على وجوه في اللغة العربية.

أورد ابن هشام لـ (إن) المخففة مكسورة الهمزة أربعة أوجه:

أحدها: أن تكون شرطية.

الثاني: أن تكون نافية.

الثالث: أن تكون مخففة من الثقيلة فتدخل على الجملتين، فإن دخلتْ على الاسمية جاز إعمالها، ويكثر إهمالها نحو: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾، وقراءة حفص: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾.

الرابع: أن تكون زائدة.[2]

وقد أورد لها المرادي سبعة أوجه، قال: وقد نظمت أقسام (إن) في هذين البيتين:

وأقسام إن بالكسر: شرط، زيادة ونفي، وتخفيف فتلزم لامها

معنى إذ، وإما، وقد حَكَى الـ كسائي معنى: قد، وهذا تمامها

وإنّ المكسورة المشددة تأتي على وجهين:

أحدهما: أن تكون حرف توكيدٍ تنصب الاسم وترفع الخبر.

الثاني: أن تكون حرف جوابٍ بمعنى: نعم، خلافًا لأبي عُبيدة، واستدل المثبتون بقوله:

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ٢/ ٩٩، ١٠٠.

(٢) انظر مغني اللبيب لابن هشام ١/ ٥٧.

ويقُلن: شيبٌ قد علا ك وقد كبرتَ، فقلتُ: إنَّهْ[١]

ورُدَّ بأنّا لا نسلم أن الهاء للسكت؛ بل هي ضميرٌ منصوب بها والخبر محذوف؛ أي: إنه كذلك، والجيد الاستدلال بقول ابن الزُّبير ﷺ لمن قال له: لعن الله ناقةً حملتني إليك: إنّ وراكبَها؛ أي: نعم، ولعن راكبها؛ إذْ لا يجوز حذف الاسم والخبر جميعًا، وعن المبرد أنه حمل على ذلك قراءة من قرأ (إنّ هذان لساحران). [٢]

الوجه الثالث: توجيه مجيء (هذان) بعد (إن) في الآية الكريمة.

١ـ إذا كانت (إن) مخففة غير عاملة فـ (هذان) مبتدأ مرفوع بالألف لأنه مثنى، و(لساحران) خبر المبتدأ، واللام داخلة على الخبر؛ أو داخلة على مبتدأ (ساحران) خبره أي: لهما ساحران، والجملة خبر، واللام للفرق بين إن النافية وإن المخففة من الثقيلة. [٣]

قال سيبويه: واعلم أنهم يقولون: إنْ زيدٌ لذاهبٌ، وإنْ عمرٌو لخيرٌ منك، لما خفّفها جعلها بمنزلة لكنْ حين خفّفها، وألزمها اللام لئلا تلتبس بإن التي هي بمنزلة ما التي تنفي بها، ومثل ذلك: " إن كلُّ نفسٍ لما عليها حافظٌ ". [٤]

٢ـ إذا كانت (إن) مشددة عاملة فـ (هذان) اسمها:

ـ وهو على لغة بلحارث بن كعب يجعلون الاثنين في رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف، وقيل: إن الآية على هذه اللغة قال الشاعر:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها[٥]

---

(١) القائل هو ابن قيس الرقيات. خزانة الأدب ٤ / ٤٨٥، معاني الحروف للرماني ١١٠.

(٢) واعتُرض بأمرين: أحدهما: أن مجيء إنّ بمعنى: نعم شاذ، حتى قيل: إنه لم يثبت. والثاني: أن اللام لا تدخل في خبر المبتدأ. وأجيب عن هذا: بأنها لام زائدة وليست للابتداء، أو بأنها داخلة على مبتدأ محذوف؛ أي: لهما ساحران. انظر: مغني اللبيب لابن هشام ١ / ٢٣٦.

(٣) على رأي البصريين، والكوفيون يزعمون أن إن نافية واللام بمعنى: إلا. البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٢٣٨.

(٤) الكتاب لسيبويه ٢/ ١٣٩.

(٥) كافية ابن الحاجب بشرح رضي الدين ٣/ ٤١٥.

ـ أو وجدت الألف من (هذا) دِعامة[١] وليست بلام فعل، فلمّا ثنّيت زدت عليهَا نونًا ثم تركت الألف ثابتة على حالها لا تزول على كلّ حال؛ كما قالت العرب: (الذي) ثم زادوا نونًا تدلّ عَلَى الجِمَاع، فقالوا: الذين في رفعهم ونصبهم وخفضهم كما تركوا (هذان) في رفعه ونصبه وخفضه.[٢]

وعليه فهي اسم منصوب لكن العلامة مقدرة عليه غير ظاهرة.

ويحتجون بأن هذه اللام أصلها أن تقع في الابتداء وأن وقوعها في الخبر جائز، وينشدون في ذلك:

خالي لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخونا

وأنشدوا أيضًا:

أم الحليس لعجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرقبة

قالوا: المعنى: لأنت خالي، والمعنى: لأم الحليس عجوز.[٣]

- وقال القدماء من النحاة إنه على حذف ضمير الشأن[٤] والتقدير: إنه هذان

---

(١) قال الفراء: الألف في « هذان » دعامة وليست بمجلوبة للتثنية، وإنما هي ألف هذا تركبت في حال التثنية كما تقول: الذي ثم تزيد في الجمع نونًا وتترك الياء في حال الرفع والنصب والخفض. المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٥٠.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٤. فالألف ليست علامة إعراب للمثنى - في هذا الرأي - ولكنها أصل في الكلمة.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٦٢.

(٤) قال البغدادي نقلا عن ابن عصفور في كتاب الضرائر: ومنه حذف ضمير الشأن أو القصة، إذا كان اسمًا لإن وأخواتها كقوله:

فلا تشتم المولى وتبلغ أذاته فإن به تثأى الأمور وترأب

يريد: فإنه تثأى الأمور. خزانة الأدب للبغدادي ١٠ / ٤٧٥. والصحيح أن حذف ضمير الشأن لا يختص بالشعر، ومنه الحديث: "إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون" والأصل: إنه. خزانة الأدب للبغدادي ٩ / ١٤٢، ومعنى: به تثأى الأمور وترأب يريد: بالمولى تصلح الأمور وتفسد؛ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٤٧٦.

لساحران، وخبر (إن) الجملة من قوله: ﴿هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾ واللام في (لساحران) داخلة على خبر المبتدأ.[١]

قال ابن الأنباري: فأضمرت الهاء التي هي منصوب (إن)، و(هذان) خبر (إن)، و(ساحران) يرفعها (هما) المضمر، والتقدير: إنه هذان لهما ساحران.

والأشبه عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم (إن) و(هذان) رفع بالابتداء وما بعده خبر الابتداء.[٢]

* * *

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٢٣٨.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٢٢٣.

١٥ـ شبهة: لم يأتِ بجواب لمّا.

نص الشبهة: جاء في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: ١٥)، فأين جواب (لَمَّا)؟ ولو حذفت الواو التي قبل (أوحينا) لاستقام المعنى.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: جواب الشرط محذوف.

فالحذف باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنَّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ. (١)

فجواب (لما) محذوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى. (٢)

وقيل تقديره: فجعلوه فيها، وحذفُ الجواب كثير بشرط أن يكون المذكور دليلًا عليه. (٣)

ويجوزحذف جواب (لما) لدلالة المذكور عليه والتقدير: فعلوا به ما فعلوا، أي: فعلوا ما أجمعوا عليه (وأوحينا إليه)، والكوفيون يجعلون (أوحينا) جواب لما، والواو زائدة. (٤)

وحذف جواب (لما) هنا المراد منه تهويل وتفظيع ما حدث من إخوة يوسف ليوسف، بعد أن أذن لهم أبوهم بالذهاب به إلى الصحراء، وقد روي عنهم(٥) أنهم أخذوا يؤذونه بالقول والفعل وهم في الطريق إلى المكان الذي قصدوه، حتى كادوا يقتلونه، والدليل على

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ١٢٥.

(٢) الكشاف للزمخشري٢/ ٤٤٩، المحرر الوجيز لابن عطية٣/ ٢٢٥، الإملاء للعكبري٢/ ٥٠.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٩٨.

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني لابن أم قاسم المرادي ص ٥٩٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري١٢/ ١٦٠، الكشاف٢/ ٤٢٤، تفسير البيضاوي٣/ ٢٧٧، التفسير الكبير ١٨/ ٧٩، تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٨، تفسير البغوي ٢/ ٤١٣، تفسير القرطبي ٩/ ١٤١، تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٢، تفسير النسفي ٢/ ١٨١، روح المعاني ١٢/ ١٩٧، والبحر المحيط ٥/ ٢٨٧.

هذا قوله تعالى حكاية عن أحد إخوته: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، فالنهي عن القتل لا يكون إلا عند العزم عليه ومباشرة أسبابه.

لذلك حذف جواب (لما) لتذهب النفس في تصوره كل مذهب، وحذف هذا الجواب فيه دلالة على طول ما حدث منهم، وعلى غرابته وبشاعته؛ لذلك قدره الإمام الزمخشري فقال: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، وأظهروا له العداوة، وأخذوا يُهينونه ويضربونه، وإذا استغاث بواحد منهم لم يُغثْه إلا بالإهانة والضرب. (١)

الوجه الثاني: جواب الشرط مذكور وله حينئذ احتمالان:

١ – أنه ليس المقترن بالواو.

٢ – أنه المقترن بالواو وكلاهما له وجه بليغ في اللغة.

وتفصيل ذلك كما يلي:

قيل: جواب (لما) قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾. (٢)

أي: لما كان كيت وكيت قالوا. (٣)

وقوله: (فلما ذهبوا به وأجمعوا) أدخلت (الواو) في الجواب كما قال امرؤ القيس:

فَلَمَّا أجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى ... بِنا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ (٤)

فأدخل الواو في جواب (لما)، وإنما الكلام: فلما أجزنا ساحة الحي انتحى بنا، وكذلك: (فلما ذهبوا وأجمعوا)؛ لأن قوله: (أجمعوا..) هو الجواب. (٥)

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٢٤. وجواب لما محذوف إيذانًا بظهوره وإشعارًا بأن تفصيله مما لا يحويه فلك العبارة، ومجمله: فعلوا به من الأذية ما فعلوا؛ تفسير أبي السعود ٤/ ١٩٦.

(٢) تفسير القرطبي ٩/ ١٤٦.

(٣) اختلفوا في جواب لَمَّا أهو مثبت أو محذوف؟ فمن قال: مثبت قال: هو قولهم: قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق أي: لما كان كيت وكيت قالوا، وهو تخريج حسن؛ البحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٢٨٧.

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣.

(٥) تفسير الطبري ٧/ ١٢.

قال الكوفيون: فالجواب (أوحينا) والواو صلة، والواو عندهم تزاد مع (لما) و(حتى)؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ (الزمر: ٧٣) أي: فتحت، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ (هود: ٤٠) أي: فار، قال امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى...

أي: انتحى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ (الصافات: ١٠٣-١٠٤) أي: ناديناه.[1]

هذا وزيادة الواو تغلب في القياس والاستعمال:

وقد تحذف كثيرًا من الجمل كقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ﴾ أي: وقلت، والجواب قوله تعالى: (تولوا)، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾.[2]

فهل يجوز أن تجيء واو العطف زائدة؟.

ذهب الكوفيون إلى أن الواو العاطفة يجوز أن تقع زائدة؛ وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش، وأبو العباس المبرد، وأبو القاسم بن برهان؛ من البصريين، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز...

وقد انتصر الأنباري لرأي البصريين، وخرج سائر مواضع وقوع الواو في جواب الشرط على أنها عاطفة لا زائدة؛ لأنها وضعت لمعنى وهو العطف، وما بعدها ليس بجواب الشرط، وأن جواب الشرط محذوف ومقدر.[3]

* * *

(١) تفسير القرطبي٩/ ١٤٦، تفسير البغوي٢/ ٤١٣، البحر المحيط٥/ ٢٨٧، فتح القدير للشوكاني٣/ ١٥.

(٢) البرهان للزركشي ٤/ ٤٤٢.

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري؛ مسألة هل يجوز أن تجيء واو العطف زائدة٢/ ٤٥٦.

١٦ـ شبهة: نصب المضاف إليه.

نص الشبهة:

جاء في سورة هود (١٠): ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، وكان يجب أن يجرَّ المضاف إليه بالكسرة فيقول: بعد ضراءِ.

والرد على هذه الشبهة كما يلي:

الوجه الأول: الممنوع من الصرف وشروط منعه.

الأصل في الأسماء أن تكون منصرفة – أي: منونة–، وتمنع من الصرف – أي: التنوين– إذا وجد فيها مانع من الموانع التي وضعها النحاة للتمييز بين الاسم الممنوع من الصرف والاسم المنصرف، وهذه الموانع – أو العلامات– هي:

١– وزن الفعل. ٢– التركيب. ٣– العجمة. ٤– التعريف (والمراد به هنا العلمية دون غيرها من أقسام المعارف). ٥– العدل. ٦– الوصف. ٧– الجمع. ٨– زيادة الألف والنون. ٩– التأنيث.

قال ابن هشام: مَوَانِعُ صَرْفِ الاسْمِ تِسْعَةٌ يَجْمَعُهَا:

وَزْنُ، المُركبِ، عُجْمَةٌ، تَعْرِيفُهَا   عَدْلٌ، وَوَصْفُ، الجَمْعِ، زِدْ، تَأْنِيثَا

كَأَحْمَدَ وَأَحْمَرَ، وَبَعْلَبَكَّ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَعُمَرَ وَأُخَرَ، وأُحَادَ وَمَوْحِدَ إِلَى الأَرْبَعَةِ، وَمَسَاجِدَ وَدَنَانِيرَ، وَسَلْمَانَ وَسَكْرَانَ، وَفَاطِمَةَ وَطَلْحَةَ وَزَيْنَبَ وَسَلْمى، وَصَحْرَاءَ؛ فَأَلِفُ التَّأْنِيثِ وَالجَمْعُ الَّذِي لا نَظِيرَ لَهُ فِي الآحادِ كُلٌّ مِنْهُما يَسْتَأْثِرُ بِالْمَنعِ، وَالبَوَاقِي لابُدَّ مِنْ مُجَامَعَةِ كُلِّ عِلَّةٍ مِنْهُنَّ لِلصِّفَةِ أَوِ العَلَمِيَّةِ.[1]

الوجه الثاني: سبب منع هذه الصيغة من الصرف.

علل سيبويه سبب منع هذه البنية من الصرف بقوله: هذا باب ما لحقته ألف التأنيث بعد ألف فمنعه ذلك من الانصراف في النكرة والمعرفة، وذلك نحو حمراء، وصفراء،

---

(١) قطر الندى لابن هشام ص ٣٤٩، باب: في ذكر موانع الصرف.

وخضراء، وصحراء، وفقهاء، وسابياء، وحاوياء، وكبرياء. ومثله أيضًا: عاشوراء، ومنه: زمكاَّء وبراكاء، ودبوقاء، وخنفساء، وعنظباء، وعقرباء، وزكرياَء.

فقد جاءت في هذه الأبنية كلَّها للتأنيث، والألف إذا كانت بعد ألف مثلها إذا كانت وحدها؛ إلاّ أنَّك همزت الآخرة للتحريك؛ لأنّه لا ينجزم حرفان، فصارت الهمزة التي هي بدلٌ من الألف بمنزلة الألف لو لم تبدل، وجرى عليها ما كان يجري عليها إذا كانت ثابتة، كما صارت الهاء في هراق(١) بمنزلة الألف، واعلم أن الألفين لا تزادان أبدًا إلا للتأنيث، ولا تزادان أبدًا لتُلْحِقَا بناتَ الثلاثةِ بسِرْداحٍ ونحوها، ألا ترى أنك لم ترَ قطّ فعلاء مصروفةً، ولم نرَ شيئًا من بنات الثلاثة فيه ألفان زائدتان مصروفًا. (٢)

ومَنَعَ هذا البناءُ الصرفَ؛ لأنك تريد بـ(الهمزة) ما تريد بـ(الألف). (٣)

الوجه الثالث: إعراب الممنوع من الصرف.

الفتحة تأتي نيابةً عن الكسرة في الممنوع من الصرف، فيجر الاسم الممنوع من الصرف بالفتحة إذا كان مجردًا من أل والإضافة، والكسرة هي علامة الجر الأصلية، وتسمى الفتحة علامة فرعية، والممنوع من الصرف باب كبير... منه الاسم المؤنث الذي ينتهي بألف التأنيث الممدودة نحو: حمراء ـ صحراء ـ أصدقاء ـ فعلى ذلك (ضراء) الواردة في الآية.

* * *

---

(١) أصلها أراق.

(٢) الكتاب لسيبويه ٣/ ٣١٣.

(٣) ما ينصرف وما لا ينصرف للزجاج ص٤٢.

١٧ـ شبهة: تنوين الممنوع من الصرف. [١]

نص الشبهة: في آيتين من سورة الإنسان جاء الممنوع من الصرف منونا وذلك في كلمتين توفرت فيهما موانع الصرف قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ و: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾﴾. فالكلمتان هما " سلاسلا " و" قواريرا ".

فهذا خطأ نحوي ظاهر.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ذكر ما جاء في الآيتين من القراءات القرآنية وتوجيهها.

أولا: كلمة (سَلَٰسِلَاْ) ورد فيها:

القراءة الأولى: سلاسلاً: بالصرف في الوصل، سلاسلا بالألف في الوقف.

وهي قراءة نافع وأبي جعفر والكسائي وأبي بكر عن عاصم وعبيد بن شبل عن ابن كثير ورويس من طريق الحلواني والشذائي عن الداجوني وابن ذكوان وغيرهم.

القراءة الثانية: سلاسلَ بالمنع من الصرف وصلاً، والخلاف في الوقف إما (سلاسلْ أو سلاسلا)

فأما في الوصل فقرأ بها طلحة وعمرو بن عبيد وابن كثير وقنبل والبزي وأبو عمرو وحمزة وزيد عن الداجوني وحفص وابن ذكوان وهشام بن عمار عن ابن عامر.

وأما في الوقف فلهم فيها مذاهب منها:

١- الوقف بالألف بلا خلاف " سلاسلا ".

٢- الوقف بغير ألف " سلاسلَ ".

---

(١) اعلم أن حق الأسماء أن تعرب جميعًا وتصرف، فما امتنع منها من الصرف فلمضارعته الأفعال؛ لأن الصرف إنما هو التنوين، والأفعال لا تنوين فيها ولا خفض، فمن ثم لا يخفض ما لا ينصرف إلا أن تضيفه أو تدخل عليه ألفًا ولامًا. المقتضب للمبرد باب ما يعرب من الأسماء وما يبنى ٣/ ٢٩٢.

ثانيا: كلمة (قَوَارِيرَاْ) فيها القراءات التالية:

القراءة الأولى: في الوصل " قواريراً " بالتنوين في الموضعين، وفي الوقف " قواريرا " بالألف من غير تنوين.

قرأ بها نافع وأبو بكر عن عاصم والكسائي وأبو جعفر وغيرهم.

القراءة الثانية: في الوصل "قواريرَ" بغير تنوين، وفي الوقف بألف على الموضع الأول " قواريرا: لأنه رأس آية، وبدونها على الثاني " قوارير". [1]

الوجه الثاني: العرب تصرف الممنوع من الصرف؛ أي تنونه وأصله ألا ينون.
يقول ابن مالك في ألفيته:

ولاضطرار أو تناسب صرف ذو المنع، والمصروف قد لا ينصرف

يجوز في الضرورة صرف ما لا ينصرف وذلك كقول زهير:

تَبَصَّرْ خَلِيلي هَلْ تَرَى من ظَعائِنٍ تَحَمَّلْنَ بالعَلْياءِ من فوقِ جُرْثُم؟

وهو كثير وأجمع عليه البصريون والكوفيون، وورد أيضًا صرفه للتناسب كقوله تعالى: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ فصرف سلاسل لمناسبة ما بعده. [2]

قال ابن الحاجب ـ في صرف ما لا ينصرف في الضرورة والتناسب ـ:
"ويجوز صرفه للضرورة أو التناسب؛ مثل: سلاسلا وأغلالًا وقواريرًا".

قال الرضي: قال الأخفش: إن صرف ما لا ينصرف مطلقا ـ أي في الشعر وغيره ـ لغة الشعراء، وذلك أنهم كانوا يضطرون كثيرا لإقامة الوزن، إلى صرف مالا ينصرف فتمرن على ذلك ألسنتهم، فصار الأمر إلى أن صرفوه في الاختيار أيضًا، وعليه حمل قوله تعالى: " (سلاسلا وأغلالا) (وقواريرا)، وقال هو والكسائي: إن صرف مالا ينصرف مطلقًا لغة قوم إلا " أفعل منك "، فقوله: " سلاسلا " صرف ليناسب المنصرف الذي يليه، أي " أغلالا " فهو كقولهم: هنأني الشئ ومرأني، والأصل أمرأني.

---

(١) معجم القراءات، تأليف الدكتور عبد اللطيف الخطيب ١٠ / ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٥، ٢١٦.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٣/ ٣٣٨، وانظر شرح الأشموني ٣/ ١٧٤.

قوله: " قواريرا " يعني إذا قرئ منونا، لا إذا وقف عليه بالألف؛ لأن الألف حينئذ كما تحتمل أن تكون بدلا من التنوين تحتمل أن تكون للإطلاق. (١)

الوجه الثالث: توجيه مجيء التنوين من عدمه.

توجيه أهل القراءات:

قال ابن خالويه: قوله تعالى: (سَلَٰسِلَا۟) يقرأ بالتنوين وتركه، فالحجة لمن نون أنه شاكل به ما قبله من رؤوس الآي؛ لأنها بالألف وإن لم تكن رأس آية ووقف عليها بالألف.

والحجة لمن ترك التنوين قال: هي على وزن فعالل وهذا الوزن لا ينصرف إلا في ضرورة شاعر وليس في القرآن ضرورة، وكان أبو عمرو يتبع السواد في الوقف فيقف بالألف ويحذف عند الإدراج.

وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۟ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟﴾ يقرآن معًا بالتنوين وبالألف في الوقف، وبطرح التنوين فيهما والوقف على الأول وعلى الثاني بغير ألف، إلا ما روي عن حمزة أنه كان يقف عليهما بغير ألف.

فالحجة لمن قرأهما بالتنوين أنه نوَّن الأولى؛ لأنها رأس آية وكتابتها في السواد بألف وأتبعها الثانية لفظا؛ لقربها منها وكراهية للمخالفة بينهما وهما سيان كما قال الكسائي في قوله ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ فصرف الثاني لقربه من الأول.

والحجة لمن ترك التنوين أنه أتى بمحض قياس العربية؛ لأنه في سورة الإنسان على وزن فواعيل وهذا الوزن نهاية الجمع المخالف لبناء الواحد فهذا ثقل وهو مع ذلك جمع، والجمع فيه ثقل ثان فلما اجتمع فيه ثقلان منعاه من الصرف، فأما الوقف عليه في هذه القراءة بالألف فاتباع للخط، ولأن من العرب مَن يقول: رأيت عمرا فيقف على ما لا

(١) شرح كافية ابن الحاجب لرضي الدين ١/ ٩٢.

ينصرف بالألف، ولزم حمزة القياس وصلا ووقفا. (١)

قال الإمام الشاطبي:

سَلاَسِلَ نَوِّنْ إِذْ رَوَوْا صَرْفَهُ لَنَا وَبِالْقَصْرِ قِفْ مِنْ عَنْ هُدىً خُلْفُهُمْ فَلاَ

قال أبو شامة: سلاسل على وزن دراهم وهو ممنوع من الصرف على اللغة المشهورة، ولكنه كتب في المصاحف بألف بعد اللام كما كتب في الأحزاب: الظنونا والرسولا والسبيلا، فالمتابعة لخط المصحف اقتضت إثبات تلك الألف في الأحزاب في الوصل، ولم يمكن تنوينها لأجل أن كل كلمة منها فيها الألف واللام؛ فالتنوين لا يجتمع معها وأما في: (سلاسلا) فأمكن قبوله للتنوين على لغة من يصرف ذلك. (٢)

توجيه المفسرين:

قال الزمخشري: "إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالًا وسعيرًا ". قرئ سلاسلَ غير منون، وسلاسلًا بالتنوين، وفيه وجهان:

أحدهما: أن تكون هذه النون بدلًا من حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرى الوقف.

والثاني: أن يكون صاحب القراءة به ممن ضري برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف. (٣)

وقال الفخر الرازي: قُرِئَ: (سلاسلًا) بالتنوين، وكذلك: ﴿قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ﴾ (الإنسان ١٦: ١٥) ومنهم من يصل بغير تنوين ويقف بالألف، فلمن نون وصرف وجهان:

أحدهما: أن الأخفش قال: قد سمعنا من العرب صرف جميع مالا ينصرف؛ قال: وهذا لغة الشعراء؛ لأنهم اضطروا إليه في الشعر فصرفوه، فجرت ألسنتهم على ذلك.

---

(١) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) شرح الشاطبية لأبي شامة ٧١٣.

(٣) الكشاف للزمخشري ٤/ ٦٦٧.

الثاني: أن هذه الجموع أشبهت الآحاد؛ لأنهم قالوا: صواحبات يوسف، فلما جمعوه جمع الآحاد المنصرفة جعلوها في حكمها فصرفوها، وأما من ترك الصرف فإنه جعله كقوله: ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ ﴾ (الحج: ٤٠) وأما إلحاق الألف في الوقف فهو كإلحاقها في قوله: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] و﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] فيشبه ذلك بالإطلاق في القوافي.[1]

فـ (سلاسلا) على صيغة منتهى الجموع ممنوع من الصرف لكنه نُوِّن للمناسبة كما ذُكر، فهو في حال تنوينه على صورة المنصرف وليس بمنصرف حقيقة؛ لأنه باق على منع صرفه، وتنوينُه زيادة ويسمى تنوين المناسبة وهو اللاحق لغير المنصرف كقراءة نافع (سَلاسِلًا وأَغْلالًا) بتنوين سلاسلًا لمصاحبته للمنصرف الذي هو (أغلالًا).

* * *

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ٢٤٠.

١٨- شبهة: هل الوصف بكان في حق الله يفيد انقطاع الصفة للماضي؟

نص الشبهة:

لماذا ذكر الله في كثير من سور القرآن لفظ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ وغيرها في صيغة الماضي، التي تدل على انقضاء زمن الفعل؟

والرد من وجوه:

الوجه الأول: التعريف بعمل كان.

التعريف بمعاني (كان الناقصة):

قال الرضي: كان تكون ناقصة بمعنيين:

أحدهما: ثبوت خبرها مقرونًا بالزمان الذي تدل عليه صيغة الفعل الناقص، إما ماضيًا، أو حالًا، أو استقبالًا، فكان للماضي ويكون للحال أو للاستقبال.

وذهب بعضهم إلى أن (كان) يدل على استمرار الخبر في جميع الزمن الماضي، وشبهته قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ (النساء: ١٣٤)، وذهل عن أن الاستمرار استفاد من قرينة وجوب كون الله سميعًا بصيرًا، لا من لفظ (كان)، ألا ترى أنه يجوز: (كان زيد نائمًا نصف ساعة فاستيقظ)، وإذا قلت: (كان زيد ضاربًا) لم يفد الاستمرار، وقول المصنف (دائمًا أو منقطعًا) رد على هذا القائل، يعني يجئ دائمًا كما في الآية، ومنقطعًا كما في قولك (كان زيد نائمًا)، ولم يدل لفظ كان على أحد الأمرين، بل ذاك إلى القرينة.

والمعنى الثاني: أن يكون بمعنى صار، وهو قليل بالنسبة إلى المعنى الأول.

قال عمرو بن أحمر (من الطويل):

بتيهاء قفر والمطى كأنها قطا الحزن   قد كانت فراخًا بيوضها.[1]

قال السيوطي: كان: فعل ناقص متصرف، يرفع الاسم، وينصب الخبر، ومعناه في الأصل المضيّ والانقطاع، نحو: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا﴾ (التوبة: ٦٩)،

---

(١) شرح كافية ابن الحاجب لرضي الدين الاستراباذي ٤/ ١٨٥: ١٨٦.

وتأتي بمعنى الدوام والاستمرار نحو: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٩٦)، أي: لم يزل كذلك، وعلى هذا المعنى تتخرج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان. [١]

استعمالات (كان) في القرآن الكريم:

كان في القرآن على خمسة أوجه:

الأول: بمعنى الأزل والأبد، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٧٠).

الثاني: بمعنى المضيّ المنقطع وهو الأصل في معناه، نحو ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ (النمل: ٤٨) وهو الأصل في معاني كان كما تقول كان زيد صالحا أو فقيرا أو مريضا أو نحوه.

الثالث: بمعنى الحال نحو ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

الرابع: بمعنى الاستقبال نحو ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ (الإنسان: ٧).

الخامس: بمعنى صار نحو ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ (البقرة: ٢٤). [٢]

ومن ذلك ما جاء عند البخاري:

قال المنهال عن سعيد: قال رجل لابن عباس: " إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال تعالى: (وكان الله غفورًا رحيمًا – عزيزًا حكيمًا – سميعًا بصيرًا)، فكأنه كان ثم مضى. فقال ابن عباس: " وكان الله غفورًا رحيمًا " سمى نفسه ذلك، وذلك قوله.

أي: لم يزل كذلك. [٣]

قال ابن حجر: فـ (كان) وإن كانت للماضي، لكنها لا تستلزم الانقطاع، بل المراد أنه لم يزل كذلك. فيحتمل كلامه أنه أراد أنه سمي نفسه (غفورًا رحيمًا) وهذه التسمية مضت؛ لأن التعلق انقضى وأما الصفتان فلا يزالان كذلك لا ينقطعان؛ لأنه تعالى إذا أراد المغفرة أو الرحمة في الحال أو الاستقبال وقع مراده قاله الكرماني.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢١٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤ / ١٢٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة حم السجدة.

قال: ويحتمل أن يكون ابن عباس أجاب بجوابين:

أحدهما: أن التسمية هي التي كانت وانتهت، والصفة لا نهاية لها.

والآخر: أن معنى كان الدوام؛ فإنه لا يزال كذلك.

ويحتمل أن يحمل السؤال على مسلكين والجواب على رفعهما كأن يقال: هذا اللفظ مشعر بأنه في الزمان الماضي كان غفورا رحيما مع أنه لم يكن هناك من يغفر له أو يرحم، وبأنه ليس في الحال كذلك لما يشعر به لفظ كان.

والجواب عن الأول: بأنه كان في الماضي يسمى به.

وعن الثاني: بأن كان تعطى معني الدوام، وقد قال النحاة: كان لثبوت خبرها ماضيا دائما أو منقطعًا. (١)

شواهد "كان" في أشعار العرب بمعنى الدوام والاستمرار.

العرب أمة بليغة بلغت من البيان والفصاحة والتفنن في ألوان القول الغاية، ولذا جاء القرآن مخاطبًا لهم على ما تعودوه من المعاني، بل بأبلغ مما يستخدموه وتعودوا عليه.

وإذا كانت العرب قد استخدمت (كان) للدوام والاستمرار (وعدم الانقطاع للزمن الماضي) فإن استخدام القرآن لها على هذا النسق غير مخالف لسنن العربية، وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين.

قال الشاعر:

وكنا إذا الجبار صعر خد   أقمنا له من ميله فتقومًا(٢)

وقال آخر:

وكنت إذا جاري دعا لمضوفة   أشمر حتى ينصف الساق مئزي(١)

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٤٢٠ وما بعدها.

(٢) هذا البيت للمتلمس واسمه جرير بن عبد المسيح. ذكره ابن جرير في تفسيره ٢١/ ٧٤، وابن منظور في لسان العرب ٤/ ٤٥٦، وبنحوه طبقات فحول ٢/ ٣٦١.

فكان في البيتين تدل على الحالة الدائمة المستمرة وليس الإخبار عما مضى.

الوجه الثاني: كان تفيد الماضي حسب بنيتها، ولكنها تأتي للراهن والمستقبل أيضًا.

وإن أريد بـ (كان) وما يتفرع عنها الماضي ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: معناه كان في اللوح المحفوظ.

ثانيها: معناه منذ بداية الخلق والوجود.

ثالثها: كان أي مذ كان هذا الوصف للمتصف، أي ما زال.

وقد يكون المعنى في الراهن والمستقبل:

قال ابن قتيبة: وقد يأتي الفعل على بنية الماضي، وهو راهن، أو مستقبل، كقوله تعالى: ﴿كنتم﴾ومعناه: أنتم، ومثله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ ..﴾ (المائدة١١٦) أي: (وإذ يقول). ومثله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ...﴾ (النحل: ١)، أي: سيأتي، ومثله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ (مريم: ٢٩) أي: من هو في المهد، ومثله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ (النساء: ١٣٤) أي: والله سميع بصير، ومثله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ (فاطر: ٩) أي: فنسوقه. [٢]

الوجه الثالث:

كان: عبارة عن وجود الشيء في زمان ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء٩٦).

توضيح: لاتدل على (عدم سابق)، هذا إذا لم تكن بمعنى صار، فإذا كانت بمعنى (صار) دلت على عدم سابق، فإذا قلت: كان زيد عالمًا، بمعنى صار عالمًا دل على أنه انتقل من حالة الجهل إلى حالة العلم.

---

(١) هذا البيت في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٠٣، وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٧٠، الحيوان للجاحظ – باب حمام النساء وحمام الفراخ.

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٨٠.

ولا على (انقطاع طارئ)، قد ذكرنا قبل أنها كسائر الأفعال يدل لفظ الماضي منها على الانقطاع، ثم قد تستعمل حيث لا انقطاع، وفرق بين الدلالة والاستعمال، ألا ترى أنك تقول هذا اللفظ يدل على العموم، ثم تستعمل حيث لا يراد العموم، بل المراد الخصوص.[١]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١). نبه به على أن (كان) قد استعملت هنا في الدوام لقيام الدليل القاطع على ذلك.[٢]

المعنى: أنه لا يراد بكان تقييد الخبر بالمخبر عنه في الزمان الماضي المنقطع في حق الله تعالى، وإن موضوع كان ذلك، بل المعنى على الديمومة فهو تعالى رقيب في الماضي وغيره علينا.[٣]

الوجه الرابع:

ليس المراد بذلك أن الله سبحانه كان متصفًا بالمغفرة، والرحمة، والعلم، والسمع، والبصر في زمن مضي، ثم زالت عنه هذه الصفات في الزمن الحاضر ولا يتصف بها فى المستقبل، ذلك لأن تقسيم الزمن إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل هو بالنسبة لنا نحن حين نتحدث ونحدد ما يقع من أحداث قبل زمن الحديث عنها أو في أثناء الحديث أو بعده، أما الله- سبحانه وتعالى- فهو منزه عن الزمان، وما كان مخلوقًا لا يتحكم فيمن خلقه.

وكأن الله سبحانه وتعالى حين يقرن صفاته بلفظ " كان " يبين لنا أنه موصوف بذلك قبل أن يخبرنا، فهي صفات أصلية فيه وجبت له لذاته لا لعلة أوجدتها فيه، فقد كان بصفاته ولا شيء معه.[٤]

* * *

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ٤/ ٢٧١ بتصرف.

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل ١/ ٣٥٢

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ١٦٧.

(٤) فتاوى الشيخ عطية صقر رحمه الله ١ / ١٨.

١٩ـ شبهة: توضيح الواضح.

نص الشبهة:

جاء في سورة البقرة: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (البقرة: ١٩٦)، فلماذا لم يقل: تلك عشرة مع حذف كلمة كاملة تلافيًا لإيضاح الواضح؟ فمن يظن العشرة تسعة؟!

والرد من وجوه:

الوجه الأول: العرب تؤكد الشيء وقد فُرغ منه فتعيده بلفظٍ غيره تفهيمًا وتوكيدًا.[1]

وهو توكيد، كما تقول: كتبت بيدي، ومنه قول الشاعر (وهو الفرزدق):

ثلاث واثنتان فهن خمس وسادسة تميل إلى شمامي

فقوله: (خمس) تأكيد، ومثله قول الآخر (وهو الأعشى):

ثلاث بالغداة فذاك حسبي وست حين يدركني العشاء

فذلك تسعة في اليوم ريي وشرب المرء فوق الري داء

وقوله: (كاملة) تأكيد آخر، فيه زيادة توصية بصيامها وألا ينقص من عددها، كما تقول لمن تأمره بأمر ذي بال: الله الله لا تقصر.[2]

وهذا كقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني وكتبت بيدي، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقال: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)، وقال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٢).[3]

الوجه الثاني: قد تأتي الواو بمعنى أو في لغة العرب.

وقد تخرج (الواو) عن إفادة (مطلق الجمع) فتأتي بمعنى: (أو)، وذلك على ثلاثة

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة١/ ٧٠.

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ٣٩٥.

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٤٠٠.

أقسام:

أحدها: أن تكون بمعنى: (أو) في التقسيم: وأجاز بعضهم أن تكون الواو في قولهم: الكلمة اسم وفعل وحرف بمعنى: أو؛ لأنه قد يقال: اسم أو فعل أو حرف. . قال ابن مالك: استعمال الواو فيما هو تقسيم أجود من استعمال أو[١].

نحو قول عمرو بن براقة:

وننصر مولانا ونعلم أنه   كما الناس مجرومٌ، عليه، وجارمِ[٢]

(فالواو) في الشطر الثاني بمعنى: (أو).

وكقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

وعليه ففي الآية جاءت كلمة كاملة حتى لا يظن أن الواو بمعنى (أو).

الثاني: أن تكون (الواو) بمعنى: (أو) في إفادة الإباحة، وعلى ذلك الزمخشري، وزعم أنه يقال: جالس الحسن وابن سيرين أي: جالس أحدهما، وأنه لهذا قيل: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ (البقرة: ١٩٦)، بعد ذكر ثلاثة وسبعة لئلا يتوهم إرادة الإباحة[٣].

الثالث: أن تكون (الواو) بمعنى: (أو) في إفادة التخيير، واستدلوا بقول كُثِّر عزة:

وقالوا: نأت فاختر لها الصبر والبكا. . . فقلت: البكا أشفى إذن لغليلي.[٤]

أي: فاختر لها الصبر أو البكاء أي أحدَهما، إذ لا يجتمع البكاء مع الصبر.[٥]

(١) الجنى الداني في حروف المعاني لابن أُمِّ قَاسِم المرادي ١٦٦، وذهب ابن هشام إلى أن الواو جاءت على أصلها لمطلق الجمع.

(٢) مغني اللبيب ٦٨، ١٩٣، ٣٤٦ وشرح شواهده ٥٠٠ وشرح القصائد السبع ٢٦٤.

(٣) الكشاف للزمخشري ١ / ٤٠٥. وهو يريد من الإباحة أنها للتخيير الذي يجوز معه الجمع ولا يتعين.

(٤) الديوان ١٨٠، شرح البغدادي ٦ / ١٠٤.

(٥) مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري ٤ / ٣٦٩ ـ ٣٧١. وكذلك بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ٥ / ١٤٨.

لما قيل: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ جاز أن يتوهم المتوهم أن الفرض ثلاثة أيام في الحج أو سبعة في الرجوع، فأعلم الله ﷻ أن العشرة مفترضة كلها، فالمعنى: المفروض عليكم صوم عشرة كاملة على ما ذُكر من تفرقها في الحج والرجوع. [١]

أقول: ولما كان يمكن أن يفهم من (الواو) التخيير أو الإباحة في التخيير من معاني (أو) بين الثلاثة الأيام والسبعة - جاءت لفظة (عشرة) لبيان أن المعنى هو الجمع بين الثلاثة الأيام والسبعة ليكون المجموع عشرة، وأن المراد تقسيم العشرة الأيام إلى ثلاثة في الحج وسبعة بعد الرجوع.

وهذا الكلام يزيل الإبهام المتولد من تصحيف الخط؛ وذلك لأن سبعة وتسعة متشابهتان في الخط، فإذا قال بعده: تلك عشرة كاملة زال هذا الاشتباه. [٢]

الوجه الثالث: السبعة تخرج عن معنى العددية وتأتي لبيان معنى التضعيف والتكثير.

قد تكرر ذكر السبعة والسبع والسبعين والسبعمائة في القرآن وفي الحديث، والعرب تضعها موضع التضعيف والتكثير كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ (البقرة: ٢٦١)، وكقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠)، وكقوله ﷺ: **"الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف"**[٣]، وسَبَّعَ الله لك أيضًا ضَعَّفَ لك ما صنعت سبعة أضعاف، ومنه قول الأعرابي لرجل أعطاه درهمًا: سَبَّعَ الله لك الأَجر؛ أَراد التضعيف. . والعرب تضع التسبيع موضع التضعيف وإِن جاوز السبع، والأَصل قول الله ﷻ كمثل حبة أَنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ثم قال النبيﷺ: الحسنة بعشر إِلى سبعمائة، قال الأَزهري: وأَرى قول الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ

---

(١) معاني القرآن للزجاج١/ ٢٦٨، تفسير البغوي١/ ١٧٠، المحرر الوجيز١/ ٢٧٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٥ / ١٣٤.

(٣) رواه البخاري ٤١ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾- من باب التكثير والتضعيف لا من باب حصر العدد. (١)

ونقل عن المبرد أنه قال: تلك عشرة؛ لأنه يجوز أن يظنّ السامع أن ثم شيئًا آخر بعد السبع، فأزال الظنّ. (٢)

لما كان التعبير بالسبعة قد يفهم منه التضعيف والتكثير جاءت لفظة (عشرة) لبيان أنها سبعة يقصد منها العدد ذاته.

الوجه الرابع: معنى ذلك: تلك عشرة كاملة عليكم فرضنا إكمالها.

وذلك أنه -جل ثناؤه- قال: فمن لم يجد الهدي فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع، ثم قال: تلك عشرة أيام عليكم إكمال صومها لمتعتكم بالعمرة إلى الحج، فأخرج ذلك مخرج الخبر، ومعناه الأمر بها. (٣)، أي: فأكملوها ولا تنقصوها. (٤)

وقيل: (كاملة) في وقوعها بدلًا من الهدي. (٥)

قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن يكون الواجب بعد الرجوع أن يكمل سبعة أيام، على أنه يحسب من هذه السبعة تلك الثلاثة المتقدمة، حتى يكون الباقي عليه بعد من الحج أربعة سوى تلك الثلاثة المتقدمة، ويحتمل أن يكون المراد منه أن يكون الواجب بعد الرجوع سبعة سوى تلك الثلاثة المتقدمة، فهذا الكلام محتمل لهذين الوجهين، فإذا قال بعده: تلك عشرة كاملة زال هذا الإشكال، وبيّن أن الواجب بعد الرجوع سبعة سوى الثلاثة المتقدمة. (٦)

* * *

---

(١) لسان العرب ٨/ ١٤٦ ـ سبع.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان٢/ ٢٥٤، وانظر تفسير القرطبي٢/ ٣٩٠.

(٣) تفسير الطبري ٢/ ٢٥٤، تفسير القرطبي ٢/ ٣٩٥.

(٤) تفسير البغوي ١/ ١٧٠.

(٥) الكشاف للزمخشري١/ ٢٤١، تفسير القرطبي٢/ ٣٩٥، روح المعاني للآلوسي ٢/ ٨٣.

(٦) التفسير الكبير للرازي ٥/ ١٣٤.

٢٠ـ شبهة: أتى بجمع كثرة حيث أريد القلة.

نص الشبهة: جاء في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (سورة البقرة: ٨٠)، وكان يجب أن يجمعها جمع قلة؛ حيث إنهم أرادوا القلة، فيقول: أيامًا معدودات، وهو ما جاء في (سورة آل عمران: ٢٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾

والرد على ذلك من وجوه[(١)]:

الوجه الأول: اقتضى الحالُ في سورة البقرة التعبير بجمع الكثرة، وفي سورة آل عمران التعبير بجمع القلة.

قال ابن جماعة: لأن قائل ذلك فرقتان من اليهود؛ إحداهما قالت: إنما نعذب بالنار سبعة أيام عدد أيام الدنيا، والأخرى قالت: إنما نعذب أربعين عدة أيام عبادة آبائهم العجل، فآية البقرة تحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبر بجمع الكثرة، وآل عمران بالفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلة. [(٢)]

ألحقوا بصفة الجمع الكثير الهاء؛ فقالوا: أعطيته دراهم كثيرة وأقمت أيامًا معدودة، وألحقوا بصفة الجمع القليل الألف والتاء؛ فقالوا: أقمت أيامًا معدودات، وكسوته أثوابًا

---

(١) وردت معدودات في القرآن ثلاث مرات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ البقرة: ١٨٣، ١٨٤، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ البقرة: ٢٠٣، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ آل عمران: ٢٤، ووردت معلومات مرتين: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ البقرة: ١٩٧، ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ الحج: ٢٨.

- ووردت معدودة ثلاث مرات: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ البقرة: ٨٠، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ هود: ٨، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يوسف: ٢٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي٢/ ٣٠٧. إن صيغة جمع القلة يناسبها نون النسوة - أي: الألف والتاء-، وإن صيغة جمع الكثرة يناسبها تاء التأنيث؛ النحو الوافي لعباس حسن ٤/ ٦٢٩.

رفيعات، وأعطيته دراهم يسيرات، وعلى هذا جاء في سورة البقرة وفي آل عمران؛ كأنهم قالوا أولًا بطول المدة التي تمسهم فيها النارُ، ثم تراجعوا عنه فقصروا تلك المدة. (١)

وعلى ذلك يمكن أن نقول: إن هذه من المواضع التي يكون فيها المفرد أكثر من الجمع، فجمع غير العاقل إن كان بالإفراد يكون أكثر من حيث العدد من الجمع السالم كأنهار جارية وأنهار جاريات؛ فالجارية أكثر من الجاريات، قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: أكثر من ١١ درهمًا، ولو قال: معدودات لكانت أقل.

وفي الآيتين المتقدمتين قال في الأولى: (أَيَّامًا مَعْدُودَةٍ) وفي الثانية: (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)؛ لأن الذنوب التي ذُكرت في الأولى أكثر، فجاء بـ (مَعْدُودَةٍ) التي تفيد الكثرة، والذنوب التي ذكرت في الثانية أقل فجاء بـ (مَعْدُودَاتٍ)؛ فجاءت كل كلمة بما يناسب السياق.

الوجه الثاني: الوصف لأيام ـ وهي اسم مذكر ـ بـ (معدودة) هو الأصل، والوصف بـ (معدودات) هو الفرع، وذلك تنويع جائز.

ولسائل أن يسأل: لم كانت الأولى: معدودة والثانية: معدودات والموصوف في المكانين موصوف واحد وهو (أيامًا)؟

والجواب: أن الاسم إن كان مذكرًا فالأصل في صفة جمعه التاء؛ يقال: كوز وكيزان مكسورة، وثياب مقطوعة، وإن كان مؤنثًا كان الأصل في صفة جمعه الألف والتاء، يقال: جرة وجرار مكسورات، وخابية وخوابي مكسورات، إلا أنه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكر في بعض الصور نادرًا نحو: حمَّام وحمَّامات، وجمل سبطر وسبطرات(٢) وعلى هذا ورد قوله تعالى: (فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ) و: (فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) فالله تعالى تكلم في سورة البقرة بما هو الأصل وهو قوله: (أَيَّامًا مَّعْدُودَةً)، وفي آل عمران بما هو الفرع. (٣)

---

(١) درة الغواص في أوهام الخواص للحريري ص٩٠.

(٢) حمَّامات هي جمع: حمَّام، والحمَّام مذكر، وكان قياسه أن لا يجمع بالألف والتاء. جَمَلٌ سِبَطْرٌ وجِمَالٌ سِبَطْرَاتٌ سَرِيعَةٌ؛ لسان العرب لابن منظور ٢/ ٣٤٢.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣/ ١٥٢، والبرهان للزركشي ١/ ١٢٨.

ونحو قوله: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ (الغاشية: ١٣-١٦)، وقد يأتي: سرر مرفوعات على تقدير ثلاث سرر مرفوعة وتسع سرر مرفوعات. [١]

الوجه الثالث: يجوز وضع جمعي القلة والكثرة مكان بعضهما.

جمع القلة هو الذي يطلق على عشرة فما دونها من غير قرينة وعلى ما فوقها بقرينة، وجمع الكثرة عكس جمع القلة، ويستعار كل واحد منهما للآخر كقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨) في موضع أقراء. [٢]

وقد يستعار جمع الكثرة في موضع جمع القلة كقوله عز وعلا: (ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ). [٣]

قال الجاربردي في شرح الشافية بعد ما قال ابن الحاجب: (وقد يجمع الجمع) - أي: جمع تكسير وجمع تصحيح بالألف والتاء-: وأفاد بقد أنه لا يطرد قياسًا لكنه كثير في جمع القلة قليل في جمع الكثرة إلا بالألف والتاء. [٤]

الوجه الرابع: ليس المقصود من قوله: (معدودة) جمع الكثرة.

قال بنو إسرائيل: لن تصيبنا النار في الآخرة إلا أيامًا قليلة العدد.

قيل في معنى: (معدودة): قليلة؛ كقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ (يوسف: ٢٠). [٥]

والمراد من الـ (معدودة): المحصورة القليلة، وكنَّى بالمعدودة عن القليلة لما أن

---

(١) أسرار التكرار في القرآن للكرماني١/ ٣٢، وانظر كذلك بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي١/ ٩٨.

(٢) التعريفات للجرجاني ص١٠٥، وانظر التعاريف للمناوي ص٢٥٦، وانظر: اللمع في العربية لابن جني ص١٧١.

(٣) المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري ص ٢٩٦.

(٤) خزانة الأدب للبغدادي١/ ٢٠٨.

(٥) التفسير الكبير للرازي٣/ ١٥٢.

الأعراب لعدم علمهم بالحساب وقوانينه تُصَوِّرُ القَلِيلَ مُتيسّر العدد، والكثيرَ مُتعسّره، فقالوا: شيء معدود أي: قليل وغير معدود أي: كثير، والقول بأن القلة تستفاد من أن الزمان إذا كثر لا يعد بالأيام؛ بل بالشهور والسنة والقرن يشكل بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ إلى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ (البقرة: ١٨٣، ١٨٤). [١]

والوصف بمعدودة مؤذن بالقلة؛ لأن المراد بالمعدود الذي يعده الناس إذا رأوه أو تحدثوا عنه، وقد شاع في العرف والعوائد أن الناس لا يعمدون إلى عد الأشياء الكثيرة دفعًا للملل أو لأجل الشغل سواء عرفوا الحساب أم لم يعرفوه؛ لأن المراد العد بالعين واللسان لا العد بجمع الحسابات. [٢]

وعندنا في اللغة العربية أربعة أوزان جموع قلة، وما عداها جموع كثرة؛ أما جموع القلة فهي أربعة أوزان جمعها ابنُ مالك في قوله:

أفعِلةٌ أفعلُ ثم فعلَه ثُمَّتَ أَفعالٌ جُموعُ قِلَّةْ

أي: كـأسلحة وأفلُس وفِتية وأفراس. [٣]

* * *

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١/ ٣٠٤.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ٥٧٩.

(٣) انظر شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٣ / ٣٧٩.

٢١ـ شبهة: أتى بجمع قلة حيث أريد الكثرة.

نص الشبهة: جاء في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ (البقرة١٨٤: ١٨٣)، وكان يجب أن يجمعها جمع كثرة؛ حيث إن المراد جمع كثرة عدته ثلاثون (٣٠) يومًا، فيقول: أيامًا معدودة، ومعلوم أن جمع الكثرة ما زاد عن العشرة وجمع القلة ما نقص عنها.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: المراد هو وصف الأيام بأنها قابلة للعدِّ.

قال الزمخشري: (مَعْدُودَاتٍ) موقتات بعدد معلوم، أو قلائل؛ كقوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ (يوسف: ٢٠)، وأصله أنّ المال القليل يقدّر بالعدد ويتحكر فيه، والكثير يهال هيلًا ويحثى حثيًا. (١)

وأيضاً وصفها بقوله: (معدودات) تسهيلًا على المكلف بأن هذه الأيام يحصرها العد ليست بالكثيرة التي تفوت العد. (٢)

الوجه الثاني: عبر عن الأيام بجمع القلة وهي خارجة عن حد القلة للتخفيف والتيسير.

والمراد بالأيام من قوله: (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) شهر رمضان عند جمهور المفسرين، وإنما عبر عن رمضان بأيام وهي جمع قلة، ووصف بـ (مَعْدُودَاتٍ) وهي جمع قلة أيضًا تهوينًا لأمره على المكلفين، والمعدودات كناية عن القلة؛ لأن الشيء القليل يعد عدًا؛ ولذلك يقولون: الكثير لا يعد، ولأجل هذا اختير في وصف الجمع مجيئه في التأنيث على طريقة الجمع بألف وتاء، وإن كان مجيئه على طريقة الجمع المكسر الذي فيه هاء تأنيث أكثر.

قال أبو حيان عند قوله تعالى الآتي بعده: ﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٥): صفة الجمع الذي لا يعقل تارة تعامل معاملة الواحدة المؤنثة نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَيَّامٗا

---

(١) الكشاف للزمخشري١/ ٢٥١.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان٢/ ٣٦.

مَّعْــدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠)، وتارة تعامل معاملة جمع المؤنث نحو: (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)، فمعدودات جمع لمعدودة؛ وأنت لا تقول: يوم معدودة، وكلا الاستعمالين فصيح، ويظهر أنه ترك فيه تحقيقًا؛ وذلك أن الوجه في الوصف الجاري على جمع مذكر إذا أنثوه أن يكون مؤنثًا مفردًا؛ لأن الجمع قد أول بالجماعة، والجماعة كلمة مفردة وهذا هو الغالب، غير أنهم إذا أرادوا التنبيه على كثرة ذلك الجمع أجروا وصفه على صيغة جمع المؤنث ليكون في معنى الجماعات؛ وأن الجمع ينْحَلُّ إلى جماعات كثيرة، ولذلك فأنا أرى أن معدودات أكثر من معدودة ولأجل هذا قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْــدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠)؛ لأنهم يقللونها غرورًا أو تغريرًا، وقال هنا: (معدودات) لأنها ثلاثون يومًا. (١)

قال ابن الأنباري: كل اسم مؤنث يجمع بالألف والتاء فهو جمع قلة نحو: الهندات والزينبات، وربما كان للكثير، وقال ابن خروف: جمعا السلامة مشتركان بين القليل والكثير، ويؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ (الحج: ٢٨) المراد أيام التشريق وهي قليل وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ (البقرة: ١٨٣ - ١٨٤)، وهذه كثيرة. (٢)

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْــدُودَةً﴾ قيل في معنى: معدودة أنها قليلة كقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: قليلة، وقال ابن عباس وقتادة في قوله: (أَيَّامًا مَعْدُودَةً): إنها أربعون يومًا مقدار ما عبدوا العجل، وقال الحسن ومجاهد: سبعة أيام، وآية الصيام في البقرة سَمَّى أيام الصوم فيها (مَعْدُودَاتٍ) وهي أيام

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢/ ١٦١، وانظر البحر المحيط لأبي حيان٢/ ٣٩.

(٢) المصباح المنير للفيومي٢/ ٦٩٥، يرجع إلى الفصل الذي عقده الفيومي في المصباح بعنوان: الجمع قسمان: جمع قلة وجمع كثرة ٢/ ٦٩٥.

الشهر كله.[١]

وقيل: أي: في ساعات أيام معدودات، وكذلك: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ (الحج: ٢٨).[٢]

الوجه الثالث: العرب تضع جمع القلة موضع جمع الكثرة لحكمة[٣].

ولعل الحكمة في ذلك أن أيام رمضان قليلة إذا قيست بسائر أيام السنة التي أبيح الفطر فيها، وهي قليلة أيضًا إذا قيست بعظيم حق الله على عباده، وهي قليلة أيضًا إذا قيست بالثواب الموعود عليها من الغفور الشكور ﷻ، والله وأعلم.

ولذلك شواهد في كلام العرب الفصحاء:

قال الإمام الزركشي: الجموع يقع بعضها موقع بعض لاشتراكها في مطلق الجمعية كقوله تعالي: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (سبأ: ٣٧)، وغُرَف الجنة لا تحصى[٤]، ثم قال: ومن شواهد مجيء جمع القلة مرادًا به الكثرة قول حسان ﷺ:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وحُكِيَ أن النابغة قال لحسان: قد قللتَ جفناك وأسيافك، وطعن أبو علي الفارسي في هذه الحكاية لورود وضع جمع القلة موضع الكثرة - فيما له جمع كثرة وفيما لا جمع له كثرة - في كلام العرب.[٥]

ثم قال الإمام الزركشي: قوله تعالي: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ فإن أيام على وزن: أفعال

---

(١) أحكام القرآن للجصاص١/ ٤٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي١/ ٩٩

(٣) انظر اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء العكبري٢/ ١٧٩، وشرح ابن عقيل على الألفية ٤/ ١١٤، والمفصل للزمخشري ص٢٩٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي٣/ ٣٥٥.

(٥) البرهان٣/ ٣٥٧.

مع أنها ثلاثون لكن ليس لليوم جمعٌ غيره، ولا يسأل عن حكمة وضع جملة القلة موضع الكثرة إلا إذا كان له جمع كثرة، وإلا فلا يسأل كهذه الآية، فاليوم لا يُجْمع إلا على أيام فليس له إلا جمع واحد. [١]

فوضعُ أحد الجمعين مكان الآخر لحكمة ورد في عدة مواضع في القرآن الكريم كما بين ذلك العلماء، وكلها لحكم عظيمة.

* * *

---

(١) البرهان٣/ ٣٥٨.

٢٢ـ شبهة: وضع الفعل المضارع بدل الماضي.

نص الشبهة: وضع الفعل المضارع بدل الماضي، فقد جاء في سورة آل عمران الآية٥٩: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وكان يجب أن يراعي المقام الذي يتحدث عن الماضي لا المضارع؛ فيقول: ثم قال له كن فكان.

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الكلام وإن كان بصيغة المضارع فهو حكاية حال ماضية. (١)

قال الزمخشري: (فيكون) حكاية حال ماضية. (٢)

وقال الرازي: واعلم يا محمد، أن ما قال له ربك: (كُنّ) فإنه يكون لا محالة. (٣)

(ثم قال له كن فيكون) أي: فكان، والمستقبل يكون في موضع الماضي إذا عرف المعنى. (٤)

إنهم يعبرون عن الماضي والآتي كما يعبرون عن الشيء الحاضر قصْدًا لإحضاره في الذهن حتى كأنه مُشاهد حالة الإخبار، نحو: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (النحل: ١٢٤)؛ لأن لام الابتداء للحال. ونحو: ﴿هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ (القصص: ١٥) إذ ليس المراد تقريب الرجلين من النبي عليه الصلاة والسلام، كما تقول: هذا كتابك فخذه، وإنما الإشارة كانت إليهما في ذلك الوقت هكذا فحكيت. ومثله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ (فاطر: ٩) قصد بقوله سبحانه وتعالى: (فتُثير) -إحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة من إثارة السحاب؛ تبدو أولًا قِطعًا، ثم تتضامُّ متقلبة بين أطوار حتى تصير

---

(١) الحكاية: عبارة عن نقل كلمة من موضع إلى موضع آخر بلا تغيير حركة ولا تبديل صيغة، وقيل: الحكاية: إتيان اللفظ على ما كان عليه من قبل؛ انظر التعريفات للجرجاني ١٢٢

فالحكاية لغةً: المماثلة، واصطلاحًا: إيراد اللفظ المسموع على هيئته من غير تغيير؛ كمن زيدًا؟ إذا قيل: رأيت زيدًا، أو إيراد صفته نحو: أيًا؟ لمن قال: رأيت زيدًا؛ انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني ٤ / ١٢٤.

(٢) الكشاف١/ ٣٦٨، وفتح القدير للشوكاني١/ ٥١٦.

(٣) تفسير الرازي٨/ ٧٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي٤/ ١١٠.

رُكامًا. ومنه: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩) أي فكان. وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١)، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص: ٥) إلى قوله تعالى: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ (القصص: ٦). ومنه عند الجمهور: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨) أي: يَبسط ذراعيه، بدليل: (ونقلِّبهم)، ومثله: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٧٢) إلا أن هذا على حكاية حال كانت مستقبلة وقت التدارؤ، وفي الآية الأولى حكيت الحال الماضية، ومثلها قوله:

جاريةٌ في رمضانَ الماضي   تُقطِّع الحديثَ بالإيماضِ

ولولا حكاية الحال في قول حسان:

يُغْشَون حتى لا تهِرُّ كلابُهم   لايسألون عن السواد المقبل

لم يصح الرفع؛ لأنه لا يرفع إلا وهو للحال، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ (١) بالرفع. (٢)

الوجه الثاني: صيغة المضارع تأتي لاستحضار الصورة.

وإنما قال: (فيكون) ولم يقل: فكان لاستحضار صورة تكوُّنِه، ولا يحمل المضارع في مثل هذا إلاّ على هذا المعنى، مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ (فاطر: ٩)، وحمله على غير هذا هنا لا وجه له. (٣)

وقول تأبط شرًا:

---

(١) قرأ نافع حتى يقولُ برفع اللام والباقون بنصبها؛ التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني سورة البقرة، آية: ٢١٤ ص٥٩. حكى حالًا كان عليها الرسول فيما مضى. فحكيت الحال التي كانت؛ لأن ما مضى لا يكون حالًا إلا على الحكاية؛ الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي١/ ٢٨٩.

(٢) مغني اللبيب لابن هشام ٢/ ٥٠١.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور٣/ ٢٦٤.

فأضربها بلا دهش فخرت صريعًا لليدين وللجران

قال: فأضربها؛ ليصور لقومه الحالة التي تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يُبَصِّرُهُمْ إياها، ويتطلب منهم مشاهدتها تعجيبًا من جراءته على كل هول، وثباته عند كل شدة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ إذ قال: (كن فيكون) دون: كن فكان، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.[1]

فإنه قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغولِ كأنه يبصرهم إياها مشاهدةِ للتعجب من جراءته على ذلك الهولِ ولو قال: فضربتها عطفًا على الأول لزالت هذه الفائدة المذكورة.[2]

والتعبير بالمضارع مع أن المقام مقام المضي لتصوير ذلك الأمر الكامل بصورة المشاهَد الذي يقع الآن إيذانًا بأنه من الأمور المستغربة العجيبة الشأن، وجوز أن يكون التعبير

(١) ومن ذلك قوله تعالى: لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتًا فوقتًا كما في قوله تعالى: الله يستهزئ بهم بعد قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ . . ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لتنزيله منزلة الماضي لصدوره عمن لا خلاف في أخباره؛ كما نزل يود منزلة: ود في قوله تعالى: (ربما يود الذين كفروا)، ويجوز أن يرد الغرض من لفظ ترى ويود إلى استحضار صورة رؤية المجرمين ناكسي الرؤوس قائلين لما يقولون، وصورة رؤية الظالمين موقوفين عند ربهم متقاولين بتلك المقالات وصورة ودادة الكافرين لو أسلموا كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إذ قال: فتثير سحابًا استحضارًا لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة من إثارة السحاب مسخرًا بين السماء والأرض، تبدو في الأول كأنها قطع قطن منتوف، ثم تنضام متقلبة بين أطوار حتى يعدن ركامًا. . ؛ الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني ٢ / ١٢٦، ١٢٧.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٢ / ١٤.

بذلك لما أن الكون مستقبل بالنظر إلى ما قبله.[١]

فهذا التعبير بقوله: (كن فيكون) يعطي دلالة الاستمرار في كل وقت على منتهى قدرة الله فلو أراد شيئًا يكون.

* * *

(١) روح المعاني للآلوسي ٣/ ١٨٧.

٢٣ـ شبهة: الالتفات من المخاطب إلى الغائب قبل تمام المعنى.

نص الشبهة: جاء في سورة يونس الآية ٢٢: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾، فلماذا التفت عن المخاطب إلى الغائب قبل إتمام المعنى؟ والأصح أن يستمر على خطاب المخاطب.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: الالتفات فن بلاغي من محاسن الكلام يأتي كثيرا في كلام العرب وآيات القرآن.

الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (أي: التكلم، والخطاب، والغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر منها.

- مثال الالتفات من التكلم إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (يس: ٢٢).

- ومن التكلم إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ (الكوثر: ١-٢).

- ومن الخطاب إلى التكلم قول علقمة بن عبدة:

طحا بك قلب في الحسان طروب   بعيد الشباب عصر حان مشيب
يُكَلِّفُنِي لَيْلَى وقد شَطَّ وَلْيُها   وعادَتْ عَوَادٍ بيننا وخُطُوبُ[1]

- ومن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

- ومن الغيبة إلى التكلم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ

(١) البيت لعلقمة الفحل بن عبدة بن النعمان بن قيس. ديوانه ١٣١، والمفضليات ١٩١.

مَّيِّتٍ﴾ (فاطر: ٩).

- ومن الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة: ٤-٥)، وقول عبد الله بن عنمة:

ما إن ترى السِّيدُ زيدًا في نفوسهم كما يراه بنو كوز ومرهوب

إن تسألوا الحق نعطِ الحق سائله والدرع محقبة والسيف مقروب. (١)

والالتفات عند ابن الأثير ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في الرجوع من الغيبة إلى الخطابِ ومن الخطاب إلى الغيبة. .

القسم الثاني: في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمرِ وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

القسم الثالث: في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبلِ وعن المستقبل بالماضي. (٢)

الوجه الثاني: الغرض من الالتفات عامةً.

واعلم أن الالتفات من محاسن الكلام، ووجه حسنه على ما ذكر الزمخشري هو أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بلطائف كما في سورة الفاتحة؛ فإن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله: (الْحَمْدُ لله) الدال على اختصاصه بالحمد وأنه حقيق به -وجد من نفسه لا محالة محركًا للإقبال عليه، فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الدال على أنه مالك للعالمين لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته -قوي ذلك المحرك، ثم إذا

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص٧٢. والأبيات في ديوان الحماسة ١ / ٢٢٨.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير٢/ ٣ وما بعدها. ويلاحظ أن ابن الأثير عبَّر بالخطاب عن المتكلم والمخاطب معًا؛ وبذلك ينتج لنا من جزئي القسم الأول أربعة أنواع، وأنه يُدرج الانتقال من المتكلم إلى المخاطب تحت قسم: الرجوع من الخطاب إلى الغيبة، والانتقال من المخاطب إلى المتكلم تحت قسم: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب؛ وبذلك تظهر أمامنا الأنواع الستة التي أوردها الخطيب القزويني.

انتقل إلى قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها - تضاعفت قوة ذلك المحرك، ثم إذا انتقل إلى خاتمه هذه الصفات العظام وهي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء -تناهت قوته وأوجب الإقبال عليه وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات. وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ (النساء: ٦٤) لم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريق الالتفات تفخيمًا لشأن رسول الله لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعة مَنْ اسمُهُ الرسولُ من الله بمكان[1].

ومن أغراض الالتفات الذي يكون في شعر العرب ما ذكره السكاكي في أبيات امريء القيس حين يقول:

تطاول ليلك بالإثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العاثر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن أبي الأسود

١- أحدها: أن يكون قصد تهويل الخطب واستفظاعه، فنبّه في التفاته الأول على أن نفسه وقت ورود ذلك النبأ عليها وَلهتْ وَلَهَ الثكلى؛ فأقامها مقام المصاب الذي لا يتسلى بعض التسلي إلا بتفجع الملوك له وتحزنهم عليه، وخاطبها بـ: تطاول ليلك تسليةً.

٢- أو: على أنها لفظاعة شأن النبأ أبدت قلقًا شديدًا ولم تتصبر فعل الملوك، فشك في أنها نفسه، فأقامها مقام مكروب، وخاطبها بذلك تسليةً، وفي الثاني: على أنه صادق في التحزن خاطب أولًا، وفي الثالث: على أنه يريد نفسه.

٣- أو: نبه في الأول على أن النبأ لشدته تركه حائرًا فما فطن معه لمقتضى الحال، فجرى على لسانه ما كان ألفه من الخطاب الدائر في مجاري أمور الكبار أمرًا ونهيًا، وفي الثاني: على أنه

(١) انظر الكشاف للزمخشري؛ الفاتحة: ٥.

بعد الصدمة الأولى أفاق شيئًا فلم يجد النفس معه فبنى الكلام على الغيبة، وفي الثالث: على ما سبق، أو: نبه في الأول على أنها حين لم تثبت ولم تتبصر غاظه ذلك فأقامها مقام المستحق للعتاب؛ فخاطبها على سبيل التوبيخ والتعبير بذلك، وفي الثاني: على أن الحاملَ على الخطاب والعتاب لـمَّا كان هو الغيظُ والغضبُ وسكتَ عنه الغضبُ بالعتابِ الأولِ -وَلَّى عنها الوجهَ وهو يدمدم قائلًا: وبات وباتت له، وفي الثالث: على ما سبق.

وقد سَمَّى السكاكيُّ هذا الالتفاتَ الأسلوبَ الحكيمَ؛ وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهًا على أنه الأولى بحاله أو المهم له. (١)

ويمكن أن نحصر فوائد الالتفات في ما يلي:

الفائدة الأولى: فَنِّيَّةُ التَّنْوِيعِ في العبارة المثير لانتباه المتلَقِّي، والباعث لنشاطه في استقبال ما يوجَّه له من كلام، والإِصغاءِ إليه، والتفكير فيه.

الفائدة الثانية: الاقتصادُ والإِيجازُ في التعبير.

الفائدة الثالثة: الإِعراض عن المخاطبين؛ لأنهم عن البيانات معرضون أو مُدْبرون وغير مكترثين.

الفائدة الرابعة: إفادة معنًى تتضمَّنُه العبارة التي حصل الالتفات إليها، وهذا المعنى لا يستفادُ إذا جرَى القول وفق مقتضى الظاهر.

الفائدة الخامسة: ما يُسْتفاد من معنًى بالالتفات؛ إنّما يستفاد إلماحًا بطريقٍ غير مباشر، ومعلُومٌ أنّ الطُّرقَ غير المباشرة تكون أكثر تأثيرًا من الطرق المباشرة حينما تقتضي أحوال المتلقّين ذلك.

الفائدة السادسة: إشعارُ مختلف زُمر المقصودين بالكلام بأنّهم محلُّ اهتمام المتكلّم، ولو

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص٧٢ وما بعدها. وينظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٣٩٢.

لم يكونوا من الزُّمْرَة المتحدّث عنها أوّلًا، ويظهر هذا في النصوص الدينيّة الموجَّهة لجميع الناس، وفي خُطَب الملوك والرؤساء والوعّاظ وأشباههم.(١)

الوجه الثالث: فائدة الالتفات في آية سورة يونس؛ وهو من نوع: الانتقال من الخطاب إلى الغيبة.

وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ خروج من الخطاب إلى الغيبة، وهو في القرآن وأشعار العرب كثير؛ قال النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد.(٢)

قال الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟

قلت: المبالغة؛ كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليُعَجِّبَهُمْ منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح.(٣)

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة في آية يونس؛ فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدةٍ وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم؛ ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعي منهم الإنكار عليهم، ولو قال: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها. . وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة، وليس ذلك بخافٍ عن نقدة الكلام، ومما ينخرط في هذا السلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (الأنبياء: ٩٢-٩٣) الأصل في (تقطعوا) تقطعتم

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن الميداني ١ / ٤٨١.

(٢) تفسير القرطبي؛ يونس: ٢٢، ٨/ ٣٠١. والبيت مطلع معلقة النابغة الذُّبياني. وقد ورد ضدُّ هذا الالتفات الانتقال من الخطاب إلى الغيبة في القرآن أيضًا: قال ابن الأنباري: وجائز في اللغة أن يُرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ الإنسان: ٢١-٢٢ فأبدل الكاف من الهاء. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي؛ يونس: ٢٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٣٨.

عطفًا على الأول إلاّ أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوا. (١)

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾خطاب الحضور، وقوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ مقام الغيبة، فههنا انتقل من مقام الحضور إلى مقام الغيبة، وذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد، وهو اللائق بحال هؤلاء؛ لأن من كان صفته أنه يقابل إحسان الله تعالى إليه بالكفران -كان اللائق به ما ذكرناه. (٢)

حكمة الالتفات هنا هي أنّ قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ خطاب فيه امتنان وإظهار نعمة للمخاطبين، والمسيرون في البر والبحر مؤمنون وكفار، والخطاب شامل، فحَسُن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع، فلما ذكرت حالةٌ آلَ الأمرُ في آخرها إلى أنَّ الملتبسَ بها هو باغٍ في الأرض بغير الحق -عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالةِ التي آخرها البغي. (٣)

وفائدة هذا الالتفات بيانُ أنّ الذين تكون منهم هذه الظاهرة التي تحدّث عنها النّصّ ليسوا جميع المخاطبين؛ بل هم فريق منهم، فمن الحكمة الحديث عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب، مع ما في الحديث عن الغائب من الإعراض المشعر بالتأنيب على ما يكون

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير٢/ ١٠، يُرجع إلى الفصل الذي عقده ابن الأثير في الالتفات وأنواعه فهو جامع ماتع.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي؛ يونس: ٢٢. ١٧/ ٦٩.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان؛ يونس: ٢٢. ٥/ ١٤٢.

منهم، وقد جاء في النصّ بعد ذلك تأنيبُهُمْ صراحةً فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (يونس: ٢٣)، ولَوْ تتابع الكلامُ وفْقَ أُسْلُوب الخِطاب دون ما حصل في النصّ من الالتفات لكان التأنيب مُوَجّهًا لكلّ الناس، مع أنّ فيهم صالحين لا تظهر منهم هذه الظاهرة القبيحة من الظواهر المنافية للسلوك الدّيني المطلوب من العباد. [١]

وقيل الحكمة في هذا-أي: الانتقال من الخطاب إلى الغيبة- هنا أن كلَّ مَنْ خُوطب يجوز أن يركب الفلك، لكن لما كان في العادة أن لا يركبها إلا الأقل وقع الخطاب أولًا للجميع، ثم عدل إلى الإخبار عن البعض الذين من شأنهم الركوب. [٢]

ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين فقال: (وَجَرَيْنَ بِهِمْ) على طريقة الالتفات؛ أي: وجرين بكم، وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ فإن هذا ليس من شيم المؤمنين فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أُخرج من الخبر من عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلًا على القرينة؛ لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين، وهذا ضرب من الالتفات لم ينبه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز. [٣]

ونخلص مما سبق أن فائدة الالتفات في الآية:

أ- أنه يميز المؤمنين عن غيرهم؛ فيخاطبهم بخطاب الحضور ثم يأتي الحديث عن

---

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن الميداني ١ / ٤٨٩.

(٢) فتح الباري لابن حجر١٣/ ٥٠٥.

(٣) التحرير والتنوير يونس: ٢٢. ١١/ ٥٤، ٥٥. وينظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة صـ ٢٨٩.

الكافرين بصيغة الغائب، مما يدل على قرب المؤمنين وبعد الكافرين.

ب- الخطاب بالغائب وكأن حالَهم تُذكر لغيرهم تقريعًا لهم.

ت- أن الخطاب للحضور لما كانوا قريبين من البر؛ فلما بعدوا كان الخطاب للغائب.

ث- الخطاب للحضور كان للجميع، فلما تفرق كلٌّ إلى شأنه كان الخطاب للكافرين بالغائب.

ج- الخطاب للحضور كان للجميع، والذين في الفلك بعضٌ من الجميع فكانت الحكاية عنهم بالغائب.

* * *

٢٤ـ شبهة: أتى بتركيب يؤدي إلى اضطراب المعنى.

نص الشبهة: جاء في سورة الفتح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذا اضطرابٌ في المعنى بسبب الالتفات من خطاب محمد ﷺ إلى خطاب غيره.

ثم الضمير المنصوب في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ عائد على الرسول المذكور آخرًا ﷺ، والضمير في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ عائد على لفظ الجلالة المذكور أولًا؛ هذا ما يقتضيه المعنى، وليس لهذا اللفظ ما يعينه تعيينًا يزيل اللبس، فإن كان الضمير في الكلمات من قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ عائد على الرسول ﷺ يكون ذلك كفرًا؛ لأن التسبيح لله ﷻ فقط، وإن كان الضمير فيها يعود على الله ﷻ يكون ذلك كفرًا؛ لأنه تعالى لا يحتاج لمن يعزره ويقويه.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: توجيه الالتفات من خطاب النبي ﷺ إلى خطاب غيره[1].

وفيه تفصيل:

أولًا: الالتفات من خطاب النبي ﷺ وحده إلى خطاب النبي ﷺ والأمة معه.

والخطاب يجوز أن يكون للنبي ﷺ مع أمة الدعوة؛ أي: لتؤمن أنت والذين أرسلت إليهم شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، والمقصود: الإيمان بالله، وأقحم: (ورسوله) لأن الخطاب شامل للأمة وهم مأمورون بالإيمان برسول الله ﷺ، ولأن الرسول ﷺ مأمور بأن يؤمن بأنه رسول الله؛ ولذلك كان يقول في تشهده: "وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"، وقال يوم حنين: "أشهد أني عبد الله ورسوله"، وصح أنه كان يتابع قول المؤذن: أشهد أن محمدًا رسول الله، ويجوز أن يكون الخطاب للناس خاصة ولا إشكال في عطف: (ورسوله). [2]

---

(١) انظر: فوائد الالتفات في الرد على الشبهة الماضية.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور٢٦/ ١٣١.

ثانيًا: الالتفات من خطاب النبي ﷺ إلى خطاب الأمة.

ويجوز أن يكون الكلام قد انتهى عند قوله: (ونذيرًا)، وتكون جملة: (لتؤمنوا بالله. . .) إلخ جملة معترضة، وتكون اللام في قوله: (لتؤمنوا) لام الأمر، وتكون الجملة استئنافًا للأمر؛ كما في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ (سورة الحديد: ٧). (١)

قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا. . ﴾ ثم قال: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ ...﴾ ومعناه: ليؤمن بك مَنْ آمن ولو قيل: ليؤمنوا؛ لأن المؤمن غير المخاطَب، فيكون المعنى: إنا أرسلناك ليؤمنوا بك، والمعنى في الأول يراد به مثل هذا، وإن كان كالمخاطب؛ لأنك تقول للقوم: قد فعلتم وليسوا بفاعلين كلهم؛ أي: فعلَ بعضكم، فهذا دليل على ذلك. (٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ الخطاب للنبي ﷺ ذكره في معرض الامتنان عليه؛ حيث شرفه بالرسالة وبعثه إلى الكافة شاهدًا على أعمال أمته ومبشرًا يعني: لمن آمن به وأطاعه بالثواب، ونذيرًا يعني: لمن خالفه وعصى أمره بالعقاب ثم بين فائدة الإرسال فقال تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فالضمير فيه للناس المرسل إليهم. (٣)

المخاطبة في قوله: إنا أرسلناك للنبي ﷺ فحسن: أرسلناك ليؤمنوا؛ لأن الله سبحانه أرسله ﷺ ليؤمن به المؤمنون، والمعنى فيه -إن شاء الله-: إنا أرسلناك يا محمد شاهدًا عليهم ومبشرًا بالجنة ونذيرًا من النار ليؤمن بك من آمن. . وقرأ الباقون بالتاء وحجتهم أنه خاطب المرسل إليهم بعد مخاطبة النبي ﷺ؛ إذ قال له: (إنا أرسلناك شاهدًا. . .) ثم صرف الخطاب بعد ذلك إلى المرسل إليهم فقال: لتؤمنوا بمعنى: فعلنا ذلك لتؤمنوا أيها الناس بالله ورسوله، فكأن الخطاب على هذه القراءة مجدد لمن أرسل إليهم بعد مخاطبة

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٦٥.

(٣) تفسير الخازن المسمى بلباب التأويل في معاني التنزيل ٦/ ١٩٠.

النبي ﷺ. (١)

الوجه الثاني: أن الالتفات وجه بلاغي لا اضطراب فيه وعود الضمير على مذكورين؛ أهو يرجع إلى الله تعالى أم يرجع إلى الرسول ﷺ ؟ هذا من أسلوب اللف والنشر.

وهذا الأسلوب من أعظم أبواب المحسنات البلاغية في علم البديع.

فاللف والنشر: هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكلٍ من غير تعيين ثقةً بأن السامع يرده إليه نحو قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾. (٢)

والقاعدة: عود الضمير إلى الأقرب، ولكن قد يعود إلى غيره كقوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فالضمير في التعزير والتوقير راجع إلى النبي ﷺ، وفي التسبيح عائد إلى الله تعالى، وهو متقدم على ذكر النبي ﷺ، فعاد الضمير على غير الأقرب. (٣)

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ قال: أي: يعظموه.

وقال: وفي بعض الحروف: وتسبحوا الله بكرةً وعشيًا. (٤)

وقال الجمهور: (تعزروه وتوقروه) هما للنبي ؏، (وتسبحوه) هي لله ﷻ؛ وهي صلاة

(١) حجة القراءات لعبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبي زرعة ص٦٧١.

(٢) كتاب الكليات لأبي البقاء الكفوي ص ٧٩٨، ويسمى أيضًا: التقسيم البديعي، كما قال أبو البقاء الكفوي:

ولا يقيم على ضيم يراد به   إلا الأذلان غير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يشج فلا يرثي له أحد

كتاب الكليات ص ٢٦٥، وانظر: الإتقان للسيوطي٢/ ٢٥١، وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني صـ ٣٣٢.

(٣) البرهان للزركشي١/ ١٢٤.

(٤) تفسير الصنعاني لعبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٢١١. وتفسير الطبري٢٦/ ٧٥ بلفظ: وفي بعض الحروف: وتسبحوا الله بكرة وأصيلًا. وفي الدر المنثور للسيوطي ٧/ ٥١٦: وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هارون قال: في قراءة ابن مسعود: « ويسبحوا الله بكرة وأصيلًا»، وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﷺ أنه كان يقرأ: « ويسبحوا الله بكرة وأصيلًا»، وهي قراءة شاذة نعول عليها لتفسير المعنى فحسب.

البردين، وقرأ عمر بن الخطاب: (وتسبحوا الله)، وفي بعض ما حكى أبو حاتم: (وتسبحون الله) بالنون، وقرأ ابن عباس: (وتسبحوا الله)؛ والبكرة: الغدو، والأصيل: العشي. [١]

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير؛ عن قتادة ﷺ: (ويعزروه) قال: لينصروه، (ويوقروه) أي: ليعظموه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم؛ عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: (وتعزروه) يعني: الإِجلال: (وتوقروه) يعني: التعظيم؛ يعني: محمدًا ﷺ.

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والضياء في المختارة[٢]؛ عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: (وتعزروه) قال: تضربوا بين يديه بالسيف.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر؛ عن عكرمة ﷺ في قوله: (وتعزروه) قال: تقاتلوا معه بالسيف.

وأخرج ابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية: (وتعزروه) قال النبي ﷺ لأصحابه: ما ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (لتنصروه). [٣]

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتجلُّوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة برقابكم، ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره. [٤]

التعزير والتوقير للرسول ﷺ، فتوقيره أن يُدعى بالنبوة والرسالة دون الاسم والكنية،

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٥/ ١١٤.
(٢) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ٨٨.
(٣) الدر المنثور للسيوطي١٣/ ٤٧٢، ٤٧٣.
(٤) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ص٧٩٢.

أو تُسَوِّدوه، والتعزير: المنع وها هنا: الطاعة، أو التعظيم، أو النصر.[(١)]

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي: تعظموه وتفخموه؛ قاله الحسن والكلبي، والتعزير: التعظيم والتوقير، وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه. ومنه التعزير في الحد؛ لأنه مانع، قال القطامي:

ألا بكرت مي بغير سفاهة   تعاتب والمودود ينفعه العزر

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف، وقال بعض أهل اللغة: تطيعوه[(٢)].

(وَتُوَقِّرُوهُ) أي: تسودوه؛ قاله السدي، وقيل: تعظموه، والتوقير: التعظيم والترزين أيضًا. والهاء فيهما للنبي ﷺ، وهنا وقف تام، ثم تبتدئ: (وَتُسَبِّحُوهُ) أي: تسبحوا الله (بُكْرَةً وَأَصِيلًا) أي: غدوةً وعشيًا.[(٣)]

قال: ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي: تعينوه وتنصروه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي: تُعظموه وتُفخموه، هذه الكنايات راجعة إلى النبيﷺ، وههنا وقف، ثم قال: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي: تسبحوا الله؛ يريد يصلوا له بكرةً وَأصيلًا: بالغَدَاةِ والعشيِّ.[(٤)]

وقد تجمع العرب شيئين في كلام فيرد كل واحد منهما إلى ما يليق به وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾ (سورة البقرة: ٢١٤) والمعنى: يقول المؤمنون: متى نصر الله فيقول الرسول: ألا إن نصر الله قريب.[(٥)]

ومن الأمثلة أيضا على أسلوب اللف والنشر:

أ- على ترتيب اللف: قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي: في الليل، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: في النهار بالسعي في المكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي:

---

(١) تفسير العز بن عبد السلام١/ ١١١٠.

(٢) انظر النكت والعيون للماوردي٥/ ٣١٣.

(٣) تفسير القرطبي؛ الفتح: ٩.

(٤) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل؛ الفتح: ٩، ١٧/ ٤٨٦.

(٥) المدهش لابن الجوزي ص٣٨.

ولكي تشكروا نعمة الله عليكم، وهذه الآية من باب اللف والنشر، كما في قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطبًا ويابسًا لَدى وَكْرِها العناب والحَشَفُ البَالِي[1]

ب- على عكس ترتيبه: قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.[2]

فقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ يُوجه على أنه حكمان:

الأول: هو وجوب التعزير والتوقير في حق الرسول ﷺ، والثاني: هو وجوب التسبيح في حق الله ﷻ تتمة لبداية الكلام عن الإيمان بالله ﷻ: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، فالله أرسل لنا النبي ﷺ لأسباب عديدة مرتبطة بلام التعليل (أو لام الأمر): أولها: لنؤمن بالله وبرسوله، وثانيها: لننصر رسوله ﷺ، وثالثها: لنرفعه إلى ما يليق به من الاحترام والتقدير والتوقير، ورابعها: ليعلمنا الرسولُ ﷺ تسبيح الله ﷻ بكرةً وعشيًا.

وختامًا:

بعد مناقشة هذه الشبهات اللغوية المزعومة والرد عليها نختم بما ورد من أعاجيب الكتاب المقدس:

ولو سألت أحد هؤلاء الطاعنين أن يقرأ عليك نصا بالعربية أو يعرب لك نصًا لطفق الصغار يضحكون على قراءته. فهو لا يجيد القراءة فضلًا عن الإعراب. ومع ذلك يأتي ليتحدث عن أخطاء لغوية في القرآن.

وقد نسي نصوص كتابه، ومنها:

(خروج١٥: ٨): (وَبِرِيحِ أَنْفِكَ تَرَاكَمَتِ المِيَاه) أتعون ما تقولون أيها الفصحاء البلغاء: بريح الأنف تراكم المياه أم من الإصابة بالزكام؟

---

(١) البيت ورد في أسرار البلاغة للجرجاني ١٩٢، ولسان العرب ١ / ٢٠٦ وانظر: فتح القدير للشوكاني ٤ / ٢١٣.

(٢) يرجع إلى كتاب الإتقان للسيوطي فقد عقد فصلًا كاملًا عن اللف والنشر وأنواعه وهو نوعان: إجمالي، وتفصيلي؛ والتفصيلي قسمان: أحدهما أن يكون على ترتيب اللف، والثاني أن يكون على عكس ترتيبه ٢/ ٢٥١.

(أيوب ١٠ : ٣٥): أَيْنَ اللهُ صَانِعِي، مُؤْتِي الأَغَانِيِّ فِي اللَّيْلِ، ١١ الَّذِي يُعَلِّمُنَا أَكْثَرَ مِنْ وُحُوشِ الأَرْضِ، وَيَجْعَلُنَا أَحْكَمَ مِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ؟

فهل إذا تعلمنا اكثر من وحوش الأرض كان هذا فضلا؟! أم إذا كان عندنا من الحكمة ما يفوق حكمة طيور السماء يكون في هذا فخرا؟

(صموئيل الأول ١ : ٢): صَلَّتْ حَنَّةُ وَقَالَتْ: «فَرِحَ قَلْبِي بِالرَّبِّ. ارْتَفَعَ قَرْنِي بِالرَّبِّ. اتَّسَعَ فَمِي عَلَى أَعْدَائِي، لأَنِّي قَدِ ابْتَهَجْتُ بِخَلاَصِكَ. ٢ لَيْسَ قُدُّوسٌ مِثْلَ الرَّبِّ، لأَنَّهُ لَيْسَ غَيْرَكَ، وَلَيْسَ صَخْرَةٌ مِثْلَ إِلهِنَا. ٣ لاَ تُكَثِّرُوا الْكَلاَمَ الْعَالِيَ الْمُسْتَعْلِيَ، وَلْتَبْرَحْ وَقَاحَةٌ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ. لأَنَّ الرَّبَّ إِلهٌ عَلِيمٌ، وَبِهِ تُوزَنُ الأَعْمَالُ. ٤ قِسِيُّ الْجَبَابِرَةِ انْحَطَمَتْ، وَالضُّعَفَاءُ تَمَنْطَقُوا بِالْبَأْسِ.

انحطمت تمنطقوا. ارتفاع القرن بالرب. وتشبيه لربكم بالصخرة؟ ؟ ؟

(الجامعة ١ : ٣): لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَانٌ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ وَقْتٌ: ٢ لِلْوِلاَدَةِ وَقْتٌ وَلِلْمَوْتِ وَقْتٌ. لِلْغَرْسِ وَقْتٌ وَلِقَلْعِ الْمَغْرُوسِ وَقْتٌ. ٣ لِلْقَتْلِ وَقْتٌ وَلِلشِّفَاءِ وَقْتٌ. لِلْهَدْمِ وَقْتٌ وَلِلْبِنَاءِ وَقْتٌ. ٤ لِلْبُكَاءِ وَقْتٌ وَلِلضَّحْكِ وَقْتٌ. لِلنَّوْحِ وَقْتٌ وَلِلرَّقْصِ وَقْتٌ. ٥ لِتَفْرِيقِ الْحِجَارَةِ وَقْتٌ وَلِجَمْعِ الْحِجَارَةِ وَقْتٌ. لِلْمُعَانَقَةِ وَقْتٌ وَلِلانْفِصَالِ عَنِ الْمُعَانَقَةِ وَقْتٌ. ٦ لِلْكَسْبِ وَقْتٌ وَلِلْخَسَارَةِ وَقْتٌ. لِلصِّيَانَةِ وَقْتٌ وَلِلطَّرْحِ وَقْتٌ. ٧ لِلتَّمْزِيقِ وَقْتٌ وَلِلتَّخْيِيطِ وَقْتٌ. لِلسُّكُوتِ وَقْتٌ وَلِلتَّكَلُّمِ وَقْتٌ. ٨ لِلْحُبِّ وَقْتٌ وَلِلْبُغْضَةِ وَقْتٌ. لِلْحَرْبِ وَقْتٌ وَلِلصُّلْحِ وَقْتٌ. ٩ فَأَيُّ مَنْفَعَةٍ لِمَنْ يَتْعَبُ مِمَّا يَتْعَبُ بِهِ؟

أرأيتم هذا التعبير الأدبي الذي عجز عن مثله أبو العتاهية والمتنبي وسائر أدباء العرب؟ أسلوب لا أدبي رفيع الركاكة. هكذا. . تمزيق وتخييط. جمع حجارة وتفريقها. وضع غرس ثم قلعه. نوح ورقص[1].

* * *

(١) وراجع تفصيل ذلك كله في مبحث تحريف الكتاب المقدس من هذه الموسوعة.

شبهات
الإعجاز العلمي

وفيها:

مقدمة عن الإعجاز العلمي

١- شبهات عن الجنة.

٢- شبهة: هل الجلد مصدر الإحساس بالألم أو لا؟

٣- شبهة: هل كل شيء خلق من ماء؟

٤- شبهة: مدة الحمل

٥- شبهة: فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون.

٦- شبهة: الظل.

٧- شبهة: ادعاؤهم تناقض القرآن في مادة خلق الإنسان.

٨- هل الصفات الوراثية تثبت بالرضاع؟

٩- شبهة: أمم أمثالكم.

١٠- شبهة: غلبت الروم.

١١- شبهة: خلق السموات والأرض في ستة أيام.

١٢- شبهة: أن الأرض كروية.

١٣- شبهات: عن النجوم والشهب والشياطين.

١٤- اختلاف البصمات. معرفة الجنين.

مقدمة عن الإعجاز العلمي.

تمهيد:

أنزل الله القرآن لصلاح أمر الناس في دينهم ودنياهم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، وقد اختار الله أن يكون اللسان العربي مظهرًا لوحيه ومستودعًا لمراد(١)

وجاءت هذه الهداية والدعوة إليها بأساليب متنوعة، فمن مخاطبة للفطرة الإنسانية، ومن استدلال بواقع الأشياء المحسوسة، إلى مجادلة عقلية، إلى تذكير بعاقبة الأمم السابقة، إلى لفت للنظر إلى واقع القصور البشر(٢)

ولا شك أن الكلام الصادر عن علام الغيوب - تعالى وتقدس- لا تبنى معانيه على فهم طائفة واحدة، ولكن معانيه تطابق الحقائق، فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إلي(٣)

ومع تطور العلوم والتقدم العلمي فلم ينقض العلم شيئًا مما جاء في القرآن، ولم يصادم جزئية من جزئياته، وهذا ما يسمى بالإعجاز العلم(٤)

والمقصود بالعلم في هذا المقام العلم التجريبي، وعليه فيعرِّف العلماء الإعجاز العلمي بأنه: إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي (٥)

الأدلة على ثبوت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

١ - قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٨.

(٢) الفرقان والقرآن لخالد بن عبد الرحمن العك (٤٥٤: ٤٥٣) بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٤.

(٤) بحوث في أصول التفسير ومناهجه لفهد بن عبد المحسن

(٥) رحيق العلم والإيمان؛ - د/ أحمد فؤاد باشا (٢٦).

يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ (فصلت ٥٢ : ٥٣).

قال ابن كثير:

وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقًا منزلًا من عند الله ﷻ على رسوله ﷺ بدلائل خارجي[1]

٢- قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أخرج ابن جرير عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: وفي أنفسكم، وفي السماء، والأرض، والرزق[2].

الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي:

التفسير العلمي: هو انتفاع المفسر بما ظهر في عصره من معلومات كونية فيستفيد بها في تفسير الآية[3].

أما الإعجاز العلمي: فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة توصل إليها العلم التجريبي[4].

ويرى بعض الباحثين أنه لا فرق بينهما[5].

أوجه الإعجاز العلمي، وتتمثل فيما يلي:

١- التوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة وبين ما كشفه علماء الكون من حقائق كونية وأسرار علمية لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن.

٢- تصحيح ما شاع بين البشرية في أجيالها المختلفة من أفكار باطلة حول أسرار الخلق بما جاء في القرآن والسنة، وهذا لا يكون إلا بعلم من أحاط بكل شيء علمًا[6].

نشأة هذا اللون من التفسير:

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٤.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥١٢. وراجع كتاب تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (٢٦:٣٢).

(٣) المعجزة والإعجاز في القرآن (١٩١).

(٤) تأصيل الإعجاز العلمي (٣٣) بتصرف.

(٥) المعجزة والإعجاز العلمي (١٩١).

(٦) تأصيل الإعجاز العلمي (٣٧).

لو أنَّا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم لوجدنا أن هذه النزعة - نزعة التفسير العلمي- تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت في أول الأمر عبارة عن محاولات يُقصد منها التوفيق بين القرآن وما جَدَّ من العلوم، ثم وُجِدت الفكرة مركَّزة وصريحة على لسان الغزالي، وابن العربي، والمرسي، والسيوطي، ولوجدنا أيضًا أن هذه الفكرة قد طُبِّقت علميًا، وظهرت في مثل محاولات الفخر الرازي، ضمن تفسيره للقرآن.

ثم وُجِدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجًا كبيرًا بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع(١).

أهم من تكلم عن هذا اللون من التفسير في القديم:

هو الإمام الغزالي في كتابيه: الإحياء، وجواهر القرآن، والإمام الرازي في تفسيره: مفاتيح الغيب، وإذا كان الغزالي ومَنْ قبله قد وضعوا الأسس النظرية للتفسير العلمي، فإن الرازي قد طبق عمليًا، وقد أشار إلى سبب توسعه في ذلك في تفسيره (١٤/ ١٢١)، ومنهم القاضي ابن العربي في كتابه: قانون التأويل، ومنهم أبو الفضل المرسي في تفسيره، والزركشي في كتابه: البرهان، والسيوطي في: الإتقان، والإكليل في استنباط التنزيل، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن.

ونحا كلُّ هؤلاء منحى الغزالي في القول بأن القرآن حوى علوم الأولين والآخرين، وأنه ما من شيء إلا ويمكن استخراجه من القرآن لمن فهَّمه الله(٢).

أهم من تكلم عن هذا اللون من التفسير في العصر الحديث:

إن اهتمام العلماء والمفسرين المعاصرين بهذه النواحي كان أكثر خصوصًا بعد اكتشاف الكثير من النظريات العلمية، ومن أبرز هؤلاء:

---

(١) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي٢/ ٣٥٦: ٣٥٥.

(٢) راجع الفرقان والقرآن (٤٠٩ : ٣٩٨)، التفسير والمفسرون٢/ ٣٥٦: ٣٤٩.

١- الشيخ طنطاوي جوهري في كتابه: جواهر القرآن.

٢- بعض اللمحات التي أشار إليها سيد قطب في كتابه: الظلال.

٣- كتاب: المنتخب في تفسير القرآن الذي أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٤- للشيخ محمد عبده كثيرٌ من الإشارات إلى نظريات علمية.

٥- كشف الأسرار النورانية القرآنية لمحمد بن أحمد الإسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري[١].

وغير ذلك من الجهود والإنجازات الكثيرة والمتنوعة[٢].

موقف العلماء قديمًا وحديثًا من التفسير العلمي للقرآن الكريم:

للسلف منهج سديد في التعامل مع الأمور الغيبية التي جاء بها الوحي وخاصةً فيما يتعلق بأمر العقيدة، ويتمثل هذا المنهج في الوقوف عند دلالات النصوص بدون تكلف لمعرفة الكيفيات والتفاصيل التي لم يبينها الوحي، ونظرًا لعدم خطورة ما يتقرر في مجال الأمور الكونية على أمر العقيدة يوم ذاك لم يقف المفسرون بها عند حدود ما دلت عليه النصوص، بل حاولوا شرحها بما يسَّر الله لهم من الدراية، وبما فتح الله به عليهم من الفهم[٣].

ثم تطورت فكرة التفسير العلمي على مدار الأيام حتى صارت تمثل لونًا خاصًا من ألوان التفسير، وإن كانت هذه الفكرة قد لاقت رواجًا عند بعض المتقدمين، وازدادت عند المتأخرين، غير أن فريقًا منهم قد أفرطوا في هذا الأمر وتكلفوه كثيرًا من الأحيان[٤].

الأمور التي يجب توافرها في من يتصدى للبحث في الإعجاز العلمي:

يجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لبيانها؛ وهي

---

(١) المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم (١٩٠)، الفرقان والقرآن (٤٢٨: ٤١٠).

(٢) وقد أصدر المجمع العلمي لبحوث القرآن والسنة بمصر كتابًا بعنوان (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) د. كارم سيد غانم، تتبع فيه المؤلف كافة الجهود الحكومية والأهلية ومواقع الإعجاز العلمي على الإنترنت وأهم المجهودات المنشورة للأفراد في هذا المجال، فليراجعه من شاء.

(٣) تأصيل الإعجاز العلمي (٤١: ٣٩).

(٤) التفسير والمفسرون ٢/ ٣٨١: ٣٤٩، تأصيل الإعجاز العلمي (٥٣).

بحسب ما بلغنا ثمانية أمور:

الأول: إصلاح الاعتقاد.

الثاني: تهذيب الأخلاق.

الثالث: التشريع في الأحكام الخاصة والعامة.

الرابع: سياسة الأمة؛ وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها.

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، والاتعاظ والاعتبار من مساويهم.

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها.

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آيةً دالة على صدق الرسول ﷺ.

فغرض المفسر بيان مراد الله تعالى في كتابه أَتَمَّ بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء.

فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث: إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه؛ وهذا هو الأصل. وإما استنباط معانٍ من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن. وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى؛ أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها؛ أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه، فلا يلام المفسر إذا أتى بشيء من تفاريع العلوم مما له خدمة للمقاصد القرآنية.

وشرط كون ذلك مقبولًا أن يسلك فيه مسلك الإيجاز فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له.

ولا شك أن الكلام الصادر عن علام الغيوب - تعالى وتقدس- لا تُبنى معانيه على

فهم طائفة واحدة، ولكن معانيه تطابق الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم وكانت الآية لها اعتلاق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه، وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم، وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل ولا يكون تكلفًا بينًا ولا خروجًا عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية(١).

علاقة العلوم بالقرآن:

قال الشاطبي: واعلم أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق واتصاف بمحاسن الشيم، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل وبينت منافع ما ينفع من ذلك ومضار ما يضر منه، فمن علومها: علم النجوم وما يختص بها من الاهتداء في البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، ومنها علوم الأنواء وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب وهبوب الرياح المثيرة لها، فبين الشرع حقها من باطلها، ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية، ومنها ما كان أكثره باطلًا أو جميعه كعلم العيافة، والزجر، والكهانة، وخط الرمل، والضرب بالحصى، والطِيَرَةُ؛ فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل ونهت عنه، ومنها علم الطب فقد كان في العرب منه شيء، ومنها التَّفَنُّنُ في علوم البلاغة، والخوض في وجوه الفصاحة، والتصرف في أساليب الكلام؛ وهو أعظم منتحلاتهم فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم(٢).

ثم قال: إن كثيرًا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات، والتعاليم، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها؛ وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، نعم تضمن علومًا هي من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٣: ٤٢.

(٢) الموافقات ٢/ ٤٩: ٤٧ باختصار.

الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بإعلامه والاستنارة بنوره[١].

قال ابن عاشور: إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق، والفقه، والتشريع، والاعتقاد، والأصول، والعربية، والبلاغة.

الثانية: علوم تزيد المفسر علمًا كالحكمة، والهيأة، وخواص المخلوقات.

الثالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض، والطب، والمنطق.

الرابعة: علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزجر، والعيافة، والميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي[٢].

ضوابط وقواعد البحث في الإعجاز العلمي:

يجب أن تقوم هذه الأبحاث على ما يلي:

١- علم الله هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقص، وعلم الإنسان محدود يقبل الازدياد ومعرَّض للخطأ.

٢- هناك نصوص من الوحي قطعية الدلالة، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية.

٣- في الوحي نصوص ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها.

٤- لا يمكن أن يقع صدامٌ بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقع في الظاهر فلا بد أن هناك خللًا في اعتبار قطعية العلم التجريبي.

٥- إن نصوص الوحي قد نزلت بألفاظ جامعة تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها التي قد تتابع في ظهورها جيلًا بعد جيل.

٦- إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص وبين نظرية علمية رفضت هذه النظرية لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شيء علمًا؛ وإذا وقع التوافق بينهما - تُقبل النظرية

---

(١) الموافقات ٢/ ٥٣: ٥٢.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٤٥.

كوجهٍ من أوجه التفسير العلمي، وإذا كان النص ظنيًا والحقيقة العلمية قطعية وأمكن التأويل بضوابطه قُبل.

٧- إذا وقع تعارض بين حقيقة علمية قطعية وبين حديث ظني في ثبوته، فيئوَّل الظني من الحديث ليتفق مع الحقيقة العلمية، وحيث لا يوجد مجال للتوفيق نتوقف(١).

٨- إذا اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي تفسير الآية على قولين لَمْ يَجُز لمن بعدهم إحداث قول ثالث يخرج عن قولهم، وبهذا يُعلم بُطلان كثير من التفسير العلمي، فإن كثيرًا من أقوال أصحاب هذا الاتجاه تقرر معاني مغايرة تمامًا لما قاله السلف في الآية مما يلزم عنه نسبة جميع الأمة إلى الجهل والخطأ في تفسير ذلك الموضع(٢).

بخلاف ما لو وافق البعض واستلزم نقص البعض الآخر، فذلك لا يمنع التفسير به، مع مراعاة عدم التسرع في ترجيح وجه تفسيري دون مرجع معتبر(٣).

٩- الالتزام بالمعاني اللغوية للآيات؛ لأن القرآن عربي مبين، وعَدُّ الربط اللغوي بين اللفظ القرآني والمصطلح العلمي دون إحاطة تامة بدلالات اللفظ القرآني من جهة وبتاريخ المصطلح العلمي وسيرته وما يدل عليه من جهة أخرى، فاستخدام مصطلح الذرة بمعناه الفيزيائي والكيميائي في لغة العلم العربية قد شاع وأصبح مقبولًا كمقابل لكلمة (atom) الإغريقية التي احتفظت بأصلها الإغريقي في جُل اللغات الأجنبية، لكنه لا يطابق المعنى اللغوي والبياني الذي يدل عليه السياق في القرآن الكريم(٤).

١٠- أن تُراعى القواعد النحوية ودلالاتها، والقواعد البلاغية ودلالاتها، وخصوصًا قاعدة: (ألا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية)، فلا ينبغي فهم الآيات

---

(١) تأصيل الإعجاز العلمي (٣٦: ٣٤)، المعجزة والإعجاز (٢٠١: ١٩٤).

(٢) شرح الكوكب المنير (٢/ ٢٧٢: ٢٦٤)، الرسالة (٥٩٨: ٥٩٦).

(٣) ضوابط البحث في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (مجلة الإعجاز العلمي).

(٤) رحيق العلم والإيمان (٣٩: ٣٨).

الكونية من القرآن الكريم بأن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التي تمنع من إجراء اللفظ على ظاهره[١].

١١- المطابقة بين آيات الكتاب الكريم وما يتصل بموضوعها من الحقائق العلمية من الآيات، ثم نفسر هذه الحقيقة في ضوء كل ما يتصل من الآيات؛ لأن القرآن يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بعضًا.[٢]

١٢- أن نتوخى الدقة التامة، فلا نفتعل مناسبة أو نتشبث بلفظ ونحمله فوق ما يحتمل أو نتجاهل حقائق التاريخ.[٣]

١٣- الرجوع إلى المأثور عن النبي ﷺ .

١٤- الاستئناس بالتفاسير المختلفة[٤].

١٥- الإلمام بآخر ما توصل إليه العلم في العقل الذي تتعرض له الآية الكريمة أو الحديث النبوي الشريف، وهذا يعني احترام التخصص العلمي حتى لا يخوض في القضية التخصصية كل خائض.[٥]

١٦- التأكد من صحة الحديث النبوي الشريف ودرجته قبل التعرض لإثبات جوانب الإعجاز العلمي فيه.[٦]

* * *

---

(١) المعجزة والإعجاز (١٩٦).

(٢) المعجزة والإعجاز (١٦٧).

(٣) رحيق العلم والإيمان (٤٢).

(٤) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق ل- د/ كارم سيد غنيم.

(٥) الإعجاز العلمي لغة الدعوة في عصر العلم.

(٦) المصدر السابق.

١ـ شبهات عن عرض الجنة

نص الشبهة:

جاء في القرآن: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ (آل عمران: ١٣٣)، و﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ (الحديد: ٢١)، و﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

الأرض لا يقارن حجمها بالنسبة إلى حجم السماء لضآلة حجم الأرض بالنسبة لها، فكيف في القرآن يُجمع بينهما؟!

وفي هذه الآيات يضاف إلى حجم السماوات حجم الأرض، ومعلوم أن علم الفلك يصور لنا حجم الكون طبقا لما اكتشف حتى الآن فقط بما يقدر قطره بـ ٣٢ بليون سنة ضوئية أي: بمسافة ٣٠٠ ألف بليون بليون كيلومترا، بينما قطر الأرض يساوي= ١٢٧٤٢ كيلومترا، فالنسبة بين حجم الأرض وحجم السموات المعروفة حتى الآن تساوي= النسبة بين الرقم ١ إلى الرقم ١٣ وأمامه ٥٧ صفر، وكل ٩ أصفار منها تساوي= بليون؛ إذن حجم الأرض: حجم السموات = ١: ١٣ وأمامها ٥٧ صفرًا، فحتى لو افترضنا جدلًا أن هذه النسبة هي ١: ١٣٠ فقط لما جاز لشخص غير هازل أن يعتبر أن إضافة واحد إلى١٣٠ تضفي على الـ ١٣٠ أية زيادة محسوسة! فلا يعقل إضافة حجم الأرض الهزيل الذي يعتبر لا شيء ليكون مضافًا إلى حجم السموات!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تفسير الآية.

الوجه الثاني: يصح أن يذكر الشيء المحدود (المتناهي) مع اللامحدود (اللامتناهي) في مواضع، ولا يمكن أن ننكر ذلك مطلقًا.

الوجه الثالث: المقصود سماء وأرض المحشر يوم القيامة.

الوجه الرابع: ذكرت الأرض هنا لدخولها في جملة مساحة السموات.

الوجه الخامس: المعنى: إذا كانت الأرض لها ثمن، والسموات لها ثمن؛ فإن ثمن الجنة أغلى من ثمنهما معًا.

الوجه السادس: يعني بعرضها سعتها لا من حيث المساحة ولكن من حيث المسرة.

الوجه السابع: الاشتراك بين السموات والأرض في أن كلا منهما متناهٍ زائل.

الوجه الثامن: الكلامُ جارٍ على مقتضى كلام العرب من الاستعارة.

الوجه التاسع: المقارنة لمناسبة السامعين لا لعقد مقارنة بين حجم السماء والأرض.

الوجه العاشر: هذا من قبيل الأمر نسبي.

الوجه الحادي عشر: هذا من قبيل التصور البديهي.

الوجه الثاني عشر: ذكر الأرقام العلمية قد تجهد ذهن السامع.

الوجه الثالث عشر: أحوال الآخرة تختلف عن أحوال الدنيا.

الوجه الرابع عشر: معنى الآية: أي الكون كله.

الوجه الخامس عشر: لابد من فهم العلاقة بين الأرض والسماء في القرآن الكريم.

الوجه السادس عشر: جنة النصارى في الأرض، وحجمها صغير لا يتسع لدخول جميع النصارى!

الوجه السابع عشر: معنى العرض ما لا ثبات له إلا بالجوهر.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تفسير الآية:

عن ابن عباس قال: الجنة كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض، وعنه أيضًا: إنَّ لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة[1].

قال ابن الجوزي: وإنَّما وحَّد ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأن الأرض تدل على

(١) انظر: تفسير الطبري ٧/ ٢٠٧ (آل عمران: ١٣٣)، والسراج المنير لمحمد الشربيني الخطيب ١/ ٥٤٣

الأَرَضِين[١].

قال الزهري: إنما وصف عرضها، فأما طولها فلا يعلمه إلا الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ (الرحمن: ٥٤)، فوصف البطانة بأحسن ما يعلم من الزينة؛ إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن[٢].

كلمة عرض (في القرآن) يختلف معناها من موضع إلى موضع آخر:

قال الراغب: (العرض) خلاف الطول وأصله أن يقال في الأجسام ثم يستعمل في غيرها كما قال: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت: ٥١)، والعرض خُصَّ بالجانب، وأعرض الشيءُ: بدا عرضه، وعرضت العود على الإناء واعترض الشيء في حلقه: وقف فيه بالعرض، واعترض الفرس في مشيه وفيه عرضيه أي: اعتراض في مشيه من الصعوبة، وعرضت الشيء على البيع وعلى فلان ولفلان نحو: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ (البقرة: ٣١)، ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ (الكهف: ٤٨)، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ (الأحقاف: ٢٠).

وعرضت الجند، والعارض: البادي عرضه فتارة يخص بالسحاب نحو: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ (الأحقاف: ٢٤)، وبما يعرض من السقم فيقال: به عارض من سقم، وتارة بالخد نحو: أخذ من عارضيه، وتارة بالسن؛ ومنه قيل: العوارض للثنايا التي تظهر عند الضحك، وقيل: فلان شديد العارضة كناية عن جودة البيان، وبعير عروض: يأكل الشوك بعارضيه، والعرضة: ما يجعل معرضًا للشيء؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٤)، وبعير عرضة للسفر أي: يجعل معرضًا له، وأعرضك أظهر عرضه أي: ناحيته.

---

(١) زاد المسير (فاطر: ٤١).

(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٤.

فإذا قيل: اعرض لي كذا؛ أي: عرضه فأمكن تناوله، وإذا قيل: أعرض عني فمعناه: ولّى مبديًا عرضه؛ قال: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾ (السجدة: ٢٢)، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ (النساء: ٦٣)، ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (لأعراف: ١٩٩)، ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ (طـه: ١٢٤)، ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٢)، وربما حذف عنه استغناء عنه نحو: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ (النور: ٤٨)، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ (آل عمران: ٢٣)، ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ (سبأ: ١٦)، وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ (آل عمران: ١٣٣)[1].

الوجه الثاني: يصح أن يذكر الشيء المحدود (المتناهي) مع اللامحدود (اللامتناهي) في مواضع، ولا يمكن أن ننكر ذلك مطلقًا.

فكل عاقل يؤمن بالآخرة يعلم أن الدنيا لا تساوي شيئًا في الآخرة، ومع ذلك فالكتب المقدسة تذكر الدنيا (الشيء المحدود/ المتناهي) وتذكر الآخرة (اللامحدود/ اللامتناهي). والسماوات مهما كبرت فهي شي محدود (متناهي)، فمن باب أولى أنه لا غبار على ذكر الأرض وذكر السماوات معًا.

قال ابن حزم: وصح أيضًا مسندًا عن رسول الله ﷺ: أن الدنيا في الآخرة كأصبع في اليم[2].

وهذا إنما هو في نسبة المسافة لا في نسبة المدة؛ لأن مدة الآخرة لا نهاية لها، وما لا نهاية له فلا ينسب منه شيء البتة بوجه من الأوجه، ولا هو أيضًا نسبة من السرور واللذة، ولا من الحزن والبلاء؛ فإن سرور الدنيا مشوب بألم ومتناه منقض، وسرور الآخرة وحزنها خالصان غير متناهيين. اهـ.

والسؤال: لماذا ذكرت الدنيا مع الآخرة في الكتب المقدسة، مع أنها جاءت لتذم الدنيا

---

(١) انظر مفردات القرآن للراغب (كتاب العين) ١/ ٩٦٨، وانظر: البصائر ٤/ ٤٤.

(٢) في الفِصَل ٢/ ٨٣؛ مطلب: (بيان كروية الأرض).

(فمهما طالت فهي قصيرة) وترغب في الآخرة (الأبدية)، فمن باب أولى ألا تذكر الدنيا ولا أي إشارة إليها من قريب أومن بعيد؟

١- لمعرفة المنهج الذي يعيش الناس عليه في الدنيا (من عبادات، ومعاملات)؛ ليضمنوا سعادة الآخرة.

٢- لإصلاح الأرض؛ فإن إصلاحها بطاعة الله.

الوجه الثالث: المقصود سماء وأرض المحشر يوم القيامة.

أننا إذا فسرنا العرض بأنه خلاف الطول، وتصور ذلك أن يريد به أن يكون عرضها في النشأة الآخرة كعرض السموات والأرض في النشأة الأولى؛ وذلك أنه قد قال: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ (إبراهيم: ٤٨)، ولا يمتنع أن تكون السموات والأرض في النشأة الآخرة أكبر مما هي الآن[1].

قلت: فتكون الأرض في هذه الحالة أكبر من تلك الأرض التي نعيش عليها الآن؛ فيصح بذلك أن نذكرها عند ذكر السموات؛ فإن أرض المحشر تتسع لجميع الخلق من إنس وجن وحيوانات وملائكة.

الوجه الرابع: ذكرت الأرض هنا لدخولها في جملة مساحة السموات.

قال ابن حزم: قام البرهان من قبل رؤيتنا لنصب السماء أبدًا على أنه لا نسبة للأرض عند السماء ولا قدر، وقال ﷻ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ وذكر رسول الله ﷺ أن للجنة ثمانية أبواب، وقال ﷺ: "**فاسألوا الله الفردوس الأعلى؛ فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوق ذلك عرش الرحمن**"، فصح يقينا أنهما جنتان: أحدهما كعرض السموات والأرض، والأخرى عرضها كعرض السماء والأرض، وقوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن: ٤٦) إنما هوخبر عن الجميع أن لهم هاتين الجنتين، فالتي عرضها السموات والأرض هي السموات السبع؛ لأن عرض

---

(١) انظر: مفردات القرآن للراغب؛ (كتاب العين) ١/ ٩٦٨.

الشيء منه بلا شك، وكل جرم كرسي فإن جميع أبعاده عروض فقط.

وذكرت الأرض هنا لدخولها في جملة مساحة السموات ولإحاطة السموات بها والتي عرضها كعرض السماء والأرض هي الكرسي المحيط بالسموات والأرض؛ قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فصح أن عرضه كعرض السموات والأرض مضافًا بعض ذلك إلى بعض، فصح أن لها ثمانية أبواب في كل سماء باب؛ وفي الكرسي باب، وصح أن العرش فوق أعلا الجنة؛ وهو محل الملائكة، وموضعها ليس من الجنة في شيء، بل هوفوقها وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ (غافر: ٧) بيانٌ جليٌ بأن على العرشِ جرمًا آخر فيه الملائكة، وقد ذكر أن البرهان يقوم بذلك مَنْ أحكم النظر في الهيئة وهذه نصوص ظاهرة جلية دون تكلف تأويل.

وقوله تعالى: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ﴾ ذكر لجنس السموات؛ لأن السموات اسم للجنس يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ومثل هذا كثير مما إذا تدبره المتدبر دل على صحة ما قلناه من أن كل ما ثبت ببرهان فهومنصوص في القرآن وكلام النبي ﷺ.[1]

الوجه الخامس: المعنى: إذا كانت الأرض لها ثـمن، والسموات لها ثـمن؛ فإن ثـمن الجنة أغلى من ثـمنهما معًا.

فقد أشار أبومسلم الأصفهاني أن العرض هاهنا من عرض البيع؛ فقال: عرضها: ثمنها لو جاز بيعها من المعاوضة في عقود البياعات، من قولهم: بيع كذا بعرض: إذا بيع بسلعة، فمعنى عرضها أي: بدلها وعوضها كقولك: عرض هذا الثوب كذا وكذا[2].

قال الآلوسي: ذهب أبومسلم الأصفهاني إلى أن العرض هاهنا ليس مقابل الطول، بل هومن قولك: عرضت المتاع للبيع؛ والمعنى: أن ثمنها لوبيعت كثمن السموات والأرض؛ والمراد بذلك عظم مقدارها وجلالة قدرها، وأنه لا يساويها شيء وإن عظم، فالعرض

---

(١) الفِصَل٢/ ٨٤؛ مطلب: (بيان كروية الأرض).

(٢) انظر: مفردات القرآن للراغب- كتاب العين (١/ ٩٦٨).

بمعنى: ما يعرض من الثمن في مقابلة المبيع[١].

قلت: وأنت إذا بعت أشياء كثيرةً جدًا فتأتي على شيء يسير بالنسبة لهذا الكثير لتذكره من ضمن المبيعات؛ لأنه شيء مميز عندك، فالأرض ذكرت مع السموات لأنها لها فضل عند الله؛ فعليها مقدساته، ويعيش عليها عباده الصالحون.

وكذلك لو أنك اشتريت أشياء كثيرة، فإن جميع تلك الأشياء تكتب في فاتورة الحساب، ما صغر منها وما كبر؛ فيكتب أنك اشتريت قلما بجنيه، وفي نفس (الفاتورة) يكتب أنك اشتريت سيارة بثلاثين آلاف جنيه: مع أن ثمن السيارة يفوق أضعافًا مضاعفة ثمن القلم إلا أنهما ذُكرا في (فاتورة) واحدة، فالأمر ليس أن هذا صغير وهذا كبير في الثمن فلا يذكر هذا بجوار ذاك.

الوجه السادس: يعني بعرضها سعتها لا من حيث المساحة ولكن من حيث المسرة.

كما يقال في ضده: الدنيا على فلان حلقة خاتم وكفة حابل وسعة هذه الدار كسعة الأرض[٢].

قلت: فالمسرة والفرح والسعادة التي يشعر بها من يدخل الجنة: أكثر بكثير مما يشعر بها أهل الدنيا؛ سواء من ساكني الأرض أومن ساكني السماء؛ خصوصًا أن هناك من الجن من يخرج خارج نطاق الأرض.

فالمقارنة هنا بين الجنة والأرض والسموات ليست مقارنة في الأحجام والأرقام الفلكية فقط؛ بل هي مقارنة السعادة: فلا حرج في ذكر الأرض حينئذ.

بل إن الله قد يعطي عبده الطائع سعادة عظيمة وهو مازال في الدنيا:

قال الغزالي: (في حال العارفين ونسبة لذتهم إلى لذة الغافلين): فالعارفون لما رزقوا شهوة المعرفة ولذة النظر إلى جلال الله؛ فهم في مطالعتهم جمال الحضرة الربوبية في جنة

---

(١) روح المعاني٤/ ٥٧؛ (آل عمران: ١٣٣).

(٢) انظر: مفردات القرآن للراغب؛ كتاب العين (١/ ٩٦٨).

عرضها السموات والأرض بل أكثر؛ وهي جنة عالية قطوفها دانية؛ فإن فواكهها صفة ذاتهم وليست مقطوعة ولا ممنوعة إذ لا مضايقة للمعارف[١].

قال محمود توفيق: صاحب القرآن الكريم تلاوةً وتدبرًا وتأدُّبًا في جنة عرضها السموات والأرض في حياته على الأرض، من قبل أن يكون فيها يوم القيامة، فيقال له: " **اقرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها** "[٢].

الوجه السابع: الاشتراك بين السموات والأرض في أن كلا منهما متناه زائل.

فإن كلاهما متناهٍ سوف تزولان، وإن الجنة غير متناهية، فالآية تعقد مقارنة بين الأرض، والسموات، والجنة: فالأولتان زائلتان، والثالثة باقية، فأيها تفضل الباقي أم الزائل؟! ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ (فاطر: ٤١).

قال الرازي: إنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حِلمًا[٣].

قال ابن حزم: وبالبرهان الذي قدمناه على وجوب تناهي الأجسام وتناهي كل ما له عدد؛ يقول الله تعالى: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ فلو لم يكن لتولد الخلق نهاية لكانوا أبدًا يحدثون بلا آخر، وقد علمنا أن مصيرهم الجنة أو النار، ومحال ممتنع غير ممكن أن يسع ما لا نهاية له فيما له نهاية من الأماكن؛ فوجب ضرورة أن للخلق نهاية فإذا ذلك واجب فقد وجب تناهي عالم الذر[٤].

قلت: فإذا كان هناك صفة مشتركة بين شيئين: فلا حرج في ذكرها، حتى ولو كان هذان الشيئان مختلفين اختلافًا كبيرًا في حجميهما.

---

(١) في جواهر القرآن ١/ ٨٣ (الفصل الثامن عشر).

(٢) العزفُ على أنوار الذِّكر ١/ ١٦٧؛ (الفصل الرابع: التَّحْليلُ البَيَانيّ).

(٣) مفاتيح الغيب (فاطر: ٤١).

(٤) الفصل ٤/ ٦٧؛ (الكلام في القيامة وتغيير الأجساد).

فإذا كنت واقفًا أمام بحر عظيم، وفي يدك وعاء به ماء عذب: فأنت تقول هذا الماء الذي في الوعاء ماء عذب وهذا الماء الذي في البحر ماء مالح، مع أن ماء الوعاء ماءٌ قليلٌ جدًا بالنسبة لماء البحر.

فالمقارنة ليست مقارنة بين الأحجام ولكن مقارنة بين الصفات.

الوجه الثامن: الكلامُ جارٍ على مقتضى كلام العرب من الاستعارة.

فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى حسنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض، كما تقول للرجل: هذا بحر، ولشخص كبير من الحيوان: هذا جبل، ولم تقصد الآية تحديد العرض، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه[١].

قال محمد الشربيني الخطيب: وذكر العرض للمبالغة في وصف الجنة بالسعة؛ لأنّ العرض دون الطول كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٍۚ﴾ (الرحمن: ٥٤) على أن الظهارة أعظم، يقول: هذه صفة عرضها فكيف طولها؟ قال الزهري: إنما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه إلا الله تعالى، وهذا على سبيل التمثيل لا أنها كالسموات والأرض لا غير[٢].

قلت: وهذا من باب قصد الترغيب لا قصد التحديد:

فإذا أردت أن ترغب إنسانًا في أمرٍ قد تستخدم الاستعارات والكنايات لتشويقه، فاستعمال الأسلوب الأدبي في اللغة ليس معنى ذلك التصادم مع الحقائق العلمية، فالتشبيه، والكناية، والاستعارة؛ أمور مستعملة في شتى اللغات، وليس في اللغة العربية فقط.

الوجه التاسع: المقارنة لمناسبة السامعين لا لعقد مقارنة بين حجم السماء والأرض.

فالله يوضح للإنسان الذي يتصارع مع أخيه الإنسان على شبر من الأرض، وما يحدث بين الدول من الحروب المدمرة الممتدة لسنوات طويلة من أجل أن دولة تريد أن تمتلك جزءًا من الدولة المجاورة، أو أن تسيطر عليها تمامًا وعلى باقي دول الجوار.

كل ذلك الله يوضح للإنسان أن الجنة خير من تلك الأرض التي تتصارعون عليها،

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٨٦؛ (الأنفال: ٦٤).

(٢) السراج المنير ١/ ٥٤٣؛ (آل عمران: ١٣٣).

وتفنون حياتكم من أجل اكتناز خيراتها؛ حياتكم هذه أَوْلى أن تنفق في طاعة الله فيعطيكم خيرًا من ذلك.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران١٤: ١٥)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ (التوبة: ١١١).

الوجه العاشر: هذا من قبيل الأمر نسبي.

لو افترضنا أن هناك إنسانًا واقفًا على سطح المريخ (يعتبره كأنه كوكبه الذي يعيش عليه) فهو ينظر إلى أعلى فيرى سماء تحوي كواكب منها كوكب الأرض، ونحن الذين نعيش على الأرض ننظر وكأن المريخ من ضمن السماء التي تعلونا، فكلمة السماء: تعني كل ما يعلوك.

وكما أن النظرية النسبية تثبت أن الزمن هو أمر نسبي، فاليوم الذي تقضيه وأنت تعيش على الأرض ليس كاليوم الذي تعيش وأنت على المريخ.

وكذلك المكان أمر نسبي، فكان لابد من ذكر الأرض؛ لأنه بالنسبة لنا هي ليست جزءًا من السماء، وبالنسبة لمن يعيش على المريخ ينظر إليها وكأنها جزءٌ من السماء لاينفك عنها.

والله ﷻ أنزل القرآن على أهل الأرض، فكان لزامًا ذكر الكوكب الذي يعتبر سكنًا لهم ثم ذكر السماء التي يعدونها أنها كل ما هو خلاف الأرض.

والأمور النسبية مذكورة في القرآن والسنة:

١ - قال محمد الشربيني الخطيب:

كعرض السموات السبع والأرضين السبع عند ظنكم كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ (هود: ١٠٧) أي: عند ظنكم وإلا فهما زائلتان[١].

قلت: فظن الناس بمنح السموات والأرض صفة الديمومية أنها هو أمر نسبي، والأولى إعطاء هذه الصفة للجنة ولمن يدخلها؛ لأنهم رأوا الأمم والحضارات تفنى والأرض والسموات باقية، فهذا البقاء بقاءٌ نسبيٌّ، كأن تقول: خرج كل الأولاد من الفصل وبقي ولدٌ واحدٌ، ومع ذلك فإن هذا الولد ما يمكث إلا وقتًا قليلًا وسيغادر المكان.

ومساواة عرض الجنة بعرض السموات والأرض أمر نسبي، وإلا فعرض الجنة أعظم من ذلك، وعند مساواة أمور نسبية بعضها ببعض أو ذكر شيء نسبي في أحد طرفي المعادلة للمساواة بينهما يمكن ذكر الأرض؛ حتى ولو كان حجمها أصغر بكثير من حجم السموات.

وأضرب مثالًا على ذلك: الإنسان البدائي إذا نظر إلى نجوم السماء، فمن أول وهلة يشعر بصغر حجمها بالنسبة إلى الأرض، مع أن النجم الواحد قد يفوق مئات المرات مثل حجم الأرض.

إذن هناك فارق بين ذكر الأمور النسبية، وذكر الحقائق العلمية والأرقام الفلكية، وذكر الأمور النسبية ليس عيبًا في حد ذاته؛ بل المستكشف للكون وأفلاكه يعلم أنه لابد من الأخذ في الاعتبار الأمور النسبية (كالزمن النسبي) جنبًا إلى جنب للأرقام الفلكية، وهذا ما جعل النظرية النسبية لـ (أنشتين) تحظى برواج بالغ بين الأوساط العلمية.

٢- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ (الزمر: ١٠).

قال أبو مسلم: لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة[٢].

---

(١) السراج المنير ١/ ٥٤٣؛ (آل عمران: ١٣٣).

(٢) السراج المنير لمحمد الشربيني الخطيب ١/ ٣٧٥٠؛ (الزمر: ١٠).

٣- **قال ابن حزم**: وإن نارنا هذه أبرد من نار جهنم بتسع وستين درجة، وهكذا نشاهد من فعل الصواعق فإنها تبلغ من الإحراق والأذى في مقدار اللمحة ما لا تبلغه نارنا في المدد الطوال(١).

قلت: إذن حتى إحراق النار فهو أمر نسبي، فنار جهنم نسبة إحراقها غير نسبة إحراق نار الدنيا.

حتى إن الأمور النسبية نستعملها في حياتنا وكلامنا، فعندما أقول لك: إني أحبك عدد حبات الرمال، وعدد قطرات ماء البحار؛ ظنًا مني أن حبي لك غير محدود، كما أن عدد حبات الرمال، وعدد قطرات ماء البحار غير محدود، مع أن حبات الرمال وقطرات ماء البحار لهما عدد ما لا نعلمه والله يعلمه؛ قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام: ٥٩).

الوجه الحادي عشر: هذا من قبيل التصور البديهي.

فعلى قول المشككين في هذه الآية: إن القرآن المفترض أن يقول: وجنة عرضها السموات، فنرد عليهم ونقول: إذا الأرض التي نعيش عليها ليست داخلة في هذه المعادلة؛ فالإنسان لا يتصور كبر حجم السموات من أول وهلة إلا أن يكون لديه معلومات عن عدد الكواكب، والنجوم، والنيازك، والشهب، والمسافة بينهم، وما إلى ذلك من معلومات؛ لأنه لم يجئ عليها ولم يلمسها بيده، لكن عندما يذكر له أن الجنة أكبر من الأرض (التي بها بلاد كثيرة، وبحار عميقة) مضافًا إلى ذلك حجم السموات فعلى الفور يصل لذهنه أن الجنة عظيمة.

فالمشاهد التي يراها بعينه ليل نهار توصله للتصور البديهي، فإذا قيل له كلمة: (شجرة) وصل لذهنه في لمح البصر كل ما يحيط بذهنه من معلمات عنها.

---

(١) الفصل ٢/ ٨٣؛ (مطلب بيان كروية الأرض).

فالقرآن نزل ليفهمه المزارع، والعالم، والصانع، والطبيب، فاستعمال التصور البديهي في القرآن أفضل من استعمال المقدمات المنطقية التي لا يفهمها كثير من الناس.

الوجه الثاني عشر: ذكر الأرقام العلمية قد تجهد ذهن السامع.

الله ﷻ يعلم حجم الأرض كم هو؟ وكذلك حجم السماء، ويعلم النسبة بين حجميهما، ومع ذلك لم يذكر تلك الأرقام لتلك الأحجام: لحكم عديدة، منها:

- أن السامع ربما لا يتحصل له من ذلك إلا أنه قد علم كبر حجم السماء بالنسبة لحجم الأرض.
- وأن كلًّا من حجميهما كبير بالنسبة لحجمه هو.

الوجه الثالث عشر: أحوال الآخرة تختلف عن أحوال الدنيا.

فالطول والعرض هنا هما اللذان يقاسان بالوحدات القياسية المختلفة (متر، كم. . .)، وذلك يختلف عن الوحدات القياسية في الآخرة، حتى لو استخدمنا القياس بالسنين الضوئية فلا نستطيع أن ننكر ذكر الأرض إذا افترضنا إجراء المعادلة القياسية النسبية بين: الجنة، والسموات، والأرض؛ لأن قياس الجنة والسموات السبع أمور غيبية بالنسبة لنا؛ فكان لا بد من وجود طرف معلوم ومشاهد لنا وهو الأرض.

الوجه الرابع عشر: معنى الآية: أي الكون كله.

فالمقصود أن هذا الحجم لعرض الجنة يشمل ما أنتم تحيون عليه ومالا تحيون عليه، والجنة أكبر منه.

قال الزهري: إنما وصف عرضها فأما طولُها فلا يعلمه إلا الله، وهذا على التمثيل لا أنها كالسموات والأرض لا غير، معناه: كعرض السموات السبع والأرضين السبع عند ظنكم كقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ (هود: ١٠٧) يعني: عند ظنكم وإلا فهما زائلتان[1].

الوجه الخامس عشر: لابد من فهم العلاقة بين الأرض والسماء في القرآن الكريم.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ١٠٤؛ (آل عمران: ١٣٤).

جاءت لفظة: (السماء) في القرآن الكريم في ثلاثمائة وعشرة مواضع:

- منها مائة وعشرون بالإفراد (السماء).
- ومائة وتسعون بالجمع (السماوات).
- كذلك جاءت الإشارة إلى (السماوات والأرض وما بينهما) في عشرين موضعًا من تلك المواضع: (المائدة: ١٧، ١٨)، (الحجر: ٨٥)، (مريم: ٦٥)، (طه: ٦)، (الأنبياء: ١٦)، (الفرقان: ٥٩)، (الشعراء: ٢٤)، (الروم: ٨)، (السجدة: ٤)، (الصافات: ٥)، (ص: ١٠، ٢٧، ٦٦)، (الزخرف: ٨٥)، (الدخان: ٧، ٣٨)، (الأحقاف: ٣)، (ق: ٣٨)، (النبأ: ٣٧).
- وجاء ذكر: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في موضع واحد (البقرة: ١٦٤)، والتي تشير إلى أن القرآن الكريم يفصل بين السماء والأرض بنطاق يضم السحاب، وهوما يعرف بنطاق المناخ الذي لا يتعدي سمكه (١٦ كيلومترًا) فوق خط الاستواء، ويحوي أغلب مادة الغلاف الغازي للأرض (٧٥٪ بالكتلة).

وعلى ذلك فإن السماء في القرآن الكريم تشمل كل ما يحيط بالأرض بدءًا من نهاية نطاق المناخ إلى نهاية الكون التي لا يعلمها إلا الله، ويشير القرآن الكريم إلى أن الله ـ تعالى ـ قد قسم السماء إلى سبع سماوات، كما قسم الأرض إلى سبع أرضين؛ فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ (الطلاق: ١٢)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ (نوح١٥: ١٦)، وقال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ (الملك: ٣). ويتضح من هذه الآيات بصفة عامة، ومن آيتي سورة نوح (١٥، ١٦) بصفة خاصة أن السماوات السبع متطابقة حول مركز واحد؛ يغلف الخارج منها الداخل، وإلا ما كان جميع ما في السماء الدنيا واقعًا في داخل باقي السماوات، فيكون كلٌّ من القمر والشمس ـ وهما من أجرام السماء الدنيا ـ واقعين في كل السماوات السبع.

- وجاء ذكر السماوات السبع في سبع آيات قرآنية كريمة هي: (الإسراء: ٤٤)، (المؤمنون: ٨٦)، (فصلت: ١٢)، (الطلاق: ١٢)، (الملك: ٣)، (نوح: ١٥، ١٦)، (النبأ: ١٢).

- كذلك جاءت الإشارة القرآنية إلى سبع طرائق في (المؤمنون: ١٧)، واعتبرها عددٌ من المفسرين إشارة إلى السماوات السبع، كان الاشتقاق اللفظي يحتمل غير ذلك.

ويشير القرآن الكريم إلى أن النجوم والكواكب هي من خصائص السماء الدنيا وذلك بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ (الصافات: ٦)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ﴾ (فصلت: ١٢)، وقوله عز من قائل: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك: ٥)، وفي زمن تفجر المعارف العلمية والتطور المذهل للوسائل التقنية الذي نعيشه لم يستطع الإنسان إدراك سوى جزء صغير من السماء الدنيا، ولم يتجاوز إدراكه لذلك الجزء ١٠٪ مما فيه!!!

السماء في علوم الفلك: يقدر علماء الفلك قطر الجزء المدرك من الكون بأكثر من أربعة وعشرين بليونا من السنين الضوئية (٢٤ بليون/ ٩. ٥ مليون مليون كيلومتر)، وهذا الجزء من السماء الدنيا دائم الاتساع إلى نهاية لا يعلمها إلا الله تعالى، وبسرعات لا يمكن للإنسان اللحاق بها؛ وذلك لأن سرعة تباعد بعض المجرات عنا وعن بعضها بعضًا تقترب من سرعة الضوء المقدرة بنحو الثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، وهذا الجزء المدرك من الكون مبني بدقة بالغة على وتيرة واحدة، تبدأ بتجمعات فلكية حول النجوم كمجموعتنا الشمسية التي تضم بالإضافة إلى الشمس عددًا من الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات؛ التي تدور في مدارات محددة حول الشمس، وتنطوي أمثال هذه المجموعة الشمسية بملايين الملايين في مجموعات أكبر تعرف باسم المجرات، وتُكَوِّن عشراتٌ من المجرات المتقاربة ما يعرف باسم المجموعة المحلية، وتلتقي المجرات ومجموعاتها المحلية فيما يعرف باسم الحشود المجرية، وتنطوي تلك في تجمعات محلية للحشود المجرية، ثم في حشود مجرية عظمى، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية

العظمى إلى ما هو أكبر من ذلك إلى نهاية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

الوجه السادس عشر: معنى العرض ما لا ثبات له إلا بالجوهر.

العرض: ما لا يكون له ثبات، ومنه استعار المتكلمون (العرض) لما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون والطعم، وقيل: الدنيا عرض حاضر تنبيهًا أن لا ثبات لها؛ قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (الأنفال: ٦٧)، وقال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ﴾ (الأعراف: ١٦٩)، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ (التوبة: ٤٢) أي: مطلبًا سهلًا[١].

الوجه السابع عشر: جنة النصارى في الأرض، وحجمها صغير لا يتسع لدخول جميع النصارى!

وجنة عدن عندهم صغيرة لا تتسع لدخول جميع النصارى فهي في العراق؛ عرضها لا يساوي عرض الأرض ولا عرض السماء، فهم يقولون: غرس الله جنة عدن التي تقع في بلاد الرافدين، (وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس: اسم الواحد فيشون، واسم النهر الثاني جيحون، والثالث حداقل (دجلة) وهو الجاري شرقي أشور، والرابع الفرات) (تكوين ٢: ١٠- ١٤).

(وليس بالمصادفة أن ترى بالعراق الحدائق المعلقة وهى إحدى عجائب الدنيا السبع. غالبًا أحداث خلق آدم وحواء تمت بالعراق، حيث في ذات المكان غرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا. ووضع هناك آدم الذي جبله) (تكوين ٢: ٨، ٧).

أول ظهور للرب سجله الكتاب المقدس كان في العراق حيث نقرأ عن آدم وامرأته (وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار) (تكوين ٣: ٨)

فجنة عدن هي في الأرض بالقرب من العراق، وكان يعيش فيها آدم بجسده وروحه، ويأكل ويتمتع، أما ملكوت الله فهي بالروح فقط، وليس فيها أكل ولا شراب ولا تمتع بالجسد.

(سفر التكوين٢: ٨- ١٥): ٨وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ

---

(١) انظر: مفردات القرآن للراغب؛ كتاب العين (١/ ٩٦٨)، والبصائر (٤/ ٤٦).

آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. ٩وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. ١٠وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: ١١اِسْمُ الْوَاحِدِ فِيشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. ١٢وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. ١٣وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. ١٤وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابعُ الْفُرَاتُ. ١٥وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا.

وأيضًا (٣: ٢٣) فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. ٢٤فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.

وفي التفسير التطبيقي:

كانت الحياة في جنة عدن شبيهة بالحياة في السماء (سفر التكوين).

قلت: إذن جنة عدن (عندهم) ليست في السماء بل في الأرض ذات المساحة المحدودة، فكيف ستتسع لتستضيف كل النصارى منذ عيسى حتى قيام الساعة؟!

* * *

٢ـ شبهة: هل الجلد مصدر الإحساس بالألم أم لا؟

نص الشبهة:

هل الجلد مصدر الإحساس بالألم، أم أن مركز الإحساس هو الجهاز العصبي؟

وقد استخدم الرسول ﷺ الكي بالنار مع بعض الصحابة، فقد ثبت أنه كوى سعد بن معاذ وأُبي بن كعب[1] ليرقأ الدم، فهذا يدل على أن الإحساس ليس في الجلد ولو كان ذلك كذلك لما فعله مع صاحبه سعد، وقد استخدم الصينيون العلاج بالإبر الصينية حيث يضعونها في أماكن خالية من الخلايا العصبية، إذن العلم يقول: إن الجهاز العصبي هو مركز الإحساس ومحمد ﷺ يأتي بقرآن يقول: إن الإحساس إنما هو في الجلد كما في الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ٥٦).

فكيف يستقيم ذلك مع العلم الحديث؟!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى الآية إجمالًا.

الوجه الثاني: أقوال العلماء في كيفية تبديل الجلود وعلاقتها بالإحساس بالألم.

الوجه الثالث: الجانب الطبي حول مصدر الإحساس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: معنى الآية إجمالًا.

قال الطبري: هذا وعيد من الله جل ثناؤه للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله على محمد من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر الكفار وبرسوله؛ يقول الله لهم: إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد ﷺ من آياتي؛ يعني: من آيات تنزيله ووحي كتابه

---

(١) رواهما مسلم عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ولفظه: "رُمِيَ أُبَيٌّ يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَلَى أَكْحَلِهِ فَكَوَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ" (٤٠٨٩)، وعن جابر بن عبد الله أيضًا قَالَ: "رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فِي أَكْحَلِهِ قَالَ فَحَسَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ بِمِشْقَصٍ ثُمَّ وَرِمَتْ فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ" (٤٠٩٠).

وهي دلالاته وحججه على صدق محمد ﷺ فلم يصدقوا به من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر أهل الكفر به ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ يقول: سوف ننضجهم في نار يصلون فيها؛ أي: يشوون فيها، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ يقول: كلما انشوت بها جلودهم فاحترقت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ يعني: غير الجلود التي قد نضجت انشوت[1].

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عما يُعاقب به في نار جهنم مَنْ كفر بآياته وصد عن رسله فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية: أي ندخلهم نارًا دخولًا يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[2].

يُخْبِرُ الله تعالى: بِأَنَّهُ سَيُعَاقِبُ الكَافِرِينَ بِآيَاتِ الله وَبِرُسُلِهِ، بِإِحْرَاقِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَكُلَّما احْتَرَقَتْ جُلُودُهُمْ أَبْدَلَهُمْ غَيْرَها لِيَسْتَمِرُّوا فِي تَحَسُّسِ العَذَابِ وَآلامِهِ، وَالله عَزِيزٌ لاَ يَتَحَدَّاهُ أَحَدٌ، حَكِيمٌ فِي تَصَرُّفِهِ، يَعْرِفُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْعُقُوبَةِ فَيُعَاقِبُهُ، وَمَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلثَّوَابِ فَيُثِيبُهُ[3].

الوجه الثاني: أقوال العلماء في كيفية تبديل الجلود، وعلاقتها بالإحساس والألم.

قال الطبري: فإن سأل سائل فقال: وما معنى قوله جل ثناؤه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾؟ وهل يجوز أن يبدّلوا جلودًا غير جلودهم التي كانت لهم في الدنيا، فيعذَّبوا فيها؟ فإن جاز ذلك عندك، فأجز أن يُبدَّلوا أجسامًا وأرواحًا غير أجسامهم وأرواحهم التي كانت لهم في الدنيا فتعذَّب، وإن أجزت ذلك لزمك أن يكون المعذبون في الآخرة بالنار غيرَ الذين أوعدهم الله العقابَ على كفرهم به ومعصيتهم إياه، وأن يكون الكفار قد ارتفعَ عنهم العذاب!

(١) تفسير الطبري (النساء: ٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير (النساء/ ٥٦).

(٣) تفسير الجلالين ٢/ ٥٦، وتفسير أسعد حومد١/ ٥٤٩.

قيل: إن الناس اختلفوا في معنى ذلك.

فقال بعضهم: العذاب إنما يصل إلى الإنسان الذي هو غير الجلد واللحم، وإنما يحرق الجلد ليصل إلى الإنسان ألم العذاب، وأما الجلد واللحم، فلا يألمان، قالوا: فسواء أعيد على الكافر جلدهُ الذي كان له في الدنيا أو جلدٌ غيره؛ إذ كانت الجلود غير آلمة ولا معذَّبة، وإنما الآلمةُ المعذبةُ النفسُ التي تُحِس الألم، ويصل إليها الوجع. قالوا: وإذا كان ذلك كذلك فغير مستحيل أن يُخْلق لكل كافر في النار في كل لحظة وساعة من الجلود ما لا يحصى عدده، ويحرق ذلك عليه، ليصل إلى نفسه ألم العذاب، إذ كانت الجلود لا تألَمُ.

وقال آخرون: بل الجلودُ تألم، واللحمُ وسائرُ أجزاء جِرْم بني آدم، وإذا أحرق جلدهُ أو غيره من أجزاء جسده وصل ألم ذلك إلى جميعه. قالوا: ومعنى قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بدلناهم جلودًا غير محترقة؛ وذلك أنها تعاد جديدة، والأولى كانت قد احترقتْ، فأعيدت غير محترقة؛ فلذلك قيل: ﴿غَيْرَهَا﴾؛ لأنها غير الجلود التي كانت لهم في الدنيا، التي عصوا الله وهى لهم. قالوا: وذلك نظيرُ قول العرب للصّائغ إذا استصاغته خاتمًا من خاتم مَصُوغ بتحويله عن صياغته التي هُو بها إلى صياغة أخرى: "صُغْ لي من هذا الخاتم خاتمًا غيره"، فيكسره ويصوغ له منه خاتمًا غيره، والخاتم المصوغ بالصّياغة الثانية هو الأول، ولكنه لما أعيد بعد كسره خاتمًا قيل: "هو غيره". قالوا: فكذلك معنى قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، لما احترقت الجلود ثم أعيدت جديدة بعد الاحتراق قيل: "هي غيرها" على ذلك المعنى.

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾: سرابيلهم بدلناهم سرابيل من قَطِران غيرها، فجعلت السرابيل من القطران لهم جلودًا، كما يقال للشيء الخاص بالإنسان: هو جِلدة ما بين عينيه ووجهه لخصُوصه به. قالوا: فكذلك سرابيل القطران التي قال الله في كتابه: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (إبراهيم: ٥٠)، لما

صارت لهم لباسًا لا تفارق أجسامهم، جعلت لهم جلودًا، فقيل: كلما اشتعل القَطِران في أجسامهم واحترق، بدلوا سرابيل من قطران آخر(١).

قالوا: وأما جلود أهل الكفر من أهل النار فإنها لا تحترق؛ لأن في احتراقها إلى حال إعادتها فناءَها، وفي فنائها رَاحتها. قالوا: وقد أخبر الله تعالى ذكره عنها: أنهم لا يموتون ولا يخفف عنهم من عذابها. قالوا: وجلود الكفار أحد أجسامهم، ولو جاز أن يحترق منها شيء فيفنى ثم يعاد بعد الفناء في النار، جاز ذلك في جميع أجزائها، وإذا جاز ذلك وجب أن يكون جائزًا عليهم الفناء، ثم الإعادة والموت، ثم الإحياء، وقد أخبر الله عنهم أنهم لا يموتون! قالوا: وفي خبره عنهم أنهم لا يموتون دليل واضح أنه لا يموت شيء من أجزاء أجسامهم، والجلود أحدُ تلك الأجزاء.

وأما معنى قوله: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، فإنه يقول: فعلنا ذلك بهم ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته بما كانوا في الدنيا يكذّبون آيات الله ويجحدونها(٢).

دحض افتراء من قال: كيف جاز أن يعذب جلدًا لم يعصه؟

ومع يقيننا بأن الله تعالى لايظلم أحدًا، وأنه تعالى أحكم الحاكمين؛ وهو عندنا متقرر، لكن هذا الأمر لم يصل إليه الزنادقة بعدُ فراحوا يطعنون في القرآن فقالوا: كيف جاز أن يعذب جلدًا لم يعصه؟

وأجيب عن هذا الطعن: بأن الجلد ليس بمعذب ولا معاقب؛ وإنما الألم واقع على النفوس؛ لأنها هي التي تحس وتعرف فتبديل الجلود زيادة في عذاب النفوس؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء: ٩٧)، فالمقصود تعذيب الأبدان وإيلام الأرواح، ولو أراد الجلود لقال: ليذقن العذاب(٣).

---

(١) وقال ابن جزي: وهو بعيد. انظر التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٢٧٥.

(٢) تفسير الطبري ٨/ ٤٨٤-٤٨٧ بتصرف.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٢٥٤.

وعلة التبديل متمثلة في قوله تعالى ﴿لِيَذُوقُواْ﴾ ألم ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أي: يدوم لهم ذلك بخلق جلد آخر مكانه، والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية لا لآلة إدراكها، فلا محذور، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريد(١).

ومن منطلق الإيمان بقدرة الله تعالى على تعذيب الكافرين في النار وإبقائهم فيها أبدًا دون الحاجة إلى حرق الجلد وتبديله يقول **ابن عادل الحنبلي**: فَإِنْ قِيل: إِنَّهُ تعالى قادِرٌ على إبْقَائِهِمْ أحْياء في النَّارِ أبَدَ الآبَادِ، فَلِمَ لَمْ يُبْقِ أبْدانهمُ في النَّارِ مَصُونةً عن النضْجِ، مع إيصال الألم الشديد إليها مِنْ غيْرِ تَبْدِيلٍ لَهَا؟

فالجوابُ: أنَّهُ لا يُسْأَلُ عما يفعلُ، بل نقولُ: إِنَّهُ قَادِرٌ على أنْ يُوصِلَ إلى أبْدانِهِم آلامًا عظيمةً من غيرِ إدْخَالِ النَّارِ مع أنه تعالى أدْخلَهم النَّارِ.

فإنْ قِيلَ: كَيْفَ يُعَذِّبُ جُلُودًا لم تكن في الدنيا ولم تَعْصِهِ؟

فالجوابُ من وُجُوهٍ:

الأوَّلُ: أنه يُعَادُ الأولُ في كُلِّ مَرَّةٍ، وإنَّما قال: غيرَها لتبدل صفتها، كما تقولُ: صَنَعْتُ مِن خَاتَمِي خَاتمًا غيرَهُ، فالخَاتَمُ الثَّانِي هُوَ الأولُ؛ إلاَّ أنَّ الصناعةَ والصِّفَةَ تبدَّلتْ.

الثاني: المعذَّبُ هو الإنسانُ في الجِلْدِ لا الجِلْدُ، بل الجِلْدُ كالشَّيءِ الملتَصِقِ به، الزَّائِدِ على ذَاتِهِ، فإذا جُدِّدَ الجِلْدُ صَارَ ذلك الجلدُ سَبَبًا لوصولِ العذاب إلَيْهِ، فالمعذبُ لَيْسَ إلاَّ العَاصِي؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: ليَذُوقَ.

الثالثُ: قال السُّدِّيُّ: يُبَدَّلُ الجِلْدُ جِلْدًا غَيرَهُ مِنْ لَحْمِ الكَافِرِ.

الرابعُ: قال عَبْدُ الْعَزِيز بنُ يَحْيَى: إنَّ الله – تعالى- يُلبِسُ أهْلَ النَّارِ جُلُودًا لا تألَّمُ، بل هي تُؤلِمُهُم: وَهِيَ السَّرَابيلُ فكُلَّما احترق جِلْدٌ بدّلَهُم جِلْدًا غَيْرَهُ.

طعن القَاضِي في هذا فقال: إنه تَرْكٌ للظَّاهِرِ، وأيضًا السَّرَابِيلُ مِنَ القَطرَانَ لا تُوصَفُ بالنُّضْجِ، وإنما تُوصَفُ بالاحْتِرَاقِ.

(١) البحر المديد لابن عجيبة ١/ ٤٤١.

الخَامِسُ: يمكنُ أنْ يكونَ هذا استعارةً عن الدَّوَامِ، وعدمِ الانْقِطَاعِ؛ يُقالُ للموصوفِ بالدَّوام: كُلَّما انْتَهى فقد ابْتَدَأ، وكُلَّما وَصَلَ إلى آخره فقد ابتدَأ من أوله، فكذلك قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ يَعْني: أنهم كُلَّما ظَنُّوا أنهم نَضِجُوا واحْتَرقُوا وانتهوا إلى الهلاكِ أعْطَيناهُم قُوَّةً جَديدةً من الحياة؛ بحيثُ ظنُّوا أنَّهم الآنَ وجدُوا، فيكونُ المقصودُ بيانَ دَوَام العَذَابِ.

فإن قيل: قوله: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ إنما يُقالُ: فلانٌ ذَاقَ الشَّيءَ، إذَا أدْرَكَ شَيْئًا قَلِيلًا منه، والله تعالى قَدْ وَصَفَهُمْ بأنهم كانوا في أشدِّ العذابِ، فكيْفَ يَحْسُنُ أن يذكرَ بعد ذلك أنَّهم ذَاقُوا العذابَ؟

فالجواب: المقصودُ مِنْ ذِكْرِ الذَّوْقِ الإخبارُ بأنَّ إحساسَهُم بذلك العذابِ في كُلِّ حالٍ يَكُونُ كإحْسَاسِ الذَّائِقِ بالتذوق من حيثُ إنه لا يَدْخُلُ فيه نُقْصَانٌ، ولا زَوَالٌ بِسَبَبِ ذلك الاحتراقِ[1].

ومن فهمه للآية قطع أبو السعود بأن المعذب هو النفس، وأن الجلود أداة موصلة للعذاب، فقال: فمعنى قوله تعالى: ﴿ لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ليدومَ ذَوْقُهم ولا ينقطِعَ، كقولك للعزيز: أعزَّكَ الله، وقيل: يخلُق مكانَه جلدًا آخرَ، والعذابُ للنفس العاصيةِ لا لآلة إدراكِها... وقال الحسنُ: تأكلُهم النارُ كلَّ يومٍ سبعين ألفِ مرةٍ كلما أكلتْهم قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا[2].

وروى أبو هريرةَ عن النبي ﷺ: **"إن بين منكِبَي الكافرِ مسيرةَ ثلاثةِ أيامٍ للراكبِ**

---

(١) تفسير اللباب٥/ ٢٠٤، وانظر المحرر الوجيز٢/ ١٤٤بتصرف.

(٢) رواه أحمد في الزهد ١/ ٩٦٢، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٣ رقم (٣٥٢٨٨)، والبيهقي في الشعب (٣٩٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط (١٦٠٨) وفيه نافع مولى يوسف السلمي وهو متروك ٧/ ٦٢. وقال السيوطي في (الإتقان في علوم القرآن ج٢/ ٥٠٧- ٦٤٥٥) وأخرجه الطبراني بسند ضعيف عن ابن عمر. وقال إسحاق بن راهويه: سئل فضيل بن عياض عن هذه الآية فأخبرنا عن هشام عن الحسن قال: "تبدل جلودهم كل يوم سبعين ألف مرة"، وقال الألباني: ضعيف مقطوع (ضعيف الترغيب ٢١٧٤).

المسرعِ"[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **"ضِرْسُ الكافرِ أو نابُ الكافرِ مثلُ أُحُدٍ، وغِلَظُ جلدِه مسيرةُ ثلاثةِ أيامٍ"**[٢].

والتعبيرُ عن إدراك العذابِ بالذوق ليس لبيان قلَّتِه بل لبيان أن إحساسَهم بالعذاب في كل مرةٍ كإحساس الذائقِ بالمذوق من حيث إنه لا يدخُله نقصانٌ بدوام الملابَسةِ، أو للإشعار بمرارة العذابِ مع إيلامه، أو للتنبيه على شدة تأثيرِه من حيث إن القوةَ الذائقةَ أشدُّ الحواسِّ تأثرًا، أو على سِرايته للباطن، ولعل السرَّ في تبديل الجلودِ - مع قدرتِه تعالى على إبقاء إدراكِ العذابِ وذوقِه بحاله مع الاحتراق أو مع إبقاء أبدانِهم على حالها مَصونةً عن الاحتراق- أن النفسَ ربما تتوهَّمُ زوالَ الإدراكِ بالاحتراق ولا تستبعد كلَّ الاستبعادِ أن تكون مصونةً عن التألم والعذابِ صيانةَ بدنِها عن الاحتراق[٣].

وهل التبديل بجلد آخر أم هو الجلد الأول بعد تغيير صفته.

قال السمرقندي: وقد طعنت الزنادقة في هذا وقالوا: إن الجلد الذي تبدل لم يذنب، فكيف يستحق العقوبة والعذاب؟ وقيل لهم: إن ذلك الجلد هو الجلد الأول، ولكنه إذا أحرق أعيد إلى الحال الأول، كالنفس إذا صارت ترابًا وصارت لا شيء ثم أحياها الله تعالى، فكذلك هاهنا.

وقوله تعالى ﴿ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ هوكقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٤٨) قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني يزاد في سعتها، وتسوى جبالها وأوديتها.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي: لكي يجدوا مس العذاب[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٥٠٩١).

(٢) رواه مسلم (٥٠٩٠).

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ١٠١، وانظر النكت والعيون للماوردي ١/ ٣٠٦.

(٤) بحر العلوم ١/ ٣٩٣.

وقال ابن عبد السلام: المقصود إيلام الأرواح بواسطة الجلود واللحم فتحرق الجلود لإيلام الأرواح واللحم والجلد لا يألمان فإذا احترق الجلد فسواء أُعيد بعينه أو أُعيد غيره، أو تعاد تلك الجلود الأول جديدة غير محترقة، أو الجلود المعادة هي سرابيل القطران سميت جلودًا لكونها لباسًا لهم؛ لأنها لو فنيت ثم أُعيدت لكان ذلك تخفيفًا للعذاب فيما بين فنائها وإعادتها، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (البقرة: ١٦٢)[١].

ويبدأ الآلوسي من حيث انتهى من قبله وينفي عن نفسه أن يظن به سوءًا وهي فكرة استحالة إيجاد المعدوم ويستعيذ بالله من هذا الظن؛ فيقول: أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلدًا جديدًا مغايرًا للمحترق صورة وإن كانت مادته الأصلية موجودة بأن يزال عنه الإحراق، فلا يرد أن الجلد الثاني لم يعص فكيف يعذب؟ وذلك لأنه هو العاصي باعتبار أصله فإنه لم يبدل إلا صفته. وعندي أن هذا السؤال مما لا يكاد يسأله عاقل فضلًا عن فاضل؛ وذلك لأن عصيان الجلد وطاعته وتألمه وتلذذه غير معقول لأنه من حيث ذاته لا فرق بينه وبين سائر الجمادات من جهة عدم الإدراك والشعور، وهو أشبه الأشياء بالآلة فَيَدُ قاتل النفس ظلمًا مثلًا آلة له كالسيف الذي قتل به، ولا فرق بينهما إلا بأن اليد حاملة للروح، والسيف ليس كذلك، وهذا لا يصلح وحده سببًا لإعادة اليد بذاتها وإحراقها دون إعادة السيف وإحراقه؛ لأن ذلك الحمل غير اختياري، فالحق أن العذاب على النفس الحساسة بأي بدن حلت وفي أي جلد كانت، وكذا يقال في النعيم، ويؤيد هذا أن مِنْ أهل النار مَنْ يملأ زاوية من زوايا جهنم[٢]

(١) تفسير ابن عبد السلام ١/ ٣٩٢.

(٢) رواه البيهقي في الدلائل (٢٨٣٨) عن علي بن أبي طالب ﵁، ولفظه: (قال علي ﵁ لرجل: «لا مِتَّ حتى تدرك فتى ثقيف» قيل له: يا أمير المؤمنين، ما فتى ثقيف؟ قال: «ليقالن له يوم القيامة: اكفنا زاوية من زوايا جهنم، رجل يملك عشرين أو بضعًا وعشرين سنة، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم تبق إلا معصية واحدة، وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبه، يقتل بمن أطاعه من عصاه»). قلت: والمقصود بفتى ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفي (عليه من الله ما يستحق) قال البيهقي: قدم الحجاج مكة

وأن سن الجهنمي كجبل أحد(١)، وأن أهل الجنة يدخلونها على طول آدم عليه السلام ستين ذراعًا في عرض سبعة أذرع(٢)، ولا شك أن الفريقين لم يباشروا الشر والخير بتلك الأجسام، بل من أنصف رأى أن أجزاء الأبدان في الدنيا لا تبقى على كميتها كهولة وشيخوخة، وكون الماهية واحدة لا يفيد لأنا لم ندع فيما نحن فيه أن الجلد الثاني يغاير الأول كمغايرة العرض للجوهر أو الإنسان للحجر؛ بل كمغايرة زيدٍ المطيع لعمروٍ العاصي مثلًا، على أنه لو قيل: إن الكافر يعذب أولًا ببدن من حديد تحله الروح، وثانيًا: ببدن من غيره كذلك لم يسغ لأحد أن يقول: إن الحديد لم يعص فكيف أحرق بالنار؟ ولولا ما علم من الدين بالضرورة من المعاد الجسماني بحيث صار إنكاره كفرًا لم يبعد عقلًا القول بالنعيم والعذاب الروحانيين فقط(٣).

وقال الشعراوي: فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء؟ إن العذاب دائمًا للنفس الواعية، وإن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية، ونظرية (الحسّ) - كما نعرف- شغلت العلماء الماديين، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحسّ؟

منهم من قال: نحن نحسّ بالمخ. نقول لهم: لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها، بدليل أنه عندما يأتي واحد أمام عيني ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها قبل أن يصل أصبعه أغلق عيني؛ أي: أن شيئًا لم يصل للمخ حتى أحسّ.

وبعض العلماء قال: إن الإحساس يتم عن طريق النخاع الشوكي والحركة العكسية. ثم انتهوا إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد؛ بدليل أنك عندما

سنة إحدى وسبعين وحاصر ابن الزبير، ثم قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين وتوفي سنة خمس وتسعين.
والأثر ضعفه ابن كثير في البداية والنهاية وقال: هذا معضل وفي صحته عن علي نظر.

(١) هذا معنى حديث ورد في ذلك وهو قول النبي ﷺ: "ضِرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثة أيامٍ" رواه مسلم (٥٠٩٠).

(٢) رواه أحمد ٢٢/ ٣٦ (١٠٤٩٢) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٣٦).

(٣) روح المعاني ٤/ ٩٥-٩٦.

تأخذ حقنة في العضل، فالحقنة فيها إبرة، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد ما تنفذ الإبرة من الجلد، وبعد ذلك لا تحس، إذن فمركز الإحساس في الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد، بدليل أن ربنا أوضح أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس، فأنا أبدل لهم الجلد ليستمر الإحساس ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي: صارت محترقة احتراقًا تامًا وتعطلت عن الإحساس بالألم، آتيهم بجلد آخر لأُديم عليهم العذاب؛ لأنه هو الذي سيوصل للنفس الواعية فتتألم، إذن فالآية مسَّت قضية علمية معملية، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة في الإحساس تقول: يا بني آدم، محلُّ الإحساس عندكم الجلد، لما فهموا شيئًا، لكنه تركها لتنضج في العقول على مهل، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ فتكون علَّة التبديل للجلود التي أحرقت بجلود جديدة كي يدوم العذاب، ويُذَيِّلُ الحقُّ الآية بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ والعزيز: هو الذي لا يُغلب، ولا تَقدر أن تحتاط من أنه يهزمك أبدًا، فقد يقول كافر: لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق، ومرة لمدة ساعتين فما يضيرني أن يحترق جلدي وتنتهي المسألة؟! نقول له: لا، إن الذي يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر، وسبحانه حكيم، فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله، لا؛ هو يستعمل جبروته بعدالة(١).

الوجه الثالث: الجانب الطبي حول مصدر الإحساس.

وإذا انتقلنا من الجانب الشرعي إلى الجانب الطبي فنجد أنه قد تقرر عند الأطباء أن:

النخاع الشوكي يتصل بالمخ عن طريق فتحة كبيرة في مؤخرة الجمجمة، ويقع النخاع الشوكي داخل قنوات في العمود الفقري، وأيضًا تحوطه طبقة من العظام (عظام الفقرات) والأغلفة الثلاثة، والسائل الشوكي، ويبلغ طوله حوالي ثلاثة وأربعين سنتيمترًا، وقطره

(١) تفسير الشعراوي١/ ١٥٩٩-١٦٠٠، وانظر التحرير والتنوير ٤/ ١٥٨.

حوالي سنتيمتر واحد، ويتفرع منه واحد وثلاثون زوجًا من الأعصاب تخرج جميعها خلال ثقوب صغيرة من بين الفقرات، وتوزع على بقية أجزاء الجسم **لتقوم بنقل الأحاسيس**، وكل عصب شوكي موكل بنقل إحساس معين من مكان محدود، ويأمر مجموعة معينة من العضلات بأوامر معينة في دقة وانسجام.

وعملية نقل الحس تثير الدهشة والتعجب، حيث تنقل الأحاسيس إلى خلايا الأعصاب الشوكية في النخاع الشوكي؛ ليصل في النهاية إلى المخِّ الذي يقوم بترجمتها وإصدار الأوامر إلى تلك الأعصاب؛ لتحرك عضلات معينة وفقا لما تقتضيه الحاجة، ولنا أن نتخيل أن عدد الإشارات التي تصب في الجهاز العصبي في كل ثانية (١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠) مائة مليون إشارة قادمة من الأعضاء الحسية، فالجلد مثلًا يحتوي على الأجهزة الآتية:

(٣ر٠٠٠ر٠٠٠ إلى ٤ر٠٠٠ر٠٠٠) من ثلاثة إلى أربعة ملايين جهاز للألم.

(٥٠٠ر٠٠٠) خمسمائة ألف جهاز خاص باللمس أو الضغط.

(٢٠٠ر٠٠٠) مائتي ألف جهاز حساس للحرارة.

ومن هنا نستشعر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ (النساء: ٥٦).

فمن راجع أقوال بعض العقلانيين قديمًا ومحاولتهم أن يلبسوا الإسلام ثوب العلم بِلَيِّ أعناق النصوص وجد العجب.

انظر مثلًا إلى قول من قال إن الجلد ليس مسئولًا عن الإحساس بل هو المخ (وكان هذا هو الاعتقاد السائد في الأوساط العلمية حتى منتصف القرن الماضي)

وحاول أن يؤول آية النساء: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم . . . ﴾ لأنها لا توافق العلم!

وقد أثبت العلم الحديث أن الجلد هو المسئول عن الإحساس، وأن النهايات العصبية

الموجودة فيه هي التي تعطي إشارات للمخ. . . . إلخ[1]، وهذا يعنى أن الجهاز العصبي الذي يقولون إنه هو المسئول عن الإحساس بالألم ما هو إلا أحد أجزاء هذا الجلد، وإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (النساء: ٥٦)، فإننا نجد أن الآية الكريمة تتحدَّث عن لون من ألوان العذاب الَّذي سَيُجزَى بهم الكافرون؛ وهو تبديل جلودهم المحترقة بغيرها، فيكون هذا العذاب من أشدِّ أنواع العذاب إيلامًا يعانون منه طيلة فترة إقامتهم في النار.

وقد كشف علمُ التشريح المجهري اليوم عن السرِّ في اختيار الله لهذا النوع من التعذيب، فقد تبيَّن أن الجلد عضو غنيٌّ بالنهايات العصبية، الَّتي تقوم باستقبال جميع أنواع الحسِّ من المحيط الخارجي، كالإحساس بالألم والحرارة والضغط والبرودة، أمَّا النُسج الَّتي تلي طبقة الجلد فإنها أكثر تحسُّسًا بمستقبلات حسِّ الضغط، لكنها أقل منه تحسسًا بمستقبِلات الألم والحرارة واللمس؛ لذلك عندما يُحقن الشخص بإبرة فإنه يشعر بذروة الألم عندما تجتاز الإبرة الجلد، ومتى تجاوزت الجلد إلى الأنسجة الأخرى، تخفُّ درجة الإحساس بالألم، وعندما يتعرَّض الجلد للحرق فإن ذلك يؤدِّي للإحساس بألم شديد جدًا؛ لأن النار تنبِّه مستقبلات الألم، فإذا ما امتدَّ الحرق للأنسجة تحت الجلد يصبح الألم أخفَّ لأن هذه الأنسجة أقلُّ حساسيَّة بالألم.

وهكذا أشارت الآية القرآنية إلى أن أكثر أعضاء الجسم غنىً بمستقبلات الألم هو الجلد، كما أن الحروق هي أشدُّ المنبِّهات الأليمة، وتبديل الجلد المحترق بجلد سليم إشارة إلى استمرار الشعور بالعذاب والألم، بدل الانتقال إلى حالة من فقدان الحسِّ والشعور[2].

وهو مما يبين أن وسائل الإحساس في الجلد، فلو احترق هذا الجلد وما بُدل فلن يحس

(١) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة٢١/ ٢٠٠، أرشيف ملتقى أهل الحديث ١/ ٤٨١١.
(٢) (القرآن منهاج حياة) لغازي صبحي ١/ ٣٣٣.

بالنار، فالله يبدل الجلود لكي يستمر الإحساس بعذاب النار، قد أشار بعضهم إلى أن الإعجاز يكمن في الجملة التعليلية الواردة في الآية ﴿لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾، وأن الآية ظاهرة الدلالة في أن علة التغيير والتبديل للجلود ليذوقوا المزيد من العذاب الأليم، فدل ذلك على أن أكثر أعضاء الجسم غنًى بمستقبلات الألم هو الجلد، كما أن الحروق هي أشد المنبهات الألمية.

وهذا ما عرفه العلم الحديث وقرره، ذلكم أن الجلد غني بالألياف العصبية التي تقوم باستقبال ونقل جميع أنواع الحس؛ لذا فإنه عندما يحقن الإنسان بإبرة فإنه يشعر بذروة الألم عندما تجتاز الإبرة الجلد، ومتى تجاوزت الجلد خف الألم، فظهر من الآية الكريمة أن تجديد الجلود ليستمر ويدوم الشعور بالألم دون انقطاع ويذوقوا العذاب الأليم، أعاذنا الله من عذابه(١).

وقد أثبت العلم الحديث أن الجسيمات الحسية المختصة بالألم والحرارة تكون موجودة في طبقة الجلد وحدها، ومع أن الجلد سيحترق مع ما تحته من العضلات وغيرها إلا أن القرآن لم يذكرها؛ لأن الشعور بالألم تختص به طبقة الجلد وحدها، فمن أخبر محمدًا ﷺ بهذه المعلومة الطبية؟ أليس الله ﷻ!

وأثبت أهلُ الطِبِّ أيضًا أن الإحساس بألمِ الحريق محصورٌ بالجلد؛ لأن نهايات الأعصابِ المتخصصةِ بالإحساس بالحرارةِ والبرودةِ محصورة بالجلد، ولو ذاب الجلدُ فلن يشعر الإنسانُ في الدنيا بألمِ الحريق، والله تعالى يقولُ في القرآن: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ (النساء: ٥٦). (٢)

ومعلوم عندهم أيضًا أن الجلد تتركز فيه أعصاب الإحساس، فحروق الدرجة الأولى أشد ألمًا من حروق الدرجة الثانية أو الثالثة حيث تضعف أعصاب الإحساس.

وعن الشبكة العصبية في الجلد يتوسع أحد الأطباء في بيان ذلك فيقول:

---

(١) مقالات موقع الألوكة١٩، وهذا ما قرره الآلوسي من قبل.

(٢) موسوعة البحوث والمقالات العلمية صـ٤.

الجلد أكبر أعضاء جسم الإنسان من حيث المساحة، فمتوسط مساحته هو (١. ٨ متر مربع، وهو يحيط بالجسم كله؛ فيحميه، ويكسبه مظهرًا جميلًا، كما أنه يتلقى المؤثرات الواقعة على الجسم من خارجه، وتظهر عليه انفعالات الجسم.

يتركب الجلد كما توصلت إليه البحوث الحديثة من ثلاث طبقات:

الخارجية (السطحية) الرقيقة؛ تسمى البشرة [Epidermis].

والوسطى (المتوسطة)؛ وتسمى الأدمة [Dermis] وهي الجلد الحقيقي.

والداخلية (السفلى) وتسمى النسيج تحت الجلد [Subcutaneous tissue].

أما البشرة فهي طبقة خالية من الأوعية الدموية، وتقوم بحماية الجسم من التأثيرات الخارجية والصدمات؛ وهي أرق طبقات الجلد وإن كانت تتألف من أربع طبقات ثانوية، بالإضافة إلى طبقة خامسة في مناطق مثل راحة اليد وباطن القدم، وتسمى (الطبقة الصافية) أي: (الطبقة الرائقة).

وأما الأدمة فتحتوي أوعية دموية، وغدد عرقية، وبصيلات الشعر، والنهايات العصبية المستقبلة للألم، والشعور بالحرارة، والبرودة، واللمس، وخلافه، كما أنها هي التي تحدد (ثخانة) الجلد في مناطق مثل: راحة اليد وباطن القدم، وتتراوح ثخانة الجلد بين (٢/ ١ ـ ٥ ملليمترات) حسب مناطق الجسم.

وهكذا يتضح بالتشريح الدقيق للجلد وجود شبكة من الألياف العصبية توجد بها نهايات عصبية حرة، في طبقات الجلد، وتقوم هذه النهايات باستقبال جميع المؤثرات الواقعة على الجلد من البيئة الخارجية المحيطة به، من درجة حرارة، إلى رطوبة، إلى ضغط، إلى لمس، إلى ألم. . . إلخ، كما تتحمل هذه الشبكة العصبية المسؤولية في تنظيم عمل المكونات الأخرى الموجودة بالجلد مثل: الغدد الجلدية وأجربة [Follicles] الشعر والأوعية الدموية [Blood vessels].

ومما يذكر في هذا المقام أن الطبقة السفلى (تحت الأدمة) غنية بالنهايات العصبية

المسئولة عن الإحساس بالضغط لكنها ـ أي: الطبقة السفلى ـ فقيرة في مستقبلات الألم واللمس وتتبادل هذه النهايات العصبية [المستقبلات ـ Receptors] الألم والشعور به، وفيها المسئول عن اللمس، الاحتكاك، والضغط. . . إلخ.

وانتهى به القول إلى القول أن الجلد عضو إحساس من الطراز الأول، وجه خريطة مدهشة من الأعصاب، لم يتم الكشف عنها إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، بعد تقدم وسائل البحوث الحديثة في كل من علم التشريح [Anatomy]، وعلم الأنسجة [Histology] وغيرها من العلوم، إننا لن نفصل القول في الآلية (الميكانيكية) التي تعمل بها الأعصاب في جسم الإنسان، فمن يريد هذا التفصيل عليه مطالعة الكتب الطبية، ولسوف نوجز فنقول: إن هذه المستقبلات الحسية المنتشرة في طبقات الجلد تستقبل المؤثرات البيئية الواقعة عليها طوال اليوم، ويتحول كل مؤثر (حرارة، أو لمس، أو ضغط أو كي، أو غيرها) إلى نبضات كهربائية [Electric impulses] بداخل الأعصاب التي توجد هذه المستقبلات بأطرافها، وتنتشر وتنتقل هذه النبضات على امتداد هذه الأعصاب إلى الدماغ (المخ) ـ وهو المركز الرئيسي في الجهاز العصبي للإنسان ـ فتتم ترجمة المؤثر المستقبل [Received stimulus] وبيان نوعه، وتحديد الاستجابة [Response] المناسب تجاهه؛ إن كانت بالسلب أم بالإيجاب، أما في الأولى فتنفعل عضلات الإنسان لإبعاده عن موقع المؤثر السيئ، وأما في الثانية فتنفعل عضلاته نحو هذا المؤثر وتقترب منه أكثر، ويستطيع الإنسان أن يشعر بالمؤثر الواقع على الجلد طالما يقع هذا المؤثر داخل حدود معينة من الشدة [التردد ـ Frequency]، فإذا انخفضت شدته عن الحد الأدنى لم يشعر به الجلد، وإذا ارتفعت شدته عن الحد الأقصى شعر الجلد بألم، وقد ترتفع شدة المؤثر بدرجات كبيرة فتكون استجابة الجلد عنيفة وتؤدي إلى حدوث صدمة أو هبوط في الدورة الدموية وفقدان للوعي، وبالطبع، فإن هناك أجهزة أخرى غير الجلد يصيبها الإعياء والهبوط الوظيفي والتوقف عن العمل نتيجة تألم الجلد، أي: استجابته للمؤثر الواقع عليه، ولكن يبقى الجلد هو العضو الوحيد في جسم

الإنسان المسئول عن الشعور بالألم.

عندما يتعرض الجلد للإحراق فإنه يتألم؛ أي: ينقل الإحراق (كمؤثر) إلى الدماغ فيترجمه، وتكون النتيجة هي شعور الجسم بالألم وإذا كان الحرق من الدرجة الأولى (سطحي) تلتهب الطبقة الخارجية للجلد وتحمر ويتورم الجلد، ويصحب هذا آلام موضعية شديدة نتيجة لتأثير الحرق في الألياف العصبية، وتحدث هذه الحروق مثلًا نتيجة التعرض فترة طويلة للشمس المباشرة ساعات الظهيرة.

وإذا كان الحرق من الدرجة الثانية (أدمي) يشتد الألم لدرجة أن الجسم يفقد من السوائل ويتأثر ضغط الدم الشرياني وتتضرر الدورة الدموية، وقد يصاب الجسم بصدمة عنيفة، ويلاحظ في هذه الدرجة تكون أكياس مائية مختلفة الأحجام على البشرة، وقد تتمزق بسهولة، لتخرج سائلًا ملحيًا، أو تنزف دمًا.

وإذا كان الحرق من الدرجة الثالثة (تحت الجلدي) فإن الحرارة الشديدة للحرق تؤدي إلى حدوث تلف شديد للطبقات العميقة بالجلد والأنسجة المجاورة، وتؤدي أيضًا إلى التفحم الجلدي، واضطراب وظائف العظام والعضلات، كما تؤدي إلى تجلط بروتينات الألياف العصبية، وتكون النتيجة هي توقف هذه الألياف عن العمل؛ أي: لا تكون قادرة على الإحساس بالمؤثر (الحرق)، وبالتالي يتوقف شعور الإنسان بالألم.

تذكر الآيات القرآنية التي مرت معنا في الصفحات الأولى من لقائنا الحالي بصيغة الجمع دائمًا، وليس بصيغة المفرد، وفي هذه إشارة علمية عظيمة كشف العلم الحديث عنها وخلاصتها:

[١] خلايا الجلد أسرع انقسامًا من غيرها من الجلد.

[٢] خلايا الجلد أسرع تغيرًا وتبدلًا من غيرها من الخلايا، وقد يتغير الجلد في مساحة معينة منه تغيرًا كاملًا في فترة وجيزة.

[٣] يتغير تركيب الجلد من مكان لآخر على سطح الجسم الواحد، فجلد جفون العيون يختلف عن جلد قناة الأذن الخارجية، ويختلف عن جلد باطن اليد، ويختلف عن

جلد باطن القدم. . . إلخ.

[٤] وهكذا تكسو الإنسان مجموعةٌ من الجلد وليس جلدٌ واحد، سواء من حيث المكان (على سطح الجسم)، أم الزمان (التبدل والتغير)، وهكذا، تظهر الإشارة العلمية بجلاء.

لقد عبر القرآن العظيم عن فقدان الجلد لتوصيل المؤثرات الواقعية عليه بلفظة (النضج)، والنضج علميًا هو (تجلط) أو (تخثر) بروتينات الألياف العصبية (في حالة حروق الدرجة الثالثة) نتيجة تعمق المؤثر وتغلغله إلى الطبقة تحت الجلدية، وذلك لشدته العنيفة.

ولما كان المقصود هو إذاقة العذاب للكافرين في جهنم استلزم هذا تجديد طبقات الجلد مرة أخرى ليشعر الإنسان بالألم، فإذا ازداد الإحراق، وتعمق أثره وتجلطت بروتينات الألياف العصبية السفلية؛ وفقد الإنسان القدرة على الإحساس بالألم تكرر تجديد الجلد بكافة طبقاته ليتكرر شعور الإنسان بالألم. . . وهكذا، وكما عبرت عنه الآية الخامسة والستين في سورة النساء بالضبط: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾، والحكمة المقصودة هي: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾.

وهكذا يشير القرآن في هذه الآية إلى حقيقة علمية لم يتوصل العلماء إلى معرفتها إلا حديثًا، بعدما تقدمت علوم التشريح والأنسجة، واخترعت أجهزة التكبير والقياس، فالآية تشير إلى مراكز الإحساس في الجلد، وتشير إلى وجود البروتينات التي تتجلط بحرارة النار الشديدة.

وهذا ما توصل إليه العلم الحديث، فلقد اكتشف العلماء تغيرات وظيفية (فسيولوجية)

تطرأ على الجهاز التنفسي نتيجة لحروق الجلد العنيفة؛ مما يؤدي إلى اختلاف المعادلة الوظيفية التي تحكم نسبة التهوية / التروية [Ventilation – perfusion ratio].

وكذلك فإن احتراق الجلد يسبب تلف القلب، ونلاحظ هذا في قول الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ﴾ (الهمزة٤:٨).

وفيه يقول الفخر الرازي (في تفسير الكبير): ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ الإضافة (أي: إضافة النار إلى الله؛ أي: نسبتها إليه) للتفخيم؛ أي: هي نار لا كسائر النيران. ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾: التي لا تخمد أبدًا، أو ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ بأمره أو بقدرته. وفي الحديث النبوي: "أَوْقَدَ عليها ألف سنة حتى احمرت، ثم ألف سنة حتى ابيضت، ثم ألف سنة حتى اسودت، فهي الآن سوداء مظلمة"[١].

ثم يقول: أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ فأعلم أنه يقال: طلع الجبل، واطلع عليه إذا علاه. وفي تفسير الآية يقول: إن النار تدخل في أجوافهم، حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد (والفخر الرازي يقصد به القلب العضلي)، ولا أشد تألمًا منه بأدنى أذى يَمَاسُّه، فكيف إذا اطلعت نار جهنم واستولت عليه؟! ثم إن الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق، إذ لو احترق لمات، وهذا هو المراد (يقصد المعنى) من قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾، ومعنى الإطلاع هو أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد[٢].

ويضيف العلم الحديث توضيحًا إلى هذا التفسير وما شابهه من تفسيرات للآية القرآنية، فلقد اكتشف العلماء حدوث تغيرات كبيرة في الفؤاد (القلب) والجهاز الدوراني بجسم المحروق؛ منها: هبوط انقباضية الفؤاد، هبوط في جانبه الأيسر، أو في جانبه الأيمن، أو في كليهما معًا، كما تحدث تغيرات ضارة جدًا في سوائل الدم وخلاياه.

وبعدُ فلنعُد إلى الآية الأساسية لموضوعنا الحالي، لنجد أن اللفظة القرآنية ﴿نَضِجَتۡ﴾ (النساء: ٥٦) ستظل باقية على مرِّ الزمان، وشاهدة بالإشارة إلى حقيقة علمية لم يتوصل

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وقَالَ: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا مَوْقُوفٌ أَصَحُّ وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا رَفَعَهُ غَيْرَ يَحْيَى ابْنِ أَبِي بُكَيْرٍ عَنْ شَرِيكٍ، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٢٧٩٩)، والألباني في الضعيفة (١٣٠٥).

(٢) انظر مفاتيح الغيب ١٧/ ٢٠٧-٢٠٨باختصار.

العلماءُ إليها سوى في العصر الحديث فقط، ألا وهي تجلط (تخثر) بروتينات النهايات العصبية في الطبقة الجلدية السفلى بفعل الحرارة الشديدة.

إن رسول الله ﷺ لم يكن قارئًا ولا كاتبًا، فكيف جاء بهذه الحقيقة العلمية؟! كيف به يتحدث عن خصائص الأعصاب الحسية ووظائف مراكز الحس بالألم الموجود في الجلد؟!

إنه بلا شك رسول يتلقى الوحي من الله الخالق العظيم، وما تلقاه بلا شك كتابٌ عظيمٌ وهو القرآن، وحي الله الذي ختم به حلقات اتصال السماء بالأرض، ولذلك أودع فيه أسرارًا لن تنتهي إلى يوم القيامة(1).

والحاصل أن هذه الآية خبر صريح عن أهل النار من الكفار، وبيان لاستمرار عذابهم فيها يوم القيامة، وأنهم يتألمون على الدوام بما فيها من العذاب ألمًا حسيًّا ومعنويًا، وقد أثبت العلم الحديث بما لايدع مجالًا للشك أن الخلايا العصبية أو الجهاز العصبي جزءٌ من الجلد إذ هي مستبطنة فيه، وأن الجلد هو مصدر الإحساس بالألم أو طريق موصل للألم، وهذا إعجاز علمي قرآني، وبذلك يندفع التعارض بين الآية والعلم الحديث، وأن القرآن الكريم لايخضع للتجارب؛ إنما تخضع التجارب له لأنه من عند حكيم عليم ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، والله أعلم.

* * *

(١) إعجازات قرآنية في وظائف جلدية / الإعجاز في جسم الإنسان (٣٣) ل- د/ كارم غنيم بتصرف، نقلًا عن موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٣ـ شبهة: هل كل شيء خلق من ماء؟

نص الشبهة:

هناك تعارض بين قول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنبياء: ٣٠) وبين قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: ٢٧) وقوله أيضًا: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ (الرحمن: ١٥) وكذلك حديث عائشة - رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: "**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**"[١].

فإن ظاهر الآية الأولى: أن كل شيء في هذا الكون مخلوق من الماء، في حين أن الآيات الأخرى تبين أن الجان خلق من النار؛ كما نص على ذلك الحديث أيضًا، وعلى أن الملائكة خلقت من نور!

والجواب: إنه لا تعارض بين هذه النصوص بأي حال من الأحوال، وبيان ذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: قول كثير من المحققين من المفسرين: إن المقصود بالماء ماء المطر الناتج عن فتق السماء.

الوجه الثاني: قول بعض العلماء: إن المقصود هو ماء النطفة.

الوجه الثالث: لا يجوز أن تكون كلمة ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ على إطلاقها، وأن تجرى مجرى الغالب، وعلى هذا دلائل وأمثلة كثيرة.

الوجه الرابع: بلاغة الأسلوب القرآني في هذه الآية.

الوجه الخامس: النظرة العلمية، وبيان عدم تعارض الآية مع الاكتشافات العلمية الحديثة.

الوجه السادس: ماذا في الكتاب المقدس عن ذلك؟

وإليك التفصيل

---

(١) مسلم (٢٩٩٦).

الوجه الأول: قول كثير من المحققين من المفسرين: إن المقصود بالماء ماء المطر الناتج عن فتق السماء.

قال ابن كثير: في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠) وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئًا فشيئًا عيانًا، وذلك دليل على وجود الصانع(١).

وقال القرطبي: في تفسيره لهذه الآية بعد أن ذكر قولين في تفسيرها؛ قال: وقول ثالث قاله عكرمة، وعطية، وابن زيد، وابن عباس أيضًا فيما ذكر المهدوي: أن السموات كانت رتقًا لا تمطر، والأرض كانت رتقًا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات، نظيره قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾ (الطارق: ١١- ١٢).

واختار هذا القول الطبري؛ لأن بعده: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ قلت: وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة؛ ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء(٢).

وذهب أكثر المفسرين إلى هذا القول(٣).

فإن قيل كيف قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ وقد قال: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ (الحجر: ٢٧)، وجاء في الأخبار أن الله تعالى خلق الملائكة من النور، وقال

---

(١) تفسير ابن كثير (٩ / ٣٩٩).

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٣٠٢).

(٣) انظر: الكشاف (٣/ ١١٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٥٠)، تفسير البغوي، (٣/ ٢٤٣)، زاد المسير (٥/ ٣٤٨)، أضواء البيان (٤/ ٦١٣)، تفسير الرازي (٢٢/ ١٦٢، ١٦٣).

(٣) تفسير الرازي (٢٢/ ١٦٤).

تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ (المائدة: ١١٠)، وقال في حق آدم: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩).

والجواب: اللفظ وإن كان عامًا إلا أن القرينة المخصصة قائمة، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهدًا محسوسًا ليكون أقرب إلى المقصود، وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة، والجن، وآدم، وقصة عيسى عليهم السلام؛ لأن الكفار لم يروا شيئًا من ذلك [٣].

ومما يؤكد هذا الرأي ويوضحه أن هناك قرائن من القرآن العظيم تدل على أن معنى ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أن السماء كانت لا ينزل منها مطر، والأرض كانت لا ينبت فيها نبات، ففتق الله السماء بالمطر، والأرض بالنبات:

القرينة الأولى: أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك؛ لأن الأظهر في (رأى) أنها بصرية، والذي يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها، فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر، وإنباته به أنواع النبات.

القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله؛ أي: وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي.

القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢)﴾ (الطارق: ١١-١٢)؛ لأن المراد بالرَّجْع نزول المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصَّدْع: انشقاق الأرض عن النبات، وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦)﴾ (عبس: ٢٤-٢٦) الآية، واختار هذا القول ابن جرير، وابن عطية، وغيرهما للقرائن التي ذكرنا، ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله

تعالى، وعظم منته على خلقه، وقدرته على البعث. . . ، والعلم عند الله تعالى[١].

- كما قال ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أن هذا زيادة استدلال بما هو أظهر لرؤية الأبصار، وفيه عبرة للناس في أكثر أحواله، وهو عبرة للمتأملين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات، وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان؛ فإنه لا يتكون إلا من الرطوبة ولا يعيش إلا ملابسًا لها؛ فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة، ولذلك كان استمرار الحمى مفضيًا إلى الهزال ثم إلى الموت[٢].

ومن خلال هذه الأقوال التي ذكرناها يتبين لنا أنه ليس ببعيد أن يكون المقصود من الآية هو ما ذكره أغلب المفسرين، وعندئذ لا يكون هناك تعارض، بل وتكون الآية متفقة مع ما أثبتته العلوم الحديثة حيث يؤكد القرآن الكريم في كثير من آياته التي نزلت في بيان أهمية الماء بل ضرورته للحياة والأحياء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الزخرف: ١١)، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (ق: ٩).

وتدل أبحاث علم النبات على أن عناصر التربة ومركباتها المختلفة الميتة عندما ينزل عليها ماء المطر تذوب فيه وتتحلل فيسهل وصوله إلى بذور النبات وجذوره حيث تتحول إلى خلايا وأنسجة حية، ولذلك تبدو حية ويزيد حجمها بما يتخللها وما يعلوها من نبات[٣].

والماء عماد الحياة في الأرض لكل كائن حي من نبات وإنسان وحيوان، وقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته إلى عظم أهميته في إحيائها فيقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (النحل: ٦٥)، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٤/ ٦١٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٨).

(٣) القرآن وإعجازه العلمي (١/ ١١٨).

(الأنبياء: ٣٠)، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ (النور: ٤٥)، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٤)، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (طه: ٥٣).

ويحتوى جسم الإنسان على حوالي (٧٠٪) من وزنه ماء؛ لأن له أهمية خاصة في الجسم كموصل لعناصر الغذاء إلى خلايا الجسم، وإفراز المواد الضارة في الجسم، وتلطيف لدرجة حرارة الجسم عن طريق تبخره في الرئتين والجلد، ومصادر المياه في الجسم هي ما نشربه منه، وما تحتوى الأطعمة عليه من نسب مختلفة من الماء، ومما ينتج عن أكسدة بعض المواد الغذائية وتفاعل بعضها مع بعض داخل الجسم.

والماء يعمل على إذابة المواد الغذائية بعد هضمها حتى يتمكن الجسم من امتصاصها، والماء أساس تكوين الدم، والسائل اللمفاوي، والسائل النخاعي، وغيرها من السوائل التي تتكون منها في الجسم من إفرازات كالعرق، والبول، والدموع، والمخاط.

ويثبت العلم أن الماء أكثر ضرورة للإنسان من الغذاء، فبينما الإنسان يمكنه أن يعيش نحو (٦٠ يومًا) بدون أكل لا يمكنه أن يعيش بدون الماء أكثر من أسبوع على أقصى تقدير، ولو فقد الجسم (٢٠٪) من مائه فإنه يكون معرضًا للموت)[(١)].

الوجه الثاني: قول بعض العلماء إن المقصود هو ماء النطفة.

قال بعض العلماء: الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطف، وعلى هذا فهو من العام المخصوص.

وقال بعض العلماء: هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء، وإما غير مباشرة؛ لأن النطف من الأغذية، والأغذية كلّها ناشئة عن الماء، وذلك في الحبوب، والثمار، ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم،

(١) القرآن وإعجازه العلمي (١/ ٩٦).

والألبان، والأسمان، ونحوها؛ لأنه كله ناشئ بسبب الماء[١].

فالحياة أنواع، ولكل كائن حيٍّ حياة تناسبه وتخصّه بقدرة الله، فللنبات حياة تخصّه، وللحيوان المنوي حياة تخصّه، وللإنسان حياة تخصّه، وهكذا، والله الخالق لكلّ ذلك وقد جعل الماء أصل كلّ الأحياء كما قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، والله أعلم[٢].

الوجه الثالث: لا يجوز أن تكون كلمة ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ على إطلاقها، وأن تجرى مجرى الغالب، وعلى هذا دلائل وأمثلة كثيرة.

قال المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ الآية (النور: ٤٥).

قيل: لما كان غالب الحيوان مخلوقًا من الماء لتولده من النطفة أو لكونه لا يعيش إلاّ بالماء - أطلق لفظ (كل) تنزيلًا للغالب منزلة العام، ويخرج عما خلق من ماء ما خلق من نور وهم الملائكة، ومن نار وهم الجنّ، ومن تراب وهم آدم، وخلق عيسى من الروح، وكثير من الحيوان لا يتولد من نطفة[٣].

وكذلك بالنسبة للآية التي نتحدث عنها قال المفسرون:

فإن قيل: قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء؟ قيل: هذا على وجه التكثير، يعني أن أكثر الأحياء في الأرض مخلوقة من الماء أو بقاؤه بالماء[٤].

فالـ (كل) قد يذكر بمعنى الـ (بعض) كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٢٣) وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٥)[٥].

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٤/ ٦١٥).
(٢) فتاوى الإسلام سؤال وجواب (١/ ٣٠٢٧).
(٣) تفسير البحر المحيط (٦/ ٤٢٧، ٤٢٨).
(٤) تفسير البغوي (٣/ ٢٤٣).
(٥) تفسير القرطبى (١١/ ٣٠٣).

وقد قال الله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ٤٤) فقد قال: فتحنا عليهم أبواب كل شيء، فهل فتح عليهم أبواب التوبة، وأبواب الرحمة، وأبواب الطاعة، وأبواب العافية، وأبواب السعادة، وأبواب النجاة مما نزل بهم؟

وهذه كلها مما أغلق أبوابها عنهم، وهي شيء، وقد قال: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، وقد قال أيضًا في بلقيس: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النمل: ٢٣)، ولم تؤتَ ملك سليمان، ولم تسخر لها الريح، ولا الشياطين، ولم يكن لها شيء مما في ملك سليمان، فقد قال: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾، وقال في قصص يوسف: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف: ١١١)، وإنما كان ذلك تفصيلًا لكل شيء من قصة يوسف، وقال: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (الأحقاف: ٢٥)، وقال في الريح التي أرسلت على قوم عاد: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (الأحقاف: ٢٥)، وقد أتت على أشياء لم تدمرها، ألم تسمع إلى قوله: ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٢٥) فلم تدمر مساكنهم[1].

فلهذا نقول أيضًا: إننا إن حملنا الآية على هذا المعنى فليس هناك تعارض ولا إشكال في الآية.

الوجه الرابع: بلاغة الأسلوب القرآني في هذه الآية.

ومن براعة الأسلوب القرآني: أن كلمة (الماء) جاءت معرفة فهي بذلك تستوعب كل هذه المعاني، قال صاحب الكشاف:

فإن قلت: فما باله معرّفًا في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠)؟

قلت: قصد ثمة معنى آخر؛ وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس الذي هو جنس الماء، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط[2].

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة (٥/ ٤٧٥).

(٢) الكشاف (٣/ ٢٤٧).

وفي قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنبياء: ٣٠)

كما أن كلمة (يرى) أيضًا تستوعب هذه المعاني ولا تتعارض مع أحدها (فالرؤيةُ هنا يجوز أن تكونَ قلبيةً، وأن تكونَ بَصَريةً؛ فـ (أنَّ) وما في حَيِّزها سادَّةٌ مَسَدَّ مفعولَيْنِ عند الجمهور على الأول، ومَسَدَّ واحدٍ والثاني محذوف عند الأخفش، وسادَّةٌ مسدَّ واحدٍ فقط على الثاني[١].

ومما يوضح الفرق بين التعريف والتنكير لكلمة (ماء): ما ذكره ابن عاشور عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ (النور: ٤٥) قال: وتنكير (ماء) لإرادة النوعية تنبيهًا على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب إذ المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار.

وهذا بخلاف قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠) إذ قُصد ثمة إلى أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من جنس الماء وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فتعريف الجنس هناك إشارة إلى ما يعرفه الناس إجمالًا ويعهدونه من أن الحيوان كله مخلوق من نطف أصوله، وهذا مناط الفرق بين التنكير كما هنا وبين تعريف الجنس كما في آية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)[٢].

الوجه الخامس: النظرة العلمية، وبيان عدم تعارض الآية مع الاكتشافات العلمية الحديثة.

تُقَرِّرُ هذه الآيةُ حقيقةً علمية ثابتة، وهي أن الماء هو المكوِّن الهام في تركيب مادة الخلية، وهي وَحْدة البناء في كل كائن حيّ، ولقد أثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث التفاعلات والتحولات التي تتم داخل أجسام الأحياء.

وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضروري لقيام كل عضو بوظائفه التي بدونها لا

(١) الدر المصون في علم الكتاب المكنون (٨/ ١٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٦).

تتوافر له مظاهر الحياة ومقوماتها[١].

فعندما نعلم أن الماء يدخل في تركيب الخلايا نفسها بل هو عنصر هام في تركيبها، وأن هذه الخلايا هي وحدة بناء كل كائن حي - فلا نتعجب حينئذ عندما تخبرنا الآية أن كل شيء مخلوق من الماء حتى وإن لم نرى ذلك.

وإذا نظرنا إلى العلم الحديث نجد أنه يقرر أن الحياة ظهرت على هذه الأرض أول ما ظهرت على شواطئ المسطحات المائية حيث يتكون بجوارها الطين الذي نشأ منه النبات فالحيوان فالإنسان، وأن هذا التطور في حالات الطين وأشكاله حدثت عبر ملايين السنين حتى أثمرت، وكان أكمل وأكرم ثمره من ثمارها في النهاية هو الإنسان، والقرآن الكريم لم يبين لنا كيف تفرعت هذه الشجرة حتى كان الإنسان أحد فروعها، ولكنه أشار في أكثر من آية إلى الصلة الوثيقة بين الإنسان وعالم الأحياء الناشئ من الماء الممزوج بالتراب، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ (النور: ٤٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠) دلالة قوية على أن الأحياء كلها ومنها الإنسان مخلوقة من مادة واحدة هي الماء[٢].

الوجه السادس: ماذا في الكتاب المقدس عن ذلك؟

أما التوراة ففي سفر التكوين (١/ ١-٢): فِي الْبَدْءِ خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ الله يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ.

هكذا بدأ وأنشأ الله السماوات والأرض جميعًا دفعة واحدة، ولم يذكر شيئًا عن الماء، أين كان الله إن كانت روحه ترف وتحوم حول الماء؟! أكان بلا روح، أم هو الذي تجسد فصار هذا الحيز الضئيل كالحمامة؟! خلق الكون كله وهو جزء صغير منه؟!

(لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ. ٤ وَرَأَى الله النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ.)

---

(١) تفسير القطان (٢ / ٤٣١).

(٢) القرآن وإعجازه العلمي (١/ ٩٨).

لم يكن يعرف أنه سيكون حسنًا، ولكن لما ظهر له أعجبه. . . عمل من طريق الصدفة البحتة، وتجربة نجحت وجاءت بشيء جميل!

ونقرأ بقية هذه البداية فنجد: أن الله فصل بين النور والظلمة، وسمى النور نهارًا والظلمة ليلًا، وقال: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، ودعا اليابسة أرضًا. . . وهكذا يمضي سفر التكوين مضطربًا في الكلمات القليلة التي بدأ بها.

في البداية خلق السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة، وبعد ذلك خلق وسط الماء شيئًا جامدًا أسماه أرضًا، وسمى بعضًا منه سماء. . .

وهل يؤيد هذا علم أو يتسع له عقل؟ خلق السماوات والأرض، ثم خلق شيئًا سماه أرضًا وسماء!

كانت الفكرة القديمة أن العالم كله ماء، وأن الأرض طافية فوق الماء كحبة العنب، وهو تفكير نشأ عن نظر محدود، وسفر التكوين وبقية الكتاب المقدس - أو الذي يسمى الكتاب المقدس - من وضع بشري متأخر.

ومع اضطراب التعبير، وسقامة الأسلوب، ومخالفة المعنى لحقائق العلم يعجب تيموثاوس التقي الذكي به ويعيب القرآن[1].

وذكر في موضع آخر أن من لم يخلق من الماء أو الروح يعجز عن دخول الملكوت، ففي إنجيل يوحنا (٥: ٣) يقول: (الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله). . . !

* * *

(١) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري (١/ ٥٥) بتصرف يسير.

٤ـ شبهة: مدة الحمل.

نص الشبهة:

ذكر علماء الإسلام أن الحمل قد يستمر سنوات فكيف يعقل هذا؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: مقدمة بين يدي البحث.

الوجه الثاني: أقوال العلماء حول المسألة.

الوجه الثالث: أقوال الأطباء.

واليك التفصيل

الوجه الأول: مقدمة بين يدي البحث.

بداية: ينبغي أن يُعرف أنه لا يوجد دليل في الكتاب والسنة الصحيحة بتحديد أكثر مدة للحمل، وهذه مسألة مبنية على العرف وعادات النساء، وما كان كذلك لا يقال فيه إن القرآن قاله حيث لم يقله.

ولا يذم مَنْ قاله من العلماء؛ لأنه قاله على حالات واقعية بلغته أو حدثت أمامه، وهذه الحالات وإن كانت من الشاذ النادر، لكن لا يوجد دليل على استحالتها وعدم إمكانها ما دام الأمر مرتبطًا بقدرة الله؛ الذي يقول للشيء كن فيكون.

قال أبو عمر: وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرد إلى ما عرف من أمر النساء[1].

وقد جاء في مغني المحتاج: أن أكثر مدّة الحمل دليله الاستقراء[2].

وما ليس فيه نص يرجع فيه إلى الوجود[3].

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ بعد ذكر الخلاف في تحديد أكثر مدة الحمل:

وقالت فرقة لا يجوز في هذا الباب التحديد والتوقيت بالرأي؛ لأنَّا وجدنا لأدنى

---

(١) تفسير القرطبي (الرعد: ٨).

(٢) الموسوعة الفقهية (٢/ ٣٢٥).

(٣) الموسوعة الفقهية (٢/ ٦٣٠٢).

الحمل أصلًا في الكتاب؛ وهو الأشهر الستة، فنحن نقول بهذا ونتبعه، ولم نجد لآخره وقتًا وهذا قول أبي عبيد[(١)].

وقال ابن باز: وذهب بعض أهل العلم إلى أن مدة الحمل لا حدَّ لأكثرها، وهو الأرجح دليلًا[(٢)].

وهكذا لم يَرِدْ في حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف مرفوع إلى رسول الله ﷺ أن أكثر مدة الحمل أربع سنين، ولكنه قد اتفق ذلك ووقع كما تحكيه كتب التاريخ، غير أن هذا الاتفاق لا يدل على أن الحمل لا يكون أكثر من هذه المدة كما أن أكثرية التسعة أشهر في مدة الحمل لا تدل على أنه لا يكون في النادر أكثر منها، فإن ذلك خلافَ ما هو واقع، والحاصل أنه ليس هناك ما يوجب القطع، بل إذا كان ظاهر بطن المرأة أن فيه حملًا كأن يكون متعاظمًا ولا علة بالمرأة تقتضي ذلك وحيضها منقطع وهي تجد ما تجده الحامل - فالانتظار متوجه ما دامت كذلك وإن طالت المدة، أما إذا كان ثَمَّ حركةٌ في البطن كما يكون في بطن الحامل فلا يقول بأنها إذا مضت الأربع السنين لا يكون له حكم الحمل إلا مَنْ هو من أهل الجمود الذين لا يميزون، فإن الحمل هاهنا صار متيقنًا بوجود الحركة التي لا تكون إلا من جنين موجود في البطن، ولا يجوز المصير إلى تجويز أن ذلك المتحرك غير جنين، وأما إذا لم يكن البطن متعاظمًا وليس إلا مجرد دعوى المرأة على الحمل بانقطاع حيضها أو غيره من القرائن التي لا تظهر وتحس فيجب الانتظار إلى انقضاء المدة الغالبة وهي التسعة أشهر، فإن مضت ولم يظهر في بطنها ما يدل على الحمل من التعاظم والحركة فلا انتظار بعدها؛ لأن هذه المدة الغالبة لا تنقضي والبطن كما هي في غير الحامل، فهذا هو الذي ينبغي اعتماده في مثل هذه المسألة[(٣)].

الوجه الثاني: أقوال العلماء.

---

(١) تحفة المودود ١/ ٢٧٠.

(٢) فتاوى ابن باز (١٨/ ١١٠).

(٣) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار (٢/ ٣٣٤).

قال الطحاوي: بَابُ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهِ مِنْ أَكْثَرِ مُدَّةِ الْحَمْلِ بِمَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي ذَلِكَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ: ثنا عَفَّانَ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ: ثنا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ حَصِيرَةَ قَالَ: ثنا زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: لَأَنْ أَحْلِفَ عَشْرَ مِرَارٍ أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَّالُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّهُ لَيْس بِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ بَعَثَنِي إِلَى أُمِّهِ، فَقَالَ: سَلْهَا كَمْ حَمَلَتْ بِهِ؟ فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: حَمَلْت بِهِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَيْهَا الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: سَلْهَا عَنْ صِيَاحِهِ حِينَ وَقَعَ؟ فَأَتَيْتُهَا فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: صَاحَ صِيَاحَ الصَّبِيِّ ابْنِ شَهْرَيْنِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: إِنِّي قَدْ خَبَأْت لَك خَبِيئًا، قَالَ: خَبَأْت لِي عَظْمَ شَاةٍ عَفْرَاءَ، وَالدُّخَانَ فَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ الدُّخَانَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَقَالَ: الدُّخُّ الدُّخُّ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: اخْسَأْ فَإِنَّك لَنْ تَسْبِقَ الْقَدَرَ(١).

فَكَانَ هَذَا الْحَدِيثُ حِكَايَةَ أَبِي ذَرٍّ عَنْ أُمِّ ابْنِ صَيَّادٍ أَنَّهَا حَمَلَتْ بِهِ اثْنَيْ عَشَر، وَلَيْس فِيهِ رُجُوعُهُ بِذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيُنْكِرَهُ أَوْ لَا يُنْكِرَهُ، فَنَظَرْنَا هَلْ نَجِدُ ذَلِكَ فِي هَذَا مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ، فَوَجَدْنَا إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُونُسَ الْبَغْدَادِيَّ قَدْ حَدَّثَنَا قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مَعْبَدِ بْنِ نُوحٍ الْبَغْدَادِيُّ قَالَ: ثنا مُعَلَّى بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ يَعْنِي: ابْنَ زِيَادٍ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ حَصِيرَةَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: سَمِعْت أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ: لَأَنْ أَحْلِفَ عَشْرًا إِنَّ ابْنَ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَّالُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ يَمِينًا وَاحِدَةً إِنَّهُ لَيْسَ هُوَ؛ وَذَلِكَ لِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ

---

(١) **إسناده ضعيف.** أخرجه ابن أبي شيبة ١٥/ ١٤١ (٣٧٤٨٥) قال: حدثنا المعلى بن منصور، وأحمد ٥/ ١٤٨ (٢١٦٤٥) قال: حدثنا عفان؛ كلاهما (المعلى وعفان) قالا: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن حصيرة، حدثنا زيد بن وهب، فذكره.

والحديث في إسناده (الحارث بن حصيرة) وهو شيعي غالٍ في التشيع محترق، وثقه النسائي. وقال ابن عدي: هو على ضعفه يكتب حديثه. وقال الحافظ: صدوق يخطئ. وقال العقيلي: له غير حديث منكر لا يتابع عليه؛ منها حديث أبي ذر في ابن صياد. وقال الأزدي: زائغ، سألت أبا عباس بن سعيد عنه فقال: كان مذموم المذهب أفسده. تهذيب التهذيب (٢/ ١٢١) تقريب التهذيب (١/ ١٤٥) الكامل في الضعفاء (٢/ ١٨٧) وضعفاء العقيلي (١/ ٢١٦) وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أُمِّ ابْنِ صَيَّادٍ فَقَالَ: سَلْهَا كَمْ حَمَلَتْ بِهِ؟ فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: حَمَلْت بِهِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، فَأَتَيْتُهُ فَأَخبَرْتُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ.

فَكَانَ فِي هَذَا إِخْبَارُ أَبِي ذَرٍّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أُمِّ ابْنِ صَيَّادٍ أَنَّهَا حَمَلَتْ بِهِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا؛ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ دَفْعٌ لِذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ مُحَالًا لَأَنْكَرَهُ عَلَيْهَا وَدَفَعَهُ مِنْ قَوْلِهَا، وَفِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ أَنَّ الْحَمْلَ قَدْ يَكُونُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ عَلَى مَا قَدْ قَالَهُ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَأَهْلِ الْكُوفَةِ، وَمِمَّنْ سِوَاهُمْ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ سِوَى هَذَيْنِ الْمِصْرَيْنِ، وَإِنْ كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِي مِقْدَارِ أَكْثَرِ الْمُدَّةِ فِي ذَلِكَ، فَتَقُولُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: إِنَّهُ سَنَتَانِ لَا أَكْثَرُ مِنْهُمَا، وَمِمَّنْ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ مِنْهُمْ: أَبُو حَنِيفَةَ، وَالثَّوْرِيُّ، وَسَائِرُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ تَقُولُ: هُوَ أَرْبَعُ سِنِينَ لَا أَكْثَرُ مِنْهَا، وَمِمَّنْ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْ قُدَمَاءِ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَبِهِ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ، وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ تَقُولُ: إِنَّهُ يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الزَّمَانِ؛ مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ -رَحِمَهُ اللهُ-، وَاحْتَجْنَا عِنْدَ اخْتِلَافِهِمْ هَذَا إِلَى طَلَبِ الْأَوْلَى مِمَّا قَالُوهُ مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ فَوَجَدْنَا اللهَ ﷻ قَدْ قَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿**وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا**﴾، فَكَانَ فِي ذَلِكَ جَمْعُ الْحَمْلِ وَالْفِصَالِ فِي ثَلَاثِينَ شَهْرًا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَخْرُجَ وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَنْهَا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْبَابِ غَيْرُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَقَاوِيلِ اللَّاتِي ذَكَرْنَا فَكَانَ يَخْرُجُ عَنْ الثَّلَاثِينَ شَهْرًا، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَكَانَ الْحَمْلُ حَوْلَيْنِ -كَانَ الْبَاقِي مِنْ الثَّلَاثِينَ شَهْرًا سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ سَأَلَ عَنْهُ بَعْضُ مَنْ سَأَلَ فَقَالَ: أَفَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفِصَالُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَأَبْدَانُ الصِّبْيَانِ لَا تَقُومُ بِهَا؛ لِأَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَى مُدَّةٍ هِيَ أَكْثَرُ مِنْهَا؟

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ وَعَوْنِهِ: أَنَّهُ قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَوْلُودُونَ بَعْدَ مُضِيِّ تِلْكَ السِّتَّةِ الْأَشْهُرِ يَرْجِعُونَ إِلَى لَطِيفِ الْغِذَاءِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ عَيْشًا لَهُمْ وَغِنًى لَهُمْ عَنْ الرَّضَاعِ، غَيْرَ أَنَّا تَأَمَّلْنَا مَا فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ مِنْ ذِكْرِ الْحَمْلِ وَالْفِصَالِ فَوَجَدْنَا مِنْهُ الْآيَةَ الَّتِي قَدْ تَلَوْنَاهَا فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي هَذَا الْبَابِ.

وَوَجَدْنَا مِنْهُ قَوْلَ الله ﷻ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ فَجَعَلَ الْفِصَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمُدَّةِ عَامَيْنِ، وَوَجَدْنَا مِنْهُ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فَكَانَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ إِثْبَاتُ الْحَوْلَيْنِ لِلْفِصَالِ، فَاحْتَمَلَ عِنْدَنَا -وَالله أَعْلَمُ- أَنْ يَكُونَ الله ﷻ جَعَلَ الْحَمْلَ وَالْفِصَالَ ثَلَاثِينَ شَهْرًا لَا أَكْثَرَ مِنْهَا عَلَى مَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِمَّا قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُدَّةُ الْفِصَالِ فِيهَا قَدْ تَرْجِعُ إِلَى سِتَّةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ زَادَ الله ﷻ فِي مُدَّةِ الْفِصَالِ تَمَامَ الْحَوْلَيْنِ بِالْآيَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ، فَرَدَّ حُكْمَ الْفِصَالِ إِلَى جِهَتِهِ مِنَ الثَّلَاثِينَ شَهْرًا وَعَلَى تَتِمَّةِ الْحَوْلَيْنِ عَلَى مَا فِي الْآيَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، وَبَقِيَ مُدَّةُ الْحَمْلِ عَلَى مَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى فَلَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ الثَّلَاثِينَ شَهْرًا، وَأَخْرَجَ مُدَّةَ الْفِصَالِ مِنْ الثَّلَاثِينَ شَهْرًا إِلَى مَا أَخْرَجَهَا إِلَيْهِ بِالْآيَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، وَالله ﷻ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ فِي ذَلِكَ وَبِمَا كَانَ مِنْهُ فِيهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ مَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ الْمُرَاعَاةُ بِالرَّضَاعِ حَوْلَيْنِ، وَقَدْ قَالَ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ غَيْرُ وَاحِدٍ؛ مِنْهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُد قَالَ: ثنا يَعْقُوبُ ابْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: ثنا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا- قَالَ: لَا رَضَاعَ بَعْدَ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ.

كَمَا حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ: أَنْبَأَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا- قَالَ: لَا رَضَاعَ بَعْدَ حَوْلَيْنِ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَهَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ قَدْ قَصَدَ إِلَى الرَّضَاعِ بِالْحَوْلَيْنِ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّهَا لَهُ عِنْدَهُ مُدَّةٌ، وَأَكْثَرُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ عَلَى ذَلِكَ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي تَأَوَّلْنَاهُ فِي الثَّلَاثِ الْآيَاتِ الَّتِي تَلَوْنَاهَا فِي هَذَا الْبَابِ[1].

قال السرخسي: فَأَمَّا أَكْثَرُ مُدَّةِ الْحَبَلِ سَنَتَانِ عِنْدَنَا، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ الله تعالى-: أَرْبَعُ سِنِينَ؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا غَابَ عَنْ امْرَأَتِهِ سَنَتَيْنِ ثُمَّ قَدِمَ وَهِيَ حَامِلٌ، فَهَمَّ عُمَرُ رضي الله عنه بِرَجْمِهَا، فَقَالَ مُعَاذٌ رضي الله عنه: إنْ يَكُ لَك عَلَيْهَا سَبِيلٌ فَلَا سَبِيلَ لَك عَلَى مَا فِي بَطْنِهَا. فَتَرَكَهَا حَتَّى

(١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (٧ / ٢٨٧)، والبحر الرائق (١١ / ١٧٦)، والمحيط البرهاني برهان الدين مازه (٤ / ٢٢٤).

وَلَدَتْ وَلَدًا قَدْ نَبَتَتْ ثَنِيَّتَاهُ يُشْبِهُ أَبَاهُ، فَلَمَّا رَآهُ الرَّجُلُ قَالَ: ابْنِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: أَتَعْجَزُ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَ مُعَاذٍ؟! لَوْلَا مُعَاذٌ لَهَلَكَ عُمَرُ ﷺ! فَقَدْ وَضَعَتْ هَذَا الْوَلَدَ لِأَكْثَرَ مِنْ سَنَتَيْنِ، ثُمَّ أَثْبَتَ نَسَبَهُ مِنَ الزَّوْجِ. وَقِيلَ: إِنَّ الضَّحَّاكَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ، وَوَلَدَتْهُ بَعْدَ مَا نَبَتَتْ ثَنِيَّتَاهُ وَهُوَ يَضْحَكُ؛ فَسُمِّيَ ضَحَّاكًا. وَعَبْدَ الْعَزِيزِ الْمَاجِشُونِيَّ ﷺ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ، وَهَذِهِ عَادَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي نِسَاءِ مَاجِشُونَ - رَضِيَ الله عَنْهُمْ- أَنَّهُنَّ يَلِدْنَ لِأَرْبَعِ سِنِينَ. وَلَنَا حَدِيثُ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا- قَالَتْ: (لَا يَبْقَى الْوَلَدُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَتَيْنِ وَلَوْ بِفَلْكَةِ مِغْزَلٍ)، وَمِثْلُ هَذَا لَا يُعْرَفُ بِالرَّأْيِ، فَإِنَّمَا قَالَتْهُ سَمَاعًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَلِأَنَّ الْأَحْكَامَ تَنْبَنِي عَلَى الْعَادَةِ الظَّاهِرَةِ، وَبَقَاءُ الْوَلَدِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَتَيْنِ فِي غَايَةِ النُّدْرَةِ، فَلَا يَجُوزُ بِنَاءُ الْحُكْمِ عَلَيْهَا؛ مَعَ أَنَّهُ لَا أَصْلَ لِمَا يُحْكَى فِي هَذَا الْبَابِ، فَإِنَّ الضَّحَّاكَ وَعَبْدَ الْعَزِيزِ مَا كَانَا يَعْرِفَانِ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمَا، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُمَا كَانَ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَا فِي الرَّحِمِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله - تعالى-، وَلَا حُجَّةَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَثْبَتَ النَّسَبَ بِالْفِرَاشِ الْقَائِمِ بَيْنَهُمَا فِي الْحَالِ أَوْ بِإِقْرَارِ الزَّوْجِ، وَبِهِ نَقُولُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: أَنَّهُ غَابَ عَنْ امْرَأَتِهِ سَنَتَيْنِ أَيْ: قَرِيبًا مِنْ سَنَتَيْنِ. إِذَا عَرَفْنَا هَذَا فَنَقُولُ: مَتَى كَانَ الْحِلُّ قَائِمًا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ يَسْتَنِدُ الْعُلُوقُ إِلَى أَقْرَبِ الْأَوْقَاتِ وَهُوَ سِتَّةُ أَشْهُرٍ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِثْبَاتُ الرَّجْعَةِ بِالشَّكِّ أَوْ إِيقَاعُ الطَّلَاقِ بِالشَّكِّ فَحِينَئِذٍ يَسْتَنِدُ الْعُلُوقُ إِلَى أَبْعَدِ الْأَوْقَاتِ، فَإِنَّ الطَّلَاقَ وَالرَّجْعَةَ لَا يُحْكَمُ بِهِمَا بِالشَّكِّ، وَمَتَى لَمْ يَكُنْ الْحِلُّ قَائِمًا بَيْنَهُمَا يَسْتَنِدُ الْعُلُوقُ إِلَى أَبْعَدِ الْأَوْقَاتِ لِلْحَاجَةِ إِلَى إِثْبَاتِ النَّسَبِ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الِاحْتِيَاطِ[1].

وقال ابن رشد: وأما المسترابة أعني: التي تجد حسًا في بطنها تظن به أنه حمل؛ فإنها تمكث أكثر مدة الحمل، وقد اختلف فيه. فقيل في المذهب: أربع سنين، وقيل: خمس سنين، وقال أهل الظاهر: تسعة أشهر (٢).

---

(١) المبسوط (٥/ ٧).

(٢) بداية المجتهد (٢/ ٧٥).

قال القرطبي: واختلف العلماء في أكثر الحمل، فروى ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ جَمِيلَةَ بِنْتِ سَعْدٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: (لاَ يَكُونُ الْحَمْلُ أَكْثَرَ مِنْ سَنَتَيْنِ قَدْرَ مَا يَتَحَوَّلُ ظِلُّ الْمِغْزَلِ) وَجَمِيلَةُ بِنْتُ سَعْدٍ أُخْتُ عُبَيْدِ بْنِ سَعْدٍ. وعن الليث بن سعد: إن أكثره ثلاث سنين.

وعن الشافعي: أربع سنين. ورُوي عن مالك في إحدى روايتيه والمشهور عنه: خمس سنين، وروى عنه: لا حدَّ له ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه.

وعن الزهري: ست وسبع.

قال أبو عمر: ومن الصحابة من يجعله إلى سبع، والشافعي: مَدَّةُ لغاية منها أربع سنين، والكوفيون يقولون: سنتان لا غير، ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر، وداود يقول: تسعة أشهر لا يكون عنده حمل أكثر منها.

قال أبو عمر: وهذه المسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أمر النساء، وبالله التوفيق.

روى الدارقطنيُّ عن الْوَلِيدَ بْنَ مُسْلِمٍ يَقُولُ: قُلْتُ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: إِنِّي حُدِّثْتُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: (لاَ تَزِيدُ الْمَرْأَةُ فِي حَمْلِهَا عَلَى سَنَتَيْنِ قَدْرَ ظِلِّ الْمِغْزَلِ) فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَنْ يَقُولُ هَذَا؟! هَذِهِ جَارَتُنَا امْرَأَةُ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلاَنَ امْرَأَةُ صِدْقٍ، وَزَوْجُهَا رَجُلُ صِدْقٍ، حَمَلَتْ ثَلاَثَةَ أَبْطُنٍ فِي اثني عَشَرَ سَنَةً، تَحْمِلُ كُلَّ بَطْنٍ أَرْبَعَ سِنِينَ[1].

وذكره عن الْمُبَارَكُ بْنُ مُجَاهِدٍ قَالَ: مَشْهُورٌ عِنْدَنَا امْرَأَةُ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلاَنَ تَحْمِلُ وَتَضَعُ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ، وَكَانَتْ تُسَمَّى حَامِلَةَ الْفِيلِ[2].

وروى أيضًا قَالَ: بَيْنَمَا مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ يَوْمًا جَالِسٌ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا يَحْيَى، ادْعُ

---

(١) أخرجه البيهقي (٧/ ٤٤٣)، وقال الألباني: وهذا إسناده صحيح إلى مالك؛ رجاله كلهم ثقات. الإرواء (٧/ ١٨٩).

(٢) أخرجه الدار قطني في السنن (٢٨٣)، والبيهقي (٧/ ٤٤٣)، وقال الألباني: ورجال هذا الإسناد ثقات غير المبارك بن مجاهد؛ وقد ضعفوه سوى أبي حاتم فإنه قال: ما أرى بحديثه بأسًا. الإرواء (٧/ ١٨٩).

لِامْرَأَةٍ حُبْلَى مُنْذُ أَرْبَعِ سِنِينَ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ، فَغَضِبَ مَالِكٌ وَأَطْبَقَ الْمُصْحَفَ، قَالَ: مَا يَرَى هَؤُلاَءِ الْقَوْمُ إِلاَّ أَنَّا أَنْبِيَاءُ، ثُمَّ قَرَأَ، ثُمَّ دَعَا ثُمَّ قَالَ: اللهمَّ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ إِنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا رِيحٌ فَأَخْرِجْهُ عَنْهَا السَّاعَةَ، وَإِنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا جَارِيَةٌ فَأَبْدِلْهَا بِهَا غُلاَمًا؛ فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ، ثُمَّ رَفَعَ مَالِكٌ يَدَهُ وَرَفَعَ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ، وَجَاءَ الرَّسُولُ إِلَى الرَّجُلِ فَقَالَ أَدْرِكِ امْرَأَتَكَ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ فَمَا حَطَّ مَالِكٌ يَدَهُ حَتَّى طَلَعَ الرَّجُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ عَلَى رَقَبَتِهِ غُلاَمٌ جَعْدٌ قَطَطٌ ابْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ قَدِ اسْتَوَتْ أَسْنَانُهُ مَا قُطِعَتْ سَرَارُهُ[1].

وقال النووي: أكثر مدة الحمل أربع سنين فلو أبانها بخلع، أو بالثلاث، أو بفسخ، أو لعان، ولم ينف الحمل فولدت لأربع سنين فأقل من وقت الفراق – لحق الولد بالزوج؛ هكذا أطلقوه.

وقال أبو منصور التميمي: ينبغي أن يُقال: لأربع سنين من وقت إمكان العلوق وقبيل الطلاق؛ وهذا قويم، وفي إطلاقهم تساهل، وسواء أقرت بانقضاء عدتها ثم ولدت أم لم تقر؛ لأن النسب حق الولد فلا ينقطع بإقرارها، وقال ابن سريج: إذا أقرت بانقضائها ثم ولدت لم يلحقه، إلا أن تأتي به لدون ستة أشهر من الأقراء، كما إذا صارت الأمة فراشًا لسيدها بالوطء ثم استبرأها فأتت بولد بعد الإستبراء لستة أشهر فصاعدًا لا يلحقه. نص عليه.

فمن الأصحاب من جعل المسألتين على قولين وقطع الجمهور بتقرير النصين، وفرقوا بأن فراش النكاح أقوى وأسرع ثبوتًا؛ فإنه يثبت بمجرد الإمكان، أما إذا ولدت لأكثر من أربع سنين فالولد منفي عنه بلا لعان ولو طلقها رجعيًا ثم ولدت فالحكم على التفصيل المذكور، إلا أن السنين الأربع هل تحسب من وقت الطلاق أم من وقت انصرام العدة؟ قولان أظهرهما الأول؛ لأنها كالبائن في تحريم الوطء، فلا يؤثر كونها زوجة في معظم الأحكام.

فإن قلنا: من وقت الانصرام، فقد أطلق الشيخ أبو حامد، وابن الصباغ، وغيرهما حكاية وجهين: أحدهما: أنه يلحقه متى أتت به من غير تقدير؛ لأن الفراش على هذا القول إنما يزول بانقضاء العدة. والثاني: أنه إذا مضت العدة بالأقراء أو الأشهر ثم ولدت

(١) الدار قطني في السنن (٢٨٤).

لأكثر من أربع سنين من انقضائها لم يلحقه؛ لأنا تحققنا أنه لم يكن موجودًا في الأقراء والأشهر فتبين بانقضائها وتصير كما لو بانت بالطلاق ثم ولدت لأكثر من أربع سنين، وهذا الثاني هو الأصح عند الأكثرين وحكوه عن نص الشافعي رحمه الله.

ولك أن تقول: هذا وإن استمر في الأقراء لا يستمر في الأشهر، فإن التي لا تحمل لا تعتد بالأشهر، فإذا حبلت بان أن عدتها لم تنقض بالأشهر، وسيأتي نظير هذا إن شاء الله تعالى. ثم هذا الخلاف على ما ذكره الروياني وغيره فيما إذا أقرت بانقضاء العدة، فإن لم تقر فالولد الذي تأتي به يلحقه وإن طال الزمان؛ لأن العدة قد تمتد لطول الطهر، وحكى القفالُ فيما إذا لم تقر وجهًا ضعيفًا: أنه إذا مضت ثلاثة أشهر ثم ولدت لأكثر من أربع سنين لم يلحقه؛ لأن الغالب انقضاء العدة في ثلاثة أشهر، ومتى حكمنا بثبوت النسب كانت المرأة معتدة إلى الوضع، فيثبت للزوج الرجعة إن كانت رجعية ولها السكنى والنفقة[1].

وقال الشافعي في امرأة المفقود: فقال في القديم: تتربص أربع سنين أكثر مدة الحمل، ثم تعتد للوفاة أربعة أشهر وعشرًا وتحل للأزواج[2].

وقال الشيخ زكريا الأنصاري في أسنى المطالب: أَكْثَرُ مُدَّةِ الْحَمْلِ أَرْبَعُ سِنِينَ بِالِاسْتِقْرَاءِ؛ وَلِأَنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ فِي امْرَأَةِ الْمَفْقُودِ تَتَرَبَّصُ أَرْبَعَ سِنِينَ، ثُمَّ تَعْتَدُّ بَعْدَ ذَلِكَ. قَالَ الرَّافِعِيُّ: وَسَبَبُ التَّقْدِيرِ بِالْأَرْبَعِ أَنَّهَا نِهَايَةُ مُدَّةِ الْحَمْلِ، فَإِنْ طَلَّقَهَا بَائِنًا، وَكَذَا رَجْعِيًّا أَوْ فَسَخَ نِكَاحَهَا وَلَوْ بِلِعَانٍ وَلَمْ يَنْفِ الْحَمْلَ فَوَلَدَتْ لِأَرْبَعِ سِنِينَ فَأَقَلَّ مِنْ وَقْتِ إمْكَانِ الْعُلُوقِ قُبَيْلَ الطَّلَاقِ أَوْ الْفَسْخِ لَحِقَهُ، وَبَانَ أَنَّ الْعِدَّةَ لَمْ تَنْقَضِ إنْ لَمْ تَنْكِحْ الْمَرْأَةُ آخَرَ أَوْ نَكَحَتْ، وَلَمْ يُمْكِنْ كَوْنُ الْوَلَدِ مِنْ الثَّانِي لِقِيَامِ الْإِمْكَانِ سَوَاءٌ أَقَرَّتْ بِانْقِضَاءِ عِدَّتِهَا قَبْلَ وِلَادَتِهَا أَمْ لَا؛ لِأَنَّ النَّسَبَ حَقُّ الْوَلَدِ فَلَا يَنْقَطِعُ بِإِقْرَارِهَا، وَإِنْ أَتَتْهُ بِهِ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ الْإِقْرَارِ، وَيُفَارِقُ مَا لَوْ اسْتَبْرَأَ أَمَتَهُ بَعْدَ وَطْئِهِ لَهَا فَأَتَتْ بِوَلَدٍ بَعْدَ الِاسْتِبْرَاءِ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ فَأَكْثَرَ حَيْثُ لَا يَلْحَقُهُ بِأَنَّ فِرَاشَ

---

(١) الروضة (٣/ ٢٤١)، وإعانة الطالبين البكري الدمياطي (٤/ ٥٠).

(٢) المجموع (١٨/ ١٥٩).

النِّكَاحِ أَقْوَى وَأَسْرَعُ ثُبُوتًا؛ لِأَنَّ النَّسَبَ يَثْبُتُ فِيهِ بِمُجَرَّدِ الْإِمْكَانِ بِخِلَافِهِ فِي الْأَمَةِ لَا يَثْبُتُ إلَّا بِالْإِقْرَارِ بِالْوَطْءِ.

وَلَزِمَتْهُ النَّفَقَةُ وَالسُّكْنَى لَهَا إلَى وَقْتِ الْوِلَادَةِ، وَإِنْ وَلَدَتْهُ لِأَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ سِنِينَ انْتَفَى عَنْهُ بِلَا لِعَانٍ لِعَدَمِ إمْكَانِ كَوْنِهِ مِنْهُ لَكِنْ إنْ ادَّعَتْ أَنَّهُ حَصَلَ تَجْدِيدُ فِرَاشٍ يُرْجِعُهُ أَوْ نِكَاحٍ أَوْ وَطْءِ شُبْهَةٍ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْأَصْلُ، فَأَنْكَرَهُ أَوْ اعْتَرَفَ بِهِ وَأَنْكَرَ الْوِلَادَةَ فَالْقَوْلُ قَوْلُهُ بِيَمِينِهِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ التَّجْدِيدِ وَالْوِلَادَةِ، فَإِنْ أَقَامَتْ بَيِّنَةً بِمَا ادَّعَتْهُ أَوْ نَكَلَ عَنْ الْيَمِينِ فَحَلَفَتْ ثَبَتَ النَّسَبُ لِقِيَامِ الْحُجَّةِ بِمَا يَقْتَضِيهِ، وَلَهُ نَفْيُهُ بِاللِّعَانِ، وَإِنْ نَكَلَتْ عَنْ الْيَمِينِ الْمَرْدُودَةِ حَلَفَ الْوَلَدُ إذَابَلَغَ كَنَظَائِرِهِ وَأَمَّا عِدَّتُهَا فَتَنْقَضِي بِهِ أَيْ بِوِلَادَتِهِ وَإِنْ حَلَفَ الزَّوْجُ عَلَى النَّفْيِ وَلَمْ يَثْبُتْ مَا ادَّعَتْ؛ لِأَنَّهَا تَزْعُمُ أَنَّ الْوَلَدَ مِنْهُ، فَكَانَ كَمَا لَوْ نَفَى حَمْلَهَا بِاللِّعَانِ فَإِنَّهُ وَإِنْ انْتَفَى الْوَلَدُ عَنْهُ تَنْقَضِي الْعِدَّةُ بِوِلَادَتِهِ لِزَعْمِهَا أَنَّهُ مِنْهُ، وَيُفَارِقُ مَا لَوْ ادَّعَتْ وَطْءَ شُبْهَةٍ مِنْهُ قَبْلَ النِّكَاحِ بِأَنَّ عِدَّةَ النِّكَاحِ أَقْوَى مِنْ عِدَّةِ غَيْرِهِ، وَالْأَقْوَى لَا يَسْتَتْبِعُهُ الْأَضْعَفُ؛ بِخِلَافِ الْعَكْسِ، أَمَّا إذَا صَدَّقَهَا الزَّوْجُ عَلَى دَعْوَاهَا فَيَلْزَمُهُ مُقْتَضَى تَصْدِيقِهِ مِنْ مَهْرٍ وَنَفَقَةٍ وَسُكْنَى وَلُحُوقِ الْوَلَدِ بِهِ ثُمَّ دَعْوَى التَّجْدِيدِ لِلْفِرَاشِ عَلَى وَارِثِهِ أَيْ الزَّوْجِ كَالدَّعْوَى عَلَيْهِ لَكِنْ يَحْلِفُ يَمِينَ نَفْيِ الْعِلْمِ وَلَا يَنْفِيهِ بِاللِّعَانِ إذَا ثَبَتَ نَسَبُهُ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ بِاللِّعَانِ مُخْتَصٌّ بِالزَّوْجِ وَإِنْ أَقَرَّ الْوَارِثُ بِمَا ادَّعَتْهُ فَإِنْ كَانَ حَائِزًا لِلْإِرْثِ، وَالْوَلَدُ لَا يَحْجُبُهُ ثَبَتَ النَّسَبُ وَالْإِرْثُ إنْ لَمْ يَكُنْ حَائِزًا كَأَحَدِ الْبَنِينَ لَمْ يَثْبُتْ النَّسَبُ حَتَّى تُنْفِقَ الْوَرَثَةُ عَلَيْهِ وَيَثْبُتَ لَهَا فِي دَعْوَى التَّجْدِيدِ بِرَجْعَةٍ أَوْ نِكَاحِ الْمَهْرُ وَالنَّفَقَةُ مِنْ حِصَّةِ الْمُقِرِّ بِحِصَّتِهِ لَا إرْثُهَا ظَاهِرًا بِحِصَّتِهِ، وَأَمَّا إرْثُ الْوَلَدِ وَعَدَمُهُ فَتَقَدَّمَ فِي الْإِقْرَارِ[1].

وفي الفتاوى الهندية: (لا تحديد في أكثر مدة الحمل).

قوله: وأكثر مدة الحمل أربع سنين؛ لأنها أكثر ما وجد. هذا تعليل هذا التحديد،

(١) أسنى المطالب (كتاب العدد والاستبراء) (١٧/ ٤١٠)، وانظر كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار لتقي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني الحصني الدمشقي الشافعي (١/ ٧٧)، وانظر حاشية الجمل على المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري - المؤلف: العلامة الشيخ سليمان الجمل.

وأصحاب هذا القول، وكذلك مَنْ يحدد بأقل وبأكثر من ذلك هم لا يقولون: إن المتجاوز لما حددناه مقطوع في نفس الأمر أنه ليس لاحقًا له، يقولون: من الممكن أن يكون له، لكن نحن محتاجون أن نحد حدًّا لئلا يضطرب علينا فنرتكب مفسدة ترك النادر مخافة الوقوع في أعداد كثيرة. هذا معنى ما يقولون، أو يقولوه لكنه هو لازم لهم وإن لم يلفظوا به.

والمسألة مسألة خلاف: منهم من يحدد بأربع، ومنهم من يحدد بسنتين، ومنهم من لا يحدد بحد بل يعتبر الأصل ولاسيما إذا لم يرد عليه ما ينفيه. وقد ذكر ابن القيم طرفًا في المسألة في كتابه (تحفة الودود)، وإلا فموجود مواليد تجاوزا أربع سنين علم وتحقق نسبتهم إلى من نسبوا إليه وذلك بتحقق الحمل ثم يتأخر، ووجد مولود أخذ أربعة عشر سنة. . . وُجِدَ تامة أسنانه[(١)].

وثمرة هذا الخلاف تظهر فيما يأتي: المُطلّقة طلاقًا بائنًا والمُتوفّى عنها زوجها إذا جاءت كل منهما بولد لسنتين فأقل ثبت نسبه اتفاقًا[(٢)]؛ لأن الوضع تم ضمن أقصى مدة الحمل عند الجميع، أما إذا جاءت بولد لأكثر من ذلك إلى أربع سنين فالجمهور على أنه يثبت نسبه وانقضت عدتها بناءً على أن الوضع ضمن أقصى مدة الحمل عندهم، ولا يثبت عند الحنفية أنها وضعت بعد أقصى مدة الحمل.

وفي المطلقة الرجعية ذكر الحنفية أنه يثبت نسب ولدها وإن جاءت به لأكثر من سنتين، ما لم تقر بانقضاء العدة لاحتمال الوطء والعلوق في العدة لجواز أن تكون ممتدة الطهر[(٣)].

قال الشنقيطي:

قال المصنف: أو دون أربع سنين منذ أبانها. هنا تحتاج إلى معرفة أقل مدة الحمل وأكثر مدة الحمل، فقد يطلق الزوج المرأة، ثم بعد شهر أو شهرين يتبين أنها حامل، وقد يتبين أنها

---

(١) الفتاوى الهندية (١١/ ١٣٣).

(٢) إلا عند الظاهرية وابن عبد الحكم كما سيأتي، فالمقصود بالاتفاق هنا اتفاق أصحاب المذاهب الأربعة إلا ما شذ منهم.

(٣) الموسوعة الفقهية (٢/ ٦٣٠٢).

حامل بعد سنة، وقد يتبين بعد سنتين، وقد يتبين بعد ثلاث سنوات، وقد تضع بعد ثلاث سنوات، فهنا مشكلة، إذا طلق الرجل المرأة وبانت منه وانفصلت عنه، ثم تبين حملها في المدد المعروفة فلا إشكال؛ لأنه إذا طلقها وبان أنها حامل بقيت على حالها حتى تضع، والولد ولده، لكن الإشكال إذا لم يقع هذا الحمل، ولم تلد على المعتاد، بل تأخرت في وضعها إلى أربع سنوات، فهل هناك مدة تبين آخر الحمل؟

اختلف العلماء - رحمهم الله-: بعضهم يقول: لا أقبل فوق تسعة أشهر؛ وهذا قول ابن عبد الحكم من فقهاء المالكية، وما بعد التسعة الأشهر لو طلقها وأبانها ثم ظهر فيها حمل فهو لغيره وليس له، وهذا إذا لم تكن تزوجت؛ لأنه إذا تزوجت ينسب للثاني ولا إشكال. نحن نتكلم في امرأة طلقت وبقيت خالية من الأزواج حتى وضعت ما في بطنها، فهل ينسب إلى الزوج الذي طلقها أو ينسب إليها، ويكون هناك شبهة أنها زنت أو استكرهت على الزنا؟ هنا الإشكال، فما هي أقصى مدة يمكن أن ينسب فيها الولد للفراش؟ من أهل العلم من قال: تسعة أشهر - كما ذكرنا- وهو من أضعف الأقوال، ومن أهل العلم من قال: أربع سنوات، وهو مذهب الشافعية والحنابلة في المشهور، وبعض أصحاب الإمام مالك يقولون بهذا القول؛ قالوا: إن أقصى ما وجدناه من الحمل أربع سنوات، فإذا وضعت الولد لأربع سنين؛ يعني: لم يتجاوز أربع سنوات منذ طلاقه وفراقه لها نسب الولد إليه، وقال الحنفية: خمس سنين؛ وهو رواية عن الإمام أحمد - رحمة الله على الجميع-، والحقيقة أن الأربع سنوات هي التي حكيت كأقصى حد وجد، وذكر بعض العلماء أن أمه بقيت في حملها أربع سنين، والله ﷻ على كل شيء قدير، هذا أمر الله فيه حكمة، وقد تضعف المرأة ويكمل الجنين، وحدث في عهد عمر بن الخطاب ﷺ أن امرأة صالحة معروفة بالخير والصلاح غاب عنها زوجها، ثم قتل واستشهد، فحزنت عليه حزنًا عظيمًا، ثم تزوجت برجل من بعده، وبعد زواجها بأقل من ستة أشهر بان الحمل فيها، وهم عمر ﷺأن يرجمها لأنها محصنة، والحمل عند عمر ﷺ دليل إثبات الزنا، كما في خطبته المشهورة في الصحيح، فكان يرى أن الحمل يدل على الزنا، وأن المرأة إذا كانت لا

زوج لها وحملت يقام عليها الحد، فالشاهد أنه همَّ يرجمها، ولكن كان ﷺ يشاور الصحابة وكانت له طريقته أنه يستشير المهاجرين ثم الأنصار، ثم بعد ذلك يجمع الناس، فلما همَّ أن يرجمها سأل عنها فوجد أنها امرأة صالحة، وأنها يبعد أن يكون منها الزنا لما عرف من استقامتها وصلاحها، فتورع ﷺ، وكان محدثًا ملهمًا كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن يكن في أمتي محدثون فعمر»، فامتنع عن رجمها وأحب أن يشاور الناس، فاستشار المهاجرين فلم يجد شيئًا، ثم استشار الأنصار فلم يجد شيئًا، ثم جمع الناس كلهم فلم يجد شيئًا، فجمع النساء فاستشارهن، فقامت امرأة كبيرة في السن معروفة بالعقل وقالت: يا أمير المؤمنين، أنا أقص عليك خبرها، إن هذه المرأة حملت من زوجها الأول، ولما جاءها الحزن ركن الجنين، يعني: ضعف أن يخرج لأمده، ثم لما تزوجها الثاني انكشف بماء الثاني فولدت الجنين قبل زمانه، فحمد الله أنه لم يكن رجمها، وأسقط عنها الحد، وألحق الولد بالزوج الأول، فقد يقع في بعض الأحيان تأخر في الحمل سواء لأمور طبية، أو لمشيئة الله ﷻ، وهو على كل شيء قدير، ومن حكمة الله أنه يخلف العادات، ودائمًا ينتبه طالب العلم بل كل مسلم إلى أن إخلاف العادات من أكبر الأدلة على وحدانية الله ﷻ؛ لأن أهل الطبيعة يستدلون بأن الطبيعة هي التي أوجدت نفسها، فلما تختلف العادات يدل ذلك على أن هناك ربًا يدير هذا الكون ويصرفه سبحانه وتعالى، وهذا من أقوى الحجج في دمغ قولهم؛ لأن الطبيعة لا تضطرب، وهي التي ينسبون إليها الأشياء، فالشاهد أن الحمل قد يخرج عن الشيء المعتاد وقد يطول أمده، فبين ذلك -رحمه الله- حين قال: (أو دون أربع سنين منذ أبانها)، فاعتبر الحد أربع سنوات، وهذا قول من ذكرنا من السلف -رحمهم الله- أنه أربع سنين كحد أقصى، فما بين تطليقه لها وإبانتها من عصمته وبين وضعها لا يجاوز هذه المدة الأربع السنين[1].

ومن خلال ما مر يظهر الآتي:

ليس في المسألة نص من قرآن ولا سنة صحيحة وإنما هي مسألة اجتهادية بين العلماء.

---

(١) شرح زاد المستقنع للشنقيطي.

ولأجل ذلك اختلفوا فيها إلى ما يلي:

١- إن أكثر مدة للحمل تسعة أشهر؛ وهو قول الظاهرية ونسب إلى على بن عبد الحكم.

٢- سنة.

٣- سنتان؛ وهو قول الأحناف، والثوري، وسائر أصحاب أبي حنيفة.

٤- ثلاث سنوات؛ وهو مروي عن الليث بن سعد.

٥- أربع سنوات؛ وهو قول كثير من قدماء أهل الحجاز، والشافعية، والمالكية في قول، والحنابلة في المشهور عنهم.

٦- خمس سنوات؛ وهو المشهور في مذهب مالك.

٧- ست وسبع سنوات؛ وهو المروي عن الزهري.

٨- عشر سنوات؛ وهو رواية عن مالك.

٩- لا حدَّ لأكثره وإنما يرجع فيه إلى العرف والعادة عند النساء.

١٠- أخذ القانون بأن دعوى الحمل لا تقبل بعد أكثر من سنة.

ومن خلال استعراض المسألة نـجد أن العلماء افترقوا إجمالًا إلى فريقين:

أحدهما: يرى أن مدة الحمل لا تزيد عن تسعة أشهر طرف عين.

والثاني: يرى أنها تزيد على هذه المدة على اختلاف أنظارهم في ذلك، فعلى القول بأنها لا تزيد عن تسعة أشهر لا يوجد إشكال عند هذا المعترض فعلى أي أساس اختار القول الآخر؟ أما على القول الثاني فلماذا قال العلماء هذا الكلام؟

أما الأحناف فاعتمدوا على أثر عائشة - رضي الله عنها- ولكنه ضعيف فظهر بضعفه أمران: الأول: ضعف مذهب الحنفية.

الثاني: بطلان نسبة هذا القول لعائشة - رضي الله عنها-.

١- اعتماد باقي العلماء على حوادث وقعت على أرض الواقع فأخبر كل بما رآه وشاهده، والواقع لا ينكره إلا من جهله ومن جهل ليس بحجة على من علم.

٢- إنَّ نظر العلماء في هذا الأمر ليس من باب الترفه ولا الافتراض، وإنما هو لحفظ

الحقوق والنظر في معضلات الواقع لأجل حلها بما يناسب.

٣- ومن ذلك إثبات النسب.

٤- انتهاء العدة لأن هناك أمورًا تتعلق بها مثل زواجها بغيره، وزواجه بإحدى محارمها، أو زواجه بخامسة.

٦- ونفقة المعتدة عليها وعلى الجنين إن كانت رجعية، وعلى الجنين إن كانت مبتوتة.

٧- استبراء الرحم حتى لا يسقي ماءه زرع غيره.

٨- الحفاظ على الأعراض والأرواح؛ لأن المرأة لو اتهمت بالزنا لرجمت فكان في ذلك اعتداء على الروح والعرض.

٩- واضح أن كل واحد من هؤلاء العلماء قال بأكثر مدة رآها فمن يحدد بأربع، وكذلك من يحدد بأقل وبأكثر من ذلك، هم لا يقولون: إن المتجاوز لما حددناه مقطوع في نفس الأمر أنه ليس لاحقًا له، يقولون: من الممكن أن يكون له، لكن نحن محتاجون أن نحدَّ حدًا لئلا يضطرب علينا، فنرتكب مفسدة ترك النادر مخافة الوقوع في أعداد كثيرة. هذا معنى ما يقولونه، أو يقولوه، لكنه هو لازم لهم وإن لم يلفظوا به(١).

١٠- الأصل السلامة ونزاهة الساحة.

١١- أرجح ما قيل في هذه المسألة أنه لا حد في الشرع لأكثر الحمل وما كان مرتبطًا بقدرة الله - تعالى- لا يعد مستحيلًا.

١٢- لعل من حكمة الله - تعالى- أن تخرق العادات في بعض الأحيان إظهارًا لقدرة الله ولضعف وجهل الإنسان مهما بلغ من العلم بزعمه.

١٣- ومن ذلك ما جري لمريم العذراء، ولعيسى عليه السلام، ولآدم عليه السلام، ولحواء، وعلى كل حال فالله على كل شيء قدير.

وبعد هذا الذي سبق تعلم أنه لا يوجد في كتاب الله ولا في السنة الصحيحة ما يدل

---

(١) الفتاوى الهندية (١١/ ١٣٣).

على أطول مدة الحمل تحديدًا.

ويظهر كذلك الاعتذار عن علمائنا الذين قالوا بهذه المدد الطويلة التي يراها كثير من الأطباء مستحيلة، ولكننا نقول: هي شاذة نادرة على خلاف الأصل الغالب؛ لأن الأمر متعلق بقدرة الله وما تعلق بقدرة الله لا يعد مستحيلًا.

الوجه الثالث: أقوال الأطباء.

١- يرى الدكتور أحمد ترعاني أخصائي النسائية والتوليد أن الحمل قد يصل إلى عشرة شهور، ولا يزيد على ذلك؛ لأن المشيمة التي تغذي الجنين تصاب بالشيخوخة بعد الشهر التاسع، وتقل كمية الأكسجين والغذاء المارين من المشيمة إلى الجنين فيموت الجنين كما قال الطبيب أحمد ترعاني: أنه يجب التأكد أنه ليس هناك خطأ في مدة الحمل؛ لأن المرأة قد تتأخر عنها الدورة الشهرية بسبب الرضاع أو غيره، ثم تحمل مباشرة دون حدوث طمث، وعند ذلك تطول مدة انقطاع الدورة الشهرية، فيجب اعتبار مدة الطمث قبل الحمل[١].

٢- ويرى الطبيب مأمون شقفة أن الولادات التي تحصل بين الأسبوعين (٣٩: ٤١) تتمتع بأفضل نسبة سلامة للأجنة، فإذا تأخرت عن الأسبوع (٤٢) نقصت وأصبح الجنين في خطر حقيقي، وكذلك إذا حصلت مبكرة عن وقتها نقصت نسبة السلامة، فهي قبل الأسبوع (٣٧) أقل منها في تمام الحمل، وفي الأسبوع (٣٥) أقل بوضوح، والوليد الذي يولد قبل ذلك يحتاج إلى عناية خاصة للمحافظة على حياته[٢].

٣- وقد تبين في بعض الإحصائيات أن نسبة الحمل المتأخر حتى (٤٢ أسبوع) ٤: ١٤٪ أي بمعدل ١٠٪، ونسبة الحمل الذي يبلغ (٤٣أسبوع) ٢: ٧٪[٣].

٤- وتذكر الإحصائيات أن وفاة المواليد تزداد وتتضاعف بازدياد مدة الحمل عن

(١) أحكام المرأة الحامل للخطيب (ص١٠٦) نقلًا عن كتاب أحكام المرأة الحامل لعبد الرشيد قاسم.

(٢) القرار المكين لمأمون شقفة (ص٧٣) نقلًا عن المصدر السابق.

(٣) عن كتاب أحكام المرأة الحامل لعبد الرشيد قاسم (ص٧٣٠).

(الأسبوع ٤٢) بسبب تلف المشيمة[١].

٥- ذكر الطبيب أحمد كنعان سبب استبعاد بقاء الجنين لفترة طويلة في الرحم على المدة المعتادة فقال: إن الجنين يعتمد في غذائه على المشيمة ولم تعد قادرة على إمداد الجنين بالغذاء الذي يحتاجه لاستمرار حياته، فإن لم تحصل الولادة عانى الجنين من المجاعة، فإن طالت المدة ولم تحصل الولادة قضى نحبه داخل الرحم[٢].

وأكد هذا القول بأنه من النادر أن ينجو من الموت جنين بقي في الرحم (٤٥ أسبوعًا) ولاستيعاب النادر والشاذ فإن هذه المدة تمتد أسبوعين آخرين لتصبح (٣٣٠ يومًا) ولم يعرف أن المشيمة قدرت أن تمد الجنين بعناصر الحياة لهذه المدة، وأهل القانون توسعوا في الاحتياط مستندين إلى بعض الآراء الفقهية بجانب الرأي العلمي فجعلوا أقصى مدة للحمل سنة واحدة[٣].

٦- وقد علل الطبيب عبد الله باسلامة ومحمد البار توهم بعض النساء أن حملهن قد امتد سنتين، وأن ذلك يرجع إلى ما يسمى بالحمل الكاذب؛ وحاصله:

أن هذه حالة تصيب النساء اللاتي يبحثن عن الإنجاب دون أن ينجبن، فتنتفخ البطن بالغازات وتتوقف العادة الشهرية، وتعتقد المرأة اعتقادًا جازمًا بأنها حامل رغم تأكيد جميع الفحوصات المخبرية والطبية بأنها غير حامل، وقد يحدث لإحدى هؤلاء الواهمات بالحمل الكاذب الذي تتصور أنه بقي في بطنها سنينًا، وقد يحدث أنها تحمل فعلًا فتضع طفلًا طبيعيًا في فترة حمله، ولكنها نتيجة وهمها وإيهامها من حولها أنها حملت لمدة ثلاث أو أربع سنين[٤].

---

(١) الرؤية الإسلامية لبعض الممارسات الطبية لنبيه النجار (ص٤٣٧).

(٢) الموسوعة الفقهية الطبية (ص٣٧٦)، وانظر أحكام المرأة الحامل (ص١١٨) لعبد الرشيد قاسم.

(٣) المصدر السابق، وانظر الحيض والنفاس والحمل لعمر الأشقر (ص٩٥، ٩٦) نقلًا عن أحكام المرأة الحامل (ص١١٩).

(٤) رؤية إسلامية لبعض القضايا الطبية لباسلامة (ص٥٧)، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار (ص٤٥٣، ٤٥٤)، الرؤية الإسلامية لبعض الممارسات الطبية (ص٦٧٢) نقلً عن أحكام المرأة الحامل لعبد

فهذه بعض آراء الأطباء وإحصائياتهم والنتيجة التي توصلوا إليها من الاستحالة عند البعض والاستبعاد عند البعض، لكن انظر ما يلي:

١- ذكرت صحيفة المحقق الطبي الأمريكية في (ديسمبر ١٨٨٤م) امرأة دام حملها (١٥ شهرًا و٢١ يومًا)، وورد في مجلة (تاريخ الأكاديمية) الفرنسية ذكر حملًا دام (٣٦ شهرًا)[1].

٢- قال عبد الرشيد قاسم: سألت الشيخ/ عبد المجيد الزنداني واضع أسس علم الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في (٤ / ٤ / ١٤٢٢هـ الموافق ٢٦ / ٦/ ٢٠٠١م) بمكة عما جاء في كتب الفقهاء من امتداد فترة الحمل لسنين، فأخبرني أنه سأل طبيبًا عالميًا مختصًا في علم الأجنة بكندا، وذكر الطبيب أن هذا التأخر يرجع إلى مدى استعداد جهاز المناعة للطفل، ولم يرفض مبدأ تأخر الحمل[2].

٣- ومما يدل على إمكان هذا أن يوجد الشواذ في الخلق مقطوع به، فقد ثبت ولادة سبعة توائم في بطن واحد بخلاف المعهود، ووجود أطفال ولدوا برأسين وغير ذلك مما هو نادر وواقع، ولا يمنع أن توجد مشيمة على جهة الشذوذ لها قدرة على إمداد الطفل لفترة طويلة على غير المعهود كما هو حال المعمرين في هذا الزمان والذين تجاوز أعمار البعض قرنًا ونصفًا من الزمان.

٤- قال عبد الرشيد قاسم: وحدثني الشيخ الدكتور/ بكر أبو زيد عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية أنه ثبت لديه حين كان قاضيًا بالمدينة حمل دام أربع سنين.

وأن الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله- ثبت لديه حمل دام سبع سنين حين كان

الرشيد قاسم (ص ١١٩).

(١) الموسوعة الفقهية الطبية لأحمد كنعان (ص٣٧٦)، وعزاه لموسوعة المعلومات العامة للأرقام القياسية لعينيس (ص١٨)، وقد اعترض بعض الأطباء على هذه المعلومة بأنها ليست في مصدر طبي معتمد، إضافة أن الخبر الأول مضى عليه أكثر من قرن ولم تكن عندهم الوسائل والمختبرات الدقيقة التي تؤكد صحة الخبر. نقلًا عن كتاب (أحكام المرأة الحامل) لعبد الرشيد قاسم (ص١٢١).

(٢) أحكام المرأة الحامل لعبد الرشيد قاسم (ص١٢١).

يشغل منصب القضاء.

وحين أورد ذلك على الأطباء في مناقشات مجمع الفقه الإسلامي حاروا في الجواب[١].

٥- فإذا أضفنا هذه الأخبار إلى ما ورد في كتب الفقه والتاريخ من وجود نساء حملن لمدة طويلة أفادت هذه الأخبار وجود هذا النوع من الحمل، وإن كان شاذًا أو نادرًا[٢].

٦- ينبغي أن يلاحظ أن المرأة إذا ادعت وجود حمل بها تجاوز المدة المعهودة يلزم أن نثبت ذلك بالبينة أو القرائن القوية الموجبة لتصديق قولها كأن تشهد النساء بوجود هذا الحمل ووجود علاماته الواضحة التي لا تلتبس مع الحمل الكاذب كحركة الجنين، أو ثبوت ذلك عن طريق تحليل البول أو الدم، أو الموجات الصوتية (السونار) أو غير ذلك مما يقطع وجود الحمل أو عدمه؛ لأن الأصل عدم امتداد الحمل عن المدة المعهودة، ولقطع باب الادعاء، ولكون هذا الحمل يبنى عليه أحكام كثيرة وبفضل الله يمكن في هذا الزمان الاعتماد على الأجهزة الطبية الحديثة التي تحدد عمر الجنين بدقة، إضافة إلى البصمة الوراثية والتي تحدد الأبوين بنسبة (٩٩، ٩٩٪)، والله أعلم[٣].

* * *

(١) كتاب المرأة الحامل لعبد الرشيد قاسم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نقلًا عن كتاب (أحكام المرأة الحامل) لعبد الرشيد قاسم (ص١٢٣) بتصرف.

٥ـ شبهة: فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون

نص الشبهة:

آيات تتحدث أن الناس يوم القيامة يتكلمون ويتساءلون ولا يكتمون، وآيات أخرى تتحدث أن الناس يوم القيامة لايتكلمون ولايتساءلون ويكتمون؟!

١-ففي قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنعام: ٢٢-٢٣).

مع أنه ورد في (سورة النساء: ٤٢): ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، ففي الآية الأولى نرى أنهم كتموا وتكلموا وأنكروا الشرك وفى الثانية أنهم لا يكتمون ففي آية كتم، وفي آية لم يكتمون.

٢-تعارض بين قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ (الرحمن: ٣٩)، و﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (المعارج: ١٠)، التعارض بين ذلك وبين قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤)، وقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (الصافات: ٥٠).

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: جمع الآيات التي يُظن تعارضها في هذه المسألة، والرد على دعوى التعارض.

الوجه الثاني: الآيات متعلقة بما قبلها وما بعدها.

الوجه الثالث: ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فلا افتخار بالأنساب والأحساب كما كان في الدنيا، ولا يسأل الله أحدًا عن حسبه ولا عن نسبه ولا عن قرابته.

الوجه الرابع: هذا ليس بتساؤل ولكن طلب بعضهم من بعض العفو.

الوجه الخامس: الإنسان في حياته الدنيوية (القصيرة) تمر عليه فترات لا يتكلم فيها ولا يتساءل، وفترات يتكلم ويتساءل، وفترات يكتم، وفترات لا يكتم، فما بالنا بأيام الآخرة (الطويلة).

الوجه السادس: إذا وصل الإنسان لدرجة معينة من الخوف ربما لا يستطع أن يتكلم من هول ما يراه.

الوجه السابع: المشركون لما رأوا ما يتجاوز الله عن أهل التوحيد كتموا شركهم فلا يتكلمون، ثم يختم الله على أفواههم فتتكلم جوارحهم.

الوجه الثامن: مواقف القيامة ومشاهد القيامة متعددة.

الوجه التاسع: أول ما يجتمع الخلائق بعد البعث فهم لا ينطقون في ذلك الموطن ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيكلم بعضهم بعضًا بعد الحساب.

الوجه العاشر: الرد على شبهات متعلقة ببعض الآيات:

وإليك التفصيل

الوجه الأول: جمع الآيات التي يُظن تعارضها في هذه المسألة، والرد على دعوى التعارض.

١ـ آيات تدل على أنهم يتكلمون ويتساءلون (يوم القيامة):

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ النساء: ٤٢). ﴿ قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٣). ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ (الأعراف: ٤٤). ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم ﴾ (الأعراف: ٤٨). ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف: ٥٠). ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ (إبراهيم: ٤٤). ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٦). ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ١٢). ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ (يس: ٥٢). ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (الصافات: ٥٠). ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (الزمر: ٣١). ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ (الزخرف: ٧٧). ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ (ق: ٢٨)...

٢ـ آيات تدل على أنهم لا يتكلمون ولا يتساءلون (يوم القيامة):

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (الإسراء: ٩٧). ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (طه: ١٠٨). ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠١). ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون: ١٠٨). ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن: ٣٩). ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ (المعارج: ١٠). ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (المرسلات: ٣٥-٣٦).

أوجه الرد على الشبهات المتعلقة بتلك الآيات:

أولا: إثبات أن هذه الشبهة ذكرت في عهد الصحابة وردَّ عليها عبد الله بن عباس ﷺ، ورد عليها علماء المسلمين مِنْ بعده.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ قال سعيد: جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ؛ فقد وقع ذلك في صدري! فقال ابن عباس: أتكذيبٌ؟! فقال الرجل: ما هو بتكذيب، ولكن اختلاف. قال: فهلم ما وقع في نفسك. قال له الرجل: أسمع الله تعالى يقول: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فقد كتموا في هذه الآية؟ فقال ابن عباس ﷺ: هات ما وقع في نفسك من هذا؟ فقال السائل: إذا أنت أنبأتني بهذا فحسبي. قال ابن عباس ﷺ: قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فهذه في النفخة الأولى، ينفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، ثم إذا كان في النفخة الأخرى قاموا فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. وأما قوله: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فإن الله تبارك وتعالى يغفر يوم القيامة لأهل الإخلاص ذنوبهم ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، ولا يغفر الشرك، فلما رأى المشركون ذلك قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، فتعالوا نقول: إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين. فقال الله تعالى: أما إذ كتمتم الشرك

فأختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك عرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثًا، فذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾.

ثم قال ابن عباس ﷺ للرجل: احفظ عني ما حدثتك، واعلم أن ما اختلف عليك من القرآن أشباه ما حدثتك؛ فإن الله تعالى لم ينزل شيئًا إلا قد أصاب به الذي أراد، ولكن الناس لا يعلمون، فلا يختلفن عليك القرآن؛ فإن كلًّا من عند الله تبارك وتعالى[1].

وفي لفظ: فقال له ابن عباس: هل بقي في قلبك شيء إنه ليس من القرآن شيء إلا نزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه؟

ثانيًا: الكافر لا يسأل حميمه سؤال رحمة، ولكن المؤمنين يتعارفون فيتساءلون.

١- قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الرحمن: ٣٩)، ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (المعارج: ١٠) ورد التعارض بين ذلك وبين قوله: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الصافات: ٥٠)، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤).

أولا: التساؤل أنواع:

* فمنه ماهو تساؤل من أجل التعارف: فيسأل الرجل الآخر ليعرف اسمه وعشيرته وبلده: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن

---

(١) رواه الطبري ٨/ ٣٧٣، ومجاهد في تفسيره (١٨٨٥)، وابن منده في التوحيد (٢٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧٢١٥)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢٠٧)، البعث والنشور للبيهقي (٧٤)، والأسماء والصفات للبيهقي (٨٠٩)، والمستدرك (٣١٩٨)، والطبراني في الكبير (١٠٥٩٤)، والبخاري معلقًا (٤٥٣٧، ٣٠١) باب تفسير سورة (حم السجدة، فصلت) وإسناده جيد، والسائل هو نافع بن الأزرق، وكان يأتي ابن عباس ليلقى عليه متشابه القرآن.

﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥).

* ومنه تساؤل لأجل دفع مضرة أو جلب منفعة مثل قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١). قال إبراهيم، ومجاهد، والحسن: ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي: كما يقال: أسألك بالله وبالرَّحِم[1]. فربما تحقق دفع الضر وجلب النفع وذلك بقدر تراحم الناس وتوادهم بين بعضهم بعضًا، وبقدر قدرتهم على ذلك.

* ومنه سؤال تعاطف؛ فتسأل عن حال أخيك المريض.

فهذا النوع السابق من التساؤلات منفي في الآخرة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

قال الآلوسي: وقد يقال: إن التساؤل المنفي هنا تساؤل التعارف ونحوه مما يترتب عليه دفع مضرة أو جلب منفعة، والتساؤل المثبت لأهل النار تساؤل وراء ذلك، وقد بينه سبحانه بقوله عز من قائل: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ (الصافات: ٢٨)[2].

ثالثًا: كما أن التساؤل في الدنيا يتنوع ويختلف فكذلك التساؤل يوم القيامة هو من نوع آخر يختلف عما كان في الدنيا:

قال القرطبي: قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾، وقوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فمعناه لا يسأله سؤال رحمة وشفقة، والله أعلم. وقيل: القيامة مواطن. وقيل: أي: في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥) معنى: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يتساءلون أي: يتساءلون كم لبثتم؟ كما قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الصافات: ٢٧) وهذا حسن، وقال الضحاك: ذلك تعارف تعاطف المؤمنين،

---

(١) انظر تفسير الطبري وابن كثير (الآية).

(٢) روح المعاني ١٨/ ٦٥، قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾.

والكافرون لا تعاطف عليهم كما قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ والأول أظهر[(١)].

رابعًا: أنهم يتساءلون عن أسباب ورطتهم، لا تساؤل نجدة من خزيهم:

قال ابن عاشور: إن تساؤلهم المنفي هنالك هو طلب بعضهم من بعض النجدة والنصرة، وأن تساؤلهم هنا تساؤل عن أسباب ورطتهم فلا تعارض بين الآيتين[(٢)].

قلت: وذلك واضح في القرآن كالآتي:

١- فالإنسان الذي يعذب قد يتساءل ويتناقش مع من يعذب معه سؤالًا للاستهزاء به كما في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

٢- أو يتساءل أسئلة مفادها أنه يتعجب من حاله كيف يعذب؟ وكيف لم ينجو من هذا العذاب؟ وكيف نجا مَنْ كان يستهزئ بهم في الدنيا كما في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ (ص: ٦٢-٦٤).

٣- ويتعجب كيف أن عمره مر كلمح البصر كما في قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ (طه١٠٣: ١٠٤) حتى ولو تساءلوا من أجل دفع مضرة أو جلب منفعة فإن هذا لا ينفعهم: كما في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١)، فكأنهم يبحثون ويتساءلون عن أسباب ورطتهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣١٢ (يونس: ٤٥).

(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ١٠٤ (الصافات: ٢٧).

قال القرطبي: قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾يعني: الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتخاصمون، ويُقال: (لا يتساءلون) فسقطت (لا). قال النحاس: وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهم أن هذا من قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١) إنما هو (لا يتساءلون) بالأرحام؛ فيقول أحدهم: اسألك بالرحم الذي بيني وبينك لما نفعتني، أو أسقطت لي حقًا لك عليَّ، أو وهبت لي حسنة، وهذا بين لأن قبله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم كما جاء في الحديث: "إن الرجل لَيُسر بأن يصح له على أبيه أو على ابنه حق فيأخذه منه؛ لأنها الحسنات والسيئات"، وفي حديث آخر: "رحم الله امرءًا كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فاستحله قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته، فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب". و﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ ها هنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضًا ويوبخه في أنه أضله أو فتح له بابًا من المعصية يبين ذلك أن بعده ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قال مجاهد: هو قول الكفار للشياطين. قتادة: هو قول الإنس للجن. وقيل: هو من قول الأتباع للمتبوعين. . .[1].

خامسًا: تساؤل أهل الجنة تساؤل استئناس، لا تساؤل تغيير حال لحال.

أما أهل الجنة فإن تساؤلهم للاستئناس، ولمتعة اللقاء بين بعضهم بعضًا، وللتحديث بين بعضهم بعضًا بنعمة الله عليهم أن أدخلهم الجنة وأعاذهم من النار كما في قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ (الصافات: ٥٠- ٥٩).

قال الآلوسي: وقد بين جل وعلا تساؤل أهل الجنة بقوله سبحانه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٦٨ (الصافات: ٢٧).

كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ الآية وهو أيضًا نوع آخر من التساؤل ليس فيه أكثر من الاستئناس دون دفع مضرة عمن يتكلم معه أو جلب منفعة له(١).

الوجه الثاني: الآيات متعلقة بما قبلها وما بعدها.

قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ وقال في موضع: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾.

فلا تنافي بين الآيتين، فإن قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الصافات٢٤: ٢٦) مسؤولون أي: سؤالًا نصه: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ وذلك في الآيات السابقة لها، فهو سؤال توبيخ وتبكيت، لا سؤالًا عن ذنبهم.

الوجه الثالث: ﴿ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فلا افتخار بالأنساب والأحساب كما كان في الدنيا، ولا يسأل الله أحدًا عن حسبه ولا عن نسبه ولا عن قرابته.

عن قتادة في الآية قال: ليس أحدٌ من الناس يسأل أحدًا بنسبه ولا بقرابته شيئًا.

وعن ابن جريج في الآية قال: لا يُسأل أحدٌ يومئذ بنسب شيئًا، ولا يَنْمِي إليه برحم.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ في الكلام محذوف تقديره: لا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أو يتقاطعون بها؛ لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ إنما يرفع التواصل والتفخار بها(٢).

قال الآلوسي: وقيل المنفي التساؤل بالأنساب، فكأنه قيل بينهم: لا يسأل بعضهم بعضًا بها، والمراد أنها لا تنفع في نفسها وعندهم، والآية في شأن الكفرة، وتساؤلهم المثبت في آية أخرى ليس تساؤلًا بالأنساب، وهو ظاهر فلا إشكال(٣).

بل إنه يفرح المرء أن يكون له الحق على والده؛ وهذا ما قاله ابن مسعود وسيأتي قريبًا.

---

(١) روح المعاني ١٨/ ٦٥ (المؤمنون: ١١٠).

(٢) زاد المسير ٤/ ٤٢٦ (المؤمنون: ٩٩).

(٣) روح المعاني ١٨/ ٦٥، قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾.

هل ينفع نسب النبي ﷺ؟

وإذا سأل سائل فقال: هل النبي محمد ﷺ ينفع نسبه؟

فمن حديث عبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، والمسور بن مخرمة، وعبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ: قال: "كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي"(١).

قال الآلوسي:

١- ينبغي القول بأن نفع نسبه ﷺ إنما هو بالنسبة للمؤمنين الذين تشرفوا به، وأما الكافر - والعياذ بالله تعالى- فلا نفع له بذلك أصلًا.

٢- وقد يُقال: إن هذا الخبر لا ينافي إرادة العموم في الآية بأن يكون المراد نفي الالتفات إلى الأنساب عقيب النفخة الثانية من غير فصل حسبما يؤذن به الفاء الجزائية؛ فإنها على المختار تدل على التعقيب، ويكون المراد تهويل شأن ذلك الوقت ببيان أنه يذهل فيه كل أحد عمن بينه وبينه نسب، ولا يلتفت إليه ولا يخطر هو بباله فضلًا عن أنه ينفعه أو لا ينفعه، وهذا لا يدل على عدم نفع كل نسب فضلا عن عدم نفع نسبه ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه وحُكى عن الجبائي أن المراد: أنه لا يفتخر يومئذ بالأنساب كما يفتخر بها في الدنيا، وإنما يفتخر هناك بالأعمال والنجاة من الأهوال، فحيث لم يفتخر بها ثَمَّتَ كانت كأنها لم تكن، فعلى هذا وكذا على ما تقدم يكون قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ﴾ من باب المجاز.

٣- وُجِّوزَ أن يكون فيه صفة مقدرة أي: ﴿فَلَآ أَنسَابَ﴾ نافعة أو ملتفتًا إليها أو مفتخرًا بها؛ وليس بذاك، والظاهر أن العامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو العامل في ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ﴿لا أنساب﴾ لما لا يخفى ولا يتساءلون(٢).

---

(١) وأما حديث المسور بن مخرمة فرواه أحمد ٤/ ٣٢٣. وأما حديث ابن عباس فرواه الطبراني ٣/ ١٢٩. وأما حديث عمر فرواه سعيد بن منصور في سننه (٥٢٠ -٥٢١)، وابن سعد في الطبقات ٨/ ٤٦٣، والحاكم ٣/ ١٤٢؛ والزيادة له، وكذا البيهقي ٧/ ٦٣- ٦٤. وأما حديث ابن عمر فأخرجه ابن عساكر ١٩/ ٦٠/ ٢.

(٢) روح المعاني ١٨/ ٦٥ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾.

قال ابن كثير: ومن الخصائص أن كل نسب وسبب ينقطع نفعه وبره يوم القيامة إلا نسبه وسببه وصهره ﷺ قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

قال أصحابنا:

١- قيل: معناه أن أمته ينتسبون إليه يوم القيامة، وأمم سائر الأنبياء لا تنتسب إليهم.

٢- وقيل: ينتفع يومئذ بالانتساب إليه، ولا ينتفع بسائر الأنساب. وهذا أرجح من الذي قبله بل ذلك ضعيف قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ في آي كثيرة دالة على أن كل أمة تُدعى برسولها الذي أرسل إليها[1].

قال المناوي: النسب بالولادة، والسبب بالزواج؛ أصله من السبب وهو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء، ثم استعير لكل ما يوصل لأي شيء، (وصهري) الفرق بينه وبين النسب أن النسب راجع لولادة قريبة لجهة الآباء والصهر من خلطة تشبه القرابة يحدثها التزويج[2].

فالحديث معناه: أنه لا يبقى يوم القيامة سبب ولا نسب إلا نسبه وسببه؛ وهو الإيمان والقرآن، فإن قيل: قد قال هاهنا ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الصافات: ٢٧)؟

الجواب: ما رُوي عن ابن عباس ﷺ: (أن للقيامة أحوالًا ومواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون).

الوجه الرابع: **هذا ليس بتساؤل ولكن طلب بعضهم من بعض العفو.**

قال ابن حجر: وقد تأول ابن مسعود نفي المساءلة على معنى آخر وهو طلب بعضهم من بعض العفو[3].

(١) الفصول في السيرة ١/ ٣٣٣.

(٢) فيض القدير ٤/ ٤٢١.

(٣) فتح الباري ٨/ ٥٥٨.

روى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: يؤخذ بيد العبد والأَمة يوم القيامة، فينادي منادٍ على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان بن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه! فتفرح المرأة أن يذوب لها الحق على أبيها، أو على ابنها، أو على أخيها، أو على زوجها، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١) فيغفر الله تبارك وتعالى من حقه ما شاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئًا، فينصب للناس فيقول: ائتوا إلى الناس حقوقهم! فيقول: رب، فنيت الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم؟ فيقول: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كلَّ ذي حق حقه بقدر مظلمته، فإن كان وليًا لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها له حتى يدخله بها الجنة، ثم قرأ علينا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وإن كان عبدًا شقيًا قال الملك: رب، فنيت حسناته وبقي طالبون كثير! فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكًا إلى النار. وفي لفظ: من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه، فيفرح والله المرء أن يكون له الحق على والده، أو ولده، أو زوجته، وإن كان صغيرًا؛ ومصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾[(١)].

الوجه الخامس: الإنسان في حياته الدنيوية (القصيرة) تمر عليه فترات لا يتكلم فيها ولا يتساءل، وفترات يتكلم ويتساءل، وفترات يكتم، وفترات لا يكتم، فما بالنا بأيام الآخرة (الطويلة).

يوم القيامة يوم عظيم، يوم طويل، مقداره خمسين ألف سنة قال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ (المعارج: ٤)، وإن الإنسان في حياته الدنيوية ليتعرض لفترات من حياته لا يتكلم فيها مع أنه كما يقول الفلاسفة: إن

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٤/ ٩١؛ قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠)، وأخرجه ابن المبارك في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر، انظرفتح القدير ٣/ ٧١٨؛ قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (المؤمنون: ١١٨)، والدر المنثور ٧/ ٢٤٤ (المؤمنون: ١٠١).

الإنسان حيوان ناطق، فكيف ينطبق ذلك عليه أثناء وجوده في بطن أمه؟ فهو لا يتكلم ولا يتساءل، ثم إذا خرج من بطن أمه لا نسمع منه إلا الصراخ، فلا يستطيع أن يعبر عما يشكو منه، هل هو جوع، أم مرض، أم خوف؟ ويظل هكذا حتى يتعلم النطق رويدًا رويدًا، وربما كان أبكم لايتكلم! فهل هذا يعتبر خرقًا لقاعدة: أن الإنسان حيوان ناطق؟ أم أن هذا يُحمل على محمل أن غالبية الجنس البشري ينطق ويتكلم؟ والعجيب أنه ربما كان إنسان يتكلم وينطق فتحدث له مصيبة من مصائب الدنيا فيفقد النطق (إما لصدمة عصبية أو لخلل عضوي)، فنفاجأ بأنه كان يتكلم فأصبح لا يتكلم، وكان يتساءل تساؤلات تنفعه فأصبح لا يتساءل! وربما صرف الله عنه هذه المصيبة فرجع مرة أخرى يتكلم ويتساءل، وكل هذا في فترة زمنية (فترة حياته إما ستون سنة أو أقل أو أكثر) لا تقارن بالمدة التي يقضيها في يوم القيامة.

فإذا قمنا بإحصائيات على مستوى العالم: كم من البشر يتكلمون؟ وكم منهم لايتكلمون؟ نجد أن العدد الأكبر يتكلمون، وأيضًا هناك عدد كبير لا يتكلمون سواء كانوا أطفالًا رضع أو كانوا بكمًا، هذا في الدنيا فلا نستبعد في الآخرة أن السعداء يتكلمون ويحدث بعضهم بعضًا حديثًا رقراقًا جميلًا، والأشقياء تحدث لهم أحوالٌ متغايرة من كلام وعدم كلام؛ وهذا دليل على شدة الإرتباك والحيرة التي يَمُرُّ الكافر بها يوم القيامة، وأن أحواله تتغير يوم القيامة من سوء لأسوء كما كان قلبه يتقلب في أوحال الكفر في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (الأنعام: ١١٠).

قال أبو السعود: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ ﴾ بينهم تنفعهم لزوال الزاحم والتعاطف من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة؛ بحيث يفر المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه، أو لا أنساب يفتخرون بها يومئذ كما هي بينهم اليوم ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا لاشتغال كل منهم بنفسه ولا يناقضه قوله تعالى فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون؛

لأن هذا عند ابتداء النفخة الثانية وذلك بعد ذلك[١].

الوجه السادس: إذا وصل الإنسان لدرجة معينة من الخوف ربما لا يستطع أن يتكلم من هول ما يراه.

فالكافر يصاب بذلك، وللخوف درجات، أما المؤمن فلا يصاب بذلك.

قال النسفي: ولا يكون التواصل بينهم بالأنساب إذ يفر المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه، وإنما يكون بالأعمال ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا؛ لأن كلًّا مشغولٌ عن سؤال صاحبه بحاله ولا تناقض بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فللقيامة مواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون[٢].

الوجه السابع: المشركون لما رأوا ما يتجاوز الله عن أهل التوحيد كتموا شركهم فلا يتكلمون، ثم يختم الله على أفواههم فتتكلم جوارحهم.

عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ: وأما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله تبارك وتعالى يغفر يوم القيامة لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، ولا يغفر الشرك، فلما رأى المشركون ذلك قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، فتعالوا نقول: إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين. فقال الله تعالى: «أما إذ كتمتم الشرك فاختموا على أفواههم»، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك عرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثًا، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٦/ ١٥١؛ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

(٢) مدارك التنزيل٣/ ١٣١ (المؤمنون: ١٠٨ – ١٠٠).

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

قال أحمد بن حنبل: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فذلك أن هؤلاء المشركين إذا رأوا ما يتجاوز الله عن أهل التوحيد يقول بعضهم لبعض: إذا سَألَنَا نقول: لم نكن مشركين، فلما جمعهم الله، وجمع أصنامهم، وقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قال الله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾، فلما كتموا الشرك ختم الله على أفواههم، وأمر الجوارح فنطقت بذلك، وذلك قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فأخبر الله ﷻ عن الجوارح أن شهدت، فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة[1].

قلت: فقد أجاب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: عن الجمع بين الآيتين، فعلى هذا يكون الكتمان كتمان الشرك بالنسبة للألسن؛ الألسن كتمت، والتكلم بالنسبة للجوارح، فإذن قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ هذا قالوه بألسنتهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ بجوارحهم، جوارحهم هي التي نطقت: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ محمول على أن الجوارح هي التي تتكلم، وأما كتمانهم الشرك: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ هذا محمول على الألسن، فالألسن كتمت، والجوارح لم تكتم فتكلمت.

الوجه الثامن: مواقف القيامة ومشاهد القيامة متعددة ففي بعض المواقف يكتمون ولا يتكلمون، وفي بعضها لا يكتمون ويتكلمون.

قال الشوكاني: وقد جُمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر[2].

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الصامت قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ١/ ١٢؛ قوله: الرد على الزنادقة فيما ادعوه من تعارض آي القرآن.

(٢) فتح القدير ٢/ ٦٤٩؛ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥).

أرأيت قول الله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟ قال: إن يوم القيامة يوم له حالات وتارات في حال لا ينطقون، وفي حال ينطقون، وفي حال يعتذرون، لا أحدثكم إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: **"إذا كان يوم القيامة ينزل الجبار في ظلل من الغمام، وكل أمة جاثية في ثلاثة حجب مسيرة كل حجاب خمسون ألف سنة، حجاب من نور، وحجاب من ظلمة، وحجاب من ماء؛ لا يُرى لذلك، فيأمر بذلك الماء فيعود في تلك الظلمة، ولا تسمع نفس ذلك القول إلا ذهبت فعند ذلك لا ينطقون"**[(١)].

أولًا: إن الكتمان وعدمه يختلف ما بين النفخة الأولى والنفخة الثانية:

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ قال سعيد: جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، فقد وقع ذلك في صدري! فقال ابن عباس: أتكذيبٌ؟ فقال الرجل: ما هو بتكذيب! ولكن اختلاف. قال: فهلم ما وقع في نفسك. قال له الرجل: أسمع الله تعالى يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتموا في هذه الآية؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هات ما وقع في نفسك من هذا؟ فقال السائل: إذا أنت أنبأتني بهذا فحسبي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهذه في النفخة الأولى، ينفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، ثم إذا كان في النفخة الأخرى قاموا فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[(٢)].

قال ابن حجر: وحاصل جواب ابن عباس: أن نفي المسائلة فيما قبل النفخة الثانية عند

---

(١) الدر المنثور ١٠/ ١٧٦؛ ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (المرسلات: ٢٠).

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

تشاغلهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط وإثباتها فيما عدا ذلك، وهذا منقول عن السدي؛ أخرجه الطبري، ومن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن نفي المساءلة عند النفخة الأولى وإثباتها بعد النفخة الثانية[١].

وقال أيضًا: والآية الأخرى التي ذكرها ابن عباس وهي قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد ورد ما يؤيده من حديث أبي هريرة؛ أخرجه مسلم في أثناء حديث وفيه: "ثم يلقى الثالث فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك ويثني ما استطاع فيقول الآن نبعث شاهدًا عليك فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليَّ؟! فيختم على فيه وتنطق جوارحه"[٢].

قال الشوكاني: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ قيل: هذه هي النفخة الأولى. وقيل: الثانية؛ وهذا أولى، وهي النفخة التي تقع بين البعث والنشور. وقيل: المعنى: فإذا نفخ في الأجساد أرواحها على أن الصور جمع صورة لا القرن؛ ويدل على هذا قراءة ابن عباس والحسن ﴿ٱلصُّورِ﴾ بفتح الواو مع ضم الصاد جمع صورة، وقرأ أبو رزين بفتح الصاد والواو، وقرأ الباقون بضم الصاد وسكون الواو وهو القرن الذي ينفخ فيه، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: لا يتفاخرون بالأنساب ويذكرونها لما هم فيه من الحيرة والدهشة ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا فإن لهم إذ ذاك شغلًا شاغلًا ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾، ولا ينافي هذا ما في الآية الأخرى من قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة، فالإثبات باعتبار بعضها والنفي باعتبار بعض آخر؛ كما قررناه في نظائر هذا مما أُثبت تارة ونُفي أخرى[٣].

(١) فتح الباري ٨/ ٥٥٨.
(٢) فتح الباري ٨/ ٥٥٨.
(٣) فتح القدير ٣/ ٧١٥.

قال البغوي: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ اختلفوا في هذه النفخة فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها النفخة الأولى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: ٦٨) ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨)، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الصافات: ٢٧)[1].

قال البيهقي: هذا في النفخة الأولى ينفخ في الصور فيصعق مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض إلا مَنْ شاء الله ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ثم إذا نفخ في النفخة الأخرى قاموا ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

ثانيًا: إن الكتمان وعدمه يختلف مابين النفخة الأولى ودخول الجنة:

قال ابن الجوزي: ففي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ في هذه النفخة قولان:

أحدهما: أنها النفخة الأولى؛ رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: أنها الثانية؛ رواه عطاء عن ابن عباس.

فقد أخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن عباس أيضًا أنه سئل عن الآيتين فقال: أما قوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهذا في النفخة الأولى حين لا يبقى على الأرض شيء، وأما قوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فإنهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون[3]. وفي رواية أخرى: أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال: حين ينفخ في الصور

(١) معالم التنزيل ١/ ٤٢٨؛ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (١٠١).

(٢) شعب الإيمان ١/ ٣١٨.

(٣) زاد المسير ٥/ ٤٩٠؛ قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾.

فلا يبقى حي إلا الله ﷻ(١).

قال البيضاوي: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ لقيام الساعة ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ تنفعهم، وهو لا يناقض قوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ لأنه عند النفخة وذلك بعد المحاسبة أو دخول أهل الجنة الجنة والنار النار(٢).

ثالثًا: لكل مقدار يوم من الأيام لونًا من الألوان:

أخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال: سأل نافع بن الأزرق فقال له ابن عباس: أليس قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: ٤٧)، قال: بلى. قال: وإن لكل مقدار يوم من الأيام لونًا من الألوان(٣).

رابعًا: وذلك كله أنها أيام كثيرة:

أخرج عبد بن حميد عن عكرمة أنه سئل عن قوله: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ألا أخبركم بأشد مما تسألون عنه؟ قال ابن عباس وذكر: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الرحمن: ٣٩)، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الحجر: ٩٢)، و﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ قال ابن عباس: إنها أيام كثيرة في يوم واحد فيصنع الله فيها ما يشاء، فمنها يوم لا ينطقون، ومنها يوم عبوسًا قمطريرًا(٤).

خامسًا: إن الأمر يختلف من إنسان لآخر.

فهناك من الناس من إذا خرج من قبره إلى أرض المحشر فهو يظل لا ينطق ولا يتكلم، ثم يفاجأ بأن هناك لهب من النار يتخطفه من بين الناس: عن أبي عبد الله الجدلي قال: أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو، وكعب الأحبار يتحدثون في بيت

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١١٦؛ قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾.

(٢) في تفسيره ١/ ١٦٨؛ قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١١٦؛ قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾.

(٤) الدر المنثور ٦/ ١١٦؛ قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾.

المقدس، فقال عبادة: إذا كان يوم القيامة جُمع الناس في صعيد واحد، فينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، ويقول الله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ اليوم لا ينجو مني جبار ولا شيطان مريد، فقال عبد الله بن عمرو: إنا نجد في الكتاب أنه يخرج يومئذٍ عنق من النار، فينطلق معنقًا حتى إذا كان بين ظهراني الناس قال: يا أيها الناس إني بعثت إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من الوالد بولده ومن الأخ بأخيه، لا يغنيهم مني وزر، ولا تخفيهم مني خافية: الذي يجعل مع الله إلها آخر، وكل جبار عنيد، وكل شيطان مريد. قال: فينطوي عليهم فيقذفهم في النار قبل الحساب بأربعين- إما قال يومًا وإما عامًا- قال: ويهرع قوم إلى الجنة فتقول لهم الملائكة: قفوا للحساب. فيقولون: والله ما كانت لنا أموال، وما كنا بعمال. فيقول الله: صدق عبادي أنا أحق من أوفى بعهده ادخلوا الجنة. فيدخلون قبل الحساب بأربعين - إما قال يومًا وإما عامًا[1].

الوجه التاسع: أول ما يجتمع الخلائق بعد البعث فهم لا ينطقون في ذلك الموطن ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيكلم بعضهم بعضًا ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ عند الحساب ثم يقال لهم: ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ بعد الحساب.

أولًا: أخرج عبد بن حميد عن أبي الضحى أن نافع بن الأزرق وعطية أتيا ابن عباس، وفيه قال: ويحك يا ابن الأزرق إنه يوم طويل وفيه مواقف: تأتي عليهم ساعة لا ينطقون، ثم يؤذن لهم فيختصمون، ثم يمكثون ما شاء الله يحلفون ويجهدون، فإذا فعلوا ذلك ختم الله على أفواههم ويأمر جوارحهم فتشهد على أعمالهم بما صنعوا، ثم تنطق ألسنتهم فيشهدون على أنفسهم بما صنعوا، قال: ذلك قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾[2].

---

(١) الدر المنثور١٠/ ١٧١ (المرسلات: ٢٠).

(٢) الدر المنثور ١٠/ ١٧١؛ (المرسلات: ٢٠).

ثانيًا: قال مقاتل بن سليمان: أما ما شكت فيه الزنادقة في مثل هذه الآية ونحوها من قوله جل ثناؤه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ثم قال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، فهذا عند مَنْ يجهل التفسير ينقض بعضه بعضًا! وليس بمنتقض ولكنهما في تفسير الخواص في المواطن المختلفة.

أما تفسير: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فأول ما يجتمع الخلائق بعد البعث فهم لا ينطقون في ذلك الموطن ولا يؤذن لهم فيعتذرون مقدار ستين سنة، ثم يؤذن لهم في الكلام فيكلم بعضهم بعضًا: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ عند الحساب، ثم يقال لهم: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ بعد الحساب.

وأما قوله جل ثناؤه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ فكان هذا عند من يجهل التفسير ينقض بعضه بعضًا يقول: هم بُكم فكيف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؟

فالرد أنه ليس بمنتقض، ولكنها في تفسير الخواص في المواطن المختلفة:

فأما قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ فإنهم أول ما يدخلون النار ينادون أهل النار ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾، وينادون أصحاب الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾، ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فيتركهم مقدار سبعة آلاف سنة أو ما شاء الله من ذلك، ثم يقول ﷻ سبحانه في آخر ذلك: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فعند ذلك صاروا عميًا وبكمًا وصمًا؛ لا يستطيعون الكلام، ولا يسمعون، ولا يبصرون، فهذا تفسيرها.

وأما قوله ﷻ: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فكان هذا عند من يجهل التفسير ينقض بعضه بعضًا حين قال: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ وقال في آية أخرى: ﴿فَأَقْبَلَ

﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾، فالرد أنه ليس بمنتقض ولكنهما في تفسير الخواص في المواطن المختلفة:

فأما تفسير: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ بأنه إذا نفخ في الصور النفخة الثانية قام الخلائق من قبورهم فلا أنساب بينهم في ذلك الموطن، ولا يعطف بعضهم على بعض قريب لقرابته حتى ينجو من الحساب إلى الجنة، ولا يسأل بعضهم بعضًا فذلك قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، فإذا صاروا إلى الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون إذا رأى بعضهم بعضًا فهذا تفسيره[1].

ثالثًا: قال بدر الدين العيني: قوله: (يختلف علي) أي: يشكل ويضطرب علي؛ إذ بين ظواهرها تناف وتدافع أو تفيد شيئًا لا يصح عقلًا: الأول من الأسئلة قال: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فإن بين قوله: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وبين قوله: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ تدافعًا ظاهرًا.

الثاني: قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن بينه وبين قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تدافعًا ظاهرًا؛ لأنه علم من الأول أنهم لا يكتمون الله حديثًا، ومن الثاني أنهم يكتمون كونهم مشركين.

قوله: فقال: ﴿فَلَا أَنسَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ جواب عن سؤال الأول أي: قال: فقال ابن عباس ﷺ في الجواب ما ملخصه: إن التساؤل بعد النفخة الثانية، وعدم التساؤل قبلها. وعن السدي أن نفي المساءلة عند تشاغلهم بالصعق والمحاسبة والجواز على الصراط، وإثباتها فيما عدا ذلك.

قوله: وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهو جواب عن

---

(١) (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) لأبي الحسين محمد الملطي الشافعي ١/ ٥٦ بتصرف.

السؤال الثاني وملخصه: أن الكتمان قبل إنطاق الجوارح وعدمه بعده قوله: (فعند ذلك) أي: عند نطق أيديهم، قوله: (وعنده يود الذين كفروا) أي: وعند علمهم أن الله لا يكتم حديثًا ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذا في سورة النساء وهو قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ (النساء: ٢٤) أي: يوم القيامة ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لو تسوت بهم الأرض وصاروا هم والأرض شيئًا واحدًا أو أنهم لم يكتموا أمر محمد ولا نعته؛ لأن ما عملوه لا يخفى على الله تعالى فلا يقدرون كتمانه؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم[1].

رابعًا: الكافر يريد أن يخدع الله فيعامل بنيته.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: "هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ " قالوا: لا. قال: "فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ " قالوا: لا. قال: "فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا رب، آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع. فيقول: ههنا إذا قال، ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه

---

(١) عمدة القاري ١٩/ ١٥٠.

وعظامه بعمله؛ وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه" [١].

الوجه العاشر: الرد على شبهات متعلقة ببعض الآيات:

١ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

نص الشبهة: أن قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ (الأنعام: ٢٢-٢٣) تدل أنهم كتموا الشرك وأنكروا أنهم أشركوا في الدنيا، مع أنه ورد في (سورة النساء ٤٢): ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، ففي الآية الأولى نرى أنهم كتموا وتكلموا وأنكروا الشرك، وفي الثانية أنهم لا يكتمون ففي آية كتموا، وفي آية لم يكتموا؟!

والرد على هذه الشبهة كما يلي: ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾ (النساء: ٤٢).

أولًا: أنه عطف على قوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ﴾ أي: ويودون أن لو لم يكتموا الله حديثًا، لأنهم إذا سئلوا قالوا: ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فتشهد عليهم جوارحهم بما عملوا فيقولون: يا ليتنا كنا ترابًا، ويا ليتنا لم نكتم الله شيئًا؛ وهذا قول ابن عباس.

ثانيًا: أنه كلام مستأنف والمراد به: أنهم لا يكتمون الله شيئًا من أمور الدنيا وكفرهم؛ بل يعترفون به فيدخلون النار باعترافهم، وإنما لا يكتمون لعلمهم بأنه لا ينفعهم الكتمان، وإنما يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ في بعض الأحوال، فإن للقيامة مواطن وأحوالًا، ففي موطن لا يسمع كلامهم إلا همسًا، وفي موطن ينكرون ما فعلوه من الكفر والمعاصي ظنًا منهم أن ذلك ينفعهم، وفي موطن يعترفون بما فعلوه؛ عن الحسن.

ثالثًا: أن المراد أنهم لا يقدرون على كتمان شيء من الله تعالى لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه، فالتقدير: لا تكتمه جوارحهم وإن كتموه هم.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨) (كتاب الزهد والرقائق).

رابعًا: أن المراد: ودوا لو تسوى بهم الأرض وأنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد ﷺ؛ عن عطاء.

خامسًا: أن الآية على ظاهرها، فالمراد: ولا يكتمون الله شيئًا لأنهم ملجؤون إلى ترك القبائح والكذب، وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ عند أنفسنا لأنهم كانوا يظنون في الدنيا أن ذلك ليس بشرك من حيث تقربهم إلى الله؛ عن البلخي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: يوم القيامة بين سبحانه أنه يبعث فيه من كل أمة شهيدًا وهم الأنبياء والعدول من كل عصر يشهدون على الناس بأعمالهم.

وفائدة بعث الشهداء مع علم الله سبحانه بذلك أن ذلك أهول في النفس، وأعظم في تصور الحال، وأشد في الفضيحة إذا قامت الشهادة بحضرة الملأ مع جلالة الشهود وعدالتهم عند الله تعالى، ولأنهم إذا علموا أن العدول عند الله يشهدون عليهم بين يدي الخلائق فإن ذلك يكون زجرًا لهم عن المعاصي، وتقديره: واذكر يوم نبعث.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لا يؤذن لهم في الكلام والاعتذار، أو لا يؤذن لهم في الرجوع إلى الدنيا، أو لا يسمع منهم العذر، يقال: أذنت له أي: استمعت، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يسترضون ولا يستصلحون، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ومعناه: لا يسألون أن يرضوا الله بالكف عن معصية يرتكبونها.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من أمثالهم من البشر، ويجوز أن يكون ذلك الشهيد نبيهم الذي أرسل إليهم، ويجوز أن يكون المؤمنون العارفون يشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي؛ وفي هذا دلالة على أن كل عصر لا يجوز أن يخلو ممن يكون قوله حجة على أهل عصره، وهو عدل عند الله تعالى، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يريد على قومك وأمتك.

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ معناه: أن السمع يسأل عما سمع، والبصر عما رأى، والقلب عما عزم عليه، والمراد أن أصحابها هم المسؤولون؛ ولذلك قال:

﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وقيل: بل المعنى: كل أولئك الجوارح يسأل عما فعل بها، قال الوالبي عن ابن عباس: يسأل العباد فيما استعملوها.

وفي قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾: بين سبحانه أن ذلك العذاب يكون في يوم تشهد ألسنتهم فيه عليهم بالقذف، وسائر أعضائهم بمعاصيهم، وفي كيفية شهادة الجوارح أقوال:

أحدها: أن الله يبنيها ببنيه يمكنها النطق والكلام من جهتها فتكون ناطقة.

والثاني: أن الله تعالى يفعل فيها كلامًا يتضمن الشهادة فيكون المتكلم هو الله تعالى دون الجوارح، وأضيف إليها الكلام على التوسع لأنها محل الكلام.

والثالث: أن الله تعالى يجعل فيها علامة تقوم مقام النطق بالشهادة، ويظهر فيها أمارات دالة على كون أصحابها مستحقين للنار، فسمي ذلك شهادة مجازًا؛ كما يقال: عيناك تشهدان بسهرك.

وأما شهادة الأنس فبأن يشهدوا بألسنتهم إذا رأوا أنه لا ينفعهم الجحود.

وأما قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فإنه يجوز أن يخرج الألسنة ويختم على الأفواه، ويجوز أن يكون الختم على الأفواه في حال شهادة الأيدي والأرجل، ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يتمم الله لهم جزاءهم الحق، فالدين بمعنى الجزاء، ويجوز أن يكون المراد جزاء دينهم الحق. وفي قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: هذا حقيقة الختم فيوضع على أفواه الكفار يوم القيامة فلا يقدرون على الكلام والنطق.

وفي قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرقوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: جاؤوا النار التي حشروا إليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ بما قرعه من الدعاء إلى الحق فأعرضوا عنه ﴿وَأَبْصَارُهُمْ﴾ بما رأوا من الآيات الدالة على وحدانية الله فلم يؤمنوا، وسائر ﴿جُلُودُهُمْ﴾ بما باشروه من المعاصي والأعمال القبيحة.

٢ـ في قوله: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.

قال الآلوسي: أي ولا يسأل بعضهم بعضًا عن حاله؟ وممن هو؟ ونحو ذلك لاشتغال كل منهم بنفسه عن الالتفات إلى أبناء جنسه؛ وذلك عقيب النفخة الثانية من غير فصل أيضًا فهو مقيد بيومئذ وإن لم يذكر بعده اكتفاء بما تقدم، وكان كلا الحكمين بعد تحقيق أمر تلك النفخة لديهم، ومعرفة أنها لماذا كانت وحينئذ يجوز أن يقال: إن قولهم ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ قبل تحقق أمر تلك النفخة لديهم فلا أشكال.

ويحتمل أن كلا الحكمين في مبدأ الأمر قبل القول المذكور كأنهم حين يسمعون الصيحة يذهلون عن كل شيء الأنساب وغيرها كالنائم إذا صيح به صيحة مفزعة فهب من منامه فزعًا ذاهلًا عمن عنده مثلًا، فإذا سكن روعهم في الجملة قال قائلهم: من بعثنا من مرقدنا. وقيل: لا نسلم أن قولهم: مَنْ بعثنا مِنْ مرقدنا أنه كان بطريق التساؤل، وعلى الإحتمالين لا يشكل هذا مع قوله تعالى في شأن الكفرة يوم القيامة: ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وفي شأن المؤمنين: ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فإن تساؤل الكفرة المنفي في موطن وتساؤلهم المثبت في موطن آخر ولعله عند جهنم وهو بعد النفخة الثانية بكثير، وكذا تساؤل المؤمنين بعدها بكثير أيضًا فإنه في الجنة كما يرشد إليه الرجوع إلى ما قبل الآية[(١)].

قال ابن الجوزي: وفي قوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: لا يتساءلون بالأنساب أن يترك بعضهم لبعض حقه.

والثاني: لا يسأل بعضهم بعضًا عن شأنه لاشتغال كل واحد بنفسه.

والثالث: لا يسأل بعضهم بعضًا: من أي قبيل أنت؟ كما تفعل العرب لتعرف النسب فتعرف قدر الرجل[(٢)].

---

(١) روح المعاني ١٨/ ٦٥؛ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾.

(٢) زاد المسير ٥/ ٤٩٠؛ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾.

٣- في قوله ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾

١- وأما قوله ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المرسلات: ٣٥) ثم قال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الزمر: ٣١)، فقالوا: كيف يكون هذا من الكلام المحكم؟ قال: هذا يوم لا ينطقون، ثم قال في موضع آخر: ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون؟ فزعموا أن هذا الكلام ينقض بعضه بعضًا؛ فشكوا في القرآن.

أما تفسير: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فهذا أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون؛ فذلك قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ (السجدة: ١٢)، فإذا أذن لهم في الكلام فتكلموا واختصموا فذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ عند الحساب وإعطاء المظالم، ثم يقال لهم بعد ذلك: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ أي: عندي ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ (ق: ٢٨) فإن العذاب مع هذا القول كائن.

٢- وأما قوله ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ (الإسراء: ٩٧) وقال في آية آخرى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٥٠)، فقالوا: كيف يكون هذا من الكلام المحكم؟ ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ ثم يقول في موضع آخر أنه ينادي بعضهم بعضًا؟ فشكوا في القرآن من أجل ذلك.

أما تفسير: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ (الأعراف: ٤٤)، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ فإنهم أول ما يدخلون النار يكلم بعضهم بعضًا، وينادون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ (إبراهيم: ٤٤)، ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ (المؤمنون: ١٠٦)، فهم يتكلمون حتى يُقال لهم: اخسأوا فيها

ولا تكلمون، فصاروا فيها عميًا وبكمًا وصمًا، وينقطع الكلام، ويبقى الزفير والشهيق؛ فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة من قول الله.

٣- وأما قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، وقال في آية أخرى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (الصافات: ٥٠)، فقالوا: كيف يكون هذا من المحكم؛ فشكوا في القرآن من أجل ذلك.

فأما قوله ﷻ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهذا عند النفخة الثانية إذا قاموا من القبور لا يتساءلون ولا ينطقون في ذلك الموطن، فإذا حوسبوا ودخلوا الجنة والنار أقبل بعضهم على بعض يتساءلون فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة. اهـ[1].

قال القرطبي:

١- قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: لا يتكلمون، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت؛ فهذا من المواقيت التي لا يتكلمون فيها ولا يؤذن لهم في الاعتذار والتنصل، وعن عكرمة عن ابن عباس قال: سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ و﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه: ١٠٨) وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الصافات: ٢٧)؟

فقال له: إن الله ﷻ يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحج: ٤٧) فإن لكل مقدار من هذه الأيام لونًا من هذه الألوان.

٢- وقيل: لا ينطقون بحجة نافعة، ومن نطق بما لاينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق. قال الحسن: لاينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون. وقيل: إن هذا وقت جوابهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ (المؤمنون: ١٠٨) وقد تقدم. وقال أبو عثمان: أسكتتهم رؤية الهيبة وحياء الذنوب. وقال الجنيد: أيُّ عذر لمن أعرض عن منعمه، وجحده، وكفر أياديه ونعمه؟

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ١/ ٨.

و﴿يَوْمُ﴾ بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر أي تقول الملائكة: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿انطَلِقُوٓا﴾ من قول الملائكة، ثم يقول الله لأوليائه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ لا ينطق الكفار. ومعنى اليوم: الساعة والوقت. وروى يحي بن سلطان عن أبي بكر عن عاصم: ﴿هَٰذَا يَوْمَ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥﴾ بالنصب، ورويت عن ابن هرمز وغيره؛ فجاز أن يكون مبنيًا لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع؛ وهذا مذهب الكوفيين، وجاز أن يكون في موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم؛ وهذا مذهب البصريين؛ لأنه إنما بُني عندهم إذا أضيف إلى مبني والفعل هاهنا معرب[١].

* * *

(١) تفسيرالقرطبي ١٩/ ١٤٦.

٦ـ شبهة: الظل.

نص الشبهة إجماليًا:

١- قول المفسرين: الشمس تتبع الظل وتتلوه؛ لأنها دليل له يقوده، مع أن دوران الأرض هو المسئول عن تحولات الظل.

٢- الظل يوجد تحت أي نور كان مثل ضوء قمر أو مصباح فقول المفسرين: لولا الشمس ما كان الظل، كيف ذلك والليل شكل من أشكال الظل؟!

نص الشبهة تفصيليًا:

جاء في سورة (الفرقان: ٤٥- ٤٦): ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ وفسرها علماء الإسلام كما يلي:

أي: ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته كيف بسط تعالى الظل ومده وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس المتوهجة؟ إذ لولا الظل لأحرقت الشمس الإنسان وكدرت حياته، ﴿ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي لو أراد سبحانه وتعالى لجعله دائمًا ثابتًا في مكان لا يزول ولا يتحول عنه ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، فتارة يكون جهة المشرق، وتارة جهة المغرب، وأخرى من أمام أو خلف، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أي: جعلنا طلوع الشمس دليلًا على وجود الظل، فلولا وقوع ضوئها على الأجرام لما عُرف أن للظل وجودًا ولما ظهرت آثار هذه النعمة، ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أي: أزلنا هذا الظل شيئًا فشيئًا وقليلًا قليلًا لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح[1].

وقال قتادة والسدي عن قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ دليلًا تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله[2].

الاعتراضات:

---

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٣٦٥ (الفرقان: ٤٥).

(٢) ابن كثير ٣/ ٤٢٧ (الفرقان: ٤٥).

نعلم أن الله له قدرة كاملة وسلطة تامة؛ إذ يعمل مايشاء وقتما شاء وكيفما شاء، إلا أن أعماله لا تعارض صفاته، وبالتالي نستطيع القول بأنه يقدر على أن يجعل الظل ساكنًا، لكننا لا نعترض على هذا بل على قول القرآن: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾.

١ - هل فعلًا الشمس تتبع الظل وتتلوه؟ هل هي الدليل الذي يقوده؟

٢- لما قالوا بأن الدليل معناه: (البرهان أيضًا على وجود الشمس)؛ إذ لولا الشمس لما عرفنا أن الظلَ موجودٌ؟

نجيبهم بأن هذا التفسير لا يخلو هو الآخر من أخطاء؛ إذ أن الظل موجود أيضًا تحت ضوء القمر والمصابيح وتحت أي نور كان، بل حتى الليل المظلم هو شكل من أشكال الظل، إذًا فالشمس ليست هي الدليل على وجود الظل بل الظل ذاته دليل على وجود نفسه.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال، فهما متلازمان كالمهتدي يقتدي بالهادي.

الوجه الثاني: توضيح قول صاحب الشبهة: إن المسئول عن حركة الظل على الأرض دوران الأرض لا ارتفاع وانخفاض الشمس الذي نراه بأعيننا.

الوجه الثالث: القرآن يُثبت أن الظل له أنواع، كما أن النور له أنواع.

الوجه الرابع: ظلال الجنة ليس المسئول عنها طلوع شمس ولا دوران أرض.

الوجه الخامس: تحقيق قول المفسرين: (لولا الشمس ما كان الظل).

الوجه السادس: الآية تقصد نوعًا معينًا من الظل لا كل الأنواع.

الوجه السابع: خص الله ذكر الظل الذي هو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس في هذه الآية لحكمة.

الوجه الثامن: الشمس دليل للظل بسبب نسخها له لا بسبب اتباعها له.

الوجه التاسع: مناقشة معنى كلمة: (الدليل) في قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾.

الوجه العاشر: قد تم قياس قطر الأرض ومحيطها، ومساحتها، وبعدها عن الشمس

بفضل الأشعة الضوئية الصادرة من الشمس باتجاه الأرض وتغيُّر طول الظل وزاويته.

الوجه الحادي عشر: الظل له مسببات مختلفة، ليس فقط دوران الأرض بل الشمس في الأصل هي المسئولة عن ذلك.

الوجه الثاني عشر: يمكن أن نعتبر في بعض الأوقات بأن الظل هو الليل، ولنناقش قول صاحب الشبهة: (إن الليل المظلم هو شكل من أشكال الظل).

الوجه الثالث عشر: القرآن يوضح لنا في هذه الآية أنه كما أن الشمس تكون دليلا على الظل فإن الله دليل على كل دليل؛ قال العلماء: الله دليل على كل دليل.

الوجه الرابع عشر: الإعجاز العلمي في هذه الآية.

الوجه الخامس عشر: هناك علاقة بين الظل والكسوف.

الوجه السادس عشر: الظل والظلام، وما بين القرآن والكتاب المقدس.

وإليك التفصيل:

الوجه الأول: بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال، فهما متلازمان كالمهتدي يقتدي بالهادي.

قال الرازي: كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل من جانب المغرب، ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرًا يسيرًا كان زوال الأظلال كذلك.

جعل الله الشمس دليلًا لأنه بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال، فهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما، فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر، فكما أن المهتدي يقتدي بالهادي والدليل ويلازمه - فكذلك الأظلال ملازمة للأضواء؛ ولذلك جعل الشمس دليلًا عليه.[١]

الوجه الثاني: توضيح قول صاحب الشبهة: إن المسئول عن حركة الظل على الأرض دوران الأرض لا ارتفاع وانخفاض الشمس الذي نراه بأعيننا.

يوضح علماء الفلك حتمية وجود مرجعية للكون في خارجه يسمونها نقطة المرجعية (AReference Point) فبالنسبة لكواكب المجموعة الشمسية تكون الشمس هي نقطة المرجعية.

---

(١) مفاتيح الغيب١١/ ٤٢٧ (الفرقان: ٤٥).

قال أ. د/ كارم غنيم[1]:

أولًا: ومعنى الآية في سورة الفرقان هو: ألم تر إلى عجيب صنع ربك كيف جعل الظل ممتدًا منبسطًا على الأجسام؟ ولو شاء لجعله لاصقًا بكل مظلم، ثم جعل الشمس دليلًا على وجوده، فلولاها لما وقع ضوء على الأجرام ولما عُرف للظل وجود؛ لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها، ثم أزلنا الظل لا دفعة بل يسيرًا يسيرًا؛ فإنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الإظلال في جانب المغرب شيئًا بعد شيء، وفي القبض على هذا الوجه منافع جمة.

ثانيًا: أنه سبحانه لما خلق السماء والأرض ألقت السماء ظلها على الأرض ممدودًا منبسطًا، ثم خلق الشمس وجعلها دليلًا على الظل؛ لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من حيث أنه يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص. . . ثم إن لقبض الظل معنيان:

(١) انتهاء الإظلال إلى غاية ما من النقصان بالتدريج.

(٢) قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه؛ وهى الأجرام المضيئة.

ثالثًا: ينتج الظل فيزيائيًا عندما تسقط الأشعة على حائل فتنخفض إضاءته على مسقطه عنها على ما يحيط به، وهو كما عبر عنه صاحب (غرائب القرآن): أمر وسط بين الظلمة الحالكة والضوء الخالص. ويتغير الظل طولًا وقصرًا بعكس اتجاه دوران مصدر الإضاءة، ويتغير في الطبيعة من يوم لآخر خلال أيام السنة، ومن وقت لآخر، ومن مكان لآخر على سطح الأرض، والسبب في هذا هو دوران الأرض حول محورها مرة كل يوم خلال حركتها الدورانية حول أمها الشمس، والتي هي الأخرى تدور حول نفسها في مدار مائل، وبِتَغَيُّر حركة الشمس الظاهرية تتغير حركة الأشعة الضوئية الساقطة، ويتبع هذا تغير ظلال الأشياء؛ أي: أنها لا تبقى ساكنة أو دائمة على حالها.

وهكذا يستمر الظل في حركة وتغير مادامت الشمس مستمرة في حركة ودوران، وما

---

(١) رئيس جمعية الإعجاز العلمي للقرآن في القاهرة (المصدر / موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في مقالة: الظل الممدود له حدود.

دام الضوء المنبعث منها يسير بسرعة هائلة (مقدارها ثلاثمائة ألف كيلومترًا في الثانية تقريبًا)، ولولا هذه السرعة لما تحددت معالم ظلال الأشياء، ولا يبقى الظل أو يسكن إلا بسكون الأرض؛ أي: توقفها عن الدوران، ولو حدث هذا لاختل توازنها في دورانها حول أمها الشمس، ولارتطمت بسطح هذه الشمس، وبهذا تكون نهايتها. . .

ويظهر الظل أيضًا في ظاهرة كسوف الشمس، عندما يوجد القمر (وهو محاق تمامًا) على الخط الواصل بين الأرض والشمس، فيحجب قرصها لمدة ثماني دقائق على الأكثر، وينتهي الكسوف بتفاوت حركة القمر في مداره حول الأرض وبحركة الشمس في مدارها الظاهري حول الأرض، ويمر القمر أيضًا في دورانه في مخروط ظل الأرض لفترات أطول خلال خسوفه حين يوجد في حالة الاستقبال.

وإذا كنا قد عرضنا اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وإيلاجهما في بعضهما وغير هذا وذاك في موضع آخر من الحلقات الحالية فإن الاختلاف في طولي الليل والنهار هو الأساس أيضًا في تغيير الظل بالزيادة والنقصان كلٌّ على حساب الآخر، ولا بأس من ذكر أجزاء من الآيات القرآنية ذات الصلة بالموضوع: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ (يونس: ٦)، ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ (المزمل: ٢٠)، ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾(الحديد: ٦).

رابعًا: ويلاحظ أن الظل إذا كان في حركة دائمة وامتداد وانكماش أمام مصدر ضوئي ثابت عبَّر القرآن عنه تعبيرًا بليغًا بكلمة: (دليل) (في الفرقان: ٤٥) (Reference Point) أي: نقطة إشارة، أو نقطة مصدر مرجعي مضيئة، فالتفكير المنطقي يهدي صاحبه إلى أن الظل إذا كان فوق جسم ما يتحرك باستمرار أمام نقطة دليل مضيئة ثابتة، فهناك إذن حركة بذلك الجسم، وهكذا تدل الآية على حركة كل من الأرض والشمس لامتداد الظل وانقباضه؛ وهى الظاهرة التي أشارت إليها الآية القرآنية المحورية في هذا الموضوع فوائد جمة نذكر أهمها فيما يلي:

تحديد مواعيد الصلاة في الإسلام، لأن الظل الحادث بسقوط أشعة الشمس تدل طولًا واتجاهًا على الوقت أثناء النهار، وأوقات الصلوات مرتبطة بارتفاع الشمس وانخفاضها تحت الأفق.

وقت الفجر: يدخل مع بداية الشفق الصباحي الذي يحدث حين تكون الشمس تحت الأفق الشرقي بمقدار معلوم.

وقت الظهر: يدخل عندما تكون الشمس ناحية الجنوب؛ أي: في أقصى ارتفاع لها خلال النهار؛ وهو الوقت الذي يكون ظل الشيء أقصر ما يمكن.

وقت العصر: يدخل عندما يبلغ ظل الشيء مثله، أو مثليه (في المذهب الحنفي) مضافًا إليه طول ظله عند الظهر.

وقت المغرب: يدخل عند اختفاء قرص الشمس تمامًا تحت الأفق الغربي، ويزول ظل الشيء نتيجة لاختفاء أشعة الشمس.

وقت العشاء: يدخل عند اختفاء الشفق المسائي؛ حين تكون الشمس تحت الأفق الغربي بمقدار معلوم.

فهذه رحمة الله بالكائنات والمخلوقات الحية من شدة الحرارة والضوء اللذين يضران بها أو من انعدامهما إذا استمر الظل ولم تشأ القدرة الإلهية بانقباضه، فكيف بحياة الأحياء تستمر مع ظل ثابت ممتدًا كان أو مقبوضًا؟! ولكن بتغيره وتبدله بين المد والانقباض تنال هذه الأحياء قسطًا من الدفء والضوء وقت المد، وقسطًا من الراحة وتلطيف حرارتها وقت الانقباض، ويتفضل المولى ﷻ علينا بهذا التقدير العظيم لمصلحة الأحياء، ويشير إلى هذه النعمة العظيمة في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: ٧١-٧٣).

بالظل عرف العلماء ظاهرة الانكسار الضوئي، فإذا مرَّ شعاع بالهواء وسقط على شيء (حائل) انكسر، ولولا هذا لكان الظل أكثر امتدادًا، ولكن بسبب الانكسار فإن ظل أي شيء يكون مقبوضًا انقباضًا يسيرًا، امتداد الظل وانقباضه يؤديان إلى تغيير درجات التسخين والتبريد؛ وهما ضروريان لإتمام العمليات الجوية من رياح، وسحب، وأمطار وغيرها، وهي عمليات لا تستقيم الدنيا إلا بها.

وهناك متعة في مشاهدة ظاهرتي الكسوف (للشمس) والخسوف (للقمر)، ويصاحبهما تكون ظلال ممتدة، وتسجيل هاتين الظاهرتين يفيد كثيرًا في دراسة سطح القمر، وأغلفة الشمس، والغلاف الجوي للكرة الأرضية، والحركة في الكون عامة، وبالظل نبه العلماء إلى ضرورة حركة الأرض، وحتمية دورانها حول محورها.

ونختم بما بدأنا به الموضوع؛ وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾(الفرقان: ٤٥-٤٦).

الوجه الثالث: القرآن يُثبت أن الظل له أنواع، كما أن النور له أنواع.

١- فمسألة أن الظل يوجد تحت أي نور مسألة واضحة في القرآن، فادعاء أن القرآن لم يُثبت إلا الظل الذي تتسبب فيه أشعة الشمس، وأن القرآن نفى الظل والنور من أي شئ آخر ادعاء بغير علم.

٢- وكذلك فالظل لا يتحرك إلا إذا تحرك النور الموجه عليه، وهذا واضح بيانه في القرآن.

٣- تشير الآية إلى دور ضوء الشمس كمؤشر للظل نظرًا لاختلاف نفاذية الضوء خلال الأوساط المادية المختلفة ولاختلاف الموقع الظاهري للشمس خلال النهار بسبب دوران الأرض حول نفسها بمعدل يؤدي إلى نسخ الظل تدريجيًا بمقدار يتناسب مع مرور الزمن وليس دفعة واحدة.

أنواع الظل في القرآن:

١ـ ظل لهيب النار:

قال تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ (المرسلات٢٩: ٣١).

قال ابن قتيبة: و(الظل) هاهنا: ظل من دخان نار جهنم سطع، ثم افترق ثلاث فرق، وكذلك شأن الدُّخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب[1].

ووصف الله هذا الظل فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ (الواقعة: ٤١-٤٤).

وفي الدنيا أيضًا نرى للنار ظلًا إذا كانت تشتعل في الظلام، فأصبح في هذه الحالة أن هناك ظلين: ظل النار، والليل (المخيم على هذه النار) يعتبر ظلًا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (البقرة: ١٧).

٢ـ ظل الأشياء في وجود أشعة الشمس أو في عدم وجودها:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (النحل: ٤٨).

قال الأزهري: تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي بعدما انصرفت عنه الشمس، والظل ما يكون بالغداة؛ وهو ما لم تنله الشمس كما قال الشاعر:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه   ولا الفيء من برد العشي تذوق.

قال ابن الجوزي: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أراد من شيء له ظل، من جبل، أو شجر، أو جسم قائم. ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ وهو جمع ظل، وإنما جمع وهو مضاف إلى واحد؛ لأنه واحدٌ يُراد به الكثرة كقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ (الزخرف: ١٣).

---

(١) زاد المسير ٦/ ١١٠ (المرسلات).

قال ابن قتيبة: ومعنى ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ يدور ويرجع من جانب إلى جانب، والفيء: الرجوع، ومنه قيل للظل بالعشيِّ: فيء؛ لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق.

قال المفسرون: إذا طلعتْ الشمس وأنت متوجه إلى القبلة كان الظل قُدَّامك، فإذا ارتفعتْ كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك، وإذا دنتْ للغروب كان على يسارك[١].

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ (النحل: ٨١).

٣ـ ظل الغمام:

مع أن الغمام قد يحجب نور الشمس فلا يراها الناس لكثرة الغمام فقال الله ممتنا على بني إسرائيل: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ (البقرة: ٥٧).

قال أبو حيان: (ظَلَّلَ) فعَّلَ، وهو مشتق من الظل، والظل أصله المنفعة، والسحابة ظلة لما يحصل تحتها من الظل، ومنه قيل: السلطان ظلّ الله في الأرض، قال الشاعر:

فلو كنت مولى الظل أو في ظلاله.. ظلمت ولكن لا يدي لك بالظلم[٢].

٤ـ عذاب بسبب الظلة:

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء: ١٨٩).

قال ابن عباس: نشأت لهم سحابة كهيئة الظُلَّة فيها ريح بعد أن امتنعت الريح عنهم، فأَتَوْها يستظلُّون تحتها فأحرقتهم[٣].

أنواع الأنوار في القرآن:

١ـ نور المصباح:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ

(١) زاد المسير ٤/ ٤٥٢ (النحل: ٤٨).

(٢) البحر المحيط ١/ ٢٦١ (البقرة: ٥٤).

(٣) زاد المسير (٣/ ٣٧٢).

عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ (النور: ٣٥).

٢ـ نور النجوم:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (الأنعام: ٩٧)

٣ـ نور من لهيب النار:

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ (طه: ٩-١٠).

الوجه الرابع: ظلال الجنة ليس المسئول عنها طلوع شمس ولا دوران أرض.

الله قادر على أن يجعل هناك ظلًا ليس المسئول عنه لا طلوع شمس، ولا دوران أرض: فهذا إثبات من القرآن أن الظل قد يتسبب فيه مسببات كثيرة، وقد تنعدم المسببات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ (يس٥٥: ٥٦)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ (المرسلات: ٤١) فمع أن الله يثبت أنه ليس في الجنة شمسًا حتى تكون دليلًا على ظلال الجنة؛ قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ (الإنسان: ١٣-١٤).

قال الشوكاني: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ والجنة كلها ظلٌّ لا شمس معه[1].

الوجه الخامس: تحقيق قول المفسرين: (لولا الشمس ما كان الظل).

ذكر ابن كثير أن المفسرين فسروا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ بتفسيرين وهما:

١ـ **القول الأول:** لولا أن الشمس تطلع على الظل لما عرف؛ فإن الضد لا يعرف إلا بضده، فلولا الشمس لم يعلم أن الظل شيء؛ إذ الأشياء إنما تعرف بأضدادها، والمعنى أي:

(١) فتح القدير ٧/ ١٢٧ (الواقعة: ٣٠).

جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شئ ومعنى، وكذلك لولا النور ما عرفت الظلمة.

من قال بذلك من المفسرين: ابن عباس، وسعيد بن جُبير، وقاله أبو حيان(١)، وحكاه الطبري، وقاله الثعالبي(٢)، وابن جزي(٣)، وعليه أكثر المفسرين.

٢ـ القول الثاني: قال قتادة، والسّدي: أي دليلًا يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله.

قلت: عند استقراء كتب التفسير نجد المفسرين كلامهم يدور حول هذين القولين.

الجمع بين القولين، وأنه ليس بينهما تضاد، ومناقشة قول البيضاوي:

أ ـ قال البيضاوي:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ فإنه لا يظهر للحس (أي: الظل) حتى تطلع (أي: الشمس) فيقع ضوؤها على بعض الأجرام أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها، ﴿ثم قبضناه إلينا﴾ أي: أزلناه بإيقاع الشمس موقعه لما عبر عن إحداثه بالمدِّ بمعنى: التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف، ﴿قبضًا يسيرًا﴾ قليلًا قليلًا حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك مصالح الكون ويتحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق، و﴿ثم﴾ في الموضعين لتفاضل الأمور أو لتفاضل مبادئ أوقات ظهورها، وقيل: ﴿مد الظل﴾ لما بنى السماء بلا نير ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها، ولو شاء لجعله ثابتًا على تلك الحالة، ثم خلق الشمس عليه دليلًا أي: مسلطًا عليه مستتبعًا إياه كما يستتبع الدليل المدلول أو دليل الطريق من يهديه - فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها، ﴿ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا﴾ شيئًا فشيئًا إلى أن تنتهي غاية نقصانه أو ﴿قبضًا﴾ سهلًا عند قيام الساعة بقض أسبابه من الأجرام المظلة والمظل عليها(٤).

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٧٠ (الفرقان: ٤٥).

(٢) الجواهر الحسان ٣/ ١٠١ (الفرقان: ٤٥).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٢٨٢ (الفرقان: ٤٥).

(٤) أنوار التنزيل ١/ ٢٢١ (الفرقان: ٤٥، ٤٦).

توضيح كلام البيضاوي من خلال فهم كلام الشوكاني: وكأن قول البيضاوي يوضحه قول الشوكاني:

قال الشوكاني:

يعني: الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس، وهو ظل لا شمس معه. . . ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ معطوف على قوله: ﴿مَدَّ الظل﴾ داخل في حكمه أي: جعلناها علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص.

وقوله: ﴿ثُمَّ قبضناه﴾ معطوف أيضًا على مَدَّ داخل في حكمه، والمعنى: ثم قبضنا ذلك الظلّ الممدود، ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهى ذلك الإظلال إلى العدم والإضمحلال. وقيل: المراد في الآية قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام النيرة؛ والأوَّل أولى، والمعنى: أن الظلَّ يبقى في هذا الجوِّ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضًا، وخلفه في هذا الجوِّ شعاع الشمس فأشرقت على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظلّ؛ إنما فيه بقية نور النهار، وقال قوم: قبضه بغروب الشمس؛ لأنها إذا لم تغرب فالظلّ فيه بقية، وإنما يتمُّ زواله بمجيء الليل ودخول الظلمة عليه.

وقيل: المعنى: ثم قبضنا ضياء الشمس بالفيء ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ومعنى: ﴿إِلَيْنَا﴾: أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حدوثه منه قبضًا يسيرًا أي: على تدريج قليلًا قليلًا بقدر ارتفاع الشمس، وقيل: يسيرًا سريعًا، وقيل: المعنى يسيرًا علينا أي: يسيرًا قبضه علينا ليس بعسير[1].

الوجه السادس: الآية تقصد نوعًا معينًا من الظل لا كل الأنواع.

قال أبو حيان: قال الجمهور: ﴿ٱلظِّلِّ﴾ هنا من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس مثل ظل الجنة ظل ممدود لا شمس فيه ولا ظلمة.

واعتُرض بأنه في غير النهار بل في بقايا الليل ولا يسمى ظلًا، وقيل: ﴿ٱلظِّلِّ﴾ الليل

---

(١) فتح القدير ٥/ ٢٨٢ (الفرقان: ٤٤).

لا ظل الأرض وهو يغمر الدنيا كلها، وقيل: من غيبوبة الشمس إلى طلوعها وهذا هو القول الذي قبله ولكن أورده كذا، وقيل: ظلال الأشياء كلها كقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾، وقال أبو عبيدة: (الظل) بالغداة والفيء بالعشي. وقال ابن السِّكيت: (الظل) ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس، وقيل: ما لم تكن عليه الشمس (ظل) وما كانت عليه فزالت (فيء).

قال البغوي: قال أبو عبيدة: (الظل): ما نسخته الشمس، وهو بالغداة، و(الفيء): ما نسخ الشمس؛ وهو بعد الزوال، سُمِّي فيئًا لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: على الظل. ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ يعني: الظل ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ بالشمس التي تأتي عليه، و(القبض): جمع المنبسط من الشيء؛ معناه: أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظلَّ جزءًا فجزءًا ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أي: خفيًا [(١)].

الوجه السابع: خص الله ذكر الظل الذي هو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس في هذه الآية لحكمة.

قال القرطبي: قال الحسن: مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

وقيل: هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها.

والأول أصح، والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة، فإن فيها يجد المريض راحة، والمسافر، وكل ذي علة، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوس الأحياء فيها، وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب.

وقال أبو العالية: نهار الجنة هكذا، وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر.

قال حميد بن ثور يصف سرحة: (وهو شجر كبار عظام لا ترعى وإنما يستظل فيه)

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦٩ (الفرقان: ٤٥).

وكنى بها عن امرأة:

فلا الظل من برد الضحا تستطيعه. . . ولا الفئ من برد العشى تذوق[١].

قال أ. د / كارم غنيم: الظل أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهو أعدل (أفضل) الأحوال؛ لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع، وينفر منها الحس، والضوء الكامل يبهر الحس البصري، ويؤذي بالتسخين؛ ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بالظل في قوله سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[٢].

الوجه الثامن: الشمس دليل للظل بسبب نسخها له لا بسبب اتباعها له.

قال الطبري: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يقول جلَّ ثناؤه: ثم دللناكم أيها الناس بنسخ الشمس إياه عند طلوعها عليه أنه خلْق من خلق ربكم يوجده إذا شاء، ويفنيه إذا أراد; والهاء في قوله: ﴿عليه﴾ من ذكر الظلِّ، ومعناه: ثم جعلنا الشمس على الظلِّ دليلًا، قيل: معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس التي تنسخه لم يعلم أنه شيء؛ إذا كانت الأشياء إنما تعرف بأضدادها، نظير الحلو الذي إنما يعرف بالحامض، والبارد بالحارِّ، وما أشبه ذلك، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.[٣]

قلت: فكيف يقول عاقل: إن الشمس تسير خلف الظل وتتبعه؟ وما حدث لهذا المشكك في هذه الآية إلا من جراء تعثر فهمه للغة العربية.

الوجه التاسع: مناقشة معنى كلمة: (الدليل) في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

قال ابن عاشور: ١- والدليل: المرشد إلى الطريق والهادي إليه، فجعل امتداد الظل لاختلاف مقاديره كامتداد الطريق وعلامات مقاديره مثل: صوى الطريق، وجعلت الشمس من حيث كانت سببًا في ظهور مقادير الظل كالهادي إلى مراحل بطريقة التشبيه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٨ (الفرقان: ٤٤).

(٢) المصدر: موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في مقاله: الظل الممدود له حدود.

(٣) جامع البيان ١٩/ ٢٦٧.

البليغ، فكما أن الهادي يخبر السائر أين ينزل من الطريق؟ كذلك الشمس بتسببها في مقادير امتداد الظل تُعَرِّفُ المستدلَ بالظل بأوقات أعماله ليشرع فيها.

٢- وتعدية (دليلًا) بحرف (على) تفيد أن دلالة الشمس على الظل هنا دلالة تنبيه على شيء قد يخفى كقول الشاعر: (إلا على دليل)، وشمل هذا حالتي المد والقبض.

٣- وجملة ﴿ثم قبضناه إلينا﴾ عطف على جملة ﴿مَدَّ الظلَّ﴾ أو على جملة ﴿جعلنا الشمس عليه دليلًا﴾؛ لأن قبض الظل من آثار جعل الشمس دليلًا على الظل.

٤- و(ثم) الثانية مثل الأولى مفيدة التراخي الرتبي؛ لأن مضمون جملة ﴿قبضناه إلينا قبضا يسيرًا﴾ أهم في الاعتبار بمضمونها من مضمون ﴿ جعلنا الشمس عليه دليلًا﴾؛ إذ في القبض دلالة من دلالة الشمس هي عكس دلالتها على امتداده، فكانت أعجب إذ هي عمل ضد للعمل الأول، وصدور الضدين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر.

٥- والقبض: ضد المد فهو مستعمل في معنى النقص أي: نقصنا امتداده والقبض هنا استعارة للنقص، وتعديته بقوله: (إلينا) تخييل شبه الظل بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة المكنية، وحرف (إلى) ومجروره تخييل.

وموقع وصف القبض بـ (يسيرًا) هنا أريد أن هذا القبض يحصل ببطء دون طفرة فإن في التريث تسهيلًا لقبضه؛ لأن العمل المجزأ أيسر على النفوس من المجتمع غالبًا؛ فأطلق اليسر وأريد به لازم معناه عرفًا وهو التدريج ببطء على طريقة الكناية ليكون صالحًا لمعنى آخر سنتعرض إليه في آخر كلامنا، وتعدية القبض بـ (إلينا) لأنه ضد المد الذي أسند إلى الله في قوله: ﴿مد الظل﴾ وقد علم من معنى: ﴿قبضناه﴾ أن هذا القبض واقع بعد المد فهو متأخر عنه.

٦- وفي مد الظل وقبضه نعمةُ معرفةِ أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس وفوائد الفيء، بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظل، والفريق الذي كان في الظل ينتفع

بانقباضه، هذا محل العبرة والمنة اللتين تتناولهما عقول الناس على اختلاف مداركهم.

٧- ووراء ذلك عبرة علمية كبرى توضحها قواعد النظام الشمسي، وحركة الأرض حول الشمس، وظهور الظلمة والضياء، فليس الظل إلا أثر الظلمة؛ فإن الظلمة هي أصل كيفيات الأكوان ثم انبثق النور بالشمس، ونشأ عن تداول الظلمة والنور نظام الليل والنهار، وعن ذلك نظام الفصول، وخطوط الطول والعرض للكرة الأرضية وبها عرفت مناطق الحرارة والبرودة.

٨- ومن وراء ذلك إشارة إلى أصل المخلوقات؛ كيف طرأ عليها الإيجاد بعد أن كانت عدمًا، وكيف يمتد وجودها في طور نمائها؟ ثم كيف تعود إلى العدم تدريجًا في طور انحطاطها إلى أن تصير إلى العدم؟ فذلك مما يشير إليه ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا ﴾، فيكون قد حصل من التذكير بأحوال الظل في هذه الآية مع المنة، والدلالة على نظام القدرة تقريب لحالة إيجاد الناس، وأحوال الشباب وتقدم السن، وأنهم عقب ذلك صائرون إلى ربهم يوم البعث مصيرًا لا إحالة فيه ولا بعد كما يزعمون فلما صار قبض الظل مثلًا لمصير الناس إلى الله بالبعث وصف القبض بـ(يسير) تلميحًا إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

٩- وفي هذا التمثيل إشارة إلى أن الحياة في الدنيا كظل يمتد وينقبض؛ وما هي إلا ظل، فهذان المحملان في الآية من معجزات القرآن العلمية[(١)].

قال القرطبي: فـ(الدليل) فعيل بمعنى: الفاعل، وقيل: بمعنى: المفعول كالقتيل والدهين والخضيب؛ أي: دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به، أي: أتبعناها إياه، فالشمس دليل أي: حجة وبرهان، وهو الذى يكشف المشكل ويوضحه، ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه في معنى الاسم، كما يقال: الشمس برهان والشمس حق، ﴿ثم قبضناه﴾ يريد ذلك الظل الممدود ﴿إلينا قبضًا يسيرًا﴾ أي: يسيرًا قبضه علينا- وكل أمر

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٦٤.

ربنا عليه يسير-، فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع[1].

الوجه العاشر: قد تم قياس قطر الأرض ومحيطها، ومساحتها، وبُعدها عن الشمس بفضل الأشعة الضوئية الصادرة من الشمس باتجاه الأرض وتغيُّر طول الظل وزاويته.

فهذا يوضح أن الدليل هو الشيء الذي تقاس الأشياء بالنسبة إليه، وكذلك يوضح أن هناك ظواهر أرضية يمكن حسابها بمعرفة أشعة الشمس المرئية.

قال عبد الدايم الكحيل:

١- من الحقائق المسلم بها دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، والشمس هي المركز والدليل على حركة الأرض، وتفكَّر معي كم من الوقت والجهد استغرقت هذه الحقائق للظهور؟ وكم من العلماء أفنى حياته في سبيل كشف حقيقة علمية واحدة؟!

إن بداية ملاحظة دوران الأرض هي تغير طول ظل الأشياء؛ إذن حركة الظل هي دليل على حركة الأرض، أي أن ظل الأشياء على الأرض يمتد منذ شروق الشمس وحتى غروبها، ويتحرك هذا الظل مغيرًا طوله باستمرار وبحركة خفيفة لا يمكن رؤيتها مباشرة بل يمكن إدراكها.

٢- لقد بدأ العلماء يقيسون قطر الأرض ومحيطها ومساحتها وبُعدها عن الشمس، كل هذا بفضل الأشعة الضوئية الصادرة من الشمس باتجاه الأرض وتغير طول الظل وزاويته، حتى إن بعض العلماء تمكن من قياس سرعة الضوء والبالغة ثلاث مئة ألف كيلومترًا في الثانية الواحدة، هذه السرعة الرهيبة تم قياسها اعتمادًا على مسقط أشعة الشمس على الأرض، وتغير طول الظل خلال السنة وعبر الفصول الأربعة.

نأتي الآن إلى أعظم كتاب على وجه الأرض كتاب الله ﷻ بماذا يخبرنا؟ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٥) إن كلمة (مدَّ) تعني: تحرك بحركة غير مرئية بشكل مباشر إنما نرى آثارها،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٨-الفرقان).

وهذا بالضبط ما نراه في ظل الشيء على الأرض، وقدرة الله تعالى على تحريك هذا الظل تستطيع أن تجعله ساكنًا، فالله تعالى حرَّك الظل ولو شاء لجعله ساكنًا عديم الحركة، ولكن هل تستمر الحياة؟! ستكون الحالة هذه إما ليل دائم أو نهار دائم ولا تستقيم الحياة على الأرض في هذه الحالة، ثم أكد البيان الإلهي على أن مركز دوران الأرض هو الشمس بقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ ونحن نعلم بأن الدليل هو الشيء الذي تقاس الأشياء بالنسبة إليه، إذن الشمس في مركز الدوران والأرض تدور من حولها[1].

الوجه الحادي عشر: الظل له مسببات مختلفة، ليس فقط دوران الأرض بل الشمس في الأصل هي المسئولة عن ذلك.

قال الشهرستاني: حركة الشمس مع الظل، فإن الشمس تتحرك عن فلكها أقدامًا كثيرة حتى يظهر في الظل قدم واحد، فلو قدرنا حركتها بمقدار جزء واحد فيجب أن يتحرك الظل بمقدار ألف جزء من جزء فيتجزىء الجزء المفروض[2].

قال أبو حيان: لما طلعت الشمس دلَّت على زوال الظل وبدا فيه النقصان، فبطلوع الشمس يبدو النقصان في الظل، وبغروبها تبدو الزيادة في الظل فبالشمس استدل أهل الأرض على الظل وزيادته ونقصه، وكلما علت الشمس نقص الظل، وكلما دنت للغروب زاد وهو قوله: ﴿ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا﴾ يعني: في وقت علوِّ الشمس بالنهار ينقص الظل نقصانًا يسيرًا بعد يسير، وكذلك زيادته بعد نصف النهار يزيد يسيرًا بعد يسير حتى يعم الأرض كلها، فأما زوال الظل كله فإنما يكون في البلدان المتوسطة في وقت، وقبضه إليه أن ينسخه بظل الشمس ﴿يسيرًا﴾ أي: على مهل، وفي هذا القبض اليسير شيئًا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصى، ولو قبض دفعة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا، ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ مستقرًا على تلك الحالة، ثم خلق الشمس وجعله على ذلك الظل سلطها عليه وجعلها دليلًا متبوعًا لهم كما يتبع الدليل في الطريق،

---

(١) انظر موقعه الخاص (http: //www. kaheel٧. com) في مقاله: دوران الأرض حول الشمس.

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام (١/ ١٧٨ - القاعدة الأولى: مسألة في إثبات الجوهر الفرد).

فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص، ثم نسخه بها قبضه قبضًا سهلًا يسيرًا غير عسير، ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تُلقي الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه[(١)].

وقال الرازي: أكثر الناس في تأويل هذه الآية، ويُرفع الكلام فيها إلى وجهين:

الأول: أن الظل لا ضوء خالص ولا ظلمة خالصة، وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وكذلك الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأبنية الجدارات، وهي أطيب الأحوال؛ لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس، والضوء الخالص يحير الحس البصري، ويحدث السخونة القوية وهي مؤذية، ولهذا قيل في الجنة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، والناظر إلى الجسم الملون كأنه يشاهد بالظل شيئًا سوى الجسم وسوى اللون، والظل ليس أمرًا ثالثًا؛ ولا معرفة به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم ثم مال عرف للظل وجود وماهية، ولولاها ما عرف؛ لأن الأشياء تدرك بأضدادها، فظهر للعقل أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون ولذلك قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: جعلنا الظل أولًا بما فيه من المنافع واللذات، ثم هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت دليلًا على وجود الظل، ﴿ثم قبضناه﴾ أي: أزلناه لا دفعة بل ﴿يسيرًا﴾ يسيرًا؛ كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل من جانب المغرب، ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرًا يسيرًا كان زوال الأظلال كذلك.

والثاني: أنه لما خلق السماء والأرض، وقع السماء على الأرض فجعل الشمس دليلًا؛ لأنه بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال، فهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما، فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر، فكما أن المهتدي يقتدي بالهادي والدليل ويلازمه فكذلك الأظلال ملازمة للأضواء؛ ولذلك جعل الشمس دليلًا عليه (اهـ. وهو مأخوذ من كلام الزمخشري).

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦٩ (الفرقان: ٤٥).

وقال أيضًا: ﴿ الظل﴾ ليس عدمًا محضًا بل هو أضواء مخلوطة بظلام، فهو أمر وجودي وفي تحقيقه دقيق يرجع فيه إلى الكتب العقلية[(١)].

الوجه الثاني عشر: يمكن أن نعتبر في بعض الأوقات بأن الظل هو الليل، ولنناقش قول صاحب الشبهة: (إن الليل المظلم هو شكل من أشكال الظل).

وذلك يتضح من خلال معرفة العلاقة بين الظل والليل في القرآن، بل انظر الآية التي يثيرون عليها الشبهة وما بعدها من الآيات:

١- العلاقة بين قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ وبين قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

قال ابن عاشور: هي مناسبة الانتقال من الاستدلال باعتبار أحوال الظل والضحاء إلى الاعتبار بأحوال الليل والنهار؛ ظاهرة فالليل يشبه الظل في أنه ظلمة تعقب نور الشمس[(٢)].

٢- **قال البقاعي**: والظل هنا الليل؛ لأنه ظل الأرض الممدود على قريب من نصف وجهها مدة تحجب نور الشمس بما قابل قرصها من الأرض حتى امتد بساطه، وضرب فسطاطه، كما حجب ظل ضلالهم أنوار عقولهم، وغفلة طباعهم نفوذَ أسماعهم ﴿ولو شاء لجعله﴾ أي: الظل ﴿ساكنًا﴾ بإدامة الليل لا تذهبه الشمس كما في الجنة لقوله: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ (الواقعة: ٣٠)، وإن كان بينهما فرق، ولكنه لم يشأ ذلك بل جعله متحركًا بسوق الشمس له. . . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ﴾ أي: بعظمتنا ﴿ الشمس عليه دليلًا﴾ أي: يدور معها حيثما دارت، فلولا هي ما ظهر أن لشيء ظلًا، ولولا النور ما عرف الظلام، والأشياء تعرف بأضدادها.

ولما كانت إزالته شيئًا فشيئًا بعد مدة كذلك من العظمة بمكان - قال منبهًا على فضل مدخول (ثم) وترتبه متصاعدًا في درج الفضل، فما هنا أفضل مما قبله، وما قبله أجلُّ مما

---

(١) مفاتيح الغيب ١١/ ٤٢٧ (الفرقان: ٤٥).

(٢) التحرير والتنوير ١٠/ ٩٥ (الفرقان).

تقدمه تشبيهًا لتباعد ما بين المراتب الثلاث في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت، ﴿ثم قبضناه﴾ أي: الظل، والقبض: جمع المنبسط، ﴿إلينا﴾ أي: إلى الجهة التي نريدها، لا يقدر أحد غيرنا أن يحوله إلى جهة غيرها.

قال الرازي (في اللوامع): وهذه الإضافة لأن غاية قصر الظل عند غاية تعالي الشمس، والعلو موضع الملائكة وجهة السماء التي فيها أرزاق العباد، ومنها نزول الغيث والغياث، وإليها ترتفع أيدي الراغبين، وتشخص أبصار الخائفين (اهـ).

﴿قبضًا يسيرًا﴾ أي: هو مع كونه في القلة بحيث يعسر إدراكه حق الإدراك - سهل علينا، ولم نزل ننقصه شيئًا فشيئًا حتى اضمحل كله، أو إلا يسيرًا، ثم مددناه أيضًا بسير الشمس وحجبها ببساط الأرض قليلًا قليلًا، أولًا فأولًا بالجبال والأبنية والأشجار، ثم بالروابي والآكام والظراب وما دون ذلك، حتى تكامل كما كان، وفي تقديره هكذا من المنافع ما لا يحصى، ولو قبض لتعطلت أكثر منافع الناس بالظل والشمس جميعًا، فالحاصل أنه يجعل بواطنهم مظلمة بحجبها عن أنوار المعارف فيصيرون كالماشي في الظلام، ويكون نفوذهم في الأمور الدنيوية كالماشي بالليل في طرق قد عرفها ودربها بالتكرار، وحديث علي ﷺ في الروح الذي مضى عند «والطيبات للطيبين» في النور شاهد حسي لهذا الأمر المعنوي. . . [1].

الوجه الثالث عشر: القرآن يوضح لنا في هذه الآيةأنه كما أن الشمس تكون دليلًا على الظل فإن الله دليل على كل دليل؛ قال العلماء: الله دليل على كل دليل.

قال الرازي: وهو أنه سبحانه وتعالى لما خلق الأرض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الأرض، ثم إنه سبحانه خلق الشمس دليلًا عليه، وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فإنهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر، وكما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل ويلازمه، فكذا الأظلال كأنها مهتدية وملازمة للأضواء فلهذا جعل الشمس دليلًا عليها.

(١) (نظم الدرر٦/ ٢٩ ـ الفرقان ٤٥).

وأما قوله: ﴿ثُمَّ قبضناه إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فإما أن يكون المراد منه انتهاء الأظلال يسيرًا يسيرًا إلى غاية نقصاناتها؛ فسمى إزالة الأظلال قبضًا لها، أو يكون المراد من قبضها يسيرًا قبضها عند قيام الساعة، وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الأظلال، وقوله: ﴿يَسِيرًا﴾ هو كقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق: ٤٤) فهذا هو التأويل الملخص.

ووجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء، وأما حصول الضوء الخالص، أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع، فحصول ذلك الظل، إما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات، والأول باطل وإلا لما تطرق التغير إليه؛ لأن الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات، فلا بد له في وجوده بعد العدم؛ وعدمه بعد الوجود؛ من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع، وما ذاك إلا من يقدر على تحريك الأجرام العلوية وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن والترتيب الأكمل، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى، فإن قيل: الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضيء، فكيف استدل بالأمر العدمي على ذاته، وكيف عده من النعم؟ قلنا: الظل ليس عدمًا محضًا، بل هو أضواء مخلوطة بظلم، والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثاني وهو أمر وجودي، وفي تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه إلى كتبنا العقلية.

إن الظل هو انعكاس نور الشمس، وإذا سميت شبح الأشياء ظلًا فلأن شعاع الشمس يمتد إليه، ونسأل: ماذا يرى الناس من ظل الشمس؟

لا يرون إلا نورًا منبعثًا منها منبسطًا على الأرض، وهو في انقباض وانبساط بمشيئة الله، فبين الحين والآخر يتبدل النهار ليلًا والليل نهارًا، وكل ذلك آية دالة على وجود الشمس.

إننا نؤمن بالشمس، دون أن نرى غير ظلها الذي نعرف من خلاله طبيعتها، وقوتها، ومدى دفئها؛ كما لو كانت الشمس هي التي نراها، وكذلك عن طريق أسماء الله وآياته في الكون يجب أن نعرف ربنا ونتيقن يقينًا راسخًا به، وكما أن الشمس هي دليل الظل بإذن الله وليس العكس، كذلك الرب هو الدليل إلى ذاته بذاته، وبآياته وأسمائه.

لذلك قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ وذلك بوقف دوران الأرض لتبقى في ليل دائم، أو نهار مستمر ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾. تتماوج التعابير والإيحاءات القرآنية لتبث حزمة نور إلى القلب وتوصل الإنسان إلى غيب الحقائق، فما نراه ظلًا للشمس، وآية من آيات الله، فلماذا عن طريق الظل نكتشف الشمس ولا نعرف وجود الله[1]!

الوجه الرابع عشر: الإعجاز العلمي في هذه الآية.

قال د/ زغلول النجار[2]:

من الدلالات العلمية للنص القرآني الكريم:

أولًا: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ (**الفرقان: ٤٥**): الظل آية من آيات النهار تنتج عن حجب أشعة الضوء المرئي عن منطقة من مناطق سطح الأرض بواسطة أحد الأجسام المعتمة كالجبال، أو الأشجار، أو الأبنية، أو أجساد الكائنات، أو كالسحب الكثيفة وغيرها من الأجسام التي تلقي ظلالًا إذا سقطت عليها الأشعة المرئية من حزمة الضوء في اتجاه واحد، ويتكون الظل في عكس الاتجاه الذي تأتي منه حزمة الضوء المرئي، والظل قد يطول ويقصر ويتسع ويضيق وفقًا لحركات مصدر الضوء، ويعتبر كل من كسوف الشمس وخسوف القمر صورة من صور تكون الظل الذي يتكون بمرور الأرض في ظل القمر أو بمرور القمر في ظل الأرض، وكذلك تتكون الأشكال المتتالية للقمر من المحاق إلى البدر الكامل (الهلال الأول أو الوليد أو المتنامي، التربيع الأول، والأحدب الأول) ثم من البدر الكامل إلى المحاق (الأحدب الثاني، التربيع الثاني، ثم الهلال الثاني أو المتناقص إلى المحاق) وكلها تمثل مراحل متدرجة لخروج نصف القمر المواجه للأرض من ظلال نصفه الآخر بالتدريج أو دخوله فيها بالتدريج كذلك.

---

(١) مفاتيح الغيب ١١/ ٤٢٨ (الفرقان: ٤٥).

(٢) (الناشر: جريدة الأهرام، تاريخ النشر: ٢٠٠٥/ ٥/ ١٦).

وفي قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ (الفرقان: ٤٥) إشارة واضحة إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى جريها في مدار محدد لها حول ذلك النجم بمحور مائل على مستوى مدار الشمس، وإلا ما تكون الظل، ولا تبادلت الفصول المناخية، فلو أن الأرض لم تكن كرة ولم تكن دوارة حول محورها أمام الشمس ما امتد الظل، ولا تبادل الليل والنهار، ولو أن كوكبنا لم يكن جاريًا باستمرار في مدار محدد حول الشمس، وبمحور مائل على مدارها ما تبادلت الفصول المناخية، ولا تغيرت زوايا سقوط أشعة الشمس على الأرض وبالتالي تغيرت شدتها، ولظلت أشعة الشمس مسلطة باستمرار على أحد نصفي الأرض المغمور في نهار دائم فتُبخِّرُ الماءَ، وتُخلخل الهواء، وتحرق كل حي أو تصيبه بالأمراض والعلل، بينما نصفها الآخر يبقي مغمورًا في ليل دائم تتجمد فيه الأحياء وتفنى فناءً كاملًا لحرمانها من طاقة الشمس، ويختل التوازن الحراري للأرض بالكامل في كل من نصفيها، وباختلاله تنعدم الحياة وفي مثل هذا الوضع الثابت للأرض، تسكن الظلال ولا تتحرك لا بالزيادة ولا بالنقصان، كذلك فإنه لولا وصول سرعة دوران الأرض حول محورها إلى معدلاتها الحالية ما صلحت الأرض للعمران، فمن الثابت علميًا أن هذه السرعة كانت في بدء خلق الأرض أعلى من ستة أضعاف معدلاتها الحالية، مما جعل طول الليل والنهار معًا أقل من أربع ساعات، وجعل عدد الأيام في السنة أكثر من (٢٢٠٠) يوم، ومن الثابت علميًا كذلك، أن ساعتين فقط من شروق الشمس لا تكفيان لازدهار الحياة الأرضية المعروفة لنا، ولا لراحة أو كدح مخلوق عاقل كالإنسان.

ويتكرر انتفاء صلاحية الأرض للحياة إذا كانت سرعة دورانها حول محورها هي نفس سرعة جريها في مدارها حول الشمس فيصبح يومها هو سنتها التي يقتسمها نهار واحد وليل واحد؛ طول كل منهما ستة أشهر كاملة، كما هو الحال في القمر الذي يتم دورته حول محوره في نفس مدة جريه في مداره حول الأرض فيصبح يومه هو الشهر القمري يقتسمه

ليل لمدة أسبوعين، ونهار لمدة أسبوعين آخرين.

ويطلق تعبير (الظل) على احتجاز النور عن منطقة ما بوجود حاجز معتم يعترض مسار موجات هذا النور (الضوء المرئي) القادم من أحد مصادر الضوء في اتجاه واحد، ويفسر تكون الظل بأن موجات الضوء المرئي تتحرك في الأوساط المتجانسة في خطوط مستقيمة، ولا تستطيع الانحناء حول الأجسام المعتمة الواقعة في طريقها، فإذا كان مصدر الضوء نقطيًا كان الظل هو المسقط الهندسي للعائق، ولكن إذا كان مصدر الضوء مستمرًا في السقوط، وممتدًا على الحاجز المعتم فإن المقطع الهندسي للعائق يتكون من منطقة ظل داخلية تحيط بها منطقة شبه ظل خارجية أقل عتمة من منطقة الظل ومتدرجة في فقد تلك العتمة حتى تلتقي بطبقة النور، وعلى ذلك فإن منطقة الظل تكون محددة بحدود دقيقة تعكس شكل الحاجز المعترض لمسار أحزمة الضوء المرئي بدقة، إذا كانت هذه الأحزمة عمودية على الحاجز، ويزداد حجم الظل أو يتناقص بزيادة أو نقصان زاوية سقوط حزمة الضوء المرئي على الحاجز المعترض لها، أما منطقة شبه الظل فإن حدودها غير واضحة لتداخلها فيما حولها من مناطق النور الكامل. وهناك فرق بين (الظل) و(الظلمة)، فالظل انخفاض في شدة الضوء المرئي، أما الظلمة فهي غياب كامل له، والنص الكريم الذي نحن بصدده يشير إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس وجريها في مدارها حول هذا النجم بمحور مائل على مستوى دورانها ولولا ذلك ما تكون الظل ولا امتد ولا قصر كل ذلك نزل في هذا الكتاب المعجز من قبل ألف وأربعمائة سنة وفي زمن لم يكن لأحد من الخلق إمكانية إدراك لهذه الحقائق التي لم تتوصل إليها العلوم المكتسبة إلا بعد ذلك بقرون عديدة وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ربانية القرآن الكريم وعلى نبوة الرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ.

ثانيًا: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٦):

من الثابت علميًا أن الطيف الكهربي/ المغناطيسي (الكهرومغناطيسي) المندفع إلينا من

الشمس يضم سلسلة من الموجات التي تتباين فيما بينها على أساس من التباين في سرعات ترددها أو أطوال موجاتها، ويتراوح طول تلك الموجات بين جزء من تريليون جزء من المتر (١٠) -١٢ ميكرون بالنسبة لأشعة جاما وعدة كيلومترات بالنسبة لموجات الراديو (الموجات اللاسلكية)، ويقع بين هاتين النهايتين كل من الأشعة السينية، والأشعة فوق البنفسجية وموجات الضوء المرئي والأشعة تحت الحمراء، وتتراوح أطوال موجات الإشعاعات البصرية بين (١٠) -٢ ميكرون، (١٠) +٢ ميكرون (والميكرون يساوي= جزءًا من مليون جزء من المتر)، وتضم موجات الضوء المرئي، وكلًا من الأشعتين فوق البنفسجية وتحت الحمراء، وتميز عين الإنسان من الضوء المرئي سبعة أطياف فقط هي: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي، وهي الألوان السبعة التي تستطيع عين الإنسان تمييزها في الظاهرة المعروفة باسم قوس قزح وإن كان الضوء المرئي في الحقيقة مكونًا من أعداد لا نهائية من الأطياف المتدرجة والمتداخلة مع بعضها البعض أطولها الطيف الأحمر وهو في نفس الوقت أقلها ترددًا، بينما الطيف البنفسجي هو أقصرها وأعلاها ترددًا، ولو كان لأطياف الضوء المرئي القدرة على اختراق الأجسام المعتمة كما هو الحال بالنسبة لكل من أشعة جاما، والأشعة السينية، والموجات القصيرة من الأشعة فوق البنفسجية؛ ما تكونت الظلال، وكذلك الحال إذا كانت كل الأجسام شفافة، وعلى ذلك فإن الشمس هي الدليل الحقيقي على الظل لاحتواء أشعتها على حزمة الضوء المرئي، وهذه الحزمة لا تستطيع اختراق الأجسام المعتمة، وتتراوح شدة إضاءة الشمس ما بين ألف ليومن (Lumen) في النهار الملبد بالغيوم ومائة ألف ليومن (Lm) على المتر المربع من سطح الأرض في الشمس الساطعة، والليومن هي إحدي وحدات قياس شدة (قوة) الضوء المرئي؛ وتعرف بأنها كمية الفيض الضوئي الذي ينبعث في الثانية الواحدة على المتر المربع من مصدر نقطي للضوء تبلغ شدته شمعة عيارية واحدة.

كذلك فإنه عند كل من شروق الشمس وغروبها فإن أشعتها تظهر لنا في مستوى

الأفق فتخترق سمكًا متعاظمًا من الغلاف الغازي للأرض حتى تصل إلى أبصارنا، وبذلك تتشتت الأطياف القصيرة قبل وصولها إلينا، وتتركز الأطياف المتوسطة والطويلة والتي أطولها الطيف الأحمر، فيغلب هذا اللون على كل من الشمس المشرقة والغاربة، وبذلك أيضًا يصل ظل كل شيء إلى أقصي مداه، ومع ارتفاع الشمس فوق الأفق يتقاصر طول الظل بالتدريج حتى الظهيرة عندما تتعامد الشمس، فيصل ظل كل شيء إلى أقصر طول له ومع بدء الشمس في التحرك من تعامدها متدرجة في الاتجاه إلى الغروب يبدأ الظل في التطاول إلى الشرق حتى يصل إلى أقصي طول له قبل الغروب مباشرة، ثم يختفي مع غياب الشمس، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٥)، وذلك لأن الظل يتبع حركة صاحبه إذا كان متحركًا، كما يتبع حركة مصدر الضوء نفسه كلما تحرك، فمع الحركة الظاهرية للشمس والناتجة عن دوران الأرض حول محورها أمام هذا النجم تتحرك ظلال الأشياء باستمرار من أطولها عند الشروق إلى أقصرها في الظهيرة، إلى أطولها عند الغروب، ثم تختفي الظلال باختفاء الشمس وإن تكونت بعض الظلال في ضوء البدر أو تحت الأضواء الصنعية.

والمزولة الشمسية (the Sundial) التي كانت من أوائل الأجهزة التي صممت لقياس الوقت تعتمد على حركة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس مما يتسبب في تحرك الظل في عكس اتجاه حركة الأرض.

ثالثا: في قوله تعالى: ﴿ثمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾((الفرقان: ٤٦):

وتشير هذه الآية الكريمة إلى استطالة الظل، من وقت تعامد الشمس في الظهيرة؛ تلك الاستطالة التدريجية إلى اتجاه الشرق حتى يصل الظل إلى أقصي طول له قبل الغروب مباشرة، ثم يختفي بغروب الشمس ودخول الليل، وهذه الحركة التي تستغرق نصف النهار تقريبًا وصفتها الآية الكريمة التي نحن بصددها بالقبض اليسير أي: المتدرج، ومن الثابت علميًا أن الأرض تدور حول محورها بسرعة تقدر بنحو ٣٠ كم في الدقيقة، وتجري

في مدارها حول الشمس بسرعة تقدر بنحو ٣٠ كم في الثانية، وهاتان الحركتان تلعبان دورًا أساسيًا في مد الظل وقبضه، وتَكَوُّن الظلِ نعمة من نعم الله ـ تعالى ـ لأنه يحمي كلًا من الإنسان والحيوان والنبات من أشعة الشمس التي لو زادت لساعات فوق احتمال كل من هذه المخلوقات لأحرقتها ودمرتها؛ وذلك لخطورة بعض الموجات المكونة لأشعة الشمس ومن أخطرها الأشعة فوق البنفسجية، وهي من الأشعات غير المرئية والتي ثبت أن لها آثارًا تدميرية على الخلايا الحية إذا تعرضت لتلك الأشعات لساعات طويلة، فالتعرض لأشعة الشمس المباشرة لساعات طويلة ومتكررة خاصة في فترات شدة الحر يسبب العديد من الأمراض التي منها سرطانات الجلد التي قد تنتشر لبقية الجسم إذا لم تتدارك بسرعة، ومنها إكزيما الشمس، وأمراض حساسية الضوء، وأمراض الميلانوما (الأورام القتامينية الخطيرة)، والتقرن الشمسي للجلد، وحروق الشمس، والتأثير على الجهاز المناعي، وعلى العينين فتسبب مرض الماء الأبيض (الساد أو السد).

وبتكون الظلال يتبادل كل من الليل والنهار، والفصول المناخية، وتتشكل المراحل المتتالية للقمر، ويحدث الخسوف، والكسوف ويمكن حساب الزمن، ولولا الظل ما بدت الأشياء مجسمة، واضحة الملامح، ومميزة بها.

هذه الحقائق نزلت في زمن سيادة الاعتقاد بثبات الأرض، وورودها بهذه الدقة العلمية القاطعة في كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أميﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لما يقطع بأن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ وحفظه حفظًا كاملًا كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا؛ حتى يأتي بهذه الدقة العلمية، وقد تحقق هذا الحفظ على مدي الأربعة عشر قرنًا الماضية، وسوف يستمر إلى ما لا نهاية تحقيقا لقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩).

الوجه الخامس عشر: هناك علاقة بين الظل والكسوف.

والمعروف علميًا أن كل الكواكب السيارة والتوابع من الأقمار المواجهة للشمس ينشر خلفها ظلٌّ معينٌ حسب حجمها وبعدها عن الشمس، فالأرض تواجه نور الشمس أثناء دورانها فيكون نصفها منيرًا ونصفها الآخر مظلمًا؛ وهو بداية الظل الذي تشكله الأرض، وكذلك القمر يواجه نور الشمس أثناء دورانه حول الأرض فيكون نصفه منيرًا ونصفه الآخر مظلمًا؛ وهو بداية الظل الذي يشكله القمر(١).

قلت: فهذا يوضح أنه ليس فقط دوران الأرض ولا غيرها من الكواكب هو الذي يتسبب في وجود الظل أو في انعدامه.

الوجه السادس عشر: الظل والظلام، وما بين القرآن والكتاب المقدس.

فوجه آخر للرد أن هذه الآية تشير إلى الظل الذي كان يغيم على وجه الأرض بعد ما خلقها الله، ولكن الكتاب المقدس يشير بأنه كان ظلامًا وليس بظل.

أولا: قال ابن عاشور:

١- الآية توضح حالة عموم الظل جميع وجه الأرض؛ أي: حالة الظلمة الأصلية التي سبقت اتجاه أشعة الشمس إلى وجه الأرض كما أشار إليه قول التوراة: (وكانت الأرض خالية وعلى وجه القمر ظلمة) ثم قال: (وقال الله ليكن نور فكان نور. . .) (وفصل الله بين النور والظلمة) (التكوين١/ ٤).

فاستدلال القرآن بالظل أجدى من الاستدلال بالظلمة؛ لأن الظلمة عدم لا يكاد يحصل الشعور بجمالها بخلاف الظل فهو جامع بين الظلمة والنور فكِلا دلالتيه واضحة.

٢- وجملة ﴿ولو شاء لجعله ساكنًا﴾ معترضة للتذكير بأن في الظل منة وقوله: ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلًا﴾ عطف على جملة ﴿مد الظل﴾، وأفادت (ثم) أن مدلول المعطوف بها متراخ في الرتبة عن مدلول المعطوف عليه شأن (ثم) إذا عطفت الجملة. ومعنى تراخي الرتبة أنها أبعد اعتبارًا أي: أنها أرفع في التأثير أو في الوجود، فإن وجود

---

(١) هذا المقال من موقع صدى المشرق http://www.sadaalmashrek.com.

الشمس هو علة وجود الظل للأجسام التي على الأرض، والسبب أرفع رتبة من المسبب أي: أن الله مد الظل بأن جعل الشمس دليلًا على مقادير امتداده[١].

ثانيًا: الكتاب المقدس يشير إلى أن رجوع الظل عشر درجات كان علامة من الرب على أن حزقيا سيشفى.

فحتى لو اعتبرنا هذا التغير في طبيعة الظل معجزة، فنحن نتساءل ما العلاقة بين رجوع الظل والشفاء؟!

ففي (إشعيا ٣٨/ ١١: ٥): (كَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ قَائِلاً: ٥«ارْجعْ وَقُلْ لِحَزَقِيَّا رَئِيسِ شَعْبِي: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ دَاوُدَ أَبِيكَ: قَدْ سَمِعْتُ صَلاَتَكَ. قَدْ رَأَيْتُ دُمُوعَكَ. هأَنَذَا أَشْفِيكَ. فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ تَصْعَدُ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ. . . . وَقَالَ حَزَقِيَّا لإِشَعْيَا: «مَا الْعَلاَمَةُ أَنَّ الرَّبَّ يَشْفِينِي فَأَصْعَدَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ؟ » ٩فَقَالَ إِشَعْيَا: «هذِهِ لَكَ عَلاَمَةٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ يَفْعَلُ الأَمْرَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ: هَلْ يَسِيرُ الظِّلُّ عَشْرَ دَرَجَاتٍ أَوْ يَرْجعُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ؟ ». ١٠فَقَالَ حَزَقِيَّا: «إِنَّهُ يَسِيرٌ عَلَى الظِّلِّ أَنْ يَمْتَدَّ عَشْرَ دَرَجَاتٍ. لاَ! بَلْ يَرْجعُ الظِّلُّ إِلَى الْوَرَاءِ عَشْرَ دَرَجَاتٍ! ». ١١فَدَعَا إِشَعْيَا النَّبِيُّ الرَّبَّ، فَأَرْجَعَ الظِّلَّ بِالدَّرَجَاتِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا بِدَرَجَاتِ آحَازَ عَشْرَ دَرَجَاتٍ إِلَى الْوَرَاءِ.

هل للموت ظل؟

ففي (سفر أيوب: ٣/ ٥: ٤) لِيَكُنْ ذلِكَ الْيَوْمُ ظَلاَمًا. لاَ يَعْتَنِ بِهِ اللهُ مِنْ فَوْقُ، وَلاَ يُشْرِقْ عَلَيْهِ نَهَارٌ. ٥لِيَمْلِكْهُ الظَّلاَمُ وَظِلُّ الْمَوْتِ. لِيَحُلَّ عَلَيْهِ سَحَابٌ. لِتَرْعَبْهُ كَاسِفَاتُ ظُلُمَاتُ النَّهَارِ.

(أيوب: ١٢/ ٢٥: ٢٢) يَكْشِفُ الْعَمَائِقَ مِنَ الظَّلاَمِ، وَيُخْرِجُ ظِلَّ الْمَوْتِ إِلَى النُّورِ. ٢٣يُكَثِّرُ الأُمَمَ ثُمَّ يُبِيدُهَا. يُوَسِّعُ لِلأُمَمِ ثُمَّ يُجْلِيهَا. ٢٤يَنْزِعُ عُقُولَ رُؤَسَاءِ شَعْبِ الأَرْضِ، وَيُضِلُّهُمْ فِي تِيهٍ بِلاَ طَرِيق. ٢٥يَتَلَمَّسُونَ فِي الظَّلاَمِ وَلَيْسَ نُورٌ، وَيُرَنِّحُهُمْ مِثْلَ السَّكْرَانِ.

الظلام يتحول إلى صباح في الظهيرة: فكيف تكون ظهيرة مع ظلمة؟

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٩٣ (الفرقان).

(أيوب١١: ١٧): وَفَوْقَ الظَّهِيرَةِ يَقُومُ حَظُّكَ. الظَّلاَمُ يَتَحَوَّلُ صَبَاحًا.

ففي سفر (التكوين١٩/ ٢٤: ٢٣): وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، ٢٤فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ.

نعم الله قادر على كل شيء، ولكن ليس في القرآن إثبات أن النار نزلت أثناء طلوع الشمس، فلا نصدق هذا الأمر.

الظلام يلمس؟ في (سفر الخروج١٠/ ٢٣: ٢١): ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ لِيَكُونَ ظَلاَمٌ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، حَتَّى يُلْمَسُ الظَّلاَمُ». ٢٢فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فَكَانَ ظَلاَمٌ دَامِسٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ. ٢٣لَمْ يُبْصِرْ أَحَدٌ أَخَاهُ، وَلاَ قَامَ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ. وَلكِنْ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ لَهُمْ نُورٌ فِي مَسَاكِنِهِمْ.

النور موجود قبل أن تخلق الشمس والنجوم، فهذا النور سطع من أي شيء؟

سفر الخروج: ١: ٢ وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه.

١: ٤ ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة. ١: ٥ ودعا الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلًا، وكان مساء وكان صباح يومًا واحدًا.

أنوار تفصل بين النهار والليل، كيف؟

(سفر التكوين ١/ ١٩: ١٣): وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا. ١٤وَقَالَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. ١٥وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. ١٦فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. ١٧وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ، ١٨وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١٩وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا.

* * *

٧ـ شبهة: ادعاؤهم تناقض القرآن في مادة خلق الإنسان.

نص الشبهة:

لماذا تناقض القرآن في مادة خلق الإنسان؟ فالقرآن يعطي معلوماتٍ مختلفةً عن خلق الإنسان ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ (المرسلات: ٢٠)، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٧٧)، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة: ٧)، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ٢)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦)، ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ (مريم: ٦٧)، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

فكيف يكون كل ذلك صحيحًا في نفس الوقت؟!

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: لابد من جمع الآيات التي تحدثت عن هذا الموضوع حتى يتكامل المعنى.

الوجه الثاني: الحكمة من خلق آدم على عدة مراحل.

الوجه الثالث: خلق سلالة آدم عليه السلام تم أيضًا على عدة مراحل.

الوجه الرابع: الرد على من اعترض على إمكانية خلق الإنسان من طين.

الوجه الخامس: خلق الإنسان في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لابد من جمع الآيات التي تحدثت عن هذا الموضوع حتى يتكامل المعنى.

من خلال الآيات والنصوص نستطيع أن نقول: إن الإنسان الأول مرَّ عليه عدة مراحل:

أولا: الفترة التي كان فيها الإنسان عدمًا:

قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ (مريم: ٦٧)، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ (مريم: ٩)، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ (الإنسان: ١).

فقوله: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ دليل على أن المعدوم ليس بشيء[١].

فالشيء هنا بمعنى: الموجود؛ أي: ولم تك موجودًا بل كنت معدومًا، والظاهر أن هذا إشارة إلى خلقه بطريق التوالد والانتقال في الأطوار كما يخلق سائر أفراد الإنسان، وقال بعض المحققين: المراد به ابتداء خلق البشر؛ إذ هو الواقع إثر العدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد، فكأنه قيل: وقد خلقتك من قبل في تضاعيف خلق آدم، ولم تك إذ ذاك شيئًا أصلًا بل كنت عدمًا بحتًا، وإنما لم يقل: وقد خلقت أباك أو آدم من قبل، ولم يك شيئًا مع كفايته في إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بشر به على حاله ﷺ لتأكيد الاحتجاج، وتوضيح منهاج القياس من حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه ﷺ من العدم؛ لأنه ﷺ أبدعُ أنموذجٍ منطويٍّ على سائر آحاد الجنس، فكان إبداعه على ذلك الوجه إبداعًا لكل أحد من فروعه كذلك، ولما كان خلقه ﷺ على هذا النمط الساري إلى جميع ذريته أبدع من أن يكون مقصورًا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه، وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته، وكان عدم زكريا حينئذٍ أظهر عنه، وكان حاله أولى بأن يكون معيارًا لحال ما بُشر به، نسب الخلق المذكور إليه كما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ (الأعراف: ١١) توفيةً لمقام الامتنان حقه انتهى، ولا يخلو عن تكلف، وجوز أن يكون الشيء بمعنى المعتد به وهو مجاز شائع، ومنه قول المتنبي:

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم... إذا رأى غير شيء ظنه رجلًا.

وقولهم: عجبت من لا شيء، وليس بشيء إذ يأباه المقام ويرده نظم الكلام...[٢].

ثانيًا: المرحلة الترابية:

فإن الله تعالى خلق آدم ﷺ من الأرض أي: مما تحويه وذلك قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا

(١) البحر المديد (٣ / ٤٧٨).

(٢) تفسير الآلوسي ١٢/ ٣٤.

نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ (طه: ٥٥)، فخلقه من ترابها وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩)، وفي ذلك آيات في القرآن كثيرة.

الحكمة من خلق آدم من تراب:

أما الحكماء فقالوا: إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه:

الأول: ليكون متواضعًا.

الثاني: ليكون ستارًا.

الثالث: ليكون أشد التصاقًا بالأرض؛ وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

الرابع: أراد إظهار القدرة، فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطف الأجرام وأعطاهم كمال الشدة والقوة، وخلق آدم عليه السلام من التراب الذي هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية، وخلق السموات من أمواج مياه البحار وأبقاها معلقة في الهواء حتى يكون خلقه هذه الأجرام برهانًا باهرًا ودليلًا ظاهرًا على أنه تعالى هو المدبر بغير احتياج، والخالق بلا مزاج وعلاج.

الخامس: خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئًا لنار الشهوة، والغضب، والحرص، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب وإنما خلقه من الماء ليكون صافيًا تتجلى فيه صور الأشياء[1].

وهذا كله يصدقه حديث أبي موسى الأشعري حيث قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ؛ جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ"**[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٧٥.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٦٩٣). والحديث: قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه

ثالثا: المرحلة الطينية.

ففي القرآن ذكر هذه المرحلة بعدة صفات:

الطين- سلالة من طين- طين لازب، فإنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف فيصير طينًا وهو قوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)، والسلالة بمعنى: المفعولة؛ لأنها هي التي تسل من ألطف أجزاء الطين[1].

وهذا الطين يتميز بخاصية وصفة اللزوجة (طين لازب)، وكان الطين لازبًا أي: لاصقًا، وقيل: لزجًا وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (الصافات: ١١).

قال ابن منظور: ولَزِبَ الطينُ يَلْزُبُ لُزُوبًا، ولزُبَ: لَصِقَ وصَلُب، وفي حديث عليّ ﷺ: دخَل بالبَلَّةِ حتى لَزَبَتْ أَي لَصقتْ ولزمت، وطينٌ لازبٌ أَي: لازقٌ؛ قال الله تعالى: ﴿من طِينٍ لازبٍ﴾

رابعًا: المرحلة الحمنية.

حيث تحول الطين إلى مادة أخرى مشتقة منه هي الحمأ أي: الطين المتغير أو الطين المنتن، فقد صار هذا الطين اللازب منتنًا، فقال تعالى في ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦).

قال الرازي: الحَمَأُ: بفتحتين والحَمَأةُ بسكون الميم الطين الأسود، حمأ: الحَمْأَةُ، والحَمَأُ: الطين الأَسود المُنتن، وفي التنزيل: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦)[2].

المَسْنون: المُنْتِن، وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ قال أَبو عمرو: أَي متغير منتن، وقال أَبو الهيثم: سُنَّ الماءُ فهو مَسْنُون أَي: تغيَّر[3].

قال شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني: (من حمأ) أي: طين أسود منتن (مسنون)، أي: مصوّر بصورة الآدمي.

ابن حبان (١٤/ ٢٩)، والحاكم (٢/ ٢٨٨)، والألباني في صحيح أبي داود (٣٩٢٦).

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٧٥.

(٢) لسان العرب ١/ ٦١.

(٣) لسان العرب ١٣ / ٢٢٧.

وقال ابن عباس: هو التراب المبتل المنتن. وقال مجاهد: هو المنتن المتغير. قال البغوي: وفي بعض الآثار: إنّ الله تعالى خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغير أسود ثم خلق منه آدم عليه السلام[(١)].

المرحلة الصلصالية:

وهي المرحلة الأخيرة في هذه السلسلة حيث انتقلت مادة الحمأ المسنون ـ كما جاء في سورة الحجر ـ على صلصال، وتخبرنا آية سورة الرحمن أن هذه المادة الصلصالية تشبه مادة الفخار؛ وهو الطين الذي تم طبخه وشيه كما ورد في فقرة سابقة، فحيث أن هذا الطين كان مخلوطًا بالرمل فهذا هو الصلصال.

قال الرازي: الصَّلْصالُ: الطين الحر خُلط بالرمل فصار يَتَصَلْصَلُ إذا جف، فإذا طُبخ بالنار فهو الفخار[(٢)].

وقال ابن منظور: والصَّلْصالُ مِن الطِّين: ما لم يُجْعَل خَزَفًا، سُمِّي به لَتَصَلْصُله، وكلُّ ما جَفَّ من طين أَو فَخَّار فقد صَلَّ صَلِيلًا، وطِينٌ صِلاَّل ومِصْلالٌ أَي: يُصَوِّت كما يصوِّت الخَزَفُ الجديد[(٣)].

قال شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني:

(من صلصال) أي: من الطين الشديد اليابس الذي لم تصبه نار، إذا نقرته سمعت له صلصلة، أي: صوتًا. وقال ابن عباس: هو الطين إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرّك تقعقع. وقال مجاهد: هو الطين المنتن، واختاره الكسائي. وقال الفراء: هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره. وقال الرازي: قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم من طين فصوّره وتركه في الشمس أربعين سنة فصار صلصالًا لا يدري أحد ما يراد به ولم يروا شيئًا من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح[(٤)].

---

(١) تفسير السراج المنير٢ / ١٥٨.

(٢) مختار الصحاح١ / ١٥٤.

(٣) لسان العرب ١١ / ٣٨٢.

(٤) تفسير السراج المنير٢ / ١٥٨.

ملخص ذلك كله:

قال شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني: وكل ما سبق متفق المعنى وذلك أنه أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء، فصار طينًا، ثم ترك حتى صار حمأ مسنونًا ثم منتنًا ثم صوّره كما يصوّر الإبريق وغيره من الأواني، ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة فصار كالخزف الذي إذا نقر صوت صوتًا، يعلم منه هل فيه عيب أو لا؟ فالمذكور هنا آخر تخليقه وهو أنسب بالرحمانية وفي غيرها تارة مبدؤه وتارة أثناؤه، فالأرض أمُّه والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذي هو من فيح جهنم، فمن التراب جسده ونفسه، ومن الماء روحه وعقله، ومن النار غوايته وحدته، ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه، فالغالب في جبلته التراب، فلهذا نسب إليه، وإن خلق من العناصر الأربع، كما أنّ الجانّ خلق من العناصر الأربع لكن الغالب في جبلته النار فنسب إليها كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (الرحمن: ١٥)[١].

قال ابن القيم: لما اقتضى كمال الرب تعالى جل جلاله وقدرته التامة وعلمه المحيط ومشيئته النافذة وحكمته البالغة تنويع خلقه من المواد المتباينة، وإنشاءهم من الصور المختلفة، والتباين العظيم بينهم في المواد، والصور، والصفات، والهيئات، والأشكال، والطبائع، والقوى؛ اقتضت حكمته أن أخذ من الأرض قبضة من التراب ثم ألقى عليها الماء فصارت مثل الحمأ المسنون، ثم أرسل عليها الريح فجففها حتى صارت صلصالًا كالفخار، ثم قدر لها الأعضاء والمنافذ والأوصال والرطوبات، وصورها فأبدع في تصويرها، وأظهرها في أحسن الأشكال، وفصلها أحسن تفصيل مع اتصال أجزائها، وهيأ كلَّ جزء منها لما يراد منه وقدَّره لما خلق له عن أبلغ الوجوه، ففصَّلها في توصيلها، وأبدع في تصويرها وتشكيلها، ثم ذكر تناسل الخلق بالجماع وإنزال المني[٢].

(١) تفسير السراج المنير ٤ / ١٠٩.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ٢٠٤.

الوجه الثاني: الحكمة من خلق آدم على عدة مراحل.

قال الرازي: والأقرب أنه تعالى خلق آدم أولًا من تراب، ثم من طين، ثم من حمأ مسنون، ثم من صلصال كالفخار، ولا شك أنه تعالى قادر على خلقه من أي جنس من الأجسام كان، بل هو قادر على خلقه ابتداء، وإنما خلقه على هذا الوجه إما لمحض المشيئة، أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الجن؛ لأن خلق الإنسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه(١).

الوجه الثالث: خلق سلالة آدم عليه السلام تم أيضًا على عدة مراحل.

وكذلك الحال والمنهاج مع المصطلحات التي وردت بالآيات القرآنية التي تحدثت عن خلق سلالة آدم عليه السلام، فكما تدرج خلق الإنسان الأول آدم من التراب إلى الطين. . . إلى الحمأ المسنون... إلى الصلصال... حتى نفخ الله فيه من روحه... كذلك تدرج خلق السلالة والذرية بدءًا من (النطفة) ـ التي هي الماء الصافي ـ ويُعَبَّرُ بها عن ماء الرجل (المنيّ)... إلى (العَلَقَة) التي هي الدم الجامد، الذي يكون منه الولد؛ لأنه يعلق ويتعلق بجدار الرحم إلى (المضغة) وهي قطعة اللحم التي لم تنضج، والمماثلة لما يمضغ بالفم... إلى (العظام)... إلى (اللحم) الذي يكسو العظام. . . إلى (الخلق الآخر) الذي أصبح بقدرة الله في أحسن تقويم(٢).

ومن الآيات التي تحدثت عن توالى وتكامل هذه المراحل في خلق وتكوين نسل الإنسان الأول وسلالته قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ (الحج: ٥).

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١ / ٢٦٧٢.

(٢) انظر معاني هذه المصطلحات في (المفردات في غريب القرآن).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤).

وإذا كانت (النطفة) هي ماء الرجل. . فإنها عندما تختلط بماء المرأة، توصف بأنها (أمشاج) ـ أي مختلطة ـ كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (٢)﴾ (الإنسان: ٢).

كما توصف هذه (النطفة) بأنها (ماء مهين) لقلته وضعفه. . وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ (السجدة: ٧-٩)، ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣)﴾ (المرسلات: ٢٠-٢٣).

وكذلك وصفت (النطفة) ـ أي: ماء الرجل ـ بأنه (دافق) لتدفقه واندفاعه. . كما جاء في الآية الكريمة: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ (الطارق٥: ٧).

هكذا عبر القرآن الكريم عن مراحل الخلق. . خلق الإنسان الأول. . وخلق سلالات وزريات هذا الإنسان. . وهكذا قامت مراحل الخلق، ومصطلحات هذه المراحل شواهد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم عندما جاء العلم الحديث ليصدق على هذه المراحل ومصطلحاتها؛ حتى لقد انبهر بذلك علماء عظام فاهتدوا إلى الإسلام[1].

فكيف يجوز ـ بعد ذلك ومعه ـ أن يتحدث إنسان عن وجود تناقضات بين هذه المصطلحات. . لقد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ

(١) ومن هؤلاء موريس بوكاي صاحب كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث).

﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ (النساء: ٨٢)[١].

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾، ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يومًا، ثم تستحيل فتصير مضغة -قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط- ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس، ويدان، وصدر، وبطن، وفخذان، ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ (الحج: ٥) أي: كما تشاهدونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق[٢].

فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكًا فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله ﷻ؛ من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها، وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود ؓ قال: حدثنا رسول الله ﷺ- وهو الصادق المصدوق-: "**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ**"[٣].

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: النطفة إذا استقرت

---

(١) حقائق الإسلام في رد شبهات المشككين صـ٢٦٧: ٢٦٣.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ١١٧.

(٣) رواه البخاري (٣١٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

في الرحم، أخذها ملك بكفه قال: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: "غير مخلقة" لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دمًا، وإن قيل: (مخلقة)، قال: أي رب، ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأي أرض يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت في ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة، فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دمًا، وإن كانت مخلقة نكست في الخلق[1].

وروى ابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: **"يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين؛ فيقول: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان. فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص"** ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق أُخَر، عن أبي الطُّفَيل، بنحو معناه[2].

وقوله: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي: ضعيفًا في بدنه، وسمعه، وبصره، وحواسه، وبطشه، وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئًا فشيئًا، ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ أي: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة، والهَرَم، وضعف

(١) تفسير الطبري١٧ / ١١٧.
(٢) رواه مسلم (٢٦٤٤).

القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)﴾ (الروم: ٥٤). وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ (المؤمنون: ١٢-١٦).

قال ابن كثير: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨)﴾ (السجدة: ٧- ٨) أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)﴾ يعني: الرحمُ مُعَد لذلك مهيأ له ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ (المرسلات: ٢٢- ٢٣) أي: إلى مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنَقَّل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: ثم صَيَّرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره-وترائب المرأة - وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الثندوة- فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. قال عكرمة: وهي دم.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وهي قطعة كالبَضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يعني: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها. وقرأ آخرون: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ قال ابن عباس: وهو عظم الصلب.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا**

يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[١].

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: إذا أتمت النطفة أربعة أشهر بُعِث إليها مَلك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ يعني: نفخنا فيه الروح. ورُوي عن أبي سعيد الخدري ﷺأنه نَفْخُ الروح.

قال ابن عباس ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ يعني به: الروح، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابنُ زيد، واختاره ابنُ جرير[٢].

وقال العَوْفِيّ، عن ابن عباس ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ يعني: ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلًا ثم نشأ صغيرًا، ثم احتلم، ثم صار شابًّا، ثم كهلًا ثم شيخًا، ثم هرمًا.

وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك، ولا منافاة؛ فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شَرَع في هذه التنقلات والأحوال، والله أعلم.

الوجه الرابع: الرد على من اعترض على إمكانية خلق الإنسان من طين.

حيث قال: بأن الطين هو سليكات الألمونيوم، وهو مادة لا تذوب في الماء، ومن ثم لا يمكن أن تدخل في تركيب جسم الإنسان؟! **فنجيب بأمور:**

١-خلق الإنسان من طين لا يستلزم خلقه من كل الطين، وإنما يكفي أنه يخلق من أحد محتويات الطين أو من أحد مكوناته، يشبه ذلك قول أحدنا أنه يسكن في القاهرة أو

(١) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٩-١٠.

أنه من القاهرة، بمعنى أنه يسكن في حي منها، بل في شارع، بل في منزل واحد.

لهذا قالت (الآية ١٢) من سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ أي من مواد تتسلل من الطين فهي محتواة فيه، التسلل هو الحركة الخفيفة، واللص المتسلل هو الذي يتحرك فلا يراه أحد؛ صيغة "فعالة" تدل على الشيء يفعل فيه فعل ما، فالسلالة ما يسل ويخرج في خفاء، والسلالة ما يسلت من شيء آخر ويفصل عنه[1].

والخلاصة هي ما يستخلصه وينقي مما يختلط به الطين الذي تتكون حبيباته من سيلكات الألومونيوم فيه مسافات تكون (٥٠٪) من حجمه، وتحتوي ما يمكن أن يحرك ويستخلص، وهو "السلالة" التي عرفنا بالوسائل العلمية أنها ماء ذابت فيه غازات وأيونات وجزيئات صغيرة من أصل عضوي وبعض الأملاح.

٢- ولأهمية المسافات البينية والمسام الموجودة في الطين وصف القرآن هذا الطين ﴿صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾وذلك في الآية ١٤ من سورة الرحمن.

من ذا الذي لا يعرف أن الإناء الفخاري يتسلل الماء من داخله إلى خارجه فيبخر ليبرد الإناء وما فيه؟!!!

وإذا كان الماء محتويًا على ملح أو سكر مذاب ترسبت بعض بلوراته على السطح الخارجي بعد تسللها من داخله، وقيل حينئذ: إن الإناء نضح بما فيه، وفي الأمثال "كل إناء بما فيه ينضح".

"الصلصلة" هي الرنين، وهي ترجيع الشيء للصوت إذا نقرت عليه أو قرعته كصلصلة الجرس. "الفخار" الجاف يصلصل لوجود الهواء في مسافاته البينية، بينما لا تسمع صلصلة إذا نقرت على قطعة من الجرانيت الذي تكون سليكات الألمونيوم (٦٠٪) منه؛ وذلك لتراكم حبيباته والتصاقها بغير مسافات بينية، كذلك لا تصلصل قطعة من حجر الإردواز وهو صخر متحول من سليكات الألومنيوم الخالصة فقد قَلَّتْ مسافاته البينية بالحرارة والضغط.

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي (سلل).

٣- ولكيلا يحدث لبس قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦) أي: من حمأ مسنون من الصلصال، وبمقارنة هذه الآية بالآية (١٢) من سورة المؤمنون ندرك أن (الحمأ المسنون) مرادف أو بديل (السلالة من الطين) وأسلوب التعبير (. . من. . من. .) أسلوب شائع في اللغة العربية، ويقصد به التفسير والتفصيل، فيذكر المتكلم الشيء مجملًا أو كليًا، ثم يتبعه التخصيص أو الجزئي؛ تقول مثلًا: أنا آتٍ من القاهرة، من الروضة أي: من حي الروضة الذي هو جزء من القاهرة. هذا الأسلوب شائع وكثير الاستعمال في القرآن، من أمثلته ما يأتي:

في الآية (١٧٢) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أخذ من بني آدم ذريتهم ـ أخذًا من مكان خاص في ظهورهم، وفي سورة الزخرف آية (٣٣): ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: لجعلنا لمن يكفر بالرحمن سقفًا من فضة هي لهم إجمالًا ولبيتهم تفصيلًا وتخصيصًا.

(الحمأ) سائل يتحرك بين حبيبات التربة الصلصالية، ومنه يتسلل الماء وبعض وبعض ما ذاب فيه إلى جذور النباتات أولًا حيث يتكون منه غذاء وحب وفواكه وثمار يأخذها الإنسان لبناء جسمه ولتعطيه الطاقة، أو يأخذها الحيوان أولًا ليكون منها اللبن والعسل، وما أحله الله من مأكل وشراب للإنسان الذي تصنع به مادة جسمه وتطلق منه طاقة وحرارة.

من الواضح أن ذلك الأسلوب القرآني في التعليم والتعريف يضطر قارئ القرآن أن يتدبر المعاني ويعمل فكره ويتنقل بعقله في مخلوقات الله وكونه ليصل بنفسه إلى ما يهديه إلى الحق؛ لهذا تتساءل آية قرآنية: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

وثمَّ أمر آخر وهو إنه لو أرجعنا الإنسان إلى عناصره الأولية لوجدناه أشبه بمنجم صغير يشترك في تركيبه حوالي (٢١) عنصرًا تتوزع بشكل رئيسي على:

١ـ أكسجين (O)، هيدروجين (H) على شكل ماء بنسبة ٦٥٪ ـ ٧٠٪ من وزن الجسم.

٢ ـ كربون (C)، وهيدروجين (H)، وأكسجين (O)، وتشكل أساس المركبات العضوية من سكريات، ودسم، وبروتينات، وفيتامينات، وهرمونات أو خمائر.

٣ـ مواد جافة يمكن تقسيمها إلى:

أ - ست مواد هي: الكلور (CL)، الكبريت (S)، الفسفور (P)، والمنغنزيوم (MG) والبوتسيوم (K)، والصوديوم (Na)، وهي تشكل ٦٠ ـ ٨٠ ٪ من المواد الجافة.

ب - ست مواد بنسبة أقل هي: الحديد (Fe)، والنحاس (Cu)، واليود (I)، والمنغنزيوم (MN)، والكوبالت (Co)، والتوتياء (Zn)، والمولبيديوم (Mo).

جـ - ستة عناصر بشكل زهيد هي: الفلور (F)، والألمنيوم (AL)، والبور (B)، والسيلينيوم (Se)، الكادميوم (Cd)، والكروم (Cr).

كل هذه العناصر موجودة في تراب الأرض، ولا يشترط أن تكون كل مكونات التراب داخلة في تركيب جسم الإنسان، فهناك أكثر من مئة عنصر في الأرض بينما لم يُكتشف سوى (٢٢) عنصرًا في تركيب جسم الإنسان، وقد أشار لذلك القرآن حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢) وفي ذلك إعجاز علمي بليغ[(١)].

الوجه الخامس: خلق الإنسان في الكتاب المقدس.

المرحلة الترابية:

قال الله لآدم: (بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا؛ لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ) (سفر التكوين٣/ ١٩).

(أنت جبلت آدم من تراب الأرض) الأسفار القانونية

وكذلك ذرية آدم تعترف بهذه الحقيقة، فهذا إبراهيم عليه السلام يعترف بذلك فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: (إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ) (سفر التكوين١٨/ ٢٧).

وانظر كذلك إلى هذا النص: (كَمَا يَتَرَأَفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ. ١٤ لأَنَّهُ يَعْرِفُ جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ) (سفر المزامير١٠٣/ ١٤: ١٣)

---

(١) مع الطب في القرآن الكريم للدكتور عبد الحميد دياب والدكتور أحمد قرقوز، مؤسسة علوم القرآن.
مصدر بعض الصور: الموسوعة الحرة http: //wikipedia. org/.

(الرب يستعرض جنود السماء العليا أما البشر فجميعهم تراب ورماد) (الأصحاح رقم ١٨ تتمة سفر إستير).

المرحلة الطينية:

(هأَنَذَا حَسَبَ قَوْلِكَ عِوَضًا عَنِ الله. أَنَا أَيْضًا مِنَ الطِّينِ تَقَرَّصْتُ) (سفر أيوب٣٣/ ٦).

(وَالآنَ يَا رَبُّ أَنْتَ أَبُونَا. نَحْنُ الطِّينُ وَأَنْتَ جَابِلُنَا، وَكُلُّنَا عَمَلُ يَدَيْكَ) (سفر أشعياء٦٤/ ٨).

(تبارك اسم الله القدوس الذي خلق الإنسان من طين الأرض وجعله قيمًا على أعماله) (إنجيل برنابا).

وإذ قال هذا تكلم يسوع أيضًا قائلًا: (إن الروح في كثيرين نشيط في خدمة الله أما الجسد فضعيف، فيجب على من يخاف الله أن يتأمل ما هو الجسد وأين كان أصله وأين مصيره؟ من طين الأرض خلق الله الجسد، وفيه نفخ نسمة الحياة بنفخة فيه، فمتى اعترض الجسد خدمة الله يجب أن يمتهن ويداس كالطين؛ لأن من يبغض نفسه في هذا العالم يجدها في الحياة الأبدية.) (إنجيل برنابا).

الشيطان أتى قائلًا: (ماذا يجب أن أفعل لك يا يسوع؟ أجبت: إنك تفعل لنفسك أيها الشيطان؛ لأني لا أحب خدمتك، وإنما دعوتك لما فيه صلاحك، أجاب الشيطان: إذا كنت لا تود خدمتي فإني لا أود خدمتك؛ لأني أشرف منك، فأنت لست أهلًا لأن

تخدمني أنت يا من هو طين أما أنا فروح.) (إنجيل برنابا).

(فإذا كان الله يحتمل العالم بصبر فلماذا تحزنون أنتم يا تراب وطين الأرض) (إنجيل برنابا)

حتى إنه في الكتاب المقدس تم تحويل التراب إلى بَعوض كمعجزة قامت على يد هارون:

(ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: قُلْ لِهَارُونَ: مُدَّ عَصَاكَ وَاضْرِبْ تُرَابَ الأَرْضِ لِيَصِيرَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ. فَفَعَلاَ كَذلِكَ. مَدَّ هَارُونُ يَدَهُ بِعَصَاهُ وَضَرَبَ تُرَابَ الأَرْضِ، فَصَارَ الْبَعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ. كُلُّ تُرَابِ الأَرْضِ صَارَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ.) (سفر الخروج٨/ ١٧: ١٦).

* * *

٨- هل الصفات الوراثية تثبت بالرضاع؟

نص الشبهة:

إن الرضاع لايثبت الصفات الوراثية؛ فلماذا جعل الإسلام التحريم بالرضاع بمثابة التحريم بالنسب؟!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تعريف الرضاع، وأدلة مشروعيته، وأدلة تحريمه.

الوجه الثاني: الرضاع الذي يثبت به التحريم، والآثار المترتبة عليه.

الوجه الثالث: في الحكمة من تحريم الرضاع وجعله كالنسب.

الوجه الرابع: أهمية الرضاع في الإسلام، وبيانه من الناحية الطبية.

الوجه الخامس: في الدليل على أن الصفات الوراثية تثبت بالرضاع كما تثبت بالولادة.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تعريف الرضاع، وأدلة مشروعيته، وأدلة تحريمه من الكتاب والسنة والإجماع.

أولا: تعريف الرضاع:

في اللغة: رَضَع الصبيُّ وغيره يَرْضِع مثال: ضرب يضْرِب. . . ، ورَضِعَ مثال: سَمِع يَرْضَع رَضْعًا ورَضَعًا ورَضِعًا ورَضاعًا ورِضاعًا ورَضاعةً ورِضاعة، فهو راضِعٌ والجمع رُضَّع[١] . وقد يجيءُ مُرْضِع على معنى ذات إِرضاع أَي: لها لبن وإِن لم يكن لها رَضِيع، وجمع المُرْضِع مَراضِعُ، قال سبحانه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ (القصص: ١٢)[٢].

في الشرع: اسْمٌ لِحُصُولِ لَبَنِ امْرَأَةٍ أَوْ مَا حَصَلَ مِنْهُ فِي جَوْفِ طِفْلٍ بِشُرُوطٍ تَأْتِي[٣].

---

(١) انظر لسان العرب (٨/ ١٢٥).

(٢) المصدر السابق (٨/ ١٢٧).

(٣) نهاية المحتاج (كتاب الرضاع)، أسنى المطالب (كتاب الرضاع)، وهناك تعريفات أخرى كثيرة منها: وُصُولُ اللَّبَنِ من ثَدْيِ الْمَرْأَةِ إلَى جَوْفِ الصَّغِيرِ من فَمِهِ أو أَنْفِهِ في مُدَّةِ الرَّضَاعِ (البحر الرائق شرح كنز الرقائق٣/ ٢٣٨)، وأيضًا: وصول اللبن من المرضعة إلى حلق الرضيع أو جوفه من أي المنافذ كان؛ من فمٍ أو سعوط كان، بإرضاع أو وجور قليلًا أو كثيرًا (التلقين في الفقه المالكي ١/ ١٣٩).

ثانيًا: أدلة مشروعيته:

قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(البقرة: ٢٣٣).

قال الطبري:

في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ ﴾ دلالةٌ على مبلغ غاية الرضاع[١].

قال القرطبي: قيل: هو خبرٌ عن المشروعية[٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ (الطلاق: ٦).

وعن عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: إني قَدْ أَرْضَعْتُكُمَا، فَأَتَيْتُ النبي ﷺ فَقَالَ: (وَكَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟ دَعْهَا عَنْكَ) أَوْ نَحْوَهُ[٣].

والدلالة واضحة في الحديث على مشروعية الرضاع، ولو كان غير ذلك لكان النهي.

ثالثا: أدلة تحريمه:

قال ابن قدامة: (الْأَصْلُ فِي التَّحْرِيمِ بِالرَّضَاعِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ)[٤].

أما الْكِتَابُ: فَقَوْلُ الله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ (النساء: ٢٣).

وأما السنة: فعن عائشة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الرَّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ)[١].

---

(١) تفسير الطبري (البقرة: ٢٣٣).

(٢) تفسير القرطبي (نفس الآية).

(٣) البخاري (٢٦٦٠).

(٤) المغني (٩/ ١٩١).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النبي ﷺ أُرِيدَ عَلَى ابْنَةِ حَمْزَةَ فَقَالَ: إِنَّهَا لاَ تَحِلُّ لي إِنَّهَا ابْنَةُ أخي مِنَ الرَّضَاعَةِ، وَيَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الرَّحِمِ(٢).

وأما الإجماع:

فقال ابن المنذر: وأجمعوا على أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب(٣).

وقال ابن قدامة: أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ عَلَى التَّحْرِيمِ بِالرَّضَاعِ(٤).

وقال ابن القيم: قوله ﷺ: (الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة)(٥). وهذا الحكم متفق عليه عليه بين الأمة(٦).

الوجه الثاني: الرضاع الذي يثبت به التحريم، والآثار الشرعية المترتبة عليه.

أولا: في الرضاع الذي يثبت به التحريم.

١ - في عدد الرضعات التي يثبت بها التحريم:

اختلف العلماء في الرضاع الذي يثبت به التحريم، وذلك على أقوال عدة(٧):

فذهب بعض العلماء إلى أن قليل الرضاع وكثيره يثبت به التحريم.

والثاني: إلى أن المصة والمصتين لا تحرم.

والثالث: إلى أن خمس رضعاتٍ فأكثر هو المعتبر، وهوالذي يثبت به التحريم. **وهذا هو**

---

(١) البخاري (٥٠٩٩)، مسلم (١٤٤٤).

(٢) البخاري (٥١٠٠)، مسلم (١٤٤٧) واللفظ له.

(٣) الإجماع لابن المنذر (٧٧).

(٤) المغني (٩/ ١٩٢).

(٥) البخاري (٤٨١١)، ومسلم (١٤٤٤).

(٦) زاد المعاد (٥/ ٥٥٦)، وراجع في ذلك أيضًا: بداية المجتهد (٢/ ٣٥) فقد نقل الاتفاق على ذلك، والإفصاح لابن هبيرة (٢/ ١٧٨).

(٧) انظر الحاوي الكبير للماوردي (١٤/ ٤١٩)، بداية المجتهد (٢/ ٣٥)، المغني (٩/ ١٩٣، ١٩٢)، زاد المعاد (٥/ ٥٧٠ وما بعدها).

الراجح من أقوال العلماء[١]؛ لحديث عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت: (كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ)[٢]. وهذا الحديث مُقَيِّدٌ للأحاديث المطلقة، والقولُ بخمسٍ معلوماتٍ صريحٌ بخلاف الأحاديث الأخرى[٣].

فالروايات فيها غير صريحةٍ بتحريم الثلاث أو الأربع، وفي الخمس حصر، ومعلوم لدى علماء البيان كالزمخشري أن الأخبار بالجملة الفعلية المضارعية يفيد الحصر ومفهوم الحصر أرجح من مفهوم العدد[٤].

---

(١) انظر الحاوي الكبير للماوردي (المصدر السابق)، بداية المجتهد (٢/ ٣٦)، المغني (المصدر السابق)، زاد المعاد (٥/ ٥٧٣)، السيل الجرار (٢/ ٤٦٥ وما بعدها).

(٢) مسلم (١٤٥٢).

(٣) كحديث (أُمِّ الْفَضْلِ حَدَّثَتْ أَنَّ نبي الله ﷺقَالَ: (لاَ تُحَرِّمُ الرَّضْعَةُ أَوِ الرَّضْعَتَانِ أَوِ الْمَصَّةُ أَوِ الْمَصَّتَانِ) مسلم (١٤٥١)، وحديث عائشة (الرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ) البخاري (٢٦٤٧)، مسلم (١٤٥٥)، حديث أم سلمه قالت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يُحَرِّمُ مِنْ الرِّضَاعَةِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ» سنن الترمذي (١٠٧٢) - بَاب مَا جَاءَ مَا ذُكِرَ أَنَّ الرَّضَاعَةَ لَا تُحَرِّمُ إِلَّا فِي الصِّغَرِ دُونَ الْحَوْلَيْنِ)، وقال الترمذي: حديث صحيح، وصححه الألباني في الإرواء (٧/ ٢٢١)؛ فكل هذه الأحاديث ليس فيها تصريح بالعدد الذي يثبت به التحريم؛ بل هي على الإطلاق، وحديث عائشة مقيّد لها- من باب حمل المطلق على المقيد كما هو معلوم في كتب أصول الفقه.

(٤) انظر: السيل الجرار (٢/ ٤٦٨). (لطيفة): أورد الآلوسي في تفسيره انتصارًا لمن قال: يحرم الرضاع بخمس رضعات، فقال: (ومن غرائب ما وقفت عليه مما يتعلق بهذه الآية عبارة من مقامة للعلامة السيوطي - رحمه الله تعالى- سماها (الدوران الفلكي على ابن الكركي) وفيها يخاطب الفاضل المذكور بما نصه: ماذا صنعت بالسؤال المهم الذي دار في البلد ولم يُجِبْ عنه أحدٌ؛ وهو الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ وبين مالو قيل: (واللاتي أرضعنكم أمهاتكم) حيث رتّب على الأول خمس رضعات واردة، ولو قيل الثاني لاكتفى برضعةٍ واحدةٍ. . . وأقول (الآلوسي): لعل الفرق أنه سبحانه لما ذكر أمهاتكم في هذه الآية معطوفًا على ما تقدم في الآية السابقة وفيها تحريم الأمهات بقي الذهن مشرئبًا إلى بيان الفارق بين هذه الأمهات وتلك الأمهات، فأتى سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ بيانًا لذلك دافعًا لتوهم التكرار فكان

٢ـ في السن الذي ينعقد به التحريم: (١)

اتفق العلماء على أن السنَّ الذي يكون فيه التحريم بالرضاع هو الحولين، ودليلهم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾، وما دون ذلك لا ينعقد به التحريم (٢).

ولعل هذا السنَّ الذي يكون فيه إنبات العظم، ولا شك أن لبن المرضع يؤثر في الطفل حتى إنه يأخذ صفات المرضع وخاصة في هذا السنّ.

وقد عقدت منظمة الصحة العالمية مؤتمرًا لها بعنوان "Complementary feeding" عام ٢٠٠١م وجاء بهذه النتائج:

القيدُ الإرضاعَ الواقعَ صلةً معتَنًا به أتمَّ اعتناءٍ، ومما يترتب على هذا الاعتناء اعتباره أينما لوحظ، وقد لوحظ في الآية خمس مرات:

الأولى: حين أُتِيَ به فعلًا. الثانية: حين أُسنِدَ إلى الفاعل؛ أعني: ضميرَ النسوة.

والثالثة: حين تعلق بالمفعول؛ أعني: ضمير المخاطبِينَ. والرابعة: حين جعل جزء الجملة الواقعة صلة الموصول. والخامسة: حين جعل اللاتي صفة أمهاتكم؛ لأن وصفيته لها باعتبار الصلة بلا شبهة. فهذه خمس ملاحظات للإرضاع في هذا التركيب تشير إلى أن ما به تحصل الأمومة خمس رضعاتٍ؛ وهذا أحد الأسرار لاختيار هذا التركيب مع إمكان تراكيب غيره لعل بعضها أخصر منه. وكثيرًا ما وقع في القرآن تراكيب وتعبيراتٌ يُشار بها إلى أمورٍ واقعيةٍ بينها وبين ما في تلك التعبيرات مناسَبة. ثم أورد بعد ذلك بعض الأمثلة على ذلك فانظره غير مأمور (تفسير روح المعاني (النساء: ٢٣).

(١) انظر الحاوي الكبير (١٤/ ٤٢٧ومابعدها)، تفسير القرطبي (البقرة: ٢٣٣)، بداية المجتهد (٢/ ٣٦)، الإفصاح (٢/ ١٧٨)، المغني (٩/ ٢٠١)، تفسير ابن كثير (البقرة: ٢٣٣).

(٢) ورضاع الكبير له حكم خاص وخلاصته ما قاله ابن القيم في زاد المعاد: (٥/ ٥٩٣) عندما أورد حديث سهلة (وأن حديثَ سهلة ليس بمنسوخ، ولا مخصوصٍ، ولا عامٍ في حقِّ كُلِّ أحد، وإنما هو رخصةٌ للحاجة لمن لا يَستغنى عن دخوله على المرأة، ويَشقُّ احتجابُها عنه، كحال سالم مع امرأة أبي حُذيفة، فمثل هذا الكبير إذا أرضعته للحاجَةِ أَثَّر رضاعُه، وأما مَنْ عداه، فلا يُؤثِّر إلا رضاعُ الصغير، وهذا مسلكُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، والأحاديثُ النافية للرضاع في الكبير إما مطلقة فتقيَّد بحديث سهلة، أو عامة في الأحوال فتخصيصُ هذه الحال من عمومها، وهذا أولى من النسخ ودعوى التخصيص بشخص بعينه، وأقرب إلى العمل بجميع الأحاديثِ من الجانبين، وقواعدُ الشرع تشهد لهُ. . .) ولمزيدِ بحثٍ في المسألة راجع شبهة: (رضاع الكبير).

١- إن السنتين الأوليين من حياة الطفل هما نافذةٌ حرجةٌ يتم خلالهما بناء التأسيسات للنمو والتطور الصحي.

٢- إن تغذية الطفل الرضيع هي بُعْدٌ جوهري للعناية خلال هذه الفترة.

ويقول العلماء اليوم بعد تجارب استمرت نصف قرن: (بعد أن يبلغ الطفل سنتين من العمر من الصعب جدًا أن ينعكس العامل المعيق للنمو والذي كان ممكن الحصول قبل هذه المدة).

وقد بينت الأبحاث الحديثة أن الإرضاع الطبيعي لمدة ٢٤ شهرًا يقي الأم من خطر سرطان المبيض بنسبة الثلث[١].

ثانيًا: الآثار الشرعية المترتبة عليه: بإرضاع المرأة الطفل تترتب آثارٌ شرعيةٌ وتنتشر المحرمية بمجرد الرضاع من ثلاث جهاتٍ: المرضعة، الطفل، زوج المرضعة (صاحب اللبن)[٢].

قال ابن القيم: فأولادُ الطفلِ وإن نزلوا أولادُ ولدِهما، وأولادُ كُلِّ واحدٍ من المرضعة والزوج من الآخر ومن غيره إخوتهُ وأَخواته من الجهات الثلاث، فأولادُ أحدهما من الآخر إخوتُه وأَخواته لأبيه وأمه، وأولاد الزوج من غيرها إخوته وأخواته من أبيه،

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي مقال بعنوان: (حقائق جديدة تثبت صدق كلام الله وكذب كلام الملحد) / عبد الدايم الكحيل. ، وأيضًا مقال بعنوان: (الرضاعة التامة. . . بين العلم والقرآن)، وأيضاً من موقع / عبد الدايم الكحيل.

(٢) ويعرفه العلماء "بلبن الفحل"، وجمهور العلماء على تحريم لبن الفحل؛ انظر تفسير ابن كثير (النساء: ٢٣).
قال ابن حجر: وذهب الجمهور- من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار كالأوزاعي في أهل الشام والثوري وأبي حنيفة وصاحبيه في أهل الكوفة وابن جريج في أهل مكة ومالك في أهل المدينة والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور وأتباعهم- إلى أن لبن الفحل يحرم. (الفتح: ٩/ ١٥١) "باب لبن الفحل"، وأورد أيضًا عن القاضي عبد الوهاب (يتصور تجريد لبن الفحل برجل له امرأتان ترضع إحداهما صبيًا والأخرى صبية؛ فالجمهور قالوا: يحرم على الصبي تزويج الصبية) (المصدر السابق٩/ ١٥٢)، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل تزوج امرأتين، فأرضعت إحداهما جارية والأخرى غلامًا، هل يتزوج الغلام الجارية؟ فقال: لا، اللّقاح واحد. الموطأ (٢/ ٦٠٢).

وأولادُ المرضعة من غيره إخوتُه وأخواتُه لأمه، وصار آباؤها أجدَادَهُ وجَدَّاتِه، وصارَ إخوة المرأة وأخواتُها أَخوالَه وخالاتِه، وإخوةُ صاحب اللبن وأخَواتُه أعمامه وعَمَّاتِه(١)، فَحُرْمَةُ الرَّضَاعِ تنتشر من هذه الجهات الثلاث فقط(٢).

فهذه حرمة الرضاع والآثار المترتبة عليه، والناس قد غلب عليهم التساهل في أمر الرضاعة؛ فيرضعون الولد من امرأةٍ أو عدة نسوةٍ، ولا يعنون بمعرفة أولاد المرضعة، وأخواتها، ولا أولاد زوجها من غيرها؛ ليعرفوا ما يترتب عليهم في ذلك من الأحكام كحرمة النكاح، وحقوق هذه القرابة الجديدة التي جعلها الشارع كالنسب، فكثيرًا ما يتزوج الرجل أخته، أو عمته، أو خالته من الرضاعة وهو لايدري، والواجب الاحتياط في هذا الأمر حتى لا يقع الإنسان في المحظور(٣)، ومن الأمور التي ينبغي أن ننبه عليها في هذا المقام ما يعرف (ببنوك الحليب)، ولما كان التساهل في هذه البنوك واختلاط ألبان الأمهات؛ فإن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي في دورة انعقاد مؤتمره الثاني بجدة من (١٠-١٦ ربيع الثاني ١٤٠٦هـ/ ٢٢-٢٨ ديسمبر ١٩٨٥م) بعد أن عرض على المجمع دراسةً فقهيةً، ودراسةً طبّيةً حول بنوك الحليب:

وبعد التأمل فيما جاء في الدراستين ومناقشة كلٍ منهما مناقشةً مستفيضةً شمِلت مختلِف جوانب الموضوع **تبين**:

١- أن بنوك الحليب تجربة قامت بها الأمم الغربية، ثم ظهرت مع التجربة بعض السلبيات الفنية، والعلمية فيها فانكمشت وقلَّ الاهتمام بها.

٢ - أن الإسلام يعتبر الرضاع لُحمةً كلُحمةِ النسب يَحرُم به ما يَحرُم من النسب بإجماع

---

(١) ودليل ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: (أَنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي الْقُعَيْسِ جَاءَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا- وَهُوَ عَمُّهَا مِنْ الرَّضَاعَةِ- بَعْدَ أَنْ نَزَلَ الْحِجَابُ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ أَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي صَنَعْتُ فَأَمَرَنِي أَنْ آذَنَ لَهُ) البخاري (٥١٠٣).

(٢) زاد المعاد (٥/ ٥٥٦)، انظر المغني (٩/ ١٩٩-٢٠١).

(٣) تفسير المنار (٤/ ٤٧٠)، فقه السنة (٢/ ٨٢).

المسلمين، ومن مقاصد الشريعة الكلية: المحافظة على النسب، وبنوك الحليب مؤديةٌ إلى الاختلاط أو الرّيبة.

٣ - أن العلاقات الاجتماعية في العالم الإسلامي توفر للمولود الخداج[١] أو ناقص الوزن أو المحتاج إلى اللبن البشري في الحالات الخاصة ما يحتاج إليه من الاسترضاع الطبيعي، الأمر الذي يغني عن بنوك الحليب، وبِناءً على ذلك قرر:

أولًا: منع إنشاء بنوك حليب الأمهات في العالم الإسلامي.

ثانيًا: حرمة الرضاع منها، والله أعلم[٢].

الوجه الثالث: في الحكمة من تحريم الرضاع وجعله كالنسب.

كثير من الأحكام الشرعية قد تظهر لنا الحكمة منها وقد لا تظهر، فالله سبحانه وتعالى ما أمرنا بشيءٍ إلا وفيه الخير، وما نهانا عن شيءٍ إلا وفيه الشر، وكذلك النبي ﷺ، فالحكمة في تحريم الرضاع وجعله كالنسب واضحةٌ لكل عاقلٍ في أن الطفل لا يعلم شيئًا وبفطرته التي جعلها الله فيه يبحث عما يسدّ ألم الجوع، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، فأول ما يشعر به الطِّفل ألم الجوع وألم البرد، وأول ما يُلهَمه امتصّ حلمة الثدي، ثم تزيد الإدراكات فيسمع ويبصر من غير تمييز بين مُدرَكٍ وآخرَ، ثم يميز بين مرضعته وغيرها؛ حتىّ إنّ بعض الأطفال الذين يُعوَّدون على الرضاع من امرأة واحدة إذا اتّفق أن حاولت مرضعٌ أخرى إرضاع أحدهم يأباها وينفر منها[١]، وفي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ

(١) الخداج بمعنى: النقصان، لسان العرب (٢/ ٢٤٨).

(٢) مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدّة، الدورة الثانية لمؤتمر مجمع الفقه الإسلامي، العدد الثاني، نقلًا عن "الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُه" (٧/ ١٠٧).

(٣) مجلة المنار (٥ذو الحجة - ١٣١٦هـ، ١٥ إبريل - ١٨٩٩م).

وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ (النساء: ٢٣)، فدلّ على أن تحريم الأمهات من الرضاعة كحرمتهم من النسب، قال المهايمي: لأن الرَّضاعَ جزءٌ، منها وقد صار جزءًامن الرضيع، فصار كأنه جزؤها فأشبهت أصلَه[٢]، ولعل الذي جعل المرضعة جزءًا من الرضيع هو الإرضاع؛ لأنه رضع منها فكان بعض بدنه جُزْءًا مِنْهُا، ولِأَنَّهُ تَكَوَّنَ مِنْ لَبَنِهَا فَصَارَتْ فِي هَذَا كَأُمِّهِ الَّتِي وَلَدَتْهُ، وَصَارَ أَوْلَادُهَا إِخْوَةً لَهُ؛ لِأَنَّ لِتَكْوِينِ أَبْدَانِهِمْ أَصْلًا وَاحِدًا هُوَ ذَلِكَ اللَّبَنُ[٣].

فإن التي أرضعت تشبه الأم من حيث إنها سبب اجتماع أمشاج بنيته وقيام هيكله، غير أن الأم جمعت خلقته في بطنها، وهذه درَّتْ عليه سد رَمَقِه في أول نشأته، فهي أمٌّ بعد الأم وأولادها إخوةٌ بعد الإخوة، وقد قاست في حضانته ما قاست، وقد ثبت في ذمته من حقوقها ما ثبت، وقد رأت في صغره ما رأت، فيكون تملكها والوثوب عليها ما تمجه الفطرة السليمة، وكم من بهيمةٍ عجماءَ لا تلتفت إلى أمها أو مرضعتها هذه اللفتة، فما ظنك بالرجال؟ وأيضًا فإن العرب كانوا يسترضعون أولادهم في حيٍّ من الأحياء، فيشبّ فيهم الوليد، ويخالطهم كمخالطة المحارم، ويكون عندهم للرضاعة لُحمةٌ كلُحمةِ النسب، فوجب أن يُحملَ على النسب[٣].

فيحدث التحريم بالرضاع بسبب تكوُّنِ أجزاء البنية الإنسانية من اللبن، فلبن المرأة يُنبِتُ لحم الرضيع، ويُنْشِزُ عظمه؛ أي يُكَبِّرُ حجمَه، كما جاء في الحديث: **"لاَ يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ إِلاَّ مَا أَنْبَتَ اللَّحْمَ وَأَنْشَزَ الْعَظْمَ"**[٤].

فإن إنشاز العظم وإنبات اللحم، إنما يكون لمن كان غذاؤه اللبن، وبه تصبح المرضع

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (النساء: ٢٣ - ٨٦: ٥).

(٢) انظر تفسير المنار (٤/ ٤٦٩)، وتفسير آيات الأحكام للصابوني (١/ ٤٦٢).

(٣) حجة الله البالغة (٢/ ٢٠٣).

(٤) مسند أحمد (١/ ٤٣٢) وله شواهد يصح بها.

أمًّا للرضيع؛ لأنه جزءٌ منها حقيقةً(١).

فاللَّبَنُ يَخْرُجُ مِنْ دَمِ الْمُرْضِعِ وَيَمْتَصُّهُ الوَلَدُ فَيَكُونُ دَمًا لَهُ يَنْمُو بِهِ اللَّحْمُ، وَيُنْشِزُ الْعَظْمَ، فَهُوَ يَشْرَبُ مِنْهَا كُلَّ شَيْءٍ مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ، وَقَدْ لُوحِظَ أَنَّ مَنْ يَرْضَعُ مِنْ لَبَنِ الْأَتَانِ يَغْلُظُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ لَبَنُ كُلِّ حَيَوَانٍ يُؤَثِّرُ عَلَى حَسَبِ حَالِهِ، وَلَكِنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ نَفْسِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ بَدَنِيَّةٌ، فَجِسْمُهُ مُسَخَّرٌ لِشُعُورِهِ وَعَقْلِهِ؛ لِذَلِكَ كَانَ تَأْثِيرُ الِانْفِعَالَاتِ، وَالصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ مِنَ الْمُرْضِعِ فِي الرَّضِيعِ أَشَدَّ مِنْ تَأْثِيرِ الصِّفَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، وَقَدْ لَاحَظْنَا أَنَّ صَوْتَ الْمُرْضِعِ قَدْ ظَهَرَ فِي الْوَلَدِ الَّذِي كَانَتْ تُرْضِعُهُ، فَكَيْفَ بِآثَارِ عَقْلِهَا، وَشُعُورِهَا، وَمَلَكَاتِهَا النَّفْسِيَّةِ؟ (٢)

والمرضع إذا أكلت الحلال كان اللبن أنفع للصبي، وأقرب إلى صلاحه قالوا: العادة جاريةٌ أن من ارتضع امرأةً؛ فالغالب عليه أخلاقها من خيرٍ وشرٍ، ولذا قيل: إنه ترضعه امرأةٌ صالحةٌ كريمةُ الأصل؛ فإن لبن المرأة الحمقاء يسري، وأثر حمقها يظهر يومًا ما، وفي الحديث: (الرضاع يغير الطباع)(٣)، ومن ثمة لما دخل الشيخ أبي محمد الجويني بيته ووجد ابنه الإمام أبا المعالي يرتضع ثدي غير أمه اختطفه منها ثم نكس رأسه ومسح بطنه وأدخل أصبعه في فِيه ولم يزل يفعل ذلك حتى خرج ذلك اللبن قائلًا: يسهل عليّ موته ولا تفسد طباعه بشرب لبن غير أمه، ثم لما كبر الإمام كان إذا حصلت له كبوة في المناظرة يقول هذه من بقايا تلك الرضعة(٤).

فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْعِنَايَةِ بِتَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ، وَقَابِلْهُ بِتَهَاوُنِ النَّاسِ الْيَوْمَ فِي أَمْرِ الْوِلْدَانِ فِي رَضَاعَتِهِمْ وَسَائِرِ شُئُونِهِمْ، حَتَّى إِنَّ الْأُمَّهَاتِ اللَّوَاتِي فَطَرَهُنَّ اللهُ

(١) انظر: الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ (٧/ ١٤١).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٤١٦-٤١٧).

(٣) مسند الشهاب القضاعي (٣٥)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (٣١٥٦).

(٤) تفسير روح البيان (البقرة: ٢٣٣، ١/ ٣٠٠)، وانظر: تفسير المنار (٢/ ٤١٧).

تعالى عَلَى التَّلَذُّذِ بِإِرْضَاعِ أَوْلَادِهِنَّ وَالْغِبْطَةِ بِهِ؛ قَدْ صَارَ نِسَاءُ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُنَّ يَرْغَبْنَ عَنْهُ تَرَفُّعًا وَطَمَعًا فِي السِّمَنِ وَبَقَاءِ الْجَمَالِ، أَوِ ابْتِغَاءَ سُرْعَةِ الْحَمْلِ، وَكُلُّ هَذَا مُقَاوَمَةٌ لِلْفِطْرَةِ وَمَفْسَدَةٌ لِلنَّسْلِ، وَقَدْ فَطِنَ لَهُ مَنْ عَرَفَ سُنَنَ الْفِطْرَةِ مِنَ الْأُمَمِ الْمُرْتَقِيَةِ بِالْعِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ، حَتَّى بَلَغَنَا أَنَّ قَيْصَرَةَ الرُّوسِيَّةِ تُرْضِعُ أَوْلَادَهَا وَتُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَرَاضِعَ[1].

الوجه الرابع: أهمية الرضاع في الإسلام وبيانه من الناحية الطبية.

أولًا: أهمية الرضاع في الإسلام.

لما كان الإسلام هو دين الفطرة والدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠)، فكان أمرًا طبيعيًا أن يرشدنا هذا الدين الحنيف إلى الفطرة في كل شيء، وإِنْ كَانَتِ الْفِطْرَةُ تَقْضِي بِهِ فَدِينُنَا دِينُ الْفِطْرَةِ، وَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ يَدُلُّ عَلَيْهِ فَقَدْ عَلَّمَنَا الله ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَلَمْ نَعْرِفْ أَنَّ دِينًا أَرْشَدَ إِلَى مَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ دِينُنَا مِنْ ذَلِكَ[2]، فقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾ وقال تعالى لأم موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القصص: ٧)، فجَاءَ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ بِإِرْضَاعِ الْأُمَّهَاتِ أَوْلَادَهُنَّ عَلَى مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ، فَأَفْضَلُ اللَّبَنِ لِلْوَلَدِ لَبَنُ أُمِّهِ بِاتِّفَاقِ الْأَطِبَّاءِ؛ أَيْ: لِأَنَّهُ قَدْ تَكَوَّنَ مِنْ دَمِهَا فِي أَحْشَائِهَا، فَلَمَّا بَرَزَ إِلَى الْوُجُودِ تَحَوَّلَ اللَّبَنُ الَّذِي كَانَ يَتَغَذَّى مِنْهُ الرَّحِمُ إِلَى لَبَنٍ يَتَغَذَّى مِنْهُ فِي خَارِجِهِ، فَهُوَ اللَّبَنُ الَّذِي يُلَائِمُهُ وَيُنَاسِبُهُ[3]، ولحثِّ الأم على إرضاع ولدها، وأن ذلك بأهمية بمكان روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ جاءَتْه امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنَ الأَزْدِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله طهّرني، فَقَالَ: "وَيْحَكِ ارجعي؛ فاستغفري الله وتوبي إِلَيْهِ» فَقَالَتْ:

(١) تفسير المنار (المصدر السابق)، وانظر تفسير آيات الأحكام للصابوني (١/ ٣٥٨، ٣٥٧).

(٢) انظر تفسير المنار (٢/ ٤١٧).

(٣) انظر تفسير المنار (٢/ ٤١٦).

أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تردّدَني كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: «وَمَا ذَاكِ؟ » قَالَتْ: إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَا، فَقَالَ: «آنْتِ؟ » قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهَا: «حَتَّى تضَعي مَا في بَطْنِكِ». قَالَ: فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ، قَالَ: فَأَتَى النبيَّ ﷺ فَقَالَ: قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِدِيَّةُ، فَقَالَ: «إِذَنْ لاَ نَرْجُمَهَا وَنَدَعَ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نبي الله، قَالَ: فَرَجَمَهَا"[١].

وعن الْبَرَاء قَالَ: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ"[٢].

وروى مسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي؛ وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ؛ وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ"[٣]، وما ذلك إلا دليلٌ على أهمية الرضاعة في الإسلام.

ولاشك أن الرضاعة الطبيعية هامةٌ، ولقد دَلَّل عليها القرآن كثيرًا كما وضحنا فيما سبق وكذلك السنة، وأرشدَنا العلماء أيضًا إلى ذلك؛ فقال الرازي: تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من سائر الألبان، ومن حيث إن شفقة الأم عليه أتم من شفقة غيرها[٤].

فالرضاعة الطبيعية مما لاشك فيه هي الأفضل من أيِّ بدائل أخرى، فترى ما يعرف بالحلمات المطاطية، وقد حذرت دراسةٌ نُشِرَتْ مؤخرًا من احتمال إصابة الطفل بالسرطان من جرّاء ارتضاعه الحلمات المطاطية، وقد أمرت الحكومة الفِرَنسية بسحب ما يقارب ٣٠ مليون (ثلاثين مليونًا) حلمة مطاطية لاشتباه السلطان بوجود مواد كيماوية تسبب السرطان تدخل في تركيب تلك الحلمات[٥]. فعظمة التشريع الإسلامي تتجلى في الاهتمام بالرضاع والحث عليه، حتى إن بعض العلماء قال: ولَبَنُ الْمُرْضِعِ يُؤَثِّرُ فِي جِسْمِ الطِّفْلِ وَفِي أَخْلَاقِهِ وَسَجَايَاهُ؛

---

(١) مسلم (١٦٩٥).

(٢) البخاري (١٣٨٢).

(٣) مسلم (٢٣١٦).

(٤) تفسير الرازي (البقرة/ ٢٣٣، ٦/ ١١٧).

(٥) انظر: الموسوعة الطبية الفقهية د/ أحمد محمد كنعان (٤٨٤)، جريدة الشرق الأوسط، العدد (٦٨٤٥) الإثنين ٢٥/ ٨/ ١٩٩٧م.

وَلِذَلِكَ يُحْتَاطُ فِي انْتِقَاءِ الْمَرَاضِعِ، وَيُجْتَنَبُ اسْتِرْضَاعُ الْمَرِيضَةِ وَالْفَاسِدَةِ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ(١).

ثانيًا: الرضاع والحكمة بالحولين في الرضاعة وذلك من الناحية الطبية.

١- الرضاع بوجه عام من الناحية الطبية:

وترى ذلك واضحًا أيضًا من الناحية الطبية وحتى نعلم أن هذه فطرة الله ﷻ حقًا، وأن الله ﷻ أنعم على الإنسان منذ الوهلة الأولى في حياته بلبن الثدي، ولقد ثبت طبيًا أن لبن الأم هو أنسب غذاء للطفل، تذكر منظمة الصحة العالمية أن عشرة ملايين طفل يتوفون سنويًا في العالم الثالث نتيجة أمراض الجهاز الهضمي والإسهال، وأغلب هذه الوفَيات ناتجةٌ عن تغذية الأطفال بالألبان المصنعة بواسطة القارورة حيث لا يتم التعقيم كما ينبغي، وتكون الكمية من اللبن مخففة بالماء وتسبب إصابة أكثر من تسعة ملايين طفل بنقصٍ شديدٍ في التغذية؛ مما يؤدي إلى إصابتهم بالعديد من الأمراض، والوفَيات المبكرة؛ ولذا ترى المنظمة الصحية العالمية التي تُعنَى بشؤون الأطفال، وصحتهم مثل اليونيسيف، ومنظمة الصحة العالمية أن إرضاع المواليد من أمهاتهم لمدة عامين سينقذ - بإذن الله- أكثر من عشرة ملايين طفل يُتوفون سنويًا بسبب الإسهال، وسوء التغذية، وأمراضٍ أخرى كثيرةٍ. وتذكر مجلة (اللانسيت) الطبية البريطانية المشهورة في افتتاحيتها ١٩٩٤م أن الرضاعة تنقذ مليونًا من الأطفال بما توفره من تحسين جهاز المناعة، وهذا الرقم غير الملايين العديدة الذين يمكن أن تنقذهم الرضاعة، والذين يتوفون نتيجة الإسهال والأمراض المعدية الأخرى(٢).

ومن حكمة الله ﷻ أن تركيب هذا اللبن يتغير تدريجيًا مع نمو الطفل بصورةٍ تتوافق مع حاجة جسم الطفل في مراحل نموه المختلفة، وفي الأيام الأولى بعد الولادة يفرز الثدي

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٤١٦).

(٢) انظر: انحسار الرضاعة خسارة مناعية د/ محمد علي البار، مجلة الإعجاز العلمي، العدد العاشر/ رجب١٤٢٢، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة، وفيه أهمية الرضاع للرضيع والأم والمجتمع، مقال بعنوان: ما هي فوائد الرضاعة الطبيعية للطفل من صدر الأم؟(بقلم عبد الدائم الكحيل).

لبنًا كثيفًا يسمى اللِّبَأ * (colostrum)، وهو غنيٌّ جدًّا بعناصر المناعة التي يحتاجها الطفل في مراحل نموه الأولى؛ حيث يكون جسمه ضعيفًا لايقوى على مواجهة المرض(١)، ولقد أدرك الفقهاء هذه الحقيقة حتى قال العلماء: إنه لاستيفاء القصاص أو حد الرجم على امرأة حامل وقد وجب عليها الحد لا يكون حتى تضع حملها وتسقيه اللبأ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ لَا يَعِيشُ إلَّا بِهِ فِي الْغَالِبِ(٢)، ولقد أوجب الشافعية على الأم إرضاع ولدها اللِّبَأ(٣).

٢- الحكمة بالحولين في الرضاعة طبيًا ووجه الإعجاز في ذلك:

* اللِّبَأُ (على وزن: ضِلَعٍ، وعِنَب، أول اللَّبَن عند الولادة (المصباح المنير: ٢/ ٥٤٨).

(١) الموسوعة الطبية الفقهية د/ أحمد محمد كنعان (٤٨٣)، ويعتبر اللبأ (وهو اللبن الذي يفرز بعد الولادة مباشرة ويستمر لبضعة أيام) مهمًا جدًا لحياة الطفل ومناعته ضد الأمراض. ولم أر أحدًا من القدماء تنبه إلى أهمية اللبأ سوى الشافعية حيث أوجبوا على الأم إرضاع المولود اللبأ؛ لأنه لا يعيش بدونه غالبًا، وغيره لا يغني، وهي نظرة عجيبة جدًا؛ حيث إن جميع الأطباء القدامى مثل ابن سينا، والرازي، وابن الجزار، والقيرواني، والبلدي. . . إلخ كلهم يصرّون على أن اللبأ غير مفيد للطفل، وأن على الوالدة أن لا ترضع طفلها بعد الولادة مباشرة؛ وإنما تبدأ ذلك في اليوم الثالث أو ما حوله. والغريب جدًا أن هذه النظرة الغريبة كانت منتشرة في الطبّ الحديث، وفي المستشفيات حيث يبعد الطفل المولود عن أمه لمدة ٢٤ ساعة أو ٤٨ ساعة قبل أن ترضعه. . . واستمر هذا الإجراء الخاطئ بل الشديد الخطأ إلى السبعينات من هذا القرن في أوروبا وإلى الثمانينات من القرن العشرين في معظم دول العالم الثالث. . . وربما في بعض المستشفيات إلى اليوم! ! ويمتاز اللبأ بكثافته وبغناه بالبروتينات، وبالذات الجلوبيولينات المناعية التي لها خاصية مدافعة الأمراض ومقاومتها، وأكثرها وجودًا الجلوبيولين المناعي من نوع (أ) الإفرازي؛ وهو بروتين مهم لمقاومة مختلف أنواع البكتريا، وبعض أنواع الفيروسات مثل فيروس شلل الأطفال، وفيروس الحصبة، وفيروس النكاف، وفيروس التهاب الدماغ الياباني. ومن ميزات اللبأ أنه يحتوي على فيتامين (أ) وتركيز الكلور والصوديوم، وله قدرة عجيبة على تليين أمعاء الطفل؛ وبالتالي إفراز مادة العقي التي لو بقيت في الأمعاء لأضرّت بالطفل وسببت انسدادًا في أمعائه، ويحتوي اللبأ أيضًا على العديد من الخلايا البيضاء واللمفاوية للأمراض، كما يحتوي على أكثر من مائة أنزيم، وعلى معادن مختلفة، وخاصة عنصر الزنك بالإضافة إلى العديد من الفيتامينات، انظر (المصدر السابق).

(٢) المغني ١٠/ ١٣٩، الحدود: لايقام الحد على حامل حتى تضع.

(٣) الأم ٥/ ٢٤٠، امرأة المفقود، الحاوي الكبير ١٤/ ٣٧٤.

لقد أرشدنا كتاب الله على أهمية الرضاعة الطبيعية في الحولين، وحث الله تعالى الأمهات على إرضاع الأبناء، وحدّد مدة الرضاع بعامين كاملين؛ لأن هذه المدة يستغني بها الطفل عن ثدي أمه، ويبدأ بالتغذي بعدها عن طريق تناول الطعام والشراب[1].

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، فهل من ذلك من حكمةٍ أو علةٍ طبيةٍ؟ ولنقرأ حول الحكمة من ذلك ووجه الإعجاز في بحث بمجلة الإعجاز العلمي جاء فيه تحت عنوان:

العلم الحديث يجلي الحكمة في الرضاعة الطبيعية حولين كاملين:

ذكر كتاب (نلسون) وهو أحد المراجع المشهورة في طب الأطفال في طبعته عام ١٩٩٤م أن الأبحاث الحديثة أظهرت وجود علاقة ارتباطية قوية بين عدد ومدة الرضاعة من ثدي الأم وبين ظهور مرض السكري من النوع الأول في عدد من الدراسات على الأطفال في كلٍّ من النرويج، والسويد، والدنمارك، وعلل الباحثون ذلك بأن لبن الأم يمد الطفل بحمايةٍ ضد عوامل بيئيةٍ تؤدي إلى تدمير خلايا (بيتا البنكرياسية) في الأطفال الذين لديهم استعداد وراثي لذلك، وأن مكونات الألبان الصناعية، وأطعمة الرضع تحتوي على مواد كيميائية سامة لخلايا بيتا البنكرياسية، وأن ألبان البقر تحتوي على بروتينات يمكن أن تكون ضارة لهذه الخلايا، كما لوحظ أيضًا في بعض البلدان الأخرى أن مدة الرضاعة من الثدي تتناسب عكسيًا مع حدوث مرض السكري؛ لذلك ينصح الباحثون الآن بإطالة مدة الرضاعة من ثدي الأم للوقاية من هذا المرض الخطير وللحفاظ على صحة الأطفال في المستقبل، وبِناءً على هذه الحقائق برزت في السنوات الأخيرة نظرية مفادها أن بروتين لبن البقر يمكن أن يحدث تفاعلًا حيويًا مناعيًا يؤدي إلى تحطيم خلايا (بيتا البنكرياسية) التي تفرز الأنسولين، ويعضد هذه النظرية وجود أجسام مضادة بنسب مرتفعة لبروتين لبن البقر في مصل الأطفال المصابين بداء السكري بالمقارنة مع الأطفال غير المصابين

---

(١) تفسير آيات الأحكام للصابوني ١/ ٣٥٧، ٣٥٨.

بالمرض كمجموعة مقارنة، وفي دراسةٍ حديثةٍ منشورةٍ في مجلة السكري في (يناير ١٩٩٨م) استخلص الباحثون أن البروتين الموجود في لبن الأبقار يعتبر عاملًا مستقلًا في إصابة بعض الأطفال بمرض السكري بغضِّ النظر عن الاستعداد الوراثي، وفي دراسةٍ حديثةٍ منشورةٍ في (فبراير ١٩٩٨م) في جريدة المناعة أشار المؤلفون إلى أن تناول لبن البقر وبعض الألبان الصناعية كبديلٍ للبن الأم يؤدي إلى زيادة نسبة الإصابة بمرض السكّري في هؤلاء الأطفال، وقد أُجرِيَت هذه الدراسة على أطفالٍ صغار السن حتى الشهر التاسع من العمر؛ ولهذا نصح المؤلفون بإطالة مدة الرضاعة الطبيعية، وفي دراسةٍ مشابهةٍ منشورةٍ في مجلة السكري يناير ١٩٩٤م أوضح الباحثون وجودَ ارتباطٍ قوي بين تناول منتجات الألبان الصناعية (خاصة لبن الأبقار) في السن المبكر حتى العام الأول من العمر وازدياد نسبة الإصابة بمرض السكري وفي دراسة أُجرِيَت بقسم الباطنة (سنة ١٩٩٥م) تحت إشرافي وجدنا أن الأجسام المناعية المضادة للبن الأبقار وجدت في مصل الأطفال الذين تناولوا لبن الأبقار حتى نهاية العام الثاني، أما الأطفال الذين تناولوا لبن الأبقار بعد عامين من العمر فلم يتضح فيهم وجود هذه الأجسام المناعية؛ مما يُظهِر جليًا حكمة تحديد القرآن الكريم للرضاعة بعامين كاملين.

لكن لماذا يسبب لبن الأبقار هذا الضرر قبل العام الثاني، بينما يزول الأثر السيئ للبن الأبقار بعد هذه المدة؟

في دراسةٍ أُجرِيَتْ بفنلندا (عام ١٩٩٤م) منشورةٍ في مجلة المناعة الذاتية يقول المؤلفون: إن بروتين لبن الأبقار يمر بحالته الطبيعية من الغشاء المبطن للجهاز الهضمي نتيجة عدم اكتمال نمو هذا الغشاء من خلال ممراتٍ موجودةٍ فيه؛ حيث إن إنزيمات الجهاز الهضمي لا تستطيع تكسير البروتين إلى أحماضٍ أمينيةٍ؛ ولذلك يدخل بروتين لبن الأبقار كبروتين مركبٍ مما يحفز على تكوين أجسام مناعية داخل جسم الطفل، وتشير المراجع الحديثة إلى أن الإنزيمات والغشاء المبطن للجهاز الهضمي وحركية هذا الجهاز وديناميكية الهضم

والامتصاص – لا يكتمل عملها بصورةٍ طبيعيةٍ في الأشهر الأولى بعد الولادة وتكتمل تدريجيًا حتى نهاية العام الثاني.

ومجموع هذه الأبحاث يشير إلى أنه كلما اقتربت مدة الرضاعة الطبيعية من عامين قل تركيز الأجسام المناعية الضارة بخلايا (بيتا البنكرياسية) التي تفرز الأنسولين، وكلما بدأت الرضاعة البديلة وخاصةً لبنَ الأبقار في فترةٍ مبكرةٍ بعد الولادة ازداد تركيز الأجسام المناعية الضارة في مصل الأطفال.

وفي إشارةٍ علميةٍ دقيقةٍ أخرى للقرآن الكريم نراه يحدد مدة الرضاعة بما يقرب من الحولين، كما جاء في الآية (١٤) من سورة (لقمان): ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾، والآية (١٥) من سورة (الأحقاف): ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، ويُفهم من هذا أن إرضاع الحولين ليس حتمـًا، بل هو التمام، ويجوز الاقتصار على ما دونه، كما أشارت الأحكام الإسلامية الخاصة بالرضاعة إلى ذلك، اعتمادًا على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

يقول ابن كثير[1]: أي فإن اتفق والدَا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له وتشاورَا في ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أنَّ انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحدٍ منهما أن يستبدّ بذلك من غير مشاورة الآخر؛ قاله الثوري وغيره. وهذا فيه احتياطٌ للطفل، والتزامٌ للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (البقرة/ ٢٣٣).

(٢) انظر: حكمة تحديد مدة الرضاعة بحولين كاملين من منظور علمي العدد الرابع مجلة الإعجاز العلمي أ. د. مجاهد محمد أبو المجد.

فتلك عظمة التشريع الإسلامي وحكمته التي تتجلّى في القرآن منذ ألف وأربعمائة عامٍ مضت وجاءت الأبحاث العلمية لتوافقها، وها هي الآيات تظهر لتعلم البشرية أنه دين الحق.

الوجه الخامس: في الدليل على أن الصفات الوراثية تثبت بالرضاع كما تثبت بالولادة.

وذلك فيما يلي:

أولًا: الأجسام المناعية وانتقال الصفات الوراثية:

أثبتت الأبحاث العلمية التي أُجرِيَت حديثًا وجودَ أجسامٍ في لبن الأم المرضعة الذي يترتب على تعاطيه تكوين أجسامٍ مناعيةٍ في جسم الرضيع بعد جرعاتٍ تتراوح من ثلاث إلى خمس جرعات...، وهذه هي الجرعات المطلوبة لتكوين الأجسام المناعية في جسم الإنسان؛ حتى في حيوانات التجارب المولودة حديثًا، والتي لم يكتمل نمو الجهاز المناعي عندها...، فعندما ترضع اللبن تكتسب بعض الصفات الوراثية الخاصة بالمناعة من اللبن الذي ترضعنه، وبالتالي تكون مشابهةً لأخيها أو لأختها من الرضاع في هذه الصفات الوراثية، ولقد وُجِدَ أن تكوُّن هذه الجسيمات المناعية يمكن أن تؤديَ إلى أعراضٍ مرضيةٍ عند الإخوة في حالة الزواج. ومن هنا نجد الحكمة في هذا الحديث الشريف الذي نحن بصدده في تحريمه زواج الإخوة من الرضاع والذي حدد الرضعات بخمس رضعات مشبعات[1].

---

(١) الإعجاز العلمي في الإسلام (السنة النبوية) محمد كامل عبد الصمد الفصل السادس: علوم الطب. عندما قام العلماء بتحليل حليب الأم لاحظوا وجود مواد لا توجد في الحليب العادي، وتختلف من امرأة لأخرى، عندما يتجرع الطفل هذه المواد يتكون لديه أجسام مناعية بعد عدة رضعات فقط، وهذا يعني أن الطفل الذي رضع من امرأة عدة رضعات؛ فإنه يكتسب بعض الصفات الوراثية المناعية من هذه الأم لتصبح بمثابة أم له، هذه الصفات الوراثية التي اكتسبها الرضيع من المرأة تشبه تلك التي اكتسبها أولادها الحقيقيون منها ليصبحوا وكأنهم إخوة له؛ لذلك يحرم زواج الإخوة بالرضاعة لأنهم يملكون نفس الصفات الوراثية، وهذا قد يؤدي إلى أمراض وراثية خطيرة لذلك نجد الرسول الكريم ﷺ قد حرم زواج الإخوة بالرضاعة قبل أربعة عشر قرنًا، واليوم جاء العلم الحديث ليؤكد صدق كلام هذا النبي الكريم ﷺ وصدق تحريمه.

ثانيًا: نقل الجينات من حليب الأم واختراقها لخلايا الرضيع:

وإن القرابة من الرضاعة تثبت وتنتقل في النسل، والسبب الوراثة ونقل الجينات؛ أي أن قرابة الرضاعة سببها انتقال جيناتٍ (عوامل وراثية) من حليب الأم، واختراقها لخلايا الرضيع، واندماجها مع سلسلة الجينات عند الرضيع يساعد على هذه النظرية أن حليب الأم يحتوي على أكثر من نوع للخلايا، ومعلوم أن المصدر الطبيعي للجينات البشرية هو نواة الخلايا (DNA) كما يحتمل أن الجهاز الوراثي عند الرضيع يتقبل الجينات الغريبة لأنه غير ناضجٍ، حاله حال عدة أجهزة في الجسم لا يتم نضجها إلا بعد أشهرٍ وسنواتٍ من الولادة، وإذا صح تفسير قرابة الرضاعة بهذه النظرية فإنّ لها تطبيقاتٍ في غاية الأهمية والخطورة[1].

ثالثًا: الخلايا الجذعية وعلاقتها بالرضيع:

ففي كل يوم تثبت الدراسات أن المرضعة تؤثر على الطفل الذي ترضعه وتتأثر به أيضًا، ولا ننسى أن علماء الغرب يؤكدون حتى هذه اللحظة أنهم يجهلون التركيب الدقيق لحليب الأم، ولكن هناك بحثٌ قدّمه الدكتور (Mark Cregan) عالم البيولوجيا الجزيئية من جامعة غرب استراليا؛ هو اكتشافٌ يُعرَض لأول مرةٍ كما يقول (فبراير ٢٠٠٨م)، وقد أثبت من خلاله أن حليب الأم يؤثر على الطفل الذي رضع منها بشكل مذهل لم يكن معروفًا من قبل، قال في بحثه: إننا وللمرة الأولى ندرك أن حليب الأم يحوي خلايا جذعية (جنينية)، وهذه الخلايا معقدة لدرجة كبيرة لا نزال نجهلها، وهي تؤثر على الطفل الذي يرضع حليب أمه بشكلٍ كبيرٍ، إن الخلايا الجذعية الموجودة في حليب الأم تشبه بل تطابق تمامًا خلايا الجنين الذي تحمله في بطنها، أي أن الطفل الذي يرضع من ثدي امرأة غير أمّه يكتسب خصائص تشبه خصائص إخوته، بل إن الدكتور (Mark Cregan)) يقول وبالحرف الواحد: إن الخلايا الجنينية الموجودة في حليب الأم تحوي برنامجًا يؤثر على من

(لماذا حرم الله رضاع الإخوة؟ مقال بموقع/ عبد الدائم الكحيل).

(١) العلوم في القرآن د/ محمد جميل الحبّال، د/ مقداد مرعي الجواري. الناشر دار النفائس.

يتناول هذا الحليب، وتساهم في بناء الأنسجة في جسده، بل وتؤثر على سلوك هذا الطفل في المستقبل ويستمر تأثيرها إلى ما بعد مرحلة البلوغ؛ ولذلك فإن الله حرم علينا الأمهات اللاتي أرضعننا، يقول تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ (النساء: ٢٣)، وهذا من إعجاز القرآن الكريم[1].

رابعًا: الرضاعة المحرمة والصفات الوراثية:

اكتشف العلماء فائدة الرضاعة المحرِّمة كعلاجٍ لبعض الأمراض الوراثية، وقد اكتشف الطب أنماطًا متعددةً لها؛ ومن أحد أنواعها: الأمراض أحادية التوريث (Single Gene Defects) والتي تزيد على ثلاثة آلاف مرض وراثي تنتقل من الوالدين أو أحدهما إلى الذرية عن طريق وجود عيبٍ في موروثة واحدة (Gene Abnormal) يتوارثها الأبناء عن الآباء حيث يكون جزء صغير جدًا من الصبغي (الكروموسوم) مسئولًا عن تصنيع بروتينٍ معينٍ (هرمون أو إنزيم أو غيرهما)، وبهذه الحالة يكون عدد الصبغيات (الكروموسومات) طبيعيٌّ ولا يوجد زيادةٌ أو نقصٌ فيها، ولكن يوجد نقصٌ أو تغيرٌ في نوعية هذه الموروثات تؤدى إلى حدوث هذه الأمراض التي تعد المورثة مسئولة عن تصنيعها.

وحيث إن لأغلب هذه الأمراض الوراثية توزيع جغرافي وعرقي معين، ومنها ما تكون ذات صفات متنحية (Recessive) أي أن موروث المرض مغلوبةٌ على أمرها؛ فهي لا تستطيع أن تعبر عن نفسها وتظهر المرض إلا عندما توجد مورثةٌ مماثلةٌ مقابلةٌ لها تشدّ من أزرها عند كلا الوالدين فيتفقان على إظهار المرض، وبهذه الحالة يجب أن يكون كلٌّ من الوالدين إما حاملًا لموروثة المرض أو مصابًا بها، ومن أمثلة ذلك في بلادنا داء فقر الدم المنجلي (Sickle cell Anemia)، دم البحر المتوسط (Thalaaassemia)، وفى بريطانيا يمثلها داء التكيس الليفي (cystic Fibrosis).

(١) انظر مقال عبد الدائم الكحيل موسوعة الإعجاز العلمي بعنوان: (حقائق جديدة تثبت صدق كلام الله وكذب كلام الملحد)، موقع عبد الدائم الكحيل.

وقد توصّل الطب والعلم الحديثان من خلال استعمال التقنيات الحديثة من تشخيص هذه الأمراض الوراثية خلال الحياة الجنينية (في بطن الأم) فضلًا عن تشخيصها بعد الولادة.

وفي تشخيص حالة كهذه قبل الولادة أو بعدها مباشرةً يمكن معالجتها في نظريتنا من خلال إرضاع الطفل المصاب من مرضعةٍ أخرى من غير أقاربه (أجنبية) تملك بنيةً سليمةً وصحةً جيدةً (خالية من الأمراض الوراثية) نلحقه بها مباشرةً بعد ولادته بدلًا من أمه التي تحمل الصفات الوراثية المرضية، ولمدةٍ لاتقل عن ستة أشهرٍ حيث إن المفترض أن الحليب من المرضعة الصحيحة سيزيح، أو ينحي، أو يتغلب على الصفة الوراثية المرضية التي اكتسبها من والديه وذلك من خلال اختراقه بعض مكوناته للجهاز المناعي والوراثي للرضيع، وهو تطبيقٌ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ (الطلاق: ٦)[١]؛ من أجل التوصل إلى أن إطلاق الزوائد المتشجرة لهرمون (أوكسيتوسين) يتيح زيادة التواصل بين الخلايا العصبية[٢].

فهل عرفنا الحكمة من تحريم الرضاع وجعله كالنسب بعد أن علمنا أن الصفات الوراثية تنتقل بالفعل بين المرضع والرضيع؟ وهل من بعد هذا الحق من ضلال؟!

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: ٥٣).

خامسًا: هرمون الثقة والعلاقة النفسية بين المرضعة والرضيع:

أظهر العلماء ولأول مرة كيفية نشوء ما أسموه بهرمون (الثقة) في أدمغة الأمهات المرضعات عند إرضاع صغارهن، وقال العلماء: إن الرضيع عندما يبدأ في مص الحليب من ثديي أمه تنطلق سلسلة متصلة من العمليات في دماغ الأم تؤدي إلى نشوء هرمون الثقة، وقال العلماء: إن هذا الكشف يشكل دليلًا إضافيًا على أن الرضاعة الطبيعية تعزز الرابطة بين الأم المرضعة ورضيعها من خلال عمليات كيميائية حيوية.

---

(١) من مقال للدكتور زغلول النجار من موقعه.

(٢) مقال بعنوان (عالجي طفلك بالرضاعة الطبيعية) على موقع / عبد الدائم الكحيل.

وقال فريق العمل في جامعة ورويك الذي أنجز البحث: إن الهرمون المسمى (أوكسيتوسين) كان معروفًا أنه عند إطلاقه في الدم يسبب في انسكاب الحليب من الغدة الثديية، لكن ما لم يكن معروفًا أنه عند إطلاق الهرمون (أوكسيتوسين) في الدماغ، فإنه يساعد على تعزيز الرابطة بين الأم والرضيع من خلال الثقة التي تنشأ بين الطرفين، ويؤدي هرمون (أوكسيتوسين) أيضًا إلى حدوث انقباضاتٍ خلال أوجاع المخاض ويسبب في (انسكاب) الحليب من الغدد الثديية، وينشأ الهرمون في جزء الدماغ المسؤول عن التحكم في حرارة الجسم، والعطش، والجوع، والغضب، والتعب.

وخلص فريق البحث إلى أن الهرمون المذكور يفرز مشاعر ثقة الرضيع في أمه واتّكاله عليها، إضافةً إلى تقليص خوفه من العالم الجديد الذي وفد إليه.

فالجنين منذ أن يكون في بطن أمه يعود نفسه على مص أصابعه استعدادًا ليرضع من ثدي أمه بعد الولادة مباشرة، وتؤكد الدراسة المنشورة في مجلة ((PLoS Computational)) إلى أن الرضيع عندما يرضع من ثديي أمه فإن خلايا عصبيةً خاصةً في دماغ الأم المرضعة تبدأ في إطلاق هرمون الثقة، لكن فريق البحث فوجئ بأن هرمون (أوكسيتوسين) يُطلَق أيضًا من جزء الخلية المسماة الزوائد المتشجرة والتي عادةً ما تكون هي نفسها جزء الخلية العصبية الذي يتلقى المعلومات وليس الذي يرسلها، وقد اعتمد العلماء على عملياتٍ حسابيةٍ دقيقةٍ.

* * *

٩ـ شبهة: أمم أمثالكم.

نص الشبهة:

جاء في القرآن: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، هل الحيوانات أمم أمثالنا؟!

١ـ القرآن لم يحدد أوجه الشبه بين الإنسان والحيوان، فإن كان يقصد الشبه في كل شيء فهذا مستحيل وغير ممكن؛ لأنه ظاهر للعيان أن الحيوان مختلف عن الإنسان، أما إذا كان المقصود هو بعض أوجه الشبه فَرَدُّنا سيكون بحسب هذه الأوجه:

أ ـ في العلاقات: نختلف تمامًا عن الحيوان في نوعية العلاقة، فالعديد من الحيوانات تعيش فوضى دون ضوابط معينة؛ فالابن يطأ أمه، والأب يطأ ابنته، وغير ذلك مما نعرفه جميعًا، وهذا دليل على انعدام الضابط الأخلاقي، وتحكم الغريزة في الحيوان، وهناك أيضًا علاقات سلطوية تضبطنا جميعا كالرئيس والمرؤوس، أما أكثرية الحيوانات إن لم نقل كلها فإنها تعيش دون نظامًا معينًا (الأقوى هو الذي يربح ويتسلط على الآخرين دائمًا).

ب ـ في العقل: فإننا لم نتأكد بعد أن الحيوان يستخدم عقله في تصرفاته بل ظاهريًا يبدو العكس؛ بحيث نرى أن الحيوان يسير بحسب غرائزه، والدليل الأقوى في هذا الباب هو أن الحيوان منذ تواجده على الأرض لم يحقق أي تقدم أو رقي، ونحن نعلم أن مَنْ يستخدم عقله لا بد وأن يتطور مع مرور الزمن وهذا ماحدث مع الإنسان الذي استطاع في وقت وجيز أن يحقق تقدمًا مدهشًا وهائلًا، وبالتالي نخلص إلى القول بأن الحيوان لا يشبه الإنسان أبدًا في عقله.

ج ـ في الغرائز الطبيعية: قد يبدو لأول وهلة أن الإنسان يشبه الحيوان في وظائف الأكل، والشرب، والشم، والسمع، والكلام (على نحو ما) والسير. . . إلخ، لكن هذا أيضًا ليس مطلقًا بل ينحصر في أشياء قليلة، فمثلًا طريقة التوالد تختلف عن الإنسان عند الحيوانات التي تبيض، والحيونات العمياء التي تعتمد في طبيعتها على الإحساس وأخرى تطير وغيرها يقفز، إلى غير ذلك مما يعلمه العامة من الناس حتى إن كان الشبه موجودًا من هذه الناحية فإنه ليس بالإعجاز لأنه ظاهر بمجرد الملاحظة! !

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى كلمة: (أمة) لغةً.

الوجه الثاني: معنى: ﴿أَمْثَالُكُم﴾ لغةً.

الوجه الثالث: مفهوم ﴿أَمْثَالُكُم﴾ في القرآن والسنة:

الوجه الرابع: النظرة العلمية لمفهوم الأممية عند الحيوان والطير وغيرهم، (أو التطبيق العلمي لمعرفة معنى كلمة: (الأمة)).

الوجه الخامس: هذه الشبهة ذُكرت في كتب التفسير وتم الرد عليها قديمًا.

الوجه السادس: النسبة بين المشبهات إنما هو بصفاتها في الأجسام وبذواتها في الأعراض.

الوجه السابع: هذه الآية لا تتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بل هناك علاقة بينهما.

الوجه الثامن: هذه الآية يفسرها قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وكذلك الآيات التي توضح تدبير الله لأمر الإنسان والحيوان جميعًا.

الوجه التاسع: إجماع العقلاء أن من البشر من قد تدنى في أخلاقه حتى إنه ليشبه في تصرفاته تصرفات بعض الحيوانات، بل قد يكون الحيوان أفضل منه في تلك الحالة، وليس معنى ذلك أنه قد أشبهت خلقته خلقة الحيوان.

الوجه العاشر: معنى الآية: أن الله كما سيسألكم ويحاسبكم عما كنتم تفعلون فكذلك سيحاسب هذه الحيوانات؛ فهم أمم أمثالكم في الحساب والبعث والحشر يوم القيامة.

الوجه الحادي عشر: هذه الآية رد على من ينكر أن الحيوانات والطيور لها أرواح مثلنا.

الوجه الثاني عشر: أي: كما خلقكم لحكمة العبادة خلقهم لحكمة التسخير، فالتماثل هو تماثل في كون كلٍّ له حكمة من خلقه، وفي ذلك كله لم يخلقكم ولم يخلقهم سدى.

الوجه الثالث عشر: الآية تشير إلى علم الأحياء، وأن هناك علاقة بين الكائنات الحية لا يمكن أن ينكرها عاقل.

الوجه الرابع عشر: المقصود من الآية: أن الله ينبه الإنسان في هذه الآية إلى أهمية التدبر في المخلوقات، وليس المقصود بالآية أن الإنسان مثل الحيوان سلوكًا.

الوجه الخامس عشر: الآية تشير إلى عبودية الكائنات لله سبحانه وتعالى.

الوجه السادس عشر: الكتاب المقدس يشير إلى أن الحيوان والطير يعبدون الله.

الوجه السابع عشر: الآية تفيد أن الإنسان والحيوان والطير جميعًا أدلة على وجود الله.

الوجه الثامن عشر: معنى الآية: أن لكل من الحيوان والطير لغة يتصل بها بغيره كما أن لكم لغات وألسنة تتحدثون بها:

الوجه التاسع عشر: الرد على من يقول: إن الممارسة الجنسية عند الحيوان ما هي إلا ممارسة همجية.

الوجه العشرون: الأخلاقيات الكريمة لدى الطيور والحيوانات.

الوجه الحادي والعشرون: الإنسان يتعلم من الحيوانات، فلماذا لا نعترف أن للحيوان قيمة وقدرًا؟!

الوجه الثاني والعشرون: بعض الطيور تقلد أصوات البشر.

الوجه الثالث والعشرون: بعض الحيوانات تسبق الإنسان في معرفة بعض الأحداث والمعلومات.

الوجه الرابع والعشرون: هم يفهمون خطأً من هذه الآية أن الإنسان يشبه الحيوانات، وسنرد على ذلك، ولكن بالنظر في الكتاب المقدس نجد أن الله يُشبّه بالحيوانات.

الوجه الخامس والعشرون: الكتاب المقدس يشير إلى تشبيه بعض البشر ببعض الصفات الحيوانية.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى كلمة: (أمة) لغةً.
أما معنى: (الأمة) في معاجم اللغة فقد وردت لها معان مختلفة:

١- منها أن كل قوم في دينهم من أمتهم؛ قال تعالى﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، وقال ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دين واحد.

٢- كل من مات على دين واحد مخالفًا لسائر الأديان فهو أمة على حدة كما كان

إبراهيم عليه السلام أمة.

٣- وكل قوم نسبوا إلى نبي وأضيفوا إليه فهم أمة وقد يجيء في بعض الكلام أن أمة محمد ﷺ هم المسلمون خاصة، وجاء أيضًا أن أمته مَنْ أُرسل إليه ممن آمن به أو كفر به فهم أمته في اسم الأمة لا الملة.

٤- كل جيل وكل جنس من السباع والحيوان أمة كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، وتأتي الأمة بمعنى: الجماعة، والطريقة، والدين[(١)].

قال ابن القيم: كل جنس من أجناس الحيوان يسمى: أمة. . . وفي حديث النبي الذي قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأُحرقت فأوحى الله إليه: من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله[(٢)].

الوجه الثاني: معنى: ﴿أَمْثَالُكُم﴾ لغةً:

قال ابن منظور: وإذا قيل: هو مِثْلُه في كذا فهو مُساوٍ له في جهةٍ دون جهةٍ[(٣)].

قال العسكري: [الفرق بين المِثل والمَثَل]: المِثلان: ما تكافآ في الذات، والمَثَل بالتحريك: الصفة، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (الرعد: ٣٥) أي: صفة الجنة. وقولك: ضربت لفلان مثلًا؛ معناه: أنك وصفت له شيئًا، وقولك: مِثل هذا كمثل هذا؛ أي: صفته كصفته وقال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٥) وحاملوا التوراة لا يماثلون الحمار، ولكن جَمَعَهم وإياه صفة فاشتركوا فيها[(٤)].

قال الشوكاني: الأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنًا ما كان[(٥)].

---

(١) مقالات حول الحساب الفلكي ١٠/ ٢٣، وانظر: لسان العرب (مادة: أمم).

(٢) الروح١/ ٨٧؛ المسألة الثالثة عشرة: وهي أن الأطفال هل يمتحنون في قبورهم.

(٣) لسان العرب ١١/ ٦١٠؛ (مادة: مثل).

(٤) معجم الفروق اللغوية ١/ ٣٢٧ (١٩٣٤)؛ الفرق بين المثل والمثل.

(٥) فتح القدير ٢/ ٤٠٩؛ (الأنعام: ٣٨).

قلت: ومن معاني المثلية أيضًا: التشابه في بعض الصفات؛ يقول ابن كثير عند قول الله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أي: ينهاكم الله متوعدًا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدًا(١).

أي: فيما يستقبل، والمثلية هنا هي تلقى الإفك الذي روي عن أم المؤمنين بالألسنة والأفواه، وهذا شيء ليس لهم به علم.

فالمماثلة ليست في جميع الصفات، ولكن هذا إلزام شبه بحكم ظاهر من المماثلة، فالمماثلة هنا تشابه، والتشابه هو أقل درجات المثلية.

الوجه الثالث: مفهوم ﴿أَمْثَالُكُم﴾ في القرآن والسنة:

القرآن:

قال ابن منظور: وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ قال أبو إسحق: إن قال قائل: وهل للإيمان مِثْل هو غير الإيمان؟ قيل له: المعنى واضح بيِّن، وتأويلُه: إن أَتَوْا بتصديقٍ مِثْلِ تصديقكم في إيمانكم بالأنبياء وبتوحيد كتوحيدكم، فقد اهتدوا أَي: قد صاروا مسلمين مثلكم. . . قال محمد بن سلام: ومثل ذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ أي: صِفَتُهم. . . أَي: ذلك صفةُ محمدٍ ﷺ وأَصحابِه في التوراة، ثم أَعلمهم أَن صفتهم في الإِنجيل كَزَرْعٍ. . . ويقال: مَثَلُ زيد مثَلُ فلان؛ إِنما المَثَل مأْخوذ من المِثال، والحَذْوِ، والصفةُ تَحْلِية ونعتٌ. . . وقد يكون المَثَلُ بمعنى: العِبْرَةِ؛ ومنه قوله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾. . ويكون المَثَلُ بمعنى: الآيةِ قال الله ﷻ في صفة عيسى عليه السلام على نبينا ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَي: آيةً تدلُّ على نُبُوّتِه(٢).

قال الطحاوي: فأخبر ﷻ أنهم أمم أمثالنا، ولم يرد بذلك أنهم أمثالنا في الخلقة التي نتباين نحن وهم فيها، ولا أنهم مثلنا في أنا متعبدون بها أتانا الله ﷻ فيما نعبد بأنه مما لم

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٩؛ (النور: ١٦).

(٢) لسان العرب ١١/ ٦١٠؛ (مادة: مثل).

يتعبدهم به، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يعني: مثل السماوات؛ ليس يعني بذلك فيما خلقهن عليه، ولكنه على أن لهن من العدد مثل ما للسماوات من العدد[1].

السنة والآثار:

١ - **قال ابن منظور:** وفي حديث المِقْداد أن رسول الله ﷺ قال: **"ألا إِنِّي أُوتيتُ الكِتاب ومِثْلَه معه"**. قال ابن الأثير: يحتمل وجهين من التأويل؛ أحدهما: أنه أُوتِيَ من الوَحْي الباطِن غيرِ المَتْلُوِّ مثل ما أُعطيَ من الظاهر المَتْلُوِّ. والثاني: أنه أُوتي الكتابَ وَحْيًا وأُوتي من البَيان مثلَه؛ أي: أُذِنَ له أن يبيِّن ما في الكتاب، فيَعُمَّ ويَخُصَّ، ويَزيد وينقُص، فيكون في وُجوب العَمَل به ولزوم قبوله كالظاهِر المَتْلوِّ من القرآن، وفي حديث المِقْدادِ قال له رسول الله ﷺ: **"إِن قَتَلْتَه كنتَ مِثْلَه قبلَ أَن يقولَ كلمته"** أَي: تكون من أَهل النار إِذا قتلتَه بعد أَن أَسْلَمَ وتلفَّظ بالشهادة، كما كان هو قبل التلفُّظ بالكلمة من أَهل النار؛ لا أَنه يصير كافرًا بقتله، وقيل: إِنك مِثْله في إِباحة الدَّمِ؛ لأَن الكافرَ قبل أَن يُسْلِم مُباحُ الدم فإِن قتله أَحد بعد أَن أَسلم كان مُباحَ الدم بحقِّ القِصاصِ، ومنه حديث صاحب النِّسْعةِ: "إِن قَتَلْتَه كنتَ مِثْلَه". قال ابن الأَثير: جاء في رواية أَبي هريرة أَنَّ الرجلَ قال: (والله ما أَردت قَتْله) فمعناه: أَنه قد ثَبت قَتْلُه إِياه، وأَنه ظالم له فإِن صَدَقَ هو في قوله: إِنه لم يرِد قَتْله ثم قَتَلْتَه قِصاصًا كنتَ ظالمًا مثلَه؛ لأَنه يكون قد قَتَلَه خطأً، وفي حديث الزكاة: (أَمَّا العبَّاس فإِنها عليه ومثلُها مَعها)، قيل: إِنه كان أَخَّرَ الصَّدَقة عنه عامَيْن؛ فلذلك قال: ومثلُها معها، وتأْخير الصدقةِ جائز للإِمام إِذا كان بصاحبها حاجةٌ إِليها، وفي رواية قال: (فإِنها عَلَيَّ ومثلُها معها) قيل: إِنه كان اسْتَسْلَف منه صدقةَ عامين؛ فلذلك قال عَلَيَّ، وفي حديث السَّرِقة: (فعَلَيْه غَرامةُ مِثْلَيْه) هذا على سبيل الوَعِيدِ والتغليظِ لا الوُجوبِ ليَنْتَهِيَ فاعِلُه عنه، وإِلاّ فلا واجبَ على متلِف الشيء أَكثر من مِثْلِه، وقيل: كان في صدْر الإِسلام تَقَعُ

(١) مشكل الآثار ٢٢٢٧؛ حديث: (ما لا يتوضأ بفضله من الدواب).

العُقوباتُ في الأَموال ثم نسِخ، وكذلك قوله في ضالَّة الإِبلِ: غَرامَتُها ومثلُها معها[١].

٢- **قال الطحاوي**: قول أبي هريرة: (يُغسل الإناء من الهر كما يغسل من الكلب) ليس على أنه مغسول من الهر سبعًا كما يكون مغسولًا من الكلب سبعًا، ولكنه مغسول كما الكلب مغسول منها وإن اختلفا في العدد[٢].

٣- **وقَالَ ابن حجر**: لَفْظُ الْمِثْلِ لَهُ اِسْتِعْمَالَانِ: أَحَدُهُمَا الْإِفْرَادُ مُطْلَقًا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾، وَالْآخَرُ الْمُطَابَقَةُ كَقَوْلِهِ تعالى ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾، فَعَلَى الْأَوَّلِ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْجَزَاءُ أَبْنِيَةً مُتَعَدِّدَةً فَيَحْصُلُ جَوَابُ مَنْ اِسْتَشْكَلَ التَّقْيِيدَ بِقَوْلِهِ: مِثْلَهُ مَعَ أَنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لِاحْتِمَالِهَا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بَنَى اللهُ لَهُ عَشَرَةَ أَبْنِيَةٍ مِثْلَهُ، وَالْأَصْلُ أَنَّ ثَوَابَ الْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ وَاحِدٌ بِحُكْمِ الْعَدْلِ وَالزِّيَادَةُ بِحُكْمِ الْفَضْلِ، وَمِنْ الْأَجْوِبَةِ الْمُرْضِيَةِ: أَنَّ الْمِثْلِيَّةَ هَاهُنَا بِحَسَبِ الْكَمِّيَّةِ وَالزِّيَادَةَ حَاصِلَةٌ بِحَسَبِ الْكَيْفِيَّةِ، فَكَمْ مِنْ بَيْتٍ خَيْرٌ مِنْ عَشَرَةٍ بَلْ مِنْ مِائَةٍ، أَوْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ الْمِثْلِيَّةِ أَنَّ جَزَاءَ هَذِهِ الْحَسَنَةِ مِنْ جِنْسِ الْبِنَاءِ لَا مِنْ غَيْرِهِ مِنْ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ غَيْرِ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّ التَّفَاوُتَ حَاصِلٌ قَطْعًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى ضِيقِ الدُّنْيَا وَسَعَةِ الْجَنَّةِ، إِذْ مَوْضِعُ شِبْرٍ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ وَاثِلَةَ بِلَفْظِ بَنَى اللهُ فِي الْجَنَّةِ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ بِلَفْظِ: أَوْسَعَ مِنْهُ، وَهَذَا يُشْعِرُ بِأَنَّ الْمِثْلِيَّةَ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا الْمُسَاوَاةُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ[٣].

قلت: فمن ذلك يتضح لنا أمران في قوله: ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾:

١- المثلية ليست على ظاهرها.

٢- المثلية في مسمى كلمة أمم: أي كما أن لكم أعدادًا كبيرة وشعوبًا فهم كذلك، ولكن الاختلاف في الذات والصفات.

---

(١) لسان العرب ١١/ ٦١٠؛ (مادة مثل).

(٢) مشكل الآثار ٢٢٢٧؛ (حديث: ما لا يتوضأ بفضله من الدواب).

(٣) ٦/ ٢٢٤؛ باب ما جاء في فضل بنيان المسجد، حديث (٢٩٢).

الوجه الرابع: النظرة العلمية لمفهوم الأممية عند الحيوان والطير وغيرهم، أو التطبيق العلمي لمعرفة معنى كلمة: (الأمة).

فمعنى كلمة: (الأمة) علميًا: أنه كما أننا نحن البشر أعدادنا كثيرة مؤلفة من قبائل، وعشائر، وشعوب، وعائلات، وكذلك أنواعنا: من أبيض، وأسمر، وأصفر، وغير ذلك - فكذلك الحيوانات والطيور.

قال ابن جماعة: فكل الأحياء من حشرات، وزواحف، وفقاريات، ومن طائر يطير بجناحيه في الهواء، ومن حيوان مائي، وبرمائي، وبري، وجبلي، ما من مخلوق من هذه المخلوقات إلا وهي تنتظم في أمة ذات خصائص واحدة وطريقة في الحياة واحدة؛ خلقت مفطورة على اتجاه معين في الحياة، ونظمت خلايا تكوينها على شكل لا يمكن أن يخرج بسببها حيوان من فطرته ونظامه، ولا نبات عن جنسه، وما أودع الله تعالى فيه فلن ينقلب كما لم يحصل قط القط إلى كلب، ولا السمك إلى حيوان بري، ولا الثوم بصلًا، ولا البصر كراثًا[١].

النظرة العلمية: لقد اكتشف علماء الحيوان الذين يدرسون حياته الاجتماعية سواء منها ما تسعى في الأرض، أو تطير في السماء، أو تسبح في الماء؛ أنما هي شعوب، وقبائل، وأمم تربطها صلات وعلاقات وثيقة، فهي لا تختلف في أسلوب حياتها ونشاطها عن أمم البشر الذين يعمرون الأرض، وقد ألف علماء علم الأحياء مؤلفات كثيرة تبين نتائج ما وصلوا إليه من معلومات وحقائق عن نظام كل نوع من الحيوان والحشرات في حالة السلم والحرب، وفي السعي لطلب الغذاء، وفي رعاية الصغار والضعفاء، وما تلجأ إليه من حيل في التغلب على ما يواجهها من مصاعب وأخطار، وفي انقيادها لما هيأه لها الخالق العظيم من أعمال تتلاءم مع بيئتها وبنيتها، والأهداف التي خلقت لها، ويقول سبحانه وتعالى في سورة النحل (آية: ٦- ٩) تبيانًا لذلك: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ

(١) إيضاح الدليل ١/ ١٩؛ فصل: الكلام في ذات الله تعالى وصفاته.

أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[1].

قال السيد سلامة السقا: أكثر من مليون نوع من الحيوان استطاع الإنسان أن يتعرف عليها، ولا يعرف أعداد كل نوع إلا الله سبحانه وتعالى: ٦٠٠٠ نوع من الزواحف، و٨٠٠٠٠٠ نوع من المفصليات؛ منها حوالي ٧٠٠٠٠٠ نوع من الحشرات، وأكثر من ١٠٠٠٠٠ نوع من الرخويات، وأكثر من ٩٠٠٠ نوع من الطيور، وآلاف وآلاف لا يعلمها إلا الله تسكن في الأرض وتنتشر في جنباتها وتغوص في أعماقها ومائها ويحملُها هواؤها. . . إلخ[2].

قلت: ألا تدلنا هذه الأرقام على أممية الحيوانات كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى!

قال الأستاذ محمد محمد معافي علي المهدلي:

أخبرنا الله ﷻ في الآية التي نحن بصددها أن عالم الدواب والطيور أمم شتى، وأنواع متعددة، وأصناف مختلفة، وأجناس، وألوان عدة، وهذا ما تضمنه قوله ﷻ: ﴿أُمَمٍ﴾ وهذا ما يؤكده علم الحيوان اليوم، فالباحثون يؤكدون أن عالم الحيوان أشبه بالمدن الهائلة والشعوب المتعددة الأعراف، والأعراق، واللغات، والعادات، والأجناس التي لا حصر لها ويعجز العقل عن تصور أعدادها الهائلة والضخمة، وأنسب وصف لهذه الكائنات ذوات الأعداد الهائلة هو مصطلح: (الأمم) كما وصفها القرآن العظيم الذي

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ونضرب لهذه الأعداد الضخمة والهائلة بعض الأمثلة:

١- الطيور: تعد الطيور الجاثمة أكثر من ٥٠٠٠ نوع وكل نوع من هذه الطيور هو أيضًا أنواع عدة؛ فمثلًا طيور الفران الأمريكية الإستوائية حوالي ٢٢١ نوع صغيرة الحجم

(١) القرآن وإعجازه العلمي ١/ ١٤٠؛ الأنعام: ٣٨.

(٢) في مقال: (أممية الحيوانات)؛ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. ٥٥a. net).

نوعًا ما، وذوات عادات متنوعة جدًا. وهناك ٢٢٣ نوع من الطيور النملية، والدج النملي، والبيتا النملية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بطيور الفران الأمريكية الجنوبية والوسطى. . . وتبلغ أنواع طيور النورس أكثر من ٩٠ نوع. أما أنواع الحمام واليمام فهنالك حوالي ٢٩٠ نوع منها موزعة في أرجاء العالم. ويبلغ أنواع الببغاوات أكثر من ٥٠٠ نوع.

٢- الحيوانات: وفي عالم القرود تبلغ مثلًا قرود العالم القديم أكثر من ٦٠ نوع، ومن عجائبها أن لها ٣٢ سنًا كالإنسان.

الزواحف: وبالنظر إلى الزواحف نجدها أعدادًا هائلةً جدًا، وأنواعًا لا حصر لها، كما تشتمل مجموعة السلحفيات على السلاحف والحمسات ـ وهي سلحفة المياه العذبة ـ فتضم حوالي ١٠٠ نوع وتبلغ أنواع السحالي العملاقة أكثر من ٧٠٠ نوع في مناطق العالم الجديد.

٣- وتقول بعض المصادر العلمية أن عدد أنواع الثعابين الحالية أكثر من ٢٧٠٠ نوع ثلثها فقط سام.

٤- وأما الثدييات عمومًا فتضم أكثر من ٤٢٠٠ نوع.

٥- وبالجملة يعتقد العلماء بإمكانية وجود أكثر من عشرة ملايين نوع أو جنس من الحيوانات في العالم، ولكن قد تكون هناك أنواع أكثر بكثير بانتظار اكتشافها[١].

النشأة الأممية:

قلت: فالآية تثبت أن المخلوقات أنشأها الله - تبارك وتعالى- نشأةً أميةً، وهذا دلت عليه النصوص المتقدمة، ومعنى الأمية فيها معان منها: التناكح، والتناسل، وطلب المعاش، والخوف من المهالك، وغيرها.

الوجه الخامس: هذه الشبهة ذكرت في كتب التفسير وتم الرد عليها قديمًا.

١- وإليك الدليل على أن شبهاتهم في القرآن إنما هي مجمعة من كتب التفسير، فلو أن كل مسلم اطلع على تفسير القرآن وأقوال العلماء ما كان الأمر به صعوبة كما يواجهون هم

---

(١) من مقال: (أممية الحيوانات)؛ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. ٥٥a. net) باختصار.

صعوبة بالغة للرد على الأخطاء المذكورة في الكتاب المقدس؛ مما يضطرهم إلى تأويلات فاسدة لتخرجهم من هذا المأزق.

قال الخازن: فإن قلت: ثبت بالآية والحديث أن الدواب والطير أمم أمثالنا، وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فيما يظهر لنا فما وجه هذه المماثلة؟

قلت: اختلف العلماء في وجه هذه المماثلة فقيل: إن هذه الحيوانات تعرف الله، وتوحده، وتسبّحه، وتصلي له؛ كما أنكم تعرفون الله، وتوحدونه، وتسبحونه، وتصلّون له.

وقيل: إنها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله ﷻ.

وقيل: إنها يفهم بعضها عن بعض، ويألف بعضها بعضًا كما أن جنس الإنسان يألف بعضهم بعضًا، ويفهم بعضهم عن بعض.

وقيل: أمثالكم في طلب الرزق، وتوقي المهالك ومعرفة الذكر والأنثى[1].

٢- وهذا الرد (أي: للخازن) هو رد مجمل به تفصيلات كثيرة هامة للرد، فكان العلماء المتقدمون يردون على الشبهة برد مجمل؛ لأنهم ينظرون إلى أن هذه الشبهات من المفترض ألّا تَرِد من إنسان عنده علم باللغة العربية، فعندما انتشرت العُجْمة قَلّ فَهم الناس للقرآن، فاضطر العلماء المعاصرون أن يتوسعوا في الرد، فلا تتعجب من أن هناك ردود علمية فلكية أو ما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن.

٣- وللرد على تلك الشبهة لابد من معرفة:

١- أقوال اللغويين والمفسرين والعلماء في الآية.

٢- المراد بالمثلية في الآية.

٣-فهم الأممية لدى الحيوانات.

٤- معرفة مفهوم العبودية لدى الكائنات.

٥- توضيح الجوانب العلمية التي اكتشفها العلم الحديث في التماثل بين الإنسان

---

(١) لباب التأويل ٢/ ٣٨٦؛ (الأنعام: ٣٧).

وسائر الكائنات على وجه الأرض (السلوكيات والأخلاق).

وبعد توضيح ذلك فإن العلماء يعترفون كما أن هناك أوجها للمماثلة فإن هناك أوجها للمفارقة.

قال ابن عاشور: وليست المماثلة براجعة إلى جميع الصفات؛ فإنّها لا تماثل الإنسان في التفكير والحضارة المكتسبة من الفكر الذي اختصَّ به الإنسان، ولذلك لا يصحّ أن يكون لغير الإنسان نظام دولة ولا شرائع ولا رسل ترسل إليهن لانعدام عقل التكليف فيهنّ(١).

الوجه السادس: النسبة بين المشبهات إنما هو بصفاتها في الأجسام وبذواتها في الأعراض.

قال ابن حزم: وما اختلفت قط اللغات والطبائع والأمم في أن النسبة بين المشبهات إنما هو بصفاتها في الأجسام وبذواتها في الأعراض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، فليت شعري هل قال ذو مسكة من عقل: أن الحمير، والكلاب، والخنافس تنوب منابنا أو تسدنا، وقال تعالى حاكيًا عن الأنبياء - عليهم السلام- أنهم قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فهل قال قط مسلم: إن الكفار ينوبون عن الأنبياء ويسدون مسدهم، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ فهل قال ذو مسكة من عقل: إن الياقوت ينوب مناب الحور العين ويسد مسدهن، ومثل هذا في القرآن كثير جدًا وفي كلام كل أمة. . .

وحقيقة التماثل والتشابه هو أن كل جسمين اشتبها فإنما يشتبهان بصفة محمولة فيهما وكل عرضين فإنما يشتبهان بوقوعهما تحت نوع واحد كالحمرة والخضرة، وهذا أمر يدرك بالعيان، وأول الحس، والعقل(٢).

قلت: فلا ضير أن نقول: زيد كالأسد؛ فإن هذا لوجود علاقة بين المشبَّه والمشبه به وهي الشجاعة، فإن هذا مما اتفقت عليه اللغات، وانظر إلى التشبيه في كتب البلاغة العربية

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٤٢٥؛ (الأنعام: ٣٨).

(٢) الفصل في الملل ٢/ ١١٨؛ الكلام في سميع بصير وفي قديم.

المتقدمة، ويحرم علينا أن نقول: الله كالأسد؛ فليس هناك أي علاقة تشابة في الصفات بين الله ﷻ وبين مخلوقاته، وقد يكون هناك تشابه في الأسماء ولكن الاسم غير المسمى.

قال محمد محمد معافي المهدلي:

يمكننا مما سبق من كلام علماء اللغة والتفسير في المراد بالتماثل في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ وبجمع أقوالهم في الآية يتبين لنا أن المراد بالتماثل بين الدواب والإنسان إنما هو في بعض الجوانب وليس المراد هو التماثل التام من كل وجه؛ إذ لو وقع هذا لكان الإنسان حيوانًا كسائر الحيوانات، وهو محال عقلًا وشرعًا. أما عقلًا فمعلوم وأما شرعًا فإن الله ﷻ قد كرم بني آدم على سائر الكائنات وفضلهم على كثير من خلقه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

ولو قلنا بالتماثل من كل وجه لقلنا برفع التكليف عن بني آدم شأنهم في ذلك شأن البهائم والدواب؛ وهو محال شرعًا، وإنما المراد - والله أعلم- هو التماثل والتشابه السلوكي، والخلقي، والطبعي كما قال الإمام الخطابي، والقرطبي، والشوكاني، وغيرهم. . . فسمى النبي ﷺ الكلاب أمة من الأمم أي: في الخلق، والتدبير، والأفعال، والأعمال، والسلوكيات، ومحال تماثل الكلب لكل الأمم من كل الوجوه[1].

الوجه السابع: هذه الآية لا تتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بل هناك علاقة بينهما.

وتتضح العلاقة بأن الله كما خلقكم فخلقهم، وكما أكرمكم فأكرِموهم، فالله كرم بني آدم وفضله على الحيوانات، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسطو عليهم، والأدلة في القرآن والسنة على ذلك كثيرة، فقد دخلت امرأة النار في قطة حبستها[2]، ودخلت امرأة الجنة في

---

(١) من مقال: (أمية الحيوانات)؛ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. ٥٥a. net).

(٢) صحيح البخاري (٣٢٩٥)، صحيح مسلم (٢٢٤٢).

كلب سَقَته.

١ - قال القرطبي: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ أي: هم جماعات مثلكم في أن الله خلقهم وتكفل بأرزاقهم وعدل عليهم؛ فلا ينبغي أن تظلموهم ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به(١).

قال الماوردي: أنها مخلوقة لا تُظْلَم، ومرزوقة لا تُحْرَم(٢).

الوجه الثامن: هذه الآية يفسرها قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وكذلك الآيات التي توضح تدبير الله لأمر الإنسان والحيوان جميعًا.

١ - فمعنى الآية: أي: أمم مثلكم في تدبير شئون حياتهم حتى يكفل لهم البقاء، نعم حياة الإنسان المعيشية تختلف عن حياة الحيوان، ولكن لا ننسى أن من الناس حتى يومنا هذا يعيشون في الغابات، وأن حياتهم بدائية في المطعم، والمسكن، والملبس؛ فهذا دليل على أن البشر أنفسهم يختلفون في شئون تدبير حياتهم، فهذا اختلاف بينهم وبين بعضهم، فلماذا ننكر الاختلاف بينهم وبين الحيوانات في تدبير شئون الحياة؟

*** الرزق:**

قال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك(٣).

قال القرطبي: أي: محتاجة إلى الله مرزوقة من جهته كما أن رزقكم على الله(٤).

قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أي: يعلم أين منتهى سيرها في الأرض؟ وأين تأوي إليه من وكرها؟ وهو مستودعها(٥).

---

(١) في كتاب الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤١٩.

(٢) النكت والعيون ١/ ٤٠٦؛ (الأنعام: ٣٨).

(٣) معالم التنزيل ١/ ١٤١؛ (الأنعام: ٣٨).

(٤) في تفسيره ٦/ ٣٨٤؛ (الأنعام: ٣٨).

(٥) في تفسيره ٢/ ٥٧٤؛ (هود: ٦).

* **التدبير:**

قال الزمخشري: فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه وسعة سلطانه، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف؛ وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان[1].

قال البيضاوي: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها، والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته، وشمول علمه، وسعة تدبيره؛ ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية[2].

الوجه التاسع: إجماع العقلاء أن من البشر من قد تدنى في أخلاقه حتى إنه ليشبه في تصرفاته تصرفات بعض الحيوانات، بل قد يكون الحيوان أفضل منه في تلك الحالة، وليس معنى ذلك أنه قد أشبهت خلقته خلقة الحيوان.

قال ابن القيم: وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة وذلك ممتنعٌ من جهة الخلقة والصورة، وعدمٌ من جهة النطق والمعرفة؛ فوجب أن يكون منصرفًا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق[3].

وقال أيضًا: من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمىً أصمَ أبكَمَ، ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه؛ فيخسف به إلى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر؛ وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالًا حول السفليات، والقاذورات، والراذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوالًا حول البر، والخير، ومعالي الأمور، والأعمال، والأقوال، والأخلاق. قال بعض السلف: إن هذه القلوب جوالة؛ فمنها ما

(١) الكشاف ١/ ٣٥٧؛ (الأنعام: ٣٨).

(٢) في تفسير ١/ ٤٠٦؛ (الأنعام: ٣٨).

(٣) شفاء العليل (ص٧٧).

يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحشر، ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة؛ فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ على خلق كلب، أو حمار، أو حية، أو عقرب، وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس في ثيابه لحمًا بتطوس الطاووس في ريشه، ومنهم من يكون بليدًا كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الذئاب، ومنهم أشباه الثعالب التي يروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحُمُر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنًا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورًا خفيًا يراه المتفرسون، ويظهر في الأعمال ظهورًا يراه كل أحد، ولا يزال يقوى حتى تعلو الصورة فنقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام؛ فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة ويمسخ قردة وخنازير، فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر! وقلب ممسوخ! وقلب مخسوف به! وكم من مفتون بثناء الناس عليه ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه! وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة[1].

ثم علق ابن القيم قائلًا: والله سبحان قد جعل بعض الدواب كسوبًا محتالًا، وبعضها متوكلًا غير محتال، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقًا مضمونًا وأمر مقطوعًا، وبعضها لا يعرف ولده البتة،

(١) الجواب الكافي ١/ ٨٢، ٨٣؛ فصل ومن عقوباتها (المعاصي) أنها تزيل النعم الحاضرة.

وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضيع ولدها وتكفل ولد غيرها وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكور يعول ولده، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه، وجعل بعض الحيوانات يُتمها من قبل أمهاتها، وبعضها يُتمها من قبل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره، وبعضها ليس ذلك عنده شيئ، وبعضها يؤثر على نفسه وبعضها إذا ظفر بها يكفي أمه من جنسه لم يدع أحدًا يدنوا منه، وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار منه، وبعضها لا يأكل إلا الطيب، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها، وبعضهم حقود لا ينسَ الإساءة، وبعضها لا يذكرها البتة، وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يسترضى حتى يرضى، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحسن والقبيح سواءٌ عنده، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال(١).

وفي المستطرف: فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة؛ فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم، ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة. . . وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار، وأهل الغدر، ومَنْ لا وفاء لهم؛ فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه(٢).

قلت: فمن ينظر للصراع بين البشر على الدنيا، وما يحدث بينهم من قتل وتشريد وتعذيب يرى أن مبدأ البقاء للأقوى قد أصبح شعارًا لكثير من الناس حتى ولو لم يتكلموا به، ومن قبل كان منا من يظن أن هذا المبدأ مطبق في عالم الحيوان، فالآن أصبح واقعًا في عالم الإنسان.

---

(١) شفاء العليل ص٧٧.

(٢) المستطرف ١/ ١٢٨.

الوجه العاشر: معنى الآية: أن الله كما سيسألكم ويحاسبكم عما كنتم تفعلون فكذلك سيحاسب هذه الحيوانات؛ فهم أمم أمثالكم في الحساب والبعث والحشر يوم القيامة.

١ـ الحشر:

قال الشنقيطي: قد دلَّت آيات كثيرة على عموم الحشر لجميع الخلائق كقوله تعالى بعد هذا بقليل: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾، إلى غير ذلك من الآيات[١].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **"ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار"**. قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: **"ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها؛ ومن حقها حلبها يوم وردها؛ إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أو فر ما كانت لا يفقد منها فصيلًا واحدًا تطؤه بأخفافا وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار"**.

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: **"ولا صاحب بقر ولا غنم يؤدي منها حقها؛ إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئًا؛ ليس فيها عقصاء، ولا جلحاء، ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مر عليه أولادها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار"**[٢].

---

(١) أضواء البيان؛ (النمل: ٨٣) ٣٠/ ٦٤.

(٢) رواه مسلم (٩٨٧).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى إِنَّ الذُّبَابَ لَتُحْشَرُ)(١).

٢ـ الحساب:

عن أبي هريرة ﷺ قال: (يقضي الله بين خلقه الجن، والإنس، والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾(٢).

فبالرغم من أن الحيوان ليس له عقل مثل الإنسان إلا أن الحيوان له إرادة وفعل يحاسب عليه، فإن الله لا يظلم شيئًا، فلا يستوي الحيوان الذي يقتل ويفسد مع الحيوان الذي فيه سكينة ولطف ولا يؤذي غيره من الحيوانات، ولكن أمر الحساب الذي يكون للإنسان يختلف عما يكون للحيوان، فهما يشتركان في لفظ الحساب ولا يشتركان في كيفية الحساب.

وقال الطبري: جعلها الله أجناسًا مجنسة وأصنافًا مصنفة تعرف كما تعرفون وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومثبت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب(٣).

قلت: وليس معنى ذلك أن الحيوان إذا كان يجري فاصطدم بإنسان أننا نأخذ من الحيوان الدية، ولكن المقصود أنه هناك من الحيوانات والطيور من يكون فاسقًا مفسدًا يشبه الإنسان الفاسق مثل: الفأرة، والغراب، فكأن حُب الإفساد هدف يسعى لتحقيقه، ومن يطلع على سلوك الحيوانات والطيور يرى ذلك واضحًا، فهل من يحب الخير ويساعد فيه كمن يحب الشر ويسعى لتحقيقه؟! فهذا الدلفين ينقذ الإنسان إذا غرق، وهذا أبو قردان يساعد الفلاح في حقله، وأشد ما يكره الفلاح الغراب والحدأة لما يحدثان من أضرار؛ فالغراب يوقع الثمار من على الشجر فلا هو يأكل الثمرة ولا هو يتركها.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم ٥/ ٢٨٤ (٧٥١٣)؛ سورة الأنعام.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢/ ٤١٨؛ (سورة النبأ: ٤٠) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤ / ٦٠٦ (١٩٦٦)، وقال: قد رواه أبو هريرة مرفوعًا، ولكن في إسناده ضعف.

(٣) جامع البيان؛ الآية.

فعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : **"خمس من الدواب كلها فواسق تقتل في الحرم: الغراب، والحدأة، والكلب العقور، والعقرب، والفأرة"**[١].

قال بعض علماء النصارى: أما الحيوان الجاني فلا بدَّ من عقابه (تكوين ٩: ٥، لاويين ٢٠: ١٥- ١٦)، وفي بعض الأحيان، يصل العقاب إلى الرجم (خروج ٢١: ٢٨ - ٣). وأخيرًا، يشارك الحيوان الناس سواء في أعمال التوبة (يونان ٣٠: ٧)، سواء في احتمال العقاب (خروج ١١: ٥)[٢].

الوجه الحادي عشر: هذه الآية رد على من ينكر أن الحيوانات والطيور لها أرواح مثلنا.

١- فقد كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بطيور ويستبشرون بطيور أخرى؛ فجاء الإسلام ليغير تلك النظرة لهذه المخلوقات التي لا تملك شيئًا من أمرها، فهي لها أرواح وأجساد مثلما أن البشر ليسوا بأجساد فحسب، حتى إن من العرب من كان يعتقد أنه من مات مقتولًا يرصد له طائر عند رأسه ينادي بالثأر ممن قتله، وهذا يشبه ما عليه النصارى من أن روح القدس كأنه طائر فيحل بكل مؤمن بالمسيح!

فنقول: إن أي طائر موجود في هذه الدنيا لابد أن يكون له روح وجسد، ومن يقل بغير ذلك فعليه بالدليل، ولا نخضع لقولهم بأن روح القدس هو عالم روحاني لا تستطيع العقول أن تدركه، وهذه حجة كل من يريد أن يُسكت من يجادله فيعطي لنا تصورات لا يقبلها العقل، ثم يقول: هذا ما لا يدركه العقل، فكفار قريش يقولون بالتشاؤم بالطير، ثم إذا سألتهم: لماذا تتشاءمون؟ قالوا: بأن هذا أمر لا يدركه العقل، فيوحي لنا هؤلاء وهؤلاء بأن هناك أمورًا سرّيةً في معتقداتهم.

٢- سُئل أنس بن مالك عن مَنْ يقبض أرواح البهائم؟ فقال: ملك الموت. فبلغ الحسن فقال: صدق إن ذلك في كتاب الله ثم تلا: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ

---

(١) رواه البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (١١٩٨) واللفظ لمسلم.

(٢) موقع البشارة؛ (الموسوعة المسيحية العربية الإلكترونية www. albishara).

﴿بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾(١).

لذلك هناك أحاديث تنهي عن التطير؛ أي: التشاؤم بالطير، وأن الطير لايُغيّر في القدر، ولا يملك نفعًا ولا ضرًا، فبعض الشعوب تعتقد أن هناك مخلوقات ليس لها أرواح؛ كمن يعتقد أن المرأة جسد بلا روح!

الوجه الثاني عشر: أي: كما خلقكم لحكمة العبادة خلقهم لحكمة التسخير، فالتماثل هو تماثل في كون كلّ له حكمة من خلقه، وفي ذلك كله لم يخلقكم ولم يخلقهم سدى.

قال الأصفهاني: والأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد؛ سواء كان الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ أي: كل نوع منها على طريقة قد سخره الله عليها بالطبع؛ فهي ما بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة - وهي دويبة غبراء تبني بيتًا حسنًا تكون فيه؛ وهي التي يضرب بها المثل فيقال: أصنع من سرفة-، ومنها المدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوته كالعصفور والحمام، وغير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع(٢).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ في شرح حديث: "**لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ**": مَعْنَى هَذَا الْكَلَام أَنَّهُ ﷺ كَرِهَ إِفْنَاء أُمَّة مِنْ الْأُمَم وَإِعْدَام جِيل مِنْ الْخَلْق؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ خَلْق الله تعالى إِلَّا وَفِيهِ نَوْع مِنْ الْحِكْمَة وَضَرْب مِنْ الْمَصْلَحَة(٣).

فحتى لو أن الحيوان والطير مسخر للإنسان؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ (الحج: ٦٥)، فكذلك هناك تسخير متبادل حتى بين الإنس بعضهم لبعض؛ قال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ

---

(١) في الدرر ٣/ ٢٦٧؛ (الأنعام: ١٣) قال: أخرجه أبو الشيخ.

(٢) في الدرر٣/ ٢٦٧؛ (الأنعام: ١٣) قال: أخرجه أبو الشيخ.

(٣) شرح سن النسائي ٦/ ٣٧ (٢٤٦٢)؛ كتاب الصيد (اتخاذ الكلب للصيد).

دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٣٢).

قال سيد قطب: إن الناس ليسوا وحدهم في هذا الكون حتى يكون وجودهم مصادفة، وحتى تكون حياتهم سدى؛ إن حولهم أحياء أخرى كلها ذات أمر منتظم يوحي بالقصد والتدبير والحكمة، ويوحي كذلك بوحدة الخالق، ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه كله. إنه ما من دابة تدب على الأرض - وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات، وهوام، وزواحف، وفقاريات- وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء - وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنات الطائرة- ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك؛ شأنها في هذا شأن أمة الناس، ما ترك الله شيئًا من خلقه بدون تدبير يشمله، وعلم يحصيه، وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ربها فيقضي في أمرها بما يشاء. إن هذه الآية القصيرة - فوق تقريرها الحاسم في حقيقة الحياة والأحياء- لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل، والتدبير الواسع، والعلم المحيط، والقدرة القادرة لله ذي الجلال[1].

الوجه الثالث عشر: الآية تشير إلى علم الأحياء، وأن هناك علاقة بين الكائنات الحية لا يمكن أن ينكرها عاقل.

عن مجاهد في قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ قال: أصنافًا مصنفة تعرف بأسمائها[2].

قال الواحدي: ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ أصناف مصنفة تعرف بأسمائها فكل جنس من البهائم أمة كالطير، والظباء، والذباب، والأسود، وكل صنف من الحيوان أمة مثل بني آدم يعرفون بالإنس[3].

قال ابن حزم: بضرورة العقل والحس علمنا أن كلَّ واقعين تحت جنس فإن ذلك

---

(١) تفسير الظلال ٣/ ٢١.

(٢) الوجيز ١/ ٣٥٢؛ (الأنعام: ٣٨).

(٣) المصدر السابق.

الجنس يعطيهما اسمه وحده عطاءً مستويًا، فلما كان جنس الحي يجمعنا مع سائر الحيوان استوينا معها كلها استواء لا تفاضل فيه فيما اقتضاه اسم الحياة من الحس والحركة الإرادية، وهذان المعنيان هما الحياة لا حياة غيرهما أصلًا، وعلمنا ذلك بالمشاهدة؛ لأننا رأينا الحيوان يألم بالضرب والنخس، ويحدث لهما من الصوت والقلق ما يحقق ألمًا كما نفعل نحن ولا فرق؛ ولذلك لما شاركنا والحيوان جميع الشجر والنبات في النماء استوى جميع الحيوان فيما اقتضاه اسم النمو من طلب الغذاء واستمالته في المتغذى به إلى نوعه، ومن طلب بقاء النوع مع جميع الشجر والنبات استواءً واحدًا لا تفاضل فيه، ولما شاركنا جميع الحيوان، والشجر، والنبات، وسائر الجمادات في أن كل ذلك أجسام طويلة عريضة عميقة جميع الأجرام استوى كل ذلك فيما اقتضاه له اسم الجسمية في ذلك استواء لا تفاضل فيه، ولم يدخل ما لم يشارك شيئًا مما ذكرنا في الصفة التي انفرد بها عنه هذا كله يعلمه ضرورة من وقف عليه ممن له حس سليم(١).

قال د/علي بن حسن علي القرني:

يشير القرآن إلى حقيقة تتعلق بعلم الأحياء أو ما يعرف بالتاريخ الطبيعي، وذلك الذي يقرر اشتمال الحيوانات على الأجهزة العضوية الموجودة في الإنسان من مثل الجهاز العصبي والجهاز التنفسي(٢).

فكل عاقل الآن يعلم أن هناك عناصر كيميائية مشتركة بين الكائنات ولكن تختلف نسبتها، بل وهناك تشابه في بعض العمليات الحيوية، ويتضح ذلك من خلال مسألة نقل الأعضاء من حيوان لإنسان، ومسألة التركيب العضوي لمخ الإنسان ومخ القرد، ولنتساءل عن نظرية (داروون) وافتخار البعض بها، مع أن (داروون) قالها صراحة: إن الإنسان كان قردًا ثم تطور! فلماذا لم ينكر هؤلاء عليه؟!

---

(١) (الفصل في الملل١/ ٦٩- الكلام على من قال أن في البهائم رسلا).

(٢) (المجلة جامعة أم القرى (العدد٢١-موضوع: من مفاهيم ثقافتنا الإسلامية).

٢- **قال الماوردي:** إنها أجناس وتتميز في الصور والأسماء[١].

قال ابن عاشور: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام: ٣٨) فهو في معنى التشبيه البليغ أي: كأمم إذا تدبرتم في حكمة إتقان خلقهم ونظام أحوالهم وجدتموه كأمم أمثالكم؛ لأن هذا الاعتبار كان الناس في غفلة عنه[٢].

وقال أيضًا: فلها خصائص لكلِّ جنس ونوع منها كما لأمم البشر خصائصها؛ أي: جعل الله لكلِّ نوع ما به قوامه، وألهمه اتِّباع نظامه، وأنّ لها حياة مؤجّلة لا محالة. فمعنى ﴿أَمْثَالُكُم﴾ المماثلة في الحياة الحيوانية وفي اختصاصها بنظامها. والمماثلة في قوله: ﴿أَمْثَالُكُم﴾ التشابه في فصول الحقائق والخاصّات التي تميّز كلّ نوع من غيره، وهي النظم الفطرية التي فطر الله عليها أنواع المخلوقات، فالدّواب والطير تُماثل الأناسي في أنّها خلقت على طبيعة تشترك فيها أفراد أنواعها، وأنّها مخلوقة لله معطاة حياة مقدّرة مع تقدير أرزاقها، وولادتها، وشبابها، وهرمها، ولها نظم لا تستطيع تبديلها[٣].

وانظر لعلم البيولوجيا وتقسيم الكائنات الحية لحيوانات وزواحف وطيور و. . . ، وأن الإنسان ليس هو من قسم الزواحف ولا الطيور بل من قسم الحيوانات.

وانظر لعلم المنطق وأنه يعتبر الإنسان حيوانًا ناطقًا، فلماذا لا يعترض منهم أحد على علم البيولوجيا ولا على علم المنطق؟

الوجه الرابع عشر: المقصود من الآية: أن الله ينبه الإنسان في هذه الآية إلى أهمية التدبر في المخلوقات، وليس المقصود بالآية أن الإنسان مثل الحيوان سلوكًا.

قال الأستاذ محمد محمد معافي علي المهدلي:

القرآن العظيم وهو يخاطب البيئة العربية البدوية التي تعرف الناقة، والجمل، والخيل، والبغال، والطير، والغنم، والشاء، وغيرها من المخلوقات، يلفت الأنظار إلى قدرة الباري

---

(١) (النكت والعيون١/ ٤٠٦-الأنعام٣٨).

(٢) (التحرير والتنوير١/ ٤٨٣-البقرة١٢٨).

(٣) (التحرير والتنوير٤/ ٤٢٢- الأنعام٣٨).

سبحانه في خلقها وتكوينها وبديع صنعه فيها، وهذا ما يعلل سر ذلك الحشد الهائل من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأنعام؛ فلا تكاد تجد سورة من القرآن إلا وفيها حديث أو إشارة إلى آيات الله وبديع صنعه في الأنعام؛ بل لقد سميت بعض سور القرآن بأسماء بعض الأنعام نحو: النمل، والنحل، والفيل، والعنكبوت، والبقرة، والأنعام، والعاديات أي: الخيل، وهكذا. وفي هذا استنهاض للعقول والأفئدة للتفكر في بديع صنع الله فيها، وقدرته تعالى كما قال ﷻ: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (النحل: ٨).

ومن ضمن الآيات القرآنية التي تحمل الإعجاز والتحدي للبشرية آية من كلام الله تعالى مهما كتب فيها الكاتبون وصنف فيها المصنفون فلن يحصوا ما فيها من علم إلهي إذ تعجز الأقلام عن الخوض في لججها المتلاطمة؛ إنها قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ومن أجل أن تتضح الآية لابُد من أن نُعرِّج على أقوال علماء اللغة وأئمة التفسير حول الآية، لقد لفت القرآن العظيم الأنظار والعقول من أول يوم للرسالة إلى التأمل والتفكر في شأن المخلوقات؛ لاسيما في الأنعام والحيوانات كونها ألصق بالعرب وبحياتهم، ولا يعرفون إلا هي كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ . . . ﴾، وإحياءُ المنهج التفكرُ في المخلوقات الذي دعانا إليه الإسلام[(١)].

الوجه الخامس عشر: الآية تشير إلى عبودية الكائنات لله سبحانه وتعالى.

١- **قال ابن عباس:** ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ يريد: يعرفونني، ويوحدونني، ويسبحونني، ويحمدونني مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[(٢)].

---

(١) في مقال: (أممية الحيوانات)؛ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. ٥٥a. net).

(٢) شفاء العليل لابن القيم (ص٧٧).

قال عطاء: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في التوحيد والمعرفة[١].

فيحكي الله قول الهدهد: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل٢٥: ٢٦).

قال مكي: المماثلة في أنها تعرف الله وتعبده[٢].

وقَالَ الطِّيبِيُّ: أَيْ: أَمْثَالكُمْ فِي كَوْنهَا دَالَّة عَلَى الصَّانِع وَمُسَبِّحَة لَهُ.

قال عماد الدين السمّان: نعلم أن كل خلق الله من الجماد، والنبات، والحيوان هو عابد لله، مسبح له أكثر من البشر أنفسهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج: ١٨).

هذا في الأجناس التي أعلمنا الله بوجودها، وكذلك كل ما خلق الله مما لا نعلم عنه وعن وجوده شيء في السموات والأرض هو مسبح وعابد لله ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ (مريم: ٩٣)، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء: ٤٤). . . ولكن ما أبعد مهام البشر عن مهام الملائكة، وتكاليف البشر عن تكاليف الملائكة وواجبات البشر عن واجبات الملائكة، وكذلك الجن، والدواب، والشجر، وما لا تعلمون، حقًا لقد اشترك هؤلاء جميعًا في العبودية لله ﷻ ولكنهم لم يشتركوا في التكاليف، والمهمات، والواجبات، ولا في الحقوق، فالله خلق لكل منهاجًا ومهمة تناسب مادة خلقه التي خلق منها، وتناسب الحكمة التي أراد الله مِن خَلقِ كل نوع وجنس؛ بحيث تحقق

---

(١) معالم التنزيل ١/ ١٤١؛ (الأنعام: ٣٨)، وقال بذلك أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥.

(٢) في تفسير الثعالبي ١/ ٥١٨؛ (الأنعام: ٣٨).

بمجموعها التكامل لا التماثل، وهو العليم الحكيم(١).

قال محمد محمد معافي:

الكائنات كلها من إنسان، أو حيوان، أو نبات تعبد ربها وخالقها، وتوحده؛ فطرت وجبلت على هذا وصار جزءًا من تكوينها ومن خلقتها لا ينكر ذلك إلا جاحد أو جاهل، وقد تواترت الأدلة على هذا من الكتاب والسنة والوقائع والشواهد؛ فمن الكتاب الكريم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

نعم وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الحيوانات لديها بعض السلوكيات الغريبة التي لا تفسير لها إلا أنها عبودية لله سبحانه وتعالى، فهي نفس ما يفعله المؤمن ويصنعه تعبدًا لله وتقربًا إليه سبحانه وتعالى من صيام، ودعاء، وتوجه إليه سبحانه(٢).

يقول مختار سالم: اكتشف علماء الطبيعة أن الإنسان ليس هو الكائن الحي الذي يصوم؛ وإنما جميع المخلوقات الحية في الكون تمر بفترة صوم اختياري مهما توفر لها الغذاء في الطبيعة حولها، فالحيوانات تصوم؛ فهناك من الحيوانات ما يسكن في جحره أيامًا وربما شهورًا متوالية يمتنع فيها عن الحركة والأكل، والطيور أيضًا تصوم؛ فمن الطيور ما يكمن في عُشه ويمتنع عن الطعام في مواسم معينة كل عام، والأسماك أيضًا تصوم؛ فبعض الأسماك يدفن نفسه في قاع المحيط أو قاع النهر لفترة معينة بدون أكل، والحشرات كذلك

---

(١) ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ ١/ ٢١.

(٢) في مقال: (أممية الحيوانات)؛ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. ٥٥a. net).

تصوم؛ فمن المعروف أن الحشرة تمر بمرحلة تتحوصل فيها ويمتنع الطعام، وحتى النبات أيضًا يصوم.

لقد لاحظ العلماء أن هذه المخلوقات تخرج بعد فترة الصيام هذه أكثر نشاطًا وحيوية، وأن أكثرها يزداد نموًا وصحة بعد الصوم، فالحيوانات منها ما يجدد جلده وقواه، والطائر يكتسي ريشًا جديدًا زاهيًا ويبدأ في التزاوج، والحشرة تخرج بعد صيامها لتأكل بنهم شديد وتتكاثر بسرعة، والنبات ينمو ويترعرع ويصبح أكثر نضجًا بعد فترة صيامه(١).

٢- وهناك قول آخر: أن الكائنات لها عبودية بلسان الحال:

قال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) فذلك بلسان الحال في العجماوات حين نراها بَهِجَة عند حصول ما يلائمها فنراها مرحة فرحة، وإنّما ذلك بما ساق الله إليها من النعمة وهي لا تفقه أصلها ولكنّها تحسّ بأثرها فتبتهج؛ ولأنّ في كل نوع منها خصائص لها دلالة على عظيم قدرة الله وعلمه تختلف عن بقية الأنواع من جنسه، والمقصد من هذا صرف الأفهام إلى الاعتبار بنظام الخلق الذي أودعه الله في كلّ نوع(٢).

٣- وقد يكون التسبيح غير التسبيح والسجود غير السجود:

قال ابن حزم: وليس في العالم شيء إلا وهو دال بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعًا لا يشبه شيئًا مما خلق، على أن الله تعالى منزه عن كل سوء ونقص، وأيضًا فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، والكافر الدهري شيء لا يشك في أنه شيء وهو لا يسبح بحمد الله تعالى البتة؛ فصح ضرورة أن الكافر يسبح إذ هو من جملة الأشياء التي تسبح بحمد الله تعالى، وأن تسبيحه ليس هو قوله: سبحان الله وبحمده بلا شك؛ ولكنه تنزيه الله تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبها لشيء مما خلق – وهذا

(١) الطب الإسلامي بين العقيدة والإبداع (ص ٢٨).

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٤٢٥؛ (الأنعام: ٣٨).

يقين لا شك فيه- فصح بما ذكرنا أن لفظة التسبيح هي من الأسماء المشتركة وهي التي تقع على نوعين فصاعدًا، وأما السجود الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فقد علمنا أن السجود المعهود عندنا في الشريعة واللغة هو وضع: الجبهة، واليدين، والركبتين، والرجلين، والأنف في الأرض بنية التقرب بذلك إلى الله تعالى؛ وهذا ما لا يشك فيه مسلم، وكذلك نعلم ضرورة لا شك فيها أن الحمير، والهوام، والخشب، والحشيش، والكفار لا تفعل ذلك لا سيما من ليس له هذه الأعضاء وقد نص تعالى على صحة ما قلنا، وأخبر تعالى أن في الناس من لا يسجد له السجود المعهود عندنا بقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ (فصلت: ٣٧- ٣٨).

فأخبر تعالى أن في الناس من يستكبر عن السجود له فلا يسجد وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (الرعد: ١٥)، فبين تعالى أن السجود كرهًا غير السجود بالطوع الذي هو السجود المعهود عندنا، وإذ قد أخبر الله تعالى بهذا وصح أيضًا بالعيان؛ فقد علمنا بالضرورة أن السجود الذي أخبر الله تعالى أنه يسجد له مَنْ في السموات والأرض هو غير السجود الذي يفعله المؤمنون طوعًا ويستكبر عنه بعض الناس ويمتنع منه أكثر الخلق هذا مما لا يشك فيه مُسلمٌ؛ فإذ هذا كذلك بلا شك فواجب علينا أن نطلب معنى هذا السجود ما هو؟ ففعلنا، فوجدناه مبينًا بلا إشكال في آيتين من كتاب الله؛ وهما قوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (النحل: ٤٨)، فبيّن تعالى في هاتين الآيتين بيانًا لا إشكال فيه أن ميل الفيء والظل بالغدوات والعشيّات من كل ذي ظل هو معنى السجود المذكور في الآية لا السجود المعهود عندنا، وصح بهذا

أن لفظة: السجود هي من الأسماء المشتركة التي تقع على نوعين فأكثر(١).

الوجه السادس عشر: الكتاب المقدس يشير إلى أن الحيوان والطير يعبدون الله.

قال بعض علماء النصارى: يشير الكتاب المقدس إلى الصلة بين الحيوان والإنسان، يعبّر الكتاب المقدس بصراحة قاسية عن وجه الشبه بين الإنسان والحيوان، ولا سيما فيما يخص أصلهما الترابي المشترك، ومصيرهما الحتمي إلى التراب (جامعة ٣: ١٩- ٢١، مزمور ٤٩: ١٣)، ولكن في الغالب وبطريقة ملطّفة يظهر العلاقة الودية بين هاتين الخليقتين تحت هذه التسمية المشتركة: (الكائنات الحيّة)، فتارة نجد الإنسان يساعد الحيوان: يخلّص نوح عليه السلام من مياه الطوفان زوجًا أي: ذكرًا وأنثى من كل نوع كائن حيّ، وطورًا نجد الحيوان يساعد الإنسان: تنقذ الأتان البصيرة بلعام (عدد ٢٢: ٢٢- ٣٥). وتقوت الغربان إيليا (١ ملوك ١٧: ٦)، وينقذ الحوت يونان العاصي ويرجعه إلى الطريق القويم (يونان ٢)، ولما فيها من كمالات يصل أيوب إلى الاعتراف بعظمة الخالق (أيوب ٣٨: ٣٩ إلى ٣٩: ٣٠، ٤٠: ٥ ١- ٤١: ٢٥)، وأخيرًا تُذَكِّر الحيواناتُ البشرَ بأن الله لا يزال يفيض عطاياه على جميع الكائنات الحيّة (مزمور ١٠٤: ٢٧، ١٤٧: ٩، متى ٦: ٢٦).

إن الحيوانات قريبة من الإنسان لدرجة أنها تدخل معه في العهد المبرم بين الله ونوح (تكوين ٩: ٩-١١)، وأنها تصبح هي أيضًا خاضعة للشريعة الموسوية؛ فراحة السبت تنطبق على الثور أسوة بالعبد (خروج ٢٣: ١٢، تثنية ٥: ١٤).

ويفرض الله معاملة متسمة بالرأفة نحو الحيوان (خروج ٢٣: ٥، تثنية ٢٢: ٦- ٧، ٢٥: ٤، راجع ١ كورنتس ٩، ١ تيموتاوس ٥: ١٨)(٢).

الوجه السابع عشر: الآية تفيد أن الإنسان والحيوان والطير جميعًا أدلة على وجود الله.

قال القرطبي: في معنى الآية: أي: في كونها مخلوقة دالة على الصانع(٣).

---

(١) الفصل في الملل ١/ ٦٩؛ الكلام على من قال: إن في البهائم رسلًا.

(٢) انظر موقع البشارة؛ (الموسوعة المسيحية العربية الإلكترونية www. albishara).

(٣) في تفسيره ٦/ ٣٨٤؛ (الأنعام: ٣٨).

قال محمد بن عبدالعزيز المسند: فنعتقد أن الله تعالى خلقها - أي: الحيوانات والطيور- وجعلها من آيات قدرته وكمال ربوبيته؛ فقال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ (البقرة: ١٦٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (هود: ٦) أي: يعلم أماكنها وآجالها، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ (لقمان: ١٠)(١).

الوجه الثامن عشر: معنى الآية: أن لكل من الحيوان والطير لغة يتصل بها بغيره كما أن لكم لغات وألسنة تتحدثون بها:

١- **قال ابن عباس:** أمثالكم في كون بعضها يفقه عن بعض(٢).

فلذلك رُكبت الأفهام في المشركين ليتدبروا الحجج(٣).

٢- قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨)، ويحكي اللهُ قولَ الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل: ٢٣).

قال ابن الأنباري: وموضع الاحتجاج من هذه الآية أن الله تعالى ركب في المشركين عقولًا، وجعل لهم أفهامًا ألزمهم بها أن يتدبروا أمر النبي ﷺ، ويتمسكوا بطاعته كما جعل للطير أفهامًا يعرف بها بعضها إشارة بعض، وهدى الذَّكر منها لإتيان الأنثى وفي كل ذلك دليل على نفاذ قدرة المركب ذلك فيه(٤)..

٣- **قال عبدالمحسن المطيري:** فقد أصبح من المقطوع به الآن عند العلماء الذين

(١) فتاوى إسلامية ١/ ١٩٣.

(٢) زاد المسير ٣/ ٣٤؛ (الأنعام: ٣٧).

(٣) تذكرة الأريب ١/ ١٥٨؛ (الأنعام: ٣٧).

(٤) زاد المسير ٣/ ٤٣؛ (الأنعام: ٣٨).

يدرسون سلوك أنواع الطير والحيوان والحشرات أن لكل منها لغة تقوم مقام اللغة المعهودة عند البشر في التعبير ونقل الأحاسيس والمعارف؛ على نحو ما ما تزال تفاصيله مجهولة من البشر، لكن المقطوع به من شواهد كثيرة جدًا أن لكل منها نوعًا من اللغة يتم به الاتصال بين أفراده، وقد سجَّل بعض العلماء تسجيلات صوتية لأنواع من الطيور في حالة الفزع نقلت إليهم - في غاية من الوضوح- هذه المشاعر والمعاني، وقد استخدم هذا تجريبيًا في زجر الطير لاقط الحب عن أماكن هذه الحبوب بإذاعة تسجيلات التحذير والفزع، والعلماء الآن يحاولون التعرف على منطق بعض الطير، فلم يعد يُشك الآن في أن كل نوع من الأحياء له لغة خاصة بأفراده، وهذا أمر واضح لكل من يراقب سلوك الطيور والحشرات، بل إن بعض العلماء يذهبون إلى أن أنواع النبات هي الأخرى تملك لغة واتصالًا فيما بينها، على نحو ما مما لا يتسع المجال لتقرير القول فيه، ولا يتطلبه.

فما العجب بعد هذا من أن تتكلم النملة، ويتكلم الهدهد بكلام يفهمه سليمان ﵇ لأنه - كما ورد في القرآن الكريم- عُلِّم منطق الطير وأُوتي من كل شيء، أما أنهم تكلموا بكلام يدل على شيء من العقل فإن من يراقب سلوك الطير والحشرات، فسوف يدرك بغاية من الوضوح أن سلوكهم يجرى على نظم من الوعي والتدبير والعمل من أجل غايات تهديهم إليها غرائزهم وفطرهم، وعلى المعاند في هذا أن يقرأ شيئًا عن سلوك الحشرات والطيور في كتب العلم التجريبي، وسوف يذهله ما يقرأ، وعليه أن يراقب العمل والنظام في (مملكة النحل) أو في (عالم النمل وقراه التي ينشئها). . وليس ذلك كله إلا مصدقًا لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ (طه: ٥٠)، وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الأنعام: ٣٨)، وهو الذي تدل عليه بحق كافة مشاهدات

العلماء المحققين، والمتشكك في ذلك إنما هو المستحق لسخرية الساخرين[1].

٤- ويختلف النطق عندنا عن النطق عند الحيوان:

قال ابن حزم: النطق عندنا هو التصرف في العلوم والصناعات ومعرفة الأشياء على ما هي عليه. . . لم ندفع أن يكون للحيوان أصوات عند معاناة ما تقتضيه له الحياة من طلب الغذاء، وعند الألم، وعند المضاربة، وطلب الفساد، ودعاء أولادها، وما أشبه ذلك، فهذا هو الذي علمه الله تعالى سليمان رسوله ﵇، وهذا الذي يوجد في أكثر الحيوان، وليس هذا من تمييز دقائق العلوم والكلام ولا من عمل وجوه الصناعات كلها في شيء، وإنما عنى الله تعالى بمنطق الطير أصواتها التي ذكرنا لا تمييز العلوم والتصرف في الصناعات. . . وإذا قلنا: إن الحيوان لا نطق له نعني أنه لا تصرف له في العلوم والصناعات[2].

الوجه التاسع عشر: الرد على من يقول: أن الممارسة الجنسية عند الحيوان ما هي إلا ممارسة همجية.

فالجوانب العلمية التي اكتشفها العلم الحديث توضح وجود تماثل بين الإنسان وسائر الكائنات الحية على وجه الأرض مثل: الجوانب السلوكية والأخلاقية، ويتفرع من ذلك الممارسة الجنسية.

١ـ البيت الزوجي لدى الحيوانات:

فكما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾ فهذا للإنسان، ولكن ليس الإنسان وحده الذي يعيش في بيت يسكنه بل كذلك الحيوانات والطيور وغيرها من الكائنات المختلفة والمخلوقات، وقد أكد هذه الحقيقة عالم الحيوان (ب. ألتوم) حيث يرفض الفكرة القائلة بأن الطائر يستطيع الذهاب حيث يشاء، ولقد ثبت أن الطيور تتقاسم المسكن فيما بينها، وأن لكل منها حماه الخاص الواضح المعالم والحدود والذي يقوم بحراسته والدفاع عنه، ومنع أبناء جنسه من اختراقه أو الدخول إليه، إن امتلاك الحمى

(١) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين ١/ ٥٤؛ المطلب الثاني: دعوى تعارض القرآن مع الوقائع التاريخية.

(٢) الفصل في الملل ١/ ٦٩- الكلام على من قال أن في البهائم رسلًا.

أمر شائع ومعروف لدى جميع الأنواع الحيوانية، وفي كل مراحل تطورها فما هي الأمور التي يوفرها امتلاك الحمى؟

يحتل كل عنصر من عناصر الحيوانات مساحة كافية توفر له ما يحتاجه للبقاء والتناسل ولهذا السبب نلاحظ أن مساحة الحمى مرتبطة إلى حد كبير بحجم الحيوان ونوعية غذائه. وغالبا ما يشكل الحمى المكان الذي يلتقي فيه الذكر بالأنثى وهذا ما نلاحظه بشكل خاص لدى الطيور المهاجرة مثل: اللقلق لدى عودتها إلى المناطق الاستوائية تبادر إلى البحث عن عشها القديم إنها أكثر إخلاصًا للمكان منها إلى شريكها منزل واضح المعالم يؤمن للزوجين مكانًا حميًا يلتقيان فيه أثناء وقت السفاد وخلال عملية تربية الصغار(١).

أقول: هذا الحمى الذي نجده من أساسيات الحياة الحيوانية كما رأينا فهو كذلك يعتبر للإنسان فمن المحال أن تجد إنسانًا بلا حمى، وإلى هذا أشار تعالى بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

٢ـ تنظيم العملية الجنسية لدى الحيوانات:

ليس فقط الإنسان وحده الذي ينظم العملية الجنسية بل كذلك حتى الحيوانات لها نظامها الخاص حيث أثبتت الدراسات ما يلي:

يتسافد الفراش عادة في ساعة محددة من اليوم إنها ساعة خاصة بكل نوع لا تطلق الأنثى نداءاتها إلا في ذلك الوقت كما أن الذكر لا يحفل بتلك النداءات إلا في تلك الساعة، بعضها يتسافد مع إطلالة النهار، بعضها الآخر يؤثر أول الليل بعضها الآخر يتقاسم سائر ساعات الليل.

قام أحد الباحثين طوال أسبوعين بالنهوض كل ليلة في الثالثة صباحا للتأكد من دقة مواعيد ذكرين عاشقين من نوعين من أنواع الفراش يأتيان للقاء أنثيين في قفص كانت

---

(١) انظر موسوعة التعايش واللغة والجنس لدى الحيوان (٧ ـ ١٢) بتصرف.

الدقة في الحضور تفتقر أحيانًا إلى حوالي خمس دقائق فقط[(١)].

٣ـ الغيرة لدى بعض الحيوانات:

ليست الغيرة من خصائص الأنثى (المرأة) في عالم البشر فقط؛ بل هي كذلك في المخلوقات والكائنات كلها، ونضرب مثالًا لهذه الغيرة في عالم الحيوان: (البط) كمثال:

إذا شاهدت بطةٌ بطةً أخرى داخل الحمى الزوجي فإنها تشجع صاحبها على مهاجمتها بحركات من الرأس وصرخات نشزة تطلقها، ينقض الذكر على الفور على البطة الدخيلة خافض الجناحين مادًا عنقه إلى الأمام يعود بعد ذلك نحو صاحبته، لكن بما أنه لا يزال مثارًا فإنها هي الأخرى ليست بمنأى عن خطر تعرضها لهجومه، ومع ذلك فإنه يستطيع التوقف في اللحظة المناسبة يرفع رأسه علامة الهدوء، ويطلق الزوجان صرخة مدوية أطلق على هذا السلوك: (احتفال النصر)[(٢)].

ومن هنا نفهم أن الغيرة لدى المرأة من ضرتها طبيعة بشرية نفسية لا يمكن تجاهلها أو إلغاؤها.

الوجه العشرون: الأخلاقيات الكريمة لدى الطيور والحيوانات.

فمن ذلك يتم الرد على من قال بأن الحياة لدى الحيوانات حياة همجية.

١ـ الوفاء والأمانة الزوجية لدى الحيوان:

قال (ألفانا الوارديني): اختار الباحثون ترغل الغابات (ستربيتوبيليايتر) حقلًا لتجاربهم أجروا عملية تسافد بين عدد من هذه الطيور، ثم فرقوا بين الذكور والإناث وذلك طوال ثمانية أشهر بعدها بدأت التجارب الحاسمة، الهدف هو التأكد من قدرة الأزواج على التعارف من جديد، وأن شعورهما المتبادل لا يزال قائمًا، قسمت الطيور إلى مجموعات صغيرة، وضع ثلاثة ذكور وثلاث إناث في مطيرة في غابة قريبة، وضعت في المجموعة الأنثى التي سبق للذكر أن سافدها، تابع علماء الطيور باهتمام ما يسافد الذكر؟ مع من يتعاون لبناء عشه وحضن بيضه؟ جاءت النتائج غير قابلة للنقاش. . . ! بعد عزلة

---

(١) موسوعة التعايش واللغة والجنس لدى الحيوانات (١. ٧).

(٢) المرجع السابق (١٣٣).

طويلة في محيط مجهول تعرف كل ترغل إلى صاحبته التي سبق له أن سافدها في المختبر[١].

ولعل الحصان العربي الأصيل هو مضرب الأمثال في الوفاء لصاحبه!

٢ـ التعاون والمحبة في عالم الحيوان:

لا يمكن للحياة أن تسير بدون تعاون ومحبة بين الكائنات؛ ولذا تجد التعاون في أكمل صوره وأزهى حلله وأتم أحواله بين المخلوقات والكائنات؛ تدع اللسان يلهج دومًا: سبحان الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى؛ كما تسبح سائر المخلوقات، وتلهج بذكر الله ﷻ، ونضرب لهذا التعاون بين الكائنات بمثال واحد من بين ما لا يعد ولا يحصى من الأمثلة بالتعاون في عالم النحل.

قال الدكتور/يوسف عز الدين: لو اكتشف أحد عمال النحل حقلًا أو كمية من النباتات تعتبر مصدرًا للغذاء فإنه يعود للمستعمرة ليخبر باقي العمال عن هذا الكنز الذي اكتشفه؛ وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لماذا تفعل هذا؟ إنها ترقص رقصات عجيبة ذات مدلولات معينة؛ إذ أن جسمها يصنع في أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس وإذا كان الحقل قريبًا من المستعمرة فإن الرقصة في هذه الحالة تختلف عنها في حالة بعد الحقل مسافة أطول، ومن هذه الرقصات يفهم النحل أن حقلًا من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها يقع على بعد معين، والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس، فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل، إلا أن باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله فيطير باقي الأفراد ويصلون إلى ذلك الحقل مباشرة لإحضار مزيد من الغذاء.

هداية الحمام وعجائب صنع الله فيه وأوجه التماثل بينه وبين الإنسان:

تلمس العناية والهداية الإلهية في كل المخلوقات، والكائنات ليس فقط في عالم

---

(١) موسوعة التعايش (ص١٣٤).

الإنسان؛ بل في كل شيء من خلق الله تعالى كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ (طه: ٥٠)، ومن هداية الله تعالى هدايته سبحانه وتعالى للحمام[(١)].

ولعل أحسن من تكلم عن هذه الهداية الإمام ابن القيم حيث يقول: والحمام يشاكل الناس في أكثر طباعه ومذاهبه؛ فإن من إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها، وفيه أخرى لا ترد يد لامس وأخرى، لا تنال إلا بعد الطلب الحثيث، وأخرى تركب من أول وهلة وأول طلب، وأخرى لها ذكر معروف بها وهي تمكن ذكرًا آخر منها؛ وإذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها، وأخرى تمكن من يغنيها عن زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره، وأخرى تمعط الذكر وتدعوه إلى نفسها، وأنثى تركب أنثى وتساحقها، وذكر يركب ذكرًا ويعسفه، وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام، وفيها من لا تبيض؛ وإن باضت أفسدت البيضة كالمرأة التي لا تريد الولد كيلا يشغلها عن شأنها، وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر أي ذكر كان أسرعت هاربة؛ ولا تواتي غير زوجها البتة بمنزلة المرأة الحرة، ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها ثم ينتقل عنها إلى غيرها، وكذلك الأنثى توافق ذكرًا آخر عن زوجها وتنتقل عنه وإن كانوا جميعًا في برج واحد، ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر فتعايرهم كلهم حتى إذا غلب واحد منهم لرفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب[(٢)].

ويواصل ابن القيم حديثه القيم عن الحمام وبدائع صنع الله فيه وعجيب هدايته إلى ما هداه إليه في حديث طويل ممتع يدل على أن التفكر في خلق الله منهج أخذ به أهل العلم أنفسهم تحقيقًا لأمر الله لعباده في التفكر والنظر فيقول: وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية؛ حتى قال الشافعي: أعقل الطير الحمام، وبيرد الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب ربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد؛ فإن الغرض الذي يحصل به

---

(١) (النحلة تسبح الله) نقلًا عن كتاب العقيدة في الله (ص ١٢٦) لـ أ. د/ عمر سليمان الأشقر.

(٢) شفاء العليل (ص٧٢).

لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها وتنهى الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول، والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناءً عظيمًا فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت التسافد وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها، والإناث عن ذكورها ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكرًا من عرض الحمام فتعتريها الهجنة، والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم، ويحتاطون لها، والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حمامًا ساقطًا لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، ويقولون هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه وهو أشد متنًا وأقوى بدنًا وأحسن اهتداءً، وطائفة منهم يختار لذلك الإناث ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده حن إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها فيترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها وهدايته على قدر التعليم والتوطين، والحمام موصوف باليمن والأُلف للناس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه، ويعود إليه من مسافات بعيدة وربما صد فترك وطنه عشر حجج وهو ثابت على الوفاء[1].

الوجه الحادي والعشرون: الإنسان يتعلم من الحيوانات، فلماذا لا نعترف أن للحيوان قيمة وقدرًا؟!

الإنسان يتعلم من الحيوان:

قال محمد محمد معافي: فضل الله تعالى الإنسان على كثير من مخلوقاته وميزه عليها، ولكن بعض الكائنات تتفوق على الإنسان في بعض صفاتها وأخلاقها ويحتاج الإنسان لأن يتعلم من هذه المخلوقات كثيرًا من هذه الصفات الغائبة عن كثير من الناس، **وقد تكلم**

---

(١) شفاء العليل (٧١).

ابن القيم على هذا التفوق الخلقي لبعض الكائنات والتي بحاجة لأن يتعلمها بنو البشر فيقول: وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمورًا تنفعه في معاشه، وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره، وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾، **قال أبو جعفر الباقر**: والله ما اقتصر على تشبيهم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلًا منها.

فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أيامًا تهرب به من الذر والنمل؛ لأنها تضعه كقطعة من لحم فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد. وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش: من علمك هذا كله وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب؟ قال: علمني الله الذي علَّم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعًا نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد. وقيل لآخر: من علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: من علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط ثم تصعد ثم تسقط مرارًا عديدة حتى تستمر صاعدة. وقيل لآخر: من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به؟ قال: من علم الطير تغدو خماصًا كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض. وقيل لآخر: من علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟ فقال: الذي علم السهر أن ترصد جحر الفأرة فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد. وقيل لآخر: من علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون؟ قال: من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأعمال الثقيلة والمشي والتعب: الجمل وضربه، وكل الثقل على ظهره ومرارة الجوع والعطش في كبده وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه، ولا يعدل به ذلك عن الصبر. وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها بل

يستدعي الدجاج ويطلبهن طلبًا حثيثا؛ حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع له الحب الكثير فرقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج؛ لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام. وقيل لآخر: من علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال: من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها؛ وهي أكثر من أن تذكر، ومن علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفي أثره ويطلب عفي أثر مشيته بذنبه، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه فينفخ في منخريه؛ لأن اللبؤة تضعه جروا كالميت؛ فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك، ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع، ومن علم الأسد أن يخضع للبر ويذل له إذا اجتمعا حتى ينال منه له، ومن عجيب أمره أنه إذا استعصى عليه شيء من السباع دعا الأسد فأجابه إجابة المملوك لمالكه، ثم أمره فربض بين يديه فيبول في أذنيه، فإذا أراد السباع ذلك أذعنت له بالطاعة والخضوع، ومن علم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي على ظهره ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ فيظن الظان أنه ميتة، فيقع عليه فيثب على من انقضى عمره منها، ومن علمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم، ومن علم الدب إذا أصابه كلم أن يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش فيتداوى به فيبرأ، ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه؛ لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة؛ لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان وهي عالية فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي ما وسطها تضعه فيه فيكون كالفراش اللين والوطاء الناعم، ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر، ومن علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثى فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشد وأبعد وثبة، ويدع الأنثى على نقصان عدوها لأنه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطًا أو شوطين حقن ببوله؛ وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن،

وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو فيقل عدوه فيدركه الكلب، وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج فيدوم عدوها، ومن علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها علما منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق، ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوبًا بين عينيه فينام بإحداها حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة حتى إذا قال بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومن علم العصفور إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم، قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط فأومئ بيدي كأني أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئًا فلا يتحرك؛ فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي، ومن علم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش وأن يقيما له حروفًا تشبه الحائط ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى ثم يقلبان البيض في الأيام، ومن قسم بينهما الحضانة والكد فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى، وأكثر ساعات جلب القوت على الأب، وإذا خرج الفرخ علما ضيق حوصلته عن الطعام فنفخا فيه نفخًا متداركًا حتى تتسع حوصلته، ثم يزقانه اللعاب أو شيئًا قبل الطعام وهو كاللبن للطفل، ثم يعلمانه احتياج الحوصلة إلى دباغ، فيزقانه من أصل الحيطان من شيء بين الملح والتراب تندبغ به الحوصلة فإذا اندبغت زقاه الحب، فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزق على التدريج فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة ضرباه، ومن علمهما إذا أراد السفاد أن يبتدئ الذكر بالدعاء فتتطارد له الأنثى قليلًا لتذيقه حلاوة المواصلة، ثم تطيعه في نفسها ثم تمتنع بعض التمنع ليشتد طلبه وحبه، ثم تتهادى وتتكسل وتريه معاطفها، وتعرض محاسنها، ثم يحدث بينهما من التغزل، والعشق، والتقبيل، والرشف ما هو مشاهد بالعيان، ومن علم المرسلة منها إذا

سافرت ليلًا أن تستدل ببطون الأودية، ومجاري المياه، والجبال، ومهاب الريح، ومطلع الشمس ومغربها فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلت فإذا عرفت الطريق مرت كالريح. . . وهذا باب واسع جدًا يكفي فيه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، وقد قال النبي ﷺ : "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها"(١).

الوجه الثاني والعشرون: بعض الطيور تقلد أصوات البشر:

قال محمد محمد معافي:

تشتهر الببغاوات بقدرتها على تقليد أصوات البشر، ويعتبر ببغاء البركيت وطائرة الميناه الآسيوي من المقلدين الجيدين، لقد حازت الببغاء الإفريقية والتي تسمى (برودل) على جائزة أفضل ببغاء متكلمة لمدة اثنتي عشرة سنة متتالية في مهرجان لندن للطيور، كانت قادرة على نطق ٨٠٠ كلمة كما تستطيع بعض الببغاوات التحدث بعدة لغات، وهناك طيور أخرى تستطيع تقليد الأصوات اليومية، وقد أجاد الزرزور في ترديد صوت رنين الهاتف، وجعل الناس يتدافعون للرد على الهاتف(٢).

الوجه الثالث والعشرون: بعض الحيوانات تسبق الإنسان في معرفة بعض الأحداث والمعلومات.

قال محمد محمد معافي:

بعض الأحداث والمعلومات تتفنن بعض الكائنات في سرعة معرفتها بها وهبها الله تعالى من حواس وقدرات تتناسب ومعيشتها وحياتها فزودها الله تعالى بهذه القدرات والتي تعد في عالم البشر من الخوارق؛ كمعرفة موعد الزلازل مثلًا، حيث إن الثعابين بارعة جدًا في معرفة مواعيد الزلازل؛ حيث يظل جسد الثعبان ملامسًا للأرض طوال الوقت؛ حيث يتمتع بحساسية شديدة لأقل الذبذبات بها في ذلك الذبذبات المنبئة عن الزلازل، ومنذ زمن طويل ساد اعتقاد بأن الثعابين مخلوقات سحرية لأنها تستطيع معرفة

---

(١) في مقال: (أممية الحيوانات) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. ٥٥a. net).

(٢) في مقال: (أممية الحيوانات) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. ٥٥a. net).

متى تحدث الزلازل.

ويؤكد الباحثون أن الحيوانات تملك قدرة كبيرة على توقع الكارثة، فالفئران وبعض الحيوانات الأخرى تدرك متى ستقع الهزة الأرضية مثلًا وربما تغادر منطقة الهزة قبل وقوع هذه الهزة[١].

قلت: وإذا أمكن للحيوانات سماع بعض الأحداث والمغيبات في عالم البشر، فليس يبعد كذلك سماعها لتعذيب الكافرين في قبورهم ونحو هذا من المغيبات لاسيما وقد أخبر الصادق المصدوق بهذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما: عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **"الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ النَّبِي ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا. وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي؛ كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ. ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ"**[٢].

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: **"ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم؛ فإن ما قل وكفي خير مما كثر وألهى. ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا"**.

ولولا أنه يبعد على البشر معرفة هذه الحقيقة لقوله ﷺ: "إلا الثقلين" لعرف ذلك الباحثون، ولكن الشواهد العلمية والدراسات تؤكد صدق ما أخبر به النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ

(١) في مقال: (أمية الحيوانات) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. ٥٥a. net).

(٢) البخاري (١٢٧٣)، ومسلم (٢٨٧٠).

﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ (فصلت: ٥٣)، والله أعلم.

الحيوان متفوق على الإنسان في الكتاب المقدس:

قال بعض علماء النصارى:

لا تزال هناك آثار باقية من الاعتقاد في تفوق الحيوانات في مخيلة الكتبة الملهمين؛ فإنهم لا يترددون في التحدث عن حيوانات خرافية، وأيًّا كان أصل هذه التصورات، فإن مثل هذه الحيوانات تميّز عالمًا يتجاوز الطبيعة والقدرة البشرية (دانيال ٧، رؤيا ٩: ٣- ١١)، ويتصل إمّا بالعالم الشيطاني (رويا ١٢، ١٣، ١٦: ١٣- ١٤، ٢٠: ١ - ٣)، وإمّا بالعالم السماوي (حزقيال ١: ٤- ٢٤ رؤيا ٤: ٦ - ٨)[1].

النمل في الكتاب المقدس:

يقول سفر الأمثال ٦: (٦اذْهَبْ إِلَى النَّمْلَةِ أَيُّهَا الْكَسُولُ، تَمَعَّنْ فِي طُرُقِهَا وَكُنْ حَكِيمًا، ٧فَمَعَ أَنَّهَا مِنْ غَيْرِ قَائِدٍ أَوْ مُدَبِّرٍ أَوْ حَاكِمٍ، ٨إِلاَّ أَنَّهَا تَخْزِنُ طَعَامَهَا فِي الصَّيْفِ، وَتَجْمَعُ مَؤُونَتَهَا فِي مَوْسِمِ الْحَصَادِ).

قلت: وشتـــان بين الحقيقة العلمية والنص أعلاه!

فإن الأغلبيّة العظمى للنمل تعيش على شكل مستعمرات؛ وهي عبارة عن عائلات أو مجموعات العائلات المتّصلة، كلّ مستعمرة تتكوّن من الملكة وبناءها الكبار، فالنمل أمة كأمة البشر لها قانونها الاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي، بل والعسكري أيضًا، فالنمل له نظام اقتصادي خاص في التوفير، ورصد الاحتياطي لوقت الحاجة وحفظ المخزون بطريقة معينة حتى لا بفسد.

وفي النظام السياسي من ملوك ورؤساء وقادة، وفي النظام الاجتماعي من أسرٍ وجماعات. وفي النظام العسكري من جيوش وحمايات، بل ثبت أن النمل يقوم بحملات عسكرية على القرى المجاورة من النمل ويأسر منهم الأسرى ويضعهم في السجون!

---

(١) انظر موقع البشارة؛ (الموسوعة المسيحية العربية الإلكترونية www. albishara).

ولقد كشف الباحثون في علم وظائف الأعضاء والكيمياء الحيويه أن النمل يقدم تنظيمًا بيولوجيا اجتماعيًا معقدًا، ومجتمعات النمل هي وحده متكامله من الترابط الذي ينظم سلوك أفرادها، ولا تستطيع أن تعيش النمله منفصله عن المجموعه، وإذا انفصلت فإنها تهلك.

النعام في الكتاب المقدس:

أما عن النعام: فيقول سفر أيوب ٣٩: ١٣يُرَفْرِفُ جَنَاحَا النَّعَامَةِ بِغِبْطَةٍ، وَلَكِنْ أَهُمَا جَنَاحَانِ مَكْسُوَّانِ بِرِيشِ الْمَحَبَّةِ ١٤فَهِيَ تَتْرُكُ بَيْضَهَا عَلَى الأرض لِيَدْفَأَ بِالتُّرَابِ، ١٥وَتَنْسَى أَنَّ الْقَدَمَ قَدْ تَطَأُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ الْكَاسِرَةِ قَدْ تُحَطِّمُهُ. ١٦إِنَّهَا تُعَامِلُ صِغَارَهَا بِقَسْوَةٍ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ لَهَا، غَيْرَ آسِفَةٍ عَلَى ضَيَاعِ تَعَبِهَا، ١٧لأَنَّ اللهَ قَدْ أَنْسَاهَا الْحِكْمَةَ، وَلَمْ يَمْنَحْهَا نَصِيبًا مِنَ الْفَهْمِ. ١٨وَلَكِنْ مَا إِنْ تَبْسُطُ جَنَاحَيْهَا، لِتَجْرِيَ حَتَّى تَهْزَأَ بِالْفَرَسِ وَرَاكِبِهِ!

وفي نص آخر: (١٣جناح النعامة يرفرف) أفهو منكب رأوف أم ريش. ١٤لأنها تترك بيضها وتحميه في التراب. ١٥وتنسى أن الرّجل تضغطه أو حيوان البر يدوسه. ١٦تقسو على أولادها كأنها ليست لها. باطل تعبها بلا أسف. ١٧لأن الله قد أنساها الحكمة ولم يقسم لها فهما.

وهنا أيضًا نقول: وشتـــان بين الحقيقة العلمية والنص أعلاه!

الأرنب من الحيوانات المجترة في الكتاب المقدس!

ففي سفر (لاويين ١١: ٥-٨): والوبر لأنه يجترّ لكنه لا يشق ظلفًا فهو نجس لكم. ٦ والأرنب لأنه يجترّ لكنه لا يشق ظلفًا فهو نجس لكم. ٧ والخنزير. لأنه يشق ظلفًا ويقسمه ظلفين لكنه لا يجترّ. فهو نجس لكم. ٨ من لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا إنها نجسة لكم.

وهنا أيضًا نقول: وشتـــان بين الحقيقة العلمية والنص أعلاه!

فالأرنب أبعد من أن يكون من المجترات، والحيوانات المجترة هي التي تملأ المعدة بالطعام ثم تعود لأكله.

فالأرنب – على اختلاف أنواعه– ليس من الحيوانـــات المجتره بالمقياس العلمي؛ أي: أن معدته لا تتكون من أربعة أقسام كسائر الحيوانـــات المجترة، ولكن من عادة الأرنب أن يبتلع ما

يجده من طعام، ثم يعود لمضع ما عسر على معدته أن تهضمه، وهو نوع من الاجترار الجزئي.

إن هذه الفقرة من الكتاب المقدس تتحدث عن طريقة الأرنب في الأكل، وذلك لأن جهازه الهضمي فقير جدًا، وأما الاجترار فقط في الحيوانات التي تحتوي على كرش كالبقر، والجاموس، والغنم، والماعز، والكرش غير موجود بالأرانب أصلًا.

وهي الطريقة العجيبة التي تهضم بها بعض الحيوانات الطعام، وهي تشمل الثور، والغنم، والمعز، والوعل، والغزال، والزراف، والهجين، والجمل، وهذه الحيوانات لا تمضغ الطعام في الحال، بل تبتلعه من صحيحًا، وتختزنه في الكرش الأول، وهو واحد من الغرف الأربع المكونة للمعدة، ويمر الطعام بعد ذلك عند الاسترخاء، من الكرش الأول، إلى الغرفة الثانية المسماة المعدة الثانية للمجترات حيث يضغط إلى كتل ملتفة، ترجع إلى فم الحيوان ثانية، والآن يمضغ الطعام، ويبتلع للمرة الأخيرة، ثم يمر إلى الغرفتين التاليتين اللتين يكونان المعدة الحقيقية (المعدة الثالثة، والرابعة للحيوانات المجترة)، حيث يبدأ الهضم الحقيقي، ثم يمر الغذاء بعد ذلك إلى الأمعاء، فلابد أن تتوافر هذه الشروط في الحيوان لكي يُصنف مُجترًا.

الوجه الرابع والعشرون: هم يفهمون خطأ من هذه الآية أن الإنسان يشبه الحيوانات، وسنرد على ذلك، ولكن بالنظر في الكتاب المقدس نجد أن الله يُشبّه بالحيوانات، وإليك أمثلة على ذلك:

* الرب حمامة: (١٦فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ فَرَأَى رُوحَ اللهِّ نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ ١٧وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلًا: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ») (متى ٣: ١٦-١٧).

* الرب خروف وشاة: (هؤلاء سيحاربون الخروف والخروف يغلبهم لأنه ربُّ الأرباب وملك الملوك) (رؤيا يوحنا ١٧: ١٤)، (مِثْلَ شَاةٍ سِيقَ إِلَى الذَّبْحِ وَمِثْلَ خَرُوفٍ صَامِتٍ أَمَامَ الَّذِي يَجُزُّهُ هَكَذَا لَمْ يَفْتَحْ فَاهُ) (أعمال الرسل٨: ٣٢).

* وهو تارة مثل السوس والدودة: (١٢لِهَذَا أَكُونُ كَالْعُثِّ لإِسْرَائِيلَ، وَكَالسُّوسِ

النَّاخِرِ لِشَعْبِ يَهُوذَا) (هوشع ٥: ١٢).

* وتارة مثل الأسد والنمر والدبة: (٧لِهَذَا أَكُونُ لَهُمْ كَأَسَدٍ، وَأَكْمنُ كَنَمِرٍ لَهمْ عَلَى الطَّرِيقِ. ٨وَأَنْقَضُّ عَلَيْهِمْ كَدُبَّةٍ ثَاكِلٍ، وَأُمَزِّقُ قُلُوبَهُمْ) (هوشع ١٣: ٧).

* وتارة مثل الدب والأسد: (١٠هُوَ لِي كَدُبٍّ مُتَرَبِّصٍ، وَكَأَسَدٍ مُتَرَصِّدٍ فِي مَكْمَنِهِ) (مراثي إرميا ٣: ١٠١).

الوجه الخامس والعشرون: الكتاب المقدس يشير إلى تشبيه بعض البشر ببعض الصفات الحيوانية.

قال بعض علماء النصارى: يشير الكتاب المقدس إلى أن عالم الحيوان يشكل هذا القسم من المخلوقات المنظورة الأقرب إلى الإنسان، وكان الشعب العبراني يحسّ خصيصًا بهذه الرابطة التي قد تخفي أحيانًا عنا، إذ كانت حياتهم متصلة اتصالًا أوثق بالحيوانات، ولذا نجد غالبًا الكتاب المقدس يستعمل- لتوضيح أوصافه- قابلية الحيوان للتعبير عن بعض أوضاعٍ إنسانية: مثلًا يسمّى العدو كلبًا (مزمور ٢٢: ١٧)، ويشبّه جيش الغزاة بسحاب من الجراد (إشعيا ٣٣: ٤)، ويستخدم الكتاب وصف الأسد في إشارته تارة إلى الله، وطورًا إلى العدو، ومن هنا نرى خلال ازدواج المعنى في بعض الرموز التباس هذا العالم الحيواني الذي نُشكِّل نحن جزءًا منه، والقادر على الأحسن كما هو قادر على الأسوأ، فغالبًا ما يشبّه الكتاب المقدّس الشعب بالقطيع كما في مثل ناتان (٢ صموئيل ١٢: ١- ٤، إرميا ٢٣: ١- ٨، حزقيال ٣٤، يوحنا ١٠: ١- ١٦)، إلى جانب أن الحَمَل يستخدم للتعبير عن المسيح (يوحنا ١: ٢٩، رؤيا ٥: ٦. . .) والحمامة عن الروح القدس (متى ٣: ١٦)، ولكن فيما نتجاوز هذه الملاحظات المتفرقة لا بد من أن نتتبّع في القصص الكتابية جهد هؤلاء الرجال الذين يواجهون قدرة عالم الحيوان، فيدركون شيئًا فشيئًا تفوّقهم عليه، وأكثر من ذلك؛ فعندما يتكلم أصحاب الكتب المقدسة عن عالم الحيوان الذي يشتركون فيه ويعكسون عليه بنوع ما حالتهم الشخصية نجدهم يعلنون في آخر الأمر درامة البشر والخلق كله، في توقهم إلى الفداء.

الحيوان والإنسان في الخلق: يعاقب الله (نبوكد نصر) على تشامخه الجنوني، فيعطيه قلب وحش (دانيال ٤: ١٣)؛ لأن التصرف الحيواني عند البشر يرمز إلى التمرّد ضد الروح، وبالتالي ضد الله[(١)].

* * *

(١) انظر: موقع البشارة؛ (الموسوعة المسيحية العربية الإلكترونية www. albishara).

١٠ـ شبهة: غلبت الروم.

نص الشبهة:

جاء في القرآن: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ (الروم: ٢-٣)

١ـ (أدنى) ليست بمعنى: أخفض:

درج المفسرون على تفسير (أدنى) بمعنى: الأقرب، وأيضًا القرآن نفسه يستعمل (أدنى) بمعنى: أقرب.

٢ـ الآية لا تشير إلى معركة الفرس والرومان:

وحيث إن (أدنى) حسب كلام بعض علماء الإعجاز تعني: أخفض؛ فيجب أن تكون المعركة تمت بالقرب من القدس كي تكتمل المعجزة، من غير دليل على أن الآية تشير إلى معركة الفرس والرومان سوى إشارة أخفض الأرض، والتي يجب أن تكون القدس.

٣ـ إنكار ذكر المعركة في كتب المسلمين:

الملفت للنظر أن المسلمين لم يهتموا بدراسة تاريخ تلك الحقبة لتحديد تلك المعركة التي انتصر فيها الفرس على الروم، ولكنَّ صانعي المعجزات لا يجدون غضاضة في تجاهل التاريخ وعدم البحث عن الحقيقة طالما وافقت هواهم[١].

وبذلك لا يكون هنالك إعجاز كما يزعمون.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: كلمة (أدنى) كما أنها تعني: أقرب في اللغة فكذلك تعني: أخفض.

الوجه الثاني: كلمة (أدنى) في آيات من القرآن جاءت بمعنى: أخفض أو أقل؛ وليس بمعنى: أقرب.

الوجه الثالث: هل القرآن تابع للمعاجم اللغوية؟

الوجه الرابع: أدنى في أحاديث من أحاديث رسول الله ﷺ جاءت بمعنى: أخفض أو أقل، وليس بمعنى أقرب.

الوجه الخامس: بيان معنى أدني الأرض في العلوم الحديثة، وإنهاء الخلاف الذي

---

(١) [هذه الشبهة من موقع: الرد على الإسلام].

حدث قديمًا لتحديد هذه المنطقة.

الوجه السادس: الرد على قول القائل: لماذا لم يذكر القرآن كلمة (أخفض) بدلا من (أدنى)، فلو كان هذا حدث لانتهى الإشكال؟

الوجه السابع: الجمع بين قول المتقدمين وقول المعاصرين بأن نقول: إن كلمة (أدنى) عند العرب تأتي بمعنيين: أقرب، وأخفض؛ فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض.

الوجه الثامن: (أل) للعهدية في كلمة (الأرض).

الوجه التاسع: كلمة (الأرض) في القرآن تأتي بعدة معانٍ.

الوجه العاشر: القرآن ما زال به معجزات لم يكشف عنها.

الوجه الحادي عشر: بالنظر للناحية التاريخية، وإثبات أن علماء المسلمين المتقدمين اهتموا بتلك الحادثة.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: كلمة (أدنى) كما أنها تعني: أقرب في اللغة فكذلك تعني: أخفض.

قال ابن جزي[1]: أدنى له معنيان: أقرب من الدنو، وأقل فهو من الداني.

قال ياسر محمود الأقرع: إن معاجم اللغة - لمن يتأملها - بُنيت على أساسٍ تراكمي؛ إذ أخذ كل معجم مادته ممن سبقه في هذا المضمار، وقلما زاد الأخير على سابقيه شيئًا، إلى درجة يصعب معها اكتشاف الفروق بين معجم وآخر في تناول معاني الكلمة الواحدة، وهذا ما نلحظه بالرجوع إلى مادة (دنا) أو (دنو) في المعاجم اللغوية؛ إذ نجد أنفسنا أمام معانٍ معينة، وكلام معاد، وشواهد مكررة تناقلها أصحاب المعاجم الواحد عن الآخر.

ما هو أدنى الأرض أو (أقلها) جيولوجيًا؟

أدنى الأرض معناه: أقلها سماكة، وحيث تكون الأرض أقل سماكة تكون أخفض،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣٦- حرف الدال).

وكلمة (أدنى) بمعنى: أخفض، (والانخفاض ضد العلو) وردت كثيرًا في الشعر العربي كما في قول ابن قيم الجوزية:

لا تؤثر الأدنى على الأعلى فإن   تفعل رجعت بذلة وهوانِ

لا تؤثر الأدنى على الأعلى فتُحرم   ذا وذا يا ذلة الحرمانِ

فنحن نلاحظ في البيتين السابقين (الطباق) بين كلمتي: الأدنى والأعلى، وورودهما على أنهما متضادتين من حيث المعنى.

ويقول (أبو عدي النمري):

تهامية الأدنى حجازية الذرا   كأن عليها من عُمان شقيقها

على الرغم من أن الشاعر في مَعْرِض الحديث عن النسب القريب منه والبعيد؛ إلا أنه يختار للتعبير عن ذلك كلمتين متضادتين معنويًا من وجهة نظره؛ وهما: الأدنى ـ الذرا، الذرا: أكثر الأماكن علوًّا، الأدنى: أكثر الأماكن انخفاضًا.... والقرب والبعد مسألة نسبية[1].

قلت: وكذلك يتم استخدام كلمة (أدنى) بمعنى: أخفض في كثير من حياتنا اليومية..

. فمن يطالع النشرة الاقتصادية كل مساء يَجِد مَنْ يعرض النشرة يقول: انخفض سعر صرف الين الياباني إلى أدنى مستوى له أمام الدولار.

الوجه الثاني: كلمة (أدنى) في آيات من القرآن جاءت بمعنى: أخفض أو أقل؛ وليس بمعنى: أقرب.

١ـ **قال أبو البقاء الكفوي**[2]: و(الأدنى) يُعبر به تارة عن الأصغر فيقابل بالأكبر: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾، وتارة عن الأرذل فيقابل بالخير: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيۡرٌ﴾، وتارة عن الأول فيقابل الآخر: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾، وتارة عن الأقرب فيقابل بالأقصى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: أقرب لنفوسهم.

---

(١) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٦/ ٨١)، شبهات حول القرآن الكريم (٢).

(٢) كتاب الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية فصل الدال (١/ ٧١١).

قال الواحدي: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ للصَّلاة والقراءة ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقلّ ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ أي: وتقوم نصفه وثلثه.(١)

قال الأصفهاني: الدنو: القرب بالذات، أو بالحكم، ويستعمل في المكان والزمان والمنزلة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ (الأنعام: ٩٩)، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ (النجم: ٨) هذا بالحكم(٢).

٢ـ **لذلك نقول:** إننا لا نستطيع أن ننكر على من قال: (أدنى) بمعنى: أخفض لما سبق من أقوال العلماء المتقدمين على أن أدنى تعني: أقرب وكذلك تعني أخفض.

٣ـ من أقوال العلماء السابقين أن كلمة (أدنى) الواردة في الآية هي بمعنى: أقرب؛ والسبب هو:

قال ياسر محمود الأقرع: وذلك انطلاقًا مما حملته معاجم اللغة من معانٍ لهذه الكلمة لا تكاد تخرج عن معنى القرب والدنوِّ، وظل مفسرو القرآن ودارسوه يتحدثون عن الإعجاز الغيبي في هذه الآية، ذلك أن الله أخبرنا أن الروم سيهزمون الفرس في بضع سنين (من ثلاث إلى تسع سنوات)، وهذا ما شهده معاصرو نزولِ الآية بعد نزولها بتسع سنوات. ثم طالعنا بحثًا جديدًا يؤكد أن أهم مراحل الحرب التي أسفرت عن هزيمة الروم وخسارتهم كانت في أكثر مناطق العالم انخفاضًا، في حوض البحر الميت الذي يقع في منطقة تتقاطع فيها كل من: سورية، والأردن، وفلسطين، ويبلغ مستوى سطح الأرض في هذه المنطقة (٣٩٥) مترًا تحت سطح البحر، وهذا يعني أنها أدنى منطقة في الأرض.

ويذهب البحث إلى أن كلمة (أدنى) الواردة في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ لها معنى آخر هو: أخفض إضافة إلى المعنى الذي تعارف عليه المفسرون وهو

(١) (الوجيز (١/ ١٠٥٤) –المزمل١١)، انظر: تفسير ابن أبى زمنين (٢/ ٢٨١) –المزمل.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٣٥٢) –كتاب الدال.

أقرب، وقد أنكر بعض مَنْ قرأ البحث هذه النتيجة مؤكدًا أن كلمة (أدنى) تعني من الوجهة اللغوية: أقرب، وليس ثمة رأي آخر يدل على أنها قد تأتي بمعنى: أخفض.

وإذا كان معنى كلمة (دنا) مقتصرًا ـ من الناحية اللغوية ـ على ما ذكرناه، فماذا نقول إذن في قوله تعالى في الآية (٧) من سورة المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، وكذلك في قوله تعالى في الآية (٢٠) من سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾، نلاحظ أن كلمة (أدنى) في الآيتين السابقتين جاءت بمعنى: أقل، ولا يستقيم المعنى إذا نحن أوّلناها على أنها: (أقرب) نزولًا عند معطيات المعاجم اللغوية.

في سورة المجادلة جاءت (أدنى) بمعنى: (أقل) مرتبطة بدلالة عددية؛ فالأدنى من العدد ثلاثة هو العدد اثنان.

وفي سورة المزمل جاءت كلمة (أدنى) بمعنى: (أقل) مقترنة بدلالة زمنية (أدنى من ثلثي الليل)، والأدنى من ذلك: نصفه أو ثلثه أو ربعه أو. . .

إذن جاءت كلمة (أدنى) التي بمعنى: أقل ذات دلالة عددية في سورة المجادلة، وذات دلالة زمنية في سورة المزمل، وفي الدلالات العددية أو الزمنية هنالك ما هو أدنى: (أقل) وما هو (أكثر)، ولكن في الحديث عن الأرض ما هي دلالة كلمة (أدنى) إن كانت بمعنى (أقل)[1]؟

بيان أن معنى أدنى في الآية: أخفض.

قال عبد الدائم الكحيل: أولًا: يحدثنا القرآن في عصر لم يكن باستطاعة أحد أن يقيس أخفض نقطة على سطح اليابسة من الأرض، يحدثنا عن هذه المنطقة بالذات، وأن معركة وقعت فيها وكانت نتيجتها انتصار الفرس على الروم.

لقد حدَّدت هذه الآيات (الروم: ١-٧) موقع المعركة في (أدنى الأرض) فما هو معنى

(١) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٦ / ٧٧)، شبهات حول القرآن الكريم (٢).

هذه العبارة؟ وهل يمكن أن نفهمها بأنها تعني فقط: (أقرب الأرض) كما فسَّرها المفسِّرون الأوائل رحمهم الله تعالى أم أن هنالك معانٍ أخرى؟ وهل هنالك معجزة في هذه الآية الكريمة؟

ثانيًا: لقد تأملت هذا النص الكريم طويلًا واطلعتُ على تفاسيره فوجدتُ أن المفسرين يفسرون قوله تعالى: ﴿أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ بأقرب الأرض؛ أي: أقرب أرض الروم إلى أرض العرب وهي أغوار البحر الميت؛ أي: المنطقة المحيطة بهذا البحر، انظر مثلًا تفسير الطبري أو تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾.

ولكن الذي لَفَتَ انتباهي هو أن عبارة: (أدنى الأرض) عامة وليست خاصة بأرض العرب؛ أي: أن القرآن في هذه الآية يطلق صفة (أدنى) على الأرض دون تحديد أرض معينة، ولذلك فقد فهم المفسرون أن الأدنى هو الأقرب بسبب أنهم لم يتصوّروا أن هذه المعركة قد وقعت في أخفض منطقة على وجه اليابسة.

وهذه هي عظمة القرآن؛ أن المعجزة تبقى مختفية قرونًا طويلة على الرغم من المحاولات الكبيرة لفهمها، إلا أن الله تعالى يُظهرها في الوقت المناسب لتبقى آيات الله مستمرة وقائمة إلى يوم القيامة، ولو أن المفسرين استطاعوا تفسير القرآن كله إذن سوف تتوقف المعجزة، والله تعالى قد تعهّد بأنه سيرينا آياته وينبغي علينا ألا ننكرها؛ يقول تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ (غافر: ٨١).

ثالثًا: تأملتُ قوله تعالى عن المسجد الأقصى وهو مسجد يقع في مدينة القدس التي لا تبعد سوى عشرين كيلو مترًا عن منطقة البحر الميت حيث دارت المعركة؛ يقول تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ (الإسراء: ١)، وبدأت التساؤلات: كيف يصِف الله تعالى منطقة البحر الميت بأنها (أقرب الأرض)، ثم يعود ويصِف المسجد الموجود هناك بأنه (المسجد الأقصى) أي: الأبعد؟!

ثم تأملتُ في الخرائط الجغرافية فوجدتُ بأن المنطقة التي وقعت فيها المعركة وهي التي

سماها القرآن بـ (أدنى الأرض) تبعد عن مكة أكثر من ألف ومئتي كيلو مترًا، فكيف تكون هذه الأرض هي (الأقرب) وهي تقع على هذه المسافة الكبيرة؟ وكيف يكون المسجد الأقصى هو (الأبعد) وهو يقع على نفس المسافة من مكة المكرمة حيث نزلت هذه الآيات؟

ثم تساءلتُ: لو أن الله تعالى يقصد كلمة (أقرب) فلماذا لم يستخدم هذه الكلمة؟

إذن كلمة (أدنى) هي المقصودة، وهي الكلمة التي تعطي المعنى الدقيق والمطلوب، وهذا ما سنراه يقينًا.

رابعًا: معاني متعددة للكلمة:

نعلم أن الله تعالى قد خلق سبع سماوات طباقًا، وسمى السماء السفلى أي: أخفض سماء سمَّاها (السماء الدنيا)؛ فقال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ (فصلت: ١٢) وهنا كلمة (الدنيا) جاءت بمعنى: الأقرب من الأرض، ولكن تتضمن معنى آخر وهو الطبقة السفلى بين طبقات السماء السبعة؛ وسُمِّيت بالدنيا لدنوِّها من الأرض.

ويقول أيضًا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١)، ويفسر المفسرون كلمة (الأدنى) هنا بمصائب الدنيا وأمراضها، وهنا لا يمكن أن تكون (الأدنى) بمعنى: الأقرب بل (الأصغر)؛ لأن الله تعالى يقارن في هذه الآية بين نوعين من أنواع العذاب:

١ - (الْعَذَابِ الأَدْنَى)

٢ - (الْعَذَابِ الأَكْبَرِ)

إذن في هذه الآية نحن أمام مقياسين هما: (الأدنى) و(الأكبر)؛ أي: الأصغر والأكبر، كما نعبر عنه في مصطلحاتنا اليوم بالحدِّ الأدنى والحد الأعلى؛ ونقصد الأصغر والأكبر.

يقول تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ (المجادلة: ٧)، وهنا جاءت كلمة (أدنى) بمعنى: أقلَّ؛

لأنها قد أُتبعت بكلمة (أكثر)، ونرى أن كلمة أدنى تُستخدم هنا مع الأعداد[١].

قال الشوكاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ أي: ولا أقلَّ من العدد المذكور: كالواحد والاثنين، ولا أكثر منه كالستة والسبعة إلَّا هو معهم يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شيء.

كيف نفهم الآية؟

إذن من معاني كلمة (أدنى) لدينا: الأقل، والأصغر، والأقرب، فما هي المنطقة على سطح الكرة الأرضية والتي تتصف بهذه الصفات الثلاث؟ إنها منطقة البحر الميت، فهي:

١- الأقرب: حيث هي أقرب أرض الروم إلى أرض العرب.

٢- الأصغر: فهذه المنطقة مساحتها صغيرة جدًا ولا تتجاوز الكيلو مترات المعدودة، وذلك مقارنة بمساحة سطح الأرض والتي تزيد على ملايين الكيلو مترات المربعة.

٣- الأقلّ: فهذه المنطقة هي الأقل ارتفاعًا على سطح اليابسة، فهي تنخفض عن سطح البحر بمقدار (٤٠٠) مترًا تقريبًا، ولا يوجد في العالم كله أدنى من هذه النقطة إلا ما نجده في أعماق المحيطات.

ولذلك فإن فهمنا لهذه الآية على هذا النحو لا يتعارض مع القرآن وكذلك لا يتعارض مع معطيات العلم، ثم إنهم يعترضون على أن كلمة (أدنى) تفسرها المعاجم اللغوية على أنها (أقرب)، وأن هذه المعاجم لم تورد كلمة (أخفض) ضمن معاني الكلمة.

خامسًا: ولكننا نجد المعاجم تورد معنى الأسفل أو الوادي ضمن معاني هذه الكلمة، فعلى سبيل المثال: لدينا في القاموس المحيط في معنى كلمة (دنا): تقول العرب: الأدنيان وهما واديان[٢].

وفي لسان العرب: والأَدْنَى: السَّفِلُ، فالعرب لا تستغرب أن يكون ضمن معاني هذه الكلمة هو الأسفل أو الوادي. ويقال: دَنَا وأَدْنَى ودَنَّى إِذا قَرُبَ، قال: وأَدْنى إِذا عاش

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني (٥/ ٢٦٣).

(٢) انظر القاموس المحيط في معنى كلمة (دنا): وقوله: (والأَدْنَيانِ: وادِيانِ).

عَيْشًا ضَيِّقًا بعد سَعَةٍ، والأَدْنَى: السَّفِلُ[١].

ولكننا نجد هؤلاء القوم يأخذون من المعاني ما يتفق مع حججهم الواهية، ويتركون المعاني التي لا تروق لهم[٢].

الوجه الثالث: هل القرآن تابع للمعاجم اللغوية؟

قال عبد الدائم الكحيل:

وهنا نود أن نقول: هل نحن ملزمون بأن نفهم القرآن كله على ضوء المعاجم؟ ولو كان هذا صحيحًا إذن لأمكن تفسير القرآن بالكامل ولم يعد هنالك حاجة للمفسرين والمجتهدين! ولنفرض أننا لم نعثر على معنى كلمة ما في المعاجم، فهل هذا يعني أن القرآن غير صحيح؟ مثلًا كلمة: (آلم)، و(آلر)، و(كهيعص)، هذه الكلمات غير موجودة في المعاجم، فهل هذا يعني أنها غير صحيحة؟

كلام الله تعالى هو الأساس الذي يجب أن ننطلق منه وليس المعاجم اللغوية؛ وذلك لأن هذه المعاجم تم وضعها بعد نزول القرآن بمئات السنين، وكذلك التفاسير، وتجدر الإشارة إلى أن معظم الانتقادات التي يوجهها هؤلاء لكتاب الله يعتمدون فيها على الفهم القديم للآية وعلى فهم المفسرين لها، وينسون أن هنالك معجزة متجددة للقرآن تتجلى في كل عصر من العصور بما يتناسب مع علوم العصر.

فمثلًا عندما فِهِمَ (بعضُ) المفسرين من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية: ٢٠) أن الأرض ليست كروية بل مسطحة، وذلك حسب معطيات عصرهم، فهل نتابعهم على هذا الفهم ونخالف حقائق العلم؟ أم أننا نتدبر القرآن لنجد أنه لا تناقض بين القرآن والعلم؛ لأن كلمة (سُطِحَتْ) تعني: أن الله قد مهَّدها وجعلها صالحة للحياة، بعكس القمر الذي نجد سطحه مليئًا بالمرتفعات والوديان مما يجعله غير مسطح

---

(١) انظر لسان العرب في معنى كلمة (دنا). وانظر كتاب موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة.

(٢) [الردّ على منكري الإعجاز في سورة الروم] المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٦/ ٧٧).

وغير قابل للحياة، وهذا يعني أن الله تعالى قد جعل للكرة الأرضية سطحًا ممهدًا.

فمثلًا إذا قلنا: انظر إلى هذه القبة كيف أن الذي صمَّمها وصنعها جعل لها سطحًا رائعًا فلا يعني هذا الكلام أن القبة أصبحت مستوية؛ بل جميع الأجسام تملك سطحًا.

إن هذه الدقة العلمية في استخدام الكلمات القرآنية هي ما نجده في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

إن هذه الآية تقرر أننا إذا ما تدبرنا القرآن فلن نعثر فيه على أية تناقضات، وهذا دليل كافٍ على أنه كتاب الله تعالى، إن كتب البشر نجدها تتحدث عن نظرية علمية، ثم يأتي عصر يثبتُ فيه خطأ هذه النظرية ورفضها تمامًا، بينما نجد القرآن صالحًا لكل زمان ومكان وميسَّر الفهم.

إنهم دائمًا يعترضون على الإعجاز العلمي للقرآن؛ لأنه يخاطبهم بلغة قوية هي لغة العلم، ولذلك فإنهم يلجئون إلى الكتب القديمة حيث كان متعذرًا وقتها فهم هذه الآيات كما نفهمها في ضوء المعارف الحديثة، ونقول لهم: لماذا تلزموننا بفهم القرآن كما فهمه المفسرون قبل مئات السنين، ولا تلزمون أنفسكم بفهم الكتاب المقدس كما فهمه القسيسون قبل عشرات السنين فقط عندما حددوا عمر الكون بسبعة آلاف سنة، ثم ثبت يقينًا أن عمره بلايين السنوات؟!

إن ميزة القرآن الكريم أن البدوي في الصحراء كان لا يجد مشكلة في فهمه والتعامل مع كلماته ومعانيه، وعالم الذرة يفهمه أيضًا ولا يجد مشكلة في تدبره مهما تطور العلم، وعالم اللغة يفهم منه أشياء قد لا يفهمها غيره، وعالم الفلك قد يرى فيه حقائق لم يرها أحد من قبله، وهكذا هو كتاب شامل كامل لجميع البشر ولجميع العصور.

ونقول لكل من يظن أن النبي الكريم ﷺ هو من وضع القرآن ـ أن يعود للكتب السماوية السابقة والصحيحة ليجد فيها الحقيقة الإلهية المتمثلة بدعوة الحق تعالى لهؤلاء ليؤمنوا برسالة الإسلام، يقول ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ

لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (يونس: ١٥٧-١٥٨)[١].

الوجه الرابع: أدنى في أحاديث من أحاديث رسول الله ﷺ جاءت بمعنى: أخفض أو أقل، وليس بمعنى أقرب.

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " **فَيَقُولُ اللهُ لَهُ** (أي آخر أهل الجنة دخولًا): **اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا أَوْ إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا – قَالَ: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِى أَوْ أَتَضْحَكُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ) قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً**"[٢].

٢- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ في حَيَاةِ النبي ﷺ. . . فَقَامَ وَلَمْ يَسْجُدْ، وَقَرَأَ قِرَاءَةً طَوِيلَةً، هي أَدْنَى مِنَ الْقِرَاءَةِ الأُولَى، ثُمَّ كَبَّرَ وَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهْوَ أَدْنَى مِنَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ[٣].

٣- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمْ تَكُنْ تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ في أَدْنَى مِنْ حَجَفَةٍ أَوْ تُرْسٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذُو ثَمَنٍ[٤].

٤- عن أَنس رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقُول: فَقُلْتُ يَا رَبِّ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ في

---

(١) [الردّ على منكري الإعجاز في سورة الروم] المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٦/ ٧٧)، الباب الثاني، شبهات حول القرآن الكريم (٢).

(٢) البخاري (٦٥٧١).

(٣) البخاري (١٠٤٦).

(٤) البخاري (٦٧٩٣)

قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ. فَيَدْخُلُونَ، ثُمَّ أَقُولُ: أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيءٍ[(١)].

الوجه الخامس: بيان معنى أدني الأرض في العلوم الحديثة، وإنهاء الخلاف الذي حدث قديمًا لتحديد هذه المنطقة.

أولًا: قال د/زغلول النجار:

١ـ أكدت الدراسات الحديثة أن منطقة حوض البحر الميت بالإضافة إلى كونها أقرب الأراضي التي كان الروم يحتلونها إلى الجزيرة العربية ـ هي أيضًا أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا؛ حيث يصل منسوب سطح الأرض فيها إلى حوالي الأربعمائة متر تحت متوسط مستوى سطح البحر، وأن هذه المنطقة كانت من مناطق الصراع بين إمبراطوريتي الفرس والروم، وأن المعركة الحاسمة التي أظهرت جيوش الفرس على جيوش إمبراطورية روما الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) لابد أنها وقعت في حوض البحر الميت، وأن الوصف بـ (أَدْنَى الأَرْضِ) هنا كما يعني أقربها للجزيرة العربية؛ يعني أيضًا أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا، وهذه الإشارة القرآنية العابرة تعتبر من السبق العلمي في كتاب الله؛ لأن أحدًا لم يكن يعلم هذه الحقيقة في زمن الوحي بالقرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده.

٢- ثبت علميًا بقياسات عديدة أن أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا هو غور البحر الميت، ويقع البحر الميت في أكثر أجزاء الغور انخفاضًا؛ حيث يصل مستوى منسوب سطحه إلى حوالي أربعمائة مترًا تحت مستوي سطح البحر، ويصل منسوب قاعه في أعمق أجزائه إلى قرابة الثمانمائة مترًا تحت مستوي سطح البحر، وهو بحيرة داخلية؛ بمعني أن قاعها يعتبر في الحقيقة جزءًا من اليابسة، وغور البحر الميت هو جزء من خسف أرضي عظيم؛ يمتد من منطقة البحيرات في شرقي إفريقيا إلى بحيرة طبريا، فالحدود الجنوبية لتركيا مرورًا بالبحر الأحمر وخليج العقبة، ويرتبط بالخسف العميق في قاع كل من: المحيط الهندي، وبحر العرب، وخليج عدن، ويبلغ طول أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن حوالي الستمائة كيلومترًا، ممتدة من خليج العقبة في الجنوب إلى بحيرة طبريا في الشمال، ويتراوح

---

(١) البخاري (٧٥٠٩).

عرضها بين العشرة والعشرين كيلومترًا.

ويعتبر منسوب سطح الأرض فيها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً حيث يصل منسوب سطح الماء في البحر الميت إلى (٤٠٢) مترًا تحت المستوى المتوسط لمنسوب المياه في البحرين المجاورين: الأحمر والأبيض المتوسط، وهو أخفض منسوب أرضي على سطح اليابسة كما يتضح من الأرقام التالية:

- منسوب سطح الأرض في وادي عربة= (٣٥٥_٤٠٠) مترًا تحت مستوى سطح البحر.
- منسوب أعمق نقاط قاع البحر الميت= (٧٩٤) مترًا تحت مستوى سطح البحر.
- منسوب سطح الماء في البحر الميت= (٤٠٢) مترًا تحت مستوى سطح البحر.
- مستوى سطح الأرض في غور الأردن = (٢١٢_٤٠٠) مترًا تحت مستوى سطح البحر.
- منسوب سطح الماء في بحيرة طبريا= ٢٠٩ م تحت مستوى سطح البحر.
- منسوب قاع بحيرة طبريا=٢٥٢ م تحت مستوى سطح البحر.
- منسوب سطح الأرض في قاع منخفض القطارة في شمال صحراء مصر الغربية= (١٣٣) مترًا تحت مستوى سطح البحر.
- منسوب سطح الأرض في قاع وادي الموت/ كاليفورنيا= (٨٦) مترًا تحت مستوى سطح البحر.
- منسوب سطح الأرض في قاع منخفض الفيوم/ مصر= (٤٥) مترًا تحت مستوى سطح البحر.

ويتراوح عمق الماء في الحوض الجنوبي من البحر الميت بين الستة والعشرة أمتار، وهو بذلك في طريقه إلى الجفاف، ويعتقد أنه كان جافًا إلى عهد غير بعيد من تاريخه، وكان عامرًا بالسكان، وأن منطقة الأغوار كلها من وادي عربة في الجنوب إلى بحيرة طبريا في الشمال كانت كذلك عامرة بالسكان منذ القدم حيث عرف البحر الميت في الكتابات التاريخية القديمة، ووصف بأسماء عديدة من مثل: بحر سدوم، بحيرة لوط، بحيرة زغر، البحر النتن، بحر

عربة، بحر الأسفلت، والبحر الميت؛ وذلك لأن المنطقة اشتهرت بخصوبة تربتها، ووفرة مياهها فعمرتها القبائل العربية منذ القدم، واندفعت إليها من كل من: العراق، والجزيرة العربية، وبلاد الشام، ومنهم قوم لوط ﷺ الذين عمروا خمس مدن في أرض الحوض الجنوبي من البحر الميت هي: سدوم، وعمورة، وأدمة، وصوبييم، وزغر، وقد ازدهرت فيها الحياة إلى أواخر القرن العشرين قبل الميلاد، ودمرت بالكامل في عقاب إلهي أنزل بها، وجاء خبر عقابها في القرآن الكريم بقول الحق - تبارك وتعالى-: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (هود: ٨٢).

والأرض في حوض البحر الميت ـ بصفة عامة ـ وفي الجزء الجنوبي منه بصفة خاصة والتي تعرف باسم الأرض المقلوبة تتميز بالحرارة الشديدة، وبتفجر كل من العيون المائية، والأبخرة الكبريتية الحارة فيها، وبتناثر كتل الأسفلت التي كثيرًا ما كانت تطفو على سطح مياه البحر الميت إلى عهد غير بعيد، وقرى قوم لوط التي كانت تشغل أرض الحوض الجنوبي من البحر الميت، والتي دمرت بالكامل بأمر من ربنا - تبارك وتعالى- لا علاقة لها بالحركات الأرضية التي شكلت تلك الأغوار من قبل حوالي٢٥ مليون سنة مضت، ولكن بعد تدميرها بالعقاب الإلهي دخلت المنطقة برحمة من الله -تعالى- في دورة مطيرة غسلت مياهها ذنوب الآثمين من قوم لوط، وغمرت منطقة قراهم لتحولها إلى الحوض الجنوبي من البحر الميت، والذي يتجه اليوم إلى الجفاف مرة أخرى ليصير أرضًا يابسة.

٣- وخلاصة القول: إن منطقة أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن تحوي أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، والمنطقة كانت محتلة من قبل الروم البيزنطيين في عصر البعثة النبوية الخاتمة، وكانت هذه الإمبراطورية الرومانية يقابلها ويحدها من الشرق الإمبراطورية الفارسية الساسانية، وكان الصراع بين هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين في هذا الزمن على أشده، ولابد أن كثيرًا من معاركهما الحاسمة قد وقعت في أرض الأغوار، وهي أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، ووصف القرآن الكريم لأرض تلك المعركة

الفاصلة التي تغلب فيها الفرس على الروم ـ في أول الأمر بـ (أدنى الأرض) وصف معجز للغاية؛ لأن أحدًا من الناس لم يكن يدرك تلك الحقيقة في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها بهذا الوضوح في مطلع سورة الروم يضيف بعدًا آخر إلى الإعجاز التنبؤي في الآيات الأربع التي استهلت بها تلك السورة المباركة ألا وهو الإعجاز العلمي، فبالإضافة إلى ما جاء بتلك الآيات من إعجاز تنبؤي شمل الإخبار بالغيب، وحدد لوقوعه بضع سنين، فوقع كما وصفته وكما حددت له زمنه تلك الآيات؛ فكانت من دلائل النبوة، فإن وصف أرض المعركة بالتعبير القرآني أدنى الأرض يضيف إعجازًا علميًا جديدًا يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولًا بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض.

وكما كانت هذه الآيات الكريمة من دلائل النبوة في زمن الوحي لإخبارها بالغيب فيتحقق، فهي لا تزال من دلائل النبوة في زماننا بالتأكيد على أن المعركة الفاصلة قد تمت في أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق؛ وهي أغوار البحر الميت وما حولها من أغوار، ويأتي العلم التجريبي ليؤكد تلك الحقيقة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

٤- وعلى كُتَّاب التاريخ الذين تأرجحوا في وضع المعركة الفاصلة في هزيمة الروم على أرض القسطنطينية، أو على الأرض بين مدينتي أذرعات وبصرى من أرض الشام، أو على أرض أنطاكية، أو على أرض دمشق، أو أرض بيت المقدس، أو أرض مصر (الإسكندرية) ـ أن يعيدوا النظر في استنتاجاتهم؛ لأن القرآن الكريم يقرر أن هزيمة الروم على أيدي الفرس كانت على الأرض الواقعة بين شرقي الأردن وفلسطين وهي أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن التي أثبت العلم أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا، والتي ينطبق عليها الوصف القرآني بأدنى الأرض انطباقًا تامًا ودقيقًا.

وعلى الذين قالوا: إن معني أدنى الأرض هو أقرب الأرض من بلاد فارس، أو من بلاد العرب، أو هي أطراف بلاد الشام، أو بلاد الشام، أو إنطاكية، أو دمشق، أو بيت

المقدس أو غيرها ـ أن يعيدوا النظر في ذلك؛ لأن حدود الإمبراطوريتين كانت متلاحمة مع بعضهما بعضًا من جهة ومع بلاد العرب من جهة أخري.

وعليه فلا يعقل أن يكون المقصود بتعبير (أدنى الأرض) في هذه الآيات الكريمة هو القرب من بلاد فارس أو بلاد العرب فقط؛ وإن كانت أرض الأغوار هي أقرب الأرض إلى بلاد العرب، بل هي في الحقيقة جزء من أرض شبه الجزيرة العربية. . . فسبحان الذي أنزل هذا التعبير المعجز أدنى الأرض ليحدد أرض المعركة ثم ليثبت العلم التجريبي بعد أكثر من اثني عشر قرنًا أن الأغوار الفاصلة بين أرض فلسطين المباركة والأردن هي أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا، ومن هنا كانت جديرة بالوصف القرآني (أدنى الأرض)، وجديرة بأن تكون أرض المعركة التي هزم فيها الروم، وذلك لقول الحق- عز من قائل-: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الروم: ١ ـ٥)[1].

ثانيًا: أقوال أخرى تعضد ما قاله د/ زغلول النجار:

١- ذكرت الموسوعة البريطانية ما تَرْجمته: (البحر الميت: بقعة مائية مالحة مغلقة بين إسرائيل والأردن، وأخفض جسم مائي على الأرض، فانخفاضه يصل إلى نحو (١٣١٢) قدم (حوالي ٤٠٠ متر) من سطح البحر، القسم الشمالي منه يقع في الأردن، وقسمه الجنوبي مقسَّم بين الأردن وإسرائيل، ولكن بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام (١٩٦٧) م ظل الجيش الإسرائيلي في كل الضفة الغربية (البحر الميت) يقع بين تلال جُدَيَّة غربًا وهضاب الأردن شرقًا).

٢- وكذلك أعلنت وكالة ناسا الأمريكية: أن أخفض نقطة على سطح الأرض هي سواحل البحر الميت.

---

(١) (تم نقل المقال من موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة (www. nooran. org) وانظر موقع النجار.

الوجه السادس: الرد على قول القائل: لماذا لم يذكر القرآن كلمة (أخفض) بدلا من (أدنى)، فلو كان هذا حدث لانتهى الإشكال؟

الجواب: لم يقل تعالى: (أخفض الأرض)؛ لأن أخفض منطقة على الأرض تقع في أعماق البحار، بينما كلمة (أدْنى) فيها تعبير دقيق عن اليابسة حصرًا، وهكذا نجد الدقة في مصطلحات القرآن العلمية، كيف لا تكون دقيقة وهي صادرة من رب السماوات والأرض ﷻ؟

الوجه السابع: الجمع بين قول المتقدمين وقول المعاصرين بأن نقول: إن كلمة (أدنى) عند العرب تأتي بمعنيين: أقرب، وأخفض؛ فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض.

قال أبو البقاء الكفوي[1]: (دون): ظرف مكان مثل: (عند) لكنه ينبئ عن دنو أي: قرب كثير وانحطاط قليل؛ يوجد كلاهما في قوله: (أدنى مكان من الشيء)، ثم اتسع فيه واستعمل في انحطاط المحسوس لا يكون في المكان كقصر القامة مثلًا، ثم استعير منه بتفاوت في المراتب المعنوية تشبيها لها بالمراتب المحسوسة، وشاع استعماله فيها أكثر من استعماله في الأصل فقيل: (زيد دون عمرو في الشرف).

ثم اتسع في هذا المستعار فاستعمل في كل تجاوز حد وتخطي حكم إلى حكم وإن لم يكن هناك تفاوت وانحطاط، وهو في هذا المعنى مجاز في المرتبة الثالثة، وفي هذا المعنى قريب من أن يكون بمعنى: (غير) كأنه أداة الاستثناء؛ نحو: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾، ويستعمل للاختصاص وقطع الشركة تقول: (هذا لي دونك أو من دونك) أي: لا حقَّ لك فيه ولا نصيب، وفي غير هذا الاستعمال يأتي بمعنى: الانتقاص في المنزلة أو المكان أو المقدار. . .

الوجه الثامن: (أل) للعهدية في كلمة (الأرض).

فنقول: ليس هناك ما يمنع أن تكون (أل) في كلمة (الأرض) للعهد أي: المعهودة لأهل مكة القريبة منهم، وفي نفس الوقت تفيد صفة جديدة لهذه الأرض:

---

(١) كتاب الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية فصل الدال (١/ ٧١١).

١-قال علي بن نايف الشحوذ: نلاحظ أن كلمة الأرض في الآية جاءت معرفة بـ (أل) العهدية؛ و(أل) العهدية هذه تضعنا أمام احتمالين:

إما أن تكون كلمة الأرض ـ هنا ـ مختصة بمنطقة معينة وموقع محدد؛ أي: تواضع عليها كل من المرسل والمتلقي، فهي معهود ذهني بينهما، أو تكون عامة؛ أي: الأرض كلها دون تخصيص، وهي معهود ذهني عام.

فأما الاحتمال الأول: فهو ما حملته لنا كتب مفسري القرآن ودارسيه من أن الأرض المذكورة هي أقرب أرض الروم إلى فارس.

ويبقى الاحتمال الثاني وهو ما يجيز لنا أن نعدَّ كلمة الأرض في الآية لفظًا عامًا أريد به الأرض كلها، وفي هذه الحالة يصبح (أدنى الأرض) بمعنى: أكثرها انخفاضًا - أمرًا ممكنًا، بل لعله يكون بهذا المعنى أقرب إلى الدقة، وإن كان لا ينفي الاحتمال الأول من الوجهة اللغوية[1].

قلت: ويؤكد ذلك أن في القرآن ذكرت (أل) العهدية وأريد بها العهد وكذلك صفة أخرى.

٢- في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ (البقرة: ١٢٥)

فكلمة الناس مع أن المقصود منها أهل مكة إلا أنها عامة لجميع البشر، فكذلك ما المانع أن تكون كلمة الأرض التي حدثت فيها المعركة بين فارس والروم هي الأرض المعهودة لدى العرب والمنخفضة لدى الجيولوجيين؟

قال ابن عاشور: والمراد من الناس سكان مكة من ذرية إسماعيل وكل من يجاورهم ويدخل في حلفهم، فتعريف الناس للجنس المعهود، وتعليق للناس بمثابة على التوزيع أي: يزوره ناس ويذهبون فيخلفهم ناس، ولما كان المقصود من هذا ذكر منقبة البيت والمنة على ساكنيه كان الغرض التذكير بنعمة الله أن جعله لا ينصرف عنه قوم إلا ويخلفهم قوم آخرون، فكان الذين يخلفون الزائرين قائمين مقامهم بالنسبة للبيت وسكانه، ويجوز حمل

(١) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ٦/ ٨١، شبهات حول القرآن الكريم (٢).

تعريف الناس على العهد؛ أي: يثوب إليه الناس الذين ألفوه وهم كُمَّل الزائرين فهم يعودون إليه مرارًا، وكذلك كان الشأن عند العرب[(١)].

قال مصطفى الغلاييني: (ألْ العهديةُ) إما أن تكون للعهد الذِّكريِّ وهي ما سبقَ لمصحوبها ذكرٌ في الكلام؛ كقولكَ: (جاءني ضيفٌ، فأكرمت الضيفَ) أي: الضيف المذكور، ومنه قولُه تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾، وإما أن تكون للعهد الحُضوريِّ؛ وهي ما تكونُ مصحوبُها حاضرًا؛ مثل: (جئتُ اليومَ) أي: اليومَ الحاضرَ الذي نحن فيه.

وإما أَنْ تكون للعهد الذهنيّ؛ وهي ما تكونُ مصحوبُها معهودًا ذهِنًا، فينصرفُ الفكرُ إليه بمجرَّدِ النُّطقِ به؛ مثل: (حضرَ الأميرُ)، وكأن يكون بينك وبينَ مُخاطَبك عهدٌ برجلٍ، فتقول: (حضرَ الرجلُ) أي: الرجلُ المعهودُ ذِهنًا بينك وبين من تخاطبه[(٢)].

٣- إثبات أن (أل) العهدية تأتي في القرآن بصور شتى:

قال ابن عاشور: (البيت) عَلَمٌ بالغلبة على الكعبة كما غلب النجم على الثريا، وأصل (أل) التي في الأعلام بالغلبة هي (أل) العهدية؛ وذلك إذا كثر عهد فرد من أفراد جنس بين طائفة أو قوم صار اسم جنسه مع (أل) العهدية كالعلم له، ثم قد يتعهدون مع ذلك المعنى الأصلي كما في: النجم للثريا، والكتاب للقرآن، والبيت للكعبة، وقد ينسى المعنى الأصلي إما بقلة الحاجة إليه كالصعِق علم على: (خويلد بن نفيل)، وإما بانحصار الجنس فيه كالشمس[(٣)].

الوجه التاسع: كلمة (الأرض) في القرآن تأتي بعدة معانٍ:

قال ابن الجوزي: الأرض تذكر ويراد بها:

أرض الأردن في قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، ويراد بها القبر: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ

---

(١) التحرير والتنوير (البقرة: ١٢٥).

(٢) في جامع الدروس العربية: (الاسم وأقسامه: المعرفة والنكرة).

(٣) التحرير والتنوير (البقرة: ١٢٥).

ٱلۡأَرۡضُ﴾، ويراد بها أرض مكة: ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويراد بها أرض المدينة: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ﴾، ويراد بها أرض الإسلام: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا﴾، ويراد بها أرض التيه: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويراد بها الأرضون السبع: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويراد بها أرض مصر: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويراد بها أرض الحجر: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾، ويراد بها القلب: ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويراد بها أرض الغرب: ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويراد بها الجنة: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا﴾[1].

الوجه العاشر: القرآن ما زال به معجزات لم يكشف عنها.

١- إن الصحابة علموا معجزات في القرآن فيكون ذلك بمثابة سببًا لتثبيتهم وزيادة إيمانهم، والله لا يَحرم مَنْ يأتي بعدهم من أن يطلعهم على معجزات أخرى لتثبيتهم وزيادة إيمانهم أيضًا كما كان للصحابة؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ (فصلت: ٥٣).

قال د/ زغلول النجار: ومن عادة القرآن الكريم أنه يشير إلى الحقائق الكونية بصياغة ضمنية يفهم منها أهل كل عصر معنىً محددًا تحكمه كمية المعارف المتاحة لأهل هذا العصر، وتظل هذه المعاني للآية الواحدة تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا من أبلغ آيات الإعجاز العلمي في كتاب الله، خذ مثلًا موضوع الجبال وحركتها ودلالة هذه الحركة على حركة الأرض كما وردت في الآية (٨٨) من سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ فسر بعض الأقدمين هذه الآية على أنها تشير إلى الحركة التي تقع على الجبال يوم القيامة، بينما فسرها آخرون بأنها تتحرك الآن لكننا لا ندرك حركتها لضخامتها، حاليًا يمكننا تفسير الآية المذكورة على أنها تشير إلى الحركات التي تقوم بها الأرض حول نفسها وحول

---

(١) المدهش (١/ ٢٤): باب الأرض.

الشمس[(١)].

الوجه الحادي عشر: بالنظر للناحية التاريخية، وإثبات أن علماء المسلمين المتقدمين اهتموا بتلك الحادثة.

قال فراس نور الحق: كانت الإمبراطورية الفارسية تقع شرقي الجزيرة العربية، على الساحل الآخر للخليج العربي، على حين كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد عن غربي الجزيرة على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود، وقد سميت الأولى ـ أيضًا ـ بالإمبراطورية الساسانية، والأخرى بالبيزنطية، وكانت حدود الإمبراطوريتين تصل إلى الفرات ودجلة في شمال الجزيرة العربية، وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر.

ويبدأ تاريخ الإمبراطورية الرومانية ـ كما يرى المؤرخ (جبن) ـ في القرن الثاني بعد الميلاد، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية في العالم، وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى.

١- وليس يغني كتاب من الكتب التي ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ/ أدوارد جبن "تاريخ سقوط وانحدار الإمبراطورية الرومانية" أكثرهم تفصيلًا وثقة، وقد ذكر المؤرخ في الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا.

The history of decline and fall of the Roman Empire، Empire by، by Edward Gibbon

اعتنق الملك (قسطنطين) الدين المسيحي عام (٣٢٥م)، وجعله ديانة البلاد الرسمية، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم، وعلى الجانب الآخر رفض الفرس ـ عباد الشمس ـ هذه الدعوة.

وكان الملك الذي تولى زمام الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن السابع الميلادي هو (موريس)، وكان ملكًا غافلًا عن شؤون البلاد والسياسة؛ ولذلك قاد جيشه ثورة ضده بقيادة (فوكاس Phocas)، وأصبح فوكاس ملك الروم، بعد نجاح الثورة والقضاء على العائلة

---

(١) انظر الموقع الخاص لزغلول النجار.

الملكية بطريقة وحشية، وأرسل سفيرًا له إلى إمبراطور إيران (كسرى أبرويز الثاني) وهو ابن (أنوشيروان) العادل، وكان (كسرى) هذا مخلصًا للملك (موريس)؛ إذ كان قد لجأ إليه عام (٥٩٠ـ ٥٩١م) بسبب مؤامرة داخلية في الأمبراطورية الفارسية، وقد عاونه (موريس) بجنوده لإستعادة العرش، ومما يروى أيضًا أن (كسرى) تزوج بنت (موريس) أثناء إقامته ببلاد الروم، ولذلك كان يدعوه بالأب، ولما عرف بأخبار انقلاب الروم غضب غضبًا شديدًا، وأمر بسجن السفير الرومي، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة، وأغار (كسرى أبرويز) على بلاد الروم، وزحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام، ولم يتمكن (فوكاس) من مقاومة جيوش الفرس التي استولت على مدينتي (انطاكية، والقدس)، فاتسعت حدود الإمبراطورية كالنسطورية، واليعقوبية ـ حاقدة على النظام الجديد في روما، فناصرت الفاتحين الجدد وتبعها اليهود مما سهل غلبة الفرس.

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومي في المستعمرات الإفريقية يناشدونه إنقاذ الإمبراطورية، فأرسل الحاكم جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه الشاب (هرقل) فسار بجيشه في الطريق البحرية، بسرية تامة. . حتى إن (فوكاس) لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل وهي تقترب من السواحل الرومانية، واستطاع هرقل ـ دون مقاومة تذكر أن يستولي على الإمبراطورية، وقتل (فوكاس) الخائن، بيد أن هرقل لم يتمكن برغم استيلائه على الإمبراطورية وقتله (فوكاس) من إيقاف طوفان الفرس، فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة وجنوبيها، لم يعد العلم الصليبي يرفرف على العراق، والشام، وفلسطين، ومصر، وآسيا الصغرى، بل علتها راية الفرس: (درفش كاوياني).

وتقلصت الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها، وسدت جميع الطرق في حصار اقتصادي قاسٍ، وعم القحط وفشت الأمراض الوبائية، ولم يبق من الإمبراطورية غير جذور شجرها العملاق، وكان الشعب في العاصمة خائفًا يترقب ضرب الفرس للعاصمة ودخولهم فيها، وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق، وكسدت التجارة، وتحولت

معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة.

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية. . . ، فبدأوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة، ودمروا الكنائس، وأراقوا دماء ما يقرب من (١٠٠.٠٠٠) من المسيحيين المسالمين، وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار، واغتصبوا الصليب المقدس، وأرسلوه إلى (المدائن). ويقول المؤرخ (جبن) في المجلد الخامس من كتابه: ولو كانت نوايا (كسرى) طيبة في حقيقة الأمر، لكان اصطلح مع الروم بعد قتلهم (فوكاس)، ولاستقبل (هرقل) كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته (موريس) بأحسن طريقة، ولكنه أبان عن نواياه الحقيقة عندما قرر مواصلة الحرب.

ويمكن قياس الهوة الكبرى التي حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه (كسرى) إلى (هرقل) من بيت المقدس قائلًا: " من لدن الإله كسرى، الذي هو أكبر الآلهة، وملك الأرض كلها، إلى عبده اللئيم الغافل هرقل: إنك تقول إنك تثق في إلهك، فلماذا لا ينقذ إلهك القدس من يدي؟!

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة، وقرر العودة إلى قصره الواقع في (قرطاجنة) على الساحل الإفريقي، فلم يعد يهمه أن يدافع عن الإمبراطورية، بل كان شغله الشاغل إنقاذ نفسه، وأرسلت السفن الملكية إلى البحر، وخرج (هرقل) في طريقه ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختياري، وفي هذه الساعة الحرجة تحايل كبير الأساقفة الروم باسم الدين والمسيح، ونجح في إقناع (هرقل) بالبقاء، وذهب (هرقل) مع الأسقف إلى قربان (سانت صوفيا) يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذي أختاره الله له.

وبإشارة من الجنرال الإيراني (سين Sain) أرسل (هرقل) سفيرًا إلى (كسرى) طالبًا منه الصلح، ولكن لم يكد القاصد الرومي يصل إلى القصر حتى صاح (كسرى) في غضب

شديد: " لا أريد هذا القاصد حتى يهجر إلهه الصليبي ويعبد الشمس آلهتنا".

وبعد مضي ستة أعوام على الحرب رضي الإمبراطور الفارسي أن يصالح هرقل على شروط معينة: هي أن يدفع ملك الروم " ألف تالنت من الذهب، وألف تالنت من الفضة، وألف ثوب من الحرير، وألف جواد، وألف فتاة عذاراء".

ويصف (جبن) هذه الشروط بأنها "مخزية" دون شك، وكان من الممكن أن يقبلها (هرقل) لولا المدة القصيرة التي أتيحت له لدفعها من المملكة المنهوبة والمحدودة الأرجاء، ولذلك آثر أن يستعمل هذه الثورة كمحاولة أخيرة ضد أعدائه.

وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية، والرومية هذه الأحداث، فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية في شبه الجزيرة العربية ـ وهي (مكة) المكرمة ـ مشكلة مماثلة؛ كان الفرس مجوسًا من عباد الشمس والنار، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح، وبالوحي، وبالرسالة، وبالله تعالى، وكان المسلمون مع الروم ـ نفسيًا ـ يرجون غلبهم على الكفار والمشركين، كما كان كفار مكة مع الفرس لكونهم من عباد المظاهر المادية، وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزًا خارجيًا للصراع الذي كان يدور بين أهل الإسلام وأهل الشرك في (مكة)، وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجي هي نفس مآل صراعهما الداخلي، فلما انتصر الفرس على الروم قرب البحر الميت عام (٦١٦م)، واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين؛ قائلين: لقد غلب إخواننا على إخوانكم، وكذلك سوف نقضي عليكم، إذا لم تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد، وكان المسلمون بمكة في أضعف وأسوأ أحوالهم المادية، وفي تلك الحالة البائسة صدرت كلمات من لسان الرسول ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ

﴿ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ (سورة الروم٦: ١).

وتعليقًا على هذه النبوة يكتب (جبن): " في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعًا؛ لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة (هرقل) كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية".

ولكن من المعلوم أن هذه النبوة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم، ولم يكد يبشر بهذه البشرى حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الإمبراطورية الرومانية، ويرويه (جبن) على النحو التالي:

"إنها من أبرز البطولات التاريخية تلك التي نراها في (هرقل) فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية في الكسل، والتمتع بالملذات، وعبادة الأوهام في السنين الأولى والأخيرة من حكومته، كان يبدو كما لو كان متفرجًا أبله، استسلم لمصائب شعبه، ولكن الضباب الذي يسود السماء ساعتي الصباح والمساء يغيب حينًا من الوقت لشدةشمس الظهيرة، وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل، فقد تحول (أرقاديوس القصور) إلى (قيصر ميدان الحرب) فجأة، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس، وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة تبيانًا لأسرار هذه اليقظة والنوم، وبعد هذه القرون التي مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة، بل كانت نتيجة غريزة (هرقل) الذاتية، فقد انقطع عن كافة الملذات، حتى إنه هجر ابنة أخته (مارتينا) التي تزوجها لشدة هيامه بها رغم أنها كانت محرمة عليه".

(هرقل) ذلك الغافل الفاقد العزيمة وضع خطة عظيمة لقهر الفرس، وبدأ في تجهيز العدة والعتاد، ولكن رغم ذلك كله عندما خرج هرقل مع جنوده بدا لكثيرن من سكان (القسطنطينية) أنهم يرون آخر جيش في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعد بحريته للإغارة على الفرس من الخلف، وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى (أرمينيا)، وشن على الفرس هجومًا مفاجئًا في

نفس الميدان الذي هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس لما زحف على أراضي مصر والشام، ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة فلاذوا بالفرار.

وكان الفرس يملكون جيشًا كبيرًا في (آسيا الصغرى)، ولكن (هرقل) فاجأهم بأساطيله مرة أخرى، وأنزل بهم هزيمة فادحة، بعد إحراز هذا النصر الكبير عاد (هرقل) إلى عاصمته (القسطنطينية) عن طريق البحر، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars)، واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم.

وبعد الحربين اللتين مرَّ ذكرهما شن هرقل ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس في سنوات (٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥م) واستطاع أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر الأسود، واضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية نتيجة هذه الحروب، وأصبح (هرقل) في مركز يسمح له بالتوغل في قلب الإمبراطورية الفارسية، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية ـ تلك الحروب التي خاضها الفريقان في (نينوا) على ضفاف (دجلة) في ديسمبر عام (٦٢٧م).

ولما لم يستطيع (كسرى أبرويز) مقاومة سيل الروم حاول الفرار من قصره الحبيب (دستكرد)، ولكن ثورة داخلية نشبت في الإمبراطورية، واعتقله ابنه (شيرويه)، وزَجَّ به في سجن داخل القصر الملكي، حيث لقي حتفه، لسوء الأحوال في اليوم الخامس من اعتقاله، وقد قتل ابنه (شيرويه) ثماني عشرة من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه.

ولكن (شيرويه) هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر، حيث قتله أحد أشقائه، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكي، وتولى تسعة ملوك زمام ملوك الحكم في غضون أربعة أعوام، ولم يكن من الممكن أو المعقول في هذه الأحوال السيئة أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم. . .

فأرسل (قباد الثاني) ابن (كسرى أبرويز الثاني) يرجو الصلح، وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية، كما أعاد الصليب المقدس، ورجع (هرقل) إلى عاصمته (القسطنطينية)

في مارس عام (٦٢٨م) في احتفال رائع؛ حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير خارج العاصمة وفي أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون.

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم في مدته المقررة، أي في أقل من عشر سنين؛ كما هو المراد في لغة العرب من كلمة: (بضع).

وقد أبدى (جبن) حيرته وإعجابه بهذه النبوءة، ولكنه كي يقلل من أهميتها ربطها برسالة النبي ﷺ إلى (كسرى)، يقول جبن: "وعندما أتم الإمبراطور الفارسي نصره على الروم، وصلته رسالة من مواطن خامل الذكر من (مكة) دعاه إلى الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزق الرسالة. . . ، وعندما بلغ هذا الخبر رسول العرب؛ قال: سوف يمزق الله دولته تمزيقًا، وسوف يقضي على قوته".

"ومحمد الذي جلس في الشرق على حاشية الإمبراطوريتين العظيمتين طار فرحًا مما سمع عن تصارع الإمبراطوريتين وقتالهما، وجرؤ في إبَّان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة أن يتنبأ بأن الغلبة تكون لراية الروم بعد بضع سنين، وفي ذلك الوقت حين ساق الرجل هذه النبوءة لم تكون أية نبوءة أبعد منها وقوعًا؛ لأن الأعوام الاثني عشر الأولى من حكومة (هرقل) كانت تشي بنهاية الإمبراطورية الرومانية".

بيد أن جميع مؤرخي الإسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التي وجهها النبي إلى (كسرى أبرويز)؛ لأن تلك الرسالة إنما أرسلت في العام السابع من الهجرة بعد صلح الحديبية؛ أي: عام (٦٢٨م)، في حين أن آية النبوءة المذكورة نزلت بمكة عام (٦١٦م)؛ أي: قبل الهجرة بوقت طويل، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثني عشر عامًا.

أما وجه الإعجاز: فهوتنبأ القرآن بهزيمة الفرس على أيدي الروم في بضع سنين، وقد كان، كما أنه هناك وجه إعجازي آخر في هذه الآيات؛ وهي أنها تقرر حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، فالآية الثالثة من سورة الروم تبيم أنهم خسروا المعركة في أدنى الأرض؛ قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ

سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

و تعبير (أدنى الأرض) في العربية يعني حسب بعض التفاسير: مكانًا قريبًا، ولكن هذا التفسير مجازي؛ لأن كلمة (أدنى) لم تأتِ في هذه الآية بهذا المعنى، فكلمة أدنى باللغة العربية مشتقة من: دنا يدنو بمعنى القريبة، وتأتي بمعنى المنخفض، والأرض تعني العالم، ولذلك فإن أدنى الأرض معناها: أكثر الأمكنة انخفاضًا في العالم.

و المثير للاهتمام أن أهم مراحل الحرب التي كانت بين الروم والفرس وأسفرت عن هزيمة الروم وخسارتهم للقدس ـ حصلت في أكثر مناطق العالم انخفاضًا في حوض البحر الميت الذي يقع في منطقة تتقاطع فيها كل من: سوريا، والأردن، وفلسطين، ويبلغ مستوى سطح الأرض هنا (٣٩٥) مترًا تحت سطح البحر، مما يجعل هذه المنطقة فعلًا أدنى منطقة من الأرض.

وأهم ما في الأمر أن ارتفاع البحر الميت لم يكن ليقاس في غياب تقنيات القياس الحديثة؛ ولذلك كان من المستحيل أن يعرف أيُّ شخص في ذلك الوقت أن هذه المنطقة أكثر المناطق انخفاضًا في العالم، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة ذكرت في القرآن؛ وهذا يؤكد مرة أخرى على أن القرآن هو وحي إلهي[1].

* * *

---

(١) مقال "انتصار الروم البيزنطيين" انظر: المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٦/ ٧٣)، ، وانظر كتاب: (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان (١/ ١٦١).

١١- شبهة: خلق السموات والأرض في ستة أيام

وهي منقسمة إلى شبهتين:

الشبهة الأولى: هل الله خلق السماء أولًا أم الأرض؟

يقول هنا بأنه خلق الأرض أولًا:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ٩-١٢).

وهنا أيضًا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾.

ولكن الكلام يناقض نفسه؛ ويقول وهو يتحدى من يدعون الخلق: بأنه خلق السماء أولًا قبل الأرض، وهذا يناقض كلامه السابق بأنه خلق الأرض أولًا ثم السماء: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾ (النازعات: ٢٧-٣٣).

الشبهة الثانية:

إن القرآن الكريم قال في عدة سور: إن الأرض والسموات خلقتا في ستة أيام، وفي سورة فصلت: إن أيام الخلق ثمانية.

قالوا: إنها هفوة بشرية، ونسيان، خرجوا من ذلك بأن قائل هذا الكلام هو محمد ﷺ؛ وهذا هو هدفهم، تعالوا نناقش ماذا قال القرآن الكريم في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ (الأعراف: ٥٤)، وقال في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الأعراف: ٥٤)، وفي سورة الفرقان: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ (الفرقان: ٥٩)

إذن أجمعت كل هذه الآيات على أن خلق السموات والأرض وما بينهما تم في ستة أيام، لا خلاف في ذلك ولا جدال، فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى سورة فصلت حيث فَصَّلَ اللهُ - سبحانه وتعالى- خلق السموات والأرض في الآيات التي تقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ٩-١٢).

وإذا أحصينا عدد الأيام في السورة الكريمة نجد أن الله - سبحانه وتعالى- يقول: إنه خلق الأرض في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، ثم استوى إلى السماء، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ إذا أحصينا أيام الخلق في سورة فصلت نجد أنها ثمانية: يومان لخلق الأرض، وأربعة أيام قدر فيها رزقها وبارك فيها؛ فأيام الخلق هذه ستة أيام، ويومان آخران للسموات؛ إذن فهي ثمانية أيام.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: هذه الشبهة قديمة وقد رد عليها ابن عباس ﷺ.

الوجه الثاني: كل مُجمل يفسره مُفصلَّه إلا العدد فإن مُفصَّله محمول على مجمله.

الوجه الثالث: لفظ: (يوم) في الآيات ليس المقصود به اليوم الذي هو أربع وعشرون ساعة.

الوجه الرابع: الاختلاف في كيفية تكميل خلق الأرض وما فيها.

الوجه الخامس: معنى كلمة: (الأقوات).

الوجه السادس: حقائق القرآن تتحدث عن نشأة الكون.

الوجه السابع: قيل: إن هذه الأيام لم تنتهي بعد.

الوجه الثامن: الآيات تشير إلى النظرية النسبية.

الوجه التاسع: الأخطاء العلمية في الكتاب المقدس في مسألة خلق السموات والأرض.

الوجه العاشر: بعض الأخطاء الرياضية في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: هذه الشبهة قديمة وقد رد عليها ابن عباس ﷺ.

قال ابن كثير: فصّل الله ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولًا لأنها كالأساس؛ والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٩)، فأما قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات: ٢٧-٣٣) ففي هذه الآية أن دَحْى الأرض كان بعد خلق السماء؛ فالدَّحْيُ هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه؛ فإنه قال:

وقال المنهال، عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ؛ قال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ (النازعات: ٢٧ -٣٠)، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟!

قال ابن عباس: خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في

يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض؛ ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينها في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فَخُلِقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السماوات في يومين، إن الله لم يُرِدْ شيئًا إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله ﷻ.[1]

الوجه الثاني: كل مُجمل يفسره مُفصلّه إلا العدد فإن مُفصّله محمول على مجمله.

يقول المشكك: إنه لو كانت هذه القصة لخلق للأرض والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل، ثم قال: لنفرض أن عندي عشرة أرادب من القمح، فأعطيت فلانًا خمسة، وآخر ثلاثة، وثالث اثنين، فبذلك ينفد ما عندي.

١ - فللرد عليه نقول: إن الله يخاطب أناسًا لهم ملكة أداء وبيان وبلاغة وفصاحة، وقد فهم العرب مالم يفهمه هذا المشكك.

قال السعدي: واعلم أن ظاهر هذه الآية مع قوله تعالى في النازعات، لما ذكر خلق السماوات قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ يظهر منهما التعارض؛ مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف: أن خلق الأرض وصورتها متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ متأخر عن خلق السماوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ إلى آخره، ولم يقل: (والأرض بعد ذلك خلقها)، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين[2].

فلو أننا دققنا في الآية الكريمة التي يجادلون فيها لوجدنا بدايتها تختلف عن الآيات

(١) البخاري (٤٥٣٧).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٤٦).

السابقة فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (فصلت: ٩)، ومن هنا بدأت الآية بمخاطبة الكافرين الذين يجعلون لله أندادًا ويجادلون فيه؛ أي: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخبرنا أن الذي يستخدم هذه الآية الكريمة في التشكيك في القرآن الكريم هم أولئك الكافرون الذين يريدون أن ينشروا ويذيعوا الكفر بين الناس ويريدون أن يجعلوا لله أندادًا، وهم في الحالتين غير مؤمنين يحاربون الله، ويحاربون دينه. إن بداية هذه الآية معجزة؛ لأن الذين يجادلون فيها هم أولئك الذين يحاربون هذا الدين، ويكفرون بالله، ويحاولون التشكيك؛ فكون الله سبحانه وتعالى قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ كأنما هو يخاطب هنا أولئك الذين سيأتون بعد قرون عديدة ليشككوا في القرآن الكريم مستخدمين هذه الآية بالذات في محاولة التشكيك.

ونحن نقول لهم: إن مَنْ يقول هذا الكلام أما أن يكون متعمدًا أو غافلًا عن مدلولات النص، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، إذن الله سبحانه وتعالى يتحدث هنا عن إتمام خلق الأرض، هو يعطينا تفصيل الخلق فيقول: خلق الأرض في يومين، ثم يتم بعد ذلك الحديث عن الخلق فيقول: جعل فيها رواسي وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام؛ وما دام الحديث تتمة لنفس الشيء الذي بدأ الكلام عنه وهو الأرض؛ أي: أن الله سبحانه وتعالى لم ينتقل إلى الحديث عن السموات، وإنما هو يفصل كيفية خلق الأرض؛ فهو يتم لنا زمن خلق الأرض، فهو يقول: إنني خلقت الأرض في يومين، ثم أتممت خلقها في أربعة أيام، إذن فمدة الخلق كلها بالنسبة للأرض هي أربعة أيام، وليست ستة.

قال ابن تيمية: أما قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ

لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ فإنه خلق الأرض في يومين قبل خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل، وخلق الجبال، والرمال، والآكام، وما فيها في يومين آخرين؛ فذلك قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ وقوله: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ وجعلت السموات في يومين آخرين، وأنه استوى على العرش بعد أن خلق السموات[1].

قال ابن تيمية: فقال: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (فصلت: ٩ ١٠) قالوا: الجميع في أربعة أيام ثم استوى إلى السماء الدنيا وهي دخان، فقال لها وللأرض: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾[2].

٢- ولنضرب مثلًا يقرِّب ما نقوله للأذهان: إذا فُرِض أنني ذاهب من القاهرة إلى الإسكندرية، وأن القطار سيتوقف في مدينة طنطا بعد ساعة، وفي الإسكندرية بعد ساعتين ونصف، فهل معنى ذلك أن المسافة بين القاهرة والإسكندرية ثلاث ساعات ونصف؟ أبدًا؛ المسافة بين القاهرة والإسكندرية هي التي ذكرتها مؤخرًا (ساعتين ونصف)، أما الساعة التي سيستغرقها القطار من القاهرة إلى طنطا فهذه جزء يدخل ضمن الساعتين والنصف؛ لماذا؟ لأن من القاهرة إلى طنطا جزء من الطريق بين القاهرة والإسكندرية.

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن خلق الأرض، فهو يقول سبحانه وتعالى: إنني خلقت الأرض في يومين، ثم أتممت عملية الخلق بأن جعلت فيها رواسي من فوقها،

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٣٨٧).

(٢) الصفدية (٢/ ٧٥).

وباركت فيها أقواتها في أربعة أيام، كأن الأيام الأربعة هي كل الفترة التي استغرقتها عملية خلق الأرض؛ منها يومان لخلق الأرض، ويومان لإتمام الخلق بأن جعل الله سبحانه وتعالى رواسي من فوقها، وبارك فيها أقواتها؛ المدة كلها أربعة أيام، وليست ستة أيام.

قال الزركشي: المراد بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ مع اليومين المتقدمين، ولم يرد بذكر الأربعة غير ما تقدم ذكره، وهذا كما يقول الفصيح سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وسرت إلى الكوفة في ثلاثة عشر يوما ولا يريد سوى العشرة بل يريد مع العشرة ثلاثة ثم قال تعالى فقضاهن سبع سماوات في يومين ٣ وأراد سوى الأربعة وذلك لا مخالفة فيه لأن المجموع يكون ستة[1].

الوجه الثالث: لفظ: (يوم) في الآيات ليس المقصود به اليوم الذي هو أربع وعشرون ساعة.

١- لقد بين الله تعالى أنه خلق الأرض والسماء في ستة أيام ولم يبين مقدار اليوم ولكن في نصوص أخرى بَيَّنَ اللهُ تعالى أن اليوم عند الله تعالى يختلف عن اليوم بالمقاييس البشرية؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحج: ٤٧).

قال ابن الجوزي: ومعنى قوله: (في ستة أيام) أي: في مقدار ذلك؛ لأن اليوم يعرف بطلوع الشمس وغروبها، ولم تكن الشمس حينئذ.

قال ابن عباس: مقدار كل يوم من تلك الأيام ألف سنة، وبه قال كعب، ومجاهد، والضحاك، ولا نعلم خلافًا في ذلك، ولو قال قائل: إنها كأيام الدنيا كان قوله بعيدًا من وجهين:

أحدهما: خلاف الآثار. والثاني: أن الذي يتوهمه المتوهم من الإبطاء في ستة آلاف سنة يتوهم في ستة أيام عند تصفح قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

---

(١) البرهان (٢/ ٦٢).

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمرًا تستعظمه الملائكة ومن يشاهده؛ ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أن التثبت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة والتثبيت أبلغ في الحكمة؛ فأراد إظهار حكمته في ذلك كما يظهر قدرته في قوله: (كن فيكون).

والرابع: أنه علم عباده التثبت، فإذا تثبت من لا يَزِلُّ كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء أبعدُ مِنْ أن يُظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق[1].

فإن لفظ (يوم) مدلوله يختلف في اللغة العربية عنه في اللغات الأخرى.

٢- ولقد أجمعت الكتب السماوية السابقة على أن الله قد خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وجاء القرآن الكريم فأكد هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ (السجدة: ٤)، ولكن الفارق بين ذكر ذلك في القرآن الكريم وفي غيره أنه لم يكتفِ بذكر هذه الحقيقة الكونية بل جاء بحقائق إضافية عن تفصيل هذه الأيام، وكذلك عن الحال الذي كان عليه الكون عند بداية خلقه والحال التي سيؤول إليها، ومن أهم الحقائق التي تفرد بذكرها القرآن دون غيره من الكتب السماوية هي حقيقة أن السموات والأرض قد خلقهما الله في يومين اثنين ولم يستغرق خلقها ستة أيام كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ

(١) زاد المسير ٣/ ٢١٠ (الأعراف: ٥٣).

وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ (فصلت: ٩-١٢).

وكما هو واضح من هذه الآية المليئة بالحقائق المتعلقة بالأحداث التي مَرَّ بها خلق الكون؛ فإن الله قد خلق الأرض في يومين، وكذلك خلق السموات في يومين، بينما تنصُّ آيات أخرى كثيرة على أن مجموع أيام خلق السموات والأرض هي ستة أيام.

الوجه الرابع: الاختلاف في كيفية تكميل خلق الأرض وما فيها.

قال ابن الجوزي: واختلفوا في كيفية تكميل خلق الأرض وما فيها.

فقال ابن عباس: بدأ بخلق الأرض في يومين، ثم خلق السموات في يومين وقدر فيها أقواتها في يومين.

وقال الحسن ومجاهد: جمع خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام متوالية، ثم خلق السماء في يومين[1].

وقال بعض نحويي البصرة (الأخفش): قال: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، ثم قال: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؛ لأنه يعني أن هذا مع الأول أربعة أيام، كما تقول: تزوَّجت أمس امرأة، واليوم ثنتين، وإحداهما التي تزوَّجتها أمس[2].

الوجه الخامس: معنى كلمة: (الأقوات).

قال ابن الجوزي: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال أبو عبيدة: هي جمعُ قوت، وهي الأرزاق وما يُحتاج إليه.

وللمفسرين في هذا التقدير خمسة أقوال:

أحدها: أنه شَق الأنهار وغرس الأشجار؛ قاله ابن عباس.

والثاني: أنه قسَّم أرزاق العباد والبهائم؛ قاله الحسن.

والثالث: أقواتها من المطر؛ قاله مجاهد.

(١) زاد المسير ١/ ٥٨ (البقرة: ٢٩).

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٨٧ (فصلت: ٩).

والرابع: قدَّر لكل بلدة ما لم يجعله في الأخرى كما أنَّ ثياب اليمن لا تصلح إلا بـ (اليمن) والهرويَّة بـ (هراة) ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة؛ قاله عكرمة، والضحاك.

والخامس: قدَّر البُرَّ لأهل قُطْرٍ، والتَّمْر لأهل قُطْرٍ، والذُّرَة لأهل قُطْرٍ؛ قاله ابن السائب.

وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي: في تتمة أربعة أيّام، قال الأخفش: ومثله أن تقول: تزوجت أمسِ امرأة، واليومَ ثنتين، وإحداهما التي تزوجتها أمس.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٗ﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرفع، وقرأ يعقوب، وعبد الوارث: « سواءٍ » بالجر، وقرأ الباقون من العشرة: بالنصب. قال الزجاج: من قرأ بالخفض، جعل (سواءٍ) من صفة الأيّام فالمعنى: في أربعة أيّامٍ مستوِياتٍ تامَّاتٍ، ومن نصب فعلى المصدر؛ فالمعنى: استوت سواءً واستواءً، ومن رفع فعلى معنى: هي سواءٌ[1].

قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى أخبر أنه قدَّر في الأرض أقوات أهلها، وذلك ما يقوتهم من الغذاء، ويصلحهم من المعاش، ولم يخصص جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ أنه قَدَّر فيها قوتًا دون قوت، بل عم الخبر عن تقديره فيها جميع الأقوات، ومما يقوت أهلها ما لا يصلحهم غيره من الغذاء، وذلك لا يكون إلا بالمطر والتَّصَرُّف في البلاد لما خصَّ به بعضًا دون بعض، ومما أخرج من الجبال من الجواهر، ومن البحر من المآكل والحليِّ، ولا قول في ذلك أصح مما قال جلَّ ثناؤه: قدَّر في الأرض أقوات أهلها، لما وصفنا من العلة[2].

الوجه السادس: حقائق القرآن تتحدث عن نشأة الكون.

هناك مراحل لنشوء الكون، ولكن نتوقف قليلًا لكي نقارن بين الحقائق المذكورة في الآيات القرآنية مع ما توصل إليه العلماء من حقائق.

١ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٤٢ (فصلت: ٩).

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٨٧ (فصلت: ٩).

قال ابن تيمية: فأخبر أنه استوى إلى السماء وهي دخان؛ قيل: هو البخار الذي تصاعد من الماء الذي كان عليه العرش؛ فإن البخار نوع من الدخان[١].

فقد ذكرت الآية القرآنية التي هي عنوان هذا الباب أن الكون كان على شكل مادة دخانية في مرحلة نشوئه الأولى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾، والمقصود بالسماء في هذه الآية هو الفضاء الذي امتلأ بالدخان الناتج عن الانفجار الكوني العظيم، وليست السماء التي ستتكون من هذا الدخان لاحقًا فلم يكن ثَمَّةَ سماء قبل ذلك، وقد أطلق العلماء على هذه السحابة من الجسيمات الأولية اسم الغبار الكوني، بينما سماها القرآن الدخان والتسمية القرآنية أدقُّ من تسمية العلماء؛ فالجسيمات الأولية أصغر من أن تكون غبارًا وحتى دخانًا، ولكن الدخان هو أصغر وأخف شيء يمكن أن تراه أعين البشر، ولا بد هنا من أن نسأل الذين لا يؤمنون بالله أو الذين لا يصدقون بأن هذا القرآن منزل من عند الله السؤال التالي وهو: من أين جاء هذا النبي الأمي الذي عاش في أمة أمية بهذه الحقيقة الكبرى عن حال الكون عند بداية خلقه والتي ظلت مجهولة إلى أن كشفها الله على أيدي خلقه في هذا الزمان فقط؟

إن هذه الحقيقة العلمية لم تذكرها الكتب المقدسة التي سبقت القرآن ممَّا يؤكد صدق هذا القرآن وصدق مَنْ أُنْزِلَ عليه وأنه مُنَزَّلٌ من لدن عليم خبير مطلع على جميع أسرار هذا الكون، وكيف لا وهو خالقه﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك: ١٤).

فالكون في الأصل كان كتلة واحدة ثم تحول إلى مادة دخانية ملأت الفراغ المحيط بها سماها القرآن الكريم الدخان، وهذا لا يحدث إلا نتيجة لانفجار هذه الكتلة المادية، وهذا الانفجار هو الذي جعل مادة الكون الأولية تتناثر وتندفع في كل اتجاه بقوة رهيبة محدثة التوسع الكوني الذي لا زلنا نشاهد أثره إلى هذه اللحظة، وممَّا يؤكد على أن مادة هذا الكون قد

---

(١) الصفدية (٢/ ٧٥).

جاءت نتيجة انفجار كوني ضخم هو إشارة القرآن إلى أن الكون في توسع مستمر؛ والتوسع لا يتأتى إلا إذا بدأ الكون من جرم رأسه واستخدمه من بني البشر، لقد تمكن علماء الفيزياء من وضع نظرية جديدة معدلة لنظرية (الانفجار العظيم) أطلق عليها اسم نظرية (الكون المتنفخ)؛ وذلك بسبب فشل النظرية الأولى في تفسير بعض الظواهر الفيزيائية في لحظات الانفجار الأولى، إلا أنهما تتفقان في تفسير الأحداث الكونية فيما بعد ذلك، فعندما قام العلماء بإعادة حل المعادلات الفيزيائية التي حكمت تفاعلات مادةِ وقوى الكون في اللحظات الأولى لنشوئه، وبالتحديد في الثانية الأولى اكتشفوا حقائق عجيبة تدعم الصورة التي رسمتها الكتب السماوية - وخاصة القرآن الكريم- عن تركيب هذا الكون، وملخص هذه النظرية أنه في خلال الثانية الأولى من الانفجار العظيم ونتيجة لحدوث ظاهرة فيزيائية غريبة يطلق عليها اسم (التأثير النفقي) بدأ الكون بالتمدد بمعدلات أكبر بكثير من المعدلات التي نصت عليها نظرية الانفجار العظيم، وقد نتج عن هذا التمدد المفاجئ للكون في لحظاته الأولى ظهور عدة مناطق مادية على شكل فقاعات متلاحقة يفصل بينها حواجز قوية، وشكلت كل فقاعة من هذه الفقاعات كونًا خاصا بها، وتؤكد النظرية بالنص على أن هذا الكون العظيم المترامي الأطراف الذي نشاهده - أو ما يسمى بالكون المشاهد- لا يشكل إلا جزءًا يسيرًا من هذه الأكوان التي لم تستطع النظرية تحديد عددها.

٢- قوله تعالى ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وهذا بالضبط ما قد أجمعت عليه جميع الكتب السماوية من وجود أكوان أخرى غير الكون الذي نراه بأعيننا أو تصل إليه مراصدنا، وقد أطلقت الكتب السماوية على هذه الأكوان اسم السموات السبع كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

٣- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ

عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الطلاق: ١٢)

فقد كشف القرآن الكريم في آيات أخرى عن بعض الخصائص المتعلقة بطبيعة هذه السموات، فذكر أولًا أنها على شكل طبقات حيث تطبق كل سماء على السماء التي دونها، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت هذه السموات على شكل كرات مجوفة كل واحدة تحيط بالأخرى بحيث يكون مركز هذه الكرات هو المكان الذي حدث فيه الانفجار الكوني العظيم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ (الملك: ٣)، وذكر القرآن كذلك أن في كل سماء من هذه السموات السبع أجرامها الخاصة بها؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (الطلاق: ١٢).

٤- قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ (النبأ: ١٢)

فقد وصف القرآن الكريم هذه السموات السبع بالشدة والمتانة، وقد جاء هذا الوصف مطابقًا لما اكتشفه العلماء في نظرية الكون المنتفخ وهي أن الحواجز بين الأكوان المختلفة مكونة من أقطاب مغناطيسية أحادية القطبية وهي من أثقل الجسيمات التي تنبأ العلماء بوجودها، ولكنهم لم يعثروا على أيٍّ منها حتى الآن في أجرام الكون المشاهد وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ (النبأ: ١٢)، والقائل سبحانه: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النازعات: ٢٧-٢٨)، والقائل سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (غافر: ٥٧).

٥- قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

لقد أتى القرآن الكريم أيضًا على ذكر أجرام قد خلقها الله في هذا الكون وهي أكبر من السموات السبع وما فيهن ككرسي الرحمن الذي يحوي في داخله هذه السموات السبع مصداقًا

لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، إن حجم هذا الكرسي وما يحويه من السموات السبع لا تكاد تذكر مع حجم العرش الذي استوى عليه الرحمن سبحانه وتعالى فقال عز من قائل: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ (المؤمنون: ٨٦)، والقائل سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (النمل: ٢٦).

٦- ولقد أشارت بعض الأحاديث النبوية الشريفة إلى الضخامة البالغة لهذا الكون الذي نعيش فيه ممَّا جعل بعض الناس يشكك في صحة هذه الأحاديث بسبب المبالغة التي ذكرتها لأبعاد هذا الكون، ففي أحد هذه الأحاديث ذكر النبي ﷺ أن أبعاد السماء الدنيا بما تحويه من آلاف البلايين من المجرات والتي يحوي كل منها على مئات البلايين من النجوم بالنسبة لأبعاد السماء الثانية كأبعاد الحلقة (الخاتم) إلى أبعاد الفلاة؛ والفلاة هي الصحراء الواسعة، وكذلك هو حال السماء الثانية مع الثالثة. . . ، وهكذا مع بقية السموات إلى أن ننتهي إلى العرش، ولقد تبين لنا بعد الاكتشاف العلمية الحديثة في مجال الفلك أنه لا يوجد أيُّ مبالغة في الصورة التي حاولت الأيات القرآنية والأحاديث النبوية أن تعطيها لحجم هذا الكون، بل إن أسلوب القرآن الكريم كان في غاية الذكاء عندما حاول أن يبين للناس المسافات الشاسعة التي تفصل ما بين النجوم، وذلك من خلال القسم بمواقعها؛ ومن ثم أشار إلى أن هذا القسم عظيم لو أن الناس تمكنوا من معرفة مقدار هذه المسافات فقال عز من قائل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ (الواقعة: ٧٥-٧٦)[1].

إذن فما المقصود باليومين الذين خلق الله فيهما الأرض؟

وعلى ضوء هذه الحقائق العلمية يمكن لنا الآن أن نفهم ما المقصود باليومين الذين خلق الله فيهما الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى

(١) (بداية الخلق في القرآن الكريم) لـد/ منصور العبادي، وانظر (الكون) تأليف كارل ساغان.

يَوۡمَيۡنِ﴾، فالمدة الزمنية التي مرت على الأرض منذ أن كانت في حالة الدخان إلى أن أخذت موقعها في مدار ثابت حول الشمس على شكل كرة ملساء ذات سطح شبه سائل تمثل اليومين اللذين خلق الله فيهما هذه الأرض الأولية، ولقد حدد الله علامة بارزة لنهاية يومي خلق الأرض الأولية وبداية الأيام الأربعة التي أكمل الله فيها تجهيز الأرض لتكون صالحة لظهور الحياة عليها وهذه العلامة هي بداية تكون الجبال.

١- فقد ذكر الله- سبحانه وتعالى- أن أول الأحداث في الأيام الأربعة التالية من أيام الخلق الستة هو تَشَكُّلُ الجبالِ فوق سطحها مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾، ومن الطبيعي أن تكون الجبالُ أولَ ما ظهر على سطح الأرض، وبالتالي أول أحداث تهيئة الأرض، فالأرض كانت قبل ذلك كما ذكرنا سابقًا كرة ملساء، وسطحها حار جدًا وشبه سائل وهي تغلي وتفور بسبب الحرارة الشديدة التي في باطنها، واستمرت الأرض على هذا الحال إلى أن بدأت القشرة الأرضية الصلبة بالتكون بعد أن برد سطحها نتيجة لإشعاع حرارتها إلى الفضاء الخارجي، وعندما أصبح سمك القشرة الأرضية بالقدر الكافي بدأت المواد التي تقذف بها البراكين من جوف الأرض بالتراكم فوقه ليبدأ بذلك تكون الجبال، ولا زال مشهد تكون الجبال من البراكين قائمًا إلى يومنا هذا ولكن بمعدل لا يكاد يذكر مع الحال الذي كانت عليه الأرض في بداية تكونها.

٢- وكما هو واضح من هذه الآية فإن عملية تجهيز الأرض بعد أن استقرت في مدارها حول الشمس لتكون صالحة لظهور الحياة عليها استغرق أربعة أيام من أيام الله؛ وهي من مثل الأيام التي خلق الله بها السموات والأرض بشكلها الأولي، وفي هذه الأيام الأربعة تكونت الجبال، والقارات، والمحيطات، والبحيرات، والأنهار، وتشكل الغلاف الجوي الذي بدأ بحماية الأرض من بقايا الشهب التي كانت ترشق الأرض من الفضاء الخارجي، وبعد أن وفر الله ﷻ كل أسباب الحياة على هذه الأرض بدأت الحياة الأولية بالظهور

عليها، ومن ثم خلق الله النباتات والحيوانات، ومن ثم خلق الله الإنسان في آخر ساعة من ساعات اليوم السادس من أيام الخلق كما جاء ذلك في الأحاديث النبوية الشريفة. إن توفر جميع الشروط اللازمة لظهور الحياة على هذه الأرض من الكثرة والتعقيد بحيث أن خللًا بسيطًا في أحد هذه الشروط قادر على إنهاء جميع أشكال الحياة على هذه الأرض كما سنبين تفصيل ذلك في باب قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.

٣- ولا بد أن يتبادر لذهن القارئ أسئلة تتعلق بعُمر هذا الكون، وما هو طول اليوم من الأيام التي ذكرت في الآية القرآنية عنوان هذا الباب، ولم يتمكن العلماء إلى الآن من إعطاء رقم دقيق لعمر الكون حيث تتراوح تقديراتهم لمقدار الزمن الذي مرَّ على الكون منذ لحظة الانفجار الكوني إلى الآن ما بين ثمانية بلايين وخمسة عشر بليون سنة، وقد اعتمد العلماء في تقديرهم لعمر الكون على قياسهم لنصف قطر الكون المشاهد وذلك بقياس أبعد المجرات عن مجرتنا التي تقع في الطرف المقابل من الكون المشاهد، وبمعرفة ثابت التوسع الكوني يمكن للعلماء تحديد عمر الكون على وجه التقريب، ويعود هذا التفاوت في تقدير عمر الكون إلى عدم دقة الطرق المستخدمة في قياس أبعاد المجرات، وكذلك عدم تمكن العلماء من تحديد قيمة ثابت التوسع الكوني بشكل دقيق، وعدم تيقنهم فيما إذا كان الثابت الكوني ثابتًا فعلًا أم أنه قد تغير مع مرور الزمن.

الوجه السابع: قيل: إن هذه الأيام لم تنتهي بعد.

عن محمد بن سيرين عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وجعل أجل الدنيا ستة أيام وجعل الساعة في اليوم السابع ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم في اليوم السابع فمثل ذلك كمثل

الحامل إذا دخلت شهرها ففي أية لحظة ولدت كان تمامًا[1].

أما القرآن الكريم فقد حدد المدة الكاملة التي خلق الله بها السموات والأرض بستة أيام من أيامه سبحانه، وحدد كذلك المدة التي خلق الله بها السموات والأرض الأولية بيومين والمدة التي هيأ بها الأرض بأربعة أيام، وكما ذكرنا فيما سبق أن أيام الله كما أكد على ذلك القرآن الكريم ليست كأيام البشر، فالله لا يحده زمان ولا مكان ويُقدِّر زمن الأحداث والوقائع بما شاء من مقادير، فقد يكون طول بعض أيامه ألف سنة من أيامنا التي نعدها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧)، وقد يكون طول بعض أيامه خمسين ألف سنة كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ (المعارج: ٤)، وقد يكون طول بعضها ملايين أو ربما بلايين السنين كما هو الحال مع طول الأيام التي خلق الله بها هذا الكون، ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم هو أول من تحدث عن نسبية الزمان والمكان، فإذا كانت مدة الخمسين ألف سنة يراها البشر زمنًا طويلًا فإنها عند الله زمن قصير، وعندما يسأل الله البشر يوم القيامة عن مدة مكثهم في الأرض يكون جوابهم: أنه يوم أو بعض يوم، وذلك بعد أن يتحرر البشر من أَسْرِ أُطِرِ المكان والزمان التي كانوا يعيشون فيها على الأرض كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٢-١١٤).

ولكي نتمكن من استيعاب الأرقام الكبيرة التي حدد بها العلماء عُمر هذا الكون والتي تقاس ببلايين السنين ومقارنتها مع الأيام المذكورة في الأيات القرآنية لا بد لنا من قبول حقيقة أن أيام الخلق الستة لم تنتهي بعد، فهذه الأيام ليست كما يظن كثير من الناس أنها أيام قد مرت وانتهت بل هي أيام لا زال زمانها يجري، وهي إن كانت قد انتهت

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٣٨.

بالنسبة لله خالق الزمان والمكان إلا أنها بالنسبة للبشر لم تنته بعد بل لازلنا نعيش في اللحظات الأخيرة من هذه الأيام، وهذا يعني أن الأيام الستة التي خلق الله خلالها جميع موجودات هذا الكون تمثل العمر الكلي للكون منذ أن خلقه الله من الدخان وإلى أن يطويه الله كطي السجل للكتب ويعيد جميع مادته إلى النقطة التي بدأت منها، وليس من الصعب على القارئ أن يستوعب هذا الأمر إذا ما علم أن مكونات الكون قد تم خلقها على مدى هذه الأيام الستة، فالإنسان الحديث قد تم خلقه قبل ما يقرب من عشرين ألف سنة حسب تقديرات العلماء، وهي تمثل آخر ساعة من ساعات اليوم السادس من أيام الخلق الستة، فمن السهل أن نستنتج من هذا أننا لا زلنا نعيش ضمن هذه الأيام الستة.

ويمكننا الآن أن نستعين بالمعلومات الواردة في الآية القرآنية المتعلقة بخلق الكون وبعض التقديرات الدقيقة لبعض الأحداث التي مر بها الكون للحصول على رقم تقريبي لعمر هذا الكون، فقد حددت هذه الآية أن الجبال قد بدأت بالتكون في بداية الأيام الأربعة الأخيرة من أيام الخلق الستة، ولو تمكنا من معرفة عمر أقدم جبال الأرض تكونًا فمن السهل علينا حساب عمر الكون، وهذا على افتراض أننا نعيش في اللحظات الأخيرة من أيام الخلق الستة كما أكدت على ذلك كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لقد استخدم العلماء طرقًا مختلفة لتقدير عمر الأرض وما عليها من جبال وما فيها من متحجرات؛ وذلك لدراسة تطور الحياة عليها من خلال تحديد أعمار العينات التي يدرسونها، إن أكثر الطرق دقةً في تحديد أعمار الجبال هي تلك التي تعتمد على التحلل الإشعاعي لبعض العناصر المشعة كاليورانيوم، والثوريوم، والبوتاسيوم، فمن خلال قياس نسبة الرصاص إلى اليورانيوم في عينة مأخوذة من جبل ما وبمعرفة العمر النصفي لليورانيوم يمكن تحديد عمر هذه العينة وبالتالي زمن تكون هذا الجبل، لقد وجد العلماء أن عمر أقدم جبال الأرض والموجود في الدرع الكندي يبلغ أربعة بلايين سنة تقريبًا، وبما أن هذه المدة تساوي أربعة أيام من أيام الخلق الستة فإن طول كل يوم من أيام الخلق

سيكون بليون سنة تقريبًا وعليه فإن عمر الكون سيكون ستة بلايين سنة، وهذا على افتراض أن عمر أقدم الجبال صحيحًا، ولكن يبقى علم هذا الأمر عند عالم الغيب والشهادة خالق السموات والأرض القائل سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام: ٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ (فصلت: ٤٧).

الوجه الثامن: الآيات تشير إلى النظرية النسبية.

فتشير الآيات أن الزمان والمكان أمورٌ نسبية، فالأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض تختلف عن أيامنا الآن؛ تختلف عن مقدار يوم القيامة.

الوجه التاسع: الأخطاء العلمية في الكتاب المقدس في مسألة خلق السموات والأرض.

أولًا: جاء في سفر التكوين ما يلي: (أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا) (التكوين ١/ ٣).

ولكن العلم الحديث يخبرنا أنه يستحيل أن يكون تكونت السماوات والأرض في ستة أيام، أما بنسبة للقرآن فقد ذكر أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولكن المقصود بستة أيام فترات طويلة حيث أن الله لم يذكر مساء ولا صباح.

ثانيًا: جاء أيضًا في سفر التكوين (١/ ٥: ٣): وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ نُورٌ فَكَانَ نُورٌ. وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلًا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا.

ومعنى هذا الكلام أن الله خلق النور والظلمة في اليوم الأول، ثم بعد ذلك نجد أن الله قد خلق الشمس في اليوم الرابع.

ففي (التكوين١/ ١٩: ١٤): وَقَالَ اللهُ: لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. وَتَكُونَ أَنْوَارا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى

الأرض. وَكَانَ كَذَلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأرض.

وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ.

وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا.

هل يعقل أن يكون هناك نور وظلمة بدون شمس؟

ثالثًا: نجد أنه قد ذكر في سفر التكوين أن الله قد خلق الأرض في اليوم الثالث (التكوين ١/ ١٣ : ٩) وَقَالَ اللهُ: لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ. وَكَانَ كَذَلِكَ. وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضا وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَقَالَ اللهُ: لِتُنْبِتِ الأرض عُشْبًا وَبَقْلا يُبْزِرُ بِزْرًا وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأرض. وَكَانَ كَذَلِكَ. فَأَخْرَجَتِ الأرض عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا.

فكيف يكون هناك ليل ونهار قبل خلق الأرض كما ذكر في تكوين (من ٣-٥) لأنه من المعلوم أن الليل والنهار ناتج من دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس؟

رابعًا: جاء في سفر التكوين أن الله خلق نورين عظيمين هما القمر والشمس (التكوين ١/ ١٨: ١٤): وَقَالَ اللهُ: لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. وَتَكُونَ أَنْوَارا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأرض. وَكَانَ كَذَلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأرض. وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأى اللهُ ذَلِكَ أنَّهُ حَسَنٌ.

وفي المخطوطات العبرية ذكر (lamps) وهذا يعني أن نور القمر ليس منعكس من الشمس؛ وهذا خطأ آخر، بل هو نور يصدره القمر بنفسه لكن العلم الحديث أثبت أن القمر نوره منعكس من الشمس.

خامسًا: هل الأرض ستبقى إلى الأبد أم ستزول؟

[Heb ١: ١١] هِيَ تَبِيدُ وَلكِنْ أَنْتَ تَبْقَى، وَكُلُّهَا كَثَوْبٍ تَبْلَى.

هنا ذكر أن الأرض ستزول، ثم بعد ذلك نجد أنه ذكر أن الأرض ستبقى إلى الأبد.

[Ecc ١: ٤] دَوْرٌ يَمْضِي وَدَوْرٌ يَجِيءُ وَالأرض قَائِمَةٌ إلى الأَبَدِ.

فعليك أيها النصراني أن تختار هل ستبقى الأرض أم ستزول؟!

الوجه العاشر: بعض الأخطاء الرياضية في الكتاب المقدس.

هم يحتجون علينا أن الآيات السابقة بها تعارض رياضي بين ستة أيام في الآيات التي أجملت، والآيات التي فصلت.

فنقول: إن الكتاب المقدس مليء بالأخطاء الرياضية، فانظروا إلى كتابكم أولًا.

[Ezr ٢: ٦٥] فَضْلًا عَنْ عَبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمْ فَهؤُلاَءِ كَانُوا سَبْعَةَ آلاَفٍ وَثَلاَثَ مِئَةٍ وَسَبْعَةً وَثَلاَثِينَ وَلَهُمْ مِنَ الْمُغَنِّينَ وَالْمُغَنِّيَاتِ مِئَتَانِ.

ثم نجد بعد ذلك في موضع آخر ما يناقض هذا النص:

[Neh ٧: ٦٧] فَضْلًا عَنْ عَبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمِ الَّذِينَ كَانُوا سَبْعَةَ آلاَفٍ وَثَلاَثَ مِئَةٍ وَسَبْعَةً وَثَلاَثِينَ. وَلَهُمْ مِنَ الْمُغَنِّينَ وَالْمُغَنِّيَاتِ مِئَتَانِ وَخَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ.

فأيَّ النصين نصدق؟!

*　*　*

١٢ـ شبهة: أن الأرض كروية.

نص الشبهة:

قالوا:

١- القرآن لم يصرح ولو مرة بأن الأرض كروية الشكل.

٢- القرآن يجزم بأن الأرض مبسوطة كما في قوله: ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾، ﴿سُطِحَتْ﴾، ﴿طَحَىٰهَا﴾، وغيرها من الآيات.

٣- هل المفسرون فسروا الكلمات السابقة على أنها تعني أن الأرض مبسوطة كما يدعي هؤلاء.

٤- تنبؤ زيد بن عمرو بكروية الأرض، وذلك قبل ظهور محمد.

٥- يقولون: لو أن محمدًا يؤمن بأن الأرض كروية لوضع على ذلك أحكامًا فقهية.

٦- الكتاب المقدس ينص على كروية الأرض.

٧- الفلكيون أثبتوا أن الأرض كروية قبل ظهور محمد.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إجماع علماء المسلمين على أن الأرض كرويةخاصةً المتقدمين منهم.

الوجه الثاني: لم يكتف علماء المسلمين المتقدمين ببيان أن الأرض كروية، بل جاؤا باكتشافات تدل على فهمهم لعلوم الأرض مثل: اكتشاف الجاذبية الأرضية، وتقسيم الكرة الأرضية إلى خطوط طول ودوائر عرض، وأن الأرض كرة ولكن غير منتظمة التكوير.

الوجه الثالث: للجواب على شبهة أن الفلكيين أثبتوا أن الأرض كروية قبل ظهور محمد ﷺ نقول بأنه لم يعرف أحد حقيقة أن الأرض كروية إلا من خلال وحي منزل من السماء، أو اكتشاف عن طريق التقدم العلمي، أما غير ذلك فإنها كانت ظنونًا لا تعتمد على يقين.

الوجه الرابع: الرد على قولهم: إن زيد بن عمرو تنبأ بكروية الأرض.

الوجه الخامس: الأدلة من القرآن على كروية الأرض بتوضيح آيات قد يظن أنها ليست متعلقة بمسألة كروية الأرض، وبيان بأنها مثبتة لذلك.

الوجه السادس: قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ وهذا يفيد بكروية الأرض.

الوجه السابع: قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ (الزمر: ٥) يفيد كروية الأرض.

الوجه الثامن: القرآن يثبت أن تغير الليل والنهار دليل على كروية الأرض.

الوجه التاسع: الرد على شبهة متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَـٰهَا﴾ فإن ذلك لا يعارض كون الأرض كروية.

الوجه العاشر: الرد على الشبهة التي تتعلق بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾، وتوضيح أن للإنسان رؤية النسبية.

الوجه الحادي عشر: الرد على الشبهة التي تتعلق بقوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ (سورة النازعات: ٣١، ٣٠).

الوجه الثاني عشر: الرد على قول القائل: لو كان القرآن قد علم بكروية الأرض لأعطى حينذاك حلولًا مسبقة للمشاكل التي سيتعرض لها مسلموا القطب مثلًا.

الوجه الثالث عشر: الرد على من قال: إن الأرض كروية أنها حقيقة علمية ذكرها الكتاب المقدس.

الوجه الرابع عشر: علماء النصارى قديمًا يؤمنون بأن الأرض مسطحة لا أنها كروية، بل ومن المعاصرين منهم من يعتقد ذلك.

الوجه الخامس عشر: إثبات كروية الأرض عند المتقدمين بطريقة عقلية.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: إجماع علماء المسلمين على أن الأرض كروية خاصةً المتقدمين منهم.

١- عاش ابن حزم في القرن الرابع الهجري، وكان في زمانه يقول العوام بعدم تكوير الأرض، وهو تمسك بأنها كروية؛ لأن هذا هو قول العلماء المحققين:

فقد قال ابن حزم: قالوا: - أي: العلماء- إن البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك، وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم ﷺ لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة؛ بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها[(١)].

٢- سُئِلَ ابن تيمية عَنْ رَجُلَيْنِ تَنَازَعَا فِي كَيْفِيَّةِ السَّمَاءِ وَالأرض هَلْ هُمَا جِسْمَانِ كُرِّيَّانِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: كُرِّيَّانِ، وَأَنْكَرَ الآخَرُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَقَالَ: لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ، وَرَدَّهَا. . . فَمَا الصَّوَابُ؟

فَأَجَابَ: السَّمَاوَاتُ مُسْتَدِيرَةٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ حَكَى إجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَئِمَّةِ الإسْلامِ مِثْلُ: أَبِي الْحُسَيْنِ أَحْمَد بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْمُنَادِي ـ أَحَدِ الأَعْيَانِ الْكِبَارِ مِنْ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ أَصْحَابِ الإِمَامِ أَحْمَد وَلَهُ نَحْوُ أَرْبَعِمِائَةِ مُصَنَّفٍ ـ وَحَكَى الإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ الإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ، وَأَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ. وَرَوَى الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ بِالأَسَانِيدِ الْمَعْرُوفَةِ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَذَكَرُوا ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللهَّ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَبَسَطُوا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ بِالدَّلائِلِ السَّمْعِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أُقِيمَ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا دلائِلُ حِسَابِيَّةٌ، وَلا أَعْلَمُ فِي عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمَعْرُوفِينَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ إلا فِرْقَةٌ يَسِيرَةٌ مَنْ أَهْلِ الْجَدَلِ لَمَّا نَاظَرُوا الْمُنَجِّمِينَ فَأَفْسَدُوا عَلَيْهِمْ فَاسِدَ مَذْهَبِهِمْ فِي الأَحْوَالِ وَالتَّأْثِيرِ خَلَطُوا الْكَلامَ مَعَهُمْ بِالْمُنَاظَرَةِ فِي الْحِسَابِ؛ وَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ التَّجْوِيزِ: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُرَبَّعَةً أَوْ مُسَدَّسَةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَنْفُوا أَنْ تَكُونَ مُسْتَدِيرَةً لَكِنْ جَوَّزُوا ضِدَّ ذَلِكَ. وَمَا عَلِمْتُ مَنْ

(١) مطلب بيان كروية الأرض (٢/ ٧٨).

قَالَ إِنَّهَا غَيْرُ مُسْتَدِيرَةٍ ـ وَجَزَمَ بِذَلِكَ ـ إلا مَنْ لا يُؤْبَهُ لَهُ مِنْ الْجُهَّالِ[١].

وإلى ذلك أشار أيضًا فقال: اعلم أن الأرض قد اتفقوا على أنها كريَّة الشكل، وليست تحت وجه الأرض إلا وسطها ونهاية التحت المركز وهو الذي يسمى محيط الأثقال[٢].

٣- قال ياقوت الحموي: خط الاستواء من المشرق إلى المغرب وهو أَطولُ خط في كرة الأرض. . . ثم قال: بل السماء كروية، وكل ما فيها يدور، وهو لا خلاف فيه[٣].

٤- قال ابن الجوزي: لا اختلاف بين العلماء في أن السماء مثال الكرة، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدور الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في ناحية الشمال، والآخر في ناحية الجنوب، وكذلك أجمعوا على أن الأرض مثل الكرة، ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوحد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد، بل على المشرق قبل المغرب، وكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء[٤].

٥- قال النيسابوري: قال حكماء الإسلام: قد ثبت بالدلائل اليقينية أن الأرض كروية[٥].

٦- قلت: وقال بكروية الأرض من العلماء المتقدمين: الغزالي[٦]، والفخر الرازي[٧]، وابن القيم[٨]، والمقدسي[٩]، والذهبي[١٠]، والقلشندي[١١]، وابن حيان[١]، وأبو بكر

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٧) وما بعدها.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٠).

(٣) معجم البلدان (٢/ ٣٧٩).

(٤) مقدمة كتاب المنتظم (١/ ١٨٣- ١٨٤).

(٥) في تفسيره (٥/ ٢٠٨).

(٦) في كتاب معيار العلم (ص ٢)، وكذلك انظر حاشية السندي على سنن النسائي (٢/ ٤٩٥).

(٧) في تفسيرالرازي (٢/ ٤٩١- البقرة: ١٦٤).

(٨) التبيان في أقسام القرآن.

(٩) مقدمة كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

(١٠) مختصر العلو (ص ٧٣).

(١١) صبح الأعشى (١/ ٤٠٨).

الصوفي[٢]، وابن النفيس[٣]، وصاحب تحفة المحتاج في شرح المنهاج[٤]، وابن خرداذبة[٥]، والمسعودي[٦]، وأبو محمد الجويني[٧].

الوجه الثاني: لم يكتف علماء المسلمين المتقدمين ببيان أن الأرض كروية، بل جاؤا باكتشافات تدل على فهمهم لعلوم الأرض مثل: اكتشاف الجاذبية الأرضية، وتقسيم الكرة الأرضية إلى خطوط طول ودوائر عرض، وأن الأرض كرة ولكن غير منتظمة التكوير.

١ـ قال ابن خرداذبة: الأرض بمنزلة الحجر (المغناطيس) الذي يجتذب الحديد، والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق إلى المغرب وهذا طول الأرض، وهو أكبر خط في كرة الأرض، فاستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة[٨].

و بنحوه قال المقدسي[٩]، وابن الجوزي[١٠].

٢- عدم الاستدارة الكاملة للأرض: قال الشريف الإدرسي: إنه صحيح أن الأرض مستديرة، ولكنها غير كاملة الاستدارة.

٣- قال الصفدي: لو وضعنا طرف حبل على أي موضع كان من الأرض، وأدرنا الحبل على كرة الأرض، انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض، والتقى

(١) تفسير البحر المحيط (٧/ ٨٠).

(٢) كما ورد في وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٣٥٩).

(٣) في شرح كتاب تشريح قانون ابن سينا (ص١١٢).

(٤) (٤/ ٤٠٠ كتاب الصلاة).

(٥) مقدمة كتاب المسالك والممالك.

(٦) في مروج الذهب (١/ ٢٥٣).

(٧) في رسالة في إثبات الاستواء والفوقية (١/ ٨١).

(٨) كتاب المسالك والممالك (١/ ١).

(٩) في مقدمة كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (١/ ٢١).

(١٠) في المنتظم (١/ ١٨٤).

الطرفان[1].

٤- قال المسعودي: الأرض مقسومة نصفين وبينهما خط الاستواء، وهو بين المشرق إلى المغرب، وهذا هو طول الأرض؛ لأنه أكبر خط في كرة الأرض[2].

٥- ثلاثة أرباع الأرض ماء.

قال الفخر الرازي: اعلم أن خط الاستواء يقطع الأرض نصفين: شمالي وجنوبي، فإذا فرضت دائرة أخرى عظيمة مقاطعة لها على زوايا قائمة، انقسمت كرة الأرض بهما أرباعًا. . ويُقال والله أعلم: إن ثلاثة الأرباع ماء[3].

وقال أيضًا: الأرض كرة، وإذا كان كذلك فكل وقت يمكن أن يفرض فهو صبح لقوم، وظهر لثان وعصر لثالث، ومغرب لرابع وعشاء لخامس، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها من طرف من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة، فكان الدوام حاصلًا من هذه الجهة[4].

٦- قال الذهبي: الأرض في وسط السماء كبطيخة في جوف بطيخة، والسماء محيطة بها من جميع جوانبها، وأسفل العالم هو جوف كرة الأرض وهو المركز، وهو منتهى السفل، والتحت وما دونه لا يسمى تحتًا، بل لا يكون تحتًا، ويكون فوقًا؛ بحيث لو فرضنا خرق المركز وهو سفل العالم إلى تلك الجهة لكان الخرق إلى جهة فوق، ولو نفذ الخرق جهة السماء من تلك الجهة الأخرى لصعد إلى جهة فوق، وبرهان ذلك أنا لو فرضنا مسافرًا سافر على كرة الأرض من جهة المشرق إلى جهة المغرب، وامتد مسافرًا، لمشى مسافرًا على الكرة إلى حيث ابتدأ بالسير وقطع الكرة مما يراه الناظر أسفل منه؛ وهو في سفره هذا لم

(١) الوافي بالوفيات (٢/ ١١٩).

(٢) في مروج الذهب (١/ ٢٥٣).

(٣) في تفسيره (٢/ ٤٩٠).

(٤) تفسير الرازي (٤/ ٣١٢).

يبرح الأرض تحته والسماء فوقه، فالسماء التي يشهدها الحس تحت الأرض هي فوق الأرض لا تحتها؛ لأن السماء فوق الأرض بالذات[١].

٧- قال القلقشندي: كرة الأرض يقسمها خط في وسط بنصفين: نصف جنوبي، ونصف شمالي، ويسمى هذا الخط الاستواء لاستواء الليل والنهار عنده في جميع فصول السنة، ويقاطعه خط آخر يقسمها بنصفين: نصفٍ شرقي ونصفٍ غربي، وتصير الأرض به أربعة أرباع[٢].

٨- وقال الغزالي: عرف العقلُ ـ ببراهين لم يقدر الحس على المنازعة فيها ـ أن قرص الشمس أكبر من كرة الأرض بأضعاف مضاعفة[٣].

وقال أيضًا: إن الواقفين على نقطتين متقابلتين من كرة الأرض تتقابل أخمص أقدامهما، ونحن بالضرورة نعلم ذلك[٤].

٩- تعليل سبب عدم رؤية الأجسام من بعيد بكروية الأرض عند ابن النفيس:

قال ابن النفيس: هذا يتم سواء كانت العين مرتفعة أو منخفضة، ولكن العين المرتفعة ترى أكثر مما إذا كانت غير مرتفعة؛ وسبب ذلك ليس زيادة قوتها أو زيادة إدراكها، بل إن تشكُّل الأرض كرة، فالبعيد جدًا ما هو على ظاهر الأرض يَنْسَتِرُ عن الرؤية بحدبة الأرض[٥].

١٠- الرازي يبين أن خسوف القمر دليل على كروية الأرض.

قال الرازي: إذا حصل خسوف قمري فإذا سألنا سكان أقصى المشرق عن ابتدائه؟ قالوا: إنه حصل في أول الليل، وإذا سألنا سكان أقصى المغرب؟ قالوا: إنه حصل في آخر الليل. فعلمنا أن أول الليل في أقصى المشرق هو بعينه آخر الليل في أقصى المغرب؛ وذلك

---

(١) مختصر العلو (ص ٧٣).

(٢) صبح الأعشى (١/ ٤٠٨).

(٣) معيار العلم (ص ٢).

(٤) معيار العلم (ص ٥١).

(٥) شرح كتاب تشريح قانون ابن سينا (ص ١١٢).

يوجب كون الأرض كرة(١).

الوجه الثالث: للجواب على شبهة أن الفلكيين أثبتوا أن الأرض كروية قبل ظهور محمدﷺ، فنقول بأنه لم يعرف أحد على الحقيقة أن الأرض كروية إلا من خلال وحي منزل من السماء، أو اكتشاف عن طريق التقدم العلمي، أما غير ذلك فإنها كانت ظنونًا لا تعتمد على يقين.

١- ولم تظهر كروية الأرض للناس وهي تسبح في الفضاء إلا عندما أطلق الروس القمر الصناعي الأول (سبوتنيك) في مداره حول الأرض في (أكتوبر ١٩٥٧م) واستطاع العلماء الحصول على صور واضحة لكوكب الأرض بواسطة آلات التصوير التي كانت مثبتة في القمر الصناعي وفي (عام ١٩٦٦م) هبط القمر الصناعي (لونيك ٩) بأجهزته المتطورة على سطح القمر، وأرسل لمحطات الاستقبال على الأرض صورًا عن كوكب الأرض، فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!

إنه الوحي الإلهي، الذي يدل على أن الذي أنزل القرآن هو خالق الأكوان، وهو بكل شيءٍ عليم(٢).

الوجه الرابع: الرد على قولهم: إن زيد بن عمرو تنبأ بكروية الأرض.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنُ نُفَيْلٍ:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الأرض تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا

دَحَاهَا فَلَمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ ... عَلَى الْمَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا(٣)

أولًا: زيد بن عمرو كان متتبعًا لدين إبراهيم ؈، فما المانع أنه أخذ ذلك من آثار وجدها من كتب، أو من أقوال محفوظة عند أحد الناس؟ وحتى لو كان دين إبراهيم تعاليمه لم

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية٢/ ١٩٦-بيان ذكر الاستواء: فصل قال الرازي البرهان الخامس.

(٢) انظر: الإسلام والحقائق العلمية لـمحمود القاسم، والإعجاز العلمي في القرآن الكريم لـ د/ حسن أبو العينين.

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٩).

تكن منتشرة في وقته فهذا لا يمنع أن بعضها أو قليلًا منها كان متقولًا على ألسنة الناس.

قال ابن إسحاق: وكان الخطاب بن نفيل عم زيد بن عمرو وأخوه لأمه يعاتبه ويؤذيه، حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة فإذا دخل مكة سرًا آذوه وأخرجوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد، ثم خرج يطلب دين إبراهيم، فجال الشام والجزيرة(١).

ثانيًا: زيد بن عمرو لم يكن آخذا ما قاله من اليهود والنصارى فإنه كان يبغضهم.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ، يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ، فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّى لَعَلِّى أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِى. فَقَالَ: لاَ تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلاَّ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ فَهَلْ تَدُلُّنِى عَلَى غَيْرِهِ. قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا. قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ؛ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلاَّ اللَّهَ. فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِىَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ. قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلاَّ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلاَ مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ فَهَلْ تَدُلُّنِى عَلَى غَيْرِهِ قَالَ مَا أَعْلَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا. قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ؛ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلاَّ اللَّهَ. فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَشْهَدُ أَنِّى عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ(٢).

ثالثًا: مقابلة زيد بن عمرو للنبي ﷺ.

عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا حَارًّا مِنْ أَيَّامِ مَكَّةَ. . . قَالَ: فَلَقِيَهُ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ. . . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا زَيْدُ، مَا لِي أَرَى قَوْمَكَ قَدْ شَنِفُوا لَكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ ذَلِكَ لَبِغَيْرِ نَائِلَةٍ لِي مِنْهُمْ، وَلَكِنِّي خَرَجْتُ أَبْتَغِي هَذَا الدِّينَ، حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى أَحْبَارِ فَدَكٍ، فَوَجَدْتُهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، قَالَ: قُلْتُ: مَا هَذَا بِالدِّينِ الَّذِي

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ١٨) زيد بن عمر بن نفيل.

(٢) رواه البخاري (٣٨٢٧).

أَبْتَغِي! فَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى أَحْبَارِ الشَّامِ، فَوَجَدْتُهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، قُلْتُ: مَا هَذَا بِالدِّينِ الَّذِي أَبْتَغِي، فَقَالَ شَيْخٌ مِنْهُمْ: إِنَّكَ لَتَسْأَلُ عَنْ دِينٍ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا يَعْبُدُ اللهَ بِهِ إِلا شَيْخٌ بِالْحِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَآنِي، قَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ بَيْتِ اللهِ، مِنْ أَهْلِ الشَّوْكِ وَالْغَرْبِ، فَقَالَ: إِنَّ الدِّينَ الَّذِي تَطْلُبُ قَدْ ظَهَرَ بِبِلادِكَ، قَدْ بُعِثَ نَبِيٌّ، قَدْ طَلَعَ نَجْمُهُ، وَجَمِيعُ مَنْ رَأَيْتَهُمْ فِي ضَلالٍ، فَلَمْ أُحِسَّ بِشَيْءٍ بَعْدُ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: وَقَرَّبَ إِلَيْهِ السُّفْرَةَ. . . قَالَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ: فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْبَيْتَ، قَالَ: وَتَفَرَّقْنَا فَطَافَ بِهِ، وَأَنَا مَعَهُ، وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، قَالَ: وَكَانَ عِنْدَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ صَنَمَانِ مِنْ نُحَاسٍ: أَحَدُهُمَا يُقَالُ لَهُ: يَسَافٌ، وَالآخَرُ يُقَالُ لَهُ: نَائِلَةُ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا تَمَسَّحُوا بِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا تَمْسَحْهُمَا، فَإِنَّهُمَا رِجْسٌ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لأَمَسَّنَّهُمَا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَسَسْتُهُمَا، فَقَالَ: يَا زَيْدُ، أَلَمْ تُنْهَ؟ قَالَ: وَمَاتَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو، وَأُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِزَيْدٍ: إِنَّهُ يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ(1).

قلت:

١- فهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يكن تلميذًا لزيد بن عمرو، بل كل ما هنالك أنه أُجريت محادثة بينهما، وأن زيدًا لم يكن ليُعلِّم النبيَّ التوحيد، بل كان رسول الله موحدًا منذ أن خلقه الله، ولم يشرك بالله شيئًا، فليس هناك أي دليل على النبي ﷺ وقع في شرك ثم أتى زيد ليعلمه التوحيد ويعلمه مما أوتي من العلم.

٢- وحتى لو صح أن زيد بن عمرو قال بأن الله دحى الأرض، لم يكن هذا شرطًا بأن النبي ﷺ أخذ منه ذلك، فكما أنهما توافقا بأنهما موحدين دون أن يتعلم هذا من ذلك أمر

---

(١) أخرجه النسائى فى الكبرى ٥/ ٥٤ (٨١٨٨)، والبزار ٤/ ١٦٥ (١٣٣١)، وأبو يعلى ١٣/ ١٧٠ (٧٢١٢)، والطبرانى ٥/ ٨٦ (٤٦٦٣)، والحاكم ٣/ ٢٣٨ (٤٩٥٦)، وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى ١/ ١٩٩ (٢٥٧)، والمقصد العلي (١٤٥٨)، وفي المطالب العالية (٤٥٧).

قال الهيثمي (في مجمع الزوائد ٩/ ٦٩٥): ورجال أبي يعلى، والبزار، وأحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث.

التوحيد فكذلك توافقا بالقول بأن الله دحى الأرض دون أن ينقل هذا من ذاك هذه المقولة.

٣- النبي ﷺ أتى بأمور كثيرة عن الأرض بوحي من الله، وليس فقط بالقول بأن الله دحى الأرض، فلو ادعى المدعون بأن دحوية الأرض مأخوذة من قول زيد بن عمرو، فنقول لهم: ومن أين أخذ النبي ﷺ بباقي الأقوال والأخبار عن الأرض التي سيأتي ذكرها؟

رابعًا: قال الأستاذ محمد رشيد رضا: وقد كان زيد بن عمرو مضطهدًا ولجأ إلى حراء لكن لم تكن له اجتماعات برسول الله حتى يُقال: إنه تذاكر معه مسائل الدين، وترك في نفسه أثرًا عميقًا، أو أنه أخذ منه الفكرة؛ لأن المسألة ليست مسألة اقتباس فكرة، فالقرآن وما حواه من فصاحة، وبلاغة خارقة، وحكم بالغة، وأمثال محكمة، وذكر أحوال الماضين من أنبياء وأمم، وأنباء المستقبل، وعلاقة الإنسان بخالقه، وعلاقته بغيره، والتشريع العظيم الشأن الذي صار موضوع بحث الأئمة المجتهدين والعلماء الأعلام - لا يكون مصدره اجتماع زيد بن عمرو برسول الله مصادفة في حراء أو في الطريق، ثم إننا فوق ذلك لا نعلم من تاريخ رسول الله أنه كان يتذاكر مع رجال أو كانوا يعلمونه من صغره إلى أن صار نبيًا؛ بل الثابت أنه كان أميًّا لا يدري ما الكتابة والقراءة، ولا الدين ولا أصوله حتى أُوحي إليه، ثم إن رسالة النبي ﷺ لم تكن محدودة للأمة العربية كما ظن (سل) وأمثاله بل كانت رسالته عامة بنص القرآن قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨)[١].

خامسًا: كلمة (دحاها) التي يقصدها في شعره ليس معناها كما قصدها من قال بأن الأرض كروية.

فزيد بن عمرو يقصد أن (دحاها) بمعنى: (سواها)، وهذا المعنى لا يشير إلى كروية

(١) في كتابه سيدنا محمد ﷺ (١/ ٧٧).

الأرض بصورة واضحة، ومن قال بأن الأرض كروية يقصد بأن دحاها أي: بسطها ومدها.

قال الآلوسي: (دحاها)

أولًا بمعنى: بسطها ومدها لسكنى أهلها وتقلبهم في أقطارها من الدحو أو الدحى بمعنى البسط، وعليه قول أمية بن أبي الصلت:

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم قطانها حتى التنادي

ثانيًا: وقيل: دحاها سواها، وأنشدوا قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقالًا

دحاها فلما استوت شدها بأيد وارسي عليها الجبالا

والأكثرون على الأول، والظاهر أن دحوها بعد خلقها[1].

قلت: فقول أمية موافق معناه لما أتى به القرآن، ومن الممكن أن يكون أمية أخذ هذا المعنى من القرآن، فإن وفاته كانت مقاربة لوفاة النبي ﷺ.

قال ابن حجر في ترجمة أمية بن أبي الصلت: والمعروف أنه مات التاسعة -أي: من الهجرة- ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافرًا، وصح أنه عاش حتى رثى أهل بدر، وفي البخاري عن أبي هريرة مرفوعًا في حديث: (وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم)[2].

سادسًا: حتى ولو كان هذا البيت صحيح نسبته إلى عمرو بن زيد، وحتى لو كان يقصد أن الأرض كروية فقد كان المشهور لدى العرب، بل ولدى النصارى واليهود - حيث تدعون أن محمدًا أخذ القرآن منهم- أن الأرض منبسطة وليست كروية؛ لأن هذا هو المشاهد بالعين المجردة لديهم، وكذلك هذا ما فهمه اليهود والنصارى من كتبهم المقدسة، حتى إن الكنيسة في فترة من الفترات حذرت وأنذرت كل من يقول: إن الأرض كروية.

---

(١) روح المعاني (٢٢/ ١٤٧- النازعات: ٣٠).

(٢) الإصابة (١/ ٢٥٠ـ (باب الألف بعدها الميم) في ترجمة أمية)، وانظر: بحث مصادر القرآن في هذه الموسوعة.

١- لذلك نقول: إنه من الطبيعي أن محمدًا ﷺ كان عليه أن يتبنى فكرة أن الأرض منبسطة تمامًا لا أنها كروية، فعندما خالف الرأي المشهور في عصره كان ذلك دليلًا واضحًا أنه يتبع وحيًا من السماء لا أنه يتبع ويحاكي ما يقوله أهل الكتاب، حتى ولو قلنا: إن أحد الناس قبله قال بأن الأرض كروية فإن هذا القول كان شاذًا وغريبًا لدى سكان الجزيرة العربية.

٢- لذلك نرى مشركي العرب يعترضون على ما يثبته الله من آيات كونية في القرآن، وأدل مثالٍ على ذلك اعتراضهم على أن الله يستطيع أن يعرّج بنبيه محمد ﷺ من الأرض إلى السماء، وعلى أن الله يستطيع أن يحيي الموتى، وأرادوا انشقاق القمر فانشق أمام أعينهم.

سابعًا: زيد بن عمرو لم يكن له دواوين من الشعر كما كانت لشعراء العرب.

١- فعندما نريد أن نثبت صحة نسبة شعرٍ لشاعر فإما أن يكون له معلقة، أو ديوان، أو كتاب له كُتِبَ فيه شعره، أو إثبات علماء الأدب والشعر بصحة هذا الشعر لهذا الشاعر، أو بذكر شعره بسندٍ متصل له.

٢- فلا نستطيع أن نثبت أبياتًا من الشعر مذكورة في كتب الفقه أو التاريخ لشاعر من شعراء الجاهلية المشهورين، ونترك ما ذُكر له من الشعر في كتب الأدب.

٣- فإن هذا الشعر المنسوب لزيد بن عمرو ليس من معلقة له، أو ديوان له، أو كتاب له كُتِبَ فيه شعره، ولم يثبته علماء الأدب والشعر في كتبهم، ولم يُذكر شعره بسندٍ متصل له، وإن ابن إسحاق الذي روى هذا الشعر عنه لم يسمع منه هذا الشعر، فإنه لم ينقله بسندٍ متصل عنه، ولم ينقل هذا الشعر بنقل متواتر في كتب الأخبار.

الوجه الخامس: الأدلة من القرآن على كروية الأرض بتوضيح آيات قد يظن أنها ليست متعلقة بمسألة كروية الأرض، وبيان بأنها مثبتة لذلك.

ومن تلك الآيات: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنبياء: ٣٣)، وَقَالَ تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ: فِي فَلْكَةٍ كفَلْكَةِ الْمِغْزَلِ، يدورون مَا تدور الفلكة في

المغزل(١).

قال ابن تيمية: وَهَذَا صَرِيحٌ بِالاسْتِدَارَةِ وَالدَّوَرَانِ وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ (الْفَلَكَ) فِي اللُّغَةِ هُوَ الشَّيْءُ الْمُسْتَدِيرُ، يُقَالُ: تَفَلَّكَ ثَدْيُ الْجَارِيَةِ إذَا اسْتَدَارَ وَيُقَالُ لِفَلْكَةِ الْمِغْزَلِ الْمُسْتَدِيرَةِ: فَلْكَةٌ لاسْتِدَارَتِهَا. فَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَاللُّغَةِ عَلَى أَنَّ (الْفَلَكَ) هُوَ الْمُسْتَدِيرُ.

وَالْمَعْرِفَةُ لِمَعَانِي كِتَابِ اللهِ إنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ: مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ الْمَوْثُوقِ بِهِمْ مِنْ السَّلَفِ، وَمِنْ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا وَهِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ(٢).

الوجه السادس: قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ وهذا يفيد بكروية الأرض.

قال الشعراوي: ثم نتأمل بعد ذلك قوله - سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ما معنى الآية الكريمة ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾؟ معناه: أنه يَرُدُّ عليهم في قضية في عصرهم ليصححها لهم، فهم يقولون: إن النهار يسبق الليل، يبدأ اليومُ بشروق الشمس وينتهي بغروبها، ثم يأتي بعد ذلك الليل؛ أي: أن النهار يسبق الليل، فيأتي الله سبحانه وتعالى ويقول: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ومن هنا فإنه يرد على قولهم: بأن النهار يسبق الليل قائلًا: لا النهار يسبق الليل ولا الليل يسبق النهار، وهذا إعلان لهم بأن الأرض كروية، وأن الليل والنهار موجودان في وقت واحد على سطحها.

فلو أن الأرض مبسوطة فإن الأمر لا يخرج عن حالتين:

الحالة الأولى: أن الله قد خلق الشمس مواجهة للأرض المسطحة، وفي هذه الحالة يكون النهار موجودًا أولًا ثم يُغَيِّبُ الله الشمسَ فيأتي الليل ثانيًا.

- الحالة الثانية- أو أنه خلق الشمس غير مواجهة لسطح الأرض، وفي هذه الحالة يكون الليل موجودًا أولًا، ثم تطلع الشمس على السطح فيأتي النهار، لا يخرج الأمر عن

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢- الأنبياء: ٣٢)، وابن أبي حاتم (١٤٥١٤)، وأبو الشيخ في العظمة.

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٧) وما بعدها.

هذين الشيئين، فعندما يأتي الله ويقول: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي أنه ينفى كلية أن النهار يسبق الليل، أو أن الليل يسبق النهار؛ حيث إنهما لا يسبق أحدهما الآخر منذ متى؟ منذ بداية خلق الأرض، أو منذ خلق الله الأرض، ولا يتأتى هذا في عالم الأحجام أبدًا إلا إذا كانت الأرض مكورة. فحين خلق الله الشمس والأرض وجد الليل والنهار معًا، فنصف الأرض المواجهة للشمس صار نهارًا، والنصف الآخر صار ليلًا، ثم دارت الأرض، فأصبح الليل نهارًا، والنهار ليلًا وهكذا، إذن فالآية الكريمة ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ تعطيني أن الأرض مخلوقة على هذه الصورة الكروية[1].

الوجه السابع: قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ **يفيد كروية الأرض.**

قال ابن تيمية: قَالُوا: و(التَّكْوِيرُ) التَّدْوِيرُ، يُقَالُ: كَوَّرْت الْعِمَامَةَ وَكَوَّرْتهَا إذَا دَوَّرْتهَا، وَيُقَالُ: لِلْمُسْتَدِيرِ كَارَةٌ، وَأَصْلُهُ (كورة) تَحَرَّكَتْ الْوَاوُ وَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَقُلِبَتْ أَلِفًا، وَيُقَالُ أَيْضًا: (كُرَةٌ)، وَأَصْلُهُ كُورَةٌ؛ وَإِنَّمَا حُذِفَتْ عَيْنُ الْكَلِمَةِ كَمَا قِيلَ فِي: ثُبَةٍ، وَقُلَةٍ.

وَاللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَسَائِرُ أَحْوَالِ الزَّمَانِ تَابِعَةٌ لِلْحَرَكَةِ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ مِقْدَارُ الْحَرَكَةِ، وَالْحَرَكَةُ قَائِمَةٌ بِالْجِسْمِ الْمُتَحَرِّكِ، فَإِذَا كَانَ الزَّمَانُ التَّابِعُ لِلْحَرَكَةِ التَّابِعَةِ لِلْجِسْمِ مَوْصُوفًا بِالاسْتِدَارَةِ كَانَ الْجِسْمُ أَوْلَى بِالِاسْتِدَارَةِ.

وَقَالَ تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ (الملك: ٣) وَلَيْسَ فِي السَّمَاءِ إلا أَجْسَامُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ (يقصد كروي الشكل كالنجوم والكواكب) أَمَّا التَّثْلِيثُ، وَالتَّرْبِيعُ، وَالتَّخْمِيسُ، والتَّسْدِيسُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ؛ فَفِيهَا تَفَاوُتٌ وَاخْتِلافٌ بِالزَّوَايَا وَالأَضْلاعِ لا خِلافَ فِيهِ ولا تَفَاوُتَ[2].

قال ابن حزم: وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض مأخوذ من كور العمامة

(١) في كتابه معجزة القرآن (١/ ٤٨، ٤٩).

(٢) في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٧) وما بعدها.

وهو إدارتها وهذا نص على تكوير الأرض[(١)].

قال يوسف الحاج أحمد: فإن الله يكور الليل على النهار فيخفيه، ويكور النهار على الليل فيخفيه، وبين تكورهما على بعضهما نرى جرمًا كرويًا يتدحرج بينهما فيجمعهما يكوران على بعضهما، هذا الجرم هو الأرض، لنتصور أننا في منطقة النهار، وبعد ساعات سيغشى الليل هذه المنطقة، لكنه لا يغشاها بشكل عادي بل يكور تكويرًا، أي: ينحني بشكل كروي، ومن البديهي أن المنطقة يجب أن تكون كروية ليمكن فهم الكلام.

كانت الإنسانية تجهل هذا إلا بعض الخرافات التي كانت سائدة! فكيف عرفه محمد ﷺ وأقره؟!

تبين الآية الكريمة أن الليل والنهار خُلقا على هيئة التكوير، وبما أن الليل والنهار وَجَدَا على سطح الأرض معًا، فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير، إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية، فلو أن البقعة التي يغطيها النهار لا تساوي في المساحة القطعة التي يغطيها الليل لما شكلا معًا شكل كرة؛ بل الشرط الرفيع الفاصل بينهما سيكون على شكل هندسي آخر ـ بحسب مساحته على سطح الأرض ـ وهنا التعبير المعجز الدقيق: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ أي: نصف الكرة الأرضية نهار، والنصف الآخر ليل[(٢)].

قال الشعراوي: ثم نتأمل قول الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة: (يكور)؟ لماذا استخدم الله لفظ: (يكور)؟ ولم يقل: يبسط الليل والنهار ما دامت الأرض منبسطة؟ أو بغير الليل والنهار. . أو أي لفظ آخر؟

إنك لو جئت بشيء ولففته حول كرة فتقول: إنك كورت هذا القماش مثلًا أي: جعلته يأخذ شكل الكرة الملفوف حولها، وإذا أردت من إنسان أن يصنع لك شيئًا على شكل كرة فتقول له: خذ هذا وكوره؛ أي: اصنعه على شكل كرة.

---

(١) في الفصل (٢/ ٧٨ - مطلب بيان كروية الأرض).

(٢) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي لـيوسف الحاج أحمد (ص٢٣٠-٢٣٣).

ومعنى قول الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ أي: يجعلهما يحيطان بالكرة الأرضية.

ومن إعجاز القرآن أن الليل والنهار مكوران حول الكرة الأرضية في كل وقت؛ أي: أن الله لم يقل: يكور الليل ثم يكور النهار، ولكنه قال: يكور الليل على النهار، واستخدام كلمة: (على) هنا تستحق وقفة لتتصور مدى انطباقها على كروية الأرض، فلم يقل: (يكور الليل والنهار) ومعناه: أنهما موجودان في نفس الوقت حول الكرة الأرضية، وهذا ما نبأ به القرآن منذ أربعة عشر قرنًا، ولم يصل إلى علم البشر إلا في الفترة الأخيرة، وقضية كروية الأرض مسها القرآن في أكثر من مكان. . لماذا؟ لأنها حقيقة كونية كبرى[1].

وقال أيضًا:

١- وهكذا يصف الحق سبحانه وتعالى أن الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير، وبما أن الليل والنهار وُجدا على سطح الأرض معًا فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية بحيث يكون نصف الكرة مظلمًا والنصف الآخر مضيئًا، وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئًا والنصف الآخر مظلمًا، فلو أن الليل والنهار وُجدا على سطح الأرض غير متساويين في المساحة بحيث كان أحدهما يبدو شريطًا رفيعًا في حين يغطي الآخر معظم المساحة لما كان الاثنان معًا على هيئة كرة؛ لأن الشريط الرفيع في هذه الحالة سيكون في شكل مستطيل، أو مثلث، أو مربع. . أو أي شكل هندسي آخر حسب المساحة التي يحتلها فوق سطح الأرض، وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار. . ولكن قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلًا والنصف الآخر نهارًا.

٢- وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض وصورها وجدنا

---

(١) معجزة القرآن (١/ ٤٨، ٤٩).

فعلًا أن نصفها مضيء ونصفها مظلم كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى[١].

الوجه الثامن: القرآن يثبت أن تغير الليل والنهار دليل على كروية الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الأعراف: ٥٤).

قال د/ زغلول النجار: لقد تحدث القرآن الكريم عن كروية الأرض في زمان ساد فيه الجهل والخرافة، ففي الآيات يذكر الله سبحانه وتعالى أنه النهار يطلب الليل حثيثًا، ويطلبه حثيثًا تعني: يلاحقه سريعًا دون توقف، لنتصور هذا. . . النهار كائن من ضياء منبعث من الشمس يملأ الفضاء والجو في كل الجهات، والليل كائن آخر لا ضوء فيه إلا بصيص الشهب يلاحق النهار بسرعة والنهار يلاحقه، هذا يجري وذاك يطلبه دون توقف، لكن إلى أين؟ وكيف؟ هل يجريان في طريق مستقيمة طرفها اللانهاية؟

لو كان ذلك لما مرَّ على الأرض إلا نهار واحد لحقه ليل وينتهي الأمر، لكننا نراهما متعاقبين، فالنهار يطلع كل يوم من نفس الجهة التي طلع منها في اليوم السابق وتسير شمسه لتغيب في نفس الجهة التي غربت فيها بالأمس.

وهكذا العتمة من الشرق وتغور في الغرب، ثم يتكرر المشهد ويتكرر إلى ما شاء الله.

لنتصور الحركة في قوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ من خلال هذا الواقع فنرى أن الطريق دائرية لا لبس فيها، لندرك هذا بسهولة يجب علينا أن نتفهم جيدًا الأسلوب التصويري في القرآن، حينئذ سيظهر لنا بوضوح من خلال الآية نجد صورة طريق دائرية حول الأرض يجري عليها الليل والنهار، ذاك يغشى هذا وهذا يغشى ذاك[٢].

الوجه التاسع: الرد على شبهة متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾،

---

(١) (الأدلة المادية على وجود الله) لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي.

(٢) (انظر الموقع الخاص به).

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ **فإن ذلك لا يعارض كون الأرض كروية.**

قال جل وعلا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ . . ﴾ (الرعد: ٣)، ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي. . ﴾ (الحجر: ١٩).

أولا: (المد): هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه.

قال أبو عبد الله الداراني: ثبت بالدليل أنّ الأرض كرة، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ وذلك أنّ الأرض جسم عظيم، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كأن قطعة منها تشاهد كالسطح[1].

قال ابن عادل: لما قرر الله الدلائل السماوية أردفها بتقرير الدلائل الأرضية فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها، قال الأصم: (المد): البسط إلى ما لا يدرك منتهاه فقوله: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ليشعر بأنَّه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه.

قال ابن الخطيب: فإن قالوا: قوله تعالى: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ينافي كونها كرة! قلنا: لا نسلم؛ لأنَّ الأرض جسم عظيم، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان لك قطعة منها تشاهدُ كالسَّطح، والتَّفاوت الحاصل بينه وبين السَّطح لايصلح إلاَّ في علم الله تبارك وتعالى إلا في قوله تعالى ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٧) مع أن العالم من النَّاس يستقرُّون عليه، فكذلك هنا[2].

ثانيًا: قال الشعراوي:

١- واعتقد أنه في عهد النبي ﷺ لم يكن أحد من البشر يعرف شيئًا عن كروية الأرض، أو لم يكن ذلك قد وصل إلى علم أحد، وهنا يأتي القرآن ويقول: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ ويلاحظ دقة تعبير القرآن في ألفاظه، لقد اختار اللفظ الوحيد المناسب للعصر الذي نزل فيه والعصور القادمة فكلمة مددناها تعطى المعنى للاثنين معًا.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٧/ ٨٠).

(٢) تفسير اللباب (٩/ ٣٧٩- الرعد: ٣).

٢- عندما يقول: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطناها، لا تنشأ مشكلة لأن الأرض تظهر أمام الناس منبسطة في ذلك الوقت، فإذا مر الزمن وثبت أن الأرض كروية نجد هذا اللفظ هو المناسب تمامًا الذي يصف لنا بدقة كروية الأرض.

وقال: إن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون؛ لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كلها، ولكن التصادم يحدث من شيئين: عدم فهم حقيقة قرآنية أو عدم صحة حقيقة علمية، فإذا لم نفهم القرآن جيدًا وفسرناه بغير ما فيه حدث التصادم، وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم، ولكن كيف لا نفهم الحقيقة القرآنية؟ سنضرب مثلا لذلك ليعلم الناس أن عدم فهم الحقيقة القرآنية قد تؤدي إلى تصادم مع حقائق الكون، الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ (الحجر: ١٩)، (المد) معناه: البسط، ومعنى ذلك أن الأرض مبسوطة، ولو فهمنا الآية على هذا المعنى لا تَّهَمْنَا كلَّ من تحدّث عن كروية الأرض بالكفر خصوصًا أننا الآن بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية قد استطعنا أن نرى الأرض على هيئة كرة تدور حول نفسها؟

نقول: إن كل من فهم الآية الكريمة: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ بمعنى أن الأرض مبسوطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة، ولكن المعنى يجمع الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي معًا، ويعطي الحقيقة الظاهرة للعين والحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن.

عندما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطناها، أقال أيَّ أرض؟ لا، لم يحدد أرضًا بعينها، بل قال: الأرض على إطلاقها، ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى أي مكان يسمى أرضًا تراها أمامك ممدودة أي منبسطة، فإذا كنت في القطب الجنوبي، أو في القطب الشمالي، أو في أمريكا، أو أوروبا، أو في أفريقيا، أو آسيا، أو في أي بقعة من الأرض - فإنك ترها أمامك منبسطة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت

الأرض كروية، فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على أي شكل هندسي آخر، فإنك تصل فيها إلى حافة لا ترى أمامك الأرض منبسطة، ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء، ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية؛ حتى إذا بدأت من أي نقطة محددة على سطح الكرة الأرضية ثم ظللت تسير حتى عدت إلى نقطة البداية فإنك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائمًا منبسطة، وما دام الأمر كذلك فإنك لا تسير في أي بقعة على الأرض إلا وأنت تراها أمامك منبسطة، وهكذا كانت الآية الكريمة ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ لقد فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض، وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم. . يأتي باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية؛ ولذلك فإن الذين أساءوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة قالوا: هناك تصادم بين الدين والعلم، والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهمًا صحيحًا قالوا: إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية، وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمنوا؛ ولكنهم لا يؤمنون، وهكذا نرى الإعجاز القرآني. . فالقائل هو الله، والخالق هو الله، والمتكلم هو الله. . فجاء في جزء من آية قرآنية ليخبرنا أن الأرض كروية، وأنها تدور حول نفسها. . ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين الحقيقتين معًا. . هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادي على أن الله هو خالق هذا الكون؟ (١)

وقال الشعراوي: ١ - يأتي إنسان ويقول: الأرض مبسوطة. . ويستدل على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطناها؛ لأن المد هو البسط، ولقد فهم أن هذه حقيقة قرآنية حتى إنه بعد أن خرج الإنسان خارج الغلاف الجوي للأرض ورآها كروية فإن هذا الرجل يرفض تصديق العلم، ويقول: لا، الأرض مبسوطة! هكذا قال

---

(١) " الأدلة المادية على وجود الله " لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي.

القرآن، وكل ما عدا ذلك كفر؟!

نقول له: إنك أخطأت في فهم الحقيقة القرآنية، وإن الدليل الذي أتيت به لا يخدم ما تدعيه؛ بل هو ضد ما تدعيه، فالأرض إن كانت مبسوطة لا تخرج عن أشياء: إما مربعة، وإما مثلثة، وإما مستطيلة، وإما متوازية، وإما شبه منحرف، أو شكل مختلف الأضلاع، وباختصار أترك لك أن تتصور أي وضع للأرض غير وضع الكرة أو شكل الكرة.

٢- ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وهي كرة، إذا ما دامت الأرض مسطحة فلابد أن يكون لها حيز، فإذا جئت في آخر السطح لابد أن تصل إلى حافة، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ ومعنى مددناها: أنك أينما ذهبت فوق سطح الكرة الأرضية تراها ممدودة أمامك؛ أي: منبسطة أمامك، فإذا ذهبت إلى القطب الشمالي رأيت الأرض منبسطة، وإذا أسرعت إلى القطب الجنوبي رأيت الأرض منبسطة، وإذا ذهبت إلى خط الاستواء وجدت الأرض أمامك منبسطة؛ في أي مكان نذهب إليه نرى الأرض منبسطة، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية، إذًا فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ دليل على كروية الأرض.

٣- ولكن إنسانًا أخطأ وفسر ذلك اللفظ على أنه دليل على أن الأرض مبسوطة، وخرج من ذلك بأن هذه حقيقة قرآنية وهي ليست حقيقة قرآنية، فإذا ثبت أن الأرض كروية بدأ تعارض وهمي بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية، وهنا يبرز دور الجهل في محاولة النيل من كتاب الله، ولو تعمق بعض الناس قليلًا لعرفوا أن كروية الأرض ودوران الأرض موجودان في القرآن[1].

ثالثا: وكذلك الآية تفيد أن الله جعل الأرض مختصة بمقدار معيَّن لا يزيدُ ولا ينقص.

قال ابن الخطيب: هذه الآية إنَّما ذكرت ليستدل على وجود الصَّانع؛ والشروط فيه أن يكون ذلك أمرًا مشاهدًا معلومًا حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع؛ لأنَّ الشيء إذا

(١) معجزة القرآن (١/ ٤٨، ٤٩).

رأيت حجمه ومقداره صار ذلك الحجم وذلك المقدار عبرة، فثبت أنَّ قوله: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إلى أنه تعالى هو الذي جعل الأرض مختصة بمقدار معيَّن لا يزيدُ ولا ينقص، والدليل عليه أن كون الأرض أزيد مقدارًا ممَّا هو الآن وأنقص منه أمر جائز ممكن في نفسه، فاختصاصه بذلك المقدار المعيَّن لا بدَّ وأن يكون بتخصيص مخصَّصٍ، وتقدير مقدِّرٍ[1].

رابعًا: مد الأرض وبسطها يقتضي تكويرها؛ لأن أي شكل هندسي آخر (مثلث، مربع، خماسي..) لابد أن يكون فيه انحناء عند الانتقال من ضلع إلى آخر.

إن سياق الآية يدل على أن الله يخاطب الإنسان، بل إن القرآن كله مخاطبة للإنسان وعندما يقول: ﴿وَالأرض مَدَدْنَاهَا﴾ نسأل لمن؟ الجواب: مددناها لك أيها الإنسان كيف تكون الأرض ممدودة؟ وما معنى ذلك؟

معنى ذلك أننا مهدنا السير فيها فستبقى ممدودة أمامنا، لن تنتهي فيها إلى حاجز يحول دون ما وراءه، أو هوة أبدية نقف عندها عاجزين.

فلنسر في أي اتجاه نريد، ولتسر الليالي والشهور والسنين والعمر كله، وسنبقى نسير وستبقى ممدودة، ولا يوجد شكل من الأشكال الهندسية تتحقق فيه هذه الحالة إلا الشكل الكروي، فيحثما سرت عليه يبقى ممددًا أمامك، وأي شكل آخر لا يمكن أن يحقق معنى هذه الآية.

مد الأرض وبسطها يقتضي تكويرها؛ لأن أي شكل هندسي آخر (مثلث، مربع، خماسي..) لابد أن يكون فيه انحناء عند الانتقال من ضلع إلى آخر.

انظر الشكل التالي ويمثل عدة أشكال هندسية، وتم التعبير عن كل ضلع بحرف خاص (أ، ب، ج..) عدا الدائرة فليس لها أضلاع.

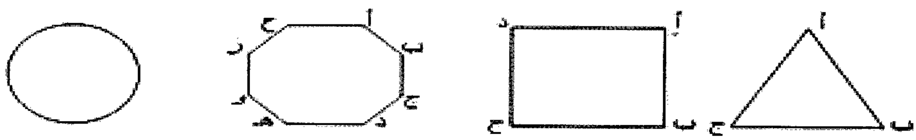

كما أن في التعبير القرآني المعجز عن انبساط وامتداد الأرض التقاء للحقيقتين الحسية

(١) تفسير اللباب (٩/ ٣٧٩- الرعد: ٣).

المشاهَدة، والعلمية فهي من حيث العين المبصرة ممتدة ومنبسطة مما يسهل الحياة عليها، فلو كانت ذات أي شكل هندسي غير الدائرة، لرأيت انحناءها وأنت واقف على أحد أضلاعها.

وهي من حيث الاكتشافات العلمية دائرية؛ لأن الشكل الدائري يدل على بسطها، فالدائرة هي الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون الأرض فيه ممدودة في كل نقطة تقف عليها منها.

ولم يثبت أن شُوهِد أحد ينحني طريقه وهو يسير على الأرض في أي من بقاعها؛ كما ينحني طريق من يسير من ضلع (أ) إلى (ب).

وكل هذا ظاهر للذي يسير من وسط الأرض إلى أيٍّ من أطرافها، ولا يكون إلا في الشكل الكروي.

خامسًا: يوم القيامة تمد الأرض مدًا.

قيل في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ تتعلق بيوم القيامة، فالأرض تمد يوم القيامة: أي تمد مدًّا واحدًا كمد الأديم يعني: كمد الجلد، كأنما تفرش جلدًا أو سماطًا، ففي الأثر: «إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم»[1]، والأديم: هو الجلد المدبوغ.

---

(١) عن عبد الله بن عمرو: قال: (إذا كان يوم القيامة مد الأديم). رواه ابن جرير (في تفسيره ١٢/ ٤١٨)، قال الألباني: وإسناده جيد (السلسلة الصحيحة١٩٦٦).

وعن عبد الله بن مسعود مرفوعًا: (تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم). أخرجه أحمد (١/ ٣٧٥، رقم ٣٥٥٦)، وابن أبى شيبة (٧/ ٤٩٨، رقم ٣٧٥٢٥)، وابن ماجه (٤٠٨١)، والحاكم (٤/ ٥٨٨). وقال الحاكم: (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في (الضعيفة) (٤٣١٨).

وعن ابن عباس قال: (إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم). رواه ابن جرير في تفسيره (١٢/ ٥٧٦)

وعن على بن الحسين مرسلًا: (إذا كان يومُ القيامةِ مدَّ اللهُ الأرض مدَّ الأديمِ حتى لا يكونَ لبشرٍ من الناسِ إلا موضعُ قدميه). رواه عبد الرزاق في تفسيره (٤/ ٨٧-١٥٦٦)، وابن جرير في تفسيره (٨/ ١٢٩).

وعن أبي هريرة مرفوعًا: (يبدل الله الأرض غير الأرض والسماوات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم). رواه ابن جرير في تفسيره (٧/ ٤٧٩) وفيه مجهول.

فكَون الأرض تمتد يوم القيامة مد الأديم قد صح ذلك موقوفًا سندًا.

فالمد قد يكون مدًا مطلقًا كما سيحدث للأرض يوم القيامة، وقد يكون مدًا نسبيًا كما حدث للأرض عند بداية خلقها.

الوجه العاشر: الرد على الشبهة التي تتعلق بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، **وتوضيح أن للإنسان رؤية النسبية.**

قال ابن القيم: ١- فآيات الأرض أنواع كثيرة: منها تسطيحها كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، ولا ينافى ذلك كونها كرية فهي كرة في الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان. ومنها أنه جعلها فراشًا لتكون مقر الحيوان ومساكنه، وجعله قرارًا.

وجعلها مهادًا ذلولًا توطأ بالأقدام وتضرب بالمعاول والفئوس وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها.

وجعلها بساطًا وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم على ظهرها، وللأموات تضمهم في بطنها، وطحاها فمدها وبسطها ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج.

٢- ونبه بجعلها مهادًا وفراشًا على حكمته في جعلها ساكنة وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ولا علاقة فوقها، ونبه بكونها قرارًا على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة فلا تمسك بناء ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة؛ بل جعلها بين الصلابة والدماثة(١).

الوجه الحادي عشر: الرد على الشبهة التي تتعلق بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ **(سورة النازعات: ٣٠، ٣١).**

أولًا: وجه الشبه بين دحو الأرض ودحو البيض:

قال الرازي: قال أهل اللغة: في هذه اللفظة لغتان دحوت أدحو، ودحيت أدحى، ومثله: صفوت وصفيت، ولحوت العود ولحيته، وسأوت الرجل وسأيته، وبأوت عليه

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (فصل في ذكر آيات الأرض ١/ ١٨٣).

وبأيت، وفي حديث علي عليه السلام: "اللهم داحي المدحيات" أي: باسط الأرضين السبع، وهو المدحوات أيضًا، وقيل: أصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان، ومنه يقال: إن الصبي يدحو بالكرة أي: يقذفها على وجه الأرض، وأدحى النعامة موضعه الذي يكون فيه أي: بسطته وأزلت ما فيه من حصى حتى يتمهد له، وهذا يدل على أن معنى الدحو يرجع إلى الإزالة والتمهيد(١).

وقال أيضًا: إن الله تعالى خلق الأرض أولًا، ثم خلق السماء ثانيًا، ثم دحى الأرض أي: بسطها ثالثًا؛ وذلك لأنها كانت أولًا كالكرة المجتمعة، وبأنه لا يكون معنى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾: مجرد البسط، بل يكون المراد أنه بسطها بسطًا مهيأً لنبات الأقوات، وهذا هو الذي بينه بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾(٢).

ففي هذه الآية وجه من البلاغة معروف؛ وهو التعبير بالمحل عن الحالّ بالمحل.

قال د/عبد المنعم (العال): نقول في دارجتنا: الدَّحْيُ البَيْض، والمفرد: دَحية، والأُدحوة مبيض النعام في الرمل، وهو مجاز مرسل علاقته المكانية(٣).

ثانيًا: النعامة تدحي مكان عشها:

١- فمن تذليل الله للحياة على سطح الأرض تكويرها، فلولا كرويتها لاستحالت الحياة عليها؛ كما أن النعامة تدحي مكان عشها وتسويه لتجعله ميسرًا ممهدًا لوضع البيض، فلولا ذلك لكسر البيض.

ولا يُعقَل أن (تبسط) النعامة الأرض فتصبح منبسطة كالمرآة لتضع بيضها؛ وإلا

---

(١) تفسيرالرازي ١٦/ ٣٤٢، وقول علي: "اللهم داحي المدحيات" إسناده ضعيف، أخرجه الطبراني (في الأوسط ٩٠٨٩)، والآجري (في الشريعة ٤٢٩)، وابن بطة في الإبانة (١٥٦١) جميعًا من طريق نوح بن قيس عن سلامة الكندي عن علي به، وسلامة لم يسمع من علي انظر الجرح والتعديل ٤/ ٣٠٠، جامع التحصيل ٢٧٤. فالإسناد منقطع.

(٢) تفسير الرازي (١٦/ ٣٤٢).

(٣) معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة في الأصول العربية ص٢٣٣.

سيتدحرج بعيدًا، ولما استطاعت جمعه لحضنه، وما أمنت عليه من الأعين، وعاديات الزمان والمكان.

٢- كيف وإن كانت النعامة تضع بيضها بالطول؛ وذلك حتى يتوزع دفء الحَضْن على أكبر مساحة من بيضتها الأكبر بين البيوض - كل هذه الاعتبارات تقتضي أن لا يكون عش النعامة سوى حفرة في الأرض، أي: نصف كرة سفلي.

٣- ومن هنا يتبين أن النعامة تدحي (تهيء) الأرض الصلبة لاستقبال البيض فلا يتكسر عند وضعه، وتكون ملائمة لحفظه عن العيون وحَضنِهِ وعدم تدحرجه، وما يكون ذلك إلا بضرب رجلها على الأرض الصلبة وتقعيرها إلى الداخل صانعةً العشَ؛ ذلك العش الذي يبدو للناظر ـ غير المدقق ـ أنه مستوٍ وهو في الحقيقة متقعر نحو الأسفل، وهنا وجه الشبه بين الأرض والدحية.

٤- ووجه شبه آخر أن الأرض أيضًا قد دحاها (هيأها) الله للخليفة على الأرض، فهي حاضنته الرؤوم، التي لولا تلك التهيئة لما استطاع العيش عليها.

إذًا فلو كان عش النعامة مستوٍ لما استطاعت حضن البيض، ولو باضت على الأرض الصلبة قبل ضربها برجلها جاعلةً منها ترابًا ناعمًا لتكسر البيض، كما لو كانت الأرض كلها مستوية مسطحة لما أمكن للأرض أن تحتضن الماء على سطحها بأي شكل (بحار وأنهار وسيول. . .) ولو كانت الأرض صلدة بلا تراب لما أنبتت المرعى(١).

الوجه الثاني عشر: الرد على قول القائل: لو كان القرآن قد علم بكروية الأرض لأعطى حينذاك حلولا مسبقة للمشاكل التي سيتعرض لها مسلموا القطب مثلا.

١- النبي محمد ﷺ هو مبيِّن لما في القرآن: فلقد وضَّح أن الإنسان ربما يمر بفترات لا يعلم فيها مواقيت الصلاة سواءً كان ذلك بسبب الأمور الكونية الطبيعية كما هو الحال

---

(١) انظر: مباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن إبراهيم الوطواط، تحقيق: د/ عبد الرزاق الحربي، (ص ٢٨٧)، وانظر موقع: www. hedweb. com/animimag/osteggs. jpg.

انظر: موسوعة الإعجاز العلمي ليوسف الحاج أحمد (ص٢٠٦-٢٠٩). مفاتيح الغيب للرازي (١٩/ ١).

عند سكان القطبين الشمالي والجنوبي، أو بسبب الأمور الكونية الغير عادية كما هو الحال في فترة وجود المسيح الدجال في آخر الزمان، أو بسبب أن الإنسان كان حبيسًا في مكان مظلم لا يعلم عن المواقيت شيئًا.

فعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ»؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ! قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا لَبْثُهُ فِى الأرض؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»[1].

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين: أما المكان الذي لا يتخلله الليل والنهار في أربع وعشرون ساعة فلا يخلو؛ إما أن يكون ذلك مطردًا في سائر العام، أو في أيام قليلة منه، فإن كان في أيام قليلة منه مثل أن يكون المكان يتخلله الليل والنهار في أربع عشرون ساعة طيلة فصول السنة؛ لكن في بعض الفصول يكون فيه أربعٌ وعشرون ساعة أو أكثر والنهار كذلك، ففي هذه الحالة إما أن يكون في الأفق ظاهرة حية يمكن بها تحديد الوقت كابتداء زيادة النور مثلًا أو انطماسه بالكلية فيعلق الحكم بتلك الظاهرة، وإما أن لا يكون فيه ذلك فتقدر أوقات الصلاة بقدرها في آخر يوم قبل استمرار الليل في الأربع والعشرين ساعة أو النهار، فإذا قدرنا أن الليل كان قبل أن يستمر عشرين ساعة، والنهار فيما بقي من الأربع والعشرين؛ جعلنا الليل المستمر عشرين ساعة فقط والباقي نهارًا واتبعنا فيه ما سبق في تحدي أوقات الصلوات، أما إذا كان المكان لا يتخلله الليل والنهار في أربع وعشرين ساعة طيلة العام في الفصول كلها فإنه يحدد لأوقات الصلاة بقدرها؛ لما رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان ﷺ أن النبي ﷺ ذكر الدجال الذي يكون في آخر

(١) رواه مسلم (٧٥٦٠) في الفتن وأشراط الساعة، باب ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ.

الزمان، فسألوه عن لبثه في الأرض فقال: "أربعون يومًا؛ يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم" قالوا: يا رسول الله، فذلك اليوم كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: "لا، اقدروا له قدره".

فإذا ثبت أن المكان الذي لا يتخلله الليل والنهار يقدر له قدره فبماذا نقدره؟

يري بعض العلماء أنه يقدر بالزمن المعتدل، فيقدر الليل باثنتي عشرة ساعة، وكذلك النهار؛ لأنه لما تعذر اعتبار هذا المكان بنفسه اعتبر بالمكان المتوسط، كالمستحاضة التي ليس لها عادة ولا تمييز، ويرى آخرون أنه يقدر بأقرب البلاد إلي هذا المكان مما يحدث فيه ليل ونهار في أثناء العام؛ لأنه لما تعذر اعتباره بنفسه اعتبر بأقرب الأماكن شبهًا به وهو أقرب البلاد إليه التي يتخللها الليل والنهار في أربع وعشرين ساعة، وهذا القول أرجح؛ لأنه أقوى تعليلًا وأقرب إلي الواقع، والله أعلم[1].

٢- قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ عام وشامل لكل من ألمت به الضرورة والعذر:

قال السرخسي: اعلم أن مِن شرط وجوب أداء المأمور به القدرة التي بها يتمكن المأمور من الأداء لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولأن الواجب أداء ما هو عبادة، وذلك عبارة عن فعل يكتسبه العبد عن اختيار ليكون معظمًا فيه ربه فينال الثواب وذلك لا يتحقق بدون هذه القدرة، غير أنه لا يشترط وجودها وقت الأمر لصحة الأمر؛ لأنه لا يتأدى المأمور بالقدرة الموجودة وقت الأمر بحال[2].

فهذا الحديث ليس خاصًا بالفترة التي فيها المسيح الدجال؛ بل في جميع الفترات التي لا يستطيع الإنسان التعرف فيها على المواقيت لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، فكل مالا يستطيع الإنسان فعله من أمر الشرع فإنه يفعل ما يقدر عليه.

(١) رسالة مواقيت الصلاة، وفي مجموع فتاواه، المجلد الثاني عشر.
(٢) أصول السرخسي (١/ ٦٥).

٣- وكذلك لا بد أن نعلم أن القرآن جاء بكل ما يحتاجه الإنسان وحل مشاكله إما بلفظ صريح وإما ضمنيًا؛ لذلك فإن القياس مصدر من مصادر الشريعة الإسلامية، فإن لأهل الأعذار في الفقه الإسلامي حلولًا كثيرة للأسئلة التي ترِد منهم في أمر مواقيت الصلاة:

قال ابن تيمية: مواقيت الصلاة خمسة في حال الاختيار، وثلاثة في حال العذر والضرورة بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، وإن السُّنة مضت بذلك في حال العذر حتى جاز أن يصلي الظهر والعصر ما بين الزوال إلى غروب الشمس، ويصلي المغرب والعشاء ما بين الغروب إلى طلوع الفجر؛ وهو الجمع بين الصلاتين إذا أخَّر الأولى بنية الجمع ثم حدث له عذر أخَّرهما بسببه إلى وقت الضرورة وهذا وقت الضرورة؛ فلذلك كان مدركًا للأولى بما أدرك به الثانية(١).

الوجه الثالث عشر: الرد على من قال: إن الأرض كروية أنها حقيقة علمية ذكرها الكتاب المقدس.

أولا: لفظ كرة الأرض في الكتاب المقدس لفظ محرف:

ففي (أش ٤٠: ٢٢) الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب الذي ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن ولكن الترجمة المشتركة اختلفت عن ذاك النص السابق بـ: (أش ٤٠: ٢٢ (هوَ الجالِسُ على قُبَّةِ الأرض، وسُكَّانُها تَحتَهُ كالجرادِ وَيَنْشُرُهَا كَخَيْمَةٍ لِلسُّكْنَى.

فالترجمة العربية اختلفت في التسمية حيث هناك ترجمة تقول: (الجالس على كرة الأرض).. وترجمة أخرى تقول: (الجالس على قبة الأرض)..

فهل القبة كرة؟ أو هل الكرة كالقبة؟ فالمعروف عن القبة أنها عبارة عن نصف دائر، ولكن ليتضح لنا الأمر علينا أن نأتي للترجمة الإنجليزيةسواء ترجمة الملك جيمس أو الترجمة

---

(١) شرح العمدة ٤/ ٢٣٠- باب شروط الصلاة.

الأمريكية أو غيرها التي تقول: It is he that sitteth upon the circle of the earth

فهل circle تعني كرة؟ وفي أي لغة نجد أن Circle تعني كرة؟! فكلمة Circle تعني: دائرة، فلابد أن هناك خطأً ما، فإما أن تكون الترجمة العربية غير أمينة، أو أن تكون الترجمة الإنجليزية "ساذجة". . هل عندكم حل آخر؟

ثانيًا: لابد أن نرجع للغة الأصلية المكتوب بها العهد القديم:

ولِنَعُدْ إلى الأصل العبراني وذلك باستخدام معجم سترونج الشهير، اقتباس:

compass ،circuit ،from 'chuwg' (٢٣٢٨) ; a circle: --circle

يعني: لا يوجد أثر لمفهوم الكروية، فمن أين أتى به أصحاب الترجمة العربية؟ بالطبع قد نتفهم أن يترجم أصحاب الترجمة العربية كلمة (قرص الأرض) بالعبرانية إلى: "كرة الأرض" كنوع من تحديث Updating لكتابهم المقدس، لكن أن يخرج علينا أحد المبشرين بدعوى وجود إعجاز في هذا النص "المعدل" فهذه "أطروفة الطرائف". . فضلًا عن كونها إما كذب متعمد أو تدليس جاهل.

إذن لم تثبت أصول لغة العهد القديم أنه هناك كلمة اسمها (كرة) بالنص الذي جاء بالإصحاح الأربعين للعدد الثاني والعشرين لسفر أشعياء. . فمن أين أتت الترجمة العربية بكلمة (كرة)؟ لذلك جاءت الترجمة المشتركة بتصحيح هذا الخطأ واستخدمت كلمة (قبة) علمًا بأن المقصود هي كلمة (دائرة) وليس كلمة (كرة أو قبة).

ثالثًا: عندما نكمل الفقرة نـجد اكتشافًا آخر وهو أن الجالس على الدائرة أو القبة جعل السماء كالخيمة بقوله:

(أش ٤٠: ٢٢)ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن.

وهذا يعني أن السماء مسطحة، فإذا ذهبنا إلى القطب الشمالي نرى السماء، وإذا ذهبنا إلى القطب الجنوبي فلن نرى السماء؛ لأن السماء أصبحت كخيمة، والخيمة مسطحة من الأسفل وأسفل السماء الأرض، والمسطح لا يُبنى إلا لمسطح مثله، فهل الأرض مسطحة؟!

رابعًا: في العهد القديم تفريق واضح بين لفظ: (دائرة) ولفظ: (كرة)، فلماذا استخدم النص العبري للآية السابقة لفظ: (دائرة)، وفي آية أخرى استخدم لفظ (كرة)؟

نحن نعلم أن "كرة" أصلها "دائرة" علمًا بأن اللغة العبرية قد عرفت كلمة الكرة واستخدمت في الكتاب المقدس في (أشعياء ٢٢: ١٨): "يلفك لف لفيفة كالكرة إلى أرض واسعة الطرفين. هناك تموت وهناك تكون مركبات مجدك يا خزي بيت سيدك" والكلمة المستخدمة هنا هي كلمة أخرى غير الكلمة المستخدمة سابقًا وجاء في قاموس سترونج أنها تعني١٧٥٤: duwr، dure; from H١٧٥٢; a circle، ball or pile: -- ball، round about turn. ومن الواضح أن كلمة Duwr يمكن أن تعني: دائرة أيضًا (وهي شبيهة باللفظ العربي "دور") أما كلمة chuwg فبالبحث عنها في الكتاب المقدس فقد وجدت في ثلاثة مواضع أخرى هي: (أيوب ٢٦: ١٠) وجاءت بمعنى: "حدًا" في الترجمة العربية compass في الترجمة الإنجليزية: "رسم حدًا على وجه المياه عند اتصال النور بالظلمة" (أيوب ٢٢: ١٤) وجاءت بمعنى: "دائرة" في الترجمة العربية وcircuit في الترجمة الإنجليزية: "السحاب ستر له فلا يرى وعلى دائرة السموات يتمشى" (أمثال ٨: ٢٧) وجاءت بمعنى: "دائرة" في الترجمة العربية وcompass في الترجمة الإنجليزية" ما ثبت السموات كنت هناك أنا. لما رسم دائرة على وجه الغمر" (وفي رأي أن في هذه المواضع الثلاثة يصلح استخدام مفهوم الحد compass) فلا يوجد ما يحملنا على اعتبار أن كلمة chuwg تعني: كرة سوى رغبة النصارى، وهي لا تمثل سوى رغبتهم التي لا نستطيع الاستجابة لها في غياب أي دليل علمي معتبر من المعاجم اللغوية.

خامسًا: أدلة أخرى من الكتاب المقدس توضح أن الأرض غير كروية:

وبطبيعة الحال الثابت أن الإيمان المسيحي يقول: إن الرب يترك صياغة الوحي إلى شخصية الكاتب، حسبما تكون ثقافته وظروفه المختلفة وثنية كانت أم غير ذلك ليظهر ذلك فى تنوع أشكال الأسفار، ما بين بسيطة وأدبية، وشعرية وفلسفية، فتسبب في ذلك الخلط بين الوثنية والديانات الأخرى اليهودية، فبالنسبة لكتاب شارك في كتاباته عشرات الأشخاص كالبابيل معظمهم مجهولي الهوية فمن الطبيعي أن نجد أحدهم يتبنى رأيًا لا يتبناه آخرون، سواءً لاختلافه معهم في وجهة النظر، أو لأنه كان يعاني من نقص معرفي.

من ذلك أن للأرض أطرافًا أربعة:

١- ويرفع راية للأمم، ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض (إشعياء ١١-١٢).

ملاحظة: الجسم الكروي لا يمكن أن يكون له أربعة أطراف، أما أي شكل مسطح فيمكن أن يكون له ذلك، علمًا بأن اللفظ الإنجليزي الذي ترجم إلى أطراف في العربية هو (corners) وتعني: أركانًا.

فلو جاء بالنص (أطراف الأرض) فقط لما علقنا عليه، ولكنه حدد الأطراف بأنهم أربعة أطراف فقط، ولا يوجد في هذا الكون شكل هندسي له أربعة أطراف إلا الشكل المسطح (مستطيل أو مُربع)؛ لذلك جاء في القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد: ٤١) فكلمة (أطراف) تدلنا على أن لكل شيء طُولًا وعَرْضًا تتحدد به مساحته؛ وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه، ونحن نعرف أن أيَّ طول له طرفان، وإنْ كان الشيء على شكل مساحي تكون أطرافه بعدد الأضلاع لذلك أوضح البايبل أن الأرض مسطحة على هيئة (مستطيل أو مربع) بتحديد أطرافه بعدد أضلاعه، ولكن في القرآن لم يحدد الأطراف؛ لأن المعروف هندسيًا أن كل نقطة من دائرة المحيط تعتبر طرفًا لذلك قال تعالى: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وتوقف ولم يتطرق لعدد هذه الأطراف؛ لأن كل نقطة على دائرة المحيط طرف، أما البايبل فحد لنا أطراف الأرض بأنهم أربعة؛ وهذا أكبر دليل على أن الأرض مسطحة كما جاء بالبايبل.

٢- أما كل من يدعي بأن المقصود هو (شمال، جنوب، شرق، غرب) فنقول له: إن هناك فارق كبير بين الأطراف والاتجاهات، فلماذا عجز البايبل في الإتيان باللفظ الصحيح علمًا بأن هناك نصوص بالبايبل تحدثت عن الاتجاهات مثل: (تك ١٣: ١٤)، (خر ٢٦: ٢٠)، (اخ ٩: ٢٤): (في الجهات الأربع كان البوابون في الشرق والغرب والشمال والجنوب (دا ٤: ١٠ (فرؤي رأسي على فراشي هي أني كنت أرى فإذا بشجرة في وسط

الأرض وطولها عظيم، فكبرت الشجرة وقويت فبلغ علوها إلى السماء ومنظرها إلى أقصى كل الأرض. الترجمة الإنجليزية:

١١ The tree grew، and was strong، and the height thereof reached unto heaven، and the sight thereof to the end of all the earth:

فأي نقطة على الجسم الكروي تمثل نقطة الوسط، وبالتالي فوصف: (وسط الأرض) كما جاءت بالعدد العاشر من الإصحاح الرابع لسفر دنيال لا معنى له إلا إذا كان الكاتب يتصور جسمًا مسطحًا، أيضًا تعبير: (أقصى الأرض) كما جاءت بالعدد الحادي عشر من الإصحاح الرابع لسفر دنيال يشير إلى نهايات أو أطراف الأرض، والترجمة الإنجليزية لأقصى الأرض هي: (Ends of the earth).

٣- وكذلك ما جاء بسفر أيوب: (ليمسك بأكناف الأرض فينفض الأشرار منها) (أيوب ٣٨: ١٣) وترجمتها:

١٣ That it might take hold of the ends of the earth، that the wicked might be shaken out of it

أكناف الأرض ends of the earth فأين هي آخر نقطة على الأرض؟

٤- إن تأويل هذه الآيات بشكل مجازي هو أمر وارد جدًا، وأنا أتفق مع أن كثيرًا من هذه العبارات يمكن حملها على المجاز، إلا أن ذلك لا يمنع أن تصورات كتاب هذه العبارات الكوزمولوجية كانت خاطئة، خاصة في ظل دعاوي (عصمة الكتاب المقدس من الخطأ).

٥- من الواضح أن البابلين والعبرانيين القدماء كانوا يتصورون أرضًا مسطحة لها نهاية أو أطراف، وأغلب الظن أنهم ظنوا أنها على شكل دائرة أو قرص، وهناك من يظن أنهم تصوروها على شكل مربع وذلك للآيات التي تشير إلى الأركان الأربعة كما في (إشعياء ١١: ١٢)، و(رؤية يوحنا ٧: ١)، وسواء أكان هناك تصورات مختلفة لدى كتاب الكتاب المقدس أم لا حول شكل الأرض، إلا أنه من الواضح أنهم كانوا متفقين على أنها مسطحة.

إذن كل من يسعى بإدعاء أن البايبل أعلن كروية الأرض لا يمثل سوى رغبته التي لا

نستطيع الاستجابة لها في غياب أي دليل علمي معتبر من المعاجم اللغوية.

ومن ذلك أيضًا: الأرض واقفة على أعمدة:

وبخصوص الأرض الواقفة على أعمدة والمعلقة على لا شيء؛ فهذه الصورة يرسمها لنا الكتاب المقدس في الآيات التالية: المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها (أيوب ٩: ٦) (أعمدتها: pillars في الترجمة الإنجليزية، ammuwd في الأصل العبري، وقد تكررت هذه الكلمة (١١١) مرة في (١٠٩) منهم كانت تعني: العمود أو الأعمدة، ومرة واحدة تعني: هما أو them وكانت تعود على أعمدة، ومرة واحدة تعني: (لكل)، وكانت أيضًا تعود على الأعمدة، وهاتان المرتان كانتا في الآية (٧: ١٥) من سفر الملوك الأول، وذلك حسب ما جاء في (قاموس سترونج) والأدهى من ذلك أن سفر أيوب أعلن لنا أن للسماء أعمدة كما هو حال الأرض (أيوب ٦: ١١)

فللسماء أعمدة والأرض لها قواعد وأعمدة ولكنها معلقة على لا شيء، وهذا التصور يعتبر تصور جديد يضاف لتصورات الشعوب القديمة التي كانت ترى أن الأرض محمولة على أكتاف أطلس أو على ظهر سلحفاة أو فيل أو على قرون ثور... إلخ، فقد كان كاتب سفر أيوب يرى أن الأرض محمولة على لا شيء، ولكنه كان يؤمن بأنها واقفة على أعمدة كما تبين لنا؛ فخاطب الرب أيوب كاشف لها أن الأرض مسطحة ولها طول وعرض فقال (أيوب ٣٨: ١٨: (هل أدركت عرض الأرض أَخبرْ أن عرفته كله؟ فصيغة السؤال تكشف لنا أن الرب كشف لأيوب أن للأرض عرضًا ولم يدركه أيوب كله بل جزء منه. وفي آية أخرى: المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد (مزامير ١٠٤: ٥) والحقيقة أن في هذه الآية تستخدم كلمة foundations في الترجمة الإنجليزية كمعنى للكلمة العبرية makown وأحد المعاني الشائعة لهذه الكلمة في العهد القديم هي (مكان) وبذلك يمكن أن يكون معنى الآية هو (المثبت للأرض في مكانها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد) وهو ما يشير إلى تثبيت الأرض وعدم حركتها، فكيف بأرض كروية يتم تأسيسها على قواعد؟ وأين هي هذه

القواعد؟! وطالما أن للأرض قواعد فبذلك أصبحت مثبتة عديمة الحركة[١].

ويتبين صواب ذلك بالمقارنة مع المذكور في الكتب المقدسة لليهود والنصارى، حين أثبتوا أن للأرض أربع زوايا! ورد في سفر الرؤيا (٧/ ١): وَرَأَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَرْبَعَةَ مَلاَئِكَةٍ وَاقِفِينَ عَلَى زَوَايَا الأرض الأَرْبَعِ، يُحْبِسُونَ رِيَاحَ الأرض الأَرْبَعَ، فَلاَ تَهُبُّ رِيحٌ عَلَى بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ أَوْ شَجَرٍ ". ومثله في سفر حزقيال (٧/ ٢): النهاية قد أزفت على زوايا الأرض الأربع.

فأي الكتابَين أولى بالنقد، القرآن الكريم (الذي نفى الزوايا عن الأرض أم الكتاب المقدس الذي أثبتها؟!

الوجه الرابع عشر: علماء النصارى قديمًا يؤمنون بأن الأرض مسطحة لا أنها كروية، بل ومن المعاصرين منهم من يعتقد ذلك.

مما سبق نقول: إن هذا النص محرف، أو أن نص أن الكرة الأرضية المربعة محرف، فأحد النصين فيهم تحريف؛ والدليل هو في الفهم الخاطئ للكنيسة والقساوسة في العصور الوسطى، فالنص الذي يقول: إن الأرض مربعة هو ما كان دارجًا في ذاك الزمان، وبهذا يكون النص الآخر باطل ومحرف وجاء كإضافة في نسخ الكتاب المقدس؛ لأن هذا النص لو كان موجودًا في العصور الوسطى لما ظهرت فكرة أن الأرض مربعه، وكما نعلم أن القساوسة هم أكثر من يقرأ الكتاب المقدس، فهل عمي القساوسة عن ذاك النص الذي في أهم أسفار العهد القديم (إشعياء) وأبصرت عيونهم النص الذي يُقرُّ أن الأرض مربعه؟ أم أن النصارى يعتقدون أنهم أنبه من قساوسة ذاك الزمان؟ وأن جميع قساوسة العصور الوسطى عمُوا فلم يقرؤا هذا النص؟! فبرغم هذا النص الواضح والصريح (كما زعموا) يعتقدون أن الأرض قرص منبسط... فما حقيقة هذا الكلام "العلمي"... "الموزون"؟!

وهناك في عالمنا المعاصر بعض المسيحيين المحافظين الذين يصرون على إيمانهم الكتابي بأن الأرض مسطحة مثل (صامويل بيرلي روبثام Rowbotham Samuel Birley)

---

(١) موقع الرد على المسيحية (إسلامي) www. answering-christianity. com/earth_flat. htm

مؤسس الحركة العصرية للأرض المسطحة ومثل (ويلبور جلن فوليفا Wilbur Glenn Voliva) أحد أشهر الأمريكين المنادين بالأرض المسطحة.

الوجه الخامس عشر: إثبات كروية الأرض عند المتقدمين بطريقة عقلية.

وأشار كذلك **الإمام الفخر الرازي** إلى كروية الأرض بطريقة عقلية فقال:

ومما يتعلق بأحوال الأرض أنها كرة، وقد عرفت أن امتداد الأرض فيما بين المشرق والمغرب يسمى: طولًا، وامتدادها بين الشمال والجنوب يسمى: عرضًا، فنقول: طول الأرض إما أن يكون مستقيمًا، أو مقعرًا، أو محدبًا.

والأول باطل؛ وإلا لصار جميع وجه الأرض مضيئًا دفعة واحدة عند طلوع الشمس، ولصار جميعه مظلمًا دفعة واحدة عند غيبتها، لكن ليس الأمر كذلك؛ لأنا لما اعتبرنا من القمر خسوفًا واحدًا بعينه، واعتبرنا معه حالًا مضبوطًا من أحواله الأربعة التي هي أول الكسوف وتمامه، وأول انجلائه وتمامه - لم يوجد ذلك في البلاد المختلفة الطول في وقت واحد، ووجد الماضي من الليل في البلد الشرقي منها أكثر مما في البلد الغربي.

والثاني أيضًا باطل؛ وإلا لوجد الماضي من الليل في البلد الغربي أكثر منه في البلد الشرقي؛ لأن الأول يحصل في غرب المقعر أولًا ثم في شرقه ثانيًا.

ولما بطل القسمان ثبت أن طول الأرض محدب، ثم هذا المحدب إما أن يكون كريًا أو عدسيًا، والثاني باطل؛ لأنا نجد التفاوت بين أزمنة الخسوف الواحد بحسب التفاوت في أجزاء الدائرة حتى إن الخسوف الذي يتفق في أقصى عمارة المشرق في أول الليل يوجد في أقصى عمارة المغرب في أول النهار فثبت أنها كرة في الطول.

فأما عرض الأرض فإما أن يكون مسطحًا، أو مقعرًا، أو محدبًا، والأول باطل؛ وإلا لكان السالك من الجنوب على سمت القطب لا يزداد ارتفاع القطب عليه، ولا يظهر له من الكواكب الأبدية الظهور ما لم يكن كذلك، لكنا بينا أن أحوالها مختلفة بحسب اختلاف عروضها.

والثاني أيضًا باطل؛ وإلا لصارت الأبدية الظهور خفية عنه على دوام توغله في ذلك المقعر ولا نقص ارتفاع القطب والتوالي - كاذبة على ما قطعنا في بيان المراتب السبعة

الحاصلة بحسب اختلاف عروض البلدان، وهذه الحجة على حسن تقريرها إقناعية.

الحجة الثانية: ظل الأرض مستدير فوجب كون الأرض مستديرة.

بيان الأول: أن انخساف القمر نفس ظل الأرض؛ لأنه لا معنى لانخسافه إلا زوال النور عن جوهره عند توسط الأرض بينه وبين الشمس، ثم نقول: وانخساف القمر مستدير؛ لأنا نحس بالمقدار المنخسف منه مستديرًا، وإذا ثبت ذلك وجب أن تكون الأرض مستديرة؛ لأن امتداد الظل يكون على شكل الفصل المشترك بين القطعة المستضيئة بإشراق الشمس عليها، وبين القطعة المظلمة منها، فإذا كان الظل مستديرًا وجب أن يكون ذلك الفصل المشترك الذي شكل كل الظل مثل شكله مستديرًا فثبت أن الأرض مستديرة، ثم إن هذا الكلام غير مختص بجانب واحد من جوانب الأرض؛ لأن المناظر الموجبة للكسوف تتفق في جميع أجزاء فلك البروج مع أن شكل الخسوف أبدًا على الاستدارة فإذن الأرض مستديرة الشكل من كل الجوانب.

الحجة الثالثة: أن الأرض طالبة للبعد من الفلك ومتى كان حال جميع أجزائها كذلك وجب أن تكون الأرض مستديرة؛ لأن امتداد الظل كرة، واحتج من قدح في كرية الأرض بأمرين: أحدهما: أن الأرض لو كانت كرة لكان مركزها متطبقًا على مركز العالم، ولو كان كذلك لكان الماء محيطًا بها من كل الجوانب؛ لأن طبيعة الماء تقتضي طلب المركز فيلزم كون الماء محيطًا بكل الأرض. الثاني: ما نشاهد في الأرض من التلال والجبال العظيمة والأغوار المقعرة جدًّا.

أجابوا عن الأول بأن العناية الإلهية اقتضت إخراج جانب من الأرض عن الماء بمنزلة جزيرة في البحر لتكون مستقرًا للحيوانات، وأيضًا لا يبعد سيلان الماء من بعض جوانب الأرض إلى المواضع الغائرة منها؛ وحينئذ يخرج بعض جوانب الأرض من الماء.

وعن الثاني أن هذه التضاريس لا تخرج الأرض عن كونها كرة؛ قالوا: لو اتخذنا كرة من خشب قطرها ذراع مثلًا، ثم أثبتنا فيها أشياء بمنزلة جاروسات أو شعيرات، وقورنا فيها كأمثالها فإنها لا تخرجها عن الكرية ونسبة الجبال، والغيران إلى الأرض دون نسبة

تلك الثابتات إلى الكرة الصغيرة. اهـ.[(١)].

وقال الرازي: إن مد الأرض هو بسطها إلى ما لا يدرك منتهاه، وقد جعل الله حجم الأرض عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه، والكرة إذا كانت في غاية الكبير كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح المستوي الامتداد.

قال الرازي: المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يشعر بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه؛ لأن الأرض لو كانت أصغر حجما مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ (الرعد: ٤١)، وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٤)، وهذا ظاهر للذي يسير من وسط الأرض إلى أيٍّ من أطرافها، ولا يكون إلا في الشكل الكروي.

قال الغزالي في كتاب تهافت الفلاسفة: خسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوئه بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث أنه يقتبس نوره من الشمس، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب، فإذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس، كقولهم: إن كسوف الشمس معناه: وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعهما.

* * *

---

(١) الفخر الرازي (٢/ ٤٩١ - البقرة: ١٦٤).

١٣ - شبهات: عن النجوم والشهب والشياطين

الشبهة الأولى: النجوم رجومًا للشياطين؟!
نص الشبهة:

١ - القرآن يؤكد أن النجومَ رجومٌ للشياطين والكواكب زينة: ففي قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ (الملك: ٥) فقد فسرها البيضاوي بقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾: أقرب السموات إلى الأرض، بمصابيح: بالكواكب المضيئة بالليل إضاءة السرج فيها، والتنكير للتعظيم، ولا يمنع ذلك كون بعض الكواكب مركوزة في سموات فوقها إذ التزيين بإظهارها فيها. ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: وجعلنا لها فائدة أخرى وهي رجم أعدائكم، والرجوم: جمع رَجَم، وهومصدر سُمي ما يرجم به بانقضاض الشهب المسببة عنها، وقيل: معناه: وجعلناها رجومًا وظنونا لشياطين الإنس، وهم المنجمون.

٢ - وجاء في سورة (الصافات: ٦-١٠): ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

وجاء في سورة الحِجر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾، وفسرها البيضاوي بقوله: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس إلى أهلها ويتصرّف في أمرها ويطّلع على أحوالها إلا من استرق السمع، واستراق السّمع اختلاسه سرًا، شبه به خطفتهم اليسيرة من قُطّان (سكان) السموات لما بينهم من المناسبة في الجوهر، أوبالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها. وعن ابن عباس: إنهم كانوا لا يُحجَبون من السموات، فلما وُلد عيسى مُنعوا من ثلاث سموات، فلما وُلد محمد مُنعوا منها كلها بالشهب،

ولا يقدح فيه تكونها قبل المولد لجواز أن يكون لها أسباب أخرى. وقيل: الاستثناء منقطع؛ أي: ولكن من استرق السمع ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ فتبعه ولحقه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين، والشهاب شعلة نار ساطعة، وقد يطلق للكوكب والسنان لما فيهما من البريق.

٣- كل كوكب هوعالم ضخم، والكواكب هي ملايين العوالم الضخمة تسبح على أبعاد شاسعة في فضاء لا نهائي، فكيف نتصور الكواكب كالحجارة يمسك بها ملاك في حجم الإنسان ليضرب بها الشيطان منعًا له من استماع أصوات سكان السماء؟ هل كل هذه الأجرام السماوية خُلقت لتكون ذخيرة أوعتاداً حربيًا كالحجارة لرجم الشيطان حتى اشتهر اسمه بالشيطان الرجيم؟! وكيف يطرح الملائكة الكواكب؟ وكيف يُحفظ توازن الكون إذا سارت في غير فلكها؟

والرد على ذلك من وجوه:

أولًا: الآيات المتعلقة بالموضوع:

١ - **قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ (المُلك: ٥)

٢- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ (الحِجر: ١٦-١٨).

٣- وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ (الجن: ٨-٩).

ثانيًا: بيان وجوه الرد:

الوجه الأول: إن تلك الشبهة ليست حديثة، بل أثارها الزنادقة في العصر العباسي، ورد عليهم الجاحظ.

الوجه الثاني: عالم الشياطين غيب، فلا يجوز قياس الغيب بأدوات البحث العلمي

المستخدمة للمحسوسات.

الوجه الثالث: السماوات السبع من الغيب، ولا يشترط أن تكون السماء كالسطح الأملس، فكل ما علا وارتفع يسمى سماء، ولذلك يقال لسقف البيت، والسحاب سماء.

الوجه الرابع: ليس المقصود بالشهب أنها كواكب السماء؛ بل هي شواظ من النار.

الوجه الخامس: هل لفظ النجوم لغة هولفظ النجوم اصطلاحًا؟

الوجه السادس: بيان علماء التفسير لتوضيح الفرق بين النجوم والشهب في الآيات.

الوجه السابع: الإعجاز العلمي في الآيات.

الوجه الثامن: فهم ما في هذه الآيات من البلاغة يقتضي الفهم الصحيح لها، فلا يفهم القرآن من لم يفهم لغة القرآن، ومن أساليب العرب الاستطراد كما في الآية.

الوجه التاسع: الآية توضح اتصال أمر من السماء بأمر من الأرض.

الوجه العاشر: الملائكة في الكتاب المقدس تحرس الجنة معهم أدوات عقاب.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: إن تلك الشبهة ليست حديثة، بل أثارها الزنادقة في العصر العباسي، ورد عليهم الجاحظ.

وذلك يوضح جليًا أن معظم الشبهات التي تثار ضد الإسلام إليوم؛ إنما هي مجمعة من الشبهات التي رد عليها علماء المسلمين قديمًا، وإليك كلام الجاحظ:

قال الجاحظ[1]: قالوا: زعمتم أنَّ اللهّ تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾، **وقال تعالى**: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾. ونحنُ لم نجدْ قطُّ كوكبًا خلا مكانهُ، فما ينبغي أنْ يكون واحدٌ من جميع هذا الخلق؛ من سكّان الصحارى، والبحار، ومن يَراعِي النُّجوم للاهتداء، أو يفكِّر في خلق السموات أن يكون يرى كوكبًا واحدًا زائلًا، مع قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا

(١) في كتاب الحيوان ٦/ ٤٩٦- ٥٠٠ (أشعارٌ حِسَان).

لِلشَّيَاطِينِ﴾. قيل لهم: قد يحرِّك الإنسانُ يدَه أو حاجبَه أو إصبَعه فتضاف تلك الحركةُ إلى كلِّه، فلا يشكُّون أنّ الكلَّ هوالعاملُ لتلك الحركة، ومتى فصَل شهابٌ من كوكب، فأحرق وأضاء في جميع البلاد فقد حكَم كلُّ إنسانٍ بإضافة ذلك الإحراق إلى الكوكب، وهذا جواب قريبٌ سهل، والحمد لله.

ولم يقلْ أحد: إنّه يجبُ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أنّه يَعْني: الجميع، فإذا كان قد صحّ أنّه إنّما عَنى البعض فقد عَنى نُجُوم المجرّة والنجومَ التي تظهر في ليالي الحنادس[1]؛ لأنّه محال أن تقعَ عينٌ على ذلك الكوكبِ بعينه في وقت زوَاله حتّى يكون الله ﷻ لوأفنى ذلك الكوكَب من بين جميع الكواكب الملتفَّة؛ لعرف هذا المتأمِّلُ مكانه، ولوَجَدَ مَسَّ فقدِه، ومن ظَنَّ بجهله أنَّه يستطيع الإحاطة بعدد النُّجوم فإنه متى تأمَّلها في الحَنادس، وتأمَّل المجرَّة وما حولها؛ لم يضرِب المثل في كثرة العدد إلا بها، دونَ الرّمل والتّراب وقطْر السَّحاب.

وقال بعضُهم: يدنوالشِّهاب قريبًا، ونراه يجيء عَرْضًا لا مُنْقضًا ولوكان الكوكب هوالذي ينقضُّ لم يُر كالخيط الدّقيق، ولأضاء جميع الدُّنيا، ولأحرق كلَّ شيء مما على وجْه الأرض.

قيل له: قد تكون الكواكب أفقيّة ولا تكونْ علوية؛ فإذا كانت كذلك فصَل الشِّهابُ منها عَرْضًا، وكذلك قال اللهّ تعالى: ﴿إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، ، وقال اللهّ ﷻ: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ فليس لكم أن تقضوا بأنّ المباشر لبدَن الشيطان هوالكوْكب حتى لا يكون غير ذلك، وأنتم تسمعونَ اللهّ تعالى يقول: ﴿ فأتبعَهُ شِهَابٌ ثَاقبٌ ﴾، والشِّهاب معروفٌ في اللغة، وإذا لم يُوجِبْ عليها ظاهرَ لفظ القُرآن لم ينكر أنْ يكون الشِّهَابُ كالخطّ أوكالسهم لا يضيءُ إلا بمقدار، ولا يَقْوَى على إحراق هذا العالم، وهذا قريبٌ والحمد لله.

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب ٦/ ٥٨ (حندس): "الحندس الظلمة. . وليلة حندسة وليل حندس: مظلم. والحنادس: ثلاث ليال من الشهر لظلمتهن ".

وطعن بعضهم من جهة أخرى فقال: زعمتم أنّ اللهّ تبارك وتعالى قال: ﴿وَحفظًا منْ كلِّ شَيْطانٍ ماردٍ، لا يَسَّمعُون إلى الملإ الأعْلى وَيُقْذَفُونَ من كلِّ جانبٍ، دُحورًا ولَهُمْ عَذابٌ واصبٌ﴾ وقال على سَنَنِ الكلام: ﴿إلا مَنْ خَطفَ الخَطْفَةَ فأتْبَعَهُ شهَابٌ ثاقبٌ﴾، قال: فكيف تكون الخطفة من المكان الممنوع؟

قيل له: ليس بممنوعٍ من الخطفة؛ إذ كان لا محالة مرمِيًّا بالشِّهاب، ومقْتُولًا، على أنّه لو كان سلِمَ بالخطْفة لما كان استفاد شيئًا للتكاذيب والرِّياسة، وليس كلُّ من كذب على الله وادَّعى النبوَّة كان على اللهّ تعالى أنْ يُظهر تكذيبه؛ بِأن يخسِفَ به الأرْض، أو ينطِقَ بتكذيبه في تلك السَّاعة، وإذا وجبت في العُقول السّليمة إلا يصدق في الأخبار لم يكن معه بُرهان، فكفي بذلك.

ولو كان ذلك لكانَ جائزًا، ولكنَّه ليس بالواجب، وعلى أنَّ ناسًا من النحويِّين لم يُدخلوا قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ في الاستثناء، وقال: إنّما هو كقوله:

إلا كخارجة المكلّفِ نفسَه وابنَي قبيصة أن أغيبَ ويشْهدَا

وقوله أيضًا:

إلا كناشرة الذي كَلّفتمُ كالغُصْنِ في غلوائه المتَنبّتِ

قلت: يقصد الجاحظ أن الذي يصيب بدن الشيطان هو أثر حرارة النار الناتجة عن احتكاك الجرم السماوي بالغلاف الجوي للأرض، ونراه على صورة ضياء لا عين الجرم الموجود في مركزه.

الوجه الثاني: عالم الشياطين غيب، فلا يجوز قياس الغيب بأدوات البحث العلمي المستخدمة للمحسوسات.

أولًا: أقول لصاحب هذه الشبهة: أرني الشياطين أريك كيف يرجمها الله بالنجوم؟! إن من يلقي تلك الشبهة هو غالبًا نصراني. . . أي: أنه يؤمن بالشياطين وبعالم الغيب، فكيف يطلب منا أن نشرح له شيئًا هو في علم الغيب؟ إنه يؤمن بأن هناك عالمًا كاملًا مختفيًا اسمه عالم الشياطين، ولا دليل علمي محسوس عليه، ولا يستطيع أكبر نصراني في العالم أن يرينا ولودليل واحد عليه، فلماذا يسخر إذن من شيء هو في علم الغيب الذي عند الله؟ قد أفهم

هذا السؤال من رجل ملحد، لا يؤمن بالغيب أصلًا، لكن كيف يجرؤ النصراني على قول هذا السؤال وهو يؤمن بأن هناك غيب وشياطين؟!

ففي المعارف الكتابية:

يصور لنا العهد الجديد الشيطان بأنه شخصية خبيثة غير بشــرية، ولكن الكثيرين لا يقبلون مفهوم وجود كائن اسمه الشيطان، وحجتهم في ذلك أن وجود شيطان حقيقي لا يمكن إثباته علميًا، ونحن نعترف أن الحقائق الروحية لا يمكن إثباتها بوسائل علمية طبيعية، وبناء عليه يمكن أيضًا رفض الإعلان الكتابي عن وجود الله.

ثانيًا: إن الله في هذه الآيات يخبرك بحقيقة غيبية لا بحقيقة علمية، والمتفحص في آيات الله سيظهر له جليًا الفارق بين آية تتحدث عن حقيقة علمية وآية أخرى تتحدث عن حقيقة غيبية، فمثلًا عندما يقول الله: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾، لاحظ أن الله سبحانه وتعالى جاء بفعل غيبي هنا. . . فالسجود هولله سبحانه وتعالى، فإن طلب النصراني أن نريه كيف يسجد النجم والشجر لله، طلبنا منه أن يرينا الله أصلًا فليست كل آية يجئ الله فيها بشيء مادي محسوس هي آية إعجاز علمي، ويمكن لأي أحد معرفة ذلك بسهوله شديدة من ملاحظة مجرى الآية.

ثالثًا: آيات الإعجاز العلمي تلاحظ أنها تصف حقيقة واقعة لا تأتي بشيء غيبي. . . مثل قوله تعالى في سورة (يس: ٤٠): ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾، هل هناك أي غيب في الآية؟ هل هناك ذكر لملائكة، أو شياطين، أو سجود لله تعالى، أو نار، أو جنة، أو يوم قيامة، أو ما إلى ذلك من علم الغيب؟ لا. . . إن الآية واضحة للغاية في أنها تورد حقيقة واقعة جاء العلم الحديث ليفاجئ بصحتها، بل يفاجئ بدقتها الشديدة أيضًا، فلا يوجد وصف أدق لحركة الكواكب والنجوم والشمس والقمر في الفضاء إلا بالسباحة في مسارات محددة لها توصف بالأفلاك.

وأيضًا كما في الآية الكريمة في سورة (الحج: ٥): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ

ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾، لاحظ أنه في تلك الآية جاء الله بعلم غيبي (البعث) ثم أتبعه بمثال علمي ليظهر لنا إمكان حدوث الغيب، وهنا جمع الله بين النوعين، لكنه جعل الفارق واضحًا بين أول الآية وبقيتها؛ أي: بين علم الغيب وعلم الواقع، لكيلا يتداخل النوعان عند المتلقي.

فإن أول الآية (الحقيقة الغيبية) لابد أن يوضحها الله لنا بعلم واقعي (الحقيقةالعلمية) فهويضرب لنا مثلًا من واقعنا، ولم يضرب لنا مثلًا بحقيقة غيبية أخرى، وإلا انتفي الغرض من الآية.

رابعًا: هل للنصراني أن يرينا كيف أن الشيطان ينزع الكلمة من القلوب؟ بل وكيف تزرع الكلمة في القلوب؟

بل إننا نطلب منه فقط أن يرينا شيطانًا واحد أصلًا! ففي إنجيل (مرقص: (١٥ :٤ (وهؤلاء هم الذين على الطريق؛ حيث تزرع الكلمة حينما يسمعون يأتي الشيطان للوقت وينزع الكلمة المزروعة في قلوبهم).

الوجه الثالث: السماوات السبع من الغيب، ولا يشترط أن تكون السماء كالسطح الأملس، فكل ما علا وارتفع يسمى سماء، ولذلك يقال لسقف البيت، والسحاب سماء[1].

فالسماء هى خضم الفضاء بما فيه من الأجرام والشهب والصورة التي يراها سكان الأرض في الليالى الصافية هى القبة الزرقاء تُزينها النجوم والكواكب وكأنها مصابيح، كما ترى الشهب تهوى محترقة في أعالى جوالأرض، وما القبة الزرقاء إلا نتيجة لتلاقى ضوء الشمس والنجوم مع دقائق الغبار العالقة في الهواء وجزئيات الهواء نفسه وتشتته بها، هذا

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٩٨)؛ وفيه: "كل ما علا وارتفع يُقال له: سما يسمو.

فضلًا عن الظواهر الضوئية الخاصة التي تُزين السماء الدنيا مثل: الشفق والفجر، والأضواء البروجية، وأضواء الشمال، أو الفجر القطبى، وكلها ظواهر متباينة ترجع إلى تفاعل الضوء مع غلاف الأرض الجوى ومجالها المغناطيسى.

ففي ختام سورة الطلاق؛ وهي تلفت الأنظار إلى قدرة الله تعالى البالغة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾.

الوجه الرابع: ليس المقصود بالشهب أنها كواكب السماء؛ بل هي شواظ من النار.

أولا: ففي القرآن تفسير الشهب بشواظ من نار، ففي قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ (الرحمن: ٣٣-٣٥)، فقد جعل للجن غير ما جعل للإنس من أدوات العقاب، ولم يجعل للجن كواكب تُرمى بها كالقمر والشمس، وإنما جعل للجن ﴿شُوَاظٞ﴾ أي: شهب.

ثانيًا: الآيات الكريمة تتحدث أن الحرارة الناتجة عن احتراق الجرم السماوي (الشهاب) الذي لا يشترط أن يكون أصله نجمًا - رجومًا للشياطين، ولم تذكر أبدًا أن أداة الرجم نجمًا كاملًا. "والذي في الآية أن هناك أجسامًا نارية تصيب الشياطين، ولم يذكر أن الشيطان يسقط عليه نجم أو أن الملائكة ترميه به، والعلم الحديث ورواد الفضاء يتحدثون عن النيازك التي ترى في الفضاء الواسع مذنبات مضيئة، ومنها الناري الذي ينطفئ ويتفتت في سيره، وبعضها يصل إلى الأرض؛ وهي تشبه المقذوفات البركانية، والذين درسوا الجغرافية الفلكية يعرفون هذا، فهذه المقذوفات قطع تنفصل من الكواكب وتتحرك في الفضاء، خصوصًا إذا كان النجم أوالكوكب قريبًا من الأرض، والله تعالى

يصيب بها من يشاء ويحفظ بها من يشاء "[١].

أَمَا سَمِعَ نوابغُ العصر أصحاب (تيموثاوس) أن الذين نزلوا على سطح القمر رأوا هناك جهات ساكنة نارها، وأخرى ملتهبة؟ وأنهم رأوا الأرض مشعة كما نرى نحن القمر فكأنها قطعًا باردة ولكنها مضيئة؟ وأن الفضاء مليء بقطع نارية سابحة، ومنها ما يصل إلى الأرض.

قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ (الحجر ١٦- ١٨) فالبروج بقيت في مكانها، والذي تحرك هوالشهاب، وتأمل ما ورد في سورة (الصافات: ٦-١٠): ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فالذي (أَتْبَعَ) الشيطانَ الماردَ ليس الكوكب [المذكور في الآية رقم (٦)]، بل الشهاب [المذكور في الآية رقم (١٠)].

الوجه الخامس: هل لفظ النجوم لغة هولفظ النجوم إصطلاحًا؟

لا يشترط أن تكون النجوم المذكورة في القرآن الكريم هي عينها ما اتفق عليه اصطلاح الناس حديثًا؛ بأنها ذلك الجرم الكوني الضخم الغازي المضيء بذاته كالشمس.[٢] بعكس سائر الأجرام المعتمة كالكواكب والأقمار، فيجوز أن يكون المقصود بالنجم - لغة لا اصطلاحًا-: كل جسم صلب يسبح في الفضاء. جاء في العين: "النَّجمُ: اسم يقعُ على الثُّريا، وكلِّ منزلٍ من منازلِ القمر سمِّي نجمًا. وكل كوكب من أعلام الكواكب يُسمى نجمًا، والنُّجومُ تَجمَعُ الكواكب كلَّها"[٣].

الوجه السادس: بيان علماء التفسير لتوضيح الفرق بين النجوم والشهب في الآيات.

فَمَرَدُّ الشبهة أن الشهب تسمى وفق الرؤية الظاهرية بالنجوم المارقة أو الهاوية

(١) رد مفتريات على الإسلام لعبد الجليل شلبي (ص ١٣٢).

(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية؛ إعداد مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر، الرياض، ١٩٩٦م، ٢٥/ ١٢٥ (نجم).

(٣) العين للخليل بن أحمد (٢/ ٥٢٩) باب الجيم والنون والميم معهما.

(Shooting or Falling Stars)، ووفق ما سجلته المعاجم لا تميز لغةُ العرب بين النجم والكوكب، بينما ميز القرآن الكريم بينهما على نحويتفق مع الواقع كما في المصطلح العلمي الحديث، ووصف القرآن الكريم الشهب بالتوهج بلفظ (مصابيح) على نحويتفق مع كونها ظاهرة ضوئية؛ قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ (فصلت: ١٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (الملك: ٥) ومرد الإشكال إلى الفهم بأن الشهب المعبر عنها في الآيتين الكريمتين تشبيهًا بالمصابيح لتوهجها هي النجوم الثوابت، ولكن المحققين قد دفعوا هذا الوهم وقالوا بأن النجوم ثوابت في مواقعها لا ينقص عددها، وإنما المراد هوالشهب دونها كما صرح بذلك القرآن الكريم نصًا.

قال الخازن: ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب.

وقال ابن عاشور: والذي جُعل رُجومًا للشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة، ثم تلوح منقضَّة؛ وتسمى الشُهُب[1].

وقال الرازي: هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض بدليل أنا نشاهد حركتها بالعين.[2]

وقال: ولو كانت هذه الشهب هي تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد البتة؛ فإن أعداد كواكب السماء باقية في حالة واحدة من غير تغير البتة، فهذه الشهب جنس آخر غير الكواكب... فالضمير في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا﴾ عائد إلى المصابيح، فوجب أن تكون تلك المصابيح هي الرجوم بأعينها.

فإن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٣).

(٢) مفاتيح الغيب (١٥/ ٤٠٢).

بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ فنقول: كل نير يحصل في الجو العالى فهو مصباح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها ما تبقى على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد، ومنها ما لا يكون كذلك، وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى، ويجعلها رجومًا للشياطين، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال(١).

وقال الألوسي:

وإطلاق الرجوم على النجوم، وقولهم: رمي بالنجم يحتمل أن يكون مبنيًا على الظاهر للرائي، كما في قوله تعالى في الشمس: ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وهذه الشهب ليست هي الثوابت، وإلا لظهر نقصان كبير في أعدادها، بل هي جنس آخر غيرها يحدثها الله تعالى، ويجعلها رجومًا للشياطين، ولا يأباه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾؛ حيث أفاد أن تلك المصابيح هي الرجوم بأعيانها؛ لأنا نقول: كل نير يحصل في الجو العالى فهو مصباح لأهل الأرض، والشهب من هذا القسم؛ وحينئذ يزول الإشكال(٢).

وقال أيضًا: ﴿شِهَابٌ﴾ هو في الأصل الشعلة الساطعة من النار الموقدة، والمراد به العارض المعروف في الجو الذي يرى كأنه كوكب منقض من السماء ﴿ثاقب﴾ مضيء، كما قال الحسن وقتادة كأنه ثقب الجو بضوئه، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم؛ عن يزيد الرقاضي أنه قال: يثقب الشيطان حتى يخرج من الجانب الآخر. فذكر ذلك لأبي مجلز فقال: ليس ذاك؛ ولكن ثقوبه ضوؤه. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ المتوقد وهو قريب مما تقدم. وأخرج عن السدي ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ المحرق.

وليست الشهب نفس الكواكب التي زينت بها السماء فإنها لا تنقض وإلا لانتقصت زينة السماء بل لم تبق، على أن المنقض إن كان نفس الكواكب بمعنى أنه ينقلع عن مركزه

---

(١) مفاتيح الغيب ١٣/ ١٠٦.

(٢) روح المعاني ٩ / ٤٦٦.

ويُرمى به الخاطف فيرى لسرعة الحركة كرمح من نار لزم أن يقع على الأرض؛ وهو إن لم يكن أعظم منها فلا أقل من أن ما انقض من الكواكب من حين حدث الرمي إلى إليوم أعظم منها بكثير؛ فيلزم أن تكون الأرض إليوم مغشية بأجرام الكواكب، والمشاهدة تكذب ذلك بل لم نسمع بوقوع جرم كوكب أصلًا.

وأصغر الكواكب عند الإسلاميين كالجبل العظيم، وعند الفلاسفة أعظم وأعظم بل صغار الثوابت عندهم أعظم من الأرض وإن التزم أنه يرمى به حتى إذا تم الغرض رجع إلى مكانه، قيل عليه: إنه حينئذٍ يلزم أن يسمع لهويه صوت هائل فإن الشهب تصل إلى محل قريب من الأرض، وأيضًا عدم مشاهدة جرم كوكب هابطًا أو صاعدًا يأبى احتمال انقلاع الكوكب والرمي به نفسه، وإن كان المنقض نوره فالنور لا أذى فيه فالأرض مملوءة من نور الشمس وحشوها الشياطين، على أنه إن كان المنقض جميع نوره يلزم انتقاص الزينة أوذهابها بالكلية، وإن كان بعض نوره يلزم أن تتغير أضواء الكواكب ولم يشاهد في شيء منها ذلك، وأمر انقضاضه نفسه أوانفصال ضوئه على تقدير كون الكواكب الثوابت في الفلك الثامن المسمى بالكرسي عند بعض الإسلاميين وأنه لا شيء في السماء الدنيا سوى القمر أبعد وأبعد. والفلاسفة يزعمون استحالة ذلك لزعمهم عدم قبول الفلك الخرق والالتئام إلى أمور أخر، ويزعمون في الشهب أنها أجزاء بخارية دخانية لطيفة وصلت كرة النار فاشتعلت وانقلبت نارًا ملتهبة، فقد تُرى ممتدة إلى طرف الدخان، ثم تُرى كأنها طفئت وقد تمكث زمانًا كذوات الأذناب وربما تتعلق بها نفس على ما فصلوه، وهم مع هذا لا يقولون بكونها ترمي بها الشياطين بل هم ينكرون حديث الرمي مطلقًا، وفي النصوص الإلهية رجوم لهم.

ولعل أقرب الاحتمالات في أمر الشهب أن الكوكب يقذف بشعاع من نوره فيصل أثره إلى هواء متكيف بكيفية مخصوصة يقبل بها الاشتعال بما يقع عليه من شعاع الكوكب بالخاصية فيشتعل فيحصل ما يشاهد من الشهب، وإن شئت قلت: إن ذلك الهواء المتكيف

بالكيفية المخصوصة إذا وصل إلى محل مخصوص من الجوأثرت فيه أشعة الكواكب بما أودعه الله تعالى فيها من الخاصية فيشتعل فيحصل ما يحصل، وتأثير الأشعة الحرق في القابل له مما لا ينكر فإنا نرى شعاع الشمس إذا قوبل ببعض المناظر على كيفية مخصوصة أحرق قابل الإحراق ولوتوسط بين المنظرة وبين القابل إناء بلور مملوء ماء، ويقال: إن الله تعالى يصرف ذلك الحاصل إلى الشيطان المسترق للسمع وقد يحدث ذلك وليس هناك مسترق، ويمكن أن يقال: إنه سبحانه يخلق الكيفية التي بها يقبل الهواء الإحراق في الهواء الذي في جهة الشيطان.

ولعل قرب الشيطان من بعض أجزاء مخصوصة من الهواء معد بخاصية أحدثها الله تعالى فيه لخلقه ﷻ تلك الكيفية في ذلك الهواء القريب منه، مع أنه ﷻ يخلق تلك الكيفية في بعض أجزاء الهواء الجوية حيث لا شيطان هناك أيضًا.

وإن شئت قلت: إنه يخرج شؤبوب من شعاع الكوكب فيتأذى به المارد أويحترق، واللهﷻ قادر على أن يحرق بالماء ويروي بالنار، والمسببات عند الأسباب لا بها وكل الأشياء مسندة إليه تعالى ابتداءً عند الأشاعرة، ولا يلزم على شيء مما ذكر انتقاص ضوء الكوكب، ولو سلم أنه يلزم انتقاص على بعض الاحتمالات! قلنا: إنه ﷻ يخلق بلا فصل في الكوكب بدل ما نقص منه، وأمره سبحانه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

ولا ينافي ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (الملك: ٥)؛ لأن جعلها رجومًا يجوز أن يكون لأنه بواسطة وقوع أشعتها على ما ذكرنا من الهواء تحدث الشهب فهي رجوم بذلك الاعتبار، ولا يتوقف جعلها رجومًا على أن تكون نفسها كذلك بأن تنقلع عن مراكزها ويرجم بها، وهذا كما تقول: جعل الله تعالى الشمس يحرق بها بعض الأجسام فإنه صادق فيما إذا أحرق بها بتوسيط بعض المناظر وانعكاس شعاعها على قابل الإحراق.

وزعم بعض الناس أن الشهب شعل نارية تحدث من أجزاء متصاعدة إلى كرة النار

وهي الرجوم ولكونها بواسطة تسخين الكواكب للأرض قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾ على التجوز في إسناد الجعل إليها أوفي لفظها، ولا يخفي أن كرة النار مما لم تثبت في كلام السلف ولا ورد فيها عن الصادق - عليه والصلاة والسلام- خبر، وقيل: يجوز أن تكون المصابيح هي الشهب وهي غير الكواكب وزينة السماء بالمصابيح؛ لا يقتضي كونها فيها حقيقة إذ يكفي كونها في رأي العين كذلك، وقيل: يجوز أن يراد بالسماء جهة العلووهي مزينة بالمصابيح والشهب كما مزينة بالكواكب. وتعقب هذا بأن وصف السماء بالدنيا يبعد إرادة الجهة منها، وتعقب ما قبله بأن المتبادر أن المصابيح هي الكواكب ولا يكاد يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب﴾ (الصافات: ٦)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ (الملك: ٥) إلا شيء واحد، وأن كون الشهب المعروفة زينة السماء مع سرعة تقضيها وزوالها وربما دهش من بعضها مما لا يسلم، والقول بأنه يجوز إطلاق الكوكب على الشهاب للمشابهة؛ فيجوز أن يراد بالكواكب ما يشمل الشهب وزينة السماء على ما مَرَّ آنفًا زيد فيه على ما تقدم ما لا يخفي ما فيه، نعم. . يجوز أن يقال: إن الكوكب ينفصل منه نور إذا وصل إلى محل مخصوص من الجو انقلب نارًا ورؤي منقضًا ولا يعجز الله ﷻ شيء، وقد يقال: إن في السماء كواكب صغارًا جدًا غير مرئية ولو بالأرصاد لغاية الصغر وهي التي يرمي بها أنفسها، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (الملك: ٥) من باب عندي درهم ونصفه، و﴿إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب. وَحِفْظًا﴾ (الصافات: ٦، ٧) الآية، إن كان على معنى: وحفظًا بها فهو من ذلك الباب أيضًا وإلا فالأمر أهون فتدبر.

واختلف في أن المرجوم هل يهلك بالشهاب إذا أصابه أويتأذي به من غير هلاك، فعن ابن عباس: أن الشياطين لا تقتل بالشهاب ولا تموت ولكنها تحرق وتخبل أي يفسد منها بعض أعضائها، وقيل: تهلك وتموت، ومتى أصاب الشهاب من اختطف منهم كلمة قال للذي يليه كان كذا وكذا قبل أن يهلك.

وأيًا ما كان لا يقال: إن الشياطين ذوو فطنة؛ فكيف يعقل منهم العود إلى استراق السمع مرة بعد مرة مع أن المسترق يهلك أويتأذى الأذى الشديد واستمرار انقضاض الشهب دليل استمرار هذا الفعل منهم؛ لأنا نقول: لا نلزم استمرار هذا الفعل منهم، واستمرار الانقضاض ليس دليلًا عليه؛ لأن الانقضاض يكون للاستراق ويكون لغيره، فقد أشرنا فيما سبق أن الهواء قد يتكيف بكيفية مخصوصه فيحترق بسبب أشعة الكواكب وإن لم يكن هناك مسترق، وقيل: يجوز أن ترى الشهب لتعارض في الأهوية واصطكاك يحصل منه ما ترى كما يحصل البرق باصطكاك السحاب على ما روي عن بعض السلف وحوادث الجولا يعلمها إلا الله تعالى، فيجوز أن يكونوا قد استرقوا أولًا فشاهدوا ما شاهدوا فتركوا واستمرت الشهب تحدث لما ذكر لا لاستراق الشياطين، ويجوز أن يقع أحيانًا ممن حدث منهم ولم يعلم بما جرى على رؤوس المسترقين قبله، أو ممن لا يبالى بالأذى ولا بالموت حبًا لأن يقال: ما أجسره أو ما أشجعه مثلًا كما يشاهد في كثير من الناس يقدمون في المعارك على ما يتيقنون هلاكهم به حبًا لمثل ذلك، ولعل في وصف الشياطين بالمارد ما يستأنس به لهذا الاحتمال، وأما ما قيل: إن الشهاب قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يرتدعون عنه رأسًا فخلاف المأثور، فقد أخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن أن عباس ﷺ قال: إذا رمي بالشهاب لم يخطىء من رمي به.

هذا وقد استشكل أمر الاستراق بأمور؛ منها: أن الملائكة في السماء مشغولون بأنواع العبادة؛ أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أوراكع أوساجد فماذا تسترق الشياطين منهم؟

وإذا قيل: إن منهم من يتكلم بالحوادث الكونية فهم على محدبها، والشياطين تسترق تحت مقعرها وبينهما كما صح في الأخبار خمسمائة عام فكيف يتأتى السماع لا سيما والظاهر أنهم لا يرفعون أصواتهم إذا تكلموا بالحوادث إذ لا يظهر غرض برفعها، وعلى تقدير أن يكون هناك

رفع صوت فالظاهر أنه ليس بحيث يسمع من مسيرة خمسمائة عام، وعلى تقدير أن يكون بهذه الحيثية فكرة الهواء تنقطع عند كرة النار ولا يسمع صوت بدون هواء؟

وأجيب بأن الاستراق من ملائكة العنان وهم يتحدثون فيما بينهم بما أمروا به من السماء من الحوادث الكونية، و﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ (الجن: ٨) طلبنا خبرها أومن الملائكة النازلين من السماء بالأمر فإن ملائكة على أبواب السماء ومن حيث ينزلون يسألونهم بماذا تذهبون؟ فيخبرنهم، وليس الاستراق من الملائكة الذين على محدب السماء.

وأمر كرة النار لا يصح، والهواء غير منقطع وهو كلما رق ولطف كان أعون على السماع، على أن وجود الهواء مما لا يتوقف عليه السماع على أصول الأشاعرة، ومثله عدم البعد المفرط، وظاهر خبر أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة أن الاستراق من الملائكة في السماء قال: «إذا قضى الله تعالى أمرًا تكلم تبارك وتعالى فتخر الملائكة كلهم سجدًا فتحسب الجن أن أمرًا يقضي فتسترق، فإذا عن قلوب الملائكة - عليهم السلام- ورفعوا رؤوسهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا جميعًا: الحق وهوالعلي الكبير». وجاء في خبر أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر؛ عن إبراهيم التيمي: «إذا أراد ذوالعرش أمرًا سمعت الملائكة كجر السلسلة على الصفا فيغشى عليهم فإذا قاموا قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال من شاء الله: الحق وهوالعلي الكبير.

ولعله بعد هذا الوجه يذكر الأمر بخصوصه فيما بين الملائكة - عليهم السلام-، وظاهر ما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس من تفسير الملأ الأعلى بكتبة الملائكة - عليهم السلام- أيضًا أن الاستراق من ملائكة في السماء إذ الظاهر أن الكتبة في السماء، ولعله يتلى عليهم من اللوح ما يتلى فيكتبونه لأمر ما فتطمع الشياطين باستراق شيء منه، وأمر البعد كأمر الهواء لا يضر في ذلك على الأصول الأشعرية، ويمكن أن يُدَّعَى أن جرم السماء لا يحجب الصوت وإن كثف، وكم خاصية أثبتها الفلاسفة للأفلاك! ليس عدم الحجب أغرب منها.

ومنها أنه يغني عن الحفظ من استراق الشياطين عدم تمكينهم من الصعود إلى حيث يسترق السمع، أو أمر الملائكة - عليهم السلام- بإخفاء كلامهم بحيث لا يسمعونه، أو جعل لغتهم مخالفة للغتهم بحيث لا يفهمون كلامهم؟ وأجيب بأن وقوع الأمر على ما وقع من باب الابتلاء، وفيه أيضًا من الحِكَمِ ما فيه، ولا يخفي أن مثل هذا الإشكال يجري في أشياء كثيرة، إلا أن كون الصانع حكيمًا، وأنه جل شأنه قد راعى الحكمة فيما خلق وأمر على أتم وجه حتى قيل: ليس في الإمكان أبدع مما كان - يحل ذلك ولا يبقى معه سوى تطلب وجه الحكمة وهومما يتفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده، والكلام في هذا المقام قد مر شيء منه فارجع إليه، ومما هنا وما هناك يحصل ما يسر الناظرين ويرضي العلماء المحققين[1].

الوجه السابع: الإعجاز العلمي في الآيات.

فالشهب ظاهرة جوية تصحب سقوط النيازك (meteors)، ووفق الموسوعة البريطانية: قد تطلق التسمية على الأحجار النيزكية ذاتها، وهي تمثل بالفعل خطرًا حقيقيًا على كل عابر متجاوز الحدود المعهودة إذا توانى، وتتواجد الكتل الحجرية والثلجية بكثرة بين المريخ والمشتري في حزام الكويكبات، وتحيط بالنظام الشمسي من كل جانب بهيئة هالة مذنبية تسمى هالة أوورت (Oort Halo).

وبالرغم مما ذُكر من قبل، إلا أن هناك إعجازًا علميًا في الآيات السابق ذكرها، وهو نبع من تساؤلنا: لماذا القرآن عندما يذكر: النجوم، والكواكب، والشهب؛ يذكرهم كأنهم شيء واحد وكذلك في المعاجم العربية، غير ما نسمع عنه الآن من أن هناك فرقًا كبيرًا بين مكوناتهم وهيئتهم، وكأن كلًّا منهم لا يمت صلة بالآخر؟

فالجواب على ذلك: أن القرآن يوضح أن أصل خلقتهم واحدة.

قال الدكتور زغلول النجار: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (الملك: ٥) : وإجماع المفسرين وأهل العلم على أن المقصود بالتعبير

(١) روح المعاني ٢٣/ ٧١ (الصافات: ٨).

القرآني: ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ هو النجوم، والجمع بين النجوم، والكواكب، ورجوم الشياطين (الشهب والنيازك) فيه إشارة إلى وحدة البناء في الكون مما يشهد لله الخالق بالوحدانية فوق جميع خلقه؛ وذلك لأن الله - تعالى- يخلق النجوم أمام أنظار الراصدين من دخان السماء بعلمه وحكمته وطلاقه قدرته وأنه - سبحانه وتعالى- يعيد النجوم بانفجاراتها إلى دخان السماء والكواكب مفصولة أصلًا عن النجوم والشهب والنيازك من نواتج انفجار الكواكب وهكذا[1].

الوجه الثامن: فهم ما في هذه الآيات من البلاغة يقتضي الفهم الصحيح لها، فلا يفهم القرآن من لم يفهم لغة القرآن، ومن أساليب العرب الاستطراد كما في الآية.

١ -**قال ابن القيم**[2]:

هذا استطراد؛ فقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب﴾ (الصافات: ٦) و﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك: ٥) فالتي جعلت رجومًا ليست هي التي زينت بها السماء ولكن استطرد من ذكر النوع إلى نوع آخر، وأعاد ضمير الثاني على الأول لدخولهما تحت جنس واحد. . . .

فذكر الخاص بعد العام استطرادًا وهو كثير في القرآن بل قد يستطرد من الخاص إلى العام كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾، فهذا استطراد من ذكر الأبوين إلى ذكر الذرية، فهكذا قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فالمكتوب للذين يتقون نوع خاص من الرحمة الواسعة.

---

(١) في موقعه الخاص www. elnaggarzr. com .

(٢) شفاء العليل ١/ ٢٦٣؛ الباب الثالث والعشرون في تنزيه القضاء الإلهي عن الشر؛ فصل: (والذين قطعوا بأبدية النار) بتصرف.

٢- فانتقال الكلام من أسلوب لأسلوب آخر كانتقال الحديث من الفرد إلى الجنس؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ يقول علماء البلاغة: إن هذا انتقال من الفرد إلى الجنس؛ أي: من جنس هذه النجوم، فجزء ملتهب منها قد يكون بقدر الحصاة الصغيرة مثلًا يصيب الشياطين، وليس المقصود أن النجم كله يجري وراء الشيطان فهذا مستحيل.

وهذا كما في قوله تعالى عند الحديث عن الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ فهنا انتقل الحديث من الفرد الذي هو آدم عليه السلام إلى الجنس وهم بنوآدم الذين خلقوا من نطفة[1].

الوجه التاسع: الآية توضح اتصال أمر من السماء بأمر من الأرض.

فللرد على مَنْ قال: لماذا جعل الله الشياطين تسترق السمع أليس هو قادر على أن يمنعهم بلا حاجة إلى شهب لحرقهم؟ نقول:

١- السموات السبع بما فيها من الملائكة محفوظة من الشياطين؛ فإن الله طرد إبليس منها، فلم يجعل الله له سلطانًا على السموات ولا على أي أمر يحدث فيها، ولكن جعل الله لإبليس وجنوده سلطانًا على المنحرفين (من أهل الأرض) عن شريعة الله التي أنزلها من السماء على أنبيائه، والشياطين لهم صولات وجولات في أنحاء الأرض، بل وفي السماء الدنيا (التي بها الكواكب والنجوم).

٢- هناك فارق بين سماع الشياطين لما تتكلم به الملائكة، وبين أن الشياطين لها سلطان على أن تسمع. ففي هذه الحالة يعتبر الشيطان كالسارق (سارق للسمع) الذي يستمع إلى الملك أثناء حديثه للوزراء، مع أن الملك يعلم ذلك، ولكنه يريد أن يخدع السارق والذين هم وراء هذا السارق بعدة أمور:

أولًا: أن السارق لوسمع فإنه يسمع عدة كلمات فلا يفهم هذا الكلام مندرج تحت أي سياق، فلربما يتحدث الملك فيذكر كلمتي (معركة- حرب) وهو يقصد تلك المعركة التي

(١) تفصيل هذا في كتاب: البرهان في إعجاز القرآن للزركشي ٣/ ٣٣٠؛ الرابع: (الانتقال) من الخطاب إلى الغيبة.

حدثت في الماضي، ويظن هذا السارق أن الملك سيقوم بمعركة في المستقبل، فيذهب لأعداء الملك ليخبرهم بالتجهز لتلك المعركة.

ثانيًا: ربما يغضب الملك لاجتراء السارق أن يستمع لحديثه (مع أن الحديث يشبه الحالة الأولى تمامًا)، ولكنه أراد أن يعاقب السارق في هذه الحالة، أما في الحالة الأولى كان يريد أن يخادع السارق، وللملك في كل هذه الأحوال حكم لأنه ملك حكيم، فعندما يريد أن يؤدب السارق فإنه يأمر أحد وزرائه أن يتتبع هذا السارق، أوأن يرميه أحد الرماة بالنبل ليقضي عليه.

ثالثًا: في كل هذه الأحوال فإن هذا الملك قوي لا يخاف من أعدائه حتى ولو سمعوا كل ما يتحدث به.

ولله المثل الأعلى فإن الله يخادع هذه الشياطين التي تسترق السمع حتى تنزل بعض ما يستمعون إليه إلى السحرة، وإذا أراد أن يعاقبهم فيعاقبهم.

الوجه العاشر: الملائكة في الكتاب المقدس تحرس الجنة معهم أدوات عقاب.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ (الجن: ٨-٩).

قال ذلك حكاية عن الجن، وليس المعنى كما فهم مثيروهذه الشبهة؛ وإنما المعنى هوأن الله جعل على السماء حراسًا من الملائكة، وخلق لهم أدوات عقاب تناسب أجسام الشياطين وهى الشهب، فإذا جاء شيطان رماه أحد الملائكة بشهاب وليست الشهب كواكب كالقمر والشمس، وإنما هى أدوات عقاب كالسيف في يد الجندى المحارب.

وفي الإصحاح الثالث من سفر التكوين: (أن الله لما طرد آدم من الجنة وهى جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها، أقام شرقى جنة عدن ملائكة تسمى الكروبيم، ووضع لهيب سيف متقلب في أياديهم لحراسة طريق شجرة الحياة: (فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها؛ فطرد الإنسان، وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم،

ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة) (تك ٣: ٢٣-٢٤).

ويقول المفسرون: إن الكروبيم من الملائكة المقربين، وهوفي الفارسية بمعنى: الحارس، وكان عملهم وقت طرد آدم هوحراسة الفردوس؛ لئلا يرجع الإنسان إليه"اهـ[1].

الشبهة الثانية: الشهب مادة، والشيطان روح؛ فكيف بمادة تحرق روحا.

نص الشبهة:

بعد أن تفحصنا أقوال المفسرين نجدها أثبتت لنا أيضًا أن المعتقد الإسلامي عن الشهب هوأنها خلقت بالضبط لرجم الشياطين التي كانت تقعد مقاعد للسمع في السماء قبل بعثة محمد ﷺ، لكنها فوجئت بالشهب ترجمها عندما ظهر محمد ﷺ، وبالرغم من ذلك هناك بعض الشياطين الذين يخطفون الخطفة على غرة من أهل السماء فيُتْبِعُهُمْ الله شهابًا ليحرقهم، وهناك أيضًا مَنْ ينجون من ذلك الرجم فيلقون ما سمعوا إلى الكهان الذين بدورهم يخبرون أهل الأرض بما سيقع في المستقبل؛ ولذلك سنعلق بما يلي:

١ـ لقد أثبت العلماء أن الشهب تتكون من ثاني أوكسيد الكربون والخليط (حديد ـ نيكل) (Ferro-nikel) ومواد أخرى. . . أما (الجن) أوما نسميه نحن الأرواح الشريرة فالإسلام كعقيدة يشاطرني الرأي بأنها كائنات روحية ليست لها أجسام مادية، فكيف تسقط إذن الأجسام المادية على كائنات غير مادية؟!

٢ـ تقع في غالب الأحيان تساقطات غزيرة للشهب وهو ما وقع في السنوات الأخيرة، فماذا يعني ذلك؟ هل هو رجم لجيش من الشياطين؟ وبماذا نفسر المسارات المتوازية لهذه التساقطات؟ هل هي رجم لشياطين متصافة؟ وهل يعقل أن يكون الله العظيم القدرة عاجزًا عن حفظ أخبار الغيب لهذه الدرجة حتى إنه يخلق نجومًا لترجم كل من اختطف السمع وهرب؟! إنه أمر يدعوللاستغراب أن نقول: إن بعض الشياطين تخطف أسرارًا من الله وترميها للكهان بينما يعجز الله عن منعهم إذ يرسل الشهب التي تصيب بعضهم ولا

(١) انظر: كتاب حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين.

تصيب من ينجون!! وهل الشهب لم تكن تسقط قبل مجيء محمد ﷺ؟ لأن القرآن يؤكد أن الجن كانوا يستمعون إلى أخبار السماء قبل مجيء محمد (سورة الجن: ٨)!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الجن عند المسلمين: ليس روحًا فقط، بل له مادة خلق منها.

الوجه الثاني: يصلح لفظ: (شياطين) أن يوصف به البشر؛ فلا يقصد به شياطين الجن فقط.

الوجه الثالث: رجومًا للشياطين أي جعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون.

الوجه الرابع: أصل الخلق شيء وطبيعة المخلوق شيء آخر.

الوجه الخامس: الاختلاف في أمر الجن، ومم هو؟

الوجه السادس: نزول الشهب أمر كوني، فهل كان موجودًا قبل الإسلام؟ وقد جاء في الشعر الجاهلي تشبيه المسرع من الخيل وغيرها بانقضاض الكواكب.

الوجه السابع: الشيطان له طبيعة مادية كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الجن عند المسلمين: ليس روحًا فقط، بل له مادة خلق منها.
أدلة من القرآن والسنة على أن الجن روح ومادة:
١ـ الجن مكلف بعبادة الله مثل الإنس:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات: ٥٦)

قال ابن حجر: وَأَمَّا كَوْنهمْ مُكَلَّفِينَ؛ فَقَالَ اِبْنِ عَبْد الْبَرّ: الْجِنّ عِنْد الْجَمَاعَةِ مُكَلَّفُونَ. وَقَالَ عَبْد الْجَبَّار: لَا نَعْلَم خِلَافًا بَيْن أَهْل النَّظَر فِي ذَلِكَ، قَالَ: وَالدَّلِيل لِلْجَمَاعَةِ مَا فِي الْقُرْآن مِنْ ذَمِّ الشَّيَاطِين وَالتَّحَرُّز مِنْ شَرِّهِمْ وَمَا أُعِدّ لَهُمْ مِنْ الْعَذَاب، وَهَذِهِ الْخِصَال لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَنْ خَالَفَ الْأَمْر وَارْتَكَبَ النَّهْي مَعَ تَمَكُّنه مِنْ أَنْ لَا يَفْعَل، وَالْآيَات وَالْأَخْبَار الدَّالَّة عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَة جِدًّا. . . وَإِذَا تَقَرَّرَ كَوْنهمْ مُكَلَّفِينَ فَهُمْ مُكَلَّفُونَ بِالتَّوْحِيدِ وَأَرْكَان

الْإِسْلَام، وَأَمَّا مَا عَدَاهُ مِنَ الْفُرُوع فَاخْتُلِفَ فِيهِ(١).

قلت: فكيف تؤمر الروح بأن تنحني أو تركع أو تسجد وتقرأ القرآن.

لذلك فإن إبليس أمر بالسجود ولا يؤمر بذلك إلا من كان له هيئة يستطيع السجود بها: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف: ٥٠) ففي تفسير الجلالين: سجودَ انحناءٍ لا وضع جبهة تحية له(٢).

٢ـ التناكح:

وَاسْتَدَلَّ مَنْ قَالَ بِأَنَّهُمْ يَتَنَاكَحُونَ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ وَبِقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ وَالدَّلَالَة مِنْ ذَلِكَ ظَاهِرَة. وَاعْتَلَّ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ تعالى أَخْبَرَ أَنَّ الْجَانّ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وَفِي النَّار مِنْ الْيُبُوسَة وَالْخِفَّة مَا يَمْنَع مَعَهُ التَّوَالُد. وَالوجه أَنَّ أَصْلهمْ مِنْ النَّار كَمَا أَنَّ أَصْل الْآدَمِيّ مِنْ التُّرَاب، وَكَمَا أَنَّ الْآدَمِيّ لَيْسَ طِينًا حَقِيقَة كَذَلِكَ الْجِنِّيّ لَيْسَ نَارًا حَقِيقَة، وَقَدْ وَقَعَ فِي الصَّحِيح فِي قِصَّة تَعَرُّض الشَّيْطَان لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**فَأَخَذْته فَخَنَقْته حَتَّى وَجَدْت بَرْد رِيقه عَلَى يَدَيَّ**". قُلْت: وَبِهَذَا الوجه يَنْدَفِع إِيرَاد مَنْ اِسْتَشْكَلَ قَوْله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾فَقَالَ: كَيْفَ تُحْرِق النَّارُ النَّارَ(٣)؟

٣ـ الجن يسمع ويتكلم:

فالروح لابد لها من جسد لتُؤثِّر فيه بالأفعال والأعمال.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الأحقاف: ٢٩، ٣٠).

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٧٩؛ قَوْلُهُ: (بَابُ ذِكْر الْجِنّ وَثَوَابهمْ وَعِقَابهمْ).

(٢) تفسير الجلالين ٣٩٤ (الكهف: ٥٠).

(٣) فتح الباري ١٠/ ٧٩ (باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم).

فالإنذار لا يكون إلا من خلال كلام بين المنذِر والمنذَر. قال الرازي: وهذا نص على وجودهم وعلى أنهم سمعوا القرآن، وعلى أنهم أنذروا قومهم[١].

وكذلك الشيطان يتكلم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

٤ـ الجن أمة من الأمم:

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ (الأعراف: ٣٨).

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النمل: ١٧)

فالجن أمة لهم أرواح وأجساد، كما أن الإنس أمة لهم أرواح وأجساد؛ فمنهم من يعذب ومنهم من ينعَّم.

٥ـ الجن قام بأعمال لسليمان عليه السلام، والشيطان له عمل:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ (سبأ: ١٢)، ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟﴾ (سبأ: ١٣) وقال تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (ص: ٣٧، ٣٨)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: ٩٠)، والجن يمكن أن يُربط لأن له روحًا وجسدًا؛ مع أنه قد يتشكّل في صور إما باستعمال التخييل أوالتحويل.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ "**إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَىَّ الْبَارِحَةَ – أَو كَلِمَةً نَحْوَهَا – لِيَقْطَعَ عَلَىَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِى اللهُ مِنْهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إليهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ**

(١) مفاتيح الغيب ١/ ٧٣ (الفاتحة: ٧).

لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ " **قَالَ رَوْحٌ فَرَدَّهُ خَاسِئًا "**[١].

٦ـ طعام الجن:

فالجن يأكل الطعام فهذا يدل على وجود جسد له.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِدَاوَةً لِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَتْبَعُهُ بِهَا فَقَالَ: "مَنْ هَذَا"؟ فَقَالَ: أَنَا أَبُوهُرَيْرَةَ. فَقَالَ: **"ابْغِنِي أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا، وَلاَ تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ"**. فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ أَحْمِلُهَا فِي طَرَفِ ثَوْبِي حَتَّى وَضَعْتُ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مَشَيْتُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ؟ قَالَ: **"هُمَا مِنْ طَعَامِ الْجِنِّ، وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ وَنِعْمَ الْجِنُّ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ، فَدَعَوْتُ اللَّهَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ إِلا وَجَدُوا عَلَيْهَا طَعَامًا"**[٢].

ولا يخفى أن ذكر هذين الصنفين من الطعام لا يدل على أن الجن عامة مقتصرون عليهما، فربما كان ذلك من أهم طعامهم، أوأنه مختص ببعضهم على حسب أصنافهم وأماكن إقامتهم.

وتحول العظم إلى أوفر ما يكون لحمًا؛ وكذلك الروث إلى علف للدواب مختص بالمؤمنين فحسب، أما الكفّار من الجن فليس لهم ذلك؛ بل هم يستحلون كل طعام لم يذكر اسم الله عليه كما في الحديث: **"إن الشيطان يستحل الطعام الذي لم يذكر اسم الله عليه"**رواه مسلم.

٧ـ مساكن الجن:

عن زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ قال: **"إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث"**[٣].

فلم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ الصحيحة وصفًا تفصيليًا لمساكن الجن، أو

---

(١) البخاري (٧٥ - ٤٦١).

(٢) البخاري (٣٨٦٠).

(٣) رواه أبو داود (٢٠١٧). قال الشيخ الألباني: (صحيح) في صحيح الجامع (٢٢٦٣).

شكل عيشهم، وهل لهم مدن وقرى كالحال عند البشر، أم إنهم يعيشون في البراري والفيافي، أم هم مختلطون بالبشر في بيوتهم ومساكنهم، إلا أنه قد ورد في السنة تعيين بعض الأماكن بأن الشياطين تتواجد فيها، كما في الحديث السابق.

قال الخطابي:

وأصل الحش النخل المتكاثف، وكانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ المراحيض في البيوت، ومعنى (مُحْتَضَرةٌ) أي: تحضرها الجن والشياطين وتنتابها لقصد الأذى(١).

قال ابن تيمية: (الجن يتصورون في صور الإبل، والبقر، والغنم، والخيل، والبغال، والحمير، وفي صور بني أدم، ولما أجمعت قريش الخروج إلى بدرٍ ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب، فكاد ذلك يثنيهم، فجاء لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي – وكان من أشراف بني كنانة – فقال لهم: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة بشيءٍ تكرهونه، فخرجوا والشيطان جار لهم لا يفارقهم، فلما دار القتال ورأى عدو الله جند الله قد نزلت من السماء، فركض على عقبيه، فقالوا: إلى أين يا سراقة؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا لا تفارقنا؟ فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾. وثمة آثار كثيرة تبين تمثل الجن ببني آدم، وهي تدل على قدرة الجن على أن تتشكل بصور مختلفة.

تلك كانت نبذة مختصرة عن هذا العالم المجهول، والذي استندنا في تصويره ورسمه إلى نصوص القرآن والسنة، والتي بينت بجلاء حقيقة هذا العالم، بعيدًا عن الخرافات والخيالات الجانحة(٢).

الوجه الثاني: يصلح لفظ: (شياطين) أن يوصف به البشر؛ فلا يقصد به شياطين الجن فقط.

---

(١) معالم السنة (١/ ١٠).

(٢) النبوات (١/ ٢٩٠)، الفتاوى (١٩/ ٤٤، ٤٥).

ويصلح لفظ: (شياطين) أن يوصف به البشر إذا تجاوزوا الحدود المعهودة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ (الأنعام: ١١٢)، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤)؛ فالوصف بشياطينهم عائد على كبرائهم بجامع العتوِّ والسيطرة. قال ابن عباس - رضي الله عنهما-: كهنتهم ورؤسائهم. وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أما شياطينهم فهم رؤوسهم في الكُفر[1]. وقال البغوي: والشيطان المتمرد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء، وأصله البعد، يقال: بئر شطون أي: بعيدة العمق والقعر، وسمي الشيطان شيطانًا لامتداده في الشر وبعده عن الخير[2].

وفي المعارف الكتابية للكتاب المقدس:

معنى (الشيطان): خصم، وهو لفظ مأخوذ من فعل عبري معناه: (يكمن)، (يقاوم) فهوأكبر عدو لله وللناس، وتتضح المطابقة بين (إبليس) و(الشيطان) مـــن (رؤ ١٢: ٩، ٢٠: ٢).

الإشارات إليه في العهد القديم: تستخدم الكلمة بدون (أل) التعريف بمعنى: (عدو)؛ وهكذا ترجمت في (١ صم ٢٩: ٤) عن داود كعدو محتمل في المعركة، وفي (١ مل ١١: ١٤ و٢٣ و٢٤ و٢٥) ترجمت: خصمًا، وفي سفر العدد (٢٢: ٢٢) ترجمت: (يقاوم)، واستخدمت بلفظها للدلالة على خصم بشري. أما بأداة التعريف (أل) فيصبح اسم علم للدلالة على (الشيطان) بالذات، وهوما نجده مثلًا في أيوب (١، ٢)، زكريا (٣: ١، ٢) إذ واضح أن الإشارة هنا إلى كائن غير بشري، وفي (١ أخ ٢١: ١) ترد الكلمة بدون (أل) التعريف ولكن واضح أيضًا أن المقصود بها هو الشيطان نفسه (انظر ٢ صم ٢٤: ١).

ويقول البعض: إن صورة الشيطان في العهد القديم لا يبدو منها أنه كائن شرير أساسًا؛ بل يبدو كائنًا ملائكيًا، عمله أن يمتحن الناس، ولا شك أن الصورة الكاملة

---

(١) الطبري ١/ ١٣٠.

(٢) تفسير البغوي١/ ٥١.

للشيطان لاتتضح تمامًا في الإشارات القليلة إليه في العهد القديم، ولكن من الواضح أيضًا أن اللمحات المسجلة عن نشاطه تكشف عن أنه يعمل لمقاومة كل خير للإنسان، فنرى في أيوب (١، ٢) بكل جلاء طبيعته الخبيثة، كما أنه هو الذي أغوى داود ليعد إسرائيل فيجلب السخط عليه، كما انتهره الرب من أجل شكواه ضد يهوشع الكاهن العظيم.

وفي العهد الجديد تكتمل صورة الشيطان في العهد الجديد، فتذكر كلمة (الشيطان) ٣٧ مــــرة، كما استخدمها الرب يسوع المسيح - بدون أداة التعريف- مرتين في حديثه إلى بطرس (مت ١٦: ٢٣، مرقس ٨: ٣٣)، ومرة عن يهوذا الإسخريوطي (يو٦: ٧٠)، أما في سائر المرات فتذكر عادة بأداة التعريف للدلالة على (الشيطان) نفسه (فيما عــدا مت ٤: ١٠، مرقس ٣: ٢٣ مرتين، لو٢٢: ٢٣، ٢ كو١٢: ٧ فلا توجد أداة التعريف) كما يذكر باسم (إبليس) ٣٤ مرة. (لفظ إبليس = الشيطان).

الوجه الثالث: رجومًا للشياطين أي: وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون.

قال الزمخشري: ﴿ڎ ڎ﴾ أي: القربى؛ لأنها أقرب السموات إلى الناس، ومعناها: السماء الدنيا منكم، والمصابيح السرج؛ سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة، وضممنا إلى ذلك منافع أخر: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾ لأعدائكم: ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾. وعن محمد بن كعب: في السماء والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة. والرجوم: جمع رجم: وهومصدر سمي به ما يرجم به، ومعنى كونها مراجم للشياطين: أنَّ الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها؛ لأنها قارَّةٌ في الفَلَك على حالها، وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة كاملة لا تنقص. وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب، ومنهم من يخبله، وقيل: معناه

وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم النجامون(١).

الوجه الرابع: أصل الخلق شيء وطبيعة المخلوق شيء آخر.

الإنسان مخلوق من طين ومع ذلك لوأنه وقع عليه حجارة كبيرة من طين فإنها تؤدي إلى وفاته؛ مع أن تلك الحجارة مخلوقة من أصل ما خلق الإنسان منه، فلا نتعجب إذا وقع شهاب أو شواظ من نار على جان مخلوق من النار فتم إحراق هذا الجان بهذا الشهاب.

ولا يخفي أن خلق الجان من نار لا يلزم منه أن أشكالهم وهيئاتهم كالنار، فالبشر خلقوا من تراب وليسوا كذلك في أشكالهم، ولكن يؤخذ منه أن في الجن صفات من صفات النار كالخفة واللطافة، مثلما للبشر من صفات التراب كالثقل والكثافة.

قال الآلوسي: ولا يأبى تأثير الشهاب في كونهم مخلوقين من النار؛ لأنهم ليسوا من النار الصرفة كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها(٢).

قال الشبلي: قال أبو الوفاء بن عقيل في كتابه (الفنون): اعلم أن الله تعالى أضاف الشياطين والجن إلى النار حسب ما أضاف الإنسان إلى التراب والطين والفخار، والمراد به في حق الإنسان أن أصله الطين، وليس الآدمي طينًا حقيقةً، ولكنه كان طينًا، كذلك الجان كان نارًا في الأصل؛ بدليل قول النبي ﷺ: **"عرض لي الشيطان في صلاتي فخنقته حتى وجدت برد لعابه على يدي"** ومَنْ يكون نارًا محرقةً كيف يكون لعابه أو ريقه باردًا أو له ريق أصلًا؟ ومما يدل على أن الجن ليسوا بباقين على عنصرهم الناري؛ قول النبي ﷺ: **"إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي"**، وبيان الدلالة منه أنهم لو كانوا باقين على عنصرهم الناري لما احتاجوا إلى أن يأتي الشيطان أو العفريت منهم بشعلة من نار، ولكانت يد الشيطان أوالعفريت أو شيء من أعضائه إذا مس ابن آدم أحرقه، كما

(١) في الكشاف٤/ ٥٧٧؛ (تبارك: ٥).

(٢) روح المعاني٢٣/ ٧١؛ (الصافات: ٨).

تحرق الآدمي النار الحقيقية بمجرد المس[(١)].

وبهذا يعلم أنه كما يتأذى الإنسان من ضربه بالطين والحجر، مع أنه خلق من طين، فإن الجن يتأذون ويحترقون بالنار مع أنهم خلقوا منها.

وفي الكتاب المقدس أن الشيطان يُحرق بالنار:

فتقول المعارف الكتابية: (مصير الشيطان) يعلن لنا الكتاب النهاية الأكيدة للصراع بين الخير والشر، والمصير المحتوم للشيطان وملائكته، وقد رأى المسيح صورة لهذه الهزيمة النهائية في انتصار السبعين على قوات الشر (لو ١٠: ١٨) كما أكد المسيح أن النار الأبدية معدة (لإبليس وملائكته) (مت ٢٥: ٤١).

ويخبرنا سفر الرؤيا عن الدينونة النهائية للشيطان، فعند مجيء المسيح في مجده سيطرح الشيطان في بئر الهاوية لمدة ألف سنة، تخلوالأرض فيها من خداعه وإغراءاته (رؤ ٢٠: ١ - ٣)، وفي نهاية الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويستأنف خداعه لسكان الأرض، وينجح في ذلك نجاحًا هائلًا، ولكن هذا التمرد الأخير سيقضي عليه بعمل إلهي، وسيطرح الشيطان في (بحيرة النار والكبريت حيث الوحش النبي الكذاب وسيعذبون نهارًا وليلًا إلى أبد الآبدين) (رؤ ٢٠: ٧ - ١٠)، وكل الذين خدعهم سيقاسمونه نفس المصير والعذاب (٢٠: ١٢ - ١٤). (لفظ إبليس = الشيطان).

الوجه الخامس: الاختلاف في أمر الجن، ومم هو؟

انقسم الناس في أمر الجن؛ فمن الناس من أنكره، ومنهم من أثبته، والمثبتون لوجود الجن؛ منهم من قال إنه روح، ومنهم من قال إنه جسم لكن ليس بجسم كثيف.

قال الرازي: واعلم أنه لا بدَّ أولًا من البحث عن ماهية الجن والشياطين، فنقول: أطبق الكلُّ على أنه ليس الجن والشياطين عبارة عن أشخاص جسمانية كثيفة تجيء وتذهب مثل الناس والبهائم؛ بل القول المحصل فيه قولان:

(١) آكام المرجان في أحكام الجان ١/ ١٥، ١٤.

الأول: أنها أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، ولها عقول وأفهام وقدرة على أعمال صعبة شاقة.

والقول الثاني: أن كثيرًا من الناس أثبتوا أنها موجودات غير متحيزة ولا حالة في المتحيز، وزعموا أنها موجودات مجردة عن الجسمية، ثم هذه الموجودات قد تكون عالية مقدسة عن تدبير الأجسام بالكلية؛ وهي الملائكة المقربون؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنبياء: ١٩) ويليها مرتبة الأرواح المتعلقة بتدبير الأجسام، وأشرفها حملة العرش؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ (الحاقة: ١٧). والمرتبة الثانية: الحافون حول العرش؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ (الزمر: ٧٥). والمرتبة الثالثة: ملائكة الكرسي. والمرتبة الرابعة: ملائكة السموات طبقة طبقة. والمرتبة الخامسة: ملائكة كرة الأثير. والمرتبة السادسة: ملائكة كرة الهواء الذي هوفي طبع النسيم. والمرتبة السابعة: ملائكة كرة الزمهرير. والمرتبة الثامنة: مرتبة الأرواح المتعلقة بالبحار. والمرتبة التاسعة: مرتبة الأرواح المتعلقة بالجبال. والمرتبة العاشرة: مرتبة الأرواح السفلية المتصرفة في هذه الأجسام النباتية والحيوانية الموجودة في هذاالعالم.

واعلم أنه على كلا القولين فهذه الأرواح قد تكون مشرقة إلهية خيرة سعيدة، وهي المسماة بالصالحين من الجن، وقد تكون كدرة سفلية شرير شقية، وهي المسماة بالشياطين.

وردًا على كلا القولين السابقين قال الرازي: وأما الذين زعموا أن الجن أجسام هوائية أونارية؛ فقالوا: الأجسام متساوية في الحجمية والمقدار، وهذان المعنيان أعراض، فالأجسام متساوية في قبول هذه الأعراض، والأشياء المختلفة بالماهية لا يمتنع اشتراكها في بعض اللوازم، فلم لا يجوز أن يقال: الأجسام مختلفة بحسب ذواتها المخصوصة وماهياتها المعينة، وإن كانت مشتركة في قبول الحجمية والمقدار؟ وإذا ثبت هذا فنقول: لِمَ لا يجوز أن يقال: أحد أنواع الأجسام أجسام لطيفة نفاذة حية لذواتها عاقلة لذواتها، قادرة

على الأعمال الشاقة لذواتها، وهي غير قابلة للتفرق والتمزق؟ وإذا كان الأمر كذلك فتلك الأجسام تكون قادرة على تشكيل أنفسها بأشكال مختلفة، ثم إن الرياح العاصفة لا تمزقها، والأجسام الكثيفة لا تفرقها، أليس الفلاسفةُ قالوا: إن النار التي تنفصل عن الصواعق تنفذ في اللحظة اللطيفة في بواطن الأحجار والحديد، وتخرج من الجانب الآخر؟ فلم لا يعقل مثله في هذه الصورة، وعلى هذا التقدير فإن الجن تكون قادرة على النفوذ في بواطن الناس وعلى التصرف فيها، وأنها تبقى حية فعالة مصونة عن الفساد إلى الأجل المعين والوقت المعلوم، فكل هذه الأحوال احتمالات ظاهرة، والدليل لم يقم على إبطالها، فلم يجز المصير إلى القول بإبطالها.

وقال: بيان أن الجن مخلوق من النار، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ (الحجر: ٢٧)، وقال تعالى حاكيًا عن إبليس - لَعَنَهُ اللهُ- أنه قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ (الأعراف: ١٢)، واعلم أن حصول الحياة في النار غير مستبعد، ألا ترى أن الأطباء قالوا: المتعلق الأول للنفس هو القلب والروح، وهما في غاية السخونة، وقال جالينوس: إني بقرت مرة بطن قرد فأدخلت يدي في بطنه، وأدخلت أصبعي في قلبه فوجدته في غاية السخونة بل تزيد، ونقول: أطبق الأطباء على أن الحياة لا تحصل إلا بسبب الحرارة الغريزية، وقال بعضهم: الأغلب على الظن أن كرة النار تكون مملوءة من الروحانيات.

وقال: المشهور أن الجن لهم قدرة على النفوذ في بواطن البشر، وأنكر أكثر المعتزلة ذلك، فإن كان عبارة عن حيوان هوائي لطيف نفاذ كما وصفناه كان نفاذه في باطن بني آدم أيضًا غير ممتنع قياسًا على النفس وغيره. الثاني: قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥). الثالث: قوله ﷺ: "إن الشيطان ليجري من

ابن آدم مجرى الدم"[١].

الوجه السادس: نزول الشهب أمر كوني، فهل كان موجودًا قبل الإسلام؟ وقد جاء في الشعر الجاهلي تشبيه المسرع من الخيل وغيرها بإنقضاض الكواكب.

فإن نزول الشهب كثر في الإسلام، ومن قبل كان يقع نادرًا، أو يكون جعلها رجومًا ملازمًا لظهور الإسلام (لذلك قيل: إنه رجوم إسلامي) وفيما تقدم من الزمان لم يكن لذلك من الشأن فإنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: ٥).

قال الآلوسي: ورُوي عن الشعبي: من أنه لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي ﷺ فلما قذف بها جعل الناس يسيبون أنعامهم ويعتقون رقيقهم يظنون أنه القيامة فأتوا (عبد ياليل) الكاهن وقد عمي وأخبروه بذلك فقال: انظروا إن كانت النجوم المعروفة من السيارة والثوابت فهو قيام الساعة، وإلا فهو أمر حادث فنظروا فإذا هي غير معروفة فلم يمض زمن حتى أتى خبر النبي ﷺ.

ووافق على عدم حدوثه قبلُ ابنُ الجوزي في المنتظم لكنه قال: إنه حدث بعد عشرين يومًا من مبعثه.

والصحيح أن القذف كان قبل ميلاده عليه الصلاة والسلام، وهوكثير في أشعار الجاهلية إلا أنه يحتمل أنه لم يكن طاردًا للشياطين وأن يكون طاردًا لهم لكن لا بالكلية وأن يكون طاردًا لهم بالكلية، وعلى هذا لا يتأتى الاحتمال السابق، وعلى الاحتمال الأول من هذه الاحتمالات يكون الحادث يوم الميلاد طردهم بذلك، وعلى الثاني طردهم بالكلية وتشديد الأمر عليهم لينحسم أمرهم وتخليطهم ويصح الوحي فتكون الحجة أقطع.

والذي يترجح أنه كان قبل الميلاد طاردًا لكن لا بالكلية، فكان يوجد استراق على الندرة وشدد في بدء البعثة، وعليه يراد بخبر لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي ﷺ أنه لم يكثر القذف بها، وعلى هذا يخرج غيره إذا صح كالخبر المنقول في السير؛ أن إبليس كان

(١) مفاتيح الغيب ١/ ٦٧؛ الفاتحة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

يخترق السموات قبل عيسى عليه السلام، فلما بعث أو ولد حجب عن ثلاث سموات ولما ولد النبي ﷺ حجب عنها كلها وقذفت الشياطين بالنجوم. فقال قريش: قامت الساعة فقال عتبة بن ربيعة: انظروا إلى العيوق فإن كان رمي به فقد آن قيام الساعة وإلا فلا. وقال بعضهم: اتفق المحدثون على أنه كان قبل لكن كثر وشدد لما جاء الإسلام ولذا قال تعالى: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧﴾ (الجن: ٨) ولم يقل حرست.

وبالجملة لا جزم عندنا بأن ما يقع من الشهب في هذه الأعصار ونحوها رجوم للشياطين والجزم بذلك رجم بالغيب[1].

قال القرطبي: في قوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ واختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث؟ أوبعده لأجل المبعث؟ على قولين، وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة الجن عن ابن عباس، وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال: إن الذين قالوا: لم تكن الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث النبي ﷺ ثم رميت؛ أي: لم تكن ترمى رميًا يقطعها عن السمع، ولكنها كانت ترمى وقتًا ولا ترمى وقتًا، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصبًا، وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويَسْلَم واحد ولا يَسْلَم غيره؛ بل يقبض عليه ويعاقب وينكل، فلما بعث النبي ﷺ زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها؛ فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوة.

---

(١) روح المعاني٢٣/ ٧١؛ (الصافات: ٨).

فإن قيل: إن هذا القذف إن كان لأجل النبوة فلم دام بعد النبي ﷺ؟

فالجواب: أنه دام بدوام النبوة؛ فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكهانة فقال: "ليس منا من تكهن" فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجن إلى تسمعها وعادت الكهانة. ، ولا يجوز ذلك بعد أن بطل؛ ولأن قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يُؤمن أن يظنوا أن الكهانة إنما عادت لتناهي النبوة؛ فصح أن الحكمة تقضي دوام الحراسة في حياة النبي ﷺ، وبعد أن توفاه الله إلى كرامتهﷺ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم؛ عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: شديد. الكلبي، والسدي، وأبو صالح: موجع؛ أي الذي يصل وجعه إلى القلب؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ وقيل: الاستثناء يرجع إلى غير الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٢)، فيسترق الواحد منهم شيئًا مما يتفاوض فيه الملائكة، مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذ، وروي في هذا الباب أحاديث صحاح مضمونها: أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء فتقعد للسمع واحدًا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيناه، فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع كما بيناه في (الأنعام) ، فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بَتَّةً، والكواكب الراجمة هي التي يراها الناس تنقض. قال النقاش ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا ترى حركتها، وهذه الراجمة ترى حركتها؛ لأنها قريبة منا، وقد مضى في هذا الباب في سورة (الحجر) من البيان ما فيه كفاية، وذكرنا في (سبأ) حديث أبي هريرة؛ وفيه: (والشياطين بعضهم فوق بعض)،

وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح. وفيه عن ابن عباس: (ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرفونه ويزيدون) قال: هذا حديث حسن صحيح. والخطف: أخذ الشيء بسرعة؛ يقال: خَطَفَ، وخَطِفَ، وخَطَّف، وخَطِّف، وخِطِّف، والأصل في المشددات اختطف فأدغم التاء في الطاء لأنها أختها، وفتحت الخاء؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها، ومن كسرها فلالتقاء الساكنين، ومن كسر الطاء أتبع الكسرَ الكسرَ.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مضيء؛ قاله الضحاك، والحسن، وغيرهما. وقيل: المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم في البحر. وقال ابن عباس في الشهب: تحرقهم من غير موت. وليست الشهب التي يرجم الناس بها من الكواكب الثوابت؛ يدل على ذلك رؤية حركاتها، والثابتة تجري ولا ترى حركاتها لبعدها، وقد مضى هذا. وجمع شهاب: شهب، والقياس في القليل أشهبة وإن لم يُسمع من العرب، و﴿ ثَاقِبٌ ﴾ معناه: مضيء؛ قاله الحسن، ومجاهد، وأبو مجلز، ومنه قوله: وزندك أثقب أزنادها، أي: أضوأ، وحكى الأخفش في الجمع: شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثقاب، وحكى الكسائي: ثقبت النار تثقب ثقابةً وثقوبًا إذا اتقدت، وأثقبتها أنا. وقال زيد بن أسلم في الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولهم: أثقب زندك أي: استوقد نارك؛ قال الأخفش؛ وأنشد قول الشاعر:

بينما المرء شهاب ثاقب ضرب الدهر سناه فخمد[1]

قلت: وهناك حديث يوضح ما قاله القرطبي:

قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا بين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب! قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث؛ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١/ ٨٢.

حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له؛ فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾؛ فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن[١].

الوجه السابع: الشيطان له طبيعة مادية.

فمن قال بأن الشياطين روح، والشهاب مادة، وكيف تصرع المادة الروح؟

نقول له: ورد في الكتاب المقدس أن الشيطان: يتكلم، ويعترض، ويقف، ويشم، ويسقط، ويؤسر، ويضر، ويصرع، ويقتل؛ فكل هذه أفعال لا يتصور إلا أنها تتم من خلال جسم مادي (العرض)، ولا يتم بالروح فقط (الجوهر).

فكما أنه لايستطيع الجسد أن يقوم بأعمال بدون روح فكذلك لا تستطيع الروح أن تقوم بأعمال بدون جسد، فإذا أثبتنا أن مخلوقًا ما يقوم بأعمال فلابد أن يشترط فيه الجسدية والروحية معًا، فالادعاء بأن الجن والشياطين أرواح مجردة ليس عليه دليل علمي ولا عقلي.

١ـ الشيطان يغوي، ويقف ضد شعب كامل:

ففي سفر أخبار الأيام الأول: (٢١ : ١) (ووقف الشيطان ضد إسرائيل وأغوى داود ليحصي إسرائيل).

فكيف بروح تقف ضد شعب، فإذا قلنا بأن الشيطان روح شريرة مجردة عن الجسد، فالعقل يقول: إن الإنسان له ميزة عن الشيطان، فالإنسان روح وجسد، أما الشيطان روح مجردة – على قولكم–، فكيف بالروح المجردة تغلب الروح والجسد معًا؟ هل لأن الشيطان روحه قوية بدرجة لا تُتصور؟ مع أن روح المؤمن أقوى لأنها في معية الله ورعايته!

وحتى لو افترضنا أن روح الشيطان هي الأقوى؛ فلابد للشيطان من محل أوشيء يَحِل

(١) رواه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (١٠٣٤).

فيه، حتى يؤثر في العالم الخارجي، فإذا حلَّ في كلب مثلًا، كانت قوته مقيدة بما حلَّ فيه.

ففي المعارف الكتابية: فإبليس محدود لا يوجد في كل مكان، ولكنه عن طريق أتباعه الكثيرين يمارس تأثيره في كل العالم.

فإذا وصف الكتاب المقدس الشيطان بأنه روح شريرة؛ فلا يعني ذلك بأنه روح مجردة:

١- لأن الجسد هومنقاد بالروح، فإذا كانت الروح خبيثة فإنها تهلك ويهلك الجسد بهلاكها، فهو تابع لها.

٢- أو أنه أطلق الجزء وأراد الكل.

وفي المعارف الكتابية: ويوصف إبليس بأنه (رئيس هذا العالم) (يو١٢: ٣١)، والعالم الذي يحكمه هوالنظام العالمي الراهن القائم على مباديء إبليس وأساليبه وأهدافه (٢ كو٤: ٣ و٤، أف ٢: ٢، كو١: ١٣، ١ يو٢: ١٥ - ١٧).

فجشع الأمم، وأطماعها الأنانية، والأساليب الدبلوماسية الماكرة في عالم السياسة، والبغضاء المرة، والمنافسة المريرة في عالم التجارة، والقيم الشريرة في المجتمع البشري؛ كل هذه من عمل الشيطان، (الروح الذي يعمل في أبناء المعصية) (أف ٢: ٢). وعبارة: (العالم كله وضع في الشرير) (١ يو٥: ١٩) تعني: أن عالم البشر غير المتجددين، موضوع في قبضة إبليس ومستسلم تمامًا لسلطانه، وقد حصل إبليس على سلطانه على الجنس البشري بالدهاء.

والاغتصاب، فبتحريضه الإ نسان على الخطية - التي قصاصها الموت- حصل إبليس على (سلطان الموت)، ويستخدم الرهبة من الموت وسيلة للاحتفاظ بالناس تحت سيادته (عب ٢: ١٤ و١٥). وعبارة أنه: (كان قتَّالًا للناس من البدء) (يو٨: ٤٤) لاتعني أنه يستطيع أن يقتل حسبما يشاء، بل تعني أنه بسبب سقوط آدم وحواء، جلب الموت على الجنس البشري، وقد كسر المسيح بموته قوة الشيطان وأنقذ أسرى الشيطان (انظر رؤ ١: ١٨، ١٢: ٢٩).

وفي التجربة في البرية استعرض إبليس أمام يسوع كل ممالك العالم؛ مؤكدًا بذلك أنها كلها قد دفعت ليده، وأن في إمكانه أن يعطيها لمن يشاء (لو٤: ٥ و٦). والجدير بالملاحظة

أن يسوع لم يعترض على دعوى الشيطان بسيادته على هذا العالم، ولكن سيأتي الوقت، في نهاية الأزمنة، فيه يقبل (إنسان الخطية)، (الأثيم) هذا الملكوت من يد الشيطان (٢ تس ٢: ٣ -٩، رؤ ١٣: ٤). وفي جهاد الشيطان لإثبات إرادته، فإنه يعمل بلا كلل لإحباط عمل الله (أع ١٣: ١٠) وتتملكه رغبة عارمة في أن يكون موضع العبادة مثل الله ﷻ، وقد بدت هذه الرغبة الطاغية في عرضه على المسيح أن يعطيه السلطة على كل ممالك العالم إن سجد له، وستتحقق للشيطان هذه الرغبة في أن يكون موضوع العبادة عن طريق (إنسان الخطية) (٢ تس ٢: ٩ - ١١، رؤ ١٣: ٤)، والدافع إلى الوثنية بانحرافها عن عبادة الله الحقيقي، إنما هي قـوى شيطانية (١ كو١٠: ٢٠، مز ١٠٦: ٣٤ - ٣٨).

ويشغل الشيطان مركز قوة وسيادة في العالم الروحى، فنقرأ في أيوب (١، ٢) أنه جاء وسط (بنى الله) مع أنه بطبيعته الأدبية ليس واحدًا منهم، كان له أن يمثل في محضـر الله، وهوامتياز سيحرم منه في يوم قادم (رؤ ١٢: ٩)، وكان في مركز عظيم حتى إن ميخائيل رئيس الملائكة وجد فيه عدوًا جبارًا (فلم يجسر أن يورد حكم افتـــراء) (يهوذا ٩).

ويكشف لنا العهد الجديد عن أن الشيطان يحكم مملكة الشر القوية بكل ذكاء وحنكة، فنرى الرب يسوع في دحضه للاتهام بأنه يخرج الشياطين بقوة، يبين سخف الاتهام لأنه يعني أن الشيطان قد (انقسم على ذاته فكيف تثبت مملكته؟ (مت ١٢: ٢٦)، فالشيطان لا يعمل بمفرده ولكنه يرأس مملكة منظمة جيدًا يقوم جنوده فيها بمسئولياتهم بتوجيه منه، فهوقائد هيئة ضخمة متضامنة من الكائنات الروحية هم (ملائكتـــه) (مت ٢٥: ٤١، رؤ ١٢: ٧)، و(كرئيس سلطان الهواء) (أف ٢: ٢) يوجه بمهارة جيشًا منظمًا من الأرواح الشريرة في السماويات يأتمرون بأمره (أف ٦: ١٢). فالملائكة الساقطون الموالون للشيطان (رؤ ١٢: ٤ و٧ و٩) يحتفظون برتبهم وألقابهم ومراكزهم التي سمح لهم بها الله.

ومهما كان أصل الأرواح الشريرة (أي: الشياطين) فمن الواضح أنهم يخضعون في ولاء كامل لحكم الشيطان (مت ١٢: ٢٨ و٢٩)، ونرى في سفر الأعمال (١٠: ٣٨) أن انطلاق

القوى الشيطانية في أثناء خدمة الرب يسوع المسيح على الأرض، إنما كان بوحي من إبليس، ويعلن لنا سفر الرؤيا أنه في ختام هذا العصر وفي أيام الضيقة العظيمة ستنطلق القوى الشيطانية مرة أخرى بصورة رهيبة (رؤ ٩: ١ - ١١، ١٨: ٢) (لفظ إبليس= الشيطان).

٢ـ الشيطان يتكلم مع الرب ويعترض عليه، فهل هناك روح مجردة تتكلم وتعترض.

ففي سفر أيوب (١/ ١٢: ٦): وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو اللهِ لِيَمْثُلُوا أَمَامَ الرَّبِّ، وَجَاءَ الشَّيْطَانُ أَيْضًا فِي وَسْطِهِمْ. ٧فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «مِنَ أَيْنَ جِئْتَ؟ ». فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «مِنْ الْجَوَلاَنِ فِي الأَرْضِ، وَمِنَ التَّمَشِّي فِيهَا». ٨فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟ لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ، يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ». ٩فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «هَلْ مَجَّانًا يَتَّقِي أَيُّوبُ اللهَ؟ ١٠أَلَيْسَ أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟ بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَانْتَشَرَتْ مَوَاشِيهِ فِي الأَرْضِ. ١١وَلكِنِ ابْسِطْ يَدَكَ الآنَ وَمَسَّ كُلَّ مَا لَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ». ١٢فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هُوَذَا كُلُّ مَا لَهُ فِي يَدِكَ، وَإِنَّمَا إِلَيهِ لاَ تَمُدَّ يَدَكَ». ثمَّ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمَامِ وَجْهِ الرَّبِّ.

٤ـ الشيطان يقوم واقفًا على اليمين، ألا يدل ذلك على أن له جسمًا؟

وفي سفر زكريا (٣/ ٢: ١): وَأَرَانِي يَهُوشَعَ الْكَاهِنَ الْعَظِيمَ قَائِمًا قُدَّامَ مَلاَكِ الرَّبِّ، وَالشَّيْطَانُ قَائِمٌ عَنْ يَمِينِهِ لِيُقَاوِمَهُ. ٢فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ يَا شَيْطَانُ! لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ الَّذِي اخْتَارَ أُورُشَلِيمَ! أَفَلَيْسَ هذَا شُعْلَةً مُنْتَشَلَةً مِنَ النَّارِ؟ ».

٥ـ الشياطين تكره رائحة الدخان المتصاعد من حرق قلب، فهل معنى ذلك أن لها أنفًا تشم به؟

ففي الأسفار القانونية الثانية (٦: ٧): فأجابه الملاك قائلًا إذا القيت شيئًا من قلبه على الجمر فدخانه يطرد كل جنس من الشياطين في رجل كان أو امرأة بحيث لا يعود يقربهما أبدًا.

وهذا النص يدل أيضًا على أن الشياطين قد تسكن داخل رجال ونساء، ونحن نعلم أن الإنسان بداخله روحه، فهل إذا دخل فيه الشيطان يكون بذلك قد اتحدتا روحان داخل جسده؟ فهل يعقل أن لإنسان روحين في جسد واحد.

٦ـ الشيطان يقتل سبعة أزواج وكذلك يصرع، فهل له يد يقتل بها؟

ففي الأسفار القانونية الثانية: (١٤: ٦): فأجاب طوبيا وقال: إني سمعت أنه قد عقد لها على سبعة أزواج فماتوا وقد سمعت أيضًا أن الشيطان قتلهم.

وفي لوقا: (٩: ٤٢): وبينما هو آت مزقه الشيطان وصرعه، فانتهر يسوع الروح النجس وشفي الصبي وسلمه إلى أبيه.

٧ـ الشيطان يؤسر ويقيد، فهذا يدل أن له جسدًا!

ففي الأسفار القانونية الثانية:

(٨: ٣) حينئذ قبض الملاك رافائيل على الشيطان وأوثقه في برية مصر العليا.

وفي سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي:

(٢٠: ١): ورأيت ملاكًا نازلًا من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده.

(٢٠: ٢): فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة.

٨ ـ الشيطان تسبب في إصابة رجل بالخرس، وربط ابنة إبراهيم؛ فله قدرة على الإضرار بالناس وكذلك يدخل في أجسادهم!

ففي متى: (٩: ٣٣): فلما أُخرج الشيطان تكلم الأخرس؛ فتعجب الجموع قائلين: لم يظهر قط مثل هذا في اسرائيل. (وانظر: لوقا١١: ١٤).

فلو كان الشيطان روحًا؛ فكيف يسيطر على جسد الأخرس وجسده مادة؟ فكذلك على قولهم: نقول: إن الشيطان كما تزعمون روح، وإن الشهاب وهو مادة: سيطر على الشيطان وأحرقه، كما حدث عكس هذا في أمر الأخرس.

وفي لوقا: (١٣: ١٦): وهذه وهي ابنة ابراهيم قد ربطها الشيطان ثماني عشرة سنة أما كان ينبغي أن تحل من هذا الرباط في يوم السبت.

فالشيطان له جرم ناري لطيف، ليس مثل جسم الإنسان؛ لذلك فهو يستطيع أن يتحرك بحركات أسرع، ويتشكل بتشكلات مختلفة، ويدخل إلى جسم الإنسان أويخرج منه. فالشيء الروحي أنّى له ذلك؟!

وفي (لوقا ٢٢: ٣): فدخل الشيطان في يهوذا الذي يدعى الإسخريوطي وهو من جملة

الاثني عشر.

٩ـ الشيطان كالبرق سقط من السماء:

ففي لوقا (١٠ : ١٨): فقال لهم رأيت الشيطان ساقطًا مثل البرق من السماء.

قلت: فهذا يدل على أن الشيطان يُرى بالعين.

١٠ـ الشيطان قد يفتن المقربين إلى المسيح، فهذا يدل على أن له أفعالًا:

ففي لوقا: ٢٢: ٣١ وقال الرب: سمعان سمعان؛ هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة.

وفي يوحنا: ١٣: ٢ فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه. (وانظر: يوحنا (١٣: ٢٧).

فهل للشيطان قوة فوق قوة أتباع المسيح من قساوسة معصومين وغيرهم، فكيف بالرب يحذرهم من غربلة الشيطان لهم مع أن لهم قوة روحية طيبة تغلب قوة الروحية الشريرة الشيطانية، فهل يحذرهم من أذى الشيطان المادي أم الروحي؟

فإن قيل: إنه تحذير من الأذى الروحي!

قلنا: إن أرواح أتباع المسيح الصادقين أقوى؛ فما فائدة التحذير من الرب، وإن قيل: إنه تحذير من الأذى المادي فقد أثبتنا للشيطان قوة مادية.

ففي المعارف الكتابية:

المؤمنون والشيطان: إذ أنقذ المؤمنون من ملكوت الظلمة، أصبح لهم اليقين بالنصرة على كل جهود الشيطان الخبيثة، فلهم الوعد أن (إله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلهم سريعـــًا) (رو١٦: ٢٠)، ويجدون أمنهم وأمانهم في قوة المسيح التي تحفظـــــم (رو٨: ٣١ - ٣٩، ١ يو٥: ١٨).

ولقد جهز الله المؤمنين بكل مايلزم للنصرة على الشيطان؛ فالنصرة على كل هجمات الشيطان ممكنة لمن يلبسون (سلاح الله الكامل) (أف ٦: ١٣ - ١٧)، كما أن لهم مسحة من الروح القدس وبها يميزون بين الصواب والخطأ (١ يو٢: ٢٠ و٢١ و٢٦ و٢٧). (لفظ

إبليس= الشيطان).

١١ـ الشيطان يتشكل في صور مختلفة:

ففي رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس:

١١ : ١٤ ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور.

١٢ـ مسكن الشيطان وكرسيه... والسكن والجلوس لا يكون إلا بجسد!

وفي سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي٢: ١٣ (أنا عارف أعمالك وأين تسكن؟ حيث كرسي الشيطان وأنت متمسك باسمي ولم تنكر إيماني حتى في الأيام التي فيها كان انتيباس شهيدي الأمين الذي قتل عندكم حيث الشيطان يسكن).

فإن قيل أن هذا الكلام مجاز، قلنا: لا يخلو القول بالمجاز على وجود له شبه في الحقيقة، فلو قلنا: هذا الرجل كالأسد، فمما لا شك فيه أن الرجل له وجود في الحقيقة وكذلك الأسد، فكذلك يبين أن هذا النص يدل على أن للشيطان كرسيًا كما أن للإنسان أعمالًا، ولكن مسألة كون الأعمال تحت الكرسي؛ فقد يكون هذا هو المجاز.

* * *

١٤ـ اختلاف البصمات

نص الشبهة:

في الآيات الخمس من سورة القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (٤)﴾ (القيامة: ١-٤)

ووجه الاعتراض: قول علماء الإعجاز في الآية أنها تشير إلى البصمة الوراثية؛ وهذا من إعجاز القرآن العلمي، قالوا: ونحن لا نسلم بهذا، فما ذُكرت البنان إلا موافقة للسجع، وليس في الآية أدنى إعجاز.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: في ظلال معنى الآية.

الوجه الثاني: ذَكَرَ المفسرون في الآية قولين، والقول بالإعجاز العلمي في مسألة بصمة الإصبع يوافق أحدهما.

الوجه الثالث: توضيح كيفية موافقة القول بالإعجاز العلمي لأحد قولي المفسرين.

الوجه الرابع: توجيه القول الثاني من أقوال المفسرين.

الوجه الخامس: توضيح أن قول المفسرين لا يتعارض مع العلم.

الوجه السادس: إثبات أن عظم الإصبع هو المسئول عن تغير بصمة كل إنسان.

الوجه السابع: هناك علاقة تلازمية بين عظم الإصبع والجلد الذي يكسو هذا العظم.

الوجه الثامن: إعجاز القرآن في إشارته إلى البصمة والبنان.

وإليك التفصيل،

الوجه الأول: في ظلال معنى الآية.

١ - معنى: البنان.

قال ابن منظور: والبَنان الأَصابع، وقيل: أَطرافها[1].

٢ - معنى: البصمة

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة بنن (١٣/ ٥٨).

البصمة مشتقة من البُصم؛ وهو فوت ما بين طرف الخنصر إلى طرف البنصر، يُقال: ما فارَقْتُك شِبْرًا، ولا فِتْرًا، ولا عَتَبًا، ولا رَتَبًا، ولا بُصْمًا. وبَصَمَ بصمًا إذا ختم بطرف إصبعه، والبصمة أثر الختم بالإصبع(١).

٣- وقد ارتضى المجمع الفقهي بمكة التعريف التالي للبصمة الوراثية: "البصمة الوراثية: هي البنية الجينية نسبة إلى الجنيات؛ أي: المورثات التي تدل على هوية كل إنسان بعينه"(٢).

٤- فرضًا على قول من يقول: إن القرآن لم يذكر لا بصمات ولا جلد ولا أي شيء آخر غير العظام التي تتكون منها أطراف الأصابع والأصابع نفسها.

نقول: البصمة عند الإطلاق تنصرف إلى بصمات الأصابع وهي الأثر التي تتركها الأصابع عند ملامستها الأشياء، وتكون أكثر وضوحًا في الأسطح الناعمة، فكما أن البعرة تدل على البعير فكذلك البصمة تدل على ملامح وصفات للبنان والإصبع، فإذا ذُكر المؤثر اكتُفي به عن ذكر الأثر، فيصح لك أن تقول: إن الشمس سبب في تغذية النبات وإمدادنا بالطاقة؛ مع أن أشعة الشمس هي التي فعلت ذلك، فقياسًا على ذلك يصح لك أن تقول: إن اختلاف أطراف الأصابع (البنان) من شخص لآخر سبب لمعرفة مرتكب جريمة ما، ونقصد بذلك اختلاف البصمات، مع أنه عدما تقدم العلم وأثبت أنواع من البصمات مختلفة ترى علماء الطب وغيره يخصصون كل بصمة عن أخرى فيقولون بصمة العين وبصمة السمع.

فكلمة: بصمة كلمة عامة؛ فقد يقول قائل: إن أي إنسان لو سمع كلمة بصمة فهي ترد على بصمة الإصبع. قلت له: ولكن عندما يشتهر ذكر البصمات الأخرى حتى أنه في يوم ما قد تكون استخدام أجهزة لمعرفة بصمة العين أو غيرها هي الأصل فعندئذ إذا أردت أن تشير إلى بصمة الإصبع فعليك بعدم الاكتفاء بلفظ (بصمة) فقط.

الوجه الثاني: ذكر المفسرون في الآية قولين، والقول بالإعجاز العلمي في مسألة

(١) انظر: مادة (بصم) لسان العرب لابن منظور ١٢ / ٥٠، القاموس المحيط للفيروزآبادي (٩٧٤)، المعجم الوسيط (٦٠).

(٢) انظر: قرارات مجمع الفقهي الإسلامي بالرابطة.

بصمة الإصبع يوافق أحدهما.

قال ابن الجوزي: في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أنه فيه قولان:

أحدهما: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحدًا كخُفّ البعير، وحافر الحمار، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة، كالكتابة والخياطة، هذا قول الجمهور.

والثاني: نقدر على أن نسوي بنانه كما كانت، وإن صغرت عظامها، ومن قدر على جمع صغار العظام، كان على جمع كبارها أقدر، هذا قول ابن قتيبة، والزجاج(١).

فهذان القولان معتبران، ولا يمكن الإنكار على أحدهما، فإذا وافق الإعجاز العلمي أحدهما فلا ننكر على مَنْ قال بالإعجاز العلمي في الآية ظنًا منا أنه يخالف القول الآخر. فقد وافق الإعجاز العلمي في إثبات البصمة الوراثية للقول الثاني.

الوجه الثالث: توضيح كيفية موافقة القول بالإعجاز العلمي لأحد قولي المفسرين.

١- كلا قولي المفسرين: فيه توضيح لطيف لبيان قدرة الله في خلق بنان الإنسان واختلافه عن بنان الحيوان، والسؤال هو: لماذا اختص الله بنان الإنسان بالذكر في هذه الآية ولم يختص أي عضو آخر من أعضاء الإنسان؟ أليس هذا لإثبات أن في البنان عجائب وأسرار. فليس بشرط أن يذكر الله البصمة الوراثية مع ذكر البنان في الآية.

قال الأستاذ زغلول النجار:

ومن عادة القرآن الكريم أنه يشير إلى الحقائق الكونية بصياغة ضمنية يفهم منها أهل كل عصر معنًى محددًا تحكمه كمية المعارف المتاحة لأهل هذا العصر، وتظل هذه المعاني للآية الواحدة تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا من أبلغ آيات الإعجاز العلمي في كتاب الله.

خذ مثلًا موضوع الجبال وحركتها ودلالة هذه الحركة على حركة الأرض كما وردت في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)

---

(١) زاد المسير ٦/ ٩٧ (القيامة ٤).

فسر بعض الأقدمين هذه الآية على أنها تشير إلى الحركة التي تقع على الجبال يوم القيامة، بينما فسرها آخرون بأنها تتحرك الآن لكننا لا ندرك حركتها لضخامتها، حاليًا يمكننا تفسير الآية المذكورة على أنها تشير إلى الحركات التي تقوم بها الأرض حول نفسها وحول الشمس[(١)].

٢- فإن قول قول ابن قتيبة والزجاج لتفسير الآية فيه توضيح الإعجاز في خلق بنان الإنسان.

يقول النيسابوري:

وإنما خص البنان؛ وهو الأنملة وجمعها (أنامل) بالذكر؛ لأنه آخر ما يتم به خلقه فذكره يدل على إتمام الإصبع وتمام الإصبع يدل على سائر الأعضاء التي هي أطرافها[(٢)].

٣- وقد اختص الله البنان بالتصريح والتوضيح لما فيه من صورة الخلق معجزة؛ لم يتوصل العلم الحديث إلى معرفة تفاصيلها إلا في القرن التاسع عشر، وقد كانت هذه الآية المعجزة سببًا في إسلام بعض العلماء بعد أن تأكدوا ما تحويه هذه الآية (الأنامل) من خصائص ومميزات، فالبنان (أو الأنملة) هو أطراف الأصابع وتدعمه عظمة صغيرة من العظام الغضروفية ولها شكل خاص، وهى الهيكل الأساسي للبنان، حيث يغطيها جلد خارجي تظهر فيه التضاريس أو الأخاديد التي تميز بخطوط معينة تسمى البصمة، وتترك هذه الخطوط والأخاديد في الإصبع آثارًا عند لمس أي شيء خصوصًا الأشياء الملساء.

٤-والعلم الحديث يعلم ما فيها من خطوط البصمات التي لا يتشابه بها اثنان في العالم كله، حيث إنها تختلف من شخص لآخر لدرجة أنها لا تتشابه حتى في الإخوة التوائم، هذا بالرغم تشابه التوائم في كثير من الصفات والخصائص، لكنها تختلف في بصمات الأصابع.

لقد كانت البصمة ولا تزال سرًا من أسرار عظمة الله ﷻ في خلقه، والبصمة هي تلك العلامة التي خلقها الله في الإنسان والتي تميز كل إنسان عن غيره بما تحيط بها من خطوط تأخذ أشكالًا مختلفة على جلد أطراف الأصابع، وتبدأ البصمة في التكوين منذ الأسبوع

---

(١) www. akeem. net

(٢) (غرائب القرآن ٧/ ٢٥٠).

السادس للحمل، وتنتهي تسويتها في الأسبوع التاسع عشر بطريقة لم يطلع العلماء على سرها حتى الآن برغم التقدم العلمي، وبالتالي فهي من أدق عمليات التخلق الجنيني، وهذه البصمة تبقى طوال حياة الإنسان حتى مماته لا تتغير ولا تتبدل، ومهما حاول الإنسان تغير هذه البصمة بإزالة الجلد أو كشطه، فإن هذه الطبقة تنمو مرة أخرى، وتتشكل بنفس الشكل الذي كانت عليه من قبل.

وعن طريق البنان اكتشف علم جديد؛ هو علم تحقيق الشخصية في عصرنا الحالي، ولم يكن معروفًا في العصور السابقة مطلقًا، وهو أدق وأبدع شيء خلقه الله في بناء جسم الإنسان تسوية البنان، بحيث إنه لا يمكن أن نجد بنانًا لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال، وعن طريق هذا البنان اكتشفوا كثيرًا من القضايا والحوادث الجنائية.

قدرة الله في خلقه وصلت إلى مرحلة خلق الإنسان بأحسن تقويم، وهو وجه الإنسان وصوته، لقد خلق الله ملايين البشر واستطاع في هذه المساحة الصغيرة التي هي الوجه أن يتميز به كل إنسان.

٥- وقد اهتم بدراسة البصمات الباحث الألماني ج. س. مايو عام ١٨٥٦ عندما أعلن أن الخطوط البارزة في بنان الإنسان تبقى ثابتة لا تتغير ولا تتبدل منذ ولادته حتى وفاته، وكان الاستخدام العلمي للبصمات تم عام ١٨٥٢م بواسطة الحاكم الإنجليزي (وليم هرتشل) عندما أمر بأن يطبع أشكال أكفهم في نهاية العقود حتى يضمن عدم إنكار أطراف التعاقد في المقاضاة. إلا أنه لم يكن تعريف البصمات معتبرًا حتى عام ١٨٨٠ عندما قامت المجلة العلمية (الطبيعة) بنشر مقالات لهنري فولدز، ووليم هوشل يشرحان فيها وحدانية وثبوت البصمات، ثم أثبتت ملاحظتهم على يد العالم الإنكليزي فرانسيس غالتون وجاء نظامه خدمة لمن جاء بعده من العلماء، إذ كان الأساس الذي ينبني عليه نظام تصنيف البصمات الذي طوره إدوارد هنري، وقد قام العالم غالتون عام ١٨٨٦م بتقسيم البصمات إلى أربعة أنواع وأصدرها في كتابه (بصمات الأصابع) الذي يعتبر مرجعًا أساسيًا

في علم البصمات، واعتمدته الحكومة البريطانية بعد ذلك في عام ١٩٠١م، واعتمدت الأرجنتين كأول دولة في العالم نظام علم البصمات عام ١٨٩١م، لقد وضع غالتون بصمة الأصابع في نظام معين يقضي على أن لكل بصمة ١٢ ميزة خاصة، وثبت أن من بين المليون من البصمات التي حصلت عليها شرطة لندن لم يعثر على بصمتين متشابهتين في أكثر من سبع مميزات من بين المميزات الإثنى عشر، وقد قدر غالتون أن هناك أقل من فرصة واحدة من ٦٤ مليار لوجود بصمة واحدة مطابقة للأخرى، وقد قام العلماء بعده بتصنيف البصمات إلى منحنيات وخطوط وثنيات.

الوجه الرابع: توجيه القول الثاني من أقوال المفسرين.

وهو القول الذي يفسر قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحدًا كخُفّ البعير وحافر الحمار.

قال الرازي: وقد يكون المعنى: كنا قادرين على أن نجعل بنانه مع كفه مثل صفيحة مستوية لا شقوق (أخاديد) فيها كخف البعير، فلا يستطيع أن يؤدي الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وغيرها من الأعمال التي يستعين الإنسان بأصابعه في القيام بها[1].

توجيه هذا القول:

١-وهذا فيه إشارة إلى علم التشريح؛ وذلك بأن الله يدعو الإنسان لكي يتأمل في خلقه، وفي الفرق بينه وبين الحيوان، وهذا التأمل إما بالنظر أو بالتدقيق، فالنظر يكون بالعين المجردة، والتدقيق يكون عن طريق علم التشريح. فهناك اختلاف بيْن بنان الإنسان وبنان الحيوان في التركيب والتكوين، وإن كان هذا ظاهرًا للناس إلا أن هناك اختلافات دقيقة تتأتى من علم التشريح.

٢- أي أن الله قادر أن يحدث تشوه في بنانه أو تصلُّب فيها فتصبح شبيهة بأيدي أو أرجل الحيوان بالتشوه أو بالمسخ، والشبه لا يعني التساوي، بل قصد المفسرين أن يد

---

(١) مفاتيح الغيب١٦/ ١٨١.

الإنسان لو نزع منها خاصية الليونة في المفاصل ووجود أنامل إصبع؛ لانتفت قدرة اليد على الإمساك بالقلم والفأس بطلاقة، نعم هناك بعض القرود قد تفعل ذلك ولكن ليس بنفس طلاقة فعل الإنسان وقوة تحكمه.

وفي هذا امتنان من الله على الإنسان وتكريمه على باقي خلقه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

إذًا هذا دليل على أن هناك حكم وأسرار في هذا البنان الذي هو لدى الإنسان ولا يدري ما فيه من تلك الحكم وتلك الأسرار، فهل هو شاكرٌ لهذه النعمة ومعترف بربه ذو الحكمة، أم أنه ينتظر أن تزول تلك النعمة منه في الدنيا بأن يمسخ أو في الآخرة بأن يُشوَّه.

٣- يوم القيامة سيحدث فيه تغيير لخِلقة المجرمين من البشر؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، أي: في أعدل خلق وفي أحسن صورة، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: إلى النار؛ قاله الحسن، وأبو العالية، ومجاهد، والمعنى: إنا نفعل هذا بكثير من الناس، تقول العرب: أنفق فلان ماله على فلان، أي لم ينفقه كله[1].

فمن الناس يوم القيامة من سيكون مثل الذر.

٤- هناك من البشر من تشبه يديه يد الحيوان وكذلك رجليه، وليس هذا ظاهرًا للناس، ولكن الإنسان عندما يُعرض عن الحق فكأنه يتشبه بالحيوانات التي لا تعلق، فلقد شبَّه الله أذن الكافر بأذن الحيوان ليس ذلك لأنه يشبهها في الشكل الظاهري؛ ولكن لأنه لم يستفد من جعل أذنه تسمع الحق ليعمل به؛ قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ (البقرة: ١٧١).

حتى إن العرب تقول جعد البنان: للبخيل.

---

(١) زاد المسير ٦/ ١٧٢.

ولكن المؤمن المؤيَد من الله يجعل الله يده ورجله وسائر جوارحه متَّبعة للحق عاملة به، فتنشغل جوارحه بما أمره الله به وأباحه له من الحلال، وذلك يوضحه الحديث القدسي: "**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**"(١).

الوجه الخامس: توضيح أن قول المفسرين لا يتعارض مع العلم.

قال الطبري: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ على أعظم من ذلك أن نسوي بنانه، وهي أصابع يديه ورجليه، فنجعلها شيئًا واحدًا كخفّ البعير، أو حافر الحمار، فكان لا يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم، ولكنه فرق أصابع يديه يأخذ بها، ويتناول ويقبض إذا شاء ويبسط، فحسن خلقه، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل(٢).

توضيح أن هذا القول لا يتعارض مع العلم وذلك لما يأتي:

١- إذا اختلفت عظام الأصابع وتحولت إلى أشياء أخرى غير ما عليها الإنسان الآن لاختلفت باقي وظائف الأصابع (عظم- لحم- جلد) اختلافًا كبيرًا.

٢- تصبح هذه البصمات المميزة للإنسان لا يمكن معرفتها، ولا يمكن التفريق بين إنسان وآخر بها لماذا؟ لأن اليد ستصبح شيئًا واحدًا كما قال المفسرون المتقدمين.

٣- اليد الواحدة ستصبح ملتصقة الأصابع ويتداخل اللحم بين الأصابع، فلا يمكن معرفة بصمة كل إصبع في اليد الواحدة، فضلًا على ذلك عدم إمكان معرفة البصمة المختلفة لكل إنسان عن الآخر.

٤- هل خفّ البعير أو حافر الحمار لهما بصمات؟ وكأنه بطريقة ضمنية نستشف من كلام المفسرين أن بصمة الأصابع الخاصة بالإنسان تختلف تمامًا عما في الحيوان والطائر، فلو تحولت يد إنسان إلى يد حيوان (وذلك كما حدث في الأمم التي قد مسخت قردة

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

(٢) (تفسير الطبري ٢٤/ ٥٠).

وخنازير) فإن الإنسان يفقد الخصائص الوراثية المميزة لأصابعه.

٥- يتضح من ذلك أن أقوال المفسرين لا يعارض العلم، بل يكشف لنا حقائق علمية ينبغي بحثها وهي: هل الحيوانات والطيور لهم بصمات متشابهة مع بصمات الإنسان؟

٦- هناك بصمات وراثية للنبات والحيوان والطير:

فقد نجح علماء الجينات في مصر في السيطرة على أكثر من ٢٠ ألف أصل وراثي للنباتات والحيوانات والطيور الأمر الذي يبعد شبح الانقراض عن كثير من السلالات المصرية الأصيلة والنادرة، وقد تم إنشاء البنك من أجل الحفاظ عل هذه الثروات وذالك بجمع وحفظ المصادر الوراثية حتى لا تتعرض للاندثار، والبنك القومي للجينات في مصر من أهم البنوك في منطقة الشرق الأوسط نظرًا للرصيد الهائل الذي يمتلكه في فترة قليلة جدًا وفي البنك غرف لحفظ الأصول الوراثية من الانقراض، ولكن حتى لو ثبت أن لهم بصمات في يد ورجل الحيوان، أو في جناح الطائر فإن هذا مختلف تمامًا عن ما هو في الإنسان.

٧- وكذلك يمكن القول بأن بصمة الرائحة هي الصفة المميزة التي يستخدمها الحيوان في حياته اليومية ليتعرف على أولاده وطعامه والمخاطر التي تحيط به.

الوجه السادس: إثبات أن عظم الإصبع هو المسئول عن تغير بصمة كل إنسان.

فللرد على الشبهة التي تقول: إن كون القرآن لم يذكر لا بصمات ولا جلد ولا أي شيء آخر غير العظام التي تتكون منها أطراف الأصابع والأصابع نفسها - والدليل على ذلك هو سبب نزول الآيات- إذن فالأمر يتعلق بالعظام لا غير!

فنقول: على قول المفسرين الذين فسروا ﴿بَنَانَهُۥ﴾ أي: من البنان: وهي أطراف الأصابع أو الأصابع نفسها؛ فبالرغم من ذلك نقول: إن القرآن قد ذكر البصمات وجلد الأصابع ذكرًا ضمنيًا؛ وذلك للأدلة الآتية:

١- فإنه عند تكون جسم الإنسان توجد العظام أولًا ثم يتكون اللحم والجلد فوقها؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المؤمنون: ١٤)

فالجلد بمنزلة الغطاء الذي يغطي كلًا من اللحم والعظم، فإذًا يكتسب الجلد خصائصه الوراثية وصفاته الحيوية من كل من اللحم والعظم فليس الجلد بمعزلٍ عنهما والجلد من بعض خصائصه البصمة الوراثية، فالجلد يشبه الغطاء الذي تُغطَّى به قطعة من الأرض، فإذا كانت تضاريس الأرض بها مرتفعات ومنخفضات أخذ الغطاء نفس شكل هذه التضاريس.

٢- وكذلك عظم الإصبع هو أصل جلد الإصبع، فالأصل هو ما يبنى عليه غيره، فعظم الإصبع مثل جذع الشجرة والجلد المغطي له كالفروع والأوراق، فإذا كان الجذع سميكًا كثرت الفروع المحمَّلة عليه؛ وبالتالي كثرة الأوراق، وكذلك إذا تعرفنا على شكل الجذع وعلمنا أنه جذع نخلة مثلًا علمنا أنه يختلف عن جذع آخر كجذع شجرة البرتقال، وبالتالي تأكدنا أن بسبب اختلاف بين جذوع الشجر تختلف الفروع والأوراق، فكذلك لاختلاف تركيب المواد العضوية والأحماض النووية الموجودة في عظام الأصابع لشخص تختلف عن شخص آخر، لذلك اختلف الجلد المغطِي لهذه الأصابع من شخص إلى آخر، فلذلك لكل جلد له صفات خاصة به، والبصمة ما هي إلا عدة خطوط منحنية في شبه بيضاوي على باطن جلد بنان أطراف الأصابع.

ولنتساءل: ما السبب الحقيقي وراء اختلاف البصمات؟

فنقول: اختلاف البصمات لاختلاف تركيب المواد العضوية والأحماض النووية الموجودة في عظام الأصابع وفي باقي الجسم، إذًا ليست البصمة شيئًا مستقلًا بذاته؛ بل شيئًا مرتبطًا بباقي العمليات الحيوية التي تجرى في عظام الأصابع وفي اللحم المغطي لها.

الوجه السابع: هناك علاقة تلازمية بين عظم الإصبع والجلد الذي يكسو هذا العظم.

فإذا تم تكوين عظم الإصبع كانت الجينات المتواجدة في العظم واللحم هي المسئولة عن اختلاف بصمة كل إنسان عن الآخر، وليس الجلد المغطي للإصبع هو فقط المسئول عن تغير البصمة من إنسان لآخر، فحتى لو تم إزالة جلد الإصبع فعندما يتجدد ترجع نفس البصمة.

الوجه الثامن: إعجاز القرآن في إشارته إلى البصمة والبنان.

قال أ. د/ كارم غنيم: وإذا كانت هذه السورة القرآنية [سورة القيامة] تسوق بعض مظاهر القدرة الإلهية في معرض الرد على منكري البعث والقيامة فإنه اختص (البنان) بالتصريح والتوضيح لما فيه من صورة في الخلق معجزة، لم يتوصل العلماء إلى معرفة تفاصيلها إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أسلم البعض بعد معرفتهم هذه الإشارة العلمية المعجزة في القرآن الكريم؛ أي الإشارة إلى البنان (الأنملة) وما يحتوى من مكونات وخصائص ومميزات، نذكر أهمها فيما يلي:

من الناحية التشريحية: فإن البنان طرف الإصبع، وتدعمه عظمة صغيرة من العظام الغضروفية لها شكل خاص، وتمثل الهيكل الأساسي للبنان، ويلتصق بها (من الناحية الخلفية) النسيج المبطن والمكون للأظافر، ويحيط بهذه العظمة الرقيقة نسيج لين مرن ناعم يمكنه من تحمل الصدمات والضربات، ويغطى هذا النسيج جلد خارجي، تظهر فيه "التضاريس" - البروزات [Ridges] والأخاديد [Furrows] - التي تتميز بخطوط معينة تسمى "البصمة" [Finger Print]. وأما الظفر [Nail] فعبارة عن نسيج مختلف عن الأنسجة الصلبة والأنسجة شبه الصلبة في الجسم، وينمو من خلايا خاصة بجلد البنان، ويستمر نموه طول العمر، ولا نستطيع أن نصنفه ضمن العظام، ولا ضمن الغضاريف، ولا ضمن الجلد، ولا يجهل الجميع ما للظفر من فوائد عديدة سواءً جمالية أم دعامية أم عملية.

ويتحرك البنان نتيجة وجود أربطة عضلية متصلة بعظمه تحركه في اتجاه واحد، وتمكنه من أداء حركة واحدة حول محور أفقي. . . ومن مميزات البنان أنه عند ملامسته للأشياء يشعر بدرجة حرارتها ويحدد شكلها ويتعرف على صلابتها، ويستمد البنان هذه القدرات الحسية [Sensory Capability] من مجموعة ألياف عصبية [Neurofibriles] متباينة الأحجام والأشكال والوظائف، فبعضها قادر على استقبال أبسط المؤثرات [Stimuli] سواءً كانت هذه المؤثرات احتكاكًا، أم حرارة، أم ألمًا، أم ضغطًا، ومن هذه الألياف العصبية ما هو منفرد، ومنها ما هو كروي ملتف، ومنها ما هو مستطيل.

وتتجمع هذه الألياف في الطبقة الرقيقة من جلد الأنملة. . . ، وتشغل المراكز العصبية الدماغية التي تتحكم في حركة البنان مساحة كبيرة في الدماغ إذا قوبلت بمساحة بقية المراكز الدماغية التي تتحكم في حركة بقية الأعضاء. . . ، وبالإضافة إلى الألياف العصبية توجد شبكة من الأوعية الدموية الدقيقة تقوم بإمداد البنان بالدفء والحيوية، وتصل شدة حساسية البنان إلى درجة تمييز وخز إبرتين قريبتين قربًا شديدًا والتفريق بينهما، وهو ما لا تستطيعه مناطق الجلد الأخرى.

ومن حيث الوصف: فإنه بصمة الإصبع تتألف من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها خطوط منخفضة (أخاديد)، وكذلك الحال في داخل الكفين، وتترك هذه الخطوط طابعها الخاص على كل شيء تلمسه خصوصًا الأشياء الملساء، ويفيدها في هذا العرق [Sweat] الذي تفرزه هذه المنطقة، حيث تفتح فيها مسام عرقية، وتتكون هذه الخطوط البارزة والمنخفضة وتتفرع بطريقة تختلف من شخص لآخر؛ لدرجة أنها لا تتشابه حتى في الأخوة التوائم الذين يتخلقون من بيضة مخصبة واحدة [Fertilized Ovum] في المرأة، هذا برغم تشابه التوائم في كثير من الصفات والخصائص والسلوكيات.

ويولد الطفل، وينمو، ويكبر؛ وتظل بصمته على شكلها دون تغيير طوال حياته وحتى مماته، دون أن يطرأ عليها أي تغيير، أما إذا أزيلت الأدمة [Dermis] (وهى الطبقة التي تلي بشرة الجلد [Epidermis] إلى الداخل) بعمل جروح فيها - لإخفاء معالم البصمة- فإن هذه الجروح عندما تلتئم تظل بآثار مميزة، ومن سوء حظ المجرمين الذين يجرحون أصابعهم لإخفاء بصماتهم أن هذه الآثار في حد ذاتها تعد دليل إضافي إلى بصماتهم! ! وقد تزول البصمة إذا أصيب الإنسان بمرض كالجذام الذي يؤدي إلى استواء الخطوط البارزة بالخطوط المنخفضة في هذه المناطق، وتزول كذلك بفعل وتأثير المواد الكيميائية التي تأكل طبقات الجلد، وخصوصًا إذا كان استعمالها متكررًا أو دائمًا، وأما إذا حاول المجرم أن يزيل بصمته أو يغيرها - لقطع الطريق على رجال العدالة والهرب من تحققهم بشخصه- بكشط الطبقة

الخارجية لجلد أنامله، فإن هذه الطبقة تنمو مرة أخرى وتتشكل بنفس الشكل الذي كانت عليه من قبل.

ذكرت السجلات أن اليونان القدامى عرفوا "البصمة"، واعتمدوها كعلامة مميزة للأفراد، كما عرف أهل الصين القدامى بصمة الإنسان أيضًا في القرن الثامن قبل الميلاد، وتوالت محاولات البشر لمعرفة تفاصيل البصمة إلى أن جاء بيركنجى [Z. Purkinge] - الأستاذ بجامعة برسلاو [Breslau] في بولندا - وبحث الموضوع جيدًا، ثم وضع تقسيم البصمات الذي يشتمل على تسعة أقسام (أو أنواع) رئيسية، وشرحها وكان هذا هو أول تصنيف للبصمات.

وجاء من بعده الطبيب الإنجليزي فولدز [H. Faulds] - وكان يعمل في طوكيو عام ١٨٧٧م- وابتدع طريقة أخذ البصمة بحبر المطابع، ثم أوصى في سنة ١٨٨٠م بأخذ بصمات الأصابع العشر، وجاء جالتون [Galton] ووضع تقسيمًا مختصرًا للبصمات في سنة ١٨٨٦م؛ وهو أربعة أقسام فقط هى: المنحدر إلى اليمين، المنحدر إلى اليسار، والمستدير، والمقوس. ثم أكد جالتون في عام ١٨٩٢م أن البصمة تبقى في أصابع صاحبها طوال حياته دون تغيير.

وإذا كانت البصمات تختلف من شخص لآخر حتى في الأسرة الواحدة وحتى فيما بين التوائم المتطابقة" الحقيقة " [True or Identical Twins]؛ فإنها تختلف أيضًا من إصبع لآخر في اليد الواحدة، وقد تظهر على الورق أو الأشياء الملساء في شكل أقواس [Archs]، أوخطوط حلزونية [Spirals]، أو دوائر [Circles]، وقد تكون البصمة الواحدة مركبة من هذه الأشكال جميعها. وقد تتأثر البصمة بمهنة صاحبها، أو بمعنى آخر تدل البصمة على مهنة صاحبها، كالترزي، والبناء، والذي يكوي الملابس، وصانع الأحذية، والحلاق، والنقاش، والكاتب. . . إلخ.

وإضافة إلى استعمال البصمة كدليل جنائي في الطب الشرعي، ودوائر الأمن، وتعقب الجناة وتحديد الآثمين؛ فإنها تستعمل أيضًا في تحديد بعض الأمراض، أو على الأقل في تحديد القابلية للإصابة بأمراض معينة مثل: ضغط الدم الانقباضي [Systolic] الذي تدل

عليه"البصمة الدوامة" [Whorl Print] التي تسمى أحيانًا "بصمة المغزلية"، وإضافة إلى هذا وذاك، فإن من العلماء من يستطيع تقدير عمر الشخص بتحديد مساحة بصمته، وبعدد الخطوط الموجودة في وحدة القياس المستعملة فيها (وهي نصف سنتميتر مربع).

توصل العلماء - مع تقدم العلوم وابتكار الأجهزة- إلى تحديد أنواع أخرى من الأدلة التي تميز كل شخص وتفرق بينه وبين غيره، أي أنهم تعرفوا على أنواع أخرى من البصمات، ومنها: بصمة القدم، وبصمة الشفتين، وبصمة الأذنين، وبصمة الدم، وبصمة اللعاب، وبصمة الصوت، وبصمة الشعر، وبصمة رائحة العرق، وبصمة قزحية العين، والبصمة الوراثية [Genetic Fingerprint]، ولكن بصمة البنان تبقى سيدة هذه البصمات وأوضحها وأسهلها وأسرعها، لدرجة أن شركة سوني [Sony] اليابانية أنتجت جهازًا أسمته (F IU- ٠٠١)، وطرحته للبيع في الأسواق بسعر (١٧٠٠ دولار) في سنة ١٩٩٧م لتشخيص بصمات الأصابع بسرعة تبلغ ٨٠ من ألف من الثانية، وتخزين وحفظ بصمات ١٠٠ شخص تقريبًا.. !

ويظل التحدي الإلهي للكافرين ومنكري البعث وإعادة الموتى أحياءً كما كانوا بالضبط في الدنيا. . . يظل هذا التحدي قائمًا، وهو ما صرحت به الآية الرابعة من سورة القيامة: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾. . . تظل هذه الإشارة القرآنية المعجزة التي لم يتوصل العلماء إلى فك بعض أسرارها والوقوف على بعض تفاصيلها إلا في القرن العشرين الميلادي، وبالتالي خصها الله بالذكر في هذا النص القرآني المجيد للتدليل (وخاصة للكافرين ومنكري البعث) على قدرته المطلقة على الخلق والإيجاد، وإعادة الموتى مهما بليت أجزاؤهم، وتناثرت أشلاؤهم، وتباعدت أعضاؤهم، وتآكلت أنسجتهم، وتحللت خلايا أجسامهم، وتحولت جثثهم إلى تراب؛ لأن الله خلق من التراب، وأماتهم وأحالهم إلى تراب، وهو القادر على إحيائهم من التراب. . . إنه على كل شيء قدير[1].

* * *

(١) نقلًا من موقع **www. quranworld. com/news.**

١٥- شبهة: معرفة الجنين.

نص الشبهة:

لقد حاول الطاعنون الإساءة إلى القرآن الكريم قائلين: إن العلم الحديث يمكنه معرفة الجنين قبل ولادته، فما هي المزية والإعجاز في قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨).

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: علم الله لمثل هذه الأمور علم أزلي، وشتان بين علم الله وعلمهم.
وبيان ذلك في النقاط التالية:

١-إن الله تعالى يعلم ما تحمل كل أنثى قبل حملها، بل قبل جماعها، بل قبل خلقها، وكل ذلك بعلمه الأزلي كما صح في الحديث أن النبي ﷺ قال: " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله الْقَلَمَ فَقَالَ اكْتُبْ. فَقَالَ مَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ "[(١)].

وصح أنه ﷺ قال: " كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ – قَالَ – وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ". [(٢)]

فهل يمكن للعلم الحديث أن يأتي على فتاة في الخامسة من عمرها ويخبرنا عن هذه البنت هل ستحمل أم لا؟ فإذا قال تحمل، فليقل لنا بمن؟ وبكم؟ وفي أي وقت؟ فإن عجز فقد عجز، وهو لا يستطيع أن يعلم ذلك، لكن ربنا سبحانه كل شيء عنده بمقدار كما في الآية التي معنا، وهو الذي أحاط بكل شيءٍ علما قبل وجوده وبعد وجوده.

٢-إن الله أخبر في هذه الآية عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل ومن كل إناث الحيوانات كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ

(١) الترمذي (٢١٥٥)، والطيالسي في مسنده (٥٧٧)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (١٠٥).

(٢) مسلم (٢٦٥٣).

﴿ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ (لقمان: ٣٤)[١].

فهذه الوحوش الكاسرة والأسماك البحرية الكبيرة الفاتكة بما وصل إليها هل يستطيع البشر أن يحدد لنا الآن ما يحمل منها وما لا يحمل، وهذه الحشرات الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة والتي لم يكتشفها العلم بعد وماذا تحمله إناثها؟!

والجواب: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ وفي وقت واحد وآن واحد.

٣- إن الله يعلم ما تحمل كل أنثى من ذكر وأنثى[٢] منذ التلقيح، بل قبله إذا لقحت بماذا تلقح، فهل يستوي هذا بعلم من يعلمونه بعد الخلق والتكوين؟ ثم إننا نسألهم عما في بطن الحشرات التي لا ترى بالعين أهو ذكر أم أنثى!

٤- وكذلك يعلم الله تعالى أَحَسَنٌ هذا الحمل أم قبيح[٣]، طويل أم قصير، عظيم الخلقة أم حقير، وذلك على سبيل العلم لا على سبيل الظنون والاحتمالات.

٥- إن الله يعلم ما في الأرحام، وما تحمل كل أنثى، ومما يشمله العلم أشقيٌّ هوأو سعيد[٤] غني أو فقير، عزيز أو ذليل، خادم أو مخدوم، ما هي مهنته؟ وما هي صنعته؟ فهل يمكن للعلم الحديث أن يقول لنا عما في بطن هذه المرأة أنه سيكون رئيسًا للعالم أم أنه سيكون شقيًا في السجون طيلة حياته؟ وهل سيرزق بأولاد أم أنه سيكون عقيمًا؟ وأولاده يعيشون أم يموتون؟ وهل يموتون قبله أم بعده؟. . . . إلخ.

ثم انظر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ

(١) تفسير ابن كثير- آية ٨ سورة الرعد -، وانظر: فتح القدير، وتفسير الرازي نفس الموضوع.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر، وانظر معالم التنزيل للبغوي - آية (٨) سورة الرعد.

(٤) المصدر السابق.

بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ (النجم: ٣٢)[١].

٦- وعلم الله لما تحمل كل أنثى هل ستحمل واحدًا أم أثنين أم أكثر[٢]؟ وهذا من لحظة وضع النطفة، بل قبلها على الوجه الذي ذكرنا.

٧- والعلم بالحالة النفسية والمزاجية للجنين[٣]:

قال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن، ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضها، فمن ثم لا تحيض الحامل[٤]، فإذا وقع إلى الأرض استهل واستهلاله استنكار لمكانه، فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، ثم يصير طفلًا يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال هو الموت أو القتل أني لي بالرزق؟ فيقول مكحول يا ويلك غَذَّاكَ وأنت في بطن أمك وأنت طفل صغير حتى إذا اشتددت وعقلت قلت هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ أي بأجل حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلًا معلومًا.[٥]

٨- ومن علم الله تعالى: علمه للحظة الوضع؛ وهل هي بعد تمام الحمل على المعتاد؛ أم سيولد قبل التسعة، أم سيتأخر بعدها، أعني العلم بمدة الحمل[٦]على سبيل العلم الحقيقي لا العلم المزعوم المحتمل. . . فهل يمكنهم إذا جامع رجل زوجته، وذهب إليهم أن يخبروه بموعد الولادة؛ لأنه مسافر الآن ويريد أن يعرف الموعد بالضبط ليرجع على هذا الموعد، فإذا

---

(١) تفسير ابن كثير سورة الرعد آية (٨)، وفتح القدير للشوكاني آية سورة الرعد وتفسير الرازي.

(٢) معالم التنزيل للبغوي آية ٨ سورة الرعد.

(٣) تفسير ابن كثير آية ٨ من سورة الرعد.

(٤) هذا في الغالب وقد تحيض أحيانًا.

(٥) وأخرج الأثر ابن أبي حاتم في التفسير برقم (١٣٠١٩) بإسناد فيه عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر وهو ضعيف ضعفه النسائي والحافظ ابن حجر وغيرهما.

(٦) تفسير ابن كثير بتصرف، وفتح القدير للشوكاني آية ٨ من سورة الرعد، وانظر تفسير الرازي نفس الموضع.

رجع على الموعد فوجدهم أخطأ وعاقبهم بالسجن والقتل؟ فهيا أخبروه ليسافر.

٩- كثيرًا من تصرفات أدعياء العلم الحديث تدل على جهلهم بحال ما في الأرحام، ومن ذلك فعلهم وقولهم تطعيم ضد كذا من الأمراض؛ لأنهم لا يعلمون هل سيصاب أم لا، ولو علموا لطعموا المصاب فقط، ثم كيف ولو قدر الله له الإصابة لأصيب[١]، وإذا كان الحال هذا فما ذنب السليم في علم الله أن يطعم بنوع من الفيروسات لمقاومة فيروس لم يقدر أن يحل في بدنه أصلًا، فهذا دليل على الجهل القائم على الاحتمالات والظنون؛ وإن كنا لا نذمهم على هذا، فهو من باب الاحتياط والأخذ بالأسباب.

فظهر للقارئ بما ذكرنا أن هذه كلها أوجه من العلم بما تحمل كل أنثى تفرد رب العزة بعلمها، ولا يمكن أن يعلمها غيره وأن ما علموه إنما هوشيء من قبيل الشهادة لا من قبيل الغيب لأنهم يستخدمون أجهزة تكشف لهم فيرون، فإذا رأوه لم يكن من قبيل علم الغيب أصلًا، ثم إن الذي في البطن أو الرحم إذا لم يخلقه الله فهل يعلموه؟ فالأولى بهم أن لا يتعرضوا لمناقشة هذه الثوابت لأنها تدل على جهلهم حتى بالعلم الحديث، والله الهادي.

الوجه الثاني: الإعجاز العلمي للقرآن والسنة في دلالة (غيض الأرحام). [٢]

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث تحرير معنى غيض الأرحام عند علماء اللغة ومفسري القرآن الكريم، ثم مطابقة هذا المعنى مع حقائق علم الأجنة الحديث، وقد توصل البحث إلى أن غيض الأرحام: هو السقط الناقص للأجنة قبل تمام خلقها، أو هو ما تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض، أو هو هلاك الحمل أو تضاؤله أو اضمحلاله؛ وهذا المعنى يتوافق مع الإسقاط التلقائي المبكر للأجنة حينما تهلك ويلفظها الرحم، أو تغور وتختفي تماما من داخله.

---

(١) لكن قد يكون من باب الأخذ بالأسباب.

(٢) أصل هذا الوجه مقال في مجلة الإعجاز العلمي د. عبد الجواد الصاوي.

كما أظهر البحث وجه الإعجاز العلمي في هذا الموضوع. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ (الرعد: ٨)

أولًا: تحرير معنى الغيض:

يطلق الغيض في اللغة على: النقض، والغور، والذهاب، والنضوب، وقد جاء في المعاجم اللغوية (غاض الماء غيضًا ومغاضًا): قل ونقص، أو غار فذهب، أو قل ونضب، أو نزل في الأرض وغاب فيها، وغاضت الدرة: احتبس لبنها ونقص، وغيض دمعه: نقصه وحبسه[1]، وفي حديث سطيح وغارت بحيرة ساوة: أي غار ماؤها وذهب، وفي حديث عائشة تصف أباها ﷺ: وغَاضَ نبعَ الردةِ أي أذهب ما نبع منها وظهر.[2]

وفي المفردات في غريب القرآن: (وغيض الماء-وما تغيض الأرحام) أي تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض، والغيضة المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه[3]، فيبتلعه[3]، وقد ورد ذكر الغيض في آيتين من القرآن الكريم: الأولى هي النص السابق في سورة الرعد، والثانية قوله جل في علاه ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدًا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (هود: ٤٤).

ووفق قواعد التفسير القاضية بتفسير القرآن بالقرآن، فإن معنى الغيض في آية سورة الرعد يفسر بالغيض الوارد في آية سورة هود، ومعنى الغيض فيها: الغياب، والذهاب والنضوب، قال ابن الجوزي: قال الزجاج: غاض الماء يغيض: إذا غاب في الأرض، وقد دار تفسير العلماء لغيض الأرحام حول معنيين: الدم الذي ينزل على المرأة الحامل، والثاني: السقط أو السقط الناقص، أو ما تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض.

١. الغيض هو السقط:

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٦٦٨).
(٢) لسان العرب (٧/ ٢٠١).
(٣) المفردات في غريب القرآن (٣٦٨).

قال ابن عباس وقتادة: (وما تغيض الأرحام) (السقط)، (وما تزداد) ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا، وقال الضحاك: (وما تغيض الأرحام) أن تسقط المرأة الولد، (وما تزداد) تضعه لمدة كاملة تامة.

وقال الحسن: الغيض الذي يكون سقطا لغير تمام، والازدياد ولد التمام، وقال أيضًا: وما تغيض بالسقط الناقص، وما تزداد بالولد التام، وقال أيضًا: وما تغيض الأرحام: ما كان من سقط وما تزداد: تلد المرأة لعشرة أشهر، وقال صاحب تفسير المنار: وما تغيض الأرحام من نقص الحمل أو فساده بعد العلوق.

وقال السعدي:

(وما تغيض الأرحام) أي: تنقص مما فيها إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل، (وما تزداد) الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها، وقال ابن عطية: (وما تغيض الأرحام) معناه ما تنقص وذلك أنه من معنى قوله (وغيض الماء)، وهو بمعنى النضوب، فهي ها هنا بمعنى زوال شيء من الرحم وذهابه.

٢. الغيض هو نزول الدم على الحامل:

عزا أبو حيان هذا الرأي إلى الجمهور، فقال: قال الجمهور: غيض الرحم الدم على الحمل، قال مجاهد: وما تغيض الأرحام: الدم تراه المرأة في حملها، وقد عزا نقصان الأرحام وزيادتها إلى هذا الدم فقال: وهو نقصان من الولد، وما زاد على التسعة أشهر فهو تمام لذلك النقصان وهي الزيادة، وبمثل قوله قال عكرمة، وقتادة، وابن زيد، وسعيد بن جبير الذي حدد طبيعة الدم في بعض أقواله فقال: الغيض حيض المرأة على ولدها.

رأي الجمهور يؤول إلى تفسير الغيض بالسقط:

إن الدم الذي ينزل من المرأة الحامل مبكرًا لا يعدو إلا أن يكون راجعًا لأحد احتمالات خمس: دم بسيط يعرف بإدماء الانغراس، أو دماء تسبق الإسقاط وتسمى إسقاطًا منذرًا، أو دماء تصاحب الاسقاط التلقائي للجنين المبكر؛ وهذا يختلط عند المرأة مع الحيض، أو دماء تنزل في حالات الحمل الكاذب ومتلازمة التوأم المتلاشي، بناءً عليه

فالدم الذي تراه المرأة مصحوبًا ببقاء الحمل لا يمكن أن يكون دم حيض ولا علاقة له ببقاء الجنين فترة أطول في الرحم، بل ربما يؤثر في نقص عمر الجنين أو وزنه، فالجنين الذي يبقى عادة مع الإجهاض المنذر ينزل دون التسعة أشهر أو ينزل دون الوزن الطبيعي.

وعليه فكل الآراء التي ربطت بين ضعف الولد ورقته بحدوث هذه الدماء وازدياد مدة الحمل أكثر من المدة المعهودة آراء غير صحيحة وليس عليها أي دليل علمي، بناء على هذا يمكن أن نقرر أن تعريف بعض السلف للغيض بأنه الدماء التي تراها الحامل في حملها يصب في بوتقة السقط، ويعتبر تعريفًا له بأحد لوازمه فالدماء هي الشيء الملازم غالبًا والمصاحب للسقط وبهذا نثبت أن التفسير القائل بأن الغيض هو السقط هو رأي الجمهور أيضًا.

هل الغيض مطلق السقط أم السقط المبكر؟

إن الفترة الزمنية التي يمكن أن يكون الإسقاط التلقائي فيها معبرًا عن الغيض المذكور في القرآن والسنة تقع في مرحلة التخليق وتبدأ من تكون النطفة الأمشاج مرورا بطوري العلقة والمضغة حتى وقت نفخ الروح في الجنين، والدليل: سؤال الملك الموكل بالرحم ربه عن مستقبل ومصير كل طور من أطوار الجنين الأولى والتي تقع في زمن التخليق هل ستنخلق أم لا؟

روى البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: " وكَّل الله بالرحم ملكًا فيقول: أي رب نطفة؟ أي رب علقة؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال: أي رب أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه ".

إن أسئلة الملك، أي رب نطفة؟ أي رب علقة؟ أي رب مضغة؟ هي أسئلة عن مستقبل تخلق هذه المرحلة؛ ومن ثم عن غيض الأرحام بها من عدمه، وفحوى أسئلته عندما يرى نطفتي الرجل والمرأة متقاربتين يا رب أيحدث التلقيح وتتكون النطفة الأمشاج وتغرس في جدار الرحم أم تسقط؟ وهل ستتخلق بعد ذلك إلى العلقة، وما فيها من مجموعات الخلايا الأساسية لأعضاء الجسم أم تهلك وتسقط؟

وربما يسأل الملك سؤالًا واحدًا شاملًا من البداية هل هذه النطفة مخلقة أم غير مخلقة؟

فإن كانت مخلقة سأل عن صفتها، وإن كانت غير مخلقة مجتها الرحم دما؛ وذلك في الحديث المرفوع الذي رواه ابن جرير الطبري بسنده عن ابن مسعود- إسناد صحيح كما قال الحافظ ابن حجر – وهو موقوف لفظًا على عبد الله بن مسعود قال: إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكًا فقال: يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال غير مخلقة، مجتها الأرحام دما، وإن قال مخلقة قال: يارب فما صفة هذه النطفة؟ فينطلق الملك فينسخها فلا تزال معه حتى يأتي على آخر صفتها، وهذا الحديث يشير بوضوح إلى أن زمن حدوث الغيض أو الإسقاط التلقائي يكون في فترة تخليق الأجنة في الأسابيع الستة الأولى.

ما هو السقط، وماذا يعني في علم الأجنة الحديث؟

يمكننا القول بأن السقط المفسر للغيض والمراد في كلام علماء اللغة والتفسير هو: الجنين الذي سقط من بطن أمه قبل اكتمال خلقه، أو هو الجنين الذي يهلك في الرحم ويتحلل ويغور وتختفي آثاره منها ويصدق عليه أن الرحم تبتلعه كما تبتلع الأرض الماء فهل لهذا المعنى ما يوافقه في علم الأجنة الحديث؟

نقول بكل يقين: نعم فالأجنة عندما تهلك في الأسابيع الثمانية الأولى من عمرها: إما أن تسقط خارج الرحم، أو تحلل وتختفي تماما من داخله، ويسمى علماء الأجنة هذا الهلاك بصورتيه: الإسقاط التلقائي المبكر؟ وهو متوافق تماما مع أقوال علماء اللغة والتفسير في تعريفهم للغيض، وعليه يمكننا أن نقول: بأن غيض الأرحام هو الإسقاط التلقائي المبكر.

ثانيًا: تحرير الحقيقة العلمية:

١. ما هو الإسقاط التلقائي المبكر؟

يطلق الإسقاط التلقائي المبكر (spontaneous abortion) على كل حالة يسقط فيها الحمل تلقائيًا قبل الأسبوع العشرين من عمره، أو عندما يكون وزن الجنين أقل من ٥٠٠جم، ومعظم حالات الإسقاط التلقائي تحدث خلال الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل؛ ويسمى الإسقاط التلقائي المبكر؛ وهو ظاهرة شائعة؛ ونسبة حدوثه كبيرة وغالبًا يحدث بدون دراية من الأم بالحمل، والغالب أن كل امرأة تتأخر لديها الدورة الشهرية مدة

أسبوع أو أسبوعين أو تأتي لها الدورة بغزارة غير طبيعية تعتبر في حالة إسقاط تلقائي مبكر، وتكون نسبة الإسقاط التلقائي عالية جدًا قبل ٤ أسابيع إذ تصل إلى حوالي ٤٠٪، ومن الحمل الذي يعيش ٤ أسابيع يفقد منه ١٥-٢٠٪، وقد قام بعض الباحثين ببعض التجارب لتحديد نسبة فقد الحمل في الفترة المبكرة جدًا منه، فقام إدموندز (Edmonds) وزملاؤه عام ١٩٨٢، باختيار الحمل في بول ١٩٨ امرأة صحيحة قابلة للحمل، فوجد لدي ١١٨ منهن حملا، وقد فقدت ٦٧ امرأة منهن حملها مبكرًا من غير أن يعرفن أنهن حوامل، وتمثل النسبة حوالي ٦٠٪، وفي عدة مشاهدات للسقط المبكر لم يكن الجنين موجودا؛ أي: أن الجنين قد تحلل واختفى داخل الرحم، وعدم رؤية جنين بالمرة في حويصلة الحمل يسمى كيس الحمل الفارغ ويشيع هذا في حالات ظاهرة التوائم المتلاشية vanishing twin syndrome، وقد لا يسقط محصول الحمل بعد موت الجنين تلقائيًا؛ بل يبقى لفترة طويلة داخل الرحم ويسمى الإجهاض المخفي (missed abortion)، ويتغير فيه حجم الرحم فيأخذ في الصغر والجمود نظرًا لامتصاص السائل الأمنيوسي وحدوث تهتك في الجنين، والنسبة الغالبة من هذا الإجهاض المخفي مآلها إلى الإسقاط التلقائي، لكن في بعض الحالات يغور ويختفي الجنين تمامًا من حويصلة الحمل وتقول المراجع الطبية: ما زالت الإجابة غيرمعروفة ومحددة لهذا السؤال لماذا تسقط بعض الأجنة بعد موتها ولماذا لا يسقط بعضها الآخر؟

٢. الأدلة العلمية على أن المراد بالسقط هو السقط المبكر:

الدليل الأول: ذكر الغيض قبل الزيادة والمطابقة بينهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ ذكرت الآية الكريمة الزيادة بعد الغيض، ومعروف علميا أنه خلال الأسابيع الثمانية الأولى من عمر الجنين لا يزاد الرحم عن حجمه الطبيعي زيادة ملحوظة تذكر، وأن التغييرات التي تطرأ عليه هي تبدلات وظيفية في أنسجته؛ وتحدث تحت تأثير هرمونات الحمل، لكن الازدياد الحقيقي للرحم يبدأ بعد مرحلة التخليق في بداية الأسبوع

التاسع؛ وهو المتعلق بنمو الجنين ويستمر إلى نهاية الحمل، وبناء عليه فلا يكون الغيض المطابق للازدياد في الآية الكريمة إلا في مرحلة التخليق (الأسابيع الثمانية الأولى).

الدليل الثاني: لا تغور الأجنة ولا تنضب إلا في مرحلة التخليق حيث وجد أن الأجنة الهالكة لا تغيب آثارها وتختفي من داخل الرحم إلا في خلال مرحلة التخليق. يقول مرجع طبي: إنه من اللافت للنظر أن موت الأجنة وإتباعها بغور وارتشاف ونضوب وامتصاص كامل لها لا يكون إلا في الأشهر الثلاثة الأولى وحتى نهايتها كحد أقصى (أي شهرين ونصف بعد حدوث التلقيح)، ويقول مرجع طبي آخر: عندما يكون هناك توقف في نمو الجنين أثناء الأشهر الثلاثة الأولى يحدث غور ونضوب وامتصاص لهذا الحمل (جانيكوس ١٩٨٨)، أما عندما يموت الجنين في الأشهر الثلاثة التالية فلا يندثر ويغيب من الرحم بل يضغط وينكمش حتى يصير رقيقًا كالورقة ويسمى الجنين الورقي، وبما أن الغيض يراد به السقط الملفوظ من الرحم أو المتحلل الذي غار ونضب فيه لذا؛ فلا يمكن أن يكون الغيض مرادا به مطلق السقط في أي فترة زمنية ولكنه السقط الحادث في مرحلة التخليق فقط بناء على هذه الحقائق يثبت لنا أن الإسقاط التلقائي المبكر يشمل كلًا من الأجنة الهالكة الملفوظة من الرحم والمتحللة الغائرة فيه.

ثالثًا: توافق معنى الغيض مع السقط التلقائي المبكر:

إن دلالات الغيض اللغوية تتوافق وظاهرة الإسقاط التلقائي المبكر بحالتيها حسب الاصطلاح الطبي: الأجنة التي تلفظها الأرحام، والأجنة المندثرة فيها. دلالة الغيض على الغور والذهاب والنضوب تتوافق مع ما يحدث لبعض الأجنة من التحلل والاختفاء تمامًا من أو مع حويصلة الحمل، حيث لا يبقى للجنين أي أثر داخل الرحم كما في الحالات التالية:

١. حالات البيضة المعيبة (blighted oval) أو كيس الحمل الفارغ حيث يتخلل الجنين وتمتص مكوناته ولا يكون له أثر داخل كيس الحمل، وتمثل هذه الحالات حوالي نصف حالات السقط التلقائي المبكر، وفي دراسة قام بها هيرتج وشيلدون (hertig&Sheldon) عام ١٩٤٣ على ألف سقط تلقائي وجد أن الجنين يكون متحللًا

ومختفيًا تمامًا في ٤٩٪ من حالات تلك الدراسة وبعد اكتشاف جهاز الأشعة فوق الصوتية واستخدامه في تشخيص الحمل ومتابعته تأكدت حالات غور الأجنة واختفائها من داخل الأرحام وسميت بكيس الحمل الفارغ.

٢. حالات التوائم المتلاشية: أكدت عدة دراسات حديثة شيوع هذه الظاهرة إذ بلغت نسبتها حوالي ٥٠٪ من حمل التوائم، ويقول أحد المراجع الطبية: يغور وينضب ويختفي أحد التوأمين تمامًا داخل الرحم في الفترة المبكرة من الحمل، وقد شخصت هذه الحالات بجهاز الأشعة فوق الصوتية (ultrasound)، فبعد رؤية جنين في الرحم بهذا الجهاز أصبح لا يرى إلا جنين واحد منفرد وبجواره كيس صغير يحتوي على مادة كثيفة تدل على موت جنين سابق، وفي خلال ٤-٦ أسابيع يمكن أن يختفي هذا الكيس تمامًا ويزول معه الدليل على وجود حمل لجنين سابق آخر، كما يمكن أن يشخص حمل عديد الأجنة بأكياس حمل وأجنة حية –ثم عند الوضع لا يولد إلا جنين واحد تام مكتمل (أما بقية الأجنة فقد غارت وابتلعتها الأرحام) وقد أجرى كل من روبنسون وجانيس (١٩٧٧م) متابعة بجهاز الأشعة فوق الصوتية لثلاثين امرأة تحمل كل منهن توأمين في خلال الأشهر الثلاثة الأولى، وكانت النتائج كالتالي: أربع عشرة منهن ولدن توأمين، وإحدى عشرة منهن ولدت كل واحدة منهن ولدًا واحدًا والآخر كان كيس حمل فارغ (حيث غار الجنين واختفت آثاره)، وأربع منهن لم يلدن شيئًا (حيث غارت الأجنة كلها وابتلعتها الأرحام)، وواحدة لم تلد شيئًا أيضًا لكن وجد عندها إجهاض مخفي مع كيس حمل فارغ. وفي عام ١٩٧٩ حصل فارما وآخرون على نفس النتائج.

٣. الإجهاض المخفي: يحدث في بعض صور الإجهاض المخفي أن يغور الجنين ويرتشف ولا يكون له أي أثر داخل كيس الحمل، فيصير الجنين مع الرحم كالماء الذي حبسته الأرض وابتلعته؛ وهي إحدى دلالات الغيض اللغوية، لذا فإنه لا يوجد في مثل هذه الحالات أي إسقاط مشاهد ولا يمكن وصفه بدقة وشمول إلا بمسمى الغيض الذي

يعني الغور والنضوب والذهاب بالكلية.

٢. كما أن دلالة الغيض على النضوب والذهاب تتوافق أيضًا مع ما يحدث في التجاويف العديدة الممتلئة بالسوائل والدماء التي تحيط بالجنين كتجويف السلي، والتجويف الكربوني، والتجمعات الدموية في المسافات البينية للزغابات، والتي تجعل الجنين يحيا في محيط مائي أشبه بالبرك أو البحيرات المقفلة، حيث يحدث عند هلاك الجنين توقف التحكم الهرموني لبطانة الرحم وما فيه من أوعية دموية وغدد وأنسجة؛ فتنضب إفرازات الغدد وتقفل الأوعية الدموية للأم وتتخثر الدماء في الفجوات وبين الزغابات؛ فتجف وتذهب وتنضب هذه البحيرات داخل بطانة الرحم وفي تجويفه حول الجنين، وبهذا يكون إسناد الغيض للأرحام إسنادًا حقيقيًا.

٣. دلالة الغيض على الاحتباس مع النقص: تتوافق مع ما يحدث لبعض الأجنة حين تهلك ولا تسقط بل تحبس داخل بطانة الرحم، وقد تمكث فترة طويلة ينكمش فيها الجنين ويتهتك مع جفاف معظم السوائل الداخلية والخارجية حوله فينكمش الرحم ويقل وزنه وحجمه؛ كما يحدث هذا في بعض صور الإجهاض المخفي، وبهذا يكون تعبير الغيض أشمل وأدق دلالة من معنى السقط إذا يشمل الدلالة على الجنين الذي يغور وتختفي آثاره من داخل الرحم، والدلالة على سقوط الجنين الذي يلفظه الرحم وعلى الأحداث التي تصاحبه مما يؤكد أيضًا أن إسناد الغيض للأرحام إسناد حقيقي.

علماء الإسلام يقرون هذه الحقيقة قبل اكتشاف الأجهزة الحديثة:

لقد أشار ابن عطية الأندلسي منذ عدة قرون إلى الأجنة المتلاشية في الأرحام فقال مفسرًا الغيض: بأنه زوال شيء من الرحم وذهابه، كما أن صاحب كتاب المفردات في غريب القرآن وصفه بوضوح في قوله الذي تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض، ولله در الشيخ السعدي الذي فسر الغيض بالسقط بصورتيه، وكأنه طالع أحوال الأجنة الهالكة في أحدث المراجع العلمية قال: (وما تغيض الأرحام) أي: تنقص مما فيها

إما يهلك الحمل (السقط الذي يلفظه الرحم)، أو يتضاءل (الإجهاض المخفي حيث ينكمش الجنين ويتضائل) أو يضمحل (الأجنة التي تتلاشى في الرحم).

الإعجاز في دلالة الغيض:

إن دلالة غيض الأرحام على الإسقاط التلقائي المبكر بصورتيه غور الأجنة وإسقاطها وما يصاحبه من نقصان ونضوب لبرك السوائل والدماء المحيطة بالأجنة لهو إعجاز علمي واضح سبق به القرآن الكريم علم الأجنة بقرون، فالعرب رغم أنهم يعرفون معنى لفظ الغيض لغة إلا أنهم لم ينطقوا بجملة غيض الأرحام أبدًا قبل نزول القرآن الكريم، ولقد اتضح بيقين في هذا الزمان بعد تقدم علم الأجنة الوصفي والتجريبي دقة لفظ الغيض ودلالته الشاملة لكل الأحداث التي تمر بها الأجنة الهالكة في مرحلة التخليق، فبعضها تسقطه الأرحام ويمكن أن يشاهد وتدرك آثاره، والبعض الآخر يتلاشى ويختفي ولا تدرك آثاره ويصدق عليها أن الأرحام قد ابتلعتها كما ابتلعت الأرض الماء، وهذه الحقيقة لم تعرف إلا في هذا القرن بعد تقدم أجهزة البحث والرصد والتحاليل الدقيقة، ولم تحدد بدقة إلا بعد استخدام أجهزة الموجات الصوتية المكتشفة حديثًا وهكذا أثبت العلم بيقين دقة هذا التعبير وشموليته، وبهذا يتحقق السبق القرآني في الإشارة إلى حقائق علمية دقيقة لم يكتشف معظمها إلا في النصف الثاني من هذا القرن تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ (ص: ٨٨).

* * *

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

أهم المصادر والمراجع

- أباطيل الخصوم حول القصص القرآني لعبد الجواد المحص، الدار المصرية. الاسكندرية.
- أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي. الدكتور خالد كبير علال دار المحتسب، الجزائر.
- الإبانة الكبرى لابن بطة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ). المحقق: مجموعة. دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
- الإبانة عن معاني القراءات: أبو محمد مكي بن أبي طالب (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي. دار نهضة مصر للطبع والنشر
- أبجد العلوم: القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ). دار ابن حزم.
- أبحاث المجتهدين في الخلاف بين النصارى والمسلمين: (نيقولا يعقوب غبريل) دار مصر.
- إبراز المعاني من حرز الأماني، أبو شامة (المتوفى: ٦٦٥هـ). دار الكتب العلمية.
- إبطال التأويلات لأخبار الصفات: القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد ابن الفراء (المتوفى: ٤٥٨هـ). المحقق: محمد بن حمد الحمود النجدي. دار إيلاف الدولية –الكويت.
- الإبطال لنظرية الخلط بين الأديان: بكر بن عبد الله أبو زيد (المتوفى: ١٤٢٩هـ). دار العاصمة.
- الإبهاج في شرح المنهاج ((منهاج الوصول إلي علم الأصول للقاضي البيضاوي المتوفي سنه ٧٨٥هـ)): تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن حامد بن يحيي السبكي وولده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب. دار الكتب العلمية –بيروت.
- أبو هريرة راوية الإسلام: الدكتور محمد عجاج خطيب. مكتبة وهبة، القاهرة.
- أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ وخادمه دراسة حديثة تاريخية هادفة تأليف: الدكتور حارث سليمان الضاري تقديم: أ. د. عمر سليمان الأشقر
- الأبي في شرحه على مسلم. مكتبة طبرية الرياض
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: البوصيري (المتوفى: ٨٤٠هـ). المحقق:

دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم. دار الوطن للنشر، الرياض.

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء (المتوفى: ١١١٧هـ). المحقق: أنس مهرة. دار الكتب العلمية –لبنان.
- الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى: ٦٨٢هـ). دار صادر - بيروت
- أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري للدكتور محمد نور ولي. دار الخضيري / السعودية.
- اجتماع الجيوش الإسلامية: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) تحقيق: عواد عبد الله المعتق. مطابع الفرزدق التجارية – الرياض.
- الإجماع العقدي، وليد بن راشد السعيدان.
- الإجماع، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (المتوفى: ٣١٩هـ)، المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار المسلم للنشر والتوزيع.
- إجمال الإصابة في أقوال الصحابة، العلائي، مركز المخطوطات والتراث
- الأجوبة الفاخرة: القرافي. دار ابن الجوزي، القاهرة. مصر.
- الآحاد والمثاني: أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، المحقق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة. دار الراية – الرياض.
- أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين: د/ سليمان الدبينحي، دار المنهاج
- الأحرف السبعة للقرآن: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ). المحقق: د. عبد المهيمن طحان. مكتبة المنارة - مكة المكرمة.
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان (المتوفى: ٣٥٤هـ) ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان (المتوفى: ٧٣٩ هـ) حققه: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت.

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري. دار صادر، بيروت.
- أحكام إذن الإنسان. محمد عبد الرحيم ولد العربى، دار البشائر.
- أحكام الأحوال الشخصية لغير المسلمين من المصريين لتوفيق حسن، دار الثقافة الجامعية للطبع والنشر.
- أحكام الجنائز: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). المكتب الإسلامي.
- أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان، بغداد.
- الأحكام السلطانية: الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ). دار الحديث – القاهرة.
- الأحكام الشرعية للأحوال الشخصية لزكي الدين شعبان منشورات جامعة قاريونس بنغازي
- أحكام الطلاق للحفناوي. مكتبة الإيمان المنصورة، مصر.
- أحكام العورات في الفقه الإسلامي، فهد بن مبارك آل زعير، جامعة الإمام محمد بن سعود.
- أحكام القرآن للشافعي، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق، قدم له: محمد زاهد الكوثري، مكتبة الخانجي – القاهرة.
- أحكام القرآن: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ) المحقق: محمد صادق القمحاوي. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أحكام القرآن: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ) راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- أحكام القرآن: الكيا الهراسي (المتوفى: ٥٠٤هـ)، المحقق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية. دار الكتب العلمية، بيروت.
- أحكام المرأة الحامل لعبد الرشيد قاسم، دار الكيان، الرياض.

- الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ). المحقق: الشيخ أحمد محمد شاكر. قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس. دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي (المتوفى: ٦٣١هـ). المحقق: عبد الرزاق عفيفي. المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- لبنان.
- الأحوال الشخصية للإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- الأحوال الشخصية للشيخ محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (المتوفى: ٥٠٥هـ). دار المعرفة - بيروت
- الأخبار الطوال: أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (المتوفى: ٢٨٢هـ)، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال. دار إحياء الكتب العربي.
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي (المتوفى: ٢٧٢هـ). المحقق: د. عبد الملك عبد الله دهيش. دار خضر - بيروت
- أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار: الأزرقي (المتوفى: ٢٥٠هـ). المحقق: رشدي الصالح ملحس. دار الأندلس للنشر - بيروت.
- اختصار علوم الحديث: ابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- اختلاف الأئمة العلماء: يحيى بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ (المتوفى: ٥٦٠هـ)، المحقق: السيد يوسف أحمد. دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت.
- الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، محمد عبد الرحمن عوض، دار البشير، القاهرة.
- اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، وتطورات هامة في المسيحية لواء: أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة.

• اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى: ابن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ). المحقق: جسم الفهيد الدوسري. مكتبة دار الأقصى – الكويت.

• الاختيار لتعليل المختار: عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي البلدحي، مجد الدين أبو الفضل الحنفي (المتوفى: ٦٨٣هـ)، عليها تعليقات: الشيخ محمود أبو دقيقة. مطبعة الحلبي –القاهرة.

• أخلاق العلماء: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ) قام بمراجعة أصوله وتصحيحه والتعليق عليه: فضيلة الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري. رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية.

• آداب البحث والمناظرة للشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، مصر.

• آداب الزفاف في السنة المطهرة: الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). دار السلام. القاهرة.

• الآداب الشرعية والمنح المرعية: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ). عالم الكتب.

• أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ). دار مكتبة الحياة.

• أدب القصة في القرآن الكريم، لعبد الجواد المحص، الملتقى المصري للإبداع والتنمية.

• أدب الكاتب، أو أدب الكتّاب: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ). المحقق: محمد الدالي. مؤسسة الرسالة.

• الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (المتوفى: ٢٥٦هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار البشائر الإسلامية – بيروت.

• الأدب: أبو بكر بن أبي شيبة، (المتوفى: ٢٣٥هـ). المحقق: د. محمد رضا القهوجي. دار البشائر الإسلامية.

• الأدلة الكتابية على فساد النصرانية، د/ أحمد حجازي السقا. دار الفضيلة مصر

• الأدلة المادية على وجود الله " الشيخ محمد متولي الشعراوي. أخبار اليوم. مصر

- أدلة اليقين في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين في الإسلام، لعبد الرحمن الجزيري.
- الأديان في كفة الميزان. محمد فؤاد الهاشمي. دار الكتاب العربي. القاهرة
- الأذكار: النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
- آراء المستشرقين حول القرآن، د/ عمر بن إبراهيم رضوان. دار طيبة. الرياض.
- الأربعون دلائل التوحيد: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ) المحقق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي. المدينة المنورة.
- الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين رحمة الله عليهن أجمعين: ابن عساكر الدمشقيّ (المتوفى: ٦٢٠هـ)، المحقق: محمد مطيع الحافظ، غزوة بدير. دار الفكر – دمشق.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ). المطبعة الكبرى الأميرية، مصر.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ). دار إحياء التراث العربي – بيروت
- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق. دار الكتاب العربي.
- الإرهاب الدولي بين الواقع والتشويه، دراسة اعدها المركز الدولي للنشر والتوزيع والدراسات، منشورات المركز.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) إشراف: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي – بيروت.
- أروع القيم الحضارية في سيرة خير البرية، تأليف: انجوغو امبكي صمب، دار الكتاب يمبل دكار – السنغال.

• أساس البلاغة: الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

• أساس التقديس في علم الكلام للرازي، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية.

• الْأَسَامِي والكنى لِلْإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رِوَايَة ابْنه صَالح، المحقق: عبد الله بن يوسف الجديع. مكتبة دار الأقصى – الكويت.

• أسباب نزول القرآن: الواحدي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان. دار الإصلاح – الدمام.

• الاستذكار: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ) تحقيق: عبدالمعطي امين قلعجي، دار قتيبة –دمشق. دار الوعي – حلب.

• استشهاد عثمان رضي الله عنه ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري دراسة نقدية تأليف: خالد بن محمد الغيث. الناشر: دار الأندلس الخضراء.

• الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر (المتوفى: ٤٦٣هـ). المحقق: علي محمد البجاوي. دار الجيل، بيروت.

• أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ). المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية.

• الإسرائيليات في التفسير للشيخ محمد أبي شهبة. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، مصر

• الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير لرمزي نعناعة، دار القلم، دمشق.

• الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ). مكتبة السنة.

• أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ). علق عليه: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

- أسرار التكرار في القرآن، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ). المحقق: عبد القادر أحمد عطا. دار الفضيلة.
- أسرار الكنيسة السبعة، حبيب جرجس، مكتبة المحبة.
- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، المحقق: محمد الصباغ. دار الأمانة / مؤسسة الرسالة – بيروت.
- أسرار ترتيب القرآن: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). دار الفضيلة للنشر والتوزيع.
- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، علي وافي، دار النهضة مصر، القاهرة.
- الأسفار المقدسة قبل الإسلام، صابر طعيمة، عالم الكتب. بيروت.
- الإسلام أصوله ومبادؤه: محمد بن عبد الله بن صالح السحيم. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.
- الإسلام الدين الفطري للطرازي الحسيني أبو النصر، دار الكتب، بيروت
- الإسلام والأديان الأخرى نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب. دار التراث الإسلامي، مصر.
- الإسلام والغرب محاضرة الأمير تشارلز في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣
- الإسلام والغرب والمستقبل، محمد محفوظ.
- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، الشيخ محمد عبده، دار الحداثة، القاهرة.
- الإسلام وأهل الذمة علي حسني الخربوطلي، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية –مصر.
- الإسلام وأوضاعنا السياسية: عبد القادر عودة (المتوفى: ١٣٧٣هـ). مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
- الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، د/ محمد البهي، دار القلم الكويت
- أسماء الله وصفاته للأشقر، دار النفائس، الأردن.

• الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة: الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. عز الدين علي السيد. مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر.

• أسماء من يعرف بكنيته: أبو الفتح محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بريدة الموصلي الأزدي (المتوفى: ٣٧٤هـ)، المحقق: أبو عبدالرحمن اقبال. الدار السلفية – الهند.

• الأسماء والصفات: أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). حققه: عبد الله بن محمد الحاشدي. مكتبة السوادي، جدة المملكة العربية السعودية.

• أسنى المطالب، لأبي يحيى زكريا الأنصاري الشافعي. دار الكتب العلمية - بيوت

• إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي (المتوفى: ١٣٧٩هـ). المحقق: إحسان قاسم الصالحي. شركة سوزلر للنشر – القاهرة.

• الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق د/ كارم سيد غنيم.

• الأشباه والنظائِرُ على مذهبِ أبي حَنِيْفَةَ النُّعمان: زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (المتوفى: ٩٧٠هـ)، وضع حواشيه وخرج أحاديثه: الشيخ زكريا عميرات. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ١٩٩٩ م

• الأشباه والنظائر: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). دار الكتب العلمية.

• إشراقة شمس المسيحية في شبه الجزيرة العربية، نجيب وهبة.

• الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض. دار الكتب العلمية – بيروت.

• الأصنام: أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر بن السائب بن بشر الكلبي (المتوفى: ٢٠٤هـ) المحقق: أحمد زكي باشا. دار الكتب المصرية – القاهرة.

• أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: نخبة من العلماء. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.

• أصول الدعوة في ضوء الكتاب والسنة لبدير محمد بدير. دار نور الإسلام المنصورة مصر

• أصول الدعوة: عبد الكريم زيدان. مؤسسة الرسالة.

- أصول الرد على المخالف لبكر أبو زيد، دار العاصمة
- أصول السرخسي: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ). دار المعرفة – بيروت.
- أصول السنة: أبو عبد الله أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ). دار المنار – الخرج – السعودية.
- أُصُولُ الفِقهِ الذي لا يَسَعُ الفَقِيهِ جَهلَهُ: عياض بن نامي بن عوض السلمي. دار التدمرية، الرياض – المملكة العربية السعودية.
- أصول المسيحية كما يصورها الإسلام، السيد محمد صادق الحسيني الناشر: الدار الإسلامية للطباعة والنشر.
- أصول في التفسير: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، أشرف على تحقيقه: قسم التحقيق بالمكتبة الإسلامية. المكتبة الإسلامية.
- الأصول من علم الأصول: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، دار النشر: دار ابن الجوزي.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.
- أضواء على سلامة المصحف الشريف من النقص والتحريف، د. زيد عمر مصطفى، نشر: مركز البحوث التربوية بجامعة الملك سعود سنة ١٤١٤هـ
- إظهار الحق: محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي (المتوفى: ١٣٠٨هـ) دراسة وتعليق: الدكتور محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية.
- الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، الحازمي الهمداني (المتوفى: ٥٨٤هـ)، دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد، الدكن.
- الاعتصام: الشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ). تحقيق: سليم بن عيد الهلالي. دار ابن عفان، السعودية.

• اعتقاد أئمة الحديث: أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (المتوفى: ٣٧١هـ) المحقق: محمد بن عبد الرحمن الخميس. دار العاصمة –الرياض.

• الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث: أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) المحقق: أحمد عصام الكاتب. دار الآفاق الجديدة – بيروت.

• الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة، لحسن ياسين عبد القادر، مكتبة وهبة، مصر.

• الإعجاز العددي للقرآن الكريم: عبد الرزاق نوفل، مطبوعات الشعب.

• إعجاز القرآن العلمي، لمحمود مهدي الإستانبولي، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة.

• إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (المتوفى: ٤٠٣هـ). المحقق: السيد أحمد صقر. دار المعارف – مصر.

• إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، مصر.

• إعراب القرآن: أبو جعفر النَّحَّاس (المتوفى: ٣٣٨هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم. منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.

• إعراب لامية الشنفري: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (المتوفى: ٦١٦هـ)، المحقق: محمد أديب عبد الواحد جمران. المكتب الإسلامي – بيروت.

• أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (حافظ بن أحمد بن علي الحكمي. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية.

• إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. دار الكتب العلمية –يروت.

• أعلام النبوة: الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ). دار ومكتبة الهلال – بيروت.

• الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) المحقق: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة.

• الإعلام بمخالفات الموافقات والاعتصام: ناصر بن حمد بن حمين الفهد. مكتبة الرشد – الرياض.

• الأعلام للزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ). دار العلم للملايين.

• إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: محمد حامد الفقي. مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

• الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني. دار الكتب بمصر.

• الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط: برهان الدين الحلبي أبو الوفا إبراهيم ابن محمد بن خليل الطرابلسي الشافعي سبط ابن العجمي (المتوفى: ٨٤١هـ)، المحقق: علاء الدين علي رضا. دار الحديث – القاهرة.

• إفادة الأخيار ببراءة الأبرار لمحمد العربي التباني، دار الكتب العلمية بيروت.

• الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة، مؤسسة السعيدية، الرياض.

• أَفْعَالُ الرَّسُول ﷺ وَدَلاَلَتِهَا عَلَى الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ: محمد بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي (المتوفى: ١٤٣٠هـ). مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.

• إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل: سليمان بن سحمان بن مصلح بن حمدان بن مصلح بن حمدان بن مسفر بن محمد بن مالك بن عامر الخثعمي (المتوفى: ١٣٤٩هـ)، المحقق: عبد السلام بن برجس بن ناصر العبد الكريم. دار العاصمة.

• إقامة الدليل على إبطال التحليل لابن تيمية، مكتبة لينة، مصر.

• أقانيم النصارى الثلاثة لأحمد حجازى السقا، دار الأنصار، القاهرة.

• اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ) المحقق: ناصر عبد الكريم العقل. دار عالم الكتب، بيروت، لبنان.

• الإقناع في مسائل الإجماع لابن القطان، تحقيق: حسن الصعيدي، مكتبة الفاروق الحديثة، مصر.

• الإقناع: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (المتوفى: ٣١٩هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين.

• آكام المرجان في أحكام الجان: محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقيّ الحنفي، أبو عبد الله، بدر الدين ابن تقي الدين (المتوفى: ٧٦٩هـ)، المحقق: إبراهيم محمد الجمل. مكتبة القرآن.

• إكمال المعلم: القاضي عياض تحقيق: د يحيى اسماعيل: دار الوفاء مصر

• الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، المحقق: السيد أحمد صقر. دار التراث - القاهرة.

• الأم: الشافعي (المتوفى: ٢٠٤هـ). دار المعرفة - بيروت.

• أمالي ابن بشران: أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشْران (المتوفى: ٤٣٠هـ). ضبط نصه: عادل بن يوسف العزازي، وأحمد بن سليمان. دار الوطن، الرياض.

• أمالي المحاملي (المتوفى: ٣٣٠هـ)، رواية ابن الصلت القرشي (٤٠٥هـ)، المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي. دار النوادر.

• الإمامة والرد على الرافضة: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، المحقق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة / السعودية.

• الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، إسحاق عبيد، دار المعارف، القاهرة.

• الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله: عبد الله بن عبد المحسن بن عبد الرحمن التركي. وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.

• أمثال الحديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم: الرامهرمزي (المتوفى: ٣٦٠هـ). المحقق: أحمد عبد الفتاح تمام. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال (المتوفى: ٣١١هـ)، تحقيق: الدكتور يحيى مراد. دار الكتب العلمية، بيروت.

- الأمراض الجنسية عقوبة إلهية: عبد الحميد القضاة
- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن. تأليف. أبي البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- أمهات المؤمنين في مدرسة النبوة، مصطفى الطحان، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
- الأموال: ابن زنجويه (المتوفى: ٢٥١هـ). تحقيق الدكتور: شاكر ذيب فياض الأستاذ المساعد - بجامعة الملك سعود. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية.
- الأموال: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ) المحقق: خليل محمد هراس. دار الفكر. - بيروت.
- أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - شخصيته وعصره: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي. دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر.
- الأناجيل الأربعة ورسائل بولس تنفي ألوهية المسيح، سعد رستم وصف.
- الأناجيل والرسائل بين انقطاع السند وتناقض المتن، محمد الشرقاوي.
- الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال: إبراهيم بن عامر بن عليّ الرّحيلي. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية: سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، (المتوفى: ٧١٦هـ). المحقق: سالم بن محمد القرني. مكتبة العبيكان.
- الإنجيل بحسب القديس متى (دراسة وتفسير وشرح)، الأب متى المسكين، مطبعة دير القديس أنبا مقار، ١٩٩١م.
- إنجيل برنابا. ترجمة: خليل سعادة. ط. دار الوثائق. الكويت.
- إنجيل يوحنا في الميزان، محمد على زهران، دار الأرقم، مصر.
- الانحراف الاعتقادي على الإرهاب العالمي د/ سعد الشهراني. اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب.

- الأنساب للسمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (المتوفى: ٥٦٢هـ). المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره. مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.
- إنسانية المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى: علاء أبو بكر. مكتبة وهبة، مصر
- الانشراحُ وَرَفعُ الضِّيق في سِيرة أبي بَكْر الصِّديق شخصيته وَعَصره: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي. دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة – مصر
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ). المكتبة العصرية.
- انعكاسات لحم الخنزير على الصحة "لمؤلفه / هايتس هاينرش ركفاق. د، ن.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الأنوار الكاشفة لما في كتاب "أضواء على السنة" من الزلل والتضليل والمجازفة: عبد الرحمن بن يحيى بن علي المعلمي اليماني (المتوفى: ١٣٨٦هـ). المطبعة السلفية ومكتبتها / عالم الكتب –بيروت.
- الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (المتوفى: ٣١٩هـ). تحقيق: أحمد بن سليمان. دار الفلاح – الفيوم – مصر.
- الآية الكبرى في شرح الإسراء والمعراج للسيوطي دار الحديث، القاهرة.
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: أبو بكر الجزائري. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
- إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل: محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي (المتوفى: ٧٣٣هـ)، المحقق: وهبي سليمان غاوجي. دار السلام، مصر.
- الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن، أبو المعالي، جلال الدين القزويني، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ). المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي. دار الجيل –بيروت.
- الإيمان لابن تيمية: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ) المحقق: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، عمان، الأردن.

- البحث عن الدين الحقيقي تأليف المنسينور كولي.
- البحر الرائق شرح كنز الدقائق: زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (المتوفى: ٩٧٠هـ)، دار الكتاب الإسلامي.
- بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار: أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم الكلاباذي (ت: ٣٨٠هـ). المحقق: محمد حسن إسماعيل - أحمد فريد المزيدي. دار الكتب العلمية - بيروت.
- البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ). دار الكتبي.
- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل. دار الفكر – بيروت.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة. (المتوفى: ١٢٢٤هـ). المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان. الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (المتوفى: ٥٨٧هـ). دار الكتب العلمية.
- بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان
- بداية الخلق في القرآن الكريم د/ منصور العبادي، دار فلاح، الكويت.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ابن رشد الحفيد (المتوفى: ٥٩٥هـ). دار الحديث – القاهرة.
- بداية المطلب آل سبالك، أحمد بن منصور. المكتب الإسلامي لإحياء التراث.
- البداية والنهاية: ابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ). دار الفكر.
- البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير: ابن الملقن (المتوفى: ٨٠٤هـ)، المحقق: مصطفى أبو الغيط ومجموعة. دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض-السعودية.
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدُّرة: عبد الفتاح القاضي (المتوفى: ١٤٠٣هـ). دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
- براهين تحتاج إلى تأمل في ألوهية المسيح. محمد حسن عبد الرحمن. دار الكتاب الحديث.

- البرهان في أصول الفقه: الجويني، أبو المعالي، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة. دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي. (المتوفى: ٧٩٤هـ). المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، المحقق: محمد علي النجار. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
- البعث والنشور: أبو بكر البيهقي. تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر. مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ). مكتبة الآداب.
- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث: ابن أبي أسامة المتوفى: ٢٨٢هـالمحقق: د. حسين أحمد صالح الباكري. مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة.
- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: موسى الدويش. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
- البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ). دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت.
- بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير: أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي (المتوفى: ١٢٤١هـ). دار المعارف
- البناية شرح الهداية: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ). دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.
- بنو إسرائيل الحضارة التوراة والتلمود، محمد بيومي مهران الناشر: دار المعرفة الجامعية
- بولس وتحريف المسيحية "، هايم ماكبي.

• بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب: محمود بن عبد الرحمن، شمس الدين الأصفهاني (المتوفى: ٧٤٩هـ)، المحقق: محمد مظهر بقا. دار المدني، السعودية.

• بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: مجموعة من المحققين. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

• البيان والتبيين للجاحظ: الجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ). دار ومكتبة الهلال، بيروت.

• بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي تحقيق د/ محمد شامة، مكتبة وهبة القاهرة

• تأثر المسيحية بالأديان الوضعية، أحمد علي عجيبة، دار الآفاق الجديدة – بيروت.

• تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين. دار الهداية

• التاج والإكليل لمختصر خليل: محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق المالكي (المتوفى: ٨٩٧هـ). دار الكتب العلمية.

• تاريخ الأدب السرياني، مراد كامل، د. محمد حمدى البكرى دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.

• تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف. دار الغرب الإسلامي.

• تاريخ الأمة القبطية. ليعقوب نخلة. دار صادر. بيروت.

• التاريخ الأوسط محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمود إبراهيم زايد. دار الوعي، مكتبة دار التراث - حلب، القاهرة.

• تاريخ الثقات: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلى الكوفى (المتوفى: ٢٦١هـ). دار الباز.

• تاريخ الحضارة لجورج حداد. الناشر: مطبعة الجامعة السورية.

• تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري: أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ). دار التراث – بيروت.

- تاريخ الرهبنة والديرية، رؤوف حبيب، مكتبة المحبة.
- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، كلود كاهن، دار الحديقة للطباعة والنشر.
- تاريخ الفكر المسيحي، الدكتور القس حنا جرجس الخضري، مطبعة دار الثقافة. القاهرة،
- تاريخ الفلسفة الغربية، تأليف الدكتور جميل صليبا، الناشر: الشركة العالمية للكتاب.
- تاريخ القرآن الكريم: محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الشافعي الخطاط (المتوفى: ١٤٠٠هـ)، طبعه ونشره: مصطفى محمد يغمور بمكة، مطبعة الفتح بجدة - الحجاز.
- التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان
- تاريخ الكنيسة القبطية، تأليف: منسى يوحنا. الناشر: مكتبة المحبة.
- تاريخ الكنيسة، يوسابيوس القيصري. ترجمة، تحقيق: مرقس داود، مكتبة المحبة
- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق: محمد سهيل طقوش، الناشر: دار النفائس.
- تاريخ المدينة لابن شبة: عمر بن شبة (المتوفى: ٢٦٢هـ). حققه: فهيم محمد شلتوت. دار التراث، بيروت.
- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ). دار الكتب العلمية– بيروت.
- تاريخ خليفة بن خياط (المتوفى: ٢٤٠هـ)، المحقق: د. أكرم ضياء العمري. دار القلم، مؤسسة الرسالة - دمشق، بيروت.
- تاريخ دمشق: ابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ). المحقق: عمرو بن غرامة العمروي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي؛ رؤية قبطية للفتح الإسلامي الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر
- تأصيل الإعجاز العلمي تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. المؤلف: خلدون بن محمد سليم الأحدب، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

• تأملات إيمانية في سورة يوسف عليه السلام: ياسر برهامي مكتبة الإيمان الإسكندرية. مصر.
• تأملات في الأناجيل والعقيدة. لبهاء النحال، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت.
• تأملات في المزامير، لآباء الكنيسة القديسين الصادر عن كنيسة مارجرجس باسبورتنج
• تأويل مختلف الحديث: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ). المكتب الاسلامي - مؤسسة الإشراق.
• تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ابن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦هـ) المحقق: إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
• التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي. عمر فروخ الناشر: المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
• التبيان في آداب حملة القرآن: النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ). دار ابن حزم - بيروت - لبنان.
• التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى: ٦١٦هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه
• التبيان في أقسام القرآن: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة، بيروت، لبنان.
• التبيان في علوم القرآن للصابوني، دار الصابوني، مكة المكرمة.
• تجريد الأسماء والكنى المذكورة في كتاب المتفق والمفترق للخطيب البغدادي: عُبَيْد الله بن علي بن محمد بن محمد بن الحسين ابن الفرّاء(المتوفى: ٥٨٠هـ)، دراسة وتحقيق: د. شادي بن محمد بن سالم آل نعمان. مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، اليمن.
• تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). المكتب الإسلامي - بيروت.
• تحذير المسلمين من السب والاستهزاء بالدين: أبو عبد الرحمن المصري.

• تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام: أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ). دراسة وتعليق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد. دار الثقافة - قطر/ الدوحة.

• تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني (المتوفى: ٦٥٤هـ). تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف. الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.

• تحرير المرأة في عصر الرسالة تأليف: عبد الحليم أبو شقة، الناشر: دار القلم، دمشق.

• تحرير علوم الحديث: عبد الله بن يوسف الجديع. مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى.

• التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): الدار التونسية للنشر – تونس.

• التحريف في التوراة، محمد الخولي، دار فلاح. الكويت.

• التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة تأليف: الدكتورة سارة بنت حامد محمد العبادي الناشر: دار طيبة الخضراء- مكة المكرمة.

• تحريم آلات الطرب: الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). مؤسسة الريان بيروت، لبنان/ دار الصديق، الجبيل، المملكة العربية السعودية.

• تحريم المتعة في الكتاب والسنة ليوسف جابر، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض.

• تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (المتوفى: ١٣٥٣هـ). دار الكتب العلمية – بيروت.

• التحفة المدنية في العقيدة السلفية: حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر النجدي التميمي الحنبلي (المتوفى: ١٢٢٥هـ). المحقق: عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم

• تحفة المودود بأحكام المولود: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: أحمد بن سليمان. دار ابن رجب – مصر.

• تخجيل من حرف التوراة والإنجيل تخجيل من حرف التوراة والإنجيل: صالح بن الحسين الجعفري أبو البقاء الهاشمي (المتوفى: ٦٦٨هـ) المحقق: محمود عبد الرحمن قدح. مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية.

• تخريج الفروع على الأصول: محمود بن أحمد بن محمود بن بختيار، أبو المناقب شهاب الدين الزَّنْجاني (المتوفى: ٦٥٦هـ)، المحقق: د. محمد أديب صالح. مؤسسة الرسالة – بيروت.

• تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). حققه: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي. دار طيبة

• تذكرة الأريب في تفسير الغريب (غريب القرآن الكريم): ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: طارق فتحي السيد. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

• تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر. غراس للنشر والتوزيع.

• تذكرة الموضوعات: محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي (المتوفى: ٩٨٦هـ). إدارة الطباعة المنيرية.

• التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية: عبد الحي الكتاني (المتوفى: ١٣٨٢هـ)، المحقق: عبد الله الخالدي. دار الأرقم – بيروت.

• الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك: ابن شاهين (المتوفى: ٣٨٥هـ). تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

• التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت.

• التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي: عبد القادر عودة. دار الكاتب العربي، بيروت.

• التصريح بإثبات الأناجيل الأربعة الاعتقاد الصحيح في المسيح، عبد الشكور بن محمد أمان العروسي.

• تعدد الأديان ونظم الحكم دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة لجورج قرم. الناشر: دار الفارابي.

• تعدد الزوجات في الأديان المؤلف: الدكتور كرم حلمي فرحات أحمد. الناشر: دار الآفاق.

• تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة، أحمد عبد الوهاب. مكتبة وهبة. مصر

• تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: د. عاصم بن عبدالله القريوتي. مكتبة المنار.

• التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث –عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

• التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء. دار الكتب العلمية بيروت –لبنان.

• التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام محمد الغزالي مكتبة الأسرة القاهرة

• تعظيم قدر الصلاة: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ) المحقق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. مكتبة الدار - المدينة المنورة.

• تفسير ابن عبدالسلام: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ). المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي. دار ابن حزم –بيروت.

• التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، الناشر: دار الكتاب المقدس.

• تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). دار الحديث – القاهرة.

• تفسير الشعراوي – الخواطر: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ). مطابع أخبار اليوم. مصر.

• تفسير العهد الجديد (سفر الرؤيا)، وليم باركلي.

- تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي): أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (المتوفى: ٦٦٠هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي. دار ابن حزم – بيروت.
- تفسير القرآن العزيز: ابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز. الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة.
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ). المحقق: أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية.
- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية– بيروت.
- التفسير القيم: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان. دار ومكتبة الهلال – بيروت.
- تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ). شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر
- تفسير المنار: محمد رشيد (المتوفى: ١٣٥٤هـ). الهيئة المصرية العامة.
- التفسير الميسر: نخبة من أساتذة التفسير. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف –السعودية.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة
- تفسير إنجيل لوقا، كيرد
- تفسير إنجيل متى، جون فنتون
- تفسير إنجيل مرقس، نينهام
- تفسير آيات الأحكام: محمد علي السايس الأستاذ بالأزهر الشريف، المحقق: ناجي سويدان. المكتبة العصرية للطباعة والنشر.
- تفسير رسالة روميا.
- تفسير سفر المزامير، كنيسة السيدة العذراء بالفجالة

- التفسير والمفسرون: الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: ١٣٩٨هـ). مكتبة وهبة، القاهرة
- تقريب التدمرية: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ). دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية
- تقريب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: محمد عوامة. دار الرشيد، سوريا.
- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث: النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ). تقديم وتحقيق وتعليق: محمد عثمان الخشت. دار الكتاب العربي، بيروت.
- تقييد العلم: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ). إحياء السنة النبوية - بيروت
- التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن محمد عثمان. محمد عبد المحسن الكتبي صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- التَّكْميل في الجَرْح والتَّعْدِيل ومَعْرِفة الثِّقَات والضُّعفاء والمجَاهِيل: ابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ)، دراسة وتحقيق: د. شادي بن محمد بن سالم آل نعمان. مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، اليمن.
- تكوين أوروبا، كرستوفر دوس ترجمة ومراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ود. محمد مصطفى زيادة، نشر مشروع الألف كتاب القاهرة
- تلبيس إبليس: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ). دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان.
- تلبيس مردود في قضايا حية: د صالح بن عبد الله بن حميد. الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.
- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ). دار الكتب العلمية.

- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير: جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت.
- تمام المنة في التعليق على فقه السنة: الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). دار الراية.
- التمهيد في تخريج الفروع على الأصول: عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعيّ، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٧٧٢هـ)، المحقق: د. محمد حسن هيتو. مؤسسة الرسالة – بيروت.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: أبو عمر ابن عبد البر المتوفى: ٤٦٣هـ. وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب.
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المَلَطي العسقلاني (المتوفى: ٣٧٧هـ)، المحقق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري. المكتبة الأزهرية للتراث - مصر
- تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء: أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بـ «ابن خمير» (المتوفى: ٦١٤هـ)، المحقق: محمد رضوان الداية. دار الفكر المعاصر – لبنان.
- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة: نور الدين، علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن ابن عراق الكناني (المتوفى: ٩٦٣هـ)، المحقق: عبد الوهاب عبد اللطيف. دار الكتب العلمية – بيروت.
- تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار تحقيق: د أحمد عبد الرحيم السايح، المستشار توفيق علي وهبة الطبعة: مكتبة النافذة القاهرة
- تنظيم الإسلام للمجتمع، نظام الأسرة والعقوبات، د/ رمزي نعناعة دار القلم، الكويت.
- تنقيح الأبحاث للملل الثلاث سعد بن منصور بن كمونة اليهودي. المحقق/: عبدالعظيم المطعني. دار الأنصار.
- تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤هـ). دار النشر: أضواء السلف – الرياض.

- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل: عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد المعلمي العتمي اليماني (المتوفى: ١٣٨٦هـ)، مع تخريجات وتعليقات: محمد ناصر الدين الألباني - زهير الشاويش - عبد الرزاق حمزة. المكتب الإسلامي.
- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار: محمد بن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني – القاهرة.
- تهذيب الأسماء واللغات: النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان
- تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ). مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ). المحقق: د. بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة – بيروت.
- تهذيب اللغة للأزهري: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) المحقق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- توجيه النظر إلى أصول الأثر: طاهر بن صالح السمعوني الجزائري، ثم الدمشقيّ (المتوفى: ١٣٣٨هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب.
- التوحيد للناشئة والمبتدئين: عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف. وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.
- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل لابن خزيمة (المتوفى: ٣١١هـ). المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان. مكتبة الرشد - السعودية – الرياض.
- التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد لابن منده. (المتوفى: ٣٩٥هـ). حققه: الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- توراة اليهود وابن حزم لمؤلف: عبد الوهاب عبد السلام الطويلة، الناشر: دار القلم.
- التوراة تاريخها وغاياتها، ترجمة سهيل ديب، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت.
- التوراة عرض وتحليل، فؤاد حسين علي الناشر: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر –القاهرة.

- التورات كتاب مقدس أم جمع من الأساطير، تأليف/ ليوتاكسل، ترجمة/ حسان ميخائيل إسحاق.
- التوراة والأناجيل بين التناقض والأساطير تأليف: سيد سلامه غنمي.
- التوراة والإنجيل والقرآن بمقياس العلم، موريس بوكاى، ترجمة الشيخ حسن خالد، المكتب الإسلامي، بيروت.
- التوسل أنواعه وأحكامه: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، المحقق: محمد عيد العباسي. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض.
- التوضيح شرح الجامع الصحيح: ابن الملقن. دار الفلاح الفيوم. مصر.
- التوقيف على مهمات التعاريف: المناوي (المتوفى: ١٠٣١هـ). عالم الكتب
- تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ (المتوفى: ١٢٣٣هـ) المحقق: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي، بيروت
- تيسير العلام شرح عمدة الأحكام: أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن البسام (المتوفى: ١٤٢٣هـ: مكتبة الصحابة، الأمارات - مكتبة التابعين، القاهرة.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ). مؤسسة الرسالة
- التيسير بشرح الجامع الصغير: المناوي (المتوفى: ١٠٣١هـ). مكتبة الإمام الشافعي –الرياض.
- التيسير في القراءات السبع: أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، المحقق: اوتو تريزل. دار الكتاب العربي – بيروت.
- الثقات: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ).
- جامع أحكام النساء للشيخ مصطفى العدوي. دار ابن عفان، مصر.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر.

- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة.
- جامع التحصيل في أحكام المراسيل: العلائي (المتوفى: ٧٦١هـ). عالم الكتب – بيروت.
- جامع الرسائل: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: د. محمد رشاد سالم، دار العطاء – الرياض.
- جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) المحقق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة – بيروت.
- جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر ابن عبد البر (المتوفى: ٤٦٣هـ) تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.
- الجامع في العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل رواية: المروذي وغيره، المحقق: الدكتور وصى الله بن محمد عباس. الدار السلفية، بومباى – الهند.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ). دار الكتب المصرية – القاهرة
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمود الطحان.
- الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليربي، ترجمة/ سهيل زكار، دار قتيبة.
- الجاهلية الجنسية. لأبي عبد الرحمن حسن السيد زهرة مكتبة الإيمان المنصورة مصر
- الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث: أحمد بن عبد الكريم بن سعودي الغزي العامري (المتوفى: ١١٤٣هـ)، المحقق: بكر عبد الله أبو زيد. دار الراية – الرياض.
- الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل. الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية.
- الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ). دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- جريدة آفاق عربية. محمد عبد الله الخطيب
- جريدة الأهرام المصرية.

- جريدة الوطن السعودية.
- جريمة الزنا بين الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، د عبد الوهاب البطراوي، دار الصفوة القاهرة.
- جريمة الزواج بغير المسلمات فقهًا وسياستها -لعبد المتعال الجبري، دار نصار.
- الجزية في الإسلام منقذ بن محمود السقار، الناشر: رابطة العالم الإسلامي -مكة المكرمة.
- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: شعيب الأرناؤوط. دار العروبة – الكويت.
- جمع القرآن الكريم حفظا وكتابة: د. علي بن سليمان العبيد. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة
- جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين، د. أبو طاهر عبد القيوم عبد الغفور السندي. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة
- جمل من أنساب الأشراف: البَلَاذُري (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي. دار الفكر – بيروت.
- جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ). المحقق: رمزي منير بعلبكي. دار العلم للملايين – بيروت.
- الجنس في العهد اليهودي القديم، محمد عبد الحليم عبد الفتاح الناشر: خاص- محمد عبد الحليم عبد الفتاح.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ) تحقيق: علي بن حسن – عبد العزيز بن إبراهيم – حمدان بن محمد. دار العاصمة، السعودية.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). دار المعرفة.
- جوامع السيرة النبوية: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ). دار الكتب العلمية - بيروت

• الجواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

• حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). مطبعة المدني، القاهرة.

• حاشية ابن عابدين رد المحتار على الدر المختار: ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ). دار الفكر-بيروت.

• حاشية السندي على سنن النسائي (مطبوع مع السنن): محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ). مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.

• حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني: أبو الحسن، علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي (المتوفى: ١١٨٩هـ). المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر – بيروت.

• حاشيتا قليوبي وعميرة: أحمد سلامة القليوبي وأحمد البرلسي عميرة. دار الفكر – بيروت.

• الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي: الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ). المحقق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

• الحاوي للفتاوي: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان.

• حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة (المتوفى: حوالي ٤٠٣هـ)، محقق الكتاب ومعلق حواشيه: سعيد الأفغاني. دار الرسالة

• حجة الله البالغة: أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ «الشاه ولي الله الدهلوي» (المتوفى: ١١٧٦هـ) المحقق: السيد سابق. دار الجيل، بيروت.

• الحجة في القراءات السبع: ابن خالويه (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الكويت. دار الشروق – بيروت.

- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني (المتوفى: ٥٣٥هـ). المحقق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي. دار الراية - السعودية / الرياض.
- الحجج الدامغات لنقض كتاب المراجعات المؤلف: أبو مريم بن محمد الأعظمي. الناشر: دار الصديق - دار الإيمان.
- الحدود والتعزيرات عند ابن القيم، بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، دار العاصمة للنشر والتوزيع.
- الحرب والسلام في شرعة الإسلام. د. مجيد خدوري، الناشر: الدار المتحدة، بيروت.
- حرمة أهل العلم لمحمد إسماعيل المقدم لإِعلامُ بـ حُرمةِ أهلِ العلمِ والإِسلامِ: محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم. دارُ طيبة - مَكتبةٌ الكوثر، الرياض.
- الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي دار القلم- دمشق.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ١٠٥، لآدم متز، ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري للأستاذ آدم ميتز، دار الفكر العربي.
- حضارة العرب، غوستاف لوبون ترجمة، تحقيق: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين د/ محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس العقاد، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
- حقوق المرأة بين الإسلام والأديان الأخرى: علاء أبو بكر. مكتبة وهبة، مصر
- حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة: محمد بن خليفة بن علي التميمي. أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- حقيقة الإسلام المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

- حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، مصر.
- الحقيقة والأسطورة في التوراة لزينون كاسيدوفسكي، الأبجدية للنشر. دمشق
- حكم الاحتجاج بخبر الواحد إذا عمل الراوي بخلافه/ تأليف: عبد الله بن عويض بن عبد الله المطرفي.
- الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ بعثت بالسيف بين يدي الساعة: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: عبد القادر الأرناؤوط. دار المأمون – دمشق.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ). دار الكتب العلمية.
- حوار صريح بين عبد الله وعبد المسيح، عبد الودود شلبي
- حياة الحيوان الكبرى: الدميري، المتوفى: ٨٠٨هـ. دار الكتب العلمية، بيروت
- الحيض والنفاس والحمل لعمر الأشقر. دار النفائس الأردن
- الخراج: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (المتوفى: ١٨٢هـ): المكتبة الأزهرية للتراث.
- خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي (المتوفى: ٨٣٧هـ). المحقق: عصام شقيو. دار ومكتبة الهلال-بيروت.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ). تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الخصائص الكبرى للسيوطي: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). دار الكتب العلمية – بيروت.
- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الخلاص والخطية لزكريا بطرس الأنبا رويس (الأوفست) العباسية – القاهرة.

- الخلاصة الشهية في أخص العقائد والتعاليم الأرثوذكسية، لبلاطون.
- خلق الإنسان بين الطب والقرآن تأليف: الدكتور محمد علي البار الناشر: الدار السعودية للنشر والتوزيع – جدة.
- دائرة المعارف مجموعة من المستشرقين ترجمها أحمد الشنتاوي: دار المعرفة بيروت
- الدر الثمين في إيضاح الدين، ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين. مكتبة الكتب المسيحية.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: السمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط. دار القلم، دمشق
- الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). دار الفكر – بيروت.
- درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.
- دراسات في الحديث النبوي: محمد ضياء الرحمن الأعظمي. مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
- دراسات في اليهودية والمسيحية، محمد ضياء الرحمن الأعظمي محمد ضياء الرحمان الأعظمي، مكتبة الرشد.
- دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه د. جوتين
- دراسات في سفر المزامير، فخري عطية
- دراسات لأسلوب القرآن لمحمد عبد الخالق عضيمة. دار الحديث، مصر
- دراسة تحليلية نقدية لإنجيل مرقس، محمد عبد الحليم أبو السعد
- الدرر السنية في الأجوبة النجدية: علماء نجد الأعلام. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار القاسم.
- الدرر في اختصار المغازي والسير: النمري، الحافظ يوسف بن البر، المحقق: الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف – القاهرة.

• دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها: عبد المحسن بن زبن بن متعب المطيري. دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان.
• دعوة الحق بين المسيحية والإسلام. منصور حسين عبد العزيز. مكتبة علاء الدين. الإسكندرية.
• دفاع عن أبي هريرة لـ عبد المنعم صالح العلي، دار القلم، دمشق.
• دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على البوطي: الألباني، المكتب الإسلامي.
• دفاع عن السنة، محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة.
• دفاع عن السُنَّة ورد شبه المُسْتَشْرِقِينَ والكتاب المعاصرين: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ). مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة.
• دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
• دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: د. محمد السيد الجليند. مؤسسة علوم القرآن – دمشق.
• دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات: منصور بن يونس ابن صلاح الدين البهوتى الحنبلى (المتوفى: ١٠٥١هـ). عالم الكتب.
• دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني: (المتوفى: ٤٣٠هـ)، حققه: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس. دار النفائس، بيروت.
• دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). دار الكتب العلمية – بيروت.
• دلائل النبوة: منقذ بن محمود السقار. رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة
• الدليل إلى المتون العلمية: عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم. دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية.
• الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

• الدولة والكنيسة، طارق البشري، الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع

• دين الإسلام تعريف عام بدين الإسلام: علي بن مصطفى الطنطاوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ). دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية.

• ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، المحقق: خليل شحادة. دار الفكر، بيروت.

• ديوان امرِئ القيس: امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار (المتوفى: ٥٤٥ م) اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي. دار المعرفة – بيروت.

• ذخيرة الحفاظ (من الكامل لابن عدي): ابن القيسراني (المتوفى: ٥٠٧هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن الفريوائي. دار السلف – الرياض.

• الذرية الطاهرة النبوية: أبو بِشْر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: سعد المبارك الحسن. الدار السلفية – الكويت.

• ذم التأويل: ابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ) المحقق: بدر بن عبد الله البدر. الدار السلفية – الكويت.

• ذم الغيبة والنميمة: ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشير محمد عيون. مكتبة دار البيان، دمشق – سورية.

• ذم الكلام وأهله: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

• ذم اللواط: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، دراسة وتحقيق: مجدي السيد إبراهيم. مكتبة القرآن للطبع والتشر والتوزيع، القاهرة

• ذم الملاهي لابن أبي الدنيا: ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ). تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم. مكتبة ابن تيمية، القاهرة- مصر.

• رؤية إسلامية لبعض القضايا الطبية لباسلامة

• الرؤية الإسلامية لبعض الممارسات الطبية لنبيه النجار

• الراموز على الصحاح: السيد محمد بن السيد حسن (المتوفى: ٨٦٦هـ)، المحقق: د محمد علي عبد الكريم الرديني. دار أسامة – دمشق.

• الرأي الصريح في طبيعة ومشيئة المسيح، القمص غبريال عبد المسيح

• رجال الكتاب المقدس، إلياس مقار، الناشر: القاهرة - الثقافة.

• رجال ونساء أسلموا، تأليف: عبد الستار فتح الله، الناشر: المكتب المصري.

• رد افتراءات المبشرين محمد جمعة عبد الله الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة

• رد البهتان عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ لأبي عبد الله الذهبي الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية

• الرد الجميل على المشككين في الإسلام، من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: عبد المجيد حامد صبح. دار المنارة للنشر والتوزيع والترجمة، المنصورة – مصر.

• رد المحتار على الدر المختار: ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ). دار الفكر-بيروت.

• رد شبهات حول عصمة النبى ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة: عماد السيد محمد إسماعيل الشربينى. الطبعة: دار الصحيفة مصر

• الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله، ويليه: كتاب السنة، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل، صححه وعلق عليه إسماعيل الأنصاري، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

• الرد على الجهمية: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (المتوفى: ٢٨٠هـ). المحقق: بدر بن عبد الله البدر. دار ابن الأثير – الكويت.

• الرد على من ينكر حجية السنة (مطبوع مع كتاب دفاع عن السنة لأبي شهبة): أبو الكمال - أو أبو الحسن - عبد الغني بن محمد عبد الخالق بن حسن بن مصطفى المصري القاهري (المتوفى: ١٤٠٣هـ). مكتبة السنة.

- الرد على منكر صفتي الوجه واليد لسعيد بن ناصر الغامدي قام بصفه ونشره شبكة الدفاع عن السنة.
- رد مفتريات على الإسلام لعبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت.
- ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر وبيان بُعد محمد رشيد رضا عن السلفية: أَبِو عَبد الرَّحمَن مُقْبلُ بنُ هَادِي الوادعِيُّ (المتوفى: ١٤٢٢هـ). دَارُ الآثَار للنشر وَالتوزيع، صَنعاء – اليمن.
- رسائل ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، المحقق: إحسان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان.
- رسائل الجاحظ: الجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ). تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ). مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة، مصر.
- الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: د. محمد جميل غازي. مكتبة المدني – جدة.
- الرسالة إلى العبرانيين المؤلف، وليم باركلي. الناشر: دار الثقافة المسيحية.
- رسالة عبد المسيح الكندي إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية، طبعت في مصر سنة ١٨٩٥م
- رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد، عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيّويه الجويني، (المتوفى: ٤٣٨هـ)، المحقق: أحمد معاذ بن علوان حقي. دار طويق للنشر والتوزيع – الرياض.
- رسالة في التوبة لابن تيمية، المكتب الإسلامي – بيروت.
- رسالة في الرد على الرافضة: محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، المحقق: ناصر بن سعد الرشيد. جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

- رسالة في قنوت الأشياء لابن تيمية المكتب الإسلامي – بيروت.
- الرسالة: الشافعي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: أحمد شاكر. مكتبه الحلبي، مصر.
- الرسل والرسالات: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي. مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت.
- رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ). طبع ونشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض - المملكة العربية السعودية.
- روائع البيان تفسير آيات الأحكام: محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي - دمشق، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت.
- روائع الطب الإسلامي د/ محمد نزار الدقر
- روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ). دار الفكر – بيروت
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية –بيروت.
- الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). دار الكتب العلمية - بيروت
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ). دار إحياء التراث العربي، بيروت
- الرَّوضُ البَاسمْ في الذِّبِّ عَنْ سُنَّةِ أبِي القَاسِم ﷺ: ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى (المتوفى: ٨٤٠هـ)، اعتنى به: علي بن محمد العمران. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: ابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ). مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع.

• رياض الصالحين: النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

• الرياض النضرة الرياض النضرة في مناقب العشرة: أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين الطبري (المتوفى: ٦٩٤هـ). دار الكتب العلمية.

• زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ). المحقق: عبد الرزاق المهدي. دار الكتاب العربي – بيروت.

• زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.

• الزهد: أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد، أبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم. دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان.

• الزهد: أبو عبد الله أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

• زهر الأكم في الأمثال والحكم: الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (المتوفى: ١١٠٢هـ). المحقق: د محمد حجي، د محمد الأخضر. الشركة الجديدة – دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب.

• الزواج للحفناوي. مكتبة الإيمان المنصورة، مصر.

• الزواجر عن اقتراف الكبائر: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ). دار الفكر.

• سؤالات الحاكم النيسابوري للدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المحقق: د. موفق بن عبد الله بن عبد القادر. مكتبة المعارف – الرياض.

• السبعة في القراءات: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (المتوفى: ٣٢٤هـ)، المحقق: شوقي ضيف. دار المعارف – مصر.

• سبل السلام: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني (المتوفى: ١١٨٢هـ). دار الحديث.

• سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض. دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

• سر الفداء، باسيليوس، ترجمة دكتور نصحي عبد الشهيد، بيت التكريس لخدمة الكرازة.

• سر صناعة الإعراب: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ). دار الكتب العلمية بيروت-لبنان.

• السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ). مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة.

• سرور النفوس بمدارك الحواس الخمس، ابن منظور. تحقيق: إحسان عباس. الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

• سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

• السلسلة الضعيفة سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) دار النشر: دار المعارف، الرياض.

• السلوك أثره في الدعوة إلى الله، فضل إلهي، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية.

• سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين: أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين. الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية

• سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين: د. عبد الله بن إبراهيم اللحيدان. الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية

• سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (المتوفى: ١١١١هـ)، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض. دار الكتب العلمية – بيروت.

• السنة قبل التدوين: محمد عجاج بن محمد تميم بن صالح بن عبد الله الخطيب. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

• السنة ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم: محمد ناصر الدين الألباني: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ). المكتب الإسلامي.

• السنة: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ) المحقق: د. عطية الزهراني. دار الراية – الرياض.

• السنة: أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي (المتوفى: ٢٩٠هـ)، المحقق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني. دار ابن القيم – الدمام.

• سنكسار الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، الناشر: مكتبة المحبة.

• سنن ابن ماجه: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: ٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي

• سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

• سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي (المتوفى: ٢٧٩هـ).

• سنن الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ) حققه: السيد عبد الله هاشم يماني المدني. دار المعرفة - بيروت.

• السنن الصغرى للنسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.

• السنن الكبرى: أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ).

• سنن النسائي الكبرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة –بيروت.

• السنن لسعيد بن منصور: أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (المتوفى: ٢٢٧هـ) المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي. الدار السلفية – الهند.

• السياسة الشرعية: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ). وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.

• سير أعلام النبلاء: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط: مؤسسة الرسالة

• السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون: علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: ١٠٤٤هـ). دار الكتب العلمية –بيروت.

• السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، الرياض.

• السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ). دار القلم – دمشق.

• السيرة النبوية لابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

• السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، صحّحه، وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء. الكتب الثقافية –بيروت.

• سيكولوجية القصة في القرآن للتهامي النقرة، الشركة التونسية للتوزيع.

• السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ). دار ابن حزم.

- الشافية في علم التصريف (ومعها الوافية نظم الشافية للنيساري - المتوفى في القرن ١٢): عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، المحقق: حسن أحمد العثمان. المكتبة المكية – مكة.
- شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام د/ ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي القاهرة.
- الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح: إبراهيم بن موسى بن أيوب، برهان الدين أبو إسحاق الأبناسي، ثم القاهري، الشافعي (المتوفى: ٨٠٢هـ)، المحقق: صلاح فتحي هلل. مكتبة الرشد.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط. دار ابن كثير، دمشق – بيروت.
- شرح (مقدمة التفسير) لابن تيمية: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ). دار الوطن، الرياض.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى: ٧٦٩هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث - القاهرة، دار مصر.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ). تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي. دار طيبة – السعودية.
- شرح أصول الإيمان، الدكتور القس أندرواس واطسون، والدكتور إبراهيم سعيد
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي (المتوفى: ٩٠٠هـ). دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.
- شرح الرميلي على الدرة، الناشر: مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة.

• شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (المتوفى: ١١٢٢هـ). دار الكتب العلمية.

• شرح السنة: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (المتوفى: ٥١٦هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش. المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت.

• شرح السير الكبير: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ). الشركة الشرقية للإعلانات.

• شرح العقيدة الأصفهانية: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد بن رياض الأحمد. المكتبة العصرية – بيروت.

• شرح العقيدة الطحاوية: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: أحمد شاكر. وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد.

• شرح العقيدة الواسطية: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، المحقق: سعد فواز الصميل. دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية.

• شرح الكوكب المنير: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (المتوفى: ٩٧٢هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد. مكتبة العبيكان.

• شرح المعتمد في أصول الفقه ((نظمها وشرحها د محمد الحبش)): محمد حبش، مع مقدمة: للدكتور محمد الزحيلي

• شرح المعلقات العشر شرح المعلقات التسع: منسوب لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) ولا تصح نسبته ففي الكتاب نقول متأخرة عن زمن أبي عمرو وليس الأسلوب أسلوبه تحقيق وشرح: عبد المجيد همو. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان.

• شرح المفصل لابن يعيش، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

• الشرح الممتع على زاد المستقنع: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، دار النشر: دار ابن الجوزي.

- شرح إنجيل القديس يوحنا، الأب متى المسكين
- شرح بشارة لوقا، القس الدكتور إبراهيم سعيد، دار الثقافة المسيحية.
- شرح تشريح القانون لابن سينا: علاء الدين ابن النفيس، علي بن أبي الحزم القرشي (المتوفى: ٦٨٧هـ)، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- شرح تنقيح الفصول: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ)، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد. شركة الطباعة الفنية المتحدة.
- شرح ثلاثة الأصول: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ). دار الثريا للنشر.
- شرح سنن أبي داود: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ)، المحقق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري. مكتبة الرشد – الرياض.
- شرح صحيح البخاري لابن بطال: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض.
- شرح طيبة النشر في القراءات العشر: محمد بن محمد بن محمد، أبو القاسم، محب الدين النُّوَيْري (المتوفى: ٨٥٧هـ). دار الكتب العلمية – بيروت، تقديم وتحقيق: الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم.
- شرح علل الترمذي: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: الدكتور همام عبد الرحيم سعيد. مكتبة المنار - الزرقاء – الأردن.
- شرح قطر الندى وبل الصدى: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة.
- شرح مختصر خليل للخرشي: محمد بن عبد الله الخرشي المالكي أبو عبد الله (المتوفى: ١١٠١هـ). دار الفكر للطباعة - بيروت

• شرح مسند أبي حنيفة، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، المحقق: الشيخ خليل محيي الدين الميس. دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان.

• شرح مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة.

• شرح معاني الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار - محمد سيد جاد الحق) من علماء الأزهر الشريف، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د يوسف عبد الرحمن المرعشلي - الباحث بمركز خدمة السنة بالمدينة النبوية. عالم الكتب.

• شرف أصحاب الحديث: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمد سعيد خطي اوغلي. دار إحياء السنة النبوية - أنقرة

• شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية لأبي الأعلى المودودي

• الشريعة: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ) المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي. دار الوطن - الرياض / السعودية.

• شعب الإيمان: أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة.

• الشفا بتعريف حقوق المصطفى: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي المتوفى: ٥٤٤هـ. دار الفكر الطباعة والنشر.

• شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). دار المعرفة، بيروت، لبنان.

• شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل للجويني (أبي المعالي إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني ت ٤٧٨هـ)، تحقيق: د. أحمد السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

- الشمائل المحمدية: الترمذي، (المتوفى: ٢٧٩هـ). دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الشيعة والتصحيح - الصراع بين الشيعة والتشيع: د موسى الموسوي رحمه الله.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ). محمد علي بيضون.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد. الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: ٨٢١هـ). دار الكتب العلمية، بيروت
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين – بيروت.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، التميمي، أبو حاتم، (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة – بيروت.
- صحيح ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ) المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي. المكتب الإسلامي – بيروت
- صحيح أبي داود صحيح وضعيف سنن أبي داود (الأم): محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). دار غراس. الكويت.
- صحيح الأدب صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، (المتوفى: ٢٥٦هـ) حقق أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق للنشر والتوزيع.
- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري. طوق النجاة.
- صحيح الترغيب والترهيب صحيح الترغيب والترهيب: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). مكتبة المعارف – الرياض.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته: الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). المكتب الإسلامي.

- صحيح السيرة النبوية: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن، الطبعة: الأولى
- الصحيح المسند من دلائل النبوة للشيخ مقبل الوادعي، الناشر: دار الحرمين، القاهرة
- صحيح النسائي للألباني، مكتب التربية العربي، الرياض.
- صحيح وضعيف سنن ابن ماجة: الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.
- الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم للنباطي، الناشر: مؤسسة العروة الوثقى.
- الصفات: الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المحقق: عبد الله الغنيمان. مكتبة الدار، المدينة المنورة.
- صفة الجنة: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، المحقق: علي رضا عبد الله. دار المأمون للتراث - دمشق / سوريا
- صفة الصفوة: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: أحمد بن علي. دار الحديث، القاهرة، مصر.
- صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض
- الصفدية، ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر.
- الصليب في جميع الأديان، يسي منصور، موقع دار الهداية
- الصمت وآداب اللسان: ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: أبو إسحاق الحويني. دار الكتاب العربي - بيروت.
- الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العنصرية - بيروت.
- الصواعق السماوية على منكري آيات الكتاب وصحيح السنة، راشد بن عبد المعطي بن محفوظ.

- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي (المتوفى: ٩٧٤هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي - كامل محمد الخراط. مؤسسة الرسالة – لبنان.
- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله. دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- صـور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، دار النفائس، الأردن
- الضعفاء الصغير: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم بن أبي العينين. مكتبة ابن عباس.
- الضعفاء الكبير: أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي (المتوفى: ٣٢٢هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي. دار المكتبة العلمية – بيروت.
- الضعفاء والمتروكون: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية – بيروت.
- الضعفاء والمتروكون: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، المحقق: محمود إبراهيم زايد. دار الوعي – حلب.
- ضعيف الأدب المفرد للإمام البخاري: الألباني. دار الصديق للنشر والتوزيع.
- ضعيف الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي، الطبعة: المجددة والمزيدة والمنقحة
- ضعيف سنن الترمذي: الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ): المكتب الإسلامي – بيروت.
- طبقات الحنابلة: أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (المتوفى: ٥٢٦هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة - بيروت
- الطبقات السنية في تراجم الحنفية: تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي (المتوفى: ١٠١٠هـ)، دار الرفاعي، القاهرة.

• الطبقات الكبرى: محمد بن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت.

• طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها: أَبِي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: ٣٦٩هـ)، المحقق: عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي. مؤسسة الرسالة – بيروت.

• طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلّام (بالتشديد) بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٣٢هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر. دار المدني - جدة

• طرح التثريب في شرح التقريب: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ)، أكمله ابنه: أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (المتوفى: ٨٢٦هـ). دار نزار. مصر.

• الطرق الحكمية: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). مكتبة دار البيان

• طريق الخلاص، عوض سمعان

• طريق الهجرتين وباب السعادتين: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). دار السلفية، مصر.

• الطعن في عدالة الصحابة لـعماد الشربيني، مكتبة الإيمان.

• الطلاق الانفرادي. تدابير الحد منه- لأحمد بخيت الغزالي، دار النهضة العربية

• الطهور للقاسم بن سلام: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، حققه وخرج أحاديثه: مشهور حسن محمود سلمان. مكتبة الصحابة، جدة - الشرفية، مكتبة التابعين، سليم الأول – الزيتون.

• الطيوريات، انتخاب: صدر الدين، أبو طاهر السِّلَفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه الأصبهاني (المتوفى: ٥٧٦هـ)، من أصول: أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري (المتوفى: ٥٠٠هـ)، مكتبة أضواء السلف، الرياض.

• الظاهرة القرآنية: مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، المحقق: (إشراف ندوة مالك بن نبي). دار الفكر - دمشق سورية.

• عالم الملائكة الأبرار: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي. مكتبة الفلاح، الكويت.

- العجاب في بيان الأسباب: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الحكيم محمد الأنيس. دار ابن الجوزي
- العدالة في النظام الاجتماعي في الإسلام تأليف الدكتور محمد عبد الغني، المكتب الجامعي الحديث.
- العدد في اللغة: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الله بن الحسين الناصر / عدنان بن محمد الظاهر.
- العرش وما رُوِي فيه، أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي (المتوفى: ٢٩٧هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- عصر الخلافة الراشدة - محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين: أكرم بن ضياء العمري. مكتبة العبيكان.
- عصر المجامع، القمص كيرلس الأنطوني، مكتبة المحبة
- العظمة: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: ٣٦٩هـ)، المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري. دار العاصمة – الرياض.
- عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية.
- العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تأليف/ محمد طاهر التنير البيروتي، تحقيق: د/ عبد الله الشرقاوي. دار الصحوة، القاهرة.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.
- عقد الذمة في التشريع الإسلامي، محمد المطردي، الدار الجماهيرية، طرابلس.
- العقد الفريد: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير ابن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ). دار الكتب العلمية – بيروت.

- العقوبات: ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المتوفى ٢٨١ هـ، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم، بيروت – لبنان.
- عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسُّنَّة. د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني. مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض
- عقيدة المسلمين للبليهي، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، الناشر: موقع الجامعة على الإنترنت.
- العقيدة النصرانية بين القرآن والإنجيل لحسن الباشا
- العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية د. سعد الدين صالح، دار الصفا، القاهرة.
- عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم (أصل الكتاب رسالة دكتوراه): ناصر بن علي عائض حسن الشيخ. مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم: عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر. دار ابن خزيمة.
- العقيدة في الله: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي. دار النفائس، الأردن.
- علل الترمذي الكبير: محمد بن عيسى الترمذي، (المتوفى: ٢٧٩هـ)، رتبه على كتب الجامع: أبو طالب القاضي. عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية – بيروت.
- العلل الصغير: محمد بن عيسى الترمذي، (المتوفى: ٢٧٩هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر وآخرون. دار إحياء التراث العربي – بيروت
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: إرشاد الحق الأثري. إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان.
- العلل الواردة في الأحاديث النبوية: الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ). دار طيبة - الرياض. دار ابن الجوزي – الدمام.
- علم اللاهوت النظامي، القس الدكتور جيمس أنس، الناشر: الكنيسة الإنجيلية، مصر.

• العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أشرف بن عبد المقصود. مكتبة أضواء السلف – الرياض.

• عمدة القاري شرح صحيح البخاري: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ). دار إحياء التراث العربي - بيروت

• عمل المرأة في الميزان د/ محمد علي البار، موقع صيد الفوائد.

• عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: حسن عبد الفتاح أحمد. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

• العنوان في القراءات السبع: أبو طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد المقرئ الأنصاري السرقسطي (المتوفى: ٤٥٥هـ)، المحقق: (زهير زاهد - خليل العطية). عالم الكتب، بيروت.

• العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، المحقق: محب الدين الخطيب - ومحمود مهدي الاستانبولي. دار الجيل بيروت – لبنان.

• عودة الحجاب: محمد أحمد إسماعيل المقدم. دار ابن الجوزي، القاهرة.

• عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته: محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ). دار الكتب العلمية – بيروت.

• العيال: ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: د نجم عبد الرحمن خلف. دار ابن القيم - السعودية.

• العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال

• عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، (المتوفى: ٧٣٤هـ)، تعليق: إبراهيم محمد رمضان. دار القلم – بيروت.

- عيون الرسائل والأجوبة على المسائل: عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ (المتوفى: ١٢٩٣هـ)، المحقق: حسين محمد بوا. مكتبة الرشد – الرياض.
- الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم: د. عبد الراضي محمد عبد المحسن. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
- غاية السول في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ)، المحقق: عبد الله بحر الدين عبد الله. دار البشائر الإسلامية - بيروت
- غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). المكتب الإسلامي – بيروت.
- غاية المقصد فى زوائد المسند: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: خلاف محمود عبد السميع. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- غاية النهاية في طبقات القراء: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ). مكتبة ابن تيمية.
- غاية الوصول في شرح لب الأصول: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (المتوفى: ٩٢٦هـ). دار الكتب العربية الكبرى، مصر.
- غريب الحديث: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، المحقق: د. محمد عبد المعيد خان. مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن.
- غريب الحديث: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: د. عبد الله الجبوري. مطبعة العاني – بغداد.
- غريب الحديث: الخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، وعبد القيوم عبد رب النبي. دار الفكر.

• غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري الأندلسي (المتوفى: ٥٧٨هـ)، المحقق: د. عز الدين علي السيد، محمد كمال الدين عز الدين. عالم الكتب – بيروت.

• غير المسلمين في المجتمع الإسلامي للدكتور القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة.

• الفائق في غريب الحديث والأثر: الزمخشري(المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة – لبنان.

• الفارق بين المخلوق والخالق- عبد الرحمن الباجه جي زاده، مكتبة النافذة، القاهرة.

• فتاوى ابن الصلاح: المحقق: د. موفق عبد الله عبد القادر. مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب – بيروت.

• الفتاوى الهندية: لجنة علماء برئاسة نظام الدين البلخي. دار الفكر.

• فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي. دار المعرفة – بيروت.

• فتح الباري شرح صحيح البخاري: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية. الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة.

• فتحُ البيان في مقاصد القرآن لمؤلف: القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ): المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت

• فتحُ البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري. المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت.

• الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد، أحمد الساعاتي البنا. المكتب الإسلامي.

• فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك: محمد بن أحمد بن محمد عليش، أبو عبد الله المالكي (المتوفى: ١٢٩٩هـ). دار المعرفة

• فتح القدير: كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام (المتوفى: ٨٦١هـ). دار الفكر

• فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ). دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت.

• فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي: السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، المحقق: علي حسين علي. مكتبة السنة – مصر.

• فتح رب البرية بتلخيص الحموية: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ). دار الوطن للنشر، الرياض.

• الفتن: أبو عبد الله نعيم بن حماد المروزي (المتوفى: ٢٢٨هـ)، المحقق: سمير أمين الزهيري. مكتبة التوحيد – القاهرة.

• الفتن: أبو علي حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٧٣هـ)، المحقق: عامر حسن صبري. دار البشائر الإسلامية – لبنان.

• فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه: محمد بن عبد الله بن عبد القادر غبان الصبحي. عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

• فتوح البلدان: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (المتوفى: ٢٧٩هـ). دار ومكتبة الهلال- بيروت.

• فتوح الشام: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ). دار الكتب العلمية.

• فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل (منهج الطلاب اختصره زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين للنووي ثم شرحه في شرح منهج الطلاب): سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل (المتوفى: ١٢٠٤هـ). دار الفكر

• الفتوى الحموية الكبرى: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري. دار الصميعي – الرياض.

- الفداء في إنجيل لوقا.
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (المتوفى: ٤٢٩هـ). دار الآفاق الجديدة – بيروت.
- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة دار البيان، دمشق.
- الفروع ومعه تصحيح الفروع لعلاء الدين علي بن سليمان المرداوي: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة.
- الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم. دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر
- الفروق: أسعد بن محمد بن الحسين، أبو المظفر، جمال الإسلام الكرابيسي النيسابوري الحنفي (المتوفى: ٥٧٠هـ)، المحقق: د. محمد طموم، راجعه: د. عبد الستار أبو غدة. وزارة الأوقاف الكويتية.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ). مكتبة الخانجي - القاهرة
- الفصول المفيدة في الواو المزيدة: صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي العلائي (المتوفى: ٧٦١هـ)، المحقق: حسن موسى الشاعر. دار البشير – عمان.
- الفصول في الأصول: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ). وزارة الأوقاف الكويتية.
- الفصول في السيرة: ابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو. مؤسسة علوم القرآن.

- فضائل الصحابة: أبو عبد الله أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: د. وصي الله محمد عباس. مؤسسة الرسالة – بيروت.
- فضائل الصحابة: النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ). دار الكتب العلمية – بيروت.
- فضائل القرآن: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت: ٢٢٤هـ)، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين. دار ابن كثير، دمشق – بيروت.
- فضائل القرآن، ابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ)، مكتبة ابن تيمية.
- الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ: د. وَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ. دار الفكر - سوريَّة – دمشق.
- فقه الزكاة ليوسف: يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة. مصر
- فقه السنة: سيد سابق (المتوفى: ١٤٢٠هـ). دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة: محّمد سَعيد رَمضان البوطي. دار الفكر – دمشق.
- فقه السيرة: محمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ). دار القلم – دمشق، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني.
- فقه اللغة وسر العربية: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي. إحياء التراث العربي.
- الفقيه والمتفقه: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل الغرازي. دار ابن الجوزي – السعودية.
- الفكر اللاهوتي في رسائل بولس، المؤلف: فهيم عزيز. الثقافة المصرية للطباعة.
- فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، لويس غرديه، دار العلم للملايين.
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ). دار الشروق - بيروت- القاهرة.

- في مقارنة الأديان، محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ). المكتبة التجارية الكبرى – مصر.
- قاموس الكتاب المقدس، تأليف مجموعة من ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين. القاهرة.
- القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
- قذائف الحق: محمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ). دار القلم، دمشق،
- القرآن لا يشهد لتوراة اليهود، أحمد عبد الوهاب. مكتبة وهبة، القاهرة.
- القرآن معجزة العصور لمحمد عبد المنعم خفاجي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة.
- القرآن والمستشرقون، رابح جمعة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- القرآن ونظرية الفن حسين علي محمد، هبة النيل العربية للنشر والتوزيع
- قرى الضيف: ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، حققه وأخرج أحاديثه: عبد الله بن حمد المنصور. أضواء السلف، الرياض – السعودية.
- قس ونبي، أبو موسى الحريري.
- قصة الحضارة: وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت (المتوفى: ١٩٨١ م)، تقديم: الدكتور محيي الدّين صَابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين. دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
- قصص الأنبياء: ابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد. مطبعة دار التأليف – القاهرة.
- القصيدة النونية: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

- قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن: مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى المقدسي الحنبلى (المتوفى: ١٠٣٣هـ)، المحقق: سامي عطا حسن. دار القرآن الكريم - الكويت
- القواعد الحسان لتفسير القرآن: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ). مكتبة الرشد، الرياض.
- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ). الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
- القوانين الفقهية: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المكتبة العصرية، بيروت.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ)، المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي. دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
- القول السديد شرح كتاب التوحيد: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: المرتضى الزين أحمد. مجموعة التحف النفائس الدولية، الطبعة: الثالثة
- القول المفيد على كتاب التوحيد: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ). دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.
- قيامة المسيح، عوض سمعان.
- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: محمد عوامة أحمد محمد نمر الخطيب. دار القبلة للثقافة الإسلامية - مؤسسة علوم القرآن، جدة.
- الكافي في فقه الإمام أحمد: ابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ). دار الكتب العلمية.
- الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي، بيروت —لبنان.

• الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي – القاهرة.

• الكامل في ضعفاء الرجال: أبو أحمد بن عدي الجرجاني (المتوفى: ٣٦٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض. الكتب العلمية - بيروت-لبنان.

• الكبائر: تنسب لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ). دار الندوة الجديدة - بيروت

• كتاب السير والمغازي: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكار. دار الفكر – بيروت.

• كتاب المصاحف لابن أبي داود. د/ محب الدين عبد السبحان واعظ الناشر: دار البشائر الإسلامية

• الكتاب المقدس، فاندايك، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

• الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد. دار الوفاء، القاهرة.

• الكتاب: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة.

• الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري(المتوفى: ٥٣٨هـ). دار الكتاب العربي – بيروت.

• كشف الأستار عن زوائد البزار: نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. مؤسسة الرسالة، بيروت.

• كشف الأسرار شرح أصول البزدوي: عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي (المتوفى: ٧٣٠هـ). دار الكتاب الإسلامي

• كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة (المتوفى: ١٠٦٧هـ). مكتبة المثنى، بغداد.

• كشف الكربة في وصف أهل الغربة (وهو مطبوع ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي): ابن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني. الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

• كشف المشكل من حديث الصحيحين: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: علي حسين البواب. دار الوطن – الرياض

• الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (المتوفى: ٤٢٧هـ). تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور. دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

• كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه: محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ). دار الجيل - بيروت

• الكفاية في علم الرواية: الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني. المكتبة العلمية - المدينة المنورة

• الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري. مؤسسة الرسالة - بيروت

• كمال الدين الإسلامي: عبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله. وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.

• الكنى والأسماء: أبو بِشْر محمد بن أحمد الدولابي الرازي (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي. دار ابن حزم - بيروت/ لبنان.

• اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو بأصله موضوع: محمد بن خليل بن إبراهيم، أبو المحاسن القاوقجي الطرابلسي الحنفي (المتوفى: ١٣٠٥هـ)، المحقق: فواز أحمد زمرلي. دار البشائر الإسلامية – بيروت.

• اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة. دار الكتب العلمية – بيروت.

- لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ). المحقق: تصحيح محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية – بيروت.
- لباب المحصول، الحسين بن رشيق المالكي، دار البحوث للدراسات الإسلامية. الإمارات
- اللباب في علوم الكتاب: ابن عادل الحنبلي (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.
- لجنة التاريخ القبطي: تاريخ الأمة القبطية، دار ومكتبة بيبليون
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ). دار صادر – بيروت.
- لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: دائرة المعرف النظامية – الهند. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان.
- لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ). المحقق: إبراهيم البسيوني. الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر.
- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ). دار ابن حزم.
- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني (المتوفى: ٤٧٨هـ)، المحقق: فوقية حسين محمود. عالم الكتب – لبنان.
- الله جَلَّ جلالَهُ واحد أم ثلاثة؟ د. منقذ بن محمود السقار. دار الإسلام للنشر والتوزيع.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية: أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ). مؤسسة الخافقين – دمشق.
- ما هي النصرانية، محمد تقي العثماني، مكتب دار العلوم، كراتشي.
- ما هي حتمية كفارة المسيح، داود رياض أرسانيوس. الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة.
- مائة سؤال عن الإسلام- محمد الغزالي. نهضة مصر القاهرة
- ماذا تعرف عن المسيحية، عبد الفتاح حسين الزيات، مركز الراية للنشر والإعلام.

• ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ). مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر.

• مباحث في علوم القرآن: مناع بن خليل القطان (المتوفى: ١٤٢٠هـ). مكتبة المعارف.

• المبدع في شرح المقنع: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح (المتوفى: ٨٨٤هـ). دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

• المبسوط: محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ). دار المعرفة – بيروت.

• المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة. دار نهضة مصر، الفجالة ـ القاهرة

• مجابو الدعوة (مطبوع ضمن مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا): ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، دراسة وتحقيق: المهندس الشيخ زياد حمدان. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان.

• مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (المتوفى: ٢٠٩هـ)، المحقق: محمد فؤاد سزگين. مكتبة الخانجى – القاهرة.

• المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحقق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم (بيروت - لبنان).

• المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى المؤلف. د. أكرم ضياء العمري الناشر: الجامعة الاسلامية المدينة النبوية.

• المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقق: محمود إبراهيم زايد. دار الوعي – حلب.

• مجلة الإعجاز العلمي مجلة يصدرها المجمع العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

• مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء

• مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي

• مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، تصدرها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة

- مجلة الجندي المسلم، تصدر من وزارة الدفاع السعودية
- مجلة الحكمة، مجلة بحثية علمية شرعية ثقافية محكّمة نصف سنوية تصدر في بريطانيا
- مجلة الراصد، تصدر عن مركز الراصد الإعلامي في نيويورك
- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلة فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر الجامعي بجامعة الكويت.
- مجلة المنار، مجلة فصلية فكرية تصدر عن دار المنار الجديد بالقاهرة، إشراف: محمد رشيد رضا.
- مجلة الوعي الإسلامي، تصدرها وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.
- مجلة مجمع الفقه الإسلامي، الصادرة عن مجمع الفقه الإسلامي بجدة.
- مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ)، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد. دار المعرفة - بيروت، لبنان
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي. مكتبة القدسي، القاهرة.
- مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية.
- المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي)): النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ). دار الفكر.
- مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر
- مجموعة الشرع الكنسي، عبد الرحمن قدح، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- المجموعة العلمية لبكر أبو زيد، دار العاصمة.
- محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلميه – بيروت.

- محاضرات في النصرانية: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ). دار الفكر العربي – القاهرة.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ). وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- المحتضرين: ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم - بيروت – لبنان.
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: د. محمد عجاج الخطيب. دار الفكر – بيروت.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية – بيروت.
- المحصول في أصول الفقه: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، المحقق: حسين علي اليدري - سعيد فودة. دار البيارق – عمان.
- المحلى بالآثار: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ). دار الفكر – بيروت
- محمد ﷺ كما ورد في كتابات اليهود والنصارى، عبد الأحد داود، العبيكان – السعودية.
- محمد رسول الله: محمد رضا، الطبعة: دار الكتب العلمية.
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن: إبراهيم خليل أحمد (من كبار علماء النصارى مَنَّ الله عليه بالإسلام). دار المنار. القاهرة.
- محمد في الكتاب المقدس. ديفيد بنجامين (عبد الأحد داود). ترجمة: فهمي شما. مراجعة: أحمد محمد الصديق. مطابع الدوحة الحديثة.

• المحيط البرهاني في الفقه النعماني: أبو المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَةَ البخاري الحنفي (المتوفى: ٦١٦هـ)، المحقق: عبد الكريم سامي الجندي. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

• مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد. المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا.

• مختصر اختلاف العلماء: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، المحقق: د. عبد الله نذير أحمد. دار البشائر الإسلامية – بيروت.

• مختصر الشمائل المحمدية: محمد بن عيسى الترمذي، (المتوفى: ٢٧٩هـ). المكتبة الإسلامية - عمان – الأردن، تحقيق: اختصره وحققه محمد ناصر الدين الألباني

• مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، مؤلف الأصل: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سيد إبراهيم. دار الحديث، القاهرة – مصر.

• مختصر العلو للعلي العظيم: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، حققه واختصره: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي.

• مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفى: ٦٦٥هـ)، المحقق: صلاح الدين مقبول أحمد. مكتبة الصحوة الإسلامية – الكويت.

• مختصر المزني (مطبوع ملحقا بالأم للشافعي): إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني (المتوفى: ٢٦٤هـ). دار المعرفة – بيروت.

• مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (المتوفى: ٧١١هـ)، المحقق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا.

• مختصر شعب الإيمان للبيهقي: عمر بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد، إمام الدين، أبو القاسم الكرخي التميمي القزويني الشافعيّ (المتوفى: ٦٩٩هـ)، المحقق: عبد القادر الأرناؤوط. دار ابن كثير – دمشق.

• المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: ابن اللحام، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: د. محمد مظهر بقا. جامعة الملك عبد العزيز - مكة المكرمة

• مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ)، اختصرها: العلامة أحمد بن علي المقريزي. حديث أكادمي، فيصل أباد – باكستان.

• المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهم جفال. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

• مداراة الناس: ابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم - بيروت – لبنان.

• مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي. دار الكتاب العربي – بيروت.

• مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)، حققه: يوسف علي بديوي. دار الكلم الطيب، بيروت.

• المدخل إلى العهد الجديد، القس: فهيم عزيز، دار الثقافة.

• المدخل إلى العهد القديم، القس الدكتور صموئيل يوسف.

• المدخل إلى الكتاب المقدس - حبيب سعيد - نشر دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة، بالاشتراك مع مجمع الكنائس بالشرق الأقصى.

• المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل: عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد بدران (المتوفى: ١٣٤٦هـ)، المحقق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة – بيروت.

• المدخل في علم الباترولوجي القمص تادرس يعقوب ملطي.

• المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، محمد البار دار القلم، دمشق.

• المدخل: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (المتوفى: ٧٣٧هـ). دار التراث

• المدهش: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: الدكتور مروان قباني. دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان.

• المدونة: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ). دار الكتب العلمية.

• مذكرة في أصول الفقه: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ). مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

• المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير، طبع ونشر مطبعة فضالة.

• المرأة بين الفقه والقانون: مصطفى بن حسني السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ). دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت.

• المرأة بين طغيان النظام الغربي، ولطائف التشريع الرباني وهبي سليمان غاوجي. دار ابن حزم.

• المرأة حقوقها وواجباتها: الأب متى المسكين

• المرأة في القرآن للعقاد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

• المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام بين الأسطورة والحقيقة: شريف عبد العظيم، الناشر: جمعية تبليغ الإسلام.

• مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت

• مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري على ضوء الكتاب والسنة، حمود بن أحمد الرحيلي، دار المعراج الدولية للنشر.

• المراسيل: ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، المحقق: شكر الله نعمة الله قوجاني. مؤسسة الرسالة – بيروت.

• المراسيل: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة – بيروت.

• المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفى: ٦٦٥هـ)، المحقق: طيار آلتي قولاج، دار صادر – بيروت.

• مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ). دار الفكر، بيروت – لبنان.

• مركز المرأة في الحياة الإسلامية، تأليف: يوسف القرضاوي، دار الفرقان للنشر

• مركز المرأة في الشريعة اليهودية تأليف: السيد محمد عاشور. الناشر: مكتبة جزيرة الورد

• مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الأخباريين: أكرم بن ضياء العمري. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة

• المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية – بيروت.

• مسائل الإمام أحمد بن حنبل رواية ابن أبي الفضل صالح: أبو عبد الله أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ). الدار العلمية – الهند

• مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه: إسحاق بن منصور بن بهرام، المعروف بالكوسج (المتوفى: ٢٥١هـ). عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

- مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء - أحمد ديدات - ترجمة علي الجوهري، دار الاعتصام، القاهرة.
- مسألة صلب المسيح، أحمد ديدات، دار النصر للطباعة الاسلامية، مصر.
- المسالك والممالك: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة (المتوفى: نحو ٢٨٠هـ). دار صادر أفست ليدن، بيروت.
- مساوئ الأخلاق ومذمومها: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، حققه: مصطفى بن أبو النصر الشلبي. مكتبة السوادي للتوزيع، جدة.
- مستخرج أبي عوانة: أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: ٣١٦هـ)، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي. دار المعرفة – بيروت.
- المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري(المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت.
- المستصفى: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي. دار الكتب العلمية.
- مسند ابن الجعد: علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: عامر أحمد حيدر. مؤسسة نادر – بيروت.
- مسند أبي داود الطيالسي: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي. دار هجر – مصر.
- مسند أبي يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ) المحقق: حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث – دمشق.
- مسند أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ). المكتب الإسلامي.

• مسند إسحاق بن راهويه: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم الحنظلي المروزي المعروف بـ ابن راهويه (المتوفى: ٢٣٨هـ)، المحقق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي. مكتبة الإيمان - المدينة المنورة.

• مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ) المحقق: مجموعة من المحققين. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

• مسند الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي (المتوفى: ٢١٩هـ)، حقق نصوصه وخرج أحاديثه: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ. دار السقا، دمشق – سوريا.

• مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي): أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ) تحقيق: حسين سليم أسد الداراني. دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

• مسند الشاميين: الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي. مؤسسة الرسالة – بيروت.

• مسند الشهاب: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. مؤسسة الرسالة – بيروت.

• المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي – بيروت

• المسند: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ). دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

- المسودة في أصول الفقه: آل تيمية [بدأ بتصنيفها الجدّ: مجد الدين عبد السلام بن تيمية (ت: ٦٥٢هـ)، وأضاف إليها الأب: عبد الحليم بن تيمية (ت: ٦٨٢هـ)، ثم أكملها الابن الحفيد: أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ)]، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الكتاب العربي
- المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، محمد وصفي دار الفضيلة
- المسيح إله أم إنسان؟ - محمد مجدي مرجان، دار النهضة العربية، مصر.
- المسيح في الأناجيل بشر، ممدوح جاد، الناشر: مكتبة النافذة.
- المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، عبد الكريم الخطيب، دار الكتب الحديثة
- المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، مصر.
- المسيح كلمة الله، صموئيل مشرقي، دار العالم العربي القاهرة.
- المسيح والتثليث، محمد وصفي، دار الفضيلة، القاهرة.
- المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، علاء أبو بكر. مكتبة وهبة. مصر
- مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان، دار الفضيلة.
- المسيحية بين الكتاب المقدس والتقليد، صموئيل مشرقي، مطبعة الأمانة، القاهرة.
- المسيحية في الإسلام، إبراهيم لوقا
- المسيحية. . . دراسة وتحليل، ساجد مير، الناشر: دار السلام.
- المسيحية، نشأتها وتطورها تأليف: شارل جينيير، رئيس قسم الأديان بجامعة باريس ترجمة: الدكتور عبد الحليم محمود، رحمه الله الناشر: دار المعارف - القاهرة
- مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت.
- مشكل إعراب القرآن: أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: د. حاتم صالح الضامن. مؤسسة الرسالة - بيروت.
- مشكلات في العقيدة النصرانية، سعد الدين صالح، دار الارقم، مصر.

- المصاحف: أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (المتوفى: ٣١٦هـ)، المحقق: محمد بن عبده. الفاروق الحديثة - مصر / القاهرة.
- مصادر التاريخ لسيدة إسماعيل كاشفا لناشر: دار الرائد العربي
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ). المكتبة العلمية – بيروت
- المصحف الشريف- أبحاث في تاريخه وأحكامه -للشيخ عبد الفتاح القاضي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
- مُصنف ابن أبي شيبة المصنف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (١٥٩ ـ ٢٣٥ هـ) تحقيق: محمد عوامة. دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن.
- المصنف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي. المجلس العلمي- الهند، يطلب من: المكتب الإسلامي – بيروت.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ). دار الكتب العلمية بيروت.
- مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحيبانى مولدا ثم الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ١٢٤٣هـ). المكتب الإسلامي.
- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧هـ)، المحقق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم – الدمام.
- معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة: محمَّد بنْ حسَيْن بن حَسنْ الجيزاني. دار ابن الجوزي. السعودية.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن: البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ). المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت.
- معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود: الخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ). المطبعة العلمية – حلب.

- معالم تاريخ الإنسانية هربرت جورج ويلز ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد الناشر: الهيئة العامة المصرية للكتاب
- معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي. عالم الكتب – بيروت.
- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، المحقق: مجموعة. دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسي (المتوفى: ٩٦٣هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. عالم الكتب - بيروت
- معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير، إبراهيم الجبهان، دار المجتمع، جدة
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران): جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان.
- المعتصر من المختصر من مشكل الآثار: يوسف بن موسى بن محمد، أبو المحاسن جمال الدين المَلَطي الحنفي (المتوفى: ٨٠٣هـ). عالم الكتب - بيروت
- المعجزة الكبرى القرآن: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ). دار الفكر العربي
- معجم ابن الأعرابي: أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي (المتوفى: ٣٤٠هـ)، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني. دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.
- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ). المحقق: إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- المعجم الأوسط: الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ) المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. دار الحرمين – القاهرة

• معجم البلدان: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ). دار صادر، بيروت.

• معجم الشيوخ: أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن يحيى بن جُمَيْع الغساني الصيداوي، المحقق: د. عمر عبد السلام تدمري. مؤسسة الرسالة، دار الإيمان - بيروت، طرابلس.

• معجم القراءات القرآنية، د/ عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين، دمشق.

• المعجم الكبير: الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

• معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية د/ محمود عبد المنعم، دار الفضيلة، القاهرة.

• معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ: عاتق بن غيث بن زوير بن زاير البلادي الحربي (المتوفى: ١٤٣١هـ). دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

• المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة. دار الدعوة.

• معجم شيوخ الطبري الذين روى عنهم في كتبه المسندة المطبوعة: أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري. الدار الأثرية، الأردن - دار ابن عفان، القاهرة.

• المعجم في أسامي شيوخ أبي بكر الإسماعيلي: أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي الجرجاني (المتوفى: ٣٧١هـ)، المحقق: د. زياد محمد منصور. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

• معجم لغة الفقهاء: محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي. دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.

• معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر.

• معرفة السنن والآثار: أحمد بن الحسين، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة (دمشق -بيروت).

• معرفة الصحابة: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن مَنْدَه العبدي (المتوفى: ٣٩٥هـ)، حققه: عامر حسن صبري. مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة.

- معرفة الصحابة: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي. دار الوطن للنشر، الرياض.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ). دار الكتب العلمية.
- معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح (المتوفى: ٦٤٣هـ)، المحقق: نور الدين عتر. دار الفكر- سوريا، دار الفكر المعاصر - بيروت.
- معرفة علوم الحديث: الحاكم النيسابوري(المتوفى: ٤٠٥هـ)، المحقق: السيد معظم حسين. دار الكتب العلمية - بيروت.
- المعرفة والتاريخ: يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي (المتوفى: ٢٧٧هـ)، المحقق: أكرم ضياء العمري. مؤسسة الرسالة، بيروت.
- المعلم بفوائد مسلم، محمد بن علي المازري، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. مصر.
- معيار العلم في فن المنطق: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، المحقق: الدكتور سليمان دنيا. دار المعارف، مصر.
- المغازي: الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس. دار الأعلمي - بيروت.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله. دار الفكر - دمشق.
- المغني في الضعفاء: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: الدكتور نور الدين عتر
- المغني: ابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ). مكتبة القاهرة.
- مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ). دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
- مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ضبطه: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت.

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). دار الكتب العلمية – بيروت.
- مفردات القرآن - نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية: عبد الحميد الفراهي الهندي (المتوفى: ١٣٤٩هـ)، المحقق: د/ محمد أجمل أيوب الإصلاحي. دار الغرب الإسلامي.
- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت.
- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ). دار الساقي.
- المفصل في صنعة الإعراب: الزمخشري(المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: د. علي بو ملحم. مكتبة الهلال – بيروت.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: القرطبي أحمد بن عمر بن. دار ابن كثير، بيروت.
- مقاتل الطالبيين: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصبهاني (المتوفى: ٣٥٦هـ)، المحقق: السيد أحمد صقر. دار المعرفة، بيروت
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، المحقق: محمد عثمان الخشت. دار الكتاب العربي – بيروت.
- المقتضب: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الخالق عظيمة. عالم الكتب. - بيروت
- مقتطفات من كتاب من روائع حضارتنا: مصطفى بن حسني السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ). دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، المكتب الإسلامي.
- المقتنى في سرد الكنى: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: محمد صالح عبد العزيز المراد. المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
- المقدمات الممهدات: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (المتوفى: ٥٢٠هـ). دار الغرب الإسلامي.

• المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

• مكانة المرأة بين الإسلام والقوانين العالمية، سالم البهنساوي. الناشر: دار القلم

• مكانة المرأة د/ محمد بلتاجي، مكتبة الشباب القاهرة.

• الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ). مؤسسة الحلبي.

• من أجل تحرير حقيقي للمرأة محمد رشيد العويد. الناشر: حواء للنشر والتوزيع / الكويت - دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت.

• من معجزات النبي ﷺ لعبد العزيز السلمان الناشر: مطابع دار طيبه.

• من وحي القيثارة، حبيب سعيد.

• المنار المنيف في الصحيح والضعيف: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب.

• المناسك لابن أبي عروبة: تحقيق وتعليق: الدكتور عامر حسن صبري. دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان.

• المناظرة التقريرية واليهودية والمسيحية رحمت الله بن خليل الله بن الحكم الهندي، الناشر: مطبعة الجبلاوي – القاهرة.

• المناظرة الكبرى مع القس زكريا بطرس حول صحة الكتاب المقدس. علاء أبو بكر، مكتبة وهبة. مصر.

• مناظرة بين الإسلام والنصرانية. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض - المملكة العربية السعودية.

• مناهج الأدلة لابن رشد. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

• مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ). مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

• المنتخب من مسند عبد بن حميد: أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي (المتوفى: ٢٤٩هـ)، المحقق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي. مكتبة السنة –القاهرة.

• المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت.

• المنتقى شرح الموطإ: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: ٤٧٤هـ). مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر.

• المنتقى من السنن المسندة: أبو محمد عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري المجاور بمكة (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: عبد الله عمر البارودي. مؤسسة الكتاب الثقافية – بيروت.

• المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: محب الدين الخطيب

• منتهى الأماني بفوائد مصطلح الحديث للمحدث الألباني، جمع وترتيب أحمد بن سليمان، دار الفاروق الحديثة مصر.

• المنثور في القواعد الفقهية: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ). وزارة الأوقاف الكويتية.

• منجد المقرئين ومرشد الطالبين: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ). دار الكتب العلمية.

• المُنَجَّد في اللغة (أقدم معجم شامل للمشترك اللفظي): علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، أبو الحسن الملقب بـ «كراع النمل» (المتوفى: بعد ٣٠٩هـ)، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، دكتور ضاحي عبد الباقي. عالم الكتب، القاهرة.

• المنخول من تعليقات الأصول: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، حققه وخرج نصه وعلق عليه: الدكتور محمد حسن هيتو. دار الفكر المعاصر- بيروت لبنان، دار الفكر دمشق – سورية.

- المنمق في أخبار قريش: محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: ٢٤٥هـ)، المحقق: خورشيد أحمد فاروق. عالم الكتب، بيروت.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ). دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- المُهَذَّبُ في عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ المُقَارَنِ، (تحريرٌ لمسائِلِه ودراستها دراسةً نظريَّةً تطبيقيَّةً): عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض.
- المهذب في فقه الإمام الشافعي: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (المتوفى: ٤٧٦هـ). دار الكتب العلمية
- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب: جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: التهامي الراجي الهاشمي. مطبعة فضالة – الإمارات.
- موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ).
- الموازنة بين أبي تمام والبحتري: أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (المتوفى: ٣٧٠ هـ)، مكتبة الخانجي.
- الموافقات: الشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، المحقق: مشهور بن حسن آل سلمان. دار ابن عفان. مصر.
- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي (المتوفى: ٩٥٤هـ). دار الفكر.
- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: محمد راتب النابلسي. دار المكتبي - سورية - دمشق - الحلبوني - جادة ابن سينا.
- موسوعة الحقوق الإسلامية لسعد يوسف أبو عزيز، المكتبة التوفيقية. مصر.

• الموسوعة الفقهية الطبية د أحمد محمد كنعان، دار النفائس بيروت
• الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت.
• موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: دكتور عبد الوهاب المسيري، الناشر: دار الشروق، مصر.
• موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية - زكي شنودة، الطبعة (١)، مكتبة النهضة المصرية.
• الموضح في وجوه القراءات، لابن أبي مريم تحقيق د/ عمر حمدان الكبيسي. مكتبة التوعية الإسلامية مصر
• الموضوعات: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، ضبط وتقديم وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان. محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
• موطأ الإمام مالك: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، المحقق: بشار عواد معروف - محمود خليل. مؤسسة الرسالة.
• ميزان الاعتدال في نقد الرجال: الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.
• الميزان في مقارنة الأديان لعزت طهطاوي، دار القلم، دمشق.
• ناسخ الحديث ومنسوخه: ابن شاهين (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المحقق: سمير بن أمين الزهيري. مكتبة المنار – الزرقاء.
• الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر (أصل التحقيق رسالة جامعية). مكتبه الرشد / شركة الرياض – الرياض.
• الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: ابن حزم (المتوفى: ٤٥٦هـ)، المحقق: د. عبد الغفار سليمان البنداري. دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.

• الناسخ والمنسوخ: أبو جعفر النَّحَّاس (المتوفى: ٣٣٨هـ)، المحقق: د. محمد عبد السلام محمد. مكتبة الفلاح – الكويت.

• النبأ العظيم، محمد بن عبد الله دراز (المتوفى: ١٣٧٧ هـ)، دار القلم للنشر والتوزيع.

• النبوات: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ). أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

• النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام: أحمد عبد الوهاب. مكتبة وهبة

• نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان، أبو التراب سيد بن حسين العفاني توزيع: دار ماجد عسيري – جدة

• نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر: ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ).

• النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (المتوفى: ٨٣٣ هـ)، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية]

• نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). المكتب الإسلامي.

• نصرانية عيسى عليه السلام ونصرانية بولس دراسة مقارنة من أسفار العهد الجديد، بحث ماجستير لعلي الحربي (١٤٠٧هـ).

• نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة.

• نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ). دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

• نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل حسني يوسف الأطير، نقض الاشتباه بتعلّم الرسول من ورقة بن نوفل، مكتبة النافذة، الجيزة

• نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله

عز وجل من التوحيد: الدارمي (المتوفى: ٢٨٠هـ). مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، المحقق: رشيد بن حسن الألمعي.

• النكت على مقدمة ابن الصلاح: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: د. زين العابدين بن محمد بلا فريج. أضواء السلف.

• النكت والعيون: الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

• نمط صعب ونمط مخيف أبو فهر محمود محمد شاكر - الناشر: دار المدني - جدة / مطبعة المدني – مصر.

• نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ). دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

• نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، المحقق: إبراهيم الإبياري. دار الكتاب اللبنانين، بيروت.

• نهاية السول شرح منهاج الوصول: الإسنوي (المتوفى: ٧٧٢هـ). دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان.

• نهاية المطلب في دراية المذهب: الجويني (المتوفى: ٤٧٨هـ)، حققه: أ. د/ عبد العظيم محمود الدّيب. دار المنهاج.

• النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ). المكتبة العلمية، بيروت.

• نوادر المخطوطات: عبد السلام محمد هارون (المتوفى: ١٤٠٨هـ). مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر.

• نواسخ القرآن: ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد أشرف علي المليباري. عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

• النور السافر عن أخبار القرن العاشر: محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس (المتوفى: ١٠٣٨هـ). دار الكتب العلمية – بيروت.

• نور اليقين في سيرة سيد المرسلين: محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري (المتوفى: ١٣٤٥هـ). دار الفيحاء – دمشق.

• نيل الأوطار: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي. دار الحديث، مصر.

• هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد أحمد الحاج. دار القلم- دار الشامية، جدة – السعودية.

• هل افتدانا المسيح على الصليب؟ منقذ بن محمود السقار. دار الإسلام للنشر والتوزيع.

• هل العهد الجديد كلمة الله؟ منقذ بن محمود السقار. دار الإسلام للنشر والتوزيع.

• هل الكتاب المقدس كلمة الله؟ أحمد ديدات. ترجمة: نورة النومان. دار الهجرة. دمشق.

• هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صلى الله عليه وسلم؟ منقذ بن محمود السقار. دار الإسلام للنشر والتوزيع.

• الوابل الصيب من الكلم الطيب: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث – القاهرة.

• الواضح في أصول الفقه محمد الأشقر دار النفائس الأردن.

• الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. دار إحياء التراث – بيروت.

• الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع: عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (المتوفى: ١٤٠٣هـ). مكتبة السوادي للتوزيع.

• وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.

• الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة): عبد الله بن عبد الحميد الأثري، مراجعة وتقديم: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.

- الورع: أحمد بن حنبل رواية: أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروزي (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: سمير بن أمين الزهيري. دار الصميعي، الرياض.
- ورقة بن نوفل مبشر الرسول لغسان عزيز حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.
- وسائل الدعوة لعبد الرحيم المغذوي، دار إشبيليا.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار: أ. د. محمد بن أحمد الصالح، منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.
- وقفات حول معاناة الأيدي العاملة الناعمة (عمل المرأة خارج بيتها بين المكاسب والمخاسر) إعداد الشيخ: خالد بن عبدالرحمن الشايع / الناشر: دار بلنسية: السعودية –الرياض
- يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رؤوف شلبي دار الاعتصام، القاهرة.
- اليسر والسماحة في الإسلام: فالح بن محمد الصغير، منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.
- يسوع المسيح ناسوته وألوهيته، د. هاني رزق
- الينابيع في المسيحية والإسلام، أديب نصر الدين، الناشر: دار النضال.
- اليهود في تاريخ الحضارات الأولى لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر، الناشر: عيسى البابي الحلبي.

تم بحمد الله

الفهارس

الفهرس الإجمالي للموسوعة

رقم المجلد	عنوان المجلد
المجلد الأول	المقدمة وبطلان ألوهية المسيح
المجلد الثاني	الصلب والفداء والتحريف
المجلد الثالث	شبهات عن العقيدة
المجلد الرابع	شبهات عن علوم القرآن
المجلد الخامس	شبهات عن القرآن الكريم وعلومه
المجلد السادس	شبهات عن القرآن الكريم
المجلد السابع	شبهات عن السنة النبوية والأنبياء
المجلد الثامن	شبهات عن النبي ﷺ
المجلد التاسع	شبهات عن زوجات النبي ﷺ والصحابة
المجلد العاشر	شبهات عن الفقه والمرأة
المجلد الحادي عشر	تابع شبهات عن المرأة
المجلد الثاني عشر	شبهات عن اللغة والإعجاز العلمي